البحر المديد

في تفسير القرآن المجيد

لأبي العباس أحمد بن محمد بن عجيبة

١١٦١ هـ - ١٢٢٤ هـ

تحقيق وتعليق

أحمد عبدالله القرشي رسلان

البحر المديد
في تفسير القرآن المجيد

لأبي العباس أحمد بن محمد بن عجيبة
١١٦١ هـ - ١٢٢٤ هـ

تحقيق وتعليق
أحمد عبدالله القرشي رسلان

المجلد الأول

من أول سورة الفاتحة حتى آخر سورة النساء

قدم له
أ . د/ جودة محمد أبو اليزيد المهدى
عميد كلية القرآن الكريم بطنطا

طبع على نفقة د. حسن عباس زكي
القاهرة ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م

تفسير ابن عجيبة

«البحر المديد»

١٤١٩ هـ - ١٩٩٩م

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمـد لله على آلائه، والصلاة والسلام على خاتم أنبيائه، وعلى آله وصحبه وأوليائه. وبعد ،،،

فهذا كتاب «البحر المديد فى تفسير القرآن المجيد» للإمام البارع، والعالم المتقن، شيخ الطريقين وعمدة الفريقين «أبى العباس أحمد بن عجيبة الحسنى المغربى» المتوفى فى عام ١٢٢٤هـ.

وهو كتاب فريد في بابه، ولم ينسج أحد على منواله، تشوف له أرباب القلوب والأحوال طويلاً، سلك فيه صاحبه مسلك العلماء الراسخين فى تفاسيرهم، وزاد عليهم بما يذكره من معانٍ إشارية دقيقة، استشفها من آيات القرآن، الذى لا تنقضى عجائبه ولا يخلق على كثرة الرد.

حفل هذا التفسير بالأحاديث والآثار، وتناول القراءات القرآنية وتوجيهها، واشتمل على مسائل الفقه والأصول، وجمع الكثير من القضايا اللغوية واللطائف الأدبية. وتميز بحسن الترتيب، وحلاوة العبارة، ودقة التصوير، وسهولة الأسلوب.

ومن أهم ما يُميز هذا التفسير هو هذه المعانى الإشارية، التي بسط المفسر الحديث فيها عن آداب السلوك، والمقامات؛ كالإخلاص، والصدق، والصبر، والورع، والزهد، والرضا، والتوكل، والشكر، والحب، والكشف، والإلهام، والكرامات... وغير ذلك مما يطول ذكره، وقدَّم لنا ابن عجيبة من خلال هذه الإشارات منهجاً تربوياً صوفياً إسلامياً متكاملاً، يسلكه من أراد أن تصفو روحه وتزكو نفسه ويحيا قلبه، ويحظى بنور معرفة الحق تعالى.

وعلى الجملة فنحن أمام موسوعة قرآنية تفسيرية صوفية كبيرة وقيِّمة، تُعد دليلاً واضحاً للحائرين، ومنهجاً كريماً للسالكين.

ولا غرابة في ذلك، فابن عجيبة عالم تضلع من علوم الشريعة واللغة، ورسخت قدمه فيها، وخاض في علوم التصوف ذوقاً وحالاً ومقاماً، وصَحِبَ أهل الأذواق والقلوب، وسلك مسلكهم، حتى انجلت عين بصيرته، وتفجرت ينابيع الحكمة في قلبه، وكان له في هذا المقام مدد واسع وفيض لا ينقطع.

ولأهمية هذا الكتاب، وتفرده في بابه، فقد توفرتُ على استخراجه من أصوله، وتحقيقه تحقيقاً علمياً، وإظهاره فى صورة تكشف روائعه وتُبرز كنوزه، ومكثتُ فى هذا العمل خمس سنوات، مواصلاً الليل والنهار، كنت سعيداً خلالها بما حبانى الله من شُغل فى هذا العمل الشريف، رغم أن التحقيق عمل شاق جداً، ولا يعرف ذلك إلا من مارسه وقام به. والواقع أن كل جهد يُبذل فى خدمة هذا التفسير يهون بالنسبة لقيمته العظيمة.

فالحمد لله الذي يسر وأعان على إتمام هذا العمل وإخراجه في هذه الصورة الطيبة، وأرجو الله جلت قدرته أن يجعل جزائي عنده على ما بذلت من جهد فيه، جزاء من بذل الوسع وأفرغ الطاقة، ولم يدخر شيئاً كان في مكنته أن يبذله، إنه سبحانه ولى الجزاء وهو حسبنا ونعم الوكيل.

ومن أوجب الواجبات عليّ أن أشكر هنا هذه المأثرة، التي تفضل بإسدائها فرع الدوحة النبوية، الأستاذ الدكتور/ حسن عباس زكي، وزير الاقتصاد الأسبق، والداعية الإسلامي الكبير، والعلم الصوفي الشهير. فقد تفضل ـ حفظه الله ـ بتحمل نفقات طبع هذا الكتاب، كدأبه في سائر المشروعات العلمية، حرصاً من سعادته على العلم، ورغبة في نشر الآثار الدينيه القيمة، وغيرةً على ذخائر العلماء من أن تأتي عليها يدُ الضياع أو الإهمال. شكر الله له، وكتب له هذه اليد الكريمة في سجل الباقيات الصالحات ـ آمين.

وأُثنّي بشكر عظيم وتقدير صادق لكل من قدّم لي عوناً ومساعدة، وأخص بالذكر أستاذي الكبير والعالم القرآني، الأستاذ الدكتور/ جودة محمد المهدى، عميد كلية القران الكريم، فقد لازم العمل من بدايته حتى نهايته، بكل ما عرف عنه من النشاط والدأب وتحرى الدقة، وكذلك أستاذي الكريم، الأستاذ الدكتور/ علي جمعه، أستاذ أصول الفقه بجامعة الأزهر، فقد كانت له نظرات واعية في التقويم والتوجيه، كما ذلل الله على يديه كثيراً من الصعاب، متّع الله الأمة بهذين الرجلين العلاّمتين العارفين البركتين، وجزاهما الله عن العلم وأهله خير الجزاء.

كما أرفع أسمى آيات الشكر والتقدير لوالدي، السيد الشريف، والعالم العارف، الأستاذ الشيخ/ عبدالله القرشي، لقاء ما أسدى من نصح وبذل من توجيهات، وما عملي في هذا الكتاب إلا أثر من آثار فضله وعلمه منحه الله العافية ورضي عنه. كما أشكر الأخ الكريم الدكتور/ عثمان رسلان، على ما بذله من جهد، وما أبداه من ملاحظات وإشارات، فبارك الله فيه وأثابه.

وبعد فإنني أُقدم هذا الكنز الثمين، داعياً الله العلي القدير أن يجعله عملاً خالصاً لوجهه الكريم، وأن ينفع به.

ربّ إني أبرأ إليك من الحول إلا بك، وأسألك المزيد من فضلك ومعونتك، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين،،،

أحمد عبدالله القرشي رسلان

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

بقلم الأستاذ الدكتور/ حسن عباس زكى

نحمدك اللهم، فاتح كنوز الغيب للصفوة من عبادك، مانح فيض علمك للخلاصة من خلقك، فاستودعت قلوبهم خَفِىَّ سرك، وأشهدت أرواحَهم حقيقةَ أمرك، فكانوا أعرف عبادك بمضمرات إشاراتك، وأفهمَهم لمعانى كلامك، فإن نطقوا فهم تراجمة لوحيك، وإن عبَّروا فهم ألسنتك تُخبر بمرادك، وإن فاهوا فإنما يُفصحون عن بديع حكمك. أعززتهم بما تَوجْتَهم من العلم والعرفان، فعزُّوا على الناس بما خُصوا به من أسرار معجم القرآن، وحلَّهم لطلاسم ورموز الفرقان.

ولمَّا لم يُسعف العقلُ بعضَ الناس بفهم تلك الإشارات، ولم يُحيطوا بإدراك تلك المذاقات، أنكروا مقالهم، وجحدوا حالهم، وغاب عنهم اختصاصهم، وفاتهم أن الحقَّ هو المتكلم فيهم، وأنهم مشيرون به، أو هو المشير بهم، «فإذا أحببتُه كنت سمعه الذى يسمع به، وبصرَه الذى يُبصر به، ويدَه التى يبطش بها، ورجله التى يمشى بها، وإن سألنى أعطيته، ولئن استعاذنى لأعيذنَّه»(١)، وذلك فضلُ الله يؤتيه من يشاء، ﴿وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾(٢).

ونُصلى ونُسلم عليك يا عين الحقائق، ويا قرآن جمع العلم والمعلوم، ويا فرقان الشرائع والعلوم، أنزل عليك ربك كتاباً فى عالم الظهور، أنت سره وحقيقته، فكنتَ تُعاجل جبريلَ به قبل النزول، كتاباً منه آيات محكمات، هُن أم الكتاب، يفهمها الخصوص والعموم، وأُخر متشابهات، يختص بفهمها أولو العلم الراسخون. صلى الله عليك وعلى آلك وأحبابك مشارق شموس العرفان، ومطالع كواكب الحقائق. المتبرئون من الأوهام والظنون، ما كرّت الأيام ومرت الدهور والسنون.

(أما بعد): فإن القرآن كلام الله، وكلام الله صفته النفسية، والصفة تدل دلالة واضحة على الموصوف، وكما أن الموصوف ـ وهو الحق سبحانه ـ لا تُدرك حقيقته فكذلك صفته.. لهذا وقفنا أمام كلام الله حائرين، لا نجزم بتحديد مراميه، ولا نقطع بأن ذلك التفسير عين مراد الحق منه؛ لأن كلام الله القديم، إنما يُفسره المفسرون بلغتنا

(١) الحديث أخرجه بطوله البخارى فى (الرقاق، باب التواضع) من حديث أبى هريرة رضي الله عنه.
(٢) من الآية ٢٦٩ من سورة البقرة.

العربية المحدثة، بناء علي مدركات عقولهم البشرية. واللغة العربية من صنع المخلوق، وكلام المخلوق محدود؛ لأنه يُعبِّر عن محدود، ومُحال أن يُحيط بالتعبير صنعُ المخلوق المحدود عن كلام الله وصفته، التي لا تحدها الحدود.

وإذا كان أساطين اللغة والأدب يرون أن اللغة العربية على كثرة مترادفاتها، وضخامة معاجمها، وغزارة ما تحتويه من ألفاظ، واحتشاد تراثها بالمجازات والكنايات، عاجزة عن التعبير عن مشاعر الإنسان وأحاسيس البشر، فإنها ـ والقياس غير جائز ـ لعنْ تحديد المراد من كلام الله وقرآنه أعيى وأعجز.

ومن هنا كان القرآن حمَّالاً لوجوه عدة من المعاني، وكان أمراً طبيعياً ما يتجدد فيه كل يوم من فهوم، وستظل تلك المعاني تتجدد إلى ما شاء الله، وسيبقى القرآن معها كما هو، لا تبلى جدته، ولا يُكشف عن حقيقة مراده.

وليس غريباً بعد ذلك أن يذهب المسلمون مذاهب شتى في تأويله، فالمفسرون من علماء الشريعة يقفون عند ظاهر اللفظ، وما دل عليه الكلام من الأمر والنهي، والقصص والأخبار، والتوحيد وغير ذلك. وأهل التحقيق، أو الصوفية، يُقرون تفسيرهم هذا، ويرونه الأصل الذي نزل فيه القرآن. ولكن لهم في كلام الله ـ مع الأخذ بهذا التفسير الظاهري ـ مذاقات لا يمكنهم إغفالها؛ لأنها بمثابة واردات، أو هواتف من الحق لهم.

فلا ينبغي أن نقف القرآن على تفسير معين على أنه المراد، فلا نقول كما يقول البعض: إن التفسير الظاهري وحده هو المقصود، كما لا يرى أهل التحقيق أن تفسيرهم وحده هو المراد، لأن القول بالتفسير الظاهري وحسب، تحديد (لكلام الله) غير المحدود، وإخضاع القرآن للغةِ التي مقياسها العقل المحدود، والوقوف في تفسير كلام الله عند العقل المحدود عقال عن الانطلاق فيما وراء الغيوب، وإغلاق الباب لمذاقات ليس العقل مجالها، لأنها لا تخضع لمقاييسه وإنما تخضع لشيء آخر فوقه، وتدرك بلطيفة أخرى سواه.

إذن فهناك ما فوق العقل، ألا وهو القلب.

وليس المقصود بالقلب قطعة اللحم الصنوبرية، وإنما المراد به تلك اللطيفة النورانية الربانية.

إنه القلب الذي لا تحده الحدود، لأنه عرش استواء تجليات الرب على مملكة الجسم. قال رب العزة في حديثه القدسي: «ما وسعني سمائي ولا أرضي ولكن وسعني قلب عبدي المؤمن»(١) وهو القلب الذي اختصه الله

(١) أخرجه الديلمي (الفردوس ٣/ ١٧٤ ح ٤٤٦٦) من حديث أنس بن مالك، بلفظ: «لا يسعني شيء، ووسعني قلب عبدي المؤمن اللين...» الحديث، وانظر: إتحاف السادة المتقين، للزبيدي (٧/ ٢٣٤) وكشف الخفاء للعجلوني: (٢/ ١٩٥ ح ٢٢٥٧).

بالأسرار، والذى يجب أن يستفتيه الإنسان إذا حار. سأل وابصةُ بن معبد رسولَ الله ﷺ عن البر والإثم، فقال: «يا وابصة استفت قلبك، البر ما اطمأنت إليه النفس، واطمأن إليه القلب، والإثم ما حاك في القلب وتردد في الصدر، وإن أفتاك الناس وأفتوك»(١).

ذلك هو القلب المراد، وله لغته، كما أن للعقل لغته. وإذا كانت لغة العقل تُدرك بالألفاظ، ويُعبَّر عنها بالكلمات، فلغة القلب تُدرك بالذوق؛ لأنه لا يُحيط بالتعبير عنها اللفظ. ولنقرب إلى الفهم؛ فلغة القلب مثل التفاحة.. فلن يستطيع مَنْ أكلها وأحس حلاوتها أن يترجم باللفظ أو يُعبّر بالوصف لمن لم يأكلها قبلُ عن طعمها ومذاقها. وهكذا لا تدرك لغة القلب بوصف أو بلفظ، وإنما يُدركها ذو قلب متذوق. ولذلك لا تحيط بالتعبير عن لغة القلب العبارة، وإنما يُعبَّر عنها بالإشارة. فالإشارة ترجمان لما يقع فى القلوب من تجليات ومشاهدات، وتلويح لما يفيض به الله على صفوته وأحبابه، من أسرار فى كلام الله وكلام رسوله.

ومن هنا كانت مذاقات الصوفية وأهل التحقيق فى قرآن الله الكريم وكلامه القديم.. وهم لا يرون أن تلك المذاقات وحدها هي المرادة، وإنما يأخذونها إشارات من الله لهم، بعد إقرار ما قاله أهل الظاهر من تفسير باعتباره أصل التشريع.

وجلي بعد ذلك أنه لا مجال لمعترض ممن ينكر عليهم مذاقاتهم، ويراها ميلاً بكلام الله عن مجراه، ماداموا لا يأخذون بمذاقاتهم وحدها، وإنما يأخذون بها مع إقرارهم لتفسير أهل الشرع. فلا يعنينا من ذى جدل أن يقول عن هذه الإشارات: إنها إحالة لكلام الله عز وجل، وتغيير لسياقه ومجراه؛ لأن ذلك يصدق لو قالوا: إنه لا معنى للآية إلا هذا، وهم لا يقولون ذلك، بل يقرون الظواهر على ظواهرها، ويفهمون عن الله ما أفهمهم.

وذلك مصداق الحديث الشريف: «لكل آيةٍ ظاهرٌ وباطن وحدٌّ ومُطَّلعٌ»(٢) فالباطن لا يعارض الظاهر، والظاهر لا يعارض الباطن.. وذلك النهج بعيد كل البعد عما نادى به (الباطنية) من الأخذ بباطن القرآن لا ظاهره، وقصرهم معانى القرآن على ما ادعوه من تفسيراتهم دون غيره، لأنهم بذلك لا يُقرون الشريعة ويُبطلون العمل بها. وهم لا يخضعون دعواهم للنص القرآنى، بل يخضعون النص القرآني لدعواهم.

وهنا يزول ما التبس على البعض من أن مذاقات الصوفية فى القرآن الكريم نزعة باطنية، فبينهم وبينها آماد وأبعاد، بل إنهم لبريئون منها، وينكرونها كل الإنكار، وواضح ذلك من أنهم يأخذون بالباطن بعد الأخذ بالظاهر،

(١) أخرج حديث وابصة، الإمام أحمد فى المسند (٤/٢٢٨).

(٢) أخرجه الطبرى فى تفسيره (١/٢٢) وابن حبان (الإحسان ١/١٤٦ ح ٧٥) والبزار (كشف الأستار، باب كم أنزل القرآن فى حرف ٣/٩٠ ح ١٣١٢) من حديث عبد الله بن مسعود. وعزاه السيوطى فى الجامع الصغير (ح ٢٧٢٧) للطبرانى فى الكبير. وأخرجه البغوى فى شرح السنة (ح ١٢٢) عن الحسن البصرى مرسلاً.

ويقررون الحقيقة بعد الأخذ بالشريعة. ويرون أن الحقيقة نفسها أساسها الشريعة، فالفرق ثمة كبير، والبون شاسع وعظيم.

ولا مجال بعد هذا الإيضاح لإنكار من ينكر على الصوفية مذهبهم في الإشارات، وما يختصهم الله به في كلامه وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم من الأسرار والفيوضات.

على أن تلك الإشارات أمر مشروع، أقره الحديث المذكور آنفاً : «لكل آية ظاهر وباطن وحد ومطلع» ، فأربابها متبعون لا مبتدعون، اختصهم الله بأسراره في آياته، ليكونوا مصابيح الهدى في غسق الدجى، كما أقره عُمَد الدين، وذوو العلم من المؤلفين.

قال سعد الدين في شرح العقائد النسفية: «وأما ما يذهب إليه بعضُ المحققين من أن النصوص على ظواهرها، ومع ذلك فهي إشارات خفية إلى حقائق تتكشف لأرباب السلوك، يمكن التطبيق بينها وبين الظواهر المرادة فهو من كمال الإيمان ومحض العرفان». وقال الشيخ زروق رضي الله تعالى عنه: «نظّر الصوفي أخص من نظر المفسر وصاحب فقه الحديث، لأن كلا منهما يعتبر الحكم والمعنى، ليس إلا، وهو يزيد بطلب الإشارة بعد إثبات ما أثبتاه».

فإذا دار المفسرون في حدود اللفظ القرآني، واستنبط منه الفقهاء ما استنبطوا من أحكام، فلأولي الألباب وذوي البصائر فيه بعد ذلك من الأسرار والحقائق، ما لا ينكشف لسواهم، ولا يدركه غيرهم. وذلك لتجدد واردات الحق عليهم، ودوام تنزل الفيوضات على قلوبهم، لأنهم أهله ومحبوه.

ثم إن فيض الله المتجدد في كلامه لهم لمما يزيد في كمال إعجاز القرآن، ويؤكد أن إعجازه أسمى من أن يكون في فصاحة لفظه، وقوة أسره، وبلاغة أسلوبه، وإنما إعجازه فوق ذلك؛ في أسراره ومعانيه، ومراده ومراميه. وأهل الله أولى الناس بتفهم مراده ومعرفة مرامي كلامه، ومن ثمَّ كان ما يتكشف لهم في كلام الله من أسرار بمثابة إشارات لهم ـ وحدهم؛ لأن الإشارة لغة المحب مع المحبوب، والإشارة بعد ذلك تلويح للمراد، لا إفصاح عنه، لعدم قدرة الألفاظ على تحمل المراد؟ لأن العبارة تحدد ما يشيرون إليه، وما يشيرون إليه إنما يكون عن مشاهدة. وما يشاهدونه ليس بمحدود؛ إذ هو من عالم الغيوب، فلا اللفظ قادر على تحديد المراد، ولا قابليات العقول تطيق ذلك. ومن ثمَّ سميت مذاقاتهم في القرآن إشارات، ولم تسم تفسيراً.

وقد تحلى القرآن الكريم بمثل تلك الإشارات من رموز الحواميم و«آلم» و«طسم»... إلخ، وهي إشارات بين الحق ورسوله، أو «شفرات» ـ بالتعبير الحديث ـ بين المحبوب وحبيبه، ولا يعرف حلها إلا من لديه مفتاحها. ومفتاح تلك «الشفرات»، وفهم تلك الإشارات في حوزة مَنْ لديه الفهم لمراد المشير، وهم ـ بعد الرسول ﷺ ـ ورثته

من العلماء بالله وأوليائه. نُقل عن الصالحين أن الله تعالى لمَّا أنزل على سيد العالمين ﷺ قوله تعالى: (كهيعص) قال جبريل عليه السلام: (ك) قال النبي - اللهم صلى عليه -: عرفت. قال جبريل عليه السلام: (هـ)، قال: - اللهم صلى عليه وآله - عرفتُ، قال جبريل: (ى)، قال: عرفت، قال: جبريل: (ع) قال: عرفت، قال جبريل: (ص)، قال النبي: عرفتُ، قال جبريل: عرفتَ وأنا لم أعرف، سبحان من أعطاك. ومن هنا فَهِمَ أبوبكر الصديق رضي الله عنه وحده مقالة الرسول - عليه الصلاة والسلام - حين نظر إليه، وقال: (أتذكر يوم لا يوم)؟ فقال نعم، ولم يفهمها غيره من الصحابة الحاضرين. ولما سُئل الصديق رضي الله عنه عن ذلك، قال: «إنه يوم الميثاق».

ولا عجب فيما ينكشف لأرباب الإشارات من فيوض في قرآن الله، أو حديث رسوله - صلى الله عليه وسلم -، فمازال المفسرون يتجدد لهم في كلام الله كل يوم معان لم تسبق، لا ينكرها الناس، بل إليها يستريحون، ففيم الإنكار على أرباب الإشارات، وهم عن الله مشاهدون، ولهم منازلات ومقامات، فيتكلمون بما يشاهدون في منازلاتهم، وينطقون عما يرون في مقاماتهم؟

أجل: معذور من يُنكر عليهم، لأنه لم يذق ماذاقوا، فلو ذاق لعرف، وينبغي ألا يغيب عنه أن تلك الإشارات بمثابة اصطلاح يفهمه أهل التحقيق، ولا يجدر أن يعارضهم في اصطلاحهم اصطلاح جماعة أخرى مادام لكلٍّ اصطلاحه.

فالحق أن كلام الله نور يرسل إلى القلوب، وهي أوعية يتلون ذلك النور بلونها.. وكلٌّ يرسل بتفسيره شعاعاً حسب استعداده وقابليته وما استودع فيه.

على أن أهل التحقيق لا يدعون أنه محال على غيرهم ما يُفاض به عليهم، ولكنهم يعتقدون أن كل إنسان لديه الاستعداد لما عندهم، غير أنهم فتحوا عيون قلوبهم، فاطلعوا على ما اطلعوا من أسرار، وغيرهم فتحوا نوافذ تفكيرهم فوقعوا في الحيرة والوهم، وقاسوا بعقولهم مذاقات تلك القلوب فأنكروها، ولو أن عيون قلوبهم كأهل الله، لكان ما استغربوه أمراً عادياً، بل لاعتقدوا اعتقاداً جازماً ما أنكروه.

فليع كلُّ ذي لُب قدر هؤلاء الصفوة من أهل التحقيق، وليدرك أنهم ملهمون إن نطقوا؛ فلا ينطقون بأنفسهم، وإن أشاروا فمحركُ الإشارة فيهم مولاهم. وارجع إلى الصدر الأول من عصر المسلمين الزاهر، تجد أن من أئمة هؤلاء الملهمين سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه، والذي قال فيه رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: «إن من أمتي مكلمين ومحدثين، وإن عمر منهم».

ومنهم الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه، الذي أشار إلى صدره بعد أن تأوه مرتين، ثم قال: «إن هاهنا علوماً جمة.. لو وجدت لها حملة!!». ويروى عنه أنه قال: (لو شئت لأوقرت من تفسير الفاتحة سبعين بعيرا)، أولئك هم

علماء الله بحق، الذين عناهم رسول الله ﷺ بقوله: «إن من العلم كهيئة المكنون، لا يعلمه إلا العلماء بالله تعالى، فإذا نطقوا به لا ينكره إلا أهل الغرة بالله عز وجل».

ذلك نَذْر يسير مما عليه أهل الإشارات من مكانة، وقدر ضئيل مما شرفهم الله به من منزلة. ونستطيع بعد ذلك أن نعرض من مميزات وخصائص علم الإشارات ما يأتي:

١ ـ علم الإشارات لا ينظر إلى قصص الأنبياء في القرآن الكريم على أنها قصص انتهت بانتهاء أممهم، وأن تلاوتها الآن للعظة والاعتبار، فحسب، وإنما يرون مع ذلك أن الخطاب بها مازال قائماً، يوجه إلى الإنسان في كل عصر وأوان، باعتباره مملكة الله الصغرى، التي انطوى فيها العالم كله، فمثلاً يرمزون لموسى بالقلب أو الروح، وإلى فرعون بالنفس.

وبذلك يكون القرآن في حالة تجدد نزول، لم ينته الخطاب بانتهاء زمانه، باعتباره كلام الله وصفته القائمة بذاته، وتظل بذلك صفة الكلام قائمة غير معطلة، لم تنته بنزول الكتب السماوية، فمازال الحق سبحانه متكلماً أبداً.

٢ ـ علم الإشارات يكشف عن صدق أهله مع ربهم، وأمانتهم عند الحديث عن كلامه، فكل ما قاله القرآن وما تناولته ألفاظه من أداء، هو في مذهبهم حقيقة، لا يعرفون مجازاً، ولا يلجئون إلى كناية، لأنهم بما شاهدوا وذاقوا يدركون هذه الحقائق. ولمَّا كانت تلك مواجيد وأذواق لا يمكن نقلها إلى الغير بعبارة رمزوا لها وأشاروا، ومن هنا أنكر عليهم من أنكر، أمَّا من شاهد مثلهم فقد عرف ماعرفوا، بل ربما تجدد له من ذلك مشهد أو حقيقة أو مذاق.

وهكذا نرى أن أهل الله أمناء على كلامه؛ دفعتهم غيرتهم على محبوبهم، وعظيم احترامهم لجنابه، وإكبارهم لكلامه، ألا يميلوا عن منطوق ألفاظه إلى مجاز أو كناية، خشية البُعد عن مراده. ولِمَ اللجوء إلى المجاز مادام للحقيقة عندهم مخلص؟ فهم لا يرون في قوله سبحانه: ﴿ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ ﴾(١) أن السؤال لأهلها فحسب، بتقدير مضاف، كما قيل، أي: واسأل أهل القرية، وإنما السؤال للقرية بكل ما فيها، ومَنْ فيها، ماداموا يُشاهدون تسبيح الجماد ونطق الحيوان. واقرأ إن شئت قوله تعالى: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾(٢) وقوله: ﴿ يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ ﴾(٣) وقوله في حق السماء والأرض: ﴿ قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾(٤) ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ ﴾(٥) إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث. وعلى ذلك فلا يكون سؤال القرية قاصراً على أهلها، لأنه سؤال لِمَا فيها ومَنْ فيها. والمخاطب بذلك لو كانت لديه الخصوصية لخاطب القرية بكل ما تحتويه من كائنات.

---

(١) من الآية ٨٢ من سورة يوسف.
(٢) من الآية ٤٤ من سورة الإسراء.
(٣) من الآية ١٠ من سورة سبأ.
(٤) من الآية ١١ من سورة فصلت.
(٥) من الآية ٢٩ من سورة الدخان.

وثمة مثال ثان: فهم لا يعترفون بأن كلمة في القرآن وضعت مكان كلمة أخرى أو بمعناها؛ ففي قوله جل شأنه: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ ﴾(١) لا يرون أن «عن» بمعنى «من» تمشياً مع إنابة حروف الجر بعضها عن بعض، وإنما ينظرون إلى منطوق اللفظ نفسه، وهو «عن»، ففي اللغة تفيد معنى المجاوزة، ويكون المراد ـ والله أعلم ـ: أن الحق يقبل التوبة متجاوزاً عن عباده في توبتهم لعدم خلوصها، رحمةً منه بهم، وذلك المعنى لا شك أبلغ وأفصح.

على أن في مذهب أهل الإشارات حلاً لكل العقد، وحسماً للخلافات، وزوالاً للشُبه والريب من مسائل الكسب والاكتساب، والجبر والاختيار، والنعيم والعذاب للجسم أو للروح.. إلخ.

كل هذا وغيره من خلافات أهل علم الكلام والعقائد لا ظل له عندهم، لأنهم اطلعوا على سر الله في أقضيته ومقدراته، وتحققوا بذلك، فاستراحوا، وملأت قلوبهم السكينة، وأفئدتهم الطمأنينة، فاستشعروا في حياتهم من السعادة ما لم يذقه غيرهم. ذلك لأنهم فتحوا عيون قلوبهم، ولم يقيسوا بعقولهم، لأن العقل مجاله محدود، لا يكشف مهما كانت قدرته عما وراء الغيوب، وإلا فبم يعلل العقل رؤية نبينا لموسى ـ عليهما الصلاة والسلام ـ مرتين في قصة الإسراء والمعراج؛ مرة ببيت المقدس، وهو يصلي وراءه، وأخرى في السماء، وهو يراجعه في أمر الصلاة، مع أن موسى لم يترك قبره، ولم يفارق مثواه. والعقل يحار أيضاً أمام حديث سجود الشمس تحت العرش كل يوم، وأنها لا تطلع حتى يؤذن لها بالطلوع، مع أنها لا تغيب عن الكون لحظة. وشبه ذلك كثير من الأمثلة.

هذا وفي سوق الواقعة الآتية ما يجعلك تلمس أن أهل التحقيق هم الذين يفهمون عن الله ورسوله ما لا يفهمه غيرهم، وأنَّ من رحمة الله بعباده أن يكونوا بينهم، وإليك الواقعة:

اشتكى رجلٌ مرضاً حار فيه «نطس» الأطباء، فرأى رسول الله ﷺ يرشده إلى أن يأخذ من ثمرة شجرة (لا ولا) ويستعملها ففيها شفاؤه. وحار الرجل في تفسير رؤياه، وحار معه في حل رمزها علماء العصر، حتى شاء الله له الخير، فالتقى برجل من أهل التحقيق، فأجابه على الفور: أمرك يسير، علاجك في شجرة الزيتون فهي التي يقول الله فيها: ﴿ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ ﴾(٢).

تلك ـ أيها القارئ ـ ومضة خاطفة من قبس أنوار أهل التحقيق، ومكانتهم عند ربهم، وجولة سريعة في علم الإشارات، ومذهب أهله، عرضناها عليك. ألمعنا بها إليك كتمهيد للسفر الجليل والكنز الثمين الذي نحن بصدد الحديث عنه، والذي ظل طيَّ الكتمان ودفين النسيان، حتى قيَّض الله له باحثاً أميناً، له في هذا العمل، من الشباب القوة، ومن الشيوخ الخبرة، فأخرجه إلى النور، وهيأه للنشر والظهور.

والآن يسعدني أن أقدم للمسلمين في مشارق الأرض ومغاربها عامة، ولذوي الألباب والبصائر خاصة، ولكل باحث متصوف: تفسير القرآن، للعالم والداعية الكبير «ابن عجيبة»، وهو نموذج من نماذج فيوضات أهل التحقيق،

(١) من الآية ٢٥ من سورة الشورى. (٢) من الآية ٣٥ من سورة النور.

ومذاق من مذاقات أولي الإشارات، وأرباب السلوك، وأصحاب الطريق. ففيه تذكير بأن ما عزب عن الأفهام دركُهُ من أسرار التفاسير الصوفية الأخرى الدسمة، لا يمسها بالعيب والطعن؛ لقصور العقل عن النهوض باستشراق ما أطلع عليه أهلها من أسرار، فكم من مذاقات تناولها بالعقل متناولوها فمسخوها، ووصلوا بأهلها إلى الحلول والإلحاد، وهم بعقائدهم النقية أبعدُ الناس عن ذلك، ومن الجور الفادح أن نلبسهم بذلك ثياب الملحدين، ونرميهم بالكفر أو الانحراف عن سواء السبيل.

ومن مميزات ذلك التفسيرِ أنه يكشف عن مشارب القوم، ونهج الصوفية في استمدادهم من الحق تعالى، في كل ما يأتون من مواجيد، فهو يدلِّل خلال قراءته ـ في وعي ـ على أن كل صغيرة وكبيرة من مفاهيم الصوفية لها أصل من القرآن أو سند من السنّة؛ لأن قلوبهم مرايا صافية، يسطع عليها نور الحق، ومحال أن تعكس ما لا يرضي الحق. فليس الصوفية في الواقع إلا روافد تستقي من ينبوع الشريعة ومعينها الطيب، غاية الأمر أنهم ملْهمون بتجلي الله عليهم في كلامه، بالجديد من أسرار، وتجليات الله لا تتناهى. ووقف غيرهم عند المسطور المتوارث، فداروا في نطاقه، ولم يتجاوزوا حدوده.

هذه نبذة عاجلة عن الكتاب وبعض مميزاته. أما عن المؤلف فقد تناول محقق التفسير ما فيه الكفاية والغنى عن البيان. وأبرز استعداده الفطري وحافظته الواعية، وذكاءه النادر، ما كان سبيلاً إلى أن يحصل من دراسته الأدب والعلوم العقلية والنقلية، دينية وغير دينية، ما جعله كنزاً للعلوم والآداب، عدا موهبة سخية في نظم الشعر، وتذوق الأسلوب العربي، وعقيدة نقية في تمسكه بمذهب أهل السنة، لم يشبها ما خاض فيه من علم الكلام وخلافات أهله.

فالمؤلف ـ رحمه الله كان مؤهلاً أن يدرس الأسلوب القرآني، ويستخرج منه ما يستخرج من إشاراته. والحق أن تلك الإشارات ليست وليدة دراسة العقول، وإنما هي وليدة الإلهامات بعد فتح عيون القلوب. وفيما سبق من توضيح ذلك ما يغني عن تكرار التبيان.

فإن كان لإمامنا ابنِ عجيبة ما سبقِ من شهرة علمية ودينية وأدبية ولغوية وعقيدية، فذلك سمة من السمات الدالة على أن رجال الله يعدّهم قبل أن يختارهم لحضرته، ليعزهم بعزته، ويكونوا خلفاءه ـ بحق ـ في أرضه، يخاطبون كلاً حسب استعداده، فتملأ هيبتهم كلَّ فراغ، ويكونون فرسان الحلبة في كل ميدان ومجال.

على أن تلك الكنوز العلمية المكتسبة التي اشتهر بها إمامنا «ابن عجيبة» ليست شرطاً فيمن يختارهم الله من رجاله، فمن شاءه ولياً، وأراده له حبيباً علَّمه من علمه اللدني، حتى ولو كان أمياً. وسيدي «عبدالعزيز الدباغ» صاحب الإبريز المشهور، وسيدي «علي الخواص» شيخ الإمام الشعراني وغيرهما من فحول الصوفية، خير مثال لذلك، وبذلك تصدق المقولة المشهورة: (ما اتخذ الله من ولي جاهل، ولو اتخذه لعلمه).

والآن أعدك أيها القارىء الكريم لذلك الكتاب العظيم لتدرك بنفسك نفائسه.. وأختم حديثي تيمناً ـ بترديد الكلمة المباركة التي كانت أول خطاب من الله لرسوله ـ عليه الصلاة السلام ـ أول بعثته فأقول لك: ﴿اقرأ﴾.

د. حسن عباس زكي

كلمـة

أ. د./ جودة محمد أبو اليزيد المهدى

عميد كلية القرآن الكريم بطنطا

الحمد لله الذى أنزل من حضرة ربوبيته على قلب أعظم رسله هذا القرآن العظيم، هُدىً ونوراً، وجعله معجزة المعجزات، وجامع حقائق حضرات الذات والصفات والأسماء والأفعال، فسطرت فيه أسرار الوجود تسطيرا.

والصلاة والسلام على أكمل خلق الله، سيدنا محمد، الذى تجلى عليه مولاه باسم (الرحمن)، فعلَّمه القرآن، وأرسله بالحق بشيراً ونذيرا، وداعيا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرا. اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه، وورثته القرآنيِّين، الذين أشربوا حُب القرآن، وتدبروا آياته، وغاصوا فى بحار معانيه، واستخرجوا جواهر حقائقه، ودرر أسراره، فنالوا فضلاً كبيرا. رضى الله عنهم، وسلك بنا مسلكهم، وحشرنا فى زمرتهم، ولقَّانا بهم نضرة وسرورا.

أما بعـــد :

فقد أدرك الفقهون عن الله تعالى أن ذروة الفضل، وذؤابة الشرف، وجوهر السعادة فى التعلق بكتاب الله تعالى، الذى هو حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وهو مأدبة الله تعالى، ودستوره الخالد، والمحيط الجامع لأنواع العلوم والمعارف، والمنهاج الأعظم للتربية والتحقق، ومن ثَمَّ تبتلت قلوبهم فى محراب التنزيل، وعكفوا على تدبر آياته واستكناه أسراره لاستخلاص حقائق الوجود من مشكاة عرفانه.

لقد أذعنوا لقول الحق تعالى: ﴿ما فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾[1]، ولقوله عز من قائل: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾[2]. وأيقنوا بمقولة حبر الأمة، سيدنا عبد الله بن عباس ـ رضى الله تعالى عنهما ـ: «جمع الله فى هذا الكتاب علوم الأولين وعلوم الآخرين، وعلم ماكان وعلم ما يكون، والعلم بالخالق ـ جل جلاله ـ فى أمره وخلقه»[3].

وقد تعددت وتنوعت منازع ومناهج المشتغلين بتفسير كتاب الله تعالى.

---

(١) سورة الأنعام/٣٨. (٢) سورة النحل/٨٩.

(٣) انظر: جامع الأصول لابن الأثير: ٨/٤٦٤: حديث رقم/٦٢٣٣.

فمنهم من توفرت هممهم على جمع المأثور في تفسيره من السنة النبوية، وأقوال السلف الصالح، من الصحابة والتابعين وتابعيهم، دون إعمال للرأى، أو مع إعماله بضوابطه. ومنهم من صرف وكده فى تفسيره إلى الجانب اللغوى، فبرزت إلى الصعيد التفسيرى مدارس التفسير اللغوى، والنحوى، والبلاغى، والبيانى بألوانها الشائعة المعطاءة. ومنهم من آثر المتجه الكلامي العقدى، فحفل تفسيره بخوض عباب المباحث العقدية، ونصرة مذهبه على المذاهب الأخرى، فى شتى القضايا الكلامية، فكانت موسوعات تفسيرية فى هذا الجانب. ومنهم من جنح فى تفسيره إلى الجانب الفقهي المذهبي، فكان اللون المعروف بتفاسير الأحكام، وكل منها فى مذهب بعينه، وقد استخدمت فيه القواعد الأصولية. ومنهم من غلب عليه الطابع القصصى، فتوسع فى الروايات والآثار فى معالجة قصص القرآن الكريم، ما بين صحيح ودخيل.

وهكذا اتخذ المشتغلون بالتفسير طرائق قِددا، ومنازع شتى، ومناهج متنوعة، ما بين تحليلى، وموضوعى، ومقارن، وتاريخى، واستقرائى. وكلها حقق للمكتبة التفسيرية ثراء حافلاً فى تناول كتاب الله الخاتم، لم ينله ولم يدن منه فى تاريخ الوجود توفر على كتاب سواه، وذاك من لوازم حقيته ومصداقيته وإعجازه.

* بيْد أنه - مع كل ذلك - لا يبلغ البناء التفسيرى كماله وتمام مصداقيته فى تحقيق وفاء معانى التنزيل بتفسير حقائق الوجود بأسرها إلا بإعمال المنهج الصوفى الإشارى فى التفسير، وإحراز نتاج (علم الموهبة) الذى اعتده أساطين علوم القرآن الكريم وتفسيره علماً أساسيا ومصدراً رئيساً للمفسر، ضمن العلوم الخمسة عشر التى يحتاج إليها المفسر، حيث ذكره الإمام السيوطى - رضى الله تعالى عنه - فى ختامها - بالإتقان - قائلا: (الخامس عشر: علم الموهبة: وهو علم يورثه الله تعالى لمن عَمِلَ بما عَلِمَ، وإليه الإشارة بحديث[1]: «من عمل بما علم ورثه الله علم مالم يعلم» - ثم قال: قال ابن أبى الدنيا: وعلوم القرآن وما يستنبط منه: بحر لا ساحل له.

قال: فهذه العلوم - التى كالآلة للمفسر - لا يكون مفسراً إلا بتحصيلها، فمن فسر بدونها: كان مفسراً بالرأى المنهى عنه، وإذا فسر مع حصولها لم يكن مفسراً بالرأى المنهى عنه)[2].

أجل: إن التفسير القرآنى بدون الوقوف على الجانب الإشارى، الذى يسبر باطنَ العبارة القرآنية بالكشف الذوقى العرفانى، ليفتقد تلك الثمرة اليانعة، والروعة الرائعة، التى يمتن بها الحق تعالى على أوليائه العارفين، الذين طهرت قلوبهم وأرواحهم، بعد إماتة نفوسهم بسيف الجهاد الأكبر، فعلمهم الحق من لدنه علماً، وأتاح لطلاب

---

(١) أخرجه الحافظ أبو نعيم، عن سيدنا أنس رضي الله عنه، وخرّجه عنه العجلونى فى كشف الخفاء ص ٣٦٥.
(٢) الإمام الحافظ: سيدى جلال الدين السيوطى - رضى الله تعالى عنه: الإتقان فى علوم القرآن. بتحقيق: محمد أبى الفضل إبراهيم: (١٨٨/٤) ط/ المشهد الحسينى.

المعرفة وعشاق الحقيقة أن ينهلوا من رحيقه، بالمثول في رحابهم، واقتطاف الأزاهير من بساتينهم، فيكتمل المفاد التفسيري بإحراز التعرف إلى الباطن القرآني - بالمفهوم السنّي لا الشيعي للباطن - إلى جانب معرفة الظاهر والحد والمطلع، فتلك روافد العطاء المعرفي للقرآن الكريم، كما بيّنها الرسول الأعظم ﷺ بقوله: «إن للقرآن ظهراً وبطناً وحداً ومطلعا»[1].

فالمراد بالظهر: ما يظهر من معاني التنزيل لأهل العلم بالظاهر. والمراد بالباطن: ما يتضمنه من الأسرار التي أطلع الله تعالى عليها أرباب الحقائق. فالبطن روح الألفاظ، أي: الكلام المعتلي على المدارك الآلية بجواهر الروح القدسية. والحد: مراد به: أن لكل حرف من القرآن منتهى فيما أراده الله تعالى من معناه. والحد: إما بين الظهر والبطن، وإما بين البطن والمطلع، فيرتقي به من البطن إليه عند إدراك الرابطة بين الصفة والاسم، واستهلاك صفة العبد تحت تجليات صفة المتكلم جل شأنه. والمطّلع - بضم الميم وفتح الطاء المشددة واللام -: هو مكان الاطلاع من الكلام النفسي إلى الاسم المتكلم، المشار إليه بقول الصادق: «لقد تجلى الله تعالى في كتابه لعباده ولكن لا يبصرون»، ومن ثمّ فالمطلع: ما يصعد إليه منه فيطلع على شهود الملك العلام[2]. جعلنا الله تعالى من أهل ذلك المقام، بجاه سيد الأنام، عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام.

وهكذا نجد أن السنة النبوية الشريفة - بحديث: «إن للقرآن ظهراً وبطنا» ونظائره [3] - تعاضد القرآن العظيم في تأصيل التفسير الفيضي، أو الإشاري في نحو قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾[4] وقوله سبحانه: ﴿فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا﴾[5]، ففيهما الإشارة الثاقبة إلى التفسير الإشاري. ومن ثمّ روي عن باب مدينة العلم، سيدنا علي كرم الله وجهه أنه قال: «لو شئت لأوقرت سبعين بعيراً من فاتحة الكتاب» وقال: «من فهم القرآن فسر به جمل العلم»[6].

ولتجسّد أصالة التفسير الصوفي الإشاري وحتمية وجوده لتجلية حقائق القرآن المستنبطة منه بفهم أهل الله تعالى: فقد اعتد أساطين علماء التنزيل به، وضمنوه تفاسيرهم، ووضعوا له التعريف العلمي بضوابطه التي تخرج عنه ما يلتبس به عند غير ذوي العلم، مما يعرف بالتفسير الباطني الذي يقصر دلالة النص القرآني على تأويلات الباطنية من الشيعة المنحرفة، فهذا لا علاقة له بالتفسير الصوفي على الحقيقة.

من ثمّ عُرف التفسير الصوفي الفيضي الإشاري بأنه: تأويل آيات القرآن الكريم على خلاف ما يظهر منها بمقتضى إشارات خفية، تظهر لأهل السلوك، ويمكن التطبيق بينها وبين الظواهر المرادة[7].

(١) أخرجه ابن حبان، في صحيحه، عن سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، وأخرجه عنه الحافظ العراقي في (المغني عن حمل الأسفار، بتحقيق ما في الإحياء من الأخبار) بحاشية الإحياء (١/ ٨٨).

(٢) انظر روح المعاني لشيخنا الإمام الآلوسي النقشبندي، عليه رضوان الله تعالى (١/ ٧).

(٣) من نظائر هذا الحديث الشريف: ما أخرجه الديلمي عن سيدنا عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه مرفوعا إلى النبي ﷺ أنه قال: (القرآن تحت العرش له ظهر وبطن يحاج العباد).

(٤) سورة (محمد) ﷺ: الآية/ ٢٤. (٥) سورة النساء/ ٧٨.

(٦) انظر إحياء علوم الدين، للإمام الغزالي رضي الله عنه، (١/ ٢٦٠) ط/ العثمانية.

(٧) انظر - مع الإتقان للإمام السيوطي ٤/ ١٩٨ - : التفسير والمفسرون للدكتور محمد حسين الذهبي ٣/ ١٨.

وعلى ذلك: فقد اعتمد علماء القرآن الكريم التفسير الصوفي الإشاري بشروط أربعة لقبوله:

أولهـــا : عدم منافاته لمقتضى اللغة ولظاهر النظم القرآني الكريم.

وثانيهـا : أن يكون له شاهد شرعي يؤيده من الكتاب أوالسُنّة أو سائر الأصول المعتمدة.

وثالثهـا : ألاّ يكون له معارض شرعي قطعي.

ورابعها : ألاّ يدعي أن هذا التفسير الإشاري هو وحده المراد دون الظاهر، بل لابد من إقرار التفسير العباري الظاهر أولاً ثم الأخذ بالمعنى الإشاري(1).

★ هذا : ومن المفسرين الأعلام من جرد همته للتفسير الظاهر ـ كالزمخشري مثلا ـ ولم يعن بالتفسير الإشاري، وليس كذلك البيضاوي، خلافًا لما ذكره الدكتور الذهبي، حيث قرنه بالزمخشري في الاقتصار على الظاهر. وقد حققنا الاتجاه الصوفي عند القاضي البيضاوي في بحث مستقل(2).

★ ومن أعلام المفسرين من صرف جُل وكده للتفسير الظاهر، مع تعرضه للجانب الإشاري بقدر، كما نراه في تفاسير الإمام الفخر الرازي والإمامين النيسابوري والآلوسي ـ رضي الله تعالى عنهم أجمعين.

★ ومنهم من غلب عليه الطابع الإشاري، ولم يحفل بالتفسير إلا قليلا، كالإمام سهل بن عبد الله التستري (ت سنة ٢٠٠هـ) رضي الله تعالى عنه، وتفسيره وجيز جليل القدر.

★ ومنهم من اقتصر على الجانب الإشاري تمامًا كالإمام أبي عبد الرحمن السلمي (ت ٤١٢هـ) ـ رضوان الله عليه ـ في كتابه: (حقائق التفسير).

★ ومنهم من جمع بين التفسير الظاهر وبين التفسير الإشاري، في توازن بينهما، وإشباع علمي في كلا الجانبين، فجاء تفسيره متكاملاً بالجواهر والدرر، كالعلامة إسماعيل حقي الإسلامبولي الحنفي (ت١١٣٧هـ) رحمه الله في تفسيره (روح البيان)، وكالإمام العلامة العارف بالله تعالى الشيخ أحمد بن عجيبة الحسني (١١٦٠ ـ ١٢٢٤هـ) رحمه الله صاحب هذا التفسير الفريد المسمى (البحر المديد في تفسير القرآن المجيد)، وهو الذي نقدم له بهذه السطور، فقد جاء هذا التفسير آية رائعة في التفسير القرآني، الجامع بين تفسير أهل الظاهر بمعطياته وملكاته وأدواته، وإشارة أهل الباطن ـ بالمدلول السنّي للباطن ـ مستوفيًا ضوابطه وشروطه، حافلاً بأزهاره وثماره، حتى إنه ليعد موسوعة قرآنية في الحقائق وعلم السلوك.

وأسأل الله ـ عز وجل ـ أن يتقبل هذا العمل، وأن يحشرنا به في زمرة أهل القرآن الذين هم أهل الله وخاصته. وصلى الله تعالى على أعظم رسله سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

أ. د. جودة محمد أبو اليزيد المهدى
عميد كلية القرآن الكريم بطنطا
وعضو المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

---

(1) انظر: المرجع الأخير مع زيادة تحرير في العبارة: ٢/ ٤٣.

(2) حوليه كلية أصول الدين والدعوة الاسلامية بطنطا: العدد الثالث سنة ١٤١٢هـ = سنة ١٩٩١م ص ٧ـ٥٧.

ترجمة الإمام ابن عجيبة [1]

اسمه :

هو الإمام العلامة المفسر «أحمد بن محمد بن المهدى بن الحسين بن محمد» المعروف بابن عجيبة، والمكنى بأبى عباس، الحسنى نسباً، التطوانى داراً، الفاسى تعلماً، المالكى مذهباً، الشاذلى طريقة، أعجوبة زمانه، وعديم النظير فى أمثاله، مؤلف التآليف العديدة، ومفيد العلوم المفيدة. العالم العلامة، والصوفى الفهامة، والعارف المحقق، الشيخ الكامل الجليل، الشريف البركة.

مولده

ولد الإمام ابن عجيبة فى قرية (أعجبيش)، من قبيلة (أنجرة)، التى تسكن الجبال المحيطة بمدينة تطوان[2]، الواقعة فى أقصى شمال المغرب، على مسافة عشرة كيلومترات، من ساحل البحر الأبيض المتوسط. وكان مولده رحمه الله، حسبما أورد فى فهرسته ـ سنة ستين أو إحدى وستين ومائة وألف هجرية[3] ولا خلاف بين المصادر الأخرى التى أوردت تاريخ ولادته، وإن كانت قد اقتصرت على ذكر إحدى السنتين. ويرجع عدم جزم شيخنا بإحدى السنتين إلى أن مولده لم يؤرخ بالسنين، بل أرخ بحادث حصار (المستضيىء بن إسماعيل) لتطوان، وكان ذلك بين سنتى ستين وإحدى وستين[4].

أسرته : ولد الشيخ من أبوين صالحين، كلاهما من آل بيت النبوة، يرجع نسبهما إلى الإمام الحسن بن على ﷺ والسيدة فاطمة ـ رضى الله عنها ـ بنت سيد الكونين، وصخرة العالمين، حبيب الرحمن، من قدمه فوق رؤوسنا شرف لنا، ومن إذا انتسب إليه أحد نسباً فاز بالعلى.

والمستطلع لتاريخ آبائه يدرك صلاحهم وتقواهم، ومدى ما كانوا عليه من خشية لله وشرف هاشمى. فجد جده «عبدالله بن عجيبة» ولى مشهور، وقبره مزار بقبيلة أنجرة، كما أن جد والده «الحسين الحجوجى» صاحب كرامات عديدة ومآثر حميدة، أما جده «المهدى» فكان كما يقول شيخنا: (رجلا صالحا صموتاً خلوياً ـ أى: يحب الخلوة ـ مغفلاً عن أمور الدنيا، ولاتجده إلا وحده، تالياً، أو مصلياً، أو مشتغلاً بما يعنيه)[5] وأبوه

---

(١) أخذت ترجمة الشيخ ابن عجيبة عن (العسكرى، مخطوط طبقات أصحاب الدرقاوى) ورقة ١٤٢ وما بعدها، عبدالقادر الكوهن مخطوط: (إمداد ذوى الاستعداد) ورقة ٢٠، مخلوف: شجرة النور الزكية ص٤٠٠، الأزهرى اليواقيت الثمنية ج١/ ص٧٠، الكتانى: فهرس الفهارس ج٢/ص ٨٥٤، الحسن الكوهن: طبقات الشاذلية ص١٦٤ وما بعدها، سركيس: معجم المطبوعات ١٦٩/١ الزركلى: الأعلام ج١/ ص٢٤٥، رضا كحالة: معجم المؤلفين ٦٣/١، تيمور: فهرس التيمورية ١٩٧/٣، د/ درنيقة: الطريقة الشاذلية وأعلامها/ ٩٢ ـ ٩٤ وذلك فضلا عن الفهرسة للشيخ المفسر.

(٢) عبدالمجيد الصغير، إشكالية إصلاح الفكر الصوفى ١٢٦/١. (٣) ابن عجيبة: الفهرسة ص ١٦.

(٤) انظر المصدرين السابقين. (٥) الفهرسة ص ٢٧.

«محمد بن المهدى» كان رجلا صالحاً، لا يجلس فى الغالب إلا وحده، فقيراً من الدنيا، يبت يقرأ القرآن. توفى رحمه الله سنة «١١٩٦هـ»[١].

نشأته العلمية :

نشأ الشيخ ابن عجيبة فى بيت صلاح وتقوى، وأقبل على حفظ القرآن وهو فى سن مبكرة، وقد تميز الشيخ بالقدرة على التركيز العلمي، وتوقد القريحة، ورحل إلى مدينة القصر الكبير، وأقام فيها نحواً من عامين، اجتهد خلالهما فى تحصيل العلم، حتى قال عن نفسه: (أهملت نفسي، ونسيت أمرها، وكنت أقرأ سبعة مجالس، بين الليل والنهار)[٢].

ولم يقنع الطالب بما حصّل في مدينة القصر الكبير، بل زاده شغفاً في القدوم إلى تطْوَان، وهي موئلاً للعلم والحكمة، ومهبط كثير من العلماء، فقدمها ابن عجيبة وهو ابن العشرين، وأقام فيها، وأقبل على تحصيل العلم فى شتى الأبواب بكل جد، وتنوعت مجالسه بين أئمة الفقه، والتفسير، والحديث، واللغه، والنحو، والصرف، والمنطق، أقبل على هؤلاء وهؤلاء، يستمع منهم، ويقرأ عليهم، ويأخذ عنهم، وأقبلوا عليه يعطونه كل ما عندهم؛ لِما وجدوا فيه من حسن الإعداد والاستعداد، فواصل الليل بالنهار.

وسرعان ما ظهرت ثمار هذا الجد والاجتهاد، فلم يبلغ شيخنا تسعاً وعشرين سنة، حتى بزغ نجمه وعلا شأنه، وجلس للتدريس فى مساجد تطوان ومدارسها، ولكن ذلك لم يمنعه من مواصلة العلم فى مظانه، فالظمآن إلى المعارف لا يرتوى مهما نهل، ولعله كلما نهل استطاب العلم فازداد إليه ظمأ، والعلم ليس له نهاية له وليس له حدود. يقول شيخنا بعد جلوسه للتدريس: (فكنت في العلم الظاهر نتعلم ونُعلّم فما تركت العلم قط بعد التصدر للتعليم، نعلم من تحتنا ونأخذ عمن فوقنا)[٣].

ولهذا شدّ الرحال إلى فاس، وهو فى سن الأربعين، فسمع من علمائها، وأخذ عنهم، وقد توفر له فيها أساطين العلم فى مختلف الفروع، فأخذ علم الحديث عن محدث عصره (التاودى بن سودة)، ودرس التفسير والفرائض واللغة، ومكث كذلك سنتين، عاد بعدهما إلى تطوان ليتابع تدريسه وتأليفه.

يتحدث رَحِمَهُ اللَّهُ عما حصّله من علوم، فيقول: و(الذى حصّلناه من علوم الأذهان (العقلية): علم المنطق، والكلام على مذهب أهل السنة، والمهم من علم الهيأة (الفلك)، ومن علم الأديان: علوم القرآن، خصوصاً التفسير.. وحصّلنا الفقه بأنواعه، وأصول الفقه، وأصول الدين، وحصّلت أيضا علم الحديث، وعلم السير، وعلم المغازى، والتاريخ، والشمائل، ومن علم اللسان: علم اللغة والتصريف، والنحو، والبيان، بأنواعه، أما التصوف؛ فهو علمى ومحط رحلى، فلى فيه القدم الفالج، واليد الطولى)[٤] وهكذا كان حظه من ثقافة عصره حظاً وافراً، فقد أحاط بسائر علوم وقته، وانعكس ذلك على تفسيره، فجاء بحره مرآة لثقافته الواسعة.

---

(١) المصدر السابق ص ٢٣.
(٢) الفهرسة /٢٩.
(٣) الفهرسة ٧٦.
(٤) الفهرسة / ١٠١

شيوخه :

تتلمذ شيخنا أبو العباس على كثير من علماء عصره، وأثبت هنا تعريفاً بأهم شيوخه، الذين اتصل بهم أكثر من غيرهم، واشتهر بالأخذ عنهم.

١ - الفقيه القاضي عبد الكريم بن قريش [ت - ١١٩٧هـ][١] أول من تتلمذ عليه ابن عجيبة بتطوان، ترجم له داود في تاريخه قائلا: (الإمام العالم، الفقيه المدرس، الخطيب، كان رحمه الله مشاركاً في كثير من الفنون، وكان يستظهر مختصر خليل حفظا، ودارت عليه الفتوى في زمانه بتطوان. تولى قضاء طنجة قهراً، فأظهر العدل وحمدت سيرته، وكان كما يقول تلميذه ابن عجيبة: (ملجأ الناس في الفتوى والشفاعة عند الولاة) مات في الحجاز سنة (١١٩٧هـ) ويعتبر ابن قريش أحد الأساتذة الذين أكثر مفسرنا الأخذ عنهم[٢] .

٢ - الفقيه الشيخ (أبو الحسن علي بن أحمد بن شطير الحسني) [ت - ١١٩١هـ][٣] نعته داود نقلاً عن أزهار البستان، فقال: (الفقيه الإمام المحدث العالم النحرير، كان رحمه الله فقيها نحويا محدثا ذا ورع تام) درّس البخاري والألفية، ومختصر خليل، وشمائل الترمذي، بتطوان، وكان كما يقول ابن عجيبة: (صابراً لإلقاء الدرس، ذا عناية بالعلم، متواضعا متقشفاً، يلبس الخشن من الثياب، على طريقة السلف الصالح). أخذ عنه مفسرنا بتطوان ألفية ابن مالك ومختصر خليل، وغير ذلك.

٣ - الفقيه العلامة (أبو عبد الله محمد بن الحسن الجنوي الحسني) [١١٣٥ - ١٢٠٠هـ][٤] أحد أعلام تطوان وزهادها، وأشهر أساتذة ابن عجيبة، (الشيخ الإمام، المحقق، المتفنن، الفهامة، العارف بالله الأمين المعروف بالصلاح والدين المتين)، هكذا حلاه مخلوف في (شجرة النور)، ووصفه تلميذه ابن عجيبة (بالإمام الحبر الهمام مفتي الأنام، وأحد أئمة الإسلام، وخاتمة المحققين، وشمس المدققين). كان مشاركًا في الأصول والفروع يحرر المسائل ويدققها، ولا يرضى بالتقليد في شيء من علومه، وكان ملجأ الناس في حل المشكلات، تأتي الفتاوى إليه من أقطار المغرب، كما كان متبحراً في علوم التصوف، مطلعاً على غالب فروعه ومسائله، وكان يفر من الشهرة وملاقاة السلطان. لازمه شيخنا ابن عجيبة ملازمة تامة، حتى توفي الجنوي سنة ١٢٠٠هـ، بعد أن أخذ عنه تفسير القرآن، والبخاري مرتين، سماعاً، وبعضه شرحاً، وكذلك مسلم ومختصر خليل السبكي، وورقات الخطاب في أصول الفقه للإمام الجويني، وفي علوم التصوف أخذ عنه الرسالة القشيرية، وحِكَم ابن عطاء، وأصول الطريقة، والنصيحة الكافية، للشيخ زروق.

---

(١) انظر في ترجمته : تاريخ تطوان ٩٦/٣ ومخطوط أزهار البستان في طبقات الأعيان، لابن عجيبة/ ٢١٣، والفهرسة، لابن عجيبة / ١١.

(٢) راجع الفهرسة، لابن عجيبة / ١١. (٣) انظر في ترجمته : تاريخ تطوان (٣/٩٥-٩٦) والفهرسة/ ٣١.

(٤) انظر : شجرة النور الزكية/ ٧٧٥، تاريخ تطوان (٩٦/٣) مخطوط أزهار البستان / ٢١٧.

٤ ـ العلامة المحدث (أبو عبد الله محمد التاود بن الطالب بن سودة المري) [١١١١ ـ ١٢٠٩هـ][1] الإمام الهمام، شيخ الإسلام، وعمدة الأنام، وخاتمة المحققين الأعلام، وهلال المغرب وقدوته وبركته. هكذا حلاه صاحب شجرة النور، وقال عنه الحافظ الزبيدي:

ومنهم محمــد بن الطالب — التاودي العدل ذو المواهب

رئيس فاس، كاشف الغيوم — وعالم المنطوق والمفهــوم

إليه في بـلاده يُشــــار — عليه في المعــارف المدار

انفرد بالإمامة في الحديث، كما كان مُقَدّما في التفسير، والفقه، والتصوف،، والكلام، والمنطق،، والأصول، قال عنه الكتاني في فهرسته: (لا أعلم أحدا ممن ينتمي إلى العلم بالمغرب، إلا وله عليه منة التعليم، إما بواسطة أو بغير واسطة أو بهما معا)، وحلاه تلميذه ابن عجيبة في أزهاره (بشيخ الجماعة، وملحق الحفداء والأجداد) أخذ عن أحمد مبارك اللمطي، وابن عبد السلام بناني، ومحمد جسوس، وغيرهم، ومن شيوخه بمصر، الشيخ العيدروس، وحسن الجبرتي، وأبو الحسن العدوي. وكانت له رحلات لتدريس العلم بمصر والحجاز، فأقرأ بالأزهر الموطأ، فتسارع ـ كما يقول كنون ـ الناس للأخذ عنه لِما رأوا من حفظه وإتقانه، وحضره أعيان المذاهب الأربعة، وكبار مصر وصلحاؤها، كالشيخ الدردير والحافظ الزبيدي.

ومن تآليفه المفيدة: (زاد المجد الساري إلى قراءة صحيح البخاري) في نحو أربعة مجلدات، وحاشية على تفسير ابن جزي، وشرح الأربعين النووية و(المنحة الثابتة في الصلاة الفائتة) و(طالع الأماني على مختصر الشيخ الزرقاني) وغير ذلك كثير. أخذ عنه شيخنا ابن عجيبة صحيح البخاري وصحيح مسلم، وحصل منه على إجازة مطلقة عامة[2].

٥ ـ الحافظ أبو عبد الله الطيب بن عبد المجيد بن كيران (١١٧٢ـ ١٢٢٧هـ)[3] أحد أساتذة ابن عجيبة بفاس، قال عنه مخلوف في شجرة النور: (الإمام، الحامل لواء المعارف والعرفان، العلامة المتفنن في العلوم، الحامل راية المنثور والمفهوم)، وقال عنه صاحب إمداد ذوي الاستعداد: (أعجوبة الزمان في الحفظ والتحصيل والإتقان)، أخذ عن محدث عصره التاودي بن سودة، وبناني، وجسوس، وعنه أخذ عبدالقادر الكوهن وغيره كثير، وكان يحضر مجلسه السلطانُ فمن دونه، درّس التفسير في القرويين، فكان يستحضر أقوال المفسرين جميعاً، ويقابل بينها ويناقشها، ويرد الزائف منها بالدلائل القوية والحجج البينة، كما كان له في العربية باع طويل، ونظم سديد، له

(١) انظر: شجرة النور/٣٧٥، فهرس الفهارس ١/٢٥٨ مخطوط أزهار البستان/ ٢١٨.

(٢) نص الإجازة في الفهرسة ص ٣٥ – ٣٦.

(٣) انظر (فهرس الفهارس للكتاني (٢/٨٤٨)، النبوغ المغربي لكنون ١/٢٢٥، شجرة النور الزكية/٣٧٦، مخطوط إمداد ذوي الاستعداد للكوهن/٥.

وفي تفسيره مواقف تبرز عقيدته السنية، ومن ذلك رده القوي على الفرق المخالفة، ودحض آرائهم، كلما عرضت مسألة من المسائل الخلافية، وإبراز رأى أهل السنة فيها.

وقد خص رضي الله عنه إحدى رسائله ببيان ما يدين به، وهي (رسالة العقائد)، ومن أقواله في هذه الرسالة لأحد مريديه: (عليك أن تعتقد أن الله موجود قبل الأكوان، قديم لا أول له، أزلي لا بداية له، مستمر الوجود لا آخر له، أبدى لا نهاية له.. وأنه ليس بجسم مصور، ولا جوهر محدود مقدر، وأنه لا يماثل الأجسام، لا فى التقدير ولا فى قبول الانقسام، وأنه ليس بجوهر، ولا تحله الجواهر، ولا بعرض، ولا تحله الأعراض، بل لا يماثل موجوداً، ولا يماثله موجود، وليس كمثله شيء، ولا هو مثل شيء، وأنه لا يحده المقدار ولا تحويه الأنظار، ولا تحيط به الجهات. هو أقرب إلى العبد من حبل الوريد، وهو على كل شيء شهيد، لا يماثل قربه قرب الأجسام، كما لا تماثل ذاته ذوات الأجسام، وأنه لا يحل فى شيء، ولا يحل فيه شيء، تعالى عن أن يحويه مكان، كما تقدس عن أن يحده زمان..)(١) وفى قضية الاستواء على العرش يقول: (عليك أن تعتقد أن الله مستو على العرش، على الوجه الذى قاله، وبالمعنى الذى أراده، استواء منزهاً عن المماسة والاستقرار، والتمكن والحلول والاشتغال، لا يحمله العرش بل العرش، وحملته محمولون بلطائف قدرته، ومقهورون فى قبضته، وهو فوق العرش وفوق كل شيء)(٢).

تصوفه

بعد أن نال الشيخ ابن عجيبة الحظ الأوفر، والنصيب الأكبر من علوم عصره؛ العقلية والنقلية، وحصّل منها ما جعله حائزاً لرئاسة العلم فى بلاده، حبب إليه سلوك طريق التصوف، وواكب فى هذا الوقت ظهور حركة الشيخ العربى الدرقاوى، مجدد الطريق الشاذلى فى الألف الثانى، ووجد الشيخ ابن عجيبة فى الدرقاوى شيخاً استجمع آداب الرائد المربى، فاتصل بالشيخ محمد البوزيدى الغمارى، التلميذ للشيخ الدرقاوى، وأخذ عنه الطريقة الدرقاوية الشاذلية. وقد عقد شيخنا رضي الله عنه فصلاً كاملاً فى فهرسته(٣)، سجل فيه تجربته الفريدة في تصوفه ومجاهداته، وهي مجاهدات لايطيقها إلا الصادقون المخلصون، وسرعان ما أثمرت مجاهداته المخلصة. وفاضت بحار علومه، وأشرقت فى صدره أنوار العرفان، ووقع له الفتح الكبير، والمدد الصافى الغزير.

وأعطى شيخنا مرتبة الإمامة والاقتداء، والتربية، والتكميل، وكان له فى ذلك باع طويل. يقول عنه الشيخ الكوهن: (كان نظره إكسيراً، إذا أتاه أو التقى معه من يعرفه، يرقيه فى ميدان حسنات الأبرار سيئات المقربين، حتى كثرت على يديه الأتباع والمريدون، وحصل لهم تنوير الباطن، ونالوا مقامات العارفين)(٤). ويقول عنه العسكرى: (كان حجة الطائفة الدرقاوية مبيناً لأحكامها، وناشراً لأعلامها، سبر على علومها حتى صار ينبوعاً لشموسها، وأقمارها ونجومها)(٥).

(١، ٢) مخطوط رسالة العقائد ص ٨١ ـ ٨٢.

(٣) انظر الفهرسة ص ٥٣ وما بعدها.

(٤) جامع الكرامات العلية ـ ١٦٣.

(٥) م. طبقات أصحاب الدرقاوى ـ ١٤٢.

منهج ابن عجيبة فى التفسير

سار ابن عجيبة فى تفسيره على منهج واضح المعالم، فهو يبدأ فى تفسير السورة ببيان مكان نزولها، وعدد آياتها، ويذكر الاختلاف في عدد الآيات - إن وجد - مع ذكر مناسبة السورة لما قبلها، وسبب نزولها، - إن وجد - وفضائلها، ومضمونها الإجمالي، ثم يشرع في تفسير الآيات؛ فيبدأ بالشرح اللغوى للكلمات الغريبة، ذاكراً الإعراب، ثم يبين المعنى المراد معتمداً فى ذلك على القرآن والأحاديث والآثار، وأقوال المفسرين المتقدمين.

وهذه أهم معالم منهج الإمام ابن عجيبة فى تفسيره بإيجاز:

١ - تفسير القرآن بالقرآن:

ومن ذلك ما جاء عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ فتلقى آدم من ربه كلمات . . ﴾(١) فينقل الشيخ - أن الكلمات التى تلقاها آدم هى قوله تعالى: ﴿ ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين ﴾(٢)

٢- القراءات:

اهتم الشيخ ابن عجيبة بذكر القراءات المختلفة فى الآية، مسجلاً المعنى المترتب على ذلك، وهو فى أغلب ذلك ينسب القراءة لصاحبها، وأحيانا يغفل ذلك، فيبهم، ويقول: «وقرئ بكذا». كما أنه يذكر أحياناً بعض القراءات الشاذة.

٣ - أسباب النزول:

من الواضح فى تفسير ابن عجيبة استناده إلى أسباب النزول، ليستعين بها على فهم الآيات. انظر ما ذكره عند تفسير قوله تعالى: ﴿ ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم ﴾(٣)، وكذلك قوله تعالى: ﴿ ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا . . ﴾(٤) والأمثلة كثيرة جداً مما يجعل هذا التفسير من أمهات المراجع فى علم أسباب النزول.

٤ - السنة والآثار:

اعتماد ابن عجيبة على السنة الشريفة فى تفسيره للقرآن الكريم سمة واضحة، ومن ذلك ما جاء عند تفسير قوله تعالى: ﴿ أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد إلاهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق . . ﴾(٥) يستشهد الشيخ على أن إسماعيل عُدّ من آباء يعقوب مع أنه عمه، بقوله ﷺ: «عم الرجل صنو أبيه»، وقال فى العباس: «هذا بقية آبائى».

كذلك جاء تفسير ابن عجيبة حافلاً بنقل الأجلاء من الصحابة والتابعين - رضى الله عنهم -، وحين تتعدد الروايات عن الصحابة فى تفسير كلمة أو آية، فإنه يذكرها، ولا يرجح بعضها على بعض، أو يقدح فى شيء منها، وذلك إشارة منه إلى أن معنى الآية يحتمل جميع المعانى.

---

(١) الآية ٣٧ من سورة البقرة.
(٢) الآية ٢٣ من سورة الأعراف.
(٣) الآية ١٩٨ من سورة البقرة.
(٤) الآية ٢٠٤ من سورة البقرة.
(٥) الآية ١٣٣من سورة البقرة.

ويقول الكوهن أيضاً : (لقد نال مانال وتكلم على أسرار أهل الكمال، فأبدى علوماً غريبة، وأسرارا عجيبة، وأجمعت على ولايته أهل المغرب بأسرها)[1] وفي موضع آخر يقول: (.. أعطى ناطقة أسرار أهل الله، وأدرك مقامات العارفين بربهم حتى عد قطب الزمان، وأوحد الأوان، وتكلم بما أبهر عقول الأعيان..)[2].

شيوخ ابن عجيبة في التصوف :

سلك ابن عجيبة الطريق الصوفي على يد رجلين:

الأول : الشيخ الدرقاوي[3]: وهو (أبو المعالي العرب بن أحمد الحسني) الشهير (بالدرقاوي) نسبة إلى جده محمد بن يوسف الملقب بأبي درقة؛ (لدرقة كبيرة كانت له يتوقى بها في الحروب). وصفه الكوهن (بقدوة أهل الكمال ومرشد السالكين إلى أعلى المقامات والأحوال، الإمام الهمام)، وحلاه العسكري (بالعارف الأكبر، والقطب الأشهر) وقال عنه صاحب السلوة: (كان من العارفين بالله، الدالين بأقوالهم وأفعالهم وجميع أحوالهم على الله، جامعاً لمحاسن الشيم والأخلاق). وقال عنه الأزهري: (وكان آية في المعرفة بالله) ولد رضي الله عنه عام ١١٥٠هـ، بقبيلة بني زروال بشمال المغرب، واشتغل بقراءة العلم بفاس، ثم لقي الشيخ علي الجمل وسلك على يديه.

أسس الطريقة الدرقاوية الشاذلية، وتخرج على يديه عدد لا يحصى من الشيوخ، أرباب التمكين والرسوخ، قال الشيخ (ابن سودة المري): ما توفي مولانا العربي، حتى خلف نحواً من الأربعين ألف تلميذ، كلهم متأهلون للدلالة على الله سبحانه). توفي رحمه الله في صفر الخير من عام ١٢٣٩هـ وله من المؤلفات:

- الرسالة، وتسمى (بشور الهدية في مذهب الصوفية) قال عنها ابن إدريس الكتاني: (رسائله نفعنا الله به من أنفع الرسائل للمريد، وأدلها على كيفية السلوك والتجريد، لايستغني عن مطالعتها سالك).
- جواهر القرطاس.
- مناقب الشيخ على الجمل.

الثاني : الشيخ البوزيدي[4]: هو «محمد بن الحبيب أحمد البوزيدي الحسني» من قبيلة غمارة، بشمال المغرب، والتي ينتسب إليها أيضا. أبو الحسن الشاذلي، التقى بالدرقاوي، ولازمه مدة ست عشرة سنة، ويعد البوزيدي أقرب أتباع الدرقاوي إليه. كان رضي الله عنه أمياً لايكتب ولايقرأ، ومع ذلك أعطاه الله مالا يخطر بالبال من العلوم والأسرار، وله كتاب «الآداب المرضية في طريق الصوفية»، يقول الكوهن عن كتابه هذا «من يطلع عليه

(١ ، ٢) الحسن الكوهن، طبقات الشاذلية / ٢٤٠.

(٣) انظر: في ترجمته (مخطوط سلوة الأنفاس ١/ ١٧٢ اليواقيت الثمينة/ ٢٥٤ مخطوط، أصحاب الدرقاوي ص ٦١، طبقات الشاذلية/ ٢٠٣، الطريقة الشاذلية وأعلامها/ ١٢٩).

(٤) انظر في ترجمته: طبقات الشاذلية للكوهن/ ٢٤٠، مخطوط أصحاب الدرقاوي/ ١٢٥، إشكالية إصلاح الفكر الصوفي ١/ ٤٨.

يحكم بأن البوزيدى واحد الزمان، وشيخ أهل العرفان ،وله أيضا القصيدة التائية فى السلوك، والتى شرحها تلميذه ابن عجيبة، توفى رحمه الله فى (١٢٢٩هـ) ومقامه فى (مستغانم) من بلاد وهران بالجزائر.

تخرج علي يديه عدد كثير من فضلاء أهل الله، يقول الكوهن: «ولو لم يكن من تلاميذه إلا سيدى ابن عجيبة الحسن لكفى. مع أنه تخرج من تلاميذه جملة فضلاء من أهل الله، لا يحصرهم عدد، كلهم على قدم المعرفة وفى غاية التمكي، ومن أقواله رضي الله عنه لاكرامة أعظم من الإستقامة ظاهرا وباطنا لأن الكرامات الحسية تكون عند استقامة الظاهر دون استقامة الباطن، أما بعد استقامة الباطن والظاهر، فلا يكون إلا الكرامات المعنوية، وكل من ظن أن الولاية شيء زائد على الاستقامة فهو جاهل بالولاية)(١).

على مثل هذه التعاليم نشأ شيخنا أبو العباس، وبين الدرقاوى والبوزيدى عاش حياته الصوفية العملية، حتى فتح له على أيديها، ونال ما نالت الرجال، وفى ذلك يقول: (والله ما عرفنا قلوبنا ولا ذقنا حلاوة المعانى حتى صحبنا الرجال أهل المعانى)(٢).

ثناء العلماء عليه:

يحظى شيخنا فيما كتب عنه من تراجم بألقاب وأوصاف، تنم عن تقدير له، وعرفان بفضله، وتشير إلى ما بلغه من مقام رفيع فى العلم، ومرتبة عالية في المعرفة بالله، وتشهد بما رزقه الله من معارف إلهامية، أدهشت العقول وأثارت الإعجاب، فيصفه الكوهن فى جامع المرامات بـ (الشريف الحسيب، قطب دائرة الولاية الكبرى، ومنبع أسرار أهل الحقيقة، شيخ الطريقين، وعمدة الفريقين، ولى الله الأكبر، وغوثه الأشهر، كان رضي الله عنه من أهل التمكين)(٣).

أما العسكرى فيصفه بـ (العلم المفرد، يتيمة هذا العقد، عديم النظير فى أمثاله. جبل النية والصحبة والصدق، وخرق العادات والسير الحميدة، الذى لا يوجد فى وقته من نسيج - والله - على منواله، مؤلف التآليف العديدة، ومفيد العلوم الغريبة المفيدة، العالم العلامة، الصوفى المشارك، الفهامة العارف المحقق الجليل، الشيخ الكامل الجليل، الشريف البركة، ولى الله تعالى..)(٤).

وذكره الأزهرى فى (اليواقيت الثمينة فى أعيان مذهب عالم المدينة) وحلاه بقوله: (العالم الحجة الفهامة البارع الصوفى، الجامع بين الشريعة والحقيقة)(٥) كذلك ذكره مخلوف فى (شجرة النور الزكية فى طبقات المالكية)، وأعلى شأنه، ووصفه بقوله: (العلامة، المؤلف، المحقق، الفهامة، البارع، المدقق)(٦).

---

(١) إشكالية اصلاح الفكر ١/ ٤٩.

(٢) إيقاظ الهمم / ٤١٣.

(٣) جامع الكرامات العلية ١٦٣.

(٤) مخطوط طبقات أصحاب الدرقاوى ورقة ١٤٢.

(٥) اليواقيت الثمينة ١/ ٧٠.

(٦) شجرة النور / ٤٠٠.

مؤلفاته

يقول الكوهن عن مؤلفات ابن عجيبة: (تآليفه ـ عليها لوائح نفثات أهل المعرفة الكُمّل، فإنه أُعطي ناطقة أسرار أهل الله، وكلامه عال، أحل مشكلات القوم، وفك طلاسم أسرارهم، وتكلم بما أبهر عقول الأعيان) (١).

وقد ألف ﵁ في التفسير والحديث والفقه واللغة، أما أكثر مؤلفاته ففي التصوف. وتبلغ حصيلة ما كتبه ما يزيد على خمسة وأربعين تأليفاً، بعضها كبير في مجلدات، وبعضها متوسط، وبعضها صغير الحجم غزير العلم، وجل ذلك لا زال مخطوطاً، لم يعرف نور الطباعة بعد.

وأورد فيما يلي ثبتا بأسماء مؤلفاته، مرتبة حسب الموضوع الرئيس للكتاب، مع تعريف موجز به، وأماكن وجوده، وتاريخ تأليفه، ما أمكن ذلك(٢).

أولا ـ التفسير والقراءات:

١ ـ البحر المديد في تفسير القرآن المجيد. وسأفرد له الكلام فيما بعد.

٢ ـ التفسير الكبير للفاتحة: يقع في (٢٦٨) صفحة، وقد صنف هذا التفسير قبل تصنيفه للبحر المديد، كما هو واضح من كلامه، في آخر تفسير الفاتحة الكبير، حيث قال: (ويتلوه إن شاء الله تفسير سورة البقرة)، ولكن ناسخ المخطوطة قال في تعقيبه: قد جعل صاحب هذا التفسير ﵁ تفسيره هذا ـ أي: التفسير الكبير للفاتحة ـ تفسيراً مستقلاً، ثم أنشأ تفسيراً آخر مختصراً، بنى عليه تفسيره (البحر المديد). وقد انتهى نسخه في عام ١٢٣٣ هـ، على يد عبدالغفور بن التهامي.

٣ ـ التفسير الوسيط للفاتحة: ذكر صاحب الإصلاح(٣) أنه يقع في ١٧ صفحة، وتوجد منه نسخة تحت رقم (١٤٨ ك) خزانة الرباط، تم تحريرها سنة ١٢١٣هـ.

٤ ـ التفسير المختصر للفاتحة: توجد منه مخطوطة بدار الكتب المصرية، ويقع في ورقتين، وانتهى ابن عجيبة منه في يوم الثلاثاء، خامس ربيع الثاني سنة ١٢١٩هـ.

٥ ـ الدرر المتناثرة في توجيه القراءات المتواترة: وهو تأليف ـ كما قال ابن عجيبة ـ (٤) يشتمل على آداب القراءة، والتعريف بالشيوخ العشرة و رواتهم، وتوجيه قراءة كل واحد منهم، وفيه عشرون كراسة.

---

(١) الحسن الكوهن: جامع الكرامات العلية / ١٦٤.

(٢) اعتمدت في حصر مؤلفات الشيخ ابن عجيبة على المصادر الآتية: الفهرسة/ ٣٨ – ٣٩، التصور والتصديق للشيخ أحمد الصديق/٢١، فهرس المخطوطات العربية المحفوظة في الخزانة العامة بالمغرب (القسم الثالث، الجزء الأول)، الموسوعة المغربية للأعلام البشرية والحضارية، لعبدالعزيز بن عبدالله (٢/٤٥، وما بعدها)، إصلاح الفكر الصوفي للأستاذ/ محمد الصغير (١/١٧٤ – ١٨٤) فهرس المخطوطات بدار الكتب المصرية، فهرس معهد المخطوطات (٢/٤٥) (١/١٧٧).

(٣) إصلاح الفكر الصوفي ١/١٧٧. (٤) الفهرسة / ٣٨.

٦ ـ الكشف والبيان في متشابه القرآن: قال العلامة داود ـ الذي وقف على أوراق من هذا الكتاب ـ إنه آخر كتاب ألفه ابن عجيبة، بناء على ما ذكره ناسخ المخطوط، ولذلك لم يتم تأليفه.

ثانيا ـ الحديث والأذكار النبوية:

٧ ـ حاشية على الجامع الصغير للسيوطي: فرغ من تأليفها: أواسط شعبان عام ١٢٢٤هـ، وتوجد منه نسخة خطية بالخزانة العامة بالمغرب، تحت رقم (١٨٣١د) تم كتابتها في عام ١٢٥١هـ .

٨ ـ أربعون حديثاً في الأصول والفروع والرقائق: ذكره في الفهرسة.

٩ ـ الأنوار السنية في الأذكار النبوية: فرغ من تحريرها سنة ١٢٠٥هـ ومنها مخطوطة بمكتبة تطوان تحت رقم ٨٥٣م، ونسخة أخرى بالخزانة العامة بالمغرب تحت رقم (٢١٣٤ د).

١٠ ـ الأدعية والأذكار المحققة للذنوب والأوزار: فرغ من تحريرها سنة (١٢٢٢هـ) ومنها مخطوطة بتطوان تحت رقم (٢٧٤ ق.م).

ثالثا ـ الفقه والعقائد:

١١ ـ حاشية على مختصر خليل: ذكر ابن عجيبة أنه لم يتمه.

١٢ ـ رسالة في العقائد والصلاة: منها مخطوطة بدار الكتب المصرية تحت (مجاميع شنقيطي ٤/٧)، فرغ منها سنة (١١٩٩هـ)، وهي رسالة صغيرة الحجم، لا تتعدى عشر صفحات، ولكنها غزيرة العلم.

١٣ ـ تسهيل المدخل لتنمية الأعمال بالنية الصالحة عند الإقبال: وهو تأليف في النية وأحكامها. فرغ منه سنة (١١٩٦هـ) منه نسخة بتطوان تحت (٨٧٢ق.م).

١٤ ـ سلك الدرر في ذكر القضاء والقدر: ألفه الشيخ زمن الوباء الذي اجتاح تطوان في عام (١٢١٤هـ) ويقع في ٢٨ صفحة، وانتهى الشيخ من تأليفه: زوال يوم الجمعة، ثالث شوال (١٢١٤هـ) ومنه مخطوطة بالخزانة العامة بالمغرب تحت (١١٤٨ك).

رابعا ـ اللغة:

١٥ ـ الفتوحات القدوسية في شرح المقدمة الآجرومية: وهو مؤلف شرح فيه شيخنا مقدمة ابن آجروم النحوية، شرحاً جمع فيه بين النحو والتصوف، فيذكر عبارة المؤلف، ويشرحها بمقتضى علم النحو ويتبعها بالمعنى

الإشاري، فيندهش القارئ ـ كما يقول العلامة (عبدالله الصديق)[1] ـ لحسن تنزيل عبارة المتن على المعاني الصوفية، ويُخيل إليه أن ابن آجروم، ألف مقدمته في علم التصوف. توجد منه نسخة تحت رقم (٢٠٠٤د/١: ق.م الخزانة العامة بالرباط، عدد صفحاتها (٢١٩) ووافق الفراغ من تأليفه بعد ظهر الإثنين (١٨ ربيع النبوي عام ١٢٢٣هـ).

وقد قام الشيخ عبدالقادر بن أحمد الكوهن، المتوفى بالمدينة عام (١٢٥٤هـ) بتجريده مما يتعلق بالنحو، واقتصر على الإشارات الصوفية، وسماه: (منية الفقير المتجرد وسمير المريد المتفرد) وقد طبع هذا التجريد بإستانبول عام ١٣١٥هـ.

خامسا ـ التراجم:

١٦ ـ أزهار البستان في طبقات الأعيان: ذكره مخلوف في شجرة النور تحت عنوان: (أزهار رياض الزمان في طبقات الأعيان)، وذكره صاحب الإصلاح تحت عنوان: (أزهار البستان في طبقات العلماء والصلحاء والأعيان)، وقد ترجم فيه الشيخ لأرباب المذاهب الفقهية، والتعريف بمشاهير أصحاب مذهب الإمام مالك، من زمانه إلى زمان ابن عجيبة، على ترتيب وجودهم، كل قرن على حدة، ثم أتبعهم بذكر النحويين والمحدثين وبعض الصوفية. وقد ذكر ابن عجيبة أنه لم يتمه رغم حجمه الكبير، وهو مؤلف جدير بالنشر، توجد منه نسخة مخطوطة في خزانة الرباط تحت رقم (٢٨٦ك) ومنه صورة في معهد إحياء المخطوطات بالقاهرة، تحت رقم (١٣٥٢ تاريخ).

وقد استفدت كثيراً من هذه الصورة في ترجمة بعض أساتذة المفسر، إلا أن كثيراً من صفحاتها فاسدة التصوير لا تُقرأ.

١٧ ـ الفهرسة: وهي سيرة الشيخ الذاتية، انتهى من تنقيحها سنة (١٢٢٤هـ) وإن كان قد بدأ تأليفها قبل ذلك بمدة. رأت نور الطباعة أول مرة باللغة الفرنسية، حيث ترجمها المستشرق الفرنسي المسلم «جان لوي ميشون»، ثم صدرت بمصر باللغة العربية سنة ١٩٩٠م، بتحقيق د/عبدالحميد صالح.

سادسا ـ التصوف:

١٨ ـ الأنوار السنية في شرح القصيدة الهمزية: منها نسخة مخطوطة بتطوان تحت رقم (١٣١) وتتكون من (٢٣٠) صفحة، وفرغ من تأليفها عام (١١٩٩هـ).

١٩ ـ الفتوحات الإلهية في شرح المباحث الأصلية: وهو شرح كبير لمنظومة ابن البنا السرقسطي، في آداب وقواعد الصوفية، فرغ من تبييضه أواسط رمضان سنة (١٢١١هـ). وقد طبع الكتاب أكثر من مرة، آخرها طبعة عالم الفكر ١٩٨٣م. بتحقيق الأستاذ عبدالرحمن حسن محمود.

---

(١) في كتابه بدع التفاسير، ص٢٢٢.

٢٠ ـ اللوائح القدسية في شرح الوظيفة الزروقية: فرغ من تأليفها سنة (١١٩٦هـ) ومنها نسخة مخطوطة تحت (٣٠١م تطوان)، وفى الهيئة العامة للكتاب بمصر نسخة مخطوطة كتبت سنة (١٢٠٠هـ) تحت رقم (١/٨١٦م مجاميع) باسم اللوافح القدسية.

٢١ ـ إيقاظ الهمم فى شرح الحِكَم: أشهر كتب الشيخ، وأشهر شروح حكم ابن عطاء الله، انتهى من تبييضه: ثامن جمادى الأولى سنة (١٢١١هـ) وقد طبع أكثر من مرة فى مصر وسوريا، ومنها طبعة دار المعارف بمصر سنة ١٩٨٥م بمراجعة وتقديم محمد أحمد حسب الله.

٢٢ ـ ديوان قصائد في التصوف: فيه ما يقرب من خمسمائة بيت، ما بين قصائد طويلة ومقطوعات، والديوان ملحق بكتاب الفهرسة المطبوع بتحقيق د/عبدالحميد صالح.

٢٣ ـ رسالة في ذم الغيبة ومدح العزلة والصمت: توجد منها نسخة مخطوطة بالهيئة العامة للكتاب بمصر تحت رقم (٣٢٩٩ج) فرغ من تأليفها سنة (١١٩٨هـ).

٢٤ ـ شرح أسماء الله الحسنى: ذكرها ابن عجيبة فى فهرسته وقال: (أفردت لكل اسم بابا كما فعل القشيرى فى التحبير، توجد منه نسخة خطية بخزانة القرويين تحت رقم (١٥١١)(١).

٢٥ ـ شرح بردة الأبوصيري: فرغ منه سنة (١٢٠٣هـ)، وذكر العلامة داود، أنه يقع فى ٢٣٨ صفحة.

٢٦ ـ شرح الحزب الكبير للشاذلي: منه نسخة مخطوطة بتطوان، ضمن مجموعة رقم (٣٠١)، ويقع فى ١٤٥ صفحة، وفرغ منه فى عام١٢٠٠ هـ.

٢٧ ـ شرح كتاب الحصن الحصين من كلام سيد المرسلين: لابن الجزرى، المتوفى سنة ٧٣٩هـ، ذكر ابن عجيبة أنه لم يكمله.

٢٨ ـ شرح القصيدة الخمرية لابن الفارض: أولها: (شربنا على ذكر الحبيب مدامة)، منه نسخة مخطوطة، بالخط المعتاد، بالهيئة العامة للكتاب بمصر ضمن مجموعة رقم (٣٢٩٩ج)، وكان الفراغ من تبييضه: يوم الإثنين، أواسط رمضان سنة (١٢١٣هـ).

٢٩ ـ شرح القصيدة المنفرجة لابن النحوي: تاريخ التحرير (١٢٠١هـ) مخطوطة تحت (٦/٤٥٧م تطوان) ويقع فى ٤٠ صفحة)

٣٠ ـ شرح القصيدة الهائية في التصوف للرفاعي:

وأولها: (يا مَنْ تَعاظَمَ حتَّى رَقَّ مَعْنَاهُ ولا تَرَدَّى رداءَ الكِبْرِ إلاَّ هُـــو).

منه نسخة مخطوطة تحت رقم (١٩٧٤ د/٩ق) الرباط، فرغ منه عام (١٢١٣هـ.)، ويقع في ٣١ صفحة.

٣١ـ شرح الكواكب الدرية في مدح خير البرية : منه نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية تحت (١١١٧/ شعر تيمور).

٣٢ـ شرح تائية البوزيدي: منه نسخة تحت (١٧٣٦ د/١١ق/الرباط)، وأيضا تطوان (٨٤٥) ويقع في ٩٥ صفحة، وفرغ منه في يوم الجمعة سادس عشر رمضان (١٢٢١هـ) وأول القصيدة.

أيا مَنْ في بهاء جماله وسرّ كماله وعزٌ ورِفْعَة.

٣٣ـ شرح آخر (مطول) علي تائية البوزيدي: كان الفراغ من تمامه صحوة: يوم الأربعاء ١٤من ذي القعدة الحرام سنة (١٢٢٢هـ) نَسَخَه في جمادى الأولى سنة (١٢٣٥هـ.) على يد عبدالغفور التهامي. ويقع في ١٢٥ صفحة.

٣٤ـ شرح على تائية الشيخ علي بن مسعود الجعيدي التطواني:

وأول القصيدة: (بدأت باسم الله من بعد حمده على نِعم لا تحصى جلت ودقت).

ألفه سنة (١١٩٦هـ)، ويقع في ٣٥ صفحة، كما ذكر صاحب الإصلاح، نقلا عن داود في تاريخ تطوان.

٣٥ـ شرح رائية البوزيدي في السلوك:

فرغ منه سنة (١٢١٤هـ.) كما ذكر صاحب الإصلاح، نقلاً عن داود ويقع في حوالي ٣٠ صفحة.

٣٦ـ شرح صلاة ابن العربي الحاتمي:: منه نسخة خطية بمكتبة د/ حسن عباس زكي، ويقع في عشر صفحات، وكان الفراغ من تبييضه: يوم الخميس خاتمة جمادى الأولى سنة (١٢١٩هـ) وقد طبع هذا الشرح بالمغرب سنة ١٤٠٢هـ.

٣٧ـ شرح صلاة عبدالسلام بن مشيش : توجد نسخ منه تحت أرقام (١٧٣٦ د/الرباط).

٣٨ـ شرح على أبيات (توضأ بماء الغيب إن كنت ذا سر) : المنسوبة للإمام الجنيد، وتنسب أيضاً إلى الشيخ ابن عربي الحاتمي. منه نسخة خطية تحت رقم (١٧٣٦/ د الرباط) وهذا الشرح مثبت في كتاب (إيقاظ الهمم في شرح الحكم). ص٤٥: ٤٨

٣٩ـ شرح على مقطعة في محبة الله، للششتري: مطلع المقطعة: (صحّ عندي الخبر وسرى في سري)

منه نسخة خطية بدار الكتب المصرية ضمن مجموعة رقم (٣٢٩٩ج) فرغ منها في صفر ١٢١٤هـ.

٤٠ ـ شرح نظم ما يدل عليه لفظ الجلالة للششتري:

أوله: أَلِفٌ قَبْـلَ لاَمَيْن وهــاءٌ قرةُ العَـيْنْ

منه نسخة خطية بالهيئة العامة للكتاب، ضمن مجموعة رقم (٣٢٩٩ج). انتهى منه يوم الخميس أواسط صفر (١٢١٤هـ).

٤١ ـ شرح نونية الششتري:

مطلع القصيدة: (أَرَى طالبًا منّا الزيادة لا الحُسْنى بفكرٍ رَمى سَهْمًا فعدّى به عدنا). منه نسخة خطية بالرباط تحت رقم (١٧٣٦د/٧) ويقع في ٦٣ صفحة. فرغ منه الشيخ سنة (١٢٢٠هـ).

٤٢ ـ كشف النقاب عن سر لب الألباب:

فرغ من تبييضه في (١٨ من ذي القعدة سنة١٢١٩هـ) يقع في ٩ صفحات. منه نسخةخطية في دار الكتب، ضمن مجموعة (٣٢٩٩/ ج)، كتبت سنة ١٣٣٥هـ.

٤٣ ـ معراج التشوف إلى حقائق التصوف: وهو في مصطلحات الصوفية جمع فيه الشيخ نحواً من مائة مصطلح، وفصّل موضوعاتها، فرغ منه ١٢٢١هـ، وقد طبع الكتاب في دمشق عام ١٣٥٥هـ ـ ١٩٣٧م بمطبعة الاعتدال، بتعليق محمد بن أحمد الحسني، كما ترجمه المسيو (ج.ل. ميشون) إلى الفرنسية.

وفاته:

بعد عمر قضاه في العلم والعمل، توفي الشيخ ـ رحمه الله ـ في السابع من شوال سنة ١٢٢٤هـ.

وكانت وفاته في قبيلة (بني سلمان) بغمارة، حيث كان ابن عجيبة في زيارة لشيخه البوزيدي، فأصابه وباء الطاعون، فتوفي في دار شيخه، متأثراً بهذا الوباء فغسله شيخه وصلي عليه ودُفن بغمارة، ثم نقل إلى تطوان. ولئن وارى القبر جسده الطاهر الكريم، فما وارى علمه وفضله ومعارفه، فلمثل هذا فليعمل العاملون.

* * *

تآليف مختلفة منها: تفسير القرآن، غير أنه لم يتمه، قال عن تفسيره عبدالقادر الكوهن: لو تم لكان تمام الأمنية، لكن أخرمت مؤلفه المنية. له أيضا حاشية على كل من صحيح البخارى وصحيح مسلم وسنن النسائى، وله شرح ألفية العراقى فى علم الحديث، وشرح حكم ابن عطاء الله، له كتب أخرى تنيف على العشرين.

٦ ـ العلامة أبو عبد الله محمد بن أحمد بن بنيس الفاسى (دارا ومنشأ) [١١٦٠ ـ ١٢١٣هـ][١] (الحافظ العمدة المحقق، الجامع لشتات العلوم والمعارف والمنطوق والمفهوم) هكذا حَلاه صاحب شجرة النور، وقال عنه تلميذه ابن عجيبة في أزهاره: (له مشاركة فى الفنون،واختص بعلم الفرائض، وكان الملجأ بفاس فى حل مشكلاته) أخذ عن الشيخ محمد جسوس، وعبد الرحمن المنجرة ومحمد عبد السلام الفاسى، وحج ولقى أعلاماً واستفاد وأفاد، وأخذ عنه السلطان «سليمان» وحمدون بن الحاج، وعبد القادر الكوهن، وغيرهم كثير. له مؤلفات طيبة منها: (بهجة البصير فى شرح فرائض مختصر خليل) و (لوامع أنوار الكوكب الدرى فى شرح همزية البوصيرى) . و (تحصيل ما للأئمة الأعلام فى مسائل الحيازة الدائرة بين الحكام) . أخذ عنه شيخنا ابن عجيبة علم الفرائض وكتاب التسهيل لابن مالك، وحصل منه على إجازة عامة[٢].

٧ ـ العامة الصالح أبو عبد الله محمد بن علي الورزازي[٣] من شيوخ ابن عجيبة بتطوان ترجم له صاحب فهرس الفهارس قائلا: (الفقيه العلامة الحجة البركة العارف بالله) . أخذ عنه شيخنا تلخيص المفتاح فى البيان، وجامع الجوامع فى الأصول، وقد حصل منه ابن عجيبة على إجازة مطلقة[٤] ولم تذكر المصادر تاريخ وفاته إلا أن إجازته لابن عجيبة مؤرخة فى سنة ١٢١٤هـ.

عقيدة ابن عجيبة :

قيّض الله ـ عز وجل ـ لشيخنا له بيئة طيبة، نشأ فيها على عقائد أهل السنة والجماعة، فشيخنا سنى العقيدة، يؤمن بكل ما كان عليه السلف الصالح، ويبرأ من كل ما يخالف ماكانوا عليه. وفي أكثر من موضع من مؤلفاته يقرر رضي الله عنه : (أن أحسن المذاهب فى الاعتقاد هو مذهب السلف، من اعتقاد التنزيه، ونفى التشبيه، وتفويض المتشابه، والوقوف مع ما ورد كما ورد، مالم يحتج إلى تقييد، بما ينفى شبهته من غير زائد)[٥].

---

(١) انظر: اليواقيت الثمينة للأزهرى/ ٢٥٤ سلوة الأنفاس ١/ ٢٠٤. شجرة النور/ ٣٧٤ أعلام الزركلى ٦/ ١٥. مخطوط أزهار البستان/ ٢١٩.

(٢) نص الإجازة فى الفهرسة ص / ٣٦.

(٣) انظر فهرس الفهارس ٢/ ١١١٢.

(٤) نص الإجازة فى الفهرسة / ٣٧.

(٥) الفتوحات الإلهية فى شرح المباحث الأصلية ـ ٨٣.

والمتتبع لما أورده المفسر فى تفسيره من أحاديث وآثار يتبين:

- أن المفسر لا يلتزم غالباً بتخريج الأحاديث ونسبتها إلى مصادرها.

- من الأحاديث ما أدرجه في سياق الكلام دون أن ينبه إلى أنه من السنّة .

- يكتفي أحياناً بالقول: وقد ثبت في الصحيح. ويأتي بمعنى الحديث.

- يذكر أحيانا بعض الإسرائيليات، مثل ما ذكره عند تفسير قصة هاروت وماروت. وقد نقل الشيخ هذه الأخبار تأسياً بمن نقلها من المفسرين السابقين، وهو مُقل منها بالنسبة لغيره، وما يذكره من ذلك يصدره غالباً بلفظ «روى» أو «قيل» مما يُشعر بضعف الرواية، وبُعدها عن الصحة، وحبذا خُلُوّ تفسيره من هذه الأخبار.

٥ - اللغة والنحو : يلاحظ فى البحر المديد

- عناية المفسر بالإعراب. وإذا كانت الآية تحتمل أوجهاً من الإعراب، فإنه يذكرها، ويذكر المعنى على اختلاف الأعاريب.

- كثيراً ما يتوسع المفسر فى الكلام على مسألة نحوية يوضح ويبين، ومن ذلك كلامه الذى عقده لبيان الفرق بين (بلى) و(نعم) عند تفسير قوله تعالى: ﴿بلى من كسب سيئة...﴾(١).

- عنايته ببيان معنى المفردات القرآنية.

- الاستشهاد بالشعر: اعتمد ابن عجيبة كثيراً على الشعر في بيان المعاني اللغوية، مثل ما جاء عند تفسير قوله تعالى: ﴿وتقطعت بهم الأسباب﴾(٢). يقول الشيخ: والأسباب العهود والوصل التى كانت بينهم فى الدنيا، يتوادون عليها، وأصل السبب: كل شيء يتوصل به إلى شيء، ومنه قيل للحبل الذى يصعد به: سبب، وللطريق: سبب، قال الشاعر:

ومَنْ هَابَ أسباب المنية يلقها ... ولو رام أسباب السماء بسلم

ويُلاحظ فى البحر المديد أن الشيخ يذكر النص الشعرى مجرداً من اسم قائله، باستثناء بعض الأبيات.

٦ - الفقه :

نلحظ أن الشيخ يتعرض للأحكام الفقهية، إذا مر فى تفسيره بآيات الأحكام، وهو فى ذلك.

- لا يكتفى غالبا بذكر رأى مذهبه المالكي، بل يقدم رأياً يخالف مذهبه، بناء على قوة الأدلة والحُجج.

- أحيانا يكتفى برأى الإمام مالك، ولا يذكر رأى المذاهب الأخرى.

---

(١) الآية ٨١ من سورة البقرة. (٢) الآية ١٦٦ من سورة البقرة.

مصادره فى التفسير :

تعد المصادر التي يعتمد عليها المفسر اللبنة الأولى لوضع تفسيره، وأهم مصادر الشيخ ابن عجيبة فى تفسيره هي:

ـ تفسير: أنوار التنزيل للإمام البيضاوى.

ـ تفسير الكشف والبيان لأبى أسحاق الثعلبى.

ـ تفسير مدارك التنزيل لأبى البركات النسفى.

ـ تفسير المحرر الوجيز للإمام ابن عطية.

ـ تفسير التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزى الأندلسى.

ـ تفسير إرشاد العقل السليم للعلامة أبى السعود.

ـ حاشية السيوطى على تفسير البيضاوى، المسماة «نواهد الأبكار وشوارد الأفكار».

ـ حاشية أبى زيد الفاسى على تفسير الجلالين.

مصادره فى الحديث :

ـ صحيحا البخارى ومسلم. سنن أبى داود والترمذى والنسائى وابن ماجة وغير ذلك من كتب السنن.

ـ شروح كتب السنة كفتح البارى، وشرح مختصر ابن جمرة وغيرهما.

مصادره فى اللغة :

ـ الألفية ، والكافية الشافية لابن مالك، والتسهيل لابن هشام.

ـ كتب معانى القرآن، ككتاب معانى للفراء والزجاج.

ـ كتب المعاجم كالصحاح للجوهرى والأساس للزمخشرى.

التفسير الإشارى

يُعرف الشيخ الزرقانى التفسير الإشارى بأنه: (تأويل آيات القرآن بغير ظاهره، بإشارات خفية تظهر لأرباب السلوك والتصوف، ويمكن التطبيق بينها وبين الظاهر)(١).

مفاهيم القرآن لا تتناهي:

يرتكز السادة الصوفية فى ذكرهم لهذا الإشارات والأذواق على أن القرآن الكريم فيه أسرار لا تتناهي، ومعانٍ لا تُحد، وإشارات وراء الظاهر، يفتح الله بها على من يشاء من عباده، ببركة العمل بكتابه، فإنَّ من عمِلَ بما عَلِمَ ورّثه الله علم ما لم يعلم. ومن المنقول عن الشيخ سهل بن عبدالله ـ رضى الله عنه ـ قوله: لو أعطى العبد لكل حرف من القرآن ألف فهم لَمَا بلغ نهاية ما جعل الله فى آية من كتاب الله تعالى من الفهم؛ لأنه كلام الله، وكلام الله صفته(٢). وكما أن صفات الله لاتتناهى، فكذلك مفاهيم كلماته لا تتناهى ولا يمكن أن يحيط بها مخلوق. قال تعالى: ﴿ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله..﴾ الآية(٣) كما

---

(١) مناهل العرفان ٢ / ٧٨.

(٢) انظر اللمع للطوسى / ١٠٧.

(٣) الآية ٢٧ من سورة لقمان.

يستند الصوفية فى ذكرهم لهذا الإشارات إلى الحديث النبوى الشريف: «لكل آية ظهر وبطن ولكل حرف حد ولكل حد مطلع».

وتعددت أقوال العلماء فى معنى الظاهر والباطن[1] وكلها لا تشير إلى أن للقرآن حقيقتين، إحداهما ظاهرة، والأخرى باطنة، بل تعنى أن القرآن له حقيقة واحدة، ولكن هذه الحقيقة تتنوع وتختلف بالنسبة للناس. فالناس طبقات؛ منهم الكافر الذى لا يزيده القرآن إلا خسارا، ومنهم المنافق الذى لا يزداد إلا مرضا، ومنهم المسلم الذى يواجه القرآن الفهم بسيط، ومنهم المؤمن الذى يقرأه بفكر دقيق ووعى عميق، ومنهم المحسن الذى يعبد الله كأنه يراه، فيقرأ القرآن كأنه يسمعه من ربه. وهناك من يقف عند ظاهر اللفظ، وهناك من يطلعه الله على ما تضمنه هذا الظاهر من أسرار وإشارات.

ولقد كان باطن اللفظ القرآنى المخزون فى ظاهر اللفظ شيئاً معروفاً لدى الصحابة، فى زمن الرسول، ﷺ، ومن ذلك: قصة سيدنا عمر بن الخطاب، مع سيدنا عبدالله بن عباس وجلة الصحابة ـ رضى الله عنهم أجمعين ـ فى سؤاله لهم تفسير سورة النصر، وفهم ابن عباس أن ذلك فيه إشارة إلى نعى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم[2].

الفرق بين مذهب الباطنية ومذهب الصوفية:

فرق كبير جداً بين مذهب السادة الصوفية الراشدين، فى فهم إشارات القرآن، وبين ما يقول الباطنية، فالباطنية ومن والاهم يجعلون المراد من النص ليس لفظه الظاهر بمعناه القريب، ولكنهم يعتقدون أن المراد بالذات من النص إنما هو الإشارة التى ينطوى عليها النص، وبذلك تأولوا القرآن، واستخرجوا لأنفسهم أحكاماً وعقائد ليست من الإسلام فى شيء على الإطلاق.

أما (السادة الصوفية فهم يعتقدون أن النص على ظاهره مرادا به حقيقته الظاهرة، ولا يحيلون كلام الله تعالى عن وجهه المجمع عليه من الأمة، ولكنهم يرون أن الله يفتح على بعض خواصه بأسرار ودقائق، تزيد على المفهوم العام من النص، ولا تتعارض معه، بل هى تؤيده، وتعتبر إضافة من شرائف المعانى التى تزيد من شرف الظاهر، فهى فتوحات، لا تبطل شيئاً من الأمر والنهى، ولكنها تضفى عليه زينة وجمالا)[3].

ولنستمع إلى صوت حجة الإسلام الغزالى فى هذا الشأن إذ يقول: (فالنقل والسماع لابد منه فى ظاهر التفسير أولاً، ليتقى به مواضع الغلط، ثم بعد ذلك يتسع التفهم والاستنباط... ولا يجوز التهاون بحفظ الظاهر أولا، ولا مطمع فى الوصول إلى الباطن قبل إحكام الظاهر، ومن ادعى فهم أسرار القرآن ولم يحكم التفسير الظاهر فهو كمن يدعى البلوغ إلى صدر البيت قبل مجاوزة الباب...)[4].

---

(١) انظر فى بيان معانى الظاهر والباطن (تفسير الألوسى ١/٧، التفسير والمفسرون للدكتور الذهبى ٢/ ٢٤٠)

(٢) أخرج القصة البخارى فى (التفسير، سورة وإذا جاء نصر الله والفتح).

(٣) مجلة المسلم عدد ربيع الأول عام ١٣٩٥هـ. مقال «معالم التفسير الصوفى» للإمام الرائد محمد زكى إبراهيم.

(٤) إحياء علوم الدين ١ / ٣٤٣.

ويقول العلامة الألوسي عند تفسير قوله تعالى: ﴿ يُحرفون الكلم من بعد مواضعه... ﴾(١) ليس ما نحن فيه ـ أي: التفسير الإشاري ـ من هذا القبيل ـ أي: من قبيل التفاسير الباطنية ـ كما يزعمه المحجوبون؛ لأن ذلك إنما يكون بإنكار أن يكون الظاهر مراداً لله تعالى، وقصر مراده سبحانه على هذه التأويلات، ونحن نبرأ إلى الله عز وجل من ذلك، فإنه كفر صريح، وإنما نقول: المراد هو الظاهر، وبه تعبد الله تعالى خلقه، لكن فيه إشارة إلى أشياء أخر لا يكاد يحيط بها نطاق الحصر، يوشك أن يكون ما ذكر بعضا منها)(٢). وسنقرأ في مقدمة تفسير البحر المديد قول الشيخ ابن عجيبة (ولا يصح ذكره ـ أي التفسير الإشاري ـ إلا بعد تقرير الظاهر..) .

هل الإشارات تفسير؟

التفسير بالمصطلح العلمي التقليدي لا يمكن تطبيقه على إشارات السادة الصوفية؛ لأن الإشارات غير مرتبطة بالخط المنهجي للتفسير، والصوفي نفسه لا يقول بأن ما وقع له من مواجيد ومعانٍ هو تفسير للقرآن، ولكنه قبس من إشراق، وفيض من فتح، لا يتعلق به حكم ولا يرتبط به واجب، ومن ثَمّ فقد أطلق الصوفية على هذه المعاني (إشارات) كما فعل العلامة (ابن عجيبة) والعلامة الألوسي. وإطلاق تسمية (التفسير) عليها يعتبر من قبيل العرف والمجاز. يقول الزركشي في البرهان: (كلام الصوفية في تفسير القرآن، قيل: إنه ليس بتفسير، وإنما هو معان ومواجيد يجدونها عند التلاوة)(٣).

الإشارات في البحر المديد:

أفصح الشيخ عن مراده من تفسيره حين قال: (مرادنا تربية اليقين بكلام رب العالمين) . وقد بسط المفسر الحديث في إشاراته عن آداب السلوك ، والأخلاق، والمقامات، والثمرات، وقدّم لنا من خلال ذلك منهجاً تربوياً صوفياً إسلامياً متكاملاً، يسلكه من أراد أن تصفو روحه، وتزكو نفسه، ويحيا قلبه بنور معرفة الحق تعالى.

ـ ويلاحظ أن الشيخ ابن عجيبة لاينظر إلى الخطابات الواردة في القرآن على أنها موجهة إلى أقوام مخصوصين فحسب، وإنما يرى مع ذلك أن الخطاب بهذه الآيات مازال قائماً، يوجه إلى الإنسان في كل عصر وأوان، يقول الشيخ رضي الله عنه: (إذا توجه الخطاب إلى طائفة مخصوصة، حمله أهل الفهم عن الله على عمومه، فإن الملك إذا عاتب قوما بمحضر آخرين كان المراد بذلك تحذير لكل سامع) .

ـ والشيخ ابن عجيبة باعتباره صوفي يدعو إلى مقام الإحسان، فإن له قاعدة في إشارته، يقول الشيخ عنها: (اعلم أن قاعدة تفسير أهل الإشارة هي أن كل عتاب توجه لمن ترك طريق الإيمان، وأنكر على أهله، يتوجه مثله لمن ترك طريق مقام الإحسان، وأنكر على أهله) .

---

(١) الآية ٤١ من سورة المائدة. (٢) روح المعاني ٦ /١٤٧ .

(٢)راجع مناهل العرفان للزرقاني ٢ / ٧٨ .

وهاكم بعض الأمثلة من إشارات الشيخ :

عند قوله تعالى﴿ وقالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودة قل أتخذتم عند الله عهدا فلن يخلف الله عهده أم تقولون علي الله مالا تعملون ﴾(١). يقول الشيخ فى إشارة الآية: اعلم أن كثيراً من الناس يعتمدون على صحبة الأولياء، ويطلقون عنان أنفسهم فى المعاصى والشهوات، ويقولون: سمعنا من سيدى فلان يقول: من رآنا لا تمسه النار، وهذا غلط وغرور، وقد قال عليه الصلاة والسلام لابنته: «يا فاطمة بنت محمد لا أُغني عنك من الله شيئاً اشتر نفسك من الله» وقال للذى قال: ادع الله أن أكون رفيقك فى الجنة، فقال له «أعنى على نفسك بكثرة السجود».

وعند قوله تعالى: ﴿ قل أتحاجوننا في الله وهو ربنا وربكم ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم ونحن له مخلصون ﴾(٢).

يقول الشيخ فى إشارة الآية: كل من أقامه الحق فى وجهة، ووجهه إليها، فهو عامل لله فيها، قائم بمراد الله منها، وما اختلفت الأعمال إلا من جهة المقاصد، وما تفاوتت الناس إلا من جهة الإخلاص، فالخلق كلهم عبيد للملك المجيد، وما وقع الاختصاص إلا من جهة الإخلاص، فمن كان أكثر إخلاصاً لله كان أولى من غيره بالله، وبقدر ما يقع للعبد من الصفاء يكون له من الاصطفاء، فالصوفية والعلماء والعُبّاد والزُهاد وأهل الأسباب على اختلاف أنواعهم، كلهم عاملون لله، ليس أحد منهم بأولى من غيره بالله، إلا من جهة الإخلاص وإفراد القلب لله. فمن ادعى الاختصاص بالله من غير هذه الوجهة فهو كاذب، ومن اعتمد على عمل غيره فهو مغرور، يقال له: ﴿ تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون ﴾.

وقد جاءت إشارات الإمام ابن عجيبة جامعة لدرر من المنظوم والمنثور، فقد ضمنها الشيخ أقوال مجموعة كبيرة من كبار الصوفية، كأبى يزيد البسطامى، والجنيد، والقشيرى، والشاذلى، وأبى العباس المرسى، وابن عطاء السكندرى، وزروق، والدرقاوى، والبوزيدى، وغيرهم. كما أنه ذكر كثيراً من أشعارهم، كشعر ابن الفارض والجيلي والششترى، ونقل حِكَماً كثيرة من حِكَم ابن عطاء السكندرى وغيره، كما نقل فى مواضع عديدة عن لطائف الإشارات للقشيرى، وعرائس البيان للشيرازى، وإحياء علوم الدين للغزالى، وغيث المواهب العلية لابن عباد، وبالتالى فقد حفل هذا التفسير بتراث جم من الفكر الصوفى.

* * *

(١) الآية ٨ من سورة البقرة.　　(٢) الآية ١٣٩ من سورة البقرة.

وصف النسخ

اعتمدت في التحقيق على ثلاث نسخ:

النسخة الأولى : محفوظة في مكتبة السيد الفريق / حسن التهامي. ومنها صورة بدار الكتب المصرية تحت رقم (٢٦٢٤٦) مصورات خارج الدار، وهي نسخة قيمة، وتقع في (٢٠٠٩) صفحة. وتتكون من أربعة أجزاء كبيرة:

الأول : من أول مقدمة المفسر حتى آخر تفسير سورة الأنفال - ويقع في (٥٢٠) صفحة، وسقطت من هذا الجزء ملزمة من تفسير سورة الأعراف من (ص١٥٦) إلى (ص١٨٧). ورقم ميكروفيلم هذا الجزء بدار الكتب: (٤٣١٨٨).

الثاني : من أول تفسير سورة التوبة حتى آخر تفسير سورة المؤمنون. ويقع في (٥٣٧) صفحة، ورقم ميكروفيلم هذا الجزء (٤٣١٨٥).

الثالث : من أول تفسير سورة النور حتى آخر تفسير سورة فصلت. ويقع في (٤٥٤) صفحة ورقم الميكروفيلم (٤٣١٨٧).

الرابع : من أول تفسير سورة الشورى حتى تفسير سورة الناس. وعدد صفحاته (٤٩٨) ورقم الميكروفيلم (٤٣١٨٧).

وتعتبر هذه النسخة الأم لكل النسخ الأخرى، فقد كُتبت في عهد المفسر، وكان الفراغ من تبييضها كاملة في: السادس من ربيع الأول عام (١٢٢١هـ). ووردت استدراكات على هامش هذه النسخة، مما يفيد أن الشيخ المفسر قد راجعها، وقد أُدرجت هذه الاستدراكات في صلب النسخ الأخرى.

وناسخ هذه المخطوطة هو الشيخ «عبدالغفور التهامي» ناسخ جُل كتب الشيخ المفسر. والمخطوطة بخط مغربي حسن وواضح، ومقاس صفحتها ٢٠ × ٣٠ سم. والصفحة تشتمل على ٣١ سطراً.

النسخة الثانية : محفوظة في مكتبة الأستاذ الدكتور/ حسن عباس زكي. وتتكون من أربعة أجزاء كاملة.

الأول : من أول مقدمة المفسر حتى آخر تفسير سورة الأنعام، ويقع في ٤٢٩ صفحة.

الثاني : من أول تفسير سورة الأعراف حتى آخر تفسير سورة الكهف. ويقع في ٤١٨ صفحة.

الثالث : من أول تفسير سورة مريم حتى آخر تفسير سورة الصافات. ويقع في ٤١١ صفحة.

الرابع : من أول تفسير سورة «ص» حتى آخر سورة الناس. ويقع في ٤٩٠ صفحة.

وهذه النسخة أقل وضوحاً من النسخة الأولى. وقد تعددت فيها مواطن التحريف وسقوط الكلمات، وغير ذلك من تصحيف وتحريف.

النسخة الثالثة : محفوظة فى دار الكتب المصرية تحت رقم (٥٤١) تفسير تيمور، وتتكون من أربعة أجزاء، إلا أن الجزء الرابع غير كامل.

الجزء الأول : من أول مقدمة المفسر حتى تفسير قوله تعالى : ﴿ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم..﴾ الآية ١٤٧ من سورة النساء. ويقع هذا الجزء فى (٢٤١) لوحة، وكل لوحة تشتمل على صفحتين. ورقم ميكروفيلم هذا الجزء بدار الكتب (٢٧٢٨٦).

الجزء الثانى : أوله: تفسير قوله تعالى : ﴿لا يحب الله الجهر بالسوء..﴾ الآية ١٤٨ من سورة النساء، وآخره: تفسير قوله تعالى: ﴿ليس على الضعفاء ولا على المرضى..﴾ الآيتان ٩١ - ٩٢ من سورة التوبة، ويقع هذا الجزء فى (٢٠٠) لوحة. ورقم الميكروفيلم (٣٨٠٦٦).

الجزء الثالث : أوله تفسير قوله تعالى : ﴿إنما السبيل على الذين يستأذنونك وهم أغنياء...﴾ الآية ٩٣ من سورة التوبة. وآخره: آخر تفسير سورة الكهف ويقع فى (٢٤٧) لوحة. ورقم الميكروفيلم (٣٧٢٨٦).

الجزء الرابع : أوله: تفسير قوله تعالى : ﴿ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن..﴾ الآية ٤٦ من سورة العنكبوت إلى آخر سورة الصافات. ثم من أول سورة الشورى، حتى تفسير قوله تعالى: ﴿ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن العزيز الحكيم﴾ الآية ٩ من سورة الزخرف. وبين هذا الجزء وبين سابقه سقط كبير وملازم مفقودة.

ويقع الموجود من هذا الجزء فى (١٦١) لوحة. ورقم الميكروفيلم (٢٩١٧٢) ونسخت هذه المخطوطة عام (١٢٩٩هـ)، ومقاس صفحتها ١٢ × ١٨ سم، والصفحة تشتمل على ٢٨ سطراً. وكتبت بخط مغربى. كما كتبت الآيات وأسماء الأعلام بلون مخالف. لم يظهر فى التصوير. وهذه النسخة مثل سابقتها فى تعدد مواطن التحريف والنقص والتصحيف.

منهج التحقيق

(١) اعتمدت في التحقيق على ثلاث نسخ. وبعد دراستها، والتزام المقابلة بينها جميعاً بكل دقة، اعتمدت النسخة المحفوظة بمكتبة السيد الفريق / حسن التهامي أصلاً، وذلك للاعتبارين الآتيين:

- أنها نسخة المؤلف. - أنها أكثر النسخ ضبطاً ودقة ووضوحاً وتماماً.

ومن ثم حررت النص، بحيث يظهر على صورة مطابقة للنسخة المذكورة.

(٢) تغاضيت عن الإشارة إلى الفروق الموجودة في النسخ الأخرى، كالسقط والتصحيف، وذلك لئلا أثقل الكتاب بكثرة الهوامش التي لا ضرورة لها، ولئلا يتضخم حجم الكتاب. أما الفروق الجوهرية فأشرت إليها، وهي قليلة جداً.

(٣) حرصت أشد الحرص على تدبر النص، مستعيناً بأصول المؤلف ومصادره في تفسيره. ونبهت في الهامش على ما إذا كان النقل بالمعنى، أو كان هناك اختلاف في بعض العبارات.

(٤) راعيت إثبات قراءة حفص في الهامش، في كل موضع جاءت القراءة فيه على غير هذه القراءة، مع تخريج القراءات من مصادرها.

(٥) بداية من المجلد الثاني خرّجت الآيات القرآنية، بإرجاعها إلى سورها، وذكر أرقامها في تلك السور كما عملت على تخريج ما أومأ إليه المفسر من آيات، وحرصت على ذكر نص الآيات بالهامش.

(٦) بداية من المجلد الثاني خرّجت الأحاديث النبوية والآثار، بإرجاعها إلى مصادرها. فإن كان الحديث في الصحيحين أو أحدهما اقتصرت عليه، وإن كان في غيرها توسعت في التخريج قَدر الإمكان، ونبهت إلى النص الأصلي للحديث، كلما كان إيراده بالمعنى. كما عزوت أسباب النزول إلى مظانها، من كتب الحديث وكتب التفسير الأخرى، كالطبري والبغوي والدر المنثور للسيوطي.

(٧) ضبطت بالشكل ما يشتبه من الألفاظ والأسماء وغيرها.

(٨) شرحت بعض الألفاظ بالرجوع إلى معاجم اللغة المشهورة.

(٩) علّقت باختصار على بعض المسائل التي تحتاج إلى تعليق.

(١٠) وزعت النص توزيعاً فنياً، يُيسر الاطلاع عليه والانتفاع منه.

(١١) أثبتُ في أعلى كل صفحة اسم السورة، ورقم الآية، ورقم الجزء، تيسيراً للاستفادة، وتوفيراً للوقت على القارئ، عند البحث عن تفسير آية معينة.

ولا يفوتني في هذا المقام أن أذكر : أنه ولابد وأن يوجد في هذا العمل بعض النقص والهفوات، التي يسبق إليها القلم، أو يذهل عنها الفكر، والكمال لله وحده.

وأسأل الله أن يتقبل هذا العمل، ويجعله خالصاً لوجهه الكريم، وأن يثيبني عليه بما يثيب به عباده الصالحين.. والحمد لله رب العالمين.

أحمد عبد الله القرشي رسلان
المدرس المساعد بقسم التفسير
بكلية أصول الدين ـ بطنطا جامعة الأزهر

بنها في ٢٧ ـ رمضان ـ ١٤١٩هـ

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

قال الشيخ الإمام مفتي الأنام

العارف الرباني والقطب الصمداني فريد

السالكين ومنار الواصلين [illegible]

شمس [illegible] نفعنا الله [illegible]

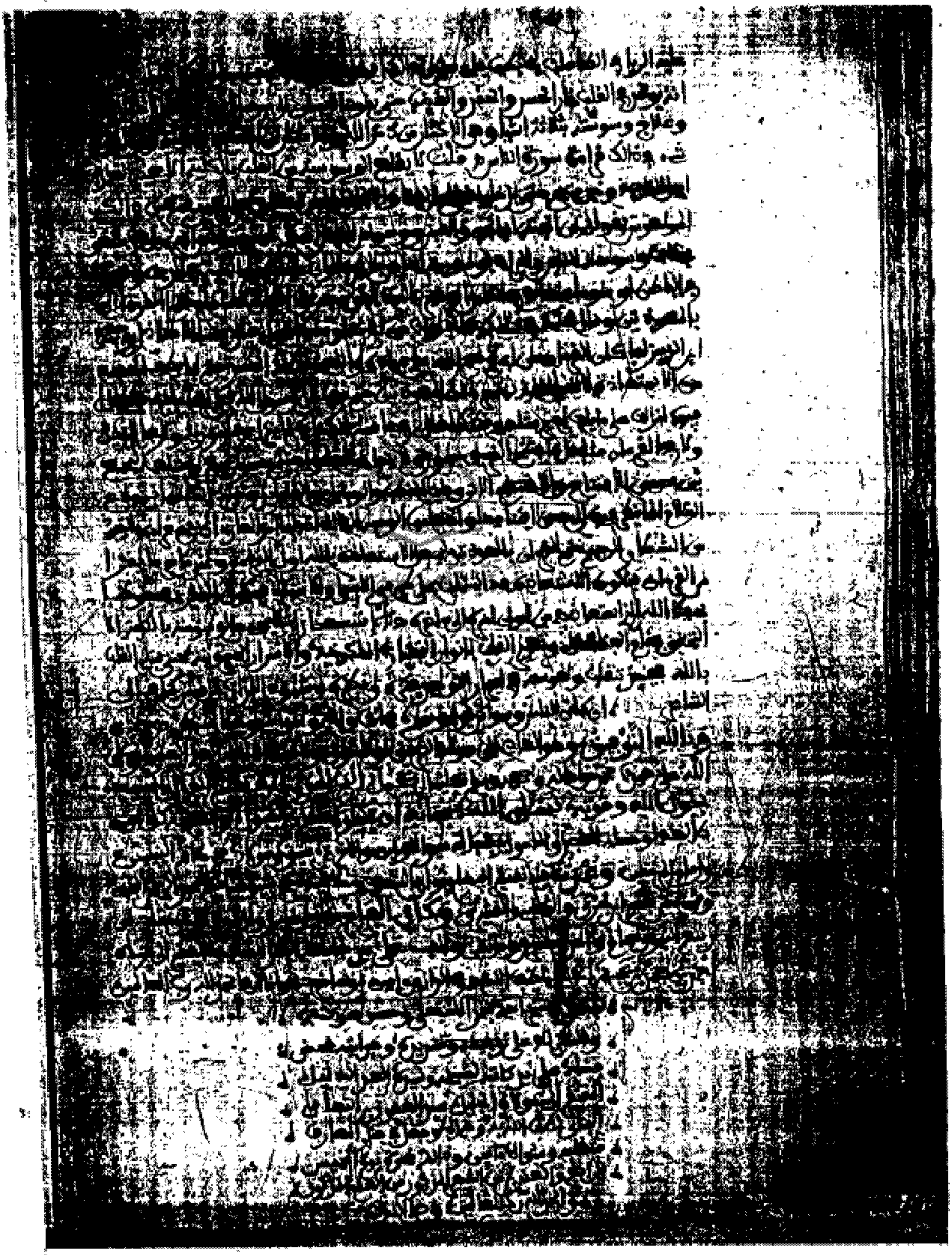
[illegible] أبو العباس سيدي أحمد بن محمد بن عجيبة الحسني رضي الله عنه وأرضاه آمين

الحمد لله الذي تجلى لقلوب عباده في كلامه بكمال بهائه وجماله، وفتق ألسنة العلماء الأبرار لاستخراج دره [illegible] ولآليه، وفجر قلوبهم ينابيع الحكم الموهوبة بأصوله ومبانيه، واستخرجوا منه غوامض [illegible] ومثانيه، حتى [illegible] الفصاحة التامة [illegible] بالعجز والتقصير، [illegible] على حسب الفهم والتيسير، من أسراره ومعانيه [illegible] والذي لا يدرك له قعر [illegible] وكيف لا وهو كلام مولانا [illegible] وما كان وما هو كائن وما يكون [illegible] والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا [illegible] بحور العلوم [illegible] وأصحابه والتابعين [illegible] الأزمان [illegible] وبعد [illegible] من أهل العلم [illegible] الأفكار [illegible] الكلام [illegible] ... [illegible] على أهل الظاهر [illegible] الكلام [illegible] ... [illegible] ثم [illegible] قال [illegible]

اعلم أن تفسير هذه الطائفة يعني الصوفية لكلام الله وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم بالمعاني الغريبة ليس إحالة للكلام عن ظاهره ولكن ظاهر الآية مفهوم منه ما جلبت الآية له ودلت عليه في عرف اللسان وثم أفهام باطنة تفهم عند الآية والحديث لمن فتح الله قلبه وقد جاء في الحديث: لكل آية ظهر وبطن [illegible] فلا يصدنك عن تلقي هذه المعاني منهم أن يقول لك ذو جدل ومعارضة هذا إحالة لكلام الله عز وجل وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم فليس ذلك بإحالة وإنما يكون إحالة لكلام الله لو قالوا لا معنى للآية إلا هذا وهم لا يقولون ذلك بل يقرون الظواهر على ظواهرها ومرادا بها موضوعاتها ويفهمون عن الله ما أفهمهم. انتهى. قال سعد الدين في شرح عقائد النسفي بعد إبطال الإلحاد: وأما ما يذهب إليه بعض المحققين من أن النصوص على ظواهرها ومع ذلك ففيها إشارات خفية إلى دقائق تنكشف لأرباب السلوك يمكن التطبيق بينها وبين الظواهر المرادة فهو من كمال الإيمان ومحض العرفان

الصفحة الأولى من المجلد الأول، من النسخة المحفوظة بمكتبة السيد/ حسن التهامي

«مصورات خارج الدار بالهيئة العامة للكتاب تحت رقم ٢٦٢٤٦»

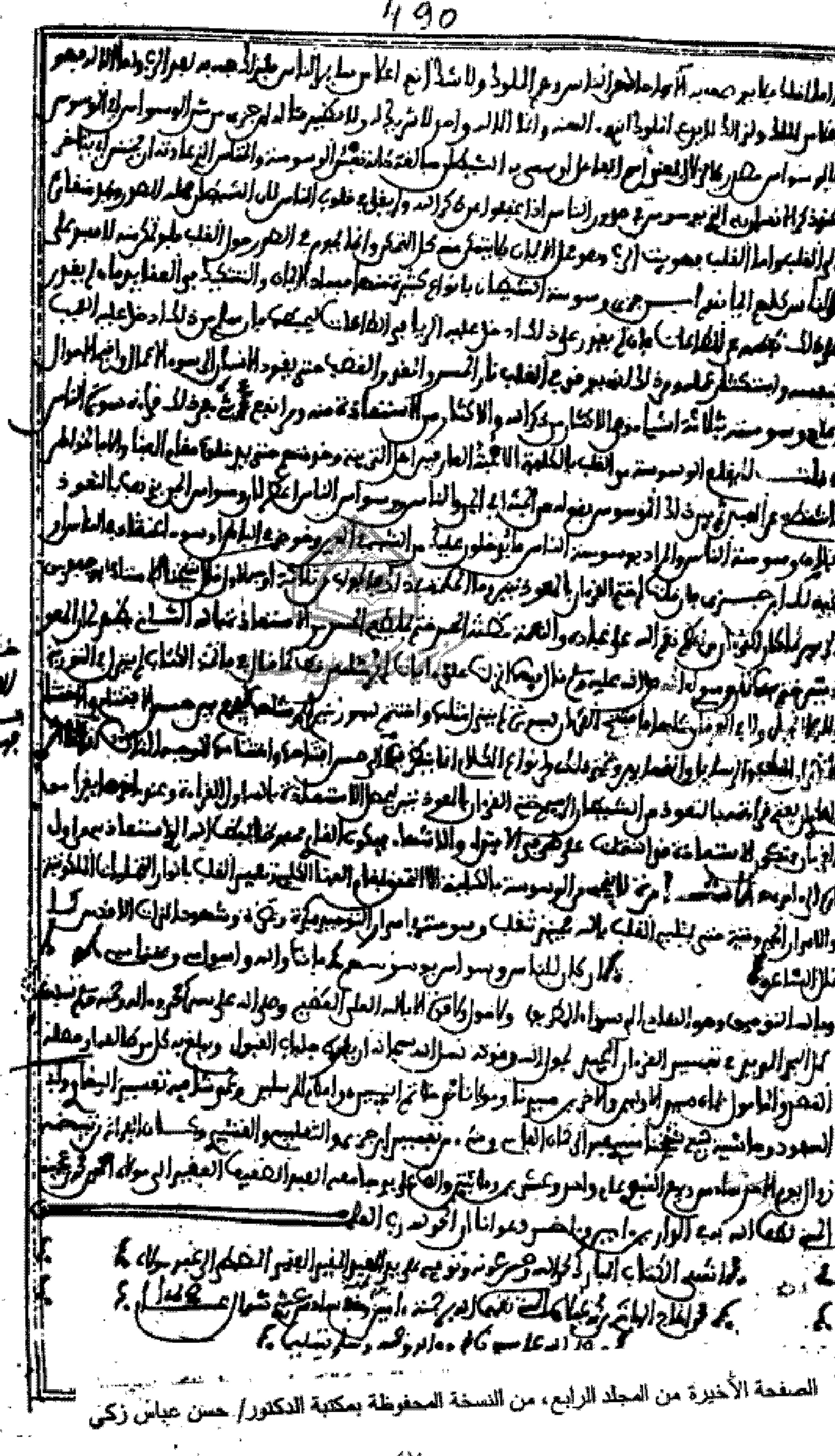


الصفحة الأخيرة من المجلد الرابع، من النسخة المحفوظة بمكتبة السيد/ حسن التهامي

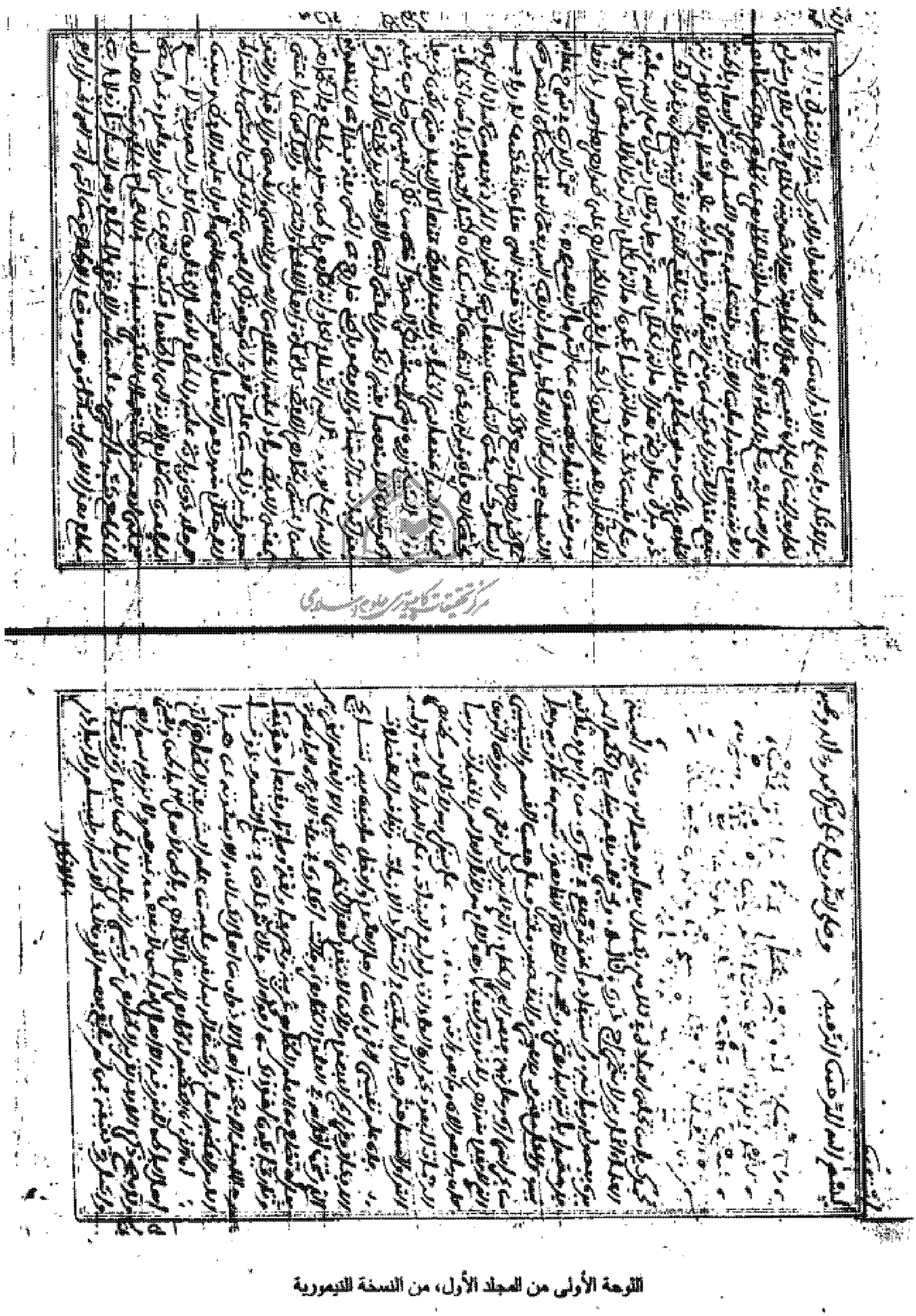

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم

الحمد لله الذي تجلى لعباده في كلامه بكمال جماله وجلاله فتحير العلماء العارفون في استخراج جواهره ولطائف أسراره

الصفحة الأولى من المجلد الأول، من النسخة المحفوظة بمكتبة الدكتور/ حسن عباس زكي



الصفحة الأخيرة من المجلد الرابع، من النسخة المحفوظة بمكتبة الدكتور/ حسن عباس زكي



اللوحة الأولى من المجلد الأول، من النسخة التيمورية

بسم الله الرحمن الرحيم

(وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم)

قال الشيخ الإمام الحَبْرُ الهُمَام، العارف الرباني والقطب الصمداني، قدوة السالكين ومنار الواصلين، بحر العرفان، ومَشْرِقُ شمس العِيَانِ، مَهْيَعُ الطريقة، الجامع بين الشريعة وبحر الحقيقة، أبو العباس أحمد بن محمد بن عجيبة الحسني - رضي الله عنه وأرضاه - آمين:

نحمدك يا من تجلَّى لعباده في كلامه، بكمال بهائه وجماله، وفتق ألسنة العلماء النحارير لاستخراج درره ولآلئه، وفجَّر قلوبهم بينابيع الحكم المُؤيدة بأصوله ومبانيه، واستفادوا عند غوصهم في تياره من فرائده ومثانيه، فدحضوا بآياته الباهرة، وحججه الظاهرة القاهرة شُبَهَ من يناويه ويعانيه، والكلُّ معترف بالتقصير، مغترف على حسب الفهم والتيسير، من بحر أسراره ومعانيه، فهو البحر الطام الذي لا يدرك له قعر، والروض المُونِق الذي لا يعدم منه زَهْرٌ ولا نَوْرٌ، وكيف لا، وهو كلام مولانا العالم بالخفيات، وبما كان وما هو الآن وما هو آت؟!.

والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد، مَظْهَرِ الرحمات، المبعوث بخوارق العادات ولوامع البينات، وعلى آله وأصحابه أولي النَّدى والسماحة، وجبال اليقين في اشتداد الأزمات وتفاقم المعضلات.

وبعد... فإن علم تفسير القرآن من أجلِّ العلوم، وأفضل ما يُنْفَقُ فيه نتائج الأفكار وقرائح الفهوم، ولكن لا يتقدم لهذا الخطر الكبير إلا العالم النِّحرير، الذي رسخت أقدامه في العلوم الظاهرة، وجالت أفكاره في معاني القرآن الباهرة، بعد أن تضلَّع من العلم الظاهر، عربيةً وتصريفاً ولغة وبيانا، وفقهاً وحديثاً وتاريخاً، يكون أخذ ذلك من أفواه الرجال، ثم غاص في علوم التصوف ذوقا وحالا ومقاماً، بصحبة أهل الأذواق من أهل الكمال، وإلا فسكوته عن هذا الأمر العظيم أسلَم، واشتغاله بما يقدر عليه من علم الشريعة الظاهرة أتم.

واعلم أن القرآن العظيم له ظاهر لأهل الظاهر، وباطن لأهل الباطن، وتفسير أهل الباطن لا يذوقه إلا أهل الباطن، لا يفهمه غيرهم ولا يذوقه سواهم، ولا يصح ذكرُه إلا بعد تقرير الظاهر، ثم يشيرُ إلى علم الباطن بعبارة رقيقة وإشارة دقيقة، فمن لم يبلغ فهمُه لذوق تلك الأسرار فَلْيُسلِّمْ، ولا يبادرْ بالإنكار؛ فإنَّ علم الأذواق من وراء طَوْرِ العقول، ولا يُدْرَكُ بتواتر النقول.

قال في لطائف المنن: اعلم أن تفسير هذه الطائفة - يعني الصوفيةَ - لكلام الله وكلام رسوله ﷺ بالمعاني الغريبة ليس إحالةً للظاهر عن ظاهره، ولكن ظاهر الآية مفهوم منه ما جاءت الآية له ودلت عليه في حرف اللسان،

وثمّ أفهامٌ باطنة تفهمُ عند الآية والحديث لمن فتح الله قلبه، وقد جاء أنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ قال: «لكل آيةٍ ظاهرٌ وباطن وحدٌ ومُطّلَع» . فلا يصدَّنك عن تلقى المعانى الغريبة منهم أن يقول لك ذو جدل ومعارضة: هذا إحالة لكلام الله ـ عز وجل ـ وكلام رسوله ﷺ فليس بإحالة، وإنما يكون إحالة لكلام الله لو قالوا: لا معنى للآية إلا هذا، وهم لا يقولون ذلك. بل يقرُّون الظواهر على ظواهرها ومراداتها وموضوعاتها، ويفهمون عن الله ما أَفْهَمَهُمْ. هـ.

وقال سعد الدين في شرح عقائد النسفى ـ بعد إبطال الإلحاد ـ: (وأمّا ما يذهب إليه بعض المحققين من أن النصوص على ظواهرها، ومع ذلك ففيها إشارات خفية إلى حقائق تتكشف لأرباب السلوك، يمكن التطبيق بينها وبين الظواهر المرادة، فهو من كمال الإيمان ومَحْضِ العِرْفَان) . وقوله : يمكن التطبيق... إلخ، أى: يمكن أن يشار إليها فى باطن الخطاب بحيث لا ينبُو عنها سرُّ الخطاب، ولا يبعد اللفظ عنها كل البعد حتى يكون تحريفا.

وقال الشيخ زَرُّوق رضي الله عنه : نظَرُ الصوفي أخصُّ من نظر المفسر وصاحبِ فقه الحديث، لأن كلا منهما يَعْتَبِرُ الحكمَ والمعنى ليس إلا، وهو يزيد بطلب الإشارة بعد إثبات ما أثبتاه، وإلا فهو باطني خارج عن الشريعة فضلا عن المتصوفة. والله أعلم. هـ.

وقوله عليه الصلاة والسلام: «لكل آيةٍ ظاهرٌ وباطنٌ وحَدٌ ومُطّلَعٌ» فالظاهر لمن اعتنى بظاهر اللفظ، كالنحاة وأهل اللغة والتصريف، والباطن لمن اعتنى بمعنى اللفظ، وما دلَّ عليه الكلامُ من الأمر والنهي والقَصَص والأخبار والتوحيد، وغير ذلك من علوم القرآن، وهو نظر المفسرين. والحدُّ لمن اعتنى باستنباط الأحكام منه، وهم الفقهاء، فهم ينتهون إلى ما يدل عليه اللفظ وسِيقَ لأجله، دون زيادة عليه. والمُطّلَعُ لأهل الحقائق من أكابر الصوفية، لأنهم يطلعون من ظاهر الآية إلى باطنها ، فيُكشف لهم عن أسرارٍ وعلوم وغوامضَ، تتجلى لهم عند استعمال الفكرة فيها.

قال فى الصّحَاح: فى الحديث: «من هول المُطّلَع» ، شبّه ما أشرف عليه من أمر الآخرة بالمطّلَع وهو المأتى. يقال: أين مطلع هذا الأمر؟ أى: مأتاه، وهو موضع الاطلاع من إشراف إلى انحدار. هـ؛ لأن أهل الحقائق يُشْرِفون من ظاهر الآية إلى أسرار باطنها، ويغوصون في لُجَجِ بحرها. والله تعالى أعلم.

هذا .. وقد ندبني شيخي العارف الرباني سيدى محمدٌ البوزيدى الحَسَنِي، وكذلك شيخُه القطب الجامع شيخ المشايخ مولاى العربي الدرقاوى الحسني، أن أضَعَ تفسيراً يكون جامعاً بين تفسير أهل الظاهر وإشارة أهل الباطن، فأجبت سؤالهم وأسعفت طِلْبَتَهُمْ، رَجَاء أن يعمَّ به الانتفاع، ويكونَ ممتعاً للقلوب والأسماع. مُقدّما فى كل آية ما يتعلق بمُهِمِّ العربية واللغة، ثم بمعانى الألفاظ الظاهرة، ثم بالإشارات الباطنة. متوسطاً فى ذلك بين الإطناب

والاختصار. منتظرا فى ذلك كله ما يفتح عليّ من خزائن الكريم الغفار.. وسميته (البحر المديد فى تفسير القرآن المجيد) نسأل الله أن يكسُوَهُ جلباب القبول، وأن يبلغ فيه القصد المأمول، إنه على ما يشاء قدير، وبالإجابة جدير، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم. وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

وقد ذكرتُ فى تفسير الفاتحة الكبير عشرَ مقدمات تتعلق بأصول العلوم وتفاريعها، وعلوم القرآن وأصل منابعها، فلينظرها من أرادها. وبالله التوفيق.

سورة الفاتحة

مكية. ولها عشرةُ أسماء: الفاتحة والوافية والكافية والشافية، والسبع المثاني؛ لأنها سبع آيات عند الشافعي منها البسملة، وأسقطها مالك وجعل السابعة: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ﴾ الآية، أو تُثنى في كل صلاة، أو لاشتمالها على الثناء على الله. وأمُّ القرآن؛ لأنها مُفتَتحُهُ ومبدؤه، أو لأنها اشتملت على ما فيه إجمالا على ما يأتي، وسورةُ الحمد والشكر، وسورة تعليم المسألة، وسورة الصلاة لتكريرها فيها، وأساسُ القرآن؛ لأنها أصله ومبدؤه ويبنى سائره عليها.

واتفقت المصاحف على افتتاحها بـ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ واختلف الأئمة فيها، فقال مالك: ليست آية لا من الفاتحة ولا من غيرها إلا من النمل خاصة، وقال الشافعي: هي آية من الفاتحة فقط، وقال ابن عباس: هي آية من كل سورة.

فحجة مالك: ما في الصحيح عنه ﷺ قال: «أُنزلَتْ عليَّ سورةٌ ليس في التوارة ولا في الإنجيل ولا في الفرقان مثْلها، ثم قال: الحمدُ لله رب العالمين) ولم يذكر البسملة. وكذلك ما ورد في الصحيح أيضا أن الله يقول: « قَسَمْتُ الصَّلاَةَ بَيْنِي وبَيْنَ عبْدِي نِصفَيْنِ. يقُولُ العبْدُ : الحَمْدُ لله رَبِّ العَالَمينَ» فبدأ بها دون البسملة.

وحجة الشافعي: ما ورد في الصحيح «أن رسول الله ﷺ كان يقرأ بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله رب العالمين» . وحجة ابن عباس: ثبوتُ البسملة مع كل سورة في المصحف، مع تحرِّي الصحابة ألا يُدْخِلوا في المصحف غيرَ كلام الله، وقالوا : ما بين الدفَّتين كلامُ الله.

وإذا ابتدأتَ أوّلَ سورة بَسْمَلْتَ إلا براءة، وسيأتي الكلام عليها. وإذا ابتدأتَ جُزْءَ سورة فأنت مُخَيَّرٌ عند الجمهور. وإذا أتممتَ سورة وابتدأت أخرى فاختلف القُرَّاءُ في البسملة وترْكِها.

وأما حكمُها في الصلاة، فقال مالك: مكروهة في الفرض دون النفل، وقال الشافعي: فرضٌ تبطل الصلاةُ بتركها، فيبسمل ـ عنده ـ جهراً في الجهر وسراً في السر، وعند أبي حنيفة كذلك إلا أنه يُسرُّها مطلقا، وحجة مالك أنها ليست بآية: ما في الحديث الصحيح عن أنس أنه قال: (صَلَّيتُ خَلْفَ النبي ﷺ وأبي بَكْرٍ وَعُمَرَ وعُثْمَانَ، فكانُوا يَسْتَفْتِحُونَ بالحمد لله رب العالمين) لايذكرون البسملة أصلا. وحجة الشافعي أنها عنده آية: ما ورد في الحديث من قراءتها كما تقدم.

ولم تكن البسملة قبل الإسلام، فكانوا يكتبون: باسمك اللهم، حتى نزلت ﴿ بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا ﴾ فكتبوا ﴿ بسم الله ﴾ حتى نزل: ﴿ ... أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ ﴾ فكتبوا: ﴿ بسم الله الرحمن ﴾ حتى نزل: ﴿ ... وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾، فكتبوها.

وحُذفت الألف لكثرة الاستعمال، والباء متعلقة بمحذوف، اسم عند البصريين، أي: ابتدائي كائن بسم الله، فموضعها رفعٌ. وفعل عند الكوفيين، أي: أبدأ أو أتلو. فيُقدّرُ كل واحد ما جُعلت البسملة مبدأ له، فموضعها نصب، ويُقدر مؤخراً لإفادة الحصر والاختصاص. وهو مشتق من السُّمُوّ عند البصريين، فلامه محذوفة، وعند الكوفيين من السِّمَة، أي: العلامة، ففاؤه محذوفة، ودليل البصريين: التصغير والتكسير، فقالوا: أسماء، ولم يقولوا أوْسَام، وقالوا: سُمَيّ، ولم يقولوا: وُسَيْم.

و (الله) علم على الذات الواجبة الوجود، المستحق لجميع المحامد، وهل هو مشتق أو مرتجل؟ قولان يأتي الكلام عليهما في (الحمد لله)، وكذلك (الرحمن الرحيم).

قال الحق جل جلاله : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤ ﴾

قلت : (الحمد) مبتدأ، و (لله) خبر، وأصله النصب، وقرئ به، والأصل: أحمد الله حمداً، وإنما عدل عنه إلى الرفع ليدل على عموم الحمد وثباته، دون تجدده وحدوثه، وفيه تعليم اللفظ مع تعريض الاستغناء. أي: الحمد لله وإن لم تحمدوه. ولو قال (أحمد الله) لما أفاد هذا المعنى، وهو من المصادر التي تُنْصَب بأفعال مضمرة لا تكاد تذكر معها. والتعريف للجنس، أي: للحقيقة من حيث هي، من غير قيد شيوعها، ومعناه: الإشارة إلى ما يعْرِفه كل أحد أن الحمد ما هو. أو للاستغراق؛ إذ الحمد في الحقيقة كلّه لله، إذ ما من خير إلا وهو مُوليه بواسطة وبغير واسطة. كما قال: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ﴾ وقيل: للعهد، والمعهودُ حمدُه تعالى نَفْسَه في أزله.

وقُرِئ (الحمد لله) بإتباع الدال للام[1]، وبالعكس[2]، تنزيلاً لهما من حيث إنهما يستعملان معا منزلة كلمة واحدة.

ومعناه في اللغة: الثناءُ بالجميل على قصد التعظيم والتبجيل، وفي العُرف: فعل يُنبئ عن تعظيم المُنعم بسبب كونه منعما. والشكر في اللغة: فعل يُشعر بتعظيم المنعم، فهو مرادف للحمد العرفي، وفي العرف: صرفُ

(١) في الكسر ـ وهي قراءة شاذة.

(٢) أي: اتباع اللام الدال في الضم، وهي قراءة شاذة أيضا.

العبد جميعَ ما أنعم الله عليه من السمع والبصر إلى ما خُلِقَ لأجله وأعطاه إياه. وانظر شرحنا الكبير للفاتحة في النِّسَبِ التي بيناها نظماً ونثرا.

و (الله) اسم مُرْتَجَلٌ جامد، والألف واللام فيه لازمة لا للتعريف، قال الواحدي: اسم تفرَّد به الباري ـ سبحانه ـ يجرى في وصفه مجرى الأسماء الأعلام، لا يُعرف له اشتقاق، وقال الأُقْلِيشي: إن هذا الاسم مهما لم يكن مشتقا كان دليلا على عين الذات، دون أن يُنظر فيها إلى صفة من الصفات، وليس باسم مشتق من صفة، كالعالِم والحق والخالق والرازق، فالألف واللام على هذا في (الله) من نفس الكلمة، كالزاي من زيد، وذهب إلى هذا جماعة، واختاره الغزالي وقال: كل ما قيل في اشتقاقه فهو تعسُّف.

وقيل: مشتق من التَّألُّهِ وهو التعبد، وقيل: من الوَلَهَان، وهو الحيرة؛ لتحيُّر العقول في شأنه. وقيل: أصله: الإِلهُ، ثم حذفت الهمزة ونقلت حركتها إلى اللام، ثم وقع الإدغام وفُخِّمت للتعظيم، إلا إذا كان قبلها كسر.

و (رب) نعت (لله)، وهو في الأصل: مصدر بمعنى التربية، وهو تبليغ الشيء إلى كماله شيئاً فشيئا، ثم وُصف به للمبالغة كالصوم والعدل.

وقيل: هو وصفٌ من ربَّه يَرُبُّهُ، وأصله: رَبَبَ ثم أُدغم، سُمي به المالكُ؛ لأنه يحفظ ما يملكه ويربيه، ولا يطلق على غيره تعالى إلا بقيد كقوله تعالى: ﴿ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ ﴾. قال ابن جُزَيّ: ومعانيه أربعة: الإله والسيد والمالك والمصلح، وكلها تصلح في رب العالمين، إلا أن الأرجح في معناه: الإله؛ لاختصاصه بالله تعالى.

و (العالمين) جمع عالَم، والعالَمُ: اسم لما يُعْلَمُ به، كالخاتم لما يُختم به، والطابع لما يطبع به. غلب فيما يُعلم به الصانع. وهو كل ما سواه من الجواهر والأعراض، فإنها لإمكانها وافتقارها إلى مُؤثِّرٍ واجبٍ لذاته، تدل على وجوده، وإنما جُمع ليشمل ما تحته من الأجناس المختلفة، وغُلِّب العقلاء منهم فَجُمِعَ بالياء والنون كسائر أوصافهم، فهو جمع، لا اسم جمع، خلافاً لابن مالك.

وقيل: اسم وضع لذوي العلم من الملائكة والثقلين، وتناولُه لغيرهم على سبيل الاستتباع، وقيل: عنى به هنا الناس، فإن كل واحد منهم عالَمٌ، حيث إنه يشتمل على نظائر ما في العالم الكبير، ولذا سوّى بين النظر فيهما فقال: ﴿ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾.

قلت: وإليه يشير قول الشاعر:

يا تائهــاً في مَــهْــمَــهٍ عَنْ سِــرِّهِ انْظُرْ تَجِــدْ فِــيكَ الوُجُــودَ بِأَسْــرِهِ

أَنْتَ الكَمَــالُ طَرِيقَــةً وحَــقِــيــقَــةً يا جَــامِــعًــا سِــرَّ الإِلَهِ بِأَسْــرِهِ

و ﴿ الرحمن الرحيم ﴾ اسمان بُنيا للمبالغة، من رَحِمَ، كالغضبان من غضب، والعليم من علم، والرحمة فى اللغة: رِقَّةُ القلب، وانعطافٌ يقتضي التفضل والإحسان، ومنه الرَّحِمُ؛ لانعطافها على ما فيها. وأسماء الله تعالى إنما تُؤخذ باعتبار الغايات، التي هي أفعال، دون المبادئ التي هي انفعالات. و (الرحمن) أبلغ من (الرحيم)؛ لأن زيادةَ المبنى تدل على زيادة المعنى، كقَطَّعَ وقَطَعَ، وذلك إنما يُؤخذ تارة باعتبار الكمية، وأخرى باعتباره الكيفية.

فعلى الأول: قيل: يا رحمنَ الدنيا؛ لأنه يَعُمُّ المؤمنَ والكافر، ورحيمَ الآخرة؛ لأنه يختص بالمؤمن، وعلى الثانى قيل: يا رحمن الدنيا والآخرة ورحيم الدنيا؛ لأن النعم الأخروية كلها جِسَام، وأما النعم الدنيوية فجليلة وحقيرة.

وإنما قدّم (الرحمن) - والقياس الترقى من الأدنى إلى الأعلى - لتقدم رحمة الدنيا، ولأنه صار كالعلَم من حيث إنه لا يوصف به غيره؛ لأن معناه المنعم الحقيقى البالغُ فى الرحمة غايتَها، وذلك لايصدُق على غيره تعالى. انظر البيضاوى. وسيأتى الكلام عليهما فى المعنى.

و (مَلِكِ) نَعت لما قبله، قراءةُ الجماعة بغير ألف من (المُلْك) بالضم، وقرأ عاصم والكسائى بالألف، من (المِلك) بالكسر، والتقدير على هذا: مالك مجيء يوم الدين، أو مالك الأمر يوم الدين. وقراءةُ الجماعة أرجح، لثلاثة أوجه: الأول: أن الملك أعظم من مالك، إذ قد يوصف كل أحد بالمالك لماله، وأما المَلِكُ فهو سيد الناس، والثانى: قوله: ﴿ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ ﴾، والثالث: أنها لاتقتضى حذفا، والحذف خلاف الأصل[1].

و (يوم الدين) ظرف مضاف إلى ما قبله على طريق الاتساع، وأُجرى الظرف مجرى المفعول به، والمعنى على الظرفية، أى: الملك فى يوم الدين، أو ملك الأمر يوم الدين، فيكون فيه حذف. وقد رُويت القراءتان - أى: القصر والمد - عن النبى ﷺ.

---

(١) ينبغى ألا يكون ترجيح فى هذا المجال، مع ورود القراءتين عن الرسول ﷺ والقراءتان - كما يقول الألوسى -: فرسا رهان، ومتى أردت الترجيح تعارضت الأدلة.

وقد قرئ (ملك) بوجوه كثيرة تركنا ذكرها لشذوذها. فإن قيل: ملك و مالك نكرة؛ لأن إضافة اسم الفاعل لاتخصص، وكيف يُنعت به (الرحمن الرحيم) وهما معرفتان؟ قلت: إنما تكون إضافةُ اسم الفاعل لا تخصص إذا كان بمعنى الحال أو الاستقبال؛ لأنها حينئذ غيرُ مَحْضَةٍ، وأما هذا فهو مستمر دائما، فإضافته محضة. قاله ابن جُزَيّ.

يقول الحق جل جلاله مُعلّما لعباده كيف يُثْنُونَ عليه ويعظمونه ثم يسألونه: يا عبادي قولوا: ﴿ الحمد لله ربِ العالمين﴾ أي: الثناء الجميل إنما يستحقه العظيم الجليل، فلا يستحق الحمدَ سواه، إذ لا منعم على الحقيقة إلا الله، ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ﴾ . أو جميعُ المحامدِ كلُّها لله، أو الحمدُ المعهودُ في الأذهان هو حمدُ الله تعالى نفسَه في أزله، قبل أن يُوجِدَ خلقَه، فلما أوجد خلقه قال لهم: الحمد لله، أي: احْمَدُوني بذلك الحمد المعهود في الأزل.

وإنما استحق الحمد وحده لأنه ﴿ رب العالمين﴾ ، وكأن سائلا سأله: لم اختصصت بالحمد؟ فقال: لأني ربُّ العالمين، أنا أوجدتُهم برحمتي، وأمددتهم بنعمتي، فلا منعم غيري، فاستحققت الحمد وحدي، منّي كان الإيجاد وعليَّ توالي الإمْدَاد، فأنا ربُّ العباد، فالعوالم كلها ـ على تعدد أجناسها واختلاف أنواعها ـ في قبضتي وتحت تربيتي ورعايتي.

قال بعضهم: خلق الله ثمانيةَ عشرَ ألف عالَم، نصفها في البر ونصفها في البحر. وقال الفخرُ الرازي: رُوي أن بني آدم عُشْرُ الجن، وبنو آدم والجنُ عُشْرُ حيوانات البر، وهؤلاء كلُّهم عشر الطيور، وهؤلاء كلهم عشر حيوانات البحار، وهؤلاء كلهم عشر ملائكة الأرض الموكلين ببني آدم ، وهؤلاء كلهم عشر ملائكة سماء الدنيا، وهؤلاء كلهم عشر ملائكة السماء الثانية، ثم على هذا الترتيب إلى ملائكة السماء السابعة، ثم الكلُّ في مقابلة الكرسي نَزْرٌ قليل، ثم هؤلاء عشر ملائكة السُّرَادِق الواحد من سُرادقات العرش، التي عددُها: مائةُ ألف، طول كل سرادق وعرضُه ـ إذا قُوبلتْ به السموات والأرض وما فيهما وما بينهما ـ يكون شيئاً يسيراً ونَزْراً قليلا. وما من موضع شِبْرٍ إلا وفيه مَلَكٌ ساجد أو راكع أو قائم، وله زَجَلٌ بالتسبيح والتهليل. ثم هؤلاء كلهم في مقابلة الذين يَجُولُون حول العرش كالقطرة في البحر، ولا يَعلم عددَهم إلا الله تعالى: ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ ﴾ . هـ.

وقال وَهْبُ بن مُنَبِّه: (قوائمُ العرش ثلاثُمائةٍ وست وستون قائمة، وبين كل قائمة وقائمة ستون ألف صحراء، وفي كل صحراء ستون ألفَ عالم، وكل عالم قَدْرُ الثقلين) .

فهذه العوالم كلها في قبضة الحق وتحت تربيته وحفظه، يوصل المدد إلى كل واحد وهو في مستقرّه ومستودعه، إما إلى روحانيته من قوة العلوم والمعارف، وإما إلى بشريته من قوة الأشباح، من العرش إلى الفرش،

كلها مقدَّرة أرزاقها محصورة آجالُها، محفوظة أشباحُها، معلومة أماكنها ، لايخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم.

ثم هذه التربية التي ربى سبحانه بها خلقه إنما هي رحمة منه وإحسان، لا لزوم عليه وإيجاب، ولذلك وصلَه بقوله ﴿الرحمن الرحيم﴾، أي: الرحمن بنعمة الإيجاد، الرحيم بنعمة الإمداد. «نعمتان ما خلا موجود عنهما، ولابد لكل مُكَوّن منهما : نعمة الإيجاد ونعمة الإمداد، أنعم أولاً بالإيجاد، وثنى بتوالي الإمداد». كما في (الحِكَم)(١). فاسمُه (الرحمن) يقتضي إيجادَ الأشياء وإبرازها، واسمه (الرحيم) يقتضي تربيتَها وإمدادها. ولذلك لا يجوز إطلاق اسم (الرحمن) على أحد، ولم يتَسمَّ أحد به؛ إذ الإيجاد لا يصح من غيره تعالى، بخلاف اسمه (الرحيم) فيجوز إطلاقه على غيره تعالى؛ لمشاركة صدور الإمداد في الظاهر من بعض المخلوقات مجازاً وعاريةً.

أو : الرحمن في الدنيا والآخرة، والرحيم في الآخرة؛ لأن رحمة الآخرة خاصة بالمؤمنين. أو الرحمن بجلائل النعم والرحيم بدقائقها، فجلائل النعم مثل: نعمة الإسلام والإيمان والإحسان، والمعرفة والهداية، وكشف الحجاب وفتح الباب والدخول مع الأحباب، ودقائقُ النعم مثل: الصحة والعافية والمال الحلال، وغير ذلك مما يأتي ذكره في المُنْعَم عليهم.

ثم من تحقق منه الإيجادُ والإمداد استحق أن يكون ملكاً لجميع العباد، ولذلك ذكَره بِأثَره فقال: ﴿ملك يوم الدين﴾ أي: المتصرف في عباده كيف شاء ،لا رادّ لما قضى ولا مانع لما أعطى، فهو ملكُ الملوك رب الأرباب في هذه الدار وفي تلك الدار. وإنما خصّ يوم الدين - وهو يوم الجزاء - بالملكية؛ لأن ذلك اليوم يظهرُ فيه المُلْكُ لله عياناً لجميع الخلق، فإن الله تعالى يتجلى لفصل عباده، حتى يراه المؤمنون عياناً، بخلاف الدنيا فإن تصرفه تعالى لايفهمه إلا الكَمَلَةُ من المؤمنين، ولذلك ادَّعى كثير من الجهلة المُلكَ ونسبوه لأنفسهم. ويوم القيامة ينفرد الملك لله عند الخاص والعام، قال تعالى: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾.

الإشارة: لما تجلى الحق سبحانه من عالَم الجبروت إلى عالم الملكوت، أو تقول: من عالم الغيب إلى عالم الشهادة، حمد نفسه بنفسه، ومجّد نفسه بنفسه، ووحّد نفسه بنفسه، ولله دَرُّ الهَرَوِيِّ، حيث قال:

مــا وَحَّــدَ الواحِــدَ مِنْ واحِــدٍ إذ كُلُّ مَنْ وَحَّــدَهُ جَــاحِــدُ

(١) لابن عطاء الله السكندري.

توحيدُ مَنْ ينطقُ عن نَعْتِهِ عاريةٌ أبْطَلَهَا الواحِدُ
توحيدُهُ إياه توحيدُهُ ونعتُ من يَنْعَتُهُ لاَحِدُ(١)

فقال في توحيد نفسه بنفسه مترجماً عن نفسه بنفسه: (الحمد لله رب العالمين)، فكأنه يقول في عنوان كتابه وسر خطابه: أنا الحامد والمحمود، وأنا القائم بكل موجود، أنا رب الأرباب، وأنا مسبب الأسباب لمن فهم الخطاب، أنا رب العالمين، أنا قيوم السموات والأَرَضِين، بل أنا المتوحِّدُ في وجودي، والمتجلّي لعبادي بكرمي وجودي، فالعوالم كلها ثابتة بإثباتي، مَمْحُوّةٌ بأحدية ذاتي.

قال رجل بين يدي الجنيد: (الحمد لله) ولم يقل: (رب العالمين)، فقال له الجنيد: كَمِّلْهَا يا أخي، فقال الرجل: وأيّ قَدْر للعالمين حتى تُذكر معه؟! فقال الجنيد: قُلها يا أخي؛ فإن الحادث إذا قُرن بالقديم تلاشى الحادثُ ويبقى القديم.

يقول سبحانه: يا من هو مني قريب، تَدَبّر سرّي فإنه غريب، أنا المحبُّ، وأنا الحبيب، وأنا القريب، وأنا المجيب، أنا الرحيم الرحمن، وأنا الملك الديان، أنا الرحمن بنعمة الإيجاد، والرحيمُ بتوالي الإمداد. متّى كان الإيجاد، وعليَّ دوام الإمداد، وأنا رب العباد، أنا الملك الدَّيان، وأنا المجازي بالإحسان على الإحسان، أنا الملك على الإطلاق، لولا جهالة أهل العناد والشقاق، الأمر لنا على الدوام، لمن فهم عنا من الأنام.

قال في الرسائل الكبرى(٢): لا عبرة بظواهر الأشياء، وإنما العبرة بالسر المكنون، وليس ذلك إلا بظهور أمر الحق وارتفاع غِطَائه وزوال أستاره وخفائه، فإذا تحقق ذلك التجلي والظهور، واستولى على الأشياء الفناءُ والدُّثُور، وانقشعت الظلمات بإشراق النور، فهناك يبدو عينُ اليقين ويَحِقُّ الحق المبين، وعند ذلك تبطل دعوى المدعين، كما يفهم العامة بطلان ذلك في يوم الدين، حين يكون الملك لله رب العالمين، وليت شعري أيُّ وقت كان الملكُ لسواه حتى يقع التقييد بقوله: ﴿ الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴾ وقوله: ﴿ وَالأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴾؟! لولا الدعاوَى العريضة من القلوب المريضة. هـ.

---

(١) مضمون الأبيات كما يقول الشيخ ابن عجيبة في إيقاظ الهمم: أن الحق تولي توحيد نفسه بنفسه. فكل من ادعى أنه وحده بنفسه فهو جاحد لوحدانيته، حيث أشرك معه نفسه، وكل من ينعته بنفسه فهو لاحد ـ أي: مائل عن الصواب. وهذا المعنى من المعاني التي ينبغي أن تفهم في ضوئها هذه الأبيات. وللأبيات محامل أخرى ذكرها العلامة ابن القيم. فلتنظر في كتابه مدارج السالكين. وانظر أيضا: مدارج السلوك لأبي بكر بناني.
(٢) لابن عباد النفزي، شارح الحكم.

ثم تنزل لبيان العبودية، فقال:

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ ﴾

قلت : (إياك) مفعول (نعبد)، وقُدِّم للتعظيم والاهتمام به، والدلالةِ على الحصر، ولذلك قال ابن عباس: (نعُبدك ولا نعبد معك غيرَك)، ولتقديم ما هو مقدَّمٌ في الوجود وهو الملك المعبود، وللتنبيه على أن العابدَ ينبغي أن يكون نظرُه إلى المعبود أولا وبالذات، ومنه إلى العبادة، لا من حيث إنها عبادةٌ صدَرتْ عنه، بل من حيث إنها نسْبةٌ شريفة إليه، ووُصْلَةٌ بينه وبين الحق، فإن العارف إنما يَحِقُّ وصوله إذا استغرق في ملاحظة جناب القدس، وغاب عما عداه، حتى إنه لا يلاحظ نفسَه ولا حالاً من أحوالها إلا من حيث إنها تَجَلٍّ من تجلياته ومظهرٌ لربوبيته، ولذلك فُضِّلَ ما حكى اللهُ عن حبيبه حين قال: ﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾، على ما حكاه عن كليمه حيث قال: ﴿ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ أى: حيث صرَّح بمطلوبه، و(إياك) مفعول (نستعين) وقدّم أيضا للاختصاص والاهتمام، كما تقدم في ﴿ إياك نعبد ﴾، وكرّر الضمير ولم يقل: إياك نعبد ونستعين؛ لأن إظهارَه أبلغ في إظهار الاعتماد على الله، وأقطعُ في إحضار التعلق بالله والإقبال على الله وأمدحُ، ألا ترى أن قولك: بك أنتصر وبك أحتمي وبك أنال مطالبي ـ أبلغ وأمدح من قولك: بك أنتصر وأحتمي... إلخ؟.

وقَدّمَ العبادة على الاستعانة ليتوافقَ رءوسُ الآي، وليُعلمَ منه أن تقديم الوسيلة على طلب الحاجة أدْعَى إلى الإجابة، فإن مَنْ تلبّس بخدمة الملك وشرع فيها بحسب وُسْعِه، ثم طلب منه الإعانة عليها أجيب إلى مطلبه، بخلاف من كلّفه الملكُ بخدمته، فقال: أعطني ما يعينني عليها، فهو سوء أدب، وأيضاً : من استحضر الأوصافَ العظام ما أمكنه إلا المسارعةُ إلى الخضوع والعبادة، وأيضاً : لمّا نسبَ المتكلمُ العبادةَ إلى نفسه أوْهَمَ ذلك تبجحًا واعتداداً منه بما يصدرُ عنه فعقّبه بقوله: ﴿ وإياك نستعين ﴾، دفعاً لذلك التوهم.

والعبادة : أقصى غاية الخضوع والتذلل، ومنه طريق مُعبَّد، أى: مُذَلل، والاستعانة: طلب المعونة، والمراد طلب المعونة في المُهمات كلّها، أو في أداء العبادات.

والضمير المستتر في الفعلين للقارئ ومن معه من الحفظة وحاضرى صلاة الجماعة، أو له ولسائر الموجودين. أدْرَجَ عبادته في تضاعيف عبادتهم وخلط حاجته بحاجتهم لعلها تُقبل ببركتها ويُجاب إليها، ولهذا شرعت الجماعة. قاله البيضاوى.

يقول الحق جل جلاله، تتميماً لتعليم عباده: فإذا أثنيتم عليَّ ومجدتموني وعظمتموني فأقِرُّوا لي بالربوبية، وأظهروا من أنفسكم العبودية، واطلبوا مني العون في كل وقت وقولوا: ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾، وكأنه - جل جلاله - لمّا ذكر أنه مستحق للمحامد كلها قديمها وحديثها؛ لأنه رب العوالم وقيومها، أصل الأصول وفروعها، أنعم عليها أولاً بالإيجاد، وثانياً بتوالي الإمداد، فهو مالكها على الإطلاق، ذكر أنه لايستحق أن يُعبد سواه؛ إذ لا مُنعم على الحقيقة إلا الله، فهو أحقُّ أن يُعبد، وأولى أن يفرد بالوجهة والقصد، لأنه مُستَبِدٌّ وغير مُستَمَدٌّ، والمادة من عينِ الجود، فإذا انقطعت المادة انعدم الوجود.

قال البيضاوي: ثم إنه لما ذكر الحقيق بالحمد، ووصف بصفات عظام تميَّز بها عن سائر الذوات، تعلَّق العلمُ بمعلوم معين، خوطب بذلك، أي: يا من هذا شأنه نخصُّك بالعبادة والاستعانة، ليكون أدل على الاختصاص، وللترقي من الغَيْبَة إلى الشهود، وكأن المعلومَ صار عيانا، والمعقولَ مُشاهَدًا، والغيبة حضورا. بنَى أول الكلام على ما هو مبادئ حالِ العارفِ؛ من الذكر والفكر والتأمل في أسمائه، والنظر في آلائه، والاستدلال بصنائعه على عظيم شأنه وباهر سلطانه، ثم قفَّى بما هو منتهى أمره، وهو أن يخوض لُجَّةَ الوصول، ويصير من أهل المشاهدة، فيراه عياناً ويناجيه شِفاها. اللهم اجعلنا من الواصلين إلى العين دون التابعين للأثر. ومن عادة العرب التفنن في الكلام والعدول عن أسلوبٍ إلى آخر، تَطْرِيَةً وتنشيطاً للسامع، فتَعْدِل من الخطاب إلى الغيبة، ومن الغيبة إلى التكلم، كقوله: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ... ﴾ ولم يقل (بكم) وقوله ﴿ أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ ... ﴾ أي: ولم يقل: فساقه.. انظر تمام كلامه.

والالتفات هنا في قوله: ﴿ إياك نعبد ﴾ ولم يقل: إياه نعبد؛ لأن الظاهر من قبل الغيبة، وحسنه أن الموصوف تعيَّن وصار حاضرا.

قال الأقليشي: فهذه الآية هي التي قال فيها النبي ﷺ: «فإذا قال العبد: إياك نعبد وإياك نستعين، يقول الله تعالى: هذه بيني وبين عَبْدِي ولعَبْدِي مَا سَأَلَ». معناه: أيُّ عبد توجه إليَّ بالعبادة وسألني العون عليها فعبادته متقبلة، والعون مني له عليها حاصل حتى يُوقعها على وجهها، فالعبادة وصف العبد، والعون من الله تعالى للعبد، فلهذا قال: «فهذه بيني وبين عبدي».

قال ابن جُزَي: أي نطلب العون منك على العبادة وعلى جميع أمورنا، وفي هذا دليل على بطلان قول القدَرية والجبرية، وأنَّ الحق بين ذلك.

الإشارة: لمّا تجلى الحق جل جلاله من عالم الجبروت إلى عالم الملكوت، وحَمِدَ نفسه بنفسه، تجلى أيضا وتنزَّل من عالم الملكوت إلى عالم المُلك بقدرته وحكمته؛ لإظهار آثار أسمائه وصفاته، فأظهر العبودية وأخفى الربوبية، أظهر الحكمة وأبطن القدرة، فجعلَ عالمَ الحكمة يخاطبُ عالمَ القدرة، ويخضع له، ويتعبد ويستمد، منه الإعانة والهداية، ويتحرز من طريق الضلالة والغواية.

فعالَمُ الحكمة محلُّ التكليف، وعالم القدرة محل التصريف، عالم الحكمة عالم الأشباح، وعالم القدرة عالم الأرواح، فإياك نعبد لأهل عالم الحكمة، و إياك نستعين لأهل عالم القدرة. ولذلك قال الشيخ أبو العباس المرسى ﷺ: ﴿إياك نعبد﴾ شريعة، و ﴿إياك نستعين﴾ حقيقة، ﴿إياك نعبد﴾ إسلاما، و ﴿إياك نستعين﴾ إحسانا، ﴿إياك نعبد﴾ عبادة، و﴿إياك نستعين﴾عبودية، ﴿إياك نعبد﴾ فَرْقٌ ﴿إياك نستعين﴾ جَمْعٌ. هـ.

وإن شئت قلت: ﴿إياك نعبد﴾ لأهل العمل لله وهم المخلصون، و﴿إياك نستعين﴾ لأهل العمل بالله وهم الموحِّدون، العمل لله يوجب المثوبة، والعمل بالله يوجب القُرْبَة، العمل لله يوجب تحقيق العبادة، والعمل بالله يوجب تصحيح الإرادة، العمل لله نعت كُلِّ عابد، والعمل بالله نعت كل قاصد، العمل لله قيامٌ بأحكام الظواهر، والعمل بالله قيام بإصلاح الضمائر. قاله القشيرى.

ثم إنَّ الناسَ في شهود القدرة والحكمة على ثلاثة أقسام: قسم حُجبوا بالحكمة عن شهود القدرة، وهم أهل الحجاب من أهل الغفلة، وقفوا مع قوله: ﴿ إياك نعبد ﴾، وقسم حُجبوا بشهود القدرة عن الحكمة، وهم أهل الفناء، وقفوا مع قوله: ﴿إياك نستعين﴾، وقسم لم يحجبوا بالحكمة عن القدرة ولا بالقدرة عن الحكمة، أَعْطَوا كُلَّ ذى حق حقَّه ووَفَّوا كل ذي قسط قسطه، وهم أهل الكمال من أهل البقاء، جمعوا بين قوله: ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾، وبالله التوفيق.

ثم بيَّن المقصودَ الأعظم وما هو المطلوبُ الأهمُّ، وهو طلب الهداية والتوفيق إلى عين التحقيق، فقال:

﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝٦ ﴾

قلت: الهدايةُ في الأصل: الدلالة بلطف، ولذلك تُستعمل في الخير، وقوله: ﴿ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ على التهكم، والفعل منه (هَدَى) بالفتح، وأصله أن يُعدى باللام، أو «إلى»، فَعُومل هنا معاملة: ﴿ وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ ﴾. والصراط لغة: الطريق، مشتق من سَرَط الطعامَ إذا ابتلعه، فكأنها تبتلع السابلةَ؛ أى

المارّة به، وقُلِبَتْ السين صاداً لتطابق الطاء في الإطباق، وقد تُشَمُّ زاياً لقرب المَخرج، و (المستقيم): الذي لا عوج فيه، والمراد به طريق الحق المُوصِّلة إلى الله.

يقول الحق جل جلاله: مُعلماً لعباده كيف يطلبونه، وما ينبغي لهم أن يطلبوا، أي: قُولوا (اهدنا) أي: أرشِدْنا إلى الطريق المستقيم، الموصلة إلى حضرة النعيم، والطريقُ المستقيم هو السيرُ على الشريعة المحمدية في الظاهر، والتبرِّي من الحول والقوة في الباطن، أو تقول: هو أن يكون ظاهرُك شريعةً وباطنك حقيقة، ظاهرك عبودية وباطنك حرية، الفرق على ظاهرك موجود والجمع في باطنك مشهود، وفي الحكم: «متى جَعلَك في الظاهر ممتثلا لأمره وفي الباطن مستسلماً لقهره، فقد أعظم المِنَّة عليك».

فالصراط المستقيم الذي أمَرَنَا الحقُّ بطلبه هو: الجمع بين الشريعة والحقيقة، والمفهوم من قوله: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾، ولذلك وصلَه به، فكأن الحق - سبحانه - يقول: يا عبادي احمدوني ومجدوني وأفردوني بالقصد وخُصُّوني بالعبادة، وكونوا في ظاهركم مشتغلين بعبادتي، وفي باطنكم مستعينين بحولي وقوتي، أو كونوا في ظاهركم متأدبين بخدمتي، وفي باطنكم مشاهدين لقدرتي وعظمة ربوبيتي.

وقال سيدنا علي - كرَّمَ الله وجهه - : (الصراط المستقيم هنا القرآن). وقال جابر رضي الله عنه : (هو الإسلام) يعني الحنيفية السمحاء، وقال سهل بن عبدالله: (هو طريق محمد ﷺ). يعني اتباعَ ما جاء به. وحاصله ما تقدم من إصلاح الظاهر بالشريعة والباطن بالحقيقة، فهذا هو الطريق المستقيم الذي من سلكه كان من الواصلين المقربين مع النبيين والصدِّيقين.

فإن قلت: إذا كان العبدُ ذاهباً على هذا المنهاج المستقيم، فكيف يطلب ما هو حاصل؟ فالجواب: أنه طلب التثبيت على ما هو حاصل، والإرشاد إلى ما هو ليس بحاصل، فأهل مقام الإسلام يطلبون الثبات على الإسلام، الذي هو حاصل، والترقي إلى مقام الإيمان الذي ليس بحاصل، على طريق الصوفية، الذين يخصون العمل الظاهر بمقام الإسلام، والعمل الباطن بمقام الإيمان، وأهلُ الإيمان يطلبون الثبات على الإيمان الذي هو حاصل، والترقي إلى مقام الإحسان الذي ليس بحاصل، وأهل مقام الإحسان يطلبون الثبات على الإحسان، والترقي إلى مالا نهاية له من كشوفات العرفان ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾.

وقال الشيخ أبو العباس المرسي رضي الله عنه : ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ بالتثبيت فيما هو حاصل، والإرشاد فيما ليس بحاصل، ثم قال: عمومُ المؤمنين يقولون: ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ أي: بالتثبيت فيما هو

حاصل، والإرشاد لما ليس بحاصل، فإنه حصل لهم التوحيد وفاتهم درجاتُ الصالحين، والصالحون يقولون: ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ معناه: نسألك التثبيت فيما هو حاصل والإرشاد إلى ما ليس بحاصل، فإنهم حصل لهم الصلاح وفاتهم درجات الشهداء، والشهداءُ يقولون: ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ أي بالتثبيت فيما هو حاصل والإرشاد إلى ما ليس بحاصل، فإنهم حصلت لهم الشهادة وفاتهم درجات الصديقين، والصديقون يقولون: ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ أي: بالتثبيت فيما هو حاصل والإرشاد إلى ما ليس بحاصل، فإنهم حَصَلَ لهم درجات الصديقين وفاتهم درجات القطب. والقطبُ يقول: ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ بالتثبت فيما هو حاصل والإرشاد إلى ما ليس بحاصل، فإنه حصل له رتبة القطبانية، وفاته علم ما إذا شاء الله أن يطلعه عليه أطلعه. هـ.

وقال بعضهم: الهدايةُ إمَّا للعين وإما للأثرِ الدالِّ على العين، ولا نهاية للأولى. قلت: فالأولى لأهل الشهود والعيان، والثانية لأهل الدليل والبرهان، فالهداية للعين هي الدلالة على الله. والهداية للأثر هي الدلالة على العمل، «مَنْ دلّكَ على الله فقد نصحك، ومن دلك على العمل فقد أتعبك». وإنما كانت الأولى لا نهاية لها؛ لأن الترقي بعد المعرفة لا نهاية له. بخلاف الدلالة على الأثر فنهايتها الوصول إلى العين، إن كان الدالُّ عارفاً بالطريق.

قال البيضاوي: وهداية الله تتنوعُ أنواعا لا يحصيها عد ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا ﴾ لكنها تنحصر في أجناس مترتبة:

الأول: إفاضةُ القُوَى التي بها يتمكنُ المرء من الاهتداء إلى مصالحه، كالقوة العقلية والحواس الباطنة والمشاعر الظاهرة.

الثاني: نَصْبُ الدلائل الفارقة بين الحق والباطل والصلاح والفساد، وإليه الإشارة بقوله: ﴿ وهديناه النجدين ﴾، وقال: ﴿ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ ﴾.

الثالث: الهدايةُ بإرسال الرسل وإنزال الكُتب، وإياها عنى بقوله: ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا ﴾، وقوله: ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾.

الرابع: أن يكشف عن قلوبهم السرائر ويُرِيَهُمْ الأشياء كما هي بالوحي والإلهام والمنامات الصادقة. وهذا يختص بنَيْله الأنبياءُ والأولياءُ، وإياه عنى بقوله: ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ﴾، ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ﴾.

فالمطلوب: إما زيادةُ ما مُنحوه من الهدى والثباتُ عليه، أو حصولُ المراتب المترتبة عليه، فإذا قال العارفُ الواصل عنّي بقوله: أرشدنا طريق السير فيك، لتمحوَ عنا ظلماتِ أحوالنا، وتُميط غواشيَ أبداننا، لنستضيء بنور قدسك فنراكَ بنورك. هـ.

قلت: قوله الرابع... إلخ، في عبارته قلقٌ واختصار، والصواب أن يقول: الرابعُ ـ أن يكشف عن قلوبهم الظُلَمَ والأغيار، ويُشرق عليها الأنوار والأسرار، ويُريهم الأشياء كما هي بالوحي والإلهام، وباستعمال الفكرة في عظمة الملك العلاّم، حتى تستولى أنوارُ المعاني على حِسِّ الأواني، ثم يقول: وهذا قسم يختص بنيله الأنبياء والأولياء.

وقوله: فإذا قال العارف.. إلخ، الصواب أن يقول: فإذا قاله المريد السائر؛ لأن الواصل انمحت عنه الظلماتُ كلها والغواشي وسائرُ الأكدار؛ لأن الله تعالى غطّى وصفه بوصفه ونعته بنعته، فلم يبْقَ له وصفٌ ظُلماني. وأيضا قوله: [أرشدنا إلى طريق السير] إنما يناسب السائر دون الواصل؛ لأن الواصل ما بَقِيَ له إلا الترقي، ولا يُسمى في اصطلاح الصوفية [السير] إلا قبلَ الوصول. والله تعالى أعلم.

ثم فسرّ الطريق المستقيم، فقال:

﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾ ﴾

قلت: (صـراط) بدل من الأول ـ بدل الكل من الكل ـ وهو في حكم تكرير العامل من حيث إنه المقصود بالنسبة، وفائدته: التوكيد والتنصيص على أن طريق المسلمين هو المشهود عليه بالاستقامة، على آكد وجه وأبلغه؛ لأنه جعله كالتفسير والبيان له، فكأنه من البيِّن الذي لا خفاء فيه، وأن الصراط المستقيم ما يكون طريق المؤمنين، و ﴿غير المغضوب عليهم﴾ بدل من (الذين) على معنى أن المُنعَمَ عليهم هم الذين سلِمُوا من الغضب والضلال، أو صفة له مُبيِّنة أو مقيدة على معنى أنهم جمعوا بين النعمة المطلقة، وهي نعمة الإيمان، وبين السلامة من الغضب والضلال، وذلك إنما يصح بأحد تأويلين: إجراء الموصول مجرى النكرة، إذ لم يُقصد به معهود كالمعرَّف في قوله:

وَلَقَـدْ أَمُـرُّ على اللئـيم يَسُـبُّني(١) ....

أو يُجعل (غير) مَعْرِفة؛ لأنه أُضيف إلى ماله ضدٌّ واحد، وهو المنعمُ عليه، فيتعينُ تَعيُّن الحركة غير السكون، وإلا لزم عليه نعت المعرفة بالنكرة. فتأملْهُ.

---

(١) هذا شطر بيت، وتمامه: (فمضيت ثمة قلت لا يعنيني).

والغضبُ: ثَوَرانُ النفس إرادةَ الانتقام، فإذا أسند إلى الله تعالى أريد غايته وهو العقوبة، و (عليهم) نائب فاعل، و (لا) مَزيدة لتأكيد ما في (غير) من معنى النفي، فكأنه قال: ولا المغضوب عليهم ولا الضالين، وقرأ عمرُ رضي الله عنه (وغير الضالين) والضلال: العدول عن الطريق السوي عمدا أو خطأ، وله عـرض عَـريضٌ والتفاوت بين أدناه وأقصاه كبير. قاله البيضاوي.

وإنما أُسند النعمة إلى الله والغضبَ إلى المجهول تعليماً للأدب، ﴿ما أصابك من حسنة فمن اللهِ . . .﴾ الآية.

يقول الحق جل جلاله في تفسير الطريق المستقيم: هو طريق الذين أنعمتُ عليهم بالهداية والاستقامة، والمعرفة العامة والخاصة، من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، والمُنعَم عليهم في الآية مطلق، يصدق بكل منعَمٍ عليه بالمعرفة والاستقامة في دينه، كالصحابة وأضرابِهمْ. وقيل: المراد بهم أصحاب سيدنا موسى عليه السلام قبل التحريف. وقيل: أصحاب سيدنا عيسى قبل التغيير. والتحقيق أنه عام.

قال البيضاوي: ونِعَمُ الله وإن كانت لا تُحصي كما قال الله: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا﴾ تنحصر في جنسين: دنيوي وأخروي.

فالأول : وهو الدنيوي ـ قسمان: موهبي وكَسْبِي، والموهبي قسمان: روحاني، كنفخ الروح فيه وإشراقه بالعقل وما يتبعه من القوى، كالفهم والفكر والنطق، وجسماني: كتخليق البدن بالقوة الحالةً فيه والهيئات العارضة له من الصحة وكمال الأعضاء. والكسبي: كتزكية النفس عن الرذائل، وتحليتها بالأخلاق الحسنة والملكات الفاضلة، وتزيين البدن بالهيئات المطبوعة والحُلي المستحسنة، وحصول الجاه والمال.

والثاني: وهو الأُخروي ـ : أن يغفر له ما فَرَطَ منه ويرضى عنه ويُبوِئَهُ في أعلى علّيين، مع الملائكة المقربين أبد الآبدين، والمراد القسمُ الأخير، وما يكون وُصلْة إلى نيله من القسم الأول، وأما ما عدا ذلك فيشترك فيه المؤمن والكافر.هـ.

قال ابن جُزَيّ: النعم التي يقع عليها الشكر ثلاثة أقسام، دنيوية: كالصحة والعافية والمال الحلال. ودينية: كالعلم والتقوى والمعرفة. و أخرويةٌ:كالثواب على العمل القليل بالعطاء الجزيل. وقال أيضا: والناس في الشكر على مقامين: منهم من يشكر على النعم الواصلة إليه، الخاصة به، ومنهم من يشكر الله عن جميع خلقه على النعم الواصلة إلى جميعهم. والشكر على ثلاث درجات: فدرجة العوام: الشكر على النعم، ودرجة الخواص: الشكر على النعم والنقم وعلى كل حال، ودرجة خواص الخواص: أن يغيب عن رؤية النعمة بمشاهدة المُنعم. قال رجل

لإبراهيم بن أدهم رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: الفقراء إذا أُعطُوا شَكَرُوا وإذا مُنعوا صَبَرُوا، فقال إبراهيم: هذه أخلاقُ الكلاب، ولكن القومَ إذا مُنعوا شكروا وإذا أُعْطُوا آثروا . هـ.

ثم احترس من الطريق غير المستقيمة، فقال: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ أى: غير طريق الذين غضبت عليهم، فلا تهدنا إليها ولا تسلك بنا سبيلها، بل سلِّمنا من مواردها. والمراد بهم: اليهود، كذا فسرها النبى ﷺ، ويَصْدُقُ بحسب العموم على كل من غضب الله عليهم، ﴿ولا الضالين﴾ أى: ولا طريق الضالين، أى: التالفين عن الحق، وهم النصارى كما قال ﷺ. والتفسيران مأخوذان من كتاب الله تعالى. قال تعالى فى شأن اليهود: ﴿فباءوا بغضب على غضب﴾، وقال في حق النصارى: ﴿قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيراً وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾.

واعلم أن الحق - سبحانه - قسم خلقه على ثلاثة أقسام: قسم أعدهم للكرم والإحسان، ليُظْهِرَ فيهم اسمه الكريم أو الرحيم، وهم المنعم عليهم بالإيمان والاستقامة. وقسم أعدَّهم للانتقام والغضب، ليُظهر فيهم اسمه المنتقم أو القهار، وهم المغضوب عليهم والضالون عن طريق الحق عقلاً أو عملاً، وهم الكفار، وقسم أعدَّهم الله للحِلْم والعفو، ليُظهر فيهم اسمه تعالى الحليم والعفو، وهم أهل العصيان من المؤمنين.

فمن رَامَ أن يكونَ الوجودُ خالياً من هذه الأقسام الثلاثة، وأن يكون الناس كلهم سواء في الهداية أو ضدها، فهو جاهل بالله وبأسمائه؛ إذ لابد من ظهور آثار أسمائه في هذا الآدمي، من كرم وقهرية وحِلْم وغير ذلك. والله تعالى أعلم.

الإشارة: الطريق المستقيم التى أمرنا الحق بطلبها هى: طريق الوصول إلى الحضرة، التي هى العلم بالله على نعت الشهود والعيان، وهو مقام التوحيد الخاص، الذى هو أعلى درجات أهل التوحيد، وليس فوقه إلا مقامُ توحيد الأنبياء والرسل، ولابدَّ فيه من تربية على يد شيخ كامل عارف بطريق السير، قد سلك المقامات ذوقا وكشفا، وحاز مقام الفناء والبقاء، وجمع بين الجذب والسلوك؛ لأن الطريق عويص، قليلٌ خُطَّارُهُ، كثيرٌ قُطَّاعُه، وشيطانُ هذه الطريق فَقِيهٌ بمقاماته ونوازله، فلابد فيه من دليل، وإلا ضل سالكها عن سواء السبيل، وإلى هذا المعنى أشار ابن البناء، حيث قال:

وَإِنَّمَا الْقَوْمُ مُسَافِرُونَ لِحَضْرَةِ الْحَقِّ وَظَاعِنُونَ
فَافْتَقَرُوا فِيهِ إِلَى دَلِيلِ ذِى بَصَرٍ بِالسَّيْرِ وَالْمَقِيلِ
قَدْ سَلَكَ الطَّرِيقَ ثُمَّ عَادَ لِيُخْبِرَ الْقَوْمَ بِمَا اسْتَفَادَ

وقال في لطائف المنن: (من لم يكن له أستاذ يصله بسلسلة الأتباع، ويكشف له عن قلبه القناع، فهو في هذا الشأن لَقيطٌ لا أب له، دَعيٌ لا نَسَبَ له، فإن يكن له نور فالغالب غلبة الحال عليه، والغالب عليه وقوفه مع ما يرد من الله إليه، لم تَرُضْهُ سياسةُ التأديب والتهذيب، ولم يقُدْه زمامُ التربية والتدريب)، فهذا الطريق الذي ذكرنا هو الذي يستشعره القارئ للفاتحة عند قوله: ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ مع الترقي الذي ذكره الشيخ أبو العباس المرسي رضي الله عنه المتقدم، وإذا قرأ ﴿صراط الذين أنعمت عليهم﴾ استشعر، أي: أنعمتَ عليهم بالوصول والتمكين في معرفتك.

وقال الورتجبي: اهدنا مُرَادَك منّا؛ لأن الصراط المستقيم ما أراد الحق من الخلق، من الصدق والإخلاص في عبوديته وخدمته. ثم، قال: وقيل: اهدنا هُدَى العِيَانِ بعد البيان، لنستقيم لك حسب إرادتك. وقيل: اهدنا هُدَى مَنْ يكون منك مبدؤه ليكون إليك منتهاه. ثم قال: وقال بعضهم: اهدنا، أي: ثبِّتنا على الطريق الذي لا اعوجاج فيه، وهو الإسلام، وهو الطريق المستقيم والمنهاج القويم ﴿صراط الذين أنعمت عليهم﴾ أي: منازل الذين أنعمت عليهم بالمعرفة والمحبة وحسن الأدب في الخدمة. ثم قال: ﴿غير المغضوب عليهم﴾ يعني: المطرودين عن باب العبودية، ﴿ولا الضالين﴾ يعني المُفْلسين عن نفائس المعرفة هـ.

قلت: والأحسن أن يقال: ﴿غير المغضوب عليهم﴾ هم الذين أوْقَفَهُمْ عن السير اتباعُ الحظوظ والشهوات، فأوقعهم في مهَاوِي العصيان والمخالفات، ﴿ولا الضالين﴾ هم الذين حبسهم الجهل والتقليد، فلم تنفُذْ بصائرهم إلى خالص التوحيد، فنكصوا عن توحيد العيان إلى توحيد الدليل والبرهان، وهو ضلال عند أهل الشهود والعِيان، ولو بلغ في الصلاح غايةَ الإمكان.

وقال في الإحياء: إذا قلت ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ فافْهَمْ أن الأمور كلها بالله، وأن المراد هاهنا المُسمّى، وإذا كانت الأمورُ كلها بالله فلا جرَم أنَّ الحمد كله لله، ثم قال: وإذا قلت: ﴿الرحمن الرحيم﴾ فأحضرْ في قلبك أنواعَ لطفه لتتفتحَ لك رحمتُه فينبعث به رجاؤك، ثم استشعر من قلبك التعظيم والخوف من قولك: ﴿يوم الدين﴾. ثم قال: ثم جدِّد الإخلاص بقولك: ﴿إياك نعبد﴾. وجدِّد العجز والاحتياج والتبرِّيَ من الحوْل والقوة بقولك: ﴿وإياك نستعين﴾، ثم اطلب اسم حاجتك، وقل: ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ الذي يسوقنا إلى جوارك ويُفضي بنا إلى مرضاتك، وزِدْهُ شرحاً وتفصيلاً وتأكيداً، واستشهد بالذين أفاض عليهم نعم الهداية من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، دون الذين غضب عليهم من الكفار والزائغين واليهود والنصارى والصابئين. هـ. ملخصاً.

وقال القشيري: قوله تعالى: ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ الأمر في هذه الآية مضمر، أي: قولوا: اهدنا. والصراط المستقيم: طريق الحق، وهو ما عليه أهل التوحيد، أي: أرشدنا إلى الحق لئلا نتكل على وسائط المعاملات، فيقعَ على وجه التوحيد غُبَارُ الظنون والحسابات لتكون دليلنا عليك. ثم قال: ﴿صراط الذين أنعمت عليهم﴾ أي: الواصلين بك إليك، ثم قال: ﴿غير المغضوب عليهم﴾ بنسيان التوفيق والتّعامي عن رؤية التأييد، ﴿ولا الضالين﴾ عن شهودِ سابقِ الاختيار، وجريان تصاريف الأقدار. هـ.

تتمات:

الأولى : هذه السورة جمعت معاني القرآن كلّها، فكأنها نُسْخَةٌ مختصرة منه، ولذلك سُميت أُمّ القرآن، فالإلهيات حاصلة من قوله: ﴿الحمد لله رب العالمين. الرحمن الرحيم﴾، والدارُ الآخرةُ من قوله: ﴿ملك يوم الدين﴾، والعبادات كلّها من الاعتقادات والأحكام الظاهرة التي تقتضيها الأوامر والنواهي، من قوله: ﴿إياك نعبد﴾ والمقامات وأسرار المعاملات الباطنة ـ تخلية وتحلية ـ من قوله: ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ والأنبياء وغيرهم من قوله: ﴿الذين أنعمت عليهم﴾ وذكر طوائف الكفار من قوله: ﴿غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾.

وقال الشيخ ابن أبي جمرة رضي الله عنه في بيان تضمنها لكتاب الله: إن لفظ (الحمد) يتضمن كل ما في كتاب الله من الحمد والشكر؛ لأن الحمد أعمُّ من الشكر، وأتى بالعام ليدل على الصفتين. ولفظة (الله) تدل على ما في الكتاب العزيز من أسماء الترفيع والتعظيم؛ لأنه قيل: إنه اسم الله الأعظم، ولفظ: ﴿رب العالمين﴾ يدل على ما فيه من أسماء الله، سبحانه، وعلى العوالم وعلى اختلافها وخالقها والمتصرف فيها. ولفظ: ﴿الرحمن الرحيم﴾ يتضمن كل ما في الكتاب من المغفرة والرحمة والإنعام والعفو والإفضال، ولفظ ﴿ملك يوم الدين﴾ يدل على ما فيه من ذكر الآخرة وما فيه من الأهوال، ولفظ ﴿إياك نعبد﴾ يتضمن ما فيه من التعبُّدَاتِ وإفرادهُ بالألوهية، ولفظ ﴿إياك نستعين﴾ يدل على ما فيه من طلب الاستعانة وذكر الاضطرار، ولفظ ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ يتضمن ما فيه من طلب الهداية إلى سبيل الخير، ولفظ: ﴿صراط الذين أنعمت عليهم﴾ يتضمن ما فيه من ذكر الخصوص والمَرْضيّ عنهم والمعفوّ عنهم وأهل السعادة، ولفظ ﴿غير المغضوب عليهم﴾ يتضمن ما فيه من أنواع الكفر والمخالفات ومساوئهم ومآلهم فاستحقّتْ أن تُسمى أُمّاً .هـ.

وعن علي ـ كرم الله وجهه ـ قال: (شرح موسى ﷺ التوراة في سبعين سفراً، ولو أذن لي رسول الله ﷺ لأوقرت على الفاتحة سبعين بعيرا). قلت: قوله (سبعين) تقريباً، وإلا فهي قابلة لأكثر من ذلك، وتفصيل ذلك يطول، وقد ذكرنا أصول علومها في شرحنا الكبير عليها. والله تعالى أعلم.

الثانية: قال ابن جُزَيّ: قولنا: ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ أفضل عند المحققين من (لا إله إلا الله) لوجهين: أحدهما: ما أخرج النسائيُّ: عن رسول الله ﷺ «أنه مَنْ قَالَ: لا إلهَ إلا اللهُ، كُتِبَتْ له عشرون حسنة، ومن قال: الحمدُ لله ربِّ العالمين، كتبتْ له ثلاثون حسنة». والثاني: أن التوحيد الذي تقتضيه (لا إله إلا الله)، حاصل في قولك: (رب العالمين) وزادت بقولك: الحمد لله، وفيه من المعاني ما قدَّمْنَا. وأما قوله ﷺ: «أفضلُ ما قُلْته أنا والنبيون من قبْلِي: لا إلهَ إلا اللهُ» فإنما ذلك للتوحيد الذي تقتضيه، وقد شاركتْها (الحمد لله رب العالمين) في ذلك وزادت عليهـا. وهذا لمؤمن حقَّقَ إيمانَه وطلب الثواب، وأما لمـن دخل في الإسـلام فيتعيّنُ «لا إله إلا الله». هـ.

قلت: والتحقيقُ أن كل ما يدل على التوحيد من الألفاظ يكفي في الدخول في الإسلام، كما قال البنانيُّ في حاشيته.

الثالثة: قراءة الفاتحة في الصلاة واجبة عند مالك والشافعي خلافا لأبي حنيفة، وقد ذكرنا في الشرح الكبير منشأ الخلاف.

الرابعة: التأمين عند خَتْم الفاتحة مطلوبٌ للدعاء الذي فيها، قال رسول الله ﷺ: «ما حَسَدَتْكُم اليهودُ على شَيْءٍ مَا حَسَدَتْكُمْ عَلَى السَّلامِ والتَّأمينِ». رواه ابن ماجة. وقال أيضا ﷺ: «إن الله أعطاني خصالاً ثلاثةً: أعطاني صلاة الصُّفوف وأعطاني التحية، وإنها لتحيةُ أهل الجنة، وأعطاني التأمينَ، ولم يُعْطِه أحداً من النبيين قبلي، إلا أن يكون الله أعطاه هارون، يدعو موسى ويؤمِّن هارون» رواه ابن خزيمة. وسمِع عليه الصلاة والسلامِ رجلا يدعو ويلحُّ فقال: «أوْجَبَ إنْ ختَم» فقال بعض القوم: بأيِّ شيء يخْتِم؟ فقال: «يؤمِّنْ؛ فإنه إنْ خَتَم بآمين فَقَدْ أَوْجَبَ». قال أبو زُهيرٍ ـ راوي الحديث ـ فإن آمين مِثْلُ الطَّابَعِ على الصحيفة. ولعلّه مرفوع إلى النبي ﷺ، رواه أبو داود.

ولفظ ﴿آمين﴾ بالمدِّ والقَصْرِ مُخففاً. وتشديد الميم لُغَةٌ. قيل: هو اسم من أسماء الله تعالى.. وقيل معناه: اللهم استجبْ، أو كذلك فافعل، أو كذلك فليكن. قاله المنذري في الترغيب. قال البيضاوي: بني على الفتح كأيْنَ لالتقاء الساكنين، وجاء مدُّ ألِفِه وقَصْرُها. قال:

ويرحمُ اللهُ عـبـداً قـال آمـينا (١)

---

(١) هذا شطر بيت، أوله: (يا رب لا تسلبنّي حُبها أبدا....) ونسبه ابن منظور في اللسان إلى عمر بن أبي ربيعة. قلت: وقد أغفل الشيخ المفسر ذكر مثال القصر. وهو كما في أنوار التنزيل ولسان العرب:

تباعد مني فطحل، إذ سألته أمين فزاد الله ما بيننا بُعْدا

وليس من القرآن اتفاقا ، ولكن يسَنُّ ختمُ السورة به لقوله عليه الصلاة والسلام: «علّمني جبريل عليه السلام آمينَ عند فراغي من قراءة الفاتحة» . وقال: إنّه كالختم على الكتاب .

ويقولُه الإمامُ ويجهرُ به في الجهرية، لما رُوِيَ عن وائل بن حُجْر «أنه عليه الصلاة والسلام كان إذا قرأ: ﴿ولا الضالين﴾ قال: آمين، رفع بها صوته» وعن أبي حنيفة ـ رحمه الله ـ أنه لا يقوله. والمشهور عنه أنه يُخفيه كما رواه عبدالله بنُ مُغفل وأنس. قلت: ومشهورُ مذهب مالك أن الإمام لا يقولُه في الجهرية.

ثم قال: والمأموم يؤمِّن معه لقوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «إذا قال الإمامُ ولا الضالين، فقولوا: آمينَ، فإن الملائكةَ تقولُ: آمين، فمن وافَق تأمينُه تأمينَ الملائكة غُفِرَ له ما تقدَّم من ذنبه» . وبالله التوفيق، وهو الهادي إلى سواء الطريق. وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد عيْنِ الحق والتحقيق، وعلى آله وصحبه المطهرين بعده، أعلام الطريق، وسلم تسليماً.

سُورَةُ البَقَرَة

قال سيدنا علي ـ كرم الله وجهه ـ: (أول سورة نزلت بالمدينة سورة البقرة)(١). وفيها ستة آلاف ومائة وإحدى وعشرون كلمة، ومائتان وست وثمانون آية، وقيل: سبع وثمانون. قال رسول الله ﷺ: «لِكلِّ شيءٍ سَنَامٌ، وإنّ سَنَامَ القُرآنِ سُورةُ البقرةِ. مَنْ قرأها في بيته نهاراً لم يَدْخُلْهُ شيطانٌ ثلاثةَ أيام، ومَن قرأها في بيته ليلاً لَمْ يدْخُله شيطانٌ ثلاثَ ليالٍ، وفيها سيِّدَةُ آي القرآن، وهي آيةُ الكرسي» . وإنما كانت سنام القرآن، أي ذروته؛ لأنها اشتملت على جملة ما فيه من أحوال الإيمان وفروع الإسلام.

وقال ﷺ : «أُعطيتُ سورةَ البقرةِ من الذكرِ الأول، وأُعطيتُ طَهَ والطواسين من ألواحِ موسى، وأُعطيتُ فاتحة الكتابِ، وخواتيمَ البقرةِ من تحتِ العرشِ» .

ثم افتتح السورة برموز رمز بها بينه وبين حبيبه، فقال: ﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ ﴾

وقد حارت العقول في رموز الحكماء، فكيف بالأنبياء؟ فكيف بالمرسلين؟ فكيف بسيد المرسلين؟، فكيف يطمع أحد في إدراك حقائق رموز رب العالمين؟! قال الصديق رضي الله عنه : (في كل كتاب سر وسر القرآن فواتح السور). هـ. فمعرفة أسرار هذه الحروف لا يقف عليها إلا الصفوة من أكابر الأولياء. وكل واحد يلمع له على قدر صفاء شربه.

وأقرب ما فيها أنها أشياء أقسم الله بها لشرفها. فقيل: إنها مختصرة من أسمائه تعالى، فالألف من الله، واللام من اللطيف، والميم من مهيمن أو مجيد. وقيل: من أسماء نبيه ﷺ فالميم مختصرة إما من المصطفى، ويدل عليه زيادة الصاد في ﴿ الٓمٓصٓ ﴾، أو من المرسل، ويدل عليه زيادة الراء في ﴿ الٓمٓرٰ ﴾. و﴿ الٓرٰ ﴾ مختصرة من الرسول. فكأن الحق تعالى يقول: يا أيها المصطفى، أو يا أيها الرسول ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ أو ﴿هذا كتاب أنزل إليك﴾ أو غير ذلك، ويدل على هذا توجيه الخطاب إليه ﷺ بعد هذه الرموز. و﴿ كٓهيعٓصٓ ﴾ مختصرة من الكافي والهادي والولي والعالم والصادق، و﴿ طه ﴾ من طاهر، و﴿ طس ﴾ من يا طاهر يا سيد، ويا محمد في ﴿ طسٓمٓ ﴾، إلى غير ذلك.

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤٦/١ عن عكرمة وعزاه لأبي داود في الناسخ والمنسوخ. ولم أقف عليه منسوباً إلى سيدنا علي ـ كرم الله وجهه ـ.

وعند أهل الإشارة يقول الحق جل جلاله: ألف: أَفْرِدْ سِرَّك إليَّ، انفراد الألف عن سائر الحروف، واللام: لَيِّنْ جوارحك لعبادتي، والميم: أقم معي بمحو رسومك وصفاتك، أزينك بصفاء الأنس والقرب مني. قاله الثعلبي.

قلت: والأظهر أنها حروف تشير للعوالم الثلاثة، فالألف لوحدة الذات في عالم الجبروت، واللام لظهور أسرارها في عالم الملكوت، والميم لسريان أمدادها في عالم الرحموت، والصاد لظهور تصرفها في عالم الملك. وكل حرف من هذه الرموز يدل على ظهور أثر الذات في عالم الشهادة، فالألف يشير إلى سريان الوحدة في مظاهر الأكوان، واللام: يشير إلى فيضان أنوار الملكوت من بحر الجبروت، والميم يشير إلى تصرف الملك في عالم الملك، وكأن الحق تعالى يقول: هذا الكتاب الذي تتلو يا محمد ـ هو فائض من بحر الجبروت إلى عالم الملكوت، ومن عالم الملكوت إلى الرحموت، ثم نزل به الروح الأمين إلى عالم الملك والشهادة، فلا ينبغي أن يرتاب فيه، ولذلك رتب عليه قوله تعالى:

﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ ... ﴾

قلت : الريب: تحرُّك القلب واضطرابه بالشكوك والأوهام، وتقابله الطمأنينة بالسكون إلى الحق على الدوام.

يقول الحق جل جلاله: يا أيها الرسول المصطفى والنبي المجتبى ﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ ﴾ الذي أنزلناه عليك من جبروت قدسنا وملكوت عزنا ﴿ لا رَيْبَ فِيهِ ﴾ أنه من عندنا. فمن ارتاب فيه، أو نسبه إلى غيرنا، فقد استحق البعد من ساحة رحمتنا، وحلت عليه شدائد نقمتنا، ومن تحقق به أنه من لدنا، وآمن بمن جاء به من عندنا، فقد استحق دخول حضرة قدسنا حتى يسمع منا ويتكلم بنا، فإذا أحببته كنت له، فبي يسمع، وبي يبصر، وبي يتكلم.... الحديث. فيكون من الصديقين المقربين مع النبيين والمرسلين، وكان في ذروة درجات المتقين، الذين يهتدون بهدى القرآن المبين، كما أشار إلى ذلك بقوله:

﴿ ... هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ﴾

قلت : (هدى) خبر عن مبتدأ مضمر، أو مبتدأ بتقديم الخبر. أي: هو هاد للمتقين، أو فيه الهدى لهم. والهدى: هو الإرشاد والبيان، ومعناه: الدلالة الموصلة إلى الحق. والمتقي: من جعل بينه وبين مقت الله وقاية، وله ثلاث درجات:

- حفظ الجوارح من المخالفات،
- وحفظ القلوب من المساوئ والهفوات،
- وحفظ السرائر من الوقوف مع المحسوسات،

فالأولى لمقام الإسلام، وإليه توجه الخطاب بقوله: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾، والثانية لمقام الإيمان، وإليه توجه الخطاب بقوله: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الأَلْبَابِ ﴾، والثالثة لمقام الإحسان، وإليه توجه الخطاب بقوله: ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ ﴾.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ ﴾ الذي لا يقرب ساحته شكٌ ولا ارتياب، هو عين الهداية لأهل التقى من ذوي الألباب، فلا يزالون يترقَّون به في المقامات والأحوال حتى يسمعوه من الكبير المتعال، بلا واسطة تبليغ ولا إرسال، قد انمحت في حقهم الرسوم والأشكال، وهذه غاية الهداية، وتحقيق سابق العناية.

قال جعفر الصادق: (والله لقد تجلى الله تعالى لخلقه في كلامه ولكن لا يشعرون) وقال أيضا - وقد سألوه عن حالة لحقته في الصلاة حتى خر مغشيا عليه، فلما سُرِّيَ عنه، قيل له في ذلك فقال -: (مازلت أردد الآية على قلبي حتى سمعتها من المتكلم بها، فلم يثبت جسمي لمعاينة قدرته).

فدرجات القراءة ثلاث:

أدناها: أن يقرأ العبد كأنه يقرأ على الله تعالى واقفاً بين يديه، وهو ناظر له ومستمع منه، فيكون حاله السؤال والتملق والتضرع والابتهال.

والثانية: أن يشهد بقلبه كأن الله تعالى يخاطبه بألفاظه، ويناجيه بإنعامه وإحسانه، فمقامه الحياء والتعظيم، والإصغاء والفهم.

والثالثة: أن يرى في الكلام المتكلم، فلا ينظر إلى نفسه ولا إلى قراءته، بل يكون فانياً عن نفسه، غائباً في شهود ربه، لم يبق له عن نفسه إخبار ولا مع غير الله قرار.

فالأولى لأهل الفناء في الأفعال، والثانية لأهل الفناء في الصفات، والثالثة لأهل الفناء في شهود الذات، رضي الله عنهم، وحشرنا على منهاجهم.. آمين.

ثم وصف المتقين، الذين خصوا بهداية كتابه المبين، بثلاثة أوصاف، فقال:

﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ (٣) ﴾

قلت: هذه الأوصاف تتضمن ثلاثة أعمال: الأول: عمل قلبي وهو الإيمان، والثاني: عمل بدني، وهو الصلاة، والثالث: عمل مالي، وهو الإنفاق في سبيل الله، وهذه الأعمال هي أساس التقوى التي تدور عليها.

أما العمل القلبي: فهو الإيمان أولاً، والمعرفة ثانياً، فما دام العبد محجوباً بشهود نفسه، محصوراً في الأكوان وفي هيكل ذاته فهو مؤمن بالغيب، يؤمن بوجود الحق تعالى، وبما أخبر به من أمور الغيب، يستدل بوجود أثره عليه، فإذا فني عن نفسه وتلطفت دائرة حسه، وخرجت فكرته عن دائرة الأكوان، أفضى إلى الشهود والعيان، فصار الغيب عنده شهادة، والملك ملكوتاً، والمستقبل حالاً، والآتي واقعا، وقد قلت في ذلك:

فَـلا تَرْضَى بِغَـيْـرِ الله حِـبًّـا ... وكُنْ أبداً بِعِـشْقٍ واشْـتِـيَـاقِ
تَرَى الأمْـرَ الْمُـغَـيَّبَ ذا عِـيَـانٍ ... وتَحْظَى بالوِصُـولِ وبالتَّـلاقِي

وفي الحِكم: «لو أشرق نور اليقين في قلبك لرأيت الآخرة أقرب من أن ترحل إليها، ولرأيت بهجة الدنيا وكسوة الفناء ظاهرة عليها». وقال في التنوير: ولو انهتك حجاب الوهم لوقع العيان على فقد الأعيان، ولأشرق نور الإيقان فغطى وجود الأكوان. هـ.

وإنما اقتصر الحق تعالى على الإيمان بالغيب لأنه هو المكلف به؛ إذ هو الذي يطيقه جل العباد، بخلاف المعرفة الخاصة فلا يطيقها إلا الخصوص، والله تعالى أعلم.

وأما العمل البدني: فهو إقامة الصلاة، والمراد بإقامتها إتقان شروطها وأركانها وخشوعها، وحفظ السر فيها، قال الشيخ أبو العباس المرسي رضي الله عنه: (كل موضع ذكر فيه المصلون في معرض المدح فإنما جاء لمن أقام الصلاة، إما بلفظ الإقامة، وإما بمعنى يرجع إليها، قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ ﴾، وقال تعالى: ﴿ أَقِمِ الصَّلاةَ ﴾، ﴿ وَالْمُقِيمِي الصَّلاةِ ﴾، ولما ذكر المصلين بالغفلة قال: ﴿ فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون ﴾ ولم يقل: فويل للمقيمين الصلاة.).

وأما العمل المالي فهو الإنفاق في سبيل الله واجبا أو مندوبا، وهو من أفضل القربات، يقول الله ـ تبارك وتعالى ـ: «يا ابن آدم أنفِقْ، أُنفِقْ عليك»، وفي حديث آخر: «أنفِقْ ولا تخَفْ مِنْ ذي العرش إقْلالا»، وقال ﷺ: «إنَّ في الجنَّةِ غُرفًا يُرى ظَاهِرُهَا مِنْ باطنها وباطِنُهَا مِنْ ظَاهِرِهَا. قيل لِمَنْ هي يارسولَ الله؟ قال: لِمَنْ أطْعَمَ الطعَامَ، وأفْشَى السلام، وصَلى بالليْلِ والناسُ نيام». وقال أيضا ﷺ: «إن الله ـ عز وجل ـ ليُدْخِلُ باللقمةِ من الخبز والقبضةِ مِن التمرِ ومثله مما ينتفع به المسكين ثلاثةً، الجنةَ: رَبَّ البيتِ الآمِرَ به، والزوجةَ تصلحه، والخادمَ

الذي يتناوله المسكين» . وقال أيضاً : ﷺ «إنّ الصدقةَ لتسدُّ سبعين باباً من السّوء» . وقال أيضاً ﷺ : «صنائع المعْروف تقي مَصارعَ السُّوءِ، وصدقةُ السِّر تُطفيء غضَبَ الربِّ، وصِلةُ الرَّحِمِ تزيدُ في العمرِ» .

الإشارة: يا من غرق في بحر الذات وتيار الصفات (ذلك الكتاب) الذي تسمعه من أنوار ملكوتنا، وأسرار جبروتنا (لاريب فيه) أنه من عندنا، فلا تسمعه من غيرنا، (فإذا قرأناه فاتبع قرآنه)، فهو هاد لشهود ذاتنا، ومرشد للوصول إلى حضرتنا، لمن اتقى شهود غيرنا، وغرق في بحر وحدتنا، الذي يؤمن بغيب غيبنا، وأسرار جبروتنا، التي لا تحيط بها العلوم، ولا تسمو إلى نهايتها الأفكار والفهوم، الذي جمع بين مشاهدة الربوبية، والقيام بوظائف العبودية، إظهارا لسر الحكمة بعد التحقق بشهود القدرة، فهو على صلاته دائم، وقلبه في غيب الملكوت هائم، ينفق مما رزقه الله من أسرار العلوم ومخازن الفهوم، فهو دائما ينفق من سعة علمه وأنوار فيضه، فلا جرم أنه على بينة من ربه.

ولمّا ذكر الحق تعالى من آمن من العرب، ذكر من آمن من أهل الكتاب، فقال:

﴿ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾ ﴾

قلت: الموصول مبتدأ ، و(أولئك) خبره، أو عطف على (المتقين)، وحذف المنزل عليه في جانب الكتب المتقدمة، فلم يقلْ: وما أنزل على من قبلك؛ إشارة إلى أن الإيمان بالكتب المتقدمة دون معرفة أعيان المنزل عليهم كاف، إلا من ورد تعيينُه في الكتاب والسنة فلابد من الإيمان به، أما القرآن العظيم فلابد من الإيمان أنه منزل على نبينا محمد ﷺ، فمن اعتقد أنه منزل على غيره كالروافض فإنه كافر بإجماع، ولذلك ذكر المتعلق بقوله: ﴿ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾ .

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وَالَّذِينَ ﴾ يصدقون ﴿ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾ يا محمد من الأخبار الغيبية والأحكام الشرعية، والأسرار الربانية والعلوم اللدنية ﴿ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ﴾ من الكتب السماوية، والأخبار القدسية، وهم ﴿ يُوقِنُونَ ﴾ بالبعث والحساب والرجوع إلينا والمآب، على نعتِ ما أخبرتُ به في كتابي وأخبار أنبيائي، ﴿ أُوْلَئِكَ ﴾ راكبون على مَتْنِ الهداية، مُسْتَعْلُون على محمل العناية، محفوفون بجيش النصر والرعاية، ﴿ وَأُوْلَئِكَ هُمُ ﴾ الظافرون بكل مطلوب، الناجون من كل مخوف ومرهوب، دون من عداهم ممن

سبق له الخذلان، فلم يكن له إيمان ولا إيقان، فلا هداية له ولا نجاح، ولا نجاة له ولا فلاح، نسأل الله العصمة بمنّه وكرمه.

الإشارة : قلت: كأن الآية الأولى في الواصلين، والثانية في السائرين، لأن الأولين وصفهم بالإنفاق من سعة علومهم، وهؤلاء وصفهم بالتصديق في قلوبهم، فإن داموا على السير كانوا مفلحين فائزين بما فاز به الأولون. فأهل الآية الأولى من أهل الشهود والعيان، وأهل الثانية من أهل التصديق والإيمان. أهل الأولى ذاقوا طعم الخصوصية، فقاموا بشهود الربوبية وآداب العبودية، وأهل الثانية صدقوا بنزول الخصوصية ودوامها، واستنشقوا شيئا من روائح أسرارها وعلومها، فهم يوقنون بوجود الحقيقة، عالمون برسوم الطريقة، فلا جرم أنهم على الجادة وطريق الهداية، وهم مفلحون بالوصول إلى عين العناية. دون الفرقة الثالثة التي هي بالإنكار موسومة، ومن نيل العناية محرومة، التي أشار إليها الحق تعالى بقوله:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٧﴾ ﴾

قلت : (سواء) خبر مقدم، و(أنذرتهم) مبتدأ لسبك همزة التسوية، أي: الإنذار وعدمه سواء في حق هؤلاء الكفرة، والجملة خبر إن، و(غشاوة) مبتدأ، والجار قبله خبره، والغشاوة: ما يغشى الشيء ويغطيه، كنى به عن مانع قهرهم عن الإيمان.

يقول الحق جل جلاله : يامحمد ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ بما أنزل إليك جهراً، وسبقت لهم مني الشقاوة سراً، لا ينفع فيهم الوعظ والإنذار، ولا البشارة والتذكار، فإنذارك وعدمه في حقهم سواء، لما سبق لهم مني الطرد والشقاء، فالتذكير في حقهم عناء، والغيبة عن أحوالهم راحة وهناء، لأني ختمتُ على قلوبهم بطابع الكفران، فلا يهتدون إلى إسلام ولا إيمان، ومنعت أسماعهم أن تصغي إلى الوعظ والتذكير، فلا ينجع فيهم تخويف ولا تحذير، وغشيت أبصارهم بظلمة الحجاب فلا يبصرون الحق والصواب، قد أعددتُهم لعذابي ونقمتي، وطردتهم عن ساحة رحمتي ونعمتي.

وإنما أمرتك بإنذارهم لإقامة الحجة عليهم، وإني وإن حكمت عليهم أنّهم من أهل مخالفتي وعنادي؛ فإني لاأظلم أحدا من خلقي وعبادي، ﴿ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾. فما ظلمتُهم؛ لأني بعثتُ الرسلَ مبشرين ومنذرين، ولكن ظلموا أنفسهم فكانوا هم الظالمين، فحكمتي اقتضت الإنذار، وقدرتي اقتضت

القهر والإجبار، فالواجب عليك أيها العبد أن تكون لك عينان: عين تنظر لحكمتي وشريعتي فتتأدب، وعين تنظر لقدرتي وحقيقتي فتسلم، وتكون بين الأمن والرهب، فلا تأمنْ مكْري وإن أمنتُك، ولا تيأس من حلمي وإن أبعدتك، فعلمي لا يحيط به محيط، إلا من هو بكل شيء محيط.

الإشارة: إن الذين أنكروا وجود الخصوصية، وجحدوا أهل مشاهدة الربوبية من أهل التربية النبوية، لا ينفع فيهم الوعظ والتذكير، بما سبق لهم في علم الملك القدير، فسواء عليهم أأنذرتهم وبال القطيعة والحجاب، أم لم تنذرهم؛ لعدم فتح الباب، قد ختم الله على قلوبهم بالعوائد والشهوات، أو حلاوة الزهد والطاعات، أو تحرير المسائل والمشكلات، وعلى سمع قلوبهم بالخواطر والغفلات، وجعل على أبصارهم غشاوة الحجاب، فلا يبصرون إلا المحسوسات، غائبون عن أسرار المعاني وأنوار التجليات، بخلاف قلوب العارفين، فإنها ترى من أسرار المعاني مالا يُرى للناظرين، وفي ذلك يقول الشاعر:

قلوبُ العارفين لَهَا عُيُونٌ ... تَرى مَالا يُرى للناظرينا
وألسنةٌ بأسْرارٍ تُنَاجِي ... تغيبُ عن الكِرَام الكَاتِبِينَا
وأجنحةٌ تَطيرُ بغيرِ ريشٍ ... إلى ملكوتِ ربِّ العَالَمِينَا[1]

فسبحان من حجب العالمين بصلاحهم عن مصلحهم، وحجب العلماء بعلمهم عن معلومهم، واختص قوماً بنفوذ عزائمهم إلى مشاهدة ذات محبوبهم، فهم في رياض ملكوته يتنزهون، وفي بحار جبروته يسبحون، ﴿لمثل هذا فليعمل العاملون﴾.

ولما ذكر الحق ـ جل جلاله ـ من أعلن بالإنكار، ذكر من أسرَّ بالجحود وأظهر الإقرار، فقال جل وعلا:

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ ﴾

قلت: (من) موصوفة مبتدأ، والخبر مقدم، أي: ومن الناس ناس يقولون كذا، والمخادعة: إظهار خلاف ما يخفى من المكروه، وأصل الخدع: الإخفاء، ومنه المخدع للبيت الذي يخبأ فيه المتاع. وقيل: الفساد لأن المنافقين

(١) تنسب هذه الأبيات للحلاج، كما تنسب لميمونة السوداء في قصة مع إبراهيم بن أدهم.. راجع كتاب عقلاء المجانين.

يفسدون إيمانهم بما يُخفُون، وجملة (وما يشعرون) حالية، أي: غير شاعرين، والشعور: التفطن، وفعله من باب كَرُم ونَصَر. وليت شعري: أي: ليت فطنتي تدرك ـــا، وجملة (في قلوبهم مرض) تعليلية للمخادعة، والمرض: الضعف والفتور، وهو هنا مرض القلوب بالشك والنفاق. والعياذ بالله.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾ مر م مغموص عليهم بالنفاق كبعض اليهود والمنافقين، يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم، يقولون: ﴿آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ وما هم في عداد المؤمنين، ﴿يُخَادِعُونَ﴾ بزعمهم ﴿اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ بما يظهرون من الإيمـان، ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ﴾ في الحقيقة ﴿إِلاَّ أَنفُسَهُمْ﴾؛ لأن وبال خداعهـم راجع إليهم، ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أن خداعهـم وبال عليهم، وإنما حصلت لهم هذه المخادعة لأن ﴿فِي قُلُوبِهِم﴾ مرضاً من الشك والحسد، فقلوبـهم مذبـذبـة، وأنفسـهم مغمومـة، ﴿فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً﴾ على مرضهم بما ينزل عليهم من الآيات التي تفضحهم، ﴿وَلَهُمْ﴾ في الآخرة ـ إذا قدموا على الله ـ ﴿عَذَابٌ﴾ موجع بسبب تكذيبهم رسول الله أو كذبهم على الله. هذا مضمن الآية.

افتتح الحق ـ جل جلاله ـ بذكر الذين أخلصوا دينهم لله وواطأت فيه قلوبهم ألسنتهم، ثم ثنى بالكافرين الذين محضوا الكفر ظاهراً وباطناً، ثم ثلث بالمنافقين الذين آمنوا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم، وهم أخبث الكفرة؛ لأنهم خلطوا بالكفر استهزاء وخداعاً، ولذلك كانوا في الدرك الأسفل من النار.

الإشارة: ومن الناس من يترامى بالدعوى على الخصوصية، ويدعي تحقيق مشاهدة الربوبية، وهو في الدرك الأسفل من العمومية، يظهر خلوص الإيمان وتحقيق العرفان، وهو في أودية الشكوك والخواطر حيران، وفي فيافي القطيعة والفَرْق ظمآن، لسانه منطلق بالدعوى، وقلبه خارب من الهدى، يخادع الله بالرضا عن عيوبه ومساوئه، ويخادع المسلمين بتزيين ظاهره، وباطنه معمور بحظوظه ومهاويه، يتزيى بِزِيِّ العارفين ويتعامل معاملة الجاهلين، ويصدق عليه قول القائل:

أَمَّـا الخِيَـامُ فَـإنَّهـا كـخِيَـامِـهِمْ وأَرَى نِسَـاءَ الحَيِّ غَـيْـرَ نِسَـائِهَـا[1]

وما يخادع في الحقيقة إلا نفسه، حيث حرمها الوصول، وتركها في أودية الأكوان تجول، قلبه بمرض الفرق والقطيعة سقيم، وهو يظن أنه في عداد من يأتي الله بقلب سليم، فزاده الله مرضا على مرضه حيث رضي بسقمه وعيبه، وله عذاب الحرص والتعب في ضيق الحجاب والنصب بسبب كذبه على الله، وإنكاره على أولياء الله، فجزاؤه البعد والخذلان، وسوء العاقبة والحرمان، عائذنا بالله من المكر والطغيان.

(١) البيت نسبه القرطبي في تفسيره لأبي بكر الشبلي، في قصة. وجاء في ديوان الشبلي: قسم أشعار تمثل بها الشبلي.

ثم ذكر أقوالهم الشنيعة، وأحوالهم الفظيعة، فقال:

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ ﴾

قلت: «إذا» ظرف خافض لشرطه منصوب بجوابه، أي: قالوا نحن مصلحون، وقت قول القائل لهم: لا تفسدوا، والجملة بيان وتقرير لخداعهم، أو معطوفة على (من يقول آمنا)، أي: ومن الناس فرقة إذا قيل لهم: لاتفسدوا، قالوا: إنما نحن مصلحون.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وَإِذَا قِيلَ ﴾ لهؤلاء المنافقين: ﴿ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ ﴾ بالمعاصي والتعويق عن الإيمان، وإغراء أهل الكفر والطغيان على أهل الإسلام والإيمان، وتهييج الحروب والفتن، وإظهار الهرج والمرج والمحن، وإفشاء أسرار المسلمين إلى أعدائهم الكافرين، فإن ذلك يؤدى إلى فساد النظام، وقطع مواد الإنعام، ﴿ قَالُوا ﴾ فى جوابهم الفاسد: ﴿ إنما نحن مصلحون ﴾ فى ذلك، فلا تصح مخاطبتنا بذلك، فإن من شأننا الإصلاح والإرشاد، وحالنا خالص من شوائب الفساد، قال تعالى: ﴿ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ ﴾ هنالك، ولكن لاشعور لهم بذلك.

قلت: فردّ الله ما ادعوه من الانتظام فى سلك المصلحين بأقبح رد وأبلغه، من وجوه الاستئناف الذى فى الجملة، والاستفتاح بالتنبيه، والتأكيد بإن وضمير الفعل، وتعريف الخبر، والتعبير بنفي الشعور، إذ لو شعروا أدنى شعور لتحققوا أنهم مفسدون.

وهذه الآية عامة لكل من اشتغل بما لا يعنيه، وعوق عن طريق الخصوص، ففيه شعبة من النفاق، وفى صحيح البخارى: «ثَلاثٌ من كُنَّ فِيهِ كان مُنَافِقاً خالِصاً: إذا حَدَّثَ كَذَبَ، وإذا وَعَدَ أَخْلَفَ، وإذا أُؤْتُمِنَ خَانَ».

الإشارة: وإذا قيل لمن يشتغل بالتعويق عن طريق الله والإنكار على أولياء الله: أقصر من هذا الإفساد، وارجع عن هذا الغي والعناد، فقد ظهرت معالم الإرشاد لأهل المحبة والوداد. قال: إنما أنا مصلح ناصح، وفى أحوالى كلها صالح، يقول له الحق جل جلاله: بل أفسدت قلوب عبادى، ورددتهم عن طريق محبتى ووداى، وعوقتهم عن دخول حضرتى، وحرمتهم شهود ذاتى وصفاتى، سددت بابى فى وجه أحبابى، آيستهم من وجود التربية، وتحكمت على القدرة الأزلية، ولكنك لا تشعر بما أنت فيه من البلية.

ولقد صدق من سبقت له العناية، وأتحف بالرعاية والهداية، حيث يقول(١):

فَــهَـــذِهِ طَرِيقَـــةُ الإِشْـــرَاقِ كَـــانَتْ وَتَبْــقَى مَـــا الوُجُــودُ بَاقِ

وقال أيضا:

وأنْكَرُوهُ مَـــــــلاً عَـــــــوَامُ لَمْ يَفْـهَـمُـوا مَـقْـصُـودَهُ فَـهَـامُـوا

فَتُبْ أيها المنكر قبل الفوات، واطلب من يأخذ بيدك قبل الممات، لئلا تلقى الله بقلب سقيم، فتكون في الحضيض الأسفل من عذابه الأليم، فسبب العذاب وجود الحجاب، وإتمام النعيم النظر لوجهه الكريم، منحنا الله منه الحظ الأوفى في الدنيا والآخرة. آمين.

ثم ذكر الحق تعالى استهزاءهم بالإسلام وامتناعهم منه، فقال:

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ (١٣) ﴾

قلت: الكاف من ﴿ كَمَا آمَنَ ﴾ صفة لمصدر محذوف، و(ما) مصدرية. أي: إذا قيل لهم آمنوا إيمانا خالصا من النفاق مثل إيمان المسلمين، أو من أسلم من جلدتهم، والسفه: خفة وطيش في العقل، يقال: ثوب سفيه، أي: خفيف.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وَإِذَا قِيلَ ﴾ لهؤلاء المنافقين من المشركين واليهود: اتركوا ما أنتم عليه من الكفر والجحود، وراقبوا الملك المعبود، وطهروا قلوبكم من الكفر والنفاق، وأقصروا مما أنتم فيه من البعاد والشقاق و﴿ آمِنُوا ﴾ إيمانا خالصا مثل إيمان المسلمين، لتكونوا معهم في أعلى عليين، «مَنْ أَحَبَّ قَوْمًا حُشِرَ مَعَهم». «المَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ»، ﴿ قَالُوا ﴾ مترجمين عما في قلوبهم من الكفر والنفاق: ﴿ أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ ﴾ الذين لا عقل لهم، إذ جلهم فقراء وموالي.

قال الحق تعالى في الرد عليهم وتقبيح رأيهم: ﴿ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ ﴾ لا غيرهم، حيث تركوا ما هو السبب في الفوز العظيم بالنعيم المقيم، وارتكبوا ما استوجبوا به الخلود في الدرك الأسفل من الجحيم ﴿ وَلَكِن لاَّ

(١) القائل: ابن البنا السرقسطي في المنظومة.

يعلمون ﴾، ﴿ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾، عبّر الحق في هذه الآية بـ «لايعلمون» وفي الأولى بـ «لايشعرون»؛ لأن الفساد في الأرض يدرك بأدنى شعور، بخلاف الإيمان والتمييز بين الحق والباطل؛ فيحتاج إلى زيادة تفكر واكتساب علم. والله تعالى أعلم.

الإشارة: وإذا قيل لأهل الإنكار على أهل الخصوصية، القاصدين مشاهدة عظمة الربوبية، قد تجردوا عن لباس العز والاشتهار، ولبسوا أطمار الذل والافتقار، آمنوا بطريق هؤلاء المخصوصين، وادخلوا معهم كي تكونوا من المقربين. قالوا: (أنؤمن كما آمن السفهاء) ونترك ما نحن عليه من العز والكبرياء، قال الله تعالى في تسفيه رأيهم وتقبيح شأنهم: (ألا إنهم هم السفهاء)؛ حيث تعززوا بعز يفنى، وتركوا العز الذي لايفنى، قال الشاعر:

تَذَلَّلْ لِمَنْ تَهْوَى لِتَكْسِبَ عِزَّةً		فَكَمْ عِزَّةٍ قَدْ نَالَهَا المَرْءُ بِالذُّلِّ
إذَا كَانَ مَنْ تَهْوَى عَزِيزاً، ولم تكُنْ		ذَلِيلاً لَهُ، فَاقْرَ السَّلاَمَ عَلَى الوَصْلِ

فلو علموا مافي طيّ الذل من العز، وما في طي الفقر من الغنى، لجالدوا عليه بالسيوف، ولكن لا يعلمون.

ثم بيّن الحق تعالى ما أضمروه من النفاق وأظهروه من الوفاق، فقال:

﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ (١٤) اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٥) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (١٦) ﴾

قلت: اللقاء: المصادفة بلا قصد، والخلو بالشيء أو معه: الانفراد به، ضمنه هنا معنى رجع، ولذلك تعدّى بإلى، و(الشيطان) فَيْعَالٌ، من شَطَنَ، إذا بعد، أو فَعْلاَن من شاط، إذا بطل، والاستهزاء بالشيء: الاستخفاف بحقه، والعَمَهُ في البصيرة كالعمى في البصر.

يقول الحق جل جلاله في وصف المنافقين تقريرا لنفاقهم: إنهم كانوا ﴿ إِذَا لَقُوا ﴾ الصحابة أظهروا الإيمان، وإذا رجعوا ﴿ إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ ﴾ أي: كبرائهم المتمردين في الكفر والطغيان، ﴿ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ ﴾ لم

نخرج عن ديننا ﴿ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴾ بهم، ومستسخرون بشأنهم. نزلت في عبد الله بن أُبَيّ ـ رأس المنافقين ـ كان إذا لقي سعداً قال: نعم الدين دين محمد، وإذا خلا برؤساء قومه من أهل الكفر، قال: شدوا أيديكم على دين آبائكم.

وخرج ذات يوم مع أصحابه فاستقبلهم نفر من الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ فقال عبدُالله لأصحابه: انظروا كيف أرد هؤلاء السفهاء عنكم، فأخذ بيد أبي بكر رضي الله عنه فقال: مرحبا بالصدّيق سيد بني تيم، وشيخ الإسلام، وثاني رسول الله ﷺ في الغار، الباذل نفسه وماله لرسول الله ﷺ، ثم أخذ بيد عمر، فقال: مرحباً بسيد بني عدي بن كعب، الفاروق، القوي في دين الله، الباذل نفسه وماله لرسول الله ﷺ، ثم أخذ بيد عليّ؛ فقال: مرحباً يابن عم رسول الله ﷺ وختنه[١]، سيد بني هاشم، ما عدا رسول الله ﷺ، فقال علي رضي الله عنه: ياعبد الله، اتق الله ولا تنافق، فإن المنافقين شرُّ خليقة الله، فقال عبد الله: مهلا يا أبا الحسن، أنى تقول هذا؟ والله إن إيماننا كإيمانكم، وتصديقنا كتصديقكم، فنزلت الآية[٢].

ثم رد الله تعالى عليهم فقال: ﴿ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾ أي: يفعل بهم فعل المستهزئ؛ بأن يفتح لهم بابا إلى الجنة وهم في النار، ويطلع المؤمنين عليهم، فيقول لهم: ادخلوا الجنة، فإذا جاءوا يستبقون إليها وطمعوا في الدخول، سُدَّتْ عليهم ورجعوا إلى النار، ﴿فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون﴾ الآية. ﴿ وَيَمُدُّهُمْ ﴾ أي: يمهلهم ﴿ فِي ﴾ كفرهم، و﴿ طُغْيَانِهِمْ ﴾ يتحيرون إلى يوم يبعثون؛ لأنهم ﴿ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدَىٰ ﴾ أي: استبدلوا بها رأس مالهم، فضلا عن الربح، إذ الإيمان رأس المال، وأعمال الطاعات ربح، فإذا ذهب الرأس فلا ربح؛ ولذلك قال تعالى ﴿ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ ﴾، بل خسرت صفقتهم، ﴿ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾ إلى أسباب الربح أبدا، لاستبدالهم الهدى ـ التي هي رأس المال ـ بالضلالة ـ التي هي سبب الخسران. وبالله التوفيق.

وهاهنا استعارات وبلاغات يطول سردها، إذ مرادنا **تربية اليقين بكلام رب العالمين**.

الإشارة: الناس في طريق الخصوص على أربعة أقسام:

قسم: سبقت لهم من الله العناية، وهبت عليهم ريح الهداية، فصدقوا ودخلوا فيها، وبذلوا أنفسهم وأموالهم في سبيل الله، فتَجَروا فيه وربحوا، فعوضهم الله تعالى جنة المعارف، يتبوءون منها حيث شاءوا، فإذا قدموا عليه أدخلهم جنة الزخارف، يسرحون فيها حيث شاءوا، وأتحفهم فيها بالنظر إلى وجهه الكريم.

---

(١) ختن الرجل: المتزوج بابنته أو بأخته.

(٢) سند هذا الأثر واهٍ جدا، انظر: الفتح السماوي في تخريج أحاديث البيضاوي، وتنزيه الشريعة المرفوعة.

وقسم: سبقت لهم من الله الهداية، وحفتهم الرعاية، فصدقوا وأقروا، ولكنهم ضعفوا عن الدخول، ولم تتعلق همتهم بالوصول، فبقوا في ضعفاء المسلمين ﴿ لَّيْسَ عَلَى الضُّعَفَاء وَلاَ عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلاَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ... ﴾ .

وقسم : أنكروا وأظهروا وجحدوا وكفروا، فتجروا وخسروا ، « مَنْ عَادَى لي وَلِيا فَقَد آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ » .

وقسم رابع : هم مذبذبون بين ذلك إذا لقوا أهل الخصوصية قالوا: آمنا وصدقنا فأنتم على الجادة، وإذا رجعوا إلى أهل التمرد من المنكرين ـ طعنوا وجحدوا، وقالوا: إنما كنا بهم مستهزئين، ﴿الله يستهزئ بهم﴾ بما يظهر لهم من صور الكرامات والاستدراجات، ويمدهم في تعاطي العوائد والشهوات، وطلب العلو والرئاسات، متحيرين في مهامه الخواطر والغفلات، ﴿أولئك الذين اشتروا الضلالة﴾ عن طريق الخصوص من أهل الوصول، ﴿بالهدى﴾ الذي كان بيدهم، لو حصل لهم التصديق والدخول، فما ربحوا في تجارتهم، وما كانوا مهتدين إلى بلوغ المأمول. قال بعض العارفين: (التصديق بطريقتنا ولاية، والدخول فيها عناية، والانتقاد عليها جناية) . وبالله التوفيق، وهو الهادي إلى سواء الطريق.

ثم ضرب مثل المنافقين، زيادة في توبيخهم وتقبيح شأنهم، فقال:

﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ ﴾

قلت : (استوقد) يحتمل أن تكون للطلب، أو زائدة بمعنى أوقد، و(لما) شرطية، و﴿ذهب﴾ جواب، وإذا كان لفظ الموصول مفرداً واقعاً على جماعة، يصح في الضمير مراعاة لفظه فيفرد، ومعناه فيجمع، فأفرد في الآية أولاً، وجمع ثانيا. ويقال: أضاء يضيء إضاءة، وضاء يضوء ضَوْءاً.

يقول الحق جل جلاله : مثل هؤلاء المنافقين من اليهود ﴿ كَمَثَلِ ﴾ رجل في ظلمة، تائه في الطريق، فاستوقد نارا ليبصر طريق القصد ﴿ فَلَمَّا ﴾ اشتعلت و﴿ أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ﴾ فأبصر الطريق، وظهرت له معالم التحقيق، أطفأ الله تلك النار وأذهب نورها، ولم يبق إلا جمرها وحرها. كذلك اليهود كانوا في ظلمة الكفر والمعاصي ينتظرون ظهور نور النبي ﷺ ويطلبونه، فلما قدم عليهم، وأشرقت أنواره بين أيديهم كفروا به، فأذهب الله عنهم نوره، ﴿ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ ﴾ الكفر والشك والنفاق، ﴿ لاَّ يُبْصِرُونَ ﴾ ولا يهتدون، ﴿ صُمٌّ ﴾ عن سماع الحق،

﴿ بُكْمٌ ﴾ عن النطق به ﴿ عُمْيٌ ﴾ عن رؤية نوره، ﴿ فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ ﴾ عن غيهم ، ولا يقصرون عن ضلالتهم.

الإشارة: مَثَلُ مَنْ كان في ظلمات الحجاب قد أحاطت به الشكوك والارتياب، وهو يطلب من يأخذ بيده ويهديه إلى طريق رشده، فلما ظهرت أنوار العارفين، وأحدقت به أسرار المقربين، حتى أشرقت من نورهم أقطارُ البلاد، وحَيِيَ بهم جل العباد، أنكرهم وبعد منهم، فتصامم عن سماع وعظهم، وتباكَمَ عن تصديقهم، وعَمِيَ عن شهود خصوصيتهم، فلا رجوع له عن حظوظه وهواه، ولا انزجار له عن العكوف على متابعة دنياه، مثله كمن كان في ظلمات الليل ضالا عن الطريق، فاستوقد نارا لتظهر له الطريق، فلما اشتعلت وأضاءت ما حوله أذهب الله نورها، وبقي جمرها وحرها، وهذه سنة ماضية: لا ينتفع بالولي إلا من كان بعيدا منه. وفي الحديث: «أزْهَدُ النَّاسِ في العَالِمِ جيرانُه» ، وقد مثَّلوا الولي بالنهر الجاري كلما بَعُدَ جَرْيُه عَمَّ الانتفاعُ به، ومثَّلوه أيضا بالنخلة لاتُظِلُّ إلا عن بُعْد. والله تعالى أعلم.

ثم ضرب لهم مثلا آخر، فقال:

﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ الصَّوَٰعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌۢ بِالْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَآءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ ﴾

قلت: (أو) للتنويع، أو بمعنى الواو، و(الصيب): المطر، فَيْعِلٌ، من صاب المطر إذا نزل، وهو على حذف مضاف، أي: أو كذي صيب، وأصله: صيوب، كسيد، قلبت الواو ياء وأدغمت، ولايوجد هذا إلا في المعتل كميت وهين وضيق وطيب. و(الرعد): الصوت الذي يخرج من السحاب، و(البرق): النور الذي يخرج منه. قال ابن عزيز: روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إنَّ الله عزَّ وجلَّ ينشئُ السَّحَابَ فتنطقُ أحسنَ النطْق، وتَضْحَكُ أحسنَ الضحك، فنطقها الرعدُ، وضحكُها البَرْقُ» . وقال ابن عباس: (الرعدُ ملَكٌ يسوقُ السَّحابَ، والبرقُ سَوْطٌ مِنْ نُورٍ يَزْجُرُ به السَّحَابَ) . هـ. والصواعق: قطعة من نار تسقط من المخراق الذي بيد سائق السحاب، وقيل: تسقط من نار بين السماء والأرض، والله تعالى أعلم.

يقول الحق جل جلاله: ومثل المنافقين أيضا كأصحاب مطر غزير ﴿ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ ﴾ وهدير أصابهم في ليلة مظلمة وقفراء مدلهمة. فيه ﴿ بَرْقٌ ﴾ يلمع، وصاعقة تقمع، إذا ضرب الرعد وعظم صوته جعلوا ﴿ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم ﴾ من الهول والخوف حذرا من موت أنفسهم، وقد ماتت أرواحهم وقلوبهم، وإذا ضرب البرق كاد ﴿أن يخطف أبصارهم﴾، فإذا لمع أبصروا الطريق، و﴿ مشوا فيه، وإذا أظلم عليهم قاموا ﴾ متحيرين حائدين عن عين التحقيق، ﴿والله من ورائهم محيط﴾. ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ ﴾ بصوت ذلك الرعد، ﴿ وَأَبْصَارِهِمْ ﴾ بلمعان ذلك البرق، ﴿إن الله علي كل شيء قدير﴾ لا يعجزه شيء.

هذا مثلهم في تحيرهم واضطرابهم، فيحتمل أن يكون من التشبيه المركب، وهو تشبيه الجملة بالجملة، أو من المفَصَّل، فيكون المطر مثالا للقرآن، وفيه ذكر الكفر والنفاق المُشَبَّهَيْن بالظلمات، والوعد عليه والزجر المشبه بالرعد، والحُجج الباهرة التي تكاد أحياناً تبهرهم المشبهة بالبرق، وتخوفهم، وروعُهم هو جَعْلُ أصابعهم في آذانهم، لئلا يسمعوا فيميلوا إلى الإيمان، وفَضْحُ نفاقهم وتكاليفُ الشرع التي يكرهونها هي الصواعق. والله تعالى أعلم.

الإشارة: أهل الخصوصية إذا ظهروا بين العموم بأحوال غريبة وعلوم وَهْبية، وأسرار ربانية وأذكار نورانية، دهشوا منهم وتحيروا في أمرهم، وخافوا على أنفسهم، فإذا سمعوا منهم علوماً لدنية وأسراراً ربانية فروا منها، وجعلوا أصابعهم في آذانهم، خوفاً على نفوسهم أن تفارق عوائدها وهواها، وإذا خاصمهم أحد من العموم ألجموه بالحجة، فتكاد تلك الحجة تخطفه إلى الحضرة، كلما لمع له شيء من الحق مشى إلى حضرته، وإذا كرت عليه الخصوم والخواطر، وأظلم عليه الحال، وقف في الباب حيران، ولو شاء الله لذهب بعقله وسمعه وبصره، فيبصر به إلى حضرته. من استغرب أن ينقذه الله من شهوته، وأن يخرجه من وجود غفلته، فقد استعجز القدرة الإلهية ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴾.

فالصَّيِّب الذي نزل من السماء كِنَايةٌ عن الواردات والأحوال التي ترد على قلوب العارفين، ويظهر أثرها على جوارحهم، والظلمات التي فيها كناية عن اختفاء بعضها عن أهل الشريعة فينكرونها، والرعد كناية عن اللهج بذكر الله جهرا في المحافل والحلق، والبرق كناية عن العلوم الغريبة التي ينطقون بها والحجج التي يحتجون بها على الخصوم، فإذا سمعها العوام اشمأزت قلوبهم عن قبولها، فإذا وقع منهم إنصاف تحققوا صحتها فمالوا إلى جهتها، ومَشَوْا إلى ناحيتها، فإذا كَرّت عليهم الخصوم قاموا منكرين، ولو شاء ربك لهدى الناس جميعا ﴿ولا يزالون مختلفين﴾.

ولما ذكر الحق من تخلق بالإيمان ظاهرا وباطنا، ومن تحلى به كذلك، ومن أخفى الكفر وأظهر الإيمان، دعا الكل إلى توحيده وعبادته، فقال:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾

قلت : جملة الترجي حال من الواو في (اعْبُدُوا)، أي: اعبدوا ربكم راجين أن تنخرطوا في سلك المتقين الفائزين بالهدى والفلاح، المستوجبين جوار الله تعالى، نبه به على أن التقوى منتهي درجات السالكين؛ وهو التبري من كل شيء سوى الله تعالى ـ إلى الله تعالى.

و(الَّذِي جَعَلَ) صفة للرب، و (فَلا تَجْعَلُوا) معطوف على (اعْبُدُوا) على أنه نهي، أو منصوب بأن، جواب له، و(الأنداد) جمع نِدّ، بكسر النون. وهو الشبه والمثل، و(أَنتُمْ تَعْلَمُونَ) حال من ضمير (فَلا تَجْعَلُوا) أي: فلا تجعلوا لله أندادا والحال أنكم من أهل العلم.

يقول الحق جل جلاله : ياعبادي اعبدوني بقلوبكم بالتوحيد والإيمان، وبجوارحكم بالطاعة والإذعان، وبأرواحكم بالشهود والعيان، فأنا الذي أظهرتكم من العدم ـ أنتم ومن كان قبلكم ـ وأسبلت عليكم سوابغ النعم، الأرض تقلكم والسماء تظلكم، والجهات تكتنفكم، وأنزلت من السماء ماء فأخرجت به أصنافا ﴿**من الثمرات رزقا لكم**﴾، فأنتم جوهرة الصدق، تنطوي عليكم أصداف مكنوناتي، وأنتم الذين أطلعتكم على أسرار مكنوناتي، فكيف يمكنكم أن تتوجهوا إلى غيري؟ وقد أغنيتكم بلطائف إحساني وبري، أنعمت عليكم أولا بالإيجاد، وثانيا بتوالي الإمداد، خصصتكم بنور العقل والفهم، وأشرقت عليكم نبذة من أنوار القِدم، فبي عرفتموني، وبقدرتي عبدتموني، فلا شريك معي ولا ظهير، ولا احتياج إلى معين ولا وزير.

الإشارة : توجه الخطاب إلى العارفين الكاملين في الإنسانية الذين يعبدون الله تعظيماً لحق الربوبية، وقياما بوظائف العبودية، وفيهم قال صاحب العينية(١):

هُم الناسُ فالزمْ إنْ عرفْتَ جنابَهُمْ ... فَفِيهِم لِضُرِّ العالمين منَافِعُ

---

(١) وهو: الشيخ عبدالكريم الجيلي.

وقال قبل ذلك:

هُمُ القَصْدُ للملهوفِ والكنزُ والرجَا		ومنهم ينَالُ الصَّبُّ ما هُوَ طامعُ

بِهِم يَهْتَدى للعينِ مَن ضَلَّ فى العَمَى		بِهِم يُجذَبُ العُشَّاقُ، والرَّبْعُ شاسعُ

هم القَصْدُ والمطلوبُ والسؤلُ والمنَى		واسْمُهُم لِلصَّبِّ فى الحبِّ شَافعُ

فعبادة العارفين: بالله ومن الله وإلى الله، وعبادة الجاهلين: بأنفسهم ومن أنفسهم ولأنفسهم، عبادة العارفين حمد وشكر، وعبادة الغافلين اقتضاء حظ وأجر، عبادة العارفين قلبية باطنية، وعبادة الغافلين حسية ظاهرية، يا أيها الناس المخصوصون بالأنس والقرب دوموا على عبادة القريب، ومشاهدة الحبيب، فقد رفَعْتُ بيني وبينكم الحجب والأستار، وأشهدتكم عجائب الألطاف والأسرار، أبرزتكم إلى الوجود، وأدخلتكم من باب الكرم والجود، ومنحتكم بفضلى غاية الشهود، لعلكم تتقون الإنكار والجحود، وتعرفوننى فى كل شاهد ومشهود.

فقد جعلت أرض نفوسكم مهاداً لعلوم الشريعة، وسماء قلوبكم سقفاً لأسرار الحقيقة، وأنزلت من سماء الملكوت ماء غيبياً تحيا به أرض النفوس، وتهتز بواردات حضرة القدوس، فتخرج من ثمرات العلوم اللدنية، والأسرار الربانية، والأحوال المرضية، ما تتقوت به عائلة المستمعين، وتنتعش به أسرار السائرين، فلا تشهدوا معى غيرى، ولا تميلوا لغير إحسانى وبِرى، فقد علمتم أنى منفرد بالوجود، ومختص بالكرم والجود، فكيف يرجى غيرى وأنا ما قطعت الإحسان؟! وكيف يلتفت إلى ما سواى وأنا بذلت عادة الامتنان؟! متى كان الإيجاد، وعلىَّ دوام الإمداد، فثقوا بى كفيلا، واتخذونى وكيلا، أعطكم عطاء جزيلا، وأمنحكم فخراً جليلا.

ولمّا أمر عباده بعبادته وتوحيده، أمرهم بتصديق كلامه والإيمان برسوله، فقال:

﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن
دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ
وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى
مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟
بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾

فإن قلت: الريب في القرآن قد وقع من الكفار قطعاً، فكيف عبّر بإنْ الدالة على الشك والتردد؟

قلت: (إن) جازمة للفظ الشرط أو محله، موضوعة للشك في الشرط. و«إذا» لا تجزم في اللفظ، وتدل على الجزم في المعنى، وفي ذلك يقول القائل:

أنا إنْ شككتُ وجدتُموني جازِمًا ... وإذا جَزمتُ فإنني لَمْ أجزمِ

فإن قلت: الريب في القرآن قد وقع من الكفار قطعاً، فكيف عبّر بإنْ الدالة على الشك والتردد؟ **قلت**: لما كان ريبهم واقعا في غير محله ـ إذ لو تأملوا أدنى تأملٍ لزال ريبهم لوضوح الأمر وسطوع البرهان ـ كان ريبهم كأنه مشكوك فيه ومتردد في وقوعه، و(الشهداء) جمع شهيد بمعنى الحاضر، أو القائم بالشهادة، أو الناصر، أُطلِقَ على الأصنام؛ لأنهم يزعمون أنها تشهد لهم، ومعنى (دون): أدنى مكان من الشيء، ثم استعير للرُّتب فقيل: زيد دون عمرو؛ أي: في الشرف، ثم اتسع فيه فاستعير لكل تجاوزِ حدٍّ إلى حد، وتخطي أمرٍ إلى آخر.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وَإِن كُنتُمْ﴾ يامعشر الكفار ﴿فِي﴾ شك ﴿مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ﴾ محمد ﴿عَبْدِنَا﴾ ورسولنا المختار لِسِرِّ وحينا، ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن﴾ جنسه في البلاغة والفصاحة، مشتملة على علوم وأسرار ومغيبات كما اشتمل عليه كتابي، ﴿وَادْعُوا﴾ من استطعتم ممن تنتصرون به على ذلك الإتيان، مِّن آلهتكم التي تزعمون أنها تشهد لكم يوم القيامة، أو من حضركم من البلغاء والفصحاء ممن تنتصرون به ﴿مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ في أنها تنفعكم. ﴿فَإِن لَّمْ﴾ تقدروا أن ﴿تَفْعَلُوا﴾ ذلك ﴿وَلَن﴾ تقدروا أبدا فأسلموا وأقرُّوا بالحق، و ﴿اتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ أي: حجارة الكبريت، فهُما حطبُها ووقودها ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾.

﴿وَبَشِّرِ﴾ يا محمد ويا من يصلح منه التبشير ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله ورسوله، ﴿وَعَمِلُوا﴾ ما كلفوا به من الأعمال ﴿الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي: من تحت قصورها، وهي أنهار من ماء، وأنهار من عسل، وأنهار من لبن، وأنهار من خمر لذة للشاربين. ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا﴾ أي: صنفاً، ﴿قَالُوا هَٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ﴾ في دار الدنيا، فإن الطباع تميل إلى المألوف، فالصفة متفقة والطعم مختلف. أو في الجنة، قيل: هذا لما روى عنه ﷺ أنه قال: «والذي نفسُ محمدٍ بيدِه إنَّ الرجلَ مِنْ أهلِ الجنةِ لَيَتناولُ الثمرةَ لِيأكلَها فما هي واصِلةٌ إلى جَوفِه حتى يبدل اللهُ تعالى مكانها مِثلها»، فلعلهم إذا رأوها على الهيئة الأولى قالوا

ذلك، لفرط استغرابهم، وتبجحهم بما وجدوا من التفاوت العظيم في اللذة والتشابه البليغ في الصورة، ﴿ وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ ﴾ أي: حور ﴿ مُطَهَّرَةٌ ﴾ من الحيض، وسائر الأدناس، ومن الأخلاق المذمومة، والشيم الذميمة، ﴿ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾؛ فإن النعيم إذا كان يعقبه الفناء تنغَّص على صاحبه، كما قال الشاعر:

لاخيرَ في العيشِ مادامتْ مُنغَّصَةً ... لَذاتُه بادِّكارِ الموتِ والهَرَمِ

الإشارة : وإن كنتم يا معشر العوام في شك مما خصصنا به ولينا من الأنوار، وما أنزلنا على قلبه من المعارف والأسرار، وما ظهر عليه من البهجة والأنوار، وما اهتدى على يديه من الصالحين والأبرار، فأتوا أنتم بشيء من ذلك، وانتصروا بما قدرتم من دون الله إن كنتم صادقين في المعارضة. قال القشيري: وكما أن كيد الكافرين يَضْمَحِلُّ في مقابلة معجزات الرسول، فكذلك دعاوى المُلَبِّسين تتلاشى عند ظهور أنوار الصديقين .هـ.

فإن لم تفعلوا ما ذكرنا من المعارضة، ولن تقدروا على ذلك أبدا، فأذْعنوا، واخْضعوا، واتقوا نار القطيعة والحظوظ، والطمع والهلع، التي مادتها النفوس والفلوس؛ إذ بهما هلك من هلك وفاز من فاز، أُعدت تلك النار للمنكرين الخصوصية، الجاحدين لوجود التربية النبوية.

وبَشِّر الصديقين بوجود الخصوصية، المنقادين لأهلها، أن لهم جنات المعارف في الدنيا، وجنات الزخارف في الآخرة، تجري من تحت قلوب أهلها أنوار العلوم والمعارف، فإذا كشف لهم يوم القيامة عن أسرار ذاته، قالوا: هذا الذي عرفناه من قبل في دار الدنيا، إذ الوجود واحد والمعرفة متفاوتة، وأُتوا بأرزاق المعارف متشابهة؛ لأن مَنْ عَرَفه في الدنيا عرفه في الآخرة، ومن أنكره هنا أنكره يوم القيامة، إلا في وقت مخصوص على وجه مخصوص، ولهم في جنات المعارف عرائس المعارف والكشوفات، مطهرات من أدناس الحس وعبث الهوى والشهوات، وهم بعد تمكنهم من شهود الذات، خالدون في عشِّ الحضرة، فيها يسكنون وإليها يأوون.

وقال القشيري: كما أن أهل الجنة يجدد لهم النعيم في وقت، فالثاني عندهم على ما يظنون كالأول، فإذا ذاقوه وجدوه غير ما تقدم، كذلك أهل الحقائق: أحوالهم في الزيادة أبدا، فإذا رقى أحدهم عن محله، توهم أن الذي سيلقاه في هذا النَّفس مثل ما تقدم، فإذا ذاقه وجده فوق ذلك بأضعاف، كما قال قائلهم:

مازِلتُ أنزلُ مِنْ وِدادِك منزِلاً ... تتَحيرُ الألبابُ عِندَ نُزُولِه(١)

(١) البيت ذكره البغدادي في تاريخ بغداد ١٣٥/٥ في قصة مع أبي الحسن النوري.

ولما ضرب الله الأمثال فى القرآن للمنافقين وغيرهم تكلم فى ذلك بعض الكفار والملحدين، بينَّ الحق تعالى وجه ذلك فقال:

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾

قلت: الحياء: خُلق كريم يمنع صاحبه من ارتكاب ما يعاب به، وفى الحديث: «إنَّ الله حَيِيٌّ كَرِيم»، و(مثلا) مفعول، و(ما) نكرة، صفته، و(بعوضة) بدل، والبعوضة: الذباب. وفى الحديث: «لوْ كَانَت الدُّنيا تُساوِي عندَ الله جَناحَ بعُوضَةٍ ماسقَى الكافرَ منها جرْعَةَ ماءٍ»، وقيل: صِغَار البَقّ، أى: إن الله لا يترك أن يضرب مثلا ـ أىَّ مثل كان ـ بعوضة فما فوقها. أو (بعوضة) مفعول أول، و(مثلا) مفعول ثان، من باب جعل، و(ماذا) إما مبتدأ وخبر، على أن (ذا) موصولة، أو مفعولة بأراد على أنها مركبة، و(مثلا) حال أو تمييز. والفسق: الخروج، يقال: فسقت الرطبة إذا خرجت عن قشرها.

يقول الحق جل جلاله: ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ لا يترك ترك المستحيى ﴿أَن يَضْرِبَ مَثَلاً﴾ بالخسيس والكبير كالذباب والعنكبوت وغير ذلك. فأما المؤمنون فيتيقنون ﴿أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾، وحكمته: إبراز المعانى اللطيفة فى قوالب المحسوسات ليسهل الفهم، وأما الكفار فيعترضون ويقولون: ﴿مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ﴾ بهذه الأمثال؟ فإن الله منزه عن ضرب الأمثال بهذه الأشياء الخسيسة، قال الله تعالى فى الرد عليهم: أراد بهذا إضلال قوم بسبب إنكارها، وهداية آخرين بسبب الإيمان بها، ﴿وَمَا يُضِلُّ﴾ بذلك المثل إلا الخارجين عن طاعته، ﴿الَّذِينَ﴾ نقضوا العهد الذى أُخذ عليهم فى عالم الذَّرِّ، أو مطلق العهد، ﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ﴾ من الأنبياء والرسل والأرحام وغيرها، ﴿وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ﴾ بالمعاصي والتعويق عن الإيمان، ﴿أُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ الكاملون فى الخسران، نعوذ بالله من الخذلان.

الإشارة : إن الله لا يترك أن يظهر مثلا من أنوار قدسه بارزا بقدرته، مرتديا برداء حكمته، ملتبساً بأسرار ذاته، مكسوًا بأنوار صفاته من الذرة إلى مالا نهاية له، فالمتجلِّي في النملة هو المتجلي في الفيلة، فأما الذين صَدّقوا بتجلي الذات في أنوار الصفات، فيقولون: إنه الحق فائضٌ من نور الربوبية، محتجبا برداء الكبرياء وسبحات الألوهية. وأما الجاحدون لظهور نور ذات الربوبية فينكرونه في حال ظهوره، ويقولون: ماذا أراد الله بهذه العوالم الظاهرة؟ فيقول الحق تعالى: أردت ظهور قدرتي وعجائب حكمتي، ليظهر سر ربوبيتي في مظاهر عبوديتي.

قال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه: «العبودية جوهرة أظهر بها الربوبية» وقيل لأبي الحسن النُّوري: ماهذه الأماكن والمخلوقات الظاهرة؟ فقال: عز ظاهر وملك قاهر، ومخلوقات ظاهرة به، وصادرة عنه، لا هي متصلة به ولا منفصلة عنه، فرغ من الأشياء ولم تفرغ منه، لأنها تحتاج إليه وهو لا يحتاج إليها. هـ.

فأراد الله بظهور هذا الكون أن يضل به قوما فيقفون مع ظاهر غرّته، ويهدى به قوما فينفذون إلى باطن عبرته. وما يضل به إلا الفاسقين الخارجين عن دائرة الشهود، المنكرين لتجليات الملك المعبود، الذين ينقضون عهد الله، وهو معرفة الروح التي حصلت لها وهي في عالم الذر، ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل من الشيوخ العارفين، الذين أهَّلَهُمَ الله للتربية والترقية، وهم لا ينقطعون ما دامت المِلَّةُ المحمدية، ويفسدون في الأرض بالإنكار والتعويق عن طريق الخصوص، بتضييعهم الأصولَ، وهي صحبة العارفين، والتأدب لهم، والتعظيم لحرمتهم. وبالله التوفيق، وهو الهادي إلى سواء الطريق.

ثم عجَّبَ الحقُّ تعالى خلْقَهُ من خفائه بعد شدة ظهوره، فقال:

﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾

قلت : (كيف) حال؛ لأنها وقعت قبل كلام تام.

يقول الحق جل جلاله : ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ ﴾ وتجحدون نعمه المتوالية، ﴿ و ﴾ الحالة أنكم ﴿ كُنتُمْ أَمْوَاتًا ﴾ نطفاً في الأرحام، ﴿ فَأَحْيَاكُمْ ﴾ بنفخ الروح في أجسادكم، ﴿ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ﴾ عند انقضاء آجالكم، ﴿ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾ عند البعث لحسابكم، ثم يسكنكم دار القرار، إما إلى الجنة وإما إلى النار. فهذه الآثار دالة على باهر قدرته وتمام حكمته، فقد وضح الحق وظهر، ﴿ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾.

الإشارة : كيف تنكرون ظهور نور الحق فى الأكوان، وتبعدون عن حضرة الشهود والعيان، وقد كنتم أمواتا بالغفلة وغم الحجاب، فأحياكم باليقظة والإياب، ثم يميتكم بالفناء عن شهود ما سواه، ثم يحييكم بالرجوع إلى شهود أثره بالله، ثم إليه ترجعون فى كل شيء لشهود نوره فى كل شيء، وقبل كل شيء، وبعد كل شيء، وعند كل شيء «كان الله ولا شيء معه، وهو الآن على ما عليه كان».

ولمّا ذكر نعمة الإيجاد أتبعها بنعمة الإمداد، فقال:

﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾ ﴾

قلت : ﴿جميعاً﴾ حال مؤكدة من ﴿ما﴾، و﴿ثم﴾ للترتيب الذكرى لا الخارجى(١)؛ لأن دحو الأرض مؤخر عن خلق السماء، إلا أن يكون العطف على معنى الجملة، والتقدير: هو الذى خلق لكم الأرض مشتملة على جميع منافعكم، ثم استوى إلى السماء فخلقهن سبعا، ثم دحا الأرض وبسطها.

والتسوية: خلق الأشياء سالمة من العوج والخلل، و(سبع): بدل من الضمير، أو بيان له، وجملة ﴿وهو بكل شيء عليم﴾ تعليل لما قبله. أى: ولكونه عالما بكنه الأشياء كلها خلق ما خلق على هذا النمط الأكمل والوجه الأنفع.

يقول الحق جل جلاله على لسان الواسطة: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ﴾ لأجلكم ﴿ما﴾ استقر ﴿فِي الأَرْضِ جَمِيعاً﴾ تنتفعون به فى الظاهر قوتاً لأشباحكم، ودواء لأبدانكم، ومتعة لنفوسكم، وتنتفعون به فى الباطن بالتفكر والاعتبار، وزيادة فى إيمانكم وقوة لإيقانكم، ثم قصد ﴿إِلَى السَّمَاءِ﴾ قصد إرادة، فخلقهن ﴿سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾ مستوية تامة، ليس فيها تفاوت ولا خلل، تظلكم بِجِرْمِها، وتضيء عليكم بشمسها وقمرها وكواكبها، وقد أحاط علمه بالأشياء كلها، فلذلك خلقها على هذا النمط الغريب والإتقان العجيب.

الإشارة : يا عبادى خلقتُ الأشياء كلّها من أجلكم، الأرض تُقلكم، والسماء تُظلكم، والجهات تَكْتَنِفُكُمْ والحيوانات تخدُمكم، والنباتات تنفعكم، وخلقتكم من أجلى، فكيف تميلون إلى غيرى، وتنسوّن إحسانى وبرّى؟!! الأشياء كلها عبيدكم وأنتم عبيد الحضرة، «أنت مع الأكوان مالم تشهد المُكَوِّنَ، فإذا شهدتَ المكوِّنَ كانت الأكوانُ معك».

---

(١) أى: ترتيب الإخبار، لا ترتيب الأمر فى نفسه.

وفي بعض الكتب المنزلة يقول الله تعالى: (يا عبدي؛ إنما منحتك صفاتي لتعرفني بها، فإن ادعيتها لنفسك سلبتُك الولاية، ولم أسلبك صفاتي، يا عبدي: أنت صفتي وأنا صفتك، فارجع إليَّ أرجع إليك، يا عبدي: فيك للعلوم باب مفتاحه أنا، وفيك للجهل باب مفتاحه أنت، فاقصد أيّ البابين شئت، ياعبدي: قربي منك بقدر بعدك عن نفسك؛ وبعدي عنك بقدر قربك من نفسك، فقد عرفتك الطريق، فاترك نفسك تصل إليّ في خطرة واحدة، يا عبدي: كل ما جمعك علي فهو مني، وكل مافرقك عني فهو منك، فجاهد نفسك تصل إليّ، وإني لغني عن العالمين، يا عبدي: إن منحتني نفسك رددتها إليك راضية مرضية، وإن تركتها عندك فهي أعظم بلية، فهي أعدى الأعادي إليك فجاهدها تعدّ بالفوائد إليك).

وفي بعض الآثار المروية عن الله تعالى: «يا عبدي: أنا بُدّك اللازم فالزم بدّك».[(١)] ويمكن أن يشار بالأرض إلى أرض العبودية، وبالسماء إلى سماء الحقيقة، وبالسبع سموات إلى سبع مقامات؛ وهي الصبر والشكر والتوكل والرضى والتسليم والمحبة والمعرفة. والله تعالى أعلم.

ولما ذكر خلق العالم العلوي والسفلي، ذكر كيفية ابتداء من عمَّر العالم السفليَّ من جنس الآدمي، فقال:

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَـٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَـٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

لمّا أراد الله تعالى عمارة الأرض، بعد أن عمّر السموات بالملائكة، أخبرالملائكة بما هو صانع من ذلك؛ تنويها بآدم وتشريفا لذريته، وتعليما لعباده أمر المشاورة، فقال لهم: ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ يخلفني في أرضي وتنفيذ أحكامي، ﴿ قَالُوا ﴾ على وجه الاستفهام، أو من الإدلال، إن كان من المقربين، بعد أن رأوا الجن قد أفسدوا وسفكوا الدماء: ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا ﴾، وشأن الخليفة الإصلاح، ﴿ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ ﴾، أي: نسبح ملتبسين بحمدك، ﴿ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾، أي: نطهر أنفسنا لأجلك، أو ننزهك عما لا يليق بجلال قدسك، فنحن أحق بالخلافة منهم.

(١) أخرجه الديلمي في الفردوس (٥/ ٢٣٠ ح ٨٠٤٠) عن أنس مرفوعاً. ورواه الخطيب في تاريخ بغداد ٢/٧٤٢ وقال: هذا الحديث موضوع المتن.

قال الحق جل وعلا: ﴿ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾؛ فإني أعلم أنه يكون منهم رسل وأنبياء وأولياء، ومن يكون مثلكم أو أعظم منكم، ولما ألقى الخليل في النار ضجت الملائكة وقالت: «يا رب هذا خليلك يحرق بالنار». فقال لهم: «إن استغاث بكم فأغيثوه». فلما رفع همَّته عنهم قال الحق تعالى: ﴿ ألم أقل لكم إني أعلم ما لا تعلمون ﴾.

ثم وَجَّهَ الحق تعالي استحقاقه للخلافة؛ وهو تشريفه بالعلم، فقال: ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾، أي: مسميات الأسماء؛ بأن ألقى في رُوعه ما تحتاج إليه ذريته من اللغات والحروف، وخواص الأشياء ومنافعها، ثم عرض تلك المسميات على الملائكة، إظهاراً لعجزهم، وتشريفاً لآدم بالعلم، ﴿ فقال ﴾: أخبروني ﴿ بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ ﴾ المسميات ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ في ادعائكم استحقاق الخلافة؛ فلما عجزوا عن معرفة تلك الأسماء ﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ ﴾ أي: تنزيها لك عن العبث، ﴿ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ ﴾ بكل شيء، ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ لإتقانك كل شيء، وهذا اعتراف منهم بالقصور والعجز، وإشعار بأن سؤالهم كان استفهاماً وطلباً لتفسير ما أشكل عليهم، ولم يكن اعتراضا.

قال الحق جل جلاله: ﴿ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ ﴾، وعيَّن لهم اسم كل مسمى، فلما أخبرهم بذلك بحيث قال مثلا: هذا فرس وهذا جمل، وعين ذلك لهم، وظهرت ميزته عليهم بالعلم حتى استحق الخلافة، قال الحق تعالى: ﴿ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ أي: ما غاب، وأعلم ما تظهرونه من قولكم: ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا.. ﴾ إلخ، وما تكتمونه من استحقاقكم الخلافة، وقولكم: لن يخلق الله تعالى أحداً أعلم منا لتقدمنا، والفضل لمن صدق لا لمن سبق.

قال البيضاوي: اعلم أن هذه الآيات تدل على شرف الإنسان، ومزية العلم وفضله على العبادة، وأنه شرط في الخلافة، بل العمدة فيها، وأن التعليم يصح إطلاقه عليه تعالى، وإن لم يصح إطلاق المعلم عليه؛ لاختصاصه بمن يحترف به، وأن اللغات توقيفية - علمها الله بالوحي -، وأن آدم عليه السلام أفضل من هؤلاء الملائكة؛ لأنه أعلم منهم، والأعلم أفضل لقوله تعالى: ﴿ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴾، وأن الله يعلم الأشياء قبل حدوثها.هـ. باختصار.

وقال في تفسير الملائكة: إنهم أجسام لطيفة قادرة على التشكل، وهي منقسمة على قسمين: قسم شأنهم الاستغراق في معرفة الحق والتنزه عن الاشتغال بغيره، - وهم العليُّون، والملائكة المقربون - وقسم يدبرون الأمر من

السماء إلى الأرض على ما ثبت به القضاء وجرى به القلم الإلهي، وهم المدبرات أمراً، فمنهم سماوية، ومنهم أرضية. هـ. مختصراً.

الإشارة : اعلم أن الروح القائمة بهذا الآدمي هي قطعة من الروح الأعظم التي هي المعاني القائمة بالأواني، وهي آدم الأكبر والأب الأقدم، وفي ذلك يقول ابن الفارض:

وإنِّي وإنْ كنتُ ابن آدمَ صُورةً فلي فِيهِ معْنًى شاهدٌ بأُبوّتي

فلمّا أراد الحق تعالى أن يستخلف هذا الروح في هذه البشرية لتدبرها وتصرفها فيما أريد منها، قالت الملائكة بلسان حالها: كيف تجعل فيها من يفسد فيها بالميل إلى الحظوظ والشهوات، ويسفك الدماء بالغضب والحميات، ونحن نسبحك وننزهك عما لا يليق بك؟ رأت الملائكة ما يصدر من بعض الأرواح من الميل إلى الحضيض الأسفل، ولم تر ما يصدر من بعضها من التصفية والترقية، فقال لهم الحق تعالى: ﴿إني أعلم ما لا تعلمون﴾؛ فإن منها من تعرج إلى عرش الحضرة، وتعبدني بالفكرة والنظرة، وتستولي على الوجود بأسره، وتنكشف لها عند ذلك أسرار الذات وأنوار الصفات وأسماء المسميات.

فيقول الحق تعالى للملائكة: هل فيكم من كشف له عن هذا السر المكنون، والاسم المصون، فقالوا: ﴿ سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا ﴾ من علم الصفات دون أسرار الذات ﴿ إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ يقول الحق تعالى لروح العارف التي نفذت إلى بحر وحدة الذات وتيار الصفات: أنبئهم بما غاب عنهم من أسرار الجبروت، وأسماء الملكوت، فلما أعلمهم بما كوشف له من الأسرار، وانفلق له من الأنوار، أقروا بشرف الآدمي، وسجدوا لطلعة آدم عليه السلام فقال الحق لهم: ﴿ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾؟ أي: ما غاب في سماء الأرواح من الأسرار وفي أرض النفوس من الأنوار، وأعلم ماتظهرونه من الانقياد، وما تكتمونه من الاعتقاد، والله تعالى أعلم.

ولما تبين شرف آدم عليه السلام وبان فضله أمرهم بالسجود له، فقال:

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾

قلت : (إذ) ظرف للماضي، ضد إذا، وهي معمولة لفعل مقدر، يفسره قوله تعالى: ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ ﴾، فحيثما وردت في القرآن فيقدر له « اذكر »، والاستثناء متصل؛ إذا قلنا إبليس من الملائكة، ومنقطع؛ إذا قلنا من الجن. والله تعالى أعلم.

يقول الحق جل جلاله: واذكر ﴿إِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ﴾، لما تبينت فضيلة، آدم أمرهم بالسجود، فقال لهم: ﴿اسْجُدُوا لآدَمَ﴾ سجود انحناء، ﴿فَسَجَدُوا﴾ كلهم، لأنهم شهدوا الجمع ولم يشهدوا الفرق، فرأوا آدم قِبْلَةً، أو نوراً من أنوار عظمته، ﴿إِلاَّ إِبْلِيسَ﴾ أي: امتنع؛ حيث نظر الفرق بحكمة الواحد القهار، فاستكبر ﴿وكان﴾ من جملة ﴿الْكَافِرِينَ﴾. وكفره باعتراضه على الله وتسفيه حكمه، لا بامتناعه؛ إذ مجرد المعصية لا تكفر. والله تعالى أعلم.

الإشارة: إذا كمل تصفية الروح، وظهر شرفها، خضع لها كل شيء، وتواضع لها كل شيء، وانقاد لأمرها من سبقت له العناية، وهبت عليه ريح الهداية، لأنها صارت آدم الأكبر، إلا من أبلسته المشيئة، وطردته القدرة، فاستكبر عن تحكيم جنسه على نفسه، وكان من الكافرين لوجود الخصوصية، فجزاؤه حرمان شهود طلعة الربوبية، وهبوطه إلى حضيض العمومية.

ثم ذكر الحق تعالى دخول آدم الجنة، ونزوله إلى الخلافة التي أخبر الحق تعالى بها قبل، فقال:

﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (٣٥) فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (٣٦) فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٣٧) ﴾

قلت: (رغدا): صفة لمصدر محذوف، أي: أكلا رغدا واسعا، و(تكونا): منصوب، جواب الأمر، أو معطوف على (تقربا)، و (أزلهما): أوقعهما في الزلل بسبب الأكل، أو أذهبهما عن الجنة، ويدل عليه قراءة حمزة: «فأزالهما»، وجملة (بعضكم لبعض عدو): حالية، أي: متعادين.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ﴾ حين سجدت له الملائكة ودخل الجنة: ﴿اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ﴾ حواء ﴿الْجَنَّةَ﴾، وكانت خلقت من ضلعه الأيسر، ﴿وَكُلا﴾ من ثمار الجنة ﴿حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾: العنب أو التين أو الحنطة؛ ﴿فَتَكُونَا﴾ إن أكلتما منها ﴿مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ لنفسيكما. فدخل إبليس خفية أو في فم الحية(١)، فتكلم مع آدم عليه السلام فقال له آدم عليه السلام: ما أحسن هذه الحالة لو كان الخلود. فحفظها إبليس، ووجد فيها مدخلا من جهة الطمع، فقال له: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لاَّ يَبْلَى﴾ فدله على أكل الشجرة، وقال: ﴿مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا﴾ عنها ﴿إِلاَّ﴾ كراهية ﴿أن تكونا ملكين أَوْ تَكُونَا مِنَ

(١) ليس لنا البحث عن كيفية وسوسة إبليس لآدم، ولانقطع القول بلا دليل. وهذا من الإنصاف.

﴿الْخَالِدِينَ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ . وأكلت حواء أولاً، ثم قالت له: قد أكلتُ ولم يضرني، ثم أكل آدم عليه السلام من جنس الشجرة، لا من عينها، متأولا، فطار التاج واللباس، وأخرجهما ﴿مما كانا فيه﴾ من رغد العيش والهناء، وأهبطهما إلى الأرض، للتعب والعناء، ليكون خليفة على ما سبق به القضاء.

فقال لهم الحق تعالى: ﴿اهْبِطُوا﴾ آدم وحواء وإبليس والحية، ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ﴾ استقرار وتمتع ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ وفاتكم، فتقدمون على فيجازى المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، ﴿فَتَلَقَّى﴾ أي أخذ ﴿آدم من ربه كلمات﴾ وهي: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾، ﴿فتاب﴾ الحق تعالى عليه واجتباه لحضرته، فإنه تواب كثير التوبة على عباده، رحيم بهم، أرحم من أبيهم وأمهم، اللهم ارحمنا رحمة تعصمنا بها عن رؤية السِّوى، إنك على كل شيء قدير.

الإشارة: يقول الحق جل جلاله للروح، إذا كمل تهذيبها، وتمت تربيتُها: اسكن أنت وبشريتك التي تزوجتها ـ قال تعالى: ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ ـ جنة المعارف، وكُلاَ من ثمار أذواقها وأنهار علومها، وتبوَّءاً من قصور ترقِّياتها، أكلا واسعا ما دمتما متحليين بالأدب، ولا تقربا شجرة المعصية وسوء الأدب (فتكونا من الظالمين)، فلما سكنت جنة الخلود، وشَرِهَتْ إلى الخلود، أهبطها الله إلى أرض العبودية، وردها إلى البقاء؛ لتستحق الخلافة، وتقوم بحقوق الربوبية، بسبب ما ارتكبه من المعصية، وهي الشَّرَهُ إلى دوام الحرية، «أكْرِمْ بها معصيةً أورثت الخلافة!»، فكل ما ينزل بالروح إلى قهرية العبودية، فهو سبب إلى الترقي لشهود نور الربوبية، وربما قضى عليك بالذنب فكان سبب الوصول، فلما أراد الحق تعالى أن ينزلها إلى أرض العبودية بالسلوك بعد الجذب، قال لها ولمن يحاربها من الشيطان والهوى والدنيا وسائر الحظوظ: اهبطوا بعضكم لبعض عدو، ولكم ـ أيها العارفون بعد جهاد أعدائكم ـ في أرض العبودية، استقرار وتمتعٌ بتجليات أنوار الربوبية، إلى حين الملاقاة الحقيقية. فتلقت الروح من ربها كلمات الإنابة، وهبَّ عليها، نسيم الهداية، بما سبق لها من عين العناية، فتاب عليها، وقرَّبها إلى حضرة الشهود، ومعاينة طلعة الملك الودود، إنه تواب رحيم جواد كريم.

ثم كرر الحق تعالى أمرهم بالهبوط، فقال:

﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٨)
وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٣٩)﴾

قلت: (إن): شرط، و (ما) زيدت لتقوية الشرط، ولذلك دخلت نون التوكيد، وعبر بإن دون (إذا)، مع تحقق مجيء الهدى؛ لأنه غير واجب عقلا، وجملة الشرط الثاني وجوابه، الشرط الأول، و(جميعا) حال مؤكدة؛ أي: اهبطوا أنتم أجمعون، ولذلك لا يقتضي اجتماعهم على الهبوط في زمان واحد.

ولما أمر الحق جلا جلاله آدم أولا بالهبوط من الجنة، جعل يبكي ويتضرع ويقول: ألم تخلقني بيدك؟ ألم تسجد لي ملائكتك؟ ألم تدخلني جنتك؟ ثم أُلهم الكلمات التي تلقاها من ربه، فتاب عليه ورحمه، فطمع آدم حين سمع من ربه قبول توبته في البقاء في الجنة، فقال له الحق جل جلاله: يا آدم لا يجاورني من عصاني، وقد سبقت كلمتي بهبوطك إلى الأرض لتكون خليفتي بذريتك، فكرر عليه الأمر بالهبوط ثانيا. فقال: ﴿اهبطوا منها جميعا﴾ أنتما بما اشتملتما عليه من ذريتكما. فمهما ﴿يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى﴾ أي: بيان وإرشاد إلى توحيدي ومعرفتي، على يد رسول أو نائب عنه، ﴿فَمَن تَبِعَ﴾ ذلك الإرشاد، واهتدى إلى معرفتي وتوحيدي، وعمل بطاعتي وتكاليفي، ﴿فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ من لحوق مكروه ﴿وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ من فوات محبوب، لأني أصرف عنهم جميع المكاره، وأجلب لهم المنافع، ﴿والذين كذبوا بآياتنا﴾ الدالة على قدرتنا المنزلة على رسلنا، ﴿واستكبروا﴾ عن النظر فيها، أو عن الخضوع لمن جاء بها، ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

الإشارة: إذا سكنت الأرواح في عُشّ الحضرة، وتمكنت من الشهود والنظرة، أمرها الحق تعالى بالنزول إلى سماء الحقوق أو أرض الحظوظ، فتنزل بالإذن والتمكين، والرسوخ في اليقين، لا لطلب جزاء أو لقضاء شهوة، بل تنزل بالله ومن الله وإلى الله، فمن نزل منها على هذا الهدى الحسن ﴿فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، ومن ركب بحر التوحيد مع غير رئيس عارف، ولم يأو إلى سفينة الشريعة، واستكبر عن الخضوع إلى تكاليفها لعبت به الأمواج، فكان من المغرقين. ﴿أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾؛ لأن من تحقق ولم يتشرع فقد تزندق، ومن تشرع ولم يتصوف فقد تفسق، ومن جمع بينهما فقد تحقق، جعلنا الله ممن تحقق بهما. وسلك على منهاجهما إلى الممات، آمين.

ولما ذكر الحق تعالى شرف كتابه، ونفى وجود الريب عن ساحته، ثم دعا إلى توحيده، وبرهن على وجوده، بابتداء خلق العالم من عرشه إلى فرشه، وذكر كيفية ابتداء عمارته، خاطب بني إسرائيل؛ لأنهم أهل العلم بالأخبار المتقدمة، وقد سمعوا هذه الأخبار من نبي أُمّي لم يُعْهَدْ بقراءةٍ ولا تعلم، فقامت الحجة عليهم، وتحققوا أنه من عند الله. وما منعهم من الإسلام إلا الحسد وحب الرئاسة، فلذلك أطال الحقُّ الكلام معهم، تارةً يُقرّعهم على عدم

الإيمان وما فعلوا مع أنبيائهم، وتارة يذكرهم النعم التى أنعم الله على أسلافهم، فقال تعالى:

﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُواْ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾

قلت: (إسرائيل): هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ وهو اسم عجمي، وبنو تميم تقول: «إسرائين» باللنون، (وإسرا) بالعبرانية: عبد، و (إيل): اسم الله تعالى، فمعناه: عبد الله، وبنو إسرائيل: هم أولاد يعقوب عليه السلام، و(بعهدى) من إضافة المصدر إلى فاعله، و﴿بعهدكم﴾ إلى مفعوله، و (إياى) منصوب بفعل مضمر، يقدر مؤخرا. أى: إياى ارهبوا فارهبون. وحذف مفعول (ارهبون) لرءوس الآى، وكذا قوله: (وإياى فاتقون)، والرهبة: خوف مع تحرُّز، و (تكتموا): معطوف على (تلبسوا)، أو منصوب بأن مضمرة بعد النهى، و(أنتم تعلمون): جملة حالية.

يقول الحق جل جلاله: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ﴾ التى خصصتُكم بها، بأن فضلتكم على أهل زمانكم، وجعلت فيكم أنبياء ورسلا، كلما انقرض نبى بعثت نبيًا آخر، وجعلتكم ملوكاً وحكاماً على الناس، قبل أن تفسدوا فى الأرض بقتل الأنبياء، فتكفروا بهذه النعم، فإن الإنسان حسود غيورٌ بالطبع، فإذا نظر إلى ما أنعم الله على غيره حمله الحسد والغيرة على السخط والكفران، وإذا نظر إلى ما أنعم الله به عليه حمله حب النعمة على الرضا والشكر. فاذكروا ما أنعمت به عليكم، وقيدوه بالشكر، ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي﴾ الذى عهدت إليكم، وهو أنكم إن أدركتم محمداً ﷺ لتؤمنن به ولتنصرنه، ولتبيِّنن صفته التى فى كتابكم، ولا تكتمونها، ﴿أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ بأن أدخلكم جنتى، وأبيح لكم النظر إلى وجهى، وأحل عليكم رضوانى فى جملة عبادى، ولا ترهبوا أحداً غيرى، فإنه لا فاعل غيرى.

وبادروا إلى الإيمان ﴿بِمَا أَنزَلْتُ﴾ على محمد رسولى، من كتابى، الذى هو مصدق ﴿لِمَا مَعَكُمْ﴾ من التوراة، ومهيمن عليه، ﴿وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ﴾ فريق ﴿كَافِرٍ بِهِ﴾، فتبوءوا بإثمكم وإثم من تبعكم، ولا تستبدلوا الإيمان الذى هو سبب الفوز فى الدارين، بالعرَضِ الفانى الذى تأخذونه من سفلتكم، فإنه ثمن قليل يعقبه عذاب جليل وخزى كبير. ولا تخشوا أحداً سواى؛ فإن النفع والضرر بيدى، ولا تخلطوا ﴿الْحَقَّ﴾ الذى هو ذكر

محمد ﷺ وصفته التي في كتابكم، ﴿ بِالْبَاطِلِ ﴾ الذي تريدونه تحريفا وتأويلا، ﴿و﴾ لا ﴿ تكتموا الْحَقَّ ﴾ الذي عندكم؛ من ذكر محمد وصحة رسالته، ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنكم محرفون، ولابسون عنادا وحسدا، فيحل عليكم غضبي وعقابي، ﴿وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ﴾. فإذا حصلتم أصول الدين، وهو الإيمان، فاشتغلوا بفروعه، وهي الصلاة والزكاة وغيرهما، فأدوهما على منهاج المسلمين، واجعلوا صلاتكم في جماعة المؤمنين؛ فإن صلاة الجماعة تفضلُ غيرها بسبع وعشرين درجة، مع سريان الأسرار واقتباس الأنوار من الصالحين والأبرار، وبالله التوفيق.

الإشارة: إذا توجّه الخطاب إلى طائفة مخصوصة، حمله أهل الفهم عن الله على عمومه لكل سامع، فإن الملك إذا عاتب قوما بمحضر آخرين، كان المراد بذلك تحذير كل من يسمع، فكأن الحق جل جلاله يقول: يا بني آدم اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم، وتفكروا في أصولها وفروعها، واشكروني عليها بنسبتها إليَّ وحدي، فإنه لا منعم غيري، فمن شكرني شكرته، ومن فيض إحساني وبري مددته، ومن كفر نعمتي سلبته، وعن بابي طردته، وأوفوا بعهدي بالقيام بوظائف العبودية، أوف بعهدكم بأن أطلعكم على أسرار الربوبية.

أو: أوفوا بعهدي بالقيام برسوم الشريعة، أوف بعهدكم بالهداية إلى منار الطريقة، أو: أوفوا بعهدي بسلوك منهاج الطريقة ، أوف بعهدكم بالإيصال إلى عين الحقيقة، أو: أوفوا بعهدي بالاستغراق في بحر الشهود، أوف بعهدكم بالترقي أبدا إلى الملك الودود، وخصوني بالرهب والرغب، وتوجهوا إليَّ في كل سؤال وطلب، أعطف عليكم بعنايتي ودي، وأمنحكم من عظيم إحساني ورفدي، وآمنوا بما أنزلت على قلوب أوليائي، من مواهب أسراري وآلائي، تصديقاً لما أتحفت به رسلي وأنبيائي، فكل ما ظهر على الأولياء فهو معجزة للأنبياء وتصديق لهم، ولا تبادروا بالإنكار على أوليائي، فتكونوا سبباً في طرد عبادي عن بابي، ولا يمنعكم حب الرئاسة والجاه عن الخضوع إلى أوليائي، ولا ترقبوا أحداً غيري، فإني أمنعكم من شهود سري.

ولا تلبسوا الحق بالباطل، فتظهروا شعار الصالحين وتبطنوا أخلاق الفاسقين، تتزيوا بزي الأولياء، وتفعلوا فعل الأغوياء، وإذا تحققتم بخصوصية أحد من عبادي، فلا تكتموها عن أهل محبتي ووِدادي، وأقيموا صلاة القلوب بالخضوع تحت مجاري الأقدار، وأدوا زكاة النفوس بالذل والانكسار، وكونوا مع الخاشعين، واركعوا مع الراكعين، أمنحكم معونتي ونصري، وأفيض عليكم من بحر إحساني وبري، أنا عند المنكسرة قلوبهم من أجلي.

ثم وبّخ الحق تعالى من عرف الحق وحرم نفسه منه من أهل الكتاب وغيرهم، فقال:

﴿ ۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾

قلت: البر، بالكسر: يجمع وجوه الخير وأنواع الطاعات، والنسيانُ: الترك.

يقول الحق جل جلاله فى توبيخ أحبار اليهود، كانوا إذا استرشدهم أحد من العرب دلوه على الإسلام، وقالوا له: دين محمد حق، وهم يمتنعون منه، وقيل: كانوا يأمرون الناس بالصدقة وهم يبخلون، فقال لهم: كيف ﴿تأمرون الناس بالبر﴾ والإحسان، وتتركون ﴿أنفُسَكُمْ﴾ فى الكفر والعصيان، وأنتم تدرسون التوراة الصحيح، وتعلمون أن ذلك من أقبح القبيح؟، أفلا عقل لكم يزجركم عن هذه الخصلة الذميمة؟؛ فإن من شأن العقل التمييز بين القبيح والحسن والنافع والضار، فكل من تقدم لما فيه ضرره فلا عقل له.

الإشارة: كل من أشار إلى مقام لم يبلغْ قدمه إليه، فهذا التوبيخ متوجهٌ إليه، وكل من ذكر غيره بعيب لم يتخلص منه، قيل له: أتأمر الناس بالبر وتنسى نفسك خالية منه، فلا يسلم من توبيخ هذه الآية من أهل التذكير إلا الفرد النادر من أهل الصفاء والوفاء.

وقال البيضاوى: (المراد بها حث الواعظ على تزكية النفس، والإقبال عليها بالتكميل لتَقُوم فُيقيم، لا منع الفاسق عن الوعظ، فإن الإخلال بأحد الأمرين المأمور بهما لا يوجب الإخلال بالآخر). فانظره. وتأمل قول القائل:

يا أيهـا الرجلُ المعلِّمُ غـيـره ... هـلاَّ لنفـسك كـان ذا التـعليمُ

تَصِف الدواءَ لذي السقامِ وذي الضنَـا ... ومِـن الضنَا وجَوَاهُ أنتَ سقيمُ

وأراكَ تلقحُ بالرشـادِ عـقُـولَنـا ... نُصْحَـا، وأنت مِن الرشـادِ عـديمُ

ابدأ بنفسك فانْهَهَـا عَـن غيِّهـا ... فـإذا انتهـتْ عنه فأنتَ حكيمُ

فَهنَاك يُقْبَلُ إن وعظتَ، ويُقتـدَى ... بالقـول منـكَ، وينفـعُ التعليمُ

لا تَنْهَ عن خُلـقٍ وتأتـيَ مثلَـه ... عـارٌ عليـكَ إذا فعلـتَ عظيـمُ

لكن مَنْ حصل له بعض الصفاء، ذكرَ غيره ونفسه معهم، وكان بعض أشياخنا يقول حين يذكر الفقراء: نحن إنما ننبح على نفوسنا.

ثم أشار الحق تعالى إلى الدواء، فقال:

﴿ وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾

قلت: الصبر: هو حبس القلب على حكم الرب، فيحتمل أن يراد به ظاهره، أو يراد به هنا الصوم، لأن فيه الصبر عن الشهوات. والخشوع في الجوارح: سكونها وذُلها، والخضوع في القلب: انقياده لحكم الرب.

يقول الحق جل جلاله: يا من ابتلى بالرئاسة والجاه، واستكبر عن الانقياد لأحكام الله؛ التي جاءت بها الرسل من عند الله، استعن على نفسك ﴿ بالصبر ﴾ على قطع المألوفات، وترك الحظوظ والشهوات، وأصل فروعها حب الرئاسة والجاه، فمن صبر على تركهما فاز برضوان الله. وفي الحديث: «وفي الصبر على ما تكرهُ خيرٌ كثير». وقال الشاعر:

والصَّبْرُ كالصَّبْرِ مُرٌّ في مذاقَتِهِ لَكِنْ عَوَاقِبُـه أَحْلَـــى مِن العَسَـلِ

أو: ﴿ وَاسْتَعِينُوا ﴾ بالصوم ﴿ وَالصَّلاةِ ﴾، فإن في الصوم كَسْرَ الشَّهْوَةِ وتصفية النفس، فإذا صفت النفس من الرذائل تحلت بأنواع الفضائل، كالتواضع والإنصاف، والخشوع وسائر سنى الأوصاف، وفي الصلاة أنواع من العبادات النفسية والبدنية، كالطهارة، وستر العورة، وصرف المال فيهما، والتوجه إلى الكعبة، والعكوف للعبادة، وإظهار الخشوع بالجوارح، وإخلاص النية بالقلب، ومجاهدة الشيطان، ومناجاة الرحمن وقراءة القرآن، وكف النفس عن الأطْيَبَيْنِ(١)، وفي الصلاة قضاء المآرب وجبر المصائب، ولذلك كان ـ عليه الصلاة والسلام ـ إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة، ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ﴾ أي: شاقة على النفس؛ لتكريرها في كل يوم، ومجيئها وقت حلاوة النوم، ﴿ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴾ الذين سكنت حلاوتها في قلوبهم، وتناجوا فيها مع ربهم، حتى صارت فيها قُرَّة عينهم.

الذين يتيقنون ﴿ أَنَّهُم مُّلاقُوا رَبِّهِمْ ﴾ فيتنعمون بالنظر إلى وجهه الكريم، ويتيقنون أيضا أنهم راجعون إلى ربهم بالبعث والحشر للثواب والعقاب، وإنما عبَّر الحق تعالى هنا بالظن في موضع اليقين إبقاءً على المذنبين، وتوفراً على العاصين، الذين ليس لهم صفاء اليقين؛ إذ لو ذكر اليقين صرفاً لخرجوا من الجملة، فسبحانه من رب حليم، وجواد كريم. اللهم امنن علينا بصفاء المعرفة واليقين، حتى لا يختلج قلوبنا وَهْمٌ ولا ريب، يا رب العالمين.

الإشارة: يا من رام الدخول إلى حضرة الله، تذلل وتواضع لأولياء الله، وتجرع الصبر في ذلك كي يدخلوك حضرة الله، كما قال القائل:

تَذَللْ لِمنْ تهْوى؛ فَلَيْسَ الهوَى سَهْلُ(٢) إذا رَضِي المَحْبـوبُ صَـحَّ لكَ الوَصلُ

---

(١) أي: الأكل والجماع. قاله الشهاب الخفاجي في حاشيته على البيضاوي ٢/٤٥١.
(٢) أرى أن يكون: (تذلل لمن تهوى فما في الهوى سهل).

فإن منعك من ذلك حب الرئاسة والجاه، فاستعن على ذلك بالصبر والصلاة، فإن الصبر عنوان الظفر، والصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر. فأدمن قرع الباب حتى تدخل مع الأحباب، فالإدمان على عبادة الصلاة أمره كبير، إلا من خلص إلى مناجاة العلى الكبير، وتحقق بملاقاة الشهود والعيان، ورجع إلى مولاه في كل أوان، فإن الصلاة حينئذ تكون له من قرة العين. وبالله التوفيق، وهو الهادي إلى سواء الطريق.

ولما أمرهم بالأصول والفروع، ذكَّرهم بالنعم، وخوفهم بالوعيد على عدم شكرها، فقال:

﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ (٤٧) وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ (٤٨) ﴾

قلت: ﴿العدل﴾ بالفتح: الفداء، وبالكسر: الحمل، وجملة ﴿لا تجزي﴾: صفة ليوم، والعائد محذوف، أي: لا تجزى فيه.

يقول الحق جل جلاله: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ﴾ على آبائكم بالهداية وبعث الرسل، ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾: أهل زمانكم، فاذكروا هذه النعم واشكروني عليها؛ بأن تتبعوا هذا النبي الجليل، الذي تجدونه مكتوبا عندكم في التوراة والإنجيل.

وخافوا ﴿ يَوْمًا﴾ لا تقضي فيه ﴿نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا﴾ بحيث لا تجلب لها نفعاً، ولا تدفع عنها ضرراً، ولا تقبل ﴿مِنْهَا شَفَاعَةٌ﴾ إن وقعت الشفاعة فيها، ولا يؤخذ منها فداء، إن أرادت الفداء عنها، ولا تنتصر في دفع العذاب، إن أرادت الانتصار بعشيرتها. فانتفى عنها وجوه الامتناع من العذاب بأي وجه أمكن؛ فإن الإنسان إذا أُخذ للنكال احتال على نفسه إما بالشفاعة، أو بالفداء إن لم تقبل الشفاعة فيه، أو بالانتصار بأقاربه، والآيةُ في الكفار، فلا حجةَ لمن ينفي الشفاعة في عُصاة المؤمنين، والله تعالى أعلم.

الإشارة: قد يتوجهُ العتاب إلى أهل الرئاسة والجاه، من العلماء والصالحين، وكل من خُصَّ بشرف أوخصوصية، فيقول لهم الحق تعالى: ﴿ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ بالعلم أو السيادة أو الصلاح، وبأن فضلتكم على أهل زمانكم، وخصصتكم من أبناء جنسكم؛ فقد روى: «أنَّ العبد يُحاسب على جاهه كما يُحاسب على ماله» . فمن صرفه في طاعة الله، وتواضع لعباد الله، وسعى في حوائجهم ،وأبلغ الجهد في قضاء مآربهم، كان ذلك شكراً لنعمة الجاه؛ فقد روى في الحديث: «مَنْ سَعَى في حَاجَةِ أخيهِ المسلِم، قُضيتْ أو لَم تُقْضَ، غُفِرَ له ما تقدَّم مِنْ ذَنْبه، وكُتب له براءتان: براءة من النار وبراءة من النفاق» .

ولا يأخذ على ذلك أجراً ولا جُعلا؛ فإنَّ ذلك سحت وربا، ومن تكبر به وطغى، أو أخذ على ذلك أجرا، قيل له يوم القيامة: قد استوفيت أجرك فلا حظ لك عندنا، فلا تنفعه شفاعة، ولا يقبل منه فداء، ولا يقدر أن ينتصر من موارد الهوان والردى، ففى بعض الأخبار: يقول الله تعالى للفقراء الذين يعظمون فى الدنيا لأجل فقرهم: ألم أرخص لكم الأسعار؟ ألم أوسع لكم المجالس؟ ألم أعطِّف عليكم عبادى؟ فقد أخذتم أجركم فى الدنيا. أو كما قال. والله تعالى أعلم.

ثم ذكّر الحق تعالى بنى إسرائيل بنعمة أخرى، فقال:

﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ ﴾

قلت: (إذ): معمول لاذكروا، و (فرعون): اسم لكل من ملك القبط، كما أن قيصر اسم لمن ملك الروم، وكسرى اسم لمن ملك الفرس، واسم (فرعون) الذى كان فى زمن موسى عليه السلام: «مصعب بن ريان»، وقيل: ابنه الوليد. وسام يسوم: طلب وبغى، يقال: سامه خسفا إذا أولاه ظلما، وجملة (يسومونكم): حال من (آل فرعون)، وجملة (يذبحون): بيان لها. وسوء العذاب: أفظعه وأقبحه.

يقول الحق جل جلاله: يا بنى إسرائيل اذكروا نعمة أخرى أنعمت بها على أسلافكم، وأنتم عالمون بها، وذلك حين أنجيناكم من عذاب فرعون ورهطه، يولونكم أقبحَ العذاب وأشنعه، كانوا يستعبدون رجالكم ونساءكم فى مشاق الخدمة والمهنة، ولمّا أخبره الكهان أنه سيخرج منكم ولد يُخرِّب ملكه، جعل يذبح ذكوركم ويترك نساءكم، وفى ذلكم محنة ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ وابتلاء ﴿عَظِيمٌ﴾، أو فى ذلك الإنجاء اختبار من ربكم عظيم، فاذكروا هذه النعمة، وتحصنوا بالإيمان بمحمد ﷺ من محنة أخرى، ولا ينفع حذرٌ من قدر، ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾. وبالله التوفيق.

الإشارة: لكل زمان فراعين وجبابرة يقطعون الناس عن الانقطاع إلى الله والدخول إلى حضرة الله، (ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صُنْعاً)، يقول الحق جل جلاله للذين تخلصوا منهم: اذكروا نعمتىَ التى أنعمت عليكم بها؛ حيث أنجيتكم من فراعين زمنكم، يسومونكم سوء العذاب؛ وهو البقاء فى غم الحجاب، والانقطاع عن الأحباب، يقتلون ما ربيتم من اليقين فى قلوبكم والمعرفة فى أسراركم، ويستحيون

شهواتكم وحظوظكم، (وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم). قال تعالى: ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ ... ﴾. وبالله التوفيق، وهو الهادى إلى سواء الطريق.

﴿ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ۝٥٠ ﴾

ثم ذكَّرهم الحق تعالى نعمة أخرى؛ وهى فلق البحر وإغراق العدو، فقال:

يقول الحق جل جلاله: واذكروا أيضا حين ﴿ فرقنا ﴾ بسببكم ﴿ البحر ﴾، حين فررتم من عدوكم، فسلكتم فيه اثنىْ عشر مسلكا يابسا حتى خلصتم إلى الشام، فلما أدرككم عدوُّكم، واستتمَّ دخولهُ فيه، أطبقنا عليهم البحر ﴿ فأنجيناكم وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ ﴾ وأنتم تعاينون غرقهم وهلاكهم، فاشكروا هذه النعم التى أنعمت بها على أسلافكم، واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم على نبى أمى، لم يكن له علم بهذا، حتى علمه بالوحى من ربكم.

الإشارة: قال بعض الحكماء: (الهوى بحر لا ساحل له إلا الموت). فلا يقطع بحر الحظوظ والعوائد، إلا الخواص، الذين منَّ الله عليهم بسلوك الطريقة، والغرق فى بحر الحقيقة، على يد رجال جمعوا بين الشريعة والحقيقة، فيقول الحق ـ جل جلاله ـ لمن تخلص من بحر هواه، وأفضى إلى مشاهدة مولاه: اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم؛ حيث خلصتكم من بحر الشهوات والعوائد، وأطلعتكم على أسرار العلوم وذخائر الفوائد، وأغرقنا فيه من تكبر وطغى، وأنتم تنظرون ما فيه الناس من غم الحجاب وسوء الحساب، فى بحر لجى يغشاه موج الذنوب، من فوقه موج الحظوظ، من فوقه سحاب الأثر، إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور. وبالله التوفيق.

ثم ذكَّرهم نعمة التوراة التى أنزلها على موسى، وفى ضمنه التوبيخ على عبادة العجل، فقال جل جلاله:

﴿ وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ ۝٥١ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٥٢ وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝٥٣ ﴾

قلت: (أربعين): مفعول لواعدنا، لا ظرف، و (العجل): مفعول أول، والثانى محذوف، أى: اتخذتموه إلها، و(الفرقان): معطوف على (الكتاب).

يقول الحق جل جلاله: واذكروا أيضا حين ﴿وَاعَدْنَا مُوسَىٰ﴾ أن يصوم ﴿أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ بأيامها متواصلة، وذلك حين طلبتم منه أن ينزل عليه الكتاب فيه بيان الأحكام، ثم لما صامها، وهي: ذو القعدة وعشر ذي الحجة، وأتى إلى المناجاة، كفرتم، و ﴿اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ﴾ الذي صاغه السامريُّ من الحُلِيِّ، الذي أخذته نساء بني إسرائيل من القبط عارية، ففروا به ظنا منهم أنه حلال، فقال لهم هارون عليه السلام: لايحل لكم، فطرحوه في حفرة، فصاغ منه السامري صورة العجل، وألقى في جوفه قبضة أخذها من تحت حافر فرس جبريل عليه السلام حين عبر معهم البحر، فجعل يخور، فقال السامري: ﴿هَٰذَا إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ﴾، ﴿وأنتم ظالمون﴾ في عبادته، ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم﴾ بالتوبة وقتل النفس على ما يأتي، ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، فلا تعصون بنعمة، ﴿و﴾ اذكروا أيضا ﴿إِذْ آتينا موسَى الكِتَابَ﴾ الذي طلبتم، وهو التوراة، وهو ﴿ الفرقان﴾ الذي فرقنا فيه بين الحق والباطل، كي تهتدوا إلى الصواب فتنجوا من العذاب.

الإشارة: مازالت الأشياخ والأولياء الأقدمون ينتحلون طريق سيدنا موسى عليه السلام في استعمال هذه الأربعين، ينفردون فيها إلى مولاهم، مؤانسة ومناجاة، وفي ذلك يقول ابن الفارض رضي الله عنه:

وصِرْتُ مُوسَى زَمَانِي ... مُذْ صَارَ بَعْضِي كُلِّي

وقال:

صَارَتْ جِبَالِيَ دَكًّا ... مِنْ هَيْبَةِ المُتَجَلِّي

فيفارقون عشائرهم وأصحابهم في مناجاة الحبيب، والمؤانسة بالقريب، فمن أصحابهم من يبقى على عهده في حال غيبة شيخه، من المجاهدة والمشاهدة، ومنهم من تسرقه العاجلة فيرجع إلى عبادة عجل حظه وهواه؛ فيظلم نفسه بمتابعة دنياه، فإن بادر بالتوبة والإقلاع، ورجع إلى حضرة شيخه بالاستماع والاتباع، وقع عنه العفو والغفران، وربما ما كان يؤمله من المشاهدة والعيان، وإلا باء بالعقوبة والخسران، وكل من اعتزل عن الأحباب والعشائر والأصحاب، طالبا جمع قلبه، ورضى ربه، فلابد أن ترد عليه أسرار ربانية ومواهب لدنية، من لدن حكيم عليم، يظهر بها الحق، ويدفع بها الباطل، فيفرق بين الحق والباطل. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر الحق تعالى كيفية توبة من عبد العجل منهم، فقال:

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾ ﴾

قلت: البارئ هو: المقدر للأشياء والمظهر لها.

يقول الحق جل جلاله: و اذكروا يا بني اسرائيل حين ﴿قال﴾ موسى ﴿لقومه﴾ لما رجع من الطور، ووجدهم قد عبدوا العجل: ﴿يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم﴾ وبخستموها ﴿باتخاذكم العجل﴾ إلاهكم، ﴿فَتُوبُوا إِلَىٰ﴾ خالقكم الذي صوركم في أحسن تقويم، ﴿فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾ بهدم هذه البنية التي ركبتها في أحسن صورة، فبخستموها، ولم تعرفوا قدرها، فعبدتم أبلد الحيوان، الذي هو البقرة. من لم يعرف حق النعمة فحقيق أن تُسترد منه.

فذلكم القتل والمبادرة إلى التوبة ﴿خير لكم﴾ عِندَ خالقكم، لأنه يفضي إلى الحياة الدائمة والبهجة السرمدية، فلما صعب عليكم القتل؛ للشفقة على الأخ أو القريب، ألقينا عليكم ضبابة حتى أظلم المكان، فاقتتلتم من الغداة إلى العشي، فدعا موسى وهارون ـ عليهما السلام ـ بالكشف عنهم، فرفعت السحابة، وقد قُتل سبعون ألفا، ففعلتم ذلك القتل، فتاب الحق تعالى عليكم، فقبل توبة من بقي منكم، وعفا عمن مات؛ ﴿إنه هو التواب الرحيم﴾ أي: كثير التوفيق للتوبة، أو كثير قبولها، الرحيم بعباده المؤمنين.

الإشارة : ما قاله سيدنا موسى عليه السلام لقومه، يقال مثله لمن عبد هواه وعكف على متابعة دنياه: يا من بخس نفسه بإرخاء العنان في متابعة هواها، حتى حرمها من مشاهدة جمال مولاها، تُب إلى ربك، وانتبه من غفلتك، واقتل نفسك بمخالفة هواها، فلعلها تحيا بمشاهدة مولاها، فما دامت النفس موجودة، وحظوظها لديها مشهودة، وآمالها ممدودة، كيف تطمع أن تدخل حضرة الله، وتتمتع بشهود جماله وسناه؟!

إنْ تُرِدْ وصلَنَا فَمَوتُكَ شَرْطٌ		لاينالُ الوِصالَ مَنْ فيه فَضْلَهْ(١)

وقال الحلاجُ في هذا المعنى :

لَم أُسلِمِ النفسَ للأسقامِ تُتْلِفُها		إلاَّ لِعِلْمِي بأَنَّ الوصْلَ يُحْيِيهَا

وقال أيضا :

أُقتُلوني يا ثقاتي		إنَّ في قَتْلي حَياتي
وحَيَاتي في مَماتي		ومَماتي في حَياتي
أنا عندي: مَحْوُ ذاتي		مِن أَجَلِّ المكْرُمَاتِ
وبَقَائِي في صِفاتي		مِنْ قَبيحِ السَّيِّئَاتِ

(١) البيت للششتري.

وقال أيضا:

إنْ كان سَفْكُ دَمي أقْصَى مُرادِكُمُ فَمَا غلَتْ نظرةٌ منكم بِسَفْكِ دَمِي

وقال الشيخ أبو العباس المرسي رضي الله عنه: (لا يدخل على الله إلا من بابين، أحدهما: الموت الحسي، وهو الموت الطبيعي، والآخر: الموت الذي تعنيه هذه الطائفة) . هـ. وهو موت النفوس، فمن لم تمت نفسه لم تَحْيَى روحه.

وقال بعض العارفين : (لايحصل الدخول على الله حتى يموت أربع موتات: موت أحمر، وموت أسود، وموت أبيض، وموت أخضر. أما الموت الأحمر فهو مخالفة الهوى، وأما الموت الأسود فهو تحمل الأذى، وأما الموت الأبيض فهو الجوع ـ أي: المتوسط ـ وأما الموت الأخضر فهو لبس المرقعات، وطرح الرقاع بعضها على بعض) .

قلت : ورأس الهوى وعنصره هو حب الجاه وطلب الرئاسة. فمن نزل إلى أرض الخمول، وخرق عوائد نفسه فيه، انخرقت له الحجب، ولاحت له الأنوار، وأشرقت عليه الأسرار في مدة قريبة، وبالله التوفيق وهو الهادي إلى سواء الطريق.

ثم وبخهم الحق تعالى على طلب الرؤية قبل إبانها، وقبل تحصيل شروطها، فقال:

﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾

قلت : (جهرة): مصدر نرى؛ لأنه نوع منه، أي: نرى الله رؤية عيان، أو حال من الفاعل؛ أي: نراه معاينين له، أو من المفعول؛ أي: نراه معاينة.

يقول الحق جل جلاله : واذكروا أيضا، يابني إسرائيل، حين قلتم لموسى عليه السلام لما رجع من الطور، ووجدكم قد عبدتم العجل، فأخذ منكم سبعين رجلا ممن لم يعبد العجل، وذهب يعتذر، فلما سمعتم كلامي أنكرتموه وحرفتموه، وقلتم: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ﴾ أن هذا كلام الله ﴿حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ﴾ بسبب طلبكم ما لا طاقة لكم به، فغبتم عن إحساسكم، وذهبت أرواحكم، ﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ ما فعل بكم، فاستشفع فيكم موسى عليه السلام وقال: يا ﴿رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي أتهلكنا بما فعل السفهاء منا﴾ ، كيف أرجع إلى قومي بغير هؤلاء؟ ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾ ، وعشتم زماناً بعد ذلك ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ هذه النعمة، وتقومون بحسن الخدمة، فتقروا بربوبيتي، وتصدقوا برسلي، فلم تفعلوا.

الإشارة: من شأن الأرواح الطيبة التشوق الى الحضرة، والتشوف إلى العيان والنظرة، فلا يحصل لها كمال التصديق والإيقان إلا بعد الشهود والعيان، فلما علم الحق سبحانه من بعض الأرواح صدق الطلب، رفع عنها الحجاب، وفتح لها الباب، فأخذتها صاعقة الدهشة والحيرة، ولم تطق صدمة المشاهدة والنظرة، فغابت عن الأشكال والرسوم في مشاهدة أنوار الحي القيوم، ثم مَنَّ عليها بالبعث من موت الفناء إلى حياة البقاء، فأمنت من الشقاء، فحصلت لها الحياة الدائمة والسعادة السرمدية . فالصاعقة عند أهل الفن هي عبارة عن الغيبة عن النفس، وفناء دائرة الحس، وهي شهود عدمك لوجود الحق، والبعث منها هو مقام البقاء، وهو شهود الأثر بالله. وهو مقام حق اليقين. وحاصله: شهود وجود الحق وحده، لاعدمك ولاوجودك، «كان الله ولا شيء معه، وهو الآن على ما عليه كان» . وبالله التوفيق.

ثم ذكّرهم الحق لطفه بهم في حال التيه، فقال:

﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾

قلت : (الغَمَامَ): السحاب الرقيق، و(المَنّ) هنا: العسل، و(والسلْوى) قيل: اللحم، والأصح: أنه اسم طائر كالسماني.

يقول الحق جل جلاله في تذكير بني اسرائيل ما أنعم به عليهم في حال التيه: ﴿و﴾ قد ﴿ظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ﴾ يقيكم من الحر في أيام التيه، ﴿وأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ﴾ وهو عسل كان ينزل على الشجر من الفجر إلى الطلوع، فيغرفون منه ما شاءوا ، ﴿و﴾ أنزلنا عليكم ﴿ السلوى ﴾، وهو طير كانت تحشره الجنوب، فينزل عليهم، فيأخذون منه ما شاءوا، ولا يمتنع منهم، فيذبحون ويأكلون لحما طريا، فقلنا لهم: ﴿كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا﴾ بمخالفتهم أمرَ نبيهم وسوء أدبهم معه، حيث قالوا: ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ ، فعاقبهم بالتيه أربعين سنة، يتيهون في مقدار خمسة فراسخ أو ستة. ﴿ولَكِن﴾ ظلموا أنفسهم؛ حيث أوقعوها في البلاء والمحنة.

رُوي أنهم لما أُمروا بجهاد الجبارين، جبنوا وقالوا تلك المقالة، فدعا عليهم سيدنا موسى عليه السلام فوقعوا في التيه بين مصر والشام، فكانوا يمشون النهار فيبيتون حيث أصبحوا، ويمشون الليل فيصبحون حيث أمسوا، فقالوا

لموسى عليه السلام: من لنا بالطعام؟ فأنزل الله عليهم المن والسلوى، قالوا: كيف بحر الشمس؟ فظلل عليهم الغمام، قالوا بم نستصبح بالليل؟ فضرب لهم عمود نور في وسط محلتهم، قالوا: من لنا بالماء؟ فأمر موسى عليه السلام بضرب الحجر، فقالوا: من لنا باللباس؟ فأعطوا ألا يبلى لهم ثوب، ولا يَخْلَق، ولا يَدْرن، وأن ينمو بنمو صاحبه، وقيل كساهم مثل الظفر، ﴿والله على كل شيء قدير﴾.

الإشارة: لما انفصلت الأرواح من عالم الجبروت، كانت على الطهارة الأصلية، والنزاهة الأزلية، عالمة بأسرار الربوبية وعظمة الألوهية، لكن لم يكن لها إلا جنة الحرية، دون جنة العبودية، فلما أراد الحق تعالى أن يمتعها بجنتين عن يمين وشمال، أمرها بالنزول إلى أرض العبودية، في ظلل من غمام البشرية، فمنّ عليها بحلاوة المشاهدات وسلوان المناجات، وقال لها: كلوا ﴿من طيبات ما رزقناكم﴾ من طرائف العلوم، وفواكه الفهوم هذا لمن اعتنى بروحه فاستكمل فضيلتها، وخالف هواها، فنفذت من عالم الأشباح إلى عالم الأرواح، فلم تحجب بسحب الآثار إلى نفوذ شهود الأنوار، بل غابت عن شهود الآثار بشهود الأنوار. أما من حجبت عن شهود الأنوار بالوقوف مع الآثار، ووقعت في شبكة الحظوظ والشهوات، وربطت بعقال الأسباب والعادات، فقد ظلمت نفسها، وبخست حقها من مشاهدة مولاها، حتى اتسعت عليها دائرة الحس، ولم تنفذ إلى المشاهدة والأنس. وأنشدوا:

كَمِّلْ حقيقتك التي لم تكمَلِ ... والجسمَ ضَعْهُ في الحضيض الأسفلِ
أتكمِّلُ الفاني وتترُك باقيًا ... هَمَلاً، وأنت بأمرِه لم تحفلِ؟
فالجسمُ للنفس النفيسة آلةٌ ... ما لمْ تُحَصِّلْه بها لم يحصُلِ
يَفْنَى، وتبقى دائماً في غِبْطةٍ ... أو شِقْوةٍ وندامة لا تنجلي
أُعطيتَ جِسمَكَ خادماً فخدمْتَه ... أتُمَلِّكُ المفضولَ رِقَّ الأفضلِ؟
شَرَكٌ كثيفٌ أنتَ في أحبالِه ... مادام يُمكنك الخَلاص فعَجِّلِ
مَنْ يستطيعُ بلوغَ أعلى منزلٍ ... ما بالُه يرضَى بأدنى منزِلِ!

ثم وبخهم على ما وقع منهم من المخالفة، فقال:

﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا
حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (٥٨) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي
قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (٥٩)﴾

قلت: (حطة): خبر مبتدأ مضمر، أي: أمرنا حطة، أي: تواضع وانحطاط، وقال هنا: (فكلوا)، وفي الأعراف بالواو؛ لأن الأكل مرتب على الدخول، بخلاف السكنى، فإنها تفارق الأكل، فكأنه مأمور به.

يقول الحق جل جلاله: واذكروا يابني إسرائيل حين قلنا لأسلافكم بعد أن خرجوا من التيه: ﴿ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ﴾ أعني بيت المقدس، أو أريحاء، بعد أن تُجاهدوا أهلها، ﴿فَكُلُوا﴾ من نعم ما فيها أكلا واسعا؛ لأنها مخصبة، ﴿وَادْخُلُوا﴾ باب القرية راكعين، تواضعا وشكرا، ﴿وَقُولُوا﴾ في دخولكم: شأننا ﴿حِطَّةٌ﴾، أي: شأننا الانحطاط والتواضع لله، فإن فعلتم ذلك ﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ، وَسَنَزِيدُ﴾ من امتثل أمرنا، وأحسن الأدب معنا، خيراً كثيراً، في الدنيا والآخرة، ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ منهم ﴿قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي﴾ أمروا به، وقالوا مكان حطة: حنطة، حبة في شعرة، ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزاً﴾ عذابا ﴿مِّنَ السَّمَاءِ﴾ قيل: هو الطاعون، فمات منهم سبعون ألفا في يوم واحد، بسبب فسقهم وتعديهم الحدود.

الإشارة: يقول الحق سبحانه للأرواح، لما كمل تطهيرها من البقايا، وتكاملت فيها المزايا: ادخلوا هذه الحضرة المقدسة، وتنعموا فيها حيث شئتم بالمشاهدة، والمكالمة، والمواجهة، والمساورة، والمفاتحة، والمناجاة، وادخلوا بابها أذلاء صاغرين، فلا دخول للحضرة المقدسة إلا من باب الذل والافتقار، وأنشدوا:

وَمَا رُمتُ الدخولَ عليه حتَّى		حلَلْتُ مَحلَّةَ العبدِ الذليلِ
وأغمضتُ الجفُونَ على قَذَاهـا		وصُنْتُ النَّفْسَ عن قالٍ وقيلِ(١)

وقيل لأبي يزيد: يا أبا يزيد، خزائننا معمورة بالخدمة، إئتني من كوة الذل والافتقار. وفي رواية قيل له: يا أبا يزيد: تقرب إلينا بما ليس عندنا، فقال: يارب؛ وما الذي ليس عندك؟ فقال: الذل والافتقار. هـ. وقال شيخ المشايخ القطب الجيلاني رضي الله عنه (أتيت الأبواب كلها، فوجدت عليها الزحام، فأتيت من باب الذل والافتقار، فوجدته خاليا، فدخلت منه، وقلت: هلموا). أو كما قال. وقال الشاعر:

تَذَلَّلْ لمنْ تَهْوى فَلَيْسَ الهَوى سَهْلٌ (٢)		إذا رَضِي المَحْبُوبُ صَحَّ لكَ الوَصْلُ

وقولوا عند دخولكم الحضرة: شأننا حطة؛ أي: شأننا السفليات دون العلويات، فالسلوك من باب السفليات واجب، وإلا فلا وصول، فكل من سلك من باب السفليات طهر من البقايا، وتكاملت فيه المزايا، فيصلح لدخول الحضرة،

(١) الأبيات للسري السقطي، كما في زاد المسير لابن الجوزي.
(٢) راجع التعليق على هذا الشطر ص ١٠٢ .

وينخرط في سلك أهل الشهود والنظرة، فيكون من المحسنين المقربين، فلا جرم أن الله يزيده ترقياً في العلوم والأسرار، في هذه الدار، وفي تلك الدار، بخلاف من خالف ما أمر به من سلوك طريق السفليات، وتعاطى الأمور العلويات، قبل كمال التربية؛ فإنه يرجع إلى غم الحجاب، وسوء الحساب؛ بسبب خروجه عن طريق الأحباب، وسلوكه طريق أهل الغفلة والارتياب. وبالله التوفيق، وهو الهادي إلى سواء الطريق.

ثم ذكّرهم بنعمة الماء الذي سقاهم في التيه، فقال:

﴿ ۞ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾

قلت: ﴿ استسقى﴾: طلب السقي، و «الـ» في ﴿الحجر﴾ للعهد، وهو الحجر الذي فرّ بثوبه، أو حجر خفيف مربع مثل رأس الرجل، أُمر أن يحمله معه، فكان يضعه في مخلاته، فإذا احتاج الماء ضربه، قيل: كان من رخام، وقيل: كان كذّان(١)، كان فيه اثنتا عشرة حفرة، تنبع من كل حفرة عين ماء عذب، على عدد الأسباط، فإذا أراد حمله ضربه فجف الماء منه، وقيل: للجنس، فكان يضرب أي حجر وجد، فتنفجر منه عيوناً، ثم تسير كل عين في جدول إلى سبط، فقالوا: إن أفضينا إلى أرض لا حجارة فيها عطشنا، فأوحي إليه: أن كلّمْهُ يُطعْك لعلهم يعتبرون.

و﴿ فَانْفَجَرَتْ﴾: معطوف على محذوف؛ أي: فضرب فانفجرت، والعُثو: أشد الفساد، عثّا يعثو عثواً، وعثي يعثي عِثياً، وعاث يعيث عيثا، و﴿ مفسدين ﴾: حال مؤكِدة لعاملها، أو مقيدة، إن قلنا: إن العثو أعم من الفساد، لصدقه على القصاص، فإنه عثو غير فساد. انظر البيضاوي.

يقول الحق جل جلاله: واذكروا يابني إسرائيل حين عطشتم في التيه، فطلبتم من موسى السقي، فاستسقى لكم، ﴿ فقلنا ﴾ له: ﴿ اضرب بعصاك ﴾ التي أخذتها من شعيب عليه السلام، وكانت من آس الجنة، وورثت عن آدم عليه السلام، فيها عشرة أذرع، فضرب ﴿ فَانفَجَرَتْ مِنهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً ﴾ على عدد أسباطكم، فكل عين تجري إلى سبط ﴿ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ﴾ مُعيّنا ، لا يعدو أحد على أحد، فقلنا لهم: ﴿ كُلُوا ﴾ من المن والسلوى، ﴿ واشربوا ﴾ من الماء الذي رزقناكم، ولا تطغوا بالنعم فتفسدوا في الأرض بالمعاصي والذنوب، فيكون ذلك كفراً مستوجباً للسلب بعد العطاء، رُوي أنهم كانوا ستمائة ألف، وسعة المعسكر اثنا عشر ميلاً. والله تعالى أعلم.

---

(١) الكذّان: جمع كذانة، وهي حجارة فيها رخاوة، وربما كانت نخرة. قلت: لا ينبني على تعيين هذا الحجر أمر ديني. والأسلم تفويض علمه إلى الله تعالى.

الإشارة : اعلم أن الأرواح إذا تطهرت من الأكدار، وتحررت من الأغيار، وأشرقت عليها الأنوار والأسرار، وكمل تطهيرها، وتمت تصفيتها، كان صاحبها آية من آيات الله، وحجة من حجج الله، إذا ضرب بعصا همته القلوب القاسية أو الأنفس الأبية، لانت وانفجرت بالعلوم القدسية، كل واحد بما يليق به، فمنها من تنبع بالعلوم الوهبية، ومنها من تنبع بالعلوم الرسمية، ومنها من تنبع بالكرامات وخوارق العادات، ومنها من تنبع منها المكاشفات والاطلاعات، قد علم كل أناس مشربهم، على حسب ما سبق لهم، فيقول الحق تعالى لهم: كلوا من ثمرات ما اجتنيتم من العلوم والمعارف التي أوليناكم، واشربوا من مناهل المنازل التي فيها أقمناكم، أو كلوا من ثمرات المعرفة ما تتقوى به معانيكم، واشربوا من خمر الحبيب ما تغيبوا به عن وجودكم، ولا تتعدوا أطواركم من القيام بوظائف العبودية، ومعرفة عظمة الربوبية، فتكونوا لسلب ما أولاكم متعرضين، ولعقوبته مستحقين، عائذاً بالله من السلب بعد العطاء. آمين.

ولما سئموا من المن والسلوى، استبدلوا غيرهما، كما أشار إلى ذلك الحق تعالى، فقال:

﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾ ﴾

قلت : المراد بالطعام الواحد: هو المن والسلوى. ووحَّده لأنه لا يختلف ولا يتبدل، كقولهم: طعام مائدة الأمير واحد، والبقل: جميع الخضر، كالنجم والكرنب والكراث وغير ذلك. والقثاء: جمع قثاءة، وهي الخيار والفقوس والبطيخ وغير ذلك من الفواكه التي تستنبت، والفوم قيل: الحنطة، والأصح أنه الثوم. قال الشاعر:

وأنتم أُناسٌ لِئَـامُ الأُصـولِ طعـامُكُم الفـومُ والحَـوقَلُ

أراد: الثوم والبصل. والعرب تعاقب بين الفاء والثاء فتقول: معافير ومعاثير، وتقول للقبر: جدث وجدف.

والعدس: معلوم، روى علي ـ كرم الله وجهه ـ عن النبي ﷺ أنه قال: «عليكم بالعدس، فإنه مبارك مقدس، وإنه يرقق القلب، ويكثر الدمعة، وإنه بارك فيه سبعون نبياً، آخرهم عيسى بن مريم»(١).

(١) الحديث ذكره ابن الجوزي في الموضوعات.

يقول الحق جل جلاله: و اذكروا أيضا حين ﴿ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ ﴾ حين مللتم من العسل واللحم، ومِلتم إلى عكَرِكُمْ السوء، أي: مألوفكم وشهواتكم السيئة، لأنهم كانوا فلاحين، فقلتم: ﴿ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ ﴾، أي: من جنس ما ينبت الله فيها من البقل والقثاء والعدس والفوم والبصل، قال موسى عليه السلام: ﴿ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ ﴾ وأخس من الثوم والبصل وغيرهما، ﴿ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ ﴾ من اللحم والعسل، ﴿ اهْبِطُوا ﴾ إلى مصر من الأمصار، تجدوا ما تشتهون، إذ لا يوجد ذلك إلا في القرى والأمصار، أو ﴿ اهْبِطُوا مِصْرًا ﴾ التي كنتم فيها أذلاء مستعبدين، تجدوا حظوظكم وشهواتكم؛ لأن الحظوظ والشهوات منوطة بالذل والهوان، ﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ ﴾، أي: ألزموها لزوم الدرهم المضروب لضربه ونقشه، فالذلة: ضرب الجزية، والمسكنة : فقر النفس وإن كان موسراً.

وإنما ضُربت عليهم الذلة والمسكنة لأنهم لم يرضوا بتدبير الحق، ولم يقنعوا برزقه، فكل من لم يقنع بقسمته وسئم من اتحاد رزقه، خيف عليه من ضرب الذل والمسكنة، وانقلبوا أيضا ﴿ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ﴾ حيث نقضوا العهود، وتعدوا الحدود، فكفروا وطغوا وقتلوا الأنبياء بغير حق، وسبب ذلك: تمردهم في العصيان، فإن المعاصي تجر بعضها إلى البعض حتى تنتهي إلى الكفر، والعياذ بالله من سخطه وغضبه.

الإشارة: كل من لم يقنع بالقسمة الأزلية، ولم يقم حيث أقامته القدرة الإلهية، بل جنح إلى حظوظه وهواه، وحرص على تحصيل أغراضه ومناه، قيل له: أتستبدل تدبيرك - الذي هو أدنى - بتدبير الحق - الذي هو خير -؟ أتترك تدبير الحكيم العليم، الرؤوف الرحيم، إلى تدبير عقلك الضعيف الجاهل الخسيس اللئيم؟! فعسى أن تدبر شيئا يكون لك فإذا هو عليك. وعسى أن تأتيك المسار من حيث تعتقد المضار، وتأتيك المضار من حيث ترتجي المسار. ولله در القائل:

وكَم رُمْتَ أمْرًا خِرْتَ لي في انْصِرافِهِ، فَلا زِلْتَ لي مِنِّي أبَرَّ وأَرْحَمَا
عَزَمْتُ عَلَى ألاَّ أُحِسَّ بِخَاطِرٍ عَلَى القَلْبِ إلاَّ كُنْتَ أَنْتَ المُقَدَّمَا
وألا تَرَانِي عِنْدَ مَا قَدْ نَهَيْتَنِي؛ لِكَوْنِكَ(١) فِي قَلْبِي كَبِيرًا مُعَظَّمَا

---

(١) في المخطوطات الثلاث (لأنك).

يامن لم يقتنع بتدبير مولاه، ومال إلى نيل حظه وهواه، اهبط إلى أرض الحظوظ والشهوات تجد فيها ما ألفته نفسك من عوائدك السيئات. يا من أخلدت نفسه إلى الهوى ومتابعة الشيطان، كيف تستبدل العز الدائم بالذل والهوان؟! وأنشدوا:

لاَ تَتْبعِ النفسَ في هَوَاهَا		إنْ اتبَاعَ الهَوَى هَوَانٌ(١)

قال في التنوير : (فائدة) اعلم أن بني إسرائيل لما دخلوا التيه، ورُزِقُوا المن والسلوى، واختار الله لهم ذلك رزقاً، رزقهم إياه، يبرز من عين المنة، من غير تعب منهم ولا نصب، فرجعت نفوسهم الكثيفة لوجود، العادة، والغيبة عن شهود تدبير الله، إلى طلب ماكانوا يعتادونه، فقالوا: ﴿ ادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض﴾ الآية. ﴿ قال أتستبدلون الذي هو أدني بالذي هو خير. اهبطوا مصر فإن لكم ما سألتم. وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله﴾، وذلك لأنهم تركوا ما اختار الله لهم، مائلين لما اختاروا لأنفسهم. فقيل لهم عن طريق التوبيخ: ﴿ أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير ﴾؟ فظاهر التفسير: أتستبدلون الفوم والعدس والبصل بالمن والسلوى؟ وليس النوعان سواء في اللذة ولا في سقوط المشقة وسر الاعتبار، أتستبدلون مرادكم لأنفسكم بمراد الله تعالى لكم؟ ﴿ أتستبدلون الذي هو أدني﴾ وهو ما أردتموه، ﴿ بالذي خير ﴾، وهو ما أراده الله لكم؟ ﴿ اهبطوا مصراً﴾ فإ ن ما اشتهيتموه لا يليق إلا أن يكون في الأمصار، وفي سر الخطاب: اهبطوا عن سماء التفويض وحسن التدبير منا لكم، إلى أرض التدبير والاختيار منكم لأنفسكم، موصوفين بالذل والمسكنة؛ لاختياركم مع اختيار الله، وتدبيركم لأنفسكم مع تدبير الله. هـ المراد منه.

ولما ذَكَّرَهُمْ الحق تعالى بالنعمة، ووبَّخهم على ارتكاب الآثام، رغَّبهم في الإسلام، فقال:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾

قلت : (إن) : ناصبة مؤكدة، وخبرها: جملة (من آمن) أو (فلهم أجرهم) . و(من آمن) : بدل من اسمها، أو محذوف، والموصول: مبتدأ ، أي: إن الذين آمنوا بمحمد ﷺ لاخوف عليهم ولا هم يحزنون، والذين هادوا كذلك. و(هادوا) : تهودوا، أي: دخلوا في اليهودية. وسموا يهوداً؛ إما نسبة لأبيهم الأكبر (يهوذا بن يعقوب)، أو مِنْ هَادَ، إذا تَابَ؛ لأنهم تابوا من عبادة العجل.

(١) البيت للإمام البرعي.

والنصارى: جمع نصران، وسُموا بذلك إما لنصرهم المسيح عليه السلام، أو لسكناهم معه في قرية يقال لها: (نصران)، والصابئون : طائفة من أهل الكتاب، خرجوا عن دين اليهودية وعبدوا الكواكب، يقال: صبا يصبو، إذا مال وخرج من دين إلى دين.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ بمحمد ﷺ والذين آمنوا بموسى، والذين آمنوا بعيسى ـ عليهما السلام ـ ، والذين خرجوا عن دينهم وصبوا، ﴿ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾ وتبع محمداً ﷺ وعمل بشريعته، ﴿ فلهم أجرهم عند ربهم ﴾ إذا قدموا عليه بالنعيم المقيم، والنظر إلى وجهه الكريم، ﴿ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ حين يخاف الكفار، ﴿ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ حين يحزن المفرطون والأشرار؛ إذ لا يلحقهم وبال ولا يفوتهم نوال. وبالله التوفيق.

الإشارة: إن الذين آمنوا إيماناً لا يختلجه وهم، ولا يطرق ساحته شك ولا ريب، إما عن برهان قاطع، أو عن شهود ساطع، والذين تابوا عن هواجس الخواطر وغفلات الضمائر، والذين نصروا الدين، وشيدوا منار شريعة المسلمين، والذين صبوا إلى الحبيب، ومالوا عن كل بعيد وقريب، فهؤلاء الذين سبقت لهم من الله العناية، وهبت عليهم ريح الهداية، جمعوا بين تزيين البواطن بأنوار الإيقان، وتزيين الظواهر بأنواع الطاعة والإذعان، فلا جرم أنهم، إذا قدموا على ربهم، أجلّ منصبهم، وأجزل ثوابهم، وأعلى مقامهم، فأولئك أولياء الله الذين **﴿لا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾.**

فالمخصوصون بالعناية أربعة: قوم أقامهم الحق تعالى لتنمية الإيمان وتربية الإيقان، إما عن دليل وبرهان ـ وهم أهل النظر والاعتبار ـ وإما عن شهود وعيان ـ وهم أهل الشهود والاستبصار ـ ، وقوم أقامهم الحق تعالى لتصفية نفوسهم وتزكية أحوالهم بالتوبة، والإقلاع عن كل وصف مذموم، وهم السائرون والطالبون، وقوم أقامهم لنصرة الدين وإظهار شريعة المسلمين، إما بتقرير قواعده أو جهاد معانده، وهم العلماء والمجاهدون، وقوم أقامهم لخدمته، وملأ قلوبهم بهيبته، وهم العُباد والزهاد، مالوا عن الشهوات وتأنسوا به في الخلوات، هجروا الأوطان وفارقوا الأحباب والإخوان، صبوا إلى محبة الحبيب وتلذذوا بمناجاة القريب، فهؤلاء المخصوصون بعين العناية، المحفوظون بغاية الرعاية، لا يخافون إذا خاف الناس، ولا يحزنون إذا حزن الناس. حققنا الله بمقام الجميع بمنّه وكرمه. آمين.

ثم وبّخهم على نقض العهود، وعدم الوقوف مع الحدود، فقال:

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾

﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾

قلت : (لولا): حرف امتناع لوجود [1]، تلزم الدخول على المبتدأ، وخبرها واجب الحذف عند سيبويه، أي: لولا فضل الله عليكم ورحمته موجودان، وقال الكوفيون: فاعل بمحذوف: أي: لولا أن ثبت فضل الله عليكم ورحمته، و(لكنتم) : جوابها.

يقول الحق جل جلاله: و اذكروا يا بني إسرائيل حين ﴿أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾ أن تقبلوا تكاليف التوراة، وكانت شاقة عليهم، فلما أبيتم قبولها، قلعنا الطور، ورفعناه فوقكم على مقدار عسكركم، كالظلة، وقلنا لكم: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم﴾ من التوراة بجد واجتهاد، ﴿واذكروا ما فيه﴾ من الوعظ والتذكير ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ الله، فتفوزون بالخير الكثير، فقبلتم ذلك كرها ﴿ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم﴾ وأعرضتم بعد ذلك، فسفكتم الدماء، وقتلتم الأنبياء، ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ بتوفيقكم للتوبة، ﴿ وَرَحْمَتُهُ﴾ بقبولها منكم، لخسرتم الدنيا والآخرة.

﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ﴾ ما جرى للذين ﴿ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ﴾ في زمن داود عليه السلام ، وذلك في قرية يقال لها: «أيْلة»، كانت على شاطيء البحر، وقد نهوا عن الاصطياد يوم السبت، فكانت الحيتان تخرج يوم السبت شُرَّعاً، فتخْرِج خراطيمها للبر، فإذا كان يوم الأحد دخلت في البحر، فحفروا حياضا، وشرعوا إليها جداول، فكانت الحيتان تدخلها يوم السبت فيصطادونها يوم الأحد، فلمَّا لمْ يُعاقبوا على ذلك أحلُّوا يوم السبت، فانقسمت القرية على ثلاث فرق: قوم نهوا، وقوم سكتوا، وقوم اصطادوا، فمُسِخ من اصطاد قِردة وخنازير، الشُّبان قِردة، والشيوخ خنازير، فبقوا ثلاثة أيام وماتوا. فجعلنا تلك الفعلة التي فعلنا بهم - ﴿نَكَالاً﴾ وزجراً ﴿لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا﴾ في زمانها، وما خلفها، من يأتي بعدها، ﴿ وموعظة﴾ : وتذكيراً ﴿ للمتقين﴾ من أمة محمد ﷺ .

الإشارة: اعلم أن المريدين إذا دخلوا في يد شيخ، وأخذوا عنه العهد، حملهم من أعباء التكليف وخرق العوائد ما تموت به نفوسهم، وتحيا به قلوبهم، كذبح النفوس وحط الرؤوس ودفع الفلوس، فإذا هموا بالتقصير، ظلل عليهم جبل همته، وأدار عليهم يد حفظه ورعايته، ولذلك قال الشيخ أبو الحسن: (والله لا يكون الشيخ شيخاً حتى تكون يده مع الفقير أينما ذهب) . والمراد باليد: الهمة والحفظ، ولا يزال الشيخ يراسلهم بهذه التكاليف، ويحضهم على الأخذ بها، والاجتهاد في العمل بها، حتى تموت نفوسهم وتحيا قلوبهم، وترسخ معرفتهم، وتكمل تربيتهم، فحينئذ ينتقلون إلى روح وريحان في جنات الشهود والعيان.

---

(١) أي: امتناع شيء لوجود غيره.

قلت: وقد كان شيخنا يرسل لنا البطاقات في حال البدايات، فما كنت أفتحها حتى ترتعد نفسي مما فيها، لأنها تعلم أنه ما يرسل لها إلا ما فيه موتها، فلولا فضل الله علينا ورحمته ـ حتى قوانا على العمل بما فيها ـ لكنا من الخاسرين، ولقد أخطأت العناية قوماً، فتعدوا حدود الشيوخ، أو خرجوا عن دائرتهم قبل كمال تربيتهم، فمسخت قلوبهم، وانمحت من ديوان الولاية رسومهم، جعل الله ذلك عبرة لغيرهم، وزاجراً لمن حذا حذوهم، نعوذ بالله من السلب بعد العطاء، وكفران النعم وحرمان الرضى، وبالله التوفيق وهو الهادي إلى سواء الطريق.

ثم وبخهم بما فعل أسلافهم من قتل النفس والتشغيب على نبيهم، فقال:

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ ﴾

قلت: الفارض: المسنة التي لا تلد، يقال: فرضت البقرة تفرض فروضا، إذا أسنت. والبكر: الصغيرة التي لم تلد، العوان: المتوسطة بين المسنة والصغيرة، و الفاقع: الناصع الصفرة، يقال: أصفر فاقع، وأسود حالك: أي: شديد السواد. وأصل شية: وِشْيَة، كعدة، حذفت فاؤها وعوض عنها التاء، والوشي: الرقم.

يقول الحق جل جلاله: واذكروا يا بني إسرائيل حين ﴿قال موسى لقومه﴾ لما تخاصموا إليه في قتيل وجد في قرية ولم يدر قاتله، وذلك أن رجلا فقيرا من بني إسرائيل قتل قريبا له كان موسرا ليرثه، ثم رماه في قرية أخرى، ثم ذهب يطلب دمه، فترافعوا إلى موسى عليه السلام فقال لهم بوحي: ﴿إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة﴾، وأبهم الأمر عليهم، ﴿قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً﴾ أي: مهزوءاً بنا، حيث نسألك عن بيان القاتل وأنت تأمرنا أن نذبح(١) بقرة، وهذا من تعنتهم وسوء أدبهم. ﴿قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾؛ إذ لا يستهزئ بأمر الدين إلا الجاهل.

---

(١) في الأصول: (تذبحوا).

فلما رأوا جِدَّه ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ﴾، هل هي كبيرة أو صغيرة أو متوسطة؟ ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ﴾ أي: كبيرة، ﴿وَلَا بِكْرٌ﴾ أي: ولا صغيرة، ﴿عَوَانٌ﴾ متوسطة بين ما ذكر من الصغر والكبر، ﴿فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ﴾، فإن الله يبين لكم القاتل، ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا﴾، أهي حمراء أو سوداء أو صفراء؟ ﴿قَالَ إِنَّهُ﴾ تعالى ﴿يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا﴾ ناصع صفرتها ﴿تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾ لسمنها وبهجة لونها، ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ﴾، فإن البقر الصفر كثير، وقد تشابه علينا أمرها؟ ﴿قَالَ إِنَّهُ﴾ تعالى يقول: إنها مسلمة من العمل ليست ذلولا، أي: مذللة بالعمل لا ﴿تُثِيرُ﴾ أي: تقلب ﴿الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ﴾ بالسانية(١). ﴿مُسَلَّمَةٌ﴾ من العيوب كلها، ﴿لَّا شِيَةَ فِيهَا﴾ أي: لا رقم فيها يخالف الصفرة.

فلما تبين لهم الأمر ﴿قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ﴾ الواضح، فوجدوها عند شاب كان بيد أمه، قد استودعها له أبوه في غيضة(٢)، فاشتروها منه بملء جلدها ذهبا، أو بوزنها، ﴿فَذَبَحُوهَا﴾، وضربوا القتيل بجزء منها، فجلس وعروقه تسيل دما، وقال: قتلني ابن عم لي، ثم رجع، ﴿وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ لكثرة ترددهم، أو لفحش غلوها. قال عليه الصلاة والسلام: «لو ذبحوا أدنى بقرة لكفتهم لكن شددوا فشدد الله عليهم».

ثم ذكر أول القصة، فقال:

﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا ۖ وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾

قلت: حق هذه الآية أن تتقدم قبل قوله: ﴿إن الله يأمركم...﴾ وإنما أخَّرها الحق تعالى ليتوجه العتاب إليهم مرتين؛ على ترك المسارعة لا متثال أمر نبيهم، وعلى قتل النفس، ولو قدمها لكانت قصة واحدة بتوبيخ واحد.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وَ﴾ اذكروا ﴿إِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا﴾ حرصا على الدنيا ﴿فَادَّارَأْتُمْ﴾ أي: تدافعتم في شأنها، كل قرية تدفع عنها، ﴿وَاللَّهُ﴾ تعالى ﴿مُخْرِجٌ﴾ ومبين ﴿مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ من القتل، ومن قتله، ﴿فَقُلْنَا﴾: اضربوا القتيل أو قبره ﴿بِبَعْضِهَا﴾ قيل: اللسان، وقيل: القلب، وقيل: الفخذ أو الذنب، فضربوه فحيي، وأخبر بقاتله كما تقدم، ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: كما أحيا هذا القتيل، ﴿يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ﴾ من قبورها ﴿وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ الدالة على قدرته، ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ فتعلمون أن من قدر على إحياء نفس واحدة يقدر على إحياء الأنفس كلها.

---

(١) السانية: الساقية. (٢) الموضع الذي يكثر فيه الشجر.

واستدلت المالكية بالقصة على التدمية الحمراء[١]، وهي قبول قول القتيل قبل موته بأن فلانا قتله، وفيه نظر؛ لأن هذا حيي بعد موته فلا يتطرقه الكذب، واستدلت أيضا على حرمان القاتل من الإرث، وفيه نظر؛ لأن هذه شريعة من قبلنا يتطرقها النسخ، لكن ثبت في الحديث أنه لايرث. والله تعالى أعلم.

الإشارة: إذا أمر الشيخ المريدين بذبح نفوسهم بخرق عوائدها، فمن تردد منهم في فعل ما تموت به نفسه، كان ذلك دليلا على قلة صدقه وضعف نهايته، ومن بادر منهم إلى قتلها دلّ ذلك على صدقه وفلاحه ونجح نهايته، فإذا ماتت النفس بالكلية حييت روحه بالمعرفة والمشاهدة الدائمة، فلا موت بعدها أبدا، قال تعالى: ﴿ لا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلاَّ الْمَوْتَةَ الأُولَىٰ ﴾، وأما الموت الطبيعي فإنما هو انتقال من مقام إلى مقام، ومن وطن ضيق إلى وطن واسع، وأنشدوا:

لا تظُنُّوا الموتَ موتًا إنــه ... لحيـاةٌ، وَهْو غـايةُ المنَى
لا تَرُعْكُم هَجْمَةُ المـوتِ فَمـا ... هـو إلا انتقـالٌ مِـنْ هنَـا
فاخلَعُوا الأَجْسَادَ مِنْ أنفُسِكُـم ... تُبصِـروا الحـقَّ عيانًا بيِّنـا

قلت: والسيف الذي يُجْهِز على النفس ويسرع قتلها هو الذل والفقر، فمن ذل نفسه بين أبناء جنسه، وخرق عوائد نفسه، وزهد في الدنيا، ماتت نفسه في طرفة عين، وحييتْ روحه، وظفر بِقُرَّةِ العين، وهي معرفة مولاه، والغيبة عما سواه.

وكمال الوقت في ذبح النفس أن تكون متوسطة بين الصغر والكبر، فإن الصغيرة جداً لا يؤمن عليها الرجوع، والكبيرة جدا قد يصعب عليها النزوع، كاملة الأوصاف بحسن الزهد والعفاف، تسر الناظرين لبهجة منظرها وحسن طلعتها، وكذلك من كان من أهل الشهود والنظرة، تَسْحَرُ مشاهدته القلوب، ويسوقها بسرعة إلى حضرة علام الغيوب، لما أقيم به من مشاهدته الملكوت، حتى إن من لاحظه تناسي أحوال البشرية، واستولت عليه أنوار الروحانية، وغاب في ذكر الحبيب عن البعيد والقريب، كما في الحديث: «أولياءُ اللهِ مَنْ إذا رُؤوا ذُكر الله»، وتكون أيضا هذه النفس غير مذللة بطلب الدنيا والحرص عليها، مسلمة لا عيب فيها، ولا رقٌ لشيء من الأثر عليها، فحينئذ تصلح للحضرة، وتتمتع بنعيم الشهود والنظرة، لم يبق لخصم الفَرْقِ معها تدارؤٌ ولا نزاع، بل أقر الخصم وارتفع النزاع.

---

(١) التدمية الحمراء في القتيل الذي به جرح أو أثر ضرب أو سم، فإن لم يكن به فهي التدمية البيضاء.

ثم وبَّخهم على عدم تأثير هذه المعجزة في قلوبهم، فقال:

﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾

قلت: القسوة والقساوة: هي الصلابة واليبوسة، كالشقوة والشقاوة، يقال حجر قاس، أي: يابس. قال الشاعر:

وَلاَ أَرَى أَثَراً لِلذِّكْرِ فِي جَسَدِي ... والحَبلُ في الجَبَلِ القَاسِي لهُ أَثَرُ

و (أو) للإضراب، أو بمعنى الواو، أو للتنويع، فبعضها كالحجارة وبعضها أشد.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم ﴾ يا معشر اليهود، ويبست فلم تلن ولم تخشع، مع ما رأت من الآيات كانفجار الحجر بالماء في التيه، وإنزال المن والسلوى، وتظليل الغمام، وإحياء الميت وغير ذلك.

قال الكلبي: (أنكروا بعد ما رأوا ذلك، وقالوا: ما قتلنا، فما كانوا قط أعمى قلباً، ولا أشد تكذيباً منهم لنبيهم عند ذلك) فقلوبهم كالحجارة، بل أشد، أو إن شبَّهتم قلوبهم بالحجارة أصبتم، وبما هو اشد أصبتم، بل في الحجارة فضل عليها في اللين، فإن منها ما تنفجر ﴿ مِنْهُ الأَنْهَارُ ﴾ الكبار، ومنها ما تشقق ﴿ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ﴾ العيون الجارية، ومنها ما تهبط من رأس الجبل ﴿ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾. وفي بعض الأخبار: «كل حجر تَرَدَّى من رأسِ جبلٍ فهو من خشية الله»، وقلوبكم يا معشر اليهود لا تلين ولا تخشع ولا تأتي بخير. نسأل الله السلامة بمنّه وكرمه.

الإشارة: كل من أساء الأدب مع أستاذه، أو خرج عن دائرته إلى غيره، قسا قلبه، وذهب حاله ولُبه، فإن رجع قريباً واستدرك ما فات، لان قلبه ونهض حاله، وإلا وقع في مهاوي القطيعة، ولم يأت منه شيء. وللقلب القاسي علامات: منها جمود العين، وطول الأمل، وعدم الحزن على ما فاته من الطاعات وما صدر منه من السيئات، وعدم الفرح بما يصدر منه من الطاعات، فإن المؤمن تسره حسناته وتسيئه سيئاته، ودواؤه: صحبة الفقراء الذاكرين الخاشعين، والجلوس بين يدي العارفين الكاملين، وتعاهد الصيام، والصلاة بالليل والناس نيام، والتضرع إلى الحي القيوم الذي لا ينام، وللشافعي رضي الله عنه:

وَلَمَّا قَسَا قَلْبِي وضَاقَتْ مَذَاهِبِي ... جَعَلْتُ الرَّجَا مِنِّي لعفْوِك سُلَّمَا

تَعَاظَمَنِي ذَنْبِي فَلَمَّا قَرَنْتُه ... بِعَفْوِكَ رَبِّي كَانَ عَفْوُكَ أَعْظَمَا

قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ ﴾ كذلك القلوب القاسية إذا لانت بالإنابة إلى ربها، والرجوع عن مألوفاتها، تتفجر منها أنهار العلوم، وتشقق منها أسرار الحِكَم، ومنها من تذوب من هيبة المتجلي لها، فتندك جبالها، وتزلزل أرض نفوسها، كما قال القائل:

لَو عَايَنَتْ عَيناك يومَ تزلزلتْ أرضُ النفُوس ودُكَّتِ الأجْبَالُ

لَرأيتَ شَمسَ الحقّ يسطعُ نورُها حِينَ التزَلْزلِ، والرجَالُ رجَالُ

والله تعالى أعلم.

ثم آيس المؤمنين من الطمع في إيمان من كان هذا وصفه فقال:

﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾

قلت: ضمن الإيمان معنى الإذعان والإقرار؛ ولذلك عداه باللام، وجملة (قد كان) حال من فاعل الإيمان، و(إذا لقوا) عطف على (كان)، والتقدير: أفتطمعون في إيمانهم والحالة أن من سلف منهم كانوا يُحرفون كلام الله، ومن حضر منهم الآن ينافقونكم في دين الله، فلا مطمع في إيمان مَنْ هذا وصفه.

يقول الحق جلا جلاله: ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ ﴾ يا معشر المسلمين أن يذعن لكم أهل الكتاب ويصدقوكم ﴿ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ ﴾، وهم السبعون الذين ذهبوا مع موسى للاعتذار، ﴿ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ﴾ حين كلمهم وكلفهم بمشاق التوراة، فحرفوا وقالوا: قال افعلوا ما استطعتم، فإذا لم يحصل لهم الإيمان مع سماع الكلام بلا واسطة، فكيف يؤمن لكم هؤلاء، وهم إنما يسمعونه بواسطة الرسالة؟ أو ﴿ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ﴾ في التوراة ثم يحرفونه، محواً أو تأويلاً، كصفة سيدنا محمد ﷺ وآية الرجم وغير ذلك، ﴿ مِن بَعْدِ ﴾ ما فهموه ﴿ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ أنه كلام الله، أو ﴿ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ أنهم محرفون ومغيرون لكلام الله.

وكيف تطمعون أيضا في إيمانهم وهم منافقون؟ ﴿إِذَا لَقُوا﴾ المؤمنين ﴿قَالُوا آمَنَّا﴾، وصفة نبيكم مذكورة في كتابنا، ﴿وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ لامهم من لم ينافق، و ﴿قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ من علم التوراة فتطلعونهم عليه ﴿لِيُحَاجُّوكُم بِهِ﴾ أي: يغلبوكم بالحجة ﴿عِندَ رَبِّكُمْ﴾ في الدنيا والآخرة، فيقولون: كنتم عالمين بنبوة نبينا فجحدتم وعاندتم، ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ حتى تطلعوهم على ما فتح الله به عليكم. أو يقول الحق تعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ يا معشر المسلمين فتطمعون في إيمانهم بعد هذه الخصال التي فيهم، قال الحق جل جلاله: ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ﴾ لا يخفى عليه شيء، بل ﴿يَعْلَمُ﴾ ما يسرونه وما يعلنونه، فيجازيهم على ما أخفوا وما أعلنوا.

الإشارة : من سبقت له المشيئة بالخذلان، وحكم عليه القدر والقضاء بالحرمان، يرجع إلى الدليل والبرهان، بعد الاستشراف على الشهود والعيان، فيرجع إلى مشاهدة الآثار والرسوم، وينسى ما كان يعهده من دقائق العلوم، سبب ذلك كلّه: الإخلال بالأدب مع المشايخ والأصحاب، أو مفارقة الإخوان، وعدم مواصلة أهل العرفان، وضم إلى ذلك الإنكار على أولياء الله، وتحريف ما سمعه منهم من مواهب الله، فلا مطمع في رجوعه وإيابه، وقد بَعُد من الفتح وأسبابه، لا سيما إذا اتصف بالنفاق، إذا لقي أهل النسبة أظهر الوفاق، وإذا خلا إلى العامة أظهر الشقاق، فمثلُ هذا لا يرجى له فلاح ، ولا يَسعد بصلاح ونجاح. نعوذ بالله من ذلك.

ولمَّا ذكر الحق تعالى رؤساء اليهود أتبعهم بذكر أتباعهم، فقال:

﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ ﴾

قلت : أماني: جمع أمنية، وهي في الأصل: ما يُقَدِّرُهُ الإنسان في نفسه من مَنَّى إذا قدَّر، ولذلك تطلق على الكذب، وعلى ما يتمنى وما يقرأ (١)، قاله البيضاوي. والاستثناء منقطع، أي: لكن أكاذيب، ويقال: تمنى الرجل، إذا كذب واختلق الحديث، ومنه قول عثمان رضي الله عنه: (والله ما تمنَّيتُ ولا تغنَّيتُ منذ أسلمْتُ).

يقول الحق جل جلاله : ﴿وَمِنْهُمْ﴾ أي: من اليهود عوام ﴿أُمِّيُّونَ﴾ لا يقرءون الكتاب ولا يفهمونه، لكن يسمعون من أحبارهم ﴿أَمَانِيَّ﴾ كاذبة، وأشياء يظنونها من الكتاب، ولا علم لهم بصحتها، كتغيير صفته ﷺ

(١) لأن القارىء يتصور ويقدر أن كلمة كذا بعد كذا.

وغير ذلك، أو مواعيد فارغة، ومطامع خاوية، سمعوها منهم، من أن الجنة لا يدخلها إلا هم، وأن النار لا تمسهم إلا أياماً معدودة، وغير ذلك من أمنيتهم الفارغة وأمانيهم الباطلة. والله تعالى أعلم.

الإشارة: اعلم أن المنكرين على أهل الخصوصية ثلاث فرق: أهل الرئاسة المتكبرون، والفقهاء المتجمدون، والعوام المقلدون، يصدق عليهم قوله تعالى: ﴿**ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أماني**﴾؛ إذ لا علم عندهم يميزون به المحق من المبطل، وإنما هم مقلدون، فوزرهم على من حرمهم بركة الاعتقاد، وأدخلهم في شؤم الانتقاد، ولقد أحسن «ابن البنا» حيث قال في شأن أهل الإنكار:

واعلمْ رعاكَ اللهُ منْ صَديقِ ... أنَّ الورَى حَادُوا عن التحقيقِ
إذْ جَهِلُوا النفوسَ والقلوبَ ... وطلَبُوا مَا لم يكُنْ مَطلُوبَا
واشْتَغلُوا بعَالَمِ الأبدانِ ... فـالكلُّ نـاءٍ منْهمُ ودَانِ
وأنكَرُوا مَا جَهِلوا وزَعمُوا ... أنْ ليسَ بعدَ الجسمِ شَيْءٌ يُعلمُ
وكفَرُوا وزندقُوا وبدَّعُوا ... إذَا دَعَاهُمُ اللَّبِيبُ الأوْرَعُ
كلٌّ يرى أنْ لَيسَ فوقَ فَهْمِهِ ... فَهْمٌ ولاَ عِلْمٌ وراءَ عِلْمِهِ
مُحْتَجِباً عَنْ رؤيةِ المَراتِبْ ... عَـلّ يُسَمَّى عَالماً وطالِبْ
هَيْهَاتَ هذا كلُّه تَقْصيرُ ... يأنَفُهُ الحَاذِقُ والنِّحْرِيرُ

ثم توعَّدَ أهل التحريف من الأحبار، فقال:

﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾

قلت: (ويل): كلمة يستعملها كل واقع في هلكة، وأصلها العذاب والهلكة، وهو في الأصل مصدر لا فعل له، وسوغ الابتداء به الدعاء، وقال أبو سعيد الخدري عن النبي ﷺ: «الويلُ وادٍ في جهنّم» [لو سيرت فيه جبال الدنيا لانماعت](١).

(١) انماعت: أي ذابت. قلت: والعبارة التي بين المعكوفتين ليست من الحديث المذكور، بل هي من كلام عطاء بن يسار، كما في تفسير الطبري والواحدي؛ أو من كلام أبي سعيد الخدري، كما في تفسير البغوي.

يقول الحق جلا جلاله: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ﴾ تحريفا لكتاب الله، ﴿ وَيَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ ﴾ خوفا من أن تزول رئاستهم، وينقطع عنهم ما كانوا يأخذونه من سفلتهم، نزلت في أحبار اليهود لما قدم النبي ﷺ المدينة، خافوا أن تزول رئاستهم، فاحتالوا في تعويق اليهود عن الإسلام، وكانت صفة النبي ﷺ في التوراة: «حسن الوجه، حسن الشعر، أكحل العينين، ربعة»، فغيروها، وكتبوا: طوالاء أزرق، سبط الشعر، ﴿ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾، ويأخذون من سفلتهم، فهو وإن كان كثيرا في الحس فهو، بالنسبة إلى ما استوجبوه من العذاب الأليم، قليل.

الإشارة: ينزجر بهذه الآية صنفان: أحدهما: علماء الأحكام، إذا أفتوا بغير المشهور، رغبة فيما يقبضون على الفتوى من الحطام الفاني، وكذلك القضاة إذا حكموا بالهوى، رغبة فيما يقبضون من الرشا، أو يحصلونه من الجاه، ﴿ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾ الثاني: أهل الرئاسة والجاه من أولاد الصالحين وغيرهم، فإنهم إذا رأوا أحدًا قام بولاية أو نسبة خافوا على زوال رئاستهم، فيحتالون على الناس بالتعويق عن الدخول في طريقته، فيكتبون في ذلك سفسطات وترهات، ينفرون الناس عن اتباع الحق، ﴿ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾.

ثم ذكر الحق تعالى بعض أمانيهم الفارغة، فقال:

﴿ وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾

قلت: (بلى): حرف جواب كنعم، والفرق بينهما أن (بلى) لا يقع إلا في جواب النفي ويصير إثباتا، تقول: ألم يأت زيد؟ فتقول بلى. أي: أتى، ومثله: ﴿ قالوا لن تمسنا النار ﴾ فقال تعالى: (بلى) أي تمسكم، بخلاف نعم؛ فإنها لتقرير ما قبلها نفيا أو إثباتا، فإذا قيل: ألم يأت زيد؟ فقلت: نعم، أي لم يأت، وإذا قيل: هل أتى زيد فقلت: نعم، أي أتى. وقد نظم ذلك بعضهم فقال:

«نعم» لتقرير الذى قبلها إثباتا أو نفيا، كذا قرّروا

«بلى» جواب النفى لكنه يصير إثباتا، كذا حرّروا

يقول الحق جل جلاله: ﴿وَقَالُوا﴾ أى: بنو إسرائيل فى أمانيهم الباطلة: ﴿لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ أربعين يومًا مقدار عبادة العجل، ثم يخلفنا فيها المسلمون. قال الحق جل جلاله: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد: ﴿أَتَّخَذْتُمْ﴾ بذلك عهداً عند الله ﴿فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾. ﴿بَلَىٰ﴾ تمسكم النار وتخلدون فيها؛ لأن ﴿مَن كَسَبَ سَيِّئَةً﴾ أى: كفراً ومات عليه، ﴿وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ﴾ أى: أحدقت به، واستولت عليه، ﴿فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾. ﴿والذين آمنوا﴾ بما نزل على محمد ﷺ ﴿وعملوا﴾ بشريعته المطهرة الأعمال ﴿الصالحات﴾ ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الجنة هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ هذه عادته تعالى؛ إذا ذكر فريقا شفع بضده ترغيباً وترهيباً وبالله التوفيق.

الإشارة: اعلم أن كثيرا من الناس يعتمدون على صحبة الأولياء، ويُطلقون عنان أنفسهم فى المعاصى والشهوات، ويقولون: سمعنا من سيدى فلان يقول: من رآنا لا تمسه النار. وهذا غلط وغرور، وقد قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ لابنته: «يا فاطمةَ بنتَ مُحمَّد، لا أُغْنِي عنكِ منَ الله شيئا، اشترى نفسك من الله». وقال للذى قال: ادع الله أن أكون رفيقك فى الجنة فقال له: « أعِنِّي علَى نَفْسِكَ بكَثْرةِ السُّجُود ». نعم، هذه المقالة: إن صدرت من ولى متمكن مع الله فهى حق، لكن بشرط العمل ممن رآه بالمأمورات وترك المحرمات، فإن المأمول من فضل الله، ببركة أوليائه، أن يتقبل الله منه أحسن ماعمل، ويتجاوز عن سيئاته، فإن الأولياء المتمكنين اتخذوا عند الله عهدا فلن يخلف الله عهده؛ وهو أن من تعلق بهم وتمسك بالشريعة شفعوا فيه.

والغالب على من صَحِبَ أولياء الله المتمكنين ـ الحفظ وعدم الإصرار، فمن كان كذلك لا تمسه النار، وفى الحديث: «إذَا أحَبَّ اللهُ عَبداً لَمْ يضرُه ذَنْب»، يعنى: يلهم التوبة سريعاً، كما قيل لأهل بدر: «افْعَلُوا مَا شِئْتم فَقَدْ غَفَرتُ لَكُم». ولا يتخذ عند الله العهد إلا أهل الفناء والبقاء، لأنهم بالله فيما يقولون، فليس لهم عن أنفسهم إخبار، ولا مع غير الله قرار، وأما من لم يبلغ هذا المقام فلا عهد له؛ لأنه بنفسه، فمن تعلق بمثل هذا فهو على خطر، وبالله التوفيق.

قوله تعالى: ﴿ بلى من كسب سيئة ﴾ ، من اقتنى حب الدنيا أحاطت به أشغالها وعلائقها، فهو في نار القطيعة مقيم، أحاط به سرادق الهموم والأكدار، تلدغه عقارب الشكوك والأغيار، بخلاف من أشرقت عليه أنوار الإيمان، وصحب أهل الشهود والعيان، فإنه في روح وريحان وجنة ورضوان، متعنا الله بذلك في الدارين. آمين.

ثم قرّعهم على نقض العهد الذي أخذ عليهم، فقال:

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ (٨٣) ﴾

قلت: (لا تعبدون): خبر في معنى النهي، كقوله تعالى: ﴿ ولا يضار كاتب ولا شهيد ﴾ ، وهو أبلغ من صريح النهي، لما فيه من إيهام أن المنهي سارع إلى الانتهاء، وقيل: حذفت «أن» ، وارتفع المضارع، وهو على حذف القول، أي: وقلنا لهم: لا تعبدون، وقرأ ابن كثير وحمزة والكسائي بالغيب.

يقول الحق جل جلاله: واذكروا إذ أخذنا الميثاق على بني إسرائيل وقلنا لهم: لا يتصور منكم شرك معي ولا ميل إلى غيري، فلا تعبدوا إلا إياي، وأحسنوا ﴿ بالوالدين ﴾ إحساناً كاملاً، وأحسنوا ﴿ بذي القُرْبَىٰ ﴾ نسباً وديناً، وأحسنوا باليتامى ﴿ وَالْمَسَاكِينِ ﴾ ، بالمواساة والملاطفة، ﴿ وَقُولُوا لِلنَّاسِ ﴾ قولا ﴿ حُسْنًا ﴾ أو ذا حسن، وهو ما لا لغو فيه، ولا تأثيم بل ما فيه نصح وإرشاد، ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ ﴾ بإتقان شروطها وكمال آدابها، وأدوا ﴿ الزَّكَاةَ ﴾ لمستحقها، ﴿ ثُمَّ ﴾ بعد ذلك ﴿ تَوَلَّيْتُمْ ﴾ ، وأعرضتم ﴿ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ ممن أسلم ﴿ مِنكُمْ وَأَنتُم مُعْرِضُونَ ﴾ عن الحق بعد ظهوره.

ذكر الحق تعالى في هذا العهد أربعة أعمال: عمل خاص بالقلب، وهو التوحيد، وعمل خاص بالبدن، وهو الصلاة، وعمل خاص بالمال، وهو الزكاة، وعمل عام وهو الإحسان، ورتّبها باعتبار الأهم فالأهم، فقدّم الوالدين لتأكيد حقهما الأعظم، ثم القرابة لأن فيهم أجر الإحسان وصلة الرحم، ثم اليتامى لقلة حيلتهم، ثم المساكين لضعفهم، والله تعالى أعلم.

الإشارة: كل عهد أخذ على بني إسرائيل يؤخذ مثله على الأمة المحمدية، وهذا حكمة ذكر قصصهم لنا، وسرد مساوئهم علينا ؛ لنتحرز من الوقوع فيما وقعوا فيه، فنهلك [1] كما هلكوا، وكل عهد أخذ على العموم باعتبار

(١) في الأصول: فنهلكوا.

الظاهر يؤخذ مثله على الخصوص باعتبار الباطن، فقد أخذ الحق سبحانه العهد على المتوجهين إليه ألا تتوجه همتهم إلا إليه، ولا يعتمدون بقلوبهم إلا عليه، وأن يتخلقوا بالإحسان، مع الأقارب والأجانب وكافة الإخوان، وخصوصا الوالدين من قِبل البشرية أو الروحانية، وهم أهل التربية النبوية، فحقوق أب الروحانية تُقدم على أب البشرية، لأن أب البشرية كان سبباً فى خروجه إلى دار الفناء والهوان، وأب الروحانية كان سببا فى دخوله إلى رَوْحٍ وريحان.

وأخذ العهد على المتوجهين أن يكلموا الناس بالملاطفة والإحسان، ويرشدوهم إلى الكريم المنان، ويقيموا الصلاة بالجوارح والقلوب، ويؤدوا زكاة نفوسهم بتطهيرها من العيوب، فمن تولى بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون، وعن دائرة الولاية خارجون.

ثم وبَّخهم على نقض عهد آخر، فقال :

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَـٰرِهِمْ تَظَـٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَـٰرَىٰ تُفَـٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَـٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾

قلت : (ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلاءِ) «أَنْتُمْ» : مبتدأ ، و «هَؤُلاءِ» : خبر، و «تَقْتُلُونَ» : حال، كقولك : أنت ذلك الرجل الذى فعلت كذا وكذا، أو «هَؤُلاءِ» : بدل ، و «تَقْتُلُونَ» : خبر أو منادى ، أى: يا هؤلاء، أو منصوب على الاختصاص، والْعُدْوَانِ: الإفراط فى الظلم، و «أَسَارَىٰ » حالٌ، جمع أسير، ويجمع على أسرى، وقرئ به؛ أى: مأسورين، و«هُوَ» ضمير الشأن، و «مُحَرَّمٌ » خبر، و «إِخْرَاجُهُمْ » مبتدأ مؤخر، أو ضمير الإخراج فيكون مبتدأ، و «مُحَرَّمٌ » خبره، و «إِخْرَاجُهُمْ» بدل من الضمير، وهذه الجملة متصلة بقوله: ﴿ وتخرجون فريقا منكم من ديارهم تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان ﴾ ، وما قبلها اعتراض.

يقول الحق جل جلاله : ﴿و﴾اذكروا أيضا ﴿ إِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ ﴾ وقلنا لكم ﴿ لا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ ﴾ أى: لا يسفك بعضكم دم بعض، ﴿ وَلا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ﴾ أى: لا يخرج أحدكم أخاه من داره

ويجليه عنها، وجعلهم الحق نفسا واحدة، وكذلك هو في الحقيقة، وفي ذلك يقول الشاعر:

عُنْصُـرُ الأنفـاسِ مِنَّا واحِـدٌ		وكَـذا الأجْسَـامُ جِـسْمٌ عَـمَّنَا

﴿ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ ﴾ بهذا العهد والتزمتموه لأنفسكم ﴿ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴾ على أنفسكم بذلك، ﴿ ثُمَّ أَنتُمْ ﴾ يا ﴿ هَؤُلاءِ ﴾ اليهود ﴿ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ ﴾ أي: يقتل بعضكم بعضا، ﴿ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ ﴾ إجلاءً عنها، تتغالبون ﴿ عَلَيْهِم ﴾ بالظلم والطغيان، ﴿ وَإِن يَأْتُوكُمْ ﴾ مأسورين تفدوهم بمالكم، وذلك الإخراج محرم عليكم.

وحاصل الآية: أن الله تعالى أخذ على بني إسرائيل العهد في التوراة ألا يقتل بعضهم بعضا، ولا يخرج بعضهم بعضا من ديارهم، وأيّما عبدٍ أو أمَةٍ وجدتموه من بني إسرائيل أسيرا فاشتروه بما كان من ثمنه واعتقوه، فكانت قريظة حلفاء الأوس، والنضير حلفاء الخزرج، وكانوا يقتتلون في الحرب فيعين بنو قريظة حلفاءهم الأوس، فيقاتلون بني النضير في قتالهم مع الخزرج، فإذا غلبوا خربوا ديارهم وأخرجوهم منها، فإذا أسر رجل من الفريقين جمعوا له حتى يفدوه، فعيرتهم العرب، فقالوا: تقاتلونهم وتفدونهم؟! فيقولون: قد أمرنا أن نفديهم وحُرم علينا قتالهم، قالوا: فلم تقاتلونهم؟ فقالوا: إنا نستحي أن يُذَل حلفاؤنا، فوبخهم الله على ذلك، فقال:

﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ ﴾ وهو الفداء ﴿ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ﴾ وهو القتل والإخراج؟ ﴿ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ ﴾ أي: ذل وهوان ﴿ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾، وهو السبي والقتل لبني قريظة، والجلاء والإخراج من الوطن لبني النضير، أو الذل والجزية للفريقين إلى يوم القيامة، ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ ﴾. وليس ما أصابهم تكفيرا لذنوبهم، بل نقمة وغضباً عليهم، ﴿ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾.

الإشارة: الناس على قسمين: قوم ضعفاء تمسكوا بظاهر الشريعة ولم ينفذوا إلى باطنها، ولم يقدروا على قتل نفوسهم، ولا على الخروج من وطن عوائدهم، فيقول لهم الحق جل جلاله: لا تسفكون دماءكم في محبتي؛ لأنكم لا تقدرون على ذلك، ولا تخرجون أنفسكم من دياركم في سياحة قلوبكم، فقد أقررتم بعجزكم وضعفكم، ويقول للأقوياء: ثم أنتم يا هؤلاء تقتلون أنفسكم في طلب معرفتي، وتخرجون فريقا منكم من ديار عوائدهم في طلب مرضاتي، تتعاونون على نفوسكم بالقهر والغلبة، وكذلك ورد في بعض الأخبار: (أول ما يقول الله للعبد: اطلب العافية والجنة والأعمال وغير ذلك، فإن قال: لا، ما أريد إلا أنت، قال له: من دخل في هذا معى فإنما يدخل بإسقاط الحظوظ، ورفع الحدث، وإثبات القدم، وذلك يوجب العدم) وأنشدوا:

مَنْ لَمْ يَكُن فَانِياً عَنْ حَظِّهِ وَعَنِ الفَنَا والأُنسِ بالأَحْبَابِ
فَلأَنَّهُ بَيْنَ المَنَازِلِ واقِفٌ لِمَنَالِ حَظٍّ أَوْ لِحُسْنِ مَآبِ(١)

ويقول أيضا للأقوياء الذين قتلوا أنفسهم وخرجوا عن عوائدهم: وإن يأتوكم أسارى في أيدى نفوسهم وعوائدهم، أو فى طلب الدنيا وشهواتها، تفدوهم من أسرهم، وتفكوهم من قيودهم، وتدخلوهم فى حضرة مولاهم، وفي بعض الآثار: (طالب الدنيا أسير، وطالب الآخرة أجير، وطالب الحق أمير) هـ. والأمير هو الذى يفك الأسارى من أيدى العدو، لأجل ما ملكه الله من القوة والاستعداد، فإذا انفك العبد من هواه، دخل فى حضرة مولاه، فمن رام إخراجه منها بعد دخوله يقال له: وهو محرم عليكم إخراجهم ،فكيف تؤمنون بظاهر الشريعة وتنكرون علم الطريقة، وأنوار الحقيقة؟ فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزى فى الحياة الدنيا وهو الحرص والطمع، والخوف والجزع وطول الأمل، وعدم النهوض إلى العمل، (ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب) ، وهو غم الحجاب وسوء الحساب، (وما الله بغافل عما يعملون) .

ثم بيّن الحق تعالى وصفهم وذكر ما أعد لهم، فقال:

﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ أُولَٰئِكَ ﴾ الناقضون للعهود المتعدون الحدود ﴿ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ وزخارفها الغرارة ﴿ بِالْآخِرَةِ ﴾ الباقية الدائمة، ﴿ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ ﴾ ساعة فى الدنيا بالذل والهوان، وفى الآخرة بدخول النيران، ﴿ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ بالامتناع منه فى كل أوان.

الإشارة : أولئك الذين نظروا إلى غرة ظاهر الأكوان، ولم ينفذوا إلى عبرة باطنها، فلا ينقطع عنهم عذاب الوهم والحجاب، ولا هم ينصرون من أليم العذاب.

ثم وبّخهم الحق تعالى على تكذيب الرسل وقتلهم إياهم، فقال :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ ۖ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾

(١) نسبهما الطوسى فى اللمع لأبى على الروزبارى.

قلت: (قفينا): أتبعنا، و(عيسى) عجمي معدول عن أيشوع في لغة السريانية، وهو غير منصرف للعلمية والعجمة، و(مريم): بمعنى الخادم، ووزنه: مَفْعَل لا فعيل، و(أيدناه) أي: قويناه ونصرناه، و(روح القدس) هذا جبريل عليه السلام أي: الروح المقدسة - من إضافة الموصوف إلى الصفة -، سمي به لطهارته من كدر الحس.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى ﴾ التوراة، فما قمتم بحقها ولا عملتم بما فيها، واتبعنا بعده الرسل كلما مات رسول بعثنا بعده آخر اعتناء بكم، ﴿ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ﴾ المعجزات الواضحات كإحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص، والإخبار بالمغيبات، والإنجيل، ﴿ وَأَيَّدْنَاهُ ﴾ بجبريل عليه السلام كان يسير معه حيث سار، ورفعه إلى السماء حين أردتم يا معشر اليهود قتله، ﴿ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ ﴾ من مشاق الطاعات وترك الحظوظ والشهوات، ﴿ اسْتَكْبَرْتُمْ ﴾ وامتنعتم من الإيمان به ﴿ فَفَرِيقًا ﴾ منهم كذبتموه كعيسى وسليمان ومحمد - عليهم السلام -، ﴿ وَفَرِيقًا ﴾ تقتلونه كزكريا ويحيى - عليهما السلام -؟ قال القشيري: أصغَوْا إلى الداعين بسمع الهوى، فصار معبودهم صفاتهم وهواهم. هـ.

الإشارة: كل ما قاله الحق جل جلاله لبني إسرائيل في فحوى الخطاب يقوله لهذه الأمة في سرّ الخطاب، فلقد آتانا الكتاب، وبيّن فيه الرشد والصواب، وقفّى بعد إنزاله بعلماء أتقياء، وأولياء أصفياء، يحكمون بحكمه، ويهدون بهديه، فإذا أمروا بالزهد في الدنيا وترك الحظوظ والهوى رفضوهم وكذبوهم، وربما كفّروهم وقتلوهم، واستكبروا عن الإذعان لهم والانقياد لقولهم، ففريقاً كذبوا وفريقاً يقتلون.

وفي الحديث قال ﷺ: «لَتتبعنّ سنن مَنْ قبلكم شبراً بشبرٍ وذراعاً بذراعٍ، حتى لو دخلوا جُحْرَ ضَبٍّ لدخلتموه، فقالوا: مَن يا رسول الله اليهودُ والنصارى؟ قال: نعم.. ومَنْ إذن؟» أي: ومن تتبعون إلا هم؟. فالدعاة إلى الله لا ينقطعون مادام الدين قائما، فقوم يدعون إلى أحكام الله، وقوم يدعون إلى معرفة الله، فالأول: العلماء، والثاني: الأولياء، فإذا أمروا بالخروج عن العوائد والشهوات، رموهم بسهام العتاب والمخالفات، إذ لم يأت أحد بمثل ما جاءوا به إلا عودي، إلا من خصته سابق العناية، وهبت عليه ريح الهداية، فيتبع آثارهم، وقليلٌ ما هم.

ثم ذكر الحق تعالى مقالتهم الشنيعة، فقال:

﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ (٨٨) ﴾

قلت: (غُلف): جمع أغلف، كأحمر وحُمْر، وأصفر وصُفْر، وهو الذي عليه غشاوة، أي: هي في غلاف؛ فلا تفقه ما تقول، بمنزلة الأغلف، وهو غير المختون، وقيل: أصله (غُلُف) بضم اللام، وبه قرأ ابن محيصن.

فيكون جمع غلاف، كحجاب وحجب، وكتاب وكتب، ومعناه: قلوبنا أوعية لكل علم فلا نحتاج إلى علمك وكتابك. و(قليلا) صفة لمحذوف؛ أي: فإيمانا قليلا، أو عدداً قليلاً يؤمنون، أو ظرف؛ لأنه من صفة الأحيان، والعامل فيه ما يليه، و (ما) لتأكيد القلة، أي: في قليل من الأحيان يؤمنون، أو حال من الواو في (يؤمنون) أي: فيؤمنون في حال قلتهم.

يقول الحق جل جلاله: قالت اليهود استهزاء بما تدعوهم إليه: ﴿ قُلُوبُنَا ﴾ مغلفة ومغشاة فلا نفقه ما تقول، أو أوعية للعلوم فلا نحتاج إلى علمك، قال الله تعالى: ﴿ بل ﴾لا غطاء على قلوبهم حسا، بل هي على الفطرة لكن ﴿ لعنهم الله ﴾ وطردهم وخذلهم بسبب ﴿ كُفْرِهِمْ ﴾ فأبطل استعدادها للعلم، ﴿ فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ أي: فإيمانا قليلا يؤمنون كإيمانهم ببعض الكتاب، أو فلا يؤمن إلا قليل منهم كعبد الله بن سلام وأصحابه، والله تعالى أعلم.

الإشارة: إذا أمر الدعاة إلى الله أهل الدنيا بذبح النفوس وحط الرءوس ودفع الفلوس، ليتأهلوا به لدخول حضرة القدوس، أو أمروهم بخرق العوائد، لتخرق لهم العوائد[1]، أنفوا وعنفوا وقالوا: قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه، فيقال لهم: بل سبق لكم من الله البعد والحرمان، فأنكرتم أسباب الشهود والعيان، لكن من سبقت له من الله العناية، وهب عليه نسيم الهداية، فلا تضره الجناية، فقد يلتحق بالخصوص، وإن كان من أعظم اللصوص، وهو قليل بالنسبة إلى من جاهد نفسه في طلب السبيل، ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِراً ﴾.

ثم وبخهم ولعنهم على عدم الإيمان بالقرآن مع إقرارهم به قبل الإتيان، فقال:

﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾

قلت : (لمَّا) حرف وجود لوجود إذا وليها الماضي، ولها شرط وجواب، وهو هنا محذوف دل عليه جواب (لما) الثانية، أي: ولما جاءهم كتاب من عند الله كفروا به، أو (لما) الثانية تأكيد للأولى. والجواب: (كفروا به)، أو فلما وجوابها جواب الأولى، كقوله ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ ... ﴾ الآية، و (يستفتحون) ينتصرون، وفي الحديث: «أن النبي ﷺ كان يَستفتِحُ بِصعَاليكِ المهَاجِرين»، الذين لا مال لهم.

---

(١) خرق العوائد الأولى هي خرق الحجب، من غفلة وظلمة قلب، وغير ذلك، وقد يعني بها الكرامات، وخرق العوائد الثانية هي خرق ما تعودته النفس وألفته حتى صعب خروجها عنه، ككثرة الأكل والشرب، وحب الجاه والرئاسة والمدح.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ ﴾ أى: اليهود، القرآن مصدقاً ﴿ لِّمَا مَعَهُمْ ﴾ من التوراة، أى: موافقاً له وشاهداً له بالصحة، وقد كانوا قبل ظهوره يستنصرون على أعدائهم بالنبى الذى جاء به، فيقولون: اللهم انصرنا عليهم بالنبى المبعوث فى آخر الزمان، الذى نجد نعته فى التوراة، وكانوا يقولون لأعدائهم من المشركين: (قد أظلّ زمانُ نبى يخرج بتصديق ما قلنا، فنقتلكم معه قتل عاد وإرَم)، فلما ظهر وعرفوه كفروا به ﴿ فَلَعْنَةُ اللَّهِ ﴾ عليهم، فوضع الظاهر موضع المضمر؛ للدلالة على أنهم لُعنوا لكفرهم، فاللام فى ﴿ الْكَافِرِينَ ﴾ للعهد، وهم كفار اليهود، أو للجنس، فتكون اللعنة عامة لكل كافر، ويدخلون فيها دخولا أوليا، والله تعالى أعلم.

الإشارة: ترى كثيراً من الناس إذا ذكر لهم الأولياء المتقدمون أقروهم وصدقوهم، وإذا ذكر لهم أولياء أهل زمانهم أنكروهم وجحدوهم، مع كونهم يستنصرون بأهل زمانهم فى الجملة. فهذه نزعة يهودية، آمنوا ببعض وكفروا ببعض.

والناس فى إثبات الخصوصية ونفيها على ثلاثة أقسام: قسم أثبتوها للمتقدمين، ونفوها عن المتأخرين، وهم أقبح العوام، وقسم أقروها قديما وحديثا، وقالوا: إنهم أخفياء فى زمانهم، فحرمهم الله بركتهم، وقوم أقروا الخصوصية فى أهل زمانهم، وعرفوهم وظفروا بهم وعظموهم، وهم السعداء الذين أراد الله أن يوصلهم إليه ويقربهم إلى حضرته. وفى الحكم: «سبحان من لم يجعل الدليل على أوليائه إلا من حيث الدليل عليه، ولم يوصل إليهم إلا من أراد أن يوصله إليه». وبالله التوفيق.

ثم أشار الحق تعالى إلى تسفيه رأى اليهود حيث استبدلوا الإيمان بالكفر، والربح بالخسران، فقال:

﴿ بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ (٩٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٩١) ﴾

قلت: بئس ونعم: فعلان جامدان مختصان بالدخول على ما يدل على العموم، إما نكرة، فتنصب على التمييز المفسر للضمير الفاعل، أو معرف بأل الجنسية، فيرتفع على الفاعلية، تقول: بئس رجلا زيد، وبئس الرجل زيد، ويذكر بعد ذلك المخصوص: إما خبر عن مبتدأ مضمر، أو مبتدأ والخبر مقدم. وإنما اختُصّتا بالدخول على ما يدل على العموم؛ لأن (نعم) مستوفية لجميع المدح، و (بئس) مستوفية لجميع الذم. فإذا قلت: نعم الرجل زيد، فكأنك قلت: استحق زيد المدح الذى يكون فى سائر جنسه، وكذلك تقول فى بئس.

و (ما) المتصلة ببئس ونعم: نكرة منصوبة على التمييز، أي: بئس شيئاً اشتروا به أنفسهم، وهو كفرهم، أو معرفة تامة مرفوعة على الفاعل، أي: بئس الشيء شيء اشتروا به أنفسهم. و (اشتروا) هنا بمعنى باعوا، كشَروا على خلاف الأصل، وقد يمكن أن يبقى على أصله، على ما يأتي في بيان المعنى.

و (بغيا) مفعول من أجله ليكفروا، و (يكفرون) حال من الفاعل في (قالوا)، و (وراء) في الأصل: مصدر جُعل ظرفا، ويضاف إلى الفاعل ويرادُ به ما يتوارى به وهو خلفه، وإلى المفعول فيراد به ما يواريه وهو قدامه، ولذلك عد من الأضداد، قاله البيضاوي.

يقول الحق جل جلاله في شأن اليهود: بئس شيئا باعوا به حظ أنفسهم، وهو كفرهم بما أنزل الله، أو ﴿ بئسما اشتروا به أنفسهم ﴾ بحسب ظنهم، فإنهم ظنوا أنهم خلّصوا أنفسهم من العذاب بما فعلوا، وهو كفرهم بما أنزل الله على محمد نبيه ﷺ بغياً وحسداً أن يكون النبي من غيرهم، فانقلبوا ﴿ بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ﴾ للكفر والحسد لمن هو أفضل الخلق، أو لكفرهم بمحمد عليه الصلاة والسلام بعد عيسى عليه السلام، أو لتضييعهم التوراة، وكفرهم بمحمد ﷺ، ﴿ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ أي: يذلهم ويخزيهم في الدنيا والآخرة، بخلاف عذاب العاصي فإنه كفارة لذنوبه.

﴿ وَإِذَا قِيلَ ﴾ لهؤلاء اليهود: ﴿ آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ ﴾ على محمد ﷺ ﴿ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا ﴾ من التوراة، وهم ﴿ يَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ ﴾ أي: بما سواه، وهو القرآن، حال كونه ﴿ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ﴾ من التوراة ومهيمنا عليه. ﴿ قُلْ ﴾ لهم يا محمد: ﴿ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ ﴾ هذا الزمان، وهو محرم عليكم في التوراة، ﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ به ؟ فهذا يبطل دعواكم الإيمان بالتوراة؛ إذ الإيمان بالكتاب يقتضي العمل به، وإلاَّ كان دعوى، وإن فعله أسلافكم فأنتم راضون به وعازمون عليه.

الإشارة: اعلم أن قاعدة تفسير أهل الإشارة هي أن كل عتاب توجه لمن ترك طريق الإيمان، وأنكر على أهله يتوجه مثله لمن ترك طريق مقام الإحسان، وأنكر على أهله. وكل وعيد توعد به أهل الكفران يتوعد به من ترك السلوك لمقام الإحسان، غير أن عذاب أهل الكفر حسي بدني، وعذاب أهل الحجاب معنوي قلبي.

فنقول فيمن رضي بعيبه وأقام على مرض قلبه وأنكر الأطباء ووجود أهل التربية: بئسما اشتروا به أنفسهم، وهو كفرهم بما أنزل الله من الخصوصية على قلوب أوليائه بغياً وحسداً، أو جهلاً وسوء ظن، أن ينزل الله من فضله على

من يشاء من عباده، فباءوا بغضب الحجاب على غضب البعد والارتياب، أو بغضب سقم القلوب على غضب الإصرار على المساوئ والعيوب. (من لم يتغلغل فى علمنا هذا مات مصراً على الكبائر وهو لا يشعر) كما قال الشاذلي رضي الله عنه، ولا يصح التغلغل فيه إلا بصحبة أهله. وللكافرين بالخصوصية عذاب الطمع وسجن الأكوان، وهما شجرة الذل والهوان.

وإذا قيل لهم: آمنوا بما أنزل الله من أسرار الحقيقة وأنوار الطريقة، قالوا: نؤمن بما أنزل علينا من ظواهر الشريعة، ويكفرون بما وراءه من أسرار الحقيقة، ككشف أسرار الذات وأنوار الصفات، وهو - أى: علم الحقيقة - الحق؛ لأنه خالص لب الشريعة، ولله در صاحب المباحث الأصلية حيث قال:

هل ظاهِرُ الشرعِ وعلمُ الباطِنْ إلا كجسمٍ فيه رُوحٌ ساكِنْ؟

وقال أيضا:

ما مَثَلُ المعقولِ والمنقولِ إلا كَدُرٍّ زاخرٍ مَجْهُولِ
حتى إذا أخْرَجَهُ الغَوَّاصُ لم يكُ لِلدُّرِّ إذن خَلاصُ
وإنما خَلاصُهُ فى الكَشْفِ عن الغِطَاءِ حيثُ لا يَسْتَخْفِي
فَالصَّدَفُ الظاهِرُ ثُمَّ الدُّرُّ مَعْقُولُه والجهلُ ذاك البحرُ

وكان الشيخ عز الدين بن عبدالسلام يقول: (هل ثَمَّ شيءٌ غيرُ ما فهمناه من الكتاب والسنة؟)، كان يقول ذلك إذا قيل له: إن الشيخ الشاذلي فاض اليوم بعلوم وأسرار، فلما التقى بالشيخ وأخذ بيده، قال: (أى والله .. ما قعد على قواعد الشريعة التى لا تنهدم إلا الصوفية). ويقال لمن ادعى التمسك بالشريعة وأنكر ما وراءها: فلم تشتغل بجمع الدنيا واحتكارها وتخاف من الفقر، وتهتم بأمر الرزق وتجزع من المصائب، والشريعة تنادى عليك بذم ذلك كله إن كنت مؤمنا؟!! وبالله التوفيق.

ثم نعى عليهم عبادة العجل بعد ما رأوا من الآيات البينات، إبطالا لدعواهم الإيمان بالتوراة، فقال:

﴿ ۞ وَلَقَدْ جَاءَكُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾

قلت: جملة: ﴿وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ﴾ حال من (اتخذتم).

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وَلَقَدْ جَاءَكُم مُّوسَىٰ ﴾ بالمعجزات الواضحات: كالعصا واليد وفلق البحر، ثم لم ينجح ذلك فيكم، فاتخذتم العجل إلهاً تعبدونه من بعد ذهابه إلى الطور ﴿ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ ﴾ في ذلك، فأين دعواكم الإيمان بالتوارة؟

الإشارة: ويقال لمن أقام على عيبه، ورضي بمرض قلبه، حتى لقى الله بقلب سقيم: لقد جاءتكم أوليائي بالآيات الواضحات، ولو لم يكن إلا شفاء المرضى على أيديهم ـ أعني مرضى القلوب ـ لكان كافياً، ثم اتخذتم الهوى إلهكم، وعبدتم العاجلة بقلوبكم، وعزّتْ عليكم نفوسكم وفلوسكم، وأنتم ظالمون في الإقامة على مساوئكم وعيوبكم، مع وجود الطبيب لمن طلب الشفاء، وحسّن الظن وشهد الصفاء. (**كن طالبًا تجد مرشدا**) وبالله التوفيق.

ثم عدّد الحق تعالى عليهم مساوئ تقدمت لأسلافهم تُبطل دعوى إيمانهم، فقال:

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٩٣) ﴾

قلت: (إن كنتم): شرط حذف جوابه، أي: إن كنتم مؤمنين فبئس ما يأمركم به إيمانكم.

يقول الحق جل جلاله: ﴿و﴾اذكروا أيضا ﴿ إذ أخذنا ميثاقكم ﴾ أن تعملوا بالتوراة فأبيتم ﴿ ورفعنا فوقكم ﴾ جبل ﴿ الطور ﴾ وقلنا: ﴿ خذوا ما آتيناكم بقوة ﴾ واجتهاد ﴿ واسمعوا ﴾ ما أقول لكم فيه ﴿ قالوا ﴾ بلسان حالهم: ﴿ سمعنا ﴾ قولك و﴿ عصينا ﴾ أمرك، حيث لم يمتثلوا، أو بلسان المقال لسوء أدبهم، ﴿ وأشربوا في قلوبهم ﴾ حب ﴿ العجل ﴾ حتى صبغ فيها ورسخ رسوخ الصبغ في الثوب، لأنهم كانوا مُجسِّمَةً، ولم يروا منظراً أعجب من العجل الذي صنعه السامري، (قل) لهم يا محمد: ﴿ بئسما يأمركم به إيمانكم ﴾ بالتوراة الذي ادعيتموه، ﴿ إن كنتم مؤمنين ﴾، لكن الإيمان لا يأمر بهذا فلستم مؤمنين.

الإشارة: يقول الحق جل جلاله لمن ادعى كمال الإيمان، وهو منكر على أهل الإحسان، مع إقامته على عوائد نفسه، وكونه محجوباً بشهود حسه: وإذ أخذنا ميثاقكم، بأن تجاهدوا نفوسكم، وتخرقوا عوائدكم لتدخلوا حضرة

ربكم، ورفعنا فوق رؤوسكم سيوف التخويف، أو جبال التشريق، وأوضحنا لكم سواء الطريق، وقلنا لكم: خذوا ما آتيناكم من خرق العوائد، واكتساب الفوائد، بجد واجتهاد، فأبيتم وعزّت عليكم نُفوسكم، وقلتم بلسان حالكم: سمعنا وعصينا، وأشربت قلوبكم حب العاجلة، وآثرتم الدنيا على الآخرة، بئسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين.

ومن جملة ما ادعاه اليهود اختصاصهم بالجنة، فردّ الله عليهم بقوله:

﴿ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾ ﴾

قلت: (خالصة) خبر كان، و (عند) متعلق بكان على الأصح.

يقول الحق جل جلاله: ﴿قل﴾ يا محمد لبني إسرائيل الذين ادعوا أن الجنة خاصة بهم: ﴿إن كانت لكم الدارالآخرة عند الله﴾ أي: في غيبه، ﴿خالصة﴾ لكم ﴿من دون﴾ سائر ﴿الناس﴾، أو من دون المسلمين، ﴿فتمنوا الموت إن كنتم صادقين﴾ في اختصاصكم بها، فإن العبد إذا تحقق أنه صائر إليها اشتاق إلى الموت الذي يوصل إليها، كما قال عمار رضي الله عنه عند موته:

الآنَ أَلاقِـــــى الأَحِـــبَّـــهْ مُـــحَـــمَّـــدًا وحِـــزْبَه

وقال حذيفة رضي الله عنه حين احتضر: (جَاءَ حَبِيبٌ عَلَى فَاقَة، لاَ أَفْلَحَ مَنْ نَدِم) . أي: على التمنى، أو على الدنيا.

قال تعالى: ﴿ولن يتمنوه أبدا﴾ بسبب ﴿ما قدمت أيديهم﴾ من الكفر والعصيان، فما تمناه أحد منهم قط، قال ابن عباس: (لو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا ورأوا مقاعدهم في النار). وقال في الإحياء: (دعا ـ عليه الصلاة والسلام ـ اليهود إلى تمنى الموت، وأخبرهم بأنهم لا يتمنونه، فحيل بينهم وبين النطق بذلك). وذكر غيره: أن بعضهم تمناه، فما جاءت العشاء حتى أخذته الذُبحة في حلقه فمات[1]. ﴿والله عليم بالظالمين﴾، فيه تهديد لهم وتنبيه على أنهم ظالمون في دعوى ما ليس لهم، ونفيه عمن هو لهم.

(١) لم أقف على ما يفيد ذلك؛ ولو وقع لنقل واشتهر لتوافر الدواعي إلى نقله؛ لأنه أمر عظيم. بل على العكس؛ فالأخبار الواردة في أنهم ما تمنوا بلغت مبلغ التواتر، كما يقول الفخر الرازي.

الإشارة: في هذه الآية ميزان صحيح توزن به الأعمال والأحوال ويتميز به المدعون من الأبطال، فكل عمل يهدمه الموت فهو مدخول، وكل حال يهزمه الموت فهو معلول، وكل من فرّ من الموت فهو في دعواه المحبة كذاب، فمن ادعى الخصوصية على الناس يختبر بهذه الآية.

والناس في حب البقاء في الدنيا على أربعة أقسام:

رجل أحب البقاء في الدنيا لاغتنام لذّاته ونيل شهواته، قد طرح أخراه، وأكبّ على دنياه، واتخذ إلهه هواه، فأصمه ذلك وأعماه، إن ذُكر له الموت فرّ عنه وشرد، وإن وعِظَ أَنِف وعَنَدَ، عمره ينقص، وحرصه يزيد، وجسمه يبلى، وأمله جديد، وحتفه قريب، ومطلبه بعيد، فهذا إن لم تكن له عناية أزلية، وسابقة أولية فيمسك عليه الإيمان، ويختم له بالإسلام، وإلا فقد هلك.

ورجل قد أزيل عن عينه قذاها، وأبصر نفسه وهواها، وزجرها ونهاها، قد شمر ليتلافى ما فات، ونظر فيما هو آت، وتأهب لحلول الممات، والانتقال إلى محلة الأموات، ومع هذا فإنه يكره الموت أن يشاهد وقائعه، أو يرى طلائعه، وليس يكره الموت لذاته، ولا لأنه هادِمُ لذَّاته، لكنه يخاف أن يقطعه عن الاستعداد ليوم المعاد، ويكره أن تطوى صحيفة عمَلِه قبل بلوغ أمله، وأن يبادر بأجله قبل صلاح خلله، فهو يريد البقاء في هذه الدار لقضاء هذه الأوطار، فهذا ما أفضل حياته: وأطيب مماته! لا يدخل تحت قوله ﷺ: «مَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللهِ كره اللهُ لِقَاءَه».

ورجل آخر قد عرف الله تعالى بأسمائه الحسنى، وصفاته العليا، وشهد ما شهد من كمال الربوبية، وجمال حضرة الألوهية، فملأت عينه وقلبه، وأطاشت عقله ولبه، فهو يحن إلى ذلك المشهد، ويستعجل إنجاز ذلك الموعد، قد علم أن الحياة الدنيوية حجابٌ بينه وبين محبوبه، وسترٌ مُسدل بينه وبين مطلوبه، فهذا من المحبين العشاق، قد حن إلى الوصال والتلاق، أحب لقاء الله فأحب الله لقاءه، فما أحسن حياته ولقاءه!

ورجل آخر قد شهد ما شاهد ذلك، وربما زاد على ما هنالك، لكنه فوض الأمر إلى خالقه، وسلم الأمر لبارئه، فلم يرض إلا ما رضي له، ولم يرد إلا ما أريد به، وما اختار إلا ما حكم به فيه، إن أبقاه في هذه الدار أبقاه، وإن أخذه فهو بغيته ومناه، فهذا من العارفين المقربين. جعلنا الله منهم بمنّه وكرمه. آمين.

ثم ذكر الحق تعالى ما يبطل دعواهم أن الجنة خالصة لهم؛ وهو حرصهم على البقاء في هذه الدار، فقال:

﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾

قلت: (ومن الذين أشركوا): على حذف مضاف، أي: وأحرص من الذين أشركوا، فيوقف عليه، و (لو يعمر) مصدرية، أي: يود أحدهم تعمير ألف سنة. و (أن يعمر) فاعل لمزحزحه، أي: وما هو بمزحزحه من العذاب تعميره.

يقول الحق جل جلاله: ولتجدن يا محمد اليهود ﴿أحرص الناس﴾ على البقاء في هذه الدار الدنية، فكيف يزعمون أنهم أولى الناس بالجنة، ولتجدنهم أيضاً أحرص من المشركين على البقاء، مع كونهم لا يقرون بالجزاء، فدلّ ذلك على أنهم صائرون إلى النار، فلذلك كرهوا اللقاء وحرصوا على البقاء، يتمنى أحدهم لو يعيش ﴿ألف سنة﴾ وليس ذلك ﴿بمزحزحه﴾ أي: مبعده من العذاب[1]، بل زيادة له في العقاب ﴿والله بصير بما يعملون﴾: تهديد وتخويف.

الإشارة: يفهم من سر الخطاب أن كل من قصرّ أمله، وحسن عمله، وطيب نفسه للقاء الحبيب، واشتغل في هذه اللحظة القصيرة بما يقربه من القريب، كان قربه من الله بقدر محبته للقائه، وكل من طوّل أمله، وحرص على البقاء في هذه الدار الفانية، كان بُعده من الله بقدر محبته للبقاء، إلا من أحب البقاء لزيادة الأعمال، أو الترقي في المقامات والأحوال، فلا بأس به، ويفهم منه أيضاً أن من اشتد حرصه على الحياة الفانية كانت فيه نزعة يهودية.

واعلم أن الناس، في طول الأمل وقصره، على قسمين: منهم من طوّل في أمله فازداد في كسله، ودخله الوهن في عمله، وآخر قد قصرّ أملُه وجعل التقوى بضاعته، والعبادة صناعته، ولم يتجاوز بأمله ساعته، ومثل هذا قد رفع التوفيق عليه لواءه، وألبسه رداءه، وأعطاه جماله وبهاءه، فانظر رحمك الله أيّ الرجلين تريد أن تكون، وأي العملين تريد أن تعمل، وبأي الرداءين تريد أن تشتمل؟ **فلست تلبس هناك إلا ما تلبس هنا**. وبالله التوفيق.

ومن أشنع كفر بني إسرائيل وأقبح مساوئهم، بغضهم لجبريل عليه السلام وإلى ذلك أشار الحق تعالى بقوله:

﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾ ﴾

(١) لأن الإمهال بحسب الزمان وإن حصل، لكنهم لاقترافهم المعاصي بالتعمير زاد عليهم من حيث شدة العذاب.

قلت: (من) شرطية وجوابها محذوف، أي: فليمت غيظا، أو (فإنه نزله) على معنى: من عادى منهم جبريل فقد خلع ربقة الإنصاف، أو كفر بما معه من الكتاب؛ لأنه نزل بكتاب مصدقا لما قبله من الكتب، وجبريل فيه ثماني لغات، أربع قرئ بهن. وهي: جَبْرَئِيل كسلسبيل. وجَبْرَئِل كجحمرش، وجَبْرِيل ـ بفتح الجيم ـ بلا همز، وجِبْرِيل بكسرها، وأربع شواذ: جَبْرَالُ، وجَبْرَائِيل، وجَبْرَائِل، وجَبْرِين بالنون، ومعناه: عبدالله. وفي ميكائيل أربع لغات: ميكائيل ممدود، وميكائل مقصور، وميكئل مهموز مقصور، وميكال على وزن ميعاد.

يقول الحق جل جلاله في الرد على اليهود، كابن صُوريا وغيره، حيث قالوا للنبي ﷺ: من الذي يأتيك بالوحي؟ فقال: جبريل، فقالوا: ذلك عدونا من الملائكة؛ لأنه ينزل بالشدة والعذاب، ولو كان ميكائيل لاتبعناك؛ لأنه ينزل بالخصب والسلم، فقال تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ﴾ فليمت غيظا، فإنه هو الذي نزّل القرآن ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من الكتب، وهداية ﴿وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾، فإن كان ينزل بالشدة والعذاب على الكافرين، فإنه ينزل بالهداية والبشارة على المؤمنين.

ومن كان عدواً لجبريل فإنه عدو لله، إذ هو رسوله للأنبياء، وصفيه من الملائكة، وعدو أيضا لميكائيل فإنه وزيره، وللرسل أيضا فإنه سفيرهم، و﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ﴾ فإن الله عدو له. وعطف جبريل وميكائيل من عطف الخاص على العام لزيادة شرفهما. ووضع الظاهر موضع الضمير في قوله: ﴿عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ﴾ ولم يقل: لهم، تسجيلا عليهم بالكفر، وبيان أن الله إنما عاداهم لكفرهم، وأن عداوة الملائكة والرسل كفر، عصمنا الله من موارد الردى. آمين.

الإشارة: إذا كانت معاداة الملائكة والرسل هي معاداة الله، فكذلك معاداةُ أوليائه هي معاداة الله أيضا، ولذلك قال تعالى: «مَنْ عَادَى لي وَلِيًّا فقد آذنتني بالحَرْب». فالبعض هو الكل، ويؤخذ بالمفهوم أن محبة الملائكة والرسل هي محبة الله. وكذلك محبة أولياء الله هي محبة الله، وكذلك أيضا محبة عباد الله هي محبة الله، ومعاداتهم معاداة الله، «الخَلْقُ عِيَالُ الله، وأحبُّ الخَلقِ إلى الله أنفعهُمْ لِعيَاله». وكل من ادعى أنه يحب الله وفي قلبه عداوة لمسلم فهو كاذب، وكل من ادعى أنه يعرف الله وفي قلبه إنكار على مخلوق فهو في دعواه أيضا كاذب، فالواجب على العبد أن يُحب جميع العباد، من كان طائعاً فظاهر. ومن كان عاصياً أحب له التوبة والإنابة، ومن كان كافرا أحب له الإسلام والهداية، ولا يكره من العبد إلا فعله، ولله در القائل:

ارْحَمْ بُنَىَّ جَمِيعَ الخَلقِ كُلَّهمُ ... وانْظُرْ إليْهِمْ بِعينِ الحِلمِ والشَّفَقَهْ

وَقِّرْ كَبيرَهُم وارْحَمْ صَغيرَهُمُ ... وَراعِ فى كُلِّ خَلْقٍ حَقَّ مَنْ خَلَقَهْ(١)

وبالله التوفيق.

ولما قال ابن صُوريا للنبي ﷺ: يا محمد ما جئت بشيء نعرفه، وما أنزل الله عليك من آية بينة فنتبعك لها؛ فنزل قوله تعالى:

﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ ﴾ يا محمد ﴿ آيَاتٍ ﴾ واضحات، مشتملة على علوم غيبية، وأخبار نبوية، وشرائع محكمة، وأنوار قدسية، وأسرار جبروتية، وما يجحدها ويكفر بها إلا المتمرد في الكفر والطغيان، الخارج عن الطاعة والإيمان، فالفسق، إذا استعمل في نوع من المعاصي، دل على أعظمه وأقبحه، وهو هنا الكفر، والعياذ بالله.

الإشارة: اعلم أن العبد إذا سبقت له من الله العناية، ألقى الله في قلبه التصديق والهداية، من غير أن يحتاج إلى علامة ولا آية، بل يكشف له الحق تعالى عن سر الخصوصية وأنوارها، فيشهد سره لصاحبها بالتقويم، وتخضع له روحه بالتعظيم، فتبدو له أنوار الإيمان وتشرق عليه شموس العرفان، من غير توقف على دليل ولا برهان، بخلاف من سبق له الحرمان، فلا ينجح فيه دليل ولا برهان، والعياذ بالله من الخذلان.

ولما ذكّر النبي ﷺ اليهود في شأن العهد الذي أخذه الله عليهم فيه، قال مالك بن الصيف: والله ما عهد إلينا في محمد عهدٌ ولا ميثاق، نزل:

﴿ أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾

قلت: الهمزة للإنكار، والواو للعطف على محذوف تقديره: أكفروا بالآيات وكلما عاهدوا عهدا، و ﴿ كُلَّمَا ﴾ منصوب على الظرفية، وهي متضمنة معنى الشرط فتفتقر للجواب، وهو العامل فيها. والنبذ: الطرح، لكنه يغلب فيما ينسى، قاله البيضاوي.

---

(١) نسبهما الشيخ المفسر في إيقاظ الهمم إلى الحسن الحراني.

يقول الحق جل جلاله في شأن اليهود والإنكار عليهم: ﴿أَوَ كُلَّمَا﴾ أعطوا عهدا وعقدوه على أنفسهم طرحه ﴿فَرِيقٌ مِّنْهُم﴾؟ فقد أعطوا العهد أنهم إن أدركوا محمدا ﷺ ليؤمنن به ولينصرنه، فلما أدركوه نبذوا ذلك العهد ونسوه. وكذلك أعطوا العهد للنبي ﷺ ألا يعاونوا المشركين عليه، فنبذه بنو قريظة والنضير، ولم ينقضه جميعهم بل فريق منهم، وهم الأكثر، ولذلك قال: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾، فالأكثر هم الناقضون للعهود، المجاوزون للحدود. والله تعالى أعلم.

الإشارة: نقض العهد مع الله أو مع عباده من علامة النفاق، ومن شيم أهل البعاد والشقاق، والوفاء بالعهد من علامة الإيمان، ومن شيم أهل المحبة والعرفان. قال تعالى في صفة المفلحين: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾، ولا سيما عهود الشيوخ؛ أهل التمكين والرسوخ. فمن أخذ عقد الصحبة مع الشيخ الذي هو أهل للتربية؛ فليحذر مِنْ حَلِّ العقدة بينه وبينه، فإنَّ ذلك يقطع الإمداد، ويوجب الطرد والبعاد، والالتفات إلى غيره تسويس لبذرة الإرادة، وموجب لقطع الزيادة والإفادة، ثم إن الانجماع على الشيخ، وقطع النظر والالتفات إلى غيره هو سبب للكون - كذلك - مع الله، فبقدر الانقطاع إلى الشيخ يحصل الانقطاع إلى الله، وبقدر ترك الاختيار وسلب الإرادة مع الشيخ يحصل كذلك مع الله، وبقدر الوفاء بعهود شيوخ التربية يحصل الوفاء بعهود حقوق الربوبية. فمن كانت غيبته في الشيخ أقوى، وانحياشه إليه أكثر، وجمعه عليه أدوم، كان كذلك مع ربه، وكذلك التعظيم والأدب، والله يعامل العبد على حسب ذلك.

قال الشيخ زَرُّوق رضي الله عنه: (ولا تنتقلْ عنه، ولو رأيت من هو أعلى منه، فتحرمَ بركة الأول والثاني)، ولذلك كان المشايخ يمنعون أصحابهم من صحبة غيرهم، بل من زيارتهم، وأنشدوا:

خُذْ ما تَراهُ ودَعْ شيْئاً سَمِعتَ بِهِ   في طَلْعَةِ البدرِ ما يُغنيكَ عن زُحَلِ

وحاصل أمر الزيارة لغير شيخه أن فيه تفصيلاً: فمن كَمُل صدقه، وتوفر عقله، بحيث إذا زار لا يستنقص شيخه، ولا الذي زاره، جازله أن يزور من شاء، ومن لم يكمل صدقُه وعقله، بحيث إذا زار: إما يستنقص شيخه، أو الشيخ الذي زاره، فليكف عن زيارة غير شيخه. وقال محيي الدين بن العربي: ويجب على المريد أن يعتقد في شيخه أنه عالم بالله، ناصح لخلق الله، ولا ينبغي له أن يعتقد في شيخه العصمة. وقد قيل للجنيد: أيزني العارف؟ فقال: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾. وصحب تلميذ شيخاً، فرآه يوماً قد زنا بامرأة، فلم يتغير من خدمته، ولاأخل في شيء من مرسومات شيخه، ولا ظهر منه نقص في احترامه. وقد عرف الشيخ أنه رآه، فقال له يوما:

يا بني قد عرفتَ أنك رأيتني حين فسقتُ بتلك المرأة، وكنت أنتظر فراقك عني من أجل ذلك، فقال له التلميذ: ياسيدى الإنسان معرض لمجارى أقدار الله عليه، وإنى من الوقت الذى دخلت فيه إلى خدمتك ما خدمتك على أنك معصوم، وإنما خدمتك على أنك عارف بطريق الله تعالى، عارف بكيفية السلوك عليه الذى هو طلبى، وكونك تعصى أو لا تعصى شيء بينك وبين الله عز وجل، لا يرجع من ذلك شيء علىّ، فما وقع منك يا سيدى شيء لا يوجب نفارى وزوالى عنك، وهذا هو عقْدى، فقال له الشيخ: وفقت وسعدت هكذا وإلا فلا... فربح ذلك التلميذ، وجاء منه ما تَقَرُّ بِهِ العين من حسن الحال وعلوّ المقام(١). هـ.

ولما وسمهم الحق تعالى بنقض العهود، ذكر جزئية من ذلك، فقال:

﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ ﴾ يعنى اليهود ﴿ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾ محمد ﷺ ﴿ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ ﴾ من التوراة بموافقته له فى بعض الأخبار ﴿ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ﴾، وهم من كفر من أحبار يهود، ﴿ كِتَابَ اللَّهِ ﴾: التوراة، ﴿ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ ﴾، حيث لم يعملوا بما فيه من الأمر بالإيمان بالنبى ﷺ، وغيروا صفته التى فيه، وكتموها، فكأنهم طرحوه وراء ظهورهم، وكأنهم لا علم لهم بشيء من ذلك.

قال البيضاوى: اعلم أن الحق تعالى دل بالآيتين على أن حال اليهود أربع فرق: فرقة آمنوا بالتوراة وقاموا بحقوقها كمؤمنى أهل الكتاب، وهم الأقلون المدلول عليهم بقوله: ﴿ بل أكثرهم لا يؤمنون ﴾، وفرقة جاهروا بنبذ عهودها، وتخطى حدودها، تمردا وفسوقا، وهم المعنيون بقوله تعالى: ﴿نبذه فريق منهم﴾، وفرقة لم يجاهروا بنبذها، ولكن نبذوا لجهلهم بها، وهم الأكثرون، وفرقة تمسكوا بها ظاهرا، ونبذوها خفية، عالمين بالحال بغْيا وعنادا، وهم المتجاهلون. هـ. قلت: ولعلهم المنافقون منهم.

ولما نبذوا كتاب الله اشتغلوا بكتب السحر مكانه، كما أبان ذلك الحق تعالى بقوله:

﴿ وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَـٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَـٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَـٰنُ وَلَـٰكِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَـٰرُوتَ وَمَـٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ

(١) مغزى القصة: التنبيه على أن المريد ينبغى له ألا يعتقد العصمة فى الشيخ؛ فإن الشيخ وإن كان على أكمل الحالات فليس بمعصوم.

مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ
وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ
وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ
لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ ۖ لَّوْ كَانُوا۟
يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾

قلت: ﴿ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ ﴾ على حذف مضاف، أي: على عهد ملك سليمان، أو «عَلَىٰ» بمعنى «في»، وقوله: «وَمَا أُنزِلَ» عطفٌ على السحر، عَطْفَ تفسير، والفتنة في الأصل: الاختبار، تقول: فتنت الذهب والفضة إذا أدخلتهما النار لتعلم جودتهما من رداءتهما، وقوله «لَمَثُوبَةٌ» جواب «لَوْ»، والأصل: لأثيبوا، ثم عَدَلَ إلى الجملة الاسمية لتدل على الثبوت.

يقول الحق جل جلاله في شأن اليهود: ولما جاءهم كتاب من عند الله نبذوه ﴿ وَاتَّبَعُوا ﴾ ما تقرأ ﴿ الشَّيَاطِينُ ﴾ على الناس من السحر ﴿ عَلَىٰ ﴾ عهد ﴿ مُلْكِ سُلَيْمَانَ ﴾، وذلك أن الشياطين كانوا يسترقون السمع ويضمون إلى ما سمعوا أكاذيب، ويلقونها إلى الكهنة، وهم يدونونها ويعلمونها الناس، وفَشَا ذلك في عهد سليمان حتى قيل: إن الجن يعلم الغيب، وإن ملك سليمان إنما قام بهذا، وأنه به سخر الجن والإنس والريح، فجمع سليمان ما دُوِّن منه ودفنه، فاستخرجته الشياطين بعد موته، فردَّ الله تعالى قولهم بقوله: ﴿ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ ﴾ باستعمال السحر؛ لأنه تعظيم غير الله بالتقرب للشيطان، والنبي معصوم، ﴿ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ ﴾ هم الذين ﴿ كَفَرُوا ﴾ باستعماله ﴿ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ ﴾ إغواء وإضلالا، ويعلمون ﴿ مَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ ﴾ في بلد بابل من سواد الكوفة، وهما ﴿ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ﴾.

كانا ملكين من أعبد الملائكة، ولما رأت الملائكة ما يصعد إلى السماء من أعمال بني آدم الخبيثة في زمن إدريس عليه السلام عيروهم بذلك، وقالوا: يا ربنا هؤلاء الذين جعلتهم خليفة في الأرض يعصونك؟ فقال الله تعالى: لو أنزلتكم إلى الأرض، وركَّبْتُ فيكم ما ركبتُ فيهم لارتكبتم ما ارتكبوا، قالوا: سبحانك ما كان ينبغي لنا أن نعصيك. فقال الله تعالى: فاختاروا ملكين من خِيارِكم أُهبطهما إلى الأرض. فاختاروا هاروت وماروت، وكانا من أعبد

الملائكة، فركّب الله تعالى فيهما الشهوة، وأمرهما أن يحكما في الأرض بين الناس بالحق، ونهاهما عن الشرك والقتل بغير الحق، والزنا وشرب الخمر، فكانا يقضيان بين الناس يومهما، فإذا أمسيا ذكرا اسم الله الأعظم وصعدا إلى السماء، فاختصمت إليهما ذات يوم امرأة يقال لها الزهرة: وكانت من أجمل النساء من أهل فارس، فأخذت بقلبيهما، فراوداها عن نفسها، فأبت، ثم عاودت في اليوم الثاني، ففعلا مثل ذلك فأبت، وقالت: إلا أن تعبدا ما أعبد، وتصليا لهذا الصنم، وتقتلا النفس وتشربا الخمر، فأبيا هذه الأشياء، وقالا: إن الله نهانا عنها، فانصرفت، ثم عادت في اليوم الثالث، فراوداها، فعرضت عليهما ما قالت بالأمس، فقالا: الصلاة لغير الله ذنب عظيم، وأهونُ الثلاثة شرب الخمر، فشربا، وانتشيا، ووقعا بالمرأة، فلما فرغا رآهما إنسان فخافا أن يظهر عليهما فقتلاه.

وفي رواية عن سيدنا علي ـ كرم الله وجهه ـ أنه قال: (قالت لهما: لن تدركاني حتى تخبراني بالذي تصعدان به إلى السماء، فقالا: باسم الله الأعظم، فعلماها ذلك، فتكلمت به، وصعدت إلى السماء فمسخها الله كوكبا) . ولذلك كان عليه الصلاة والسلام إذا رأى سهيلا قال: «لعَنَ اللهُ سهيلا، كان عشّارا باليمن، ولعَنَ اللهُ الزهْرةَ، وقال: إنها فتنت ملَكين» .

قلت: قصة هاروت وماروت ذكرها المنذري في شرب الخمر، وقال في حديثها: رواه أحمد وابن حبان في صحيحه من طريق زهير بن محمد، وقد قيل: إن الصحيح وقفه على كعب. هـ. وقال ابن حجر: قصة هاروت وماروت جاءت بسند حسن، خلافا لمن زعم بطلانها كعياض ومن تبعه.

وتمام قصتهما: أنهما لما قارفا الذنب وجاء المساء همّا بالصعود، فلم تطاوعهما أجنحتهما، فعلما ما حل بهما، فقصدا إدريس عليه السلام ، فأخبراه، وسألاه الشفاعة إلى الله تعالى فشفع فيهما، فخيرهما الله تعالى بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، فاختارا عذاب الدنيا لانقطاعه، فهما يعذبان في بئر ببابل، منكسان معلقان بالسلاسل من أرجلهما، مزرقة أعينهما، ليس بينهما وبين الماء إلا قدر أربعة أصابع، وهما يعذبان بالعطش(١) . هـ.

فإن قلت: الملائكة معصومون فكيف يصح هذا من هاروت وماروت؟ قلنا: لما ركب الله فيهما الشهوة انسلخا من حكم الملَكيّة إلى حكم البشرية ابتلاء من الله تعالى لهما، فلم يبق لهما حكم الملائكة من العصمة.

---

(١) أعلّ أهل العلم بالحديث هذه الروايات، وحكم بوضعها ابن الجوزي في الموضوعات، وقال القاضي عياض: لم يرد في ذلك شيء أصلاً لاسقيم ولا صحيح. وردّ القصة جل المفسرين، وقال الحافظ ابن كثير: ظاهر سياق القرآن إجمال القصة من غير بسط ولا إطناب فيها. فنحن نؤمن بما ورد في القرآن على ما أراده الله تعالى. انظر في الموضوع: الشفا للقاضي عياض، وتعليق الشيخ أحمد شاكر على مسند الإمام أحمد، وتعليقه على تفسير الطبري، وكتاب الاسرائيليات والموضوعات لأبي شهبة رحمه الله..

﴿ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ﴾ السحر حتى ينصحاه ويقولا: ﴿ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ ﴾ لكم، واختبار من الله تعالى لعباده، ليظهر من يصبر عنه ومن لا يصبر، وكان تعلمه في ذلك الوقت كفرا. فيقولان له ﴿ فَلَا تَكْفُرْ ﴾ بتعلّمه، فكانوا يتعلمون ﴿ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ وقدرته، فلا تأثير لشيء إلا بإذن الله، ويتعلمون منهما ﴿ مَا يَضُرُّهُمْ ﴾ يوم القيامة ﴿ وَلَا يَنفَعُهُمْ ﴾، ولقد علم بنو إسرائيل أن من اشتراه واستبدله بكتاب الله والعمل بما فيه ﴿ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ ﴾ نصيب، ﴿ وَلَبِئْسَ ﴾ ما باعوا به حظ أنفسهم من النعيم ﴿ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾، لكن لما لم يعملوا بعلمهم كانوا كمن لا علم عنده.

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا ﴾ بالله ورسوله ﴿ وَاتَّقَوْا ﴾ الكفر والسحر، لأثيبوا ثواباً كبيراً، وكان ذلك خيراً لهم مما استوجبوه من العقاب ﴿ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾.

الإشارة: كل من أكَبَّ على دنياه وتتبع حظوظه وهواه، وترك العمل بما جاء من عند الله، يصدق عليه أنه نبذ كتاب الله، واشتغل بما سواه من حب الدنيا والرئاسة والجاه، فالدنيا سحارة غرارة، تسحر القلوب وتغيبها عن حضرة علام الغيوب وفي الحديث: «اتَّقُوا الدُّنْيَا فإنَّهَا أَسْحَرُ مِنْ هَارُوتَ وَمَارُوتَ»، ولا شك أنها تفرق بين الأحباب وبين العشائر والأصحاب. ولقد علم من أخذ الدنيا ونعيمها، وأكب عليها ما له في الآخرة من نصيب، فبقدر ما يأخذ من نعيم الدنيا وشهواتها ينقص له من نعيم الآخرة. ولبئس ما شروا به أنفسهم ـ حيث آثروا الحياة الدنيا على الآخرة ـ لو كانوا يعلمون. ولو أنهم آمنوا بالله، واتقوا كل ما يشغل عن الله لكانوا من أولياء الله، وتلك المثوبة ـ التي صاروا إليها ـ خير لو كانوا يعلمون.

قال عبدالواحد بن زيد: سمعت أن جارية مجنونة في خراب الأُبُلّةِ تنطق بالحِكَم، فطلبتها حتى وجدتها، وهي محلوقة الرأس، وعليها جبة صوف، فلما رأتني قالت: مَرحباً بك يا عبدالواحد، ثم قالت: يا عبدالواحد ما جاء بك؟ فقلت: تعظينني، فقالت: واعجبا لواعظ، يوعظ، يا عبدالواحد.. اعلم أن العبد إذا كان في كفاية، ومال إلى شيء من الدنيا، سلبه الله حلاوة الزهد، وظل حيرانا ولِهاً، فإن كان له عند الله نصيب عاتبه وَحْياً في سره، فيقول له: عبدي أردت رفع قدرك عند ملائكتي، وأجعلك دليلا لأوليائي، ومرشداً لأهل طاعتي، فملت إلى عرض الدنيا وتركتني، فأورثك ذلك الوحشة بعد الأنس، والذل بعد العز، والفقر بعد الغنى، ارْجِعْ إلى ما كنت عليه أُرجع إليك ما كنت تعرفه من نفسك. ثم انصرفت عني وتركتني وبقيت حسرتها في قلبي. هـ.

ولما كان المسلمون يقولون للرسول ﷺ : راعنا يا رسول الله وأرْعنا سمْعَك، يَعْنُون من المراعاة والانتظار، وهي عند اليهود سب من الرعونة، ففرحت اليهود، وقالوا: كنا نسب محمداً سراً، فأعلنوا له بالشتم، فكانوا يقولون: يا محمد راعنا ويضحكون، نهى الله تعالى المسلمين عن هذه اللفظة، فقال:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُواْ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ ﴾

قلت: يقال راعى الشيء يراعيه مراعاة: انتظره أو التفت إليه. ويقال: رَعَى إلى الشيء، وراعاه وأرعاه: إذا أصغى إليه واستمعه.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقُولُوا ﴾ للرسول ﷺ: ﴿ رَاعِنَا ﴾ أي: انتظرنا أو أمهل علينا لأن في ذلك ذريعة لسب اليهود، أو قلة أدب «وقولوا: ﴿ انظُرْنَا ﴾ أي: انتظرنا ﴿ وَلِلْكَافِرِينَ ﴾ المؤذين لرسول الله ﷺ ﴿ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أي: موجع.

الإشارة: حسنُ الخطاب من تمام الآداب، وتمام الآداب هو السبب الموصل إلى عين الصواب، فمن لا أدب له لا تربية له، ومن لا تربية له لا سيْر له، ومن لا سير له لا وصول له، فمن لا يتربى على أيدي الرجال لا يربي الرجال، وقد قالوا: من أساء الأدب مع الأحباب طُرِد إلى الباب، ومن أساء الأدب في الباب طرد إلى سياسة الدواب. وقالوا أيضا: اجعل عملك ملحا، وأدبك دقيقا. وقال آخر: إن الإنسان ليبلغ بالخلق وحسن الأدب إلى عظيم الدرجات وهو قليل العمل، ومن حرم الأدب حُرِم الخيرَ كله، ومن أُعطي الأدب فقد مُكِّن من مفاتيح القلوب.

قال أبو عثمان رضي الله عنه: الأدب عند الأكابر وفي مجالس السادات من الأولياء يبلغ بصاحبه إلى الدرجات العلا والخير في الدنيا والعقبى. وقال أبو حفص الحداد رضي الله عنه: التصوف كله آداب، لكل وقت أدب، ولكل حال أدب، ولكل مقام أدب، فمن لازم الأدب بلغ مبلغ الرجال، ومن حرم الأدب فهو بعيد من حيث يظن القرب، مردود من حيث يرجو الوصول. وقال ذو النون المصري رضي الله عنه: (إذا خرج المريد عن استعمال الأدب فإنه يرجع من حيث جاء). وقيل: من لم يتأدب لوقت فوقته مقت. وقيل: من حبَسه النسب أطلقه الأدب، ومن قل أدبه كثر شغبه. وقيل: الأدب سند الفقراء، وزينة الأغنياء . هـ. وبالله التوفيق.

ومن مساوئ اليهود أيضا الحسد والغل، وإليه أشار الحق تعالى بقوله:

﴿ مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾ ﴾

قلت: الود: محبة الشيء مع تمنيه، و «مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ» بيانية كقوله: «لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ»، و «أَن يُنَزَّلَ» معمول يود، و «مِّنْ خَيْرٍ» صلة، و «مِّن رَّبِّكُمْ» ابتدائية.

يقول الحق جل جلاله: ما يتمنى ﴿ الذين كفروا من أهل الكتاب ﴾ إنزال خير عليكم ﴿ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ ولا المشركون حسدا منهم، بل يتمنون أن تبقوا على ضلالتكم وذُلِّكُمْ، «والله يختص برحمته» كالنبوة والولاية «من يشاء» من عباده. فلا يجب عليه شيء ولا يمتنع عليه ممكن، ﴿ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾، فَيَمُنُّ بالنبوة أو الولاية على من يشاء فضلا وإحسانا.

الإشارة: في الآية تنبيهان: أحدهما: أن من كان يحسد أهل الخصوصية وينكر عليهم، فيه نزعة يهودية، وخصلة من خصال المشركين، والثاني: أن حسد أهل الخصوصية والإنكار عليهم أمر شائع وسنة ماضية، فليوطن المريد نفسه على ذلك، وليعلم أنه ما يقال له إلا ما قيل لمن قبله، ﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً ﴾، وما من نعمة إلا وعليها حسود.

وقال حاتم الطائي: ومِنْ حَسَدٍ يَجُورُ عَلَيَّ قَومي ... وأيُّ الدهر ذُو لَمْ يَحْسُدُوني

وبالله التوفيق.

ومن مساوئهم أيضا إنكار النسخ للأحكام، فرد الله عليهم بقوله:

﴿ ۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾ ﴾

قلت: النسخ في اللغة يطلق على معنيين؛ أحدهما: التغيير والتحويل، يقال: مسخه الله قردا ونسخه. قال الفراء: ومنه نسخ الكتاب، والثاني: بمعنى رفع الشيء وإبطاله. يقال: نَسَخَتِ الشمسُ الظلَّ، أي: ذهبت به وأبطلته، وهو المراد هنا.

والإنساء هو الترك والإذهاب، والنساء هو التأخر. و « مَا » شرطية منصوبة بشرطها مفعولا به. و«نَأْتِ» جوابها.

يقول الحق جل جلاله: في الرد على اليهود حيث قالوا: انظروا إلى محمد يأمر أصحابه بأمر ثم ينهاهم عنه، فأجاب الله عنهم بقوله: ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ ﴾ أي: نزيل لفظها أو حكمها أو هما معا، ﴿ نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا ﴾ في

الخفة أو في الثواب، ﴿ أَوْ نُنسِهَا ﴾ من قلب النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ بإذن الله، أو نتركها غير منسوخة، أو نؤخر إنزالها أو نسخها. باعتبار القراءات، ﴿ نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ ﴾ يا محمد ﴿ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ لا يعجزه نسخ ولا غيره ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ يتصرف فيهما كيف يشاء، لا راد لما قضى ولا مُعَقّب لما حكم به وأمضى، ينسخ من شرائع أحكامه ما شاء، ويثبت فيها ما شاء، بحسب مصالح العباد، وماتقتضيه الرأفة والوداد.

وهو جائز عقلاً وشرعا، فكما نسخت شريعتهم ما قبلها نسخها ما بعدها ،فمن تحكم على الله، أو رد على أصفياء الله ممن اصطفاهم لرسالته، فليس له ﴿ مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ ﴾ يمنع من عذاب الله، ﴿ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ ينصره من غضب الله.

والنسخ إنما يكون في الأوامر والنواهي دون الأخبار، لأنه يكون كذبا، ومعنى النسخ: انتهاء العمل بذلك الحكم، ونقل العباد من حكم إلى حكم لمصلحة، فلا يلزم عليه البداء كما قالت اليهود، والنسخ عندنا على ثلاثة أقسام: نسخ اللفظ والمعنى: كما كان يُقْرأُ: « لا ترغبوا عن آبائكم فإنه كفر» ، ثم نُسخ، ونسخ اللفظ دون المعنى: « كالشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة» ، ثم نسخ لفظه، وبقي حكمه وهو الرجم، ونسخ المعنى دون اللفظ: كآية السيف بعد الأمر بالمهادنة مع الكفار. والله تعالى أعلم.

الإشارة: قال الشيخ أبو العباس المرسي رضي الله عنه في تفسيرها: ما نذهب من بدل إلا ونأت بخير منه أو مثله. هـ. ومعناه: ما نذهب بولي إلا ونأت بخير منه أو مثله إلى يوم القيامة، وبهذا يُرَدّ على من زعم أن شيخ التربية انقطع؛ فإن قدرة الله عامة، وملك الله قائم، والأرض لا تخلو ممن يقوم بالحجة حتى يأتي أمر الله.

قال في لطائف المنن: وقد سئل بعض العارفين عن أولياء المدد: أينقُصون في زمن ؟ فقال: لو نقص منهم واحد ما أرسلت السماء قطرها، ولا أبرزت الأرض نباتها، وفساد الوقت لا يكون بذهاب أعدادهم، ولا بنقص إمدادهم، ولكن إذا فسد الوقت كان مراد الله وقوع اختفائهم مع وجود بقائهم، ثم قال: وقد قال عليٌّ ـ كرم الله وجهه ـ في مخاطبته لكميل: اللهم لا تخلو الأرض من قائم لك بحجتك، أولئك الأقلون عددا، الأعظمون عند الله قدرا، قلوبهم معلقة بالمحل الأعلى. أولئك خلفاء الله في بلاده وعباده، واشوقاه إلى رؤيتهم.

وروى الترمذي الحكيم عن ابن عمر رضي الله عنه يرفعه إلى رسول الله ﷺ قال: «أمتي كالمطرِ لا يُدْرَى أولهُ خيرٌ أم آخِرُه» . وبالله التوفيق.

ولما سأل رافعُ بن حُرَيملة اليهوديُّ رسولَ الله ﷺ أن يريه آية، كتفجير ماء أو غيره، نزل قوله تعالى:

﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُواْ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾ ﴾

قلت : (أم) للإضراب بمعنى بل؛ وهو على قسمين: إما إضراب عن المعنى السابق، أو لفظه فقط كما هنا، انظر تفسير ابن عطية، وإضافة الرسول إليهم باعتبار ما في نفس الأمر. وهو نص في إرساله إليهم كما أرسل إلى غيرهم. والضلال: التلف. و﴿سواء السبيل﴾ : وسط الطريق.

يقول الحق جل جلاله : أتريدون يامعشر اليهود أن تقترحوا على نبيكم الذي أرسلت إليكم، وإلى كافة الخلق من غيركم الآيات، وتسألوه أن يريكم المعجزات، كما سألتم موسى من قبل فقلتم: ﴿أرنا الله جهرة﴾ تشغيبا وتعنتا، وأبيتم عن الإيمان، واستبدلتموه بالكفر والعصيان، ﴿ومن يتبدل الكفر بالإيمان﴾ فقد تلف عن طريق الحق والسداد، ومأواه جهنم وبئس المهاد.

الإشارة : لا يُشترط في الولي ظهور الكرامة، وإنما يشترط فيه كمال الاستقامة، ولا يشترط فيه أيضا هداية الخلق على يديه؛ إذ لم يكن ذلك للنبي فكيف يكون للولي؟ قال تعالى: ﴿ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ وقد سَرَى في طبع العوام ما سَرَى في طبع الكفار، قالوا: ﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا ﴾ الآية. فكثير من العوام لا يقرون الولي حتى يروا له آية أو كرامة، مع أن الولي كلما رسخت قدمه في المعرفة قلّ ظهور الكرامة على يديه؛ لأن الكرامة إنما هي معونة وتأييد وزيادة إيقان. والجبل الراسي لا يحتاج إلى عماد.

والحق هو ما قاله الشيخ أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه : (وإنهما كرامتان جامعتان محيطتان: كرامة الإيمان بمزيد الإيقان على نعت الشهود والعيان، وكرامة العمل على السنة والمتابعة، ومجانبة الدعاوى والمخادعة، فمن أُعْطِيَهُمَا ثم اشتاق إلى غيرهما فهو مفتر كذاب، أو ذو خطأ في العلم والفهم، كمن أكرم بشهود الملك على نعت الرضى والكرامة، ثم جعل يشتاق إلى سياسة الدواب وخِلَع الرضا) أو كما قال رضي الله عنه .

وقال شيخنا رضي الله عنه : (الكرامة الحقيقية هي الأخلاق النبوية والعلوم اللدنية). فمن أنكر أولياء أهل زمانه وطلب منهم الدليل غير ما تقدم فقد ضل سواء السبيل، ويبقى مربوطا في سجن البرهان والدليل. وبالله التوفيق، وهو الهادي إلى سواء الطريق.

ولما ظهر حسد اليهود واجتهادُهم في الرد على الإسلام، أمر الحق تعالى المسلمين بالعفو والصفح حتى يأذن في قتالهم، فقال:

﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٠٩) وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١٠) ﴾

قلت: ﴿لو﴾ مصدرية مفعول «ودّ»، و﴿ كفاراً ﴾: مفعول ثان، و﴿حسداً﴾: مفعول له، علة لود، أو حال من الواو، و﴿من عند﴾ متعلق بود، أي: يتمنوا ذلك من عند أنفسهم وتَشَهِّيهم، أو بقوله: «حسداً»، فالوقف على قوله ﴿كفارا﴾، أي: حسداً حاصلاً من تلقاء أنفسهم، لم يستندوا فيه إلى شبهة ولا دليل، والعفو: ترك العقوبة بالذنب. والصفح: الإعراض عن المذنب، كأنه يولي عنه صفحة عنقه، فهو أبلغ من العفو.

يقول الحق جل جلاله في التحذير من اليهود وغيرهم من الكفار: تمنى الذين كفروا من أهل الكتاب وغيرهم لو يصرفونكم عن دينكم و﴿يردونكم من بعد إيمانكم﴾ بنبيكم ﴿كفارا﴾ ضالين، كما كنتم قبل الدخول فيه، وذلك ﴿حسدا من﴾ تلقاء ﴿أنفسهم﴾ غيرة أن تكون النبوة في غيرهم، وذلك ﴿من بعد ما تبين لهم الحق﴾ وعرفوه كما يعرفون أبناءهم، ﴿فاعفوا﴾ عن عتابهم، وأعرضوا عن تشغيبهم ﴿حتى يأتي الله بأمره﴾ فيهم بالقتل والجلاء. ﴿إن الله على كل شيء قدير﴾، واشتغلوا بما كلفكم به من أداء حقوق العبودية، والقيام بوظائف الربوبية، كإتقان الصلاة وأداء الزكاة، واعلموا أن الله لا يضيع من أعمالكم شيئا، فما تقدموا لأنفسكم ليوم فقركم تجدوه عند الله خيرا وأعظم أجرا، إن الله لا يخفى عليه شيء من أعمالكم وأحوالكم.

نزلت الآية في عمار بن ياسر وحذيفة بن اليمان، أتيا بيت المدْرَاس(١)، فألانوا لهم الكلام، فطمعوا في صرفهما عن دينهما، ففضحهم الله ورد كيدهم في نحرهم. والله تعالى أعلم.

الإشارة: من جملة ما دَبَّ إلى بعض الطوائف المتجمدين على تقليد أشياخهم: التعصب والحمية على طريق أشياخهم، ولو ظهر الحق عند غيرهم، وخصوصا أولاد الصالحين منهم، فإذا رأوا أحدا ظهرت عليه أنوار الولاية،

(١) المدراس ـ بتقديم الراء على الألف: البيت الذي يدرسون فيه. وقال في النهاية: مفعال غريب في المكان.

وأسرار الخصوصية، تمنّوا أن يردوهم عن طريق الحق، ويصرفوهم إلى مخالطة الخلق، حسدا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق، فيقال لمن توجه إلى الحق: فاعفوا واصفحوا حتى يظهر الحق، ولا تلتفتوا إلى تشغيبهم، ولا تشتغلوا قط بعيبهم فتكونوا أقبح منهم.

قال بعض العارفين: (لا تشتغل قط بمن يؤذيك واشتغل بالله يرده عنك، وقد غلط في هذا الأمر خلق كثير، اشتغلوا بمن يؤذيهم فطال الأذى مع الإثم. ولو أنهم رجعوا إلى مولاهم لكفاهم أمرهم.) . بل ينبغي لمن يُحسَدُ أو يُؤْذَى أن يغيب عن الحاسد وكيده، ويشتغل بما هو مكلف به من حقوق العبودية وشهود عظمة الربوبية، فإن الله لا يضيع من التجأ اليه، ولا يخيب مقصود من اعتمد عليه. وبالله التوفيق.

ومن جملة أماني اليهود الفارغة: ادعاء اختصاصهم بالجنة، كما أبان ذلك الحق تعالى بقوله:

﴿ وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾

قلت: ﴿وقالوا﴾ عطف على ﴿ود الذين كفروا﴾، والضمير يعود على أهل الكتاب من اليهود والنصارى، أي: وقالت اليهود: لن يدخل الجنة إلا من كان هودا، وقالت النصارى: لن يدخل الجنة إلا من كان نصارى، و﴿هود﴾: جمع هائد، كبازل وبُزْل وحائل وحُول، و﴿الأماني﴾: جمع أمنية، وهي ما يتمنى المرء ويشتهيه، وأصله أُمْنوية كأُضْحُوكَة وأعجوبة، فقلبت الواو ياء وأدغمت، و﴿هاتوا﴾: اسم فعل بمعنى الأمر، ومعناه آتِ، وأهمل ماضيه ومضارعه، و﴿أسلم﴾ معناه: استسلم وخضع، والخوف مما يتوقع، والحزن على ما وقَع.

يقول الحق جل جلاله: وقالت اليهود: ﴿لن يدخل الجنة﴾ إلا من كان يهوديا، أي: على دينهم، وقالت النصارى: لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانيا، وهذه دعاوى باطلة، وأماني فارغة ليس عليها بينة، بل مجرد أمانيهم الكاذبة، ﴿قل﴾ لهم يامحمد: ﴿هاتوا برهانكم﴾ أنكم مختصون بالجنة ﴿إن كنتم صادقين﴾ في هذه الأمنية، بل يدخلها غيركم من أهل الإسلام والإحسان، فإن ﴿من أسلم وجهه لله﴾ أي: انقاد بكليته إليه ﴿وهو محسن﴾ في أفعاله واعتقاده، ﴿فله أجره عند ربه﴾ وهو دخول النعيم والنظر إلى وجهه الكريم، ﴿ولا خوف عليهم﴾ من مكروه يتوقع ﴿ولا هم يحزنون﴾ على فوات شيء يحتاجون إليه؛ لأنهم في ضيافة الكريم تُساق إليهم المسار وتدفع عنهم المضار، وبالله التوفيق.

الإشارة: من جملة ما دخل على بعض الفقراء أنهم يَخُصون الخصوصية بهم وبمن تبع شيخهم، وينفونها عن غيرهم، وهذه نزعة يهودية، وتحكم على القدرة الإلهية، فيقال لهم: تلك أمانيكم الفارغة، بل ينالها غيركم، فمن قصد الله صادقاً وجده، وأنجز بالوفاء موعده، فمن خضع لله وانقاد لأولياء الله، فله أجره عند ربه، وهو المعرفة به، ولا خوف عليه من القطيعة، ولا يحزن على فوات نصيبه من المعرفة. وبالله التوفيق، وهو الهادي إلى سواء الطريق.

ولمّا قدم نصارى نجران على النبي ﷺ سمعت بهم اليهود، فجاءوا إليهم، وتناظروا حتى تسابوا، وكفر اليهود بعيسى وبملّته والإنجيل، وكفر النصارى بموسى وبالتوراة، فأنزل الله في شأنهم:

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾

يقول الحق جل جلاله إخباراً عن مقالات اليهود والنصارى وتقبيحاً لصنيعهم: ﴿**وقالت اليهود**﴾ في الرد على النصارى: ﴿**ليست النصارى على شيء**﴾ يعتد به، ﴿**وقالت النصارى**﴾ في سَبِّ اليهود: ﴿**ليست اليهود على شيء**﴾ يعتمد عليه، والحالة أنهم﴿**يتلون الكتاب**﴾، فاليهود يتلون التوراة وفيها البشارة بعيسى عليه السلام، والنصارى يتلون الإنجيل، وفيه تقرير شريعة التوراة وصحة نبوة موسى عليه السلام، فقد كفرت كلُّ فرقة بكتابها غضبا وتعصبا، ومثل مقالتهم هذه ﴿**قال الذين لا يعلمون**﴾، وهم المشركون، فقالوا: ليس المسلمون على شيء، ﴿**فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون**﴾ فيُدْخِل أهلَ الحقِّ الجنةَ وأهلَ الباطل النار. وبالله التوفيق.

الإشارة: كل ما قصه الحق تعالى علينا من مساوئ غيرنا فالمقصود به التنفير والتحذير من مثل ما ارتكبوه، والتخلق بضد ما فعلوه، فكل من تراه ينقص الناس ويصغِّرهم فهو أصغرهم، وكل من تراه يقول: أصحاب سيدي فلان ليسوا على شيء، وأصحاب سيدي فلان ليس عندهم شيء، فليس هو على شيء، وقد ابتلى بعض المتصوفة بهذا الوصف الذميم، ينصب الميزان على الناس، فيسقط قوما ويرفع آخرين، وهو يتلو كتاب الله، ويسمع قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا...﴾ الآية.

وأكثر ما تجد هذا الوصف فى بعض الفقهاء المتجمدين على ظاهر الشريعة، يعتقد ألا علم فوق علمه، ولا فهم فوق فهمه، كيف؟ والله تعالى يقول: ﴿ وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ﴾ ، ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ ، وقد قال إمام الحرمين: (لأَنْ أُدْخِلَ أَلْفَ كَافِرٍ فِي الإِسْلامِ بِشُبْهَةٍ خَيْرٌ مِنْ إِخْرَاجِ واحدٍ منه بِشُبْهَةٍ).

فالواجب على من أراد السلامة أن يُحسن الظن بجميع المسلمين، ويعتقد فيهم أنهم كلهم صالحون، ففى الحديث: «خَصْلَتَانِ لَيْسَ فوقَهُما شَيءٌ مِنَ الخير: حُسْنُ الظن بالله، وحُسْنُ الظن بعباد الله، وخَصْلَتَان لَيْسَ فوقَهما شيءٌ مِن الشرّ: سُوءُ الظنِّ بالله، وسُوءُ الظنِّ بِعِبادِ الله» . وبالله التوفيق.

ثم وبخ الحق ـ تعالى ـ النصارى على منع الناس من بيت المقدس وإيذاء من يصلى فيه، وطرح الأقذار فيه، مع زعمهم أنهم على الحق دون غيرهم، قاله ابن عباس، أو كفار قريش حيث منعوا المسلمين من الصلاة فيه، وصدوا رسول الله عن الوصول إليه، قاله ابن زيد، والتحقيق: أن الحق تعالى وبخ الجميع، فقال:

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ لَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١١٤) ﴾

قلت: ﴿مَن﴾ مبتدأ، و﴿أظلم﴾ خبر، و﴿أن يذكر﴾ إما منصوب على إسقاط الخافض وتسلط الفعل عليه، أى: من أن يذكر، أو بدل اشتمال من ﴿مساجد﴾، أو مجرور بالحرف المحذوف، قاله سيبويه. و﴿خائفين﴾ حال من الواو.

يقول الحق جل جلاله: لا أحَد أكثر جُرْما ولا أعظم ظلما ﴿ممن﴾ يمنع ﴿مساجد الله﴾ من ﴿أن يذكر﴾ اسم الله فيها، جماعة أو فرادى، فى صلاة أو غيرها، ﴿وسعى فى خرابها﴾ حيث عطل عمارتها، ﴿أولئك ما كان﴾ ينبغى ﴿لهم أن يدخلوها﴾ إلا بخشية وخشوع، فكيف يجترءون على تخريبها؟ أو ما كان الواجب أن يدخلوها إلا خائفين من المؤمنين أن يبطشوا بهم فضلا عن أن يمنعوهم منها، أو ﴿ما كان لهم﴾ فى علم الله وقضائه ﴿أن يدخلوها إلا خائفين﴾، فيكون وعداً أنجزه الله لهم، وقد فتح الله لهم مكة والشام، فكان لا يدخل بيت الله الحرام كافر إلا خفية، خائفاً من القتل، ولا يدخل نصرانى بيت المقدس إلا خائفاً من المسلمين، فنالهم ﴿فى الدنيا خزى﴾ وهو قتل الحربى، وضرب الجزية على الذمى، وخزى المشركين قتلهم يوم الفتح، وإذلالهم بدخولها عليهم عنوة، ولمن مات على الكفر ﴿فى الآخرة عذاب عظيم﴾.

وهذه الآية ـ وإن نزلت فى الكفار ـ فهى عامة لكل من يمنع الناس من الذكر فى المساجد، كيفما كان قياما أو قعودا، جماعة أو فرادى. والله تعالى أعلم.

الإشارة: مساجدُ الله هي حضرة القلوب وحضرة الأرواح وحضرة الأسرار، فحضرة القلوب لأهل المراقبة من أهل الإيمان، وحضرة الأرواح والأسرار لأهل المشاهدة والمكالمة من أهل الإحسان، فمن منع نفسه من الدخول في هذه الحضرات الثلاث، وسعى في خراب باطنه باتباع الحظوظ والشهوات، ومال إلى الدنيا وزخارفها الغرارات، فلا أحد أظلم منه نفسا، ولا أبخس منه صفقةً. فلا ينجعُ في هؤلاء إلا خوف مزعج أو شوق مقلق. فإن لم يكن أحد من هذين بقي على غيه حتى مخايل الموت، فيحن إلى الدخول فيها خائفا، ولا ينفع حينئذ الندم، وقد زلت به القدم، له في الدنيا ذلك الفقر والجزع، وله في الآخرة غم الحجاب وسوء الحساب وحسرة العتاب، نسأل الله العافية في الدارين. آمين، بمنه وكرمه.

وقال القشيري: نفْسُ العابدِ وَطَنُ العبادة، وقلب العارف وطن المعرفة، وروح الواجد وطن المحبة، وسر الموحِّد وطن المشاهدة، ولا أظلم ممن سعى في خراب وطن العابد بالشهوات، وفي وطن المعرفة بالمُنى والعلاقات، وفي وطن المحبة بالحظوظ والمساكنات، وفي وطن الموحد بالالتفات إلى القربات. هـ. وبالله التوفيق.

ولما ذكر الحق تعالى تعطيل بعض المساجد والمنع من الصلاة فيها، وسع على عباده في الصلاة حيث شاءوا، فقال:

﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ ﴾

قلت: (أينما) شرطية، و(تولوا) شرْطُها، وجملة (فثم) جوابها، و«ولّى» يستعمل بمعنى أدبر وبمعنى أقبل، تقول: وليت عن كذا أو كذا، والوجه هنا بمعنى الجهة، تقول: سافرت في وجه كذا، أي في جهة كذا. قاله ابن عطية.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ولله المشرق والمغرب﴾، والجهات كلها له، لا يختص ملكه بمكان دون آخر، فإذا مُنعتم من الصلاة في المساجد ففي أي مكان كنتم ووليتم وجهكم إلى القبلة التي أُمرتم بالتوجه إليها فثم جهته التي أمر بها، أو فثم ذاته المقدسة، أي: عالم مطلع على ما يفعل فيه، ﴿إن الله واسع﴾ بإحاطته بالأشياء، أو برحمته يريد التوسعة على عباده، ﴿عليم﴾ بمصالحهم وأعمالهم في الأماكن كلها.

وعن ابن عمر: أنها نزلت في صلاة المسافر على الراحلة حيثما توجهت به، وقيل: في قوم عميت عليهم القبلة فصلوا إلى أنحاء مختلفة، فلما أصبحوا تبينوا خطأهم، وعلى هذا: لو أخطأ المجتهد ثم تبين له الخطأ، لم يلزمه التدارك. قاله البيضاوي.

الإشارة: اعلم أن الأماكن والجهات، وكل ما ظهر من الكائنات، قائمة بأنوار الصفات، ممحوة بأحدية الذات، «كان الله ولا شيء معه، وهو الآن على ما عليه كان»؛ إذ لا وجود لشيء مع الله، **﴿فأينما تولوا فثم**

وجه الله﴾، محق الآثار بأفلاك الأنوار، وانمحت الأنوار بأحدية الأسرار، وانفرد بالوجود الواحد القهار، ولله در القائل:

مُذْ عرفتُ الإلهَ لم أرَ غيرا ... وكذا الغيرُ عندنا ممنوعُ
مُذْ تجمعتُ ما خشيتُ افتراقًا ... فأنا اليومَ واصلٌ مجموعُ

وقال آخر: (١)

فالكلُّ دونَ الله إنْ حققته ... عَدَمٌ على التفصيلِ والإجمالِ
مَن لا وجودَ لذاته مِنْ ذاته ... فوجودُهُ لولاهُ عينُ مُحالِ

وقال صاحب العينية:

تَجلَّى حبيبي في مَرائي جَمالِه ... ففي كلِّ مرئي للحبيبِ طلائعُ
فلما تَبدَّى حُسنُه مُتنوعًا ... تَسمَّى بأسماءٍ فهنَّ مطالعُ

وقال الششتري:

محبوبي قَدْ عَمَّ الوجودْ ... وقدْ ظهرَ في بيضٍ وسُودْ

قال بعض السلف: (دخلت ديراً فجاء وقت الصلاة، فقلت لبعض النصارى: دُلني على بقعة طاهرة أصلي فيها، فقال لي: طهر قلبك عما سواه، وقف حيث شئت، قال: فخَجِلت منه). ويحكى عن أبي يزيد ﷺ أنه كان يصلي إلى أي جهة شاء، ويتلو هذه الآية، (٢) فالوجه عند أهل التحقيق هو عين الذات، يعني أسرار الذات وأنوار الصفات. قال تعالى: ﴿كل شيء هالك إلا وجهه﴾ أي: كل شيء فانٍ ومستهلك في الحال والاستقبال إلا ذاته المقدسة، وأنشدوا:

فالعارفون فَنَوْا بأن لَمْ يشهدوا ... شيئًا سوى المتكبر المتعالي
ورأَوْا سواهُ على الحقيقةِ هالكًا ... في الحالِ والماضي والاستقبالِ

---

(١) وهو الشيخ أبو مدين.

(٢) التوجه نحو البيت الحرام شرط من شروط صحة الصلاة؛ لقوله تعالى: «ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام». وأما آية: «فأينما تولوا فثم وجه الله»، فسبق أنها نزلت في مناسبة مخصوصة، وقيل: إنها منسوخة. وقيل: المعنى: أينما كنتم في شرق وغرب فثم وجه الله الذي أمرنا باستقباله وهو الكعبة الشريفة. وما حكى عن أبي يزيد - إن صح - فهو من قبيل الشطحات؛ فلا نأخذ بها.

وقلت في تائيتي الخمرية في وصف الخمرة الأزلية:

تَنَزَّهَتْ عن حُكْمِ الْحلُولِ في وَصْفِها		فَلَيسَ لها في سوى شَكْلِه حلّت

تَجلَّتْ عَرُوسًا في مَرَائي جَمَالِها		وأرْخَتْ سُتُورَ الكبرياءِ بِعِزَّةِ

فَمَا ظَهَرَ في الكونِ غَيْرُ بهائها		وما احتجبت إلا لحجب سريرة

ولما قالت اليهود: عُزَير ابن الله، وقالت النصارى: المسيح ابن الله، وقالت المشركون: الملائكة بنات الله، ردّ الله تعالى عليهم بقوله:

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ (١١٦) بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ (١١٧)﴾

قلت : هذه الجملة معطوفة على قوله: ﴿وقالت اليهود...﴾ إلخ، ومن قرأ بغير واو جعلها مستأنفة، و(بديع): بمعنى مبدِع، والإبداع: اختراع الشيء من غير تقدم شيء. وقوله: (كن فيكون)، قَدَّره سيبويه: فهو يكون، وقرأ ابن عامر بنصب المضارع، ولَحّنه بعضُهم؛ لأن المنصوبَ في جواب الأمر لابد أن يصلح جواباً لشرطه، تقول: اضرب زيدا فيستقيم، أي: إن تضربه يستقيم. ولا يصلح أن تقول هنا: إن يكن يكن، وقد يجاب بحمله على المعنى، والتقدير: إن قلت كن يكن.

يقول الحق جل جلاله : وقالت اليهود والنصارى والمشركون: ﴿اتخذ الله ولدا﴾ تعالى الله عن قولهم، وتنزه عن ذلك؛ لأنه يقتضي الجنسية والمشابهةَ والاحتياج، والحق منزّه عن ذلك. بل كل ما استقر في السموات السبع والأرَضين السبع ملكه وعبيده، فكيف يكون العبد ولدا لمالكه؟. وأيضا كل ما ظهر في الوجود كله قانت، أي: خاضع ومطيع لله، وعابد له، ومقهور تحت حكمه ومشيئته، وذلك منافٍ لحال البُنوة.

وأيضا: كل ما دخل عالم التكوين فهو مُبْدَع ومُختَرَع لله، ومصنوع من مصنوعات الله، فلا يصح أن يكون ولدا، وأيضا: الولد يحتاج إلى صاحبة ومعالجة ومهلة، والحق تعالى أمره بين الكاف والنون، بل أسرع من لحظ العيون، فإذا ﴿قضى أمرا﴾ أي: أراده، ﴿فإنما يقول له كن فيكون﴾، ولا يتوقف على لفظة ﴿كن﴾، وإنما هو كناية عن سرعة الاقتدار.

قال البيضاوي: واعلم أن السبب في هذه الضلالة أن أرباب الشرائع المتقدمة كانوا يطلقون الأب على الله تعالى، باعتبار أنه السبب الأول، حتى قالوا: إن الأب هو الرب الأصغر، والله تعالى هو الرب الأكبر، ثم ظن الجهلة منهم أن المراد به معنى الولادة، فاعتقدوا ذلك تقليداً، ولذلك كفر قائله ومنع منه مطلقاً حسماً لمادة الفساد. هـ.

الإشارة: اعلم أنك إذا نظرت بعين البصيرة، أو بحق البصيرة، إلى الوجود بأسره، وجدته ذاتاً واحدة، ونسبته من الحق نسبة واحدة، أنوار ظاهرة، وأسرار باطنة، حكمته ظاهرة، وقدرته باطنة حسن ظاهر، ومعنى باطن، عبودية ظاهرة، وأسرار معاني الربوبية باطنة؛ إذ لا قيام للعبودية إلا بأسرار معاني الربوبية، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا﴾، وقال تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾، وقال في الحكم: «الأكوان ظاهرها غرة وباطنها عبرة، فالنفس تنظر إلى ظاهر بهجتها، والقلب ينظر إلى باطن عبرتها». فأهل الفَرْقِ يثبتون الأشياء مستقلة مع الله، وربما تغالى بعضهم فأشركها معه في الألوهية، فتعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

قال محيي الدين الحاتمي: من رأى الخلق لا فعلَ لهم فقد فاز، ومن رآهم لا حياة لهم فقد جاز، ومن رآهم بعين العدم فقد وصل. هـ. قلت: ومن أثبتهم بالله فقد تمكن وصاله، وأنشدوا:

مَن أبصرَ الخلقَ كالسرابِ ... فقد تَرقَّى عن الحجابِ
إلى وُجودٍ تَراهُ رتقاً ... بِلا ابتعادٍ ولا اقْترابِ
ولم تُشَاهِدْ به سِواهُ ... هناك تهدى إلى الصوابِ
فَلا خِطابَ بِه إليهِ ... ولا مُشيرَ إلى الخطابِ. هـ.

ولما قال رافع بن حريملة ـ من أحبار يهود ـ للرسول ﷺ: أسمعنا كلام الله إن كنت رسوله، أو أرنا آية تصدقك، ردَّ الله تعالى عليه، فقال:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾﴾

قلت: هذه المقالة صدرت من بعض اليهود والمشركين، قالوا ذلك تعنتا وعنادا، لا طلبا لليقين، فلذلك نفى الله عنهم العلم رأسا، والمقصود في هذه الآيات كلها توبيخ اليهود.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وقال الذين﴾ لا علم عندهم: هلا ﴿يكلمنا الله﴾ حتى نسمع منه أنك رسوله، ﴿أو تأتينا آية﴾ ظاهرة، نراها جهرة تدل على رسالتك، كما كانت لموسى ـ عليه السلام ـ.

وهذه المقالة التي صدرت من اليهود، تعنتاً وعنادا، قد صدرت ممن قبلهم من أسلافهم، فقالوا: ﴿أرنا الله جهرة﴾، ومن النصارى فقالوا: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ﴾، ومن المشركين فقالوا: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا، أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا﴾ الآية. فقد تماثلت قلوبهم في الكفر والعناد، وتشابهت في العتو والفساد، قد أوضحنا لك الآيات البينات، تحقق رسالتك وتقرر اصطفائيتك، لمن طلب مزيد الإيقان، وكشف البيان على نعت العيان، فأعظمها القرآن، ثم ما أوضحته من شرائع الأحكام، وما بينته من الحلال والحرام، ثم ما أخبرت به من الغيوب، وما كشفته عن القلوب من الكروب، ثم نطق الجمادات والأحجار، كحنين الجذع وانقياد الأشجار، وتسبيح الحصى، وتسليم الحجر، وقد نبع الماء من بين أصابعه وانهمر، إلى مالا يعد ولا يحصى.

فقد ﴿أرسلناك بالحق﴾، أي: متلبسا بالحق ومبينا له، ﴿بشيرا﴾ لمن صدقك واتبعك بالنعيم المقيم، و﴿نذيرا﴾ لمن خالفك بعذاب الجحيم. فلا تسأل عن حالهم إذا أفضوا إليه، فإنه أعظم من أن يذكر، وأفظع من أن يسمع، إذ لا يمكن تفسير حالهم، ولا يستطيع أحد سماع أهوالهم، فالله يعصمنا من موارد الردى، ويوفقنا لاتباع الحق والهدى، أو لا يسألك ربك عنهم فهو أعلم بحالهم، وبالله التوفيق.

الإشارة: طلب الكرامات وظهور الآيات من طبع أهل الجهل والعناد، وليس هو من شيم أهل الهداية والاسترشاد. فالطريق واضح لمن طلب السبيل، والحق لائح لمن أبصر الدليل، فمن كحل عين بصيرته بإثمد التوحيد الخاص، لم يقع بصره إلا على الحق، ولا يعرف إلا إياه، ورأى الأشياء كلها قائمة بالله، بل لا وجود لها مع الله، ومن فتح الله سمع قلبه لم يسمع إلا من الحق، ولا يسمع إلا به، كما قال القائل: أنا بالله أنطق ومن الله أسمع.

وقال الجنيد رضي الله عنه: (لي أربعون سنة أناجي الحق، والناس يرون أني أناجي الخلق). فالخلق محذوفون عند أهل العلم بالتحقيق، مُثْبَتون عند أهل الجهل والتفريق. يقولون: لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية، مع أنه يكلمهم في كل

وقت وساعة، كذلك قال من شاركهم في الجهل بالله، مع وضوح الآيات لمن عرف الله. والله يقول الحق وهو يهدى السبيل.

ولمّا قالت اليهود والنصارى لرسول الله ﷺ: اجعل بيننا وبينك هُدْنة نتبعك بعدها، وأضمَروا فى نفوسهم أنهم لا يتبعونه حتى يتبع ملتهم، فضحهم الله تعالى، فقال:

﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ ﴾

قلت: الملة هي الشريعة، وهي ما شرع الله على لسان أنبيائه ورسله، من أملت الكتاب وأمليته، إذا قرأته. والهوى: رأى يتبع الشهوة.

يقول الحق جل جلاله لرسوله ﷺ: ﴿ولن ترضى عنك اليهود﴾ وتتبع دينك أبدا، ﴿ولا النصارى﴾ كذلك ﴿حتى تتبع ملتهم﴾ على فرض المحال، والمقصود قطع رجائه من إسلامهم باختيارهم؛ لأن اتباعه ملتهم محال، وكذلك إسلامهم. ولعله في قوم مخصوصين. ثم زاد في التنفير من اتباعهم فقال: ﴿ولئن اتبعت أهواءهم﴾ الباطلة فرضا وتقديرا ﴿بعد الذى جاءك من العلم﴾ بالله وبأحكامه على المنهاج القويم، ﴿ما لك من الله من ولي﴾ يمنعك منا، ﴿ولا نصير﴾ ينصرك من غيرنا، أي: لا ولي ولا نصير لك إلا نحن؛ حيث واليتنا، وأحببتنا، وأظهرت ملتنا، فنحن لك على ما تحب وترضى.

الإشارة: التماس رضى الناس من علامة الإفلاس، ولن يرضى عنك الناس حتى تتبع أهواءهم، ولئن اتبعت أهواءهم بعد ما تحققت ما هم فيه، إنك إذا لمن الظالمين، فمن التمس رضى الناس وقع في سخط الله، ومن التمس رضى الله قطع يأسه من الناس. ولذلك قال بعضهم: كل ما سقط من عين الخلق عظم في عين الحق، وكل ما عظم في عين الخلق سقط من عين الحق، وقال آخر: إن الذى تكرهون مني هو الذى يشتهيه قلبي . هـ.

وقال بعض الصالحين: (لقيتُ بعض الأبدال، فقلت له: دُلّني على الطريق؟ فقال: لا تخالط الناس؛ فإن مخالطتهم ظلمة، فقلت: لابد من مخالطتهم وأنا بين أظهرهم؟ فقال لا تعاملهم، فإن معاملتهم خسران. قلت: لابد من معاملتهم؟ فقال: لا تركن إليهم، فإن في الركون إليهم هلكة، فقلت: هذا لعله يكون؟ فقال: يا هذا، أتخالط البطالين، وتعامل الجاهلين، وتركن إلى الهلكى، وتحب أن يكون قلبك مع الله؟ هيهات.. هذا لا يكون أبدا، ثم غاب عني ولم أره).

ولما عاتب الله بني إسرائيل ووبخهم استثنى من آمن منهم، فقال:

﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾ ﴾

قلت: جملة (يتلونه) حال، و(أولئك) خبر الموصول.

يقول الحق جل جلاله: ﴿**الذين آتيناهم الكتاب**﴾، كعبد الله بن سلام وأصحابه، حالتهم ﴿**يتلونه حق تلاوته**﴾ غير محرِّفين له، ولا كاتمين ما فيه، ﴿**أولئك**﴾ هم الذين ﴿**يؤمنون به**﴾ حقيقة، وأما غيرهم ممن حرف وكتم صفة الرسول ﷺ فقد كفر به، ﴿**ومن يكفر به فأولئك هم الخاسرون**﴾ أي: الكاملون في الخسران، حيث بخسوا أنفسهم من عزِّ الدارين.

الإشارة: ما قيل في التوراة وأصحابه يقال مثله في القرآن وأهله؛ فمن آتاه الله القرآن، وتلاه حق تلاوته، بحيث جوَّدَ حروفه وتَدَبَّر معانيه، وعمل بما فيه، فأولئك هم المؤمنون به حقا، والفائزون بثمار معانيه حلاوة وذوقا، ومن ترك التدبر في معانيه فقد حرم نفسه ثمار حلاوته، وذلك عين الخسران عند أهل الإيقان. وبالله التوفيق.

ثم رجع الحق تعالى إلى تذكيرهم بالنعم، فقال:

﴿ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾

قلت: جملة (لا تجزي): نعت ليوم، وحذف العائد، أي: لا تجزي فيه نفس، قال المرادي: (إذا نعت بالجملة اسم زمان جاز حذف عائده) ثم استدل بالآية. وهل حذف برمته أو بالتدريج؟ قولان.

يقول الحق جل جلاله: ﴿**يابني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم**﴾ بأن جعلت الأنبياء تسوسكم، والملوك منكم يدبرون أموركم، و﴿**فضلتكم**﴾ على عالم زمانكم، فاشكروا هذه النعم بالإيمان بالرسول الذي أرسلته إليكم، وخافوا أهوال يوم القيامة الذي لا تغني فيه ﴿**نفس عن نفس شيئا ولا يقبل منها**﴾ فداء إن أرادت الفداء، ﴿**ولا تنفعها شفاعة**﴾ شافع، ولا يدفع عنها أهوال ذلك اليوم ولي ولا ناصر، إلا من اتخذ يدا عند الملك القادر، وبالله التوفيق. وتقدمت إشارة هذه الآية في الآية الأولى.

ولما أراد الحق تعالى أن ينسخ القبلة ويردها إلى بيت الله الحرام بعد أن كانت إلى بيت المقدس، ذكر خصوصيةَ مَنْ بناه، وكيفية بنائه، وفي ضمن ذلك ذكر شرفه ليكون ذلك داعيا إلى الامتثال، فقال:

﴿ ۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾ ﴾

قلت: (ابتلى) اختبر، و(ابراهيم) مفعول، وفيه أربع لغات: إبراهام وإبراهوم وإبراهيم وبالقصر، و(ربه) فاعل، وقدم المفعول للاهتمام، ولئلا يعود الضمير على مابعده لفظا ورتبة، و(عهدى) فاعل، و(الظالمين) مفعول.

يقول الحق جل جلاله: واذكر يا محمد، أو اذكروا يا بنى إسرائيل، حين اختبر ﴿إبراهيمَ ربُّه بكلمات﴾ أن يعمل بها، وهى: تسليم بدنه للنيران، وولده للقربان، وطعامه للضِّيفان، أو عشر خصال: خمس فى الرأس: المضمضة، والاستنشاق، وقص الشارب، والسواك، وفرق الرأس. **وقيل:** وإعفاء اللحية، وخمس فى الجسد: تقليم الظفر، وحلق العانة، ونتف الإبط، والاستنجاء بالماء، والاختتان. أو مناسك الحج أو الخصال التى امتحن بها وهى: الكوكب، والقمر، والشمس، والنار. والهجرة، والذبح، والأحسن أنها ثلاث: الهجرة من وطنه، ورمى ولده بمكة، وذبح الآخر حين بلغ أن يسعى معه(١). ﴿فأتمهن﴾ أى: وَفَّى بهن، فلما وَفَّى بهن (قال) الله تعالى له: ﴿إنى جاعلك للناس إماما﴾، أى: قدوة بك فى التوحيد، أو فى الأصول والفروع، إذ لم يبعث بعده نبى إلا كان من ذريته، ومأمور باتباعه.

ولمّا جعله الله إماما طلب ذلك لأولاده فقال: ﴿ومن ذريتى﴾ فاجعل أئمة، ﴿قال﴾ الحق تعالى: ﴿لا ينال عهدى﴾ أى: لا يلحق عهدى بالإمامة ﴿الظالمين﴾ منهم، إذ لا يصلح للإمامة إلا البررة الأتقياء، لأنها أمانة من الله وعهد، والظالم لا يصلح لها، وفيه تنبيه على أنه قد يكون من ذريته ظلمة لا يستحقون الإمامة، وفيه دليل على عصمة الأنبياء قبل البعثة، وأن الفاسق لا يصلح للإمامة. قاله البيضاوى.

الإشارة: إذا أراد الله تعالى أن يجعل ولياً من أوليائه إماما يُقتدى به، وداعيا يدعو إليه، ابتلاه، فإن صبر ورضى اصطفاه، ولحضرته اجتباه، فيكون إماما يُقتدى به، وداعيا يُهتدى به، وهذه سنة الله تعالى فى أصفيائه

(١) قوله: (ورمى ولده بمكة وذبح الآخر)، يفيد أن الذبيح غير الذى ترك بمكة. وإذا كان الذى ترك بمكة هو إسماعيل ـ كما هو معروف ـ فإن الذبيح يكون إسحاق. وهذا ماذهب إليه قلة من العلماء. والراجح أن الذبيح هو إسماعيل ﷺ، وهذا هو المروى عن جمهرة الصحابة والتابعين ـ وعليه غالب المحدثين والمفسرين، واستدلوا على ذلك بأدلة كثيرة. انظر: تفسير: الرازى وابن كثير، والقول الفصيح فى تعيين الذبيح، للسيوطى، والإسرائيليات والموضوعات، للدكتور أبى شهبة.

يبتليهم الله تعالى بتسليط الخلق عليهم وأنواع من البلايا، فإذا نقوا من البقايا، وتكلمت فيهم المزايا، أظهرهم للخلق داعين إلى الله ومرشدين إلى طريق الله، وقد تبقى الإمامة في ذريتهم إن ساروا على هديهم، ومن لم يسلك به هذا المسلك فلا يصلح للإمامة، وإن توجه إليها كان ناقصا في الدعوة، ولذلك قال بعضهم: (من ادعى شهود الجمال قبل تأدبه بالجلال، فارفضه فإنه دجال). هـ. وكل من اتصف بشيء من ظلم العباد لا ينال عهد الإمامة في طريق الإرشاد، وبالله التوفيق، وهو الهادي إلى سواء الطريق.

ثم ذكر شرف البيت الذي هو المقصود، فقال:

﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ ﴾

قلت: (المثابة): المرجع الذي يثُوب الناس إليه كل سنة، و(اتخذوا): على قراءة الأمر، محكي بقول محذوف، أي: وقلنا اتخذوا، وعلى قراءة الماضي: معطوف على (جعلنا)، أي: جعلناه مثابة، واتخذه الناس مُصلّى.

يقول الحق جل جلاله: (و) اذكر يا محمد ﴿إذ جعلنا البيت﴾ الحرام، أي: الكعبة، مرجعاً للناس يرجعون لزيارته والطواف به كل سنة، وجعلناه محل أمن، كل من دخله كان آمناً من عقوبة الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فإنّ الناس يُتَخطفون من حوله، وأهلُه آمنون، وأما في الآخرة فلأن الحج يَجُبُّ ما قبله، وهذا يدل على شرف البيت وحرمته.

وقلنا لهم: ﴿اتخذوا من مقام ابراهيم﴾، وهو الحجر الذي فيه أثر قدميه، ﴿مصلى﴾ تصلون إليه، وهو الذي يصلون خلفه ركعتي الطواف، ﴿وعهدنا﴾ أي: أوحينا ﴿إلى إبراهيم وإسماعيل﴾ ولده، بأن قلنا لهما: ﴿طهرا بيتي﴾ من الأدناس والأرجاس والأصنام والأوثان، ﴿للطائفين﴾ به ﴿والعاكفين﴾ أي: المقيمين فيه، والمصلين فيه الراكعين الساجدين. فكان البيت مطهرا في زمانهما وبعدهما زمانا، ثم أدخلت فيه [الأصنام][1] فطهره نبينا محمد ﷺ، وتبقى طهارته حتى يأتي أمر الله. والله تعالى أعلم.

الإشارة: القلب هو بيت الرب، يقول الله تبارك وتعالى لبعض أنبيائه: «طهر لي بيتا أسكنه، فقال: يارب أي بيت يسعك؟ فقال له: لن تسعني أرضي ولا سمائي، ووسعني قلب عبدي المؤمن». فإذا تطهر القلب من الأغيار

(١) ما بين المعكوفتين زيادة ليست في الأصول.

وملىء بالأنوار، وتمكنت فيه المعارف والأسرار، كان مرجعا وملجأ للعباد، كل من وصل إليه، وطاف به، كان آمنا من الزيغ والعناد، ومن خواطر السوء وسوء الاعتقاد، ومن دخله بالمحبة والوداد، أمِن من الطرْد والبعاد، وكان عند الله من أفضل العباد. ومقام إبراهيم ـ عليه السلام ـ هو الاستغراق في عين بحر الشهود، ورفع الهمة عن ما سوى الملك المعبود.

وهذا المقام هو الذي اتخذه العارفون كعبة لصلاة قلوبهم، وغاية لمنتهى قصودهم.

عِبـاراتُهم شَتّى، وحُسْنُك واحِدٌ، وكُلٌّ إلى ذاك الجَمـالِ يُشِـيرُ

وقد عهد الله تعالي إلي أنبيائه وأصفيائه أن يطهروا قلوبهم من الأغيار، ويرفضوا كل ما سواه من الأكدار، لتتهيأ بذلك لطواف الواردات والأنوار، ولعكوف المعارف والأسرار، وتخضع لهيبتها ظواهرُ الأشباح، وتنقاد لجمال بهجتها القلوبُ والأرواح، وما ذلك على الله بعزيز.

ثم ذكر الحق تعالي دعاء إبراهيم الخليل لمكان البيت، زيادة في تشريفه، فقال:

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ ﴾

قلت : الإشارة تعود إلى المكان، أو البلد، أي: اجعل هذا المكان بلداً ذا أمن، قال بعضهم: نكَّر البلد هنا، وعرَّفه في سورة إبراهيم، لأن هذا الدعاء وقع قبل أن يكون بلداً، وفي سورة إبراهيم وقع بعد أن كان بلدا فلذلك عرَّفه، وفيه نظر من جهة التاريخ، وسيأتي تمامه هناك إن شاء الله.

وقوله: (مَن آمَن) : بدل من (أهله)، بدل البعض للتخصيص، و(مَن كفر): معطوف على (مَن آمَن)، على حذف المضارع، أي: وارزق من كفر.

يقول الحق جل جلاله : ﴿و﴾ اذكر﴿ إذ قال إبراهيم ﴾ في دعائه لمكة لما أنزَل ابنَه بها بواد غير ذي زرع، وتركه في يد الله تعالى: ﴿**رب اجعل هذا**﴾ المكان ﴿**بلداً آمناً**﴾ يأمن فيه كل من يأوي إليه، ﴿**وارزق أهله من**﴾ أنواع ﴿**الثمرات**﴾، كالحبوب وسائر الفواكه، ﴿**من آمن منهم بالله واليوم الآخر**﴾ ﴿**قال**﴾ الحق جل جلاله: بل وأرزق أيضا ﴿**من كفر**﴾ في الدنيا، ﴿**فأمتعه**﴾ زمناً ﴿**قليلا**﴾، أو تمتيعا قليلا. ﴿**ثم**﴾ ألجئه ﴿**إلى عذاب النار**﴾ وبئس المرجع مصيره.

قاس إبراهيم الخليل الرزق على الإمامة، فنبَّه سبحانه وتعالى أن الرزق رحمة دنيوية، تعم المؤمن والكافر، بخلاف الإمامة، والتقدم في الدين، فإنها سبب النعيم الأخروي، ولا ينالها إلا أهلُ الإيمان والصلاح.

الإشارة: دعاء الأنبياء عليهم السلام، كما يصدقُ بالحس يصدق بالمعنى، فيشمل دعاءُ الخليل القلوبَ التي هي بلد الإيمان، والأرواح التي هي معدن الأسرار والإحسان، فتكون آمنة من طوارق الشيطان، ومحفوظة من الوقوف مع رؤية الأكوان، آمنة من الأكدار، محفوظة من رؤية الأغيار، فيرزقها الله من ثمرة العلوم، ويفتح لها من مخازن الفهوم، من آمن منهم بالشريعة الظاهرة، وجاهد نفسه في عمل الطريقة الباطنة، حتى أشرقت عليه أنوار الحقيقة العيانية، وأما من كفر بطريق الخصوص، ووقف مع ظواهر النصوص، فإنما يُمَتَّع بعلم الرسوم الذي حدُّ حلاوته اللسان، ثم يلجأ إلى عذاب الحجاب، وسوء الحساب، ولم يُفْضِ إلى حلاوة الشهود والعيان، التي يمتع بها الجنَانُ حتى يُفْضِيَ إلى نعيم الجِنَانِ، فيتم النعيم بالنظر إلى وجهه الكريم، منحنا الله من ذلك حظا وافرا بمنِّه وكرمه.

ثم ذكر الحق تعالى كيفية بناء البيت، وما كان شعارهما في حالة بنائه، فقال:

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾﴾

قلت: (القواعد) جمع قاعدة، وهي الأساس، وكأنه مأخوذ من القعود بمعنى الثبات، وأما القواعد من النساء، فجمع قاعد، بلا تاء، لأنه وصف خاص بالنساء، فلا يحتاج إلى تمييز التاء، و(ربنا) منصوب على النداء محكي بحال محذوفة، أي: حال كونهم قائلين ربنا... إلخ.

يقول الحق جل جلاله: واذكر وقت رفع ﴿إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل﴾، وبنائهما له، بعد أن درس بالطوفان، وكان بناء آدم عليه السلام لما أُهبط إلى الأرض بإعلام الملائكة. كان إبراهيم عليه السلام يبني، وإسماعيلُ يناوله الحجارة، فنسب البناء لهما لتعاونهما، وقيل: كانا يبنيان كلٌّ في ناحية، حال كونهما قائلَيْنِ: ﴿ربنا تقبل منا﴾ عملنا هذا، ﴿إنك أنت السميع﴾ لدعائنا، ﴿العليم﴾ بنياتنا وسرائرنا.

الإشارة: ينبغي للعبد أن يرفع قواعد إسلامه، ويشيد دعائمه بتحقيق أركانه، كإتقان الشهادتين بتحقيق معانيها، وإتقان الصلاة بإتقان أركانها الظاهرة والباطنة، وإتقان الزكاة بإخلاص أدائها، وإتقان الصيام بتحصيل آدابه، وإتقان الحج بتحصيل مناسكه بعد وجوبه، ويرفع أيضا قواعد إيمانه بتحقيق أركانه، وهي: الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره، حلْوِه ومُرِّه، اعتقاداً وذوقا، ويرفع أيضا قواعد إحسانه،

بتحصيل مراتبه، كتحقيق المشاهدة، وهو أن يعبد الله كأنه يراه، فإن لم يستطع فليعبده كأن الله يراه، وإن شئت قلت: رفعُ قواعد الإسلام يكون بتحقيق التوبة والتقوى والاستقامة، ورفع قواعد الإيمان يكون بتحقيق الإخلاص والصدق والطمأنينة، ورفع قواعد الإحسان يكون بالمراقبة والمشاهدة والمعرفة، كما قال الساحلي ـ رحمه الله ـ.

ثم ذكر الحق تعالى دعاءهم بعد البناء، فقال:

﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ ﴾

قلت: قال ابن عباس رضي الله عنهما: لما فرغ إبراهيم وإسماعيل من بناء البيت، دَعَوَا بهذا الدعاء، فقالا: (ربنا واجعلنا مسلمين لك) أي: منقادين لأوامرك الظاهرة ولأحكامك القهرية.

واجعل ﴿من ذريتنا أمة﴾ أي: جماعة ﴿مسلمة لك﴾. علما ـ بوحي أو إلهام ـ أنه يكون من ذريتهما من يكفر بالله، ﴿وأرنا﴾ أي: عرفنا وعلمنا ﴿مناسكنا﴾ في الحج. والنُسك في الأصل: غاية العبادة، وشاع في الحج لما فيه من المشاق والكلفة، والبعد عن العادة. ﴿وتب علينا﴾ مما لا يليق بحالنا، فحسناتُ الأبرار سيئات المقربين، فلكل مقام ما ينقصه وإن كان كاملا. ولهذا كان عليه الصلاة والسلام يستغفر في المجلس سبعين مرة. إذ ما من مقام إلا وقبله ما فيه نقص، فإذا ترقى عنه استغفر منه، ﴿إنك أنت التواب الرحيم﴾ أي: كثير القبول والإقبال على التائبين.

﴿ربنا وابعث فيهم﴾ أي: في الذرية ﴿رسولا منهم﴾ وهو مولانا محمد ﷺ قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «أنا دعوة أبي إبراهيم، وبشارة عيسى»، حال كونه ﴿يتلو عليهم﴾ أي: يبلغهم ﴿ آياتك﴾ الدالة على توحيدك وصدق رسالتك، ﴿ويعلمهم الكتاب﴾ أي: القرآن ﴿والحكمة﴾ أي: الشريعة أو السنة. وقال مالك: هي الفقه في الدين والفهم فيه، أو نور يضعه في قلب من شاء من عباده، ﴿ويزكيهم﴾ أي: يطهرهم من لوث المعاصي وكدر الحس، ﴿إنك أنت العزيز﴾ الغالب في حكمه وسلطانه، ﴿الحكيم ﴾ في صنعه وإتقانه، والله تعالى أعلم.

الإشارة: تضمن دعاؤهما عليهما السلام ثلاثة أمور يُطلب التماسها والتحقق بها من كل أحد؛ **أولها**: الانقياد لله في الظاهر والباطن، بامتثال أمره والاستسلام لقهره، حتى يسري ذلك في الأصل إلى فرعه، وهي غاية المنة، قال في الحكم: «متى جعلك في الظاهر ممتثلا لأمره، وفي الباطن مستسلما لقهره، فقد أعظم منته

عليك». والثاني: معرفته الطريق، والسلوك على جادتها، كارتكاب مشاق الطاعات، ومعانقة مخالفة الهوى والشهوات، ورؤية التقصير في ذلك، وطلب التوبة مما هنالك، وهذه هي مناسك حج القلوب، والطريق الموصل إلى عَرَفَةِ حَضْرَةِ الغيوب، والثالث: الظفر بالداعي إلى الله والدال عليه، وهو المعلم الأكبر، صحبته تطهر من العيوب، ورؤيته تغني القلوب، وتدخلها إلى حضرة الغيوب، ظاهره قائم بوظائف الحكمة، وباطنه مشاهد لتصاريف القدرة، وهذا هو القائم بالتربية النبوية. وبالله التوفيق.

ولما قرر شرف إبراهيم عليه السلام وجعله إماما يقتدى به، حذر من ترك دينه والرغبة عن ملته، فقال:

﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ ﴾

قلت: (مَن): استفهامية إنكارية، فيها معنى النفي، مبتدأ، و(يرغب) وما بعده خبر، و(إلا) إبطال لنفيها الذي تضمنته، و(مَن سفِه) بدل من ضمير (يرغب) على المختار، و(نفسه) مفعول «سفِه»؛ لتضمنه معنى جهل أو أهلك، قاله الزجاج، أو على التمييز؛ قاله الفراء؛ لأن الضمير فيه معنى الشيوع الذي في (مَن) فلم يكسب التعريف، أو على إسقاط الجارّ وإيصال الفعل إليه، كقولهم: ضرب فلان الظهر والبطن. و(إذ) معمول لاصطفيناه، وأوصى ووصى: لغتان، إلا أن وصى فيه معنى التكثير. وضمير (بها) يعود على كلمة (أسلمت)، أو الملة، و(يعقوب) معطوف على «إبراهيم»، و(بني) محكي بحال محذوفة، أي: قائلين يابني، أو مبتدأ، والخبر محذوف، أي: قال يابني... إلخ، فيوقف على (بنيه).

يقول الحق جل جلاله: ﴿**ومن**﴾ هذا الذي ﴿**يرغب عن ملة ابراهيم**﴾ الواضحة ﴿**إلا**﴾ من جهل قدر ﴿**نفسه**﴾ وبخسها حقها؟ أو إلا من خف رأيه وسفهت نفسه؟ وكيف يرغب عاقل عنها وقد اخترناه إماماً ﴿**في الدنيا**﴾ يقتدي به أهل الظاهر والباطن؟ ﴿**وإنه في الآخرة لمن الصالحين**﴾ لحضرتنا، والساكنين في جوارنا.

وإنما اخترناه لذلك لأنه حين ﴿**قال له ربه**﴾: استسلم لحكمنا، وانقد لأمرنا، قال سريعا: ﴿**أسلمت**﴾ وجهي ﴿**لرب العالمين**﴾، وانقدتُ بكلّيتي إليه. ﴿**ووصى**﴾ بهذه الكلمة أو الملة ﴿**إبراهيم**﴾، عند موته، ﴿**بنيه**﴾، وكانوا أربعة: إسماعيل وإسحاق ومدين ومدان. وكذلك حفيده ﴿**يعقوب**﴾ أوصى بهذه الكلمة بنيه. وكانوا اثنى عشر، على ما يأتي في الأسباط، قائلين في تلك الوصية: ﴿**يا بني إن الله**﴾ اختار لكم ﴿**الدين**﴾ الحنيف الواضح المنيف، فتمسكوا به ما عِشْتم، ولا تموتُن ﴿**إلا وأنتم مسلمون**﴾ متمسكون به.

الإشارة: ملة أبينا إبراهيم عليه السلام هي رفع الهمة عن الخلق، وإفراد الوجهة للملك الحق، ورفض الوسائط والأسباب، والتعلق برب الأرباب، وفي ذلك يقول الشاعر، وهو الششتري:

فَرَفْضُ السِّوى فَرْضٌ علينا لأنَّنا بملةِ محْوِ الشِّرك والشكِّ قد دِنَّا

ومِنْ ملته أيضا: تركُ التدبير والاختيار، والاستسلام لأحكام الواحد القهار، فمن تمسك بهذه الخصال على التمام، ووصى بها من لقيه من الأنام، جعله الله في الدنيا إماما يقتدي بأقواله ويهتدي بأنواره، وإنه في الآخرة لمن الصالحين المقربين مع النبيين والمرسلين، و أما من رَغِبَ عن هذه الملة الحنيفية فقد خسر الدنيا والآخرة. نسأل الله الحفظ بمنّه وكرمه.

ولما ادَّعتْ اليهود أن اليهودية هي ملة إبراهيم عليه السلام كذبهم الله تعالى، فقال:

﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾ ﴾

قلت: (أم) منقطعة، والاستفهام فيها للإنكار، أي: ما كنتم حاضرين حين حضر يعقوب الموت، وقال لبنيه ما قال، فكيف تدعون اليهودية عليه، و(إلها واحدا) بدل من (إله آبائك)، وفائدته التصريح بالتوحيد، ونفي التوهم الناشيء عن تكرير المضاف، لتعذر العطف على المجرور، والتأكيد، أو نصب على الاختصاص أو الحال، وعد إسماعيل من الآباء تغليبا، أو لأنه كالأب؛ لقوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «عَمُّ الرجُلِ صِنْوُ أبيه» وقال في العباس: «هذا بقية آبائي». قاله البيضاوي.

يقول الحق جل جلاله في توبيخ اليهود على زعمهم أن اليهودية كانت ملة إبراهيم، وأن يعقوب عليه السلام أوصى بها عند موته، فقال: هل كنتم حاضرين عند يعقوب حين حضرته الوفاة حتى أوصى بما زعمتم؟ وإنما كانت وصيته أن قال لبنيه: ﴿**ما تعبدون من بعدي**﴾ أيْ: أيّ شيء تعبدونه؟ أراد به تقريرهم على التوحيد وأخذ ميثاقهم على الثبات عليه، (قالوا) في جوابه: ﴿**نعبد إلهك**﴾ المتفق على وجوب وجوده وثبوت ألوهيته الذي هو ﴿**إلهك وإله آبائك**﴾ من قبلك ﴿**ابراهيم**﴾ وولده ﴿**إسماعيل وإسحاق**﴾ الذي هو إلهٌ واحد. ونحن منقادون لأحكامه، مستسلمون لأمره إلى مماتنا، فلم يوص يعقوب إلا بما سمعتم، فانتسابكم يا معشر اليهود إليهم لا يوجب انتفاعكم بأعمالهم، وإنما تنتفعون بموافقتهم واتباعهم.

فتلك ﴿أمة﴾ أي: جماعة ﴿قد خلت لها ما كسبت﴾ من الخير، ﴿ولكم ما كسبتم﴾ أنتم، ﴿ولا تسألون عما كانوا يعملون﴾ فلا تؤاخذون بسيئاتهم، كما لا تثابون بحسناتهم. وهذا كما قال ﷺ لقريش: «لا يأتيني الناسُ بأعمَالهِم وتأتُونى بأنْسَابِكُم».

الإشارة: يقال لمن حصرَ الخصوصية في أسلافه، ونفاها عن غيرهم: هل حضرتم معهم حين أوصوا بذلك؟ بل ما كانوا يوصون إلا بإخلاص العبودية، وتوحيد الألوهية، ومشاهدة عظمة الربوبية، فمن حصّل هذه الخصال كانت الخصوصية معه أينما كان، ومن حاد عنها ومال إلى متابعة الهوى انتقلت إلى غيره، ويقال له: إن أسلافه قد جَدُّوا ووجدُوا، وأنت لا تنتفع بأعمالهم في طريق الخصوصية، (تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم...) الآية. وبالله التوفيق.

ولما أمر اليهود والنصارى المسلمين باتباع دينهم، لأنه أقدم، ردّ الله عليهم، فقال:

﴿ وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُواْ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ ﴾

قلت: الضمير في (قالوا) لأهل الكتاب، و(أو) للتفصيل، أي: قالت اليهود: كونوا هودا، وقالت النصارى: كونوا نصارى. و(تهتدوا) جواب الأمر، و(ملة) منصوب بفعل محذوف، على حذف مضاف، أي: بل نكون أهل ملة إبراهيم، أو نتبع أو نلزم ملة إبراهيم، و(حنيفا) حال من المضاف إليه، لأنه كجزئه، أي: مائلا عن الباطل إلى الحق.

يقول الحق جل جلاله: وقالت اليهود للمسلمين: ﴿كونوا﴾ معنا هوداً ﴿تهتدوا﴾؛ فإن ديننا أقدم، وقالت النصارى لهم أيضا: كونوا ﴿نصارى﴾ معنا ﴿تهتدوا﴾؛ فإن ديننا أصوب، ﴿قل﴾ لهم يامحمد: ﴿بل﴾ نلزم ﴿ملة ابراهيم﴾ الذي كان مائلاً عن الباطل متبعاً للحق، ومشاهداً له وحده. ولم يكن من المشركين كما أشركتم بعُزير وعيسى وغيرهما، تعالى الله عن قولكم علواً كبيرا.

الإشارة: قد سرى هذا الطبع في بعض المنتسبين، يُرَغِّبُون الناس في طريقهم، ويحرصون على اتباعهم والدخول معهم، وينقصون طريق غيرهم، وهو وصف مذموم، بل الواجب أن ينظر الإنسان بعين البصيرة، فمن وجده يدل على الله ويغيب عما سواه، ينهض حاله ويدل على الله مقاله، اتبعه وحطّ رأسه له، ولزم ملته وطريقه أينما كان، وكيفما كان. ومن وجده على غير هذا الوصف، أعرض عنه، والتمس غيره، وليس من شأن الدعاة إلى

الله الحرص على الناس، أو الترغيب في اتباعهم، بل هم أزهد الناس في الناس، من أتاهم دلوه على الله، ومن لقيهم نصحوه في الله، هم على قدم الرسول ﷺ وقد قال له الحق تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾. ﴿لَسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ﴾، ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾، فكان ﷺ بعد ذلك يدل على الله وينظر ما يفعل الله. وبالله التوفيق.

ثم بيّن الحق تعالى كيفيةَ الإيمان الذي يجب اتباعه، وأبطل ما سواه، فقال:

﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾﴾

قلت: الأسباط: الأحفاد، والسِّبطُ في بني إسرائيل بمنزلة القبيلة في ولد إسماعيل، والباء في (بمثل): يحتمل أن تكون زائدة كقوله تعالى: ﴿وجزاء سيئة بمثلها﴾، أو (مثل) مقْحَم، أي: فإن آمنوا بما آمنتم به، كقوله تعالى: ﴿وشهد شاهد من بني إسرائيل علي مثله﴾. والشقاق: المخالفة، كأن كل واحد من المتخالفين في شق غير شق الآخر، و(صبغة الله): مصدر مؤكد لآمنا؛ لأن الإيمان يتصبغ في القلوب، ويظهر أثره على الجوارح ظهور الصبغ على المصبوغ، ويتداخل في قلوبهم تداخل الصبغ للثوب. أي: آمنا وصبغنا الله به صبغة.

وهي فطرة الله التي فطر الناس عليها، وعبَّر عنها بالصبغ للمشاكلة؛ فإن النصارى كانوا يغمسون أولادهم في ماء أصفر يسمونه المعمودية، ويقولون: هو تطهير لهم، وبه تحق نصرانيتهم، فردَّ الله تعالى عليهم بأن صبغة، الله أحسن من صبغتهم وقيل: نصب على البدل من (ملة إبراهيم)، أو على الإغراء، أي: الزموا صبغة الله.

يقول الحق جل جلاله: ﴿قولوا﴾ يامعشر المسلمين في تحقيق إيمانكم: ﴿آمنا بالله﴾ أي: صدقنا بوجوده متصفا بصفة الكمال، منزها عن النقائص، ﴿و﴾بما ﴿أنزل إلينا﴾ وهو القرآن، ﴿و﴾بما ﴿أنزل﴾ من الصحف ﴿إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب﴾ ولد إسحاق، ﴿والأسباط﴾ أولاد يعقوب عليه السلام وهم: روبيل وشمعون ولاوي ويهوذا وربالون ويشجر، ودنية بنته، وأمهم ليا، ثم خلف على أختها راحيل، فولدت له يوسف وبنيامين، ووُلد له من سريّتين: دان ونفتالي وجاد وآشر.

قال ابن حجر: اختلف في نبوتهم، فقيل: كانوا أنبياء، وقيل: لم يكن فيهم نبي، وإنما المراد بالأسباط قبائل من بني إسرائيل، فقد كان فيهم من الأنبياء عدد كثير. هـ . وممن صرح بنفي نبوتهم عياض وجمهور المفسرين. انظر: المحشي الفاسي.

وقولوا: آمنا بما أنزل إلى ﴿**موسى**﴾ وهو التوراة، ﴿**وعيسى**﴾ وهو الإنجيل، وبما ﴿**أوتي النبيون**﴾ كلهم ﴿**من ربهم**﴾ من عرفنا منهم ومن لم نعرف، ﴿**لانفرق بين أحد**﴾ وأحد ﴿**منهم**﴾ كما فرقت اليهود والنصارى، فقد آمنا بالله وبجميع أنبيائه ﴿**ونحن له مسلمون**﴾ أي: منقادون لأحكامه الظاهرة والباطنة.

قال الحق جل جلاله: ﴿**فإن آمنوا**﴾ أي: أهل الكتاب إيمانا مثل إيمانكم، ﴿**فقد اهتدوا**﴾ إلى الحق والصواب، وإن أعرضوا عن ذلك فاتركهم حتى نأمرك فيهم، ﴿**فإنما هم في شقاق**﴾ وخلاف لك، فلا تهتم بشأنهم، ﴿**فسيكفيكهم الله**﴾ أي سيكفيك شرهم وينصرك عليهم، ﴿**وهو السميع**﴾ لدعائكم، ﴿**العليم**﴾ بإخلاصكم، فالزموا ﴿**صبغة الله**﴾ التي صُبغتم بها، وهي الإيمان بما ذكرت لكم، فإنه لا أحسن صبغة من صبغة الله، ﴿**و**﴾ قولوا: ﴿**نحن له عابدون**﴾.

الإشارة: كما أوجب الله تعالى الإيمان بجميع الرسل في طريق العموم، كذلك أوجب الله التصديق بكل من ثبتت ولايته في طريق الخصوص، فمن فرق بينهم فقد كفر بطريقهم، ومن كفر بطريقهم طُرد عن بابهم، ومن طرد عن بابهم طرد عن باب الله، لأن إسقاطه من الولاية إيذاء له(١)، ومن آذى ولياً فقد آذن الله بالحرب، فالواجب، على من أراد أن يرد مناهلهم، أن يصدق بجميعهم، ويعظم من انتسب إليهم، حتى تنصبغ في قلبه حلاوة الإيمان، وتشرق عليه شموس العرفان، فمن فعل هذا فقد اهتدى إلى الحق والصواب، واستحق الدخول مع الأحباب، ومن أعرض عن هذا فإنما هو في شقاق، وربما يخاف عليه من شؤم الكفر والنفاق، فسيكفي الله أولياءه سوءَ شره، والله غالب على أمره.

قال القشيري: فللقلوب صبغة، وللأرواح صبغة، وللسرائر صبغة، وللظواهر صبغة، فصبغة الأشباح والظواهر بآثار التوفيق، وصبغة الأرواح والسرائر بأنوار التحقيق. هـ. وقال الورتجبي: صبغة الله: صفته الخاصة

---

(١) الولي لا ينظر إلى الخلق بل غايته رضا الله عنه. فانكار الناس ولايةَ ولي لا يؤذي الولي، وإنما أذى الإنكار يعود على المنكر نفسه، طبقاً للحديث الوارد.

التي خلق آدم عليها، وأورثت ذلك في أرواح ذريته من الأنبياء والأولياء .ثم قال: وسقاها من شراب الزلفة، وألهمها خصائص علوم الربوبية، فاستنارت بنور المعرفة، وخاضت في بحر الربوبية، وخرجت منها تجليات أسرار الوحدانية، وتكونت بصبغ الصفات. هـ. وبالله التوفيق.

ولما ادعت اليهود والنصارى أنهم أولى الناس بالله من غيرهم لتقدم دينهم، رد الله عليهم ووبخهم فقال: (قل أتحاجوننا...) الآية. وقيل: إن اليهود قالوا للنبي ﷺ: الأنبياء كلهم منا، فلو كنت نبيا لكنت منا، فرد الله عليهم بقوله:

﴿ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِي ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾
أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ
قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا
تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟
يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾ ﴾

قلت: الذي يظهر أن (أم) منقطعة، بمعنى بل، على قراءة الخطاب والغيبة؛ لأن المقصود إنكار وقوع الأمرين معا، لا أحدهما.

يقول الحق جل جلاله: ﴿قل﴾ يا محمد لأهل الكتاب: أتخاصموننا ﴿في الله﴾ وتقولون: أنتم أولى به منا ﴿وهو ربنا وربكم﴾، لا يختص به واحد دون آخر، ﴿ولنا أعمالنا﴾ نتقرب بها إليه، ﴿ولكم أعمالكم﴾ تتقربون بها أيضا، فكيف تختصون به دوننا ﴿ونحن له مخلصون﴾ في أعمالنا وقلوبنا دونكم فإنكم؛ أشركتم به غيره، فإن قلتم: إن الأنبياء كلهم منكم وعلى ملتكم فقد كذبتم، أتقولون ﴿إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب﴾ وأولاده ﴿الأسباط كانوا هودا﴾ على دينكم يا معشر اليهود، ﴿أو نصارى﴾ على ملتكم يا معشر النصارى.

﴿قل﴾ لهم يا محمد: ﴿أأنتم أعلم أم الله﴾ وقد نفى الأمرين معا عن إبراهيم فقال: ﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا ﴾ وقال: ﴿ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالإِنجِيلُ إِلاَّ مِن بَعْدِهِ ﴾، وهؤلاء المعطوفون عليه: أتباعه في الدين، فليسوا يهودا ولا نصارى، فكيف تدعون أنهم كلهم منكم، وعلى دينكم، وأنتم تشهدون أنهم لم يكونوا على دينكم؟ ﴿ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله﴾، وهي شهادة الحق

لإبراهيم بالحنيفية، والبراءة من اليهودية والنصرانية، أي: لا أحد أظلم منه، وليس الله تعالى ﴿بغافل عما تعملون﴾، بل يجازيكم على النقير والقطمير، فإن اعتمدتم على نسبكم إليهم فقد اغتررتم.

﴿تلك أمة﴾ قد مضت، ﴿لها ما كسبت﴾ لا ينتفع به غيرها، ﴿ولكم ما كسبتم﴾ لا ينفعكم غيره، ولا تسألون عن عملهم كما لا يسألون عن أعمالكم. قال البيضاوي: كرره للمبالغة في التحذير، والزجر عما استحكم في الطباع من الافتخار بالآباء، والاتكال عليهم، وقيل: الخطاب فيما سبق لهم، وفي هذه الآية لنا، تحذيرًا عن الاقتداء بهم، وقيل: المراد بالأمة في الأولى الأنبياء، وفي الثانية أسلاف اليهود والنصارى. هـ.

الإشارة: كل من أقامه الحق في وجهة، ووجهه إليها، فهو عامل لله فيها، قائم بمراد الله منها، وما اختلفت الأعمال إلا من جهة المقاصد، وما تفاوت الناس إلا من جهة الإخلاص. فالخلق كلهم عبيد للملك المجيد، وما وقع الاختصاص إلا من جهة الإخلاص. فمن كان أكثر إخلاصاً لله كان أولى من غيره بالله، وبقدر ما يقع للعبد من الصفاء يكون له من الاصطفاء، فالصوفية والعلماء والعباد والزهاد وأهل الأسباب على اختلاف أنواعهم كلهم عاملون لله، ليس أحد منهم بأولى من غيره بالله إلا من جهة الإخلاص وإفراد القلب لله، فمن ادعى الاختصاص بالله من غير هذه الوجهة فهو كاذب، ومن اعتمد على عمل غيره فهو مغرور، يقال له: ﴿تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون﴾.

ولمّا أراد الله تعالى أن ينسخ القبلة من جهة الشام ويردها إلى الكعبة، أخبر أنه سينكرها قومٌ خَفّتْ أحلامُهم، وفسدت بالتقليد الردي عقولُهم ،وهم أحبار اليهود والمنافقون والمشركون، فقال:

﴿ ۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَاۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُۚ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ ﴿١٤٢﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿سيقول السفهاء من الناس﴾ الذين لا عقل لهم ولا دين، حين تحول القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة: ما صرفهم ﴿عن قبلتهم التي كانوا عليها﴾، فلو دام عليها لاتبعناه. ﴿قل﴾ لهم يا محمد: ﴿لله المشرق والمغرب﴾ لا يختص ملكه بمكان دون مكان بخاصية ذاتية تمنع من إقامة غيره مقامه، بل الأماكن عند الله سواء، والخلق في حقه سواء، ﴿يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾، ويضل من يشاء عن المنهاج القويم ﴿لا يُسأَلُ عمَّا يفعَلُ وهُمْ يُسأَلُونَ﴾، والصراط المستقيم: ما ترتضيه الحكمة وتقتضيه المصلحة من التوجه إلى بيت المقدس تارة، والكعبة أخرى، وفائدة تقديم الإخبار به: توطين النفس وإعداد الجواب. قاله البيضاوي.

قال بعض العارفين: (لي أربعون سنة ما أقامني الحق في شيء فكرهته، ولا نقلني إلى غيره فسخطته). بخلاف السفهاء من الجهال، فشأنهم الإنكار عند اختلاف الأحوال، فمن رأوه تجرد عن الأسباب وانقطع إلى الكريم الوهاب، قالوا: ما ولاّه عن حاله الذي كان عليه؟ وأكثروا من الاعتراض والانتقاد عليه، وكذلك من رأوه رجع إلى الأسباب بعد الكمال، قالوا: قد انحط عن مراتب الرجال. وهو إنما زاد في مراتب الكمال. فالملك كله لله، يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم، ويضل من يشاء بعدله الحكيم.

ثم شهد الحق تعالى لهذه الأمة بالعدالة والفضل، فقال:

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ ... ﴾

قلت: (الوسط) هو العدل الخيّر الفاضل، وهو في الأصل اسم للمكان الذي تستوي إليه المساحة من الجوانب، ثم استعير للخصال المحمودة؛ لوقوعها بين طرفي إفراط وتفريط، كالجود بين الإسراف والبخل، والشجاعة بين التهور والجبن، ثم أطلق على المتصف بها مستويا فيه الواحد والجمع، والمذكر والمؤنث. قاله البيضاوي.

يقول الحق جل جلاله: وكما جعلناكم مهتدين إلى الصراط المستقيم، وجعلنا قبلتكم أفضل الجهات، جعلناكم أمة أفضل الأمم، خيارا عدولا مزكّين بالعلم والعمل، لتصلحوا للشهادة على غيركم، فتكونوا يوم القيامة ﴿شهداء على الناس﴾، ويزكيكم نبيكم فيشهد بعدالتكم.

قال البيضاوي: رُوي (أن الأمم يوم القيامة يجحدون تبليغ الأنبياء، فيُطالبهم الله ببينة التبليغ وهو أعلم بهم، إقامة للحجة على المنكرين، فيُؤتى بأمة مُحمّدٍ ﷺ فيشهدُون، فتقُول الأُمم: منْ أيْنَ عرفتمْ؟ فيقولُون: علمْنَا ذلك بإخْبَارِ الله في كِتَابِهِ النَّاطِقِ علَى لسانِ نبيه الصَّادِقِ. فيُؤتى بمحمدٍ ﷺ فيُسألُ عن حَالِ أُمته فيَشْهدُ بعدَالتهمْ).

وهذه الشهادة، وإن كانت لهم، لكن لمّا كان الرسول كالرقيب المهيمن على أمته عُدِّي بعلى، وقُدِّمت الصلة للدلالة على اختصاصهم بكون الرسول شهيداً عليهم. هـ.

الإشارة: التفاضل بين الرجال إنما يكون بالعلم والحال، فمن قَوِيَ علْمُه بالله كان أعظم قدراً عند الله، والعلم الذي به الشرف عند الله هو العلم بذات الله وبصفاته وأسمائه، وكذا العلم بأحكام الله إذا حصل معه العلم بالله، فكلما انكشف الحجاب عن القلب كان أقرب إلى الرب، وانكشاف الحجاب يكون على قدر التخلية والتحلية، فبقدر ما يتخلى القلب عن الرذائل، ويبعد عن القواطع والشواغل، ويتحلى بأنواع الفضائل، ينكشف عنه الحجاب ويدخل مع

الأحباب، وبقدر ما يتراكم على القلب من الخواطر والشواغل، ويدخل عليه من المساوئ والرذائل، يقع البعد عن الله، ويطرد العبد عن باب الله، فلا يدل على كمال العبد كثرة الأعمال، وإنما يدل على كماله علو الهمة والحال، وعلو الهمة على قدر اليقين، وقدر اليقين على قدر المعرفة، والمعرفة على قدر التوجه والتصفية، والتوجه تابع للقسمة الأزلية. وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

ثم إن العلماء بأحكام الله إذا لم يحصل لهم الكشف عن ذات الله يكونون حجة على عباد الله. والعلماء بالله الذين حصل لهم الكشف عن ذات الله حتى حصل لهم الشهود والعيان يكونون حجة على العلماء بأحكام الله. فكما أن الأمة المحمدية تشهد على الناس، والرسول يشهد عليهم ويزكيهم، فكذلك العلماء يشهدون على الناس، والأولياء يشهدون على العلماء، فيزكون من يستحق التزكية، ويردون من لا يستحقها؛ لأن العارفين بالله عالمون بمقامات العلماء أهل الظاهر، لا يخفى عليهم شيء من أحوالهم ومقاماتهم، بخلاف العلماء، لا يعرفون مقامات الأولياء، ولا يشمون لها رائحة، كما قال القائل:

تركنا البُحُورَ الزاخِراتِ وراءنَا   فَمِنْ أينَ يَدْرِي الناسُ أينَ توجَّهْنَا

قال القشيري: (جعل هذه الأمة خيار الأمم، وجعل هذه الطائفة خيار هذه الأمة، فهم خيار الخيار. وكما أن هذه الأمة شهداء على الأمم في القيامة؛ فهذه الطائفة هم المدار وهم القطب، وبهم يحفظ الله جميع الأمة. وكل من قبلته قلوبهم فهو المقبول، ومن ردَّته قلوبهم فهو المردود. فالحكم الصادق لفراستهم، والصحيح حكمهم، والصائب نظرهم، عصم جميع الأمة من الاجتماع على الخطأ، وعصم هذه الطائفة من الخطأ في النظر والحكم والقبول والرد، ثم إن بناء أمرهم مستند إلى سنة الرسول ﷺ، فكل من لا يكون له اقتداء بالرسول فهو عندهم مردود، وصاحبه كلا شيء). وبالله التوفيق.

ثم ذكر الحق تعالى حكمة نسخ القبلة، فقال:

﴿... وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾﴾

قلت: (جعل) تصييرية، و (القبلة) مفعول أول، و (التي) صفة للمفعول الثاني المحذوف، أي: وما جعلنا القبلة الجهة التي كنت عليها وهي بيت المقدس، ثم وجهناك إلى الكعبة إلا لنعلم الثابت على الإيمان من غيره، أو: وما صيرنا القبلة الجهة التي كنت عليها بمكة وهي الكعبة، فإنه كان ـ عليه الصلاة والسلام ـ يصلي إليها بمكة.

وقيل: كان يستقبل بيت المقدس ويجعل الكعبة بينه وبينها، كما قال ابن عباس، و (إن) مخففة، و اللام فارقة. أي: وإنه، أي: الأمر والشأن: كانت التحويلة لشاقة على الناس، والرأفة: شدة العطف، فهي أبلغ من الرحمة. والله تعالى أعلم.

يقول الحق جل جلاله: وما نسخنا حكم القبلة وجعلناها الجهة التي كنت عليها بمكة دون التي كانت بالمدينة، وهي بيت المقدس، **﴿إلا لنعلم﴾** علم ظهور وشهادة **﴿من يتبع الرسول﴾** في التحول إليها **﴿ممن ينقلب على عقبيه﴾** لضعف إيمانه وقلة إيقانه، فإن التحويلة عن القبلة الأولى والرجوع عنها إلى الثانية شاق على النفوس، إلا من سبقت له الهداية وحفت به الرعاية، فإنه يدور مع مراد الله أينما دار، ويتبع رسوله أينما سار. ومن مات قبل التحويل إلى الكعبة فإن الله لا يضيع أجر عمله **﴿وما كان الله ليضيع إيمانكم﴾** أي: صلاتكم إلى بيت المقدس؛ **﴿إن الله بالناس لرؤوف رحيم﴾**.

الإشارة: الخروج عن العادات وترك الأمور المألوفات كلاهما شاق على النفوس، إلا على الذين هدى الله، ولذلك كان خرق العوائد هو الفصل بين الخصوص والعموم، ومفتاح لمخازن العلوم والفهوم. فمن لم يخرق عوائد نفسه فلا يطمع أن يدخل حضرة قدسه. ‹ كيف يخرق لك العوائد وأنت لم تخرق من نفسك العوائد ›. وهو الميدان الذي تحقق به سير السائرين. ‹ لولا ميادين النفوس ما تحقق سير السائرين›. وهو عند شيوخ التربية ميزان يتميز به من يتبع الرسول ويلزم طريقه إلى الوصول، ممن ينقلب على عقبيه، فمن رأوه خرق عوائد نفسه، وزهد في ملبسه وجنسه، تحققوا بدخوله حضرة قدسه، إلا من سبق له الحرمان والعياذ بالله من الخذلان، ومن رأوه وقف مع العادات، وركن إلى المألوفات، ومال إلى الرُّخَص والتأويلات، علموا أن مقامه مقام أهل الحجاب، يأخذ أجره من وراء الباب، ولا نصيب له في الدخول مع الأحباب.

وأيضا عند تخالف الآثار وتنقلات الأطوار، يظهر الإقرار من الإنكار. أهلُ الإقرار عارفون في كل حال، يدورون مع رياح الأقدار حيث سارت، ويسيرون معها حيث سارت، وأهل الإنكار جاهلون بالله في كل حال، معترضون عليه عند اختلاف الأحوال، نعوذ بالله من الضلال.

ثم ذكر الحق تعالى كيفية ابتداء نسخ القبلة، فقال:

﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ... ﴾

قلت: التقلب: التردد، ووليّت كذا: جعلته واليا له، والشّطْر هنا: الجهة.

يقول الحق جل جلاله لنبيه ـ عليه الصلاة والسلام ـ حين تمنى أن يُحَول إلى الكعبة، لأنها قبلة أبيه إبراهيم وأدْعى إلى إسلام العرب، وهي أقدم القبلتين، فكان ينظر إلى السماء، ويقلب وجهه فيها انتظارا لنزول الوحْي، وهذا من كمال أدبه ـ عليه الصلاة والسلام ـ حيث انتظر ولم يطلب، فقال له الحق تعالى: ﴿قد نرى﴾ أي: ربما نرى تردد ﴿وجهك في السماء﴾ انتظارا للوحي، فلنعطينك ما تمنيت ،ونوجهك إلى قبلة ﴿ترضاها﴾ وتحبها لمقاصد دينية وافقت المشيئة، واقتضتها الحكمة، ﴿فوّل وجهك﴾ أي: اجعله مواليا ﴿شطر﴾ أي: جهة ﴿المسجد الحرام. وحيثما كنتم﴾ أيها المؤمنون أي في أي مكان كنتم ﴿فولوا وجوهكم شطره﴾ جهته.

وإنما ذكر الحق تعالى شطر المسجد، أي: جهته، دون عين الكعبة؛ لأنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ كان في المدينة، والبعيد يكفيه مراعاة الجهة، فإن استقبال عينها حَرَجٌ عليه، بخلاف القريب، فإنه يسهل عليه مسامتة العين(١)، وقيل: إن جبريل ـ عليه السلام ـ عيّنها له بالوحي فسميت قبلة وحْي.

رُوِي أنه ﷺ قدم المدينة فصلى نحو بيت المقدس ستة عشر شهرا، ثم وُجِّه إلى الكعبة في رجب بعد الزوال قبل قتال بدر بشهرين، وقد صلى بأصحابه في مسجد بني سلمة ركعتين من الظهر، فتحول في الصلاة، واستقبل الميزاب، وتبادل الرجال والنساء صفوفهم، فسُمي مسجد القبلتين. قاله البيضاوي.

الإشارة: في الآية إشارة إلى أن ترك التصريح من كمال الأدب، وفي الحكم: ‹ ربما دلهم الأدب على ترك الطلب، كيف يكون دعاؤك اللاحق سببا في قضائه السابق؟! جل حكم الأزل أن يضاف إلى العلل › . فإذا تمنيت شيئا وتوقفت على أمر فاصبر وتأدب واقتد بنبيك ـ عليه الصلاة والسلام ـ حتى يعطيك ما ترضى، أو يعوضك منها مقام الرضا. وفي المسألة كلام، والتحقيق أن ينظر إلى ما ينشرح به صدره في الوقت، فإن انشرح للدعاء دعا، وإن انقبض عن الدعاء سكت. والله يرزق من يشاء بغير حساب ولا علة ولا أسباب.

---

(١) سامته: قابله ووازاه وواجهه.

وإن شئت قلت: قد نرى فكرتك أيها العارف في سماء المعاني، غائبا في شهود الأواني، فلنولينك قبلة ترضاها، وتتلذذ بشهود جمالها وسناها، وهي الحضرة المطهرة التي هي صلاة القلوب، فول وجهك ووجهتك إلى تلك الحضرة، وحيثما كنت فول وجهك شطره، ودم على صلاة الفكرة والنظرة، فهي صلاة العارفين، ومنتهى أمل القاصدين، وبالله التوفيق.

ولمّا تحولت القبلة إلى الكعبة غضبت اليهود، حيث ترك قبلتهم، مكابرة وعنادا، وقالوا: لو بقي على قبلتنا لرجونا أن يكون هو النبي المبعوث في آخر الزمان فنتبعه، فردّ الله عليهم وكذبهم فقال:

﴿... وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾﴾

قلت: (ولئن) اللام موطِّئة للقسم، و (إن) شرطية، و (أتيت) فعل الشرط، و (ما تبعوا) جواب القسم المحذوف سد مسد جواب الشرط. قال في الألفية:

واحذِف لَدَى اجتماع شرطٍ وقسمْ   جـوابَ ما أخَّرْتَ فَهْوَ مُلْتَزَمْ

يقول الحق جل جلاله: ﴿وإن الذين أوتوا الكتاب﴾ من أحبار اليهود ﴿ليعلمون﴾ أن التحول إلى الكعبة حق ﴿من ربهم﴾ لِمَا يجدون في كتابهم أنه يصلي إلى القبلتين، وأن عادته تعالى تخصيص كل أمة بشريعة، ﴿وما الله بغافل عما يعملون﴾ من التعنت والعناد، وإنما يمهلهم ليوم المعاد، والله لئن أتيتهم بكل حجة وبرهان على صحة التوجه إلى الكعبة ﴿ما تبعوا قبلتك﴾؛ لأنهم ما تركوا قبلتك لشبهة تُزيلُها الحجة، وإنما خالفوك مكابرة وعنادا. وقد طمعوا أن ترجع إلى قبلتهم، ولست ﴿بتابع قبلتهم﴾ أبدا، بل لهم قبلتهم؛ صخرة بيت المقدس، وللنصارى قبلتهم؛ مطلع الشمس، وليس بعضهم ﴿بتابع قبلة بعض﴾؛ لتصلب كل حزب بما هو فيه، وإن كان على خطأ وفساد؛ لأن مفارقة العوائد هنا صعب على النفوس إلا من سبقت له العناية.

﴿ولئن اتبعت أهواءهم﴾ الباطلة وآراءهم الزائفة فَرْضاً وتقديرا ﴿من بعد ما جاءك من العلم﴾ الواضح والوحى الصحيح ﴿إنك إذا لمن الظالمين﴾، لكنك معصوم، فلا يتصور اتباعك لهم أبداً .

﴿الذين آتيناهم الكتاب﴾ أى: اليهود ﴿يعرفونه﴾ أى: الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ وإن لم يتقدم ذكره لدلالة الكلام عليه أو القرآن أو التحويل، ﴿كما يعرفون أبناءهم﴾ لا يشكُّون فى صحة رسالته كما لا يشكون فى معرفة أبنائهم . وعن عمر رضي الله عنه أنه سأل عبدالله بن سلام عن رسول الله ﷺ فقال: (أنا أعلَمُ بِه مِنّى بِابنى، قال له: ولِمَ؟ قال: لأنّى لستُ أشُكُّ فى محمدٍ أنه نبيٌّ الله . وأمّا ولَدى فلعلَّ والدتَه قَدْ خانَتْ) .

وبعد حصول هذه المعرفة لهم جحدوه وكتموا صفته، إلاَّ من عصمه الله بالإيمان كعبد الله بن سلام وأصحابه ـ فقد كتم فريق منهم الحق وهم أحبارهم، وهم يعلمون أنه حق حسداً وعنادا .

هذا الذى أنت عليه يا محمد هو ﴿الحق من ربِّك، فلا تكونن من الممترين﴾ أى: من الشاكين فى أنه الحق، أو فى كتمانهم الحق عالمين به . والخطاب مصروف للسامعين لا للنبى ﷺ؛ لأنه غير متوقع منه، وإنما المراد تحقيق الأمر، وإنه بحيث لا يشك فيه ناظر، أو أمر الأمة باكتساب المعارف المزيحة للشك على الوجه الأبلغ . قاله البيضاوى .

الإشارة: مما جرت به سُنة الله تعالى فى خلقه أن أهل الحقيقة منكورون عند أهل الشريعة، أو تقول: علماء الباطن منكورون عند علماء الظاهر، يقابلونهم بالإذاية والإنكار، مع أنهم يعلمون أن الحقيقة حق من ربهم، وأن علم الباطن حق لقوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ : «إن من العلم كهيئة المكنون، لا يعلمه إلا العلماء بالله، فإذا سمعه أهل الغرة بالله أنكروه عليهم» . أو كما قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ، وقال ﷺ: «لِكلِّ آيةٍ ظَاهرٌ وبَاطِنٌ وحدٌّ ومَطْلَع» .

﴿وما الله بغافل عما يعملون﴾ فجزاؤهم الحرمان عن لذة الشهود والعيان، فيقال لأهل الباطن: ولئن أتيتهم بكل آية وبرهان ما تبعوا وجهتك التى توجهت إليها؛ لأنها منُوطة بموت النفوس وحط الرؤوس ودفع الفلوس، وخرق العوائد لاكتساب الفوائد، ومفارقة الأوطان والغيبة عن الأهل والولدان، وما أنت أيها المريد بتابع وجهتهم التى توجهوا إليها، ولئن اتبعت أهواءهم من بعدما ظهر لك من علم التحقيق: إنك إذا لمن الظالمين لنفوسهم .

الذين آتيناهم الكتاب من علماء الشريعة يعرفون علم الحقيقة، كما يعرفون أبناءهم، أى: يقرون به فى الجملة وينكرون وجود أهله مخصوصين، وقد يتحققون به ويكتمون الحق حسدا، وهم يعلمون وجود خصوصيته، فيقال

للعارف: هذا الذي أنت عليه من سلوك جادة الطريق، وعلم التحقيق، هو الحق من ربك فلا تكونن من الممترين أنك على الحق المبين.

ثم بيّن الحق تعالى قبلة من بَعْدَ عن مكة، فقال:

﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ... ﴾

قلت: التنوين في (لكل) تنوين العوض، أي ولكل أمة قبلة، أو لكل قوم من المسلمين جهة وجانب من الكعبة، و(وجهة) مبتدأ، والخبر: المجرور قبله. و (هو) مبتدأ، و (موليها) خبر مقصور، و (ولى) يتعدى إلى مفعولين، وهو هنا محذوف، أي: موليها وجهه إن كان الضمير يعود على المضاف المحذوف، ويحتمل أن يعود على الله تعالى، أي: الله تعالى موليها إياه، أي: يجعلها موالية له إن استقبل جهتها.

وقرأ ابن عامر: (هو مُوَلاَّها) بالبناء للمفعول، فالنائب ضمير يعود على (هو)، وهو المفعول الأول، والثانى: المضاف إليه تخفيفا، وأصله: مُولى إياها، أى مصروفا إليها.

يقول الحق جل جلاله: ولكل فريق من المسلمين جهة من الكعبة يستقبلها ويوليها وجهه، أينما كان وحيثما حل، فأكثروا من الصلوات، واستقبلوا الخيرات قبل هجوم هادم اللذات، **﴿أينما تكونوا﴾** فى مشارق الأرض ومغاربها، يأتكم الممات، ويأت بكم إلى المحشر حُفاة عراة، ولا ينفعكم حينئذ إلا صالح عمل قدمتوه، أو فعل خير أسلفتموه، **﴿إن الله على كل شيء قدير﴾**، فلا يعجزه بعث العباد، ولا جمعهم من أعماق الأرض وأقطار البلاد. وإذا علمت أن لكل قوم جهة يستقبلونها، فمن **﴿حيث خرجت﴾** وفي أى مكان حللت **﴿فول وجهك شطر المسجد الحرام﴾**، والله **﴿إنه للحق من ربك﴾** فبادر إلى امتثاله. **﴿وما الله بغافل عما تعملون﴾** من خير أو شر، فيجازى كل واحد على ما أسلف.

ثم كرر الحق تعالى الأمر بالتوجه إلى الكعبة لعلة أخرى سيذكرها، فقال: **﴿ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام﴾** وحيثما حللتم **﴿فولوا وجوهكم شطره﴾**. قال البيضاوي: كرر هذا الحكم لتعدد علله، فإنه تعالى ذكر للتحول ثلاث علل: تعظيم الرسول ﷺ بابتغاء مرضاته، وجَرت العادة الإلهية على أن يُولّى أهل كل ملة وصاحب دعوة وجهة يستقبلها ويتميز بها، ودفع حجج المخالفين على ما بينه، وقرن كل علة بمعلولها، مع أن القبلة لها شأن، والنسخ من مظان الفتنة والشبهة، فبالحَرِيّ أن يُؤكد أمرها ويعاد ذكرها مرة بعد أخرى. هـ.

ثم ذكر العلة الثالثة وهي دفع حجج المخالفين، فقال:

﴿... لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾﴾

قلت: الاستثناء من (الناس) أي: لئلا يكون لأحد من الناس حجة عليكم إلا المعاندين منهم، و(لأتم) متعلق بمحذوف، أي: ولإتمام نعمتي عليكم وإرادة اهتدائكم أمرتكم بالتحول، أو معطوف على محذوف؛ أي: واخشوني لأحفظكم ولأتم نعمتي عليكم.

يقول الحق جل جلاله: وإنما أمرتكم بالتوجه إلى الكعبة دون الصخرة لتدفع حجج الناس، فإن اليهود ربما قالوا: المنعوت في التوارة قبلته الكعبة، وهذا يستقبل الصخرة، أو إن محمدا يخالف ديننا ويستقبل قبلتنا. والمشركون ربما قالوا: يدعى ملة إبراهيم ويخالف قبلته، فأمرتكم باستقبال القبلة دفعا لحجج الناس، إلا المعاندين منهم فلا ينقطع شغبهم، فإنهم يقولون: ما تحول إلى الكعبة إلا ميلاً إلى دين قومه، وحبا لبلاده، أو بدَاَ له فرجع إلى قبلة آبائه، ويوشك أن يرجع إلى دينهم.

فلا تخافوهم ولا تلتفتوا إلى مطاعنهم، فإنها لا تضركم، ﴿واخشوني﴾ أكْفكم شرهم، فإن من خافني خاف منه كل شيء، ومن لم يخشني خاف من كل شيء، وأمرتكم أيضا بالتوجه إلى قبلة جدكم ﴿لأتم نعمتي عليكم﴾ بإقرار عين نبيكم، وإرادة اهتدائكم، فاشكروا ما أوليتكم، واذكروا ما به أنعمت عليكم أزدكم من فضلي وإحساني، وأسبغ عليكم إنعامي وامتناني.

الإشارة: من حكمة المدبر الحكيم أن دبر ملكه العظيم، ووجه كل فرقة بوجهة من مصالح عباده، أفناه فيها وولاه إياها. **فقوم** اختصهم لمحبته واصطفاهم لحضرته؛ وهم العارفون، **وقوم** أقامهم لخدمته وأفناهم في عبادته؛

وهم العباد والزهاد، وقوم أقامهم لحمل شريعته وتمهيد دينه؛ وهم العلماء العاملون، وقوم أقامهم لحفظ كتابه رسما وتلاوة وتفهما؛ وهم القراء والمفسرون، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾، وقوم أقامهم لتسكين الفتن ودفع المظالم والمحن؛ وهم الحكام ومن يستعان بهم في تلك الوجهة، وقوم أقامهم لحفظ نظام الحكمة؛ وهم القائمون بالأسباب الشرعية على اختلاف أنواعها وتعدد فروعها، وقوم أعدهم لظهور حلمه وعفوه فيهم؛ وهم أهل المعاصي والذنوب، وقوم أعدهم للانتقام وظهور اسمه القهار؛ وهم أنواع الكفار.

فكل وجهة من هؤلاء توجهت لحق شرعي أقامتها القدرة فيه، وحكم بها القضاء والقدر، إلا أن القسمين الأخيرين لا تقررهما الشريعة. فلو حسنت المقاصد لكان الكل عمالا لله، فيقال لهم: ﴿استبقوا الخيرات﴾ بتحسين المقاصد والنيات، وبادروا إلى الطاعات قبل هجوم هادم اللذات، أينما تكونوا يجمعكم للحساب، وتعاينوا جزاء ما أسلفتم من عذاب أو ثواب، ومن حيث خرجت أيها العارف فول وجهتك وكليتك لمسجد الحضرة باستعمال الفكرة والنظرة، فإنها حق وما سواها باطل، كما قال الشاعر:

أَلا كُلُّ شيء ما خَلاَ اللهَ باطلُ ... وكلُّ نعيمٍ لاَ مَحالَةَ زائلُ(١)

وحيثما كنتم أيها العارفون فولوا وجوهكم إلى قبلة تلك الحضرة، واعبدوا ربكم بعبادة الفكرة، فإنها صلاة القلوب، ومفتاح ميادين الغيوب، وفي ذلك يقول القائل(٢):

يَا قِبْلَتِي في صَلاَتِي ... إذَا وقَفْتُ أُصَلّي

جَمَالُكم نُصْبَ عَيْنِي ... إليهِ وَجَّهْتُ كُلّي

فإذا تحققتم بهذه الحضرة، وتحصنتم بحصن الشهود والنظرة، انقطع عنكم حجج خصيم النفس والجنس، وتنزهتم في رياض القرب والأنس، إلا الخواطر التي تحوم على القلوب، فلا تقدح في مشاهدة الغيوب، فلا تخافوا غيري، ولا تتوجه همتكم إلا لإحساني وبرّي؛ فإني أتم عليكم نعمتي، وأرشدكم إلى كمال معرفتي، وأتحفكم بنصري ومعونتي.

---

(١) نقل الحافظ ابن حجر في الفتح٧/١٨٨: (أن لبيداً أنشد من شعره (ألا كلُّ شئ ماخلا الله باطل)، فقال عثمان بن مظعون: صدقت. فقال لبيد: (وكل نعيم لا محالة زائل). فقال عثمان: كذبت؛ نعيم الجنة لا يزول..).

(٢) ابن الفارض.

ثم ذكر الحق تعالى نعمة الواسطة، فقال:

﴿ كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ ﴿١٥٢﴾ ﴾

قلت : (كما) متعلق بأتم، أي: ولأتم نعمتي عليكم في شأن القبلة كما أتممتها عليكم بإرسال الرسول. أو بإذكروني، أي: كما ذكرناكم بالإرسال، فاذكروني بالمقال والحال. وقدم هنا التزكية على التعليم، باعتبار القصد؛ لأن القصد من الإرسال والتعليم هو التطهير، وأخره في دعوة إبراهيم باعتبار الفعل، لأن الإرسال والتعليم مقدم على التطهير، وأعاد العامل في قوله: ﴿ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون﴾ إيذاناً بأنه جنس آخر شرفاً له.

يقول الحق جل جلاله: يا عبادى اذكروا برى وإحسانى؛ فقد أتممت عليكم نعمى وآلائى بإسعافكم فى تحويل القبلة، كما أتممتها عليكم بأعظم النعم وأجلها، وهو إرسال من يعلمكم ﴿رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا﴾ الموصلة إلى حضرتنا، ويطهركم من المساوئ والعيوب، ﴿ويعلمكم الكتاب﴾ المشتمل على علم الغيوب ودواء القلوب؛ ويعلمكم ﴿الحكمة﴾ وهى الشريعة المطهرة والسنة النبوية، ﴿ويعلمكم﴾ علوما غيبية لم يكن لكم بها علم ولا معرفة، ﴿فاذكرونى﴾ بالطاعة والإحسان ﴿أذكركم﴾ بالثواب ونعيم الجنان. قال ﷺ: «مَن أطَاعَ الله فقدْ ذكرَ الله، وإنْ قَلّتْ صَلاتُه وصيَامُهُ وتِلاوتُه القرآن. ومَنْ عَصَى الله فقدْ نَسِيَ الله، وإنْ كثُرتْ صَلاتُهُ وصِيَامُهُ وتِلاوتُه».

أو فاذكرونى بالجنَان أذكركم بنعمة الشهود والعيان، أو فاذكرونى بالقلوب أذكركم بكشف الحجب، أو فاذكرونى بالتوحيد والإيمان أذكركم بالدرجات فى الجنان. قال الصِّدِّيق رضي الله عنه: (كفَى بالتوحيدِ عبادةً، وكفَى بالجنةِ ثَوابا). أو فاذكرونى بالشكر أذكركم بالزيادة، أو فاذكرونى على ظهر الأرض أذكركم فى بطنها. قال الأصمعى: (رأيت أعرابيا واقفا يوم عرفة بعرفات، وهو يقول: إلهي عَجّتْ لكَ الأصْواتُ بضُروبِ اللغات يسألونك الحَاجَات، وحاجتِي إليكَ أنْ تَذْكُرني عندَ البلاَءِ إذا نَسِيَني أهلُ الدنيا).

أو: فاذكرونى فى الدنيا أذكركم فى العقبى، أو: فأذكرونى بالطاعات أذكركم بالمعافاة، يعنى يحييه حياة طيبة. أو: فاذكرونى فى الخلاء والملأ أذكركم فى أفضل الملأ، دليله الحديث: «أنا عِندَ ظنِّ عبدي بى فليَظنّ بى

مَا شاء، وأنا معه إذا ذكرني، فمن ذَكَرَنِي في نَفْسِهِ ذَكَرْتُه في نَفْسِي. ومن ذَكَرَنِي في مَلأ ذَكَرْتُه في مَلأ خير من مَلَئِه..» الحديث.

أو: فاذكروني في النعمة والرخاء أذكركم في الشدة والبلاء، أو: فاذكروني بالتسليم والرضا أذكركم بحسن التدبير ولطف القضاء، ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ أو: فاذكروني بالشوق والمحبة أذكركم بالوصال والقربة. أو: فاذكروني بالتوبة أذكركم بغفران الحوبة، أو: فاذكروني بالدعاء أذكركم بالعطاء، أو: فاذكروني بالسؤال أذكركم بالنوال، إلى غير ذلك مما لا ينحصر.

واعلم أن الذكر ثلاثة أنواع: ذكر اللسان فقط وهو ذكر الغافلين(١)، وذكر اللسان والقلب وهو ذكر السائرين، وذكر القلب فقط، وهو ذكر الواصلين، والذكر هو أفضل الأعمال كما تقتضيه الأحاديث النبوية والآيات القرآنية، وهو أقرب الطرق الموصلة إلى الله تعالى، إذا كان بشيخ كامل، واعلم أن الذكر على أنواع كثيرة من تهليل وتكبير وتسبيح وحَمْدَلَةٍ وحَسْبَلَةٍ وحوقلة وصلاة على رسول الله ﷺ، ولكلٍّ خاصيةٌ وثمرة ،وتجتمع في ذكر المفرد، وهو: الله، الله. فإن ثمرته الفناء في الذات، وهي الغاية والمنتهى. انظر ابن جزي.

قال الحق تعالى: واشكروا لي ما أوليتكم من إحساني وبري بأن تنسبوها لي لا لغيري، ولا تجحدوا إحساني فأسلبكم ما خولتكم من إنعامي.

الإشارة: كما أنعم الله على الأمة المحمدية بأن بعث فيهم رسولا منهم يعلمهم الشريعة النبوية، ويطهرهم من شهود الغيرية، ويعلمهم العلوم اللدنية، كذلك منَّ الله تعالى على عباده من هذه الأمة في كل زمان، ببعث شيوخ التربية يطهرون الناس من العيوب، ويدخلونهم حضرة الغيوب، ويطلعونهم على شهود القدرة الأزلية والحكمة الإلهية، ويعلمهم من غرائب العلوم، ويفتح لهم مخازن الفهوم، فيَطَّلعون على السر المصون، ويعلمون ما لم يكونوا يعلمون، فيقول لهم الحق جل جلاله: اذكروني بأرواحكم وأسراركم، أذكركم بالغيبة عن رؤية أشباحكم، اذكروني بالفكرة والنظرة أمتعكم بدوام شهود الحضرة، واشكروا لي آلائي وبري، ولا تكفروا بالركون إلى غيري فإني أسلبكم من مزيد معونتي ونصري.

(١) الغفلة هنا باعتبار عدم موافقة القلب للسان في الذكر.

ولمّا أمر عباده بالشكر أمرهم بمقام الصبر لأنه أخوه في ضده؛ إذ الشكر في النعمة والصبر في البلية، فقال:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾ وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَـٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَـٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾

قلت : (أحياء) و (أموات) خبران عن مبتدأ مضمر، والابتلاء هو الاختبار، حيثما ورد في القرآن، ومعناه في حقه تعالى: أنه يظهر في الوجود ما في علمه لتقوم الحجة على العبد، وليس كاختبار الناس بعضهم بعضاً؛ لأن الله علم ما كان وما يكون، و الصلاة هنا المغفرة والتطهير، و الرحمة: اللطف والإحسان.

يقول الحق جل جلاله: ﴿يا أيها الذين آمنوا استعينوا﴾ على نيل رضواني وبِرّي وإحساني ﴿بالصبر﴾ على مشاق الطاعات وترك المعاصي والهفوات، وبالصلاة التي هي أم العبادات، ومحل المناجاة ومعدن المصافاة، فيها تشرق شوارق الأنوار، وتتسع ميادين الأسرار، وهي معراج أرواح المؤمنين ومناجاة رب العالمين، فإن تجرعتم مرارة الصبر فإن ﴿الله مع الصابرين﴾، وأعظم مواطن الصبر عند مفارقة الأحباب، وذهاب العشائر والأصحاب، فإن كان موتهم في الجهاد فلا ينبغي لأجلهم أسف ولا نكاد؛ لأنهم ﴿أحياء عند ربهم يرزقون﴾، وكذلك من ألحق بهم من ذي هَدْم وغَرَق وحرق ونفاس وطاعون، فلا تقولوا لمن يقتل ﴿في سبيل الله﴾ من هؤلاء: هم ﴿أموات﴾، ﴿بل﴾ هم ﴿أحياء﴾ حياة روحانية لا بشرية، ﴿ولكن لا تشعرون﴾ بحياتهم لأنهم مجرد أرواح، وأنتم قد لبستم طلسم الأشباح، فاختفى عنكم مقام الأرواح، وكذلك أرواح المؤمنين كلهم أحياء.

وإنما خص الشهداء لمزيد بهجة وكرامة. وإجراء رزقهم عليهم دون غيرهم، ففي الحديث: «أَرْوَاحُ الشُّهَدَاءِ في حَوَاصِلِ طَيرٍ خضرٍ تَعْلَقُ مِنْ وَرَقِ الجنة» . أي: تأكل، وفي حديث آخر: «يَخْلُقُ اللهُ الشهداءَ جُسوماً على صُورةِ طيرٍ خُضرٍ، فتكونُ في حَوَاصِلِهَا، فَتَسرحُ بِها في الجنّة، وتأكلُ مِنْ ثمارِها، وتنالُ مِنْ خيراتِها ونَعيمِها ،حتى تُحشَرَ مِنها يومَ القِيامَةِ» .

ولا يدخل الجنة أحد غيرهم إلى ميقاتها إلا الصدّيقون، وهم العارفون، فهم أعظم من الجميع؛ لمزيد تصرف وإدراك وسعة روح وريحان، وتحقق شهود وعيان، فهم في نعيم الجنان كالشهداء، لكن الصديقين غير محصورين في حواصل الطيور، بل لهم هياكل وصور سرحوا بها حيث شاءوا. وكذلك من فوقهم من الأنبياء والرسل، والله تعالى أعلم.

ثم قال الحق جل جلاله: ولنختبركم يا معشر المسلمين ﴿بشيء﴾ قليل ﴿من الخوف﴾ لهيجان العدو وصولة الكفار، ﴿والجوع﴾ لغلاء الأسعار وقلة الثمار، ﴿ونقص من الأموال﴾ بموت الحيوان وتعذر التجارة أو الخسران، ﴿والأنفس﴾ بالموت في الجهاد، ﴿والثمرات﴾ بذهابها بالجوائح.

وعن الشافعي رضي الله عنه (الخوفُ خوفُ الله، والجوعُ صومُ رمضان، والنقصُ من الأموال بالزكوات والصدقات، ومن الأنفُس بالأمراض، ومن الثمرات موتُ الأولاد). وعن النبي ﷺ: «إذا مَاتَ وَلَدُ العبد قال الله للملائكة: أَقَبَضْتُمْ وَلَدَ عبدي؟ فيقولون: نَعَم. فيقولُ الله تعالى: أقبضتم ثمرة قلبه؟ فيقولون: نعم. فيقول اللهُ تعالى: ماذا قال؟ فيقولون: حَمِدَك واسترْجَعَ، فيقول الله تعالى: ابْنُوا لعَبْدي بيتاً في الجنّة وسمُّوه بيْتَ الحمدِ».

﴿وبشر الصابرين﴾ يا من تتأتّى منه البشارة: ﴿الذين إذا أصابتهم مصيبة﴾ في بدن أو أهل أو مال أو صاحب ﴿قالوا إنا لله﴾ ملكاً وعبيداً يحكم فينا بما يريد، ﴿وإنا إليه راجعون﴾ فيجازينا بما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فتغيب مصائب الدنيا في جانبه.

وفي الحديث: «من أصابته مُصيبةٌ فقال: إنّا لله وإنا إليه راجعُون. اللهم أجُرْني في مُصيبَتي واخلُفْ لي خَيْراً منها، إلا أخْلَفَ الله له خيراً مما أصابه» قالت أم سَلَمَة: فلما ماتَ زوجي أبو سَلَمَة قلتَ ذلك، فأبدلني الله برسوله ﷺ.

﴿أولئك﴾ الصابرون الراجعون إلى الله ﴿عليهم صلوات﴾ أي: مغفرة وتطهير ﴿من ربهم ورحمة﴾ أي: عطف ولطف ﴿وأولئك هم المهتدون﴾ لكل خير في الدنيا والآخرة.

الإشارة: يا أيها الذين آمنوا بطريق الخصوص استعينوا على سلوك طريق حضرتنا ومشاهدة أنوار قدسنا بالصبر على ما تكره النفوس؛ من ترك الحظوظ والشهوات، والميل إلى العادات والمألوفات، وبالصلاة الدائمة وهي صلاة القلوب بالعكوف في حضرة الغيوب. ﴿إن الله مع الصابرين﴾ بالمعونة والتأييد، وإشراق أنوار التوحيد، ولا تقولوا لمن ترونه قتل نفسه بالذل والافتقار، وخرق العوائد وخلع العذار: إنه قد مات، بل هو حي لا يموت، قال

الله تعالى: ﴿لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى﴾ فإذا ماتت نفس المريد. واستوى عنده الذل والعز والمدح والذم، والغنى والفقر، والموت والحياة، فقد حييت روحه واتسع عليها فضاء الشهود، وتمتعت بالنظرة إلى الملك المعبود. فلا يزيدها الموت الحسي إلا اتصالاً وتمتعاً وشهوداً، فهي في الترقي أبداً سرمدا، ولكن لا تشعرون بما هم فيه في هذه الدار وفي تلك الدار.

ويقال لهم عند إرادة سلوكهم الطريق إلى عين التحقيق: والله لنبلونكم يا معشر المريدين بشيء من إذاية الخلق وتضييق الرزق، وذهاب الأموال، وضعف الأبدان بالمجاهدة، وتأخير الفتح بظهور ثمرة المشاهدة؛ ليظهر الصادق في الطلب بالثبوت في أحكام العبودية، حتى تشرق عليه أنوار الربوبية، من الكاذب بالرجوع إلى العوائد والشهوات، والركون إلى الرخص والتأويلات، ﴿وبشر الصابرين﴾ الثابتين في الطلب، بالظفر بكل ما أمّلوا، وبالوصول إلى ما إليه رحلوا، الذين إذا أصابتهم نكبة أو وقفة تحققوا بضعف العبودية، وتعلقوا بقوة الربوبية، فرجعوا إلى الله في كل شيء، فآواهم إليه من كل شيء، أولئك عليهم تحنُّن من ربهم وتقريب، وهم المهتدون إلى جوار الحبيب.

قال ابن جزي: (فائدة) وَرَدَ ذكر الصبر في القرآن في أكثر من سبعين موضعا؛ وذلك لعظم موقعه في الدين، قال بعض العلماء: كل الحسنات لها أجر معلوم إلا الصبر، فإنه لا يحصر أجره؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾. وذكر الله للصابرين ثمانيا من الكرامات:

أولها: المحبة، قال: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾، **والثاني: النصر،** قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾، **والثالث: غرفات الجنة،** قال: ﴿يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا﴾، **والرابع: الأجر الجزيل،** قال: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ والأربعة الأخرى المذكورة في هذه الآية، فمنها البشارة قال: ﴿**وبشر الصابرين**﴾، والصلاة والرحمة والهداية قال: ﴿أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾.

والصبر على أربعة أوجه: صبر على البلاء، وهو منع النفس عن التسخط والهلع والجزع، وصبر على النعم، وهو تقييدها بالشكر وعدم الطغيان والتكبر بها، وصبر على الطاعة بالمحافظة والدوام عليها، وصبر على المعاصي بكف النفس عنها. وفوق الصبر التسليم، وهو ترك الاعتراض والتسخط ظاهرا، وترك الكراهية باطنا، وفوق التسليم الرضا بالقضاء، وهو سرور النفس بفعل الله، وهو صادر عن المحبة، وكل ما يفعل المحبوب محبوب. هـ.

ولمّا ذكر الحق تعالى الكعبة، وأمر بالتوجه إليها، ناسب أن يذكر الصفا والمروة؛ لقربهما منها ومشاركتهما لها في أمر الدين. وذلك أن الصحابة تحرجوا أن يطوفوا بهما؛ لأن الصفا كان عليه صنم يقال له إساف، وعلى المروة صنم يقال له نائلة، فخافوا أن يكون الطواف بينهما تعظيما لهما، فرفع الله ذلك فقال:

﴿ ۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾ ﴾

قلت: (الصفا) في أصل الوضع: جمع صفاة، وهي الصخرة الصلبة الملساء، يقال: صفاة وصفا، كحصاة وحصى، وقطاة وقطا، ونواة ونوى. وقيل: مفرد، وتثنيته: صفوان، وجمعه: أصفاء، و (المروة) ما لاَنَ من الحجارة وجمعه مرو ومروات، كتمرة وتمر وتمرات. والمراد هنا جبلان بمكة، و (شعائر الله): أعلام دينه، جمع شعيرة أو شعارة، والشعيرة: كل ما كان معلما لقربان يتقرب به إلى الله تعالى، من دعاء أو صلاة أو أداء فرض أو ذبيحة.

والحج في اللغة: القصد، والعمرة: الزيارة، ثم غلبا شرعاً في العبادتين المخصوصتين.

وقرأ الأخَوَان وخلف: (يطَّوعْ) بلفظ المضارع، مجزوم اللفظ، وهو مناسب لقوله (أن يطوف)، أصله: يتطوع، أدغمت التاء في الطاء لقرب المخرج، والباقون بلفظ الماضي، مجزوم المحل، وهو مناسب لقوله: (فمن حج البيت). و (الجُناح): الإثم، من جنَحَ إذا مال، كأن صاحب الإثم مال عن الحق إلى الباطل، و (خيرا): صفة لمصدر محذوف، أو على إسقاط الخافض.

يقول الحق جل جلاله: ﴿إن﴾ الطواف بين ﴿الصفا والمروة﴾ من معالم دينه ومناسك حجه، ﴿فمن﴾ قصد ﴿البيت﴾ للحج أو العمرة ﴿فلا جناح عليه أن يطوف﴾ بينهما، ولا يضره الصنمان اللذان كانا عليهما في الجاهلية؛ فإن الله محا ذلك بالإسلام، ﴿ومن تطوع﴾ لله بخير من حج أو عمرة أو صلاة أو غير ذلك، ﴿فإن الله﴾ يشكر فعله ويجزل ثوابه. واختلف في حكمه، فقال مالك والشافعي: ركن لا يجبر بالدم، وقال أبو حنيفة: فرض يجبر بالدم، وقال أحمد: سنة، والله تعالى أعلم.

الإشارة: الصفا والمروة إشارة إلى الروح الصافية والنفس اللينة الطيبة، فالاعتناء بتطهيرهما وتصفيتهما من معالم الطريق، وبهما يسلك إلى عين التحقيق، فمن قصد بيت الحضرة لحج الروح بالفناء في الذات، أو عمرة النفس بالفناء في الصفات، فلا جناح عليه أن يطوف بهما؛ ويشرب من كأسهما، حتى يغيب عن حسهما، ومن تطوع خيرا ببذل روحه لله، والغيبة عنها في شهود مولاه، فإن الله يشكر فعله، وينشر فضله ويظهر خيره، ويتولى أمره، والله ذو الفضل العظيم.

ولما ذكر الحق تعالى نسخ القبلة ردّاً على اليهود، والمنكرين للنسخ، رجع إلى معاتبتهم على كتمان الحق، فقال:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾ ﴾

قلت: الضمير في (فيها): يعود على اللعنة أو النار، وإضمارها قبل الذكر تفخيما لشأنها، وتهويلا لأمرها.

يقول الحق جل جلاله في شأن أحبار اليهود حيث كتموا صفة الرسول ﷺ: ﴿إن الذين يكتمون﴾ ما أنزلناه عليهم في كتابهم من صفة محمد ـ عليه الصلاة السلام ـ من الآيات الواضحات في شأنه، وبيان صفته وبلده وشريعته، وما يهدي إلى وجوب اتباعه، والإيمان به، ﴿من بعدما بيناه للناس﴾ في التوراة، ﴿أولئك﴾ الكاتمون ﴿يلعنهم الله﴾ ويطردهم عن ساحة رحمته، ﴿ويلعنهم﴾ الجن والإنس، وكل من يتأتى منه اللعن، كالملائكة وغيرهم. ﴿إلا الذين تابوا﴾ من الكتمان، وكل ما يجب أن يتاب منه، ﴿وأصلحوا﴾ ما أفسدوا من الدين بالتدارك، ﴿وبينوا﴾ ما كتموا ﴿فأولئك أتوب عليهم﴾ وأرحمهم ﴿وأنا التواب الرحيم﴾ أي: المبالغ في قبول التوبة وإفاضة الرحمة، وأما من مات على الكفر ولم يتب فأولئك ﴿عليهم لعنة الله﴾، ومن يُعتَدّ بلعنته من ﴿الملائكة والناس أجمعين﴾ خالدين في اللعنة أو في النار ﴿لايخفف عنهم العذاب﴾ ساعة، ولا هم يمهلون عنه، أو لا ينتظرون للاعتذار أو الفداء.

الإشارة: ما قيل في أحبار اليهود يقال مثله في علماء السوء من هذه الأمة ،الذين ملكتهم جيفة الدنيا، وأسرهم الهوى، الذين يقبضون الرِّشا على الأحكام، فيكتمون المشهور الواضح، ويحكمون بشهوة أنفسهم، فأولئك يلعنهم اللاعنون، وفي ذلك يقول ابن المبارك ـ رحمه الله ـ:

وهل أفسدَ الدينَ إلا الملوكُ		وأحبارُ سُوءٍ ورُهْبَانُهَا
وباعُوا النفوسَ ولم يَرْبَحُوا		ولم تغْلُ في البَيْعِ أثْمَانُهَا
لقدْ رتَعَ القومُ في جيفَةٍ		يبين لِذِي العَقْلِ إنْتَانُها

وكان يحيى بن معاذ الرازي ﷺ يقول لعلماء وقته: (يا معشرَ العلماء، دياركم هامَانيّة، وملابِسُكُم قَارُونية، ومَرَاكِبُكُم فرعونية وولائمكُمْ جالوتية، فأين السنةُ المحمدية؟). إلا من تاب وأصلح ما أفسد، وبيَّن ما كتم، فأولئك يتوب الله عليهم.

تنبيه: العلم باعتبار وجوب إظهاره وكتمه على ثلاثة أقسام:

قسم يجب إظهاره، ومَنْ كَتَمَه دخل في وعيد الآية، وهو علم الشريعة الظاهرة، إذا تعيَّن على المسئول بحيث لم يُوجَد من يُفتي في تلك النازلة.

وقسم يجب كتمه، وهو علم سرِّ الربوبية، أعني التوحيدَ الخاص، فهذا لا يجوز إفشاؤه إلا لأهله، وهو من بذل نَفْسَهَ وَفَلْسَهُ وخَرَقَ عوائد نفسه، فهذا لا يحل كتمه عنه إذا طلبه.

وقسم يُستحب كتمه، وهو أسرار القدَر المُغَيَّبَات، فهذا من باب الكرامات يستحب كتمها ولا يجب، والله تعالى أعلم.

هنا انتهى العتاب لبني إسرائيل والكلام معهم، وابتداؤه من قوله تعالى: ﴿يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم...﴾. وإنما تخلَّل الكلامَ ذكرُ إبراهيم وبنيه توطئةً لنسخ القبلة الذي أنكروه، فذكر بناء الكعبة وبيان شرفها، وانجر الكلام إلى ذكر الصفا والمروة لقرب المناسبة والجوار. فلما فرغ من عتابهم دلهم على التوحيد، وشاركهم في ذلك غيرهم، فقال:

﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ ﴾

قلت: ﴿إلهكم إله واحد﴾ مبتدأ وخبر، وجملة ﴿لا إله إلا هو﴾: تقرير لها وتأكيد، و﴿الرحمن الرحيم﴾: خبران آخران، أو عن مبتدأ مضمر، وأنث ﴿الفلك﴾ لأنه بمعنى السفينة، و﴿من السماء﴾ ابتدائية، و﴿من ماء﴾ بيانية، و﴿بث﴾: عطف على ﴿أنزل﴾ أو ﴿أحيا﴾ لأن الحيوانات تنمو بنزول المطر والخصب، والبث: النشر والتفريق و﴿تصريف الرياح﴾: هبوبها من الجهات المختلفة.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وإلهكم﴾ يا معشر العباد الذي يستحق أن يعبد ﴿إله واحد﴾ لاشريك له، ولا نظير، ولا ضد له ولاند، ﴿لا إله إلا هو﴾، إذ لا يستحق العبادة غيره، إذ هو ﴿الرحمن﴾ بنعمة الإيجاد ﴿الرحيم﴾ بنعمة الإمداد، فكل ما سواه مُكوَّنٌ مخلوق، إما مُنْعَم عليه أو نعمة، فلم يستحق العبادة غيره.

ثم برهن على وجوده، وثبوت وحدانيته بثمانية أمور، فقال: ﴿**إن في خلق السموات**﴾ طباقا متفاصلة مرفوعة بغير عمد، وما اشتملت عليه من الكواكب والبروج والمنازل، وفي ﴿**الأرض**﴾ وما اشتملت عليه من الجبال والبحار والأنهار والأشجار وأنواع الثمار، وفي ﴿**اختلاف الليل والنهار**﴾ بالطول والقصَر، أو تعاقبهما بالذهاب والمجيء، (و) في ﴿**الفلك التي تجري في البحر**﴾ بقدرته مع إمكان رسوبها إلى الأسفل، متلبسة ﴿**بما ينفع الناس**﴾ من التجارة وغيرها. وقال البيضاوي: القصد الاستدلال بالبحر وأحواله، وتخصيص الفلك بالذكر لأنه سبب الخوض فيه والاطلاع على عجائبه؛ ولذلك قدَّمه على ذكر المطر والسحاب، لأن منشأهما منه في الغالب. هـ.

(و) في ﴿**ما أنزل الله من السماء من ماء**﴾ من غير ظهور مادة سابقة، بل تُبرزه القدرة من عالم الغيب قريب عهد بالله، ولذلك (كان عليه الصلاة والسلام يتمطَّر) أي: ينْصَبُّ وجهه للمطر إذا نزل تبركا به، ﴿**فأحيا**﴾ الحق تعالى بذلك المطر ﴿**الأرض بعد موتها**﴾ ويُبْسها، بالنبات والأزهار وأصناف النَّوار والثمار، وفيما نشر ﴿**فيها من كل دابة**﴾ من النملة إلى الفيلة، (و) في ﴿**تصريف الرياح**﴾ وهبوبها من جهات مختلفة، وهي الجهات الأربع وما بينها بصفات مختلفة، مُلَقِّحَةٍ للشجر وعقيم وصِر[1]، وللنصر والهلاك، (و) في ﴿**السحاب المسخر**﴾ أي: المذلَّل ﴿**بين السماء والأرض**﴾ لا يسقط ولا يرتفع، مع أن الطبع يقتضي أحدهما، أو مسخر للرياح تُقلِّبه في جو السماء بمشيئة الله ﴿**لآيات لقوم يعقلون**﴾. أي: تلك المخلوقات آيات دالة على وحدانيته تعالى وباهرِ قدرته، و ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾.

وفي الآية حَضٌ على التفكر، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام: «ويلٌ لِمَنْ قَرأَ هَذهِ الآيةِ فَمَجَّ بِها»[2]. أي: لم يتفكر فيها، وفيها دلالة على شرف علم التوحيد العام والخاص. والله تعالى أعلم.

الإشارة: قال الجنيد: (التوحيد معنى تضمَحِل فيه الرسوم وتندرج فيه العلوم، ويكونُ الله كما لم يزل). قلت: وهذا هو التوحيد الخاص، أعني توحيد أهل الشهود والعيان. ثم قال: (وأصولُه خمسة أشياء: رفعُ الحدَث، وإثبات

---

(١) ريح صر وصرصر: شديدة البرد.

(٢) لم يرد هذا الحديث في شأن هذه الآية، وإنما ورد في شأن قوله تعالى: (إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب) الآية ١٩٠ من سورة آل عمران. وأخرجه ابن حبان في صحيحه (الإحسان: كتاب الرقاق: باب التوبه ٢/ ١٠) مطولاً عن السيدة عائشة رضي الله عنها.

القدم، وهُجْران الإخْوان، ومفارقةُ الأوطان، ونسيان ما علِم وجَهِل) . هـ. قلت: قوله: (وهجران الإخوان)، يعنى: غيرَ مَنْ يستعين بهم على السير، وأما من يستعين بهم فلا يستغنى عنهم.

واعلم أن توحيد الخلق لله تعالى على ثلاث درجات:

الأُولى: توحيد العامة: وهو الذى يعصِمُ النفس والمال، وينجو به من الخلود فى النار، وهو نَفْيُ الشركاء والأنداد، والصاحبةِ والأولاد، والأشباه والأضداد.

الثانية : توحيد الخاصة: وهو أنْ يَرى الأفعال كلها صادرة من الله وحده، ويشاهد ذلك بطريق الكشف لا بطريق الاستدلال، فإنّ ذلك حاصل لكل مؤمن، وإنما مَقامُ الخاصة يقينٌ فى القلب بعلم ضرورى لا يحتاج إلى دليل، وثمرة هذا العلم الانقطاعُ إلى الله، والتوكل عليه وحده، فلا يرجو إلا الله، ولا يخاف أحدا سواه، إذ ليس يَرى فاعلا إلا الله، فيَطْرَحُ الأسباب، وينبذ الأرباب.

الدرجة الثالثة : ألا يرى فى الوجود إلا الله، ولا يشهد معه سواه، فيغيبَ عن النظر إلى الأكوان فى شهود المُكَوِّن، وهذا مقام الفناء، فإن رُدَّ إلى شهود الأثر بالله سُمى مقام البقاء. هـ. قال بعضَه ابنُ جُزَيّ باختصار.

قلت : وفى التحقيق أنهما مقامان؛ مقام أهل الدليل والبرهان، وهو المذكور فى الآية، لأنه هو الذى يطيقه جميع العباد، ومقام أهل الشهود والعيان، وهو خاص بالأفراد الذين بذلوا مهجهم فى طلب الله، باعوا أنفسهم وأموالهم فى سبيل الله، فعوضهم الله فى الدنيا جنة المعارف، وزادهم فى الآخرة جنة الزخارف.

(أهل الدليل والبرهان عمومٌ عند أهل الشهود والعيان)؛ لأن أهل الشهود والعيان قدسوا الحق تعالى عن أن يحتاج إلى دليل، فكيف يعرف بالمعارف من به عرفت المعارف؟ كيف يستدل عليه بما هو فى وجوده مفتقر إليه؟ أيكون لغيره من الظهور ما ليس له؟. متى غاب حتى يحتاج إلى دليل عليه؟ ومتى بَعُد حتى تكون الآثار هى التى توصل إليه؟. ولله در القائل:

لقد ظهرتَ فما تَخْفَى على أحدٍ إلا على أكْمَهٍ لا يُبْصِرُ القمرا
لكنْ بطَنْتَ بما أظْهَرْتَ مُحْتَجِبا وكيفَ يُبْصَرُ مَن بالعزة استترا؟

وقال آخر(١):

ما لِلحِجَابِ مَكَانٌ فى وجُودِكُمُ ... إلا بِسِرِّ حُروفِ (انظُرْ إلـى الجَبَلَ)

أنتُــم دلَلْتُمْ عليكُم مِنكُمُ ولكُمْ ... دَيمُومَةٌ عبَّرتْ عَنْ غَامِضِ الأزَلِ

عرَّفْتُم بـكُمُ هــذا الخَبِيرَ بِكُم ... أنتُمْ هُمُ يا حيـاةَ القَلْـبِ يا أمَـلِى

ولما كانت المحبة تزيد وتنقص باعتبار شهود الوحدانية، فكلما قَوِىَ التوحيدُ فى القلب قويت المحبة؛ لانحصارها فى واحد، ذكرها بأثر التوحيد، فقال:

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ... ﴾

قلت: ويُحتمل فى وجه المناسبة، أن يكون الحق تعالى لمَّا ذكر دلائل التوحيد ذكَر من أعرض بعد وضوحها فأشرك معه، ليرتب بعد ذلك ما أعدَّ له من العذاب، و**الأنداد:** جمع نِدّ وهو المِثْل، والمراد هنا الأصنام أو الرؤساء، والإضافة فى ﴿كحُب الله﴾ من إضافة المصدر إلى مفعوله، والحُب: مَيل القلب إلى المحبوب، وسيأتى فى الإشارة، إن شاء الله.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ومن الناس من يتخذ من دون الله﴾ أشباها وأمثالا من الأصنام والرؤساء ﴿يحبونهم﴾، وينقادون إليهم، كما يحبون الله تعالى، فيُسَوُّون فى المحبة بين الله تعالى العلى الكبير، وبين المصنوع الذليل الحقير، ﴿والذين آمنوا﴾ بالله ووحَّدوه ﴿أشد حبا لله﴾؛ لأن المؤمنين لا يلتفتون عن محبوبهم فى الشدة ولا فى الرخاء، بخلاف الكفار فإنهم يعبدونهم فى وقت الرخاء، فإذا نزل البلاء التجئُوا إلى الله. قال تعالى: ﴿ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون﴾ الآية، وأيضا: المؤمنون يعبدون الله بلا واسطة، والكفار يعبدونه بواسطة أصنامهم ﴿ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زُلْفى﴾ وأيضا المؤمنون يعبدون رباً واحداً فاتحدت محبتهم.

قال سعيد بن جبير: (إن الله تعالى يأمر يوم القيامة مَنْ عبد الأصنام أن يدخلوا النار مع أصنامهم، فيمتنعون لعلمهم بالخلود فيها، ثم يقول للمؤمنين بين يدى الكفار: إن كنتم أحبائى فادخلوا، فيقتحم المؤمنون النار، وينادى مُنَادٍ مِنْ تحت العرش: ﴿والذين آمنوا أشد حبا لله﴾). وفى ذلك يقول ابن الفارض:

---

(١) وهو الششترى.

أحبابي أنتم، أحسن الدهر أم أسا   فكونوا كما شئتم، أنا ذلك الخلّ

وقال أيضا:

لو قال تيها: قف على جمر الغضا(١)،   لوقفتُ ممتثلاً ولم أتوقف

وقال آخر:

ولو عذّبتني في النار حتما   دخلت مطاوعا وسط الجحيم

إذا كان الجحيم رضاك عنّي   فما ذاك الجحيم سوى نعيم

الإشارة: المحبة: ميل دائم بقلب هائم، أو مراقبة الحبيب في المشهد والمغيب، أو مواطأة القلب لمراد الرب، أو خوف ترك الخدمة مع إقامة الحرمة، أو استقلال الكثير من نفسك واستكثار القليل من حبيبك، أو معانقة الطاعة ومباينة المخالفة، وقال الشبلي: (أن تغار على المحبوب أن يحبه مثلك) والمحب على الحقيقة من لا سلطان على قلبه لغير محبوبه، ولا مشيئة له غير مشيئته ، وقال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه : (المحبة أخذة من الله لقلب عبده المؤمن عن كل شيء سواه، فترى النفس مائلة لطاعته، والعقل متحصنا بمعروفه، والروح مأخوذة في حضرته، والسر مغمورا في مشاهدته، والعبد يستزيد من محبته فيزداد، ويفاتح بما هو أعذب من لذيذ مناجاته، فيكسى حلل التقريب على بساط القربة، ويمسّ أبكار الحقائق وثيبات العلوم، فمن أجل ذلك قالوا: أولياء الله عرائس، ولا يرى العرائس المجرمون...) إلخ كلامه.

واعلم أن محبة العبد لمولاه سببها شيئان:

أحدهما: نظر العبد لإحسان الله إليه وضروب امتنانه عليه، وجبلت القلوب على حب من أحسن إليها، وهذا هو المسمى بحب الهوى، وهو مكتسب، لأن الإنسان مغمور بإحسانات الله إليه، ومتمكن من النظر فيها، فكلما طالع منة من منن الله التي لا تقبل الحصر ولا العد، كان ذلك كحبة زرعت في أرض قلبه الطيب الزكي، فلا يزال يطالع منة بعد منة، وكلّ منة أعظم من التي قبلها، لأنه كلما طالع المنن تنور قلبه وازداد إيمانا، وكشف من دقائق المنن مالم يكن يكشف له قبل، وظهر له خفايا المنن، وعظمت محبته.

(١) الغضى : شجر خشبه من أصلب الخشب، وجمره يبقى زمانا طويلاً لا ينطفيء.

الثانى: كشف الحجب، وإزالة الموانع عن ناظر القلب، حتى يرى جمال الحق وكماله، والجمال محبوب بالطبع، وهذان هما اللذان قصدت رابعة العدوية - رضى الله عنها -:

أُحِبُّكَ حُبَّيْن: حُبَّ الهَوَى ... وحُبّاً لأنك أهلٌ لِذَاكَ

فأمّا الذى هو حُبُّ الهوى ... فَشُغْلى بِذِكْرِك عمّن سِوَاكَ

وأمّا الذى أنتَ أهلٌ له ... فكَشْفُكَ لِلْحُجْبِ حتى أراكَ

فَلا الحمْدُ فى ذَا ولا ذَاكَ لى ... ولَكِنْ لكَ الحَمْدُ فى ذَا وذَاكَ

وإنما خَصَّصَتْ الحُبَّ الناشئ عن شهود الجمال بالأهلية دون الأول، وإن كان أهلا للجميع؛ لأن هذا منه إليه، لا كسب للعبد فيه، والآخر فيه كسب، وعمل العبد معلول، وقولها: (فشغلى بذكرك عمن سواك) من باب التعبير بالمسبب عن السبب، والأصل: فثمرته شغلى بذكرك عمن سواك، فهو مسبب عن المحبة لأنفسنا، وقولها أيضا (كشفك للحجب حتى أراك)، من باب التعبير بالسبب عن المسبب، والأصل، فبسببه كشفك للحجب حتى رأيتك بعينَىْ قلبى. وقولها: (فلا الحمد...) إلخ، إخبار منها بأن الحُبَّيْن معاً منه وإليه وبه فى الحقيقة، لا كسب لها فى واحد منهما باعتبار الحقيقة، بل هو الحامد والمحمود، وإدراك التفاوت بين المقامين - أعنى بين المحبة الناشئة عن شهود الإحسان، والناشئة عن شهود الجمال - ضرورى عند كل ذائق، وأن الثانية أقوى. قاله فى شرح الشريشية(١).

قال ابن جُزَى: اعلم أن محبة العبد لربه على درجتين؛ **أحدهما**: المحبة العامة، التى لا يخلو منها كل مؤمن، وهى واجبة، **والأخرى**: المحبة الخاصة التى ينفرد بها العلماء الربّانيون والأولياء والأصفياء، وهى أعلى المقامات، وغاية المطلوبات، فإنّ سائر مقامات الصالحين: كالخوف والرجاء والتوكل، وغير ذلك، مَبْنِيّةٌ على حظوظ النفس، ألا ترى أن الخائف إنما يخاف على نفسه، والراجى إنما يرجو منفعة نفسه، بخلاف المحبة، فإنها من أجل المحبوب فليست من المعاوضة.

واعلم أن سببَ محبة الله: معرفتُه، فتقوى المحبة على قدر المعرفة، وتضعف على قدر ضعف المعرفة، فإن الموجب للمحبة أحد أمرين أو كلاهما إذا اجتمعا، ولاشك أنهما اجتمعا فى حق الله تعالى على غاية الكمال؛

(١) الشريشية للشيخ أحمد بن محمد البكرى الشريشى، وشارحها أحمد بن يوسف الفاسى.

فالموجب الأول: الحسن والجمال، والآخر الإحسان والإجمال، فأما الجمال فهو محبوب بالطبع، فإن الإنسان بالضرورة يحب كل ما يُستحسن، ولا جمالَ مثلُ جمال الله تعالى، في حكمته البالغة وصنائعه البديعة، وصفاته الجميلة الساطعة الأنوار، التي تَرُوق العقول وتبهج القلوب، وإنما يُدْرَك جمالُه تعالى بالبصائر لا بالأبصار.

وأما الإحسان فقد جبلت القلوب على حب من أحسن إليها، وإحسان الله إلى عباده متواتر، وإنعامُه عليهم باطن وظاهر، ﴿ وإن تعدُّوا نعمةَ الله لا تحصوها ﴾، ويكفيك أنه يُحسن إلى المطيع والعاصي، وإلى المؤمن والكافر، وكل إحسان ينسب إلى غيره فهو في الحقيقة منه وحدَه، فهو المستحق للمحبة وحده.

واعلم أن محبة الله إذا تمكنت من القلب ظهرت آثارها على الجوارح، من الجد في طاعته، والنَّشَط لخدمته، والحرص على مرضاته والتلذذ بمناجاته، والرضا بقضائه، والشوق إلى لقائه، والأُنْس بذكره، والاستيحَاش مِنْ غيره، والفرار من الناس، والانفراد في الخلوات، وخروج الدنيا من القلب، ومحبة كل ما يحب الله، وكل من يحب الله، وإيثار الله على كل ما سواه.

قال الحارث المحاسبي: (المحبة ميلك إلى المحبوب بِكُلِّيتك، ثم إيثارك له على نفسك ورُوحك، ثم موافقته سراً وجهرا، ثم علمك بتقصيرك في حبه).

قلت: ظاهره أن المحبة أعلى من المعرفة، والتحقيق أن المعرفة أعلى من جميع المقامات؛ لأنها لا تبقى معها بقية من الحجاب أصلا، بخلاف المحبة، فإنها تكون مع بقية الحجاب، ألا ترى أن المحب يستوحش من الخلق، والعارف لا يستوحش من شيء لمعرفته في كل شيء.

قال في الحِكَم: « إنما استوحَش العُبَّاد والزهاد من كل شيء لغيبتهم عن الله في كل شيء، ولو عرفوا الله في كل شيء ما استوحشوا من شيء ». وأيضاً: العارف أكملُ أدبا من المحب؛ لأن المعرفة إنما تحصُل بعد كمال التهذيب والتدريب، وقد تحصل المحبة قبل كمال التهذيب، مع أن المعرفة هي غاية المحبة ونهايتها، والله تعالى أعلم.

ثم ذكر الحق وعيدَ مَنْ أشرك مع الله في عبادته أو محبته، بعد وضوح برهان وحدانيته، فقال:

﴿ ... وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾
إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ
ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ
عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾ ﴾

قلت: ﴿لو﴾ شرطية، و ﴿ترى﴾ شرطها، قرأ نافع وابن عامر ويعقوب بالخطاب للنبى ﷺ أو لكل سامع، والباقون بالغيب وإسناده إلى الظالم، لأنه المقصود بالوعيد والتهديد، و﴿إذ﴾ ظرف للرؤية، وموضع ﴿يرون﴾ خفض بالإضافة، قرأ ابن عامر بضم الياء، على البناء للمفعول، والفاعلُ الحقيقى هو الله تعالى، بدليل ﴿يريهم الله﴾، والباقون بالفتح على البناء للفاعل، على حد: ﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ﴾. و ﴿أن القوة﴾ معمول للجواب المحذوف، تعظيما لشأنه، والتقدير: لو ترى يا محمد، أو يا مَنْ يسمَع، الذين ظلموا حين يرون العذاب، أو يريهم الله العذاب، لرأيت أمراً فظيعاً وخَطْباً جسيما، ولعلمت أن القوة لله جميعا.

و ﴿جميعا﴾ حال، أى: أن القوة ثابتة فى حال اجتماعها، وقرأ أبوجعفر ويعقوب (إنّ) بالكسر فى الموضعين على الاستئناف، و (إذ تبرأ) بدل من (إذ يرون)، والأسباب: العهود والوُصَل التى كانت بينهم فى الدنيا يتوادُّون عليها، وأصل السبب: كل شيء يتوصل به إلى شيء، ومنه قيل للحبل الذى يُصعد به: سبب، وللطريق: سبب، قال الشاعر(١):

ومَنْ هَابَ أَسْـبابَ المَنيّــةِ يلْقَهـا ... ولَوْرَام أسْبَابَ السَّـماء بسُـلَّم

و(حسَرات): حال، إن كانت بصرية، على مذهب أهل السنة، أو مفعول ثالث إن كانت علمية على مذهب المعتزلة القائلين بعدم تشخص الأعمال.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ولو ترى﴾ يا محمد، أو كل من يتأتى منه الرؤية، حالَ ﴿الذين ظلموا﴾ باتخاذهم الأنداد والأوثان، بعد وضوح الأدلة وسُطوع البرهان، حيث ﴿يرون العذاب﴾ محيطا بهم، والزبانيةُ تَغْلِبهم، والنار تلتقطهم، لرأيت أمرا فظيعا، وخطبا جسيما، ولعلمت ﴿أن القوة لله جميعا﴾، أو لو يرى الذين ظلموا العذاب الذى أُعِد لهم بسبب شركهم، لرأوا أمرا عظيما، ولتيقنوا ﴿أن القوة لله جميعا وأن الله شديد العذاب﴾.

وذلك حين يتبرأ المتبوعون - وهم الرؤساء - من الأتباع - وهم القلة الضعفاء - والحالة أنهم ﴿رأوا العذاب﴾ الفظيع، ﴿وتقطعت بهم الأسباب﴾ أى: أسباب المودة والوُصْلات التى كانت بينهم فى الدنيا، وصارت مودتهم عداوة، ﴿وقال﴾ حينئذ الضعفاء ﴿الذين اتبعوا﴾ شياطينهم فى الكفر والضلال: ﴿لو أن لنا كرّة﴾ أى: رجعة للدنيا ﴿فنتبرأ منهم﴾ أى: من كبرائهم ﴿كما تبرءوا منا﴾ اليوم. ﴿كذلك﴾ أى: مثل ذلك الإبراء الفظيع ﴿يريهم الله أعمالهم حسرات﴾ وندَامات ﴿عليهم﴾ فيدخلون النار على سبيل الخلود، ﴿وما هم بخارجين من النار﴾.

(١) وهو زهير بن أبى سلمى.

الإشارة: يا من أقبل على مولاه، وجعل محبة سيده بُغيته ومُناه، فلم يُشرك في محبة حبيبه سواه، لو رأيت من ظلم نفسه باتباع هواه، وأشرك مع الله في محبته سواه، باتباع حظوظ دنياه، وذلك حين يرون ما هم فيه من الانحطاط والبعاد، وما أعد الله لأهل المحبة والوداد من الفوز بالقرب من الحبيب، ومشاهدة جمال القريب، لرأيت أمرًا عظيمًا وخطبًا جسيمًا، ولعلمت أن القوة كلها لله، قَرَّبَ مَنْ شاء بفضله ورحمته، وأبعدَ من شاء بعدله وحكمته، وذلك حين يتبرأ الأكابر في الجرم من الأصاغر، ويقع التفريق بين الأصحاب والعشائر، إلا من اجتمعوا على محبة الحبيب، وتعاونوا على طاعة القريب المجيب، ﴿الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ﴾. لا تصحب من لا يُنْهِضُك حالُه، ولا يدلك على الله مقاله. فكل من صحب أهل الغفلة أو رَكَنَ إلى أهل الدنيا فلابد أن يرى ذلك حسرات يوم القيامة، يوم لا ينفع الندم وقد زلّ القدم. ولله درُّ صاحب العينيّة رضي الله عنه حيث يقول:

وقَاطِعْ لِمَنْ واصلْتَ أيامَ غَفْلَةٍ ... فمَا واصِلُ العذَّالِ إلا مُقَاطِعُ
وجَانِبْ جنابَ الأجنبي لَوَ انَّهُ ... لقُربِ انتسابٍ في المَنَامِ مُضَاجِعُ
فَلِلنفْسِ مِنْ جُلاَّسِهَا كُلُّ نسبةٍ ... ومِنْ خُلَّةٍ للقلبِ تلكَ الطَّبَائعُ

ولما حذَّر الحق تعالى من الشرك الجلي والخفي، حذَّر من متابعة المشركين في التحريم والتحليل بلا حكم شرعي فقال:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾ ﴾

قلت: ﴿حلالاً﴾ حال، أو مفعول به، و﴿طيبًا﴾ نعت له، و﴿الخُطُوات﴾ جمع خطوة، وهي بالفتح ـ مصدر خطَا يَخْطُو، وبالضم ـ اسم لمسافة ما بين القدمين، ويُكسّر على خطاً، ويُصَحّح على خطوات، مثلث الطاء، أعني: الضم على الإتباع، كغرفات وقربات، قال ابن مالك:

والسَّالمَ العَيْنِ الثُّلاثي اسمًا أَنِلْ ... إتْبَاعَ عَيْنٍ فَاءَهُ بما شُكِلْ

والسكون على الأصل في المفرد، والفتح تخفيفًا، قال في الألفية:

وسَكِّنِ التَّالِيَ غيرَ الفتحِ أوْ ... خفِّفْهُ بالفَتْحِ فكلاً قدْ رَوَوْا

وقرئ في المتواتر بالضم والإسكان، وفي الشاذ بالفتح.

قال الخليل: (خطوات الشيطان: آثاره وطرقه، يقول : لا تقتدوا به). هـ. وأصل السوء: كل ما يَسُوء صاحبه ويُحزنه. والفحشاء: ما قبحُ من القول والفعل، مصدر فحش كالبأساء والضراء واللأْواء.

قال ابن عباس: (الفحشاءُ: ما فيه حد، والسوء: ما لا حَدَّ فيه)، وقال مقاتل: (كل ما فى القرآن من ذكر الفحشاء فإنه الزنا، إلا قوله: ﴿ الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء ﴾ فإنه البخل). قال البيضاوى: السوء والفحشاء: ما أنكره العقل واستقبحه الشرع، والعطف لاختلاف الوصفين، فإنه سوءٌ لاغتمام العاقل به، وفحشاء باستقباحه إياه، وقيل: السوء يعُم القبائح، والفحشاء ما تجاوَز الحدَّ فى القبح. هـ.

يقول الحق جل جلاله: ﴿يا أيها الناس كلوا﴾ من جميع ما خلقنا لكم فى الأرض من نباتها مما يُستطاب أكله، وحيواناتها إلا ما حرمناه عليكم، حالة كون ذلك ﴿حلالا﴾ قد انحلَّت عنه التبِعات، وزالت عنه الشبهات، ﴿طيبا﴾ مُستَلَذا يستلذهُ الطبع، ويستحسنه الشرع، ﴿ولا تتبعوا﴾ طرق ﴿الشيطان﴾ فتُحرِّموا برأيكم ما أحل الله لكم، كالبَحيرة والسائبة والوَصيلة والحام، وبعض الحرث الذى جعلتموه للأصنام، فإن ذلك من تزيين الشيطان، وهو ﴿لكم عدو مبين﴾. ومن شأن العدو الخِداع والغرور، فإنما يأمركم بما يَسُوء وجوهَكم من الذنوب، وما يُرديكم من قبائح المعاصى والعيوب، ﴿وأن تقولوا على الله﴾ ما لا علم لكم به من تحليل الحرام، أو تحريم الحلال، أو ادعاء الولد أو الصاحبة في جانب الكبير المتعال.

الإشارة : اعلم أن الحق تعالى جعل للبشرية قُوتا ونعيما تتنعم به، وجعل للروح قوتا ونعيما تتلذذ به، فقُوت البشرية الطعام والشراب، ونعيمُها: الملابس والمَناكح والمَراكب. وقوت الروح: اليقين والعلوم والأنوار، ونعيمها: الشهود والاستبصار، والترقي في المعارف والأسرار، فكما أن النفس تأكل مما فى الأرض حلالا طيبا، كذلك الروح تأكل مما فى الأرض حلالا طيبا، إلا أن أكل النفس حِسي، وأكل الروح معنوى، وهو التفكر والاعتبار، أو الشهود والاستبصار، وفي ذلك يقول المجذوب رضي الله عنه:

الخَلْــــــقُ نَـوّارٌ ... وأنــــا رَعَيْتُ فيهمْ
هُمُ الحـجابُ الأكبرُ ... والمَــدخَلُ فيــهـم

وقال الششترى رضي الله عنه:

عَينُ الـزِّحــامِ هُوَ ... المَـسيرُ لِحَيِّـنَـا

وكان شيخ شيوخنا سيدي على رضي الله عنه يقول: (من أراد أن يذوق فليذهب إلى السوق). وذلك لأنه مظنة الزحام، وفيه عند الأقوياء الربح التام، فيقال لهم: يا أيها الناس الكاملون في الإنسانية؛ كلوا مما في الأرض بأرواحكم وأسراركم، شهودا واعتبارا، حلالا طيبا، ولا تتبعوا خطوات الشيطان، فتقفوا مع ظواهر الأكوان، فتُحجبوا عن الشهود والعيان، فإنه لكم في صورة العدو المبين، لكنه في الحقيقة يحوشكم إلى الرسوخ والتمكين، لأنه كلما حرككم بنزغه فزعتم إلى ربكم في دفعه، حتى يمكنكم من حضرته، فإنما يأمركم بما يسوء وجوهكم ويغُم قلوبكم، من مفارقة شهود الأحباب، والوقوف مِنْ وراء الباب، وأن تقولوا على الله ما ليس بحق ولا صواب، كثبوت السِّوى، أو الالتفات إلى الهوى. والله تعالى أعلم.

ثم أعلمنا الحق تعالى أن بعض من سبق عليه الشقاء لايخرج عن هواه، ولا يجيب مَنْ دعاه، فقال:

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ ﴾

قلت: الضمير في (لهم) يعود على (من يتخذ من دون الله أندادا)، أو على (الناس)، من قوله: (يا أيها الناس)، أو على (اليهود) المتقدمين قبلُ، وألفى: بمعنى وجد، يتعدى إلى مفعولين، وهما هنا: (آباءنا) والجار والمجرور، أي: نتبع في الدين ما وجدنا آباءنا كائنين عليه.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وإذا قيل﴾ لهؤلاء المشركين من كفار العرب: ﴿اتبعوا ما أنزل الله﴾ على رسوله من التوحيد، وترك الأنداد له والأمثال، وتحريم الحرام وتحليل الحلال، ﴿قالوا بل نتبع﴾ ما وجدنا ﴿عليه آباءنا﴾ من عبادة الأصنام، وارتكاب المعاصي والآثام، قال الحق جل جلاله: أيتبعونهم تقليدا وعَمى، ولو كان آباؤهم جهلة ﴿لا يعقلون شيئا﴾ من الدين، ولا يتفكرون في سبيل المهتدين؟! وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: دعا النبي ﷺ اليهودَ إلى الإسلام، ورغبهم فيه، فقال له رافع بن خارجة ومالك بن عوف: بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا، فهم كانوا خيرا وأعلم منا، فأنزل الله تعالى هذه الآية. هـ.

الإشارة: وإذا قيل لمن أكَبَّ على دنياه، واتخذ إلهه هواه، فأشرك في محبة الله سواه: أقلعْ عن حظوظك وهواك، وأفرد الوجهة إلى مولاك، واتبع ما أنزل الله من وجوب مخالفة الهوى ومحبة المولى، قال: بل أتبع ما وجدتُ عليه الآباء والأجداد، وأكبَّ عليه جلُّ العباد، فيقال له: أتتبعهم في متابعة الهوى، ولو كانوا لا يعقلون شيئا

من طرق الهدى؟ وقد قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «لا يُؤمِنُ أحَدُكُم حتى يَكُونَ هَوَاه تَبَعاً لِمَا جِئتُ به» . هـ.

ثم ضرب الحق مثلا لمن تبع هواه، فأصمَّه وأعماه، فقال:

﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾ ﴾

قلت: (ومثل) إلخ، يحتمل أن يكون على حذف مضاف، أي: مثَلُ واعظِ الذين كفروا، أو لا يحتاج إلى تقدير. وسيأتي بيانه، ونَعَق، كضرب، ينعق نعقا ونعيقا، إذا صاح وزجر.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ومثل﴾ واعظ ﴿الذين كفروا﴾ وداعيهم إلى الله ﴿كمثل﴾ الراعي الذي يرعَى البهائم، وينعق عليها؛ ليزجرها، أو يدعوها فإذا سمعت النداء رفعت رءوسها ولم تعقِله، ثم عادت إلى مراعيها، فلا تسمع من الراعي يزجرها ﴿إلاَّ دعاء ونداء﴾، ولا تفقه ما يقول لها ،كذلك الكفار المنهمكون في الكفر، إذا دعاهم أحد إلى التوحيد لا يلتفتون إليه، ولا يفقهون ما يقول لهم، كالبهائم أو أضل.

أو ﴿مثل الذين كفروا﴾ في انهماكهم في التقليد والجهل، مع مَنْ يدعوهم إلى الله ﴿كمثل﴾ بهائم الذي ينعق ويصيح عليها صاحبها فلا تسمع ﴿إلاَّ دعاء ونداء﴾ ولا تفقه ما يقول لها، أو ﴿مثل الذين كفروا﴾ في دعائهم الأصنام التي لا تسمع ولا تعقل، كمثل الناعق بغنمه، فلا ينتفع من نعيقه بشيىء، غير أنه في عناء وتعب من دعائه وندائه، ثم وصفهم بالصمم والبكم والعمى مجازا ، أي: هم ﴿صُم﴾ عن سماع الحق فلا يعقلونه، ﴿بُكْم﴾ عن النطق به، ﴿عُمْي﴾ عن النظر إلى أسبابه، أو عن الهدى فلا يبصرونه، ﴿فهم لا يعقلون﴾ شيئا ولا يتدبرون.

الإشارة: إذا تمكن الهوى من القلوب عَزَّ دواؤه وشق علاجه، وعظم على الأطباء عناؤه، فالمنهمكون في الغفلة لا ينفع فيهم التذكير، ولا ينجح فيهم التخويف والتحذير، فالواعظ لهم كالناعق بالبهائم التي لا تسمع إلا دعاء ونداء، قد أعماهم الهوى، وأصمهم عن سماع أسباب الهدى.

(إنَّ الهَوَى مَا تَوَلَّى يُصْمِ أو يَصِمِ)(١)

(١) قوله: (يصم)، أي: يقتل، من أصميت الصيد، إذا رميته فقتلته وأنت تراه، وقوله: (أو يصم) أي: يعيب، من الوصم، وهو العيب، يقال: ما في فلان وصمة، أي: عيب. قلت: وهذا شطر بيت، أوله: (فاصرف هواها وحاذر أن توليه) والبيت من القصيدة المعروفة بالبردة للبوصيري

فلا يُقلع الهوى من قلوبهم إلا بسابق العناية، أو هبوب ريح الهداية، فتثير في قلوبهم خوفا مُزْعِجا، أو شوقا مُقْلِقا، أو نُورا خارقا ﴿ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾.

ولما فرغ من تذكير الكفار وتخويفهم ذكَّر المؤمنين، فقال:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (١٧٢) إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٧٣) ﴾

قلت: أصل اضطُرَّ: اضتُرِرَ، على وزن افتعل، من الضرر، أبدلت التاء طاءً لقرب مخرج التاء من الطاء، قال في الألفية: طا تا افتعال رُدَّ إثْرَ مُطْبَقِ

ثم أدغمت الراء في الراء بعد ذهاب حركتها، وقرأ أبو جعفر: بكسر الطاء حيث وقع. ووجهُه: نقل حركة الراء إلى الطاء، وأصل البغي: قصد الفساد، يقال: بغي الجرح بغيا، إذا ترامي إلى الفساد، ومنه قيل للزنا: بِغاء، وللزانية: بَغِيّ، وأصل العدوان: الظلم ومجاوزة الحد، يقال: عدَا يعدو عدْوانا وعدْوا.

يقول الحق جل جلاله: ﴿يا أيها الذين آمنوا كلوا﴾ من لذيذ ﴿طيبات ما رزقناكم﴾ وقِفُوا عند ما حلَّ لكم ولا تحرموا برأيكم ما أحللنا لكم، كما فعل مَنْ سلَفَ قبلكم، ﴿واشكروا﴾ نعمة الله عليكم الظاهرة والباطنة ﴿إن كنتم﴾ تخصُّونه بعبادتكم، فقد أحلَلْنا لكم جميع ما خلقنا لكم على وجه الأرض التي تُقلكم.

﴿إنما﴾ حرمنا ﴿عليكم﴾ ما فيه ضررُكم كالميتة لخُبْثها، ﴿والدم﴾ لأنه يقسي قلوبكم، ﴿ولحم الخنزير﴾ لأنه يُورث عدم الغيرة، وما ذكر عليه غير اسم الله، وهو الذي ﴿أُهِلَّ به لغير الله﴾ أي: رُفع الصوت عند ذبحه لغير الله، وهو الصنم ﴿فمن اضطر﴾ وأُلجئ إلى شيء من هذه المحرمات، ﴿غير باغ﴾ أي: ظالم بأكلها اختياراً، ﴿ولا عاد﴾ متعدٍّ يتعدى الحلالَ إلى الحرام، فيأكلها وهو غني عنها ﴿فلا إثم عليه﴾، ﴿أو غير باغ﴾ غير قاطع للطريق، ﴿ولا عاد﴾: مفارق للأمة خارج عن الجماعة، فمن خرج يقطع الرحم، أو يُخيف ابنَ السبيل، أو يُفسد في الأرض، أو أَبَق من سيده، أو فرَّ من غريمه أو عاصيا بسفره، واضطر إلى شيء من هذه، فلا تحلُّ له حتى يتوب ويأكل، ﴿فإن الله غفور رحيم﴾. وقال سهل بن عبدالله: ﴿غير باغ﴾: غير مفارق للجماعة ﴿ولا عاد﴾: مبتدع مخالف للسنة، فلم يرخص للمبتدع تناول المحرمات عند الضرورات.

الإشارة: يا أيها الذين آمنوا إيمانَ أهل العِرْفان، كلوا من طيبات ما رزقناكم من حلاوة الشهود والعيان، واشكروا الله الكريم المنَّان، إن كنتم تخصونه بالعبادة والإحسان، أو: يا أيها الذين آمنوا إيمانَ أهل الصفاء، ووقفوا مع الحدود وقوف أهل الوفاء، كلوا من طيبات ما رزقناكم من ثمرات بساتين العلوم، واشكروا لله يزدكم من المواهب والفهوم، إن كنتم تعبدون الحيّ القيوم، إنما حرم عليكم ما يعوقكم عن هذه المواهب، أو ينزلكم عن منابر تلك المراتب، كالميل إلى جيفة الدنيا، أو الركون إلى متابعة الهوى، أو تأخذون منها ما قُصد به غيرُ الله، أو تقبضونها من يد غير الله. فمن اضطر إلى أخذ شيء من نجاستها، فأَخَذَ القدر الذي احتاج إليه منها، دون التشوُّف إلى ما زاد عليه، غير قاصد بذلك شهوة ولا متعة، فلا إثم عليه، إن الله غفور رحيم.

قال شيخ شيوخنا سيدي علي الجَمَل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما تكلم على الغَنيِّ بالله، قال: (علامته هو الذي ترك الدنيا للخلق، حتى لا يكون له فيها حق معهم، إلا ما فَضَل عنهم من بعد اضطراره واحتياجه، ويترك الآخرة لمولاه، حتى لا يكون له فيها حق إلا النظر في وجه الله، ويترك أيضاً نفسه لله حتى لا يكون فيها حق إلا حق مولاه، ولا إرادة له إلا ما أراد مولاه، ويكون كالغصن الرطب أينما مالت به الريح يلين ويميل معها، ولا ينكر على الخلق حالاً من أحوالهم). هـ.

ومن جملة ما ألحق بهذه المحرمات الرِّشَا وأكل أموال الناس بالباطل، ولذلك ذكره الله تعالى بإثر ما أحلَّه للمؤمنين، فقال:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ ۚ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾ ﴾

قلت: (ما) تعجبية، مبتدأ، وهي نكرة، وسوَّغ الابتداءَ معنى التعجب، وجملة (أصبرهم) خبر، أي: أيُّ شيء عظيم صبَّرهم صابرين، أو استفهامية، أي: أيُّ شيء حملهم على الصبر على النار؟.

يقول الحق جل جلاله فى رؤساء اليهود وعلمائهم، كانوا يُصيبون من سفلتهم الهدايا والخَرَاج، ويدّعون أن النبى المَبْعوث منهم، فلما بُعِثَ نبينا محمدٌ ﷺ خافوا ذهاب مأكلتهم ورئاستهم، فأنزل الله: ﴿إن الذين يكتمون ما أنزل الله﴾ فى التوراة من صفة محمد ﷺ، ويحرفونها فى المعنى وينْزِعونها ﴿من الكتاب﴾ أى: التوراة، ﴿ويشترون﴾ بذلك التحريف ﴿ثمنا قليلا﴾ أى: عِوضا حقيرا يذهب ويفنَى فى زمان قليل، ﴿أولئك﴾ الذين يكتمون ويأكلون ذلك العوض الحقير ـ ﴿ما يأكلون فى بطونهم﴾ إلا نار جهنم؛ لأنها مآلهم وعقوبة أكلهم، ﴿ولا يكلمهم الله﴾ إهانة وغضبًا عليهم حين يُكلم أولياءه ويُسلم عليهم، ﴿ولا يزكيهم﴾ أى: لا يطهرهم من دنَس ذنوبهم حتى يتأهلوا للحضرة، ﴿ولهم عذاب أليم﴾ مُوجع. ﴿أولئك الذين﴾ استبدلوا ﴿الضلالة بالهدى﴾ أى: باعوا الهدى واشتروا به الضلالة، واستبدلوا ﴿العذاب بالمغفرة﴾ التى كانت لهم لو آمنوا وبيّنوا، فما أجرأهم على اقتحام النار باقتحام أسبابها، أو فما أبقاهم فى النار، أو ما الذى أصبرهم على النار حتى تركوا الحق ومالوا إلى الباطل؟! استفهام توبيخى.

﴿ذلك﴾ العذاب الذى استحقوه وتجرءوا عليه بسبب أن ﴿الله﴾ تعالى ﴿نزل الكتاب﴾ القرآن ملتبسا ﴿بالحق﴾، فاختلفوا فيه؛ فآمنوا ببعض وكفروا ببعض، ﴿وإن الذين اختلفوا فى الكتاب لفى شقاق بعيد﴾ أى: لفى خلاف وضلال بعيد.

الإشارة: كل من كتم علمه، ولم ينشرْه إلا فى مقابلة حظ دنيوى، صدَق عليه قولُه تعالى: ﴿ ويشترون به ثمنا قليلا أولئك ما يأكلون في بطونهم إلا النار ﴾. رُوى أن بعض الصحابة كان يُقرئ أهل الصُّفّة، فأهْدَى له أحدُهم قوسا، فأتى به النبىَّ ﷺ، فقال: يا رسول الله: كنت أُعلّمُ أهلَ الصفة فأهدى لى فلان قوسا، وقال: هو لله، فقال له ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «لقدْ تقلدتَ قَوْساً مِنْ نَارِ جهنم» . أو كما قال ﷺ، وأمره بردّه. ولعل هذا من باب الورع، فأراد عليه السلام أن يرفع همة ذلك الصحابى، وإلا فقد ورد فى الحديث: «أحَقُّ ما أخَذْتُمْ عَلَيْهِ الأجرَ كتَابُ الله».

فمن ملَكَتْه نفسه، وأسره الهوى، فقد اشترى الضلالة بالهدى، اشترى الضلالة عن طريق أولياء الله، بالهدى الذى كان له لو ملَكَ نفسه وهواه، وعذابَ القطيعة والحجاب، بالمغفرة والدخول مع الأحباب، فما أصبرهم على غم الحجاب وسوء الحساب، سبب ذلك اختلاف قلبه، وتفريق همه ولُبِّه، وقد قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «اقْرَءوا القُرآنَ ما ائتَلَفَتْ عَلَيْهِ قُلُوبكمْ، فَإذَا اختَلَفْتُمْ فَقُومُوا» . أو كما قال.

وسبب تفرق القلب وعدم حضوره، حبُّ الدنيا فقد قال عليه الصلاة والسلام: «مَنْ كَانَت الدُّنيا هَمَّهُ فَرَّقَ اللهُ عَلَيْهِ أمْرَهُ، وجَعَلَ فَقْرَه بيْنَ عَيْنَيْهِ ولَمْ يأته مِنَ الدُّنْيا إلا ما قُسِمَ لَهُ، ومن كَانَت الآخرةُ نيته، جَمَعَ اللهُ عليه أمْرَهُ، وَجَعَلَ غِناهُ في قَلْبه، وأتَتْهُ الدُّنيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ» .

والقلب الذي اختلف في فهم الكتاب وتشتت عنه في شقاق بعيد عن الحضرة؛ لأن عُنْوان صحة القلب: جمعه على كلام الله وتدبر خطابه والتلذذ بسماعه، وقد تقدم في أول السورة درجات القراءة. فانظره إن شئت. وبالله التوفيق.

ولما ادَّعت اليهودُ والنصارى أن البرَّ خاص بقبْلتهم، لأنها قبلة الأنبياء، ردَّ الله تعالى عليهم، فقال:

﴿ لَيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴾

قلت : لمّا ذكر الحق تعالى التوحيد وبراهينه الذي هو رأس الدين، وحذَّر من الشرك وفروعه، ذكر هنا بقية أركان الدين، وهي الإيمان والإسلام، فذكر في هذه الآية قواعد الإيمان وبعض قواعد الإسلام؛ وهي الصلاة والزكاة، ثم ذكر بعد ذلك الصيام وأحكامه، ثم ذكر الحج وأركانه، ثم ذكر الجهاد والنكاح والطلاق والعِدَّة، ثم ذكر البيوع وما يتعلق بها من الربا، ثم الشهادات والرهان، وبها ختم السورة.

لكن الحديث ذو شُجون، والكلام يَجُرُّ بعضُه بعضا، فقوله: ﴿ليس البر أن تولوا﴾ : اسم ليس وخبرها، وكلاهما مُعَرَّفَتان، الأول بأل والثاني بالإضافة، إذ التقدير: توليةُ وجوهكم، فمن رجَّح تعريف الألف واللام، جعل (البر) اسمها، و(أن تولوا) خبرها، وبه قرأ الأكثر، ومن رجح الإضافة جعل (البر) خبرها مقدما، والمصدر اسمها مؤخرا، وبه قرأ حمزة وحفص.

وقوله: ﴿ولكن البر﴾ مَنْ خَفَّفَ جعلها عاطفة الجملة، و ﴿البر﴾ مبتدأ، و (من آمن) خبر على حذف مضاف، أيْ: برُّ من آمن؛ إذ لا يُخْبَرُ بالذات عن المعنى، أو قصد المبالغة، ومن شدَّد نصب بها، لوقوعها بين

جملتين، وهى استدراكية، و﴿على حبه﴾ حال من المال، و ﴿الصابرين﴾ نصب على المدح، ولم يعطفه بالرفع لفضل الصبر وشرفه.

يقول الحق جل جلاله فى الرد على أهل الكتاب: ﴿ليس البر﴾ محصوراً فى شأن القبلة، ﴿ولكن البر﴾ الذى ينبغى أن يُعتنى بشأنه هو الإيمان بالله، وما يجب له من الكمالات، وباليوم الآخر وما بعده، وبالملائكة وما يجب أن يعتقد فى شأنهم، والكتاب المنزل من السماء كالقرآن وغيره، و﴿النبيين﴾ وما يجب لهم وما يستحيل فى حقهم.

فالبر هو بر من اعتقد فى قلبه هذه الأشياء، وأظهر على جوارحه ما يصدق صحة اعتقادها، وذلك كالاتصاف بالسخاء والكرم، فأعطى المال على محبته له، أى: مع حبه، فقد سئل ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «أىُّ الصَّدَقَةِ أَفْضَلُ؟ فقال: أن تَتَصدَّقَ وأنْتَ صَحيحٌ شَحِيحٌ، تأمُلُ الغِنَى وتَخْشَى الفَقْرَ» . ﴿وآتى المال﴾ على حب الله، لا جزاء ولا شكورا، فأعطى ذلك المال ذوى قرابته المحاويج، وقدّمهم لقوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «صَدَقَتُك على المَساكِينِ صَدَقَةٌ، وعَلَى ذَوِي القُربى اثنتان؛ صَدقَةٌ وصِلَةٌ» . وأعطى ﴿اليتامى﴾ لإهمالهم، وأعطى ﴿المساكين﴾ الذين أسكنهم الفقر فى بيوتهم، ﴿وابن السبيل﴾ وهو المسافر الغريب، كأن الطريق ولَدَته، أو الضيف ﴿والسائلين﴾ ألجأتهم الحاجة إلى السؤال. وفى الحديث: «أعْطِ السائلَ ولو على فَرَسِه» . وقال أيضا ﷺ: «هَدِيَّةُ اللهِ إلى المؤمن السائلُ على بَابِه» . وأعطى فى فَكِّ ﴿الرقاب﴾ من الرق أو الأسر.

﴿وأقام الصلاة﴾ المفروضة، ﴿وآتى الزكاة﴾ المعلومة. ومن أهل البر أيضا: ﴿المُوفُون بعهدهم﴾ فيما بينهم وبين الله، وفيما بينهم وبين الناس ﴿إذا عاهدوا﴾ الله أو عباده، فإذا وعدوا أنجزوا، وإذا حلفوا أو نذروا أوفوا، وإذا قالوا صدقوا، وإذا ائتمنوا أدّوا، وأخُصّ من أهل البر ﴿الصابرينَ فى البأساء﴾ كالفقر والذل وإذاية الخلق، و﴿الضراء﴾ كالمرض والزَّمَانة(١)، أو (البأساء): الأموال، و(الضراء) فى الأنفس، والصابرين ﴿حين البأس﴾ أى: الحرب والجهاد، ﴿أولئك الذين صدقوا﴾ فى طلب الحق، ﴿وأولئك هم المتقون﴾ لكل ما يقطع عن الحق، أو يشغل عنه. فقد اشتملت هذه الآية على كمالات الإنسان بأسرها؛ لاشتمالها على ما يزَين البواطنَ من الاعتقادات وما يزين الظواهر من المعاملات، وما يُزَكِّي النفوس من الرذائل ويُحلّيها بالمحاسن والكمالات. ولذلك

---

(١) الزمانة: مرض يدوم.

وصف المتصف بها بالصدق والتقى، اللذين هما أساسُ الطريقة ومبنَى أسرار التحقيق، وبالله التوفيق، وهو الهادى إلى سواء الطريق.

الإشارة: ليس المطلوب من العبد أن يَتَوجّه إلى الحق بجهةٍ مخصوصة، كما إذا توجه إليه بالظاهر وأهملَ الباطن، أو توجه بالباطن وأهمل الظاهر، ولكن المطلوب منه أن يزين باطنه بأنوار الإيمان واليقين، ويزين ظاهره بسائر وظائف الدين، ويزكي نفسه من الرذائل؛ كالشح والبخل والغش والخيانة والكذب والخوف والجزَع، ويحليها بأنواع الفضائل؛ كالسخاء والكرم والوفاء بالعهد والأمانة، والصبر والشجاعة، والعفة والقناعة، وسائر أنواع الفضائل، فإذا تخلى عن الرذائل وتحلى بأضدادها من الفضائل استحق الدخول مع الأبرار، وكان من العارفين الكبار، أولئك الذين ظفروا بصدق الطلب فنالوا الغاية من كل مطلب، وأولئك هم المتقون حق التقاة، فنالوا أعلى الدرجات، منحنا الله من ذلك الحظ الوافر بمنّه وكرمه.

ولمّا مَدَحَ الله تعالى الصبرَ والجُرأةَ في الحرب، أمر بالقصاص؛ لئلا يتسع الناس في إطلاق الجرأة، حتى يتجرءوا على قتل المسلم، فقال:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞۗ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾

قلت: (عفا) لازمٌ يتعدى بالحرف: بعَنْ إلى الجناية، وباللام إلى الجاني، فيقال: عفوت لفلان عن جنايته و(اتباعٌ) خبر عن مضمَر، أي: فالأمر اتباع، و(حياة) مبتدأ، و(في القصاص) خبره، و(لكم) خبر ثان، أو صلة له، أو حال من الضمير المستكنّ فيه. وفيه من البلاغة والفصاحة ما لا يخفى، جعل الشيء مجيء ضده، وعرّف القصاص ونكّر الحياة ليدل على التعظيم والتعميم، أي: ولكم نوع من الحياة عظيم، وذلك لأن العلم به يَرْدَع القاتل عن القتل، فيكون سببَ حياةِ نَفْسَين، ولأنهم كانوا يقتلون غير القاتل، والجماعة بالواحد، فتثورُ الفتنة بينهم، فإذا اقتُص من القاتل سلِم الباقون، ويصيرُ ذلك سببا لحياتهم. قاله البيضاوي.

يقول الحق جل جلاله: يا أيها المؤمنون ﴿كتب عليكم القصاص في﴾ شأن ﴿القتلى﴾ في العَمْد، فاستسلموا للقصاص، فالحرّ يقتل ﴿ بالحر﴾، ولا يقتل بالعبد. بل يغرم قيمته لسيده، ودليله قوله ـ عليه الصلاة

والسلام ـ: «لا يُقتل مسلمٌ بكافرٍ ولا حرٌ بعبدٍ» ، والعبد يقتل بالعبد، إن أراد سيد المقتول قتله، فإن استحياه خُيِّر سيدُه بين إسلامه وفدائه بقيمة العبد. وكذلك إن قُتل الحر خُيِّر أولياؤه بين قتله أو استرقاقه، فإن استحيَوْه خُيِّر سيده بين إسلامه وفدائه بديَةِ الحر العَمْد، والأنثى تُقتل بالأنثى والذكر، والذكر يقتل بالأنثى.

وتخصيصُ الآية بالمُساوى، قال مالك: (أحسنُ ما سمعتُ في هذه الآية: أنه يُراد بها الجنسُ ـ أي: جنس الحر ـ والذكر والأنثى فيه سواء. وأعيدَ ذكْرُ الأنثى تأكيدا وتهمُمًا بإذهاب أمر الجاهلية) . هـ ـ يعني أن (أل) في الحر: للجنس، تشمل الذكر والأنثى. وأعاد ذكر الأنثى اهتماما بردِّ ما كان يفعله الجاهلية من عدم القَوَد فيها.

ثم قال الحق جل جلاله: ﴿فمن عُفِى له من﴾ دم أخيه ﴿شيء﴾ ولو قلّ ، فقد سقط القتل، فالواجب اتباعٌ للقاتل بالدية ﴿بالمعروف﴾ من غير تعنيف ولا تعنيت، و﴿أداء﴾ من القاتل ﴿بإحسان﴾ من غير مطل ولا بَخس.

﴿ذلك﴾ ــ الذي شرعْتُ لكم من أمر العفو والدية ـ ﴿تخفيف من ربكم ورحمة﴾ بكم، وقد كُتب على اليهود القصاص وحده، وعلى النصارى العفوُ مطلقا، وخيَّركم أيها الأمة المحمدية بين أخذ الدية والقصاص. ﴿فمن اعتدى﴾ بعد أخذ الدية وقَتَل ﴿فله عذاب أليم﴾ في الدنيا والآخرة، في الدنيا: بأن يُقتل لا محالة؛ لقوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «لا أُعافي أحداً قَتَلَ بَعْدَ أخْذِ الدِّيَة» .

﴿ولكم﴾ يا معشر المسلمين ﴿في﴾ تشريع ﴿القصاص حياة﴾ عظيمة في الدنيا، لانزجار القاتل إذا علم أنه يُقتص منه، وقد كانوا يَقتُلون الجماعةَ في الواحد، فسلِموا من القتل بشروع القصاص، أو في الآخرة، فإن القاتل إذا اقتُصَّ منه في الدنيا لم يؤخَذْ به في الآخرة، فاعتَبِروا ﴿يا أولي الألباب﴾ أي: العقول الكاملة، ما في حكمة القصاص من استبقاء الأرواح وحفظ النفوس، ﴿لعلكم تتقون﴾ الله في المحافظة على القصاص، والحكم به والإذعان له، أو تَكُفُّون عن القتل خوفا من الله.

الإشارة: كما جعل الله القصاص في الجناية الحسية، جعل القصاصَ في الجناية المعنوية، وهي الجنايةُ على النفس بسوء الأدب مع الله، فكل من صدر منه هفوةٌ أو زَلَةٌ، اقتَصَ الحق تعالى منه في دار الدنيا، إن كانت له من الله عناية، الكبيرة بالكبيرة والصغيرة بالصغيرة. وتأمَّلْ قضية الرجل الذي كان يطوف بالكعبة، فنظر إلى امرأة، فلطَمَتْه كَفٌ من الهوى، وذهبت عينه، فقال: آه، فقيل له: لطمة بنظرة، وإن زدت زدنا.هـ. وقضية أبي تراب النخشبي: قال ﷺ: ما تمنت نفسي شهوة من الشهوات إلا مرة واحدة، تمنيت خبزا وبيضا وأنا في سفر، فعدلت إلى قرية، فقام واحد، وتعلق بي، وقال: هذا رأيته مع اللصوص، فضربوني سبعين درة، ثم عرفني رجل منهم، وحملني إلى منزله، وقدّم لي خبزاً وبيضا. فقلت في نفسي: كُلْ بعد سبعين درة.

وقضية أبي الخيْر العَسقلاني: اشتهى السمكَ فلما مدَّ يده ليأكل أخذت شوكةٌ من عظامها أصبَعه، فذهبت في ذلك يدُه. وقضية إبراهيم بن شيبان : قال: (اشتهيت شبعة من الخبز والعدس، فاتفق ذلك، فأكلت حتى شبعت، ثم رأيت منكرا، فغيرته، فأخذوني وضربوني مائة خشبة ،وطرحوني في السجن أربعة أشهر، حتى شفع فيَّ شيخي، فخرجت، وقال: أخذتها مجانا) ، أي: حيث عوقبت في ظاهرك دون باطنك.

وقضية خير النسَّاج: قال: (عاهدتُ الله وعقَدْتُ ألاّ آكل الرُّطَب فغلبَتْني نفسي، فأخذتُ نصف رَطْلٍ، فلما أكلت واحدة إذا برجل نظر إليّ وقال: يا خيرُ، أين هربتَ مني؟ وكان له عبد اسمه خير، فوقع عليَّ شَبَهُه ـ قال: فبقيتُ معه عدة أشهر أنسجُ له الكِرْباس ـ وهو القطن الأبيض ـ ، ثم ثَبت فزال عني الشَّبَه) .

فمن عُفي له عن شيء من هذه الجناية ،بعد الأدب أو قبْله، فليشكر الله، ويتبع ما أمره به، ويؤدي ما فرضه عليه بالمعروف، من غير إسراف، ولا تقصير، ذلك تخفيف من الله عنه، ورحمة به، فمن اعتدى بعد ذلك، ورجع إلى ما تاب عنه فله عذاب أليم، وهو الطرد عن حضرة الأحباب، إلى الوقوف بالباب أو سياسة الدواب، إلا من تاب وعمل صالحا فإن الله يتوب على من تاب. ولكم في القصاص في دار الدنيا ـ حياة عظيمة لأرواحكم وأسراركم؛ لأن ذلك اعتناء بكم يا أولي الألباب، لعلكم تتقون كل ما يشْغلكم عن مولاكم.

ولمّا ذكر القصاص وهو مظِنّة الموت، والموت من أسباب الوصية ذكرها بإثره، فقال:

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ فَمَن بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾ فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨٢﴾ ﴾

قلت: ﴿إذا حضر﴾ ظرف، العامل فيه: ﴿كتب﴾، أي: توجَّهَ إيجابُ الوصية عليكم إذا حضر الموت. أو مصدر محذوف يفهم من الوصية، أي: كتب عليكم الإيصاء إذا حضر الموت، و﴿الوصية﴾ نائب فاعل ﴿كتب﴾، ولا يصح أن تعمل في (إذا)؛ لتقدمه عليها؛ لأن المصدر لا يعمل في ما قبله، إلا على مذهب الأخفش. اللهم إلا أن يُتوسع في الظروف، وجواب الشرطين محذوف، أي: إذا حضر أحدكم الموت، إن ترك خيرا، فقد كُتبت عليه الوصية. والجنَف: الميل عن الصواب، فإن كان خطأ فهو جنَفٌ بلا إثم، وإن كان عمداً فهو جنَف إثم.

يقول الحق جل جلاله: كتب الله ﴿عليكم﴾ أن تُوصوا للوالدين والأقربين ﴿إذا حضر أحدكم الموتُ، إن ترك﴾ المستحضر ﴿خيرا﴾ أي: مالا، قال سيدنا عليّ ـ كرم الله وجهه ـ: (ألف درهم فصاعدا، فلا وصية في أقل). وقال النخعي: (خمسمائة درهم لا أقل). وقال الزُّهْرِي: (تجب فيما قل وكثُر)، وعن عائشة ـ رضى الله عنها ـ: (أن رجلا أراد أن يوصي، فسألته: كم مالُك؟ فقال: ثلاثة آلاف. فقالت: كم عِيالك؟ فقال: أربعة، فقالت: لا، إنما قال الله تعالى ﴿إن ترك خيرا﴾ وإن هذا لَشيْءٌ يسير، فاتركْه لعيالك).

وتكون تلك الوصية ﴿بالمعروف﴾، أي: بالعدل، فلا يُفضل الذكور، ولا يتجاوز الثلث. قد حَقّ الله ذلك ﴿حقا﴾واجبا ﴿على المتقين﴾، فمَن غيّره من الأوصياء أو الشهود ﴿بعدما سمعه﴾ وعلمه، ﴿فإنما إثمه على الذين يبدلونه﴾ من الأوصياء أو الشهود، لأنه هو الذي خالف الشرع وغيّر دون الميت، ﴿إن الله سميع عليم﴾ فلا يخفى عليه مَنْ بدّل أو غيّر، فهو حسيبُه ومُعاقبه، ﴿فمن خاف﴾ أي: علم ﴿من مُوص جنفا﴾ أي: ميلا بالخطأ في الوصية، ﴿أو إثما﴾ تعمدا للجنف، ﴿فأصلح﴾ بين المُوصَى لهم وبين الورثة، بأن أجراهم على منهاج الشرع، أو نقص للموصَى لهم، أو زاد لمصلحة رآها ﴿فلا إثم عليه﴾؛ لأنه تبديل لمصلحة. والتبديل الذي فيه الإثم إنما هو تبديل الهوى، ﴿إن الله غفور رحيم﴾ فيغفر للمبدِّل لمصلحةٍ ويرحمه.

وهذه الآية منسوخة في وصية الوالدين، مُحْكَمة في الأقربين غير الوارثين، بقوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ في الحديث المشهور: «إنَّ اللهَ أعْطَى كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ. فلا وَصِيَّةَ لِوَارِثٍ»، فإذا كان الوالدان غيرَ وارثَيْن كالكافرَيْن أو العبدَيْن فهي مُحْكَمة، والله تعالى أعلم.

الإشارة: اعلم أن المريد إذا منع نفسه من الشهوات، وحفظ قلبه من الخطَرات، وصان سره من الغفَلات ـ وأعظمُ الشهوات حبُّ الرئاسة والجاه، فإذا قتل نفسه ونزل بها إلى السُّفْليات حتى حضرها الموت، وانقطع عنها الخواطر والخيالات ـ فإنها تفيض بالعلوم والواردات، فالواجب من طريق الجزم أن يُقيد تلك العلوم، أو يوصي مَنْ يقيدها لينتفع بها الوالدان وهما الأشياخ، والأقربون وهم الإخوان. فإن الحكمة تَرِدُ في حال التجلي كالجبل، فإن لم يقيدها وأهملها رجعت كالجمل، فإن أهملها رجعت كالكبش، فإن أهملها رجعت كالطير، ثم ترجع كالبيْضة ثم تذهب. هكذا كان يقول شيخ شيوخنا سيدي علي الجمل ﷺ، وكان شيخه سيدي العربي بن عبدالله يقول له: (إنْ وَرَدَ عليك واردٌ فقيِّدْه وأعطني منه نسخة). وهكذا كان أشياخنا يأمروننا بتقييد الواردات، فمَنْ قَيّدَ وارداً

أو سمعه من غيره، فلا يُغيِّرْه بمجرد رأيه وهواه. فإن تحقق منه نقصًا أو ميلاً عن منهاج الطريقة والحقيقة، فأصلحه، فلا إثم عليه، ﴿إن الله غفور رحيم﴾.

ولما ذكر في الآية المتقدمة قاعدتين من قواعد الإسلام في قوله: ﴿وأقام الصلاة وآتى الزكاة﴾، بعد أن ذكر قواعد الإيمان، ذكر هنا القاعدة الثالثة، وهي الصيام، فقال:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ
تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۚ وَعَلَى
ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥۚ وَأَن تَصُومُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ
إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ
مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ
فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ وَلِتُكۡمِلُواْ ٱلۡعِدَّةَ
وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿١٨٥﴾ ﴾

قلت: (أيامًا) منصوب على الظرفية، واختُلف في العامل فيه، والأحسنُ أنه الصيام، ولا يضره الفصل؛ لأن الظرف يُتوسع فيه ما لا يتوسع في غيره، و(معدودات) نعت له، و(عدة) مبتدأ؛ أي: فعَلَيْه عِدَّةٌ. و(أخر) ممنوع من الصرف للعدل عن الألف واللام والوصف. و(شهر رمضان) إما خبر عن مضمر، أو مبتدأ، والخبر: (فمن شهد)، أو بدل من (الصيام)، على حذف مضاف، أي: صيام شهر رمضان.

و(رمضان) مصدر رمَض إذا احترق، وأضيف إليه الشهر، وجُعل علَمًا، ومُنع من الصرف للعلَمية والألف والنون. وسَمَّوْه بذلك إما لارتماض القلب فيه من حرِّ الجوع والعطش، أو لارتماض الذنوب فيه، أو وافق الحرَّ حين نقلوا الشهور عن اللغة القديمة. و(الشهر) ظرف، لقوله: (شهد) أي: حضر، وقوله (ولتكملوا...) الآية، هذه ثلاثُ عِللٍ لثلاثة أحكام على سبيل اللفِّ والنَّشْرِ المعكوس، أي: ولتكملوا العدة أمرتُكم بقضاء عدة أيام أُخر، ولتكبروا الله عند تمام الشهر أمرتُكم بصيام الشهر كله، ولعلكم تشكرون أردتُ بكم اليسر دون العسر.

يقول الحق جل جلاله: ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ فُرض عليكم ﴿الصيام﴾ كما فرض ﴿على الذين من قبلكم﴾ من الأنبياء وأُمَمِهِم من لدن آدم، فلكم فيهم أسوة، فلا يشق عليكم ﴿لعلكم تتقون﴾ المعاصي، فإن الصوم يكسر الشهوة. ولذلك قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «مَنْ استَطَاعَ مِنْكُمُ البَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ، ومَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْه بالصَّوْمِ، فَإنَّهُ لَهُ وِجَاء».

وذلك الصيام إنما هو في أيام قلائل ﴿معدودات﴾، فلا يهولكم أمره، ﴿فمن كان منكم مريضا﴾ يشق عليه الصيام، ﴿أو على سفر﴾ فأفطر فعليه صيام عدة ما أفطر ﴿من أيام أخر﴾ بعد تمام الشهر، ﴿وعلى الذين يطيقونه﴾ بلا مشقة، إن أرادوا أن يفطروا ﴿فدية﴾ وهي: ﴿طعام مساكين﴾ : مُدٌّ لكل يوم. وفي قراءة ﴿فديةٌ طعامُ مسكين﴾ أي: وهي طعام مسكين لكل يوم. وقيل: نصف صاع. ﴿فمن تطوع﴾ بزيادة المُد، أو أطعم مسكينَيْن عن يوم، ﴿فهو خير له﴾ وأعظم أجرا، ﴿وأن تصوموا﴾ أيها المطيقون للصيام، ﴿خير لكم إن كنتم تعلمون﴾ ما في الصيام من الأسرار، والخير المدرار، ثم نسخ بقوله: ﴿فمن شهد منكم الشهر فليصمه﴾.

وذلك الصيام الذي أُمرتم به هو ﴿شهر رمضان﴾ المبارك ﴿الذي أنزل فيه القرآن﴾ أي: ابتداء نزوله فيه. أو إلى سماء الدنيا، حالة كونه ﴿هدى للناس﴾ أي: هادياً لهم إلى طريق الوصول، وآيات واضحات ﴿من الهدى والفرقان﴾ الذي يفرق بين الحق والباطل. وإن شئتَ قلتَ: فيه هدى للناس إلى مقام الإسلام، ﴿وبينات﴾، أي: حججا واضحة تهدي إلى تحقق الإيمان، وإلى تحقق الفرق بين الحق والباطل، وهو ما سوى الله، فيتحقق مقام الإحسان.

﴿فمن﴾ حضر منكم في ﴿الشهر﴾ ولم يكن مسافرا ﴿فليصمه﴾ وجوباً، وكان في أول الإسلام على سبيل التخيير؛ لأنه شق عليهم حيث لم يألفوه، فلما ألفوه واستمروا معه، حتّمه عليهم في الحضور والصحة. ﴿ومن كان مريضا﴾ يشق عليه الصيام، ﴿أو على﴾ جَناح ﴿سفر﴾، بحيث شرَع فيه قبل الفجر فأفطر فيه، فعليه ﴿عدة من أيام أخر﴾ ﴿يريد الله بكم اليسر﴾ والتخفيف، حيث خفّف عنكم، وأباح الفطر في المرض والسفر، ﴿ولا يريد بكم العسر﴾ إذ لم يجعل عليكم في الدّين من حرج، وإنما أمركم بالقضاء ﴿لتكملوا العدة﴾ التي أُمركم بها، وهي تمام الشهر، ﴿ولتكبروا الله على ما هداكم﴾، أمركم بصيامه فتكبروا عند تمامه.

ووقت التكبيرعند مالك: من حين يخرج إلى المُصلّى، بعد الطلوع، إلى مجيئ الإمام إلى الصلاة. ولفظُه المختار: (الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله، الله أكبر ولله الحمد على ما هدانا، اللهم اجعلنا من الشاكرين)؛ لجمعه

بين التهليل والتكبير والشكر، امتثالا لقوله: ﴿ولعلكم تشكرون﴾ على ما أوليناكم من سابغ الإنعام، وسهَّلنا عليكم في شأن الصيام.

الإشارة: كُتب عليكم الصيام عن الحظوظ والشهوات، كما كتب على من سلك الطريق قبلكم من العارفين الثقات، في أيام المجاهدة والرياضات، حتى تنزلوا بساحة حضرة المشاهدات، لعلكم تتقون شهود الكائنات، ويكشف لكم عن أسرار الذات، فمن كان فيما سلف من أيام عمره مريضاً بحب الهوى، أو على سفر في طلب الدنيا، فليبادرْ إلى تَلاَفِي ما ضاع في أيام أخر، وعلى الأقوياء الذين يُطيقون هذا الصيام، إطعام الضعفاء من قُوت اليقين ومعرفة رب العالمين. فمَنْ تطوع خيرا بإرشاد العباد إلى ما يُقَوّي يقينهم، ويرفع هممهم فهو خير له. وأنْ تَدُوموا أيها الأقوياء على صومكم عن شهود السِّوَى، وعن مخالطة الحس بعد التمكين، فهو خير لكم وأسلم، إن كنتم تعلمون ما في مخالطة الحس من تفريق القلب وتوهين الهمم، إذ في وقت هذا الصيام يتحقق وحي الفهم والإلهام، وتترادف الأنوار وسواطعُ العرفان. فمن شهد هذا فَلْيَدُمْ على صيامه، ومن لم يَقْدِر عليه فَلْيَبْكِ على نفسه في تضييع أيامه.

واعلم أن الصيام على ثلاث درجات: صوم العوام، وصوم الخواص، وصوم خواص الخواص.

أما **صوم العوام**: فهو الإمساك عن شهوتَي البطن والفَرْج، وما يقوم مقامَهما من الفجر إلى الغروب، مع إرسال الجوارح في الزلاَّت، وإهمال القلب في الغفلات. وصاحبُ هذا الصوم ليس له من صومه إلا الجوع، لقوله ﷺ: «مَنْ لم يَدَعْ قولَ الزُّور والعملَ به فليس لله حاجةٌ في أنْ يدع طعامَه وشرابَه». وأما **صوم الخواص**: فهو إمساك الجوارح كلِّها عن الفضول، وهو كل ما يشغل العبد عن الوصول، وحاصلُه: حفظ الجوارح الظاهرة والباطنة عن الاشتغال بما لا يَعْنِي. وأما **صوم خواص الخواص**: فهو حفظ القلب عن الالتفات لغير الرب، وحفظ السر عن الوقوف مع الغير، وحاصله: الإمساك عن شهود السِّوى، وعكوفُ القلب في حضرة المولَى. وصاحب هذا صائم أبدا سرمدا. فأهل الحضرة على الدوام صائمون، وفي صلاتهم دائمون، نفعنا الله بهم وحشرنا معهم. آمين.

ولمَّا كان الصيام يُرَقِّق القلب فيحصل به القرب من الحق، ذكره بإثر الصيام، فقال:

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى وَلْيُؤْمِنُواْ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: فى جواب رجل سأل: هل قريب ربنا فنناجيه، أو بعيد فنناديه؟ فنزل: ﴿**وإذا سألك عبادي عني**﴾. فقل لهم: ﴿**إني قريب**﴾ إليهم من أرواحهم لأشباحهم، ومن وَسْواس قلوبهم لقلوبهم، علْما وقدرة وإحاطة، أجيب دعوة الداعي إذا دعَانِ، سراً أو جهراً، ليلا أو نهارا، على ما يليق بحاله فى الوقت الذى نريد، لا فى الوقت الذى يريد، ﴿**فليستجيبوا لي**﴾ إذا دعوتُهم للإيمان والطاعة، أسلُك بهم طريق المعرفة، ﴿**وليؤمنوا بي**﴾ أنى قريب منهم فيَستَحْيُوا مني، حياءَ مَنْ يرى أنى معه حيث كان، ﴿**لعلهم يرشدون**﴾ إلى سلوك طريقتي ودوام محبتي.

قال البيضاوي: اعلم أنه، تعالى، لما أمرهم بصوم الشهر، ومراعاة العدة على القيام بوظائف التكبير والشكر، عقَّبه بهذه الآية الدالة على أنه خبير بأحوالهم، سميع لأقوالهم مجيب لدعائهم، مجازيهم على أعمالهم، تأكيدا وحثا عليه. هـ.

الإشارة: قُرْب الحق تعالى من عباده هو قرب المعاني من المحسوسات، أو قرب الصفات من الذات، أو الذات من الصفات. فإذا تحقق المحو والاضمحلال، وزال البَيْن، وثبت الوصال، لم يبق قرب ولا بعد ولا بَينٌ ولا انفصال. قال الشيخ القطبُ العارف الكبير سيدى عبدالسلام بن مَشِيش رضي الله عنه لأبي الحسن رضي الله عنه : حدِّدْ بصرَ الإيمان تجد الله فى كل شيء وعند كل شيء، ومع كل شيء، وقبل كل شيء، وبعد كل شيء، وقريبا من كل شيء، ومحيطا بكل شيء، بقرب هو وصفُهُ، وبحيطةٍ هى نعتُه، وعَدِّ عن الظرفية والحدود، وعن الأماكن والجهات، وعن الصحبة والقرب في المسافات، وعن الدَّوْر بالمخلوقات، وامْحَق الكلَّ بوصفه الأول والآخر والظاهر والباطن، «كان الله ولا شيء معه، وهو الآن على ما عليه كان» .

وقال بعض العارفين: الحق تعالى منزَّه عن الأيْنِ والجهة والكَيْف والمادة والصورة. ومع ذلك لا يخلو منه أينٌ ولا مكان، ولا كم ولا كيف، ولا جسم، ولا جوهر ولا عرض، لأنه للُطْفه سارٍ فى كل شيء، ولنوريته ظاهر فى كل شيء، ولإطلاقه وإحاطته متكيف بكل كيف، غيرُ متقيِّد بذلك، فمَنْ لم يعرف هذا ولم يذُقْه ولم يشهدْه فهو أعمى البصيرة، محرومٌ من مشاهدة الحق تعالى. هـ.

وهذه الإشارات لا يفهمها إلا أهل الذَّوْق من أهل المعاني، فاصحب الرجال أهلَ المعاني تذُقْ أسرارهم، وتفهم إشاراتهم. وإلا فحسبُك أن تعتقد كمال التنزيه، وبطلان التشبيه، وتَمسَّكْ بقوله تعالى: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾، وسلِّمْ للرجال فى كل حال.

إنْ لم ترَ الهلالَ فسلِّمْ * لأُناسٍ رأوْه بالأبْصَــار

وإذا تحققت أن الحق قريب منك كفاك لسانُ الحال عن طلب المقال، وبالله التوفيق.

ثم تمّم الحقُ تعالى بقيةَ أحكامِ الصوم، فقال:

﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَٱلْـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (١٨٧) ﴾

قلت: الرفَث: مُحرِّك الجِماع، والفُحْش كالرفوث، وكلام النساء في الجماع. قاله في القاموس، وقال الأزهري اللغوي: الرفَث: كلمة جامعة لكل ما يريد الرجل من امرأته، وضمّنه هنا الإفضاء، فعدّاه بإلى.

يقول الحق جل جلاله في نسخ ما كان في أول الإسلام من تحريم الجماع في رمضان بعد العشاء أو النوم، ثم إن عمر رضي الله عنه باشر امرأته بعد العشاء، فندم وأتى رسول الله ﷺ يعتذر إليه، فقام رجال فاعترفوا بما صنعوا بعد العشاء فنزل قوله: ﴿أحل لكم ليلةَ الصيام﴾ قبل الفجر، الإفضاءُ ﴿إلى نسائكم﴾ بالجماع. وعبّر بالرفث تقبيحا لما ارتكبوه.

ثم علّل التحليل بقوله: ﴿هن لباس لكم وأنتم لباس لهن﴾، أي: وإنما أبحتُ لكم الجماع لقلة صبركم عليهن، حتى تعانقوهن ويعانقنكم، فيشتمل بعضُكم على بعض، كاشتمال اللباس على صاحبه، كما قال الشاعر:(١)

إِذَا مَا الضَّجِيعُ ثَنَى عِطْفَهَا تَثَنَّتْ فَكَانَتْ عَلَيْهِ لِبَاسَا

وهذه الحالة يقلُّ فيها الصبرُ عن الوِقَاع، ﴿علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم﴾ أي تَخُونُونها فتعرِّضُونها للعقاب، وتَحْرِمُونها من الثواب، ﴿فتاب عليكم﴾ لَمّا تُبْتُم واعترفتم بما اقْتَرفْتم، وعفا عنكم فمحا ذنوبكم، ﴿فالآن باشروهن﴾. والمباشرة: إلصاق البَشْرة بالبشرة، كنايةً عن الجماع، ﴿وابتغوا ما كتب الله

(١) وهو النابغة الجعدي.

لكم﴾ من النسل، فلا تباشروهن لمجرد قضاء الشهوة، بل اطلبوا ما قدّر الله لكم، وأثبته فى اللوح المحفوظ من الولد، لأنه هو المقصود من تشريع النكاح، وخلق الشهوة، لا مجرد قضاء الوطر. وفي الحديث: «إذَا مَاتَ العبدُ أنقَطَعَ عَمَلُه إلا مِنْ ثَلاثٍ: صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، وعِلْمٍ بثَّه فى صُدور الرجال، وولدٍ صالحٍ يَدْعُو لَهُ».

وفي حديث طويل عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ فى قصة الحَوْلاء ـ امرأة من الأنصار ـ، قال لها رسول الله ﷺ: ما من امرأة حملَت من زوجها حين تَحْمِل، إلا لها من الأجْر مثل القائم ليلَه الصائم نهارَه، والغازى فى سبيل الله، وما من امرأة يأتيها الطَلْقُ، إلا كان لها بكل طَلْقةٍ عِتْق نسمةٍ، وبكل رَضْعة عتق رقبة، فإذا فَطَمت ولَدها ناداها مُناد من السماء: قد كُفيتِ العملَ فيما مضى، فاستأنفى العمل فيما بقي. قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ: قد أُعطِي النساءُ خيرا كثيرا، فما لكم يا معشر الرجال؟. فضحك النبى ﷺ ثم قال: ما من رجل مؤمن أَخذ بيد امرأته يُرَاوِدُها، إلا كتب الله له حسنة، وإنْ عانقها فعشْر حسنات، وإن جامعها فعشرون حسنةً، وإن أتاها كان خيراً من الدنيا وما فيها، فإذا قام ليغتسل لم يمر الماء على شعرة من جسده إلا مُحِيَ عنه سيئة، ويُعطى له درجة، وما يعطى بغُسله خيرٌ من الدنيا وما فيها، وإن الله تعالى يباهى الملائكة فيقول: انظروا إلى عبدى؛ قام فى ليلة قَرَّة يغتسل من الجنابة، يتيقن بأنى ربه، اشهدوا أنى قد غفرت له» (١). هـ. من الثعلبى.

ثم أباح الحق تعالى الأكلَ والشرب، ليلة الصيام إلى الفجر، فقال: ﴿وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود﴾ شبَّه أول ما يبدو من الفجر المعترِض فى الأفق، بالخيط الأبيض، وما يمتد معه من غَبَشِ الليل، بالخيط الأسود.

ولم ينزل قوله تعالى: ﴿من الفجر﴾ إلا بعد مدة، فحمله بعض الصحابة على ظاهره، فعمد إلى خيطٍ أبيض وخيط أسود فجعلهما تحت وِسادته، فجعل يأكل وينظر إليهما، فلم يتبينًا، ومنهم عَدِيُّ بنُ حاتم، قال: فغدوتُ إلى رسول الله ﷺ فأخبرته فضحِك، وقال: «إنك لَعَرِيضُ القَفا، إنَّمَا ذَلكَ بيَاضُ النَّهَارِ وسوَادُ اللَّيلِ»، والحديث ثابت فى البخارى وغيرِه. واعترضه الزمخشرى بأن فيه تأخيرَ البيان عن وقت الحاجة، وذلك لا يجوز، لما فيه من التكليف بما لا يطاق.

---

(١) الحديث موضوع، ذكره ابن الجوزى فى الموضوعات وابن عراق فى تنزيه الشريعة. وقال الحافظ ابن حجر فى الإصابة: سند هذا الحديث واهٍ جداً. وقال الدارقطني: هذا حديث باطل، وقال: ذهب عبد الرحمن بن مهدى وأبو داود إلى زياد بن ميمون ـ أحد رجال سند هذا الحديث ـ فأنكرا عليه هذا الحديث، فقال: اشهدوا أنى قد رجعت عنه.

وأجيب بأنه ليس فيه تأخير البيان عن وقت الحاجة، وإنما فيه تأخير البيان لوقت الحاجة، وهو جائز. وبيان ذلك أنه لمّا نزل قوله تعالى: ﴿حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود﴾ فهم رسول الله ﷺ والمؤمنون مُرادَ الله منهما، واستمر عملهم على ذلك، فكانت الآية مُبينة فى حقهم لا مُجْمَلة. وأما عَدِىّ بن حاتم فكان بَدَوِياً مُشتغلاً بالصيد، ولم يكن فيه حُنْكَة أهل الحاضرة، فحمل الآية على ظاهرها؛ ولذلك قال له رسول الله ﷺ : «إِنك لَعرِيضُ القَفَا» . فنزلت الآية تبين لعدى مُرادَ الله عند الحاجة إلى البيان. مع أن السيوطى ذكر فى التوشيح خلافَ هذا، ونصه:

قال بعضهم: كأنّ عديًا لم يسمع هذه اللفظة من الآية؛ لأنها نزلت قبل إسلامه بمدة، وذلك أن إسلامه كان فى السنة التاسعة أو العاشرة، بعد نزول الآية بمدة، قال: علّمنى رسولُ الله ﷺ الصلاة والصيام، فقال: «صل كذا، وصم كذا، فإن غابت الشمس فَكُلْ حتى يتبين لك الخيط الأبيض من الخيط الأسود، فأخذ الخيطين...» . الحديث. فقال له ـ عليه الصلاة والسلام: «ألم أقل لك من الفجر؟» فتبين أن قوله فى الحديث: «فأنزل الله مِنَ الفجر» من تصرُّف الرواة. هـ. مختصراً، فهذا صريح فى أن الآية نزلت بتمامها مبينة فلم يكن فيها تأخير، والله تعالى أعلم.

ثم بيّن الحق تعالى غاية الصوم، فقال: ﴿ثم أتموا الصيام إلى الليل﴾ فمن أفطر مع الشك فى الغروب، فعليه الكفارة، بخلاف الشك فى الفجر للاستصحاب. ولما كان الاعتكاف من لوازم الصوم ذكر بعض أحكامه بإثره فقال: ﴿ولا تباشروهن﴾ أى: النساء ﴿وأنتم عاكفون فى المساجد﴾، فالمباشرة للمعتكف حرام، وتُفسد الاعتكاف. كانت المباشرة فى المسجد أو خارجه. وكان الرجل يكون معتكفا فيخرج فيصيب زوجته ثم يرجع، فنزلت الآية ـ ﴿تلك حدود الله﴾ قد حدها لكم، ﴿فلا تقربوها﴾ فضلا عن أن تعتدوها، ﴿كذلك﴾ أى: مثل هذا البيان التام، ﴿يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون﴾ محارمه.

الإشارة: قد تقدم أن صوم الخواص، وخواص الخواص، هو الإمساك عن الفُضول، وعن كل ما يقطع عن الوصول. أو الإمساك عن شهود الأغيار، وعن كل ما يوجب الأكدار. فإن عزَمت النفس على هذا الصوم وعقَدت النية عليه، حلّ لها أن تُباشر أبكارَ العلوم اللدنية الوهبية، والحقائق العرفانية، وتفضى إلى ثَيبات العلوم الرَّسْمية الكسبية. العلومُ اللدنية الوهبية شِعارُها، والعلومُ الرسمية دِثارها(١). العلوم اللدنية لباس باطنها، والعلوم الرسمية لباس ظاهرها.

---

(١) الشعار: ما ولى جسد الانسان دون ماسواه من الثياب، والدثار: الثوب الذى يكون فوق الشعار.

قال أبو سليمان الداراني: إذا اعتادت النفوس على ترك الآثام جالت في الملكوت، ثم عادت إلى صاحبها بطرائف العلوم، من غير أن يُؤدِّي إليها عالمٌ عِلْماً . هـ.

قال الحق تعالى: ﴿علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم﴾ بدنس الهفوات، فمنعكم من مباشرة تلك العلوم الوهبيات، فلما عقدتُم التوبة، وعزمتم على تركها، تاب عليكم وعفا عنكم، فالآن باشروها، وابتغوا ما كتب الله لكم، من الوصول إلى معرفته، والعكوف في حضرة قُدسه، وكلوا من ثمرات تلك العلوم، واشربوا من خمرة الحيِّ القيوم، حتى يَطْلُعَ عليكم فجرُ الكشف والبيان، وتُشرق على قلوبكم شمسُ نهار العرفان، فحينئذ تَضْمَحِلُّ تلك العلوم، وتمحى تلك المعالم والرسوم. ولم يبقَ إلا الاستغراق في مشاهدة الحي القيوم، فلا تباشروها وأنتم عاكفون في تلك المساجد. فمشاهدةُ وجهِ الحبيب تُغْني عن مطالعة المعالم والمشاهد. تلك حدود الله فلا تقربوها، أي: لا تقفوا مع تلك العلوم وحلاوة تلك الرسوم؛ فإنها تمنعكم من مشاهدة الحيِّ القيوم. كذلك يبين الله آياته الموضِّحة لطريق وصوله للناس، لعلهم يتقون مشاهدة ما سواه. والله تعالى أعلم.

ولما أراد الحق أن يتكلم على الحج قدّم الكلام على الأموال؛ لأنها سببٌ في وجوبه، والوصول إليه في الغالب، فقال:

﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾ ﴾

قلت: أصل الإدلاء: إرسالُ الدَّلْو في الماء ليتوصل به إلى أخذ الماء من البئر، ثم أُطلق في كل ما يتوسل به إلى شيء، يقال: أدلَى بماله إلى الحكام، أي: دفعه رِشْوة، ليتوصل بذلك إلى أخذ أكثر منه، وهو المراد هنا، وفي القاموس: أدلى برَحِمِه: توسَّل، وبحُجَّته: أحضرَها، وإليه بماله: دفَعه. ومنه: (وتُدْلُوا بها إلى الحكام) . هـ. و(تدلوا) معطوف على (تأكلوا)، منْهِي عنهما معاً.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ولا تأكلوا﴾ يا معشر المسلمين ﴿أموالكم﴾ أي: أموال بعضكم بعضاً، ﴿بالباطل﴾ أي: بغير حق شرعي؛ إما بغير حق أصلا كالغصْب والسرقة والخيانة والخَدْع والتطفيف والغش وغير ذلك. أو بحق باطل كما يؤخذ في السحر والكهانة والفأل والقِمار والجاه، وهَدِية المِدْيان(١)، وهدية القرض، والضمان،

(١) رجل مديان: إذا كان عادته أن يأخذ بالدين.

والرشوة، والربا، وغير ذلك مما نهى الشارعُ عنه. ولا يدخل فى ذلك التمائم والعزائم إذا كان بالقرآن أو السنة وغَلَب الشفاء، وكذلك لا يدخل أيضا الغَبْن، إذا كان البائعُ عالما بالمَبِيع.

أو ﴿ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل﴾ بأن تُنفقوها فى الملاهى والزنا والشرب واللواط، وغير ذلك من المحرمات، ولا ﴿تدلوا﴾ أى: تتوسلوا بها، أى: بدفعها ﴿إلى الحكام﴾ رشوة ﴿لتأكلوا فريقا من أموال الناس﴾ بأن يحكم لكم بها القاضى، تأخذونها متلبسين ﴿بالإثم﴾ أى: بالمعصية ﴿وأنتم تعلمون﴾ أنها لغيركم؛ فإنَّ حُكْمَ الحاكِمِ لا يُحِلُّ حراما.

وفي الحديث عنه ﷺ قال: «إنَّما أنا بَشرٌ مثْلُكُم، ولعلَّ بعضكُمْ أن يكون ألْحَنَ بحُجَّتِه مِنْ بعْضٍ فأقضى له، فمن قَضَيْتُ له بشيء من مال أخِيه فإنَّما أقطعُ لهُ قِطعةً من النار».

الإشارة: الباطلُ كلُّ ما سوى الحق، فكل من كان يأخذ من يد الخلق ولا يشاهد فيهم الحق فإنما يأخذ أموال الناس بالباطل. قال فى الحِكَم: «لا تمُدَّن يديك إلى الأخذ من الخلائق إلا أن ترى أن المعطىَ فيهم مولاك، فإذا كنت كذلك فخُذْ ما وافقك العلم». ويحتاج العامل بهذا إلى عسةٍ[1] كبيرةٍ، وشهودٍ قَوِي، حتى يَفْنَى عَنْ نظره مشاهدةُ الخلق فى شهود الملك الحق. وكان بعضهم يطلب مَنْ هذا وصفُه فيعطى للفقير العطاء، ويقول: خذ، لا لك، فلا يسمع من أحد شيئا، حتى أعطَى لبعض الفقراء، وقال: خذ، لا لك، فقال: أقبضُ لا منك. هـ. قلت: الوصول إلى الحكام على شأن الدنيا أو للانتصار للنفس حرام فى طريق الخصوص، بل يصبر حتى يحكم الله بينه وبين خصمه، وهو خير الحاكمين، فإن اضطرَّ إلى شيء ولم يجد بُداً منه فليوكِّلْ، وبالله التوفيق.

ولما أراد الحق تعالى أن يتكلم على أحكام الحج، قدَّم الكلام على الهلال؛ لأنه معتبر فى الحج، أداء وقضاء، فقال:

﴿ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ... ﴾

قلت: الذى سأله معاذُ بن جبل وثعلبةُ بن غنمة[2]، فقالا: يا رسول الله: ما بال الهلال يبدو رقيقا كالخيط، ثم لايزال يزيد حتى يستوى، ثم لايزال ينقص حتى يرجع كالخيط؟ فقال الحق جل جلاله: ﴿يسئلونك عن الأهلة﴾

(١) أى: اجتهاد وجِد، من عسَّ يعُسُّ: إذا طلب.
(٢) فى الأُصول (غنم)، والصواب: غنمة، كما فى أُسد الغابة، والإصابة.

أي: عن حكمة اختلاف الأهلة بالزيادة والنقص، ﴿قل﴾ لهم يا محمد: ﴿هي مواقيت للناس﴾ يوقّتون بها دُيونهم، ويعرفون بها أوقات زَرْعهم، وعِدَدَ نسائهم وصيامهم. وهي أيضا مواقيتُ للحج، يعرفون بذلك وقت دخوله وخروجه، فيعرفون الأداء من القضاء، فلو كانت على حالة واحدة لم يعرفوا ذلك. أجابهم الحق تعالى بغير ما ينتظرون؛ إشارة إلى أن السؤال عن سر الاختلاف، ليس فيه منفعة شرعية، وإنما ينبغي الاهتمام بما فيه منفعة دينية.

قال أهل الهيئة: إن نوره من نُور الشمس، وجِرْمه أطْلَس، فكلما بعد من مُسَامتة الشمس قابله نورُها، فإذا قرب منها لم يقابله من نورها إلا بعض جرمه، فإذا دخل تحتها في الفلك كان ظَهره كله إليها، فلم يقابله شيء من نورها، فإذا خرج مِنْ تحتها قابله بقدر ذلك، والله تعالى أعلم.

الإشارة: إذا ظهر هلال السعادة في أفق الإرادة، وهبّت ريح الهداية من ناحية سابق العناية، دخل وقت حج القلوب إلى حضرة علام الغيوب، فهلال الهداية للسائرين، وهم أرباب الأحوال أهل التلوين، يزداد نوره بزيادة اليقين، وينقص بنقصانه، على حسب ضعف حاله وقوته، حتى يتحقق الوصال، ويُرزق صفة الكمال. وأنشدوا:

كُلَّ يَومٍ تَتَلَوَّنْ غيرُ هذا بِكَ أَجْمَلْ

فصاحب التلوين بين الزيادة والنقصان، إلى أن تطلع عليه شمس العرفان، فإذا طلعت شمس العرفان فليس بعدها زيادة ولا نقصان، وأنشدوا:

طَلَعَتْ شمسُ من أُحِبُّ بلَيْلٍ واستضاءتْ فما تَلاها غُروبُ
إنْ شَمْسَ النَّهارِ تَغْرُبُ بالليـ ـل وشَمْسَ القُلوبِ لَيْسَتْ تَغيبُ

بخلاف صاحب التمكين؛ فإنه أبدا في ضياء معرفته، متمكّن في بُرج سعادته، لا يلحق شمسَه كسوف ولا حجابٌ، ولا يستر نورَها ظلمةٌ ولا سحاب، فلو طلب الحجاب لم يُجَبْ. قال بعض العارفين: (لو كُلِّفتُ أنْ أرى غيره لم أستطع، فإنه لا غير معه حتى أشهده).

ثم حذَّر الحق تعالى مما ابتدعه المشركون في الحج، فقال:

﴿... وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾﴾

قلت: كانت الأنصار إذا حَجُّوا أو اعتمروا، يقولون: لا يَحُول بيننا وبين السماء سَقْفٌ، حتى يدخلوا بيوتهم، فإذا رجعوا تسوَّرُوا الجُدْران، أو نَقَّبوا في ظهور بيوتهم، فجاء رجلٌ منهم فدخل من الباب، فَعُيِّرَ بذلك، فأنزل الحق جل جلاله: ﴿وليس البر﴾ أى: الطاعة، ﴿بأن تأتوا البيوت من ظهورها﴾ فتتسوروها، أو تنقبوا من أعلاها، ﴿ولكن البر من اتقى﴾ المحارم وخالف الشهوات.

أو: ليس البر بأن تعكسوا مسائلكم بأن تسألوا عما لا نفع لكم فيه، وتتركوا مسائل العلم التى تنفعكم فى العاجل والآجل. ﴿ولكن البر من اتقى﴾ ذلك، ﴿وأتوا﴾ بيوت العلم من أبوابها، فتُحسنون السؤال وتتأدبون فى المقال، وتقدمون الأهم فالأهم، والأنفع فالأنفع. ﴿واتقوا الله﴾ فلا تُغيروا أحكامه، ولا تعترضوا على أفعاله، ﴿لعلكم تفلحون﴾ بتوفيقه وهدايته.

الإشارة: اعلم أن البيوت التى يدخلها المريد ثلاثة: بيت الشريعة وبيت الطريقة وبيت الحقيقة، ولكل واحد أبواب فمن أتى البيت من بابه دخل. ومن أتاه من غيره طُرِد.

فبيت **الشريعة** له ثلاثة أبواب: الباب الأول: التوبة، فإذا دخل هذا الباب، وحقَّق التوبة بأركانها وشروطها، استقبله باب **الاستقامة**، وهى: متابعة الرسول فى أقواله وأفعاله وأحواله، فإذا دخله، وحقق الاستقامة، استقبله باب **التقوى** بأقسامها. فإذا حقق التقوى ظاهرا وباطنا، دخل بيت الشريعة المطهرة، وتنزه فى محاسنه ومعانيه، ثم يروم دخول **بيت الطريقة**، وله ثلاثة أبواب:

الباب الأول: **الإخلاص** وهو: إفراد العمل لله من غير حرف ولاحظ، فإذا حقق الإخلاص استقبله باب **التخلية** وهى التطهير من العيوب الباطنة، وهى لا تنحصر، لكن من ظفر بالشيخ أطلعه عليها، وعلَّمه أدويتها، فإذا حقق التخلية استقبله باب **التحلية**، وهى: الاتصاف بأنواع الفضائل؛ كالصبر والحلم والصدق والطمأنينة والسخاء والإيثار، وغير ذلك من أنواع الكمالات. فإذا حقق الإخلاص والتخلية والتحلية فقد حقق بيت الطريقة، ثم يستقبله بيت **الحقيقة**.

فأول ما يقرع باب **المراقبة**، وهى: حفظ القلب والسر من الخواطر الردية، فإذا تطهر القلب من الخواطر الساكنة، استشرف على باب **المشاهدة**، وهى: محو الرسوم فى مشاهدة أنوار الحى القيوم، أو تلطيف الأوانى عند ظهور المعانى، فإذا دخل باب المشاهدة، وسكن فيها، استقبله باب **المعرفة**، وهى محلّ الرسوخ والتمكين، وهى الغاية والمنتهى، فبيت الحقيقة هو مسجد الحضرة الربانية. وما بقى بعدها إلا الترقى فى المقامات، وزيادة المعارف والكشوفات أبدا سرمدا، منحنا الله من ذلك حظا وافرا بمنّه وكرمه.

ولمّا كان البيت الحرام عند فرض الحج معمورا بالكفار، أمرهم بجهادهم ليتمكن المسلمون من الحج، فقال:

﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ
ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِۚ
وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ
﴿١٩١﴾ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ
فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾ ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ
فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾ وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ
ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِۛ وَأَحْسِنُوٓاْۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾ ﴾

قلت: (التهلكة): مصدر هلَك ـ بتشديد اللام ـ قاله ابن عطية. وضمن (تُلْقُوا) معنى تفضوا، أو تنتهوا، فعدّاه بإلى، أي: ولا تفضوا بأنفسكم إلى التهلكة. ولايحتاج إلى زيادة الباء.

وسبب نزول الآية: أن المشركين صدُّوا رسول الله ﷺ عام الحديبية، وصالحوه على أن يرجع في قابل، فيخلوا له البيت ثلاثة أيام، فرجع لعمرة القضاء، وخاف المسلمون ألا يفوا لهم، فيقاتلوا في الحرم والشهر الحرام، وكرهوا ذلك، فنزلت الآية.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وقاتلوا في سبيل الله﴾ وإعلاء كلمته ﴿الذين يقاتلونكم﴾ أي: يبدءونكم بالقتال، ﴿ولا تعتدوا﴾ فتقاتلوهم قبل أن يبدءوكم؛ ﴿إن الله لا يحب المعتدين﴾ لا ينصرهم ولا يؤيدهم. ثم نسخ هذا بقوله: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً...﴾ الآية. ﴿واقتلوهم حيث ثقفتموهم﴾ أي: وجدتموهم، ولا تتحرجوا من قتالهم في الحرم، فإنهم هم الذين صدوكم وبدأوكم بالإذاية، ﴿وأخرجوهم﴾ من مكة ﴿حيث أخرجوكم﴾ منها، ﴿والفتنة﴾ أي: الكفر الذي هم فيه، ﴿أشد من القتل﴾ لهم في الحرم، ﴿ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام﴾ ابتداءً ﴿حتى يقاتلوكم فيه، فإن قاتلوكم﴾ فيه ﴿فاقتلوهم﴾ فيه، وفي غيره، ﴿كذلك جزاء الكافرين﴾ يفعل بهم ما فعلوا بغيرهم، ﴿فإن انتهوا﴾ عن الشرك وأسلموا ﴿فإن الله غفور﴾ لهم ﴿رحيم﴾ بهم.

﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة﴾ أى: شرك ﴿ويكون الدين﴾ خالصا ﴿لله﴾ بحيث لا يبقى فى جزيرة العرب إلا دين واحد، ﴿فإن انتهوا﴾ عن قتالكم، فلا تعتدوا؛ فإنه ﴿لا عدوان إلا على الظالمين﴾ إذ لا يحسن أن يظلم إلا من ظلم.

القتال الصادر منكم لهم فى ﴿الشهر الحرام﴾ فى مقابلة الصد الذى صدر منهم لكم فى الشهر الحرام، ﴿والحرمات قصاص﴾ يقتص بعضها من بعض، فكما انتهكوا حرمة الشهر الحرام، بمنعكم من البيت، فانتهكوا حرمتهم بالقتل فيه. ﴿فمن اعتدى عليكم﴾ بالقتال فى الأشهر الحُرُم، أو فى الحرَم ﴿فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم، واتقوا الله﴾ فلا تنتصروا لنفوسكم، ﴿واعلموا أن الله مع المتقين﴾ بالحفظ والتأييد.

﴿وأنفقوا فى سبيل الله﴾ فى جهاد عدوكم، ولا تمسكوا عن الإنفاق فيه فتلقوا ﴿بأيديكم﴾ أى: بأنفسكم ﴿إلى التهلكة﴾ أى: الهلكة فيستولى عليكم عدوكم.

رُوى عن أبى أيوب الأنصارى (أنه كان على القسطنطينية، فحمل رجل على عسكر العدو، فقال قوم: ألقى بيده إلى التهلكة، فقال أبو أيوب: لا، إن هذه الآية نزلت فى الأنصار، قالوا ـ لما أعز الله الإسلام وكثر أهله ـ: لو رجعنا إلى أهلينا وأموالنا نقيم فيها ونصلحها، فأنزل الله فينا ﴿ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾ ،وأما هذا فهو الذى قال فيه الله تعالى: ﴿ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضات الله..﴾.)

أو: ولا تنفقوا كل أموالكم فتتعرضوا للهلكة، أو الطمع فى الخلق، ولكن القصد، وهو الوسط. ﴿وأحسنوا﴾ بالتفضل على المحاويج والمجاهدين ﴿إن الله يحب المحسنين﴾ فيحفظهم، ويحفظ عقبهم إلى يوم القيامة.

الإشارة: اعلم أن أعداء الإنسان التى تقطعه عن حضرة ربه أربعة: النفس والشيطان والدنيا والناس. فمجاهدة النفس: بمخالفة هواها، وتحميلها ما يَثقُل عليها حتى ترتاض، ومجاهدة الشيطان: بعصيانه، والاشتغال بالله عنه، فإنه يذوب بذكر الله، ومجاهدة الدنيا: بالزهد فيها، والقناعة بما تيسر منها، ومجاهدة الناس: بالغيبة عنهم والإعراض عنهم فى الإقبال والإدبار. فيقول الحق جل جلاله للمتوجهين إليه: ﴿وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم﴾ ويصدونكم عن حضرته، ولا تعتدوا فتشتغلوا بهم عن ذكرى، والإقبال علىّ، ﴿إن الله لا يحب المعتدين﴾. بل اقتلوهم حيث تعرضوا لكم فقط، فإذا ظهرت صورة النفس أدبها، ثم غاب فى الله عنها، وكذلك بقية القواطع.

وكان شيخ شيوخنا سيدي علي الجمل رضي الله عنه يقول: (عداوة العدو حقاً هي اشتغالك بمحبة الحبيب حقاً، وأما إذا اشتغلت بعداوة العدو فاتتك محبة الحبيب،، ونال العدو مراده منك) . هـ. وأخرجوهم من قلوبكم من حيث أخرجوكم من حضرة ربكم، يعني: كما أخرجوكم من الحضرة في أيام الغفلة، أخرجوهم من قلوبكم في أيام اليقظة. والفتنة بالاشتغال بهم أشد من القتل لهم، ولا تقاتلوهم عند مسجد الحضرة وحال الغيبة في الله، فإن ذلك التفات إلى غير الله، كمن كان مقبلا عليه حبيبه فجعل يلتفت إلى من يكلمه ويشغله عنه. وذلك في غاية الجفاء، حتى يقاتلوكم فيه، ويريدون أن يخرجوكم منه بوسوستهم، فإن قاتلوكم، وخطر على بالكم شيء من وسوستهم، فاقتلوهم بذكر الله، والتعوذ منهم، فإن الله يكفيكم أمرهم، وينهزمون عنكم، كذلك جزاء الكافرين. فإن انتهوا عنكم، وانقطع عنكم خواطرهم، فغيبوا عنهم فإن الله يستركم عنهم، وقاتلوهم على الدوام حتى لا تكون في قلوبكم فتنة منهم، ويكون التوجه كله لله، لا ينازعه شيئ مما سواه، فإن انتهوا عنكم فلا تتعرضوا لهم؛ فإن ذلك عدوان وظلم، ﴿ولا عدوان إلا على الظالمين﴾.

فإن جنحتْ نفسك إلى حرمة الطاعة الظاهرة؛ كتدريس علم أو جهاد أو صلاة أو غيرها، وأرادت أن تخرجك من حرمة الحضرة القدسية؛ وهي الفكرة والشهود والمعاينة، فقاتلها وأخرجها من حرمة تلك الطاعة، فالحرمات قصاص. فكما أخرجتك من حضرة ربك القدسية أخرِجْها من حضرة الطاعة الحسية إلى الطاعة القلبية. فإن الذَّرَّةَ من أعمال القلوب أفضل من أمثال الجبال من أعمال الجوارح.

فمن اعتدى عليكم، في زمن البطالة، فاعتدوا عليه في زمن اليقظة بمثل ما اعتدى عليكم. وكان شيخنا البوزيدي رضي الله عنه يقول: جوروا على نفوسكم بقدر ما جارت عليكم. هـ. أي: اقتلوها بقدر ما قتلتكم بالبعد عن ربكم. وكان أيضا يقول: (جوروا على الوهم قبل أن يجور عليكم) .هـ. واتقوا الله فإن الله يعينكم عليها، ﴿واعلموا أن الله مع المتقين﴾. وأنفقوا أنفسكم ومهجكم في سبيل الله، بأن تطرحوها في يد الله يفعل بها ما يشاء. ﴿ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾ فتدبروا لها، وتختاروا لها، وتعتنوا بشئونها، فإن ذلك غفلة عن ربكم. ﴿وأحسنوا﴾ أي: ادخلوا في مقام الإحسان؛ بأن تعبدوا الله كأنكم ترونه ﴿إن الله يحب المحسنين﴾ أي: يقربهم إلى حضرته، ويصطفيهم إلى محبته ومعرفته، خرطنا الله في سلكهم بمنّه وكرمه.

ثم أمر الحق تعالى بإتمام النسك الذي دخل فيه، وحض على الإخلاص فيه، فقال:

﴿ وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۖ وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ... ﴾

قلت: المشهور في اللغة أن أحصر الرباعي: بالمرض، وحصر الثلاثي: بالعدو، وقيل: بالعكس، وقيل: هما سواء. و(ما استيسر): خبر أو مبتدأ، أي: فالواجب ما استيسر، أو: فعليه ما استيسر.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وأتموا الحج﴾ الذي دخلتم فيه، ﴿والعمرة﴾ وجوبا كالصلاة والصوم، ويكون ذلك ﴿لله﴾ لا رياء ولا سمعة، وإنما خص الحج والعمرة بالحض على الإخلاص، لما يسرع إليهما من الخلل أكثر من غيرهما، فمن أفسدهما وجب عليه قضاؤهما، ﴿فإن أحصرتم﴾ ومنعتم من إتمامهما فتحللوا منهما، وعليكم ﴿ما استيسر من الهدي﴾، وذلك شاة ﴿ولا تحلقوا رءوسكم﴾ أي: لا تتحللوا ﴿حتى يبلغ الهدي محله﴾، أي: حيث يحل ذبحه، وهو محل الإحصار عند الشافعي، فيذبح فيه بنية التحلل ويفرق، ومِنًى أو مكة عند مالك، فيُرسله فإذا تحقق أنه وصل وذُبح حل وحلق.

ويحرم على المُحْرِم إزالة الشعث، ولبس المخيط بالعضو، فمن كان ﴿مريضا أو به أذى﴾ صُداع أو نحوه، فحلق رأسه، أو لبس ثيابه، فعليه فدية ﴿من صيام﴾ ثلاثة أيام، ﴿أو صدقة﴾ على ستة مساكين، مُدَّان لكل مسكين، ﴿أو نسك﴾ بشاة فأعلى، فهو مخير بين الثلاثة. والله تعالى أعلم.

الإشارة: إذا عقد المريدُ مع ربه عُقْدَةً، فالواجب عليه إتمامها حتى يَجْنِي ثمرتَها، فإذا عقد عقدة المجاهدة فليجاهد نفسه حتى يجني ثمرتها، وهي المشاهدة، وإذا عقد مع الشيخ عقدة الصحبة، فليلزم خدمته حتى يدخله إلى بيت الحضرة، ويشهد له بالترشيد. وهكذا كل من عقد مع الله عقدة يجب عليه إتمامها، فإن أُحصر ومُنع من إتمامها فليفعل ما استيسر من ذبح نفسه وحط رأسه، و﴿ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ مَا آتَاهَا ﴾، ولا ينبغي أن يستعجل الفتح قبل إبَّانه، فلعلَّه يُعاقَب بحرمانه، فكم من مريد طلب من شيخه أنْ يُطلعه على سر الربوبية قبل بلوغ محله، فكان ذلك سبب عطبه، فيقال له: ولا تحلق رأسك من شهود السوى حتى يبلغ هَدْيُ نفسك محله فيذبح، فإذا ذُبِحت النفس وأُجْهِزَ عليها حلق رأسه حينئذ من شهود السِّوى، وفي ذلك يقول الششتري رضي الله عنه:

إنْ تُرِدْ وَصْلَنَا فَمَوْتُكَ شَرْطٌ لايَنَالُ الْوِصَالَ مَنْ فِيهِ فَضْلَهْ

فمن كان مريضاً بضعف عزمه، أو به أذى بعدم نهوض حاله، بحيث لم تُسعفه المقادير في مجاهدة نفسه، فليشتغل بالنسك الظاهر من صيام أو صدقة أو قراءة أو غير ذلك، حتى يَمنَّ عليه العليمُ الحكيمُ. وبالله التوفيق، وهو الهادي إلى سواء الطريق.

ولمّا ذكر الحق تعالى هدى الإحصار وفدية الأذى، ذكر هدى التمتع، فقال:

﴿... فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾﴾

يقول الحق جل جلاله: فإذا حصل لكم الأمن من المرض أو العدو، وأردتم الحج **﴿فمن تمتع﴾** منكم **﴿بالعمرة إلى الحج﴾** بأن قدَّم العمرة في أشهر الحج، ثم حج من عامه، فالواجب عليه **﴿ما استيسر من الهدى﴾**؛ شاة فأعلى؛ لكونه تمتَّع بإسقاط أحد السفَرَيْن ولم يُفرِد لكل عبادة سفرا مخصوصا. **﴿فمن لم يجد﴾** الهدى، ولم يقدر على شرائه، فعليه **﴿صيام ثلاثة أيام﴾ في** زمن **﴿الحج﴾**، وهو زمنُ إحرامه إلى وقوفه بعرفة، فإن لم يصم في ذلك الزمان صام أيام التشريق. ثم يصوم سبعة أيام إذا رجَع إلى مكة أو إلى بلده. فتلك **﴿عشرة﴾** أيام **﴿كاملة﴾**، ولا تتوهموا أن السبعة بدل من الثلاثة، فلذلك صرح الحق تعالى بفذْلكة الحساب(١).

وهذا الهَدْي أو الصيام إنما يجب على المتمتع؛ إذا لم يكن ساكنا بأهله في مكة أو ذي طَوى، وأما من كان **(أهلُه حاضري المسجد الحرام)** فلا هَدى عليه؛ لأنه يُحرم بالحج من مكة فلم يسقط أحد السفرين، **﴿واتقوا الله﴾** في امتثال أوامره، وخصوصا مناسك الحج؛ لكثرتها وتشعب فروعها، ولذلك أُفردت بالتأليف، **﴿واعلموا أن الله شديد العقاب﴾** لمن ترك أوامرَه وارتكب نواهيه. وبالله التوفيق.

الإشارة: يقول الحق جل جلاله على طريق الإشارة للمتوجهين إليه: فإذا أُمنتُمْ من أعدائكم الذين يقطعونكم عن الوصول إلى حضرتنا، أو أمِنْتم من الرجوع بعد الوصال، أو من السلب بعد العطاء، وذلك بعد التمكين من شهود أسرار الذات، وأنوار الصفات، إذ الكريم إذا أعطى لا يرجع، فإذا حصل لكم الأَمْن، فمن تمتع بأنوار الشريعة إلى أسرار الحقيقة فعليه ما استطاع من الهدى والسمت الحسَن والخلُق الحسَن؛ لأنه إذ ذاك قد اتصف بصفة الكمال وتصدَّر لتربية الرجال، فمن لم يجد ذلك فليرجع إلى ما تيسر من المجاهدة حتى يتمكن من ذلك الهدْى الحسن والخلق الحسن، هذا لمن لم يتمكن في الحضرة الأزلية، وأما من كان مقيماً بها، عاكفاً في شهود أنوارها، فلا كلام عليه، لأنه قد تولاه مولاه، وغيّبَه عن شهود نفسه وهواه، فأَمْرُه كله بالله وإلى الله. جعلنا الله فيهم بمنِّه وكرمه،

(١) الفذلكة: مجمل ما فصل وخلاصته.

لكن لا يغفل عن التقوى؛ لقوله ـ عليه الصلاة والسلام: «أنا أعرفُكُم بالله، وأنا أتقاكم له». وقالوا: «من علامة النهايات الرجوعُ إلى البدايات». والله تعالى أعلم.

ثم ذكر الحق تعالى ميقات الحج الزماني، فقال:

﴿ ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾ ﴾

قلت: (الحج): مبتدأ، على حذف مضاف، أي: إحرام الحج أو فعلُ الحج، و (أشهر): خبر، وإذا وقع الزمان خبرا عن اسم معنى؛ فإن كان ذلك المعنى واقعا في كل ذلك الزمان أو جلّه؛ تعيّن رفعُه عند الكوفيين، وترجح عند البصريين إذا كان الزمان نكرة، نحو: السفر يوم. إن كان السفر واقعا في جميع ذلك اليوم أو في جلّه؛ لأنه باستغراقه إياه صار كأنه هو، ويصح: السفر يوما، أو في يوم. وإن كان ذلك المعنى واقعا في بعض ذلك الزمان تعيّن نصبُه أو جرُّه بـ(في)، نحو: السفر يوم الجمعة، أو في يوم الجمعة وقد يرفع نادرا.

قال في التسهيل: ويُغنى ـ أيْ: ظرف الزمان ـ عن خبر اسم معنى مطلقا، فإن وقع في جميعه، أو في أكثره، وكان نكرة، رُفع غالبا، ولا يمتنع نصبه ولا جره بفي خلافا للكوفيين. وربما رُفع خبرُ الزمان المُوقَع في بعضه. هـ. ومن ذلك: ﴿الحج أشهر معلومات﴾ فإن جلّها تصلح للإحرام.

يقول الحق جل جلاله: وقتُ إحرام الحج ﴿**أشهر معلومات**﴾: شوال وذو القعدة وذو الحجة، فمن أحرم قبلها كره عند مالك، وبطل عند الشافعي، ﴿**فمن فرض**﴾ على نفسه ﴿**فيهن الحج**﴾ فيلزم الأدب والوقار، ويجانبْ شهوة النساء، (**فلا**) يقع منه ﴿**رفث**﴾ أي: جماع أو كلام فُحْش، ﴿**ولا فسوق**﴾ أي: ذنوب، ﴿**ولا جدال في**﴾ زمان ﴿**الحج**﴾ ولو مع المكاري(١) أو الخُدّام، ولا غيره من أنواع الخصام؛ فإنه في حضرة الملك العلام، ﴿**وما تفعلوا من خير**﴾ كحلْم وصبر وحُسن خلق ﴿**يعلمه الله**﴾ فاستبقوا الخيرات، وتزودوا قبل هجوم الممات، واتقوا الله حق تقاته ﴿**فإن خير الزاد التقوى**﴾. أو تزودوا لسفر الحج، ولا تسافروا كَلاًّ على الناس؛ ﴿**فإن خير**

(١) المكاري: هو مكري الدواب. ويغلب على الحمّار والبغّال، وجمعه: مكارون.

الزاد التقوى﴾ عن الطمع فى الخلق، ﴿واتقون يا أولى الألباب﴾، وأفرِدُونى فى سركم حتى أفتح لكم الباب، وأدخلَكم مع الأحباب.

الإشارة: معاملة الأبدان مؤقتة بالأماكن والأزمان، ومعاملة القلوب أو الأرواح غير مؤقتة بزمان مخصوص، ولا مكان مخصوص، فحج القلوب، الأزمنةُ كلها له ميقات، والأماكن كلها عرفات، حج القلوب هو العكوف فى حضرة علام الغيوب، وهى مُسَرْمَدَةٌ على الدوام على مرّ الليالى والأيام، فكل وقت عندهم ليلة القدر، وكل مكان عندهم عرفةُ المشرّفةُ القدر، وأنشدوا :

لولا شهودُ جمالكم فى ذاتى ما كنتُ أَرْضَى ساعةً بِحَيَاتى
ما ليلةُ القدرِ المُعَظَّمُ شأنُها إلا إذا عَمَرَتْ بكُم أوقَاتِى
إن المحبَّ إذا تمكَّنَ فى الهَوَى والحُبِّ لم يَحْتَجْ إلى ميقاتِ

وقال آخر(١) :

كُلُّ وقتٍ منْ حَبِيبِى قَدْرُهُ كَألفِ حَجَّهْ
فَازَ مَنْ خَلَّى الشَّوَاغِلْ ولِمَوْلاهُ تَوَجَّهْ

فمَنْ فَرض على قلبه حجَّ الحضرة فليلتزم الأدب والنظرة، والسكوتَ والفكرة، قال تعالى ﴿وَخَشَعَتِ الأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلا تَسْمَعُ إِلاَّ هَمْسًا﴾ فلا رفث ولا فسوقَ ولا جدال ولا مراء، إذ مبنى طريقهم على التسليم والرضى، وما تفعلوا من خير فليس على الله يخفى. وتزودوا بتقوى شهود السوّى، ﴿فإن خير الزاد التقوى﴾، وجِمَاعُ التقوى هى مخالفة الهوى، ومحبة المولَى، فهذه تقوى أولى الألباب؛ الذين صفتْ مِرآة قلوبهم، فأبصروا الرشد والصواب. وبالله التوفيق.

ثم أباح الحق تعالى التجارة فى مواسم الحج، فقال:

﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ ... ﴾

قلت : (أن تبتغوا) : على إسقاط حرف الجر، أىْ: فى أن تبتغوا، وسبب نزول الآية: أن عُكاظاً ومَجنَّة وذا المجاز - أسماء مواضع - كانت أسواقاً فى الجاهلية يعمرونها فى مواسم الحج، وكانت معايشهم منها، فلما جاء الإسلام تأثَّموا وتحرجوا أن يتجروا فيها، **فقال لهم الحق جل جلاله:** ﴿ليس عليكم جناح﴾ أى: إثم أو ميل

(١) وهو الششترى.

عن الصواب، في ﴿أن تبتغوا فضلا من ربكم﴾ أي: عطاء ورزقا تستفيدونه من التجارة في مواسم حجكم، إذا خلَصَتْ نيتكم، وغلب قصدُ الحج على التجارة.

وها هنا قاعدةٌ ذكرها الغزالي في الإحياء، وحاصلها: أن العمل إذا تمحّض لغير الله فهو سبب المقت والعقاب، وإذا تمحض لله خالصا فهو سبب القرب والثواب، وإذا امتزج بشوْب من الرياء أو حظوظ النفس فينظر إلى الغالب وقوة الباعث؛ فإن كان باعث الحظ أغلب، سقط، وكان إلى العقوبة أقرب، لكن عقوبته أخف ممن تجرد لغير الله، وإن كان باعث التقرب أغلب، حُط منه بقدر ما فيه من باعث الحظ، وإن تساويا تقاوما وتساقطا وصار العمل لا له ولا عليه.

ثم قال: ويشهد لهذا إجماعُ الأمة على أن مَنْ خرج حاجا ومعه تجارة صحّ حجه وأُثيب عليه. ثم قال: والصواب أنْ يقال: مهما كان الحج هو المحرِّك الأصلي، وكان غرضُ التجارة كالتابع، فلا ينفك نفس السفر عن ثواب، ثم طَرَّد هذا الاعتبار في الجهاد باعتبار الغنيمة، يعني: يُنظر لغالب الباعث وخُلوص القصد، وكذلك الصوم للحِمْية والثواب، ينظر لغالب الباعث.

قلت: وتطَّرد هذه القاعدة في المعاملات كلها، وجميع الحركات والسكنات والحِرَف وسائر الأسباب، فالخالص من الحظوظ مقبول، والمتمحض للحظوظ مردود، والمَشُوب يُنظر للغالب كما تقدم.

وقد ذكر شيخ المشايخ سيدي أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه قاعدة أخرى أدقّ من هذه فقال: إذا أكرم الله عبداً في حركاته وسكناته، نصَب له العبودية لله وستر عنه حظوظ نفسه، وجعله يتقلب في عبوديته، والحظوظ عنه مستورة، مع جرْي ما قُدِّر له، ولا يلتفت إليها؛ لأنها في معزل عنه، وإذا أهان الله عبدا في حركاته وسكناته، نصب له حظوظ نفسه، وستر عنه عبوديته، فهو يتقلب في شهواته، وعبودية الله عنه بمعزل، وإن كان يجرى عليه شيء منها في الظاهر، قال: وهذا باب من الولاية والإهانة. وأما الصِّدِّيقية العظمى، والولاية الكبرى، فالحظوظ والحقوق كلها سواء عند ذوي البصيرة؛ لأنه بالله فيما يأخذ ويترك. هـ.

الإشارة: العبد لا يستغني عن طلب الزيادة، ولو بلغ من الكمال غاية النهاية، فالقناعة من الله حرمان، واعتقاد بلوغ النهاية نقصان، فليس عليكم جناح أيها العارفون أن تبتغوا فضلا من ربكم زيادة في إيقانكم، وترقِّيا في معانيكم، إذ كمالات الحق لا نهاية لها، وأسرار الذات لا إحاطة بها، قال تعالى: ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ﴾. والله ولي التوفيق.

ثم ذكر الحق تعالى الوقوف بعرفة، والرجوع إلى المزدلفة والمشعر الحرام، فقال:

﴿... فَإِذَآ أَفَضۡتُم مِّنۡ عَرَفَٰتٖ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلۡمَشۡعَرِ ٱلۡحَرَامِۖ وَٱذۡكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمۡ وَإِن كُنتُم مِّن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٩٩﴾ فَإِذَا قَضَيۡتُم مَّنَٰسِكَكُمۡ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكۡرِكُمۡ ءَابَآءَكُمۡ أَوۡ أَشَدَّ ذِكۡرٗاۗ ...﴾

قلت: (أفضتُم): دفعتم، وأصل الإفاضة: الدفع بقوة، من فاض الماء إذا نبَع بقوة، ثم استُعمل في مطلق الاندفاع على سبيل المبالغة. و(عرفات) فيها الصرف وعدمه، كأذرعات. وسمي عرفات لقول إبراهيم الخليل عليه السلام لجبريل حين علّمه المناسك: قد عرفتُ. أو لمعرفة آدم حواء فيها. والكاف في (كما هداكم) تعليلية، و (ما) مصدرية، أي: واذكروه لأجل هدايته لكم. و (إن كنتم) مخففة، واللام فارقة، وقوله :(أو أشد) نعت لمصدر محذوف، أي: أو ذكرا أشد.. إلخ.

يقول الحق جل جلاله: فإذا وقفتم بعرفة، وأفضتم منها، فانزلوا المزدلفة وبِيتُوا بها، فإذا صليتم الصبح بغلس فقفوا عند ﴿المشعر الحرام﴾، وهو جبل في آخر المزدلفة، واذكروا الله عنده بالتهليل والتكبير والتلبية إلى الإسفار، هكذا فعل الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ، ﴿واذكروه﴾ لأجل ما هداكم إليه من معالم دينه ومناسك حجه، وغير ذلك من شعائر الدين، أو فاذكروه ذكراً حسنا كما هداكم هداية حسنة، وقد كنتم من قبل هذه الهداية ﴿لمن الضالين﴾.

وكانت قريش لا تقف مع الناس ترفعاً عليهم، بل تقف بالمزدلفة، فأمرهم الحق جل جلاله بالوقوف مع الناس، فقال لهم: ﴿ثم أفيضوا﴾ يا معشر قريش ﴿من حيث أفاض الناس﴾ بأن تقفُوا معهم، وتفيضوا من حيث أفاضوا، ﴿واستغفروا الله﴾ في تغييركم مناسك إبراهيم وإسماعيل ـ عليهما السلام ـ ﴿إن الله غفور﴾ لكم، ﴿رحيم﴾ بكم إن تبتم ورجعتم واتبعتم رسولكم. ﴿فإذا قضيتم مناسككم﴾ وفرغتم من حجكم ﴿فاذكروا الله﴾ ذكراً كثيرا ﴿كذكركم آباءكم﴾ أو ذكراً ﴿أشد ذكرا﴾ منهم، حيث كنتم تذْكُرونهم عند فراغ حجكم بالمفاخَرة، وكانوا إذا فرغوا من حجهم وقفُوا بمِنى، بين المسجد والجبل، فيذكرون مفاخر آبائهم، ومحاسن أيامهم، فأُمِروا أن

يُبدلوا ذلك بذكر الله، وذكر إحسانه إليهم، وشكر ما أسداه إليهم من مفاخر الدنيا والآخرة، إن آمنوا واتبعوا رسوله ﷺ.

الإشارة: إذا وَقَفَت القلوبُ على جَبَل عرفة المعارف، وتمكنْت من شهود جمال معاني تلك الزخارف، حتى صارت تلك المعاني هي روحَها وسِرّها، وإليها مآلهاً ومسيرُها، أُمرتْ بالنزول إلى أرض العبودية، والقيام بوظائف الربوبية، شكراً لما هداها إليه من معالم التحقيق، وما أبان لها من منار الطريق، وإن كانت من قبله لمن الضالين عن الوصول إلى رب العالمين. ثم يؤمرون بمخالطة الناس بأشباحهم، وانفرادهم عنهم بأرواحهم. أشباحُهم مع الخلق تسعى، وأرواحهم في الملكوت ترعى، فإذا وقع منهم ميل أو سكون إلى حسٍّ؛ فليستغفروا الله ﴿إن الله غفور رحيم﴾. ثم يقال لهم: فإذا قضيتم مناسككم، بأن جمعتم بين مشاهدة الربوبية في باطنكم، والقيام بوظائف العبودية في ظاهركم، فاذكروا الله على كل شيء، وعند كل شيء، وقبل كل شيء، وبعد كل شيء، حتى لا يبقى من الأثر شيء، كما كنتم تذكرون آباءكم وأبناءكم، في حال غفلتكم، بل أشد ذكرا وأعظم وأتم، والله ذو الفضل العظيم.

ثم بيَّن الحق تعالى مقاصد الناس، وهممهم في طلبهم وسعيهم، فقال:

﴿... فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنۡ خَلَٰقٖ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ حَسَنَةٗ وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ نَصِيبٞ مِّمَّا كَسَبُواْۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾﴾

يقول الحق جل جلاله في بيان مقاصد الناس وهممهم في طلبهم في الحج وغيره: ﴿فمن الناس﴾ من قصرت نيته وانحطت همته، ﴿يقول ربنا آتنا في الدنيا﴾ ما تشتهيه نفوسنا من حظوظها وشهواتها، وليس له ﴿في الآخرة من خلاق﴾ أي: نصيب، لأنه عجّل نصيبه في الدنيا. «إن الله يرزق العبد على قدر نيته» ﴿ومنهم﴾ من أراد كرامة الدنيا وشرف الآخرة ﴿يقول ربنا آتنا في الدنيا﴾ حالة ﴿حسنة﴾؛ كالمعرفة، والعافية، والمال الحلال، والزوجة الحسنة، وجميع أنواع الجمال، ﴿وفي الآخرة حسنة﴾؛ كالنظرة، والحُور العين، والقصور، وجميع أنواع النعيم، ﴿وقنا عذاب النار﴾ بالعفو والمغفرة، وقال سيدنا عليٌّ ـ كرّم الله وجهه ـ: (الحسنة في الدنيا: المرأة الصالحة، وفي الآخرة: الحوْراء. وعذاب النار في الدنيا: المرأة السوء) وقال الحسن: (الحسنة في الدنيا: العلم والعبادة، وفي الآخرة: الجنة). ﴿وقنا عذاب النار﴾: احفظنا من الشهوات والذنوب المؤدية إلى النار، وهذه كلها أمثلة للحالة الحسنة.

﴿أولئك﴾ الذين طلبوا خيرَ الدارَيْن ﴿لهم نصيب﴾ وحظٌ من الجزاء الوافر من أجلْ ما كسبوا من الأعمال الصالحات، ﴿والله سريع الحساب﴾ يحاسب عباده على كثرتهم، وكثرة أعمالهم، في مقدار لَمْحة. قيل لعليّ ﷺ: كيف يُحاسب اللهُ عباده في ساعة واحدة؟ فقال: كما يرزقهم في ساعة واحدة. هـ. أو يوشك أن يقيم القيامة ويحاسب عباده، فبادِروا إلى اغتنام الطاعات، واكتساب الحسنات، قبل هجوم الممات.

الإشارة: الناس ثلاثة: صاحب همة دَنِيَّة، و ذو همة متوسطة، وصاحب همة عالية، أما صاحب الهمة الدنية فهو الذي أنزل همته على الدنيا الدنية، وأكبَّ على جمع حطامها الفانية، فقلبُ هذا خالٍ من حب الحبيب، فما له في الآخرة من نصيب. وأما صاحب الهمة المتوسطة فهو الذي طلب سلامة الدارين، وصلاح الحالين، قد اشتغل في هذه الدار بما ينفعه في دار القرار، ولم ينسَ نصيبه من الدنيا لِيقْضِي ما له فيها من الأوطار، فهذا له في الدنيا حسنة، وهي الكفاية والغنى، وفي الآخرة حسنة، وهي النعمة والسرور والهنا.

وأما صاحب الهمة العالية فهو الذي رفع همته عن الكونَيْن، وأغمض طَرْفَه عن الالتفات إلى الدارين، بل علّق همته بمولاه، ولم يقنع بشيء سواه، قد ولي عن هذه الدار مغضيا، وأعرض عنها مُوليا، ولم يشغله عن الله شيء، يقول بلسان المقال إظهاراً لعبوديته للكبير المتعال: ﴿ربنا آتنا في الدنيا حسنة﴾ وهي النظرة والشهود، ورضا الملك الودود، ﴿وفي الآخرة حسنة﴾ وهي اللحوق بأهل الرفيق الأعلى، من المقربين والأنبياء، في حضرة الشهود المزيد ﴿ في مقعد صدق عند مليك مقتدر﴾. أتحفَنا الله من ذلك بحظٍّ وافر، بمنّه وكرمه، نحن وأحباءَنا أجمعين، آمين.

ثم تمّم الحق تعالى ما بقي من مناسك الحج؛ وهي رمي الجمار أيام منى، فقال:

﴿ ۞ وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ ۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ لِمَنِ اتَّقَىٰ ۗ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿واذكروا الله في أيام معدودات﴾ وهي ثاني النَّحْر وثالثُه ورابعُه، وهي أيام التشريق وأيام منى، وأما الأيام المعلومات فهي يوم النحر وثانيه وثالثُه. والمراد بالذِكْر: التكبيرُ عند الرمي، وذبح القَرَابين، وخلْفَ الصلوات الخمس، وغير ذلك، ﴿فمن تعجل في يومين﴾ بحيث رمَى ثانيَ النحر وثالثه، ورجع، ﴿فلا إثم عليه ومن تأخر﴾ لرمي رابع النحر، وهو ثالث أيام منى، ﴿فلا إثم عليه﴾، والقصد بنفي الإثم:

التخيير والرد على الجاهلية، فإنَّ منهم من أثَّم المتعجل، ومنهم من أثَّم المتأخر. هذا كله ﴿لمن اتقى﴾ الله في حجه، فلم يرفُث، ولم يفسُق، فإنه يخرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه، كما قال الصادق المصدوق، ﴿واتقوا الله﴾ في جميع أموركم، فإنه ذكرٌ وشرفٌ لكم، ﴿واعلموا أنكم إليه تحشرون﴾ فتجازَوْن على ما أسلفتم من خير أو شر.

الإشارة: الأيام المعدودات هي أيام الدنيا؛ فإنها قلائل معدودة، وهي كلها كيوم واحد، وأيام البرزخ يومٌ ثانٍ، وأيام البعث وما بعده يوم ثالث، فمن تعجل في يومين، بحيث طوى في نظره أيام الدنيا وأيام البرزخ، وسكن بقلبه في يوم القيامة فلا إثم عليه، وهذا هو صاحب الهمة المتوسطة، ومن تأخر حتى زَهد في الأيام الثلاثة، وعلق همته بمولاه، ولم يلتفت إلى ما سواه، فلا إثم عليه في ذلك التأخر، إن اتقى شهود السوى، وعلق همته بمحبة المولى، ثم حض سبحانه على هذه التقوى فقال: (واتقوا الله) فلا تشهدوا معه سواه، (واعلموا أنكم إليه تحشرون) فترَوْا ما فاز به المتقون.

ولمّا أمر الحق سبحانه عباده بالتقوى ذكر مَنْ لم يرفع بذلك رأساً واتبع هواه، ومن امتثل أمره وباع نفسه لله فقال :

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾ ﴾

قلت : نزلت الآية في الأخنَس بن شريق الثقفي وصُهيب بن سنان الرومي، أما الأخنس فكان رجلاً حسن المنظر، حلْو المنطق، كان يوالي رسول الله ﷺ ويدّعي الإسلام ، ثم ارتد، ومرّ على زرع وحُمر للمسلمين فقتلها وأفسد الزرع، قال ابن عطية: ولم يثبت أنه أسلم. قلت: بل ذكره في القاموس من الصحابة، فانظره، ولعله تاب بعد نزول الآية. وأما صهيب الرومي فأخذه المشركون وعذبوه ليرتد، فقال لهم: إني شيخ كبير؛ لا أنفعكم إن كنت معكم، ولا أضركم إن كنت عليكم، فخلوني وما أنا عليه، وخذوا مالي، فقبلوه منه، وأتى المدينة فلما رآه ﷺ قال له: «رَبِحتَ يا أبا يَحْيى» .

وقيل: نزلت في المنافقين ومَنْ نحا نحوهم، وفيمن باع نفسه لله في الجهاد وتغيير المنكر من المسلمين. و (في الحياة الدنيا) يتعلق بالقول، و (ألد الخصام) شديده، وفي الحديث: «أبْغَضُ الرِّجالِ إلى اللهِ الألدُّ الخَصِمِ». والخِصام: مصدر، أو جمع خصيم.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ومن الناس﴾ قوم حلْو اللسان خرَاب الجنَان، إذا تكلم في شأن الدنيا ﴿يعجبك قوله﴾ فيها لرونقه وفصاحته، ﴿ويُشهد الله﴾ أي: يحلف على أنه موافق لقلبه، وأن ظاهره موافق لباطنه، وهو شديد الخصومة والعداوة للمسلمين، أو أشد الخصوم، ﴿وإذا تولى﴾ أي: أدبر وانصرف عنك، ﴿سعى في الأرض﴾ أي: مشى فيها بنية الإفساد ﴿ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل﴾ كما فعل الأخنَس، أو كما فعله أهل الظلم، فيَحْبِسُ الله القَطْرَ، فَيَهْلِكَ الحرثُ والنسل بشؤم معاصيهم، ﴿والله لا يحب الفساد﴾ أي: لايرتضيه، فاحذروا غضبه. ﴿وإذا قيل له اتق الله﴾ وارجع عما أنت عليه من الفساد ﴿أخذته العزة﴾ أي: حملته الحمية والأنفة بسبب الإثم الذي ارتكبه، فلا ينزجر عن غيِّه. أو حملته الحمية على الإثم الذي يُؤمَر باتقائه. ﴿فحسبه جهنم﴾ أي: كفَتْه عذابا وعقابا، وهي علَمٌ لدار العقاب، كالنار، ﴿ولبئس المهاد﴾ هي، أي: بئس الفراش الذي مهّده لنفسه.

ونزل في مقابله، وهو صهيب، أو كل من بذل نفسه لله: ﴿ومن الناس من يشرى نفسه﴾ أي: يبيعُها ويبذلها لله في الجهاد وغيره، ﴿ابتغاء مرضات الله﴾ والوصول إلى حضرته ﴿والله رءوف بالعباد﴾ الذين يفعلون مثل هذا، فيدرأ عنهم المضارّ، ويجلبُ لهم المَسارّ أينما حلُّوا من الدارين.

الإشارة: الناس على قسمين: قسم زَيَّنُوا ظواهرهم وخرَّبوا بواطنهم، ظاهرهم جميل وباطنُهم قبيح، إذا تكلموا في الدنيا أو في الحس، أعجبك قولهم، وراقك منظرُهم، وإذا تكلموا في الآخرة، أو في المعنى، أخذتهم الحبْسةُ والدهشة. وفي بعض الكتب المنزلة: «إنَّ مِنْ عِبَادِ اللهِ قوما أَلْسِنَتُهُمْ أحْلَى مِنَ العَسَلِ، وقُلُوبُهُمْ أمرُّ مِنَ الصَّبِرِ، يَلْبَسُونَ للنَّاس جُلُودَ الضَّأنِ من اللِّينِ، يَجْتَرُّونَ الدُّنْيَا بالدِّين، يَقُولُ اللهُ تعالى: أبِي يَغْتَرُّونَ، وعليَّ يَجْتَرِئُونَ؟ حَلَفْتُ لأُسلطَنَّ عليهمْ فتْنَةً تَدَعُ الْحَلِيمَ مِنْهُمْ حيْرَانَ».

وقوله (يلبسون..) إلخ. كناية عن إظهار اللين والسهول ليخدع ويغر الناس ليتوصل إلى حظ نفسه من الدنيا، ومع ذلك يدعي موافقة ظاهره لباطنه، وهو شديد الخصومة لأهل الله، وإذا تولى عنك اشتغل بالمعاصي والذنوب، ليُفسد في الأرض، ويهلك الحرث والنسل بشؤم معاصيه، وإذا ذُكِّر: أنِفَ واستكبر، وأخذته حمية الجاهلية، فحسبُه البُعد في نار القطيعة.

والقسم الثاني: قوم زيّنوا بواطنهم وخربوا ظواهرهم، عمّروا قلوبهم بمحبة الله، وبذلوا أنفسهم في مرضات الله، قلوبهم في أعلى عليين، وأشباحهم في أسفل سافلين، فأولئك المقربون مع النبيين والمرسلين. قال بعض العارفين: كلما وضعت نفسك أرضاً أرضا، سما قلبك سماء سماء، وكل ما نقص من حسك زاد في معناك. وفي الحديث: «مَن تواضعَ دُون قَدْره رَفَعهُ الله فوقَ قَدْره». وبالله التوفيق.

ثم دعا الحق، تعالى عباده، إلى التوغل في الإسلام، فقال:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾ فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾ ﴾

قلت: (السلم)، بالفتح والكسر: هو الاستسلام والانقياد، ويبعد هنا تفسيره بالصُّلح. و (كافة): حال من الواو والسلم معا، كقوله تعالى: ﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ﴾.

يقول الحق جل جلاله: ﴿**يا أيها الذين آمنوا**﴾ بمحمد ﷺ من أهل الكتاب ﴿**ادخلوا في**﴾ شرائع الإسلام ﴿**كافة**﴾ بحيث لا تهملوا شيئا منها، ولا تلتفتوا إلى غيرها. نزلت في عبدالله بن سلام وأصحابه، حيث دخلوا في الإسلام، وأرادوا أن يُعظّموا السبت، وتحرجوا من لحوم الإبل. أو في المنافقين حيث أسلموا في الظاهر، ونافقوا في الباطن، فقال لهم الحق جل جلاله: ﴿**يا أيها الذين آمنوا**﴾ في الظاهر، ادخلوا في الإسلام ﴿**كافة**﴾ ظاهرا وباطنا. أو في المسلمين يأمرهم بالتمسك بشرائع الإسلام كلها، والبحث عن أحكامها وأسرارها، ﴿**ولا تتبعوا خطوات الشيطان**﴾ أي: طُرُقَه الدالة على التفريق والتفرق؛ ﴿**إنه لكم عدو مبين**﴾ أي: بيِّن العداوة.

﴿**فإن زللتم**﴾ عن طريق الجادّة؛ ففرقتم بين أجزاء الشريعة، أو التفتّم إلى غير شريعتكم، ﴿**من بعد ما جاءتكم**﴾ الآيات ﴿**البينات**﴾ الدالة على صحة الدين ونبوة محمد ﷺ، ﴿**فاعلموا أن الله عزيز**﴾ أي: غالب لا يُعجزه عقابكم، ﴿**حكيم**﴾ في إمهاله إلى وقت معلوم.

الإشارة: أمر الحق جل جلاله جميعَ عباده بالصلح معه والاستسلام لأحكامه، بحيث لا يَصْدُر منهم نِزَاعٌ لأحكامه، ولا اعتراض على أفعاله، بل ينظرون ما يبرز من عنصر القدرة، فيتلقونه بالرضى والتسليم، أو الصبر والتصبر، سواء ظهرت هذه الأفعال على أيدي الوسائط أو بلا وسائط، إذ لا فاعل سواه، وكلٌّ من عند الله، فإن

زللتم واعترضتم، أو سخطتم «من بعد ما جاءتكم الآيات البينات الدالة على وحدانية الحق في ذاته وصفاته وأفعاله، فاعلموا أن الله عزيز حكيم، لا يعجزه عقوبتكم وإبعادكم، لكنه من حكمته يُمهل ولا يهمل، والله غالب على أمره، ومن تاب تاب الله عليه.

ثم ذكر وعيد من خالف أمره، فقال:

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾ ﴾

قلت: (الظُّلَل): جمع ظُلَّة، وهي ما أظلَّك من فوق، و (الغَمام): السحاب الرقيق الأبيض.

يقول الحق جل جلاله: ما ينتظر هؤلاء الممتنعون من الدخول في شرائع الإسلام ـ إلا أن تقوم الساعة، ويأتيهم الله للفصل بين عباده ﴿في ظلل من الغمام﴾ بأن يتجلى لعباده على ما يليق بجلاله؛ إذ تجليات الحق لا تنحصر. وتأتيهم ﴿الملائكة﴾ تحيط بهم ﴿وقضى الأمر﴾ بعذابهم، ﴿وإلى الله ترجع الأمور﴾ كلها، فهو المتصرف وحده. وقد ذكر المنذري حديث هذا التجلي بطوله، وذكر فيه النزول والفصل بين عباده، والمرور على الصراط، والناس في أنوار إيمانهم. وذكره الفاسي في الحاشية بتمامه. ومن كحل عين بصيرته بإثمد[1] التوحيد الخاص، لم يُستَصْعَبْ عليه فَهْمُ هذا الحديث وأمثاله؛ لسعة دائرة معرفته. والله تعالى أعلم.

الإشارة: في الآية تهديد لأهل الحجاب الذين لم يتحققوا بالصلح مع الله، بل هم يخاصمون الله في مظاهر خلقه، ويعترضون على الله في قضائه وحكمه، فقال لهم الحق جل جلاله: هل ينتظر هؤلاء المنكرون عليَّ في أفعالي، المعترضون عليَّ في حكمي وإبرامي ـ إلا أن أتعرف لهم في ظُلَل من الغمام، وهو سحب الآثار، فإذا أنكروني أخذتهم الملائكةُ، وقضى الأمر بهلاكهم، وإلى الله تُرجع الأمور كلها، فليلتزم العبد الأدب مع مولاه، وليُسلم الأمور كلها إلى الله، إذ لا موجود سواه[2]، فما برز من العباد: كله من الله، فمن اشتغل بعتابهم فاته الأدب مع الله، إلا ما أمرتْ به الشريعة، فليكن في ذلك كالعبد يُؤدب ابنَ سيده؛ يده تؤدب وقلبه يعظم، والله تعالى أعلم وأرحم.

---

(١) الإثمد: حجر يتخذ منه الكحل. وقيل: هو نفس الكحل.
٢) أي: لا موجود بحق.

ثم هدّد بني إسرائيل على عدم دخولهم في الإسلام، أو على عدم تمسكهم بشرائعه كلها، فقال :

﴿ سَلْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍۗ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢١١﴾ ﴾

قلت : (كم) خبرية، أو استفهامية، محلها نصب بفعل محذوف يُقدر مؤخراً للصدرية، أي: كم آياتنا آتيناهم، أو رفع بالابتداء، والعائد محذوف، أي: آتيناهموه.

يقول الحق جل جلاله لرسوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ أو لكل سامع: ﴿**سل بني إسرائيل**﴾ سؤال تقريع، وقل لهم: ﴿**كم آتيناهم من آية بينة**﴾ أي: كثيرا ما آتيناهم من آية واضحة في شأنك، تدل على صدق رسالتك وعلو شأنك وفخامة أمرك، اعتناء بأمرهم، ونعمة على مَنْ أدرك زمانك منهم. ثم إنهم بدلوا نعمة الله كفراً، وجحدوا فكتموا تلك النعمة وكفروها، ﴿**ومن يبدل نعمة الله**﴾ من بعد مجيئها إياه، ﴿**فإن الله شديد العقاب**﴾ لمن كفر نعمه وجحد رسله، نعوذ بالله من السلب بعد العطاء، ومن كفران النعم، وحرمان الرضا.

الإشارة: ما قيل لبني إسرائيل، يقال لمن تحقق بولاية ولي من أولياء الله، ثم جحدها وكتمها، وحرم نفسه بركة ذلك الولي، فمات على مرضه، فيقال له: ﴿**ومن يبدل نعمة الله من بعد ما جاءته فإن الله شديد العقاب**﴾. وعقوبته: أن يلقى الله بقلب سقيم، فيُبعث مع عوام أهل اليمين، ويُحرم درجة المقربين، التي تلي درجة النبيين والمرسلين. عائذاً بالله من الحرمان، وشُؤم عاقبة الخذلان.

ثم ذكر الحق جل جلاله سبب هذا الحرمان، وهو حب الدنيا، فقال:

﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾ ﴾

قلت : (زُين) مبني للمفعول، والفاعل هو الله، إذ لا فاعل سواه.

يقول الحق جل جلاله: ﴿**زين للذين كفروا**﴾ من أهل الكتاب وغيرهم، ﴿**الحياة الدنيا**﴾ أي: حُسِّنَتْ في أعينهم، وأشربت محبتها في قلوبهم، حتى تهالكوا عليها، وأعرضوا عن غيرها، فلم تتفرغ قلوبهم للتفكر والاعتبار، ولم تستمع آذانهم للوعظ والتذْكار، بل أعمتهم، وأصمتهم، وقصروا عليها همتهم، حتى جعلوا يسخرون ممن أعرض عنها، كفقراء المسلمين وأهل الصفة، فكانوا يستهزئون بهم، حيث رفضوا الدنيا وأقبلوا على الله، فرفعهم الله

فى أعلى عليين، ويخفض الكفار فى أسفل سافلين. فهم يسخرون منهم فى دار الدنيا ﴿والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة﴾ لأنهم فى عليين، والآخرون فى أسفل سافلين. أو لأنهم فى كرامة، والآخرون فى مذلة. أو لأنهم يسخرون منهم يوم القيامة كما سخروا منهم فى الدنيا.

وعبَّر بالتقوى لأنها سبب رفعهم واستعلائهم. وأما استهزاؤهم بهم لأجل فقرهم، فإن الفقر شرف للعبد، والبسط فى الدنيا لا يدل على شرفه؛ فقد يكون استدراجاً، وقد يكون عوناً، فالله ﴿يرزق من يشاء بغير حساب﴾، أى بغير تقدير، فيوسع فى الدنيا استدراجاً وابتلاء، ويقتر على من يشاء اختباراً وتمحيصاً، ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾.

الإشارة: اعلم أن عمل أهل الباطن كله باطني قلبي، بين تفكر واعتبار، وشهود واستبصار، أو نقول: بين فكرة ونظرة وعكوف في الحضرة، فلا يظهرون من أعمالهم إلا المهم من الواجبات، ولذلك قال بعضهم: إذا وصل العمل إلى القلوب استراحت الجوارح، (ومعلوم أن الذرة من أعمال القلوب أفضل من أمثال الجبال من أعمال الجوارح)(١)؛ لأن أعمال القلوب خفية، لا يطلع عليها ملك فيكتبها، ولا شيطان فيفسدها، الإخلاص فيها محقق وأيضا: «تفكر ساعة أفضل من عبادة ستين سنة». وسئل - عليه الصلاة والسلام - : «أيُّ الأَعْمَالِ أَفْضَلُ؟ قال العلْمُ بالله. قيلَ: يا رسُولَ الله سأَلْنَاكَ عن العَمَلِ؟ فقال: العلمُ بالله، ثم قال ﷺ: إذا حَصَلَ العلمُ بالله كفَى قليلُ العَمَلِ». أو كما قال عليه الصلاة والسلام، فلما خفيت أعمال أهل الباطن سخر منهم أهل الظاهر، واستصغروا شأنهم؛ حيث لم يروا عليهم من الأعمال ما رأوا على العُبَّاد والزُّهاد. والذين اتقوا شهود ما سوى الله؛ أو كل ما يشغل عن الله، فوقهم يوم القيامة؛ لأنهم من المقربين وغيرهم من عوام المسلمين، والله يرزق من يشاء في الدارين بغير حساب، أي: بغير تقدير ولا حصر، فيرزق العلوم، ويفتح مخازن الفهوم على من توجه إلى مولاه، وفرغ قلبه مما سواه. وبالله التوفيق.

ثم ذكر الحق تعالى حكمة بعثه الرسل، فقال:

﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ

(١) عزاه السراج الطوسي في اللمع إلى أبي سليمان الداراني. وقال السراج موضحاً معناه: هذا الذي قال أبو سليمان يحتمل معنيين، أحدهما: أنه أراد بذلك استراحت الجوارح من المجاهدات والمكابدات من الأعمال، إذا اشتغل بحفظ قلبه ومراعاة سره من الخواطر المشغلة والعوارض المذمومة التي تشغل قلبه عن ذكر الله تعالى. ويحتمل أيضا أنه أراد بذلك: أن يتمكن من المجاهدة، والأعمال والعبادات وتصير وطنه حتى يستلذها بقلبه ويجد حلاوتها، ويسقط عنه التعب ووجود الألم الذي كان يجد قبل ذلك.

لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٢١٣) ﴾

قلت: (فبعث) معطوف على محذوف، أي: فاختلفوا فبعث، و (بغيا): مفعول له، و (من الحق) بيان (لما).

يقول الحق جل جلاله: ﴿كان الناس﴾ في زمن آدم عليه السلام وما قرُب منه ﴿أمة واحدة﴾ أي: جماعة واحدة، متفقة على التوحيد، والطاعة، فاختلفوا بعد ذلك في أمر التوحيد، ﴿فبعث الله النبيين مبشرين﴾ لأهل التوحيد والطاعة بالنعيم المقيم، ﴿ومنذرين﴾ أي: مخوفين لأهل الكفر والعصيان بالعذاب الأليم.

﴿وأنزل معهم الكتاب﴾ أي: جنس الكتب، فيشمل الكتب السماوية كلها، متلبساً ذلك الكتاب ﴿بالحق﴾، ودالا عليه ﴿ليحكم﴾ الحق تعالى على لسان الرسل ﴿بين الناس﴾ في الأمر الذي ﴿اختلفوا فيه﴾ من أمر التوحيد وغيره. ثم اختلفوا أيضا في الكتب المنزلة؛ فبعضهم آمن، وبعضهم كفر بها أو ببعضها، ﴿وما اختلف فيه﴾ أي: في الكتاب المنزل، ﴿إلا الذين أوتوه﴾ حسداً أو كبراً؛ فاليهود آمنوا بالتوراة وكفروا بالإنجيل، والنصارى آمنوا بالإنجيل وكفروا بالتوراة، ﴿من بعد ما جاءتهم﴾: الآيات الواضحات في صحة ذلك الكتاب الذي كفروا به، والأمر بالإيمان به.

وإنما وقع ذلك الكفر منهم ﴿بغيا﴾ وحسداً ﴿بينهم﴾، فأنزل الله العلم ليجمعهم ويؤلف بينهم على طاعته، فأمرهم أن يتآلفوا بالعلم، فتحاسدوا، واختلفوا طلباً للرئاسة والجاه، ﴿فهدى الله الذين آمنوا﴾ بمحمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ للأمر الذي اختلف فيه أهل الكتاب، وهو الحق الذي جاءت به الرسل، فآمنوا بالجميع، وتآلفوا على طاعة الله ﴿بإذنه﴾ وإرادته، ﴿والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾، ويضل من يشاء عن طريقه القويم، ﴿ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴾.

الإشارة: الأصل في الأرواح كلها: الاتفاقُ والإقرار، وإنما حصل لها الخلاف والإنكار بعد دخولها في عالم الأشباح، وهبوطها من عالم الأرواح، فبعث الله النبيين يُذكّرون الناس العهدَ القديم، فمن سبقت له السعادة حصل له الإقرار، ومن سبق له الشقاء حصل له الإنكار، ولذلك قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ على الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ» . ثم بعث الله الحكماء، وهم العارفون بالله، يعالجون ما حصل

للروح من الجهل والإنكار، فمن سبقت له العناية آمن بهم، وصدقهم، واستسلم بكليته إليهم، فحصل له الوصول، وبلغ كل المأمول، ومن سبق له الحرمان لم يحصل له بهم إيمان، وبقى دائماً فى قلبه حيران.

وما وقع هذا الإنكار فى الغالب إلا من أهل الرئاسة والجاه، أومن كان عبدا لدنياه وهواه، بغيا وحسدا منهم، فهدى الله الذين آمنوا ـ وهم أهل الفطرة والنية ـ لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه، فحصل لهم التصديق، ووصلوا إلى عين التحقيق، ﴿والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم﴾ وهو طريق الوصول إلى الحضرة القدسية التى كانت مقراً للأرواح الزكية، منها جاءت وإليها عادت. وفى ذلك يقول ابن البنا رضي الله عنه:

وَهَذِهِ الحَقِيقَةُ النَّفْسِيَّةْ مَوْصُولةٌ بالحَضْرةِ القُدْسِيَّةْ
وإنَّمَا يَعُوقُهَا المَوْضُوعُ وَمِنْ هُنَا يُبْتَدأُ الطُّلُوعُ

ولمّا كانت المحبة والهداية إلى أسبابها مقرونتين بالبلاء ذكره الحق تعالى بإثر الهداية، فقال:

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾ ﴾

قلت: «أم» منقطعة بمعنى بل، وتتضمن استفهاما إنكاريا، و«حسب» تتعدى إلى مفعولين، أى: أظننتم دخول الجنة حاصلا من غير أن يأتيكم؟. و (لما) أصلها (لم) زيدت عليها «ما»: وهى تدل على توقع منفيها بخلاف لم. و (حتى يقول) يصح فيه النصب بتقدير (أن)؛ لأن الزلزلة متقدمة على قول الرسول، والرفع على حكاية الحال، أى: وزلزلوا حتى حالتهم حينئذ أن الرسول ومن معه يقولون كذا وكذا. وفائدة الحكاية: فرض ما كان واقعاً فى الزمان الماضى واقعاً فى هذا الزمان، تصوراً لتلك الحال العجيبة، واستحضاراً لصورتها فى مشاهدة السامع، وإنما وجب رفعه عند إرادة الحال؛ لأن نصبه يؤدى إلى تقدير (أن)، وهى للاستقبال، والحال يُنافيه، ويصح فى موضع «حتى» الداخلة على الحال الفاء السببية.

يقول الحق جل جلاله للرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ والمؤمنين، تسلية لهم وتشجيعا لقلوبهم: أظننتم أن تدخلوا الجنة ولمّا يُصبكم مثلُ ما أصاب مَنْ قبلَكم من الأنبياء وأممهم، فقد ﴿مستهم البأساء﴾ فى أموالهم بالغصب والنهب والموت ﴿والضراء﴾ فى أبدانهم بالقتل فى الحرب والمرض وأنواع البلاء، ﴿وزلزلوا﴾ أى: ضُربوا بالمحن والشدائد، وطال عليهم البلاء، وتأخر عنهم النصر، حتى أفضى بهم الحال إلى أن قالوا: ﴿متى﴾ يأتينا ﴿نصر الله﴾؟ استبطاء لمجيئه مع شدة البلاء.

قال الحق جل جلاله بشارةً لهم: ﴿أَلا إن نصر الله قريب﴾ فلا تستعجلوا، ﴿وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

الإشارة: الجنة حفت بالمكاره، ولا فرق بين جنة الزخارف وجنة المعارف، فمن رام دخول جنة المعارف قبل أن يمسه شيء من المكاره، فقد رام المحال. قال أبو المواهب: من ادعى شهود الجمال، قبل تأدبه بالجلال، فارفضه فإنه دجال. وقال بعض العارفين: [صيحة العدو سوط الله يزجر به قلوب أوليائه لئلا تسكن إلى غيره]. وفي الحكم: «إنما أجْرَى الأذى عليهم كي لا تكونَ ساكناً إليهم، أراد أن يزعجك عن كل شيء حتى لا تكون ساكناً إلى شيء». وقال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه: [اللهمّ إنّ القوم قد حكَمْتَ عليهم بالذل حتى عزُّوا، وحكمت عليهم بالفقْد حتى وَجَدُوا]. فتسليط الخلق على أولياء الله في بدايتهم سنة ماضية، وحكمة إلهية، ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً﴾.

حتى إذا تخلصوا من البقايا، وكملت فيهم المزايا، نشر فضيلتهم لعباده، فأقروهم ليُعرفُوهم الطريق إلى الله، ويدلوا العباد على الله، بعد أن كساهم حينئذ كُسوة الجمال وكسوة الجلال، فبكسوة الجمال يقع الائتلاف عليهم والعطف لهم، وبكسوة الجلال يقع الامتثال لأمرهم والاستماع لقولهم. والله تعالى أعلم.

ولمّا أمر الحق تعالى بالنفقة في الجهاد وغيره، سألوا ما الذي ينفقون؟، فبيَّن الله تعالى لهم المنفَق والمحل الذي تُدفع فيه، فقال:

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾ ﴾

قلت: (ماذا) إما مفعول (يُنفقون)، أو مبتدأ وخبر بحذف العائد، أي: ما الذي ينفقونه، والسائل هو عمرو بن الجُموح، كان ذا مال فقال: يا رسول الله، ماذا ننفق من أموالنا، وأين نضعها؟ فنزلت الآية.

يقول الحق جل جلاله: ﴿يسألونك﴾ يا محمد ﴿ماذا ينفقون﴾ من أموالهم؟ ﴿قل﴾ لهم: ﴿ما أنفقتم من خير﴾ أيَّ خير كان، ذهبًا أو فضة أو طعامًا أو ثياباً أو حيواناً أو غير ذلك، فادفعوه للأهمّ فالأهم؛ كالوالدين والأقربين؛ لأن فيهم الصلة والصدقة، ﴿واليتامى﴾ الذين مات آباؤهم؛ لهضم حالهم، ﴿والمساكين﴾؛ لضعفهم، ﴿وابن السبيل﴾؛ لغربته واحتياجه إلى ما يُبلّغه إلى وطنه، ﴿وما تفعلوا من خير﴾ يجازيكم به الله، فلا يخفى عليه شيء من أحوالكم، وهذه النفقة غير الزكاة، فلا نسخ في الآية. والله تعالى أعلم.

الإشارة: الإنفاق على قسمين: حسيّ ومعنوى، الإنفاق الحسى هو بذل الأموال والفلوس، والإنفاق المعنوى هو بذل الأرواح والنفوس، فمن بذل أمواله لله عوضه الله جنة الزخارف، ومن بذل نفسه لله عوضه الله جنة المعارف، ومن دخل جنة المعارف لا يشتاق إلى جنة الزخارف، وكما أن لنفقة الأموال محلاً تُصرف فيه، كما ذكره الحق تعالى هنا، كذلك لنفقة النفوس محل تصرف فيه؛ وهو خدمة الشيوخ العارفين بالله، والإخوان الذين يستعين بهم على الوصول إلى الله، وكذلك من احتاج إليه من اليتامى الذين لا شيخ لهم، فيرشدهم وينصحهم، والمساكين الضعفاء الذين لا قدرة لهم على مجاهدة نفوسهم، فيقويهم بحاله أومقاله، والغريب الذى انفرد عن الإخوان، ولم يجد ما يستعين به على سيره فيرشده إلى الصحبة والاجتماع بأهل المحبة، وإلى هذا المنزع أشار الشيخ أبو مدين رضي الله عنه:

وَبِالتَّغنِّــى عَلَى الإِخْـــوَانِ جُدْ أَبَدًا حِسًّا ومعنًى، وغُضَّ الطَّرْفَ إنْ عَثَرَا

ولمّا ذكر الحق جل جلاله قواعد الإسلام، وهى الصلاة والزكاة والصوم والحج، بعد أن أشار إلى كلمة التوحيد بقوله: ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾، ذكر الجهاد ـ الذى هو حفظ نظامه ـ فقال:

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ ﴾

قلت: الكره ـ بالضم ـ: اسم لما يَشُقُّ على النفس، وبالفتح المَصْدَر.

يقول الحق جل جلاله: فُرِض عليكم الجهاد، وهو شاق عليكم، تكرهه نفوسكم ،وفيه خير كبير لكم، ﴿وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم﴾، ففى الجهاد نصر دينكم، وإعلاء كلمة إسلامكم، والغنيمة والظَّفَرُ بعدوكم، والأجر الكبير عند ربكم، من مات كان شهيداً، ومن عاش عاش سعيداً، وكذلك بقية التكاليف، فإن النفس تكره الإقدام عليها، وهى مَنَاط صلاحها، وسبب فلاحها، ﴿وعسى أن تُحبوا شيئا وهو شر لكم﴾ فقد تحبون الراحة وترك الجهاد وفى ذلك ذُلُّكُمْ، وظهورُ العدو عليكم، وفوات الأجر من ربكم، وحرمان درجة الشهادة عند ربكم. وكذلك جميع المنهيات؛ فإن النفس تحبها بالطبع، وتَشْرَه إليها، وهى تُفضى بها إلى ذلها وهوانها، وعبَّر الحق سبحانه بعسى؛ لأن النفس إذا ارتاضت انعكس الأمر عليها، فيخف عليها أمر الطاعة، ويصعب عليها أمر المخالفة، ﴿والله يعلم﴾ ما فيه مصلحتكم، ﴿وأنتم لا تعلمون﴾؛ لجهلكم بعواقب أموركم.

الإشارة: الجهاد على قسمين: جهاد أصغر وهو جهاد السيف، وجهاد أكبر وهو جهاد النفس، فيجاهدها أولا فى القيام بجميع المأمورات، وترك جميع المنهيات، ثم يجاهدها ثانيًا فى ترك العوائد والشهوات، ومجانبة الرخص والتأويلات، ثم يجاهدها ثالثًا فى ترك التدبير والاختيار، والسكون تحت مجارى الأقدار، حتى لا تختار إلا ما أختار الحق تعالى لها، ولا تشتهى إلا ما يقضى الله عليها، فإن النفس جاهلة بالعواقب، فعسى أن تكره شيئًا وهو خير لها، وعسى أن تحب شيئًا وهو شر لها.

فعسى أن تأتيها المسار من حيث تعتقد المضارّ، وعسى أن تأتيها المضار من حيث ترجو المسار، وعسى أن تنتفع على أيدي الأعداء، وعسى أن تضر على أيدي الأحباء، وعسى أن تكره الموت وهو خير لها، وعسى أن تحب الحياة وهي شر لها، فالواجب تسليم الأمور إلى خالقها، الذى هو عالم بمصالحها، ﴿والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾، وهذا كله قبل تصفيتها وكمالها، وأما إذا تهذبت وكملت رياضتها، فالواجب اتباع ما يتجلى فيها، إذ لا يتجلى فيها إلا الحق، وهذا هو ثمرة الجهاد الأكبر، وأما الجهاد الأصغر فلا يحصل شيء من هذا، فلذلك كان مفضولا عند أهل الجهاد الأكبر(١). وبالله التوفيق.

ولما كان القتال محرما فى الأشهر الحرم فى أول الإسلام، ووقع من بعض الصحابة، فندموا وتحرجوا، أزال الله ذلك الحرج عنهم، فقال:

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ
(٢١٧) إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢١٨) ﴾

قلت: (قتال): بدل اشتمال من (الشهر الحرام)، وقد وقع خبط فى عطف (المسجد الحرام)، والصواب: ما قاله الزمخشرى وابن عطية أنه عطف على (السبيل)؛ إذ هو المتبادر من جهة المعنى، أى: وصد عن سبيل الله وعن المسجد الحرام أكبر جرماً من قتل السَّرية فى الشهر الحرام، والقواعد النحوية إنما هى أغلبية.

(١) لا يعنى هذا الغض من جهاد أعداء الدين، وقد كان للصوفية فيه دور كبير مهم..

يقول الحق جل جلاله : ﴿يسألونك﴾ يا محمد ﴿عن الشهر الحرام﴾ أى: عن القتال فى الأشهر الحرم، ﴿قل﴾ لهم: القتالُ فى الشهر الحرام أمره ﴿كبير﴾، لكن ما وقع من الكفار من صد الناس ﴿عن سبيل الله﴾ أى: منعهم من الإسلام والطاعة، وكذلك كفرهم بالله وصدهم المسلمين عن ﴿المسجد الحرام﴾ عام الحديبية، وإخراج المسلمين من مكة التى هى بلدهم ـ ﴿والفتنة﴾ التى هم فيها من الكفر، وافتتان الناس عن دينهم ـ ﴿أكبر﴾جرمًا من القتال الذى وقع فى الشهر الحرام تأويلاً وظناً أنه لم يدخل الشهر الحرام.

وذلك أن النبى ﷺ بعث سريةً وأمَّر عليها عبدالله بنَ جَحْش فى آخر جُمَادى الآخرَة، فلَقُوا عمرو بن الحضرمى، مع أناس من قريش، بعد غروب الشمس من جمادى الآخرة، فرموا عمراً فقتلوه، وأخذوا الغنيمة، فقال لهم عليه الصلاة والسلام: «لم آمركم أن تقتلوا فى الشهر الحرام» فندموا، وبعثت قريش بالعتاب للنبى ﷺ : كيف تستحل القتال فى الشهر الحرام؟ فنزلت هذه الآية. ثم نسخ تحريم القتال فى الأشهر الحرم بقوله تعالى: ﴿ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً ﴾.

ثم قال الحق جل جلاله فى التحذير من الكفار: ﴿ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا﴾، لكن لا يطيقون ذلك، ﴿ومن يرتدد منكم عن دينه﴾ ويستمر عليه حتى يموت ﴿وهو كافر فأولئك حبِطَتْ أعمالهُم فى الدنيا﴾ فلا حرمة له، ولا نصيب له فى الفيء والغنيمة، وفى ﴿الآخرة﴾ فلا يرى لها ثواباً، ﴿وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾.

ومفهوم الآية: أنه إن رجع قبل الموت لا يحبِّط عملُه، وهو قول الشافعي. وقال مالك: يحبط أجر كل ما عمل، ويعيد الحج، إن تقدم على الردة، ويقبل منه الإسلام إن رجع، فإنْ لم يرجع أُمهل ثلاثة أيام، ثم يقتل.

ولمَا نزلت الآية فى إسقاط الحرج، ظنوا أنه لا أجر لهم فى ذلك الجهاد، فأنزل الحق جل جلاله: ﴿إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا فى سبيل الله أولئك يرجون رحمت الله﴾ أى ثوابه، ﴿والله غفور﴾ لهم ﴿رحيم﴾ بهم، فلا يضيع جهادهم فى هذه السريّة، وأعاد الموصول لتعظيم شأن الهجرة والجهاد، وعبَّر بالرجاء إشعارا بأن العمل غير موجب للثواب، وإنما هو عبودية، والأمر بيد الله؛ إن شاء أثاب وإن شاء عاقب، ﴿ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴾.

الإشارة: تعظيم الزمان والمكان يكون بقدر ما يقع فيه من طاعة الملك الديان، فالزمان الذى تهب فيه نفحات القبول والإقبال، لا ينبغي أن يقع فيه ملاججة ولا قتال، وهو وقت حضرة الذكر، أو التذكير، أو الجلوس مع

العارفين أهل الإكسير، فسوء الأدب فيه أمره كبير، ومنع القاصدين من وصوله جُرمه كبير، وصد القلوب عن نفحات تلك الحضرة أكبر من كل كبير، ولا يزال قُطَّاعٌ هذه الطريق يردون من أراد سلوكها على التحقيق، لكن من سبق له التأييد لا يرده عن الحق جبار ولا عنيد، ومن سبق له الحرمان، وحكَم عليه القضاءُ بالخذلان، رجع ولو بعد العيان، وأنشدوا :

واللهِ مــــا تَشْكُرْ خَلِيعْ وإنْ ثَمِلْ. وإن صَـــحَـــا
وإن ثَبَتْ، سَــيْــرٌ سَــرِيعْ وإن شَــرِبْ حَــتَّى امْــتَــحَــا
حَــتى يُقَطَّعْ فى القَطِيعْ ويَدُورْ دَوْرَ الرَحَـــا(١)

إن الذين آمنوا وصدَّقوا بطريق الله، وهاجروا أهواءهم فى مرضاة الله، وجاهدوا نفوسهم فى محبة الله، أولئك يرجون رحمة الله، فلا يُخيبهم الكريم؛ لأنه غفور رحيم.

ولمّا كان الخمر حلالاً في أول الإسلام ، وكانوا يشربونه، ويتجرون فيه، فيتصدقون بثمنه وبثمن القمار، بيَّن الحق تعالى ذلك، بعد الأمر بالإنفاق؛ لئلا يقع التساهل في المعاملة بعلّة الصدقة، فقال :

﴿ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ... ﴾

قلت: الخمر في اللغة: ما يستر الشيء ويغطيه، ومنه: خمار المرأة، وسُمّي الخمر خمراً لستره العقلَ. وفى الاصطلاح: ما غيَّب العقل دون الحواس مع النَّشوة والطرَب. وقال رسول الله ﷺ: «كُلُّ مُسْكِرٍ خَمْرٌ وكُلُّ خَمْرٍ حَرَامٌ».

والميسر: قال ابن عباس والحسن: كل قمار ميسر، من شطرنج ونرْد ونحوه، حتى لَعِبِ الصبيان بالجوْز والكِعَاب، إذا كان بالفلوس، وسمي ميسراً لِيُسْر صاحبه بالمال الذي يأخذه، وأما إذا كان بغير عِوض، إنما هو لَعِبٌ فقط، فلا بأس. قاله ابن عرفة.

يقول الحق جل جلاله: ﴿يسألونك عن﴾ حكم ﴿الخمر والميسر قل﴾ لهم: ﴿فيهما إثم كبير﴾ أي: عظيم لما فى الميسر من أكل أموال الناس بالباطل، وما ينشأ عنه من العداوة والشحناء، وما فى الخمر من إذهاب العقل والسباب والافتراء والإذاية، والتعدّي الذى يكون من شاربه. وقرأ حمزة والكسائى: ﴿كثير﴾ بالمثلثة، أى: آثام كثيرة؛ لقوله عليه الصلاة والسلام: «لَعَنَ اللهُ الخَمْرَ ، وبَائِعَهَا ، ومُبْتَاعَهَا، والمُشْتَرَاة لَهُ، وعَاصِرَهَا، والمَعْصُورَة لَهُ،

---

(١) زجل للششترى.

وساقيها، وشاربها، وحاملها، والمحمولة له، وآكل ثمنها. فهذه آثام، وفيها ﴿منافع للناس﴾ أي: منافع دنيوية؛ ككسب المال بلا تعب، وإطعام الفقراء من كسبه، كما كانت تصنع العرب في الميسر، وفي الخمرة اللذة والنشوة، كما قال حسان رضي الله عنه:

وَنَشْرَبُهَا فَتَتْرُكُنَا مُلُوكًا وَأُسْدًا لا يُنَهْنِهُنَا اللِّقَاءُ(١)

﴿وإثمهما أكبر من نفعهما﴾؛ لأن منفعتهما دنيوية، وعقوبة إثمهما أخروية، وهذه الآية نزلت قبل التحريم. روي أنه لما نزل بمكة قوله تعالى: ﴿ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكراً ورزقاً حسناً﴾، أخذ المسلمون يشربونها، ثم إن عمر ومعاذاً في نفر من الصحابة، قالوا: أفتنا يا رسول الله في الخمر؛ فإنها مُذهبة للعقل، فنزلت هذه الآية، فشربها قوم وتركها آخرون، ثم دعا عبدُالرحمن بن عوف ناساً إلى داره، فشربوا وسكروا، ثم قام يصلي بهم فقرأ: (قل يا أيها الكافرون أعبد ما تعبدون)؛ من غير نفي، فنزلت: ﴿.. لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى...﴾ فاجتنبوها في أوقات الصلاة. ثم دعا عتبان بن مالك سعدَ بن أبي وقاص في جماعة، فلما سكروا افتخروا وتناشدوا، فأنشد سعدٌ شعراً فيه هجاء الأنصار، فضربه أنصاري بلحي بعير فشجَّه، فشكى إلى رسول الله ﷺ، فقال عمر: اللهم بيِّن لنا في الخمر بياناً شافياً، فنزلت ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ...﴾ إلى قوله ﴿... فَهَلْ أَنْتُم مُّنتَهُونَ﴾ فقال عمر: قد انتهينا يا رب. هـ.

ولما شربها بعض الناس بعد التحريم، كان ـ عليه الصلاة والسلام ـ يضرب فيها بالنعال والجريد، ضرباً غير محدود، وضرب أبو بكر وعمر أربعين، وأول من حد فيها ثمانين سيدنا عثمان(٢)، لما تهافت الناس فيها. والله تعالى أعلم.

الإشارة: اعلم أن الحق تعالى جعل للعقل نوراً يُميز بين الحق والباطل، بين الضار والنافع، وبين الصانع والمصنوع، ثم إن هذا النور قد يتغطى بالظلمة الطينية؛ وهي نشوة الخمر الحسية. وقد يتغطى أيضا بالأنوار الباهرة من الحضرة الأزلية إذا فاجأته، فيغيب عن الإحساس في مشاهدة الأنوار المعنوية، وهي أسرار الذات الأزلية، فلا يرى إلا أسرار المعاني القديمة، وينكر الحوادث الحسية، فسمى الصوفية هذه الغيبة خمرة؛ لمشاركتها للخمر في غيبوبة العقل، وتغنوا بها في أشعارهم ومواجيدهم، قال ابن الفارض رضي الله عنه:

شَرِبْنَا على ذكْرِ الحبيبِ مُدامةً سَكِرنا بها من قبل أن يُخلَقَ الكَرْمُ(٣)

---

(١) قوله: (لا ينهنهنا)، النهنهة: الكف والمنع، والمراد: لا نخاف لقاء العدو.
(٢) الوارد أن سيدنا عمر رضي الله عنه هو أول من حد في شرب الخمر ثمانين. انظر فتح الباري ١٢/ ٧٠ ـ ٧٥.
(٣) هذا الشعر مبني على اصطلاح الصوفية. فإنهم يذكرون في عباراتهم الخمرة بأسمائها وأوصافها. ويريدون بها ما أدار الله على ألبابهم من المعرفة، أو من الشوق والمحبة. وقوله: (سكرنا) كناية عن إغفال أمور الدنيا والحياة، مع معرفة الله عز وجل. وهو كما يقول الألوسي: سكْر أرواح لا أشباح.

ثم قال:

على نفسه فليَبْكِ مَن ضاع عُمْرُه وليس لَـهُ منها نَصِيبٌ ولا سَـهْمُ

وقلت في عينيتي:

ولِي لَوْعَـةٌ بالرَّاح إذْ فِيـه رَاحَـتِي وَرَوْحِـي ورَيْحَـانِي، وخيـرٌ واسـعُ
سكرْنَا فَهِمْنَا فـي بَهَاءِ جَمَـالِه فَغِبْنَا عَنِ الإحساسِ ، والنُورُ ساطعُ

والميسر في طريق الإشارة: هو الغنى الذى يحصل بهذه الخمرة، وهو الغنى بالله عن كل ما سواه، (قل فيهما إثم كبير) أي: فى تعاطيهما حرج كبير، ومنافع للناس بعد تعاطيهما، فيهما إثم كبير عند طالب الأجور، ومنافع للناس لمن طلب الحضور ورفع الستور. وأنشدوا:

لَوْ كَانَ لى مُسْعِدٌ بالراح يُسعِدُني لَمَا انتظرتُ لشُربِ الراحِ إفطارا
فالراحُ شيءٌ شَرِيفٌ أنتَ شَارِبُه، فاشْرِب، ولو حَمَّلَتْكَ الراحُ أوْزارا
يا مَنْ يلومُ على صَهْبَاءَ(١) صافيةٍ خُـذ الجِنَانَ، ودَعْني أسكنُ النَّارَا

وقال ابن الفارض:

وقالُوا: شَرِبْتَ الإثْمَ! كَلاَّ، وإنمّا شَرِبْتُ التي فى تركِها عندىَ الإثْمُ

وقال آخر(٢):

طابَ شُـرْبُ المُدامِ فى الخَلَواتْ اسْقِني يا نَـديمُ بالآنِيَـاتْ
خَـمْـرةٌ تركُـهـا علينا حَـرامٌ ، ليسَ فـيـهـا إثمٌ ولا شُـبُـهَـاتْ
عُتِّقَـتْ في الـدِّنان مِـنْ قَـبْلِ آدمْ أصـلُـهـا طـيِّـبٌ مـن الطَّيِّـبَاتْ
أفْتِ لي أيُّهَـا الـفـقـيـهُ وقُـلْ لـي: هل يجـوزُ شُرْبُـهـا علي عَـرَفَـاتْ؟

فيهما إثم كبير عند أهل الحجاب، ونفع كبير عند ذوى الألباب، يعنى: في الخمرة الأزلية والغنى بالله. وقوله تعالى: (وإثمهما أكبر من نفعهما): خطاب على قدر ما يفهم الناس؛ لأن إثمهما ظاهر للعوام، وهو ما يظهر على

(١) الصهباء : الخمر.
(٢) وهو الششترى.

النشوان من خراب الظاهر، وصدور الأحوال الغريبة، ونفعهما خاص عند خواص الخواص، لا يفهمه إلا الخواص، بل يجب كتمه عن غير أهله. وبالله التوفيق، وهو الهادي إلى سواء الطريق.

ثم وقع سؤال ثالث عنْ قدر المنفق، فأشار إليه الحق جل جلاله بقوله:

﴿... وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ ...﴾

قلت: (العفو): ضد الجهد، وهو السهل، ويقال للأرض السهلة: عفو، والمراد: أن ينْفق ما تيسر بذله، ولا يبلغ به الجَهد، وهو خبر، أو مفعول، أي: هو العفو، أو ينفقون العفو.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ويسألونك﴾ ما القدر الذي ينفقونه؟ ﴿قل﴾ لهم: هو ﴿العفو﴾ أي: السهل الذي لا مشقة في إعطائه، ولا ضرر على المعطي في فقده، روى أن رجلا أتى النبي ﷺ بقدر بيْضة من الذهب، فقال: خُذها عني صَدقَة، فأعرض عنه، حتى كرَّر مراراً، فقال: هاتها، مغضباً، فحذفها حذفاً لو أصابه لشجَّه، فقال: «يأتي أحدكم بماله كلهِّ يتصدّق به، ويجلس يتكفَّفُ الناس، إنما الصدقةُ عن ظَهْرِ غنَى» . قاله البيضاوي مختصرا.

قلت: وهذا يختلف باختلاف اليقين؛ فقد تصدّق الصدِّيقُ رضي الله عنه بماله كله، وعمر رضي الله عنه بنصف ماله، فأقرهما، وردّ فعلَ غيرهما، فدلّ ذلك على أن العفو يختلف باختلاف الأشخاص، على حسب اليقين.

﴿**كذلك يبين الله لكم الآيات**﴾ أي: مثل هذ االتبيين الذي ذكرنا، (يُبين) لكم الآيات، حتى لا يترك لكم إشكالا ولا وهماً، ﴿**لعلكم تتفكرون**﴾ بعقولكم، وتأخذون بما يعود نفعه عليكم، فتتفكرون ﴿**في الدنيا**﴾ وسرعة ذهابها وتقلبها بأهلها، إذا أقبلت كانت فتنة، وإذا أدبرت كانت حسرة، لا يفي طالبُها بمقصوده منها ولو ملكها بحذافيرها، ضيقة الزمان والمكان، عمارتها إلى الخراب، وشأنها إلى انقلاب، سريعة الزوال، وشيكة الانتقال، فتزهدون فيها وترفعون همتكم عنها.

وفي الحديث عنه ﷺ: « مالي وللدنيا، إنما مَثَلي ومثلُ الدنيا كرجلٍ سافَرَ في يوم صائف، فاستَظَلَّ تحت شَجَرةٍ، ثم رَاحَ وتَرَكَها» . وفي صحف إبراهيم عليه السلام: « عجبت لمن أيقن بالموت كيف يفرح، عجبت لمن أيقن بالنار كيف يضحك، عجبت لمن أيقن بالقدر كيف ينصب . أي: يتعب . عجبت لمن رأى الدنيا وتقلبها بأهلها كيف يطمئن إليها» . وأنشدوا :

ألا إنَّما الدنيا كأحْلاَمِ نَائِمٍ		وكُلُّ نعيمٍ ليسَ فيها بِدَائِمِ
تَذَكَّرْ إذا ما نِلْتَ بالأمس لَذَّةً		فأفْنَيْتَها هل أنتَ إلا كَحَالِمِ

وتتفكرون فى (الآخرة) ودوام نعيمها، وسعة فضائها، وبهجة منظرها؛ فترغبون فى الوصول إليها، وتتأهبون للقائها، فتؤثرونها على هذه الدار الفانية. قال بعض الحكماء: لو كانت الدنيا من ذهب يفنى، والآخرة من طين يبقى، لكان ينبغى للعاقل أن يختار ما يبقى على ما يفنى، لاسيما والأمر بالعكس، الدنيا من طين يفنى، والآخرة من ذهب يبقى، فلا يختار هذه الدار إلاَّ أحمق خسيس الهمة، وبالله التوفيق.

الإشارة: كما نهى الحق جل جلاله عن السرف فى الأموال، نهى عن السرف فى الأحوال، فالسرف، من حيث هو، يؤدى إلى الملل والانقطاع، «أحبُ العملِ إلى الله ما دَامَ عليه صاحبُه، وإنْ قَلَ» كما فى الحديث، والله ما رأينا أحدًا أسرف فى الأحوال إلا مَلّ، وضعف حاله، وفى الحديث: «لاَ يكُن أحَدُكُم كالمُنْبَتّ ـ أى: المنقطع ـ لاأرَضًا قطع، ولا ظَهْرًا أبقى» . وقال فى المباحث:

فاحْتَلْ على النفس فَرُبَّ حِيلَه		أنفعُ فى النُّصْرة مِن قَبِيله

فلا يزال يُسايس نفسه شيئًا فشيئًا حتى يملكها، ويظفر بها، فإذا ظفر بها كانت له شبكة يصطاد بها العلوم والمعارف، فتتفكر فى الدنيا فتراها فانية فترحل عنها، ثم تتفكر فى الآخرة فتراها باقية، فإذا رامت السُّكْنَى فيها رأتْها كَوْنا مخلوقًا فرحلت إلى خالقها، فكشف الحق عنها الحجاب، وأدخلها مع الأحباب، فغابت عن الكونين فى شهود المكون، فلم يبق لها دنيا ولا آخرة، بل هى الآن فى بهجة ونضرة (إلى ربها ناظرة)، حققنا الله بهذا المقام العلى. آمين.

ثم سألوا أيضا عن مخالطة اليتامى، فأجابهم الحق تعالى بقوله:

﴿... وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾﴾

قلت: العنت: التعب والمشقة، أعنتكم: أتعبكم.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ويسألونك عن﴾ مخالطة ﴿اليتامى﴾ أى: خلْط مال اليتامى بمال الوصىّ، أو القائم به، فيأكلون جميعا، ﴿قل﴾ لهم: يفعلون ما هو ﴿إصلاح﴾ لليتيم وأحفظ لماله، فإنْ كان خلط مال اليتيم مع

مال الوصي أحفظُ لماله، وأوفر، فهو خير، فإنما هم إخوانكم في الدين، وإن كان عزلُ ما لهم عن مالكم، وأكله وحده، أوفر لماله، فاعتزالهم خير، ﴿والله يعلم﴾ من قصدُه الإفساد، ممن قصده الإصلاح، فيعامل كل واحد بقصده، ﴿ولو شاء الله﴾ لأمركم بعزلهم وحفظ مالهم مطلقاً، فيُحرجكم، ويشق عليكم، ﴿إن الله عزيز﴾ غالب، لا يعجزه شيء، ﴿حكيم﴾ لا يفعل شيئاً إلا لحكمة ومصلحة.

ولما نزل قوله تعالى: ﴿إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما . . ﴾ الآية، تحرَّج الصحابة من مخالطة اليتامى، فسألوا رسول الله ﷺ، فنزلت الآية.

الإشارة: كل من لا شيخ له في طريق القوم فهو يتيم، لا أبَ له، فإن ادعى شيئاً من الخصوصية سُمي عندهم لقيطا أو دعياً، أي: منسوبا إلى غير أبيه، وما زالت الأشياخ تُحذِّر من مخالطة العوام، ومن مخالطة المتفقرة الجاهلة، أعني: الذين لا شيخ لهم يصلح للتربية، حتى قالوا: مخالطتهم سُم قاتل. وقال بعضهم: يجتنب المريد مخالطة ثلاثة أصناف من الناس: المتفقرة الجاهلين، والقراء المداهنين، والجبابرة المتكبرين.

قلت: وكذلك الفُروعية المتجمدين على ظاهر الشريعة، فصُحبتهم أقبح من الجميع، ومن ابتلي بمخالطة العوام فلينصحهم، ويرشدهم إلى مصالح دينهم، إنما هم إخوان في الدين، والله يعلم المفسد من المصلح، فمن خالطهم طمعا في مالهم أو جاههم، أفسده الله، ومن خالطهم نُصحاً وإرشاداً أصلحه الله، ولو شاء الله لأمر الفقراء باعتزالهم بالكلية، وفي ذلك حرج ومشقة، ومِنْ حكمته تعالى أن جعلهم حجاباً لأهل الحجاب، ومدخلا لذوي الألباب، حجاباً للضعفاء، ومدخلاً ومشهداً للأقوياء. والله تعالى أعلم.

ولمّا فرغ الحق جل جلاله من ذكر بعضَ أمر الجهاد وما يتعلق به، شرَع يتكلم على النكاح، فقال:

﴿ وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾ ﴾

قلت: بدأ الحق جل جلاله بذكر محل النكاح، وسيأتي في سورة النساء تمامه في قوله: ﴿حرمت عليكم أمهاتكم . . . ﴾ الآية.

يقول الحق جل جلاله: ولا تتزوجوا النساء ﴿المشركات حتى يؤمن﴾، ونكاحهن حرام، بخلاف الكتابيات، كما في سورة المائدة. ونكاح أمة سوداء ﴿مؤمنة خير من﴾ نكاح ﴿مشركة ولو أعجبتكم﴾ حسناً وحسباً ومالاً، أو: ولامرأةٌ مؤمنة أمة كانت أو حرة خيرٌ من مشركة؛ إذ النساء كلهن إماء الله.

رُوِي أنه - عليه الصلاة والسلام - بعث مَرْثَدًا الغَنَوِي إلى مكة ليُخرج منها نَاسًا من المسلمين فأتته امرأة يقال لها: عناق، وكان يهواها في الجاهلية - فقالت: ألا تخلو؟ فقال: إن الإسلام حال بيننا، فقالت: هل لك أنْ تتزوَّج بي؟ فقال: نعم، ولكن أستشير رسول الله ﷺ فاستشاره، فنزلت الآية. قاله البيضاوي.

ولا تُزوجوا ﴿المشركين﴾ وَلِيَّتكم، وهو حرام مطلقا؛ إذ الرجال قوامون على النساء، ولا تَسلُّطَ للكافر على المسلمة، فلا تُنكحوهم ﴿حتى يؤمنوا﴾، ﴿ولعبد﴾ أسود مملوك ﴿مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم﴾ حسباً ومالاً؛ إذ لا حسب مع الكفر. وإنما حرِّم نكاح أهل الكفر؛ لأنهم ﴿يدعون إلى﴾ الكفر، وهو سبب ﴿النار﴾، والصحبة توجب عقد المحبة، والطباع تُسْرِق، فلا يُؤمنُ جانبُ الكفر أن يغلب على الإيمان، ﴿والله﴾ تعالى إنما ﴿يدعو إلى﴾ سبب ﴿المغفرة﴾، والتطهير من لَوث الكفر والمعاصي ﴿بإذنه﴾ وقدرته، فلا يأمر إلا بما يقوى عقد الإيمان واليقين، وينهض إلى الطاعات، وهو صحبة أهل الإيمان واليقين، ﴿ويبين آياته﴾ الدالة على جمع عباده إليه ﴿لعلهم يتذكرون﴾ فيها، ويتعظون بتذكيرها ووعظها.

الإشارة: لا ينبغي للفقير أن يعقد مع نفسه عقد الصحبة والمودة، أو ينظر إليها بعين الشفقة والرحمة، ما دامت مشركة بشهود السِّوى، أو مائلة بطبعها إلى الهوى، ولأن تكون عندك نفس مؤمنة بعلم التوحيد، خير من نفس مشركة برؤية الغير، ولو أعجبتك في الطاعة، وظهور الاستقامة، فقد تُظْهر الطاعة والخدمة، وتُبطن مالها فيها من الحظوظ والمتعة، فليتهمها ما دامت مشركة، فإذا آمنت ووحدت الله تعالى، فلم تر معه سواه، فلا بأس بعقد النكاح معها، فإنها لا تأمره إلا بما يقوى شهودها وتوحيدها. وكذلك لا ينبغي أن يعقد نكاح نفسه، ويدفعها لمن يشهد السِّوى؛ شيخًا أو أخًا، ولو أعجبك طاعته واجتهاده، ولأن تصحب جاهلا لا يرضى عن نفسه، خير من أن تصحب عالماً يرضى عن نفسه، أولئك أهل النفوس - يدعون إلى نار الشهوات والحظوظ العاجلة أو الآجلة، والله يدعو إلى التطهير من شهود الأغيار، والدخول في حضرة الأسرار، وهذا لا يكون إلا للعارفين الأبرار؛ الذين تطهروا من الأكدار، وتخلصوا من شهود الأغيار، كذلك يُبين الله آياته للناس - الدالة على وحدانيته - لعلهم يتعظون فينزجرون عن متابعة الهوى، أو رؤية وجود السوى. وبالله التوفيق، وهو الهادي إلى سواء الطريق.

ولما بيّن الحقُ تعالى ما يحرم في النكاح أصالةً، بيّن ما يحرم فيه عُروضاً، فقال:

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾ ﴾

قلت: المحيض: مصدر، كالمقيل والمعيش والمجيء، وهو الحيض.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ويسألونك﴾ يا محمد ﴿عن﴾ قرب النساء بالجماع في زمن ﴿المحيض، قل﴾ لهم: ﴿هو أذى﴾، أي: مُضِرٌ، أو مُنتن مستقذر ،لا يرضى ذو همة أن يقربه، ﴿فاعتزلوا﴾ مجامعة ﴿النساء في﴾ زمن ﴿المحيض ولا تقربوهن﴾ بالجماع في المحل ﴿حتى يطهرن﴾ من الدم، بانقطاعه، ويغتسلن بالماء، ﴿فإذا تطهرن﴾ بالماء ﴿فأتوهن من حيث أمركم الله﴾ وهو الفرج، الذي أمركم باجتنابه في الحيض؛ إذ هو محل زراعة النطفة. فمن غلبته نفسه حتى وطئ في الحيض، أو النفاس، فليبادر إلى التوبة، ﴿إن الله يحب التوابين﴾ كلما أذنبوا تابوا.

ولا تجب كفارة على الواطئ، على المشهور. وقال ابن عباس والأوزاعي: (من وطئ قبل الغسل تصدق بنصف دينار، ومن وطئ في حال سيلان الدم تصدق بدينار). رواه أبو داود حديثاً. ومن صبر وتنزَّه عن ذلك فإن الله ﴿يحب المتطهرين﴾ من الذنوب والعيوب كلها، وإنما أعاد العامل؛ لأن محبته للمتنزهين أكثر.

قال البيضاوي: رُوِي أن أهل الجاهلية كانوا لا يُساكنون الحائض؛ ولا يؤاكلونها، كفعل اليهود والمجوس، واستمر ذلك إلى أنْ سأل أبو الدحداح، في نفر من الصحابة ،عن ذلك، فنزلت. ولعله سبحانه ـ إنما ذكر «يسألونك» من غير واو، ثلاثا، ثم بها ثلاثا؛ لأن السؤالات الأُوَل كانت في أوقات متفرقة، والثلاثة الأخيرة كانت في وقت واحد؛ فلذلك ذكرها بحرف الجمع. هـ.

ثم بيّن الحق تعالى كيفية إتيان النساء بعد الطُهر، فقال: ﴿نساؤكم حرث لكم﴾، أي: مواضع حرثكم، شبه ما يلقى في أرحامهن من النطف، بالبذر، والأرحام أرض لها، ﴿فأتوا حرثكم﴾ أي: محل حرثكم، وهو الفرج، ﴿أنى شئتم﴾ أي: من أي جهة شئتم.

روى أن اليهود كانوا يقولون: مَنْ جامع امرأته مِنْ خَلْفِهَا فَى قُبُلِهَا جاء الولد أحْوَلَ، فذُكر ذلك لرسول الله ﷺ فنزلت. وقيل: إنَّ قُريشاً كانوا يأتون النساء من قُدَّام، مستلقية، والأنصار كانوا يأتوهن من خلف، باركة، فتزوج رجل من المهاجرين امرأة من الأنصار، فأراد أن يفعل عادته، فامتنعت، وأرادت عادتها، فاختصما إلى رسول الله ﷺ، فنزلت الآية بالتخيير للرجل، مع الإتيان في المحل. وأما الإتيان في الدُّبُر فحرام، ملعونٌ فاعله، وقال في القوت: ﴿فأتوا حرثكم أنى شئتم﴾ أي: في أي وقت شئتم ،ومن أي مكان شئتم، مع اتحاد المحل.هـ .

ثم حذَّر الحق تعالى من متابعة شهوة النساء، والغفلة عن الله، فقال: ﴿وقدموا لأنفسكم﴾ ما تجدون ثوابه مُدخراً عنده، وهو ذكر الله في مظان الغفلة، قيل: التسمية قبل الوطء وقيل: طلب الولد، والتحقيق: أنه الحضور مع الحق عند هيجان الشهوة، قال بعض العارفين: إني لا أغيب عن الله ولو في حالة الجماع. هـ. وهذا شأن أهل الجمع، لا يفترقون عن الحضرة ساعة. وهذه التقوى التي أمر الله بها بقوله: ﴿واتقوا الله﴾ أي: لا تغيبكم عنه شهوة النساء، ﴿واعلموا أنكم ملاقوه﴾ فترون وبال الغفلة وجزاء اليقظة، ﴿وبشر المؤمنين﴾ بالقرب من رب العالمين.

الإشارة: إذا سئلت ـ أيها العارف ـ عن النفس في حال جنابتها بالغفلة، وحال تلبسها بنجاسة حب الدنيا، فقل: هي أذى، أي: قذر ونجس، من قَرُبَ منها لطَّخته بنجاستها، فلا يحل القرب منه، أو الصحبة معها، حتى تطهر من جنابة الغفلة باليقظة، ومن نجاسة حب الدنيا بالزهد، ورفع الهمة عنها، فإذا تطهرت فأتها، وردها إلى حضرة مولاها، كما أمرك الله، ﴿إن الله يحب التوابين﴾، وقد تابت ورجعت إلى مولاها، ﴿ويحب المتطهرين﴾، وقد تطهرت من جناية الغفلة، وتنزهت عن نجاسة الدنيا برفع الهمة، فصارت لك أرضاً لزراعة حقوق العبودية، ومَنْبَتاً لبذر شهود عظمة الربوبية، فأتوا حرثكم ـ أيها العارفون ـ أنى شئتم، أي: ازرعوا في أرض نفوسكم من أوصاف العبودية ما شئتم، وفي أي وقت شئتم.

فبقدر ما تزرعون من العبودية تحصدون من الحرية. وبقدر ما تزرع فيها من الذل تحصده من العز، وبقدر ما تزرع فيها من الفقر تحصده من الغنى، وبقدر ما تزرع فيها من التواضع تحصده من الشرف والرفعة.

والحاصل: بقدر ما تزرع فيها من السفليات تحصد ضده من العلويات. قال تعالى: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ. وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾. فإذا تركتها هملاً، أنبتت لك الشوك والحنظل. ﴿وقدموا لأنفسكم﴾ من أوصاف العبودية ما تجدونه أمامكم من مشاهدة الربوبية، واتقوا الله فلا تشهدوا معه سواه، واعلموا أنكم ملاقوه حين تغيبون عن وجودكم وتفقدونه، وبشر المؤمنين الموقنين بشهود رب العالمين.

ولما تكلم الحق جل جلاله على بعض أحكام النكاح، أراد أن يتكلم على الإيلاء، وهو الحلف على عدم مس المرأة وجماعها، وقدّم على ذلك النهي عن كثرة الحلف؛ لأنه هو السبب في الوقوع في الإيلاء، فقال:

﴿ وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾ لَّا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾ ﴾

قلت : العرضة: فُعلة، بمعنى مفعولة: أي: معرضاً منصوباً، لأيمانكم تحلفون به كثيراً، فيصير اسم الجلالة مبتذلاً بينكم. و (أن تبروا): مفعول من أجله.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ولا تجعلوا الله﴾ أي: اسم الجلالة، معرضاً ﴿لأيمانكم﴾، فتتبذلونه بكثرة الحلف، فتمتنعون من فعل الخير بسبب الحلف، كراهة ﴿أن تبروا﴾ أي: تفعلوا فعل البر، وهو الإحسان، وكراهة أن ﴿تتقوا﴾ أن تجعلوا بينكم وبين الله وقاية بفعل المعروف، وذلك أن يحلف الرجل ألا يصل رحمه، أو لا يسلم على فلان، أو لا يضمن أحدا، أو لا يبيع بدين، أو لا يسلف أحداً، أو لا يتصدق، فهذه الأمور كلها بر وتقوى، نهى الله تعالى عن الحلف على عدم فعلها، أو يحلف ألا يصلح بين الناس، فيجب على الحالف على ذلك أن يحنث، ويكفر عن يمينه. ولذلك قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ : «إنِّي لأَحْلِفُ عَلَى يَمِينٍ فَأَرَى خَيْراً مِنْها، فأكفر عن يميني، وآتي الَّذِي هُوَ خَيْرٌ» . وقال لابن سَمُرَة: «إذا حَلَفْتَ عَلَى يَمِينٍ، فَرَأَيْتَ غَيرهَا خَيْراً مِنْهَا، فأْتِ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ، وكَفِّرْ عَنْ يَمِينِكَ» .

أو يقول الحق جل جلاله: ﴿ولا تجعلوا الله﴾ معرضاً لأيمانكم، تحلفون به كثيرا ، نهيتكم عن ذلك، إرادَةَ أَنْ تكونوا أبراراً متقين، مصلحين ﴿بين الناس﴾؛ فإن الحالف مجترئ على الله، والمجترئ لا يكون براً متقياً، ولا موثوقاً به في إصلاح ذات البين، ﴿والله سميع﴾ لأيمانكم، ﴿عليم﴾ بنياتكم.

ثم رفع الحق تعالى الحرج عن يمين اللغو الذي لا قصد فيه ـ فقال: ﴿لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم﴾ ، وهو ما يجري على اللسان من غير قصد، كقول الرجل في مجرى كلامه: لا والله وبلى والله، قاله ابن عباس وعائشة ـ رضي الله عنهما ـ، وبه قال الشافعي.

وقال أبو هريرة والحسنُ وابنُ عباس ـ في أحد قوليه ـ: هو أن يحلف على ما يعتقد فيظهر خلافه. وبه قال مالك رضي الله عنه ، والأول أَلْيَق بقوله تعالى: ﴿ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم﴾ أي: بما عقدت عليه قلوبكم، ﴿والله غفور﴾ ؛ حيث لم يؤاخذكم باللغو، ﴿حليم﴾ ؛ حيث لم يعجل بالمؤاخذة على يمين الجدِّ ، تربصا للتوبة.

الإشارة: يقول الحق جل جلاله: ﴿لا تجعلوا الله عُرضة لأيمانكم﴾، ولكن اجعلوه عرضة لتعظيم قلوبكم ومشاهدة لأسراركم، فإني ما أظهرت اسمي لتبتذلوه في الأيمان والجدال، وإنما أظهرت اسمي لتتلقَّوْه بالتعظيم والإجلال، فمن عظَّم اسمي فقد عظم ذاتي، ومن عظم ذاتي جعلته عظيمًا في أرضي وعند أهل سمواتي، وجعلته برا تقيًا، من أهل محبتي ووِدادي، وداعيًا يدعو إلى معرفتي، ويصلح بيني وبين عبادي، فمن حلمي ورأفتي: أني لا أؤاخذ بما يجري على اللسان، وإنما أؤاخذ بما يقصده الجَنان.

تنبيه: كثرة الحلف مذموم يدل على الخفة والطيش، وعدم الحلف بالكلية تعسف، وخيْر الأمورأوسطها، كان عليه الصلاة والسلام يحلف في بعض أحيانه، يقول: «لاَ وَمُقَلِّبِ القُلُوب»،: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ». والله تعالى أعلم.

ثم أشار الحق تعالى إلى حكم الإيلاء، فقال:

﴿ لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَـٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾ ﴾

قلت: (الإيلاء): يمين زوج مكلَّف على عدم وطء زوجته، أكثر من أربعة أشهر. وآلى: بمعنى حلف، يتعدى بعلى، ولكن لما ضُمِّن هنا معنى البُعد من المرأة، عُدِّي بمن، و (تربص): مبتدأ، و«للذين يؤلون»: خبر.

يقول الحق جل جلاله: ﴿للذين﴾ يبعدون ﴿من نسائهم﴾ ويحلفون ألاّ يجامعوهن أكثر من أربعة أشهر، غضباً وقصداً للإضرار، ﴿تربص﴾ أي: تمهل ﴿أربعة أشهر﴾، لا يُطالبُ فيهن بفيئة ولا حنث، ﴿فإن فاءوا﴾ أي: رجعوا عما حلفوا عليه، وحنثوا وكفَّروا أيمانهم، ﴿فإن الله غفور﴾ لما قصدوا من الإضرار، بالفيئة التي هي كالتوبة، ﴿رحيم﴾ بهم؛ حيث لم يعاجلهم بالعقوبة، ﴿وإن عزموا الطلاق﴾ أي: صمموا عليه، ولم يرجعوا عما حلفوا عليه، ﴿فإن الله سميع﴾ لطلاقهم، ﴿عليم﴾ بقصدهم ونيتهم. ومذهب مالك والشافعي: أن القاضي يُوقِفه: إما أن يرجع بالوطء إن قدر، أو بالوعد إن عَجز، أو يُطلِّق عليه طلقة رجعية، عند مالك. ومذهب أبي حنيفة: أنها تَبِين بمجرد مُضي أربعة أشهر. وأحكام الإيلاء مقررة في كتب الفقه.

الإشارة: لا ينبغي للعبد أن يصرف عمره كله في معاداة نفسه ومجانبتها، إذ المقصود هو الاشتغال بمحبة الحبيب، لا الاشتغال بعداوة العدو، فلمجاهدة نفسه ومجانبتها حد معلوم ووقت مخصوص، وهو مادامت جموحة

جاهلة بالله. فإن فاءت ورجعت إلى الله، وارتاضت لحضرة الله، وجبت محبتها والاصطلاح معها؛ لأن النفس بها ربح مَنْ ربح، ومنها خسر من خسر، من عرف قدرها، واحتال عليها حتى ردها إلى ربها ـ ربح، ومن أهملها وجهل قدرها ـ خسر، وكان شيخ شيوخنا يقول: جزاها الله عنا خيراً؛ والله ما ربحنا إلا منها، يعني نفسه. وفي بعض الآثار: (مَنْ عَرَفَ نَفْسَه عَرَفَ ربَه). وإن عزموا الطلاق، يعني: العباد والزهاد عزموا ألا يرجعوا إلى أنفسهم أبداً، فإن الله سميع عليم بقصدهم؛ هل قصدهم طلب الحظوظ أو محبة الحبيب، وأما العارفون فلا تبقى لهم معاداة مع أحد قط، قد اصطلحوا مع الوجود بأسره، فمكنهم الله من التصرف في الوجود بأسره. والله ذو الفضل العظيم.

ثم ذكر الحق تعالى عدة الطلاق، فقال:

﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَٰحًا ... ﴾

قلت: القُرء هو الطهر الذي يكون بعد الحيض، عند مالك، وجمع القلة: أقراء، والكثرة: قروء، واستعمله هنا باعتبار كثرة المطلقات، و(ثلاثة): مفعول مطلق، أو ظرف، و(بعولتهن): جمع بعل، والتاء لتأنيث الجماعة.

يقول الحق جل جلاله: ﴿**والمطلقات يتربصن**﴾ أي: يمكثن عن التزوج، ﴿**بأنفسهن ثلاثة قروء**﴾ أي: أطهار، وتَعْتَدُّ بالطهر الذي طلقها فيه، فتحيض، ثم تطهر، ثم تحيض، ثم تطهر، فإذا رأت الحيضة الثالثة خرجت من العدة، هذا في غير الحامل، وأما الحامل فعدتها وضع حملها. ﴿**ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله في أرحامهن**﴾ من الولد؛ استعجالا لإتمام العدة، أو من الحيض؛ استبقاءً لتمادي العدة، وتُصدّق في ذلك كله، فإن كانت ﴿**تؤمن بالله واليوم الآخر**﴾ فلا يحل لها أن تكتم ما استؤمنت عليه، ﴿**وبعولتهن**﴾ أي: أزواجهن، ﴿**أحق بردهن في ذلك**﴾ التربص، إن كان الطلاق رجعياً، وإلا بانت منه، وينبغي للزوج أن يراجعها في العدة، إن أراد بذلك الإصلاح والمودة، لا الإضرار بها، وإلا حرم عليه ارتجاعها، إذ «**لا ضَرَرَ ولا ضِرار**»، كما قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

الإشارة: إذا طَلَّقَتْ النَّفْسُ، ووقع البعد منها حتى طهرت ثلاثة: **الطهر الأول**: من الإصرار على الذنوب والمخالفات، **الطهر الثاني**: من العيوب والغفلات، **الطهر الثالث**: من الركون إلى العادات والوقوف مع المحسوسات، دون المعاني وأنوار التجليات ـ حلّتْ رجعتُها والاصطلاح معها، ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله في أرحامهن: من العلوم والمعارف والأنوار، وذلك إذا استشرفَتْ على حضرة الأسرار، فإنها تفيض بالعلوم والحكم،

أو ما لا يحصى، فينبغى أن تطلع عليها من يقتدى بشأنها. وبعولتهن أحق بردهن، والصلح معهن، بعد تمام تطهيرهن، إن أرادوا بذلك إصلاحاً، وهو إدخالها فى الحضرة، ونعيمها بالشهود والنظرة. وبالله التوفيق.

ثم ذكر الحق جل جلاله حقوق الزوجية، فقال:

﴿... وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾﴾

يقول الحق جل جلاله: وللنساء حقوق على الرجال، كما أن للرجال حقوقاً على النساء، فحقوق النساء على الرجال: الإنفاق، والكسوة، والإعفاف، وحسن المعاشرة، وكان ابنُ عمر ـ رضى الله عنهما ـ يقول: إنى لأُحِبُّ أن أتزيَّنَ للمرأة كما تتزين لى، ويقرأ هذه الآية.

وحقوق الرجل على المرأة: إصلاح الطعام والفراش، وطاعة زوجها فى كل ما يأمرها به من المباح، وحفظ فرجها، وصيانة ماله الذى ائتمنت عليه ـ إلى غير ذلك من الحقوق، فللنساء حقوق على الرجال **﴿مثل الذى عليهن بالمعروف﴾** من غير ضرر ولا ضرار. ولا تفريط ولا إفراط، **﴿وللرجال عليهن درجة﴾** أى: فضيلة؛ لأن الرجال قوامون على النساء، ولهم فضل فى الميراث، والقسمة، وكثير من الحقوق، فضلهم الله على النساء. **﴿والله عزيز﴾** لا يعجزه عقاب من خالف أمره، لكنه يمهل ولا يُهمل، **﴿حكيم﴾** لا يفعل إلا لمصلحة ظاهرة أو خفية. والله تعالى أعلم.

الإشارة: للنفس حقوق على صاحبها، كما له حقوق عليها، قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «إنَّ لنفسك عليكَ حَقاً، ولِزَوْجِكَ عَلَيْكَ حقاً، ولِربك عليك حَقاً، فأعْطِ كُلَّ ذِى حَقٍ حَقَّهُ». فالنفس مغرفة للسر، فإذا تعبت سقط منها السر، كذلك نفس الإنسان، إذا تحامل عليها حتى تعللت، ودخلها الوجع، تعذر عليها كثير من العبادات، لاسيما الفكرة، فلابد من حفظ البشرية، وإنما ينبغى قتلها بالأمور التى لا تُخلُّ بصحتها، فعليها طاعتك فيما تأمرها به، كما عليك حفظها مما تتضرر به. وللرجال الأقوياء عليها تسلطٌ وتصرف، فهى مملوكة فى أيديهم، وهم غالبون عليها، والله غالب على أمره، وهو العزيز الحكيم.

ثم ذكر الحق تعالى عددَ الطلاق، فقال:

﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا۟ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا

ٱفْتَدَتْ بِهِۦۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَاۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٢٩﴾ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۗ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾

قلت: (فإمساك بمعروف): مبتدأ، والخبر: محذوف، أي: أحسن أو أمثل. أو خبر، أي: فالواجب إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان.

يقول الحق جل جلاله: ﴿**الطلاق**﴾ الذي تقع الرجعة بعده ـ إنما هو ﴿**مرتان**﴾، فإن طلق ثالثة فلا رجعة بعدها، فإن طلق واحدة أو اثنتين فهو مُخير، فإما أن يمسكها ويرتجعها بحسن المعاشرة، والقيام بحقوق الزوجية بالمعروف. وإما أن يُسرِّحها حتى تنقضي عدتها ﴿**بإحسان**﴾، من غير إضرار، ولا تطويل عدة. ﴿**ولا يحل لكم**﴾، أيها الأزواج، ﴿**أن تأخذوا مما آتيتموهن**﴾ من الصداق ﴿**شيئا**﴾ ـ خُلْعاً ـ ﴿**إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله**﴾ بأن ظن الزوج أو الزوجة فساد العشرة بينهما، وعدم القيام بحقوق الزوجية، ﴿**فإن خفتم**﴾ أيها الحكام، أو من ينوب عنهم، ﴿**ألا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به**﴾ من العصمة، فيحل للزوج أن يأخذ منها الفداء، ولو بجميع ما تملك، إذا كان الضرر منها أو منهما. فإن انفرد بضررها، حُرِّمَ عليه أخذ الفداء، وطُلِّقَتْ عليه.

﴿**تلك حدود الله فلا تعتدوها ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون**﴾ أي: هذه الأحكام التي ذكرنا من عدد الطلاق وأخذ الخُلْع على وجهه ـ هي حدود الله التي حدها لعباده، فمن تعداها فهو ظالم.

(فإن) طلق الزوجُ مرة ثالثة ﴿**فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجا غيره**﴾، ويدخل بها، من غير شرط التحليل، ﴿**فإن طلقها**﴾ الثاني، ﴿**فلا جناح عليهما أن يتراجعا**﴾ بنكاح جديد ﴿**إن ظنا أن يقيما**﴾ حقوق الزوجية، وحسن العشرة، ﴿**وتلك**﴾ الأحكام المذكورة هي ﴿**حدود الله يبينها**﴾ الحقُ تعالى ﴿**لقوم يعلمون**﴾ أي: يفهمون ويتدبرون الأمور.

الإشارة: إذا طلَّق المريد الدنيا، ثم رجع إليها، ثم تاب وتوجه إلى الله، ثم رجع إليها، ثم تاب وتوجه مرة ثانية، قُبلت توبته، فإن رجع إليها بعد الطلقة الثانية، فلا يُرجى فلاحه في الغالب؛ لأنه متلاعب، قال تعالى: (الطلاقُ

مَرّتان) فإمساكٌ لها بمعروف بأن يواسي بها من يحتاج إليها، أو تسريح لها من يده بإحسان من الله إليه، حتى يدخله في مقام الإحسان، فإن طلقها مرة ثالثة فلا تحل له أبداً حتى يأخذها من يد الله بالله، بعد أن كان يأخذها بنفسه، فكأنه أخذها بعصمة جديدة، فإن تمكن من الفناء والبقاء، فلا جُناح عليه أن يرجع إليها غنياً بالله عنها. والله تعالى أعلم.

ثم نهى الحق تعالى عن إمساك الزوجة، إضراراً، كما كانت تفعل الجاهليةُ، فقال :

﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُواْۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥۚ وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًاۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾ ﴾

قلت : (ضرارا) : مفعول له، أو حال، أي: مُضارّين.

يقول الحق جل جلاله: ﴿**وإذا طلقتم النساء**﴾ فقَرُبَ بلوغُ أَجَلِ عِدّتِهِنّ ﴿**فأمسكوهن**﴾ بالرجعة متلبسين بالمعروف والإحسان إليها، ﴿**أو سرحوهن**﴾ يتزوجن غيركم ﴿**بمعروف**﴾ لا إضرار فيه، ﴿**ولا تمسكوهن**﴾ بنية طلاقهن ﴿**ضرارا**﴾ أي: لأجل الضرر بتطويل عدتهن ﴿**لتعتدوا** ﴾عليهن ﴿**ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه**﴾.

نزلت في رجل قال لامرأته: لا آويك، ولا أدعك تحلّين لغيري. فقالت: كيف؟ فقال: أطلقك، فإذا دنا مُضِيُّ عدّتك راجعتك، فَشَكَتْ ذلك لرسول الله ﷺ فنزلت الآية. وكان بعضهم يطلق، ويعتق، ثم يرجع، ويقول: كُنت أهزأ بذلك وألعب، فنزل قوله تعالى: ﴿**ولا تتخذوا آيات الله هزوا**﴾ أي: مهزوءاً بها، وفي الحديث: «ثَلاَثٌ هَزْلُهنّ جِدّ: النّكَاحُ، والطّلاقُ، والرّجْعَةُ». ﴿**واذكروا نعمة الله عليكم**﴾ بالهداية وبعثة الرسول، ﴿**وما أنزل عليكم من الكتاب**﴾ فيه ما تحتاجون إليه ظاهراً وباطناً، ﴿**والحكمة**﴾ أي: السنة المطهرة، ﴿**يعظكم**﴾ بذلك ويزكيكم، ﴿**واتقوا الله**﴾ فيما يأمركم به، وينهاكم عنه، ﴿**واعلموا أن الله بكل شيء عليم**﴾؛ ﴿ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴾.

الإشارة: يقال للمريدين المتجردين إذا طلقتم الدنيا، وآيستم أنفسكم من الرجوع إليها حتى تمكَّن اليقين من القلب بحيث انقطع الاهتمام بالرزق من القلب، وزالت عنه الشكوك والأوهام، فإذا رجعت إليه الدنيا، فإما أن يمسكها بمعروف بأنْ تكون في يده لا في قلبه، أو يسرحها من يده، بسبب مقام الإحسان الذي عوضه الله عنها، ولا تمسكوا الدنيا، أيها الفقراء، قبل كمال اليقين، فإنها ضرر لكم، فقد أخذت الرجال لا سيما الأطفال. ﴿ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه﴾؛ حيث حرمها الوصول، وتركها في حيرة الأوهام تجول، فاحذروا لذيذ عاجلها، لكريه آجلها، ﴿ولا تتخذوا آيات الله هزوا﴾ بالرخص والتأويلات، ﴿واذكروا نعمة الله عليكم﴾ بالهداية إلى الطريق، ﴿وما أنزل عليكم من الكتاب﴾: فيه بيان التحقيق ﴿والحكمة﴾ التي هي إصابة عين التوفيق، ﴿واتقوا الله﴾، فلا تركنوا إلى شيء سواه، فإن مالت قلوبكم إلى شيء من السوى، أو نزعت إلى محبة الهوى، فاعلموا ﴿أن الله بكل شيء عليم﴾ فيبعدكم بعد الوصول. ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

ثم نهى الحق تعالى عن منع النساء من التزوج إضرارًا، فقال:

﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْا۟ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾ ﴾

قلت: العَضْل: المنع والتضييق والتعسير، يقال: أعضلت الدجاجةُ، إذا عسر بيضُها.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وإذا طلقتم النساء﴾ فانقضت عدتهن ﴿فلا﴾ تمنعوهن، أيها الأولياء، من ﴿أن ينكحن أزواجهن﴾ الذين كانوا يملكوهن ثم طلقوا، أو الخُطّاب الأجانب، ﴿إذا تراضَوْا بينهم بالمعروف﴾ أي: بأن كانوا أكفاء لهن، وبذلوا من المهر ما يناسبهن، أو كانت رشيدة. ﴿ذلك﴾ الذي ذكرنا لكم ـ يتعظ به، ويقف معه، من كان ﴿يؤمن بالله واليوم الآخر﴾؛ لأنه هو الذي ينجع فيه الوعظ وينتفع بالتذكير، ﴿ذلكم أزكى لكم﴾ أي: أرفع لقدركم، إن تمسكتم به، ﴿وأطهر﴾ لكم من الذنوب والعيوب، ﴿والله يعلم﴾ ما فيه صلاحكم، ﴿وأنتم لا تعلمون﴾. نزلت الآية في مَعْقِل بن يسَارٍ، زوَّج أُخْتَه ثم طلقها زوجها، وأمهلها حتى انقضت عدَّتُها، ثم جاء يَخْطُبُهَا، فقال معْقل: تركَها حتى ملكت نفسها، ثم جاء يخطُبها، والله لا أُزوجها منه أبدًا. والمرأة أرادت أن ترجع إليه، فنزلت الآية، فرجع معقل عن قسمه وزوَّجها.

وفيه دليل أن المرأة لا تُزَوج نفسها، خلافًا لأبي حنيفة. والله تعالى أعلم.

الإشارة : ينبغى للشيوخ إذا تحققوا من المريدين كمال اليقين، وظهر عليهم أمارات الرشد، ألا يمنعوهم من تعاطى الأسباب، وأخذ ما جاءهم من الدنيا، بلا استشراف ولا طمع، فقد يكون ذلك عوناً لهم على الدين، وعمارة لزاوية الذاكرين، فذلك أزكى لهم وأطهر لقلوبهم، (والله يعلم وأنتم لا تعلمون).

ثم ذكر تعالى حكم الرضاع، فقال:

﴿ ۞ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ ۚ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ۗ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ويجب على الوالدات أن ﴿يُرضعن أولادهن حولين كاملين﴾ إذا كُنَّ فى العصمة، ولا شرف لهن؛ لجرى العُرف بذلك، أو مطلقاتٍ، ولم يقبل الولد غيرهنَّ، هذا ﴿لمن أراد أن يتم الرضاعة﴾، فإن اتفقا على فطامه قبلهما، جاز، كما يأتى. ويجب ﴿على المولود له﴾ وهو الأب، رزق أمهات أولاده، ﴿وكسوتهن﴾؛ إذ هو الذى يُنسب المولود له، وذلك ﴿بالمعروف﴾، لا يُكلف الله نفساً إلا ما فى وُسْعها وتُطيقه، فلا ﴿تضارَّ والدةٌ بولدها﴾، بحيث ترضعه وهى مريضة، أو انقطع لبنها. بل يجب على الأب أن يستأجر من يرضعه، ولا يضار ﴿مولود له بولده﴾، بحيث يكلف من الإنفاق والكسوة فوق جهده. فإن مات الأب وترك مالاً - فعلى ﴿الوارث﴾ الكبير ﴿مثل ذلك﴾ من الكسوة والإنفاق، يُجريها من مال الأب، ويحسبها من حق الصبى، فإن لم يكن للأب مال - فعلى جماعة المسلمين.

﴿فإن أرادا﴾ أى: الأب والمرضعة، ﴿فصالا﴾ أى: فطاما للصبى قبل تمام الحولين، ﴿عن تراض منهما وتشاور﴾ بينهما، ﴿فلا جناح عليهما﴾، إن لم يخف على الولد ضعف. ﴿وإن أردتم﴾، أيها الأزواج، ﴿أن تسترضعوا أولادكم﴾ عند غير الأم، برضاها، ﴿فلا جناح عليكم﴾ فى ذلك ﴿إذا سلمتم﴾ أى: أعطيتم للمراضع، ﴿ما آتيتم﴾ أى: ما أردتم إيتاءه من الأجرة ﴿بالمعروف﴾ من غير مَطْلٍ ولا تقتير. والشرط إنما هو

على وجه الكمال والإحسان، ﴿واتقوا الله﴾ فيما كُلفتم به من الحقوق، ﴿واعلموا أن الله﴾ لا يخفى عليه شيء من أموركم؛ فإنه ﴿بما تعملون بصير﴾.

الإشارة: اعلم أن تربية الولاية في قلب المريد، على نمط تربية الطفل الصغير، تنبت في قلب المريد وقت عقد الصحبة بينهما، ثم لا تزال تنمو، أو الشيخ يرضعه بلبن الإمداد حتى يتم أوان رضاعه، ولذلك قالوا: الثدي الميتة لا ترضع. هـ. يشيرون إلى أن الشيخ الميت لا يُربي، فلا يزال الشيخ يُربي الروح، ويمدها حتى تدخل بلد الإحسان، وتشتعل فكرتها. وهذا تمام الحولين في حقها، وهو أوان كمال الحقيقة والشريعة لمن أراد إتمامها، فتأكل الروح حينئذ من كل شيء، وتشرب من كل شيء، وتستمد من الأشياء كلها، ثم لا يزال يحاذيها بهمته حتى تَرشُد، فيطلق لها التصرف، فتصلح لتربية غيرها.

وعلى الشيخ رزقُ المريدين من قوت القلوب وكسوتهم، تقيهم من إصابة الذنوب والعيوب، إلا ما سبق به القضاء في علم الغيوب، فليس في طَوْق أحدٍ دفعُه، لا تُكلف نفس إلا وسعها، فإذا مات الشيخ، ووصّى بمن يرث مقامه، فعلى الوارث مثلُ ذلك، فإن أراد المريد انفصالاً عن الشيخ، وتعمير بلد، أو تذكير عباد الله، عن تراض منهما وتشاور من الشيخ، فلا جناح عليهما، وإن أردتم، أيها الشيوخ، أن تسترضعوا أولادكم بإرسال منْ يُذكِّرهم، ويمدهم، نائبا عنكم، فلا جناح عليكم إذا سلمتم لهم من الإمداد ما يمدهم به، واتقوا الله في شأن المريدين، في جبر كسرهم، وقبول عذرهم، واعلموا أن الله بما تعملون بصير.

ثم ذكر الحق تعالى عدّة الوفاة، فقال:

﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٣٤) وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِي أَنفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَن تَقُولُوا قَوْلًا مَّعْرُوفًا وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ (٢٣٥) ﴾

قلت : و﴿الذين يُتوفون﴾ : مبتدأ، و﴿يتربصن﴾ : خبر، ولابد من الحذف ليصح الإخبار، إما من الصدر أو من العَجُز، أى: وأزواج الذين يتوفون، أو الذين يتوفون أزواجهن يتربصن.

يقول الحق جل جلاله : ﴿والذين﴾ يموتون منكم، أيها المؤمنون، ويتركون ﴿أزواجا﴾ ، فلا يتزوجن حتى ﴿يتربصن﴾ أى: يمكثن ﴿بأنفسهن أربعة أشهر﴾ وعشرة أيام؛ لأن الجنين يتحرك لثلاثة أشهر إن كان ذكراً، ولأربعة إن كان أنثى فى الغالب(١)، وزيد عشرةً، استظهاراً، هذا فى غير الحامل، أما الحامل، فعدتها وضع حملها. ﴿فإذا بلغن أجلهن﴾ أى: انقضت عدتهن، ﴿فلا جناح عليكم﴾ أيها الأولياء ﴿فيما فعلن فى أنفسهن﴾ من التزين والتعرض للنكاح أو التزوج، ﴿بالمعروف﴾ ، بحيث لا ينكره الشرع من تزين ونكاح، ﴿والله بما تعملون خبير﴾ فيجازيكم على ما فعلتم.

﴿ولا جناح عليكم﴾ أيها الخُطَّاب ﴿فيما عرَّضتم به﴾ للمعتدات ﴿من خطبة النساء﴾؛ كقول الرجل: إنى لراغب فى صحبتكم، وإنى أريد أن أتزوج فى هذه الساعة. وإنك لنافقة(٢)، أو لا يصلح لك أن تبقى بلا زوج، ونحو هذا، ﴿أو أكننتم﴾ أى: أضمرتم ﴿فى أنفسكم﴾ فى زمن العدة من أمر التزوج دون تصريح، ﴿علم الله أنكم﴾ ستذكرون النساء المعتدات، وتتكلمون فى نكاحهن، حرصاً وتمنياً، فعرِّضُوا بذلك، ﴿ولكن لا تواعدوهن سرا﴾ أى: فى الخلوة، أو لا تواعدوهن نكاحاً أو جماعاً، ﴿إلا أن تقولوا قولاً معروفا﴾ وهو التعريض بالألفاظ المتقدمة.

ولا تقطعوا ﴿عقدة النكاح﴾، وتحزموا على فعله، ﴿حتى يبلغ﴾ كتاب المعتدة ﴿أجله﴾، وتنقضى العدة، ﴿واعلموا أن الله يعلم ما فى أنفسكم﴾ من الرغبة والحرص، ﴿فاحذروه﴾ فإنَّ الحرص على الشيء، والرغبة فيه، قبل أوانه، ربما يعاقَب صاحبه بحرمانه، وما قُدِّر لك لا يكون لغيرك، وما كان لغيرك لا يكون لك، ولو فعلت ما فعلت، ﴿واعلموا أن الله غفور﴾ لمَا استعجلتم؛ فإن الإنسان خُلق عجولا، ﴿حليم﴾ فلا يعاجلكم ولا يفضح سرائركم.

---

(١) ذكر ذلك البيضاوى، فى أنوار التنزيل. وفيه منافاة للحديث المتفق عليه: (إن أحدكم يجمع خلقه فى بطن أمه...) الحديث إلى قوله ﷺ: (ثم يرسل الملك، فينفخ فيه الروح..) وظاهر الحديث يفيد: أن نفخ الروح بعد هذه المدة مطلقا، لا فرق بين ذكر وأنثى. راجع تفسير الألوسى.

(٢) نافقة أى: مرغوب فيها.

الإشارة: إذا ماتت النفس عن الهوى، وتركت حظوظاً وشهوات، فلا ينبغي أن يردها إلى ذلك حتى تتربص مدة، ليظهر عليها آثار الزهد؛ من السكون إلى الله، والتأنس بمشاهدة الله حتى تغيب عما سواه. فإذا بلغت هذا الوصف فلا جناح على المريد أن يسعفها فيما تفعل بالمعروف، من غير سَرَف ولا ميل إلى هوى، لأن فعلها حينئذ بالله، ومن الله، وإلى الله، ﴿والله بما تعملون خبير﴾ لا يخفى عليه شيء من أمرها، ولا جناح عليكم، أيها المريدون، إن تزكت نفوسكم، وطهرت من الأغيار قلوبكم، فيما عرضتم به من خطبة أبكار الحقائق وثيبات العلوم، أو أكننتم في أنفسكم من المعارف والفهوم، علم الله أنكم ستذكرون ذلك باللسان قبل أن يصل الذوق إلى الجنان، فلا تصرحوا بعلوم الحقائق مع كل الخلائق؛ فإن ذلك من فعل الزنادق، إلا أن تقولوا قولا معروفا، إشارة أو تلويحاً، فعلمنا كله إشارة، فإذا صار عبارة خفي.

ولا تطلبوا علم الحقائق قبل بلوغ أجله، وهو موت النفوس، والزهد في الفلوس، وكمال التربية، وتمام التصفية، ﴿واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم﴾ من الشره إليها قبل أوانها، ﴿فاحذروه﴾ أن يعاقبكم بحرمانها، ﴿واعلموا أن الله غفور حليم﴾ لا يعاجلكم بحرمان قصدكم، إن صح مقصدكم، والله تعالى أعلم، وبالله التوفيق.

ثم ذكر الحق جل جلاله حُكم الطلاق قبل المسِيس، فقال:

﴿ لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَـٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ۚ وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾ ﴾

قلت: (ما) مصدرية ظرفية، و﴿أو تفرضوا﴾ معطوف على ﴿تمسوهن﴾ أي: لا تبعة عليكم ولا إثم إن طلقتم النساء قبل البناء، مدة كونكم لم تمسوهن ولم تفرضوا لهن مهراً، و﴿إلا أن يعفون﴾ مبني؛ لاتصاله بنون النسوة، ووزنه: يفعلن كقوله تعالى: ﴿ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ﴾ وقوله ﴿ وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لا يَرْجُونَ نِكَاحًا ﴾، و﴿حقا﴾ مفعول مطلق.

يقول الحق جل جلاله: لا حرج عليكم من إثم أو صداق، ﴿إن طلقتم النساء﴾ مدة كونكم ﴿لم تمسوهن﴾ بالجماع، ﴿ولم تفرضوا لهن فريضة﴾ من الصداق، فطلقوهن حينئذ، ﴿ومتعوهن﴾ أي: اعطوهن ما يتمتعن به ويجبر كسرهن، على قدر حال الزوج؛ ﴿على الموسع﴾ أي: الغني، ﴿قدره﴾ من المتعة كأمة أو كسوة أو مال يليق بحاله، ﴿وعلى المقتر﴾ أي: الذي تقتر رزقه، أي ضيق عليه، وهو الفقير، ﴿قدره﴾ ما يقدر عليه، فمتعوهن ﴿متاعا بالمعروف﴾ من غير سرف ولا تقتير، ﴿حقا على المحسنين﴾ أي: حق ذلك عليهم حقاً. حمل مالكٌ الأمْرَ على الندب، وحمله غيره على الوجوب، وهو الظاهر.

وإن طلقتموهن بعد المسيس فالصداق كامل، ﴿وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن﴾ صداقاً ﴿فنصف ما فرضتم﴾ يجب عليكم، ﴿إلا أن يعفون﴾ أي: النساء، عن نصف الصداق، ﴿أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح﴾، وهو الأب في ابنته البكر؛ قاله مالك، أو الزوج بأن يدفعه كاملا، قاله الشافعي، ﴿وأن تعفوا﴾ أيها الأولياء عن الزوج، فلا تقبضوا منه شيئا، ﴿أقرب للتقوى﴾؛ لأن المرأة لم يذهب لها شيء فسلعتُها قائمة، ﴿ولا تنسوا الفضل﴾ والإحسان ﴿بينكم﴾، فتسامحوا بسمح لكم، ﴿إن الله بما تعملون بصير﴾ لا يخفى عليه شيء من أعمالكم، فيجازى المحسن بإحسانه، ﴿والله يحب المحسنين﴾.

الإشارة: من المريدين من تحصل له الغيبة عن نفسه، والجذب عنها، بعد أن يمسها بالمجاهدة والمكابدة، فحينئذ يمتعها بالشهود والعيان، وهذه طريق الجادة. ومنهم من تحصل له الغيبة عن نفسه والجذب عنها قبل أن يمسها، ويجاهدها، وهو نادر بالنسبة إلى الأول، فيقال لهؤلاء الفريق: لا جناح عليكم إن طلقتم أنفسكم، وغبتم عنها، من قبل أن تمسوها، وقبل أن تعرضوا عليها وظائف العبودية. ومتعوهن بالشهود والعيان على قدر وسعكم وقوة شهودكم، على الموسع قدره من لذة الشهود، وعلى المقتر ـ أي: المضيق عليه في المعرفة ـ قدره من لذة الشهود، حق ذلك حقا على المحسنين الذين حازوا مقام الإحسان، وفازوا بالشهود والعيان.

وإن حصل لكم جذب العناية، وطلقتم أنفسكم قبل أن تمسوها، وقد كنتم وظفتم عليها أوراداً من وظائف العبودية؛ فنصف ما فرضتم، وهو المهم منها؛ لأن عبادتها صارت قلبية، فيكفيها من العبادة القالبية المهم، إلا أن تقوى على ذلك مع الشهود. أو يأمرها الذي بيده عقدة نكاحها، وهو الشيخ، فلا يضرها الاشتغال بها حيث كان بإذن، وأن تعفوا، أيها الشيوخ، عن المريدين في العبادة الحسية، وتأمروهم بالعبادة القلبية، أقرب للتقوى الكاملة، وهي تقوى السِّوَى. والله تعالى أعلم.

ولما ذكر الحق تعالى شأن النساء، حذر من الاشتغال بهن عن العبادة، فقال:

﴿ حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿حافظوا﴾ أيضا على أداء ﴿الصلوات﴾ الخمس في أوقاتها؛ بإتقان شروطها وأركانها وخشوعها وآدابها، ولا تشتغلوا عنها بشهوات النساء وتشغيب أحكامهن، ولا بغير ذلك، وحافظوا أيضا على ﴿الصلاة الوسطى﴾ وهي العصر عند الشافعي، وهو ظاهر الحديث، أو الصبح عند مالك؛ لفضلها، أو لتوسطها بين صلاتي الليل والنهار. وما من صلاة إلا وقيل فيها الوسطى. وقيل: أخفيت كساعة الجمعة وليلة القدر.

﴿وقوموا لله﴾ في الصلاة ﴿قانتين﴾ أي: ساكتين، وكان، قبل نزول الآية، الكلام في الصلاة جائزاً، أو قيل: مطيعين. إذ القنوت في القرآن كله بمعنى الطاعة. ﴿فإن خفتم﴾ من عدو، أو سبع، أو سيل، فصلُّوا قياماً على أرجلكم بالإيماء للسجود، ﴿أو ركبانا﴾ على خيولكم بالإيماء للركوع والسجود، ﴿فإذا أمنتم﴾ في الصلاة، أو بعدها، فصلوا صلاة أَمْن، و﴿اذكروا الله﴾ في الصلاة، وصلوا ﴿كما علّمكم﴾ من الكيفية ﴿مالم تكونوا تعلمون﴾ قبل ذلك.

الإشارة: حافظوا على الصلوات الحسية قياما بوظائف العبودية، وعلى الصلاة القلبية قياماً بشهود عظمة الربوبية؛ وهي الصلاة الوسطى لدوامها في كل ساعة، قيل لبعضهم: هل للقلوب صلاة؟ قال: نعم، إذا سجد لايرفع رأسه أبداً. هـ. أي: إذا خضع لهيبة العظمة لم يرفع أبداً، وفي ذلك يقول الشاعر:

فَاسْجُدْ لِهَيْبَةِ الجَلالِ عِنْدَ التَّدَانِي
وَلْتَقْرَأْ آيةَ الكَمَالِ سَبْعَ المَثَانِي

وأشار بقوله «آية الكمال» لقوله تعالى: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ ليجمع بين الشريعة والحقيقة، فسجود القلب حقيقة، وسجود الجوارح شريعة، وقوموا لله بآداب العبودية قانتين خاشعين، فإن خفتم ألا تصلوا إلى ربكم، قبل انقضاء أجلكم ، فسيروا إليه رجالاً أو ركباناً، خفافاً أو ثقالاً، فإذا أمنتم من القطيعة ـ وذلك بعد التمكين ـ فاذكروا الله شكرا لأجل ما أطلعكم عليه، وعلّمكم مالم تكونوا تعلمون؛ من عظمة الربوبية، وكمال آداب العبودية.

ثم رجع الحق تعالى إلى الكلام على النساء، فقال:

﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾ ﴾

قلت: (وصية): مبتدأ، والخبر محذوف، أي: عليهم وصية، ومَنْ نَصَبَ، فمفعول مطلق، أي: فليوصوا وصية، و(غير): حال من الأزواج، أي: حَالَ كَوْنِهِنَّ غَيْرَ مُخْرَجَاتٍ.

يقول الحق جل جلاله: ﴿والذين يتوفون منكم﴾ ويتركون ﴿أزواجا﴾ بعدهم، فيجب عليهم أن يوصوا لأزواجهم وصية يتمتعن بها من كسوة ونفقة وسكنى، إلى تمام ﴿الحول﴾ مادام الأزواج لم يخرجن من مسكن الزوج، ﴿فإن خرجن﴾ بأنفسهن، فلا نفقة ولا كسوة ولا سكنى عليكم أيها الأولياء، ولا حرج عليكم ﴿فيما فعلن في أنفسهن﴾ من التزين والتعرض للنكاح بعد تمام عدتهن، على ما هو معروف في الشرع، والوصية منسوخة بآية الميراث، وتربص الحول بآية ﴿ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ﴾ المتقدمة(١) المتأخرة في النزول، ﴿والله عزيز حكيم﴾ ينسخ ما يشاء، ويحكم ما يريد، باعتبار الحكمة والمصلحة.

الإشارة: والذين يُتوفون عن الحظوظ والشهوات، ويتركون علوما وأسرارا، ينبغي لهم أن يوصوا بحفظها وتدوينها، كان الشيخ أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه إذا استغرق في الكلام وفاضت عليه المواهب، يقول: (هلاَّ رجلٌ يقيد عنا هذه العلوم). هـ ليقع التمتع بها للسائرين والطالبين، (غير إخراج) لغير أهلها، فإن قضى الوقت بخروجها، من غير قصد، فلا حرج، إما لغلبة وجد أو هداية مريد، (والله عزيز حكيم)، فعزته اقتضت الغيرة على سره: أن يأخذه غير أهله، وحكمته اقتضت ظهوره في وقته لأهله. والله تعالى أعلم.

ثم كرر أمر المتعة تأكيداً، فقال:

﴿ وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾ ﴾

(١) أي: متقدمة في التلاوة.

قلت: إنما كرره لأن الأولى في غير المدخول بها، إذا طُلقت قبل الفرض، وهذه في المدخول بها، وعبّر أولا بالمحسن: لأن المتعة قبل الدخول لا يعطيها إلا أهل الإحسان؛ لأن المطلق لم يحصل له تمتع بالزوجة، بخلاف الثاني، فمطلق المدخول بها، التقوى تحمله على الإمتاع.

وقيل: لمّا نزلت الآية الأولى، قال رجل من المسلمين: إنْ أحسنتُ متّعْتُ وإلاّ تَركتُ، فنزلت الثانية تأكيداً. وقال: ﴿حقا على المتقين﴾ الشرك، أي: على كل مؤمن، وحكمها: الندب، عند مالك، على تفصيل ذكره في المختصر، فقال عاطفا على المندوب: والمتعة على قدر حاله، بعد العدة للرجعة، أو ورثتها، ككل مُطلّقة في نكاح لازم، لا في فَسْخ؛ كلعَانٍ وملك أحد الزوجين، إلا من اختلعَتْ، أو فُرض لها وطُلقت قبل البناء، ومختارة لعتقها أو لعَيْبه أو مُخيَّرة أو مملّكَة.

الإشارة: كل من طلق نفسه وخالف هواها تمتع بحلاوة المعاملة مع ربه، فمن اتصل بشيخ التربية تمتع بحلاوة العبادة القلبية كالشهود والعيان، ومن لم يتصل بالشيخ تمتع بحلاوة العبادة الحسية. فالآية الأولى في المريدين والواصلين، وهذه الآية في العُبّاد والزهاد، ولذلك عبر في الأولى بالمحسنين، وفي الثانية بالمتقين، والله تعالى أعلم.

ثم حذّر من الفِرار من الموت، توطئة للترغيب في الجهاد، فقال:

﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ ﴾

قلت: الاستفهام للتعجب والتشويق، والرؤية قلبية، والواو للحال، و(حَذَرَ) مفعول من أجله.

يقول الحق جل جلاله: ألم تنظر يا محمد، بعين الفكر والاعتبار، ﴿إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف﴾ عشرة، أو ثلاثون، أو أربعون، أو سبعون، حذراً من ﴿الموت﴾ في زمن الطاعون.

وكانوا في قرية يقال لها: (داوردان) فلما وقع بها الطاعون، خرجت طائفة هاربين، وبقيت أخرى، فهلك أكثر من بقي، وسلم الخارجون، ثم رجعوا، فقال الباقون: لو صنعنا مثلهم لبقينا، لئن أصابنا الطاعون مرة ثانية لخرجنا، فأصابهم من قابل، فهربوا كلهم، ونزلوا وادياً أفيح[1]، فناداهم ملك من أسفل الوادي، وآخر من أعلاه، أن:

(١) الأفيح والفياح: كل موضع واسع، ومنْهُ: روضة فيحاء.

موتوا، فماتوا كلهم أجمعون، ومرت عليهم مدة ثمانية أيام أو أكثر حتى انتفخوا، وقيل: صاروا عظاماً، فمرّ عليهم نبي الله (حزقيل) ، فدعا الله تعالى، واستشفع فيهم، فأحياهم الله، وعاشوا دهراً ،عليهم سيما الموت؛ لا يلبسون ثوباً إلا عاد كالكفن، واستمر في أسباطهم.هـ.

قال الأصمعي : لما وقع الطاعون بالبصرة، خرج رجل منها على حمار معه أهله، وله عبد يسوق حماره، فأنشأ العبد يقول:

لن يُسبَقَ اللهُ على حِمار ولا على ذي مَشـعَةٍ طَيّار
قَدْ يُصبحُ اللهُ أمَامَ الساري(١)

فرجع الرجل بعياله.

والآية تدل على أن الفرار من الطاعون حرام في تلك الشريعة، كما حرم في شرعنا، وروى عبد الرحمن ابن عوف أن النبي ﷺ قال: «إِذَا سَمِعْتُمْ هذا الوباء ببلد فَلاَ تَقْدُمُوا عَلَيْهِ، وإذَا وَقَعَ بِبلد وَأَنْتُمْ فيه فَلاَ تَخْرُجُوا مِنْهُ».

قلت : وقد اختلف الأئمة في حكم الفرار والقدوم: فمنهم من شهر المنع فيهما تمسكا بظاهر الحديث، ومنهم من شهر الكراهة. والمختار في الفرار: التحريم، وفي القدوم: التفصيل، فمن قوى يقينه، وصفا توحيده، حلّ له القدوم، ومن ضعف يقينه، بحيث إذا أصابه شيء نسب التأثير لغير الله حرم عليه القدوم.

وفي حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ قلت : يارسول الله، ما الطاعون؟ قال: «غدة كغدة البعير، المقيم فيه كالشهيد، والفارُّ منه كالفار من الزحف» . قال ابن حجر: كون المقيم فيه له أجر شهيد إنما بشرط أن يعلم أنه لا يصيبه إلا ما كتب الله له، وأن يسلم إليه أمره ويرضى بقضائه، وأن يبقى في مكانه ولا يخرج منه بقصد الفرار، فإذا اتصف الجالس بهذه القيود حصل له أجر الشهادة. ودخل تحته ثلاث صور، **الأولى**: من اتصف بذلك فوقع له الطاعون ومات فهو شهيد. **والثانية**: من وقع به ولم يمت به فهو شهيد وإن مات بعد ذلك. **والثالثة**: من لم يقع به أصلا ومات بغيره عاجلا أو آجلا فهو شهيد، إذا حصلت فيه القيود الثلاثة، ومن لم يتصف بالقيود الثلاثة فليس بشهيد، ولو مات بالطاعون. والله أعلم هـ.

وأما القدوم من بلد الطاعون إلى البلد السالمة منه فجائز. ولا يُمنع من الدخول، قاله الباجي وابن حجر والحطاب وغيرهم لقوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «لاَ عَدْوَى وَلاَ طِيَرَةَ» وأما قوله عليه الصلاة والسلام :

(١) ذكر القرطبي البيت الثاني كاملاً، وهو: أو يأتي الحتف على مقدار قد يُصبح الله أمام الساري.

«فِرَّ مِنَ المَجْذُومِ فِرَارَكَ مِنَ الأَسَدِ»، وقوله : «لاَ يُورِد مُمْرِضٌ عَلَى مُصِحٍّ» ، فهو محمول على حسم المادة وسد الذريعة؛ لئلا يحدث للمخالط شيء من ذلك ، فيظنه بسبب المخالطة، فيثبت العدوى التى نفاها الشارع هذا المختار فى الجمع بين الحديثين. والله تعالى أعلم. وإنما أطلت فى المسألة لِمَسّ الحاجة؛ لأن التأليف وقع فى زمن الوباء، حفظنا الله من وبالها.

وقيل: إن الذين خرجوا من ديارهم قوم من بنى إسرائيل، أُمروا بالجهاد، فخافوا الموت بالقتل فى الجهاد فخرجوا من ديارهم فراراً من ذلك، فأماتهم الله؛ ليعرفهم أنهم لا ينجيهم من الموت شىء، ثم أحياهم؛ وأمرهم بالجهاد، بقوله : ﴿وقاتلوا فى سبيل الله﴾ الآية. وقوله تعالى: ﴿إن الله لذو فضل على الناس﴾؛ حيث أنزل بهم رحمته، ففروا منها ، ولم يعاقبهم، حيث أحياهم بعد موتهم، ﴿ولكن أكثر الناس لا يشكرون﴾ إذ لايفهم النعم فى طى النقم إلا القليل، فيشكروا الله فى السراء والضراء.

الإشارة: ألم تر أيها السامع إلى الذين خرجوا من ديار عوائدهم وأوطان شهواتهم، وهم جماعة أهل التجريد، القاصدين إلى صفاء التوحيد ، والغرق فى بحر التفريد، حذراً من موت أرواحهم بالجهل والفَرْق؛ فاصطفاهم الله لحضرته، وجذبهم إلى مشاهدة ذاته، فقال لهم الله: موتوا عن حظوظكم، وغيبوا عن وجودكم، فلما ماتوا عن حظوظهم، وغابوا عن وجودهم، أحياهم الله بالعلم والمعرفة، ﴿إن الله لذو فضل على الناس﴾ حيث فتح لهم باب السلوك، وهيأهم لمعرفة ملك الملوك، ﴿ولكن أكثر الناس لايشكرون﴾ حيث تجلى لهم؛ وعرَّفهم به، وهم لا يشعرون، إلا من فتح الله بصيرتهم، وقليل ما هم.

ثم حرّض الحق تعالى المؤمنين على الجهاد، فقال:

﴿ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله : ﴿وقاتلوا﴾ الكفار ﴿فى سبيل الله﴾ وإعلاء كلمة الله حتى يكون الدين كله لله؛ ﴿واعلموا أن الله سميع﴾ لأقوالكم ودعائكم، ﴿عليم﴾ بنياتكم وإخلاصكم، فيجازى المخلصين، ويحرم المخلطين.

الإشارة: وجاهدوا نفوسكم فى طريق الوصول إلى الله، وأديموا السير إلى حضرة الله، فحضرة القدوس محرمة على أهل النفوس. قال الششترى:

إِنْ تُرِدْ وَصْلَنَا فَمَوتُكَ شَرطٌ ... لاَ يَنالُ الوِصَالَ مَنْ فِيهِ فَضْلَه

ومجاهدة النفس هو تحميلها ما يثقل عليها، وبُعدها مما يخف عليها، حتى لا يثقل عليها شيء، ولا تشره* إلى شيء، بل يكون هواها ما يقضيه عليها مولاها. قيل لبعضهم: [ما تشتهي؟ قال: ما يقضي الله]. واعلموا أيها السائرون أن الله سميع لأذكاركم، عليم بإخلاصكم ومقاصدكم.

ولما كان الجهاد يحتاج إلى مؤنة التجهيز، وليس كل الناس يقدر على ذلك، رَغّبَ الحق تعالى الأقوياء بالإنفاق على الفقراء، فقال:

﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾ ﴾

قلت: القرض هو القطع، أطلِقَ على السلف؛ لأن المُقْرِض يقطع قطعة من ماله ويدفعها للمستلف، والمراد بها الصدقة؛ لأن المتصدق يدفع الصدقة فيردها الحق تعالى له بضعف أمثالها؛ فأشبهت القرض في مطلق الرد.

يقول الحق جل جلاله: مَنْ هذا الذي يعامل الله تعالى ويقرضه ﴿قرضًا حسنا﴾ بأن يتصدق على عباده صدقة حسنة بنية خالصة، فيكثرها الله تعالى له ﴿أضعافا كثيرة﴾؛ بسبعمائة إلى ما لا نهاية له، ولايحمله خوف الفقر على ترك الصدقة؛ فإن الله تعالى يقبض الرزق عمن يشاء ولو قل إعطاؤه، ويبسط الرزق على من يشاء ولو كثر إعطاؤه، بل يقبض على من قبض يده شحًا وبخلاً، ويبسط على من بسط يده عطاءً وبذلاً، يقول: «يا ابن آدم أَنْفِقْ أُنفِقْ عليك»، «أَنْفِقْ ولا تَخْشَ مِنْ ذِي العَرْشِ إِقْلالا».

ونسبة القرض إليه تعالى ترغيب وتقريب للأفهام، كما قال في الحديث القدسي: «يقول الله تعالى يوم القيامة: يَا ابْنَ آدَمَ، مَرِضْتُ فلَمْ تَعُدْني، قَالَ: يَارَبِّ! كَيْفَ أَعُودُكَ وأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟ قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ عَبْدِي فُلاَناً مَرِضَ فَلَمْ تَعُدْهُ. أَمَا إِنَّكَ لَوْ عُدْتَهُ لوَجَدْتَنِي عِنْدَهُ. يَا ابْنَ آدم اسْتَطْعَمْتُكَ فَلَمْ تُطْعِمْنِي. قَالَ: يَارَبِّ! كَيْفَ أُطْعِمُكَ وأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟ قَالَ: أمَا عَلِمْتَ أَنَّهُ اسْتَطْعَمَكَ عَبْدِي فُلاَنٌ فَلَمْ تُطْعِمْهُ؟ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ أَطْعَمْتَهُ لوَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي. يَا ابْنَ آدَمَ اسْتَسْقَيْتُكَ فَلَمْ تَسْقِنِي. قَالَ: يَارَبِّ كَيْفَ أَسْقِيكَ وأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟ قَالَ: اسْتَسْقَاكَ عَبْدِي فُلاَنٌ فَلَمْ تَسْقِهِ. أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ سَقَيْتَهُ لوَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي».

الإشارة: من هذا الذي يقطع قلبه عن حب الدارين، ويرفع همته عن الكونين، فإن الله (يضاعفه له أضعافاً كثيرة) بأن يُمَلِّكه الوجودَ بما فيه، «أنت مع الأكوان مالم تشهد المكون، فإذا شهدت المكون كانت الأكوان

معك، (والله يقبض ويبسط) فيقبض الوجود تحت حكمك وهمتك، إن رفعت همتك عنه، ويبسط يدك بالتصرف فيه، إن علقت همتك بخالقه. أو يقبض القلوب بالفقد والوحشة، ويبسطها بالإيناس والبهجة. أو يقبض الأرواح بالوفاة، ويبسطها بالحياة. والقبض والبسط عند أهل التصوف: حالتان تتعاقبان على القلوب تعاقب الليل والنهار، فإذا غلب حال الخوف كان مقبوضاً، وإذا غلب حال الرجاء كان مبسوطاً، وهذا حال السائرين. أما الواصلون فقد اعتدل خوفهم ورجاؤهم، فلا يؤثر فيهم قبض ولابسط، لأنهم مالكوا الأحوالَ.

قال القشيري: فإذا كاشف العبدَ بنعت جماله بسطَه، وإذا كاشفه بنعت جلاله قبضه. فالقبض يوجب إيحاشَه، والبسط يُوجب إيناسه، واعلم أنه يَرُدُّ العبد إلى حال بشريته، فيقبضه حتى لا يُطيق ذَرَّة، ويأخذه مرَّة عن نعوته، فيجد لحمل مايَرِدُ عليه قدرة وطاقة، قال الشِّبْلِي ﷺ: (من عَرَفَ الله حملَ السموات والأرض على شعرة من جفْن عينه، ومن لم يعرف الله ـ جل وعلا ـ لو تعلق به جناح بعوضة لضجَّ).

وقال أهل المعرفة: [إذا قبض قبَض حتى لا طاقة، وإذا بسط بسط حتى لا فاقة، والكل منه وإليه]. ومن عرف أن الله هو القابض الباسط، لم يَعتب أحداً من الخلق، ولا يسكن إليه في إقبال ولا إدبار، ولم ييأس منه في البلاء، ولا يسكُن إليه في عطاء، فلا يكون له تدبير أبداً. هـ.

ولكلٍّ من القبض والبسط آداب، فآداب القبض: السكون تحت مجارى الأقدار، وانتظار الفرج من الكريم الغفار. وآداب البسط: كف اللسان، وقبض العنان، والحياء من الكريم المنان. والبسط مزَلّة أقدام الرجال. قال بعضهم: (فُتح عليَّ بابٌ من البسط فزللتُ زلّةً، فحُجبْت عن مقامي ثلاثين سنة). ولذلك قيل: قف على البساط وإياك والانبساطَ

واعلم أن القبض والبسط فوق الخوف والرجاء، وفوق القبض والبسط: الهيبة والأنس فالخوف والرجاء للمؤمنين، والقبض والبسط للسائرين، والهيبة والأنس للعارفين، ثم المحو في وجود العين للمتمكنين، فلا هيبة لهم، ولا أنس، ولا علم، ولا حس. وأنشدوا:

فلو كُنْتَ مِنْ أهلِ الوُجودِ حقيقةً ... لغبْتَ عَنِ الأكوانِ والعرشِ والكرسي
وكُنْتَ بلا حالٍ مَع اللهِ واقفاً ... تُصانُ عَنْ التَّذكارِ للجنِ والإنسِ(١)

(١) ورد هذان البيتان فى قصة مع أبى سعيد الخراز، ذكرها القشيرى فى الرسالة.

ثم ذكر الحق تعالى قصة من أُمر بالجهاد فجبن عنه، ترهيباً من التشبه به، فقال:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ (٢٤٦) ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ألم تر﴾ يا محمد ـ فتعتبر ـ **﴿إلى﴾** قصة جماعة **﴿من بني إسرائيل من بعد﴾** موت **﴿موسى﴾** حين طلبوا الجهاد، وقالوا **﴿لنبي لهم﴾** يقال له: شمويل، وقيل: شمعون: **﴿ابعث لنا ملكاً﴾** يَسوس أمرنا ونرجع إليه في رأينا؛ إذ الحرب لا تستقيم بغير إمام **﴿نقاتل﴾** معه **﴿في سبيل الله، قال﴾** لهم ذلك النبي: **﴿هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا﴾** أي: هل أنتم قريب من التولي والفرار إن كُتب عليكم القتال؟ والمعنى: أتوقع جُبْنكم عن القتال إنْ فُرض عليكم. والأصل: عساكم أن تجبنوا إن فرض عليكم، فأدخل (**هل**) على فعل التوقع، مستفهما عما هو المتوقع عنده، تقريراً وتثبيتاً.

﴿قالوا﴾ في جوابه: **﴿وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله﴾** أي: أيُّ مانع يمنعنا من القتال وقد وُجد داعيه؟ وهو تسلط العدو علينا فأخْرَجنا من ديارنا وأسَرَ أبناءنا، وكان الله تعالى سلط عليهم جالوت ومن معه من العمالقة، كانوا يسكنون ساحل بحر الروم(١) بين مصر وفلسطين، وذلك لمّا عصوا وسفكوا الدماء، فخرّب بيت المقدس، وحرق التوراة، وأخذ التابوت الذي كانوا ينتصرون به، وسبى نساءهم وذراريهم(٢). رُوي أنه سبى من أبناء ملوكهم أربعمائة وأربعين، فسألوا نبيهم أن يبعث لهم ملكا يجاهدون معه، **﴿فلما كُتب عليهم القتال﴾** ويَسر لهم ملكا يسوسهم وهو طالوت، جبنُوا وتولوا **﴿إلا قليلا منهم﴾**، وهم من عَبَرَ النهر مع طالوت، **﴿والله عليم بالظالمين﴾** فيخزيهم ويُفسد رأيهم. نعوذ بالله من ذلك.

---

(١) ويسمى الآن «البحر المتوسط».

(٢) الذراري: جمع ذرية، وهي النسل.

الإشارة: ترى كثيراً من الناس يتمنون أن لو ظفروا بشيخ التربية، ويقولون: لو وجدناه لجاهدنا أنفسنا أكثر من غيرنا، فلما ظهر، وعُرف بالتربية، تولى ونكص على عقبيه، وتعلل بالإنكار وعدم الأهلية، إلا قليلاً ممن خصه الله بعنايته (والله يختص برحمته من يشاء). (والله ذو الفضل العظيم). سبحان من لم يجعل الدليل على أوليائه إلا من حيث الدليل عليه، ولم يوصل إليهم إلا من أراد أن يوصله إليه.

ثم عيَّن لهم الملكَ الذي طلبوا، فقال:

﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًاۚ قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿وقال لهم نبيهم﴾ شمويل: ﴿إن الله قد بعث لكم﴾ ملكا، أي: عيَّنه لكم لتقاتلوا معه، وهو ﴿طالوت﴾ وهو علَمٌ عِبْراني كداوُد، ﴿قالوا﴾ تعنتاً وتشغيبا: ﴿أنى يكون له الملك علينا﴾ أي من أين يستأهل التملك علينا وليس من دار الملك؟ لأن المملكة كانت في أولاد يهوذا، وطالوت من أولاد بنيامين، والنبوة كانت في أولاد لاوي. وقالوا: ﴿نحن أحق بالملك منه﴾ وراثة ومُكْنة، لأن دار المملكة فينا. وأيضا هو فقير ﴿لم يُؤْتَ سعة من المال﴾ يتقوى به على حرب عدوه، وكان طالوت فقيراً راعيا أو سقَّاءً أو دباغا. ﴿قال﴾ لهم نبيهم - عليه السلام -: ﴿إن الله اصطفاه عليكم﴾ رغم أنفكم. قال وهب بن منبه: أوحى الله إلى نبيهم: إذا دخل عليك رجل فنَشّ(١) الدهنَ الذي في القرن(٢) فهو ملكهم، فلما دخل طالوت نَشَّ الدهن.

وقال السدي: أرسل الله إليه عصا، وقال له: إذا دخل عليك رجل على طول هذه العصا فهو ملكهم، فكان ذلك طالوت فتبيَّن أن الله تعالى اصطفاه للملك، ﴿وزاده بسطة في العلم﴾ فكان أعلم بني اسرائيل بالتوراة وقيل: بالحروب وعلم السياسة. وزاده أيضا بسطة في ﴿الجسم﴾، فكان أطولَ بني اسرائيل يبلغ إلى منكِبه. وذلك ليكون أعظم خطرًا في القلوب، وأقوى على مقاومة العدو ومكايدة الحروب، (والله يؤتي ملكه من يشاء)؛ لأنه ملِك الملوك

(١) نَشَّ الماء ينش نشا ونشيشاً ونشش: إذا صوت عند الغليان.

(٢) القرن: هو قرن الثور وغيره. وأراد به هنا: القنينة التي يكون فيها الدهن، وكانوا يتخذونها من قرون البقر وغيرها.

يضع مُلكه حيث شاء، (والله واسع) فيوسع على الفقير ويغنيه بلا سبب، (عليم) بمن يليق بالملك بسبب وبلا سبب.

ثم ذكر آية أخرى تدل على ملكه، فقال:

﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾ ﴾

قلت: قال الجوهري: أصل التابوت: تأبوة، مثل تَرْقُوة وهي فَعْلُوة، فلما سُكِّنَتْ الواو، انقلبت هاء التأنيث تاءً، فلغة قريش بالتاء، ولغة الأنصار بالهاء.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وقال لهم نبيهم﴾ لما طلبوا منه الحجة على اصطفاء طالوت للملك: ﴿إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت﴾ وهو صندوق من خشب الشمشار مُمَوَّه بالذهب، طوله ثلاثة أذرع في سعة ذراعين ﴿فيه سكينة من ربكم﴾ أي: فيه ما تسكن إليه قلوبكم وتثبت عند الحرب. وكانوا يُقدمونه أمامهم في الحروب فلا يفرون، وينصرون على عدوهم، وقيل: كان فيه صور الأنبياء من آدم ﷺ إلى محمد ﷺ. وقيل: كان فيه طَسْت من ذهب غُسلت به قلوب الأنبياء - عليهم السلام - وهي السكينة - وفيه ﴿بقية مما ترك آل موسى﴾ وهي رُضاض[1] الألواح، وعصا موسى، وثيابه، وعمامة هارون و الآل :مقحم فيهما.

﴿تحمله الملائكة﴾ قال وهب: لما صار التابوت عند القوم الذين غلبوا بني إسرائيل - فوضعوه في كنيسة لهم فيها أصنام، فكانت الأصنام تُصبح مُنكسرة، فحملوه إلى قرية قوم، فأصاب أولئك القومَ أوجاعٌ، فقالوا: ما هذا إلا لهذا التابوت، فلنتركه إلى بني إسرائيل، فأخذوا عَجَلَةً فجعلوا التابوت عليها وربطوها ببقرتين، وأرسلوهما نحو بلاد بني إسرائيل، فبعث الله ملائكة تسوق البقرتين حتى دخلتا على بني إسرائيل، وهم في أمر طالوت فأيقنوا بالنصر. وقيل غيرُ ذلك.

---

(١) رُضاض الشيء: كساره وفتاته.

وقوله تعالى: ﴿إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين﴾ يحتمل أن يكون من كلام نبيهم، أو من كلام الحق تعالى لنبينا ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

الإشارة: من شأن غالب النفوس ألا تقبل الخصوصية عند أحد حتى تظهر علامتُها، ولذلك طالب الكفارُ الرسلَ بالمعجزات، وطالب العوامُ الأولياءَ بالكرامات، ويكفي في الولي استقامة ظاهره، وتحقيق اليقين في باطنه.

قال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه: «إنما هما كرامتان جامعتان محيطتان: كرامة الإيمان بمزيد الإيقان ونعت العيان، وكرامة العمل على السنة والمتابعة، وترك الدعاوى والمخادعة، فمَن أُعطيهما ثم جعل يشتاق إلى غيرهما فهو مفترٍ كذاب، أو ذو خطأ في العلم والعمل..»إلخ كلامه رضي الله عنه.

وقال في العوارف: وقد يكون مَنْ لا يُكَاشَفُ بشيء من معاني القَدَر أفضل ممن يكاشف بها، إذا كاشفه الله تعالى بصرف المعرفة، فالقدرة أثر من القادر، ومن أهل لقرب القادر لا يستغرب ولا يستكثر شيئًا من القدرة، ويرى القدرة تتجلى من سُحُب أجزاء عالم الحكمة. فالكرامة إنما تظهر للقلوب المضطربة والنفوس المتزلزلة، وأما من سكن قلبه باليقين واطمأنت نفسه بالعيان لم يحتج إلى دليل ولا برهان؛ إذ الجبال الراسية لا تحتاج إلى دُعامة، والله تعالى أعلم.

وكل من طالب أهلَ الخصوصية بالكرامة الحسية ففيه نزعة اسرائيلية، حيث قالوا لنبيهم بعد أن عيَّن لهم مَنْ أكرمه الله بخصوصية الملك: (أنى يكون له الملكُ علينا ونحن أحق بالملك منه). ورد الحق تعالى عليهم بقوله: ﴿والله يؤتي ملكه من يشاء﴾. وما أظهر لهم كرامة التابوت إلا بعد امتناعهم من الجهاد المُتَعَيِّنِ عليهم رحمةً بهم. والله تعالى أعلم.

ثم كمَّل قصةَ خروجهم إلى العدو، فقال:

﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ۚ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ۚ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٢٤٩) ﴾

قلت: قال في القاموس: غَرَفَ الماء يَغْرُفُه: أخذه بيده، كاغْتَرفَه، والغَرْفَةُ للمَرَّة، وبالكسر: هيئة الغرف وبالضم: اسم للمفعول، كالغرافة، لأنك ما لم تغرفه لا تسميه غُرْفَة، ثم قال: والغُرْفَةُ، بالضم: العُلِّيَّة(١).

يقول الحق جل جلاله: ولما اتفقوا على مُلك طالوت تجهز للخروج، وقال: لا يخرج معه إلا الشبابُ النشيط الفارغُ ليس وراءه عُلْقة(٢)، فاجتمع ممن اختار ثمانون ألفا، وقيل: ثلاثون، فلما انفصل عن بلده بالجنود وساروا في البيداء، ـ وكان وقت الحرّ والقيْظ ـ عطشوا، وسألوا طالوتَ أن يُجرى لهم نهراً، فقال لهم بوحْي، أو بإلهام، أو بأمر نبيهم: ﴿إن الله مبتليكم﴾ أي: مُختبركم ﴿بنهر﴾ بسبب اقتراحكم، ﴿فمن شرب منه﴾ كَرْعا بلا واسطة ﴿فليس مني﴾ أي: من جيشي، ﴿ومن لم يطعمه﴾ أي: يذُقه، ﴿فإنه مني إلا من اغترف غرفة بيده﴾ فإنها تكفيه لنفسه ولفرسه، فالاستثناء من الجملة الأولى.

﴿فشربوا منه﴾ أي: كرَعوا، وسقطوا على وجوههم، ﴿إلا قليلا منهم﴾ ثلاثمائةٍ وأربعةَ عشر، على عدد أهل بدر، وقيل: ألفاً. رُوي أن من اقتصر على الغَرفة كفَتْه لشربه ودوابه، ومن لم يقتصر غلب عطشُه، واسودّتْ شفته ولم يقدْر أن يمضيَ. وعن ابن عباس: أن القومَ شربوا على قدر يقينهم: فالكفار شربوا شُربَ الهيم، وشرِب العاصي دون ذلك، وانصرف من القوم ستةٌ وسبعون ألفاً، وبقي بعضُ المؤمنين لم يشرب شيئًا، وأخذ بعضهم الغَرفة، فأما من شرب فاشتد به العطشُ وسقط، وأما من ترك الماءَ فحسن حالُه، وكان أجلَد ممن أخذ الغرفة. هـ.

وحكمة هذا الامتحان: ليتخلص للجهاد المطيعون المخلصون، إذ لايقع النصر إلاّ بهم، فلما جاوز النهرَ طالوتُ ومن بقيَ معه ممن لم يشربْ قال بعضهم لبعض: ﴿لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده﴾؛ لكثرتهم وقلة عددنا، ﴿قال الذين يظنون﴾ أي: يتيقّنون ﴿أنهم ملاقو الله﴾ ويتوقعون ثوابَ الشهادة وهم الخُلّصُ من أهل البصيرة: لا تفزعوا من كثرة عددهم ﴿كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله﴾ وإرادته ومعونته، و«كم» للتكثير، ﴿والله مع الصابرين﴾ بالنصر والمعونة.

الإشارة: قال بعض الحكماء: الدنيا كنهر طالوت، لا ينجو منها إلا من لم يشربْ أو اغترف غرفةً بيده، فمن أخذ منها قَدْرَ الضرورة كفَتْه، ونَشَطَ لعبادة مولاه، ومن أخذ فرق الحاجة حُبس في سجنها، وكان أسيراً في يدها.

(١) العلية بضم العين وكسرها ـ هي الغرفة في الطبقة الثانية من الدار ومافوقها، وجمعها (علالي)
(٢) أي: ما يتعلق به وجمعها علق. وذلك كتجارة، وزوجة لم يدخل بها، وغير ذلك.

وقال بعضهم: طالبُ الدنيا كشارب ماءِ البحر، كلما زاد شربه ازداد عطشه . هـ. وقال ﷺ: «من أُشرب قلبه حُبَّ الدنيا التاط(١) منها بثلاث: بشغل لاينفد عناه، وأمل لا يبلغ منتهاه، وحرص لا يدرك مداه» وقال عيسى عليه السلام: الدنيا مزرعة لإبليس، وأهلها حراث له هـ. وقال على رضي الله عنه: الدنيا كالحية: ليِّن مسها، قاتل سمها، فكن أحذر ما تكونُ منها، أسرَّ ما تكون بها؛ فإن من سكن منها إلى إيناس أزاله عنها إيحاش.

وقال عليه الصلاة والسلام: «منْ هوان الدنيا على الله أنه لا يُعصى إلا فيها، ولا ينال ما عنده إلا بتركها» . وقال سيدنا علي ـ كرم الله وجهه ـ: أول الدنيا عناء، وآخرها فناء، حلالها حساب، وحرامها عقاب، ومتشابهها عتاب، من استغنى فيها فُتن، ومن افتقر فيها حزن. هـ. وقيل: الدنيا تُقبل إقبال الطالب، وتُدبر إدبار الهارب، وتصل وصال الملول، وتُفارق فراق العجول، خيرها يسير، وعمرها قصير، ولذاتها فانية، وتبعاتها باقية.

وقال عيسى عليه السلام: تعملون للدنيا، وأنتم تُرزقون فيها بغير عمل، ولا تعملون للآخرة وأنتم لا ترزقون فيها إلا بالعمل. هـ. وقيل: أوحى الله إلى الدنيا: مَنْ خدَمني فاخدميه، ومنْ خدمك فاستخدِميه.

وكان عمرُ بنُ عبد العزيز يتمثل بهذه الأبيات(٢):

نهـارُكَ يا مـغـرورُ سـهـوٌ وغـفـلةٌ ... ولـيـلُـكَ نـومٌ، والأَسَـى لـك لازمُ
تُـسَـرُّ بما يفْنَى، وتفـرحُ بالمُنَى ... كـمـا سُـرَّ باللذَّات فى النوم حـالمُ
وشُـغلُك فـيـهـا سوف تكرَه غِبَّـه ... كـذلك فى الدنيـا تَعِيْش البـهـائمُ

وقال آخر(٣):

هـى الـدارُ دارُ الأذى والـقـــذى ... ودارُ الـفـنـاء ودارُ الْغِــيَــرْ
فلو نِلْتَـهـا بـحـذافـيـرها ... لمتَّ ولم تَقْضِ منـهـا الوطرْ
أيـا مَـنْ يـؤمـلُ طـولَ الـخـلـودِ ... وطولُ الخلودِ عليـه ضـررْ
إذا مـا كـبِـرْتَ وفـات الشـبَـابُ ... فـلا خـيـرَ فى العـيش بعـد الكِبـرْ

---

(١) التاط: أى التصق.
(٢) الأبيات لمسعر بن كدام، كما فى حلية الأولياء ٧ / ٢٢٠
(٣) وهو أبو العتاهية.

ثم ذكر الحق تعالى قصة جالوت وملك داود عليه السلام، فقال:

﴿ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا
وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ
وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم
بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٢٥١﴾ تِلْكَ
آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ولما برز طالوت بمَنْ معه ﴿لجالوت﴾، أي: ظهر في البرَاز، ودنا بعضهم من بعض، تضرعوا إلى الله واستنصروه، وقالوا: ﴿ربنا أفرغ علينا صبرا﴾ أي: اصْبُبْه علينا صبّا، ﴿وثبت أقدامنا﴾ عند اللقاء لئلا نفِرَّ، ﴿وانصرنا على القوم الكافرين﴾. وفي دعائهم ترتيب بليغ؛ سألوا أولاً إفراغ الصبر في قلوبهم الذي هو ملاك الأمر، ثم ثبات القدمِ في مَدَاحِضِ الحرب المُسببِ عنه، ثم النصرَ على العدو المرتب عليها غالباً.

فهزم الله عدوَّهم وأجاب دعاءهم بإذنه وقدرته، ﴿وقتل داود جالوت﴾. وقصة قتله: أن أصحاب طالوت كان فيهم بنو إيش، وهو أبو داود عليه السلام ستة أو سبعة، وكان داود صغيراً يرعى غنماء فلما حضرت الحرب قال في نفسه: لأذهبن لرؤية هذه الحرب، فمرَّ في طريقه، بحجر فناداه :يا داود خُذْني، فبي تقتل جالوت، ثم ناداه حجر آخر ثم آخر فأخذها، وجعلها في مخلاته وسار، فلما حضر البأس خرج جالوت يطلب البراز، وكاع(1) الناس عنه، أي: تأخروا خوفاً، حتى قال طالوت: من يبرز له ويقتله فأنا أزوجه ابنتي، وأُحَكِّمُهُ في مالي، فجاء داود، فقال له طالوت: اركب فرسي وخذ سلاحي، ففعل، وخرج في أحسن شكله، فلما مشى قليلاً رجع، فقال الناس: جبُنَ الفتى، فقال داود: إن الله سبحانه لم يقتله ولم يُعنّي عليه، لم ينفعني هذا الفرس ولا هذا السلاح، ولكني أُحب أن أقاتله

(1) كاع فلان: جبن وضعف.

على عادتي. وكان داود من أرمى الناس بالمقلاع، فنزل، وأخذ مخلاته فتقلدها، وأخذ مقلاعه فخرج إلى جالوت، وهو شاكٍ[١] في السلاح، فقال جالوت: أنت يا فتى تخرج إليّ! قال: نعم، قال: هكذا كما تخرج إلى الكلب! قال: نعم، وأنت أهون، قال: لأطعمن لحمك اليوم الطير والسباع، ثم تدانيا فأدار داود فأخذ مقلاعه وأدخل يده إلى الحجارة، فروى أنها التأمت، وصارت حجراً واحداً، فأخذه ووضعه في المقلاع، وسمَّى الله، وأداره، ورماه، فأصاب رأس جالوت فقتله، وجز رأسه، وجعله في مخلاته، واختلط الناس، وحمل أصحابُ طالوت فكانت الهزيمة.

ثم إن داود جاء يطلب شرطه من طالوت، فقال: حتى تقتل مائتين من هؤلاء الجراجمة[٢] الذين يؤذون الناس وتجيئني بسلبهم، فقتل داود منهم مائتين، وجاء بذلك، فدفع إليه امرأته وتخلى له عن الملك[٣]. ولما تمكن داود ـ عليه السلام ـ من الملك، أجلى من بقى من قوم جالوت إلى المغرب، فمن بقيتهم البرابرة من الشلوح وسائر الأرياف.

فآتى اللهُ داود ﴿الملك والحكمة﴾ وهي النبوة، وقيل: صنعة الدروع ومنطق الطير ﴿وعلمه مما يشاء﴾ من أنواع العلوم والمعارف والأسرار، وقد دفع الله بأس الكافرين ورد كيدهم في نحرهم، ﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض﴾ أي: لولا أن الله يدفع بعض الناس ببعض، فينصر المسلمين على الكافرين، ويكف فسادهم، لغلبوا وأفسدوا في الأرض. أو: لولا أن الله نصب السلطان، وأقام الحكام لينصفوا المظلوم من الظالم، ويردوا القوى عن الضعيف، لتواثب الخلق بعضهم على بعض، وأكل القوى الضعيفَ فيفسد النظام. أو: لولا أن الله يدفع بالشهود عن الناس في حفظ الأموال والنفوس والدماء والأعراض، لوقع الفساد في الأرض.

أو: لولا أن الله يدفع بأهل الطاعة والإحسان عن أهل الغفلة والعصيان، لفسدت الأرض بشؤم أهل العصيان. وفي الخبر عنه ﷺ: «إنّ الله يَدْفَعُ بالمُصلّي مِنْ أمّتِي عَمّنْ لا يُصلي، وبمنْ يُزكي عَمّنْ لاَ يُزَكّي، وبِمنْ يَصُومُ

(١) يقال: رجل شاكي السلاح: تام التسلح.
(٢) الجراجمة: قوم من العجم بالجزيرة. ويقال: الجراجمة نبط الشام.
(٣) هذا القصص كله لين الأسانيد ـ كما قال ابن عطية. وقال الدكتور أبو شهبة: نحن في غنية عن هذا القصص بما في أيدينا من القرآن والسنة، ولسنا في حاجة إلى شيء من هذا في فهم القرآن وتدبره. انظر الإسرائيليات والموضوعات للدكتور أبي شهبة ـ رحمه الله.

عَمَّنْ لاَ يَصُوم، ويَمنْ يَحجّ؛ عَمّنْ لاَ يَحجّ، ويَمَنْ يُجاهِدُ عمَّنْ لاَ يُجَاهِدُ. ولَوِ اجْتَمَعُوا علَى تَرْكِ هذِهِ الأشْياءِ ما أنْظَرَهُمُ الله طَرْفَة عيْنٍ» .

وفى حديث آخر: «لولا عباد لله رُكّع، وصبية رُضّع، لصبّ عليكم العذاب صبا» . وروَى جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : «إن الله ليُصلحُ بصلاح الرجل. ولده وولدَ ولده، وأهل دُوَيْرَته، ودويراتٍ حوله، ولا يزالون فى حِفْظِ الله مادام فيهم» . هـ. فهذا من فضل الله على عباده يصلح طالحهم بصالحهم، ويُشَفّع خيارَهم فى شرارهم، ولولا ذلك لعوجلوا بالهلاك، ﴿ولكن الله ذو فضل على العالمين﴾.

﴿تلك﴾ يا محمد، ﴿آيات الله﴾ والإشارة إلى ما قصّ من حديث الألوف، وتمليك طالوت، وإتيان التابوت، وانهزام الجبابرة أصحاب جالوت، ﴿نتلوها﴾ أى: نقصها عليكم ﴿بالحق﴾ أى: بالوجه المطابق الذى لا يشُك فيه أهل الكتاب وأرباب التواريخ، ﴿وإنك لمن المرسلين﴾ حيث أخبرت بها من غير تعرف ولا استماع ولم يعهد منك تعلم ولا اطلاع، فلا يشك أنه مِنْ عند الخبير العليم، إلا من طبع الله على قلبه. نعوذ بالله من ذلك.

الإشارة: «من علامة النُجح فى النهايات الرجوع إلى الله في البدايات» ، فإذا برز المريد لجهاد أعدائه من النفس والهوى والشيطان وسائر القُطاع، واستنصر بالله وتبرأ من حوله وقوته، كان ذلك علامة على نصره وظفره بنفسه، وكان سببًا فى نجح نهايته، فيملكه الله الوجود بأسره، ويفتح عليه من خزائن حكمته. قال أبو سليمان الداراني: (إذا اعتادت النفوس على ترك الآثام، جالت فى الملكوت ثم عادت إلى صاحبها بطرائف الحكم من غير أن يُؤدّى إليها عالمٌ علما) . وفى الخبر: «من عَمِل بما علِمَ أورثه الله عِلْمَ مالم يعلمْ» . وكان حينئذ رحمة للعباد، يدفع الله بوجوده العذاب عمن يستحقه من عباده.

وفى الحديث القدسي: « يقول الله عز وجل: إذا كان الغالبَ على عبدى الاشتغالُ بي جعلتُ همته ولذّته فى ذكرى، ورفعت الحجاب فيما بينى وبينه، لا يسهو إذا سها الناس، أولئك كَلاَمُهم كلام الأنبياء، أولئك الأبطال حقًا، أولئك الذين إذا أردتُ بأهلِ الأرض عقوبة أو عذابا ذكرتهم فصرفته بهم عنهم» . حقّقنا الله بمحبتهم وجعلنا منهم .. آمين.

ولمّا ذكر في هذه السورة جملة من الأنبياء والرسل، وشهد لرسوله ﷺ أنه من المرسلين ذكر تفضيل بعضهم على بعض في الجملة، فقال:

﴿ ۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ۚ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ ... ﴾

قلت: (تلك): مبتدأ، و(الرسل): نعت، أوبدل منه، أو بيان، و(فضلنا): خبر، أو (الرسل) خبر، و(فضلنا): خبر ثان، والإشارة إلى الجماعة المذكور قَصَصُها في السورة.

يقول الحق جل جلاله: ﴿تلك الرسل﴾ الذين قصصناهم عليك، وذكرتُ لك أنك منهم، ﴿فضلنا بعضهم على بعض﴾ بخصائص ومناقب لم توجد في غيره. لكن هذا التفضيل إنما يكون في الجملة من غير تعيين المفضول، لأنه تنقيص في حقه وهو ممنوع. ولذلك قال عليه الصلاة والسلام: «لا تُخَيِّرُوا بَيْنَ الأَنبِيَاءِ»، «ولا تفضلوني على يونس بن متى» فإن معناه النهي عن تعيين المفضول؛ لأنه غيبة وتنقيص، وقد صرح ﷺ بفضله على جميع الأنبياء بقوله: «أنا سَيِّدُ وَلَدِ آدمَ ولا فَخْرَ». لكن لا يُعَيِّن أحداً من الأنبياء بالمفضولية؛ لئلا يؤدي إلى نقصه، فلا تَعارُض بين الحديثين.

﴿منهم من كلم الله﴾ وهو موسى عليه السلام في جبل الطور، وسيدنا محمد ﷺ حين كان قاب قوسين أو أدنى، ﴿ورفع بعضهم درجات﴾ وهو نبينا محمد ﷺ؛ فإنه خُصَّ بالدعوة العامة، والحُجج المتكاثرة، والمعجزات المستمرة، والآيات المتعاقبة بتعاقب الدهر، والفضائل العلمية والعملية الفائتة للحصر. والإبهام لتفخيم شأنه، كأنه العلم المشهور المتعين لهذا الوصف المستغني عن التعيين. وقيل: إبراهيم، خصه بالخلة التي هي أعلى المراتب. قلت: بل المحبة أعلى منها(١)، وقيل: إدريس لقوله: ﴿ ورفعناه مكانًا عليًّا ﴾، وقيل: أولو العزم من الرسل، قاله البيضاوي.

﴿وآتينا عيسى بن مريم البينات﴾ أي: الآيات الواضحات، كإحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص، (وأيدناه بروح القدس)، أي: جبريل عليه السلام كان معه أينما سار، وخصه بالتعيين؛ لإفراط اليهود والنصارى في تحقيره وتعظيمه، فردَّهم إلى الصواب باعتقاد نبوته دون ربوبيته.

(١) سواء كانت المحبة أعلى أم الخلة ـ فكلتاهما حاصلة لنبينا وسيدنا محمد ﷺ. وانظر في مسألة: أيهما أعلى: المحبة أم الخلة؟ الشفا للقاضي عياض ١ / ٢١٣.

الإشارة: كما فضّل الله الرسل بعضهم على بعض، كذلك فضل الأولياء بعضهم على بعض، وإنما يقع التفضيل بكمال اليقين، والتغلغل في علم التوحيد الخاص، ذوقًا وكشفًا، والترقي في المعارف والأسرار. وذلك بخدمة الرجال وصحبة أهل الكمال، والتفرغ التام، والزهد الكامل في النفس والفلْس والجنْس، فمنهم من تحصل له المشاهدة وتصحبها المكالمة، ومنهم من تحصل له المشاهدة دون المكالمة، ومنهم من تحصل له الكرامات الواضحة، ومنهم من لا يرى شيئاً من ذلك استغناءً عنها بكرامة المعرفة. وما قيل في الرسل من عدم تعيين المفضول، مثله يقال في حق الأولياء، وإلا وقع في الغيبة الشنيعة؛ فإن لحوم الأولياء سموم، فليعتقد الكمال في الجميع، ولا يصرح بتعيين المفضول كما تقدم. والله تعالى أعلم.

ولما ذكر الحق تعالى أحوال الرسل، وتفاوتهم في العناية، ذكر أحوال أممهم وتفاوتهم في الهداية، فقال:

﴿ ... وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَٰكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾ ﴾

قلت: إذا وقع فعل المشيئة بعد (لو) فالغالب حذف مفعوله، كقوله: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا ﴾، أي: لو شئنا رفعه لرفعناه بها، وكقوله: ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ... ﴾، أي: لو شاء هدايتهم ما اقتتلوا، وغير ذلك.

يقول الحق جل جلاله: ولما بعثتُ الرسلَ، وفضّلتُ بعضهم على بعض، اختلفت أممهم من بعدهم فاقتتلوا، وكل ذلك بإرادتي ومشيئتي، ﴿ولو شاء الله﴾ هداية أممهم ﴿ما اقتتل الذين من بعدهم من بعد ما جاءتهم﴾ المعجزات الواضحات في تحقيق رسالتهم وصحة نبوتهم، ﴿ولكن اختلفوا﴾ بغيا وحسدا؛ ﴿فمنهم من آمن﴾ بتوفيقه لاتباع دين الأنبياء، ﴿ومنهم من كفر﴾ بمخالفتهم، فكان من الأشقياء، ﴿ولو شاء الله﴾ جَمَعهم على الهدى ﴿ما اقتتلوا﴾، لكن حكمته اقتضت وجود الاختلاف؛ ليظهر سر اسمه المنتقم والقهار واسمه الكريم والحليم، ﴿ولكن الله يفعل ما يريد﴾ ﴿ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴾.

وفي الآية دليل على أن الحوادث كلها بيد الله خيرها وشرها، وأن أفعال العباد كلها بقدرته تعالى، لا تأثير لشيء من الكائنات فيها. وهذا يردُّ قول المعتزلة القائلين بخلق العبد أفعاله، فما أبعدهم عن الله. نسأل الله العصمة بمنّه وكرمه.

الإشارة: اختلاف الناس على الأولياء سُنة ماضية وحكمة أزلية، ﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾، ﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴾، فمن رأيته من الأولياء اتفق الناسُ على تعظيمه في حياته فهو ناقص أو جاهل بالله؛ إذ

الداخل على الله منكور، والراجع إلى الناس مبرور، وهذا هو الغالب، والنادر لا حكم له، فلو كان الاتفاق محموداً لكان على الأنبياء أولى، فلما لم يقع للأنبياء والرسل، لم يقع للأولياء؛ إذ هم على قدمهم، وقائمون بالوراثة الكاملة عنهم. والله تعالى أعلم.

ثم حضّ على الصدقة في سبيل الله؛ لأنها برهان الإيمان وعنوان الهداية، فقال:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خُلَّةٞ وَلَا شَفَٰعَةٞۗ وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم﴾ واجباً أو تطوعاً في وجوه الخير، وخصوصاً في الجهاد الذي نحن بصدد الحض عليه، وقدموا لأنفسكم ما تجدونه بعد موتكم ﴿من قبل أن يأتي يوم﴾ الحساب، واقتضاء الثواب، يوم ليس فيه ﴿بيع﴾ ولا شراء، فيكتسب ما يقع به الفداء، وليس فيه ﴿خُلَّة﴾ تنفعُ إلا خلة الأتقياء، ﴿ولا شفاعة﴾ ترجى ﴿إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً﴾ فأنفقوا مما خولناكم في سبيل الله، وجاهدوا الكافرين أعداء الله، فإن الكافرين ﴿هم الظالمون﴾؛ حيث وضعوا عبادتهم في غير محلها، ونسبوا الربوبية لغير مستحقيها، إذ لا يستحقها إلا الحي القيوم، الذي أشار إليه الحق جل جلاله:

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾ ﴾

قلت: (الله): مبتدأ، وجملة (لا إله إلا هو): خبره، والضمير المنفصل بدل من المستتر في الخبر، و(الحي): إما خبرٌ ثان، أو لمبتدأ مضمر، أو بدل من (الله)، و (قيوم) فَيْعُول، مبالغة من القيام، ومعناه: القائم بنفسه المستغني عن غيره.

يقول الحق جل جلاله: ﴿الله﴾ الواجب الوجود لا يستحق العبادة غيره، فمن عبد غيره فقد أتى بظلم عظيم ﴿الحي﴾ أي: الدائم بلا أول، الباقي بلا زوال، الذي لا سبيل عليه للموت والفناء، ﴿القيوم﴾ أي: دائم القيام بتدبير خلقه في إيصال المنافع ودفع المضار، وجلب الأرزاق وأنواع الارتقاء، ﴿لا تأخذه سنة ولا نوم﴾ السنة: ما يتقدم النوم من الفتور، والنوم: حالة تعرض للإنسان من استرخاء أعصاب الدماغ من رطوبات الأبخرة المتصاعدة، فتقف الحواس الظاهرة عن الإحساس رأساً.

وتقديم السِّنَة عليه، على ترتيب الوجود، كقوله تعالى: ﴿ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً ﴾، وجمع بينهما؛ لأنه لو اقتصر على نفي السِّنَة عنه لتوهم أن النوم يغلبه لأنه أشد، ولو اقتصر على نفي النوم لتوهم أن السنة تلحقه لخفتها. والمراد تنزيهه تعالى عن آفات البشرية، وتأكيد كونه حياً قيوماً، فإن من أخذه نعاس أو نوم يكون مؤوف[1] الحياة، قاصراً في الحفظ والتدبير. ولذلك ترك العطف فيه وفي الجمل التي بعده؛ لأنها كلها مقررة له، أي: للحي للقيوم.

وقد ورد أنه اسم الله الأعظم، وقال عليه الصلاة والسلام لفاطمة ـ رضي الله عنها: «ما منَعك أن تَسْمَعي ما أُوصيك به تقولين إذا أصْبَحتِ وإذا أمْسَيتِ يا حي يا قيُّوم، برحمتِكَ أستغيث أصْلِحْ لي شأني كلَّه، ولا تَكِلْني إلى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ». رواه النسائي. وأخرج مسلم عن أبي موسى رضي الله عنه قال: «قامَ فينا رسولُ الله ﷺ بخمسِ كلماتٍ قال: إنّ الله عزّ وجلّ لا ينامُ، ولا ينْبَغِي لَهُ أنْ ينامَ، يَخْفِضُ القِسطَ ويرفَعُه. يُرْفَعُ إليْهِ عمَلُ اللَّيلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهارِ وعَمَلُ النهارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيلِ، حِجَابُهُ النُّورُ ـ وفي رواية. النَّارُ ـ لَوْ كَشَفَهُ لأحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ ما أدركه بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ».

﴿له ما في السموات وما في الأرض﴾ هذا تقرير لقيوميته تعالى، واحتجاج على تفرده في الألوهية. والمراد بما فيهما: ما هو أعمُّ من أجزائهما الداخلة فيهما ومن الأمور الخارجة عنهما، المتمكنة فيهما، من العقلاء وغيرهم، فهو أبلغ من (له السموات والأرض وما فيهن)، يعني: أن الله يملك جميع ذلك من غير شريك ولا منازع، وعبر بـ (ما) تغليبا للغالب.

---

(١) أف الطعام أوفاً وأفة: فسد، والبلاد: أصابتها آفة من قحط أو مرض أو غيرهما.

﴿من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه﴾ هذا بيان لكبرياء شأنه، وأنه لا يدانيه أحد ليقدر على تغيير ما يريده بشفاعة واستكانة، فضلا عن أن يعاوقه عناداً أو مناصبة. والاستفهام إنكارى، أى: لا أحد يشفع عنده لمن أراد تعالى عقوبته، إلا بإذنه، وذلك أن المشركين زعموا أن الأصنام تشفع لهم، فأخبر تعالى أنه لا شفاعة عنده إلا بإذنه، يريد بذلك شفاعة النبى ﷺ وبعض الأنبياء والأولياء والملائكة.

﴿يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم﴾ أى: ما قبلهم وما بعدهم، أو بالعكس، لأنك تستقبل المستقبل وتستدبر الماضى؛ وقيل: ﴿يعلم ما بين أيديهم﴾ من الدنيا ﴿وما خلفهم﴾ من الآخرة، وقيل: عكسه، لأنهم يقدمون ويُخلّفون الدنيا وراءهم، وقيل: يعلم ما قدموه بين أيديهم من خير أو شر، وما خلفهم وما هم فاعلوه، أو عكسه. والمراد أنه سبحانه أحاط بالأشياء كلها، فلا يخفى عليه شيء ﴿ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء﴾ أى: لا يحيطون بشيء من معلوماته تعالى إلا بما شاء أن يطلعهم عليه، وعطفه على ما قبله؛ لأن مجموعه يدل على تفرده تعالى بالعلم الذاتى التام، الدال على وحدانيته تعالى فى ذاته وصفاته.

﴿وسع كرسيُّه السموات والأرض﴾ يقال: فلان يسَعُ الشيء سعة إذا احتمله وأطاقه وأمكنه القيامُ به. ويقال: وسع الشيءُ الشيء إذا أحاط به وغمره حتى اضمحل فى جانبه، وهذا المعنى هو اللائق هنا. وأصل الكرسي فى اللغة: من تَركُّب الشيء بعضه على بعض، ومنه الكراسة، لتركب أوراقها بعضها على بعض، وفى العرف: اسم لما يُقعد عليه، سُمّى به لتركب خشباته. واختلف فيه فقيل: العرش، وقيل: غيره.

والصحيح أنه مخلوق عظيم أمام العرش، فوق السموات السبع دون العرش. يقال: إن السموات والأرض فى جنب الكرسى كحلقة فى فلاة. والكرسى فى جانب العرش كحلقة فى فلاة. وعن ابن عباس: (أن السموات فى الكرسى كدراهم سبعة فى تُرْس) وقيل: كرسيه: علمه.

قال البيضاوى: هو تصوير لعظمته تعالى وتمثيل مجرد، كقوله ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ﴾ ولا كرسى فى الحقيقة ولا قاعد(١). وقيل: كرسيه مجاز عن

(١) هذا الذى اختاره جم من الخلف، فراراً من توهم التجسيم، والحق: أن الكرسى ثابت كما نطقت به الأخبار الصحيحة. ومذهب سادتنا من السلف الصالح هو: جعل ذلك من الأمور التى لايحيط المرء بها علماً، مع تفويض العلم فيها إلى الله تعالى، مع اعتقاد التنزيه والتقديس له تعالى شأنه. وهذا هو الأسلم.

علمه أو ملكه، مأخوذ من كرسي العلم والملك، وقيل: جسم بين يدى العرش محيط بالسموات السبع لقوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «ما السموات السبع والأرضون السبع في الكرسي إلا كحلقة في فلاة، وفضل العرش على الكرسي كفضل تلك الفلاة على تلك الحلقة» ولعله الفلك المشهور بفلك البروج. هـ. قلت : وقد اعترض السيوطي في حاشيته عليه[1]. فالله تعالى أعلم.

﴿ولا يؤوده﴾ أي: لايثقله ولاَ يَشقُّ عليه ﴿حفظهما﴾ أي: حفظ السموات والأرض. وإنما لم يتعرض لذكر ما فيهما لأن حفظهما مُسْتَتْبِع لحفظه، ﴿وهو العلى﴾ أي: المتعالى عن الأشباه والأنداد، ﴿العظيم﴾ أي: عظيم الشأن، جليل القدر، الذى يُستحقرُ كلُّ شيء دون عظمته.

وهذه الآية مشتملة على أمهات المسائل الإلهية، فإنها دالة على أنه تعالى موجود واحد فى الألوهية، متصف بالحياة الذاتية، واجب الوجود لذاته، موجد لغيره؛ إذ القيوم هو القائم بنفسه المقيم لغيره، منزه عن التحيز والحلول، مُبرأ عن التغير والفتور، لا يناسب الأشباح، ولا يعتريه مايعترى الأرواح، مالك الملك والملكوت، مبدع الأصول والفروع، ذو البطش الشديد، الذى لا يشفع عنده إلا من أذن له. عالم بالأشياء كلها : جلِيّها وَخفِيها، كلّيّها وجزئيّها. واسع الملك والقدرة لكل ما يصح أن يملك ويقدر عليه، لا يشقُّ عليه شاقٌ، ولا يشغَله شأن عن شأن، مُتعَالٍ عن تناول الأوهام، عظيمٌ لا تحيط به الأفهام، ولذلك تفردت عن أخواتها بفضائل رائعة وخواص فائقة، قال ﷺ: «أعظمُ آيةٍ فى القرآنِ آيةُ الكُرسيِّ» . وقال عليه الصلاة والسلام: «مَنْ قَرأَ آيةَ الكُرسيِّ دبرَ كُلِّ صلاةٍ مكتوبةٍ لم يَمْنَعهُ من دُخُولِ الْجنَّة إلا الموتُ ـ وفى رواية ـ كانَ الذى يَتَوَلَّى قَبْضَ رُوحِه ذُو الجَلاَلِ والإكْرَام ـ ولا يُوَاظِبُ عليها إلا صِدِّيقٌ أو عَابِدٌ، ومن قَرأَهَا إذا أخَذَ مَضْجَعَه أمن على نفسِه وَجارِه وَجَارِ جَارِه، والأبيات حوْلَه» .

وقال عليه الصلاة والسلام: «ما قُرِئت هذه الآيةُ فى بيْت إلا هَجَرَتْهُ الشياطينُ ثلاثين يَوْماً، ولا يدْخُله ساحرٌ ولا ساحرةٌ أربعين يوماً، يا علىّ؛ علِّمْها ولدَك وأهلكَ وجيرانَك، فما نزلَتْ آيةٌ أعظمُ منها» . قاله البيضاوى وأبو السعود، وتكلم السيوطى فى بعض هذه الأحاديث. والفضائل يعمل فيها بالضعيف. والله تعالى أعلم.

الإشارة: يا أيها الذين آمنوا إيمان أهل الخصوصية ـ (أنفقوا مما رزقناكم) من سعة العلوم ومخازن الفهوم، من قبل أن يأتي يوم اللقاء، يوم تسقط فيه المعاملات وتغيب تلك الإشارات، لا ينفع فيه إلا الدخول من باب الكرم،

(١) في حاشيته على البيضاوى، والمسماة نواهد الأبكار وشوارد الأفكار.

فيلقى الله بالله دون شيء سواه، والجاحدون لهذا هم الظالمون لأنفسهم، حيث اعتمدوا على أعمالهم فلقُوا الله بالصنم الأعظم. والحيُّ القيوم الكبير المتعال غني عن الانتفاع بالأعمال. وبالله التوفيق.

ومَنْ عرف أنه الحي الذي لا يموت توكل عليه. قال تعالى: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ ﴾. والتعلق به: استمداد حياة الروح بالعلم والمحبة الكاملة. ومن عرف أنه الحي القيوم وثق به، ونسي ذكر كل شيء بذكره، ولم يشاهد غيره بمشاهدة قيوميته. والتعلق به استمداد معرفة قيوميته حتى يستريح من نكد التدبير، والتخلق به بأن تكون قائما على ما كُلِّفتَ به من أهْلٍ ووَلَدٍ ونَفْسٍ ومَالٍ، وكُلِّ من تعلق بك من النساء والرجال.

ولمّا وصف الحيُّ تعالى نفسه بأوصاف الكمال من الكبرياء والعظمة والجلال، وكانت شواهد ذلك ظاهرة في خلقه حتى تبيّن الحق من الباطل، بيّن ذلك بقوله:

﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ﴾

قلت: (الرُّشْد): مصدر رَشُد، بالكسر والضم، رشداً ورشاداً، و (الغي): مصدر غَوَى، إذا ضلَّ في مُعْتَقَده، و(الطاغوت): فعلوت من الطغيان، وأصله :طغيوت، فقلبت لام الكلمة لعينها فصار طيغوت، ثم قلبت الياء ألفاً. وهو كل ما عُبِد من دون الله راضياً بذلك، و (العروة): ما تستمسك به اليد عند خوف الزلل كالحبل ونحوه، ووثوقها: متانتها، وانفصامها أن تنفك عن موضعها، وأصل الفصم في اللغة: أن ينفك الخلخال ونحوه ولا يبِين، فإذا بان فهو القَصْم ـ بالقاف ـ وهو هنا استعارة للدِّين الصحيح.

يقول الحق جلّ جلاله في شأن رجلٍ من الأنصار، تَنَصَّر ولدَاه قبل البَعْثَة فلما جاء الإسلامُ قَدِمَا إلى المدينة فدعاهما أبوهما إلى الإسلام فامتنعا، فلَزِمهُمَا أبوهما وقال: والله لا أدَعكما حتى تُسلما، فاختصموا إلى رسول الله ﷺ فأنزل الله: ﴿لا إكراه في الدين﴾، فهو خبر بمعنى النهي، أي: لا تُكرهوا أحداً على الدخول في الدين. وهو خاص بأهل الكتاب.

قال البيضاوي: إذ الإكراه في الحقيقة هو: إلزام الغير فعلاً لا يرى فيه خيراً، ولكن ﴿قد تبين الرشد من الغي﴾ أي تميز الإيمان من الكفر بالآيات الواضحة، ودلت الدلائل على أن الإيمان رشد يوصل إلى السعادة الأبدية، والكفر غيٌّ يوصل إلى الشقاوة السرمدية. والعاقل متى تبين له ذلك بادرت نفسُه إلى الإيمان طلباً للفوز بالسعادة والنجاة، ولم يحتج إلى الإكراه والإلجاء. هـ.

﴿فمن يكفر بالطاغوت﴾ أي: يبعد عنها ويجحد ربوبيتها ﴿ويؤمن بالله﴾ أي: يصدق بوحدانيته، ويقر برسله، ﴿فقد استمسك بالعروة الوثقى﴾ أي: فقد تمسك بالدين المتين، لا انقطاع له أبداً، ﴿والله سميع﴾ بالأقوال، ﴿عليم﴾ بالنيات، فإنّ الدين مشتمل على قول باللسان وعقد بالجنان، فحسن التعبير بصفة السمع والعلم. والله تعالى أعلم.

الإشارة: قال في الحكم: «لا يخاف عليك أن تلتبس الطرق، إنما يخاف عليك من غلبة الهوى عليك». وقال أحمد بن حضرويه: الطريق واضح، والحق لائح، والداعي قد أسمَعَ، ماالتحير بعد هذا إلا من العمى. هـ. فطريق السير واضحة لمن سبقت له العناية، باقية إلى يوم القيامة، وكل ما سوى الله طاغوت، فمن اعرض عن السِّوى، وعلّق قلبه بمحبة المولى، فقد استمسك بالعروة الوثقى، التي لا انفصام لها على طول المدى. وبالله التوفيق، وهو الهادي إلى سواء الطريق.

ثم بيَّن الحق تعالى حال أهل العناية من أهل الشقاوة، فقال:

﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾ ﴾

قلت: الولي: هو المحب الذي يتولى أمور محبوبه، أو الناصر الذي ينصر محبوبه، ولا يخذله بأن يكله إلى نفسه. وجملة (يخرجهم): حال من الضمير المستتر في الخبر، أو من الموصول أو منهما، أو خبر ثان.

يقول الحق جل جلاله: ﴿الله ولي الذين آمنوا﴾ أي: محبهم ومتولي أمورهم، ﴿يخرجهم من﴾ ظلمات الكفر والجهل، ومتابعة الهوى وقبول الوسواس، والشبه المُشْكِلة في التوحيد ـ إلى نور الإيمان واليقين، وصحة التوحيد، ومتابعة الداعي إلى الله، ﴿والذين كفروا أولياؤهم﴾ أي: أحباؤهم ﴿الطاغوت﴾ أي: الشياطين، أو المضلات من الهوى والشيطان وغيرهما، ﴿يُخرجونهم من النور﴾ الذي مُنحوه بالفطرة الأصلية، أو يصدونهم من الدخول في الإيمان إلى ظلمات الكفر والجهل، والتقليد الرديء واتباع الهوى، ﴿أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ بسبب نيّاتهم البقاء على الكفر إلى الممات، ولم يذكر في جانب المؤمنين دخول الجنة؛ لتكون عبادتهم عبودية، لا خوفاً ولا طمعاً. والله تعالى أعلم.

الإشارة: (الله ولي الذين آمنوا)؛ حيث تولاهم بسابق العناية، وكلأهم بعين الرعاية، يخرجهم أولاً من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان، ثم من ظلمات الحس ورؤية الأكوان إلى نور المعاني بحصول الشهود والعيان، فإن

عن الإحساس تر عبراً. «الكون كله ظلمة، وإنما أناره ظهور الحق فيه» . أو تقول: الكون كله ظلمة لأهل الحجاب، وأما عند أهل المعرفة فالكون عندهم كله نور، وإنما حجبه ظهور الحكمة فيه، «فمن رأى الكون ولم يشهد النور فيه، أو قبله، أو بعده، فقد أعوزه وجود الأنوار وحجبت عنه شموس المعارف بسحب الآثار» . والذين كفروا ـ وهم الذين سبق لهم الشقاء، وحكم عليهم بالبعد القدر والقضاء ـ أولياؤهم الطاغوت، وهم القواطع: من الهوى والشيطان والدنيا والناس، (يخرجونهم من النور الى الظلمات) أى: يمنعونهم من شهود تلك الأنوار السابقة، إلى الوقوف مع تلك الظلمات المتقدمة ، فهم متعاكسون مع من سبقت لهم العناية، فما خرج منه أهل العناية وقع فيه أهل الغواية. نسأل الله الحفظ والعافية فى الدنيا والآخرة.

ثم بيّن الحق تعالى حال من سبق له الشقاء، فقال:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ ﴾

قلت: (أن آتاه): على حذف لام العلة، و(إذ قال): ظرف لـ (حاجّ)، أو بدل من (آتاه الله).

يقول الحق جل جلاله متعجبا من جهالة النمرود، والمراد تعجيب السامع: ﴿ألم تر﴾ يا محمد، ﴿إلى﴾ جهالة ﴿الذى حاج إبراهيم﴾ أى: خاصمه ﴿فى ربه﴾ لأجل ﴿أن﴾ أعطاه ﴿الله الملك﴾، أى: حمله على ذلك بطر الملك. وذلك أنه لما كسّر إبراهيم الأصنام، سجنه أياما، وأخرجه من السجن، وقال له: من ربك الذى تعبد؟ ﴿قال﴾ له ﴿إبراهيم﴾ عليه السلام: ﴿ربى الذى يحيى ويميت﴾، أى: يخلق الأرواح فى الأجسام، ويخرجها عند انقضاء آجالها، (قال) نمرود: ﴿أنا أحيى وأميت﴾، فدعا برجلين فقتل أحدهما، وعفا عن الآخر، فلما رأى ابراهيم عليه السلام غلطه وتشغيبه عدل له إلى حجة أخرى، لا مقدور للبشر على الإتيان بمثلها، فقال له: ﴿فإن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها﴾ أنت ﴿من المغرب﴾؛ لأنك تدّعى الربوبية، ومن شأن الربوبية أن تقدر على كل شىء، ولا يعجزها شىء، ﴿فبُهت الذى كفر﴾ أى: غُلب وصار مبهوتاً، ﴿والله لا يهدى القوم الظالمين﴾ إلى قبول الهداية، أو إلى طريق النجاة، أو إلى محجة الاحتجاج.

الإشارة: قال بعض الحكماء: للنفس سر، ظهر على فرعون والنمرود، حتى صرحا بدعوى الربوبية. قلت: وهذا السرهو ثابت للروح في أصل نشأتها؛ لأنها جاءت من عالم العز والكبرياء. انظر قوله تعالى: ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي ﴾، وقال أيضا: ﴿ قل الروح من أمر ربي ﴾ أي: سر من أسراره، فلما رُكبت في هذا القالب الذى هو قالب العبودية - طلبت الرجوع إلى أصلها. فجعل لها الحق جل جلاله باباً تدخل منه فترجع إلى أصلها؛ وهو الذل والخضوع والانكسار والافتقار، فمن دخل من هذا الباب، واتصل بمن يعرّفه ربه، رجعت روحه إلى ذلك الأصل، وأدركت ذلك السر، فمنها من تتسع لذلك السر وتطيقه، ومنها من تضيق عن حمله وتبوح به، فتقتلها الشريعة، كالحلاج وأمثاله، ومن طلب الرجوع إلى ذلك الأصل من غير بابه، ورام إدراكه بالعز والتكبر، طُرد وأُبعد، وهو الذي صدر من النمرود وفرعون وغيرهما ممن ادعى الربوبية جهلا. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر الحق تعالى من أدركته العناية، وفي قصته برهان على إحياء الموتى الذي احتج به إبراهيم - عليه السلام - فقال:

﴿ أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (٢٥٩) ﴾

قلت: (أو): عاطفة، و (كالذي): معطوف على الموصول المجرور بإلى، أي: ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه، وإلى مثل الذي مر على قرية. وإنما أدخل حرف التشبيه؛ لأن المنكر للإحياء كثيرٌ، والجاهل بكيفيته أكثر، بخلاف مدعي الربوبية فإنه قليل. وقيل: الكاف مزيدة، والتقدير: ألم تر إلى الذي حاج وإلى الذي مرّ، و (أنّى): ظرف ليُحيي، بمعنى: متى، أو حال بمعنى كيف، و (يتسنه) بمعنى يتغير، وأصله: يتسنن، فأبدلت النون الثالثة حرف علة. قال في الكافية:

وثالثَ الأمثالِ أبدِلَنْه يا		نحو (تَظَنّي خالدٌ تَظَنّيَا)

فصار تَسَنّى ثم حُذفت للجازم، وأتى بهاء السَّكْت، وقفا ووصلا، كالعوض من المحذوف، وقيل: من السَّنَه، وهو التغير، فالهاء أصلية، و (لنجعلك): معطوف على محذوف، أي: لتعتبر ولنجعلك آية للناس.

يقول الحق جل جلاله: ألم تر يا محمد أيضا إلى مثل الذي **﴿مرَّ على قرية﴾**، وهو عُزَير، حَبْرٌ بني إسرائيل.. وقيل: غيره - مرَّ على بيت المقدس حين خربها بُختنصر **﴿وهي خاوية﴾** ساقطة حيطانها **﴿على عروشها﴾** أي: سقفها، وذلك بعد مائة سنة حتى سقطت العروش، ثم سقطت الحيطان عليها، فلما رآها خالية، وعظام الموتى فيها بالية، **﴿قال﴾** في نفسه: **﴿أنّى يحيي هذه الله بعد موتها﴾** أي: متى يقع هذا. اعترافاً بالقصور عن معرفة طريق الإحياء، واستعظاما لقدرة المحيي ،إن كان القائل عزيراً، أو استبعاداً إن كان كافراء **﴿فأماته الله مائة عام﴾** أي: ألبثه ميتا مائة عام، **﴿ثم بعثه﴾** بالإحياء، فقال له على لسان الملك، أو بلا واسطة: **﴿كم لبثت﴾** ميتاً؟ **﴿قال لبثت يوما أو بعض يوم﴾**، وذلك أنه مات ضحى وبعث بعد مائة عام قبل غروب الشمس، فقال قبل النظر إلى الشمس (يوما)، ثم التفت فرأى بقية منها، فقال: **﴿أو بعض يوم﴾** على الإضراب، قال له الحق جل جلاله: **﴿بل لبثت مائة عام﴾**.

وذلك أن عزيراً ذهب ليخترف[1] لأهله فجعل على حماره سَلة عنب وجَرَّة عصير. فلما مرَّ بتلك القرية ربط حماره، وجعل يتعجب من خرابها وخلائها بعد عمارتها، فقال في نفسه ما قال، فلطف الله به، وأراه كيفية الأحياء عياناً، فأماته مائة عام، حتى بليت عظام حماره وبقي العصير والعنب كأنه حين جني وعصر فقال له جل جلاله: **﴿فانظر إلى طعامك﴾** وهو العنب، **﴿وشرابك﴾** وهو العصير، **﴿لم يتسنه﴾**، أي: لم يتغير بمرور الزمان وطول المدة، **﴿وانظر إلى حمارك﴾** كيف تفرقت أوصاله، وبليت عظامه، فعلنا ذلك بك لتشاهد قدرتنا، **﴿ولنجعلك آية للناس﴾** بعدك، **﴿وانظر إلى العظام﴾** أي: عظام حمارك، **﴿كيف ننشرها﴾**، أي: نحييها، من نَشَرَ الله الموتى: أحياها. أو: **﴿كيف ننشزها﴾** بالزاي - أي: نرفع بعضها، ونركبه عليه، **﴿ثم نكسوها لحما﴾**.

فنظر إلى العظام، فقام كلُّ عَظْمٍ إلى موضعه، ثم كسى لحماً وجلداً، وجعل ينهق، **﴿فلما تبين له﴾** ما كان استغربه وأُشكل عليه **﴿قال أعلمُ﴾** علم اليقين **﴿أن الله على كل شيء قدير﴾**، أو فلما تبين له الحق، وهو قدرته تعالى على كل شيء، قال لنفسه: **﴿أعلمُ أن الله على كل شيء قدير﴾**.

---

(١) خَرَفَ الرجل يَخْرُف: أخذ من طُرَف الفواكه، والمعنى: ذهب ليجتني الثمر والفواكه.

رُوي أنه أتى قومه على حماره، وقال أنا عزير، فكذبوه، فقرأ التوراة من حفظه، ولم يحفظها أحد قبله، فعرفوه بذلك، وقالوا: هو ابن الله ـ تعالى عن قولهم ـ وقيل: لما رجع إلى منزله ـ وكان شاباً ـ وجد أولاده شيوخاً، فإذا حدَّثهم بحديث قالوا: حديث مائة سنة. والله تعالى أعلم.

الإشارة: في هذه الآية والتي بعدها ، الإشارة إلى الأمر بتربية اليقين والترقي فيه من علم اليقين إلى عين اليقين، فإن الروح مادامت محجوبة بالوقوف مع الأسباب والعوائد، وبرؤية الحس والوقوف مع الوسائط، لم تخل من طوارق الشكوك والخواطر، فإذا انقطعت إلى ربها، وخرقت عوائد نفسها، كشف لها الحق تعالى عن أستار غيبه، وأطلعها على مكنونات سره، وكشف لها عن أسرار الملكوت، وأراها سنا الجبروت، فنظرت إلى قدرة الحي الذي لا يموت، وتمتعت بشهود الذات وأنوار الصفات، في هذه الحياة وبعد الممات، فحينئذ ينقطع عنها الشكوك والأوهام، وتتطهر من طوارق الخواطر، وتزول عنها الأمراض والأسقام.

قال في الحكم: «كيف تُخْرَق لك العوائد وأنت لم تخرق من نفسك العوائد». فانظر إلى عزيز.. ما أراه الحق قدرته عيانا حتى خرق له عوائده فأماته ثم أحياه، فكذلك أنت أيها المريد؛ لا تطمع أن تخرق لك العوائد، فتشاهد قُدرة الحق أو ذاته عيانا، حتى تموت عن حظوظك وهواك، ثم تحيا روحك وسرك، فحينئذ تشاهد أسرار ربك، ويكشف الأستار عن عين قلبك. وبالله التوفيق، وهو الهادي إلى سواء الطريق.

ثم ذكر الحق تعالى قصة خليله عليه السلام في طلبه رؤية عين القدرة في إحياء الموتى، ليترقى من علم اليقين إلى عين اليقين، فقال:

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾ ﴾

قلت: رأى: البصرية، إنما تتعدى إلى مفعول واحد، فإذا أُدخلت عليها الهمزة تعدت إلى مفعولين. وعلقها هنا عن الثاني الاستفهام. «(وصرهن) أي: أمِلْهُنَّ واضمُمْهن إليك. وفيه لغتان: صار يصير ويصور، ولذلك قرئ بكسر الصاد وضمها، و(سعيا) : حال، أي: ساعيات.

يقول الحق جل جلاله: واذكر يا محمد، أو أيها السامع، حين ﴿قال إبراهيم﴾ عليه السلام: يا ﴿رب أرني كيف تحيي الموتى﴾ أي: أبصرني كيفية إحياء الموتى، حتى أرى ذلك عياناً، أراد عليه السلام أن ينتقل من علم

اليقين إلى عين اليقين، وقيل: لما قال للنمرود: ﴿ربي الذى يحيى ويميت﴾ قال له: هل عاينت ذلك؟ فلم يقدر أن يقول: نعم. وانتقل إلى حجة أخرى، ثم سأل ربه أن يريه ذلك؛ ليطمئن قلبه على الجواب، إن سئل مرة أخرى فقال له الحق جل جلاله: ﴿أولم تؤمن﴾ بأنى قادر على الإحياء بإعادة التركيب والحياة؟ وإنما قال له ذلك، مع علمه بتحقيق إيمانه؛ ليجيبه بما أجاب فيعلم السامعون غرضه، ﴿قال﴾ إبراهيم عليه السلام: ﴿بلى﴾ آمنت أنك على كل شيء قدير، ﴿ولكن﴾ سألتك ﴿ليطمئن قلبى﴾؛ إذ ليس الخبر كالعيان، وليس علم اليقين كعين اليقين، أراد أن يضم الشهود والعيان إلى الوحى والبرهان.

قال له الحق جل جلاله: ﴿فخذ أربعة من الطير﴾؛ طاووساً وديكاً وغراباً وحمامة، ومنهم من ذكر النسر بدل الحمام، ﴿فصرهن إليك﴾ أى: اضممهن إليك لتتأملها وتعرف أشكالها، لئلا يلتبس عليك بعد الإحياء أشكالها، ﴿ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا﴾ أى: ثم جزّئهن، وفرق أجزاءهن على الجبال التى تحضرك. قيل: كانت أربعة وقيل: سبعة، ﴿ثم ادعهن﴾ وقل لهن: تعالين بإذن الله، ﴿يأتينك سعيا﴾ أى: ساعيات مسرعات، رُوى أنه أمر أن يذبحها وينتف ريشها، ويقطعها ويخلط بعضها ببعض، ويوزعها على الجبال، ويمسك رءوسها عنده، ثم يناديها، ففعل ذلك، فجعل كل جزء يطير إلى الآخر ويلتئم بصاحبه حتى صارت جثثاً، ثم أقبل إليه فأعطى كل طير رأسه فطار فى الهواء. فسبحان من لا يعجزه شيء، ولا يغيب عن علمه شيء، ثم نبه إلى التفكر فى عجائب قدرته وحكمته فقال: ﴿واعلم أن الله عزيز﴾ لا يعجزه شيء، ﴿حكيم﴾ ذو حكمة بالغة فيما يفعل ويذر.

الإشارة: من أراد أن تحيا رُوحه الحياة الأبدية، وينتقل من علم اليقين إلى عين اليقين، فلابد أن تموت نفسه أربع موتات:

الأولى: تموت عن حب الشهوات والزخارف الدنيوية، التى هى صفة الطاووس.

الثانية: عن الصولة والقوى النفسانية، التى هى صفة الديك.

الثالثة: عن خسة النفس والدناءة وبعد الأمل، التى هى صفة الغراب.

الرابعة: عن الترفع والمبارعة إلى الهوى المتصف بها الحمام.

فإذا ذبح نفسه عن هذه الخصال حييتْ روحه، وتهذبت نفسه، فصارت طوع يده، كلما دعاها إلى طاعة أتت إليها مسرعة ساعية.

وإلى هذا المعنى أشار الشيخ أبو الحسن الشاذلي بقوله في حزبه الكبير: (واجعل لنا ظهيراً من عقولنا ومهيمناً من أرواحنا، ومسخراً من أنفسنا، كي تسبحك كثيراً، ونذكرك كثيرا، إنك كنت بنا بصيرا) .

ولما كانت حياة الروح متوقفة على أمرين: بذل النفوس، ودفع الفلوس وقدم الإشارة إلى الأول بقوله: ﴿وقاتلوا في سبيل الله﴾، أشار إلى الثاني بقوله:

﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦١) ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٦٢) ﴾

قلت: (مثل الذين): مبتدأ، و(كمثل): خبر، ولابد من حذف مضاف، إما من المبتدأ أو الخبر، أي: مثل نفقة الذين ينفقون كمثل حبة، أو مثل الذين ينفقون كمثل باذر حبة... إلخ.

يقول الحق جل جلاله في التحريض على النفقة في سبيل الله: **﴿مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله﴾** أي: يتصدقون بها في سبيل الله، كالجهاد ونحوه، **﴿كمثل﴾** زارع **﴿حبة أنبتت﴾** له **﴿سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة﴾**، فالمجموع سبعمائة. وفي الحديث عنه ﷺ: «الحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، إلَى سَبْعمائَةٍ إلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ». وإسناد الإنبات إلى الحبة مجاز، والمنبت هو الله، وهذا مثال لا يقتضي الوقوع، وقد يقع في الذرة والدخن[1] في الأرض الطيبة، بحيث تخرج الحبة ساقًا يتشعب إلى سبع شعب، في كل شعبة سنبلة، **﴿والله يضاعف﴾** تلك المضاعفة **﴿لمن يشاء﴾** بفضله، على حسب حال المنفق من إخلاصه وتعبه، وبحسبه تتفاوت الأعمال في مقادير الثواب، **﴿والله واسع﴾** لا يضيق عليه ما يتفضل به من الثواب، **﴿عليم﴾** بنية المنفق وقدر إنفاقه.

ثم ذكر شرطَيْن آخرَيْن في قبول النفقة، فقال: **﴿الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى﴾**. المن: أن يعتد بإحسانه على من أحسن إليه؛ بحيث يقول: أنا فعلت معه كذا، وكذا إظهاراً لميزته عليه. والأذى: أن يتطاول عليه بذلك. ويقول: لولا أنا لم يكن منك شيء، مثلا. فمن فعل هذا فقد ذهبت صدقته هباءاً منثورا، ومن سلم من ذلك، وأنفق ماله ابتغاء وجه الله فـ **﴿لا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾**.

وقال زيد بن أسلم رضي الله عنه: إذا أعطيت أحداً شيئاً وظننت أن سلامَكَ يَثْقُلُ عليه فَكُفَّ سلامَكَ عنه. هـ.

(١) الدخن: نبات عشبي من النجيليات، حبه صغير أملس، كحب السمسم، ينبت بريا ومزروعاً.

قيل: إن الآيـة نزلت فى عثمان وعبد الرحمن بن عوف ـ رضي الله عنهما؛ أما عثمان فإنه جهـز جيش العسـرة بألف بعير بأقتابها وأحلاسها. وقال عبدالرحمن بن سمرة: جاء عُثْمَانُ بألْف دينار في جـيش العُسْرَة، فصبّها فـي حِجْرِ النبي ﷺ، فرأيْتُ النبيَّ ﷺ يُدخل يده فيها، ويُقلّبها ويقول: «ما ضَرَّ ابن عفّان ما عَمِلَ بَعْدَ اليوم». زاد فى رواية أبي سعيد: فرأيت النبي ﷺ رافعاً يدعو لعثمان، ويقول: «يارب عثمان بن عفان، رضيتُ عنه فارض عنه». وأما عبدالرحمن: فإنه أتى النّبيَّ ﷺ بأربعة آلاف درهم، صدقة، وأمسك أربعة آلاف لعياله، فقال له النبيُّ ﷺ: «بارك الله لك فيما أعطيتَ وفيما أمسكتَ».

وإنما لم يدخل الفاء فى قوله: ﴿لا خوف عليهم﴾، مع أن الموصول قد تضمن معنى الشرط، إيهاماً بأنهم أهلٌ لذلك، وإن لم يفعلوا، فكيف بهم إذا فعلوا. قاله البيضاوى.

الإشارة: التقرب إلى الله تعالى يكون بالعمل البدنى وبالعملي المالى، وبالعمل القلبى، أما **العمل البدنى**، ويدخل فيه العمل اللساني، فقد ورد فيه التضعيف بعشر وبعشرين وبثلاثين وبخمسين وبمائة، وبأكثر من ذلك أو أقل، وكذلك **العمل المالي**: قد ورد تضعيفه إلى سبع مائة، ويتفاوت ذلك بحسب النيات والمقاصد، وأما **العمل القلبي**: فليس له أجر محصور، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾، فالصبر، والخوف، والرجاء، والورع، والزهد، والتوكل، والمحبة، والرضا، والتسليم، والمعرفة، وحسن الخلق، والفكرة، وسائر الأخلاق الحميدة، إنما جزاؤها: الرضا، والإقبال والتقريب، وحسن الوصال. قال تعالى: ﴿ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ أي: أكبر من الجزاء الحسي الذي هو القصور والحور.

وأما قوله عليه الصلاة والسلام: «تفكر ساعة أفضل من عبادة سبعين سنة». فإنما هو كناية عن الكثرة والمبالغة، كقوله تعالى: ﴿ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴾. ومثله قول الشاعر(١):

كُلُّ وَقْتٍ من حـبـيـبـي قَــدْرُه كـألـفِ حـجـةْ

أي: سنة. و الله تعالى أعلم.

ثم بيّن الحقُّ تعالى أن حسن الخلق ولين الجانب أفضل من الصدقة المشوبة، فقال:

﴿ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ ﴾

قلت: (قول): مبتدأ، و(خير): خبر، والمسوّغ الصفةُ.

---

(١) وهو الششترى.

يقول الحق جل جلاله: ﴿قول﴾ جميل يقوله الإنسان للسائل في حال رده، حيث لم يجد ما يعطيه، ﴿خير﴾ وأفضل عند الله من الصدقة التي يتبعها المن والأذى، ومثال القول المعروف: الله يرزقنا وإياك رزقاً حسنا. والله يغنينا وإياك من فضله العظيم، وشبه ذلك من غير تعبيس ولاكراهية. ﴿ومغفرة﴾ للسائل والعفو عن جفوته وإلحاحه، ﴿خير﴾ أيضا ﴿من صدقة يتبعها﴾ مَنٌّ، أو ﴿أذى﴾ للسائل، علم الحق جل جلاله أن الفقير إذا رُدَّ بغير نوال شقّ عليه، فربما أطلق لسانه وأظهر الشكوى فأمر المسئول بالعفو والتواضع. ولو شاء الحق تعالى لأغنى الجميع، لكنه أعطى الأغنياء ليظهر شكرهم، وابتلى الفقراء لينظر كيف صبرهم، ﴿والله﴾ تعالى ﴿غنى﴾ عن إنفاق يصحبه مَنٌّ أو أذى، ﴿حليم﴾ عن معاجلة من يَمُنُّ أو يؤذى بالعقوبة. والله تعالى أعلم.

الإشارة: يُفهم من الآية أن حسنَ الخلق، ولينَ الجانب، وخفض الجناح، وكف الأذى، وحمل الجفاء، وشهود الصفاء، من أفضل الأعمال وأزكى الأحوال وأحسن الخلال، وفى الحديث: «إنَّ حُسْنَ الخُلق يَعدل الصيام والقيام».

وفى قوله: ﴿والله غنى حليم﴾ : تربية للسائل والمسئول، فتربية السائل: أن يستغنى بالغنيّ الكبير عن سؤال العبد الفقير، ويكتفى بعلم الحال عن المقال، وتربية المسئول: أن يحلم عن جفوة السائل فيتلطف فى الخطاب، ويحسن الرد والجواب. قال فى شرح الأسماء: والتخلق بهذا الاسم - يعنى الحليم - بالصفح عن الجنايات، والسمح فيما يقابلونه به من الإساءات، بل يجازيهم بالإحسان، تحقيقاً للحلم والغفران. هـ.

ثم حذر الحق تعالى من المن والأذى في الصدقة، فقال:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ عَلَيۡهِ تُرَابٞ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٞ فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٦٤ ﴾

قلت: (كالذى): الكاف فى محل نصب على المصدر، أى: إبطالا كإبطال الذى ينفق ماله رئاء الناس، أو حال، أى: مشبَّهين بالذى ينفق رئاء. و(رئاء) مفعول له، والصفوان: الحجر الأملس، والصلد: البارز الذى لا تراب عليه، وجمع الضمير فى قوله: (لا يقدرون) باعتبار معنى (الذى)؛ لأن المراد به الجنس.

يقول الحق جل جلاله: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا﴾ أجر صدقتكم بسبب ﴿ **المن**﴾ بها على المتصدَّقِ عليه، ﴿**والأذى**﴾ الذى يصدر منكم له، بأن تذكروا ذلك للناس، فتكون صدقتكم باطلة، ﴿**كالذى ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر**﴾، فإن أجره يوم القيامة يكون هباء منثوراً ،﴿**فمثله**﴾ فى انتفاعه بصدقته، وتستره بها في دار الدنيا، وافتضاحه يوم القيامة، كحجر أملس ﴿**عليه تراب**﴾ يستره، فيظن الرائى أنه أرض طيبة تصلح للزراعة، ﴿**فأصابه وابل**﴾ أى: مطر غزير ﴿**فتركه صلدًا**﴾ حجراً يابساً خاليا من التراب، كذلك المراءون بأعمالهم، ينتفعون بها فى الدنيا بثناء الناس عليهم وستر حالهم، فإذا قدموا يوم القيامة وجدوها باطلة، ﴿**لا يقدرون على**﴾ الانتفاع بـ ﴿**شيء مما كسبوا والله لا يهدى القوم الكافرين**﴾ إلى مراشدهم ومصالح دينهم. وفيه تعريض بأن الرياء والمن والأذى من صفة الكافر، ولابد للمؤمن أن يتجنب عنها. وبالله التوفيق.

الإشارة: تصفية الأعمال على قدر تصفية القلوب، وتصفية القلوب على قدر مراقبة علام الغيوب، والمراقبة على قدر المعرفة. والمعرفة على قدر المشاهدة. والمشاهدة تحصل على قدر المجاهدة، ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ﴾. وفى الحكم: «حسن الأعمال من نتائج حسن الأحوال. وحسن الأحوال من التحقق بمقامات الإنزال» والحاصل أن من لم يتحقق بمقام الفناء لا تخلو أعماله من شوب الخلل، ومن تحقق بالزوال لم ير لنفسه نسبة فى عطاء ولا منع، ولا حركة ولا سكون، ولم ير لغيره وجوداً حتى يرجو منه نفعًا ولا خيراً. وفى بعض الإشارات: يا من يرائى أَمْرُ مَنْ من ترائى بيد من تعصيه . هـ. وفى تمثيله بالحجر إشارة إلى قساوة قلبه ويبوسة طبعه، فلا يرجى منه خير قط. والعياذ بالله.

ثم ذكر الحق تعالى ضد هؤلاء، وهم المخلصون، فقال:

﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾ ﴾

قلت: الربوة ـ مثلثة الراء ـ: المكان المرتفع، والوابل: المطر الغزير، والطل: المطر الخفيف، وفى ذلك يقول الراجز:

والطلُّ مـــا خفَّ من الأمْطَارِ والوابلُ الغـــزيرُ ذو انْهِـــمَـــارِ

و(ابتغاء مَرْضَاتَ الله) و(تثبيتا) : حالان من الواو في: (ينفقون)، أو مفعولان له. والتثبيت بمعنى التثبت، أي: التحقق، كقوله تعالى: ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً﴾ أي: تبتلا.

يقول الحق جل جلاله: ﴿مثل الذين ينفقون أموالهم﴾ في سبيل الله **﴿ابتغاء مرضات الله﴾** وتحققا **﴿من أنفسهم﴾** بثواب الله، أو تحقيقا من أنفسهم بالوصول إلى رضوان الله إن بذلوا أموالهم في طلب رضى الله، مَثَلُ نفقتِهم في النمو والارتفاع **﴿كمثل جنة﴾** أي: بستان **﴿بربوة﴾** بمكان مرتفع، فإن شجره يكون أحسن منظرا وأزكى ثمراً، **﴿أصابها وابل﴾** أي: مطر غزير **﴿فآتت أكلها﴾** أي: ثمارها **﴿ضعفين﴾** أي: مِثْلَيْ ما كانت تثمر في عادتها، أي: حملت في سَنَةٍ ما يحمل غيرها في سنتين، بسبب هذا المطر الذي نزل بها، **﴿فإن لم يصبها وابل فطل﴾** أي: فيصيبها طل، أي: مطر قليل يكفيها؛ لطيب تربتها وارتفاع مكانها، فأقلُّ شيء يكفيها.

والمراد: أن نفقات هؤلاء، لإخلاصهم وكمال يقينهم، كثيرة زاكية عند الله، وإن كانت قليلة في الحس فهي كثيرة في المعنى. وفي الحديث: «مَنْ تصدَّق ولو بلُقْمةٍ وقعتْ في كفِّ الرحمن فيُربِّيها كما يُربي أحدُكم فَلُوَّه أو فَصيلَه(١)، حتى تكونَ مثل الجبل». وفي قوله: **﴿والله بما تعملون بصير﴾**: تحذير من الرياء، وترغيب في الإخلاص. والله تعالى أعلم.

الإشارة: تنمية الأعمال على قدر تصفية الأحوال، وتصفية الأحوال على قدر التحقق بمقامات الإنزال، أي: على قدر التحقق بالإنزال في مقامات اليقين، فكل من تحقق بالنزول في مقامات اليقين، ورسخت قدمه فيها، كانت أعماله كلها عظيمة، مضاعفة أضعافاً كثيرة، فتسبيحة واحدة من العارف، أو تهليلة واحدة، تعدل الوجود بأسره، ولا يزنها ميزان، وكذلك سائر أعمال العارف: كلها عظيمة مضاعفة؛ لأنها بالله ومن الله وإلى الله، وما كان بالله ومن الله لا يطرقه نقص ولا يشوبه خلل، ولأجل هذا صارت أوقاتهم كلها ليلة القدر، وأماكنهم كلها عرفات، وأنفاسهم كلها زكيات، وصحبتهم كلها نفحات، ومخالتطهم كلها بركات. نفعنا الله بذكرهم وخرطنا في سلكهم. آمين.

ثم حذَّر الحقُّ تعالى من طوارق الخلل بعد تمام العمل، فقال:

﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾ ﴾

(١) الفلو: هو المهر الصغير، والفصيل: ولد الناقة بعد أن ينفصل عن أمه.

قلت: الإعصار: عمود من ريح فيه عجاجة، يدور ويرتفع.

يقول الحق جل جلاله: أيتمنى حدكم ﴿أن تكون له جنة﴾ أي: بستان ﴿من نخيل وأعناب﴾، هما الغالبان فيه؛ لكثرة منافعهما ،﴿تجرى من﴾ تحت تلك الأشجار ﴿الأنهار﴾؛ إذ من كمال البستان أن يشتمل على الماء البارد والظل الممدود، و﴿له فيها﴾ أي: في تلك الجنة ﴿من كل الثمرات﴾ زائدة على النخيل والأعناب، ثم ﴿أصابه الكبر﴾ فضعف عن القيام بتلك الجنة، ﴿وله ذرية ضعفاء﴾ لا يستطيعون القيام بأنفسهم لصغرهم ، فأصاب تلك الجنة ﴿إعصار﴾ أي: ريح شديد ﴿فيه نار فاحترقت﴾ تلك الجنة، فلا تسأل عن حسرة صاحب هذا البستان، لخوفه من ضياع نفسه وعياله. وهذا مثال لمن يُكثر من أعمال البر، كالصلاة والصيام والصدقة والحج والجهاد وغير ذلك، ثم يُعجب به، ويفتخر ويَمُنُّ بصدقته أو يؤذي، فتحبط تلك الأعمال وتذهب، فيتحسر عليها يوم القيامة، وهو أحوج ما يكون إليها. أو يعمل بالطاعة في أيام عمره، فإذا قرب الموت عمل بالمعاصي حتى ختم له بها فحبطت تلك الأعمال، والعياذ بالله ﴿كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون﴾ فيها فتعتبرون، وتخلصون في أعمالكم، وتخافون من سوء عاقبتكم. أعاذنا الله من ذلك.

الإشارة: في الآية تخويف للمريد أن يرجع إلى عوائده، ويلتفت إلى عوالم حسه، فيشتغل بالدنيا بعد أن استشرف على جنة المعارف، تجرى على قلبه أنهار العلوم، فينقُض العهد مع شيخه، أو يسيء الأدب معه، ولم يتب حتى تيبس أشجار معارفه، وتلعب به ريح الهوى، فيحترق قلبه بنار الشهوات.

قال البيضاوي: وأشبههم به من جال سره في عالم الملكوت، وترقي بفكره إلى جناب الجبروت، ثم نكص على عقبيه إلى عالم الزور، والتفت إلى ما سوى الحق وجعل سعيه هباء منثورا . هـ.

ثم رَغَّبَ **الحقُ** تعالى في الصدقة من الكسب الطيب، فرضاً ونفلاً، فقال:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾ ﴾

قلت: (تيمموا): أصله: تتيمموا ، أي تقصدوا، وجملة (تنفقون): حال مقدرة - من فاعل (تيمموا)، و (منه): يصح أن يتعلق بـ (تنفقون) أو بـ (الخبيث) ، أي: ولا تقصدوا الخبيث حال كونكم تنفقونه، أو لا تقصدوا الخبيث تنفقون منه، و(لستم بآخذيه): حال أيضا من فاعل (تنفقون).

يقول الحق جل جلاله: ﴿يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم﴾ من الأموال في التجارة وغيرها، وفي الحديث عنه ﷺ أنه قال: «يا معشرَ التُجار، أنتم فُجار إلا من اتقى وبَرَّ وصَدَق وقَالَ بالمال(١) هكذا وهكذا» .

وقوله ﴿من طيبات ما كسبتم﴾ أي: من حلاله، أو من خياره، أما في الزكاة فعلى الوجوب، إذ لا يصح دفع الرديء فيها، وأما في التطوع فعلى سبيل الكمال ، وأنفقوا أيضا من طيبات ﴿ما أخرجنا لكم من الأرض﴾ من أنواع الحبوب والثمار والفواكه، وفي الحديث عنه ﷺ : «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَغْرِسُ غَرْسَاً، أوْ يَزْرَعُ زَرْعاً، فيَأكُلُ مِنْه إنْسَانٌ ولا دَابَّةٌ ولاَ طَائِر، إلاَّ كَانَت لَهُ صدقةٌ إلى يوْمِ الْقِيَامةِ» . ولا تقصدوا ﴿الخبيث﴾ أي: الرديء من أموالكم، فتنفقون منه وأنتم ﴿لستم بآخذيه﴾ في ديونكم ﴿إلا أن تُغْمضوا﴾ بصركم فيه، وتقبضونه حياء أو كرها أو مسامحة .

نزلت في قوم كانوا يتصدقون بخبيث التمر وشراره، فنُهوا عنه، وأدبهم بقوله: ﴿واعلموا أن الله غني﴾ عن إنفاقكم، وإنما أمركم به منفعة لكم، ﴿حميد﴾ بقبوله وإثابته، فهو فعيل بمعنى فاعل، مبالغة، أي: يحمد فعلكم ويشكره لكم، إن أحسنتم فيه، وفي الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله قَسَم بينكم أخلاقكم كما قسم أرزاقكم، وإن الله طيِّبٌ لا يقبل إلا طيبا، لا يكسبُ عَبدٌ مالاً من حرام فيتصدَّقُ منه فيُقْبَل منه، ولا ينفقُ منه فيبارَكَ له فيه، ولا يتركهُ خلفَ ظهره إلا كان زاده إلى النار، وإن الله لا يمحو السيئ بالسيئ ولكن يمحو السيء بالحسن، وإن الخبيث لا يمحوه الخبيث» .

الإشارة : يا أيها الذين آمنوا إيمان الخصوص، أنفقوا العلوم اللدنية والأسرار الربانية، من طيبات ما كسبتم؛ من تصفية أسراركم وتزكية أرواحكم، وأنفقوا أيضا علوم الشريعة وأنوار الطريقة، مما أخرجنا لكم من أرض نفوسكم التي تزكت بالأعمال الصافية والأحوال المرْضية .

ولا تيمموا العمل الخبيث أو الحال الخبيث، تريدون أن تنفقوا منه شيئاً من تلك العلوم، فإن ذلك لا يزيد النفس إلا جهلاً وبعداً، فكما أن الحبة لا تنبت إلا في الأرض الطيبة، كذلك النفس لا تُدفن إلا في الحالة المرضية، فلا تؤخذ العلوم اللدنية من النفس حتى تدفن في أرض الخُمول، وأرض الخمول هي الأحوال المرضية، الموافقة للقواعد الشرعية، وإليه الإشارة بقوله: ﴿ولستم بآخذيه﴾ أي: لستم بآخذي العلم اللدني من الحال الخبيث، إلا أن تغيبوا فيه عن حِسكم، ومن غلبه الحال لم يبق عليه مقال. وعليها تتخرج قصة لص الحمَّام(٢)، فلا يقتدى به لغلبة الحال عليه، واعلموا أن الله غني حميد، لا يتقرب إليه إلا بما هو حميد. والله تعالى أعلم.

---

(١) أي: صرف المال في وجوه الخير، قال ابن الأثير: العرب تجعل القول عبارة عن جميع الأفعال، وتطلقه على غير الكلام واللسان. فتقول: قال بيده، أي: أخذه. وقال برجله، أي: مشى. وكل ذلك على المجاز.

(٢) وهو رجل عرف بالزهد وأقبل الناس عليه، فدخل حماماً ولبس ثياب غيره، وخرج، فوقف في الطريق حتى عرفه الناس، فأخذوه وضربوه، واستردوا الثياب وهجروه. قلت: ما فعل هذا الرجل مبالغة وشطط لا يقره الشرع. وكما قال المفسر: لا يقتدى به لغلبة الحال عليه. والقصة ذكرها الغزالي في الإحياء ٣ / ٣٠٥، وابن عباد في شرح الحكم ١ / ٨٠

ثم حذّر من الشُّحّ، فقال:

﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾ ﴾

قلت: يقال: وعدته خيراً ووعدته شراً، هذا إن ذكر الخير أو الشر، وأما إذا لم يذكر فيقال في الخير: وعدته، وفي الشر: أوعدته، قال الشاعر:

وإنّي وإنْ أوْعَدْتُهُ أوْ وَعَدْتُهُ لمخلِفُ إيعادي ومنجِزُ موْعدي(١)

و (الفحشاء) هنا: البخل والشح.

يقول الحق جل جلاله: ﴿الشيطان يعدكم﴾ أي: يخوفكم ﴿الفقر﴾ بسبب الإنفاق، ويقول في وسوسته: إن أعطيت مالك بقيت فقيراً تتكفف الناس، ﴿ويأمركم بالفحشاء﴾ أي: ويأمركم بالبخل والشح، والعرب تسمي البخيل فاحشاً، وفي الحديث: «البخيلُ بعيدٌ من الله، بعيدٌ من الناس، بعيد من الجنة قريب من النار. والسخي قريب من الله. قريبٌ من الناس، قريب من الجنة، بعيد من النار. ولجاهل سخيٌّ أحبُّ إلى الله من عابدٍ بخيل». وفي حديث آخر: «إنَّ الله يأخذُ بيد السخيِّ كلما عثر». ﴿والله يعدكم﴾ في الإنفاق ﴿مغفرة منه﴾ لذنوبكم، وستراً لعيوبكم، ﴿وفضلا﴾ أي: خلَفاً أفضل مما أنفقتم في الدنيا والآخرة، ﴿وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه﴾، ﴿والله واسع﴾ الفضل والعطاء، ﴿عليم﴾ بما أنفقتم، ولماذا أنفقتم، وفيما أخلصتم، لا يخفى عليه شيء من أموركم.

الإشارة: إذا توجه المريد إلى الله تعالى، وأراد سلوك طريق التجريد والزهد والانقطاع إلى الله تعالى، تعرض له الشيطان، اختباراً منه تعالى وابتلاء، إذ الحضرة محروسة بالقواطع؛ ليظهر الصادق في الطلب من الكاذب، فيخوفه من الفقر، ويأمره بالوقوف مع الأسباب والعوائد، وهي أفحش المعاصي عند الخواص، إذ الهمة العالية تأنف عن الاشتغال بغير الحضرة الإلهية. والله يعدكم - أيها المتوجهون إليه - مغفرة لذنوبكم، وستراً لعيوبكم، فيغطي وصفكم بوصفه، ونعتكم بنعته، فيوصلكم بما منه إليكم من الفضل والجود، لا بما منكم إليه من المجاهدة والمكابدة، ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا ﴾، (والله واسع) الجود والإحسان، (عليم) بمن يستحق الفضل والامتنان.

---

(١) البيت لعامر بن طفيل.

ومن نتائج الزهد والانقطاع: ورود الحكمة على لسان العبد وقلبه، كما أشار إلى ذلك بقوله:

﴿ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿٢٦٩﴾ ﴾

قال البيضاوى: الحكمة: تحقيق العلم وإتقان العمل . هـ . وقيل: هى سرعة الجواب وإصابة الصواب، وقيل: كل فصل جَزْلٍ من قول أو فعل.

يقول الحق جل جلاله: ﴿يؤتى﴾ الحق تعالى ﴿الحكمة من يشاء﴾ من عباده، وهى التفقه فى الدين والتبصر فى الأمور. قال ﷺ : «مَنْ يُرد الله به خيراً يُفقِّهْه فى الدين، ويُلهمْه رُشْدَه» ، وقيل: الحكمة: الإصابة فى الرأى. وقيل: الفهم فى كتاب الله. وقيل: الفهم عن الله. ﴿ومن يؤت الحكمة﴾ أى: أعطيها، ﴿فقد أوتى خيرًا كثيرًا﴾ ؛ لأنه حاز خيرَ الدارَيْن، ولاشك أن من حقّق العلم بالله وبأحكامه، وأتقنَ العملَ بما أمره الله به، فقد صفا قلبه، وتطهر سره، فصار من أولى الألباب ولذلك قال عقبه: ﴿وما يذكر إلا أولوا الألباب﴾.

الإشارة: الحكمة هى: شهود الذات مرتديةً بأنوار الصفات، وهى حقيقة المعرفة، ومن عرف الله هابه، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام : «رأس الحكمة مخافة الله» . وقيل: هى تجريد السر لورود الإلهام، وقيل: هى النور المفرق بين الوسواس والإلهام، وقيل: شهود الحق تعالى فى جميع الأحوال. **والتحقيق: أن الحكمة هى إبداع الشيء وإتقانه حتى يأتى على غاية الكمال، ويجرى ذلك فى العلم والعمل والحال والمعرفة.**

وقال القُشَيْرى: الحكمة: أن يَحكم عليك خاطر الحق لا داعى الباطل، وأن تحكم قواهر الحق لا زواجر الشيطان. ويقال: الحكمة: صواب الأمر، ويقال: هى ألا تغلب عليك رعونات البشرية، ومن لا حكم له على نفسه لا حُكْمَ له على غيره . ويقال: الحكمة: موافقة أمر الله، والسفه: مخالفة أمره، ويقال: الحكمة شهود الحق، والسفه: شهود الغير. قاله المحشى.

واعلم أن الصوفية، فى اصطلاحهم، يُعبِّرون عن أسرار الذات بالقدرة، وعن أنوار الصفات ـ وهى ظهور آثارها ـ بالحكمة. فالوجودُ كله قائم بين الحكمة والقدرة، فالقدرة تُبرز الأشياء، والحكمة تَسترها. فربط الأشياء واقترانها بأسبابها تُسمى عندهم الحكمة، وإنفاذ الأمر وإظهاره يُسمى القدرة، فمن وقف مع الحكمة حجب عن

شهود القدرة، وكان محجوباً عن الله. ومن نفذ إلى شهود القدرة ولم يرتبط مع الأسباب والعوائد كان عارفًا محبوباً. فالعارف الكامل هو الذي جمع بين شهود القدرة وإقرار الحكمة، فأعطى كل ذى حق حقه، ووفّى كلّ ذى قسط قسطه، لكن يكون ذلك ذوقًا وكشفًا، لا علماً وتقليداً. وبالله تعالى التوفيق:

ثم رغّب في الإخلاص، وحذّر من شوب الحظوظ في النفقة، فقال:

﴿ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾ إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾ ﴾

قلت: النذْر: هو إلزامُ المكلف نفسه ما لم يَجب، كقوله: لله عليّ أن أتصدق بكذا، أو أن أصلى كذا، أو أن أصوم كذا، أو إن شفى الله مريضى فعليّ كذا، فمن نطق بشيء من ذلك لزمه، ومن علق بشيء وحصل ذلك لزمه ما نطق به . و(نعما) أصلها: نِعم ما هى، فأدغمت الميم في الميم، وفى (نعم): ثلاث لغات: «نعم» بفتح النون وكسر العين وهى الأصل، وبسكونها، وبكسر النون وسكون العين، فمن قرأ بكسر النون والعين، فعلى لغة كسر العين، وأتبع النون للعين، ومن اختلس، أشار إلى لغة السكون، ومن قرأ بفتح النون وكسر العين، فعلى الأصل وأدغم المثلين، ومن قرأ بفتح النون وسكون العين فعلى لغة (نَعْم) بالفتح والسكون، ثم أدغم، ولم يعتبر التقاء الساكنين لعروضه، أو لكون الثانى مُشددًا سهل ذلك. والله أعلم.

ومن قرأ : (ونكَفرْ) ، بالجزم، فعطف على محل الجزاء، ومن قرأ بالرفع، فعلى الاستئناف، أى: ونحن نكفر، أو: فهو يكفر، على القراءتين.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وما أنفقتم من نفقة﴾ قليلة أو كثيرة، سراً أو علانية، فى حق أو باطل، ﴿أو نذرتم من نذر﴾ بشرط أو بغير شرط، فى طاعة أو معصية، ﴿فإن الله يعلمه﴾، فيجازيكم عليه، فمن أنفق فى طاعة أو نذر قُربة كان من المحسنين، ومن أنفق فى معصية أو نذر معصية كان من الظالمين. ﴿وما للظالمين من أنصار﴾ ينصرونهم من عذاب الله.

﴿إن﴾ تُظهروا ﴿الصدقات﴾، مخلصين فيها ، ﴿فَنِعِمّا هى﴾ أى: فنعم شيئاً إبداؤها، ولاسيما للمقتدى به، فهو أفضل فى حقه، ﴿وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء﴾ خفية ﴿فهو خير لكم﴾ ؛ لأنه أقرب للإخلاص، وهذا

في التطوع، تفضل علانيتها بسبعين ضعفاً. وأما الفريضة ففيها تفصيل، فمن خاف على نفسه شوْبَ الرياء أخفى أو نوّب، ومَنْ أمِنَ أظْهَرَ. فقد ورد أن علانية الفريضة تَفْضُلُ سرَّها بخمسة وعشرين ضعفاً، فإن فعلتم ما أُمرتم به في الوجهين، فقد أحسنتم، ﴿ونكفر عنكم من سيئاتكم﴾ أي: نستر عنكم بعض ذنوبكم، وقد ورد في صدقة السر أن صاحبها يُظله الله يوم لا ظل إلا ظله ﴿والله بما تعملون خبير﴾؛ لا يخفى عليه من أسرَّ أو جهَرَ، ومن أخلص أو خلط، ففيه ترغيب وترهيب. والله تعالى أعلم.

الإشارة: معاملة العبد مع مولاه: إما أن تكون لطلب الأجور، وإما لرفع الستور، فالأول يُعطى أجره من وراء الباب، والثاني يدخل مع الأحباب. وأما العامل للدنيا فهو ظالم لنفسه (وما للظالمين من أنصار)، وفي بعض الآثار: طالبُ الدنيا أسير، وطالب الآخرة أجير، وطالب الحق أمير.

ثُم الناس في معاملة الحق على أقسام ثلاثة: قِسْمٌ يليق بهم الإخفاء والإسرار، وهم طالبو الإخلاص من المريدين السائرين. وقِسْمٌ يليق بهم الإظهار وهم أهل الاقتداء من العلماء المخلصين. وقِسْمٌ لا يقفون مع ظهور ولا خفاء، بل مع ما يبرز في الوقت، وهم العارفون الكاملون. ولذلك قال الشيخ أبو العباس رضي الله عنه: (من أحبَّ الظهور فهو عبدالظهور، ومن أحب الخفاء فهو عبدالخفاء، ومن كان عبدالله فسواء عليه أظهره أم أخفاه).

والهداية كلها بيد الله، ليس لغيره منها شيء، كما أبان ذلك الحق جل جلاله بقوله:

﴿ ۞ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ... ﴾

يقول الحق جل جلاله لنبيه عليه الصلاة والسلام: ﴿ليس عليك﴾ يا محمد ﴿هداهم﴾ أي: لا يجب عليك أن تخلق الهداية في قلوبهم، وليس من شأنك ذلك، إنما أنت نذير تدلُّ على الخير، كالنفقة وغيرها، وتنهى عن الشر كالمَنّ والأذى، وإنفاق الخبيث، وغير ذلك من المساوئ ﴿ولكن الله يهدي من يشاء﴾ بفضله وإحسانه، فالأمور كلها بيد الله خيرها وشرها، لكن من جهة الأدب ﴿ما أصابك من حسنة فمن اللّهَ وما أصابك من سيئة فمن نفسك﴾. وبالله التوفيق.

الإشارة: ما قيل في الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ يقال في ورثته من أهل التذكير، فليس بيدهم الهداية والتوفيق، وإنما شأنهم الإرشاد وبيان الطريق، فليس من شأن الدعاة إلى الله الحرص على هداية الخلق. وإنما من

شأنهم بيان الحق. ﴿ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَن يُضِلُّ ﴾ . والله تعالى أعلم.

ثم رجع الحق تعالى إلى الترغيب في الصدقة والإخلاص فيها، فقال:

﴿ ... وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ (٢٧٢) ﴾

قلت: هذه ثلاث جمل كلها تدل على الترغيب في إنفاق الطيب وإخلاص النية.

يقول الحق جل جلاله: ﴿**وما تنفقوا من خير**﴾ قليل أو كثير، فهو ﴿**لأنفسكم**﴾ لا ينتفع به غيركم، فإن كان طيبًا فلأنفسكم، وإن كان خبيثًا فأجره لكم، وإن مننتم به أو آذيتم فقد ظلمتم أنفسكم، وإن أخلصتم فيه فلأنفسكم. وأيضا إنكم تدَّعُون أنكم ﴿**ما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله**﴾، فكيف تقصدون الخبيث، وتجعلونه لوجه الله؟ وكيف تمنُّون أو تؤذون بها وهي لوجه الله؟ هذا تكذيب للدعوى، وكل ما تنفقون من خير قليل أو كثير ﴿**يُوف إليكم**﴾ جزاءه يوم القيامة بسبعمائة إلى أضعاف كثيرة، ويخلفه لكم في الدنيا، ﴿**وأنتم لا تظلمون**﴾ شيئاً من أعمالكم إن أخلصتم أو أحسنتم . وستأتي إشارتها مع ما بعدها.

ثم بيَّن المصرف، فقال:

﴿ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (٢٧٣) ﴾

قلت: (للفقراء): متعلق بمحذوف، أي: يعطى ذلك للفقراء، أو اجعلوا ما تنفقونه للفقراء، والإلحاف: هو الإلحاح في السؤال، وهو أن يلازم المسئول حتى يعطيه، وهو منصوب على المصدر أو الحال.

يقول الحق جل جلاله: تجعلون ما تنفقونه ﴿**للفقراء الذين أحصروا**﴾ أي: حبسوا أنفسهم في ﴿**سبيل الله**﴾ وهو الجهاد، ﴿**لا يستطيعون ضربا في الأرض**﴾ أي: ذهابا في الأرض للتجارة أو للأسباب، بل شغلهم الجهاد والتبتل للعبادة عن الأسباب، وهم أهل الصُفَّة، كانوا نحواً من أربعمائة من فقراء المهاجرين، يسكنون صفة المسجد، يستغرقون أوقاتهم في العلم والذكر والعبادة، وكانوا يخرجون في كل سرية بعثها رسول الله ﷺ.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «وقف النبي ﷺ يوما على أصحاب الصفة، فرأى فقرهم وجهدهم وطيب قلوبهم، فقال: «أبشروا يا أصحاب الصفة، فمن بقي من أمتي على النعت الذي أنتم عليه، راضياً بما فيه فإنه، من رفقائي» .

وقيل: المراد الفقراء مطلقا، حصرهم الفقر عن الضرب في الأرض للتجارة، ﴿يحسبهم الجاهل﴾ بهم ﴿أغنياء من التعفف﴾، أي: من أجل تعففهم عن السؤال، ﴿تعرفهم بسيماهم﴾ من الضعف ورثاثة الحال. الخطاب للرسول، أو لكل أحد ﴿لا يسألون الناس إلحافا﴾، أي: لا يسألون، وإن سألوا عن ضرورة لم يلحوا، وقيل: نفي للأمرين معاً، أي: ليس لهم سؤال، فيقع فيه إلحاف، كقول الشاعر:

على لا حبٍ لا يُهْتَدى بمناره[1]

وليس ثَمّ لاحب ولا منار، وإنما المراد نفيهما، وفي الحديث عنه ﷺ: «مَنْ سأَلَ، وله أربعونَ دِرهما، فَقَدْ سأل إلحافا» .

﴿وما تنفقوا من خير فإن الله به عليم﴾ فيجازي على القليل والكثير، وهذا ترغيب في الإنفاق، وخصوصاً على هؤلاء.

الإشارة: ما أفلح من أفلح، وخسر مَنْ خسر، إلا من نفسه وفلسه، فمن جاد بهما، أو بأحدهما، فقد فاز وأفلح وظفر بما قصد، والجود بالنفس أعظم، وهو يستلزم الجود بالفلس، والجود بالفلس، إن دام، يوصل إلى الجود بالنفس، والمراد بالجود بالنفس: إسلامها للشيخ يفعل بها ما يشاء، وتكون الإشارة فيها كافية عن التصريح، ومن بخل بهما أو بأحدهما، فقد خسر وخاب في طريق الخصوص، ومصرف ذلك هو الشيخ، أو الفقراء المنقطعون إلى الله؛ الذين حصروا أنفسهم في سبيل الله، وهو الجهاد الأكبر.

قال في القوت: وكان بعض الفضلاء يؤثر بالعطاء فقراء الصوفية دون غيرهم، فقيل له في ذلك، فقال: **لأن هؤلاء همهم الله عز وجل، فإذا ظهر منهم فاقة تَشَتَّتَ قلبُ أحدهم، فلأنْ أرد همة واحدٍ إلى الله أحب إليّ من أن أعطي ألفا من غيرهم ممن همه الدنيا**. فذكر هذا الكلام لأبي القاسم الجنيد، فقال: هذا كلام ولي من أولياء الله. ثم قال: ما سمعت كلاماً أحسنَ من هذا. وبلغني أن هذا الرجل اقتر حاله في أمر الدنيا

(١) هذا صدر بيت عجزه: (إذا سافَهُ العَوْدُ النباطيُّ جَرْجَرا) وهو من قصيدة لامرىء القيس. واللاحب: الطريق الواسع.

حتى هم بترك الحانوت؛ فبعث إليه الجنيد بمال كان صرف إليه، وقال له: اجعل هذا في بضاعتك، ولا تترك الحانوت فإنّ التجارة لا تضرُّ مثلك. ويقال: إن هذا لم يكن يأخذ من الفقراء ثمن ما يبتاعون منه . هـ.

وكان عبدالله بن المبارك يصرف مصروفه لأهل العلم، ويقول: إني لا أعرف بعد النبوة أفضل من العلماء، فإذا اشتغل قلب أحدهم بالحاجة والعيلة لم يتفرغ للعلم، ولا يقبل على تعليم الناس، فرأيت أن أكفيهم أمر الدنيا؛ لأفرغهم للعلم، فهو أفضل . هـ. والله تعالى أعلم.

ثم رغَّب في النفقة مطلقا، فقال:

﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾ ﴾

قلت: الموصول مبتدأ، و(فلهم أجرهم) : خبر، والفاء للسببية، ولأن في الموصول معنى الشرط، وقيل: الخبر محذوف، أي: ومنهم الذين ينفقون إلخ، و(فلهم) : استئناف بياني.

يقول الحق جل جلاله: ﴿الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سراً وعلانية﴾ ، ويعمرون أوقاتهم بفعل الخيرات، ﴿فلهم أجرهم عند ربهم﴾ إذا قدموا عليه، ﴿ولا خوف عليهم﴾ من لُحوق مكروه، ﴿ولا هم يحزنون﴾ على فوات محبوب، بل وجدوا الله فأغناهم عن كل شيء.

قيل: نزلت في أبي بكر ﷺ؛ تصدَّق بأربعين ألف دينار، عشرة بالليل، وعشرة بالنهار، وعشرة بالسر، وعشرة بالعلانية، أو في علي ـ كرم الله وجهه ـ لم يملك إلا أربعة دراهم، فتصدق بدرهم ليلاً، ودرهم نهاراً، ودرهم سراً، ودرهم علانية. وهي عامة لمن فعل فعلهما.

الإشارة: أجر بذل الأموال هو إعطاء الثواب من وراء الباب، والأمن من العذاب وسوء المآب، وأجر بذل النفوس هو دخول حضرة القدوس، والأنس بالأحباب داخل الحجاب، فمن بذل نفسه لله على الدوام، أمنه من الحجبة في دار السلام، فلا خوف يلحقهم في الدارين، ولا يعتريهم حزن في الكونين. وبالله التوفيق.

ولما رغَّب في الصدقة، وكانت في الغالب لا يتوصل إليها إلا بتعاطي أسباب المال، وهو البيع والشراء حذر من الربا؛ لئلا يتساهل الناس في المعاملة به، حرصاً على الصدقة، فقال:

﴿ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ
بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ
فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾
يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ
وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ
وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ ﴾

قلت: (الربا) في الأصل: هو الزيادة، ربَا المال يربو: زاد، وكتبت بالواو مراعاة للأصل، وهو المصدر، قال الفراء: إنما كتبوه بالواو لأن أهل الحجاز تعلموا الكتابة من أهل الحيرة، ولغتهم الربو، فعلموهم صورة الحروف، وكذلك قرأها أبو السمال العدوي، وقرأ الأخوان بالإمالة لمكان الكسرة، والباقون بالتفخيم.

والربا في اصطلاح الشرع على قسمين: ربا الفضل وربا النَّساء، فأما ربا الفضل فهو التفاضل بين الطعامين أو النقدين في المبادلة من الجنس الواحد، فإن اختلفت الأجناس فلا حرج، وأما ربا النساء فهو بيع الطعامين أو النقدين بعضهما ببعض بالتأخير، وهذا حرام ولو اختلفت الأجناس.

يقول الحق جل جلاله: ﴿**الذين يأكلون الربا**﴾ أي: يأخذونه، وإنما خص الأكل لأنه أعظم منافع المال، ﴿**لا يقومون**﴾ من قبورهم يوم البعث ﴿**إلا كما يقوم**﴾ المجنون ﴿**الذي يتخبطه الشيطان من**﴾ أجل ﴿**المس**﴾ الذي يمسه يقوم ويسقط، روي أن بطونهم تكون أمامهم كالبيت المنخم، يقوم أحدهم فتميل به بطنه فيصرع، وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لما أُسْرِيَ بِي إلى السماء رأيتُ رِجالاً بُطُونُهمْ كَالبُيُوتِ، فيها حيَّاتٌ تُرى مِنْ خَارِجِ بُطُونِهِمْ، فقلت: مَنْ هؤلاء يا جِبْرِيل؟ فقال: أَكَلَةُ الرِّبا».

﴿**ذلك**﴾ العذاب بسبب أنهم استحلُّوا الربا، و﴿**قالوا إنما البيع مثل الربا**﴾ فنظموا الربا والبيع في سلك واحد، وفيه عكس التشبيه. والأصل: إنما الربا مثل البيع، قصدوا المبالغة، كأنهم جعلوا الربا أصلا وقاسوا عليه البيع. وذلك أن أهل الجاهلية كان أحدهم إذا حل ماله على غريمه يقول الغريم: زدني في الأجل أزدك في المال، فيفعلان، ويقولان: سواء علينا الزيادة في أول البيع بالربح أو عند محل الدين، هو مراضاة. فكذبهم الحق تعالى بقوله: ﴿**وأحل الله البيع وحرم الربا**﴾؛ لأن القياس مع وجود النص فاسد، والفرق ظاهر؛ فإن من باع درهما

بدرهمين ضيع درهما من غير فائدة، بخلاف من اشترى سلعة بدرهم، وباعها بدرهمين، فلعل مساس الحاجة، والرغبة فيها، توقع رواجها فيجبر الغبن.

﴿فمن جاءه موعظة من ربه﴾ كالنهي عن الربا، ﴿فانتهى﴾ وترك الربا ﴿فله ما سلف﴾ قبل التحريم ولا يرُدُّه، ﴿وأمره إلى الله﴾ لا إلى أحد منكم، فلا يتعرض له، ﴿ومن عاد﴾ إلى تحليل الربا بعد بلوغه النهي ﴿فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ لأنهم كفروا وسفهوا أمر الله. ﴿يمحق الله الربا﴾ أي: يذهب بركته، ويُهلك المال الذي يدخل فيه ﴿ويربي الصدقات﴾ أي: يضاعف ثوابها ويُبارك في المال الذي أُخرجت منه، فقد روى عنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ أنه قال: «ما نَقَصَ مالٌ مِنْ صَدَقة»، «وأنه يُربِي الصدقةَ حتى تكونَ مثلَ الجبل». قال يحيى بن معاذ: (ما أعرفُ حبةً تزن جبال الدنيا إلا الحبّةَ من الصدقة).

﴿والله لا يحب كل كفار﴾ أي: مُصِرٍّ على تحليل المحرمات، ﴿أثيم﴾ أي: منهمك في ارتكاب المنهيات، أي: لا يرتضي حاله، ولا يحبه كما يحب التوابين.

ثم ذكر مقابله فقال: ﴿إن الذين آمنوا﴾ بالله، وصدَّقوا بما جاء من عنده، ﴿وعملوا﴾ الأعمال ﴿الصالحات وأقاموا الصلاة﴾ أي: أتقنوها ﴿وآتوا الزكاة﴾ أي: أدوها على التمام، فلهم أجرهم عند ربهم إذا قدموا عليه، ﴿ولا خوف عليهم﴾ من آت، ﴿ولا هم يحزنون﴾ على ما فات، إذ لم يفتهم شيء حيث وجدوا الله.

ثم أكد في أمر الربا، فقال:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ ﴾ أي: اتركوا بقايا ما شرطتم على الناس من الربا، فلا تقبضوها منهم، ﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ ﴾. فإن دليل الإيمان: امتثال ما أمرتم به، روى أنه كان لثقيف مال على بعض قريش، فطالبوهم عند الحلّ بالمال والربا، فنزلت الآية.

﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ ﴾ وتتركوا ما نهيتم عنه ﴿ فَأْذَنُواْ ﴾ أي: فاعلموا ﴿ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ ومن قرأ: ﴿ فآذنوا ﴾ بالمد، فمعناه: أعلموا بها غيركم، روى أنها لما نزلت، قالت ثقيف: لا يدَانِ(١) لنا بحرب الله ورسوله. ﴿ وَإِن تُبْتُمْ ﴾ من تعاطي الربا واعتقاد حله ﴿ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ ﴾ الغريم بأخذ الزيادة، ﴿ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ ﴾ بنقص رأس مالكم. مفهومه إن لم يتب فليس له شيء، لأنه مرتد. والله تعالى أعلم.

(١) يقال: مالي بهذا الأمر يد ويدان أي: لاطاقة لي به، لأن المدافعة تكون باليد، فكأن يده معدومة لعجزه عن دفعه.

الإشارة: مدار صفاء المعاملة على تصفية اللقمة، فمن صفًا طعمته صفت معاملته، ومن صفت معاملته أفضى الصفاء إلى قلبه، ومن خلط في لقمته تكدرت معاملته، ومن تكدرت معاملته تكدر قلبه، ولذلك قال بعضهم: (مَنْ أكَلَ الحلال أطاع الله، أحبَّ أم كَرِهَ، ومن أكل الحرام: عصى الله، أحبَّ أم كَرِه) وكذلك الواردات الإلهية، لا ترد إلا على من صفا مطعمه ومشربه، ولذلك قال بعضهم: (من لا يعرف ما يدخل بطنه لا يفرق بين الخواطر الربانية والشيطانية).

وقال سيدي علي الخواص رَضِيَ اللهُ عَنهُ: (اعلم أن المدد الذي لم يزل فياضا على قلب كل إنسان ويتلون بحسب القلب، والقلب يتلون بحسبه هو بحسب صلاح الطعمة وفسادها). هـ. فالذين يأكلون الحرام؛ كالربا وشبهه، لا يقومون إلى معاملتهم للحق إلا كما يقوم المجنون الذي يلعب به الشيطان، ولا يدري ما يقول ولا ما يقال له، فقد حُرم لذيذ المناجاة وحلاوة خلوص المعاملات، فإن احتج لنفسه واستعمل القياس لم يُرْجَ فلاحُه في طريق الخواص، فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى، وطلب العفاف فقد عفا الله عما سلف. ومن عاد إلى ما خرج عنه؛ من متابعة هواه، فنار القطيعة مثواه ومأواه.

ومن شأن الحق جل جلاله مع عباده: أن من طلب الزيادة في حس ظاهره محق الله نور باطنه، ومن حسم مادة زيادة الحس في ظاهره قوى الله مدد الأنوار في باطنه، (يمحق الله الربا ويربي الصدقات)، أي: يقوّي مدد ثواب الصدقات. (والله لا يحب كلَّ كفَّارٍ أثيم)، وإنما يحب كل مطيع منيب، وهو من آمن إيمان أهل التحقيق، وسلك مسلك أهل التوفيق. فلا جرم أنه ينخرط في سلك أهل العناية، ويسلك به مسلك أهل الولاية، (الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون).

(يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله) حق تقاته، واتركوا ما بقي في باطنكم من بقايا الحس وأسبابه، إن كنتم طالبين إيمان أهل الشهود، والوصول إلى الملك المعبود. فإن لم تفعلوا ذلك فاعلموا أنكم في مقام البعد من حيث لا تظنون، معاندون وأنتم لا تشعرون. وإن رجعتم إلى ربكم فلكم رؤوس أموالكم، وهو نور التوحيد، لا تنقصون منه ولا تزيدون عليه، إلا إن أفردتم الوجهة إليه، وطلبتم الوصول منه إليه، فإن الله لا يُخيِّب من أمَّل جُوده، ولا يردُّ من وقَف ببابه، بمنّه وكرمه.

ثم ذكر حال المعسر، فقال:

﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾ ﴾

قلت: (كان): تامة بمعنى حضر، وقرأ أُبَيّ وابنُ مسعود: (ذا عُسْرة) فتكون ناقصة، و(نظرة): مبتدأ، والخبر محذوف، أي: فعليكم نظرة، أو فالواجب نظرة. وهو مصدر بمعنى الإنظار، وهو الإمهال، و(ميسرة): فيه لغتان: الفتح والضم، وهي مَفْعَلَة من اليسر، فالضم لغة أهل الحجاز، والفتح لغة تميم وقَيْس ونَجْد.

يقول الحق جل جلاله: وإن حضر الغريم وهو معسر، فعليكم إنظاره، أي: إمهاله إلى زمان يسره ولا يحل لكم أن تُضيّقوا عليه، و تطالبوه بما ليس عنده إن أقام البيّنَة على عسره ﴿وأن تصدقوا﴾ عليه برؤوس أموالكم ولا تطالبوه بها ﴿خير لكم إن كنتم تعلمون﴾ ما في ذلك من الخير الجزيل والذكر الجميل.

روى أبوهريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «مَنْ أنْظَرَ مُعْسِراً، أو وَضَعَ عنه، أظلَّه اللهُ في ظِلِّ عَرْشِه يوم لا ظلَّ إلا ظلُّه» وقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «من أحَبَّ أن تُستجاب دعوته، وتُكشف كُربتُه، فلْيُيَسِّرْ على المُعسر». وقال ﷺ: «من أنْظَرَ معسرا كان له بكل يوم صدقةٌ بمثل ما أنظره به» .وقد ورد في فضل الدَّيْن قوله ـ عليه الصلاة والسلام: «إن الله مع المدين حتى يقضي دَيْنه، مالم يكن فيما يكره الله» . فكان عبدالله[1] يقول: « إني أكره أن أبيت ليلة إلا والله تعالى معي، فيأمر غلامه أن يأخذ بدين» .

وقد ورد الترغيب أيضا في الإسراع بقضاء الدين دون مطل، قال ﷺ «مَنْ مشَى إلى غَرِيمه بحقه، صَلَّت عليه دوابُّ الأرض ونُونُ الماء ، وكتبت له بكل خُطوة شجرة في الجنة، وذنب يغفر له فإن لم يفعل ومطل فهو مُعْتَدٍ» . وقال أيضا: «مَطْلُ الغَنِيِّ ظلم، وإذا أُتْبِعَ أحَدُكُمْ على مَلِيء فَلْيَتْبَعْ» .

ثم قال تعالى: ﴿واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله﴾، وهو يوم القيامة، فتأهبوا للمصير إليه بالصدقة وسائر الأعمال الصالحة، ﴿ثم توفى كل نفس﴾ جزاء ما أسلفت، ﴿وهم لا يظلمون﴾ بنقص ثواب أو تضعيف عقاب. قال ابن عباس: (هذه آخر آية نزل بها جبريل، فقال: ضعها في رأس المائتين والثمانين من البقرة، وعاش بعدها رسول الله ﷺ أحدا وعشرين يوما) . وقيل: أحداً وثمانين، وقيل غير ذلك. والله تعالى أعلم.

الإشارة: وإن كان ذو عسرة من نور اليقين والمعرفة، فلينظر إلى أهل الغنى بالله، وليصحبهم ويتعلّق بهم، وهم العارفون، فإنهم يغنونه بالنظر. وفي بعض الأخبار: إن لله رجالا؛ من نظر إليهم سعد سعادة لا يشقى بعدها أبدا . هـ. ولله رجال إذا نظروا أغنَوْا ، وفي هذا المعنى يقول صاحب العينية:

فَشَمِّرْ، ولُذْ بالأَوْلِيَاءِ فَإنَّهُمْ لَهُمْ مِنْ كِتَابِ اللهِ تِلْكَ الوَقَائِعُ
هُمُ الذُّخْرُ لِلمَلْهُوفِ، والكَنْزُ للرَّجَا وَمِنْهُمْ يَنَالُ الصَّبُّ مَا هُوَ طَامِعُ

(١) هو راوي الحديث سيدنا عبد الله بن جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه.

وقال الشيخ أبوالعباس رضي الله عنه: والله ما بيني وبين الرجل إلا أن أنظر إليه وقد أغنيته. وقال فيه شيخه: نعم الرجل أبوالعباس، يأتيه البدوي يبول على ساقه، فلا يُمسي إلا وقد أوصله إلى ربه. وقال شيخ شيوخنا سيدي العربي بن عبدالله: لو أتاني يهودي أو نصراني، لَمْ يُمسِ إلا وقد أوصلته إلى الله . هـ . وفي كل زمان رجال يُغْنُون بالنظر، وقد أدركتُهم، وصحبتُهم والحمد لله. والإشارة بقوله: ﴿وأن تصدقوا خير لكم﴾ إلى أهل الغنى بالله، يتصدقون على الفقراء بالنظرة والهمة، حتى يحصل لهم الغنى بالله. والله تعالى أعلم.

ثم أمر الحق تعالى بتحصين الأموال؛ بتقييد الديون والإشهاد عليها، فقال:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَلَا يَأۡبَ كَاتِبٌ أَن يَكۡتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ فَلۡيَكۡتُبۡ وَلۡيُمۡلِلِ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبۡخَسۡ مِنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ سَفِيهًا أَوۡ ضَعِيفًا أَوۡ لَا يَسۡتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلۡيُمۡلِلۡ وَلِيُّهُۥ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَٱسۡتَشۡهِدُواْ شَهِيدَيۡنِ مِن رِّجَالِكُمۡۖ فَإِن لَّمۡ يَكُونَا رَجُلَيۡنِ فَرَجُلٞ وَٱمۡرَأَتَانِ مِمَّن تَرۡضَوۡنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحۡدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحۡدَىٰهُمَا ٱلۡأُخۡرَىٰۚ ... ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين﴾ أي: داين بعضكم بعضا في بيع أو سلف، ﴿إلى أجل مسمى﴾ أي : معلوم بالأيام أو الأشهر، لا بالحصاد أو قدوم الحاج، إلا في السَّلَمَ ،﴿فاكتبوه﴾؛ لأنه أوثق وأدفع للنزاع. والجمهور: أن الأمر للاستحباب، ﴿وليكتب بينكم كاتب بالعدل﴾ لا يزيد ولا ينقص، ولابد أن يكون عدلا حتى يجيء مكتوبه موثوقاً به، ﴿ولا يأب كاتب أن يكتب﴾ أي: ولا يمتنع كاتب من الكتابة ﴿كما علمه الله فليكتب﴾ أي: فليكتب كما علمه الله من كتابة الوثائق، أو: لا يأب أن ينفع الناس بكتابته كما نفعه الله بتعليمها. ﴿وليملل الذي عليه الحق﴾ أي: وليكن المُملي مَنْ عليه الحق؛ لأنه المُقر للشهود، يقال: أملل وأملى، إذا ذكر ما عنده أوما عليه، ﴿وليتق الله ربه﴾ أي: المملي أو الكاتب، ﴿ولا يبخس منه شيئا﴾ أي: ولا ينقص من الحق الذي عليه شيئاً في الإملاء أو في الكتابة.

﴿فإن كان الذى عليه الحق سفيها﴾: ناقص العقل مُبذراً، ﴿أو ضعيفاً﴾ شيخاً مخبلاً، أو صبياً صغيراً، ﴿أو لا يستطيع أن يمل هو﴾، لخرس أو جهل باللغة، ﴿فليملل﴾ عنه ﴿وليه بالعدل﴾، من وَصِيٍّ أو وكيل، ﴿واستشهدوا﴾ على معاملتكم ﴿شهيدين من رجالكم﴾ المسلمين ، ﴿فإن لم يكونا رجلين﴾، بأن تعذر إحضارهما، ﴿فرجل وامرأتان﴾ فأكثر، تقوم مقام رجلين ﴿ممن ترضون من الشهداء﴾ لعلمكم بِعَدَالَتِهِمْ، وإنما شرط تعدد النساء لأجل ﴿أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى﴾ أى: إن ضلت إحداهما الشهادة، ونسيتها، ذكرتها الأخرى؛ لأنها ناقصة عقل ودين.

ثم حذّر الشهود من الامتناع عن تحمل الشهادة أو أدائها، فقال:

﴿... وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْۚ وَلَا تَسْـَٔمُوٓاْ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦۚ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓاْۖ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَاۗ وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌۚ وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾﴾

قلت: السأمُ هو: الملَلُ، و(لا يضار) يحتمل أن يكون مبنيا للفاعل، وأصله: يضارر بالكسر، أو للمفعول، فيكون الأصح بالفتح.

يقول الحق جل جلاله: ولا يمتنع ﴿الشهداء﴾ من تحمل الشهادة إذا دعوا إليها، حيث تعيَّنت عليهم، وسُموا شهداء باعتبار المآل، وإنما تتعين إذا لم يوجد غيرهم. أو: من أدائها حيث لا ضرر، ﴿ولا تسأموا أن تكتبوه﴾ أى: ولا تملوا من كتابة الحق إذا تكرر ﴿صغيرا﴾ كان ﴿أو كبيرا﴾، فقيدوا ذلك ﴿إلى أجله﴾، ﴿ذلكم أقسط عند الله﴾ أى: ذلك الكتاب والتقييد للحقوق، أكثر قسطا عند الله؛ لأنه أدفع للنزاع وأحفظ للحقوق، ﴿وأقوم للشهادة﴾ أى: أثبتُ لها وأعون على أدائها، ﴿وأدنى ألا ترتابوا﴾ أى: وأقرب لعدم الريب والشك فى جنس الدين وقَدْره وأجَله، لأنه إذا كتب جنسه وقدره وأجله لم يبق لأحد شك فى ذلك، ﴿إلا أن تكون تجارة حاضرة﴾ لا أجَل فيها، ﴿تديرونها بينكم﴾ أى: تتعاملون فيها نقدا، ﴿فليس عليكم جُنَاحٌ ألا تكتبوها﴾؛ لقلة النزاع فيها، ﴿وأشهدوا إذا تبايعتم﴾ مطلقاً بدين أو نقد؛ لأنه أحوط، خوفا من الإنكار، والأوامر فى هذه الآية للاستحباب عند الأكثر.

﴿ولا يضار كاتب ولا شهيد﴾ بالتحريف والتغيير في الكتابة والشهادة، على البناء للفاعل، أو: ولا يضارا بأن يُعجلا عن مهم، أو يكلفا الأداء من شقة بعيدة، أو يمنع من أجرته، ﴿وإن تفعلوا﴾ ذلك الضرار وما نهيتهم عنه ﴿فإنه فسوق بكم﴾ أي: خروج بكم عن حد الاستقامة، ﴿واتقوا الله﴾ في مخالفة أمره ونهيه، ﴿ويعلمكم الله﴾ العلوم اللدنية ﴿والله بكل شيء عليم﴾؛ فلا يخفى عليه من اتقى الله ممن عصاه. وكرر لفظ الجلالة في الجمل الثلاث، لاستقلالها، فإن الأولى حثٌّ على التقوى والثانية وعدٌ بتعليم العلم، والثالثة تعظيم لشأنه، ولأنه أدخل في التعظيم من الكناية. قاله البيضاوي.

وأدخل الواو في جواب الأمر ليقتضي أن تعليمه سبحانه لأهل التقوى ليس هو مسبباً عن التقوى، بل هو بمحض الفضل والكرم، والتقوى إنما هي طريق موصل لذلك الكرم، لا سبب فيه «جلّ حُكْمُ الأزل أن يُضَافَ إلى العلل». والله تعالى أعلم.

ثم ذكر الحق تعالى حكم الرهان، فقال:

﴿ ۞ وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُواْ كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ ۖ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ ۗ وَلَا تَكْتُمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾ ﴾

قلت: (فرهان): خبر، أو مبتدأ، أي: فالمستوثق به رهان، أو فعليه رهان.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وإن كنتم على﴾ جناح ﴿سفر﴾ أي: مسافرين، ﴿ولم تجدوا كاتبا﴾ يكتب شهادة البيع أو الدين، فالمستوثق به عوضا من الإشهاد: ﴿رهان مقبوضة﴾. وليس السفر شرطاً في صحة الارتهان، لأنه عليه الصلاة والسلام «رَهَنَ دِرْعَه عند يهودي بالمدينة في شَعِير» لكنْ لمّا كان السفر مَظَنّة إعواز الكتاب، ذكره الحق تعالى حكما للغالب. والجمهور على اعتبار القبض فيه، فإن لم يقبض حتى حصل المانع، فلا يختص به في دينه، ﴿فإن أمن بعضكم بعضا﴾ واستغنى بأمانته عن الارتهان، لوثوقه بأمانته فداينه بلا رهن، ﴿فليؤد الذي أؤتمن أمانته﴾ أي: دينه، وسماه أمانة؛ لائتمانه عليه بلا ارتهان ولا إشهاد، ﴿وليتق الله ربه﴾ في أداء دينه وعدم إنكاره.

﴿ولا تكتموا الشهادة﴾ أيها الشهود، أو أهل الدين، أي: شهادتهم على أنفسهم، ﴿ومن يكتمها﴾ منكم بأن يمتنع من أداء ما تحمل من الشهادة، أو من أداء ما عليه من الدين، ﴿فإنه آثم قلبه﴾ حيث كتم ما علمه به، لأن الكتمان من عمل القلوب فتعلق الإثم به، ونظيره: «العين زانية وزناها النظر»، أو أسنده إلى القلب، مبالغة؛ لأنه رئيس الأعضاء، فإذا أثم قلبه فقد أثم كله، وكأنه قد تمكن الإثم منه فأخذ أشرف أجزائه، وفاق سائر ذنوبه، ثم هدد

الكاتمين فقال: ﴿والله بما تعملون عليم﴾؛ لا يخفى عليه ما تبدون وما تكتمون، روى عنه ﷺ أنه قال: «من كَتَمَ شهادةً إذا دُعِي ـ كان كَمَنْ شَهِدَ بالزُّور».

الإشارة: كما أمر الله تعالى بتقييد الديون الدنيوية، والاعتناء بشأنها، أمر بتقييد العلوم اللدنية والواردات القدسية والاغتباط بأمرها، بل هي أولى؛ لدوام ثمراتها وخلود نتائجها، فإن الحكمة ترد على القلب من عالم القدس عظيمة كالجبل، فإن أهملتها ولم تبادر إلى تقييدها، رجعت كالجمل، فإن أخرتها رجعت كالطير، ثم كالبيضة، ثم تمتحي من القلب، وفي هذا المعنى قيل:

العلمُ صَيْدٌ والكتابةُ قَيْدُه قَيِّدْ صُيودَك بالحِبَالِ المُوثَقَهْ
وَمِنَ الجَهَالة أن تَصِيدَ حَمامَةً وتتركُها بَيْنَ الأوانِس مطلقَهْ

فإن لم يحسن الكتابة، فليمله على من يُحسنها، ولا يبخس منه شيئا، بل يمليه على ما ورد في قلبه، فإن كان ضعيف العبارة، فليملل عنه من يحسنها بالعدل، من غير زيادة ولا نقصان في المعنى، وليشهد عليها رجال أهل الفن وهم العارفون، فإن لم يكونوا، فمن حضر من الفقراء المتمكنين؛ لئلا يكون في تلك الحكمة شيء من الخلل؛ لنقصان صاحبها، أو: وليُشهِد على ذلك الوارد عدلين، وهما الكتاب والسنة، فإن كان موافقا لهما، قُبل، وإلا رُدَّ.

قال الجنيد رضي الله عنه: إن النكتة لتقع في قلبي فلا أقبلها إلا بشهادة عَدْلَين: الكتاب والسنة. هـ. وإن كنتم مستعجلين، ولم تجدوا كاتباً، فارتهنوها في قلوب بعضكم بعضاً، حتى تُقيد. ومن كتم الواردات عن شيخه أو إخوانه، فقد أثم قلبه؛ لأنه نوع من الخيانة في طريق التربية. والله تعالى أعلم.

ثم هدَّد الحقُّ تعالى عباده، على مخالفة ما أمرهم به، فقال:

﴿لِّلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾﴾

قلت: من قرأ (فيغفر)؛ بالجزم، فعلى العطف على الجواب، ومن قرأ بالرفع فعلى الاستئناف، أي: فهو يغفرُ.

يقول الحق جل جلاله: ﴿لله ما في السموات وما في الأرض﴾ خلقا وملكا وعبيدا، يتصرف فيهم كيف شاء؛ يرحم من يشاء بفضله، ويعذب من يشاء بعدله، ﴿وإن تبدوا﴾ أي: تظهروا ﴿ما في أنفسكم﴾ من السوء والعزم عليه، ﴿أو تخفوه﴾ في قلوبكم، ﴿يحاسبكم به الله﴾ يوم القيامة؛ ﴿فيغفر لمن يشاء﴾ مغفرته، ﴿ويعذب من يشاء﴾ تعذيبه، ﴿والله على كل شيء قدير﴾ لا يعجزه عذاب أحد ولا مغفرته. وعبَّر الحق تعالى بالمحاسبة دون المؤاخذة، فلم يقل: يؤاخذكم به الله؛ لأن المحاسبة أعم، فتصدق بتقرير الذنوب دون المؤاخذة بها، لقوله ـ عليه الصلاة والسلام: «يدنو المؤمن من ربه حتى يضع كنفه عليه، فيقرره بذنوبه، فيقول: هل تعرف

كذا؟ فيقول: يارب، أعرف، فيوقفه على ذنبه ذنباً، ذنباً فيقول الله تعالى: أنا الذى سترتها عليك فى الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم» . فلله الفضل والمنة، وله الحمد والشكر.

الإشارة: (وإن تبدوا ما فى أنفسكم) من الخواطر الردية والطوارق الشيطانية، أو تخفوه فى قلوبكم، حتى يحول بينكم وبين شهود محبوبكم، (يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء) فيمحو ظلمته من قلبه؛ بإلهام التوبة والمبادرة إلى اليقظة، (ويعذب من يشاء) بتركه مع ظلمة تلك الأغيار، وخوضه فى بحار تلك الأكدار، فما منع القلوب من مشاهدة الأنوار إلا اشتغالها بظلمة الأغيار، فرّغْ قلبك من الأغيار تملأه بالمعارف والأسرار، فإن أردت أن تكون عين العين، فامح من قلبك نقطة الغين، وهى نقطة السوى، ولله در القائل:

إنْ تَلاشَى الكونُ عن عَيْنِ كَشْفِي　　　شَاهَدَ السرُّ غَيْبَهُ فى بيانى

فَاطْرح الكونَ عن عِيانِكَ وامْحُ　　　نقطةَ الغَيْنِ إنْ أردتَ تَرَانى

واعلم أن الخواطر أربعة: ملكى وربانى ونفسانى وشيطانى، فالملكى والربانى لا يأمران إلا بالخير، والنفسانى والشيطانى لا يأمران إلا بالشر، وقد يأمران بالخير إذا كان فيه دسيسة إلى الشر، والفرق بين النفسانى والشيطانى: أن الخاطر النفسانى ثابت لا يزول بتعوذ ولا غيره، إلا بسابق العناية، بخلاف الشيطانى: فإنه يزول بذكر الله، ويرجع مع الغفلة عن الله. والله تعالى أعلم.

ولمَّا نزل قوله تعالى: ﴿وإن تبدوا ما فى أنفسكم...﴾ الآية. شق ذلك على الصحابة ـ رضى الله عنهم ـ فجاء الصدِّيق والفاروق وعبدالرحمن ومعاذ، وناسٌ من الأنصار، فجثَوْا على الرُّكَب، وقالوا: يا رسول الله، ما نزلت علينا آيةٌ أشدُّ من هذه الآية وإنا إن أخذنا بما نُحدِّث به أنفسنا هلكْنَا! فقال النبى ﷺ: «هكذا نزلت» . فقالوا: كلفنا من العمل ما لا نطيق، فقال ـ عليه الصلاة والسلام : «فلعلكم تقولون كما قالت بنو إسرائيل: ﴿ سمعنا وعَصَيْنَا ﴾، قولوا: سمعنا وأطعنا» ، فقالوا: سمعنا وأطعنا، وذَلّتْ بها ألْسِنَتهمْ، فأنْزَلَ اللهُ التخفيف، وحكى ما وقع لهم من الإيمان والإذعان، فقال:

﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآۚ أَنتَ مَوۡلَىٰنَا فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾ ﴾

قلت: من قرأ :(لا نفرق) بالنون، فعلى حذف القول، أي: قالوا: لا نفرق، ومن قرأ بالياء فيرجع إلى الكل، أي: لا يفرق كل واحد منهم بين أحد من رسله، و(بين): من الظروف النسبية، لا تقع إلا بين شيئين أو أشياء، تقول: جلست بين زيد وعمرو، وبين رجلين، أو رجال، ولا تقول بين زيد فقط، وإنما أضيف هنا إلى أحد لأنه في معنى الجماعة، أي: لا نفرق بين آحاد منهم كقوله عليه الصلاة والسلام : «ما أُحلّت الغنائم لأحدٍ، سُودِ الرؤوس، غيركم» . و(غفرانك): مفعول مطلق، أي: اغفر لنا غفرانك. أو: نطلب غفرانك، فيكون مفعولا به.

يقول الحق جل جلاله: ﴿آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه﴾ إيمان تحقيق وشهود، ﴿والمؤمنون﴾ كل على قدر إيقان، ﴿كل﴾ واحد منهم ﴿آمن بالله﴾ على ما يليق به من شهود وعيان، أو دليل وبرهان، وآمن بملائكته وأنهم عباد مكرمون ﴿لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ ، ﴿وكتبه﴾ وأنها كلام الله، مشتملة على أمر ونهي ووعد ووعيد وقصص وأخبار، ما عرف منها؛ كالتوراة والإنجيل والزبور والفرقان، وجب الإيمان به بعينه، ومالم يعرف وجب الإيمان به في الجملة، ﴿ورسله﴾ وأنهم بشر متصفون بالكمالات، منزهون عن النقائص، كما يليق بحالهم، حال كون الرسول والمؤمنون قائلين ﴿لا نفرق بين أحد من رسله﴾ أو: (لا يفرق)كل منهم بين أحد من رسله؛ بأن يصدقوا بالبعض، دون البعض كما فرقت اليهود والنصارى، ﴿وقالوا﴾ أي المؤمنين ﴿سمعنا وأطعنا﴾ أي: سمعنا قولك وأطعنا أمرك، نطلب ﴿غفرانك﴾ يا ربنا ﴿وإليك المصير﴾ بالبعث والنشور، وهذا إقرار منهم بالبعث الذي هو من تمام أركان الإيمان.

فلمّا تحقق إيمانُهم، وتيقن إذعانُهم، خفَّف الله عنهم بقوله: ﴿لا يكلف الله نفسا إلا وسعها﴾ أي: إلا ما في طاقتها وتسعه قدرتها. وهذا يدل على عدم وقوع التكليف بالمحال ولا يدل على امتناعه. أما المحال العادي(١) فجائز التكليف به، وأما المحال العقلي(٢) فيمتنع، إذ لا يتصور وقوعه، وإذا كلف الله عباده بما يطيقونه، فكل نفس ﴿لها ما كسبت﴾ من الخير فتوفى أجره على التمام، ﴿وعليها ما اكتسبت﴾ من الشر، فترى جزاءه، إلا أن يعفو ذو الجلال والإكرام.

وعبر في جانب الخير بالكسب، وفي جانب الشر بالاكتساب، تعليما للأدب في نسبة الخير إلى الله، والشر إلى العبد. فتأمله.

ثم قالوا في تمام دعائهم: ﴿ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا﴾ ، أي: لا تؤاخذنا بما أدى بنا إلى نسيان أو خطأ من تفريط أو قلة مبالاة، وفي الحديث: «إنّ الله رفعَ عن أمتي الْخَطأَ والنّسْيَانَ وما حدثتْ به نفسَها» .

---

(١) المحال العادي: كرفع إنسان جبلا.

(٢) المحال العقلي: كالجمع بين الضدين.

ويجوز أن يراد نفس الخطأ والنسيان؛ إذ لا تمتنع المؤاخذة بهما عقلا، فإن الذنوب كالسموم، فكما أن تناول السم يؤدي إلى الهلاك، وإن كان خطأ ـ فتعاطي الذنوب لا يبعد أن يفضي إلى العقاب، وإن لم يكن عزيمة، لكنه تعالى وعد التجاوز عنه رحمة وفضلا. ويجوز أن يدعو به الإنسان، استدامة واعتدادا بالنعمة فيه. ويؤيد ذلك مفهوم قوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «رُفع عن أمتي الخطأ والنسيان»، أي: فإن غير هذه الأمة كانوا يؤاخذون به، فدل على عدم امتناعه. قاله البيضاوي.

ثم قالوا: ﴿ربنا ولا تحمل علينا إصرا﴾ أي: عهداً ثقيلاً يأصر ظهورنا، أي: يثقله، فتعذبنا بتركه وعدم حمله، ﴿كما حملته على الذين من قبلنا﴾ مثل اليهود في تكليفهم بقتل الأنفس في التوبة، وقطع موضع النجاسة، وغير ذلك من التكاليف الشاقة، ﴿ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به﴾ من التكاليف التي لا تسعها طاقتنا، وهذا يدل على جواز التكليف بما لا يطاق عادة، وإلا لما سئل التخلص منه، ﴿واعف عنا﴾ أي: امح ذنوبنا، ﴿واغفر لنا﴾ أي: استر عيوبنا، ﴿وارحمنا﴾ أي: تعطف علينا. ﴿اعف عنا﴾ الصغائر، ﴿واغفر لنا﴾ الكبائر، ﴿وارحمنا﴾ عند الشدائد والحسرات، ﴿أنت مولانا﴾ أي: سيدنا وناصرنا، ﴿فانصرنا على القوم الكافرين﴾؛ فإن من شأن المولى أن ينصر مواليه على الأعداء.

قال البيضاوي: (رُوي أنه عليه الصلاة والسلام ـ لمّا دعا بهذه الدعوات قيل له: فعلتُ). وعنه عليه الصلاة والسلام: « أُنْزِلَ آيتان من كنوز الجنة، كتبهما الرحمن بيده قبل أن يخلق الخلق بألفيْ سنة، من قرأهما بعد العشاء الأخيرة أجْزَأتَاه عن قيام الليل». وعنه عليه الصلاة والسلام: «من قرأ الآيَتَينِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ في لَيْلَةٍ كفتاه». وهو يردُّ قول من استكره أن يقال سورة البقرة، وقال: ينبغي أن يقال السورة التي يذكر فيها البقرة، كما قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «السورةُ التي يُذكر فيها البقرة فسطاط القرآن فتعلموها؛ فإنّ تعلُّمها بركَةٌ، وتَرْكَهَا حسْرَةٌ، ولن يستَطِيعها البطلَةُ. قيل: وما البطلة؟ قال: السحرة»[(١)].

الإشارة: يُفهم من سر الآية أن من شق عليه أمر من الأمور، أو عسرت عليه حاجة، أو نزلت به شدة أو بلية، فليرجع إلى الله، ولينطرح بين يدي مولاه، وليعتقد أن الأمور كلها بيده؛ فإن الله تعالى لا يخليه من معونته ورفده، فيخفف عنه ما نزل به، أو يقويه على حمله، فإن الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ لما شق عليهم المحاسبة على الخواطر سلّموا وأذعنوا لأمر مولاهم، فأنزل عليهم التخفيف، وأسقط عنهم في ذلك التكليف، وكل من رجع في أموره كلها إلى الله قضيت حوائجه كلها بالله. «من علامات النُّجحِ في النهايات الرجوع إلى الله في البدايات».

---

(١) قال الشهاب الخفاجي في حاشيته على البيضاوي، موفقاً بن القائلين بكراهة أن يقال: سورة البقرة، وقول الجمهور بجوازه: إنما المنع من ذلك كان في صدر الاسلام، لما استهزأ سفهاء المشركين بسورة العنكبوت ونحوها، فمنع ذلك دفعاً للملحدين. ثم لما استقر الدين، وقطع الله دابر القوم الظالمين، شاع ذلك وساغ.

وقوله تعالى: ﴿ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به﴾، قيل: هو الحب لله، فلا يسأل العبد من مولاه من حبه إلا ما يطيقه، وتأمل قضية الرجل الذي سأل سيدنا موسى عليه السلام أن يرزقه الله حبه، فلما سأل ربه موسى عليه السلام هام ذلك الرجل، وشق ثيابه، وتمزقت أوصاله حتى مات. فناجى موسى ربه في شأنه، فقال: يا موسى، ألف رجل كلهم سألوني ما سأل ذلك الرجل، فقسمت جزءا من محبتي بينهم، فنابه ذلك الجزء. أو كما قال سبحانه.

وقال بعض الصالحين: حضرتُ مجلس ذي النون، في فسطاط مصر، فَحَزَرْتُ[1] في مجلسه سبعين ألفا، فتكلم ذلك اليوم في محبته تعالى فمات أحدَ عشرَ رجلا في المجلس، فصاح رجل من المريدين فقال: يا أبا الفيض، ذكرْتَ محبة الله تعالى فاذكر محبة المخلوقين، فتأوه ذو النون تأوها شديدا، ومد يده إلى قميصه، وشقه اثنتين، وقال: آه! غلقت رهونهم، واستعبرت عيونهم، وحالفوا السُّهَاد، وفارقوا الرُّقاد، فليلُهم طويل، ونومهم قليل، أحزانهم لاَ تَنْفد. وهمومهم لا تفقد، أمورهم عسيرة، ودموعهم غزيرة، باكية عيونهم، قريحة جفونهم، عاداهم الزمان والأهل والجيران.

قلت: هذه حالة العباد والزهاد، أولي الجد والاجتهاد، غلب عليهم الخوف المزعج، أو الشوق المقلق، وأما العارفون الواصلون؛ فقد زال عنهم هذا التعب، وأفضوا إلى الراحة بعد النصب، قد وصلوا إلى مشاهدة الحبيب، ومناجاة القريب، فعبادتهم قلبية، وأعمالهم باطنية، بين فكرة ونظرة، مع العكوف في الحضرة، قد سكن شوقهم وزال قلقهم، قد شربوا ورووا، وسكروا وصحوا، فلا تحركهم الأحوال، ولا تهيجهم الأقوال، بل هم كالجبال الرواسي، نفعنا الله بذكرهم، وجعلنا من حزبهم. آمين.

قوله تعالى: (واعف عنا)، قال الورتجبي: أي: (واعف عنا) قلة المعرفة بك، (واغفر لنا) التقصير في عبادتك، (وارحمنا) بمواصلتك ومشاهدتك . هـ. وبالله التوفيق، وهو الهادي إلى سواء الطريق، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) حزر الشيء حزراً: قدره بالتخمين فهو حازر.

سورة آل عمران

مدنية. وآياتها: مائتان، وقيل: مائة وسبع وثمانون. وكلماتها: ثلاثة آلاف وأربعمائة وثمانون كلمة، ومناسبتها لما قبلها: قوله تعالى في أولها: ﴿إن الذين كفروا بآيات الله...﴾ إلخ، فكأنه تتميم لقوله، ﴿فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾، وتفسير له.

ومضمنها: توجيه العتاب لثلاث طوائف: للنصارى؛ لغلوهم في عيسى عليه السلام، ولامتناعهم من الدخول في الإسلام، وبسببهم نزلت السورة، أعني نصارى نجران، ولليهود؛ لتفريطهم في اتباع النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ وللمسلمين؛ لما وقع لهم من الفشل يوم أحد، ولذلك افتتح السورة بذكر الكتب الثلاثة، إذ لو قاموا بحقوقها ما توجه لهم عتاب، فقال:

﴿الٓمٓ ﴿١﴾ اللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَٰبَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَىٰةَ وَالْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ ...﴾

قلت: فواتح السور كلها موقوفة خالية عن الإعراب؛ لفقدان موجبه ومقتضيه، فيوقف عليها بالسكون، كقولهم: واحد، اثنان. وإنما فتح الميم هنا في القراءة المشهورة؛ لإلقاء حركة الهمزة عليها. انظر البيضاوي. قال ابن عباس رضي الله عنه: (الألف آلاؤه، واللام لطفه، والميم مُلكه).

قلت: ولعلّ كل حرف يشير إلى فرقة ممن توجّه العتاب إليهم، فالآلاء لمن أسلم من النصارى، واللطف لمن أسلم من اليهود، والملك لمن أسلم من الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ، فقد ملكهم الله مشارق الأرض ومغاربها. والله تعالى أعلم.

يقول الحق جل جلاله: أيها الملك المُعظّم، والرسول المفخم، بلّغ قومك أن الله واحد في ملكه، ليس معه إله، ولا يُحب أن يعبد معه سواه؛ إذ لا يستحق أن يعبد إلا الحي القيوم، الذي تعجز عن إدراكه العقولُ ومدارك الفهوم، قائم بأمر عباده، متصرف فيهم، على وفق مراده، فأعذر إليهم على ألسنة المرسلين، وأنزل عليهم الكتب بياناً للمسترشدين، فنزّل ﴿عليك الكتاب﴾ منَجَّمًا في عشرين سنة، متلبساً ﴿بالحق﴾، حتى ﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه﴾، أو متلبسا بالحجج التي تدفع كل باطل، أو بالعدل حتى ينتفي به جوْر كل مائل، ﴿مصدقا﴾ لما تقدم قبله من الكتب الإلهية؛ إذ هو موافق لما فيها من القصص والأخبار، فكان شاهداً عليها بالصحة والإبرار.

﴿وأنزل التوراة والإنجيل﴾ من قبله هادياً لمن كُلف باتباعهما من الأنام، أو للجميع، إذا كان شرعُ منْ قبلنا شرعاً لنا ـ معشر أهل الإسلام ـ، ثم ختم الوحي بإنزال ﴿الفرقان﴾، وكلف بالإيمان به الإنس والجان، فرّق به بين الحق والباطل، واندفع به ظلمة كل كافر وجاهل؛ وقدّم ذكره على الكتب؛ لعظم شرفه، وختم به آخرا لتأخر نزوله. والله تعالى أعلم.

الإشارة: لمّا أراد الحق جل جلاله أن يشير إلى وحدة الذات وظهور أنوار الصفات، قدّم قبل ذلك رموزا وإشارات، لا يفهمها إلا من غاص في قاموس بحر الذات، وغرق في تيار الصفات، فيستخرج بفكرته من يواقيت العلوم وغوامض الفهوم، ما تحار فيه الأذهان، وتكِلُّ عنه عبارةُ اللسان، فحينئذ يفهم دقائق الرموز وأسرار الإشارات، ويطلع على أسرار الذات وأنوار الصفات، ويفهم أسرار الكتب السماوية، وما احتوت عليه من العلوم اللدنية، والمواهب الربانية، ويشرق في قلبه أنوار الفرقان، حتى يرتقي إلى تحقيق أهل الشهود والعيان. جعلنا الله منهم بمنّه وكرمه.

ثم هدد من كفر بالفرقان، بعد وضوح سواطع البرهان، فقال:

﴿ ... إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤﴾ ﴾

قلت: الانتقام والنقمة: عقوبة المجرم. وفعله: نقم؛ بكسر القاف وفتحها.

يقول الحق جل جلاله: ﴿إن الذين كفروا بآيات الله﴾ المنزلة على نبيه أو على سائر أنبيائه، أو الآيات الدالة على وحدانيته، ﴿لهم عذاب شديد﴾ يوم يظهر نفوذ الوعد والوعيد، فينتقم الله فيه من المجرمين، ويتعطف على عباده المؤمنين، فإن ﴿الله عزيز﴾ لا يغلبه غالب، ولا يفوته هارب، ﴿ذو انتقام﴾ كبير ولطف كثير. لطف الله بنا وبجميع المسلمين. آمين.

الإشارة: ظهور أولياء الله لطف من آيات الله، فمن كفر بهم حُرم بركتهم، وبقي في عذاب الحجاب وسوء الحساب، تظهر عليه النقمة والمحنة، حين يرفع الله المقربين في أعلى عليين، ويكون الغافلون مع عوام المسلمين، (ذلك يوم التغابن). والله تعالى أعلم.

ولمّا وصف الحق جلّ جلاله نفسه بالوحدانية والحياة والقيومية المقتضية للغنى المطلق، وصف نفسه أيضاً بالعلم المحيط والقدرة النافذة، فقال:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٥﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ كَيۡفَ يَشَآءُۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٦﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿إن الله لا يخفى عليه شيء﴾ من أمر خلقه، إيمانًا أو كفرانا، طاعة أو عصيانا، أحاط علمه بما في السموات العلى وما في الأرضين السفلى، كلياً كان أو جزئيا، حسياً أو معنوياً، يعلم عدد الحصى والرمال، ومكاييل المياه ومثاقيل الجبال، ويعلم حوادث الضمائر، وهواجس الخواطر، بعلم قديم أزلي، وله قدرة نافذة، وحكمة بالغة، فبقدرته صوّر النُّطَف في الأرحام كيف شاء سبحانه من نقص أو تمام، وأتقنها بحكمته، وأبرزها إلى ما يَسّرَ لها من رزقه، سبحانه من مدبر عليم، عزيز حكيم، لا يُعجزه شيء، ولا يخرج عن دائرة علمه شيء، لا موجود سواه، ولا نعبد إلا إياه، وبالله التوفيق، وهو الهادي إلى سواء الطريق.

الإشارة: مَنْ تحقق أن الله واحدٌ في ملكه، لا شريك له في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله، وأنه أحاط به علماً وسمعاً وبصرا، وأن أمره بين الكاف والنون، (إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون) ـ كيف يشكو مانزل به منه إلى أحد سواه؟ أم كيف يرفع حوائجه إلى غير مولاه؟ أم كيف يعول هما ،وسيده من خيره لا ينساه؟ من دبرك في ظلمة الأحشاء، وصوّرك في الأرحام كيف يشاء، وآتاك كل ما تسأل وتشاء، كيف ينساكَ من بره وإحسانه؟ أم كيف يخرجك عن دائرة لطفه وامتنانه؟ وفي ذلك يقول لسان الحقيقة:

تَذَكَّرْ جَمِيلِي فِيكَ إِذْ كُنْتَ نُطْفَةً ... وَلا تَنْسَ تَصْوِيرِي لِشَخْصِكَ فِي الْحَشَا
وَكُنْ وَاثِقاً بِي فِي أُمُورِكَ كُلِّهَا ... سَأَكْفِيكَ مِنْهَا مَا يُخَافُ وَيُخْتَشَى
وَسَلِّمْ لِيَ الأَمْرَ وَاعْلَمْ بِأَنَّنِي ... أُصَرِّفُ أَحْكَامِي وَأَفْعَلُ مَا أَشَا

ثم وصف كتابه الفرقان بأنه مشتمل على ما هو مُحْكَم واضح البيان، وعلى ما هو متشابه لا يعلمه إلا الله، والراسخون من أهل العرفان، فقال:

﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوۡمٖ لَّا رَيۡبَ فِيهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ﴿٩﴾ ﴾

قلت: (منه): خبر مقدم، و(آيات): مبتدأ، فيوقف على (الكتاب)، وقيل: (منه): نعت لكتاب، وهو بعيد.

قال ابن السبكي: المحكَم: المتضح المعنى، والمتشابه: ما استأثر الله بعلمه، وقد يُطْلِعُ عليه بعضَ أصفيائه. و(هن أم الكتاب): جملة، وحق الخبر المطابقة فيقول: أمهات، وإنما أفرده على تأويل كل واحدة، أو على أن الكل بمنزلة آية واحدة. والزيغ: الميل عن الحق. و(الراسخون في العلم): معطوف على (الله)، أو مبتدأ، إن فسر المتشابه بما استأثر الله بعلمه، كمدة بقاء الدنيا ووقت قيام الساعة، أو بما دل القاطع على أن ظاهره غير مراد. قاله البيضاوي. و (إذ هديتنا): ظرف مجرور بالإضافة مسبوك بالمصدر، أي: بعد هدايتك إيانا.

يقول الحق جل جلاله: إن الذي انفرد بالوحدانية والقيومية، ولا يخفى عليه شيء في العالم العلوي والسفلي ﴿هو الذي أنزل عليك الكتاب﴾ المبين، فمنه ما هو ﴿آيات محكمات﴾ واضحات المعنى، لا اشتباه فيها ولا إجمال، ﴿هن أم الكتاب﴾ أي: أصله، يُرد إليها غيرها، ﴿و﴾منه آيات ﴿أخر متشابهات﴾ أي: محتملات، لا يتضح مقصودها؛ لإجمال أو مخالفة ظاهر، إلا بالفحص وجودة الفكر، ليظهر فضل العلماء النُّقاد، ويزداد حرصهم على الاجتهاد في تَدَبُّرها وتحصيل العلوم المتوقف عليها استنباط المراد بها، فينال بها، وبإتعاب القرائح في استخراج معانيها، والتوفيق بينها وبين المحكمات، أعلى الدرجات وأرفع المقامات.

قال في نوادر الأصول: لمّا تكلم على المتشابه قسّمه على قسمين؛ منه ما طوى علمه إلاّ على الخواص؛ كعلم فواتح السور، ومنه مالم يصل إليه أحد من الرسل فَمَنْ دونَهم، وهو سر القدر؛ لا يستقيم لهم مع العبودية، ولو كُشِفَ لفسدت العبودية، فطواه عن الرسل والملائكة؛ لأنهم في العبودية، فإذا زالت العبودية احتملوها؛ أي: أسرار القدر. هـ. ولمثل هذا يشير قول سهل: للألوهية سر. لو انكشف لبطلت النبوة، وللنبوة سر. لو انكشف لبطل العلم، وللعلم سر لو انكشف لبطلت الأحكام. هـ.

قلت: فَتَحَصَّلَ أن الكتاب العزيز مشتمل على المحكم والمتشابه. وأما قوله تعالى: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ﴾ فمعناه: أنها حُفظت من فساد المعنى وركاكة اللفظ، وقوله تعالى: ﴿كِتَابًا مُّتَشَابِهًا﴾ معناه: أنه يشبه بعضه بعضا في صحة المعنى وجزالة اللفظ.

ثم إن الناس في شأن المتشابه على قسمين: ﴿فأما الذين في قلوبهم زيغ﴾: أي: شك، أو ميل عن الحق، كالمبتدعة وأشباههم، ﴿فيتبعون ما تشابه منه﴾، فيتعلقون بظاهره، أو بتأويل باطل، ﴿ابتغاء الفتنة﴾ أي: طلباً لفتنة الناس عن دينهم: بالتشكيك والتلبيس، ومناقضة المحكم بالمتشابه، ﴿وابتغاء تأويله﴾ على ما يشتهون ليوافق بدعتهم.

رُوِى عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ: أن النبى ﷺ ـ قرأ هذه الآية فقال: «إِذَا رأَيْتُم الذِينَ يَسأَلُون عن المتشابه منه، ويجادلون فيه، فهم الذين عنَا الله تعالى، فاحذروهم، ولا تجالسوهم».

(وما يعلم تأويله) على الحقيقة (إلا الله) تعالى، وقد يُطلع عليه بعضَ خواص أوليائه، وهم (الراسخون) أى: الثابتون فى العلم، وهم العارفون بالله أهل الفناء والبقاء، وهم أهل التوحيد الخاص.. فقد أطلعهم تعالى على أسرار غيبه، فلم يبق عندهم متشابه فى الكتاب ولا فى السنة، حال كونهم (يقولون آمنا به)، وصدقنا أنه من كلامه، (كُلٌّ من عند ربنا)؛ المحكم والمتشابه، وقد فهمنا مراده فى القسمين، وهم أولو الألباب، ولذلك مدحهم فقال: (وما يذَّكَّرَ إلا أُولوا الألباب) أى: القلوب الصافية من ظلمة الهوى وغَبَش الحس.

سُئل عليه الصلاة والسلام: مَن الراسخون فى العلم؟ فقال: «من برَّ يمينُه، وصدق لسانُه، واستقام قلبُه، وعفَّ بطنُه وفرجه، فذلك الراسخ فى العلم». وقال نافع بن يزيد: الراسخون فى العلم: المتواضعون لله، المتذللون فى طلب مرضات الله، لا يتعظمون على مَنْ فوقهم، ولا يحتقرون من دونهم. هـ. وقيل: الراسخ فى العلم: من وجد فيه أربعة أشياء: التقوى بينه وبين الله، والتواضع بينه وبين الخلق، والزهد بينه وبين الدنيا، والمجاهدة بينه وبين نفسه. هـ. قلت: ويجمع هذه الأوصاف العارف بالله، فهو الراسخ فى العلم كما تقدم.

ويقولون أيضا فى تضرعهم إلى الله: ﴿ربنا لاتزغ قلوبنا﴾ عن نهج الحق بالميل إلى اتباع الهوى، ﴿بعد إذ هديتنا﴾ إلى طريق الوصول إلى حضرتك، ﴿وهب لنا من لدنك رحمة﴾ تجمع قلوبنا بك، وتضم أرواحنا إلى مشاهدة وحدانيتك، ﴿إنك أنت الوهاب﴾؛ تهب للمؤمل فوق ما يؤمل. ﴿ربنا إنك جامع الناس ليوم﴾ الجزاء الذى ﴿لاريب فيه﴾، فاجمعنا مع المقربين؛ إنك ﴿لا تخلف الميعاد﴾، فأنجز لنا ما وعدتنا فى ذلك اليوم. وخلف الوعد فى حقه تعالى محال. أما الوعد بالخير فلا إشكال، وأما الوعيد بالشر، فإن كان فى مُعيّنٍ فلا يخلفه، وإن كان فى الجملة فيخلفه بالعفو. والله تعالى أعلم.

وقال فى النوادر أيضا: لمَّا ردَّ الراسخون فى العلم علْمَ المتشابه إلى عالمه، حيث قالوا: ﴿آمنا به كل من عند ربنا﴾، خافوا شَرَهَ النفوس لطلبها؛ فإنَّ العلم لذيذ، وفتنة تلك اللذة لها عتاب، ففزعوا إلى ربهم فقالوا: ﴿ربنا لاتزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة﴾، علموا أن الرحمة تطفئ تلك الفتنة. ولما كان يوم القيامة ينكشف فيه سر القدر حنوا إليه فقالوا: ﴿ربنا إنك جامع الناس...﴾ الآية. سكنوا نفوسهم لمجيء ذلك اليوم الذى تَبْطُنُ فيه الحكمة، وتظهر فيه القدرة. هـ بالمعنى.

الإشارة: إذا صفت القلوب، وسكنت فى حضرة علام الغيوب، تنزلت عليها الواردات الإلهية والعلوم اللدنية، والمواهب القدسية، فمنها ما تكون محكمات المبنى، واضحات المعنى، ومنها ما تكون مجملة فى حال ورودها،

وبعد الوحي يكون البيان، ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾. وقد تكون خارجة عن مدارك العقول. فأما أهل الزيغ والانتقاد فيتبعون المتشابه من تلك الواردات، ابتغاء فتنة العامة، وصرفهم عن طريق الخاصة، وابتغاء تأويله، ليقيم عليه حجة الشريعة، (وما يعلم تأويله إلا الله)، أو من تحقق فناؤه في الله، وهم الراسخون في معرفة الله، يقولون: (آمنا به كل من عند ربنا)؛ إذ القلوب المطهرة من الهوى لا تنطق عن الهوى، وهم أرباب القلوب يقولون: (ربنا لاتزغ قلوبنا) عن حضرة قدسك (بعد إذ هديتنا) إلى الوصول إليها، (وهب لنا من لدنك رحمة) تعصمنا من النظر إلى سواك، (إنك أنت الوهاب)

ربنا إنك جامع الناس، وهم السائرون إليك ليوم لا ريب في الوصول إليه، وهو يوم اللقاء، (إنك لا تخلف الميعاد) فاجمع بيننا وبينك، وحل بيننا وبين من يقطعنا عنك؛ (إنك على كل شيء قدير).

ثم هدد أهل الزيغ والفساد، فقال:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴿١٠﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١١﴾ ﴾

قلت: (الوقود) بالفتح: الحطب، وبالضم: المصدر، (كدأب آل فرعون) خبر، أي: دأبهم كدأب آل فرعون. والدأب: مصدر دأب، إذا دام، ثم نقل إلى الشأن والعادة، و(كذبوا): حال بإضمار «قد»، أو مستأنف، تفسير حالهم، أو خبر؛ إن ابتدأت بالذين من قبلهم.

يقول الحق جل جلاله: ﴿إن الذين كفروا﴾ بما أنزلته، على نبينا محمد ـ عليه الصلاة السلام ـ، إذا عاينوا العذاب ﴿لن تُغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله﴾، أي: بدلاً من رحمته أو طاعته، أو بدلاً من عذابه، ﴿شيئا﴾، وأولئك هم حطب جهنم، فشأنهم كشأن ﴿آل فرعون والذين من قبلهم﴾، قد ﴿كذبوا بآياتنا فأخذهم الله بذنوبهم﴾ أي: أهلكهم، وشدد العقوبة عليهم، ﴿والله شديد العقاب﴾ لمن أعرض عنه وركن إلى غيره.

الإشارة: كل من جحد أهل الخصوصية، وفاته حظه من مشاهدة عظمة الربوبية، حتى حصل له الطرد والبعاد، وفاته مرافقة أهل المحبة والوداد، لن تغني عنه ـ بدلا مما فاته ـ أموالٌ ولا أولاد، واتصلت به الأحزان والأنكاد؛ كما قال الشاعر:

مَنْ فَاتَه منكَ وصلٌ حَظُّه النـدمُ ... ومَـنْ تكُنْ هَمَّه تَسْمُو به الهممُ

وقال آخر:

مَـــنْ فاته طَـلَـبُ الوُصـُـولِ ونَيْلُه ... منه، فقُلْ: ما الذى هُو يَطْلُبُ!

حَـسْبُ المحبُ فناؤه عما سِـوى ... مَحْبُوبِهِ إنْ حـاضِرٌ ومُغَيَّـبُ

وقال آخر:

لكُــلُّ شَـيءٍ إذا فارقْتَـهُ عِوَضٌ ... ولَيْـسَ لله إنْ فارقْتَ مِنْ عوَضِ

وفى الحكم: «ماذا وَجَدَ مَنْ فقدك؟ وما الذى فَقَدَ مَنْ وجدكَ؟ لقد خاب مَنْ رَضِىَ دونك بدلاً، ولقد خسر من بغى عنك مُتحولاً». فكل من وقف مع شيء من السِّوى، وفاته التوجه إلى معرفة المولى، فهو فى نار القطيعة والهوى، مع النفوس الفرعونية، وأهل الهمم الدنية. نسأل الله تعالى العافية.

ثم بدأ بعتاب اليهود، بعد أن قرر شأن كتابه العزيز وما اشتمل عليه من المحكم والمتشابه، توطئة للكلام معهم، فقال:

﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿١٣﴾ ﴾

قلت: لمَّا رجع رسول الله ﷺ من غزوة بدر غالباً منصوراً بالغنائم والأسارى، جمع اليهود في سوق بني قينقاع، وقال لهم: يا معشر اليهود، اتقوا الله وأسلموا، فإنكم تعلمون أنى رسول الله حقا، واحذروا أن ينزل الله بكم من نقمته ما أنزل على قريش يوم بدر، فقالوا: يا محمد، لا يغُرَّنَّك أنك لقيت أغماراً لا علم لهم بالحرب، لئن قاتلتنا لتعلَمنَّ أنَّا نحن الناس. فأنزل الله فيهم هذه الآية.

يقول الحق جلّ جلاله: ﴿قل﴾ يا محمد ﴿للذين كفروا﴾ من بنى إسرائيل، أو مطلقًا: ﴿ستغلبون﴾ إن قاتلتم المسلمين، ﴿وتحشرون﴾ بعد الموت والهزيمة ﴿إلى جهنم وبئس المهاد﴾ ما مهدتم لأنفسكم من العذاب، وقد صدق وعده بقتل قريظة، وإجلاء بنى النضير، وفتح خيبر، وضرب الجزية على من عداهم. فقد غلبوا أينما ثُقفوا، وحشروا إلى جهنم، إلا من أسلم منهم.

ثم ندبهم للاعتبار بما وقع من النصر للمسلمين يوم بدر فقال لهم: ﴿قد كان لكم﴾ يا معشر اليهود، ﴿آية﴾ أى: عبرة ظاهرة، ودلالة على صدق ما أقول لكم: إنكم ستغلبون، ﴿فى فئتين﴾ أى: جماعتين ﴿التقتا﴾ يوم بدر، وهم

المسلمون، وكانوا ثلاثمائة وأربعة عشر، والمشركون كانوا زهاء ألف، ﴿فئة تقاتل في سبيل الله﴾ وهم المؤمنون، ﴿وأخرى كافرة﴾، وهم المشركون، ﴿ترونهم مثليهم﴾ أي: ترون، يا معشر اليهود، الكفارَ مثلي عدد المسلمين رأى تحقيق، ومع ذلك أيدهم الله بالنصر والمدد حتى نصرهم على عدوهم، وكذلك يفعل بهم معكم.

والرؤية، على هذا، علمية. ومن قرأ (بالياء) يكون الضمير راجعًا للكفار، أي: يرى الكفارُ المسلمين مثليهم، وذلك بعد أن قللهم الله في أعينهم حتى اجترأوا عليهم، وتوجهوا إليهم، فلما لاقوهم كثروا في أعينهم حتى غلبوا، مدداً من الله للمؤمنين.

أو: يرى المؤمنون المشركين مثلي المؤمنين، وكانوا ثلاثة أمثالهم، ليثبتوا لهم، ويتيقنوا بالنصر الذي وعدهم الله بقوله: ﴿ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ...﴾ الآية. ﴿والله يؤيد﴾ أي: يقوى ﴿بنصره من يشاء﴾ نصره، كما أيد أهل بدر، ﴿إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار﴾ المفتوحة. وذلك حين نصر الله قوماً لا عدد لهم ولا عدة، على قوم لهم عدد وعدة، فلم تغن عنهم من الله شيئا.

الإشارة: إذا توجه القلب إلى مولاه تعرض له جندان، أحدهما: جند الأنوار، وهو جند القلب، والثاني: جند الأغيار، وهو جند النفس، فيلتحم بينهما القتال، فجند الأنوار يريد أن يرتقي بالروح إلى وطنها؛ وهو حضرة الأسرار، وجند الأغيار يريد أن يهبط بالنفس إلى أرض الحظوظ والشهوات، فيحبسها في سجن الأكوان، فإذا أراد الله تعالى سعادة عبد، قوي له جند الأنوار، وضَعُفَ عنه جند الأغيار، فينهزم عنه جند الأغيار، ويستولي على قلبه جند الأنوار، فلاتزال الأنوار تتوارد عليه حتى تشرق عليه أنوار المواجهة، فيدخل حضرة الأسرار، وهي حضرة الشهود، ويتحصن في جوار الملك الودود، وتناديه ألسنة الهواتف: أيها العارف، قل للذين كفروا، وهم جند الأغيار: ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد. وإذا أراد الله خذلان عبده، بعدله، قطع عنه مدد الأنوار، وقوى لديه جند الأغيار، فتستولي ظلمة النفس على نور القلب، فتحبسه في سجن الأكوان، وتسجنه في ظلمة هيكل الإنسان، (والله يؤيد بنصره من يشاء). ففي التقاء جندي الأنوار والأغيار عبرة لأولي الأبصار.

ثم بيَّن الحق تعالى مدد جند الأغيار، والذي منع الأبصار من الاعتبار، فقال:

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ ﴾

قلت: (زُين): بحذف الفاعل، وهو الله، حقيقة؛ إذ لا فاعل سواه، أو الشيطان، شريعةً؛ إذ هو منديل لمسح أوساخ الأقذار. والقنطار: المال الكثير، وقيل: مائة ألف دينار، وقيل: ملء مسك الثور. وروى عنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ أنه قال: «القنطار: ألف دينار»، وفي رواية: «ألفا دينار»، وفي عرفنا اليوم: ألف مثقال.

والمقنطرة: المنضدة بعضها فوق بعض، وسمى الذهب ذهباً؛ لذهابه وفنائه، أو لذهابه بالقلوب عن حضرة الغيوب، وسميت الفضة فضة؛ لأنها تنفَضُّ أي: تتفرق، أو تفرق القلوب لمن اشتغل بها. والمسوَّمة: المعلمة أو الراعية أو المطهمة الحسان.

يقول الحق جل جلاله: ﴿زُين للناس حب الشهوات﴾ والركون إلى المألوفات، حتى صرفهم ذلك عن النظر والاعتبار، أو الشهود والاستبصار، وذلك لمن وقف مع متعتها، وغرته شهوة لذتها، وأما من ذكرته نعيم الجنان، وأعانته على طاعة الملك الديان، فلم يقف مع متعتها، ولا التفت إلى عاجل شهوتها، بل نزل إليها بالإذن والتمكين، والرسوخ في اليقين، فلا يشمله تحذير الآية؛ لقوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «حُبِّبَ إليَّ من دنياكم ثلاث...» الحديث.

وقال بعض الأولياء: [كل شهوة تحجب القلب عن الله، إلا شهوة الجماع] يعني الحلال، وقال الورتجبي: ابتلاهم حتى يظهر الصادق بترك هذه الشهوات، من الكاذب بالشروع في طلبها، قيل: من اشتغل بهذه الأشياء قطعته عن طريق الحق، ومن استصغرها وأعرض عنها، عوض عليها السلامة منها، وفتح له الطريق إلى الحقائق.هـ.

ثم بدأ برأس الشهوات فقال: ﴿من النساء﴾ وذلك لمن شُغف بهن فصرف عن ذكر الله، أو تناولهن على وجه الحرام. وفي الخبر عنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «مَا تَرَكْتُ في الناس بَعْدِي فِتْنَةً أَضَرُّ عَلَى الرِّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ». وفي خبر آخر: «النظر إلى محاسن المرأة من سهام إبليس». ومَنْ ثَمَّ جُعِلْنَ في القرآن عين الشهوات، قال تعالى: ﴿زين للناس حب الشهوات من النساء﴾.

وقال بعض العارفين: ما أيس الشيطانُ من إنسان قط إلا أتاه من قبل النساء. وقال علي رضي الله عنه: أيها الناس، لا تطيعوا للنساء أمراً، ولا تدَعُوهُنّ يدبرن أمر عيش، فإنهن إن تُرِكْنَ وما يُرِدْن أفسدن الملك، وعصين المالك، وجدناهن لا دين لهن في خلَواتهن، ولا ورع لهن عند شهواتهن، اللذة بهن يسيرة، والحيرة بهن كثيرة، فأما صوالحهن ففاجرات، وأما طوالحهن فعاهرات ـ أي: زانيات ـ، وأما المعصومات فهن المعدومات، يتظلمن وهن

الظالمات، ويتمنين وهن الراغبات، ويحلفن وهن الكاذبات، فاستعيذوا بالله من شرارهن، وكونوا على وجل من خيارهن، والسلام. هـ(١).

﴿والبنين﴾: قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «إنهم لثمرة القلوب، وقُرَّةُ الأعيُن، وإنهم مع ذلك لَمَجْبَنَةٌ مَبْخلَةٌ مَحْزَنَةٌ». ﴿والقناطير المقنطرة﴾: أي: المجموعة المنضدة، ﴿من الذهب والفضة. والخيل المسومة﴾ أي: المعلمة: وهي البلق، أو غيرها، وفي الحديث عنه ﷺ: «الخَيْلُ معقودٌ في نَواصِيها الخَيْرُ إلى يَوْمِ القِيَامةِ، الأجرُ والمَغْنَمُ». وعن أنس قال: (لم يكن شيء أحب إلى النبي ﷺ بعد النساء، من الخيل). وعن أبي وهب الجشمي قال النبي ﷺ:«ارتبطوا الخيل، وامسحوا بنواصيها، وقلِّدوها، ولا تقلدوها الأوتار، وعليكم بكل كُمَيْت(٢) أغر مُحَجَّلٍ، أو أشقر أغر محجل، أو أدهم أغر مُحَجَّل». وعن خباب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الخيل ثلاثة: فرس للرحمن، وفرس للإنسان، وفرس للشيطان، فأما فرس الرحمن فما اتخذ لله في سبيل الله، وقوتل عليه أعداء الله، وأما فرس الإنسان فما استطرق عليه ـ أي: ركب عليه في طريق حوائجه، وأما فرس الشيطان فما روهن عليه، وقومر عليه». وفي البخاري ما يشهد لهذا.

ومما زُين للناس أيضا: حب ﴿الأنعام﴾، وهي الإبل والبقر والغنم، إن شغلته عن ذكر الله، ومنع منها حق الله، ﴿والحرث﴾ أي: الزراعة والغراسة، ﴿ذلك﴾ الذي ذكرت ﴿متاع الحياة الدنيا﴾ الفانية الزائلة، ﴿والله عنده حسن المآب﴾، أي: المرجع في دار البقاء التي لا يفنى نعيمها، ولاتنقطع حياتها إلى أبد الأبد.

الإشارة: كل ما يقطع القلبَ عن الشهود، أوْ يُفَتِّرُهُ عن السير إلى الملك المعبود، فهو شهوة، كائناً ما كان، أغياراً أو أنواراً، أو علوماً أو أحوالا، أو غير ذلك، فالنساء الأغيار، والبنون الأنوار، والقناطير المقنطرة من الذهب علوم الطريقة، والفضة علوم الشريعة، والخيل المسومة هي الأحوال، والأنعام الأذكار، والحرث استعمال الفكرة. فكل مَنْ وقف مع حلاوة شيء من هذا، ولم يُفْضِ إلى راحة الشهود والعيان، فهي في حقه شهوة.

وبعد أن ذكر الحق تعالى أنواعاً من الشهوات، زَهَّدَ فيها فقال: ﴿ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب﴾ قال أبو هاشم الزاهد رضي الله عنه: وَسَمَ اللهُ الدنيا بالوحشة؛ ليكون أنس المريد بربه دونها، وليقبل المطيعون بالإعراض عنها، وأهلُ المعرفة بالله من الدنيا مستوحشون، وإلى الله مشتاقون. هـ.

---

(١) هذا الكلام مشكوك في نسبته لسيدنا «علي» كرم الله وجهه. ومن يستطلع تاريخ السلف الصالح يقف على أمثلة كثيرة وعديدة لنساء صالحات تفوقن على كثير من الرجال في الصلاح.

(٢) الكميت: مالونه بين السواد والحمرة.

وقد تعوذ النبي ﷺ من شر فتنتها، غناها وفقرها. وأكثرُ القرآن مشتملٌ على ذمها، وتحذير الخلق منها، بل ما من داع يدعو إلى الله تعالى إلا وقد حذر منها، ورغَّب في الآخرة، بل هو المقصود بالذات من بيان الشرائع، كيف لا ـ وهي عدوة الله؛ لقطعها طريق الوصلة إليه، ولذلك لم ينظر إليها منذ خلقها. وعدوة لأوليائه؛ لأنها تزينت بزينتها حتى تجرعوا مرارة الصبر في مقاطعتها، وعدوة لأعدائه؛ لأنها استدرجتهم بمكرها، واقتنصتهم بشبكتها، فوثقوا بها، فخذلتهم أحوج ما كانوا إليها. كفانا الله شرها بمنّه وكرمه.

ثم نبه الحق تعالى على ما هو المقصود الأهم لمن له عقل وافر، فقال:

﴿ ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٥﴾ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٦﴾ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾ ﴾

قلت: (للذين): خبر، و(جنات): مبتدأ، وهو استئناف لبيان الخيرية، و الرضوان فيه لغتان: الضم والكسر، كالعدوان والطغيان، و(الذين يقولون): بدل من (الذين اتقوا)، أو خبر عن مضمر، أو منصوب على المدح، أو بدل من العباد، و(الصابرين) وما بعده: نعت الموصول.

يقول الحق جل جلاله: ﴿قل﴾ يا محمد: أأخبركم ﴿بخير﴾ من الذي ذكرتُ لكم من الشهوات الفانية واللذات الزائلة، وهو ما أعد الله للمتقين عند لقاء ربهم، وهو ﴿جنات تجري من﴾ تحت قصورها الأنهار؛ من الماء واللبن والعسل والخمر، ﴿خالدين فيها﴾، لا كنعيم الدنيا الفاني، ﴿ولهم فيها أزواج﴾ من الحور العين، مطهرات من الحيض والنفاس وسائر المستقذرات، ﴿ورضوان من الله﴾ الذي هو (أكبر) النعم.

فانظر: كيف ذكر الحق ـ جل جلاله ـ أدنى النعيم وأوسطه وأعلاه؟ فأدناه: متاع الدنيا الذي زُيّن للناس، وأوسطه: نعيم الجنان، وأعلاه: رضى الرحمن. وفي الحديث الصحيح عنه ﷺ: «يقُولُ الله تعالى لأَهْلِ الْجنَّة: يا أهلَ الجَنةِ، فيقول أهلُ الجنَّةِ: لَبَّيكَ رَبَّنَا وسَعْدَيْكَ، والخير في يديك، فيقول: هلْ رضيتم؟ فيقُولُونَ: مَالَنَا لاَ نَرْضى وقَدْ أعْطَيْتَنَا مالَمْ تُعْطِ أحداً مِنْ العالمين، فيَقُولُ: ألا أُعطِيكُم أفْضَلَ من ذلك؟ فيقُولون: يا ربنا، وأيُّ شَيء أفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ؟ قال: أُحِلُّ عليْكُمْ رِضْوَانِي فَلاَ أَسْخَطُ عليْكُم أبَدًا».

﴿والله بصير بالعباد﴾؛ لا يخفى عليه شيء من أعمالهم، فيثيب المحسن، ويعاقب المسيء، أو: (بصير) بأحوال المتقين .

﴿الذين يقولون ربنا إننا آمنا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار﴾ . وفى ترتيب السؤال على مجرد الإيمان دليل على أنه كاف فى استحقاق المغفرة والاستعداد لها.

ثم وصف المتقين بقوله: ﴿الصابرين﴾ على أداء الأمر واجتناب النهى، وفى البأساء والضراء وحين البأس، ﴿والصادقين﴾ في أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم، فاستوى سرهم وعلانيتهم، ﴿والقانتين﴾ أى: المطيعين، ﴿والمنفقين﴾ أموالهم فى سبيل الله، ﴿والمستغفرين بالأسحار﴾؛ لأن الدعاء فيها أقرب إلى الإجابة؛ لأن العبادة حينئذ أشق، والنفس أصفى، والروح أجمع، ولاَ سيما للمتهجدين.

قيل: إنهم كانوا يُصلُّون إلى السحر، ثم يستغفرون ويدعون، وفى الحديث عنه ﷺ أنه قال: (إن الله تعالى يقول: إني لأَهُمّ بأهل الأرض عذابا، فإذا نظرتُ إلى عمار بيوتي، وإلى المتهجدين، وإلى المتحابين فِيّ، وإلى المستغفرين بالأسحار، صرفت عنهم العذاب) .

وقال سفيان : إن لله ريحاً يقال لها الصيحة، تهبُّ وقتَ السحر، تحمل الأذكار والاستغفار إلى الملك الجبار، قال: وبَلَغنا أنه إذا كان أول الليل، نادى مناد: ألا ليقم القانتون، فيقومون يُصلون إلى السحَر، فإذا كان وقت السحر، ينادي منادٍ: أين المستغفرون بالأسحار؟ فيستغفر أولئك، ويقوم آخرون، ويُصلون، فيلحقون بهم، فإذا طلع الفجر، نادى منادٍ: ألا ليقم الغافلون، فيقومون من فرشِهم كالموتى إذا نُشروا من قبورهم.

الإشارة: للذين اتقوا شهودَ السِّوى عند ربهم جنات المعارف، تجرى من تحتها أنهار العلوم، وأصناف الحكم، مطهرة من العلل، منزهة من الخلل، تهب عليهم نسيم الرضوان، تحمل الرَّوْحَ والريحان، مخلدون فى نعيم الشهود والعيان، والله بصير بعباده المخلصين، المنزَّهين من العيوب، المبرَّئين من درن الذنوب، الصابرين على دوام المجاهدة، والصادقين في طلب المشاهدة، والقانتين لأحكام العبودية، والمنفقين أنفسَهمْ ومُهَجَهم فى طلب مشاهدة أنوار الربوبية، والمستغفرين من شهود الأغيار، وخصوصاً إذا هب نسيم الأسحار، فإن كثيراً من العباد والزهاد شغلتهم حلاوة نسيم الأسحار عن مطالعة أسرار الجبار، وهي أسرار التوحيد التى أشار إليها بقوله:

﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُۗ ... ﴾

قلت: (قائما): حال من (الله)، وإنما جاز من بعض المعطوفات لعدم اللبس، كقوله: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ... ﴾، ولا يجوز: جاء زيد وعمرو راكبًا؛ لعدم القرينة، أو من (هو)، والعامل الجملة؛ لأنه حال مؤكدة، أي: تفرد قائما، أو حقه قائما، (بالقسط) أي: العدل، و(إن الدين): جملة مستأنفة مؤكدة للأولى، أي: لا دين مرضي عند الله سوى الإقرار بالشهادة والدخول فيما جاء به محمد ﷺ، ومن قرأ بالفتح فهو بدل من (أنه)، بدل الكل، إن فسر الإسلام بالإيمان، وبدل الاشتمال إن فسر بالشريعة.

يقول الحق جل جلاله: ﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو﴾ أي: بيّن وحدانيته بنصب الدلائل الدالة عليها، وإنزال الآيات الناطقة بها، أو بتدبيره العجيب وصنعته المتقنة وأموره المحكمة، وفي ذلك يقول القائل:

يا عَجَبًا كيف يُعْصَى الإلهُ أم كيف يَجْحَدُهُ الجاحدُ؟!
ولله في كل تحريكةٍ وتسكينةٍ أبدًا شاهدُ
وفي كُلِّ شيءٍ له آيةٌ تَدُلُّ على أنه واحِدُ(١)

وقيل لبعض العرب: ما الدليل على أن للعالم صانعا؟ فقال: البعرة تدل على البعير، وآثار القدم تدل على المسير، فهيكل علوي بهذه اللطافة، ومركز سفلي بهذه الكثافة، أما يدلان على الصانع الخبير؟!

﴿و﴾ شهدت ﴿الملائكة﴾ أيضا بالإقرار بالوحدانية والإخبار بها، ﴿وأولو العلم﴾ وهم: الأنبياء والعلماء بالله، بالإيمان بها والاحتجاج عليها، شبه ذلك في البيان والكشف بشهادة الشاهد. وفيه دليل شرف أهل العلم وفضلهم، حيث قرن شهادتهم بشهادته؛ لأن العلم صفة الله العليا ونعمته العظمى، والعلماء أعلام الإسلام، والسابقون إلى دار السلام، وسُرج الأمكنة وحجج الأزمنة.

وعن جابر قال: قال النبي ﷺ: «ساعةٌ مِنْ عَالِمٍ يتّكِيء على فِرَاشِه، ينظُرُ في علمِه، خَيْرٌ مِنْ عِبَادَةِ العَابِدِ سَبعِينَ عاما». وعن معاذ قال: قال النبي ﷺ: «تعلموا العلم فإن تعلمه لله خشيةٌ، ومدارسته تسبيح، والبحث فيه جهادٌ، وتعليمه مَنْ لا يعلمه صدقةٌ، وتذكُره في أهله قُرْبَة». ثم قال في آخر الحديث في فضل أهل العلم: «وتَرْغَبُ الملائكة في خُلّتهم، وبأجنحتها تمسحهم، وفي صلاتها تستغفر لهم، وكلُّ رطب ويابس يستغفر لهم. حتى حيتان البحر وهوامّه، وسباع الأرضين وأنعامها، والسماء ونجومها، ألا وإن العلم حياةُ القلوب من العمى، ونورُ الأبصار من الظلم، وقوة الأبدان من الضعف، يبلغ بالعبد منزل الأحرار ومجالسة الملوك، والفكر فيه يُعْدَل بالصيام، ومدارسته بالقيام، وبه يُعرف الحلال والحرام، وبه توصلَ الأرحام، العلم إمام والعمل تابعه، يُلْهَمُه السعداء، ويُحْرَمُه الأشقياء».

(١) الأبيات لأبي العتاهية، انظر ديوانه ١٢٢. وذكرها الأصبهاني في محاضرات الأدباء٣/٣٩٨ منسوبة للبيد.

حال كون الحق تعالى ﴿قائماً بالقسط﴾ أي: مُدبراً لأمر خلقه بالعدل، فيما حكم وأبرم، ﴿لا إله إلا هو﴾ كرر الشهادة للتأكيد، ومزيد الاعتبار بأمر التوحيد، والحكم به، بعد إقامته الدليل. عليه وقال جعفر الصادق (الأولى وصف وتوحيد، والثانية رسم وتعليم). أي: قولوا: ﴿لا إله إلا هو﴾، أو ليرتب عليه قوله: ﴿العزيز الحكيم﴾، فيعلم أنه الموصوف بهما، وقدّم «العزيز» ليتقدم العلم بقدرته على العلم بحكمته.

﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾ أي: إن الدين المرْضي عند الله هو الانقياد لأمر التوحيد والإذعان لمن جاء به. وروى عن أنس رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «من قرأ هذه الآيةَ عند منامه خلَقَ اللهُ تعالى سبعين ألف خلق يستغفرون الله له إلى يوم القيامة»(١). وهي أعظم شهادة في كتاب الله، «من قرأها إلى (الحكيم) وقال: وأنا أشهد بما شهد الله به، وأستودِعُ اللهَ هذه الشهادة، وهي لي عند الله وديعة، يقول الحق تعالى: إن لعبدي هذا عندي عهد وأنا أحقُّ مَنْ وفيّ بالعهد، أدخلوا عبدي الجنة»(٢).

الإشارة: صدرُ الآية يشير إلى الفرق، وعَجُزُها يشير إلى الجمع، كما هي عادته تعالى في كتابه العزيز، يشرع أولاً، ويُحقّق ثانيا، فأثبت الحق - جل جلاله - شهادة الملائكة وأولي العلم مع شهادته؛ لإثبات سر الشريعة، ثم محاها بقوله: (لا إله إلا هو العزيز الحكيم) بحكم الحقيقة. فإثبات الرسوم شريعة، ومحوها حقيقة، فتوحيد أهل الرسوم والأشكال دلالة من وراء الحجاب، وتوحيد أهل المحو والاضمحلال شهادة من داخل الحجاب، وتوحيد أهل الرسوم دلالة وبرهان، وتوحيد أهل المحو شهادة وعيان، أهل الدليل والبرهان عموم عند أهل الشهود والعيان، إثبات الرسوم إسلام وإيمان، ومحوها شهود وإحسان، وكل توحيد لم تظهر ثمرته على الجوارح من الإذعان والانقياد لأحكام العبودية فهو مخدج(٣)، لقوله تعالى: ﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾ أي، الانقياد والإذعان، ظاهرا وباطنا، لأحكام القهرية والتكليفية، فمن لا انقياد له لا دين له كاملا.

ثم ذكر من سبق له الخذلان بعد سطوع الدليل والبُرهان، فقال:

﴿... وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾﴾

(١) ذكره ابن عراق في تنزيه الشريعة١/٢٩٨ وعزاه لأبي نعيم، من حديث أنس. وفيه مجاشع بن عمرو، قال ابن معين: أحد الكذابين.
(٢) أخرجه الطبراني في الكبير والبيهقي في الشعب، قال في العلل المتناهية١/ ١١٠: هذا حديث لا يصح، تفرد به عمر بن المختار، وعمر يحدث بالأباطيل.
(٣) الخداج: هو النقصان. وأصله: من خدجت الناقة إذا ألقت ولدها قبل أوانه، لغير تمام الأيام، وإن كان تام الخلق، أو ألقته ناقص الخلق، وإن كانت أيامه تامة، فهي مخدج والولد مخدج.

قلت: (بغيا): مفعول له، علة للاختلاف.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وما اختلف﴾ اليهود والنصارى في حقيقة الإسلام والتدين به، ﴿إلا من بعد ما جاءهم العلم﴾ أي: من بعد ما تمكنوا من العلم بصحته، وأن الدين عند الله هو الإسلام، فجحدوه ظلماً وحسداً. أو ما اختلف أرباب الكتب المتقدمة في دين الإسلام؛ فأثبته قوم، وقال قوم: إنه مخصوص بالعرب، ونفاه آخرون مطلقا، إلا من بعد ما ثبت لهم العلم بصحته وعموم الدعوة له. أو في التوحيد؛ فثلث النصارى، وقالت اليهود: عزير ابن الله، بعد ما صح لهم العلم بالتوحيد فغيروا. وقال الربيع: إن موسى عليه السلام لما حضره الموت، دعا سبعين حبرا من قومه، فاستودعهم التوراة، فلما مضى القرن الأول والثاني والثالث وقعت بينهم الفرقة، وهم: الذين أوتوا الكتاب من أبناء السبعين، فأراقوا الدماء ووقع بينهم الشر والاختلاف.

وذلك من بعد ما جاءهم العلم، يعني بيان ما في التوراة، (بغيًا بينهم) أي: طلباً للملك والرئاسة والتحاسد، فسلط عليهم الجبابرة، ﴿ومن يكفر بآيات الله﴾ المنزلة على رسوله، أو الدالة على وحدانيته، ﴿فإن الله سريع الحساب﴾؛ لا يشغله شأن عن شأن، وفيه تهديد لأهل الاختلاف.

الإشارة: الاختلاف على الصوفية، والإنكار عليهم، إن كان بغياً وحسداً وخوفاً على زوال رئاسة المنكر، فهذا معرض لمقت الله، فقد آذن بحرب الله، ومآله سوء الخاتمة، والعياذ بالله، وفي ذلك يقول القائل:

هِمَمُهُم تَقْضِي بِحُكْمِ الوَقْتِ   مُنْكِرُهُم مُعَرَّضٌ لِلمَقْتِ

وإن كان غيرة على الشريعة، وسدًّا لباب الذريعة، فهذا معذور أو مأجور إن صح قصده، وهو منخرط في سلك الضعفاء، قال تعالى: ﴿ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله﴾، ولا ينكر على الفقير إلا المحرَّم المجمع على تحريمه، وليس فيه تأويل، كالزنى بالمعينة، واللواط، وشبهه، والمؤمن يلتمس المعاذر، والمنافق يلتمس العيوب، وبالله التوفيق، وهو الهادي إلى سواء الطريق.

ثم بيّن الحقّ تعالى الدواء في أذى المنكر، وهو الإعراض عنه، فقال:

﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (٢٠)﴾

قلت: (ومن اتبعن)، عطف على فاعل (أسلمت)؛ الضمير[1].

(١) أي: التاء في أسلمت.

يقول الحق جل جلاله: ﴿فإن حاجوك﴾ فى الدين، وخاصموك فيه، بعدما أقيمت الحجج على صحته، ﴿فقل﴾ لهم: أما أنا فقد ﴿أسلمت وجهى لله﴾، وانقدت بكليتى إليه، وتمسكت بدينه القويم، الذى قامت الحجج على حقيته، وكذلك من تبعنى من المؤمنين. وخص الوجه بالانقياد؛ لأنه أشرف الأعضاء ومحل ظهور المحاسن، فإذا انقاد الوجه فقد انقاد الكل.

﴿وقل للذين أوتوا الكتاب﴾ من اليهود والنصارى، ﴿والأميين﴾ الذين لا كتاب لهم من المشركين: ﴿أأسلمتم﴾ كما أسلمتُ، لما وضحت لكم من الحجة؟ أم أنتم على كفركم بغيا وحسدا؟ والاستفهام معناه الأمر، كقوله: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ أى: أسلموا، ﴿فإن أسلموا فقد اهتدوا﴾ وأنقذوا أنفسهم من الهلاك، ﴿وإن تولوا﴾ وأعرضوا ﴿فإنما عليك البلاغ﴾، ولا يضرك عنادهم، فقد بلغت ما أمرت به. ﴿والله بصير بالعباد﴾ لايخفى عليه من أسلم ممن تولى.

رُوى أنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ قرأ عليهم هذه الآية، فقال لليهود: «أتشهدون أن عزيراً عبد الله ورسوله وكلمته؟» فقالوا: معاذ الله، وقال للنصارى: «أتشهدون أن عيسى عبد الله ورسوله؟» فقالوا: معاذ الله أن يكون عيسى عبداً. فنزل قوله تعالى: ﴿وإن تولوا فإنما عليك البلاغ﴾ الآية.

الإشارة: لا يليق بالفقير، إذا توجه إليه الإنكار أو المجادلة والاستظهار، إلا السكوت والإقرار، والاستسلام بكليته لأحكام الواحد القهار، إذ لا يرى فاعلاً إلا الله، فلا يركن إلى شيء سواه. وفى الحكم: «إنما أجرى الأذى عليهم لئلا تكون ساكنا إليهم، أراد أن يزعجك عن كل شيء، حتى لا تكون ساكنا إلى شيء». وقال بعض العارفين: لا تشتغل قط بمن يؤذيك، واشتغل بالله يرده عنك، وقد غلط فى هذا خلق كثير، اشتغلوا بمن يؤذيهم، فطال عليهم الأذى مع الإثم، ولو أنهم رجعوا إلى مولاهم لكفاهم أمرهم. هـ. بالمعنى. وبهذا يأمر الشيخ أتباعه، فإن انقادوا لأحكام الحق، فقد اهتدوا إلى طريق الوصول، وإن تولوا فإنما عليك البلاغ، والهداية بيد السميع البصير.

ثم وبَّخ اليهودَ بما وقع لأسلافهم من البغي والفساد، وهم راضُون بذلك، فقال:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾

قلت: إنما دخلت الفاء فى خبر إنْ؛ لتضمن اسمها معنى الشرط؛ لعموم الموصول وإبهامه، وهو خاص بإنْ، دون ليت ولعل؛ لأن «إن» لا تغير معنى الابتداء، وإنما تؤكده. وقيل: الخبر: (أولئك..) إلخ.

يقول الحق جل جلاله: ﴿إن الذين يكفرون بآيات الله﴾ أي: بحُجَجه الدالة على توحيده، وصحة نبوة رسله، أو بكلامه، وهم اليهود، ﴿ويقتلون النبيين بغير حق﴾ بل بغيا ﴿ويقتلون الذين يأمرون﴾ بالعدل وترك الظلم من الأحبار، ﴿فبشرهم بعذاب أليم﴾ موجع، ﴿أولئك الذين حبطت أعمالهم﴾ أي: بطلت، ﴿في الدنيا والآخرة﴾ فلا ينتفعون بها في الدارين، ﴿وما لهم من ناصرين﴾ يمنعونهم من العذاب.

وعن أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه قال: سألت النبي ﷺ أيُّ النَّاسِ أشَدُّ عَذَاباً يَوْمَ القيامة؟ قال: «رَجُلٌ قَتَل نَبِياء، أو رَجل أمرَ بالمُنكر ونَهَى عن المعْرُوف، ثم قرأ النبي ﷺ ﴿ويقتلون النبيين بغير حق﴾ الآية، ثم قال: يا أبَا عبيْدَة، قتلَتْ بنو إسْرَائِيلَ ثلاثةً وأرْبَعين نبياً أوَّلَ النَّهار في سَاعَةٍ، فقام مائة وعشرون من عُبَّادِ بَنِي إسْرَائِيل فأمروهم بالمَعْرُوف ونَهَوْهُمْ عن المنكر، فقتلوهم جميعاً مِنْ آخِرِ النَّهارِ من ذلك اليوم، فهم الذين ذكرهم في كتابه، وأنزل الآية فيهم» . هـ . من الثعلبي.

الإشارة: ذكر في الآية الأولى تشجيع المريدين، وأمرهم بالصبر والتسليم لإذاية المؤذين، وذكر هنا وبال المؤذين الجاحدين لخصوصية المقربين، فالأولياء والعلماء ورثة الأنبياء، فمن آذاهم فله عذابٌ أليم، في الدنيا؛ بغم الحجاب وسوء المنقلب، وفي الآخرة؛ بالبعد عن ساحة المقربين، وبالسقوط إلى دَرْك الأسفلين، والله تعالى أعلم.

ومن مساوئ اليهود أيضا إعراضهم عن الحق إذا توجه إليهم، كما أشار إلى ذلك الحق تعالى، فقال:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ۖ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾

قلت: التنكير في (نصيب)؛ يحتمل التحقير والتعظيم، والأول أقرب. وجملة: (وهم معرضون)؛ حال من (فريق)؛ لتخصيصه بالصفة.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ألم تر﴾ يا محمد، أو مَنْ تصح منه الرؤية، ﴿إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب﴾ وهم: اليهود، تمسكوا بشيء من التوراة، ولم يعملوا به كلِّه، كيف ﴿يدعون إلى كتاب الله﴾ القرآن ﴿ليحكم بينهم﴾ فيما اختلفوا فيه من أمر التوحيد وصحة نبوته ـ عليه الصلاة والسلام، فأعرضوا عنه، أو المراد بكتاب الله: التوراة. قال ابن عباس رضي الله عنه: (دخل النبي ﷺ على جماعة من اليهود، فدَعَاهُمْ إلى الله تعالى، فقال نُعَيْمُ بْنُ عَمْرٍو والحَارِثُ بْنُ زَيْدٍ: على أيِّ دين أنْتَ يا مُحَمَّدُ؟ قال: «على مِلَّةِ إبْرَاهِيم» قالا: إنَّ إبراهيم كان

يهودياً، فقال لهما النبي ﷺ: «فَهَلُمُّوا إلى التَّوراةِ فهي بيْنَنَا وبينكم» فأبيا عليه، فنزلت الآية). وقيل: نزلت في الرجم، على ما يأتي في العقود.

﴿ذلك﴾ الإعراض بسبب اغترارهم وتسهيلهم أمر العقاب، فقالوا: ﴿لن تمسنا النار إلا أياما معدودات﴾؛ أربعين يوماً، قدر عبادتهم العجل، ثم يخلفهم المسلمون، ﴿وغرهم في دينهم ما كانوا يفترون﴾ بزعمهم الفاسد وطمعهم الفارغ.

يقول الحق جل جلاله: ﴿فكيف إذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه﴾، وهذا تهويل لشأنهم، واستعظام لما يحيق بهم، ﴿ووفيت كل نفس ما كسبت﴾ من خير أو شر، ﴿وهم لا يظلمون﴾ أي: لا يبخسون من أعمالهم شيئاً، فلا ينقص من الحسنات، ولا يزاد على السيئات. وفيه دليل على أن المؤمن لا يخلد في النار. قال ابن عباس: (أولُ رايةٍ تُرفع لأهل الموقف، ذلك اليوم، رايةُ اليهود، فيفضحُهم الله تعالى على رءوس الأشهاد، ثم يؤمر بهم إلى النار) .

الإشارة: ترى كثيرا ممن ينتسب إلى العلم والدين يطلق لسانه بدعوى الخصوصية، وأنه منخرط في سلك المقربين، فإذا دُعي إلى حق، أو وقف على عيب من عيوب نفسه، أعرض وتولى، وغرته نفسه، وغلبه الهوى، فجعل يحتج لنفسه بما عنده من العلم أو الدين، أو بمن ينتسب إليهم من الصالحين، فكيف يكون حاله إذا أقبل على الله بقلب سقيم، ورأى منازل أهل الصفا، الذين لقوا الله بقلب سليم، حين ترفع درجاتهم مع المقربين، ويبقى هو مع عوام أهل اليمين؟ قال تعالى: ﴿ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴾ الآية.

ثم ذكر الحق تعالى نَزْع مُلك أهل الكتاب، وسلْبَ عزهم، وانتقاله إلى المسلمين، فقال:

﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾ ﴾

قلت: (اللهم) منادى مبني على الضم، حذفت منه الياء المتضمنة للفرق، وعوضت منها الميم المؤْذِنة بالجمع، لئلا يبقى بين الداعي والمدعو فَرْقٌ [1]، و(مالك): نعت لمحل المنادى؛ لأنه مفعول، ومنادى ثان عند سيبويه، لأن الميم عنده تمنع الوصفية.

يقول الحق جل جلاله: ﴿قل﴾ يا محمد في استنصارك على عدوك: ﴿اللهم﴾ يا ﴿مالك الملك﴾؛ مُلك الدنيا وملك الآخرة، ﴿تؤتي الملك﴾ والنصر ﴿من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء﴾، فهب لنا ملك الدارين،

(١) هذا توجيه إشاري .

والنصر على الأعداء في كل أين، وانزع الملك من يد عدونا، وانقله إلينا وإلى من تبعنا إلى يوم الدين. قال قتادة: (ذُكر لنا أن النبي ﷺ سأل ربه أن يجعل مُلك فارس والروم في أمته، فأنزل الله تعالى هذه الآية).

﴿وتعز من تشاء﴾ بالإيمان والطاعة ﴿وتذل من تشاء﴾ بالكفر والمعصية، أو تعز من تشاء بالمعرفة، وتذل من تشاء بالفكرة، أو تعز من تشاء بالقناعة والورع، وتذل من تشاء بالحرص والطمع، أو تعز من تشاء بالتوفيق والإذعان، وتذل من تشاء بالكسل والخذلان، ﴿بيدك الخير﴾ كله، فأعطنا من خيرك الجزيل، وأجرنا من الشر الوبيل، فالأمور كلها بيدك.

قال البيضاوي: ذكر الخير وحده؛ لأنه المقضي بالذات، والشر مقضي بالعرض؛ إذ لا يوجد شر جزئي مالم يتضمن خيرا كليا. أو لمراعاة الأدب في الخطاب، أو لأن الكلام وقع فيه، إذ روى أنه عليه الصلاة والسلام. لَمَّا خَطَّ الخَنْدَقَ، وقَطَّعَ لكل عَشَرَةٍ أربعينَ ذِرَاعاً، وأخذوا يَحْفِرُونَ، فظهر فيه صخرةٌ عظيمةٌ لم تَعْمَلْ فيها المَعَاوِلُ، فَوَجَّهُوا سلْمَانَ إلى رَسُول الله ﷺ يُخبِرُه، فجاء عليه الصلاة والسلام، فأخذ المعْول منه، فَضَرب به ضَرْبَةً صدعَهَا، وبَرَقَ مِنْهَا بَرْقٌ أضاءَ ما بَيْنَ لابَتَيْهَا(١)، لكأن مصباحاً في جوف بَيْتٍ مُظلم، فكبَّرَ، وكَبَّرَ معه المسلمونَ، وقال: أضَاءَتْ لي مِنْهَا قُصُور الحيرة، كأنها أنيابُ الكلاب، ثم ضرب الثانية، فقال: أضاءَتْ لي مِنْهَا القُصور الحمر من أرض الروم، ثم ضرب الثالثة، فقال: أضاءت لي منها قُصُورُ صنعاء، وأخْبرَني جبْرِيل أنَّ أُمَّتي ظَاهِرةٌ عَلَى كلِّها، فأبشروا، فقال المنافقون: ألا تَعْجَبُونَ! يمنيكم ويعدكم الباطل، ويُخبركم أنه يبصر من يثرب قصور الحيرةِ، وأنَّها تُفتح لكُمْ، وأنتم إنما تَحفُرون الخَنْدَق مِنَ الفَرَق(٢) فنزلت، أي: الآية. ونبه على أن الشر أيضا بيده بقوله: ﴿إنك على كل شيء قدير﴾. هـ.

ثم استدل على نفوذ قدرته بقوله: ﴿تولج الليل في النهار﴾ أي: تُدخل أحدَهما في الآخر بالتعقيب، أو بالزيادة أو النقص، فيولج الليل في النهار، إذا طال النهار حتى يكون خمس عشرة ساعة، وفي الليل تِسْعٌ، ويُولج النهار في الليل، إذا طال الليل كذلك، وفيه دلالة على أن مَنْ قدر على ذلك قدر على معاقبة العز بالذل، والمُلك بنزعه. ﴿وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي﴾؛ كالحيوانات من النُّطف، وبالعكس، والنباتات من الحبوب، وبالعكس، أو المؤمن من الكافر والعالم من الجاهل، وبالعكس، ﴿وترزق من تشاء﴾ من الأقوات والعلوم والأسرار، ﴿بغير حساب﴾، ولا تقدير ولا حصر. اللهم ارزقنا من ذلك الحظ الأوفر، (إنك على كل شيء قدير).

---

(١) اللابة: الحرة، وهي الحجارة السوداء، ولابتيها: حرتان تكتنفان المدينة.

(٢) الفرق ـ بفتحتين ـ: الخوف.

روى معاذ رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال له: «يا معاذُ، أتحبُ أن يقضيَ اللهُ عنك دَيْنك؟» قال: نعم يا رسول الله، قال: «قل» (اللهم مالك الملك) إلى قوله: (بغير حساب)، رحمان الدنيا والآخرة ورحيمهما، تعطى منهما ما تشاء، وتمنع منهما ما تشاء، اقض عني دَيْني، فلو كان عليك ملْء الأرض ذهبا وفضة لأدَّاه الله عنك».

وروى عن علي رضي الله عنه أنه قال: الفاتحة، وآية الكرسي، و(شهد الله)، و(قل اللهم مالك الملك ...) إلى (... بغير حساب)، لمَّا أراد الله أن ينزلهن، تعلقن بالعرش وقلن: تهبطنا إلى دار الذنوب فقال الله عز وجل: وعزتي وجلالي لايقرؤكن عبد، دبر كل صلاة مكتوبة، إلا أسكنته حظيرة القدس، على ما كان فيه، وإلا نظرت إليه بعيني المكنونة في كل يوم سبعين نظرة، وقضيت له في كل يوم سبعين حاجة، وأعززته من كل عدو، نصرته عليه ...، الحديث(١). انظر الثعلبي.

الإشارة: من ملك نفسه وهواه فقد ملكه الله ملك الدارين، ومن ملكته نفسه وهواه فقد أذله الله في الدارين، ومن ملك نفسه لله فقد مكنه الله من التصرف في الكون بأسره، وكان حرا حقيقة، وفي ذلك يقول الشاعر:

دَعَوْنِي لمُلْكِهِم، فلمَّا أجبتُهم ... قالُوا: دَعَونَاك للمُلْك لا للمِلْك

ومن أذلَّ نفسه لله فقد أعزه الله، قال الشاعر:

تَذَلَّلْ لِمَنْ تَهْوَى لِتَكْسِبَ عِزَّةً ... فَكَمْ عِزَّةٍ قَدْ نَالَهَا المَرْء بِالذُّلِّ

إذَا كانَ مَنْ تَهْوى عَزِيزاً ولَم تَكُنْ ... ذَلِيلاً لَهُ، فَاقْرِ السَّلامَ عَلَى الْوَصْلِ

قال ابن المبارك: (قلت لسفيان الثوري: من الناس؟ قال: الفقهاء، قلت: فمن الملوك؟ قال: الزهاد، قلت: فمن الأشراف؟ قال: الأتقياء، قلت فمن الغوغاء؟ قال: الذين يكتبون الحديث ليستأكلوا به أموال الناس، قلت: أخبرني ما السفلة؟ قال: الظلمة.) وقال الشبلي: (المُلك هو الاستغناء بالمكون عن الكونين). وقال الوراق: (تُعز من تشاء بقهر النفس ومخالفة الهوى، وتذل من تشاء باتباع الهوى). قلت: وفي ذلك يقول البرعي رضي الله عنه:

لا تَتْبَعِ النَّفْسَ فِي هَوَاهَا ... إنَّ اتِّبَاعَ الهَوَى هَوَانُ

وقال وهب: ‹‹خرج الغنَى والعز يجولان، فلقيا القناعة فاستقرا››. وقال عيسى عليه السلام لأصحابه: أنتم أغنى من الملوك، قالوا: يا روح الله، كيف، ولسنا نملك شيئا؟ قال: أنتم ليس عندكم شيء ولا تريدونها، وهم عندهم أشياء ولا تكفيهم هـ.

(١) الحديث: أخرجه ابن السني في عمل اليوم والليلة. عن سيدنا علي مرفوعاً وفي سنده الحارث بن عمير البصري. قال ابن حبان: يروى عن الأثبات الموضوعات، وأورد له الذهبي هذا الحديث على سبيل الإنكار.

قال الشافعي رضي الله عنه:

أَلاَ يا نفسُ إن ترضَـيْ بقُـوتٍ		فـأنت عـزيزةٌ أبداً غنيـة
دَعِي عنكِ المطامعَ والأمـاني		فـكمْ أمنيـةٍ جلبَتْ منيـةْ

وقال آخر(١):

أفـادتني القناعـةُ كلَّ عـزٍّ		وهـلْ عـزٌّ أعـزُّ من القَنَاعَـةْ
فَصَيِّرْها لنفسك رأسَ مـالٍ		وصَيِّرْ بعدها التَّقْوى بضَاعَةْ
تَنَلْ عـزًّا وتَغْنَى عنْ لَئِـيمٍ		وتَرْحَلْ للجِنَان بصَبْـرِ سَاعَـةْ

وقال عليه الصلاة والسلام: «مِن أَصْبَحَ آمِناً في سِرْبِه، مُعَافى في بَدَنه، عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِه، فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيا بحذافيرِاها».

تولج ليل القبض في نهار البسط، وتولج نهار البسط في ليل القبض، وترزق من تشاء فيهما من العلوم والأسرار، بغير حساب ولا مقدار، أو تولج ليل العبودية في نهار الحرية، وتولج نهار الحرية في ليل العبودية، فمن كان في نهار الحرية تاه على الوجود، ومن كان في ليل العبودية عطل ذله ذل اليهود، والعبد لا يخلو من هذين الحالين، يتعاقبان عليه تعاقب الليل والنهار. والله تعالى أعلم.

ولمَّا كان العز يُنال بصحبة أهل العز، والذل ينال كذلك، حذَّر الحق تعالى من صحبة أهل الذل، فقال:

﴿ لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَىٰةًۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾ قُلْ إِن تُخْفُواْ مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُۗ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٞ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٖ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٖ مُّحْضَرٗا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٖ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدَۢا بَعِيدٗاۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥۗ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾ ﴾

قلت: (تُقاة): مصدر تقَى، على وزن فعَل، وله مصدران آخران: تَقيٌ وتَقِيَّة ـ بتشديد الياء ـ، وبه قرأ يعقوب، وأصله: تُقَيَة، فقلبت الياء ألفاً؛ لتحركها وانفتاح ما قبلها. و (يوم): ظرف، والعامل فيه: اذكر، أو اتقوا، أو المصير، أو تود، و(ما عملت): مبتدأ، و(تود): خبر، أو معطوف على (ما عملت) الأولى، و(تود): حال.

(١) وهو بشر بن الحارث، المعروف بالحافي. وجاءت الأبيات في تاريخ بغداد٧/٧٦، وتهذيب تاريخ دمشق ٣/ ٢٤٣.

يقول الحق جل جلاله، لقوم من الأنصار، كانوا يُوالون اليهود؛ لقرابة أو صداقة تقدمت في الجاهلية: ﴿لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء﴾، أي: أصدقاء، إذ الحب إنما يكون في الله والبغض في الله، أو لا تستعينوا بهم في غزو ولا غيره، فلا تودوهم ﴿من دون المؤمنين﴾؛ إذ هم أحق بالمودة، ففيهم مندوحة عن موالاة الكفرة، ﴿ومن يفعل ذلك﴾ الاتخاذ ﴿فليس من﴾ ولاية ﴿الله في شيء﴾؛ إذ لا تجتمع ولاية الله مع ولاية عدوه. قال الشاعر:

تَوَدُّ عَــــدُوّي ثُمّ تَزْعَمُ أَنّني صَدِيقك، لَيْسَ النّوْك عنْكَ بِعَازِبِ

والنُّوك ـ بضم النون ـ: الحمْق.

فلا تُوالوا الكفار ﴿إلا أن تتقوا منهم تقاة﴾ أي: إلا أن تخافوا من جهتهم ما يجب اتقاؤه، فلا بأس بمداراتهم ظاهرًا، والبعد منهم باطنا، كما قال عيسى عليه السلام: (كن وسطا وامش جانبا). وقال ابن مسعود رضي الله عنه: خالطوا الناس وزايلوهم، وصافحوهم بما يشتهون، ودينكم لا تثلموه. وقال جعفر الصادق: إني لأسمع الرجل يشتمني في المسجد، فأستتر منه بالسارية لئلا يراني. هـ. ﴿ويحذركم الله نفسه﴾ أي: يخوفكم عذابه على موالاة الكفار ومخالفة أمره وارتكاب نهيه، تقول العرب: احذر فلانا؛ أي: ضرره لا ذاته، وفي ذكر النفس زيادة تهديد يُؤذِن بعقاب يصدر منه بلا واسطة، ﴿وإلى الله المصير﴾؛ فيحشر كل قوم مع من أحب.

﴿قل إن تخفوا ما في صدوركم﴾ من موالاة أعدائه، ﴿أو تبدوه يعلمه الله﴾؛ فلا يخفى عليه ما تُكن الصدور من خير أو شر. وقدّم في سورة البقرة الإبداء، وأخره هنا؛ لأن المحاسبة لا ترتيب فيها بخلاف العلم، فإن الأشياء التي تبرز من الإنسان يتقدم إضمارها في قلبه ثم تبرز، فقد تعلق علم الله تعالى بها قبل أن تبرز، فلذلك قدّم هنا الإخفاء لتقدم وجوده في الصدر، وأخره في البقرة، لأن المحاسبة لا ترتيب فيها، ﴿ويعلم ما في السموات وما في الأرض﴾ فلا يخفى عليه شيء، ﴿والله على كل شيء قدير﴾؛ فيقدر على عقوبتكم إن لم تنتهوا، والآية بيان لقوله: ﴿ويحذركم الله نفسه﴾؛ لأن الذات العالية متصفة بعلم محيط بجميع المعلومات، وبقدرة تحيط بجميع المقدورات، فلا تجسروا على عصيانه، فإنه ما من معصية إلا وهو مطلع عليها، قادرٌ على العقاب عليها يوم القيامة.

﴿يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرًا﴾ بين يديها تنتفع به، ﴿وما عملت من سوء تود له أن بينها وبينه أمداً بعيداً﴾، كما بين المشرق والمغرب، ولا ينفع الندم وقد زلّت القدم. ﴿ويحذركم الله نفسه﴾، كرره للتأكيد وزيادة التحذير، وسيأتي في الإشارة حكمة تكريره، ﴿والله رؤوف بالعباد﴾ حيث حذرهم مما يضرهم، وأمرهم بما يقربهم، فكل ما يصدر منه ـ سبحانه ـ في غاية الكمال.

الإشارة: لاينبغي للمريد الصادق أن يخالط أهل الغفلة، ولا يتودد معهم؛ فإن ذلك يقطعه عن ربه، ويصده عن دواء قلبه، وفي ذلك يقول صاحب العينية:

وَقَاطِعْ لِمَنْ وَاصلْتَ أيَّامَ غَفْلَةٍ فَمَا وَاصَلَ العُذَّالَ إلاَّ مُقَاطِعُ
وَجَانِبْ جَنَابَ الأَجْنَبِي لَو انَّهُ لِقُرْبِ انْتِسَابٍ فِي المَنَامِ مُضَاجِعِ
فَلِلنَّفْسِ مِنْ جُلاَّسِهَا كُلُّ نِسْبَةٍ وَمِنْ خُلَّةٍ لِلْقَلْبِ تِلْكَ الطَّبَائِعُ

إلا أن يتقي منهم تقية، بحيث تلجئه الضرورة إلى مخالطتهم، فيخالطهم بجسمه ويفارقهم بقلبه، وقد حذَّر الصوفية من صحبة أَرْبَع طوائف: الجبابرة المتكبرون، والقراء المداهنون، والمتفقرة الجاهلون، والعلماء المتجمدون؛ لأنهم مُولَعون بالطعن على أولياء الله، يرون ذلك قربة تُقربهم إلى الله.

ثم قال: (ويحذركم الله نفسه) أن تقصدوا معه غيره، وهذا خطاب للسائرين بدليل تعقيبه بقوله: (وإلى الله المصير) أي: إليه ينتهي السير وإليه يكون الوصول، ثم شدد عليهم في المراقبة فقال: (إن تُخفوا ما في صدوركم) من الميل أو الركون إلى الغير أو الوقوف عن السير، (أو تبدوه يعلمه الله)؛ فينقص عنكم المدد بقدر ذلك الميل، يظهر ذلك يوم الدخول إلى بلاد المشاهدة، (يوم تجدُ كل نفس) ما قدمت من المجاهدة، فبقدر المجاهدة تكون المشاهدة. ثم خاطب الواصلين فقال: (ويحذركم الله نفسه) من أن تشهدوا معه سواه، فلو كُلف الواصل أن يشهد غيره لم يستطع، إذ لا غير معه حتى يشهده. ويدل على أن الخطاب هنا للواصلين تعقيبه بالمودة والرأفة، اللائقة بالواصلين المحبوبين العارفين الكاملين. خرطنا الله في سلكهم بمنّه وكرمه.

ثم لا طريق للوصول إلى هذا كله إلا باتباع الرسول الأعظم، كما أشار إلى ذلك بقوله تعالى:

﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾

قلتُ: قد تقدم الكلام على حقيقة المحبة عند قوله ﴿يحبونهم كحب الله﴾. وقال البيضاوي هنا: المحبة ميلُ النفس إلى الشيء لإدراك كمال فيه، بحيث يحملها ـ أي الميل ـ إلى ما يقربها إليه، والعبد إذا علم أن الكمال الحقيقي ليس إلا لله، وأن ما يراه كمالاً من نفسه أو غيره فهو من الله وبالله وإلى الله، لم يكن حبه إلا لله وفي الله، وذلك يقتضي إرادة طاعته، فلذلك فُسرت المحبة بإرادة الطاعة، وجعلت مستلزمة لاتباع الرسول في عبادته، والحرص على مطاوعته. هـ.

وقوله: (فإن تولوا): فعل ماض مجزوم المحل، ولم يدغمه البَزِّى هنا، على عادته في الماضي، لعدم موجبه.

يقول الحق جل جلاله: ﴿قل﴾ يا محمد لمن يدعى أنه يحب الله ولا يتبع رسوله: ﴿إن كنتم تحبون الله﴾ كما زعمتم، ﴿فاتبعوني﴾ في أقوالي وأفعالي وأحوالي، ﴿يحببكم الله﴾ أي: يرضى عنكم ويقربكم إليه، ﴿ويغفر لكم ذنوبكم﴾ أي: يكشف الحجاب عن قلوبكم بغفران الذنوب ومحو العيوب، فيقربكم من جناب عزه، ويبوئكم في جوار قدسه، ﴿والله غفور رحيم﴾ لمن تحبب إليه بطاعته واتباع رسوله.

﴿قل أطيعوا الله﴾ فيما يأمركم به وينهاكم عنه، ﴿والرسول﴾ فيما يَسُنّه لكم ويرغبكم فيه، ﴿فإن تولوا﴾ وأعرَضوا عنه، فقد تعرضوا لمقت الله وغضبه بكفرهم به؛ ﴿فإن الله لا يحب الكافرين﴾ أي: لا يرضى عنهم ولا يقبل عليهم، وإنما لم يقل: لا يحبهم؛ لقصد العموم، والدلالة على أن التولي عن الرسول كفر، وأنه بريءٌ من محبة الله، وأن محبته مخصوصة بالمؤمنين.

رُوى أن نصارى نجران قالوا: إنما نعظم المسيح ونعبده؛ حباً لله وتعظيماً لله. فقال تعالى: (قل) يا محمد: ﴿إن كنتم تحبون الله﴾ تعالى ﴿فاتبعوني﴾.. الآية. ولما نزلت الآية قال عبدالله بن أُبَىّ لأصحابه: إن محمداً يجعل طاعته كطاعة الله، ويأمرنا أن نحبه كما أحبت النصارى عيسى، فنزل قوله تعالى: ﴿قل أطيعوا الله والرسول﴾ الآية. وقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «مَنْ أطَاعَنِي فَقَدْ أطَاعَ الله، ومن أطَاعَ الإمامَ فَقَدْ أطَاعَنِي، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ عَصَى الله وَمَنْ عَصَى الإمامَ فَقَدْ عَصَانِي».

الإشارة: اتباع الرسول ﷺ رُكن من أركان الطريقة، وشرط في إشراق أنوار الحقيقة، فمن لا اتباع له لا طريق له، ومن لا طريق له لا وصول له، قال الشيخ زروق رضي الله عنه: (أصول الطريقة خمسة أشياء: تقوى الله في السر والعلانية، واتباع النبي ﷺ في الأقوال والأفعال، والإعراض عن الخلق في الإقبال والإدبار، والرجوع إلى الله في السراء والضراء، والرضى عن الله في القليل والكثير).

فالرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ حجاب الحضرة وبَوّابُها، فمن أتى من بابه؛ بمحبته واتباعه، دخل الحضرة، وسكن فيها، ومن تنكب عنها طُرِد وأُبعد، وفي ذلك يقول القائل:

وأنتَ بابُ الله، أيُّ امـرِئٍ ... وَافَـاه مِنْ غَيْـرِكَ لاَ يَدْخُلُ

وقال في المباحث:

تَبِعَـه العالِمُ في الأقوال، ... والعابدُ الزاهدُ في الأفعَال

وفيهما الصُّوفيُّ في السِّباق ... لكنَّه قد زاد في الأخْلاَقِ

فمن ادعى محبة الله أو محبة رسوله، ولم يطعهما، ولم يتخلق بأخلاقهما، فدعواه كاذبة، وفي ذلك يقول ابن المبارك(١):

تَعْصِي الإلَهَ وأنتَ تُظْهِرُ حُبَّهُ		هَذَا مُحَالٌ في القِيَاسِ بَدِيعُ
لَوْ كانَ حُبُّكَ صَادِقاً لأَطَعْتَهُ		إنَّ المُحِبَّ لِمَنْ يُحِبُّ مُطِيعُ

ثم ذكر الحق تعالى بيان نشأة عيسى عليه السلام، وبيان أصله ونشأة أمه، توطئة للكلام مع النصارى والرد عليهم في اعتقادهم فيه. وقال البيضاوي: لما أوجب الله طاعة الرسل، وبيّن أنها الجالبة لمحبة الله، عقّب ذلك ببيان مناقبهم تحريضاً عليها فقال:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ
وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ
أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ
كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ
حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ
يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ ﴾

قلت: (ذرية): حال، أو بدل من الآلين، أو من نوح، أي: أنهم ذرية واحدة متشعبة بعضها من بعض. و(إذ قالت): ظرف لعليم، أو بإضمار اذكر. و (محررا): حال، والتحرير: التخلص، يقال: حررت العبد، إذا خلصته من الرق، وحررت الكتاب، إذا أصلحته وأخلصته، ولم يبق فيه ما يحتاج إلى إصلاح، ورجل حُر، أي: خالص، ليس لأحد عليه متعلق، والطين الحُر، أي: الخالص من الحمأة. وقوله: (وإني سميتها مريم): عطف على (إني وضعتها)، وما بينهما اعتراض، من كلامها على قراءة التكلم، أو من كلام الله على قراءة التأنيث.

يقول الحق جل جلاله: ﴿إن الله اصطفى، آدم﴾؛ بالخلافة والرسالة، ﴿ونوحا﴾؛ بالرسالة والنذارة، ﴿وآل إبراهيم﴾؛ بالنبوة والرسالة، وهم: إسحاق، ويعقوب والأسباط، وإسماعيل، وولده سيد ولد آدم نبينا محمد ﷺ بالنبوة والرسالة والمحبة الجامعة. ﴿وآل عمران﴾، وهم موسى وهارون ـ عليهما السلام ـ وهو عمران بن يصهر

(١) الشعر ينسب لأكثر من واحد.

ابن فاهث بن لاوى بن يعقوب، أو المراد بعمران: عمران بن أشهم بن أموى، من ولد سليمان عليه السلام، وهو والد مريم أم عيسى عليه السلام، وقيل: المراد عمران بن ماثان، أحد أجداد عمران والد مريم. وإنما خص هؤلاء؛ لأن الأنبياء كلهم من نسلهم. وقيل: أراد إبراهيم وعمران أنفسهما. «وآل» مقحمة، كقوله: ﴿ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ ﴾ أي: موسى وهارون، فقد فضل الحق ـ جل جلاله ـ هؤلاء الأنبياء بالخصائص الجسمانية والروحانية ﴿على العالمين﴾ أي: كلا على عالَمي زمانه، وبه استدل على فضلهم على الملائكة. حال كونهم ﴿ذرية﴾ متشعبة ﴿بعضها من﴾ ولد ﴿بعض﴾ في النسب والدين، ﴿والله سميع﴾ لأقوال العباد وأعمالهم، ﴿عليم﴾ بسرائرهم وعلانيتهم، فيصطفي من صفا قوله وعمله، وخلص سره، للرسالة والنبوة.

ثم تخلّص لذكر نشأة مريم، توطئة لذكر ولدها، فقال: واذكر ﴿إذ قالت امرأة عمران﴾ وهي حنة بنت فاقوذا، جدة عيسى عليه السلام: ﴿رب إني نذرت لك ما في بطني محررا﴾ لخدمة بيت المقدس، لا أشغله بشيء، أو مخلصاً للعبادة، ﴿فتقبل مني إنك أنت السميع العليم﴾، وكان المحرر عندهم، إذا حُرر، جُعل في الكنيسة يقوم عليها ويكنسها، ولا يبرح منها حتى يبلغ الحلم، ثم يخير، فإن أحبَّ أقام أو ذهب حيث شاء، ولم يكن يحرر إلا الغلمان؛ لأن الجارية لا تصلح للخدمة؛ لما يصيبها من الحيض، فحررت أمُّ مريمَ حملَها ولم تدرِ ما هو.

وقصة ذلك: أن زكريا وعمران تزوجا أختين، فتزوج زكريا أشياعَ بنت فاقوذا، وتزوج عمرانُ حنة بنت فاقوذا، فكان عيسى ويحيى ابني الخالة[1]، وكانت حنة عاقراً لا تلد، فبينما هي في ظل شجرة، بصرت بطائر يطعم فرخاً، فتحركت لذلك نفسها للولد فدعت الله تعالى، وقالت: اللهم لك علي، إن رزقتني ولداً، أن أتصدق به على بيت المقدس، يكون من سدنته وخدمه، فحملت بمريم، فهلك عمران، وحنة حامل بمريم، ﴿فلما وضعتها﴾ أي: النذيرة، أو ما في بطنها، قالت: ﴿رب إني وضعتها أنثى﴾، قالت ذلك تحسرًا وتحزنًا إلى ربها، لأنها كانت ترجو أن تلد ذكرا يصلح للخدمة، ولذلك نذرته.

قال تعالى: ﴿والله أعلم بما وضعت﴾، تعظيما لموضوعها وتنويها بشأنها، أو من كلامها ـ على قراءة التكلم ـ تسلية لنفسها، أي: ولعل لله فيه سراً، قال تعالى: ﴿وليس الذكر كالأنثى﴾ أي: وليس الذكر الذي طلبت كالأنثى التي وهبت، أو من كلامها، أي: وليس الذكر والأنثى سيان فيما نذرتُ. ثم قالت: ﴿وإني سميتها مريم﴾ راجية أن يطابق اسمها فعلها، فإن مريم في نعتهم هي العابدة الخادمة، وكانت مريم أجمل النساء في وقتها وأفضلهن، وفي الحديث عنه ﷺ: «حَسْبُكَ من نساءِ العالمين أربع: مريم بنت عمران، وآسية امرأة فرعون، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد ﷺ».

---

(١) أي: بينهما هذه الجهة من القرابة، وهي جهة الخؤولة.

ثم قالت حنة أم مريم: ﴿وإني أعيذها بك﴾ أي: أحصنها بك ﴿وذريتها من الشيطان الرجيم﴾ أي: المرجوم بالشهب، أو المطرود، وفي الحديث: «مَا مِنْ مَوْلُودٍ يُولَدُ إلاَّ والشَّيْطَانُ يَمَسُّهُ حِينَ يُولَدُ فَيَسْتَهِلُّ مِنْ مَسِّهِ، إلاَّ مَرْيَمَ وَابْنَهَا» . ومعناه: أن الشيطان يطمع في إغواء كل مولود، بحيث يتأثر به، إلا مريم وابنها لمكان الاستعاذة، قلت: وكذا الأنبياء كلهم، لا يمسهم لمكان العصمة. والله أعلم.

﴿فتقبلها ربها﴾ أي: رَضيها في النذر مكان الذكر، ﴿بقبول حسن﴾ أي: بوجه حسن، وهو إقامتها مقام الذكر، وتسلمها للخدمة عقب ولادتها قبل أن تكبر وتصلح للسِّدانة[1]، رُوي: أن حنة لما ولدتها لفَّتْها في خرقة، وحملتها إلى المسجد، ووضعتها عند الأحبار، وقالت: دونكم هذه النذيرة، فتنافسوا فيها، لأنها كانت ابنة إمامهم، وصاحب قربانهم، فإن (بني ماثان) كانت رؤوس بني إسرائيل وملوكهم، فقال زكريا: أنا أحق بها ، عندي خالتها، فأبوا إلا القرعة، وكانوا سبعة وعشْرين، فانطلقوا إلى نهر، فألقوا فيه أقلامهم، فطفا قلم زكريا ـ أي: علا ـ على وجه الماء، ورسبت أقلامهم ، فأخذها زكريا.

﴿وأنبتها﴾ الله ﴿نباتا حسنا﴾ أي: رباها تربية حسنة، فكانت تشب في اليوم ما يشب المولود في العام، ﴿وكفلها زكريا﴾ أي: ضمها إليه وقام بأمرها. وقرأ عاصم ـ في رواية ابن عياش ـ بشدّ الفاء، أي: وكفَّلها اللهُ زكريا، أي: جعله كافلاً لها وضامنا. رُوي: أنه لما ضمها إليه بنى لها بيتًا، واسترضع لها، فلما بلغت، بنى لها محراباً في المسجد، وجعل بابه في وسطه لا يرقى إليها إلا بسلم، ولا يصعد إليها غيره، وكان يأتيها بطعامها وشرابها كل يوم، وكان إذا خرج أغلق عليها سبعة أبواب.

﴿كلما دخل عليها زكريا المحراب﴾ ؛ ليأتيها بطعامها، ﴿وجد عندها رزقا﴾ أي: فاكهة في غير حينها، يجد فاكهة الشتاء في الصيف، وبالعكس، ﴿قال يا مريم أنى لك هذا﴾ أي: من أين لك هذا الرزق الآتي في غير أوانه، والأبواب مغلقة عليك ؟ ﴿قالت هو من عند الله﴾ فلا يُستبعد، قيل: تكلمت صغيرة، وقيل: لم ترضع ثدياً قط، خلاف ما تقدم، وكان رزقها ينزل عليها من الجنة.

ثم قالت: ﴿إن الله يرزق من يشاء بغير حساب﴾ أي: بغير تقدير، أو بغير استحقاق تفضلاً منه، وقوله: (كلما): يقتضي التكرار، وفيه إشارة إلى أن زكريا لم يذَرْ تعهُّدها، ولم يعتمد على ما كان يجد عندها، بل كان يتفقد حالها كل وقت، لأن الكرامات للأولياء ليس مما يجب أن تدوم قطعاً، بل يجوز أن يظهر ذلك عليهم دائماً وألا يظهر، فما كان زكريا معتمداً على ذلك، فيترك تفقد حالها، ثم كان يجدد السؤال بقوله: ﴿يا مريم أنى لك هذا﴾ ؛ لجواز أن يكون الذي هو اليوم لا على الوجه الذي كان بالأمس، فإنه لا واجب على الله ـ سبحانه ـ . قاله القشيري.

---

(١) السدانة: مصدر بمعنى الخدمة، والسادن: الخادم.

رَوَى جابر بنُ عبدالله أن النبي ﷺ أقام أياما لم يطعم الطعام، فقام في منازل أزواجه، فلم يُصبْ عندهن شيئا فأتى فاطمة فقال: «يا بُنية، هل عندك شيء ؟» فقالت: لا والله، بأبي أنت وأمي، فلما خرج النبي ﷺ، بعثت إليها جارتُها برغيفين وبضْعَة لَحْمٍ، فبعثت حَسَنًا وحُسَيْنًا إلى النبي ﷺ، فجاء، فكشفت له الجفنة، فإذا الجفنة مملوءة خُبْزًا ولَحْمًا، فَبُهِتَتْ، وعرفت أنها بَرَكَةٌ مِن الله تعالى، فقال النبي ﷺ: «من أين لك هذا يا بُنَيَّةُ؟» قالت: ﴿هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب﴾، فحمد الله تعالى، وقال: «الحمدُ للهِ الَّذي جَعَلَك شَبِيهةً بسَيِّدَةِ بَنِي إِسْرَائيل، فإنها كانت إذا رزقها الله شيئا قالت: ﴿هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب﴾ ثم بعث النبي ﷺ إلى عَلِيٍّ رضي الله عنه. ثم أكل أهلُ البيت كلهم، وجميع أزواج النبي ﷺ، وبقيت الجَفْنَة كما هي، فأَوْسَعَتْ علَى الجيران، وجعل الله فيها بركةً وخيراً. انتهى[1].

الإشارة: (إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين)، إنما اصطفى الحق تعالى هؤلاء الرسل؛ لكونهم قد أظهروا الدين بعد انطماس أنواره، وجددوه بعد خمود أسراره، هم أئمة الهدى ومقتبس أنوار الاقتداء، فكل من كان على قدمهم من هذه الأمة المحمدية، بحيث يجدد للناس دينهم، ويبين للناس معالم الطريق وطريق السلوك إلى عين التحقيق، فهو ممن اصطفاه الله على عالمي زمانه.

وفي الحديث: «إنَّ الله يَبْعَثُ عَلَى رأسِ كُلِّ مائةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لهذه الأمة دِينَهَا». قال الحريري: (مات الحسن البصري عشية جمعة ـ أي: بعد زوالها ـ فلما صلى الناس الجمعة حملوه، فلم يترك الناس صلاة العصر في مسجد الجماعة بالبصرة منذ كان الإسلام، إلا يوم مات الحسن، واتبع الناس جنازته، فلم يحضر أحد في المسجد صلاة العصر، قال: وسمعت مناديا ينادي: (إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين) واصطفى الحسن على أهل زمانه). قلت: والحسن البصري هو الذي أظهر علم التصوف، وتكلم فيه وهذبه. قال في القوت: وهو إمامنا في هذا العلم ـ يعني علم التصوف.

وقوله تعالى: ﴿إذ قالت امرأة عمران﴾.. الآية. كُلُّ من نذر نفسه وحررها لخدمة مولاه، تقبلها الله منه بقبول حسن، وأنبت فيها المعرفة نباتاً حسنا، وكفلها بحفظه ورعايته، وضمها إليه بسابق عنايته، ورزقها من طُرَف الحكم وفواكه العلوم، مما لا تحيط به العقول وغاية الفهوم، فإذا قال لنفسه: من أين لك هذا؟ (قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب). وأنشدوا:

فَلاَ عَملَ مِنّي إليه اكْتَسَبْتُه سِوَى مَحْضِ فَضْلٍ، لا بشيء يُعَلُّ

وقال القشيري: قوله تعالى: (فتقبلها ربها بقبول حسن)، يقال: منَ القبول الحسن أنه لم يطرح كلَّها وشَغْلَها على زكريا، فكان إذا دخل عليها زكريا ليتعاهدها بطعام وجد عندها رزقا، ليعلم العالمون أن الله ـ تعالى ـ لا يُلْقِي شغل

(١) إلى هنا ينتهي السقط المشار إليه سابقاً في النسخة التيمورية.

أوليائه على غيره، ومن خدم وليا من أوليائه كان هو في رفق الولي، وهذه إشارة لمن يخدم الفقراء، يعلم أنه في رفقهم، لا أن الفقراء تحت رفقه. هـ.

قال أهل التفسير: فلما رأى زكريا ما يأتي لمريم من الفواكه في غير أوانها، قال: إن الذي قدر على أن يأتي مريم بالفاكهة في غير وقتها، قادر على أن يُصلح زوجتي، ويهب لي ولداً على الكبر. فطلب الولد، كما أشار الحق تعالى إلى ذلك بقوله:

﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَآءِ (٣٨) فَنَادَتْهُ الْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّٰلِحِينَ (٣٩) قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ (٤٠) قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَٰرِ (٤١) ﴾

قلت: (هنالك): اسم إشارة للبعيد، والكاف: حرف خطاب، يطابق المخاطب في التذكير والتأنيث والإفراد والجمع في الغالب. والمحراب: مفعال، من الحرب، وهو الموضع المعد للعبادة، كالمسجد ونحوه، سمي به، لأنه محل محاربة الشيطان.

(والملائكة): جمع تكسير، يجوز في فعله التذكير والتأنيث، وهو أحسن، تقول: قام الرجال وقامت الرجال، فمن قرأ: (فنادته الملائكة)، فعلى تأويل الجماعة، ومن قرأ: (فناداه)، أراد تنزيه الملائكة عن التأنيث، رداً على الكفار. والمراد هنا: جبريل عليه السلام كقوله: ﴿ يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ ﴾، ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ﴾، و(بشر): فيها لغتان: التخفيف، وهي لغة تهامة، تقول: بَشَرَ يَبْشُر ـ بضم الشين في المضارع، والتشديد، وهو أفصح، تقول بَشَّر يُبشِّر تبشيرا.

يقول الحق جل جلاله، مخبرا عن زكريا عليه السلام: ﴿هنالك﴾ أي: في ذلك الوقت الذي رأى ما رأى من خوارق عند مريم، ﴿دعا زكريا ربه﴾، فدخل المحراب، وغلق الأبواب، وقال في مناجاته: ﴿رب هب لي من لدنك ذرية طيبة﴾، كما وهبتها لحنَّة العجوز العاقر، ﴿إنك سميع الدعاء﴾ أي: مجيبه فاسمع دعائي يا

مجيب، ﴿فنادته الملائكة﴾، وهو جبريل، لأنه رئيس الملائكة، والعرب تنادي الرئيس بلفظ الجمع؛ إذ لا يخلو من أصحاب، ﴿وهو قائم يصلي في المحراب﴾ روي: أنه كان قائما يصلي في محرابه، فدخل عليه شاب، عليه ثياب بيض، ففزع منه، فناداه، وقال له: ﴿إن الله يبشرك بيحيى﴾، سمي به؛ لأن الله تعالى أحيا به عقم أمه، أو لأن الله تعالى أحيا قلبه بمعرفته، فلم يهم بمعصية قط، أو لأنه استشهد، والشهداء أحياء.

﴿مصدقا بكلمة من الله﴾ وهو عيسى، لأنه كان بكلمة: كُنْ، من غير سبب عادي، ﴿وسيدا﴾ أي: يسود قومه ويفوقهم، ﴿وحصورا﴾، أي: مبالغًا في حبس النفس عن الشهوات والملاهي. رُوي أنه مرّ في صباه على صبيان، فدعوه إلى اللعب، فقال: ما للعب خلقت. أو عِنّيناً، روي: «أنه كان له ذَكَرٌ كالقذاة» رواه ابن عباس. وقال في الأساس: (رجل حصور: لا يرغب في النساء). قيل: كان ذلك فضيلة في تلك الشريعة، بخلاف شريعة نبينا محمد ﷺ وفي الورتجبي: الحصور: الذي يملك ولا يُملك. وقال القشيري: ﴿حصورا﴾: أي: مُعْتَقًا من الشهوات، مَكْفِيًا أحكام البشرية، مع كونه من جملة البشر، ﴿ونبيا من الصالحين﴾ الذين صلحوا للنبوة وتأهلوا للحضرة.

ولما سمع البشارة هزّه الفرحُ فقال: يا ﴿رب أنى يكون لي غلام﴾ أي: من أين يكون لي غلام؟! قاله استعظاماً أو تعجباً أو استفهاماً عن كيفية حدوثه. هل مع كبر السن والعقم، أو مع زوالهما. ﴿وقد بلغني الكبر﴾، وكان له تسع وتسعون سنة، وقيل: مائة وعشرون، ﴿وامرأتي عاقر﴾ لا تلد، ولم يقل: عاقرة، لأنه وصف خاص بالنساء. قال له جبريل: ﴿كذلك الله يفعل ما يشاء﴾ من العجائب والخوارق، فيخلق الولد من العاقر والشيخ الفاني، أو الأمر كذلك، أي: كما أخبرتك، ثم استأنف: ﴿الله يفعل ما يشاء﴾.

ولما تحقق بالبشارة طلبَ العلامةَ، فقال: ﴿رب اجعل لي آية﴾ أعرف بها حمل المرأة، لأستقبله بالبشاشة والشكر، ﴿قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام﴾ أي: لا تقدر على كلام الناس ثلاثا، فحبس لسانه عن الكلام دون الذكر والشكر، ليخلص المدة للذكر والشكر، ﴿إلا رمزا﴾ بيدٍ أو رأس أو حاجب أو عين. ﴿واذكر ربك كثيرا﴾ في هذه المدة التي حُبِسْتَ فيها عن الكلام، وهو يُبين الغرض من الحبس عن الكلام. وتقييد الأمر بالكثرة يدل على أنه لا يفيد التكرار. ﴿وسبح بالعشي﴾ أي: من الزوال إلى الغروب، أو من العصر إلى جزء الليل، ﴿والإبكار﴾؛ من الفجر إلى الضحى، وقيل: كانت صلاتهم ركعتين في الفجر وركعتين في المغرب، ويؤيد هذا قوله تعالى في الآية الأخرى: ﴿ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾. والله تعالى أعلم.

الإشارة: الأصلاب الروحانية كالأصلاب الجسمانية، منها ما تكون عقيمة مع كمالها، ومنها ما تكون لها ولد أو ولدان، ومنها ما تكون لها أولاد كثيرة، ويؤخذ من قضية السيد زكريا عليه السلام: طلب الولد؛ إذا خاف الولي اندراس

علمه أو حاله بانقطاع نَسْله الروحانى، ولا شك فى فضل بقاء النسل الحسى أو المعنوى، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «إِذَا مَاتَ العبدُ انْقَطَعَ عمله إلا مِنْ ثَلاثٍ: صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ، أَوْ علمٍ يُنْتَفَعُ به». وشمل الولد البشرى والروحانى، وقال عليه الصلاة والسلام لسيدنا على ـ كرم الله وجهه ـ: «لأَنْ يَهْدِىَ اللهُ بِكَ رَجُلاً وَاحِداً خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ».

وقال بعض الشعراء(١):

وَالمَرْءُ فى مِيزَانِه أَتْبَاعُهُ ... فَاقْدرْ إِذَنْ قَدْرَ النبى مُحَمَّد

وقد سلك هذا المسلك القطبُ ابن مشيش فى طلب الولد الروحانى، حيث قال فى تَصْلِيَته المشهورة: (اسمع ندائى بما سمعت به نداء عبدك زكريا)، فأجابه الحق تعالى بشيخ المشايخ القطب الشاذلى. وغير واحد من الأولياء دخل محراب الحضرة، ونادى نداءً خفيا فى صلاة الفكرة، فأجابته الهواتف فى الحال، بلسان الحال أو المقال: إن الله يبشرك بمن يحيى علمك ويرث حالك، مصدقًا بكلمة من الله، وهم أولياء الله، وسيدًا وحصوراً عن شواغل الحس، مستغرقًا فى مشاهدة القرب والأنس، ينبئ بعلم الغيوب، ويصلح خلل القلوب، فإذا استعظم ذلك واستغربه، قيل له: الأمر كذلك، (الله يفعل ما يشاء إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون)، فحسبك الاشتغال بذكر الله، والغيبة عما سواه. وبالله التوفيق، وهو الهادى إلى سواء الطريق.

ثم ذكر اصطفائية مريم بالخصوص بعد العموم فقال:

﴿ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: واذكر ﴿إذ قالت الملائكة﴾ أى: جبريل، أو جماعة، كلمتها شفاهاً؛ كرامةً لها. وفيه إثبات كرامة الأولياء، وليست نبية؛ للإجماع على أنه تعالى لم يستنبئ امرأة؛ لقوله: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ ﴾ (٢) فقالوا لها: ﴿يا مريم إن الله اصطفاك﴾ لخدمة بيته، ولم يقبل قبلك أنثى قط، وفرغك لعبادته، وأغناك برزقه عن رزق غيره، ﴿وطهرك﴾ من الأخلاق الذميمة، ومما يستقذر من النساء، ﴿واصطفاك﴾ ثانيا بهدايته لك، وتخصيصك بتكليم الملائكة، وبالبشارة بالولد من غير أب، فقد اصطفاك ﴿على نساء العالمين﴾.

---

(١) وهو الشيخ البوصيرى.

(٢) انظر فى مسألة نبوة مريم: فتح البارى ٦/٥٤٢.

وفى الحديث عنه ﷺ: «كَمُلَ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ ولَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ إلا مَرْيَمَ ابنةَ عِمْرَانَ، وآسِيَةَ بنت مزاحِم وخديجة بنت خويلد» .. الحديث. قال ابن عزيز: أي: عالـي دهرها، كمـا فُضِّلَتْ خديجة وفاطمة بنت رسول الله ﷺ على نساء أمة محمد ﷺ، بل قال أبو عمر: فاطمة فُضلت على جميع النساء، وهو واضح، لحديث: سيدة نساء أهل الجنة، لكن جاء فى حديث آخر استثناء مريم. فالله أعلم.

وفى الاستيعاب: عن عمران بن حصين: أن النبى ﷺ عاد فاطمة، وهي مريضة، فقال: «كيف تجدك يا بُنَيَّةُ؟» فقالت له: إني لوجعة، وإنه ليزيدني أني مالي طعام آكله، فقال: «يا بُنَيَّةُ، أما ترضين أنك سيدة نساء العالمين» ، فقالت: يا أبت، فأين مريم بنت عمران؟ قال: «تلك سيدةُ نُساءِ عالمها، وأنت سيدة نساء عالمك، والله لقد زوجتك سيداً فى الدنيا والآخرة» هـ. من المحشى.

﴿يا مريم اقنتى لربك﴾ أي: أطيلى الصلاة شكراً لما اختصك به، ﴿واسجدى واركعى مع الراكعين﴾ أي: صلِّى مع المصلين، وقدَّم السجود على الركوع، إما لكونه كذلك فى شرعهم، أو للتنبيه على أن الواو لا ترتب، أو ليقترن ﴿اركعى﴾ بالراكعين، للإيذان بأنَّ من ليس فى صلاتهم ركوع ليسوا بمصلين. وقيل: المراد بالقنوت: إدامة الطاعة، كقوله: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً ﴾ ، وبالسجود: الصلاة، لقوله: ﴿ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ ﴾ ، وبالركوع: الخشوع والإخبات. قاله البيضاوى. وقال الأوزاعى: لما قالت لها الملائكة ذلك، قامت فى الصلاة حتى تورمت قدمها وسالت دما وقيْحا.

الإشارة: لا يصطفى الله العبدَ لحضرته إلا بعد تطهيره من الرذائل، وتحليته بأنواع الفضائل، وقطعه عن قلبه الشواغل، والقيام بوظائف العبودية، وبالآداب مع عظمة الربوبية، والخضوع تحت مجارى الأقدار، والتسليم لأحكام الواحد القهار، فأنفاس المريد ثلاثة: عبادة، ثم عبودية، ثم عبودة، ثم يترقى إلى مطالعة علم الغيوب، الذى أشار إليه الحق تعالى بقوله:

﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله، لحبيبه ﷺ: ﴿ذلك﴾ القصص الذى أطلعتك عليه، هو ﴿من﴾ أخبار ﴿الغيب﴾ الذى لم يكن لك به شعور، وما عرفته إلا بوحينا وإعلامنا، فلا يشك فى نبوتك إلا مطموس أعمى، (و) أيضا: ﴿ما

كنت لديهم﴾ أي: عندهم، حين كانوا ﴿يلقون أقلامهم﴾ لما اقترعوا، ﴿أيهم يكفل مريم، وما كنت لديهم إذ يختصمون﴾ في كفالتها، فتخبرهم عما شهدت، بل لم يكن شيء من ذلك، فتعين أن يكون وحياً حقيقاً، لأنه عليه الصلاة والسلام ـ كان أمياً لم يطالع شيئاً من كتب الأخبار، ولا جلس إلى من طالعهم من الأحبار، بإجماع الخاص والعام. والله تعالى أعلم.

الإشارة: اعلم أن الوحي على أربعة أقسام: وحي منام، ووحي إلهام، ووحي أحكام، ووحي إعلام، وشاركت الأولياءُ الأنبياءَ في ثلاثة: الإلهام والمنام والإعلام، إن كان بغير الملَك، ومعنى وحي إعلام: هو إطلاع الله النبيَّ على أمور مغيبة، فإن كان بواسطة الملك، فهو مختص بالأنبياء، كما اختصت بوحي الأحكام، وأما إن كان بالإلهام أو بالمنام أو بالفهم عن الله، فيكون أيضاً للأولياء، إذ الروح إذا تصفت وتطهرت من دنس الحس أطلعها الله على غيبه في الجملة، وأما التفصيل فلا يعلمه إلا علام الغيوب، والله أعلم.

ثم ذكر الحق تعالى البشارة بعيسى عليه السلام، وهو المقصود الأعظم من هذه القصص؛ ليتخلص للرد على النصارى في زعمهم الفاسد فيه، فقال:

﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾ ﴾

قلت: (إذ قالت): بدل من (وإذ قالت) الأولى، ويبعد إبدالها من (إذ يختصمون)، و(المسيح) وما بعده: إخبار عن اسمه، أو (عيسى): خبر عن مضمر، و(ابن مريم): صفته، و(المسيح): فعيل بمعنى مفعول، لأنه مُسِحَ من الأقذار، أي: طهر منها، أو مسح بالبركة، أو كان مسيح القدم، لا أخمص له، أو مسحه جبريل بجناحه من الشيطان. أو بمعنى فاعل؛ لأنه كان يمسح المرضى فيبرءون، أو يمسح عين الأعمى فيبصر، أو لأنه كان يسيح فى الأرض ولا يقيم فى مكان؛ فتكون الميم زائدة.

وأما المسيح الدجال فإنه ممسوح إحدى العينين، أو لأنه يطوف الأرض ويمسحها، إلا مكة والمدينة، والحاصل: أن عيسى مسيح الخير، والدجال مسيح الشر، ولذلك قيل: إن المسيح يقتل المسيح. و(وجيهًا): حال من (كلمة)؛ لتخصيصه بالصفة، و(فى المهد وكهلا): حالان، أى: طفلاً وكهلا، والمهد: مايمهد للصبى. و(رسولا): مفعولٌ لمحذوف، أى: ونجعله رسولا، و(مصدقا): عطف على (رسولا)، و(لأحِلّ): متعلق بمحذوف، أى: وجئتكم لأُحل. أو معطوف على معنى مصدقا، كقولهم: جئتك معتذرا، أو لأطيب قلبك.

يقول الحق جل جلاله: (و) اذكر أيضا ﴿إذ قالت الملائكة﴾ فى بشارتهم لمريم: ﴿يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه﴾، أى: بولد يتكوّن بكلمة من الله؛ كن فيكون، وقيل: إنما سمى كلمة؛ لكونه مظهراً لكلمة التكوين، متحققًا ومتصرفاً بها. ولذلك كان يظهر عليه خوارق الأقدار أكثر من غيره من الأنبياء، ﴿اسمه المسيح﴾، واسمه ﴿عيسى بن مريم﴾، وإنما قال: ﴿ابن مريم﴾ والخطاب لها، تنبيهاً على أنه يولد من غير أب؛ إذ الأولاد إنما تنسب لأبائها إلا إذا فقد الأب. ثم وصف الولد بقوله: ﴿وجيهاً فى الدنيا والآخرة﴾ أى: شريفاً فى الدنيا بالنبوة والرسالة، وفى الآخرة بالشفاعة لمن تبعه. ويكون ﴿من المقربين﴾ إلى الله تعالى فى الدارين.

﴿ويكلم الناس﴾ طفلا ﴿فى المهد﴾ على وجه خَرْق العادة فى تبرئة أمه، ﴿وكهلا﴾ إذا كمل عقله قبل أن يرفع، أو بعد الرفع والنزول، لأن الكهولة بعد الأربعين، والتحقيق: أنه بشرها بنبوة عيسى وكلامه فى المهد، معجزةً، وفى الكهولة دعوة قبل الرفع وبعده، وما قاربَ الشيء يُعطى حكمه، وحال كونه ﴿من الصالحين﴾ لحضرة رب العالمين.

ولما سمعت البشارة دهشت و﴿قالت﴾: يا ﴿رب أنى يكون لى ولد ولم يمسسنى بشر﴾، والخطاب لله، فانية عن الواسطة جبريل، والاستفهام تعجباً، أو عن الكيفية: هل يكون بتزوج أم لا؟ ﴿قال﴾ لها الملك: ﴿كذلك الله يخلق ما يشاء﴾. أو الأمر كذلك كما تقولين، لكن ﴿الله يخلق ما يشاء﴾؛ لا يحتاج إلى وسائط ولا أسباب، بل ﴿إذا قضى أمرًا فإنما يقول له كن فيكون﴾، ﴿ويعلمه الكتاب﴾ أى: الكتابة والخط، ﴿والحكمة﴾ أى: النبوة، أو الإصابة فى الرأى، ﴿والتوراة والإنجيل﴾.

(و) يجعله ﴿رسولا إلى بنى إسرائيل﴾. وكان أول رسل بنى إسرائيل يوسف، وآخرهم عيسى ـ عليهما السلام ـ، وقال: عليه الصلاة والسلام: «بُعِثْتُ على إِثْرِ ثمانية آلاف نبى، أربعة آلاف من بنى إسرائيل». فإذا بعث إليهم قال: ﴿أنى قد جئتكم بآية من ربكم﴾ أى: بأنى قد جئتكم بآية من ربكم، قالوا: وما هى؟ قال: ﴿أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير﴾؛ كصورته، ﴿فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله﴾، وكان يخلق لهم صورة الخفاش، لأنها أكمل الطير؛ لأن لها ثدياً وأسناناً وتحيض وتطير، فيكون أبلغ فى المعجزة، وكان يطير مادام الناس ينظرون إليه، فإذا غاب عنهم سقط ميتا؛ ليتميز فعل الحق من فعل الخلق.

ثم قال لهم: ولى معجزة أخرى؛ أنى ﴿أبرئ الأكمه﴾ الذى ولد أعمى، فأحرى غيره، ﴿والأبرص﴾ الذى فيه وضح(١). وخصهما؛ لأنهما عاهتان معضلتان. وكان الغالب فى زمن عيسى الطب، فأراهم المعجزة من جنس ذلك. روى: أنه ربما اجتمع عليه من المرضى فى اليوم الواحد ألوف، من أطاق منهم البلوغ(٢) أتاه، ومن لم يطق أتاه عيسى عليه السلام، وإنما كان يداويهم بالدعاء على شرط الإسلام.

﴿وأحيى الموتى بإذن الله﴾ لا بقدرتى دفعاً لتوهم الألوهية، فإن الإحياء ليس من طوق البشر. رُوى أنه أحيا أربعة أنفس: (العازر)، وكان صديقاً له، فأرسلت أخته إلى عيسى أن أخاك العازر يموت، فأتاه من مسيرة ثلاثة أيام فوجده مات، فقال لأخته: انطلقى بنا إلى قبره، وهو فى صخرة مطبقة، فدعا الله تعالى، فقام العازر يقطر ودكه (٣)، فعاش وولد له. و(ابن العجوز)، مُر بجنازته على عيسى عليه السلام فدعا الله تعالى، فجلس على سريره، ونزل عن أعناق الرجال، ولبس ثيابه، وحمل سريره على عنقه، ورجع إلى أهله، وبقى حتى وُلد له. و(ابنة العاشر)، كان يأخذ العشور، قيل له: أتحييها ،وقد ماتت أمس؟ فدعا الله تعالى، فعاشت وولد لها. و(سام بن نوح)، دعا باسم الله الأعظم، فخرج من قبره، وقد شاب نصف رأسه، فقال: أقامت الساعة؟ قال: لا، لكنى دعوت الله فأحياك، مالى أرى الشيب فى رأسك، ولم يكن فى زمانك؟ قال: سمعت الصيحة، فظننت أن الساعة قامت فشبت من هولها. قيل: كان يحيى الموتى بـ ﴿يا حى يا قيوم﴾.

﴿وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون فى بيوتكم﴾، لما أبرأ الأكمه والأبرص قالوا: هذا سحر، أخبرنا بما نأكل وما ندخر؟ فكان يُخبر الرجل بما يأكل فى غدائه وعشائه. ورُوى أنه لما كان فى المكتب، كان يحدث الغلمان بما يصنع لهم آباؤهم من الطعام، فيقول للغلام: انطلق .. غداء أهلك كذا وكذا، فيقول أهله: من أخبرك بهذا؟ قال: عيسى، فحبسوا صبيانهم عنه، وقالوا: لا تلعبوا مع هذا الساحر، فجمعوهم فى بيت، فجاء عيسى

(١) هو بياض يعترى الجلد.
(٢) أى: بلوغ المريض المكان الذى فيه عيسى ـ عليه السلام ـ.
(٣) الودك: دسم اللحم ودهنه.

يطلبهم، فقالوا: ليسوا هاهنا، قال: ماذا في البيت؟ قالوا: خنازير، قال عيسى: كذلك يكونون، ففتحوا الباب، فإذا هم خنازير، فهموا بقتله، فهربت به أمه إلى مصر. قاله السُّدي.

ثم قال لهم: ﴿إن فى ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين﴾، فإن غير المؤمنين لا ينتفع بالمعجزات لعناده، ﴿ومصدقًا لما بين يدى من التوراة﴾ أى: وجئتكم مصدقًا للتوراة، وشاهداً على صحتها، ﴿ولأحلّ لكم بعض الذى حُرم عليكم﴾ فى شريعة موسى عليه السلام كالشحوم والثروب (١) ولحم الأبل والعمل فى السبت. وهذا يدل على أنه ناسخ للتوراة، ولا يخل بكونه مصدقًا له، كما لا يخل نسخ القرآن بعضه لبعض بصحته. فإن النسخ فى الحقيقة: بيان لانتهاء العمل بذلك الحكم. ثم قال لهم : (و) قد ﴿جئتكم بآية﴾ واضحة ﴿من ربكم﴾، قد شاهدتموها بأعينكم، فما بقى إلا عنادكم، ﴿فاتقوا الله وأطيعون﴾.

ثم دعاهم إلى التوحيد بعد بيان الحجة فقال: ﴿إن الله ربى وربكم فاعبدوه﴾ ولاتعبدوا معه سواه، ﴿هذا صراط مستقيم﴾ لا عوج فيه. قال البيضاوى: أى: لما جئتكم بالمعجزات القاهرة والآيات الباهرة، ﴿فاتقوا الله﴾ فى المخالفة، ﴿وأطيعون﴾ فيما أدعوكم إليه، ثم شرع فى الدعوة وأشار إليها بالقول المجمل، فقال: ﴿إن الله ربى وربكم﴾؛ أشار إلى استكمال القوة النظرية بالاعتقاد الحق الذى غايته التوحيد، وقال: ﴿فاعبدوه﴾؛ إشارة إلى استكمال القوة العملية بملازمة الطاعة، التى هى الإتيان بالأوامر والانتهاء عن المناهى، ثم قرر ذلك بأن الجمع بين الأمرين هو الطريق المشهود له بالاستقامة، ونظيره: قوله عليه الصلاة والسلام: «قُلْ آمَنْتُ بِاللهِ ثم استَقِمْ».

الإشارة: كل من انقطع بكليته إلى مولاه، وصدف عن حظوظه وهواه، وأفنى شبابه فى طاعة ربه، وجعل يلتمس فى حياته دواء قلبه، تحققت له البشارة فى العاجل والآجل، وحصل له التطهير من درن العيوب والرذائل، ورزقه من فواكه العلوم، ما تتضاءل دون إدراكه غاية الفهوم، هذه مريم البتول أفنت شبابها فى طاعة مولاها، فقربها إليه وتولاها، وبشرها بالاصطفائية والتطهير، وأمرها شكراً بالجد والتشمير، ثم بشرها ثانياً بالولد النزيه والسيد النبيه، روح الله وكلمة الله، من غير أب ولاسبب، ولا معالجة ولا تعب، أمره بأمر الله، يبرئ الأكمه والأبرص ويحيى الموتى بإذن الله، هذا كله ببركة الانقطاع وسر الاتباع.

قال ﷺ : «من انقطع إلى الله كفَاه الله كلَّ مؤْنة، ورزَقه من حيثُ لا يحتسِب، ومن انقطعَ إلى الدنيا وكَله الله تعالى إليها».

---

(١) الثروب : جمع ثرب، وهو شحم دقيق يغطي الكرش والأمعاء.

وقال بعضهم: صِدْقُ المجاهدة: الانقطاع إليه من كل شيء سواه. فالانقطاع إلى الله في الصغر يخدم على الإنسان في حال الكبر، ومعاصي الصغر تجر الوبال إلى الكبر، فكما أن عيسى عليه السلام كان يبرئ الأكمه والأبرص بإذن الله، كذلك من انقطع بكُلِّيته إلى الله أبرأ القلوبَ السقيمة بإذن الله، وأحيا موتى القلوب بذكر الله، وأخبر بالغيوب وما تدخره ضمائر القلوب، يدل على طاعة الله، ويدعو بحاله ومقاله إلى الله، يهدي الناس إلى الصراط المستقيم، ويوصل من اتبعه إلى حضرة النعيم. وبالله التوفيق، وهو الهادي إلى سواء الطريق.

ولما تمت البشارة بعيسى عليه السلام وظهر إلى الدنيا، وبلغ وقت الدعوة، بعثه الله إلى بني إسرائيل، فكفروا به، فلما تحقق كفرهم طلب من ينصره إلى الله، كما أشار الحق تعالى إلى ذلك بقوله:

﴿ ۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾

قلت: (من أنصاري إلى الله): الجار يتعلق بحال محذوفة، أي: ذاهبًا إلى الله إلى نَصْر دينه، أو مُضيفًا نفسه إلى الله، أو ملتجئًا إلى الله، أو يتعلق بـ (أنصاري)؛ مضمنًا معنى الإضافة، أي: من يضيف نفسه إلى الله في نصره. وحواري الرجل: خاصته، الذين يستعين بهم في نوائبه، وفي الحديث عنه ـ عليه الصلاة السلام ـ: «لكلِّ نبي حَوَارِي، وحَوَارِيي: الزُّبَيْر». وحواريو عيسى: أصحابه الذين نصروه، وسموا بذلك لخلوص نيتهم ونقاء سريرتهم. والحَوَرُ: البياض الخالص، وكل شيء بيّضته فقد حوَّرته، ويقال للبيضاء من النساء: حوارية. وقيل: كان الحواريون قَصَّارين[1]، يُحَوِّرُون الثياب، أي: يبيضونها، وقيل: كانوا ملوكًا يلبسون البياض.

يقول الحق جل جلاله: ﴿فلما أحس عيسى﴾ من بني إسرائيل ﴿الكفر﴾، وتحققه تَحَقُّقَ ما يدرك بالحواس، بعدما بُعث إليهم، وأرادوا قتله، فرَّ منهم واستنصر عليهم، و ﴿قال من أنصاري﴾ ملجأً ﴿إلى الله﴾، أو ذاهبًا إلى نصر دينه، ﴿قال الحواريون نحن أنصار الله﴾ أي: أنصار دينه، ﴿آمنا بالله واشهد﴾ علينا بأننا ﴿مسلمون﴾؛ لتشهد لنا يوم القيامة، حين يشهد الرسل لقومهم، ﴿ربنا آمنا بما أنزلت﴾ على نبيك من الأحكام، ﴿واتبعنا الرسول﴾ عيسى عليه السلام، ﴿فاكتبنا مع الشاهدين﴾ بوحدانيتك، أو مع الذين يشهدون لأنبيائك

(١) القصار: المبيض للثياب، وهو الذي يهيىء النسيج بعد نسجه، ببلّه ودقه بالقصرة ـ التي هي القطعة من الخشب.

بالصدق، أومع الأنبياء الذين يشهدون لأتباعهم، أو مع أمة محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ فإنهم شهداء على الناس.

قال عطاء: سَلَمَتْ مريمُ عيسى إلى أعمال شتى، وآخر ما دفعته إلى الحواريين، وكانوا قصّارين وصباغين، فأراد معلّم عيسى السفر، فقال لعيسى: عندي ثياب كثيرة مختلفة الألوان، وقد علمتك الحرفة فاصبغها، فطبخ جبًّا واحداً، وأدخل فيه جميع الثياب، وقال لها: كوني على ما أريد، فقدم الحواريُّ، والثياب كلها في الجب، فلما رآها قال: قد أفسدتها، فأخرج عيسى ثوباً أصفر، وأحمر، وأخضر، إلى غير ذلك، فعجب الحواري، وعلم أنَّ ذلك من الله تعالى، ودعا الناس إليه، وآمنوا به، ونصروه، فهم الحواريون.

ولما أخرجه بنو إسرائيل عاد إليهم مع الحواريين، وصاح فيهم بالدعوة، فهمُّوا بقتله، وتواطئوا عليه، ﴿ومكروا﴾ أي: دبروا الحيل في قتله، ﴿ومكر الله﴾ بهم، أي: استدرجهم حتى قتلوا صاحبهم، ورُفع عيسى عليه السلام، فالمكر في الأصل: هو حيلة يجلب بها غيره إلى مضرة. ولا تسند إلى الله إلا على حسب المقابلة والازدواج، كقوله: ﴿يخادعون الله وهو خادعهم﴾، وقوله: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾، ﴿والله خير الماكرين﴾. أي: أشدهم مكراً، وأقواهم على إيصال الضرر من حيث لا يحتسب، أو أفضل المجازين بالعقوبة؛ لأنه لا أحد أقدر على ذلك منه.

تنبيه: قيل للجنيد رضي الله عنه: كيف رَضِيَ المكرَ لنفسه، وقد عابه على غيره؟ قال: لا أدري، ولكن أنشدني فلان للطبرانية:

فَـديْتُك قـد جُـبِلْتُ على هواكَ ونفْـسي مـا تَحِنُّ إلى سِـواكَ
أُحِـبّك، لا بِبَـعْـضِـي بل بكلِّي وإن لم يُبْقِ حُـبُّكَ لي حِـرَاكَـا
وَيَقْـبُحُ مِنْ سِـوَاكَ الْفِـعْلُ عِنْدِي وتَفْـعلُهُ فَـيَـحْـسُنُ مِنْكَ ذَاكَ(١)

فقال له السائل: أسألك عن القرآن، وتجيبني بشعر الطبرانية؟ قال: ويحك، قد أجبتك إن كنت تعقل. إنَّ تخليته إياهم مع المكرية، مكرٌ منه بهم. هـ.

قلت: وجه الشاهد في قوله: (وتفعله فيحسن منك ذاك)، ومضمن جوابه: أن فعل الله كله حسن في غاية الإتقان، لا عيب فيه ولا نقصان، كما قال صاحب العينية:

وَكلُّ قَـبِـيحٍ إنْ نَسَـبْتَ لِحُسْنِه أَتَتْكَ مَعَانِي الْحُسْنِ فِيهِ تُسَارِعُ
يُكَمِّلُ نُقْـصَـانَ الْقَبِـيحِ جَمَـالُهُ فَـمَـا ثَمَّ نُقْـصَـانٌ وَلاَ ثَمَّ بَاشِعُ

(١) القصة ذكرها مختصرة أبو حيان في التفسير ٢/٤٩٦ مقتصراً على البيت الثالث.

وتخليته تعالى إياهم مع المكر، تسبب عنه الرفع إلى السماء، وإبقاء عيسى حيًا إلى آخر الزمان، حتى ينزل خليفة عن نبينا ـ عليه الصلاة والسلام ـ. فكان ذلك في غاية الكمال والإتقان، لكن لا يفطن لهذا إلا أهل العرفان.

الإشارة: يجب على المريد الصادق الذي يطلب دواء قلبه، أن يفر من الوطن الذي يظهر فيه الإنكار، إلى الوطن الذي يكثر فيه الإقرار، يفر إلى من يعينه على نصر الدين من الأبرار المقربين، الذين جعلهم الله حوارى الدين، ففى الحديث الصحيح: «خَيْرُ مالِ الْمُسلِم غنَمٌ يتْبَعُ بها شَعَفَ(١) الجبَالِ يَفِرُّ مِنَ الْفِتَنِ». فالمؤمن يفر بدينه من شاهق جبل إلى شاهق جبل حتى يدركه الموت، ومازالت الأكابر تفر بنفسها إلى شواهق الجبال، يهربون من حس الدنيا وشغبها، ولا يرافقون إلا من يستعين بهم على ذكر الله، وهم أهل التجريد، الذين اصطفاهم الله لخالص التوحيد، فروا إلى الله فآواهم الله، قالوا: (آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون) منقادون لما تريد منا، (ربنا آمنا بما أنزلت) من الأحكام الجلالية والجمالية، قد عرفناك في جميع الحالات، (فاكتبنا مع الشاهدين) لحضرتك، المنعمين بشهود ذاتك، ومن مكر بنا من القواطع الخفية فَغَيِّبنا عنه بشهود أنوارك القدسية، وانصرنا فإنك خير الناصرين، ولا تدعنا مع مكر الماكرين يا رب العالمين.

ثم ذكر الحق تعالى رفع عيسى إلى السماء فقال:

﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾ ﴾

قلت: (إذ قال): ظرف لمقدر، أي: اذكر، أو وقع ذلك إذ قال، أو لمكروا، و(متوفيك) أي: رافعك إليّ وافيًا تامًا، من قولهم: توفيت كذا واستوفيته: قبضته وافيًا تامًا، أو مميتك عن الشهوات العائقة عن العروج إلى عالم الملكوت، أو منيمك؛ بدليل قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ ﴾، رُوى أنه رُفع نائما، والإجماع على أنه لم يمت،

(١) (شعف)، بفتح الشين والعين: جمع شعفة، وهى من كل شيء: أعلاه. والمراد بها هنا: رءوس الجبال.

قال تعالى: ﴿ وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم ﴾ ، وقوله: (ذلك) مبتدأ، و(نتلوه) : خبر، و(من الآيات) : حال، أو (من الآيات) : خبر، و(نتلوه) : حال، أو خبر بعد خبر.

يقول الحق جل جلاله: اذكر ﴿إذ قال الله﴾ لعيسى عليه السلام لما أراد رفعه: ﴿يا عيسى إنى متوفيك﴾ ، أى: قابضك إلى ببدنك تاما، ﴿ورافعك إلىّ﴾ أى: إلى محل كرامتى ومقر ملائكتى، ﴿ومطهرك من الذين كفروا﴾ أى: من مخالطة دنس كفرهم، ﴿وجاعل الذين اتبعوك﴾ ؛ ممن صدق بنبوتك من النصارى والمسلمين، وقال قتادة والشعبى والربيع: هم أهل الإسلام. هـ. فوالله ما اتبعه من ادعاه ربا، فمن تبع دينه حقا جعل ﴿فوق الذين كفروا﴾ به من اليهود ﴿إلى يوم القيامة﴾ ؛ يغلبونهم بالحجة والسيف. وقد حقق الله فيهم هذا الأمر، فإن اليهود لم ترفع لهم راية قط، ولم يتفق لهم ملك ولا دولة إلى زمننا هذا(١).

ثم قال تعالى: ﴿ثم إلىّ مرجعكم﴾ بالبعث، ﴿فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون﴾ من أمر الدين وأمر عيسى. ﴿فأما الذين كفروا فأعذبهم عذابا شديدا فى الدنيا والآخرة﴾ أى: فأجمع لهم عذابا الآخرة لعذاب الدنيا الذى أصابهم فيها من القتل والسبى. ﴿وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فنوفيهم أجورهم﴾ فى الدارين بالنصر والعز فى الدنيا، وبالرضا والرضوان فى الآخرة، ﴿والله لا يحب الظالمين﴾ ؛ لا يرضى فعلهم ولا يقربهم إليه.

﴿ذلك﴾ الذى ذكرت لك من نبأ عيسى ومريم ومن ذكر قبلهما، ﴿نتلوه عليك من الآيات﴾ أى: العلامات الدالة على صدقك، لأنها أخبار عن أمور لم تشاهدها ولم تقرأها فى كتاب، بل هى من ﴿الذكر الحكيم﴾ ، وهو القرآن المبين.

الإشارة: كل من طهر سره من الأكدار، وقدس روحه من دنس الأغيار، ورفع همته عن هذه الدار، عرج الله بروحه إلى سماء الملكوت، ورفع سره إلى مشاهدة سنا الجبروت، وبقى ذكره حياً لا يموت، وجعل من انتسب إليه فى عين الرعاية والتعظيم، وفى محل الرفعة والتكريم، قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: « هَاجِرُوا تكسبوا العز لأولادكم » ، فمن هاجر وطن الحظوظ والشهوات، والركون إلى العوائد والمألوفات، عرجت روحه إلى سماء القدس ومحل الأنس، وتمكن من العز الذى لا يفنى، ينسحب عليه وعلى أولاده ومن انتسب إليه؛ إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، (وهو خير الوارثين) . هذه سنة الله فى خلقه، لأنهم نصروا دين الله ورفعوا كلمة الله، فنصرهم الله، ورفعهم الله، قال تعالى: ﴿ إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ ﴾ ، وقال تعالى: ﴿ وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ﴾ . وفى الحكم: «إن أردت إن يكون لك عز لا يفنى، فلا تستعزن بعز يفنى» . والله تعالى أعلم.

(١) أى: إلى زمن المؤلف، أما فى زمننا، فقد أنشأوا لهم دولة، فى قلب عالمنا الإسلامى، فى فلسطين العربية، بمعاونة الدول الظالمة. اللهم أزل دولتهم وفرق شملهم.. آمين.

وقال القشيري: الإشارة فيه: إني متوفيك عنك وقابضك منك، ورافعك عن نعوت البشرية، ومطهرك عن إرادتك بالكلية، حتى تكون مصدقًا لنا بنا، ولا يكون لك من اختيارك شيء، وتكون إسبال التولي عليك قائمًا، وبهذا الوصف كان يظهر على يده إحياء الموتى، وما كانت تلك الأحداث حاصلة إلا بالقدرة عليه. هـ. وقال الورتجبي: متوفيك عن رسم الحدوثية، ورافعك إليَّ بنعت الربوبية، ومطهرك عن شوائب البشرية. هـ.

ثم ذكر نشأة عيسى وخلقه، فقال:

﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٥٩ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ۝٦٠ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿إن مثل عيسى عند الله﴾ أي: إن شأنه الغريب في كونه وجد من غير أب (كمثل آدم)، ثم فسر شأن آدم فقال: ﴿خلقه من تراب﴾ أي: خلق قالبه من تراب، ﴿ثم﴾ نفخ فيه الروح، و﴿قال له كن فيكون﴾ أي: فكان، فشأنه أغرب من شأن عيسى، لأنه وجد من غير أب ولا أم، بخلاف عيسى عليه السلام، فلا يستغرب حاله ويتغالى فيه إلا من طبع الله على قلبه، فاستعجز القدرة الإلهية، ﴿وكان الله على كل شيء مقتدرا﴾. هذا هو ﴿الحق من ربك فلا تكن من الممترين﴾ أي: الشاكين في مخلوقيته، وهذا خطاب للنبي ﷺ، على طريق التهييج لغيره، أو لكل سامع.

وسبب نزول الآية: أنَّ وفد نجران قالوا للنبي ﷺ: مالك تشتم صاحبنا، فتقول: إنه عبد؟ قال: أجل، هو عبدالله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول، فغضبوا، وقالوا: هل رأيت إنسانًا قط من غير أب؟ فإن كنت صادقًا فأرنا مثله. فنزلت: ﴿إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم﴾. أي: فهو أعجب من عيسى، لكونه بلا واسطة أصلًا. رُوي أن مريم حملت بعيسى وهي بنت ثلاث عشرة سنة، وأوحى الله إليه على رأس ثلاثين سنة، ورفعه إليه من بيت المقدس ليلة القدر، وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة، وعاشت أمه بعد رفعه ست سنين.

قال عليه الصلاة والسلام: «أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم؛ لأنه لم يكن بيني وبينه نبي، فإنه نازل بأمتي وخليفتي فيهم، فإذا رأيتموه فاعرفوه، فإنه رجل مربوع إلى الحمرة والبياض، سبط الشعر، كأن شعره يقطر، وإن لم يصبه بلل، يدق الصليب، ويقتل الخنزير، ويفيض المال، وليسلكن الروحاء[1] حاجا أو معتمرا، أو ليَثْنِيَنَّهما جميعا، ويقاتل الناس على الإسلام، حتى يُهلك الله في زمانه الملل كلها، ويهلك الله في زمانه مسيح الضلالة، الكذاب

(١) فج الروحاء: طريق بين مكة والمدينة، كان طريق رسول الله ﷺ إلى بدر، وإلى مكة، عام الفتح وعام الحج.

الدجال، وتقع في الأرض الأمنة، حتى ترتع الأسد مع الإبل، والنمر مع البقر، والذئاب مع الغنم، ويلعب الغلمان بالحيات، ويلبث في الأرض أربعين سنة، ثم يتزوج ويولد له ثم يتوفى، ويصلي المسلمون عليه» . ويدفنونه في حجرة النبي ﷺ.

الإشارة: اعلم أن الحق ـ جل جلاله ـ أظهر هذا الآدمي في شكل غريب، وسر عجيب، جمع فيه بين الضدين، وأودع فيه سر الكونين، نوراني ظلماني، روحاني جسماني، سماوي أرضي، ملكوتي ملكي، معنوي حسي، أودع فيه الروح نورانية لاهوتية في نطفة ناسوتية، فوقع التنازع بين الضدين، فالروح تحن إلى وطنها اللاهوتي، والنطفة الطينية تحن إلى وطنها الناسوتي، فمن غلبت روحانيته على طينته التحق بالروحانيين، وكان من المقربين في أعلى عليين، فصارت همته منصرفة إلى طاعة مولاه، والارتقاء إلى مشاهدة نوره وسناه، فانيا عن حظوظه وهواه، ومن غلبت طينته على روحانيته التحق بالبهائم أو الشياطين، وانحط إلى أسفل سافلين، وكانت همته منصرفة إلى حظوظه وهواه، غائبا عن ذكر مولاه، قد اتخذ إلهه هواه.

وتأمل قضية السيد عيسى عليه السلام لمّا لم ينشأ من نطفة أمشاجية، كيف غلبت روحانيته، حيث لم تجد ما يجذبها إلى الحضيض الطيني، فلم يلتفت إلى هذا العالم الظلماني أصلا، وكذلك الأنبياء حيث طهروا من بقاياها في الأصالة، والأولياء حيث طهروها بالمجاهدة، كيف صارت أرواحهم لا تشتاق إلا إلى الأذكار والعلوم والأسرار، فانية في محبة الواحد القهار، حتى لحقت بوطنها، ورجعت إلى أصلها ،محل المشاهدة والمكالمة والمناجاة والمسارة، هذا هو الحق من ربك فلا تكن من الممترين في إدراك الروح هذا المقام، إن لم يغلب عليها عالم الصلْصَال. والله ـ تعالى ـ أعلم.

ولما قامت الحجة على النصارى، وتبيّن عنادهم، دعاهم إلى المباهلة، فقال:

﴿ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾ ﴾

قلت: أصل (تعالوا): تعاليوا، على وزن تفاعلوا، من العلو، فقلبت الياء ألفاً لتحركها، ثم حذفت، ومن قرأ بالضم نقل، وأصل معناها: ارتفع، ثم أطلق على الأمر بالمجيء. والابتهال: التضرع والمبالغة في الدعاء.

يقول الحق جل جلاله: ﴿فمن﴾ خاصمك يا محمد في شأن عيسى عليه السلام، وكان الذي خاصم في ذلك السيد والعاقب، لما قدموا مع نصارى نجران على النبي ﷺ، قال لهما النبي ﷺ : «أسلما» ، قالا: قد أسلمنا قبلك، قال: «كذبتما، يمنعكما من الإسلام دعاؤكما عيسى لله ولدا، وعبادتكما الصليب، وأكلكما الخنزير» ، قالا: إن

لم يكن عيسى ولداً لله فمن أبوه؟ فقال لهما النبي ﷺ: ألستم تعلمون أنه لا يكون ولد إلا وهو يشبه أباه؟ قالوا: بلى، قال: ألستم تعلمون أن ربنا حي لا يموت، وأن عيسى يأتي عليه الفناء؟ قالوا: بلى، قال: ألستم تعلمون أن ربنا قيِّم كل شيء، ويحفظه، ويرزقه؟ قالوا: بلى، قال: فهل ملك عيسى شيئاً من ذلك؟ فقالوا: لا. قال: ألستم تعلمون أن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء؟ قالوا: بلى، قال: فهل يعلم عيسى من ذلك إلا ما علِّم؟ قالوا: لا. قال: فإن ربنا صوَّر عيسى في الرحم كيف شاء، وربنا لا يأكل ولا يشرب ولا يُحدث، قالوا: بلى. قال: ألستم تعلمون أن عيسى حملته أمه كما تحمل المرأة ثم وضعته كما تضع المرأة ولدها، ثم غُذِّي كما يغذى الصبي، ثم كان يطعم ويشرب ويحدث؟ قالوا: بلى. قال: كيف يكون هذا كما زعمتم؟ فسكتوا.. فأنزل فيهم السورة إلى هنا.

فقال الحق لنبيه ـ عليه الصلاة السلام ـ: ﴿فمن حاجك فيه﴾ أي: في عيسى من النصارى، ﴿من بعد ما جاءك من العلم﴾ بعبوديته، ﴿فقل﴾ لهم: ﴿تعالوا﴾ نتَلاَعَن، أي: نلعن الكاذبَ منا؛ ﴿ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم﴾ أي: يدعو كل واحد منا نفسه وأعزة أهله وألصقهم بقلبه إلى المباهلة، وإنما قدَّمهم على النفس؛ لأن الرجل يخاطر بنفسه دونهم، فكان تقديمهم أبلغ في الابتهال، ﴿ثم نبتهل﴾، أي نجهد في الدعاء على الكاذب، ﴿فنجعل لعنة الله على الكاذبين﴾.

فلما قرأ النبي ﷺ هذه الآية على وفد نجران، ودعاهم إلى المباهلة، قالوا: حتى نرجع وننظر في أمرنا، فقالوا للعاقب ـ وكان ذا رأيهم ـ: ما ترى؟ فقال: والله لقد عرفتم يا معشر النصارى أن محمداً نبي مرسل، ولقد جاءكم بالفصْل من أمر صاحبكم، والله مالاعن قومٌ قط نبياً فعاش كبيرُهم، ولا نبت صغيرُهم، ولئن فعلتم ذلك لتهلكن، فوادِعوا الرَّجُلَ. وانصرفوا، فأتوه وهو محتضنٌ الحسن آخذ بيد الحسين، وفاطمةُ تمشي خلفه، وعليّ خلفها، وهو يقول لهم: «إذَا دَعَوْتُ فأمِّنُوا»، فقال الأسقف: يا معشر النصارى، إني لأرى وجُوها لو سألوا الله أن يُزيل جبلا من مكانه لأزاله، فلا تتباهلوا فتهلكوا جميعا إلى يوم القيامة. فقالوا: يا أبا القاسم، نرى ألا نلاعنك، فقال النبي ﷺ: أسلِمُوا يَكُنْ لكم ما للمسلمين وعليكم ما عليهم، فأبَوا، فقال: إني أُنابذكم، فقالوا: مالنا بحرب العرب طاقة، ولكنا نصالحك على ألا تغزونا ولا تَرُدَّنا عن ديننا، على أن نؤدي إليك في كل عام ألفَيْ حلة، ألفا في صفَر، وألفا في رجب، وثلاثين درعا من حديد. فصالحهم النبي ﷺ على ذلك، فقال النبي: «والذي نفسي بيده لو تلاعنوا لمُسِخُوا قِرَدَة، وخَنَازِير، ولأضْرِمَ عَلَيهِمُ الوَادِي نَاراً، ولاستأصَلَ اللهُ نَجْرَانَ وأهْلَهُ، ولَمَا حَالَ الحَوْلُ على النَّصَارى كلِّهِمْ حتّى هلَكوا».

قال الله تعالى: ﴿إن هذا﴾ الذي أوحينا إليك ﴿لهو القصص الحق وما من إله إلا الله﴾، خلافًا لما يزعم النصارى من التثليث، ﴿وإن الله لهو العزيز﴾ في ملكه ﴿الحكيم﴾ في صنعه، فلا أحد يساويه في قدرته التامة، ولا في حكمته البالغة، ﴿فإن تولوا﴾ وأعرضوا عن الإيمان، ﴿فإن الله عليم بالمفسدين﴾، الذين يعبدون غير الله.

ووضع المظهر موضع الضمير، ليدل على أن التولى عن الحجج والإعراض عن التوحيد إفساد للدين، بل يؤدى إلى فساد العالم. والله تعالى أعلم.

الإشارة: ينبغى للمريد، الذى تحقق بخصوصية شيخه، أن يلاعن من يخاصمه فيه، ويبعد عنه كل البعد، ولايهين له لئلا يركبه، ويدفع عن شيخه ما استطاع، فإنّ هذا من التعظيم الذى هو سببٌ فى سعادة المريد، ولايصغى إلى المفسدين الطاعنين فى أنصار الدين. قلت: وقد جاءنى بعض من ينتسب إلى العلم من أهل فاس، فقال لى: قد اتفقت علماء فاس على بدعة شيخكم، فقلت له: لو اتفق أهل السموات السبع والأرضين السبع، على أنه من أهل البدعة، لقلت أنا: إنه من أهل السنة، لأنى تحققت بخصوصيته، كالشمس فى أفق السماء، ليس دونها سحاب. فالله يرزقنا حسن الأدب معهم والتعظيم إلى يوم الدين. آمين. فمن أعرض عن أولياء الله من المنكرين؛ (فإن الله عليم بالمفسدين).

ثم دعاهم إلى التوحيد الذى اتفقت عليه سائر الأديان، فقال:

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾

قلت: (سواء): مصدر، نعت للكلمة، والمصادر لا تثنى ولا تجمع ولا تؤنث، فإذا فتحت السين مددت، وإذا ضمت أو كسرت قصرت، كقوله: ﴿ مَكَانًا سُوًى ﴾ أى: مستو. وسواء كل شيء: وسطه، قال تعالى: ﴿ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴾، أى: وسطه.

يقول الحق جل جلاله: ﴿قل﴾ يا محمد: ﴿يا أهل الكتاب﴾ اليهود والنصارى، ﴿تعالوا﴾: هلموا ﴿إلى كلمة سواء﴾ أى: عدل مستوية، ﴿بيننا وبينكم﴾؛ لا يختلف فيها الرسل والكتب والأمم، هى ﴿ألا نعبد إلا الله﴾ أى: نوحده بالعبادة، ونقر له بالوحدانية، ﴿ولا نشرك به شيئا﴾ أى: لا نجعل غيره شريكاً له فى استحقاق العبادة، ﴿ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابًا من دون الله﴾ أى: لا نقول عزير ابن الله، ولا المسيح ابن الله، ولا نطيع الأحبار فيما أحدثوا من التحريم والتحليل، لأنهم بشر مثلنا.

ولمّا نزل قوله تعالى: ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ.. ﴾ قال عدى بن حاتم: ما كُنَّا نعبدهم يا رسول الله، قال: «أليس كانُوا يُحِلُّون لَكُمْ ويُحرِّمون، فتأْخُذُون بقَوْلِهِم؟ قال: بلى، قال: هُوَ ذَاكَ» ﴿فإن

تولوا﴾ وأعرضوا عن التوحيد ﴿فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون﴾، فقد لزمتكم الحجة، فاعترفوا بأنا مسلمون دونكم، وأنتم كافرون بما نطقت به الكتبُ وتواطأت عليه الرسل.

تنبيه: انظر ما في هذه الآية من المبالغة وحسن التدرج في الاحتجاج، بيَّن أولاً أحوال عيسى وما تطاور عليه من الأطوار المنافية للألوهية، ثم ذكر ما يحل عقدتهم ويزيح شبهتهم، فلما رأى عنادهم ولجاجهم دعاهم إلى المباهلة بنوع من الإعجاز، ثم لمّا أعرضوا عنها وانقادوا بعض الانقياد، عاد عليهم بالإرشاد، وسلك طريقاً أسهل وألزم، بأن دعاهم إلى ما وافق عليه عيسى وسائر الأنبياء والكتب، ثم لمّا لم يُجد ذلك فيهم شيئاً، وعلم أن الآيات والنذر لا تغني عنهم شيئًا أعرض عنهم، وقال: ﴿فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون﴾. قاله البيضاوي.

الإشارة: الطرق كثيرة والمقصد واحد، وهو التوحيد الخاص، أعني مقام الفناء والبقاء. فالداعُون إلى الله كلهم متفقون على الدعوة إلى هذا المقصد، فكل طريق لا توصل إلى هذا المقصد لا عبرة بها، وكل داع لا يُبلغ إلى هذا الجمال فهو دجال، فإنْ رضى بتعظيم الناس، ولم يبْنِ طريقه على الأساس، فليس لصاحبه إلا الإفلاس، وكل من أطاع المخلوق في معصية الله فقد اتخذه رباً من دون الله، وكل من تولى عن طريق الإرشاد فقد استوجب لنفسه الطرد والبعاد، فيقول له الواصلون أو السائرون: (فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون) . وبالله التوفيق، وهو الهادي إلى سواء الطريق.

ولما قدم وفدُ نجران المدينة، التقوا مع اليهود، فاختصموا في إبراهيم عليه السلام فأتاهم النبي ﷺ، فقالوا: يا محمد إنا اختلفنا في إبراهيم ودينه، فقالت النصارى: كان نصرانيا، وقالت اليهود: كان يهوديا، وهم أولى الناس به، فقال النبي ﷺ: «كلا الفريقين بريء من إبراهيم، بل كان إبراهيم حنيفًا مسلما، وأنا على دينه، فاتبعوا دينه الإسلام» . فأنزل الله:

﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوۡلَى ٱلنَّاسِ بِإِبۡرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾

قلت : (ها أنتم) : أصله: أنتم، دخلت عليه هاء التنبيه، وقال الأخفش: أصله: أأنتم، فقلبت الهمزة الأولى هاء، كقوله: هرقت. وتوجيه القراءات معلوم في محله، و(أنتم) : مبتدأ، و(هؤلاء) : خبره، و(حاججتم) : جملة مبينة للأولى، أو (حاججتم) : خبر، و(هؤلاء) : منادى بحذف النداء، و(حنيفًا) : حال، أي: مائلاً عن الأديان إلا دين الإسلام.

يقول الحق جل جلاله : ﴿يا أهل الكتاب لم تُحاجون في إبراهيم﴾، ويدعى كل فريق أنه كان على دينه، ﴿وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده﴾، فكيف يكون يهودياً، ودينكم إنما حدث بعد إبراهيم بألف سنة؟! وكيف يكون نصرانيا، ودين النصرانية إنما ظهر بعد إبراهيم بألفي سنة؟! ﴿أفلا تعقلون﴾ فتدعون المحال، ﴿ها أنتم﴾ يا ﴿هؤلاء﴾ الحمقى ﴿حاججتم فيما لكم به علم﴾ من أمر محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ ونبوته، مما وجدتموه في التوراة والإنجيل، فأنكرتموه عناداً وحسداً، فلِمَ تجادلون فيما لا علم لكم به، ولا ذكر في كتابكم من شأن إبراهيم؟ ﴿والله يعلم﴾ ما خاصمتم فيه، ﴿وأنتم لا تعلمون﴾، بل أنتم جاهلون.

ثم صرح بتكذيب الفريقين فقال: ﴿ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفًا﴾ مائلاً عن العقائد الزائغة، (مسلمًا) منقاداً لأحكام ربه. وليس المراد أنه كان على ملة الإسلام، وإلا لكان مشترك الإلزام، لأن دين الإسلام مؤخر أيضا، فكان إبراهيم إمام الموحدين، ﴿وما كان من المشركين﴾ كما عليه اليهود والنصارى والمشركون. ففيه تعريض بهم، ورد لادعائهم أنهم على ملته.

ثم ذكر مَنْ أولى الناس به، فقال: ﴿إن أولى الناس بإبراهيم﴾ أي: أخصهم به وأقربهم منه، ﴿للذين اتبعوه﴾ من أمته في زمانه، ﴿وهذا النبي﴾ محمد ﷺ، ﴿والذين آمنوا﴾؛ لموافقتهم له في أكثر الأحكام، قال ﷺ: «لكُلِّ نَبيٍّ وُلاة مِنَ النَّبيِّينَ، وإنَّ وَلِيِّي منهم أبِي وَخَليلُ رَبِّي» . يعني: إبراهيم عليه السلام، ﴿والله ولي المؤمنين﴾ أي: ناصرهم على سائر الأديان، ومجازيهم بغاية الإحسان.

الإشارة: ترى كثيراً من المتفقرة يخصون الكمال بطريقهم، ويخاصمون في طريق غيرهم، وهي نزعة أهل الكتاب، حائدة عن الرشد والصواب، فأولى بالحق من اتبع السنة المحمدية، وتخلق بالأخلاق المرضية، وزهد في الدارين، ورفع همته عن الكونين، ورفع حجاب الغفلة عن قلبه، حتى أشرقت عليه أنوار ربه، واتصل بأهل التربية النبوية، فزجوا به في بحار الأحدية، ثم ردوه إلى مقام الصحو والتكميل، فياله من مقام جليل، فهذه ملة إبراهيم الخليل، وبها جاء الرسول الجليل حبيب الرحمن، وقطب دائرة الزمان، سيد المرسلين، وإمام العارفين، ورسول رب العالمين، صلى الله عليه وسلم دائماً إلى يوم الدين.

ثم شرع فى معاتبة اليهود وذكر مساوئهم، فقال:

﴿ وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَـٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾ ﴾

قلت: (لو): مصدرية، أي: تمنوا إضلالكم.

يقول الحق جل جلاله لبعض المسلمين ـ وهم حذيفة وعمار ومعاذ ـ دعاهم اليهود إلى دينهم وطمعوا فيهم: ﴿ودت طائفة﴾ أي: تمنت طائفة ﴿من أهل الكتاب لو يُضلونكم﴾ أي: يفتنونكم عن دينكم، ويتلفونكم عن طريق الحق، ﴿وما يُضلون إلا أنفسهم﴾؛ لأن المسلمين لا يقبلون ذلك منهم، فرجع الضلال عليهم، وعاد وباله إليهم، وتضاعف عذابه عليهم، ﴿وما يشعرون﴾ أن وباله راجع إليهم.

ثم صرح الحق تعالى بعتابهم، فقال: ﴿يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله﴾ المنزلة على نبيه محمد ﷺ وتجحدون رسالته؟ ﴿وأنتم تشهدون﴾ أنها من عند الله، وأنه نبى الله، وهو منعوت عندكم فى التوراة والإنجيل، والمراد أحبارهم، أو تشهدون أنه نبى الله بالمعجزات الواضحات. ﴿يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل﴾ بالتحريف وإبراز الباطل فى صورة الحق، حتى كتمتم نعت محمد وحرفتموه، وأظهرتم موضعه الباطل الذى سولت لكم أنفسكم؟ ﴿وتكتمون الحق﴾؛ نبوة محمد ﷺ، ﴿وأنتم تعلمون﴾ أنه رسول الله حقاً وأن دينه حق، أو: وأنتم عالمون بكتمانكم.

الإشارة: ترى كثيراً من أهل الرئاسة والجاه من أولاد الصالحين، وممن ينتسب لهم، إذا رأوا من ظهر بالخصوصية فى زمانهم يتمنون إضلالهم وإطفاء أنوارهم، خوفاً على زوال رئاستهم، وما يضلون إلا أنفسهم وما يشعرون، (والله متم نوره ولو كره الكافرون)، وهذه نزعة يهودية سببها الحسد، والحسود لا يسود، وبعضهم يتحقق بخصوصية غيرهم، فيكتمها وهو يشهد بصحتها، فيقال لهم: لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون؟ ولم تلبسون الحق بالباطل، وتكتمون الحق وأنتم تعلمون؟.

ثم ذكر الحق ـ تعالى ـ خدع أهل الكتاب وحيلهم الفارغة، فقال:

﴿ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾

قال الحسن والسدى: تواطأ اثنا عشر رجلا من يهود خيبر ـ يعنى من أحبارهم ـ وقال بعضهم لبعض: ادخلوا في دين محمد أول النهار باللسان لا بالاعتقاد، واكفروا به آخره، وقولوا: نظرنا في كتبنا، وشاورنا علماءنا، فوجدنا محمدا ليس بذلك، وظهر لنا كذبه، وإنما نفعل ذلك حتى نشكك أصحابه. هـ. فحذَّر الله تعالى المسلمين من قولهم، فقال جل جلاله: ﴿وقالت طائفة من أهل الكتاب﴾ يعنى: أحبارهم :(آمنوا بالذى أنزل على الذين آمنوا) وأظهروا الدخول فى دينهم، ﴿وجه النهار واكفروا آخره﴾ وقولوا: نظرنا فى كتبنا، وشاورنا علماءنا، فلم نجد محمداً بالنعت الذى فى التوراة، لعل أصحابه يشكون فيه ـ لعنهم الله وأضل سعيهم.

وقيل: نزلت فى شأن الكعبة، فإنَّ كعب بن الأشرف ومالك بن الصيف ـ من اليهود ـ قالا لأصحابهما: صلوا معهم إلى الكعبة أول النهار، ثم صلوا إلى الصخرة آخره، لعلهم يقولون: هم أعلم منا، وقد رجعوا، فيرجعون، ففضحهم الله وأبطل حيلتهم الواهية.

الإشارة: ترى كثيراً من الناس يدخلون فى طريق القوم، ثم تثقل عليهم أعباؤها، فيخرجون منها؛ إما لضعفهم عن حملها، أو لكونهم دخلوا مختبرين لها، أو على حرف أو حيلة لغيرهم، فإذا رجع أحد منهم قال الناس: لو كانت صحيحة ما رجع فلان عنها، ويصدون الناس عن الدخول فيها والدوام عليها، وهذه نزعة إسرائيلية، قالوا: آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون وقد قال عليه الصلاة والسلام: «لتسلكن سَنَنَ مَنْ قَبْلكم شبْراً بشبرٍ، وذراعاً بذراعٍ، حتى لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ لدخلْتُموه، قالوا: اليَهُودُ والنَّصَارَى؟ قال: نعم، فَمَنْ إذن» . وبالله التوفيق.

ثم ذكر الحق ـ تعالى ـ مقالة أخرى من مقالاتهم الشنيعة، فقال:

﴿ وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ﴾

قلت: يحتمل أن يكون قوله: (أن يؤتى) : مفعولا بـ (تؤمنوا) ، و(قل إن الهدى هدى الله) : اعتراض، واللام فى «لمن» صلة، (أو يحاجوكم) : عطف على (يؤتى) ، والتقدير: ولا تصدقوا أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم، إلا من كان على دينكم، ولا تصدقوا أن يحاجوكم عند ربكم، بل أنتم تحاجون غيركم. فرَد الله عليهم (قل إن الهدى هدى الله) ، و(إن الفضل بيد الله) . ويحتمل أن يكون قوله: (أن يؤتى) مفعولا لأجله، والعامل فيه محذوف، والتقدير: أدبرتم مادبرتم كراهية أن يؤتى أحد ما أوتيتم، ومخافة أن يحاجوكم عند ربكم ؟.

يقول الحق جل جلاله، حاكياً عن اليهود: (و) قالوا ﴿لا تؤمنوا﴾ أي: لا تقروا، أو تصدقوا ﴿أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم﴾ من العلم والحكمة وفلق البحر وسائر الفضائل، ﴿إلا لمن تبع﴾ دين اليهودية، وكان على ﴿دينكم﴾، ولا تؤمنوا أن ﴿يحاجوكم عند ربكم﴾؛ لأنكم أصح دينا منهم. قال الحق جل جلاله: ﴿قل﴾ لهم: ﴿إن الهدى هدى الله﴾ يهدى به من يشاء، و﴿ إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء﴾.

أو **يقول الحق جل جلاله**: وقالوا: لا تصدقوا ولا تذعنوا ﴿إلا لمن تبع دينكم﴾ وكان من جلدتكم، فإن النبوة خاصة بكم. فكذبهم الحق بقوله: ﴿قل إن الهدى هدى الله﴾، يخص بها من يشاء من عباده، فكيف تحصرونها فيكم؟ لأجل ﴿أن يُؤْتَى أحدٌ مثل ما أوتيتم﴾ قلتم ما قلتم، ودبرتم ما دبرتم، حسداً وبغيا، (أو) خوفًا أن ﴿يحاجوكم عند ربكم﴾، يغلبوكم بالحجة لظهور دينهم، ﴿قل﴾ يا محمد: ﴿إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء﴾؛ فلا ينفع فى رده حيلة ولا خدع.

أو **يقول الحق جل جلاله**، للمؤمنين، تثبيتاً لهم وتشجيعاً لقلوبهم: ولا تصدقوا يا معشر المؤمنين أن يعطى أحد مثل ما أوتيتم من الفضل والدين القويم إلا من تبع دينكم الحق، وجاء به من عند الحق، ولا تصدقوا ﴿أن يحاجوكم﴾ فى دينكم ﴿عند ربكم﴾، أو يقدر أحد على ذلك، فإن الهدى هدى الله والفضل بيد الله، ﴿يؤتيه من يشاء والله واسع﴾ الفضل والكرم، ﴿عليم﴾ بمن يستحق الخصوصية والفضل، ﴿يختص برحمته من يشاء﴾ كالنبوة وغيرها، ﴿والله ذو الفضل العظيم﴾؛ لا حصر لفضله، كما لا حصر لذاته.

الإشارة: يقول الحق ـ جلت ذاته، وعظمت قدرته ـ لأهل الخصوصية: ولا تقروا بالخصوصية إلا لمن كان على دينكم وطريقكم، وتزيًا بزيكم، وبذل نفسه وفلسه فى صحبتكم، مخافة أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم من الخصوصية، وهو ليس أهلاً لها، فيأخذها علماء، فإما أن يتزندق أو يتفسق، أو يحاجوكم بالشريعة فيريق دماءكم؛ كما وقع للحلاج رضي الله عنه وفى ذلك يقول الشاعر:

ومن شَهِدَ الحَقِيقَةَ فَلْيَصُنْهَا وَإلاَّ سَوْفَ يُقْتَلُ بالسِّنَانِ
كَحَلاَّجِ المَحَبَّةِ إِذْ تَبَدَّتْ لَهُ شَمْسُ الْحَقِيقَةِ بالتَّدَانى(١)

وقال آخر:

بالسِّرِّ إنْ بَاحُوا تُبَاحُ دِمَاؤُهُمْ وكَذَا دِمَاءُ البَائِحِينَ تُبَاحُ

(١) البيتان: من قصيدة للشيخ محيى الدين بن عربى، فى كتابه: الإسراء إلى المقام الأسرى، وفيه: ومن فهم الإشارة فليصنها.

وقل أيها العارف، لمن طلب الخصوصية قبل شروطها أو أنكر وجودها عند أهل شرطها: إن الهدى هدى الله يهدى به من يشاء، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء، والرحمة ـ التى هى الخصوصية ـ فى قبضة الله، يخص بها من يشاء، (والله ذو الفضل العظيم) ؛ فمن أراد الخصوصية فليطلبها من معدنها، وهم العارفون بها، فيبذل نفسه وقلبه لهم حتى يعرفوه بها. وبالله التوفيق.

ثم ذكر الحق ـ تعالى ـ وصف اليهود بالخيانة، فقال:

﴿ ۞ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾ ﴾

قلت: الباء فى (بقنطار)، بمعنى على، و(يؤده): جواب الشرط مجزوم بحذف الياء، ومن قرأ بإسكان الضمير فلأنه أقامه مقام المحذوف، فجزمه عوضاً عنه، وقال الفراء: مذهب بعض العرب: يسكنون الهاء إذا تحرك ماقبلها، يقولون: ضربته ضرباً شديدا.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ومن أهل الكتاب﴾ من أسلم وآمن فصار من أهل الإيمان، ﴿إن تأمنه﴾ على ﴿قنطار﴾ من المال أو أكثر أداه إليك، ولم يخن منه شيئا. وفى الحديث: «من ائتمن على أمانة فأداها، ولو شاء لم يؤدها، زوجه الله من الحور العين ماشاء». ﴿ومنهم﴾ من بقى على دينه من أهل الخيانة والخسران، ﴿إن تأمنه﴾ على ﴿دينار﴾ فأقل ﴿لم يؤده إليك إلا مادمت عليه قائمًا﴾ على رأسه، مبالغًا فى مطالبته. نزلت فى عبدالله بن سلام، استودعه قرشي ألفاً ومائتى أوقية ذهبا، فأداها إليه، وفى فنحاص بن عازوراء اليهودى، استودعه قرشى آخر ديناراً، فجحده. وقيل: فى النصارى واليهود، فإن النصارى: الغالب عليهم الأمانة، واليهود الغالب عليهم الخيانة.

وذلك الاستحلال بسبب أنهم ﴿قالوا ليس علينا فى الأميين سبيل﴾ أى: ليس علينا فى شأن من ليسوا أهل كتاب، ولم يكونوا على ديننا، حرج فى أخذ مالهم وجحدها، ولا إثم، ﴿ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون﴾ أنهم كاذبون؛ لأنهم استحلوا ظلم من خالفهم، وقالوا: لم يجعل لهم فى التوراة حرمة.

وقيل: عَامَلَ اليهودُ رجالا من قريش، فلما أسلموا تقاضوهم، فقالوا: سقط حقكم حيث تركتم دينكم. وقال ﷺ: «كَذَبَ أَعْدَاءُ اللهِ، مَامِنْ شَيءٍ فِى الجَاهِلِيةِ إلاَّ وَهُو تَحْتَ قَدَمَي، إلاَّ الأَمَانَةَ؛ فإنها مُؤداةٌ إلى البَر والفَاجِرِ».

ثم كذَّبهم الحق - تعالى - فقال: ﴿بلى﴾؛ عليهم في ذلك سبيل، فإن ﴿من أوفى بعهده واتقى﴾ الشرك والمعاصي ﴿فإن الله يحب المتقين﴾ ومن أحبه الله كيف يباح ماله وتسقط حرمته؟! بل من أسقط حرمته فقد حارب الله ورسوله، أو ﴿من أوفى﴾، بعهد الله من أهل الكتاب، فآمن بمحمد - عليه الصلاة والسلام - ﴿واتقى﴾ الخيانة، وأدى الأمانة، ﴿فإن الله يحب المتقين﴾. وأوقع المظهر موقع الضمير العائد إلى «من»؛ لعمومه، فإن لفظ المتقين عام يصدق برد الودائع وغيره، إشعارا بأن التقوى ملاك الأمر وسبب الحفظ. والله تعالى أعلم.

الإشارة: قد رأينا بعض الفقراء دخل بلد الحقيقة فسقطت من قلبه هيبة الشريعة، فتساهل في أموال الناس وسقطت لديه حرمة العباد، حتى لا تثق به في حفظ مال ولا أهل، فإذا أودعته شيئا أو قارضته لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه قائما. وهذه زندقة ونزعة إسرائيلية، لا يرضاها أدنى الناس، فما بالك بمن يدعي أنه أعلى الناس، وفي بعض الحكم:[كمالُ الديانة ترك الخيانة]، وأعظم الإفلاس خيانة الناس، وفي الحديث: «ثَلاثٌ مَنْ كُنَّ فيهِ فَهو مُنَافِقٌ، وإنْ صلّى وإن صامَ وزَعم أنه مُؤمن، إذا حدَّثَ كَذَبَ، وإذا وعَدَ أخْلَفَ، وإذا ائتُمِنَ خَانَ». فإذا احتج لنفسه الأمارة، وقال: لاسبيل علينا في متاع العوام، فقد خلع من عنقه ربقة الإسلام، واستحق أن يعلو مفرقه الحسام. والله تعالى أعلم.

ومن جملة الخيانة: أكل أموال الناس بالأيمان الفاجرة، كما أشار إلى ذلك الحق - تعالى - فقال:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِي ٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٧٧﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿إن الذين يشترون بعهد الله﴾ أي: يستبدلون بالوفاء بعهد الله كالإيمان بالرسول - عليه الصلاة والسلام - الذي أخذ على بني إسرائيل في التوراة وبيان صفته، وأداء الأمانة، فكتموا ذلك واستبدلوا به ﴿ثمنا قليلا﴾؛ حطاماً فانياً من الدنيا، كانوا يأخذونه من سفلتهم، فخافوا إن بيَّنوا ذلك زال ذلك عنهم، وكذلك الأيمان التي أخذها الله عليهم لئن أدركوا محمداً ﷺ ليؤمنن به ولينصرنه، فنقضوها، خوفًا من زوال رئاستهم، فاستبدلوا بالوفاء بها ثمناً قليلاً فانيا، ﴿أولئك لا خلاق لهم﴾ أي: لا نصيب لهم، ﴿في الآخرة، ولا يكلمهم الله﴾ بما يسرهم، أو بشيء أصلا، وإنما الملائكة تسألهم، ﴿ولا ينظر إليهم يوم القيامة﴾ نظرة رحمة، بل يعرض عنهم، غضباً عليهم وهواناً بهم، ﴿ولايزكيهم﴾؛ لا يطهرهم من ذنوبهم، أو لا يثني عليهم، ﴿ولهم عذاب أليم﴾ أي: موجع.

قال عكرمة: نزلت في أبي رافع وكنانة بن أبي الحقيق وحُيي بن أخطب، وغيرهم من رؤساء اليهود، كتموا ما عهد الله إليهم في التوراة في شأن النبي ﷺ من بيان صفته، فكتموا ذلك وكتبوا غيره، وحلفوا أنه من عند الله، لئلا يفوتهم الرشا من أتباعهم.

وقال الكلبي: إن ناساً من علماء اليهود كانوا ذا حظ من علم التوراة، فأصابتهم سنة، فأتوا كعب بن الأشرف يستميرونه، أي: يطلبون منه الميرة ـ وهو الطعام ـ، فقال لهم كعب: هل تعلمون أن هذا الرجل رسول في كتابكم؟ قالوا: نعم، أو ما تعلمه أنت؟ قال: لا، قالوا: فإنا نشهد أنه عبدالله ورسوله، قال كعب: لقد قدمتم عليّ، وأنا أريد أن أميركم وأكسوكم، فَحَرَمَكُم الله خيراً كثيراً، قالوا: فإنه شُبه لنا، فرُوَيْدًا حتى نلقاه، فانطلقوا، فكتبوا صفة غير صفته، ثم أتوا نبي الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ فكلموه، ثم رجعوا إلى كعب، فقالوا: قد كنا نرى أنه رسول الله، فأتيناه فإذا هو ليس بالنعت الذي نُعت لنا، وأخرجوا الذي كتبوه، ففرح كعب، ومارهم. فنزلت الآية. **قلت: انظر الطمع، وما يصنع بصاحبه! والعياذ بالله.**

وقيل: نزلت في رجل أقام سلعته في السوق، وحلف لقد أعطى فيها كذا وكذا، وقيل: نزلت في الأشعث بن قيس، كانت بينه وبين رجل خصومة، فتوجهت اليمين على الرجل، فأراد أن يحلف. والله تعالى أعلم.

الإشارة: قد أخذ الله العهد على الأرواح ألا يعبدوا معه غيره، ولا يميلوا إلى شيء سواه، فكل من مال إلى شيء أو ركن بالمحبة إلى غير الله، فقد نقض العهد مع الله، فلا نصيب له في مقام المعرفة، ولا تحصل له مشاهدة ولامكالمة حتى يتوب ويتوجه بكليته إلى مولاه. والله ـ تعالى ـ أعلم.

ومن مساوئهم أيضا: تحريفهم لكتاب الله، كما أشار إلى ذلك الحق ـ تعالى ـ بقوله:

﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿وإن من أهل الكتاب لفريقًا﴾، وهو كعب بن الأشرف، وحيي بن أخطب، ومالك بن الصيف، وأبوياسر، وشعبة بن عامر، **﴿يلوون﴾** أي: يفتلون **﴿ألسنتهم بالكتاب﴾** أي: التوراة عند قراءته، فيميلون عن المنزل إلى المحرف، **﴿لتحسبوه من الكتاب﴾** أي: لتظنوا أن ذلك المحرف من التوراة، **﴿وما هو من الكتاب ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ويقولون على الله الكذب﴾** فيما نسبوا إليه، **﴿وهم يعلمون﴾** أنه ليس من عند الله.

قال ابن عباس: نزلت في اليهود والنصارى جميعًا، حرفوا التوراة والإنجيل، وألحقوا به ما ليس منه، وأسقطوا منه الدين الحنيف، فبيّن الله كذبهم. وقيل: في الرجم، حيث كتموا الرجم، وألقى قارئ التوراة يده على آية الرجم، وقرأ ما حولها، فقال له ابنُ سلام: ارفع يديك، فإذا آية الرجم تلوح. والله أعلم.

الإشارة: هذه الآية تنسحب على علماء السوء، الذين يفتون بغير المشهور، لحظ يأخذونه من الدنيا، وعلى قضاة الجور الذين يحكمون بالهوى، ويعتمدون على الأقوال الواهية، ويقولون هو من عند الله، وما هو من عند الله.

وكذلك بعض المنتسبين من الفقراء، يتصدعون إلى العامة، يطمعون فيما في أيديهم من الحطام، فيظهرون لهم علوماً ومعارف وحكماً، يلوون ألسنتهم بها وقلوبهم خاوية من معناها، فظاهر حالهم يوهم أن ذلك موافق لقلوبهم، وأنهم عاملون بذلك، وباطنهم يكذبهم في ذلك، (والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم).

ثم أبطل الله تعالى شُبهة اليهود والنصارى في عبادة عيسى وعزير وغيرهم، فقال:

﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَـٰكِن كُونُوا۟ رَبَّـٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾

قلت: البشر: اسم جمع لا مفرد له، يطلق على الجماعة والواحد. والرباني: هو الذي يُربى الناس ويؤدبهم ويهذبهم بالعلم والعمل. وقال ابن عباس: (هو الذي يربى الناس بصغار العلم قبل كباره)، والنون فيه للمبالغة، كلحياني ورقباني. و(لا يأمركم) بالرفع، استئناف، وبالنصب: عطف على «يقول»، و«لا» مزيدة؛ أي ما كان لبشر أن يستنبئه الله، ثم يأمر بعبادة نفسه، ويأمر باتخاذ الملائكة أرباباً. أو غير مزيدة، والتقدير: ليس له أن يأمر بعبادته ولا باتخاذ الملائكة أربابا.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ما كان﴾ ينبغي ﴿لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحُكْمَ﴾ أي: الفصل بين العباد، ﴿والنبوة﴾ أي: الوحي بالأحكام، ﴿ثم يقول﴾ بعد ذلك ﴿للناس كونوا عباداً لي من دون الله﴾ أو مع الله، أو يرضى أن يعبد من دون الله، ﴿ولكن﴾ يقول لهم: ﴿كونوا ربانيين﴾ أي: علماء بالله، فقهاء في دينه، حلماء على الناس، تربون الناس بالعلم والعمل والهمة والحال، بسبب ﴿ما كنتم تعلمون﴾ من كتاب الله ﴿وبما كنتم تدرسون﴾ منه، أو ﴿بما كنتم تُعلِّمون﴾ الناس من الخير بكتاب الله، وما كنتم تدرسونه عليهم. ولما مات ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال محمد بن الحنفية: (مات ربَّاني هذه الأمة).

﴿ولا يأمركم﴾ ذلك البشر الذي خصه الله بالنبوة، ﴿أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا﴾ من دون الله، ﴿أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون﴾ أي: منقادون لأحكام الله. قيل: سبب نزول الآية: أن نصارى نجران قالوا: يا محمد؛ تريد أن نعبدك ونتخذك ربا؟ فقال النبي ﷺ: «معاذ الله أن نعبد غيرَ الله، أو نأمر بعبادة غيره». وقيل: إن رجلا قال: يا رسول الله: نُسلِّم عليك كما يُسلِّم بعضُنا على بعضٍ، أفلا نسجد لك؟ فقال: «لا يَنْبَغِي أن يسجد أحدٌ لأحدٍ من دُونِ اللهِ، ولكنْ أكْرِموا نَبِيَّكُمْ، واعرِفُوا الحقَّ لأَهْلِهِ».

الإشارة: مازال الفقراء يعظمون أشياخهم، ويبالغون فى ذلك حتى يقبِّلون أرجلهم والترابَ بين أيديهم، ويجتهدون في خدمتهم(١)، فإذا رءاهم الأشياخ فعلوا ذلك سكتوا عنهم، لأن ذلك هو ربحهم وسبب فتحهم، وفى ذلك قال القائل:

بذَبْح النفوس وحط الرءوس تُصفى الكئوس

لكنهم يرشدونهم إلى الحضرة، حتى يغنوهم عن شهود الواسطة، فيكون تعظيمهم وحط رأسهم إنما هو لله لالغيره، وحينئذ يكونون ربانيين، علماء بالله مقربين، وكان شيخنا يقول: لا تزوروني على أني شيخكم، ولكن اعرفوا فينا، وافنوا عن رؤية حسنا، حتى يكون التعظيم إنما هو لله ربنا. هـ. فدلالة الأشياخ للفقراء على التعظيم والأدب ليس ذلك مقصوداً لأنفسهم، وحاشاهم من ذلك. ما كان لبشر أن يؤتيه الله الخصوصية ثم يقول للناس كونوا عباداً لي من دون الله، ولكن يقول لهم : كونوا ربانيين عارفين بالله، حتى يكون تعظيمكم إنما هو لله، ولا يأمر أيضا بالفرق حتى يتخذوا الأشياء أرباباً من دون الله، ولكن يأمر بالجمع حتى يغيبوا عما سوى الله، وكيف يأمرهم بالفرق، وهو إنما يدلهم على الجمع؟ أيأمرهم بالكفر بعد أن كانوا مسلمين. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر أخذ الميثاق على الأنبياء وأممهم فى الإيمان بالنبى ﷺ فقال:

﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾

قلت: اللام فى (لما)، موطئة للقسم؛ لأن أخذ الميثاق بمعنى الاستخلاف، و(ما): يحتمل الشرطية، و(لتؤمنن): جواب القسم، سد مسد الجواب، أى: مهما آتيناكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول الله لتؤمنن به. ويحتمل الموصولية، و(لتؤمنن): خبر عنه، وحذف شرط يدل عليه السياق؛ أى: للذى آتيناكم من كتاب وحكمة، ثم إذا جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به. ومن قرأ بكسر اللام كان تعليلاً للأمر بالإيمان بالرسول، أى: لأجل الذى خصصتكم به إذا جاءكُمْ رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به، وإذا كان أخذ الله الميثاق على الأنبياء كان على الأتباع أولى، أو استغنى بذكر الأنبياء عن ذكر أتباعهم؛ لأنهم فى حكمهم.

(١) هذا مشروط كما بين الشيخ مراراً. بأن يكون فى حدود الشرع الشريف.

يقول الحق جل جلاله: واذكر ﴿إذ أخذنا﴾ الميثاق على النبيين من لدن آدم عليه السلام إلى عيسى عليه السلام. وقلنا لهم: والله للذي خصصتكم به ﴿من كتاب وحكمة﴾، ثم إن ظهر رسول ﴿مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه﴾ أنتم وأممكم، أو: لأجل الذي خصصتكم به مما تقدم لئن أدركتم محمداً لتؤمنن به ولتنصرنه. قال سيدنا علي ـ كرم الله وجهه ـ: (لم يبعث اللهُ نبياً، آدم ومن بعده، إلا أخذ عليه العهد في محمد، وأمره بأخذ العهد على قومه ليُؤْمِنُنَّ به، ولئن بُعث وهم أحياءٌ لينْصُرُنّه).

﴿قال﴾ الحق جل جلاله لمن أخذ عليهم العهد: ﴿أأقررتم﴾ بذلك وقبلتموه، ﴿وأخذتم على ذلكم إصري﴾ أي: عهدي وميثاقي؟ ﴿قالوا أقررنا﴾ وقبلنا، ﴿قال فاشهدوا﴾ على أنفسكم، أو ليشهدْ بعضكم على بعض بالإقرار، أو فاشهدوا يا ملائكتي عليهم، ﴿وأنا معكم من الشاهدين﴾ ، وفيه توكيد وتحذير عظيم، ﴿فمن تولى بعد ذلك﴾ الإقرار والشهادة، وأعرض عن الإيمان به، ونصره بعد ظهوره، ﴿فأولئك هم الفاسقون﴾ الخارجون عن الإيمان المتمردون في الكفران.

الإشارة: كما أخذ الله العهد على الأنبياء وأممهم في الإيمان به عليه الصلاة السلام، أُخذ الميثاق على العلماء وأتباعهم من العامة، لئن أدركوا ولياً من أولياء الله، حاملاً لواء الحقيقة، مصدقاً لما معهم من الشريعة، ليؤمنن به ولينصرنه، فمن تولى وأعرض عن الإذعان إليهم فأولئك هم الفاسقون الخارجون عن دائرة الولاية، محرومون من سابق العناية، فإن الحقيقة إنما هي لب الشريعة وخلاصتها، فإنما مثل الحقيقة والشريعة كالروح للجسد، فالشريعة كالجسد، والحقيقة كالروح، فالشريعة بلا حقيقة جسد بلا روح، والحقيقة بلا شريعة روح بلا جسد، فلا قيام لهذا إلا بهذا، فمن تشرَّع ولم يتحقَّق فقد تفسق، ومن تحقق ولم يتشرع فقد تزندق، ومن جمع بينهما فقد تحقق، ومن خرج عنهما فقد خرج عن دين الله وطلب غيره. وإليه توجه الإنكار بقوله:

﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾

قلت: (أفغير): مفعول مقدم، و(يبغون): معطوف على محذوف، أي: أتتولون فتبغون غير دين الله، وقدم المعمول؛ لأنه المقصود بالإنكار، و(طوعا و كرها): حالان، أي: طائعين أو كارهين.

يقول الحق جل جلاله للنصارى واليهود، لمَّا اختصموا إلى النبي ﷺ، وادعوا أن كل واحد على دين إبراهيم، فقال لهم ـ عليه الصلاة والسلام: «كِلاكما بَرِيءٌ مِنْ دِينه، وأنا على دِينه، فخذوا به» ، فغضبوا، وقالوا: والله لا نرضى بحكمك ولا نأخذ بدينك، فقال لهم الحق جل جلاله ـ منكراً عليهم ـ: أفتبغون غير دين الله الذي ارتضاه لخليله وحبيبه، وقد انقاد له تعالى ﴿من في السموات والأرض﴾ طائعين ومكرهين، فأهل السموات

انقادوا طائعين، وأهل الأرض منهم من انقاد طوعًا بالنظر واتباع الحجة أو بغيرها، ومنهم من انقاد كرها أو بمعاينة ما يُلجئ إلى الإسلام؛ كنتق الجبل وإدراك الغرق والإشراف على الموت، أو: «طوعًا» كالملائكة والمؤمنين، فإنهم انقادوا لما يراد منهم طوعا، (وكرهًا) كالكفار فانقادوا لما يراد منهم كرها، وكلٌّ إليه راجعون، لا يخرج عن دائرة حكمه، أو راجعون إليه بالبعث والنشور. والله تعالى أعلم.

الإشارة: اعلم أن الدين الحقيقي هو الانقياد إلى الله في الظاهر والباطن، أما الانقياد إلى الله في الظاهر فيكون بامتثال أمره واجتناب نهيه، وأما الانقياد إلى الله في الباطن فيكون بالرضى بحكمه والاستسلام لقهره. فكل من قصَّر في الانقياد في الظاهر، أو تسخط من الأحكام الجلالية في الباطن، فقد خرج عن كمال الدين، فيقال له : أفغير دين الله تبغون وقد انقاد له (منْ في السموات والأرض طوعا وكرها)، فإما أن تنقاد طوعا أو ترجع إليه كرهاً. وفي بعض الآثار يقول الله تبارك وتعالى: «منْ لم يَرْضَ بقضائي ولم يَصْبِرْ على بلائِي، فليخرجْ من تحت سمائي، وليتخذْ ربًا سِوَاي» .

وسبب تبَرم القلب عن نزول الأحكام القهرية مرضه وضعف نور يقينه، فكل من استنكف عن صحبة الطبيب، فله من هذا العتاب حظ ونصيب، فالأولياء حجة الله على العلماء، والعلماء حجة الله على العوام، فمن لم يستقم ظاهره عُوتب على تفريطه في صحبة العلماء، ومن لم يستقم باطنه عاتبه الله تعالى على ترك صُحبة الأولياء، أعني العارفين. وبالله التوفيق، وهو الهادي إلى سواء الطريق.

ثم بيّن الحق ـ تعالى ـ حقيقةَ الإيمان والإسلام الذي يجب اتباعُه على جميع الأنام، فقال:

﴿ قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾

قلت : (أُنزل) : يتعدى بإلى؛ لأنه ينتهي إلى الرسل، ويتعدى بعلى، لأنه يأتي من ناحية العلو والاستعلاء، وفُرق بعضهم بين التعبير هنا بعلى وفي البقرة بإلى، فقال: لأن الخطاب هنا للرسول بالخصوص، وقد أنزل عليه الوحي مباشرة، وهناك الخطاب للمسلمين، وإنما أُنزل الوحي متوجهاً إليهم بالواسطة، ولم يكن عليهم بالمباشرة. والله تعالى أعلم.

يقول الحق جل جلاله: ﴿قل﴾ يا محمد لأهل الكتاب الذين فرقوا في إيمانهم بين الرسل: أما نحن فقد آمنا بالذى ﴿أنزل علينا وما أنزل﴾ على جميع الأنبياء والرسل ﴿لا نفرق بين أحد منهم﴾ كما فرّقتم أنتم، فَضَلَلْتُم، ﴿ونحن له مسلمون﴾ أى: منقادون لأحكامه الظاهرة والباطنة، أو مخلصون فى أعمالنا كلها، وقدّم المنزل علينا على المنزل على غيرنا، لأنه عيار عليه ومُعَرِّفٌ به. والله تعالى أعلم.

الإشارة: ينبغى للفقير أن يبالغ فى تعظيم شيخه، ويسوغ له التغالى فى شأنه مالم يخرجه عن طَوْر البشر، ومالم يؤد ذلك إلى إسقاط حُرمة غيره من الأولياء بالتنقيص أو غيره، فحرمة الأولياء كحرمة الأنبياء، فمن فرّق بينهم حُرِم بركة جميعهم. وبالله التوفيق.

ثم إن ملة الإسلام التى جاء بها نبينا ـ عليه الصلاة والسلام ـ هى التى أحرزت هذا الاعتقاد الصحيح، فكل من خرج عنها فقد ضل عن الحق الصريح، كما أشار إلى ذلك الحق تعالى بقوله:

﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَـٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾

قلت: (وشهدوا): عطف على ما فى (إيمانهم) من معنى الفعل، والتقدير: بعد أن آمنوا وشهدوا.

يقول الحق جل جلاله لرجال من الأنصار ارتدوا عن الإسلام ولحقوا بمكة، منهم الحارث بن سويد الأنصارى: ﴿ومن﴾ يطلب ﴿غير الإسلام دينا﴾ يتدين به ﴿فلن يُقبل منه﴾ أبداً، ﴿وهو فى الآخرة من الخاسرين﴾؛ لأنه أبطل الفطرة السليمة التى فطر الناس عليها، واستبدلها بالتقليد الردىء، بعد أن عاين سواطع البرهان، وشهدت نفسه بالحق والبيان، ولذلك وقع التعجب والاستبعاد من هدايته فقال: ﴿كيف يهدى الله قوماً كفروا﴾ بعد أن آمنوا، ﴿وشهدوا أن الرسول حق وجاءهم البينات﴾ أى: المعجزات الواضحات، فإن الحائد عن الحق بعدما وضح، منهمك فى الضلال، بعيد عن الرشاد، فقد ظلم نفسه وبخسها، ﴿والله لا يهدى القوم الظالمين﴾ الذين ظلموا أنفسهم بالإخلال بالنظر، ووضعوا الكفر موضع الإيمان، ولعل هذا فى قوم مخصوصين سبق لهم الشقاء.

ثم ذكر جزاءهم، فقال:

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿أولئك﴾ المرتدون عن الإسلام ـ ﴿جزاؤهم﴾: أن تلعنهم الملائكة والناسُ أجمعون، مؤمنهم وكافرهم، لأن الكافر يلعنُ من ترك دين الحق، وإن كان لا يشعر بمن هو على الحقّ. ﴿خالدين﴾ في اللعنة، أو في النار، لدلالة السياق عليها، أو في العقوبة. ﴿لا يخفف عنهم العذاب﴾ ساعة، ولاهم يُمهلون عنها لحظة.

ثم إنَّ الحارث ندِم، وأرسل إلى قومه أن اسألوا الرسول ﷺ، هل لي من توبة؟ فنزل قوله تعالى:

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: إلا من تاب من بعد الردة، فأسلم وأصلح ما أفسد، ﴿فإن الله غفور﴾ له فيما فعل، ﴿رحيم﴾ به حيث تاب.

ولمّا نزلت الآية حملها إليه رجلٌ من قومه وقرأها عليه، فقال الحارث: إنك والله فيما علمت لصدوق، وإن النبيﷺ لأصدق منك، وإن الله ـ تعالى ـ لأصدق الثلاثة، فرجع الحارث إلى المدينة، فأسلم وحَسُن إسلامُه.

الإشارة: كل من ابتغى الخصوصية من غير أهلها، أو ادعاها ولم يأخذْها من معدنها، فلن تُقبل منه، وهو عند القوم من الخاسرين في طريق الخصوص، فكل من لا شيخ له في هذا الشأن فهو لقيط، لا أب له، دَعِيٌّ، لا نسب له.

والمراد بأهلها: العارفون بالله، أهلُ الفناء والبقاء، أهل الجذب والسلوك، أهل السكر والصحو، الذين شربوا الخمر فسكروا ثم صحوا وتكملوا، فمعدنُ الخصوصية عند هؤلاء، فكل من لم يصحبهم ولم يشرب من خمرتهم، لا يُقتدى به، ولو بلغ من الكرامة ما بلغ، وأخسرُ مِنْ هذا من صحب أهل هذه الخمرة، وشهد بأن طريقهم حق، ثم رجع عنها، فهذا مغبون ملعون عند كافة الخلق، أي: مطرود عن شهود الحق، إلا من تاب ورجع إلى صحبتهم والأدب معهم، فإن الله غفور رحيم.

ثم ذكر الحق تعالى من ارتدّ وبقي على كفره، حتى مات، فقال:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿إن الذين﴾ ارتدوا عن الإيمان، ﴿ثم ازدادوا﴾ في الكفر، وقالوا: نتربص بمحمد ريب المنون، ﴿لن تقبل توبتهم﴾ أي: لا توبة لهم فتقبل، لأنه سبق لهم الشقاء، أولأنهم لا يتوبون إلا عند الغرغرة، أو ﴿لن تقبل توبتهم﴾ ما داموا على كفرهم. ﴿وأولئك هم الضالون﴾ المنهمكون في الضلالة.

قيل: نزلت في أصحاب الحارث بن سويد المتقدم، وكانوا أحد عشر رجلا، لما رجع الحارثُ قالوا: نقيم بمكة على الكفر ما بَدا لنا، فمتى أردنا الرجعة رجعنا، فلما افتتح النبي ﷺ مكة، دخل في الإسلام بعضُهم، فقُبلت توبته، وبقي من بقي على كفره، فنزلت الآية فيهم. وقيل: نزلت في اليهود، كفروا بعيسى بعد إيمانهم بأنبيائهم، ثم ازدادوا كفراً بكفرهم بمحمد ﷺ، وقيل: نزلت في النصارى كفروا بمحمد ﷺ بعد إيمانهم بعيسى، ﴿ثم ازداود كفرا﴾ بإصرارهم عليه. وقيل: نزلت في الفريقين معا، كفروا بنبينا محمد ﷺ بعد إيمانهم به قبل ظهوره، ﴿ثم ازدادوا كفرا﴾ بتمردهم فيه، وتماديهم على المعاصي. والله تعالى أعلم.

الإشارة: اعلم أن من دَخَل طريق التربية، وأخذ في تهذيب نفسه وتطهيرها من المساوئ وأوساخ الحس، ثم غلبته القهرية ورجع عنها، فإن تاب قريبا ورجع إليها سهل عليه الرجوع، ورجي نجحه وقبلت توبته، وإن استمر على رجوعه عنها حتى ألفت نفسه البطالة؛ لن ترجى توبته وصار من الضالين، فمثله كآنية، فرِّغت منها لبناً أو عسلاً، وعمَّرْتها بالقطران، فإن بادرت بإهراقه منها قريبًا سهل غسلها، وإن أمهلتها حتى صبغ فيها عَسُر غسلها، وتعذر زوال رائحته منها. [فإن مات على رجعته فلا يحشر في الآخرة مع أهل هذه الرفقة، ولو شفع فيه ألف عارف، بل من كمال المكر به أن يلقى شبهه في الآخرة على غيره، حتى يتوهم عارفوه من أهل المعرفة أنه هو، فلا يخطر بباله أنه يشفع فيه]. قاله القشيري.

قال المحشي: وما ذكره ربما ينظر إلى قضية الخليل مع أبيه، حين يلقاه وعليه القترة، فيريد الشفاعة له، فيمسخ ذيخا[1] متلطخا - أي: خنزيرا - فينكره، كما في الحديث الصحيح، فتذكر واعتبر. هـ. وبالله التوفيق، وهو الهادي إلى سواء الطريق.

ثم ذكر مَنْ مات على كفره، فقال:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٩١﴾ ﴾

(١) الذيخ - بكسر الذال بعدها ياء ساكنة -: ذكر الضباع. والجمع: أذياخ وذيوخ وذيخة. وأراد بالتلطخ: التلطخ برجيعه أو بالطين.

قلت : (ذهبًا): تمييز، و(لو افتدى به): محمول على المعنى، كأنه قيل: فلن يقبل من أحدهم فدية، ولو افتدى بملء الأرض ذهبا، أو عطف على محذوف، أي: فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهبًا لو تقرب به في الدنيا، ولو افتدى به من العذاب في الآخرة. قاله البيضاوي.

يقول الحق جل جلاله : ﴿إن الذين كفروا﴾، واستمروا على كفرهم حتى ماتوا، لن ﴿يقبل﴾ منهم فدية، ولو افتدوا بملء الأرض ذهبا، بل يحصل لهم الإياس من رحمة الله، ﴿أولئك لهم عذاب أليم﴾؛ فلا ينفعهم فداء منه ولا شفاعة ولا حميم، ﴿وما لهم من ناصرين﴾ ينصرونهم من عذاب رب العالمين.

قال النبي ﷺ: «يُجَاءُ بالكَافِرِ يومَ القيامةِ، فيُقَال له: أرأيتَ لو كان لكَ ملءُ الأرضِ ذهباً. أكنتَ مفتدياً به؟ فيقولُ: نعم، نعم، فيُقال له: قد سُئلْتَ ما هو أيسرُ من ذلك» . يعني: لا إله إلا الله. ثبتنا الله عليها إلى الممات عالمين بها. آمين.

الإشارة: كل من كفر بطريق أهل الخصوصية، وحرم نفسه من دخول الحضرة القدوسية، واستمر على كفرانه إلى الممات، فلا شك أنه يحصل له الندم وقد زلت به القدم، لأنه مات مصراً على الكبائر وهو لا يشعر، فإذا حشر مع عوام المسلمين، وسكَن في رَبَضِ الجنة مع أهل اليمين، ثم رأى منازل المقربين في أعلى عليين، ندم وتحسر[1] ،وقد غلبه القدر، فلو اشترى المقَام معهم بملء الأرض ذهبا ما نفعه ذلك، فيمكث في غمِّ الحجاب وعذاب القطيعة هنالك، مقطوع عن شهود الأحباب على نعت الكشف والبيان، ممنوع عن الشهود والعيان. وبالله التوفيق.

ولمّا حكم الحق تعالى بأن الفداء لا ينفع يوم القيامة؛ ذكر أفضلَ ما يفتدى به العبد في دار الدنيا؛ لأنه ينفع فيها ذلك، فقال:

﴿ لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾ ﴾

قلت : البِرّ: كمال الطاعة.

يقول الحق جل جلاله : ﴿لن تنالوا﴾ كمال الطاعة والتقرب ﴿حتى تنفقوا مما تحبون﴾، أو: لن تنالوا برَّ الله، الذي هو الرضى والرضوان، ﴿حتى تنفقوا﴾ بعض ما ﴿تحبون﴾ من المال وغيره، كبذل الجاه في معاونة الناس، إن صحبه الإخلاص، وكبذل البدن في طاعة الله، وكبذل المهج في سبيل الله. ولمّا نزلت الآية

(١) هذا باعتبار عدم إدراكهم لمنازل المقربين، وإن كان مجرد دخول الجنة فوز ونجاح؛ قال تعالى:﴿فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز..﴾ الآية.

جاء أبو طلحة فقال: يارسول الله، إن أحب أموالي إليّ بيْرُحاء - وهو بستان كان خلف المسجد النبوي - وهو صدقة لله، أرجو برها وذخرها، فقال له - عليه الصلاة والسلام - «بخٍ بخٍ؛ ذَلكَ مَالٌ رَابِحٌ - أو رائح - وَإِنّي أَرَى أَنْ تَجْعَلَهَا في الأَقْرَبِينَ» . فقسمها أبو طلحة في أقاربه.

وجاء زيدُ بنُ حَارِثَةَ بفرسٍ كان يُحبها، فقال: هذه في سبيل الله، فحمل عليها رسولُ الله ﷺ أسامة ولده، فقال زيد: إنما أردت أن أتصدق بها، فقال - عليه الصلاة السلام -: «إنَّ اللهَ تعالى قَدْ قَبِلَهَا» . فدل ذلك على أن الصدقة على الأقارب أفضل. وأعتقت امرأةٌ جارية لا تملك غيرها، كانت تحبها، واشترطت عليها أن تقيم معها، فلما عُتِقَتْ، ذهبت، فقال لها عليه الصلاة والسلام: «دعيها فقد حجبَتْك عن النار» .

وأمر عمر بن الخطاب بشراء جارية من سبي العراق، فلما جيء بها، ورآها عمرُ أعجبَتْه غايةً، فقال: إن الله تعالى يقول: ﴿لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون﴾ ، فأعتقها. وذكر ابن عمر هذه الآية فلم يجد عنده أحبَّ من جارية كانت عنده، يطؤها فأعتقها، وقال: لولا أني لا أعود في شيء جعلته لله لنكحتها. وكان الربيع يعطي للسائل إذا وقف في بابه السكر، فإذا قيل له في ذلك، قال: إن الربيع يحب السكر.

ثم إن الله - تعالى - يقبل الصدقة من المحبوب أو غيره، ولذلك قال: ﴿وما تنفقوا من شيء فإن الله به عليم﴾ ؛ فيجازيكم بحسبه.

الإشارة: ليس للفقير شيء أحبُّ إليه من نفسه التي بين جنبيه، بل عند جميع الناس، فمن بذل روحه في مرضاة الله نال رضوان الله ومعرفته، وهو غاية البر، فمن أذل نفسه لله أعزه الله، ومن أفقر نفسه لله أغناه الله، ومن تواضع لله رفعه، فبذل النفس لله هو تقديمها لشيخ التربية يفعل بها ما يشاء، فكل ما يشير به إليه بادر إليه بلا تردد، فمن فعل ذلك فقد نال غاية البر، وأنفق غاية ما يُحب، وكل من بذل نفسه بذل غيرها بالأحرى، إذ ليس أعز منها، وفي ذلك يقول ابن الفارض رضي الله عنه:

مَالِي سِوَى رُوحِي، وباذل نَفْسِه(١) في حُبِّ من يَهْواهُ ليس بمُسْرِفِ
فَلَئِنْ رَضِيتَ بها فَقَدْ أَسْعَفْتَني يا خَيْبَةَ الْمَسْعَى إذا لم تُسْعِفِ

وقال الشيخ أبو عبد الله القرشي: حقيقة المحبة أن تهب كلَّك لمن أحببته، حتى لا يبقى لك منك شيء. هـ.

وقال الجنيد رضي الله عنه: لن تنالوا محبة الله حتى تسخُوا بأنفسكم لله. هـ.

(١) في الأصل: روحه.

ولما قال عليه الصلاة والسلام لليهود: «أنا على ملة إبراهيم» .. كما تقدم ـ قالوا: كيف تكون على ملة إبراهيم، وأنت تأكل لحوم الإبل وألبانها؟، وكان ذلك حراما على إبراهيم، فأنزل الله تعالى:

﴿ ۞ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾ فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾ قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾ ﴾

قلت: (إسرائيل): هو يعقوب عليه السلام.

يقول الحق جل جلاله: ﴿كل الطعام كان﴾ حلالا على بنى إسرائيل، كما كان حلالا على الأنبياء كلهم، ﴿إلا ما حرم إسرائيل﴾ أى: يعقوب، ﴿على نفسه﴾، كلحوم الإبل وألبانها، قيل: كان به عرق النسا[1]، فنذر: إن شفاه الله لم يأكل أحب الطعام إليه، وكان ذلك أحب الطعام إليه، وقيل: فعل ذلك للتداوى بإشارة الأطباء، فترك ذلك بنوه ولم يحرم عليهم فى التوراة، وإنما هو شيء حرموه على أنفسهم.

فالطعام كله كان حلالا على بنى إسرائيل وعلى الأنبياء كلهم قبل نزول التوراة، فلما نزلت التوراة حرم الله عليهم أشياء من الطيبات لظلمهم وبغيهم، فإن ادعوا أن لحوم الإبل كانت حرامًا على إبراهيم، وأن كل ما حرم عليهم كان حرامًا على إبراهيم وعلى الأنبياء قبله، فقل لهم: كذبتم؛ ﴿فأتوا بالتوراة فاتلوها﴾ هل تجدون ذلك فيها؟ ﴿إن كنتم صادقين﴾ فى قولكم: إنّ كل شىء حرم عليكم كان حرامًا على إبراهيم. روى: أنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ لما قال لهم ذلك بهتوا، ولم يجسروا أن يأتوا بالتوراة، فتبين افتراؤهم على الله؛ ﴿فمن افترى على الله الكذب﴾ بزعمه أن الله حرّم لحوم الإبل وألبانها قبل نزول التوراة، ﴿من بعد ذلك﴾ البيان وإلزامهم الحجة، ﴿فأولئك هم الظالمون﴾ المكابرون بالباطل بعدما وضح الحق.

﴿قل﴾ لهم يا محمد: ﴿صدق الله﴾ فيما أنزل، وكذبتم فيما قلتم، فتبين أن ملة إبراهيم هى الإسلام الذى جاء به محمد ﷺ فأسلموا، واتبعوا ﴿ملة إبراهيم حنيفا﴾ ، فإن ملة الإسلام موافقة لملة إبراهيم، أو عينُها، فادخلوا فيه وتخلصوا من اليهودية التى اضطرتكم إلى التحريف والمكابرة، وألزمتكم تحريمَ طيباتٍ أحلها الله لإبراهيم ومن تبعه، وقد خالفتم التوراة التى زعمتم أنكم متمسكون بها، وأشركتم مع الله عزيراً وغيره، وقد كان إبراهيم حنيفاً مسلماً ﴿وما كان من المشركين﴾.

(١) النسا: العصب الوركى، وهو عصب يمتد من الورك إلى الكعب، وهو الذى يأخذه المرض.

قال البيضاوي: فيه إشارة إلى أن اتبَاعَهُ ـ أي: إبراهيم ـ واجبٌ في التوحيد الصرف والاستقامة في الدين، والتجنب عن الإفراط والتفريط، وتعريض بشرك اليهود. هـ.

الإشارة: إذا تحقق للفقير الإخلاص، وحصل على التوحيد الخاص، كان الطعام كله حلالاً له، لأنه يأخذه بالله، ويتناوله من يد الله ويدفعه لله، مع موافقة الشريعة، ولم يغض من أنوار الطريقة؛ بحيث لا يصحبه شرهٌ ولا طمعٌ. وكان عبدالله بن عمر يقول: كُلْ ما شئت، والبَسْ ما شئت، ما أخطأتك خصلتان: سرف أو مخيلة. هـ.

وإنما امتنعت العباد والزهّادُ من تناول الشهوات المباحات خوفاً على أنفسهم أن تجمح بهم إلى تناول أسبابهما، فتعطلهم عن العبادة، وكذلك المريدون السائرون، ينبغي لهم التقلل من تناولها؛ لئلا يتعلق قلبهم بشيء منها، فتعطلهم عن السير، وأما الواصلون العارفون، فقد تحقق فناؤهم وبقاؤهم، فهم يأخذون بالله من يد الله، كما تقدم.

والحاصل: أن النفس مادامت لم تُسلم ولم تنقد إلى مشاهدة ربها، وجب جهادها ومخالفتها، فإذا أُسلمت وانقادت إلى ربها، وجب الصلح معها وموافقتها فيما يتجلى فيها. والله تعالى أعلم.

ولمّا كانت اليهود لا تحجُ بيت الله الحرام، الذي بناه خليل الله إبراهيم عليه السلام، مع زعمهم أنهم على ملته، ردَّ الله تعالى عليهم بقوله: ﴿إن أول بيت...﴾ إلخ، وقيل: تفاخر المسلمون واليهود، فقالت اليهود: بيت المقدس أفضل؛ لأنه مهاجر الأنبياء، وقال المسلمون: الكعبة أفضل؛ لأنه أول بيت وضع في الأرض، أنزل الله تعالى:

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾ ﴾

قلت: (بكة): لغة في مكة، والعرب تعاقب بين الباء والميم، تقول: ضربة لازم ولازب، وأغبطَتْ عليه الحُمَّى وأغمَطَتْ، وقيل: (مكة) بالميم: اسم للبلد كله، وبكة: اسم لموضع البيت، سميت بذلك؛ لأنها تبك أعناق الجبابرة ـ أي: تدقها ـ فما قصدها جبار قط بسوء إلا قصمه الله. و (مباركا): حال من الضمير في المجرور، والعامل فيه الاستقرار، أي: الذي استقر ببكة مباركا، و (مقام إبراهيم): مبتدأ، والخبر محذوف، أي: منها مقام إبراهيم، أو بدل من (آيات)، بدل البعض من الكل، أو عطف بيان، على أن المراد بالآيات: أثر القدم في الصخرة الصمّاء، وغوصُها فيها إلى الكعبين، وتخصيصُها بهذه المزيّة من بين الصخور، وإبقاؤه دون سائر آثار الأنبياء، وحفظه مع كثرة أعدائه ألوف سنة، فكان مقام إبراهيم، وإن كان مفرداً، في قوة الجمع، ويدل عليه أنه قرئ (آية): بالتوحيد.

وقيل: (الآيات): مقام إبراهيم، وأمْنُ من دخله، فعلى هذا يكون: (ومن دخله)، عطفا على (مقام)، وعلى الأول: استئنافا. و(حج البيت) مبتدأ، و (لله): خبر، والفتح لغة الحجاز، والكسر لغة نجد، و (من استطاع): بدل من (الناس)، وقيل: فاعل.

يقول الحق جل جلاله: ﴿إن أول بيت وضع﴾ في الأرض ﴿للناس﴾ للذي استقر بمكة، وبعده بيت المقدس، وبينهما أربعون سنة. بنت الأولَ الملائكة حيالَ البيت المعمور، وأمر اللهُ مَنْ في الأرض أن يطوفوا به كما يطوف أهل السماء بالبيت المعمور، ثم بُنِيَ الثاني. وقيل: بناهما آدم عليه السلام ثم جدَّد الأول إبراهيم. حال كونه ﴿مباركا﴾؛ لأنه يتضاعف فيه الحسنات، بكل واحدة مائة ألف، وتكفر فيه السيئات، وتنزل فيه الرحمات، وتتوارد فيه النفحات.

﴿فيه آيات بينات﴾ واضحات، منها: الحجر الذي هو ﴿مقام إبراهيم﴾، وهو الذي قام عليه حين رفع القواعد من البيت، فكان كلما طال البناء ارتفع به الحجر في الهواء، حتى أكمل البناء، وغرقت فيه قدمه كأنه طين، ومنها: أن الطير لا تعلوه، ومنها: إهلاك أهل الفيل وردُّ الجبابرة عنه، ونبع زمزم لهاجر بهمز جبريل عليه السلام، وحفر عبد المطلب لها بعد دُثُورها، وأن ماءها ينفع لما شُرب له، ﴿ومن دخله كان آمنا﴾ من العقاب في الدارين؛ لدعاء الخليل: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾، فكان في الجاهلية كل من فعل جريمةً، ثم لجأ إليه لا يُهَاجُ(١) ولا يعاقب مادام به، وأما في الإسلام فإن الحرم لا يمنع من الحدود ولا من القصاص. وقال أبو حنيفة: الحكم باق، وإن من وجب عليه حد أو قصاص فدخل الحرم لا يهاج، لكن يُضيَّق عليه، فلا يطعم ولا يباع له حتى يخرج.

قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «مَنْ مَاتَ في أحد الحرمين بعثه اللهُ من الآمنين». وقال أيضا: «مَنْ حَجَّ هذاَ البَيْتَ ـ فَلَمْ يَرْفُثْ، وَلَمْ يَفْسُقْ، خَرَجَ من ذُنُوبِهِ كيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ».

﴿ولله على الناس حج البيت﴾ فرض عين على ﴿من استطاع إليه سبيلا﴾ بالقدرة على الوصول بصحة البدن، راجلاً أو راكباً مع الزاد المُبلِّغ، والأمن على النفس والمال والدين. وقيل: الاستطاعة: الزاد والراحلة. ﴿ومن﴾ تركه، و﴿كفر﴾ به، كاليهود والنصارى، وكل من جحده، ﴿فإن الله غني﴾ عنه، و﴿عن﴾ حجه، وعن جميع ﴿العالمين﴾، أو عبر بالكفر عن الترك، تغليظاً كقوله: «مَنْ تَرَكَ الصَّلاَةَ فَقَدْ كَفَرَ» رُوي أنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ لما نزل صدر الآية – جمع أرباب الملل ،فخطبهم، وقال: «إن الله كتب عليكم الحج فحجوا»، فآمنت به ملة واحدة، وكفرت به خمس ملل، فنزل ﴿ومن كفر...﴾ إلخ.

---

(١) أي: لا يُقَاتَل.

الإشارة: قد وضع الله للناس بيتين: أحدهما حسي، وهو الكعبة، والآخر معنوي، وهو القلب، الذي هو بيت الرب، فما دام بيت القلب خاليا من نور الرب اشتاق إلى حج البيت الحسي، فإذا تعمر البيت بنور ساكنه، صار قبلة لغيره، واستغنى عن الالتفات إلى غير نور ربه، بل صار كعبة تطوف به الواردات والأنوار، وتحفه المعارف والعلوم والأسرار، ثم يصير قطب دائرة الأكوان، وتدور عليه من كل جانب ومكان، فكيف يشتاق هذا إلى الكعبة الحسية(١)، وقد طافت به دائرة الوفود الكونية؟ ولله در الحلاج رضي الله عنه حيث قال:

يَالاَئِمِي لاتَلُمْنِي فِي هواه فَلَوْ عَايَنْتَ منه الذى عَايَنْتُ لم تَلُم
لِلنَّاسِ حجٌ ولي حجٌ إلى سَكَنِي تُهْدَى الأضَاحِي، وأُهْدِي مُهْجَتِي ودَمِي
يطوفُ بالبيت قومٌ لا بجارحةٍ، بالله طافوا فأغناهم عن الحَرَمِ(٢).

فى هذا البيت آيات واضحات، وهى إشراق شموس المعارف والأنوار، فى فضاء سماء الأرواح والأسرار، وسطوع أنوار قمر التوحيد فى أرض التجريد والتفريد، وظهور أنوار نجوم العلم والحكم، في أفق سماء ارتفاع الهمم، فهذا كان مقام إبراهيم، إمام الموحدين، فمن دخله كان آمناً من الطرد والبعاد إلى يوم الدين، ومن كفر وجوده؛ فإن الله غني عن العالمين.

قال فى الحاشية فى قوله: (ومَنْ دَخَلَه كان آمنا)، قيل: وهكذا من دخل فى قلب وليٍّ من أوليائه، فإن قلب العارف حرم المراقبات والمشاهدات . هـ . وبالله التوفيق، وهو الهادى إلى سواء الطريق.

ثم رجع الحق تعالى إلى معاتبة أهل الكتاب، فقال:

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾

قلت: (تبغونها): جملة حالية من الواو، أي: لمَ تصدون عن السبيل باغين لها عوجا. و العوج ـ بالكسر ـ فى الدين والقول والعمل ـ، وبالفتح ـ فى الجدار والحائط وكل شخص قائم.

يقول الحق جل جلاله: ﴿قل﴾ يامحمد فى عتابك لليهود: ﴿ياأهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله﴾ السمعية والعقلية الدالة على صدق نبيه ﷺ فيما يدعوكم إليه من الإسلام؟ ﴿والله شهيد على ماتعملون﴾ مطلع على سرها وجهرها، فيجازيكم عليها، فلا ينفعكم التحريفُ ولا الإسرار.

(١) الصالحون فى كل وقت يشتاقون إلى الكعبة المشرفة، فهى قبلتهم فى الصلاة. وإليها يكون حج من استطاع منهم. وهى فى بلد ولد فيها سيدنا رسول الله ﷺ، فكيف لا يشتاقون إليها!!.
(٢) لو أن الله أغنى أحداً عن الحرم لأغنى سيدنا محمدا ﷺ .

﴿يا أهل الكتاب لم تصدون﴾ عن طريق الله ﴿من آمن﴾ بها، وتبع من جاء بها، ﴿تبغونها عوجاً﴾ أي: طالبين لها اعوجاجا، بأن تلبسوا على الناس، وتُوهموا أن فيها عوجاً عن الحق، بزعمكم أن التوراة لا تُنسخ، وبتغيير صفة الرسول ـ عليه الصلاة والسلام، أو بأن تحرشوا بين المسلمين؛ لتختلف كلمتهم، ويختل أمر دينهم، وأنتم شهداء على أنها حق، وأن الصد عنها ضلال، أو: وأنتم عُدول عند أهل ملتكم، يثقون بأقوالكم، ويستشهدونكم في القضايا، ﴿وما الله بغافل عما تعملون﴾؛ فلابد أن يجازيكم على أعمالكم، فإنه يمهل ولا يهمل.

كرّر الخطاب والاستفهام مرتين؛ مبالغة في التقريع ونفي العذر، وإشعاراً بأن كل واحد من الأمرين مُستَقبح في نفسه، مستقل باستجلاب العذاب. ولمّا كان المنكَر عليهم في الآية الأولى: كفرهم، وهم يجهرون به، ختم بقوله: ﴿والله شهيد على ماتعملون﴾، ولمّا كان في هذه الآية: صدهم المؤمنين عن الإسلام، وكانوا يخفونه ويحتالون فيه، قال: ﴿وما الله بغافل عما تعملون﴾. قاله البيضاوي.

الإشارة: كل من جحد وجود الخصوصية عند أهلها، وصد القاصدين للدخول فيها، استحق هذا العتاب بلا شك ولا ارتياب. والله تعالى أعلم.

ثم حذّر المؤمنين من الاستماع لهم، فقال:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ كَـٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾
وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ
إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ياأيها الذين آمنوا﴾، الخطاب عامٌ، والمراد: نفر من الأوس والخزرج، ﴿إن تُطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب﴾، وهو شاسُ بن قَيس اليهودي، كان شيخاً كبيرا، وكان عظيمَ الكفر شديدَ الضغن على المسلمين، مرّ بنفر من الأوس والخزرج، جلوساً يتحدثون، وكان بينهما عداوة في الجاهلية، فغاظه تآلفهم واجتماعهم، وقال: قد اجتمع ملأ بني قَيْلَة بهذه البلاد، فما لنا معهم قرار، فأمر شاباً من اليهود أن يجلس بينهم ويُذكّرهم يوم بعاث ـ وهو يوم حرب كان بينهم في الجاهلية ـ ويُنشدهم بعض ما قيل فيه، وكان الظفرُ في ذلك اليوم للأوس، ففعل، وتنازع القوم وتفاخروا وتغاضبوا، وقالوا: السلاحَ السلاحَ، واجتمع من القبيلتين خلق عظيم، فتوجه إليهم رسول ﷺ وأصحابه، فقال: «أبدعوَى الجاهلية وأنا بيْنَ أَظْهُرِكُمْ، بعدَ إذ أكْرَمَكُم اللهُ بالإسلامِ، وقَطَعَ به عَنكُم أمْرَ الجَاهِليةِ، وألّفَ بَيْنكُم؟» فعلموا أنها نزغةٌ من الشيطان وكيدٌ من عدوهم، فألقوا السلاحَ، واستغفروا، وعانق بعضهم بعضا، وانصرفوا مع الرسول ـ صلوات الله عليه وسلامه ـ فنزلت الآية.

﴿يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقًا﴾ من اليهود ﴿يردوكم بعد إيمانكم كافرين﴾؛ يُبيح بعضكم دماء بعض، كما كنتم في الجاهلية. ﴿وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله﴾ الدالة على تحريم الدماء والشحناء، ﴿وفيكم رسوله﴾ الهادي إلى الصراط المستقيم، وهو إنكار وتعجُّبٌ مَن كفرهم، بعد اجتماع الأسباب الداعية إلى الإيمان، الصارفة عن الكفران، وإنما خاطبهم الله بنفسه بعد ما أمر الرسولَ بأن يخاطب أهل الكتاب؛ إظهاراً لجلالة قدرهم، وإشعارا بأنهم الأحقاء بأن يخاطبهم الله ويكلمهم، دون أهل الكتاب؛ لبعدهم عن استحقاق مواجهة الخطاب من الكريم الوهاب. ﴿ومن يعتصم بالله﴾ ويتمسك بدينه ﴿فقد هدى إلى صراط مستقيم﴾ لاعوج فيه وأصل الاعتصام: التمنع.

ثم حض على التقوى الكاملة والدوام على الإسلام، تنفيراً من الاستماع لمن يخرج عنها، فقال: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته﴾، قال عليه الصلاة والسلام: «حق تقاته هو أن يُطاعَ فلا يُعْصَى طرفة عين، وأن يُذكر فلا يُنسى، وأن يُشكر فلا يُكفر». ولما نزلت قالوا: يا رسول الله؛ من يقوى على هذا؟ وشق عليهم، فنزلت: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ ، فنسختها. وقال مقاتل: معناه: (اتقوا الله حقَّ تقاته، فإن لم تستطيعوا فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون). وعن أنس ابن مالك، قال: (لا يتقي الله عبدٌ حق تقاته حتى يَخْزِن من لسانه)، وقيل: ليست بمنسوخة؛ لأنَّ مَنْ جَانَبَ ما نهى الله عنه، وفعل من الطاعة ما استطاع، فقد اتقى الله حق تقاته، فمعناها واحد. وسيأتي تحديد ذلك في الإشارة، إن شاء الله.

قال البيضاوي: وقيل: معنى (حق تقاته): أن يُنزه الطاعة عن الالتفات إليها، وعن توقع المجازاة عليها، وفي هذا الأمر تأكيدٌ للنهي عن طاعة أهل الكتاب، ﴿ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون﴾ أي: لا تكونوا على حالةٍ سوى الإسلام، إلى أن يدرككم الموت. هـ. أماتنا الله على حسن الختام، مع السلامة والعافية على الدوام.

الإشارة: كما نهى الله عن طاعة من يرد عن الإيمان، نهى عن طاعة من يصد عن مقام الإحسان، كائناً ما كان، وكيف يرجع عن مقام التحقيق، وقد ظهرت معالم الطريق لمن سبقت له العناية والتوفيق!. قال بعضهم: والله ما رَجَعَ مَنْ رَجَعَ إلا من الطريق، وأما من وصل فلا يرجع أبدا. إذ لا يمكن أن يرجع من عين اليقين إلى علمِ اليقين، أو من اليقين إلى الظن. ومن أراد الثبات على اليقين فليعتصم بحبل الله المتين، وهو صحبة العارفين، فمن اعتصم بهم فقد اعتصم بالله؛ ﴿ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾.

ثم خاطب أهل الإحسان فقال: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته﴾ بأن تغيبوا عما سواه، ولا تموتن إلا وأنتم منقادون لأحكام الربوبية، قائمون بوظائف العبودية. فهذه الآية خطاب لأهل الإحسان، و﴿اتقوا الله ما استطعتم﴾: خطاب لأهل الإسلام والإيمان. أو هذه لأهل التجريد، والثانية لأهل الأسباب، أو هذه لأهل الباطن،

والثانية لأهل الظاهر، فلكل آية أهل ومحل ، فلا نسخ ولا تعارض. وقال الشيخ أبو العباس رضي الله عنه : من أراد الجمع بين الآيتين فليتق الله حق تقاته بباطنه، وليتق الله ما استطاع بظاهره . هـ . وبالله التوفيق.

ثم حضّ الحق جل جلاله على الاجتماع، ونهى عن الفرقة التي رام العدو منهم، فقال:

﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾

قلت: أصل الحبل في اللغة: السبب الموصل الى البغية، سمي به الإيمان أو القرآن؛ لأنه يوصل الى السعادة السرمدية، و (شفا حفرة) أي: طرفها، وأصله: (شفو)، فقلبت ألفا في المذكر، وحذفت في المؤنث، فقالوا: شفة.

يقول الحق جل جلاله: ﴿واعتصموا﴾ أي: تمسكوا يا معشر المسلمين ﴿بحبل الله﴾ أي: الإيمان، أو كتاب الله، لقوله عليه الصلاة والسلام: «إنَّ هذا القرآن هو حَبْلُ الله المتين، وهو النورُ المُبينُ، والشِّفَاءُ النافِعُ، عِصْمَةٌ لِمَنْ تَمَسَّكَ به...» . الحديث. حال كونكم ﴿جميعا﴾ أي: مجتمعين عليه، ﴿ولا تفرقوا﴾ تفرقكم الجاهلي، أو لا تفرقوا عن الحق بوقوع الاختلاف بينكم كأهل الكتاب. قال عليه الصلاة والسلام :«إنَّ بَني إسْرَائيلَ افترقَتْ على إحْدى وسَبْعِينَ فِرْقَةً، وإنَّ أُمَّتي ستَفْتَرِقُ على ثِنْتَيْنِ وسَبْعِينَ فِرْقَةً، كلُّها في النَّارِ إلا واحِدَةً، فقيل: يارسولَ الله، ماهذه الواحدة؟ فقبض يده وقال: الجمَاعَةُ، ثمَّ قرأ: ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ﴾.

﴿واذكروا نعمت الله عليكم﴾، التي من جملتها الهداية للإسلام المؤدّي الى التآلف وزوال الغلّ، ﴿إذ كنتم أعداء﴾ في الجاهلية، يقتل بعضكم بعضا، ﴿فألف بين قلوبكم﴾ بالإسلام، ﴿فأصبحتم بنعمته إخوانا﴾ متحابين مجتمعين على الأخوة في الله. قال عليه الصلاة والسلام: «لا تَحَاسَدُوا، ولا تَبَاغَضُوا، ولا تَدَابَرُوا، وكُونُوا عبادَ الله إخْوانا، المسلمُ أخُو المسلمِ لا يَظْلِمُه ولا يَخْذُلُه» . الحديث. رُوي أن الأوس والخزرج كانوا أخَوَيْن لأبَوين، فوقع بين أولادهما العداوة، وتطاولت الحرب بينهما مائة وعشرين سنة، حتى أطفأها الله بالإسلام، وألف بينهم برسوله عليه الصلاة والسلام. فنزلت فيهم هذه الآية.

ثم قال لهم: ﴿وكنتم على شفا حفرة من النار﴾ أي: مُشرفين على نار جهنم، إذ لو أدرككم الموت لوقعتم في النار، ﴿فأنقذكم﴾ الله ﴿منها﴾ برسوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ. رُوي أن أعرابيا سمع ابن عباس يقرأ هذه الآية، فقال الأعرابي: والله ما أنقذهم منها وهو يريد أن يوقعهم فيها، فقال ابن عباس رضي الله عنه: خذوها من غير فقيه. هـ. ﴿كذلك يبين الله لكم آياته﴾ أي: مثل هذا التبيين ﴿ يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون﴾ إلى الخير، وتزيدون ثباتا فيه.

الإشارة: المذاهب كلها وقع فيها الاختلاف والتفرق في الأصول والفروع، إلا مذاهب الصوفية فكلها متفقة بداية ونهاية، إذ بدايتهم مجاهدة، ونهايتهم مشاهدة، وإلى ذلك أشار في المباحث، حيث قال:

مــذاهبُ الناسِ على اخْـتـلافِ ومَــذْهَبُ القَــوْمِ على ائْتِـلاَفِ

وإن وقع الاختلاف في بعض الطرق الموصلة إلى المقصود، فقد اتفقت في النهاية، بخلاف أهل الظاهر، لاتجدهم يتفقون إلا في مسائل قليلة، لأن مذهبهم مبني على غلبة الظن، ومذهب القوم مبني على التحقيق ذوقا وكشفا، وكذلك ائتلفت أيضا قلوبهم وأرواحهم، إذ كلهم متخلقون بالشفقة والرأفة والمودة والألفة والصفا؛ لأنهم دخلوا الجنة ـ أعني جنة المعارف ـ فتخلقوا بأخلاق أهل الجنة، قال تعالى: ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴾، فيقال لهم بعد الفتح: واذكروا نعمة الله عليكم، إذ كنتم أعداء قبل اتصالكم بالطبيب، فألف بين قلوبكم، فأصبحتم بنعمته إخوانًا متحابين، وكنتم على شفا حفرة من نار القطيعة والحجاب ﴿فأنقذكم منها﴾. مثل هذا البيان يوضح الله آياته، أي: تجلياته، لعلكم تهتدون إلى مشاهدة ذاته في أنوار صفاته. والله تعالى أعلم.

ثم أمرهم الحق تعالى بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ووجه اتصاله بما قبله: أنهم سكتوا حين حَرَّش بينهم اليهود حتى هموا بالقتال، ولم يأمرهم أحدٌ بالإمساك عنه، فحذَّرهم الله من نزغته، وحضَّهم على الاجتماع، وأمرهم بالأمر بالمعروف والنهي عن النكر إذا رأوا شيئاً من ذلك، فقال:

﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾

قلت: (مِنْ): للتبعيض؛ لأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من فُروض الكفاية؛ إذ لا يصلح له كُلُّ أحد، أو للبيان، أي: كونوا أمة تأمرون بالمعروف، كقوله: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ إلخ، و(يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر) عطف على الخبر، من عطف الخاص على العام؛ للإيذان بفضله.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ولتكن منكم﴾ يا أمة محمد ﷺ ﴿أمة﴾ أي: طائفة ﴿يدعون إلى الخير﴾، وهو كل ما فيه صلاحٌ ديني، أو دنيوي إذا كان يؤول الى الديني، أو صلاح قلبي أو روحاني، ﴿ويأمرون بالمعروف﴾ وهو ما يستحسنه الطبع ويرتضيه الشرع، ﴿وينهون عن المنكر﴾ وهو كل ما ينكره الطبعُ السليم والشرع المستقيم، فمن فعل ذلك فأولئك ﴿هم المفلحون﴾ المخصوصون بكمال الفلاح.

رُوي عنه عليه الصلاة والسلام: أنه سئل مَنْ خير الناس؟ فقال: «آمرُهم بالمَعروف، وأنهاهم عن المنكر، وأتقاهم لله، وأوصلهم للرحم» . وقال أيضا: «مَنْ أمَرَ بالمعْروفِ ونَهَى عَنِ المنْكَرِ كان خَلِيفَةَ اللهِ في أرْضِهِ وخَلِيفَةَ رَسُولِه وخَلِيفَةَ كِتَابِه. وقال عليٌ رضي الله عنه: (أفضل الجهاد: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وشنئان الفاسقين - أي بغضهم - فمن أمر بالمعروف شدّ ظهرَ المؤمن، ومن نهى عن المنكر أرْغَمَ أنف المنافق، ومن شنأ الفاسقين وغَضب لله غَضِبَ الله له) . وقال أبو الدرداء: (لتأمُرُن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر، أو ليُسلطن الله عليكم سلطاناً ظالماً، لا يُجِلُّ كبيركم، ولا يرحم صغيركم، ويدعو عليه خيارُكم فلا يستجاب لهم، ويستَنصرُون فلا يُنصرون، ويستغفرون فلا يغفر لهم) . وقال حذيفة: (يأتي على الناس زمان لأن تكون فيه جيفة حمار، أحب إليهم من مؤمنٍ يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر) .

وللمتصدّي له شروط: العلم بالأحكام، ومراتب الاحتساب وكيفية إقامتها، والتمكن من القيام بها. ولذلك خاطب الحق تعالى الجميع، وطلب فعل بعضهم، إذ لا يصلح للقيام به إلا البعض، كما هو شأن فرض الكفاية، إذ هو واجب على الكل، بحيث لو تركوه لعوقبوا جميعا، لكنه يسقط بفعل البعض.

والأمر بالمعروف يكون واجبا ومندوباً، على حسب ما يأمر به، والنهي عن المنكر واجب كله؛ لأن جميع ما أنكره الشرع حرام. وأما المكروه فليس بمنكر، فيستحب الإرشاد الى تركه. والأظهر أن العاصي يجب أن ينهى عما يرتكبه هو؛ لأنه يجب عليه تركه، فلا يسقط بترك أحدهما وجوب الآخر. وقد قال عليه الصلاة والسلام: «مُرُوا بالمَعْرُوفِ وإنْ لَمْ تَعملُوا بِكُلِّهِ، وانهَوْا عَنِ المُنْكَرِ وإنْ لم تَنْتَهُوا عنه كُلُّه» .

الإشارة: (ولتكن منكم أمة) أي: طائفة ينهض حالهم ويدلُّ على الله مقالهم، يدعون إلى الخير العظيم، وهو شهود ذات السميع العليم، ويأمرون بالمعروف بالهمة العلية، وينهون عن المنكر بالحال القوية، فكلُّ من رآهم بالصفا ائتمر وانتهى، وكل من صحبهم بالوفاء أخذ حظه من الغنى بالمكيال الأوفى، إن لله رجالا من نظر إليهم سعد سعادة لا يشقى بعدها أبداً، فهؤلاء يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر بالحال دون المقال.

يُحكى أن بعض الشيوخ مرَّ مع أصحابه بقوم يشربون الخمر تحت شجرة، فأراد أصحابه أن يُغيروا عليهم، فقال لهم: إن كنتم رجالا فغيِروا عليهم بحالكم دون مقالكم، فتوجهوا إلى الله بهممهم، فإذا القوم قد كسروا الأواني، وجاءوا إلى

الشيخ تائبين. وكذلك قضية معروف الكرخي مع أصحاب السفينة، الذين كانوا مشتغلين باللهو واللعب، فقال له أصحابه: ادع عليهم، فقال: اللهم كما فرّحتهم في الدنيا ففرّحهم في الآخرة، فتابوا على يده جميعا. وبالله التوفيق، وهو الهادي إلى سواء الطريق.

ثم أعاد النهي عن الفُرقة، تأكيداً لذمها، فقال:

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾
يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ
بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٠٧﴾ تِلْكَ آيَاتُ
اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ ﴿١٠٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ
وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿١٠٩﴾﴾

قلت: (يوم): متعلق بالاستقرار في خبر (أولئك)، أو باذكر؛ محذوفة، وقوله: (أكفرتم): محكي بقول محذوف جواب (أما)، أي: فيقال لهم: أكفرتم.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ولا تكونوا﴾ كاليهود والنصارى الذين (تفرقوا) في التوحيد والتنزيه، ﴿واختلفوا﴾ في أحوال الآخرة. قال عليه الصلاة والسلام: «افترقت اليهودُ على إحدى وسبعين فرقةً، وافترقت النصارى على ثنتين وسبعين فرقةً، وستفترق أمتي على ثلاثٍ وسبعين فِرقةً، كلُّها في النارِ إلا واحدةً. قيل: ومَنْ تلك الواحدة؟ قال: ما أنا وأصحابي عليه». وهذا الحديث أصح مما تقدم، والصحابة يروون الحديث بالمعنى، فلعلّ الأول نسي بعض الحديث. والله أعلم.

ثم إن النهي مخصوص بالتفرق في الأصول دون الفروع، لقوله عليه الصلاة والسلام: «اختلافُ أمتي رَحْمَةٌ»، ولقوله: «من اجتَهَدَ وأصابَ فله أجْرَانِ، ومن اجتهدَ وأخطأَ فله أجرٌ واحد».

ثم إن أهل الكتاب تفرقوا ﴿من بعد ما جاءهم البينات﴾ أي: الآيات والحجج المبينة للحق الموجبة للاتفاق عليه، ﴿وأولئك لهم عذاب عظيم﴾، يستقر لهم هذا العذاب ﴿يوم تبيض وجوه﴾ المؤمنين المتقين على التوحيد، ﴿وتسود وجوه﴾ الكافرين المتفرقين فيه، أو تبيض وجوه المخلصين وتسود وجوه المنافقين، أو تبيض وجوه أهل السنة وتسود وجوه أهل البدعة. وبياض الوجوه وسوادها كنايتان عن ظهور بهجة السرور وكآبة الخوف

فيه، وقيل: يُوسَم أهل الحق ببياض الوجه والصحيفة وإشراق البشرة وسعي النور بين يديه وبيمينه، وأهل الباطل بأضداد ذلك. ﴿فأما الذين اسودت وجوههم﴾ فيقال لهم يومئذ: ﴿أكفرتم﴾ بمحمد - عليه الصلاة والسلام - بعد ظهوره، ﴿بعد إيمانكم﴾ به قبل ظهوره، وهم اليهود أو أهل الردة، آمنوا في حياته ﷺ وكفروا بعد موته. أو جميع الكفار، آمنوا في عالم الذر وأقروا على أنفسهم، ثم كفروا في عالم الشهادة. ويقال لهم أيضاً: ﴿ذوقوا العذاب﴾ بسبب ما كنتم (تكفرون).

﴿وأما الذين ابيضت وجوههم ففي رحمة الله﴾ أي: جنته، ﴿هم فيها خالدون﴾. وعبَّر بالرحمة عن الجنة؛ تنبيهاً على أن المؤمن، وإنْ استغرق عمره في طاعة الله - تعالى -، لا يدخل الجنة إلا برحمة الله وفضله، وكان حق الترتيب أن يقدم حِلية المؤمنين لتقدُّم ذكرهم، لكن قصد أن يكون مطلعُ الكلام ومقطعُه حليةَ المؤمنين وثوابهم.

﴿تلك آيات الله﴾ الواردة في وَعْده ووَعِيده، ﴿نتلوها عليك﴾ متلبسة ﴿بالحق﴾ لا شبهة فيها، فقد أعذر وأنذر، ﴿وما الله يريد ظلماً للعالمين﴾؛ إذ لا يحق عليه شيء فيظلم بنقصه، ولا يُمنع من شيء فيظلم بفعله، كما بيَّنه بقوله: ﴿ولله ما في السموات وما في الأرض﴾ ملكاً وخلقاً وعبيداً، فيجازي كلا بما وَعَدَه وأَوْعَدَه، ﴿وإلى الله ترجع الأمور﴾ كلها؛ فيتصرف على وفق مراده وسابق مشيئته، ﴿ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴾.

الإشارة: قد نهى الله - تعالى - أهل الجمع عن التشبه بأهل الفرق، في اختلاف قلوبهم ووجوههم وآرائهم وأنظارهم، من بعد ما جاءتهم الدلائل الواضحات على طلب جمع القلب على الله، والتودد في الله، وصرف النظرة في شهود الله، وأولئك المفترقون لهم عذاب عظيم، وأيّ عذاب أعظم من الحجاب؟ يوم تبيض وجوه العارفين، فتكون كالشمس الضاحية، يسرحون في الجنان حيث شاءوا، وتسود وجوه الجاهلين؛ لما يعتريها من الندم، وسوادها باعتبار وجوه العارفين في النقص عنها، وإن كانت مُبْيَضَّةً بنور الإيمان، لكن فاتهم نور الاحسان، فيقال: أكفرتم بالخصوصية في زمانكم، بعد إيمانكم بها فيمن سلف قبلكم؟ فذوقوا عذاب القطيعة عن شهود الحبيب في كل حين، وأما الذين ابيضت وجوههم وأشرقت بنور البقاء، ففي رحمة الله، أي: جنة المعارف ﴿ في مقعد صدق عند مليك مقتدر ﴾، فقد اتضحت الطريق، وظهرت أعلام التحقيق، لكن الهداية بيد الله، كما أنَّ الأمور كلها بيده، يهدي من يشاء ويضل من يشاء، ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾. وبالله التوفيق.

ثم مدَحَ الأمة المحمدية بامتثال ما أمرها به من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فقال:

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ... ﴾

قلت: (كان): على بابها من الدلالة على المُضيِّ، أي: كنتم في اللوح المحفوظ، أو في علم الله، أو فيما بين الأمم المتقدمة، أو: صلة، أي: أنتم خير أمة، و(للناس): يتعلق بـأخرجت، أو بكنتم، أي: كنتم خير الناس للناس.

يقول الحق جل جلاله لأمة نبينا محمد ﷺ: ﴿كنتم﴾ في سابق علمي ﴿خير أمة﴾ ظهرت ﴿للناس﴾ تجيئون بهم إلى الجنة بالسلاسل. ثم بيّن وجه فضلهم فقال: ﴿تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله﴾ وبجميع ما يجب الإيمان به.

وقد ورد في مدح هذه الأمة المحمدية أحاديث، منها: قوله ﷺ: «حُرِّمتْ الجنةُ على الأنبياء حتى أدخلها أنا، وحُرِّمتْ الجنة على الأُمَمِ حتىَّ تدخلها أمتي». ومنها قوله ﷺ: «أمتي أمةٌ مَرْحُومَةٌ، إذَا كَانَ يَوْمُ القِيامةِ أعطى الله كُلَّ رَجُلٍ مِن هذه الأمة رجُلاً فيقال: هذَا فِدَاؤكَ مِنَ النَّارِ».

وعن أنس قال: «خرجت مع النبي ﷺ، فإذا صوت يجيء من شِعْبٍ، فقال: يا أنس: قُمْ فانظرْ ما هذا الصوت، فانطلقت فإذا برجلٍ يُصلي إلى شجرة، ويقول: اللهم اجعلني من أمة محمد ﷺ، الأمة المرحومة، المغفور لها، المستجاب لها، المتاب عليها، فأتيتُ النبي ﷺ، فأخبرته، فقال: انطلق، فقل له: إن رسول الله ﷺ يقرئك السلام، ويقول لك: من أنت؟ فأتيته، فأعلمته ما قال النبي ﷺ، فقال: أقرأ منى السلام على رسول الله ﷺ، وقل له: أخوك الخضر يقول لك: ادع الله أن يجعلني من أمتك المرحومة المغفور لها»(١). وقيل لعيسى بن مريم: هل بعد هذه الأمة أمة؟ قال: نعم، أمة أحمد. قيل: وما أمة أحمد؟ قال: علماء، حكماء، أبرار أتقياء، كأنهم من الفقه أنبياء، يرضون باليسير من الرزق، ويرضى الله عنهم باليسير من العمل، يدخلهم الجنة بشهادة أن لا إله إلا الله. هـ.

وليس أولها أولى بالمدح من آخرها، لقوله ﷺ: «أمتي كالمطَرِ، لا يُدْرَى أولهُ خيرٌ أو آخرُه»؟ وفي خبرِ آخر عنه ﷺ قال: «اشتقْتُ إلى إخواني، فقال أصحابُه: نحن إخوانُك يا رسول الله، فقال: أنتم أصْحَابي، إخْواني: ناس يأتُون بعدي، يؤمنون بي ولم يروْني، يودُّ أحدُهم لو يَرَاني بجميع ما يمْلِكُ. يَعْدِلُ عملُ أحدِهم سبعين منكم. قالوا: منهم يا رسول الله؟ قال: منكم. قالوا: ولِمَ ذلك يا رسول الله؟ قال: لأنكم وَجَدْتُم على الخير أعْواناً، وهم لم يَجِدُوا عليه أعواناً». أو كما قال - عليه الصلاة والسلام -.

قلت: التفضيل باعتبار أجور الأعمال، وأما باعتبار اليقين والمعرفة، فالصحابة أفضل الخلق بعد الأنبياء - عليهم السلام - ويدل على هذا قوله - عليه الصلاة والسلام -: «يعدل عمل أحدهم»، ولم يقل إيمان أحدهم(٢). والله تعالى أعلم.

---

(١) ذكره الحافظ ابن حجر بألفاظ مقاربة في الإصابة ٢/١٢٢، وعزاه لابن عساكر وابن شاهين وابن عدي في الكامل.
(٢) قال الحافظ ابن حجر: الجمهور على أن فضيلة الصحبة لا يعدلها عمل؛ لمشاهدة رسول الله ﷺ. ثم قال: وزيادة الأجر لا يستلزم ثبوت الأفضلية المطلقة. انظر بقية كلامه في الفتح ٧/٩. وانظر أيضا تفسير القرطبي.

الإشارة : كنتم يا معشر الصوفية خير أمة أخرجت للناس، تأمرون بالجمع على الله والغيبة عما سواه، وتنهونَ عن كلِّ ما يُبعد عن الله ويفرق العبدَ عن مولاه، وتؤمنون بالله وبما وعد به الله، إيمان الشهود والعيان، الذى هو مقام الإحسان. قال القشيرى فى رسالته: (قد جعل الله هذه الطائفة صفوة أوليائه، وفضّلهم على الكافة من عباده بعد رسله وأنبيائه).

وقال الجنيد رضي الله عنه : لو نعلم أن تحت أديمِ السماء أشرف من هذا العلم الذى نتكلم فيه مع أصحابنا، لسعيت إليه ولو حبواً . هـ . وكان كثيراً ما ينشد:

عِلْمُ التصوف علمٌ ليس يَعْرِفُهُ ... إلاَّ أَخُو فِطْنَةٍ بالحقِّ معروفُ
وليس يُبْصِرهُ مَنْ ليس يَشْهدهُ ... وكَيفَ يشْهدُ ضوءَ الشمس مكفوفُ

وقال الشيخ الصقلي: (كلُّ من صدَّقَ بهذا العلم فهو من الخاصة، وكل من فهمه فهو من خاصة الخاصة، وكل من عبّر به وتكلم فيه فهو من النجم الذى لا يدرك والبحر الذى لاينزف) . وقال فى الإحياء ـ لمَّا تكلم على معرفة الله والعلم بالله، قال: (والرتبةُ العليا فى ذلك للأنبياء، ثم للأولياء العارفين، ثم للعلماء الراسخين، ثم للصالحين) . فقد قدَّم الأولياء على العلماء. قال ابن رشد: وما قاله القشيرى والغزالى متفق عليه. قال: ولا يشكُّ عاقلٌ أنَّ العارفين بالله وما يجب له من الكمال، أفضل من العارفين بأحكام الله. انظر تمامه فى المعيار. وقال فى المباحث:

حُجَّةُ مَنْ يُرَجِّحُ الصُّوفِيَّة ... على سواهم حُجَّةٌ قويّه
هُمْ أَتْبَعُ النَّاسِ لخيرِ النَّاس ... مِنْ سَائِرِ الأَنَامِ والأُنَاس

ثم قال :

ثُمَّ بِشَيئَيْنِ تقومُ الحُجَّه ... أَنَّهُمْ قَطَعُوا على المَحَجَّه(١)
وَمَا أَتَوْا فيه بخَرْقِ الْعَاده ... إذْ لمْ تَكُنْ لِمَنْ سِوَاهُم عَاده
قَدْ رَفَضُوا الآثَامَ والعُيُوب ... وطَهَّرُوا الأَبدَانَ والقُلُوب
وبَلَغُوا حقيقةَ الإيمَان ... وانتهجُوا مناهِجَ الإحْسَان

---

(١) المحجة: الطريق المستقيم.

ثم دعا أهل الكتاب إلى الإيمان، وهوّن أمرهم، فقال:

﴿... وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَٰسِقُونَ (١١٠) لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ (١١١) ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ (١١٢)﴾

قلت: الاستثناء في قوله (إلا بحبل): من أعم الأحوال، أي: ضربت عليهم الذلة في جميع الأحوال، إلا متلبسين بذمة من الله وذمة من الناس.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ولو آمن أهل الكتاب﴾ إيمانا كائنا كإيمانكم، ﴿لكان خيرا لهم﴾ مما هم عليه. وليس أهل الكتاب سواء، بل ﴿منهم المؤمنون﴾ كعبد الله بن سلام وأصحابه، ﴿وأكثرهم الفاسقون﴾ المتمردون في الكفر والفسوق، فلا يهولكم أمرهم، فإنهم ﴿لن يضروكم﴾ إلا ضرراً يسيرا، كأذى باللسان من عيب وسب وتحريش بينكم، ولا قدرة لهم على القتال، ﴿وإن يقاتلوكم﴾ ينهزموا، و﴿يولوكم الأدبار ثم لا ينصرون﴾ أبداً عليكم.

وهذه الآية من المُغيبات التي وافقها الواقع، إذ كان كذلك في بني قريظة والنضير وبني قينقاع وخيبر، فلم تُرفع لهم راية أبداً، بل ﴿ضُربت عليهم الذلة﴾ والخزي والهوان، أي: أحاطت بهم إحاطة البيت المضروب على أهله، أو لزمتهم لزوم الدرهم المضروب لضربه، فلا تنفك عنهم ﴿أين ما ثُقفوا﴾ وُجدوا، فلا يأمنون ﴿إلا بحبل من الله﴾ أي: بسبب عهد من الله، وهو عقد الذمة التي أمر الله بها، إذا أدوا الجزية للمسلمين، فلهم حرمة بسبب هذا العقد، فلا يجوز التعرض لهم في مال ولا دم ولا أهل، ﴿وحبل من الناس﴾، وهو عقد الذمة التي يعقدها مع الكفار إذا كانوا تحت ذمتهم. والحاصل أن الذلة لازمة لهم[1] فلا يأمنون إلا تحت الذمة، إما من المسلمين وإما من الكفار. ﴿وباءوا بغضب من الله﴾ أي: انقلبوا به مستحقين له، ﴿وضربت عليهم المسكنة﴾ أي: أحاطت بهم، فاليهود في الغالب فقراء مساكين، لأن قلوبهم خاوية من اليقين، فالفقر والجزع لازم لهم، ولو ملكوا الدنيا بأجمعها.

---

(١) أقام اليهود لهم دولة بمعونة الظلمة، وحمايتهم لهم، كما فعل البريطانيون والأمريكان. لكن المسكنة لازمة لليهود ويبعث الله عليهم من يسومهم سوء العذاب، حتى مع وجودهم محصنين داخل دولتهم.

﴿ذلك﴾ الذل والمسكنة والبواء بالغضب بسبب أنهم ﴿كانوا يكفرون بآيات الله﴾ المنزلة على رسوله، أو الدالة على توحيده، ﴿ويقتلون الأنبياء بغير حق﴾ بل ظلمًا وعدوانا، ذلك الكفر بسبب عصيانهم واعتدائهم حدود الله، فإن الإصرار على الصغائر يفضي إلى الكبائر، والإصرار على الكبائر يؤدي الى الكفر؛ لأن المعاصي بريد الكفر، والعياذ بالله.

الإشارة: ولو آمن أهل العلم الظاهر بطريق الخصوص، وحطوا رؤوسهم لأهل الخصوصية لكان خيراً لهم، لتتسع عليهم دائرة العلوم، وتفتح لهم مخازن الفهوم، منهم من يقر بوجود الخصوصية، ويعجز عن حمل شروطها، وأكثرهم ينكرونها ويحتجون لأنفسهم بقول من قال: انقطعت التربية في القرن الثامن، فيموتون مصرين على الإنكار والعصيان، فلن يضركم إنكارهم أيها الفقراء، فإنهم لا قدرة لهم عليكم، للرعاية التي أحاطت بكم، إلا أذى بلسانهم، وعلى تقدير لحوق ضررهم في الظاهر، فإن الله يغيّب ألمَ ذلك عنكم في الباطن، كما شاهدناه من بعض الفقراء، وإن يهددوكم بالقتل والجلاء، فإن الله لا ينصرهم في الغالب.

قلت: وقد هددونا بالضرب والرفع إلى السلطان والجلاء إلى برّ النصارى، فلم يقدروا على شيء من ذلك، وقد وقع ذلك لبعض الصوفية زيادةً في شرفهم وعزهم، فالمنكر على الصوفية(١) لا يزال في همّ وغمّ وذلٍّ ومسكنة، لخراب باطنه من نور اليقين. فإنّ الانتقاد على الأولياء جناية واعتقادهم عناية، فإن استمر على أذاهم كان عاقبته سوء الخاتمة، فيبوء بغضب من الله بسبب اعتدائه على أولياء الله، «ومن آذى لي وليا فقد أذن بالحرب»، رزقنا الله الأدب معهم، وأماتنا على محبتهم، آمين.

ولمّا كان من اليهود من أسلم وحَسُنَ إسلامُه استثناه الله تعالى، فقال:

﴿۞ لَيْسُوا سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾﴾

قلت: (قائمة) أي: مستقيمة، من أقمت العود فقام، أو قائمة بأمر الله. و(آناء الليل): ظرف، واحده: (إنْيٌ)، بكسر الهمزة وسكون النون، كنحي وأنحاء، أو (إنى)، كمعي وأمعاء، و(لن تكفروه) أي: لن تحرموه، وعدى (كفر) إلى مفعولين لتضمنه معنى حرم أو منع.

(١) أي: الصوفية الملتزمة، لاصوفية المزمار.

يقول الحق جل جلاله: ليس أهل الكتاب ﴿سواء﴾ في الكفر والعدوان، بل منهم ﴿أمة﴾ أي: طائفة ﴿قائمة﴾ بالعدل مستقيمة في الدين، أو قائمة بأمر الله، أو قائمة في الصلاة ﴿يتلون آيات الله﴾ في تهجدهم ﴿آناء الليل﴾ أي: في ساعاته، ﴿وهم يسجدون﴾ في صلاتهم، أو في صلاة العشاء، لأن أهل الكتاب لا يصلونها، لِمَا رُوِي أنه ﷺ أخَّرها، ثم خَرَج، فإذا الناسُ يَنْتَظِرُونَها، فقال: «أبْشِروا فإنَّه لَيْسَ مِنْ أهْلِ الأرض أحدٌ يُصلِّي في هَذِهِ السَّاعَةِ غَيْرُكُمْ».

ثم وصفهم بالإيمان فقال: ﴿يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات﴾، وهو عبدالله بن سلام وأصحابه ممن أسلم من اليهود، فقد وصفهم الله تعالى بخصائص لم توجد في اليهود، فإنهم منحرفون عن الحق غير متعبدين، مشركون بالله ملحدون في صفاته، يصفون اليوم الآخر بغير صفاته، مداهنون في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، متباطئون عن الخيرات، بخلاف ما وصف به من أسلم منهم، ﴿وأولئك﴾ الموصوفون بتلك الصفات ﴿من الصالحين﴾ أي: ممن صلحت أحوالهم عند الله، واستوجبوا رضاه وثناءه، وهذه عادة الله مع خلقه، من تقرب إليه شبراً تقرب إليه ذراعا. ولذلك قال: ﴿وما تفعلو من خير فلن تكفروه﴾ أي: فلن تحرموا ثوابه. ولن تجحدوا جزاءه، بل يشكره لكم ويجزيكم عليه، سَمي الحرمان كفراناً كما سمى العطاء شكراً. ﴿والله عليم بالمتقين﴾؛ فلا يخفى عليه مقاماتهم في التقوى. وفيه إشعار بأن التقوى مبدأ الخير وأحسن الأعمال، وأن الفائزين عند الله هم أهل التقوى. رزقنا الله منها الحظ الأوفر بمنّه. آمين.

الإشارة: ليس أهل العلم سواء، بل منهم من جعله شبكةً يصطاد به الدنيا، يبيع دينه بعرض قليل، وهم علماء السوء وقضاة الجَوْر، ومنهم من قرأه لله وعلّمه لله، فأفنى عُمره في تعليمه وتقييده، ومنهم من صرف همته إلى جمعه وتأليفه، ومنهم من صرف همته إلى العمل به فالتحق بالعباد والزُّهاد، ﴿يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون﴾ ومنهم من حرره وحققه، ثم توجه إلى علم الباطن وصحب العارفين، فكان من المقربين، فهؤلاء كلهم ﴿يسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين﴾، فيقال لهم: ﴿وما تفعلوا من خير فلن تكفروه والله عليم بالمتقين﴾.

ثم ذكر الحق تعالى أضدادهم، فقال:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۚ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١٦﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿إن الذين كفروا﴾ وجحدوا ما جاء به الرسول ﷺ، (لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من) عذاب ﴿الله شيئاً﴾ ﴿وأولئك أصحاب النار﴾ أي: مُلاَزِمُوها، كَمُلاَزَمَةِ الرجل لصاحبه، ﴿هم فيها خالدون﴾.

الإشارة: إن الذين كفروا بالخصوصية عند أهل زمانهم، وفاتهم اقتباس أنوارهم، لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم ولا علومهم مما فاتهم من معرفة الله شيئا، ماذا وَجَدَ مَنْ فَقَدَ الله؟ وماذا فقد من وجد الله؟! قال الشاعر:

لِكُلِّ شيء إذا فارقته عِوَضٌ وليسَ للهِ إنْ فارقتَ مِنْ عِوَضِ

ولا طريق لمعرفة الحق المعرفة الخاصة - أعني معرفة العيان - إلا صحبة أهل الشهود والعيان، فكلُّ من أنكرهم كان غايته الحرمان، ولزمته البطالة والخذلان، وجرِّب، ففي التجريب علم الحقائق، ومن حُرم صحبتهم لا ينفك عن نار القطيعة وعذاب الحجاب، وعنت الحرص والتعب، عائذاً بالله من ذلك.

ثم ضرب مثلا لأعمال الكفار، فقال:

﴿ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾

قلت: في الكلام حذف، أي: مثل تلف ما ينفقون كمثل إتلاف ريح... إلخ، و(الصر): البرد الشديد، أو ريح فيها صوت وبرد، أو السموم الحارة.

يقول الحق جل جلاله: مثل ما يُنفق الكفار، قربة أو مفاخرة وسمعة، أو ما ينفق سفلة اليهود على أحبارهم، أو المنافقون؛ رياء وخوفا، ﴿كمثل ريح﴾ فيها برد شديد ﴿أصابت حرث قوم﴾ أي: زرعهم، فأتلفته وأهلكته، والمراد: تشبيه نفقتهم وأعمالهم في تلفه وضياعه وعدم الانتفاع به، بحرث كفار، ضربته ريح فيها برد فاجتاحته، فأصبح صعيداً زلقا، ولم تبق فيه منفعة في الدنيا والآخرة، ﴿وما ظلمهم الله﴾ بأن ضيع أعمالهم من غير سبب، ولكنهم ظلموا أنفسهم بارتكاب الكفر الذي أحبط أعمالهم.

الإشارة: كل من لم يحقق مقام الإخلاص، ولم يصحب أهل التخليص والاختصاص، لا تنفك أعماله من علل، ولا أحواله من دخل، فأعماله فارغة خفيفة، أقل ريح تقلعها وتسقطها عن درجة الاعتبار، ومازالت العامة تقول: الصحيح يصح، والخاوي يدريه الريح. وبالله التوفيق.

ثم حذّر الحق تعالى من مخالطة أهل التخليط، فقال:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ (١١٨) هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١١٩) إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (١٢٠) ﴾

قلت: بطانة الرجل: خواصه الذين يطلعهم على باطنه وسره، وسميت بطانة؛ تشبيها لها بالثوب الذى يلى بطنه كالشعار. قال عليه الصلاة والسلام: «الأنْصَارُ شِعَارٌ والنَّاسُ دِثَارٌ» . وهى اسم تطلق على المفرد والجمع والمذكر والمؤنث. والألو: التقصير، وأصله: أن يتعدى بالحرف، تقول: لا آلو فى نصحك؛ أى: لا أقصر فيه. ثم عدى إلى مفعولين، كقولهم: لا آلوك نصحا، على تضمن معنى المنع أو النقص. والخبال: الفساد.

و(ما عنتم): مصدرية، والعنت: التعب والمشقة، والأنامل: جمع أنملة ـ بضم الميم وفتحها ـ، والضير والضر واحد. ومضارع الأول: يضير، والثانى: يضر، وهو هنا مجزوم، وأصله: يضرُركم، نقلت حركة الراء إلى الضاد، وضمت الراء، إتباعا لحركة الضاد طلبا للمشاكلة.

يقول الحق جل جلاله: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة﴾ أى: أصدقاء وأصفياء، تطلعونهم على سركم، وهم ﴿من دونكم﴾ ليسوا على دينكم، فإنهم ﴿لا يألونكم خبالا﴾ أى: لا يقصرون جهدهم فى إدخال الفساد بينكم بالتخليط والنميمة وإطلاع الكفار على عورتكم. نزلت فى رجال من المسلمين، كانوا يصلون رجالا من اليهود؛ لما كان بينهم من القرابة والصداقة، أو فى المنافقين؛ كان يصلهم بعض المسلمين.

ثم وصفهم بأوصاف توجب التنفير منهم فقال: ﴿ودوا ما عنتم﴾ أى: تمنوا عنتكم وهلاككم وضلالكم، ﴿قد بدت البغضاء من أفواههم﴾ أى: ظهرت أمارة العداوة من أفواههم بالوقيعة فى المسلمين، أو بإطلاع المشركين على عوراتهم، أو فى كلامهم مع المسلمين بالغيظ، لأنهم لا يتمالكون أنفسهم لفرط بغضهم، ﴿وما تخفى

صدورهم﴾ من العداوة والبغضاء، ﴿أكبر﴾ مما أظهروه، لأن ظهوره منهم ليس عن روية واختيار، بل عن غلبة غيظ واضطرار. ﴿قد بينا لكم﴾ أيها المؤمنون ﴿الآيات﴾ الدالة على مجانبة الكافرين وموالاة المؤمنين، ﴿إن كنتم تعقلون﴾ ما يُبين لكم.

﴿هأنتم﴾ يا هؤلاء المخاطبين ﴿تحبونهم﴾ لما بينكم من المصاهرة والصداقة، ﴿ولا يحبونكم﴾ لما بينكم من مخالفة الدين، أو تريدون لهم الإسلام وهم يريدون لكم الكفر، وأنتم ﴿تؤمنون بالكتاب﴾ أي: بجنس الكتب، (كله) أي: بالكتب كلها، وهم لا يؤمنون بكتابكم، فكيف تحبونهم وهم يكذبون كتابكم ورسولكم؟ وهم أيضا ينافقونكم؛ ﴿إذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلوا﴾ مع أنفسهم ﴿عضوا عليكم الأنامل من الغيظ﴾ لما يرون من ائتلاف المؤمنين، ولم يجدوا سبيلاً إلى التشفي فيكم، وهذه كناية عن شدة حقدهم، وإن لم يكن ثَمّ عض في الخارج.

قال لهم الحق جل جلاله: ﴿قل﴾ لهم يا محمد: ﴿موتوا بغيظكم﴾؛ فإنما ضرر غيظكم عليكم، أو دوموا على غيظكم حتى تموتوا عليه، فإن مادة الإسلام لا تزال تنمو حتى تهلكوا، ﴿إن الله عليم بذات الصدور﴾ أي: بحقيقة ما في قلوبكم من البغضاء والحَنَق(١)، أو بما في القلوب من خير أو شر. هو من مقول الرسول لهم، أو من كلام الله تعالى، استئناف، أي: لا تعجب من إطلاعي إياك على أسرارهم، فإني عليم بالأخفى من ضمائرهم.

ومن فرط عداوتهم أنهم ﴿إن تمسسكم حسنة﴾ كنصر وغنيمة ﴿تسوءهم﴾ أي: تحزنهم، ﴿وإن تصبكم سيئة﴾ كهزيمة أو قتل أو إصابة عدو منكم أو اختلاف بينكم، ﴿يفرحوا بها، وإن تصبروا﴾ على عداوتهم وأذاهم، وتخافوا ربكم، ﴿وتتقوا﴾ ما نهاكم عنه، ﴿لا يضركم كيدهم شيئا﴾، بفضل الله وحفظه، الموعود للصابرين والمتقين، ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾، ﴿إن الله مع الذين اتقوا ﴾. ومن كان الحق معه لا يضره شيء، ﴿إن الله بما يعملون محيط﴾؛ لا يخفى عليه ما يعمل أهل الكفر من العداوة والحقد، فيجازيهم عليه.

الإشارة: لا ينبغي لأهل الخصوصية أن يتخذوا بطانة من دونهم من العامة حتى يطلعوهم على سرهم، فإن الإطلاع على السر، ولو كان غير الخصوصية، كله ضعف في العقل ووهن في الرأي، وفي ذلك يقول القائل:

(من أطْلَعَ الناسَ على سره   استحقَّ الكيَّ على جَبْهَتِه)

وأما سر الربوبية فإفشاؤه لغير أهله حرام، والعامة مضادون لأهل الخصوصية، لا يألونهم خبالا في قلوبهم وتشتيتاً لفكرتهم، إذا صحبوهم يودون أن لو كانوا مثلهم في العنت وتعب الأسباب، فإذا ظهر بالفقراء نقص أو خلل

---

(١) الحَنَقُ : شدة الاغتياظ.

ظهرت البغضاء من أفواههم، وما تخفى صدورهم أكبر، فإن كنتم أيها الفقراء تحبون لهم الخير فإنهم بعكس ذلك، وإن كنتم تقرون شريعتهم فإنهم لا يؤمنون بحقيقتكم، بل ينكرونها عليكم، ومنهم من يتصف بالنفاق، إذا لقى أهل الخصوصية أظهر التصديق والمحبة، وإذا خلا مع العامة أظهر العداوة والحنَق، وإن تمسسكم أيها الفقراء حسنة، كعز وفتح وشهود ومعرفة تَسؤهم، وإن تصبكم سيئة؛ كمحنة أو بلية، يفرحوا بها، وإن تصبروا على أذاهم وجفوتهم، وتتقوا شهود السوى فيهم، لا يضركم كيدهم شيئا؛ (إن الله بما يعملون محيط).

ولما فرغ الحق تعالى من معاتبة أهل الكتابين، شرع فى معاتبة بعض المسلمين؛ لما وقع لهم فى غزوة أحد من الفشل، فقال:

﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: واذكر يا محمد حين ﴿غدوت من أهلك﴾ من منزل عائشة، الذى نَزَلْتَ فيه بأحد، حين خرجت بها، حال كونك ﴿تبوئ المؤمنين﴾ أى: تهيئ لهم، ﴿مقاعد للقتال﴾ أى: مواقف وأماكن يقفون فيها للحرب ﴿والله سميع﴾ لأقوالكم، ﴿عليم﴾ بإخلاصكم.

قال الواقدى: خرج النبى ﷺ من منزل عائشة ـ رضى الله عنها ـ ماشيًا على رجليه إلى أُحد، فجعل يصف أصحابه للقتال كأنما يقوم بهم القدح[1]. إن رأى صدرا خارجا، قال: تأخر. وذلك أن المشركين نزلوا بأُحد، يوم الأربعاء، فلما سمع النبى ﷺ بنزولهم استشار أصحابه، ودعا عبدالله بن أبى بن سلول ـ ولم يدْعُه قط قبلها ـ فاستشاره، فقال عبدالله بن أبى وأكثر الأنصار: يا رسول الله؛ أَقِمْ بالمدينة ولا تخرجْ إليهم، فوالله ما خرجنا منها إلى عدو قط إلا أصاب منا، ولا دخل علينا إلا أصبنا منه، فكيف وأنت فينا! فدعهم يا رسول الله، فإن أقاموا أقاموا بشر محبس، وإن دخلوا قاتلهم الرجال فى وجوههم، ورماهم النساء والصبيان بالحجارة، وإن رجعوا رجعوا خاسئين. فأعجب النبى ﷺ هذا الرأى، وقال بعض أصحابه: يا رسول الله؛ اخرج بنا إلى هذه الأَكْلُب[2]؛ لا يرون أنا جَبُنّا عنهم وضعفنا. فقال النبى ﷺ: «إِنّى رأيتُ فى منامِى بقَرًا تذبح، فأولتها ناسًا من أصحابى يُقتلون، ورأيت فى ذُبابِ سَيْفى ثلمًا[3]، فأولتها هزيمةً، ورأيت أنى أدخل يدى فى درع حصينة، فأولتها المدينة، فإن رأيتُمْ أن تُقيموا بالمدينة وتَدَعُوهُمْ فافعلوا». فقال رجال ممن فاتهم بدر، وأكرمهم الله بالشهادة يوم أحد: اخرج بنا

(١) القدح ـ بالكسر: السهم قبل أن ينصل ويراش.
(٢) فى نسخة: (الكلاب)، وكلاهما صحيح؛ فالكلب يجمع على كلاب وأَكْلُب.
(٣) الثلم : الكسر.

إلى أعدائنا، وبالغوا، حتى دخل النبي ﷺ ولبس لأمته[١] . فلما رأوه قد لبس سلاحه ندموا، وقالوا: بئس ما صنعنا، نشير على النبي ﷺ والوحي يأتيه، فقاموا واعتذروا إليه. وقالوا: اصنع ما رأيتَ، فقال النبي ﷺ: «لا يَنْبَغِي لِنبِي أنْ يلبَس لأمتَه فيَضَعَهَا حَتَى يُقاتِلَ» .

فخرج بعد صلاة الجمعة، وأصبح بشعب من أُحُد، يوم السبت للنصف من شوال، سنة ثلاث من الهجرة، ونزل في عدوة من الوادي، وجعله ظهره وعسكره إلى أحد، وسوى صفهم كما تقدم، وأمَّرَ عبدالله بن جبير على الرماة، وقال: انضحوا عنا بالنبل، لا يأتونا من خلفنا، فكان من أمر الله ما كان، على ما يأتي[٢] .

وخرج مع النبي ﷺ في غزوة أحد زهاء ألف، ووعدهم النصر إن صبروا، فلما بلغوا الشواط - موضع - انخزل ابنُ أُبيَّ في ثلاثمائة، وقال: علام نقتل أنفسنا! فتبعهم أبو جابر السلمي، فقال: أُنشدكم الله في نبيكم وأنفسكم. فقال ابن أُبيّ: لو نعلم قتالاً لاتبعناكم، وهمت بنو حارثة وبنو سلمة بالانصراف معه، فثبتوا مع النبي ﷺ، فذكرهم نعمته بقوله: ﴿إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا والله وليهما﴾ وناصرهما، حيث عصمهما من اتباع المنافقين، قال جابر: (ما يسرنا أنها لم تنزل، لقوله: ﴿والله وليهما﴾) فبنو سلمة من الخزرج، وبنو حارثة من الأوس، ﴿وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾ لا على غيره، إذ لا ناصر غيره.

الإشارة: من شأن شيوخ التربية أن يدلّوا المريدين على محاربة النفوس ومقاتلتها، ويطلعوهم على دسائسها ومخادعتها، ليهيئوا لهم بذلك مقاعد لقتالها، والله مطلع على إخلاصهم ونياتهم، فمنهم من يمل ويكل، فيرجع إلى وطن عوائده، ومنهم من يصبر حتى يفوز بالغنيمة العظمى والسعادة القصوى، وفي ذلك يقول القائل:

وَبَالَغُوا في الجِـدِّ حتى مَلَّ أكـثَرهُم وعَانَقَ المجْدَ مَنْ وَافَى ومَنْ صَبَرَا

قال بعضهم: انتهى سير السائرين إلى الظفر بنفوسهم، فإن ظفروا بها وصلوا. هـ. ومنهم من يلحقه الملل والفشل فيهم بالانصراف والرجوع، ثم يثبته الله تعالى وينصره، فيلحق بالصابرين السابقين، وعمدة المريد في مجاهدة نفسه: التوكل على الله والاعتماد عليه دون شيء سواه؛ «من علامة النجح في النهايات: الرجوع إلى الله في البدايات» . ﴿وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾.

ثم ذكَّر أهل أُحد بما وقع لهم يوم بدر من النصر والظفر مع قلتهم؛ ليثبتوا، فقال:

﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾

(١) اللأمة - مهموزة -: الدرع.
(٢) عند تفسير قوله تعالى: «وما محمد إلا رسول».

قلت : (بدر) : بئر بين مكة والمدينة، كانت لرجل اسمه بدر، فسميت باسم صاحبها، وقعت فيها الغزوة التي نصر الله فيها رسوله ﷺ ، فسميت الغزوة باسم المكان، وجملة : (وأنتم أذلة) : حال من الكاف، و(أذلة) : جمع ذليل، كأعزة، جمع عزيز.

يقول الحق جل جلاله : ﴿ولقد نصركم الله﴾ في وقعة بدر ﴿وأنتم أذلة﴾ ليس معكم مراكب ولا كثرة سلاح، مع قوة عدوكم بالعُدة والعدد، ﴿فاتقوا الله﴾ واثبتوا مع رسوله، وانتظروا النصر من الله كما عودكم، ﴿لعلكم﴾ تكونون شاكرين، لما أنعم به عليكم من العز والنصر، فيزيدكم منه كما وعدكم.

الإشارة : جعل الله سبحانه وتعالى الأشياء كامنة في أضدادها، فمن أراد العز والنصر فليتحقق بالذل والمسكنة، ومن أراد الغنى فليتحقق بالفقر، ومن أراد الرفعة فليتحقق بالضعة وإسقاط المنزلة، ومن أراد القوة فليتحقق بالضعف، وهكذا: [تحقق بأوصافك يمدك بأوصافه] . فاتقوا الله يا معشر المريدين، واطلبوا الأشياء في أضدادها لتظفروا بها، واشكروا الله على ما أولاكم يزدكم من فضله ونواله.

ثم ذكر كيفية نصره لهم ببدر فقال:

﴿ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾
بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ
مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾

قلت: (إذ) : ظرف لنصركم، إذا قلنا: إن الإمداد يوم بدر فقط، أو بدل من (إذ غدوت)، إذا قلنا: كان الإمداد يوم أحد بشرط الصبر، فلما لم يصبروا لم يقع. والتسويم: التعليم.

يقول الحق جل جلاله : ولقد نصركم الله ببدر حين كنت ﴿تقول للمؤمنين﴾ حين رأوا كثرة عدوهم وقلة عدتهم وعددهم: ﴿ألن يكفيكم﴾ في القوة والكثرة، ﴿أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة مُنزلين﴾ في السحاب؟ ﴿بلى﴾ يكفيكم كما وعدكم، ﴿إن تصبروا﴾ وتثبتوا ﴿وتتقوا﴾ الله ﴿ويأتوكم من فورهم﴾ أي: من سرعتهم ﴿هذا﴾ الوقت، ﴿يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة﴾ بلا تراخ ولا تأخير، ﴿مسومين﴾ أي: معلَّمين بعمائم بيض إلا جبريل، فإنه كانت عمامته صفراء. أو معلمين أنفسهم أو خيلَهم. قيل: كانت مجزوزة الأذناب، وقيل: كانت بُلْقاً.

فإن قلت: ما ذكر في الأنفال إلا ألفا، وهنا خمسة آلاف. فالجواب: أن الله تعالى أمدهم أولا بألف، ثم صاروا ثلاثة آلاف، ثم صاروا خمسة آلاف. قال ابن عباس: لم تقاتل الملائكة إلا يوم بدر، وفيما سوى ذلك يشهدون القتال معنا، ولا يقاتلون. هـ.

الإشارة: كل من توجَّه لجهاد نفسه في الله، واشتغل بذكر مولاه، أمده الله في الباطن بالأنوار والأسرار، وفي الظاهر بالملائكة الأبرار، وقد شوهد ذلك في الفقراء أصحابنا، إذا كانوا ثلاثة رآهم العامة ثلاثين، وإذا كانوا ثلاثين رأوهم ثلاثمائة، وقد كنا في سفْرة سبعين، فرأونا سبعمائة على ما أخبرونا به، ﴿والله يؤيد بنصره من يشاء﴾.

ثم ذكر الحق تعالى حكمة إمداده لهم، فقال:

﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾ ﴾

قلت: (ليس لك من الأمر شيء): جملة معترضة بين قوله: (أو يكبتهم) وقوله: (أو يتوب عليهم)، أو تكون (أو) بمعنى (إلا)، أي: ليس لك من الأمر شيء، إلا أن يتوب عليهم فتبشرهم، أو يعذبهم فتتشفى فيهم. قاله البيضاوي.

يقول الحق جل جلاله: وما جعل الله ذلك الإمداد إلا بشارة لكم بالنصر، ﴿ولتطمئن قلوبكم به﴾ فتثبتوا للقتال، ﴿وما النصر إلا من عند الله﴾ فهو قادر على أن ينصركم بلا واسطة، لكن أراد أن يثيبكم وينسب المزية إليكم، حيث قتلهم على أيديكم، فإن الله عزيز لا يغلب، حكيم فيما دبر وأبرم، وإنما نصركم يوم بدر ﴿ليقطع طرفا من الذين كفروا﴾ بقتل بعض وأسر آخرين، فإنه قتل يومئذ سبعون، وأسر سبعون، ﴿أو يكبتهم﴾ أي: يحزنهم ويغيظهم، والكبت: شدة الغيظ، ﴿فينقلبوا خائبين﴾ مما أملوا.

ولما جُرِحَ ـ عليه الصلاة والسلام ـ في وجهه، وشُجَّ على قرن حاجبه، وكُسِرَت رباعيته، همَّ بالدعاء على الكفار، بل دعا عليهم، فأنزل الله: ﴿ليس لك من الأمر شيء﴾؛ إنما أنت رسول إليهم، مأمور بإنذارهم وجهادهم، وأمرهم بيد مالكهم، إن شاء هداهم وإن شاء عذبهم. وإنما نهاه عن الدعاء عليهم؛ لعلمه بأن منهم من يُسلم ويجاهد في سبيل الله، وقد كان كذلك؛ فجُلُّهم أسلموا وجاهدوا، منهم خالد بن الوليد ـ سيف الله في أرضه.

ثم عطف على قوله: ﴿ليقطع طرفًا من الذين كفروا أو يكبتهم﴾ قوله: ﴿أو يتوب عليهم﴾ إن أسلموا ﴿أو يعذبهم﴾ إن لم يسلموا، ﴿فإنهم ظالمون﴾ قد استحقوا العذاب بظلمهم، والأمور كلها بيد الله، ﴿ولله ما في السموات وما في الأرض﴾ خلقًا وملكا وعبيدًا، ﴿يغفر لمن يشاء﴾ غفرانه، ﴿ويعذب من يشاء﴾ تعذيبه، ولا يجب عليه شيء، ﴿والله غفور رحيم﴾ لعباده، فلا تبادر بالدعاء عليهم.

الإشارة: وما جعل الله التأييد الذي ينزله على أهل التجريد، حين يقابلهم بالابتلاء والتشديد، إذا أراد أن يوصلهم لصفاء التوحيد، إلا بشارة لفتحهم، ولتطمئن بمعرفته قلوبهم، فإن الامتكان على قدر الامتحان، وكل محنة تزيد مكنة، وهذه سنة الله في أوليائه؛ يسلط عليهم الخلق في بدايتهم، ويشدد عليهم البلاء، حتى إذا طهروا من البقايا، وكملت فيهم المزايا، كف عنهم الأذى، وانقلب الجلال جمالا، وذلك اعتناء بهم، ونصرا لهم على أنفسهم، فإن النصر كله ﴿من عند الله العزيز الحكيم﴾. وذلك ليقطع عنهم طرفًا من الشواغل والعلائق، التي تقبضهم عن العروج إلى سماء الحقائق، فإن الروح إذا رقدت في ظل العز والجاه صعب خروجها من هذا العالم، فإذا ضيق عليها، وعكس مرادها، رحلت إلى عالم الملكوت، والأمر كله بيد الله. ليس لك أيها الفقير من الأمر شيء، إنما أنت مأمور بتحريك الأسباب[1] والله يفتح الباب. وليس لك أيها الشيخ من الأمر شيء، إنما أنت مذكر، وعلى الله البلاغ، فلا تأس على ما فاتك، ولا تفرح بما آتاك، فملكوت السموات والأرض بيد الله، ﴿يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله غفور رحيم﴾.

قال القشيري: جرّده ـ أي : نبيه ﷺ لما به عرفه عن كُلِّ غيرٍ وسبب، حيث أخبره أنه ليس له من الأمر شيء، ثم قال: ويقال: أقامه في وقتٍ مقاما؛ رمى بقبضة من التراب، فأصابت جميع الوجوه، وقال: ﴿وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى﴾ وقال في وقت آخر: ﴿ليس لك من الأمر شيء﴾. هـ.

يشير إلى أنهما مقامان: نيابة عن الله بالله، ونيابة الله عن عبده، والأول بقاء، والثاني فناء، قاله المحشي. قلت: الأول في مقام البسط، والثاني في مقام القبض، فقد قالوا: إذا بسط فلا فاقة، وإذا قبض فلا طاقة. والله تعالى أعلم.

ولمّا كان النصر في الجهاد لا يكون إلا بأكل الحلال وطاعة الكبير المتعال، قدّم ذكر ذلك قبل الأمر بالقتال في قضية أحُد، فقال:

(١) في «أ» السبب.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴿١٣٢﴾ ۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ ﴾

قلت: الكظم هو: الكف والحبس، تقول: كظمت القربة: إذا ملأتها وسددت رأسها.

يقول الحق جل جلاله: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا﴾ وتزيدوا فيها إذا حلَّ الأجل ﴿أضعافا مضاعفة﴾، ولعل التخصيص بحسب الواقع، إذ كان الرجل يحلُّ أجلُ دَيْنِه، فيقول للمدين: إما أن تقضي وإما أن تزيد، فلا يزال يؤخره ويزيد في دينه حتى يستغرق مال المدين، فنُهوا عن ذلك. ورغبهم في التقوى التي هي غنى الدارين. فقال: ﴿واتقوا الله﴾ فيما نهيتكم عنه، ﴿لعلكم تفلحون﴾ في الدارين. ثم خوفهم بالنار إن لم ينتهوا، فقال: ﴿واتقوا النار التي أعدت للكافرين﴾، وفيه إشعار بأن النار موجودة؛ إذ لا يُعدُّ المعدوم، وأنها بالذات معدة للكافرين، وبالعرض للعاصين.

قال الورتجبي: في الآية إشارة إلى أن النار لم تعد للمؤمنين، ولم تخلق لهم، ولكن خوفهم بها زجراً وعظة، كالأب البار المشفق على ولده يخوفه بالأسد والسيف، وهو لا يضربه بالسيف، ولا يلقيه إلى الأسد، فهذه الآية تلطف وشفقة على عباده. هـ.

﴿وأطيعوا الله﴾ فيما أمر ونهى، ﴿والرسول﴾ فيما شرع وسَنّ، ﴿لعلكم ترحمون﴾. والتعبير بلعل وعسى في أمثال هذه: دليل على عزة التوصل إلى ما جعل طريقاً له.

﴿وسارعوا﴾ أي: بادروا ﴿إلى مغفرة من ربكم﴾؛ كالإسلام والتوبة والإخلاص، وسائر الطاعات التي توجب المغفرة، وقرأ نافع وابن عامر بغير واو على الاستئناف. وسارعوا أيضاً إلى ﴿جنة عرضها السموات والأرض﴾ لو وصل بعضها ببعض، وذكر العرض؛ للمبالغة في وصفها بالسعة؛ لأنه دون الطول. قال بعضهم: لم يُرد العَرض الذي هو ضد الطول، وإنما أراد عظمها، ومعناه: كعرض السموات السبع والأرضين السبع في ظنكم، أي: لا تدرك ببيان. ﴿أعدت﴾ أي: هيِّئتْ ﴿للمتقين﴾. وفيه دليل على أن الجنة مخلوقة، وأنها خارجة عن هذا العالم.

ثم وصف أهلها من المتقين بأوصاف الكمال، فقال: ﴿الذين ينفقون فى السراء والضراء﴾ أى: فى حالتى الرخاء والشدة، وفى الأحوال كلها، كما هى حالة الأسخياء، قال ﷺ : «الجنَّةُ دارُ الأسخياءِ» . وقال أيضا: «السَّخِيُّ قريبٌ مِنَ اللهِ، قَريبٌ من الجنَّة، قَريبٌ منَ النَّاس، بعيدٌ من النَّارِ، والبَخيلُ بَعيدٌ من اللهِ، بَعِيدٌ مِنَ الجنَّةِ، بَعِيدٌ مِنَ النَّاسِ، قَرِيبٌ مِنَ النَّارِ. ولجَاهِلٌ سَخِيٌّ أحبُّ إلى اللهِ مِنَ العالمِ البَخِيلِ» . وقال أيضاً ﷺ: «السَّخَاء شَجَرَةٌ فى الجنة، أغصانُها فى الدُّنيا، من تعلق بغُصنٍ من أغصَانِها قادته إلى الجنَّةِ، والبخلُ شَجرةٌ فى النَّارِ، أغصانُها فى الدُّنيا، من تعلق بِبعض من أغصانها قَادَته إلى النَّارِ» .

﴿والكاظمين الغيظ﴾ أى: الكافين عن إمضائه مع القدرة عليه، قال عليه الصلاة والسلام: «مَنْ كَظَمَ غَيْظاً وهُو يَقْدِرُ على إمْضَائِهِ؛ مَلأَ اللهُ قَلْبَهُ أمْناً وإيماناً» .

وقال بعض الشعراء:

وَإذَا غَضِبْتَ فَكُنْ وَقُوراً كَاظِماً لِلْغَيْظِ، تُبْصِر مَا تَقُولُ وتَسْمَعُ
فَكَفَى بِهِ شَرَفاً، تَصَبُّرُ سَاعَةٍ يَرْضَى بِهَا عَنْكَ الإلَهُ ويَرْفَعُ[1]

﴿والعافين عن الناس﴾ أى: عمن ظلمهم، وعن النبى ﷺ أنه قال عند ذلك: «إنَّ هؤلاءِ فى أُمتى قليلٌ، إلا مَنْ عَصَمَ اللهُ، وقد كَانُوا كثيراً فى الأمم التى مَضَت» . وعَنْ أبى هريرة: أن أبا بكر كان مع النبى ﷺ فى مجلس، فجاء رجل فوقع فى أبى بكر، وهو ساكت، والنبى ﷺ يبتسم، ثم ردَّ عليه أبو بكر بعضَ الرد، فغضب عليه الصلاة والسلام ـ وقام، فلحقه أبو بكر، وقال: يا رسول الله، شتمنى وأنت تبتسم، ثم رَدَدْتُ عليه بعضَ ما قال، فغضبتَ وقُمتَ. قال: «حين كنتَ ساكتًا كان معك مَلَكٌ يردُّ عليه، فلما تكلمتَ وقع الشيطان، فلم أكُنْ لأقعدَ فى مقعدٍ فيه الشيطان، يا أبا بكر، ثلاثٌ حق: تعلم أنه ليس عبد يظلم مظلمة فيعفو عنها إلا أعز الله بها نصْره، وليس عبد يفتح باب مسألة يريد بها كثرة إلا زاده الله قلة، وليس عبد يفتح عطية أو صلة إلا زاده الله بها كثرة» .

﴿والله يحب المحسنين﴾ الذى أحسنوا فيما بينهم وبين الله، وفيما بينهم وبين عباد الله، و«أل»: يحتمل أن تكون للجنس، فيعم كل محسن، أو للعهد، فتكون الإشارة إلى من تقدم ذكرهم.

الإشارة: كل ما يُقوى مادة الحس فهو ربا؛ لأنه يربى الحس ويقوى مادة الغفلة، فلا ينبغى لمريد أن يضاعفه ويتعاطى أسباب تكثيره، بل ينبغى أن يفر من موارده، وهى ثلاثة: مباشرة الحس، أو الفكر فيه، أو الكلام مع أهله

---

(١) البيتان لأبى القاسم بن حبيب، كما فى تفسير البحر المحيط: ٣/ ٦٣ .

فيه. والذى يقوى مادة المعنى ثلاثة: صحبة أهل المعنى، والفكرة فى المعانى، وذكر الله بالقلب. واتقوا الله فى مباشرة الحس (لعلكم تفلحون) بالوصول إلى صفاء المعانى، واتقوا نار القطيعة التى أعدت لمنكر الخصوصية، (وأطيعوا الله والرسول) فيما ندبكم إليه، (لعلكم ترحمون) بإحياء قلوبكم وأرواحكم بأسرار المعانى، وسارعوا إلى ما يوجب تغطية مساوئكم، حتى يغطى وصفكم بوصفه، ونعتكم بنعته، فيوصلكم بما منه إليكم، لا بما منكم إليه، فتدخلوا جنة المعارف، التى لا نهاية لفضاء شهودها، التى أعدت للمتقين السّوى، الذين يبذلون مهجهم وأموالهم فى حال الجلال والجمال، (والكاظمين الغيظ)؛ حيث ملكوا أنفسهم وأحوالهم، (والعافين عن الناس)؛ لأن الصوفى ماله مباح ودمه هدر. وكان بعض الصوفية يقول: إذا أردت أن تعرف حال الفقير فأغضبه، وانظر إلى مايخرج منه. وقال شيخ شيوخنا رضي الله عنه : قطب التصوف: لا تَغضب ولا تُغضب. هـ.

ولعروة بن الزبير ـ رضي الله عنه :

لن يبلغَ المجدَ أقوامٌ وإنْ كَرُمُوا ... حتى يذِلّوا وإن عَزّوا لأقوام

ويُشتَموا فترى الألوانَ مُشرِقةً ... لا عَفوَ ذلٍّ، ولكن عَفوَ أحلام

﴿والله يحب المحسنين﴾ الذين حازوا مقام الإحسان، فعبدوا الله بالشهود والعيان، فعم إحسانهم ذا الإساءة والإحسان والإنس والجان. قال الحسن البصرى: (الإحسان: أن يعم إحسانه، ولا يكون كالشمس والريح والمطر). أى: يخص بلداً دون بلد. وقال سفيان الثورى: (ليس الإحسانُ أن تُحسنَ إلى من أحسن إليك، وإنما الإحسان أن تحسن إلى من أساء إليك. فإن الإحسان إلى المحسن متاجرة كنقد السوق، خذ منى وهَات). وقال السرى السقطى: (الإحسان: أن تُحسن وقت الإمكان، فليس فى كل وقت يمكنك الإحسان)، وأنشدوا:

ليس فى كلّ ساعةٍ وأوان ... تَتَهيّأ صنائعُ الإحسان

فإذا أمْكَنَتْ فبادرْ إليها ... حَذَراً من تعذُّر الإمْكَان(١)

وقال الورتجبى: قوله: ﴿وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة ...﴾ إلخ، علم الحق ـ سبحانه ـ علَلَ الخلق وميلهم إلى مُنى النفوس، فدعاهم بطاعته إلى العلتين: المغفرة والجنة، ودعا الخاصة إلى نفسه، فقال: ﴿ففروا إلى الله﴾، ثم أعلَم أن الكل فى درك امتحان الجرم، وأثبت بالآية ذنب الكل، لأنهم وإن كانوا معصومين من الزلل،

(١) الأبيات لأبى العباس الجمانى، كما ذكر القرطبى فى تفسيره.

فذنبهم قلة معرفتهم لأقدار الحق، كما قال عليه الصلاة والسلام : «لو أن الله عذب الملائكة لحق منه، فقيل: إنهم معصومون، فقال عليه الصلاة والسلام: من قلة معرفتهم بربهم»(١) . ولذلك دعاهم إلى المغفرة. هـ. قال فى الحاشية: وقوله: (أثبت بالآية ذنب الكل)، يعنى: شمول قوله: (يغفر لمن يشاء) مَنْ فى السموات الصادق بالملائكة، وإنما تكون المغفرة بعد ذنب، ولكنه فى كل أحد على حسبه، وأما قوله : دعاهم إلى المغفرة، فكأنه من قوله: ﴿سارعوا إلى مغفرة من ربكم﴾، وأن الخطاب يعم من فى السموات أيضاً، وقد يتصور فى حق الملائكة الاستناد لظواهر الأمور والاختلاف بينهم والاختصام، مما هو معرض للخطأ، وذلك من دواعى المغفرة، وكذلك القصور عن معرفة كنه جلال الله: نقصٌ لا يخلو منه مخلوق، لاستحالة الإحاطة به علما، ولذلك كان الترقى فى المعرفة لا حد له أبداً سرمداً. هـ.

ثم ذكر حال أهل اليمين، فقال:

﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله : ﴿والذين إذا فعلوا فاحشة﴾ أى: فعلة بالغة فى الفحش والقبح، كالزنى، ﴿أو ظلموا أنفسهم﴾ بأى ذنب كان، أو فعلوا كبيرة أو صغيرة، أو الفاحشة: ما يتعدى للغير، وظلم النفس ما يخص، أو الفاحشة بالفعل، وظلم النفس بالقول، ﴿ذكروا الله﴾ أى: عقابه وغضبه وعرضه الأكبر، أو ﴿ذكروا الله﴾ فى أنفسهم أن الله سائلهم عنه، أو كونه رقيبًا عليهم، أو ﴿ذكروا الله﴾ باللسان ﴿فاستغفروا لذنوبهم﴾ بالندم والتوبة، ﴿ومن يغفر الذنوب إلا الله﴾ أى: لا أحد يغفره إلا الله، والمراد: وصفه تعالى بسعة الرحمة وعموم المغفرة، والحث على الاستغفار.

﴿ولم يصروا على ما فعلوا﴾ أى: لم يدوموا عليها غير مستغفرين، لقوله ﷺ: «ما أصرَّ مَن اسْتَغفَرَ، ولو عَادَ فى اليَوم سَبْعين مَرَّةً»، وذلك إذا صحبه الندم، وقال أيضا: «لا كَبِيرةَ معَ الاستغفار، ولا صَغيرةَ مع

(١) لم أقف عليه. وذكر المتقى الهندى فى الكنز حديث:(لو أن الله عذب أهل سمواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم، ولو رحمهم لكانت رحمته لهم خيراً لهم من أعمالهم..» وعزاه لأحمد وعبد بن حميد والترمذى وابن حبان. انظر: (الكنز ١ / ١٣٠ ح ٦١٣) .

الإصْرَارِ» . قال قتادة: إياكم والإصرار، فإنمـا هـلك المصرون الماضون قدمًا في معاصي الله تعالى، لم يتوبـوا حتى أتاهم الموت . هـ. ﴿وهم يعلمون﴾ أن الإصرار يضر بهم، أو: وهم يعلمون أن لهم ربا يغفـر الذنب؛ لقوله ـ عليه الصـلاة والسلام ـ: «مَنْ أَذْنَبَ ذَنبًا، وعلِمَ أنَّ له ربًا يَغْفِرُ الذنوب، غُفِرَ له وإنْ لمْ يستَغفر» . وفي الحديث القدسي يقول الله تعالى : «من علم أني ذو قدرة على المغفرة غفرتُ له ولا أبالي» . وفي بعض الكتب المنزلة: «يابْنَ آدَمَ، إنك مـا دَعَوْتَني ورجَوْتَني لأغفرن لَكَ على مَا كَانَ منكَ ولا أُبَالِي» . أو: (وهم يعلمون) أن التوبة تمحق الذنوب.

﴿أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم﴾؛ تغطية لذنوبهم، ﴿وجنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها﴾ ، ولا يلزم من إعدادها للتائبين اختصاصهم بها، كما لا يلزم من إعداد النار للكفار اختصاصهم بها، ثم مدح أجر التائبين فقال: ﴿ونعم أجر العاملين﴾ ، وانظر هذا الفرق العظيم الذى بين المحسنين وأهل اليمين، قال فى الآية الأولى: ﴿والله يحب المحسنين﴾ وقـال فى هذه الآية: ﴿ونعم أجـر العـاملين﴾ ، أهل الآية الأولى من خواص الأحباب، وأهل هذه يأخذون أجرهم من وراء الباب. وبالله التوفيق، وهو الهادى إلى عين التحقيق.

الإشارة : أهل مقام الإحسان عملهم قلبى، كالسخاء والعفو وكظم الغيظ، وأهل اليمين عملهم بدنى، بين طاعة ومعصية وغفلة ويقظة، إذا فعلوا فاحشة تابوا واستغفروا، وإذا فعلوا طاعة فرحوا واستبشروا، أهل مقام الإحسان غائبون عن رؤية أعمالهم ووجودهم، وأهل اليمين معتمدون على أعمالهم، إذا فعلوا طاعة قوى رجاؤهم، وإذا زلّوا نقص رجاؤهم، أهل مقام الإحسان فانون عن أنفسهم باقون بربهم، وأهل اليمين أنفسهم موجودة وأعمالهم لديهم مشهودة، أهل مقام الإحسان محبوبون، وأهل اليمين مُحِبُّون، أهل مقام الإحسان فنيت عندهم الرسوم والأشكال، وبقى فى نظرهم وجود الكبير المتعال، وأهل اليمين: الأكوان عندهم موجودة، وشموس المعارف عن قلوبهم مفقودة، أهل مقام الإحسان يعبدون الله على نعت الشهود والعيان، وأهل اليمين يعبدون الله من وراء حجاب الدليل والبرهان، أهل الدليل والبرهان عموم عند أهل الشهود والعيان.

واعلم أن لمعرفة الشهود والعيان ثمرات ونتائج، حصرها بعضهم فى إحدى عشرة خصلة:

الأولى: الحرية، ومعناها أن يكون العارف فرداً لِفَرْدٍ، من غير أن يكون تحت رق شيء من الموجودات، لا من أغراض الدنيا ولا من أغراض الآخرة، فالحرية عبارة عن غاية التصفية والطهارة. قال بعضهم: ليس بُحرٍّ من بقى عليه من تصفية نفسه مقدار فص نواة، المكاتب عبد ما بقى عليه درهم.

الثانية: الوجود، وهو الفوز بحقيقة الأشياء فى الأصل، وهو عبارة عن إدراك مقام تضمحل فيه الرسوم، بالاستغراق فى الحقيقة الأزلية.

الثالثة: الجمع الأتم، وهو الحال الذى يقضى بقطع الإشارات، والشخوص عن الأمارات والعلامات، بعد صحة التمكين والبراءة من التلوين.

الرابعة: الصحو، وهو عبارة عن تمكين حال المشاهدة، واتصالها، مع بُرء الروح من لدغات الدَّهَش، ولا يكمل الصحو إلا بحياة الروح بوارد الجمع الدائم.

الخامسة: التحقيق، وهو الوصول إلى المعرفة بالله، التى لا تُدرَكُ بالحواس، لتخليص المشرب من الحق بالحق فى الحق، حتى تسقط المشاهدات، وتبطل العبارات، وتفنى الإشارات.

السادسة: البسط، ونعني به: بسط الروح باسترسال شهود المعاني عند سقوط الأواني، وفي ذلك يقول ابن الفارض:

فما سكَنَتْ والهمّ يوماً بموضع كذلك لم يسكُنْ مع النغَم الغَمْ

السابعة: التلبيس، وهو تغطية الأسرار بأستار الأسباب، إبقاء للحكمة وستراً عن العامة.

الثامنة: البقاء، والمراد به الخروج عن فناء المشاهدة إلى بقاء المعرفة، من غير أُفُول يُخل بشمس المشاهدة، ولا رجوع إلى شواهد الحس، إنما هو استصحاب الجمع مع استئناس الروح بحلاوة المعاني، فهو كبائنٍ دانٍ. انظر بقيتها فى [بغية السالك]. وبالله التوفيق.

ثم قوّى قلوب أهل أُحد لمّا انكسرت بالهزيمة، فقال:

﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ ﴾

قلت: السُّنن: الطرق المسلوكة، وقيل: الأمم.

يقول الحق جل جلاله: قد مضت ﴿من قبلكم سُنَنٌ﴾ جرت على الأمم المكذبة لأنبيائها قبلكم، ﴿ولن تجد لسنة الله تبديلا﴾، وهو إمهالى واستدراجى إياهم، حتى يبلغ الكتاب الذى أُجل لهم، فإذا بلغهم أهلكتهم، وأدلتُ الأنبياء وأتباعهم عليهم، فإذا هلكوا بقيت آثارهم دارسة، اعتباراً لمن يأتى بعدهم، ﴿فسيروا فى الأرض﴾ وتعرفوا أخبارهم، وانظروا ﴿كيف كان عاقبة المكذبين﴾ لأنبيائهم قبلكم، فكذلك يكون شأنكم مع مَنْ كذّبكم.

﴿هذا﴾ الذى أمرتكم به من الاعتبار، ﴿بيان للناس﴾ لمن أراد أن يعتبر من الكفار، وزيادة هداية واستبصار ﴿للمتقين﴾.

ثم سلاّهم وبشرهم فقال: ﴿وَلا تَهِنُوا﴾ أي: لا تضعفوا عن قتال عدوكم بما أصابكم، ﴿وَلا تَحْزَنُوا﴾ على من قُتل منكم، وهم سبعون من الأنصار وخمسة من المهاجرين، منهم: حمزة بن عبد المطلب، ومصعب بن عمير ـ صاحب راية النبي ﷺ وعبد الله بن جحش، وعثمان بن شماس، وسعد مولى عتبة ـ رضي الله عنهم ـ. أو: (لا تحزنوا) لفوات الغنيمة ﴿وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ﴾ بأن تكون لكم العاقبة والنصر، أو: وحالكم أنكم أعلى منهم شأناً، فإنكم على الحق وقتالكم لله، وقتلاكم في الجنة، وهم على الباطل، وقتالهم للشيطان، وقتلاهم في النار، فلا تفشلوا عن الجهاد ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، فإن الإيمان يقتضي قوة القلب بالوثوق بالله والاعتماد عليه، أو: (إن كنتم مؤمنين) بما وعدتكم من العلو والنصر. والله أعلم.

الإشارة : قد خلت من قبلكم، أيها المريدون، سنن الله في أوليائه مع المنكرين عليهم من عوام عباده، فإنه أبعدهم عن ساحة حضرته، وحرمهم من سابق عنايته، حتى ماتوا على البعد، فاندرست آثارهم وخربت ديارهم، فسيروا في الأرض وانظروا كيف كان عاقبة المكذبين لأوليائه، هذا بيان للمعتبرين، وزيادة هدى وموعظة للمتقين، فلا تهنوا أيها الفقراء وتضعفوا عن طلب الحق بالرجوع عن طريق الجد والاجتهاد، لما يصيبكم من أذى أهل العناد، وأنتم الأعلون بالنصر والتأييد، ورفع درجاتكم مع خواص أهل التوحيد، إن كنتم مؤمنين بوعد الملك المجيد، فمن طلب الله وجده، وأنجز بالوفاء موعده، لكن بعد تجرع كؤوس مرارة الصبر، ودوام الحمد والشكر، وأنشدوا:

لاتَحْسَبِ المَجْدَ تَمْراً أَنْتَ آكِلُهُ لَنْ تَبْلُغَ المَجْدَ حَتّى تَلْعَقَ الصَّبْرَ(١)

ثم سلاّهم بمشاركة المكذبين فيما أصابهم، فقال:

﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾ ﴾

قلت : القرح ـ بالفتح والضم ـ: الجرح، وقيل: بالفتح: الجرح، وبالضم: ألمه ووجعه. والمداولة: المفاعلة من الدولة، وهي الغلبة، و(الأيام) : نعت أو خبر، و(نداولها) : خبر أو حال، و(ليعلم) : متعلق بمحذوف، أي: وفعل

(١) البيت للمتنبي.

ما فعل من الإدالة ليعلم، أو عطف على علة محذوفة، أي: نداولها ليكون كيت وكيت، وليعلم... إلخ، إيذانا بأن العلة فيه غير واحدة، وأن ما يصيب المؤمن: فيه من المصالح ما لا يُعلم، و(يعلم الصابرين): منصوب بأن، على أنّ الواو للجمع.

يقول الحق جل جلاله: ﴿إن يمسسكم﴾ في غزوة أحد ﴿قرح﴾ كقتل أو جرح، ﴿فقد مس القوم﴾ من أعدائكم يوم بدر ﴿قرح مثله﴾، فإن كان قُتل منكم خمسة وسبعون يوم أحد، فقد قتل منهم يوم بدر سبعون وأسر سبعون. أو: ﴿فقد مس القوم﴾ يوم أحد ﴿قرح﴾ مثل ما أصابكم، فإنكم نلتم منهم وهزمتموهم، قبل أن تخالفوا أمر الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ، كما نالوا منكم يومئذ. ﴿وتلك الأيام نداولها بين الناس﴾ أي: نصرف دولتها بينهم، فنديل لهؤلاء تارة ولهؤلاء أخرى، كما قال الشاعر:

فَيَوْمٌ عَلَيْنَا، وَيَوْمٌ لَنَا ... وَيَوْمٌ نُسَاءُ، وَيَوْمٌ نُسَرّ(١)

فقد أديل المسلمون على المشركين يوم بدر، فكانت الدولة لهم، وأديل المشركون يوم أحد. والمراد بالأيام: أيام الدنيا، أو أيام النصر والغلبة. وإنما أديل للمشركين يوم أحد ليتميز المؤمنون من المنافقين، ويظهر علمهم للناس، وليتخذ الله ﴿منكم شهداء﴾ حين ماتوا في الجهاد، أكرمهم الله بالشهادة، ولا تدل إدالة المشركين على أن الله يحبهم، فإن الله ﴿لا يحب الظالمين﴾. وإنما أدالهم ﴿ليمحص الله الذين آمنوا﴾ أي: ليطهرهم ويصفيهم من الذنوب، وإنما أدال المسلمين على المشركين ليمحق الكافرين ويقطع دابرهم. والمحق: نقص الشيء قليلاً قليلا.

ثم عاتب المسلمين فقال: ﴿أم حسبتم﴾ أي: ظننتم ﴿أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم﴾ علم ظهور، ﴿ويعلم الصابرين﴾ أي: لا تظنوا أن تدخلوا الجنة كما دخلها مَنْ قُتل منكم، ولم يقع منكم مثل ما وقع لهم من الجهاد والصبر على القتل والجرح؛ حتى يقع العلم ظاهرًا بجهادكم وصبركم.

﴿ولقد كنتم﴾ قبل خروجكم إلى الجهاد ﴿تمنون الموت﴾ أي: الحرب؛ لأنه سبب الموت، وتقولون: ليت لنا يوماً مثل يوم بدر، فلقد لقيتموه وعاينتموه يوم أحد ﴿وأنتم تنظرون﴾ من مات من إخوانكم، فما لكم حين رأيتموه جبنتم وانهزمتم؟ وهو عتاب لمن طلب الخروج يوم أحد، ثم انهزم عن الحرب، ثم تداركهم بالتوبة والعفو، على ما يأتي إن شاء الله. والله تعالى أعلم.

الإشارة: إن يمسسكم يامعشر الفقراء قرح؛ كحبس أو ضرب أو سجن أو حرج أو جلاء، فقد مس العموم مثل ذلك، غير أنكم تسيرون به إلى الله تعالى لمعرفتكم فيه، وهم لا سير لهم لعدم معرفتهم، أو إن يمسسكم قرح فقد مسّ القوم المتقدمين من أهل الخصوصية مثل ما أصابكم، ففيهم أسوة لكم، وهذه عادة الله في أوليائه، يديل عليهم حتى يتطهروا ويتخلصوا، ثم يُديل لهم، وإنما أديل عليهم أولاً ليتطهروا من البقايا وتكمل فيهم المزايا، وليعلم

(١) البيت للنمر بن تولب، كما ورد في الكتاب لسيبويه ١/ ٨٦.

الصادق في الطلب من الكاذب، فإنّ محبة الله مقرونة بالبلاء، وليتخذ منهم شهداء إن ماتوا على ذلك، كالحلاج وغيره، أو يتخذ منهم شهداء الملكوت إن صبروا حتى ظفروا بالشهود. (والله لا يحب الظالمين) أي: المؤذين لأوليائه، بل يمقتهم ويبعدهم.

(وليمحص الله الذين آمنوا) بطريق الخصوص، أي: يخلصهم من بقايا الحس، سلط عليهم الناس، وليَمحق المنكرين عليهم بما يصيبهم من إيذايتهم، فإن المنكر على أهل النسبة كمن يدخل يده في الغيران(١) ، فإذا سلم من الأول والثاني، قال: لا يلحقني منهم شيء، فإذا أدخل يده في غار آخر لدغته حية فأهلكته.

أم حسبتم يامعشر المريدين أن تدخلوا جنة المعارف، ولما يعلم الله الذين جاهدوا نفوسهم، ويعلم الصابرين على إيذاية من آذاهم، ولقد كنتم تمنون موت نفوسكم وتطلبون ما يعينكم على موتها من قبل أن تلقوا الجلال، فقد رأيتموه وعاينتموه وأنتم تنظرون ما أصاب الأولياء غيركم، فما لكم تجزعون منه وتفرون من مواطنه؟. وكان شيخ شيوخنا رضي الله عنه يقول: العجب كل العجب، ممن يطلب معرفة الله، فإذا تعرف إليه أنكره.

وفي الحِكَم: «إذا فتح الله لك وجهة من التعرف فلا تبال معها، وإن قلّ عملك، فإنه ما فتحها إلا وهو يريد أن يتعرف إليك فيها، ألم تعلم أن التعرف هو مورده عليك، والأعمال أنت مهديها إليه، وأين ما تهديه إليه مما هو مورده عليك؟». وبالله التوفيق.

ثم وبّخهم على ما وقع لهم من الفشل، حين سمعوا بموت النبي ﷺ ، فقال:

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ (١٤٤) وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلًا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ (١٤٥) ﴾

قلت : (كتابا) : مصدر، أي: كتب الموت كتابا مؤجلا.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وما محمد إلا رسول﴾ يصيبه ما أصابهم، ﴿قد﴾ مضت ﴿من قبله الرسل﴾، فسيمضي كما مضوا بالموت أو القتل، ﴿أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم﴾ بعد تقرر شريعته

---

(١) الغيران: جمع غار، ويجمع أيضا على أغوار.

وظهور براهينه، عاتبهم على تقدير أن لو صار منهم انقلاب لو مات ﷺ أو قتل، أو على ما صدر من بعض المنافقين وهم ساكتون.

قال أصحاب المغازي: خرج النبي ﷺ حتى نزل بالشعب من أُحُد، في سبعمائة رجل، وأمَّر عبدَ الله بنَ جبيرٍ على الرماة، وهم خمسون رجلا، وقال: انضحوا عنا بالنبل، لا يأتونا من خلفنا، لا تبرحوا مكانكم؛ كانت لنا أو علينا، فإنا لن نزال غالبين ما ثبتُّم مكانكم، فجاءت قريش، وعلى ميمنتهم خالد بن الوليد، وعلى ميسرتهم عكرمة، ومعهم النساء. ثم انتشب القتال فقال عليه الصلاة والسلام : «مَنْ يأخذ هذا السيف بحقه»؟ فجاء رجال فمنعهم، حتى جاء أبو دُجانة، فقال: وما حقه يارسول الله؟ قال: «تضرب به العدو حتى ينحني»، وكان رجلاً شجاعاً يختال عند الحرب، فأخذه واعتم بعمامة حمراء، وجعل يتبختر بين الصفين، فقال عليه الصلاة والسلام: « إنها لمشيةٌ يبغضها الله إلاّ في هذا الموضع».

ثم حمل النبيُّ ﷺ وأصحابُه على المشركين فهزموهم، قال الزبير: (فرأيت هنداً وصواحبها هارياتٍ مصعدات في الجبل)، فلما نظر الرماة إلى القوم قد انكشفوا، قالوا: الغنيمة الغنيمة فقال لهم بعضهم: لا تتركوا أمر النبي ﷺ فلم يلتفتوا، وانطلق عامتهم، فلما رأى خالد قلة الرماة، صاح في خيله من المشركين، ثم حمل على أصحاب النبي ﷺ من خلفهم، وقتل عبد الله بن جبير، واختلط الناس، فقتل بعضُهم بعضاً، ورمى عبدُ الله بن قمئة الحارثي رسولَ الله ﷺ بحجر، فكسر أنفه ورباعيته، وشجَّه في وجهه، وكسر البيضة(١) على رأسه، فذبَّ عنه مصعبُ بن عمير، وكان صاحب الراية، فقتله ابن قمئة وهو يرى أنه قتل النبي ﷺ، فرجع إلى قومه، وقال: قد قتلت محمداً، وصرخ صارخ: ألا إنَّ محمداً قد مات. وقيل: إنه الشيطان، فانكفأ الناس، وجعل الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ يدعو: «إليَّ عباد الله»، فانحاز إليه ثلاثون من الصحابة، وضموه حتى كشفوا عنه المشركين، وأصيبت يد طلحة بن عبيد الله فيبست، حين وقَى بها النبي ﷺ، وأصيبت عين قتادة بن النعمان، حتى وقعت على وجنتيه، فردها النبي ﷺ مكانها، فعادت أحسن مما كانت.

وفشا في الناس أن رسول الله ﷺ مات ـ فقال بعض المسلمين: ليت ابنَ أُبي يأخذ لنا أماناً من أبي سفيان، وقال بعض المنافقين: لو كان نبيا ما قتل، ارجعوا إلى دينكم الأول. فقال أنس بن النضر ـ عمُّ أنس بن مالك: (إن كان قد قتل محمدٌ فإنَّ رب محمد لا يموت، وما تصنعون بالحياة بعده؟ فقاتلوا على ما قاتل عليه، حتى تموتوا على ما مات عليه) . ثم قال: اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء ـ يعني المسلمين ـ وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء ـ يعني الكفار ـ، ثم شدّ سيفه وقاتل حتى قُتل، رحمة الله عليه.

---

(١) البيضة : الخوذة.

فأنزل فيما قال المنافقون: ﴿ومن ينقلب على عقبيه﴾ بارتداده ﴿فلن يضر الله شيئا﴾ وإنما يضر نفسه، ﴿وسيجزى الله الشاكرين﴾ على نعمة الإسلام بالثبات عليه، كأنس وأضرابه، ﴿وما كان﴾ ينبغي ﴿لنفس أن تموت إلا بإذن الله﴾ أي: بإرادته ومشيئته، أو بإذنه لملك في قبض روحه، والمعنى: أنَّ لكل نفس أجلاً مسمى في علمه تعالى وقضائه، لا تستأخر عنه ساعة ولا تستقدم، بالتأخر عن القتال ولا بالإقدام عليه، وفيه تشجيعهم على القتال ووعد للرسول بحفظه وتأخر أجله؛ فإن الله تعالى كتب أجل الموت ﴿كتابا مؤجلا﴾، مؤقتاً لا يتقدم ولا يتأخر.

ونزل في الرماة الذين خالفوا المركز للغنيمة: ﴿ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ومن يرد ثواب الآخرة نؤتها منها﴾ الجزاء الجليل، ﴿وسنجزى الشاكرين﴾ الذين شكروا نعم الله، فلم يشغلهم شيء عن الجهاد في سبيل الله، بل كان همهم رضى الله ورسوله دون شيء سواه.

الإشارة : ينبغي للمريد أن يستغني بالله، فلا يركن إلى شيء سواه، وتكون بصيرته نافذة حتى يغيب عن الواسطة بشهود الموسوط، فإن مات شيخه لم ينقلب على عقبيه، فإن تمكن من الشهود فقد استغنى عن كل موجود، وإن لم يتمكن نظر من يكمله، فالوقوف مع الوسائط وقوف مع النعم دون شهود المنعم، فلا يكون شاكراً للمنعم حتى لا يحجبه عنه شيء، ولما مات ـ عليه الصلاةوالسلام ـ دهشت الناس، وتحيرت لوقوفهم مع شهود النعمة، إلاَّ الصدِّيق؛ كان نفذ من شهود النعمة إلى شهود المُنعم، فخطب حينئذ على الناس، وقال: (مَنْ كانَ يَعْبُدُ مُحَمَّداً فإن مُحَمَّداً قَدْ ماتَ، ومَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللهَ فإنَّ اللهَ حيٌ لاَ يمُوتُ). ثم قرأ: ﴿ وما محمد إلا رسول ... ﴾ إلى قوله: ﴿ وسنجزى الشاكرين ﴾، وهم الذين نفذوا إلى شهود المنعم، ولم يقفوا مع النعمة.

ودخل بعض العارفين على بعض الفقراء فوجده يبكي، فقال له: ما يبكيك؟ قال: مات أستاذي، فقال له العارف: ولم جعلت أستاذك يموت؟ وهلا جعلته حيًا لا يموت. فنبهه على نفاذ بصيرته إلى شهود المنعم دون الوقوف مع النعمة، فالشيخ الحقيقي هو الذي يغني صاحبه عنه وعن غيره، بالدلالة على ربه.

ثم صبَّرهم بما وقع لغيرهم قبلهم فقال:

﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْأٓخِرَةِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾ ﴾

قلت: (كأيِّن): أصله: أيّ، دخلت الكاف عليها وصارت بمعنى (كم)، وأثبت التنوين نوناً على غير قياس، وقرأ ابن كثير: (وكائن)، على وزن فاعل، ووجهه: أنه قلب الياء قبل الهمزة فصار: كيأءٍ، تحركت الياء وانفتح ما قبلها فصار كائن، وهما لغتان، وقد جمع الشاعر بينهما في بيت، فقال:

كَـأيِّنْ أبَدْنَا مِنْ عَـدوٍّ بِعِـزِّنَا وكَائِنْ أجَرْنَا مِنْ ضَعيفٍ وخَائِفِ

و(الربِّيون): جمع رِبَّة، أي: الفرقة. أي: معه جموع كثيرة، وقيل: العلماء الأتقياء، وقيل: الولاة، وهو: إما مبتدأ فيوقف على (قُتل)، أو نائب فاعل (قُتل)، أو فاعل على من قرأ بالبناء له، و(كثير): نعت له، كقوله: ﴿ وَالْمَلائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ﴾، لأن فعيلا يخبر به عن المفرد والجمع.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وكأين﴾، وكم ﴿من نبي قُتل﴾ في المعركة ومعه جموع كثيرة، أو ربانيون علماء أتقياء، فلم يفشلوا ولم يضعفوا، بل ثبتوا على دينهم وجهاد عدوهم، أو يقول: كثير من الأنبياء قتل معهم ربانيون كثير، أي: ماتوا في الحرب فثبت الباقون، ولم يفتروا ولم يضعفوا عن عدوهم، ويترجح الأول بما صرَخَ به الصارخ يوم أُحد: إن محمداً قد مات، فضرب لهم المثل بقوله: ﴿وكأين من نبي قُتل﴾، ويترجح الثاني بأنه لم يقتل نبي قط في المحاربة.

أو: ﴿وكأين من نبي قاتل﴾ أي: جاهد معه ﴿ربِّيون كثير﴾، وبعدما قتل نبيهم أو جموعهم ﴿فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله﴾ أي: فما فتروا، ولم ينكسر جندهم؛ لأجل ما أصابهم من قتل نبيهم أو بعضهم، ﴿وما ضعفوا﴾ عن جهاد عدوهم ولا عن دينهم، ﴿وما استكانوا﴾ أي: خضعوا لعدوهم، من السكون؛ لأن الخاضع يسكن لعدوه يفعل به ما يريد، فالألف إشباع زائد، أي: فما سكنوا لعدوهم بل صبروا له، ﴿والله يحب الصابرين﴾ فينصرهم ويعزهم ويُعظّم قدرهم.

﴿وما كان قولهم﴾ عند قتل نبيهم مع ثباتهم على دينه، ﴿إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا﴾ الصغائر، ﴿وإسرافنا في أمرنا﴾ أي: ما تجاوزنا به الحد في أمر ذنوبنا، كالكبائر، ﴿وثبت أقدامنا﴾ في مداحض الحرب؛ لئلا ننهزم، ﴿وانصرنا على القوم الكافرين﴾ من أعدائنا، فهّلا فعلتم مثلهم، وقلتم ذلك يا أصحاب محمد ﷺ.

﴿فآتاهم الله﴾ في ثواب الاستغفار واللجوء إلى الله ﴿ثواب الدنيا﴾ وهو النصر والغنيمة والعز وحسن الذكر، ﴿وحسن ثواب الآخرة﴾ وهو النعيم الذي لا يفنى ولا يبيد، وخص ثواب الآخرة بالحسن؛ إشعاراً بفضله، وأنه المعتد به عنده، ﴿والله يحب المحسنين﴾ الثابتين على دينهم، لأنهم أحسنوا فيما بينهم وبين ربهم بحفظ دينه، فأحبهم الله وقربهم إلى حضرته.

الإشارة : وكم من المريدين والأتباع مات شيخهم أوقتل، فثبتوا على طريقهم، فما فشلوا ولا ضعفوا، ولا خضعوا لمن يقطعهم عن ربهم، بل صبروا على السير إلى ربهم ، أو الترقي في المقامات، ومن لم يرشد منهم طلب من يكمل له، (والله يحب الصابرين)، فإذا أحبهم كان سمعهم وبصرهم، كما في الحديث. وما كان حالهم عند موت شيخهم إلا الالتجاء إلى ربهم، والاستغفار مما بقي من مساوئهم، وطلب الثبات في مواطن حرب أنفسهم، فأعطاهم الله عز الدنيا والآخرة، عز الدنيا بالإيمان والمعرفة، وعز الآخرة بدوام المشاهدة، فكانوا أحباب الله؛ (والله يحب المحسنين).

ثم حذَّرهم الله تعالى من الركون إلى عدوهم، فقال:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله : ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا﴾ وهم المنافقون، لما قالوا للمسلمين عند الهزيمة: ارجعوا إلى دينكم الأول، ولو كان نبياً ما قتل، ﴿يردوكم على أعقابكم﴾ راجعين عن إيمانكم، ﴿فتنقلبوا خاسرين﴾ مفتونين عن دينكم، فتحبط أعمالكم فتخسروا الدنيا والآخرة، بل اثبتوا على إيمانكم، فإن الله ﴿مولاكم﴾ سينصركم ويعزكم، ﴿وهو خير الناصرين﴾، وقيل: إن تسكنوا إلى أبي سفيان وأشياعه وتستأمنوهم يردوكم إلى دينهم. وقيل: عام في مطاوعة الكفرة والنزول على حكمهم؛ فإنه يجر إلى موافقتهم على دينهم، لا سيما إن طالت مدة الاستئمان.

قلت : وهذا هو السبب في ارتداد من بقي من المسلمين بالأندلس حتى رجعوا نصارى، هم وأولادهم، والعياذ بالله من سوء القضاء.

الإشارة : يا أيها المريدون ـ وخصوصاً المتجردين ـ إن تطيعوا العامة، وتركنوا إليهم، يردوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين بطلب الدنيا وتعاطي أسبابها، فتزلَّ قدمٌ بعد ثبُوتها، وتنحط من الهمة العالية إلى الهمة السفلى، فإن الطباع تُسرق، والمرء على دين خليله، بل اثبتوا على التجريد وتحقيق التوحيد، فإن الله مولاكم (وهو خير الناصرين)؛ فينصركم ويعزكم ويغنيكم بلا سبب، كما وعدكم؛ ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ ﴾.

ولَمَّا انصرف أبو سفيان من أُحد، قال: بئس ما صنعنا! قتلنا القوم ولم يبق إلا اليسير، ارجعوا حتى نستأصلهم، فألقى الله في قلبه الرعب، كما قال:

﴿ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ (١٥١) ﴾

قلت : (الرعب): الخوف، وفيه الضم والسكون، وهكذا كل ثلاثي ساكن الوسط، كالقدس والعسر واليسر، وشبه ذلك، و(بما أشركوا): مصدرية.

يقول الحق جل جلاله: سنقذف ﴿ في قلوب الذين كفروا﴾ كأبي سفيان وأصحابه، ﴿الرعب﴾ الخوف، حتى يرجعوا عنكم بلا سبب، بسبب شركهم بالله ﴿مالم ينزل به سلطانا﴾ ولا حجة على استحقاق العبادة، ﴿ومأواهم النار﴾ أي: هي مقامهم، ﴿وبئس مثوى الظالمين﴾ أي: قبح مقامهم. ووضع الظاهرموضع المضمر للتغليظ في العلة.

الإشارة : فيها تسلية للفقراء، فإنَّ كل من هم بإذايتهم ألقى الله في قلبه الرعب، حتى لا يقدر أن يتوصل إليهم بشيء مما أمَّل فيهم، وقد رأيتهم هموا بقتلهم وضربهم وحبسهم، وسعوا في ذلك جهدهم، وعملوا في ذلك بينات على زعمهم، توجب قتلهم، فكفاهم الله أمرهم، وألقى الرعب في قلوبهم، فانقلبوا خائبين وماتوا ظالمين، والله ولي المتقين.

ثم ذكَّرهم الله تعالى ما وعدهم من النصر، فقال:

﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (١٥٢) ﴾

قلت : حسَّه : إذا قتله وأبطل حسه، وجواب (إذا): محذوف، أي: حتى إذا فشلتم وتنازعتم وعصيتم امتحناكم بالهزيمة، والواو لا ترتب، والتقدير: حتى إذا تنازعتم وعصيتم وفشلتم سلبنا النصر عنكم.

يقول الحق جل جلاله : ﴿ولقد صدقكم الله﴾ ما وعدكم من النصر لو صبرتم واتقيتم، وذلك حين كنتم ﴿تحسونهم ﴾ بالسيف، وتقتلونهم حتى انهزموا هاربين، بإذنه تعالى وإرادته، ﴿حتى إذا فشلتم﴾ أي: جبنتم

وضعف رأيكم وملتم إلى الغنيمة، ﴿وتنازعتم﴾ في الثبات مع الرماة حين انهزم المشركون، فقلتم: الغنيمةَ الغنيمةَ، فما وقوفكم هنا! وقال آخرون: لا تخالفوا أمر الرسول، ثم تركتم المركز، ﴿وعصيتم الرسول من بعد ما أراكم ما تحبون﴾ من النصر والغنيمة، امتحناكم حينئذ بالهزيمة.

فمنكم ﴿من يريد الدنيا﴾ ليصرفها في الآخرة، وهم الذين خالفوا المركز وذهبوا للغنيمة، ﴿ومنكم من يريد الآخرة﴾ صرفًا، وهم الثابتون مع عبدالله بن جبير، محافظةً على أمر رسول الله ﷺ، ﴿ثم صرفكم عنهم﴾ حين خالفتم أمر الرسول، ﴿ليبتليكم﴾ أي: ليختبركم، فيتبين الصابر من الجازع، والمخلص من المنافق، ﴿ولقد عفا عنكم﴾ فلم يستأصلكم بعد المعصية والمخالفة، لاستحقاقكم ذلك، أو تجاوز عن ذنبكم وتفضل بالتوبة والمغفرة، ﴿والله ذو فضل﴾ عظيم ﴿على المؤمنين﴾؛ يتفضل عليهم بالمغفرة في الأحوال كلها، سواء أديل عليهم أو لهم، فإن الابتلاء أيضا رحمة وتطهير. والله تعالى أعلم.

الإشارة : يقول للفقراء الذين استشرفوا على بلاد الخصوصية، ثم فشلوا ورجعوا إلى بلاد العمومية: ولقد صدقكم الله وعده في إدراك الخصوصية لو صبرتم، فإنكم حين كنتم تجاهدون نفوسكم وتحسونها بسيوف المخالفة، لمعت لكم أنوار المشاهدة، حتى إذا فشلتم وتفرقت قلوبكم، وعصيتم شيوخكم قلَّت أمدادكم، وأظلمت قلوبكم، من بعد ما رأيتم ما تحبون من مبادئ المشاهدة، فملتم إلى الدنيا الفانية، فمنكم يا معشر المنتسبين من يريد الدنيا، فصحب العارفين على حرف، وهو الذي رجع وفشل، ومنكم من يريد الآخرة وقطع يأسه من الرجوع إلى الدنيا، وهو الذي ثبت حتى ظفر، ثم صرفكم عن صحبة العارفين، يا من أراد الدنيا من المنتسبين، ليبتليكم، هل صحبتموهم لله أو لغيره، ولقد عفا عنكم وجعلكم من عوام المسلمين، ولم يسلب عنكم الإيمان عقوبة لترك صحبة العارفين. أو لقد عفا عنكم إن رجعتم إلى صحبتهم والأدب معهم، فإن الله (ذو فضل على المؤمنين) حيث لم يعاجلهم بالعقوبة. وبالله التوفيق.

وقال الورتجبي: قوله: ﴿منكم من يريد الدنيا﴾، أي: منكم من وقع في بحر غنى القدم، واتصف به بنعت التمكين ورؤية النعم في شكر المنعم، كسليمان عليه السلام . ومنكم من وقع في بحر التنزيه وتقديس الأزلية، فغلب عليه القدس والطهارة، فخرج بنعت الفقر؛ تجريداً لتوحيده وإفرادِ قدمه من الحدث، كمحمدٍ ﷺ حيث قال: « الفقر فخري »(١).

---

(١) قال الحافظ ابن حجر: لا أصل له. انظر: الأسرار المرفوعة.

ثم بيّن وقت الذلة التي افتقرت إلى العفو، فقال:

﴿ ۞ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمَّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾ ﴾

قلت : (إذْ) : ظرف لعفا ، أو اذكر. وأصعد: أبعد في الأرض، وصعد: في الجبل، فالإصعاد: الذهاب في الأرض المستوية، والصعود: الارتقاء في العلو. وقرئ بهما معاً؛ لأنهما وقعا معا، فمنهم من فر ذاهباً في الأرض، ومنهم من صعد إلى الجبل. و(لكيلا) : متعلق بـأثابكم.

يقول الحق جل جلاله: ولقد عفا عنكم حين كنتم ﴿تُصْعِدُونَ﴾ عن نبيه ـ عليه الصلاة والسلام ـ، منهزمين عنه، تبعدون عنه، ﴿ولا تلوون على أحد﴾ أي: لا يلتفت بعضكم إلى بعض، ولا ينتظر بعضكم بعضا، ﴿والرسول﴾ محمد ﷺ ﴿يدعوكم في أخراكم﴾ أي: في ساقتكم، يقول: «إليَّ عباد الله، أنا رسول الله، من يكرُّ فله الجنة» ، وفيه مدح للرسول ﷺ بالشجاعة والثبات، حيث وقف في آخر المنهزمين، فإن الآخر هو موقف الأبطال، والفرار في حقه ﷺ محال.

﴿فأثابكم﴾ أي: فجازاكم على ذلك الفرار، ﴿غمّاً﴾؛ وهو ظهور المشركين عليكم وقتل إخوانكم، بسبب غم أوصلتموه للنبي ﷺ بعصيانه والفرار عنه، وقدَّر ذلك ﴿لكيلا تحزنوا على ما فاتكم﴾ من الغنيمة، ﴿ولا﴾ على ﴿ما أصابكم﴾ من الجرح والهزيمة، لأن من استحق العقوبة والأدب لا يحزن على ما فاته ولا على ما أصابه؛ إذ جريمته تستحق أكثر من ذلك، يرى ما نزل به بعض ما يستحقه، فيهون عليه أمر ما نزل به أو ما فاته من الخير.

أو يقول: ﴿ فأثابكم غمّاً ﴾ متصلا ﴿بغم﴾؛ فالغم الأول: ما فاتهم من الظفر والغنيمة، والثاني: ما نالهم من القتل والهزيمة، أو الأول: ما أصابهم من القتل والجراح، والثاني: ما سمعوا من الإرجاف بقتل النبي ﷺ، وذلك ليتمرنوا على المحن والشدائد حتى لا يجزعوا من شيء. وبذلك وصفهم كعب بن زهير في لاميته، حيث قال:

لاَيَفْرَحُونَ إذا نَالَتْ رِمَاحُهُمُ ... وَلَيْسُوا مَجَازِيعاً إذا نِيلُوا

فإن المتمرن على المصائب المتعود عليها يهون عليه أمرها، فلا يحزن على ما أصابه ولا ما فاته، ﴿والله خبير بما تعملون﴾ وبما قصدتم، فيجازيكم على ذلك.

الإشارة : مازال الدعاة إلى الله من أهل التربية النبوية يدعون الناس إلى الله، ويعرفونهم بالطريق إلى الله، يبينون لهم الطريق إلى عين التحقيق، والناس يبعدون عنهم ويفرون منهم، وهم في أخراهم يقولون بلسان الحال أو المقال: يا عباد الله، هلم إلينا نعرفكم بالله، وندلكم على الله، فلا يلوى إليهم أحد ولا يلتفت إليهم بشر، إلا من سبقت له العناية، وأراد الحق تعالى أن يوصله إلى درجة الولاية، «سبحان من لم يجعل الدليل على أوليائه إلا من حيث الدليل عليه، ولم يوصل إليهم إلا من أراد أن يوصله إليه»، فأثابهم على الفرار غم الحجاب، متصلاً بغم الأسباب، فلا يحزنوا على ما فاتهم من المعرفة؛ إذ لم يعرفوا قدرها، ولا على ما أصابهم من الغفلة والبطالة، إذ لم يتفطنوا لها، (والله خبير بما تعملون) يا معشر العباد، من التودد أوالعناد. وبالله التوفيق، وهو الهادى إلى سواء الطريق.

ثم أنزل على أهل أحد الأمن والطمأنينة بعد الشدة والمحنة، كما أشار إلى ذلك الحق، بقوله:

﴿ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ ﴾

قلت : (نعاسا) : بدل من (أمنة) ، أو هو المفعول، و(أمنة) : حال منه، مقدمة، أو مفعول له، أي: أنزل عليكم نعاساً لأجل الأمنة، أو حال من كاف (عليكم)، أي: أنزل عليكم حال كونكم آمنين. والأمنة: مصدر أمِن، كالعظَمة والغلَبة.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ثم أنزل عليكم﴾ أيها المؤمنون ﴿من بعد الغم﴾ الذي أصابكم بموت إخوانكم، والإرجاف بقتل نبيكم، الأمن والطمأنينة، حتى أخذكم النعاس وأنتم في الحرب. قال أبو طلحة: (غَشِيَنا النعاسُ ونحن في المصافّ، حتى كان السيف يسقط من يد أحدنا فيأخذه، ثم يسقط فيأخذه). وقال الزبير رضي الله عنه: لقد رأيتني حين اشتدّ الخوف، ونحن مع النبي ﷺ، أرسل الله ـ تعالى ـ علينا النوم، والله إني لأسمع قول معتب، والنعاس يغشاني، ما أسمعه إلا كالحلْم: (لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هاهنا).

ثم إن هذا النعاس إنما ﴿يغشى طائفة منكم﴾ وهم المؤمنون، أو: هذه الأمنة إنما تغشى طائفة منكم، وأما المنافقون فقد ﴿أهمتهم أنفسهم﴾ ، أي: أوقعتهم في الهموم والغموم، أو ما يهمهم إلا أنفسهم، يُدبرون خلاصها

ونجاتها، فقد طارت قلوبهم من الخوف، فلا يتصور في حقهم النوم، ﴿يظنون بالله غير الحق﴾ أي: غير الظن الحق، لأنهم ظنوا أنه لا ينصر ـ عليه الصلاة والسلام، وأن أمره مضمحل، أو ظنوا أنه قتل، ظناً كظن الجاهلية، أهل الشرك، ﴿يقولون﴾ أي: بعضهم لبعض: ﴿هل لنا من الأمر من شيء﴾ أي: عُزلنا عن تدبر أنفسنا، فلم يبق لنا من الأمر من شيء. قاله ابنُ أُبي، لَما بلغه قتل الخزرج.

﴿قل﴾ لهم يا محمد: ﴿إن الأمر كله لله﴾ ؛ ليس بيد غيره شيء من التدبير والاختيار، حال كون المنافقين ﴿يخفون في أنفسهم﴾ من الكفر والنفاق ﴿مالا يُبدون لك يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هاهنا﴾ أي: لو كان تدبيراً أو اختياراً ما خرجنا مع محمد حتى نُقتل هاهنا ويُقتل رؤساؤنا. ﴿قل﴾ لهم يا محمد: أخرجتكم القدرة في سلسلة المقادير، رغماً على أنفكم، فلو ﴿كنتم في بيوتكم﴾ آمنين ﴿لبرز الذين كتب عليهم القتل﴾، ووصل أجلهم ﴿إلى مضاجعهم﴾ ومصارعهم، رغما على أنفهم، فإن الله قدَّر الأمور ودبرها في سابق أزله، لا معقب لحكمه، وإنما فعل ذلك، وأخرجكم إلى المعركة ﴿ليبتلي الله ما في صدوركم﴾ أي: يختبر ما فيها من الخير أو الشر، ﴿وليمحص ما في قلوبكم﴾ أي: يكشف ما فيها من النفاق أو الإخلاص، فقدظهر خبث سريرتكم ومرض قلوبكم بالنفاق الذي تمكن فيه، ﴿والله عليم بذات الصدور﴾ أي: بخفاياها قبل إظهارها. وفيه وعد ووعيد وتنبيه على أنه غني عن الابتلاء، وإنما فعل ذلك ليميز المؤمنين ويُظهرَ حال المنافقين. قاله البيضاوي.

الإشارة : ثم أنزل عليكم أيها الواصلون المتمكنون، أو من تعلق بكم من السائرين، من بعد غم المجاهدة وتعب المراقبة أمنة في قلوبكم بالطمأنينة بشهود الله، وراحة في جوارحكم من تعب الخدمة في السير إلى الله، حتى وصلتم فنمتم في ظل الأمن والأمان، وسكنتم في جوار الكريم المنان.

قال بعض العارفين: (إذا انتقلت المعاملة إلى القلوب استراحت الجوارح)(١)، وهذه الراحة إنما تحصل للعارفين، أو من تعلق بهم من المريدين، وطائفة من غيرهم؛ وهم المتفقرة الجاهلون، الذين لا شيخ لهم، قد أهمتهم أنفسهم، تارة تصرعهم وتارة يصرعونها، تارة تُشرق عليهم أنوارُ التوجه، فيقوى رجاؤهم في الفتح، وتارة تنقبض عنهم فيظنون بالله غير الحق، ظن الجاهلية، يقولون: هل لنا من الفتح من شيء؟.

قل لهم: (إن الأمر كله لله)؛ يوصل من يشاء ويبعد من يشاء، يُخفون في أنفسهم من العيوب والخواطر الرديئة ما لا يبدون لك، فإذا طال عليهم الفتح، وغلب عليهم الفقر، ندموا على ما فاتهم من التمتع بالدنيا، يقولون: لو كان لنا من الأمر شيء ما قُتلنا هاهنا بالذل والفقر والجوع، قل لهم: ذلك الذي سبق في علم الله، لا محيد لأحد عنه، ليظهر الصادق في الطلب من الكاذب، [كن صادقا تجد مرشدا] ، فلو صدقتم في الطلب لأرشدكم إلى من يُوصلكم ويريحكم من التعب. وبالله التوفيق، وهو الهادي إلى سواء الطريق.

---

(١) سبق بيان معنى العبارة عند إشارة الآية / ٢١٢ من سورة البقرة.

ثم ذكر الحق تعالى علة انهزام من انهزم، فقال:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله : ﴿إن الذين تولوا منكم﴾ وانهزموا يوم أحد؛ ﴿يوم التقى الجمعان﴾ جمع المسلمين وجمع الكفار إنما كان السبب في انهزامهم أن الشيطان ﴿استزلهم﴾، أي: طلب زللهم فأطاعوه، أي: زين لهم الفرار فأطاعوه، بسبب بعض ﴿ماكسبوا﴾ من الإثم، كمخالفة أمر النبي ﷺ، والحرص على الغنيمة، وذنوب اقترفوها قبل الجهاد، فإن المعاصي تجر بعضها بعضاً، كالطاعة، ﴿ولقد عفا الله عنهم﴾ فيما فعلوا من الفرار؛ لتوبتهم واعتذارهم؛ ﴿إن الله غفور﴾ للذنوب، ﴿حليم﴾ لا يعاجل بعقوبة المذنب كي يتوب.

الإشارة : إن الذين تولوا منكم يا معشر الفقراء، ورجعوا عن صحبة الشيوخ، حين التقى في قلبهم الخصمان: خصم يرغبهم في الثبوت، وخصم يدلهم على الرجوع، ثم غلب خصم الرجوع فرجعوا، إنما استزلهم الشيطان بسوء أدبهم، فإن تابوا ورجعوا، أقبلوا عليهم، وقبل الله توبتهم، وعفا عنهم، فإنه سبحانه غفور حليم.

ثم حذّر من التشبه بالمنافقين في ضعف اليقين، وما ينشأ عنه من مقالة الجاهلين، فقال:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ ﴾

قلت : (غُزَّى): جمع غازٍ، كعافٍ وعفى، وإنما وضع (إذا) موضع (إذ)؛ لحكاية الحال.

يقول الحق جل جلاله: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا﴾ ونافقوا ،كعبد الله بن أبي، وأصحابه، ﴿وقالوا لإخوانهم﴾ في النسب، أو في المذهب، أي: قالوا لأجلهم أو في شأنهم، ﴿إذا ضربوا في الأرض﴾ أي: سافروا للتجارة أو غيرها فماتوا، ﴿أو كانوا غزى﴾ أي: غازين فقتلوا في الغزو: ﴿لو كانوا عندنا﴾ مُقيمين ﴿ما ماتوا وما قتلوا﴾، وإنما نطقوا بذلك ﴿ليجعل الله ذلك﴾ القول الناشيء عن الاعتقاد الفاسد ﴿حسرة في قلوبهم﴾ بالاغتمام على ما فات، والتحسر على مالم يأت، ﴿والله﴾ هو ﴿يحيي ويميت﴾ بلا سبب في الإقامة والسفر، فليس يمنع حذر من قدر، ﴿والله بما تعملون﴾، أيها المؤمنون ﴿بصير﴾، ففيه تهديد لهم على أن يُماثلوا المنافقين في هذا الاعتقاد الفاسد، ومن قرأ بالياء فهو تهديد لهم. والله تعالى أعلم.

الإشارة : لا ينبغي للأقوياء من أهل اليقين أن يتشبهوا بضعفاء اليقين، كانوا علماء أو صالحين أو طالحين، حيث يقولون لإخوانهم إذا سافروا لأرض مخوفة أو بلد الوباء: لو جلسوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا، وما دَرَوْا أن الله قدَّر الآجال كما قدَّر الأرزاق وجميع الشئون والأحوال، وعيَّن لها أوقاتا محدودة في أزله، فكل مقدور يبرز في وقته، «ما من نفَسٍ تبديه، إلا وله قدر فيك يمضيه»، فما قدَّره في سابق علمه لابد أن يكون، ومالم يقدره لا يكون، ولا تجلبه حركة ولا سكون. ولله در القائل:

مَا لاَ يُقَدَّرُ لاَ يَكُونُ بِحِيلَةٍ ... أَبَداً وَمَا هُوَ كَائِنٌ سَيَكُونُ
سَيَكُونُ ما هُوَ كائِنٌ فِى وَقْتِهِ ... وَأَخُو الجَهَالَةِ مُتْعَبٌ مَحْزُونُ
يَجْرِى الحَرِيصُ ولا يَنَالُ بِحرْصِهِ ... شَيْئاً ويَحْظَى عَاجِزٌ ومَهِينُ
فَدَعِ الهُمُومَ، تَعَرَّ مِنْ أَثْوابِهَا، ... إِنْ كَانَ عِنْدَكَ بِالْقَضَاءِ يَقِينُ
هَوِّنْ عَلَيْكَ وَكُنْ بِرَبِّكَ وَاثِقاً ... فَأَخُو الحَقِيقَةِ شَأْنُه التَّهْوِينُ

وكان سيدنا عمر رضي الله عنه يتمثل بهذه الأبيات:

فَهَوِّنْ عَلَيْكَ فَإِنَّ الأُمُورَ ... بِكَفِّ الإِلَهِ مَقَادِيرُهَا
فَلَيْسَ بِآتِيكَ مَصْرُوفُهَا ... ولا عَازِبٌ عَنْكَ مَقْدُورُهَا

وكل من لم يحقق الإيمان بالقدر لا ينفك عن الحسرة والكدر، ومن أراد النعيم المقيم فليثلج صدره ببرد الرضا والتسليم، ومن أراد الروح والريحان فعليه بجنات العرفان، وبالله التوفيق، وهو الهادى إلى سواء الطريق.

ثم رغَّب الحق تعالى في الموت في الجهاد، ورجَّح الموت مطلقا على الحياة، فقال:

﴿ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾

قلت : إذا اجتمع القسم والشرط ذكر جواب الأول وأغنى عن الثاني، فقوله: (لمغفرة) : جواب القسم، أغنى عن جواب (إن)، والتقدير: إن قتلتم في سبيل الله غفر الله لكم، ثم سد عنه (لمغفرة..) إلخ، ومن قرأ: (مِتم) بكسر الميم، فهو من: مات يمات، كهاب يهاب هِبتُ، وخاف يخاف خِفتُ، ومن قرأ بالضم: فمن مات يموت، كقال يقول قُلت.

يقول الحق جل جلاله : إن السفر والغزو ليس هما مما يجلب الموت أو يقدم الأجل، وعلى تقدير: لو وقع ذلك وحضر أجلكم فيه وقتلتم ﴿في سبيل الله﴾ بالسيف، ﴿أو متم﴾ حتف أنفكم، لما تنالون من المغفرة والرحمة والروح والريحان ﴿خير مما تجمعون﴾ من حطام الدنيا الفانية لو لم تموتوا، وعلى أي وجه متم أو قتلتم فلا تحشرون إلا إلى الله، لا إلى أحد غيره، فيوفى جزاءكم ويعظم ثوابكم، وأما البقاء في الدنيا فلا مطمع لأحد فيه، سافر أو قعد في بيته، وقدّم أولاً القتل على الموت وأخره ثانيا؛ لأن الأول رتب عليه المغفرة والرحمة، وهما في حق من قتل في الجهاد أعظم ممن مات بغيره، فقدمه؛ اعتناء به، وفي الثاني رتب عليه الحشر، وهو مستو في القتل والموت، فلا مزية فيه للقتل على الموت. والله أعلم.

الإشارة: ولئن قتلتم نفوسكم وبذلتم مهجكم في طلب محبوبكم، فظفرتم بالوصول إليه قبل موتكم، أو متم في السير قبل الوصول إلى محبوبكم، لما تنالون من كمال اليقين وشهود رب العالمين، أو من المغفرة والرحمة التي تضمكم إلى جواره، خير مما كنتم تجمعون من الدنيا قبل توجهكم إليه، فإن الموت والحشر مكتوب على كل مخلوق، فيظهر فوز المجاهدين والمتوجهين، وغبن القاعدين المسوفين. وبالله التوفيق.

ولمّا وقع ما وقع يوم أُحُد من مخالفة الرسول والفرار عنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ لم يعاتب ﷺ أحدا، ولكن ألان لهم الكلام وعفا عنهم، كما أخبر عن ذلك الحق تعالى بقوله:

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ ﴾

قلت: (فبما): صلة. والفظ: الجافي، يقال: فظ فظاظة وفظوظا، ورجل فظ، وامرأة فظة، والفض ـ بغير المشالة: التفرق، ويطلق على الكسر، ومنه: لا يفضض الله فاك.

يقول الحق جل جلاله : فبرحمة من الله ونعمة كنت سهلاً ليناً رفيقا، فحين عصوا أمرك، وفروا عنك، ألنت لهم جانبك، ورفقت بهم، بل اغتممت من أجلهم مما أصابهم، ﴿ولو كنت فظا﴾ جافيا سيئ الخلق ﴿غليظ القلب﴾ قاسيه فأغلظت لهم القول، ﴿لانفضوا من حولك﴾ أي: لتفرقوا عنك، ولم يسكنوا إليك، ﴿فاعف عنهم﴾ فيما يختص بك، ﴿واستغفر لهم﴾ في حق ربك حتى يشفعك فيهم، ﴿وشاورهم في الأمر﴾ الذي يصح أن يشاور فيه؛ تطييباً لخاطرهم، ورفعاً لأقدارهم، واستخراجاً وتمهيداً لسنة المشاورة لغيرهم، وخصوصاً الأمراء.

قال عليه الصلاة والسلام: «ما شقي عبد بمشورة، وما سعد باستغناء برأي». وقال أيضاً: «مَا خَابَ من استَخَارَ، ولاَ نَدِمَ من استَشَارَ». وقال أيضا ـ عليه الصلاة والسلام ـ «إذا كَانَ أُمَرَاؤُكُمْ خِيَارَكُمْ ، وأَغْنِيَاؤُكُمْ أَسخِيَاءَكُمْ، وأُمركُم شُورى بينَكمْ ، فظَهرُ الأَرْضِ خَيْرٌ لكُمْ مِنْ بَطْنِها. وإذا كَانَ أُمَرَاؤُكُمْ شِرَارَكُمْ وأَغْنِيَاؤُكُمْ بُخَلاءَكُمْ، ولم تكن أُموركم شُورَى بَيْنَكُمْ، فبَطْنُ الأَرْضِ خَيرٌ من ظَهْرِهَا».

﴿فإذا عزمت﴾ على شيء بعد الشورى، (فتوكل على الله) أي: ثق به وكيلا، ﴿إن الله يحب المتوكلين﴾ فينصرهم ويهديهم إلى ما فيه صلاحهم.

الإشارة: ما اتصف به نبينا ـ عليه الصلاة والسلام ـ من السهولة والليونة والرفق بالأمة، اتصفت به ورثته من الأولياء العارفين، والعلماء الراسخين، ليتهيأ لهم الدعوة إلى الله، أو إلى أحكام الله، ولو كانوا فظاظا غلاظا لانفض الناس من حولهم، ولم يتهيأ لهم تعريف ولا تعليم، فينبغي لهم أن يعفوا ويصفحوا ويغفروا ويصبروا على جفوة الناس، ويستغفروا لهم، ويشاوروهم في أمورهم، اقتداء برسولهم، فإذا عزموا على إمضاء شيء فليتوكلوا على الله؛ ﴿ إن الله يحب المتوكلين ﴾.

قال الجنيد ـ رضي الله عنه ـ: (التوكل أن تقبل بالكلية على ربك وتعرض عمن دونه) . وقال الثوري: أن تفني تدبيرك في تدبيره، وترضى بالله وكيلاً ومدبرا، قال الله تعالى: ﴿ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً ﴾ . وقال ذو النون: (خلع الأرباب، وقطع الأسباب.) وقال الخواص: قطع الخوف والرجاء مما سوى الله تعالى. وقال العرجي: رد العيش إلى يوم واحد، وإسقاط هم غد. هـ. وقال سهل: معرفة معطي أرزاق المخلوقين، ولا يصح لأحد التوكل حتى تكون عنده السماء كالصفر[1] والأرض كالحديد، لا ينزل من السماء قطر، ولا يخرج من الأرض نبات، ويعلم أن الله لا ينسى له ما ضمن من رزقه بين هذين. هـ. وقيل: هو اكتفاء العبد الذليل بالرب الجليل، كاكتفاء الخليل بالخليل، حين لم ينظر إلى عناية جبريل. وقيل لبهلول المجنون: متى يكون العبد متوكلا؟ قال: إذا كان بالنفس غريباً بين الخلق، وبالقلب قريبا إلى الحق.

وقال النبي ﷺ : «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَكُونَ أَكْرَمَ النَّاسِ فَلْيَتَقِ الله، ومَنْ سَرَّه أن يكُون أغْنَى النَّاس فليكنِ بما في يدِ الله أوثق منه بما في يَدِه» .

قال ابن جزي: التوكل هو الاعتماد على الله في تحصيل المنافع وحفظها بعد حصولها، وفي دفع المضرات ورفعها بعد وقوعها، وهو من أعلى المقامات، لوجهين: أحدهما : قوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ ، والآخر:

(١) الصفر : النحاس.

الضمان الذي في قوله: ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾، وقد يكون واجبا لقوله: ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾، فجعله شرطا في الإيمان، ولظاهر قوله: ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾؛ فإن الأمر محمول على الوجوب.

واعلم أن الناس في التوكل على ثلاث مراتب:

الأولى: أن يعتمد العبد على ربه، كاعتماد الإنسان على وكيله المأمون عنده، الذي لا يشك في نصيحته له وقيامه بمصالحه. **الثانية:** أن يكون العبد مع ربه كالطفل مع أمه؛ لا يعرف سواها ولا يلجأ إلاّ إليها. **الثالثة:** أن يكون العبد مع ربه كالميت بين يدي الغاسل، قد أسلم إليه نفسه بالكلية.

فصاحب الدرجة الأولى عنده حظ من النظر لنفسه، بخلاف صاحب الثانية. وصاحب الثانية له حظ من الاختيار، بخلاف صاحب الثالثة. وهذه الدرجات مبنية على التوحيد الخاص، الذي تكلمتُ عليه في قوله: ﴿ وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾، فهي تقوى بقوته وتضعف بضعفه.

فإن قيل: هل يشترط في التوكل ترك الأسباب أم لا؟ فالجواب: أن الأسباب على ثلاثة أقسام:

أحدها: سبب معلوم قطعاً قد أجراه الله، فهذا لا يجوز تركه؛ كالأكل لرفع الجوع واللباس لرفع البرد.

الثاني: سبب مظنون: كالتجارة وطلب المعاش، وشبه ذلك، فهذا لا يقدح فعله في التوكل، فإن التوكل من أعمال القلوب لا من أعمال البدن، ويجوز تركه لمن قوي عليه.

والثالث: سبب موهوم بعيد، فهذا يقدح فعله في التوكل، قلت: ولعل هذا مثل طلب الكيمياء والكنوز وعلم النار والسحر، وشبه ذلك .

ثم فوق التوكل التفويض، وهو : الاستسلام لأمر الله تعالى بالكلية، فإن المتوكل له مراد واختيار، وهو يطلب مراده في الاعتماد على ربه، وأما المفوض فليس له مراد ولا اختيار، بل أسند الاختيار إلى الله تعالى، فهو أكمل أدباً مع الله. هـ. وأصله للغزالي، وسيأتي بقية الكلام عند قوله: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ ﴾. وبالله التوفيق.

ولما أمر نبيّه ـ عليه الصلاة والسلام ـ بالتوكل، رغب فيه جميع عباده، فقال:

﴿ إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٦٠) ﴾

يقول الحق جل جلاله: (إن ينصركم الله) كما نصركم يوم بدر، (فلا غالب لكم) من أحد من الناس، (وإن يخذلكم) كما خذلكم يوم أحد، (فمن) هذا (الذى ينصركم من بعده) تعالى، أى: فلا ناصر سواه. وهذا تنبيه على الحث على التوكل، وتحريض على ما يستوجب به النصر، وهو الاعتماد على الله، وتحذير مما يستوجب الخذلان، وهو مخالفة أمره وعصيان رسوله، أو الاعتماد على غيره، ولذلك قال: (وعلى الله فليتوكل المؤمنون)؛ لِمَا علموا ألا ناصر سواه.

الإشارة: إن ينصركم الله على مجاهدة النفوس، ودوام السير إلى حضرة القدوس، فلا غالب لكم من النفس، ولا من الناس ولا من الهوى ولا من الشيطان، وإن يخذلكم ـ والعياذ بالله ـ فمن ذا الذى ينصركم من بعد خذلانه لكم؟ فليعتمد المريد فى سيره على مولاه، وليستنصر به فى قطع حظوظه وهواه، فإنه لا ناصر له سواه. وأنشدوا:

إذَا كَانَ عَوْنُ اللهِ للمَرْءِ نَاصِراً ... تَهَيَّأ لَهُ مِنْ كُلِّ صَعْبٍ مُرَادُهُ
وَإِنْ لَمْ يَكُنْ عَوْنٌ مِنَ اللهِ لِلْفَتَى ... فَأَكْثَرُ مَا يَجْنِي عَلَيْهِ اجْتِهَادُهُ

وبالله التوفيق، وهو الهادى إلى سواء الطريق.

ولمَّا تبادرت الرماة إلى الغنيمة كما تقدم، وقع فى وهمهم أنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ يحرمهم من الغنيمة، وذلك غلول لا يليق بحاله ـ عليه الصلاة والسلام ـ، فنزه الله نبيَّه عن ذلك، فقال:

﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾ ﴾

قلت: الغلول: السرقة من الغنائم، فمن قرأ بفتح الياء وضم الغين، فمعناه: لا ينبغى له أن يأخذ شيئًا من الغنيمة خفية، والمراد: تبرئة رسوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ من ذلك. ومن قرأ بضم الياء ففيه وجهان: أحدهما: أن يكون المعنى، ما كان لنبى أن يُخان، أى: أن تخونه أُمَّتُه فى المغانم، وكذلك الأمراء، وإنما خص النبىَّ ﷺ بذلك؛ لبشاعة ذلك مع النبى؛ لأن المعاصى تعظم بحضرته، والثانى: أن يكون المعنى: ما كان لنبى أن ينسب إلى الخيانة؛ كقوله: ﴿ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ ﴾ أى: لا ينسبونك إلى الكذب.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ما كان﴾ ينبغى ﴿لنبى أن يغل﴾ ويأخذ شيئا من الغنيمة خفية؛ لأن ذلك خيانة والنبوة تنافى ذلك، والمراد: نزاهة الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ عن ذلك، كقوله: ﴿ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ

من وَلَدِ ﴾، ودفعُ ما توهمه الرماة، فقد روى أنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ قال لهم لما تركوا المركز: «ألَمْ أعْهَد إليكُمْ ألا تتْركُوا المركزَ حتّى يأتيكُمْ أمْرِى؟» قالوا: ترَكْنا بقية إخْوانِنا وُقوفا، فقال النبى ﷺ : «بل ظَنَنْتم أنَّا نَغُلَّ ولا نقْسِمُ لكُمْ» . فنزلت الآية. وقيل إنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ بعث طلائع، فغنم رسول الله ﷺ، وقسم على من معه فقط، فنزلت، فاسترجع ذلك منهم. وقيل: فى قطيفة حمراء فُقدت يوم بدر، فقال المنافقون: لَعَلَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ أخَذَهَا، فنزلت.

ثم ذكر وعيد الغلول، فقال: ﴿ومن يَغْلُلْ يأت بما غَلَّ يوم القيامة﴾ أى: يأتى بالذى غله يحمله على رقبته، قال عليه الصلاة والسلام: «لا ألقي أحَدَكُمْ يوْمَ القِيَامَةِ يَجِئُ على رَقَبَتِه بعِيرٌ لَه رُغَاء، أوْ بقَرَةٌ لَهَا خُوَارٌ، أوْ شَاةٌ تَيْعرُ(١) » ثم قال: «اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ؟ ثلاثاً» . كما فى البخارى.

﴿ثم توفى كل نفس﴾ جزاء ﴿ما كسبت﴾ تاماً، ﴿وهم لا يظلمون﴾ بنقص ثواب مُطيعهم، ولا يزاد على عقاب عاصيهم وكان اللائق بما قبله أن يقول: ثم يوفى ما كسب. لكنه عمم الحكم؛ ليكون كالبرهان على المقصود والمبالغة فيه، وأنه إذا كان كل كاسب مجزياً بعمله، فالغال مع عظم جرمه بذلك أولى. قاله البيضاوى.

الإشارة: ما قيل فى النبى ـ عليه الصلاة والسلام ـ يقال فى ورثته الكرام، كالأولياء والعلماء الأتقياء، فإنهم ورثة الأنبياء، فيُظن بهم أحسن المذاهب، ويلتمس لهم أحسن المخارج، لأن الأولياء دلوا على معرفة الله، والعلماء دلوا على أحكام الله، وبذلك جاءت الرسل من عند الله، فلا يظن بهم نقص ولا خلل، ولا غلول ولا دخل، فلهم قسط ونصيب من حرمة الأنبياء، ولا سيما خواص الأولياء، ومن يظن بهم نقصاً أو خللا، ويغل قلبه على شيء من ذلك، فسيرى وباله يوم تفضح السرائر، ﴿ ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون ﴾ ، فلحوم الأولياء والعلماء سموم قاتلة، وظن السوء بهم خيانة حاصلة. والله تعالى أعلم.

فاعتقاد الكمال فى الأنبياء والأولياء مستوجب لرضى الله، والانتقاد عليهم موجب لمقت الله، كما أشار إلى ذلك الحق ـ جلت قدرته ـ فقال:

﴿ أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَـٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾ ﴾

(١) تيعر: تصيح، واليعار: صوت الشاة.

يقول الحق جل جلاله: (أفمن اتبع رضوان الله) بأن اعتقد في نبيه الكمال، وأطاعه في وصف الجلال والجمال، وهم المؤمنون، حيث نزهوا نبيهم من النقائص، ومَنْ هَجَسَ في قلبه شيء بادر إلى التوبة، ثم اتصف بكمال الخصائص، هل يكون ﴿كمن باء﴾ بغضب ﴿من الله﴾؟ وهم المنافقون، حيث نافقوا الرسول واتهموه ـ عليه الصلاة والسلام ـ بالغلول.

أو يقول: ﴿أفمن اتبع رضوان الله﴾ بالطاعة والانقياد ﴿كمن باء بسخط من الله﴾ بالمعاصي وسوء الاعتقاد ﴿ومأواه جهنم وبئس المصير﴾ أي المنقلب، والفرق بين المصير والمرجع: أن المصير يجب أن يخالف الحالة الأولى، ولا كذلك المرجع . قاله البيضاوي.

﴿هم درجات عند الله﴾ أي: أهل الرضوان درجات متفاوتة عند الله، على قدر سعيهم في موجب الرضاء، وأهل السخط درجات أيضا، على قدر تفاوتهم في العصيان، وهو على حذف مضاف، أي: ذوو درجات، ﴿والله بصير بما يعملون﴾؛ فيجازي كُلا على قدر سعيه.

الإشارة: (أفمن اتبع رضوان الله) بتعظيم الأولياء والعلماء وأهل النسبة، كمن باء بسخط من الله بإهانة من أمر الله أن يُعظم ويُرفع، ومأواه حجاب الحس وعذاب البعد، ﴿وبئس المصير﴾، فأهل القرب درجات على قدر تقريبهم إلى ربهم، وأهل البعد درجات في البعد على قدر بعدهم من ربهم، بشؤم ذنبهم وسوء أدبهم، والله بصير بأعمالهم وما احتوت عليه قلوبهم.

ثم ذكر موجب التعظيم للرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ وهو كونه نعمة مُهداة، فقال:

﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿لقد منّ الله على المؤمنين﴾ حيث ﴿بعث فيهم رسولا من أنفسهم﴾ أي: من جنسهم، أو من نسبهم، عربياً مثلهم؛ ليفهموا كلامه بسهولة، ويفتخروا به على غيرهم. وتخصيص المؤمنين بالمنة، وإن كانت نعمته عامة؛ لزيادة انتفاعهم على غيرهم؛ لشرفهم وذكرهم به، حال كونه ﴿يتلوا عليهم آياته﴾؛ القرآن، بعد أن كانوا جاهلية لا يعرفون الوحي ولا سمعوا به، ﴿ويزكيهم﴾ أي: يطهرهم من دنس الذنوب ودرن العيوب، ﴿ويعلمهم الكتاب﴾ أي: القرآن، ﴿والحكمة﴾ أي: السنة، ﴿وإن كانوا﴾ أي: وإنه، أي: الأمر والشأن كانوا ﴿من قبل﴾ بعثته ﴿لفي ضلال مبين﴾ أي: ظاهر بيِّن.

الإشارة: لقد منّ الله على المتوجهين إليه الطالبين لمعرفته، حيث بعث لهم من يأخذ بأيديهم، ويطوى مسافة البعد عنهم، وهم شيوخ التربية، يتلون عليهم آياته الدالة على كشف الحجاب وفتح الباب، ويزكيهم من دنس العيوب المانعة لعلم الغيوب، ثم يزكيهم من درن الحس إلى مشاهدة القرب والأنس، ويعلمهم الكتاب المشتمل على عين التحقيق، والحكمة المشتملة على التشريع وبيان الطريق، فيجمعون لهم ما بين الحقيقة والشريعة، وقد كانوا قبل ذلك فى ضلال مبين عن الجمع بينهما. وهذه المنّة عامة فى كل زمان، إذ لا تخلو الأرض من داع يدعو إلى الله، ومن اعتقد قطعه فقد قطع منة الله، واستعجز قدرة الله، وسد باب الرحمة فى وجه عباد الله، والعياذ بالله.

ولما استغرب الصحابة ـ رضى الله عنهم ـ ما وقع بهم يوم أُحد، مع كونهم وعِدُوا النصر، نبههم الحق تعالى أن ذلك منهم بشؤم مخالفتهم، فقال:

﴿ أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿١٦٥﴾ ﴾

قلت: الهمزة ـ للتفريع، و(لمّا): ظرف، خافضة لشرطها، منصوبة بجوابها، وهى معطوفة على محذوف، أى: أكان ما كان يوم أحد، ولمّا أصابتكم مصيبة، قلتم ما قلتم، و(قد أصبتم): جملة حالية.

يقول الحق جل جلاله: أحين ﴿أصابتكم مصيبة﴾ يوم أحد بقتل سبعين منكم، و﴿قد أصبتم مثليها﴾ يوم بدر فقتلتم سبعين وأسرتم سبعين، ﴿قلتم أنّى هذا﴾ أى: من أين أصابنا هذا البلاء وقد وعدنا النصر؟ ﴿قل﴾ لهم: ﴿هو من عند أنفسكم﴾ أى: مما اقترفته أنفسكم من مخالفة المركز، والنصر الموعود كان مشروطاً بالثبات والطاعة، فلما اختل الشرط اختل المشروط، ﴿إن الله على كل شىء قدير﴾؛ فيقدر على النصر بشرط وبغيره، لكن حكمته اقتضت وجود الأسباب والشروط؛ لأن هذا العالم قائم بين قدرة وحكمة.

أو: (قل هو من عند أنفسكم) باختياركم الفداء يوم بدر. رُوى عن على رضي الله عنه قال: (جاء جِبْريل إلى النبى ﷺ يوم بدر فقال: خَيِّرْ أصحَابَكَ فى الأسارى، إن شاءوا القتل، وإن شاءوا الفِداء، علَى أنْ يُقْتَلَ مِنْهُمْ عاماً مقبلا مِثْلهُمْ، قالوا: الفِداءَ ويُقْتَلُ مِنّا.) . والله تعالى أعلم.

الإشارة: إذا أصاب المريد شىء من المصائب والبلايا، فلا يستغرب وقوع ذلك به، ولا يتبرم منه، فإنه فى دار المصائب والفجائع، «لا تستغرب وقوع الأكدار ما دُمتَ فى هذه الدار، فإنما أبرزت ما هو مستحق وصفها وواجب نعتها» . وإذا كان أصابته مصيبة فى وقت، فقد أصابته نعمٌ جمة فى أوقات عديدة، فليشكر الله على ما أولاه، وليصبر على ما ابتلاه، ليكون صباراً شكورا.

قال الشيخ أبو الحسن ـ رضي الله عنه ـ : (العارف هو الذي عرف إساءاته في إحسان الله إليه، وعرف شدائد الزمان في الألطاف الجارية من الله عليه، فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون). وأيضا: كل ما يصيب المؤمن فمن كسب يده، ويعفو عن كثير.

وإن كان المريد وعد بالحفظ والنصر، فقد يكون ذلك بشروط خفيت عليه، فلم تتحقق فيه، فيخالف حفظه لينفذ قدر الله فيه، ﴿ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴾.

وليتميز الصادق من الكاذب والمخلص من المنافق، كما أشار إلى ذلك بقوله:

﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ (١٦٦) وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ قَالُواْ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ هُمۡ لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِۚ يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يَكۡتُمُونَ (١٦٧) ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ وَقَعَدُواْ لَوۡ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ قُلۡ فَٱدۡرَءُواْ عَنۡ أَنفُسِكُمُ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ (١٦٨) ﴾

قلت: (وقيل لهم تعالوا): استئناف، أو معطوف على (نافقوا)، و(الذين قالوا لإخوانهم): بدل من الضمير المجرور في (لهم)، أي: وقيل للمنافقين: قاتلوا أو ادفعوا، ثم فسرهم بقوله: وهم (الذين قالوا لإخوانهم...) إلخ. أو من الواو في (يكتمون)، أو منصوب على الذم، أو مبتدأ، والخبر: (قل..) على من يجيز إنشاء الخبر، و(قعدوا): جملة حالية، على إضمار قد.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وما أصابكم﴾ يا معشر المسلمين يوم أحد ﴿يوم التقى﴾ جمع المسلمين وجمع الكفار، من القتل والجرح والهزيمة، ﴿فبإذن الله﴾ وقضائه، لا راد لإمضائه، ﴿وليعلم﴾ علم ظهور في عالم الشهادة ﴿المؤمنين﴾ والمنافقين؛ فيظهر إيمان هؤلاء وكفر هؤلاء، وقد ظهر نفاقهم حيث رجعوا مع عبدالله بن أبي، وكانوا ثلاثمائة.

وذلك أنَّ ابن أُبَي كان رأيه ألا يخرج المسلمون إلى المشركين، فلما طلب الخروجَ قومٌ من المسلمين، فخرج ـ عليه الصلاة والسلام ـ كما تقدم، غضب ابن أُبَي، وقال: أطاعهم وعصاني. فرجع، ورجع معه أصحابه، فتبعهم

أبوجابر عبدالله بن عمرو بن حرام، وقال لهم: ارجعوا (قاتلوا فى سبيل الله أو ادفعوا)، أى: كثروا سواد المسلمين، فقال ابن أُبي ـ رأس المنافقين ـ : ما أرى أن يكون قتالا، ولو علمنا أن يكون قتال (لاتبعناكم)، وكنا معكم.

قال تعالى: ﴿هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان﴾؛ لظهور الكفر عليهم من كلامهم، فأمارات الكفر عليهم أكثر من أمارات الإيمان، أو: هم لأهل الكفر أقرب نصرة منهم لأهل الإيمان، لأن رجوعهم ومقالتهم تقوية للكفار عليهم وتخذيل للمسلمين، ﴿يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم﴾، فهم يظهرون خلاف ما يبطنون، لا تواطئ قلوبهم ألسنتهم بالإيمان، وإضافة القول إلى الأفواه تأكيد وتغليظ، ﴿والله أعلم﴾ منكم ﴿بما تكتمون﴾ من النفاق؛ لأنه يعلمه مفصلاً بعلم واجب، وأنتم تعلمونه مجملاً بأمارات.

وهؤلاء المنافقون هم (الذين قالوا) فى شأن إخوانهم الذين قُتلوا يوم أحد: ﴿لو أطاعونا﴾ وجلسوا فى ديارهم ﴿ما قتلوا﴾، قالوا هذه المقالة وقد قعدوا عن الخروج، ﴿قل﴾ لهم يا محمد: ﴿فادْرءوا﴾ أى: فادفعوا ﴿عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين﴾ أنكم تقدرون أن تدفعوا القتل عمن كتب عليه، فادفعوا عن أنفسكم الموت وأسبابه حين يبلغ أجلكم، فإنه أحرى بكم، فالقعود لا ينجى من الموت إذا وصل الأجل، فإن أسباب الموت كثيرة، فقد يكون القعود سببا للموت إن بلغ الأجل، وقد يكون الخروج سبباً للنجاة إن لم يبلغ. والله تعالى أعلم.

الإشارة: وما أصابكم يا معشر الفقراء عند توجهكم إلى الحق فارين من الخلق، حين استشرفتم على الجمع وجمع الجمع فبإذن الله؛ فإن الداخل على الله منكور، والراجع إلى الناس مبرور، وليظهر الصادق من الكاذب، فإن محبة الله مقرونة بالبلاء، والطريق الموصلة إليها محفوفة بالمكاره، مشروطة بقتل النفوس وحط الرؤوس، ودفع العلائق، والفرار من العوائق.

فإذا قيل للعوام: قاتلوا أنفسكم في سبيل الله لتدخلوا حضرة الله، أو ادفعوا عن أنفسكم العلائق لتشرق عليكم أنوار الحقائق، قالوا: قد انقطع هذا الطريق واندرست أرباب علم التحقيق، ولو نعلم قتالاً بقى يوصلنا إلى ربنا، كما زعمتم؛ لاتبعناكم ودخلنا فى طريقكم. هم للكفر يومئذ أقرب للإيمان، حيث تحكموا على القدرة الأزلية، وسدوا باب الرحمة الإلهية، وإنما يقولون ذلك احتجاجاً لنفوسهم، وإبقاء على حظوظهم، وليس ذلك من خالص قلوبهم، يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم.

وإذا نزل بأهل النسبة نكبة أو بلية، قالوا لإخوانهم، الذين دخلوا فى طريق القوم، وقد قعدوا هُم مع العوام: لو أطاعونا ولم يدخلوا فى هذا الشأن، ما قتلوا أو عذبوا، فقل لهم أيها الفقير: القضاء والقدر يجرى على الجميع، فادفعوا عن أنفسكم ما تكرهون، إن كنتم صادقين أن المكاره لا تصيب إلا من توجه لقتال نفسه. والله تعالى أعلم بأسرار كتابه.

ولمّا قُتل الشهداء يوم أُحد أكرم الله أرواحهم بما يكل عنه اللسان، فقالوا: يا ليت قومنا يعلمون بما نحن فيه، كي يرغبوا في الجهاد، فقال لهم الله تعالى: أنا أخبرهم عنكم، فأنزل الله تعالى:

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ ﴾

قلت: (ألاخوف عليهم): بدل من (الذين لم يلحقوا)، أو مفعول لأجله، وكرر: (يستبشرون)؛ ليذكر ما تعلق به من الفضل والنعمة، أو: الأول بحال إخوانهم، وهذا بحال أنفسهم.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ولا تحسبن﴾ أيها الرسول، أو أيها السامع، **﴿الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل﴾** هم **﴿أحياء﴾**؛ لأن الله تعالى جعل أرواحهم فى حواصل طير خضر، يسرحون فى الجنة حيث شاءوا عند ربهم، بالكرامة والزلفى، يُرزقون من ثمار الجنة ونعيمها، فحالهم حال الأحياء فى التمتع بأرزاق الجنة، بخلاف سائر الأموات من المؤمنين؛ فإنهم لا يتمتعون بالأرزاق حتى يدخلوا الجنة. قاله ابن جزي.

قلت: شهداء الملكوت ـ وهم العارفون ـ أعظم قدراً من شهداء السيوف، وراجع ما تقدم فى سورة البقرة[1].

﴿فرحين بما آتاهم الله من فضله﴾من الكرامة والزلفى والنعيم الذى لا يفنى، **﴿ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم﴾** أى: بإخوانهم الذى لم يُقتلوا فيلحقوا بهم من بعدهم. وتلك البشارة هى: **﴿ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾**، أو من أجل **﴿ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾**.

والحاصل: أنهم يستبشرون بما تبين لهم من الكرامة في الآخرة، وبحال من تركوا من خلفهم من المؤمنين، وهو أنهم إذا ماتوا أو قُتلوا، كانوا أحياء، حياة لا يدركها خوفُ وقوعِ محذور، ولا حزن فوات محبوب. فالآية تدل على أن الإنسان غير الهيكل المحسوس، بل هو جوهر مُدرِك بذاته، لا يفنى بخراب البدن، ولا يتوقف على وجود البدن إدراكه وتألمه والتذاذه. ويؤيد ذلك قوله تعالى فى آل فرعون: ﴿ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ﴾، وما رَوى ابنُ عباس من أنه ﷺ قال: «أرْواحُ الشهداء فى أجْوافِ طَيْرٍ خُضْرٍ، تَرِدُ أنْهارَ الجنّة، وتأكُلُ مْن ثِمارِها، وتأوِى إلـى قَنَاديـلَ مُعلَّقةٍ فى ظلِّ العَرْش» ـ قال معناه البيضاوى.

(١) عند إشارة الآية: ١٥٤ ومابعدها.

ولمّا ذكر استبشارهم بإخوانهم ذكر استبشارهم بما يخصهم فقال: ﴿يستبشرون بنعمة من الله﴾؛ وهو ثواب أعمالهم الجسماني، ﴿وفضل﴾ وهو نعيم أرواحهم الروحاني، وهو النظر إلى وجهه الكريم، ويستبشرون أيضاً بكونه تعالى ﴿لا يضيع أجر المؤمنين﴾، ماتوا في الجهاد أو على فرشهم، حيث حسنت سريرتهم وكرمت علانيتهم، قال ﷺ : «إن لله عباداً يصرفهم عن القتل والزلازل والأسقام، يطيل أعمارهم في حسن العمل، ويحسن أرزاقهم، ويحييهم في عافية، ويميتهم في عافية على الفرش، ويعطيهم منازل الشهداء»(١). قلت: ولعلهم العارفون بالله، جعلنا الله من خواصهم، وسلك بنا مسالكهم. آمين.

الإشارة: لا تحسبن الذين بذلوا مُهجهم، وقتلوا أنفسهم بخرق عوائدها، وعكس مراداتها، في طلب معرفة الله، حتى ماتت نفوسهم، وحييت أرواحهم بشهود محبوبهم، حياة لا موت بعدها، فلا تظن أيها السامع أنهم أموات، ولو ماتوا حساً، بل هم أحياء على الدوام، وفي ذلك يقول الشاعر:

مَـوْتُ التَّقِيِّ حَيَـاةٌ لا فَنَاءَ لَهَـا قَدْ مَاتَ قَوْمٌ وَهُمْ فِي النَّاسِ أَحْيَاءُ

فهم عند ربهم يشاهدونه مدة بقائهم، يرزقون من ثمار المعارف وفواكه العلوم، فرحين بما أتحفهم الله به من القرب والسر المكتوم، ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم في المرتبة ممن تعلق بهم، وأنهم سيصلون إلى ما وصلوا إليه من معرفة الحي القيوم، فلا يلحقهم حينئذ خوف ولا حزن ولا هم ولا غم، لما سكن في قلبهم من خمرة محبة الحبيب، والقرب من القريب المجيب، وفي ذلك يقول ابن الفارض:

وإنْ خَطَرَتْ يوماً علَى خاطِرِ امْرِئٍ أَقَـامَتْ به الأَفْـرَاحُ، وارتَحلَ الهمُ

يستبشرون بنعمة أدب العبودية، وفضل شهود أسرار عظمة الربوبية، وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين المحبين لطريق المخصوصين، فإن طريق محبة طريق القوم عناية، والتصديق بها ولاية، وبالله التوفيق وهو الهادي إلى سواء الطريق.

ولما رجع أبو سفيان من غزوة أُحد، هو وأصحابه، حتى بلغوا الروحاء، ندم وهم بالرجوع، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فندب أصحابه للخروج في طلبه، وقال: «لا يخرج معنا إلا من حضر بالأمس»، فخرج ﷺ في سبعين رجلاً حتى بلغوا حمراء الأسد. وهي على ثمانية أميال من المدينة ـ وكان بأصحابه القرح، فتحاملوا على أنفسهم كي لا يفوتهم الأجر، وألقى الله الرعب في قلوب المشركين، فذهبوا، فأنزل الله ـ تعالى ـ في شأن من خرج مع الرسول ﷺ:

﴿ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْاْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ﴾

(١) عزاه الهيثمي في مجمع الزوائد١٠ /٢٠٣ للطبراني عن ابن مسعود مرفوعاً . وفيه: جعفر بن محمود الواسطي الوراق، قال الهيثمي: لم أعرفه وبقية رجاله ثقات.

قلت : (الذين) : مبتدأ، وجملة (للذين أحسنوا) : خبر، أو صفة للمؤمنين قبله، أو نصب على المدح.

يقول الحق جل جلاله: ﴿الذين استجابوا لله والرسول﴾ فأطاعوه فيما ندبهم إليه من اللحوق بالمشركين، إرهاباً لهم، ﴿من بعد ما أصابهم القرح﴾ أي: الجرح، فتحاملوا على أنفسهم حتى ذهبوا مع نبيهم، ﴿للذين أحسنوا منهم﴾ بأن فعلوا ما أمروا به، ﴿واتقوا﴾ الله في مخالفة أمر رسوله، ﴿أجر عظيم﴾ يوم يقدمون عليه.

الإشارة: الذين استجابوا لله فيما ندبهم من الوصول إلى حضرته، وللرسول فيما طلبهم به من اتباع سنته، فجعلوا قلوبهم محلاً لحضرته، وجوارحهم متبعة لشريعته، من بعد ما أصابهم في طلب الوصول إلى ذلك قرح وضرب وسجن وإهانة، فصبروا حتى ظفروا بالجمع بين الحقيقة والشريعة، للذين أحسنوا منهم بالثبات على السير إلى الوصول إلى الحق، واتقوا كل ما يردهم إلى شهود الفرق، أجر عظيم وخير جسيم، بالعكوف في الحضرة، والتنعم بالشهود والنظرة.

ثم قال الحق تعالى:

﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ ﴾

قلت : الموصول بدل من الموصول قبله، و(يخوف): يتعدى إلى مفعولين؛ للتضعيف، حذف الأول، أي: يخوفكم أولياءه من الكفار، أو حذف الثاني، أي: يخوف أولياءه القاعدين عن الخروج إلى ملاقاة العدو.

وهنا تفسيران: أحدهما: أن يكون من تتمة غزوة أحد، وهو الظاهر، ليتصل الكلام بما بعده، وذلك أن أبا سفيان لما هَمّ بالرجعة ليستأصل المسلمين، لقيه معبد الخزاعي، فقال له: إن محمداً خرج يطلبك في جمع لم أرَ مثله، فدخله الرعب، فلقيه ركب من عبد القيس يريد المدينة بالميرة، فقال لهم: ثبطوا محمداً عن لحوقنا، ولكم حمل بعير من الزبيب، فلما لقوا المسلمين خوفوهم، فقالوا: ﴿حسبنا الله ونعم الوكيل﴾، ومضوا حتى بلغوا حمراء الأَسَد ثم رجعوا، فعلى هذا:

يقول الحق جل جلاله: ﴿الذين قال لهم الناس﴾ وهم ركب عبد قيس حيث قالوا للمسلمين: ﴿إن الناس﴾ يعني أبا سفيان ومن معه، ﴿قد جمعوا لكم﴾ ليرجعوا ليستأصلوكم ﴿فاخشوهم﴾ وارجعوا إلى دياركم

﴿فزادهم﴾ ذلك ﴿إيمانا﴾ ويقيناً وتثبيتاً في الدين، وهذا يدل على أن الإيمان يزيد وينقص، فيزيد بحسب التوجه إلى الله والتفرغ مما سواه، وينقص بحسب التوجه إلى الدنيا وشغبها، ويزيد أيضا بالطاعة والنظر والاعتبار، وينقص بالمعصية والغفلة والاغترار.

ولما قال لهم الركب ذلك؛ ليخوفهم، ﴿قالوا حسبنا الله﴾ أي: كافينا الله وحده، فلا نخاف غيره، ﴿ونعم الوكيل﴾ أي: نعم من يتوكل عليه العبد، وهي كلمة يدفع بها ما يخاف ويكره، وهي الكلمة التي قالها إبراهيم حين ألقي في النار، ﴿فانقلبوا﴾ راجعين من حمراء الأسد، متلبسين ﴿بنعمة من الله﴾ وهي العافية والسلامة، ﴿وفضل﴾ وهي زيادة الإيمان وشدة الإيقان، ﴿لم يمسسهم سوء﴾ من جراحة وكيد عدو، ﴿واتبعوا رضوان الله﴾، الذي هو مناط الفوز بخير الدارين، ﴿والله ذو فضل عظيم﴾؛ فقد تفضل عليهم بالتثبيت وزيادة الإيمان، والتوفيق إلى المبادرة إلى الجهاد مع الرسول ﷺ الذي هو موجب الرضوان.

ثم حذَّرهم الحق تعالى ممن ثبَّطهم عن اللحوق بالكفار، وهو ركب عبد القيس، تشبيهاً لهم بالشيطان، فقال: ﴿انما ذلكم الشيطان﴾ يخوفكم أولياءه من المشركين، أو ﴿يخوف أولياءه﴾ القاعدين من المنافقين، ﴿فلا تخافوهم﴾؛ فإن أمرهم بيدي، ﴿وخافون إن كنتم مؤمنين﴾؛ فإن الإيمان يقتضي إيثار خوف الله على خوف الناس.

التفسير الثاني: أن يكون الكلام علي غزوة بدر الصغرى: وذلك أن أبا سفيان لما انصرف من أُحد نادى: يا محمد، موعدنا بدر لقابل، إن شئت، فقال ﷺ: «إن شاء الله تعالى»، فلما كان العام القابل، خرج أبو سفيان في أهل مكة، حتى نزل مرّ الظهران، فأنزل الله الرعب في قلبه، وبدا له أن يرجع، فلقي نُعيم بن مسعود الأشجعي معتمراً، فقال له: ائت المدينة وأعلمهم أنَّا في جمع كثير، وثبطهم عن الخروج، ولك عندي عشر من الإبل، فأتى المدينة فأخبرهم، فكره أصحابُ النبي ﷺ الخروج، فقال النبي ﷺ: «والذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لأَخْرُجَنَّ، ولو وَحْدِي». فرجع الجبان وتأهب الشجعان، فخرجوا حتى أتوا بدراً الصغرى، ورجع أبو سفيان إلى مكة، فسموا جيش السويق، ووافق المسلمون السوق ببدر، وكانت معهم تجارات، فباعوا وربحوا، وانصرف النبي ﷺ إلى المدينة(١).

فعلى هذا، يقول الحق جل جلاله: ﴿الذين استجابوا لله والرسول﴾، يعني: في غزوة بدر الصغرى، لميعاد أبي سفيان، ﴿من بعد ما أصابهم القرح﴾ يعني: في غزوة أحد في العام الأول، ﴿للذين أحسنوا منهم﴾ بالخروج مع الرسول، ﴿واتقوا﴾ الله في مخالفته، ﴿أجر عظيم. الذين قال لهم الناس﴾ يعني نُعَيم بن مسعود، وأطلق عليه الناس لأنه من جنسهم، كما يقال: فلان يركب الخيل، وما يركب إلا فرسا. أو: لأنه انضم إليه

(١) نزول الآية في قصة حمراء الأسد هو ما عليه جمهور المفسرين، انظر: الطبري والمحرر الوجيز.

ناس من المدينة وأذاعوا كلامه. ﴿إن الناس قد جمعوا لكم﴾ يعني: أبا سفيان وأهل مكة لما خرج إلى مرّ الظهران. وقوله: ﴿فانقلبوا بنعمة من الله﴾ أي: عافية وسلامة، ﴿وفضل﴾ ما أصابوا من التجارة، وقوله: ﴿إنما ذلكم الشيطان﴾ يعني: نعيماً يخوفكم ﴿أولياءه﴾ والباقي ظاهر.

الإشارة : أهل القوة من المريدين إذا قيل لهم: إن الناس قد جمعوا لكم ليردوكم أو يؤذوكم فاخشوهم، زادهم ذلك إيماناً وإيقاناً، وتحققوا أنهم على الجادة، لسلوكهم على منهاج من قبلهم؛ ﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا ﴾ الآية، واكتفوا بعلم الله ونظره وبرعايته ونصره، فانقلبوا بنعمة الشهود، وفضل الترقي في عظمة الملك الودود، لم يمسسهم في باطنهم سوء ولا نقصان، واستوجبوا من الله الرضى والرضوان، وإنما ذلكم شيطان يردهم عن مقام الشهود والعيان، فلا ينبغي لهم أن يخافوا ومطلبهم مقام الإحسان، الذي تُبْذل في طلبه الأرواح والأبدان. وبالله التوفيق.

ثم هوّن شأن الكفار، وأمّن المسلمين من ضررهم، فقال:

﴿ وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾ ﴾

قلت : حَزَنَ يحزُن كبلغ يبلُغ، وأحزن يُحزِن، كأكْرم يكرم، لغتان، والأولى أفصح.

يقول الحق جل جلاله: ولا يهولك شأن ﴿الذين يسارعون في الكفر﴾ أي: يبادرون إلى الوقوع فيه، كالمنافقين أو الكفار جميعا، فلا تخف ضررهم؛ ﴿إنهم لن يضروا الله شيئا﴾ أي: لن يضروا أولياء الله، وإنما يرجع ضررهم إلى أنفسهم. ﴿يريد الله﴾ – بسبب ما أظهر فيهم من المسارعة إلى الكفر – ﴿ألاَّ يجعل لهم حظا في﴾ ثواب ﴿الآخرة﴾ ؛ لِما سبق لهم من الشقاء، حتى يموتوا على الكفر. وفي ذكر الإرادة إشعار بأن كفرهم بلغ الغاية، حتى أراد أرحم الراحمين ألاّ يكون لهم حظ من رحمته. ﴿ولهم﴾ مع ذلك ﴿عذاب عظيم﴾.

ثم كرر شأنهم تأكيدا فقال: ﴿إن الذين اشتروا الكفر بالإيمان﴾ أي: استبدلوا الإيمان الذي ينجيهم من العذاب، لو دخلوا فيه، بالكفر الذي يُوجب العذاب، ﴿لن يضروا الله شيئا ولهم عذاب أليم﴾ موجع، أو يكون في الكفار أصالة، وهذا في المرتدين، والله تعالى أعلم.

الإشارة : إنكار العوام على الخصوص لايضرهم، ولا ينقص من مرتبتهم، بل يزيدهم رفعةً وعلواً وعزاً وقرباً، قال تعالى: ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾، وسَمِعتُ شيخنا البوزيدى ﷺ يقول: «كلامُ الناس فى الولى كناموسة نفخت على جبل». أى: لا يلحقهم من ذلك إلا ما يلحق الجبل من نفخ الناموسة، يريد الله ألا يجعل لهم من نصيب القرب شيئا، ولهم عذاب البعد والنصب، فى غم الحجاب وسوء الحساب، لا سيما من تمكن من معرفتهم، ثم استبدل صحبتهم بصحبة العوام، فلا تسأل عن حرمانه التام، والعياذ بالله.

ثم لاَ يدُل إمهال الكافرين وتمتعهم بطول الحياة على إرادة الخير لهم، بل إنما ذلك استدراج وزيادة فى الإثم، كما أشار إلى ذلك بقوله:

﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًاۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾ ﴾

قلت : من قرأ بالتحتية، فالذين كفروا: فاعل، و(أن) وما بعدها : سد مسد المفعولين، ومن قرأ بالفوقية فالذين: مفعول أول، و(إنما) : سد مسد الثانى، و(ما) : مصدرية، والإملال: الإمهال والتأخير. ومنه: ﴿وَاهْجُرْنِى مَلِيًّا﴾ أى: حيناً طويلاً.

يقول الحق جل جلاله: ولا يظنن الذين كفروا أن إمهالى لهم وإمدادهم بطول الحياة، هو خير لهم، إنما نمهلهم استدراجا ﴿ليزدادوا﴾ إثماً وعقوبة، ﴿ولهم عذاب مهين﴾ يهينهم، ويخزيهم يوم يُعز المؤمنين.

الإشارة: إمهال العبد وإطالة عمره، إن كانت أيامه مصروفةً في الطاعة واليقظة، وزيادة المعرفة، فإطالتها خير، والبركة في العمر إنما هي بالتوفيق وزيادة المعرفة، وفي الحكم: «من بورك له في عمره أدرك في يسير من الزمان مالا تدركه العبارة ولا تلحقه الإشارة». وإن كانت أيام العمر مصروفة في الغفلة والبطالة وزيادة المعصية، فالموت خير منها. وقد سئل ـ عليه الصلاة والسلام ـ أىُّ الناسِ خيرٌ؟ قال: «مَنْ طَالَ عُمُرُه وَحَسُنَ عَمَلُه، قيل فأىُّ النَّاسِ شر؟ قال: مَنْ طَالَ عُمُرُه وَسَاءَ عَمَلُه» . والله تعالى أعلم.

ولمّا قال عليه الصلاة والسلام: «إنّ الله أطلعني على من يُؤمِنُ بي ممن يكْفُر» . قال المنافقون: نحن معه ولا يعرفنا، فأنزل الله تعالى:

﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾ ﴾

قلت: ماز يَميز، وميَّز يُميِّز، بمعنى واحد، لكن في ميَّز معنى التكثير.

يقول الحق جل جلاله لعامة المؤمنين والمنافقين: ﴿ما كان الله﴾ ليترك ﴿المؤمنين على ما أنتم عليه﴾ من الاختلاط، لا يعرف مخلصكم من منافقكم، بل لابد أن يختبركم حتى يتميز المنافق من المخلص، بالوحي أو بالتكاليف الشاقة، التي لا يصبر عليها إلا المخلصون، كبذل الأموال والأنفس في سبيل الله، ليختبر به بواطنكم، ويستدل به على عقائدكم، أو بما ظهر في غزوة أحـد من الأقوال والأفعال التي تـدل على الإيمـان أو النفاق، ﴿وما كان الله ليُطلعكم على الغيب﴾ حتى تعرفوا ما في القلوب من كفر أو إيمان، أو تعرفوا: هل تَغلبون أو تُغلبون. ﴿ولكن الله يجتبي﴾ لرسالته ﴿من يشاء﴾، فيوحي إليه ويخبره ببعض المغيبات، أو ينصب له ما يدل عليها، ﴿فآمنوا بالله﴾ الذي اختص بعلم الغيب الحقيقي، وآمنوا برسله الذين اختارهم لأسرار الغيوب، لايعلمون إلا ما علَّمهم.

رُوِي أن الكفرة قالوا: إن كان محمد صادقاً فليخبرنا: من يؤمن منا ومن يكفر؟ فنزلت الآية. وقيل: سببها ماتقدم من قول المنافقين، ووجه المناسبة: هو ما صَدَرَ منهم يوم أُحُد من المقالات التي ميزتهم من المؤمنين. ﴿وإن تؤمنوا إيماناً﴾ حقيقياً ﴿وتتقوا﴾ النفاق والشرك ﴿فلكم أجر عظيم﴾ عند الله.

الإشارة: من سُنة الله في المتوجهين إليه إذا كثروا، وظهرت فيهم دعوى القوة، أرسل الله عليهم ريح التصفية، فيثبت الصحيح، والخاوي تذروه الريح، وما كان الله ليذرهم على ما هم عليه من غير اختبار، حتى يميزالخبيث من الطيب، أي: مَنْ همّته الله ومَنْ همّته سواه، وما كان الله ليُطلعكم على الغيب حتى يعلموا من يثبت ممن يرجع، أو يعلموا ما يلحقهم من الجلال والجمال، وإنما ذلك خاص بالرسل عليهم السلام، وقد يُطلع على شيء من ذلك بعض خواص ورثتهم الكرام، فالواجب على المريد أن يؤمن بالقدر المغيب، ولا يستشرف على الاطلاع عليه؛ «استشرافك على ما بطن فيك من العيوب، خير من استشرافك على ما حُجب عنك من الغيوب». (وإن تؤمنوا) بمواقع القضاء والقدر، (وتتقوا) القنوط والكدر، (فلكم أجر عظيم).

ولمّا كان البخل هو معيار المخلصين من المخلطين، ذكره بإثر تمييز المؤمنين من المنافقين، فقال:

﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾ ﴾

قلت: من قرأ بالخطاب؛ فالموصول مفعول أول، و (خيرا): مفعول ثان، والضمير للفصل، والخطاب للرسول ﷺ، ولابد من حذف مضاف، أي: لا تحسبن بُخلَ الذين يبخلون خيراً لهم، ومن قرأ بالغيب؛ فـ(الذين): فاعل، والمفعول الأول محذوف، لدلالة (يبخلون) عليه، لا يحسبن البخلاء بخلهم خيراً لهم، والطوق: ما يدار بالعنق.

يقول الحق جل جلاله: ولا يظنن ﴿الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله﴾ من الأموال، فلم يؤدوا زكاتها، أن بخلهم خير لهم، ﴿بل هو شر لهم﴾؛ لاستجلابه العذاب إليهم، ثم بيّنه بقوله: ﴿سيطوقون ما بخلوا به﴾ أي: يلزمون وبال ما بخلوا به إلزام الطوق للعنق، وقيل: يطوق به حقيقة، لقوله عليه الصلاة والسلام: «ما من رَجُل لا يؤدي زكاة ماله إلا إذا كان يوم القيامة ـ مُثّلَ له شُجاعاً أقرع، له زَبِيبتَان، يطَوِّقُه، ثم يأخُذُ بِلِهزِمتيه ـ أي: شدقيه ـ يقول: أنا كنْزكَ، أنا مالُكَ، ثم تلا هذه الآية: ﴿ولا يحسبن...﴾» . وقيل: يجعل يوم القيامة في أعناقهم طوقاً من نار.

والمال الذي بخل به هو لله، وسيرجع لله، ﴿ولله ميراث السموات والأرض﴾ فهو الذي يرث الأرض ومن عليها، فكيف يبخل العبد بمال الله، وهو يعلم أنه يرجع لله، فيموت ويتركه لمن يسعد به! ولله در القائل، حيث قال:

يا جَـامِعَ الْمَـالِ كَمْ تَضَـرُّ بِه ... تَطْمَعُ باللهِ فِي الخُلُودِ مَـعَـهْ
هَلْ حَـمَلَ المالَ مَـيِّتٌ مَـعَـهُ؟ ... أَمَـا تَراهُ لِغَـيْـرِهِ جَـمَـعَـهْ؟!

﴿والله بما تعملون خبير﴾ لا يخفى عليه منعكم ولا إعطاؤكم، فيجازي كُلاً بعمله.

الإشارة: لا يحسبن الذين يبخلون بما أتاهم الله من فضل الرئاسة والجاه، أن يبذلوها في طلب معرفة الله، وبذلها: إسقاطها وإبدالها بالخمول، والذل لله، وإسقاط المنزلة بين عباد الله، فلا يظنون أن بخلهم بذلك خير لهم، بل هو شر لهم، سيلزمون وبال ما بخلوا به يوم القيامة، حين يرون منازل المقربين كالشمس الضاحية في أعلى عليين، وهم مع عوام أهل اليمين، محجوبون عن شهود رب العالمين، إلا في وقت مخصوص وحين.

فمن بخل بمالِه حُشِر مع الفجار، ومن بخل بنفسه وجاهه، وبذل ماله، حُشر مع الأبرار، ومن بذلهما معا حُشر مع المصطفَيْن الأخيار، ومنتهى الملك لله الواحد القهار، وهو الغني بالإطلاق. فمن وصفه بضد ذلك كان من أهل البعاد والشقاق. وإلى ذلك أشار بقوله:

﴿ لَقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٞ وَنَحۡنُ أَغۡنِيَآءُۘ سَنَكۡتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتۡلَهُمُ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّامٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيۡنَآ أَلَّا نُؤۡمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأۡتِيَنَا بِقُرۡبَانٖ تَأۡكُلُهُ ٱلنَّارُۗ قُلۡ قَدۡ جَآءَكُمۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِي بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِي قُلۡتُمۡ فَلِمَ قَتَلۡتُمُوهُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٨٣﴾ ﴾

قلت: (وقتلهم): معطوف على (ما) المفعولة أو النائبة عن الفاعل، على القراءتين رفعاً ونصباً، و (أن الله): عطف على (ما) أي: ذلك العذاب بسبب ما قدمتم وبأن الله منتف عنه الظلم، فلابد أن يعاقب المسيئ ويثيب المحسن، (الذين قالوا إن الله عهد إلينا): صفة للذين (قالوا إن الله فقير)، أو بدل منه مجرور مثله.

يقول الحق جل جلاله: ﴿لقد سمع الله قول﴾ اليهود ﴿الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء﴾ وقائله: فِنْحَاصُ بن عَازُوراء، في جماعة منهم، وذلك أن النبي ﷺ كتب مع أبي بكر إلى يهود بني قينقاع، يدعوهم إلى الإسلام، وإلى إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، وأن يقرضوا الله قرضاً حسناً، فدخل أبو بكر رضي الله عنه مِدْرَاسَهم[1]، فوجد خلقاً كثيراً اجتمعوا إلى فنحاص، وهو من علمائهم ـ ومعه حبر آخر اسمه: (أيشع)، فقال أبو بكر لفنحاص: اتق الله وأسلم، فو الله إنك لتعلم أن محمدا رسول الله، قد جاءكم بالحق من عند الله، فأسلِمْ وصدِّق، وأقرِض الله قرضاً حسناً يدخلك الجنة، فقال فنحاص لعنه الله: يا أبا بكر، تزعم أن ربنا يستقرضنا أموالنا، وما يستقرض إلا الفقير من الغني، ولوكان غنياً ما استقرض، فلطمه أبو بكر رضي الله عنه وقال: لولا ما بيننا من العهد لضربت عنقك، فشكاه إلى رسول الله ﷺ فقال له: عليه الصلاة والسلام:ـ «ما حملك على ما فعلت؟» فقال: يارسول الله، إن عدو الله قال قولا عظيما، زعم أن الله فقير، وهم أغنياء، فجَحَد ما قال، فنزلت الآية؛ تكذيباً له.

(١) راجع معنى المدراس في التعليق على تفسير الآية / ١٠٩ من سورة البقرة.

والمعنى: أن الله سمع مقالتهم الشنيعة، وأنه سيعاقبهم عليها، ولذلك قال: ﴿سنكتب ما قالوا﴾ أي: سنسطرها عليهم في صحائف أعمالهم، أو سنحفظها في علمنا ولا نهملها، لأنها كلمة عظيمة، فيها الكفر بالله والاستهزاء بكتاب الله وتكذيب لرسول الله ﷺ، ولذلك نظمت مع قتلهم الأنبياء، حيث عطفه عليه، وفيه تنبيه على أن قولهم الشنيع ليس هو أول جريمة ارتكبوها، وأن من اجترأ على قتل الأنبياء لم يستبعد أمثال هذا القول منه.

ثم ذكر عقابهم، فقال: ﴿ونقول﴾ لهم يوم القيامة: ﴿ذوقوا عذاب الحريق﴾ أي: المُحْرِق، والذوق: يطلق على إدراك المحسوسات كالمطعومات، والمعنويات كما هنا، وذكره هنا؛ لأن عذابهم مرتب على قولهم الناشئ عن البخل، والتهالك على المال، وغالب حاجة الإنسان إليه، لتحصيل المطاعم، ومعظم بخله للخوف من فقده.

﴿ذلك﴾ العذاب بسبب ما ﴿قدمت أيديكم﴾ من قتل الأنبياء، وقولكم هذا، وسائر معاصيكم، وعبّر بالأيدي؛ لأن غالب الأعمال بهن، وبأن ﴿الله ليس بظلام للعبيد﴾ بل يجازي كلَّ عبد بما كسب من خير أو شر، فأنتم ظلمتم أنفسكم.

ثم إن قوماً منهم، وهو كعب بن الأشرف ومالك بن الصيف وحيي بن أخطب وفنْحاص ووهب بن يهوذا، أتوا النبيَّ ﷺ فقالوا: يا محمد؛ تزعم أن الله بعثك إلينا رسولا، وإن الله قد عهد إلينا في التوراة، ألاَّ نؤمن لرسول يزعم أنه نبي حتى يأتينا بقربان تأكله النار، فإن جئتنا به صدقناك، فأنزل الله فيهم تكذيباً لهم: ﴿الذين قالوا إن الله عهد إلينا﴾ في التوراة وأوصانا ﴿ألا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان﴾، كصدقة أو نسيكة، ﴿تأكله النار﴾ كما كانت لأنبياء بني إسرائيل.

وذلك أن القرابين والغنائم كانت حراماًعلى بني إسرائيل، وكانوا إذا قرّبوا قُرباناً، أو غنموا غنيمة، فتقبل منهم، ولم يُغل من الغنيمة، نزلت نار بيضاء من السماء، فتأكل ذلك القربان أو الغنيمة، فيكون ذلك علامة على القبول، وإذا لم يتقبل بقي على حاله، وهذا من تعنتهم وأباطيلهم، لأن أكل القربان لم يُوجِبْ الإيمانَ إلا لكونه معجزة، وسائر المعجزات في ذلك سواء، فلذلك ردَّ عليهم بقوله: ﴿قل قد جاءكم رسل من قبلي بالبينات﴾ أي: المعجزات الواضحات، ﴿وبالذي قلتم﴾ من أكل النار القربان، فكذبتموهم وقتلتموهم كزكريا ويحيى وغيرهما، ﴿فلم قتلتموهم إن كنتم صادقين﴾ في دعواكم أنه ما منعكم من الإيمان إلا عدم ظهور هذه المعجزة، فما لكم لم تؤمنوا بمن جاء بها حتى قتلتموه؟ والله تعالى أعلم.

الإشارة: مازالت خواص العامة مولعةً بالإنكار على خواص الخاصة، يسترقون السمع منهم، إذا سمعوا كلمة لم يبلغها علمُهم، وفيها ما يوجب النقص من مرتبتهم، حفظوها، وحرفوها، وأذاعوها، يريدون بذلك إطفاء نورهم،

وإظهار عُوَرَاهم، والله حفيظ عليهم، سيكتب ما قالوا وما قصدوا من الإنكار على أوليائه، ويقول لهم: ذوقوا عذاب البعد والحجاب. ومما يتشبثون به في الإنكار عليهم: اقتراحهم الكرامات التي كانت للأولياء قبلهم، ويقولون: لانصدق بهم حتى يأتوا بما أتي به فلان وفلان، فقد كان من قبلهم يطعنون فيهم مع ظهور ذلك عليهم، كما هو سنة الله فيهم. (والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم).

ثم سلّى الحقُّ نبيه ـ عليه الصلاة والسلام ـ بقوله:

﴿ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾ ﴾

قلت: (الزبر): جمع زبور، بمعنى مزبور، أي: مكتوب، من زبرت، أي: كتبت، وكل كتاب فهو زبور، وقال امرؤ القيس:

لِمَنْ طَلَلٌ أبْصَـرْتُهُ فَـشَـجَـانِي ... كَخَطِّ زَبُورٍ في عَسِـيبِ يَمَـانِ

يقول الحق جل جلاله، في تسلية رسوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ من تكذيب اليهود وغيرهم له: ﴿فإن كذبوك﴾ فليس ذلك ببدع؛ ﴿فقد كُذبت رسل﴾ مثلك ﴿من قبلك﴾ جاءوا قومهم بالمعجزات البينات، وبالكتب المنزلات، فيها مواعظ زاجرات، ﴿وبالكتاب المنير﴾ المشتمل على الأحكام الشرعيات.

الإشارة: كما كُذبت الأنبياء كُذبت الأولياء، بعد أن ظهر عليهم من العلوم الباهرة والحكم الظاهرة والكرامات الواضحة، وأعظمها المعرفة، وهذه سنة ماضية، ولن تجد لسنة الله تبديلا.

وعند الله تجتمع الخصوم؛ فيظهر المحق من المبطل، وتُوفى كل نفس ما أسلفت، وتعلم علم يقين ما أظهرت وأضمرت، كما أشار إلى ذلك بقوله:

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾ ﴾

قلت: (زحزح): بُوعِدَ، والزحزحة: الجذب والإخراج بعجلة.

يقول الحق جل جلاله: كل نفس منفوسة لابد أن تذوق حرارة الموت، وتسقى كأس المنون، وإنما توفون جزاء أعمالكم يوم القيامة، يوم قيامكم من القبور، خيراً كان أو شراً.

قال البيضاوي: ولفظ التوفية يشعر بأنه قد يكون قبلها بعض الأجور، أي: توفية بعض الأجور، ويؤيده قوله ﷺ: «القَبْرُ رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الجنة، أو حُفْرَةٌ مِنْ حُفَرِ النارِ»، ﴿فمن زحزح﴾ أي: بُوعد ﴿عن النار وأدخل الجنة فقد فاز﴾ بالنجاة ونيل المراد، وعنه ﷺ: «من أحبَّ أن يُزحزَحَ عن النارِ ويُدْخَلَ الجنّةَ؛ فلتدركْهُ مَنِيَّتُهُ وهو يُؤمِنُ باللهِ واليومِ الآخرِ، ويأتِي إلى الناسِ ما يُحِبُّ أن يُؤتَى إليه».

﴿وما الحياة الدنيا﴾ وزخارفها ولذاتها ﴿إلا متاع الغرور﴾؛ فإن الغار - وهو المُدلّس - يظهر ما هو حسن من متاعه، ويخفي ما هو معيب، كذلك الدنيا تبتهج لطالبها، وتُظهر له حلاوتها وشهواتها، حتى تشغله عن ذكر الله وعن طاعته، فيؤثرها على آخرته، ثم يتركها أحوج ما يكون إليها، فينقلبُ نادماً متحسراً، وفي ذلك يقول الشاعر:

ومَنْ يحمد الدنيا لشيء يسره فسوف للعُسْرِ عن قَرِيبٍ يلُومُها
إذا أدبرت كانتْ على المرء حسرةً وإن أقبلتْ كانت كثيراً هُمُومُها

الإشارة: النفس، من حيث هي، كلها تقبل الموت لمن قتلها وجاهدها، وإنما وقع التفريط من أربابها، فمن زحزها عن نار الشهوات، وقتلها بسيوف المخالفات، حتى أدخلها جنات الحضرات، فقد فاز فوزا عظيما، وربح ربحاً كريماً. وبالله التوفيق.

ثم أمر بالصبر على فقد الأموال والإخوان، وعلى أذى اليهود والمشركين، فقال تعالى:

﴿ ۞ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾ ﴾

قلت: أصل (تبلونّ): تُبلوون كتُنصرون، ثم قلبت الواو ألفا، ثم حذفت لالتقاء الساكنين، فصار تبلْونن، ثم أكد بالنون، فاجتمع ثلاث نونات، حذفت نون الرفع فالتقى ساكنان؛ الواو ونون التوكيد، فحركت الواو بالضمة المجانسة، وهي النائبة عن الفاعل.

يقول الحق جل جلاله: والله ﴿لتبلون﴾ أي: لتختبرن ﴿في أموالكم﴾؛ بما يصيبها من الآفات، وما كُلفتم به من النفقات، ﴿وأنفسكم﴾؛ بالقتل والجراحات، والأسر والأمراض وسائر العاهات. ﴿ولتسمعُن من الذين أوتوا

الكتاب من قبلكم﴾؛ اليهود ﴿ومن الذين أشركوا﴾؛ كفار مكة، ﴿أذى كثيراً﴾ كقولهم: إن الله فقير، وهجاء الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ، والطعن في الدين، وإغراء الكفرة على المسلمين، أو غير ذلك من الأذى. أعلَمهم بذلك قبل وقوعه، ليتأهبوا للصبر والاحتمال، حتى لا يروعَهم نزولها حين الإنزال. ﴿وإن تصبروا﴾ على ذلك، ﴿وتتقوا﴾ الله فيما أمركم به، ﴿فإن ذلك من عزم الأمور﴾ أي: من معزومات الأمور التي يجب العزم عليها، أو مما عزم الله على فعلها، وأوْجبه على عباده. والله تعالى أعلم.

الإشارة: كل من دخل في طريق الخصوص بالصدق والعزم على الوصول، لابد أن يُبتلى ويختبر في ماله ونفسه، ليظهر صدقه في طلبه، ولابد أن يسمع من الناس أذى كثيراً، فإن صبر ظفر، وإن رجع خسر، وهذه سنة الله في عباده: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَا أَخْبَارَكُمْ ﴾، قال الورتجبي: (لتبلون في أموالكم)؛ بجمعها ومنعها والتقصير في حقوق الله فيها، (وأنفسكم)؛ باتباع شهواتها، وترك رياضتها، وملازمتها أسباب الدنيا، وخلوها من النظر في أمر الميعاد، وقيل: (لتبلون في أموالكم)؛ بالاشتغال بها أخذاً وإعطاء. هـ.

ثم عاتب الحقُّ تعالى اليهود، ووبّخهم على كتمان الحق وإظهار الباطل، فقال:

﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ (١٨٧) ﴾

قلت: الضمير في (نبذوه): يعود على الكتاب، أو الميثاق.

يقول الحق جل جلاله: ﴿و﴾ اذكر ﴿إذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب﴾ وهم اليهود، أخذ عليهم العهد ليبيّنن للناس ما في كتابهم من صفة النبي ﷺ ولا يكتمونه، فنبذوا ذلك العهد أو الكتاب ﴿وراء ظهورهم﴾؛ فكتموا صفته ـ عليه الصلاة والسلام ـ خوفا من زوال رئاستهم، ﴿واشتروا﴾ بذلك العهد، أي: استبدلوا به ﴿ثمنا قليلا﴾ من حطام الدنيا، وما كانوا يأخذونه من سفلتهم، ﴿فبئس ما يشترون﴾، وهي تجر ذيلها على من كتم علما سئل عنه، قال عليه الصلاة والسلام: «مَنْ كَتَمَ عِلْماً عَنْ أهْلِه ألجِمَ بِلجَامٍ مِنْ نَارٍ». وعن علي رضي الله عنه: (ما أخذ الله على أهل الجهل أن يتعلموا حتى أخذ على أهل العلم أن يُعلّموا). وقال محمد بن كعب: (لا يحل للعالم أن يسكت على علمه، ولا الجاهل أن يسكت على جهله).

الإشارة: أهل العلم إذا تحققوا بوجود الخصوصية عند ولي، وكتموا ذلك حسداً وخوفاً على زوال رئاستهم، دخلوا في وعيد الآية؛ لأنّ العوام تابعون لهم، فإذا كتموا أو أنكروا تبعُوهم على ذلك، فيحملون أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم، والله تعالى أعلم.

ولما سأل ـ عليه الصلاة والسلام ـ اليهودَ عن شيء في التوراة، وكتموه وأخبروه بغيره، فخرجوا وقد أروه أنهم أخبروه عما سألهم، واستحمدوا إليه ففرحوا، أنزل الله فيهم:

﴿ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾ ﴾

قلت: من قرأ بالخطاب، فالذين: مفعول أول، والثاني: محذوف، أي: بمفازة من العذاب، أو هو المذكور، و(تحسبنهم): تأكيد للفعل الأول، ومن قرأ بالغيب؛ فالذين: فاعل، والمفعولان: محذوفان، دلّ عليهما ذكرهما مع الثاني، أي: لا يحسبوا أنفسهم فائزة. (فلا تحسبنهم): من قرأ بفتح التاء؛ فالخطاب للرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ، والفعل مبني، ومن قرأ بالياء؛ فالخطاب للذين يفرحون، والفعل معرب، أي: لايحسبوا أنفسهم بمفازة من العذاب..

يقول الحق جل جلاله: ﴿لا تحسبن﴾ يا محمد ﴿الذين يفرحون بما أتوا﴾ أي: بما فعلوا من التدليس وكتمان الحق، ﴿ويحبون أن يُحمدوا بما لم يفعلوا﴾ من الوفاء بالعهد، وإظهار الحق، والإخبار بالصدق، أنهم فائزون من العذاب، فلا تظنهم ﴿بمفازة من العذاب﴾، بل ﴿لهم عذاب أليم﴾ موجع، ﴿ولله ملك السموات والأرض﴾؛ إن شاء عذب وإن شاء رحم، ﴿والله على كل شيء قدير﴾ فلا يعجزه من ذلك شيء، أو: لا يظن الذين يفرحون بما أتوا، ويحبون أن يُحمدوا بما لم يفعلوا، فلا يحسبون أنفسهم بمفازة من العذاب.

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: (أنها نزلت في المنافقين، كانوا إذا خرج النبي ﷺ(١) تخلّفوا، وإذا قدم اعتذروا، فإذا قَبِل عذرهم فرحوا، وأحبُّوا أن يُحمدوا بما لم يفعلوا). وما تقدم في التوطئة هو عن ابن عباس. وقال

(١) أي: إلى الغزو.

ابن حجر: ولا مانع من أن تتناول الآية كلَّ من أتى بحسنة وفَرِح بها فَرَحَ إعجاب، وأحب أن يحمده الناس ويثنوا عليه بما ليس فيه. والله تعالى أعلم.

الإشارة: لا يظن أهل الفرق الذين يسندون الأفعال إلى أنفسهم، غائبين عن فعل ربهم، ويحبون أن يحمدهم الناس ويمدحهم بفعل غيرهم، أنهم فائزون عن عذاب الفرق، وحجاب العجب، إذ لا فاعل سوى الحق، فمن تمام نعمته عليك أن خلق فيك ونسب إليك، فإن فرح العبد بالطاعة من حيث ظهورها عليه، وهي عنوان العناية - ورأى نفسه فيها كالآلة، معزولا عن فعلها، محمولاً بالقدرة الأزلية فيها، فلا بأس عليه، ويزيد بذلك تواضعاً وشكراً، وإن فرح بها من حيث صدورها منه، ويتبجح بها على عباد الله، فهو عين العجب، وفي الحكم: «لا تُفرحكَ الطاعة من حيث إنها صَدَرَتْ منك، وافرح بها من حيث إنها هدية من الله عليك؛ ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾».

ثم استدل على قدرته المفهومة من (القدير)، فقال:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿إن في خلق السموات والأرض﴾ وإظهارهما للعيان، لَدلائل واضحة على وجود الصانع، وكمال قدرته، وعلمه، لذوي العقول الكاملة الصافية، الخالصة من شوائب الحس والوهم. قال البيضاوي: ولعل الاقتصار على هذه الثلاثة في هذه الآية؛ لأن مناط الاستدلال هو التغير، وهذه متعرضة لجملة أنواعه، فإنه - أي التغير - إما أن يكون في ذات الشيء، كتغير الليل والنهار، أو جزئه، كتغير الناميات بتبدل صورها، أو لخارج عنها، كتغير الأفلاك بتبدل أوضاعها، وعن النبي ﷺ: «وَيْلٌ لمَنْ قَرأَهَا وَلَمْ يَتَفَكَّرْ فِيهَا».

الإشارة: الخلق هو الاختراع والإظهار، فإظهار هذه التجليات الأربعة يدل على أن الحقّ - تعالى - تجلي لعباده بين الضدين، بين النور والظلمة، بين القدرة والحكمة، بين الحس والمعنى، وهكذا خلق من كل زوجين اثنين، ليقع الفرار من إثنينية حسهما إلى فردية معناهما، ففروا إلى الله، فالسموات والنهار نورانيان، والأرض والليل ظلمانيان، ففي ذلك دلالة على وحدة المعاني، فلا تقف مع الأواني، وخُض بحر المعاني، لعلك تراني. وبالله التوفيق.

ثم وصف أولي الألباب الذين يدركون صفاء هذه المعاني، فقال:

﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ
رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ
وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا
رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا
عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله، في وصف أولى الألباب: هم **﴿الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم﴾**، أي: يذكرونه على الدوام، قائمين وقاعدين ومضطجعين، وعنه ـ ﷺ ـ: «مَنْ أرادَ أن يرْتَع في رِياضِ الجنة فليُكثِر ذِكرَ الله». وقيل: يُصلون على الهيئات الثلاث، حسب الطاقة لقوله عليه الصلاة والسلام لعمران بن حصين، وكان مريضاً: «صَلِّ قائِماً، فإنْ لَمْ تَستَطِعْ فقاعِداً، فإنْ لَمْ تَستطِعْ فعلى جَنْبِكَ وتُومِيء إيماء».

﴿ويتفكرون في خلق السموات والأرض﴾ استدلالاً واعتباراً، وهو أفضل العبادات قال ﷺ: «لا عبادة كالتفكر»؛ لأنه المخصوص بالقلب، والمقصود من الخلق، وعنه ﷺ: «بينَمَا رجلٌ مُستَلقٍ على فِراشِهِ فنَظَرَ إلى السماءِ والنُّجومِ، فقَالَ: أشْهدُ أن لَكِ خَالِقاً، اللهُمَّ اغفرْ لي، فَنَظَرَ اللهُ إليه فَغَفَرَ لَهُ». وهذا دليل واضح على شرف علم الأصول وفضل أهله. قاله البيضاوي. وسيأتي مزيد من كلام على التفكر في الإشارة إن شاء الله.

فلما تفكروا في عجائب المصنوعات، قالوا: **﴿ربنا ما خلقت هذا باطلا﴾** أي: عبثاً من غير حكمة، بل خلقته لحكمة بديعة، من جملتها: أن يكون مبدأ لوجود الإنسان، وسبباً لمعاشه، ودليلاً يدله على معرفتك ويحثه على طاعتك، لينال الحياة الأبدية، والسعادة السرمدية في جوارك، **﴿سبحانك﴾** تنزيهاً لك من العبث وخلق الباطل، **﴿فقنا عذابَ النار﴾** التي استحقها من أعرض عن النظر والاعتبار، وأخل بما يقتضيه من أحكام الواحد القهار، **﴿وما للظالمين من أنصار﴾** يمنعونهم من دخول النار. ووضع المظهر موضع المضمر؛ للدلالة على أن ظلمهم سبب لإدخالهم النار، وانقطاع النصرة عنهم في دار البوار.

﴿ربنا إننا سمعنا منادياً ينادي للإيمان﴾، وهو الرسول العظيم الشأن، أو القرآن؛ قائلاً: **﴿أن آمنوا بربكم﴾** ووحدوه، فأجبنا نداءه وآمنا، **﴿ربنا فاغفر لنا ذنوبنا﴾** الكبائر، **﴿وكفر عنا سيئاتنا﴾** الصغائر، **﴿وتوفنا مع الأبرار﴾** المصطفين الأخيار، مخصوصين بصحبتهم، معدودين في زمرتهم، وفيه تنبيه على أنهم يُحبون لقاء الله فأحب الله لقاءهم. **﴿ربنا وآتنا ما وعدتنا على﴾** تصديق **﴿رسلك﴾** من الثواب، أو على ألسنة

رسلك من الفضل والرحمة وحسن المآب، سألوا ما وعدوا على الامتثال، لا خوفاً من إخلاف الوعد، بل مخافة ألاّ يكونوا موعودين لسوء عاقبة، أو قصور في الامتثال، أو تعبداً، أو استكانة. قاله البيضاوي.

﴿ولا تخزنا يوم القيامة﴾ أي: لا تُهنّا بسبب تقصيرنا، ﴿إنك لا تخلف الميعاد﴾ بإثابة المؤمن وإجابة الداعي، أو ميعاد البعث والحساب، وتكرير ﴿ربنا﴾؛ للمبالغة في الابتهال، والدلالة على استقلال المطالب وعلو شأنها، ففي بعض الآثار: (من حزبه أمر فقال خمس مرات: «ربنا»، أنجاه الله مما يخاف).(١) قاله البيضاوي.

الإشارة: قدّم الحق الذكر على الفكر على ترتيب السير، فإن المريد يؤمَر أول أمرِه بذكر اللسان، حتى يفضي إلى الجنان، فينتقل الذكر إلى القلب، ثم إلى الروح، وهو الفكر، ثم إلى السر، وهو الشهود والعيان، وهنا يخرس اللسان، ويغيب الإنسان في أنوار العيان، وفي ذلك يقول القائل:

مَـا إنْ ذَكَـرْتُكَ إلاَّ هَمَّ يَلْعَنُنِي سِرِّي ورُوحِي وقَلْبي عِنْدَ ذِكْرَاكَ
حَتَّى كَأَنَّ رَقِيباً منكَ يَهْتِفُ بِي: إيَّاكَ: وَيحَكَ والتَّـذْكَـارَ إيَّاكَ!
أَمَـا تَرَى الحقَّ قَدْ لاحتْ شَوَاهِدُهُ وَوَاصَلَ الكلَّ مِنْ مَعْنَاهُ مَعْنَاكَ

فإذا بلغ العبد هذا المقام ـ الذي هو مقام الإفراد ـ اتحدت عنده الأوراد، وصار وردا واحدا، وهو عكوف القلب في الحضرة بين فكرة ونظرة، أو إفراد القلب بالله، وتغيبه عما سواه.

قال في الإحياء في كتاب الأوراد: الموحد المستغرق الهم بالواحد الصمد، الذي أصبح وهمومه هم واحد، فلا يحب إلا الله، ولا يخاف إلا منه، ولا يتوقع الرزق من غيره، ولا ينظر في شيء إلا يرى الله فيه، فمَن ارتفعت رتبته إلى هذه الدرجة، لم يفتقر إلى ترتيب الأوراد واختلافها، بل ورده بعد المكتوبات ورد واحد، وهو حضور القلب مع الله في كل حال، فلا يخطر بقلبه أمر، ولا يقرع سمعه قارع، ولا يلوح لنظره لائح، إلاّ كان له فيه عبرة وفكرة ومزيد، فلا محرك ولا مسكن إلا الله. فهؤلاء جميع أحوالهم تصلح أن تكون سبباً لازديادهم، فلا تتميز عندهم عبادة عن عبادة، وهم الذين فروا إلى الله كما قال تعالى: ﴿ففروا إلى الله﴾، وتحقق فيهم قوله: ﴿إني ذاهب إلى ربي﴾، وهذه الدرجة منتهى درجة الصديقين، ولا ينبغي أن يغتر المريد بما يسمعه من ذلك، فيدعيه لنفسه، ويفتر عن وظائف عباداته، فذلك علامته ألا يحس في قلبه وسواسا، ولا يخطر بقلبه معصية، لا يزعجه هواجم الأحوال، ولا يستفزه عظائم الأشغال، وأنى تكون هذه المرتبة!. هـ.

(١) حكى القرآن عن أولي الألباب في هذه الآيات – أنهم قالوا: (ربنا) خمس مرات. وعن الأثر الذي ذكره المصنف – قال المناوي في الفتح السماوي: لم أقف عليه.

قلت: قوله: [لا يخطر بقلبه معصية] غير لازم؛ لأن قلب العارف مرسى للتجليات النورانية والظلمانية، لكنها تقل ولا تسكن.

وقال في موضع آخر: وأما عبادة ذوي الألباب فلا تجاوز ذكر الله تعالى والفكر فيه؛ حبًا لجلاله وجماله، وسائر الأعمال تكون مؤكدات. قال: والعامل لأجر الجنة؛ درجته درجة البُلْه، وإنه لينالها بعمله؛ إذ أكثر أهل الجنة البله. هـ. وقال في كتاب كيمياء السعادة: وقد غلط من ظن أن وظائف الضعفاء كوظائف الأقوياء، حتى قال بعض مشايخ الصوفية: من رآني في الابتداء، قال: صار صديقا، ومن رآني في الانتهاء، قال: صار زنديقا، يعني أن الابتداء يقتضي المجاهدة الظاهرة للأعين بكثرة العبادات، وفي الانتهاء يرجع العمل إلى الباطن، فيبقى القلب على الدوام في عين الشهود والحضور، وتفتر ظواهر الأعضاء، فيظن أن ذلك تهاون بالعبادة(١)، وهيهات هيهات!!، فذلك استغراق لمخ العبادات ولبابها وغايتها، ولكن أعين الخفافيش تكل عن درك نور الشمس. هـ.

قال شيخ شيوخنا ـ سيدي عبد الرحمن العارف ـ بعد نقل كلام القشيري في هذا المعنى: وما أشار إليه ظاهر في أن أهل القلوب لا يتعاطون كل طاعة. وإنما يتعاطون من الطاعات ما يجمعهم ولا يفرقهم. ولذلك قال الجنيد: أحب للصوفي ألا يقرأ ولا يكتب؛ لأنه أجمع لهمه، قال: وأحب للمريد ألا يشتغل بالتكسب وطلب الحديث؛ لئلا يتغير حاله. هـ. قلت: ومن رزقه الله شيخ التربية فما عيّنه له فهو عين ذكره، يسير به كيفما كان.

هذا ما يتعلق بحال الذكر الذي قدّمه الله تعالى، وأما التفكر فهو أعظم العبادات وأفضل القربات، هو عبادة العارفين ومنتهى المقربين. وفي الخبر: «تَفَكُّرُ سَاعةٍ أفْضَلُ مِنْ عِبَادَةِ سبعين سَنَةً».

وقال الجنيد رضي الله عنه: أشرف المجالس وأعلاها: الجلوس مع الفكرة في ميدان التوحيد، والتنسم بنسيم المعرفة، والشرب بكأس المحبة من بحر الوداد، والنظر لحسن الظن بالله تعالى. ثم قال: يا لها من مجالس، ما أجلها، ومن شرابٍ ما ألذه، طوبى لمن رزقه. وقال القشيري رضي الله عنه: التفكر نعت كل طالب، وثمرته: الوصول بشرط العلم، فإذا سلم الفكر عن الشوائب ورد صاحبه على مناهل التحقيق. هـ.

وسئلت زوجة أبي ذر عن عبادة زوجها، فقالت: كان نهاره أجمع في ناحية يتفكر. وكذلك زوجة أبي بكر قالت: كان ليله أجمع في ناحية يتفكر. وكذا زوجة أبي الدرداء، وكان سيدنا عيسى عليه السلام يقول: طوبى لمن كان قيله ذكرا وصمته تفكرا، ونظره عبرة. وقال الحسن رضي الله عنه: من لم يكن كلامه حكمة فهو لغو، ومن لم يكن سكوته تفكراً فهو سهو، ومن لم يكن نظره اعتباراً فهو لهو. هـ. وقال في الحكم: ‹ ما نفع القلب شيء مثل عزلة يدخل بها ميدان فكرة ›. وقال أيضا: ‹ الفكرة سراج القلب، فإذا ذهبت فلا إضاءة له ›. وقال أيضا: ‹ الفكرة فكرتان؛ فكرة تصديق وإيمان، وفكرة شهود وعيان، فالأولى لأرباب الاعتبار، والثانية لأرباب الشهود والاستبصار ›.

(١) راجع التعليق على إشارة الآية ٢١٢ من سورة البقرة.

وفكرة الشهود والعيان هي عبادة العارفين ، ولا يُحصر ثوابها في ستين ولا في سبعين، بل وقت منها يعدل ألف سنة، كما قال الشاعر:

كُلُّ وَقْتٍ مِنْ حَبِيبِي قَدْرُهُ كَأَلْفِ حَجَّه

فأوقات هؤلاء كلها ليلة القدر، ومن لم يبلغ هذا المقام فليبك على نفسه على الدوام، ومن ظفر بها ونالها حق له الهناء، وفي أمثاله قال القائل:

هُم الرِّجَالُ وغَبْنٌ أنْ يُقَالَ لِمَنْ لَمْ يَتَّصِفْ بِمَعَانِي وَصْفِهِمْ رَجُلُ

حققنا الله بمقامهم، وسقانا من مناهلهم، آمين.

وقوله : ﴿ربنا ما خلقت هذا باطلا﴾ بل هو ثابت بإثباتك، مَمْحُوٌ بأحدية ذاتك، فالباطل محال، وكل ما سواه باطل، كما قرره الرسول ـ عليه الصلاة والسلام(١). وقوله: ﴿ربنا إننا سمعنا مناديا ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا﴾ أي: كنا في الرعيل الأول من أهل الإيمان، فجعل لنا سبيلاً إلى مقام الإحسان، ﴿ربنا وآتنا ما وعدتنا﴾ وهو الوصول إلى العيان. وبالله التوفيق.

ثم ذكر ما أجابهم به، فقال:

﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾ ﴾

قلت : (استجاب) : أخص من أجاب، لأن استجاب مُستلزم لفعل ما طلب منه، وأجاب يصدق بالوعد، ويتعدى بنفسه وباللام، و(بعضكم من بعض) : جملة معترضة. قاله البيضاوي فانظره.

يقول الحق جل جلاله : ﴿فاستجاب لهم ربهم﴾ فيما طلبوه؛ لأنه لا يرد السؤال ، ولا تخيب لديه الآمال، ولذلك قال: ﴿أني﴾ أي: بسبب ﴿أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى﴾ ؛ لأنكم ﴿بعضكم من بعض﴾ ؛ لأن الذكر من الأنثى، والأنثى من الذكر، ولأنهما من أصل واحد، ولفرط الاتصال والاتحاد والاتفاق في الدين.

(١) حين قال ﷺ : (أصدق كلمة قالها شاعر: ألا كل شيء ما خلا الله باطل) . الحديث أخرجه البخاري في (مناقب الأنصار: باب أيام الجاهلية) ومسلم في (الشعر) من حديث أبي هريرة.

رُوِى «أنّ أمّ سَلَمَة قالت: يا رَسُولَ الله، إنى أَسْمَعُ اللهَ يَذْكُر الرجالَ فى الهِجْرَةِ ولم يَذْكُر النساء، فنزلت: ﴿من ذكر أو أنثى﴾» الخ.

ثم فصل أعمال العمال، وما أعد لهم من الثواب فقال: ﴿فالذين هاجروا﴾ دار الشرك، وفارقوا الأوطان والأصحاب والعشائر، ﴿وأخرجوا من ديارهم وأوذوا فى سبيلى﴾ بسبب إيمانهم بالله، ﴿وقاتلوا﴾ الكفار، ﴿وقُتلوا﴾ أى: ماتوا في الجهاد. وقرىء بالعكس؛ لأن الواو لا ترتب، أو قتل بعضهم، وقاتل الباقون ولم يضعفوا، ﴿لأكفرن عنهم سيئاتهم﴾ أى: لأمحونها، ﴿ولأدخلنهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ثواباً من عند الله﴾ أى: أثيبهم ثواباً من عند الله تفضلاً وإحساناً، ﴿والله عنده حسن الثواب﴾ لا يعجزه شيء.

الإشارة: لما توجهوا إليه بهممهم العلية، وعزائمهم القوية، فقرعوا بابه بدوام ذكره، والتفكر في عظمة ذاته، وجميل إحسانه وبره، وتضرعوا إليه بلسان الذل والانكسار، وحال الخضوع والاضطرار، أجابهم ففتح فى وجوههم الباب، وأدخلهم فى حضرته مع الأحباب، لأنه يجيب السؤال، ولا يخيب الآمال، بعد أن هاجروا الأوطان، وفارقوا العشائر والإخوان، إلا من يزيد بهم إلى الرحمن، فقاتلوا نفوسهم حتى ماتت فحييت بالوصال، إلى جوار الكبير المتعال، قال الشاعر:

إنْ تُرِدْ وَصْلَنَا فَمَوتكَ شَرْطٌ لا يَنَالُ الوِصَالَ مَنْ فِيهِ فَضْلَه

فمحا عن عين بصائرهم سيئات الأغيار، وطهرٌ قلوبهم من درن الأكدار، حتى دخلوا جنة المعارف، التى لا يحيط بوصفها وصف واصف، تجرى من تحتها أنهار العلوم، وتنفتح منها مخازن الفهوم، ثوابا من عند الحى القيوم والله تعالى أعلم.

ولما بسط الله الدنيا على اليهود والمشركين، استدراجاً، قال بعض المؤمنين: إن أعداء الله فيما نرى من الخير، وقد هلكنا من الجوع والجهد، فأنزل الله تعالى:

﴿ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾ ﴾

قلت: النزُل ـ ويسكن ـ : ما يقدم للنازل من طعام وشراب وصلة، وانتصابه: على الحال من (جنات)، والعامل فيه: الظرف، أو على المصدر المؤكد، أى: أنزلوها نزلا.

يقول الحق جل جلاله : ﴿لا يغرنك﴾ أيها السامع أو أيها الرسول، والمراد: تثبيته على ما كان عليه، كقوله: ﴿ فلا تطع المكذبين﴾ ، أي: دم على ما أنت عليه من عدم اغترارك بظاهر ما ترى عليه الكفار من البسط فى الدنيا، والتقلب فيها بالتجارات والزراعات، وما هم عليه من الخصب ولين عيش، فإن ذلك ﴿متاع قليل﴾ بلغة فانية، ومتعة زائلة، وظلال آفلة، وسحابة حائلة. قال ﷺ : «ما الدُّنْيا فى الآخِرَةِ إلاَّ مِثْلُ ما يَجْعَلُ أَحَدُكُمْ إصْبَعَهِ فى اليَمِّ، فَلْيَنْظُر بِمَ يَرْجِعَ» . فلابد أن يرحلوا عنها قهراً، ﴿ثم مأواهم﴾ أى: مصيرهم ﴿جهنم وبئس المهاد﴾ ما مهدوا لأنفسهم.

والمعتبر عند الأكياس هو ما أعد الله للمتقين من الناس، قال تعالى: ﴿لكن الذين اتقوا ربهم﴾ وخافوا عقابه، ﴿لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها﴾، هيأ ذلك لهم وأعده ﴿نزلا من عند الله﴾ هذا النزول الذي يقدم للضيف، وأما ما أعد لهم بعد النزول فلا يعبر عنه لسان، ولذلك قال: ﴿وما عند الله﴾ من النعيم الذى لا يفنى، جسمانى وروحانى، ﴿خير للأبرار﴾ مما ينقلب إليه الفجار. قيل: حقيقة البر: هو الذى لايؤذى الذر.

الإشارة: لا يغرنك أيها الفقير ما ترى عليه أهل الدنيا من اتخاذ المنازل المشيدة، والفرش الممهدة، فإن الدنيا متاعها قليل، وعزيزها قليل، وغنيها فقير، وكبيرها حقير، واعتبر بحال نبيك ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

قال أنس ﷺ : دَخَلت عَلَى النبى ﷺ وهُو على سَرِيرٍ مرفل بالشريط ـ أى: مضفور به ـ وتحت رَأسِهِ وِسَادَةٌ من أَدَم، حَشْوُهَا لِيفٌ، فدخل عليه عمر، وانحرف النبى ﷺ انحرافة، فرأى عمر أثر الشريط فى جَنْبِهِ، فَبَكَى، فقال له النبى ﷺ : «ما يُبْكِيكَ يا عمر» ؟ فقال: مَالِيَ لا أَبْكِي وكِسْرَى وقَيْصرٌ يعيشان فيما يعيشان فيه من الدنيا، وأنت على الحال الذى أرى، فقال له النبى ﷺ: «يا عمر أمَا تَرْضَى أنْ تَكُونَ لَهُم الدُّنيا وَلَنَا الآخَرَةُ» . رواه البخارى.

وانظر ما أعد الله للمتقين الأبرار، الذين صبروا قدر ساعة من نهار، فأفضوا الى جوار الكريم الغفار فى دار القرار، ﴿وما عند الله خير للأبرار﴾، ولا سيما العارفين الكبار. قال الورتجبى: بيَّن الحق ـ تعالى ـ رفعة منزل المتقين فى الجنان، ثم أبْهم لطائف العناية بقوله: ﴿وما عند الله خير للأبرار﴾ أى: ما عنده من نعيم المشاهدة، ولطائف القربة، وحلاوة الوصلة، خير مما هم فيه من نعيم الجنة، وأيضا: صرح فى هذه الآية ببيان مراتب الولاية، لأنه ذكر المتقين، والتقوى: تقديس الباطن عن لوث الطبيعة، وتنزيه الأخلاق عن دنس

المخالفة، وذلك درجة الأول من الولاية، والأبرار أهل الاستقامة في المعرفة، وبين أن أهل التقوى في الجنة، والأبرار في الحضرة. هـ.

ولمَّا عاتب الحق تعالى، فيما تقدم، أهل الكتاب، وكان فيهم من لا يستحق العتاب؛ لاتباعه الحق والصواب، أخرجه الحق تعالى بقوله:

﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿وإن من أهل الكتاب﴾ كعبد الله بن سلام وأصحابه ممن أسلم من اليهود، ﴿لمن يؤمن بالله﴾ إيماناً حقيقياً، ﴿وما أنزل إليكم﴾ من القرآن، ﴿وما أنزل إليهم﴾ من التوراة، حال كونهم ﴿خاشعين لله﴾ خاضعين مخبتين وافين بالعهد، ﴿لا يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً﴾، كما فعل المحرفون من أحبار اليهود، ﴿أولئك لهم أجرهم عند ربهم﴾ أي: ما وعدوا به من تضعيف أجرهم مرتين، ﴿إن الله سريع الحساب﴾؛ فيُسرع إلى توفية أجورهم وإكرام منقلبهم؛ لأن الله عالم بالأعمال وما تستوجبه من النوال، فلا يحتاج إلى تأمل ولا احتياط؛ لأنه غني عن التأمل والاحتياط.

وقيل : نزلت في النصارى: أربعين من نجران، واثنين وثلاثين من الحبشة، قدموا على النبي ﷺ وأسلموا. وقيل: نزلت في النجاشي، لما نعَاه جبريل إلى رسول الله ﷺ، فخرج ـ عليه الصلاة والسلام ـ، وصلى عليه، فقال المنافقون: انظروا إلى هذا ، يصلي على عِلْجٍ[1] نصراني، فنزلت الآية. والله تعالى أعلم.

الإشارة: قد رأينا بعض الفقهاء حصل لهم الإيمان بخصوص أهل زمانهم، فتحققوا بولايتهم، ونالوا شيئا من محبتهم، لكن لم تساعفهم الأقدار في صحبتهم، فظهرت عليهم آثار أنوارهم، واقتبسوا شيئاً من أسرارهم، فتنورت سريرتهم، وكملت شريعتهم، وأظهر عليهم آثار الخشوع، وأخذوا حظاً من التواضع والخضوع، متخلقين بالقناعة والورع، قد ذهب عن قلبهم ما ابتلي به غيرهم من الجزع والهلع، فلا جرم أن هؤلاء لهم أجرهم مرتين: أجر ما تحملوا من الشريعة لنفع العوام، وأجر ما اكتسبوا من محبة القوم؛ « المرءُ مَع مَنْ أحب » . وبالله التوفيق، وهو الهادي إلى سواء الطريق.

---

(١) العِلْج: الرجل القوي الضخم.

ولمّا كان الصبر من الدِّين كالرأس من الجسد، فلو حصل للناس دائماً لم يتوجه العتاب لأحدٍ، ختم به السورة، التي عاتبَ فيها جُل العباد، فقال:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾ ﴾

قلت : المرابطة: أن يربط هؤلاء خيولهم، وهؤلاء خيولهم، إرصاداً لمن حاربهم، ثم أُطلق على كل مقيم في ثغر يدفع عمن وراءه، وإن لم يكن له مركب، إذا كان بنية الدفع عن المسلمين كان بأهله أو وحده. المدار على خلوص النية، خلاف ما قاله ابن عطية[1] ، وسيأتي صوابه[2] في تفسير المعنى، إن شاء الله.

يقول الحق جل جلاله: ﴿يا أيها الذين آمنوا اصبروا﴾ على مشاق الطاعات، وما يصيبكم من الشدائد والأزَمَات، وعلى مجانبة المعاصي والمخالفات، وعلى شكر ما أوليتكم من مواهب العطيات ﴿وصابروا﴾ أي: غالبوا الأعداء في مواطن الصبر، والثبوت في مداحض الحرب، ﴿ورابطوا﴾ أبدانكم وخيولكم في الثغور لتحفظوا المسلمين من العدو الكفور، كي تفوزوا بعظائم الأجور؛ قال ﷺ: «مَن رَابَطَ يَوْماً ولَيْلَةً في سبيل الله كان كعدل صيام شَهْرٍ وقيَامه، لا يفطر ولا ينفتل[3] عن صلاته إلا لحاجة، ومن توفي في سبيل الله - أي: مرابطا في سبيل الله - أجْرَى الله عليه أجره حتى يقضى بين أهلِ الجنةِ وأهل النارِ» . ومما يلحق بالرباط: «انتظَارُ الصَّلاَةِ بَعْدَ الصَّلاَةِ» ، كما في الحديث.

﴿واتقوا الله﴾ فيما يأمركم به وينهاكم عنه، ﴿لعلكم تفلحون﴾ فلاحًا لا خسران بعده أبدا.

الإشارة: (يا أيها الذين آمنوا) إيمان أهل الخصوص، (اصبروا) على حفظ مراسم الشريعة، (وصابروا) على تحصيل أنوار الطريقة، (ورابطوا) قلوبكم على شهود أسرار الحقيقة، أو: اصبروا على أداء العبادة، وصابروا على تحقيق العبودية، ورابطوا في تحصيل العبودة - أي: الحرية - أو: اصبروا على تحقيق مقام الإسلام، وصابروا على دوام الإيمان، ورابطوا على العكوف في مقام الإحسان، أو: اصبروا على تخليص الطاعات، وصابروا على رفض الحظوظ والشهوات، ورابطوا أسراركم على أنوار المشاهدات، (واتقوا الله) فلا تشهدوا معه سواه، (لعلكم تفلحون)، بتحقيق معرفة الله. وبالله التوفيق، وهو الهادي إلى سواء الطريق.

---

(١) قال ابن عطية - بعد كلام -: فأما سكان الثغور دائماً بأهليهم الذين يعمرون ويكتسبون هناك، فهم وإن كانوا حماة فليسوا بمرابطين.
(٢) في الأصول : ثوابه.
(٣) انفتل : انصرف.

سُورَةُ النِّسَاءِ

مدنية، وهي ستة عشر ألف حرف وثلاثون حرفا. وثلاثة آلاف وسبعمائة وخمس وأربعون كلمة. ومائة وستون آية. قاله الثعلبي. وقال البيضاوي: مائة وخمس وسبعون آية.

ومضمنُهَا: الأمر بحفظ ستة أمور: حفظ الأموال، وحفظ الأنساب، وحفظ الأبدان، وحفظ الأديان، وحفظ اللسان، وحفظ الإيمان. بعد أن قدَّم الأمر بالتقوى، التي هي ملاك ذلك كله، فقال:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا (١) ﴾

قلت: من قرأ: (والأرحامَ) بالنصب، فعطف على لفظ الجلالة، أي: اتقوا الأرحام أن تقطعوها، وقرأ حمزة بالخفض على الضمير من (به)؛ كقول الشاعر:

فَالْيَوْمَ قَدْ بِتَّ تَهْجُونَا وَتَشْتُمُنَا ... فَاذْهَبْ فَمَا بِكَ وَالأَيَّامِ مِنْ عَجَبِ(١)

وجمهور البصريين يمنعون العطف على الضمير إلا بإعادة الجار، فيقولون: مررت به وبزيد. وقال ابن مالك:

وَلَيْسَ عِنْدِي لاَزِماً إِذْ قَدْ أَتَى ... فِي النَّظْمِ وَالنَّثْرِ الصَّحِيحِ مُثْبَتَا.

والنثر الصحيح هو ما قرأ به حمزة، وهذا هو التوجيه الصحيح، وأما من جعل الواو للقسم فبعيد.

يقول الحق جل جلاله: ﴿**يا أيها الناس**﴾ أي: جميع الخلق، اتقوا ربكم فيما كلفكم به، ثم بيَّن موجب التقوى فقال: ﴿**الذي خلقكم من نفس واحدة**﴾ يعني آدم، ﴿**وخلق منها زوجها**﴾ يعني حواء، من ضلع من أضلاعه، ﴿**وبث**﴾ أي: نشر ﴿**منهما رجالاً كثيراً ونساء**﴾ أي: نشر من تلك النفس الواحدة بنين وبنات. قال البيضاوي: واكتفى بوصف الرجال بالكثرة عن وصف النساء، إذْ الحكمة تقتضي أن يكنَّ أكثر، وذكر: ﴿**كثيراً**﴾

---

(١) البيت أنشده سيبويه، انظر: شرح ابن عقيل على الألفية، باب عطف النسق.

حملاً على الجمع، وترتيب الأمر بالتقوى على هذه القصة لما فيها من الدلالة على القدرة القاهرة التى من حقها أن تُخشى والنعمة الباهرة التى توجب طاعة مولاها.هـ.

﴿واتقوا الله الذى تساءلون به﴾ أى: يسأل بعضكم بعضاً فيقول: أسألك بالله العظيم، ﴿والأرحام﴾ أى: واتقوا الأرحام فلا تقطعوها، فمن قطعها قطعه الله، ومن وصلها وصله الله، كما فى الحديث. أو تساءلون به وبالأرحام، فيقول بعضكم لبعض: أسألك بالرحم التى بينى وبينك، أو بالقرابة التى بينى وبينك. ثم هددهم على ترك ما أُمروا به فقال: ﴿ إن الله كان عليكم رقيبا ﴾ حافظاً مطلعاً شهيداً عليكم فى كل حال.

الإشارة: درجهم فى آخر السورة فى مدارج السلوك حتى زجّهم فى حضرة ملك الملوك، وأمرهم أن يتقوا مايُخرجهم عن مشاهدة ظلمة أنوار الربوبية، ثم دلاهم فى أول السورة إلى التنزل لآداب العبودية بشهود آثار القدرة الإلهية، فى النشأة الأولية، ليعلّمهم الجمع بين آداب المراقبة ودوام المشاهدة، أو بين الفناء والبقاء.

وقد تكلم ابن جزى هنا على أحكام المراقبة، فقال: إذا تحقق العبد بهذه الآية وأمثالها، استفاد مقام المراقبة، وهو مقام شريف أصله علم وحال، ثم يثمر حالين. أما العلم: فهو معرفة العبد بأن الله مطلع عليه، ناظر إليه فى جميع أعماله، ويسمع جميع أقواله، ويعلم كل ما يخطر على باله. وأما الحال: فهو ملازمة هذا العلم بالقلب، بحيث يغلب عليه ولا يغفل عنه. ولا يكفي العلم دون هذه الحال، فإذا حصل العلم والحال كانت ثمرتهما عند أصحاب اليمين: الحياء من الله، وهو يوجب بالضرورة ترك المعاصى والجد فى الطاعات، وكانت ثمرتهما عند المقربين: المشاهدة، التى توجب التعظيم والإجلال لذى الجلال.

وإلى هاتين الثمرتين أشار الرسول ﷺ بقوله: «أنْ تعبدَ اللهَ كأنكَ تَراه فإنْ لم تكنْ تَراه، فإنه يرَاك»، فقوله: «أن تعبد الله كأنك تراه» إشارة إلى الثمرة الثانية، وهى الموجبة للتعظيم، كمن يشاهد ملكاً عظيما فإنه يعظمه إذ ذاك بالضرورة، و قوله: «فإن لم تكن تراه فإنه يراك» إشارة إلى الثمرة الأولى، ومعناه: إن لم تكن من أهل المشاهدة ـ التى هى مقام المقربين ـ فاعلم أنه يراك، فكن من أهل الحياء الذى هو مقام أصحاب اليمين، فلما فسر الإحسان أول مرة بالمقام الأعلى، ورأى أن كثيراً من الناس قد يعجزون عنه، تنزل منه إلى المقام الآخر.

واعلم أن المراقبة لا تستقيم حتى تتقدم قبلها المشارطة والمرابطة، ويتأخر عنها المحاسبة والمعاتبة، فأما المشارطة فهى اشتراط العبد على نفسه التزام الطاعة، وترك المعاصى، وأما المرابطة فهى معاهدة العبد لربه على ذلك، ثم بعد المشارطة والمرابطة فى أول الأمر تكون المراقبة... إلخ.

وبعد ذلك يحاسب العبدُ نفسَه على ما اشترطه وعاهد عليه، فإن وجد نفسه قد وفّى بما عاهد عليه الله يحمد الله، وإن وجد نفسه قد حلّ عقد المشارطة ونقض عهد المراقبة،، عاقب النفس عقابا شديداً يزجرها عن العودة إلى مثل ذلك، ثم عاد إلى المشارطة والمرابطة، وحافظ على المراقبة، ثم اختبر بالمحاسبة، وهكذا يكون إلى أن يلقى الله تعالى . انتهى كلامه، وهو مقتبس من الإحياء. والله تعالى أعلم.

ثم شرع تعالى في الكلام على حفظ الأموال، وبدأ بأموال اليتامى، اعتناء بهم لضعفهم، فقال:

﴿ وَءَاتُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾ ﴾

قلت: اليتيم: مَنْ فقدَ أباه، ولايقال فيه اليتيم عُرفا إلا قبل البلوغ، وهو هنا مجاز، أي: من كان يتيماء والحُوب: الإثم، ويقال فيه: حوبا، بالضم والفتح، مع الواو والألف، مصدر حاب حوباً وحَوبا وحابا.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وآتوا﴾ أي: أعطوا ﴿اليتامى أموالهم﴾ إذا بلغوا، وأُنِس منهم الرشد، وسمّاهم يتامى بعد البلوغ اتساعاً؛ لقرب عهدهم بالصغر، حثاً على أن يُدفع إليهم أموالهم أول بلوغهم، قبل أن يزول عنهم هذا الاسم إذا أُنِسَ فيهم الرشد، ويدل على هذا ما قيل في سبب نزول الآية، وهو أن رجلاً من غطفان كان معه مال كثير لابن أخ له، فلما بلغ طلب مال أبيه، فمنعه، فنزلت الآية، فلما سمعها العم قال: أطعنا الله ورسوله، ونعوذ بالله من الحُوب الكبير. وقيل: إن العرب كانت لا تورّث الصغار مع الكبار، فأُمِرُوا أن يورثوهم، وعلى هذا يكون اليتيم على حقيقته، فعلى الأول: الخطاب للأوصياء، وعلى الثاني: للعرب التي كانت لا تورث الصغار.

ثم قال: ﴿ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب﴾ أي: لا تتبدلوا الحرام من أموالهم بالحلال من أموالكم، أو: لا تأخذوا الرفيع من أموالهم وتُعطوا الخبيث مكانها من أموالكم. كان بعضهم يبدل الشاة السمينة من مال اليتيم بالمهزولة من ماله، والدرهم الطيب بالزائف. ﴿ ولا تأكلوا أموالهم ﴾ مضموماً ﴿ إلى أموالكم ﴾ فتنفقونها معا، مع أن اليتيم لايأكل كالكبير، إلا إذا كان المنفَق قدْر أكله، أو لمصلحة. ﴿إنه﴾ أي: الأكل، ﴿كان حُوباً كبيرا﴾ أي: إثماً عظيما.

الإشارة: أمر الحق جل جلاله أغنياء القلوب، وهم أكابر الأولياء الراسخون في علم الغيوب، أن يَمنحوا من تعلق بهم من الفقراء والضعفاء، من الغنى بالله الذي منحهم الله، حتى لا يلتفتوا إلى سواه، وأن يَقبلوا كل من أتى إليهم من العباد، سواء كان من أهل المحبة والوداد، أو من أهل المخالفة والعناد، ولا يتبدلوا الخبيث بالطيب، بحيث

يقبلون من وجدوه طيب الأخلاق، ويردون من وجدوه خبيث الأخلاق، فإن هذا ليس من شأن أهل التربية النبوية، بل من شأنهم أن يقبلوا الناس على السوية، ويقلبوا فيهم الأعيان، فيقلبون العاصي طائعا، والكافر مؤمنا، والغافل ذاكرا، والشحيح سخيا، والخبيث طيبا، والمسيىء محسنا، والجاهل عارفا، وهكذا؛ لما عندهم من الإكسير، وهي الخمرة الأزلية، أي: التي من شأنها أن تقلب الأعيان، كما قال ابن الفارض رضي الله عنه في وصفها:

تُهذبُ أخلاقَ النَّدامى فيَهْتدى ... بها لطريقِ العزمِ مَن لا له عَزْم
ويُكرِمُ مَنْ لم يَعْرِفِ الجودَ كفُّه ... ويحلُمُ عند الغيْظِ مَنْ لا لهُ حِلم

وقوله: ﴿ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم﴾ يعني: حتى تتحققوا بوصول الغنى إلى قلوبهم، فإن تحققتم فخذوا ما بذلوا لكم من أموالهم. والله تعالى أعلم.

ولمّا كان الأولياء، إذا كانت تحتهم يتيمة لها مال، وخافوا أن يدخل معهم أجنبي، تزوجها أو زوجوها من أبنائهم، حرصاً على أكل مالها، ولا يقسطون لها في صداقها، وربما أساءوا عشرتها انتظارا لموتها، فنهاهم الله عن ذلك بقوله:

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا ﴿٣﴾ ﴾

قلت: «ما» من شأنها أن تقع على ما لا يعقل، وهنا وقعت على النساء لقلة عقلهن حتى التحقن بمن لا يعقل(١) و(مثنى وثلاث ورباع) أحوال من (ما) ممنوعة من الصرف للوصف والعدل، أي: اثنتين اثنتين، وثلاثا ثلاثا، وأربعا أربعا.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وإن خفتم﴾ يا معشر الأولياء ألاّ تعدلوا ﴿في اليتامى﴾ التي تحت حجركم إذا تزوجتم بهن طلباً لمالهن، مع قلة جمالهن، فتهجرونهن أو تسيئوا عشرتهن، ﴿فانكحوا ما طاب لكم﴾ من غيرهن، أوْ: وإن خفتم ألا تُقسطوا في صداقهن إذا أعجبكم لِمالِهنّ ـ الذي بيدكم ـ وجمالهن، فانكحوا غيرهن، ولا تنكحوهن إلا إذا أعطيتموهن صداق أمثالهن.

---

(١) قوله: (من شأنها أن تقع على ما لا يعقل)، فيه نظر، فإن (ما) تقع على العاقل وغير العاقل، قال تعالى عن الصالحين: «إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم» (سورة ص آية ٢٤) وغير ذلك من آيات كثيرة، بل إن قول الله تعالى: «فانكحوا ما طاب لكم من النساء» نص في أن «ما» تقع على العاقل.
أما قوله: [حتى التحقن بمن لا يعقل] فينقضه الكثير من الآيات والأحاديث، قال تعالى: «لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض» (آل عمران ١٩٥) وقال النبي ﷺ: «النساء شقائق الرجال»، وللمفسرين في الآية توجيهات أخر، أولى من توجيه شيخنا ابن عجيبة، منها: أن «ما» في الآية موصولة أو موصوفة. راجع (تفسير: القرطبي ـ ابن عطيه ـ الألوسي).

قالت عائشة ـ رضى الله عنها ـ : (هى اليتيمة تكون فى حجر وليها، فيرغب فى مالها وجمالها، ويريد أن ينكحها بأدنى صداقها، فنُهوا أن ينكحوهن إلا أن يقسطوا لهن فى إكمال الصداق، وأُمِروا أن ينكحوا ما سواهن من النساء). رواه البخارى.

وقال ابن عباس رضي الله عنه ـ : (إن الرجل منهم كان يتزوج العشرة وأكثر ـ يعنى قبل التحريم ـ فإذا ضاق ماله أخذ من مال يتيمه)، فقال لهم: إن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى ـ أى: فى أموالهن ـ فانكحوا ما طاب لكم من غيرهن ﴿مثنى وثلاث ورباع﴾ أى: اثنتين اثنتين لكل واحدٍ، أو ثلاثاً ثلاثاً، أو أربعاً أربعاً، ولا تزيدوا، فمنع ما كان فى الجاهلية من الزيادة على الأربع، وهو مُجمع عليه بنص الآية، ولا عبرة بمن جوَّز تسعاً لظاهر الآية؛ لأن المراد التخيير بين تلك الأعداد، لا الجمع، ولو أراد الجمع لقال تسعاً، ولم يعدل عن ذلك إلى ما هو أطول منه وأقل بياناً.

﴿فإن خفتم ألا تعدلوا﴾ بين الاثنتين أو الثلاث أو الأربع، فاقتصروا على واحدة، أو على ما ملكت أيمانكم من قليل أو كثير؛ إذ لا يجب العدل بينهن، ﴿ذلك﴾ الاقتصار على الواحدة ﴿أدنى﴾ أى: أقرب ﴿ألا تعولوا﴾ أى: تجوروا أو تميلوا، أو ألا تجاوزوا ما فرض عليكم من العدل، أو أدنى ألا يكثر عيالكم فتفتقروا، وهى لغة حِمْيَر. والله تعالى أعلم.

الإشارة: اعلم أن الحق تعالى جعل أولياءه أصنافاً عديدة؛ فمنهم من غلب عليه فيض العلوم، ومنهم من غلب عليه هجوم الأحوال، ومنهم من غلب عليه تحقيق المقامات. قال الشيخ أبوالعباس المرسى رضي الله عنه: كان الجنيد رضي الله عنه قطباً فى العلوم، وكان أبويزيد رضي الله عنه قطباً فى الأحوال، وكان سهل بن عبد الله قطباً فى المقامات. هـ. أى: كل واحد غلب عليه واحد من ذلك، مع مشاركته للآخر فى الباقى، فينبغى لكل واحد أن يخوض فى فنّه الذى خصه الله به ولا يتصدى لغيره. فقال لهم الحق ـ جل جلاله ـ من طريق الإشارة: فإن خفتم يا مَنْ غلبت عليهم الأحوال أو المقامات، ألاَّ تُقسطوا فى يتامى العلوم التى اختص بها غيركم، فانكحوا ما طاب لكم من ثيبات الأحوال وأبكار الحقائق، كثيرة أو قليلة، فإن خفتم أن تغلبكم الأحوال، أو التنزل فى المقامات، ولا تعدلوا فيها، فالزموا حالة واحدة ومقاما واحدا، وهو المقام الذى ملكه وتحقق به، فإنه أقرب ألا ينحرف عن الاعتدال؛ لأن كثرة الأحوال تضر بالمريد كما هو مقرر فى فنه. والله تعالى أعلم.

ولمّا أمر بالنكاح أمر ببذل الصَّداق، فقال:

﴿ وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ﴿٤﴾ ﴾

قلت: ﴿نِحلة﴾: مصدر من ﴿آتوهن﴾، لأنها في معنى الإيتاء، يقال: نحله كذا نحلة ونحلا؛ إذا أعطاه إياه عن طيب نفس بلا توقع عوض ولا حكم حاكم، والضمير في «منه» يعود على الصداق أو على «الإيتاء»، و(نفسا) تمييز، و(هنيئاً مريئا): صفتان لمصدر محذوف، أي: أكلاً هنيئا، وهو من هَنُؤ الطعام ومرُؤ، إذا كان سائغاً لا تنغيص فيه، وقيل الهنيء: ما يلذه الإنسان، والمريء: ما تُحمد عاقبته.

يقول الحق جل جلاله للأزواج: ﴿وآتوا النساء﴾ التي تزوجتموهن ﴿صدُقاتهن نحلة﴾ أي: عطية مُبتلة[1]، لا مطل فيها ولا ظلم، ﴿فإن طِبن لكم عن شيءٍ﴾ من الصداق، وأعطينه لكم عن طيب أنفسهن ﴿فكلوه هنيئا﴾ لاتبعة عليكم فيه، ﴿مريئا﴾: سائغاً حلالاً لا شبهة فيه، رُوى أن ناساً كانوا يتحرّجون أن يقبل أحدهم من زوجته شيئا، فنزلت. وقيل: الخطاب للأولياء، لأن بعضهم كان يأكل صداق محجورته، فأمروا أن يعطوهن صداقهن، إلا إن أعطينَهم شيئا عن طيب أنفسهن، والله تعالى أعلم.

الإشارة: وآتوا النفوس حقوقها من الراحة وقوت البشرية، نحلة، ولا تكلفوها فوق طاقتها، فإن طبن لكم عن شيء من الأعمال أو الأحوال، بانشراح صدر ونشاط، فكلوه هنيئا مريئا، فإنّ العبادة مع النشاط والفرح بالله أعظم وأقرب للدوام، وهذا في حق النفوس المطمئنة، وأما النفوس الأمارة فلا يناسبها إلا قهرية المجاهدة مع السياسة؛ لئلا تمل، أو تقول: من أقامه الحق تعالى في حال من الأحوال أو مقام من المقامات فليلزمه، وليقم حيث أقامه الحق، ويعطيه حقه، فإن طاب وقته لحال من الأحوال فليأكله هنيئاً مريئا. فالفقير ابن وقته، ينظر ما يبرز له فيه من رزقه، فكل ما وجد فيه قلبه فهو رزقه، فليبادر إلى أكله لئلا يفوته رزقه منه. والله تعالى أعلم بأسرار كتابه.

ثم نهى الأوصياء عن تمكين اليتامى من أموالهم قبل الرشد، فقال:

﴿ وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَـٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٥﴾ ﴾

قلت: «قيماً»[2]: مصدر قام قياما وقيما، وأصله: قواماً، قلبت الواو ياء.

---

(١) البتل: القطع

(٢) قرأ نافع وابن عامر «قيماً»، وقرأ الجمهور «قياماً».

يقول الحق جل جلاله للأوصياء: ﴿ولا تؤتوا السفهاء﴾ التي تحت حضانتكم ﴿أموالكم﴾ أي: أموالهم التي في أيديكم، وإنما أضاف أموال اليتامى لهم حثاً على حفظها وتنميتها كأنها مال من أموالهم، أي: ولا تمكنوا السفهاء من أموالهم التي جعلها الله في أيديكم ﴿قيماً﴾ لمعاشهم، تقومون بها عليهم، ولكن احفظوها، واتجروا فيها، واجعلوا رزقهم وكسوتهم فيها باعتبار العادة، فإن طلبوها منكم فعدوهم وعداً جميلا، ﴿وقولوا لهم قولا معروفا﴾ أي: كلاما لينا بأن يقول له: حتى تكبر وترشد لتصلح للتصرف فيها. وشبه ذلك. وإنما قال: (وارزقوهم فيها) دون «منها»؛ لأن «فيها» يقتضي بقاءها بالتنمية والتجارة حتى تكون محلاً للرزق والكسوة دون «منها»، وقيل: الخطاب للأزواج، نهاهم أن يعمدوا إلى ما خولهم الله من المال فيعطوه إلى نسائهم وأولادهم، ثم ينظرون إلى أيديهم. وإنما سماهن سفهاء استخفافاً بعقلهن، كما عبر عنهن بـ «ما» التي لغير العاقل(١).

وروى أبو أمامة عن النبي ﷺ أنه قال: «إنما خُلقتْ النارُ للسفهاء ـ قالها ثلاثا ـ ألا وإن السفهاءَ النساء إلا امرأة أطاعت قَيِّمَها(٢)». وقالت امرأة: يا رسول الله: سميتنا السفهاء؟ فقال: «الله تعالى سماكن في كتابه»(٣)، يشير إلى هذه الآية. وقال أبو موسى الأشعري رضي الله عنه: (ثلاثة يدْعُون الله فلا يُستجاب لهم: رجل كانت تحته امرأة سيئة الخلق فلم يطلقها(٤)، ورجل كان له على رجل دينٌ فلم يُشهد عليه، ورجل أعطى سفيها ماله، وقد قال الله تعالى: ﴿ولا تؤتوا السفهاء أموالكم﴾.) قلت: إنما مُنعوا من إجابة الدعاء لتفريطهم في مراسم الشريعة. والله تعالى أعلم.

الإشارة: لا ينبغي للشيخ أن يُطلع المريد على أسرار التوحيد، وهي أسرار المعاني التي جعلها الله تعالى قائمة بالأشياء، حتى يكمل عقله، ويتحقق أدبه، ويظهر صدقه، فإذا استعجلها قبل وقتها فليعده وعدا قريبا، وليقل له قولا معروفا، فكم من مريد استعجل الفتح قبل إبانه فعوقب بحرمانه، وكم من مريد اطلع على أسرار الحقيقة قبل كمال خدمته فطُرد أو قتل، ووقتها هو حين تبرز معه فتأخذه الحيرة، اللهم إلا أن يراه الشيخ أهلا لحملها؛ لرجحان عقله وكمال صدقه، فيمكنه منها قبل أن تبرز معه، ثم يربيه فيها، وهذا الذي شهدناه من أشياخنا لشدة كرمهم ـ رضي الله عنهم وأرضاهم ـ ورزقنا حسن الأدب معهم، فأطلق الحق تعالى الأموال بطريق الإشارة على أسرار المعاني، وأمر الشيوخ أن يرزقوهم منها شيئا فشيئا بالتدريب والتدريج، وأن يكسوهم بالشرائع، ويحتمل أن تبقى الأموال

---

(١) راجع التعليق على تفسير الآية الثالثة من سورة النساء.
(٢) ذكره بنحوه ابن كثير في تفسيره، وعزاه لابن أبي حاتم.
(٣) ذكره الألوسي في تفسيره من رواية مجاهد وابن عمر عن أنس. وقال الطبرسي: (لي في صحته شك).
(٤) يحمل سوء الخلق هنا على ما يطعن في العفة والحياء. وإلا فظاهر هذا الكلام مخالف لقول النبي ﷺ: «لا يفرك مؤمن مؤمنة؛ إن كره منها خلقاً رضي منها آخر»

على ظاهرها، ويكون أمر الشيوخ أن يمنعوا المريدين من أخذ الأموال قبل التمكين. أشار إلى هذا الورتجبي، فانظره.

ثم ذكر الحق تعالى وقت دفع أموال اليتامى لهم، فقال:

﴿ وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا ۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا (٦) ﴾

قلت: الابتلاء: الاختبار، وآنس: أبصر. والرشد هو كمال العقل بحيث يعرف مصالح نفسه وتدبير ماله من غير تبذير ولا إفساد. و﴿إسرافا وبدارا﴾: حالان من «الواو»، أو مفعولان لأجله، و(أن يكبروا) مفعول ببدار.

يقول الحق جل جلاله للأوصياء: واختبروا ﴿اليتامى﴾ قبل البلوغ بتتبع أحوالهم في تصرفاتهم، بأن يُدفع لهم الدرهم والدرهمان، فإن ظهر عليهم حسن التصرف زادهم قليلاً قليلا، وإن ظهر عليهم التبذير كفَّ عنهم المال، ﴿حتى إذا بلغوا النكاح﴾، وهو البلوغ بعلامته، ﴿فإن آنستم﴾ أي: أبصرتم ﴿منهم رشدا﴾، وهو المعرفة بمصالحه وتدبير ماله، وإن لم يكن من أهل الدين ـ واشترطه قوم، ﴿فادفعوا إليهم﴾ حينئذ ﴿أموالهم﴾ من غير تأخير. ﴿ولا تأكلوها إسرافا وبدارا أن يكبروا﴾ أي: لا تأكلوها مسرفين ومبادرين كبرهم فتزول من يدكم، أو لإسرافكم ومبادرتكم كبرهم، ﴿ومن كان غنيا فليستعفف﴾ عن أكلها في أجرة قيامه بها، ﴿ومن كان فقيرا فليأكل بالمعروف﴾ بقدر حاجته وأجر سعيه، وعنه ﷺ: أنَّ رجُلاً قال لَهُ: إنَّ في حجْرِي يَتيمًا أفآكُلُ مِنْ مَالِه؟ قال: «بالمعْرُوفِ، غيْرَ مُتأثِّلٍ(١) مالاً ولا واقٍ مالَكَ بمالِه».

﴿فإذا دفعتم إليهم أموالهم فأشهدوا﴾ في قبضها منكم ﴿عليهم﴾، فإنه أنفى للتهمة وأبعدُ من الخصومة، وهو ندب، وقيل: فرض، فلا يصدق في الدفع إلا ببينة، ﴿وكفى بالله حسيبا﴾ أي: محاسبا، فلا تخالفوا ما أمرتم به، ولا تجاوزوا ما حدَّ لكم.

وإنما قال: «حسيباً» ولم يقل: «شهيداً»، مع مناسبته، تهديداً للأوصياء لئلا يكتموا شيئاً من مال اليتامى، فإذا علموا أن الله يحاسبهم على النقير والقطمير، ويعاقبهم عليه، انزجروا عن الكتمان. والله تعالى أعلم.

(١) أي: غير جامع.

الإشارة: ينبغي للشيخ أن يختبر المريد في معرفته وتحقيق بغيته، فإذا بلغ مبلغ الرجال وتحققت فيه أوصاف الكمال، بحيث تحقق فناؤه، وكمل بقاؤه، وتمت معرفته، فيكون تصرفه كله بالله ومن الله وإلى الله، يفهم عن الله في كل شيء، ويأخذ النصيب من كل شيء، ولا يأخذ من نصيبه شيئا، قد تحلّى بحلية الورع، وزال عنه الجزع والطمع، وزال عن قلبه خوف الخلق وهمّ الرزق، واكتفى بنظر الملك الحق، يأخذ الحقيقة من معدنها، والشريعة من موضعها، فإذا تحققت فيه هذه الأمور، وأنس رشده، فليطلقْ له التصرف في نفسه، وليأمره بتربية غيره، إن رآه أهلا لذلك، ولا ينبغي أن يحجر عليه بعد ظهور رشده، ولا يسرف عليه في الخدمة قبل رشده، مخافة أن يزول من يده.

فإن كان غنياً عن خدمته فليستعفف عنه، وليجعل تربيته لله اقتداء بأنبياء الله. قال تعالى: ﴿قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾، وإن كان محتاجا إليها فليستخدمه بالمعروف، ولا يكلفه ما يشق عليه، فإذا دفع إليه السر، وتمكن منه، وأمره بالتربية أو التذكير فليشهد له بذلك، ويوصي بخلافته عنه، كي تطمئن القلوب بالأخذ عنه، (وكفى بالله وليا وكفى به نصيرا).

ولما أمر الحق تعالى بحفظ أموال اليتامى أمر بحفظ أموال النساء، وذكرهن بعدهم لمشاركتهن لهم في الضعف، فقال:

﴿ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾ ﴾

قلت: جملة ﴿مما قل..﴾إلخ، بدل (مما ترك)، و«نصيبا»: مصدر مؤكد كقوله: ﴿فريضةً من الله﴾ أي: نصب لهم نصيباً مقطوعا، أو حال، أو على الاختصاص، أعني: نصيباً مقطوعا.

يقول الحق جل جلاله: وإذا مات ميت وترك مالا فللرجال نصيب مما ترك آباؤهم وأقاربهم، وللنساء نصيب مما ترك والدهن وأقاربهن كالإخوة والأخوات، مما ترك ذلك الميت قل أو كثر، (نصيبا مفروضا) واجباً محتما.

رُوِي أنّ أوْسَ بنَ ثَابتٍ الأنْصَارِيَّ تُوفِيَّ، وتَرَكَ امرأة يقال لها: (أم كُحّة) وثلاثَ بناتٍ، فأخذ ابْنَا عَمِّ الميتِ المَالَ، ولم يُعْطِيا المرأةَ ولا بنَاتِه شيئاً، وكان أهلُ الجَاهِلِيَّة لا يُوَرِّثُون النِّسَاءَ ولا الصغيرَ ولو كان ذكراً، ويقولون: إنما يَرِث مَنْ يُحارِب ويذب عن الموروث، فجاءت أمُّ كُحة إلى رسول الله ﷺ وهو في مسجد الفضيخ، فقالت:

يا رسول الله؛ إن أوس بن ثابت مات، وترك بنات ثلاثًا، وأنا امرأته، وليس عندي مال أنفقه عليهنّ، وقد ترك أبوهن مالاً حسناً، وهو عند سُويد وعرفجة، فدعاهما النبي ﷺ، فقالا: يا رسول الله ولدها لا يركب فرساً، ولا يحمل سلاحاً ،لا ينكأ عدوًا، فقال النبي ﷺ: «انصرفوا حتى أرى ما يحدث الله تعالى» ، فانصرفوا. فنزلت الآية . فأثبت الله لهن في الآية حقا، ولم يبين كم هو. فأرسل النبي ﷺ إلى سويد وعرفجة: «لا تفرقا من مال أوس شيئاً، فإنّ الله تعالى جعل لبناته نصيباً، ولم يبين كم هو حتى أنظر ما ينزل الله تعالى» ، فأنزل الله تعالى بعد: ﴿يوصيكم الله في أولادكم﴾.. إلى قوله... ﴿الفوز العظيم﴾. فأرسل إليهما: «أن ادفعا إلى أم كحة الثُّمن، وإلى بناته الثُّلثين، ولكما باقي المال» .

الإشارة: كما جعل الله للنساء نصيباً من الميراث الحسي جعل لهن نصيباً من الميراث المعنوي، وهو السر، إن صحبتْ أهل السر، وكان لها أبو الروحانية، وهو الشيخ، فللرجال نصيب مما ترك لهم أشياخهم من سر الولاية، وللنساء كذلك على قدر ما سبق في القسمة الأزلية، قليلة كانت أو كثيرة، نصيباً مفروضاً معيناً في علم الله وقدره، وقد ساواهن الله تعالى مع الرجال في آية السير، فقال: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ إلى آخر الآية، فمَنْ صار منهن مع الرجال أدرك ما أدركوا. وبالله التوفيق.

ثم أمر الورثة بالإحسان إلى مَنْ حضر معهم القسمة، فقال:

﴿ وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٨﴾ ﴾

قلت: الضمير في (منه): يعود على المقسوم المفهوم من القسمة.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وإذا حضر﴾ معكم في قسمة التركة ذوو القرابة ممَّنْ لا يرث، كالأخوال والخالات والعمات، ﴿واليتامى والمساكين، فارزقوهم﴾ أي: فأعطوهم شيئاً من المال المقسوم تطييباً لقلوبهم. فإن كان المال لغيركم، أو كان الورثة غيرَ بالغين، فقولوا لهم ﴿قولاً معروفا﴾، بأن تُعلموهم أن المال لغيرنا، ولو كان لنا لأعطيناكم، والله يرزقنا وإياكم.

واختلف في هذا الأمر، هل للندب ـ وهو المشهور ـ أو للوجوب ونسخ بآية المواريث؟ وقيل: لم يُنسخ، وهي مما تهاون الناس بها. والله تعالى أعلم.

الإشارة: يقول الحق جل جلاله لخواص أحبابه: إذا دارت الكؤوس بخمرة الملك القدوس، وتعاطيتم قسمتها بين أرواحكم حتى امتلأت جميعُ أشباحكم، ورويت منها عُروقكم، وحضر معكم من ليس من أبناء جنسكم، ممن لا يُحل شرْب خمرتكم، فإن كان من أهل المحبة والوداد، أو من له بكم قرابة واستناد، فلا تحرموه من شراب خمرتكم، ولا من نفحات نسمتكم، فإنكم قوم لا يشقى جليسكم، فارزقوه من ثمار علومكم، واسقوه من شراب خمرتكم، وذكِّروه بالله، وقولوا له ما يدله على الله، ويوصله إلى حضرة الله، وهذا هو القول المعروف، الذى هو بالنصح موصوف.

رُوى أن أبا هريرة رضي الله عنه نادى فى سوق المدينة: يا معشر التجار، اذهبوا إلى المسجد، فإنّ تركة مُحمدٍ تقسم فيه، لتأخذوا حقكم منها مع الناس قبل أن تنفد، فذهب التُّجَّار إلى المسجد النبوى، فوجدوه معموراً بالناس، بعضهم يُصلى، وبعضهم يتلو، وبعضهم يذكر، وبعضهم يعلم العلم، فقالوا : يا أبا هريرة، ليس هنا ما ذكرت من قسم التركة! فقال لهم: (هذه تركة محمد ﷺ، لا ما أنتم عليه من جمع الأموال) أو كما قال رضي الله عنه.

ثم حثّ الأوصياء على الرفق بأولاد الناس، الذى هم فى حجرهم، فقال:

﴿ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾ ﴾

قلت: «لو» ـ هنا ـ شرطية، تخلص للاستقبال، وجوابها: (خافوا)، وحذف مفعول ﴿يخشى﴾ للعموم، فيصدق بخشية العذاب وخشية العتاب وخشية البعد عن الأحباب، على حسب حال المخاطبين بهذه الخشية.

يقول الحق جل جلاله للأوصياء الذين فى ولايتهم أولاد الناس: ﴿وليخش﴾ الذين يتولون يتامى الناس، فليحفظوا مالهم، وليحسنوا تنميته لهم ولا يضيعوه، وليخافوا عليهم الضيعة، كما يخافون على أولادهم ، فإنهم لو ماتوا وتركوا ﴿ذرية ضعافاً خافوا عليهم﴾، فكما يخافون على أولادهم بعدهم كذلك يخافون على أولاد الناس، ﴿فليتقوا الله﴾ فى شأنهم، وليحفظوا عليهم أموالهم، وليرفقوا بهم ويلاطفوهم فى الكلام، كما يُحبون أن يلاطف بأولادهم، ﴿وليقولوا﴾ لهم ﴿قولاً سديدا﴾ أى: عدلاً صواباً بالشفقة وحسن الأدب.

وقيل: الخطاب لمن حضر المريض عند الإيصاء فيقولون له: قدم لنفسك، أعتق، تصدق، أعط كذا، حتى يستغرق ماله، فنهاهم الحق ـ تعالى ـ عن ذلك، وقال لهم: كما تخافون الضيعة على أولادكم بعدكم خافوا على أولاد الناس، فليتقوا الله فى أمر المريض بإعطاء ماله كله، ﴿وليقولوا له قولاً سديداً﴾: عدلاً، وهو الثلث، وقيل: للمؤمنين كلهم عند موتهم، بأن ينظروا للورثة، فلا يسرفوا فى الوصية بمجاوزة الثلث. والله تعالى أعلم.

الإشارة: أمر الحق ـ جل جلاله ـ أهل التربية النبوية إذا خافوا على أولادهم الروحانيين أن ينقطعوا بعد موتهم، أن يمدوهم بالمدد الأبهر، ويدلوهم على الغنى الأكبر، حتى يتركوهم أغنياء بالله، قد اكتفوا عن كل أحد سواه، مخافة أن يسقطوا بعد موتهم في يد من يلعب بهم، فليتقوا الله في شأنهم، وليدلوهم على ربهم، وهو القول السديد.

وينسحب حكمها على أولاد البشرية، فمن خاف على أولاده بعد موته، فليتق الله وليكثر من طاعة الله، وليحسن إلى عباد الله، في أشباحهم وأرواحهم أما أشباحهم فيُطعمهم مما خوله الله، ففي بعض الأثر عنه عليه الصلاة والسلام: «ما أَحْسَنَ عَبْدٌ الصَّدَقَةَ في مَاله إلا أَحْسَنَ اللهُ الخِلافَةَ عَلَى تَرِكَتِه» . وأما الإحسان إلى أرواحهم، فيدلهم على الله، ويرشدهم إلى طاعة الله، ويعلمهم أحكام دين الله. فمن فعل هذا تولى الله حفظ ذريته من بعده، فيعيشون في حفظ ورعاية وعز ونصر، كما هو مشاهد في أولاد الصالحين، قال تعالى: ﴿ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ وتذكر قوله تعالى: ﴿ وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا ﴾.

وقال القشيري في هذه الآية: إن الذي ينبغي للمسلم أن يدخر لعياله التقوى والصلاح، لا المال، لأنه لم يقل فليجمعوا لهم المال، وليكثروا لهم العقار والأسباب، وليخلفوا العبيد والأثاث، بل قال: ﴿فليتقوا الله﴾ فإنه يتولى الصالحين. هـ المراد منه.

ثم ذكر الحق تعالى وعيد من يأكل مال اليتيم، فقال:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾ ﴾

قلت: (ظلما): تمييز، أو مفعول لأجله.

يقول الحق جل جلاله: ﴿إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما﴾ من غير موجب شرعي، ﴿إنما يأكلون في بطونهم نارا﴾، أي: ما يجر إلى النار ويؤول إليها.

وعن أبي برزة أنه ﷺ قال: «يبعثُ اللهُ أقواماً من قبورهم تتأججُ أفواههم نارا»، فقيل: مَنْ هم يا رسول الله؟ قال: «ألم تر أن الله يقول: ﴿إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيرا﴾» . أي: يحترقون في نار، وأي نار!! والصَّلْي: هو الشيّ، تقول: صليت الشيء: شويته، وأصليته وصليته، وذكر البطون مبالغة وتهجين لحالهم.

الإشارة: حذَّر الحق ـ جل جلاله ـ أهل الدعوى، الذين نصبوا أنفسهم للشيخوخة، وادعوا مقام التربية، مع كونهم جهالا بالله، محجوبين عن شهود أسرار التوحيد، أن يأخذوا أموال الضعفاء؛ الذين تعلقوا بهم؛ لأنهم إنما يدفعون لهم ذلك طمعًا في الوصول إلى الله. وهم ليسوا أهلاً لذلك، فإذا أكلوا ذلك فإنما يأكلون في بطونهم نارا وسيصلون سعيرا، وهو تكثيف الحجاب، وزيادة العنت والتعب، إن أقبل عليهم الناس فرحوا واستبشروا، وإن أدبروا عنهم حزنوا وغضبوا، فأيُّ عذاب أعظم مِنْ هذا؟!

فتحصَّل من أول الآية إلى آخرها، أن الحق ـ تعالى ـ أمر أهل الغنى الأكبر، وهم الذين أهَّلهم للتربية النبوية، بأن سلكوا الطريق وأشرقت عليهم شموس التحقيق على يد شيخ كامل، بالاستعفاف، ولا يأخذوا إلاَّ قدر الحاجة، من أموال مَنْ انتسب إليهم، وسد الباب لأهل الدعوى، لأنه مِنْ أكلِ أموال الناس بالباطل، لأنه يعطى على وجه لم يوجد في المعطى إليه، إلا إذا كان على وجه الصدقة المحضة، مع أنه قد يكون غير مستحق لها. والله تعالى أعلم.

ثم بيَّن الحق تعالى قسمة التركة، فقال:

﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ ...﴾

يقول الحق جل جلاله: (يوصيكم الله) أي: يأمركم ويعهد إليكم، ﴿في أولادكم﴾، أي: في بيان ميراثهم، ثم فصَّله فقال: ﴿للذكر مثل حظ الأنثيين﴾، أي يُعَدُّ كل ذكر بأنثيين، فإذا ترك ابنا وبنتا، كانت من ثلاثة، للذكر سهمان وللبنت سهم، وإذا ترك ابنا وبنتين فله قسمتان، ولكل واحدة قسمة، وهكذا، قال ابن جزي: هذه الآية نزلت بسبب سعد بن الربيع، وقيل: بسبب جابر بن عبدالله، إذ عاده رسولُ الله ﷺ في مرضه؛ ورفَعت ما كان في الجاهلية من ترك توريث النساء والأطفال. وقيل: نُسخت الوصية للوالدين والأقربين.

وإنما قال: «يوصيكم» بلفظ الفعل الدائم، ولم يقل: أوصاكم، تنبيها على نسخ ما مضى، والشروع في حكم آخر، وإنما قال: (يوصيكم) بالاسم الظاهر، أي: (الله) ولم يقل: نوصيكم، لأنه أراد تعظيم الوصية، فجاء بالاسم الذي هو أعظم الأسماء، وإنما قال: (في أولادكم) ولم يقل: في أبنائكم؛ لأن الابن يقع على الابن من الرضاعة، وعلى ابن البنت، وعلى الابن المتبنى، وليسوا من الورثة، فإن قيل: هلاَّ قال: للأنثيين مثل حظ الذَّكر، أو للأنثى

نصف حظ الذَّكر؟ فالجواب، أنه بدأ بالذَّكرِ لفضله، ولأن القصد ذكرُ حظه، ولو قال للأنثيين مثل حظ الذكر لكان فيه تفضيل للإناث .هـ(١).

الإشارة: كما أوصى الله ـ تعالى ـ في أولاد البشرية، أوصى على أولاد الروحانية، ويقع التفضيل في قسمة الإمداد على حسب التعظيم والمحبة والعطف من الشيخ، فبقدر ما يقع في قلب الشيخ، يسري إليه المدد، فقد يأخذ مثل حظ رجلين أو أكثر، على حسب ما سبق في القسمة الأزلية. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر حكم البنات إذا انفردن، فقال:

﴿... فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ...﴾

قلت: أنث الضمير في (كن) باعتبار الخبر، أو يعود على المتروكات، وما قاله الزمخشري بعيد. ومن قرأ (واحدةٌ) بالرفع، ففاعل كان التامة، ومن قرأ بالنصب، فخبر كان.

يقول الحق جل جلاله: فإن كان المتروك من الأولاد ﴿نساء﴾ ليس معهن ذكور ﴿فوق اثنتين﴾ أي: اثنتين فما فوق، ﴿فلهن ثلثا ما ترك﴾، والباقي للعاصب، وأخذ ابن عباس بظاهر الآية، فأعطاهما النصف كالواحدة، والجمهور على خلافه، وأن لفظ ﴿فوق﴾ زائدة كقوله: ﴿فَاضْرِبُوا فَوْقَ الأَعْنَاقِ﴾ وقيل: أخذ الثلثين بالسنة، وإن ﴿كانت﴾ بنتًا ﴿واحدة فلها النصف﴾، والباقي للعاصب، وفيه دليل على أن الابن يأخذ جميع المال إذا انفرد؛ لأن له مثل حظ الأنثيين.

الإشارة: انظر البنت، إذا انفردت أخذت النصف، وإذا اجتمعت مع غيرها نقص لها، كذلك أمداد الأشياخ، من انفرد عندهم وحده، أخذ أكثر مما إذا اجتمع مع غيره، لانجماع نظر الشيخ إليه، وكان شيخنا رضي الله عنه يقول له شيخه: مازال يأتيك الرجال ـ أي: إخوانك من الفقراء ـ وكان وحده، فيقول له: الله لا يجعل أحدا يأتي حتى نشبع. وكذلك أيضًا، انفراد العبد بالعبادة، في وقت الغفلة، مددها أعظم من كونه مع غيره، كالمجاهد خلف الفارين. وكذلك قال عليه الصلاة والسلام: «طُوبَى للغُرَبَاء»، والله تعالى أعلم.

---

(١) راجع تفسير ابن جزي.

ثم ذكر ميراث الأبوين، فقال:

﴿ ... وَلِأَبَوَيۡهِ لِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٞۚ فَإِن لَّمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٞ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخۡوَةٞ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ ... ﴾

قلت: (السدس) مبتدأ، و(لأبويه) خبر، و(لكل واحد)، بدل من (أبويه)، ونكتة البدل إفادة أنهما لا يشتركان في السدس، ولو قال: لأبويّه السدس؛ لأوهم الاشتراك.

يقول الحق جل جلاله: إذا مات الولد، وترك أبويه، فلكل ﴿واحد منهما السدس إن كان له ولد﴾ ذكراً أو أنثى، واحداً أو متعدداً، للصلب أو ولد ابن، فكلهم يردّون الأبوين للسدس، ﴿فإن لم يكن له ولد وورثه أبواه﴾ فقط، ﴿فلأمه الثلث﴾، والباقي للأب، ﴿فإن كان له إخوة﴾ أي: أخوان فأكثر، سواء كانوا أشقاء أو لأب أو لأم، أو مختلفين، ﴿فلأمه السدس﴾، والباقي للأب، ولا شيء للأخوة معه.

وأخذ ابن عباس بظاهر الآية، فلم يحجبها للسدس باثنين، وجعلهما كالواحد، واحتج بأن لفظ الإخوة جمع، وأقله ثلاثة، وأجيب بأن لفظ الجمع، يقع على الاثنين كقوله: ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾، ﴿إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ﴾، ولقوله ﷺ: «الاثْنَانِ فَما فَوْقَهِمَا جَمَاعَةٌ». وهذا كله، بعد إخراج الوصية وقضاء الدين، وإنما قدّم الحق - تعالى - الوصية على الدّين، مع كون الدّين مقدمًا في القضاء من رأس المال؛ لأن أرباب الدّين أقوياء، بخلاف الموصى لهم، فقدمهم اعتناء بهم.

الإشارة: الروح كالأب، والبشرية كالأم، وعقد الصحبة مع الشيخ كالولد، فإن كان الإنسان له صحبة مع شيخ التربية، يعني له ورد منه، فالبشرية والروحانية سواء، إذ كلاهما يتهذبان ويتنوران بالأدب والمعرفة؛ الأدب للبشرية، والمعرفة للروحانية، إذا استمد بالطاعة الظاهرُ استمد الباطن، وبالعكس، وإن لم يكن عقد الصحبة موجوداً كان ميراث البشرية من الحس أقوى كميراث الأم مع فقد الولد، أو تقول: الإنسان مركب من حس ومعنى، فالحس كالأم، والمعنى كالأب، لأن المعاني قائمة بالحس، والروح تستمد منهما معاً، فهي كالولد بينهما، فإن كانت الروح حية بوجود المعرفة، استمدت منهما معا، وإن كانت ميتة، كان استمدادها من الحس أكثر، كموت الولد في ميراث الأم.

أو تقول: الإنسان بين قدرة وحكمة، القدرة كالأب، والحكمة كالأم، والقلب بينهما كالولد، فإنْ وُجد القلب استمدت الروح من القدرة والحكمة، واستوى نظرها فيهما. وإن فقد القلب غلب على الروح ميراث الحكمة، كفقدِ

الولد في ميراث الأم، وإن كان للقلب إخوة من الأنوار والأسرار يتقوى بهما فللروح من ميراث الحكمة السدس، والباقي كله للقدرة، ولا يعرف هذا إلا من حقق معرفة القدرة والحكمة، ذوقًا وكشفا، وإلاّ.. فليسلم لأهل المعرفة. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر الحق تعالى حكمة تقسيم تركة الأب والابن على ما فرض، وأن ذلك لا يعلمه إلا هو، فقال:

﴿... ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾﴾

يقول الحق جل جلاله: قد بينت لكم ما يرثُ الأبُ من ابنه، وما يرث الولدُ من أبيه، ولو وكلت ذلك إليكم لأفسدتم القسمة؛ لأنكم **لا تدرون أيهم أقرب نفعاً** للآخر، هل الأب أقرب نفعا لابنه، فتعطوه الميراث كله دون ولد الميت، أو الولد أقرب نفعاً لأبيه، من الأب لابنه، فتخصونه بالإرث، ففرضتُ ميراث الأب وميراث الولد، ولم نكل ذلك إليكم. ﴿**فريضة**﴾ حاصلة ﴿**من الله**﴾، ﴿**إن الله كان عليماً**﴾ بمصالح العباد ﴿**حكيماً**﴾ بما فرض وقدّر.

وقال ابن عباس: لا تدرون أيهم أطوع لله عز وجل من الآباء والأبناء، وأرفعكم درجة يوم القيامة؛ لأن الله تعالى يشفع المؤمنين في بعضهم بعضا، فيشفع الولد في والديه، إن كان أرفع درجة منهما، فيرفعهما الله إليه، ويشفع الوالدين في ولدهما، إن كانا أرفع درجة منه، فيرتفع إليهما لتقر بذلك أعينهما .هـ. بالمعنى.

الإشارة: الإنسان لا تقوم روحانيته إلا ببشريته، وبشريته إلا بروحانيته، فلا يدري أيهما أقرب له نفعا، لأن البشرية محل للعبودية، والروحانية محل لشهود عظمة الربوبية، ولابد للجمع بينهما، وكذلك الحس، لا يقوم إلا بالمعنى، والمعنى لا يقوم إلا بالحس، فلا تدرى أيهما أقرب نفعاً لك أيها المريد، فتؤثره، وإن كانت المعاني هي المقصودة بالسير، لكن لا تقوم إلا بوجود الحس، فلابد من ملاحظته.

وقال الورتجبي هنا ما نصه: أشكل الأمر من تلك الطائفتين، أيهم يبلغ درجة الولاية والمعرفة الموجبة مشاهدة الله وقربته، التي لو وقعت ذرة منها لأحد من هذه الأمة لينجو بشفاعته سبعون ألفًا بغير حساب، أي: اخدموا آباءكم وارحموا أولادكم، فربما يخرج منهم صاحب الولاية، ليشفع لكم عند الله تعالى، وحكمة الإبهام ها هنا؛ ليشمل الرحمة والشفقة على الجمهور، لتوقع ذلك الولي الصادق. هـ. **قلت**: فسر الآباء والأبناء بالحسيين، وتشمل الآية أيضا الآباء والأبناء المعنويين والروحانيين. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر ميراث الزوج والزوجة، فقال:

﴿ ۞ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّن بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ ... ﴾

يقول الحق جل جلاله : ﴿ولكم﴾ أيها الأزواج، من ميراث أزواجكم ﴿نصف﴾ ما تركن ﴿إن لم يكن لهن ولد. فإنْ كان لهن ولد﴾ وارث، ذكراً أو أنثى، مفرداً أو متعدداً، من بطنها أو من صلب بنيها أو بني بنيها وإن سفل، منكم أو من غيركم، ﴿فلكم الربع مما تركن﴾، بعد قضاء الدين وإخراج الوصية.

﴿ولهن﴾ أي: الزوجات من ميراث الزوج ﴿الربع﴾ مما ترك ﴿إن لم يكن﴾ له ولد لاحق، ذكراً أو أنثى، على وزان ما تقدم في الزوجة، ﴿فإن كان لكم ولد فلهن الثمن﴾ تنفرد به إن كانت واحدة، ويقسم بينهن إنْ تعددن، ولا ينقص لأهل السهام مما فرض الله لهم إلا ما نقصه العَوْل على مذهب الجمهور، خلافاً لابن عباس، فإنه لا يقول بالعول.

فإن قيل: لِمَ كرر قوله: ﴿من بعد وصية﴾ مع ميراث الزوج وميراث الزوجة، ولم يذكره قبل ذلك إلا مرة واحدة في ميراث الأولاد والأبوين؟ فالجواب: أن الموروث في ميراث الزوج هو الزوجة، والموروث في ميراث الزوجة هو الزوج، فكل واحدة قضية مستقلة، فلذلك ذكر ذلك مع كل واحدة، بخلاف الأول؛ فإن الموروث فيه واحد، ذكرَ حكم ما يرث منه أولاده وأبواه، وهي قضية واحدة، فلذلك قال فيه: ﴿ من بعد وصية ﴾ مرة واحدة. قاله ابن جُزي. قال البيضاوي: فرض للرجل بحق الزواج ضِعف ما للمرأة كما في النسب، وهكذا قياس كل رجل وامرأة، إذا اشتركا في الجهة والقرب، ولا يستثنى منه إلا أولاد الأم والمعتق والمعتقة. هـ.

الإشارة: إذا ماتت النفس، ولم تبق لها بقية، وورثت الروحُ ما كان لها من العلوم الكسبية: النقلية والعقلية، وأضافته إلى مالَها من العلوم الوهبية، فانقلب الجميع وهبياً، قال بعض شيوخ أشياخنا: (كنت أعرف أربعة عشر علماً، فلما دخلت علم الحقيقة سرطت ذلك كله، فلم يبق إلا الكتاب والسنة)، أو كما قال. وقال أبو سليمان الداراني: إذا اعتقدت النفوس على ترك الآثام، جالت في الملكوت، ثم عادت إلى صاحبها بطرائف العلوم، من غير أن يؤدي إليها عالمٌ علما.

فإن بقي للنفس بقية، نقص ميراث الروح منها، بقدر البقية، كما أن الزوج ينقص ميراثه مع الفرع، وكذلك إذا ماتت الروح بالرجوع عن طريق الجد، ورثت النفسُ ما كان لها من العلوم الوهبية، والمعاني والأسرار القدسية، فتأكلها، وتردها نقلية حسية، بعد أن كانت وهبية ذوقية، فتتحسس المعاني، وتتكثف الأواني. والعياذ بالله من السلب بعد العطاء، إلا أن ميراث النفس من الروح أقوى، فإن بقي للروح شيء من الحياة، نقص ميراث النفس منها، كنقص الزوجة مع الفرع من ميراث الزوج، والله تعالى أعلم.

ثم ذكر ميراث الأخ للأخ، فقال:

﴿... وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ ۚ فَإِن كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَآءُ فِى ٱلثُّلُثِ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ ۚ وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٢﴾﴾

قلت: الكلالة: انقطاع النسل، بحيث لم يبق للميت فرع ولا أصل، لا ذكر ولا أنثى، وهو مصدر من تَكَلَّلَهُ النسبُ، إذا أحاط به كالإكليل، لأن ورثته أحاطوا به وليْسوا منه. ونظم بعضهم معنى الكلالة، فقال:

إنْ امرؤٌ يسألُ عن كَلالَة ... هو انقِطاعُ النَّسْلِ لاَ محالَة
لا والدٌ يبْقَى ولا مولُود ... قَدْ هَلَكَ الأبْنَاءُ والجُدُود

فتحتمل أن تطلق هنا على الميت، أو على الورثة، أو على الوراثة، أو على القرابة أو على المال. فإن كانت على الميت، فإعرابه خبر كان، و(يورث) صفة، أو (يورث) خبر كان، و(كلالة) حال من الضمير في (يورث)، أو «كان» تامة، و(يورث) صفة و(كلالة) حال من الضمير. وإن كانت على الورثة، فهو خبر كان، على حذف مضاف؛ أي: ذا كلالة، وإن كانت الوِراثة فهو مصدر في موضع الحال، وإن كانت القرابة، فهو مفعول من أجله، أي: يورث من أجل القرابة. وإن كانت للمال، فهو مفعول ثانٍ ليورث، وكل من هذه يحتمل أن تكون «كان» تامة أو ناقصة. قاله ابن جزي. و(غير مضار)، منصوب على الحال، أو العامل فيه (يوصى)، و(مضار) اسم فاعل، ووصية: مصدر ليوصي، أو مفعول (مضار).

يقول الحق جل جلاله : وإن كان الميت رجلا أو امرأة، يُورثان كلالة، بحيث لا فرع لهما ولا أصل، قد انقطع عمود نسبهما، ولهما أخ أو أخت لأم ﴿فلكل واحد منهما السدس﴾. ﴿فإن كانوا أكثر من ذلك فهم

شركاء في الثلث﴾، الذكر والأنثى سواء، لأن الإدلاء للميت بمحض الأنوثة، ومفهوم الآية: أنهما لا يرثان مع الأم والجدة، كما لا يرثان مع البنت وبنت الابن، إذ ليس حينئذ بكلالة، وإنما قيدنا الأخ والأخت بكونهما للأم لأن الأخ الشقيق أو للأب سيأتي في آخر السورة. والأخت تقدم أنّ لها النصف، وأيضاً: قد قرأ سعد بن أبي وقاص، وابن مسعود: «وله أخ أو أخت لأم»

وهذا كله ﴿من بعد وصية يوصى بها أو دين﴾ حال كونه ﴿غير مُضار﴾ في الوصية أو الدين، كالوصية بأكثر من الثلث، أو للوارث، أو فراراً منه، فإنْ عُلِم أنه قصد الإضرار، رد مازاد على الثلث، واختلف في رد الثلث على قولين. قاله ابن جزي. ﴿وصيةً من الله﴾، أي: نوصيكم وصية، أو غير مضار وصية من الله. قال ابن عباس: (الإضرار في الوصية من الكبائر). ﴿والله عليم﴾ بمصالح عباده، يقسم المال على حسب المصلحة، ﴿حليم﴾ لايعاجل بالعقوبة منْ خالف حدوده.

الإشارة: اعلم أن الأخوة في الشيخ كالأخوة في النسب، لأنهم يرضعون من ثدي واحدة ولبن واحد، فإن مات أحدهم، ورث أخوه المدد الذي كان يأخذه من شيخه، وكذا إذا رجع ـ فإنه موت ـ فينقلب المدد إلى أخيه، ومثاله كماء فُرّق على قواديس، فإذا انسدت إحدى القواديس رجع الماء إلى الأخرى، فإن كانوا أكثر من واحد فهم شركاء في ذلك المدد، والله تعالى أعلم.

ثم حذّر الحقُّ ـ تعالى ـ من مخالفة ما حَـدّ في الوصايا والمواريث، فقال:

﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَـٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾ ﴾

قلت: توحيد الضمير في (نُدخله)[1] مراعاة للفظ (من). وجمع الحال في (خالدين) مراعاة للمعنى. و(خالدين) و(خالداً): حال مقدرة من ضمير (ندخله)، كقولك: مررت برجل معه صقر صائداً به غداً، وليسا صفتين لجنات ونارا، وإلا لوجب إبراز الضمير؛ لأنهما جرتا على غير منْ هُمَا له.

(١) قرأ نافع وابن عامر «نُدخله» بالنون، وقرأ الآخرون بالياء.

يقول الحق جل جلاله: ﴿تلك﴾ الأحكام التي شرعناها لكم في أمر الوصايا والمواريث، هي ﴿حدود الله﴾ حدَّها لكم لتقفوا معها ولا تتعدوها ﴿ومن يطع الله﴾ فيما أمر به وحدّه، ﴿ورسوله﴾ فيما شرّعه وسنّه ﴿ندخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها. ذلك هو الفوز﴾ أي: الفلاح ﴿العظيم﴾، ﴿ومن يعص الله﴾ فيما أمر ونهى، ﴿ورسوله﴾ فيما شرعه، ﴿ويتعد حدوده﴾ التي حدها، فتجاوز إلى متابعة هواه، ﴿ندخله ناراً خالداً فيها وله عذاب مهين﴾. وهذا إذا أنكر مشروعيتها فيكون كافرا، وإلاّ كان عاصياً في حكم المشيئة، ومذهب أهل السنة أنه لا يخلد، وحملوا الآية على الكافر، أو عبارة عن طول المدة، كما في قاتل النفس. والله تعالى أعلم.

الإشارة: قد حدّ الحق ـ جل جلاله ـ لأهل الشريعة الظاهرة حدوداً قام ببيانها العلماء، وحدّ لأهل الحقيقة ـ وهي سر الولاية ـ حدودا، قام بها الأولياء، فمن قام بحدود الشريعة الظاهرة كان من المؤمنين الصالحين، ومن تعداها كان من العاصين الظالمين، ومن قام بحدود الحقيقة الباطنية، وصحب أهلها كان من المحسنين العارفين المقربين، ودخل جنة المعارف، ومن تعدّ حدود الحقيقة، أو لم يصحب أهلها كان من عوام أهل اليمين، وله عذاب الحجاب في غم الحساب، وقال في الحاشية: في حد حدوده إشارة للعبودية، في إخراج كل عن نظره واختياره، ثم انقياده وذلته لحكم ربه، والوقوف عند حدوده.

وقال الورتجبي: قيل: (تلك حدود الله) أي: الإظهار من الأحوال للمريدين على حسب طاقتهم لها، فإن التعدي فيها يهلكهم، وقال أبو عثمان: ما هلك امرؤ لزم حده ولم يتعد طوره. هـ. وبالله التوفيق، وهو الهادي إلى سواء الطريق.

ولمَّا فرغ الحق تعالى من الأمر بحفظ الأموال، شرع في الكلام على حفظ الأنساب، وقدّم الكلام أولاً على الزنى؛ إذ به تختلط الأنساب، ويختل نظام حفظها، ثم تكلم بعدُ على النكاح وما يُحرم من النساء وما يحل، فقال:

﴿ وَالَّٰتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴿١٥﴾ وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنكُمْ فَآذُوهُمَا فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿١٦﴾ ﴾

يقول الحق جلا جلاله: ﴿و﴾ النساء ﴿اللاتي يأتين الفاحشة﴾ أي: الزنى، سُمِّيَ فاحشة لفُحش قبحه وبشاعة فعله شرعاً، ﴿من نسائكم﴾ المسلمات، ﴿فاستشهدوا عليهن﴾ أي: اطلبوا مَنْ رماهُنَّ بذلك أن يُشْهِدوا

﴿عليهن أربعة منكم﴾، أي: من عدول المؤمنين يرونهما كالمرود في المكحلة، وإنما جعلوا أربعة مبالغة في الستر على المؤمن، أو ليكون على كل واحد اثنان، ﴿فإن شهدوا﴾ عليهن بذلك ﴿فأمسكوهن في البيوت﴾، واجعلوه سجنا لهن ﴿حتى يتوفاهن الموت﴾ أي: يستوفي أجلَهن الموتُ، أو يتوفاهن ملك الموت، ﴿أو يجعل الله لهن سبيلا﴾ كتعيين الحد المخلّص من السجن، وكان هذا في أول الإسلام ثم نُسخ بما في سورة النور من الحدود، ويحتمل أن يراد التوصية بإمساكهن بعد أن يُجلدن كي لا يَعُدْن إلى الزنى بسبب الخروج والتعرض للرجال.

واكتفى بذكر حدّهن، بما في سورة النور، وهذا الامساك كان خاصاً بالنساء بدليل قوله ﴿واللذان يأتيانها منكم﴾ أي: الزاني والزانية منكم، (فآذوهما) بالتوبيخ والتقريع. (فإن تابا وأصلحا فأعرضوا عنهما) أي: اقطعوا عنهما الأذى، أو أعرِضوا عنهما بالإغماض عن ذكر مساوئهما.

قيل: إن هذه الآية سابقة على الأولى تزولا، وكان عقوبة الزني الأذى ثم الحبس ثم الجلد، وقيل، الحبس في المساحقات، والإيذاء في اللواطين، وما في سورة النور في الزناة. والذي يظهر، أن الحكم كان في أول الإسلام في الزنا: الإمساك للنساء في البيوت بعد الإيذاء بالتوبيخ، فتمسك في بيتها حتى تموت، أو يجعل الله لها سبيلاً بالتزوج بمن يعفها عنه. والإيذاء للرجال بالتعيير والتقريع والتحجيم حتى تتحقق توبته، ثم نسخ ذلك كله بالحدود، وهو جلْد البكر مائة وتغريبه عاماً ورجم المحصن. والله تعالى أعلم.

الإشارة: ينبغي للعبد، إذا طغَتْ عليه نفسُه، وأرادت ارتكاب الفواحش، أن يستشهد عليها الحفظة، الذين يحفظون عليه تلك المعاصي، فإن لم تستحِ، فليعاقبها بالحبس في سجن الجوع والخلوة والصمت، حتى تموت عن تلك الشهوات، أو يجعل الله لها طريقاً بالوصول إلى شيخ يُغيِّبه عنها، أو بوارد قوي من خوف مزعج أو شوق مقلق، فإن تابت وأصلحت، أعرض عنها واشتغل بذكر الله، ثم يغيب عما سواه. وبالله التوفيق.

ثم ذكر الحق تعالى وقت التوبة التي تُقبل، فقال:

﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿١٧﴾ وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمۡ كُفَّارٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا ﴿١٨﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿إنما التوبة﴾ التي يستحق ﴿على الله﴾ قبولُها فضلا وإحسانا هي ﴿للذين يعملون السوء﴾ أي: المعاصي متلبسين ﴿بجهالة﴾ أي: سفاهة وجهل وسوء أدب، فكل من اشتغل بالمعصية فهو جاهل بالله، قد انتزع منه الإيمان حتى يفرغ، وإن كان عالما بكونها معصية، ﴿ثم يتوبون﴾ بعد تلك المعصية ﴿من قريب﴾ أي: من زمن قريب، وهو قبل حضور الموت؛ لقوله بعدُ: ﴿حتى إذا حضر أحدهم الموت﴾، وقوله ـ عليه الصلاة لسلام ـ: «إنّ الله يَقبلُ توبةَ العبدِ ما لمْ يُغَرْغِرْ» وإنما جعله قريباً لأن الدنيا سريعة الزوال، متاعها قليل وزمانها قريب، ﴿فأولئك يتوب الله عليهم﴾ تصديقا لوعده المتقدم، ﴿وكان الله عليمًا﴾ بإخلاصهم التوبة، ﴿حكيماً﴾ في ترك معاقبة التائب، إذ الحكمة هي وضع الشيء في محله.

وعن الحسن: قال: قال النبي ﷺ: «لما أُهبط إبليسُ قال: وعزتك وعظمتك لا أُفارقُ ابنَ آدم حتى تفارقَ روحُه جسدَه، قال الله تعالى: وعزتي وعظمتي لا أحجب التوبة عن عبدي حتى يغرغر بها». وعن أبي سعيد الخدري أن النبي ﷺ قال: «إنّ الشيطانَ قال: وعزتك لا أبرح أُغوي عبادكَ، مادامتْ أرواحهم في أجسادهم. قال الله تعالى: وعزتي وجلالي وارتفاع مكاني لا أزال أغفر لهم ما استغفروني».

قال ابن جزي: وإذا تاب العبد توبة صحيحة بشروطها، فيقطع بقبول توبته عند جمهور العلماء. وقال أبو المعالي: يَغلِب ذلك على الظن ولا يقطع. هـ.

﴿وليست التوبة﴾ مقبولة ﴿للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت﴾ أي: بلغت الحلقوم ﴿قال إني تبت الآن ولا الذين يموتون وهم كفار﴾ فلا توبة لهم، ﴿أولئك أعتدنا﴾ أي: أعددنا وهيأنا ﴿لهم عذابا أليما﴾، قال البيضاوي: سوّى الحقُ تعالى بيْن من سوّف التوبة إلى حضور الموت من الفسقة، وبين من مات على الكفر في نفي التوبة؛ للمبالغة في عدم الاعتداد بها في تلك الحالة، وكأنه يقول: توبة هؤلاء وعدم توبة هؤلاء سواء. وقيل: المراد بالذين يعملون السوء: عصاة المؤمنين، وبالذين يعملون السيئات: المنافقون؛ لتضاعف كفرهم، وبالذين يموتون: الكفار. هـ.

الإشارة: توبة العوام ليست كتوبة الخواص، إنّ الله يمهّل العوام ترغيبًا لهم في الرجوع، ويُعاقب الخواص على التأخير على قدر مقامهم في القرب من الحضرة، فكلما عظُم القربُ عظمت المحاسبة على ترك المراقبة، منهم من يسامح له في لحظة، ومنهم في ساعة، ومنهم في ساعتين، على قدر المقام، ثم يعاتبهم ويردهم إلى الحضرة.

وقال شيخ شيوخنا سيدي عبد الرحمن الفاسي في حاشيته: ﴿إنما التوبة على الله﴾ أي: إنما الهداية بعد الذلة، على الله؛ لأنه الذي يُخلص من قَهْره بكرمه الفياض وبرحمته التي غلبت غضبه، كما قال تعالى: ﴿ كَتَبَ

ربُكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴾ ، ونبه على وقوع الذنب بهم قهراً، ثم تداركهم بالهداية والإنابة، فضلاً على علمه بتربيتهم وتدريجهم لمعرفته بالعلم والحكمة بقوله: ﴿ وكان الله عليما حكيما ﴾. هـ.

ثم شرع في أحكام النكاح، وبدأ بالعضل؛ لأنه يتعذر معه العقد، فقال:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُواْ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ... ﴾

قلت: أصل العضل: التضييق، يقال: عضلت الدجاجة ببيضها إذا ضاقت، ثم أُطلق عُرفاً على منع المرأة من التزوج.

يقول الحق جل جلاله: ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ لا يحل لكم أن تمنعوا النساء من النكاح لتَرِثوا ما لهن ﴿كرهًا﴾. قال ابن عباس: كانوا في الجاهلية إذا مات الرجل، وله امرأة، كان قريبه من عصبته أحق بها من نفسها ومن غيره، فإن شاء تزوجها من غير صداق، إلا الصداق الأول الذي أصدقها الميت، وإن شاء زوّجها غيره وأخذ صداقها ولم يُعطها شيئا، وإن شاء عَضَلَها وضيّق عليها لتفتدي منه بما ورثت من الميت، أو تموت فيرثُها، وإن ذهبت إلى أهلها قبل أن يُلقِيَ وليُّ زوجها ثوبَه عليها فهي أحق بنفسها. فكانوا على ذلك في أول الإسلام، حتى توفي أبو قَيس بن الأَسْلَتَ الأنصاري، وترك امرأته «كبشة بنت معْن الأنصارية»، فقام ابنٌ له من غيرها فطرح ثوبه عليها، ثم تركها ولم يقربها، ولم ينفق عليها، يضارّها لتفتدي منه، فأتت إلى النبي ﷺ فقالت: يارسول الله؛ إن أبا قيس تُوفي ووَرِثَ نكاحي ابنُه ، وقد أضرّ بي وطوّل عليّ، فلا هو ينفق عليّ ولا يدخل بي، ولا يخلي سبيلي، فقال لها النبي ﷺ : «اقعدي في بيتك حتى يأتي فيك أمرُ الله» . قالت: فانصرفتُ وسمعتْ بذلك النساءُ في المدينة فأتين النبي ﷺ وهو في مسجد الفضيخ، فقلن: يا رسول الله: ما نحن إلا كهيئة كبشة، غير أنه لا ينكحنا الأبناء، ونكَحَنا أبناء العَم، فنزلت الآية. فمعنى الآية على هذا: لا يحل لكم أن تجعلوا النساء يُورثن عن الرجال كما يُورث المال.

وقيل: الخطاب للأزواج الذين يمسكون المرأة في العصمة ليرثوا مالها، من غير غبطة بها، وإنما يمسكها انتظاراً لموتها، وقيل: الخطاب للأولياء الذين يمنعون ولياتهم من التزوج ليرثوهن دون الزوج.

﴿ولا﴾ يحل لكم أيضا أيها الأزواج أن ﴿تعضلوهن﴾، أي: تحبسوهن؛ من غير حاجة لكم فيهن؛ ﴿لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن﴾ من الصداق افتداء فيه بإضراره. قال ابن عباس رضي الله عنه: (هي أيضا في الأزواج الذين

يمسكون المرأة ويُسيئون عشرتها حتى تفتدي بصداقها)، ﴿إلا أن يأتين بفاحشة مبينة﴾، كالنشوز وسوء العشرة وعدم العفة، فيحل له حينئذ حبسها حتى تفتدى منه بصداقها، فيأخذه خلعا على مذهب مالك. والله تعالى أعلم.

الإشارة: لا يحل للمريد أن يُضيق على نفسه تضييقًا يُفضى إلى العطب، فالنفس كالبهيمة: علفها واستخدامها، وقد قال عليه الصلاة و السلام: «لا يكن أحدُكم كالمنبت، لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى».

فبعض الناس يسمعون أن من ضيّق على نفسه أورثته العلوم، فيضيق عليها تضييقًا فاحشًا ليرث ذلك منها كرهاً، وإنما يمنعها من شهواتها الزائدة على قيام البنية، إلا أن تأتي بفاحشة مبينة، بحيث تطغى عليها، فيضيق عليها بما لا يُفضى إلى الهلاك، وهذا كله إنما ينفعه إذا صح ملْكُه لها بالعقد الصحيح من الشيخ الكامل، وإلاّ كان تعبه باطلا، كمن يريد أن يرى امرأة غيره أو دابة غيره. والله تعالى أعلم.

ثم أمر الحق تعالى بحسن العشرة مع النساء، فقال:

﴿... وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِن كَرِهۡتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا ١٩﴾

يقول الحق جلّ جلاله: وعاشروا النساء ﴿بالمعروف﴾ بأن تلاطفوهن فى المقال وتجملوا معهن فى الفعال، أو يتزيّنَ لها كما تتزين له. قال الورتجبي: كونوا فى معاشرتهن فى مقام الأنس وروح المحبة، وفرح العشق حين أنتم مخصوصون بالتمكين والاستقامة والولاية، فإن معاشرة النساء لا تليق إلا فى المستأنس بالله، كالنبى ﷺ وجميع المستأنسين من الأولياء والأبدال، حيث أخبر ﷺ عن كمال مقام أُنسه بالله ورؤيته لجمال مشاهدته حيث قال: «حُبّبَ إليّ من دنياكم ثَلاث: الطيب ،والنساء، وجُعلت قرة عيني في الصلاة.»(١)

ثم قال: عن ذى النون: المستأنس بالله يستأنس بكل شيء مليح ووجه صبيح، وبكل صوت طيب وبكل رائحة طيبة. ثم قال: عن ابن المبارك: العشرة الصحيحة: ما لا يورثك الندم عاجلا ولا آجلا، وقال أبوحفص: المعاشرة بالمعروف: حسن الخلق مع العيال فيما ساءك .هـ.

﴿فإن كرهتموهن﴾ فاصبروا ﴿فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً﴾ إما ولداً صالحاً أو عاقبة حسنة فى الدين. قال ابن عمر: إن الرجل يستخير الله فيخار له فيسخط على ربه، فلا يلبث أن ينظر فى العاقبة فإذا هو قد خير له .هـ. حكى أن أبا الإمام مالك رضي الله عنه تزوج امرأة فدخل عليها فوجدها سوداء، فبقى متفكراً

(١) الحديث أخرجه أحمد والنسائي والحاكم وغيرهم: بدون لفظ: «ثلاث». وقال الحافظ ابن حجر: وليس فى شيء من طرقه لفظ «ثلاث». انظر: الفتح السماوى.

ولم يقربها، فقالت له: هل استخرت ربك؟ فقال: نعم، فقالت: أتّهِمُ ربك، فدخل بها، فحملت بالإمام مالك صاحب المذهب. وقال ﷺ: «لا يفْرَك مُؤمنٌ مؤمنة ـ أي لا يُبْغِضها ـ إن سَخط منها خُلقًا رضي منها آخر». قال الورتجبي: قيل: غيب عنك العواقب؛ لئلا تسكن إلى مألوف، ولا تفر من مكروه.

الإشارة: إذا طهرت النفس من البقايا، وكملت فيها المزايا، وانقادت بكليتها إلى مولاها، وجب الإحسان إليها والصلح معها ومعاشرتها بالمعروف، فإنما تجب مجاهدتها مادامت كافرة فإذا أسلمت وانقادت وجب محبتها والإحسان إليها. فإن كرهتها في حال اعوجاجها فجاهدتها ورضتها حتى استقامت كان في عاقبة ذلك خيرٌ كثير، وعادت تأتي إليك بالعلوم اللدنية تشاهد فيها أسرارًا ربانية.

قال الورتجبي: كل أمر من الله ـ سبحانه ـ جاء على مخالفة النفس امتحاناً واختبارا، والنفس كارهة في العبودية فإذا ألزمت عليها حقوق الله بنعت الرياضة والمجاهدة واستقامت في عبودية الله، أول ما يطلع على قلبك أنوار جنان القرب والمشاهدة، قال الله تعالى: ﴿ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى، فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴾، وفي أجواف ظلام المجاهدة للعارفين شموس المجاهدات وأقمار المكاشفات .هـ. المراد منه.

فإذا لم يصبر العبد على أذى زوجته، وأراد فراقها، فلابد أن يؤدي إليها صداقها، كما أشار إلى ذلك الحق جل جلاله، فقال:

﴿ وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾ ﴾

قلت: «بهتانا»: حال، أو على إسقاط الخافض.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وإن أردتم﴾ أن تبدلوا زوجاً ﴿مكان زوج﴾ أخرى؛ بأن تُطلقوا الأولى وتتزوجوا غيرها، وقد كنتم أعطيتم ﴿إحداهن قنطارًا﴾ أو أقل أو أكثر، ﴿فلا تأخذوا منه شيئًا﴾ بل أدوه لها كاملا. ثم وبّخهم على ما كانوا يفعلون في الجاهلية، فقال: ﴿أتأخذونه بهتانًا وإثمًا مبينا﴾، أي: مباهتين وآثمين، أو بالبهتان والإثم الظاهر، والبهتان: الكذب الذي يبهت المكذوب عليه، رُوي أن الرجل كان إذا أراد أن يتزوج امرأة

جديدة، بهت التي عنده بفاحشة حتى يلجئها إلى الافتداء منه بما أعطاها ليصرفه في تزوج الجديدة، فنُهوا عن ذلك.

ثم استعظم ذلك فقال: ﴿وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض﴾ بالمماسة والجماع حتى تقرر الصداق واستحقته بذلك، وقد ﴿أخذن منكم ميثاقا غليظا﴾ وهو حسن الصحبة، أو الإمساك بالمعروف والتسريح بالإحسان، أو تمكينها نفسها منه، فإنها ما مكنته إلا لوفاء العهد في الصداق ودوام العشرة. والله تعالى أعلم.

الإشارة: إذا كان العبد مشتغلاً بجمع دنياه، عاكفًا على حظوظه وهواه، ثم استبدل مكان ذلك الانقطاع إلى مولاه والاشتغال بذكر الله، حتى أفضى إلى شهود أنوار قدسه وسناه، فلا ينبغي أن يرجع إلى شيء خرج عنه لله. ولا يلتفت إلى ما ترك من أمر دنياه، فإن الرجوع في الشيء من شيم اللئام وليس من شأن الكرام، وتأمل ما قاله الشاعر:

إذا انْصَرَفَتْ نفسي عن الشيْء لم تكن إليـه بوجـهٍ آخـرَ الـدهـرِ تُقْـبِلُ

وكيف تأخذُ ما خرجت عنه لله، وقد أفضيت إلى شهود أنوار جماله وسُكْنَى حماه، فاتحد عندك كل الوجود، وكل شيء عن عين بصيرتك مفقود، بعد أن أخذ عليك مواثيق العهود، ألا ترجع إلى ما كان يقطعك عن حضرة الشهود، وبالله التوفيق. وهو الهادي إلى سواء الطريق.

ثم شرع يتكلم على ما يحرم من النساء، فقال:

﴿ وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ ﴾

قلتُ: أوقع «ما» على ما يعقل لقلة عقل النساء، كما تقدم (١)، أو مصدرية، والاستثناء منقطع أو متصل على وجه المبالغة في التحريم، أي لا تنكحوا ما نكح آباؤكم إلا ما قد سلف لآبائكم إن قدرتم عليه، فهو كقول الشاعر:

لا عيْبَ فِيهمْ غير أنّ سيوفَهم بهِنّ فُلُـولٌ مِـنْ قِـرَاعِ الْكَـتَـائِبِ(٢)

يقول الحق جل جلاله: ولا تتزوجوا ما تزوج به ﴿آباؤكم من النساء﴾ بالعقد في الحرائر والوطء في الإماء، ﴿إلا ما قد سلف﴾ فإن الله قد عفا عنكم بعد فسخه وردّه، ﴿إنه كان فاحشة﴾ عظيمة عند الله،

(١) راجع: تفسير قوله تعالى: ﴿وإن خفتم ألا تُقسطوا في اليتامى..﴾ الآية (٣) من هذه السورة.
(٢) البيت للنابغة الزبياني.

ما أحله لأحد من الأمم قبلكم، ﴿ومقتًا﴾ أى: ممقوتاً فاعله عند الله وعند ذوى المروءات من عباد الله، وكان يسمى ولد الرجل من امرأة أبيه مَقِيتا ومقتيًا. ﴿وساء سبيلا﴾، وبئس طريقا لمن يريد أن يسلكه بعد التحريم. فالمراد بالنكاح فى الآية: العقد، فعلى هذا لا تحرم المرأة على الولد إذا زنا بها أبوه على المشهور، قال فى الرسالة: ولا يحرم بالزنا حلال .هـ.

الإشارة: ما جرى فى آباء البشرية يجرى فى آباء الروحانية من طريق الأدب لا من طريق الشرع، فلا ينبغى للمريد أن يتزوج بامرأة شيخه، مات عنها أو طلقها، فإن ذلك قبيح ومقت عند أرباب الأدب، وأما بنت الشيخ فإن قدر على القيام بتعظيمها فلا بأس، وقد تزوج سيدنا على ـ كرم الله وجهه ـ بنت سيدنا رسول الله ﷺ، لكن السلامة فى الترك أكثر.

وهنا إشارة أخرى أرق، وهى أن يشير بالنساء إلى الأحوال، فلا ينبغى للفقير أن يتعاطى أحوال الشيخ، ويفعل مثله. فإن الشيخ فى مقام وهو فى مقام، فإذا رجع الشيخ إلى الأسباب وتعاطى العلويات، فلا يقتدى به. إلا أن يدرك مقامه، وكان شيخ شيخنا يقول: (لا تقتدوا بالأشياخ فى أفعالهم، وإنما اقتدوا بهم فى أقوالهم، فإن أقوالهم لكم ولهم، وأفعالهم خاصة بهم). إلا ما قد سلف لهم من الأحوال فى حال سيرهم، فخذوها وسيروا من حيث ساروا، حتى تدركوا ما أدركوا، وافعلوا ما شئتم. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر بقية المحرمات، فقال:

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا (٢٣) ۞ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۖ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ... ﴾

قلت: «كتاب الله عليكم»: مصدر مؤكد، أى: كتب الله ذلك كتاباً، أو على الإغراء.

يقول الحق جل جلاله: ﴿حرمت عليكم﴾ من النساء أصنافٌ: منها بالنسب ومنها بالرضاع ومنها بالمصاهرة: فأما التي تحرم بالنسب فهي ﴿أمهاتكم﴾، وهي الأم، والجدة من الأم ومن الأب ما علَوْن، ﴿وبناتكم﴾ وهي البنت وبنت الابن، وبنت البنت ما سفلن، ﴿وأخواتكم﴾ وهي الأخت الشقيقة والتي للأب والأخت للأم، (وعماتكم) وهي أخت الوالد وأخت الجد ما علت، شقيقةً أو لأب أو لأم، ﴿وخالاتكم﴾ وهي أخت الأم وأخت الجدة ما علت، شقيقةً أو لأب أو لأم، ﴿وبنات الأخ﴾ الشقيق، أو للأب، وما تناسل منهم. ﴿وبنات الأخت﴾، فيدخل كل ما تناسل من الأخت الشقيقة أو للأب أو للأم.

والضابط في ذلك: أنه يحرم على الرجل أصوله وإن علت، وفصوله وإن سفلت، وفصول أبويه ما سفلت، وأول فصل من كل أصل متقدم على أبويه.

ثم ذكر ما يحرم بالرضاع، فقال: ﴿وأمهاتكم اللاتي أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة﴾ ذكرتعالى صنفين، وحرمت السُّنَّة كل ما يحرم من النسب. قال ﷺ: «يَحْرُمُ مِنَ الرّضَاعِ مَا يَحْرُمُ مِنَ النَّسَبِ» فيدخل الأصناف السبعة، وهي الأم من الرضاع والبنت والأخت والعمة والخالة وبنت الأخ وبنت الأخت.

ثم ذكر ما يحرم بالمصاهرة، فقال: ﴿وأمهات نسائكم﴾، وتقدمت زوجة الأب، وسيأتي حليلة الإبن، ﴿وربائبكم اللاتي في حجوركم من نسائكم﴾ لا مفهوم لهذا القيد، لكنه جرى مجرى الغالب، فهي محرمة، كانت في حجره أم لا، على قول الجمهور، ورُوِي عن علي رضي الله عنه أنه أجاز نكاحها إن لم تكن في حجره. وأما قوله: ﴿اللاتي دخلتم بهن﴾ فهو معتبر إجماعاً، فلو عقد على المرأة ولم يدخل بها، فله طلاقها ويأخذ ابنتها، ولذلك قال: ﴿فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم﴾ أن تنكحوهن.

﴿وحلائل أبنائكم﴾ وهي التي عقد عليها الابن فحلت له، فتحرم على الأب بمجرد العقد. والحاصل: أن زوجة الأب وزوجة الابن وأم الزوجة يحرمن بالعقد، وأما بنت المرأة فلا تحرم إلا بالدخول بأمها، فالعقد على البنات يُحرم الأمهات، والدخول بالأمهات يُحرم البنات. وقوله تعالى: ﴿الذين من أصلابكم﴾ احترز به من زوجة المتبنَّى فلا تحرم حليلته، كقضية زيد مع رسول الله ﷺ.

﴿وأن تجمعوا بين الأختين﴾، شقيقتين أو للأب أو للأم، وهذا في النكاح، وأما في الملك دون الوطء فلا بأس، أما في الوطء فمنعه مالك والشافعي وأبو حنيفة، وأجازه الظاهرية، ﴿إلا ما قد سلف﴾ أي: في الجاهلية، فقد عفا عنكم، ﴿إن الله كان غفوراً رحيماً﴾، قال ابن عباس: (كانت العرب تُحرم كل ما حرمت الشريعة إلا إمرأة الأب والجمع بين الأختين، فلذلك ذكر الحق تعالى: ﴿إلا ما قد سلف﴾ فيهما.

﴿و﴾حرّم الله تعالى ـ ﴿المحصنات من النساء﴾ وهُنّ اللاتى فى عصمة أزواجهن، فلا يحل نكاحهن مادُمْنَ فى عصمة الزوج، ﴿إلا ما ملكت أيمانكم﴾ من الغنيمة، فإذا سُبيت الكافرة، ولها زوج، جاز لمن ملكها أن يطأها بالملك بعد الاستبراء، قال فى المختصر: وهدم السبيُ النكاحَ، إلا أن تُسبى وتُسلِم فى عدتها فهو أحق بها، وقد بعث رسول الله ﷺ جيشاً إلى أَوْطَاس، فأصابوا سبياً من العدو، ولهن أزواج من المشركين فتأثموا من غشيانهن، فنزلت الآية مُبيحة لذلك، ﴿كتاب الله عليكم﴾ أى: كتب الله ذلك عليكم كتاباً، وهو ما حرّم فى الآية من النساء.

الإشارة: اعلم أن الإنسان لا يصير كاملاً عارفًا حتى يولد ثلاث مرات بعد الأم الحسية، أولها: خروجه من بطن حب الدنيا الدنية، ثم من الغفلة والشهوات الجسمانية، ثم من ضيق الأكوان الظلمانية، إلى فضاء المشاهدة والمعاينة، وقال بعض الأولياء: (ليس منا من لم يولد مرتين): فاعتبر الأولى والثالثة، فإذا خرج الإنسان من هذه البطون حرّم الله عليه نكاحها والرجوع إليها.

وكذا يحرم عليه الرجوع إلى ما تولد منه من الزلات، والأحوال الظلمانية، وما كان ألفه وتواخى معه من البطالات والمألوفات، وما وجد عليه أسلافه من التعصبات والحميات والرئاسات، ولا فرق بين ما واجهه من ذلك من قبل الآباء والأمهات، وكذلك ما ارتضع من ثدى الشهوات من لبان الغفلة، وتراكم الأكنّات(١)، فليبادر إلى تحريمها، وفطام نفسه عنها، قبل تحكمها، كما قال البوصيرى رضي الله عنه:

وَالنَّفْسُ كَالطِّفْلِ إِنْ تُهْمِلْهُ شَبَّ عَلَى حُبِّ الرَّضَاعِ وَإِنْ تَفْطِمْهُ يَنْفَطِمِ

وكذا يحرم عليه، صحبة من ارتضع معه فى هذا الثدي قبل الفطام؛ من الأخوة والأخوات، وكذا أمهات الخطايا، وهى حب الدنيا والرياسة والجاه، وكذلك حرمت عليكم ربائب العلائق والعوائق، لتدخلوا بلاد الحقائق، فإن لم تكونوا من أهل الحقائق فلا جناح عليكم إذ كنتم من عوام الخلائق، وكذلك يحرم عليكم ما حل لأبناء جنسكم من تعاطى الأسباب والاشتغال بها عن خدمة رب الأرباب، وأن تجمعوا بين حب الدنيا ومحبة المولى. قال الشافعى رضي الله عنه: (من ادّعى أنه جمَع بين حب الدنيا وحب خالقها، فقد كذب).

إلا ما قد سلف فى أيام البطالة، وكذا يحرم على المريد المتجرد المستشرف على المعانى تعاطى العلوم الظاهرة، التى دخل بها أهل الظاهر وافتضوا بكارتها ـ إلا ما ملكه قبل التجريد، فلا يضره إن غاب عنها فى أسرار التوحيد، والله تعالى أعلم بأسرار غيبه.

---

(١) الأكنات: الأغطية.

ثم ذكر الحق تعالى ما يحل من النساء، فقال:

﴿... وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُواْ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ ۚ فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٤﴾﴾

قلت: «وأُحِلَّ» عطف على الفعل العامل في «كتاب الله عليكم»، أي: كتب الله عليكم تحريم ما ذكر، وأحل ما سوى ذلك. ومن قرأ بالبناء للمفعول فعطف على «حُرِّمت». و(أن تبتغوا) مفعول لأجله، أي: إرادة أن تبتغوا. أو بدل من (وراء ذلكم). و(محصنين) حال من الواو. والسفاح: الزنا، من السفح وهو الصب، لأنه يصب المني في غير محله.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وأحل لكم﴾ أن تتزوجوا من النساء ما سوى ذلكم المحرمات، وما سوى ما حرمته السنة بالرضاع، كما تقدم، والجمع بين المرأة وعمتها، وبين المرأة وخالتها، فقد حرّمته السُّنة، وإنما أحل لكم نكاح النساء إرادة أن تطلبوا بأموالكم الحلال، فتصرفوها في مهور النساء.. حال كونكم ﴿مُحصنين﴾ أي: أعفة متحصنين بها من الحرام، ﴿غير مسافحين﴾ أي: غير زناة، تصبون الماء في غير موضعه، ﴿فما استمتعتم به منهن﴾ أي: من تمتعتم به من المنكوحات ﴿فآتوهن أجورهن﴾ أي: مهورهن، لأن المهر في مقابلة الاستمتاع ﴿فريضة﴾، أي: مفروضة مقدرة، لا جَهْلَ فيها ولا إبهام، ﴿ولا جناح عليكم فيما تراضيتم به﴾ من زيادة على المهر المشروط، أو نقص منه، ﴿من بعد الفريضة﴾، التي وقع العقد عليها، ﴿إن الله كان عليما﴾ بمصالح خلقه، ﴿حكيماً﴾ فيما شرع من الأحكام.

وقيل قوله: ﴿فما استمتعتم به ...﴾ إلى آخره. نزل في نكاح المتعة، التي كانت ثلاثة أيام في فتح مكة، ثم نُسِخَ بما رُوي عنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ أنه أباحه، ثم أصبح يقول: «أيُّهَا النَّاسِ، إنِّي كُنْتُ أمرتكم بالاستِمْتَاعِ مِنَ هذه النِّسَاءِ، ألا إنَّ اللهَ حَرَّمَ ذَلِكَ إلَى يَوْمِ القِيَامةِ». وهو النكاح المؤقت بوقت معلوم، سُمي به لأن الغرض منه مجرد الاستمتاع. وتمتعها بما يُعطى لها. وجوَّزه ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ثم رجع عنه. والله تعالى أعلم.

الإشارة: يقول الحق جل جلاله من طريق الإشارة: إذا خرجتم من بطن الشهوات، ورفضتم ما كنتم عليه من العوائد والمألوفات، وزهدتم فيما يشغل فكرتكم من العلوم الرسميات، حل لكم ما وراء ذلكم من العلوم اللدنية

والأسرار الربانية، التي هي وراء طور العقول ولا تدرك بالطروس[1] ولا بالنقول، وإليها أشار ابن الفارض رَضِيَ اللهُ عَنْهُ حيث قال:

ولا تكُ مِمّنْ طَيَّشَتْهُ طروسه		بحيثُ استخفت عقلَهُ واستفزّتِ

فَثَمّ وراء النّقلِ عِلْمٌ يَدِقُّ عن		مَـدارِكِ غاياتِ العقولِ السليمةِ

تَلَقَّيْتُهُ منّي وعنّي أَخَذْتُهُ		ونفسي كانت من عَطاءٍ مُمِدَّةِ

أردنا منكم أن تبتغوا ببذل أموالكم ومُهجكم تلك العلوم المقدسة، والأسرار المطهرة، متحصنين من دنس الحس والهوى، غير مباشرين لنجاسة الدنيا، ولا مصطحبين مع أهلها، لتتمتعوا بشهود أسرارنا، وأنوار قدسنا، فما استمتعتم به من ذلك، فصونوه عن غير أهله، ولا جناح عليكم فيما تراضيتم به من إعطائه لأهله، من بعد حفظه عمن لا يستحقه، والله تعالى أعلم.

ثم ذكر حكم من عجز عن صداق الحُرة، فقال:

﴿ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ ۚ ... ﴾

قلت: الطول: الغنى والسعة، ويطلق على العلو، مصدر طال طَوْلاً، وهو مفعول «يستطع»، أو مصدر له - لتقارب معناهما، و(أن ينكح) بدل منه على الأول، أو مفعول به على الثاني، أي: لأن ينكح، و(محصنات غير مسافحات)، حالان، والعامل فيه: (انكحوهن)، والخدن: الخليل.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ومن لم يستطع منكم طَوْلاً ﴾ أي: لم يجد غنى يقدر به على نكاح ﴿ المحصنات﴾، أي: الحرائر ﴿ المؤمنات﴾، فليتزوج من ما ملكت أيمانكم، من الإماء المؤمنات دون الكافرات، فإن أظهرت الإيمان فاكتفوا بذلك، وعلم الباطن لا يعلمه إلا الله، ﴿والله أعلم بإيمانكم﴾ فلا يمنعكم من نكاحهن خوف المعرة، فإنما أنتم جنس واحد، ودينكم واحد، ﴿بعضكم من بعض﴾ فلا تستنكفوا من نكاحهن،

(١) الطروس: الصحف.

﴿فانكحوهن بإذن أهلهن﴾، أي أربابهن، حتى يعقدوا لكم نكاحهن، ﴿وآتوهن أجورهن﴾: أي: مهورهن، وهن أحق به دون ساداتهن، على مذهب مالك، ﴿بالمعروف﴾ من غير مطل، ولا نقص، على ما تقتضيه السنة. حال كونهن ﴿محصنات﴾ أي: عفيفات ﴿غير مسافحات﴾ أي: غير زانيات ﴿ولا متخذات أخدان﴾. أي: أصحاب يزنون بهن. وكان في الجاهلية مِن النساء مَنْ تتخذ صاحبا واحداً تزني معه خاصة، ومنها من لا ترد يد لامس.

قال ابنُ جزي: مذهب مالك وأكثر أصحابه أنه لا يجوز للحر نكاح الأمة إلا بشرطين: أحدهما: عدم الطول؛ وهو ألاَّ يجد ما يتزوج به حُرة، والآخر: خوف العنت؛ وهو الزنا. لقوله بعد هذا: ﴿ذلك لمن خشي العنت منكم﴾، وأجاز ابن القاسم نكاحهن دون الشرطين، على القول بأن دليل الخطاب لا يُعتبر، واتفقوا على اشتراط الإسلام في الأمة، لقوله: ﴿من فتياتكم المؤمنات﴾ إلا أهل العراق فلم يشترطوه .هـ.

الإشارة: فمن لم يستطع أن ينكح أبكار الحقائق، لكونه لم يقدر أن يدفع عن قلبه الشواغل والعلائق، فليتنزل لنكاح العلوم الرسمية والأعمال الحسية، بأخذها من أربابها، ويخصصها بالإخلاص في أخذها، ويقوم بحقها بقدر الإمكان، وهو بذلها لأهلها، والصبر على نشرها، والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً، فإن صح قصده، وخلص عمله، قيض الله له ولياً من أوليائه يغنيه بالله، حتى يصير من الأغنياء به، فيتأهل لنكاح الحرائر، ويلتحق بأولياء الله الأكابر، (وما ذلك على الله بعزيز).

قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه لما تكلم على ثمرات المحبة - قال: فترى النفس مائلة لطاعته، والعقل متحصنا بمعرفته [1]، والروح مأخوذة في حضرته، والسر مغموراً في مشاهدته، والعبد يستزيد [من حبه[2]] فيُزاد ويفاتح بما هو أعذب من لذيذ مناجاته، فيكسى حُلل التقريب على بساط القُربة، ويمس أبكار الحقائق وثيبات العلوم. هـ. فعلم الحقائق أبكار، وما يوصل إليه من علوم الطريقة ثيبات حرائر، وما سواها من علوم الرسوم إماء بالنسبة إلى غيرها، والله تعالى أعلم.

ثم ذكر حدَّ الأَمَةِ إذا زنت، فقال:

﴿ ... فَإِذَآ أُحۡصِنَّ فَإِنۡ أَتَيۡنَ بِفَٰحِشَةٖ فَعَلَيۡهِنَّ نِصۡفُ مَا عَلَى ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ مِنَ ٱلۡعَذَابِۚ ... ﴾

قلت: أحصن الرجل ـ بفتح الهمزة وضمها ـ: صار محصنا بالفتح والكسر، وهذا مما اتحد فيه البناء للفاعل والمفعول. وقيل بالفتح، معناه: أسلم، وبالضم: تزوج.

---

(١) في الأصول: بمعروفه، والمثبت هو ما في لطائف المنن للسكندري.
(٢) مابين المعكوفتين من تدخل الشيخ المفسر في النقل.

يقول الحق جل جلاله: إن الإماء إذا تزوجن ﴿فإن أتين بفاحشة﴾، وهو الزنا، فعليهن نصف ما على الحرة من الحد، وهو خمسون، لأن حد البكر مائة. ويفهم منه أنها لا ترجم؛ لأن الرجم لا يتبعض. وكذلك الذكور من العبيد عليهم نصف الحدود كلها، ولا رجم عليهم، وسمى الحد عذاباً، كقوله: ﴿ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾.

الإشارة: بقدر ما يعلو المقام يُشدد العقاب، وبقدر ما يحصل من القرب يُطلب الآداب، فليست المعصية في البعد كالمعصية في القرب، وليس يُطلب من البعيد ما يُطلب من القريب، وانظر إلى أزواج النبي ﷺ حيث قال تعالى لهن: ﴿ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ﴾. وما ذلك إلا لحظوتهن وشدة قربهن من الله. ولذلك كان لا يدخل الحضرة إلا أهل الآداب والتهذيب، بعد التدريج والتدريب، وتأمل قضية الجنيد، حيث قيل له في المنام: مثلك لا يُرضى منه هذا، حيث خطر على قلبه الاعتراض على السائل، غير أن المقربين يعاتبون، ويردون إلى الحضرة، وأهل البُعد يزيدون بُعداً، ولكن لا يشعرون، والله تعالى أعلم.

ثم ذكر شرط تزوج الأمة لعادم الطَوْل، فقال:

﴿ ... ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ ۚ وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٥﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ ﴾

قلت: العنت: المشقة والضرر، ولا ضرر أعظم من مواقعة الإثم، ولا سيما بأفحش الفواحش؛ وهو الزنا، (يريد الله ليبين لكم)، أي: لأن يبين، واللام زائدة في المفعول، لتأكيد معنى الاستقبال اللازم للإرادة.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ذلك﴾ أي: نكاح الإماء إنما أبحتُه لمن خشي الوقوع في الزنا، الذي هو أقبح الفواحش، فنكاح الأمَة، وإرقاق الولد يباع في الأسواق أخف من الزنا. ﴿وأن تصبروا﴾ عن نكاحهن، مع التعفف عن الزنا، ﴿خير لكم﴾ لئلا يرق أولادكم. وعن أنس قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «مَنْ أرَادَ أنْ يَلْقَى اللهَ طَاهِراً مُطهّراً فَلْيَتَزَوّجِ الْحَرَائِرَ» وقال أبو هريرة: سمعته ﷺ يقول: «الحَرَائِرُ صَلاحُ البَيْتِ، والإِمَاءُ هَلاكُ البَيْتِ[1]».

(١) الحديث ضعفه السيوطي في الجامع الصغير.

﴿والله غفور﴾ لكم فيما سلف من المخالفة، ﴿رحيم﴾ بكم، حيث رخّص لكم عند خوف الإثم نكاحَ الأمَة، ﴿يريد الله ليبين لكم﴾ شرائع دينكم، ومصالح أموركم، ﴿ويهديكم سنن الذين من قبلكم﴾ أي: مناهجَ مَنْ تقدمكم من أهل الرشد ، كالأنبياء والصالحين، لتسلكوا مناهجهم، كحفظ الأموال والأنساب، وتحريم الأمهات والبنات والأخوات، فإنهن محرمات على من قبلكم، ﴿ويتوب عليكم﴾ أي: يغفر ذنوبكم الماضية، أو يرشدكم إلى التوبة، أو يمنعكم من المعاصي بالعصمة. ﴿والله عليم﴾ بما أسلفتم وما تستقبلونه من أفعالكم، ﴿حكيم﴾ بما دبر وأبرم.

﴿والله يريد أن يتوب عليكم﴾ كرره توطئة لقوله: ﴿ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا﴾ عن الحق ﴿ميلا عظيما﴾ بموافقتهم على اتباع الشهوات واستحلال المحرمات، وكأنه تعالى يقول: إنا نريد توبتكم ورشدكم، والذين يتبعون الشهوات يريدون ميلكم وإضلالكم، والمراد بهم الزناة؛ لأنهم يردون أن يكون الناس كلهم زناة، وأمّا من تعاطى شهوة النكاح في الحلال، فإنه متبع للحق لا لهم، وقد قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «تَنَاكَحُوا تَنَاسَلُوا، فَإنِّي مُبَاهٍ بِكُمُ الأمَمَ يوم القِيَامِة» . وقد كان سيدنا علي ـ كرم الله وجهه ـ أزهدَ الصحابة، وكان له أربع حرائر وسبعُ جوارٍ سريّاتٍ، وقيل: سبع عشرة، وقيل: المراد بهم اليهود والنصارى، لأن اليهود يُحلون الأقارب من الأب وبنات الأخ وبنات الأخت. وقيل: المجوس.

﴿يريد الله أن يخفف عنكم﴾ فلذلك شرع لكم الشريعة الحنيفية السمحة السهلة، ورخص لكم عند المضايق في نكاح الأمة. ﴿وخُلق الإنسانُ ضعيفًا﴾ في كل شيء، لأنه خُلق من ضعف، ويؤول إلى ضعف، أسيرَ جوعةٍ، صريع شبعة، وخصوصا عن شهوة النساء، فإنه لا يصبر عن الجماع، ولا يكون في شيء أضعفَ منه في أمر النساء، وعن عبادة ابن الصامت ﷺ أنه قال: (ألا تروني أني لا أقوم إلا رفدا[1]، ولا آكل إلا ما لُيّن لي، وقد مات صاحبي ـ يعني ذكره ـ منذ زمان، وما يسرني أني خلوت بامرأة لا تحل لي، وأن لي ما تطلع عليه الشمس، مخافة أن يأتيني الشيطان فيحركه، على أنه لا سمع له ولا بصر .).

قال ابن عباس: ثماني آياتَ في سورة النساء، هي خير لهذه الأمة مما طلعت عليه الشمس وغربت، ﴿يريد الله ليبين لكم﴾، ﴿والله يريد أن يتوب عليكم﴾،﴿ يريد الله أن يخفف عنكم﴾، ﴿إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه...﴾ الآية، ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به...﴾. الآية، ﴿إن الله لا يظلم مثقال ذرة...﴾، ﴿ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه...﴾ الآية، ﴿ما يفعل الله بعذابكم...﴾ الآية . هـ.

الإشارة: إنما ينزل المريد إلى العلوم الرسمية، أو الأعمال الحسية، إذا خشي الانمحاق أو الاصطلام في بحر الحقائق، وإن صبر وتماسك، حتى يتقوى على حمل أعبائها، فهو خير له، لأن الرجوع إلى الحس، لا يؤمن من

(١) أي: إلا بمعاونة غيري .

الحبس، والله غفور لمن تنزل لعلة ما تقدم، رحيم حين جعل له الرخصة، ﴿يريد الله ليبين لكم﴾ سلوك الطريق إلى عين التحقيق، ويهديكم طرق الوصول، كما هدى مَنْ قبلكم، ويتوب فيما خطر ببالكم، من الفترة أو الوقفة، والله يريد أن يتعطف عليكم، لترجعوا إليه بكليتكم. وأهل الغفلة المنهمكون في الشهوات، يريدون ميلكم عن طريق الوصول إلى حضرة ربكم، يريد الله أن يخفف عنكم، فلا يُحملكم من الواردات إلا ما تطيقه طاقتكم، لأنكم ضعفاء إلا إنْ قوَّاكُم. اللهم قونا على ما نريد، وأيدنا فيما تريد، إنك على كل شيء قدير.

ولمَّا ذكر ما يتعلق بحفظ أموال اليتامى وأموال النساء، وانجر الكلام إلى ما يتعلق بهن من حدودهن، وما يحل وما يحرم منهن، ذكر ما بقي من حفظ أموال الرجال، فقال:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ... ﴾

قلت: الاستثناء منقطع، وكان تامة لمن رفع، وناقصة لمن نصب، واسمها: ضمير الأموال، على حذف مضاف، إلا أن تكون الأموال أموالَ تجارة.

يقول الحق جل جلاله: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل﴾ الذي لا تُجوزه الشريعة، كالربا والقمار، والغصب والسرقة، والخيانة والكهانة والسحر وغير ذلك. ﴿إلا أن تكون﴾، أي: لكن إن وجدت ﴿تجارة﴾ صحيحة ﴿عن تراض منكم﴾ أي: اتفاق منكم على البيع، وبه استدلت المالكية على انعقاد البيع بالعقد ولو لم يحصل تفرق بالأبدان.

وقال الشافعي: إنما يتم بالتفرق بالأبدان، لقوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ : «الْبَيِّعَان بِالْخِيَارِ مَالَمْ يَتفرَّقَا». وحمله مالك على التفرق بالكلام، وقال أكثر المفسرين: التخيير، هو أن يُخير كلُّ واحد منهما صاحبه بعد عقد البيع. وقد ابتاع عمرو ابن جرير فرسًا، ثم خَيَّر صاحبه بعد البيع، ثم قال: سمعت أبا هريرة يقول: البيع عن تراض. قال البيضاوي: وتخصيص التجارة من الوجوه التي يحل بها انتقال مال الغير، لأنها أغلب وأوفق لذوي المروءات، ويجوز أن يُراد بها الانتقال مطلقا. وقيل: المقصود بالنهي: صرف المال فيما لا يرضاه الله تعالى، وبالتجارة: صرفه فيما يرضى. هـ.

الإشارة: لا تصرفوا أموالكم ولا أحوالكم في غير ما يُقربكم إلى الحق؛ فإن ما سوى الحق كله باطل، كما قال الشاعر:

أَلا كُلُّ شَيءٍ مَا خَلاَ اللهَ بَاطِلُ ... وكُلُّ نَعِيمٍ لا مَحَالَةَ زَائِلُ(1)

---

(1) راجع التعليق على هذا البيت عند إشارة الآية [١٥٠] من سورة البقرة.

إلا أن يكون صرفه في تجارة رابحة، تقربكم من الحبيب، وتجلبكم إلى حضرة القريب، فتلك تجارة رابحة وصفقة نافعة. والله تعالى أعلم.

ثم تكلم على بعض ما يتعلق بحفظ الأبدان، وسيأتي تمامه في قوله: (وما كان لمؤمن...) إلى آخر الآيات، فقال:

﴿ ... وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ولا تقتلوا أنفسكم﴾، بالخنق أو بالنخع[1] أو بالجرح، الذي يؤدي إلى الموت، أو بالإلقاء إلى التهلكة. وعن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: (بعثني رَسُولُ الله ﷺ في غَزْوة ذَات السَّلاَسل، فأجْنَبْتُ في لَيْلَة بَارِدَة، فَأَشْفَقْتُ على نفسي وصَلَّيْتُ بأصْحَابي صَلاةَ الصُّبْح بالتيمم. فلَمَّا قَدمتُ ذَكَرْتُ ذلك لرسول الله ﷺ، فقال: «يا عَمْرو صلَّيْتَ بأصْحَابِك وأنتَ جُنُب؟» قلت: نعم يا رسول الله، أشفقتُ إنْ اغتسلتُ أنْ أهلك، فذكرت قوله تعالى: ﴿لا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيما﴾، فضحك النبي ﷺ، ولم يقل شيئا) .

أو: ولا تقتلوا إخوانكم في الإسلام، فإن المؤمنين كنفس واحدة. قال البيضاوي: جمع في التوصية بين حفظ النفس والمال ـ الذي هو شقيقها من حيث إنه سبب قوامها ـ استبقاء لهم .هـ.

وإنما نهاكم عن قتل أنفسكم رأفة، ورحمة بكم، ﴿إن الله كان بكم رحيما﴾، فقد أمر بني إسرائيل بقتل أنفسهم، وأنتم نهاكم عنه. ﴿ومن يفعل ذلك﴾ القتل. أو جميع ما سبق من المحرمات ﴿عدوانا وظلما﴾، أي: إفراطاً في التجاوز عن الحد، وإتياناً بما لا يستحق، أو تعدياً على الغير وظلماً على النفس، بتعريضها للعقاب، ﴿فسوف نصليه نارا﴾ أي: نحرقه ونشويه فيها. ﴿وكان ذلك على الله يسيرا﴾.

وفي الحديث عنه ﷺ: «مَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِشَيءٍ عُذِّبَ به في نَارِ جَهَنَّمَ خَالِداً مُخَلَّداً فيهَا» وهو تغليظ، أو لمن استحل ذلك. وهذا الوعيد الذي ذكره الحق هنا في قتل الإنسان بيده، أهون مما ذكره في قتل الغير، الذي يأتي، لأنه زاد هناك الغضب واللعنة والعذاب العظيم، أما قول ابن عطية: إنه أجمع المفسرون أن هذه الآية في قتل بعضهم بعضا، فليس بصحيح، والله تعالى أعلم.

(١) النخع: هو القتل الشديد، مشتق من قطع النخاع.

الإشارة: ولا تقتلوا أنفسكم باتباع الشهوات وتراكم الغفلات، فإنه يفوتها الحياة الحقيقية. وقال الفضيل بن عياض ﷺ: (لا تغفلوا عن حظ أنفسكم، فمن غفل عن حظ نفسه، فكأنما قتلها). وحظ النفس هو تزكيتها وتحليتها بالكمالات، أو قُوتها من العلم اليقين، والمعرفة وصحة التمكين، والمراد بالنفس هنا الروح، وأما ما اصطلحت عليه الصوفية من أن النفس يجب قتلها، فإن مرادهم بذلك النفس الأمارة، فإن الروح مادامت مُظلمة بالمعاصي والهوى سميت نفساً، فإذا تطهرت وتزكت سميت روحاً. وهو المراد هنا. سماها نفساً باعتبار ما كانت عليه. والله تعالى أعلم.

ثم إن قتل النفس من الكبائر، فمن اجتنبه مع غيره من الكبائر غُفِرَت له الصغائر، كما أشار إلى ذلك ترغيباً في اجتناب ما ذكر، فقال:

﴿ إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ ﴾

قلت: المدخل ـ بالضم: مصدر، بمعنى الإدخال، وبالفتح: المكان، ويحتمل المصدر.

يقول الحق جل جلاله: إن تجتنبوا كبائر الذنوب التي تنهون عنها ﴿نكفر عنكم سيئاتكم﴾ الصغائر ﴿وندخلكم مُدْخَلا كريما﴾ وهو الجنة، أو إدخالا مصحوبا بالكرامة والتعظيم، واختلف في الكبائر، هل تعرف بالعد أو بالحد؟ فقيل: سبع، وقيل: سبعون، وقيل: سبعمائة، وقيل: كل معصية فهي كبيرة. وعنه ﷺ أنه قال: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ المُوبِقَاتِ: الإشراك بالله، والسِّحْرَ، وقَتْلَ النَّفْسِ بغير حقها، وأَكْلَ الرِّبَا، وأَكْلَ مَالِ الْيَتِيمِ، والفرار مِن الزَّحْفِ، ورَمْيَ المُحْصَنَاتِ الْغَافِلاتِ المؤْمِنَاتِ».

قال ابن جزي: لاشك أن هذه مِنَ الكبائر لنص الشارع عليها، وزاد بعضهم عليها أشياء ورد النص عليها في الحديث أنها من الكبائر، منها عقوق الوالدين، وشهادة الزور، واليمين الغموس، والزنا، و السرقة، وشرب الخمر، والنهبة، والقنوط من رحمة الله، والأمن من مكر الله، ومنع ابن السبيل الماء، والإلحاد في البيت الحرام، والنميمة، وترك التحرُّز من البول، والغلول، واستطالة الرجل في عرض أخيه، والجور في الحكم.

وقيل في حدها: كل جريمة تؤذن بقلة الدين ورقة الديانة، وقيل: ذنوب الظاهر صغائر، وذنوب الباطن كبائر. وقيل: كل ما فيه حق الغير فهو كبائر، وما كان بينك وبين الله تعالى صغائر، واحتج هذا بقوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «يُنَادِي يومَ القيامة مناد من بُطْنَان العرش(١): يا أُمَّة أحمد، إنَّ الله تعالى يقول: أمَّا ما كان لي قِبَلَكُمْ فقد وهبته لكم، وبقيت التباعات، فتواهبوها، وادخلوا الجنة».

(١) بطنان العرش: أي من وسطه، وقيل من أصله، وقيل: البُطنان جمع بطن. يريد من دواخل العرش. انظر النهاية.

الإشارة: كل ما يبعد العبد عن حضرة ربه فهو من أكبر الكبائر، فمن اجتنب ذلك واتقى كل ما يشغله عن الله أدخله الله مدخلاً كريما، وهو حضرة الشهود والتلذذ برؤية المعبود، والترقي في أسرار الحبيب الودود. **قال الورتجبي:** قال أبو تراب: أمر الله باجتناب الكبائر، وهي الدعاوى الفاسدة، والإشارات الباطلة، وإطلاق اللفظ بغير الحقيقة .هـ.

ولما قسَّم الله المواريث على ما تقدم، قال بعض النساء: ليتنا استوينا مع الرجال، أو يكون لنا سهمان؛ لأننا أحوج منهم، فأنزل الله:

﴿ وَلَا تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُواْۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَۚ وَسْـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿**ولا تتمنوا ما فضل الله به**﴾ من الميراث[1] ﴿**بعضكم على بعض**﴾، كتضعيف الذكر على الأنثى، فللرجال ﴿**نصيب مما اكتسبوا**﴾ أي: مما أصابوا وأحرزوا في القسمة، ﴿**وللنساء نصيب مما اكتسبن**﴾ منه، قلّ أو كثر، فلتقنع بما قسم الله لها، ولا تعترض على أحكام الشريعة، ولكن ﴿**اسألوا الله من فضله**﴾ يُعطكم من غير الميراث، هكذا فسرها ابن عباس.

وقال مجاهد: قالت أُم سلمة: يغزو الرجال ولا نغزو، فليتنا رجال نغزو، ونبلغ ما يبلغ الرجال. فنزلت. فيكون المعنى: ولا تتمنوا ما فضل الله به الرجال على النساء كالغزو وغيره، فللرجال نصيب مما اكتسبوا من ثواب الجهاد وسائر أعمالهم، (وللنساء نصيب مما اكتسبن) من طاعة أزواجهن وحفظ فروجهن وسائر بقية أعمالهن.

والتحقيق أنها **عامة في جميع المراتب الدينية والدنيوية** لأن ذلك ذريعة إلى التحاسد والتعادي، ومعربة عن عدم الرضا بما قسم الله له.، وإلى التشهي لحصول الشيء له من غير طلب، وهو مذموم؛ لأن تمني مالم يقدر له، معارضة لحكْمة القدر، وتمني ما قدر له بكسب، بطالة وتضييع حظ، وتمني ما قدر له بغير كسب، ضياع ومحال، قاله البيضاوي. فللرجال نصيب من أجل ما اكتسبوا من الأعمال، وتحملوا من المشاق، فيعطيهم الله على قدر ما اكتسبوا ﴿**وللنساء نصيب مما اكتسبن**﴾ كذلك، فلا فائدة في تمني ما للناس، ولكن (اسألوا الله من فضله) يُعطكم مثله، أو أكثر من خزائنه التي لا تنفد. ﴿**إن الله كان بكل شيءٍ عليما**﴾ وهو يعلم ما يستحقه

(١) سيذكر الشيخ بعدُ أن الآية عامة.

كل إنسان، فيُفَضّل من شاء بما شاء عن علم وبيان، ومناسبة الآية حينئذ لما قبلها: أن تجنب الكبائر فضل من الله ونعمة، وهو أفضل ممن يقع فيها، لكن لا ينبغي تمني ذلك من غير عمل، ولكن يسأل الله من فضله حتى يُلحقه بأهل العصمة. وبالله التوفيق.

الإشارة: قد وقع التفضيل في مقامات الأولياء كالأنبياء، لكن لا ينبغي تعيين الفاضل من المفضول، لما يؤدي إليه من التنقيص فيؤدي إلى الغيبة، والتفضيل يقع بزيادة اليقين وصحة التمكين، والترقي في أنوار التوحيد وأسرار التفريد. ويكون أيضاً بهداية الخلق على يده، وظهور إحسانه ورفده، فإذا رأى العبدُ أنه لم يبلغ إلى مقام غيره فلا يتمنى ذلك المقام بعينه، فقد يكون مقامه عند الله في علمه أعظم، وقد يكون أدْون، فيُسيء الأدب، فالخير كله في العبودية والرضى بأحكام الربوبية، فللأقوياء نصيب مما اكتسبوا بالقوة والمجاهدة التي خلق الله فيهم، حكمةً وفضلاً، وللضعفاء نصيب مما اكتسبوا قسمة وعدلاً، ولكن يسأل الله من فضله العظيم، فإن الله بكل شيء عليم، فقد يُعطي بلا سبب ويُبلّغ بلا تعب.

وفي الحديث عنه ﷺ أنه قال: «سلُوا الله مِنْ فَضْلِه فَإنَّ اللهَ يحِبُّ أنْ يُسألَ». وفي حديث آخر: «مَنْ لَمْ يَسألِ اللهَ يَغْضَبْ عَلَيْه». وقال الورتجبي: أمر بالسؤال ونهى عن التمني؛ لأن السؤال افتقار، والتمني، اختيار. هـ. والله تعالى أعلم.

ثم تكلم على ميراث الحليف على ما كان في أول الإسلام، فقال:

﴿ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ ۚ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٣٣﴾ ﴾

قلت: التنوين في «كل»: للعوض، و«مما ترك» بيان للمعوض منه، أي: ولكل مال مما ترك الوالدان والأقربون جعلنا موالي، أي: ورثة، وهم الذرية والعصبة يرثون من ذلك المال، والوالدان على هذا فاعل، ويحتمل أن يكون مبتدأ والتنوين عوض عن الميت الموروث، أي: ولكل ميت جعلنا ورثة يرثون مما ترك ذلك الميت، وهم الوالدان والأقربون فيوقف على (ترك)، و(مما) يتعلق بمحذوف، و(الذين) مبتدأ، و(فآتوهم) خبر، دخلت الفاء لما في المبتدأ من العموم.

يقول الحق جل جلاله: ولكل ميت جعلنا ورثه يرثون ﴿مما ترك﴾ ذلك الميت، وهم ﴿الوالدان والأقربون﴾، أو لكل تركة جعلنا لها ﴿موالي﴾ أي: ورثة يرثون مما ترك الوالدان والأقربون، ﴿والذين عقدت أيمانكم﴾ وهم موالي الحلف، كانوا يتحالفون في الجاهلية على النصرة والمؤازرة، يقول الرجل لآخر: دمي دمك،

وهدمي هدمك، وثأري ثأرك. فيضرب بعضهم على يد الآخر في عقد ذلك الحلف. فلذلك قال: ﴿عقدت أيمانكم﴾ فكان في أول الإسلام يرث من حليفه السدس، وإليه أشار بقوله: ﴿فآتوهم نصيبهم﴾، ثم نسخ.

وقيل: نزلت في المؤاخاة التي آخى رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار، فكان يرث السدس، ثم نُسخ بقوله: ﴿ وَأُوْلُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ ﴾. وعن أبي حنيفة: لو أسلم رجل على يد رجل وتعاقدا على أن يتعاقلا ويتوارثا صح وورث. وقال ابن عباس: آتوهم نصيبهم من النصرة التي تعاقدوا عليها، فيُوفَي لهم بها، فلا نسخ.

﴿إن الله كان على كل شيء شهيدا﴾، هو تهديد لمن تعدى الحدود، ونقض العهود. والله تعالى أعلم.

الإشارة: ولكل زمان جعلنا أولياء كبراء، يرثون مما ترك أشياخهم من خصوصية الولاية وسر العناية، إلى يوم القيامة ؛ فالأرض لا تخلو ممن يقوم بالحجة ويظهر المحجة، فيقال لهم: والذين عقدت أيمانكم في الصحبة معكم، فظهر صدقهم، وبانت خدمتهم، فآتوهم نصيبهم مما خصكم الله به من سر الولاية ولطف العناية، (إن الله كان على كل شيء شهيدا)، لا يخفى عليه من يستحق الخلافة ويرث سر الولاية. والله تعالى أعلم.

ثم بيَّن حكمة تفضيل الرجال على النساء في المواريث وغيرها، فقال:

﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِي ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًاۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾ ﴾

قلت: (فالصالحات) مبتدأ، وما بعده إخبار عنه، وأتى بالفاء المؤذنة بالسببية والتفريع، وكأنه تعالى يقول: الرجال قوامون على النساء، فمن كانت صالحة قام عليها بما تستحقه من حسن المعاشرة، ومن كانت ناشزة عاملها بما تستحقه من الوعظ وغيره. وكل ما هنا من لفظ (ما) فهي مصدرية. إلا ما قرأ به أبو جعفر: [بما حفظ الله]، بالنصب، فهي عنده موصولة اسمية، أي: بالأمر الذي حفظ الله؛ وهو طاعتها لله فحفظها بذلك، وقيل إنها مصدرية. انظر الثعلبي.

يقول الحق جل جلاله: ﴿الرجال قوامون على النساء﴾ أي: قائمون عليهن قيام الولاة على الرعية، في التأديب والإنفاق والتعليم، ذلك لأمرين: أحدهما وهبي، والآخر كسبي؛ فالوهبي: هو تفضيل الله لهم على

النساء بكمال العقل وحسن التدبير ومزيد القوة في الأعمال والطاعات، ولذلك خُصوا بالنبوة، والإمامة، والولاية، وإقامة الشعائر، والشهادة، في مجامع القضايا، ووجوب الجهاد والجمعة ونحوهما، والتعصيب، وزيادة السهم في الميراث، والاستبداد بالطلاق. والكسبي هو: (بما أنفقوا من أموالهم) في مهورهن، ونفقتهن، وكسوتهن.

فيجب على الزوج أن يقوم بالعدل في أمر نسائه، فالمرأة الصالحة القانتة، أي: المطيعة لزوجها ولله تعالى، الحافظة للغيب، أي: لما غاب عن زوجها من مال بيته وفرجها وسر زوجها، حفظت ذلك بحفظ الله، أي: بما جعل الله فيها من الأمانة والحفظ، وبما ربط على قلبها من الديانة، أو بحفظها حق الله، فلما حفظت حقوق الله حفظها الله بعصمته، لقوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «احفَظْ اللهَ يحْفَظْكَ» . فمن كانت على هذا الوصف من النساء فيجب على الزوج حسن القيام بها، ومقابلتها في القيام بما قابلته من الإحسان، وعنه ﷺ أنه قال: « خير النساء امرأةٌ إنْ نَظَرْتَ إليهَا سرَّتْكَ، وإنْ أمرتها أطَاعتْكَ، وإنْ غِبْتَ عنْهَا حفظتك في مالِها ونفْسِهَا» . وتلا هذه الآية.

وأما النساء التي ﴿تخافون﴾ أي: تتيقنون ﴿نشوزهن﴾ أي: ترفعهن عن طاعة أزواجهن وعصيانهن، ﴿فعظوهن﴾ بالقول، فإن لم ينفع فاهجروهن في المضاجع، أي: لا تدخلوا معهن في لحاف، أو لا تجامعوهن، فإن لم ينفع فاضربوهن ضرباً غير مؤلم ولا شائن. قال ﷺ: «علّقْ السوطَ حيْثُ يَرَاهُ أهلُ البيت» . وعن أسماء بنت أبي بكر ـ رضي الله عنهما ـ قالت: (كنتُ رابعَ نسوة عند الزبير بن العوام، فإذا غضب على إحدانا، ضربها بعود المِشْجب، حتى ينكسر) . والمشجب: أعواد مركبة يجعل عليها الثياب.

﴿فإن أطعنكم﴾ يا معشر الأزواج، أو عقدن التوبة مما مضى، ﴿فلا تبغوا عليهن سبيلا﴾ أي: لا تطلبوا عليهن طريقاً تجعلونه سبيلاً لإيذائهن، بل اجعلوا ما كان منها من النشوز كأن لم يكن، (فإنَّ التَّائِبَ مِن الذَّنْبِ كَمَنْ لا ذَنْبَ لَهُ) . وقال ابن عُيَيْنَة: أي لا تكلفوهن بحبكم. هـ. وقال الورتجبي: إذا حصل منهن صورة طاعة الرجال فلا يطلب منهن موافقة الطباع، فإن ذلك منازعة للقدر. قال تعالى : ﴿ لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ﴾ ، وذكر حديث: «الأروَاحُ جُنودٌ مُجَنَّدةٌ» .

ثم هدد الأزواج فقال: ﴿إن الله كان علياً كبيرا﴾ فاحذروه، فإنه أقدر عليكم منكم على من تحت ولايتكم، أو: إنه على علو شأنه، يتجاوز عن سيئاتكم، فأنتم أولى بالعفو عن نسائكم، أو: أنه يتعالى ويكبر أن يظلم أحداً أو ينقص حقه.

وسبب نزول الآية: أن سَعْدَ بْنَ الرَّبِيع، وكَانَ مِنْ النُقَبَاء، لَطَمَ امرأته حَبِيبَةَ بِنْتَ زَيْدِ بن أَبِي زُهَيْرٍ، وكانت نَشَزَتَ عليْه، فانْطلَق أَبُوها معها إلى رَسُولِ الله ﷺ فقال: أَفْرَشْتُهُ كَرِيمَتِي فَلَطَمَها، فقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: لتَقْتَصَّ مِنْهُ، فَانْصرفَتْ لتقتصَّ منه، فقال ﷺ: ارجعوا، هذا جبْرِيلُ أَتَانِي وأَنْزَلَ اللهُ هَذِه الآيَة: ﴿الرجال قوامون على النساء﴾ إلى آخرها، فقال عليه الصلاة والسلام: «أَرَدْنَا أَمْرًا، وأَرَادَ اللهُ أَمْرًا، والَّذِي أَرَاد اللهُ خَيرٌ» فرفع القِصَاص. وقيل: نزلت في غيره ممن وقع له مثل هذا من النشوز. والله تعالى أعلم.

الإشارة: الرجال الأقوياء قوامون على نفوسهم قهارون لها، بفضل القوة التي مكنهم الله منها، وبما أنفقوا عليها من المجاهدات والرياضات، فهم ينظرون إليها ويتهمونها في كل حين، فإن صلحت وأطاعت وانقادت لما يراد منها من أحكام العبودية، والقيام بوظائف الربوبية، عاملوها بالإكرام والإجمال، ورفعوا عنها الآداب والنكال، وإن نشزت وترفعت أدبوها وهجروها عن مواطن شهواتها ومضاجع نومها، وضربوها على قدر لجاجها وغفلتها.

وكان الشيخ أبو يزيد يأخذ قبضة من القضبان ويذهب إلى خلوته، فكلما غفلت ضربها، حتى يكسرها كلها، وكان بعض أصحابنا يأخذ خشبة ويذهب إلى خلوته، فكلما غفل ضرب رأسه بها، حتى يأتي رأسُه كلّه مفلول. وبلغني أن بعض أصحابنا كان يُدخل في لحمة رجله سكينا كلما غفل قلبه، وهذا إغراق، وخير الأمور أوسطها. وبالله التوفيق.

ولمّا تكلم على حكم المرأة الطائعة والناشزة، تكلم على ما إذا أشكل الأمر، فقال:

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُواْ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾ ﴾

قلت: الشقاق: المخالفة والمساورة، وأضيف إلى الظرف توسعًا كقوله: ﴿بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ﴾، والأصل: شقاقًا بينهما، والضمير في (يُريدا) للحكمين، وفي (بينهما) للزوجين، وقيل: للحكمين معاً، وقيل: للزوجين معا.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وإن خفتم﴾ يا معشر الحكام، أي علمتم خلافًا بين الزوجين ومشاررة، ولم تدروا الظالم من المظلوم، ﴿فابعثوا﴾ رجلين أمينين يحكمان بينهما، يكون أحدهما من أهله والآخر من أهلها، لأن الأقارب أعرف ببواطن الأحوال، وأطلب للإصلاح، فإنْ بعثهما الحاكمُ أجنبيين صح، وكذا إن أقامهما الزوجان.

وما اتفق عليه الحكمان لزم الزوجين من خُلع أوطلاق أو وفاق. وقال أبو حنيفة: ليس لهما التطليق إلاّ أن يجعل لهما، وإذا اختلفا لم يلزم شيء، ويستأنفان الحكم، قال ابن جُزَي: ومشهور مذهب مالك: أن الحاكم هو الذي يبعث

الحكمين، وقيل: الزوجان، وجرت عادة القضاء أن يبعثوا امرأة أمينة ولا يبعثوا الحكمين، قال بعض العلماء: هو تغيير للقرآن والسنة الجارية .هـ.

فإن بُعث الحكمان، فإن أرادا إصلاحا بين الزوجين، واتفقا عليه، وفق الله بينهما ببركة قصدهما، وفيه تنبيه على أن من اصلح نيته فيما يتحراه أصلح الله مبتغاه. ﴿إن الله كان عليماً خبيراً﴾ بما في الظواهر والبواطن، فيعلم كيف يرفع الشقاق ويوقع الوفاق.

الإشارة: وإن خفتم، أيها الشيوخ، على صاحبكم منازعة النفس والروح؛ فكانت النفس تجمح به إلى أسفل سافلين، بمتابعة هواها وعصيان مولاها، والروح تجنح به إلى أعلى عليين، بجهاد هواها ومشاهدة مولاها، فابعثوا له واردين قويين، إما شوق مقلق يرحل الروح إلى مولاها، أو خوف مزعج يزجر النفس عن هواها. فإن أراد الله بذلك العبد إصلاحا لحاله أرسلهما معا متفقين على تخليصه وارتفاعه، فيتقدم الخوف المزعج ويستدركه الشوق المقلق، فيلتحق بأهل التحقيق من أهل التوفيق، وماذلك على الله بعزيز، وفي الحكم: «لا يُخرِج الشهوةَ من القلب إلا خوف مزعج، أو شوق مقلق». والله تعالى أعلم.

ولما فرغ الحق جل جلاله من الكلام على حفظ الأموال، وحفظ الأنساب، وبعض حفظ الأبدان، شرع يتكلم على حفظ الأديان، وما يتعلق بذلك، فقال:

﴿ ۞ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالٗا فَخُورًا ٣٦ ﴾

قلت: الجنب ـ بالضم ـ: البعيد، يقال فيه: جُنُب وأجنب وأجنبي، وسمي الجُنُب جُنُباً لأنه يبعد من المسجد وعن الصلاة وعن التلاوة، و(مختال) اسم فاعل، وأصله: مختيل، بالكسر، من الخُيَلاء وهو التكبر.

يقول الحق جل جلاله: ﴿واعبدوا الله﴾ أي: وَحّدوه وأطيعوه ﴿ولا تشركوا به شيئا﴾ جليا أو خفيا في اعتقادكم أو في عبادتكم، فمن قصد الحج والتجارة، فقد أشرك مع الله في عبادته، وأحسنوا بالوالدين إحسانا حسنا، وهو برهما والقيام بحقهما، ﴿وبذي القربى﴾، أي: القرابة في النسب، أو الدين ﴿ واليتامى﴾ لضعف حالهم، ﴿ والمساكين﴾ لقلة ما بيدهم، وقد شكى بعض الناس قساوة قلبه، فقال له عليه الصلاة والسلام: «إنْ أردتَ أن يلين قلبك، فأطعم المسكين وامسح رأس اليتيم، وأطعمه».

﴿والجار ذي القربى﴾ الذي قَرُب جواره أو نسبه، ﴿والجار الجُنب﴾ الذي بَعُد مكانه أو نسبه، وحدّد بعضُهم الجوار بأربعين دارا من كل ناحية. وقال ابن عباس: الجار ذي القربى: الجار الذي بينك وبينه قرابة، والجار الجنب: الجار من قوم آخرين. هـ.

قيل يا رسول الله: ما حق الجار على الجار قال: «إن دعاك أجبتَه، وإن أصابته فاقةٌ عُدْتَ عليه، وإن استقرضك أقرضته، وإن أصابه خير هنأته، وإن مرض عُدْته، وإن أصابته مصيبة عزيته، وإن توفي شهدت جنازته، ولا تستعل عليه بالبنيان لتحجب عنه الريح إلا بإذنه، ولا تؤذه بقُتار قدرك - أي: بخارها - إلا أن تغرف له منها، وإن ابتعت فاكهة فأهد له منها، فإن لم تفعل فأدخلها سراً، ولا يخرج ولدك منها بشيء فيغيظ ولده»، ثم قال: «الجيران ثلاثة: فَجَارٌ له ثلاثة حقوق: حق الجوارِ، وحق القرابة، وحق الإسلام، وجار له حقان: حق الجِوارِ، وحق الإسلام، وجَارٌ له حق واحد: وهو المشرك من أهل الكتاب».

﴿والصاحب بالجنب﴾، وهو الرفيق في أمر حسن، كتعلم وتصرف وصناعة وسفر، فإنه صحبك بجنبك، وعن علي - كرم الله وجهه - (أنها الزوجة)، فيتأكد في حقها الإحسان زيادة على المعاشرة بالمعروف، قال بعضهم: أول قدم في الولاية؛ كف الأذى وحمل الجفا، ومعيار ذلك حسن معاشرة الأهل والولد، وقال - عليه الصلاة السلام -: «خَيْرُكُم خَيْرُكُمْ لِنسَائه، وأنَا خَيْرُكمْ لِنسَائي». ﴿وابن السبيل﴾، وهو الضيف أو المسافر لغرابته، ﴿وما ملكت أيمانكم﴾، من الإماء والعبيد، وكَانَ آخِرُ كَلَامِ النَّبِي - عليه الصلاة والسلام - : «الصلاةَ الصلاةَ ومَا ملَكتْ أيمانُكُمْ».

﴿ إن الله لا يحب من كان مختالاً ﴾ أي: متكبراً، يأنف عن أقاربه وجيرانه وأصحابه ولا يلتفت إليهم، ﴿فخورا﴾ يتفاخر عليهم بماله وجاهه، وما خوله الله من نعمه، فهو جدير أن تسلب منه.

الإشارة: واعبدوا الله، أي: بالقيام بوظائف العبودية، ومشاهدة عظمة الربوبية، وقال بعض الحكماء: العبودية: ترك الاختيار، وملازمة الذل والافتقار. وقيل: العبودية أربعة أشياء: الوفاء بالعهود، والحفظ للحدود، والرضا بالموجود، والصبر على المفقود، وعنوان ذلك صفاء التوحيد، ولذلك قال: ﴿ولا تشركوا به شيئا﴾ أي: لا تَرَوْا معه غيره، كما قال القائل:

مُذْ عرَفْتُ الإلـهَ لَم أَرَ غَيْراً وكَذَا الغَيْرُ عِندنَا ممنُـوعٌ

وقال آخر: (لو كُلفت أن أرى غيره، لم أستطع، فإنه لا غير معه حتى أشهده). فإذا حصلت العبودية في الظاهر، وتحقق التوحيد في الباطن، ظهرت عليه مكارم الأخلاق فيُحسن إلى الأقارب والأجانب، ويجود عليهم

بالحس والمعنى، لأن الفتوة من شأن أهل التوحيد، ومن شيم أهل التجريد، كما هو معلوم من حالهم، نفعنا الله بذكرهم، وخرطنا في سلكهم. آمين.

قال الورتجبي: «الوالدين»: مشايخ المعرفة. ثم نقل عن الجنيد، أنه قال: أمرني أبي أمراً، وأمرني السري أمراً. فقدمت أمر السري على أمر أبي، وكل ما وجدت فهو من بركاته. هـ. وذوو القربى هم الأخوة في الشيخ، واليتامى: من قصدهم من المتفقرة الجاهلة، والمساكين: ضعفاء اليقين من العامة، أمر الله تعالى أهل الخصوصية بالإحسان إليهم والبرور بهم، وهو أن يترهم في طريقهم، ويحوشهم إلى ربهم.

والجار ذي القربى وهو جارك في السكنى وأخوك في النسبة، فيستحق عليك زيادة الإحسان. والجار الجنب: من جاورك من العوام فتنصحه وترشده، والصاحب بالجنب: من رافقك في أمر من العوام، كسَفَرٍ وغيره، وابن السبيل: من نزل بأهل الخصوصية من الأضياف، فلهم حق الضيافة عليهم حسا ومعنى، وما ملكت أيمانكم: مالكم تصرف عليهم من الأهل والبنين والإماء والعبيد، فتقربونهم إلى حضرة الملك المجيد. ثم أمرهم بالتواضع والإقبال على الخاص والعام. فقال: ﴿إن الله لا يحب من كان مختالاً فخوراً﴾. والله تعالى أعلم.

ثم بيَّن حال أضداد هؤلاء، فقال:

﴿ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ وَيَكۡتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَهُۥ قَرِينٗا فَسَآءَ قَرِينٗا ﴿٣٨﴾ وَمَاذَا عَلَيۡهِمۡ لَوۡ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمۡ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾ ﴾

قلت: (الذين) بدل من: «مَنْ كان»، أو منصوب على الذم، أو مرفوع عليه، أي: هم. أو مبتدأ حذف خبره، أي: نعذبهم عذاباً مُهيناً، أو أحقاء بكل ملامة، و(الذين ينفقون): عطف على الأولى، أو مبتدأ حُذف خبره، أي: الشيطان قرينهم. والبخل فيه لغتان: البُخْل والبَخَل بحركتين.

يقول الحق جل جلاله: ﴿**الذين يبخلون**﴾ بأموالهم على أقاربهم وجيرانهم، ﴿**ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله**﴾ من الغنى، فيظهرون القلة والعيلة، أو يكتمون العلم بصفة النبي ﷺ، هم أحقاء بكل لوم وعتاب. ﴿**وأعتدنا للكافرين**﴾ منهم ﴿**عذاباً مُهيناً**﴾ يهينهم ويخزيهم، نزلت في اليهود، كانوا يقولون

للأنصار: لا تنفقوا أموالكم، فإنا نخشى عليكم الفقر، وكتموا صفته ـ عليه الصلاة والسلام ـ. ووَضَعَ الظاهر موضع المضمر وكأنه يقول: وأعتدنا لهم، إشعاراً بأن مَنْ هذا شأنه فهو كافر بنعمة الله تعالى، ومن كفر بنعمة الله وأهانها استحق عذاباً مهيناً.

﴿والذين ينفقون أموالهم رئاء الناس﴾ طلباً لمدحهم وخوفاً من ذمهم، ﴿ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر﴾، يتحرون بإنفاقهم مراضيه، فالشيطان قرينهم لا يفارقهم، ﴿ومن يكن الشيطان له قريناً فساء قريناً﴾، فلمّا كان الشيطان قرينهم زين لهم التهالك على الأموال والرياء فى الأعمال، وإنما أشرك أهل الرياء مع البخلاء فى الوعيد من حيث إنهما طَرَفَا تفريط وإفراط، وهما سواء فى القبح واستجلاب الذم.

﴿وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر وأنفقوا مما رزقهم الله﴾ أى: لا ملامة عليهم ولا تبعة تحيق بهم؛ لو أخلصوا الإيمان وأنفقوا مما رزقهم الكريم المنان. قال البيضاوى: وفيه تنبيه على أن المدعو إلى أمر لا ضرر فيه ينبغى أن يُجيب إليه احتياطاً، فكيف إذا تضمن المنافع. وإنما قدم الإيمان هاهنا وأخره فى الآية الأخرى: لأن القصد بذكره هنا التخصيص، وثَمّ التعليل. هـ. ﴿وكان الله بهم عليما﴾ لا يخفى عليه شيء من أمورهم وقصدهم.

الإشارة: قال بعض الصوفية: (من أقبح كل قبيح صوفى شحيح)، فالصوفية العارفون ـ رضى الله عنهم ـ الذين هم صفوة العباد متخلقون بأضداد ما وسم به الحق ـ تعالى ـ أهل العناد، فهم يجودون بأنفسهم وما خصهم الله بهم من العلوم اللدنية والأسرار القدسية، على من يستحقه من أهل التخلية والتحلية، ويأمرون الناس بالسخاء ومكارم الأخلاق، ويتحدثون بما منحهم الملك الخلاق، ويظهرون الغنى بالله والاكتفاء به عن كل ما سواه، وإذا بذلوا أموالهم أعطوها لله وبالله ومن الله وإلى الله وابتغاء مرضاة الله، هجم عليهم اليقين، وتمكنوا من شهود رب العالمين، فلا يقرب ساحتهم الشيطان، ولا يرون فى الدارين إلا الملك الديان، تحبهم ملائكة الرحمن، ويحن إليهم الإنس والجان. نفعنا الله بمحبتهم، وخرطنا فى مسلكهم، آمين.

ثم رغّب الحق ـ تعالى ـ فى الإنفاق مع الإخلاص، الذى هو عنوان الدين الخاص، فقال:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ ﴾

قلت: الذرة: النملة الصغيرة الحمراء. وتطلق على جزء من أجزاء الهباء. ومن نَصَبَ (حسنة) فَخَبَرُ كان. وأُنث الضمير باعتبار الخبر. أو لإضافة مثقال إلى ذرة، فاكتسب التأنيث، ومن رفع فهى تامة، وحذف نونها على غير قياس، تشبيهاً لها بحروف العلة. وضاعف وضَعّف بمعنى واحد.

يقول الحق جل جلاله: ﴿إن الله لايظلم﴾ أحداً بحيث ينقص من ثواب عمله، أو يزيد في عقاب ما يستحقه، ولو مثقال ذرة. بل يجازى كلاً على قدر عمله. فإنْ كان صالحا، ولو صغر قدره، عظم أجره. ﴿فإن تك حسنة يُضاعفها﴾ بعشر أمثالها إلى سبعمائة إلى أضعاف كثيرة، بحسب الإخلاص. قال أبو هريرة رضي الله عنه: سمعت النبى ﷺ يقول: «إنَّ اللّه يُعْطِي المُؤمنَ عَلى الحَسَنَةِ ألفى ألف حَسَنَة»، ثم تلا ﴿إن الله لايظلم مثقال ذرة﴾ الآية.

﴿ويؤت من لدنه أجراً عظيما﴾، وخيراً جسيما، فضلاً منه وإحسانا. قال ﷺ: «إنَّ اللهَ لا يظلم المُؤمنَ حَسَنةً، بل يُثاب عليها الرزق في الدُّنيا ويجْزِيه بها في الآخِرَةِ. والكَافِر يعطيه بها في الدُّنيا، فإذا كان يوم القيامة لم يكنْ لَهُ حَسَنَةٌ».

الإشارة: كما أن الحق تعالى لا يظلم طالبى الأجور، بل يضاعف لهم في زيادة الحور والقصور، كذلك لايبخس طالبى القرب والحضور، ورفع الحُجب والستور، بل كلما فعلوا من أنواع المجاهدات ضاعف لهم أنوار المشاهدات. وكلما نقص لهم من الحس ـ ولو مثقال ذرة ـ زادهم في المعنى قَدْرَه وأكثر شهوداً ونظرة. وكلما يقهر النفس ولو مقدار الفتيل، شربوا مقداره وأكثر من خمرة الجليل، وهذا كله مع صحبة المشايخ أهل التربية، وإلاَّ فلا تزيده مجاهدته إلا حجباً وبعداً عن الخصوصية. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر الحق تعالى الموطن الذى تظهر فيه مقادير الأعمال، فقال:

﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾ ﴾

قلت: (كيف) إذا كان الكلام بعدها تاماً أُعربت حالا، كقولك: كيف جاء زيد؟ وإذا كان ناقصاً، كانت خبراً، كقولك: كيف زيد؟ وهي هنا خبر، أي: كيف الأمر إذا ...إلخ. وهي مبنية لتضمنها معنى الاستفهام، والعامل في (إذا) مضمون المبتدأ، أو الخبر، أي: كيف يستقر الأمر أو يكون إذا جئنا؟ ومن قرأ (تَسَّوى) بالشد، فأصله تتسوى، أدغمت الأولى في الثانية، ومن قرأ (لو تُسوّى) بالبناء للمفعول فحذف الثانية.

يقول الحق جل جلاله: ﴿فكيف﴾ يكون حال هؤلاء الكفرة واليهود ﴿إذا﴾ قامت القيامة و﴿جئنا من كل أمة بشهيد﴾ يشهد عليها بخيرها وشرها، وهو نبيهم الذى أرسل إليهم، ﴿وجئنا بك﴾ أنت يا محمد ﴿على هؤلاء﴾ الأمة التى بعثت إليهم ﴿شهيداً﴾ عليهم، أو على صدق هؤلاء الشهداء شهيدا، تشهد على صدق رسالتهم وتبليغهم؟ لعلمك بعقائدهم واستجماع شرعك مجامع قواعدهم، وقيل: ﴿على هؤلاء﴾ الكفرة المستفهم عن حالهم،

وقيل: على المؤمنين لقوله: ﴿ لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾. ﴿**يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول**﴾ أي: الذين جمعوا بين الكفر والعصيان يتمنون أن ﴿**تسوى بهم الأرض**﴾ فيكونون ترابا لمايرون من هول المطلع، فإذا شهدت عليهم الرسل بالكفر قالوا: ﴿ وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾، فينطق ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بشركهم فيفتضحون ﴿**ولا يكتمون الله حديثا**﴾ واحدا، لأنهم كلما هموا بالكتمان شهدت عليهم جوارحهم بالكفر والعصيان.

وقيل: إن القيامة مواطن، في موطن لا يتكلمون ولا تسمع إلا همسا، وفي موطن يتكلمون ويقولون: والله ربنا ما كنا مشركين، إلى غير ذلك من اختلاف أحوالهم. والله تعالى أعلم.

الإشارة: لابد أن يحصل الندم لمن فاته صحبة أهل الخصوصية، حتى مات محجوبا عن مشاهدة أسرار الربوبية، لاسيما إذا انضم إليهم كفرهم بخصوصيتهم والإنكار عليهم، وذلك حين يكشف له عن مقامهم البهي وحالهم السني، مصاحبين للمقربين في جوار الأنبياء والمرسلين، وهو في مقام أهل اليمين، ثم يعاتب على ما أسر عليه من الكبائر، وهي معاصي القلوب والضمائر، وهذا إذا مات على الإسلام، وإلا فالإنكار على الأولياء شُؤْمُه سوء الخاتمة. والعياذ بالله من ذلك. وقد تقدم أن العارفين بالله يشهدون على العلماء، والعلماء يشهدون على العموم، ونبينا ـ عليه الصلاة والسلام ـ يزكي من يحتاج إلى التزكية. والله تعالى أعلم.

ثم تكلم على عماد الدين وهي الصلاة، فقال:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا (٤٣) ﴾

قلت: جملة (وأنتم سكارى): حال، وسكارى: جمع سكران، ويجمع على سُكارى بالفتح، وسكْرى بالسكون، و(لاجنُبا) عطف على جملة الحال، و(جنُب) يستوي فيه الواحد والاثنان والجماعة والمذكر والمؤنث، لأنه يجري مجرى المصدر، فلا يثنى ولا يُجمع. و(إلا عابري) مستثنى من عام الأحوال، وأصل الغائط: الموضع المنخفض من الأرض، ثم أطلق على الواقع فيه مما يخرج من الإنسان.

يقول الحق جل جلاله : ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى﴾: لا تقوموا إليها وأنتم سكارى من خمر، أو غلبة نوم، أو شدة غفلة، ﴿حتى تعلموا ما تقولون﴾ في صلاتكم، وتتدبروا ما تقرأون فيها، فالصلاة من غير حضور خاوية، وعند الخصوص باطلة، رُوي أن عبدالرحمن بنَ عوف صنَع مأدبة، ودَعَا إليها نفراً من الصحابة، حين كانت الخمر مباحة، فأكلوا وشربوا حتى ثَمِلُوا، وجاء وقت صلاة المغرب، فتقدم أحدهم ليصلى بهم، فقرأ: أعبد ما تعبدون ـ من غير نفى ـ فنزلت الآية قبل تحريم الخمر، ثم حرمت بآية المائدة.

ولا تقربوها حالة جنابتكم في أي حال كان، ﴿إلا عابرى سبيل﴾ أي: في وقت سفركم، حيث لم تجدوا ماءً، بدليل ما يأتى، فيتيمم ويقرب الصلاة وهو جنب، وفيه دليل أن التيمم لا يرفع الحدث، قيل المراد بالصلاة مواضعها، وهى المساجد فلا يدخلها الجنب إلا ماراً، وبه قال الشافعي ـ رضى الله عنه ـ وقال أبو حنيفة: لا يجوز المرور، إلاّ إذا كان فيه الماء والطريق. وقال مالك: لا يدخل إلا بالتيمم ولا يمر به أصلا.

فلا تقربوا الصلاة وأنتم جنب ﴿حتى تغتسلوا﴾.

﴿وإن كنتم مرضى﴾ تخافون ضرر الماء، أو زيادته، أو تأخر برء، أو منع الوصول إلى الماء، ﴿أو على سفر﴾ لم تجدوه فيه، ﴿أو﴾ كنتم في الحضر مُحْدِثِين حيث ﴿جاء أحد منكم من الغائط﴾، أو البول، أو بغيره من الأحداث، ﴿أو لامستم النساء﴾ أي: مست بشرتكم بشرتهن، بقصد اللذة أو عند وجدانها، وبه قال مالك. وقال الشافعي: ينقض مطلقاً، قصد أم لا، وجد أم لا، ولو بميتة، وقال أبو حنيفة: إن كانت ملامسة فاحشة بحيث يحصل الانتشار نقضت، وإلا فلا.

وقال ابن عباس والحسن البصري ومحمد بن الحسن: لا تنقض الملامسة مطلقًا، ويقاس على اللمس سائر نواقض الأسباب، فتحصّل أن «أو» تبقى على أصلها من التقسيم، فتكون الآية نصاً في تيمم الحاضر الصحيح، وبه قال مالك، ولا يعيد. وقال الشافعي: يصلى بالتيمم ويُعيد، وقال أبو حنيفة: لا يُصلى حتى يجد الماء، ومن قال: «أو» بمعنى الواو فخروج عن الأصل بلا داع.

ثم قيّد التيمم في هذه الأحوال بفقد الماء، فقال: ﴿فلم تجدوا ماء﴾ كافيًا، أو لم تقدروا على استعماله، ﴿فتيمموا﴾ أي: اقصدوا ﴿صعيدًا طيبًا﴾ أي: طاهرًا، وهو ما صعد على وجه الأرض من جنسها؛ كتراب، وهو الأفضل، وثلج وخضخاض[1] وحجر ومدر، لا شجر وحشيش ومعدن ذهب وفضة، وما التحق بالعقاقير، كشب، وملح، وكبريت، وغاسول[2] وشبهه، فلا يجوز. وقال أبو حنيفة: بكل شيء من الأرض وما اتصل بها كشجر

(١) الخضخاض درب من القطران أسود رقيق تطلى به الإبل الجربى .
(٢) الغاسول: عشب ينبت فى الصحراء.

وكُحل، وزرنيخ، وشب ونورة، وجص، وجوهر، إلا منخالة الذهب والفضة والرصاص. وقال الشافعي: لا يجوز إلا بالتراب المنبت خاصة، وبه فسر الطيب، واشترط علوق التراب بيده، ولم يشترطه غيره.

ثم علّم الكيفية فقال: ﴿فامسحوا بوجوهكم وأيديكم﴾. قال مالك: اليد اسم للكف بدليل قطع السارق منه، فجعل المسح إلى المرفق سنة. وقال الشافعي: فرض، قياسا على الوضوء، ﴿إن الله كان عفوًا غفورًا﴾ فلذلك يسّر عليكم ورخص لكم في التيمم.

الإشارة: يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا صلاة الحضرة القدسية، وأنتم سكارى بحب الدنيا الدنية، حتي يذهب عنكم سُكر حبها، وتعلموا ما تقولون في مناجاة خالقها، ولا جنبا من جنابة الغفلة، إلا ما يمر بالخواطر على سبيل الندرة والقلة، حتى تغتسلوا بماء الغيب، الذي يحصل به طهارة الجنان، ويغيب المتطهر به عن رؤية الأكوان. وإليه أشار ابن العربي الحاتمي: كما في طبقات الشعراني، ونسبها غيرُه للجنيد. رضي الله عنهم أجمعين. وهو الأصح، بقوله:

تَوَضّأْ بماءِ الغَيْبِ إنْ كُنتَ ذا سِرٍّ ... وإلاَّ تيمَّمْ بالصَّعِيدِ أو الصَّخْرِ
وقَدِّمْ إمَامًا كُنتَ أنتَ إمَامَه ... وصَلِّ صَلاةَ الظُّهْرِ في أوّلِ العَصْرِ
فَهَذِي صَلاةُ العَارِفينَ بربِّهِمْ ... فإنْ كُنتَ مِنْهم فانْضَحِ البرَّ بالبَحْرِ.

أي: إن لم تقدر على الطهارة الأصلية؛ وهي الغيبة عن الأحداث الكونية، فاقصد العبادة الحسية، وقدِّم الشريعة أو من قام بها من أهل التربية النبوية أمامك، بعد أن كان يطلبك قبل أن تعرفه، واجمع ظُهر الشريعة لعصر الحقيقة، فهذه صلاة العارفين، فإن كنت منهم فانضح برّ ظاهرك بحقيقة باطنك، فما كمن في غيب السرائر ظهر في شهادة الظواهر. لهذا أشار تعالى بقوله: (وإن كنتم مرضى) بحب الهوى، (أو على سفر) في عجلة شغل الدنيا، أو جاء أحد منكم من غائط الحس، أو لامستم العلوم الرسمية، وانطبع صُورُ خيالها في قلوبكم، ولم تجدوا من يسقيكم ماء الغيب، وهي الخمرة الأزلية، فاقصدوا الأعمال الحسية، فلعلها توصلكم إلى الأعمال الباطنية، (إن الله كان عفوا غفورا)، وفي الحكَم: «كيف يشرق قلبٌ صورُ الأكوان منطبعة في مرآته؟ أم كيف يرحل إلى الله وهو مكبل بشهواته، أم كيف يطمع أن يدخل حضرة الله وهو لم يتطهر من جنابة غفلاته؟ أم كيف يرجو أن يفهم دقائق الأسرار وهو لم يتب من هفواته؟».

ثم نبه الحق تعالى على عداوة اليهود، وأنَّ من شأنهم إذا سمعوا عليكم مثل ما وقع من تحريف الآية الذى صدر من المصلى فى حال السكر فرحوا بذلك، فحذَّر المؤمنين من العود لمثل ذلك، فقال:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾ ﴾

قلت: دخلت الباء على الفاعل فى (كفى بالله)، لتضمنه معنى اكتفِ بالله وكيلا.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ألم تر﴾ يامحمد، أو يا من يسمع، ببصرك أو بقلبك، ﴿إلى﴾ حال ﴿الذين أوتوا نصيبا﴾ يسيراً ﴿من﴾ علم ﴿الكتاب﴾ أى: التوراة، وهم أحبار اليهود، ﴿يشترون الضلال﴾ بالهدى، أى: يستبدلونها بها بعد تمكنهم منها عادة، ﴿ويريدون أن تضلوا السبيل﴾ أى: الطريق الموصلة إلى الحق، أى: يتمنون انحرافكم عنها، فإذا سمعوا عنكم ما يحرفكم عنها فرحوا واستبشروا، لأنهم انحرفوا عنها فحرفوا كتابهم وبدلوا، فتمنوا أن تكونوا مثلهم، فاحذروا ما يتوقع منكم أعداؤكم، فإن الله أعلم بهم منكم، فسيكفيكم الله أمرهم، فثقوا به وتوكلوا عليه، فكفى بالله ولياً وكفى بالله نصيراً، فسيتولى أمركم وينصركم على من عاداكم. وبالله التوفيق.

الإشارة: من شأن أهل الإنكار، ولا سيما من سلف له فى أسلافه رياسة أو إظهار، إذا سمعوا بأهل النسبة وقع لهم شيء من الأكدار، فرحوا واستبشروا، وودوا لو حادوا كلهم عن سبيل الحق، والله مطلع على أسرارهم، وكاف بأسهم وشرهم، (وكفى بالله وليا) لأوليائه ونصيراً لأحبابه. والله تعالى أعلم.

ثم بيَّنهم، أو ذكر حال فريق منهم، فقال:

﴿ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾ ﴾

قلت: (من الذين هادوا): خبر عن محذوف، أى: منهم قوم يحرفون، أو بيان للذين قبله، أو متعلق بأعدائكم.

يقول الحق جل جلاله: من اليهود قوم تمردوا فى الكفر، وهم أحبارهم، ﴿يُحرفون الكلم﴾ وهو التوراة ﴿عن مواضعه﴾ أى: يميلونه عن مواضعه التى وضعه الله فيها، بإزالة لفظه أو تأويله. وقال ابن عباس: (لايقدر أحد أن يُحرِّف كلام الله ولكن يفسرونه على غير وجهه)، ﴿ويقولون﴾ لمن دعاهم إليه، وهو

الرسول ﷺ : ﴿سمعنا﴾ قولك، ﴿وعصينا﴾ أمرك، ﴿واسمع﴾ منا ﴿غير مسمع﴾ قولك، أي: لا نلتفت إليه، أو دعاء بالصمم: أي: لاسمعت، أو غير مسمع منا مكروهاً، نفاقًا، ويقولون له مكان انظرنا: ﴿راعنا﴾ قاصدين بذلك الشتم والسخرية، من الرعونة، وقد كان الصحابة يخاطبون به الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ ومعناه: انظرنا، أو راعنا بقلبك، فوجد اليهود بها سبيلاً إلى الشتم، فنهاهم الله عن ذلك، وبقيت اليهود تقولها شتماً واستهزاء ﴿ليًا بألسنتهم﴾، أي: فَتْلاً لها عن معناها، من الانتظار إلى ماقصدوا من رَمْيِه بالرُّعُونة، ﴿وطعنًا في الدين﴾ أي: استهزاء به، ﴿ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا﴾ مكان سمعنا وعصينا، ﴿واسمع﴾ منا فقط، مكان: واسمع غير مسمع، ﴿وانظرنا﴾ مكان راعنا، ﴿لَكَانَ﴾ قولهم ذلك ﴿خيرًا لهم وأقوم﴾ وأعدل، ﴿ولكن لعنهم الله﴾ أي: طردهم وأبعدهم بسبب كفرهم، ﴿فلا يؤمنون إلا﴾ إيمانا ﴿قليلا﴾ لا يعبأ به وهو الإيمان بالبعض والكفر بالبعض من الآيات والرسل. والله تعالى أعلم.

الإشارة: والله ما ربح من ربح، إلا بالأدب والتعظيم، وما خسر من خسر إلا من فقدهما. قال بعضهم: «اجعل عملك ملحاً، وأدبك دقيقا» . وآداب الظاهر عنوان آداب الباطن، ويظهر الأدب في حسن الخطاب، ورد الجواب، وفي حسن الأفعال، وظهور محاسن الخلال. والله تعالى أعلم.

ثم دعاهم إلى الإيمان بعد أن وسمهم بالعصيان، فقال:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَـٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿يا أيها الذين أوتوا الكتاب﴾ من اليهود ﴿آمنوا بما نزلنا﴾ من القرآن ﴿مصدقًا لما معكم﴾ من التوراة ﴿من قبل أن نطمس وُجوها﴾ أي: نغير صُورها ونمحو تخطيط أشكالها، فلا تبقى عين ولا أنف ولا حاجب، ﴿فنرُدها على﴾ هيئة ﴿أدبارها﴾ من الأقفاء، أو ننكسها إلى ورائها في الدنيا، ﴿أو نلعنهم﴾ أي: نخزيهم بالمسخ، ﴿كما لعنّا أصحاب السبت﴾، فمسخناهم قردة وخنازير، ﴿وكان أمر الله مفعولا﴾، لا مرد له، ولعله كان مشروطاً بعدم إيمان بعضهم، أو يراد بطمس الوجوه ما يكسوها من الذلة والصغار. ويراد باللعن حقيقته، أي: نلعنهم على لسانك كما لُعنوا على لسان داوود وعيسى بن مريم.

وهذه الآية كانت سبب إسلام كعب الأحبار، سمعها من بعض الصحابة فأسلم في زمن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. والمسخ جائز على هذه الأمة، كما وقع في الأمم السابقة، بدليل ما في كتاب الأشربة من البخاري، أن النبي ﷺ قال: «ليكونَنَّ من أمتي أقوام يَستحلُّونَ الْحِر والحَرِيرَ، والخمرَ والمعازفَ، ولينزلَنَّ أقوام إلى جَنْب عَلَمٍ، يَرُوحُ عليهم بسارحة لهم يأتيهم لحاجة، فيقولون: ارجعْ إلينا غداً، فيُبيِّتُهم الله، ويضع عليهم العَلَمَ، ويَمسخُ آخرينَ قِردةَ وخنازيرَ إلى يوم القيامة».

الإشارة: حملة الشريعة يخاطبون بالإيمان بأهل الحقيقة، لأنها لبها وصفاؤها، فإن امتنعوا من الإيمان بها ومن الإذعان لأهلها، طمس الله وجوه قلوبهم، وملأها خوفًا وجزعًا وحبًا للدنيا، وردها على أدبارها، فلا تفهم أسرارَ الكتاب ولا تفقه إشارة الخطاب، فإن قصَّروا عن حقوق الشريعة، وغيَّروا أحكامها مُسخوا قردة وخنازير. وفي نوادر الأصول بسنده إلى رسول الله ﷺ قال: «تَكُونُ فِي أُمَّتِي فَزْعَةٌ، فَيَصِيرُ النَّاسُ إِلى عُلَمَائِهِمْ، فَإِذَا هُمْ قِرَدَةٌ وَخَنَازِيرُ».

قال الترمذي الحكيم: فالمسخ: تغيير الخلقة عن جهتها، فإنما حل بهم المسخ لأنهم غيَّروا الحق عن جهته، وحرفوا الكلم عن مواضعه، فمسخوا عن أعين الخلق، وقلوبهم عن رؤية الحق. فمسخ الله صورهم وبدَّل خِلقتهم، كما بدلوا الحق باطلا. هـ. وبالله التوفيق.

ولما دعاهم إلى الإيمان، أخبرهم أنهم إن داموا على الكفر لا مطمع لهم في الغفران، فقال:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به﴾ لأنه بتَّ الحكم على خلود عذابه، لأن الله تعالى غيور لا أحد أغير منه. كما في الحديث، ومن عادة الملوك إذا خرج أحدٌ من رعيته ونصر غيره لا يقبل منه إلا الرجوع أو الموت. ولا شفاعة تنفع فيه غير الرجوع عنه، ﴿ويغفر مادون ذلك﴾ الشرك ﴿لمن يشاء﴾ من الكبائر والصغائر. تاب أم لا. فالعصاة إذا لم يتوبوا في مشيئة الله، ﴿ومن يُشرك بالله فقد افترى إثمًا عظيمًا﴾، ارتكب ما تستحقر دونه الآثام. وهو إشارة إلى المعنى الفارق بينه وبين سائر الذنوب، والله تعالى أعلم.

---

(١) في الأصول «فزعة» بالفاء، والمثبت هو الذي الجامع الكبير للسيوطي وكنز العمال. والقزعة: قطعة من الغيم وجمعها: قَزَع. انظر النهاية في غريب الحديث (قزع).

الإشارة: ولما رأت الصوفية أن الشرك لا يغفر، ولا يسمح في شيء منه، جليًا أو خفيا، حققوا إخلاصهم، ودققوا معاملتهم مع ربهم، وفتشوا على قلوبهم، هل بقي فيها شيء من محبة غير مولاهم، أو خوف من شيء دونه، وطهروا توحيدهم من نسبة التأثير لشيء من الكائنات، فتوجهوا إلى الله في إزالة ذلك عنهم.

قال بعضهم: شربت لبناً فأصابني انتفاخ، فقلت ضرني ذلك اللبن، فلما كنت ذات يوم أتلو، وبلغت هذه الآية قلت: يا رب؛ أنا لا أشرك بك شيئا، فقال لي هاتف: ولا يوم اللبن، فبادرت إلى التوبة. أ. هـ. بالمعنى. والله تعالى أعلم.

ثم عاتبهم على تزكية أنفسهم بالدعوى، فقال:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ألم تر﴾ يا محمد ﴿إلى الذين يزكون أنفسهم﴾، وهم اليهود، قالوا: نَحْنُ أَبْنَاءُ الله وَأَحِبَّاؤُهُ، وقيل: طائفة منهم، أتوا بأطفالهم إلى رسول الله ﷺ فقالوا: هَلْ عَلَى هؤلاءِ ذَنْبٌ؟ قال: «لاَ». قالوا: واللهِ مَا نَحْنُ إلا كَهَيْئَتِهِمْ، مَا عَمِلْنَا بالنَّهَارِ يُكفَّر عنَّا بالَّليْلِ، وما عملنا بالَّليلِ يُكفّر عنّا بالنَّهارِ، فنزلت فيهم الآية. وفي معناهم: من زكى نفسه وأثنى عليها قبل معرفتها.

﴿بل الله يُزكي من يشاء﴾ لأنه العالم بخفيات النفوس وكمائنها، وما انطوت عليه من قبيح أو حسن، فيزكي من يستحق التزكية، ويفضح المدَّعين، ﴿ ولا يُظلمون فتيلاً ﴾، وهو الخيط الذي في شق النواة، يضرب مثلا لحقارة الشيء، فإن الله لا يظلم مثقال ذرة، ﴿ انظر كيف يفترون على الله الكذب ﴾ في زعمهم أنهم أبناء الله، أو أنهم مغفور لهم، ﴿وكفى به﴾ أي: بالافتراء، ﴿ إثما مبينا﴾ أي: ظاهرا لا يخفى على أحد.

الإشارة: قال بعض الصوفية: للنفس من النقائص ما لله من الكمالات، فلا ينبغي للعبد أن يُزكي نفسه، ولو بلغ فيها من التطهير ما بلغ، ولا يرضى عنها ولو عملت من الأعمال ما عملت. قال أبو سليمان الداراني: لي أربعون سنة وأنا متّهِمٌ لنفسي. وفي الحِكَم: «أصل كل معصيةٍ وغفلةٍ وشهوةٍ: الرضا عن النفس، وأصلُ كل طاعةٍ ويقظةٍ وعفةٍ: عدمُ الرضا منك عنها، ولأن تصحب جاهلا لا يرضى عن نفسه خيرٌ من أن تصحب عالما يرضى عن نفسه؛ فأيُّ علمٍ لعالمٍ يرضى عن نفسه؟! وأي جهل لجاهل لا يرضى عن نفسه؟!».

ثم وبخهم على سجودهم للأصنام، وشهادتهم لأهل الكفر بأنهم أهدى من أهل الإسلام، فقال:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا (٥١) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا (٥٢) ﴾

قلت: الجبت في الأصل: اسم صنم، فاستعمل في كل ما عُبد من دون الله، والطاغوت: كل باطل من معبود أو غيره، أو الجبت: السحر، والطاغوت: الساحر، وبالجملة: هو كل ما عُبد أو أُطيع من دون الله، وقال الجوهري: الجبت: اسم لكل صنم ولكل عاصٍ ولكل ساحر وكل مُضِلّ، والطاغوت: الشيطان، وأصله: طغيوت، فعلوت، من الطغيان، ثم قلب فصار طيغوت، ثم قلبت الياء ألفا.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من﴾ علم ﴿الكتاب﴾، وهم أحبار اليهود﴿يُؤمنون بالجبت والطاغوت﴾؛ يقرون بصحة عبادتهما، ﴿ويقولون للذين كفروا هؤلاء﴾ الكفرة ﴿أهدى من الذين آمنوا﴾ طريقًا، نزلت في اليهود ـ لعنهم الله ـ: كانوا يقولون: إن عبادة الأصنام أرضى عند الله مما يدعو إليه محمد ﷺ، وقيل: في حُيَي بن أخطب وكعب بن الأشرف، خرجا في سبعين راكبًا إلى مكة يُحالفون قريشًا على محاربة رسول الله ﷺ بعد وقعة أُحد، وينقضون العهد الذي كان بينهم وبين رسول الله ﷺ، فنزل كَعْبٌ على أبي سفيان، فأحسن مثواه، ونزلت اليهود في دور قريش. فقال أهل مكة: أنتم أهل كتاب، ومحمدٌ صاحب كتاب، ولا نأمن أن يكون هذا مكيدة منكم، فإن أردتم أن نخرج معكم فاسجدوا لهذين الصنمين، وآمنوا بهما، ففعلوا، فذلك قوله تعالى: ﴿يؤمنون بالجبت والطاغوت﴾.

ثم قال أبو سفيان لكعب: إنك امرؤ تقرأ الكتاب وتعْلم، ونحن أميون لا نعلم، فأيُّنا أهدى سبيلا وأقرب إلى الحق، نحن أو محمد؟ قال كعب: اعرضوا عليَّ دينكم، فقال أبو سفيان: نحن ننحر للحجيج الكَوْمَاء ـ أي: العظيمة ـ من النوق ـ ونسقي الماء، ونَقْرِي الضيف، ونفك العاني، ونصل الرحم، ونعمر بيت ربنا، ونطوف به، ونحن أهل الحرم، ومحمدٌ فارقَ دين آبائه، وقطع الرحم وفارق الحرم، فقال كعب: أنتم والله أهدى سبيلا. هـ.

﴿أولئك الذين لعنهم الله﴾ وأبعدهم وأسحقهم، ﴿ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا﴾ ينصره من عذاب الله. فقد قُتل هؤلاء كلهم شر قتلة، وذهبوا إلى الهاوية. عائذا بالله.

الإشارة: قال الورتجبي: وبَّخ الله تعالى أهل ظاهر العلم الذين اختاروا الرياسة، وأنكروا على أهل الولاية، وآثروا صحبة المخالفين، يقبلون هواجس نفوسهم التي هي الجبت، ويَخطُون على آثار الطاغوت، التي هي إبليس. هـ.

قلت: وينسحب التوبيخ على من فضّل أهل الظاهر على أهل الباطن، وفضّل العلماء على الأولياء، ويقولون: هم أهدى منهم سبيلا. هيهات! بينهم من البَون ما بين السماء والأرض.

والكلام إنما هو في التفضيل بين العارفين بالله، الذين جمعوا بين الفناء والبقاء، وبين العلماء والأتقياء. وأما العُبّاد والزهاد والصالحون فلا شك أن العلماء الأتقياء أفضل منهم، واليهم أشار ﷺ بقوله: «فَضْلُ الْعَالِمِ على العابِدِ كَفَضْلِي علَى أدْنَاكُمْ». وكذلك الأحاديث التي وردت في تفضيل العلماء. وأما العارفون بالله فهم أعظم العلماء، لأن علمهم متعلق بذات الله كشفاً وذوقا، وعلماء الظاهر علمهم متعلق بأحكام الله. مفرقُون عن الله، بل هم أشد حجابا من غيرهم عن الله. قال بعض الأولياء: أشد الناس حجاباً عن الله: العلماء ثم العباد ثم الزهاد. هـ. لأن حلاوة ما هم فيه تمنعهم عن الانتقال عنه، وقد تقدم الكلام عند قوله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[1] بأبلغ من هذا. والله تعالى أعلم.

ثم ردّ الحق تعالى على اليهود، حيث ادعوا أن المُلكَ سيصير إليهم، فقال:

﴿ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ ﴾

قلت: «أم»: منقطعة، بمعنى بل، والهمزة للإنكار، وهو إنكار وجحدٌ لما زعمت اليهود من أنّ المُلكَ سيصيرُ لهم، و(إذًا) إن فُصل بينها وبين المضارع بـ «لا» ففيها الإهمال والإعمال، وقد قرئ: (وإذاً لا يلبثوا)، والنقير: النقرة التي في ظهر النواة، وهو هنا كناية عن نهاية بخلهم.

يقول الحق جل جلاله مُنكراً على اليهود: أيحصل لهم ﴿نصيب من المُلك﴾ والرياسة؟ هيهات، لا يكون هذا أبدا، فكيف يكون لهم الملك وهم أبخل الناس؟. فإذا أُوتوا شيئاً من الملك لا يُعطون الناس نقيراً، فما بالك بأكثر، والملك والنصر لا يكونان إلا لأجل الكرم والجود والشجاعة، وإصابة الرأي وحسن التدبير، وهم بعداء من هذه المكارم.

الإشارة: لا يُمكن اللهُ من العز والنصر والتصرف الظاهر أو الباطن إلا أهل السخاء والجود، فمن جاد بماله حتى لا يبالي كم أعطى ولا لمن أعطى، مكّنه الله من العز والتصرف الحسي، ومن جاد بنفسه وجاهه، وبذلهما في مرضاة ربه، مكّنه الله من العز والنصر والتصرف المعنوي؛ يتصرف بهمته في الوجود بأسره، من عرشه إلى فرشه، ويدوم عزه ونصره إلى أبد الأبد. والله تعالى أعلم.

---

(١) راجع إشارة الآية ١١٠ من سورة آل عمران.

ولمَّا كان الحسد والبخل رذيلتين متناهيتين في الذم وصفهم الحق ـ تعالى ـ أيضا به(١)، فقال:

﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾ ﴾

قلت: (أم) بمعنى بل، و(سعيرا) تمييز.

يقول الحق جل جلاله توبيخاً لليهود على الحسد: ﴿**أم يحسدون الناس**﴾، أي: العرب حيث انتقلت النبوة إليهم، وقد كانت في أسلافهم، ﴿**على ما آتاهم الله من فضله**﴾، وهو ظهور النبوة فيهم، أو رسول الله ﷺ؛ لأنه اجتمع فيه ما افترق في سائر الناس، حسدوه على ما آتاه الله من فضله، من النبوة وغيرها، وقالوا ـ لعنهم الله ـ: ماله همٌّ إلا النساء، ولو كان نبياً لشغله أمر النبوة عن النساء.

فكذَّبهم الله ـ تعالى ـ وردَّ عليهم بقوله: ﴿**فقد آتينا آل إبراهيم**﴾ وهم: يوسف وداود وسليمان، ﴿**الكتاب والحكمة**﴾ أي: النبوة، ﴿**وآتيناهم مُلكاً عظيما**﴾، فقد اجتمع لداود عليه السلام مائة امرأة. ولسليمان ـ عليه السلام ـ ألف امرأة: ثلاثمائة مهيرة، ـ أي: بالمهر ـ وسبعمائة سرية، فقال لهم ـ عليه الصلاة والسلام ـ حين نزلت الآية: ألف امرأة عند رجل، ومائة امرأة عند آخر، أكثر من تسع نسوة، فسكتوا(٢).

﴿**فمنهم**﴾ أي: اليهود، ﴿**من آمن به**﴾ أي: بمحمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ كعبد الله بن سلام وأصحابه، ﴿**ومنهم من صد عنه**﴾ أي: أعرض عنه ، أو: من آل إبراهيم من آمن بإبراهيم، ومنهم من صد عنه، ولم يكن في ذلك توهين لقدر إبراهيم، فكذلك لا يُوهن كفرُ هؤلاء أمرَك، أو: من أسلافهم من آمن بما أوتي آل إبراهيم من الكتاب والحكمة والمُلك، ومنهم من صد عنه، كما فعلوا مع سليمان وغيره. ﴿**وكفى بجنهم سعيرا**﴾ لمن كفر بما جاء به أحد من الرسل، أي: فإن لم يُعاجَلوا بالعقوبة فقد كفاهم ما أعد لهم من سعير جهنم.

---

(١) أي بالحسد، فقد ذكر البُخل في الآية السابقة.

(٢) راجع تفسير البغوي.

ثم بيّن مآل من كفر، فقال: ﴿إن الذين كفروا بآياتنا﴾ المنزلة على رسلنا، أو الدالة على وحدانيتنا، ﴿سوف نصليهم نارا﴾ أي: نحرقهم بها ونشويهم، ﴿كلما نضجت جلودهم﴾ أي: لانت واحترقت ﴿بدّلناهم جلوداً غيرها﴾، قال ﷺ: «تُبدّلُ في ساعةٍ مائةَ مرّة» . وقال الحسن: (تأكلهم النارُ في كل يوم سبعين ألف مرة، كلما أكلتهم وأنضجتهم قيل لهم: عودوا فيعودوان كما كانوا). وقال مجاهد: (ما بين جلده ولحمه دود، لها جلبة ـ أي حركة ـ وهرير كجلبة حمر الوحش) . روى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «غلظُ جلدِ الكافرِ اثنانِ وأربعونَ ذراعاً، وضِرْسه مثلُ أحُد» .

وإنما بدلت جلودهم ﴿ ليذوقوا ﴾ ألم ﴿ العذاب ﴾، أي: يدوم لهم ذلك بخلق جلد آخر مكانه، والعذاب في الحقيقة للنفس العاصية لا لآلة إدراكها ، فلا محذور، ﴿إن الله كان عزيزا﴾ لا يمتنع عليه ما يريد، ﴿حكيما﴾ يعاقب على قدر حكمته.

ثم ذكر مقابل هؤلاء فقال: ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً لهم فيها أزواج مطهرة﴾ مما يستقذر ﴿وندخلهم ظلا ظليلا﴾ أي: دائماً لا تنسخه شمس، ولا يصحبه برد. قدّم وعيد الكفار على وعد المؤمنين، لأن الكلام فيهم، وذكر المؤمنين بالعرض. والله تعالى أعلم.

الإشارة: الحسد خلق مذموم، لا يتطهر منه إلا الصديقون، وكل من بقى فيه بقية من الحسد لا يشم رائحة المعرفة، إذ لو عرف الله لم يجد من يحسد، وقد قيل: الحسود لا يسود. وفي الحديث عنه ﷺ أنه قال: «الحسَدُ يأكُلُ الحسناتِ كما تأكلُ النّارُ الحطَبَ» . وقال سفيان: (بلغني أن الله تبارك وتعالى يقول: الحاسدُ عدو نعمتي، غيرُ راضٍ بقسمتي التي قسمت بين عبادي) . وأنشدوا:

ألاَ قُلْ لمَنْ كانَ لي حَاسِداً ... أتدري على مَنْ أسَأتَ الأدَب
أسَأتَ على اللهِ في فعْلِه ... إذا أنتَ لم ترْضَ لي مَا وَهَب
جَزَاؤُكَ منه الزيادةُ لي ... وألاَّ تَنَالَ الذي تَطْلُبْ

وقال آخر:

إنْ تحسُدُوني فإني غيرُ لائمكم ... قَبْلي من الناسِ أهلُ الفضلِ قَدْ حُسِدُوا
فَدَامَ لي ولَهُم ماكَانَ بي وبهم ... ومَاتَ أكْثَرُنا غيْظًا بمَا يَجِدُ

ثم إن الحسود لاتزول عداوته، ولا تنفع مداواته، وهو ظالم يشتكى كأنه مظلوم. ولقد صدق القائل:

كُلُّ العَدَاوةِ قد تُرجَى إزالتُها ... إلا عداوة مَنْ عَاداكَ مِنْ حَسَدِ

وقال حكيم الشعراء:

وأظلمُ خلْقِ اللهِ مَنْ بَاتَ حَاسِداً ... لِمَنْ بَاتَ في نَعْمَائِه يَتَقَلَّبُ

وقال آخر:

إنى لأرحمُ حاسِدِيَّ لفرْطِ ما ... ضَمَّتْ صُدُورُهُم مِنَ الأَوْغَارِ

نَظَرُوا صنيعَ اللهِ في فَعُيُونُهم ... فى جَنَّةٍ وقُلُوبُهُم فى نَارِ

قال بعض الحكماء: (الحاسدُ يضُر نفسه ثلاث مضرات: إحداها: اكتساب الذنوب؛ لأن الحسد حرام. الثانية: سوء الأدب مع الله ـ تعالى ـ فإنَّ حقيقة الحسد: كراهية إنعام الله على غيره، واعتراض على الله في فعله. الثالثة: تألم قلبه وكثرة همه وغمه). عافانا الله من ذلك كله، فالحاسد لا ينفك عن نار الحجاب وغم الحساب، والمتطهر منه يدخل جنة الرضى والتسليم في جوار الحبيب، وهو محل الراحة والأمن في الدارين، وهو الظل الظليل. والله تعالى أعلم.

ولمَّا كان حفظ نظام الدين لا يقوم إلا بالجهاد، ولا ينتظم الجهاد إلا بنصب الإمام، تكلم الحق ـ جل جلاله ـ على ما يتعلق بالأمراء، ثم بعد ذلك يتكلم على الجهاد، فقال:

﴿ ۞إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ﴿٥٨﴾ ﴾

قلت: «ما» في (نِعِمَّا) تمييز أو فاعل، والمخصوص محذوف، أي نعم شيئًا شيء يعظكم به، أو نعم الذى يعظكم به ذلك الأمر، وهو رد الأمانات والعدل في الحكومات.

قال زيد بن أسلم وشهر بن حوشب: نزلت الآية في شأن الأمراء. هـ. قلت: وإن نزلت في شأن عثمان بن طلحة ـ سادِن الكَعْبَةِ فهي عامة. والمخاطب بذلك أولاً الرسول ﷺ وهو سيد الأمراء، أمره الحق ـ تعالى ـ أن يرد المفاتح إلى عثمان، وذلك أن عثمان أغلق باب الكعبة يوم فتح مكة، وأبى أن يدفعها إلى رسول الله ﷺ ليدخل

الكعبة، وقال: لو علِمتُ أنه رسُول الله(١) ما منعْتُه، فلوى علِيٌ يده، وأخذها منْه، فدخل رسولُ الله ﷺ وصلى ركْعَتين، فلما خرج سأله العباس أنْ يُعْطيه المفتاح، ويجْمع له السّدَانَةَ والسِّقَايَةَ، فأمره اللهُ ـ تعالى ـ أنْ يرده إليه، فأمر عليًا بأن يرده ويَعْتَذِر إليه، وكان ذلك سبباً لإسلام عثمان، ونزل الأمر بأن السّدانة في أولاده أبدا.

يقول الحق جل جلاله: ﴿إن الله يأمركم﴾، يا معشر الأمراء، أن تردوا **﴿الأمانات إلى أهلها﴾** من أنفسكم، أو من رعيتكم فتنصفوا المظلوم من الظالم ، حتى يؤدى ما ائتمن عليه من دَيْنٍ، أو وديعة، أو غصب، أو سرقة، أو غير ذلك من حقوق العباد، بعضهم من بعض، وأن تؤدوا الزكاة إلى من يستحقها، وتصرفوا بيت المال فيمن يستحقه، لا تظلموا أهلها، ولا تضيعوا منها شيئاً في غير مستحقها.

﴿و﴾ يأمركم **﴿إذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل﴾** فى من يَنْفُذُ عليه حكمُكم، **﴿إن الله نعما يعظكم به﴾** أى: إن الله يعظكم بأمر نعم ما هو، **﴿إن الله كان سميعا بصيرا﴾** لا يخفى عليه أحكامكم، ولاما أخفيتم من أمانات غيركم.

الإشارة: أمر الحق ـ جل جلاله ـ شيوخ التربية أن يؤدوا السر إلى من يستحقه من الفقراء، إذا تحققوا أهليتهم له، بحيث تخلوا عن الرذائل، كالحسد والكبر وغيرهما ، وتحلوا بالفضائل، كسلامة الصدر وسخاوة النفوس وحسن الخلق، وغير ذلك من أوصاف الكمال، فإن تحققوا بالتخلية والتحلية، استحقوا الاطلاع على أسرار الربوبية، التي هي أمانات عند أهل الخصوصية، وأمرهم أن يحكموا بين الفقراء بالعدل، فيمدوا كلاً على قدر صدقه وخدمته، والله تعالى أعلم.

ثم أمر الحق تعالى بطاعة الأمراء الذين أمرهم بالعدل وأداء الأمانة، فقال:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾ ﴾

أعاد العامل في قوله: (وأطيعوا الرسول) ، إشارة إلى استقلال الرسول بالطاعة، ولم يُعده في ﴿أولى الأمر﴾ إشارة إلى أنه يوجد منهم من لا تجب طاعته، ثم بيّنه بقوله: ﴿فإن تنازعتم في شيء﴾ كأنه قيل: فإن لم يعملوا بالحق فلا تطيعوهم، وردوا ما تخالفتم فيه إلى حكم الله ورسوله. قاله الطيبي، وسيأتي تحريرُ ذلك إن شاء الله تعالى.

---

(١) أى: أنه مرسل من عند الله.

يقول الحق جل جلاله: ﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله﴾ فيما أمركم به ونهاكم عنه، ﴿وأطيعوا الرسول﴾ كذلك. ﴿وأولي الأمر منكم﴾ أي: مَنْ ولي أمركم. من وُلاَةِ العَدْل كالخلفاء والأُمراء بعدهم، تجب طاعتهم فيما أُمِرُوا به من الطاعة دون المعصية إلا لخوف هرج. قال عليه الصلاة والسلام: «إنَّمَا الطَّاعَةُ في المَعْرُوف» ، فإن لم يعدل: وجبت طاعته خوفاً من الفتنة. وهذا هو الأصح. لقوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ : «سيَلِيكم ولاة، فيليكم البَرُّ ببره، والفاجر بفجوره، فاستمعوا لهم، وأطيعوا في كل ما وافق الحق، فصلوا وراءهم، فإن أحسنوا فلهم، وإن أساءوا فلكم وعليهم» . رواه أبو هريرة.

وفي حديث آخر: «لاَ أنْ تَرَوا كُفراً بوَاحاً، لكم عليه من الله بُرهَانٌ» . أي: فيجب عزلهم. وقال أيضا ﷺ لما سأله أبو وائل فقال: يا رسول الله؛ أرأيت إن كان علينا أمراء يمنعوننا حقنا ويسألون حقهم؟. فقال ﷺ : «اسْمَعُوا وَأطِيعُوا، فَإنَّ عليهم ما حُمِّلُوا وَعَلَيْكُمْ ما حُمِّلتمْ» .

وقال جابر بن عبدالله والحسن والضحاك ومجاهد: أولو الأمر هم الفقهاء والعلماء، أهل الدين والفضل، يُعلِّمون الناس معالم دينهم ، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، دليله، قوله تعالى: ﴿ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم . . .﴾ الآية. قال أبو الأسود: ليس شيء أعز من العلم، الملوك حُكَّام على الناس، والعلماء حكَّام على الملوك. هـ.

﴿فإن تنازعتم﴾ أنتم وأولو الأمر، أو بعضكم مع بعض. أي: اختلفتم في حكم شيء من أمر الدين فلم تعلموا حكمه، ﴿فردوه إلى الله﴾ أي: إلى كتاب الله، ﴿و﴾ إلى ﴿الرسول﴾ في زمانه، أو سنته بعد موته، فإن لم يوجد بالنص فبالقياس. فالأحكام ثلاثة: مثبت بالكتاب، ومثبت بالسنة، ومثبت بالرد إليهما على وجه القياس. وعن إبراهيم بن يسار قال: قال النبي ﷺ: «اعمَلُوا بالقرآن: أحِلُّوا حَلاَلَهُ، وحَرِّمُوا حرامَهُ، وآمنوا بِهِ ولا تكفُروا بشَيْءٍ منْهُ، وما اشتبه علَيكُم فرُدُّوه إلى الله تعالى وإلى أولى العِلْم من بَعْدي، كيما يُخبرُونكمْ بِه» ، ثم قال: «وليَسَعْكُمُ القُرْآن وما فيهِ من البيَان؛ فإنّه شافعٌ مشفّعٌ، وماحِلٌ مُصدّقٌ[1] وإن له بكل حَرْفٍ نُوراً يومَ القيَامَة» .

فردوا الأحكام إليه وإلى الرسول، ﴿إن كنتم تؤمنون بالله اليوم الآخر﴾ فإن الإيمان يُوجِبُ ذلك. ﴿ذلك﴾ الرد ﴿خير﴾ لكم ﴿وأحسن تأويلا﴾ من تأويلكم بالرأي من غير رد، وأحسن عاقبة ومآلا، والله تعالى أعلم.

(١) ماحل مصدق : أي خصم مُصدّق. والمعنى: أنه شافع لمن عمل بما فيه، ومصدّق عليه فيما يُرفع من مساويه إذا ترك العَمَلَ به. انظر النهاية.

الإشارة: أولو الأمر عند الصوفية، هم شيوخ التربية العارفون بالله، فيجب على المريدين طاعتهم في المنشط والمكره، وفي كل ما أمروا به، فمن خالف أو قال: «لِمَ» لَمْ يفلحْ أبدا، ويكفي الإشارة عن التصريح عند الحذاق أهل الاعتناء، فإن تعارض أمر الأمراء وأمر الشيوخ، قدّم أمر الشيخ إلا لفتنة فادحة، فإن الشيخ يأمر بطاعتهم أيضا لما يؤدي من الهرج بالفقراء، فإن تنازعتم يا معشر الفقراء، في شيء من علم الشريعة أو الطريقة، فردوه إلى الكتاب والسُّنَّة. قال الجنيد رضي الله عنه: طريقتنا هذه مؤيدة بالكتاب والسنة، فمن لم يقرأ القرآن ويتعلم الحديث لا يُقتدى به في هذا الشأن. هـ. ويكفي المهم من ذلك، وهو ما يتوقف عليه أمر عبادته. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر الحق تعالى من أعرض عن حُكم الله ورسوله، ورضي بحكم غيرهما، فقال:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾ ﴾

قلت: (رأيت المنافقين)، وضع الظاهر موضع المضمر تسجيلاً عليهم بالنفاق وذمًا لهم به. وكان القياس: رأيتهم، و(صُدوداً): مصدر، أو اسم مصدر الذي هو الصد، والفرق بينه وبين المصدر: أن المصدر اسم للمعنى الذي هو الحدث، واسم المصدر اسم للفظ المحسوس، و(يحلفون) حال. و (في أنفسهم) يتعلق بقُل، وقيل ببليغا. وهو ضعيف؛ لأن الصفات لا يتقدم عليها معمولها، اللهم إلا أن يتوسع في الظروف.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ألم تر﴾ يا محمد ﴿إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك﴾ وهم المنافقون، ﴿يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت﴾، كعب بن الأشرف لفرط طغيانه. وفي معناه كل من يحكم بالباطل، ﴿وقد أمروا أن يكفروا به﴾، ويؤمنوا بالله ويرضوا بحكمه. ﴿ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيدا﴾، بأن يصرفهم عن حكم الله ورسوله.

قال ابن عباس: إنّ منافقاً خاصم يهوديا فدعاه اليهودي إلى النبي ﷺ، ودعاه المنافق إلى كعب بن الأشرف، ثم اختصما إلى رسول الله ﷺ، فحكم لليهودي بالحق، فلم يرض المنافق، وقال: نتحاكم إلى عُمَر، فقال اليهودي: نعم فذهبا إلى عمر رضي الله عنه فقال اليهودي: قضى لي رسول الله ﷺ فلم يرض بقضائه وخاصم إليك. فقال عمر للمنافق: أكذلك؟. قال: نعم ، فقال: على رسلكما حتى أخرج إليكما، فدخل وأخذ سيفه فخرج، فضرب به عنق المنافق حتى برد(١)، وقال: هكذا أقضي لمن لم يرضَ بقضاء الله وسوله، فنزلت الآية.. وقال جبريل عليه السلام: إن عمر فرّق بين الحق والباطل، فسُمي الفاروق.

﴿وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين﴾ أي: بعضَهم، ﴿يصدون عنك﴾ غير راضين بحكمك ﴿صدودا﴾ عظيما. ﴿فكيف﴾ يكون حالهم ﴿إذا أصابتهم مصيبة﴾ كقتل عمر المنافقَ، بسبب ما قدمت ﴿أيديهم﴾ من عدم الرضى بحكم الله، ﴿ثم جاؤوك﴾ يطلبون ديّة صاحبهم، ﴿يحلفون بالله إن أردنا﴾ بالإنصراف إلى عمر ﴿إلا إحسانا﴾ منه بالخصمين، ﴿وتوفيقا﴾ بينهما، قطعاً للنزاع بينهما، قال تعالى: ﴿أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم﴾ من النفاق، فلا يغني عنهم الكتمان والحلف الكاذب من الله شيئا، أو يعلم الله ما في قلوبهم من الطمع في الدية، ﴿فأعرض عنهم﴾، أي: عن قبول معذرتهم ولا تمكنهم من طمعهم، ﴿وقل لهم في أنفسهم﴾، أي: خاليا بهم ﴿قولاً بليغا﴾ يبلغ إلى قلوبهم، ويؤثر فيهم، لينزجروا عن طلب دم صاحبهم، وإنما أمر أن يعظهم خالياً بهم لأن النصح في ذلك أنجح، وأقرب للقبول، ولذلك قيل: من نصحك وحْدَكَ فقد نصحك، ومن نصحك مع الناس فقد فضحك. والله تعالى أعلم.

الإشارة: كل من دخل تحت ولاية شيخ التربية، وجب أن يرد حكوماته كلها إليه، ويرضى بما قضى عليه، وترى بعض الفقراء يزعمون أنهم في تربية الشيخ وتحت أحكامه، ثم يتحاكمون إلى حُكام الجور وقضاة الزمان في أمر الدنيا وما يرجع إليها، فهؤلاء قد ضلوا ضلالاً بعيدا. إلا أن يتوبوا ويُصلحوا ما أفسدوا، بإصلاح قلب الشيخ حتى يجبر كسرهم، فالمريد الصادق لا يصل إلى الحاكم، ولو ذهب ماله كله. فإن كان ولابد. فليوكل عنه في ذلك.

فكيف إذا أُصابت هؤلاء مصيبة وهي ظلمة القلب، وفتنة الدنيا بسبب ما قدمت أيديهم من تخطي حكم شيخهم إلى حُكم غيره، ثم جاؤوك يحلفون بالله ما أردنا إلا إحسانا وهو حفظ مالنا، وتوفيقاً بيننا وبين خصمنا، فيجب على الشيخ أن يُعرض عن عتابهم ويذكرهم حتى يتوبوا. فإن تابوا فإن الله غفور رحيم.

(١) أي: مات.

ثم أعادَ الأمرَ بطاعة الرسول وتحكيمه في جميع الأمور ترهيباً وترغيباً، فقال:

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُوا۟ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ۖ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّءَاتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾ ﴾

قلت: (تواباً رحيما) مفعولا (وَجَدَ) إن كانت علمية، أو (توابا) حال، و(رحيما) بدل منه، أو حال من ضميره إن فسرت بصادف.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وما أرسلنا من رسول﴾ من لدن آدم إلى زمانك، ﴿إلا ليُطاع بإذن الله﴾ وأمره بطاعته، فمن لم يطعه ولم يرض بأحكامه فهو كافر به. ﴿ولو أنهم﴾ أي: المنافقون حين ﴿ظلموا أنفسهم﴾ بالترافع إلى غيرك، والتحاكم إلى الطاغوت ﴿جاؤوك﴾ تائبين ﴿فاستغفروا الله﴾ بالتوبة، ﴿واستغفر لهم الرسول﴾ حين اعتذروا إليه حتى انتصب لهم شفيعا، ﴿لوجدا الله﴾ أي: تحققوا كونه ﴿تواباً رحيما﴾، قابلاً لتوبتهم متفضلاً عليهم بالرحمة والغفران. وإنما عدل عن الخطاب في قوله: ﴿ واستغفر لهم الرسولُ ﴾ ولم يقل: واستغفرت لهم، تفخيماً لشأنه، وتنبيهاً على أن من حق الرسول أن يقبل اعتذار التائبين، وإن عَظُم جُرمهم، ويشفع لهم، ومن جلالة منصبه أن يشفع في عظائم الذنوب وكبائرها.

ثم أقسم بربوبيته على نفي إيمان من لم يرض بحكم رسوله، فقال: ﴿فلا وربك لا يؤمنون﴾ إيماناً حقيقياً ﴿حتى يحكموك﴾ أي: يترافعوا إليك، راضين بحكمك، ﴿فيما شَجَر بينهم﴾ أي: اختلط بينهم واختلفوا فيه ﴿ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا﴾ أي: ضيقاً وشكاً ﴿مما قضيت﴾، بل تنشرح صدورهم لحكمك؛ لأنه حق من عند الله. ﴿ويُسلموا﴾ لأمرك ﴿تسليما﴾. أي: ينقادوا لأمرك ظاهراً وباطنا.

﴿ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم﴾، توبة من ذنوبكم، كما كتبناه على بني إسرائيل، أو في الجهاد في سبيل الله، ﴿أو اخرجوا من دياركم﴾ كما خرج بنو إسرائيل حين أمرناهم بالهجرة من مصر، ﴿ما فعلوه

إلا قليل منهم﴾ وهم المخلصون. قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: (لو كتب ذلك علينا لكنت أنا أول خارج). قال ثابت بن قيس بن شماس: (لو أمرني رسول الله ﷺ أن أقتل نفسي لفعلت). وكذلك قال عمرُ وعمارُ بن ياسر وابنُ مسعود وناس من أصحاب رسول الله ﷺ: لو أمرنا لفعلنا. فبلغ ذلك النبيُّ ﷺ فقال: «إنَّ مِنْ أُمَّتِي رِجَالاً: الإِيمَانُ في قُلوبِهِمْ أَثْبَتُ مِنَ الْجِبَالِ الرَّوَاسِي». فهؤلاء من القليل.

وسبب نزول قوله: ﴿فلا وربك ..﴾ إلخ: قصية الزُّبَيْرِ مع حَاطِب في شِرَاج الحَرَّة(١)، كَانَا يسقيانِ به النَّخْلَ، فتخاصما إلى رسول الله ﷺ فقال عليه السلام: «اسْقِ يا زُبَيْر وأَرْسِل إلى جارِك»، فقال حَاطِبُ: لأنْ كان ابن عمتك. فقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «اسْقِ يازُبَيْرُ، واحبِس الماءَ حتّى يبلغ الجِدْر(٢) واستوف حقك». وقيل: نزلت في اليهودي مع المنافق المتقدم، وهو أليق بالسياق.

﴿ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به﴾ من طاعة الرسول، والرضى بحكمه، ﴿لكان خيراً لهم﴾ في آجلهم وعاجلهم، ﴿وأشد تثبيتاً﴾ في دينهم وقوة في إيمانهم، أو تثبيتاً لثواب أعمالهم، ﴿وإذاً﴾ لو فعلوا ذلك ﴿لآتيناهم من لدنا أجرًا عظيماً ولهديناهم صراطاً مستقيماً﴾ يصلون بسلوكه إلى حضرة القدس، ودوام الأنس، ويفتح لهم أسرار العلوم، ومخازن الفهوم، قال ﷺ: «من عَمِلَ بما عَلِمَ أورثه الله علمَ ما لم يعلم». والله تعالى أعلم.

الإشارة: كما أمر الله بطاعة رسوله ﷺ في حياته، أمر بطاعة ورثته بعد مماته، وهم العلماء الأتقياء الذين يعدلون في الأحكام، والأولياء العارفون الذين يحكمون بوحي الإلهام، فالعلماء حُكَّام على العموم، والأولياء حكام على الخصوص، أعني من تعلق بهم من أهل الإرادة، فمن لم يرض بحكم العلماء، ووجد في نفسه حرجاً مما قضوا به عليه، ففيه شُعبة من النفاق، وخصلة من المنافقين. ومن لم يرض بحكم الأولياء فقد خرج من دائرتهم، ومن عُش تربيتهم، لأن حكم الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ وحكم ورثته هو حكم الله، ومن لم يرض بحكم الله خرج عن دائرة الإيمان.

فلا يكمل إيمان العبد حتى لا يجد في نفسه حرجاً من أحكام الله، القهرية والتكليفية، ويسلم لما يبرز من عنصر القدرة الأزلية، كيفما كان، فقراً أو غنى، ذلاً أو عزاً، منعاً أو عطاء، قبضاً أو بسطا، مرضاً أو صحة، إلى غير ذلك من اختلاف المقادير. ويرضى بذلك ظاهرا وباطنا، وينسلخ من تدبيره واختياره؛ إلى اختيار مولاه فهو أعلم بمصالحه، وأرحم به من أمه وأبيه؛ وبالله التوفيق. وهو الهادي إلى سواء الطريق.

---

(١) الشراج: جمع شرجة، وهي مسيل الماء من الحرَّة إلى السهل، والحرة: هي الأرض ذات الحجارة السوداء.
(٢) الجدر: أي: الجدار الذي يحيط بالمزرعة، وهو أصغر من الجدار.

ثم وعد المطيعين وعداً جميلا، وخيراً جزيلا، ترغيباً في امتثال ما أمر به من طاعة الرسول، فقال:

﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلۡفَضۡلُ مِنَ ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمٗا ﴿٧٠﴾ ﴾

قلت: «رفيقا»: تمييز لما في (حَسُن) من معنى التعجب أو المدح، ولم يجمع؛ لأن فعيلا يُحمل على الواحد والجمع، أو لأنه أريد حسن كل واحد منهم.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ومن يطع الله والرسول﴾ ويرضى بأحكامهما ويمتثل أمرهما ويجتنب نهيهما، ﴿فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم﴾، وهم أكرم الخلق عند الله وأعظمهم قدراً ﴿من النبيين﴾ والمرسلين ﴿والصديقين﴾ وهم من كثر صدقهم وتصديقهم وعظم يقينهم؛ وهم الأولياء العارفون بالله، ﴿والشهداء﴾ الذين ماتوا جهاداً في سبيل الله، ﴿والصالحين﴾ وهم العلماء الأتقياء، ومن صلح حاله من عامة المسلمين.

قال البيضاوي: قسمهم أربعة أقسام، بحسب منازلهم في العلم والعمل، وحث كافة الناس على ألاّ يتأخروا عنهم، وهم: **الأنبياء** الفائزون بكمال العلم والعمل، المتجاوزون حد الكمال إلى درجة التكميل. ثم **الصديقون** الذين صعدت نفوسهم تارة بمراقي النظر في الحجج والآيات، وأخرى بمعارج التصفية والرياضات إلى أوج العرفان، حتى اطلعوا على الأشياء وأخبروا عنها على ما هي عليها. ثم **الشهداء** الذين أدى بهم الحرص على الطاعة والجد في إظهار الحق، حتى بذلوا مُهَجَهُم في إعلاء كلمة الله، ثم **الصالحون** الذين صرفوا أعمارهم في طاعته، وأحوالهم في مرضاته. ولك أن تقول: المُنْعَمُ عليهم هم العارفون بالله، وهؤلاء إما أن يكونوا بالغين درجة العيان، أو واقفين في مقام الاستدلال والبرهان، والأولون إما أن ينالوا مع العيان القرب، بحيث يكونون كمن يرى الشيء قريبًا، وهم الأنبياء، أو لا، فيكونون كمن يرى الشيء بعيداً، وهم الصديقون، والآخرون إما أن يكون عرفانهم بالبراهين القاطعة، وهم العلماء الراسخون الذين هم شهداء الله في أرضه. وإما أن يكون بأمارات وإقناعات تطمئن إليها نفوسهم، وهم الصالحون. انتهى كلامه.

وفيه نظر من وجهين: أحدهما: أنه أطلق على أهل الاستدلال أنهم عارفون، ولا يقال عند الصوفية فيه عارف، حتى يترقى عن مقام الاستدلال، وإلا فهو عالم فقط، والثاني: أنه جعل الصديقين بمنزلة من يرى الشيء بعيداً،

وأهل الفناء لم يبق لهم بُعْدٌ ، بل غابوا في القرب حتى امتحى اسمهم ورسمهم. فأيُّ بينونة وأيُّ بُعد يبقى للعارف؟ لولا فقدان الذوق، ولكن لكلٍّ فنٍ أربابُه، وسيأتي في الإشارة تحقيق ذلك إن شاء الله.

ثم قال جل جلاله: ﴿وحسن أولئك رفيقا﴾ أي: ما أحسنهم رفقًا في الفراديس العُلى، فهم يتمتعون فيها برؤيتهم وزيارتهم والحضور معهم، وإن كانوا أعلى منهم، فلا يلزم من كونه معهم أن تستوى درجته معهم، قال في الحاشية: وتعقل مرافقة من دون النبي في المدانات من حاله وكشفه، بحيث لا يحجب عنه، وإن كان لا مطمع له في منزلته، واعتبر برؤيه البصائر له وعدم غيبته عنهم وأنسهم به والاستفادة منه، ورُوى عنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ أنه قال: «يزور الأعْلَوْن من أهل الجنة الأسفلين، ولا يزور الأسفلون الأعلين، إلا من كان يزور في الله في الدنيا، فذلك يزور في الجنة حيث شاء».

روى أن ثَوبَانَ مَولى رَسُولِ الله ﷺ أتاه يوماً وقَدْ تَغَيَّر وجْهُهُ ونَحَلَ جِسْمُهُ، فسأله عليه الصلاة والسلام عن حاله، فقال: ما بي وَجَعٌ، غَيْرَ أنّي إذَا لَمْ أرَكَ اشْتَقْتُ إليكَ، واستوحَشْتُ وَحْشَةً شَدِيدَةً حَتَّى ألقاكَ، ثُمَّ ذَكَرْتُ الآخِرَةَ فخفت ألا أرَاكَ هُنَاكَ؛ لأنى عرفت أنك تُرْفَعُ مَعَ النَّبِيِّين، وإن دخلتُ الجَنَّةَ، كُنْتُ في مَنْزِلٍ أدون مِنْ مَنْزِلِكَ، وإنْ لَمْ أدْخُلِ الجَنَّةَ فَذَلِكَ حَرِيٌ ألا أرَاكَ أبَدًا. فنزلت الآية ﴿ومن يطع الله والرسول ...﴾ إلخ.

﴿ذلك الفضل من الله﴾ إشارة إلى ما للمطيعين من الأجور، ومزيد القرب والحضور، وأنه فضل تفضل على عباده، ﴿وكفى بالله عليما﴾ بمقادير الأعمال والمقامات، فيُجازى كُلاً على حسب مقامه. والله تعالى أعلم.

الإشارة: اعلم أن الطاعة التي توجب المعية الحسية في النعيم الحسى الجسماني هي الطاعة الظاهرة الحسية. والطاعة التي توجب المعية المعنوية في النعيم الروحاني هي الطاعة الباطنية القلبية. فالمعية الحسية صاحبها مفروق، والمعية المعنوية صاحبها مجموع، لا يغيب عن حبيبه لحظة. هؤلاء هم الصديقون المقربون. وفوقهم الأنبياء، وتحتهم الشهداء والصالحون.

وبيان ذلك أن العلم بالله تعالى: إما أن يكون عن كشف الحجاب وانقشاع السحاب، أعنى سحاب الأثر، وهم أهل الشهود والعيان. وإما أن يكون من وراء الحجاب، يأخذون أجرهم من وراء الباب، يستدلون بالآثار على المؤثر. وهم أهل الدليل والبرهان. والأولون إما أن يرتقوا إلى مكافحة الوحى ورؤية الملائكة الكرام. وهم الأنبياء والرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ ، وإما أن يقصروا عن درجة الوحى ويكون لهم وحى إلهام، وهم الصديقون؛ أهل الحال والمقام، فقد اشتركوا في مقام العيان. لكن مقام الحضرة فضاؤه واسع، والترقى في معارج أسرار التوحيد غير

متناهٍ، فحيث انتهى قدم الولي ابتدأ ترقي النبي، وأما أهل الحجاب فإما أن يكون علمهم بالله بالبراهين القطعية والدلائل السمعية، وهم العلماء الراسخون، وهو مقام الشهداء، وإما أن يكون علمهم بالرياضات والمجاهدات وتواتر الكرامات، وهم العباد والزهاد. وهو مقام الصالحين، ويلتحق بهم عوام المسلمين، لأن كل مقام من هذه المقامات فيه درجات ومقامات لا يحصرها إلا العالم بها. والله تعالى أعلم.

ثم رغَّب في الجهاد الذي هو المقصود، فقال:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ خُذُوا۟ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُوا۟ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُوا۟ جَمِيعًا ﴿٧١﴾ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَـٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَىَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَـٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَـٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾ ۞ فَلْيُقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾ ﴾

قلت: الحِذْر والحَذَر واحد، كالشِّبْه والشَّبَه، وبطأ يستعمل لازماً بمعنى ثقل، ومتعدياً ـ بالتضعيف ـ أي: بطأ غيره، و(لَمَن ليبطئن) اللام الأولى للابتداء، والثانية للقسم، أي: وإنَّ منكم ـ أُقسم بالله ـ لمن ليبطئن. وجملة: (كأن لم يكن): اعتراضية بين القول والمقول، تنبيهاً على ضعف عقيدتهم، وأن قولهم هذا قولُ من لا مواصلة بينكم وبينه.

يقول الحق جل جلاله: ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ تأهبوا واستعدوا لجهاد الأعداء، و﴿خذوا حذركم﴾ منهم؛ بالعُدَّةِ والعَدَد، ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة، ولا حجة فيه للقدرية؛ لأن هذا من الأسباب التي ستر الله بها أسرار القدرة. وقد قال لنبيِّه ـ عليه الصلاة والسلام ـ: ﴿ قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا ﴾ وقال ـ عليه الصلاة السلام ـ: «اعقلها وتوكل». وفي ذلك طمأنينة للقلوب التي لم تطمئن وتشريعاً للضعفاء، فإذا تأهبتم واستعددتم ﴿فانفروا﴾ أي: اخرجوا إلى الجهاد ﴿ثُباتٍ﴾ أي: جماعات متفرقة، سرية بعد سرية، ﴿أو انفروا جميعا﴾ أي: مجتمعين مع نبيكم، أو مع أميركم.

﴿وإن منكم﴾ يا معشر المسلمين ﴿لمن ليبطئن﴾ الناس عن الجهاد، أو ليتثاقلن ويتخلفن عنه، وهو عبدالله بن أُبيّ المنافق، وأشباهه من المنافقين، ﴿فإن أصابتكم مصيبة﴾؛ كقتل أو هزيمة ﴿قال قد أنعم الله عليّ﴾

حين تخلفت ﴿إذ لم أكن معهم شهيدا﴾ فيصيبني ما أصابهم. ﴿ولئن أصابكم فضل من الله﴾، كنصر وغنيمة، ﴿ليقولن﴾ لفرط عداوته: ﴿يا ليتني كنتُ معهم فأفوز فوزاً عظيما﴾، بالمال والعز. كأن ذلك المنافق، لم يكن بينكم وبينه مودة ولا مواصلة أصلاً، حيث يتربص الدوائر، يفرح بمصيبتكم ويتحسر بعزكم ونصركم .

فإن تثاقل هذا عن القتال أو بطأ غيره، ﴿فليقاتل في سبيل الله﴾ أهلُ الإخلاص والإيمان ﴿الذين يشرون﴾، أي: يبيعون ﴿الحياة الدنيا بالآخرة﴾، فيؤثرون الآخرة الباقية على الدنيا الفانية، ﴿ومن يقاتل في سبيل الله﴾ لإعلاء كلمة الله ﴿فيُقتل﴾ شهيداً ﴿أو يَغلب﴾ عدوه وينصره الله ﴿فسوف نؤتيه أجرا عظيما﴾، وإنما قال تعالى: ﴿فيُقتل أو يَغلب﴾ تنبيهاً على أن المجاهد ينبغي أن يثبت في المعركة، حتى يعز نفسه بالشهادة، أو الدين بالظفر والنصر. وألا يكون قصده بالذات القتل، بل إعلاء الحق وإعزاز الدين. قاله البيضاوي.

الإشارة: يا أيها الذين آمنوا إيمان الخصوص، خذوا حذركم من خدع النفوس، لئلا تعوقكم عن حضرة القدوس، فانفروا إلى جهادها ثُباتٍ أو جماعة؛ «فإن يد الله مع الجماعة»، فالصحبة عند الصوفية شرط مؤكد وأمر محتم. والله ما أفلح من أفلح إلا بصحبة من أفلح، فالنفس الحية لا تموت مع الأحياء، وإنما تموت مع الأموات، فهي كالحوت مادامت في البحر مع الحيتان لا تموت أبداً، فإذا أخرجتها وعزلتها عن أبناء جنسها ماتت سريعا. كما قال شيخنا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

وإن من نفوسكم لمن لِيبطئنكم عن السير إلى حضرة قدسكم، تفر من مواطن الشدة والمحن، وفي ذلك حياتها لو تعقل وتفطن، فإن أصابتكم ـ أهلَ النسبة ـ نكبة، أو تعرف من التعرفات، ولم يصادفها في ذلك الوقت شيء من تلك النكبات، قال: قد أنعم الله عليَّ إذ لم أكن معهم شهيدا، ولئن أصابكم بعد ذلك فضل من الله كنفحات ربانية وخمرات أزلية، قالت: يا ليتني كنتُ معهم فأفوز كما فازوا، فليجاهد نفسَه في سبيل الله مَنْ أراد الظفر بحضرة الله، يقدمها إلى المكاره، وهو كلُّ ما يثقل عليها، ويجنبها الشهوات، وهو كل ما يخف عليها، هكذا يسير معها ويقاتلها، حتى يموت أو يغلبها ويظفر بها.

قال بعض المشايخ: انتهى سير السائرين إلى الظفر بنفوسهم. فإن ظفروا بها وصلوا. هـ. وحينئذ تذهب عنه المتاعب والأنكاد، وتصير الأزمنة كلها عنده مواسم وأعياد، ويقال له حينئذ:

لك الدهرُ طوعٌ والأنامُ عبيدُ فعِشْ كلُّ يومٍ مِنْ أيّامك عِيدُ

ويقال له أيضا:

بَـدَا لكَ سِـرٌّ طَالَ عنْـكَ اكْتِتَامُـهُ ولاحَ صَبَـاحٌ كُـنْتَ أنتَ ظَلاَمُـه
فأنْتَ حِجـابُ القلبِ عن سِرِّ غيْبِـه ولَـولاكَ لـم يُطْبَعْ عليـهِ خِتَامُـهُ
إذا غِـبتَ عَنْه حَلَّ فيه وطَنَّبَـتْ(١) علـى موكبِ الكَشْفِ المَصُون خِيامُهُ
وجـاءَ حديـثٌ لا يُمَـلُّ سَمَـاعُهُ شَهِـيٌّ إلينـا نَـثْرُهُ ونِظَـامُـهُ
إذا سَمِعَتْـهُ النفـسُ طابَ نَعيمُـهَا وزالَ عَنِ القلْـبِ المُعَـنَّى غَرَامُهُ(٢)

ثم عاتب العباد على عدم النهوض إلى الجهاد، فقال:

﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ﴾

قلت: (ما) مبتدأ. و(لكم) خبر. و(لا تقاتلون) حال، و(المستضعفين) عطف على اسم الجلالة، أي: أيّ شيء حصل لكم حال كونكم غير مجاهدين في سبيل الله وفي تخليص المستضعفين؟ و(الظالم) نعت للقرية، وإنما ذُكّر ولم يؤنث، لأنه أسند إلى المذكر، واسم الفاعل إذا جرى على غير مَنْ هو له أجرى مجرى الفعل، فيذكر ويؤنث باعتبار الفاعل.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وما لكم﴾ يا معشر المسلمين ﴿لا تقاتلون في سبيل الله﴾، وفي تخليص إخوانكم ﴿المستضعفين﴾ بمكة، الذين حبسهم العدو أو أسرهم ومنعهم من الهجرة؛ ﴿من الرجال والنساء والولدان﴾، فهم في أيديهم مغللون ممتحنون. قال البيضاوي: وإنما ذكر الولدان مبالغة في الحث وتنبيهًا على تناهي ظلم المشركين بحيث بلغ أذاهم الصبيان، وأن دعوتهم أجيبت بسبب مشاركتهم في الدعاء، حتى تشاركوا في استنزال الرحمة واستدفاع البلية. هـ.

ثم ذكر دعاءهم فقال: ﴿الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية﴾ أي: مكة ﴿الظالم أهلها﴾ بالشرك والطغيان حتى تعدى إلى النساء والصبيان. ﴿واجعل لنا من لدنك وليا﴾ يصوننا عن أذاهم، ﴿ونصيرًا﴾ يمنعنا

(١) الطُّنُب - بضمتين -: الحبل الذي تشد به الخيمة ونحوها.

(٢) الأبيات لأبي العباس العريف، انظر: إيقاظ الهمم.

من التخلف عن الهجرة إلى رسولك ﷺ، فاستجاب الله دعاءهم بأن يسَّر لبعضهم الخروج إلى المدينة، وجعل لمن بقي منهم أعظم ولي وناصر، بفتح مكة على نبيه ﷺ، فتولاهم ونصرهم، واستعمل عليهم عتَّاب بن أسيد، فحماهم وأعزهم حتى صاروا أعزاء أهلها، كما هي عادته سبحانه في إجابة دعاء المضطرين.

الإشارة: ما لكم يا معشر العباد، وخصوصا المريدين من أهل الجد والاجتهاد، لا تجاهدون نفوسكم في طريق الوصول إلى الله، كي تنالوا بذلك مشاهدة جماله وسناه، وتخلصوا ما كمن في نفوسكم من الأسرار، وما احتوت عليه من العلوم والأنوار. فإن قرية البشرية قد احتوت عليها وأسرتها بظلمات شهواتها، واستضعفتها بتراكم غفلتها وتكثيف حجاب حسها. فمن جاهدها استخلص جواهر تلك العلوم والأسرار مِنْ صدَفِها. وفي ذلك يقول ابن البنا في مباحثه:

ولم تزلْ كلُّ النُّفوسِ الأحيا   علاَّمةً درَّاكةً للأشيَا
وإنما تَعُوقُها الأبْدَان   والأنفس النزع والشَّيْطَان
فكلُّ مَنْ أذاقهم جهاده   أظهرَ للقاعد خَرْقَ العاده

وقال أيضا:

وَهِيَ مِنْ النفوس في كُمُون   كما يكون الحَبُّ في الغُصُون.

فالرجال: الأسرار والأنوار، والنساء: العلوم والأذكار، والولدان: الحكم بنات الأفكار. فكل هؤلاء مستضعفون تحت قهر البشرية الظالم أهلها. من الأنفس النزع والشياطين المغوية، فكل من جاهد هؤلاء القواطع أظهر تلك العلوم والأنوار السواطع، واستخلص رُوحه من أسر حجاب الأكوان، وأفضى إلى فضاء الشهود والعيان. وبالله التوفيق. وهو الهادي إلى سواء الطريق.

ثم حثَّ أولياءه من أهل الإيمان أن يقاتلوا أولياء الشيطان، فقال:

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله في مدح المخلصين: ﴿الذين آمنوا يُقاتلون في سبيل الله﴾، وابتغاء مرضات الله، وإعلاء لكلمة الله، ﴿والذين كفروا﴾، من أهل مكة وغيرهم، ﴿يُقاتلون في سبيل الطاغوت﴾ وهو

الشيطان، ﴿فقاتلوا﴾ يا أولياءَ الله ﴿أولياء الشيطان﴾ ولا يهولكم كيده؛ ﴿إن كيد الشيطان كان ضعيفا﴾، وكيد الله للكافرين كان قوياً متينا، فلا تخافوا أولياءه، فإنهم اعتمدوا على أضعف شيء وأوهنه، وأنتم اعتمدتم على أقوى شيء وأمتنِه.

الإشارة: كل ما سوى الله طاغوت، فمن قصد بجهاده أو عمله رضى الله والوصول إلى حضرته دون شيء سواه، كان من أولياء الله، ومن قصد بجهاده أو أعماله حظاً دنيوياً أو أخرويا خرج من دائرة الولاية، فإما أن يكون مع عامة أهل الإيمان، أو من أولياء الشيطان. قال ﷺ: «إنَّما الأعمَالُ بالنيات، وإنما لكلِّ امرئٍ مَا نَوَى، فمنْ كانَتْ هجْرَتُه إلى اللهِ ورسولِه فهجرتُه إلى اللهِ ورسولِه، ومن كانتْ هجرتُه إلى دُنيا يُصيبهاُ أو امرأةٍ ينكِحُها، فهجرتُهُ إلى ما هَاجَرَ إليه». وقال في الحِكَم: «لا ترحل من كَوْنٍ إلى كَوْنٍ، فتكون كحمار الرحى، يسير والذى ارتحل منه هو الذى ارتحل إليه، ولكن ارحل من الأكوان إلى المُكَوِّن، ﴿وأن إلى ربك المنتهى﴾».

ثم عاتب الحقُّ جل جلالهُ قوماً طلبوا فرض الجهاد، فلما فُرِضَ عليهم خطر ببالهم شيء من طبع البشر، الذى هو الخوف من الموت، فقال:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ... ﴾

قلت: (أو أشد) عطف على الكاف النائبة عن المصدر، أي: خشيةً مثل خشية الله أو أشد، وهو من إضافة المصدر إلى المفعول، أي: مثل خشيتهم الله.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ألم تر﴾ يا محمد ﴿إلى الذين﴾ طلبوا منك فرضَ الجهاد حرصًا على أن يجاهدوا، فقيل لهم على لسان الرسول: ﴿كُفوا أيديكم﴾ عنه إلى أوانِ فَرْضِه، واشتغلوا بما أُمِرتم به من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، ﴿فلما كُتب عليهم القتال﴾ دخلهم الخوف ﴿إذا فريق منهم يخشون الناس﴾ أي:

الكفار، أن يقتلوهم مثل خشية عقاب ﴿الله﴾ أو أشد خشية منه. ﴿وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال﴾ في هذا الوقت ﴿لولا﴾: هلا ﴿أخرتنا إلى أجل قريب﴾ نتمتع فيه بحياتنا أو إلى أن نموت بآجالنا. قلت: والظاهر أنهم قالوا ذلك في نفوسهم، خواطر خطرت لهم، ولم يفوهوا به، إن نزلت في الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ، وإن كانت في المنافقين فيمكن أن ينطقوا بها.

﴿قل متاع الدنيا قليل﴾ وعيشها ذليل، وأجلها قريب، ﴿والآخرة خير لمن اتقى﴾، وحياتها خير وأبقى، وستَقْدُمون على مولاكم، فيكرم مثواكم، ويوفيكم جزاء أعمالكم، ﴿ولا تظلمون فتيلا﴾ من ثواب أعمالكم، ولا تنقصون من أيام أعماركم، جاهدتم أو قعدتم.

﴿أينما تكونوا يدرككم الموت﴾ عند انقضاء آجالكم، ﴿ولو كنتم في بروج مشيدة﴾ عالية محصنة. فإن كان الموت لابد منه ففي الجهاد أفضل، لأنه حياة لا موت بعده. قال الكلبي: نزلت في قوم من الصحابة، منهم: عبدالرحمن بن عوف، والمِقْداد وقُدامة بن مظعون وغيرهم، كانوا يُؤْذَوْنَ بمكة، ويستأذنون النبي ﷺ في القتال، فيقول لهم: كفوا أيديكم حتى يؤذن فيه لكم، فلما هاجروا إلى المدينة وأُمروا به، كرهه بعضهم كراهية الطبع البشري، فخطر ببالهم شيء مما حكى الله عنهم. فلما كانوا في عين العناية ومحل القرب والهداية عوقبوا على تلك الخواطر، ولو كان غيرهم من أهل البُعد لسومح له في ذلك، وقيل: نزلت في قوم من المؤمنين أُمروا بالجهاد فنافقوا من الجُبن، وتخلفوا عن الجهاد، وهذا أليق بما بعده من قوله: ﴿إن تصبهم حسنة﴾. والله تعالى أعلم.

الإشارة: نرى بعض الفقراء يبطشون إلى مقام التجريد ومجاهدة نفوسهم قبل كمال يقينهم، فإذا أُمروا بذلك، ورأوا ميادين الحروب واشتعال نيران قتل النفوس، وأمروا بالصبر على المكاره، من مواجهة الإنكار ولحوق الذل والافتقار، جبنوا وكلّوا ورجعوا القهقرى، فيقال لهم: متاعُ الدنيا قليل وعزيزها ذليل، وغنيها فقير، وكبيرها حقير، وما تنالون من الله في جزاء مجاهدتكم خيرٌ وأبقى، ولا تُظلمون فتيلا من مجاهدتكم لنفوسكم، فلو صبرتم لفزتم بالوصول إلى حضرة ربكم، فلما جبُنتم ورجعتم، كان جزاؤكم الحرمان، عما ظفر به أهل العرفان.

وفي مثل هؤلاء يقول ابن الفارض رضي الله عنه:

تعرّضَ قومٌ للغرامِ وأعرَضوا ... بجانبهم عن صحّتي فيه واعتلّوا

رضوا بالأماني، وابتُلوا بحظوظهم ... وخاضوا بحارَ الحبِّ، دعوى، فما ابتلّوا

فهمْ في السُّرى لم يبْرَحوا من مكانهم ... وما ظَعَنوا في السير عنه، وقد كلّوا

ثم حكى مقالتهم الدالة على نفاقهم، فقال:

﴿ ... وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ... ﴾

يقول الحق جل جلاله في وصف أهل النفاق: وإنهم إن ﴿تصبهم حسنة﴾ كخصب ورخاء ونعمة ظاهرة، قالوا: ﴿هذه من عند الله﴾، ونسبوها إلى الله بلا واسطة، ﴿وإن تصبهم سيئة﴾ كقحط وجوع وموت وقتل، قالوا للرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ: ﴿هذه من عندك﴾ بشؤم قدومك أنت وأصحابك، كما قالت اليهود ـ لعنهم الله ـ: منذ دخل محمدٌ المدينة نقصت ثمارها وغلت أسعارها.

قلت: بل زكت ثمارها، ورخصت أسعارها، وأشرقت أنوارها، ولاحت أسرارها، وقد دعا ﷺ للمدينة بمثل ما دعا إبراهيمُ لمكة، وأضعاف ذلك، فمازالت الخيرات تترادف إليها حساً ومعنى إلى يوم القيامة، وهذه المقالة قد صدرت ممن كان قبلهم؛ فقد قالوا لسيدنا صالح عليه السلام: ﴿قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ﴾، ﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾. قال تعالى مكذباً لهم: ﴿قل كل من عند الله﴾؛ الحسنة بفضله، والسيئة بعدله. ثم عيرهم بالجهل فقال: ﴿فمال هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا﴾؛ فهُم كالبهائم أو أضل سبيلا، أو لا يفقهون القرآن ويتدبرون حديثه، ولو تدبروا لعلموا أن الكل من عند الله، وأنه خالق كل شيء، المقدِّر لكل شيء.

ثم علَّمنا الأدب بنسبة الكمالات إليه سبحانه بلا واسطة، ونسبة النقائص إلى شؤم ذنوبنا، فقال: ﴿ما أصابك من حسنة﴾ أي: نعمة ﴿فمن الله﴾ فضلاً وإحسانا، وأما طاعة العبد فلا تفي بشكر نعمة واحدة، ولذلك قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «لن يَدْخُلَ أحدُكُمُ الجنةَ بعمله»، قيل: ولا أنْتَ يارسول الله؟ قال: «ولا أنَا، إلا أنْ يتَغمدني الله برَحْمته».
﴿وما أصابك﴾ أيها الإنسان ﴿من سيئة﴾ أي: بلية ﴿فمن نفسك﴾ أي: شؤم ذنبك، وعنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ أنه قال: «مَا مِنْ خَدْشٍ بعُود ولا اخْتلاج عرق ولا غيره إلا بذنب، وما يعفو الله عنه أكْثرُ». فلا ينافي قوله: ﴿قل كل من عند الله﴾؛ فإن الكل منه إيجاداً واختراعا، غير أن الحسنة إحسانٌ، والسيئة مُجازاة وانتقام. كما قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ: «مَا مِنْ مُسلمٍ يُصيبه وَصَبٌ ولا نَصَبٌ، حتى الشوكة يُشَاكها، وحتى انقطاع شِسْعِ نَعْلِه، إلا بذنب، وما يعفو الله عنه أكثر».

وفي مصحف ابن مسعود: (قالوا ما أصابك من حسنة فمن الله) الآية، فتكون حينئذ من مقالة المنافقين، والآيتان كما ترى لاحجة فيها للمعتزلة. والله تعالى أعلم.

الإشارة: ثلاث خصال لا ينجو منها إلا القليل كما في الحديث: الطيرة، والحسد، والظن. فقال ـ عليه الصلاة السلام: «إذا تَطَيَّرْتَ فامضِ، وإذا حسدتَ فلا تبغ، وإذا ظننت فلا تُحقِّقْ». فيتأكد على المريد أن يتطهر من هذه الخصال، ويصفي مشربه من التوحيد، فلا يرى في الوجود إلا مولاه، ولا ينسب التأثير إلى شيء سواه، إذا رأى نعمة به أو بغيره، قال: من الله، وإذا رأى مصيبة كذلك تأدب مع الله، فيعتقد في قلبه أنها من قَدَرِ الله، يقول: ﴿قل كل من عند الله﴾، وينسب النقص إلى نفسه وهواه، فالنفس والشيطان مناديل الحضرة، تمسح فيهما أوساخ الأقدار، ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾. والله تعالى أعلم.

ثم شَهِدَ جل جلاله لرسوله بالرسالة، تحريضاً على تعظيمه وحثاً على طاعته، وترهيباً من سوء الأدب معه، كما صدر من المنافقين، فقال:

﴿ ... وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾ مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾ ﴾

قلت: إن تعلق الجار بالفعل كان (رسولا) حال مؤكدة، وإن تعلق بالاسم كان حالا مؤسسة تفيد العموم؛ أي أرسلناك رسولا للناس جميعا، و(حفيظا) حال من الكاف.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وأرسلناك﴾ يا محمد ﴿للناس رسولا﴾ تعلمهم التوحيد وتدلهم على الأدب، فالتوحيد محله البواطن، فلا يرى الفعل إلا من الله، والأدب محله الظواهرفينسب بلسانه النقص إلى نفسه وهواه. وإذا شهد الحق ـ جل جلاله ـ لرسوله بالرسالة أغنَى عن غيره، ﴿وكفى بالله شهيدا﴾. وشهادة الحق له بالمعجزات الواضحات، والبراهين القطعيات، والدلائل السمعيات، فإذا ثبتت رسالته وجب على الناس طاعته، ولذلك قال: ﴿ من يطع الرسول فقد أطاع الله ﴾؛ لأنه مُبلغ عن الله لا ينطق عن الهوى. رُوي أنه ﷺ قال: «مَنْ أطَاعَنِي فَقَدْ أطَاعَ اللهَ، ومَنْ أحَبني فَقَدْ أحبَ اللهَ» فقال بعض المنافقين: ما يريد هذا الرجل إلا أن نتخذه ربّاً، كما اتخذت النصارى عيسى. فنزل: ﴿من يطع الرسول فقد أطاع الله ومن تولى﴾ وأعرض ﴿فما أرسلناك عليهم حفيظا﴾ تَحْفَظُ عليهم أعمالهم، وتحاسبهم عليها، إنما عليك البلاغ وعلينا الحساب.

الإشارة: كما شهد الحق ـ جل جلاله ـ لرسله بالرسالة، بما أظهر لهم من المعجزات، شهد لأوليائه بالولاية بما منحهم من الكرامات. والمراد بالكرامة: هي تحقيق العرفان، ومعرفة الذوق والوجدان، واستقامة الظواهر والبواطن، وتهذيب الأخلاق وهداية الناس على يديه إلى العليم الخلاق، فهذه الكرامة المعتبرة عند المحققين، فمن أطاعهم فقد أطاع الله، ومن أعرض عنهم فقد أعرض عن معرفة الله، ومن أحبهم فقد أحب الله، ومن أبغضهم فقد أبغض الله؛ لأنهم نور من أنوار الله، وعين من عيون الله، إذ لم يبق فيهم بقية مما سوى الله، أقدامهم على قدم رسول الله، «إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله». فافهم، والله تعالى أعلم.

ثم ذَكَرَ أحوال أهل النفاق، فقال:

﴿ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾ ﴾

قلت: (طاعة): خبر، أي: أمرنا طاعة، وأصله النصب على المصدر، ورُفِعَ للدلالة على الثبوت، وبيَّتَ الشيء: دبَّره ليلاً وأضمره في نفسه.

يقول الحق جل جلاله في شأن المنافقين: ﴿ويقولون﴾ لك إذا حضروا معك: أمرُنا وشأننا ﴿طاعةٌ﴾ لك فيما تأمرنا به، ﴿فإذا برزوا﴾ أي: خرجوا ﴿من عندك بيَّت طائفة منهم﴾ أي: دبَّرت ليلاً وأخفت من النفاق ﴿غير الذى تقول﴾ لك من قبول الإيمان وإظهار الطاعة، أو زوَّرت خلاف ماقلتَ لها من الأمر بالطاعة، ﴿والله يكتب ما يبيتون﴾ أي: يُثْبِتُه في صحائفهم فيجازيهم عليه، ﴿فأعرض عنهم﴾ ولا تبال بهم، ﴿وتوكل على الله﴾ يكفك شرهم، ﴿وكفى بالله وكيلا﴾ عليهم، فسينتقم لك منهم.

الإشارة: هذه الخصلة موجودة في بعض العوام؛ إذا حضروا مع أهل الخصوصية أظهروا الطاعة والإقرار، وإذا خرجوا عنهم بيَّتوا الانتقاد والإنكار، فلا يليق إلا الإعراض عنهم، والغيبة في الله عنهم، فإن الله يكفي شرهم بكفالته وحفظه. والله تعالى أعلم.

ثم دلَّهم على ما فيه دواء مرض قلوبهم، فقال:

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: أفلا يتدبر هؤلاء المنافقون ﴿القرآن﴾، وينظرون ما فيه من البلاغة والبيان، ويتبصَّرون في معاني علومه وأسراره، ويطلعون على عجائب قصصه وأخباره، وتَوافُق آياته وأحكامه، حتى يتحققوا أنه ليس من طوق البشر، وإنما هو من عند الله الواحد القهار، ﴿ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا﴾ بيِّن أحكامه وآياته، من تفاوتِ اللفظ وتناقض المعنى، وكَوْن بعضه فصيحًا، وبعضه ركيكًا، وبعضه تصعب معارضته وبعضه تسهل، وبعضه توافق أخباره المستقبلة للواقع، وبعضه لا يوافق، وبعضه يوافق العقل، وبعضه لا يوافقه، على ما دل عليه الاستقراء من أن كلام البشر، إذا طال، قطعًا يوجد فيه شيء من الخلل والتناقض.

قال البيضاوي: ولعل ذكره للتنبيه على أن اختلاف ما سبق من الأحكام ليس للتناقض في الحكم، بل لاختلاف الأحوال من الحكم والمصالح. هـ. قال ابن جزي: وإن عَرَضَتْ لأحدٍ شبهةٌ وظن اختلافًا في شيء من القرآن، فالواجب أن يتّهِمَ نظره، ويسأل أهل العلم ويطالع تآليفهم، حتى يعلم أن ذلك ليس باختلاف. هـ.

الإشارة: تدبر القرآن على حسب صفاء الجنان، فبقدر ما يتطهر القلب من حب الدنيا والهوى تتجلى فيه أسرار كلام المولى، وبقدر ما يتراكم في مرآة قلبه من صور الأكوان، يتحجب عن أسرار معاني القرآن؛ ولو كان من أكابر علماء اللسان. فلما كان القرآن هو دواء لمرض القلوب، أمر الله المنافقين بالتدبر في معانيه؛ لعل ذلك المرض ينقلع عن قلوبهم، لكن الأقفال التي على القلوب منَعَتْ القلوبَ من فهم كلام علام الغيوب، فحلاوة كلام الله لا يذوقها إلا أهل التجريد، الخائضون في تيار بحار التوحيد، الذين صَفَتْ قلوبُهم منَ الأغيار، وتطهرت من الأكدار، يتمتعون أولاً بحلاوة الكلام، ثم يتمتعون ثانياً بحلاوة شهود المتكلم. والله تعالى أعلم.

ومن مساوئ المنافقين إفشاء أسرار المؤمنين، كما قال تعالى:

﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِۦ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ... ﴾

قلت: استنبط الشيء: استخرجه من غيره، وأصل الاستنباط: إخراج النبْط، وهو الماء، يخرج من البئر أول ما يحفر، والجار في (منهم): إما بيان للموصول، أي: لعلم المستنبطون الذين هم أولو الأمر، أو يتعلق بـ (علم)، أي: لعلمه الذين يستخرجونه إلى الناس من أولي الأمر.

يقول الحق جل جلاله: في ذم المنافقين أو ضعفة المسلمين: ﴿وإذا جاءهم أمرٌ﴾ أي: خبر عن السرايا الذين توجهوا للغزو، من نصر وغنيمة وأمن أوخوف، وقتل وهزيمة، ﴿أذاعوا به﴾ أي: تحدثوا به، وأشهروه، وأرجفوا به قبل أن يصل إلى الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ وأكابر الصحابة، الذين هم أولو الأمر وأهل البصائر، فيعرفون كيف يتحدثون به.

ولو ردوا ذلك ﴿إلى الرسول﴾ وأخبروه به سراً، أو سكتوا حتى يصل إليه، أو يردوه ﴿إلى أولي الأمر﴾ من أكابر الصحابة، لعلمه الذين يستخرجونه إلى الناس ﴿منهم﴾، فينقلونه على وجهه، ويعرفون كيف يتحدثون به من غير إرجاف ولا تخويف، أو ﴿لعَلمَه الذين يستنبطونه﴾ وهم أولو الأمر أولاً، ثم يعلم الناس، فلا يكون فيه إرجاف ولا سوء أدب. أو: وإذا جاءهم أمر من وحي السماء: من تخويف أو تأمين، أذاعوا به قبل أن يظهره الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ، ولو سكتوا وردوا ذلك إلى الرسول حتى يتحدث به للناس، ويظهره أولو الأمر من أكابر أصحابه، لعلمه الذين يستخرجون ذلك الوحي من أصله، وهو الرسول ـ عليه الصلاة السلام ـ وأكابر أصحابه، كما فعل عمر رضي الله عنه: إذ سمع أن رسول الله ﷺ طلق نساءه، فدخل عليه فقال: أطلقت نساءك؟ قال: «لا»، فقام على باب المسجد، فقال: إن رسول الله ﷺ لم يطلق نساءه، فأنزل الله هذه القصة، قال: وأنا الذي استنبطته. والله تعالى أعلم.

الإشارة: قالت الحكماء: قلوب الأحرار قبور الأسرار، وهذه الخصلة التي ذمّها الله تعالى توجد في كثير من العوام؛ مهما سمعوا خبراً: خيراً أو شراً، بادروا إلى إفشائه، ولا سيما إذا سمعوه على أهل النسبة أو أهل الخصوصية، وقد توجد في بعض الفقراء، وهي غفلة ونوع من الفضول، فالفقير الصادق غائب عن أخبار الزمان وأهله، وقد ترك الناسَ وما هم فيه، وقد تغلب عليه الغيبة في الله حتى تغيب عنه الأيام، وأما الفقير الذي يتسمع الأخبار ويبحث عنها فلا نسبة له في الفقر، إلا اسم بلا مسمى، وقد ترى بعض الفقراء، يُبَلِّغُ مساوئَ إخوانه إلى المشايخ، وهو سبب الطرد، والعياذ بالله. وقد كان ﷺ يقول: «لا تبلغوني مساوئ أصحابي»[1]؛ لأن ذلك يسوؤهم، والخير كله في إدخال السرور على قلوب المشايخ.

وتنسحب الآية على مَنْ يُفْشِي أسرار الربوبية، ويُطلع الفقراء علَى الحقيقة، ولو ردوا ذلك إلى شيخهم حتى يكون هو الذي يطلعهم لكان أحسن، لأن الحقيقة إذا أُخذَتْ من الشيخ كان فيها سر كبير، بخلاف ما إذا أُخذَتْ من غيره، إلاَّ إذا كان مأذوناً له في ذلك فكأنه هو. والله تعالى أعلم.

---

(١) الحديث لم أقف عليه بهذا اللفظ، وورد عنه ﷺ: «لا يبلغني أحد من أصحابي عن أحد شيئاً، فإني أحب أن أخرج إليكم سليم الصدر». أخرجه أبو داود في (الأدب، باب رفع الحديث من المجلس) والترمذي في (المناقب، باب فضل أزواج النبي) من حديث ابن مسعود.

وقال الورتجبي: قال أبو سعيد الخراز: إن له عباداً يدخل عليهم الخلل، ولولا ذلك لفسدوا وتعطلوا، وذلك أنهم بلّغوا من العلم غاية، صاروا إلى علم المجهول، الذي لم يصُّه كتاب، ولا جاء به خبر، لكنْ العقلاء العارفون، يحتجون له من الكتاب والسنة، بحسن استنباطهم ومعرفتهم، قال الله تعالى: ﴿لعلمه الذين يستنبطونه منهم﴾. هـ.

قلت: ومعنى كلامه: أن الله ـ تعالى ـ أشغل علماء الظاهر بتقرير علم الفرق، ولولا اشتغالهم بذلك لتعطلوا وتبطلوا، إذ لا قدرة لهم على عمل القلوب من الفكرة والنظرة، لكنْ العارفون يقرون لهم ذلك، ويحتجون لهم بما في نشر العلم من الأجور، من الكتاب والسنة، لأنهم قاموا بنظام علم الحكمة ورفعوا علم الشريعة، ولولا قيامهم بذلك لتعين على أهل الباطن، فتتشوش عليهم قلوبهم، وكان شيخ شيوخنا سيدي على الجمل العمراني رضي الله عنه يقول: جزاهم الله عنا خيراً؛ رفعوا لنا علم الشريعة، نحن نغرق في البحر، ثم نرفع رأسنا فنرى العلم قائماً، ثم نرجع إلى البحر. هـ. بالمعنى، والله تعالى أعلم.

ثم إن الهداية بيد الله، قوم أقامهم في الفرق، وقوم هداهم إلى الجمع، كما قال تعالى:

﴿... وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾﴾

يقول الحق جل جلاله: لولا أن الله تفضل عليكم ورحمكم بنبي الرحمة، وأنقذكم من متابعة الشيطان وعبادة الأوثان، لبقيتم على كفركم وضلالكم، ولاتبعتم الشيطان فيما يأمركم به من الكفر والعصيان، إلا قليلا ممن اهتدى قبل بعثته، كقس بن ساعدة، وزيد بن نفيل، وورقة بن نوفل، رزقهم الله كمال العقل؛ فنظروا وتفكروا بعقولهم؛ فوجدوا الله واعتزلوا ما كان يعبد آباؤهم وإخوانهم. أما قس فاعتزل قومه، وعبد الله وحده، وكان يخطب على الناس ويأمرهم بالتوحيد، ويعيب عليهم عبادة الأصنام. وعاش سبعمائة عام. وأما زيدٌ فتعلق بالحنيفية، دين إبراهيم، حتى مات قبل البعثة. وأما ورقة ـ فأخذ بدين النصرانية التي لم تُغَيَّر، وأدرك أول البعثة، وآمن بالرسول قبل أن يُؤمر بالإنذار. قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «رأيتُه في الجنة عليه ثيابٌ خُضر». والله تعالى أعلم.

الإشارة: لولا فضل الله عليكم بأن بعث لكم مَنْ يدلكم على الله ويعرفكم بالله، ورحمته بأن أخرجكم من ضيق الفرق، إلى فضاء الجمع، لا تبعتم الفرق علماً وعملاً، لكن الله تعالى بفضله ورحمته غيبكم عن شهود الفرق بشهود الملك الحق. إلاّ فرقاً قليلاً تقيمون به رسم العبودية، وتظهرون به الآداب مع الربوبية.

قال الورتجبي: الفضل والرحمة منه للعموم، ومحبته للخصوص، الذين هم مستثنون بقوله: «إلا قليلا». هـ. قال القشيري: ﴿ولولا فضل الله﴾ مع أوليائه لهاموا في كل وادٍ من التفرقة كأشكالهم في الوقت. هـ. فَخَصّ الإشارة بالأولياء، وعليه فقوله: ﴿إلا قليلا﴾ أي: إلا تفرقة قليلة تعرض لهم، تربيةً لهم، وإبقاء لرسمهم ومناطِ تكاليفهم. والله تعالى أعلم. قاله في الحاشية.

ولا يظهر هذا كله إلا بالجهاد الأكبر والأصغر، كما قال تعالى:

﴿ فَقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ۚ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴿٨٤﴾ مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾ ﴾

قلت: (نفسك): مفعول ثان، والأول نائب، أي: لا يكلفك الله إلا نفسك.

يقول الحق جل جلاله: ﴿فقاتل﴾ يا محمد ﴿في سبيل الله﴾ ولو وَحْدَكَ إن تثبطوا عن الجهاد، لاتكلفك إلا أمر نفسك، ﴿و﴾ لكن ﴿حرِّض المؤمنين﴾ على الجهاد، إذ ماعليك إلا التحريض. فجاهدوا حتى تكون كلمة الله هي العليا. ﴿عسى الله أن يكف﴾ بجهادكم ﴿بأس الذين كفروا﴾ ويبطل دينهم الفاسد. ﴿والله أشد بأسا﴾ منهم ﴿وأشد تنكيلا﴾ أي: تعذيباً لهم. وقد حقّق الله ذلك ففتح الله على نبيه قبائل العرب، فلم يبق فيهم مشرك، ثم فتح على الصحابة سائر البلاد، وهدى الله بهم جميع العباد، إلا من فرّ من الكفار إلى شواهق الجبال.

وإنما أمرتك بالتحريض على الجهاد؛ لأن الدال على الخير كفاعله، وذلك كالشفاعة بين الناس ودلالتهم على إصلاح ذات البين، فمن ﴿يشفع شفاعة حسنة﴾ بأن ينفع المشفوع له، بدفع ضرر أو جلب نفع، ابتغاء وجه الله، ﴿يكن له نصيب منها﴾، أي: حظ كبير من الثواب؛ لأنه دل المشفوع عنده على الخير، وأوصل النفع إلى المشفوع له، فله من الأجر مثل ما لهما، ومنها: الدعاء بظهر الغيب، فقد قال عليه الصلاة والسلام: «مَنْ دعا لمسلمٍ بظَهْرِ الغَيْبِ استُجِيبَ له، وقال له الملك: لك مِثْلُ ذَلِكَ».

﴿ومن يشفع شفاعة سيئة﴾، يريد بها فساداً بين الناس؛ كنميمة وزور وإحداث بدعة، ﴿يكن له كفلٌ﴾ أي: نصيب ﴿منها﴾ أي: من وِزرها، وفي الحديث: «من سنَّ سُنَّةً حَسَنَةً، فله أَجْرُهَا وأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا إلى يوم

القيامَة، ومنْ سنّ سُنّة سيّئةً فعليه وزرُها ووزْرُ مَنْ عَمِلَ بِها إلى يومِ القيامَة». ﴿وكان الله على كل شيء مقيتا﴾ أي: مقتدراً من أقات على الشيء: إذا قدر عليه، أو شهيداً حافظاً فيجازى على قدر الأعمال.

ومن هذا أيضـا: السلام، فإنه سبب فى ثواب الرد، لذلك ذكره الحق فى سلك الدلالة على الخير فقال: ﴿وإذا حُييتم بتحية فحيوا بأحسن منها﴾ بأن تقولوا: وعليكم السلام والرحمة والبركة، ﴿أو ردوها﴾ بأن تقولوا: وعليكم السلام.

وفى الخبر: «مَنْ قالَ لأخيه المسلم: السَّلامُ عَلَيكُمْ، كتب الله له عشْرَ حَسنات، فإن قال: السَّلامُ عليكُمْ ورحْمَةُ الله، كتب الله له عِشْرين حَسنة، فإن قال: وبَرَكَاتُه، كتب الله ثَلاثين»، وكذلك لمن ردّ، فإن اقتصر على السلام، فعشر، وهكذا .. فإن ذكرَ المسلم الرحمةَ والبركةَ، قال الرادُّ: وعليكم، فقط، إذ لم يبق ما يزاد، ورد السلام واجب على الكفاية، حيث يكون مشروعاً، فلا يرد فى الخطبة، وقراءة القرآن، والذكر والتفكر، والاعتبار، ونظرة الشهود والاستبصار، لأنه يفتر ويشوش، وفى الحمام إذا كانوا عراة، وفى حال الجماع والأكل والشرب وغيرها من المسائل المستثناة. وقد نظمه بعضهم، فقال:

رَدُّ السَّلامِ واجبٌ إلا على		مَنْ فى الصَّلاةِ أو بأكلٍ شُغِلا
أو شُرْبٍ أو قراءةٍ أو أدْعِيه		أو ذكرٍ أو خُطْبَةٍ أو تَلْبِيه

والسلام من تحية أهل الإسلام، خاصٌ بهم. لذلك استغرب الخضر ـ عليه السلام ـ سلامَ سيدنا موسى عليه السلام فقال له: «وأنّى بأرْضِكَ السَّلامُ»، وكذلك خليل الله إبراهيم عليه السلام، إنما أنكر الملائكة حيث سلموا عليه بتحية أهل الإسلام؛ لأنه كان بين أظهر قوم كفار، أما سلام أبى ذر على النبى ﷺ بتحية أهل الإسلام، قبل أن يسلم، فلعله سمعه من بعض الصحابة قبل أن يسلم، أو إلهام من الله. والله تعالى أعلم .

﴿إن الله كان على كل شيء حسيبا﴾ يحاسبكم على التحية وغيرها. وبالله التوفيق.

الإشارة: فجاهد أيها الإنسان نفسك فى سبيل الله، لا تكلف إلا إصلاحها وتزكيتها، وحرض من يسمع قولك من المؤمنين على جهاد أنفسهم، عسى الله أن يكف عنهم القواطع والعلائق، فيتأهلون لإشراق قلوبهم بأنوار الحقائق، فإن الله لا يغلبه شيء، فمن ذكّر عبادَ الله، ودسهم إلى حضرة الله كان حظه كبيراً عند الله. ومن دلهم على غير الله فقد غشهم وكان مُهاناً عند الله، وإذا وقع السلام على الفقراء؛ فإن كانوا سالكين غير مشتغلين بالذكر

وجب عليهم الرد بأحسن، وإذا كانوا ذاكرين أو متفكرين أو سكارى في شهود الحبيب سقط عنهم السلام، وكذلك إذا سلم عليهم اختياراً وتعنيتاً لم يجب الرد. والله تعالى أعلم.

ولما ذكر أمر الحساب ذَكَرَ وقْتَه، فقال:

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾ ﴾

قلت: (الله): مبتدأ، و(لا إله): خبر، أو اعتراض، و(ليجمعنكم): خبر، وهو أوفق بالسياق، و(لا ريب فيه) حال، أو صفة لمصدر، أي: جمعاً لاريب فيه.

يقول الحق جل جلاله: ﴿الله لا إله إلا هو﴾ أي: لا مستحق للعبادة إلا هو، والله ﴿ليجمعنكم﴾ أي: ليَحشرنكم من قبوركم ﴿إلى يوم القيامة﴾ للحساب الذي وعدكم به، لاشك فيه، فهو وعد صادق، ﴿ومن أصدق من الله حديثا﴾، أي: لا أحدَ أصدقُ من الله حديثاً، لأن الكذب نقص، وهو على الله محال.

الإشارة: الحق تعالى واحد في ملكه، فلا يذوق وحدانيته إلا من كان واحداً في قصده وهمه، فكل من وحَّدَ قلبه وقصده وهمته في طلبه، وانجمع بكليته إليه، جمعه الله لحضرته، ونعَّمه بشهود ذاته، وعداً حقا وقولاً صدقاً، لاريب فيه ولا اشتباه، إذ لا أحدَ أصدقُ من الله.

ثم رجع إلى الكلام مع المنافقين، فقال:

﴿ ۞ فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓا۟ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا۟ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾ وَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا۟ فَتَكُونُونَ سَوَآءً ... ﴾

قلت: (فئتين): حال، والعامل فيه: الاستقرار في الجر، وأركس الشيء: نكَّسه.

يقول الحق جل جلاله معاتباً الصحابة حين اختلفوا في إسلام بعض المنافقين، فقال: ﴿فما لكم﴾ افترقتم ﴿في﴾ شأن ﴿المنافقين﴾ فرقتين، ولم تتفقوا على كفرهم، والحالة أن الله ـ تعالى ـ ﴿أركسهم﴾، أي: نكّسهم وردهم إلى الكفر بعد أن أظهروا الإسلام بسبب ما كسبوا من الآثام. ﴿أتريدون أن تهدوا من أضل اللهُ﴾، وسبق لهم الشقاء في علم الله؟ ومن يضلل الله فلن تجد له طريقاً إلى الهدى. قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ : (نزلت في قوم كانوا بمكة من المشركين، فزعموا أنهم آمنوا ولم يهاجروا، ثم سافر قوم منهم بتجارات إلى الشام، فاختلف

المسلمون، هل يقتلونهم ليغنموا تجارتهم، لأنهم لم يهاجروا، أو يتركونهم لأنهم مؤمنون؟) . وقيل: في قوم أسلموا ثم اجْتَوَوا المدينة(١)، واستأذنوا رسول ﷺ في الخروج إلى البدو، فلما خَرَجُوا لم يزالُوا راحلين مَرْحلةً حتى لحقُوا بالمُشْركين، فاختلف المسلمون في إسلامهم.

ثم حكم بكفرهم فقال ﴿ودوا لو تكفرون﴾ أي: يتمنون كفركم ﴿كما كفروا فتكونون﴾ معهم ﴿سواء﴾ في الضلال والكفر.

الإشــارة: من دخل في طريــق المخصوصــين الأبرار، ثم لم تساعده رياح الأقدار، فلا ينبغي الكلام فيه، ولا الخوض في شأنه، لأن أمره بيد ربه، (من يهده الله فلا مضل له)، ومن يضلل فلا ناصر له. وبالله التوفيق، وهو الهادي إلى سواء الطريق.

ثم نهى عن مُوَالاتهم، فقال:

﴿ ... فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾ إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾ ﴾

قلت: (حَصِرت): أي: ضاقت، والجملة حال من الواو، بدليل قراءة يعقوب (حَصِرَةً).

يقول الحق جل جلاله: ﴿فلا تتخذوا﴾ من هؤلاء الكفرة ﴿أولياء﴾ وأصدقاء حتى يتحقق إيمانهم، بأن يهاجروا من دار الكفر إلى دار الإسلام ﴿في سبيل الله﴾ وابتغاء مرضات الله، لا لحرف دنيوي، ﴿فإن تولوا﴾ عن إظهار الإيمان بالهجرة ﴿في سبيل الله﴾، ﴿فخذوهم﴾ أسارى ﴿واقتلوهم حيث وجدتموهم﴾ كسائر الكفرة، وجانبوهم ﴿ولا تتخذوا منهم ولياً ولا نصيراً﴾ أي: لا تستعينوا بهم في جهادكم، ﴿إلاَّ الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم﴾ عهد، و﴿ميثاق﴾ أي: مهادنة، فلهم حكم المُعَاهَدين الذين وصلوا إليهم، ودخـلوا معهم في الصـلح، فلا تقتلوهم ولا تأسروهم.

(١) أي أصابهم الجَوَى: وهو المرض وداء الجوف إذا تطاول. وذلك إذْ لم يوافقهم هواؤها، واستوخموها، ويقال: اجتويت البلد: إذا كرهت المقام فيه، وإن كنت في نعمة. انظر النهاية في غريب الحديث (جوا).

وكانت خزاعة وادعت النبي ﷺ وعقدت معه الصلح، فجاء بنو مدلج فدخلوا معهم في الصلح، فنهى الله عن قتالهم ماداموا معهم، فالقوم الذين بين المسلمين وبينهم ميثاق هم خزاعة، والذين وصلوا إليهم هم بنو مدلج. فالاستثناء على هذا منقطع، لأن بني مدلج حينئذ كانت مظهرة للكفر لا منافقة، ويحتمل أن يكون متصلاً، أي: إلا الذين يصلون منهم... الخ، فتأمل. وكان هذا في أول الإسلام، ثم نُسِخَ بقوله: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ الآية.

ثم ذكر قوماً آخرين نهى عن قتالهم، فقال: ﴿أو جاءوكم﴾ أي: إلاّ قوما جاءوكم، قد ﴿حصرت صدورهم﴾ أي: ضاقت عن ﴿أن يقاتلوكم أويقاتلوا قومهم﴾ يعني أنهم كرهوا قتالهم، وكرهوا قتال قومهم الكفار، فلا تقتلوهم أيضاً، لأن الله كفّ شرهم عنكم، ﴿ولو شاء الله لسلطهم عليكم﴾ بأن قوّى قلوبهم وأزال رعبهم ﴿فلقاتلوكم﴾ ولم يكفوا عنكم، ﴿فإن اعتزلوكم﴾ ولم يتعرضوا لكم ﴿وألقوا إليكم السلم﴾ أي: الاستسلام والانقياد ﴿فما جعل الله لكم عليهم سبيلا﴾ أي: طريقاً إلى قتالهم.

الإشارة: نهى الله تعالى عن مساكنة النفوس وموالاتها، حتى تهاجر عن مواطن شهواتها إلى حضرة ربها، فإن تولت عن الهجرة وألِفَتْ البطالةَ والغفلة فليأخذها ليقتلها حيثما ظهرت صورتها، ولا يسكن إليها أبدا أو يواليها، إلاّ إن وصلت إلى حضرة الشيخ، وأمره بالرفق بها، أو كفت عن طغيانها، أو كفى الله أمرها، بجذب أخرجها عن عوائدها، أو وارد قوّى دفع شهواتها، فإنه يأتي من حضرة قهار، لا يصادم شيئاً إلا دمغه، وهذه عناية من الرحمن، ولو شاء الله تعالى لسلطها على الإنسان يرخى لها العنان، فتجمح به في ضَحْضَاح النيران، فإن كفت النفس عن شهواتها، وانقادت إلى حضرة ربها، فما لأحدٍ عليها من سبيل، وقد دخلت في حمى الملك الجليل. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر صنفاً آخر من المنافقين، فقال:

﴿ سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا۟ فِيهَا فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُو۟لَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا (٩١) ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ستجدون﴾ قوماً ﴿آخرين﴾ منافقين، وهم أسد وغطفان، قَدِمُوا المدينة، وأظهروا الإسلام نفاقاً ورياء؛ إذا لقوا النبي ﷺ قالوا: إنا على دينك، يريدون الأمن، إذا لقوا قومهم، وقالوا لأحدهم: لماذا أسلمت، ومن تعبد؟ فيقول: لهذا القرد ولهذا العقرب والخنفساء، ﴿يريدون﴾ بإظهار الإسلام ﴿أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم، كلما رُدوا إلى الفتنة أركسوا فيها﴾، أي: كلما دُعُوا إلى الكفر رَجَعُوا إليه أقبحَ رد، ﴿فإن لم يعتزلوكم ويلقوا إليكم السلم﴾ أي: ولم يلقوا إليكم المسالمة والصلح، ولم ﴿يكفوا أيديهم﴾ بأن تعرضوا لكم ﴿فاقتلوهم حيث ثقفتموهم﴾ أي: وجدتموهم، ﴿وأولئكم جعلنا لكم عليهم سلطاناً﴾، أي: تسلطاً ﴿مبيناً﴾ ظاهراً، لظهور كفرهم وثبوت عداوتهم.

الإشارة: النفوس على ثلاثة أقسام: قسم مطلقة العنان في الجرائم والعصيان، وهي النفوس الأمارة، وإليها الإشارة بالآية قبلها، والله أعلم. وقسم مذبذبة؛ تارة تظهر الطاعة والإذعان، تريد أن يأمنها صاحبها، وتارة ترجع إلى الغي والعصيان، مهما دُعيت إلى فتنة وقعت فيها، فإن لم تنته عن ذلك، وتكف عن غيها، فالواجب جهادها وقتلها؛ حتى تنقاد بالكلية إلى ربها، وأما النفس المطمئنة فلا كلام معها لتحقق إسلامها، فالواجب الكف عنها وحبها. والله تعالى أعلم.

ولمّا فرغ من حفظ الأديان؛ تكلم على بقية حفظ الأبدان، فقال:

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ ۚ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾ ﴾

قلت: (وما كان لمؤمن) النفي هنا بمعنى النهي، كقوله: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ﴾، و(إلا خطأ): استثناء منقطع، و(خطأ): حال، أو مفعول من أجله، أو صفة لمصدر محذوف، أي: لا يحل له أن يقتل مؤمناً في حال من الأحوال، لكن إن وقع خطأ فحكمه ما يأتي. وقيل: متصل. انظر ابن جزي. أو: إلا قتلا خطأ، و(إلا أن يصدقوا): حال، أي: إلا حال تصدقهم، و(توبة): مفعول من أجله، أي: شرع ذلك لأجل التوبة. أو، مصدر، أي: تاب عليكم توبة.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وما كان﴾ ينبغي ﴿لمؤمن أن يقتل مؤمناً﴾ مثله، أي: هو حرام عليه، ﴿إلاَّ﴾ أن يقتله ﴿خطأً﴾ بأن ظنه كافراً، أو رمى غيره فصادفه. والآية نزلت بسبب قتل عياش بن ربيعة للحارث بن زيد، وكان الحارث يعذبه على الإسلام، ثم أسلم الحارث، وهاجر، ولم يعلم عياشٌ بإسلامه، فقتله.

ثم ذكر حُكمه فقال: ﴿ومن قتل مؤمناً خطأً فتحرير رقبة﴾ أي: فعليه تحرير رقبة ﴿مؤمنة﴾ سالمة من العيوب، ليس فيها شوب حرية، تكون من مال القاتل، ﴿ودِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ﴾ أي: مدفوعة ﴿إلى أهله﴾ وهي على العاقلة كما بيَّن الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ ، وهي عند مالك: مائة من الإبل على أهل الإبل، وألف دينار شرعية على أهل الذهب، واثنا عشر ألف درهم، على أهل الورِق، مقسطة على ثلاث سنين، فإن لم تكن العاقلة فعلى بيت المال، وتقسم على أهله، على حسب المواريث، ﴿إلا أن يَصدقوا﴾ بالدية على القاتل فتسقط، أي: تسمح فيها الورثة أو القتيل قبل موته.

﴿فإن كان﴾ المقتول ﴿من قوم عدو لكم﴾ أي: محاربين لكم، ﴿وهو﴾ أي: المقتول ﴿مؤمن﴾ فعلى القاتل ﴿تحرير رقبة مؤمنة﴾ ولا دية؛ لأنهم محاربون فيتقووا بها على المسلمين، ورأى مالك أن الدية في هذا واجبة لبيت المال، ﴿وإن كان﴾ المقتول مؤمناً وهو ﴿من قوم بينكم وبينهم ميثاق﴾ أي: عقد الصلح أو الذمة، فعلى القاتل ﴿دية مُسَلَّمة إلى أهله﴾، وعليه أيضاً ﴿تحرير رقبة مؤمنة﴾ كفارة لخطئه. فإن كان غير مؤمن فلا كفارة فيه. وفيه نصف دية المسلم، ﴿فمن لم يجد﴾ الرقبة، أو لم يقدر عليها؛ فعليه ﴿صيام شهرين متتابعين﴾ عوضاً من العتق، جعل الله ذلك ﴿توبة من الله﴾ على القاتل لتفريطه. ﴿وكان الله عليماً﴾ بما فرض، ﴿حكيماً﴾ فيما قدَّر ودبَّر. والله تعالى أعلم.

الإشارة: اعلم أن الحق ـ جل جلاله ـ قد رغَّب في إحياء النفوس، حسا ومعنى، ونهى عن قتلها حسا ومعنى، وما ذلك إلا لخصوص محبة له فيها، ومزيد اعتناء له بشأنها؛ فليس في الوجود أعز عند الله من مظهر هذا الآدمي إن استقام في العبودية لربه، فهو قلب الوجود، ومن أجله ظهر كل موجود، وهو المنظور إليه من هذا العالم السفلي، والمقصود بالخطاب التكليفي: جزئي وكلي، فهو المقصود من بيت القصيد، وهو المحبوب إليه، دون سائر العبيد، قال تعالى: ﴿ واصطنعتك لنفسي ﴾.

ومعنى إحيائها حساً: انقاذها من الهلاك الحسي، ومعنى إحيائها معنىً: إنقاذها من الهلاك المعنوي كالجهل والغفلة، حتى تحيا بالعلم والإيمان واليقظة، ومعنى قتلها حساً: إهلاكها، ومعنى قتلها معنىً: إيقاعها في المعاصي والكفر وحملها على ذلك، وكذلك إهانتها وذلها، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام ـ: «لَعْنُ المُؤمن كَقَتْلِهِ» . فأمر من قتله خطأ أن يُحيي نفساً أخرى في مقابلتها بإخراجها من موت إهانة الرق، فإنْ لم يقدر، فليحي نفسه بقتل صولتها بالجوع حتى تنكسر، فتحيا بالتوبة واليقظة، ويُجبر كسر أهل المقتول بالدية المُسَلّمَة.

هذا كله في تفريطه وقلة حزمه حتى قتل خطأ، وأما إن قتله عمداً، فأشار إليه الحق جل جلاله بقوله:.

﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ومن يقتل مؤمنا متعمدا﴾ مستحلاً لقتله ﴿فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغَضِبَ الله عليه ولعنه﴾ أي: طرده ﴿وأعد له عذاباً عظيما﴾، وقولُنا: مستحلا لقتله، هو أحد الأجوبة عن شبهة المعتزلة القائلين بتخليد عصاة المؤمنين في النار. ومن جُملتهم: قاتل النفس.

ومذهب أهل السنة: أنه لا يخلد إلا الكافر، ويؤيد هذا الجواب سبب نزول الآية، لأنها نزلت في كافر، وهو (مَقِيس بن صُبَابة الكناني)؛ وَجَدَ أخَاه هشاماً قتيلاً في بني النجار ـ وكان مُسلماً ـ فذكر ذلك للنبي ﷺ فأرْسَل مَعَهُ رجلاً من بني فهرٍ، وقال له: «ائت بني النَّجار، وقُلْ لهم: إنْ عَلِمْتُم قاتِل هِشَام فادْفَعُوهُ لمقيس يَقْتَصُّ مِنْه، وإنْ لَمْ تَعلمُوا فادفعُوا إليْه الدِّيَةَ» . فقالوا: سمعاً وطاعة، لم نَعْلَم قاتله، فجمعوا مائة من الإبل، فأخذها، ثم انصرفا راجعَيْن إلى المدينة، فوسوس إليه الشيطان، وقال: أيّ شيْء صَنَعْتَ؟ تَقبلُ ديةَ أخيكَ فتكونُ عليك سُبّة، اقتلْ الرجلَ الذي معَك فتكُونَ نفسٌ مكانَ نَفْسٍ وفَضْلُ الدِّيَة، فَقَتَلَه وأَخَذَ الدِّية، فنزلت فيه الآية.

أو يكون الخلود عبارة عن طول المكث، والجمهور على قبول توبته، خلافًا لابن عباس، ونُقل عنه أيضًا قبولها، ولعله تعالى استغنى عن ذكر التوبة هنا اكتفاء بذكرها في الفرقان، حيث قال: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ ثم قال: ﴿ إلا من تاب ﴾ . وأما من قال: إن تلك منسوخة بهذه فليس بصحيح؛ لأن النسخ لا يكون في الأخبار. أو فجزاؤه إنْ جُوزِي، ولابِدْعَ في خلف الوعيد لقوله: ﴿ويغفر مادون ذلك لمن يشاء﴾؛ لأن الوعيد

مشروط بعدم العفو، لدلائل منفصلة اقتضت ذلك كما هو مشروط بعدم التوبة أيضا، والحاصل: أن الوعد لا يخلف لأنه من باب الامتنان، والوعيد يصح إخلافه بالعفو والغفران، كما في بعض الأخبار عن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ وَعَدَه الله ـ عز وجل ـ على عملٍ ثواباً فهو منجزه له لا محالة، ومَنْ أَوْعَدَه على عمل عقاباً فهو بالخيار، إنْ شاءَ عفَا عنــه، وإن شاء عاقَبــه» . هـ. ذكره في القوت.

فَتَحَصَّل أن القاتل لا يُخلَّد على المشهور إلاَّ إذا كان مستحلا، وهذا أيضاً ما لم يقتص منه، وأما إذا اقتُص منه فالصحيح أنه يسقط عنه العقاب؛ لقول النبي ﷺ: «مَنْ أصَابَ ذَنْبًا فعُوقِبَ بِه في الدنيا فَهُوَ له كفَّارَةٌ» . وبه قال الجمهور، وكذلك إذا سَامَحَهُ ورثةُ الدم؛ لأنه حق ورثوه. والله تعالى أعلم.

الإشارة: الإيمان محله القلوب، فالقلب هو المتصف بالإيمان حقيقة. فالمؤمن الحقيقي هو القلب، فمن قتله بتتبع الشهوات، وتراكم الغفلات، فجزاؤه نار القطيعة في سجن الأكوان، والبعد عن عرفان الشهود والعيان، وفي الحِكَم: «سبب العذاب وجود الحجاب، وإتمام النعيم بالنظر إلى وجهه الكريم» . والله تعالى أعلم.

ثم إن اللسان ترجمان القلب، فمن أظهر الإيمان حَرُم التعرض له، كما أشار إلى ذلك الحق جل جلاله بقوله:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَـٰمَ لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا تَبۡتَغُونَ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٞۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبۡلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَتَبَيَّنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ﴿٩٤﴾ ﴾

قلت: (السَّلَم) بالقَصر: الانقياد والاستسلام، وبالمد: التحية. وجملة (تبتغون): حال من الواو، مشعرة بما هو الحامل على العجلة.

يقول الحق جل جلاله: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم﴾ أي: سافرتم وسرتم تجاهدون ﴿في سبيل الله﴾، ﴿فتبينوا﴾ الأمور وتثبتوا فيها ولا تعجلوا، فإن العجلة من الشيطان، ﴿ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلم﴾ أي: الانقياد والاستسلام، أو سلَّم عليكم تحية الإسلام، ﴿لست مؤمنا﴾ ؛ إنما فعلت ذلك متعوذاً خائفا، فتقتلونه طمعاً في ماله، ﴿تبتغون عرض الحياة الدنيا﴾ وحطامها الفاني، ﴿فعند الله مغانمُ كثيرة﴾ وَعَدَكم بها، لم تقدروا الآن عليها، فاصبروا وازهدوا فيما تَشُكُّون فيه حتى يأتيكم مالا شبهةَ فيه، ﴿كذلك كنتم من قبل﴾

هذه الحال، كنتم تخفون إسلامكم خوفاً من قومكم، ﴿فمنّ الله عليكم﴾ بالعز والنصر والاشتهار، ﴿فتبينوا﴾ وتثبتوا ولا تَعْجَلوا، وافعلوا بالداخلين في الإسلام كما فعل اللهُ بكم، حيث حفظكم وعصمكم، ولاتبادروا إلى قتلهم ظناً بأنهم إنما دخلوا فيه اتقاء وخوفا، فإن إبقاء ألف كافر أهون عند الله من قتل مؤمن، وتكريره تأكيد لتعظيم الأمر. ثم هدّدهم بقوله ﴿إن الله كان بما تعملون خبيرا﴾ مطلعاً على قصدكم، فلا تتهافتوا في القتل، واحتاطوا فيه.

رُوِي أن سريةً لرسول الله ﷺ غزت أهل فَدَك فهربوا، وبقي مرْداسُ ثقةً بإسلامه، لأنه كان مسلماً وحده، فلما رأى الخيلَ ألجأ غنَمه إلى عاقول من الجبل(١)، وصعد عليه، فلما تلاحقوا وكبَّروا، كَبَّر ونزل يقول: لا إله إلا الله محمد رسول الله، السلام عليكم، فقتله أسامةُ، واستاق غنمه، فنزلت الآية. فلما أُخبر ـ عليه الصلاة والسلام ـ وَجِدَ وجْداً شديداً، وقال لأسامة: «كيف بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة؟!» قالها ثلاثا، حتى قال أسامة: ليتني لم أكن أسلمتُ إلا يومئذ، ثم استغفرَ له بعدُ، وقال له: «أعتق رقبة» ، وقيل: نزلت في المقداد، مرَّ برجل في غنمه فأراد قتله، فقال: لا إله إلا الله، فقتله وظفر بأهله وماله، وقيل: القاتل: مُحلّم بن جثّامة، والمقتول: عامرُ بن الأضبط. والله تعالى أعلم.

الإشارة: يستفاد من الآية: الترغيب في خصلتين ممدوحتين وخصوصا عند الصوفية:

الأولى: التأني في الأمور والرزانة والطمأنينة، وعدم العجلة والخفة والطيش. وفي الحديث: «من تأنّى أصابَ أو كاد، ومَنْ استعجَلَ أخطأ أو كادَ» . ولا يُقدم على أمر حتى يعلم حكم الله فيه، ويفهم عن الله أنه مراد الله في ذلك الوقت.

والثانية: حسن الظن بعباد الله كافة، واعتقاد الخير فيهم، وعدم البحث عما اشتمل عليه بواطنهم، فقد قال عليه الصلاة والسلام: «أُمِرتُ أن أحكم بالظواهر والله يتولى السرائر»(٢) وقال لأسامة: «هلا شققت عن قلبه» ، حين قَتَلَ من قال: لا إله إلا الله، أو لغيره. وفي الحديث: «خصلتان ليس فوقهما شيء من الخير: حُسن الظن بالله، وحسن الظنّ بعباد الله، وخصلتان ليس فوقهما من الشر شيء: سوءُ الظن بالله، وسوء الظن بعباد الله» . والله تعالى أعلم.

---

(١) أي: منعطف من الجبل.
(٢) لم يرد بهذا اللفظ. راجع كشف الخفا ١/٢٢١ والمقاصد الحسنة / ٩١.

ولما نهى عن العجلة نهَّضهم إلى الجهاد لئلا يتوهم أنها مذمومة حتى في الجهاد، فقال:

﴿ لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (٩٥) دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٩٦) ﴾

قلت: (من المؤمنين): حال من (القاعدين)، و(غير) بالرفع: صفة للقاعدين، وبالنصب: حال، وبالجر: بدل من المؤمنين، و(درجة): نصب على إسقاط الخافض، أو على المصدر، لأنه متضمن معنى التفضيل، أو على الحال، أي: ذوي درجة. و(أجراً عظيما): مصدر لفضّل، لأنه بمعنى أجرا، أو مفعول ثان لفضّل، لأنه بمعنى أعطى، أي: أعطاهم زيادة على القاعدين أجراً عظيماً، و(درجات) وما بعده، كل واحد بدل من (أجرا)، و(درجات): نصب على المصدر، كقولك: ضربته أسواطاً، و(أجرا): حال، تقدمت عليها؛ لأنها نكرة، و(مغفرة ورحمة): على المصدر بإضمار فعلهما.

يقول الحق جل جلاله ترغيباً في الجهاد: ﴿لا يستوي القاعدون﴾ عن الجهاد ﴿من المؤمنين﴾ مع المجاهدين في سبيل الله في الدرجة والأجر العظيم. ولما نزلت أتى ابنُ أم مكتوم وعبدالله بن جحش، وهما أعميان فقالا: يا رسول الله ذكرَ اللهُ فضيلةَ المجاهدين على القاعدين، وحالُنا على ما ترى، ونحن نشتهي الجهاد، فهل من رخصة؟ فأنزل الله: ﴿غير أولي الضرر﴾، فجعل لهم من الأجر ما جعل للمجاهدين؛ لزمانتهم وحسن نياتهم.

ثم ذكر فضل مَنْ خرج على من قعد لعذر فقال: ﴿فضّل الله المجاهدين بأموالهم﴾، مواساة للمجاهدين، ﴿وأنفسهم﴾ ببذلها في سبيل رب العالمين، ﴿على القاعدين﴾ لعذر، ﴿درجة﴾ واحدة، لمزيد مشقة السفر والغزو والخطر بالنفس للموت، ﴿ وكُلاً ﴾ من القاعدين لعلة والمجاهدين في سبيل الله، ﴿وعد الله الحسنى﴾ أي: المثوبة الحسنى، وهي الجنة. ﴿وفضّل الله المجاهدين على القاعدين﴾ من غير عذر ﴿أجراً عظيما﴾ وخيراً جسيما. وفي البخاري: «إنَّ لله مائةَ درجةٍ أعدَّها اللهُ للمجاهدين في سبيلِ الله، ما بينَ الدَّرجَتَيْن كمَا بين السَّماءِ والأرْضِ». الحديث. ثم بيَّنها بقوله ﴿درجات منه﴾ أي: من فضله وإحسانه، ﴿ومغفرة﴾ لذنوبه، ﴿ورحمة﴾ تُقرِّبه إلى ربه، ﴿وكان الله غفورا﴾ لما عسى أن يفرط منه، ﴿رحيما﴾ بما وعدَ له.

الإشارة: لا يستوى القاعد مع حظوظه وهواه، مشتغلاً بتربية جاهه وماله وتحصيل مُناه، غافلاً عن السير إلى حضرة مولاه، مع الذى سلَّ سيف العزم فى جهاد نفسه وهواه، وبذل مهجته وجاهد نفسه فى طلب رضاه، حتى وصل إلى شهود أنوار جماله وسناه، هيهات هيهات، لا يستوى الأحياء مع الأموات، فإن قعد مع نفسه لعذر يُظهره، مع محبته لطريق القوم وإقراره لأهل الخصوصية، فقد فضَّل الله عليه المجاهدين لنفوسهم بدرجة الشهود ومعرفة العيان للملك الودود، وإن قعد لغير عذر مع الإنكار لأهل الخصوصية، فقد فضَّل الله عليه المجاهدين أجراً عظيما، درجات منه بالترقى أبداً، ومغفرة ورحمة، وفي البيضاوى: التفضيل بدرجة فى جهاد الكفار، وبدرجات فى جهاد النفس؛ لأنه الأكبر للحديث. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر حُكْمَ من تخلف عن الهجرة والجهاد حتى مات، فقال:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا ۚ فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُوْلَـٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿إن الذين﴾ تتوفاهم ﴿الملائكة﴾ أى: ملَك الموت وأعوانه، يعنى: تَقْبِضُ أرواحهم، ﴿ظالمى أنفسهم﴾ بترك الهجرة ومرافقة الكفرة، ﴿قالوا﴾ أى: الملائكة فى توبيخهم: ﴿فيمَ كنتم﴾ أى: فى أى شيء كنتم من أمر دينكم: أعلى الشك أو اليقين؟ أو: فى أى بلد كنتم: فى دار الكفر أو الإسلام؟ ﴿قالوا كنا مستضعفين فى الأرض﴾ فعجزنا عن الهجرة وإظهار الدين خوفاً من المشركين، ﴿قالوا﴾ أى: الملائكة تكذيباً لهم وتبكيتا: ﴿ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها﴾ إلى قطر آخر، كما فعل المهاجرون إلى الحبشة والمدينة، لكن حبستكم أموالكم، وعزّت عليكم أنفسكم، ﴿فأولئك مأواهم جهنم﴾ لتركهم الهجرة الواجبة فى ذلك الوقت، ومساعدتهم الكفار على غزو المسلمين، ﴿وساءت مصيرا﴾ أى: قبحت مصيراً جهنم التى يصيرون إليها.

نزلتْ فى ناس من أهل مكة تكلموا بالإسلام ولم يُهاجروا، فخرجوا يوم بدر مع المشركين فرأوا قلةَ المسلمين، فقالوا: غرَّ هؤلاء دينُهم، فقُتلوا، فضربت الملائكة وجوههم وأدبارهم، كما يأتى، فلا تجوز الإقامة تحت حكم الكفر مع الاستطاعة، بل تجب الهجرة، ولا عذر فى المقام، وإنْ منعه مانعٌ فلا يكون راضياً بحاله مطمئنَ النفس بذلك، وإلا عمَّهُ البلاءُ، كما وقع لأهل الأندلس، حتى صار أولادُهم كفاراً والعياذ بالله، وكذلك لا تجوز الإقامة فى موضع تغلبُ فيه المعاصى وترك الدين.

قال البيضاوي: في الآية دليل على وجوب الهجرة من موضع لا يتمكن فيه الرجل من إقامة دينه، وعن النبي ﷺ: «من فرّ بدينه من أرض، ولو كان شبراً من الأرض، استَوْجَبَ الجنة، وكان رفيقَ إبراهيم ومحمد - عليهما الصلاة والسلام» . (١) قلت: ويدخل فيه - على طريق الخصوص - من فرّ من موضع تكثر فيه الشهوات والعوائد، أو تكثر فيه العلائق والشواغل، إلى موضع يقلُّ فيه ذلك، طلباً لصفاء قلبه ومعرفة ربه، بل هو أولى، ويكون رفيقاً لهما في حضرة القدس عند مليك مقتدر. والله تعالى أعلم.

ثم استثنى مَنْ تَحقّقَ إسلامُه وحبسه العذر، فقال: ﴿إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان﴾ أي: المماليك والصبيان، وفيه إشعار بأنهم على صدد وجوب الهجرة، فإنهم إذا بلغوا وقدروا على الهجرة، فلا محيص عنها، وأن قومهم يجب أن يهاجروا بهم متى أمكنت الهجرة. قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: «كنتُ أنا وأبي وأمي ممن استثنى الله بهذه الآية».

ثم وصفهم بقوله: ﴿لا يستطيعون حيلة﴾ أي: قوة على ما يتوقف عليه السفر، من ركوب أو غيره ،﴿ولا يهتدون سبيلا﴾ أي: لا يعرفون طريقاً، ولا يجدون دليلاً، ﴿فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم﴾. وعبَّر بحرف الرجاء إيذاناً بأنّ تركَ الهجرة أمرٌ خطير، حتى إن المضطر من حقه أن لا يأمن، ويترصد الفرصة، ويُعلّقَ بها قلبه، ﴿وكان الله غفوراً رحيما﴾ فيعفو ويغفر لمن غلبه العذر. وبالله التوفيق.

الإشارة: كل من لم يتغلغل في علم الباطن، مات ظالماً لنفسه، أي: باخساً لها؛ لما فوّتها من لذيذ الشهود، ومعرفة الملك المعبود، ولا يخلو باطنه من الإصرار على أمراض القلوب، التي هي من أكبر الذنوب، فإذا توفته الملائكة على هذه الحالة، قالت له: فيم كنتَ حتّى لم تهاجر إلى من يُطهرك من العيوب، ويوصلك إلى حضرة علاّم الغيوب؟ فيقول: كنتُ من المستضعفين في علم اليقين، ولم أقدر على صحبة أهل عين اليقين وحق اليقين؛ حبسني عنهم حبُّ الأوطان، ومرافقة النساء والولدان. فيقال له: ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجر فيها إلى من يخلصك من الحجاب، وينفي عنك الشك والارتياب؟ فلا جرم أن مأواه سجن الأكوان، وحرمان الشهود والعيان، إلاّ من أقر بوجود ضعفه، واضطر إلى مولاه في تخليصه من نفسه، فعسى ربه أن يعطف عليه، فيوصله إلى عارف من أوليائه، حتى يلتحق بأحبابه وأصفيائه. وما ذلك على الله بعزيز.

ثم رغّب في الهجرة، فقال:

﴿ ۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾ ﴾

(١) أخرجه الثعلبي في التفسير من حديث الحسن مرسلاً. انظر الفتح السماوي ٢ / ٥١٥ .

قلت: المراغَم: المهرب والمذهب. قاله في القاموس. وقال البيضاوي: يجد متحولا، من الرغام وهو التراب. وقيل: طريقا يراغم قومه بسلوكه فيها، أي: يفارقهم على رغم أنوفهم، وهو أيضا من الرغام.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ومن يهاجر في سبيل الله﴾ لإعلاء كلمة الله وإقامة دينه، ﴿يجد في الأرض﴾ فضاءً كثيرا، ومتحولاً كبيراً يتحول إليه، وسعة بدلاً من ضيق ما كان فيه، من قهر العدو ومنعه من إظهار دينه، أو سعةً في الرزق، وبسطاً في المعيشة، فلا عذر له في المقام في مكان مُضيّقٍ عليه فيه في أمر دينه، ﴿ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله رسوله﴾ وجهادٍ في سبيله، ﴿ثم يُدْرِكه الموت﴾ قبل وصوله فقد ثبت أجرُه، ووجب على الله ـ وجوب امتنان ـ أن يبلغه قصده بعد موته، ﴿وكان الله غفوراً﴾ لما سلف له من عدم المبادرة، ﴿رحيما﴾ به، حيث بلّغه مأمولَه.

نزلت في جُنْدع بن ضَمْرة، وكان شيخا كبيراً مريضاً، فلما سمع مانزل في شأن الهجرة قال: والله ما أنا ممن استثنى الله، ولي مال يُبلّغني المدينة، والله لا أبيتُ الليلة بمكة، أخرِجُوا بي، فخرجوا به على سريره حتى أتوا به التنْعيم، فأدركه الموت بها، فَصفّق بيمينه على شماله، وقال: اللهم هذه لك وهذه لرسولك، أُبايعك على ما بَايَعَك عليه رسولك، فمات حَمِيدا. فقال الصحابة: لو وافَى المدينةَ، كان أتم أجرا، وضحك المشركون، وقالوا: ما أدرك ماطلب. فنزلت: ﴿ومن يخرج من بيته..﴾ إلخ.

وقيل: نزلت في خالد بن حزام، فإنه هاجر إلى أرض الحبشة، فنهشته حيّةٌ في الطريق، فمات قبل أن يصل. والله تعالى أعلم.

الإشارة: ومن يهاجر من وطن حظوظه وهواه، طلباً للوصول إلى حضرة مولاه، يجد في أرض نفسه متسعاً للعلوم، ومفتاحاً لمخازن الفهوم، وسعة الفضاء والشهود، حتى ينطوي في عين بصيرته كلُّ موجود، ويتحقق بشهود واجب الوجود. ومن يخرج من بيت نفسه وسجن هيكله إلى طلب الوصول إلى الله ورسوله، ثم يُدركه الموت قبل التمكين، فقد وقع أجره على الله، ويلّغه الله ما كان قَصَدَه وتمنّاه، فيُحشر مع الصديقين أهلِ الرسوخ والتمكين، التي تلي درجتُهم درجةَ النبيين، وكذلك من مات في طلب العلم الظاهر ولم يدركه في حياته، حشر مع العلماء، قال عليه الصلاة والسلام: «من جاءه أجله وهو يطلبُ العلم لم يكن بينه وبين النبيين إلا درجةٌ واحدة». **قلت:** وهذه الدرجة التي بينه وبين النبوة هي درجة الصديقين المتقدمة قبله.

وكل من مات في طلب شيء من الخير، أدركه بعد موته بحسن نيته، كما في الأحاديث النبوية، قال القشيري: المهاجر في الحقيقة، من هاجر نفسه وهواه، ولا يصح ذلك إلا بانسلاخه عن جميع مراداته وقصوده،

فمن قصَده ـ أي قصد الحق تعالى ـ ثم أدركه الأجلُ قبل وصوله، فلا ينزل إلا بساحات وصله، ولا يكون محط رفقته إلا مكان قربه. هـ. وفي بعض الآثار: الهجرة هجرتان: هجرة صُغرى، وهجرة كبرى، فالصغرى: انتقال الأجسام مِنْ وطنٍ غير مرضي إلى وطن مرضي، والكبرى: انتقال النفوس من مألوفاتها وحظوظها إلى معرفة ربها وحقوقها. هـ.

ثم ذكر ما يتعلق بالسفر؛ من قَصْرٍ وغيره، فقال:

﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا (١٠١) ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿وإذا ضربتم في الأرض﴾، أي: سافرتم للجهاد أو غيره من السفر المباح، أو المطلوب، **﴿فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة﴾** الرباعية إلى ركعتين، ونفيُ الجُناح يقتضي أنها رُخصة، وبه قال الشافعي، ويؤيده أنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ أتم في السفر، وأن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: يا رسول الله قَصَرْتَ وأتممتُ، وصُمْتُ وأفطرت؟ فقال: «أحسنت[1] يا عائشة». وأوجبه أبو حنيفة؛ لقول عمر رضي الله عنه: (السفر ركعتان، تمام غير قصر، على لسان نبيكم). ولقول عائشة: (أول ما فرضت الصلاة ركعتان، فأقرت صلاة السفر، وزيدت في الحضر).

وقال مالك رضي الله عنه: القصرُ سنة؛ لكونه ـ عليه الصلاة والسلام ـ دام عليه في كل سفر، ولم يتم إلا مرةً لبيان الجواز.

وقوله تعالى: **﴿إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا﴾** ظاهرُه أن الخوف شرط في القصر، وبه قالت عائشة وعثمان ـ رضي الله عنهما ـ، والجمهور على عدم شرطه، وإنما ذكره الحق ـ تعالى ـ لكونه غالباً في ذلك الوقت، فلا يعتبر مفهومه، أو يؤخذ القصر في الأمن من السُّنة. ويزيد هذا حديثُ يَعْلى بن أمية، قلت لعمر بن الخطاب: إن الله يقول: ﴿إن خفتم﴾، وقد أمِنَ الناس؟. فقال: عجبتُ مما تعجبتَ منه. فسألت رسول الله ﷺ فقال: «صَدَقةٌ تصدَّق بها الله عليكم، فاقبلوا صدقته». وقد ثبت أن النبي ﷺ قصر الصلاة وهو آمن.

وليس في الآية ما يدل على تحديد المسافة التي تُقْصَرُ فيها الصلاةُ، بل ذَكَرَ مطلقَ السفر، ولذلك أجاز الظاهرية القصر في كل سفر، طال أو قصر. ومذهب مالك والشافعي: أن المسافة أربعة بُرُدٍ، واحتجوا بآثار عن ابن عمر وابن عباس. وقال أبو حنيفة: ستة بُرُد، وكذلك لم يقيد الحقُّ السفرَ بمباح ولا غيره، ولذلك أجاز أبو حنيفةِ القصرَ

(١) في الأصول: سننت.

فى كل سفر. ومنعه مالك فى سفر المعصية. ومنعه ابن حنبل فى المعصية والمباح. والمراد بالفتنة فى قوله: ﴿إن خفتم أن يفتنكم﴾: الجهاد والتعرض لما يُكره، وعداوة الكفار معلومة.

الإشارة: وإذا ضربتم فى ميادين النفوس، وتحقق سيرُكم إلى حضرة القدوس، فلا جناح عليكم أن تقتصروا على المهم من الصلاة الحسية، وتدوموا على الصلاة القلبية، التى هى العكوف فى الحضرة القدسية، إنْ خفتم أنْ تشغلكم عن الشهود حلاوةُ المعاملة الحسية. قال بعض العارفين: اتقوا حلاوة المعاملة، فإنها سموم قاتلة. وكذلك قال القطب ابن مشيش فى المقامات كالرضا، والتسليم: أخاف أن تشغلنى حلاوتها عن الله. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر صلاة الخوف، فقال:

﴿ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓا۟ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا۟ فَلْيَكُونُوا۟ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا۟ فَلْيُصَلُّوا۟ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا۟ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓا۟ أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا۟ حِذْرَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿وإذا كنت فيهم﴾ أيها الرسول ﴿فأقمت لهم الصلاة﴾، أى: صلاة الخوف، وكذلك الأمراء النائبون عنه، ﴿فلتقم طائفة منهم معك﴾، وطائفة تقف وجاهَ العدو للحراسة، ﴿وليأخذوا أسلحتهم﴾ أى: المصلون معك، ﴿فإذا سجدوا فليكونوا﴾ أى: الطائفة الحارسة ﴿من ورائكم﴾، فإذا صلَّت نصفَ الصلاة مع الإمام، قضت فى صلبه ما بقى لها وذهبت تحرس.

﴿ولتأت طائفة أخرى لم يُصلوا فليُصلوا معك﴾ النصف الباقى، فإذا سلمتَ، قضوا ما بقى لهم، فإذا كانت ثنائية: صلَّى بالأولى ركعةً، وثبَتَ قائماً ساكتاً أو قارئاً، ثم تصلى من صلت معه ركعة وتسلم، وتأتى الثانية فتكبر، فيُصلى بها ركعةً ويسلم وتقضى ركعة. وإذا كانت رباعية، أو ثلاثية صلى بالأولى ركعتين، ثم تقوم الأولى فتصلى ما بقى لها وتسلم وتأتى الثانية فتكبر وتصلى معه ما بقى له، ثم تقضى ما بقى لها. هكذا قاله مالك والشافعى.

وقال أبو حنيفة: يصلى بالأولى ركعةً، ثم تتأخر وهى فى الصلاة، وتأتى الثانية فيصلى بها ركعة، فإذا سلَّم ذهبت مكان الأولى قبل سلاَمها، فتأتى الأولى فتصلى ركعة ثم تُسلِّم، وتأتى الثانية فتصلى ركعة ثم تُسلِّم. وفى

صلاة الخوف عشرة أقوال على حسب الأحاديث النبوية، لأنها تعدّدت منه ﷺ، فكل واحد أخذ بحديث، وما قاله مالك والشافعي هو الذي فعله ـ عليه الصلاة والسلام ـ في غزوة ذات الرقاع.

ثم أمر الطائفة الحارسة بأخذ السلاح، والحذر من العدو فقال: ﴿وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم﴾، ثم ذكر عِلّةَ الحذر فقال: ﴿ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة﴾ أي: تمنوا أن ينالوا منكم غرة، فيشدون عليكم شدة واحدة فيستأصلونكم.

رُوي أن المشركين لما رأوا المسلمين صلوا صلاة الظهر ندموا أن لو كانوا أغاروا عليهم في الصلاة، ثم قالوا: دعوهم فإن لهم صلاة هي إليهم أحب من آبائهم وأبنائهم ـ يعنون صلاة العصر ـ، فلما قام النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ لصلاة العصر نزل جبريلُ بصلاة الخوف.

ثم رخّص لهم في وضع السلاح، لعذرٍ فقال: ﴿ولا جناح عليكم﴾ أي: لا إثم ﴿إن كان بكم أذى من مطر أو كنتم مرضى أن تضعوا أسلحتكم وخذوا حذركم﴾ منهم بالحراسة. رُوي أنها نزلت في عبدالرحمن بن عوف، مَرِض فوضع سلاحه، فعنّفه أصحابُه، فنزلت الآية.

ثم هوّن شأن الكفار بعد أن أمر بالحذر منهم فقال: ﴿إن الله أعد للكافرين عذاباً مهيناً﴾ في الدنيا والآخرة.

قال البيضاوي: وعد المؤمنين بالنصرة على الكفار، بعد الأمر بالحذر، ليقوى قلوبهم، وليعلموا أن الأمر بالحذر ليس لضعفهم وغلبة عدوهم، بل إن الواجب أن يحافظوا في الأمور على مراسم التيقظ والتدبير. هـ.

الإشارة: إذا كنت في جند الأنوار، وأحْدَقَتْ بك حضرة الأسرار، ثم نزلتَ إلى سماء الحقوق أو أرض الحظوظ فلتقم طائفة من تلك الأنوار معك، لتحرسك من جيش الأغيار وجند الأكدار، حتى يكون رجوعُك إلى الآثار مصحوبا بكسوة الأنوار وحلية الاستبصار، فيكون رجوعك إليها بالله لابنفسك، فإذا سجد القلبُ في الحضرة كانت تلك الأنوار من ورائه والأسرار من أمامه، ﴿ والله من ورائهم محيط ﴾ ، ولتأت طائفة أخرى لم تصل هذه الصلاة؛ لأنها لم تبلغ هذا المقام، فلتصل معك اقتباساً لأنوارك، لكن تأخذ حذرها وتستعد من خواطر الأشغال، كي لا تميل عليهم فتفتنهم عن الحضور مع الكبير المتعال، فإن كان مريض القلب بالهوى وسائر العلل، فلا يكلف من الحضور إلا ما يطيقه، لأن القط لا يكلف بحمل الجمل. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر ما يُعين على الحضور، ويتحصن به من العدو الكفور؛ وهو ذكر الله، فقال:

﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَوٰةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ إِنَّ الصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: فإذا فرغتم من الصلاة ﴿فاذكروا الله﴾ في جميع أحوالكم ﴿قياماً وقعوداً وعلى جنوبكم﴾ إن أردتم حراسة قلوبكم، والنصر على عدوكم، أو إذا أردتم قضاء الصلوات وأداء فرضها، وأنتم في المعركة، فصلوا كما أمكنكم، ﴿قياما﴾ راجلين أو على خيولكم إيماءً، وحلّ للضرورة حينئذ مشي وركض وطعن وعدم توجه، وإمساك ملطخ، وتنبيه وتحذيرٌ، هذا للصحيح، ﴿وقعوداً وعلى جنوبكم﴾، للمريض أو الجريح، هكذا قال جمهور الفقهاء في صلاة المسايفة[١]. وقال أبو حنيفة: لا يصلي المحارب حتى يطمئن.

﴿فإذا اطمأننتم﴾ وذهب الخوفُ عنكم ﴿فأقيموا الصلاة﴾ على هيأتها المعلومة، واحفظوا أركانها وشروطها، وأتوا بها تامة، ﴿إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتا﴾ أي: فرضاً محدود الأوقات، لا يجوز إخراجها عن وقتها في شيء من الأحوال. قال البيضاوي: وهذا دليل على أن المراد بالذكر الصلاة، وأنها واجبة الأداء، حال المسايفة، والاضطراب في المعركة، وتعليل للأمر بالإتيان بها، كيف أمكن.

الإشارة: إذا فرغتم من الصلاة الحسية، فاستغرقوا أحوالكم في الصلاة القلبية، حتى تطمئن قلوبكم في الحضرة القدسية، فإذا اطمأننتم في الحضرة، فأقيموا صلاة الشهود والنظرة، وهي الصلاة الدائمة، قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴾. وقال الورتجبي: إذا كنتم في حالة التمكين وامتلأتم من أنوار ذكره، فينبغي أن تخرجوا من أبواب الرخص، والاستراحة في سعة الروح، وترجعوا إلى مقام الصلاة، فإن آخر سيركم في ربوبيتي: أول بدايتكم في عبوديتي. هـ.

ثم حذرهم من الوهن في أمر الجهاد، فقال:

﴿ وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾ ﴾

قلت: الوهن: الفشل والضعف.

يقول الحق جل جلاله: ولا تضعفوا في طلب ﴿القوم﴾، أي: الكفار، فتجاهدوهم في سبيل الله، فإن الحرب دائرة بينهم وبينكم، قد أصابهم مثل ما أصابكم، فإن ﴿ تكونوا تألمون ﴾، أي: تتوجعون من الجراح، ﴿ فإنهم يألمون كما تألمون ﴾، وأنتم ترجون من الله النصر والعز في الدنيا، والدرجات العلا في الآخرة، وهم لا يرجون

---

(١) المسايفة: المبارزة بالسيوف.

ذلك، فحقكم أن تكونوا أصبر وأرغب في الجهاد منهم، ﴿وكان الله عليما﴾ بأعمالكم وضمائركم، ﴿حكيما﴾ فيما يأمركم به وينهاكم.

الإشارة: لا تهنوا عن طلب الظفر بنفوسكم، ولا تفشلوا عن السير إلى حضرة ربكم، فإن كنتم تألمون حال محاربتها ومخالفة شهواتها، فإنها تألم مثلكم، مادامت لم ترتض في حضرة ربكم، فإذا ارْتاضتْ وتحلت صار المُر عندها حلوا، وذلك إنما يكون بعد موتها وحياتها، فدوموا على سياستها ورياضتها، فإنكم ترجون من الله الوصول، وبلوغ المأمول، وهي ترجو الرجوع إلى المألوفات وركوب العادات، فاعكسوا مُراداتها، حتى تطمئن في حضرة ربها، فتأمن غوائلها، فليس بعد الوصول رجوع، ولا إلى العوائد نزوع، والله غالب على أمره.

ثم ذكر ما يتعلق بحفظ اللسان، وهو الأمر الخامس من مضمون السورة، فقال:

﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ وَلَا تَكُن لِّلۡخَآئِنِينَ خَصِيمٗا ﴿١٠٥﴾ وَٱسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَٰدِلۡ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخۡتَانُونَ أَنفُسَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمٗا ﴿١٠٧﴾ يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمۡ إِذۡ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرۡضَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلۡتُمۡ عَنۡهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَمۡ مَّن يَكُونُ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلٗا ﴿١٠٩﴾ ﴾

قلت: أرى، هنا عرفانية، لا علمية، فلذلك لم تتعد إلى ثلاثة.

يقول الحق جل جلاله لنبيه ـ عليه الصلاة والسلام ـ حين همّ أن يخاصم عن طُعْمَة بن أُبَيْرِق، وذلك أنه سرق درعاً من جاره قتادة بن النعمان، في جراب دقيق، فجعل الدقيق يسقط من خرق فيه، وخبأها عند يهودي، فالتمس الدرع عند طعمة، فلم توجد، وحلف ما أخذها، وما له بها علم، فتركوه واتبعوا أثر الدقيق حتى انتهى إلى منزل اليهودي فأخذوها، فقال اليهودي: دفعها إليّ طُعْمَة، وشهد له ناس من اليهود، فقال رهط طعمة من بني ظفر: انطلقوا بنا إلى رسول الله ﷺ فنسأله أن يجادل عن صاحبنا، وقالوا: إن لم يفعل هلك وافتضح، وبرئ اليهودي، فهمّ رسول الله ﷺ اعتماداً على ظاهر الأمر، ولم يكن له علم بالواقعة، فنزلت الآية:

﴿إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق﴾ أي: ملتبساً بالحق ﴿لتحكم﴾ بما فيه من الحق ﴿بين الناس﴾ بسبب ما ﴿أراك﴾ أي: عرَّفك ﴿الله﴾ بالوحي، أو بالاجتهاد، ففيه دليل على إثبات القياس، وبه قال الجمهور. وفي اجتهاد الأنبياء خلاف. ﴿ولا تكن للخائنين خصيما﴾ أي: عنهم للبرآء، أو لأجلهم والذَّبِّ عنهم.

﴿واستغفر الله﴾ مما هممت به، ﴿إن الله كان غفوراً رحيما﴾، وفيه دليل على منع الوكالة عن الذمي، وبه قال ابن شعبان. وقال ابن عات: لعله أراد الندب. وقال مالك بن دينار: كفى بالمرء خيانة أن يكون أميناً للخونة. والوكالة من الأمانة، والمصطفى ـ عليه الصلاة والسلام ـ لم يقصد شيئاً من ذلك، ولا علم له بالواقعة، لولا أطلعه تعالى، فلا نقص في اهتمامه، ولادرك(١) يلحقه. وبالجملة، فالآية خرجت مخرج التعريف بحقيقة الأمر في النازلة.

ثم نهاه عن الذب عنهم، فقال: ﴿ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم﴾ وهم رهط ابن أبيرق السارق، قال السهيلي: هم بِشر وبشير ومُبشر وأسَيْر، ﴿إن الله لا يحب من كان خوانا﴾ أي: كثير الخيانة، ﴿أثيما﴾ أي: مصراً عليها، رُوِي أن طعمة هرب إلى مكة، وارتدَّ، ونَقَبَ حائطاً بها ليسرق أهله، فسقط الحائط عليه فقتله. ويستفاد من الآية امتناع الجدال عمن عَلِمَتْ خيانته بالأحرى، أو كان مظنة الخيانة، كالكافر ونحوه. وكذا قال ابن العربي في أحكام القرآن في هذه الآية: إن النيابة عن المبطل المتهم في الخصومة لا تجوز، بدليل الآية. هـ.

ثم فَضح سرهم، فقال: ﴿يستخفون من الناس﴾ أي: يستترون منهم، ﴿ولا يستخفون من الله﴾ وهو أحق أن يستحيا منه ويُخاف ﴿وهو معهم﴾ لا يخفى عليه شيء، فلا طريق للنجاة إلا تَرْك ما يستقبح، ويؤاخذ عليه سراً وجهرا. ﴿إذ يُبيتون﴾ أي: يدبرون ويُزَوِّرون ﴿ما لا يرضى من القول﴾ من رمي البريء، والحلف الكاذب، وشهادة الزور، ﴿وكان الله بما يعملون محيطا﴾ لا يفوته شيء، ﴿هاأنتم هؤلاء جادلتم عنهم في الحياة الدنيا﴾ ودفعتم عنهم المعرة، ﴿فَمن يجادل الله عنهم﴾ أي: مَنْ يُدافِع عنهم عذابه ﴿يوم القيامة، أم من يكون عليهم وكيلا﴾ يحميهم من عقاب الله، حين تَفْضَح السرائر، ولا تنفع الأصحاب ولا العشائر.

الإشارة: في الآية عتاب للقضاة والولاة إذا ظهرت صورة الحق بأمارات وقرائن، ثم تجمدوا على ظاهر الشريعة، حمية أو رشوة، فإن القضاء جُلّه فِراسة، وفيها عتاب لشيوخ التربية، إذا ظهر لهم عيب في المريد ستروه عليه حياًء أو شفقة، ولذلك قالوا: شيخ التربية لا تليق به الشفقة، غير أنه لا يُعيِّن، بل يذكر في الجملة، وصاحب العيب يفهم نفسه، وفيها عتاب للفقراء إذا راقبوا الناس، وأظهروا لهم ما يُحبون، وأخفوا عنهم ما لا يرضون، لقوله ـ

---

(١) الدرك: التبعة.

سبحانه ـ: ﴿يستخفون من الناس...﴾ الآية، بل ينبغي أن يكونوا بالعكس من هذا، قال بعضهم: إن الذين تكرهون مني، هو الذي يشتهيه قلبي. والله تعالى أعلم.

ثم حضّهم على التوبة، فقال:

﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ومن يعمل سوءاً﴾ أي: ذنباً قبيحاً يسوءُ به غيره، ﴿أو يظلم نفسه﴾ بذنب يختص به، أو من يعمل سوءاً بذنب غير الشرك، أو يظلم نفسه بالشرك، أو من يعمل سوءاً بالكبيرة، أو يظلم نفسه بالصغيرة، ﴿ثم يستغفر الله﴾ بالتوبة ﴿يجد الله غفوراً﴾ لذنوبه ﴿رحيماً﴾ بقبول توبته، وفيه حث لطُعْمَة وقومِه على التوبة والاستغفار.

الإشارة: ومن يعمل سوءاً بالميل إلى الهوى، أو يظلم نفسه بالالتفات إلى السوى، أو من يعمل سوءاً بالهفوات والخطرات، أو يظلم نفسه بالغفلات والفترات، أو من يعمل سوءاً بالوقوف مع الكرامات وحلاوة الطاعات، أو يظلم نفسه بالقناعة من الترقي في الدرجات والمقامات، ثم يستغفر الله من هينه يجد الله غفوراً رحيماً، حيث لم يُخْرِجْهُ من حضرته، ولم يتركه مع غفلته.

ثم عاتَب رهط السارق على رميهم الغير بالسرقة، فقال:

﴿ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ومن يكسب إثماً﴾ كسرقة أو يمين فاجرة، أو رَمْي غيره بجريمة، ﴿فإنما يكسبه على نفسه﴾ لا يتعدى ضررها إلى غيره، ﴿وكان الله عليماً﴾ بسرائر عباده ﴿حكيماً﴾ في إمهالهم وسترهم، ﴿ومن يكسب خطيئة﴾ أي: جريمة تتعدى إلى ضرر غيره، ﴿أو إثماً﴾ يختص بنفسه، ﴿ثم يرمِ به بريئاً﴾ منه، كما رمى طُعْمَةُ زيداً اليهوديّ، ﴿فقد احتمل بهتاناً﴾ وهو أن يبهت الرجل بما لم يفعل، ﴿وإثماً مبيناً﴾ أي: ذنباً ظاهراً، لا يخفى قبحه وبشاعته.

الإشارة: الإثم: ما حاك في الصدر وتلجلج فيه، ولم ينشرح إليه الصدر، وضده البر؛ وهو ما ينشرح إليه الصدر ويطمئن إليه القلب، فكل من فعل شيئاً قد تلجلج قلبه منه ولم يقبله؛ نقص من نوره، وأظلم قلبه منه، وإليه

الإشارة بقوله: (ومن يكسب إثما..) الآية، أي: فإنما يُسَوِّدُ به نور نفسه وروحه، ومن تلبَّس بذنب أو عيب، ثم يرم به غيرَه من باب سُوء الظن (فقد احتمل بهتانا وإثما مبينا) لأن الواجب على المريد السائر أن يشهد الصفاء من غيره، ويُقصر النقصَ على نفسه، والواصل يرى الكمال في كل شيء لمعرفته في كل شيء. والله تعالى أعلم.

ثم شهد لرسوله بالهداية والعناية، فقال:

﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾ ﴾

قلت: الجارّ في قوله: (من شيء)، في موضع نصب على المصدر، أي: لا يضرونك شيئاً من الضرر.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ولولا فضل الله عليك﴾ بالعصمة ورحمته بالعناية، ﴿لهمت طائفة منهم﴾ وهم رهط السارق ﴿أن يضلوك﴾ عن القضاء بالحق، مع علمهم بالقصة، لكن سبقت العناية، وحفت الرعاية، فلم تخرج من عين الهداية. وليس المراد نفي همهم لأنه وقع، إنما المراد نفي تأثيره فيه، ﴿وما يضلون إلا أنفسهم﴾ لعوده عليهم، ﴿وما يضرونك من شيء﴾، لأن الله عصمك، وما خطر ببالك من المجادلة عنهم، كان اعتمادا منك على ظاهر الأمر، وإنما أُمرتَ أن تحكم بالظواهر، والله يتولى السرائر.

﴿وأنزل الله عليك الكتاب﴾ أي: القرآن، ﴿والحكمة﴾ ما نطقتَ به من الحِكَم، ﴿وعلّمكَ ما لم تكن تعلم﴾ من خفيات الأمور، التي لم تطلع عليها، أو من أمور الدين والأحكام، ﴿وكان فضل الله عليك عظيما﴾ ولا فضل أعظم من النبوة، لا سيما وقد فضّله على كافة الخلق وأرسله إلى كافة الناس، وهدى الله على يديه ما لم يَهْدِ على يدِ أحد من الأنبياء قبله، إلى غير ذلك من الفضائل التي تفوت الحصر.

الإشارة: لولا أن الله تفضل على أوليائه بسابق العناية، وحفّتْ بهم منه الكلاءة والرعاية، لأضلتهم العموم عن عين التحقيق، ولأتلفتهم القواطع عن سلوك الطريق، لكن من سبقت له العناية لا يصيبه سهمُ الجناية، فثبّتَ أقدامهم على سير الطريق، حتى أظهر لهم معالم التحقيق، فكشف عن قلوبهم رين الحجاب، حتى فهموا أسرار الكتاب، ونبع من قلوبهم ينابيع الحِكَم والأسرار، واطلعوا على علوم لم يُحِط بها كتاب ولا دفتر، فحازوا في الدارين خيرا جسيما، وكان فضل الله عليهم عظيما.

ولما ظهرت السرقة على طُعْمة، كثُر في شأنه التناجي والخوض فيما لا يعني، فنهاهم الحقُّ عن ذلك فقال:

﴿ ۞ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (١١٤) ﴾

قلت: إن كان المراد بالنجوى الكلام الخفي، فالاستثناء منقطع، وقد يكون متصلا على حذف مضاف؛ أي: إلا نجوى مَنْ أمر... الخ. وإن كان المراد بالنجوى الجماعة المتناجين، فالاستثناء متصل. قاله ابن جزي.

يقول الحق جل جلاله محرضاً على الصمت: ﴿لاخير في كثير﴾ مما يتناجون به في شأن السارق أو غيره، بل لا خير في الكلام بأسْره ﴿إلا من أمر بصدقة﴾ واجبة أو تطوعية، فله مثل أجره، ﴿أو معروف﴾ وهو: ما يستحسنه الشرع، ويوافقه العقل، كالقرض، وإغاثة الملهوف، وتعليم الجاهل، وإرشاد الضال، وغير ذلك من أنواع المعروف. أو أمر بإصلاح ﴿بين الناس﴾، أي: إصلاح ذات البين، كإصلاح بين طعمة واليهودي وغيرهما. قال مجاهد: (هي عامة للناس)، يريد أنه لاخير فيما يتناجى فيه الناس، ويخوضون فيه من الحديث، إلا ما كان من أعمال الخير.

﴿ومن يفعل ذلك﴾ أي: الصدقة، والمعروف والإصلاح، ﴿ابتغاء مرضات الله﴾ أي: مُخلصاً لله ﴿فسوف نؤتيه أجراً عظيما﴾ وخيراً جسيما. قال البيضاوي: بنَى الكلامَ على الأمر، ورتَّب الجزاء على الفعل، ليدل على أنه لما دخل الآمر في زمرة الخَيِّرين كان الفاعل أدخل فيهم، وأن العمدة والغرض هو الفعل، واعتبار الأمر من حيث إنه وصلة إليه. وقيد الفعل بأن يكون لطلب مرضاة الله؛ لأن الأعمال بالنيات، وأن من فعل خيراً رياء وسمعة، لم يستحق بها من الله أجراً، ووصف الأجر بالعظم تنبيهاً على حقارة مافات في جنبه من أغراض الدنيا. هـ.

الإشارة: في الآية حث على الصمت، وهو ركن قوي في طريق التصرف، وهو أحد الأركان الأربعة؛ التي هي: العزلة والجوع والسهر، فهذه طريق أهل البداية، ومن لابداية له لانهاية له، وقالوا: بقدر ما يصمت اللسان؛ يعمر الجنان، وبقدر ما كان يتكلم اللسان يخرب الجنان. وقالوا أيضا: إذا كثر العلمُ قلَّ الكلام، وإذا قل العلم كثر الكلام. وقالوا أيضا: من عرف اللهَ كلَّ لسانُه. وقيل لبعض العلماء: هل العلم فيما سلف أكثر، أو اليوم أكثر؟ قال: العلم فيما سلف أكثر، والكلامُ اليومَ أكثر.

وفي قوله: ﴿ومن يفعل ذلك..﴾ إشارة إلى أن العمل أشرف من العلم بلا عمل. والله تعالى أعلم.

ثم نزل في شأن طعمة، لما هرب وارتد مشركاً:

﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ ﴾

قلت: المشاقة: المخالفة والمباعدة، كأن كل واحد من المتخالفين في شقٍّ غيرِ شقِّ الآخر.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ومن﴾ يخالف ﴿الرسول﴾ ويتباعد عنه ﴿من بعد ما تبين له الهدى﴾ أي: بعد ما تحقق أنه على الهدى؛ بالوقوف على المعجزات، فيترك طريق الحق ﴿ويتبع غير سبيل المؤمنين﴾ أي: يسلك غير ما هم عليه، من اعتقاد أو عمل. ﴿نوله ما تولى﴾ أي: نتركه مع ما تولى، ونجعله ولياً له، ونُخلّي بينه وبين ما اختاره من الضلالة، ﴿ونُصله جهنم﴾ أي: ندخله فيها، ونشويه بها، ﴿وساءت مصيرا﴾ أي: قَبُحت مصيراً جهنم التي يصير إليها. والآية تَدُل على حرمة مخالفة الإجماع، لأن الله رتَّب الوعيد الشديد على مشاقة الرسول، واتباع غير سبيل المؤمنين، وكل منهما محرم، وإذا كان اتباع غير سبيلهم محرماً؛ كان اتباع سبيلهم واجباً. انظر البيضاوي.

ثم نزل في طُعمة لما ارتد مشركاً: ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾ وقيل: كرر للتأكيد تقبيحاً لشأن الشرك، وقيل: أتى شيخ إلى رسول الله ﷺ فقال: إني شيخ منهمك في الذنوب إلا أني لم أشرك بالله شيئاً منذ عرفتُه وآمنتُ به، ولم أتخذ من دونه وليا، ولم أوقع المعاصي جرأة، وما توهمت طرفة عين أني أُعجز الله هربا، وإني لنادم تائب، فما ترى حالي عند الله؟ فنزلت. ﴿ومن يشرك بالله، فقد ضل﴾ عن الحق ﴿ضلالاً بعيدا﴾؛ لأن الشرك أقبح أنواع الضلالة، وأبعدها عن الثواب والاستقامة، وإنما ذكر في الآية الأولى. ﴿فقد افترى﴾؛ لأنها متصلة بقصة أهل الكتاب، ومنشأ شركهم نوع افتراء، وهو دعوى الشيء على الله. قاله البيضاوي.

الإشارة: كل من خالف شيخه، وسلك طريقاً غير طريقه؛ ولاه الله ما تولى، واستدرجه من حيث لا يشعر، وقد تؤخر العقوبة عنه فيقول: لو كان هذا فيه سوء أدب مع الله، لقطع الإمداد وأوجب البعاد، وقد يقطع عنه من حيث لا يشعر، ولو لم يكن إلا وتخليته وما يريد. وبالجملة: فالخروج عن مشايخ التربية والانتقال عنهم، ولو إلى من هو أكمل في زعمه، بعد ما ظهر له الفتح والهداية على يديه؛ طردٌ وبُعدٌ، وإفساد لبذرة الإرادة، فلا نتيجة له أصلا. والله تعالى أعلم. وبالله التوفيق.

ثم قبَّح شأن الشرك، وشنّع قبحه، فقال:

﴿ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ
وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ
فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ
وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ
وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾ ﴾

قلت: المَريد والمارد: هو الذى لا يعلق بخير، وأصل التركيب للملابسة، ومنه: صرح ممرّد، وغلام أمْرد، وشجرة مردى، أي: سقط ورقها. قاله البيضاوي. هـ. وقيل: المريد: الشديد العاتي، الخارج عن الطاعة.

يقول الحق جل جلاله: ﴿إنْ يدعون﴾ : ما يعبدون ﴿من دونه﴾ تعالى ﴿إلا إناثا﴾، كاللات والعزى ومناة، فإن ألفاظها مؤنثة عندهم، أو لأنها جوامد لا تعقل، فهي منفعلة لا فاعلة، ومن حق المعبود إن يكون فاعلاً غير منفعل، أو يريد الملائكة؛ لأنهم كانوا يعبدونها، ويزعمون أنها بنات الله، وما يعبدون في الحقيقة ﴿إلا شيطاناً مريدا﴾ عاصياً، لأنه هو الذى أمرهم بها، وأغراهم عليها، وكان يكلمهم من أجوافها.

ثم وصفه بأوصاف تُوجب التنفير عنه فقال: ﴿لعنه الله﴾ أي: أبعده من رحمته، ﴿وقال لأتخذن من عبادك نصيبًا مفروضًا﴾ أي: مقطوعا فرضته لنفسي، من قولهم: فرض له في العطاء، أي: قطع، ﴿ولأضلنهم﴾ عن الحق ﴿ولأمنينهم﴾ الأماني الباطلة، كطول الحياة، وألاّ بعث ولا عقاب، ﴿ولآمرنهم فليبتكن آذان الأنعام﴾ أي: يشقونها لتحريم ما أحل الله، وهي عبارة عما كانت العرب تفعل بالبحائر والسوائب، وإشارة إلى تحريم كل ما أحل الله، ونقص كل ما خلق الله كاملاً بالفعل أو بالقوة، ﴿ولآمرنهم فليُغَيِّرن خلق الله﴾، صورة، أوصفة، فيندرج فيه خصاء العبيد والوشم، والتنمص ـ وهو نتف الحاجب ـ.

زاد البيضاوي: واللواط، والمساحقه، وعبادة الشمس والقمر، وتغيير فطرة الله التي هي الإسلام، واستعمال الجوارح والقوى فيما لا يعود على النفس كمالاً ولايوجب لها من الله زلفى. وعموم اللفظ يقتضي منع الخِصاء مطلقاً، لكن الفقهاء رخصوا في خصاء البهائم للحاجة، والجُمل الأربع حكاية عما ذكره الشيطان نطقاً، أو أتاه فعلاً. هـ.

ثم حذّر منه فقال: ﴿ومن يتخذ الشيطان ولياً من دون الله﴾ باتباعه فيما أمره به دون ما أمر الله به، ﴿فقد خسر خسراناً مبيناً﴾ واضحاً؛ حيث ضيع رأس ماله، وأبدل بمكانه من الجنة مكانه من النار. ﴿يعدهم﴾ أي: الشيطان، أموراً لاتُنجز لهم، ﴿ويمنيهم﴾ أماني لا تعطى لهم، ﴿وما يعدهم﴾ أي: ﴿الشيطان إلا غرورا﴾، وهو إظهار النفع فيما فيه الضرر، فكان يوسوس لهم أنهم على الحق وأنهم أولى بالجنة، إلى غير ذلك من أنواع الغرور، ﴿أولئك﴾ المغرورون ﴿مأواهم جهنم﴾ أي: هي منزلهم ومقامهم، ﴿ولا يجدون عنها محيصا﴾ أي: مهرباً ولا معدلا. من حاص يحيص: إذا عدل.

الإشارة: ما أحببت شيئاً إلا كنت له عبدا، فاحذر أن تكون ممن يَعْبُد من دون الله إناثا، إن كنت تحب نفسك، وتؤثر هواها على حق مولاها، أو تكون عبد المرأة أو الخميصة(١) أو البهيمة، أو غير ذلك من الشهوات التي أنت تحبها، واحذر أيضا أن تكون من نصيب الشيطان بإيحاشك إلى الكريم المنان، وفي الحِكَم: «إذا علمت أن الشيطان لا يغفل عنك، فلا تغفل أنت عمن ناصيتك بيده». فاشتغل بمحبة الحبيب، يكفيك عداوة العدو، فاتخذ الله ولياً وصاحبا، ودع الشيطان جانبا، غِبْ عن الشيطان باستغراقك في حضرة العيان. وبالله التوفيق.

ثم ذكر ضد أهل الشرك، فقال:

﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾ ﴾

قلت: (وعْدَ الله) مصدر، مؤكد لنفسه، أي: وعدهم وعدا، و(حقا) مؤكد لغيره، أي: لمضمون الجملة قبله. انظر البيضاوي.

يقول الحق جل جلاله: ﴿والذين آمنوا﴾ بالله ووحدوه، ﴿وعملوا﴾ الأعمال ﴿الصالحات﴾ التي كلفوا بها ﴿سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا﴾ وعدهم بذلك وعدا حقا، ﴿ومن أصدق من الله قيلا﴾ أي: لا أحدَ أصدقُ من الله في قوله. والمقصود من الآية معارضة المواعيد الشيطانية الكاذبة لقرنائه، بوعد الله الصادق لأوليائه، ترغيباً في تحصيل أسبابه. والله تعالى أعلم.

(١) الخميصة: ثوب خز أو صوف.

الإشارة: والذين جمعوا بين توحيد عظمة الربوبية والقيام بوظائف العبودية سندخلهم جنةَ المعارف، تجرى من تحتها أنهار العلوم، خالدين فيها أبداً، وعداً حقاً وقولاً صدقاً . ومن أصدق من الله قيلا؟

وهذا الوعد لاينال بالأماني مع البطالة والتواني؛ وإنما ينال بالأعمال الصالحة والمقاصد الخالصة، كما قال تعالى :

﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ ﴾

قلت: اسم ليس ضمير الأمر، أي: ليس الأمر بأمانيكم.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ليس﴾ هذا الوعد الذي ذكرت لأهل الإيمان يُنال ﴿بأمانيكم﴾ أي: تمنيكم أيها المسلمون، ولا بأماني ﴿أهل الكتاب﴾، أي: لا يكون ما تتمنون ولا ما يتمنى أهل الكتاب، بل يحكم الله بين عباده ويجازيهم بأعمالهم. رُوى أن المسلمين وأهل الكتاب تفاخروا، فقال أهل الكتاب: نبينا قبل نبيكم، وكتابنا قبل كتابكم، ونحن أوْلى بالله منكم، وقال المسلمون: نحن أولى منكم، نبينا خاتم النبيين ، وكتابنا يقضي على الكتب المتقدمة، فنزلت. وقيل: الخطاب مع المشركين، وهو قولهم: لاجنة ولا نار، أو قولهم: إن كان الأمر كما يزعم هؤلاء لنكونن خيرا منهم وأحسن حالا.

وأماني أهل الكتاب: قولهم ﴿ لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ﴾ و﴿ لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ﴾ ثم قرر ذلك فقال: ﴿من يعمل سوءاً يجز به﴾ عاجلاً أو آجلا؛ لما رُوى أنه لما نزلت قال أبو بكر: من ينجو مع هذا يارسول الله، إن كنا مجزيين بكل سوء عملناه؟ فقال له ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «أما تحزن؟ أما تمرض؟ أما يصيبك اللأواء؟[1] قال: بلى يارسول الله، قال: هو ذلك» . فكل من عمل سوءا جوزى به، ﴿ولا يجد له من دون الله ولياً﴾ يليه ويدفع عنه، ﴿ولا نصيراً﴾ ينصره ويمنعه من عذاب الله.

الإشارة: لاتُنال المراتب بالأماني الكاذبة والدعاوى الفارغة، وإنما تنال بالهمم العالية، والمجاهدات القوية، إنما تنال المقامات العالية بالأعمال الصالحة، والأحوال الصافية، وأنشدوا:

(١) اللأواء: الشدة وضيق العيش.

بِقَدْرِ الكدِّ تُكتَسَبُ المَعَالِي　　　　مَن أراد العز سهر الليالي

تُرِيدُ العزَّ ثم تَنَامُ لَيلاً　　　　يَغُوصُ البحر مَنْ طَلَبَ اللآلي

ولما نزل قوله تعالى: ﴿ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب...﴾ الآية. قال أهل الكتاب: نحن وأنتم سواء، فأنزل الله تعالى:

﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا ﴿١٢٦﴾ ﴾

قلت: (من ذكر أو أنثى): حال من الضمير في (يعمل)، وكذا قوله: ﴿وهو مؤمن﴾ و(حنيفا)، حال من (إبراهيم)؛ لأنه جزء ما أضيف إليه.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ومن يعمل﴾ شيئاً ﴿من﴾ الأعمال ﴿الصالحات﴾ وهو المهم من المكلف به، إذ لا طاقة للبشر على الإتيان بكلها. حال كون العامل ﴿من ذكر أو أنثى﴾؛ إذ النساء شقائق الرجال في طلب الأعمال، والحالة أن العامل ﴿مؤمن﴾ لأن الإيمان شرط في قبول الأعمال، فلا ثواب على عمل ليس معه إيمان. ثم ذكر الجواب فقال: ﴿فأولئك يدخلون الجنة﴾ أي: يتصفون بالدخول، أو يدخلهم الله الجنة، ﴿ولا يُظلمون﴾ أي: لا ينقصون من ثواب أعمالهم ﴿نقيرا﴾ أي: مقداره، وهو النقرة في ظهر النواة. قال البيضاوي: وإذا لم ينقص ثواب المطيع فبالأحرى ألا يزيد في عقاب العاصي، لأن المجازي أرحمُ الراحمين.هـ.

﴿ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله﴾ أي: لا أحد أحسن ديناً ممن انقاد بكليته إلى مولاه ﴿وهو محسن﴾ أي: مُوحِّدٌ أحسَنَ فيما بينه وبين الله، وفيما بينه وبين عباد الله، ﴿واتبع ملة إبراهيم حنيفا﴾ بأن دخل في الدين المحمدي الذي هو موافق لملة إبراهيم بل هو عينه، فمن ادعى أنه على ملة إبراهيم ولم يدخل فيه فقد كذب.

ثم ذكر ما يحث على اتباع ملته، فقال: ﴿واتخذ الله إبراهيم خليلا﴾ أي: اصطفاه وخصه بكرامة تشبه كرامة الخليل عند خليله، وإنما أعاد ذكره ولم يضمر؛ تفخيماً له وتنصيصاً على أنه الممدوح، وسمي خليلا لأنه قد تخللت محبة الله في جميع أجزائه.

رُوى أن إبراهيم عليه السلام كان يضيف الناس، حتى كان يسمى أبا الضيفان، وكان منزله على ظهر الطريق، فأصاب الناس سَنَةٌ، جهدوا فيها، فحشد الناسُ إلى باب إبراهيم، يطلبون الطعامَ، وكانت الميرة كل سنة تصله من صديق له بمصر، فبعث غلمانه بالإبل إلى الخليل الذي له بمصر يسأله الميرة، فقال لغلمانه: لوكان إبراهيم يريد لنفسه احتملت له ذلك، ولكنه يريد للأضياف، وقد أصابنا ما أصاب الناس، فرجع الرسل إليه، ومرّوا ببطحاء لينة، فملأوا منها الغرائر حياء من الناس، وأتوا إبراهيم فأخبروه، فاهتم إبراهيم لمكان الناس ببابه، فنام، وكانت سارة نائمة فاستيقظت، وقالت: سبحان الله! أما جاء الغلمان؟ فقالوا: بلى، فقامت إلى الغرائر فإذا فيها أجود الحُوّارَى - أي: الخالص من الدقيق - فخبزوا وأطْعموا؟ فاستيقظ إبراهيم ، وشم رائحة الخبز، فقال: يا سارة، من أين هذا؟ فقالت: من عند خليلك المصري، فقال: هذا من عند خليلي الله - عز وجل -، فحينئذ سماه الله خليلا(١).

قال الزجاج: ومعنى الخليل: الذي ليس في محبته خَلَل، أو لأنه ردَّ خَلّته، أي: فقره إلى الله مخلصا .هـ.

﴿ولله ما في السموات وما في الأرض﴾ ملكاً وخلقاً وعبيداً، فالملك له، والعبيد عبيده، يختار ما يشاء كما يشاء من خلة ومحبة وخدمة، ﴿وكان الله بكل شيء محيطا﴾ علماً وقدرة، فيجازي كُلاً على قدر سعيه وقصده. والله تعالى أعلم.

الإشارة: على قدر المجاهدة والمكابدة تكون المعاينة والمشاهدة، على قدر البدايات تكون النهايات، من أشرقت بدايته أشرقت نهايته، والجزاء على العمل يكون على قدر الهمم، فمن عمل لجنة الزخارف مُتع بها، ومن عمل لجنة المعارف تنعم بها، ﴿ولا يظلم ربك أحدا﴾، فمن انقاد بكليته إلى مولاه فلا أحد أحسن منه عند الله، ومن تمسك بالملة الحنيفية، وهي الانقطاع إلى الله بالكلية ـ فقد استمسك بالعروة الوثقى، وكان في أعلى ذروة أهل التقى، من تخلق بخلق الحبيب كان أقرب إلى الله من كل قريب. وبالله التوفيق، وهو الهادي إلى سواء الطريق.

ومما يتعلق بحفظ اللسان الفتوى بما يطابق الحق، ولذلك ذكره بعد الأمر بالحكم بالعدل، وما بينهما اعتراض انجرّ الكلام إليه، فقال:

﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ وَأَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا ﴿١٢٧﴾ ﴾

---

(١) قال ابن كثير: في صحة هذا ووقوعه نظر. وغايته أن يكون خبراً اسرائيلي، لايصدق ولا يكذب ، وإنما سمي خليل الله لشدة محبته لربه - عز وجل ـ مما قام له به من الطاعة، التي يحبها ويرضاها.

قلت: و(ما يتلى): عطف على (الله)، أي: يفتيكم الله، والمتلو عليكم في الكتاب، أي: في القرآن. ﴿وترغبون أن تنكحوهن﴾ حذف الجار، وهو في أو عن، ليصدق النهي بالراغب فيها إذا كانت جميلة، والراغب عنها إذا كانت دميمة، و﴿المستضعفين﴾ عطف على (يتامى النساء) أي: والذي يتلى في المستضعفين من الولدان، وهو قوله تعالى: ﴿يوصيكم الله...﴾ الخ، أو على الضمير في (فيهن) أي: يفتيكم فيهن وفي المستضعفين، و(أن تقوموا) عطف على (المستضعفين)، أو منصوب بمحذوف، أي: ويأمركم أن تقوموا... الخ.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ويستفتونك﴾ يا محمد ﴿في﴾ شأن ﴿النساء﴾ من الميراث وغيره، ﴿قل الله يفتيكم فيهن﴾، فيأمركم أن تعطوهن حقهن من الميراث، ﴿و﴾ يفتيكم أيضا فيهن ﴿ما يتلى عليكم في الكتاب﴾ في أول السورة إذ قال: ﴿للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن﴾ ثم بيّنه في تقسيم الميراث في ﴿يوصيكم الله في أولادكم﴾، وقال في اليتامى: ﴿وآتوا اليتامى أموالهم﴾ ﴿وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى...﴾ الآية، فقد أفتاكم في اليتامى ﴿اللاتي لا تؤتونهن ما كتب لهن﴾ من الصداق ﴿وترغبون أن تنكحوهن﴾ بدون صداق مثلهن، فأمركم أن تنكحوا غيرهن، ولاتنكحوهن إلا أن تقسطوا لهن في الصداق، إذا كانت جميلة، أو لها مال، أو ترغبون عن نكاحهن إذا كانت دميمة، فتعضلوهن لترثوهن، فلا تفعلوا ذلك، بل تزوجوها أو زوجوها، وكانوا في الجاهلية، إذا كانت اليتيمة ذات مال وجمال، رغبوا فيها وتزوجوها بدون صداقها، وإن كانت دميمة ولا مال لها رغبوا عنها وعضلوها، أو زوجوها غيرهم. فنهى الله تعالى الفريقين معا.

﴿و﴾ يفتيكم أيضا في ﴿المستضعفين من الوِلْدَانِ﴾ وهم الصغار، أن تعطوهم حقهم من الميراث مع الكبار، وكانوا لا يورثونهم، روى أن عُيينة بن حصن أتى النبي ﷺ فقال: أُخبرنا أنك تورث النساء والصبيان، وإنما كنا نورث من يشهد القتال ويحوز الغنيمة؟ فقال له ﷺ: «كذا أُمِرْتُ»، فنزلت الآية.

﴿و﴾ يفتيكم أيضا ويأمركم ﴿أن تقوموا لليتامى بالقسط﴾ أي: العدل. وهو خطاب للأئمة أن ينظروا لهم بالمصلحة ويستوثقوا حقوقهم، ويحتاطوا لهم في أمورهم كلها. ثم وعدهم بالثواب على ذلك فقال: ﴿وما تفعلوا من خير فإن الله كان به عليما﴾، فيجازيكم على قدر إحسانكم. والله تعالى أعلم.

الإشارة: يستفتونك عن نساء العلوم الرسمية، وعن يتامى العلوم القلبية، وهن نتائج الأفكار، وهي العلوم اللدنية، والأسرار الربانية؛ التي هي من علوم الحقيقة، ولا تليق إلا بالمستضعفين عند الخليقة، وفي الخبر: «ألا أُخْبِرُكم بأهْلِ الجنّة؟ هو كل ضَعِيفٍ مُتَضَعَّفٍ، لو أقْسَمَ على اللهِ لأبَرَّهُ في قَسَمه». أو كما قال ﷺ. قل الله يفتيكم فيهن فيأمركم أن تأخذوا من العلوم الرسمية ماتتقنون به عبادة ربكم، وترغبوا في علم الطريقة، التي هي علم

القلوب، ما تحققون به عبوديتكم، ومن نتائج الأفكار ماتُشاهدون به عظمة ربكم، ويأمركم أن تقوموا بالعدل فى جميع شئونكم، فتعطوا الشريعةحقها والطريقة حقها، وتحفظوا أسرار الحقيقة عن غير مستحقها، والله لا يضيع أجر المحسنين.

ثم أمر بالصلح بين الزوجين عند خوف النشوز، فقال:

﴿ وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ وَإِن تُحْسِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾ ﴾

قلت: امرأة: فاعل بفعل يفسره ما بعده، وأصل (يَصَّالحا): يتصالحا، فأدغمت، و(صُلْحًا) مصدر. وقرأ الكوفيون: يُصْلحا؛ من الرباعى، فتنصب صُلْحًا على المفعول به، أو المصدر، و(بينهما) ظرف، أو حال منه، وجملة (الصلح خير): معترضة، وكذا: ﴿وأحضرت الأنفس الشح﴾، ولذلك اغتفر عدم تجانسهما.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وإن امرأة خافت﴾ وتوقعت من زوجها ﴿نُشُوزا﴾ أى: ترفعاً عن صحبتها، وتجافيا عنها، كراهية لها، ومنعا لحقوقها، ﴿أو إعراضا﴾ عنها، بأن يترك مجالستها، ومحادثتها، ﴿فلاجناح عليهما﴾ أن يتصالحا ﴿بينهما صلحا﴾ بأن تحط له من مهرها، أو من قَسْمها مع ضرتها، أو تهب له شيئا تستميله به.

نزلت فى سعد بن الربيع، تزوج على امرأته شابةً، وآثرها عليها. وقيل: فى رجل كبرت امرأته، وله معها أولاد، فأراد طلاقها ليتزوج، فقالت له: دعنى على أولادى، واقسم لى فى كل شهرين أو أكثر، أو لا تقسم. فذكر ذلك للنبى ﷺ فقال له: «قد سمع الله ما تقول، فإن شاء أجابك» ، فنزلت. وقيل: نزلت فى سودة زوج النبى ﷺ، لما كبرت، أراد ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن يُفارقها، فقالت: أمسكنى فى نسائك ولا تقسم لى، فقد وهبتُ نوبتى لعائشة، فإنى أريد أن أُبعث فى نسائك.

ثم رغَّب فى الصلح فقال: ﴿والصلح خير﴾ من المفارقة، أو من سوء العشرة والخصومة، أو خير فى نفسه، ولا يكون إلا مع ترك بعض حق النفس من أحد الخصمين، فلذلك ثقل على النفس فشحت به، وإليه أشار بقوله: ﴿وأحضرت الأنفس الشح﴾ أى: جعلته حاضراً لديها لا يفارقها، لأنها مطبوعة عليه، فالمرأة لا تكاد تسمح للزوج من حقها، ولا تسخو بشيء تعطيه لزوجها، والزوج لا يكاد يصبر على إمساكها وإحسان عشرتها إذا كرِهها،

﴿وإن تحسنوا﴾ العشرة ﴿وتتقوا﴾ النشوز والإعراض ونقص حق المرأة مع كراهة الطبع لها، ﴿فإن الله كان بما تعملون خبيرا﴾ لا يخفى عليه إحسانكم ولانشوزكم، فيجازى كُلاً بعمله، وفى بعض الأثر: «من صبر على أذى زوجته أعطاه الله ثواب أيوب عليه السلام. وكذلك المرأة. والله تعالى أعلم.

الإشارة: اعلم أن النفس كالمرأة حين يتزوجها الرجل، فإنها إذا رأتْ من زوجها الجد في أموره والانقباض عنها، هابته وانقادت لأمره، وإذا رأت منه الليونة والسيولة استخفت بأمره وركبته، وسقطت هيبته من قلبها، فإذا أمرها ونهاها لم تحتفل بأمره، وكذلك النفس إذا رأت من المريد الجد في بدايته والصولة عليها، هابته وانقادت لأمره وكانت له سميعة مطيعة، وإذا رأت منه الرخو والسهولة معها، ركبته وصعب عليه انقيادها وجهادها، فإذا مال عليها وقهرها فأرادت الصلح معه على أن يسامحها فى بعض الأمور، وتساعفه فيما يُريد منها، فلا جناح عليهما أن يصالحا بينهما صلحا، والصلح خير، فإن دوام التشديد قد يفضي إلى الملل، وإن تحسنوا معها بعد معرفتها، وتتقوا الله فى سياستها ورياضتها حتى ترد بكم إلى حضرة ربها، فإن الله كان بما تعملون خبيراً.

ثم أمر بالعدل بين النساء، فقال:

﴿ وَلَن تَسۡتَطِيعُوٓاْ أَن تَعۡدِلُواْ بَيۡنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوۡ حَرَصۡتُمۡۖ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلۡمَيۡلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلۡمُعَلَّقَةِۚ وَإِن تُصۡلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ١٢٩ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ولن تستطيعوا﴾ يا معشر الأزواج، ﴿أن تعدلوا بين النساء﴾ العدل الكامل التام فى الأقوال والأفعال والنفقة والكسوة والمحبة، ﴿ولو حرصتم﴾ على ذلك لضعف حالكم، وقد خففت عنكم، وأسقطت الحرج عنكم، فلا يجب العدل فى البيت فقط، وكان ﷺ يَقْسِمُ بين نِسَائِه فيَعْدِلُ ويَقُولُ: «اللهمَّ هذه قِسْمتى فِيمَا أَمْلِكُ، فلا تُؤَاخِذْنى فيما لا أَمْلِكُ»، يعني: ميل القلب، وكان عمر رضي الله عنه يقول: (اللهم قلبى فلا أملكه، وأما سوى ذلك فإني أرجو أن أعدل)، وأما الوطء فلا يجب العدل فيه، إلا أن تتحرك شهوته، فيكف لتتوفر لذته للأخرى.

﴿فلا تميلوا﴾ إلى المرغوب فيها لجمالها أوشبابها، ﴿كُلَّ الميل﴾ بالنفقة والكسوة والإقبال عليها، وتَدَعُوا الأخرى ﴿كالمعلقة﴾ التي ليست ذات بعل ولا مطلقة، كأنها محبوسة مسجونة، وعن النبى ﷺ: «مَنْ كانتْ له امرأتانِ يَميلُ مع إحدَاهما، جاء يومَ القِيَامَةِ، وأحَدُ شِقَّيه مَائِلٌ»، ﴿وإن تصلحوا﴾ ماكنتم تفسدون فى أمورهن بالعدل بينهن، ﴿وتتقوا﴾ الجور فيما يستقبل، ﴿فإن الله كان غفوراً رحيما﴾، يغفر لكم ما مضى من ميلكم.

الإشارة: من شأن العبودية: الضعف والعجز، فلا يستطيع العبد أن يقوم بالأمور التي كلف بها على العدل والتمام، ولو حرص كل الحرص، وجدَّ كل الجد، فلا يليق به إلا التحقق بوصفه والرجوع إلى ربه، فيأتي بما يستطيع ولا يحرص على مالا يستطيع، فلا يميل إلى الدعة والكسل كل الميل، ولا يحرص على مالا طاقة له به كل الحرص، فإن التعقيد ليس من شأن أهل التوحيد، بل من شأنهم مساعفة الأقدار، والسكون تحت أحكام الواحد القهار، فلا تميلوا إلى التعمق والتشديد كل الميل، فتتركوا أنفسكم كالمُعلَّقة، أي: المسجونة، وهذا من شأن أهل الحجاب، يُحبسون في المقامات والأحوال، تشغلهم حلاوة ذلك عن الله تعالى. فإذا فقدوا ذلك الحال أو المقام سلبوا وأفلسوا. وأهل الغنى بالله لا يقفون مع حال ولا مقام، هم مع مولاهم، وكل ما يبرز من عنصر القدرة قبلوه، وتلونوا بلونه، وهذا مقام التلوين بعد التمكين.

وفي إشارة أخرى: اعلم أن القدرة والحكمة كالزوجين للقلب، يقيم عند هذه مدة، وعند هذه أخرى، فإذا أقام عند الحكمة كان في مقام العبودية من جهل وغفلة وضعف وذلة، وإذا أقام عند القدرة كان في مقام شهود الربوبية فيكون في علم ويقظة وقوة وعزة. ولا قدرة له على العدل بينهما، فلا يميل إلى إحداهما كل الميل بل يسير بينهما، ويعطي كل ذي حق حقه، بأن يعرف فضلهما، ويسير بكل واحد منهما. وإن تصلحوا قلوبكم وتتقوا ما يشغلكم عن ربكم، فإن الله كان غفوراً رحيما؛ يغفر لكم ميلكم إلى إحدى الجهتين والله تعالى أعلم.

فإذا تعذر الإصلاح بين الزوجين، وأراد الفراق ففي الله الغنِيِّ عن كل شيء، كما أشار إلى ذلك بقوله:

﴿ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ... ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿وإن يتفرقا﴾ أي: يفارق كل واحد منهما صاحبه، ﴿يُغن الله﴾ كل واحد منهما عن صاحبه، ببدل أو سُلُوٍّ يقوم بأمره من رزق أو غيره، من سعة غناه وكمال قدرته، ﴿وكان الله واسعا﴾ بقدرته ﴿حكيما﴾ أي: متقناً في أحكامه وأفعاله. ثم بيَّن معنى سعته فقال: ﴿ولله ما في السموات وما في الأرض﴾ أي: كل ما استقر فيهما فهو تحت حكمه ومشيئته، قائما يحفظه وتدبيره، يعطي كل واحد ما يقوم بأمره ويغنيه عن غيره. والله تعالى أعلم.

الإشارة: اعلم أن الروح مادامت مسجونه تحت قهر البشرية، محجوبةً عن شهود معاني الربوبية، كانت فقيرة جائعة متعطشه، تتعشق إلى الأكوان وتفتقر إليها، وتقف معها، فإذا فارقت البشرية وانطلقت من سجن هيكلها،

وخرجت فكرتها من سجن الأكوان، أغناها الله بشهود ذاته، وأفضت إلى سعة فضاء الشهود والعيان، وملكت جميع الأكوان، «أنت مع الأكوان ما لم تشهد المكون، فإذا شهدت المكون كانت الأكوان معك»، وكذلك البشرية يغنيها الله عن تعب الخدمة وتستريح في ظل المعرفة، فلما تفرقا أغنى الله كلاً من سعة فضله وجوده، لأنه واسع العطاء والجود، حكيم في تدبير إمداد كل موجود.

وفي قوله: ﴿ولله ما في السموات وما في الأرض﴾ إشارة إلى أن من كان بالله، ووصل إلى شهود ذاته، ملّكه الله ما في السموات وما في الأرض، فيكون خليفة الله في ملكه، (وما ذلك على الله بعزيز).

ولمّا جرى الكلام على شأن النساء، وهن حبائل الشيطان، تشغل فتنتهن عن ذكر الرحمن، حذّر الحق تعالى من فتنتهن، كما هو عادته تعالى في كتابه عند ذكرهن، وأمر بالتقوى التي هي حصن من كل فتنة، فقال:

﴿... وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾﴾

قلت: (من قبلكم): يتعلق بأوتوا أو بوصينا، و(إياكم): عطف على الذين، و(أن اتقوا): على حذف الجار، أي: بأن اتقوا، أو مفسرة؛ لأن التوصية في معنى القول، و(إن تكفروا) على حذف القول، أي: وقلنا لهم ولكم: وإن تكفروا ... الخ.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ولقد وصينا﴾ الأمم المتقدمة الذين أنزلنا عليهم ﴿الكتاب من قبلكم﴾ كأهل التوراة والإنجيل والزبور، وغيرهم من الأمم، ووصيناكم أنتم ﴿أن اتقوا الله﴾ بأن تمتثلوا أوامره، وتجتنبوا نواهيه، ظاهراً وباطنا، وقلنا لهم ولكم: ﴿وإن تكفروا﴾ فإن الله غني عن كفركم وشكركم؛ فقد استقر له ﴿ما في السموات وما في الأرض﴾ ملكاً وعبيدا، فله فيهما من الملائكة من هو أطوع منكم، فلا يتضرر بكفركم، كما لا ينتفع بشكركم وتقواكم، وإنما أوصاكم رحمةً بكم، لا لحاجة إليكم، ثم قرر ذلك بقوله: ﴿وكان الله غنياً حميدا﴾ أي: غنياً عن الخلق وعبادتهم، محموداً في ذاته، حُمِد أو لم يُحمد.

﴿ولله ما في السموات وما في الأرض﴾ كرره ثالثاً؛ للدلالة على كونه غنياً حميدا، فإن جميع المخلوقات تدل بحاجتها على غناه، وبما أفاض عليها من الوجود، وأنواع الخصائص والكمالات على كونه حميداً. قاله البيضاوي. ﴿وكفى بالله وكيلا﴾ أي: حافظاً ومجيراً لمن تعلق به من أهل السموات والأرض. ﴿إن يشأ يذهبكم أيها الناس﴾ إن لم تتقوه، ويأت بقوم آخرين، هم أطوع منكم وأتقى، ﴿وكان الله على ذلك قديرا﴾ أي: بليغ القدرة لا يعجزه مُراد.

قال البيضاوي: وهذا ـ أي قوله: (إن يشأ يذهبكم..) ـ أيضاً تقرير لغناه وقدرته، وتهديد لمن كفر وخالف أمره، وقيل: هو خطاب لمن خالف الرسول ﷺ من العرب، وهو معنى قوله: ﴿وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم﴾ لما رُوي: أنَّهَا لما نَزَلَتْ ضَرَبَ رَسولُ ﷺ يدَه على ظهر سلْمَان وقال: «إنّهمْ قَوْمُ هذا» .

الإشارة: التقوى أساس الطريق ومنهاج أهل التحقيق، عليها سلك السائرون، وبها وصل الواصلون، قد وصَّى بها الحق تعالى المتقدمين والمتأخرين، وبها قرّب المقرّبين وشرّف المكرمين. ولها خَمْسُ درجاتٍ: أن يتقي العبد الكفر؛ وذلك بمقام الإسلام، وأن يتقي المعاصي والمحرمات؛ وهو: مقام التوبة، وأن يتقي الشبهات؛ وهو مقام الورع، وأن يتق المباحات، وهو مقام الزهد، وأن يتقي شهود السِّوى والحس؛ وهو مقام المشاهدة.

ولها فضائل مستنبطة من القرآن، وهي خمس عشرة: الهداية؛ لقوله تعالى: ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ ، والنصرة؛ لقوله: ﴿ إن الله مع الذين اتقوا ﴾ ، والولاية؛ لقوله: ﴿ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ والمحبة؛ لقوله: ﴿ إن الله يحب المتقين ﴾ ، وتنوير القلب؛ لقوله: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا ﴾ ، والمخرج من الغم والرزق من حيث لا يحتسب، لقوله: ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ، وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ ﴾ ، وتيسير الأمور؛ لقوله: ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ﴾ وغفران الذنوب وإعظام الأجر؛ لقوله: ﴿ ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجرا ﴾ ، وتقبل الأعمال؛ لقوله: ﴿ إنما يتقبل الله من المتقين ﴾ والفلاح؛ لقوله: ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ والبشرى؛ لقوله: ﴿ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ ﴾ ، ودخول الجنة؛ لقوله: ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾ ، والنجاة من النار؛ لقوله: ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا ﴾ . هـ. من ابن جزي.

ومما ينسب للقطب ابن مشيش رضي الله عنه:

عليكَ بتقوى الله في السرِّ والجهرِ ... ذا شئتَ توفيقًا إلى سُبُلِ الخيرِ
لأن التُّقى أصلٌ إلى البِرِّ كلِّه ... فخُذْه تَفُزْ بكلِّ نوعٍ من البرِّ
وخيرُ جميعِ الزاد ما قال ربُّنا فكُنْ ... يا أخي للهِ مُمْتَثِلَ الأمْرِ

ولمّا قرر أن الملك كله بيده، رغَّب الناس في رفع حوائجهم إليه، فقال:

﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾ ﴾

قلت: (من): شرطية، وجوابها محذوف؛ دل عليه الكلام، أي: من كان يريد ثواب الدنيا فليطلبه منه، فعند الله ثواب الدنيا والآخرة، أو من كان يريد ثواب الدنيا فلا يقتصر عليه خاصة، فعند الله ثواب الدنيا والآخرة.

يقول الحق جل جلاله: ﴿**من كان يريد ثواب الدنيا**﴾ والتوسع فيها، فليطلبه منا؛ فعند الله ثواب الدارين، أو من كان يريد ثواب الدنيا، فليطلب مع ذلك ثوابَ الآخرة أيضًا، وليقل: ﴿ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة﴾؛ ﴿**فعند الله ثواب الدنيا والآخرة**﴾، فيعطيهما معاً لمن طلبهما، والثاني أنهض من الأول، وأكملُ منهما من أعرض عنهما وطلب مولاه، ﴿**وكان الله سميعًا بصيرا**﴾، لا يخفى عليه مقاصد خلقه، فيعطي كُلاً على حسب قصده.

الإشارة: الهمم ثلاثة: همة دنية تعلقت بالدنيا الدنية، وهمة متوسطة تعلقت بنعيم الآخرة، وهمة عالية تعلقت بالكبير المتعال. والله تعالى يرزق العبد على قدر همته، وبالهمم ترفع المقادير أو تسقط، فمن كانت همته دنية كان دَنِيا خسيسا، ومن كانت همته متوسطة؛ كان قدره متوسطا، رحل من كون إلى كون، كحمار الرحا، يسير، والذي ارتحل منه هو الذي عاد إليه، ومن كانت همته عالية كان عالي المقدار، كبير الشأن، حاز الكونيْن بما فيهما، وزاد مشاهدة خالقهما. جعلنا الله منهم بمنّه وكرمه.

ولما أمر بالعدل بين النساء؛ أمرَ بالعدل في الأحكام كلها، فقال:

﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾ ﴾

قلت : (شهداء) : خبر ثان لكان، أوحال، (فالله أولى) : علة للجواب؛ أي: إن يكن المشهود عليه غنياً عليه فلا تمتنعوا من الشهادة عليه تعظيماً له، وإن يكن فقيراً فلا تمتنعوا من الشهادة عليه إشفاقاً عليه، فإن الله أولى بالغنى والفقير منكم، والضمير فى (بهما) راجع إلى مادل عليه المذكور، وهو جنسا الغنى والفقير، لا إليه وإلا لوحّد؛ لأن «أو» لأحد الشيئين. و(أن تعدلوا) : مفعول من أجله، ومن قرأ : تلوا ـ بضم اللام ـ فقد نقل ضم الواو إلى اللام وحذف أحد الواوين، وقيل: من الولاية.

يقول الحق جل جلاله: ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط﴾ أي: مجتهدين فى إقامة العدل مواظبين على الحكم به، وكونوا ﴿شهداء لله بالحق﴾ تقيمون شهادتكم لوجه الله، وابتغاء مرضاته، بلاطمع أجر ولا عوض، وهذا إن تعينت عليه، ولم يكن فى تحملها مشقة، وإلا أُبيح له أجر تعبه، فأدوا شهاداتكم ﴿ولو﴾ كانت ﴿على أنفسكم﴾ بأن تقروا بالحق الذى عليها، لأن الشهادة بيان الحق، سواء كان عليها أو على غيرها، ﴿أو﴾ كانت الشهادة على ﴿الوالدين والأقربين﴾، فلا تمنعكم الشفقة والتعظيم من إقامة الشهادة عليهما، وأحرى غيرهما من الأجانب، ﴿إن يكن﴾ المشهود عليه ﴿غنياً أو فقيرا﴾ فلا تميلوا عن الشهادة بالحق عليهما، تعظيماً للغنى أو شفقة للفقير، فإن ﴿الله أولى بهما﴾ وبالنظر لهما، فلو لم تكن الشهادة عليهما صلاحاً لهما ما شرعها، ﴿فلا تتبعوا الهوى﴾ فتميلوا مع الغنى أو الفقير، فقد نهيتكم إرادة ﴿أن تعدلوا﴾ فى أحكامكم، فتكونوا عدولا، أو كراهية أن تعدلوا عن الحق أي: تميلوا، ﴿وإن تلووا﴾ ألسنتكم عن شهادة الحق أو حكومة العدل ﴿أو تعرضوا﴾ عن أدائها فتكتموها ﴿فإن الله كان بما تعملون خبيرا﴾، فيجازى الكاتم والمؤدى.

قال ﷺ عند نزولها: «مَنْ كانَ يؤمنُ بالله واليومِ الآخر فليُقِمْ شهادتَه على من كانت، ومنْ كان يؤمن بالله واليومِ الآخر، فلا يَجْحَدْ حقاً هو عليه، وليُؤدِّه عَفْواً، ولا يلجئه إلى السُلطان وخصُومتِه، ليقتطع بها حقه، وأيما رجل خَاصَمَ إليَّ فقضيْتُ له على أخِيه بحقٍ ليس له عليه، فلا يأخُذْه، فإنّما أقْطَعُ له قطعةً مِنَ النّارِ» .

الإشارة: قد أمر الحق تعالى عباده بإقامة العدل فى الأمور كلها، ونهى عن مراقبة الخلق فى الأشياء كلها، فيتأكد على المريد ألاّ يراقب أحدا من الخلق؛ وإنما يراقب الملك الحق، فيكون قوياً فى الحق، يقيمه على نفسه وغيره، فلا تجتمع مراقبة الحق مع مراقبة الخلق، من راقب الحق غاب عن الناس، ومن راقب الناس غاب عن الحق، وعاش مغموماً من الخلق، ولله در القائل حيث قال:

مَنْ رَاقَبَ الناسَ مَاتَ غَمّا ... وفَازَ باللّذاتِ الجَسُورُ

وكان شيخ شيخنا رضي الله عنه يقول: (مراقبةُ الخلقِ عند أهل الظاهر شيءٌ كبير، وعدم المراقبة عند الباطن أمر كبير) . فإقامة العدل على النفس؛ ألاّ يتركها تميل إلى الرخص والتأويلات، وإقامته على الوالدين تذكيرهما بالله ودلالتهما على الله بلطف ولين، وإقامته على الأقربين بنصحهم وإرشادهم إلى ما فيه صلاحهم، كانوا أغنياء أو فقراء، وإقامته على الأجانب كذلك. وبالله التوفيق.

ولما فرغ مما يتعلق بحفظ اللسان، تكلم على حفظ الإيمان، وهو الأمر السادس مما تضمنته السورة، فقال:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: مخاطباً من أسلم من اليهود - وهو عبد الله بن سَلاَم وأسَد وأسيد ابنا كَعْب، وثَعلبة بن قَيْس، وسلاّم بن أخت عبد الله بن سلام، وسلمة ابن أخيه ويامين - قالوا يا رسول الله، نؤمن بك وبكتابك وبموسى والتوراة وعُزَير، ونكفرُ بما سِواه من الكُتب؟ فقال النبي ﷺ: «آمِنوا بالله ورسوله محمد ﷺ وبكتابه القرآن، وبكل كتاب قبله» ، فنزلت الآية.

فقال لهم جل جلاله: ﴿**يا أيها الذين آمنوا**﴾ بمحمد، بعد أن آمنوا بموسى؛ ﴿**آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذي نَزَّل على رسوله**﴾ القرآن ﴿**والكتاب الذي أنزل من قبل**﴾ أي: جنس الكتاب، فتدخل الكتب المتقدمة كلها، ﴿**ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر**﴾ أي: ومن يكفر بشيء من ذلك ﴿**فقد ضل ضلالا بعيدا**﴾ أي: أخطأ خطأ بعيداً لا يكاد يعود إلى الطريق، فلما نزلت قالوا: يا رسول الله؛ إنا نؤمن بالجميع، ولا نفرق بين أحد منهم، كما فرقت اليهود والنصارى.

وقيل: الخطاب للمنافقين، أي: يا أيها الذين آمنوا بألسنتهم آمِنُوا بقلوبكم، كما آمنتم بألسنتكم، وقيل: للمؤمنين، أي: دوموا على إيمانكم، واثبتوا عليه.

الإشارة: أمر الحق جل جلاله ، أهل الإيمان أن يجددوا إيمانهم، فيثبتوا على ما هو حاصل، ويسترشدوا إلى ماليس بحاصل، فإن أنوار الإيمان تتزايد وتترادف على القلوب بحسب التصفية والنظر، وبقدر الطاعة والتقرب، فلا يزال العبد يتقرب إلى الله، وأنوار التوجه تتوارد عليه، حتى تشرق عليه أنوار المواجهة؛ وهي أنوار الشهود، فشروق الأنوار على قدر صفاء الأسرار، وورود الإمداد على حسب الاستعداد، فبقدر التفرغ من الأغيار ترد على

القلوب المواهب والأسرار، وهذا كله لمن صحب العارفين وأخذ عنهم، وملّك زمام نفسه لهم، وإلا فحسْبُه الإيمان بالغيب، ولو عمل ما عمل، وبالله التوفيق.

ثم ذكر وعيد من ارتد عن الإيمان، فقال:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا ﴿١٣٧﴾ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿إن الذين آمنوا ثم كفروا﴾ ثم تكرر منهم الإيمان والكفر، ثم أصروا على الكفر وهم المنافقون، ﴿لم يكن الله ليغفر لهم﴾؛ لما سبق لهم من الشقاء، أو ﴿إن الذين آمنوا﴾ بموسى ﴿ثم كفروا﴾ بعبادة العجل ﴿ثم آمنوا﴾ حين تابوا ﴿ثم كفروا﴾ بعيسى ﴿ثم ازدادوا كفرا﴾ بمحمد ﷺ، ﴿لم يكن الله ليغفر لهم﴾، وهم اليهود، والأول أظهر؛ لأن الكلام بعده في المنافقين، فقال تعالى في شأنهم: ﴿لم يكن الله ليغفرلهم ولا ليهديهم سبيلا﴾ أي: طريقاً توصلهم إلى الحق، إذ يستبعد منهم أن يتوبوا، فإن قلوبهم أشربت الكفر، وبصائرهم عميت، لا ينفع علاجها، لا أنهم لو أخلصوا الإيمان لم ينفعهم، وقد يكون إضلالهم عقاباً لسوء أفعالهم.

ثم ذكر وعيدهم فقال: ﴿بشر المنافقين بأن لهم عذاباً أليما﴾. وهم ﴿الذين يتخذون الكافرين أولياء﴾ أي: أحبابا وأصدقاء ﴿من دون المؤمنين﴾، وقد كان الكفار قبل ظهور الإسلام لهم الصولة والجاه، فطلب المنافقون أن ينالوا بولايتهم ومصادقتهم العزّ منهم، فردّ الله عليهم بقوله: ﴿أيبتغون عندهم العزة﴾ بولايتهم؟ ﴿فإن العزة لله جميعا﴾ ولرسوله ولأوليائه، ولا عزة لغيره؛ إذ لا يعبأ بعزة لا تدوم ويعقبها الذل.

الإشارة: من كان ضعيفَ الاعتقاد في أهل الخصوصية، ضعيفَ التصديق، تراه تارة يدخل وتارة يخرج، وتارة يصدق وتارة ينكر، لا يُرجى فلاحُه في طريق الخصوص، فإنْ ضم إلى ذلك صحبة أهل الإنكار وولايتهم، فبشره بالخيبة والخسران، فإن تعزز بعزهم أعقبه الذل والهوان، والعياذ بالله من الخذلان، فالعز إنما يكون بعز التوحيد والإيمان، وعزة المعرفة والإحسان، وبصحبة أهل العرفان، الذين تعززوا بعز الرحمن، فمن تعزز بعز يفنى مات عزه، ومن تعزّز بعز يبقى دام عزه، والشبكة التي يصطاد بها العزّ هو الذل لله، يظهره بين عباد الله. قال بعضهم: والله ما رأيت العز إلا في الذل. وقال الشاعر:

تَذَلَّلْ لمن تَهْوَى لتكسِبَ عِزَّةً فَكَمْ عِزَّةٍ قَدْ نَالَهَا المرْءُ بالذُّلِّ

وبالله التوفيق.

ثم نهى عن صحبة أهل الخوض، فقال:

﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ... ﴾

قلت: (أن) مخففة: نافية، فاعل نزّل، و(يكفر) و(يُستهزأ)، حالان من الآيات، وضمير (معهم): يعود على الكفار المفهوم من (يكفر)، وضمير (غيره)؛ يعود على الكفر والاستهزاء، وهما شيء واحد.

يقول الحق جل جلاله في التحذير من مجالسة أهل الكفر والمعاصي: ﴿وقد نزل عليكم﴾ يا معشر المسلمين في القرآن في سورة الأنعام، أنه ﴿إذا سمعتم آيات الله﴾ حال كونها ﴿يكفر بها، ويستهزأ بها، فلا تقعدوا معهم﴾ بل قوموا عنهم، إن لم تقدروا أن تنكروا عليهم، والآية التي في سورة الأنعام قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ﴾ الآية. فما داموا في الخوض فاعرضوا عنهم حتى يخوضوا في حديث غير الخوض، فإن جلستم معهم في حال الخوض فإنكم ﴿إذا مثلهم﴾ في الإثم، إن لم ترضوا، أو في الكفر، إن رضيتم بخوضهم.

نزلت في قوم من المنافقين كانوا يجلسون إلى أحبار اليهود، فيسخرون من القرآن، ويكذبون به ويحرفونه، فنهى المسلمين عن مجالستهم، قال ابن عباس: ودخل في هذه الآية كلُّ مُحْدِث في الدين ومُبتدعٍ إلى يوم القيامة. هـ.

الإشارة: أولياء الله آيات من آيات الله: فمن استهزأ بهم فقد استوجب المقت من الله، وكل موطن يقع فيه الإنكار عليهم أو الغض من مرتبتهم، يجب الفرار منه، لأنه موطن الغضب ومحل الهلاك والعطب، فإن لحوم الأولياء سموم قاتلة، واللعنة على من يقع فيهم حاصلة، فمن جلس مع أهل الخوض من غير عذر، كان من الخائضين، ومن فرّ منهم كان من الناجين، ومن أنكر على من يقع فيهم كان من المجاهدين. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر وعيد الخائضين ومن رضي بخوضهم، فقال:

﴿ ... إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾ ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾ ﴾

قلت : (الذين): صفة المنافقين، أو نصب على الذم، و(نستحوذ): نغلب، استحوذ: غلب، جاء على أصله، ولم يُعَلّ كاستعاذ والقياس: استحاذ، يستحيذ، كاستعاذ يستعيذ، لكنه صحح تنبيهاً على الأصل.

يقول الحق جل جلاله : ﴿إن الله﴾ سيجمع ﴿المنافقين والكافرين﴾، أي: الخائضين والقاعدين معهم، ﴿في جهنم جميعا﴾ خالدين فيها. ﴿الذين يتربصون بكم﴾ أي: ينتظرون بكم الدوائر، أي: ما يدور به الزمان والدهر عليكم، وهم المنافقون، ﴿فإن كان لكم فتح من الله﴾ كالنصر والغنيمة ﴿قالوا﴾ للمؤمنين: ﴿ألم نكن معكم﴾ على دينكم، فأعطونا مما غنمتم، ﴿وإن كان للكافرين نصيب﴾؛ دولة أو ظهور على المسلمين، ﴿قالوا﴾ لهم: ﴿ألم نستحوذ عليكم﴾ أي: نغلبكم ونتمكن من قتلكم، وأبقينا عليكم فمنعناكم من قتل المسلمين لكم، بأن خذلناهم بتخييل ما ضعفت به عزيمتهم عليكم، وتوانينا في مظاهرتهم عليكم، فأشركونا مما أصبتم. وإنما سمى ظفر المسلمين فتحاً، وظفر الكافرين نصيباً؛ لخسة حظه، فإنه حظ دنياوي، استدراجاً ومكرا، بخلاف ظفر المسلمين، فإنه إظهار الدين، وإعانة بالغنيمة للمسلمين.

﴿فالله يحكم بينهم يوم القيامة﴾؛ فيدخل أهل الحق الجنة، ويدخل أهل الخوض النار، ﴿ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا﴾ أي: حجة، أو غلبة في الدنيا والآخرة، وفيه دليل على عدم صحة ملك الكافر للمسلم، فيباع عليه إن اشتراه، ويفسخ نكاحه إن تزوج مسلمة. والله تعالى أعلم

الإشارة: (المرء مع من أحب)؛ من أحبَّ قوما حُشر معهم، فمن أحب أهل الخوض حُشر مع الخائضين، ومن أحب أهل الصفا حشر مع المخلصين، وإن كان مذبذباً يميل مع كل ريح؛ حشر مع المخلطين، وهو من خف عقله وضعف يقينه، إن رأى بأهل النسبة من الفقراء عزاً ونصراً وفتحاً انحاز إليهم، وقال: ألم نكن معكم، وإن رأى لأهل الإنكار من العوام صولة وغلبة رجع إليهم، وقال: ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من دعاء الصالحين عليكم، فما لهذا عند الله من خلاق. وفي الحديث: «ذو الوجهين لا يكون عند الله وجيها». فالله يحكم بينهم يوم القيامة، فيرفع أهل الصفا مع المقربين، ويسقط أهل الخوض مع الخائضين، وليس لأهل الخوض من أهل الإنكار سبيل ولا حجة على أهل الصفا من الأبرار، ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾.

ثم ذكر أحوالهم الشنيعة، فقال:

﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَوٰةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَلَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾ ﴾

قلت: جملة: (ولا يذكرون الله)؛ حال من واو (يُراءون)، وكذلك (مذبذبين) أي: يراءون حال كونهم غير ذاكرين مذبذبين، أو منصوب على الذم، والمذبذب: المضطرب المتردد.

يقول الحق جل جلاله: ﴿إن المنافقين يُخادعون الله﴾ بإظهار الإيمان وإخفاء الكفر، ﴿وهو خادعهم﴾، أي: مجازيهم على خداعهم؛ بأن يظهر لهم يوم القيامة نوراً يمشون به على الصراط، كما يعطى المؤمنين، فإذا مضوا به طُفِئ نورهم وبقي نور المؤمنين، فينادونهم: ﴿انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا﴾، فيتهافتون في النار. فسمى هذه العقوبة خداعاً تسمية للعقوبة باسم الذنب.

وكانوا ﴿إذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى﴾ أي: متثاقلين، لا يريدون بها وجه الله، فإن رءاهم أحد، صلوا، وإلاّ انصرفوا، فلم يصلوا، ﴿يُراءون﴾ بأعمالهم ﴿الناس﴾ أي: المؤمنين، ﴿ولا يذكرون الله إلا قليلا﴾؛ لأن المرائي لا يذكر إلا بحضرة الناس، وهو أقل أحواله، أو لايذكرونه في صلاتهم إلا قليلا، لأنهم لا يذكرون إلا التكبير والتسليم، وقال ابن عباس: إنما ذلك لأنهم يفعلونها رياءً وسمعةً، ولو أرادوا بذلك وجه الله تعالى لكان كثيرا. وقال قتاده: إنما قل ذكرهم، لأنه لم يقبل، فكل ما رُدَّ من العمل فهو قليل، وكل ما قُبل فهو كثير.

وكانوا أيضا ﴿مذبذبين﴾ أي: مترددين ومتحيرين بين الكفر والإيمان، ﴿لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء﴾ أي: لا صائرين إلى المؤمنين ولا إلى الكافرين. قال قتادة: ما هم بمؤمنين مخلصين، ولا مشركين مُصَرِّحين بالشرك، هكذا سبق في علم الله، ﴿ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا﴾ أي: طريقاً إلى الهدى، ومثله قوله تعالى: ﴿ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور﴾.

الإشارة: كل من أحب أن يَرى الناسُ محاسنَ أعماله وأحواله، ففيه شعبة من النفاق وشعبة من الرياء، وعلامة المرائي: تزيين ظاهرة وتخريب باطنه، يتزين للناس بحسن أعماله وأحواله، يراقب الناس ولا يراقب الله، وكان بعضُ الحكماء يقول: يقول الله ـ تعالى ـ: «يامُرائي: أمْرٌ من ترائي بيد من تعصيه». فمثل هذا أعماله كلها قليلة، ولو كثرت في الحس كالجبال الرواسي، وأعمال المخلصين كلها كثيرة ولو قلَّت في الحس، وأعمال المرائين كلها قليلة ولو كثرت في الحس. قال في القوت: وَصَفَ اللهُ تعالى ذكر المنافقين بالقلة، لكونه غير خالص، كما قيل في تفسير قوله تعالى: ﴿ذكراْ كثيرا﴾ أي: خالصا، فسمى الخالص كثيرا.هـ.

قوله تعالى: ﴿مذبذبين بين ذلك﴾: هذه صفة أهل الدعوى، المستشرفين على الحقيقة بالعلم، ليسوا من الخصوص ولا من العموم، مترددين بين الفريقين، ومن يضلل الله عن طريق التحقيق، فلن تجد له سبيلا.

ثم نهى المؤمنين عن موالاة الكفار لئلا يتشبهوا بالمنافقين، فقال:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَـٰنًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾ ﴾

قلت : اتخذ، يتعدى إلى مفعولين، و(من دون): حال.

يقول الحق جل جلاله: ﴿يأيها الذين آمنوا﴾ لا تتشبهوا بالمنافقين فتتخذوا ﴿الكافرين أولياء﴾ وأصدقاء ﴿من دون المؤمنين﴾ ؛ لأن الله أعزكم بالإيمان والنصر، فلا تطلبوا العز من أحد سواه، ﴿أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطانا مبينا﴾ أي: حجة واضحة على تعذيبكم وسببا فى عقابكم.

الإشارة: قد تقدم فى كثير من الإشارات النهى عن موالاة أهل الإنكار على الأولياء، وعن مخالطة أهل الدنيا وصحبتهم، فإن ذلك حجة واضحة على الرجوع إليهم ومصانعتهم، وهو عين النفاق عند المخلصين. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر وعيد المنافقين، فقال:

﴿ إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾ ﴾

قلت : الدرك : والدرْك لغتان، كالظعن والظعْن، والنهَر والنْهر، والنشَر والنشْر، وهى الطبقة السفلى، وسميت طبقاتهم دركات؛ لأنها مُتداركة متتابعة، وهى ضد الدرجات، فالدرجات للعلو، والدركات للسفل.

يقول الحق جل جلاله: ﴿إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار﴾ أي: فى الطبقة السفلى فى قعْر جهنم؛ لأنهم أخبث الكفرة، حيث ضموا إلى الكفر الاستهزاء بالإسلام وخداع المسلمين. قال ابن مسعود رضي الله عنه: (هم فى توابيت من النار مقفلة عليهم فى النار، مطبقة عليهم) . وعن ابن عمر رضي الله عنه: (إن أشد الناس عذاباً يوم القيامه ثلاثة: المنافقون، ومن كفر من أصحاب المائدة، وآل فرعون لقوله: ﴿إن المنافقين فى الدرك الأسفل

من النار﴾ وقال في أصحاب المائدة: ﴿فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾. وقال: ﴿أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾، ﴿ولن تجد لهم نصيرا﴾ يمنعهم من ذلك العذاب. ﴿إلا الذين تابوا﴾ عن النفاق ﴿وأصلحوا﴾ ما أفسدوا في سرائرهم وأعمالهم في حال النفاق، ﴿واعتصموا بالله﴾ أي: وثقوا به وتمسكوا به، دون أحد سواه، ﴿وأخلصوا دينهم لله﴾ لا يريدون بطاعته إلا وجه الله، لا رياءً ولا سمعةً ﴿فأولئك مع المؤمنين﴾ في الدين. قال الفرّاء: من المؤمنين، وقال العتبي: حاد عن كلامهم غيظاً عليهم، ولم يقل هم المؤمنون .هـ. قلت: إنما قال: ﴿مع المؤمنين﴾ ولم يقل: منهم، لأن التخلص من النفاق صعب، ولا يكون من المؤمنين، حتى يتخلص من جميع شعبه، وهو عزيز، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «ثَلاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ فَهُوَ مُنَافِقٌ، وإنْ صَامَ وصلّى وزَعم أنه مُسْلِمٌ، من إذا حدَّث كَذَبَ، وإذَا وَعَدَ أخْلَفَ، وإذا ائْتُمِنَ خَانَ».

﴿وسوف يُؤت الله المؤمنين﴾ المخلصين ﴿أجراً عظيماً﴾ فيساهمُونَهم فيه إن تابوا وأصلحوا، فإن الله غني عن عذابهم، ولذلك قال: ﴿ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم﴾ أي: لا حاجة له في عذابكم، فلا يُشفى به غيظا ولا يدفع به ضررا، أو يستجلب به نفعا، لأنه غنيٌ عن المنافع، وإنما يعاقب المصر بكفره، لأن إصراره عليه كسوء المزاج يؤدي إلى مرض، فإن زال بالإيمان والشكر، ونقّى منه قلبه، تخلص من تبعته. وإنما قدم الشكر؛ لأن الناظر يدرك النعم أولاً فيشكر شكراً مبهما، ثم يمعن النظر حتى يعرف المنعم فيؤمن به. قاله البيضاوي. وقال الثعلبي: فيه تقديم وتأخير، أي إن آمنتم وشكرتم، لأن الشكر لا ينفع مع عدم الإيمان. ﴿وكان الله شاكرا﴾ لأعمال عباده، يقبل اليسير ويعطي الكثير، ﴿عليما﴾ بحقيقة شكرهم وإيمانهم، ومقدار أعمالهم، فيضاعفها على قدر تخليصها. والله تعالى أعلم.

الإشارة: لاشيء أصعب على النفس من الإخلاص؛ كلما اجتهد العبد في قطع الرياء؛ نبت على لون آخر، فلا يتطهر العبد منها إلا بتحقيق الفناء والغيبة عن السوى بالكلية. كما قال الششترى رضي الله عنه:

طَهِّـرَ العَـيْنَ بالمَدَامِعِ سَكْبَـا مِنْ شُـهُـودِ السّوى تَزُلْ كلُّ عِلَّهْ

قال بعضهم: [لا يثبت الإخلاص في القلب؛ حتى يَسقط من عين الناس، ويُسقط الناسَ من عينه]. والإخلاص من أعمال القلوب، فلا يطلع عليه إلا علاّم الغيوب. فلا يجوز أن يحكم على أحد بالرياء بمجرد ما يرى عليه من الإظهار، وقد تدخل الرياء مع الإسرار، وتتخلص من القلب مع الإظهار، وفي الحكم: «ربما دخل الرياءُ عليك حيث لا ينظر الخلق اليك». فإذا تخلص العبد من دقائق الرياء، وأصلح ما بينه وبين الله، واعتصم به دون شيء سواه، كان مع المخلصين المقربين؛ فيكون عمله موفوراً، وسعيه مشكورا. وبالله التوفيق.

وقد تكلم في الإحياء على هذه الآية فقال: إنما كان المنافقون في الدرك الأسفل؛ لأنهم جحدوا بعد العلم، وإنما تضاعف عذاب العالم في معصيته؛ لأنه عصى عن علمْ . قلت: وافهم منه قوله ﷺ في أبي طالب: «ولَوْلاَ أنَا لَكَانَ فِي الدَّرْكِ الأسْفَلِ مِنَ النَّارِ». وذلك لإعراضه مع العلم. وقال في الإحياء أيضا: شدَّد أمر المنافقين؛ لأن الكافر كفرَ وأظهَرَ، والمنافق كفر وستر، فكان ستره لكفره كفراً آخر، لأنه استخف بنظر الله إلى قلبه، وعظَّم أمر المخلوقين .هـ. والحاصل: أن التشديد في الرياء والنفاق؛ لِمَا في ذلك من تعظيم نظر الخلق على نظر الخالق، فكان أعظمَ من الكفر الصريح .هـ. من الحاشية.

ومن علامة تصفيته الباطن من الرياء والنفاق؛ تلبس الظاهر بأحسن الأخلاق، ولذلك ذكره بإثره، فقال:

﴿ ۞ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾ إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا۟ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾ ﴾

قلت: (إلا من ظلم) : استثناء منقطع، أي: لكن من ظُلم فلا بأس أن يشكو بظالمه ويدعو عليه، وليس المراد أن الله يحب ذلك منه، إذ العفو أحسن كما يقوله بعد، وقُرئ: (إلا من ظلَم) بالبناء للفاعل، أي: ولكن الظالم يفعل مالا يحبه الله.

يقول الحق جل جلاله: ﴿لا يحب الله الجهر﴾ أي: الإجهار ﴿بالسوء من القول﴾؛ لأنه مِنْ فِعْل أهل الجفاء والجهل ﴿إلا من ظُلم﴾ فلا بأس أن يجهر بالدعاء على ظالمه، أو بالشكوى به. نظيرها: ﴿ وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُوْلَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴾ . قال مجاهد: هذا في الضيف النازل إذا لم يُضَف ومُنِع حقه، أو أُسيء قِراه، فقد رخص له أن يذكر ما صُنع به. وزَعَم أن ضيفاً تَضَيَّفَ قوماً فأساءوا قِراه، فاشتكاهم، فنزلت الآية رخصة في شكواه. ﴿وكان الله سميعا﴾ لدعاء المظلوم، ورده على الظالم، فلا يحتاج إلى جهره، ﴿عليما﴾ بالظالم فيعاقبه على قدر جرمه.

ثم رغَّب في العفو فقال: ﴿إن تُبدوا خيراً﴾: طاعة وبراً كحسن الخلق ولين الجانب، ﴿أو تُخفوه﴾ أي: تفعلوه سرا، ﴿أو تعفوا عن سوء﴾ بأن لا تؤاخذوا به من أساء إليكم، وهذا هو المقصود بالذكر، وإنما ذُكرَ إبداءُ الخير وإخفاؤه سبباً ووسيلة لذكره، ولذلك رتب عليه ﴿فإن الله كان عفوا قديرا﴾ أي: كثير العفو عن العُصاة، مع كمال قدرته على الانتقام، فأنتم أولى بذلك، وهو حث للمظلوم على العفو، بعدما رخَّص له في الانتصار، حملاً على مكارم الأخلاق.

الإشارة: اعلم أن الباطن إذا كمل تطهيره وتحقق تنويره؛ ظهر أثر ذلك على الظاهر من مكارم الأخلاق، ولين الجانب، وحسن الخطاب، وترك العتاب، فما كمن في غيب السرائر ظهر في شهادة الظواهر، وما كمن فيك ظهر على فيك، وهذه أخلاق الصوفية ـ رضي الله عنهم وأرضاهم ـ وبذلك وصفهم القائل فيهم، فقال:

هَيْنُونَ لَيْنُونَ أَيْسَارٌ بنو يَسَرٍ ... سُوَّاسُ مَكْرُمَةٍ أبناءُ أَيْسَارِ

لايَنْطقُونَ بِغَيْرِ الحقِّ إنْ نطقُوا ... ولايُمَارُونَ إنْ مَارَوْا بإكْثَارِ

مَنْ تَلْقَ مِنْهم تقُلْ هذاك سيِّدُهُمْ ... مِثْلُ النُّجُومِ التي يُهْدَى بها السَّارِ

ومن شأن الحضرة التهذيب والتأديب، فلا يبقى معها لغو ولا تأثيم، لأنها جنة معجلة، قال تعالى: ﴿ لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلا تَأْثِيمًا إِلاَّ قِيلاً سَلامًا سَلامًا ﴾.

وأيضا أهل الحضرة حصل لهم القرب من الحبيب، فهم في حضرة القريب على بساط القرب على الدوام، ولا يتصور منهم الجهر بالكلام، وهم في حضرة الملك العلاّم. قال تعالى: ﴿ وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همسا ﴾، فرفعُ الصوت عند الصوفية مذموم شنيع، يدل على بُعد صاحبه كيف ما كان، وتأمل قضية الصدّيق حيث قال له ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «مالك تقرأ سراً؟» فقال: (إن الذي تناجيه ليس ببعيد). أو كما قال، وإنما قال له ﷺ: «إرفع قليلا»، إخراجاً له عن مُراده، تربية له. والله تعالى أعلم.

ولما قدَّم أقبح الكفر، وهو كفر المنافقين، ذَكَرَ ما يليه، وهو كفر اليهود، فقال:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً (١٥٠) أُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا (١٥١) ﴾

قلت: (حقا): مصدر مؤكد للجملة، أو صفة لمصدر الكافرين، أي: كفروا كفراً محققاً يقيناً. وأصل (أعتدنا): أعددنا، أبدلت الدال تاء؛ لقرب المخرج.

يقول الحق جل جلاله: ﴿إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يُفرقوا بين الله ورسله﴾ بأن يؤمنوا بالله ويكفروا برسله، ﴿ويقولون نؤمن ببعض﴾ الأنبياء ﴿ونكفر ببعض﴾، كاليهود، آمنوا بموسى

وعُزير والتوراة، وكفروا بعيسى ومحمد ﷺ، ﴿ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا﴾، أي: طريقا وسطا بين الإيمان والكفر، ولا واسطة، إذ الحق لا يختلف، فإن الإيمان بالله إنما يتم برسله وتصديقهم فيما بلغوا عنه، تفصيلا وإجمالا، فالكافر بالبعض كالكافر بالكل في الضلال. ولذلك حكم عليهم بصريح الكفر فقال: ﴿أولئك هم الكفرون حقًا﴾ أي: هم الكاملون في الكفر حقيقة، وإنما أكد كفرهم لأنهم تحكموا على الله، واتخذوا إلههم هواهم، حيث جعلوا الاختيار لهم دون الله، وفي ذلك منازعة للقدر، وتعطيل له، وهو كفر وشرك، ثم ذَكَرَ وعيدَهم فقال: ﴿وأعتدنا﴾ أي: هيأنا ﴿للكافرين﴾ منهم ﴿عذابا مهينا﴾ أي: يخزيهم ويهينهم، حين يُكرِّم أولياءَه ويرفع أقدارهم. جعلنا الله منهم. آمين.

الإشارة: الأولياء على قدم الأنبياء ،فمن فرّق بينهم حُرم بركةَ جميعهم، ومن صدّق بجميعهم وعظّمهم اقتبس من أنوارهم كلهم، والله ـ تعالى ـ غيور على أوليائه، كما كان غيورا على أنبيائه، فطرد من فرّق بينهم، فكذلك يطرد من يقع في بعض أوليائه ويعظم البعض، لأن البعض هو الكل. والله تعالى أعلم

ثم ذكر من لم يُفَرِّق، فقال:

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُواْ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُوْلَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٥٢﴾ ﴾

قلت: (بين): من الأمور النسبية، فلابد أن تدخل على متعدد، تقول: جلست بين فلان وفلان، وإنما دخلت هنا على (أحد)؛ لأنه يقتضي متعدداً لعمومه، لأنه وقع في سياق النفي. قاله البيضاوي.

يقول الحق جل جلاله : ﴿والذين آمنوا بالله﴾ وما يجب له من الكمالات، (ورسله) وما يجب لهم كذلك، ﴿ولم يُفرقوا بين أحد منهم﴾ بأن آمنوا بجميعهم، وصدقوا بكل ما جاءوا به من عند ربهم، ﴿أولئك سوف نؤتيهم[(١)] أجورهم﴾ الموعودة لهم، بأن نُجِلّ مقدارهم، ونرفع مقامهم، ونُبوئهم في جنات النعيم. وتصديره بسوف؛ لتأكيد الوعد والدلالة على أنه كائن لا محالة وإن تأخر وقته، ولمّا كان العبد لا يخلو من نقص، رفع الخوف عنهم بقوله: ﴿وكان الله غفورا﴾ لما فرط منهم ﴿رحيما﴾ بهم بتضعيف حسناتهم.

الإشارة: والذين صدقوا بأولياء الله،وعظموا جميعهم، واقتبسوا من أنوارهم كلهم، أولئك سوف نؤتيهم أجورهم، بأن أُنعمهم في جنات المعارف في دار الدنيا، فإن ماتوا أسكنّاهم في الفراديس العُلَى (في مقعد صدق عند مليك مقتدر) . والله تعالى أعلم .

(١) قرأ حفص عن عاصم (يُؤتيهم) بالياء، وقرأ الباقون بالنون.

ثم ذكر مساوئ اليهود فقال:

﴿ يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَـٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ
مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ
مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَـٰنًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ
بِمِيثَـٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا
غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾ ﴾

قلت: من قرأ: (لا تعدوا) بالسكون، فماضيه: عدا، ومن قرأ بتشديد الدال، فماضيه اعتدى، وأصله: لا تعتدوا، فنُقلت حركة التاء إلى العين وأدغمت التاء في الدال، ومن قرأ بالاختلاس أشار إلى الأصل.

يقول الحق جل جلاله: ﴿**يسألك أهل الكتاب**﴾، وهم أحبار اليهود، ﴿**أن تنزل عليهم كتابا من السماء**﴾ جملة واحدة، كما نزل التوراة، أو كتاباً بخطٍّ سماوي على ألواح كما كانت التوراة ، والسائل هو كعب بن الأشرف وفنْحاص بن عازوراء وغيرهم، قالوا للنبي ﷺ: (إن كنت نبياً فأتنا بكتاب من السماء جملةً، كما أتى به موسى)، قال تعالى في الرد عليهم: ﴿**فقد سألوا موسى أكبر من ذلك**﴾؛ وهو رؤية ذات الحق ـ تعالى ـ جهراً حساً. والمعنى: إن استعظمت ماسألوا منك فقد وقع منهم ما هو أعظم من ذلك.

وهذا السؤال، وإن كان من آبائهم، أُسند إليهم؛ لأنهم كانوا آخذين بمذهبهم تابعين لهديهم، فما اقترحوا عليك ليس بأول جهالاتهم وتشغيبهم؛ بل عُرْقُهم راسخٌ في ذلك، فلا تستغرب ما وقع منهم.

ثم فسر سؤالهم بقوله: ﴿**فقالوا أرنا الله جهرة**﴾ أي: عياناً في الحس، ﴿**فأخذتهم الصاعقة**﴾، بأن جاءت نار من السماء فأهلكتهم، فماتوا ثم بُعثوا بدعوة موسى عليه السلام وذلك بسبب ظلمهم. وهو تعنتهم وسؤالهم لما استحيل في تلك الحال التي كانوا عليها. وذلك لا يقتضي امتناع الرؤية مطلقا. وسيأتي في الإشارة تحرير ذلك.

﴿**ثم اتخذوا العجل من بعد ما جاءتهم البينات**﴾ على وحدانيته تعالى. وهذه جناية أخرى اقترفها أيضا أوائلهم، ﴿**فعفونا عن ذلك**﴾ حين تابوا، ولم نعاجلهم بالعقوبة، ﴿**وآتينا موسى سلطانا مبينا**﴾ أي: تسلطاً ظاهراً عليهم، حين أمرهم أن يقتلوا أنفسهم، توبة من اتخاذهم العجل إلهاً، وحجة واضحة على نبوته كالآيات التسع.

﴿ورفعنا فوقهم الطور﴾ حين امتنعوا من قبول أحكام التوراة، بسبب ميثاقهم الذى أخذناه عليهم، وهو التزام أحكام التوراة، وقلنا لهم على لسان موسى: ﴿ادخلوا الباب سجدا﴾ أى: باب بيت المقدس، فدخلوا يزحفون على استاههم عنادا و استهزاء، وقلنا لهم: ﴿لا تعدوا فى السبت﴾ على لسان داود عليه السلام، فاعتدوا فيه بالاصطياد، فمسخناهم قردةً وخنازير، ﴿وأخذنا منهم ميثاقاً غليظا﴾ على ذلك كله، فنقضوا جميع ذلك، أو ميثاقا غليظا فى التوراة؛ لئن أدركوك ليؤمنن بك، وليبينن صفتك للناس، فنقضوا وكتموا. والله تعالى أعلم.

الإشارة: اقتراح الآيات وطلب الكرامات من الأولياء، سنة ماضية، لأنهم على قدم الأنبياء ـ عليهم السلام ـ ما يقال لهم إلا ما قيل للأنبياء قبلهم، فلا تكاد تجد أحداً يصدق بولى حتى تظهر عليه الكرامة، وهو جهل كبير؛ لأن الكرامة قد تظهر على من لم تكمل له استقامة، وقد تكون استدراجا ومكرا. وأيُّ كرامة أعظم من العلوم اللدنية والأخلاق النبوية؟ كما قال شيخنا رضي الله عنه. وقد ظهرت الكرامات على المتقدمين ولم ينقطع الإنكار عليهم.

واعلم أن طلب الرؤية فى الدنيا ليس بممتنع، وإنما عاقب الله بنى إسرائيل على طلبها؛ لأنهم طلبوها قبل إبانها، طلبوها من غير اتصاف بشروط حصولها، وهو كمال التهذيب والتطهير من دنس الحس، فمن كمل تهذيبه وتحقق تطهيره حصل له شهود الحق، حتى لو كلف أن يشهد غيره لم يستطع، وذلك حين تستولى البصيرة على البصر، فيشهد البصر ما كانت تشهده البصيرة، وذلك بعد كمال فتحها. ولذلك قال فى الحِكَم: «شعاعُ البصيرة يُشهدك قربَ الحق منك، وعين البصيرة يشهدك عدمك لوجوده، وحق البصيرة يشهدك وجود الحق» ... إلخ كلامه. وهذه المشاهدة لا تحصل إلا لمن اتصل بشيخ التربية، وإلا فلا مطمع فيها. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر عقوبة اليهود حيث نقضوا العهود، فقال:

﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا
غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ
بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ
وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ
يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ ﴾

قلت: (فبما): صلة زيدت للتأكيد، و(نقضهم): مصدر مجرور بالباء، وهى متعلقة بالفعل المحذوف، أى: بسبب نقضهم فعلنا بهم ما فعلنا، أو بقوله: (حرمنا عليهم)، ويكون (فبظلم) على هذا بدلا من قوله: (فبما نقضهم)، فيكون التحريم بسبب النقض، وما عطف عليه. والاستثناء فى قوله: (إلا اتباع الظن) منقطع؛ إذ العلم يناقض الظن.

يقول الحق جل جلاله: فلما أخذنا على بنى إسرائيل العهد والميثاق خالفوا ونقضوا، ففعلنا بهم ما فعلنا، بسبب نقضهم ميثاقهم، أو بسبب نقضهم وكفرهم ﴿حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم﴾، وبسبب كفرهم أيضا ﴿بآيات الله﴾؛ القرآن، أو بما فى كتبهم، ﴿وقتلهم الأنبياء بغير حق وقولهم قلوبنا غلف﴾ أى: مغلفة لا تفقه ما تقول.

قال تعالى فى الرد عليهم: ﴿بل طبع الله عليها بكفرهم﴾، فجعلها محجوبة عن العلم، بأن خذلها ومنعها التوفيق للتدبر فى الآيات والتذكر بالمواعظ، ﴿فلا يؤمنون إلا قليلا﴾ منهم كعبد الله بن سلام وأصحابه، أو إيمانا قليلا لا عبرة به لنقصانه، ﴿وبكفرهم﴾ أيضا بعيسى عاقبناهم وطبعنا على قلوبهم، ﴿وقولهم على مريم بهتانا عظيما﴾ أى: نسبتها للزنى وبقولهم: ﴿إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله﴾ أى بزعمه، ويحتمل أنهم قالوه استهزاء، ونظيره: ﴿ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾، أو يكون استئنافا من الله بمدحه، أو وضعا للذكر الحسن موضع قولهم القبيح. قاله البيضاوى.

ثم رد الله تعالى عليهم فقال: ﴿وما قتلوه وما صلبوه ولكن شُبه لهم﴾، رُوى أن رهطاً من اليهود سبوه هو وأمه، فدعا عليهم، فمُسخوا قردة وخنازير، فاجتمعت اليهود على قتله، فقال لهم: يا معشر اليهود، إن الله يبغضكم، فغضبوا وثاروا ليقتلوه، فبعث الله تعالى جبريل فأدخله خُوخة فيها كُوة فى سقفها، ورفعه الله إلى السماء من تلك الكوة، فأمر اليهود رجلاً منهم يقال له: طيطانوس، أن يدخل الخوخة ويقتله، فلما دخل الخوخة، لم ير عيسى، فألقى الله تعالى شبه عيسى عليه، فلما أبطأ عليهم دخلوا عليه، فظنوه عيسى، فقتلوه وصلبوه.

وقال قتادة: ذكر لنا أن عيسى عليه السلام قال لأصحابه: أيكم يقذف عليه شبهى فيقتل؟ فقال رجل: أنا يا رسول الله، فقتل ذلك الرجل، ورفع عيسى عليه السلام، وكساه الريش وألبسه النور، وقطع عنه لذة المطعم والمشرب وصار مع الملائكة، فهو معهم فى السماء إنسياً ملكياً، أرضيا سماويا.

﴿وإن الذين اختلفوا فيه لفى شك منه﴾ فقال بعض اليهود: إن كان هذا عيسى فأين صاحبنا؟ وإن كان صاحبنا فأين عيسى؟ ويقال: إن الله تعالى ألقى شبه وجه عيسى على صاحبهم، ولم يلق عليه شبه جسده، فلما

قتلوه ونظروا إليه، فقالوا: الوجه وجه عيسى والجسد جسد صاحبنا. ﴿ما لهم به من علم إلا اتباع الظن﴾ أي: لاعلم لهم بقتله، لكن يتبعون الظن فقط. ﴿وما قتلوه﴾ قتلا ﴿يقينا﴾ كما زعموا بقولهم: إنا قتلنا المسيح، ﴿بل رفعه الله إليه﴾ فهو فى السماء الثانية مع يحيي عليها السلام، ﴿وكان الله عزيزاً حكيما﴾ أي: قوياً بالنقمة على اليهود، حكيما فيما حكم عليهم من اللعنة والغضب. والله تعالى أعلم.

الإشارة: نقضُ عهود الشيوخ من أسباب المقت والبعد عن الله، وكذلك الإنكار عليهم والطعن فيهم، وكذلك البعد عن وعظهم وتذكيرهم، وضد هذا من موجبات القرب والحب من الله، كحفظ حرمتهم، والوقوف مع أوامرهم، والذب عنهم حين تهتك حرمتهم، والدنو منهم، والسعي في خدمتهم. وبالله التوفيق.

ثم ذكر نزول عيسى فى آخر الزمان، فقال:

﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿وإن من أهل الكتاب﴾ أي: ما من يهودى ولا نصرانى، أي: الموجودين حين نزوله ﴿إلا ليؤمِنَنّ﴾ بعيسى ﴿قبل موته﴾ أي: عيسي، وذلك حين نزوله من السماء، روى أنه ينزل من السماء حين يخرج الدجال فيهلكه، ولا يبقى أحد من أهل الكتاب إلا ويؤمن به، حتى تكون الملة واحدة، وهى ملة الإسلام، وتقع الأمنة حتى يرتع الأسود مع الإبل، والنمور مع البقر، والذئاب مع الغنم، ويلعب الصبيان بالحيات، ويلبث فى الأرض أربعين سنة، ثم يتوفى ويصلي عليه المسلمون ويدفنونه.

وقيل الضمير فى (به) إلى عيسى، وفى (موته) إلى الكتابى، أي: وإن من أهل الكتاب أحد إلا ليؤمنن بعيسى بأنه عبد الله ورسوله، ﴿قبل موته﴾ أي: قبل خروج نفس ذلك الكتابى إذا عاين الملك، فلا ينفعه حينئذ إيمانه، لأن كل من نزل به الموت لم تخرج نفسه حتى يتبين له الحق من الباطل. ويؤيد هذا قراءة من قرأ: ﴿ليُؤمنُنّ به قبل موتهم﴾ بضم النون، لأن (أحدا) فى معنى الجمع، وهذا كالوعيد لهم والتحريض على معاجلة الإيمان به من قبل أن يضطر إليه ولم ينفعه إيمانه، ﴿ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً﴾ يشهد على اليهود بالتكذيب، وعلى النصارى بأنهم دعوه ابن الله. والله تعالى أعلم

الإشارة: عند الموت تتحقق الحقائق، ويتميز الحق من الباطل، ويحصل الندم، ولا ينفع حين تزل القدم، فالمطلوب المبادرة بتحقيق الإيمان، وتحصيل مقام العرفان، قبل أن يسقط إلى جنبه، فينفرد رهيناً فى قبره بذنبه. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر وبال ظلمهم وعدوانهم فقال:

﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله : فبسبب ظلم ﴿من الذين هادوا﴾؛ وهو نقضهم الميثاق، وكفرهم بآيات الله، وقتلهم الأنبياء، ﴿حرمنا عليهم طيبات﴾ كانت ﴿أحلت لهم﴾ كالشحوم، وكل ذى ظفر، وغير ذلك من لذيذ الطيبات، وكانوا كلما ارتكبوا كبيرة حرّم عليهم شيئاً من الطيبات، وحرمنا ذلك أيضا عليهم ﴿بصدهم﴾ عن طريق ﴿الله﴾ صداً ﴿كثيرا﴾، أى: بإعراضهم عنه إعراضاً كثيرا، أو بصدهم عنه ناساً كثيراً كانوا يُخذّلونهمْ عن الدخول فى دين الله، وبأخذهم الربا ﴿وقد نُهوا عنه﴾، فهو محرم عليهم وعلى الأمة المحمدية، وبأكلهم ﴿أموال الناس بالباطل﴾ كالرشوة وما كانوا يأخذونه من عوامهم، ﴿وأعتدنا للكافرين منهم﴾ بمحمد ﷺ ﴿عذاباً أليما﴾، دون من تاب وآمن به.

الإشارة: اعلم أن كل غفلة ومعصية وسوء أدب يحرم مرتكبه بسببه من لذيذ الطاعات وحلاوة المشاهدات على قدره، شعر أو لم يشعر، وقد يبعده من الحضرة وهو لا يشعر، مكرا واستدراجا، فإذا أصر عليه سلب من مقام الولاية بالكلية، ولايزال ينقص إيمانه شيئا فشيئاً، حتى يتفلت منه، والعياذ بالله، وإذا بادر بالتوبة رجى قبوله، وكل يقظة وطاعة وحسن أدب يوجب لصاحبه الزلفى والقرب من الحضرة، ويزيده فى حلاوة المعاملة والمشاهدة على قدره، فلا يزال يتقرب إليه بنوافل الخيرات، حتى يحبه فيتولاه، فيكون سمعه وبصره، كما فى الحديث. وبالله التوفيق

ثم استثنى من تاب من اليهود، فقال:

﴿ لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أُو۟لَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾ ﴾

قلت : والمؤمنون عطف على الراسخين، و(يؤمنون): حال منهم. و(المقيمين): نصب على المدح، لأن العرب إذا تطاولت فى مدح شىء أو ذمه خالفوا بين إعراب أوله وأوسطه، نظيره: ﴿ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ ﴾. وقالت عائشة رضى الله عنهما: هو لحن من الكُتَّاب[1]، وفى مصحف ابن مسعود: (والمقيمون) بالرفع على الأصل.

يقول الحق جل جلاله : ليس أهل الكتاب كلهم كما ذكرنا، ﴿لكن الراسخون فى العلم منهم﴾ كعبدالله ابن سلام، ومخيريق، وغيرهما ممن له علم بالكتب المتقدمة، ﴿والمؤمنون﴾ منهم بمحمد ﷺ، من عوامهم حال كونهم ﴿يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك﴾ أى: يؤمنون إيمانا كاملا بلا تفريق، وأخص ﴿ المقيمين الصلاة ﴾، المتقنين لها، ﴿المؤتون الزكاة﴾ المفروضة، ﴿والمؤمنون﴾ منهم ﴿بالله واليوم الآخر﴾، على صفة ما جاء به القرآن من البعث بالأجسام والحساب وغير ذلك؛ مما هو مقرر فى السنة، ﴿أولئك سنؤتيهم أجرا عظيما﴾ ،فتكون الآية كلها فى أهل الكتاب.

أو يقول الحق جل جلاله : ﴿لكن الراسخون فى العلم﴾ من أهل الكتاب، ﴿والمؤمنون﴾ بمحمد ﷺ، من العرب، ﴿والمقيمين الصلوة﴾ منهم، ﴿والمؤتون الزكاة والمؤمنون بالله واليوم الآخر أولئك سنؤتيهم أجرا عظيما﴾.

الإشارة : كل من تحققت توبته بعد عصيانه، وظهرت يقظته بعد غفلاته، ورسخ فى العلم بالله وبصفاته وأسمائه؛ التحق بالسابقين، وحشر مع المقربين، وكان ممن أوتى أجراً عظيماً وخيراً جسيما، والحمد لله رب العالمين.

ثم أجاب أهل الكتاب عن سؤالهم أن ينزل عليهم كتاباً من السماء فقال:

﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ ۚ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ ۚ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾ ﴾

(١) رد العلماء والمفسرون على هذا الخبر، ومنهم الإمام ابن جرير الطبرى الذى قال: لو كان ذلك خطأً من الكاتب لكان الواجب أن يكون فى كل المصاحف غير مصحفنا الذى كتبه لنا الكاتب، الذى أخطأ فى كتابه. وفى اتفاق مصحفنا ومصحف أبى فى ذلك ما يدل على أن الذى فى مصحفنا من ذلك صواب غير خطأ. مع أن ذلك لو كان خطأً من جهة الخط لم يكن الذين أخذ عنهم القرآن من أصحاب رسول الله ﷺ يعلمون من علموا ذلك من المسلمين على وجه اللحن، ولأصلحوه ولقنوه الأمة تعليماً على وجه الصواب. وفى نقل المسلمين جميعاً ذلك قراءة على ماهو به فى الخط مرسوماً، أدل الدليل على صحة ذلك وصوابه، وأن لا صنع فى ذلك للكاتب. انظر: تفسير الطبرى بتعليق الشيخ شاكر. والإتقان للسيوطى، وتفسير الرازى.

قلت: من قرأ (زبوراً) بالفتح، فالمراد به كتاب الزبور، ومن قرأ بالضم، فجمع «زِبْر» بكسر الزاى وسكون الباء، بمعنى مزبورا، أي: مكتوبا، أي: آتينا داود كتباً متعددة، و(رسلا): منصوب بمحذوف دل عليه «أوحينا»، أي: أرسلنا رسلا، أو يفسره ما بعده، أي: قصصنا عليك رسلاً، و(رسلاً مبشرين): منصوب على البدل، أو على المدح، أو بإضمار أرسلنا، أو على الحال الموطئة لما بعده، كقولك: مررت بزيد رجلاً صالحا.

يقول الحق جل جلاله: ﴿إنا أوحينا إليك﴾ يامحمد ﴿كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده﴾ ولم يكن ينزل عليهم الكتاب جملة واحدة، كما سألك أهل الكتاب تعنتا، بل كان ينزل عليهم الوحي شيئا فشيئا، فأمرك كأمرهم. وقدّم نوحاً عليه السلام لأنه أبو البشر بعد آدم، وأول نبي من أنبياء الشريعة، وأول نذير على الشرك، وأول رسول عُذبت أمته بدعوته، وأطول الأنبياء عُمرا، وجُعلت معجزته فى نفسه، فإنه عمّر ألف سنة، ولم تنقص له سن، ولم تنقص له قوة، ولم تشب له شعرة، ولم يبالغ أحد فى تأخير الدعوة ما بالغ هو عليه السلام، ولم يصبر أحدٌ على أذى قومه ما صبر هو، كان يُشتم ويُضرب حتى يغمى عليه.

ثم قال تعالى: ﴿وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط﴾ أي: الأحفاد، وهم أنبياء بنى إسرائيل، ﴿وعيسى وأيوب وهارون وسليمان﴾، وإنما خصهم بالذكر مع اشتمال النبيين عليهم تعظيما لهم، فإن إبراهيم أولّ أولِى العزم منهم، وآخرهم عيسى عليه السلام، والباقون أشراف الأنبياء ومشاهيرهم، ﴿وآتينا داود زبورا﴾ أي: كتاب الزبور، أو زُبورا أي: صحفا متعددة، وأرسلنا ﴿رسلا قد قصصناهم عليك من قبل﴾ أي: من قبل هذه السورة، أو قبل هذا اليوم، ﴿ورسلاً لم نقصصهم عليك﴾، وفى الحديث: «عددُهم ثلاثمائة وأربعة عشر»، ﴿وكلم الله موسى تكليما﴾ حقيقيا، خُصّ به من بين الأنبياء، وزاد نبينا محمد ﷺ بالرؤية مع الكلام.

قال الورتجبى: بادر موسى عليه السلام من بين الأنبياء لسؤال الرؤية، فأوقفه الحق فى مقام سماع كلامه، ومنعه من مشاهدة رؤيته صرفا، وتحمل نبينا محمد ﷺ أثقال السر بمطايا أسراره، ولم يسأل مشاهدة الحق جهرا بالانبساط، فأوصله الله إلى مقام مشاهدته، ثم أسمعه كلامه بلا واسطة ولا حجاب. قال تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ﴾ هـ. وقال ابن عطية: كلامه تعالى لموسى دون تكييف ولا تحديد، وكما أن الله تعالى موجود لا كالموجودات معلوم لا كالمعلومات، فكذلك كلامه لا كالكلام. هـ.

ثم ذكر حكمة إرسال الرسل فقال: أرسلنا ﴿رسُلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد﴾ بعث ﴿الرسل﴾ فيقولون: لولا أرسلت إلينا رسولا ينبهنا ويعلمنا ما جهلنا من أمر توحيدك والقيام بعبوديتك،

فقطع عذر العباد ببعث الرسل، وقامت الحجة عليهم، وفي الحديث عنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «ما أحدٌ أغيرَ منَ الله، ولذلك حرَّم الفواحِشَ ما ظَهرَ منْهَا وما بَطَنَ، وما أحدٌ أحبَّ إليْهِ المدْحُ من الله، ولذلك مدحَ نفْسَهُ، وما أحدٌ أحبَّ إليْهِ العذْرُ مِنَ الله تعالى، ولذلكَ أرْسلَ الرّسلَ وأنْزَلَ الكُتبَ».

﴿وكان الله عزيزًا﴾ لا يغلب، فلا يجب عليه شيء، ﴿حكيمًا﴾ فيما دبر من النبوة، وخص كل نبي بنوع من الوحي والإعجاز على ما يليق به في زمانه. والله تعالى أعلم.

الإشارة: علماءُ هذه الأمة كأنبياء بني إسرائيل، العارفون منهم كالرسل منهم، قال ابن الفارض رضي الله عنه:

فَعَالِمُنَا منهُم نبي، ومَنْ دَعَا إلى الحقِّ منَّا قَامَ بالرسْلِيَّةِ(١)

وعارِفنا في وقتِنا الأحمَديُّ من أُولي العزمِ منهمْ آخِذٌ بالعَزِيمَةِ

فإنهم يشاركونهم في وحي الإلهام، ويحصل لهم المكالمة مع المشاهدة، فيسمعون من الحق كما ينطقون به. كما قال الششتري:

أَنَا باللهِ أَنْطِقُ ومِنَ اللهِ أَسْمَعُ

فتارة يسمعون كلامه بالوسائط، وتارة من غير الوسائط، يعرف هذا أهل الفن من أهل الذوق، وشأن من لم يبلُغْ مقامهم: التسليم.

إنْ لمْ تَرَ الهِلالَ فَسَلِّمْ لأُناسٍ رأوْهُ بالأبْصَارِ

وفي الورتجبي: وإن الله تعالى إذا أراد أن يُسمع كلامه أحدا من الأنبياء والأولياء يعطيه سمعا من أسماعه، فيسمع به كلامه، كما حكي ـ عليه الصلاة والسلام ـ عنه ـ تعالى ـ، قال: (فإذا أحببته كنت سمعه....)، الحديث. أسمعه كلامه، وليس هناك الحروف والأصوات، بل أسمعه بحرف القدرة وصوت الأزلية، الذي هو منزه عن همهمة الأنفاس وخطرات الوسواس، وليس في ولاية الأزل من رسوم أهل الآجال شيء، حتى هناك السامع والمسمع واحد من حيث المحبة، لا من حيث الجمع والتفرقة. انتهى كلامه.

واعلم أن أهل الجمع لا يشهدون إلا متكلماً واحدا، قد انتفى من نظرهم التعدد والاثنينية، غير أنهم يفرقون بين كلام القدرة وكلام الحكمة، كلام القدرة يبرز من غير اختيار، بل يكون المتكلم به مأخوذاً عنه، غائباً عن اختياره،

(١) في الأصول: بالرسالة. قلت: والرسلية: تأدية الرسالة.

وكلام الحكمة معه ضرب من الاختيار، وقد يسمعون كلام القدرة من الهواتف الغيبية، ومن الجمادات على وجه الكرامة، وكله بحرف وصوت. نعم مايقع من الهواتف القلبية والتجليات الباطنية، قد يكون بلا حرف ولاصوت، وقد تحصل لهم المكالمة بالإشارة بلا صوت ولا حرف، فقوله: (بل أسمعه بحرف القدرة وصوت الأزلية...)إلخ. إن أراد به التجليات الباطنية فمسلَّم، لكن ظاهره أن كلام الحق الذي يُسمعه لأنبيائه وأوليائه محصور في ذلك، وأنه لا يكون إلا بلا حرف ولا صوت. وليس كذلك.

وقوله: (وليس في ولاية الأزل من رسوم أهل الآجال شيء) إلخ، معناه: لم يبق في ولاية أهل مشاهدة الأزل من رسوم الحوادث شيء. قلت: لكنهم يثبتونها حكمةً، ويمحونها قدرةً ومشاهدة، ولا يلزم من محوها عدم صدور الكلام منها بالحرف والصوت؛ فإن البشرية لا تطيق سماع كلام الحق بلا واسطة الحكمة، كما هو معلوم. والله تعالى أعلم.

ثم شهد لرسوله بالوحي والرسالة، فقال:

﴿ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشۡهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيۡكَۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَشۡهَدُونَۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾ ﴾

قلت: (لكن): حرف استدراك، وهو عن مفهوم ما تقدم، وكأنه قال: إنهم لا يشهدون بوحينا إليك. لكن الله يشهد بذلك.

يقول الحق جل جلاله في الرد على اليهود لما قالوا للنبي ﷺ: لا نشهد لك بما أوحى إليك. فقال تعالى: ﴿لكن الله يشهد بما أنزل إليك﴾ إن لم يشهدوا به، ﴿أنزله بعلمه﴾ أي: متلبسًا بعلمه الخاص به، وهو العلم بتأليفه على نظم يعجز عنه كل بليغ. أو متلبساً بعلمه الذي يحتاج الناس إليه في معاشهم ومعادهم. أو بعلمه المتعلق بمن يستأهل نزول الكتب إليه، ﴿والملائكة﴾ أيضاً يشهدون بذلك. وفيه تنبيه على أن الملائكة يودُّون أن يعلم الناس صحة دعوى النبوة، على وجه يستغني عن النظر والتأمل، وهذا النوع من خواص الملك، ولا سبيل للإنسان إلى العلم بأمثال ذلك، سوى التفكر والنظر، فلو أتى هؤلاء بالنظر الصحيح لعرفوا نبوتك، وشهدوا بها كما عرفت الملائكة وشهدوا. قاله البيضاوي، وقد يخلق الله العلم في قلب الإنسان من غير تفكر ولا نظر، بل هداية من المالك القدير. ﴿وكفى بالله شهيدًا﴾ لرسوله عن شهادة غيره.

الإشارة: كما شهد الحق تعالى لرسوله بالنبوة والرسالة، شهد لمن كان على قدمه من ورثته الخاصة بالولاية والخصوصية، وهم الأولياء العارفون بالله، وشهادته لهم بما أظهر عليهم من العلوم اللدنية والأسرار الربانية، وبما أتحفهم به من الأخلاق النبوية والمحاسن البهية، وبما أظهر على أيديهم من الكرامات الظاهرة مع الاستقامة الشرعية، لكن لايدرك هذه الشهادة إلا من سبقت له العناية، وكان له حظ في الولاية. «سبحان من لم يجعل الدليل على أوليائه إلا من حيث الدليل عليه! ولم يوصل إليه إلا من أراد أن يوصله إليه» وبالله التوفيق.

ثم ذكر وعيد من أعرض عن هذه الشهادة، فقال:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾ ﴾

قلت: (خالدين): حال مقدرة.

يقول الحق جل جلاله: ﴿إن الذين كفروا﴾ بما أنزلت على رسولنا من اليهود أو غيرهم، ﴿وصدوا﴾ الناس عن طريق الله الموصلة إليه، ﴿قد ضلوا ضلالاً بعيداً﴾؛ لأنهم جمعوا بين الضلال والإضلال، ولأن المضل يكون أغرق في الضلال وأبعد عن الانقلاع. ﴿إنّ الذين كفروا وظلموا﴾ الناس بصدهم عما فيه صلاحهم وخلاصهم، أو ظلموا رسول الله بإنكار نبوته وكتمان صفته، أو ظلموا أنفسهم بالانهماك في الكفر، ﴿لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقاً، إلا طريق جهنم خالدين فيها أبداً﴾، فجرى حكمه السابق ووعده الصادق على أن من مات على الكفر مخلد في النار، ﴿وكان ذلك على الله يسيرا﴾ لا يصعب عليه ولا يتعاظمه.

الإشارة: إن الذين كفروا بالخصوصية وأنكروا على أهلها، وصدوا الناس عن القصد إليها والدخول في حزبها؛ قد ضلوا عن طريق الوصول ضلالاً بعيدا، إذ لا وصول إلى الله إلا على يد أولياء الله؛ لأنهم باب الحضرة، فلابد من الأدب معهم والخضوع لهم. إن الذين كفروا بأولياء الله، وظلموا أنفسهم؛ حيث حرموها الوصول، وتركوها في أودية الخواطر تجول، لم يكن الله ليستر مساوئهم ويقدس سرائرهم، ولا ليهديهم طريق المشاهدة ولا كيفية المجاهدة، وإنما يمكنهم من طريق التعب والنصب حتى يلقوا الله بقلب سقيم، والعياذ بالله.

ولما قرر أمر النبوة، وبيّن الطريق الموصل إلى العلم بها، وأوعد من أنكرها، خاطب الناس بالدعوة إليها فقال:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلۡحَقِّ مِن رَّبِّكُمۡ فَـَٔامِنُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ وَإِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿١٧٠﴾ ﴾

قلت: (فآمنوا خيراً لكم)، و(انتهوا خيراً لكم): قال سيبويه: هو منصوب بفعل مضمر، تقديره: وائتوا خيراً لكم، وقال الخليل: منصوب بآمنوا وبانتهوا على المعنى. أي: اقصدوا. وقال الفراء: صفة لمصدر، أي: آمنوا إيماناً خيراً لكم. وقال بعض الكُوفيين: هو خبر كان المحذوفة، وتقديره: ليكن الإيمان خيراً لكم.

قلت: وهو أظهر من جهة المعنى، وإن منعه البصريون، قالوا: لأنّ (كان) لاتحذف مع اسمها إلا في مواضع مخصوصة، قال ابن مالك:

وَيَحْذِفُونَهَا وَيُبْقُونَ الخَبَرْ ... وَبَعْدَ إِنْ، وَلَوْ، كَثِيراً ذا اشْتَهَرْ

ولعل هذا الموضع أتى على غير المشهور تنبيهاً على الجواز.

يقول الحق جل جلاله: ﴿يأيها الناس قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم﴾ وهو محمد ﷺ، ﴿فآمنوا به﴾ يكن ﴿خيراً لكم﴾ مما أنتم فيه من الضلال، ﴿وإن تكفروا فإن لله ما في السموات والأرض﴾ وما تركبتا منه، ملكاً وخلقاً وعبيداً، فهو غني عنكم، لا يتضرر بكفركم، كما لا ينتفع بإيمانكم، ﴿وكان الله عليماً﴾ بأحوالكم، ﴿حكيماً﴾ فيما دبر لكم.

الإشارة: الذي جاء به الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ هو إتقان مقام الإسلام، وتصحيح مقام الإيمان، الذي من أركانه: الإيمان بالقدر خيره وشره، حلوه ومره، وتحقيق مقام الإحسان الذي هو مقام الشهود والعيان، ولا يكمل هذا إلا بصحبة أهل العرفان، الذين صححوا مقام الفناء، وخرجوا إلى البقاء، خاضوا بحار التوحيد، وانفردوا بأسرار التفريد، ورسخ فيهم مقام الرضى والتسليم، فتلقوا المقادير كلها بقلب سليم، فمن لم يصحبهم ويتأدب بآدابهم بقي إيمانه ناقصا، وحقه العتاب، فكأن الحق ـ تعالى ـ يقول على لسان الإشارة: قد جاءكم وليي، وهو خليفة رسولي، فآمنوا بخصوصيته، وأذعنوا لأمره وتربيته، يكن خيراً لكم مما أنتم فيه من المساوئ والأمراض، لئلا تلقوني بقلب سقيم، وبالله التوفيق.

ثم خص أهل الكتاب بالخطاب والعتاب، فقال:

﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ۘ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا (١٧١) ﴾

قلت: أصل الغلو: مجاوزة الحد في كل شيء، يقال: غلا بالجارية لحمها وعظمها، اذا أسرعت إلى الشباب فجاوزت لداتها؛ أي: أقرانها، تغلو غلوا.

يقول الحق جل جلاله في عتاب النصارى، بدليل ما بعده: ﴿يا أهل الكتاب﴾ الإنجيل ﴿لاتغلوا في دينكم﴾ فتجاوزوا الحد فيه باعتقادكم في عيسى أنه الله، أو ابن الله، قصدوا تعظيمه فغلوا وأفرطوا، ﴿ولا تقولوا على الله إلا الحق﴾، وهو تنزيه عن الصاحبة والولد.

ثم بيَّن الحق فيه فقال: ﴿إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله﴾، لا كما قالت اليهود: ليس برسول، ولا كما قالت النصارى: إنه الله، أو ابن الله، وإنما هو عبد الله ورسوله، ﴿وكلمته ألقاها إلى مريم﴾ أي: أوصلها إليها وحصلها فيها، وهي كلمة: كن. فتَكَوَّن بها في رحم أمه فسمي بها، ﴿ وروح منه ﴾ وهو نفخ جبريل في جيبها فحملت بذلك النفخ، وسمى النفخ روحاً؛ لأنه ريح يخرج عن الروح، فكانت روحه صادرة من روح القدس، كما قال في آدم: ﴿ ونفخت فيه من روحى ﴾ ، وقد قال: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ ﴾ ، فنفخ جبريل في الحقيقة لما كان بأمر الله صار هو نفخ الحق؛ لأن الواسطة محذوفة عند المحققين، فلذلك أضاف روحه إليه كروح آدم عليه السلام.

﴿فآمنو بالله ورسله﴾ أي: وحدوا الله في ألوهيته ،﴿ولاتقولوا ثلاثة﴾ أي: الآلهة ثلاثة: الله، والمسيح، ومريم، ﴿انتهوا﴾ عن التثليث يكن ﴿خيراً لكم إنما الله إله واحد﴾ في ذاته وصفاته وأفعاله، ﴿سبحانه﴾ أي: تنزيهاً له أن يكون له ولد، لأنه لايجانس ولا يتطرقه الفناء، ﴿له ما في السماوات وما في الأرض﴾، ملكاً وخلقاً وعبيداً، والعبودية تنافي البُنوة، ﴿وكفى بالله وكيلا﴾ فلا يحتاج إلى ولد؛ لأن الولد يكون وكيلاً عن أبيه وخليفته، والله تعالى قائم بحفظ الأشياء كافٍ لها، مستغن عمن يعينه أو يخلفه لوجوب بقائه وغناه.

واعلم أن النصارى انقسموا على أربع فرق: نسطورية، ويعقوبية، وملكانية، ومرقوسية، ومنهم نصارى نجران، فالنسطورية، قالوا في عيسى هو ابن الله، واليعقوبية والملكانية، قالوا هو الله، والمرقوسية قالوا: هو ثالث ثلاثة، وكلهم ضالون.

الإشارة: الغلو كله مذموم، وخير الأمور أوساطها، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «لا تُطْرُونِي كما أطْرَت النَّصارَى عيسى بْنَ مَرْيم، ولكن قولوا: عَبْدُ الله ورَسُولُه»، ويرخص للفقير أن يتغالى في مدح شيخه، ما لم يخرجه عن طوره، أو ينتقص غيره بمدحه، وفي الإشارة حث على حفظ مقام التوحيد، وتنزيهه تعالى عن الأضداد والأنداد. وفي ذلك يقول الشاعر:

أَرَبٌّ وعَبْدٌ ونَفْي ضِدِّ　　　قلت لَهُ: لَيْسَ ذاكَ عِنْدِي

فَقَالَ ما عِنْدَكُمْ؟ فقُلْنَا:　　　وُجُودُ فَقْدٍ وفَقْدُ وُجْدِ

فإثبات العبودية مستقلة تضاد الربوبية، ولذلك أنكرها الشاعر، أي: أثبت رباً وعبداً، وأنت تقول بنفي الضد عنه وفي الحكم: «الأكوان ثابتة بإثباته ممحوة بأحدية ذاته».

ولما قالت نصارى نجران للنبي ﷺ: إنك تعيب صاحبنا؟ فقال ـ علية الصلاة والسلام ـ ومن صاحبكم؟ قالوا: عيسى. قال: وأي شيء أقول؟ قالو: تقول إنه عبد الله. قال لهم ـ عليه الصلاة والسلام ـ «ليس بعار أن يكون عيسى عبداً لله» ، أنزل الله تعالى:

﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾ ﴾

قلت : أصل الاستنكاف: التنحية، من قولهم: نكفت الدمع؛ إذا نحيته بإصبعك كي لا يُرى أثره عليك، ثم أُطلق على الأنفة، والاستكبار دون الاستنكاف، ولذا عطف عليه؛ لأن الاستنكاف لا يستعمل إلاحيث لا استحقاق، بخلاف الاستكبار فإنه يكون باستحقاق. قاله البيضاوي.

يقول الحق جل جلاله في الرد على النصارى: ﴿لن يستنكف﴾ أي: لن يأنف ﴿المسيح أن يكون عبداً لله﴾؛ فإن عبوديته لله شرف يتباهى بها، وإنما المذلة والاستنكاف في عبوديته لغيره، ﴿ولا الملائكة المقربون﴾ لا يستنكفون أيضاً أن يكونوا عبيداً لله، بل ما كانوا مكرمين إلا بعبوديتهم لله، واحتج بالآية مَنْ فَضَّل الملائكة على الأنبياء، لأن المعطوف يقتضي أن يكون أرفع درجة من المعطوف عليه، حتى يكون عدم استنكاف الملائكة كالدليل على عدم استنكاف المسيح.

والجواب: أن عطف الملائكة إنما أريد به التكثير والمبالغة، كقولهم: أصبح الأمير اليوم لا يخالفه رئيس ولا مرؤوس، والرئيس أفضل من المرؤوس، والتحقيق في المسألة؛ أن الأنبياء والرسل أفضل من خواص الملائكة كالمقربين، وخواص الملائكة؛ ـ وهم المقربون ـ أفضل من خواص البشر كالأولياء، وخواص البشر أفضل من عوام الملائكة، وعوام الملائكة أفضل من عوام البشر، ولذلك قيل: من غلب عقله على هواه، كان كالملائكة أو أفضل، ومن غلب هواه على عقله، كان كالبهائم أو أضل. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر وعيد من استنكف عن عبوديته ـ تعالى ـ فقال: ﴿ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعا﴾ فيجازيهم؛ ﴿فأما الذين آمنو وعملوا الصالحات﴾ ولم يستنكفوا عن عبادته ﴿فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله﴾ مالا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ﴿وأما الذين استنكفوا﴾ عن عبوديته ﴿واستكبروا﴾ عن عبادته ﴿فيعذبهم عذابا أليما﴾ أي: مُوجعا، وهو النار، وقال القشيري: العذاب الأليم: هو ألا يصلوا إليه أبداً بعد ما عرفوا جلاله، إذ صارت معرفتهم ضرورية ـ أي قهرية ـ فحسراتهم حينئذ على ما فاتهم أشدُّ عقوبة لهم. هـ. ﴿ولا يجدون لهم من دون الله وليًا ولا نصيرا﴾.

فإن قلت: هذا التفصيل أعم من المفصل، لأن الحشر إنما ذكر للمتكبرين والتفصيل أعم، فالجواب: أن عموم المفصل يفهم من قوة الكلام، فكأنه قال: فسيحشرهم للمجازاة يوم يجازى عباده جميعا، ﴿فأما الذين آمنوا...﴾ الخ، نظيره: قولك: جمع الأمير كافة مملكته، فأما العلماء فأكرمهم، وأما الطغاة فقطعهم. والله تعالى أعلم.

الإشارة: العبودية أشرف الحالات وأرفع المقامات، بها شرف من شرف، وارتفع من ارتفع، عند الله، وما خاطب الله أحباءه إلا بالعبودية، فقال تعالى: ﴿ سبحان الذى أسرى بعبده ليلا ﴾، وقال: ﴿ وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ﴾، ﴿ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ﴾، ﴿ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ ﴾، ﴿ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ ... إلى غير ذلك.

وأوصاف العبودية أربعة: الذل، والفقر، والضعف والجهل. ومقابلها من أوصاف الربوبية أربعة: العز، والغنى والقوة والعلم، فبقدر ما يُظهر العبد من أوصاف العبودية يمده الحق من أوصاف الربوبية، فبقدر ما يظهر العبد من الذل يمده من العز، وبقدر ما يظهر من الفقر يمده بالغنى، وبقدر ما يظهر من الضعف يمده من القوة، وبقدر ما يظهرمن الجهل يمده من العلم، تحقق بوصفك يمدك بوصفه، ولا يتحقق ظهور هذه الأوصاف إلا بين عباده لتمحق بذلك أوصاف النفس.

ثم دعا الكل إلى كتابه والإيمان برسوله، فقال:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعۡتَصَمُواْ بِهِۦ فَسَيُدۡخِلُهُمۡ فِي رَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَفَضۡلٖ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَيۡهِ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ﴿١٧٥﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿يأيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم﴾ وهو الرسول عليه الصلاة والسلام وما اقترن به من المعجزات الواضحات، ﴿وأنزلنا إليكم﴾ على لسانه ﴿نورا مبينا﴾ وهو القرآن. أو جاءكم برهان من ربكم: المعجزات الظاهرة، ﴿وأنزلنا إليكم نوراً مبينا﴾: القرآن العظيم، أي: جاءكم دليل العقل وشواهد النقل، فلم يبق لكم عذر ولا علة.

﴿فأما الذين آمنوا بالله﴾ أي: وحدوه في ربوبيته، ﴿واعتصموا﴾ أي: تمسكوا بدينه أو بكتابه، ﴿فسيدخلهم في رحمة منه﴾ وهي الجنة، ﴿وفضل﴾: النظر لوجهه الكريم، قال البيضاوي: ﴿في رحمة﴾ أي: ثواب قدّره بإزاء إيمانه وعمله، رحمة منه، لا قضاء لحق واجب، وفضل إحسان زائد عليهما. هـ. وقال القشيري: سيحفظ عليهم إيمانهم في المآل عند التوفي، كما أكرمهم به وبالعرفان في الحال. هـ. ﴿ويهديهم إليه﴾ أي: إلى الوصول إليه، ﴿صراطا مستقيما﴾ أي: يبيِّن لهم الوصول إليه، وهو طريق السير الذي لا عوج فيه؛ العلم والعمل والحال، وقال البيضاوي: هو الإسلام والطاعة في الدنيا، وطريق الجنة في الآخرة. هـ.

الإشارة: قد جاءكم من يعرفكم بالله، ويدلكم على الله، وهم أولياء الله، ببرهان واضح لا يخفى إلا على من كان خفاشيا، وأنزلنا إليكم من سر قُدسنا، وبحر جبروتنا، نوراً مبينا، تُشاهدون فيه أسرار الذات وأنوار الصفات، وهو ما ظهر من التجليات من القبضة الأولية المحمدية، ﴿فأما الذين آمنو بالله واعتصموا به﴾ في حال سيرهم إليه ﴿فسيدخلهم في رحمةمنه﴾ وهي حضرة القدس، (وفضل) وهو الترقي في أسرار المعارف إلى مالا نهاية له،

ويهديهم إلى الوصول إليه، وهو شهوده في ذلك النور، طريقاً مستقيما توصل إليه في أقرب زمان. ولعل الآية فيها تقديم وتأخير، أي: فسيهديهم إليه طريقاً مستقيماً يسيرون فيه، حتى يصلوا إليه، ثم يدخلهم في رحمة حضرته، وفضل زيادة معرفته. والله تعالى أعلم.

ثم ختم السورة بميراث الكلالة، لأن آخر أحوال الإنسان الموت فيُورث ماله، وكان المناسب ذكر يوصيكم هنا، لكنه أدرجه في حفظ الأموال لكونه أنسب، فقال:

﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ ۚ إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ۚ وَإِن كَانُوٓا۟ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿١٧٦﴾ ﴾

قلت: (في الكلالة)، يتعلق بيفتيكم، ويستفتونك، فيكون من باب التنازع، وأعمل الثاني على اختيار البصريين، وعمل الأول في الضمير المجرور حذف، أي: يستفتونك فيها، أو عمل الأول وحذف ضمير الثاني، أو يكون يستفتونك مقطوعاً فيوقف عليه، أو حُذف متعلقه لدلالة الجواب عليه، أي: يستفتونك في الكلالة، وهو أظهر، وتقدم تفسير الكلالة(١)، ﴿إن امرؤ هلك﴾: ارتفع بفعل مضمر عند البصريين، من باب الاشتغال في المرفوع.

يقول الحق جل جلاله: ﴿يستفتونك﴾ في الكلالة، والمستفتِي هو جابر بن عبدالله، كان مريضاً فعاده رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله. إني كلالة، فكيف أصنع في مالي؟ فنزلت، وهي آخر ما نزل من الأحكام. ﴿قل الله يفتيكم في الكلالة﴾، ثم بيّن الفتوى فيها فقال: ﴿إن امرؤ هلك ليس له ولد﴾ ولا والد، بل انقطع نسبه من الجهتين، ﴿وله أخت﴾ شقيقة أو لأب ﴿فلها نصف ما ترك﴾ والباقي للعصبة، ولا ميراث لها مع الأب أو الابن، ﴿وهو يرثها﴾ إن ماتت ولم يكن لها ولد ولا والد.

فإن استقل فله المال، وإن كان معه ذو سهم أخذ الباقي، ﴿فإن كانتا اثنتين﴾ فأكثر شقائق ﴿فلهما الثلثان مما ترك﴾، وإن كانت شقيقة مع الأب أخذت الشقيقة النصف، والتي لأب السدس تكملة الثلثين، وإن كانت لأب

---

(١) راجع تفسير الآية ١٢ من نفس السورة.

مع الشقيقتين فلاشيء لها، ﴿وإن كانوا إخوة رجالاً ونساء﴾ شقائق، مات أخوهم، ﴿فللذكر مثل حظ الأنثيين﴾، ولا شيء للأخوة لأب من الشقائق. ﴿يُبين الله لكم﴾ الحق، كراهية ﴿أن تضلوا، والله بكل شيء عليم﴾؛ فهو عالم بمصالح العباد في المحيا والممات. اللهم أحينا حياة طيبة وأمتنا موتة حسنة، في عافية وستر جميل، يا أرحم الراحمين، يارب العالمين.

الإشارة: الكلالة من الأولياء، هو الذي مات ولم يخلف ولداً يرث حاله، فإن لم تكن له تلاميذ، فإن كان له أخ يقارب حاله، ورثه، وقد يرث سره أخته في النسبة، لكن لا تستوجب ذلك كله؛ لحكمة الله تعالى. يشير إليه قوله تعالى: ﴿فلها نصف ما ترك﴾، وإن ترك إخوة في الشيخ اقتسموا سره كله، كلٌّ على قدر صِدْقه، والنساء الصادقات شقائق الرجال في نيل أسرار الولاية. وقد تقدم أول السورة أن مدد الشيخ كنهر أو كبحر يصب في القواديس، فإذا انسدت قادوس انتقل ماؤها إلى الأُخرى. والله تعالى أعلم.

فهرس المجلد الأول

تقديم المحقق ٥
تقديم بقلم الأستاذ الدكتور / حسن عباس زكى ٧
كلمة الأستاذ الدكتور / جودة محمد المهدى ١٥
ترجمة الإمام ابن عجيبة ١٩
منهج ابن عجيبة فى التفسير ٣٣
وصف النسخ ٣٩
منهج التحقيق ٤١
مقدمة المفسر ٤٩
تفسير سورة الفاتحة ٥٣
تفسير سورة البقرة ٧١
تفسير سورة آل عمران ٣٢١
تفسير سورة النساء ٤٥٩

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٨/٥٩١٢

ISBN — 977 — 01 — 5669 — 8

البحر المديد
في تفسير القرآن المجيد

لأبي العباس أحمد بن محمد بن عجيبة

١١٦١ هـ - ١٢٢٤ هـ

تحقيق وتعليق

أحمد عبدالله القرشي

المجلد الثاني

من أول سورة المائدة حتى آخر سورة يوسف

طبع على نفقة د. حسن عباس زكي

القاهرة ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م

١٤١٩ هـ - ١٩٩٩م

شارك فى استخراج هذا الجزء من الأصول الخطية

د/ بركات أحمد أبو عوف   د / أحمد شحاته الغزالى

سورة المائدة

مدنية. وهي مائة وعشرون آية، وألفان وثمان مائة وأربع كلمات، وقرأها النبي ﷺ في حجة الوداع، وقال: «يا أيها الناس، إن سورة المائدة من آخر القرآن نزولاً، فأحلوا حلالها وحرموا حرامها»(١). وقال ابن عمر: (أُنزلت سورة المائدة والنبي ﷺ على راحلته، فلم تستطع أن تحمله حتى نزل). وهي مُكملة لما تضمنته سورة النساء من عقود الأحكام الستة، ولذلك افتتحها بالتوصية على الوفاء بها، فقال:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ ... ﴾

أي: بالعهود التي عَهدتْ إليكم أن تحفظوها، وهي حفظ الأموال، وحفظ الأنساب، وحفظ الأديان، وحفظ الأبدان، وحفظ اللسان، وحفظ الأيمان، ثم مرَّ معها على الترتيب، فما ذكره هناك مستوفى، لم يُعدْ منه هنا إلا أصله، وما بقي هناك في أصل من الأصول الستة كمله هنا، ولمّا ذكر فيما تقدم في أول السورة حكم الأموال باعتبار المِلك، ولم يتكلم على مايحل منها وما يحرم، تكلم هنا على ذلك، فقال:

﴿ ... أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ وَأَنتُمۡ حُرُمٌۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ ۝١ ﴾

قلت: إضافة (بهيمة الأنعام): للبيان، كثوب خزّ، أي: البهيمة من الأنعام، و (غير محلي الصيد): حال، قال الأخفش: من فاعل «أوفوا»، وفيه معنى النهي، وقال الكسائي: من ضمير (لكم)؛ كما تقول: أحل لكم الطعام غير مفسدين فيه، فإن قُلتَ: الحال قيد لعاملها «والحلّية غير خاصة بوقت حرمة الصيد؟ قلت: لمّا كانت الحاجة إليها في ذلك الوقت أكثر، خص الحلية به ليكون أدعى للشكر، ويؤخذ عموم الحلّية من سورة الحج(٢).

يقول الحق جل جلاله : ﴿أحلت لكم بهيمة الأنعام﴾ أي: الأنعام كلها، وهي الإبل والبقر والغنم، ﴿إلا مايتلى عليكم﴾ بعدُ في قوله: ﴿حرمت عليكم الميتة والدم...﴾ الآية(٣)، حال كونكم ﴿غير محلي الصيد﴾

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (التفسير ٢/٣١١) موقوفاً على (أم المؤمنين عائشة) رضي الله عنها. وصححه ووافقه الذهبي. وفي الفتح السماوي (٢/٥٥٢) نقلا عن الحافظ ابن حجر: لم نقف عليه مرفوعاً.

(٢) في قول الله تعالى: ﴿ وأحلت لكم الأنعام إلا مايتلى عليكم..﴾ الآية/ ٣٠.

(٣) الآية الثالثة من السورة نفسها.

فى حال الإحرام، ومعنى الآية فى الجملة: أحلت الأنعام كلها إلا مايتلى عليكم من الميتة وأخواتها، لكن الصيد فى حال الإحرام حرام عليكم، ﴿إن الله يحكم مايريد﴾ من تحليل أو تحريم.

الإشارة: يأيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود التى عقدتموها على نفوسكم فى حال سيركم إلى حضرة ربكم، من مجاهدة ومكابدة، فمن عقد عقدة مع ربه فلا يحلها، فإن النفس إذا استأنست بحل العقود لم ترتبط بحال، ولعبت بصاحبها كيف شاءت، وأوفوا بالعقود التى عقدتموها مع أشياخكم بالاستماع والاتباع إلى مماتكم، وأوفوا بالعقود التى عقدها عليكم الحق تعالى، من القيام بوظائف العبودية، ودوام مشاهدة عظمة الربوبية، فإن أوفيتم بذلك، فقد أحلت لكم الأشياء كلها تتصرفون فيها بهمتكم؛ لأنكم إذا كنتم مع المكون كانت الأكوان معكم. إلا مايتلى عليكم مما ليس من مقدوركم مما أحاطت به أسوار الأقدار، «فإن سوابق الهمم لا تخرق أسوار الأقدار»، غير متعرضين لشهود السوى وأنتم فى حرم حضرة المولى. والله تعالى أعلم.

ولمّا نَهى عن التعرض للصيد فى الحرم، نهى عن تغيير المناسك والتعرض للحُجّاج؛ لأنه من تعظيم حُرْمة الحرم، فقال:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَـٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا ۚ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُواْ ۚ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْ ۘ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢﴾ ﴾

قلت: الشعائر: جمع شعيرة، وهى اسم ما أشعر، أى: جعل علامة على مناسك الحج ومواقفه، و(لايجرمنكم) أى: يحملنكم، أو يكسبنكم، يقال: جرم فلان فلاناً هذا الأمر، إذا أكسبه إياه وحمله عليه. والشنآن: هو البغض والحقد، يقال: بفتح النون وإسكانها، و (أن صدوكم) مفعول من أجله، و (أن تعتدوا) مفعول ثان ليجرمنكم. ومن قرأ: (إن صدوكم)، بالكسر فشرط، أغنى عن جوابه: (لا يجرمنكم).

يقول الحق جل جلاله: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تُحلوا شعائر الله﴾ أى: لاتستحلوا شيئاً من ترك المناسك، وذلك أن الأنصار كانوا لايسعون بين الصفا والمروة، وكان أهل مكة لايخرجون إلى عرفات، وكان أهل اليمن يرجعون من عرفات، فأمرهم الله ألاّ يتركوا شيئاً من المناسك، أى: لاتحلوا ترك شعائر الله ﴿و لا﴾ تحلوا

﴿الشهر الحرام﴾ بالقتال أوالسبي، وهذا قبل النسخ، ﴿ولا﴾ تحلوا ﴿الهدي﴾، أي: ما أهدي إلى الكعبة، فلا تتعرضوا له ولو من كافر، ﴿ولا﴾ تحلوا ﴿القلائد﴾ أي: ذوات القلائد، وهي الهدي المقلدة، وعطفها على الهدي للاختصاص؛ فإنها أشرف الهدي، أي: لاتتعرضوا للهدي مطلقاً. والقلائد جمع قلادة، وهي: ما قلد به الهدي من نعل أو لحاء الشجر، أو غيرهما، ليعلم به أنه هدي فلا يتعرض له، ﴿ولا﴾ تحلوا ﴿آمين﴾ أي: قاصدين البيت الحرام، أي: قاصدين لزيارته، ﴿يبتغون فضلاً من ربهم ورضواناً﴾ أي: يطلبون رزقاً بالتجارة التي قصدوها، ورضواناً بزعمهم؛ لأنهم كانوا كفاراً.

وذلك، أن الآية نزلت في الحُطَم بن ضُبَيْعة، وذلك أنه أتى المدينة، فخلَّف خَيْلَه خَارِجَ المدينةَ، ودخل وحْدَه إلى النَّبي ﷺ فقال: إلام تدعُو النَّاس إليه؟ فقال له: «إلى شَهادة أنْ لا إله إلا الله وإقَام الصَّلاة وإيتَاءِ الزكاة». فقال: حسن، إلا أن لي أمَرَاءَ لا أقطعُ أمْراً دُونَهمْ، ولعَلِّي أُسْلم، فخرج وغار على سَرْحِ المدينة فاستَاقَه، فلما كان في العام المقبل خرج حاجًا مع أهل اليمامة، ومعه تجارة عظيمة، وقد قلَّد الهدْيَ، فقال المسلمون للنبي ﷺ: هذا الحطم قد خرج حاجًا فخلِّ بيننا وبينه؟ فقال النبي ﷺ: «إنه قلد الهدي»، فقالوا يارسول الله: هذا شيء كنا نفعله في الجاهلية - أي: تقية -. فأبى عليهم النبي ﷺ، فنزلت الآية(١).

وقال ابن عباس: كان المشركون يحجون ويهدون، فأراد المسلمون أن يُغيِّروا عليهم، فنهاهم الله تعالى بالآية.

﴿وإذا حللتم﴾ من الحج والعمرة ﴿فاصطادوا﴾، أمْر إباحة؛ لأنه وقع بعد الحظر، ﴿ولا يجرمنكم﴾ أي: لايحملنكم، أو لا يكسبنكم ﴿شنآن قوم﴾ أي: شدة بغضكم لهم لأجل ﴿أن صدوكم عن المسجد الحرام﴾ عام الحديبية ﴿أن تعتدوا﴾ بالانتقام منهم؛ بأن تحلوا هداياهم وتتعرضوا لهم في الحرم. قال ابن جزي: نزلت عام الفتح حين ظفر المسلمون بأهل مكة، فأرادوا أن يستأصلوهم بالقتل؛ لأنهم كانوا قد صدوهم عن المسجد الحرام عام الحديبية، فنهاهم الله عن قتلهم؛ لأن الله علم أنهم يؤمنون. هـ. ثم نسخ ذلك بقوله: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾.(٢)

ثم قال تعالى: ﴿وتعاونوا على البر والتقوى﴾ كالعفو، والإغضاء، ومتابعة الأمر، ومجانبة الهوى. وقال ابن جزي: وصية عامة، والفرق بين البر والتقوى؛ أن البر عام في الواجبات والمندوبات، فالبر أعم من التقوى هـ. ﴿ولاتعاونوا على الإثم والعدوان﴾ كالتشفي والانتقام. قال ابن جزي: الإثم: كل ذنب بين الله وعبده، والعدوان: على الناس. هـ. ﴿واتقوا الله إن الله شديد العقاب﴾؛ فانتقامه أشد.

الإشارة: قد أمر الحق - جل جلاله - بتعظيم عباده، وحفظ حُرمتهم كيفما كانوا، «فالخلق كلهم عيال الله، وأحَبّ الخلقِ إلى اللهُ أنفَعُهُمْ لِعيَالِه»، فيجب على العبد كف أذاه عنهم وحمل الجفا منهم، وألاَّ ينتقم لنفسه ممن آذاه

(١) أخرجه ابن جرير عن عكرمة. وذكره الواحدي في الأسباب، عن ابن عباس.
(٢) من الآية ٥ من سورة التوبة.

منهم، ولا يحمله ما أصابه منهم على أن يعتدى عليهم ولو بالدعاء، بل إن وسّع الله صدره بالمعرفة قابلهم بالإحسان، ودعا لعدوه بصلاح حاله؛ حتى يأخذ الله بيده، وهذا مقام الصديقية العظمى والولاية الكبرى، وهذا غاية البر والتقوى الذى أمر الله ـ تعالى ـ بالتعاون عليه، والاجتماع إليه، دون الاجتماع على الإثم والعدوان، وهو الانتصار للنفس والانتقام من الأعداء، فإن هذا من شأن العوام، الذين هم فى طرف مقام الإسلام. والله تعالى أعلم.

ثم بيّن ماوعد به فى قوله: ﴿إلا مايتلى عليكم﴾، فقال :

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَـٰمِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ... ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿حرمت عليكم الميتة﴾ أى: ما ماتت حتف أنفها بلا ذكاة، ﴿والدم﴾ المسفوح، أى: المهروق، وكانت الجاهلية يصبونه فى الأمعاء، ويشوونها ويُحَمِّر، فى الباقى فى العروق بعد التذكية، ﴿ولحم الخنزير﴾، وكذا شحمه وسائر أجزائه المتصلة، بخلاف الشعر المجزوز، ﴿وما أهل لغير الله به﴾ أى: رفع الصوت عليه عند ذبحه بغير الله، كقولهم: باسم اللات والعزى، وكذا ماترك عليه اسم الله عمداً، عند مالك ﴿والمنخنقة﴾ بحبل وشبهه حتى ماتت، ﴿والموقوذة﴾ أى: المضروبة بعصا أو بحجر أو شبهه، من: وقذته وقذاً: ضربته، ﴿والمتردية﴾ أى: الساقطة من جبل أو فى بئر وشبهه فماتت، ﴿والنطيحة﴾ التى نطحتها أخرى فماتت، فإن لم تمت؛ فإن كان فى المصران الأعلى فكذلك، لا فى الأسفل أو الكرش.

﴿وما أكل السبع﴾ أى: أكل بعضه وأنفذ مقتله، والسبع: كل حيوان مفترس كالذئب والأسد والنمر والثعلب والنمس والعقاب والنسر ﴿إلا ماذكيتم﴾ أى: إلا ما أدركتم ذكاته وفيه حياة مستقرة من ذلك. قاله البيضاوى. وقال ابن جزى: قيل: إنه استثناء منقطع، وذلك إذا أريد بالمنخنقة وأخواتها: مامات من ذلك بالخنق وما بعده، أى: حرمت عليكم هذه الأشياء، لكن ماذكيتم من غيرها فهو حلال، وهذا ضعيف، وقيل: إنه استثناء متصل، وذلك إن أريد بالمنخنقة وأخواتها ما أصابته تلك الأسباب وأدركت حياته. والمعنى: إلا ما أدركتم حياته من هذه الأشياء، فهو حلال، واختلف أهل هذا القول؛ هل يشترط أن يكون لم تنفذ مقاتله، أم لا؟ فالأئمة كلهم على عدم الاشتراط إلا مالكاً ـ رحمه الله ـ، وأما من لم تشرف على الموت من هذه الأسباب، فذكاتها جائزة باتفاق. هـ.

﴿و﴾حرم عليكم أيضاً : ﴿ماذُبح على النصب﴾، وهى أحجار كانت منصوبة حول البيت، يذبحون عليها ويعدُّون ذلك قربة، وليست بالأصنام؛ لأن الأصنام مصورة، والنصب غير مصورة، وقيل: (على) بمعنى اللام، أى: ومانبح للنصب، والمراد: كل ماذبح لغير الله.

﴿وأن تستقسموا بالأزلام﴾ أى: تطلبوا ما قسم لكم فى الأزل من المقادير بالأزلام، جمع زلم ــ بضم الزاى وفتحها ــ وهى الأقداح على قدر السهام. وكانت فى الجاهلية ثلاثة، قد كُتب على أحدها: افعل، وعلى الآخر: لاتفعل، وعلى الثالث: مهمل، فإذا أراد الإنسان أن يعمل أمراً جعلها فى خريطة، وأدخل يده وأخرج أحدها، فإن خرج له الذى فيه «افعل»؛ فعل ما أراد، وإن خرج الذى فيه «لاتفعل»، تركه، وإن خرج المهمل أعاد الضرب، ويقاس عليه كل مايدخل فى علم الغيب، كالقريعة والخط والنصبة والكهانة، وشبهها.

﴿ذلكم فسق﴾ ، الإشارة إلى المحرمات المذكورة، أو إلى الاستقسام بالأزلام، وإنما كان فسقاً؛ لأنه دخول فى علم الغيب الذى انفرد الله به، وفيه تجسس على سر الملك، وهو حرام، ولا يعارض ماثبت جوازه من القرعة، فى أمور مخصوصة كتمييز الأنصبة فى القسمة، «وقد كان ــ عليه الصلاة والسلام ــ يقترع بين نسائه»، وغير ذلك مما تفيد تطييب القلوب، دون الاطلاع على علم الغيوب. والله تعالى أعلم.

الإشارة: حرمت عليكم يامعشر المريدين طلب الحظوظ والشهوات، وما انموت به قلوبكم من الانهماك فى الغفلات، وتناول ما أعطيكم لغير وجه الله، وقبضتموه من غير يد الله، بأن نظرتم حين قبضه إلى الواسطة، وغفلتم عن المعطى حقيقة، فمقتضى شريعة الخواص: إخراجه عن الملك، وحرمان النفس من الانتفاع به، كما وقع لبعض الأولياء، ولا تتناولوا من الطعام إلا ماذكيتموه بأن شهدتم فيه المنعم دون الوقوف مع النعمة، ونزلتم إليه بالإذن، دون قصد الشهوة والمتعة، وهذا يحتاج إلى تيقظ كبير ومراقبة قوية. والله يتجاوز عن أمثالنا بحلمه وكرمه. آمين.

ولمّا حرّم الله تعالى هذه الأشياء حصل للمشركين الإياس من موافقة المسلمين لهم فى دينهم، فلذلك ذكره الحق تعالى بإثر تحريمها، فقال:

﴿ ... ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ ... ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿اليوم﴾ الذى أنتم فيه، وهو يوم الجمعة، ويوم عرفة فى حجة الوداع، ﴿يئس الذين كفروا من دينكم﴾ أن يبطلوه، أو يظهروا عليه بحصول المباينة لهم فى أمورهم كلها، ولظهور الإسلام فيه وكثرة المسلمين، قيل: إنه وقف معه ﷺ فى هذه الحجة: مائة ألف وأربعة عشر ألفا، ويحتمل أن يريد باليوم الزمان الحاضر، وما يتصل به من الأزمنة الآتية، ﴿فلا تخشوهم﴾ أن يظهروا عليكم، ﴿واخشون﴾ وحدى؛ فأمرهم بيدى.

﴿اليوم أكملتُ لكم دينكم﴾ بالنصر والإظهار على الأديان كلها، أو بالتنصيص على قواعد العقائد، والتوقيف على أحوال الشرائع وقوانين الاجتهاد، ﴿وأتممتُ عليكم نعمتى﴾ بالهداية والتوفيق، أو بإكمال الدين، وبالفتح والتمكين، بهدم منار الكفر، ومحو علل الملحدين، ﴿ورضيتُ لكم الإسلام دينا﴾ أى: اخترته لكم من بين الأديان، الذى لا نرتضى غيره ولا نقبل سواه.

الإشارة : إذا حصل المريد على أسرار التوحيد، وخاض بحار التفريد، وذاق حلاوة أسرارالمعاني، وغاب عن شهود حس الأواني، وحصل له الرسوخ والتمكين في ذلك ، أَيِسَ منه الشيطان وسائر القواطع، فلا يخشى أحداً إلا الله، ولايركن إلى شيء سواه، وأمِنَ من الرجوع في الغالب، إلا لأمر غالب، ﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ ﴾ . ولذلك قال بعضهم: (والله مارجع من رجع إلا من الطريق، وأما من وصل فلا يرجع) .

والوصول هو التمكين فيما ذكرنا، فإذا حصل على كمال المعرفة، ووقف على عرفة المعارف، فقد كمل دينه واستقام أمره، وظهرت أنواره، وتحققت أسراره، ومابقى إلا الترقى فى الأسرار أبداً سرمداً، والسيرُ فى المقامات كسير الشمس فى المنازل، ينتقل فيها من مقام إلى مقام، بحسب مايبرز من عنصر القدرة، فتارة يبرز معه ما يوجب الخوف، وتارة مايوجب الرجاء، وتارة مايوجب الرضا والتسليم، وتارة مايوجب التوكل، وهكذا يتلون مع كل مقام ويقوم بحقه، ولا يقف مع مقام ولا مع حال، لأنه خليفة الله في أرضه، وقد قال تعالى: ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾(١) ، وهذا هو التلوين بعد التمكين. والله تعالى أعلم.

ثم استثنى من تلك المحرمات حالة المضطر، فقال:

﴿ ... فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٣ ﴾

قال البيضاوي: هو متصل بذكر المحرمات، وما بينهما اعتراض مما يوجب التجنب عنها، وهو أن تناولها فسوق، وحرمتها من جملة الدين الكامل والنعمة التامة والإسلام المرضى . هـ .

يقول الحق جل جلاله : ﴿**فمن اضطر**﴾ إلى تناول شيء من هذه المحرمات ﴿**فى مخمصة**﴾ أى: مجاعة، حال كونه ﴿**غير متجانف**﴾ أى: مائل للإثم وقاصد له، بأن يأكلها تلذذاً أو متجاوزاً حد الرخصة، قيل: هو سد الرمق، وقال ابن أبى زيد: يأكل منها ويتزود، فإن استغنى عنها طرحها . هـ . فإن تناولها للضرورة ﴿**فإن الله غفور**﴾ له ﴿**رحيم**﴾ به؛ حيث أباحها له فى تلك الحالة .

الإشارة : قال بعض الحكماء: الدنيا كلها كالميتة، لا يحل منها للذاكر إلا قدر الضرورة أكلاً وشرباً، وملبساً ومركباً، حتى يتحقق له الوصول، فما بقى لأحد حينئذ ما يقول، وعلامة الوصول: هو الاكتفاء بالله دون الاحتياج لشيء سواه، إن افتقر اغتنى فى فقره، وإن ذل عز فى ذله، وإن فقد وجد فى فقده، وهكذا فى تقلبات الأحوال لايتضعضع ولا يتزلزل، ولو سقطت السماء على الأرض. والله تعالى أعلم.

ولمّا ذكر ماحرّم عليهم؛ ذكر ما أحل لهم، فقال:

---

(١) من الآية/ ٢٩ من سورة الرحمن.

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتُ ۙ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤﴾ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ... ﴾

قلت : لم يقل ماذا أحل لنا؛ لأن «يسألونك» بلفظ الغيبة، وكلا الوجهين شائع فى أمثاله. قاله البيضاوى .

يقول الحق جل جلاله : ﴿يسألونك﴾ يامحمد عن الذى ﴿أُحل لهم﴾ من المآكل، بعد الذى حرم عليهم من الخبائث، فقل لهم. ﴿أُحل لكم الطيبات﴾ وهو عند مالك: مالم يدل دليل على تحريمه من كتاب ولا سنّة، وعند الشافعى: ما يستلذه الطبع السليم ولم ينفر عنه، فحرم الخنافس وشبهها، ﴿و﴾ أحل لكم صيد ﴿ماعلّمتم من الجوارح﴾ أى: الكواسب، وهى الكلاب ونحوها، مما يصطاد به ويكسب الصيد على أهله، من سباع وذوات أربع، وطير، ونحوها، حال كونكم ﴿مُكلبين﴾ أى: معلمين لها الاصطياد، أى: مؤدبين لها، ﴿تُعلمونهن مما علمكم الله﴾ من الحيل وصدق التأديب، فإن العلم بها إلهام من الله أو مكتسب بالعقل الذى هو منحة من الله لابن آدم. وحد التعليم عند ابن القاسم: أن يفهم الجارح الإشلاء والزجر، وقيل: الإشلاء؛ أى: التسلط ـ فقط، وقيل: الزجر فقط، وقيل: أن يجيب إذا دُعى.

﴿فكلوا مما أمسكن عليكم﴾ ولم يأكل منه، لقوله ﷺ: «وإنْ أكَلَ، فلا تأكُلْ؛ فإنَّما أمْسَكَ علَى نَفْسِه»(١). وهو مذهب الشافعى، وقال مالك: يؤكل مطلقًا لما فى بعض الأحاديث: «وإنْ أكَلَ فكُل»(٢)، وقال بعضهم: لا يشترط ذلك فى سباع الطير؛ لأن تأديبها إلى هذا الحد متعذر .

﴿واذكروا اسم الله عليه﴾ أى: على ماعلمتم عند إرساله، ولو لم ير المرسل عليه، وكذا عند الرمى بالمحدد ونحوه، فإن سمى على شىء معين ووجد غيره لم يؤكل، أو التبس مع غيره، وإن سمى على ما وجد أكل الجميع، ولابد من نية الذكاة عند الإرسال أو الرمى، واختلف فى حكم التسمية، فقال الظاهرية: إنها واجبة مطلقًا، فإن تركت عمداً أو سهواً لم تؤكل عندهم ، وقال الشافعى: مستحبة، حملاً للأمر على الندب، فإن تركت عمداً أو سهواً أكلت عنده.

(١) بعض حديث أخرجه البخاري في (الذبائح والصيد، باب إذا أكل الكلب) ومسلم فى (الصيد والذبائح، باب الصيد بالكلاب المعلمة) من حديث عدى بن حاتم.
(٢) أخرجه ابو داود فى (الصيد، باب فى الصيد) عن أبى ثعلبه الخشنى.
وفى التوفيق بين الحديثين قال الخطابى فى معالم السنن: يجعل حديث أبى ثعلبه أصلاً فى الإباحة، وأن يكون النهى فى حديث عدى على معنى التنزيه دون التحريم. ويحتمل أن يكون الأصل فى ذلك: حديث عدى بن حاتم ،ويكون النهى على التحريم البات، ويكون المراد بقوله: «وإن أكل» فيما مضى من الزمان وتقدم منه، لا فى هذه الحال، فكأنه قال: كل منه وإن كان قد أكل فيما تقدم، إذا لم يكن قد أكل فى هذه الحالة. انظر معالم السنن على هامش سنن أبى داود ٣/٢٧٢ ، وانظر أيضا:فتح البارى ٩/٤٩٤ .

، وجعل بعضهم الضمير في ﴿عليه﴾، عائداً على الأكل، فليس فيها على هذا أمر بالتسمية على الصيد، ومذهب مالك: أنه إن تركت التسمية عمداً لم تؤكل، وإن تركت سهواً أكلت، فهي عنده واجبة بالذكر ساقطة بالنسيان، وهذا الخلاف جار في الذكاة كلها.

﴿واتقوا الله﴾ في اجتناب محرماته، ﴿إن الله سريع الحساب﴾، فيؤاخذكم على ماجلّ ودق.

﴿اليوم أحل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم﴾ فيتناول الذبائح وغيرها، ويعم أهل الكتاب اليهود والنصارى، واستثنى عليٌّ - كرم الله وجهه - نصارى بني تغلب، وقال: (ليسوا على النصرانية، ولم يأخذوا منها إلا شرب الخمر) . ولا يلحق بهم المجوس في ذلك، وإن ألحقوا بهم في الجزية، لقوله ﷺ: «سُنّوا بهم سُنّةَ أَهْلِ الكتاب، غير ألا تنكحوا نساءهم، ولا تأكلوا ذبائحهم»[1] وكذلك المرتد مطلقاً لا تؤكل ذكاته.

قال ابن جزي: وأما الطعام، فهو على ثلاثة أقسام: أحدها : الذبائح، وقد اتفق العلماء على أنها مرادة في الآية، فأجازوا أكل ذبائح اليهود والنصارى، واختلفوا فيما هو محرم عليهم في دينهم، على ثلاثة أقوال: الجواز، والمنع، والكراهة، وهو مبني على: هل هو من طعامهم أم لا؟ فإن أريد بطعامهم ماذبحوه، جازت، وإن أريد مايحل لهم، مُنع، والكراهة توسط بين القولين. الثاني: مالا محاولة لهم فيه، كالقمح والفاكهة، فهو جائز لنا اتفاقا. والثالث: ما فيه محاولة كالخبز وتصيير الزيت وعقد الجبن، وشبه ذلك مما يمكن استعمال النجاسة فيه، فمنعه ابن عباس؛ لأنه رأى أن طعامهم هو الذبائح خاصة، وأجازه الجمهور، لأنه رأوه داخلاً في طعامهم، وهذا إذا كان استعمال النجاسة فيه محتملا، أما إذا تحققنا استعمال النجاسة فيه؛ كالخمر والخنزير والميتة، فلا يجوز أصلاً، وقد صنف الطرطوشي في تحريم جبن النصارى، وقال: إنه ينجس البائع والمشتري والآلة؛ لأنهم يعقدونه على أنفحة الميتة .هـ.

﴿وطعامكم حلٌ لهم﴾، فلا بأس أن تُطعموهم من طعامكم، وتبيعوه لهم، وأما ماحرم عليهم، فلا يجوز بيعه منهم. والله تعالى أعلم.

الإشارة: يسألونك أيها العارف الرباني ماذا أحل للفقراء من الأعمال والأحوال، قل لهم: أحل لكم الطيبات، أي: الخالص من الأعمال، والصافي من الأحوال، والتلذذ بحلاوة المشاهدة والمكالمة، وما اصطادت لكم أنفسكم من العلوم اللدنية والأسرار القدسية، بقدر تزكيتها وتربيتها، فكلوا مما أمسكن عليكم، أي: تمتعوا بما أتت به لكم من

---

(١) أخرجه مالك في الموطأ (الزكاة، باب جزية أهل الكتاب والمجوس) من حديث عبد الرحمن بن عوف، بدون ذكر: (غير ألا تنكحوا نساءهم ولا تأكلوا ذبائحهم) وجاءت هذه العبارة بنحوها في حديث أخرجه عبدالرزاق في المصنف (٦/ ٦٩ ح ١٠٠٢٨) والبيهقي في الكبرى (٩/ ١٩٢) عن الحسن بن محمد بن علي قال: (كتب رسول الله ﷺ إلى مجوس هجر يعرض عليهم الإسلام، فمن أسلم قُبل، ومن أصر ضربت عليهم الجزية، على أن لا تؤكل لهم ذبيحة، ولا ينكح لهم امرأة).

أبكار الحِكَم وعرائس الحقائق، فإن أتت بشيء من علوم الحس، فاذكروا اسم الله عليه ينقلب معاني، واتقوا الله أن تقفوا مع شيء سواه، (إن الله سريع الحساب) ؛ فيحاسبكم على الخواطر والطوارق إن لم تعرفوا فيها. اليوم أحل لكم الطيبات، أي: حين دخلتم بلاد المعاني ورسختم فيها، أحل لكم التمتع بالمشاهدات والمناجات، وطعام العلوم الظاهرة حِلٌ لكم تتوسعون بها، وطعامكم حل لهم، أي: وتذكيركم بما يقدرون عليه حِلٌ لهم؛ لأن العارف الكامل يُسير كل واحد على سيره، ويتلون معه بلونه، يُقره في بلده ويحوشه إلى ربه. نفعنا الله بذكره. آمين.

ثم تكلم على مابقي من حفظ الأنساب، وهو جواز نكاح الكتابية؛ إذ لم يتكلم عليه في سورة النساء، فقال:

﴿ ... وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٥﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله : وأحل لكم ﴿**المحصنات**﴾ أي: الحرائر ﴿**من المؤمنات**﴾ دون الإماء، إلا لخوف العنت، أو العفيفات دون البغايا، فإن نكاحها مكروه، ﴿**و**﴾ أحل لكم ﴿**المحصنات**﴾ أي: الحرائر ﴿**من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم**﴾، فأحل الله نكاح اليهودية والنصرانية الحُرتين دون إمائهم، ﴿**إذا آتيتموهن أجورهن**﴾ أي: أعطيتموهن مهورهن. فلا يجوز نكاح الكتابية إلا بصداق شرعي. حال كونكم ﴿**محصنين**﴾، أي: متعففين عن الزنى بنكاحها، ﴿**غير مسافحين**﴾ أي: مجاهرين بالزنى، ﴿**ولا متخذي أخدان**﴾ أي: أصحاب تُسرون معهن بالزنى، والخدن: الصاحب، يقع على الذكر والأنثى. والمعنى: أحللنا لكم نكاح الكتابيات، توسعة عليكم لتتعففوا عن الزنى سراً وجهراً.

ولما نزل إباحة الكتابيات قال بعض الناس: كيف أتزوج من ليس على ديني؟ فأنزل الله: ﴿**ومن يكفر بالإيمان**﴾ أي: بشرائع الإيمان ﴿**فقد حبط عمله وهو في الآخرة من الخاسرين**﴾، ومن الكفر به إنكاره والامتناع منه.

الإشارة: قد تقدم أن علوم الحقائق أبكار، لأنها عرائس مخدّرة، مهرها النفوس، وما سواها من العلوم ثيبات وإماء؛ لرخص مهرها، فإذا اتصل العارف بعلوم الحقائق ورسخ فيها؛ أحل له أن ينكح المحصنات من علوم الطريقة ـ وهي مبادئ التصوف، أي: التفنن فيها مع أهلها على وجه التركيز أو التعليم، والمحصنات من علوم الشريعة إذا أعطاها مهرها؛ من الإخلاص وقصد التوسع بها وتعليمها لأهلها، وهذه العلوم كلها مشروعة، والمشتغل بها متوجه إلى الله تعالى، ﴿قد علم كل أناس مشربهم﴾، فمن كفر بها فقد حبط عمله، وهو عند الله من الخاسرين.

ثم تكلم على مابقي من حفظ الأديان، وهو الوضوء؛ إذ لم يتكلم عليه في النساء، فقال:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ ۚ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُواْ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ ۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَـٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾ ﴾

قلت : ﴿إذا قمتم﴾ : أردتم القيام، كقوله: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ﴾(١) ، حذف الإرادة للإيجاز، وللتنبيه على أن من أراد العبادة ينبغي أن يبادر إليها، بحيث لا ينفك الفعل عن الإرادة، وقوله :﴿برءوسكم﴾ الباء للإلصاق، تقول: أمسكتُ بثوب زيد، أي: ألصقت يدي به، أي: ألصقوا المسح برؤوسكم، أو للتبعيض، وهذا سبب الخلاف في مسحه كله أو بعضه، فقال مالك: واجب كله، وقال الشافعي: أقل مايقع عليه اسم الرأس، ولو قلّ. وقال أبو حنيفة: الربع.

﴿وأرجلكم﴾، مَنْ نَصَبَ عطف على الوجه، ومن خفض فعلي الجوار، وفائدته: التنبيه على قلة صبِّ الماء، حتى يكون غسلاً يَقرب من المسح. قاله البيضاوي. وردّه في المغني فقال: الجوار يكون في النعت قليلاً، وفي التوكيد نادراً، ولا يكون في النسق؛ لأن العاطف يمنع من التجاور، وقال الزمخشري: لمّا كانت الأرجل بين الأعضاء الثلاثة مغسولات، تغسل بصب الماء عليها، كان مظنة الإسراف المذموم شرعاً، فعطف على الممْسوح لا لتمسح، ولكن لينبه على وجوب الاقتصار في صب الماء عليها، وجيء فيهما بالغاية إماطة لظن من يظن أنها ممسوحة؛ لأن المسح لم يضرب له غاية في الشريعة. هـ.

يقول الحق جل جلاله : ﴿يأيها الذين آمنوا﴾ إذا أردتم القيام ﴿إلى الصلاة﴾، وأنتم محدثون ﴿فاغسلوا وجوهكم﴾ من منابت شعر الرأس المعتاد إلى الذقن، ومن الأذن إلى الأذن، ﴿وأيديكم إلى المرافق﴾ أي: معها، ﴿وامسحوا برءوسكم﴾ أي: جميعها أو بعضها على الخلاف، ﴿وأرجلكم إلى الكعبين﴾ العظمين الناتئين في مفصلي الساقين، فهذه أربعة فرائض، وبقيت النية لقوله: ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ ﴾(٢) ، ولقوله

(١) من الآية : ٩٨ من سورة النحل.
(٢) من الآية: ٥ من سورة البينة.

عليه الصلاة السلام-: «إنما الأعمال بالنيات». والدلك؛ إذا لا يسمى غسلاً إلا به، وإلا كان غمساً، والفور؛ لأن العبادة إذا لم تتصل كانت عبثاً. ولمّا عطفت بالواو، وهي لاترتب، علمنا أن الترتيب سنة.

﴿وإن كنتم مرضى﴾ لم تقدروا على الماء ﴿أو على سفر﴾ ولم تجدوه، أو في الحضر، و﴿جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء﴾ بالجماع أو غيره ﴿ولم تجدوا ماء فتيمموا صعيداً طيباً فامسحوا بوجوهكم﴾ أي: جميعه ﴿وأيديكم منه﴾، وقيد الحضر بفقد الماء دون السفر؛ لأن السفر مظنة إعوازه، فالآية نص في تيمم الحاضر الصحيح للصلوات كلها. قال البيضاوي: وإنما كرره، - يعني مع ما في النساء - ليتصل الكلام في بيان أنواع الطهارة. هـ.

ثم قال تعالى: ﴿مايريد الله ليجعل عليكم من حرج﴾ حتى يكلفكم بالطهارة في المرض أو الفقد من غير انتقال للتيمم، ﴿ولكن يريد ليطهركم﴾ أي: ينظفكم بالماء أو بدله، أو يطهركم من الذنوب، فإن الذنوب تذهب مع صب الماء في كل عضو، كما في الحديث، ﴿وليتم نعمته عليكم﴾ بشرعه، ماهو مطهرة لأبدانكم، ومكفرة لذنوبكم، ﴿ولعلكم تشكرون﴾ نعمه فيزيدكم من فضله.

الإشارة: كما أمر الحق جل جلاله بتطهير الظاهر لدخول حضرة الصلاة، التي هل محل المناجاة ومعدن المصافاة، أمر أيضًا بتطهير الباطن من لوث السهو والغفلات، فمن طهر ظاهره من الأوساخ والنجاسات، ولوّث باطنه بالوساوس والغفلات، كان بعيداً من حضرة الصلاة؛ إذ لاعبرة بحركة الأبدان، وإنما المطلوب حضور الجنان.

قال القشيري: وكما أن للظاهر طهارةً فللسرائر طهارة، فطهارة الظاهر بماء السماء، أي: المطر، وطهارة القلوب بماء الندم والخجل، ثم بماء الحياء والوجل، ويجب غسل الوجه عند القيام إلى الصلاة، ويجب - في بيان الإشارة - صيانة الوجه عن التبذل للأشكال عند طلب خسائس الأغراض، وكما يجب مسح الرأس، يجب صونه عن التواضع لكل أحد - أي: في طلب الحظوظ والأغراض - وكما يجب غسل الرجلين في الطهارة الظاهرة، يجب صونها - في الطهارة الباطنة ـ عن التنقل فيما لايجوز هـ.

وقال عند قوله: ﴿وإن كنتم جُنباً فاطهروا﴾: وكما يجب طهارة الأعلى، أي: الظاهر، فيقتضي غسل جميع البدن، فقد يقع للمريد فترة - توجب عليه الاستقصاء في الطهارة الباطنية - فذلك تجديد عقد وتأكيد عهد، وكما أنه إذا لم يجد المتطهر الماء ففرضه التيمم، فكذلك إذا لم يجد المريد منْ يقيض عليه صوْبَ همته، ويغسله ببركات إشارته، اشتغل بما ينشر له من اقتفاء آثارهم، والاسترواح إلى ما يجد من سالف سيرتهم، ومأثور حكاياتهم. هـ.

قلت: محصل كلامه أن من سقط على شيخ التربية، كان كمن وجد الماء فاستعمل الطهارة الأصلية الحقيقية، ومن لم يسقط على شيخ التربية، كان كالمستعمل للطهارة الفرعية المجازية؛ وهي التيمم، وإلى ذلك أشار الغزالي، لما سقط على الشيخ، ولامه ابن العربي الفقيه على التجريد، فقال:

قَدْ تيَمَّمْتَ بالصَّعِيدِ زَمَاناً — والآن قَدْ ظَفِرتَ بالمَاء

مَنْ سَرَى مطبقَ الجُفُونِ وأضْحَى — فَاتِحاً لا يردُّها للعَمَاء

ثم قال، لمّا طلَعَ قمرُ السّعادةِ فى ملك الإرادَة وأشرقت شمسُ الوُصُولِ على أُفُقِ الأُصُول:

تَرَكْتُ هَوَى لَيْلَى وسُعْدَى بمعزلِ ومِلْتُ إلى عَلْيَاء أول منْزِلِ
فنادَتْنِى الأوطانُ أهلاً ومرحبـاً ألا أيها السّارى رُوَيْدَكَ فانْزِلِ
غَزَلْتُ لهم غَزْلاً رقيقًا فلم أجِدْ لِغَزْلِى نَسّاجًا فَكَسَّرْتُ مِغْزَلِى

ثم ذكّرهم الحق جل جلاله العهدَ الذى أخذه عليهم فى الجهاد والطاعة، حين بايعوا نبيه ـ عليه الصلاة السلام ـ فى العقبة وغيرها، فقال:

﴿ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿واذكروا نعمة الله عليكم﴾ بالهداية والعز والنصر، ﴿و﴾ اذكروا ﴿ميثاقه الذى واثقكم به﴾ حين بايعتم نبيه فى بيعة العقبة وبيعة الرضوان على الجهاد وإظهار الدين، وعلى السمع والطاعة فى المنشط والمكره، حين ﴿قلتم﴾ له: ﴿سمعنا وأطعنا﴾ فيما تأمرنا به فى عسرنا ويسرنا، فى منشطنا ومكرهنا، ﴿واتقوا الله﴾ فى نقض العهود، ﴿إن الله عليم بذات الصدور﴾ أى: خفياتها، فيجازيكم عليها، فضلاً عن جليات أعمالكم، والمقصود: الترغيب فى الجهاد الذى هو من كمال الدين.

الإشارة: يقال للفقراء الذين منّ الله عليهم بصحبة شُيوخ التربية، وأخذوا عنهم العهد ألا يخالفوهم: اذكروا نعمة الله عليكم، حيث يسّر لكم مَن يُسيّركم إلى حضرة ربكم، ويعرفكم به، وغيركم يقول: إنه معدوم، أو خفى لايعرفه أحد، وهذا الكنز الذى سقطتم عليه، قلّ من وجده، واذكروا أيضًا ميثاقه الذى واثقه عليكم ألا تخالفوهم، ولو أدى الأمر إلى حتف أنفكم.

كان شيخ شيوخنا ـ سيدى العربى بن عبد الله، يقول: الفقير الصادق، هو الذى إذا قال له شيخه: ادخل فى عين الإبرة، يقوم مبادراً يُحاول ذلك، ولايتردد. وقال أيضا: (صاحبى هو الذى نقتله بشعرة)، وقد تقرر أن من قال لشيخه: لِمَ، لا يفلح، وهذا أمر مقرر فى علم التربية؛ كما فى قضية الخضر مع سيدنا موسى ـ عليه السلام ـ. واتقوا الله فى اعتقاد مخالفتهم سراً؛ ﴿إن الله عليم بذات الصدور﴾ فإن الاعتراض سراً أقبح؛ لأنه خيانة، فليبادر المريد بالتوبة منه ويغسله من قلبه. والله تعالى أعلم.

ولما كان الجهاد لايقوم إلا بنصب الإمام، ذكَر ما يتعلق به من العدل في الأحكام، فقال:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۙ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٠﴾ ﴾

قلت: (وعد): يتعدى إلى مفعولين، وحذف هنا الثاني، أي: وعدهم أجراً عظيما، دل عليه الجملة بعده.

يقول الحق جل جلاله: ﴿يآيها الذين آمنوا﴾؛ عامٌ أريد به خاص، وهم أولوا الأمر منهم، الذين يلُون الحكم بين الناس، وماتقدم في سورة النساء[1] باقٍ على عمومه، أي: ﴿كونوا قوامين﴾ على من تحت حكمكم، راعين لهم؛ فإنكم مسئولون عن رعيتكم، وكونوا مخلصين ﴿لله﴾ في قيامكم وولايتكم، ﴿شهداء﴾ على أنفسكم بالعدل، تشهدون عليها بالحق إن توجه عليها، ولا تمنعكم الرئاسة من الإنصاف في الحق، إن توجه عليكم، أو على أقاربكم وأصدقائكم، ولا على عدوكم ﴿ولا يجرمنكم﴾ أي: ولا يحملنكم ﴿شنئان قوم﴾ أي: شدة بغضهم لكم، ﴿على ألا تعدلوا﴾ فيهم، فتمنعوهم من حقهم، أو تزيدوا في نكالهم، تشفياً وغيظا.

﴿اعدلوا هو﴾ أي: العدل ﴿أقرب للتقوى﴾، قال البيضاوي: صرح لهم بالأمر بالعدل، وبيّن أنه بمكان من التقوى بعد ما نهاهم عن الجور، وبيّن أنه مقتضى الهوى. فإذا كان هذا العدل مع الكفار، فما بالك مع المؤمنين؟. هـ ﴿واتقوا الله﴾؛ ولاتراقبوا سواه، ﴿إن الله خبير بما تعملون﴾ فيجازي كلاًّ على عمله، من عدل أو جور.

ثم ذكر ثواب من امتثل، فقال: ﴿وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر عظيم﴾، وأفضل الأعمال: العدل في الأحكام. قال عليه الصلاة السلام: «المقْسِطون على منابِرَ مِنْ نورٍ يوم القيامة»[2]... الحديث، وهو من السبعة الذين يظلهم الله في ظله.

ثم ذكر وعيد ضدهم، فقال: ﴿والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم﴾ كما هو عادته تعالى، يشفع بضد الفريق الذي يذكر أولاً، وفاءً لحق الدعوة، وفيه مزيد وعد للمؤمنين وتطييب لقلوبهم. وهذه الآية في مقابلة قوله تعالى: ﴿إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل﴾[3] وتكميل لها. والله تعالى أعلم.

---

(١) في قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين...﴾ الآية ١٣٥.

(٢) أخرجه مسلم في (الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل..) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص.

(٣) من الآية ٥٨ من سورة النساء.

الإشارة: أمر الحق جل جلاله شيوخ التربية أن يعدلوا بين الفقراء فى النظرة والإمداد، ولا يحملهم سوء أدب أحدهم، أو قلة محبته وصدقه، أن يبعده أو يمقته؛لأن قلوبهم صافية، لا تحمل الكدر، فهم يحسنون إلى من أساء إليهم من العوام، فضلاً عن أصحابهم ؛ فهم مأمورون بالتسوية بينهم فى التذكير والإمداد. والله تعالى يقسم بينهم على قدر صدقهم ومحبتهم، كما قال ﷺ: «إنما أنا قاسمٌ والله مُعطى» أى: إنما أنا أُبين كيفية التوصل إلى الحق، والله ـ تعالى ـ يتولى إعطاء ذلك لمن يشاء من خلقه، فالأنبياء والأولياء مثلهم فى بيان الطريق بالوعظ والتذكير، كمن يُبين قسمة التركة بالقلم، والحاكم هو الذى يوصل إلى كل واحد من الورثة ما كان ينوبه فى التركة، كذلك المذكِّر والمربى، يبين المقامات، والله يعطى ذلك بحكمته وفضله. والله تعالى أعلم.

ثم أمر نبيه ﷺ بشكر نعمة حفظه ورعايته، وتنسحب على الأمراء من بعده، إذ لا يخلو أحد منهم من عدو أو حاسد، فقال:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم﴾ بحفظه إياكم من عدوكم؛ ﴿ إذ هَمَّ قوم ﴾ أى: حين هَمَّ الكفار﴿ أن يبسطوا إليكم أيديهم ﴾ بالقتل، ﴿ فكف أيديهم عنكم ﴾ ، ولما كانت مصيبة قتل النبى ﷺ ـ لو قُتل ـ تَعُمُّ المؤمنين كلهم، خاطبهم جميعا، وهى إشارة إلى ما همت به بنو قريظة، من قتله ﷺ، وذلك أنه ﷺ أتى بنى قريظة، ومعه الخلفاءُ الأربعة؛ يَسْتَعينهم فى دية رجلين مسلمين، قتلهما عَمرو بن أمية الضمرى، خطأ، يظنهما مشركَيْن، فقالوا: نعم يا أبا القاسم، قد آن لنا أن نعينك فاجلس حتى تطعم، فأجلسوه، وهموا بقتله، فعمد عَمْرُو بن جَحَّاش إلى رَحى عظيمةٍ ليَطْرحَها عليه، فأَمْسَكَ اللهُ يده، ونزل جبْريلُ فأخْبَرَه، فخَرَجَ النَّبى ﷺ إلى المدينة ولحقه أصحابه، وهذا كان سبب قتلهم فى غزوة بنى قريظة.

وقيل: نزلت فى قضية غَوْرَث، وذلك أن النبى ﷺ كان ببطن نخلة حاصراً لغطفان، فقال رجل منهم: هل لكم فى أن أقتل محمداً فأقتك به؟ قالوا: وددنا ذلك. فأتى النبيَّ ﷺ متقلداً سيفه، فوجد النبى ﷺ نازلاً تحت شجرة قد تفرق أُصحابه عنه، وقد علق سيفه فى الشجرة، فسله الأعرابى وقال: من يمنعك منى؟ وفى رواية: وجد النبى ﷺ نائماً فاستل السيف، فما استيقظ النبى إلا والسيف فى يد الأعرابى، فقال: من يمنعك منى يامحمد؟ فقال: «الله»، فأسقطه جبريل من يده، وأخذه النبى ﷺ فقال: «وأنت، من يمنعك منى؟» فقال: كن خير آخذ، فعفى عنه ـ عليه الصلاة السلام[١] ـ. زاد البيضاوى: أنه أسلم.

---

(١) أخرجه القصة: البخارى فى (الجهاد، باب من علق سيفه بالشجر) وفى مواضع أخرى، ومسلم فى (الفضائل، باب توكله ﷺ على الله) عن جابر رضي الله عنه.

وقيل نزلت في صلاة الخوف حين همَّ المشركون أن يُغيرُوا على المسلمين في الصلاة. فالله تعالى أعلم.

ثم قال تعالى: ﴿واتقوا الله﴾ فلا تشهدوا معه سواه، وتوكلوا عليه يكفكم أمر عدوكم، ﴿وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾ فإنه يكفيكم أمرهم جلباً ودفعاً، من توكل على الله كفاه.

الإشارة: ماجرى على النبي ﷺ من قصد القتل والإذاية يجرى على خواص ورثته، وهم الأولياء ـ رضي الله عنهم ـ والعلماء الأتقياء، فقد همَّ قوم بقتلهم وسجنهم وضربهم، وإجلائهم من أوطانهم، فكف الله أيديهم عنهم، وكفاهم شرهم، لمَّا صححوا التوكل عليه، وأخلصوا الوجهة إليه، ومنهم من لحقه شيء من ذلك، كما لحق بعض الأنبياء ـ عليهم السلام ـ زيادة في شرفهم وكرامتهم، جمع الله لهم بين مقام الشهادة والصديقية، ﴿والله ذو الفضل العظيم﴾.

ثم ذكر وبال من نقض العهد ترهيبا وترغيبا، فقال:

﴿ ۞ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًاۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةًۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾ ﴾

قلت: النقيب: هو كبير القوم والمقدَّم عليهم، ينقب عن أحوالهم ويفتش عليها. والخائنة: إما مصدر؛ كالعاقبة واللاغية، أو اسم فاعل، والتاء للمبالغة، مثل: راوية ونسَّابة وعلاَّمة.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل﴾ على أن يجاهدوا مع موسى ـ عليه السلام ـ وينصروه، ويلتزموا أحكام التوراة، ﴿وبعثنا منهم اثني عشر نقيبا﴾ اخترناهم وقدمناهم، على كل سبط نقيباً ينقب عن أحوال قومه، ويقوم بأمرهم، ويتكفل بهم فيما أمروا به.

رُوي أن بني إسرائيل لمَّا خرجوا عن فرعون، واستقروا بأوائل الشام، أمرهم الله تعالى بالمسير إلى بيت المقدس، وهي في الأرض المقدسة، وكان يسكنها الجبابرة الكنعانيون، وقال: إني كتبتها لكم داراً وقراراً، فاخرجوا إليها، وجاهدوا مَنْ فيها من العدو، فإني ناصركم. وقال لموسى عليه السلام: خذ من قومك اثني عشر نقيباً، من كل

سبط نقيباً، يكون أميناً وكفيلاً على قومه بالوفاء على ما أمروا به. فاختار موسى النقباء، فسار بهم حتى إذا دنوا من أرض كنعان، وهى أريحا، بعث هؤلاء النقباء يتجسسون الأخبار، ونهاهم أن يحدثوا قومهم بما يرون، فلما قربوا من الأرض المقدسة رأوا أجراماً عظاماً وبأساً شديداً، فهابوا ورجعوا وحدثوا قومهم، إلا كالب بن يوقنا ـ من سبط يهوذا ـ ويوشع بن نون ـ من سبط إفرائيم بن يوسف ـ ثم ﴿قالوا ياموسى إن فيها قوما جبارين﴾ إلى آخر ما يأتي من قصتهم. وأما ماذكره الثعلبي هنا، وغيره، من قصة عوج بن عناق، فقال القسطلاني: هي باطلة من وضع الزنادقة، فلا يجوز ذكرها في تفسير كتاب الله الصادق المصدوق.

﴿وقال الله﴾ لبني إسرائيل: ﴿إني معكم﴾ بالنصر والمعونة؛ ﴿لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برُسلى﴾ التي أُرسلت بعد موسى ﴿وعزرتموهم﴾ أي: نصرتموهم وقويتموهم، ﴿وأقرضتم الله قرضًا حسنا﴾ بالإنفاق في سبُل الخير، ﴿لأكفرن عنكم سيئاتكم﴾ أي: أستر عنكم ذنوبكم فلا تفضحكم بها، ﴿ولأدخلنكم جنات تجرى من تحتها الأنهار، فمن كفر بعد ذلك﴾ العهد المؤكد، المعلق عليه هذا الوعد العظيم، ﴿فقد ضل سواء السبيل﴾ أي: تلف عن وسط الطريق، تلفا لا شبهة فيه ولا عذر معه، بخلاف من كفر قبل أخذ العهد؛ فيمكن أن تكون له شبهة، ويتوهم له معذرة.

ثم إن بني إسرائيل نقضوا المواثيق التي أُخذت عليهم، فكفروا وقتلوا الأنبياء، قال تعالى: ﴿فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم﴾ أي: طردناهم وأبعدناهم، أو مسخناهم، ﴿وجعلنا قلوبهم قاسية﴾ أي: يابسة صلبة لا ينفع فيها الوعظ والتذكير، أو رديَّة مغشوشة بمرض الذنوب والكفر.

ثم بيَّن نتيجة قسوة قلوبهم فقال: ﴿يحرفون الكلم عن مواضعه﴾ لفظاً أو تأويلا. ولا قسوة أعظم من الجرأة على تغيير كتاب الله وتحريفه، ﴿ونسوا حظًا مما ذُكروا به﴾ أي: تركوا نصيباً واجباً مما ذُكروا به من التوراة. فلو عملوا بما ذكّرهم الله في التوارة مانقضوا العهود وحرّفوا كلام الله من بعد ماعلموه، لكن ريْن الذنوب والانهماك فى المعاصي، غطت قلوبهم فقست ويبست، ﴿ولاتزال﴾ يامحمد ﴿تطلع على خائنة﴾ أي: خيانة ﴿منهم﴾ أو على طائفة خائنة منهم، لأن الخيانة والغدر من عادتهم وعادة أسلافهم، فلا تزال ترى ذلك منهم ﴿إلا قليلاً منهم﴾ لم يخونوا، وهم الذين أسلموا منهم، ﴿فاعف عنهم واصفح﴾ حتى يأتيك أمر الله فيهم، أو إن تابوا وآمنوا، أو إن عاهدوا والتزموا الجزية، ﴿إنّ الله يحب المحسنين﴾ إلى عباده كيفما كانوا. ومن الإحسان إليهم: جبرهم على الإيمان بالسيف وسوقهم إلى الجنة بسلاسل الامتحان.

الإشارة: قد أخذ الله على هذه الأمة أن يلتزموا أحكام القرآن، ويحافظوا على مراسم الإسلام والإيمان، ويجاهدوا نفوسهم في تحصيل مقام الإحسان، ويحث من يقوم ببيان شرائع الإسلام والإيمان، ومن يعرف الطريق إلى مقام الإحسان، وقال الله لهم: (إني معكم) بالنصر والتأييد، لئن أقمتم شرائع الإسلام، وحققتم قواعد الإيمان، وعظمتم من يعرفكم بطريق الإحسان، لأغطين مساوئكم، ولأ محقن دعاويكم، فأوصلكم بما مني إليكم من الكرم

والجود، ولأدخلتكم جنة المعارف تجري من تحتها أنهار العلوم وأنواع الحِكَم، فمن لم يقم بهذا ، أو جحده فقد ضل عن طريق الرشاد، ومن نقض عهد الشيوخ العرفين بمقام الإحسان، فقد طرد وأبعد غاية الإبعاد، وقسا قلبه بعد اللين. وقد ذكرنا في تفسير الفاتحة الكبير معنى النقباء والنجباء وسائر مراتب الأولياء، وبالله التوفيق، وهو الهادي إلى سواء الطريق.

ولما ذكر نقض اليهود ذكر نقض النصارى، فقال:

﴿ وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَاوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَسَوۡفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: وأخذنا أيضا عهداً وميثاقاً من النصارى، الذين سموا أنفسهم نصارى؛ ادعاء لنصرة عيسى عليه السلام ولم يقوموا بواجب ذلك عملاً واعتقاداً، أخذناه عليهم بالتزام أحكام الإنجيل، وأن يؤمنوا بالله وحده لا شريك له، ولا صاحبة ولا ولد، وأن يؤمنوا بمحمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ إن أدركوه ويتبعوه، ﴿فنسوا حظاً مما ذُكروا به﴾ أي: نسوا ماذكرناهم به، وتركوا حظاً واجبا مما كلفوا به، ﴿فأغرينا﴾ أي: سلطنا ﴿بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة﴾، فهم يقتتلون في البر والبحر، ويتحاربون إلى يوم القيامة، فكل فرقة تلعن أختها وتكفرها، أو بينهم وبين اليهود، فالعداوة بينهم دائمة، ﴿وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون﴾ بالجزاء والعقاب.

الإشارة: يؤخذ من الآية أن من نقض العهد مع الله؛ بمخالفة ما أمره به أو نهاه عنه، أو مع أولياء الله، بالانتقاد عليهم وعدم موالاتهم، ألقى الله في قلب عباده العداوة والبغضاء له، فيبغضه الله، ويبغضه عبادُ الله، ومن أوفى بما أخذه الله عليه من العهد بوفاء ما كلفه به، واجتناب مانهاه عنه، وتودد إلى أوليائه، ألقى الله في قلب عباده المحبة والوداد، فيحبه الله، ويحبه عباد الله، وينعطف عليه أولياء الله، كما في الحديث: «إذا أحبَّ اللهُ عبداً نادى جبريلُ، إنَّ اللهَ يحبُّ فلاناً فأَحِبَّه، فيُحِبُّهُ جبريلُ. ثم يُنَادِي في الملائكة: إن اللهَ يُحِبُّ فُلاَنًا فأَحِبُّوه. فيُحِبُّه أهْلُ السَّمَاءِ، ثم يُلْقَى له القَبولَ في الأَرْضِ»(١) ... الحديث.

---

(١) أخرجه البخاري في (الأدب، باب المِقَةُ «المحبة» من الله) ومسلم في (البر والصلة، باب إذا أحب الله عبداً حببه إلى عباده) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ثم دعا أهل الكتابين إلى الإيمان برسوله ﷺ، فقال:

﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ١٥ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ١٦ ﴾

قلت: الضمير في: (به)، يعود إلى النور والكتاب، ووحّده؛ لأن المراد به شيء واحد، لأن النور هو الكتاب المبين، أو لأنهما جنس واحد.

يقول الحق جل جلاله: ﴿**يا أهل الكتاب**﴾ اليهود والنصارى ﴿**قد جاءكم رسولنا**﴾ محمد ﷺ ﴿**يبين لكم كثيرًا مما كنتم تُخفون من الكتاب**﴾ كصفة محمد ﷺ، وآية الرجم التي في التوراة، وكبشارة عيسى بأحمد التي في الإنجيل، ﴿**ويعفو عن كثير**﴾ مما تخفونه وتحرفونه، فلم يخبر به، ولم يفضحكم، حيث لم يؤمر به، أو عن كثير منكم، فلا يؤاخذه بجرمه وسوء أدبه معه.

﴿**قد جاءكم**﴾ يا أهل الكتاب ﴿**من الله نور وكتاب مبين**﴾، عطف تفسير، فالنور هو الكتاب المبين، أو النور: محمد - عليه الصلاة السلام - والكتاب المبين: القرآن؛ لأنه الكاشف لظلمات الشك والضلال، والواضح الإعجاز والبيان، ﴿**يهدي به الله من اتبع رضوانه**﴾ أي: من اتبع رضى الله بالإيمان به، والعمل بما فيه، ﴿**سُبل السلام**﴾ أي: طرق السلامة من العذاب، أو طرق الله الموصلة إليه، ﴿**ويخرجهم من الظلمات إلى النور**﴾ من ظلمات الكفر، إلى نور الإسلام ﴿**بإذنه**﴾ أي: بإرادته وتوفيقه، ﴿**ويهديهم إلى صراط مستقيم**﴾ أي: طريق توصلهم إليه لاعوج فيها.

الإشارة: قد أطلع الله علماء الباطن على مقامات علماء الظاهر وأحوالهم وجل مساوئهم، ولا سيما من كان عالماً بالظاهر ثم انتقل إلى علم الباطن، كالغزالي وابن عباد وغيرهما. فقد تكلم الغزالي في صدر الإحياء مع علماء الظاهر، ففضح كثيراً من مساوئهم. وكذلك ابن عباد في شرح الحكم، وعفوا عن كثير - فهم على قدم رسول الله ﷺ وخواص ورثته، لأنهم حازوا الوراثة كلها، كما في المباحث:

تَبِيعَةُ العَالِمِ في الأقْوَالِ والعَابِدِ الزَّاهِدِ في الأفْعَالِ
وفِيهِمَا الصُّوفِيُّ في السِّبَاقِ لكنَّه قَدْ زَادَ بالأخْلاقِ

فالولي نور من نور الله، وسر من أسراره، يُخرج به من سبقت له العناية من ظلمات الحجاب إلى نور الشهود، ويهدي به من اصطفاه لحضرته تعالى طريق الوصول إليه. وبالله التوفيق.

ثم ذكر مساوئ أهل الكتاب وضلالتهم، تحريضاً على قتالهم إن لم يسلموا أو يعطوا الجزية، فقال:

﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى الْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿**لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم**﴾، والقائل بهذه المقالة هي الطائفة اليعقوبية من النصارى، كما تقدم. وقيل: لم يصرح بهذه المقالة أحدٌ منهم. ولكن لزمهم حيث قالوا بأن اللاهوت حل في ناسوت عيسى ـ مع أنهم يقولون: الإله واحد، فلزمهم أن يكون هو المسيح، ولزمهم الاتحاد والحلول؛ فنسب إليهم لازم قولهم، توضيحاً لجهلهم، وتقبيحاً لمعتقدهم.

ثم رد عليهم بقوله: ﴿**قل فمن يملك من الله شيئاً**﴾ أي: من يمنع من قدرته وإرادته شيئاً، ﴿**إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن في الأرض جميعاً**﴾، وبيان الرد عليهم: أن المسيح مقدورٌ ومقهور، قابل للفناء كسائر الممكنات، ومن كان كذلك فهو معزول عن الألوهية. ثم أزال شبهتهم بحجة أخرى فقال: ﴿**ولله ملك السموات والأرض ومابينهما**﴾؛ يتصرف فيهما كيف شاء، ﴿**يخلق مايشاء، والله على كل شيء قدير**﴾؛ فقدرته عامة؛ فيخلق من غير أصل؛ كالسموات والأرض، ومن أصل؛ كخلق مابينهما، وينشئ من أصل ليس هو جنسه؛ كآدم وكثير من الحيوانات، ومن أصل يجانسه، إما من ذكر وحده؛ كحواء، أو من أنثى وحدها: كعيسى، أو منهما؛ كسائر الناس. قاله البيضاوي.

الإشارة: قد رُمي كثير من الأولياء المحققين بالاتحاد والحلول؛ كابن العربي الحاتمي، وابن الفارض، وابن سبعين، والششتري والحلاج، وغيرهم ـ رضي الله عنهم ـ وهم بُرءاء منه. وسبب ذلك أنهم لما خاضوا بحار التوحيد، وكُوشفوا بأسرار التفريد، أو أسرار المعاني قائمة بالأواني، سارية في كل شيء، ماحية لكل شيء، كما قال في الحِكَم: «الأكوان ثابتة بإثباته ممحوة بأحدية ذاته»، فأرادوا أن يعبروا عن تلك المعاني فضاقت عبارتهم عنها؛ لأنها خارجة عن مدارك العقول، لاتدرك بالسطور ولا بالنقول. وإنما هي أذواق ووجدان؛ فمن عبّر عنها

بعبارة اللسان كفّر وزندق، وهذه المعاني هي الخمرة الأزلية التي كانت خفية لطيفة، ثم ظهرت محاسنها، وأبدت أنوارها وأسرارها، وهي أسرار الذات وأنوار الصفات، فمن عرفها وكوشف بها. اتحد عنده الوجود، وأفضى إلى مقام الشهود. وهي منزهة عن الحلول والاتحاد، إذ لاثاني لها حتى تحل فيه أو تتحد معه، وقد أشرت إلى هذا المعنى في تائيتي الخمرية، حيث قلت:

تَنَزَّهَتْ عن حُكْمِ الحلولِ في وَصْفِها فليْسَ لها سِوَى في شَكْله حلّت
تَجلّتْ عَرُوساً في مَرَائي جَمَالِها وأرْخَتْ سُتُورَ الكِبْرِياء لعِزّتِي
فَمَا ظَاهِرٌ في الكَوْنِ غيرُ بهائها وما احْتَجَبَتْ إلا لَحْجب سَرِيرَتِي

فمن كوشف بأسرار هذه الخمرة، لم ير مع الحق سواه. كما قال بعضُ العارفين: (لو كُلفتُ أن أرى غيره لم أستطع؛ فإنه لاغير معه حتى أشهده). ولو أظهرها الله تعالى للكفار لوجدوا أنفسهم عابدة لله دون شيء سواه، وفي هذا المعنى يقول ابن الفارض على لسان الحقيقة:

فما قَصَدُوا غيْرَه وإن كان قَصْدُهُم سِوَايَ وإن لم يُظْهِروا عَقْدَ نِيّةِ

والنصارى ـ دمرهم الله في مقام الفرق والضلال ـ حملهم الجهل والتقليد الرديّ على مقالاتهم التي قالوا في عيسى عليه السلام.

ثم ذكر مقالة أخرى لليهود والنصارى، فقال:

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله﴾ أي: أولاد بنيه؛ فاليهود يقولون: نحن أولاد عزير، والنصارى يقولون: نحن أشياع عيسى. أو: فينا أبناء الله ونحن أحباؤه، أو: نحن مقربون عند الله كقرب الولد من والده. وهذه دعوى ردّها عليهم بقوله: ﴿قل﴾ لهم: ﴿فلِمَ يعذبكم بذنوبكم﴾، وهل رأيتم والداً يُعذب ابنه، وقد عذبكم في الدنيا بالمسخ والقتل والذل، وقد اعترفتم أنه يعذبكم بالنار أياماً معدودة، ﴿بل أنتم بشر ممن خلق﴾ أي: ممن خلقه الله، ﴿يغفر لمن يشاء﴾ بفضله؛ وهو من آمن منهم بالله ورسله، ﴿ويعذب من

يشاء﴾ بعدله؛ وهو من مات منهم على كفره، فأنتم كسائر البشر يعاملكم معاملتهم، لامزية لكم عليهم، ﴿ولله ملك السموات والأرض وما بينهما﴾ كلها سواء في كونها ملكا وعبيداً الله ـ سبحانه ـ ﴿وإليه المصير﴾، فيجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته، فلا فضل لأحد على أحد إلا بالتقى.

الإشارة: قوله تعالى: ﴿فلِمَ يعذبكم بذنوبكم﴾ أي: فلو كنتم أحباءه لما عذبكم؛ لأن الحبيب لا يعذب حبيبه، حُكى عن الشبلي رضي الله عنه أنه كان إذا لبس ثوباً جديداً مزقه، فأراد ابن مجاهد أن يعجزه بمحضر الوزير، فقال له: أين تجد في العلم فساد ما ينتفع به؟ فقال له الشبلي: أين في العلم: ﴿فطفق مسحًا بالسوق والأعناق﴾(١) ؟ فسكت، فقال له الشبلي: أنت مقرئ عند الناس، فأين في القرآن: إن الحبيب لا يعذب حبيبه؟ فسكت ابن مجاهد، ثم قال: قل يا أبا بكر، فقرأ له الشبلي قوله تعالى ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم﴾ ، فقال ابن مجاهد: كأني والله ماسمعتها قط. هـ.

وفي الحديث : «إذا أَحبَّ اللهُ عبْداً لاَ يضُرُّه ذَنْبٌ» ، ذكره في القوت. وفي المثل الشائع: (من سبقت له العناية لاتضره الجناية) . وفي الصحيح: «لعلَّ اللهَ اطَّلَعَ علَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ: افْعَلُوا مَاشِئْتمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ»(٢)، وسببه معلوم، وفي القوت عن زيد بن أسلم: (إن الله ـ عز وجل ـ ليحب العبد حتى يبلغ من حبه له أن يقول له: اصنع ماشئت فقد غفرت لك) . وفي القصد للشيخ أبي الحسن الشاذلي ـ رضي الله عنه ـ قال: يبلغ الولي مبلغاً يقال له: أصحبناك السلامة، وأسقطنا عنك الملامة، فاصنع ماشئت. هـ.

وليس معناه إباحة الذنوب، ولكنه لما أحبه عصمه أو حفظه، وإذا قضي عليه بشيء ألهمه التوبة، وهي ماحية للذنوب، وصاحبها محبوب، قال تعالى: ﴿إن الله يحب التوابين﴾ . والله تعالى أعلم.

ثم دعاهم إلى اتباع رسوله ـ عليه الصلاة والسلام، فقال:

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾ ﴾

قلت : جملة (يُبين) : حال، أي: جاءكم رسولنا مبيناً لكم، و(على فترة) : متعلق بجاء، أي: جاءكم على حين فترة وانقطاع من الوحي، و (أن تقولوا) : مفعول من أجله، أي: كراهية أن تقولوا.

يقول الحق جل جلاله : ﴿يأهل الكتاب﴾؛ اليهود والنصارى ﴿قد جاءكم رسولنا﴾ محمد ﷺ ﴿يُبين لكم﴾ ما اختلفتم فيه، أو ما كتمتم من أوامر الدين، أو مطلق البيان. جاءكم ﴿على﴾ حين ﴿فترة من الرسل﴾

(١) من الآية ٣٣ من سورة (ص).
(٢) حديث صحيح أخرجه البخاري في (المغازي ـ باب فضل من شهد بدراً) ومسلم في (فضائل الصحابة، باب من فضائل أهل بدر) عن سيدنا علي رضي الله عنه.

وانقطاع من الوحي، أرسلناه كراهية ﴿أن تقولوا﴾ يوم القيامة: ﴿ماجاءنا من بشير ولا نذير﴾، فتعتذروا بذلك، ﴿فقد جاءكم بشير ونذير﴾ فلا عذر لكم، ﴿والله على كل شيء قدير﴾ فيقدر على الإرسال من غير فترة، كما في أنبياء بني إسرائيل؛ فقد كان بين موسى وعيسى ألف نبي، وبينهما ألف وسبعمائة سنة، وعلى الإرسال على الفترة؛ كما بين عيسى ومحمد ﷺ. كان بينهما ستمائة سنة، أو خمسمائة سنة وتسع وستون سنة. قاله البيضاوي.

والذي في الصحيح: أن الفترة ستمائة سنة[1]، وفي الصحيح أيضاً عنه ـ عليه الصلاة السلام ـ: «أنا أولى الناس بعيسى في الأولى والآخرة وليس بيننا نبي»[2]. وهو يرد ماحكاه الزمخشري وغيره: أن بينهما أربعة أنبياء: ثلاثة من بني إسرائيل وواحد من العرب، وهو خالد بن سنان العبسي؛ لأن النكرة في سياق النفي تعم. قاله المحشي.

الإشارة: ظهور أهل التربية بعد زمان الفترة، وخمود أنوار الطريقة وأسرار الحقيقة، حجة على العباد، ونعمة كبيرة على أهل العشق والوداد، من أنتكب عنهم لقي الله بقلب سقيم، وقامت بهم الحجة عليهم عند الملك الكريم، ومن اتبعهم وحط رأسه لهم فاز بالخير الجسيم، والنعيم المقيم، حيث لقي الله بقلب سليم، وقد ظهروا في زماننا هذا بعد اندراس أنوار الطريقة، وخمود أسرار الحقيقة، فجدد الله بهم الطريقة، وأحيا بهم أسرار الحقيقة، منهم شيخنا أبو المواهب صاحب العلوم اللدنية والأسرار الربانية، البحر الفياض، سيدي محمد بن أحمد البوزيدي الحسني، وشيخه القطب الواضح، والجبل الراسخ، شيخ المشايخ، مولاي العربي الدرقاوي الحسني، أطال الله بركاتهما للأنام، فقد تخرج على أيديهما الجم الغفير من الأولياء. وليس الخبر كالعيان. وبالله التوفيق.

ثم ذكّرهم بالنعم على لسان نبيه موسى ـ عليه السلام ـ فقال:

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿و﴾ اذكر ﴿إذ قال موسى لقومه﴾: يابني إسرائيل ﴿اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء﴾ يسوسونكم، كلما مات نبي خلفه نبي، فقد شرفكم بهم دون غيركم، إذ لم يبعث في أمة مابعث في بني إسرائيل من الأنبياء، ﴿وجعلكم ملوكًا﴾ أي: جعل منكم ملوكًا، وقد تكاثر فيهم الملوك تكاثر الأنبياء، فكان كل نبي معه ملك ينفذ أحكامه، فكانت دار النبوة ودار المملكة معلومة، يخلف بعضهم بعضاً في النبوة والمُلك، استمر ذلك لهم، حتى قتلوا يحيى، وهموا بقتل عيسى، فنزع الله منهم الملك، وأنزل عليهم الذل والهوان.

وقيل: لمّا كانوا مملوكين في أيدي القبط، فأنقذهم الله وجعلهم مالكين لأنفسهم، سماهم ملوكا.

(١) جاء ذلك فيما أخرجه البخاري في (مناقب الأنصار ـ باب إسلام سلمان الفارسي رضي الله عنه) عن سلمان قال: (فترة بين عيسى ومحمد صلى الله عليهما ستمائة سنة).

(٢) أخرجه البخاري في (كتاب الأنبياء، باب: واذكر في الكتاب مريم) ومسلم في (الفضائل، باب فضائل عيسى عليه السلام) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿وآتاكم مالم يُؤت أحدًا من العالمين﴾ من فلق البحر، وتظليل الغمام، وإنزال المن والسلوى، ونحوها، أو المراد عالمي زمانهم، وعن أبي سعيد الخدري قال النبي ﷺ: «كَانَ بنو إسْرَائيل إذا كَانَ لأحَدِهم خَادِمٌ وامْرأة يُكْتَب ملَكاً»(١). وقال ابن عباس: (من كان له بيت وخادم وامرأة فهو ملك)، وعن أبي الدرداء قال: قال النبي ﷺ: «مَنْ أصبح مُعَافىً في بدَنِه، آمناً في سِرْبِه، عندَه قُوتُ يَوْمِه، فكأنما حِيزَتْ له الدنيا بحذافيرها، يكفيك منها، يابْنَ آدم، ماسدَّ جوعتَك، ووارَ عَوْرَتَك، فإن كان بيتٌ يُوارِيك فذاك، وإن كانت دابة فبخ بخ، فلق الخبز، وماء الجر(٢) وما فَوْق الإزار حِسَابٌ عليك»(٣).

وقال الضحاك: (كانت منازلهم واسعة، فيها مياه جارية، فمن كان مسكنه واسعاً وفيه ماء جارٍ، فهو ملك). وقال قتادة: كانوا أول من ملك الخدم، وأول من سخر لهم الخدم من بني آدم. هـ.

الإشارة: كل من رزقه الله من يأخذ بيده ومن يستعين به على ذكر ربه، فليذكر نعمة الله عليه، فقد أسبغ الله عليه نعمه ظاهرة وباطنة. وكل من ملك نفسه وهواه، وأغناه الله عما سواه، فهو ملك من الملوك. وكل من خرجت فكرته عن دائرة الأكوان، واتصل بفضاء الشهود والعيان، فقد آتاه الله ما لم يؤت أحداً من العالمين. وقد كُنتُ ذات يوم جالسًا في الجامع الأعظم من مدينة تطوان، فانتبهت فإذا مصحف إلى جنبي، فقال لي الهاتف: انظر تجد مقامك، فأعرضت عنه، فأعاد عليَّ الهاتف ثلاث مرات، فرفعته، ونظرت، فإذا في أول الورقة: ﴿وآتاكم مالم يؤت أحدا من العالمين﴾، فحمدت الله تعالى وأثنيت عليه.

ثم أمرهم بجهاد عدوهم، فقال:

﴿ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا

(١) عزاه السيوطي في الدر المنثور لابن أبي حاتم، عن أبي سعيد الخدري.
(٢) الجرُّ والجرار: جمع جرَّة: وهو الإناء المعروف من الفخار.
(٣) أخرجه إلى قوله: (حيزت له الدنيا) البخاري في الأدب المفرد (باب من أصبح آمناً في سربه) والترمذي في (الزهد باب ٣٤) وابن ماجه في (الزهد، باب القناعة)

قَاعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِيۖ فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيۡهِمۡۛ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗۛ يَتِيهُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾

قلت : (فتنقلبوا) : منصوب بأن في جواب النهي، أو عطف على المجزوم، و (ما داموا): بدل من (أبدا) ؛ بدل بعض، و (أخي) يحتمل النصب عطف على (نفسي)، أو رفع عطف على (أن) مع اسمها، أو مبتدأ حُذف خبره، أو جر عطف على ياء المضاف ، على مذهب الكوفيين.

يقول الحق جل جلاله حاكياً عن موسى ـ عليه السلام ـ: ﴿ياقوم ادخلوا الأرض المقدسة﴾ ؛ أرض بيت المقدس، قدسها الله، حيث جعلها قرار أنبيائه ومسكن المؤمنين. وفي مدحها أحاديث كثيرة. وقيل: الطور وماحوله، أو دمشق وفلسطين، أو الشام، ﴿التي كتب الله لكم﴾ أي: التي كتب الله في اللوح المحفوظ، أنها لكم مسكنًا إن جاهدتم وأطعتم نبيكم، ﴿ولاترتدوا على أدباركم﴾ أي: لاترجعوا مدبرين هاربين خوفًا من الجبابرة، أو: لا ترتدوا عن دينكم بالعصيان، وعدم الوثوق بالله، ﴿فتنقلبوا خاسرين﴾ الدنيا والآخرة. رُوي أنهم لما سمعوا حالهم من النقباء بكوا، وقالوا : ليتنا متنا بمصر، تعالوا نجعل علينا رأساً ينصرف بنا إلى مصر، ثم ﴿قالوا ياموسى إن فيها قوما جبارين﴾ أقوياء متغالبين، لا طاقة لنا بمقاومتهم، وهم قوم من العمالقة، من بقية قوم عاد، ﴿وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها﴾ بأمر سماوي، أو يُسلط عليهم من يخرجهم من غيرنا، ﴿فإن يخرجوا منها فإنا داخلون﴾ فيها.

﴿قال رجلان﴾ ؛ كالب بن يوفنّا، ويوشع بن نون ـ ابن اخت موسى وخادمه ـ ﴿من الذين يخافون﴾ الله، أو رجلان من الجبابرة أسلما وصارا إلى موسى، وعليه قراءة ﴿يُخافان﴾ بضم الياء، ﴿أنعم الله عليهما﴾ بالإسلام والتثبيت، قالا: ﴿ادخلوا عليهم الباب﴾ أي: باب المدينة، أي: باغتوهم بالقتال، ﴿فإذا دخلتموه فإنكم غالبون﴾ أي: ظاهرون عليهم، فإنهم أجسام لا قلوب فيها. يحتمل أن يكون علمهما بذلك من قِبل موسى، أو من قوله تعالى: ﴿التي كتب الله لكم﴾، أو من عادته سبحانه في نصر رسله وأوليائه، وماعهدا من صنيعه تعالى مع موسى من قهر أعدائه. ثم قال: ﴿وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين﴾ به، ومصدقين لوعده.

﴿قالوا ياموسى إنا لن ندخلها أبداً ماداموا فيها﴾ ، وهذا من تعنتهم وعصيانهم، وأشنع منه قولهم: ﴿فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون﴾، قالوه استهزاء بالله ورسوله وعدم مبالاة بهما، وانظر فضيلة الأمة

المحمدية، وكمال أدبها مع نبيها ـ عليه الصلاة والسلام ـ فإن النبي ﷺ قال يوم الحديبية لأصحابه حين صُدَّ عن البيت: إني ذاهب بالهدْي فناحِرُه عند البيت، فقال المقداد بن الأسود: أما والله ما نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون﴾، ولكن نقاتل عن يمينك وشمالك، ومن بين يديك ومن خلفك، ولو خضت البحر لخضناه معك، ولو تسنمت جبلا لعلوناه معك، ولو ذهبت بنا إلى برْك الغماد لتبعناك، فلما سمعها أصحاب النبي ﷺ تابعوه على ذلك، فسُرَّ ﷺ بذلك وأشرق وجهه[1]. هـ.

ولما سمع موسى عليه السلام مقالة قومه له غضب، ودعا ربه فقال: ﴿رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي﴾ أي: لا أثق إلا بنفسي وأخي، ولا قدرة لي على غيرهما، والرجلان المذكوران، وإن كانا موافقين له، لكنه لم يوثق عليهما، لما كبد من تلوّن قومه، ثم دعا عليهم فقال: ﴿فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين﴾ أي: احكم بيننا وبينهم بما يستحق كل واحد منا ومنهم، أو بالتبعيد بيننا وبينهم، وتخليصنا من صحبتهم.

رُوِي أنه لما دعا عليهم ظهر فوقهم الغمام، وأوحى الله إليه: ياموسى إلى متى يعصي هذا الشعب؟ لأُهلكنهم جميعا، فشفع فيهم موسى عليه السلام فقال الله تعالى له: قد غفرت لهم بشفاعتك، ولكن بعد ماسميتهم فاسقين، ودعوت عليهم، بي حلفت لأحرمنَّ عليهم دخول الأرض المقدسة، وذلك قوله تعالى: ﴿قال فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض﴾ يحتمل أن يكون «أربعين» متعلقاً بمحرمة، فيكون التحريم عليهم مؤقتا غير مؤبد فيوافق ظاهر قوله: ﴿التي كتب الله لكم﴾.

ويؤيد هذا ماروى أن موسى ـ عليه السلام ـ لما خرج من التيه، سار بمن بقي معه من بني إسرائيل، ويوشع على مقدمته، ففتح بيت المقدس، فبقي فيها ماشاء الله، ثم قبض. ويحتمل أن يكون «أربعين» متعلقاً بـ (يتيهون)، فيكون التحريم مؤبداً، وعلى هذا لم يبق أحد ممن دخل التيه إلا يوشع وكالب، ولم يدخل الأرض المقدسة أحد ممن قال له: (اذهب أنت وربك...)، بل كلهم هلكوا في التيه، وإنما دخلها أشياعهم.

رُوِي أن موسى عليه السلام لما حضره الموت في التيه أخبرهم بأن يوشع بعده نبي، وأن الله أمره بقتال الجبابرة، فسار بهم يوشع، وقاتل الجبابرة، وكان القتال يوم الجمعة، فبقيت منهم بقية، وكادت الشمس أن تغرب ليلة السبت، فخشي أن يعجزوه، فقال: اللهم اردد الشمس عليَّ، وقال للشمس: إنك في طاعة الله وأنا في طاعته، فوقفت مثل يوم حتى قتلهم، ثم قتل ملوك الأرمانيين، وقتل من ملوك الشام أحداً وثلاثين ملكاً، فصارت الشام كلها لبني إسرائيل، وفرّق عماله في نواحيها، وبقيت بنو إسرائيل في التيه أربعين سنة يتيهون في الأرض في ستة فراسخ، بين فلسطين وأيلة، متحيرين، يسيرون من الصباح إلى المساء جادين في السير، فإذا هم بحيث ارتحلوا عنه، ثم

---

(١) المشهور أن قول المقداد كان يوم بدر. وقال العلامة ابن كثير: وهذا ـ إن كان محفوظاً يوم الحديبية ـ فيحتمل أنه كرر هذه المقالة يومئذ، كما قاله يوم بدر. انظر: تفسير ابن كثير.

يسيرون بالليل كذلك فيصبحون حيث ارتحلوا، وكان الغمام يظلهم من الشمس وعمود من نور يطلع بالليل فيضيء لهم، وكان طعامهم المن والسلوى، وماؤهم من الحجر الذي يحمله موسى، واختلف في الكسوة، فقيل: أبقى الله كسوتهم معجزة لموسى، وقيل: كساهم مثل الظفر. والأكثر أن موسى وهارون كانا معهم زيادة في درجاتهما، وكان عقوبة لقومهما وأنهما ماتا فيه، مات هارون أولاً ودفنه أخوه في كهف، وقيل: رُفع على سرير في قبة، ثم مات موسى ـ عليه السلام ـ ودفن بقرب من الأرض المقدسة، رمية بحجر، كما في الحديث، ثم دخل يوشع الأرض المقدسة بعد ثلاثة أشهر. والله تعالى أعلم.

ثم قال تعالى لموسى ﷺ: ﴿فلا تأس﴾ أي: لاتحزن، ﴿على القوم الفاسقين﴾، خاطبه الحق تعالى بذلك لمَّا ندم على الدعاء عليهم، فقال له: إنهم أحق بذلك لفسقهم وعصيانهم.

الإشارة: يقول الحق جل جلاله للمتوجهين إليه من المريدين: ادخلوا الحضرة المقدسة التي كتب الله لكم، إن دمتم على جهاد أنفسكم، وصدقتم في طلب ربكم، وبقيتم في قربة شيوخكم، ولا ترتدوا على أدباركم بالرجوع عن صحبة شيوخكم من الملل مع طول الأمل، فتنقلبوا خاسرين، فإن حضرتي محفوفة بالمكاره، والطريقة الموصلة إليها مرصودة للقواطع والعوائق، فإن كان ممن لم يكتب له فيها نصيب، قال: لن ندخلها أبداً مادام القواطع فيها، ورجع على عقبيه، يتيه في مهامه شكوكه وأوهامه، وإن كان ممن سبقت له العناية وحفت به الرعاية قال: ﴿ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون، وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين﴾، فيبادر إلى قتل نفسه، من غير تأن ولا خوف ولا فزع، فحضرة التحقيق لا ينالها إلا الشجعان، ولا يسكنها إلا الأكابر من أهل العرفان، وإلى ذلك أشار صاحب العينية بقوله:

وإيَّاك جَزْعَاً لا يَهُولُكَ أَمْرُهَا فَمَا نَالَهَا إلا الشُّجَاعُ المُقَارِعُ

وقال الورتجبي في قوله تعالى: ﴿لا أملك إلا نفسي وأخي﴾ : من بلغ عين التمكين ملك نفسه وملك نفوس المريدين؛ لأنه عرفها بمعرفة الله، وقمعها من الله بسلطان سائس قاهر، من نظر إليه يفزع من الله، لا يطيق عصيانه ظاهراً وباطناً، فأخبر ﷺ عن محلّ تمكينه وقدرته على نفسه ونفس أخيه، وأعلمنا أن بينهما اتحاداً، بحيث إنه إذا حكم على نفسه صار(١) نفس أخيه مطمئنة طائعة لله بالانفعال. قال ﷺ: «المؤمنون كنفس واحدة»(٢). هـ.

ثم تكلم الحق جل جلاله على بقية حفظ الأبدان، فبيَّن أول مَنْ سَنَّ القتل ووبال من تَبِعه، فقال:

---

(١) هكذا في الأصول وكذا في تفسير الورتجبي، وأرى أنها (صارت).
(٢) أخرجه مسلم في (البر والصلة، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم) عن النعمان بن بشير، بلفظ: (المؤمنون كرجل واحد..).

﴿ ۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَيْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾

قلت : الضمير في (عليهم) : لبني إسرائيل؛ لتقدم شأنهم، ولاختصاصهم بعلم قصة ابني آدم، ولإقامة الحجة عليهم بهمهم ببسط اليد إلى النبي ﷺ.

يقول الحق جل جلاله : ﴿واتل عليهم﴾ أي: على بني إسرائيل؛ إذ الكلام كان معهم، أو على جميع الأمة، أو على جميع الناس، إذ هو أول الكلام على بقية حفظ الأبدان ـ ﴿نبأ ابني آدم﴾ وهو قابيل وهابيل ﴿بالحق﴾ أي: تلاوة ملتبسة بالحق، أو نبأ ملتبساً بالحق موافقاً لما في كتب الأوائل.

﴿إذ قربا قرباناً فتُقبل من أحدهما﴾ وهو هابيل، ﴿ولم يُتقبل من الآخر﴾ وهو قابيل، وسبب تقريبهما القربان أن آدم ـ عليه السلام ـ كان يُولد له من حواء توأمان في كل بطن: غلام وجارية، إلا شيثاً، فإنه ولد منفرداً، وكان جميع ماولدته حواء أربعين، بين ذكر وأنثى، في عشرين بطناً، أولهم قابيل، وتوأمته أقليما، وآخرهم عبد المغيث، ثم بارك الله في نسل آدم. قال ابن عباس: لم يمت آدم حتى بلغ ولده، وولد ولده، أربعين ألفا، ورأى فيهم الزنا وشُرب الخمر والفساد، وكان غشيان آدم لحواء بعد مهبطهما إلى الأرض، وقال ابن اسحاق عن بعض العلماء بالكتاب الأول: إن آدم كان يغشى حواء في الجنة، قبل أن يصيب الخطيئة، فحملت في الجنة بقابيل وتوأمته، ولم تجد عليهما وحمًا ولا غيره، وحملت في الأرض بهابيل وتوأمته، فوجدت عليهما الوحم والوصب والطلق والدم.

وكان آدم إذا كبر ولده يزوج غلام هذا البطن بجارية بطن آخر، فكان الرجل يتزوج أيّ أخواته شاء إلا توأمَته، لأنه لم يكن نساء يومئذ، فأمر الله تعالى آدم أن يزوج قابيل لَوْذَاء توأمة هابيل، وينكح هابيل أقليما أخت قابيل، وكانت أحسن الناس، فرضي هابيل وسخط قابيل، وقال: أختي أحسن، وهي من ولادة الجنة، وأنا أحق بها، فقال له أبوه: لا تحل لك، فأبى، فقال لهما آدم: قربا قرباناً، فأيكما قُبل قربانه فهو أحق بها.

وكان قابيل صاحب زرع، فقرّب حملاً من زرع رديء، وأضمر في نفسه: لا أبالي قُبل أو لا، لا يتزوج أختي أبداً، وكان هابيل صاحب غنم، فقرّب أحسن كبش عنده، وأضمر في نفسه الرضا لله تعالى، وكانت العادة حينئذ

أن تنزل نارٌ من السماء فتأكل القربان المقبول، وإن لم يقبل لم تنزل، فنزلت نار من السماء فأكلت قربان هابيل، وتركت قربان قابيل، فحسده، وقال له: ﴿ لأقتلنك ﴾، حسداً على تقبل قربانه دونه، فقال له أخوه: ﴿إنما يتقبل الله من المتقين﴾ الكفر، أي: إنما أُوتيت من قبل نفسك بترك التقوى، لا من قِبلي، فلِمَ تقتلني؟

قال البيضاوي: وفيه إشارة إلى أن الحاسد ينبغي أن يرى حرمانه من تقصيره، ويجتهد في تحصيل مابه صار المحسود محظوظاً، لا في إزالة حظه، فإن ذلك مما يضره ولا ينفعه، وأن الطاعة لا تقبل إلا من مؤمن متقي. هـ. وفيه نظر: فإن تقوى المعاصي ليست شرطاً في قبول الأعمال بإجماع أهل السنة، إلا أن يحمل على تقوى الرياء والعجب. انظر الحاشية.

ثم قال له أخوه هابيل: ﴿لئن بسطتَ إليَّ يدك لتقتلني ما أنا بباسطٍ يدِيَ إليك لأقتلك إني أخاف الله رب العالمين﴾ أي: لئن بدأتني بالقتل لم أبدأك به، أو لم أدفعك عني، وهل تركه للدفع تورع، وهو الظاهر، أو كان واجباً عندهم، وهو قول مجاهد؟ وأما في شرعنا: فيجوز الدفع، بل يجب، قاله ابن جزي. وقال البيضاوي: قيل: كان هابيل أقوى منه، فتحرج عن قتله، واستسلم له خوفاً من الله، لأن الدفع لم يبح بعدُ، أو تحرياً لِمَا هو الأفضل. قال ﷺ: «كُنْ عبدَ الله المقْتول، ولا تكُن عبدَ الله القاتل»(١). وإنما قال: (ماأنا بباسط) في جواب (لئن بسطت)؛ للتبري من هذا الفعل الشنيع، والتحرز من أن يوصف به، ولذلك أكد النفي بالباء. هـ.

ثم قال له هابيل: ﴿إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك فتكون من أصحاب النار﴾ أي: إني أريد بالاستسلام وعدم الدفع أن تنقلب إلى الله ملتبسا بإثمي، أي: حاملاً لإثمي لو بسطت إليك يدي، وإثمك ببسطك يديك إليَّ، ونحوه قوله ﷺ: «المُسْتَبَّان ماقالا فعلَى البادئ منهما مالَمْ يَعْتَدِ المَظْلُوم»(٢). أو بإثم قتلي وبإثمك الذي لم يتقبل من أجله قربانك، أو بسائر ذنوبي فتحملها عني بسبب قتلك لي؛ فإن الظالم يجعل عليه يوم القيامة ذنوب المظلوم ثم يطرح في النار، ولذلك قال: ﴿وذلك جزاء الظالمين﴾، يحتمل أن يكون من كلام هابيل، أو استئناف من كلام الله تعالى، أي: جزاؤهم يوم القيامة أن يحملوا أوزار المظلومين، ثم يطرحون في النار، كما في حديث المفلس.

ولم يرد هابيل بقوله: ﴿ إني أريد ﴾، أنه يُحب معصية أخيه وشقاوته، بل قصد بذلك الكلام أنه إن كان القتل لامحالة واقعاً فأريد أن يكون لك لا لي، والمقصود بالذات: ألا يكون له، لا أن يكون لأخيه. ويجوز أن يكون المراد بالإثم عقوبته. وإرادة عقاب العاصي جائزة. قاله البيضاوي.

﴿فطوعت له نفسه قتل أخيه﴾ أي: سهلت له ووسعته ولم تضق منه، أو طاوعته عليه وزينته له، ﴿فقَتله فأصبح من الخاسرين﴾ ديناً ودنيا، فبقي مدة عمره مطروداً محزوناً. قال السدي: لما قصد قابيلُ قتل هابيل،

---

(١) أخرجه بنحوه أحمد في المسند (٥/ ١١٠) من حديث خباب بن الأرت.
(٢) أخرجه مسلم في (البر والصلة، باب النهي عن السباب) عن أبي هريرة رضي الله عنه، ومعنى الحديث: أن إثم السباب الواقع من اثنين مختص بالبادئ منهما كله، إلا أن يتجاوز الثاني قدر الانتصار فيقول للبادئ أكثر مما قاله له.

راغ هابيل في رؤوس الجبال، ثم أتاه يومًا من الأيام، فوجده نائماً فشدخ رأسه بصخرة فمات، وقال ابن جريج: لم يدر قابيل كيف يقتل هابيل؟ فتمثل له إبليس، وأخذ طيراً فوضع رأسه على حجر، ثم شدخه بحجر آخر، وقابيل ينظر، فعلمه القتل، فوضع رأس أخيه على حجر وشدخه بحجر آخر. وكان لهابيل يوم قتل عشرون سنة، وقبره قيل: عند عقبة حراء، وقال ابن عباس: عند ثور، وقال جعفر الصادق: بالبصرة، في موضع المسجد الأعظم.

الإشارة: قد تضمنت هذه الآية من طريق الإشارة ثلاث خصال، يجب التحقق بها على كل مؤمن متوجه إلى الله تعالى: أولها: التطهير من رذيلة الحسد، الذي هو أول معصية ظهرت في السماء والأرض، وقد تقدم الكلام عليه في النساء[1]، الثانية: التطهير من الشرك الجلي والخفي، والتغلغل في التبري من الذنوب التي توجب عدم قبول الأعمال، ويتحصل ذلك بتحقيق الإخلاص، والثالثة: عدم الانتصار للنفس والدفع عنها إلا فيما وجب شرعاً، فقد قالوا: (الصوفي دمه هدر، وماله مباح)؛ فلا ينتصر لنفسه ولو بالدعاء، فإما أن يسكت، أو يدعو لظالمه بالرحمة والهداية، حتى يأخذ الله بيده اقتداء برسوله ﷺ، حيث قال: «اللهم اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ».

ولمّا قتل قابيل أخاه، لم يدر ما يفعل به؛ لأنه أول من مات من بني آدم، فعلمه الله كيفية دفنه، فقال:

﴿ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبۡحَثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُرِيَهُۥ كَيۡفَ يُوَٰرِي سَوۡءَةَ أَخِيهِۚ قَالَ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِيۖ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾ ﴾

قلت: (ليريه) أي: يعلمه، وضمير الفاعل يعود على «الله» أو الغراب، و (كيف): حال من الضمير في (يُوارى) والجملة مفعول ثان ليرى، أي: ليعلمه الله، أو الغراب، كيفية مواراة أخيه، و (ياويلتا): كلمة جزع وتحسّر، والألف فيها بدل من ياء المتكلم، كيا حسرتا ويا أسفا، و«أصبح» هنا بمعنى صار.

يقول الحق جل جلاله: ﴿فبعث الله غراباً يبحث في الأرض﴾ أي: يحفر فيها، ﴿ليريه﴾ أي: الله، أو الغراب، ﴿كيف يُواري﴾ أي: يستر ﴿سوءة أخيه﴾ أي: جسده؛ لأنه مما يستقبح أن يرى، وخصت بالذكر لأنها أحق بالستر من سائر الجسد، فعلّم اللهُ قابيلَ كيف يصنع بأخيه؛ لأنه لم يدر ما يصنع به، إذ هو أول ميت مات من بني آدم، فتحير في أمره، فبعث الله غرابين فاقتتلا، فقتل أحدهما الآخر، فحفر له بمنقاره ورجليه، ثم ألقاه في الحفرة وغطاه بالتراب.

قال قابيل لما رأى ذلك: ﴿ياويلتا أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سوءة أخي﴾ فأهتدى إلى ما اهتدى إليه، فحفر لأخيه ودفنه ﴿فأصبح من النادمين﴾ على قتله؛ لما كابد فيه من التحير في أمره، وحمْلِه على رقبته سنة أو أكثر، وتلمذة الغراب له، واسوداد لونه، وتبري أبويه منه، إذ روى أنه لما قتله اسود وجهه،

(١) عند إشارة الآية ٥٤.

فسأله آدم عن أخيه، فقال: ماكنتُ عليه وكيلا. فقال: بل قتلته؛ فلذلك اسود جسدك، وتبرأ منه، ومكث بعد ذلك مائة سنة لم يضحك، وعدم الظفر بما فعله من أجله. قاله البيضاوى، فانظره مع ما سيأتى عن الثعلبى.

واختلف فى كفره؛ فقال ابن عطية: الظاهر أنه لم يكن قابيل كافرا، وإنما كان مؤمناً عاصيا، ولو كان كافراً ماتحرج أخوه من قتله، إذ لا يتحرج من قتل كافر؛ لأن المؤمن يأبى أن يقتل موحداً، ويرضى بأن يُظْلَمَ ليجازى فى الآخرة. ونحو هذا فعل عثمان رضي الله عنه لما قصد أهل مصر قتله مع عبد الرحمن بن أبى بكر، لشبهةٍ، وكانوا أربعة آلاف، فأراد أهل المدينة أن يدفعوا عنه، فأبى واستسلم لأمر الله. قال عياض: منعه من الدفع إعلام رسول الله ﷺ بأن ذلك سَبَقَ به القدر. حيث بشره بالجنة على بلوى تصيبه، كما فى البخارى[١]، ونقل عن بعض أهل التاريخ: أن شيثاً سار إلى أخيه قابيل، فقاتله بوصية أبيه له بذلك، متقلدا بسيف أبيه. وهو أول من تقلد بالسيف، فأخذ أخاه أسيراً وسلسله، ولم يزل كذلك حتى قبض كافرا. هـ.

قلت: ولعل تحرّج أخيه من قتله؛ لأنه حين قصد قتله لم يُظهر كفره، وظهر بعد ذلك، فلذلك قاتله أخوه شيث بعد ذلك وأسره، وذكر الثعلبى: أن قابيل لما طرده أبوه، أخذ بيد أخته أقليما، فهرب بها إلى أرض اليمن، فأتاه إبليس فقال له: إنما أكلت النار قربان هابيل، لأنه كان يخدم النار ويعبدها، فانصب أنت أيضا ناراً تكون لك ولعقبك، فبنى بيت نار، وهو أول من عبد النار. هـ. فهذا صريح فى كفره. والله تعالى أعلم.

الإشارة: إذا كان الحق جل جلاله يدل العصاة من عباده إذا تحيروا على مايزيل حيرتهم، فكيف لا يدل الطائعين إذا تحيروا على مايزيل شبهتهم، إذا فزعوا إليه والتجأوا إلى حماه؟! فكل من وقع فى حيرة دينية أو دنيوية وفزع إلى الله تعالى، مضطراً إليه، فلا شك أن الله تعالى يجعل له فرجاً ومخرجاً من أمره، إما بواسطة أو بلا واسطة. كن صادقا تجد مرشدا، ﴿فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر وبال من قتل نفساً بغير حق، كما فعل قابيل، فقال:

﴿ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ... ﴾

قلت: (من أجل ذلك): يتعلق بكتبنا، فيوقف على ماقبله، وقيل: بالنادمين، فيوقف على (ذلك)، وهو ضعيف، قاله ابن جزى، وأصل (أجْل): مصدر أجَل يأجل، كأخذ يأخذ، أجْلا، أى: جنا جناية، استعمل فى تعليل الجنايات، ثم اتسع فيه، فاستعمل فى كل تعليل .

---

(١) انظر صحيح البخارى (كتاب أصحاب النبى، باب مناقب عثمان بن عفان ـ رضى الله عنه ـ).

يقول الحق جل جلاله : ﴿من أجل ذلك﴾ القتل الذى صدر من قابيل لأخيه هابيل، وما نشأ عنه من التجرؤ على الدماء والمفاسد، حيث سنّه أولاً ولم يكن يعرفه أحد، فاقتدى به من بعده، ﴿كتبنا على بنى إسرائيل﴾ فى التوراة الذى حكمه متصل بشريعتكم، ﴿أنه من قتل نفساً بغير نفس﴾ أى: فى غير قصاص، وبغير فساد فى الأرض، كقطع الطريق والكفر، ﴿فكأنما قتل الناس جميعاً﴾ من حيث إنه هتك حرمة الدماء، وسن القتل، وجرأ الناس عليه.

وفى البخارى عن ابن مسعود قال: قال ﷺ: «لاتُقْتَلُ نَفْسٌ مسلمةٌ بغير حق إلاَّ كَانَ علَى ابْنِ آدَمَ الأَولِ كِفْلٌ من دَمِهـا؛ لأَنَّهُ أَوَّلُ من سَنَّ القَتْل»(١) . أو من حيث إن قتل الواحد والجميع سواء فى استجلاب غضب الله والعذاب العظيم، أو يكون الناس خصماءه يوم القيامة؛ لأن هتك حرمة البعض كالكل.

﴿ومن أحياها﴾ أى: تسبب فى حياتها بعفو أو منع من القتل، أو استبقاء من بعض أسباب الهلكة؛ كإنقاذ الغريق والحريق وشبه ذلك، ﴿فكأنما أحيا الناس جميعا﴾؛ أعطى من الأجر مثل ما لو أحيا الناس جميعا، وفى البخارى: «من أحياها ـ أى مَنْ حَرَّمَ قتْلَها إلا بحق حيى الناس منه جميعا». قال ابن جزى: والقصد بالآية تعظيم قتل النفس والتشديد فيه، ليزدجر الناس عنه وكذلك الثواب فى إحيائها كثواب إحياء الجميع لتعظيم الأمر والترغيب فيه. هـ . فما كتبه الله على بنى إسرائيل هو أيضاً شرع لنا. قال أبو سعيد: (والذى لا إله إلا هو ماجعل دم بنى إسرائيل أكرم على الله من دمائنا).

وإنما خصهم بالذكر؛ لأنهم أول أمة نزل الوعيد عليهم فى قتل النفس فى كتاب، وغلظ عليهم بسبب طغيانهم، ولتلوح مذمتهم. انظر ابن عطية. وعنه ﷺ: «مَنْ سَقَى مؤمناً شربةَ ماء والماءُ موجودٌ فكأنما أَعْتَقَ سبْعين رقبة، ومَنْ سقَى فى غيرِ موْطنه فكأنَّما أحيا الناس جميعا».

الإشارة: كل من صدَّ نفساً عن إحياء قلبها وعوقها عن من يعرفها بربها فكأنما قتلها، ومن قتل نفساً فكأنما قتل الناس جميعا؛ لأن المؤمنين كلهم كالجسد الواحد، كما فى الحديث، ومن أحياها بأن أنقذها من الغفلة إلى اليقظة، ومن الجهل إلى المعرفة، فكأنما أحيا الناس جميعاً؛ لأن الأرواح جنس واحد، فإحياء البعض كإحياء الكل.

وبهذا يظهر شرف مقدار العارفين، الدالين على الله، الدعاة إلى معرفة الله، الذين أحيا الله بهم البلاد والعباد، وفى بعض الأثر أن رسول الله ﷺ قال: «والذى نفسُ محمدٍ بيده لئن شئتُم لأُقْسِمَنَّ لكم: إنَّ أحبَّ عبادِ الله إلى الله الذين يُحبِّبُون اللهَ إلى عبادهِ، ويحببون عبادَ اللهِ إلى اللهِ، ويمشُون فى الأرضِ بالنَّصيحَة».

---

(١) أخرجه البخارى فى (كتاب الأنبياء، باب خلق آدم) ومسلم فى (القسامة، باب بيان إثم من سنَّ القتل).

وهذه حالة شيوخ التربية: يحببون الله إلى عباده؛ لأنهم يطهرون القلوب من دنس الغفلة حتى ينكشف لها جمال الحق فتحبه وتعشقه، ويذكرون لهم إحسانه تعالى وآلاءه فيحبونه، فإذا أحبوه أطاعوه فيحبهم الله ويقربهم، والله تعالى أعلم. وقال الورتجبي: فيه إشارة لطيفة من الحق سبحانه أن النية إذا وقعت من قبل النفس الأمارة في شيء، وباشرته، فكأنها باشرت جميع عصيان الله تعالى؛ لأنها لو قدرت على جميعها لفعلت، لأنها أمارة بالسوء، ومن السوء خلقت، فالجزاء يتعلق بالنية. وكذلك إذا وقعت النية من قِبل القلب الروحاني في خير، وباشره، فكأنه باشر جميع الخيرات؛ لأنه لو قدر لفعل. قال ﷺ : «نيةُ المؤمن أبلغُ مِنْ عَمله».

وفيه إشارة أخرى أن الله سبحانه خلق النفوس من قبضة واحدة مجتمعة، بعضها من بعض وصرَّفها مختلفة، وتعلقت بعضها من بعض من جهة الاستعداد والخلقة. فمن قتل واحداً منها أثَّر قتلها في جميع النفوس عالمة بذلك أو جاهلة، ومن أحيا نفس مؤمن بذكر الله وتوحيده، ووصْف جلاله وجماله، حتى تحب خالقها، وتحيا بمعرفته، وجمال مشاهدته، فأثر حياتها وتزكيتها في جميع النفوس، فكأنما أحيا جميع النفوس. وفيه تهديد لأئمة الضلالة، وعز وشرف وثناء حسن لأئمة الهدى. انتهى كلامه.

وقوله في النفس الأمارة: (من السوء خلقت)، فيه نظر؛ فإن النفس هي الروح عند المحققين، فما دامت الطينية غالبة عليها ، وهي مائلة إلى الحظوظ والهوى، سميت نفساً، فإن كانت منهمكة سميت أمارة، وإن خف عثارها، وغلب عليها الخوف، سميت لوامة، فإذا انكشف عنها الحجاب، وعرفت ربها، واستراحت من تعب المجاهدة، سميت روحا، وإن تطهرت من غبش الحس بالكلية سميت سرا، وأصلها من حيث هي نور رباني وسر لاهوتي، ولذلك قال تعالى فيها: ﴿ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾ ،[1] فالسوء عارض لها، لاذاتي، فما خلقت إلا من نور القدس. والله تعالى أعلم.

ثم عاتب بني إسرائيل على سفك الدماء والإفساد في الأرض، بعد ماحرم ذلك عليهم في التوارة، فقال:

﴿ ... وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: «ولقد جاءتهم» أي: بني إسرائيل، «رُسلنا بالبينات» أي: بالمعجزات الواضحات، «ثم إن كثيرا منهم بعد ذلك في الأرض لمسرفون» بسفك الدماء وكثرة المعاصي.

قال البيضاوي: أي: بعدما كتبنا عليهم هذا التشديد العظيم من أجل إتيان تلك الجناية، وأرسلنا إليهم الرسل بالآيات الواضحة تأكيداً للأمر وتجديداً للعهد، كي يتحاموا عنها، كثير منهم يسرفون في الأرض بالقتل ولايبالون، وبهذا اتصلت القصة بما قبلها، والإسراف: التباعد عن حد الاعتدال في الأمر. هـ.

---

(١) من الآية ٨٥ من سورة الإسراء.

الإشارة: قد قيض الله لهذه الأمة المحمدية من يقوم بأمر دينها، ظاهراً وباطناً، وهم ورثته في الظاهر والباطن، وفي الخبر: «علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل»، فلكل زمان رجال يقومون بالشريعة الظاهرة وهم العلماء، ورجال يقومون بالحقيقة الباطنة، وهم الأولياء، فمن قصر في الجهتين قامت عليه الحجة، ولله الحجة البالغة، فمن أسرف أو طغى أدبته الشريعة وأبعدته الحقيقة. وبالله التوفيق.

ثم ذكر وبال المسرفين من بني اسرائيل وغيرهم، فقال:

﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٣٣) إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْ ۖ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣٤) ﴾

قلت: سبب نزول الآية عند ابن عباس: قوم من اليهود كان بينهم وبين رسول الله ﷺ عهد، فنقضوا العهد وقطعوا السبيل. وهو مناسب لما قبله، وقال جماعة: نزلت في نفر من عُكْل وعُرينة، أظهروا الإسلام بالمدينة، ثم خرجوا وقتلوا راعي النبي ﷺ وأخذوا إبله، فبعث في إثرهم، فأُخذوا، فقطع أيديهم وأرجلهم وسمل أعينهم (١)، فماتوا، ثم حُكْمُها جارٍ في كل محارب، والمحاربة عند مالك: هي حمل السلاح على الناس في بلد أو في خارج عنه، وقال أبو حنيفة: لا يكون المحارب إلا خارج البلد، و (فساداً): منصوب على العلة، أو المصدر، أو على حذف الجار.

يقول الحق جل جلاله: ﴿**إنما جزاء الذين يحاربون الله**﴾ حيث حاربوا عباده. فهو تغليظ ومُبالغة، ﴿و﴾ يحاربون ﴿رسوله﴾ كما فعل العُرَنيون أو غيرهم، ﴿**ويسعون في الأرض فساداً**﴾ بالفساد كإخافة الناس، ونَهْب أموالهم. قال ابن جزي: هو بيان للحرابة، وهي درجات؛ فأدناها: إخافة الطريق، ثم أخذ الأموال، ثم قتل النفس.

فجزاؤهم ﴿**أن يُقتلوا أو يُصلبوا**﴾، فالصلب مضاف للقتل، فقيل: يقتل ثم يصلب، إرهاباً لغيره، وهو قول أشهب، وقيل: يصلب حياً ويقتل في الخشبة، وهو قول ابن القاسم، ﴿**أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف**﴾،

---

(١) سمل أعينهم، أي: فقأها بحديدة محماة، أو غيرها.

فيقطع يده اليمنى ورجله اليسرى، وإن عاد قطعت يده اليسرى ورجله اليمنى، وقطع اليد من الرسغ، والرجل من المفصل كالسرقة، ﴿أو يُنفوا من الأرض﴾ أى: ينفوا من بلد إلى بلد، ويسجنوا فيه حتى تظهر توبتهم. وقال أبوحنيفة: يسجن فى البلد بعينه. ومذهب مالك: أن الإمام مخير فى المحارب بين ماتقدم، إلا أنه قال: إن كان قتل فلابد من قتله، وإن لم يقتل فالأحسن أن يؤخذ فيه بأيسر العقاب.

أولئك المحاربون ﴿لهم خزى فى الدنيا﴾: ذل وفضيحة، ﴿ولهم فى الآخرة عذاب عظيم﴾ لعظم ذنوبهم. ظاهره أن العقوبة فى الدنيا لا تكون كفارة للمحاربين بخلاف سائر الحدود. ويحتمل أن يكون الخزى فى الدنيا لمن عوقب، وفى الآخرة لمن لم يعاقب، ﴿إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم﴾ بأن جاءوا تائبين ﴿فاعلموا أن الله غفور رحيم﴾ ، فيسقط عنهم حكم الحرابة، واختُلف: هل يطالب بما عليه من حقوق الناس كالدماء أم لا؟ فقال الشافعى: يسقط عنه بالتوبة حد الحرابة، ولا يسقط حقوق بنى آدم، وقال مالك: يسقط عنه جميع ذلك، إلا أن يُوجد معه مال رجل بعينه، فيُرَدّ إلى صاحبه، أو يطلبه ولى دم بدم تقوم البينة فيه، فيقاد به، وأما الدماء والأموال التى لم يطالب بها، فلا يتبعه الإمام بشىء منها.

وتقييد التوبة بالتقدم على القدرة، يدل على أنها بعد القدرة لا تسقط الحد، وإن أسقطت العذاب، والآية فى قُطَّاع المسلمين؛ لأن توبة المشرك تدرأ عنه العقوبة قبل القدرة وبعدها . هـ. قاله البيضاوى. والله تعالى أعلم.

الإشارة: فرق كبير بين من يرجع إلى الله بملاطفة الإحسان، وبين من يقاد إليه بسلاسل الامتحان، هؤلاء المحاربون لم يرجعوا إلى الله حتى أُخذوا وقُتلوا وصُلبوا أو قطعت أيديهم وأرجلهم. وإن رجعوا إليه اختياراً قبلهم، وتاب عليهم ورحمهم وتعطف عليهم، وكذلك العباد: من رجع إلى الله قبل هجوم منيته قَبِله وتاب عليه، وإن جد فى الطاعة قرّبه وأدناه، وإن تقدمت له جنايات، وقد خرج من اللصوص كثير من الخصوص، كالفضيل، وابن أدهم، وغيرهما، ممن لا يحصى، سبقت لهم العناية فلم تضرهم الجناية. وبالله التوفيق، وهو الهادى إلى سواء الطريق.

ثم حضّ على التقوى التى هى مجمع الخير والفوز من كل شر، فقال:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله﴾، ولا تسلكوا سبيل بنى إسرائيل الذين جاءتهم الرسل، فعصوا وأفسدوا ﴿وابتغوا إليه الوسيلة﴾ أى: اطلبوا ما تتوسلون به إلى رضوانه، والقرب من جناب قدسه

من الطاعات، وترك المخالفات، ﴿وجاهدوا في سبيله﴾ بمحاربة أعدائه الظاهرة والباطنة ﴿لعلكم تفلحون﴾ بالوصول إلى الله والفوز بكرامته.

الإشارة: لا وسيلة أقرب من صحبة العارفين، والجلوس بين أيديهم وخدمتهم، والتزام طاعتهم، فمن رام وسيلة توصله إلى الحضرة غير هذه فهو جاهل بعلم الطريق. قال أبو عمرو الزجاجي رضي الله عنه: لو أن رجلاً كشف له عن الغيب، ولا يكون له أستاذ لا يجيء منه شيء.

وقال إبراهيم بن شيبان رضي الله عنه: لو أن رجلاً جمع العلوم كلها، وصحب طوائف الناس، لا يبلغ مبلغ الرجال إلا بالرياضة من شيخ أو إمام أو مؤدب ناصح، ومن لا يأخذ أدبه من آمر له وناهٍ يريه عيوب أعماله ورعونات نفسه، لا يجوز الاقتداء به في تصحيح المعاملات. هـ.

وقال الشيخ أبو العباس المرسي رضي الله عنه: كل من لا يكون له في هذا الطريق شيخ لا يفرح به. هـ. ولو كان وافر العقل منقاد النفس، واقتصر على مايلقى إليه شيخ التعليم فقط، فلا يكمل كمال من تقيد بالشيخ المربي؛ لأن النفس أبداً كثيفة الحجاب عظيمة الإشراك، فلابد من بقاء شيء من الرعونات فيها، ولا يزول عنها ذلك، بالكلية، إلا بالانقياد للغير والدخول تحت الحكم والقهر، وكذلك لو كان سبقت إليه من الله عناية وأخذه الحق إليه، وجذبه إلى حضرته، لا يؤهل للمشيخة، ولو بلغ ما بلغ، والحاصل: أن الوسيلة العظمى، والفتح الكبير، إنما هو في التحكيم للشيخ؛ لأن الخضوع لمن هو من جنسك تأنفه النفس، ولا تخضع له إلا النفس المطمئنة، التي سبقت لها من الله العناية. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر ضد أهل التقوى، فقال:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُواْ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾ يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾ ﴾

قلت: (لو أن لهم): الجار متعلق بالاستقرار، لأنه خبر «إن» مقدما، والضمير في (به): يعود على ما ومثله، ووحده باعتبار ماذكر كقوله: ﴿عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ (١).

يقول الحق جل جلاله: ﴿إن الذين كفروا﴾ حين يشاهدون العذاب يتمنون الفداء، فلو ﴿أن لهم ما في الأرض جميعا﴾ من الأموال والعقار ﴿ومثله معه ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ما تُقبل منهم﴾

(١) من الآية ٦٨ من سورة البقرة.

ولاينفعهم ﴿ولهم عذاب مقيم﴾ لا خلاص لهم منه، وهذا كما ترى في الكفار، وأما عصاة المؤمنين فيخرجون منها بشفاعة نبيهم ـ عليه الصلاة والسلام ـ ولاحجة للمعتزلة في الآية، خلافاً لجهالة الزمخشري.

الإشارة: كل من مات تحت قهر الحجاب، ونكّبته المشيئة عن دخول الحضرة مع الأحباب، حصل له الندم يوم القيامة، فلو رام أن يفتدي منه بملء الأرض ذهبًا ما تقبل منه، بل يبقى مقيماً في غم الحجاب، معزولاً عن رؤية الأحباب، يتسلى عنهم بالحور والولدان، وتفوته نظرة الشهود والعيان في كل حين وأوان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

ثم ذكر حكم السارق الذي تقدم ذكره في قضية طعمة بن أبيرق؛ لما تقدم أن هذه السورة مكملة لما قبلها، فقال:

﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾ ﴾

قلت: (السارق): مبتدأ والخبر محذوف عند سيبويه، وهو الجار والمجرور، أي: مما يتلى عليكم حكم السارق والسارقة، وقال المبرد: الخبر هو جملة: (فاقطعوا)، ودخلت الفاء لمعنى الشرط؛ لأن الموصول ـ وهو «أل» ـ فيه معنى الشرط، ومثله: ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا ﴾(١) ، قلت: وهو أظهر، فإن قلت: ما الحكمة في تقديم المذكر في هذه الآية، وفي آية الزنا قدم المؤنث، فقال: ﴿الزانية والزاني﴾؟ فالجواب: أن السرقة في الرجال أكثر، والزنى في النساء أكثر، فقدّم الأكثر وقوعاً. وقدّم العذاب هنا على المغفرة لأنه قابل بذلك تقدم السرقة على التوبة، أو لأن المراد به القطع، وهو مقدم في الدنيا، و (جزاء) و (نكالاً): علة أو مصدر.

يقول الحق جل جلاله: ﴿والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما﴾ أي: أيمانهما من الرسغ، بشروط، منها: ألاّ يكون مضطراً بالجوع، على قول مالك، فيقدم السرقة على الميتة، إن علِم تصديقه. ومنها: ألاّ يكون السارق أباً أو عبداً سرق مال ولده أو سيده. ومنها: أن يكون سرق من حرز، وأن يكون نِصاباً ، وهو ربع دينار، أو ثلاثة دراهم، أو ما يساويهما عند مالك والشافعي، وقال أبوحنيفة: لا قطع في أقل من عشرة دراهم، وقال عثمان البتّي: يُقطع في درهم فما فوق. وفي السرقة أحكام مبسوطة في كتب الفقه.

---

(١) من الآية ٢ من سورة النور.

وعلة القطع: الزجر، ولذلك قال: ﴿جزاء بما كسبا نكالا من الله والله عزيز حكيم﴾. فإن قلت: ما الحكمة في قطعها في ربع دينار، مع أن دِيتَهَا إن قطعت، خمسمائة دينار؟ قلت: ذل الخيانة أسقطت حرمتها بعد عز الصيانة. فافهم حكمة البارى.

﴿فمن تاب من بعد ظلمه﴾ أي: بعد سرقته، كقوله في سورة يوسف: ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾(١) أي: السارقين، ﴿وأصلح﴾ بأن ردّ ما سرق، وتخلص من التبعات ما استطاع، وعزم ألا يعود، ﴿فإن الله يتوب عليه إن الله غفور رحيم﴾، فيتقبل توبته، فلا يعذبه في الآخرة، وأما القطع: فهل يسقط، وهو مذهب الشافعي لظاهر الآية، أو لا يسقط، وهو مذهب مالك، لأن الحدود لاتسقط عنده بالتوبة إلا عن المحارب ؟.. قاله ابن جزى، تبعاً لابن عطية، وفيه نظر، فإن مشهور مذهب الشافعي موافق لمالك، ولعله تصحف عنده الشافعي بالشعبي، كما نقل الثعلبي عنه. والله أعلم.

﴿ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض﴾ يتصرف فيهما كيف شاء، فالخطاب للرسول ـ عليه الصلاة السلام ـ أو لكل أحد، ﴿يعذب من يشاء ويغفر لمن يشاء﴾ قال السدى: يعذب من مات على كفره، ويغفر لمن تاب من كفره. وقال الكلبي: ﴿يعذب من يشاء﴾ على الصغيرة إذا أقام عليها ﴿ويغفر لمن يشاء﴾ على الكبيرة إذا نزع منها، ﴿والله على كل شيءقدير﴾لا يعجزه شيء.

الإشارة: كما أمر الحق ـ جل جلاله ـ بقطع سارق الأموال، أمر بقطع سارق القلوب، وهو الشيطان، وجنوده؛ الخواطر الردية؛ فإن القلب بيت كنز السر ـ أي: سر الربوبية ـ لأن القلب بيت الرب، والبصيرة حارسة له، فإذا طرقه الشيطان بجنوده، فإن وجد البصيرة متيقظة دفعته وأحرقته بأنوار ذكرها ، وإن وجدها نائمة؛ فإن كان نومها خفيفًا اختلس منها وفطنت له، وإن كان نومها ثقيلاً؛ بتراكم الغفلات، خرب البيت ولم تفطن له، فيسكن فيه بجنوده الخواطر وهي نائمة. فالواجب على الإنسان حفظ قلبه، قبل أن يسكنه الشيطان، فيصعب دفعه، وحفظه بدوام ذكر الله القلبي، فإن لم يستطع فبدوام اللسان، فإن لم يستطع فبالنية الصالحة. وربنا المستعان.

ثم تكلم على مايتعلق باللسان، وهو الأمر الخامس مما تضمنته السورة، فقال:

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ... ﴾

قلت: الباء في: (بأفواههم) ـ متعلقة بقالوا.

---

(١) من الآية ٧٥ .

يقول الحق جل جلاله: ﴿يا أيها الرسول لا يحزنك﴾ صنع المنافقين، ﴿الذين يسارعون في الكفر﴾ أي: يقعون فيه سريعاً، فيظهرونه إن وجدوا فرصة، ثم بينهم بقوله: ﴿من الذين قالوا آمنا﴾، قالوه ﴿بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم﴾، فلا يهولك شأنهم ولا تحتفل بكيدهم، فإن الله سيكفيك أمرهم.

الإشارة: من شأن العارفين بالله تذكير عباد الله، ثم ينظرون إلى ما يفعل الله، فلا يحزنون على من لم تنفعه الموعظة، ولا يفرحون بسبب نجاح موعظتهم، إلا من حيث موافقة رضا ربهم، فهم في ذلك على قدم نبيهم، آخذين بوصية ربهم. والله تعالى أعلم.

ثم رجع إلى عتاب اليهود، فقال:

﴿... وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟ ۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ ۚ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ۖ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا ۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾﴾

قلت: (ومن الذين هادوا): يحتمل أن يكون عطفاً على (الذين قالوا) أي: لا يحزنك شأن المنافقين واليهود، و(سماعون): خبر، أي: هم سماعون، ويحتمل أن يكون استئنافاً، فيكون (سماعون): مبتدأ على حذف الموصوف، و(من): خبر، أي: ومن الذين هادوا قوم سماعون، واللام في: (للكذب): إما مزيدة للتأكيد، أو لتضمين السماع معنى القبول، وجملة (لم يأتوك): صفة لقوم، وجملة (يحرفون): صفة أخرى له.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ومن الذين هادوا﴾ صنف ﴿سماعون للكذب﴾ أي: كثيروا السماع للكذب والقبول له، وهم يهود بني قريظة، ﴿سماعون لقوم آخرين﴾ وهم يهود خيبر، ﴿لم يأتوك﴾ أي: لم يحضروا مجلسك، تكبراً وبغضاً، ﴿يحرفون الكلم من بعد مواضعه﴾ أي: يميلونه عن مواضعه الذي وضعه الله فيها، إما

لفظًا أو تأويلا: ﴿ يقولون ﴾ : أي: الذين لم يأتوا النبي ﷺ، وهم يهود خيبر: ﴿ إن أُوتيتم هذا فخذوه ﴾ أي: إن أوتيتم هذا المحرّف وأفتاكم محمد بما يوافقه فخذوه، ﴿ وإن لم تُؤتوه ﴾ بأن أفتاكم بغيره ﴿ فاحذروا ﴾ أن تقبلوا منه.

وسبب نزولها: أن شريفاً من يهود خَيْبَرَ زنى بِشريفة منهم، وكانا مُحْصَنَيْن، وكرهوا رجمهما، فأرسلوا مع رَهْطٍ منهم إلى بني قريظة ليسألوا رسولَ الله ﷺ، وقالوا لهم: إنْ أمَرَكُمْ بالجَلْدِ والتَّحْمِيمِ(١) فَاقْبَلُوا، وإنْ أمَرَكُمْ بالرَّجْمِ فاحذروا أن تقبلوه منه، فأتوا رسولَ الله ﷺ بالزَّانِيَيْن، ومعهما ابن صوريا، فاستفتوه ﷺ، فقال لابن صوريا: أَنْشُدكَ اللهَ الذي لا إله إلا هُو، الذي فَلَقَ البَحْرَ لمُوسى، ورفع فوقكم الطور، وأنجاكُمْ وأَغْرَقَ آلَ فِرْعَوْنَ، والذي أنزل عَلَيْكُم كِتَابه، وأحلَّ حَلاله وحرَّم حرَامه، هل تجد فيه الرَّجْمَ على من أحصن؟ فقال: نعم، فوثبوا عليه، فقال: خِفْتُ إنْ كَذَبته أن ينزل علينا العذاب، فأمر رسولُ الله ﷺ بالزَّانِيين فرُجِمَا عِنْد باب المسجد، وفي رواية: دعاهم إلى التوراة فأتوا بها، فوضع ابن صوريا يده على آية الرجم، وقرأ ماحولها، فقال له عبد الله بن سلام: ارفع يدك، فإذا آية الرجم تلوح، فرجما. وفي القصة اضطراب كثير. ولعل القضية تعددت.

قال تعالى: ﴿ ومن يُرد الله فتنته ﴾ أي: ضلالته أو فضيحته، ﴿فلن تملك له من الله شيئًا ﴾ أي: تقدر على دفعها عنه، ﴿ أولئك الذين لم يُرد الله أن يُطهر قلوبهم ﴾ من الكفر والشرك، ﴿ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ ﴾ أي: هوان وذل؛ بضرب الجزية والخوف من المؤمنين، ﴿ ولهم في الآخرة عذاب عظيم ﴾ وهو الخلود في النيران.

هم ﴿ سماعون للكذب ﴾ ، كرر للتأكيد، وليرتب عليه قوله: ﴿ أكّالون للسحت ﴾ أي: الحرام، كالرشا وغيرها، وسُمي سحتاً؛ لأنه يسحت البركة ويستأصل المال، كما قال ﷺ: «من جمع المال من نهاوش أذهبه الله في نهابر»(٢).

ثم خيَّر نبيه ـ عليه الصلاة والسلام ـ في الحكم بينهم، فقال: ﴿ فإن جاءوك ﴾ متحاكمين إليك ﴿ فاحكم بينهم أو أعرض عنهم ﴾ ، وقيل: نسخ بقوله: ﴿ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم ﴾(٣). والجمهور: أن ما كان من باب التظالم والتعدي فإن الحاكم يتعرض بهم ويبحث عنه، وأما النوازل التي لا ظلم فيها، وإنما هي دعاوى، فإن رضوا بحكمنا فالإمام مُخير، وإن لم يرضوا فلا نتعرض لهم، انظر ابن عطية، وقال البيضاوي: ولو تحاكم كتابيان إلى القاضي لم يجب عليه الحكم، وهو قول الشافعي، والأصح: وجوبه؛ إذا كان المترافعان أو أحدهما ذمياً، لأنا التزمنا الذب عنهم، ومذهب أبي حنيفة: يجب مطلقا.هـ.

﴿ وإن تُعرض عنهم فلن يضروك شيئًا ﴾ ؛ لأن الله عصمك من الناس، ﴿ وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط ﴾ أي: العدل الذي أمر الله به ﴿ إن الله يحب المقسطين ﴾ ، فيحفظهم ويعظم شأنهم.

﴿ وكيف يُحكمونك ﴾ وهم لا يؤمنون بك، ﴿ وعندهم التوراة فيها حكم الله ﴾ أي: والحال أن الحكم منصوص عليه في الكتاب الذي هو عندهم ﴿ ثم يتولون من بعد ذلك ﴾ ، أو ثم يتولون عن حكمك

(١) التحميم: تسويد الوجه بالفحم. (٢) النهاوش: المظالم. والنهابر: المهالك والأمور المتبددة. (٣) من الآية ٤٩ من السورة

الموافق لكتابهم من بعد التحكيم، وفيه تنبيه على أنهم ماقصدوا بالتحكيم معرفة الحق وإقامة الشرع، وإنما قصدوا به مايكون عوناً لهم على هواهم، وإن لم يكن حكم الله في زعمهم، ﴿وما أولئك بالمؤمنين﴾ بكتابهم ولا بكتابك؛ لإعراضهم عنه أولاً، وعنك ثانياً، بل أولئك هم الفاسقون التابعون لأهوائهم. والله تعالى أعلم.

الإشارة: كل من تعرض للشيخوخة وادعى مقام التربية، وهو يأمر أصحابه باتباع رخص الشريعة، والبقاء مع العوائد، ويقول لهم: (إن أوتيتم هذا فخذوه) ويزعم أنه سنة، وإن لم تؤتوه، ولقيتم من يأمركم بقتل النفوس، وحط الرؤوس ودفع الفلوس، وخرق العوائد فاحذروه. فمن كان حاله هذا، فالآية تجر ذيلها عليه، لأنه تعرض لفتنة نفسه بحب الجاه وغرور أولاد الناس، ﴿ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئا أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم﴾ من الهوى، ولا بصيرتهم من شهود السّوى؛ لأن تطهير القلوب مشروط بقتل النفوس، وقتل النفوس إنما يكون باتباع ما يثقل عليها من خرق عوائدها، كالذل والفقر وغير ذلك من الأعمال الشاقة عليها، ومن لم يطهر قلبه من الهوى يعش في الدنيا في ذل الحجاب مسجوناً بمحيطاته، محصوراً في هيكل ذاته، وله في الآخرة أشد العتاب، حيث تعرض لمقام الرجال وهو عنه بمعزل، ويقال لمن تبعه في اتباع الرخص: ﴿سماعون للكذب أكالون للسحت﴾

قال الشيخ أبوالعباس المرسي رضي الله عنه: من كان من فقراء الزمان يسمع الغناء، ويأكل أموال الظلمة، ففيه نزعة يهودية، قال تعالى: ﴿سماعون للكذب أكالون للسحت﴾ . هـ

فإن جاءوك أيها العارف، يستخبرونك ، ويخاصمونك في الأمر بخرق العوائد، ويزعمون أنهم موافقون للسنة، ﴿فاحكم بينهم أو أعرض عنهم وإن تعرض عنهم فلن يضروك شيئا وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط﴾، وهو الأخذ بكل ما يقتل النفوس، ويجهز عليها ،﴿ إن الله يحب المقسطين﴾ وكيف يحكمونك أو يخاصمونك، وعندهم القرآن فيه حكم الله بذلك، قال تعالى: ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ﴾(١)، ولا يكون جهاد النفس إلا بمخالفتها، وقتلها بترك حظوظها وهواها. والله تعالى أعلم.

ثم قرر صحة كتابه التوارة، ووبال من أعرض عنه من اليهود، فقال:

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾

(١) من الآية ٦٩ من سورة العنكبوت.

قلت : (للذين هادوا) : متعلق بيحكم، أو بأنزلنا، أو بهدى ونور، و (الربانيون) : عطف على (النبيون) ، وهم العباد والزهاد منهم، والأحبار: علماؤهم، جمع حبر ـ بكسر الحاء وفتحها ، وهو أشهر استمعالاً؛ للفرق بينه وبين المداد، و(بما استحفظوا):سببية متعلق بيحكم، أو بدل من (بها) والعائد إلى «ما» محذوف، أي: استحفظوه.

يقول الحق جل جلاله: ﴿إنا أنزلنا التوراة فيها هدى﴾ أي: ما يهدى إلى إصلاح الظواهر من النواهي والأوامر، و ﴿نور﴾ تستنير به السرائر، وتشرق به القلوب والضمائر، من الاعتقادات الصحيحة والعقائد الراجحة، والعلوم الدينية والأسرار الربانية. ﴿يحكم بها النبيون﴾ الذين أتوا بعد موسى ـ عليه السلام ـ إلى محمد ﷺ، وهم﴿الذين أسلموا﴾ أي: انقادوا بكليتهم إلى ربهم، ولم تبق بقية لغير محبوبهم، وفيه تنويه بشأن الإسلام وأهله، وتعريض باليهود؛ فإنهم بمعزل عن دين الأنبياء واقتفاء هديهم، حيث لم يتصفوا به، يحكم بها ﴿للذين هادوا﴾ وعليهم، وهم اليهود، ﴿و﴾ يحكم بها أيضا ﴿الربانيون والأحبار﴾ أي: زهادهم وعلماؤهم السالكون طريقة أنبيائهم، ﴿بما استُحفظوا من كتاب الله﴾ أي: بسبب أمر الله تعالى لهم أن يحفظوا كتابه من التضييع والتحريف. ﴿وكانوا عليه شهداء﴾ أي: رقباء، فلا يتركون من يُغيرها أو يحرفها، ولما طال العهد عليهم حرفوا وغيروا، بخلاف كتابنا، حيث تولى حفظه الحق ربنا، فلا يزال محفوظاً لفظاً ومعنى إلى قيام الساعة، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾(١) . فلله الحمد.

ثم خاطب الحكام، فقال: ﴿فلا تخشوا الناس واخشون﴾ أي: فلا تداهنوا فى حكوماتكم خشية ظالم أو مراقبة كبير، فكل كبير فى جانب الحق صغير ،﴿ولا تشتروا بآياتى ثمناً قليلا﴾ أي: لا تستبدلوا بالحكم بالحق ثمناً قليلاً؛ كالرشوة والجاه، ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله﴾ مستهيناً به ومنكراً له ﴿فأولئك هم الكافرون﴾؛ لاستهانتهم به.

قال ابن عباس: نزلت الثلاثة فى اليهود، الكافرون والظالمون والفاسقون، وقد رُوى فى هذا أحاديثُ عن النبى ﷺ وقالت جماعة: هى عامة، فكل من لم يحكم بما أنزل الله من اليهود والمسلمين وغيرهم، إلا أن الكفر فى حق المسلمين كفر معصية، وقال الشافعى: الكافرون فى المسلمين، والظالمون فى اليهود، والفاسقون فى النصارى، وهو أنسب لسياق الكلام، والله تعالى أعلم.

الإشارة : قد وصف الله تعالى القرآن بأعظم مما وصف به التوراة. قال تعالى: ﴿قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نورا مبينا﴾(٢) ؛ فجعل التوراة ظرفًا للهداية والنور، وجعل القرآن نفس النور والهداية. وربانيو هذه الأمة: أولياؤها العارفون بالله، الذين يربون الناس ويرشدونهم إلى معرفة الشهود والعيان، وأحبارها: علماؤها.

(١) الآية ٩ من سورة الحجر.
(٢) الآية ١٧٤ من سورة النساء.

وقال الورتجبي: الرباني الذي نسب إلى الرب بالمعرفة والمحبة والتوحيد، فإذا وصل إلى الحق بهذه المراتب، واستقام في شهود جلاله وجماله، صار متصفاً بصفات الله ـ جل جلاله ـ، حاملاً أنوار ذاته، فإذا فني عن نفسه وبقي بربه، صار ربانياً، مثل الحديد في النار، إذا لم يكن في النار كان مستعداً لقبول النار، فإذا وصل إلى النار واحمر، صار ناريًا، هكذا شأن العارف، فإذا كان منورا بتجلي الرب، صار ربانياً نورانياً ملكوتياً جبروتياً، كلامه من الرب إلى الرب مع الرب، ثم قال: العارف مخاطب من الله في جميع أنفاسه، وحركاته، ينزل على قلبه من الله وحي الإلهام، وربما يخاطبه بنفسه، ويكلمه بكلامه، ويحدثه بحديثه، لقوله ـ عليه الصلاة السلام ـ: «إنَّ في أُمتي محدَّثين أو مُكلَّمين وإنَّ عُمَرَ مِنهُمْ»(١). هـ.

ثم بين الحق تعالى ما كتب على بني إسرائيل في التوراة، فقال:

﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾

قلت : من نصب الجميع: فَعَطْفٌ على النفس، وقصاص: خبر إن، ومن رفع العين: فيحتمل أن يكون مستأنفا مرفوعاً بالابتداء، و «قصاص»: خبر، من عطف الجمل، أو يكون عطفاً على موضع النفس؛ لأن المعنى: قلنا لهم: النفس بالنفس، أو على الضمير المستكن في الخبر، ومن رفع الجروح فقط، فعلى ما تقدم في العين.

يقول الحق جل جلاله : ﴿وكتبنا﴾ على بني إسرائيل، أي: فرضنا وألزمنا عليهم في التوراة ﴿أن النفس﴾ تقتل بالنفس في القتل العمد إن كان المقتول مسلماً حراً، فلا يقتل مسلم بكافر إلا إن قتله غيلة، ولا حر بعبد، للحديث، ﴿والعينَ﴾ تفقأ ﴿بالعين﴾، ﴿والأنفَ﴾ تجدع ﴿بالأنف﴾، ﴿والأذنَ﴾ تصلم ﴿بالأذن﴾، ﴿والسّنّ﴾ تقلع ﴿بالسن﴾، ﴿والجروح قصاص﴾؛ يقتص من الجارح بمثل ما فعل، إلا ما يخاف منه كالمأمومة(٢) ، والجائفة، وكسر الفخذ، فيعطى الدية، ﴿فمن تصدق به﴾ أي: بالدم، بأن عَفى عن الجارح أو القاتل فلم يقتص، ﴿فهو كفارة له﴾ أي للمقتول، يغفر الله ذنوبه ويعظم أجره، أو كفارة للقاتل أو الجارح، يعفو الله بذلك عن القاتل؛ لأن صاحب الحق قد عفا عنه، أو كفارة للعافي؛ لأنه مسامح في حقه، أو من تصدق بنفسه ومكنها من القصاص فهو كفارة له، اقتص منه أو عُفي عنه.

---

(١) أخرجه البخاري في (أحاديث الأنبياء، باب ٥٤) ومسلم في (فضائل الصحابة، باب فضائل عمر رضي الله عنه) عن أبي هريرة، بلفظ: «إنه قد كان فيما مضى قبلكم من الأمم محدثون وإنه إن كان في أمتي هذه، فإنه عمر بن الخطاب».

(٢) المأمومة: هي الشجة التي تبلغ أم الرأس، وهي الجلدة التي تجمع الدماغ.

وفيه دليل على أن الحدود مكفرة لا زواجر، وزعم ابن العربي: أن المقتول يُطالب يوم القيامة، ولو قتل في الدنيا قصاصاً؛ لأنه لم يتحصل للمقتول من قتل قاتله شيء، وأن القصاص إنما هو ردع، وأجيب بمنع أنه لم يتحصل له شيء، بل حصلت له الشهادة وتكفير لذنوبه، كما في الحديث: «السيف محاء للخطايا»(١). ولو كان القصاص للردع خاصة لم يشرع العفو، قاله ابن حجر، وفي حديث البخاري: «من أصاب من ذلك شيئاً فعوقب به في الدنيا، فهو كفارة له، وإن ستره الله فهو في المشيئة».

﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله﴾ من القصاص وغيره ﴿فأولئك هم الظالمون﴾؛ المتجاوزون حدود الله، وما كتب الله على بني إسرائيل هو أيضا مكتوب علينا، لأن شرع من قبلنا شرع لنا ما لم يرد ناسخ، ولا ناسخ هنا، بل قررته السنة والإجماع. والله تعالى أعلم.

الإشارة: القصاص مشروع وهو من حقوق النفس؛ لأنها تطلبه تشفيا وغيظا، والعفو مطلوب ومرغب فيه، وهو من حقوق الله، هو طالبه منك، وأين ما تطلبه لنفسك مما هو طالبه منك؟ ومن شأن الصوفية الأخذ بالعزائم، واتباع أحسن المذاهب، قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ﴾(٢)، ومن شأنهم أيضاً: الغيبة عن حظوظ النفس، ولذلك قالوا: (الصوفي دمه هدر، وماله مباح)، وقالوا أيضا: (الصوفي كالأرض، يُطرح عليها كل قبيح، وهي تُنبت كلَّ مليح)، ومن أوكد الأمور عندهم عدم الانتصار لأنفسهم. وبالله التوفيق.

ولما فرغ من الكلام مع اليهود شرَع يتكلم مع النصارى، فقال:

﴿ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾

قلت: (قفينا): اتبعنا، مشتق من القفا؛ كأن مجيء عيسى كان في قفا مجيء النبيين وخلفهم، وحذف المفعول الأول، أي: أتبعناهم، و﴿بعيسى﴾ مفعول ثان، وجملة: (فيه هدى ونور): حال من «الإنجيل»، و(مصدقا): عطف عليه.

يقول الحق جل جلاله: وأتبعنا النبيين المتقدمين وجئنا على إثرهم ﴿بعيسى بن مريم مصدقا لما بين يديه﴾ أي: ما تقدم أمامه ﴿من التوراة﴾ وتصديقه للتوراة؛ إما لكونه مذكوراً فيها ثم ظهر، أو بموافقة ما جاء به من التوحيد والأحكام لما فيها، أو لكونه صدَّق بها وعمل بما فيها.

---

(١) جزء من حديث أخرجه أحمد في المسند ٤/١٨٥. من حديث عتبة بن عبد السلمي.
(٢) من الآية: ١٨ من سورة الزمر.

﴿وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور﴾؛ فالهدى لإصلاح الظواهر بالشرائع، والنور لإصلاح الضمائر بالعقائد الصحيحة والحقائق الربانية، ﴿ومصدقًا لما بين يديه من التوراة﴾ بتقرير أحكامها، والشهادة على صحتها، ﴿وهدى وموعظة للمتقين﴾ أي: وإرشاداً وتذكيراً للمتقين؛ لأنهم هم الذين ينفع فيهم الموعظة والتذكير، دون المنهمكين في الغفلة، قد طبع الله على قلوبهم فهم لا يسمعون.

ثم أمر الله أهل الإنجيل بالحكم بما فيه، فقال: ﴿وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه﴾ من الأحكام، وقرأ حمزة: (وليحكم) بلام الجر؛ أي: وآتيناه الإنجيل ليحكم أهل الإنجيل بما فيه، ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون﴾؛ الخارجون عن طاعة الحق. قال البيضاوي: والآية تدل على أن الإنجيل مشتملة على الأحكام ، وأن اليهودية منسوخة ببعث عيسى عليه السلام، وأنه كان مستقلاً بالشرع. وحَمْلُها على: وليحكموا بما أنزل الله، فيه من إيجاب العمل بأحكام التوراة خلاف الظاهر. هـ.

الإشارة: قد جمع الله في هذه الأمة المحمدية ما افترق في غيرها في الأزمنة المتقدمة، فعلماؤها وأولياؤها كالأنبياء والرسل، كلما مات عالم أو ولي قفاه الله بآخر، أما العلماء فأمرهم متفق وحالهم متقارب، فمدار أمرهم على تحصيل العلوم الرسمية والأعمال الظاهرية، وأما الأولياء ـ رضي الله عنهم ـ، فأحوالهم مختلفة، فمنهم من يكون على قدم نوح عليه السلام في القوة والشدة، ومنهم من يكون على قدم إبراهيم عليه السلام في الحنانة والشفقة. ومنهم من يكون على قدم موسى عليه السلام في القوة أيضا، ومنهم من يكون على قدم عيسى عليه السلام في الزهد والانقطاع إلى الله تعالى، ومنهم من يكون على قدم نبينا محمد ﷺ، وهو أعظمهم لجمعه ما افترق في غيره، وكل واحد يؤتيه الله نوراً في الباطن يجذب به القلوب إلى الحضرة، وهدى في الظاهر يصلح به الظواهر في الشريعة. والله تعالى أعلم.

ثم شرع يتكلم مع الأمة الإسلامية المحمدية، فقال:

﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَـٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾

قلت: (مهيمنًا) أي: شاهداً ، والشرعة والمنهاج: قال ابن عطية: معناهما واحد، وقال ابن عباس: أي: سبيلا وسنة. قلت: والظاهر: أن الشرعة يراد بها الأحكام الظاهرة، وهي التي تُصلح الظواهر، والمنهاج يراد به علوم الطريقة الباطنية، وهي التي تصلح الضمائر، وهو مضمن علم التصوف.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وأنزلنا إليك﴾ يامحمد ﴿الكتاب﴾ أى: القرآن ملتبساً ﴿بالحق مصدقا لما بين يديه﴾ من جنس الكتاب، أى: مصدقًا لما تقدمه من الكتب، بموافقته لهم فى الأخبار والتوحيد، ﴿ومهيمنًا عليه﴾ أى: شاهداً عليه بالصحة، أو راقبًا عليه من التغيير فى المعنى، ﴿فاحكم بينهم بما أنزل الله﴾ إليك ﴿ولا تتبع أهواءهم﴾ منحرفًا عما جاءك من الحق إلى مايشتهونه، لكل نبى ﴿جعلنا منكم شرعة﴾ ظاهرة يصلح بها الظواهر، ﴿ومنهاجا﴾ أى: طريقاً واضحاً يسلك منها إلى معرفة الحق، وهو ما يتعلق بإصلاح السرائر، واستدل به على أنا غير متعبدين بالشرائع المتقدمة.

﴿ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة﴾ أى: جماعة واحدة متفقة على دين واحد، ﴿ولكن﴾ عدد الشرائع وخالف بينها ﴿ليبلوكم﴾ أى: يختبركم فيما آتاكم من الشرائع المختلفة، أيكم ينقاد ويخضع للحق أينما ظهر، فإن اختلاف الأحوال وتنقلات الأطوار فيه يظهر الإقرار والإنكار، ﴿فاستبقوا الخيرات﴾ أى: بادروا إلى الانقياد إلى الطاعات واتباع الحق والخضوع لمن جاء به أينما ظهر، انتهازاً للفرصة، وحيازة لفضل السبق والتقدم، ﴿إلى الله مرجعكم جميعا﴾ فيظهر السابقون من المقصرين، ﴿فينبئكم﴾ أى: يخبركم ﴿بما كنتم فيه تختلفون﴾ من أمر الدين بالجزاء الفاصل بين المحق والمبطل، والمبادر والمقصر، واختلاف الشرائع إنما هى باعتبار الفروع، وأما الأصول كالتوحيد والإيمان بالرسل، والبعث، وغير ذلك من القواعد الأصولية، فهى متفقة؛ قال ـ عليه الصلاة السلام ـ: «نحنُ أبناء علات، أمهاتنا شتَّى وأبونا واحد»(١). يعنى التوحيد. والله تعالى أعلم.

الإشارة: اعلم أن نبينا ـ عليه الصلاة والسلام ـ جمع الله له ما افترق فى غيره، فذاته الشريفة جمعت المحاسن كلها ظاهرة وباطنة، وكتابه جمع ما فى الكتب كلها فهو شاهد عليها، وشريعته جمعت الشرائع كلها، ولذلك كان الولى المحمدى هو أعظم الأولياء.

واعلم أن الحق ـ جل جلاله ـ جعل لكل عصر تربية مخصوصة بحسب مايناسب ذلك العصر، كما جعل لكل أمة شرعة ومنهاجا بحسب الحكمة، فمن سلك بالمريدين تربية واحدة، وأراد أن يسيرهم على تربية المتقدمين، فهو جاهل بسلوك الطريق، فلو كان السلوك على نمط واحد ما جدد الله الرسل بتجديد الأزمنة والأعصار، فكل نبى وولى يبعثه الله تعالى بخرق عوائد زمانه، وهى مختلفة جداً، فتارة يغلب على الناس التحاسد والتباغض، فيبعث بإصلاح ذات البين والتآلف والتودد، وتارة يغلب حب الرياسة والجاه فيربى بالخمول وإسقاط المنزلة، وتارة يغلب حب الدنيا وجمعها فيربى بالزهد فيها والتجريد والانقطاع إلى الله. وهكذا فليقس مالم يقل. والله تعالى أعلم.

---

(١) أخرجه بنحوه البخارى فى (أحاديث الأنبياء، باب «واذكر فى الكتاب مريم ...») ومسلم فى (الفضائل، باب فضائل عيسى ﷺ) عن أبى هريرة.

ولما قصدت اليهود أن يفتنوا النبي ﷺ بأن يحكم لهم بما يشتهون، أنزل الله تعالى:

﴿ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَـٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾

قلت : (وأن احكم) : عطف على الكتاب، أي: وأنزلنا إليك الكتاب والحكم بينهم بما أنزل الله، أو على الحق، أي: أنزلناه بالحق وبالحكم بما أنزل الله، و (أن يفتنوك) : بدل اشتمال من الضمير، أي: احذر فتنتهم، واللام في قوله: (لقوم) : للبيان، أي: هذا الاستفهام لقوم يوقنون، فإنهم هم الذين يعلمون ألاَّ أحسن حكماً من الله.

يقول الحق جل جلاله لرسوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: ﴿**و**﴾ أمرناك ﴿**أن احكم بينهم**﴾ أي: بين اليهود ﴿**بما أنزل الله**﴾، قيل هو ناسخ للتخيير المتقدم، وقيل: لا، والمعنى أنت مخير، فإن أردت أن تحكم بينهم فاحكم بما أنزل الله ﴿**ولا تتبع أهواءهم**﴾ الباطلة، التي أرادوا أن يفتنوك بها، ﴿**واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك**﴾، فيصرفوك عن الحكم به.

رُوي أن أحبار اليهود قالوا: اذهبوا بنا إلى محمد لعلنا نفتنه عن دينه، فقالوا: يامحمد، قد عرفت أنَّا أحبار اليهود، وأنَّا إن اتبعناك اتبعتك اليهود كلهم، وإن بيننا وبين قومنا خصومة، فنتحاكم إليك، فتقضي لنا عليهم، ونحن نؤمن بك ونصدقك، فأبى ذلك عليهم رسول الله ﷺ وردَّهم، فنزلت الآية(١).

قال تعالى لنبيه ـ عليه الصلاة السلام ـ: ﴿**فإن تولوا**﴾ عن الإيمان، بل وأعرضوا عن اتباعك، ﴿**فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم**﴾ في الدنيا، ويدخر جلَّها للآخرة، وقد أنجز الله وعده، فأجلى بني النضير، وقتل بني قريظة، وسبا نساءهم وذراريهم،وباعهم في الأسواق، وفتح خيبر، وضرب عليه الجزية، ﴿**وإنّ كثيراً من الناس لفاسقون**﴾؛ خارجون عن طاعة الله ورسوله،﴿**أفحكم الجاهلية يبغون**﴾ أي: يطلبون منك حكم الملة الجاهلية التي هي متابعة الهوى، ﴿**ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون**﴾ أي: لا أحد أحسن حكمًا من الله تعالى عند أهل الإيقان؛ لأنهم هم الذين يتدبرون الأمر، ويتحققون الأشياء بأنظارهم، فيعلمون ألاَّ أحسن حكماً من الله عز وجل.

الإشارة: إذا كثرت عليك الخصوم الوهمية أو الواردات القلبية، والتبس عليك أمرهم، ولم تدر أيهما تتبع؟ فاحكم بينهم بالكتاب والسنة، فمن وافق كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ فاتبعه، فإن من أمّر الكتاب والسُّنة على نفسه نطق بالحكمة، وإن وافق أكثرُ من واحد الكتاب أو السنة، فانظر أثقلهم على النفس، فإنه لا يثقل عليها إلا ماهو

---

(١) أخرجه ابن جرير في تفسير الآية، والبيهقي في دلائل النبوة (باب ماجاء في دخول عبدالله بن سلام على رسول الله ﷺ) عن ابن عباس.

حق، ولا تتبع أهواء النفوس والخواطر، واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل على قلبك من العلوم والأسرار، فإن متابعة الهوى يعمى القلب عن مطالعة الأسرار، إلا إن وافق السُّنة.

قيل لعمرَ بن عبدالعزيز: ما ألذُّ الأشياء عندك؟ قال: حق وافق هواى. وفى الحديث عنه ﷺ «لايُؤمنُ أحدُكم حتَّى يكُون هواه تابعاً لما جئتُ به»، وفى الحِكَم : « يُخاف عليك أن تلتبس الطرقُ عليك، إنما يُخاف عليك من غلبةِ الهوى عليك».

فمن تولى عن هذا المنهاج الواضح، وجعل يتبع الهوى ويسلك طريق الرخص، فليعلم أن الله أراد أن يعاقبه ببعض سوء أدبه، حتى يخرج عن منهاج السالكين، والعياذ بالله، أو يؤدبه فى الدنيا إن كان متوجهاً إليه.

ثم حذَّر من صحبة أهل الأهواء، فقال:

﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ (٥١) فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَـٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَـٰدِمِينَ (٥٢) وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَهَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ ۙ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ ۚ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فَأَصْبَحُوا۟ خَـٰسِرِينَ (٥٣) ﴾

قلت : (يقول الذين آمنوا) قرئ بغير واو؛ استئنافا، وكأنه جواب عن سؤال، أى: ماذا يقول المؤمنون حينئذ؟ فقال: يقول... إلخ، وقرئ بالواو والرفع؛ عطف جملة على جملة،وقرئ بالواو والنصب؛ عطف على (فيصبحوا) أو (يأتى).

يقول الحق جل جلاله : ﴿يأيها الذين آمنوا لاتتخذوا اليهود والنصارى أولياء﴾ تنتصرون بهم، أو تعاشرونهم معاشرة الأحباب، أو تتوددون إليهم، وأما معاملتهم من غير مودة فلا بأس، ثم علل النهى عن موالاتهم فقال: هم **﴿بعضهم أولياء بعض﴾** أى: لأنهم متفقون على خلافكم، يوالى بعضهم بعضًا لاتحادهم فى الدين، وإجماعهم على مضادتكم، **﴿ومن يتولهم منكم فإنه منهم﴾** أى: من والاهم منكم فإنه من جملتهم.

قال البيضاوى: وهذا تشديد فى وجوب مجانبتهم، كما قال ﷺ «المؤمنُ والمشركُ لاتتراءى نَارَهما»(١) أو لأن الموالين لهم كانوا منافقين. هـ.

(١) أخرجه أبو داود فى (الجهاد، باب النهي عن قتل من اعتصم بالسجود) والترمذى فى (السير، باب كراهة المقام بين أظهر المشركين) من حديث جرير: أن رسول الله ﷺ بعث سرية إلى خثعم، فاعتصم ناس بالسجود.. الحديث، وفيه: وقال: أنا برئ من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين، قالوا: ولم؟ «لا تترأى نارهما».

ومعناه: لاينبغى لمسلم أن يساكن الكفار حتى إذا أوقدوا ناراً كان منهم بحيث يراها. أنظر معالم السنن للخطابى على هامش سنن أبى داود ٣ / ١٠٥ .

وقال ابن عطية: من تولهم بمعتقده ودينه فهو منهم في الكفر واستحقاق النقمة والخلود في النار، ومن تولاهم بأفعاله من العَضْد ونحوه، دون معتقد ولا إخلال بإيمان، فهو منهم في المقت والمذمة الواقعة عليهم وعليه. هـ. وسئل ابن سيرين عن رجل أراد بيع داره للنصارى يتخذونها كنيسة، فتلا هذه الآية: ﴿ومن يتولهم منكم فإنه منهم﴾ . هـ. وفي أبي الحسن الصغير: أن بيع غير السلاح للعدو الكافر فسق، وبيع السلاح له كفر.

قلت: ولعله إذا قصد تقويتهم على حرب المسلمين، وأما الفداء بالسلاح إذا لم يقبلوا غيره، فيجوز في القليل دون الكثير. وأجازه سحنون مطلقا، إذا لم يرج فداؤه بالمال. انظر الحاشية.

﴿**إن الله لا يهدى القوم الظالمين**﴾ أي: ظلموا أنفسهم بموالاة الكفار.

﴿**فترى الذين فى قلوبهم مرض**﴾وهم المنافقون، ﴿**يسارعون فيهم**﴾ أي: في موالاتهم ومناصرتهم، ﴿**يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة**﴾ أي: يعتذرون بأنهم يخافون أن تصيبهم دائرة من الدوائر، بأن ينقلب الأمر وتكون الدولة للكفار. رُوي أن عبادة بن الصامت قال لرسول الله ﷺ: إن لي موالي من اليهود، كثير عددهم، وإني أبرأ إلى الله ورسوله من ولايتهم، فقال ابن أبي: إني امرؤ أخاف الدوائر، لا أبرأ من ولاية موالي، فنزلت الآية، قال تعالى رداً عليه: ﴿**فعسى الله أن يأتى بالفتح**﴾ لرسول الله ﷺ على أعدائه وإظهار المسلمين ونصرهم، ﴿**أو أمر من عنده**﴾، يقطع شأفة اليهود، من القتل والإجلاء، ﴿**فيُصبحوا**﴾ أي: هؤلاء المنافقون، ﴿**على ما أسروا فى أنفسهم**﴾ من الكفر والنفاق، ومن مظاهرة اليهود ﴿**نادمين**﴾.

﴿**ويقول الذين آمنوا**﴾ حينئذ ـ أي: حين فتح الله على رسوله وفضح سريرة المنافقين ـ: ﴿**أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم إنهم لمعكم**﴾ ، يقولُه المؤمنون بعضهم لبعض، تعجباً من حال المنافقين وتبجحاً بما منَّ الله عليهم من الإخلاص، أو يقولونه لليهود؛ لأن المنافقين حلفوا لهم بالمناصرة، كما حكى تعالى عنهم ﴿ وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ ﴾[1] قاله البيضاوي. وقوله: ﴿**حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين**﴾. يحتمل أن يكون من كلام المؤمنين، أو من قول الله تعالى، شهادة عليهم بحبوط أعمالهم، وفيه معنى التعجب، كأنه قال: ما أحبط أعمالهم وما أخسرهم! والله تعالى أعلم.

الإشارة: قد تقدم مراراً النهيُ عن موالاة الغافلين، وخصوصاً الفجار منهم، ويلتحق بهم القراء المداهنون؛ وهم فسقة الطلبة؛ الذين هم على سبيل الشيطان، والفقراء الجاهلون؛ وهم من لا شيخ لهم يصلح للتربية، والعلماء المتجمدون، فصحبة هؤلاء تقدح في صفاء البصيرة، وتخمد نور السريرة، وكل من تراه من الفقراء يميل إلى هؤلاء خشية الدوائر، ففيه نزعة من المنافقين. والله تعالى أعلم.

---

(١) من الآية ١١ من سورة الحشر.

ثم تكلم على بقية حفظ الإيمان، فقال:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾

قلت: (من): شرطية، و(يرتدد)[١]: فعل الشرط، فمن قرأه بالتفكيك فعلى الأصل، ومن قرأه بالإدغام ففتحه تخفيفاً. وجملة (فسوف يأتي): جواب، والعائد من الجملة محذوف، أي: فسوف يأتي الله بقوم مكانهم.. إلخ. و(أذلة): نعت ثان لقوم، جمع ذليل، وأتى به مع على؛ لتضمنه معنى العطف والحنو، و(لا يخافون): عطف على يجاهدون، وجملة: (وهم راكعون): حال، إن نزلت في عليّ رضي الله عنه، أو عطف إن كانت عامة.

يقول الحق جل جلاله: ﴿يأيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه﴾ ويرجع عنه بعد الدخول فيه، فسيأتي الله بقوم مكانهم؛ ﴿يحبهم﴾ فيثبتهم على دينهم، ﴿ويحبونه﴾ فيجاهدون من رجع عن دينه، وهم أهل اليمن، والأظهر أنهم أبو بكر الصدّيق وأصحابه، الذين قاتلوا أهل الردة، ويدل على ذلك الأوصاف التي وصفهم الله بها من الجد في قتالهم، والعزم عليه، التي كانت من أوصاف الصدّيق، وكذلك قوله: ﴿أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين﴾ فقد كان أبو بكر ضعيفاً في نفسه، قوياً في ذات الله، لم يخف في الله لومة لائم، حين لامه بعض الصحابة في قتالهم.

وفي الآية إخبار بالغيب قبل وقوعه، فقد ارتد من العرب في أواخر عهد رسول الله ﷺ ثلاث فرق: بنو مدلج، وكان رئيسهم الأسود العنسي، تنبأ باليمن، واستولى على بلادهم، ثم قتله فيروز الديلمي، ليلة قُبض رسولُ الله ﷺ من غدها، وأخبر بموته الرسولُ ـ عليه الصلاة والسلام ـ فسُرّ المسلمون. وبنو حنيفة أصحاب مسيلمة الكذاب، تنبأ باليمامة، وكتب إلى رسول الله ﷺ: من مسيلمةَ رسول الله إلى محمد رسول الله، أما بعد: فإن الأرض نصفها لي ونصفها لك، فأجابه ﷺ: « منْ مُحمَّدٍ رَسُول الله إلى مسيلمةَ الكذَّاب، أمَّا بَعْدُ: فَإنَّ الأَرْضَ لله يُورِثُهَا مَنْ يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ والعَاقِبَةَ للمتّقِين »، فحاربه أبو بكر بجند المسلمين، وقتله وحشي قاتلُ حمزة، وبنو أسد قوم طليحة، تنبأ فبعث إليه رسول الله ﷺ خالد بن الوليد فقاتله، فهرب إلى الشام، ثم أسلم وحسن إسلامه.

---

(١) قرأ نافع وابن عامر (يرتدد) بدالين، وقرأ الباقون (يرتد) بدال واحدة.

وفي عهد أبي بكر، بنو فزارة قوم عُيَيْنة بن حصن، وغطفان قوم قرة بن مسلمة، وبنو سليم، وبنو يربوع قوم مالك بن نويرة، وبعض تميم، قوم سجاح المتنبئة زوجة مسيلمةْ، وكندة قوم الأشعث بن قيس، وبنو بكر بن وائل بالبحرين، فكفي الله أمرهم على يديه. وفي مدة عمر رضي الله عنه غسان، قوم جبلة بن الأيهم، الذي ارتد من اللطمة. فهؤلاء جملة مَنْ ارتد من العرب. فأتى الله بقوم أحبهم وأحبوه، فجاهدوهم حتى ردوهم إلى دينهم. ومحبة الله للعبد: توفيقه وعصمته وتقريبه من حضرته. ومحبة العبد لله: طاعته والتحرز من معصيته، وسيأتي في الإشارة الكلام عليها.

ثم وصفهم بقوله: ﴿أذلة على المؤمنين﴾ أي: عاطفين عليهم خافضين جناحهم لهم،﴿أعزة على الكافرين﴾ شداد متغالبين عليهم، وهذا كقوله فيهم: ﴿ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾،[1] ﴿يجاهدون في سبيل الله﴾ من ارتد عن دين الله، ﴿ولا يخافون لومة لائم ﴾ لصلابتهم في دين الله، وفيه إشارة إلى خطأ من لام الصِّدِّيق في قتال أهل الردة، وقالوا له: كيف تقاتل قوما يقولون: لا إله إلا الله ؟ فقال: (والله لنقاتلن مَنْ فَرَّق بين الصلاة والزكاة) ـ فلم يلتفت إلى لومهم. ﴿ذلك فضل الله يُؤتيه من يشاء﴾، الإشارة إلى ماخصهم الله به، من المحبة والأخلاق الكريمة، ﴿والله واسع﴾ الفضل والعطاء ﴿عليم﴾ بمن هو أهله.

ولمّا نهى عن موالاة الكفار ذكر من هو أهل للموالاة فقال: ﴿إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا﴾؛ لم يقل: أولياؤكم بالجمع، تنبيهاً على أن الولاية لله على الأصالة، ولرسوله وللمؤمنين على التبع، ثم وصفهم بقوله: ﴿الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون﴾ أي: خاضعون لله، ولعباده متواضعون، منقادون لأحكامه، أو يتصدقون في حال ركوعهم في الصلاة، حرصاً على الخير ومسارعة إليه، قيل: نزلت في علي ـ كرم الله وجهه ـ؛ سأله سائل وهو راكع في صلاة، فطَرح له خاتمه، وقيل: عامة، وذكر الركوع بعد الصلاة؛ لأنه من أشرف أعمالها.

﴿ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا﴾، أي يتخذهم أولياء، ﴿فإن حزب الله هم الغالبون﴾ أي: فإنهم الغالبون، ووضع الظاهر موضع المضمر ليكون كالبرهان عليه، فكأنه قال: ومن يتول هؤلاء فهم حزب الله، وحزب الله هم الغالبون، وتنويهاً بذكرهم وتعظيماً لشأنهم، وتعريضاً بمن يوالي غير هؤلاء، فإنه حزب الشيطان، وأصل الحزب: القوم يجتمعون لأمر حزبهم. قاله البيضاوي.

الإشارة: محبة الحق تعالى لعبده سابقة على محبته له، كما أن توبته عليه سابقة لتوبته، قال تعالى: ﴿يحبهم ويحبونه﴾، ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا ﴾[2]، قال أبو يزيد رضي الله عنه: غلطت في ابتداء أمري في أربعة أشياء: توهمت أني أذكره وأعرفه وأحبه وأطلبه، فلما انتهيت، رأيت ذكره سبق ذكري، ومعرفته تقدمت معرفتي، ومحبته أقدم من محبتي، وطلبه لي من قبل طلبي له. هـ.

(١) من الآية ٢٩ من سورة الفتح.
(٢) من الآية ١١٨ من سورة التوبة.

وفي الحكم: «أنت الذاكر من قبل الذاكرين، وأنت البادئ بالإحسان من قبل توجه العابدين، وأنت الجواد بالعطاء من قبل طلب الطالبين، وأنت الوهاب ثم أنت لما وهبتنا من المستقرضين».

ومحبة الله لعبده: حفظه ورعايته، وتقريبه واصطفاؤه لحضرته، وقال القطب ابن مشيش ـ رضي الله عنه ـ : المحبة أخذة من الله قلبَ من أحب، بما يكشف له من نور جماله، وقدس كمال جلاله، وشراب المحبة: مزج الأوصاف بالأوصاف، والأخلاق بالأخلاق، والأنوار بالأنوار، والأسماء بالأسماء، والنعوت بالنعوت، والأفعال بالأفعال.

قلت: ومعنى ذلك: غيبة العبد في شهود الحق، وهو مقام الفناء، ثم قال رضي الله عنه : والشراب ـ أي: الشرب ـ سقي القلوب والأوصال والعروق من هذا الشراب، حتى يسكر، ويكون الشرب بالتدريب بعد التدريب والتهذيب، أي يكون شرب الخمرة شيئًا فشيئًا، ووقتًا فوقتًا ،حتى يتمكن من شهود المعاني بلا فترة، فذلك الرِّي، وذلك بعد كمال التهذيب، فيسقى كل على قدره، فمنهم من يسقى بغير واسطة، والله سبحانه يتولى ذلك منه، (قلت: وهو نادر، والغالب عليه الانحراف)، ومنهم من يسقى من جهة الوسائط، كالملائكة والعلماء والأكابر من المقربين، (قلت: قوله : كالملائكة... تمثيل للوسائط، فالملائكة؛ للأنبياء، والعلماء بالله وأكابر المقربين لغيرهم)، ثم قال: فمنهم من يسكر بشهود الكأس، ولو لم يذق بعدُ شيئاً، فما ظنك بعدُ بالذوق، وبعدُ بالشرب، وبعدُ بالري، وبعدُ بالسكر بالمشروب،؟! ثم الصحو بعد ذلك على مقادير شتى، كما أن السكر أيضًا كذلك. انظر بقية كلامه مع شرحه في شرحنا لخمرية ابن الفارض.

وقال شيخنا البوزيدي رضي الله عنه : المحبة لها ثلاث مراتب: بداية ووسط ونهاية؛ فبدايتها لأهل الخدمة، كالعباد والزهاد والصالحين والعلماء المجتهدين. ووسطها لأهل الأحوال، الذين غلب عليهم الشوق حتى صدرت منهم شطحات ورقصات وأحوال غريبة ربما ينكرها أهل ظاهر الشريعة، فمنهم من يغلب عليه الجذب حتى يصطلم، ومنهم من يبقى معه شيء من الصحو، وهؤلاء تظهر عليهم كرامات وخوارق العادات، ونهايتها لأهل العرفان، أهل مقام الشهود والعيان، الذين شربوها من يد الوسائط وسكروا بها، وصحوا. هـ. بالمعنى.

وفي الورتجبي ماحاصله: أن محبتهم بعد المشاهدة، وإلا لم تكن محبة حقيقة؛ لأن محبة الآلاء والنعماء معلولة، ولا كذلك هذه، لأن من رآه عشقه، وكيف يرجع عنه من كان مسلوب القلب بعشقه لجماله؟ ولذلك لم يرتدوا عن دينهم الذي هو المحبة. هـ.

وللمحبة علامات وثمرات، ذكر بعضَها الحق تعالى بقوله: ﴿أذلة على المؤمنين﴾ أي: متواضعين عاطفين عليهم، ﴿أعزة على الكافرين﴾، أي: القواطع، غالبين عليهم، ﴿يجاهدون في سبيل الله﴾ أي:

أنفسهم وأهواءهم، ﴿ولا يخافون لومة لائم﴾؛ إذ لا يراقبون سوى المحبوب، وليس للمحبة طريق إلا محض الفضل والكرم. ﴿ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم﴾؛ لكن صحبة المحبوبين عند الله من أسبابها العادية، وهم أولياء الله الذين هم حزب الله، فولايتهم والقرب منهم من أسباب القرب والمحبة، ومن موجبات النظر والغلبة؛ ﴿ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون﴾

ثم نهى عن صحبة ضدهم، فقال:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمۡ هُزُوٗا وَلَعِبٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَٱلۡكُفَّارَ أَوۡلِيَآءَۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا نَادَيۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوٗا وَلَعِبٗاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡقِلُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾

قلت: (والكفار): من نَصَبَ عطف على الموصول الأول، ومن جرَّ فعلى الموصول الثاني.

يقول الحق جل جلاله: ﴿يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوًا ولعبًا﴾ من شدة كفرهم، وغلبة سفههم ﴿من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم﴾ كاليهود والنصارى، ﴿و﴾ لا تتخذوا أيضا ﴿الكفار﴾ من المشركين ﴿أولياء﴾ وأصدقاء، أو: لا تتخذوا من اتخذ دينكم هزوا ولعباً من أهل الكتاب ومن المشركين أولياء، ﴿واتقوا الله﴾ في موالاتهم ﴿إن كنتم مؤمنين﴾؛ فإن الإيمان يقتضي الوقوف عند الأمر والنهي.

وكيف توالون من يستهزئ بدينكم، ﴿وإذا ناديتم إلى الصلاة اتخذوها هزوًا ولعبا﴾، رُوي أن نصرانياً بالمدينة كان إذا سمع المؤذن يقول: أشهد أن محمداً رسول الله، قال: أحْرق الله الكاذب. فدخل خادمه ذات ليلة بنار، وأهله نيام، فطارت شرارة في البيت، فأحْرقته وأهله). وفي الآية دلالة على مشروعية الأذان من القرآن. ثم قال تعالى: ﴿ذلك بأنهم قوم لا يعقلون﴾؛ فإن السفه يؤدي إلى الجهل بالحق والهُزء به، والعقل يقتضي المنع من الجهل والإقرار بالحق وتعظيمه. والله تعالى أعلم.

الإشارة: قد حذّر الحق جل جلاله من صحبة الأشرار، ويفهم منه الترغيب في موالاة الأخيار، وهم الصوفية الأبرار، ففي صحبتهم سر كبير وخير كثير، ولابن عباد رضي الله عنه في نظم الحكم:

إنَّ التَّواخي فضلُه لا يُنْكَر ... وإنْ خلا منْ شَرْطه لا يُشْكَر
والشرطُ فيه أنْ تُوَاخِي العارفا ... عن الحظوظ واللحوظ صارِفا
مقالُه وحالُه سِيَّان ... مادعَونَا إلاّ إلى الرحْمان
أنوارُه دائمَةُ السِّرايَة ... فيكَ وقَدْ حفَّتْ به الرِّعايه

وفي الحكم: «لا تصحب من لا ينهضك حاله، ولا يدلك على الله مقاله». وبالله التوفيق.

ثم وبخ أهل الكتاب، فقال:

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾

قلت: نقم ـ بفتح القاف ـ ينقم ـ بالكسر ـ، بمعنى: عاب وأنكر، وانتقم إذا كافأه على إنكاره، ويقال: نقم ـ بالكسر ـ ينقم ـ بالفتح ـ وقرئ به في الشاذ، و (أن أكثركم): عطف على (آمنا) أي: ماتعيبون منا إلا أنا مؤمنون وأنتم فاسقون.

يقول الحق جل جلاله: ﴿قل يأهل الكتاب هل تنقمون منا﴾ أي: ماتنكرون علينا وتعيبونه منا **﴿إلا أن آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل﴾** من الكتب كلها، **﴿وأن أكثركم﴾** خارجون عن هذا الإيمان، وهذا أمر لا ينكر ولا يعاب، ونظير هذا في الاستثناء العجيب قول النابغة:

لاعَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنَّ سُيُوفَهُمْ ... بِهِنَّ فُلُولٌ مِنْ قِرَاعِ الكَتَائِبِ.

الإشارة: أهل الخصوصية يقرون أحوال أهل الشريعة كلها، ولا ينكرون على أهلها شيئًا من أمورهم، وأهل الشريعة ينكرون كثيراً من أحوال أهل الخصوصية ويعيبونها عليهم، وهي من أفضل القربات إلى الله عندهم، فيقولون لهم : هل تنقمون منا إلا أن آمنا بشريعتكم، وأنتم خارجون عن حقيقتنا ورؤية خصوصيتنا، لكن أهل الشريعة معذورون في إنكارهم، إذ ذاك مبلغهم من العلم، فإن كان إنكارهم غيرة على مافهموا من الدين فعذرهم صحيح، وإن كان حسداً أو حمية فهم ممقوتون عند الله. والله تعالى أعلم.

ولما جاء إلى رسول الله ﷺ جماعة من اليهود، فقالوا يامحمد: أخبرنا بمن تؤمن من الرسل، فتلا عليهم: ﴿ قل آمنا بالله ﴾ إلى قوله: ﴿ وما أوتي موسى وعيسى ﴾(١) فلما سمعوا ذكر عيسى قالوا: مارأينا شرا من دينك، فأنزل الله تعالى في الرد عليهم:

﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾ ﴾

قلت : مشاركة اسم التفضيل هنا باعتبار زعمهم واعتقادهم، وإلا فلا مشاركة بين المسلمين وبينهم في الشر والضلال، و(مثوبة) : تمييز عن شر، وضع موضع الجزاء، وأصل المثوبة: في الخير، والعقوبة: في الشر، فوضع هنا المثوبة موضع العقوبة تهكماً بهم، كقوله:

تَحِيَّةُ بَيْنِهِمْ، ضَرْبٌ وَجِيعٌ.

---

(١) الآية ٨٤ من سورة آل عمران.

و(من لعنة الله): إما خبر، أي: هو مَنْ لعنه الله، أو بدل من شر، ولابد من حذف مضاف، إما من الأول أو الثاني، أي: بشر من أهل ذلك الدين من لعنه الله، أو دين من لعنه الله.

ومن قرأ : (عَبَدَ) بفتح الباء، ففعل ماض، صلة لموصول محذوف، أي: ومَن عبَد، و (الطاغوت): مفعول به، ومن قرأ بضم الباء، فاسم للمبالغة ، كيقظ، أي: كثير اليقظة، وهو عطف على القردة، والطاغوت مضاف.

يقول الحق جل جلاله: ﴿**قل**﴾ لهم: ﴿**هل**﴾ أخبركم بأقبح من ذلك الدين الذى قلتم ما رأيتم شراً منه، هو دين ﴿**من لعنه الله**﴾، أو نفس من لعنه الله، أي: أبعده من رحمته ﴿**وغضب عليه**﴾ بكفره وعصيانه، وهم اليهود، ﴿**وجعل منهم القردة والخنازير**﴾ أي: مسخ بعضهم قردة وخنازير، وهم أصحاب السبت، مسخ شبابهم قردة، وشيوخهم خنازير، ﴿**و**﴾جعل منهم أيضا من ﴿**عبد الطاغوت**﴾، وهم عباد العجل، أوالكهنة، أو كل من أطاعوه فى معصية الله، ﴿**أولئك شر مكاناً**﴾ أي: أقبح مكاناً، أي: أقبح مرتبة وأخس حالاً، جعل مكانَهم شراً، ليكون أبلغ فى الدلالة على شريتهم، ﴿**و**﴾هم أيضاً ﴿**أضل عن سواء السبيل**﴾ أي: عن وسط الطريق، بل حادوا عنه إلى طرق تفريط أو إفراط، حيث تركوا طريق الإسلام، الذى هو الصراط المستقيم.

الإشارة: من كان متلطخاً بالمعاصي والذنوب، وباطنه محشو بالمساوئ والعيوب؛ كالحسد والجاه وحب الدنيا وسائر أمراض القلوب، ثم جعل يطعن في طريق الخصوص، يقال له: هل أنبئك بشر من ذلك، هو من أبعده الله بسبب المعاصي والذنوب، وغضب عليه بسبب أمراض القلوب، ومسخ قلبه عن مطالعة أنوار الغيوب، فهذا أقبح مكاناً وأضل سبيلاً، فكل من أُولع بالطعن على الذاكرين، يمسخ قلبُه بالغفلة والقسوة، حتى يفضي إلى سوء الخاتمة. والعياذ بالله.

ثم وسمهم الحق تعالى بالنفاق، أي: اليهود، فقال:

﴿ وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾ ﴾

قلت: جملة: (وقد دخلوا)، وجملة: (وهم قد خرجوا)، حالان من فاعل (قالوا)، ودخلت (قد) على دخلوا وخرجوا؛ تقريباً للماضى من الحال، ليصح وقوعه حالاً؛ أي: ذلك حالهم فى دخولهم وخروجهم على الدوام، وأفادت أيضاً ـ لما فيها من التوقع ـ أن أمارات النفاق كانت لائحة عليهم.

يقول الحق جل جلاله فى ذكر مساوئ اليهود: ﴿**وإذا جاءوكم**﴾ ودخلوا عليكم، أظهروا الوفاق لكم، و ﴿**قالوا آمنا**﴾ بدينكم ﴿**و**﴾ هم ﴿**قد دخلوا**﴾ عليكم ملتبسين ﴿**بالكفر**﴾ فى قلوبهم، ﴿**وهم قد خرجوا**﴾ أيضاً ﴿**به**﴾، فلم ينفع فيهم وعظ ولا تذكير، بل كتموا النفاق وأظهروا الوفاق، ﴿**والله أعلم بما كانوا يكتمون**﴾؛ فيفضحهم على رؤوس الأشهاد.

الإشارة: من سبق له الطرد والإبعاد لا تنفعه خلطة أهل المحبة والوداد، بل يخرج من عندهم كما دخل عليهم، لا ينفع فيه وعظ ولا تذكير، ولا ينجح فيه زاجر ولا نذير، وأما من سبقت له العناية فلا يخرج من عندهم إلا مصحوباً بالهداية والرعاية، إذا كان فى أسفل سافلين أصبح فى أعلى عليين؛ لأنهم قوم لا يشقى جليسهم. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر بقية مساوئ اليهود، فقال:

﴿ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ
(٦٢) لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ
(٦٣) وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ
وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ
ٱلْقِيَٰمَةِ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَادًا وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ (٦٤) ﴾

قلت: (لولا): إذا دخلت على الماضى أفادت التوبيخ، وإذا دخلت على المستقبل أفادت التحضيض.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وترى﴾ يا محمد، أو يامن تصح منه الرؤية ﴿كثيرا﴾ من اليهود ﴿يسارعون فى الإثم﴾ أى: فى الذنوب والمعاصى المتعلقة بهم فى أنفسهم، ﴿والعدوان﴾ المتعلقة بغيرهم، كالتعدى على أموال الغير وأعراضهم وأبدانهم، ﴿وأكلهم السحت﴾: الحرام؛ كالرشا والربا وغير ذلك، ﴿لبئس ماكانوا يعملون﴾ أى: قبح عملهم بذلك، وتناهى فى القبح.

﴿لولا ينهاهم﴾ أى: هلا ينهاهم ﴿الربانيون﴾ أى: عُبّادُهم ورهبانهم، (والأحبار) أى: علماؤهم وأساقفتهم، ﴿عن قولهم الإثم﴾ أى: الكذب، ﴿وأكلهم السحت﴾: الحرام، ﴿لبئس ماكانوا يصنعون﴾ من السكوت عنهم، وعدم الإنكار عليهم، عبّر أولاً بيعلمون وثانياً بيصنعون؛ لأن الصنع أبلغ، ولأن الصنع عمل بعد تدريب وتدقيق وتحرى إجادته وجودته، بخلاف العمل، ولا شك أن ترك التغيير والسكوت على المعاصى من العلماء وأولى الأمر أقبح وأشنع من مواقعة المعاصى، فكان جديراً بأبلغ الذم، وأيضاً: ترك التغيير لا يخلو من تصنع، فناسب التعبير بيصنعون ، وفى الحديث عنه ﷺ: «مامِنْ رَجلٍ يجاوِرُ قَوْماً فيعْمَلُ بالمعَاصِي بيْنَ أظْهرِهم إلاَّ أوْشَكَ اللهُ تعالى أنْ يعمَّهم مِنْه بِعِقَاب» . وقد قال تعالى: ﴿ واتَّقُوا فِتْنةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً ﴾(١) ، فالوبال الذى يترتب على ترك الحسبة أعظم من الوبال الذى يترتب على المعصية، فكان التوبيخ على ترك الحسبة أعظم.

(١) من الآية ٢٥ من سورة الأنفال.

ثم نعى عليهم مقالاتهم الشنيعة، التي هى من جملة قولهم الإثم، فقال:﴿وقالت اليهود يد الله مغلولة﴾ أي: مقبوضة عن بسط الرزق . رُوى أن اليهود أصابتهم سنة جدبة بشؤم تكذيبهم للنبى ﷺ فقالوا هذه المقالة الشنيعة، والذى قالها فنْحاص، ونسبت إلى جملتهم؛ لأنهم رضوا بقوله، فغل اليد كناية عن البخل، وبسطها كناية عن الجود، ومنه: ﴿ وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ ﴾(١) .

ثم رد عليهم فقال: ﴿غُلت أيديهم﴾، يحتمل أن يكون دعاءً أو خبراً، ويحتمل أن يكون فى الدنيا بالأسر والقبض، أو في الآخرة بجعل الأغلال فيها إلى عنقهم في جهنم، قال تعالى: ﴿ بل يداه مبسوطتان ﴾ أى: نعمه مبسوطة على عباده، سحاء عليهم، الليل والنهار، وإنما ثنيت اليدان هنا، وأفردت في قول اليهود؛ ليكون أبلغ في الرد عليهم، ومبالغة في وصفه تعالى بالجود والكرم، كما تقول: فلان يعطى بكلتا يديه؛ إذا كان عظيم السخاء، أو كناية عن نعم الدنيا والآخرة، أو عن ما يعطيه استدارجاً ومايعطيه للإكرام. ثم أكده بقوله: ﴿يُنفق كيف يشاء﴾ أي: هو مختار في إنفاقه، يوسع تارة ويضيق تارة أخرى، على حسب مشيئته ومقتضى حكمته.

ولمّا عميت بصيرتهم بالكفر، وقست قلوبهم بالذنوب، كانوا كلما ازدادوا تذكيراً بالقرآن، زادوا في العتو والطغيان، كما قال تعالى: ﴿وليزيدن كثيراً منهم ما أنزل إليك من ربك طغياناً وكفراً﴾؛ إذ هم متعصبون بالكفر والطغيان، ويزدادون طغياناً وكفراً بما يسمعون من القرآن، كما يزداد المريض مرضاً من تناول الغذاء الصالح للأصحاء.

ومن مساوئهم أيضا: تفريق قلوبهم بالعداوة والشحناء، كما قال تعالى: ﴿وألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة﴾؛ فلا تتوافق قلوبهم ولا تجتمع آراؤهم؛ ﴿كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله﴾ أى: كلما أرادوا حرب الرسول ـ عليه الصلاة السلام ـ وإثارة شر عليه، ردهم الله، وأبطل كيدهم، بأن أوقع بينهم منازعة كف بها شرهم، أو: كلما أرادوا حرب عدو لهم هزمهم الله، فإنهم لما خالفوا حكم التوراة سلط عليهم بختنصر، ثم أفسدوا فسلط عليهم فطْرس الرومي، ثم أفسدوا فسلط عليهم المجوس، ثم أفسدوا فسلط عليهم المسلمون. فكان شأنهم الفساد، ولذلك قال تعالى فيهم: ﴿ويسعون في الأرض فساداً﴾ أى: الفساد بإثارة الحروب والفتن، وهتك المحارم، واجتهادهم فى الحيل والخدع للمسلمين، ﴿والله لا يحب المفسدين﴾ أى : لا يرضى فعلهم فلا يجازيهم إلا شراً وعقوبة.

(١) من الآية ٢٩ من سورة الإسراء.

الإشارة: قال الورتجبي: في الآية تحذير الربانيين العارفين بالله وبحقوق الله، والأحبار العلماء بالله وبعذاب الله لمن عصاه، وبثواب الله لمن أطاعه؛ لئلا يسكتوا عن الزجر للمبطلين والمغالطين، المائلين عن طريق الحق إلى طريق النفس، وبيّن تعالى أن من داهن في دينه عذب وإن كان ربانيا. هـ. وفي بعض الأثر: «إذا رأى العالمُ المنكرَ وسكت، فعليه لعنة الله». والذي يظهر أن نهي الربانيين يكون بالهمة والحال، كقضية معروف الكرخي وغيره، ونهي الأحبار يكون بالمقال، وقد تقدم هذا. والله تعالى أعلم.

ثم ندبهم إلى الإسلام فقال:

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ولو أن أهل الكتاب﴾؛ اليهود والنصارى، ﴿آمنوا﴾ بمحمد ﷺ وبما جاء به، ﴿واتقوا﴾ ماذكرنا من معاصيهم ومساويهم، ﴿لكفرنا عنهم سيئاتهم﴾ المتقدمة، ولم نؤاخذهم بها، ﴿ولأدخلناهم جنات النعيم﴾ مع المؤمنين، وفيه تنبيه على أن الإسلام يجُب ماقبله ولو عظم، وأن الكتابي لا يدخل الجنة إلا أن يسلم.

﴿ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل﴾ بالإيمان بما فيهما، وإذاعة علمهما، والقيام بأحكامهما، من غير تفريق بينهما، وآمنوا بما ﴿أُنزل إليهم من ربهم﴾، يعني: بسائر الكتب المنزلة، ومن جملتها القرآن العظيم، فإنهم لما كلفوا بالإيمان بها صارت كأنها منزلة عليهم، فلو فعلوا ذلك ﴿لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم﴾ أي: لوسعنا عليهم أرزاقهم، وبسطنا عليهم النعم؛ بأن يفيض عليهم بركاتٍ من السماء والأرض، أو: لأكلوا من فوقهم بكثرة ثمرة الأشجار، ومن تحت أرجلهم بكثرة الزروع، أو من فوقهم مايجنون من ثمار أشجارهم، ومن تحت أرجلهم مايتساقط منها، والمراد: بيان علة قبض الرزق عنهم، وأن ذلك بشؤم كفرهم ومعاصيهم، لا لقصور القدرة عن ذلك.

ولو أنهم أقاموا ماذكرنا لوسعنا عليهم، ولحصل لهم خير الدارين، ﴿منهم أمة مقتصدة﴾ أي: جماعة عادلة غير غالية ولا مقصرة، وهم الذين آمنوا بمحمد ﷺ، ﴿وكثير منهم ساء مايعملون﴾ أي: قبح عملهم، وفيه معنى التعجب، أي: ما أسوأ عملهم!، وهو المعاندة وتحريف الحق والإعراض عنه، والإفراط في العداوة. قاله

البيضاوى. قال في الحاشية: وفي الآية شاهد لما ورد من افتراق أهل الكتابين على فرق، كما أن شاهد افتراق هذه الأمة آية: ﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ ﴾(١)، وهذه هى الناجية من هذه الأمة هـ. يعنى التى تهدى بالحق إلى الحق، وتعدل به فى جميع الأمور.

الإشارة: كل من حقق الإيمان الكامل والتقوى الكاملة، وسع الله عليه فى أرزاق العلوم، وفتحت له مخازن الفهوم، ودخل جنة المعارف، فلم يشتق إلى جنة الزخارف، وقال الورتجبى: لو كانوا على محل التحقيق فى المعرفة لأكلوا أرزاق الله بالله من خزائن غيبه، كأصحاب المن والسلوى والمائدة من السماء، ويفتح لهم كنوز الأرض وهم على ذلك، بإسقاط رؤية الوسائط. هـ.

وقال القشيرى: لو سلكوا سبيل الطاعات لوسعنا عليهم أسباب المعيشة، وسهلنا لهم الحال، إن ضربوا يمْنة، لايلقون غير اليُمْن، وإن ضربوا يُسْرةً، لا يجدون إلا اليسر. هـ.

ثم أمر رسوله بالتبليغ من غير مبالاة بأهل التشغيب، فقال:

﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿يا أيها الرسول بلغ﴾ جميع ﴿ماأنزل إليك من ربك﴾ غير مراقب أحداً ولاخائف مكروهاً، ﴿وإن لم تفعل﴾؛ بأن لم تبلغ جميع ما أمرتك وكتمت شيئاً منه، ﴿فما بلغت رسالته﴾ أى: كأنك مابلغت شيئا من رسالة ربك؛ لأن كتمان بعضها يُخل بجميعها، كترك بعض أركان الصلاة. وأيضا كتمان البعض يُخل بالأمانة الواجبة فى حق الرسل، فتنتقض الدعوة للإخلال بالأمانة، وذلك محال. ولا يمنعك أيها الرسول عن التبليغ خوف الإذاية فإن ﴿الله يعصمك من الناس﴾ بضمان الله وحفظه، ﴿إن الله لا يهدى القوم الكافرين﴾ أى: لايمكنهم مما يريدونه منك. وقد قصده قوم بالقتل مراراً، فمنعهم الله من ذلك كما فى السير عن النبى ﷺ : «بَعَثَنى اللهُ بِرِسَالَتِه، فَضِقْتُ بها ذَرْعاً، فأوْحَى اللهُ لى : إنْ لمْ تُبَلِّغْ رِسَالَتِى عذَّبْتُكَ، وَضَمِنَ لِىَ العِصْمَةَ فَقَوِيتُ»(٢).

---

(١) من الآية ١٨١ من سورة الأعراف.
(٢) عزاه المناوى فى الفتح السماوى ٢ / ٥٧٤ لاسحاق بن راهويه فى مسنده من حديث أبى هريرة.

وعن أنس: كان رسول الله ﷺ يحرس، حتى نزلت، فأخرج رأسه من قبة أدم، فقال: «انصرفوا يا أيها الناس؛ فقد عصمني الله من الناس»(١). وظاهر الآية يوجب تبليغ جميع ما أنزل الله. ولعل المراد تبليغ مايتعلق به مصالح العباد، وقصد بإنزاله إطلاعهم عليه، فإن من الأسرار الإلهية مايحرم إفشاؤه. قاله البيضاوي.

الإشارة: قال الورتجبي: أمره بإبلاغ ما أنزل إليه من الذي يتعلق بأحكام العبودية، ولم يأمرهم بأنه يعرفهم أسرار مابينه وبين الله، وما بين الله وبين أنبيائه وأوليائه. ثم قال: (والله يعصمك) أي: يعصمك أن يوقفك أحد في التمويه والغلط والحيل في طريقك إليّ، وهذا لكونه مختاراً بالرسالة، وحقائق الرسالة في الرسول: ظهور أنوار الربوبية في قلبه، وبيان أحكام العبودية في سرّه. وقال الأستاذ، يعني القشيري: يقال في قوله: (والله يعصمك من الناس) أي: حتى لا تغرق في بحر التوهم، بل تشاهدهم كما هُمْ؛ وجوداً بين طرفي العدَم. انتهى نقل الورتجبي.

وقال القشيري أيضاً: لا تكتم شيئاً مما أوحينا إليك مُلاحظةَ غير، إذ لا غيرَ في التحقيقَ إلا رسوماً موضوعة، أحكام القدرة عليها جارية. ثم قال: (والله يعصمك) أي: يعصم ظاهرك من أن يمَسّكَ من أذاهم شيء، فلم يتسلط عليه بعد هذا عدو، أي: وما وقع له من الشج وغيره كان قبل ذلك، وقيل: المراد عصمته من القتل، ثم قال: ونصون سرّك عنهم، حتى لا يقع على إحساسهم. وقال شيخنا السلمي: قيل: يعصمك منهم أن يكون منك إليهم التفات، أويكون لك بهم اشتغال. انتهى.

قلت: صدق الباطن، لا ينفك عنه من أول الامر؛ لأنه من ضروريات كونه رسول الله بالله، وهذا قد يتحقق للمأذون من أتباعه، فضلا عنه، والظاهر ماصدر به من عصمة ظاهره، أو أن يقع خلل في طريقه؛ بتمويه أو غلط أو حيلة، كما أشار إليه الورتجبي. فلله دره. قاله المحشي الفاسي. والله تعالى أعلم.

ثم أبطل دين من حاد عن رسالة نبيه، فقال:

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ... ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿قل﴾ يامحمد: ﴿ياأهل الكتاب﴾؛ اليهود والنصارى، ﴿لستم على شيء﴾ أي: لستم على دين يعتد به، ﴿حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم﴾ على لسان محمد ﷺ، ومن إقامتها الإيمان بمحمد ﷺ والإذعان لحكمه، فإن الكتب الإلهية بأسرها، أمرت بالإيمان والإذعان، لمن صدقته المعجزة، وهي ناطقة بوجوب الطاعة له، والمراد بإقامة الكتابين: إقامة أصولهما ومالم ينسخ من فروعهما، لا جميعهما. والله تعالى أعلم.

---

(١) أخرجه الترمذي في (التفسير، سورة المائدة) والحاكم في (التفسير ٢ / ٣١٣)، وصححه، ووافقه الذهبي، كما أخرجه البيهقي في الدلائل (باب قول الله عز وجل: ﴿ ياأيها الرسول بلغ ما أنزل إليك﴾) من حديث السيدة عائشة رضي الله عنها.

الإشارة : ماقيل لأهل الكتاب يقال لهذه الأمة المحمدية على طريق الإشارة، فيقال لهم: لستم على شيء، يُعْبأ به من أعمالكم وأحوالكم، حتى تقيموا كتابكم القرآن، فتحلوا حلاله، وتحرموا حرامه، وتقفوا عند حدوده، وتمتثلوا أوامره، وتجتنبوا نواهيه، وتقيموا ـ أيضًا ـ سنة نبيكم؛ فتقتدوا بأفعاله، وتتأدبوا بآدابه، وتتخلقوا بأخلاقه ، على جهد الاستطاعة، ولذلك قال بعض السلف: ليس عليّ في القرآن أشد من هذه الآية: ﴿قل يا أهل الكتاب لستم على شيء﴾ الآية. كما في البخاري(١).

ثم ذكر عتو اليهود وطغيانهم، فقال:

﴿ ...وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿وليزيدن كثيرًا﴾ من اليهود ﴿ما أنزل إليك﴾ من القرآن والوحي ﴿طغيانًا وكفرًا﴾ على ماعندهم، فلا تحزن عليهم بزيادة طغيانهم وكفرهم بما تبلغه إليهم، فإن ضرر ذلك لاحق بهم، لايتخطاهم، قال ابن عباس: جاء رسول الله ﷺ رافعُ بن حارثة وسلام بن مشكم ومالك بن الصيف ورافع بن حريملة في جماعة من اليهود، فقالوا: يامحمد، ألست تزعم أنك على ملة إبراهيم، وأنك مؤمن بالتوراة وبنبوة موسى، وأن جميع ذلك حق؟ قال: بلى، ولكنكم أحدثتم وكتمتم وغيرتم. فقالوا: إنا نأخذ بما في أيدينا فإنه الحق، ولانصدقك ولا نتبعك، فنزلت فيهم هذه الآية.

الإشارة : من شأن أهل المحبة والاعتقاد، الذين سبقت لهم من الله العناية والوداد، إذا ازداد على أشياخهم فيض علوم وأنوار وأسرار؛ زادهم ذلك يقينًا وإيمانًا وعرفانًا ، يجدون حلاوة ذلك في قلوبهم وأسرارهم؛ فيزدادون قربًا وشهودًا، وأهل العناد الذين سبق لهم من الله الطرد والبعاد؛ إذا سمعوا بزيادة علوم وأنوار على أولياء الله، زادهم ذلك طغيانًا وبُعدًا، فلا ينبغي الالتفات إليهم، ولا الاحتفال بشأنهم، فإن الله كاف شرهم، وبالله التوفيق.

ثم رغب أهل الملل في الإسلام، فقال:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾

قلت: (والصابئون): مبتدأ، والخبر محذوف، أي: إن الذين آمنوا والذين هادوا من آمن بالله واليوم الآخر فلاخوف عليهم ولا هم يحزنون، والصابئون كذلك. انظر البيضاوي وابن هشام.

---

(١) القائل هو سيدنا سفيان بن عيينة؛ وذكره البخاري في (الرقاق ـ باب الرجاء والخوف).

يقول الحق جل جلاله: ﴿إن الذين آمنوا﴾ بمحمد ﷺ ﴿والذين هادوا والصابئون﴾: قوم بين النصارى والمجوس، أو عباد الكواكب، أو قوم بقوا على دين نوح ـ عليه السلام ـ ﴿والنصارى﴾: قوم عيسى، ﴿من آمن﴾ منهم ﴿بالله﴾ إيماناً حقيقياً؛ بلا شرك ولا تفريق، وآمن باليوم الآخر، ﴿وعمل صالحاً فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾، قال ابن عباس: نسخها: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾[1]، وقيل: إن هؤلاء الطوائف من آمن منهم إيماناً صحيحاً فله أجره، فيكون في حق المؤمنين: الثبات عليه إلى الموت، وفي حق غيرهم: الدخول في الإسلام، فلا نسخ. وقيل: إنها فيمن كان قبل بعث النبي ﷺ فلا نسخ أيضاً. قاله ابن جزي.

الإشارة: الذي طلب الله من العباد ورغبهم في تحصيله، وجعله سبباً للنجاة من كل هول في الدنيا والآخرة ثلاثة أمور: أحدها: تحقيق الإيمان بالله، والترقي فيه إلى محل شهود المعبود، الثاني: تحقيق الإيمان بالبعث ومابعده، حتى يكون نصب عينيه، ويقربه كأنه واقع يشاهده؛ إذ كل آت قريب. والثالث: إتقان العمل إظهارا للعبودية، وتعظيماً لكمال الربوبية، على قدر الاستطاعة من غير تفريط ولا إفراط، وبالله التوفيق.

ثم خص اليهود بالعتاب لعظم جرأتهم، فقال:

﴿ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾ وَحَسِبُوٓا۟ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾ ﴾

قلت: المضارع إذا وقع بعد العلم وجب إهمال (أن) معه، فتكون مخففة، وإن وقعت بعد الظن يصح فيها الوجهان، فمن قرأ: (وحسبوا ألا تكون) بالرفع، فأن مخففة، ومن قرأ بالنصب فأن مصدرية. والفرق بين العلم والظن، أن علم العبد إنما يتعلق بالحال، و (أن) تخلص للاستقبال، فلا يصح وقوعها بعد العلم، فأهملت وكانت مخففة من الثقيلة، بخلاف الظن؛ فيتعلق بالحال والاستقبال، فصح وقوع (أن) بعده. و (كلما): ظرف لكذبوا أو يقتلون، و(كثير): بدل من فاعل عموا وصموا.

يقول الحق جل جلاله: ﴿لقد أخذنا ميثاق بني إسرائيل﴾ أن يعملوا بأحكام التوراة، ﴿وأرسلنا إليهم رسلا﴾ يجددون العهد ويحثون على الوفاء به، ثم إنهم طغوا وعتوا؛ ﴿كلما جاءهم رسول﴾ من عند الله ﴿بما لاتهوى أنفسهم﴾ من الشرائع التي تخالف أهواءهم ومشاق الطاعة، ﴿فريقًا﴾ منهم كذبوهم ﴿وفريقًا﴾ يقتلونهم، أي: كذبوا فريقا كداود وسليمان، وفريقا قتلوهم بعد تكذيبهم كزكريا ويحيى، وقصدوا قتل عيسى عليه السلام فليس مافعلوا معك ببدع منهم، فلهم سلف في ذلك .

---

(١) من الآية ٨٥ من سورة آل عمران.

﴿وحسبوا﴾ أي: ظنوا ﴿ألا تكون فتنة﴾ أي: لا يقع بهم بلاء وعذاب بقتل الأنبياء ـ عليهم السلام ـ، وتكذيبهم، ﴿فعموا﴾ عن أدلة الهدى، أو عن الدين، ﴿وصموا﴾ عن استماع الوعظ والتذكير، كما فعلوا حين عبدوا العجل، ﴿ثم تاب الله عليهم﴾ لما تابوا، ﴿ثم عموا وصموا﴾ لما قتلوا الأنبياء وسفكوا الدماء، واستمر على ذلك ﴿كثير منهم﴾، وقليل منهم بقوا على العهد ﴿والله بصير بما يعملون﴾ فيجازيهم وفق أعمالهم.

الإشارة: لقد أخذ الله العهد على جميع بنى آدم فى شأن حمل الأمانة، التى حملها أبوهم آدم، وبعث الأنبياء والأولياء يجددون العهد فى حملها، ويعرفون الناس بشأنها، وهى المعرفة الخاصة، التى هى شهود عظمة الربوبية فى مظاهر العبودية، وحملها لا يكون إلا بمخالفة الهوى وخرق عوائد النفوس، ولا يطيقها إلا الخصوص، فلذلك كثر الإنكار على الأنبياء والأولياء؛ إذ لم يأت أحد بخرق العوائد إلا عودى وأنكر، فكلما جاءهم رسول أو ولى بما لاتهوى أنفسهم فريقاً منهم كذبوا وفريقًا يقتلون، وظنوا أن الله لا يعاقبهم على ذلك، ولا تصيبهم فتنة فى قلوبهم على ماهنالك، فعموا عن مشاهدة أنوار الحق، وصموا عمن يذكرهم بالحق، وقد تلمع لهم تارة قبس من أنوارهم، فيتوبون، ثم يصّرون على الإنكار. والله بصير بما يعملون.

ثم ذكر مساوئ النصارى، فقال:

﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم﴾؛ لما رأوا على يديه من الخوارق، ﴿وقال المسيح يابنى إسرائيل اعبدوا الله ربى وربكم﴾ المعنى: لقد كفر من اتخذ عيسى إلهاً مع أنه كان يتبرأ من هذا الاعتقاد، ويقول لبنى إسرائيل: اعبدوا الله خالقى وخالقكم.

والمشهور في الأخبار، أن النصارى هم الذين اعتقدوا هذا الاعتقاد دون بني إسرائيل، نعم، أصل دخول هذه الشبهة على النصارى من يهودي يقال له: بولس، حسداً منه، وذلك أنه دخل في دينهم، وفرق أموالهم، وتأهب للتعبد معهم، ثم سار إلى بيت المقدس وقطّع نفسه تقرباً عند قبري مريم وعيسى ـ عليهما السلام ـ في زعمهم، وكان معه رجلان اسمهما: يعقوب وناسور، فأخذ يعلمهما ذلك الفساد ويقول لهما: عيسى هو الله أو ابن الله، فلما قطع نفسه صار الرجلان يفشيان ذلك عنه، فشاع مذهب الرجلين، وكان منهما الطائفة اليعقوبية والناسورية.

ثم هددهم على الشرك فقال، أي: عيسى: ﴿إنه من يشرك بالله﴾ في عبادته، أو فيما يختص به من الصفات والأفعال، ﴿فقد حرم الله عليه الجنة﴾ أي: يمنع من دخولها؛ لأنها دار الموحدين، ﴿ومأواه النار﴾ أي: محله النار، لأنها معدة للمشركين، ﴿وما للظالمين من أنصار﴾ أي: وما لهم أحد ينصرهم من النار. ووضع المظهر موضع المضمر، تسجيلاً على أنهم ظلموا بالإشراك، وعدلوا عن طريق الحق، وهو يحتمل أن يكون من تمام كلام عيسى عليه السلام، أو من كلام الله تعالى.

ثم ذكر تعالى صنفاً آخر منهم، فقال: ﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة﴾ أي: أحد ثلاثة، عيسى وأمه وهو ثالثهم، أو أحد الأقانيم الثلاثة، الأب والابن وروح القدس، يريدون بالأب الذات، وبالابن العلم، وبروح القدس الحياة، لكن في إطلاق هذا اللفظ إيهام وإيقاع للغير في الكفر، وهذه المقالة ـ أعني التثليث، هي قول النسطورية والملكانية، وماسبق في قوله: ﴿إن الله هو المسيح﴾ قول اليعقوبية، القائلة بالاتحاد، وكلهم ضالون مضلون، ﴿وما من إله إلا إله واحد﴾ في ذاته وصفاته وأفعاله، لا شريك له في ألوهيته، متصلاً ولا منفصلاً، ﴿وإن لم ينتهوا عما يقولون﴾، ولم يوحدوا ﴿ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم﴾ أي: ليمس الذين بقوا منهم على الكفر ولم يتوبوا، عذاب موجع.

﴿أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه﴾ أي: أفلا يرجعون عن تلك العقائد الزائغة والأقوال الفاسدة، ويستغفرونه بالتوحيد والتوبة عن الاتحاد والحلول، فإن تابوا غفر الله لهم، ﴿والله غفور رحيم﴾. وهذا الاستفهام: تعجب من إصرارهم، مع كون التوبة مقبولة منهم.

ثم رد عليهم بقوله: ﴿ما المسيح ابن مريم إلا رسول﴾ بشر ﴿قد خلت من قبله الرسل﴾، وخصه الله بآيات، كما خصهم بها، فإن كان قد أحيا الله الموتى على يديه، فقد أحيا العصى، وجعلها حية تسعى على يد موسى، بل هو أعجب، وإن كان قد خلقه الله من غير أب، فقد خلق آدم من غير أب وأم، وهو أغرب، ﴿وأمه صديقة﴾ فقط، كسائر النساء اللاتي يلازمن الصدق أو التصديق، ﴿كانا يأكلان الطعام﴾ ويفتقران إليه افتقار

الحيوانات، قال البيضاوي: بيّن أولاً أقصى مالهما من الكمال، ودل أنه لا يوجب لهما ألوهية؛ لأن كثيراً من الناس يشاركهما في مثله، ثم نبه على نقصهما، وذكر ما ينافي الربوبية ويقتضي أن يكون من عداد المركبات الكائنة الفاسدة، أي: القابلة للفساد، ثم عجب ممن يدعي الربوبية لهما مع أمثال هذه الأدلة الظاهرة، فقال: ﴿انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنا يؤفكون﴾ أي: كيف يُصرفون عن استماع الحق وتأمله، و (ثم) للتفاوت بين العجبين، أي: أن بياننا للآيات عجب، وإعراضهم عنها أعجب. هـ

ثم أبطل عبادتهم لعيسى عليه السلام فقال: ﴿قل أتعبدون من دون الله مالا يملك لكم ضراً ولا نفعاً﴾ بل هو عاجز عن صرفه عن نفسه وجلب الخير لها، فكيف يقدر أن يدفعه عن غيره؟ وعبّر عنه بماء، دون (من) - إشارة إلى أنه من جنس مالا يعقل، وماكان مشاركاً في الحقيقة لجنس مالا يعقل، يكون معزولاً عن الألوهية، وإنما قدّم الضر؛ لأن التحرز منه أهم من تحرى النفع، ثم هددهم بقوله: ﴿والله هو السميع العليم﴾ بالأقوال والعقائد، فيجازى عليهما، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر. والله تعالى أعلم.

الإشارة: ينبغي للعبد أن يصفي مشرب توحيده، ويعتني بتربية يقينه، بصحبة أهل اليقين، وهم أهل التوحيد الخاص، فيترقى من توحيد الأفعال إلى توحيد الصفات، ومن توحيد الصفات إلى توحيد الذات، فنهاية توحيد الصالحين والعلماء المجتهدين تحقيق توحيد الأفعال، وهو ألاَّ يرى فاعلاً إلا الله، لا فاعل سواه، وثمرة هذا التوحيد: الاعتماد على الله، والثقة بالله، وسقوط خوف الخلق من قلبه، لأنه يراهم كالآلات، والقدرة تحركهم، ليس بيدهم نفع ولا ضرر ، عاجزون عن أنفسهم فكيف عن غيرهم؟ ونهاية توحيد العباد والزهاد والناسكين المنقطعين إلى الله تعالى توحيد الصفات، فلا يرون قادراً ولا مريداً ولا عالماً ولا حياً ولا سميعاً ولا بصيراً ولا متكلماً إلا الله، قد انتفت عنه صفات الحدث وبقيت صفات القدم. وثمرة هذا التوحيد: الانحياش من الخلق والتأنس بالملك الحق، وحلاوة الطاعات ولذيذ المناجات. ونهاية توحيد الواصلين من العارفين والمريدين السائرين: توحيد الذات؛ فلا يشهدون إلا الله، ولايرون معه سواه. قال بعضهم: لو كلفت أن أرى غيره لم أستطع، فإنه لاغير معه حتى أشهده. وقال شاعرهم:

مُــذْ عَــرَفْتُ الإلهَ لَمْ أرَ غَــيْـرَا وكَــذَا الغَــيْــرُ عِنْدَنَا مَــمْنُوعُ
مُــذْ تَجَمَّعْتُ مَـاخَشِيتُ افْتِرَاقاً فَــأنَا اليَــوْمَ واصِلٌ مــجْــمُــوعُ

وقال في التنوير: أبى المحققون أن يشهدوا مع الله سواه؛ لما حققهم به من شهود الأحدية وإحاطة القيومية. هـ. وفي الحكم: «الأكوان ثابتة بإثباته، ممحوة بأحدية ذاته». وهؤلاء هم الصديقون المقربون. نفعنا الله بذكرهم، وخرطنا في سلكهم. آمين.

ثم نهى أهل الكتاب عن الغلو في عيسى، فقال:

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿يا أهل الكتب﴾ أي: النصارى، ﴿لا تغلوا في دينكم﴾ وتقولوا قولا ﴿غير الحق﴾؛ وهو اعتقادكم في عيسى أنه إله، أو أنه لغير رشدة، ولاتفرطوا، ﴿ولاتتبعوا أهواء قوم﴾ سلفوا قبلكم، وهم أئمتكم في الكفر، ﴿قد ضلوا من قبل﴾ أي: من قبل مبعث محمد ﷺ، ﴿وأضلوا﴾ أناساً ﴿كثيرا﴾؛ حملوهم على الاعتقاد الفاسد في عيسى وأمه، فقلدوهم وضلوا معهم، ﴿وضلوا عن سواء السبيل﴾ أي: عن قصد السبيل المستقيم، وهو الإسلام بعد مبعثه ﷺ، وقيل: الضلال الأول إشارة إلى ضلالهم عن مقتضى العقل، والثاني إشارة إلى ضلالهم عما جاء به الشرع. قاله البيضاوي.

الإشارة: الغلو كله مذموم كما تقدم، وخير الأمور أوسطها، كما تقدم. وقد رخص في الغلو في ثلاثة أمور: أحدها: في مدح النبي ﷺ فلا بأس أن يبالغ فيه مالم يخرجه عن طور البشرية، وهذا غلو ممدوح، مقرب إلى الله تعالى، قال في بردة المديح:

دعْ ما ادَّعَتْهُ النَّصارَى في نَبِيِّهِم   واحكُمْ بما شئْتَ مَدْحاً فيهِ واحْتَكِمِ

الثاني: في مدح الأشياخ والأولياء، مالم يخرجهم أيضاً عن طورهم، أو يغض من مرتبة بعضهم، فقد رخصوا للمريد أن يبالغ في مدح شيخه، ويتغالى فيه، بالقيدين المتقدمين؛ لأن ذلك يقربه من حضرة الحق تعالى. والثالث: في تعظيم الحق جل جلاله. وهذا لا قيد فيه ولا حصر. حدث عن البحر ولا حرج، إذا كان ممن يحسن العبارة ويتقن الإشارة، بحيث لا يوهم نقصاً ولا حلولا. وبالله التوفيق.

ولما ذكر مساوئ النصارى ذكر مساوئ اليهود، فقال:

﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨١﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿لُعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود﴾ أي: لعنهم الله فى الزبور على لسان نبيه داود عليه السلام، ﴿و﴾ لعنهم الله أيضاً فى الإنجيل على لسان ﴿عيسى بن مريم﴾، فالأول: أهل أَيْلَة؛ لما اعتدوا فى السبت لعنهم داود عليه السلام، فمسخوا قردة وخنازير، والثانى أصحاب المائدة، لمّا كفروا دعا عليهم عيسى، ولعنهم، فمسخوا خنازير، وكانوا خمسة آلاف رجل، ﴿ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون﴾؛ ذلك اللعن الشديع المقتضى للمسخ بسبب عصيانهم واعتدائهم ماحرّم عليهم.

﴿كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه﴾ أي: لا ينهى بعضهم بعضا عن معاودة منكر فعلوه، أو عن منكر أرادوا فعله وتهيأوا له، أو: لا ينتهون عنه ولا يمتنعون منه، ﴿لبئس ماكانوا يفعلون﴾، وهو تعجيب من سوء فعلهم مؤكد بالقسم.

﴿ترى كثيراً منهم﴾ أي: من اليهود، ﴿يتولون الذين كفروا﴾ أي: يوالون المشركين بُغضاً للرسول ﷺ وللمؤمنين، ﴿لبئس ماقدمت لهم أنفسهم﴾ أي: لبئس شيئاً قدموه، ليردوا عليه يوم القيامة، وهو ﴿أن سخط الله عليهم، وفى العذاب هم خالدون﴾ أي: بئس ماقدموا أمامهم، وهو سخط الله والخلود فى النار، والعياذ بالله. ﴿ولو كانوا يؤمنون بالله والنبى﴾ أي: نبيهم كما يزعمون، ﴿وماأنزل إليه﴾ من التوراة وغيره، ﴿ماتخذوهم أولياء﴾؛ لأن النبى لا يأمر بموالاة الكفار، ولو آمنوا بمحمد ﷺ وما أنزل إليه ـ كما هو الواجب عليهم ـ ما اتخذوا الكفار أولياء، ﴿ولكن كثيراً منهم فاسقون﴾ أي: خارجون عن دينهم، أو خارجون عن الدين الحق الذى لا يقبل غيره، وهو الإسلام.

الإشارة: ذكر الحق جل جلاله فى هذه الآية ثلاثة أمور، وجعلها سبباً للعن والطرد، وموجبة للسخط والمقت، أولها: الانهماك فى المعاصى والعدوان، والإصرار على الذنوب والطغيان. والثانى: عدم الإنكار على أهل المعاصى والسكوت عنهم والرضا بفعلهم، والثالث: موالاة الفجار والمودة مع الكفار، ولو كانوا آباءهم أو إخوانهم أو أزواجهم أو عشيرتهم، وفى بعض الأخبار: (لو أن رجلا قام الليل وصام النهار، ثم تودد مع الفجار لبعث معهم، ولو أن رجلاً عمل بالمعاصى ماعمل، ثم أحب الأبرار لحشر معهم)، أو كما قال ﷺ، ويعضده حديث: «المَرْءُ مع مَنْ أحبّ». والله تعالى أعلم.

ثم بيّن تفاوت عداوة الكفار للمسلمين، فقال:

﴿ ۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ

ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ
وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُوا۟
جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٨٦﴾ ﴾

قلت: القسيس: العالم، والراهب: العابد، و (مما عرفوا): سببية، و (من الحق): بيان أو تبعيض، وجملة: (لانؤمن): حال، والعامل فيها متعلق الجار، أي: أي شيء حصل لنا حال كوننا غير مؤمنين، و (نطمع): عطف على (نؤمن)، أو خبر عن مضمر، أي: ونحن نطمع.

يقول الحق جل جلاله: ﴿**لتجدن أشد الناس عداوة**﴾ للمؤمنين؛ اليهود والمشركين، لشدة شكيمتهم وتضاعف كفرهم، وانهماكهم في اتباع الهوى، وركونهم إلى التقليد، وبعدهم عن التحقيق، وتمرنهم على تكذيب الأنبياء، ومعاداتهم وعدوانهم لا ينقطع إلى الأبد.

﴿**ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى**﴾، للين جانبهم، ورقة قلوبهم، وقلة حرصهم على الدنيا بالنسبة لليهود، وكثرة اهتمامهم بالعلم والعمل، وإليه أشار بقوله: ﴿**ذلك بأن منهم قسيسين**﴾ أي: علماء، ومن جملة علمهم: علمهم بوصاية عيسى بالإيمان بمحمد ﷺ، ﴿**ورهبانا**﴾ أي: عباداً، ﴿**وأنهم لايستكبرون**﴾ عن قبول الحق إذا عرفوه، بخلاف اليهود؛ لكثرة جحودهم، وفيه دليل على أن التواضع والإقبال على العلم والعمل محمود، وإن كان من كافر. قاله البيضاوي

﴿**وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول**﴾ محمد ﷺ ﴿**ترى أعينهم تفيض من الدمع**﴾؛ من البكاء، جعل أعينهم من فرط البكاء كأنها تفيض بأنفسها، وإنما يفيض دمعها، وذلك ﴿**مما عرفوا من الحق**﴾ حين سمعوه، أو من بعض الحق، فما بالك لو عرفوا كله؟ ﴿**يقولون ربنا آمنا**﴾ بذلك، أو بمحمد ﷺ؛ ﴿**فاكتبنا مع الشاهدين**﴾ بأنه حق، أو بنبوة محمد ﷺ، أو من أمته الذين هم شهداء على الأمم.

نزلت في النجاشي وأصحابه، حين دعوا جعفراً وأصحابه، وأحضروا القسيسين والرهبان، وأمره أن يقرأ عليهم القرآن، فقرأ سورة مريم، فبكوا وآمنوا بالقرآن. وقيل: نزلت في ثلاثين أو سبعين رجلاً من قومه، وفدوا من عنده من الحبشة بأمره على رسول الله ﷺ، فقرأ عليهم سورة ﴿يس﴾، فبكوا وآمنوا، فصدر الآية عام، فالنصارى كلهم أقرب مودة للمسلمين، من آمن، ومن لم يؤمن، وإنما جاء التخصيص في قوله: ﴿**وإذا سمعوا**﴾، فالضمير إنما يرجع إلى من آمن منهم، كالنجاشي وأصحابه. وإنما جاء الضمير عاما؛ لأن الجماعة تحمد بفعل الواحد. انظر ابن عطية.

ولما دخل الإيمان فى قلوبهم حين سمعوا القرآن، عاتبوا أنفسهم على التأخر عن الإيمان فقالوا: ﴿ومالنا لانؤمن بالله وماجاءنا من الحق﴾ ﴿و﴾ نحن ﴿نطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين﴾، وهى أمة محمد ﷺ التى هى أفضل الأمم، وهذا منهم استفهام إنكار واستبعاد؛ لانتفاء الإيمان مع قيام الداعى، وهو الطمع فى الانخراط مع الصالحين، والدخول فى مداخلهم، ﴿فأثابهم الله﴾ أى: جازاهم ﴿بما قالوا﴾ واعتقدوا، ﴿جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء المحسنين﴾ الذى اعتادوا الإحسان فى جميع الأمور، أو الذين أحسنوا النظر وأتقنوا العمل.

ثم ذكر ضدهم فقال: ﴿والذين كفروا وكذبوا بآيتنا أولئك أصحاب الجحيم﴾، شفع بهم حال المؤمنين المصدقين، جمعاً بين الترغيب والترهيب، ليكون العبد بين خوف ورجاء. والله تعالى أعلم.

الإشارة: أشد الناس إنكاراً على الفقراء، وأشدهم عداوة لهم، من تقدم فى أسلافه رئاسة علم أو جاه أو صلاح أو نسبة شرف، وأقرب الناس مودة لهم من لم يتقدم له شيء من ذلك، فالعوام أقرب وأسهل للدخول فى طريق الخصوص من غيرهم. والله تعالى أعلم.

ولمّا تضمن الكلام مدح النصارى على ترهبهم، والحث على حبس النفس، ورفض الشهوات، أعقبه بالنهى عن الإفراط فى ذلك والاعتداء عما حدّه الله بجعل الحلال حراماً، فقال:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿يأيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله﴾ أى: لا تحرموا ماطاب ولذ مما أحله الله لكم، ﴿ولاتعتدوا﴾ فتحرموا ما أحللت لكم، ويجوز أن يراد: ولا تعتدوا حدود ما أحل لكم إلى ماحرم عليكم، فتكون الآية ناهية عن تحريم ما أحل وتحليل ماحرم، داعية إلى القصد بينهما، والوقوف على ماحد دون التجاوز إلى غيره. رُوى أن رسول الله ﷺ وصفَ القيامة يوماً، وبالغ فى إنذارهم، فَرَقوا، واجتمعوا فى بيت عُثمان بنْ مظعون، واتفقوا على ألا يزالوا صائمين قائمين، وألا يناموا على الفُرش، ولا يأكلوا اللحْم والوَدَك[١]، ولا يَقربوا النساء والطّيب، ويَرفضوا الدّنيا، ويلبسوا المسوح ، ويَسيحوا في الأرض، ويَجبُّوا مذاكرَهم، فبلَغ ذلك رسولَ الله ﷺ، فقال لهم: «إنى لم أُومرْ بذلك، إنّ لأنفسكُمْ عليكم حقاً، فصوموا وأفطروا، وقوموا وناموا، فإنّى أقومُ وأنام، وأصوم وأُفطر، وآكُلُ اللحْم والدّسم، وآتى النساء، فَمنْ رَغِبَ عن سُنّتى فلَيْس منى»[٢]. ونزلت الآية.

---

(١) الودك: دسم اللحم ودهنه الذى يُستخرج منه.

(٢) ذكره الواحدى فى أسباب النزول عن المفسرين، بغير إسناد، وبنحوه أورده الطبرى فى التفسير عن السدى. وهو منتزع من أحاديث، وأصله فى الصحيحين. راجع الفتح السماوى: (٥٧٩ ـ ٥٨١).

ثم قال تعالى: ﴿وكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيبا﴾ أى: كلوا ماحل لكم وطاب مما رزقكم الله، ﴿واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون﴾؛ فأحلوا حلاله واستعملوه، وحرموا حرامه واجتنبوه.

الإشارة: طريقةُ العباد والزهاد: رفض الشهوات والملذوذات بالكلية، زهداً وورعاً وخوفاً من اشتغال النفس بطلبها، فيتعطل وقتهم عن العبادة، وطريقة المريدين السائرين: رفض ماتتعلق به النفس قبل الحصول، وتشره إليه رياضة وتعففاً، لئلا تتعلق هِمَمُهم بغير الله، فما جاءهم من غير طلب ولا شره أكلوه وشكروا الله عليه، ولا يقفون مع جوع ولا شبع. وطريقة الواصلين العارفين: تجنب ما يقبض من غير يد الله، فإذا أخذتهم سنة حتى غفلوا عن التوحيد فقبضوا شيئاً، مع رؤية الواسطة، أخرجوه عن ملكهم، كما وقع لأبى مدين رضي الله عنه ويأخذون ماسوى ذلك قَلّ أو كثر، ولا يقفون مع أخذ ولا ترك، وفى الحكم: «لاتمدن يديك إلى الأخذ من الخلائق، إلا أن ترى أن المعطى فيهم مولاك، فإن كنت كذلك فخذ ـ ماوافقك العلم».

ولما صدر من بعض الصحابة يمين على ترك ماتقدم، ذكر لهم الكفارة، وفيما تجب، فقال:

﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ ۖ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ۚ ذَٰلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ۚ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾

قلت: (فى أيمانكم): يتعلق باللغو، أو بيؤاخذكم.

يقول الحق جل جلاله: ﴿لا يُؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم﴾ وهو ما يصدر من الإنسان بلا قصد، كقوله: لا والله، وبلى والله. وإليه ذهب الشافعي، وقيل: هو الحلف على ما يظن أنه كذلك ولم يكن، وإليه ذهب مالك وأبو حنيفة، ﴿ولكن يُؤاخذكم بما عقدتم الأيمان﴾ عليه، أى: بما جزمتم عليه بالنية والقصد، ﴿فكفارته﴾ أى: ماعقدتم عليه إذا حلفتم، ويجوز التكفير قبل الحنث لظاهر الآية.

ثم بيَّن الكفارة، فقال: ﴿إطعام عشرة مساكين﴾، فمن أطعم غنياً لم تجزه، واشترط مالك أن يكونوا أحرارا، وليس فى الآية مايدل على ذلك، ثم بيَّن نوعه فقال: ﴿من أوسط ماتُطعمون أهليكم﴾ أى: من وسط طعام أهليكم فى القدر أو فى الصفة، أما القدر فقال مالك: يطعم مُداً لكل مسكين بمد النبى ﷺ إذا كان فى المدينة

المشرفة، وفي غيرها وسط من الشبع، وقال الشافعي وابن القاسم: يجزئ المُد في كل مكان، وقال أبو حنيفة: إن غذاهم وعشاهم أجزأه. قلت: وهو قول في المدونة لمالك أيضًا. وأما الصنف، فاختلف: هل يطعم من عيش نفسه، أو من عيش بلده وهو المشهور؟

فمعنى الآية على هذا: ﴿من أوسط ماتطعمون﴾ أيها الناس ﴿أهليكم﴾ على الجملة ﴿أوكسوتهم﴾؛ فيكسو كل مسكين ماتصح به الصلاة، فالرجل ثوب، والمرأة قميص وخمار، ﴿أو تحرير رقبة﴾ مؤمنة على مذهب مالك؛ لتقييدها بذلك في كفارة القتل. وأجاز أبو حنيفة عتق الكافر، لإطلاق اللفظ هنا، واشترط مالك أيضًا أن تكون مسلّمة من العيوب، وليس في الآية ما يدل عليه، فهذه الثلاثة بالتخيير.

﴿فمن لم يجد﴾ واحداً من هذه الثلاثة، ولم يقدر على شيء منها، بحيث لم يفضل له عن قوته وقوت عياله في يومه مايطعم به، ﴿فصيام ثلاثة أيام﴾ يستحب تتابعها، واشترطه أبو حنيفة؛ لأنه قرئ: (أيام متتابعات)، والشاذ ليس بحجة، ﴿ذلك﴾ المذكور هو ﴿كفارة أيمانكم إذا حلفتم﴾ وحنثتم، ﴿واحفظوا أيمانكم﴾ أي: صونوا ألسنتكم عن كثرة الحلف، فيكون الله عرضة لأيمانكم، أو احفظوها بأن تبروا فيها ولا تحنثوا، إلا إن كان في الامتناع من الخير، فالحنث فيها أحسن، كما في الحديث. أو احفظوها بأن تكفروها إذا حنثتم، ولا تتهاونوا بها، ﴿كذلك يُبين الله لكم آياته﴾ أي: مثل ذلك البيان يُبين لكم أعلام شرائعه ﴿لعلكم تشكرون﴾ نعمة التعليم، أو نعمه الواجب شكرها، فإن مثل هذا التبيين يُسهل لكم المخرج من ضيق اليمين، فهو نعمة يجب شكرها. والله تعالى أعلم.

الإشارة: ليس التشديد والتعقيد من شأن أهل التوحيد، إنما شأنهم الاسترسال مع مايبرز من عنصر القدرة، ليس لهم وقت دون الوقت الذي هم فيه، قد حلّ التوحيد عُقدهم ودكّ عزائمهم، فهم في عموم أوقاتهم لا يدبرون ولا يختارون، وإن وقع منهم تدبير أو اختيار رجعوا إلى مايفعل الواحد القهار، لاينشطون إلى شيء ولا يهربون من شيء، إلا إن كان فيه مخالفة للشرع.

ولا يعقدون على ترك شيء من المباحات ولا على فعله، لأنهم لا يرون لأنفسهم فعلا ولا تركا، إن صدرت منهم طاعة شهدوا المنة لله، وإن وقعت منهم زلة أو غفلة تأدبوا مع الله، وبادروا بالتوبه إلى الله، وما صدر من الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ فلعل ذلك كان حالاً غالبة عليهم، قد أزعجهم وعظ النبي ﷺ، وأنهضهم حاله، فلما رءاهم غلب عليهم الحال ردهم إلى حال الاعتدال، ولعل الحق ـ جل جلاله ـ، إنما جعل كفارة اليمين جبراً لخلل ذلك التعقيد، الذي صدر من الحالف مع تفريطه بالحنث، فكأنه حلف على فعل غيره، ففيه نوع من التألي على الله. والله تعالى أعلم.

ولما أمر الحق جل جلاله بأكل الحلال الطيب أخرج ضده، فقال:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٩٠) إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ (٩١) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٩٢) ﴾

قلت: (رجس): خبر، وأفرده؛ لأنه على حذف مضاف، أي: تعاطي الخمر، أو خبر عن الخمر، وخبر المعطوفات محذوف، أي: كذلك.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ياأيها الذين آمنوا إنما﴾ تناول **﴿الخمر﴾**؛ وهو كل ماغيب العقل، دون الحواس، مع النشوة والطرب، **﴿والميسر﴾** وهو القمار **﴿والأنصاب﴾** وهو مانصب ليُعبد من حجارة أو خشب، **﴿والأزلام﴾** أي: الاستقسام بها، وقد تقدم تفسيرها[1]، **﴿رجس﴾** قذر خبيث تعافه العقول السليمة، **﴿من عمل الشيطان﴾** أي: من تسويله وتزيينه، **﴿فاجتنبوه﴾** أي: ماذكر من تعاطي الخمر، ومابعده، **﴿لعلكم تفلحون﴾** أي: تفوزون بالرضوان والنعيم المقيم.

قال البيضاوي: اعلم أن الحق تعالى أكد تحريم الخمر والميسر في هذه الآية، بأن صدّر الجملة بإنما، وقرنها بالأنصاب والأزلام وسماهما رجساً، وجعلهما من عمل الشيطان، تنبيهاً على أن الاشتغال بهما شر محض، وأمر بالاجتناب عن عينهما، وجعله سبباً يرجى منه الفلاح، ثم قرّر ذلك بأن بيّن مافيهما من المفاسد الدنيوية والدينية المقتضية للتحريم فقال: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ ﴾، وقد وقع ذلك في زمن الصحابة، وهي كانت سبب تحريمه، **﴿ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة﴾**؛ إنما خص الخمر والميسر بإعادة الذكر وشرح ما فيهما من الوبال تنبيهاً على أنهما المقصودان بالبيان. وذكر الأنصاب والأزلام للدلالة على أنهما مثلهما في الحرمة والشرارة؛ لقوله ﷺ: «شَارِبُ الْخَمْرِ كَعَابِدِ الوَثَنِ»[2].

وخص الصلاة من الذكر بالإفراد؛ للتعظيم والإشعار بأن الصاد عنها كالصاد عن الإيمان؛ من حيث إنها عماده، والفارق بينه وبين الكفر، ثم أعاد الحث على الانتهاء بصيغة الاستفهام مرتبًا على ماتقدم من أنواع

---

(١) راجع تفسير الآية ٣ من السورة نفسها.
(٢) أخرجه بلفظه البزار، كشف الأستار (الأشربة، باب في شارب الخمر) من حديث عبدالله بن عمرو، وأخرجه ابن ماجه في (الأشربة باب مدمن الخمر) بلفظ: (مدمن الخمر).

الصوارف فقال: ﴿فهل أنتم منتهون﴾؟ إيذانا بأن الأمر في المنع والتحذير بلغ الغاية، وأن الأعذار قد انقطعت. هـ .ولذلك لما سمعها الفاروق رضي الله عنه حين نزلت، قال: (قد انتهينا يا ربنا).

وبهذا الآية وقع تحريم الخمر، وقد كان حلالا قبلها، بدليل سكوته ﷺ على شربها قبل نزول الآية، **فإن قلت:** حفظ العقول من الكليات الخمس التى اتفقت الشرائع على تحريمها؟ **قلنا:** لا حكم قبل الشرع، بل الأمر موقوف إلى وروده، ولما طالت الفترة، وانقطعت الشرائع عند العرب، رجعت الأشياء إلى أصلها من الإباحة بمقتضى قوله تعالى: ﴿ خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾(١)، حتى جاءت الشريعة المحمدية فحرمتها كالشرائع قبلها، فكانت حينئذ حراماً، ودخلت فى الكليات الخمس التى هى: حفظ العقول والأبدان والأموال والأنساب والأديان.

ثم أكد ذلك أيضاً بقوله: ﴿وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول﴾ فيما أمر ونهى، ﴿واحذروا﴾ غضبهما إن خالفتم، ﴿فإن توليتم﴾ أو أعرضتم عن طاعتهما ﴿فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين﴾؛ لاتضره مخالفتكم، إنما عليه البلاغ وقد بلغ.

الإشارة: المقصود هو النهى عن كل ما يصد عن الله أو يشغل العبد عن شهود مولاه، وخص هذه الأربعة، لأنها أمهات الخطايا ومنبع الغفلة والبلايا، فالخمر فيه فساد العقل الذى هو محل الإيمان، والميسر فيه فساد المال وفساد القلب بالعداوة والشحناء، وفساد الفكر لاستعماله فى الهوى، والأنصاب فيه فساد الدين الذى هو رأس المال، والأزلام فيه الفضول والاطلاع على علم الغيب، الذى هو سر الربوبية، وهو موجب للمقت والعطب، والعياذ بالله.

ثم عفا عما سلف من الخمر والميسر قبل التحريم، فقال:

﴿ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوا وَّآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوا وَّآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوا وَّأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (٩٣) ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح﴾ أى: إثم ﴿فيما طعموا﴾ من الخمر والميسر قبل التحريم، ﴿إذا ما اتقوا﴾ أى: إذا اتقوا الشرك، ﴿وآمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا﴾ المحرمات ﴿وآمنوا﴾ أى: حققوا مقام الإيمان، ﴿ثم اتقوا﴾ الشبهات والمكروهات ﴿وأحسنوا﴾ أى: حصلوا مقام الإحسان، وهو إتقان العبادة، وتحقيق العبودية، ومشاهدة عظمة الربوبية، ﴿والله يحب المحسنين﴾ أى: يقربهم

---

(١) من الآية ٢٩ من سورة البقرة.

ويصطفيهم لحضرته، رُوي أنه لما نزل تحريم الخمر، قالت الصحابة ـ رضى الله عنهم ـ: يارسول الله؛ فكيف بإخواننا الذين ماتوا وهم يشربون الخمر ويأكلون الميسر؟ فنزلت.

ويحتمل أن يكون هذا التكرير باعتبار الأوقات الثلاثة، أي: الماضي والحال والاستقبال، أو باعتبارات الحالات الثلاثة. فيستعمل التقوى فيما بينه وبين نفسه بالتزكية والتحلية، وفيما بينه وبين الناس بالكف عن التعرض لهم، وفيما بينه وبين الله بامتثال أمره واجتناب نهيه والغيبة عن غيره، ولذلك بدل الإيمان بالإحسان فى الكرة الثالثة، أو باعتبار المراتب الثلاثة؛ المبدأ والوسط والنهاية، أو باعتبار مايتقُى؛ فإنه ينبغى أن يتقي المحرمات توقيًا من العقاب، ثم يتقي الشبهات تحفظاً من الحرام، ثم يتقي بعض المباحات تحفظاً للنفس عن خسة الشره، وتهذيبًا لها عن دنس الطبيعة، قال معناه البيضاوي.

الإشارة: المقامات التى يقطعها المريد ثلاث: مقام الإسلام، ومقام الإيمان، ومقام الإحسان، فما دام المريد مشتغلاً بالعمل الظاهر؛ من صلاة وصيام وذكر اللسان، سُمى مقام الإسلام، فإذا انتقل لعمل الباطن من تخلية وتحلية وتهذيب وتصفية، سُمى مقام الإيمان، فإذا انتقل لعمل باطن الباطن من فكرة ونظرة وشهود وعيان سمى مقام الإحسان، وهذا اصطلاح الصوفية؛ سموا مايتعلق بإصلاح الظواهر: إسلاماً، وما يتعلق بإصلاح القلوب والضمائر: إيماناً، وما يتعلق بإصلاح الأرواح والسرائر: إحسانا. وجعل الساحلي فى البغية كل مقام مركبًا من ثلاثة مقامات، فالإسلام مركب من التوبة والتقوى والاستقامة، والإيمان مركب من الإخلاص والصدق والطمأنينة، والإحسان مركب من مراقبة ومشاهدة ومعرفة. وأطال الكلام فى كل مقام، لكن من سقط على شيخ التربية لم يحتج إلى شيء من هذا التفصيل. وبالله التوفيق.

ثم تكلم على حرمة الصيد فى الإحرام تبييناً لقوله: ﴿ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ﴾ ، فقال:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبۡلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلصَّيۡدِ تَنَالُهُۥٓ أَيۡدِيكُمۡ وَرِمَاحُكُمۡ لِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٩٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡتُلُواْ ٱلصَّيۡدَ وَأَنتُمۡ حُرُمٞۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآءٞ مِّثۡلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحۡكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ هَدۡيَۢا بَٰلِغَ ٱلۡكَعۡبَةِ أَوۡ كَفَّٰرَةٞ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوۡ عَدۡلُ ذَٰلِكَ صِيَامٗا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمۡرِهِۦۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَۚ وَمَنۡ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنۡهُۚ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٩٥﴾ أُحِلَّ لَكُمۡ صَيۡدُ ٱلۡبَحۡرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِلسَّيَّارَةِۖ وَحُرِّمَ عَلَيۡكُمۡ صَيۡدُ ٱلۡبَرِّ مَا دُمۡتُمۡ حُرُمٗاۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾

قلت : (فجزاء) : مبتدأ، والخبر محذوف، أي: فعليه جزاء، أو خبر عن مبتدأ محذوف، أي: فواجبه جزاء، و (مثل) : صفته، و (من النعم) : صفة ثانية لجزاء، أي: فعلية جزاء مماثل حاصل من النعم، ومن قرأ (مثل) بالجر، فعلى الإضافة، من إضافة المصدر إلى المفعول، أي: فعليه أن يجزى مثل ماقتل، أو يكون (مثل) مقحمة كما في قولهم: مثلى لا يقول كذا. وقرئ بالنصب، أي: فليجزأ جزاء مماثلا. وجملة (يحكم) صفة لجزاء أيضا، أو حال من ضمير الخبر.

و(هَدْياً) : حال من ضمير (به)، أو من جزاء؛ لتخصيصه بالإضافة أو الصفة فيمن نون، و (بالغ) : صفة للحال، أو بدل من مثل باعتبار محله، أو لفظه فيمن نصبه، أو (كفارة) عطف على (جزاء) إن رفعته، وإن نصبت جزاء فهو خبر، أي: وعليه كفارة، و (طعام مساكين) : عطف بيان، أو بدل منه، أو خبر عن محذوف، أي: هي طعام، ومن جرأ طعاماً فبالإضافة للبيان، كقوله : خاتم فضة، أو (عدل) عطف على (طعام) فيمن رفعه، أو خبر فيمن جره، أي: عليه كفارة طعام، أو عليه عدل ذلك، و (ليذوق) : متعلق بمحذوف، أي: فيجب عليه الجزاء أو الطعام أو الصوم ليذوق سوء عاقبة فعله، و(متاعًا لكم) : مفعول من أجله، و(حُرُمًا) : حال، أي: مادمتم محرمين، أو خبر دام على النقص، ويقال: دام يدوم دُمتُ، كقال يقول قلت، ودام يدَام دِمت، كخاف يخاف خفت. وبه قُرئ في الشاذ.

يقول الحق جل جلاله : ﴿ياأيها الذين آمنوا ليبلونكم﴾ أي: والله ليختبرنكم ﴿الله بشيء﴾ قليل ﴿من الصيد﴾ يسلطه عليكم ويذلّله لكم حتى ﴿تناله أيديكم﴾ بالأخذ ﴿ورماحكم﴾ بالطعن ﴿ليعلم الله﴾ علم ظهور وشهادة تقوم به الحجة، ﴿من يخافه بالغيب﴾ فيكف عن أخذه حذراً من عقاب ربه، نزل عام الحديبية، ابتلاهم الله بالصيد، كانت الوحوش تغشاهم في رحالهم، بحيث يتمكنون من صيده، أخذاً بأيديهم وطعنًا برماحهم، وهم مُحرمون، وكان الصيد هو معاش العرب ومستعملاً عندهم، فاختبروا بتركه مع التمكن منه، كما اختُبِر بنو إسرائيل بالحوت في السبت.

وإنما قلّله بقوله: ﴿ بشيء من الصيد ﴾ إشعاراً بأنه ليس من الفتن العظام كبذل الأنفس والأموال، وإنما هو من الأمور التي يمكن الصبر عنها، فمن لم يصبر عنده فكيف يصبر بما هو أشد منه؟ ﴿فمن اعتدى بعد ذلك﴾ الابتلاء بأن قتل بعد التحريم، ﴿فله عذاب أليم﴾ في الآخرة، لأن من لا يملك نفسه في مثل هذه فكيف يملكها فيما تكون النفس فيه أميل وعليه أحرص؟!.

ثم صرح بالحرمة، فقال: ﴿ياأيها الذين آمنوا لاتقتلوا الصيد وأنتم حرم﴾ أي : محرمون جمع حَرَم، والمراد من دخل في الإحرام أو في الحرم ، وذكر القتل ليفيد العموم ، فيصدق بالذبح وغيره، وماصاده المحرم

أو صيد له ميتةٌ لايؤكل، والمراد بالصيد المنهي عن قتله: ما صيد وما لم يُصَدْ مما شأنه أن يصاد، وورد هنا النهي عن قتله قبل أن يصاد، وبعده، وأما النهي عن الاصطياد فيؤخذ من قوله: ﴿وحرم عليكم صيد البر مادمتم حُرماً﴾ ، وخصص الحديث: الغراب والحدأة، والفأرة والعقرب والكلب العقور(١) ، فلا بأس بقتلهم، في الحل والحرم، وأدخل مالك في الكلب العقور كل ما يؤذي الناس من السباع وغيرها، وقاس الشافعي على هذه الخمسة كل مالايؤكل لحمه.

ثم ذكر جزاء قتله فقال: ﴿ومن قتله منكم متعمدا فجزاء مثل ماقتل من النَّعَم﴾ أي: فعليه جزاء مثل مايماثله من النعم، وهي الإبل والبقر والغنم، ففي النعامة بدنة، وفي الفيل ذات سنامين، وفي حمار الوحش وبقره بقَرة، وفي الغزالة شاة، فالمثلية عند مالك والشافعي في الخلقة والمقدار، فإن لم يكن له مثلٌ؛ أطعم أو صام، يُقوِّم بالطعام فيتصدق به، أو يصوم لكل مدٍ يوماً، ومذهب أبي حنيفة أن المثلية: القيمة، يُقوِّم الصيد المقتول، ويخير القاتل بين أن يتصدق بالقيمة أو يشتري بها من النعم مايهديه. وذكر العمد ليس بتقييد عند جمهور الفقهاء، خلافاً للظاهرية؛ بل المتعمد، والناسي في وجوب الجزاء سواء، وإنما ذكره ليرتب عليه قوله: ﴿ومن عاد فينتقم الله منه﴾ ، ولأن الآية نزلت فيمن تعمد، إذ رُوي أنهم عرض لهم حمار وحشي، فطعنه أبو اليسر برمحه فقتله، فنزلت الآية.

ولابد من حكم الحكَمين على القاتل لقوله: ﴿يحكم به ذوا عدل منكم﴾ ، فكما أن التقويم يحتاج إلى نظر واجتهاد، فكذلك تحتاج المماثلة في الخلقة والهيأة إليهما، فإن أخرج الجزاء قبل الحكم عليه؛ فعليه إعادته، إلا حمام مكة؛ فإنه لا يحتاج إلى حكمين، ويجب عند مالك التحكيم فيما حكمت به الصحابة وفيما لم تحكم، لعموم الآية. وقال الشافعي: يكتفي في ذلك بما حكمت به الصحابة، حال كون المحكوم به ﴿هدياً﴾ بشرط أن يكون مما يصح به الهدي، وهو الجذع من الضأن، والثني مما سواه، وقال الشافعي: يخرج المثل في اللحم، ولا يشترط السن، ﴿بالغ الكعبة﴾ لم يرد الكعبة بعينها، وإنما أراد الحرم، وظاهره يقتضي أن يصنع به ما يصنع بالهدي؛ من سوق من الحل إلى الحرم، وقال الشافعي وأبو حنيفة: إن اشتراه في الحرم أجزأه.

﴿أو كفارة طعام مساكين﴾ ؛ مد لكل مسكين، ﴿أو عدل ذلك صياماً﴾ ؛ يوم لكل مد، عدد الحق ـ تعالى ـ مايجب في قتل الصيد، فذكر أولاً الجزاء من النعم، ثم الطعام، ثم الصيام، ومذهب مالك والجمهور: أنها على

---

(١) أخرج ذلك البخاري في (جزاء الصيد، باب ما يقتل من الدواب) ومسلم في (الحجر، باب مايندب للمحرم وغيره قتله من الدواب في الحل والحرام) من حديث السيدة عائشة رضي الله عنها.

التخيير، وهو الذى يقتضيه العطف بأو، ومذهب ابن عباس أنها مرتبة. وقد نظم ابن غازى الكفارات التى فيها التخيير أو الترتيب؛ فقال:

خَيِّرْ بِصَوْمٍ ثُمَّ صَيْدٍ وأذى وقُل لِكُلِّ خَصْلَةٍ: يا حَبَّذا
وَرَتِّبِ الظِّهارَ والتَّمَتُّعا وَالقَتْلَ ثُمَّ فى اليَمِينِ اجْتَمَعا

وكيفية التخيير هنا: أن يخير الحكمان القاتلَ؛ فإن أراد الجزاء عينوا له ما يهدى، وإن أراد الإطعام قوموا الصيد بالطعام فى ذلك المحل، فيطعم مدًا لكل مسكين، وإن أراد الصيام صام يوماً لكل مدٍّ، وكمل لكسره، فإذا قوم بعشرة مثلاً ونصف مدّ، صام أحد عشر يوماً.

ثم ذكر حكمة الجزاء، فقال: ﴿ليذوق وبال أمره﴾ أى: فعليه الجزاء أو الإطعام أو الصيام؛ ليذوق عقوبة سوء فعله، وسوء هتكه لحرمة الإحرام، ﴿عفا الله عما سلف﴾ فى الجاهلية أو قبل التحريم، ﴿ومن عاد فينتقم الله منه﴾ فى الآخرة، وليس فيه ما يمنع الكفارة على العائد؛ كما حكى عن ابن عباس وشريح. ﴿والله عزيز ذو انتقام﴾ ممن أصر على عصيانه.

ثم استثنى صيد البحر فقال: ﴿أحل لكم صيد البحر﴾ وهو ما لا يعيش إلا فى الماء، وهو حلال كله لقوله ﷺ فى البحر: «هُو الطَّهورُ ماؤُه، الحِلُّ ميْتَتُه»[1]. وقال أبو حنيفة: لا يحل منه إلا السمك، ﴿وطعامه﴾ أى: ما قذفه، أو طفا على وجهه؛ لأنه ليس بصيد إنما هو طعام. وقال ابن عباس: طعامه: ما ملّح وبقى، ﴿متاعًا لكم وللسيارة﴾، الخطاب بلكم للحاضرين فى البحر، والسيارة: المسافرون فى البر، أى: هو متاع تأتدمون به فى البر والبحر، ﴿وحُرِّم عليكم صيد البر﴾ يحتمل أن يريد به المصدر، أى الاصطياد، أو الشىء المصيد، أو كلاهما، وتقدم أن ما صاده محرم أو صيد له: ميتة، وحد الحرمة: ﴿ما دمتم حُرمًا﴾ فإذا حللتم فاصطادوا، ﴿واتقوا الله﴾ فى ترك ما حرم عليكم، ﴿الذى إليه تحشرون﴾ فيجازيكم على ما فعلتم.

الإشارة: إذا عقد المريد مع الله عقدة السير والمجاهدة، قد يختبره الله ـ تعالى ـ فى سيره بتيسير الشهوات، وتسليط العلائق والعوائق؛ ليعلم الكاذب من الصادق، فإن كف عنها وأعرض، هيأه لدخول الحضرة، وإن انهمك فيها، واقتنص فى شبكتها، بقى مرهونًا فى يدها، أسيراً فى قبضة قهرها، فإذا نهض حتى دخل حرم الحضرة قاصداً لمعرفة المعارف، حُرِّم عليه صيد البر، وهو كل ما يخرج من بحر الحقيقة إلى شهود بَرِّ السِّوى، فرقًا بلا جمع، كائنًا ما كان، رسوماً أو علوماً أو أحوالاً أو أقوالا، وحلّ له صيد البحر وطعامه، من أسرارٍ أو أنوارٍ أو حقائق،

[1] أخرجه مالك فى (الطهارة، باب الطهور للوضوء) والبيهقى فى الكبرى (١ / ٣) وأبو داود فى (الطهارة، باب الوضوء بماء البحر) والترمذى فى (الطهارة، باب ما جاء فى ماء البحر) والنسائى فى (الطهارة، باب ماء البحر) وابن ماجه فى (الطهارة، باب الوضوء بماء البحر) من حديث أبى هريرة رضي الله عنه.

متاعاً لروحه وسره، وللسيارة من أبناء جنسه، يطعمهم من تلك الأسرار، بالهمة أو الحال أو التذكار، واتقوا الله في الاشتغال بما سواه، الذي إليه تحشرون، فيدخلكم جنة المعارف قبل جنة الزخارف. والله تعالى أعلم.

ولما عظَّم شأن الحرم عظَّم شأن الكعبة، فقال:

﴿ ۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ ۚ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٨﴾ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾

قلت: (البيت الحرام): عطف بيان على جهة المدح، و(قياما): مفعول ثان.

يقول الحق جل جلاله: ﴿جعل الله الكعبة﴾ التي هي ﴿البيت الحرام قياما للناس﴾ أي: سبب انتعاشهم، يقوم بها أمر معاشهم ومعادهم، يلوذ به الخائف، ويأمن فيه الضعيف، ويربح فيه التجار، ويتوجه إليه الحجاج والعُمار، أو يقوم به أمر دينهم بالحج إليه، وأمر دنياهم بأمْنِ داخله، وتُجبى ثمرات كل شيء إليه.

قال القشيري: حكمَ الله ـ سبحانه ـ بأن يكون بيته اليومَ ملجأ يلوذ به كل مؤمِّل، ويستقيم ببركة زيارته كلُّ حائدٍ عن نهج الاستقامة، ويظفر بالانتقال هناك كل ذي أربٍ. هـ.

﴿والشهر الحرام﴾ جعله الله أيضاً قياماً للناس، والمراد به ذو الحجة، فهو قيام لمناسك الحج، وجَمْع الوجود إليه بالأموال من كل جانب، أو الجنس، وهي أربعة: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب، لأنهم كانوا يكفون عن القتال، ويأمن الناس فيها في كل مكان، **﴿والهدي﴾**، لأنه أمان لمن يسوقه؛ لأنه لم يأت لحرب، **﴿والقلائد﴾**، كان الرجل إذا خرج يريد الحج تقلد شيئاً من السمُر[1]، وإذا رجع تقلد شيئاً من شجر الحرم؛ ليعلم أنه كان في عبادة، فلا يتعرض له أحد بشر، فالقلائد هنا: ماتقلده المحرم من الشجر، وقيل: قلائد الهدي.

﴿ذلك لتعلموا أن الله يعلم مافي السموات ومافي الأرض﴾ أي: جعل ذلك الأمور، قياماً للناس؛ لتعلموا أن الله يعلم تفاصيل الأمور، فشرع ذلك دفعاً للمضار وجلباً للمنافع، **﴿وأن الله بكل شيء عليم﴾** لا يخفى عليه محل مصالح عباده ومضارهم، وهو تعميم بعد تخصيص، ومبالغة بعد إطلاق.

---

(١) السمُر ـ بضم الميم والراء: ضرب من الشجر، صغار الورق قصار الشوك.

ثم قال تعالى : ﴿اعلَموا أن الله شديد العقاب﴾ لمن عصاه، ﴿وأن الله غفور رحيم﴾ لمن أطاعه وأقبل عليه، وهو وعيد ووعد لمن انتهك محارمه ولمن حافظ عليها، أو لمن أصرّ ورجع، ﴿ما على الرسول إلا البلاغ﴾ وقد بلغ، فلم يبق عذر لأحد، وهو تشديد في إيجاب القيام بما أمر، ﴿والله يعلم ماتبدون وماتكتمون﴾ من تصديق وتكذيب وفعل وعزيمة.

الإشارة: كما جعل الله الكعبة قياماً للناس، يقوم به أمر دينهم ودنياهم ، جعل القلوب، التي هي كعبة الأنوار والأسرار، قياما للسائرين، يقوم بها أمر توحيدهم ويقينهم، أو أمر سيرهم ووصولهم. وفي الحديث: «إنّ في الجسدِ مُضغَةً إذا صلَحَتْ صلَحَ الجسدُ كلُّه وإذا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كلُّه؛ ألاَ وَهِيَ القَلْبُ». وكما جعل الشهر الحرام والهدى والقلائد حرمة لأهلها، جعل النسبة والتزيي بها حفظاً لصاحبها، من تزيا بزي قوم فهو منهم، يجب احترامه وتعظيمه لأجل النسبة، فإن كان كاذباً فعليه كذبه، وإن يك صادقا يصبكم بعض الذي يعدكم، وقد أخذ اللصوص بعض الفقراء، وانتهكوا حرمته، وأخذوا ثيابه، فاشتكى لشيخه فقال له: هل كانت عليك مرقعتك؟ قال: لا، فقال له: أنت فرطت؛ والمفرط أولى بالخسارة. هـ. والله تعالى أعلم.

ولمّا كان مدار الأمر كله على صلاح القلوب وفسادها ذكره بإثره، فقال:

﴿ قُل لَّا يَسْتَوِي ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿قل لا يستوى الخبيث والطيب﴾ عند الله، في القلوب والأحوال والأعمال والأموال والأشخاص، فالطيب من ذلك كله مقبول محبوب، والرديء مردود ممقوت، فالطيب مقبول وإن قلّ، والرديء مردود ولو جلّ، وهو معنى قوله: ﴿ولو أعجبك كثرة الخبيث﴾، فالعبرة بالجودة والرداءة، دون القلة والكثرة، وقد جرت عادته ـ تعالى ـ بكثرة الخبيث من كل شيء، وقلة الطيب من كل شيء، قال تعالى : ﴿ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ﴾[1]، ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾[2] ، وفي الحديث الصحيح: «النَّاسُ كإبلٍ مِائةٍ لا تكادُ تجِدُ فيها راحِلةً»[3]، وقال الشاعر:

إنِّى لأفْتَحُ عَيْنِي حِينَ أفْتَحُها عَلَى كَثِيرٍ ولكنْ لا أرى أحَدا

فأهل الصفا قليل في كل زمان، ولذلك خاطبهم بقوله: ﴿فاتقوا الله يأولي الألباب﴾ أي: القلوب الصافية في تجنب الخبيث وإن كثر، وأخذ الطيب وإن قلّ، ﴿لعلكم تُفلحون﴾ بصلاح الدارين.

---

(١) من الآية ٢٤ من سورة ص. (٢) من الآية ١٣ من سورة سبأ.

(٣) أخرجه البخاري في (الرقاق باب رفع الأمانة) ومسلم في (فضائل الصحابة، باب قوله ﷺ: الناس كإبل مائة ..) من حديث ابن عمر رضي الله عنه ومعنى الحديث: أن الزاهد في الدنيا، الكامل في الزهد فيها قليل جداً، كقلة الراحلة في الإبل.

الإشارة: لاعبرة بالأحوال الظلمانية وإن كثرت، وإنما العبرة بالأحوال الصافية ولو قلت، صاحب الأحوال الصافية موصول، وصاحب الأحوال الظلمانية مقطوع، مالم يتب عنها، قال بعض الحكماء: (كما لا يصح دفن الزرع فى أرض ردية، لا يجوز الخمول بحال غير مرضية).

والمراد بالأحوال الصافية: هى التى توافق مراسم الشريعة؛ بحيث لا يكون عليها من الشارع اعتراض، بأن تكون مباحة فى أصل الشريعة، ولو أخلت بالمروءة عند العوام، إذ المروءة إنما هى التقوى عند الخواص، والمراد بالأحوال، كل مايثقل على النفس وتموت به سريعًا، كالمشى بالحفا وتعرية الرأس، والأكل فى السوق، والسؤال، وغير ذلك من خرق عوائدها، التى هى شرط فى حصول خصوصيتها، وفى الحِكَم: «كيف تخرق لك العوائد؟ وأنت لم تخرق من نفسك العوائد». وبالله التوفيق.

ومن جملة الأحوال الرديئة: كثرة الخوض فيما لا يعنى، التى أشار إليه بقوله:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُواْ بِهَا كَـٰفِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾

قلت: الجملة الشرطية صفة لأشياء، وأشياء اسم جمع لشيء، أصله عند سيبويه: شيئاءَ، مثل فَعْلاء، قلبت إلى لفْعاء، أى: قلبت لامه إلى فائه، لثقل اجتماع الهمزتين، وقال أبو حاتم: أشياء وزنها أفعال، وهو جمع شيء، وترك الصرف فيه سماع، وقال الكسائي: لم ينصرف أشياء، لشبه آخره بآخر حمراء، انظر ابن عطية. وجملة (عفا الله عنها): صفة أخرى لأشياء، أى: عن أشياء عفا الله عنها، ولم يكلف بها.

يقول الحق جل جلاله: ﴿يأيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء﴾ ليس لكم فيها نفع، ﴿إن تُبد لكم تسؤكم﴾ أى: إن تظهر لكم وتجابوا عنها تسؤكم؛ بالأخبار بما لا يعجبكم وبما يشق عليكم، قيل: سبب نزول الآية: كثرة سؤال الناس له ﷺ من الأعراب والمنافقين والجهال، فكان الرجل يقول للنبى ـ عليه الصلاة السلام ـ؟ أين ناقتى؟ وآخر يقول: ماذا ألقى فى سفرى؟ ونحو هذا من التعنيت، حتى صعد المنبر ﷺ مغضبًا، فقال: «لا تَسألوني اليوم عن شيء إلا أخْبَرتُكُمْ به» . فقام رجل فقال: أين أنا؟ فقال: فى النار، وقام عبد الله بن حذافة ـ وكان يطْعَن فى نسبِه فقال: مَنْ أبى؟ فقال: «أبوك حذافة» ، وقال آخر: من أبى؟ قال: «أبوك سالم مولى شيبة» ، فقام عمر بن الخطاب، فجثا على ركبتيه، فقال: رَضينا بالله ربًا، وبالإسلام دِيناً، وبمُحَمّدٍ نبيًا نعوذ بالله من الفتن. فنزلت هذه الآية(١).

(١) أخرج بعضه البخاري في: (مواقيت الصلاة، باب وقت الظهر عند الزوال) عن أنس، وأخرجه مختصراً فى (التفسير ـ سورة المائدة) عن ابن عباس، وانظر فتح البارى (ح ٤٦٢١) والفتح السماوى (٢ / ٥٩٤ ـ ٥٩٥)

وقيل: سبب نزولها: أن رسول الله ﷺ خطب فقال: «أيها الناس إن الله كتب عليكم الحج فحجوا، فقالوا: يارسول الله، أفي كل عام؟ فسكت، فأعادوا، فقال: لا، لو قُلْتُ: نَعَمْ، لوجبَتْ، ولَو وجَبَتْ لَمْ تُطيقوه، ولَو تَركْتموه لهلكتم، فاتْرُكُونى مَاتَرَكْتُكُم»(١)، قال أبو ثعلبة الخشني رضي الله عنه: إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها، ونهى عن أشياء فلا تنتهكوها، وحد حدوداً فلا تعتدوها، وعفا ـ من غير نسيان ـ عن أشياء، فلا تبحثوا عنها .

ثم قال تعالى: ﴿وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن﴾ أى زمنه ﴿تُبد لكم﴾ أى: تظهر لكم، وفيه معنى الوعيد على السؤال، كأنه قال: لا تسألوا، وإن سألتم أبدى لكم ما يسؤكم. والمراد بحين ينزل القرآن: زمان الوحي. فلا تسألوا عن أشياء قد ﴿عفا الله عنها﴾ ولم يكلف بها أو عفا الله عما سلف من سؤالكم، فلا تعودوا إلى مثلها، ﴿والله غفور حليم﴾ لا يعاجلكم بعقوبة مافرط منكم ويعفو عن كثير. ﴿قد سألها قوم من قبلكم ثم أصبحوا بها كفرين﴾ ؛ حيث لم يأتمروا بما سألوا، وجحدوا، وذلك أن بني إسرائيل كانوا يستفتون أنبياءهم عن أشياء؛ فإذا أُمروا بها تركوها، فهلكوا. فالكفر هنا عبارة عن ترك ما أمروا به. وقال الطبرى: كقوم صالح فى سؤالهم الناقة، وكبنى إسرائيل فى سؤالهم المائدة. زاد الثعلبى: وكقريش فى سؤالهم أن يجعل الله الصفا ذهبًا. هـ . وكسؤالهم انشقاق القمر، وغير ذلك من تعنيتاتهم. والله تعالى أعلم.

الإشارة: مذهب الصوفية مبنى على السكوت والتسليم والصدق والتصديق، مجلسهم مجلس حلم وعلم وسكينة ووقار، إن تكلم كبيرهم أنصتوا ، كأن على رءوسهم الطير، كما كان الصحابة ـ رضى الله عنهم ـ، ولذلك قالوا: من قال لشيخه: (لِمَ) لم يفلح أبداً. وقال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه : إذا جلست مع الكبراء فدع ما تعلم ومالا تعلم؛ لتفوز بالسر المكنون. هـ.

وفى الحديث عنه ﷺ: «إنَّ اللهَ يَنْهَاكُمْ عَنْ قِيلَ وقَالَ، وكَثْرةِ السُّؤالِ، وإضَاعَةَ المَالِ»(٢) . وقال الورتجبى: فى الآية تحذير المريدين عن كثرة سؤالهم فى البداية عن حالات المشايخ. هـ. **قلت** : وعلة النهى: لعله يطلع، بكثرة البحث عن حالهم، على أمور توجب له نفرة أو غضا من مرتبتهم قبل تربية يقينه، فالصواب: السكوت عن أحوالهم، واعتقاد الكمال فيهم، وكذلك يجب عليه ترك السؤال عن أحوال الناس، والغيبة عما هم فيه؛ شغلاً بما هو متوجه إليه، وإلاضاع وقته، وتشتت قلبه، ولله در القائل:

وَلَستُ بِسَائِلٍ مَادُمْتُ حَيًّا ... أَسَارَ الجَيْشُ أَمْ رَكِبَ الأَمِيرُ؟

والله تعالى أعلم.

---

(١)أخرجه أحمد فى المسند ٢ / ٥٠٨ ومسلم فى (الحج، باب فرض الحج فى العمر) عن أبى هريرة رضي الله عنه .
(٢) أخرجه البخارى فى (الأدب، باب عقوق الوالدين من الكبائر) ومسلم فى (الأقضية، باب النهى عن كثرة المسائل من غير حاجة..) عن حديث أبى هريرة رضي الله عنه .

ومن جملة ما وقع السؤال عنه : البحيرة وما معها، فأجابهم الحق ـ تعالى ـ بقوله:

﴿ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾

قلت : البحيرة: فعيلة بمعنى مفعولة، من بَحَرَ، إذا شق، وذلك أن الناقة كانت إذا ولدت عندهم في الجاهلية عشرة أبطن، شقوا أذنها، وتركوها ترعى، ولا ينتفع بها، وأما السائبة فكان الرجل يقول: إذا قدمت من سفري، أو برئت من مرضي، فناقتي سائبة، فإذا قدم أو برئ سيّبها لآلهتهم، فلا تُحلب، ولا تُركب، ولا تمنع من شجر، وقد يُسَيِّبون غير الناقة، فإذا سيّبوا العبد فلا يكون عليه ولاء لأحد، وإن قال ذلك، اليوم، فحمله على العتق، وولاؤه للمسلمين، وفعل ذلك ـ اليوم ـ في الحيوان حرام، كما يفعله جهلة النساء في الديك الأبيض؛ يحرر حتى يموت، فإذا فعل ذلك ذبح وأكل.

وأما الوصيلة: فكانوا إذا ولدت الناقة ذكراً وأنثى متصلين، قالوا : وصلت الناقة أخاها، فلم يذبحوها، وأما الحَام: فكانوا إذا نتج من الجمل عشرة أبطن، قالوا : قد حَمِي ظهره، فلا يُركب ولا يُحمل عليه.

يقول الحق جل جلاله في إبطال هذه الأشياء: ﴿ماجعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولاحام﴾ أي: ما شرع الله شيئًا من ذلك، ولا أمر به، **﴿ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب﴾** بتحريم ذلك، ونسبته إليه، **﴿وأكثرهم لا يعقلون﴾**، أي: جُلهم لا عقل لهم؛ بل هم مقلدون غيرهم في تحريم ذلك، وتقليد الآباء والرؤساء في تحريم ما أحل الله ـ تعالى ـ شرك؛ لأنهم نَزَّلوا غير الله منزلته في التحريم والتحليل، وهو كفر، **﴿وإذا قيل لهم تعالوا إلى ماأنزل الله وإلى الرسول﴾** من الحلال والحرام، **﴿قالوا حسبنا﴾** أي: يكفينا **﴿ماوجدنا عليه آباءنا﴾**، وهذا بيان لقصور عقولهم وانهماكهم في التقليد، قال تعالى : أيتبعونهم **﴿ولوكان آباؤهم لا يعلمون شيئا ولا يهتدون﴾** سبيلاً.

قال البيضاوي: الواو للحال، والهمزة دخلت عليها؛ لإنكار الفعل على هذه الحال، أي: أحَسْبُهم ماوجدوا عليه أباءهم ولو كانوا جهلة ضالين ؟ والمعنى: أن الاقتداء إنما يصح لمن علِم أنه عالم مهتد، وذلك لا يعرف إلا بالحجة، فلا يكفي التقليد . هـ.

الإشارة: قد نفى الله تعالى الخصوصية عن أربعة أنفس من أنفس المدعين، منها: **نفس** دخلت بحر الحقيقة بالعلم، وتبحرت في علمها دون الحال والذوق، وأهملت مراسم الشريعة حتى سقطت هيبتها من قلبها، فانسل منها الإيمان والإسلام انسلال الشعرة من العجين. ومنها **نفس** سائبة أهملت المجاهدة وانسابت في الغفلة، وأخذت

الولاية بالوراثة من أسلافها، دعوى، أو ظهرت عليها خوارق، استدارجاً، مع إصرارها على كبائر العيوب، ومنها: نفس وصلت إلى الأولياء وصحبتهم، وخرجت عنهم قبل كمال التربية، وتصدرت للشيخوخة قبل إبانها، ومنها: نفس حمت ظهرها من التجريد، ووفرت جاهها مع العبيد، وادعت كمال التوحيد وأسرار التفريد، لمجرد مطالعة الأوراق، من غير صحبة أهل الأذواق، وهؤلاء بعداء من حيث يظنون القرب، مردودون من حيث يظنون القبول، والعياذ بالله من الدعوى وغلبة الهوى، فإذا قيل لهؤلاء: تعالوا إلى من يعرفكم بربكم، ويخرجكم من سجن نفوسكم، قالوا : نتبع ماوجدنا عليه أسلافنا، فيقال لهم: أتتبعونهم ولو كانوا جاهلين بالله؟

ثم نهى الله تعالى أهل التحقيق عن التعرض لمثل هؤلاء بعد نصحهم، فقال:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾

قلت : (عليكم) : اسم فعل، وفاعله مستتر فيه وجوباً، و(أنفسكم) : مفعول به على حذف مضاف؛ أي: الزموا شأن أنفسكم. قاله الأزهري.

يقول الحق جل جلاله : ﴿يأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم﴾ : احفظوها والزموا صلاحها، ﴿لايضركم من ضل إذا اهتديتم﴾ أنتم، أي: لا يضركم ضلال غيركم إذا كنتم مهتدين؛ ومن الاهتداء أن ينكر المنكر حسب طاقته، قال ﷺ: «من رأى مِنكُم مُنكَراً، واستَطاعَ أن يُغيِّرَه بيَدِه، فلْيغيِّر، فإنْ لم يَسْتَطِع فَبلِسانِه، فإنْ لم يَسْتَطِع فَبقَلْبِه» . والآية نزلت حيث كان المؤمنون يحرصون على الكفرة، ويتمنون إيمانهم، وقيل: كان الرجل إذا أسلم قالوا له: سفهت آباءك، فلاموه، فنزلت.

وعن أبي ثعلبة الخشني قال: سألت رسول الله ﷺ عن قوله تعالى: ﴿يأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم﴾؟ فقال: « ائتمِرُوا بالمعرُوف، وانهوا عن المنكَر، فإذَا رأيتَ دُنْيا مُؤثَرَة، وشُحاً مُطاعاً، وإعْجابَ كُلِّ ذِي رأيٍ برأيِه، فَعلَيكَ بخويصة نَفْسِك، وَذَرعوامَهم؛ فإنّ وَرَاءكُمْ أيَّاماً، العاملُ فيها كأجْرِ خمْسِينَ مِنْكُم»(١) .

وعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه بلغه أن بعض الناس تأول الآية على أنه لا يلزم معها أمر ولا نهي، فصعد المنبر، فقال: (ياأيها الناس: لاتغترّوا بقول الله تعالى: ﴿عليكم أنفسكم﴾ فيقول أحدكم: عليّ نفسي، والله لتأمُرن بالمعروف، ولتنهَوُنّ عن المنكر أو ليستعملن عليكم شراركم فليسومُنكم سوء العذاب) . وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: (ليس هذا بزمان هذه الآية، قولوا الحق ماقُبِلَ منكم، فإذا رُدَّ عليكم فعليكم أنفسكم) .

---

(١) أخرجه الترمذي في: (التفسير، باب: ومن سورة المائدة) وابن ماجه في (الفتن، باب قوله تعالى ﴿ياأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم﴾ وأبو داود في (الملاحم باب الأمر والنهي) وصححه الحاكم في المستدرك ٤ / ٣٢٢ ووافقه الذهبي.

قال ابن عطية: وجملة ما عليه أهل العلم في هذا: أن الأمر بالمعروف متعين متى رجي القبول، أو رجي رد المظالم، ولو بعنف، مالم يخف الآمِر ضرراً يلحقه في خاصته، أو فتنة يدخلها على المسلمين، إما بشق عصا، وإما بضرر يلحق طائفة من الناس، فإذا خيف هذا فعليكم أنفسكم، حُكْم واجب أن يوقف عنده. هـ.

ثم هدد من لم ينته، فقال: ﴿إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم تعملون﴾ وفيه تنبيه على أن أحداً لا يؤاخذ بذنب غيره، وتسلية عن أمور الدنيا؛ مكروهها ومحبوبها، بذكر الحشر ومابعده، وعن بعض الصالحين أنه قال: ما من يوم إلا يجيئني الشيطان فيقول: ما تأكل؟ وما تلبس؟ وأين تسكن؟ فأقول له: آكل الموت، وألبس الكفن، وأسكن القبور. هـ.

الإشارة: في الآية إغراء وتحضيض على الاعتناء بإصلاح النفوس وتطهيرها من الرذائل، وتحليتها بالفضائل، قال تعالى: ﴿ياأيها الذين آمنوا﴾ عليكم بإصلاح أنفسكم أولاً، فإذا صلحت فأصلحوا غيركم، فعلى العبد أن يشتغل بشأن نفسه ولا يلتفت إلى غيره، حتى إذا كمل تطهيرها، وفرغ من تأديبها، فإن أمره الحق ـ جل جلاله ـ بإصلاح غيره على لسان شيخ كامل، أو هاتف حقيقي، فليتقدم لذلك، فإنه حينئذ محمول محفوظ مأذون، وإلا فعليه بخاصة نفسه، كما تقدم. والله ـ تعالى ـ أعلم.

ولما جرى ذكر المرجع ومابعده، ولا يكون إلا بالموت، ناسب أن يذكر الوصية، التي من شأنها أن تكون عندها، فقال:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَأَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِۦ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلْءَاثِمِينَ ﴿١٠٦﴾ فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَٰنِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٧﴾ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ أَوْ يَخَافُوٓاْ أَن تُرَدَّ أَيْمَٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُواْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾

قلت: (شهادة): مبتدأ، وخبره: (اثنان)، أي: مقيم شهادة بينكم اثنان، أو حذف الخبر، أي: فيما أمرتكم شهادة بينكم، و(اثنان) على هذا: فاعل شهادة، و(إذا): ظرف لشهادة، و(حين الوصية): بدل منه، ويجوز أن يكون (إذا): شرطية حذف جوابها، أي: إذا حضر الموت فينبغي أن يشهد حين الوصية اثنان، و(ذوا عدل): صفة

لاثنان، أو (آخران): عطف على (اثنان)، (إن أنتم): شرط حذف جوابه، دل عليه ماتقدم، أي: إن سافرتم، فأصابتكم مصيبة الموت في السفر، فشهادة بينكم اثنان.

و(تحبسونهما): قال أبو علي الفارسي: هو صفة لآخران، واعترض بين الصفة والموصوف قوله: (إن أنتم) إلى قوله: (الموت)، ليفيدا العد، لأن (آخران) من غير الملة، إنما يجوز لضرورة الضرب في الأرض وحلول الموت في السفر. وقال الزمخشري: هو استئناف كلام، (إن ارتبتم): شرطية، وجوابها محذوف، دلّ عليه (يقسمان)، و(لا نشتري) هو المقسم عليه، وجملة الشرط معترضة بين القسم والمقسم عليه، والتقدير: إن ارتبتم في صدقهما فأقسما بالله لانشتري به، أي: بالقسم، ثمناً قليلاً من الدنيا، و(الأوليان): خبر، فيمن قرأ بالبناء للمفعول، أو فاعل، فيمن قرأ بالبناء للفاعل، ومن قرأ (الأولين) ـ تثنية أول ـ فبدل من الذين، أو صفة له. قال مكي: (هذه الآية أشكل آية في القرآن؛ إعراباً ومعنى).

وسبب نزولها: أن تميماً الدّاريّ وعَديّ بن بداء ـ وكانا أخوين ـ، خرجا إلى الشام للتجارة ـ وهما حينئذ نَصْرانيّان ـ ومعهما بُدَيْلٌ مولَى عمْرو بن العاص، وكان مسلماً، فلمّا قَدِما الشام مَرِض بُدَيْلٌ، فدون مامعه في صَحِيفةٍ، وطرحها في متَاعه، وشدّ عليها، ولم يُخْبرهُمَا بها، وأوْصى إليهما بأنْ يَدْفعا متَاعه إلى أهْلِه، ومات، ففتّشاه، وأخذا منه إنَاءً من فضّة، قيمته: ثلاثمائة مثقالٍ، منقُوشاً بالذّهب، فجَنّباه ودَفَعا المتَاع إلى أهْلِه، فأصابُوا الصّحِيفَة، فطالَبُوهُمَا بِالإِنَاء، فجحَدَا، فترافعوا إلى رسول الله ﷺ فنزلت: ﴿يأيها الذين آمنوا شهادة بينكم﴾ إلى قوله: ﴿من الآثمين﴾ فحلّفهما رسول الله ﷺ، بعد صلاة العصر، عند المنبر، وخلا سبيلهما، ثم عثر بعد مدة على الإناء بمكة، فقيل لمن وجد عنده: من أين لك هذا؟ قال: اشتريته من تميم الداري وعديّ بن بداء، فرفع بنو سهم الأمر إلى رسول الله ﷺ، فنزلت: ﴿فإن عثر على أنهما استحقا إثما فآخران يقومان مقامهما﴾، فقام عمرو بن العاصَ والمطلب بن أبي وَداعة السهْميان، فحلفا واستحقا الإناء[1].

ومعنى الآية: يقول الحق جل جلاله: ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾، مما تأمركم به: أن تقع ﴿شهادة بينكم إذا حضر أحدكم الموت﴾، وأراد الوصية فيحضر عدلان منكم، فإن كنتم في سفر وتعذر العدلان منكم، فليشهد ﴿آخران من غيركم﴾ ممن ليس على دينكم، ثم إن وقع ارتياب في شهادتهما، ﴿تحبسونهما﴾ بعد صلاة العصر ﴿فيقسمان بالله﴾ ماكتمنا، ولا خنّا، ولانشتري بالقسم أو بالله عرضاً قليلاً من الدنيا، ولو كان المحلوف له قريبا منا، ﴿ولانكتم شهادة الله﴾ ﴿إنا إذا﴾، إن كتمنا، ﴿لمن الآثمين﴾.

(١) أخرجه الترمذي في: (التفسير، سورة المائدة) عن ابن عباس عن تميم الداري، وقال الترمذي: ليس إسناده بصحيحه. وأخرجه مختصراً البخاري في (الوصايا، باب قول الله تعالى: ﴿يأيها الذين آمنوا شهادة بينكم﴾ عن ابن عباس قال: خرج رجل من بني سهم مع تميم الداري وعدي بن بداء. وذكره مختصراً.

فإذا حلفا خلى سبيلهما، ﴿فإن عُثر﴾ بعد ذلك ﴿على﴾ كذبهما و﴿أنهما استحقا إثمًا﴾ بسبب كذبهما، ﴿فآخران﴾ من رهط الميت ﴿يقومان مقامهما من الذين استحق عليهم﴾ المال المسروق، اللذان هم ﴿الأوليان﴾ أي: الأحقان بالشهادة، ﴿فيُقسمان بالله﴾ فيقولان: والله ﴿لشهادتنا أحق من شهادتهما﴾، وأصدق، وأولى بأن تقبل، ﴿وما اعتدينا﴾: وما تجاوزنا فيها الحق، ﴿إنا إذا لمن الظالمين﴾، فإن حلفا غرم الشاهدان ما ظهر عليهما، وتحليف الشهود منسوخ، وهذا الحكم خاص بهذه القضية.

قال البيضاوي: الحكم منسوخ إن كان الاثنان شاهدين، فإنه لا يحلف الشاهد، ولا تُعارِضُ يمينه يمينَ الوارث، وثابت إن كانا وصيين. هـ. وكذا شهادة غير أهل الملة منسوخة أيضاً، واعتبار صلاة العصر للتغليظ، وتخصيص الحلف في الآية باثنين من أقرب الورثة لخصوص الواقعة. قاله السيوطي.

قال تعالى: ﴿ذلك﴾ أي: تحليف الشهود، ﴿أدنى﴾ أي: أقرب ﴿أن يأتوا بالشهادة على وجهها﴾ كما تحملوها من غير تحريف ولا خيانة فيها، ﴿أو يخافوا أن ترد أيْمَانٌ بعد أيمانهم﴾ أي: أو أقرب لأن يخافوا أن ترد اليمين على المدعين بعد أيمانهم، فيفتضحوا بظهور الخيانة واليمين الكاذبة، وإنما جمع الضمير، لأنه حكم يعم الشهودَ كلهم، ﴿واتقوا الله واسمعوا﴾ ماتُوصون به، فإن لم تتقوا ولم تسمعوا كنتم قوما فاسقين، ﴿والله لا يهدى القوم الفاسقين﴾ أي: لايهديهم إلى حجة أو إلى طريق الجنة.

الإشارة: أمر الحق ـ جل جلاله ـ في الآية المتقدمة، بالاعتناء بشأن الأنفس، بتزكيتها وتحليتها؛ وأمر في هذه الآية بالاعتناء بشأن الأموال؛ بحفظها، والأمر بالإيصاء عليها ودفعها لمستحقها؛ إذ كلاهما يقربان إلى رضوان الله، ويوصلان إلى حضرته، وقد كان في الصحابة من قربه ماله، وفيهم من قربه فقره، وكذلك الأولياء، منهم من نال الولاية من جهة المال أنفقه على شيخه فوصله من حينه، ومنهم من نال من جهة فقره أنفق نفسه في خدمة شيخه، وقد روى أن سيدى يوسف الفاسي أنفق على شيخه قناطير من المال، قيل: أربعين، وقيل: أقل. والله تعالى أعلم.

ولما أمرهم بالتقوى، ذكر اليوم الذى تجنى فيه ثمراتها، فقال:

﴿ ۞ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبۡتُمۡۖ قَالُواْ لَا عِلۡمَ لَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾ ﴾

قلت: (يوم): بدل من (الله)، بدل اشتمال، أي: اتقوا يوم الجمع، أو ظرف لاذْكُر، و(ماذا): منصوبٌ على المصدر، أي: أيَّ إجابة أُجبتم.

يقول الحق جل جلاله: واذكر ﴿يوم يجمع الله الرسل﴾ والأمم يوم القيامة ﴿فيقول﴾ للرسل: ﴿ماذا أجبتم﴾؟ أي: ما الذى أجابكم به قومكم، هل هو كفر أو إيمان، طاعة أو عصيان؟ والمراد بهذا السؤال توبيخ من

كفر من الأمم، وإقامة الحجة عليهم، فيقولون له في الجواب: ﴿لاعلم لنا﴾ مع علمك، تأدبوا فوكلوا العلم إليه، أو علمنا ساقط في جنب علمك، ﴿إنك أنت علام الغيوب﴾ ؛ لأن من علم الخفيات لاتخفى عليه الظواهر والبواطن، وقرئ بنصب علام، على أن الكلام قد تم بقوله: ﴿إنك أنت﴾ أي: إنك الموصوف بصفاتك المعروفة، وعلام نصب على الاختصاص أو النداء. قاله البيضاوي.

الإشارة: من حجة الله على عباده، أن بعث في كل أمة نذيراً يدعو إلى الله، إما عارفاً يعرف بالله، أو عالماً يعلم أحكام الله، ثم يجمعهم يوم القيامة فيسألهم: ماذا أجيبوا، وهل قوبلوا بالتصديق والإقرار، أو قوبلوا بالتكذيب والإنكار؟ فتقوم الحجة على العوام بالعلماء، وعلى الخواص بالعارفين الكُبراء، أهل التربية النبوية، فلا ينجو من العتاب إلا من ارتفع عنه الحجاب، بصحبة العارفين وتعظيمهم وخدمتهم، إذ لا يتخلص من العيوب إلا من صحبهم وأحبهم وملك نفسه إليهم. والله تعالى أعلم.

ثم خص عيسى عليه السلام بتذكير النعم يوم الجمع توطئة لتوبيخ من عبده من دون الله، فقال:

﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِي وَبِرَسُولِي قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾ ﴾

قلت: (إذ): بدل من (يوم يجمع)، أو باذكر، وجملة (تكلم): حال من مفعول (أيدتك).

يقول الحق جل جلاله: واذكر ﴿إذ﴾ يقول الله ـ جل وعز ـ يوم القيامة: ﴿ياعيسى ابن مريم اذكر نعمتي عليك﴾ بالنبوة والرسالة، وعلى أمك بالاصطفائية والصديقية، وذلك حين ﴿أيدتك﴾ أي: قويتك ﴿بروح القدس﴾، وهو جبريل عليه السلام كان لا يفارقك في سفر ولا حضر، أو بالكلام الذي تحيا به الأنفس والأرواح، الحياة الأبدية. كنت ﴿تكلم الناس في المهد﴾ أي: كائناً في المهد ﴿وكهلا﴾ أي: تكلم في الطفولة والكهولة بكلام يكون سبباً في حياة القلوب، وبه استدل أنه ينزل، لأنه رفع قبل أن يكتهل، ﴿و﴾ اذكر ﴿إذ علمتك الكتاب﴾ أي: الكتابة

﴿والحكمة﴾: النبوة ﴿والتوراة والإنجيل، وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذني فتنفخ فيها فتكون طيرا بإذني، وتبرئ الأكمه والأبرص بإذني، وإذ تخرج الموتى بإذني﴾ وتقدم تفسيرها في آل عمران.

وكرر ﴿بإذني﴾ مع كل معجزة؛ إبطالاً لدعوى الربوبية فيه، إذ قد عزله عن قدرته ومشيئته مع كل معجزة. قال ابن جزي: الضمير المؤنث ـ يعني في «فيها» ـ يعود على الكاف، لأنها صفة الهيئة، وكذلك المذكور في آل عمران. ﴿فأنفخ فيه﴾ يعود على الكاف؛ لأنها بمعنى مثل، وإن شئت قلت: هو في الموضعين يعود على الموصوف المحذوف الذي وصف به كهيئة، فتقديره في التأنيث: صورة، وفي التذكير: شخصاً، أو خلقاً وشبه ذلك. هـ.

﴿و﴾ اذكر أيضا ﴿إذ كففت بني إسرائيل عنك﴾ حين هموا بقتلك، ﴿إذ جئتهم بالبينات فقال الذين كفروا منهم إن هذا إلا سحر مبين﴾ أي: ما هذا الذي جئتنا به إلا سحرا، أو: قالوا في شأنك حين جئتهم: ما هذا إلا ساحر مبين، ﴿و﴾ اذكر أيضًا ﴿إذ أوحيت إلى الحواريين﴾ أي: ألهمتهم، أوأمرتهم بأن ﴿آمنوا بي وبرسولي﴾ عيسى، فامتثلوا، ﴿وقالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون﴾ أي: منقادون ومخلصون.

الإشارة: قال الورتجبي: من تمام نعمة الله ـ تعالى ـ عليه صيرورة جسمه بنعت روحه في المهد على شبابه بالقوة الإلهية، بأن نطق بوصف تنزيه الله وقدسه وجلاله، وربوبيته وفناء العبودية فيه، وبقيت تلك القدرة فيه إلى كهولته، حتى عرّف عباد الله تنزيه الله وقدس صفات الله وحسن جلال الله، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿تكلم الناس في المهد وكهلا﴾ ، وزاد في وصفه بقوله: ﴿وإذ علمتك الكتاب﴾ ، تجلى بقدرته بيده حتى يخط بغير تعلم. هـ. فانظره، مع ماورد في التاريخ أنه كان يذهب مع الصبيان للمكتب.

ثم ذكر معجزة المائدة، فقال:

﴿ إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾ ﴾

(١) راجع تفسير الآية ٤٩ من سورة آل عمران.

قلت : (ياعيسى ابن مريم) : ابن هنا بدل، ولذلك كتب بالألف، و(أن ينزل) : مفعول (يستطيع)، ومن قرأ بالخطاب، فمفعول بالمصدر المقدر، أي: سؤال ربك إنزال مائدة، و(لأولنا وآخرنا) : بدل كل، من ضمير (لنا)، لإفادته الإحاطة والشمول كالتوكيد، و(ذلك) : شرط إبدال الظاهر من ضمير الحاضر، وأعيدت اللام مع البدل للفصل، وضمير (لا أعذبه) : نائب عن المصدر، أي: لا أعذب ذلك التعذيب أحدا.

يقول الحق جل جلاله: واذكر ﴿إذ قال الحواريون ياعيسى ابن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء﴾ أي: هل يطيعك ربك في هذا الأمر، أم لا؟ فالاستفهام عن الإسعاف في القدرة، فهو كقول بعض الصحابة لعبد الله بن زيد: هل تستطيع أن ترينا كيف كان يتوضأ رسول الله ﷺ؟ مع جزمهم بأن عبد الله كان قادراً على تعليمهم الوضوء. فالحواريون جازمون بأن الله ـ تعالى ـ قادر على إنزال المائدة، لكنهم شكوا في إسعافه على ذلك.

قال ابن عباس: كان الحواريون أعلم بالله من أن يشكوا أن الله تعالى يقدر على ذلك، وإنما معناه، هل يستطيع لك؟ أي: هل يطيعك، ومثله عن عائشة، وقد أثنى الله ـ تعالى ـ على الحواريين، في مواضع من كتابه، فدل أنهم مؤمنون كاملون في الإيمان.

قال لهم عيسى عليه السلام : ﴿اتقوا الله﴾ من أمثال هذا السؤال واقتراح الآيات، ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ بكمال قدرته وصحة نبوتي، فإنّ كمال الإيمان يوجب الحياء من طلب المعجزة، ﴿قالوا نريد أن نأكل منها﴾ أكلاً نتشرف به بين الناس، وليس مرادهم شهوة البطن، ﴿وتطمئن قلوبنا﴾ بانضمام علم المشاهدة إلى علم الاستدلال، أي: نعاين الآية ضرورة ومشاهدة، فلا تعرض لنا الشكوك التي في الاستدلال، ﴿ونعلم أن قد صدقتنا﴾ علما ضروريا لا يختلجه وهم ولاشك، ﴿ونكون عليها من الشاهدين﴾ أي: نشهد بها عند من لم يحضرها من الناس، أو من الشاهدين للعين، دون السامعين للخبر، وليس الخبر كالعيان، والحاصل: أنهم أرادوا الترقي إلى عين اليقين، دون الاكتفاء بعلم اليقين.

﴿قال عيسى ابن مريم﴾ مسعفًا لهم لما رأى لهم غرضاً صحيحاً في ذلك، رُوي أنه لبس جُبّةَ شعر، ورداء شعر، وقام يصلي ويدعو ويبكي، وقال: ﴿اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا﴾ أي: لمتقدمنا ومتأخرنا، يعود علينا وقت نزولها كل عام بالفرح والسرور، فنتخذه عيداً نحن ومن يأتي بعدنا، ﴿و﴾ يكون نزولها ﴿آية منك﴾ على كمال قدرتك وصحة نبوتي، ﴿وارزقنا﴾ المائدة والشكر عليها، ﴿وأنت خير الرازقين﴾ أي: خير من يرزق؛ لأنه خالق الرزق ومعطيه بلا عوض، ونسبة الرزق إلى غيره مجاز.﴿قال الله إني منزلها عليكم﴾ كما طلبتم، ﴿فمن يكفر بعدُ منكم فإني أعذبه عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين﴾ أي: من عالمي زمانهم، أو مطلقا.

قال ابن عمر: (أشد الناس عذاباً يوم القيامة: من كفر من أصحاب المائدة، وآل فرعون، والمنافقون.) رُوي أنها نزلت سُفْرة حمراء بين غمامتين، وهم ينظرون إليها، حتى سقطت بين أيديهم، فبكى عيسى وقال: اللهم اجعلني من الشاكرين، اللهم اجعلها رحمة، ولا تجعلها مثْلة وعقوبة، ثم قام وتوضأ وصلى وبكى، ثم كشف المنديل، وقال: بسم الله خير الرازقين، فإذا سمكة مشوية، تسيل دسماً وعند ذنبها خل، وحولها من أنواع البقول ماخلا الكراث، وخمسة أرغفة، على واحد منها زيتون، وعلى الثاني عسل، وعلى الثالث سمن، وعلى الرابع جبن، وعلى الخامس قديد. قال شمعون: ياروح الله أمن طعام الدنيا أم من طعام الآخرة؟ قال: ليس منهما، ولكنه اخترعه الله بقدرته، كلوا ما سألتم، واشكروا الله يمددكم ويزدكم من فضله، فقالوا: ياروح الله، لو أريتنا من هذه الآية آية أخرى، فقال: ياسمكة؛ احْيَي بإذن الله، فاضطربت، ثم قال لها: عودي، فعادت كما كانت، فعادت مشوية، ثم طارت المائدة، ثم عصوا بعدها فمسخوا.

وقيل: كانت تأتيهم أربعين يوماً، غبّاً(١)، يجتمع عليها الفقراء والأغنياء والصغار والكبار، يأكلون، فإذا فرغوا، طارت وهم ينظرون في ظلها، ولم يأكل منها فقير إلا غنى مدة عمره، ولا مريض إلا برئ ولم يمرض أبداً، ثم أوحى الله إلى عيسى: أن اجعل مائدتي في الفقراء والمرضى دون الأغنياء والأصحاء، فاضطرب الناس، فمسخ منهم ثلاثة وثمانون. وقيل: لما وعد الله إنزالها بهذه الشريطة، استغفروا وقالوا: لانريد، فلم تنزل. قلت: المشهور أنها نزلت، ويحكى أن أرجلها باقية بجزيرة الأندلس. والله تعالى أعلم.

الإشارة: في سؤال الحواريين لسيدنا عيسى عليه السلام قلة أدب من وجهين: أحدهما: خطابه بقوله: (ياعيسى ابن مريم)؛ وقد كانت هذه الأمة المحمدية تخاطب رسول الله ﷺ يارسول الله، يانبي الله، لكمال أدبها، وبذلك شرفت وعظم قدرها، فالأدب عند الصوفية ركن عظيم، بل هو روح التصوف وقطب دائرته، قال بعضهم: (اجعل عملك ملحاً، وأدبك دقيقاً)، والكلام فيه عندهم طويل شهير.

والوجه الثاني: ما في قولهم: (هل يستطيع ربك) من بشاعة التعبير، وسوء اللفظ، حتى اتهموا بالكفر من أجله. وقد تقدم تأويله، وأما سؤالهم المائدة، فقال بعض الصوفية: هي عبارة عن المعارف والأسرار الربانية التي هي قوت الأرواح السماوية، فقوت الأشباح الأرضية مايخرج من الأرض من الأقوات الحسية، وقوت الأرواح السماوية ماينزل من السماء من العلوم اللدنية والأسرار الربانية، ينزل على قلوب العارفين، ثم يبرز منها إلى قلوب عائلة المستمعين، ولما طلبوها قبل إبانها وقبل الاستعداد لها، قال لهم: ﴿اتقوا الله إن كنتم مؤمنين﴾، فلما ألحوا في

---

(١) أي: يوماً بعد يوم، ليكون أشهى وأحب ـ أنظر حاشية الشهاب ٣ / ٣٠٢ .

السؤال، بيّن الحق لهم أن إنزالها سهل على قدرته، لكن فيه خطر وسوء عاقبة، لأن الحقائق قد تضر بالمريد إذا لم يكمل أدبه واستعداده، فلما بيّنوا مرادهم من كمال الطمأنينة واليقين؛ دعا الله ـ تعالى ـ فوعدهم بالإنزال مع دوام الإيمان وكمال الإيقان، فمن كفر بها، ولم يعرف قدرها، عذب بعذاب لم يعذبه أحد من العالمين، وهو الطرد والبعد من ساحة حضرة رب العالمين. والله تعالى أعلم.

ثم وبخ من عبد عيسى من الكفرة، فقال:

﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ
ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا
فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ (١١٦) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ
ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ
عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ (١١٧) إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ
ٱلْحَكِيمُ (١١٨) قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ
خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ (١١٩) لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ
وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌۢ (١٢٠) ﴾

قلت: (من دون الله): صفة لإلاهين، أو صلة (اتخذوني)، و(أن اعبدوا): تفسيرية للمأمور به، أو بدل من ضمير به، وليس من شرط البدل جواز طرح المبدل منه مطلقاً؛ لئلا يلزم منه بقاء الموصول بلا راجع، أو عطف بيان له، أو خبر عن مضمر، أي: هو، أو مفعول به، أي: أعني، ولا يجوز إبداله من (ما)؛ لأن المصدر لا يكون مفعولاً للقول؛ لأنه مفرد، والقول لا يعمل إلا في الجمل أو مافي معناه.

(يوم ينفع)؛ من نصب جعله ظرفا لقال، أو ظرف، مستقر خبرِ (هذا) والمعنى: هذا الذي مرّ من كلام عيسى، واقع يوم ينفع، إلخ، وأجاز ابن مالك أن يكون مبنياً، قال في ألفيته:

وقَبْلَ فِعْلٍ مُعْرَبٍ أوْ مُبْتَدا ... أعْرِبْ، ومَنْ بَنَا فَلَنْ يُفَنَّدا(١)

ومن رفع، فخبر، وهو ظرف متصرف.

(١) أنظر الألفية، باب الإضافة.

يقول الحق جل جلاله : واذكر ﴿إذ قال الله ياعيسى﴾ بعد رفعه إلى السماء، أو يقوله له يوم القيامة، وهو الصحيح، بدليل قوله: ﴿قال الله هذا﴾ إلخ، فإن اليوم الذى ﴿ينفع الصادقين صدقهم﴾ هو يوم القيامة، فيقول له حينئذ: ﴿أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله﴾ يريد به توبيخ الكفار الذين عبدوه وتبكيتهم، وفيه تنبيه على أن من عبد مع الله غيره فكأنه لم يعبد الله قط، إذ لا عبرة بعبادة من أشرك معه غيره .

﴿قال﴾ عيسى عليه السلام مبرءاً نفسه من ذلك وقد أرعد من الهيبة: ﴿سبحانك﴾ أى: تنزيهاً لك من أن يكون لك شريك، ﴿مايكون لى أن أقول ماليس لى بحق﴾ أى: ماينبغى لى أن أقول مالا يجوز لى أن أقوله، ﴿إن كنتُ قُلتُه فقد علمته﴾، وكَلَ العلم إلى الله لتظهر براءته؛ لأن الله علم أنه لم يقل ذلك، ﴿تعلم مافى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك﴾ أى: تعلم ما أخفيته فى نفسى، كما تعلم ما أعلنته، ولا أعلم ماتخفيه من معلوماتك، سلك فى اللفظ مسلك المشاكلة، فعبّر بالنفس عن الذات. ﴿إنك أنت علام الغيوب﴾ لا يخفى عليك شيء من الأقوال والأفعال.

﴿ماقلتُ لهم إلا ما أمرتنى به﴾ وهو عبادة الله وحده، فقلت لهم: ﴿اعبدوا الله ربى وربكم، وكنت عليهم شهيدًا﴾ أى: رقيباً عليهم، أمنعهم أن يقولوا ذلك أو يعتقدوه. ﴿مادمتُ فيهم، فلما توفيتنى﴾ بالرفع إلى السماء، أى: توفيت أجلى من الأرض. والتوفى أخذ الشئ وافيا، فلما رفعتنى إلى السماء ﴿كنت أنت الرقيب عليهم﴾ أى: المراقب لأحوالهم ﴿وأنت على كل شيء شهيد﴾: مطلع عليه مراقب له.

﴿إن تعذبهم فإنهم عبادك﴾ وأنت مالك لهم، ولا اعتراض على المالك فى ملكه، وفيه تنبيه على أنهم استحقوا العذاب، أى: لأنهم عبادك وقد عبدوا غيرك، ﴿وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم﴾، فلا عجز ولا استقباح، فإنك القادر والقوى على الثواب والعقاب بلاسبب، ولا تعاقب إلا عن حكمة وصواب، فإن عذبت فعدل، وإن غفرت ففضل ، وعدم غفران الشرك مقتضى الوعيد، فلا امتناع فيه لذاته ليمتنع الترديد والتعليق بإن. قاله البيضاوى.

وقال ابن جزى : فيه سؤالان : الأول: كيف قال: ﴿إن تغفر لهم﴾ وهم كفار، والكفار لا يغفر لهم؟ فالجواب: أن المعنى تسليم الأمر إلى الله، وأنه إن عذب أو غفر فلا اعتراض عليه؛ لأن الخلق عباده، والمالك يفعل مايشاء، ولا يلزم من هذا وقوع المغفرة للكفار، وإنما يقتضى جوازها فى حكمة الله وعزته، وفَرّقٌ بين الجواز والوقوع، وأما على قول من قال : إن هذا الخطاب وقع لعيسى عليه السلام حين رفعه الله إلى السماء فلا إشكال، لأن المعنى: إن تغفر لهم بالتوبة، وكانوا حينئذ أحياء، وكل حيى مُعرض للتوبة.

السؤال الثانى : ما مناسبة قوله : ﴿العزيز الحكيم﴾ لقوله : ﴿إن تغفر لهم﴾، والأليق إن قال : فإنك أنت الغفور الرحيم؟ فالجواب: أنه لما قصد التسليم له والتعظيم، كان قوله : (فإنك أنت العزيز الحكيم) أليق، فإن الحكمة

تقتضى التسليم، والعزة تقتضى التعظيم، فإن العزيز هو الذى يفعل ما يريد، ولا يغلبه غيره، ولا يمتنع عليه شىء أراده، فاقتضى الكلام تفويض الأمر إلى الله فى المغفرة لهم أو عدمها؛ لأنه قادر على كلا الأمرين لعزته، وأيهما فعل فهو جميل لحكمته. وقال أبو جعفر بن الزبير: إنما لم يقل الغفور الرحيم؛ لئلا يكون شفيعاً لهم بطلب المغفرة، فاقتصر على التسليم والتفويض، دون الطلب، إذ لا نصيب فى المغفرة للكفار. أنظر بقية كلامه.

قال التفتازانى : ذكر المغفرة، يُوهم أن الفاصلة: (الغفور الرحيم)، لكن يُعرف بعد التأمل أن الواجب هو العزيز الحكيم؛ لأنه لا يغفر لمن يستحق العذاب إلا من ليس فوقه أحد يرد عليه حكمه، وهو العزيز، أى: الغالب ، ثم وجب أن يوصف بالحكمة على سبيل الاحتراس؛ لئلا يتوهم أنه خارج عن الحكمة. هـ.

قال الله تعالى: ﴿هذا﴾ أى: يوم القيامة ﴿يوم ينفع الصادقين صدقهم﴾ أى: هنا ينتفع الصادقون فى الدنيا بصدقهم، ويفتضح الكاذبون على الله بكذبهم. والمراد بالصادقين: أهل التوحيد، الذين نزهوا الله تعالى عما لا يليق بجلاله وجماله، فصدقوا فيما وصفوا به ربهم.

ثم ذكر ماوعدهم به، فقال: **﴿لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدًا رضى الله عنهم ورضوا عنه﴾** حيث رضوا بأحكامه القهرية والتكليفية، **﴿ذلك الفوز العظيم، لله ملك السموات والأرض ومافيهن وهو على كل شىء قدير﴾**، وهذا تنبيه على تكذيب النصارى، وفساد دعواهم فى المسيح وأمه، وإنما لم يقل: ومن فيهن، تغليباً لغير العقلاء، وإنما غلبَ غير أولى العقل للإعلام بأنهم فى غاية القصور عن معنى الربوبية، وإهانة لهم وتنبيهاً على أنهم جنس واحد، فمن يعقل منهم لقصورعقله ونظره كمن لا يعقل، فيبعد استحقاقهم للألوهية التى تنبئ عن تمام الحكمة وإحاطة العلم. والله تعالى أعلم.

الإشارة : كل من صدّر نفسه للشيخوخة من غير إذن ، وأشار إلى تعظيمه بلسان الحال أو المقال يلْحقْهُ العتاب يوم القيامة فيقال له : أأنت قلت للناس عظمونى من دون الله ؟ فإن كان مقصوده بالأمر بالتعظيم الوصول إلى تعظيم الحق تعالى، والأدب معه فى الحضرة دون الوقوف مع الواسطة، وبذل جهده فى توصيل المريدين إلى هذا المقام، يقول: سبحانك مايكون لى أن أقول ما ليس لى بحق، إلى تمام ماقال السيد عيسى عليه السلام، فيقال له: (هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم) . وإن كان مقصوده بالتصدر للتعظيم والأمر به، حظ نفسه، وفرّح بتربية جاهه والإقبال عليه، افتضح وأهين بما افتضح به الكاذبون المدعون. نسأل الله تعالى الحفظ والرعاية بمنّه وكرمه، وسيدنا محمد رسوله ونبيه ـ صلى الله عليه وسلم، وعلى آله وصحبه وسلم ..

❁ ❁ ❁

سورة الأنعام

مكية غير ست آيات أو ثلاث، وقال الكلبي: الأنعام كلها مكية إلاَّ آيتين نزلتا بالمدينة في فِنْحاص اليهودي، وهي: ﴿ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ ﴾[1] مع ما يرتبط بهذه الآية.

وهي مائة وخمس وستون آية، قاله البيضاوي. قال ابن عباس: (نَزَلَت سُورة الأنعامِ وحولها سبْعُون ألفَ مَلَك، لهم زجل[2] يجأرون بالتسبيح). وقال كعب: (فاتحة الأنعام هي فاتحة التوراة؛ ﴿ الحمد لله ... ﴾ إلى ﴿ ... يعدلون ﴾، وخاتمة التوراة خاتمة هود؛ ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾[3]). وقيل: خاتمتها: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا ... ﴾[4] إلى ﴿ ... تكبيرا ﴾. وقال سيدنا علي ـ كرم الله وجهه ـ: (من قرأ سورة الأنعام فقد انتهى في رضا ربه). قاله ابن عطية.

ومناسبتها لما قبلها: الاستدلال على قدرته تعالى التي ختم بها ماقبلها، ومضمنها: التعريف بالذات المقدسة، دلالة وعيانا، والاستدلال على وحدانيتها وما يجب لها من صفات الكمال، والرد على طوائف المشركين، وذم أحوالهم وأفعالهم، ومدح أهل التوحيد من العارفين أو المؤمنين، قال الشيخ زرُّوق رحمه الله في شرح الرسالة: ماذكره الشيخ ابن أبي زيد، في عقائدٌ رسالته، هو ماتضمنته سورة الأنعام. هـ. بالمعنى.

قال جل جلاله:

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَـٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ① ﴾

قلت: (ثم الذين كفروا): عطف على جملة الحمد؛ على معنى: أن الله حقيق بالحمد على ماخلقه، نعمةً على العباد، ثم الذين كفروا بربهم الذي ربَّاهم بهذه النعم، يَعْدِلون به سواه من الأصنام، يقال: عدلْت فلانًا بفلان؛ جعلته نظيره. أو عطف على «خلق، وجعل»: على معنى أنه خلق وقدّر ما لا يقدر عليه غيره، ثم هم يعدلون به مالا يقدر على شيء. ومعنى (ثم): استبعاد عدولهم بعد هذا البيان. والباء في «بربهم» متعلقة بكفروا، على الأول، وبيعدلون على الثاني. قاله البيضاوي.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ الحمد لله ﴾ أي: جميع المحامد إنما يستحقها الله، إذ مابكم من نعمة فمن الله. ﴿ الذي خلق السموات ﴾ التي تُظلُّكم، مشتملة على الأنوار التي تضيء عليكم، ومحلاً لنزول الرحمات والأمطار

(١) الآية ٩١ من سورة الأنعام. (٢) زجل، أي: صوت رفيع عال.
(٣) الآية ١٢٣ من سورة هود. (٤) الآية ١١١ من سورة الإسراء.

عليكم، ﴿ و ﴾ خلق ﴿ الأرض ﴾ التى تُقلُّكم، وفيها نبات معاشكم فى العادة، وفيها قراركم فى حياتكم وبعد مماتكم، مشتملة على بحار وأنهار، وفواكه وثمار، وبهجة أزهار ونوار، ﴿ وجعل الظلمات ﴾ التى تستركم، راحة لأبدانكم وقلوبكم، كظلمات الليل الذى هو محل السكون. ﴿ و ﴾ جعل ﴿ النور ﴾ الذى فيه معاشكم وقوام أبدانكم وأنعامكم. ﴿ ثم الذين كفروا ﴾ بعد هذا كله، ﴿ يعدلون ﴾ عنه إلى غيره، أو يعدلون به سواه، فيُسوونه فى العبادة معه.

قال البيضاوى: وجمع السموات دون الأرض وهى مثلهن؛ لأن طبقاتها مختلفة بالذات، متفاوتة الآثار والحركات، وقدّمها؛ لشرفها وعلو مكانها. ثم قال أيضاً: وجمع الظلمات؛ لكثرة أسبابها والأجرام الحاملة لها، أو لأن المراد بالظلمة: الضلال، وبالنور: الهُدى. والهدى واحد والضلال متعدد. وتقديمها لتقدم الإعدام على المَلَكة. ومن زعم أن الظلمة عرَضٌ يُضاد النور احتج بهذه الآية، ولم يعلم أن عدم الملَكة كالعمى ليس صِرْف العدم حتى لايتعلق به الجعل. هـ.

الإشارة: أثنى الحق - جل جلاله - على نفسه بإنشاء هذه العوالم، التى هى محل ظهور عظمته وجلاله وجماله وبهائه. فأنشأ سموات الأرواح، التى هى مظهر لشروق أنوار ذاته وصفاته، ومحل لظهور عظمة ربوبيته، وأنشأ أرض النفوس، التى هى مظهر لتصرف أقداره، ومحل لظهور آداب عبوديته، وتجلى بين الضدين؛ بين الظلمات والنور، ليقع الخفاء فى الظهور، كما قال بعض الشعراء:

... لقـد تكاملَت الأضـدادُ فى كاملِ البهــا

ثم بعد هذا الظهور التام، عدل عن معرفته جُل الأنام، إلا من سبقت له العناية من الملِك العلام. وبالله التوفيق.

ثم برهن على كمال قدرته، فقال:

﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾ ﴾

قلت: (أجل): مبتدأ. و(مُسمى): صفته. و(عنده): خبر، وتخصيصه بالصفة أغنَى عن تقديم الخبر.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ هو الذى خلقكم من طين ﴾ أى: ابتدأ خلقكم منه، وهو آدم، لأنه المادة الأولى، وهو أصل البشر. ﴿ ثم قضى أجلا ﴾ تنتهون فى حياتكم إليه، وهو الموت. ﴿ وأجل مسمى ﴾ مُعيَّن للبعث، لا يقبل التغيير، ولايتقدم ولا يتأخر، ﴿ عن ﴾ استأثر بعلمه، لا مدخل لغيره فيه بعلم ولا قدرة، وهو المقصود بالبيان، ﴿ ثم أنتم تمترون ﴾ أى: تشكُّون فى هذا الأجل المسمى الذى هو البعث.

و ﴿ثم﴾ : لاستبعاد امترائهم بعد ما ثبت عنه أنه خالقهم، وخالق أُصولهم ومحييهم إلى آجالهم، فإن مَنْ قَدر على خلق المواد وجمعها، وإيداع الحياة فيها وإبقائها ما شاء، كان أقدر على جمع تلك المواد وإحيائها ثانياً. قاله البيضاوى.

الإشارة: القوالب من الطين، والأرواح من نور رب العالمين، فالطينية ظرف لنور الربوبية، الذى هو الروح؛ لأن الروح نور من أنوار القدس، وسر من أسرار الله، فمن نظّف طينته ولطّفها ظهرت عليها أسرار الربوبية والعلوم اللدنية، وكُشف للروح عن أنوار الملكوت وأسرار الجبروت، وانخنست الطينية، واستولت عليها الروح النورانية، ومن لطّخ طينته بالمعاصى وكثّفها باتباع الشهوات، انحجبت الأنوار واستترت، واستولت الطينية الظّلمانية على الروح النُّورانية، وحجبتها عن العلوم اللدنية والأسرار القدسية، بحكمته تعالى وعدله وظهور قهره. وبالله التوفيق.

ثم برهن على وحدانيته الخاصة، فقال:

﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾ ﴾

قلت: (هو): مبتدأ، و(الله): خبره. و(في السموات): خبر ثان، أي: وهو الله كائن أو موجود في السموات وفي الأرض بنوره وعلمه. قال تعالى: ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾(١). و(يعلم سركم وجهركم): تقرير له.

يقول الحق جل جلاله: هذا الذى اختص بالحمد وأبدع الكائنات كلها ـ ﴿هو الله﴾ ظاهر ﴿في السموات وفي الأرض﴾ بنوره وقدرته وعلمه وإحاطته، فلا شريك معه ﴿يعلم سركم وجهركم ويعلم ماتكسبون﴾ من خير أو شر، فيثيب عليه ويعاقب، ولعله أراد بالسر والجهر مايظهر من أحوال النفس، وبالمكتسب أعمال الجوارح. فالآية الأولى دليل القدرة التي ختم بها السورة، والآية الثانية دليل البعث، والآية الثالثة دليل الوَحْدة.

الإشارة: قال بعض العارفين: الحق تعالى مُنزّه عن الأَيْن والجهة، والكيف، والمادة، والصورة، ومع ذلك لايخلو منه أين، ولا مكان، ولا كم، ولا كيف، ولاجسم، ولا جوهر، ولا عرض. لأنه للطفه سار في كل شيء، ولنوريته ظاهر في كل شيء، ولإطلاقه وإحاطته متكيف بكل كيف، غير متقيد بذلك، فمن لم يعرف هذا ولم يذقه ولم يشهده، فهو أعمى البصيرة، محروم من مشاهدة الحق تعالى. ولابن وفا :

هُوَ الحقُّ المُحِيطُ بِكُلِّ شيءٍ		هُوَ الرحمنُ ذُو العَرشِ المَجِيدِ
هُوَ المَشْهُودُ في الأَشْهادِ يَبْدو		فَيَخْفيهِ الشُّهُودُ عن الشَّهيدِ
هُوَ العَيْنُ العِيَانُ لِكُلِّ غَيْبٍ		هُوَ المَقْصُودُ مِنْ بيْتِ القَصِيدِ
جَمِيعُ العَالَمِينَ لَه ظِلالٌ		سُجُودٌ في القَرِيبِ وفي البَعِيدِ
وهَذَا القَدْرُ في التَّحْقِيقِ كافٍ		فَكُفَّ النَّفْسَ عَنْ طَلَبِ المَزِيدِ

---

(١) من الآية: ٣٥ من سورة النور.

ثم ذم مَنْ أعرض عن دلائل توحيده، فقال:

﴿ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ (٤) فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ (٥) ﴾

قلت: (مِن) الأولى: مزيدة للاستغراق، والثانية للتبعيض.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وما تأتيهم من آية ﴾ دالّة على توحيد الله وكمال صفاته، إلا أعرَضوا عنها، أي: الكفار، أو: ماتأتيهم معجزة من المعجزات الدالة على قدرة الله وصدق رسوله، أو: ما تأتيهم آية من آيات القرآن تدل على وحدانيته وكمال ذاته، ﴿ إلا كانوا عنها معرضين ﴾؛ تاركين للنظر فيها، غير ملتفتين إليها.

﴿ فقد كذبوا بالحق ﴾ وهو القرآن ﴿ لمّا جاءهم ﴾، وهو كالدليل لما قبله، لأنهم لمّا كذبوا بالقرآن ـ وهو أعظم الآيات ـ فكيف لا يُعرِضون عن غيره من الآيات؟ ثم هدّدهم بقوله: ﴿ فسوف يأتيهم أنباء ﴾ أي: أخبار ﴿ ماكانوا به يستهزئون ﴾ أي: سيظهر لهم، عند نزول العذاب بهم في الدنيا والآخرة، ما كانوا يستهزئون به من البعث والحساب، أو عند ظهور الإسلام وارتفاعه.

الإشارة: مَنْ سبق له الخُذْلان لاتنفعه الأدلة وتواتُر البرهان، ولاتزيده ظهور المعجزات أو الكرامات إلا التحاسد وظهور العداوات، ولايزيده الدعاء إلى الله والتناد، إلاَّ الإعراض عنه والبعاد، نعوذ بالله من الشقاء وسوء القضاء.

ثم أمر أهل الإنكار بالنظر والاعتبار، فقال:

﴿ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ (٦) ﴾

قلت: (كم): خبرية، مفعول «أهلكنا»، أي: كثيراً أهلكنا من القرون، والقَرْن: مدة من الزمان تهلك أشياخُها وتقوم أطفالُها، واختُلف في حدِّها، قيل: مائة، وقيل: سبعون، وقيل: ثمانون، وقيل: القرن: أهل زمان فيه نبي أو فائق في العلم، قلّت المدةُ أو كثُرَتْ، مشتق من قرين الرجل. والمطر المِدْرار هو الغزير، وهي من أمثلة المبالغة، كمِذْكار ومِئْناث.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ألم يروا ﴾ ببصائرهم رؤيةَ اعتبار، ﴿ كم أهلكنا من قبلهم ﴾ من أهل عصر ﴿ مكناهم في الأرض ﴾ أي: جعلناهم متمكنين فيها بالقرار والسُّكْنَى والطمأنينة فيها، أو أعطيناهم من القوة والآلات

ماتمكَّنوا بها من أنواع التصرف فيها؛ فقد ﴿ مكناهم مالم نمكن لكم ﴾ يا أهل مكة، فقد جعلنا لهم من السعة وطول المقام مالم نجعله لكم، أو أعطيناهم من القوة والسّعة في المال والاستظهار على الناس بالعُدّة والعَدد وتَهيُّؤ الأسباب مالم نجعله لكم،.

﴿ وأرسلنا السماء ﴾ أي: المطر أو السحاب ﴿ عليهم مِدْرارًا ﴾ أي: مِغْزارًا على قدر المنفعة بحسب الحاجة، ﴿ وجعلنا الأنهار تجري من تحتهم ﴾ أي: أجرينا الأودية من تحت ديارهم وأراضيهم، فعاشوا في الخصب والريف، بين الأنهار والثمار، فعصَوْا وطَغَوا وبَطِرُوا النعمة، فلم يُغْنِ ذلك عنهم شيئاً. ﴿ فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا ﴾ أي: أحدثنا، ﴿ من بعدهم قرنا آخرين ﴾ بدلاً منهم. والمعنى: أنه تعالى كما قدّر أن يُهلك مَنْ تقدم من القُرون، بعد أن مكّنهم في البلاد واستظهروا على العباد، كعاد وثمود، وأنشأ بعدهم آخرين عمَّر بهم بلاده، يقدر أن يفعل ذلك بكم يامعشر الكفار المعاصرين لمحمد ﷺ.

الإشارة: النظر والاعتبار يُوجب للقلب الرقّة والانكسار، وهي عبادة كبرى عند العُبّاد والزهاد، أولى العزم والاجتهاد. وفوقها: فكرة الشهود والعيان، وهي الفكرة التي تطوى وجود الأكوان، وتُغيب الأواني بظهور المعاني، أو تريها حاملة لها قائمة بها، فالأولى فكرة تصديق وإيمان، والثانية فكرة شهود وعِيان. وبالله التوفيق.

ثم ذكر عِنادهم، وأنهم لاتنفع فيهم المعجزة، فقال:

﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ولو نزّلنا عليك ﴾ يامحمد ﴿ كتابًا ﴾ مكتوبًا ﴿ في قرطاس ﴾ أي: رَقّ، فرأوه بأعينهم، ولمسوه بأيديهم، حتى لا يبقى فيه تزوير، لعاندوا، ولقال ﴿ الذين كفروا منهم ﴾ بعد ذلك: ﴿ إن هذا إلا سحر مبين ﴾؛ تعنتًا وعنادًا، وتخصيص اللمس؛ لأن التزوير لا يقع فيه، فلا يمكنهم أن يقولوا: ﴿إنما سُكِّرت أبصارُنا﴾، وتقييده بالأيدي لدفع التجوز، فإنه قد يتجوز فيه فيطلق على الفحص كقوله: ﴿ وأنّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ ﴾[1].

ثم اقترحوا معجزة أخرى، ﴿ وقالوا لولا أُنزل عليه ملك ﴾ يكلمنا أنه نبي، ﴿ أو يكون معه نذيرا ﴾ أو شهيدًا له بالرسالة، رُوي أن العاص بن وائل والنضر بن الحارث وزمعة بن الأسود هم الذين سألوا ذلك. قال تعالى:

(١) من الآية ٨ من سورة الجن.

﴿ ولو أنزلنا ملكاً ﴾ ، كما طلبوا ﴿ لقُضى الأمر ﴾ بهلاكهم، فإنَّ سُنّة الله جرَتْ بذلك فيمن قبلهم؛ مهما اقترحوا آية، فظهرت ثم كفروا، عجَّل الله هلاكهم، ﴿ ثم لا يُنظرون ﴾ أى: لا يُمهلون بعد نزولها ساعة.

وعلى تقدير لو أنزلنا عليهم الملك ـ كما اقترحوا ـ فلا يمكن أن يظهر إلا على صـورة البشر ليُطيقوا رؤيته، ﴿ ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا ﴾ ليتمكنوا من رؤيته، كما مثَّل جبريل فى صورة دِحْية، فإن القوة البشرية لا تقوَى على رؤية الملائكة. وإنما رآهم كذلك الأفرادُ من الأنبياء، لامتلاء أسرارهم بالأنوار القدسية، فإذا ظهر على صورة البشر التبس الأمر عليهم فقالوا: إنما هو بشر لا ملَك. فهذا معنى قوله: ﴿ وللبسنا عليهم مايلبسون ﴾ أى: لخلطْنا عليهم مايخلطون على أنفسهم وعلى ضعفائهم، أو لفعلنا لهم فى ذلك فعلاً مُلْبِساً يطرق لهم إلى أن يَلْبِسوا به على أنفسهم وضعفائهم؛ فإن عادة الله فى إظهار قدرته أن تكون مرتدية برداء حكمته؛ ليبقى سر الربوبية مَصُوناً، فمن سبقت له العناية خلق الله فى قلبه التصديق بها، حتى علمها ضرورة، وغيره يلبس الأمر عليه فيها. وبالله التوفيق.

الإشارة: كرامات الأولياء كمعجزات الأنبياء، لاتظهر إلاَّ لأهل الصدق والتصديق، ولا يتحقق بولايتهم إلاَّ من سبق له الوصول إلى عين التحقيق. «سبحان من لم يجعل الدليلَ على أوليائه إلا من حيثُ الدليلُ عليه، ولم يُوصل إليهم إلا من أراد أن يوصله إليه»، فأهـل الإنكار عليـهم لا يرون إلا مايقتضى البعد عنهم. وأهـل الإقرار لايرون إلا ما يقتضى القرب منهم والمحبة فيهم. والله تعالى أعلم.

ثم سلّى رسوله ـ عليه الصلاة السلام ـ فقال:

﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ ﴾

قلت: حاق يَحِيق حَيْقاً، أى: نزل وأحاط، و (منهم) : يتعلق بسخروا، و(ماكانوا) : الموصول اسمى أو حرفى .

يقول الحق جل جلاله فى تسلية رسوله ﷺ: ﴿ ولقد استُهزئ برسل ﴾ كثير ﴿ من قبلك ﴾ فصبروا على أذى قومهم حتى أهلكهم الله، ﴿ فحاق ﴾ أى: أحاط ﴿ بالذين سَخِروا منهم ماكانوا به يستهزءون ﴾ أى: نزل بهم العذاب الذى كانوا يستهزءون به ويستبعدونه، أو: نزل بهم وبالُ استهزائهم وهو الهلاك.

الإشارة: كل ما سُلِّيَت به الرسل تسلَّى به الأولياء، فما من ولى صِدِّيق إلا ابتلاه الله بتسليط الخلق عليه؛ حتى ترحلَ رُوحه عن هذا العالم لضيقه عليها، وتتمكن من شهود عالم الملكوت، فإذا طهرت منه البقايا، وكملت فيه المزايا، ردَّه إليهم غنياً عنهم، وغائباً عنهم، جسمُه مع الخلق وقلبه مع الحق. هذه سُنّة الله فى أوليائه، فكل ولىّ يتسلى بمن قبله فى إيذاء الخلق له. غير أن أولياء هذه الأمة إذا كمل مقامهم صاروا على قَدَم نبيهم، يكونون رحمة

للعباد، مَنْ آذاهم لا يُعاجَل بالعقوبة غالباً، كما كان نبيهم رحمة للعالمين، فقال: «اللهم اغفر لقومي فإنهم لايعلمون». والله تعالى أعلم.

ثم جدَّدَ الأمر بالاعتبار، فقال:

﴿ قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ ﴾

قلت: قال الزمخشري: فإن قلت: أيُّ فرق بين قوله: (فانظروا)، وبين قوله: (ثم انظروا)؟ فالجواب: أنه جعل النظر مسببًا على السير في قوله: «فانظروا»، كأنه قال: سيروا لأجْل النظر، وأما قوله: ﴿قل سيروا في الأرض ثم انظروا﴾، فمعناه: إباحة السير للتجارة وغيرها من المنافع، وإيجاب النظر في الهالكين. هـ. ولم يقل: كانت؛ لأن العاقبة مُجَاز تأنيثُها.

يقول الحق جل جلاله: ﴿قل﴾ لهم: ﴿سيروا في الأرض﴾ وجُولوا في أقطارها، ﴿ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾ قبلكم، كعاد وثمود وقوم لوط وأصحاب مدين، كيف أهلكهم الله بعذاب الاستئصال، كي تعتبروا وتنزجروا عن تكذيب محمد ـ عليه الصلاة السلام ـ.

الإشارة: يقال لأهل التنكير على أهل الذكر والتذكير: سِيروا في الأرض، وانظروا كيف كان عاقبة المنكرين على المتوجهين، كانت عاقبتهم الخذلان، وسوء الذكر بعد الموت والخسْرَان كابن البراء وغيره من أهل التنكير. نعوذ بالله من التعرض لمقت الله.

لكن الأمر كله بيد الله، كما قال تعالى:

﴿ قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُل لِّلَّهِ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ ۞ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣﴾ ﴾

قلت: جملة (ليجمعنكم): مقطوعة، جواب لقسَم محذوف، وقيل: بدل من الرحمة، وهو ضعيف؛ لدخول النون الثقيلة في غير موضعها. و «إلى»: هنا، للغاية، كما تقول: جمعتُ القوم إلى داري. وقيل: بمعنى «في»، و(الذين خسروا): مبتدأ، وجملة: (فهم لا يؤمنون): خبر، و (له ما سكن): عطف على (لله)، وهو إما من السكنى فلا حذف، أو من السكون، فيكون حذف المعطوف. أي: ما سكن وتحرَّك.

يقول الحق جل جلاله: ﴿قل﴾ للمشركين يا محمد: ﴿لمن ما في السموات والأرض﴾ خلقًا وملكًا وعبيدًا؟.﴿قل﴾ لهم هو: ﴿لله﴾ لا لغيره، والقصد بالآية: إقامة البرهان على التوحيد وإبطال الشرك. وجاء ذلك بصيغة الاستفهام؛ لإقامة الحجة على الكفار، فسأل أولاً، ثم أجاب عن سؤاله بنفسه؛ لأنّ الكفار يُوافقون على ذلك ضرورة، فثبت أن الإله الحق هوالذى له ما فى السموات والأرض، وإنما يحسُن أن يكون السائلُ مجيباً إذا علِم أن خَصْمَه لا يخالفُه فى الجواب الذى يقيم به الحجة عليه.

ثم دعاهم إلى الإيمان والتوبة بتلطُّف وإحسان فقال: ﴿كتب على نفسه الرحمة﴾، ﴿أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(١) كما فى الآية الأخرى، والكتابةُ هنا عبارة عن القضاء السابق، وقد فسرها رسول الله ﷺ بقوله: «إنّ اللهَ كَتَبَ كِتاباً قبلَ أنْ يَخْلُقَ السَّمواتِ والأرضَ فَهُوَ عِنْدَه» وفيه: «أنّ رَحْمَتِي سبقَتْ غَضَبِى»(٢) وفى رواية: «تَغْلِبُ غضبى»(٣).

قال البيضاوى: ﴿كتب على نفسه الرحمة﴾ أى: التزمها تفضلاً وإحساناً، والمراد بالرحمة: ما يعُمّ الدارين، ومن ذلك: الهداية إلى معرفته، والعلم بتوحيده، بنصب الأدلة، وإنزال الكتب والإمهال على الكفر.هـ.

ثم ذكر محل ظهور هذه الرحمة، فقال: والله ﴿ليجمعنكم إلى يوم القيامة﴾ أى: ليجمعنكم من القبور مبعوثين إلى يوم القيامة فيُجازى أهل التوبة والإيمان، ويعاقب أهل الشرك والكفران، ﴿لاريب﴾ فى ذلك اليوم، أو فى ذلك الجمع، فيظهر أهل الخسران من أهل الإحسان، ولذلك قال: ﴿الذين خسروا أنفسهم﴾ بتضييع رأس مالهم، وهو النظر الصحيح الموجِب للإيمان والتوحيد ﴿فهم لا يؤمنون﴾ حتى أدركهم الموت؛ فلا خسران أعظم من ذلك. ودخلت الفاء فى الخبر؛ للدلالة على أن عدم إيمانهم مسبَّب عن خسرانهم؛ فإن إبطال النظر، والانهماك فى التقليد واتباع الوهم، أدّى بهم إلى الإصرار على الكفر، والامتناعِ من الإيمان إلى الممات. فخسروا أولاً بتضييع النظر، فتسبب عنه عدم الإيمان.

ثم تمم جوابه فقال: ﴿وله ما سكن﴾ أى: قل لهم: ما فى السموات والأرض لله، وله أيضاً ماسكن ﴿في الليل والنهار﴾ أى: ما استقر فيهما وما اشتملتا عليه، أو ماسكن فيهما وتحرك، ﴿وهو السميع﴾ لكل مسموع، ﴿العليم﴾ بكل معلوم؛ فلا يخفى عليه شيء فى الليل والنهار، فى جميع الأقطار.

---

(١) الآية ٥٤ من السورة نفسها.

(٢) أخرجه البخارى فى (التوحيد، باب قول الله تعالى: «ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين») من حديث أبى هريرة.

(٣) أخرجها البخارى فى (التوحيد، باب قوله تعالى «ويحذركم الله نفسه») ومسلم فى (التوبة، باب: فى سعة رحمة الله) من حديث أبى هريرة.

الإشارة: إذا علم العبد أن الخلق كلهم في قبضة الله، وأمورهم كلها بيد الله، أحاط بهم علماً وسمعاً وبصراً، لم يبق له على أحد عتاب، ولاترتيبُ خطأ ولا صواب، إلاّ ما أُمرتْ به الشريعةُ على ظاهر اللسان. بل شأنه أن ينظر إلى ما يفعل المالك في ملكه، فيتلقاه بالقبول والرضى، وفي الحِكَم: «ما ترَكَ من الجهل شيئاً مَنْ أراد أن يُظهر في الوقت غيرَ ما أظهره الله فيه»، هذا شأن أهل التوحيد؛ يدورون مع رياح الأقدار حيثما دارت، غيرَ أنهم يتحنَّنون بقلوبهم إلى رحمة الكريم المنان، وينهضون بهمتهم إلى مظَانّ السعادة والغفران، ويرجون منه الجمع عليه في روح وريحان، وجنة ورضوان، بمحض فضل منه وإحسان. جعلنا الله منهم بفضله وكرمه. آمين.

ثم أقام الحجة على أهل الشرك، فقال:

﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾ ﴾

قلت: (فاطر): نعت لله، ومعناه: خالق ومبدع. قال ابن عباس رضي الله عنهما: (ما كنتُ أعرف معنى فاطر، حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر، فقال أحدهما: أنا فطرْتُها بيدي). وجملة: (وهو يطعم): حال، وقُرئ بعكس الأول؛ ببناء الأول للمفعول، والثاني للفاعل، على أن ضمير (هو) راجع لغير الله، وببنائهما للفاعل؛ على معنى يُطعِم تارة، ويمنع أخرى، كقوله: ﴿ يقبض ويبسطُ ﴾(١)، وجملة (إن عصيتُ): معترضة بين الفعل والمفعول، والجواب: محذوف دل عليه ما قبله، أي: إن عصيت فإني أخاف عذاب يوم عظيم.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ قل ﴾ لهم يامحمد: ﴿ أغير الله أتخذ ولياً ﴾ أي: معبوداً أواليه بالعبادة والمحبة، وأُشركه مع الله الذي أبدع السموات والأرض، ﴿ وهو ﴾ الغني عما سواه، الصَّمَداني، ﴿ يُطْعِمُ ﴾ عبادَه ولا ﴿ يُطْعَمُ ﴾ ولا يحتاج إلى من يطعمه، فهو يرزق ولا يُرزق، وتخصيص الطعام؛ لشدة الحاجة إليه. ﴿ قُل ﴾ لهم: ﴿ إني أُمرتُ أن أكون أول من أسلم ﴾، وأنقاد بكلِّيتي إلى هذا الإله الحقيقي، الغني بالإطلاق، وأرفضُ كل ما سواه، ممن عمَّه الفقرُ ابتداءً ودواماً. فكان عليه الصلاة والسلام هو أولَ سابق إلى الدين. ثم قيل له: ﴿ ولاتكونن من المشركين ﴾؛ تنفيراً لغيره من الشرك، وإلاّ فهو مبرأٌ منه ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

(١) من الآية: ٢٤٥من سورة البقرة.

﴿ قل إني أخاف إن عصيت ربي ﴾ بالشرك وغيره ﴿ عذاب يوم عظيم ﴾ ، وهذه مبالغة أخرى في قطع أطماعهم، وتعريض لهم بأنهم عصاة، مستوجبون للعذاب، ﴿ من يُصرف عنه ﴾ ذلك العذاب، ﴿ يومئذ ﴾ أي: يوم القيامة، ﴿ فقدْ رحمه ﴾ أي: نجاه، وأنعم عليه، ﴿ وذلك الفوز المبين ﴾ أي: وذلك الصرف أو الرحمة هو الفلاح المبين.

ثم ذكر حجة أخرى على استحقاقه للعبادة والولاية، فقال: ﴿ وإن يمسسك الله بضر ﴾ كمرض أو فقر، ﴿ فلا كاشف له إلا هو ﴾ ؛ إذ لا يقدر على صرفه غيره، ﴿ وإن يمسسك بخير ﴾ ؛ بنعمة، كصحة وغنى ومعرفة وعلم، ﴿ فهو على كل شيء قدير ﴾ ، فهو قادر على حفظه وإدامته، ولا يقدر أحد على دفعه، كقوله تعالى: ﴿ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ ﴾[1] ، ﴿ وهو القاهر ﴾ لجميع خلقه؛ كلهم في قبضته، ﴿ فوق عباده ﴾ بهذه القهرية والغلبة والقدرة، ﴿ وهو الحكيم ﴾ في صنعه وتدبيره، ﴿ الخبير ﴾ بخفايا أمور عباده، لا يخفى عليه شيء من أحوالهم الباطنة والظاهرة.

الإشارة: في الآية حضٌّ على محبة الحق، وولايته على الدوام، ورفض كل ما سواه ممن عمَّه الفقر من الأنام، وفيها أيضاً: حث على المسابقة إلى الخيرات، والمبادرة إلى الطاعات، اقتداء بسيد أهل الأرض والسموات، فكان - عليه الصلاة السلام - أول من عبد الله، وأول من توجه إلى مولاه، قال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴾[2] ، فلو جاز أن يتخذ ولداً، لكنت أنا أولى به، لأني أنا أول من عبده.

قال الورتجبي: ﴿قل إني أمرت أن أكون أول من أسلم﴾ أي: أمرني حين كنت جوهر فطرة الكون - حيث لم يكن غيري في الحضرة - أن أكون أول الخلق في المحبة والعشق والشوق، وأول الخلق له منقاداً بنعت محبتي له، راضياً بربوبيته، غير منازع لأمر مشيئته. وقال بعضهم: أكون أول من انقاد للحق إذا ظهر. هـ.

ولما قالت قريش للنبي ﷺ: يامحمد: لقد سألنا عنك اليهود والنصارى، فزعموا أن ليس لك عندهم ذكر ولاصفة، فأرنا مَنْ شهد لك؟ أنزل الله تعالى:

﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدُۢ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ .. ﴾

قلت: (قل الله شهيد): يحتمل المبتدأ والخبر، أو يكون (الله) خبراً عن مضمر، أو مبتدأ حُذف خبره، وشهيد: خبر عن مضمر، أي: قل هو الله، أو الله أكبر شهادة، وهو شهيد بيني وبينكم، و(من بلغ): عطف على مفعول «أنذر»، أي: لأنذركم يا أهل مكة، وأنذر من بلغه القرآن، وحذف مفعول (بلغ).

(١) من الآية: ١٠٧ من سورة يونس.
(٢) من الآية: ٨١ من سورة الزخرف.

يقول الحق جل جلاله: ﴿قل﴾ يامحمد للذين سألوك مَنْ يشهد لك بالنبوة: ﴿أيُّ شيء﴾ عندكم هو ﴿أكبر شهادة﴾ ؟ فإن لم يجيبوا فقل لهم: هو ﴿الله﴾ ؛ فإنه أكبر الشاهدين، وهو الذى يشهد لى بالنبوة والرسالة؛ بإقامة البراهين وإظهار المعجزات، وهو ﴿شهيد بيني وبينكم﴾، وكفى به شهيدا.

﴿وأُوحي إليَّ هذا القرآن لأُنذركم به﴾ أي: لأخوّفكم به، إن أعرضتم عنه، وأُبشّركم به إن آمنتم به، واكتفى بذكر الإنذار عن ذكر البشارة؛ لأنه مصرح به في موضع آخر، ولأن الأهم هنا هو الإنذار؛ لغلبة الكفر حينئذ، وأُنذر به أيضا كل من بلغه القرآن من الأحمر والأسود، والجن والإنس إلى يوم القيامة. وفيه دليل على أن أحكام القرآن تعُم الموجودين وقت النزول ومَنْ بعدهم، وأنه لا يؤاخذ بها من لم تبلُغه، وهو نادر، قال سعيد بن جبير: (مَنْ بلَغه القرآن فكأنما رأى محمداً ﷺ).

الإشارة: في الآية حث على الاكتفاء بعلم الله، والاستغناء به عما سواه، وعلامةُ الاكتفاء بعلم الله ثلاث: استواء المدح والذم، والرضى بالقليل والكثير، والرجوع إلى الله وحده في السراء والضراء.

واعلم أن الحق تعالى إذا شهد لك بالخصوصية، ثم اكتفيت بشهادته فأنت من أهل الخصوصية، وإن لم تكتف بشهادته، وتطلعت إلى أن يعلم الناس بخصوصيتك، فأنت كاذب في دعوى الخصوصية. واطلاع الحق تعالى على ثبوت خصوصيتك هو شهادته لك، فاقنع بعلم الله، ولا تلتفتْ إلى أحد سواه، لئلا ينزعَها مِنْ قلبك، حيث لم تقنع بعلم الله فيك. وبالله التوفيق.

ولمّا أتى قومٌ من الكفار إلى رسول الله ﷺ، فقالوا: يا محمد؛ أما تعلم أن مع الله إلهاً آخر؟ أنزل الله تعالى:

﴿... أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ قُل لَّآ أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾﴾

قلت: الاستفهام للإنكار والتوبيخ.

يقول الحق جل جلاله، في الإنكار على المشركين: ﴿أئنكم لتشهدون أنَّ مع الله آلهة أُخرى﴾ تستحق أن تعبد ﴿قل﴾ لهم يا محمد: أنا ﴿لا أشهدُ﴾ بما تشهدون به، ﴿قل﴾ لهم: ﴿إنما هو إله واحد﴾ ؛ بل أشهد ألا إله إلا هو، ﴿وإنني بريءٌ مما تُشركون﴾ به من الأصنام.

الإشارة: لم يبْرأ من الشرك الخفي والجلي إلا أهلُ الفناء؛ الذين وحدوا الله في وجوده، فلم يروا معه سواه. قال بعضُ من بلغ هذا التوحيد: (لو كُلفت أن أرى غيره لم أستطع؛ فإنه لا غيرَ معه حتى أشهده) وقال آخر: مُحَالٌ أن تشهده وتشهد معه سواه. وقال شاعرهم:

مُــذْ عَـرَفْتُ الإِلَه لَمْ أَرَ غَـيْـرا وَكَـذَا الغَـيْـرُ عِنْدَنَـا مَـمْنُوعُ

إلى غير ذلك من مقالاتهم الدالة على تحقيق وجدانهم. نفعنا الله بذكرهم ومحبتهم. آمين.

ولمّا قالت قريش: قد سألنا اليهود والنصارى عنك، فلم يجدوا لك عندهم ذكراً، ردّ الله عليهم، فقال:

﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله ﴿الذين آتيناهم الكتاب﴾ من اليهود والنصارى، ﴿يعرفونه﴾ أي: محمداً ﷺ بحليته المذكورة في التوراة والإنجيل، ﴿كما يعرفون أبناءهم﴾ أو أشد، وإنما كتموه؛ جحداً وخوفًا على رياستهم.. ﴿الذين خسروا أنفسهم﴾ من أهل الكتاب؛ حيث كذّبوا وكتموا، ومن المشركين حيث كفروا وجحدوا، ﴿فهم لا يؤمنون﴾؛ لتضييعهم مايه يُكتسب الإيمان من النظر والتفكير والإنصاف للحق، فقد ظلموا أنفسهم وبخسوها.

﴿ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً﴾؛ بأن كتم شهادة الحق، وهي صفة الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ أو ادّعاء الملائكة بنات الله، وهؤلاء شفعاؤنا عند الله، ﴿أو كذّب بآياته﴾؛ كالقرآن والمعجزات وسمّوها سِحْرًا، أي: لا أحد أظلم ممن فَعل هذا، وإنما عبَّر بـ«أو»، وهم قد جمعوا بين الأمرين؛ تنبيهاً على أن كل واحد منهما وحده بالغٌ غاية الإفراط في الظلم على النفس، ﴿إنه﴾ أي: الأمر والشأن ﴿لا يُفلح الظالمون﴾، فضلاً عمّن لا أحد أظلم منه.

الإشارة: أقبحُ الناس منزلة عند الله، من تحقق بخصوصية ولي من أولياء الله، ثم كتَمها وجَحدها؛ حسداً وعنادا، وجعل يُنكر عليه، فقد آذن بحرب من الله، فالتسليمُ عناية، والانتقاد جناية، والاستنصافُ من شأن الكرام، والتعصب من شأن اللئام. وبالله التوفيق.

ثم ذكر وعيد أهل الشرك، فقال:

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾

قلت: ﴿لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا﴾، من قرأ بالرفع والتأنيث: ففتنة اسمها، و(إلاّ أن قالوا): خبرها، ومن قرأ بالنصب: فخبرٌ مقدم، والتأنيث لأجل الخبر، ومن قرأ بالتذكير والنصب، فخبر مقدم، و(إلاّ أن قالوا): اسمها.

يقول الحق جل جلاله: ﴿و﴾ اذكر يامحمد ﴿يوم نحشرهم﴾ أي: المشركين، ﴿جميعًا ثم نقول للذين أشركوا أين شركاؤكم﴾ أي: آلهتكم التي جعلتموها شركاء لله، ﴿الذين كنتم﴾ تزعمونهم شركاء، وتودونها وتنتصرون لها، فيُحال بينهم وبينها، ويتبرأون منها، كما قال تعالى: ﴿ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ماكنا مشركين﴾ أي: لم تكن عاقبة كفرهم الذي افتتنوا به، إلا التبرؤ منه، بعد الانتصار له والتعصب عليه، أو: لم يكن جواب اختبارهم إلا التبرؤ من الشرك، فيكذبون ويحلفون عليه، مع علمهم بأنه لا ينفع من فَرْط الحيْرة والدهشة.

فإن قلت: كيف يجحدون مع قوله: ﴿ولا يكتمون الله حديثا﴾(١) فالجواب: أن ذلك يختلف باختلاف الطوائف والمواطن، فيكتم قومٌ ويُقر آخرون، ويكتمون في موطن ويُقرون في موطن آخر؛ لأن يوم القيامة طويل، وقال ابن عباس لمّا سئل عن هذا: (إنهم جحدوا، طمعاً في النجاة، فختم الله على أفواههم وتكلمت جوارحهم، فلا يكتمون حديثا).

قال تعالى: ﴿انظر كيف كذبوا على أنفسهم﴾ بنفيِ الشرك عنها بعد تحققها به ونظيره قوله: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾(٢) ﴿وضل عنهم ماكانوا يفترون﴾ أي: غاب عنهم ماكانوا يعبدونه من الشركاء افتراء على الله.

الإشارة: من أحب شيئاً فهو عبد له، ويوم القيامة يتبرأ منه، ويرى وبال فتنته والاشتغال به، فينبغي لمن أراد السلامة من الفتنة، أن يُفرد محبته لله، ويتبرأ من كل ما سواه، ويُفرد وجهته لله، ولا يشتغل ظاهراً ولا باطنا إلا

(١) من الآية ٤٢ من سورة النساء.
(٢) من الآية: ١٨ من سورة المجادلة.
(١) من الآية: ٤٢ من سورة يونس.

بما يقربه من الله ويبعده عما سواه وفي الحديث: «تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ والدِّرْهَمِ والخَمِيصَةِ، تَعِسَ وانْتَكَسَ، وإذَا شِيكَ فلا انْتَقَشَ»(١).

ثم ذكر أحوالهم في الدنيا باعتبار الكفر والعناد، فقال:

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾

قلت: «مَنْ»: لفظها مفرد ومعناها جمع، فيجوز في الضمير مراعاة اللفظ فيُفرد، كقوله هنا: ﴿ومنهم من يستمع إليك﴾، ويجوز مراعاة المعنى فيجمع، كقوله في يونس: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ﴾(٢) والأكِنَّة: الأغطية، جمع كنان، و(أن يفقهوه): مفعول له؛ أي: كراهية أن يفقهوه، و(حتى): غاية، أي: انتهى التكذيب حتى وصلوا إليك يجادلونك، والجملة بعدها: إمّا في محل جر بها ويجادلونك جواب لها، و(يقول): تبيين لها، وإما لا محل لها؛ فتكون ابتدائية. والأساطير: جمع أسطورة، أو أسطار؛ جمع سطْر، فيكون جمع الجمع.

يقول الحق جل جلاله: ومن الكفار ﴿من يستمع إليك﴾ حين تقرأ القرآن، والمراد: أبو سفيان والوليد والنضر وعتبة وشَيْبَة وأبو جهل وأضرابهم، اجتمعوا فسمعوا رسول الله ﷺ يقرأ، فقالوا للنضر: ماتقول؟ فقال: والذي جعلها بيننا وبينه ما أدرى ما يقول، إلا أنه يحرك لسانه، ويقول أساطير الأولين، مثل ماجئتكم به. قال السُّهَيْلي: حيث ماورد في القرآن: «أساطير الأولين» فإنّ قائلها هو النضر بن الحارث، وكان قد دخل بلاد فارس وتعلّم أخبار ملوكهم، فكان يقول: حديثي أحسنُ من حديث محمد، فنزلت فيه وفي أصحابه .

﴿ وجعلنا على قلوبهم أكنّةً ﴾ أي: أغطية؛ كراهة ﴿ أن يفقهوه ﴾؛ لما سبق لهم من الشقاء، ﴿ و ﴾ جعلنا ﴿ في آذانهم وقرًا ﴾ أي: ثقلاً وصممًا فلا يسمعون معانيه، ولايتدبرونها. ﴿ وإن يَروا كلَّ آية ﴾ ومعجزة ﴿ لايؤمنوا بها ﴾؛ لفرط عنادهم، واستحكام التقليد فيهم، وسبقِ الشقاء لهم، فلا يزال التكذيب والشك يعظمُ فيهم ﴿ حتى إذا جاءوك يجادلونك ﴾ أي: حتى ينتهي بهم التكذيب إلى أن يجيئوك يجادلونك؛ ﴿ يقول الذين كفروا إنْ ﴾ أي: ما ﴿ هذا إلا أساطير ﴾ أي: أكاذيب ﴿ الأولين ﴾، فإنّ جَعْلَ أصدق الحديث خرافاتِ الأولين غايةُ التكذيب.

---

(١) إذا شيك فلا انتقش: أي: إذا شاكته شوكة فلا يقدر على انتقاشها، وهو إخراجها بالمنقاش.. والحديث أخرجه البخاري مطولاً في (الجهاد والسير، باب الحراسة). من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) من الآية: ٤٢ من سورة يونس.

﴿وهم﴾ أيضا ﴿ينْهون عنه﴾ أي: ينهون الناس عن القرآن، أو عن الرسول والإيمان به، ﴿وينْأون عنه﴾ أي: يبعدون عنه، فقد ضلوا وأضلوا، أو ينْهون عن التعرض لرسول الله ﷺ، وينأون عنه؛ فلا يؤمنون، كأبي طالب ومن كان معه، يحمي رسول الله ﷺ وهو في مكة. وفي (ينهون) ضربٌ من ضروب التجنيس من علم البلاغة. قال تعالى: ﴿وإنْ﴾ أي: ما ﴿يُهلكون﴾ بذلك ﴿إلا أنفسهم ومايشعرون﴾ أن ضررهم لايتعداهم إلى غيرهم.

الإشارة: اعلم أن القلب تحجبه عن تدبر كلام الله والتمتع بحلاوته أربعةُ حُجُب:

الأول: حجاب الكفر والشرك ويندفع بالإيمان والإسلام..

والثاني: حجاب المعاصي والذنوب، وينخرق بالتوبة والانقلاع.

والثالث: حجاب الانهماك في الحظوظ والشهوات واتباع الهوى، وينخرق بالزهد والورع والتعفف ونوع من الرياضة.

والرابع: حجاب الغفلة والخوض فيما لايعني، والاشتغال بالبطالة، وينخرق باليقظة والتوجه إلى الحق، والانقطاع إلى الله بكليته، فإذا انخرقت هذه الحجب عن القلب، تمتع بحلاوة القرآن، ومناجاة الحق على نعت القرب والمراقبة.

ويبقى حجابان آخران، إذا خرقهما العبد أفضى إلى مشاهدة المتكلم دون واسطة، أولهما: حجاب حلاوة الطاعة والمعاملة الظاهرة، والوقوف مع المقامات أو الكرامات، فإنها عند العارفين سموم قاتلة. وثانيهما: حجاب الوهم والوقوف مع ظاهر الحس، دون الوصول إلى باطنه، فيقف مع الأواني دون شهود المعاني، وقد قال الششتري:

لاَ تَنْظُرْ إلَى الأوانِي وَخُضْ بَحْرَ المَعَانِي لَعَلَّكَ تَرَانِي.

وقال الغزالي: الموانع التي تحجب القلب عن الفهم أربعة: الأول: جعل الفهم مقصوراً على تحقيق الحروف؛ بإخراجها من مخارجها، فهذا يتولى حفظه شيطان وُكّل بالقراء، يصرفهم عن معاني كلام الله تعالى. الثاني: أن يكون مُقلداً لمذهب سمعه بالتقليد وجمد عليه، من غير وصول إليه ببصيرة. الثالث: أن يكون مصراً على ذنب، أو متصفاً بكبر، أو مبتلى بهوى في الدنيا مطاع، فإن ذلك سبب ظلمة القلب، وهو كالخبْء على المرآة، فيمنع جلية الحق فيه، وهو أعظم حُجب القلب، وبه حُجب الأكثرون. الرابع: أن يكون قد قرأ تفسيراً ظاهراً، واعتقد أنه لا معنى لكلمات القرآن إلاّ ما يتأوّل عن ابن عباس، ومجاهد وغيرهما، و أن ماوراء ذلك تفسير بالرأي منهي عنه، فهذا أيضاً من الحجب العظيمة، فإن القرآن بحرٌ لا ساحل له، وهو مبذول لمن يغرف منه إلى يوم القيامة، كل على قدر سعته وصفاء قلبه..هـ. بالمعنى.

ثم هددهم بما أعد لهم يوم القيامة، فقال:

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾

قلت: (لو): شرطية، وجوابها محذوف: أي: لرأيت أمراً فظيعًا هائلا، وإنما حذف في مثل هذا ليكون أبلغ مايقدره السامع، و(لا نكذب) و(نكون): قُرئ بالرفع، على الاستئناف والقطع عن التمنى، ومثّله سيبويه بقولك: (دعنى ولا أعود) أى: وأنا لا أعود، ويحتمل أن يكون حالاً، أى: غير مُكذّبين، أو عطفًا على: (نُرد)، وقُرئ بالنصب؛ على إضمار «أن» ـ بعد واو المعية فى جواب التمنى.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ولو ترى﴾ يامحمد، أو: يا من تصح منه الرؤية، حالَ الكفار ﴿إذ وُقفوا على النار﴾ حين يعاينونها أو يطلعون عليها، أو يدخلونها، فيعرفون مقدار عذابها، لرأيت أمراً شنيعاً وهولاً فظيعا؛ ﴿فقالوا﴾ حينئذ: ﴿ياليتنا نُردُّ﴾ إلى الدنيا، ﴿ولا نكذّب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين﴾، ندموا حين لم ينفع الندم، وقد زلّت بهم القدم، قال تعالى: ﴿بل بدا لهم﴾ أى: ظهر لهم يوم القيامة فى صحائفهم ﴿ماكانوا يُخفون من قبل﴾ فى دار الدنيا من عيوبهم وقبائح أعمالهم، أو: بدا لهم حقيقة الإيمان وبطلان ضده، عياناً، لمّا وقفوا على التوحيد وعرفوه ضرورة، وقد كانوا فى الدنيا يُخفونه ويظهرون الشرك، عياذاً بالله. قال تعالى: ﴿ولو رُدُّوا﴾ إلى الدنيا بعد الوقوف والظهور، ﴿لعادوا لما نهوا عنه﴾ من الكفر والمعاصى؛ لأنهم من قبضة الشقاء، والعياذ بالله، ﴿وإنهم لكاذبون﴾ فيما وعدوا من أنفسهم من الإيمان وعدم التكذيب. وفى هذا: الإخبار بما لايكون، ولو كان كيف يكون، وهو مما انفرد الله بعلمه.

الإشارة: يوم القيامة هو محل ظهور حقائق الأشياء على ما هى عليه، فإن كانت حقاً ظهرت حقيقتها وصحتها، وإن كانت باطلة، ظهر بطلانها عياناً، لكنْ لا تنفع المعرفة حينئذ، لرفْع حجاب الحكمة وظهور القدرة، فلم يبقَ غيبٌ، وإنما المزيّةُ فى الإيمان بالغيب، والمعرفةِ فى النكْران، والشهود خلف رداء الكبرياء، بشهود المعانى خلف الأوانى، فإن ظهرت المعانى فلا إيمان، وإنما يبقى العيان، لأهل العيان، والخيبة لأهل الخذلان.

قال الورتجبى: القوم لم يعرفوا حقائق الكفر فى الدنيا، ولو عرفوه لكانوا موحدين، فيظهر لهم يوم القيامة حقيقة الكفر، ولاينفعهم ذلك؛ لفوتهم السير فى النكرات، التى معرفتها توجب المعارف، وذلك المقام فى أماكنِ صدورهم، وهم كانوا يخفونه بمتابعة صورة الكفر وشهوة العصيان بغير اختيارهم؛ لقلة عرفانهم به، ولا يكون قلب من العرش إلى الثرى إلا ويطرقه هواتف الغيب، بإلهام الله الذى يعرف به طُرُقَ رضى الحق، وصاحبه يعلم ذلك ويسمع ويُخفيه فى قلبه، لأنه أدق من الشعرة، وحركته أُخفى من دبيب النمل، ومع ذلك يعرفه من نفسه، ولكن من غلبتْ شهوات نفسه عليه، لا يتبع خطاب الله بالسر، فأبدى الله لهم ماكانوا يخفونه، تعييراً لهم وحجة عليهم. انتهى.

قلت: قوله: ولايكون قلب... إلخ، حاصل كلامه: أن القلب من حيث هو لابد أن يطرقه الخصم إن حاد عن الحق، وهو المراد بهواتف الغيب، لكنه أخفى من دبيب النمل فى حق الغافلين. فإن كان القلب حياً متيقظاً تتبع ذلك الخصم؛ حتى يزيله بظهور الحق، وإن كان ميتاً بغلبة الشهوات أخفاه حتى يموت، فيبدو له ما كان يخفيه من قبل. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر اعتقادهم الفاسد، وما أداهم إليه، فقال:

﴿ وَقَالُوٓاْ إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ قَالَ أَلَيۡسَ هَٰذَا بِٱلۡحَقِّۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ﴿٣٠﴾ قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةٗ قَالُواْ يَٰحَسۡرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطۡنَا فِيهَا وَهُمۡ يَحۡمِلُونَ أَوۡزَارَهُمۡ عَلَىٰ ظُهُورِهِمۡۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَعِبٞ وَلَهۡوٞۖ وَلَلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿وقالوا﴾ أى: الكفار فى إنكار البعث: ﴿إن هى﴾ أى: الحياة ﴿إلا حياتنا الدنيا﴾ لاحياة بعدها، ﴿ومانحن بمبعوثين﴾، قال جل جلاله: ﴿ولو ترى إذ وُقفوا على ربهم﴾، كناية عن حبسهم للسؤال والتوبيخ، أو: وقفوا على قضاء ربهم بين عباده، وعرفوه حق التعريف، قال لهم الحق جل جلاله: ﴿أليس هذا﴾ الذى كنتم تنكرونه، ﴿بالحق. قالوا بلى وربنا﴾ إنه لحق، ولكنا كنا قومًا ضالين، وهو إقرار مؤكد باليمين، لانجلاء الأمر غاية الجلاء، قال تعالى لهم: ﴿فذوقوا﴾ أى: باشروا ﴿العذاب بما كنتم تكفرون﴾ أى: بسبب كفركم.

﴿قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله﴾، حيث فاتهم النعيم، واستوجبوا العذاب المقيم، والمراد بلقاء الله: البعث وما يتبعه. فاستمروا على التكذيب ﴿حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة﴾ أى: فجأة ﴿قالوا ياحسرتنا﴾ أى: ياهلكتنا ﴿على مافرطنا﴾ أى: قصّرنا ﴿فيها﴾ أى: فى الحياة الدنيا، أو فى الساعة، أى: فى شأنها والاستعداد لها، ﴿وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم﴾، كناية عن تحمل الذنوب، لأن العادة حمل الأثقال على الظهور، وقيل: إنهم يحملونها حقيقة، وقد رُوى: أن الكافر يركبه عمله، بعد أن يتمثل له فى أقبح صورة، وأن المؤمن يركب عمله، بعد أن يتصور له فى أحسن صورة. قال تعالى فى شأن الكفار: ﴿ألا ساء مايزرون﴾ أى: بئس شيئًا يَزِرُونَه ويرتكبونه فى الدنيا وزرهم هذا ،الذى يتحملونه على ظهورهم يوم القيامة.

وسبب هذا: الركون إلى دار الغرور، ونسيان دار الخلود، ولذلك قال تعالى بإثره: ﴿ وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو ﴾ أي: وما أعمالها إلا لعب ولهو، تُلهي الناس وتشغلهم عما يعقب منفعة دائمة ولذة حقيقية، وما مدة بقائها مع مايعقبها من الفناء إلاّ كمدة اللعب واللهو، إذ لا طائل تحته لمن لم يعمر أوقاتها بطاعة ربه، ﴿ وللدار الآخرة خير للذين يتقون ﴾ ؛ لدوامها وخلوص نعيمها وصفاء لذاتها، ﴿ أفلا تعقلون ﴾ أيّ الأمرين خير، هل دار الخراب والفناء، أو دار النعيم والبقاء، وفي قوله: ﴿ للذين يتقون ﴾ : تنبيه على أن ما ليس من أعمال المتقين كله لعب ولهو.

الإشارة: إذا كمل نور العقل حصل لصاحبه التمييز بين الحق والباطل، وبين الضار والنافع، فنظر بعين اعتباره إلى الدنيا، فوجدها ذاهبة فانية، ونظر إلى الآخرة، فرآها مقبلة باقية دائمة، فصدف عن الدنيا مُوليا، وأعرض عن زهرتها مدبرا، وأقبل بكليته إلى مولاه، غائباً عن كل ما سواه، فجعل الموت وما بعده نصب عينيه، وخلف الدنيا وراء ظهره أو تحت قدميه. وفي الحِكم: «لو أشرق نور اليقين في قلبك، لرأيت الآخرة أقرب من أن ترحل إليها، ولرأيت الدنيا، وكِسْفَةُ الفناء ظاهرة عليها »، وقال بعض الحكماء: (لو كانت الدنيا من ذهب يفنى، والآخرة من طين يبقى، لاختار العاقل مايبقى على مايفنى. ولاسيما والأمر بالعكس، الدنيا من طين يفنى؛ والآخرة من ذهب يبقى). فلا يختار هذه الدار إلا من لاعقل له أصلا. وفي الحديث عنه ﷺ: «الدُّنيا دَارُ مَنْ لادَارَ لَه، ومَالُ مَنْ لامَالَ لَهُ، لَهَا يَجْمَعُ مَنْ لاعَقْلَ لَهُ، وعَلَيهَا يُعَادي مَنْ لا عِلْمَ عِنْده»(1). أو كما قال عليه الصلاة والسلام.

ثم سلى رسول الله ﷺ على ما لقى من قومه، فقال:

﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾

قلت: «قد» للتحقيق، وإنه ضمير الشأن، وقرأ نافع: «يُحزِن»، بضم الياء حيث وقع، إلا قوله: ﴿ لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الأَكْبَرُ ﴾(2) والباقون: بفتح الياء، وفيه لغتان: حزن يحزُن، كنصر ينصر، وأحزن يحزِن. والأول أشهر.

(1) أخرجه بنحوه أحمد فى المسند ٧١/١٦ من حديث السيدة عائشة ـ رضى الله عنها.
(2) من الآية ١٠٣ من سورة الأنبياء.

ومن قرأ: «يكذّبونك» بالتشديد؛ فمعناه: لايعتقدون كذبك، وإنما هم يجحدون الحق مع علمهم به، ومن قرأ بالتخفيف فمعناه: لا يجدونك كاذبا، يقال: أكذبت الرجل إذا وجدته كاذبا، وقيل: معناهما واحد، يقال: كذّب فلان فلاناً، وأكذبه، بمعنى واحد، وفاعل (جاءك): مضمر، أى: نبأ أو بيان، وقيل: الجار والمجرور. وجواب (فإن استطعت): محذوف، أى: فافعل.

يقول الحق جل جلاله: ﴿قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون﴾ أى: الكفار فى جانبك؛ من أنك شاعر أو كاهن أو مجنون أو كاذب، ﴿فإنهم لا يُكذبونك﴾ فى الحقيقة، لجزمهم بصحة نبوتك، ولكنهم يجحدون بآيات الله، حسداً وخوفًا على زوال الشرف من يدهم. نزلت فى أبى جهل، قال لرسول الله ﷺ: إنَّا لا نُكَذِّبكَ، ولكنْ نُكذِّبُ بِمَا جِئْتَ بِهِ[1]. وقال الأخْنَسُ بن شُرَيْق: والله إن محمداً لصادق، ولكنى أحسده على الشرف. ووضع (الظالمين) موضع المضمر؛ للدلالة على أنهم ظلموا لجحودهم، أو جحدوا لتمرنهم على الظلم.

ثم سلاّه عن ذلك، فقال: ﴿ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ماكذبوا وأوذوا﴾ أى: صبروا على تكذيبهم وأذاهم، ﴿حتى أتاهم نصرنا﴾، فاصبر كما صبروا حتى يأتيك نصرنا كما أتاهم، وفيه إيماء بوعد النصر للصابرين، ولذلك قيل: الصبر عنوان الظفر. ﴿ولا مبدل لكلمات الله﴾ السابقة بنصر الصابرين، كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ . إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ﴾[2] الآية. ﴿ولقد جاءك من نبأ المرسلين﴾ أى: من قصصهم، وماكابدوا من قومهم حتى نصرهم الله، فتأنس بهم وانتظر نصرنا.

﴿وإن كان كَبُر﴾ أى: عظم وشق ﴿عليك إعراضهم﴾ عنك وعن الإيمان بما جئت به، ﴿فإنْ استطعت أن تبتغي نفقًا﴾ أى: سرباً ﴿في الأرض﴾ فتدخل فيه لتطلع لهم آية، ﴿أو سُلَّما فى السماء﴾ لترتقى فيه ﴿فتأتيهم بآية﴾ حتى يعاينوها فافعل، ولكن الأمر بيدى، فإنما أنت نذير.

قال البيضاوى: المقصود: بيان حرصه البالغ على إسلام قومه، وأنه لو قدر أن يأتيهم بآية من تحت الأرض أو من فوق السماء لأتى بها ؛ رجاء إسلامهم، ﴿ولو شاء الله لجمعهم على الهدى﴾ أى: لو شاء الله جمعهم على الهدى لوفقهم للإيمان حتى يؤمنوا، ولكن لم تتعلق به مشيئته. وفيه حجة على القدرية. أو: لو شاء الله لأظهر لهم آية تلجئهم إلى الإيمان، لكن لم يفعل؛ لخروجه عن الحكمة، ﴿فلا تكونن من الجاهلين﴾ أى: من الذين يحرصون على ما لم تجر به المقادير، أى: دم على عدم كونك منهم، ولاتقارب حالهم بشدة التحسر هـ .

وقال فى نوادر الأصول: إن الخطاب به تربية له، وترقيةٌ من حال إلى حال، كما يُربّى أهل التقريب ويُنقلُون من ترك الاختيار، فيما ظاهره بِرٌ وقربة. هـ. قلت: تشديد الخطاب على قدر علو المقام، كما هو معلوم

(١) أخرجه الترمذى فى: (تفسير سورة الأنعام) عن سيدنا على ـ كرم الله وجهه ـ.
(٢) الآيتان: ١٧١ ـ ١٧٢ من سورة الصافات.

من الأب الشفيق أو الشيخ الناصح، وقد قال لنوح ﷺ: ﴿إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾[1]. وهذا الخطاب أشد لعلو مقامه ﷺ.

الإشارة: كل ما سُلّيتْ به الرسل تسلّى به الأولياء؛ لأنهم ورثتهم الخاصة، وكل ما أُمرت به الرسل تؤمر به الأولياء، من الصبر وعدم الحرص، فليس من شأن الدعاة إلى الله الحرص على الناس، ولا الحزن على من أدبر عنهم أو أنكر، بل هم يزرعون حكمة التذكير فى أرض القلوب، وينظرون ماينبت الله فيها، اقتداءً بما أُمر به الرسول ـ عليه الصلاة السلام، وما تخلق به، فمن أصول الطريقة: الإعراض عن الخلق فى الإقبال والإدبار، والرجوع إلى الله فى السراء والضراء. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر علّة إعراضهم، وهو موت أرواحهم، فقال:

﴿ ۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (٣٦) ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿إنما يستجيب﴾ لك، ويجيب دعوتك إلى الإيمان، ﴿الذين يسمعون﴾ سماع تفهم وتدبر، وهو من كان قلبه حياً، وأما الكفار فهم موتى لا يسمعون ولا يفقهون، ﴿والموتى﴾، وهم الكفار الذين ماتت أرواحهم بالجهل حتى ماتوا حساً، ﴿يبعثهم الله﴾، فيظهر لهم حينئذ الحق، ويسمعون حين لا ينفع الإيمان، أو يبعثهم الله فى الدنيا بالهداية، أو الموتى حقيقة حساً، يبعثهم الله للحساب، ﴿ثم إليه يُرجعون﴾ للجزاء.

الإشارة: إنما يستجيب لدعوة الخصوصية، ويُجيبون الدعاة إلى السير لشهود عظمة الربوبية، الذين سبقت لهم العناية، وأحيا اللهُ قلوبهم بالهداية، فيسمعون بسمع القلوب والأرواح، ويترقّون من حضرة عالم الأشباح إلى حضرة عالم الأسرار والأرواح؛ والموتى بالغفلة والجهل يبعثهم الله ببركة صُحبة أهل الله، فتهبُّ عليهم نفحات الهداية؛ لما سبق لهم من سر العناية، ثم إليه يرجعون فيتنعمون في حضرة الشهود، فى مقعد صدقٍ عند الملك الودود.

ثم عاتبهم على اقتراح الآيات، فقال:

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ ۚ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يُنَزِّلَ آيَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٣٧) وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ (٣٨) ﴾

---

(١) من الآية ٤٦ من سورة هود.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وقالوا ﴾ ـ حين سمعوا ذكر البعث والرجوع إلى الله ـ: ﴿ لولا نُزل عليه آية من ربه ﴾ تدل على ما ادعاه من البعث والرجوع إلى الله، وعلى أنه رسول من عند الله، ﴿ قل ﴾ لهم: ﴿ إن الله قادر على أن ينزل آية ﴾ خارقة للعوائد، يرونها عياناً، وتضطرهم إلى الإيمان، ﴿ ولكن أكثرهم لايعلمون ﴾ أن إنزالها وبالٌ عليهم؛ لأنهم إن عاينوها ولم يؤمنوا عُوجلوا بالعقاب، أو: لا يعلمون أن الله قادر على أكثر مما طلبوا؟.

وهذا الطلب قد تكرر منهم في مواضع من القرآن، وأجابهم الحق تعالى بأجوبة مختلفة، منها: ما يقتضي الرد عليهم في طلبهم الآيات؛ لأنهم قد أتاهم بآيات، وتحصيل الحاصل لاينبغي، كقوله: ﴿ قَدْ بَيَّنَّا الآيَاتِ ﴾[1]، ﴿ أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم ﴾[2] ومنها: مايقتضي الإعراض عنهم؛ لأن الخصم إذا تبين عناده سقطت مكالمته. ويحتمل أن يكون منه قوله هنا: ﴿ قل إن الله قادر... ﴾ الآية.

فإن قيل: كيف طلبوا آية وهم قد رأوا آيات كثيرة، كانشقاق القمر، وإخبارهم بالغيب، وغير ذلك؟ فالجواب: أنهمْ لم يعتدوا بما رأوا؛ لأن سر الربوبية لا يظهر إلاَّ ومعه شيء من أردية القهرية، وهم قد طلبوا آية يدركونها من غير نظر ولا تفكر، وهو خلاف الحكمة.

ثم ذكر دلائل قدرته على البعث وغيره، فقال: ﴿ وما من دابة ﴾ تدبُّ ﴿ في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه ﴾ في الهواء، ﴿ إلا أمم أمثالكم ﴾ ؛ مقدرة أرزاقها، محدودة آجالها، معدودة أجناسها وأصنافها، محفوظة ذواتها، معلومة أماكنها، كلها في قبضة الحق، وتحت قدرته ومشيئته، فدل ذلك على كمال قدرته وشمول علمه وسعة تدبيره، فيدل على قدرته على أن ينزل آية، وعلى بعثهم وحشرهم؛ لأنه عالم بما تنقص الأرض منهم، كما قال تعالى: ﴿ مافرطنا في الكتاب ﴾ أي: اللوح المحفوظ، ﴿ من شيء ﴾ ؛ فإنه مشتمل على ما يجري في العالم من جليل ودقيق، لم يهمل فيه أمرَ حيوان ولاجماد، ظاهراً ولا باطناً ، أو القرآن؛ فإنه قد اشتمل على كل ما يحتاج إليه من أمر الدين مفصلا ومجملا، حتى قال بعض السلف: (لو ضَاع لي عِقَالٌ لوجدتُه في كِتَابِ الله) أي: باعتبار العموم وأصول المسائل.

قال تعالى: ﴿ ثم إلى ربهم يُحشرون ﴾ أي: الأمم كلها، فيُنصف بعضها من بعض. كما رُوي أنه يُؤخذ للجَمَّاء من القَرْنَاء[3]. وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال في هذه الآية: (يُحشر الخلقُ كلهم يوم القيامة: البهائم والدواب والطير وكل شيء، فيبلغُ من عدْل الله تعالى أن يأخذ للجماء من القرناء، ثم يقول: كوني تراباً، فذلك حين يقول الكافر: ﴿ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا ﴾[4]. وفي المسألة اضطراب بين العلماء، والصحيح هو حشرها، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴾[5] وعن ابن عباس رضي الله عنه : (حشرها موتها). والله تعالى أعلم.

---

(١) من الآية ١١٨ من سورة البقرة. (٢) من الآية ٥١ من سورة العنكبوت.

(٣) كما في حديث: «لتؤدُّن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة، حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء» أخرجه مسلم في (البر والصلة، باب تحريم الظلم) من حديث أبي هريرة. والجماء: التي لا قرن لها.

(٤) من الآية ٤٠ من سورة النبأ. (٥) الآية ٥ من سورة التكوير.

الإشارة: قد تقدم مراراً أن طلب الكرامات من الأولياء: لقلة الاعتقاد فيهم وقلة الصدق. وأكمل الكرامات: الاستقامة على التوحيد فى الباطن، وتحقيق العبودية فى الظاهر. وبالله التوفيق.

ثم قبّح شأن أهل التكذيب، فقال:

﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿والذين كذبوا بآياتنا﴾ الدالة على كمال قدرتنا وتحقيق وحدانيتنا، أو بآياتنا المنزلة على رسولنا، هم ﴿صمٌ﴾ لايسمعون مثل هذه الآيات ـ الدالة على ربوبيته وكمال علمه وعظيم قدرته ـ سماعاً تتأثر به نفوسهم، ﴿و﴾ هم أيضا ﴿بكم﴾ لاينطقون بالحق، وهم ﴿ في الظلمات﴾ أى: خائضون فى بحر ظلمات الكفر والجهل، وظلمة العناد، وظلمة التقليد، فوصفهم بالصمم والبَكَم والعمَى، ويؤخذ العمى من قوله: ﴿فى الظلمات﴾ ، وهذا كله داخل تحت مشيئته وعلمه السابق؛ ﴿من يشأ الله يضلله﴾ عدلاً، ﴿ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم﴾ ؛ بأن يرشده إلى الهدى ويحمله عليه، فيتبع الطريق الذى لاعوج فيه.

الإشارة: أولياء الله في أرضه آية من آيات الله، فمن كذب بهم بقى فى ظلمة الجهل بالله وظلمة حجاب النفس وحجاب الأكوان، محجوباً بمحيطاته، محصوراً فى هيكل ذاته، قلبه أصم عن تَذَكُّرِ الحقائق، ولسانه أبكم عن النطق بحكم العلم والأسرار، لم تسبق له فى مشيئة الحق عناية، ولا هبّ عليه شيء من رياح الهداية، عائذاً بالله من سوء القضاء ودرك الشقاء.

ثم أقام لهم البرهان على توحيده، فقال:

﴿ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾ ﴾

قال فى المشارق: أرأيتك: معناه: الاستخبار والاستفهام، أى: أخبرنى عن كذا، وهو بفتح التاء فى المذكر والمؤنث والواحد والجمع، تقول: أرأيتك وأرأيتكما وأرأيتكم، ولم تَثَن ما قبل علامة المخاطب ولم تجمّعه، فإذا أردت معنى الرؤية ـ أى البصرية ـ ثَنَيْت وجمعت وأنثت، فقلت: أرأيتك قائما، وأرأيْتِكِ قائمة، وأرأيتكما وأرأيتموكم وأرأيتيكن. هـ. وقال فى الإتقان: إذا دخلت الهمزة على «رأيت» امتنع أن يكون من رؤية العين والقلب، وصار المعنى: أخبرنى، وهو خلاف ما قال فى المشارق، فانظره وانظر الحاشية الفاسية.

قال البيضاوى: (أرأيتكم) : استفهام تعجب، والكاف: حرف خطاب، أكد به الضمير للتأكيد، لكن لا محل له من الإعراب، لأنك تقول: أرأيتك زيداً ما شأنه، فلو جعلت الكاف مفعولاً ـ كما قاله الكوفيون ـ لعدّيت الفعل إلى ثلاثة

مفاعيل، ولزم في الآية أن يقول: أرأيتكموكم، بل الفعل معلق، أو المفعول محذوف، وتقديره: أرأيتكم آلهتكم تنفعكم إذ تدعونها إن أتاكم عذاب الله، ويدل عليه: (أغير الله تدعون). هـ. وجواب (إنْ): محذوف؛ أي: إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة فمن تدعون؟ وجواب (إن كنتم): محذوف أيضا؛ أي: إنْ كنتم صادقين في أنّ غير الله ينفعكم فادعوه، ثم وصفهم بأنهم لا يدعون حينئذ إلا الله.

يقول الحق جل جلاله: ﴿قل﴾ لهم يامحمد: ﴿أرأيتكم﴾ أي: أخبروني ﴿إن أتاكم عذاب الله﴾ في الدنيا كما أتى من قبلكم، ﴿أو أتتكم الساعة﴾ وأهوالها، ﴿أغير الله تدعون﴾ وتلتجئون إليه في كشف ما نزل بكم ﴿إن كنتم صادقين﴾ أن الأصنام آلهة، لا، ﴿بل إياه تدعون﴾ وحده، ﴿فيكشف ماتدعون إليه﴾ أي: ماتدعونه إلى كشفه، ﴿إن شاء﴾ أن يتفضل عليكم بالكشف في الدنيا، وقد لا يشاء، ﴿وتنسوْنَ ماتُشركون﴾ أي: وتتركون آلهتكم في ذلك الوقت؛ لِما ركز في العقول من أنه قادر على كشف الضر دون غيره، أو تنسون من شدة الأمر وهوله.

الإشارة: إنما يظهر توحيد الرجال عند هجوم الأحوال، فإن رجع إلى الله وحده ولم يلتفت إلى شيء سواه، علمنا أنه من الأبطال، وإن فزع إلى شيء من السِّوى، علمنا أنه من جملة الضعفاء. وعندهم من جملة أصول الطريق: الرجوع إلى الله في السراء والضراء، فإن رجع إليه أجابه فيما يريد، وفي الوقت الذي يريد، وقد لايريد على حسب إرادة المريد. والله تعالى أعلم.

ثم حضّ على الرجوع إليه في حالة الضراء، فقال:

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله، تخويفاً لهذه الأمة: ﴿ولقد أرسلنا إلى أمم﴾ مضت ﴿من قبلك﴾ رسلاً فأنذروهم، فكذبوا وكفروا ﴿فأخذناهم بالبأساء﴾ أي: الشدة، كالقحط والجوع، ﴿والضراء﴾ كالأمراض والموت والفتن، تخويفًا لهم ﴿لعلهم يتضرعون﴾ أي: يتذللون ويتوبون من ذنوبهم، فلم يفعلوا، ﴿فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا﴾ أي: هلاّ تذللوا حين جاءهم البأس فنرحمهم، وفيه دليل على نفع التضرع حين الشدائد، ﴿ولكن قست قلوبهم﴾

أي: صلُبتْ ولم تلن، ﴿وزين لهم الشيطان ماكانوا يعملون﴾ ؛ فصرفهم عن التضرع، أي: لا مانع لهم من التضرع إلا قساوة قلوبهم، وإعجابهم بأعمالهم التي زينها الشيطان لهم.

﴿فلما نسوا ماذكروا به﴾ أي: تركوا الاتعاظ بما ذُكروا به من البأساء والضراء، ولم ينزجروا، ﴿فتحنا عليهم أبواب كل شيء﴾ من أنواع الرزق وضروب النعم، مراوحة عليهم بين نوبتَيْ الضراء والسراء، وامتحاناً لهم بالشدة والرخاء، إلزاماً للحجة وإزاحة للعلة، أو مكراً بهم، لما روى أنه ﷺ قال: «مُكر بالقوم ورب الكعبة»(١). ﴿حتى إذا فرحوا﴾ أي: أعجبوا ﴿بما أوتوا﴾ من النعم، ولم يزيدوا على البطر والاشتغال بالنعم عن المنعم والقيام بحقه، ﴿أخذناهم بغتة﴾ أي: فجأة، ﴿فإذا هم مبسلون﴾ متحيرون آيسون من كل خير، ﴿فقطع دابر القوم الذين ظلموا﴾ أي: قطع آخرهم، ولم يبق منهم أحد، وهي عبارة عن الاستئصال بالكلية، ﴿والحمد لله رب العالمين﴾ على إهلاكهم، فإن إهلاك الكفار والعصاة نعمٍ جليلة، يحق أن يحمد عليها؛ من حيث إنه خلاص لأهل الأرض من شؤم عقائدهم وأعمالهم. وبالله التوفيق.

الإشارة: المقصود من إظهار النقم الظاهرة؛ مايئول الأمر إليه من النعم الباطنة، فإن الأشياء كامنة في أضدادها، النعمة في النقمة، والرخاء في الشدة، والعز في الذل، والجمال في الجلال، إن وقع الرجوع إلى الله والانكسار والتذلل. «أنا عندَ المنكسرةِ قلوبُهم مِنْ أجْلِي». فانكسار القلوب إلى علام الغيوب عبادة كبيرة، توجب نعماً غزيرة، فإذا قست القلوب ولم يقع لها عند الشدة انكسار ولا رجوع، كان النازل بلاءً ونقمة وطرداً وبُعدا. فإنَّ ما ينزل بالإنسان من التعرفات منها: مايكون أدباً وكفارة، ومنها: زيادة وترقية، ومنها: ما يكون عقوبة وطرداً، فإن صحبها التيقظ والتوبة، كان أدباً مما تقدم من سوء الأدب، وإن صحبه الرضى والتسليم، ولم يقع ما يوجب الأدب، كان ترقية وزيادة، وإن غضب وسخِط كان طرداً وبُعدا. أعاذنا الله من موارد النقم.

ثم احتج عليهم بوجه آخر، فقال:

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾

(١) لم أقف عليه مرفوعاً. وذكره السيوطي في الدر موقوفاً على الحسن، وعزاه لابن أبي حاتم. لكن روى أحمد في المسند ٤/١٤٥ والطبراني في الكبير ١٧/٣٣١ وابن جرير في التفسير، من حديث عقبة بن عامر مرفوعاً: (إن رأيت الله يعطي العبد في الدنيا وهو مقيم على معاصيه ما يحب، فإنما هو استدراج. ثم تلا رسول الله ﷺ: (فلما نسوا ما ذكروا به....) الآية والتي بعدها).

يقول الحق جل جلاله: ﴿قل﴾ لهم أيضا: ﴿أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم﴾ أى: أصمّكم وأعماكم، ﴿وختم على قلوبكم﴾ ؛ بأن غطى عليها بما يزول به عقلكم وفهمكم، ﴿مَن إله غير الله يأتيكم به﴾ أى: بذلك المأخوذ. ﴿انظر كيف نُصرف الآيات﴾ أى: نكررها على جهات مختلفة، كتصريف الرياح، تارة من جهة المقدمات العقلية، وتارة من جهة الترغيب والترهيب، وتارة بالتنبيه والتذكير بأحوال المتقدمين، ﴿ثم هم يصدفون﴾ أى: يعرضون عنها ولم يلتفتوا إليها، و(ثُم) : لاستبعاد الإعراض بعد تصريف الآيات وظهورها.

و﴿قل﴾ لهم أيضا: ﴿أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله بغتة﴾ من غير مقدمة ﴿أو جهرة﴾ بتقديمها، فالبغتة: مالم يتقدم لهم به شعور، والجهرة: ماقدمت لهم مخايله، وقيل: بغتة بالليل، وجهرة بالنهار، ﴿هل يُهلك﴾ أى: مايُهلك به هلاك سخط وتعذيب، ﴿إلا القوم الظالمون﴾ بالكفر والمعاصى.

الإشارة: إنما خلق الأسماع والأبصار، لسماع الوعظ والتذكار، ولنظرة التفكر والاعتبار، فمن صرفهما فى ذلك فقد شكر نعمتهما، ومن صرفهما فى غير ذلك فقد كفر نعمتهما، ومن كفر نعمتهما يوشك أن تؤخذ منه تلك النعمة، وكذلك نور العقل، ماجعله الله فى العبد إلا ليعرفه به، ويعرف دلائل توحيده، ويتبصّر به فى أمره. فإذا صرفه فى تدبير هواه وشهواته فقد كفر نعمته، فيوشك أيضا أن يؤخذ منه.

وإذا أنعم الله عليه باستعمال هذه الحواس فيما خلقت لأجله؛ فليكن على حذر من أخذ ذلك منه أيضا، فلا يأمن مكر الله، فإن الأسماع والأبصار والقلوب بيد الله، يُقلبها كيف شاء، فإن أخذها لن يقدر على ردها، ولذلك كان العارف لايزول اضطراره، ولا يكون مع غير الله قراره، والعذاب الذى يأتى بغتة، هو السلب بغتة، أى: فقد القلب فى مرة واحدة، والذى يأتى جهرة هو فقده شيئًا فشيئا، وسبب هذا الهلاك: هو ظلم العبد لنفسه، إما بسوء أدب مع الله، أو نقض عهد الشيوخ العارفين بالله. وبالله التوفيق، وهو الهادى إلى سواء الطريق.

ثم رغّب فى الإيمان بالرسل، وحذّر من الكفر بهم، فقال:

﴿ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ومانرسل المرسلين إلا مبشرين﴾ للمؤمنين بالنعيم المقيم، ﴿ومنذرين﴾ للكفار بالعذاب الأليم، ولم نرسلهم ليقترح عليهم ويتلهى بهم، ﴿فمن آمن﴾ بهم، ﴿وأصلح﴾ ما يجب إصلاحه على ماشرع لهم، ﴿فلا خوف عليهم﴾ من العذاب، ﴿ولا هم يحزنون﴾ لفوات الثواب، ﴿والذين كفروا وكذبوا بآياتنا

يمسهم العذاب﴾ أي: يلحقهم، جعل العذاب ماساً لهم كأنه الطالب للوصول إليهم، واستغنى بتعريفه عن توصيفه. وذلك المس ﴿بما كانوا يفسقون﴾ أي: بسبب خروجهم عن التصديق والطاعة.

الإشارة: مامن زمان إلا ويبعث الله أولياء عارفين، مبشرين لمن أطاعهم واتبعهم بطلعة أنوار الحضرة على أسرارهم، ومنذرين لمن خالفهم بظهور ظلمة الكون على قلوبهم، وانطباع الأكوان في أسرارهم، فمن آمن بهم وصحبهم فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون، بدليل قوله: ﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾(١)، ومن كذب بهم وبما يظهر على أيديهم من أسرار المعارف يمسهم عذاب القطيعة، بما كانوا يفسقون، أي: بخروجهم عن طاعتهم والإذعان إليهم.

وليس من شرط الداعين إلى الله ظهور المعجزات أو الكرامات، كما قال تعالى:

﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿قل﴾ لهم يامحمد: أنا ﴿لاأقول لكم عندي خزائن الله﴾ فآتيكم منها بكل ماتقترحون عليَّ من المعجزات، بل خزائن مقدوراته تعالى في علم غيبه، ليس لي منها إلا مايظهره منها بقدرته، ﴿ولا أعلم الغيب﴾ حتى أخبركم بالمغيبات، بل مفاتيح الغيب عنده، لا يعلمها إلا هو، إلا ما يُوحى إليَّ منها، ﴿ولا أقول لكم إني ملك﴾ فأستغنى عن الطعام والشراب، أو أقدر على ما يقدر عليه الملك، إن أنا إلا بشر أوحى إليَّ أن أنذركم، فأتبع مايوحى إليَّ؛ وأتبرأ من دعوى الألوهية والملكية، وأدعى النبوة التي هي من كمالات البشر.

﴿قل﴾ لهم: ﴿هل يستوي الأعمى﴾ الذي هو ضال جاهل، ﴿والبصير﴾ الذي هو مهتدٍ عالم، أو: هل يستوى مدعي المستحيل؛ كالألوهية والملكية ومدّعي الحق، كالنبوة والرسالة، ﴿أفلا تتفكرون﴾ فتميزوا بين ادعاء الحق والباطل، فتهتدوا إلى اتباع الحق وتجنب الباطل.

الإشارة: ما قالته الرسل للكفار حين اقترحوا عليهم المعجزات، تقوله الأولياء لأهل الإنكار، حين يطلبون منهم الكرامات، وتقول لهم: إن نتبع إلا ما أمرنا به ربنا وسنه لنا رسولنا، فمن اهتدى وتبصر فلنفسه، ومن عمى فعليها.

وقال الورتجبي ـ بعد قوله ـ: ﴿ولا أقول لكم إني ملك﴾: تواضع ﷺ حين أقام نفسه مقام الإنسانية، بعد أن كان أشرف خلق الله من العرش إلى الثرى، وأظهر من الكروبيين والروحانيين على باب الله سبحانه، خضوعاً

(١) الآية ٦٢ من سورة يونس.

لجبروته، وخشوعاً في أنوار ملكوته، بقوله: ﴿ولا أقول لكم إني ملك﴾، وليس لي اختيارٌ في نبوتي، ﴿إنْ اتبع إلا مايوحى إليَّ﴾. هل يكون من هذا وصفه، بعد كونه بصيراً بنور الله، ورأفته به، كالذي عمي عن رؤية إحاطته بكل ذرة من العرش إلى الثرى؟ أفلا تتفكرون أن من ولد من العدم بصيراً بنور القدم، ليس كمن ولد من العدم أعمى عن رؤية عظمته وجلاله. انتهى كلامه.

ثم أمره بالإنذار لمن ينتفع به، فقال:

﴿ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾ ﴾

قلت: الضمير في (به): يعود على (ما يوحى)، وجملة (ليس): حال من ضمير (يُحشروا).

يقول الحق جل جلاله: ﴿وأنذر﴾ أي: خوِّف بما أوحى إليك، المؤمنين المقصرين في العمل؛ ﴿الذين يخافون أن يُحشروا إلى ربهم﴾ بالبعث للحساب، حال كونهم في ذلك الوقت ﴿ليس لهم من دونه وليٌّ﴾ ينصرهم من عذابه، ﴿ولاشفيع﴾ يرده عنهم بشفاعته، ﴿لعلهم يتقون﴾ أي: كي يصيروا بإنذارك متقين، وإنما خص الإنذار هنا بالذين يخافون؛ لأنه تقدم في الكلام مايقتضي اليأس من إيمان غيرهم، فكأنه يقول: أنذر الخائفين؛ لأنه ينفعهم الإنذار، وأعرض عمن تقدم ذكرهم من الذين لا يسمعون ولا يعقلون، أو: أُنذر من يتوقع البعث والحساب، أو يتردد فيه مؤمناً أو كافرا. قاله البيضاوي.

الإشارة: لا ينفع الوعظ والتذكير إلا من سبق له الخوف من الملك القدير؛ إذ هو الذي ينهضه الخوف المزعج أو الشوق المقلق، وأما من سوَّدت قلبَه الخطايا، وانطبعت في مرآته صور الأشياء، فلا ينفع فيه زاجر ولا واعظ، بل ران على قلبه ما اقترفه من المآثم، والعياذ بالله.

ثم أمره بالدنو ممن ينفعه التذكير، ونهاه عن ضده، فقال:

﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾

قلت: (فتطردهم): جواب النفي، و (فتكون): جواب النهي، أي: ولا تطرد فتكون من الظالمين، فليس عليك من حسابهم شيء فتطردهم .

يقول الحق جل جلاله لنبيه ـ عليه الصلاة والسلام ـ، حين طلب منه صناديدُ قريش أن يطرد عنه ضعفاء المسلمين ليجالسوه، فَهَمّ بذلك طمعاً في إسلامهم، فنزلت: ﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم﴾ أي: يعبدونه بالذكر وغيره، أو يدعونه بالتضرع والابتهال، ﴿بالغداة والعشي﴾ أي: على الدوام. وخص الوقتين بالذكر؛ لشرفهما. وفي الخبر: «ياابن آدم، اذكرني أول النهار وآخره، أكْفِكَ ما بينهما»(١) . وقيل: صلاة الصبح والعصر، وقيل: الصلاة بمكة قبل فرض الخمس.

قال البيضاوي: بعد ما أمره بإنذار غير المتقين ليتقوا ـ أي: على التفسير الثاني في الآية المتقدمة ـ أمره بإكرام المتقين وتقريبهم، وألاّ يطردهم، ترضية لقريش، روى أنهم قالوا: لو طَردتَ هؤلاء الأعْبُد ـ يَعْنُون فقراء المُسلمين، كعمَّار وصُهَيْب وخبَّاب وبلال وسلْمان ـ جلَسْنا إليك، فقال: «ما أنا بطارد المؤمنين» . قالوا: فأَقمْهُمْ عنا، قال: «نعَمْ» . [وروى أن عمر قال له: لَوْ فَعلْتَ حتَّى نَنظر إلى مايَصيرُونَ؟] قالوا: فاكتُبْ بذَلِكَ كتَاباً، فدعَا بالصَّحيفَةِ وبعَليٍّ؛ ليكْتُبَ، فنزلت(٢) . هـ. وفي ذكر سلمان معهم نظر لتأخر إسلامه بالمدينة.

ثم وصفهم بالإخلاص فقال: ﴿يريدون وجهه﴾ أي: يدعونه مخلصين طالبين النظر لوجهه، وفيه تنبيه على أن الإخلاص شرط في الأعمال، ورتب النهي عليه؛ إشعاراً بأنه يقتضي إكرامهم، وينافي إبعادهم، ثم علل عدم طردهم فقال: ﴿ماعليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء فتطردهم﴾ أي: أنت لاتحاسب عنهم، وهم لا يحاسبون عنك، فلأي شيء تطردهم؟ وقيل: الضمير: للكفار، أي: أنت لا تحاسب عنهم، وهم لايحاسبون عنك، فلا تهتم بأمرهم، حتى تطرد هؤلاء من أجلهم، ﴿فتكون من الظالمين﴾ بطردهم، لكنه ـ عليه الصلاة السلام ـ لم يفعل، فلا ظلم يلحقه في ذلك؛ لسابق العناية والعصمة.

﴿وكذلك فتنا بعضهم ببعض﴾ أي: ومثل ذلك الاختبار، وهو اختلاف أحوال الناس في أمر الدنيا ، ﴿فتنا بعضهم ببعض﴾ أي: ابتلينا بعضهم ببعض في أمر الدين، فقدّمنا هؤلاء الضعفاء على أشراف قريش؛ بالسبق إلى الإيمان ﴿ ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا﴾ أي: أهؤلاء من أنعم الله عليهم بالهداية والتوفيق دوننا، ونحن الأكابر والرؤساء، وهم المساكين والضعفاء، فنحن أحق منهم به إن كان حقاً، وهذا إنكار منهم لأن يخص هؤلاء من بينهم بإصابة الحق والسبق إلى الخير، كقولهم ﴿ لَوْ كَانَ خَيْراً مَّا سَبَقُونَا ﴾(٣) . واللام في «ليقولوا»: للعاقبة. قال تعالى

(١) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء، عن أبي هريرة.. انظر كنز العمال /١٧٩٥ .
(٢) أخرجه بنحوه ابن ماجه في: (الزهد، باب مجالسة الفقراء) والطبراني في الكبير (٤/٨٧ح ٣٦٩٣) والواحدي في أسباب النزول، وابن جرير في التفسير عن خباب، بدون ذكر سلمان، وكذلك بدون ذكر مشورة سيدنا عمر، وقد جاء ذكر مشورة سيدنا عمر عند ابن جرير والواحدي عن عكرمة.
(٣) من الآية ١١ من سورة الأحقاف.

في الرد عليهم: ﴿ أليس الله بأعلم بالشاكرين ﴾ أي: بمن يقع منهم الإيمان والشكر فيوفقهم، وبمن لايقع منه فيخذله. وبالله التوفيق.

الإشارة: في صحبة الفقراء خيرٌ كثير وسرٌ كبير، وخصوصاً أهل الصفاء والوفاء منهم، وفي ذلك يقول الشيخ أبو مدين رضي الله عنه:

مَـــالذَّةُ العَـــيْشِ إلاَّ صُـحْـبَـةُ الفُـقَـرا   هُم السَّــلاَطِين والسَّــادَاتُ والأُمَـــرا
فَاصْـحَـبْـهُـمُو وتأدَّبْ في مَـجَـالِسِـهِـمْ   وخَــلِّ حظَّكَ مَــهْـمَـا خَلَّـفُــوكَ ورَا

إلى آخر كلامه.

فلا يحصل كمال التربية والتهذيب إلا بصحبتهم، ولاتصفو المعاني إلا بمجالستهم والمذاكرة معهم، والمراد من دخل منهم بلاد المعاني، وحصَّل مقام الفناء في الذات، فالجلوس مع هؤلاء ساعة تعدل عبادة الثقلين سنين، ومن شأن شيوخ التربية: العطف على الفقراء والمساكين وتقريبهم، ولايطردون أحداً منهم ولو عمل ماعمل، اقتداء بما أمر به نبيهم ﷺ. بل شأنهم الإقبال على من أقبل إليهم، عصاة كانوا أو طائعين، وإقبالهم على العصاة المذنبين أكثر، جبراً لكسرهم، وتألفاً لهم، وسوقاً لهم إلى الله بملاطفة الإحسان. وبالله التوفيق.

ولما أمره بتقريب الضعفاء من المؤمنين، أمره بإكرامهم بالسلام والبشارة بغفران الآثام، فقال:

﴿ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۖ كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَ أَنَّهُۥ مَنۡ عَمِلَ مِنكُمۡ سُوٓءَۢا بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٥٤﴾ ﴾

قلت: من فتح (أنه)؛ جعله بدلاً من الرحمة، ومن كسره؛ فعلى الاستئناف، و(بجهالة): حال، ومن قرأ (فإنه) بالكسر؛ فالجملة: جواب الشرط، ومن فتح؛ فخبر عن مضمر، أي: فجزاؤه الغفران، أو مبتدأ؛ فالغفران جزاؤه.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا ﴾؛ وهم الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي، خصهم بالإيمان بالقرآن، بعد ما وصفهم بالمواظبة على الطاعة والإحسان، فإذا أقبلوا إليك ﴿ فقل ﴾ لهم: ﴿ سلام عليكم ﴾؛ تحية مني عليكم، أو من الله أبلغه إليكم، ﴿ كتب ربكم على نفسه الرحمة ﴾ أي: حتمها عليه فضلاً منه، وهي ﴿ أنه من عمل منكم سوءا ﴾ أي: ذنباً ﴿ بجهالة ﴾ أي: بسفاهة وقلة أدب، أو جاهلاً بحقيقة ما يتبعه من المضار والمفاسد، ﴿ ثم تاب من بعده ﴾ أي: من بعد عمل السوء ﴿ وأصلح ﴾ بالتدارك والندم على ألا يعود إليه، ﴿ فأنه غفور ﴾ لذنبه، ﴿ رحيم ﴾ به بقبول توبته.

قال البيضاوي: أمرَه أن يبدأ بالتسليم، أو يُبلغ سلام الله ويبشرهم بسعة رحمته وفضله، بعد النهي عن طردهم؛ إيذاناً بأنهم الجامعون لفضيلتَيْ العلم والعمل، ومن كان كذلك ينبغي أن يُقَرَّب ولا يُطرَد، ويُعز ولا يُذل، ويُبشَّر من الله بالسلامة فى الدنيا وبالرحمة فى الآخرة، وقيل: إن قوماً جاءوا إلى النبى ﷺ فقالوا: إنا أصبنَا ذنوباً عِظاماً، فلم يَرُدَّ عليهم، فانصرفوا، فنزلت.هـ.

قال القُشَيْرِى: أحلّه محل الأكابر والسّادات، فإنّ السلام من شأن الجائي إلا فى صفة الأكابر، فإنّ الجائى والآتى يسكت لهيبة المأتى، حتى يبتدئ ذلك المقصودُ بالسؤال، فعند ذلك يجيب الآتى. هـ.

الإشارة: مِنْ شأن الأكابر من الأولياء، الداعين إلى الله، إكرامُ مَنْ أتى إليهم بحُسْن اللقاء وإظهار المَسَرة والبُرور، وخصوصاً أهل الانكسار فيُؤنسونهم، ويُوسعون رجاءهم، ويفرحونهم بما يسمعون منهم من سعة فضل الله وكرمه.

كان الشيخ أبو العباس المرسى رضي الله عنه إذا دخل عليه أحد من أهل العصيان ـ كأرباب الدولة والمخزن ـ، قام إليهم، وفرح بهم ، وأقبل عليهم، وإذا أتى إليه أحد من العلماء أو الناسكين لم يَعْتَنِ بشأنهم، فقيل له فى ذلك، فقال: أهل العصيان يأتوننا فقراء منكسرين من أجل ذنوبهم، لا يرون لأنفسهم مرتبة، فأردت أن أجبر كسرهم، وهؤلاء أهل الطاعة يأتوننا أغنياء معتمدين على طاعتهم، فلا يحتاجون إلى ما عندنا. أو كلاما هذا معناه، ذكره فى لطائف المنن. والله تعالى أعلم.

ثم بيَّن عِلَّة ماتقدَّم من النهى عن الطرد وغيره، فقال:

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾

قلت: قرئ بتاء الخطاب، ونصب السبيل؛ على أنه مفعول به، وقرئ بتاء التأنيث ورفع السبيل؛ على أنه فاعل مؤنث، وبالياء والرفع؛ على تذكير السبيل؛ لأنه يجوز فيه التذكير والتأنيث .

يقول الحق جل جلاله: ﴿وكذلك نُفصل الآيات﴾ أى: ومثل ذلك التفصيل الواضح نفصل الآيات، أى: نشرح آيات القرآن ونوضحها فى صفة المطيعين والمجرمين، والمصرين والأوابين، ليظهر الحق، ولتستوضح يامحمد ﴿سبيل المجرمين﴾ فتعاملهم بما يحق لهم من الإبعاد إن بعُدوا، أو الإقبال إن أقبلوا. أو لتتبين طريقهم ويظهر فسادها ببيان طريق الحق.

الإشارة: سبيل المؤمنين من أهل اليمين، هو التمسك بظاهر الشريعة المحمدية؛ بامتثال الأمر واجتناب النهى، والمبادرة إلى التوبة، إن أخل بأحد الأمرين من غير تحرٍّ لما وراء ذلك، وسبيل المتوجهين من السائرين والواصلين: تصفية القلوب وتهيؤها لإشراق أسرار علم الغيوب؛ بتخليتها من الرذائل وتحليتها بأنواع الفضائل؛ لتتهيأ بذلك

لطلوع شموس العرفان، والدخول فى مقام الكشف والعيان، الذى هو مقام الإحسان، وما خرج عن هذين السبيلين فهو سبيل المجرمين: إما بالكفر، وإما بالإصرار على العصيان، والعياذ بالله.

ثم نهى عن سلوك هذا السبيل ـ أعنى سبيل المجرمين ـ فقال:

﴿ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قُل لَّا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿قل﴾ يامحمد: ﴿إني نُهيتُ﴾ أي: نهاني ربي ﴿أنْ أعبدَ الذين تدْعُون﴾ أي: تعبدون ﴿من دون الله﴾، أو ما تدعونها آلهة؛ أي: تسمونها بذلك، وتخضعون لها من دون الله، ﴿قل﴾ لهم: ﴿لا أتبع أهواءكم﴾ الفاسدة وعقائدكم الزائفة، ﴿قد ضللتُ﴾ عن الحق ﴿إذًا﴾ أي: إذا اتبعت أهواءكم، ﴿وما أنا من المهتدين﴾ أي: ما أنا فى شيء من الهدى حتى أكون من عدادهم إن اتبعت أهواءكم، وفيه تعريض بهم، وأنهم ضالون حائدون عن طريق الهدى، ليسوا على شيء منها.

﴿قل إني على بينة﴾ أي: طريق واضحة ﴿من ربي﴾ تُوصلني إلى تحقيق معرفته، واستجلاب رضوانه، أنا ومن اتبعني، ﴿و﴾ أنتم ﴿كذبتم به﴾ أي: بربي؛ حيث أشركتم به وعبدتم غيره، أو كذبتم بطريقه؛ حيث أعرضتم عنها، واستعجلتم عقابه فى الدنيا، ﴿ماعندي ماتستعجلون به﴾ من العذاب أو المعجزات، ﴿إنْ الحكم إلا لله﴾ فى تعجيل العذاب وتأخيره، أو فى إظهار الآيات وعدم إظهارها، ﴿يقُصُّ﴾ القصص ﴿الحق﴾ وهو القرآن، أى: ينزله علىّ لأُنذركم به، أو يقضي القضاء الحق من تعجيل ما يعجل وتأخير مايؤخر، فيحكم بيني وبينكم إن شاء، ﴿وهو خير الفاصلين﴾ أي: القاضين.

﴿قل لو أن عندى﴾ أي: فى قدرتى وطوقى ﴿ماتستعجلون به﴾ من العذاب ﴿لقُضي الأمر بيني وبينكم﴾ أى: لأهلكتكم عاجلاً؛ غضباً لربى، وانقطع ما بيني وبينكم، ولكن الأمر بيد خالقكم الذى هو عالم بأحوالكم، ﴿والله أعلم بالظالمين﴾ أي: عالم بما ينبغي أن يؤخذ عاجلاً، وبمن ينبغي أن يمهل، فمفاتح الغيب كلها عنده، كما سيذكره.

الإشارة: قل، أيها العارف، المتوجه إلى الله، المنقطع بكليته إلى مولاه، الغائب عن كل ما سواه: إني نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله؛ من حب الدنيا، ومن الرياسة والجاه. قل: لا أتبع أهواءكم؛ لأني قد اجتمعت

أهوائي في محبوب واحد، حين وصلت إلى حضرته، وتنعمت بشهود طلعته، فانحصرت محبتي في محبوب واحد، وفي ذلك يقول القائل:

كَانَتْ لِقَلْبِي أَهْوَاءٌ مُفَرَّقَةٌ ... فَاسْتَجْمَعَتْ مُذْ رَأَتْكَ الْعَيْنُ أَهْوَائِي
فَصَارَ يَحْسُدُنِي مَنْ كُنْتُ أَحْسُدُهُ ... وَصِرْتُ مَوْلَى الوَرَى مُذْ صِرْتَ مَوْلائِي
تَرَكْتُ لِلنَّاسِ دنياهم ودِينَهُمُ ... شُغْلاً بِذِكْرِكَ يَادِينِي ودُنْيَائِي

وقال آخر:

تَرَكْتُ لِلنَّاسِ، ماتَهْوَى نفُوسُهم ... مِنْ حُبِّ دُنْيا ومن عِزٍّ ومن جَاهِ
كذاكَ تَرْكُ المقَامَاتِ هُنَا وَهُنَا ... والقَصْدُ غَيْبَتُنَا عَمَّا سِوَى اللَّهِ

﴿قل إني على بينة من ربي﴾ أي: بصيرة نافذة في مشاهدة أسرار ربي، فقد كذَّبتم بخصوصيتي، وطلبتم دلائل ولايتي، ماعندي ماتستعجلون به من الكرامات، ﴿إن الحكم إلا لله﴾، يقضي القضاء الحق، فيُظهر مايشاء، ويُخفي مَنْ يشاء، ﴿وهو خير الفاصلين﴾ أي: الحاكمين بين عباده، قل لو أن عندي ماتستعجلون به؛ من نفوذ دعوتي في إظهار كرامتي، لقُضي الأمر بيني وبينكم، والله أعلم بالمكذبين بأوليائه.

ثم قال تعالى:

﴿ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ ﴾

قلت: (مفَاتح): جمع مِفتح ـ بكسر الميم ـ مقصور، من مفتاح، وهو آلة الفتح، وهو مستعار لما يتوصل به إلى الغيوب، أو يفتحها، وهو المخزن.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وعنده مفاتح الغيب﴾ أي: علم المغيبات، لا يعلمها غيره، إلا من ارتضى من خلقه، أو: عنده خزائن علم الغيوب لا يعلمها غيره، والمراد بها الخمسة التي ذكرها الحق تعالى في سورة لقمان: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾(١) الآية؛ لأنها تعم جميع الأشياء، وسيأتي الكلام عليها إن شاء الله، فقد اختص

(١) الآية ٣٤ من سورة لقمان.

سبحانه بعلم المغيبات ﴿لا يعلمها إلا هو﴾ ؛ فيعلم أوقاتها وما فى تعجيلها وتأخيرها من الحِكَم، فيظهرها على ما اقتضته حكمته وتعلقت به مشيئته، وفيه دليل على أن الله تعالى يعلم الأشياء قبل وقوعها، وهو أمر ضرورى.

﴿ويعلم ما فى البر والبحر﴾ من عجائب المصنوعات وضروب المخلوقات؛ على اختلاف أجناسها وأنواعها، حيها وجامدها، فيعلم عددها وصفتها وأماكنها، ﴿وما تسقط من ورقة إلا يعلمها﴾ كيف تسقط، على ظهرها أو بطنها، وما يصل منها إلى الأرض وما يتعلق فى الهواء، وهو مبالغة فى إحاطة علمه بالجزئيات، كما تعلق بالكليات، ﴿ولا حبة فى ظلمات الأرض﴾ من حبوب الثمار وبذور سائر النبات، والرمل، وغير ذلك من دقائق الأشياء وجلائلها، ﴿ولا رطب ولا يابس﴾ من الأشجار والنبات والحيوانات التى فيها الحياة والتى فارقتها، فهى من جنس اليابس، ﴿إلا فى كتاب مبين﴾ أى: علم الله القديم، أو اللوح المحفوظ، فعلى الأول، يكون بدلاً من الاستثناء الأول، بدل الكل من الكل، وعلى الثانى: بدل اشتمال. وقرئت بالرفع، على العطف على محل: ﴿من ورقة﴾، أو على الابتداء، والخبر: ﴿فى كتاب مبين﴾.

الإشارة: مفاتح الغيب هى أسرار الذات وأنوار الصفات، أو أنوار الملكوت وأسرار الجبروت، لا يعلمها إلا هو، فما دام العبد محجوباً بوجود نفسه، محصوراً فى هيكل ذاته، لا يذوق شيئاً من هذه الغيوب، فإذا أراد الحق جل جلاله أن يفتح على عبده شيئاً من هذه الغيوب، غطى وصف عبده بوصفه، ونعته بنعته، فغيَّبه عن وجود نفسه، فصار هو سمعه وبصره وقلبه وروحه، فيعلم تلك الأسرار به، لا بنفسه، فما علم تلك الأسرار غيره، ويحيط بأسرار الأشياء كلها، برها وبحرها؛ لأنه يصير خليفة الله فى أرضه. وقال الورتجبى: غَيْبُه ذاته القدسية، وهى خزانة أسرار الأزل والآباد، ومفاتحها: صفاتها الأزلية، لايعلم صفاته وذاته بالحقيقة إلا هو تعالى بنفسه، فَنَفى الغير عن البين، حيث لا حيث ولا بين. انظر تمامه فيه.

ومن جملة الغيوب التى اختص الله بها: انقضاء الأجل، كما أشار إلى ذلك بقوله:

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿وهو الذى يتوفاكم﴾ أى: يقبض أرواحكم ﴿بالليل﴾ إذا نمتم، وفى ذلك اعتبار واستدلال على البعث الأخروى، ﴿ويعلم ماجَرَحتم﴾ أى: ماكسبتم من الأعمال ﴿بالنهار﴾. وخص الليل بالنوم والنهار بالكسب جريًا على المعتاد، ﴿ثم﴾ إذا توفاكم بالليل ﴿يبعثكم فيه﴾ أى: فى النهار، ﴿ليُقضى أجل مُسمى﴾ أى: ليبلغ المتيقظ آخر أجله المسمى له فى الدنيا، وهو أجل الموت، ﴿ثم إليه مرجعكم﴾ بالموت ﴿ثم ينبئكم بما كنتم تعملون﴾ فيعاتب المسيء ويكرم المحسن.

رُوى: أن العبد إذا قُبض عَرَجتْ الملائكة برُوحه إلى سدرة المنتهى، فيُوقَف به هناك، فيُعاتبه الحق تعالى على ما فرط منه حتى يَرْفَضَ عرقًا، ثم يقول له: قد غفرتُ لك، اذهبوا به ليرى مقعدَه فى الجنة، ثم يُردّ إلى السؤال.

﴿وهو القاهر فوق عباده﴾ بالقهر والغلبة، ﴿ويُرسل عليكم حفظةً﴾؛ ملائكة تحفظ أعمالكم، وهم الكرام الكاتبون، والحكمة فيه: أن العبد إذا علم أن أعماله تكتب عليه وتُعرض على رؤوس الأشهاد، كان أزجر له عن المعاصى، ثم لاتزال الملائكة تكتب عليه أعماله ﴿حتى إذا جاء أحدَكم الموتُ توفته رُسُلنا﴾ أى: ملك الموت وأعوانه، ﴿وهم لا يُفرطون﴾ بالتوانى والتأخير، ولايجاوزون ماحد لهم بالتقديم والتأخير. ﴿ثم رُدُّوا إلى الله﴾ أى: إلى حُكمه وجزائه، أو مشاهدته وقربه، ﴿مولاهم﴾ الذى يتولى أمرهم، ﴿الحقّ﴾ أى: المتحقق وجوده، وماسواه باطل، ﴿ألا له الحُكم﴾ يومئذ، لاحكم لغيره فيه، ﴿وهو أسرع الحاسبين﴾؛ يحاسب الخلائق فى مقدار حلب شاة، لا يشغله حساب عن حساب، ولا شأن عن شأن، سبحانه لا إله إلا هو.

الإشارة: وهو الذى يتوفاكم، أى: يخلصكم بليل القبض، ويعلم ماكسبتم فى نهار البسط، ثم يبعثكم من ليل القبض إلى نهار البسط، وهكذا؛ ليقضى أجل مسمى للإقامة فيهما، ثم إليه مرجعكم بالخروج عنهما؛ لتكونوا لله لاشيء دونه، وفى الحكم: «بسطك كى لا يبقيك مع القبض، وقبضك كى لا يتركك مع البسط، وأخرجك عنهما، كى لا تكون لشيء دونه».

وقال فارس رضي الله عنه: القبض أولاً ثم البسط، ثم لا قبض ولا بسط؛ لأن القبض والبسط يقعان فى الوجود؛ أى: فى وجود النفس، وأما مع الفناء والبقاء فلا. هـ. أى: فلا قبض ولا بسط؛ لأن العارف الواصل مقبوض فى بسطه، مبسوط فى قبضه، لا تؤثر فيه هواجم الأحوال؛ لأنه مالك غير مملوك. والله تعالى أعلم.

ومن علم أن الله قاهر فوق عباده، انسلخ من حوله وقوته، وانعزل عن تدبيره واختياره؛ لإحاطة القهرية به، ومن تحقق عموم قهاريته تعالى، علم أنه لا حجاب حسى بينه وبينه، إذ لو حجبه شيء لستره ماحجبه، ولو كان له ساتر لكان لوجوده حاصر، وكل حاصر لشيء فهو له قاهر، (وهوالقاهر فوق عباده)، وإنما المحجوب: العبد عن ربه بوجود وهمه وجهله، ومن تحقق أن الملائكة تحفظ أعماله استحيا من ارتكاب القبائح، لئلا تعرض على رؤوس الأشهاد.

ثم أمر بالرجوع إليه عند الشدائد، فقال:

﴿ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿قل من ينجيكم﴾ أي: يُخلصكم ﴿من ظلمات البر والبحر﴾ أي: من شدائدهما، استعير الظلمة للشدة؛ لمشاركتهما في الهول، فقيل لليوم الشديد: يوم مظلم، أو: من الخسف في البر والغرق في البحر، حال كونكم ﴿تدعونه تضرعاً وخُفية﴾ أي: جهراً وسراً، قائلين: ﴿لئن أنجيتنا من هذه﴾[1] الظلمة، أي: الشدة، ﴿لنكونن من الشاكرين﴾ بإقرارنا بوحدانيتك، ﴿قل الله يُنجيكم منها ومن كل كرب﴾ أي: غم سواها، ﴿ثم أنتم تُشركون﴾ أي: تعودون إلى الشرك ولاتوفون بالعهد، وهذا شأن النفس اللئيمة؛ في وقت الشدة ترجع إلى الحق وتوحده، وفي وقت السعة تنساه وتشرك معه، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾[2].

الإشارة: ظلمات البر هو مايخوض القلب ويظلمه؛ من أجل مايدخل عليه من حس الظاهر، الذي هو بر الشريعة، وظلمات البحر هو مايدهش الروح ويحيرها من أجل مايدهمها من علم الحقائق، عند الاستشراف عليها، أو مايشكل عليها في علم التوحيد، فإذا رجع إلى الله فيهما، وتمسك بشيخ كامل في علم الحقائق ـ أنجاه الله منهما، فإذا شكر الله وأفرد النعمة إليه دامت نجاته، وإن التفت إلى غيره خيف عليه العَوْد إلى ماكان عليه. وبالله التوفيق.

ثم هدد أهل الشرك، أو: هُمْ مع غيرهم، فقال:

﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿قل﴾ يا محمد: ﴿هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم﴾، كما فعل بقوم نوح ولوط وأصحاب الفيل، ﴿أو من تحت أرجُلكم﴾، كما أغرق فرعون وخسف بقارون، وقيل: من فوقكم:

---

(١) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر (أنجيتنا) بالياء والتاء بعد الجيم من غير ألف.. وقرأ الباقون (أنجانا) بألف بعد الجيم من غير ياء ولا تاء. انظر الإتحاف (٢/١٦).

(٢) الآية ٣٣ من سورة الروم.

بتسليط أكابركم وحكامكم عليكم، ومن تحت أرجلكم: سفلتكم وعبيدكم، ﴿أو يَلبسكم﴾ أى: يَخْلطكم ﴿شيعًا﴾ أى: فِرَقًا متحزبين على أهواء شتى، فينشب القتال بينكم، ﴿ويُذيق بعضكم بأس بعض﴾، بقتال بعضكم بعضا.

وفى الحديث عنه ﷺ: أنه لما نزلت: ﴿أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم﴾ قال: «أَعُوذُ بِوَجْهِكَ»، ولما نزلت: ﴿أو من تحت أرجلكم﴾ قال أيضا: «أعُوذ بِوجْهِكَ»، ولما نزلت: ﴿أو يلبسكم شيعا﴾ قال: «هذا أهْوَنُ»[1]، فقضى الله على هذه الأمة بالقتل والقتال إلى يوم القيامة، نعوذ بالله من الفتن.

قال تعالى: ﴿انظر كيف نُصرف الآيات﴾ أى: نقلبها بورود الوعد والوعيد ﴿لعلهم يفقهون﴾ ما نزل إليهم.

﴿وكذَّب به قومك﴾ أى: بالعذاب، أوبالقرآن، ﴿وهو الحق﴾ أى: الواقع لا محالة، أو الصدق فى أخباره وأحكامه، ﴿قل لست عليكم بوكيل﴾ أى: وُكل إلىَّ أمركم فأمنعكم من التكذيب، أو أجازيكم، إنما أنا منذر، والله هو الحفيظ.﴿لكل نبأ﴾ أى: خبرٍ بعذاب أو إيعاد به، ﴿مستقر﴾ أى: وقت استقراره ووقوعه، يعرف ـ عند انقضائه ـ صدقه من كذبه، ﴿وسوف تعلمون﴾ ما يحل بكم عند وقوعه فى الدنيا والآخرة.

الإشارة: الخطاب للمريدين السائرين، أو الواصلين. خوفهم بأن يحول بينهم وبين شهود عظمته الفوقية والتحتية، فينزل عليهم عذاب الفرق من جهة العلو أو السفل، فلا يشهدون إلا الأكوان محيطة بهم، أو يخالف بين وجوههم ويلبسهم شيعًا، فإذا تفرقت الوجوه تفرقت القلوب غالباً، والعياذ بالله، لأن الفتح والنصر مرتب على الجمع، قال تعالى:﴿ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ ﴾[2]. قال القشيرى: فيه إشارة إلى أن الجمع مُؤْذِن بالفتح. هـ. فينبغى للمريد أن يشهد الصفاء فى الجميع، ويتودد إلى الجميع، حتى لا يبقى معه فرق. والله تعالى أعلم.

ثم حذَّر من صحبة أهل الخوض، فقال:

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ...﴾

(١) أخرجه البخارى فى: (تفسير سورة الأنعام، باب: قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا) من حديث جابر رضي الله عنه.
(٢) الآية ٢٦ من سورة سبأ.

قلت: ﴿ولكن ذكرى﴾: مفعول بمحذوف، أي: يذكرونهم ذكرى، أو مبتدأ، أي: عليهم ذِكْرَى.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وإذا رأيتَ الذين يخوضون فى آياتنا ﴾ أى: القرآن؛ بالتكذيب والاستهزاء بها والطعن فيها ﴿ فأعرض عنهم ﴾ ولاتجالسهم، بل قُم عنهم ﴿حتى يخوضوا فى حديث غيره ﴾ أى: غير القرآن، ﴿ وإما يُنسينكَ الشيطانُ ﴾ النهيَ عن مجالستهم، وجلست نسياناً، ﴿ فلا تقعد بعد الذكرى ﴾ أى: بعد أن تذكر النهى ،﴿ مع القوم الظالمين ﴾ ، ونسبة النسيان إلى الشيطان أدباً مع الحضرة، ﴿ قل كل من عند الله ﴾(1)، ووضع المظهر موضع المضمر، أى: معهم، للدلالة على أنهم ظلموا بوضع التكذيب والاستهزاء موضع التصديق والتعظيم.

﴿ وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء ﴾ أى: ماعلى المتقين الذين يجالسونهم شيء من حسابهم ، بل عقابهم على الخوض خاصٌ بهم، ﴿ ولكن ﴾ عليهم ﴿ ذِكْرَى ﴾ أى: تذكيرهم ووعظهم ومنعهم من الخوض إن قدروا، وكراهية ذلك إن لم يقدروا، فيعظونهم ﴿ لعلهم يتقون ﴾، فيجتنبون ذلك الخوض؛ حياء أو كراهية مَساءتهم، وإنما أبيح للمؤمنين القعود مع الكفار الخائضين ومخالطتهم؛ لأن ذلك يشق عليهم، إذ لابد لهم من مخالطتهم فى طلب المعاش وفي الطواف، وغير ذلك، بخلافه ـ عليه الصلاة والسلام ـ؛ لأن الله أغناه عنهم به، فنهاه عن مخالطة أهل الخوض مطلقا.

ثم قال له: ﴿ وذَرِ الذين اتخذوا دينهم لعباً ولهواً ﴾ أى : بنوا أمر دينهم على التشهِّى، وتديَّنوا بما لا يعود عليهم بنفع ،عاجلاًوآجلا، كعبادة الأصنام واتخاذ البحائر والسوائب، أو اتخذوا دينهم الذى كلفوا بالدخول فيه لعباً ولهواً، حيث سخروا به، أي: أعرض عنهم ولا تبال بأفعالهم وأقوالهم. ومن جعله منسوخاً بآية السيف حمله على الأمر بالكف عنهم، وترك التعرض لهم، ﴿ وغرتهم الحياةُ الدنيا ﴾ وزخرفها، حتى نسُوا البعث وأنكروه، والعياذ بالله.

الإشارة: قد تقدم مراراً التحذير من مخالطة أهل الخوض وصحبة العوام، وكل من ليس من جنس أهل النسبة، فإن ألجأه الحال إلى صحبتهم ـ فليُذكرهم، ويعظهم، ويُنهضهم إلى الله بمقاله أو حاله ما استطاع. وبالله التوفيق.

ثم أمر نبيه ـ عليه الصلاة والسلام ـ بالتذكير، فقال:

---

(1) من الآية: ٧٨ من سورة النساء.

﴿... وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا۟ بِمَا كَسَبُوا۟ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾

قلت: (تبسل) : تُحبس وتُسلم للهلكة، وفي البخاري: «تُبْسَل: تفضح، أبسلوا: فُضحوا وأسلموا»(١).

يقول الحق جل جلاله لنبيه ـ عليه الصلاة السلام ـ: ﴿وذكِّر﴾ بالقرآن الناس؛ مخافة ﴿أن تُبسل نفس بما كسبت﴾ أي: لئلا تُحبس كل نفس وترتهن بما كسبت أو تُسلم للهلكة، أو لئلا تفضح على رؤوس الأشهاد بما كسبت، ﴿ليس لها من دون الله وليّ ولا شفيع﴾ يدفع عنها العذاب، ﴿وإن تَعدل كل عَدّل﴾ أي: وإن تفد كل فداء ﴿لا يؤخذ منها﴾ أي: لا يقبل منها.

﴿أولئك الذين أُبسلوا بما كسبوا﴾ أي: أُسلموا للعذاب بسبب أعمالهم القبيحة وعقائدهم الزائغة، أو افتضحوا بما كسبوا ﴿لهم شراب من حميم﴾ وهو الماء الحار، ﴿وعذاب أليم بما كانوا يكفرون﴾، والمعنى: هم بين ماء مغلى يتجرْجر في بطونهم، ونار تشعل بأبدانهم بسبب كفرهم، والعياذ بالله.

الإشارة: لا ينبغي للشيخ أو الواعظ أن يمل من التذكير، ولو رأى من أصحابه غاية الصفاء، ولا ينبغي للمريد أن يمل من التصفية والتشمير، ولو بلغ من تصفية نفسه ما بلغ، أو أُظهرت له من الاستقامة ما أظهرت، قال تعالى: ﴿وإن تعدل كل عدل لا يؤخذ منها﴾.

قال أبو حفص النيسابوري رضي الله عنه: من لم يتّهم نفسه على دوام الأوقات، ولم يخالفها في جميع الأحوال، ولم يجرها إلى مكروهها في سائر أيامه، كان مغرورا، ومن نظر إليها باستحسان شيء منها فقد أهلكها، وكيف يصح لعاقل الرضا عن نفسه؛ والكريم بن الكريم بن الكريم بن الكريم، يقول: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾(٢). وقال أيضا: منذ أربعين سنة اعتقادي في نفسي ـ أن الله ينظر إليّ نظر السخط، وأعمالي تدل على ذلك. وقال الجنيد رضي الله عنه: لا تسكن إلى نفسك، وإن دامت طاعتها لك في طاعة ربك. وقال أبو سليمان الداراني رضي الله عنه: (ما رضيت عن نفسي طرفة عين). إلى غير ذلك من مقالاتهم التي تدل على عدم الرضى عن النفس وعدم القناعة منها بالتصفية التي أظهرت.

ويُحكى عن القطب ابن مشيش؛ أنه لما بلغ في تلاوته هذه الآية، تواجد وأخذه حالٌ عظيم اقتطعه عن حسه، حتى كان يتمايل، فيميل الجبل معه يميناً وشمالا. نفعنا الله بذكرهم آمين.

(١) أخرجه البخاري في (تفسير سورة الأنعام) من قول ابن عباس. رضي الله عنه.
(٢) من الآية ٥٣ من سورة يوسف.

فإن قلت: العارف لم تبق له نفس يتهمها؛ لفنائه في شهوده وانطوائه في وجوده ؟ قلت: العارف الكامل هو الذي لايحجبه جمعه عن فرقه، ولا فرقه عن جمعه، فإذا رجع إلى شهود فرقه، رأى نفسه عبداً متصفاً بنقائص العبودية التي لا نهاية لها، ولذلك قالوا: للنفس من النقائص ما لله من الكمالات. فلو تطهرت كل التطهير لم يقبل منها، وإذا نظر إلى نعت جمعه رأى نفسه مجموعاً في الحضرة، متصفاً بالكمالات التي لانهاية لها، فيغيب عن شهود عبوديته في عظمة ربوبيته، لكنه لا يحجب بجمعه عن فرقه؛ لكماله، وإلى هذا المعنى أشار في الحكم بقوله: «لانهاية لمذامك إن أرجعك إليك، ولا تفرغ مدائحك إن أظهر جوده عليك» . وبالله التوفيق.

ثم أمر نبيه ـ عليه الصلاة والسلام بالتبرؤ من الشرك مطلقاً، تشريعاً، فقال:

﴿ قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنْ أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾ ﴾

قلت: (ونُردُّ): عطف على (ندعو) والهمزة للإنكار، والرد على العقب: الرجوع إلى وراء، لعلّة في المشي، واستعير للمعاني، و(كالذي استهوته): الكاف في موضع نصب على الحال من الضمير في (نُرَدّ) أي: كيف نرجع مشبهين بمن استهوته الشياطين، أو نعت لمصدر محذوف، أي: رداً كرد الذي... إلخ. واستهوى: استفعل، من هَوَى في الأرض إذا ذهب، وقال الفارسي: استهوى بمعنى أهوى، مثل استزل بمعنى أزل، و(حيران): حال من مفعول استهوى.

و«أن أقيموا»: عطف على «لنسْلِم»، أو «أمرنا». «قوله الحق»: مبتدأ، و«يوم يقول»: خبر مقدم، أي: قوله الحق حاصل يوم يقول: كن فيكون، وفاعل «يكون»: ضمير فاعل كن، أي: حين يقول للشيء: كن فيكون ذلك الشيء، و«يوم ينفخ»: ظرف لقوله: «الملك»، كقوله: ﴿ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ﴾[1].

(١) من الآية ١٦ من سورة غافر.

يقول الحق جل جلاله: ﴿قل﴾ لهم يامحمد ﴿أندعو من دون الله﴾ أى: نعبد ﴿مالا ينفعنا ولا يضرنا﴾ من الأصنام الجامدة، ﴿ونُرد على أعقابنا﴾ أى: نرجع إلى الشرك ﴿بعد إذ هدانا الله﴾ وأنقذنا، ورزقنا الإسلام، وهذ على الصحابة. وأما النبى ﷺ فلم يتقدم له شرك؛ لعصمته، أى: كيف نرد على أعقابنا رداً ﴿كالذي استهوته الشياطين﴾، أى: أضلته مَرَدَةُ الجن عن الطريق المستقيم، فذهب ﴿فى الأرض حيران﴾؛ متحيراً ضالاً عن الطريق، ﴿له أصحاب﴾ أى: رفقة ﴿يدعونه إلى الهدى﴾ أى: إلى الطريق المستقيم، يقولون له: ﴿ائتنا﴾ وكن معنا لئلا تتلف. وهو مثال لمن ترك الإسلام وضل عنه.

﴿قل﴾ لهم: ﴿إن هدى الله﴾، وهو الإسلام، ﴿هو الهدى﴾ وحده، وما عداه ضلال. ﴿و﴾قد ﴿أمرنا لنسلم لرب العالمين﴾ نكون على الجادة من الهدى، ﴿و﴾ أُمرنا ﴿أن أقيموا الصلاة واتقوه﴾ أى: أُمرنا بإقامة الصلا والتقوى، رُوى أن عبد الرحمن بن أبى بكر دعا أباه إلى عبادة الأوثان، فنزلت، وعلى هذا أُمِر الرسول بهذا القول إجابة عن الصديق تعظيماً لشأنه، وإظهاراً للاتحاد الذى كان بينهما. قاله البيضاوى. وقال ابن جزى: ويُبطل هذا قول عائشة: ما نزل فى آل أبى بكر شىء من القرآن إلا براءتى. هـ. قلت: ليس بحجة؛ لصغر سنِّها وقت نزول الآية بمكة، والإسلام يمحو ما قبله. ثم قال جل جلاله: ﴿وهو الذى إليه تحشرون﴾ يوم القيامة؛ فيظهر من تبع الحق من الباطل.

﴿وهو الذى خلق السموات والأرض بالحق﴾، أى: قائماً بالحق والحكمة، فهو أحق بالعبادة وحده، ﴿ويوم يقول كن فيكون قوله الحق﴾ أى: قوله العدل حاصل يوم يقول للبعث والحشر: كن فيكون، ﴿وله الملك يوم ينفخ فى الصور﴾ أى: انفرد الملك له يوم ينفخ فى الصور فيقول: لمن الملك اليوم؟ فلا يُجاب، فيقول: لله الواحد القهار. ﴿عالم الغيب والشهادة﴾ أى: هو عالم بما غاب وما ظهر، ﴿وهو الحكيم﴾ فى صنعه، ﴿الخبير﴾ بأمر عباده.

الإشارة: إذا توجه العبد إلى مولاه، وانقطع بكليته إلى الله، طالباً منه معرفته ورضاه، قد يمتحن بشىء من شدائد الزمان؛ كالفاقة وإيذاء الخلق والأحزان، فيقال اختباراً له: تعلق فى دفع ما نزل بك بشىء من السِّوى، فيجب عليه أن يقول: ﴿أندعوا من دون الله ما لاينفعنا ولا يضرنا ونُردُّ على أعقابنا﴾ بالالتفات إلى غير ربنا، بعد إذ هدانا الله إلى توحيده ومعرفته، ونكون كالذى استهوته الشياطين فى الأرض، حيران بالتفاته إلى غير الكريم المنان؛ ﴿قل إن هدى الله﴾ أى: هدايته الخاصة، وهى الانقطاع إليه وحده فى الشدائد، ﴿هو الهدى﴾، وقد أُمرنا بالانقياد بكليتنا إلى ربنا، وأُمرنا إذا حزبنا شىء بإقامة الصلاة؛ لأنها مفتاح الفرج، وبالتقوى؛ لأنها سبب النصر؛ ﴿إنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا﴾، وآخر أمرنا الموت والحشر إلى ربنا، والاستراحة إلى الروح والريحان. وبالله التوفيق.

ثم ذكر قصة إبراهيم إبطالاً لدعوى الشرك، فقال:

﴿ ۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ ﴾

قلت: آزر: عطف بيان، أو بدل من أبيه، ومنع من الصرف؛ للعلمية والعجمة. وقرأ يعقوب بالضم ـ على النداء، وقيل: إن آزر اسم صنم؛ لأنه ثبت أن اسم أبى إبراهيم تارخ. فعلى هذا يحتمل أن يكون لقب به؛ لملازمته له، وقيل: هما علَمانِ له كإسرائيل ويعقوب.

يقول الحق جل جلاله: ﴿و﴾ اذكر ﴿إذ قال إبراهيم لأبيه آزر﴾، حين دعاه إلى التوحيد: ﴿أتتخذ أصناما آلهة﴾ تعبدها من دون الله، وهى لاتنفع ولا تضر، ﴿إنى أراك وقومك فى ضلال مبين﴾: بيِّن الضلالة، ظاهر الخطأ.

الإشارة: كل من سكن إلى شيء دون الله، أو مال إليه بالعشق والمحبة، فهو صنم فى حقه، فإن لم ينزع عن محبته، ولم يقلع عن السكون إليه، كان حجاباً بينه وبين شهود أسرار التوحيد. وفى الحِكَم: «ما أحببت شيئاً إلا وكنت عبداً له، وهو لا يحب أن تكون لغيره عبداً». وفى الحديث: «تعس عبدُ الدينار والدرهم» ... أى: خاب وخسر، فإذا اطلع الحق تعالى على قلب عبده فرآه مائلاً لغيره، حجب عنه أنوار قدسه، وفى ذلك يقول الششترى رضي الله عنه:

لِي حَبِيبٌ إنما هو غيور، يُطِلُّ فى القَلْبِ كَطَيْرٍ حَذُور،
إذا رأى شَيْئاً امْتَنَع أنْ يَزُور.

وبالله التوفيق.

ثم ذكر احتجاج إبراهيم على قومه، وتبصره بأمر ربه، فقال:

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾

قلت : المُلك: ما ظهر فى عالم الشهادة من المحسوسات، والملكوت: ماغاب فيها من معانى أسرار الربوبية، والجبروت: ما لم يدخل عالم التكوين من أسرار المعانى الأزلية .

يقول الحق جل جلاله : ﴿ وكذلك ﴾ أى: مثل ذلك التبصر الذى بَصّرنا به إبراهيم حتى اهتدى للرد على أبيه، نُريه ﴿ ملكوت السموات والأرض ﴾ أى: نكشف له عن أسرار التوحيد فيهما، حتى يشاهد فيهما صانعهما، ولا يقف مع ظاهر حسهما، وإنما فعلنا له ذلك ﴿ ليكون من الموقنين ﴾ بمعرفتنا، عارفاً بأسرار قدسنا.

ولما كان أبوه وقومه يعبدون الأصنام والكواكب والقمر والشمس، أراد أن يرشدهم إلى التوحيد من طريق النظر والاستدلال؛ ﴿ فلما جن عليه الليل ﴾ أى: ستره بظلامه، ﴿ رأى كوكبا ﴾ وهو الزهرة أو المشترى، ﴿ قال هذا ربي ﴾ على سبيل التنزل إلى قول الخصم، وإن كان فاسداً؛ فإن المستدل على فساد قول يحكيه على مايقوله الخصم، ثم يكرّ عليه بالفساد؛ لأن ذلك أدعى إلى الحق، وأقرب إلى رجوع الخصم، ﴿ فلما أفل ﴾ أى: غاب، ﴿ قال لا أحب الآفلين ﴾ ؛ فضلاً عن عبادتهم؛ فإن التغير بالاستتار والانتقال يقتضى الإمكان والحدوث وينافي الألوهية.

﴿ فلما رأى القمر بازغا ﴾ : مبتدئاً فى الطلوع، ﴿ قال هذا ربي ، فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين ﴾ . استعجز نفسه واستعان ربه في درك الحق، وأنه لايهتدى إليه إلا بتوفيقه؛ إرشاداً لقومه، وتنبيها لهم على أن القمر أيضاً؛ لتغير حاله، لا يصلح للألوهية، وأن من اتخذه إلهاً، فهو ضالٌ.

﴿ فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى ﴾ ، إنما ذكّر الإشارة لتذكير الخبر، وصيانةً للرب عن شبهة التأنيث ﴿ هذا أكبر ﴾ لكبر النور وسطوعه أكثر، ﴿ فلما أفلت قال يا قوم إني برىء مما تشركون ﴾ من الأجرام المحدثة المحسوسة، المحتاجة إلى محدث يحدثها، ومخصص يخصصها.

ولما تبرأ من عبادتها توجه إلى موجدها ومبدعها، فقال: ﴿ إني وجهت وجهي للذي فطر ﴾ أى: أبدع ﴿ السموات والأرض ﴾ حال كونى ﴿ حنيفا ﴾ أى: مائلاً عن دنيكم ﴿ وما أنا من المشركين ﴾ مثلكم. وإنما احتج بالأفول دون البزوغ، مع أنه تغير؛ لأن الأفول أظهر فى الدلالة؛ لأنه انتقال مع اختفاء واحتجاب. ولأنه رأى الكوكب الذى يعبدونه في وسط السماء حين حاول الاستدلال. وقيل: إن هذا الاستدلال والاحتجاج كان فى حال طفولته قبل التكليف. فقد رُوى أنه لما ولدته أمه فى غار، خوفًا من نمرود؛ إذ كان يقتل الأطفال؛ لأن المنجمين أخبروه أن هلاكه على يد صبى يُولد فى هذا العصر، فكان يستدل بما رأى على توحيد ربه؛ وهو فى الغار، وهذا ضعيف لأن قوله: ﴿ إنى برىء مما تشركون ﴾ يقتضى المحاججة والمخاصمة لقومه.

وقوله ﷺ: ﴿ هذا ربى ﴾ مع قوله ﴿ إِنِّى سَقِيمٌ ﴾(١) و ﴿ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا ﴾(٢)، ليس بكذب؛ للعصمة، وإنما هو تورية. وفى الحديث: «ليس بكاذبٍ من كاذَب ظالماً، أو دفع ضرراً، أو رعى حقاً، أو حفظ قلباً» . وفى

---

(١) من الآية ٧٩ من سورة الصافات. (٢) من الآية ٦٣ من سورة الأنبياء.

رواية أخرى: «ليس بكاذب، من قال خيراً أو نواه». وأما اعتذاره في حديث الشفاعة؛ فلهول المطلع، فيقع الحذر من أدنى شيء. والله تعالى أعلم.

الإشارة: لمَّا كوشف إبراهيم بعالم الملكوت، رأى الله في الأشياء كلها، كما ورد في بعض الأثر: (ما رأيت شيئاً إلا رأيت الله فيه). وإنما قال: ﴿لا أحب الآفلين﴾؛ حذراً من الوقوف مع الحس دون شهود المعنى، إذ بحر المعاني متصل دائم ليس فيه تغيير ولا انتقال. وإنما تتغير الأواني دون المعاني، فشمس المعاني مشرقة على الدوام، ليس لها مغيب ولا تغير ولا انتقال، ولذلك قيل:

طَلَعَتْ شَمسُ مَنْ أُحِبُّ بلَيْلٍ وأسْتَنَارَتْ فَمَا تَلاها غُرُوبُ

إنّ شَمْسَ النَّهَارِ تَغْرُبُ باللَّيْلِ وشَمْسُ القُلوبِ ليس لهَا مَغيبُ

أي: طلعت شمس نهار عرفانهم على ليل وجودهم، فامتحت ظلمة وجودهم في شهود محبوبهم، وفي الحِكَم: «أنار الظواهر بأنوار آثاره، وأنار السرائر بأنوار أوصافه، لأجل ذلك أفَلَتْ أنوار الظواهر، ولم تأفل أنوار القلوب والسرائر».

قال الجوْزي: لما بدا لإبراهيم نجم العلم، وطلع قمر التوحيد، وأشرقت شمس المعرفة ـ قال: ﴿إني بريء مما تشركون إني وجهت وجهي...﴾ الآية. هـ. قيل: لما نظر إبراهيم عليه السلام بعيون رأسه إلى نور النجم والشمس والقمر الحسي، نودي في سره: يا إبراهيم، لا تنظر ببصرك إلى الجهة الحسية، وانظر ببصيرتك إلى الحقيقة المعنوية؛ لأن الوجود كله عين الأحدية، فافهم معاني الأسماء، ولا تقف مع جرم الأرض والسماء، فإن الوقوف مع الحس حجاب عن المعنى. فقال إبراهيم: ﴿إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين﴾ . هـ. وفي ذلك يقول الششتري أيضاً:

لا تَنْظُرْ إلى الأوَانِي وَخُضْ بَحْرَ المَعَانِي لَعَلَّكَ تَرَانِي .

ولما احتج إبراهيم عليه السلام على قومه خاصموه في ذلك، كما قال تعالى:

﴿وَحَاجَّهُۥ قَوْمُهُۥ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ...﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿وحاجه قومه﴾ أي: خاصموه في التوحيد، فقال لهم: ﴿أتحاجُّوني في الله﴾ أي: في وحدانيته، أو في الإيمان به، وقد هداني إلى توحيده وأرشدني إلى معرفته، فلا ألتفت إلى غيره، ولا أعبأ بمن خاصمني فيه، والأصل: تحاجونني، فحذف نافع وابن عامر نون الرفع، وأبقى نون الوقاية، وقيل: العكس، وأدغم الباقون إحدى النونين في الأخرى.

الإشارة: مخاصمة العموم لأهل الخصوصية سنّة ماضية؛ (ولن تجد لسنة الله تبديلا)؛ لأنَّ من أنكر شيئاً عاداه، فأهل الخصوصية يعْذرون من أنكر عليهم؛ لأن ذلك مبلغهم من العلم، والعامة لايعذرون أهل الخصوصية؛ لخروجهم عن بلادهم؛ فلا يعرفون ماهم فيه. والله تعالى أعلم.

ولما خاصموا إبراهيم عليه السلام فلم يلتفت إليهم، خوفوه بأصنامهم، فقال لهم:

﴿ ... وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾

قلت: الاستثناء في قوله: (إلا أن يشاء): منقطع. قاله ابن جزي. وظاهر كلام البيضاوي: أنه متصل، وهو المتبادر، أي: ولا أخاف ما تشركون في حال من الأحوال إلا أن يشاء ربي أن يصيبني بمكروه من جهتها؛ استدراجاً لكم، وفتنة. وقال الواحدي: لا أخاف إلا مشيئة ربي أن يعذبني.

يقول الحق جل جلاله، حاكياً عن خليله إبراهيم: ﴿ولا أخاف ما تُشركون به﴾ أي: لا أخاف معبوداتكم أن تصيبني بشيء؛ لأنها جوامد لا تضر ولاتنفع، ﴿إلا أن يشاء ربي شيئًا﴾ يصيبني بقدَره وقضائه، فإنه يصيبني لا محالة، لا بسببها، ﴿وَسِع ربي كل شيء علما﴾، كأنه علّة الاستثناء، أي: لا أخاف إلا ما سبق في مشيئة الله، لأنه أحاط بكل شيء علما، فلا يبعد أن يكون في علمه وقدره أن يحيق بي مكروه من جهتها، ﴿أفلا تتذكرون﴾ فتُميِّزوا بين الصحيح والفاسد، والقادر والعاجز؟.

﴿وكيف أخافُ ما أشركتم﴾ وهو جامد عاجز لا يتعلق به ضرر ولا نفع؟ ﴿ولا تخافون أنكم أشركتم بالله﴾ وهو أحق أن يُخاف منه كل الخوف، لأنه القادر على الانتقام ممن أشرك معه غيره، وسوّى بينه وبين مصنوع عاجز، لا يضر ولا ينفع، فأنتم أحق بالخوف؛ لأنكم ﴿أشركتم بالله مالم يُنزِّل به عليكم سلطانًا﴾ أي: لم يُنَزِّل بإشراكه كتاباً، ولم ينصب عليه دليلاً، ﴿فأيُّ الفريقين أحق بالأمن﴾: أهل التوحيد والإيمان، أو أهل الشرك والعصيان؟ ﴿إن كنتم تعلمون﴾ ما يَحق أن يُخاف منه.

ثم أجابَ عن الاستفهام: الحق تعالى أو خليلُه، فقال: ﴿الذين آمنوا ولم يلبسوا﴾ أي: يخلطوا ﴿إيمانهم بظلم﴾ أي: بشرك، بل آمنوا بالله ولم يعبدوا معه غيره، ﴿أولئك لهم الأمن﴾ في الآخرة، ﴿وهم مهتدون﴾ في الدنيا. أما الطائع فأمنه ظاهر، وأما العاصي فيؤمن من الخلود وتحريم الجنة عليه.

ولمّا نزلت الآية أشفق منها أصحاب رسول الله ﷺ، فقالوا: أينا لم يظلم نفسه؟ لأنهم فهموا عموم الظلم؛ فقال رسول الله ﷺ: «ليس ما تظنون، إنما هو ماقال لقمانُ لابنه: ﴿يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ﴾»(١).

---

(١) الآية ١٣ من سورة لقمان.... والحديث أخرجه البخاري في (أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى «ولقد آتينا لقمان الحكمة...») ومسلم في (الإيمان، باب صدق الإيمان وإخلاصه) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

وقد كان المشركون يُقِرُّون بالصانع ويخلطون معه التصديق بربوبية الأصنام، فقد آمنوا بوجود الصانع، ولكنهم لبسوا إيمانهم بالشرك، فلا أمن لهم ولا هداية. وبهذا يرد جهالة الزمخشري في إنكاره الحديث الصحيح، ولو بقي الظلم على عمومه ـ أي: ولم يخلطوا إيمانهم بمعصية ـ لصَحّ، ويكون المراد بالأمن أمناً خاصا وهداية خاصة، لكن ماقاله ـ عليه الصلاة والسلام ـ يُوقَف عنده.

الإشارة: العارف بالله، المتحقق بوحدانية الله، لا يسكن خوفُ الخلق في قلبه، ولا ينظر إلا إلى ما يبرُز من عند ربه، فإنْ وعدَه بالعصمة أو الحفظ لم يترك بذلك التضرعَ والالتجاء إلى ربه؛ لسعة علمه تعالى، وقد يكون ذلك متوقفًا على أسباب وشروط، أخفاها الحق تعالى إظهاراً لقهريته، ولذلك قال الخليل عليه السلام: ﴿ ولا أخاف ماتُشركون به إلا أن يشاء ربي شيئا وسع ربي كل شيء علما ﴾. وقال سيدنا شعيب عليه السلام: ﴿ وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾(١). فالعارف لايزول اضطراره، ولايكون مع غير الله قراره، وأما الأمن من التحويل والانقلاب، فاختلف فيه؛ فقال بعضهم: يحصُل للوليّ الأمنُ، إذا تحقق بمقام القُرْب، وحصل له الفناء والبقاء، متمسكاً بقوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ ﴾. وقال بعضهم: لا يحصل الأمن إلا للأنبياء ـ عليهم السلام ـ؛ للعصمة.

قال الورتجبي: مقام الأمن لا يحصل لأحد، مادام هو بوصف الحدَثية، وكيف يكون آمناً منه وهو في رقِّ العبودية ويعرف نفسه بها، ويعرف الحق بوصف القدم والبقاء وقهر الجبروت؟ وقال تعالى: ﴿ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴾(٢). فإذا رأى الله تعالى بوصف المحبة والعشق والشوق، وذاق طعم الدنو، واتّصف بصفات الحق، بدا له أوائل الأمن، لأن في صفة القدم لا يكون علة الخوف والرجاء، لأن هناك جنة القرب والوصال، وهم فيها آمنون من طوارق القهر، وهم مهتدون ماداموا متصفين بصفاته، وإن كانوا في تسامح من مناقشة الله بدقائق خفايا مكره.هـ.

فظاهر كلامه، أن المتحقق بمقام الفناء والبقاء، يحصل له الأمن من الشقاء، وكذلك قال أبو المواهب: من رجع إلى البقاء أَمِنَ من الشقاء. وقال في نوادر الأصول: مَنْ حَظُّه من أهل التقريب: الجلال والجمال، وقد أُقيم في الهيبة والأُنس، قد غاب عن خوف العقوبة، ولكنه يخاف التحويل والهوى والسقوط، لما رُكب في نفوس بني آدم من الشهوات، فهن أبداً يَهْوِين بصاحبهن عن الله إلى الإخلاد والبُطء، وإنما يسكن خوف التحويل إذا خلَص إلى الفردانية وتعلّق بالوحدانية؛ لتلاشي الهوى منه والشهوة؛ بكشف الغطاء، ولا يذهب خوف ذلك بالكلّية عنه، وإن

(١) الآية ٨٩ من سورة الأعراف.
(٢) الآية ٩٩ من سورة الأعراف.

سكن؛ لبقاء خيال ذلك في حق غير الأنبياء. وأما هُمْ فلم يبق لهم ظِلُّ الهوى، فبُشِّروا بالنجاة؛ فلَمْ تغُرهم البُشْرى؛ لأنهم لم يبق لهم نفوس، فتستبدّ وتجور إذا أَمِنت السقوط، ومَنْ بعدهم بقي لهم في نفوسهم شيء فمُنعوا البشرى، وأُبهم عليهم الأمر؛ صنعاً بهم؛ ونظراً لهم، لتكون نفوسهم منقمعة بخوف الزوال. هذا هو الأصل فافهمه. هـ.

وحاصل كلامه: أن غير الأنبياء لا ينقطع عنه خوفُ التحويل، بل يسكن خوفه فقط، ولا يُبَشَّر بالأمن إلا الأنبياء، وهو الصواب، لبقاء قهر الربوبية فوق ضعف العبودية، قال تعالى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾(١). والله تعالى أعلم.

ثم مدح خليله بما أظهر على يديه من الحُجة والعلم، فقال:

﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ ﴾

قلت: (على قومه): متعلق بحجتنا، إن جُعل خبراً عن (تلك)، وبمحذوف، إن جعل بدله، أي: وتلك الحجة آتيناها إبراهيم حجة على قومه. ومن قرأ: «درجات»: بالتنوين؛ فَمَنْ نشاء: مفعول، ودرجات: تمييز.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه﴾، إشارة إلى ماتقدم من استدلاله على وحدانيته تعالى بأُفول الكوكب والقمر والشمس، واحتجاجه بذلك على قومه، وإتيانه إياها: وإرشاده لها وتعليمه إياها، قال تعالى: ﴿نرفع درجات من نشاء﴾ في العلم والحكمة، أو في اليقين والمعرفة، ﴿إن ربك حكيم﴾ في رفعه وخفضه، ﴿عليم﴾ بحال من يرفعه ويخفضه، وبحال الاستعداد لذلك.

الإشارة: رفْعُ الدرجات في جنات الزخارف يكون بالعلم والعمل وزيادة الطاعات، ورفع الدرجات في جنة المعارف يكون بكبر اليقين، والترقي في شهود رب العالمين. وذلك بحسب التبتل والانقطاع، والتفرغ من شواغل الحس ودوام الأُنس. والله تعالى أعلم.

ومما خُصَّ به إبراهيم عليه السلام وكان زيادة في درجته، أن الأنبياء جلّهم من ذريته، كما قال تعالى:

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ
دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا
وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا
فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ

(١) من الآية ١٨ من سورة الأنعام.

مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾

قلت: الضمير في (ذريته) لإبراهيم عليه السلام؛ لأن الحديث عليه، أو لنوح عليه السلام؛ لذكر لوط، وليس من ذرية إبراهيم، لكنه ابن أخيه فكأنه ابنه، و(داود): عطف على (نوح)؛ أي: وهدينا من ذريته داود، و(من آبائهم): في موضع نصب، عطف على (نوح)؛ أي: وهدينا بعض آبائهم، والهاء في (اقتده): للسكت، فتحذف في الوصل، ومن أثبتها راعى فيها خط المصحف، وكأنه وصل بنية الوقف.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ووهبنا ﴾ لإبراهيم ﴿ إسحاق ﴾ ابنه، ﴿ ويعقوب ﴾ حفيده، ﴿ كُلاًّ ﴾ منهما ﴿ هدينا ﴾ ﴿ ونوحاً ﴾ قد هديناه ﴿ من قبل ﴾ إبراهيم، وعدَّه نعمة على إبراهيم؛ من حيث إنه أبوه، وشرفُ الوالد يتعدّى إلى الولَد، ﴿ ومن ذريته ﴾ أي: إبراهيم، ﴿ داود ﴾ بن أيشا، ﴿ وسليمان، وأيوب ﴾ بن قوص بن رَازَح بن عيصو بن إسحاق ﴿ ويوسف ﴾ بن يعقوب بن إسحاق، ﴿ وموسى وهارون ﴾ ابنا عمران بن يصهر بن فاهث بن لاوِي بن يعقوب. ﴿ وكذلك نجزي المحسنين ﴾ أي: نجزي المحسنين جزاء مثل ماجازينا إبراهيم؛ برفع درجاته وكثرة أولاده، وجعلِ النبوة فيهم.

﴿ وزكريا ﴾ بن آذن بن بَركيا، من ذرية سليمان، ﴿ ويحيى ﴾ بن زكريا، ﴿ وعيسى ﴾ بن مريم بنت عمران، وفيه دليل على أن الذرية تتناول أولاد البنت، ﴿ وإلياس ﴾ بن نُسي بن فنحاص بن إلْعازر بن هارون. وقيل: هو إدريس جَد نوح، وفيه بُعْد. ﴿ كلٌ من الصالحين ﴾ الكاملين في الصلاح، وهو الإتيان بما ينبغي والتحرز مما لا ينبغي.

﴿ وإسماعيل ﴾ بن إبراهيم، قد هدينا أيضاً، وهو أكبر ولد إبراهيم، وهو ابن هاجر، ﴿ واليسع ﴾ بن أخطوب بن العجوز، وقرئ: «والليسع» بالتعريف، كأن أصله: ليسع، و«أل» فيه: زائدة، لا تفيد التعريف؛ لأنه علم، ﴿ ويونس ﴾ بن متى، اسم أبيه، وهو من ذرية إبراهيم، خلافاً للبيضاوي. قال القرطبي: لم يبعث الله نبياً من بعد إبراهيم إلا من صُلْبه. هـ. ويونس مثلث النون كيوسف، يعني بتثليث السين. ﴿ ولوطاً ﴾ هو ابن هاران أخي إبراهيم، فهو ابن أخيه، وقيل: ابن أخته، فقد يُطلق على العم أب مجازاً، ﴿ وكُلاً فضلنا على العالمين ﴾ أي: عالَمِي زمانِهم بالنبوة والرسالة. فكل واحد فُضِّل على أهل زمانه.

﴿ ومن آبائهم وذرياتهم وإخوانهم ﴾ أي: فضّلْنا هؤلاء وبعض آبائهم وذرياتهم، أو هدينا هؤلاء وبعض آبائهم وذرياتهم وإخوانهم، ﴿ واجتبيناهم ﴾ أي: اخترناهم للرسالة واصطفيناهم للحضرة، ﴿ وهديناهم إلى صراط مستقيم ﴾؛ الذي يُوصل إلى حضرة قدسنا. ﴿ ذلك هُدَى الله ﴾ أي: ذلك الدين الذي دانوا به هو هدى الله ﴿ يهدى به ﴾ أي: بسببه، ﴿ من يشاء من عباده ولو أشركوا لحبط عنهم ماكانوا يعملون ﴾، تحذيراً من الشرك، وإن كانوا معصومين منه.

﴿ أولئك الذين آتيناهم الكتاب ﴾ أي: جنس الكتب، ﴿ والحُكم ﴾ أي: الحكمة، أوالفصل بين العباد، على مايقتضيه الحق، ﴿ والنبوة ﴾؛ الرسالة، ﴿ فإنْ يكفرْ بها هؤلاء ﴾ : أهل مكة، ﴿ فقد وكّلنا بها ﴾ أي: بالإيمان بها والقيام بحقوقها، ﴿ قومًا ليسوا بها بكافرين ﴾؛ وهُم الأنبياء المذكورون، وتابعوهم ، وقيل: الصحابة المهاجرون والأنصار، وهو الأظهر. وقيل: كل مؤمن، وقيل: الفرس. والأول أرجح؛ لدلالة ما بعده عليه، وهو قوله: ﴿ أولئك الذين هَدى الله ﴾ ، الإشارة إلى الأنبياء المذكورين، ﴿ فبهداهم اقْتَده ﴾ أي: اتبع آثارهم، والمراد بهديهم: ماتوافقوا عليه من التوحيد وأصول الدين، دون الفروع المختلَف فيها، فإنها ليست هدى مضافاً إلى الكل، ولايمكن التأسّي بهم جميعاً؛ فليس فيه دليل على أنه عليه الصلاة السلام متعبّد بشرع مَنْ قبله. قاله البيضاوي.

﴿ قل لا أسألكم عليه ﴾ أي: التبليغ أو القرآن، ﴿ أجراً ﴾ أي: جعلاً من جهتكم، كحال الأنبياء قبلي؛ اقتداء بهم فيه، فهو من جملة ما أمر بالاقتداء بهم فيه، ﴿ إن هو ﴾ أي: ماهو، أي: التبليغ أو القرآن، ﴿ إلاّ ذكرى للعالمين ﴾؛ إلا تذكرة وموعظة لهم.

الإشارة: فَضّل هؤلاء السادات على أهل زمانهم بما هداهم إليه من أنوار التوحيد وأسرار التفريد، وبما خصهم به من كمال العبودية والآداب مع عظمة الربوبية. وفي قوله لحبيبه: ﴿ فبهداهم اقتده ﴾ فتح لباب اكتساب التفضيل، فكلُّ مَن اقتدى بهم فيما ذُكر شُرّف على أهل زمانه، وقد جمع في حبيبه ﷺ ما افترق فيهم، وزاد عليهم بالمحبة ورفع الدرجات، فكان هو سيد الأولين والآخرين، فكل من اقتدى به في أفعاله وأقواله وأخلاقه نال من السيادة بقدر اقتدائه، وأمْرُه سبحانه له بالاقتداء بهم، إنما هو في الآداب، وكان ذلك قبل أن يترقّى عنهم إلى مقامه الذي خصّه الله به. فإن للأنبياء سيرا وترقّيًا يليق بهم. كما للأولياء سيرٌ وتَرَقٍّ يليق بهم.

قال الورتجبي: أمَر حبيبَه ـ عليه الصلاة والسلام ـ بالاقتداء بالأنبياء والرسل قبلَه في آداب الشريعة، لأن هناك منازلَ الوسائط، فإذا أوصله بالكُلية إليه، وكَحَل عيون أسراره بكُحْل الربوبية، جعلَه مستقلاً بذاته مستقيماً بحاله، وخرج عن حدّ الإرادة إلى حد المعرفة والاستقامة، وأمره بإسقاط الوسائط، حتى قال: «لَوْ كَانَ مُوسَى حيّاً ما وَسِعَهُ إلاّ اتّباعي»، وغير ذلك.هـ. وقال الشاذلي رضي الله عنه: أمَره بالاقتداء بهم فيما شاركوه فيه، وإن انفرد عنهم بما خُص به . هـ .

ولمّا ذكر مشاهير الرسل، وما أتحفهم به من الهداية وإنزال الوحي، ردّ على من أنكر ذلك، فقال:

﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ ۖ قُلِ اللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ (٩١) ﴾

يقول الحق جل جلاله في الرد على اليهود: ﴿ وما قدروا الله حق قدره ﴾ أي: ما عَرَفُوه حقّ معرفته في الرحمة والإنعام على العباد بالوحي وغيره، إذ لو عرفوه لَهابُوا أن يُنكروا بعثة الرسل، أو ما جَسَرُوا على هذه المقالة، أو ما عظموه حق تعظيمه. حيث كذّبوا رسله وأنكروا أن يكون أنزل عليهم كتابًا، إذ لو عظّموه حق تعظيمه لصدّقوا الرسول الوارد عنه، وهو معنى قوله: ﴿ إذ قالوا ما أنزل الله على بَشَرٍ من شيء ﴾، والقائلون هم اليهود، كفنحاص ومالك بن الصيف وغيرِهما، قالوا ذلك مبالغة في إنكار إنزال القرآن ونبوة محمد ﷺ، فردّ الله عليهم بما لابدّ لهم من الإقرار به وهو إنزال التوراة على موسى، فقال: ﴿ قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهُدى للناس ﴾، فالنور للبواطن، والهداية للظواهر، ﴿ تجعلونه ﴾ أي: التوراة، ﴿ قراطيسَ ﴾ أي: تُجَزِّئُونه أجزاء متفرقة، ماوافق أهواءكم أظهرتموه وكتبتموه في ورقات متفرقة، وماخالف أهواءكم كتمتموه وأخفيتموه.

رُوي أنّ مَالك بْنَ الصَّيْف قاله، لَمّا أغضبَهُ النبي ﷺ بقوله: «أَنْشُدُكَ الله الذي أَنْزَلَ التَّوْرَاةَ عَلَى مُوسَى، هَلْ تجِدُ فيها أَنَّ الله يبغض الحَبْرَ السَّمِين، فَأَنْتَ الْحبْرُ السَّمِين» فغضب، وقال: ما أَنْزَلَ الله عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيء، فردّ الله عليه بما تقدم(١). وقيل: القائلون ذلك: المشركون، وإلزامهم بإنزال التوراة؛ لأنه كان مشهوراً عندهم يقرّون به، ولذلك قالوا: ﴿ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ﴾(٢).

﴿ وعُلِّمْتُم ﴾ على لسان محمد ﷺ ﴿ ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم ﴾، زيادة على مافي التوراة، وبيانا لما التبس عليكم وعلى آبائكم الذين كانوا أعلم منكم. ونظيره: ﴿ إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾(٣) أو: وعلّمتم من التوراة مالم تكونوا تعلّمتم أنتم ولا آباؤكم قبل إنزاله، وإن كان الخطاب لقريش؛ فالذي علّموه: ماسمعوا من النبي ﷺ من القصص والأخبار.

---

(١) أخرجه الطبري في التفسير. وذكره الواحدي في أسباب النزول، عن سعيد بن جبير مرسلاً.
(٢) الآية ١٥٧ من السورة نفسها.
(٣) الآية ٧٦ من سورة النمل.

ثم أجاب عن استفهامه بقوله: ﴿ قُلِ اللهُ ﴾ أي: أنزَله الله، أو الله أنزله. قال البيضاوي: أمره بأن يجيب عنهم؛ إشعارًا بأن الجواب بهـذا مُتَعيّن لا يمكن غيرُه، وتنبيهًا على أنهم بُهتُوا بأنهم لا يقدرون على الجواب هـ. ﴿ ثم ذَرهُم في خوضهم يلعبون ﴾ في أباطيلهم. فلا عليك بعد التبليغ وإلزام الحجة، وأصلُ الخَوْض في الماء، ثم استُعير للمعاني المُشْكِلة، وللقلوب المتفرقة في أودية الخواطر.

الإشارة: يُفْهَم من الآية أنَّ من أقرَّ بإنزال الكتب وآمن بجميع الرسل، فقد قَدَر الله حق قدره وعظّمه حق تعظيمه. وهذا باعتبار ضعف العبد وعجزه وجهله؛ وإلاَّ فتعظيم الحق حق تعظيمه، ومعرفته حق معرفته، لا يمكن انتهاؤها، ولا الوصول إلى عشر العشر منها. قال تعالى ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ﴾[(١)]، وقال: ﴿ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ ﴾[(٢)] فلو بقي العبد يترقى في المعرفة أبداً سرمداً، ماعرف الله حق معرفته، حتى ينتهي إلى غايتها، ولو بقي يعبد أبد الأبد ما قام بواجب حقه.

وقوله تعالى: ﴿ قل الله ﴾ استشهد به الصوفيةُ، في طريق الإشارة، على الانفراد والانقطاع إلى الله، وعدم الالتفات إلى ما عليه الناس من الخوض والاشتغال بالأغيار والأكدار، والخروج عنهم إلى مقام الصفا، وهو شهود الفردانية، والعكوف في أسرار الوحدانية. قال ابن عطاء الله ـ لما تكلم على أهل الشهود ـ قال: (لأنهم لله لا لشيء دونه، ﴿ قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون ﴾). وقد يُنكر عليهم من لم يفهم إشارتهم؛ تجمداً ووقوفًا مع الظاهر، وللقرآن ظاهر وباطن لا يعرفه إلا الربانيون. نفعنا الله بهم، آمين.

ثم قرر صحة إنزال كتابه، فقال:

﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وهذا كتاب أنزلناه مبارك ﴾ أي: كثير البركة، حساً ومعنى؛ لكثرة فوائده وعموم نفعه، أو: كثير خيره، دائم منفعته، قال القشيري: مبارك: دائم باق، لا ينسخُه كتابٌ، من قولهم: برَك الطير على الماء.هـ. ﴿ مُصدقُ الذي بين يديه ﴾ من الكتب المتقدمة، ﴿ ولتُنذر ﴾ أنت ﴿ أُمَّ القرى ﴾ أي: مكة،

---

(١) من الآية ١١٠ من سوة طه.
(٢) الآية ٢٣ من سورة عبس.

﴿ ومَنْ حولها ﴾ من المشرق والمغرب أو لينذر القرآنُ أمَّ القرى ومن حولها أي: أنزلناه للبركة والإنذار، وإنما سميت مكة أمّ القرى؛ لأنها قبلة أهل القرى وحجهم ومجمعهم، وأعظم القرى شأناً. وقيل: لأن الأرض دُحيت من تحتها أو لأنها مكان أول بيت وضُع للناس.

﴿ والذين يؤمنون بالآخرة ﴾ هم الذين ﴿ يؤمنون به، وهم على صلاتهم يحافظون ﴾؛ لأنّ من صدّق بالآخرة، وخاف عاقبتها، تحرى لنفسه الصواب، وتفكر في صدق النجاة، فآمن بالنبي ﷺ وصدّق بما جاء به، وحافظ على مراسم الشريعة، وأهمها: الصلاة؛ لأنها عماد الدين وعلم الإيمان، من حافظ عليها حفظ ما سواها، ومن ضيّعها ضيّع ما سواها.

الإشارة: مفتاح القلوب هو كتاب الله، وهو عُنوان السير، فمن فُتح له في فهم كتاب الله، عند سماعه والتدبر في معانيه، فهو علامة فتح قلبه، فلا يزال يزداد في حلاوة الكلام، حتى يُشرف على حلاوة شهود المتكلم من غير واسطة؛ وذلك غاية السير، وابتداء الترقي في أنوار التوحيد وأسرار التفريد، التي لا نهاية لها. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر وعيد من كذّب به أو عارضه، فقال:

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ (٩٣) وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ (٩٤) ﴾

قلت: (كما خلقناكم): بدل من (فُرادى)، أو حال ثانية، و(لقد تقطع بينكم)؛ من قرأ بالرفع، فهو فاعل، أي: تقطع وصلكم، ومن قرأ بالنصب، فظرف، على إضمار الفاعل، أي: تقطع الاتصال بينكم، أو على حذف الموصول؛ لقد تقطع مابينكم.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً ﴾ فزعم أنه يوحى إليه، كمسيلمة الكذاب والأسود العنسي، أو: غيّر الدين، كعمرو بن لحيي وأمثاله، ﴿ أو قال أُوحي إليَّ ولم يُوح إليه شيء ﴾ كابن أبي سَرْح

ومن تقدم، إلا من تاب، كابن أبى سرح.﴿ ومن قال سأُنزل مثل ما أنزل الله ﴾ كالذين قالوا :﴿ لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا ﴾(١) كالنضر بن الحارث وأشباهه .

﴿ ولو ترى إذ الظالمون ﴾ من اليهود والكذابين والمستهزئين، حين يكونون ﴿ في غمرات الموت ﴾ : شدائده ﴿ والملائكة باسطو أيديهم ﴾ لقبض أرواحهم، أو بالضرب لوجوههم وأدبارهم، قائلين لهم: ﴿ أخرجوا أنفسكم ﴾ من أجسادكم؛ تغليظاً عليهم، ﴿ اليوم ﴾ وما بعده ﴿ تُجزون عذاب الهون ﴾ أى: الهوان، يريد العذاب المتضمن للشدة والهوان، وإضافته للهوان لتمكنه فيه. وذلك العذاب ﴿ بما كنتم تقولون على الله غير الحق ﴾ كادعاء النبوة كذباً، وادعاء الولد والشريك لله، ﴿ وكنتم عن آياته تستكبرون ﴾ فلا تستمعون لها، ولاتؤمنون بها، فلو أبصرت حالهم ذلك الوقت لرأيت أمراً فظيعاً وهولاً شنيعاً.

يقول الحق سبحانه لهم: ﴿ ولقد جئتمونا ﴾ للحساب والجزاء، ﴿ فُرادى ﴾. متفرِّدين عن الأعوان والأوثان أو عن الأموال والأولاد، وهذا أولى بقوله: ﴿ كما خلقناكم أول مرة ﴾ أى: على الهيئة التى وُلدتم عليها من الانفراد والتجريد حفاة عُراة غُرْلاً(٢) ﴿ وتركتم ما خولناكم ﴾ أى: تفضّلنا به عليكم من الدنيا فشُغلتم به عن الآخرة، ﴿ وراء ظهوركم ﴾ ، فلم تقدموا منه شيئاً، ولم تحملوا معكم منه نقيراً، ﴿ وماترى معكم شفعاءكم ﴾ أى: أصنامكم ﴿ الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء ﴾ أى: أنهم شركاء مع الله فى ربوبيتكم واستحقاق عبادتكم ﴿ لقد تقطّع بينكم ﴾ أى: تفرّق وَصْلكم وتشتت شملكم، ﴿ وضَلّ ﴾ أى: غاب ﴿ عنكم ماكنتم تزعمون ﴾ أنهم شفعاؤكم، أو لا بعث ولاحساب لظهور كذبكم.

الإشارة: كل من ادعى حالاً أو مقاماً، يعلم من نفسه أنه لم يُدركه ولم يتحقق به، فالآية تَجُرُّ ذيلَها عليه. وفي قوله: ﴿ ولقد جئتمونا فرادى .. ﴾ إلخ، إشارة إلى أن الدخول على الله والوصول إلى حضرته، لا يكون إلا بعد قطع العلائق والعوائق والشواغل كلها، وتحقيق التجريد ظاهراً وباطناً؛ إذا لاتتحقق الفردانية إلا بهذا.

وقال الورتجبى : ولِي هنا لطيفةٌ أخرى، أى: ولقد جئتمونا موحِّدين بوحدانيتى، شاهدين بشهادتى، بوصف الكشف والخطاب، كما جئتمونا من العدم فى بدء الأمر، حين عرّفتكم نفسي بقولي: ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ ﴾(٣)، بلا إشارة التشبيه وغلط التعطيل، كما وصفهم نبيه ﷺ : «كُلُّ مَوْلُود يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ»، يعنى: على

(١) من الآية ٣١ من سورة الأنفال.
(٢) أى غير مختونين.
(٣) من الآية ١٧٢ من سورة الأعراف

فطرة الأزل بلزوم سمة العبودية بلا علة الاكتساب، عند سبق الإرادة. انتهى. **قلت**: وحاصل كلامه: أن مجيئهم فُرادى، كناية عن دخولهم الحضرة القدسية بعد تقديس الأرواح وتطهيرها، حتى رجعت لأهلها، كما خلقها أول مرة، أعني: مقدسة من شواهد الحس، مُطهرة من لوْث الأغيار، على فطرة الأزل، فشبه مجيئها الثاني بعد التطهير ببروزها الأول، حين كانت على أصل التطهير، كأنه قال: ولقد جئتمونا فرادى من الحس وشهود الغير كما خلقناكم كذلك في أول الأمر. والله تعالى أعلم.

وقوله تعالى: ﴿ وتركتم ماخولناكم وراء ظهوركم ﴾ أي: من العلوم الرسمية، والطاعات البدنية والكرامات الحسية، قال شيخ شيوخنا سيدى عبد الرحمن الفاسى العارف: كنت أعرف أربعة عشر علْماً، فلما علمت علم الحقيقة سرطت ذلك كله، فلم يبق لى إلا التفسير والحديث والمنطق .هـ. وقوله تعالى: ﴿ ومانرى معكم شفعاءكم ﴾ إشارة إلى أنهم دخلوا من باب الكرم لا من باب العمل. والله تعالى أعلم.

ثم شرع يذكر دلائل توحيده وتعريف ذاته، فقال:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ ﴾

قلت: (ومُخرِج): معطوف على (فالق)، على المختار؛ لأنّ (يُخرج الحى) ـ واقع موقع البيان له، و(سكنا): مفعول بفعل محذوف، أي: جعله سكنا، إلا أن يريد بجاعل: الاستمرار، فحينئذ ينصب المفعول.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ إن الله فالق الحب والنوى ﴾ أي: يفلق الحب تحت الأرض لخروج النبات منها، ويفلق النوى لخروج الشجر منها، ﴿ يُخرج الحي ﴾ أي: كل ما ينمو من الحيوان والنبات؛ ليطابق ما قبله، ﴿ من الميت ﴾ مما لا ينمو كالنطف والحب. ﴿ ومُخرج الميت من الحى ﴾ أي: ومخرج الحب والنُّطف من الحى، ﴿ ذلكم الله ﴾ أي: ذلكم المخرج والمحيى المُميت هو الله المستحق للعبادة دون غيره، ﴿ فَأَنَّى تُؤفكون ﴾؛ تصرفون عنه إلى غيره.

﴿ فالق الإصباح ﴾ أي: شاقّ عمُود النهار عن ظُلمة الليل، ﴿ وجاعل[1] الليل سكنا ﴾ أي: يُسكن فيه من تعَب النهار للاستراحة، ﴿ و ﴾ جعل ﴿ الشمس والقمر حُسبانا ﴾ أي: على أدوار مختلفة، يُعلم بها حساب

(١) قرأ عاصم وحمزة والكسائي ـ وكذا خلف ـ : (جَعَلَ) فعلاً ماضياً. وقرأ باقي السبعة (جاعل) باسم الفاعل مضافاً إلى الليل.

الأزمنة والليل والنهار، أو حُسباناً كحسبان الرَّحا يدور بهما الفلك دورة بين الليل والنهار، ﴿ ذلك ﴾ التسيير بالحساب المعلوم، هو ﴿ تقدير العزيز العليم ﴾ الذي قهرهما بعزته، وسيرهما على ذلك السير البديع بعلمه وحكمته.

الإشارة: إذا أحب الله عبداً فلق حبة قلبه بعشقه ومحبته، وفلق نواة عقله بالتبصر في عجائب قدرته، فلايزال قلبُه يميل إلى حضرته، وعقلُه يتشعشع أنواره بازدياد تفكره في عجائب عظمته، حتى تُشرق عليها شمس العرفان، فيفلق عمود فجرها عن ظلمة ليل وجود الإنسان، فيصير حياً بمعرفته، بعد أن كان ميتاً بجهله وغفلته، فيميته عن شهود نفسه، ثم يُحييه بشهود ذاته، يُخرج الحي من الميت ومخرج الميت من الحي، جاعل ليل العبودية سكناً، وشمس العرفان وقمر الإيمان حسباناً، تدور الفكرة بأنوارهما، كما يدور الفلك بالشمس والقمر الحِسِّيين، ذلك تقدير العزيز العليم.

ثم ذكر برهاناً آخر، فقال:

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَـٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها ﴾ أي: ببعضها ﴿ في ظلمات البر والبحر ﴾ أي: في ظلمات الليل في البر والبحر، وأضاف الظلمات إليهما؛ لملابستها بهما، أو في مشتبهات الطرق في البر والبحر، وسماها ظلمات على الاستعارة، ﴿ قد فصلنا الآيات ﴾؛ بيناها ﴿ لقوم يعلمون ﴾ فإنهم المنتفعون بها.

الإشارة: جعل الحق ـ جل جلاله ـ نجوم العلم يهتدي السائرون بها في مشكلات أمور الشريعة وأمور الحقيقة، فلبر الشريعة علم يسير به أهلُه إلى جنته ورضوانه، ولبحر الحقيقة علم يسير به أهلها الطالبون لها إلى معرفة ذاته وصفاته، وشهودها في حال جلاله وجماله، ولله در المجذوب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، حيث قال:

العلم مرايا من هند، والجهل صندوق راشي — من لا قرايش يعرف الله ما هو مبني على شي(١)

ثم ذكر دليلاً آخر، فقال:

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ ﴾

(١) زجل بلهجة مغربية.

قلت: من قرأ (مستقر) بفتح القاف، فمصدر، أو اسم مكان ومن قرأه بالكسر؛ فاسم فاعل، وعلى كل ـ هو مبتدأ، حذف خبره؛ الجار والمجرور، أي: لكم مستقر.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة﴾ آدم عليه السلام ﴿فمستقر ومستودع﴾ أي: فلكم استقرار في الأصلاب أو فوق الأرض، واستيداع في الأرحام أو تحت الأرض، أو موضع استقرار واستيداع فيهما، أو: فمنكم مُستَقِرّ في الأصلاب أو في الأرض، أي: قارٌّ فيهما، ومنكم مستودَع في الأرحام أو تحت الأرض.

وقيل: الاستقرار: في الأرحام، والاستيداع: في الصلب، بدليل قوله: ﴿وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ﴾(١).

﴿قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون﴾ أي: يفهمون دقائق أسرار القدرة، ذكر مع النجوم: ﴿يعلمون﴾؛ لأن أمرها ظاهر، وذكر مع تخليق بني آدم: ﴿يفقهون﴾؛ لأن إنشاءهم من نفس واحدة، وتصريفهم على أحوال مختلفة، دقيق يحتاج إلى زيادة تفهم وتدقيق نظر.

الإشارة: بعض الأرواح مستقرها الفناء في الذات، ومستودعها الفناء في الصفات، وهم العارفون من أهل الإحسان، وبعضها مستقرها الفناء في الصفات، ومستودعها الاستشراف على الفناء في الذات، وهم أهل الإيمان بالغيب. وقال الورتجبي: بعض الأرواح مستقرها الصفات، ومستودعها الذات، بنعت البقاء في الصفات، والفناء في الذات؛ لأن القِدَم منزه أن يحل فيه الحدث.هـ.

ثم ذكر بُرهاناً آخر، فقال:

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾

قلت: الضمير في (منه): يعود على النبات، و(خَضِراً): نعت لمحذوف، أي: شيئاً خضراً، و(قِنوانٌ): مبتدأ، و(من النخل): خبر، و(مِن طلعها): بدل، والطَّلع: أول ما يخرج من التمر في أكمامه، والقنوان: جمع قنو، وهو العنقود من التمر، و(مُشتبهاً): حال من الزيتون والرمان، أو من كل ما تقدم من النبات، و(جنات): عطف على (نبات كل شيء). و(ينعِه) أي: نضجه وطيبه، يقال: ينَعتِ الثمرة، إذا أدركت وطابت.

---

(١) من الآية ٥ من سورة الحج.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وهو الذى أنزل من السماء﴾ أي: السحاب أو جانب السماء، ﴿ماء فأخرجنا﴾، فيه الالتفات من الغيبة إلى التكلم، ﴿به﴾ أي: بذلك الماء، ﴿نبات كل شيء﴾ أي: نبات كل صنف من النبات على اختلاف أنواعه، فالماء واحد والزهر ألوان، ﴿فأخرجنا منه﴾ أي: من النبات، شيئا ﴿خَضِراً﴾ وهو ما يتولد من أصل النبات من الفراخ، ﴿نُخرجُ منه﴾ أي: من الخَضِر، ﴿حبًا مُتراكبًا﴾ وهو السنبل؛ لأن حبه بعضه فوق بعض، وكذلك الرمان والذرة وشبهها، ﴿ومن النخل من طلعها قِنوانٌ دانية﴾ أي: ويخرج من طلع النخل عناقيد متدانية قريبة من المتناول، أو ملتفة، قريب بعضها من بعض، وإنما اقتصر على المتدانى دون العالى؛ لزيادة النعمة والتمكن من النظر فيه، دون ضده.

﴿و﴾ أخرجنا أيضا بذلك الماء، ﴿جنات﴾ أي: بساتين، ﴿من أعناب﴾ مختلفة الألوان والأصناف ﴿و﴾ أخرجنا به ﴿الزيتونَ والرمانَ﴾ على اختلاف أصنافها، ﴿مُشْتَبِهاً وغير مُتشَابه﴾ أي: من النبات والثمار ما يُشبه بعضه بعضاً، في اللون والطعم والصورة، ومنه ما لا يُشبه بعضه بعضا، وفي ذلك دليل قاطع على الصانع المختار القدير العليم المريد، ولذلك أمر بالنظر والاعتبار فقال: ﴿انظروا إلى ثمره﴾ أي: انظروا إلى ثمرة كل واحد من ذلك ﴿إذا أثمر﴾، ﴿و﴾ انظروا إلى ﴿يَنْعِه﴾؛ إذا ينع، أي: طاب ونضج، والمعنى: انظروا إلى ثمره أول ما يخرج ضعيفاً لا منفعة فيه، ثم ينتقل من طَوْر إلى طور، حتى يينع ويطيب.

﴿إنَّ في ذلكم لآيات﴾ دالة على وجود الحكيم ووحدانيته، فإن حدوث الأجناس المختلفة والأنواع المتفننة، ونقلها من حال إلى حال، لا يكون إلا بإحداث قادر، يعلم تفاصيلها، ويُرجِّح ما تقتضيه حكمته مما يمكن من أحوالها، ولا يعوقه عن فعله ند يعارضه، أو ضد يعانده، ولذلك عقبه بتوبيخ من أشرك فقال: ﴿ وجعلوا لله شركاء...﴾ إلخ. قاله البيضاوي.

الإشارة: مَنْ كحّل عينه بإثمد التوحيد، غرق الكائنات كلها في بحر التوحيد والتفريد، فكل ما يبرز لنا من المظاهر والمطالع، ففيه نور من جمال الحضرة ساطع، ولذلك قال ابن الفارض رضي الله عنه :

عَينِي لِغَيْرِ جَمَالِكُم لاتَنْظرُ   وَسِوَاكُمُ فِي خَاطِرِي لا يَخْطُرُ

وقال الششترى رضي الله عنه :

انْظُرْ جَمالِي شاهِداً   في كُلِّ إنسانْ
كالماءِ يَجْرِي نافِذاً   في أُسِّ الأغصان
يُسْقَى بِماءٍ واحِد   والزَّهْرُ ألْوانْ

وقال صاحبُ العَينية:

تَجلّى حبيبي في مَرَائي جمَالِهِ ففي كُلِّ مَرئَى لِلحبيبِ طَلائعُ
فلمّا تبدّى حُسْنُهُ مُتَنَوِّعاً تَسَمَّى بأسماءٍ فهُنَّ مطَالعُ

فما برز في عالم الشهادة هو من عالم الغيب على التحقيق، فرياض الملكوت فائضة من بحر الجبروت، (كان الله ولا شيء معه، وهو الآن على ما عليه كان)، ولا يعرف هذا ذوقًا إلا أهل العيان، الذين وحدوا الله في وجوده، وتخلصوا من الشرك جليه وخفيه، الذي أشار إليه بقوله:

﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾

قلت: (الجن): مفعول أول لجعلوا، و(شركاء): مفعول ثانٍ، وقدّم لاستعظام الإشراك، أو (شركاء): مفعول أول، و(لله): في موضع المفعول الثاني، و(الجن): بدل من شركاء، وجملة (خلقهم): حال، و(بديع): خبر عن مضمر، أو مبتدأ و جملة (أنّى): خبره، وهو من إضافة الصفة إلى مفعولها أي: مبدع السموات، أو إلى فاعلها: أي: بديع سمواته، من بَدُعَ؛ إذا كان على نمط عجيب، وشكل فائق، وحُسْن لائق.

يقول الحق جل جلاله، توبيخًا للمشركين: ﴿وجعلوا لله شركاء﴾ في عبادته، وهم ﴿الجن﴾ أي: الملائكة؛ لاجتنانهم أي: استتارهم، فعبدوهم واعتقدوا أنهم بنات الله، أو الجن حقيقة، وهم الشياطين؛ لأنهم أطاعوهم كما يُطاع الله تعالى، أو: عبدوا الأوثان بتسويلهم وتحريضهم، فقد أشركوا مع الله، ﴿و﴾ الحال أن الله قد ﴿خلقهم﴾ أي: الجن أي: عبدوهم وهم مخلوقون، أو الضمير للمشركين، أي: عبدوا الجن، وقد علِموا أن الله قد خلقهم دون الجن لعجزه، وليس من يَخلُق كمَنْ لا يَخلُق.

﴿وخرقوا له﴾ أي: اختلقوا وافتروا، أو زوّروا برأيهم الفاسد له ﴿بنين﴾ كالنصارى في المسيح، واليهود في عُزَير، ﴿وبنات﴾ كقول العرب في الملائكة: إنهم بنات الله ـ تعالى الله عن قولهم ـ قالوا ذلك ﴿بغير علم﴾ أي: بلا دليل ولا حجة، بل مجرد افتراء وكذب، ﴿سبحانه وتعالى﴾ أي: تنزيهًا له، وتعاظم قدره ﴿عما يصفون﴾ من أن له ولدًا أو شريكًا.

وكيف يكون له الولد أو الشريك، وهو ﴿ بديعُ السموات والأرض ﴾؟. أي: مبدعهما ومخترعهما بلا مثال يحتذيه، ولا قانون ينتحيه، والمعنى: أنه تعالى مبدع لقطرى العالم العلوى والسفلى بلا مادة؛ لأنه تعالى منزه عن الأفعال بالمادة. والوالد عنصر الولد، ومنفصل بانتقال مادته عنه، فكيف يمكن أن يكون له ولد؟. ولذلك قال: ﴿ أنّى يكونُ له ولدٌ ﴾ أي: من أين، أوكيف يكون له ولد، ﴿ ولم تكن له صاحبة ﴾ يكون منها الولد، فإن انتفاء الصاحبة مستلزم لانتفاء الولد، ضرورة استحالة وجود الولد بلا والدة في العادة، وانتفاء الصاحبة مما لا ريب فيه، وكيف أيضا يكون له ولد ﴿ و ﴾ قد ﴿ خلقَ كلَّ شيء ﴾، فكيف يتصور أن يكون المخلوق ولدا لخالقه؟ ﴿ وهو بكل شيء عليم ﴾ أي: أحاط بما من شأنه أن يعلَم كائناً ما كان، فلا تخفى عليه خافية مما كان، ومما سيكون من الذوات والصفات، ومن جملتها: ما يجوز عليه تعالى وما يستحيل كالولد والشريك.

﴿ ذلكم ﴾ المنعوت بما ذكر من جلائل الصفات، هو ﴿ الله ﴾ المستحق للعبادة خاصة، ﴿ ربكم ﴾ أي: مالك أمركم لا شريك له أصلاً، ﴿ خالقُ كل شيء ﴾، مما كان وسيكون، ولا تكرار مع ما قبله؛ لأن المعتبر فيما تقدم خالقيته لما كان فقط، كما تقتضيه صيغة الماضي، بخلاف الوصف يصلح للجميع، وإذا تقرر أنه خالق كل شيء ﴿ فاعبدوه ﴾؛ فإن من كان خالقًا لكل شيء، جامعاً لهذه الصفات، هوالمستحق للعبادة وحده، ﴿ وهو على كل شيء وكيل ﴾ أي: هو متولي أمورجميع عباده ومخلوقاته، التي أنتم من جملتها، فكلوا أمركم إليه، وتوسلوا بعبادته إلى جميع مآربكم الدنيوية والأخروية، فإنه يكفيكم أمرها بقدرته وحفظه.

الإشارة: كل من خضع لمخلوق في نيل حظ دنيوي، إنسيًا أو جنيا، أو أطاعه في معصية الخالق، فهو مشرك به مع ربه، ﴿ ومن يُشرك بالله فقد ضلَّ ضلالاً بعيداً ﴾(١)، فلذلك عمل الصوفية على مجاهدة نفوسهم في مخالفة الهوى؛ لئلا تميل بهم إلى شيء من السِّوى، وتحرروا من رق الطمع، وتوجهوا بهمتهم إلى الحق وحده، ليتبرأوا من أنواع الشرك كلها، جليها وخفيها. حفظنا الله بما حفظهم به. آمين.

ثم عرّف بذاته المقدسة، فقال:

﴿ لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ لا تدركه الأبصارُ ﴾ أي: لا تحيط به، ولا تناله بحقيقته، وعن ابن عباس: (لا تدركه في الدنيا، وهو يرى في الآخرة)، ومذهب الأشعرية: أن رؤية الله في الدنيا جائزة عقلاً، لأن موسى عليه السلام سألها، ولا يسأل موسى ما هو محال، وأحالته المعتزلة مطلقًا، وتمسكوا بالآية، ولا دليل فيها؛ لأنه ليس الإدراك مطلق الرؤية، ولا النفي في الآية عامًا في الأوقات، فلعله مخصوص ببعض الحالات، ولا في الأشخاص؛ فإنه في قوة قولنا: لا كل بصر يدركه، مع أن النفي لا يوجب الامتناع. قاله البيضاوي.

(١) الآية ١١٦ من سورة النساء

ثم قال تعالى: ﴿ وهو يُدرك الأبصارَ ﴾ أى: يحيط علمه بها؛ إذ لا تخفى عليه خافية، ﴿ وهو اللطيف الخبير ﴾ فيدرك مالا تدركه الأبصار، ويجوز أن يكون تعليلاً للحُكْمَين السابقين على طريق اللفِّ، أى: لا تدركه الأبصار لأنه اللطيف، وهو يدرك الأبصار لأنه الخبير، فيكون اللطيف مقابلاً للكثيف، لا يُدرك بالحاسة ولا ينطبع فيها. قاله البيضاوي وأبو السعود.

الإشارة: اعلم أن الحق جل جلاله قد تجلى لعباده فى مظاهر الأكوان، لكنه لحكمته وقدرته، قد تجلى بين الضدين، بين الأنوار والأسرار، بين الحس والمعنى، بين مظهر الربوبية وقالب العبودية. فالأنوار ما ظهر من الأوانى، والأسرار ما خَفِىَ من المعانى، فالحس ما يُدرك بحاسة البصر، والمعنى ما يُدرك بالبصيرة. فالحس رداء للمعنى، فمن فتح الله بصيرته استولى نورُ بصيرته على نور بصره، فأدرك المعانى خلف رقة الأوانى، فلم تحجبه الأوانى عن المعانى، بل تمتحق فى حقه الأوانى، ولا يرى حينئذ إلا المعانى. لذلك قال الحلاج، لما سئل عن المعرفة، قال: (استهلاك الحس فى المعنى)، فإذا فَنِىَ العبد عن شهود حِسِّه بشهود معناه، غاب وجوده فى وجود معبوده، فشاهد الحقَّ بالحق. فالعارفون لمَّا فنوا عن أنفسهم، لايقع بصرهم إلا على المعانى، فهم يشاهدون الحق عياناً. ولذلك قال شاعرهم:

مُـذْ عَـرَفْتُ الإلـه لَـمْ أرَ غَـيْـرا ... وَكَـذا الـغَـيْـرُ عِـنْـدَنَا مَـمْـنُوعُ

وقال فى الحِكَم: «ماحَجَبَكَ عن الحَقِّ وجُودُ موْجُودٍ معَهُ؛ إذْ لا شَىْءَ مَعَهُ، وَإنَّما حَجَبَك تَوَهُّمُ مَوْجُودٍ معَهُ».

وقوله تعالى: ﴿ لا تُدركه الأبصارُ ﴾ أى: الأبصار الحادثة، وإنما تدركه الأبصار القديمة فى مقام الفناء. وقال الورتجيى: لا تدركه الأبصار، إلا بأبصار مستفادة، من أبصار جلاله، وكيف يدركه الحدثان؟ ووجود الكون عند ظهور سطوات عظمته عدم .هـ. أو لا تحيط به، إذ الإحاطة بكُنْه الربوبية متعذرة. وعلى هذا حمل الآية فى نوادر الأصول، قال: إدراك الهوية ممتنع، وإنما يقع التجلى بصفة من صفاته.

وقال ابن عبد الملك فى شرح مشارق الصغانى، ناقلاً عن المشايخ: إنما يتجلى الله لأهل الجنة، ويريهم ذاته تعالى، فى حجاب صفاته، لأنهم لا يطيقون أن يروا ذاته بلا حجاب مرتبةٍ من مراتب الصفات. وقال الورتجبى: التجلى لا يكون بكلية الذات، ولا بكلية الصفات، وإنما يكون على قدر الطاقات، فيستحيل أن يقال: تجلى كل الهوى لذرة واحدة، وإنما يتجلى لها على قدرها. هـ.

وتتفاوت الناس فى لذَّة النظر يوم القيامة على قدر معرفتهم فى الدنيا، وتدوم لهم النظرة على قدر استغراقهم هنا، فمن كان هنا محجوباً لا يرى إلا الحس، كان يوم القيامة كذلك، إلا فى وقت مخصوص، يُغيبه الحق تعالى

عن حسه، فيشاهد معانى أسرار الربوبية فى مظاهر أنوار صفاته. ومن كان هنا مفتوحاً عليه في شهود المعاني، كان يوم القيامة كذلك، لا تغيب عنه مشاهدة الحق ساعة.

قال الغزالي في كتاب الأربعين: إذا ارتفع الحجاب بعد الموت انقلبت المعرفة بعينها مشاهدة. قلت: ومعنى كلامه: أن ما عرفه به هنا من التجليات، صار بعينه هناك مشاهدة؛ لأن المعنى هناك غالب على الحس، بخلاف دار الدنيا، الحس فيها غالب، إلاّ لمن غاب عنه واستهلكه. ثم قال: ويكون لكل واحد على قدر معرفته، ولذلك تزيد لذة أولياء الله تعالى في النظر على لذة غيرهم، ولذلك يتجلى الله تعالى لأبى بكر خاصة، ويتجلى للناس عامة.

وقال في الإحياء: ولمَّا كانت المعرفة على درجات متفاوتة كان التجلي على درجات متفاوتة، ثم ذكر حديث التجلي لأبى بكر المتقدم. ثم قال: فلا ينبغي أن يظن أن غير أبى بكر، ممن هو دونه، يجد من لذة النظر والمشاهدة ما يجده أبو بكر، بل لا يجده، إلا عُشْرَ عشْرِهِ، إن كانت معرفته في الدنيا عشر عشره، ولما فَضَل الناس بسر وقر في صدره، فضل لا محالة بِتجلٍّ انفرد به.

وقال أيضاً: يتجلى الحق للعبد، تجلياً يكون انكشاف تجليه، بالإضافة إلى ما علمه، كانكشاف تجلى المرئيات بالإضافة إلى ما تخيله ـ أى: إلى ما وصفه له الواصف. ثم قال: وهذه المشاهدة والتجلى هى التى تسمى رؤية، ثم قال: المعرفة الحاصلة فى الدنيا هى التى تستكمل، فتبلغ كمال الكشف والوضوح وتنقلب مشاهدة، ولا يكون بين المشاهدة فى الآخرة والمعلوم فى الدنيا اختلاف، إلا من حيث زيادة الكشف والوضوح. وقال أيضاً: وبحر المعرفة لاساحل له، والإحاطة بكنه جلاله مُحال، وكلما كثرت المعرفة وقويت؛ كثر النعيم فى الآخرة، وعظم، كما أنه كلما كثر البذر وحسن؛ كثر الزرع وحسن، ولا يمكن تحصيل هذا البذر إلا فى الدنيا، ولا يزرع إلا فى صعيد القلب، ولاحصاد إلا فى الآخرة .هـ.

قال شيخنا مولاى العربى رضي الله عنه: بل الرجال زرعوا اليوم وحصدوا اليوم. وفي تفسير الأقليشي لقوله: ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾(١) : ليس لهذه الهداية ـ مادام العبد فى الدنيا ـ نهاية، حتى إذا حصل في جوار الجبار، ونظر إلى وجهه العظيم، كان حظه من النعيم بقدر ما هداه فى الدنيا لصراطه المستقيم .هـ. وقال في نوادر الأصول: فى الحديث: «إنَّ منْ أهلِ الجنَّة من ينظرُ إلى الله عزَّ وجلَّ غُدْوَةً وعَشِيَّا». وَرُوى عن معاذ أنه قال: «صِنْفٌ منْ أهْلِ الجنَّة مَنْ يَنْظُر إلى الله عزَّ وجلَّ، لا يُستر الربُّ عنهم ولا يحتَجِبُ» ثم قال: وذُكر أن الرضوان آخر ما ينالُ أهلُ الجنة، ولا شيء أكبر منه، وكل عبد من أهل الجنة حظه من الرضوان هناك فيها على قدر جوده بنفسه على الله فى الدنيا .هـ.

---

(١) الآية ٦ من سورة الفاتحة.

وقوله تعالى: ﴿وهو اللطيف الخبير﴾، قال الورتجبي: هو بلطف ذاته ممتنع عن مطالعة خلقه، مع علو شأن علمه وإحاطته بجميعهم، وجوداً وعدماً، أي: وإنما يُرى بنوره، لا بالحواس الخفاشية، فإنها تضعف عن مقاومة شعاعه، وتنخنس عند انكشاف سُبحاته.هـ. على نقل الحاشية الفاسية. والله تعالى أعلم.

ولمّا كان الاطلاع على هذه الأسرار، به تنفتح البصائر، أشار إلى ذلك بقوله:

﴿ قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾ ﴾

قلت: البصائر: جمع بصيرة، وهي عَيْنُ القلب، كما أن البصر عين البدن، فالبصيرة ترى المعاني القديمة، والبصر يرى الحسيات الحادثة.

يقول الحق جل جلاله: ﴿قد جاءكم﴾ أيها الناس ﴿بصائرُ من ربكم﴾ أي: براهين توحيده، ودلائل معرفته، حاصلةٌ من ربكم، تنفتح بها البصائر، وتبصر بها أنوار قدسه، ﴿فمن أبصرَ﴾ الحق، وآمن به، واستعمل الفكر فيه حتى عرفه، ﴿فلنفسه﴾ أبصر، ولها نفع، ﴿ومن عَمِيَ﴾ عنها، ولم يرفع بها رأساً، وضل عن الحق، ﴿فعليها﴾ وباله وضرره، ولا يتضرر بها غيره، ﴿وما أنا عليكم بحفيظ﴾ أرقب أعمالكم وأجازيكم، وإنما أنا منذر، والله هو الحفيظ عليكم، يحفظ أعمالكم ويجازيكم عليها.

الإشارة: البصيرة كالبصر، أدنى شيء يقع فيها يَضُرُّ بناظرها، وهي على أقسام: منها ما تكون عمياء، والعياذ بالله، وهي التي فسد ناظرها بفساد الاعتقاد، كبصيرة الكفار ومن قاربهم، ومنها ما تكون مريضة فقط، لاتقاوم شعاع شمس التوحيد الخاص، وهي بصيرة أهل الغفلة، ومنها ما يخف مرضها فيكون لها شعاع، تدرك قرب نور الحق منها؛ وهي بصيرة المتوجهين من العباد والزهاد ونهاية الصالحين.

ومنها ما تكون قريبة البُرْء والصحة، قد انفتحت، لكنها حيرى؛ لما فاجأها من النور، وهي بصيرة المريدين السائرين من أهل الفناء، ومنها ما تكون صحيحة قوية، قد تمكنت من شهود الأنوار، ورسخت في بحر الأسرار، وهي بصيرة العارفين المتمكنين في مقام البقاء، وقد أشار في الحِكَم إلى الثلاثة فقال: «شُعاعُ البصيرة يُشهدك قرب الحق منك، وعين البصيرة يشهدك عدمك لوجوده، وحق البصيرة يشهدك وجود الحق لاعدمك ولا وجودك، كان اللهُ ولا شيَء معهُ، وهو الآنَ علَى ما عليه كان».

وذِكْرُ هذه الآيات، سبب لضلال أهل الشقاء وهداية أهل العناية، كما بيَّن ذلك بقوله:

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْأَيَٰتِ وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾

قلت: تصريف الشيء: إجراؤه على أحوال متعاقبة وجهات مختلفة، ومنه: تصريف الرياح لهبوبها من جهات مختلفة، ولما كانت آيات القرآن تنزل على أنواع مختلفة في أوقات متعاقبة، شبهت بتصريف الرياح على أنحاء مختلفة، (وليقولوا) : متعلق بمحذوف، أي: وليقولوا: درست، صرفنا الآيات، واللام للعاقبة، وكذلك: (ولنبينه) : المتعلق واحد.

يقول الحق جل جلاله: ومثل ذلك التصريف الذي صرفنا من الآيات، من قوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ ﴾(١) إلى قوله: ﴿ قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ ﴾(٢). ﴿ نُصرِّف الآيات ﴾ في المستقبل لتكون عاقبة قوم الشقاء بها بتكذيبهم إياها ،﴿ وليقولوا ﴾ لك: ﴿ دارسْتَ ﴾(٣) أهل الكتاب، وتعلمت ذلك منهم، وليس بوحي، أو ﴿ درسَتْ ﴾ هذه الأخبار وعفت، وأخبرت بها من إملاء غيرك عليك، كقولهم: أساطير الأولين، وليكون عاقبة قوم آخرين الاهتداء، وإليهم الإشارة بقوله: ﴿ ولنبينه لقوم يعلمون ﴾ أي: وليتضح معناه عند قوم آخرين، فيهتدوا به إلى معرفتي وتوحيدي ومحل رضواني وكرامتي، فالخطاب متحد، والأثر مختلف على حسب السابقة.

الإشارة: ظهور الآيات على يد أهل الخصوصية - كالعلوم اللدنية والمواهب الربانية - لا يوجب لهم التصديق لجميع الخلق، فلو أمكن ذلك لكان النبي ﷺ أولى به، بل لابد من الاختلاف، فقوم قالوا: هذه العلوم... دارس فيها وتعلمها، وقوم قالوا: بل هي من عند الله لا كسب فيها، قال تعالى: ﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴾(٤).

ثم أمر نبيه بالإعراض عن أهل الإنكار، فقال:

﴿ ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ اتبع ما أوحي إليك من ربك ﴾ بالدوام على التمسك به، والاهتداء بهديه، ودم على توحيده، ﴿ لا إله إلا هو ﴾؛ فلا تصغ إلى من يعبد معه غيره، ﴿ وأعرض عن المشركين ﴾، فلا تحتفل بأقوالهم، ولا تلتفت إلى رأيهم، وهذا محكم، أو: أعرض عن عقابهم وقتالهم، وهو منسوخ بآية السيف، ﴿ ولو شاء الله ما أشركوا ﴾: لكن سبقت مشيئته بإشراكهم، ولو أراد إيمانهم لآمنوا، وهو حجة على المعتزلة، ﴿ وما جعلناك عليهم حفيظا ﴾: رقيبا، ﴿ وما أنت عليهم بوكيل ﴾ تقوم بأمرهم، وتلجئهم إلى الإيمان؛ ﴿ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴾(٥).

---

(١) الآية ٩٥ من سورة الأنعام. (٢) الآية ١٠٤ من السورة نفسها.

(٣) قرأ ابن كثير وأبو عمرو (دارست) بألف، وقرأ ابن عامر ويعقوب (درسَتْ) أي: قدمت وبليت، وقرأ الباقون (درسْتَ) أي: حفظت وقرأت.. انظر: إتحاف فضلاء البشر.

(٤) الآية ١١٨ من سورة هود. (٥) الآية ٢٣ من سورة فاطر.

الإشارة: الإعراض عن الخلق والاكتفاء بالملك الحق ركن من أركان الطريق، قال الشيخ زروق رحمه الله: أصول الطريقة خمسة أشياء: تقوى الله في السر والعلانية، واتباع الرسول في الأقوال والأفعال، والإعراض عن الخلق في الإقبال والإدبار، والرجوع إلى الله في السراء والضراء، والرضا عن الله في القليل والكثير. هـ.

ثم نهى عن التعرض لأصنامهم، فقال:

﴿ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٠٨) ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ولا تسبوا﴾ أصنامهم ﴿الذين﴾ يدعونها آلهة، ويخضعون لها ﴿من دون الله﴾ أي: ولا تذكروا آلهتهم بسوء، ﴿فيسبوا الله عدوًا﴾ أي: ظلمًا وتجاوزًا عن الحق إلى الباطل، ﴿بغير علم﴾ أي: على جهالة بالله تعالى، وبما يجب أن يذكر به من التعظيم، روى أنه ﷺ كان يطعن في آلهتهم، فقالوا: لتنتهين عن آلهتنا أو لنهجُوَنَّ إلهك، فنزلت. وقيل: كان المسلمون يسبون آلهتهم، فنهوا؛ لئلا يكون سبهم سببًا لسب الله تعالى، واستدل المالكية بهذا على سد الذرائع. قال البيضاوي: وفيه دليل على أن الطاعة إذا أدت لمعصية راجحة وجب تركها، فإن ما يؤدي إلى الشر شر.هـ. وقال ابن العربي: وقاية العرض بترك سنة واجب في الدين. هـ.

قال تعالى: ﴿كذلك زينا لكل أمة عملهم﴾ من الخير والشر، نحملهم على ما سبق لهم توفيقًا أو تخذيلاً، أو يكون مخصوصًا بالشر، أي: زينا لكل أمة من الكفرة عملهم السوء؛ كسب الله تعالى وغيره من الكفر، ﴿ثم إلى ربهم مرجعهم فينبئهم بما كانوا يعملون﴾ من الخير فيجازيهم عليه، أو من الشر فيعاقبهم عليه.

الإشارة: العارف الكامل لا ينقص شيئًا من مصنوعات الله، ولا يصغر شيئًا من مقدورات الله، بل يتأدب مع كل شيء؛ لرؤية صنعة الله في كل شيء، وكذلك المريد اللبيب، يتأدب مع كل من ظهر بالخصوصية في زمنه، كان صادقًا أو كاذبًا؛ لئلا يؤدي إلى تنقيص شيخه، حين يذكر غيره بنقص أو غض. وفي الحديث: «لعن الله من يسبُّ والديه، فقالوا: وكيف يسبُّ والديه يا رسول الله؟ قال: يسبُّ أبا الرجلِ فيسبُّ الرجلُ أباهُ وأمه»[1] أو كما قال ﷺ.

ثم ردَّ عليهم في اقتراح الآيات، فقال:

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠٩) وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١١٠) ﴾

(١) أخرجه البخاري في (الأدب، باب: لا يسب الرجلُ والديه) ومسلم في (الإيمان، باب: بيان الكبائر) عن عبدالله بن عمرو. ولفظ البخاري: «إن من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه، قيل: يا رسول الله وكيف يلعن الرجل والديه؟ قال: يسب الرجل أبا الرجل فيسب أباه، ويسب أمه فيسب أمه».

قلت: (جهد): مصدر لعامل محذوف، أي: واجتهدوا جهد أيمانهم، وهو حال، أي: وأقسموا جاهدين أيمانهم، ومن قرأ: (أنها)؛ بالفتح، فهو مفعول يشعركم، أي: وما يدريكم أن الآيات إذا جاءت لا يؤمنون، وقيل: (لا): مزيدة، أي: وما يدريكم أنهم لا يؤمنون إذا رأوها، وقيل: أن، هنا، بمعنى لعل. ومن قرأ بالكسر فهو استئناف، وتم الكلام في قوله: (وما يشعركم) أي: وما يشعركم ما يكون منهم، فعلى القراءة بالكسر، يوقف على: (ما يشعركم)، وأما على القراءة بالفتح، فإن كانت أنّ ـ مصدرية لم يوقف عليه؛ لأنه عامل فيها، وإن كانت بمعنى: لعل، فأجاز بعض الناس الوقف، ومنعه بعضهم.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وأقسموا ﴾ أي: المشركون، ﴿ بالله ﴾ واجتهدوا في أيمانهم، ﴿ لئن جاءتهم آية ﴾ ظاهرة يشاهدونها، ﴿ ليؤمنن بها ﴾ وبمن جاء بها، ﴿ قل ﴾ لهم: ﴿ إنما الآيات عند الله ﴾ وفي قدرته وإرادته، يُظهرها حيث شاء، وليس في قدرتي منها شيء، ﴿ وما يشعركم ﴾ أي: وما يُدريكم أيها المؤمنون، ﴿ أنها إذا جاءت لا يؤمنون ﴾ بها، لما سبق لهم من الشقاء، وقد كان المؤمنون يتمنون إنزالها طمعًا في إيمانهم، وفيه تنبيه على أنه تعالى إنما لم ينزلها؛ لعلمه بأنها ﴿ إذا جاءت لا يؤمنون ﴾ بها. وقيل: الخطاب للمشركين، ويتأتى هذا على كسر «إن»، أو على قراءة ابن عامر وحمزة: «لا تؤمنون» بتاء الخطاب، وقرئ: ﴿ وما يشعرهم ﴾ بالغيبة، فيكون إنكارًا لهم على حلفهم.

ثم ذكر سبب عدم إيمانهم فقال: ﴿ ونُقلب أفئدتهم وأبصارهم ﴾ عند نزول الآية، أي: نصرف قلوبهم ونحولها عن الحق، فلا يفقهون بها، ونقلب أبصارهم عن النظر والتفكر، فلا يُبصرون بها الحق، فيصرفون عن الإيمان بما أنزل إليك ﴿ كما لم يؤمنوا به ﴾ أي: بما أنزل من الآيات، ﴿ أول مرة ونذرهم في طغيانهم ﴾ أي: في كفرهم وجحدهم ﴿ يعمهون ﴾ أي: يتحيرون، فلا نهديهم هداية المؤمنين.

الإشارة: سألني بعض العوام، فقال لي: ليس لكم ولا لأصحابكم كرامات تظهر فيمن آذاكم، فقد كان أصحاب سيدي فلان وفلان يظهرون الكرامات، وينفذون في من آذاهم؟! فقلت له: نحن على قدم نبينا ﷺ، أرسله الله رحمة للعالمين، فقد أُوذي وضُرب، فلما خيَّره ملك الجبال في أن يُطبق عليهم الأخشبَيْن ـ أي الجبلين ـ قال: «لا، لعل الله تعالى يُخْرج منهم مَنْ يعبُد الله»، وقال حين أكثروا إيذاءه: «اللهمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فإنَّهم لا يَعْلَمُون»، فالأولياء المحققون: رحمة للعباد، يتحملون أذاهم، ويتوجهون لمن آذاهم في الدعاء له بالهداية والتوفيق، فهم قوم لا يشقى جليسهم، جالسَهم بالإنكار أو بالإقرار، وقد ظهرت الكرامات على بعض الأولياء ولم ينقطع عنهم الإنكار، فإنَّ الإيمان أو التصديق بالنبي أو الولي إنما هو محض هداية من الكبير العلي، كما بيَّن ذلك بقوله:

﴿ ۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾ ﴾

قلت: (قبلا) : بكسر القاف؛ معاينة، وبضمتين: جمع [قبيل](١)، أي: ضمناء، وهو حال.

يقول الحق جل جلاله، في الرد على المشركين، حين أقسموا: لئن رأوا آية ليؤمنن بها، فقال تعالى: ﴿ ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة ﴾ تشهد لك بالنبوة كما اقترحوا، ﴿ وكلمهم الموتى ﴾ كما طلبوا بقولهم: ﴿ فَأتوا بِآبَائِنَا ﴾(٢)، وقالوا: إنّ قُصيًا كان شيخ صدِق، فابعثه لنا يكلمنا ويشهد لك بما تدعى.

﴿ و ﴾ لو ﴿ حشرنا عليهم ﴾ أي: جمعنا عليهم، ﴿ كل شيء ﴾ من الحيوانات والجمادات، معاينة، أو ضمناء، تشهد لك بالرسالة والنبوة، ﴿ ماكانوا ليؤمنوا ﴾ بك في حال من الأحوال، ﴿ إلا أن يشاء الله ﴾ إيمانهم فيمن لم يسبق له الشقاء، ﴿ ولكن أكثرهم يجهلون ﴾ أنهم لو أُوتوا بكل آية لم يؤمنوا ، فكيف يقسمون بالله جَهْدَ أيمانهم على ما لا يعلمون؟!، فالجهل بهذا المعنى حاصل لأكثرهم، ومطلق الجهل حاصل لجميعهم، أو: ولكن أكثر المسلمين يجهلون أنهم لا يؤمنون، فيتمنون نزول الآية طمعاً في إيمانهم. قاله البيضاوي.

الإشارة: في الآية تسكين لقلوب الأولياء الداعين إلى الله، حين يرون الخلق قد حادوا عن باب الله، وتعلقت هممهم بالدنيا الدنية، وتشتتت قلوبهم، وضاعت عليهم أعمارهم، فيتأسفون عليها، فإذا تفكروا في هذه الآية وأمثالها سكنوا وردوا أمر عباد الله إلى مشيئته وإرادته، فلو شاء الله لهدى الناس جميعا، ولايزالون مختلفين: (ماكانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله). وبالله التوفيق.

ومما تعلقت به المشيئة، وجرت به الحكمة، أنه لابد أن يبقى للنبي من يُحرِّكه إلى ربه، كما أبان ذلك بقوله:

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾

قلت: (شياطين): بدل من (عدو)؛ إذ هو بمعنى الجمع، أو مفعول أول لجعلنا، و(عدواً): مفعول ثان، والضمير في (فعلوه): للوحي، أو للعداوة، و(غرورا): مفعول له، أو مصدر في موضع الحال (لتصغى): عطف على غرورا، أو متعلق بمحذوف، أي: فعلنا ذلك لتصغى... إلخ.

يقول الحق جل جلاله، في تسلية نبيه - عليه الصلاة والسلام -: وكما جعلنا لك أعداء من الكفار، ﴿ جعلنا لكل نبيٍ عدُوا ﴾ من شياطين ﴿ الإنس والجن ﴾ أي: من مردة الفريقين، وشياطين الإنس أقبح؛ لأنه يأتي في

---

(١) في الأصول : قبل. (٢) كما جاء في الآية ٣٦ من سورة الدخان

صورة ناصح، لايدفع بتعوذ ولا غيره. ﴿ يُوحِي ﴾ أي: يُوسوس، ﴿ بعضهم إلى بعض ﴾، فيوسوس شياطين الجن إلى شياطين الإنس، ثم يوسوس شياطين الإنس إلى من يريد الحق اختباره وابتلاءه، يُلقي إليه ذلك الشيطان ﴿ زخرف القول ﴾ أي: أباطيله، أي: قولاً مزخرفاً مُزَوَّقاً ﴿ غرورا ﴾ أي: لأجل الغرور، فإن أراد الله خذلان ذلك العبد غره ذلك الشيطان بزخرف ذلك القول فيتبعه، وإن أراد توفيقه وزيادته أيده وعصمه، وكل شيء بقدره وقضائه، ﴿ ولو شاء ربك ﴾ هدايتهم ما فعلوا ذلك الوحي، أو ما ذكر من المعاداة للأنبياء، ﴿ فذرهم وما يفترون ﴾ على الله من الكفر وغيره، فلا تهتم بشأنهم.

وإنما فعلنا ذلك الإيحاء ﴿ لتصغى إليه أفئدة الذين لايؤمنون بالآخرة ﴾ فيغتروا به، ﴿ وليرْضَوْهُ ﴾ لأنفسهم، ﴿ وليقترفوا ما هم مقترفون ﴾ أي: وليكتسبوا من الإثم والكفر ما هم مكتسبون بسبب ذلك الوحي من الجن أو الإنس، وفي الآية دليل لأهل السنة في أن الله خالق الكفر والإيمان، والطاعة والمعصية، فالمعصية خلقها وقدرها، ولم يرْضها، ﴿ لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴾(١).

الإشارة: كما جعل الله لكل نبي عدواً من شياطين الإنس والجن؛ جعل للأولياء كذلك؛ تحويشاً لهم إليه، وتطهيراً لهم من البقايا ليصلحوا لحضرته، قال في الحِكَم: «إنما أجرى الأذى عليهم كي لا تكون ساكناً إليهم، أراد أن يُزعجك عن كل شيء حتى لا يشغلك عنه شيء». وقال في لطائف المنن: اعلم أن أولياء الله حكمهم في بدايتهم أن يُسلط الخلق عليهم ليطهروا من البقايا، وتكمل فيهم المزايا، كي لا يساكنوا هذا الخلق باعتماد، أو يميلوا إليهم باستناد، ومن آذاك فقد أعتقك من رق إحسانه، ومن أحسن إليك فقد استرقك بوجود امتنانه، ولذلك قال ﷺ: «من أسدى إليكم نعماً فكافئوه، فإن لم تقدروا فادعوا له». كل ذلك ليتخلص القلب من رق إحسان الخلق، ويتعلق بالملك الحق. هـ.

وقال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه: آذاني إنسانٌ فضقت به ذرعاً، فرأيتُ يُقال لي: مِنْ علامة الصديقية كثرةُ أعدائها ثم لا يبالي بهم. وقال بعضهم: الصيحة من العدو، سَوْطٌ من الله يزجر بها القلوب إذا ساكنت غيره، وإلا رقد القلب في ظل العز والجاه، وهو حجاب عن الله تعالى عظيم. هـ.

وقال شيخ شيوخنا سيدي علي الجمل رضي الله عنه: (عداوة العدو حقا: اشتغالك بمحبة الحبيب حقّا، وأما إذا اشتغلت بعداوة العدو نال مراده منك، وفاتتك محبة الحبيب). وقال بعض أشياخ الشعراني في بعض وصاياه له: لا تشتغل قط بمن يؤذيك، واشتغل بالله يرده عنك؛ فإنه هو الذي حركه عليك؛ ليختبر دعواك في الصدق، وقد غلط في هذا الأمر خلق كثير، فاشتغلوا بأذى من آذاهم، فدام الأذى مع الإثم، ولو أنهم رجعوا إلى الله لردهم عنهم وكفاهم أمرهم. هـ.

---

(١) الآية ٢٣ من سورة الأنبياء.

وهذا كله إنما يكون في البدايات، كما قال الشاذلي رضي الله عنه: (اللهم إن القوم قد حكمت عليهم بالذل حتى عزوا) .. فإذا تمت أنوارهم وتطهرت من البقايا أسرارهم، حكّمهم في العباد، وأذلهم لهم، فيكون العبد المجتبى سيفاً من سيوف الله، ينتصر الله به لنفسه؛ كما نبه على ذلك في لطائف المنن. وذلك من أسرار عدم مشروعية الجهاد من أول الإسلام؛ تشريعًا لما ذكرنا، وتحذيراً من الانتصار للنفس، وعدم تمحض النصرة للحق. وعند الرسوخ في اليقين، والأمن من مزاحمة الصدق غيره، وقع الإذن في الجهاد، هذا بالنسبة إلى الصحابة الكرام، وأما النبي ﷺ فكامل من أول نشأته، وإنما ذلك تشريع لغيره، وترفيع لرتبته. والله تعالى أعلم.

ولما طلبوا من يحكم بينهم وبينه ﷺ، أنزل الله:

﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ ﴾

قلت: (غير): مفعول، و(حكمًا): حال، وهو أبلغ من حاكم، ولذلك لا يوصف به غير العادل، و(صدقًا وعدلاً): تمييز، أو حال، أو مفعول له.

يقول الحق جل جلاله: قل يا محمد: ﴿ أفغير الله ﴾ أطلبُ ﴿ حكمًا ﴾ يحكم بيني وبينكم، ويفصل المحق منّا من المبطل، ﴿ وهو الذي أنزل إليكم الكتاب ﴾ أي: القرآن المعجز، ﴿ مُفصَّلا ﴾؛ مبيناً، قد بيّن فيه الحق من الباطل، بحيث انتفى به الالتباس، فهو الحاكم بيني وبينكم، فلا أطلب حاكماً غيره، وفيه تنبيه على أن القرآن بإعجازه مُغنٍ عن سائر الآيات. ﴿ والذين آتيناهم الكتاب ﴾ كأحبار اليهود، ﴿ يعلمون أنه منزل من ربك بالحق ﴾؛ لتصديقه ما عندهم، وموافقته له في كثير من الأخبار، ﴿ فلا تكونن من الممترين ﴾ في أنهم يعلمون ذلك، أو في أنه منزل من ربك، والمراد غيره ـ عليه الصلاة والسلام ـ ممن يطرقه ارتياب، والمعنى: أن الأدلة تعاضدت على صحته، فلا ينبغي لأحد أن يمتري فيه.

﴿ وتمت كلمة ربك ﴾؛ آيات القرآن، بلغت الغاية في التمام والكمال، ﴿ صدقًا وعدلا ﴾ أي: من جهة الصدق والعدل، صدقًا في الأخبار والمواعيد، وعدلاً في الأقضية والأحكام، فلا أصدقَ منها فيما أخبرت، ولا أعدل منها فيما حكمت، ﴿ لا مبدل لكلماته ﴾ أي: لا أحد يقدر أن يبدل منها شيئاً بما هو أصدق وأعدل، ولا أن يحرف شيئاً منها، كما فُعل بالتوراة، فهو ضمان من الحق لحفظ القرآن، كما قال: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾(١)

(١) الآية ٩ من سورة الحجر.

أو: لا نبي ولا كتاب بعدها ينسخها ويبدل أحكامها، ﴿ وهو السميع ﴾ لكل ما يقال، ﴿ العليم ﴾ بكل ما يضمر، فمن ألحد أو بدل فالله عليم به.

الإشارة : من قواعد أهل التصوف: الرجوع إلى الله في كل شيء، والاعتماد عليه في كل نازل، والتحاكم إلى الله في كل أمر، إن توقفوا في حكم رجعوا إلى كتاب الله، فإنْ لم يجدوه نصاً، رجعوا إلى سنة رسول الله ﷺ، فإن لم يجدوه، استفتوا قلوبهم، وفي الحديث عنه ﷺ: «استَفْتِ قَلْبَكَ وإِنْ أفتَاكَ المُفْتُونَ وأَفْتُوك» . وفي بعض الآثار قالوا: يارسول الله؛ أرأيت إن اختلفنا بعدك، ولم نجد نصًا في كتاب الله ولا في سنة رسول الله؟ قال: «ردوه إلى صلحائكم، واجعلوه شُورَى بينهم ولا تَتَعدَّوا رأيهم» . أو كما قال عليه الصلاة والسلام .

ثم نهى عن الركون إلى الجهال، فقال:

﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾ ﴾

قلت : (من يضل) : موصولة، أو موصوفة في محل نصب بفعل دل عليه «أعلم»، أي: يعلم من يضل، فإن أفعل التفضيل لا ينصب المفعول به إجماعا . أو مبتدأ، والخبر: «يضل» على أن (من) استفهامية، والجملة: معلق عنها الفعل المقدر، كقوله تعالى: ﴿ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ ﴾[١] .

يقول الحق جل جلاله لرسوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ ولمن كان على قدمه: ﴿ وإن تُطع أكثر من في الأرض ﴾ ، من الكفار أو الجهال أو من اتبع هواه ﴿ يضلوك عن ﴾ طريق ﴿ الله ﴾ ، الموصلة إلى معرفته، وحلول رضوانه، فإن الضال لا يأمر إلا بما هو فيه، مقالاً أو حالا . والمراد بهم: من لا يقين عندهم، بل ﴿ إن يتبعون إلاَّ الظن ﴾ ، وهو ما استحسنته عقولهم، إما تقليداً، كظنهم أن آباءهم كانوا على الحق، أو ما ابتدعوه برأيهم الفاسد من العقائد الزائفة والآراء الفاسدة، ﴿ وإن هم إلا يخرصون ﴾ أي: يكذبون على الله فيما ينسبون إليه؛ كاتخاذ الولد، وجعل عبادة الأوثان وُصلة إلى الله، وتحليل الميتة وتحريم البحائر، أو يقدّرون في عقولهم أنهم على شيء، وكل ذلك عن تخمين وظن لا يقين فيه، ثم قال لنبيه: ﴿ إن ربك هو أعلم من يضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين ﴾ أي: هو عالم بالفريقين، لا يخفى عليه أهل الحق من أهل الباطل.

الإشارة : مخالطة العموم والركون إليهم والمعاملة معهم سموم قاتلة، قال بعض الصوفية: قلت لبعض الأبدال: كيف الطريق إلى التحقيق والوصول إلى الحق؟ قال: لا تنظر إلى الخلق، فإن النظر إليهم ظلمة، قلت: لابد لي،

---

(١) من الآية ١٢ من سورة الكهف.

قال: لا تسمع كلامهم؛ فإن كلامهم قسوة، قلت: لابُد لي، قال: فلا تعاملهم، فإنّ معاملتهم خسران وحسرة ووحشة، قلت: أنا بين أظهرهم، لابد لي من معاملتهم، قال: لا تسكن إليهم؛ فإن السكون إليهم هلكة، قلت: هذا لعله يكون، قال: يا هذا، تنظر إلى اللاعبين، وتسمع إلى كلام الجاهلين، وتعامل البطّالين، وتسكن إلى الهلكى، وتريد أن تجد حلاوة المعاملة في قلبك مع الله عز وجل!! هيهات، هذا لا يكون أبدا .هـ.

وفي الخبر المروي عن رسول الله ﷺ : «أخوَفُ ما أخافُ على أمّتي ضَعْفُ اليَقين»(١). وإنما يكون برؤية أهل الغفلة ومخالطة أرباب البطالة والقسوة، وتربية اليقين وصحته إنما تُكتسب بصحبة أهل اليقين واستماع كلامهم، والتودد إليهم وخدمتهم. وفي بعض الأخبار: (تعلموا اليقينَ بمجالسةِ أهل اليقين)، وفي رواية: «فإنّي أتعلّمُه»، والحاصل: أن الخير كله في صحبة العارفين الراسخين في عين اليقين. أو حق اليقين، وما عداهم يجب اعتزالهم، كيفما كانوا، إلا بقصد الوعظ والتذكير، ثم يغيب عنهم، وإلى هذا أشار ابن الفارض رضي الله عنه بقوله:

تَمَسَّكْ بأذيالِ الهَوى واخلَعِ الحَيَا ... وخَلِّ سَبِيلَ النَّاسِكينَ وإن جَلُّوا

وبالله التوفيق.

وأصل تنوير القلب باليقين والمعرفة: هو أكل الحلال وتجنب الحرام، كما بيّنه الحق تعالى بقوله:

﴿ فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾ وَذَرُوا۟ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا۟ يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿فكلوا مما ذُكر اسم الله عليه﴾ عند ذبحه، ولا تتورعوا منه، ﴿إن كنتم بآياته مؤمنين﴾، فإن الإيمان يقتضي استباحة ما أحل الله تعالى، واجتناب ما حرمه، ﴿وما لكم ألاّ تأكلوا مما ذُكر اسم الله عليه﴾ أي: ما يمنعكم منه، وأيّ غرض لكم في التحرج عن أكله؟. ﴿وقد فصَّل لكم﴾ في الكتاب،

(١) ذكره بنحوه السيوطي في الجامع الصغير، وعزاه للطبراني في الصغير والبيهقي في الشعب، من حديث أبي هريرة، وحسّنه.

أو فصَّل الله لكم ﴿ما حرم عليكم﴾ مما لم يحرم بقوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ...﴾ الآية(١) ﴿إلا ما اضطررتم إليه﴾ مما حرم عليكم؛ فإنه حلال حال الضرورة.

﴿وإنَّ كثيراً ليُضلون﴾ بتحليل الحرام وتحريم الحلال ﴿بأهوائهم﴾ أي: بمجرد أهوائهم ﴿بغير علم﴾ ولادليل، بل بتشهي أنفسهم، ﴿إن ربك هو أعلم بالمعتدين﴾ المجاوزين الحق إلى الباطل، والحلال إلى الحرام، ﴿وذَروا﴾أي: اتركوا ﴿ظاهرَ الإثم وباطنه﴾ أي: سره وعلانيته، أو ما يتعلق بالجوارح والقلب، ﴿إن الذين يكسبون الإثم﴾ سراً أو علانية، ﴿سيجزون بما كانوا يقترفون﴾؛ يكتسبون.

ولما أمرهم بأكل الحلال نهاهم عن الحرام، فقال: ﴿ولا تأكلوا مما لم يُذكر اسم الله عليه﴾، بأن ترك التسمية عليه عمداً لاسهوا؛ كما هو مذهب مالك وأبي حنيفة(٢). وقال الشافعي: تؤكل مطلقاً، لقوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «ذَبِيحَةُ المُسْلِمِ حَلالٌ وإنْ لَمْ يُذْكَر اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ»(٣)، وقال أحمد وداود: لا تؤكل إن تركت مطلقاً، عمداً أو سهواً.

وقال ابن جزى: إنما جاء الكلام فى سياق تحريم الميتة وغيرها مما ذُبح للنُّصب، فإن حمّلناه على ذلك لم يكن فيه دليل على وجوب التسمية فى ذبائح المسلمين، وإن حملناه على عمومه كان فيه دليل على ذلك. وقال عطاء: هذه الآية أمر بذكر الله على الذبح والأكل والشرب .هـ.

﴿وإنه﴾ أى: الأكل مما لم يُذكر اسم الله عليه ﴿لفسق﴾ أو: وإنه ـ أى: عدم ذكر اسم الله على الذبيحة، لفسق ومن تزيين الشياطين، ﴿إن الشياطين ليُوحون﴾؛ ليوسوسون ﴿إلى أوليائهم﴾من الكفار ﴿ليُجادلوكم﴾ بقولهم: إنكم تأكلون ما قتلتم أنتم وجوارحكم وتدعون ما قتله الله. وهذا يؤيد أن المراد بما لم يذكر اسم الله عليه هو الميتة، ﴿وإنْ أطعتموهم﴾ فى استحلال ما حرمتُ عليكم، ﴿إنكم لمشركون﴾ مثلهم، لأن من أحل ما حرم الله فقد كفر، والجواب عن شبهتهم: أن الذكاة تطهير لخبث الميتة، مع ضرب من التعبد.

الإشارة: ليس المراد من التسمية على الطعام أو غيره مجرد اللفظ، وإنما المراد حضور المسمى، وهو شهود المنعم فى تلك النعمة؛ لأن الوقت الذى يغلب فيه حظ النفس، ينبغى للذاكر المتيقظ أن يغلب فيه جانب الحق،

---

(١) الآية ٣ من سورة المائدة.

(٢) فرّق أبو حنيفة بين العامد والناسى.

(٣) أخرجه أبو داود فى مراسيله (باب فى الضحايا والذبائح) من حديث الصلت السدوسى. وهذا المرسل يعضده ما رواه الدارقطنى فى السنن: (الصيد والذبائح) عن ابن عباس قال: (إذا ذبح المسلم ولم يذكر اسم الله فليأكل، فإن المسلم فيه اسم من أسماء الله). ويؤيد ما ذهب إليه أيضاً ما أخرجه البخارى فى: (الصيد والذبائح، باب ذبيحة الأعراب) عن عائشة: أن ناساً قالوا: يارسول الله، إن قوماً يأتوننا باللحم لا ندرى أذكر اسم الله عليه أم لا؟ قال: «سموا أنتم وكلوا». قالت: وكانوا حديثى عهد بالكفر. راجع تفسير: القرطبى وابن كثير.

فيكون تناوله لتلك النعمة بالله من الله إلى الله، وهذا هو المقصود من الأمر بذكر اسم الله، لأن الاسم عين المسمى في التحقيق، فإن كان الأكل أو غيره مما شرعت التسمية في أوله، على هذا التيقظ، فهو طائع لله وعابد له في أكله وشربه، وسائر أحواله، وإن كان غافلاً عن هذا، فأكله فسق، قال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ ، سبب ذلك: غلبة الغفلة. والغفلة من وحي الشيطان، ﴿وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم﴾. أو: ولا تنظروا إلى الأشياء بعين الفرق والغفلة، بل اذكروا اسم الله عليها وكلوها بفكرتكم ﴿ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله﴾ عليه من الأشياء؛ فإنه غفلة وفسق في الشهود، وقوله تعالى: ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ﴾؛ هو ما ظهر على الجوارح من الذنوب، وقوله: ﴿وباطنه﴾؛ هو ما كمن في السرائر من العيوب. والله تعالى أعلم.

ثم حذر من الشرك والكفر، فقال:

﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾﴾

قلت: (كَمَنْ): موصولة، و(مَثَلُه): مبتدأ، و(في الظلمات): خبره، وقيل: مثل ـ هنا ـ زائدة، أي: كمن هو في الظلمات، و(ليس بخارج): حال من الضمير في الخبر.

يقول الحق جل جلاله: ﴿أو من كان ميتاً﴾[1] بالكفر والجهل ﴿فأحييناه﴾ بالإيمان والعلم، ﴿وجعلنا له نوراً﴾ في قلبه أي: نور الإيمان والعلم، ﴿يمشي به في الناس﴾، فيذكرهم بالله، ويدلهم على الله، ﴿كمن مثله﴾ غريق ﴿في الظلمات﴾ في ظلمة الكفر والجهل والتقليد والذنوب، ﴿ليس بخارج منها﴾ أي: لا يفارق ضلالته بحال. ﴿كذلك﴾ أي: كما زين الإيمان لهؤلاء ﴿زين للكافرين ما كانوا يعملون﴾.

قال البيضاوي: مثّل به من هداه الله تعالى وأنقذه من الضلال، وجعل له نورَ الحجج والآيات يتأمل بها في الأشياء، فيميز بين الحق والباطل، والمحق والمبطل، ثم قال: والآية نزلت في حمزة وأبي جهل، وقيل: في عمّار وعُمر وأبي جهل. هـ. ولفظها أعم، وفي الآية من أنواع البيان: الطباق؛ في قوله: ﴿ميتا فأحييناه﴾.

الإشارة: الروح تكون أولاً على الفطرة التي فطرها الله عليها، من العلم والإقرار بالربوبية، فإذا بلغت قد تطرأ عليها موتات، ثم تحيا من كل واحدة على حسب المشيئة، فقد تموت بالكفر، ثم تحيا بالإيمان، وقد تموت بالذنوب والجرائم، ثم تحيا بالتوبة، وقد تموت بالحظوظ والشهوات، ثم تحيا بالزهد والورع والرياضة، وقد تموت بالغفلة والبطالة ثم تحيا باليقظة والإنابة، وقد تموت برؤية الحس وسجن الأكوان والهيكل، ثم تحيا برؤية المعاني وخروج الفكرة إلى فضاء الشهود والعيان، ثم لا موت بعد هذا إلى أبد الأبد. والله تعالى أعلم.

---

(١) قرأ نافع: «ميّتًا» بالتشديد، وقرأ الآخرون: «ميْتًا» بالتخفيف.

وسبب هذه الموتات: صحبة الغافلين، الموتى، وطاعتهم حتى يمكروا بصاحبهم، كما قال تعالى:

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾

قلت: (جعلنا) بمعنى صيّرنا، يتعدى إلى مفعولين، و(مجرميها): مفعول أول، مؤخر، و(أكابر): مفعول ثان، وفيه ضعف من جهة الصناعة؛ لأن أكابر جمع أكبر، وهو من أفعل التفضيل، فلا يستعمل إلا بالإضافة، أو مقروناً بمن. قاله ابن جزي. قلت: ويُجاب بأنه لم يقصد به المفاضلة، وإنما المراد مطلق الوصف، أي: جعلناهم كبراء، فلا يلزم إفراده ولا اقترانه بمن. فتأمله.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وكذلك ﴾ أي: كما جعلنا في مكة أكابر مجرميها، ليمكروا فيها بأهلها، ﴿ جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها ﴾ أي: مجرميها أكابر، ﴿ ليمكروا فيها ﴾ بمن فيها، فيمكروا بالناس فيتبعوهم على ذلك المكر، لأنهم أكابر تصعب مخالفتهم، فيحملونهم على الكفر والعصيان، ويخذلونهم عن الإسلام والإيمان، ﴿ وما يمكرون إلا بأنفسهم ﴾؛ لأن وبال مكرهم راجع إليهم، ﴿ وما يشعرون ﴾ بذلك.

الإشارة: إذا أراد الله بقومٍ خيراً جعل الخير في أكابرهم، فيجعل أمراءهم عدولاً حلماء، وعلماءهم زهاداً أعفاء، وأغنياءهم رحماء أسخياء، وصلحاءهم قانعين أغنياء، وإذا أراد بهم شراً جعل الشر في كبرائهم، فيجعل أمراءهم فجاراً يحكمون بالهوى، وعلماءهم حراصاً جامعين للدنيا، وأغنياءهم أشحاء قاسية قلوبهم، وصلحاءهم طماعين في الناس، منتظرين لما في أيديهم، فبهؤلاء يصلح الدين إذا صلحوا، ويفسد إذا فسدوا، وفي ذلك يقول ابن المبارك رحمه الله:

وَهَلْ أَفْسَدَ الدِّينَ إلا المُلُوكُ وأَحْبَارُ سُوءٍ ورُهْبَانُها

وقد تقدم تمامه في تفسير سورة البقرة[1]. وبالله التوفيق.

ثم بيّن حال تلك الأكابر المجرمين، فقال:

﴿ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾ ﴾

قلت (حيث): مفعول بفعل مقدر، لا بأعلم؛ لأن أفعل التفضيل لا ينصب المفعول به، أي: يعلم حيث يجعل رسالته، أي: يعلم المكان الذي يصلح للرسالة، إلا إنْ أُوّلَ أفعل بما لا تفضيل فيه، فينتصب المفعول به، ويحتمل أن

(١) راجع إشارة الآية (١٥٩) وما بعدها من سورة البقرة.

يكون هذا منه، قال أبو حيان: ويحتمل أن تكون حيث على بابها من الظرفية المجازية، ويُضَمَّنُ أعلم معنى يتعدى إلى الظرف، والتقدير: الله أنفذ علما حيث يجعل رسالته. انظر المحشى.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وإذا جاءتهم﴾ أي: هؤلاء المجرمين الأكابر، ﴿آية﴾ نزلت على نبى، ﴿قالوا لن نؤمن﴾ بها ﴿حتى نُؤتى﴾ من النبوة ﴿مثل ما أُوتى رسلُ الله﴾، فنكون أنبياء مثلهم، والقائل لهذه المقالة أبو جهل، قال: تزاحمنا: بنو عبد مناف الشرف مع بنى هاشم، حتى إذا صرنا كفَرَسَيْ رِهان، قالوا: منا نبى يوحى إليه، والله لا نرضى به إلا أن يأتينا وحى كما يأتيه، فنزلت الآية. وقيل: في الوليد بن المغيرة، قال: أنا أولى بالنبوة من محمد[1]. فرد الله على من قال ذلك بقوله: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾. فعَلِم أن محمداً ﷺ أهل للرسالة، فخصه بها، وعلم أنهم ليسوا بأهل لها، فحرمهم إياها، فإن النبوة ليست بمجرد النسب والمال، وإنما هى بفضائل نفسانية يَخُصُّ الله بها من يشاء من عباده، بل بمحض الفضل والكرم، فيجتبى لرسالته من علم أنه يصلح لها، وهو أعلم بالمكان الذى فيه يضعها.

ثم ذكر وعيد المنكرين، فقال: ﴿سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله﴾ أى: ذل وحقارة يوم القيامة، بعد تكبرهم وارتفاعهم فى الدنيا. رُوى «أنهم يُبعثون فى صورة الذَّرِّ يطؤهم الناس فى المَحْشَر». ﴿و﴾ يصيبهم ﴿عذاب شديد بما كانوا يمكرون﴾ أى: بسبب مكرهم، أوجزاء مكرهم. كما تدين تدان.

الإشارة: ما حَرَم الناسَ من الخير إلا خصلتان: التكبر والحسد، فمن طهر قلبه من الحسد، وتواضع لكل أحد، نال الرفعة والشرف عند الله في الدنيا والآخرة، ولا يضع الله سر الخصوصية إلا فى قلب طاهر متواضع، يحط صاحبه رأسه لأقدام الرجال، ويذل نفسه لأهل الصفاء والكمال، وفى ذلك يقول الشاعر:

يـا مَـنْ يَلُـوم خَمْـرة المحَبّة ... قُـولُـوا لـه عَنّـى هِـيَ حَـلالْ

ومَـنْ يُـرِدْ يُسْـقَى منها غِبًا ... خَـدّ يضـع لأقـدامِ الـرِّجـالْ

رَأسِـي حَـطَطْت بكُـلّ شَـيْبه ... هُـم المَـوالِـي سَقَـونِي زلالْ

فكما أن الحق تعالى علم حيث يجعل رسالته، علم حيث يجعل سر ولايته، وهى النفوس المتواضعة المتطهرة من رذائل النفوس؛ كالحسد والكبر وسائر الأوصاف المذمومة.

---

(١) ذكره البغوى فى التفسير عن مقاتل.

ثم ذكر علامة الهداية والشقاء، فقال:

﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ ﴾

قلت: من قرأ ﴿حرَجا﴾؛ بالفتح، فهو مصدر وُصف به للمبالغة ،ومن قرأ بالكسر، فوصف، أي: شديد الضيق، ومن قرأ ﴿يصَّعَّد﴾؛ بالشد والقصر، فأصله: يتصعد، أدغم التاء في الصاد، ومن قرأ: ﴿يصَّاعد﴾؛ فأصله: يتصاعد، فأدغم أيضا.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ فمن يُرد الله أن يهديه ﴾ أي: يعرِّفه طريق الحق ويوفقه للإيمان ﴿ يشرح صدره ﴾ أي: يوسعه ﴿ للإسلام ﴾، فيتسع له ويقبله، ويغتبط به، ويبتهج، فرحًا وسرورا. والشرح: كناية عن جعل النفس قابلة للحق، مهيأة لحلوله فيها، مصفاة عما يمنعها منه، وإليه أشار النبي ﷺ، حين سئل عنه، فقال: «نورٌ يقذفه الله في قلْبِ المؤْمن، فينشرح له وينفسح، قالوا: هل لذلك أمارة يعرف بها؟ قال: نعم، الإنابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل نزول»(١).

ثم ذكر ضدَّه، فقال: ﴿ ومن يُرد أن يضله يجعل صدره ضيقًا حرجًا ﴾؛ شديد الضيق، بحيث ينبو عن قبول الحق، فلا يدخله الإيمان، ولا ينشرح صدره له، بل ينفر منه، ويثقل عليه ﴿ كأنما يصَّعَّد في السماء ﴾ أي: يتكلف الصعود فيه. شبَّهه ـ على وجه المبالغة ـ بمن يحاول ما لا يقدر عليه، فإن صعود السماء غاية فيما يبعد عن الاستطاعة، تنبيهًا على أن الإيمان تَمَنَّع عليه كما يمتنع عليه الصعود إلى السماء، ﴿ كذلك ﴾ أي: كما يضيق صدر الكافر ويبعد قلبه عن الحق، ﴿ يجعل الله الرجس ﴾ أي: العذاب والخذلان، ﴿ على الذين لا يؤمنون ﴾، ووضع الظاهر موضع المضمر للتعليل.

﴿ وهذا ﴾ البيان الذي جاء به القرآن، أو ما سبق من التوفيق والخذلان، ﴿ صراط ربك ﴾ أي: الطريق الذي ارتضاه، إن قلنا: الإشارة للبيان، أو عادته وطريقه الذي اقتضته حكمته، إن قلنا ما سبق من التوفيق والخذلان، حال كونه ﴿ مستقيمًا ﴾ لاعوج فيه، أوعادلاً مطرداً لاجور فيه، ﴿ قد فصَّلنا الآيات ﴾ أي: بيَّنَّاها ﴿ لقوم يذكَّرون ﴾ فيعلمون أن الفاعل هو الله وحده، وأن كل ما يحدث من خير وشر، أو إيمان وكفر، بقضائه وخلقه، فإنه عالم بأفعال العباد، حكيم عادل فيما يفعل بهم من تقريب أو إبعاد.

---

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٢/٣/٣٧٧) وابن جرير في تفسير الآية، والحاكم في المستدرك (٤/١١)، وسكت عنه وتعقبه الذهبي. من حديث ابن مسعود موصولاً. وأخرجه مرسلاً من حديث أبي جعفر: ابن جرير في التفسير، وابن المبارك في الزهد/١٠٦ والبيهقي في الأسماء/١٥٦.

الإشارة: فمن يُرد الله أن يهديه لسر الخصوصية ونور الولاية يشرح صدره للدخول في طريقها، ويوفقه لبذل نفسه وروحه في تحصيلها، ويصبِّره على حمل لأوائها(١)، وينهضه إلى السير في ميدانها، بعد أن يسقطه على شيخ كامل عارف بطريقها، فيحققه بخصوصيته، ويطلعه على سر ولايته، حتى يلقى القياد إليه بكليته، فلا يزال يسايره حتى يقوله له: ها أنت وربك. ومن يرد أن يضله عنها يجعل صدره ضيقاً عن قبولها، حرجاً عن الدخول فيها، حتى يثقل عليه حمل أعبائها، أو ينكر وجود أهلها، كذلك يجعل الله رجس حجابه على الذين لايؤمنون بطريق الخصوص، فإنه طريق مستقيم يوصل إلى حضرة النعيم في الدنيا والآخرة. وبالله التوفيق.

ثم ذكر ما أعدّ لأهل التوفيق، فقال:

﴿ ۞ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿لهم دار السلام﴾ التي هي الجنة. والسلام اسم الحق تعالى، وأضافها إلى نفسه تعظيماً لها، أو دار السلامة من المكاره، أو دار التحية؛ ﴿تحيتهم فيها سلام﴾(٢) ، ﴿عند ربهم﴾ ذخيرة لهم عنده حين يقدمون عليه، لايعلم كنهها غيره، أو في ضمانه وكفالته، ﴿وهو وليهم﴾ أي: مولاهم وناصرهم في الدارين، ﴿بما كانوا يعملون﴾ أي: بسبب أعمالهم، أي: تولاهم بسبب أعمالهم الصالحة، فيحفظهم في الدنيا، هم وذريتهم، ويحفظهم في الآخرة كذلك.

الإشارة: من هداه الله لطريق الخصوصية، واستعمله في الوصول إليها، ووصله إلى من يسيره إليها، فقد دخل دار السلام قبل موته، فله جنتان؛ جنة المعارف وجنة الزخارف، [من دخل جنة المعارف لم يشتق إلى جنة الزخارف](٣)، لأن الله تولاه وأغناه عما سواه.

ثم ذكر ما أعد لأهل الخذلان، فقال:

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾ ﴾

---

(١) أي: شدتها.		(٢) من الآية ١٠ من سورة يونس.

(٣) وددت لو أن الشيخ المفسر ـ رحمه الله ـ ترك هذه العبارة المشعرة بدونية ما أطلق عليه جنة الزخارف. وهي الدار التي سماها الله عز وجل «دار السلام» وفيها يتحقق للمؤمن رؤية النبي ﷺ وفوق هذا: رؤية الله تعالى. فكيف لا يشتاق المؤمن إلى هذه الجنة؟!.

قلت: (خالدين): حال مقدّرة من الكاف، والعامل فيه: ﴿مثواكم﴾، إن جعل مصدرا، أو معنى الإضافة، إن جعل مكاناً.

يقول الحق جل جلاله: ﴿و﴾ اذكر ﴿يوم نحشرهم﴾(١) أي: الثقلين، ﴿جميعا﴾ ونقول: ﴿يا معشر الجن﴾ أي: الشياطين ﴿قد استكثرتم من الإنس﴾ أي: من إغوائهم وإضلالهم، أو استكثرتم منهم بأن جعلتموهم في أتباعكم، فحُشروا معكم، ﴿وقال أولياؤهم من الإنس﴾ الذين أطاعوهم في الكفر: ﴿ربنا استمتع بعضنا ببعض﴾ أي: انتفع الإنس بالجن، بأن دلوهم على الشهوات وما يتوصل به إليها، وانتفع الجن بالإنس بأن أطاعوهم وحَصَّلوا مرادهم، وقيل: استمتاع الإنس بهم أنهم كانوا يعوذُون بهم في المفاوز وعند المخاوف، كان الرجل إذا نزل وادياً يقول: أعوذ بصاحب هذا الوادي، يعني كبير الجن، واستمتاعهم بالإنس: اعترافهم بأنهم يقدرون على إجارتهم، ﴿وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا﴾ وهو الموت أو البعث والحشر، وهو اعترافٌ بما فعلوا من طاعة الشياطين واتباع الهوى، وتكذيب البعث، وتحسّر على حالهم، وإظهار للاستكانة والضعف. أقروا بذنبهم لعله ينفعهم.

﴿قال النار مثواكم﴾: منزلكم، ﴿خالدين فيها إلا ما شاء الله﴾، إلا أوقات، ينتقلون فيها من النار إلى الزمهرير، وقيل: ليس المراد بالاستثناء هنا الإخراج، وإنما هو على وجه الأدب مع الله وإسناد الأُمور إليه. وسيأتي في الإشارة تكميله إن شاء الله، ﴿إن ربك حكيم﴾ في أفعاله، ﴿عليم﴾ بأعمال الثقلين.

﴿وكذلك﴾ أي: كما ولينا الشياطين على الكفرة، ﴿نُوَلِّي بعض الظالمين بعضا﴾ أي: نَكِل بعضهم إلى بعض، أو نجعل بعضاً يتولى بعض فيقويهم، أو: أولياءهم وقرناءهم في العذاب، كما كانوا قرناء في الدنيا، وذلك التولي والتسليط ﴿بما كانوا يكسبون﴾ من الكفر والمعاصي.

الإشارة: ليست الآية خاصة بالكفار، بل كل من عوّق الناسَ عن طريق الخصوص، واستكثر من العموم؛ بأن أبقاهم في حزبه، يقال له: يا معشر أهل الرياسة قد استكثرتم من العموم، فيقول أهل اليمين من العموم: ربنا استمتع بعضنا ببعض فتبعناهم في الوقوف مع الحظوظ والعوائد، وتمتعوا بتكثير سوادهم بنا وتنعيش رياستهم، مع مايلحقهم من الارتفاق من قِبلنا، فيقول الحق تعالى: نار القطيعة والحجاب مثواكم خالدين فيها، إلا وقت الرؤية مع عوام الخلق، وهذه عادته تعالى: يولي بعض الغافلين بعضاً بسبب غفلتهم.

وفي قوله تعالى: ﴿إلا ما شاء الله﴾ ـ إرشاد إلى استعمال الأدب، وردُّ الأمور كلها إلى رب الأرباب، وعدم التحكيم على غيب مشيئته وعلمه، وقوفًا مع ظاهر الوعد أو الوعيد، فالأكابر لا يقفون مع وعد ولا وعيد،

(١) قرأ حفص (يحشرهم) بالياء، وقرأ الباقون (نحشرهم) بالنون.

كقول عيسى عليه السلام: ﴿وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم﴾(١)، وكقول إبراهيم عليه السلام: ﴿وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّآ أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا﴾(٢) الآية، وكقوله: ﴿ومن عصاني فإنك غفور رحيم﴾(٣)، وكقول شعيب عليه السلام: ﴿وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا﴾(٤) وكاستغفار نبينا ﷺ للمنافقين قبل نزول النهى، وبعد نزوله، ﴿إن تستغفر لهم سبعين مرة...﴾(٥) الآية. وكقوله، يوم بدر: «إن تهلك هذه العصابة لن تعبد»، مع تقدم الوعد بالنصر، وكخوف موسى بعد قوله: ﴿لاتخافا إنني معكما...﴾(٦) الآية.

ومنه: خوف الأكابر بعد تأمينهم؛ لأن ظاهر الوعد والوعيد لايقضى على باطن المشيئة والعلم، ومثله يجرى فى سورة هود فى قوله: ﴿إلا ماشاء ربك﴾(٧)، وفى سورة يوسف: ﴿وظنوا أنهم قد كُذبوا﴾(٨) بالتخفيف، وغير ذلك مما ورد فى الكتاب والسنة، وانظر الورتجبى. فقد انفرد بمقالة، بعد حكاية اتفاق مذاهب المسلمين جميعًا على عدم غفران الشرك، ولكن قول عيسى عليه السلام: ﴿وإن تغفر لهم...﴾ الآية، يشير إلى ما أشار إليه ابن عباس وابن مسعود فى قوله تعالى: ﴿خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ماشاء ربك﴾ قال(٩): تؤمر النار أن تأكلهم وتفنيهم، ثم يجدد خلقهم، ويرجى من كرم الله ولطفه إدخالهم بعد ذلك الجنة، قال: وهذا مرجو، ليس بمعتقد أهل السنة.هـ.

قال فى الحاشية: وهو يرجع عند التحقيق إلى طرح الأسباب وعدم الوقوف معها، نظراً إلى أن الحق تعالى لايتقيد فى وعيد ولاوعد، فمن غلبه النظر إليه، سرى إليه الرجاء فى عين التخويف، كما أنه يسرى الخوف فى عين الرجاء، لكونه اقتطع من الوقوف مع خصوص وصف، ولما كانت تلك الحالة هى عين الأدب اللائق بالعبودية مع الله تعالى أرشد تعالى إليها بقوله: ﴿إلا ماشاء الله﴾، ﴿إلا ما شاء ربك﴾، وهو حال أهل الحقيقة، والوقوف مع خصوص الوعد أو الوعيد حال أهل الشريعة. انتهى ببعض اختصار. وقد رد الثعالبى هذه المقالة التى حكاها الورتجبى.

ثم وبخهم على عدم الإيمان بالرسل، فقال:

﴿يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَا قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَـٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَـٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾

(١) الآية ١١٨ من سورة المائدة.
(٢) الآية ٨٠ من سورة الأنعام.
(٣) الآية ٣٦ من سورة ابراهيم.
(٤) الآية ٨٩ من سورة الأعراف.
(٥) الآية ٨٠ من سورة التوبة.
(٦) الآية ٤٦ من سورة طه.
(٧) من الآية ١٠٧.
(٨) من الآية ١١٠
(٩) أى: الورتجبى.

﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾ وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِن بَعْدِكُم مَّا يَشَاءُ كَمَا أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾ ﴾

قلت: (ذلك أن لم يكن ربك) : خبر عن مضمر، وأنْ على حذف لام العلة، أي: الأمر ذلك؛ لأجل أن لم يكن ربك متصفاً بالظلم .

يقول الحق جل جلاله، يوم القيامه فى توبيخ الكفار: ﴿ يامعشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم ﴾ أى: من مجموعكم، أو رسل الجن: نُذُرهم الذين يبلغون لهم شريعة الإنس؛ إذ ليس فى الجن رسل على المشهور. وروَى الطبرى من طريق الضحاك بن مزاحم إثبات ذلك، واحتج بأن الله تعالى أخبرَ أن من الجن والإنس رسلاً أرسلوا إليهم، يعنى ظاهر هذه الآية. وأجاب الجمهور بأن معنى الآية: أن رسل الإنس رسل من قبل الله إليهم، ورسل الجن يبلغون كلام رسل الإنس إليهم، ولهذا قال قائلهم: ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ ﴾ الآية(١)، فالرسالة إلى الجن خاصة بنبينا محمد ﷺ، أى: مع الإنس.

حال كون الرسل الذين أتوكم ﴿ يقصون عليكم آياتي ويُنذرونكم لقاء يومكم هذا ﴾ يعني يوم القيامة، قالوا فى الجواب: ﴿ شهدنا على أنفسنا ﴾ بالكفر والعصيان، وهو اعتراف منهم بما فعلوا.

قال تعالى: ﴿ وغرتهم الحياة الدنيا ﴾ ؛ ألهتهم بزخرفها عن النظر والتفكر، ﴿ وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين ﴾ ، وهذا ذم لهم على سُوء نظرهم وخطأ رأيهم، فإنهم اغتروا بالحياة الدنيوية واللذات الفانية، وأعرضوا عن الآخرة بالكلية، حتى كان عاقبة أمرهم أن اضطروا إلى الشهادة على أنفسهم بالكفر والاستسلام للعذاب المخلد؛ تحذيراً للسامعين وإرشاداً لهم. قاله البيضاوى.

ثم ذكر حكمة إرسال الرسل فقال: ﴿ ذلك ﴾ الإرسال حكمته لـ ﴿ أنْ لم يكن ربك مُهلك القرى بظلم وأهلها غافلون ﴾ أى: إنما أرسلَ الرسل لئلا يكون ظالماً لهم بإهلاكهم بسبب ظلم فعلوه، وهم غافلون عن الإنذار، بحيث لم ينذرهم أحد، أو: لم يكن مهلك القرى ملتبساً بظلم حيث أهلكهم من غير إنذار، ففاعل الظلم، على الأول: القرى، وعلى الثاني: الله تعالى، على تقدير إهلاكهم من غير إنذار. والأول يتمشى على مذهب المعتزلة، والثاني على مذهب أهل السنة. انظر ابن جزى.

(١) الآية ٣٠ من سورة الأحقاف.

﴿ ولكلٍّ﴾ من الإنس والجن ﴿ درجات﴾ ؛ مراتب، ﴿ مما عملوا﴾ من أجل أعمالهم بالخير والشر، فهم متفاوتون في النعيم والعذاب، وظاهر الآية: أن الجن يُثابون ويعاقبون؛ لأنهم مكلفون، وهو المشهور، واختلف: هل يدخلون الجنة أم لا؟ فروى الطبري وابنُ أبي حاتم عن أبي الدرداء موقوفًا: أنهم يكونون ترابًا كسائر الحيوانات، ورُوي عن أبي حنيفة مثله، وذهب الجمهور - وهو قول الأئمة الثلاثة والأوزاعي وأبي يوسف، وغيرهم؛ أنهم يثابون على الطاعة ويدخلون الجنة. ثم اختلفوا، هل يدخلون مدخل الإنس، وهو الأكثر، أو يكونون في ربض الجنة، وهو عن مالك وطائفته، أو أنهم أصحاب الأعراف، أو التوقف عن الجواب؟ في هذا أربعة أقوال، والله تعالى أعلم بغيبه. ﴿ وما ربك بغافل عما يعملون﴾ فيخفى عليه عمل أو قدر ما يستحق عليه من ثواب أو عقاب.

﴿ وربك الغني﴾ عن العباد وعبادتهم، ﴿ ذو الرحمة﴾ يترحم عليهم بالتكليف، تكميلاً، ويمهلهم على المعاصي حلماً، وليس له حاجة في طاعة ولا معصية، ﴿ إن يشأ يُذهبكم﴾ أيها العصاة، ﴿ ويستخلف من بعدكم مايشاء﴾ من الخلق، ﴿ كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين﴾ ؛ فأنشأكم قرنًا بعد قرن، لكنه أبقاكم رحمة بكم، ﴿ إنَّ ما توعدون﴾ من البعث وما بعده، ﴿ لآت﴾ لا محالة، ﴿ وما أنتم بمعجزين﴾ ؛ تعجزون قدرة الله الطالب لكم بالبعث والحساب.

الإشارة: كما أن الحق تعالى لم يُعذب الكفار إلا بعد إرسال الرسل، كذلك لا يُعاقب أهل الإصرار إلا بعد بعث الأطباء؛ وهم أهل التربية النبوية، فكل من لم يصحبهم وينقد إليهم مات مصرًا على الكبائر - أي: كبائر القلوب - وهو لا يشعر، فيلقى الله بقلب سقيم، فيعاقبه الحق تعالى على عدم صحبتهم، ومعاتبته له: بُعْدُه عن مشاهدته وعن مقام المقربين، فإذا رأى مقام المقربين وقربهم من الحضرة، قال: غرتنا الحياة الدنيا وزخارفها، وجاهها ورياستها، وشهد على نفسه أنه كان غافلاً.

فحكمة وجود الأولياء في كل قرن؛ لتقوم الحجة على أهل الغفلة، فإذا وقع البعد لقوم لم يكن الحقُّ ظالماً لهم، فالدرجات على حسب المقامات، والمقامات على حسب الأعمال، وأعمال القلوب هي التي تقرب إلى حضرة علام الغيوب، بها يقع القرب، وبالخلو عنها يقع البعد. وعليها دلت الأولياء بعد الأنبياء، لأن الأنبياء جاءوا بالشريعة الظاهرة والحقيقة الباطنة، فمن رأوه أهلاً لسر الحقيقه دلّوه عليها، فكان من المقربين، ومن رأوه ضعيفًا عنها دلوه على الشريعة، فكان من أصحاب اليمين. وبالله التوفيق.

ثم أمره بتهديد قريش وتخويفهم، فقال:

﴿ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾ ﴾

قلت: ﴿من تكون﴾: إما مفعول (تعلمون)، أو مبتدأ، وهى إما موصولة أو استفهامية، والمكانة: التمكن أو الجهة، يقال: مكان ومكانة كمقام ومقامة .

يقول الحق جل جلاله: ﴿قل﴾ يا محمد: ﴿يا قوم اعملوا على مكانتكم﴾ أى: تمكنكم من هواكم وشهواتكم التى أنتم عليها، أو على ناحيتكم وجهتكم التى أنتم عليها من الكفر والهوى، والمعنى: اثبتوا على ما أنتم عليه من الكفر والعداوة، ﴿إني عامل﴾ على ما أنا عليه من المصابرة والثبات على الدين الحق. والتهديد بصيغة الأمر مبالغة فى الوعيد، كأن الذى يهدده يريد تعذيبه لا محالة، فيحمله بالأمر على ما يفضى به إليه، وتسجيلٌ بأن المهدد لا يأتى منه إلا الشر، كالمأمور به الذى لا يقدر أن ينقضى عنه. قاله البيضاوى.

ثم صرح بالتهديد فقال: ﴿فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار﴾ أى: أيُّنا تكون له العاقبة الحسنى التى خلق الله لها هذه الدار، أى: وهى الدار الآخرة، أو: فسوف تعرفون الذى تكون له عاقبة سكنى الدار الآخرة والنعيم المقيم، أو: من تكون له عاقبة هذه الدار بالنصر والظهور على الأديان. أنا أو أنتم، وفيه إنصاف فى المقال حال الإنذار، وحسن الأدب، وتنبيهٌ على وثوق المنذِر لأنه محق. قال تعالى: ﴿إنه﴾ ، أى: الأمر والشأن، ﴿لا يُفلح الظالمون﴾ ، والظلم أعم من الكفر، ولذلك وضع موضعه؛ لعمومه.

الإشارة: إذا انكب الناس على الدنيا، وأخذتهم الغفلة، وغلب عليهم الهوى، ثم وقع الوعظ والتذكير من أهل الإنذار، فقابلوهم بالإبعاد والإنكار، يقول لهم المذكر والواعظ: ﴿ياقوم اعملوا على مكانتكم إنى عامل فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار ...﴾ الآية.

ثم ذكر جهالة الجاهلية وحمقهم، فقال:

﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾

يقول الحق جل جلاله : ﴿وجعلوا﴾ أى: مشركو العرب، ﴿لله مماذرأ﴾ أى: خلق، ﴿من الحرث والأنعام نصيبا﴾ ، وهم حى من خولان، يقال لهم: الأديم، كانوا يجعلون من زروعهم وثمارهم وأنعامهم نصيبا، ﴿فقالوا هذا لله بزعمهم﴾ أى: بدعواهم من غير دليل، وأكثر ما يستعمل الزعم فى الكذب، ﴿وهذا لشركائنا ، فما كان لشركائهم فلا يَصلُ إلى الله وما كان لله فهو يَصِلُ إلى شركائهم﴾ .

رُوي أنهم كانوا يُعينون شيئاً من حرث أو نتاج إلى الله، فيصرفونه إلى الضيفان والمساكين، وشيئاً منها إلى آلهتهم، فينفقونه على سدنتهم - أي: خدَّامهم ، والقيام بأصنامهم، ويذبحون عندها، ثم إذا رأوا ما عينوا لله أزكى وأكثر، بدلوه لآلهتهم وقالوا: الله غني عنه، وإذا رأوا ما لآلهتهم أزكى تركوه لها؛ حبًا لآلهتهم، وإذا هبت ريح فحملت شيئًا من الذي لله إلى الذي للأصنام أقروه، وإن حملت شيئاً من الذي للأصنام إلى الذي لله ردوه، وإذا أصابتهم سنَّة، أكلوا نصيب الله وتحاموا نصيب شركائهم، تعظيماً لها.

وفي قوله: ﴿ مما ذرأ ﴾ : تنبيه على فرط جهالتهم، فإنهم أشركوا الخالق في خلقه، جماداً لا يقدر على شيء، ثم رجحوه عليه بأن جعلوا الزاكي له، وفي قوله: ﴿ بزعمهم ﴾ : تنبيه على أن ذلك مما اخترعوه، ولم يأمرهم الله تعالى به .﴿ساء﴾ أي: قبح، ﴿ مايحكمون ﴾ حكمهم هذا الذي اخترعوه من عند أنفسهم.

الإشارة: مما ينخرط في سلك الآية، وتجر ذيلها عليه، ما يفعله بعض الناس من التساهل في حقوق الله الواجبة، والمسارعة إلى حقوق الناس التي ليست بواجبة عليه، فترى بعض العوام يقدمون مد أبي العباس السبتي، ويتساهل في الزكاة، وترى بعض الناس يُسارع إلى إطعام الطعام وقرى الأضياف، وهو لا يفي زكاته. وبعضهم يجعلون للصالحين شيئاً من أموالهم لتصلح وتنمو ويعتني بشأنها، وقد لا يعتني بزكاته ولا يخرجها، وهذا كله شعبة من فعل أهل الشرك، وعلامة اتباع الهوى. وبالله التوفيق.

ثم ذكر نوعاً آخر من كفرهم، فقال:

﴿ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ۖ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾ ﴾

قلت: قرأ الجمهور: ﴿زَيَّن﴾، بالبناء للفاعل ونصب قتل، على أنه مفعول به، وخفض (أولادهم) بالإضافة، ورفع (شركاؤهم)؛ فاعل (زين)، فالشركاء على هذه القراءة هم الذين زينوا القتل، وقرأ ابن عامر: بضم الزاي؛ على البناء للمفعول، ورفع «قتل»؛ على النيابة عن الفاعل، ونصب «أولادهم» على أنه مفعول بقتل، وخفض «شركائهم» بالإضافة إلى قتل، إضافة المصدر إلى فاعله، أي: زُين لهم أن يقتل شركاؤهم أولادهم، ففصل بين المضاف والمضاف إليه بأولادهم، وهو معمول للمصدر، وهو جائز في العربية، قال ابن مالك في الألفية:

فَصلَ مُضَافٍ شِبْهِ فِعْلٍ مَا نَصب مَفْعُولاً أَوْ ظَرْفاً أَجِزْ ، ولم يُعب

وهذا من فصل المفعول، فهو جائز في السعة؛ خلافاً للزمخشري ومن تبعه، وقد شنَّع عليه الشاطبي في حرز الأماني.

يقول الحق جل جلاله: ومثل ذلك التزيين الذى وقع لهم فى الحرث والأنعام، ﴿ زَيَّن لكثير من المشركين قتل أولادهم ﴾ ؛ زين لهم ذلك شركاؤهم من الجن، أو من السدنة، وحملوهم عليه، خوفًا من الجوع أو من العار، وكانوا يقتلون البنات دون البنين، زينوا لهم ذلك ﴿ ليُردُوهم ﴾ أى: ليهلكوهم بالإغواء، ﴿ وليلبسوا عليهم دينهم ﴾ أي: ليخلطوا عليهم ما كانوا عليه من دين إسماعيل، أو ما وجب عليهم أن يتدينوا به، ﴿ ولو شاء الله مافعلوه ﴾ أي: ما فعل المشركون مازين لهم، أو ما فعل الشركاء التزيين، أو الفريقان جميع ذلك، ﴿ فذرهم ومايفترون ﴾ أي: اتركهم مع افترائهم، أو: والذى يفترونه من الإفك، وهذا قبل الأمر بالسيف، ثم نسخ به.

الإشارة: مما ينخرط في سلك الآية: إهانة البنات وتعظيم البنين، وقد نهى الشارع ـ عليه الصلاة السلام ـ عن تخصيص الذكور بالوصية، وقال للذى أراد أن يفعله: «لاتُشهدنى على جور»، وهنا إشارة أرق من هذا، وهو أنْ يراد بالأولاد ما تنتجه الفكرة الصافية من العلوم والمواهب، وقتلها: إهمال الفكرة عن استخراجها حتى ضاعت عليه، والذى زين له ذلك هو شرك القلب، واشتغاله برسوم الفرق، حتى تعطلت الفكرة، وماتت تلك العلوم من قلبه، وقع ذلك التزيين بأهل الفرق ليسقطوهم عن درجة المقربين؛ أهل العلوم اللدنية والأسرار الربانية، وليلبسوا عليهم دينهم بالخواطر والشكوك، والأوهام، ولو شاء الله لهدى الناس جميعا.

ثم ذكر أيضا نوعاً آخر من جهالتهم، فقال:

﴿ وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾

قلت: (حِجْر): فعل، بمعنى مفعول، يستوى فيه الواحد والكثير، والمذكر والمؤنث، ومعناه: حرام، و(افتراء): حال، أو مفعول من أجله، أو مصدر.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وقالوا ﴾ أيضًا: ﴿ هذه ﴾ الأشياء التى جعلوها لأصنامهم، وهى ﴿ أنعام وحرث ﴾ ، هى ﴿ حِجْرٌ ﴾ أى: حرام محجر، ﴿ لا يَطعمها ﴾ ، لا يأكلها ﴿ إلا من نشاء ﴾ ، وهم خُدام الأوثان وسدنتها، والرجال دون النساء. قالوا ذلك ﴿ بزعمهم ﴾ وافترائهم من غير حجة، ﴿ وأنعام ﴾ أخرى ﴿ حُرمت ظهورها ﴾ ؛ وهى البحائر والسوائب والحوامي، ﴿ وأنعام ﴾ أخرى ﴿ لا يذكرون اسم الله عليها ﴾ فى الذبح، وإنما يذكرون عليها اسم آلهتهم؛ ﴿ افتراء ﴾ على الله، لأنهم قسموا أموالهم على هذه القسمة، ونسبوا ذلك إلى الله؛ افتراء وكذباً، ﴿ سيجزيهم بما كانوا يفترون ﴾ أي: بسببه فيعذبهم عليه.

الإشارة: ما عاب الله على المشركين إلا الشرك والتحكم على الله، فالواجب على من أراد السلامة أن يُوحد ربه، وينفرد بكُلّيته إليه، ويُخلص أعماله لله، ويصرف أمواله فى مرضاة الله، ويقف فى أموره كلها عند ما حدد له الله، وبيّنه رسولُ الله؛ يكونُ من أولياء الله. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر جهالة أخرى لهم، فقال:

﴿ وَقَالُوا۟ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ ۚ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾ ﴾

قلت: ﴿خالصةٌ﴾: خبر لـ(ما)، وأنثه؛ حملا على المعنى، لأن (ما) واقعة على الأجنة، وذكّر (محرم)؛ حملاً على لفظ «ما»، ويحتمل أن تكون التاء للمبالغة، ومن قرأ: (تكن)؛ بالتأنيث، فالمراد: الأجنة، ومن قرأ بالتذكير فراعى لفظ «ما».

يقول الحق جل جلاله: ﴿وقالوا ما﴾ استقر ﴿في بطون هذه الأنعام﴾، يعنى: البحائر والسوائب، من الأجنة، ﴿خالصة لذكورنا﴾ لا يشاركون فيه، ﴿ومحرم على أزواجنا﴾ أى: نسائنا، يعنى: أن ما يولد للبحائر والسوائب، قالوا هو حلال لذكورهم دون نسائهم، هذا إن ولد حيا، ﴿وإن يكن ميتة﴾؛ بأن ولد ميتاً ﴿فهم فيه شركاء﴾؛ فالذكور والإناث سواء، ﴿سيجزيهم وصفهم﴾ أى: سيجزيهم على ما وصفوا و افتروا على الله من الكذب في التحليل والتحريم، فهو كقوله: ﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ﴾(١)، ﴿إنه حكيم﴾ فى صنعه، ﴿عليم﴾ بخلقه؛ فيجزى كلاً على قدر جرمه.

الإشارة: اعلم أن جيفة الدنيا اشترك النساء مع الرجال فيها، لقوله تعالى: ﴿وإن يكن ميتة فهم فيه شركاء﴾، والزهد فى النساء قليل بالنسبة إلى الرجال، واعلم أيضا أن الحق تعالى يجازى عبده جزاء موافقا لوصفه، فإن كان وصفه التعظيم لكل شيء عظمه الله، ومن كان وصفه التصغير صغره الله، ومن كان وصفه الإحسان أحسن الله إليه، ومن كان وصفه الإساءة أساء الله إليه، ومن كان وصفه الفرق فرقه الله، ومن كان وصفه الجمع جمعه الله، وهكذا: كما تدين تدان، كما تقابل الأشياء تقابلك، قال تعالى: ﴿سيجزيهم وصفهم إنه حكيم عليم﴾.

ثم شنّع عليهم قتل الأولاد، فقال:

﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓا۟ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا۟ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّوا۟ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾ ﴾

قلت: (سفها): حال أو مصدر، وكذلك: (افتراء).

(١) من الآية ٦٢ من سورة النحل.

يقول الحق جل جلاله: ﴿قد خسر الذين قتلوا أولادهم﴾؛ يعني: العرب الذين كانوا يقتلون بناتهم مخافة السبي أو الفقر، ﴿بغير علم﴾ ولا دليل؛ لخفة عقلهم وجهلهم بأن الله رازق أولادهم كما يرزقهم، وليسوا هم الرازقين لهم، ﴿وحرّموا ما رزقهم الله﴾ من البحائر والسوائب ونحوهما؛ ﴿افتراء على الله﴾ من عند أنفسهم، ﴿قد ضلوا وما كانوا مهتدين﴾ إلى الحق والصواب.

الإشارة: قد خسر الذين ضيعوا قلوبهم فلم تنتج لهم شيئًا من أبكار الحقائق وأسرار العلوم، بل اشتغلوا بالسفه من القول والفعل، بغير علم ولا بصيرة نافذة، وحرموا ما رزقهم الله من العلوم والأسرار، لو طهروا قلوبهم، وخربوا ظواهرهم وخرقوا عوائدهم، لكنهم حكموا على فعل ذلك بالتحريم، تجمدوا على علم الرسوم وحفظ المروءة، والمروءة إنما هي التقوى والدين، كما قال الإمام مالك رضي الله عنه، قد ضلوا عن طريق الوصول، وما كانوا مهتدين إلى طريق الخصوص، ما داموا على ماهم عليه من زي اللصوص.

ثم بيّن أن الأشياء كلها لله، ليس لأحد فيها شيء حتى يحلل منها أو يحرم، فقال:

﴿ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّـٰتٍ مَّعْرُوشَـٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَـٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَـٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَـٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾ ﴾

قلت: (مختلفا): حال مقدّرة؛ لأنه لم يكن كذلك عند الإنشاء، والضمير في ﴿أكله﴾: يعود على النخل، والزرعُ مقيس عليه، أو للجميع؛ على تقدير: كل واحد منهما.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وهو الذي أنشأ﴾ أي: خلق ﴿جنات﴾؛ بساتين مشتملة على كروم - أي: دوالي - ﴿معروشات﴾ أي: مرفوعة بالعرشان والدعائم، ﴿وغير معروشات﴾ أي: مبسوطة على وجه الأرض، قيل: المعروشات: ماغرسه الناس في العمران، وغير المعروشات: ما أنبته في الجبال والبراري.

﴿و﴾ أنشأ ﴿النخل والزرع مختلفا أكله﴾ أي: ثمره الذي يؤكل منه، واختلافه في اللون والطعم والرائحة والحجم والهيئة والكيفية، وذلك دليل على عظمة القادر المريد، ﴿و﴾ أنشأ ﴿الزيتون والرمان متشابها وغير متشابه﴾ أي: تتشابه بعض أفرادهما في اللون والطعم، ولا يتشابه بعضها. ﴿كُلوا من ثمره﴾ أي: من ثمر كل واحد منهما، ﴿إذا أثمر﴾ وإن لم يطب، قيل: فائدة الأمر بالأكل: رخصة المالك في الأكل منه قبل أداء حق الله منه قبل الطيب، أي: قبل أن تجب زكاته، وأما إذا طاب فلابد من التخريص(١).

(١) خرِص النخلة والكرمة يخرصها خرصاً: إذا حزَر ما عليها من الرُّطب تمراً، ومن العنب زبيباً، فهو من الخَرْص أي: الظن؛ لأن الحزْر إنما هو تقدير بظن. انظر النهاية (مادة: خرص).

﴿وآتوا حقه يوم حصاده﴾؛ يريد: ما كان يتصدق به يوم الحصاد، لا الزكاة المقدرة؛ لأنها فرضت بالمدينة، وكان ذلك واجبًا ثم نسخ بالعشر. وقيل: الزكاة حقيقةً، والآية مدنية، وقيل: مكية، ولم يعيِّن قدرها إلا بالمدينة، والأمر بإتيانها يوم الحصاد؛ ليُهتم به حينئذ، حتى لايؤخر عن وقت الأداء، خلاف ما يفعله العامةمن خزنها مع ماله، حتى يدفعها في نوائب المخزن(1)، وليعلم أن الوجوب بالإفراك والطيب، لا بالتصفية، ولذلك شرع التخريص، ﴿ولا تُسرفوا﴾ بصرفها في غير محلها، ولا تتعدوا ما أمرتم به فتجعلوا ما أنشأ الله للأصنام، أو: لا تسرفوا في التصدق بالكل، كقوله: ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾(2)، ﴿إنه لا يحب المسرفين﴾ أي: لا يرضى فعلهم.

الإشارة: وهو الذي أنشأ جنات المعارف لمن خرق عوائده، معروشات بشهود أسرار الجبروت، وغير معروشات بشهود أنوار الملكوت، أو معروشات بشهود المعاني مع الأواني، وغير معروشات بشهود الأواني فقط، أو معروشات بشهود المؤثر والأثر، وغير معروشات بشهود المؤثر فقط، وكلها ترجع لمعنى واحد، والمعروش أرفع من غيره وأكمل، والأول: مقام البقاء والصحو، والثاني: مقام الفناء والسكر، والنخل والزرع: الحقيقة والشريعة على اختلاف علومهما، والزيتون والرمان: الأعمال والأحوال، متفقة وغير متفقة، وثمره: حلاوة الشهود، فليأكل منها المريد إذا طاب وقته، ولا تُسرفوا في الأحوال، إنه لا يحب المسرفين.

ثم ذكر إنشاء الأنعام، فقال:

﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ
إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (١٤٢) ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ
حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٤٣)
وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ
أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ
كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٤٤)﴾

قلت: (حَمولة وفرشًا): عطف على جنات، و﴿ثمانية أزواج﴾: بدل من حَمولة، و(من الضأن اثنين): بدل من ثمانية.

(1) أي: جامع الضرائب. (2) من الآية ٢٩ من سورة الإسراء.

يقول الحق جل جلاله: ﴿و﴾ أنشأ أيضا ﴿من الأنعام﴾ أنعاماً ﴿حَمولة﴾ ؛ مايحمل الأثقال، كالكبار منها، ﴿وفَرْشًا﴾ ؛ ما لا يحمل، كالصغار لدنوها من الأرض. أو حمولة للإبل، وفرشاً للغنم، لأنها تفرش للذبح، ويُفرَش ما ينسج من صوفها، ﴿كلوا مما رزقكم الله﴾ أي: كلوا ما أحل الله لكم منها، ﴿ولا تتبعوا خطوات الشيطان﴾ في التحليل والتحريم من عند أنفسكم، ﴿إنه لكم عدو مبين﴾ ؛ ظاهر العداوة.

ثم فصلها فقال: ﴿ثمانية أزواج﴾ ؛ ذكر وأنثى من كل صنف، والصنف: مامعه آخر من جنسه يزاوجه، ثم بيّنها فقال: ﴿من الضأن اثنين﴾ ؛ ذكر وأنثى؛ كبش ونعجة، ﴿ومن المعز اثنين﴾ ؛ التيس وهو الذكر، والعنز وهي الأنثى، ﴿قل﴾ لهم ﴿آلذكرين﴾ أي: ذكر الضأن والمعز، ﴿حرَّم أم الأنثيين﴾ منهما؟ ﴿أما اشتملت عليه أرحام الأنثيين﴾ من الأجنة، ذكراً كان أو أنثى؟ ﴿نبئوني بعلم﴾ يدل على أن الله تعالى حرم شيئًا من ذلك، ﴿إن كنتم صادقين﴾ في دعوى التحريم عليه.

﴿ومن الإبل اثنين﴾ ؛ ذكر وأنثى، ﴿ومن البقر اثنين﴾ كذلك. ﴿قل آلذكرين حرَّم أم الأنثيين﴾ أم حرم ما ﴿اشتملت عليه أرحام الأنثيين﴾ من الجنين مطلقا؟ وهذا تقسيم على الكفار حتى يتبين كذبهم على الله، وتوبيخ لهم، حيث حرموا بعض الذكور مرة وبعض الإناث مرة، فألزمهم تحريم جميع الذكور، إن كان علة التحريم وصف الذكورة، أو تحريم جميع الإناث، إن كانت العلة الأنوثة، أو تحريم الجميع إن كان المُحرم ما اشتملت عليه الأرحام، ولا وجه للتخصيص، فالاستفهام للإنكار، وأكده بقوله: ﴿أم كنتم شهداء﴾ حاضرين حين ﴿وصاكم الله بهذا﴾ التحريم، ولا طريق لكم إلى معرفة هذا إلا المشاهدة والسماع، وليس لكم شيء من ذلك، وإنما أنتم مفترون على الله.

﴿فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا﴾ ؛ فنسب إليه تحريم ما لم يحرم، والمراد: كبراؤهم الأوائل كعمرو ابن لحي وأمثاله، أي: لا أحد أظلم ممن كذب على الله، ﴿ليُضل الناس بغير علم إن الله لا يهدي القوم الظالمين﴾ إلى مراشدهم، أو إلى ما ينفعهم.

الإشارة: ومن الأحوال ما تحمل صاحبها إلى مقام الحرية، بشهود الربوبية، فيغلب عليه العز والاستظهار، ومنها ما تحمله إلى مقام العبودية، فيغلب عليه الذل والانكسار، وإليه الإشارة بقوله: «حمولة وفرشا»، فليتمتع المريد بما يظهر عليه منهما، ولا يتبع خطوات الشيطان فيتعدى طوره، ولا يعرف قدره.

وهذه الأحوال ثمانية أنواع: أربعة سفلية تناسب العبودية، وأربعة علوية تناسب الربوبية. فالأربعة السفلية: الذل، والفقر، والعجز، والضعف. والأربعة العلوية: العز، والغنى، والقدرة، والقوة. فمن أراد التعلق بهذه الأوصاف فليناد من كوة الذل: يا عزيز من للذليل سواك؟، ومن كوة الفقر: يا غني من للفقير سواك؟، ومن كوة العجز: يا قدير من للعاجز سواك؟ ومن كوة الضعف: يا قوي من للضعيف سواك؟، ير الإجابة طوع يديه، ومن أراد التحقق بها، فليتحقق بذله يمده بعزه، وليتحقق بفقره يمده بغناه، وليتحقق بعجزه يمده بقدرته، وليتحقق بضعفه يمده بقوته، «تحقق بوصفك يمدك بوصفه». وبالله التوفيق.

ثم بيّن ما حرم عليهم ليقفوا عنده، فقال:

﴿ قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿قل﴾ لهم: ﴿لا أجد فيما أوحي إليّ﴾ في القرآن أو مطلق الوحي، ﴿محرما﴾ أي: طعاماً محرماً، ﴿على طاعم يطعمه﴾، أو يطعم منه غيره، ﴿إلاَّ أن يكون﴾ الطعام ﴿ميتة﴾، وفي قراءة بالتاء؛ لتأنيث الخبر، ﴿أو﴾ يكون ﴿دما مسفوحا﴾ أي: مصبوباً كدم المنحر، ﴿أو لحم خنزير فإنه رجس﴾ أي: خبيث، قيل: إنه يورث عدم الغيرة بالخاصية ﴿أو﴾ يكون ﴿فسقا﴾، من صفته: ﴿أهِلَّ لغير الله به﴾ أي: ذبح لغير الله، وذكر عليه اسم الصنم، وإنما سمي فسقاً؛ لتوغله في الفسق.

والآية تقتضي حصر المحرمات، فيما ذكر، وقد جاء في السنة تحريم أشياء لم تذكر هنا، كلحوم الحمر الإنسية والكلاب، وغيرها، فذهب قوم إلى أن السنة نسخت هذا الحصر. وذهب آخرون إلى أن الآية وردت على سبب، فلا تقتضي الحصر، وذهب آخرون إلى أن ما عدا ماذكر: مكروه.

وقال البيضاوي: والآية مُحكمة؛ لأنها تدل على أنه لم يجد فيما أوحي إليه إلى تلك الغاية محرماً غير هذه، ولا ينافي ورود التحريم في شيء آخر، فلا يصح الاستدلال بها على نسخ الكتاب بخبر الواحد، ولا على حل الأشياء غيرها، إلا مع الاستصحاب(١).هـ.

ثم استثنى المضطر، فقال: ﴿فمن اضطُرَّ﴾ إلى تناول شيء من ذلك، ﴿غير باغٍ﴾ على مضطر مثله، ﴿ولا عادٍ﴾ أي: متجاوز قدر الضرورة، ﴿فإن ربك غفور رحيم﴾ لا يؤاخذه.

الإشارة: الأحوال كلها تتقوت منها الروح، إلا ماكان غير مباح في الشرع، فلا سير فيه، والمراد بالأحوال: خرق عوائدها، بكل ما يثقل عليها، وأما ما كان محرما في الشرع فلا بركة في تناوله؛ لأنه رجس، وأجازه بعض الصوفية محتجاً بقضية لص الحمام، وفيه مقال، فمن اضطر إلى تناوله، لغلبة حال عليه، غير قاصد لمخالفة الشرع، فإن الله غفور رحيم، وعليه حمل بعضهم قصة لص الحمّام(٢). والله تعالى أعلم.

---

(١) الاستصحاب – اصطلاحاً: هو الحكم بثبوت أمر في الزمن الثاني، بناء على ثبوته في الزمان الأول. (التعريفات/٤٤).
(٢) راجع قصة لص الحمّام في التعليق على إشارة الآية ٢٦٧ من سورة البقرة.

ثم ذكر ما حرّم على بنى إسرائيل، فقال:

﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾ ﴾

قلت: الحوايا هي الأمعاء، أي: المصارين التي فيها البعر، وتسمى المباعر، جمع حوية، فعيلة، فوزنها على هذا: فعائل، فصنع بها ما صنع بهراوا، وقيل: جمع حاوية، فوزنها: فواعل، كقوارب، وهو عطف على ما في قوله: ﴿إلا ما حملت﴾.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر﴾؛ ماله أصبع، كالإبل والأوز والنعام، وغيرها من الحيوان، الذي هو غير منفرج الأصابع وله ظفر، وقيل: كل ذي مخلب وحافر، وسمى الحافر ظفراً؛ مجازاً

﴿ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما﴾ كالثروب وشحوم الكُلى، ﴿إلا ما حملتْ ظُهورهما﴾ أي: إلا ما علق من الشحم بظهور البقر والغنم، فهو حلال عليهم، لكنهم اليوم لا يأكلونه، حدثني شيخي الفقيه الجنوي أنه سأل بعض أحبارهم: هل هو حرام في كتابكم؟ فقال له: لا، لكنهم قاسوه سداً للذريعة.هـ. فلما شددوا شدد الله عليهم، ﴿أو الحوايا﴾ أي: ما احتوت عليه الأمعاء والحشوة مما يتحوى في البطن من الشحوم، فهو حلال عليهم ﴿أو ما اختلط بعظم﴾ في جميع الجسد، فإنه حلال عليهم، لكنهم شددوا فحرموا الجميع عقوبة من الله ﴿ذلك﴾ التحريم جزاء ﴿جزيناهم﴾ به بسبب بغيهم، أي: ظلمهم، ﴿وإنا لصادقون﴾ فيما أخبرنا به من التحريم، وفي ذلك تعريض بكذب من حرّم غير ما حرم الله.

الإشارة: يؤخذ من الآية أن الذنوب والمعاصي تضيق على العبد لذائذ متعته، وتقتر عليه طيب رزق بشريته، وتضيق عليه أيضاً حلاوة المعاملة في قلبه، ولذة الشهود في روحه وسره، لقوله تعالى: ﴿ذلك جزينهم ببغيهم﴾، وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾[1]، وقال في شأن القلب: ﴿ إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا ﴾[2] ، أي: نوراً يفرق بين الحق والباطل، وقال تعالى: ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ﴾[3] أي: علماً لدُنيا، فالمعصية كلها تُبعد العبد من الحضرة، إن لم يتب، والطاعة كلها تقرب من الحضرة. والتنعم إنما هو على قدر القرب، ونقصانه على قدر البُعد. والله تعالى أعلم.

(١) الآية ٩٦ من سورة الأعراف (٢) الآية ٢٩ من سورة الأنفال.
(٣) من الآية ٢٨٢ من سورة البقرة.

ولمَّا كانت المعصية توجب تعجيل العقوبة أخبر تعالى عن سعة حلمه، فقال:

﴿ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿فإنْ كذبوك﴾ يا محمد، ﴿فقل﴾ لهم: ﴿ربكم ذو رحمة واسعة﴾ يُمهلكم على التكذيب، فلا تغتروا بإمهاله؛ فإنه يُمهل ولا يُهمل. ولذلك أعقبه بقوله: ﴿ولا يُرَدُّ بأسه عن القوم المجرمين﴾ حين ينزل بهم، أو ذو رحمة واسعة على المطيعين، وذو بأس شديد على المجرمين، فأقام مقامه: ﴿ولا يُرَدُّ بأسه عن القوم المجرمين﴾، لتضمنه التنبيه على إنزال البأس عليهم، مع الدلالة على أنه لازب لايمكن رده. قاله البيضاوي. وفي ابن عطية: ولكن لا تغتروا بسعة رحمته، فإن له بأساً لا يُرد عن القوم المجرمين.هـ.

الإشارة: يؤخذ من تقديم الرحمة الواسعة على البأس الشديد أن جانب الرجاء أقوى من جانب الخوف؛ لأن حسن الظن بالله مطلوب من العبد على كل حال، لأن الرجاء وحسن الظن يستوجبان محبة العبد وإيحاشه إلى سيده بخلاف الخوف، وهذا مذهب الصوفية: أن تغليب الرجاء هو الأفضل في كل وقت، ومذهب الفقهاء أن حال الصحة ينبغي تغليب الخوف لينزجر عن العصيان، وحال المرض يغلب الرجاء؛ إذ لا ينفع حينئذ، فالصوفية يرون أن العبد معزول عن الفعل، فليس له قدرة على فعل ولاترك، وإنما ينتظر ما تفعل به القدرة، فهو كحال المستشرف على الموت. والفقهاء يرون أن العبد له كسب واختيار. والله تعالى أعلم.

ولا ينفع الاحتجاج بالقدر على كلا المذهبين، كما قال تعالى:

﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ ۖ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا ۖ فَإِن شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ۚ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾ ﴾

قلت: (هَلُم): اسم فعل، وهو عند البصريين بسيط، وعند الكوفيين مركب. انظر البيضاوي.

يقول الحق جل جلاله: ﴿سيقول الذين أشركوا﴾ في الاحتجاج لأنفسهم: ﴿لو شاء الله﴾ عدم شركنا ﴿ما أشركنا ولا﴾ أشرك ﴿آباؤنا، ولاحرمنا من شيء﴾ من البحائر وغيرها، فلو لم نكن على حق مرضي عند الله ما أمهلنا ولا تركنا عليه؛ فإمهاله لنا وتركه لنا على ما نحن فيه دليل على أنه أراده منا.

والجواب عن شبهتهم: أنه خلاف ما أنزل الله على جميع رسله، والحق تعالى لم يتركهم على ذلك، بل بعث لهم الرسل يكلفهم بالخروج عنه، والإرادة خلاف التكليف، وأيضاً: قولهم هذا لم يصدر منهم على وجه الاعتذار؛ وإنما صدر منهم على وجه المخاصمة والاحتجاج. ولا يصح الاحتجاج بالقدر. والحاصل أنهم تمسكوا بالحقيقة ورفضوا الشريعة، وهو كفر وزندقة، إذ لابد من الجمع بين الحقيقة في الباطن، والتمسك بما جاءت به الرسل من الشريعة في الظاهر، وإلاَّ فهو على باطل.

ولذلك ردّ الله تعالى عليهم بقوله: ﴿ كذلك كذب الذين من قبلهم ﴾ الرسل، فتمسكوا بالحقيقة الظلمانية، ﴿ حتى ذاقوا بأسنا ﴾ أي :عذابنا الذى أنزلناه عليهم بتكذيبهم ﴿ قل ﴾ لهم: ﴿ هل عندكم من علم ﴾ يدل على أن الله أمركم بالشرك، وتحريم ما أحل، وأنه رضى ذلك لكم، ﴿ فتخرجوه ﴾ أى: فتظهروه ﴿ لنا ﴾ ، بل ﴿ إن تتبعون ﴾ فى ذلك ﴿ إلا الظن ﴾ ولا تحقيق عندكم، ﴿ وإن أنتم إلا تخرصون ﴾؛ تكذبون على الله تعالى، وفيه دليل على أن الظن لا يكفى فى العقائد.

﴿ قل ﴾ لهم: ﴿ فلله الحجة ﴾ على عباده، ﴿ البالغة ﴾ ، حيث بعث الرسل مبشرين ومنذرين، وأمروا بتوحيد الله وطاعته، فكل من خالفهم قامت الحجة عليه، هذا باعتبار التشريع الظاهر، وأما باعتبار باطن الحقيقة، فالأمور كلها بيد الله؛ يضل من يشاء بعدله، ويهدى من يشاء بفضله، ﴿ فلو شاء لهداكم أجمعين ﴾ ولكن شاء هداية قوم وضلال آخرين، ﴿ لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴾(١) فقول المشركين: ﴿لو شاء الله ...﴾ الخ، حق فى نفسه، لكنهم لم يعذَروا؛ لإهمالهم الشريعة.

﴿ قل هلُم ﴾ أى: أحْضروا، ﴿ شهداءكم ﴾ أى: كبراءكم وأئمتكم، ﴿ الذين يشهدون أن الله حرم هذا ﴾ ، استحضرهم ليلزمهم الحجة، ويظهر بانقطاعهم ضلالهم، وألاَّ متمسك لهم فى ذلك. ثم قال لنبيه ـ عليه الصلاة والسلام ـ: ﴿ فإن شهدوا ﴾ بشيء من ذلك، ﴿ فلا تشهد معهم ﴾ أى: لا تصدقهم وبيِّنْ لهم فساده؛ ﴿ ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآيتنا ﴾ ، والأصل أن يقول: ولا تتبع أهواءهم، فوضع الظاهر موضع المضمر، للدلالة على أن مكذب الآية متبع للهوى لا غير، وأن متبع الحق لا يكون إلا مصدقاً لها. ﴿ و ﴾ تتبع أيضا ﴿ الذين لايؤمنون بالآخرة ﴾ ؛ كعبدة الأوثان، ﴿ وهم بربهم يعدلون ﴾ ؛ يجعلون له عديلاً ومثيلاً.

الإشارة: اعلم أن الحق جل جلاله كلف عباده فى هذه الدار، بالقيام بوظيفتين: الشريعة والحقيقة، الشريعة محلها الظواهر، والحقيقة محلها البواطن، الشريعة تقتضى التكليف، والحقيقة تقتضي التعريف، الشريعة شهود الحكمة، والحقيقة شهود القدرة. وجعل الشريعة رداء الحقيقة ولباساً لها، ثم جعل سبحانه فى القلب عيدين، وتسمى

(١) الآية ٢٣ من سورة الأنبياء.

البصيرة، إحداهما تنظر للحكمة فتقوم بالشرائع، والأخرى تنظر للقدرة فتقوم بالحقائق. فقوم فتحوا عين الحقيقة وأعموا عين الشريعة، وهم أهل الكفر والزندقة، ولذلك قالوا: ﴿لو شاء الله ما أشركنا﴾، وقوم فتحوا عين الشريعة وأهملوا عين الحقيقة، وهم عوام المسلمين من أهل اليمين، فلذلك طال خصمهم للمقادير الأزلية مع إقرارهم بها، فإن أنكروها فقد عَمِيَتْ بصيرتهم.

وقوم أحبهم الله، ففتح لهم عين الحقيقة، فأسندوا الأفعال كلها إلى الله ولم يروا معه سواه، فتأدبوا في الباطن مع الأشياء كلها، وفتح لهم عين الشريعة فقاموا بوظائف العبودية على المنهاج الشرعي، وهم الأولياء العارفون بالله، فمن تمسك بالحقائق العلمية دون الشرائع كان زنديقا، ومن تمسك بالشرائع دون الحقائق كان فاسقا، ومن تمسك بهما كان صدِّيقًا، فمن رام التمسك بالشرائع، ولم تُسعفه الأقدار، فإن كان عن سُكر وجذب فهو معذور، وإن كان عن كسل فهو مخذول، وإن كان عن إنكار لها فهو مطرود معدود من حزب الشيطان، والعياذ بالله.

ثم بيّن لهم ما حرم عليهم، فقال:

﴿ ۞ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ﴾

قلت: (تعالوا): أمر من التعالي، وأصله: أن يقوله من كان في علو لمن كان في سفل، فاتسع فيه بالتعميم في كل أمر بالقدوم، و(ألاتشركوا): فيه تأويلات؛ أحدها: أن تكون مفسرة لاموضع لها، و(لا): ناهية جزمت الفعل، أو تكون مصدرية في موضع رفع، أي: الأمر ألاّ تشركوا، و(لا): نافية حينئذ، أو بدل من «ما»، و(لا): زائدة، أو على حذف الإغراء، أي: عليكم ألا تشركوا.

قال ابن جزي: والأحسن أن يكون ضَمَّنَ ﴿حرّم﴾ معنى وَصَّى، وتكون «أن» مصدرية، و«لا» نافية، ولا تفسد المعنى؛ لأن الوصية في المعنى تكون بتحريم وتحليل وبوجوب وندب، ويدل على هذا قوله بعد ذلك:

﴿ ذلكم وصاكم به ﴾ ولا ينكر أن يريد بالتحريم ـ الوصية؛ لأن العرب قد تذكر اللفظ الخاص، وتريد به العموم، كما تذكر اللفظ العام وتريد به الخصوص، فتقدير الكلام على هذا: قل تعالوا أتل ما وصاكم به ربكم، ثم أبدل منه، على وجه التفسير والبيان، فقال: ألاَّ تشركوا، ووصاكم بالإحسان بالوالدين، وهكذا .. فجمعت الوصية ترك الإشراك وفعل الإحسان بالوالدين، وما بعد ذلك. انظر بقية كلامه.

وإنما قال الحق سبحانه: (من إملاق)، وقدَّم الكاف في قوله (نرزقكم)، وفي الإسراء قال: ﴿ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ ﴾(١)، وأخر الكاف؛ لأن ما هنا نزل في فقراء العرب، فكان الإملاق نازلاً بهم وحاصلاً لديهم، فلذلك قال: ﴿ من إملاق ﴾، وقدم الخطاب لأنه أهم. وفي الإسراء نزلت في أغنيائهم، فكانوا يقتلون خوفاً من لحوق الفقر، لذلك قال: ﴿ خشية إملاق ﴾، وقدم الغيبة فقال: ﴿ نحن نرزقهم ﴾؛ حين نخلقهم وإياكم.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ قل ﴾ لهم: ﴿ تعالَوا ﴾ أي: هلموا، ﴿ أتْلُ ﴾ أي: أقرأ ﴿ ماحرم ربكم عليكم ﴾، واجتمعت عليه الشرائع قبلكم، ولم يُنسخ قط في ملة من الملل، بل وصَّى به جميعَ الملل، هو ﴿ ألاَّ تُشركوا به شيئاً ﴾ بل توحدوه وتعبدوه وحده، ﴿ و ﴾ أن تحسنوا ﴿ بالوالدين إحساناً ﴾، ولا تُسيئوا إليهما؛ لأن من أساء إليهما لم يحسن إليهما. ﴿ ولا تقتلوا أولادكم من إملاق ﴾ أي: من أجل الفقر الحاصل بكم، وكانت العرب تقتل أولادها خوفاً من الفقر فنزلت فيهم، فلا يفهم منه إباحة قتلهم لغيره، ﴿ نحن نرزقكم وإياهم ﴾، فلا تهتموا بأمرهم حتى تقتلوهم.

﴿ ولاتقربوا الفواحش ﴾؛ كبار الذنوب ﴿ ما ظهر منها ﴾ للناس ﴿ وما بَطَنَ ﴾ في خلوة، أو: ما ظهر منها على الجوارح، وما بطن في القلوب من العيوب، ﴿ ولا تقتلوا النفس التي حرَّم الله إلا بالحق ﴾؛ كالقود، وقتل المرتد، ورجم المحصن. قال ﷺ: «لا يحلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلمٍ إلا بإحْدَى ثلاثٍ: زِنىً بعد إحْصَانٍ، وكُفْرٍ بعد إيمَانٍ؛ وقَتْلِ نَفْسٍ بغيْرِ نَفْسٍ»(٢). ﴿ ذلكم ﴾ المتقدم، ﴿ وصاكم به لعلكم تعقلون ﴾، فتتدبرون فيما ينفعكم وما يضركم

﴿ ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي ﴾ بالخصلة التي ﴿ هي أحسن ﴾؛ كحفظه وتثميره. والنهي عن القرب: يعم وجوه التصرف، وفيه سد الذريعة؛ لأنه إذا نهى عن القرب كان الأكل أولى، ﴿ حتى يبلغ أشده ﴾ وهو البلوغ مع الرشد، بحيث يعرف مصالح نفسه ويأمن عليه التبذير، فيدفع له، ﴿ وأوفوا الكيل والميزان بالقسط ﴾؛ بالعدل والتوفية، ﴿ لانُكلِّف نفساً إلا وسعها ﴾؛ إلا ما يسعها ولايعسر عليها، ولمَّا أمر بالقسط في الكيل والوزن، وقد علم أن القسط الذي لا زيادة فيه ولانقصان مما يجري فيه الحرج ـ أمر بالوسع في ذلك وعفا عما سواه.

---

(١) الآية ٣١ من سورة الأسراء.

(٢) أخرجه البخاري في (الديات، باب قول الله تعالى: «أن النفس بالنفس») ومسلم في (القسامة، باب ما يباح به دم المسلم)، عن ابن مسعود، رضي الله عنه.

﴿ وإذا قلتم ﴾ في حكومة ونحوها ، ﴿ فاعدلوا ولو كان ﴾ المقول له في شهادة أو حكومة ﴿ ذا قربى ﴾ ؛ فيجب العدل في ذلك، ﴿ وبعهد الله أوفوا ﴾ أي: ما عهد إليكم من ملازمة العدل وتأدية أحكام الشرع، أو ماعاهدتم مع عباده، ﴿ ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون ﴾ ؛ تتعظون به.

﴿ وأنَّ هذا ﴾ أي: ما تقدم في السورة كلها، ﴿ صراطي مستقيما فاتبعوه ﴾ ؛ لأن السورة بأسرها إنما هي في إثبات التوحيد، والنبوة، وبيان الشريعة، ﴿ ولا تتبعوا السُّبل ﴾ ؛ الأديان المختلفة والطرق التابعة للهوى، فإن مقتضى الحجة واحد، ومقتضى الهوى متعدد؛ لاختلاف الطبائع والعادات، ولذلك تفرقت. والمراد بالطرق: اليهودية والنصرانية وغيرهما من الأديان الباطلة، ويدخل فيه البدع والأهواء، وفي الحديث أن النبي ﷺ خط خطاً، ثم قال: «هذا سبيل الله»، ثم خط خطوطاً عن يمينه وشماله، ثم قال: «هذه سُبُلٌ، وعلى كُلِّ سَبيلٍ منها شيطانٌ يَدْعُو إليها»(١). ﴿ ذلكم ﴾ الاتباع ﴿ وصاكم به لعلكم تتقون ﴾ الضلال والتفرق عن الحق. وبالله التوفيق.

الإشارة: قد وصى الحق ـ جل جلاله ـ على التخلص من الشرك، جليه وخفيه، ولا يكون إلا بتحقيق الإخلاص والتوحيد الخاص. وهو مطلب الصوفية، وبالإحسان بالوالدين الروحانيين والبشريين، أي: والد الأرواح – وهو الشيخ المربي – ووالد الأشباح، ولابد للمريد من طاعتهما، إلا أنه يقدم طاعة الشيخ، كما تقدم عن الجنيد في (سورة النساء).

ووصى بعدم قتل الأولاد، وهم المواهب والعلوم بإهمال القلب في الغفلة، وعدم قرب الفواحش: الظاهرة الحسية، والباطنية القلبية؛ كالحسد، والكبر، وحب الجاه والدنيا، وسائر العيوب. وعدم قتل النفس بالانهماك في الهوى والغفلة حتى تموت بالجهل عن المعرفة. وعدم قُرب مال اليتيم، وهو الذي ليس له شيخ، فإن الغالب عليه عدم المسامحة، وسيأتي عند قوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ ﴾(٢)، إشارة لها أرق من هذه، وعلى التوفية في الأمور كلها؛ لأن الصوفي من أهل الصفاء والوفاء، وعلى الصدق في الأقوال والأفعال والأحوال. وعلى الوفاء بالعهد، وأعظمها عهد الشيوخ المربين، وعلى اتباع طريق السلوك الموصلة للحضرة وهي ما عينه الشيوخ للمريدين، فلا يتعدى نظرهم ولو لحظة . وبالله التوفيق.

ولما ذكر ما وصى به هذه الأمة، ذكر ما وصى به بني إسرائيل، فقال:

﴿ ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ ﴾

(١) أخرجه أحمد في المسند ١/٤٣٥.
(٢) من الآية ١٤٣ من سورة الأعراف.

قلت: (ثم): هنا للترتيب الإخباري، وقال ابن جزي: هذه الوصية قديمة لكل أمة على لسان نبيها، فصح الترتيب. وقال البيضاوي: (أو): للتفاوت في الرتبة، كأنه قيل: ذلكم وصاكم به قديماً وحديثاً، ثم أعظم من ذلك: أنا آتينا موسى الكتاب... إلخ. وهو عطف على (وصاكم)، و(تماماً، وتفصيلا): حالان، أو علتان، أو مصدران.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ثم﴾ نخبرك أنا ﴿آتينا موسى الكتاب﴾؛ التوراة، ﴿تماماً على الذي أحسن﴾ القيام به من بني إسرائيل، ويدل عليه قراءة: (أحسنوا)، أي: تماماً للنعمة على العاملين به، أو تماماً على موسى الذي أحسن القيام به، أي: آتيناه الكتاب تفضلاً وإتماماً للنعمة؛ جزاء على ما أحسن من طاعة ربه وتبليغ رسالته، ففاعل أحسن: ضمير موسى. أو: ﴿تماماً﴾ أي: إكمالاً على ما أحسن الله به إلى عباده، فالفاعل على هذا: ضمير الله تعالى، ﴿وتفصيلاً﴾ أي: تبييناً ﴿لكل شيء﴾ يحتاجون إليه في الدين. ﴿وهدى﴾ أي: هداية للظواهر، ﴿ورحمة﴾ للقلوب، ﴿لعلهم﴾ أي: بني إسرائيل، ﴿بلقاء ربهم﴾ للجزاء، ﴿يؤمنون﴾ إيماناً صحيحاً، وهو اللقاء بالأجسام والأرواح، والنعيم أو العذاب للأشباح. والله تعالى أعلم.

الإشارة: كل من أحسن عبادة ربه في الظاهر، وحقق عبوديته في الباطن، أتم الله عليه نعمته بشهود ذاته وأنوار صفاته، ووهب له علوماً لدنية تفصل له ما أشكل، يكون له هداية لزيادة الترقي، ورحمةً يتهيأ بها قلبه لوحي الإلهام والتلقي. وبالله التوفيق.

ثم ذكر فضل كتابه العزيز، فقال:

﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٥٥) أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ
أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ (١٥٦) أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ
أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى
وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ
ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ (١٥٧) ﴾

قلت: (أن تقولوا): مفعول له، أي: كراهة أن تقولوا.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وهذا﴾ القرآن ﴿كتاب أنزلناه مبارك﴾ كثير النفع ﴿فاتبعوه﴾ في الأصول والفروع، ﴿واتقوا﴾ الشرك والمعاصي، ﴿لعلكم تُرحمون﴾ ببركة اتباعه؛ فتحيا به قلوبكم، وتنتعش به

أرواحكم، وإنما أنزلناه؛ كراهة ﴿أن تقولوا يوم القيامة﴾ في الحجة: ﴿إنما أُنزل الكتابُ على طائفتين من قبلنا﴾ ؛ اليهود والنصارى، وإنما خصهما بالذكر لشهرتهما دون الكتب السماوية، ﴿وإن كنا﴾ وإنه، أي: الأمر والشأن، كنا ﴿عن دراستهم﴾ أي: قراءتهم ﴿لغافلين﴾ أي: كنا غافلين عن قراءة أهل الكتاب، لاندري ما هي ولا نعرف مثلها، أو لم ندرس مثل دراستهم، ولم نعرف ما درسوا من الكتب، فلا حجة علينا، فقد قامت الحجة عليكم بنزول القرآن.

﴿أو﴾ كراهة أن ﴿تقولوا﴾ أيضا: ﴿لو أنا أُنزل علينا الكتابُ﴾ كما أُنزل إليهم، ﴿لكُنا أهدى منهم﴾ لحدة أذهاننا وثقابة أفهامنا، ولذلك تلقفنا فنوناً من العلم، كالقصص والأشعار والخطب والأنساب، مع كوننا أميين، قال تعالى لهم: ﴿فقد جاءكم بينة من ربكم﴾ وهو القرآن؛ حجة واضحة تعرفونها؛ ﴿وهدى ورحمةٌ﴾ لمن تدبره وعمل به، ﴿فمن أظلم﴾ أي: لا أحد أظلم ﴿ممن كذّب بآيات الله﴾ بعد أن عرف صحتها، ﴿وصَدَف﴾ ؛ أعرض ﴿عنها﴾، سنجزي الذين يصدفون عن آياتنا سوء العذاب﴾ ؛ ألمه وقبحه، ﴿بما كانوا يصدفون﴾ أي: يعرضون ويصدون عنها.

الإشارة: جعل الله رحمة القلوب وحياة الأرواح في شيئين: في التمسك بالقرآن العظيم وتدبر معانيه، واتباع أوامره واجتناب نواهيه، وفي التحصن بالتقوى جهد استطاعته، فبقدر ما يتحقق بهذين الأمرين تقوى حياة قلبه وروحه وسره، حتى يتصل بالحياة السرمدية، وبقدر ما يُخل بهما يحصل له موت قلبه وروحه، والإنسان إنما فضل وشرف بحياة قلبه وروحه، لا بحياة جسمه، ولا حجة له أن يقول: كنت مريضاً ولم أجد من يعالجني، ففي كل زمان رجال تقوم الحجة بهم على عباد الله، فيقال لهم: قد جاءكم بينة من ربكم، وهو الولي العارف، وهدى ورحمة لأهل عصره، لمن تمسك به وصحبه، وأما من أعرض عنه بعد معرفته فلا أحد أظلم منه، ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا...﴾ الآية.

ثم هددَ أهل الإعراض، فقال:

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَـٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَـٰنِهَا خَيْرًا قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿هل ينظرون﴾ أي: ما ينتظر أهل مكة ﴿إلا أن تأتيهم الملائكة﴾ لقبض أرواحهم، أو بالعذاب، لأجل كفرهم، وهم لم يكونوا ينتظرون ذلك، ولكن لما كان يلحقهم لحوق المنتظر شبهوا بالمنتظرين، ﴿أو يأتي ربك﴾ أي: أمره بالعذاب، ﴿أو يأتي بعض آيات ربك﴾ يعني: أشراط الساعة.

وعن حذيفة والبراء بن عازب: كنا نتذاكر الساعة، إذ أشرق علينا رسول الله ﷺ، فقال: ما تذاكرون؟ قلنا: نتذاكر الساعة، فقال: «إنها لاتقوم حتى تروا قبلها عشر آيات: الدجال ودابة الأرض، وخسفاً بالمشرق، وخسفاً بالمغرب، وخسفاً بجزيرة العرب، والدخان، وطلوع الشمس من مغربها، ويأجوج ومأجوج، ونزول عيسى، وناراً تخرج من عدن»(١).

﴿ يوم يأتي بعض آيات ربك ﴾ ، وهو طلوع الشمس من مغربها، كما في حديث الصحيحين(٢)، قال الأقليشي: وذلك أن الله تعالى، إذا أراد طلوعها من مغربها، حبسها ليلة تحت العرش، فكلما سجدت واستأذنت لم يجر لها جواب، حتى يحبسها مقدار ثلاث ليال، فيأتيها جبريل عليه السلام فيقول: إن الرب تعالى يأمرك أن ترجعي إلى مغربك فتطلعي منه، وأنه لاضوء لك عندنا ولانور، فتبكي عند ذلك بكاء يسمعها أهل السبع سموات، ومن دونها، وأهل سرادقات العرش وحملته من فوقها، فيبكون لبكائها مما يخالطهم من خوف الموت، وخوف يوم القيامة، قال: فيبيت الناس ينتظرون طلوعها من المشرق، فتطلع الشمس والقمر خلف أقفيتهم من المغرب، أسودين مُكَدّرين، كالقارتين، ولاضوء للشمس ولانور للقمر، فيتصايح أهل الدنيا، وتذهل الأمهات عن أولادها، والأحبة عن ثمرة قلوبها، فتشتغل كل نفس بنفسها، ولا ينفع التوحيد حينئذ.هـ.

وهو معنى قوله تعالى: ﴿ يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفسا إيمانها ﴾ ؛ كالمحتضر إذا صار الأمر عياناً، وإنما ينفع الإيمان بالغيب، وقد فات يومئذ، فلا ينفع الإيمان نفساً ﴿ لم تكن آمنت من قبل ﴾ ، ولا تنفع التوبة من المعاصي وترك الواجبات حينئذ؛ لقوله: ﴿ أو كسبت في إيمانها خيرا ﴾ أي: لاينفع نفساً مؤمنة لم تكن كسبت خيراً قبل ذلك اليوم، حيث كانت فرطت فيه قبل، وينفع اكتسابه بعد.

والحاصل: أن طلوع الشمس من مغربها يُغلق بعده بابُ التوبة؛ فلا يقبل الإيمان من كافر، ولا التوبة من عاصٍ، وأما الإيمان المجرد عن العمل، إذا كان حاصلاً قبل ذلك اليوم، فإنه ينفع على مذهب أهل السنة، وكذلك العاصي بالبعض ينفعه بعض الذي كان يعمله، كالزاني مثلا، إذا كان يصلي، فتنفعه صلاته ويعاقب على العصيان، وهكذا، والمنفي قبوله: إنما هو الخير المتروك قبل ذلك اليوم، فلا ينفع استدراكه بعد.

ثم قال تعالى: ﴿ قل انتظروا ﴾ إتيان أحد الثلاثة؛ الملائكة بعذابكم، أو أمر الله تعالى بإهلاككم، أو بعض آياته، ﴿ إنا منتظرون ﴾ ذلك، لنا الفوز وعليكم الويل.

الإشارة: ما ينتظر الغافلون والمنهمكون في اللذات والشهوات والإعراض عن الله إلا أن تأتيهم الملائكة لقبض أرواحهم فجأة، فيموتون على الغفلة، فتنزل بهم الحسرة والندم، وقد زلت القدم بهم، أو يأتي أمر الله بطردهم والطبع على قلوبهم، فلا ينفعهم وعظ ولاتذكير، أو يأتي بعض آيات ربك؛ مصيبة أو داهية تثقل قلوبهم عن

(١) أخرجه بنحوه مسلم في (الفتن، باب في الأمارات التي تكون قبل الساعة).
(٢) عن أبي هريرة رضى الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعين...» الحديث بطوله أخرجه البخاري في (تفسير سورة الأنعام) ومسلم في (الإيمان، باب: إتيان الزمن الذي لا يقبل الله فيه الإيمان).

التوجه إلى الله، وجوارحهم عن طاعة الله. فالغافل والعاصي بين هذه الثلاثة، إن لم يقلع ويتب. والله تعالى أعلم.

ثم أمرهم بالإعراض عن أهل الإعراض، فقال:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ إن الذين فرقوا دينهم ﴾ ؛ فآمنوا بالبعض وكفروا بالبعض، وهم اليهود والنصارى، وقيل: أهل الأهواء والبدع، فيكون إخباراً بغيب، وفي الحديث أن رسول الله ﷺ قال: «افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة، وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار إلا واحدة. قيل: يا رسول الله، وما تلك الواحدة؟ قال: «من كان على ما أنا عليه وأصحابي » .

وقرئ: « فارقوا » أي: تركوا دينهم، ﴿ وكانوا شيعاً ﴾ ؛ جمع شيعة، أي: فرقاً متشيعة، كل فرقة تتشيع لمذهبها وتتشيع إمامها، أي: تنتسب إليه. ﴿ لستَ منهم في شيء ﴾ أي: أنت بريء منهم، فلست في شيء من السؤال عنهم وعن تصرفهم، أو عن عقابهم، وقيل: هو نهي عن التعرض لهم؛ فيكون منسوخاً بآية السيف، ﴿ إنما أمرهم إلى الله ﴾ يتولى جزاءهم، ﴿ ثم ينبئهم بما كانوا يعملون ﴾ من التفرق فيعاقبهم عليه.

الإشارة: الافتراق المذموم، إنما هو في الأصول؛ كالتوحيد وسائر العقائد، فقد افترقت المعتزلة وأهل السنة في مسائل منه، فخرج من المعتزلة اثنان وسبعون فرقة، وأهل السنة هي الفرقة الناجية، وأما الاختلاف في الفروع فلا بأس به، بل هو رحمة لقوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «خلاف أمتي رحمة»، كاختلاف القراء في الروايات، واختلاف الصوفية في كيفية التربية، فكل ذلك رحمة وتوسعه على الأمة المحمدية، إذ كل من أخذ بمذهب منها فهو سالم، مالم يتبع الرخص. وقال بعضهم: مادامت الصوفية بخير ما افترقوا، فإذا اصطلحوا فلا خير فيهم. ومعنى ذلك: إنما هو في التناصح والإرشاد والنهي بعضهم لبعض عما لا يليق في طريق السير، فإذا سكت بعضهم عن بعض؛ مداهنةً وحياءً فلا خير فيهم، وأما قلوبهم فلابد أن تكون متفقة متوددة، لابغض فيها ولاتحاسد، وإلا لم يكونوا صوفية. والله تعالى أعلم.

ثم رغّب في الخير قبل فوات إبانه، فقال:

﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿من جاء بالحسنة﴾ قولية أو فعلية أو قلبية، ﴿فله عشر أمثالها﴾ من الحسنات، فضلاً من الله، وهذا أقل ما وعد من الأضعاف، وقد جاء الوعد بسبعين وسبعمائة، وبغير حساب، ولذلك قيل: المراد بالعشر: الكثرة دون العدد، ﴿ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها﴾ ؛ قضية للعدل، ﴿وهم لايظلمون﴾ بنقص الثواب وزيادة العقاب.

الإشارة: إنما تضاعف أعمال الجوارح وما كان من قبل النيات، وأما أعمال القلوب فأجرها بغير حساب، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾(١)، وقال ﷺ: «تفكر ساعة أفضل من عبادة سبعين سنة» . وقال الشاعر:

كُـلُّ وَقْـتٍ مِـنْ حَبِيبِـي ... قَـدْرُه كَـأَلْفِ حِجَّـهْ

وقد تقدم هذا في سورة البقرة(٢).

ثم إن تضعيف الحسنات إنما يكون لمن تمسك بالدين القيم، وهو الذى أشار إليه بقوله:

﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ ﴾

قلت: (دِينًا) : بدل من محل «صراط»؛ لأن الأصل: هداني صراطاً مستقيما ديناً قيماً، و(قَيِّمًا): فيعل من القيام، فهو أبلغ من مستقيم، ومن قرأ بكسر القاف: فهو مصدر وصف به؛ للمبالغة، و(ملة إبراهيم) : عطف بيان لدين، و(حنيفاً) : حال من إبراهيم.

يقول الحق جل جلاله: ﴿قل﴾ لهم: ﴿إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم﴾ بالوحي والإرشاد إلى ما نصب من الحجج والآيات، ﴿ دينا قيما ﴾ ؛ مستقيماً يوصل من تمسك به إلى جوار الكريم، في حضرة النعيم، وهو ﴿ملة إبراهيم﴾ أي: دينه، حال كونه ﴿حنيفًا﴾ : مائلاً عما سوى الله، ﴿وما كان من المشركين﴾، وهو تعريض لقريش، الذين يزعمون أنهم على دينه، وقد أشركوا بالله عبادة الأوثان.

الإشارة: قد أخذ الصوفية من هذا الدين القيم، الذي هدى الله إليه نبيه ـ عليه الصلاة والسلام ـ خلاصته ولبابه، فأخذوا من عقائد التوحيد: الشهود والعيان على طريق الذوق والوجدان؛ ولم يقنعوا بالدليل والبرهان، وأخذوا من الصلاة: صلاة القلوب، فهم على صلاتهم دائمون مع صلاة الجوارح، على نعت قوله: ﴿ الَّذِينَ هُمْ

(١) الآية ١٠ من سورة الزمر.

(٢) راجع إشارة الآية ١٩٧ من سورة البقرة.

في صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴾(١) وأخذوا من الزكاة: زكاة نفوسهم بالرياضة والتأديب وإضافة الكل إليه. (العبد وما كسب لسيده)، مع أداء الزكاة الشرعية لمن وجبت عليه. وكان الشيخ أبو العباس السبتي ﷺ يعطي تسعة أعشار زرعه، ويمسك العشر لنفسه.

وأخذوا من الصيام: صيام الجوارح كلها، مع صيام القلب عن شهود السّوى. وأخذوا من الحج: حج القلوب إلى حضرة علام الغيوب، فالكعبة تشتاق إليهم وتطوف بهم، كما تقدم في آل عمران. ومن الجهاد: الجهاد الأكبر، وهو جهاد النفوس، وهكذا مراسم الشريعة كلها عندهم صافية خالصة من الشوائب، بخلاف غيرهم، فلم يأخذ منها إلا قشرها الظاهر وعمل الأشباح، فهي صور قائمة لا روح فيها؛ لعدم الإخلاص والحضور فيها. والله تعالى أعلم.

ثم بيّن مقام الإخلاص، فقال:

﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (١٦٣) قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (١٦٤) ﴾

قلت: (ربًّا): حال من (غير).

يقول الحق جل جلاله: ﴿ قل ﴾ لهم يا محمد: ﴿ إن صلاتي ونسكي ﴾ أي: عبادتي كلها، وقرباتي أو حجي، ﴿ ومحياي ومماتي ﴾ أي: وعملي في حياتي، وعند موتي من الإيمان والطاعة، أو الحياة والممات أنفسهما، ﴿ لله رب العالمين، لا شريك له ﴾ أي: هي خالصة لله لا أشرك فيها غيره، ﴿ وبذلك ﴾ أي: بذلك القول والإخلاص، أمرني ربي، ﴿ وأنا أول المسلمين ﴾ ؛ لأن إسلام كل نبي متقدم على إسلام أمته

﴿ قل ﴾ لهم: ﴿ أغير الله أبغي ربا ﴾ فأشرك مع الله، ﴿ وهو ربُّ كل شيء ﴾ ؛ لأن كل شيء مربوب لايصلح للربوبية. وهو جواب عن دعائهم له إلى عبادة آلهتهم. ﴿ ولا تَكْسِبُ كلُّ نفس ﴾ من شرك أو غيره ﴿ إلا عليها ﴾ وزره، فلا ينفعني ضمانكم وكفالتكم من عقاب ربي، وهو رد على الكفار حيث قالوا له: اعبد آلهتنا ونحن نتكفل لك بكل تباعة تتوقعها في دنياك وأخراك، ثم أوضح ذلك بقوله: ﴿ ولا تزر ﴾ أي: تحمل نفس ﴿ وازرة ﴾ أي: آثمة ﴿ وزر ﴾ نفس ﴿ أخرى ﴾ أي: لا يحمل أحد ذنوب أحد، ﴿ ثم إلىَّ ربكم مرجعكم ﴾ بالبعث والحساب، ﴿ فينبئكم ﴾، أي: يُخبركم ﴿ بما كنتم فيه تختلفون ﴾ من أمر الدين؛ فيبين الرشد من الغي، والمحق من المبطل.

الإشارة: الإخلاص سر من أسرار الله، يُودعه قلب من أحب من عباده، وهو إخلاص العبودية لله وحده، ولايتحقق ذلك للعبد إلا بعد تحرره من رق الهوى وخروجه من سجن وجود نفسه، وهذا شيء عزيز. ولذلك قيل

---

(١) الآية ٢ من سورة المؤمنون.

وقال الشيخ أبو طالب المكي رَحِمَهُ اللَّهُ : الإخلاص عند المخلصين: إخراج الخلق من معاملة الخالق، وأول الخلق: النفس، والإخلاص عند المحبين : ألا يعمل عملاً لأجل النفس، وألاّ يدخل عليه مطالعة العوض، أو تشوف إلى حظ طبع، والإخلاص عند الموحدين: خروج الخلق من النظر إليهم، أي: لا يرون مع الله غيره في الأفعال، وترك السكون إليهم، والاستراحة إليهم في الأحوال. هـ.

وبالإخلاص تتفاوت الدرجات، كما أبان ذلك بقوله:

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿١٦٥﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله : ﴿ وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ﴾ أي: يخلف بعضكم بعضا، أو خلفاء الله في أرضه؛ تتصرفون فيها بإذنه، على أن الخطاب عام، أو خلفاء الأمم السابقة، على أن الخطاب للمسلمين، ﴿ ورفع بعضكم فوق بعض درجات ﴾ في الشرف والغنى والقوة والجاه، وفي العلوم والأعمال والأحوال والإخلاص والمعارف، وغير ذلك مما يقع به التفاضل بين العباد، ﴿ ليبلوكم فيما آتاكم ﴾ أي: ليختبر شكركم على ما أعطاكم، وأعمالكم فيما مكنكم فيه من الخلافة.

﴿ إن ربك سريع العقاب ﴾ لمن كفر نعمه، إما في الدنيا لمن عجل أخذه؛ لأن كل آت قريب، ﴿وإنه لغفور رحيم﴾ لمن شكر نعمه وآمن وعمل بطاعته، جمع بين التخويف والترجية ليكون العبد بينهما. وبالله التوفيق.

الإشارة: من شرف هذا الآدمي أن جعله خليفة عنه، في ملكه، يتصرف فيه بنيابته عنه، ثم إن هذا التصرف يتفاوت على قدر الهمم ، فبقدر ما ترتفع الهمة عن هذا العالم يقع للروح التصرف في هذا الوجود، فالعوام إنما يتصرفون فيما ملّكهم الله من الأملاك الحسية. والخواص يتصرفون بالهمة في الوجود بأسره، وخواص الخواص يتصرفون بالله، أمرهم بأمر الله، إن قالوا لشيء: كن. يكون بإذن الله، مع إرادة الله وسابق علمه وقدره، وإلا فالهمم لا تخرق أسوار الأقدار، والحاصل: أن من بقي مع الأكوان شهوداً وافتقاراً، كان محبوساً معها، ومن كان مع المكون كانت الأكوان معه، يتصرف فيها بإذن الله، خليفة عنه فيها، وهم متفاوتون في ذلك كما تقدم .

وقال تعالى: ﴿وهو الذي جعلكم خلائف الأرض﴾ أي: خلفاء عنه تتصرفون في الوجود بأسره بأرواحكم، وأنتم في الأرض بأشباحكم، ﴿ورفع بعضكم فوق بعض درجات﴾؛ من أقطاب وأوتاد ونجباء ونقباء وغير ذلك، مما هو مذكور في محله. خرطنا الله في سلكهم ومنحنا ما منحهم، بمنّه وكرمه، وبسيدنا محمد ﷺ حبيبه ونبيه. آمين. والحمد لله رب العالمين.

❁ ❁ ❁

سورة الأعراف

هي مكية إلا ثماني آيات، من قوله تعالى: ﴿واسألهم﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وإذ نتقنا﴾، وقيل: إلى قوله: ﴿وأعرض عن الجاهلين﴾. وآياتها: مائتان وخمس. قاله البيضاوي. ومضمنها: الحث على اتباع ما أنزله على نبيه من التوحيد والأحكام، والتحذير من مخالفته ومتابعة الشيطان، وذكر وبال من تبعه من القرون الماضية، وما لحقهم من الهلاك في الدنيا والعذاب في الأخرة، تتميماً لقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(١).

وافتتح السورة بالرموز التي بينه وبين حبيبه، فقال:

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * المص (١) ﴾

إما أن تكون مختصرة من المصطفى، على عادة العشاق؛ يرمزون إلى ذكر بعض حروف المحبوب، اتقاء الرقباء، أي: يا أيها المصطفى المختار لرسالتنا؛ هذا كتاب أنزل إليك، وإما أن تشير إلى العوالم الثلاثة: الجبروت والملكوت والملك. وزاد هنا الصاد، إشارة إلى صدقه فيما يُخبر به من علم الغيوب، ولذلك ذكر هنا جملة من القصص والأخبار.

وقال الورتجبي: كان الله ـ تبارك وتعالى ـ إذا أراد أن يتكلم مع نبيه محمد ﷺ بقصص الأنبياء، وما جرى عليهم في الدهور والأعصار، وشأنه معهم في الأسرار والحقائق والشرائع، وأراد أن يخصه ﷺ بشريعته، وما يكون من طريقته الخاصة إلى حضرته، ويخبره بما كان وما يكون، أشار إلى هذه الأشياء بحروف التهجي، وأعلمه سر ذلك بخفي الإشارة ولطيف الخطاب، وعلم تعالى أنه عليه الصلاة والسلام يعرف بتلك الإشارة مراده من علم سابق، ونبأ صادق، وعلم تعالى أن عموم أمته لا تعرف تلك الإشارة، فعبّر عنها بسورة طويلة من القرآن؛ ليعرفوا مراده سبحانه من خطابه، وخواص أمته ربما تطلع على سر بعضها، كالصحابة والتابعين والمتقدمين من العلماء والأولياء، كأنَّ حروف المقطعات رموز ومعاني سور القرآن، لايعرف تلك الرموز إلا الربانيون والأحبار من الصديقين. هـ.

(١) من الآية ١٦٥ من سورة الأنعام.

ثم ذكر حكمة إنزال الكتاب، فقال:

﴿ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٢ ﴾

قلت: (كتاب): خبر، أي: هذا كتاب، و(أُنزل): صفته، والحرج: الضيق، و(لتنذر): متعلق بأُنزل، أو بلايكن، لأنه إذا أيقن أنه من عند الله جسر على الإنذار، وكذا إذا لم يخفهم، و(ذكرى): يحتمل النصب بإضمار فعل، أي: لتُنذر ولتذكر ذكرى، والجر عطف على (لتنذر)، أي: للإنذار والتذكير، والرفع عطف على (كتاب).

يقول الحق جل جلاله: هذا ﴿ كتابٌ أنزل إليك ﴾ من ربك، ﴿ فلا يكن في صدرك حرجٌ منه ﴾ أي: ضيق وثقل من أجل تبليغه لمن يُكذب به، مخافة أن تكذَّب فيه، أو مخافة أن تقصر على القيام بتبليغه، أو بحقوقه، وتوجيه النهي إلى الحرج للمبالغة، كقولك: لا أرينك ها هنا، كأنه قال: فلا يحرج صدرك منه، وإنما أنزلناه إليك لتُنذر به من بلغه، ﴿ وذكرى للمؤمنين ﴾ أي: وتذكيراً وموعظة للمؤمنين؛ لأنهم هم المنتفعون بمواعظه.

الإشارة: تذكير أهل الإنكار ووعظهم يحتاج إلى سياسة كبيرة وحلم كبير وصبر عظيم، لا يطيقه إلا الأكابر من أهل العلم بالله؛ كالأنبياء والصديقين، لسعة معرفتهم، واتساع صدورهم لحمل الجفاء وتحمل الأذى، ونهيه تعالى لنبيه ـ عليه الصلاة والسلام ـ عن ضيق صدره: تشريع لورثته من بعده؛ الداعون إلى الله ـ عز وجل وإلاّ فهو ﷺ بحر واسع، لا تكدره الدِّلاءُ، كما قال البوصيري.

فَهو البَحْرُ والأنَامُ إضاء(١)

والله تعالى أعلم.

ثم حضَّ على الاتباع، فقال:

﴿ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٣ ﴾

قلت: (قليلاً): صفة لمصدرٍ، أو زمانٍ محذوف، أي: تتذكرون تذكراً قليلاً، أو زماناً قليلاً، والعامل فيه: تذكرون، و(ما): زائدة لتأكيد القلة.

(١) الإضاءة: جمع إضاءة، وهي: الغدران ـ جمع غدير. قلت: وهذا شطر بيت، أوله: لاتقِسْ بالنبيِّ في الفضل خلْقاً.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ اتَّبِعُوا ﴾ أيها الناس ﴿ ما أُنزل إليكم من ربكم ﴾ من أحكام القرآن والسنة؛ إذ كله وحى يوحى، ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴾(١)، ﴿ ولا تتبعوا من دونه ﴾ أى: الله، ﴿ أولياءَ ﴾ من الجن والإنس يضلونكم عن دينه، أو: ولا تتبعوا من دون ما أنزل إليكم أولياء، تتبعونهم فيما يأمرونكم به وينهونكم، وتتركون ما أنزل إليكم من ربكم، ﴿ قليلاً ما تذكَّرون ﴾: تتعظون حيث تتركون دين الله وتتبعون غيره، بعد كمال إنذاره ووضوح تذكاره، وذلك لانطماس البصيرة وعمى القلوب، والعياذ بالله.

الإشارة: اتباع الحبيب فى أمره ونهيه يدل على صحة دعوى المحبة، ومخالفته يدل على بطلانها.

تَعْصِي الإِلَه وأَنْتَ تُظْهِرُ حُبَّهُ ... هذا مُحَالٌ فى القِيَاسِ بَدِيعُ
لَوْ كَانَ حُبُّكَ صَادِقًا لأطَعْتَهُ ... إنَّ المُحِبَّ لِمَنْ يُحِبُّ مُطِيعُ(٢)

وجمع المحبة فى محبوب واحد يدل على كمالها، وتفرق المحبة يدل على ضعفها، ولذلك قال الشاعر:

كَانَتْ لقَلْبِي أَهْوَاءٌ مُفَرَّقَةٌ ... فاسْتَجْمَعَتْ مُذْ رأتْكَ العَيْنُ أهْوائى

فلا تجتمع المحبة في محبوب واحد إلا بعد كمال معرفة المحبوب، وشهود أنوار جماله وكمال أسراره. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر وبال من لم يتبع، فقال:

﴿ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ﴿٤﴾ فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٥﴾ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴿٧﴾ ﴾

قلت: (كم): خبرية، مفعول (أهلكنا)، وهو على حذف الإرادة، أى: فى الحال أردنا إهلاكها، و(بياتا أو هم قائلون): حالان، أى: بائتين أو قائلين، وأغنى الضمير فى (هم) عن واو الحال.

---

(١) الآية ٥ من سورة النجم.
(٢) البيتان لعبد الله بن المبارك.

يقول الحق جل جلاله: كثيراً من القرى ﴿أهلكناها﴾ لما عصت أمرنا، وخالفتْ ما جاءت به رسلنا، ﴿فجاءها بأسنَا﴾ أي: عذابنا ﴿بياتاً﴾ أي: ليلاً، كقوم لوط؛ قلبت مدينتهم، عاليها سافلها، وأرسلت عليهم الحجارة بالسَّحَر، ﴿أو هم قائلون﴾ نصف النهار، كقوم شعيب، نزلت عليهم نار فأحرقتهم، وهو عذاب يوم الظلة، وإنما خص الوقتين؛ لأنهما وقت دعة واستراحة، فيكون مجيىء العذاب فيهما أفظع.

﴿فما كان دعواهم﴾ أي: دعاؤهم واستغاثتهم حين جاءهم بأسنا، ﴿إلا أن قالوا إنا كنا ظالمين﴾ أي: إلا اعترافهم بظلمهم فيما كانوا عليه وبطلانه، تحسراً، أو: ما كان دعاؤهم إلا قولهم: ﴿.. يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ، فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ﴾(١): ميتين، فإذا أحييناهم وبعثناهم من قبورهم، فوالله ﴿لنسألن الذين أرسل إليهم﴾ عن قبول الرسالة وإجابة الرسل، ﴿ولنسألن المرسلين﴾ عما أُجيبوا به، والمراد بهذا السؤال: توبيخ الكفرة وتقريعهم، وأما قوله تعالى: ﴿وَلا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾(٢) فالمنفي: سؤال استعلام؛ لأن الله أحاط بهم علما، أو الأول في موقف الحساب، وهذا عند حصول العقاب.

﴿فلنقصَّنَّ عليهم﴾ أي: على الرسل والأمم، فنقص على الرسل ما قُوبلوا به من تصديق أو تكذيب، وعلى الأمم ما قابلوا به الرسل من تعظيم أو إنكار، أو فلنقص على الرسل ما علمنا من قومهم حين يقولون: ﴿لا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ﴾(٣). نقص ذلك عليهم ﴿بعلْم﴾ وتحقيق؛ لاطلاعنا على أحوالهم، وإحاطة علمنا بسرهم وعلانيتهم. ﴿وما كنا غائبين﴾ عنهم، فيخفى علينا شيء من أحوالهم، بل كنا حاضرين لديهم، محيطين بسرهم وعلانيتهم.

الإشارة: ما أهلك الله قوماً وعذبهم إلا بتضييع الشرائع أو إنكار الحقائق، فمن قام بهما معاً كان مصحوباً بالسلامة، موصوفاً بالكرامة في الدارين، ومن ضيعهما أو أحدهما لحقه الوبال في الدارين، فإذا لحقه إهلاك لم يسعه إلا الإقرار بالظلم والتقصير، حيث فاته الحزم والتشمير، فإذا ندم لم ينفعه الندم، حيث زلت به القدم، فالبدارَ البدارَ إلى التوبة والانكسار، والتمسك بشريعة النبي المختار، والتحقق بمعرفة الواحد القهار، وصحبة الصالحين الأبرار، والعارفين الكبار، قبل أن تصير إلى قبرك فتجده إما روضة من رياض الجنة، أو حفرة من حفر النار.

وكما أن الحق تعالىٰ يسأل الرسل عما أُجيبوا به، يسأل خلفاءهم ـ وهم الأولياء والعارفون ـ عما إذا قُوبلوا من تعظيم أو إنكار، فيرفع من عظمهم في أعلى عليين، ويحط من أنكرهم في محل أهل اليمين. وبالله التوفيق.

---

(١) الآيتان ١٤ ـ ١٥ من سورة الأنبياء.
(٢) الآية ٧٨ من سورة القصص.
(٣) من الآية ١٠٩ من سورة المائدة.

ثم ذكر مقادير الأعمال ووزنها، فقال:

﴿ وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝ ٨ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ۝ ٩ ﴾

قلت: (الوزن): مبتدأ، و(يومئذ): خبره، و(الحق): صفته، أي: الوزن العدل حاصل يومئذ.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ والوزن ﴾ أي: وزن الأعمال، على نعت الحق والعدل، حاصل يوم القيامة، حين يسأل الرسل والمُرسل إليهم. والجمهور على أن صحائف الأعمال تُوزن بميزان له لسان وكفتان، ينظر إليه الخلائق؛ إظهاراً للمعدلة وقطعاً للمعذرة، كما يسألهم عن أعمالهم، فتعترف بها ألسنتهم، وتشهد بها جوارحهم، ويؤيده ما رُوى: « أن الرجل يُؤتى به إلى الميزان، فيُنشر عليه تسعة وتسعُون سجلاً، كُلُّ سجلٍ مَد البصر، فتخرجُ له بطاقة فيها كلمةُ الشهادة، فتوضعُ السجلاتُ في كفةٍ، والبطاقة في كفة، فتثقل البطاقة، وتطيشُ السجلاتُ»(١).

وقيل: توزن الأشخاص؛ لما رُوى عنه ﷺ أنه قال: «إنَّهُ ليأتِي العَظِيمُ السَّمِينُ يَوْمَ القِيَامَةِ لا يَزِنُ عندَ اللهِ تعالى جَنَاحَ بَعُوضَةٍ»(٢). والتحقيق: أن المراد به الإهانة والتصغير، وأنه لا يساوى عند الله شيئاً؛ لاتباعه الهوى.

ثم فصل في الأعمال فقال: ﴿ فمن ثَقُلَتْ موازينه ﴾ أي: حسناته، أو الميزان الذى يوزن به حسناته، وجمعه باعتبار اختلاف الموزونات وتعدد الوزن، فعلى الأول هو جمع موزون، وعلى الثانى جمع ميزان، فمن رجحت حسناته ﴿ فأولئك هم المفلحون ﴾ الفائزون بالنجاة والثواب الدائم، ﴿ ومن خفتْ موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسَهُمْ ﴾ بتضييع الفطرة السليمة التى فطروا عليها، واقتراف ما عرضها للهلاك، ﴿ بما كانوا بآياتنا يَظْلِمُون ﴾ حيث بدلوا التصديق بها بالتكذيب، والعمل فيها بالتفريط. نسأل الله تعالى الحفظ.

الإشارة: العمل الذى يثقل على النفس كله ثقيل فى الميزان؛ لأنه لا يثقل عليها إلا ما كان حقاً، والعمل الذى يخف على النفس كله خفيف؛ لأنه فيه نوع من الهوى؛ إذ لا يخف عليها إلا مالها فيه حظ وهوى. وفي الحكم:

(١) أخرجه بنحوه الإمام أحمد فى المسند ٢/٢١٣ والترمذى فى (الإيمان، باب فيمن يموت وهو يشهد أن لا إله إلا الله) وابن ماجه فى (الزهد، باب ما يرجى من رحمة الله يوم القيامة) وصححه الحاكم ١/٦، من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص.

(٢) أخرجه البخارى فى (تفسير سورة الكهف، باب: «أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم..») ومسلم فى (صفات المنافقين وأحكامهم، باب صفة القيامة..) من حديث أبى هريرة.

«إذا التبس عليك أمران، فانظر أثقلهما على النفس فاتبعه؛ فإنه لا يثقل عليها إلا ما كان حقا». وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: والله ما ثقل ميزان عبد إلا باتباعه الحق، وما خف إلا باتباعه الهوى. قال تعالى: ﴿والوزن يومئذ الحق﴾. هـ. بمعناه، ذكره في القوت. وهذا في غير النفس المطمئنة، وأما هي فلا يثقل عليها شيء، وقد يثقل عليها الباطل، ويخف عليها الحق، لكمال رياضتها. والله تبارك وتعالى أعلم.

ثم ذكّرهم بالنعم، فقال:

﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ولقد مكناكم في الأرض﴾؛ تتصرفون فيها بالبناء والسكن، وبالغرس والحرث والزرع، وغير ذلك من أنواع التصرفات، ﴿وجعلنا لكم فيها معايش﴾: أسباباً تعيشون بها؛ كالتجارة وسائر الحرف، ﴿قليلا ما تشكرون﴾ على هذه النعم، فتقابلون المنعم بالكفر والعصيان، فأنتم جديرون بسلبها عنكم، وإبدالها بالنقم، لولا فضله ورحمته.

الإشارة: نعمة التمكين في الأرض متحققة في أهل التجريد، المنقطعين إلى الله تعالى، فهم يذهبون في الأرض حيث شاءوا، وموائدهم ممدودة يأكلون منها حيث شاءوا، فهم متمكنون من أمر دينهم؛ لقلة عوائدهم، ومن أمر دنياهم؛ لأنها قائمة بالله، تجرى عليهم أرزاقهم من حيث لا يحتسبون، تخدمهم ولا يخدمونها؛ «يادنياي اخدمي من خدمني، وأتعبي من خدمك». فمن قصّر منهم في الشكر توجه إليه العتاب بقوله: ﴿ولقد مكناكم في الأرض﴾ إلى قوله: ﴿قليلا ما تشكرون﴾، ومن تحقق شكره قيل له: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ . وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ﴾(١). والله تعالى أعلم.

ولما ذكر نعمة الإمداد أتبعه بنعمة الإيجاد، فقال:

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَۖ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾

(١) الآيتان: ٥ ـ ٦ من سورة القصص.

قَالَ أَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ولقد خلقناكم﴾ أي: خلقنا أباكم آدم طيناً غير مصور، ﴿ثم صورناكم﴾ أي: صورنا خلقة أبيكم آدم. نزّل خلقه وتصويره منزلة خلق الكل وتصويره؛ لأنه المادة الأصلية، أي: ابتدأنا خلقكم ثم تصويركم بأن خلقنا أباكم آدم، ثم صورناه، ﴿ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم﴾ تعظيماً له، حيث وجد فيه ما لم يوجد فيهم، واختباراً لهم ليظهر من يخضع ممن لم يخضع؛ ﴿فسجدوا إلا إبليسَ لم يكن من الساجدين﴾ لآدم.

﴿قال﴾ له الحق تبارك وتعالى: ﴿ما منعك ألا تسجد﴾ أي: أن تسجد، فلا: زائدة، مؤكدة معنى الفعل الذي دخلت عليه، ومنبهة على أن الموبَّخ عليه ترك السجود، وقيل: الممنوع من الشيء كالمضْطر إلى خلافه، فكأنه قال: ما اضطرك إلى ترك السجود ﴿إذ أمرتك﴾.

وفيه دليل على أن مطلق الأمر للوجوب والفور، فأجاب بقوله: ﴿قال أنا خيرٌ منه﴾، أي: المانع لي من السجود هو كوني أنا خير منه، ولا يحْسُنُ للفاضل أن يسجد للمفضول، فكيف يحسُن أن يؤمر به، فإبليس هو الذي سنّ التكبر، وقال بالتحسين والتقبيح العقليين أولاً، وبهذا الاعتراض كفر إبليس؛ إذ ليس كفره كفر جحود.

ثم بيّن وجه الأفضلية، فقال: ﴿خلقتني من نار وخلقته من طين﴾، فاعتقد أن النار خيرٌ من الطين، وقد غلط في ذلك، فإن الأفضلية إنما تظهر باعتبار النتائج والثمرات، لا باعتبار العنصر والمادة فقط، ولا شك أن الطين ينشأ منه ما لا يحصى من الخيرات؛ كالثمار والحبوب وأنواع الفواكه.

قال البيضاوي: رأى الفضل كله باعتبار العنصر، وغفل عما يكون باعتبار الفاعل، كما أشار إليه بقوله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾[1] أي: بغير واسطة، وباعتبار الصورة، كما نبه عليه بقوله تعالى: ﴿ونفخت فيه من روحي﴾ وباعتبار الغاية، وهو ملاكه، ولذلك أمر الملائكة بالسجود له؛ لما تبين لهم أنه أعلم منهم، وأنه له خواصاً ليست لغيره. هـ.

(١) من الآية ٧٥ من سورة ص.

ولما تبين عناده قال له تعالى: ﴿ فاهبطْ منها ﴾ أى: من السماء أو من الجنة، ﴿ فما يكونُ لك ﴾ أى: فما يصح لك ﴿ أن تتكبَّر فيها ﴾ وتعصى؛ فإنها موطن الخاشع المطيع، وفيه دليل على أن الكبر لا يليق بأهل الجنة، فإنه تعالى إنما أنزله وأهبطه؛ لتكبره لا لمجرد عصيانه، ﴿ فاخرجْ إنك من الصاغرين ﴾ أى: ممن أهانه الله لتكبره. قال ﷺ: «مَنْ تَوَاضَعَ للهِ رَفَعَهُ اللهُ، ومَنْ تَكَبَّر وَضَعَهُ اللهُ»(١).

ولما تحقق إبليس أنه مطرود، سأل الإمهال فقال: ﴿ أنظرنى ﴾ أى: أخرنى، ﴿ إلى يوم يُبعثون ﴾ فلا تمتنى، ولاتعجل عقوبتى، ﴿ قال إنك من المنظرين ﴾؛ يقتضى أنه أجابه إلى ما سأل، لكنه محمول على ما فى الآية الأخرى: ﴿ إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴾(٢)؛ وهو نفخ الصور النفخة الأولى، ﴿ قال فبِمَا أغويتنى ﴾ أى: بعد أن أمهلتنى لأجتهدن فى إغوائهم بأى طريق يمكننى، بسبب إغوائك إياى، والله ﴿ لأقعدنّ لهم صراطك المستقيم ﴾، وهو الطريق الذى يوصلهم إليك، فأقعد فيه، وأردهم عنه، ﴿ ثم لآتينّهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ﴾؛ فآتيهم من الجهات الأربع، وذلك عبارة عن تسلطه على بنى آدم كيفما أمكنه.

قال ابن عباس: ﴿من بين أيديهم﴾: الدنيا يُزيّنها لهم، ﴿ومن خلفهم﴾: الآخرة يُنسيها لهم، (وعن أيمانهم): الحسنات يُثبطهم عنها، ﴿وعن شمائلهم﴾: السيئات يُزينها فى أعينهم. هـ. ولم يجعل له سبيلاً من فوقهم، ولا من تحت أرجلهم؛ لأن الرحمة تنزل من أعلى، فلم يحل بينهم وبينها، والإتيان من تحت موحش، وأيضاً: السفليات محل للتواضع والخشوع، فتكثر فيه الأنوار فيحترق بها. وقال الشيخ أبو العباس المرسى رضي الله عنه: (لأنّ فوق: التوحيد، وتحت: الإسلام، ولا يمكن أن يأتى من توحيد ولا إسلام).

ثم قال تعالى: ﴿ ولاتجدُ أكثرَهم شاكرين ﴾؛ مطيعين، قال بعض الصوفية: (لوكان ثم مقام أعظم من الشكر لذكره إبليس)؛ فالشكر أعظم المقامات، وهو الطريق المستقيم الذى قعد عليه إبليس، والشكر: هو ألا يُعصى الله بنعمه، أو: صرف الجوارح كلها فى طاعة الله، أو رؤية المنعم فى النعمة. وإنما قال إبليس ذلك؛ ظنًا لقوله: ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ ﴾(٣)، وسيأتى فى الإشارة حقيقته.

﴿ قال ﴾ تعالى لإبليس: ﴿ اخرجْ منها ﴾؛ من السماء أو الجنة، ﴿ مذءومًا ﴾ أى: مذموماً، من ذامه، أى: ذمه، ﴿ مدحوراً ﴾ أى: مطروداً. والله ﴿ لمن تَبِعَكَ منهم ﴾ فى الكفر ﴿ لأملأنّ جهنم منكم أجمعين ﴾ أى: منك وممن تبعك.

---

(١) أخرجه البيهقى فى شعب الإيمان (الباب ٥٧) من حديث سيدنا عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ.
(٢) الآية ٣٨ من سورة الحجر.
(٣) من الآية ٢٠ من سورة سبأ.

تنبيه : ذكر الفخر الرازي، في تفسيره، عن الشهرستاني أن إبليس جرت بينه وبين الملائكة مناظرة بعد الأمر بالسجود لآدم، فقال لهم: إني أسلم أن الله خالقي وموجدي، وهو موجد الخلق، ولكن لي على حكمته أسئلة: الأول: ما الحكمة في إيجاد خلقه ، لاسيما وكان عالماً بأن الكافر لا يستوجب عند خلقه الآلام؟ الثاني: ما الفائدة في التكليف، مع أنه لا يعود عليه نفع ولا ضرر، وكل ما يعود إلى المكلفين فهو قادر على تحصيله لهم من غير واسطة التكليف؟ الثالث: هب أنه كلفني بطاعته ومعرفته، فلماذا كلفني بالسجود لآدم؟ الرابع: لما عصيته فلمَ لعنني وأوجب عقابي، مع أنه لا فائدة له ولا لغيره فيه، وفيه أعظم الضرر؟ الخامس: لما فعل ذلك فلِمَ مكنني من الدخول إلى الجنة ووسوسة آدم؟ السادس: ثم لما فعل ذلك، فلم سلطني على أولاده، ومكنني من إغوائهم وإضلالهم؟ السابع: ثم لما استمهلته بالمدة الطويلة في ذلك فلم أمهلني، ومعلوم أن العالم لو كان خالياً من الشر لكان ذلك خيراً؟. هـ. قال شارح الأناجيل: فأوحى الله إليه من سرادقات الكبرياء: إنك ما عرفتني، ولو عرفتني لعلمت أنه لا اعتراض عليّ في شيء من أفعالي، فأنا الله لا إله إلا أنا لا أُسْألُ عما أفعل.

قال الشهرستاني: اعلم أنه لو اجتمع الأولون والآخرون، وحكموا بتحسين العقل وتقبيحه لم يجدوا عن هذه الشبهات تخلصاً، أما إذا أجبنا بما أجاب به الحق ـ سبحانه ـ زالت الشبهات واندفعت الاعتراضات. هـ. قلت: من تشمرت فكرته بنور المعرفة، وعرف أسرار الحكمة والقدرة، لم يصعب عليه مثل هذه الشبهات، وسأذكر الجواب عنها على سبيل الاختصار:

أما الحكمة في إيجاد خلقه؛ فخلقهم ليعرف بهم. وفي الحديث القدسي: «كنت كنزا لم أعرف، فأحببت أن أعرف، فخلقت خلقاً لأُعرف بهم»، وليظهر بهم آثار قدرته وأسرار حكمته. وأما تعذيب الكافر بالآلام فليظهر فيه مقتضى اسمه المنتقم.

أما فائدة التكليف؛ فلتقوم الحجة على العبيد، وليتميز من يستحق الإحسان ممن يستحق العذاب، فإذا عذبه لم يكن ظالماً له؛ ﴿ ولا يظلم ربك أحدا ﴾[1]، ولتظهر صورة العدل في الجملة. وأما تكليفه بالسجود لآدم؛ فلأنه ادعى المحبة، ومقتضاها الطاعة للحبيب في كل ما يشير إليه، ولا تصعب إلا في الخضوع للجنس، أو مَنْ دونه، فأمره بالسجود لمن دُونه في زعمه؛ ليظهر كذبه في دعوى محبته، وأما لعنه وطرده؛ فهو جزاء من كذب

---

(١) من الآية ٤٩ من سورة الكهف.

وعصى. وهذا الطرد كان في علمه تعالى، ولكن حكمته تعالى اقتضت ترتيب الأسباب وارتباطها بالمسببات، فكان امتناعه واعتراضه سببا لإظهار ما سبق له في علم الله، كما كانت وسوسته لآدم سبباً في إظهار خروجه من الجنة السابق في علم الله. وأما تمكينه من دخول الجنة؛ فليتسبب عنه هبوط آدم الذي سبق في علمه؛ لأن الحكمة اقتضت أن لكل شيء سببا . أما تسلطه على أولاده، فليكون منديلاً تمسح به أوساخ الأقدار؛ إذ إن الكفر والإيمان والطاعة والعصيان إنما هو بمشيئة الواحد القهار، ولا فعل لغيره، لكن الحق تعالى علمنا الأدب، فخلق الشيطان والنفس والهوى مناديل، فما كان فيه كمال نسبه لله، وما كان فيه نقص نسبه للشيطان والنفس؛ أدباً مع الحضرة.

وأما إمهاله؛ فليدوم هذا المنديل عندهم، يمسحون فيه أوساخ المقادير التي تجري عليهم إلى انقضاء وجودهم. وقوله: (معلوم أن العالم لو كان خاليًا من الشر لكان ذلك خيرا)، مغالطة؛ لأن حكمته تعالى اقتضت وجود الضدين: الخير والشر، وبهما وقع التجلي والظهور؛ ليظهر آثار أسمائه تعالى؛ فإن اسمه المنتقم والقهار يقتضي وجود الشر، فيما نفهم، وليظهر انتقامه وبطشه للعيان، ومعلوم أن الملك إذا وصف بوصف جلالي أو جمالي لا يظهر شرف ذلك الاسم إلا بظهور آثاره في مملكته، وقوله: (إنك ما عرفتني..) الخ.. يقتضي أنه لو عرف الله حق معرفته لفهم أسرار هذه الأشياء التي اعترض بها على ما بيناها. والله تعالى أعلم.

الإشارة: الأكوان ظاهرها أغيار، وباطنها أنوار وأسرار، فمن وقف مع ظاهرها لزمه الاعتراض والإنكار، ومن نفذ إلى شهود باطنها لزمه المعرفة والإقرار، ولعل إبليس لم يرـ في حال الأمر بالسجود ـ من آدم إلا الأغيار، ولو رأى باطنه لكان أول ساجد لله الواحد القهار.

ثم ذكر دخول آدم الجنة وخروجه منها، فقال:

﴿ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ فَكُلَا مِنۡ حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسۡوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ لِيُبۡدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنۡهُمَا مِن سَوۡءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنۡ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيۡنِ أَوۡ تَكُونَا مِنَ ٱلۡخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٖۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ

لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ويا آدمُ اسكُنْ أنتَ وزوجُك ﴾ حواء ﴿ الجنة فكُلاَ من حيث شئتما ﴾ من ثمارها، ﴿ ولا تقربا هذه الشجرة ﴾؛ التين أو العنب أو الحنطة، ﴿ فتكونا من الظالمين ﴾ لأنفسكما بمخالفتكما، ﴿ فوسوس لهما الشيطان ﴾ أي: فعل الوسوسة لأجلهما، وهو الصوت الخفي، ﴿ ليُبْدِيَ ﴾ أي: ليظهر ﴿ لهما ما ووُرِيَ ﴾ أي: ما غطى ﴿ عنهما من سوْآتِهما ﴾ أي: عوراتهما، واللام: للعاقبة، أي: فعل الوسوسة لتكون عاقبتهما كشف عورتهما، وكانا لا يريانها من أنفسهما، ولا أحدهما من الآخر. وفيه دليل على أن كشف العورة، ولو عند الزوج من غير حاجة ـ قبيح مستهجن في الطباع.

﴿ وقال ﴾ لهما: ﴿ ما نهاكما ربُكما عن هذه الشجرة إلا ﴾ كراهية ﴿ أن تكونا ملَكين ﴾. واستدل به من قال بفضل الملائكة على الأنبياء، وجوابه: أنه كان من المعلوم عندهما أن الحقائق لا تَنْقَلب، وإنما كانت رغبتهما فيما يحصل لهما من الغنى عن الطعام والشراب، فيمكن لهما الخلود في الجنة، ولذلك قال: ﴿ أو تكونا من الخالدين ﴾ الذين يخلدون في الجنة.

ويؤخذ من قوله تعالى: ﴿ما نهاكما ربكما﴾، أن آدم عليه السلام لم يكن ناسيا للنهي، وإلا لما ذكره بقوله: ﴿ما نهاكما ربكما﴾، وقوله في سورة طه: ﴿فنسي﴾، أي: نسي أنه عدو له، ولذلك ركن إلى نصيحته، وقبل منه حتى تأول أن النهي عن عين الشجرة لا عن جنسها، فأكل من جنسها؛ رغبة في الخلود، ولكنه غره من حيث الأخذ بالظواهر وترك الاحتياط.

ولم يقصد إبليسُ إخراجهما من الجنة، وإنما قصد إسقاطهما من مرتبتهما، وإبعادهما كما بعُد هو، فلم يبلغ قصده ولا أدرك مراده، بل ازداد سخينة عين، وغيظ نفْس، وخيبة ظن. قال الله تعالى: ﴿ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴾(١)، فصار عليه السلام خليفةً لله في أرضه، بعد أن كان جاراً له في داره، فكم بين الخليفة والجار؟

(١) الآية ١٢٢ من سورة طه.

﴿ وقاسَمَهُما ﴾ أي: حلف لهما ﴿إني لكما لمنَ الناصحين﴾ فيما قلت لكما. وذكر قَسَم إبليس بصيغة المفاعلة التي تكون بين اثنين مبالغة؛ لأنه اجتهد فيه، أو لأنه أقسم لهما، وأقسما له أن يقبلا نصيحته.

﴿ فدلاَّهُما ﴾، أي: أنزلهما إلى الأكل من الشجرة، ﴿ بغُرور ﴾ أي: بما غرهما به من القَسَم، لأنهما ظنا أن أحداً لا يحلف بالله كاذبا، ﴿ فلما ذاقَا الشجرةَ ﴾ أي: وجدا طعمها، آخذين في الأكل منها، ﴿ بدت لهما سَوآتُهما ﴾، وتهافت عنهما ثيابُهما، فظهرت لهما عوراتهما؛ أدباً لهما. وقيل: كان لباسهما نوراً يحول بينهما وبينَ النظر، فلما أكلا انكشف عنهما، وظهرت عورتهما، ﴿ وطَفِقا ﴾ أي: جعلا ﴿ يَخْصِفَانِ عليهما من وَرَقِ الجنّة ﴾ أي: أخذا يرقعان ويلزقان ورقة فوق ورقة ليستترا به، قيل: كان ورَق التين. فآدم أول من لبس المرقعة، ﴿ وناداهما ربُهما ألم أنْهكُمَا عن تلكما الشجرة وأقلْ لكُمَا إن الشيطانَ لكما عدوٌ مبين ﴾؛ هذا عتاب على المخالفة، وتوبيخ على الاغترار بالعدو. وفيه دليل على أن مطلق النهي للتحريم.

ثم صرحا بالتوبة فقالا: ﴿ ربنا ظلمنا أنفسنا ﴾ حين صدرناها للمعصية، وتعرضنا للإخراج من الجنة، ﴿ وإن لم تغفرْ لنا وترحَمنا لنكُونَنَّ من الخاسرين ﴾؛ وهذه هي الكلمات التي تلقاها من ربه فتاب عليه بها. قال البيضاوي: فيه دليل على أن الصغائر يُعاقب عليها إن لم تغفر، وقالت المعتزلة: لا يجوز المعاقبة عليها مع اجتناب الكبائر، ولذلك قالوا: إنما قالا ذلك على عادة المقربين في تعظيم الصغير من السيئات، واستحقار العظيم من الحسنات. هـ.

﴿ قال اهبطوا ﴾؛ الخطاب لآدم وحواء وذريتهما، أو: لهما ولإبليس، وكرر الأمر له تبعًا؛ ليعلم أنهم قرناء له أبدا. حال كونكم ﴿ بعضُكم لبعض عدوٌ ﴾ أي: متعادين، ﴿ ولكم في الأرض مستقر ﴾ أي: استقرار، ﴿ ومتاعٌ ﴾ أي: تمتع، ﴿ إلى حين ﴾ انقضاء آجالكم، ﴿ قال فيها ﴾ أي: في الأرض ﴿ تحيون وفيها تموتون ومنها تُخرجون ﴾ للجزاء، بالنعيم، أو بالعذاب الأليم، على حسب سعيكم في هذه الدار الفانية.

الإشارة : قال بعض العارفين: كل ما نهى الله تعالى عنه فهو شجرة آدم، فمن دخل جنة المعارف، ثم غلبه القدر فأكل من تلك الشجرة ـ وهي شجرة سوء الأدب ـ أخرج منها، فإن كان ممن سبقت له العناية أُلهم التوبة، فتاب عليه وهداه، وأهبطه إلى أرض العبودية؛ ليكون خليفة الله في أرضه، فأنْعِم بها معصية أورثت الخلافة والزلفى. وفي الحكم: «ربما قضى عليك بالذنب فكان سبب الوصول». وقال أيضاً: «معصية أورثت ذُلاً وافتقارا، خير من طاعة أورثت عزاً واستكبارا». وقال بعضهم: كل سوء أدب يثمر لك أدباً فهو أدب. والله تعالى أعلم.

ثم ذكَّرهم بنعمة اللباس، الذي عوضهم به في الدنيا عن لباس الجنة، فقال:

﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾

قلت: من قرأ: (لباس)؛ بالرفع؛ فهو مبتدأ، والجملة: خبر، والرابط: الإشارة، والريش: لباس الزينة، مستعار من ريش الطير.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ يابني آدمَ قدْ أنزلنا عليكم لباساً ﴾ أي: خلقناه لكم بتدبيرات سماوية وأسباب نازلة، ونظيره: قوله تعالى: ﴿ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿ وأنزلنا الحديد ﴾[2]. من صفة ذلك اللباس: ﴿ يُوارى ﴾ أي: يستر ﴿ سوآتكم ﴾ التي قصد إبليس إبداءها، ويغنيكم عن خصف الورق. رُوى أن العرب كانوا يطوفون بالبيت عراة، ويقولون: لا نطوف في ثياب عصينا الله تعالى فيها، فنزلت. ولعل ذكر قصة آدم تقدمة لذلك؛ حتى يعلم أن انكشاف العورة أول سوء أصاب الإنسان من الشيطان، وأنه أغواهم في ذلك كما أغوى أبويهم. قاله البيضاوي.

﴿ وريشاً ﴾ أي: ولباساً فاخراً تتجملون به ﴿ ولباسُ ﴾ أي: وأنزلنا عليكم لباس ﴿ التقوى ﴾؛ وهي خشية الله تعالى، أو الإيمان، أو السمت الحسن، واستعار لها اللباس؛ كقولهم: ألبسك الله لباس تقواه، وقيل: لباس الحرب. ومن قرأ بالرفع؛ فخبره: ﴿ ذلك خير ﴾ أي: لباس التقوى خير من لباس الدنيا؛ لبقائه في دار البقاء دون لباس الدنيا؛ فإنه فانٍ في دار الفناء، ﴿ ذلك ﴾ أي: إنزال اللباس من حيث هو خير ﴿ من آيات الله ﴾ الدالة على فضله ورحمته، ﴿ لعلهم يذَّكَّرون ﴾ فيعرفون نعمه، فيشكرون عليها، أو يتعظون فينزجرون عن القبائح.

الإشارة: اللباس الذي يواري سوءات العبودية ـ أي: نقائصها ـ هي أوصاف الربوبية ونعوت الألوهية؛ من عز وغنى، وعظمة وإجلال، وأنوار وأسرار، التي أشار إليها في الحكم بقوله: «لو كنت لا تصل إليه إلا بعد فناء مساوئك، ومحو دعاويك، لم تصل إليه أبدا، ولكن إذا أراد أن يُوصلك إليه غطى وصفك بوصفه، ونعتك بنعته، فوصلك بما منه إليك، لا بما منك إليه». والريش هو بهجة أسْرار المعاني التي تغيب ظلمة الأواني، أو بهجة الأنوار التي تُفْنى الأغيار، ولباس التقوى هي حفظه ورعايته لأوليائه في الظاهر والباطن مما يكدر صفاءهم أو يطمس أنوارهم. والله تعالى أعلم.

(١) من الآية ٦ من سورة الزمر.
(٢) من الآية ٢٥ من سورة الحديد.

ثم حذَّرهم من الشيطان، وأعلمهم بسابق عداوته، فقال:

﴿ يَـٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ يابني آدم لا يفتننكُم الشيطانُ ﴾؛ بأن يشغلكم عما يقربكم إلى الله، ويحملكم على ما يمنعكم من دخول جنته، ﴿ كما أخرج أبويكُمْ من الجنة ﴾ بسبب غروره، والنهي، في اللفظ، للشيطان، والمراد: نهيهم عن اتباعه. حال كون أبويكم ﴿ ينْزِعُ ﴾ الشيطان ﴿ عنهما لباسَهما ﴾ بسبب غروره لهما، وإسناد النزع إليه: مجاز؛ للسببية؛ ﴿ ليُريهما سوءاتهما إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا تَرونهم ﴾، وهو تعليل للنهي، وتحذير من فتنته، و﴿قبيله﴾: جنوده. ورؤيتهم إيانا من حيث لا نراهم في الجملة لا يقتضي امتناع رؤيتهم وتمثلهم لنا، وقد جاءت في رؤيتهم أحاديث صحيحة؛ فتحمل الآية على الأكثر والغالب. قال تعالى: ﴿ إنا جعلنا الشياطينَ أولياءَ للذين لا يؤمنون ﴾؛ بما أوجدنا بينهم من التناسب، أو بإرسالهم عليهم، وتمكينهم من خذلانهم، وحملهم على ماسولوا لهم، والآية هي مقصود القصة وفذلكة الحكاية. قاله البيضاوي.

الإشارة: الحكمة في خلق الشيطان هي كونه منديلاً تمسح فيه أوساخ الأقدار، وكونه يحوش أولياء الله إلى الله، كلما نخسهم بنزعه فزعوا إلى مولاهم، فلايزال بهم كذلك حتى يوصلهم إلى حضرته، فحينئذ ينقاد إليهم، ويخدمهم بأولاده. وفي الحِكَم: «إذا علمت أن الشيطان لا يغفل عنك، فلا تغفل أنت عمن ناصيتك بيده».

قال محمد بن واسع: تمثل لي الشيطان في طريق المسجد، فقال لي: يا ابن واسع، كلما أردتك وجدت بيني وبينك حجاباً، فما ذاك؟ قال: أقرأُ، كلما أصبحتُ: اللهم إنك سلطت علينا عدواً من أعدائنا، بصيراً بعيوبنا، مطلعاً على عوراتنا، يرانا هو وقبيله من حيث لانراهم، اللهم آيسه منا كما آيسته من رحمتك، وقنطه منا كما قنطته من عفوك، وباعد بيننا وبينه كما باعدت بين المشرق والمغرب ـ وفي رواية: كما باعدت بينه وبين جنتك ـ إنك على كل شيء قدير. هـ.

ثم ذكر مساوئ أولياء الشيطان، فقال:

﴿ وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ۗ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله، في وصف المشركين: ﴿ وإذا فعلوا فاحشة ﴾ أي: فعلة متناهية في القبح؛ كعبادة الصنم، وكشف العورة في الطواف، احتجوا بفعل آبائهم فقالوا: ﴿ وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها ﴾ فاعتذروا بعذرين باطلين: أحدهما: تقليد آبائهم، والآخر: افتراؤهم على الله، فأعرض عن الأول؛ لظهور فساده، ورد الثاني بقوله: ﴿ قل إنَّ الله لا يأمرُ بالفحشاء ﴾؛ لأن الله تعالى جرت عادته على الأمر بمحاسن الأفعال ومكارم الخلال. ولا حجة فيه للمعتزلة. انظر البيضاوي.

والآية كأنها جواب سؤالين مترتبين؛ كأنه قيل لهم: لِمَ فعلتم هذه الفواحش؟ قالوا: وجدنا عليها آباءنا، فقيل: ومن أين أخذها آباؤكم؟ قالوا: الله أمرنا بها، فكذبهم الله بقوله: ﴿ إن الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله ما لا تعلمون ﴾، أي: أتتقولون على الله مالا علم لكم به؛ إنكار يتضمن النهي عن الافتراء على الله.

﴿ قل أمرَ ربي بالقسط ﴾ أي: العدل، وهو الوسط من كل أمر، المتجافي عن طرفي الإفراط والتفريط، وأمر بأن قال: ﴿ وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد ﴾ أي: افعلوا الصلاة في كل مكان يمكن فيه السجود إذا حضرتكم، ولا تؤخروها حتى تعودوا إلى مساجدكم. والمعنى: إباحة الصلاة في كل موضع، فهو كقوله ﷺ: «جُعلتْ لِيَ الأرضُ مَسجداً وطَهوراً». وقيل: المراد إحضار النية والإخلاص لله في كل صلاة بدليل قوله: ﴿ وادعوه ﴾؛ أي: اعبدوه ﴿ مخلصين له الدين ﴾ أي: الطاعة، فلا تعبدوا معه غيره، فإنكم راجعون إليه، ﴿ كما بدأكم تعودون ﴾ فيجازيكم على أعمالكم، فاحتج على البعث الأخروي بالبدأة الأولى؛ لاشتراكهما في تعلق القدرة بهما، بل العود أسهل باعتبار العادة، وقيل: كما بدأكم من التراب، تعودون إليه، وقيل: كما بدأكم حفاة عراة غرلا، تعودون، وقيل: كما بدأكم مؤمناً وكافراً، يُعيدكم. قاله البيضاوي.

﴿ فريقاً هَدى ﴾؛ بأن وفقهم للإيمان، ﴿ وفريقاً حق عليهم الضلالة ﴾؛ بمقتضى القضاء السابق، أي: خذل فريقًا حق عليهم الضلالة، ﴿ إنهم اتخذوا الشياطينَ أولياءَ ﴾ يطيعونهم فيما يأمرونهم به، ﴿ من دون الله ﴾،

وهذا تعليل لخذلانهم وتحقيق لضلالتهم، ﴿ وَيَحْسَبُونَ ﴾ أي: يظنون ﴿ أنهم مهتدون ﴾؛ فهم على جهل مركب، وفيه دليل على أن الكافر المخطئ والمعاند: سواء في الذم واستحقاق العذاب؛ إذ لا يعذر بالخطأ في أمر التوحيد.

الإشارة: تقليد الآباء في المساوئ من أقبح المساوئ، واحتجاج العبد بتخليته مع هواه هو ممن اتخذ إلهه هواه، إن الله لا يأمر بالفحشاء، فإذا قال العبد ـ في حال انهماكه : هكذا أحبني ربي، فهو خطأ في الاحتجاج ؛ بل يجاهد نفسه في الإقلاع، ويتضرع إلى مولاه في التوفيق؛ فإن الحق تعالى إنما يأمر بالعدل والإحسان، ودوام الطاعة والإذعان، والخضوع لله في كل زمان ومكان، والتحقق بالإخلاص في كل أوان، وإفراد المحبة والولاية للكريم المنان. وبالله التوفيق.

ثم أمرهم بستر العورة في الصلاة والطواف، فقال:

﴿ ۞ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ٣١ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ يابني آدم خُذوا زينتكم ﴾ أي: ثيابكم التي تستر عورتكم، ﴿ عند كل مسجد ﴾ لطواف أو صلاة، واحتج به من أوجب ستر العورة في الصلاة، ومن السُّنة أن يأخذ الرجل أحسن ثيابه للصلاة، وقيل: المراد بالزينة: زيادة على الستر، كالتجمل للجمعة بأحسن الثياب وبالسواك والطيب، ﴿ وكُلُوا واشربوا ﴾؛ أمر إباحة؛ لِمَا رُوي أن بني عامر، في أيام الحج، كانوا لا يأكلون من الطعام إلا قوتاً، ولا يأكلون دسماً؛ يعظمون بذلك حجهم، وهمَّ المسلمون بذلك، فنزلت.

﴿ ولا تُسرفوا ﴾؛ بتحريم الحلال، أو بالتقدم إلى الحرام، أو بإفراط الطعام والشره إليه، وقد عدّ في الإحياء من المهلكات: شره الطعام، وشره الوقاع، أي: الجماع. ﴿ إنه لا يحب المسرفين ﴾؛ لا يرتضي فعلهم. وعن ابن عباس رضي الله عنه: (كُلْ ما شئت، والبس ما شئت، ما أخطأتك خصلتان: سَرَفٌ ومخيلة)(١) أي: تكبر. وقال علي بن الحسين بن واقد: جمع الله الطب في نصف آية؛ فقال: ﴿كلوا واشربوا ولا تسرفوا﴾.

الإشارة: إنما أمر الحق ـ جل جلاله ـ بالتزين للصلاة والطواف؛ لأن فيهما الوقوف بين يدي ملك الملوك، وقد جرت عادة الناس في ملاقاة الملوك: التهيىء لذلك بما يقدرون عليه من حسن الهيئة؛ لأن ذلك زيادة تعظيم

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (الأدب واللباس) موقوفاً على ابن عباس رضي الله عنه. وأخرجه مرفوعاً النسائي في (الزكاة، باب الاختيال في الصدقة) وابن ماجه في (اللباس، باب البس ما شئت ما أخطأك سرف أو مخيلة) وأحمد في المسند ٢/١٨١ عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله ﷺ «كلوا واشربوا وتصدقوا والبسوا ما لم يخالطه إسراف أو مخيلة».

للملك، وتزيين البواطن بالمحبة والوداد أحسن من تزيين الظواهر وخراب البواطن؛ «إنَّ اللهَ لايَنْظُرُ إلى صُوَرِكُمْ ولاَ إلى أَمْوَالِكُمْ، وإنَّمَا يَنْظُرُ إلَى قُلوبِكم وأعْمَالِكُمْ»(١). وملاقاة الملك بالذل والانكسار أحسن من ملاقاته بالتكبر والاستظهار. والله تعالى أعلم.

ولما تعاهدت قريش، ومن دان دينها، أنهم لا يأكلون أيام الحج دسمًا ولا سمنًا ولا أقطًا ولا طعامًا جاء من الحل، ردَّ الله عليهم بقوله:

﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾

قلت: من قرأ: (خالصة)؛ بالرفع، فخبر بعد خبر، أو خبر عن مضمر، ومن قرأ بالنصب، فحال.

يقول الحق جل جلاله: ﴿قل﴾ لهم: ﴿مَنْ حرَّم زينةَ الله﴾؛ وهي ما يتجمل به من الثياب وغيرها، ﴿التي أخرج لعباده﴾ من النبات؛ كالقطن والكتان، أو الحيوان؛ كالحرير والصوف والوبر، والمعادن؛ كالدروع والحلي، ﴿و﴾ قل أيضا: من حرم ﴿الطيبات مِنَ الرزقِ﴾ أي: المستلذات من المآكل والمشارب، ويدخل فيها المناكح؛ إذ هي من أعظم الطيبات. وفيه دليل على أن الأصل في المطاعم والملابس وأنواع التجملات: الإباحة؛ لأن الاستفهام للإنكار، وبه رد مالك ـ رحمه الله ـ على من أنكر عليه من الصوفية، وقال له: اتق الله يا مالك؛ بلغني أنك تلبس الرقيق، وتأكل الرقاق، فكتب إليه بالآية.

قال تعالى: ﴿قلْ هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا﴾، ويشاركهم فيها الكفار، ويوم القيامة تكون ﴿خالصة﴾ لهم دون غيرهم. ﴿كذلك نُفصّل الآيات﴾ أي: كتفصيلنا هذا الحكم نُفصل سائر الأحكام ﴿لقوم يعلمون﴾ فينزلونها في محلها بخلاف الجهال.

(١) أخرجه مسلم في (البر والصلة، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿قل إنما حرَّم ربي الفواحشَ﴾؛ وهى ما تزايد قبحها من المعاصي، وقيل: ما يتعلق بالفروج، ﴿ما ظهرَ منها وما بَطَنَ﴾ أى: جهرها وسرها، أو ما يتعلق بالجوارح الظاهرة والعوالم الباطنية وهى القلوب، ﴿والإثم﴾؛ كقطع الرحم، أو عام فى كل ذنب، ﴿والبغيَ﴾؛ وهو الظلم؛ كقطع الطريق والغصب، وغير ذلك من ظلم العباد، أو التكبر على عباد الله؛ وقوله: ﴿بغير الحق﴾: تأكيد له في المعنى. ﴿وأنْ تُشركوا بالله مالم يُنزلْ به سُلطانًا﴾ أى: حجة على استحقاق العبادة، وهو تهكم بالمشركين، وتنبيهٌ على تحريم مالم يدل عليه برهان. ﴿وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون﴾ من الإلحاد فى صفاته، والافتراء عليه؛ كقولهم: ﴿اَللَّهُ أَمَرَنَا﴾(١)، و﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا﴾(٢).

﴿ولكل أمة أجل﴾ أى: مدة ووقت لنزول العذاب بها إن لم يؤمنوا، وهو تهديد لأهل مكة، ﴿فإذا جاء أجَلُهم﴾ أى: انقرضت مدتهم، أو دنى وقت هلاكهم، ﴿لا يستأخرون ساعةً﴾ عنه ﴿ولا يستقدِمون﴾ أى: لا يتأخرون ولا يتقدمون عنه أقْصَرَ وقت، أو لا يطيقون التقدم والتأخر لشدة الهول، وجعل بعضهم: (ولا يستقدمون) استئنافًا؛ لأن الأجل إذا جاء لا يتصور التقدم، وحينئذ يوقف على: «ساعة»، ثم يقول: ولا هم يستقدمون عنه قبل وصوله.

الإشارة: قال شيخنا البوزيدى رضي الله عنه: زينة الله التى أظهر لعباده هي لباس المعرفة، وهو نور التجلى، والطيبات من الرزق هى حلاوة الشهود. هـ. وهى لمن كمل إيمانه وصِدْقه فى الحياة الدنيا، وتصفو له إلى يوم القيامة، فهى حلال على أهل التجريد؛ يتمتعون بها فى الدارين، وإنما حرّم عليهم ما يشغلهم عن ربهم من جهة الظاهر، وما يقطعهم عن شهوده من جهة الباطن، وسوء الأدب مع الله ، والتعرض لعباد الله، والشرك بالله؛ بأن يشهدوا معه سواه، وأن يقولوا على الله ما يوهم نقصاً أو خللا فى أنوار جماله وسناه. والله تعالى أعلم.

ثم إن العباد والزهاد وأهل البداية من المريدين السائرين ـ ينبغى لهم أن يزهدوا فى زينة الدنيا وطيباتها؛ لئلا تركن إليها نفوسهم، فيثبط سيرهم، وأما الواصلون فهم مع الله، لا مع شيء سواه، يأخذون من الله بالله، ويدفعون بالله، وقد اتسعت دائرة علمهم، فليسوا مع لباس ولا أكل ولا شرب ولا جوع ولا شبع ، هم مع ما يبرز فى الوقت من المقدورات. والله تعالى أعلم.

---

(١) من الآية ٢٨ من سورة الأعراف.
(٢) من الآية ١٤٨ من سورة الأنعام.

ثم وصاهم على الإيمان بالرسل، عند ظهورهم، فقال:

﴿ يَـٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِي فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾

قلت: (إما): شرط مؤكد بما ذكره بحرف الشك؛ للتنبيه على أن إتيان الرسل جائز، غير واجب، كما ظنه المعتزلة، وجوابه: (فمن اتقى..) الخ، وإدخال الفاء في الجواب الأول دون الثاني؛ للمبالغة في الوعد والمسامحة في الوعيد. قاله البيضاوي.

يقول الحق جل جلاله: ﴿يا بني آدم﴾ مهما ﴿يأتينكم رسل منكم يقصُّون عليكم آياتي﴾ الدالة على توحيدي ومعرفتي، ﴿فمن اتَّقَي﴾ الشرك والتكذيب، ﴿وأصلح﴾ فيما بيني وبينه، منكم، بالعمل الصالح، ﴿فلا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون﴾. ﴿والذين كذَّبوا بآياتنا واستكبرُوا عنها أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾، فمنْ كمال الإيمان: أن يقدر الإنسان نفسه أن لو كان في زمان كل رسول، لكان أولَ من تبعه، ولكان من خواص أصحابه، هكذا يسير بعقله مع كل رسول من زمان آدم عليه السلام إلى مبعث رسولنا محمد ﷺ. والله تعالى أعلم.

الإشارة: قد جعل الله لكل نبي خلفاء يخلفونه في تبليغ أحكامه الظاهرة والباطنة، وهم العلماء الأتقياء، والأولياء العارفون الأصفياء، فمن أراد أن يكون ممن لاخوف عليهم ولا هم يحزنون، فليتبع علماء أهل زمانه في الشريعة، وأولياء أهل عصره في تربية الحقيقة. وبالله التوفيق.

ثم ذكر وعيد من استكبر، فقال:

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓا۟ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَـٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿فمنْ أظلمُ ممن افترى على الله كذباً﴾؛ بأن نسب إليه الولد والشريك، ﴿أو كذَّب بآياته﴾ التي جاءت بها الرسل من عنده، أي: لا أحد أظلم منه، أو: تَقوَّل على الله ما لم يقله، وكذَّب بما

قاله، ﴿ أولئك ينالُهمْ نصيبُهم من الكتاب ﴾ أي: يلحقهم نصيبهم مما كتب فى اللوح المحفوظ؛ من الأرزاق والآجال، ﴿ حتى إذا ﴾ انقضت أعمارهم و﴿ جاءتْهم رسلُنا يَتوفّونهم ﴾ أى: يتوفون أرواحهم، ﴿ قالوا ﴾ لهم توبيخاً: ﴿ أين ما كنتم تَدْعون من دون الله ﴾ أى: أين الآلهة التى كنتم تعبدونها من دون الله؛ لتدفع عنكم العذاب؟ ﴿ قالوا ضلُّوا عنا ﴾، غابوا عنا ﴿ وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين ﴾، اعترفوا بأنهم كانوا ضالين فيما كانوا عليه، وندموا حيث لم ينفع الندم، وقد زلت بهم القدم.

الإشارة: كل من أعرض عن خصوص أهل زمانه، واشتغل بمتابعة حظوظه وهواه، ينال نصيبه من الدنيا الفانية وما قُسِم له فيها؛ فإذا جاءت منيته ندم وتحسر، وقيل له: أين ما تمتعت به وشغلك عن مولاك؟ فيقول: قد غاب ذلك وفنى وانقضى، وكأنما كان برقاً سَرَى، أو طَيْفَ كَرَى، والدهر كله هكذا؛ لمن سدد نظرا، وعند الصباح يحمد القوم السُّرَى، وستعلم، إذا انجلى الغبار، أفرس تحتك أم حمار.

وقد قال ﷺ فى بعض خطبه: «لاتَخْدَعَنَّكُمْ زخارفُ دُنيا دَنِيَّة، عن مَرَاتب جنَّاتٍ عَالِية؛ فكان قد كُشِفَ القِناع، وارتفع الارتياب، ولاقى كل امرىءٍ مستقره، وعرف مثواه ومنقلبه». وفى حديث آخر: «مَن بدأ بنَصِيبه من الدنيا فَاتَه نصيبُه من الآخرة، ولم يُدْرِكْ منها ما يريد، ومن بدأ بنصيبه من الآخرة، وصل إليه نصيبه من الدنيا، وأدرك من الآخرة ما يريد».

ثم ذكر عذاب أهل التكذيب، فقال:

﴿ قَالَ ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ ۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا۟ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ قال ﴾ الله تعالى أى: يوم القيامة للكفار، بواسطة ملك، أو بغيرها: ﴿ ادخلوا فى ﴾ جملة ﴿ أمم ﴾ كانوا من قبلكم؛ ﴿ من الجن والإنس ﴾ متفقين معكم فى الكفر والضلال، فادخلوا مصاحبين معهم ﴿ فى النار ﴾. قال تعالى، مخبراً عن حالهم: ﴿ كلما دخلت أمةٌ ﴾ منهم فى النار ﴿ لعنتْ أختها ﴾ التى ضلت

بالاقتداء بها، ﴿حتى إذا ادَّاركوا﴾ أي: تداركوا وتلاحقوا، ﴿فيها جميعًا قالت أُخراهم﴾؛ دخولاً أو منزلة، وهم الأتباع السفلة، ﴿لأُولاهم﴾ وهم المتبوعون الرؤساء ـ أي: قالت لأجلهم؛ لأن الخطاب مع الله لا معهم، قالوا: ﴿ربنا هؤلاء﴾ الرؤساء ﴿أضلونا﴾، حيث سنُّوا لنا الضلال فاقتدينا بهم، ﴿فآتهِمْ عذابًا ضِعفًا﴾ أي: مضاعفًا ﴿من النار﴾؛ لأنهم ضلوا وأضلوا. ﴿قال﴾ تعالى: ﴿لكلٍّ﴾ واحد منكم ﴿ضِعفٌ﴾ أي: عذاباً مضعفا، أما القادة؛ فلكفرهم وتضليلهم، وأما الأتباع؛ فلكفرهم وتقليدهم، ﴿ولكن لاتعلمون﴾ ما لكم، أو ما لكل فريق منكم.

﴿وقالت أولاهم لأخراهم﴾ أي: المتبوعون للأتباع: ﴿فما كان لكم علينا من فضل﴾ في الإيمان والتقوى تُوجب أن يكون عذابنا أشد من عذابكم، حتى يتضاعف علينا العذاب دونكم؛ فإنا وإياكم متساوون في الضلال واستحقاق العذاب، ﴿فذوقوا﴾ أي: باشروا ﴿العذاب بما كنتم تكسبون﴾؛ هو من قول القادة، أو من قول الله ـ تعالى ـ لجميعهم.

الإشارة: إذا قامت القيامة تحققت الحقائق، وتميزت الطرائق، للخاص والعام، فيرتفع المقربون في أعلى عليين، ويبقى أهل اليمين في أسفل منازل أهل الجنة مع عوام المسلمين، فيتعلق عوامهم بخواصهم، فيقولون لهم: أنتم رددتمونا عن صحبة هؤلاء، وأنتم خذلتمونا عنهم، ثم يقولون: ربنا هؤلاء أضلونا عن صحبة هؤلاء المقربين، فآتهم حجاباً ضعفاً مما لنا، قال: لكل ضِعْف من الحجاب، هم بتضليلهم لكم عن صحبتهم، وأنتم بتقليدكم لهم، ولكن لا تعلمون ما أعددت للمقربين حين صبروا على جفاكم، وتحملوا مشاق طاعتي ومعرفتي؛ لأن كل آية في الكفار تجر ذيلها على أهل الغفلة من المؤمنين. والله تعالى أعلم.

ثم حرَّم على الكفار دخول الجنة، فقال:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُجۡرِمِينَ (٤٠) لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٞ وَمِن فَوۡقِهِمۡ غَوَاشٖۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ (٤١) ﴾

قلت: (سَمّ الخياط): عين الإبرة، وفي السين: الفتح والكسر والضم، والخياط: ما يخاط به، على وزن حِزام، والتنوين في (غواش): للعوض عن الياء، عند سيبويه، وللصرف عند غيره.

يقول الحق جل جلاله: ﴿إنَّ الذين كذَّبوا بآياتنا واستكبروا﴾ عن: الإيمان بها، ﴿لا تُفتَّح لهم أبوابُ السماء﴾؛ لأدعيتهم وأعمالهم؛ فلا تقبل، أو: لا تفتح لأرواحهم إذا ماتوا، بل تغلق دونها إذا وصلت بها

الملائكة إليها، فيطرحونها فتسقط من السماء، بخلاف أرواح المؤمنين؛ تُفتح لهم أبواب السماء حتى يفضوا إلى سدرَة المنتهى. ﴿ولا يدخلون الجنة حتى يَلِجَ﴾ أي: يدخل، ﴿الجَمَلُ﴾ وهو البعير ﴿فى سَمِّ الخِياط﴾ أى: فى ثقب الإبرة، والمعنى: لايدخلون الجنة حتى يكون ما لا يكون أبدا، فلا يدخلون الجنة أبدا، وقرأ ابن عباس (الجُمَّل)؛ بضم الجيم وسكون الميم، وهو حبل السفينة، الذى جُمِعَ بعضُه إلى بعض حتى صار أغلظ ما يكون.

ثم قال تعالى: ﴿وكذلك نَجْزِي المجرمين﴾ أى: مثل ذلك الجزاء الفظيع نجزي المجرمين، ﴿لهم من جهنم مهادٌ﴾ أي: فراش، ﴿ومِن فوقهم غَوَاشٍ﴾ أي: أغطية من النار. ﴿وكذلك نجزي الظالمين﴾ عبَّر عنهم بالمجرمين تارة، وبالظالمين أخرى؛ إشعاراً بأنهم بتكذيبهم الآيات، اتصفوا بالجرم والظلم، وذكر مع الحرمان من الجنة: الجرم، ومع التعذيب بالنار: الظلم؛ تنبيهاً على أن الظلم أعظم الإجرام.

الإشارة: أهل التربية النبوية من الشيوخ العارفين: آية من آيات الله، من كَذَّب بهم، واستكبر عن الخضوع لهم، لاتفتح لفكرته أبواب السماء، بل يبقى مسجوناً بمحيطاته، محصوراً فى هيكل ذاته، ولايدخل جنة المعارف أبداً، بل يحيط به الحجاب من فوقه ومن أسفله، فتنحصر روحه في الأكوان، ولم تفض إلى فضاء الشهود والعيان.

وفى الحِكَم: «الكائن فى الكون، ولم تفتح له ميادين الغيوب، مسجون بمحيطاته، محصور فى هيكل ذاته». وقال أيضا: «وسعك الكون من حيث جثمانيتك، ولم يَسَعْك من حيث ثبوتُ روحانيتك»، فكل من لم تثبت له الروحانية: فهو محصور فى الكون، وكل من ثبتت له الروحانية؛ بأن استولى معناه على حسه، لم يسعه الكون، ولم يحصره عرش ولا فرش، وكذلك الصوفى؛ لاتظله السماء ولا تقله الأرض، أي: لا يحصره الكون من حيث فكرته. والله تعالى أعلم.

ثم شفع بضدهم، فقال:

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَٰرُ وَقَالُواْ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا اللَّهُ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾

قلت: جملة (لا نُكلف): معترضة بين المبتدأ والخبر؛ للترغيب في اكتساب النعيم المقيم، بما تسعه طاقتهم، ويسهل عليهم، و (ما كنا لنهتدى): اللام لتأكيد النفى، وجواب «لولا»: محذوف، أى: لولا هدايته إيانا ما اهتدينا.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ والذين آمنوا ﴾ بالرسل، ﴿ وعملوا ﴾ الأعمال ﴿ الصالحات ﴾ على قدر طاقتهم، ﴿ لا نُكلِّف نفسًا إلا وُسْعَها ﴾ أى: ما تسعه طاقتها، فمن فعل ذلك فـ﴿ أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون. ونزعنا ما في صدورهم من غِل ﴾ أى: نُخرج من قلوبهم كل غل وعدواة، ونطهرها منه، حتى لايكون بينهم إلا التودد، فيصيرون أحباباً وإخواناً، وإنما عبّر بالماضى؛ لتحقق وقوعه، كأنه وقع ومضى، وكذلك ما يجيء بعدها، ثم وصف الجنة فقال: ﴿ تجري من تحتهم ﴾ أى: من تحت قصورهم، ﴿ الأنهارُ ﴾؛ من عسل وخمر وماء ولبن؛ زيادة في لذتهم وسرورهم، فالقصور مرتفعة في الهواء، والأنهار تجرى تحتها.

﴿ وقالوا ﴾ حينئذ: ﴿ الحمد لله الذي هدانا لهذا ﴾ أى: لما جزاؤه هذا النعيم من الإيمان في الدنيا والعمل الصالح، ﴿ وما كنا لنهتدي ﴾ بأنفسنا ﴿ لولا أنْ هدانا الله ﴾ بتوفيقه وإرادته، ﴿ لقد جاءتْ رُسلُ ربنا بالحق ﴾ فاهتدينا بإرشادهم، يقولون ذلك اغتباطاً وتبجحًا بأن ما علموه في الدنيا يقيناً، صار لهم عين اليقين في الآخرة، ﴿ ونُودوا ﴾ أى: نادتهم الملائكة، أو الحق تعالى: ﴿ أنْ تلكُم الجنةُ ﴾ أى: هذه الجنة ﴿ أُورِثْتُموها ﴾ أى: أعطيتموها ﴿ بما كنتم تعملون ﴾ أى: بسبب أعمالكم، وهذا باعتبار الشريعة، وأما باعتبار الحقيقة فكل شيء منه وإليه. ولذلك قال ﷺ: « لَن يُدْخِلَ الجنّةَ أحدَكم عَمَلُهُ، قالوا: ولا أنت، قال: ولا أنا، إلاّ أنْ يَتَغَمّدَنِيَ الله برحْمَتِه»(١). فالشريعة تنسب العمل للعبد، والحقيقة تعزله عنه، وقد آذنت بها الآية قبله بقوله: ﴿وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله﴾، فقد نطقوا بما تحققوا به يوم القيامة.

وقال القشيرى: إنما قال: ﴿ أورثتموها بما كنتم تعملون ﴾؛ تسكيناً لقلوبهم، وتطييباً لهم، وَإلاَّ، فإذا رأوا تلك الدرجات ،علموا أن أعمالهم المشوبة لم تبلغ تلك الدّرجات. هـ. وعن ابن مسعود أنه قال: (يجوزون الصراط بعفو الله، ويدخلون الجنة برحمة الله، ويقتسمون المنازل بأعمالهم). هـ.

الإشارة: والذين آمنوا بطريق الخصوص، وعملوا الأعمال التى تناسبها، من خرق العوائد واكتساب الفوائد، والتخلية من الرذائل والتحلية بأنواع الفضائل على حسب الطاقة؛ أولئك أصحاب جنة المعارف، هم فيها خالدون في الدنيا والآخرة، قد نزع الله من قلوبهم المساوئ والأكدار، وطهّرها من جملة الأغيار، حتى صاروا إخواناً متحابين؛ لا لَغْوَ بينهم ولا تأثيم، تجرى من تحت أفكارهم أنهار العلوم، وتفتح لهم مخازن الفهوم، فإذا تمكنوا من

(١) أخرجه البخارى فى (الرقاق، باب القصد والمداومة على العمل) من حديث السيدة عائشة ـ رضى الله عنها.

هذه الحضرة (قالوا الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله)، تحققوا أنهم محمولون بسابق العناية، محفوفون بعين الرعاية، فتحققوا بما جاءت به الرسل من عند الله، وما نالوه على يد أولياء الله من الذوق والوجدان، وكشف الغطاء عن عين العيان، منحنا الله من ذلك حظا وافرا، بمنّه وكرمه.

ثم ذكر تبجح أهل الجنة على أهل النار، فقال:

﴿ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾ وَبَيۡنَهُمَا حِجَابٞۚ وَعَلَى ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٞ يَعۡرِفُونَ كُلَّۢا بِسِيمَىٰهُمۡۚ وَنَادَوۡاْ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۚ لَمۡ يَدۡخُلُوهَا وَهُمۡ يَطۡمَعُونَ ﴿٤٦﴾ ۞ وَإِذَا صُرِفَتۡ أَبۡصَٰرُهُمۡ تِلۡقَآءَ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾

قلت: (أنْ): فى هذه المواضع: مخففة من الثقيلة، أو: تفسيرية، وحذف مفعول: (وعد) الثانى؛ استغناء بمفعول وعد الأول، أو لإطلاق الوعد، فيتناول الثواب والعقاب.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ونادى أصحابُ الجنة أصحابَ النار أنْ قد وجَدْنا ما وعدنا ربُّنا﴾ من النعيم ﴿حقاً فهل وجدتم﴾ أنتم ﴿ما وَعَدَ ربكم﴾ من البعث والحساب ﴿حقاً﴾، إنما قال أهل الجنة ذلك؛ تبجحاً بحالهم، وشماتة بأصحاب النار، وتحسيراً لهم، فأجابهم أهل النار بقولهم: ﴿نعم﴾، قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً، ﴿فأذن مؤذن بينهم﴾ بين الفريقين: ﴿أن لعنةُ الله على الظالمين﴾؛ الكافرين، ﴿الذين يصدُّون﴾ الناس ﴿عن سبيل الله﴾ وهى الإسلام، ﴿ويبغونها﴾ أى: يطلبون لها ﴿عوجاً﴾؛ زيغًا وميلاً عما هو عليه من الاستقامة، أو يطلبونها أن تكون ذات عوج، ﴿وهم بالآخرة كافرون﴾ أى: جاحدون.

﴿وبينهما﴾ أى: بين الفريقين ﴿حجابٌ﴾، أو بين الجنة والنار حجاب، يمنع دخول أثر أحدهما للأخرى، ﴿وعلى الأعراف﴾؛ وهو السور المضروب بين الجنة والنار، ﴿رجالٌ﴾؛ طائفة من الموحدين استوت حسناتهم وسيئاتهم، كما فى الحديث. وقال فى الإحياء: يشبه أن يكونوا من لم تبلغهم الدعْوة فى أطراف البلاد، فلم تكن لهم معرفة ولا جحود ولا طاعة ولا معصية، فلا وسيلة تقربهم، ولا جناية تبعدهم، ولهم السلامة فقط، لا تقريب ولا تبعيد.هـ. قلت: لكن سيأتى أنهم يدخلون الجنة.

ثم وصفهم بقوله: ﴿ يعرفون كُلاًّ ﴾ من أهل الجنة والنار، ﴿ بسيماهم ﴾: بعلامتهم التي أعلمهم الله بها؛ كبياض الوجوه في أهل الجنة، وسوادها في أهل النار، أو غير ذلك من العلامات. ﴿ ونادوا أصحابَ الجنة ﴾، إذا نظروا إليهم، فقالوا لهم: ﴿ أن سلامٌ عليكم ﴾، أي: نادوهم بالسلام عليهم، ﴿ لم يدخلوها ﴾ أي: الجنة، ﴿ وهم يطمعون ﴾ في دخولها.

﴿ وإذا صُرِفتْ أبصارُهم تلقاءَ أصحابِ النار ﴾ أي: التفتوا إليهم على وجه القلة، تعوذوا من حالهم، ﴿ قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين ﴾ في النار.

الإشارة: إذا وصل أهل الجد والتشمير إلى حضرة العلي الكبير؛ نادوا أهلَ البطالة والتقصير، فقالوا لهم: قد وجدنا ما وعدنا ربنا؛ من كشف الحجاب والدخول مع الأحباب، حقًا، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقًا كما وجدنا نحن؟ قالوا على وجه الدعوى والغلط: نعم، فأذن مؤذن بينهم، بلسان الحال: أن لعنة الله على الظالمين؛ الذين بقوا مع حظوظ أنفسهم، ولم يخرقوا شيئًا من عوائدهم، مع تراميهم على مراتب الرجال، وادعائهم بلوغ غاية الكمال، الذين يصدون عن طريق الخصوص ويبغونها عوجاً، وهم بالخصلة الأخرة ـ وهي إشراق نور الحقيقة على أهل التربية ـ هم كافرون، وبينهما حجاب كبير، وهو حجاب الغفلة، فلا يعرفون أهل اليقظة، وهم أهل مقام الإحسان، بل بينهما مفاوز ومَهامِه(١)، كما قال الشاعر:

تَرَكْنَا البُحور الزَّخراتِ وراءنا فَمِنْ أين يَدْرى النَّاسُ أيْنَ توجَّهْنَا

وعلى الأعراف؛ وهو البرزخ الذي بين الحقيقة والشريعة، رجال من أهل الاستشراف، يعرفون كلاً من العوام والخواص بسيماهم، ونادوا أصحاب الجنة أي: الواصلين إلى جنة المعارف: أن سلام عليكم لم يدخلوها وهم يطمعون، لأنهم في حالة السير، وإذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار أي: نار الحجاب والتعب، وهم العوام، قالوا: ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين.

ثم ذكر شماتة أهل الأعراف بأهل النار، فقال:

﴿ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَٰهُمْ قَالُواْ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾

(١) المهامة: جمع مَهْمَه: وهي المفازة البعيدة. انظر اللسان (مهه).

قلت: (ما أغنى): استفهامية أو نافية، و(ماكنتم): مصدرية، و(ادخلوا): محكى بقول محذوف، أى: قيل لهم ادخلوا... الخ.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ونادى أصحابُ الأعراف رجالاً﴾ من رؤساء الكفرة، ﴿يعرفونهم بسيماهم﴾؛ بعلامة فيهم من سوء حالهم، ﴿قالوا﴾ لهم: ﴿ما أغنى عنكم جمعكم﴾ أى: كثرتكم، أو جمعكم للمال، شيئاً أو أىّ شىء أغنى عنكم جمعكم، ﴿وما كنتم تستكبرون﴾؟ أى: واستكباركم؟ ﴿أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالُهم اللهُ برحمة﴾ وهم ضعفاء المسلمين الذين كانت الكفرة تستحقرهم فى الدنيا، ويحلفون أن الله لايدخلهم الجنة، قد قيل لهم: ﴿ادخلوا الجنة لاخوفٌ عليكم ولا أنتم تحزنون﴾. أو تقول الملائكة لأهل الأعراف: ﴿ادخلوا الجنة لا خوفٌ عليكم ولا أنتم تحزنون﴾، بعد أن حُبسوا على الأعراف حتى أبصروا الفريقين وعرفوهم، وقالوا لهم ما قالوا، تفضل الله عليهم، فقيل لهم: ادخلوا الجنة.

وقيل: لما عيَّر أصحابُ الأعراف أهل النار، أقسموا ـ أى: أهل النار ـ أن أصحاب الأعراف لايدخلون الجنة، فقال لهم الله تعالى: ﴿أهؤلاء الذين أقسمتم لاينالهم برحمة، ادخلوا﴾ يا أهل الأعراف ﴿الجنة﴾. والله تعالى أعلم.

الإشارة: أصحاب الأعراف: قوم من الصالحين حصل لهم محبة القوم، ليسوا من عوام أهل اليمين ولا من خواص المقربين، فإذا نظروا إلى أهل الطعن على الفقراء المتوجهين، والترفع عليهم، قالوا لهم: ما أغنى عنكم جمعكم واستكباركم، أهؤلاء الذين كنتم تطعنون عليهم، وأقسمتم أنهم ليسوا على شىء؟ قد قيل لهم: ادخلوا جنة المعارف لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون، وأنتم حصل لكم الخيبة، والحرمان، والأسر فى أيدى النفوس، والحصر فى سجن الأكوان. عائذاً بالله من ذلك.

ثم ذكر استغاثة أهل النار بأهل الجنة، فقال:

﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ
ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٥٠ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا
وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ
بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ٥١ وَلَقَدۡ جِئۡنَٰهُم بِكِتَٰبٖ فَصَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ عِلۡمٍ هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٥٢
هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥۚ يَوۡمَ يَأۡتِي تَأۡوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّ فَهَل لَّنَا

مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُواْ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾

قلت: (هدى ورحمة): حال من مفعول (فصَّلناه)، (فيشفعوا): جواب الإستفهام، (أو نُرد)؛ بالنصب: عطف عليه، وبالرفع: استئناف، فعلى الأول: المسئول أحد الأمرين؛ إما الشفاعة أو الرد، وعلى الثاني: المسئول الشفاعة فقط.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ونادى ﴾، يوم القيامة، ﴿ أصحابُ النار أصحابَ الجنة أنْ أفيضُوا ﴾ أي: صبوا ﴿ علينا من الماء ﴾، وفيه دليل على أن الجنة فوق النار، أو: صبوا علينا مما رزقكم الله؛ من سائر الأشربة، ليلائم قوله «أفيضوا»، أو: من الطعام؛ على حذف الفعل، أي: أو أعطونا مما رزقكم الله، ﴿ قالوا إن الله حرمهما على الكافرين ﴾، أي: منعهما عنهم، ﴿ الذين اتخذوا دينهم لهواً ولعباً ﴾؛ كتحريم البحائر والسوائب، والتصدية حول البيت، والطواف به؛ عرياناً، وغير ذلك مما أحدثوه، واللهو: صرف القلب إلى ما لا يحصل به نفع أخروي . واللعب: طلب الفرح بمالا يحسن أن يطلب به؛ لخلوه عن منفعة دينية، ﴿ وغرتهم الحياة الدنيا ﴾؛ بأن أنستهم القيامةَ، ﴿ فاليوم نَنساهُم كما نَسُوا لقاءَ يومهم هذا ﴾، والكاف: للتعليل، أي: ننساهم؛ لأجل نسيانهم لقاء يومهم هذا، فلم يخطروه ببالهم، ولم يستعدوا له، ﴿ وما كانوا بآياتنا يجحدون ﴾ أي: نُهملهم لأجل إهمالهم الاستعداد للقاء، وإهمالهم آياتنا حتى جحدوا أنها من عند الله.

﴿ ولقد جئناهم بكتاب فصّلناه على علم ﴾ أي: بيَّنا معانيه من العقائد والأحكام والمواعظ، مفصلةً ﴿ على علم ﴾، أي: عالمين بوجه تفصيله حتى جاء في غاية الإتقان، ﴿ وهدىً ورحمةً لقوم يؤمنون ﴾ فإنهم المنتفعون بهدايته ورحمته دون غيرهم.

﴿ هل ينظرون ﴾ أي: ما ينتظر الكفار به ﴿ إلا تأويلَه ﴾، أي: ما يئول إليه أمره؛ من تبين صدقه، بظهور ما نطق به من الوعد والوعيد، بقيام الساعة وما بعدها، ﴿ يوم يأتي تأويلُه ﴾؛ بظهور ما نطق به، ﴿ يقول الذين نَسُوه من قبل ﴾، ولم يؤمنوا به: ﴿ قد جاءتْ رسلُ ربنا بالحق ﴾ أي: قد تبين أنهم جاءوا بالحق، وحصل لهم اليقين حيث لم ينفع، ثم طلبوا من يشفع فيهم فقالوا: ﴿ فهل لنا من شفعاءَ فيشفعوا لنا ﴾ اليوم، ﴿ أو نُردُّ ﴾ أي: وهل نرد إلى الدنيا ﴿ فنعملَ غيرَ الذي كنا نعملُ ﴾ فنستبدل الكفر بالإيمان، والعصيان بالطاعة والإذعان، أو: فيشفعوا لنا في أحد الأمرين: إما السلامة من العذاب، أو الرد إلى الدنيا فنستبدل الكفر بالإيمان. قال تعالى: ﴿ قد خسروا أنفسهم ﴾؛ أي: بخسوها بسوء أعمالهم وكفرهم، ﴿ وضلَّ عنهم ما كانوا يفترون ﴾ أي: غاب عنهم افتراؤهم فلم ينفعهم.

الإشارة: إذا وصل أهل الجد والتشمير إلى حضرة العلي الكبير، وأفاض عليهم من ماء غيبه، حتى امتلأت قلوبهم وأسرارهم، فأثمر لهم العلوم اللدنية والأسرار الربانية؛ ناداهم أهل البطالة والتقصير: أفيضوا علينا من الماء الذي سقاكم الله منه، أو مما رزقكم من العلوم والمعارف. قالوا: إن الله حرمهما على البطالين؛ الذين اتخذوا طريق القوم لهواً ولعباً، وغرتهم الحياة الدنيا فقبضتهم في شبكتها، فيقول تعالى: فاليوم ننساهم من لذيذ مشاهدتي، وحلاوة معرفتي، كما نسوا لقائي بشهود ذاتي، وأنكروا على أوليائي وأهل معرفتي، وجحدوا وجود التربية وحجروا على قدرتي، ولقد جئناهم بكتاب فصلنا فيه كل شيء؛ فقلنا فيه: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾(١) إلى يوم القيامة، هل ينظرون إلا تأويله؟ يوم يأتي تأويله بظهور درجات المقربين، في أعلى عليين، حينئذ يحصل لهم اليقين بوجود المقربين، أو بالتربية النبوية في كل زمان وحين، فيطلب الشفاعة في اللحوق بهم، أو يرد إلى العمل بعملهم.. هيهات! قد بُعثر ما في القبور، وحُصّل ما في الصدور، فخسر المبطلون، وفاز المجتهدون السابقون. جعلنا الله منهم بمنّه وكرمه.

ثم عرّف الحق ـ جل جلاله ـ بنفسه؛ ليعرفه من أراد معرفته في الدنيا، فقال:

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ۗ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٤﴾ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾

قلت: (حثيثا) أي: سريعا؛ صفة لمصدر محذوف، أي: طلبًا حثيثا، أو حال من الفاعل، أي: حاثا، و(مسخرات) حال فيمن نصب، وخبر فيمن رفع، و(تضرعا وخفية): مصدران، حالان من الواو، وكذلك (خوفا وطمعا).

يقول الحق جل جلاله: ﴿إنَّ ربكم﴾ الذي يستحق أن تعبدوه، هو ﴿اللهُ﴾ وحده ﴿الذي خلق السموات والأرض﴾ أي: أظهرهما ﴿في ستة أيام﴾ أي: مقدار ستة أيام من أيام الدنيا؛ إذ لم يكن ثمّ شمس، ولو شاء خلقهن في لمحة، والعدول إليه؛ لتعليم خلقه التأني والتثبت.

(١) من الآية ١٠٦ من سورة البقرة.

﴿ثم استوى على العرش﴾ استواء يليق به، والعرش: جسم عظيم محيط بالأكوان. سمى به؛ لارتفاعه، وللتشبيه بسرير الملك، فالأكوان في جوفه ممحوقة؛ فقد استولى عليها ومحقها، كذلك أسرار معاني الربوبية الأزلية قد استولت عليه ومحقته، فيمكن أن يكون الحق تعالى عبَّر بالاستواء عن هذا الاستيلاء، وسيأتي في الإشارة تمامه إن شاء الله.

وقال القشيري: ثم استوى على العرش، أي: تَوَحَّدَ بجلال الكبرياء بوصف الملكوت، وملوكنا إذا أرادوا التجلّي والظهور للحَشَم والرعية؛ برزوا لهم على سرير مُلْكِهم في إيوان مشاهدتهم. فأخبر الحقُّ - سبحانه وتعالى - بما يَقْرُب من فَهْم الخلْق، بما ألقى إليهم من هذه الكلمات، بأنه استوى على العرش، ومعناه: اتصافه بعز الصمدية وجلال الأحدية، وانفراده بنعت الجبروت وجلاء الربوبية، وتقدّس الجبَّارُ عن الأقطار، والمعبودُ عن الحدود. هـ.

﴿يُغشى الليلَ النهارَ﴾ أي: يُغطي نور النهار بظلمة الليل، ﴿يطلبه حثيثاً﴾ أي: يعقبه سريعاً؛ كالطالب له، لا يفصل بينهما شيء، ﴿و﴾ خلق ﴿الشمسَ والقمرَ والنجومَ مسخرات بأمره﴾ أي: بقضائه وتصريفه، ومن عجائب تسخيرها أن جعلها مقرونة بأمور غيبية، دالة على ظهور شيء منها.

والنهي عن النظر في النجوم أوتصديق المنجمين؛ إنما هو لمن اعتقد التأثير لها مستقلة بنفسها، أو تصديقهم في تفصيل ما يخبرون به؛ لأنهم إنما يقولون ذلك عن ظن وتخمين وجهل، فإنَّ عِلم النجوم كان معجزة لبعض الأنبياء، ثم اندرس ذلك العلم، فلم يبق إلا ما هو مختلط، لا يتميز فيه الصواب من الخطأ، فاعتقاد كون الكواكب أسباباً لآثار يخلق الله ـ تعالى ـ بها في الأرض، وفي النبات والحيوان شيئاً، يعني في الجملة ليس قادحاً في الدين، بل هو الحق، ولكن دعوى العلم بتلك الآثار على التفصيل مع الجهل: قادح في الدين. فالكواكب ما خلقت عبثًا، ولهذا نظر عليه الصلاة والسلام إلى السماء، وقرأ قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً ...﴾ الآية(١). انظر: الإحياء للغزالي.

ثم قال تعالى: ﴿ألا له الخلقُ والأمرُ﴾ أي: الإيجاد والتصرف بالأمر والنهي، ﴿تبارك الله رب العالمين﴾ أي: تعاظم في ألوهيته، وتعالى في ربوبيته، وتفرد في وحدانيته.

قال البيضاوي: (وتحقيق الآية ـ والله أعلم ـ أن الكفرة كانوا متخذين أرباباً، فبيَّن لهم أن المستحق للربوبية واحد ـ وهو الله تعالى؛ لأنه الذي له الخلق والأمر، فإنه تعالى خلق العالَم على ترتيب قويم، وتدبير حكيم ؛ فأبدع الأفلاك العلوية، والأجرام السفلية، ثم بعد تمام خلق عالَم الملك أخذ في تدبيره ؛ كالملكِ الجالس على عرشه

(١) الآية ١٩١ من سورة آل عمران.

وسريره لتدبير مملكته، فدبر الأمر من السماء إلى الأرض، بتحريك الأفلاك وتسيير الكواكب، وتكوير الليالي والأيام، فله الخلق والأمر. وكذلك قال في آية السجدة بعد ذكر الخلق: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ﴾[(١)]، فربُّ الخلائق: مَنْ هذا صفته، لا غيره. انتهى بالمعنى.

ثم أمرهم بأن يدعوه، متذللين مخلصين، فقال: ﴿ادعوا ربكم تضرعاً وخُفْيةً﴾ أي: ذوي تضرع وخفاء؛ فإن الإخفاء دليل الإخلاص، ﴿إنه لا يحب المعتدين﴾ المتجاوزين ما أمروا به في الدعاء وغيره، ونبه على أن الداعي ينبغي ألاَّ يطلب مالا يليق به؛ كرتبة الأنبياء، وقيل: الاعتداء في الدعاء، هو الصياح به، والتشدق، أو اختراع دعوة لا أصل لها في الشرع، وعن النبي ﷺ: «سَيَكُونُ قَوْمٌ يَعْتَدُونَ فِي الدُّعَاءِ، وحَسْبُ المَرْء أَنْ يَقُولَ: اللَّهُمَّ إنِّي أسألُكَ الجنَّةَ وما يُقَرِّبُ إليهَا منْ قَوْلٍ وعَمَلٍ. ثم قرأ: ﴿إنَّه لا يُحبُّ المُعْتَدِينَ﴾»[(٢)].

﴿ولا تُفسدوا في الأرض﴾ بالكفر والمعاصي، ﴿بعد إصلاحها﴾ ببعث الأنبياء، وشرع الأحكام، أو: ولا تفسدوا في الأرض بالمعاصي الموجبة لفساد العالم بالقحط والفتن، بعد إصلاحها بالخصب والأمان، ﴿وادعوه خوفاً وطمعاً﴾ أي: خوفًا من الرد لقصور الأعمال، وطمعًا في القبول بالفضل والكرم؛ ﴿إن رحمتَ الله قريبٌ من المحسنين﴾ المخلصين.

قال البيضاوي: هو ترجيح للطمع، وتنبيه على ما يتوصل به إلى الإجابة، وتذكير قريب؛ لأن الرحمة بمعنى الترحم، أو لأنه صفة محذوف؛ أي: أمر قريب، أو على تشبيه فعيل الذي هو بمعنى مفعول، أو للفرق بين القريب من النسب، والقريب من غيره. هـ. قلت: والأحسن أنه إنما ذكره؛ لأن المراد بالرحمة هنا: سر الخصوصية، وهو مذكر، فراعى معنى اللفظ، كأنه قال: إن سر الولاية ـ وهي الخصوصية ـ قريب من المحسنين. والله تعالى أعلم.

الإشارة: قوله تعالى: (في ستة أيام): قال الورتجبي: في كل يوم من هذه الأيام: ظهور صفة من صفاته الست: أولها: العلم، والثاني: القدرة، والثالث: السمع، والرابع: البصر، والخامس: الكلام، والسادس: الإرادة، كملت الأشياء بظهور أنوار الصفات الستة، ولما أتمها صارت الحدثان؛ كجسد آدم بلا روح، فتجلى من صفته السابعة ـ

---

(١) الآية ٤ من سورة السجدة.

(٢) أخرجه أبو يعلى في مسنده ٧١/٢، من حديث سعد بن أبي وقاص، وصدر الحديث إلى قوله (في الدعاء) أخرجه أبو داود في (الطهارة، باب الإسراف في الماء) وابن ماجه في (الدعاء، باب كراهية الاعتداء في الدعاء) والحاكم في المستدرك ٥٤٠/١، وصححه ووافقه الذهبي، من حديث عبدالله بن مغفل.

وهي حياته القديمة الأزلية الباقية، المنزهة عن همهمة الأنفاس والمشابهة والقياس ـ فقامت الأشياء بصفاته القائمة بذاته، ويكون إلى الأبد؛ لحياتها بروح حياته، المقدسة عن الاتصال والانفصال. قلت: وهي المعبَّر عنها بالمعاني القائمة بالأواني. ثم قال: وفي أدق الإشارة: السموات: الأرواح، والأرض: الأشباح، والعرش: القلوب، بدأ بكشف الصفات للأرواح، وبدأ بكشف الأفعال للأشباح، ثم بدأ بكشف الذات للقلوب؛ لأن مناظر القلوب للغيوب، والغيوب من القلوب محل تجلي استواء القدم، استوى قهر القدم، بنعت الظهور للعدم، أي: فتلاشى العدم، ثم استوى تجلي الصفات على الأفعال، واستوى تجلي الذات على الصفات، فاستوى بنفسه لنفسه، المنزه عن المباشرة بالحدثان والاتصال والانفصال عن الأكوان. قلت: أي: إذ لا حدثان ولا أكوان؛ لأنها لما قرنت بالقدم تلاشت، وما بقي إلا نعت القدم.

ثم قال: خصَّ السموات والأرض بتجلي الصفات، وخص العرش بتجلي الذات. قلت: لأن المعاني المستولية على العرش باقية على أصلها، وهي أسرار الذات لم تتردَّ برداء الكبرياء، وهو حجاب الحس الظاهر، بخلاف المعاني القائمة بالأواني، وهي أنوار الصفات، تجلت مرتدية بحجاب القهرية، فقيل لها: تجلي الصفات.

ثم قال: السموات والأرض جسد العالم، والعرش قلب العالم، والكرسي دماغ العالم، خص الجميع بالأفعال والصفات، وخص العرش بظهور الذات؛ لأنه قلب الكل، وهو غيب الرحمن وعلمه وحكمته، رأيته في المكاشفة أنواراً شعشعانياً، بلا جسم ولا مكان ولا صورة، يتلألأ، فسألت عن ذلك، فقيل لي: هذا عالم يسمى عرشا. انتهى.

قلت: وأقرب من هذا كله: أن العرش قد استولى على ما في جوفه من العوالم، حتى صارت في وسطه كلا شيء، ومعاني أسرار الربوبية، وهي العظمة الأصلية ـ قد استولت عليه، وأحاطت به، ومحت وجوده، فعبَّر الحق ـ جل جلاله ـ عن استيلاء هذه العظمة ـ التي هي أسرار الربوبية ـ على العرش بالاستواء. وإلى هذا أشار في الحكم العطائية بقوله: «يا من استوى برحمانيته على عرشه، فصار العرش غيباً في رحمانيته، كما صارت العوالم غيباً في عرشه، محقت الآثار بالآثار، ومحوت الآثار ـ وهي العرش وما احتوى عليه ـ بمحيطات أفلاك الأنوار» وهي أسرار الذات المحيطات بالآثار، من العرش إلى الفرش، فعبّر عن المعاني المستولية على العرش بالرحمانية؛ لأن الرحمانية صفة الذات، والصفة لاتفارق الموصوف، فافهم.

قلت: ومن كحل عينه بإثمد توحيد الذات لايستبعد أن يكون الحق ـ جل جلاله ـ يتجلى بتجل خاص من أسرار ذاته وأنوار صفاته، يستوي بتلك العظمة على العرش، كما يتجلى يوم القيامة لفصل القضاء بين عباده، إذ تجلياته لا تنحصر، بل كل ما ظهر في عالم الشهادة فإنما هو نور من تجلي ذاته وصفاته. وهذا القدر كاف لمن شم شيئًا

من أسرار التوحيد، وقد تكلم ابن جزى هنا على الخوف والرجاء، وأطال فيهما، ولكنه يجنح لتصوف أهل الظاهر، وقد تقرر في محله.

وقوله تعالى: ﴿إن رحمة الله قريب من المحسنين﴾: هو تقييد لقوله: ﴿يختص برحمته من يشاء﴾؛ فالمختص بالرحمة هم المحسنون. انظر لفظ الحكم. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر الحق ـ جل جلاله ـ تصاريف قدرته المفهوم من قوله: (ألا له الخلق والأمر)، فقال:

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾

قلت: (نُشُرًا): حال من الرياح، وهو جمع نشور، بمعنى ناشر، ومن قرأ بسكون الشين، فهو تخفيف منه، ومن قرأ بفتح النون، فمصدر في موضع الحال، بمعنى: ناشرات، أو مفعول مطلق؛ فإن الإرسال والنشر متقاربان، ومن قرأه بالباء وسكون الشين فهو جمع بشير، مخفف، و(أقلّت): مشتق من القلة؛ لأن الحامل للشيء يستقله، و(ثقالاً): جمع؛ لأن السحاب جمع بمعنى السحائب.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وهو الذي يرسل الرياح﴾ أو الريح ﴿نُشْراً﴾ أي: تنشر السحاب، وتفرقه إلى الأرض التي أراد الله أن تمطر، أو بشارة بالمطر(١)، ﴿بين يدي رحمته﴾ أي: قبل نزول المطر، فهي قدامَه؛ فإن الصبا تثير السحاب، والشمال تجمعه، والجنوب تذره، والدبور تفرقه. قاله البيضاوي.

﴿حتى إذ أقلّتْ﴾ أي: حملت ﴿سحاباً ثقالاً﴾ بالماء؛ لأنها تحمل الماء فتثقل به، ﴿سُقناه﴾ أي: السحاب بما اشتمل عليه من الماء، ﴿لبلدٍ ميّتٍ﴾ أي: لإحيائه أو لسقيه بعد يبسه، كأنه ميت، ﴿فأنزلنا به﴾ أي: بالبلد، أو بالسحاب، أو بالسوق، أو بالريح، ﴿الماء﴾ الذي في السحاب، ﴿فأخرجنا به﴾ أي: بالماء، ﴿من كل الثمرات﴾ من كل أنواعها وأصنافها، ﴿كذلك نُخرج الموتى﴾ من القبور، أي: كما نُحيي البلد بإحداث القوة

(١) هذا المعنى على قراءة «بُشْرًا» جمع بشير، وهي قراءة عاصم. وقرأ الباقون «نُشرا» بالنون. راجع الإتحاف (٢/٥٢).

النامية فيه وتطريتها بأنواع النبات والثمرات ﴿ كذلك نُخرج الموتى ﴾ من الأجداث ونحييها برد النفوس إلى مواد أبدانها بعد جمعها وتطريتها بالقُوى الحسية. قاله البيضاوي.

وقال ابن جزي: هو تمثيل لإخراج الموتى من القبور بإخراج الزرع من الأرض، وقد وقع ذلك في القرآن في مواضع منها: ﴿كَذلكَ النُّشُورُ﴾(١) و ﴿كَذَلِك الخُروجُ﴾(٢) .هـ. ﴿ لعلكم تذكَّرون ﴾؛ فتعلمون أن من قدر على ذلك قدر على إحياء الموتى، إذ لا فرق.

﴿ والبلدُ الطيب ﴾ أي: الأرض الكريمة والتراب الجيد ﴿ يَخرج نباتُه ﴾ بسهولة، حسناً قوياً نضرا، ﴿ بإذن ربه ﴾ أي: بمشيئته وقدرته، ﴿ والذى خبُث ﴾ من الأرض؛ كالحرة والسبخة، ﴿ لايخرج إلا نكِداً ﴾؛ قليلاً عديم النفع، أو عسيراً بمشقة، ﴿ كذلك نُصرِّف الآيات ﴾؛ نُكررها ونُرددها ﴿ لقوم يشكرون ﴾ نعمة الله، فيتفكرون فيها، ويعتبرون بها.

قال البيضاوي: والآية مثل لمن تدبر الآيات وانتفع بها، ولمن لم يرفع إليها رأساً ولم يتأثر بها، ومثلُه في البخاري في حديث طويل(٣). وقال ابن عباس وغيره: هو ضرب مثل للمؤمن والكافر. وقال ابن جزي: يحتمل أن يكون المراد ما يقتضيه ظاهر اللفظ، فتكون متممة للمعنى الذي قبلها في المطر، وأن تكون تمثيلاً للقلوب؛ فالطيب: قلب المؤمن، والخبيث: قلب الكافر، وقيل: هما للفهم والبليد. هـ.

الإشارة: وهو الذي يرسل رياح الهداية، تنشر سحاب الواردات الإلهية والنفحات الربانية، بين يدي معرفته، أو تُبشر بها قبل وصولها، حتى إذا أقلت سحاباً ثقالاً بالعلوم اللدنية، سقناه لقلبٍ ميت بالجهل والهوى، فأنزلنا مما فيه من ماء ذلك الأمطار، فأخرجنا به من ثمرات العلوم وأزهار الحِكَم ونوار اليقين. وفي الحكم: «لاتزكين وارداً لم تعلم ثمرته، فليس المقصود من السحابة الأمطار، وإنما المقصود وجود الأثمار». (كذلك نخرج الموتى) أي: نحي القلوب الموتى بالجهل، (لعلكم تذكرون). والبلد الطيب، وهو القلب الطيب، إذا هبت عليه هذه الواردات، وتزلت فيه أمطار النفحات، يُخرج نباته من العلوم والمعارف بإذن ربه، والذي خبث من القلوب لا يخرج ما فيه إلا نكدا ـ أي: ضعيفاً؛ لعدم تأثره بالواردات والمواعظ.

وقال الورتجبي: ذكر ـ سبحانه ـ القلب الذي هو بلد الله الذي مُطر عليه من بحر امتنانه، ويخرج نبات ألوان الحالات والمقامات. ثم قال: وكل قلب بذره الهوى فنباته الشهوات.هـ.

---

(١) من الآية ١١ من سورة ق.
(٢) من الآية ٩من سورة فاطر.
(٣) وذلك قول الرسول ﷺ: «مثل ما بعثني الله به من العلم والهدى كمثل الغيث الكثير...» الحديث أخرجه البخاري في (العلم ـ باب فضل من علِم وعلَّم) ومسلم في (الفضائل ـ باب بيان ما بعث النبي ﷺ من الهدى والعلم) عن أبي موسى رضي الله عنه.

ثم شرع في ذكر قصص الأنبياء مع أممهم، تفصيلاً لقوله: (وكم من قرية أهلكناها..) ... الآية، فقال:

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾

قلت: (أوَ عَجبتم): الهمزة للإنكار، والواو للعطف، والمعطوف عليه محذوف، أي: أكذبتم وعجبتم، و(في الفلك): يتعلق بأنجينا، أو بمن معه، أو حال من الموصول.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ لقدأرسلنا نوحاً إلى قومه ﴾، وهو نوح بن لمك بن متوشلخ بن إدريس، نبيء بعده(١)، بعث وهو ابن خمسين سنة أو أربعين، وعاش ألفًا وثلاثمائة سنة، ﴿ فقال يا قوم اعبدوا الله ﴾ وحده ﴿ مالكم من إلهٍ غيرُه ﴾ يستحق أن يُعبد، ﴿ إني أخاف عليكم ﴾، إن لم تؤمنوا وتُوحدوا الله ﴿ عذابَ يوم عظيم ﴾ وهو يوم القيامة، أو يوم نزول الطوفان.

﴿ قال الملأُ ﴾ أي: الأشراف ﴿ من قومه ﴾؛ لأنهم يملأون العيون عند رؤيتهم، قالوا له: ﴿ إنا لنَراكَ في ضلالٍ مبين ﴾ أي: في خطأ بيِّن عن الحق، ﴿ قال يا قوم ليس بي ضلالةٌ ﴾ أي: ليس بي شيء من الضلال، بالغ لهم في النفي كما بالغوا له في الإثبات، وعرض لهم به، وتلطف لهم في القول، ﴿ ولكني رسولٌ من رب العالمين ﴾ أي: لست في ضلال كما اعتقدتم، ولكني في غاية من الهدى؛ لأني رسول من رب العالمين، ﴿ أبلغكم رسالاتِ ربي ﴾ كما أمرني، ﴿ وأنصحُ لكم ﴾ جُهدي، ﴿ وأعلمُ من الله مالا تعلمون ﴾ من صفاته الجلالية والجمالية ومن رحمته وعذابه، أو من قدرته وشدة بطشه، أو أعلم من جهة وحْيه أشياء لا علم لكم بها، وجمع الرسالات؛ لاختلاف أوقاتها، أو لتنوع معانيها، كعلم العقائد والمواعظ والأحكام.

(١) أي: بعد إدريس ـ عليه السلام.

ثم قال لهم: ﴿أو عَجبْتم﴾ أي: أكذبتم وعجبتم من ﴿أن جاءكم ذِكرٌ﴾ أي: تذكير ووعظ ﴿من ربكم﴾ ﴿على﴾ لسان ﴿رجل منكم﴾ أي: من جملتكم، أو من جنسكم؛ كانوا يتعجبون من إرسال البشر ويقولون: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لأَنزَلَ مَلائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الأَوَّلِينَ﴾(١)، قال القشيري: عجبوا مِنْ كوْنِ شخص رسولاً، ولم يَعجبوا من كون الصنمِ شريكاً لله، هذا فَرْطُ الجهالة وغاية الغواية. هـ. وحكمة إرساله؛ كونه جاءكم ﴿لينذركم﴾ عاقبة الكفر والمعاصي، ﴿ولتتقوا﴾ الله بسبب ذلك الإنذار، ﴿ولعلكم ترحمون﴾ بتلك التقوى، وفائدة حرف الترجي؛ التنبيهُ على أن التقوى غير مُوجب للترحم بذاته، وإنما هو ـ أي: الترحم ـ فضل من الله، وأن المتقي ينبغي ألا يعتمد على تقواه، ولا يأمَن من عذاب الله.

﴿فكذبوه فأنجيناه والذين معه﴾ هو ومن آمن به، وكانوا أربعين رجلاً وأربعين امرأة، وقيل: عشرة، وقيل: ثمانية، حَملناهم ﴿في الفلك﴾ أي: السفينة، ﴿وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا﴾ بالطوفان؛ ﴿إنهم كانوا قوماً عَمِينَ﴾ أي: عُمْي القلوب، غير مستبصرين، وأصله: عَمِيِين، مخفف. قاله البيضاوي.

الإشارة: الشريعة المحمدية: سفينة نوح عليه السلام، فمن ركب بحر الحقائق وحاد عنها؛ حال بينه وبينها الموج فكان من المغرقين في بحر الزندقة والكفر، ومن تمسك بها في ذلك كان من الناجحين الفائزين.

ثم ذكر قصة هود عليه السلام فقال:

﴿ ۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ
(٦٥) قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ
ٱلْكَٰذِبِينَ (٦٦) قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٦٧)
أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ (٦٨) أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ
عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَٱذْكُرُوٓا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ
فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً فَٱذْكُرُوٓا ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٦٩) قَالُوٓا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ

(١) كما جاء في الآية ٢٤ من سورة (المؤمنون).

ٱللَّهَ وَحۡدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ
﴿٧٠﴾ قَالَ قَدۡ وَقَعَ عَلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ رِجۡسٞ وَغَضَبٌۖ أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسۡمَآءٖ
سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٖۚ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ
ٱلۡمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَقَطَعۡنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ
بِـَٔايَٰتِنَاۖ وَمَا كَانُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾

قلت: (أخاهم): عطف على نوح، و(هوداً): عطف بيان أو بدل، وكذلك (أخاهم صالحا) وما بعده؛ حيث وقع.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ و﴾ أرسلنا ﴿إلى﴾ قبيلة ﴿ عادٍ أخاهم﴾ أي: واحد من قبيلتهم، كقولهم: يا أخا العرب، فإنه هود بن عبدالله بن رياح بن الخلود بن عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح، وقيل: هو هود بن شالح بن أرفخشذ بن سام بن نوح، فهو ابن عم أبي عاد، وإنما أرسل إليهم منهم لأنهم أفهم لقوله، وأعرف بحاله، وأرغب في اتباعه، ثم وعظهم فقال: ﴿ ياقوم اعبدوا الله﴾ وحده؛ ﴿ما لكم من إله غيره أفلا تتقون﴾ عذاب الله، ﴿ قال الملأ الذين كفروا من قومه﴾، كان قومه أحسن من قوم نوح، إذ كان من أشرافهم من آمن به؛ كمرثد بن سعد، ولذلك قيد الملأ بمن كفر، بخلاف قوم نوح؛ لم يكن أحد منهم آمن به، فأطلق الملأ، قالوا لهود عليه السلام: ﴿ إنا لنراك في سفاهة﴾ أي: متمكناً في خفة العقل، راسخاً فيها، حيث فارقت دين قومك، ﴿ وإنا لنظنك من الكاذبين﴾ في ادعاء الرسالة.

﴿ قال ياقوم ليس بي سفاهة، ولكني رسول من رب العالمين أبلغكم رسالات ربي، وأنا لكم ناصح أمين﴾، يحتمل أن يريد أمانته على الوحي، أو أنهم كانوا قد عرفوه بالأمانة والصدق قبل الرسالة. ثم قال: ﴿ أوَ عجبتم﴾ من ﴿ أن جاءكم ذِكْرٌ من ربكم على رجل منكم لينذركم﴾، تقدم تفسيرها.

قال البيضاوي: وفي ذكر إجابة الأنبياء الكفرةَ عن كلماتهم الحمقاء بما أجابوا به والإعراض عن مقالتهم: كمال النصح والشفقة، وهضم النفس، وحسن المجادلة، وهكذا ينبغي لكل ناصح، وفي قوله: ﴿وأنا لكم ناصح أمين﴾: تنبيه على أنهم عرفوه بالأمرين. هـ.

ثم قال لهم: ﴿ واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح﴾ في مساكنهم، أو خلفاء في الأرض من بعدهم بأن جعلكم ملوكاً، فإن شداد بن عاد ممن ملك معمورة الأرض، من رمل عالج إلى بحر عمان، خوفهم أولاً من

عقاب الله، ثم ذكرهم بإنعامه؛ ﴿ وزادكم في الخلق بسطة ﴾ أي: قامة وقوة، فكانوا عظام الأجساد، فكان أصغرهم: ستين ذراعا، وأطولهم: مائة ذراع. ﴿ فاذكروا آلاء الله ﴾ أي: نعمه، تعميم بعد تخصيص، ﴿ لعلكم تفلحون ﴾ أي: لكي يفضي بكم ذكر النعم إلى شكرها المؤدى إلى الفلاح، ومن شكرها: الإيمان برسولهم.

﴿ قالوا أجئتنا لنعبد الله وحده ونَذَرَ ما كان يعبد آباؤنا ﴾ من الأصنام، استبعدوا اختصاص الله بالعبادة والإعراض عما وجدوا عليه آباءهم؛ انهماكاً في التقليد، وحباً لما ألفوه مع اعترافهم بالربوبية، ولذلك قال لهم هود عليه السلام: «قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب»، بعد أن قالوا: ﴿ فأتنا بما تعدنا ﴾ من العذاب ﴿ إن كنت من الصادقين ﴾ فيه.

﴿ قال قد وقع ﴾ أي: وجب ﴿ عليكم من ربكم رجسٌ ﴾، عذاب ﴿ وغضب ﴾ إرادة الانتقام، ﴿ أتجادلونني في أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ﴾ أي: أتجادلونني في عبادة مسميات أسماء، ففي الكلام حذف. وأراد بقوله: ﴿ سميتموها أنتم وآباؤكم ﴾ أي: جعلتم لها أسماء، فدل ذلك على أنها محدثة، فلا يصح أن تكون آلهة، أو سميتموها آلهة من غير دليل، وهو معنى قوله: ﴿ ما نزّل الله بها من سلطان ﴾ أي: حجة تدل على استحقاقها للعبادة، فالمجادلة يحتمل أن تكون في عبادتها، أو في تسميتها آلهة، والمراد بالاسم ـ على الأول ـ المسمى، وعلى الثاني: التسمية.. قاله ابن جزى. ﴿ فانتظروا ﴾ نزول العذاب، الذي طلبتم حين أصررتم على العناد، ﴿ إني معكم من المنتظرين ﴾ نزوله.

قال تعالى: ﴿ فأنجيناه والذين معه برحمة منا ﴾ عليهم. قال القشيري: لارتبةَ فوق رتبة النبوة، ولا درجة أعلى من درجة الرسالة، وقد أخبر سبحانه: أنه نجيٌ هوداً برحمته، وكذا نجيٌ الذين آمنوا معه برحمته، ليُعلَم أن النجاة لاتكون باستحقاق العمل، وإنما تكون ابتداء فضلٍ من الله ورحمة، فما نَجاَ مَنْ نَجاَ إلا بفضل الله سبحانه وتعالى .هـ.

﴿ وقطعنا دابر الذين كذَّبوا بآياتنا ﴾ أي: استأصلناهم، ﴿ وما كانوا مؤمنين ﴾، تعريض بمن آمن منهم، وتنبيه على أن الفارق بين من نَجاَ وبين من هلك: هو الإيمان.

روى أنهم كانوا يعبدون الأصنام، فبعث الله إليهم هوداً فكذبوه، وزادوا عتواً، فأمسك الله عنهم المطر ثلاث سنين حتى جهدهم، وكان الناس حينئذ، مسلمهم ومشركهم، إذا نزل بهم بلاء توجهوا إلى البيت الحرام وطلبوا من الله الفرج، فجهزوا إليه «قيل بن عنز»، ومرثد بن سعد، في سبعين من أعيانهم، وكان إذ ذاك بمكة العمالقة؛ أولاد عمليق بن لاود بن سام، وسيدهم: معاوية بن بكر، فلما قدموا عليه، وهو بظاهر مكة، أنزلهم وأكرمهم، وكانوا أخواله وأصهاره، فلبثوا عنده شهراً يشربون الخمر، وتغني عليهم الجرادتان ـ قَيْنَتَانِ له ـ فلما رأى ذهولهم عما

بعثوا له أهمه ذلك، واستحيا أن يكلمهم فيه؛ مخافة أن يظنوا به ثقل مقامهم، فعلم المغنيتين بيتين من الشعر، وأمرهما أن تغنيا به وهما:

أَلاَ يَا قَيلُ وَيْحَكَ، قُم، فَهَيْنِمْ لَعَلَّ اللَّه يسقِينَا الغَمَامَا
فيسقِي أَرْضَ عَادٍ، إِنَّ عَادًا قَدَ امْسَوْا لاَ يُبِينُونَ الكَلاَمَا

فلما غنيتا به أزعجهم ذلك، فقال مرثد: والله لايُسقون بدعائكم، ولكن إن أطعتم نبيكم ، وتبتم إلى الله، سقيتم، فقالوا لمعاوية: احبسه عنّا ،لايقدمنّ معنا مكة؛ فإنه قد اتبع دين هود، وترك ديننا، ثم دخلوا مكة، فقال قيل: اللهم اسق عاداً ما كنت تسقيهم، فأنشأ الله سحابات ثلاثا؛ بيضاء وحمراء وسوداء، ثم ناداه منادٍ من السماء: يا قيل؛ اختر لنفسك ولقومك. فقال: اخترت السوداء؛ فإنها أكثرهن ماء، فخرجت إلى عاد من وادي المغيث، فاستبشروا بها، وقالوا: هذا عارض ممطرنا، فجاءتهم، فيها ريح عقيم، فأهلكتهم، رُوى أنها لما قربت من ديارهم حملت أنعامهم في الهواء، كأنها جراد، فاستمرت عليهم سبع ليالٍ وثمانية أيام، شدخَتْ رؤوسهم إلى الحجارة حتى هلكوا جميعا، ونجا هود والمؤمنون معه، فأتوا مكة وعبدوا الله حتى هلكوا. قاله البيضاوي وغيره.

وها هنا بحث؛ وهو أن البيت إنما بناه إبراهيم عليه السلام حسبما في الصحيح، ولم تعمر مكة إلا بعد إنزال إسماعيل فيها، وهود كان قبل إبراهيم، والبيت حينئذ خرب، كان خربه الطوفان، فكيف يتوجهون إليه وهو لم يكن؟.

ويمكن الجواب : بأنهم كانوا يلتجئون إلى رسومه وخربته التي بقيت بعد الطوفان؛ لأن أول من بناه آدم عليه السلام فلما خربه الطوفان بقي أثره، فكانوا يتبركون به، وفي بعض التواريخ: أن العماليق بنوه قبل إبراهيم، فكانوا يطوفون به ويتبركون، ثم هُدم، وبناه بعدهم خليل الله إبراهيم. وبهذا ـ إن صح ـ يزول الإشكال. والله تعالى أعلم. وأما من قال: إن هوداً تعدد، فغير سديد.

الإشارة: قد تضمنت موعظة هود عليه السلام لقومه خصلتين، بهما النجاة من كل هول وشر، والفوز بكل خير، وهما: التوحيد والتقوى، وهي الطاعة لله ولرسوله فيما جاء به من أمر ونهي. فالتوحيد تطهير الباطن من الشرك الجلي والخفي، والتقوى: حفظ الجوارح من المخالفة في السر والعلانية، وهاتان الخصلتان هما أساس الطريق ونهايته. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر قصة صالح عليه السلام ، فقال:

﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ
غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا
تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ
جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا
قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ
﴿٧٤﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ
مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ
﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ
وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾
فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ
أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾

قلت: ﴿آية﴾: حال، والعامل فيها: الإشارة، و ﴿بيوتا﴾: حال من الجبال.

يقول الحق جل جلاله: ﴿و﴾ أرسلنا ﴿إلى ثمود﴾؛ قبيلة أخرى من العرب، سُموا باسم أبيهم الأكبر: ثمود بن غابر بن إرم بن سام، وقيل: سُموا به؛ لقلة ما بهم من الثمد، وهو الماء القليل، وكانت مساكنهم الحِجْر بين الحجاز والشام إلى وادي القرى، وقد دخلها رسول الله ﷺ وأصحابه، فقال لهم ﷺ: «لاَ تَدْخُلوا عَلَى هؤُلاَءِ المُعَذَّبِين إلاَّ أنْ تكُونُوا باكِين؛ مخافة أن يُصيبَكُمْ مِثْلُ ما أصابهُم»(١).

أرسلنا إليهم ﴿أخاهم صالحاً﴾، وهو صالح بن عُبَيد بن أسف بن ماسَح بن عبيد بن حاذر بن ثمود. وقال وهب بن منبه: بعث الله صالحاً حين راهق الحلم. وقال الكواشي: إنه مات ابن ثمان وخمسين سنة، وأقام في قومه ينذرهم عشرين. هـ.

(١) أخرجه البخاري في (أحاديث الأنبياء ـ باب قول الله تعالى: ﴿وإلى ثمود أخاهم صالحا﴾) ومسلم في (الزهد ـ باب لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين) من حديث سيدنا عبدالله بن عمر رضي الله عنه.

﴿قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم﴾؛ معجزة ظاهرة الدلالة على صحة نبوتي، وهي: ﴿هذه ناقة الله لكم آية﴾؛ لأنها جاءت من عند الله بلا وسائط وأسباب، على ما سيأتي، ﴿فذروها﴾ أي: اتركوها، ﴿تأكل في أرض الله﴾ العشب، ﴿ولا تمسوها بسوء﴾، نهي عن المس، الذي هو مقدمة الإصابة بالسوء الجامع لأنواع الأذى؛ مبالغةً في الأمر وإزاحة للعذر. قاله البيضاوي. ﴿فيأخذكم﴾ إن مسستموها بسوء ﴿عذاب أليم﴾، وهو الهلاك بالصيحة.

﴿واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم﴾ أي: هيأ لكم القرار ﴿في الأرض﴾ أي: أرض الحجاز، ﴿تتخذون من سهولها قصوراً﴾ أي: تبنون مما انبسط منها قصورا، فالسهل ضد الجبل، ﴿وتنحتون الجبال بيوتا﴾ أي: تنجرون بيوتاً من الجبال، وكانوا يسكنون القصور في الصيف والجبال في الشتاء. ﴿فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين﴾ بالمعاصي والكفر.

﴿قال الملأ الذين استكبروا من قومه﴾ عن الإيمان، ﴿للذين استضعفوا﴾ أي: للذين استضعفوهم واستذلوهم ـ أعني لمن آمن منهم ـ : ﴿أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه﴾؟، قالوه على وجه الاستهزاء، ﴿قالوا إنا بما أرسل به مؤمنون﴾، لم يقولوا في الجواب: نعم؛ تنبيهاً على أن إرساله أظهر من أن يشك فيه عاقل أو يخفى على ذي رأي، وإنما الكلام فيمن آمن ومن كفر، فلذلك قال: ﴿قال الذين استكبروا إنا بالذي آمنتم به كافرون﴾؛ على المقابلة، ووضعوا «آمنتم به» موضع «أرسل به»؛ رداً لما جعلوه معلوماً مسلما.

﴿فعقروا الناقة﴾؛ نحروها، أسند إلى جميعهم فعل بعضهم كما يأتي؛ لأنه كان برضاهم، ﴿وعتوا عن أمر ربهم﴾ أي: استكبروا عن امتثال أمره، وهو ما بلغهم صالح بقوله: «فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء»، ﴿وقالوا يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين. فأخذتهم الرجفة﴾ أي: صيحة جبريل، ﴿فأصبحوا في دارهم جاثمين﴾؛ باركين على ركبهم، ميتين.

رُوي: أنهم بعد عادٍ عمروا بلادهم وخلفوهم، وكثروا ، وعُمِروا أعماراً طِوالا لا تفي بها الأبنية، فنحتوا البيوت من الجبال، وكانوا في خِصب وسعة، فعتوا وأفسدوا في الأرض، وعبدوا الأصنام، فبعث الله إليهم صالحاً من أشرافهم، فأنذرهم، فسألوه آية، فقال لهم: أيَّ آية تريدون؟ فقالوا: اخرج معنا إلى عيدنا فتدعو إلهك وندعو آلهتنا، فمن استجيب له اتبع، فخرج معهم، فدعوا أصنامهم فلم تجبهم، ثم أشار سيدهم «جندع بن عمرو» إلى صخرة منفردة يقال لها: «الكاثبة»، قال له: أخرج من هذه الصخرة ناقةً مخترجة جوفاء وبْراء، فإن فعلت صدقناك، فأخذ

عليهم صالح مواثيقهم: لئن فعلتُ ذلك لتؤمنن؟ قالوا: نعم، فصلى، ودعا ربه، فتمخضت الصخرة تَمَخُّضَ النتوج بولدها، فانصدعت عن ناقة عُشَرَاءَ، جوفاء وبْراء كما وَصَفُوا، وهم ينظرون، ثم أنتجت ولداً مثلها في العظم، فآمن به جندع في جماعة، ومنع الناس من الإيمان: ذُؤاب بن عمرو، والحباب صاحب أصنامهم، ورباب كاهنهم.

فمكثت الناقة مع ولدها ترعى الشجر، وترد الماء غِبّاً، فما ترفع رأسها من البئر حتى تشرب كل ما فيها، ثم تتفحج(١)، فيحلبون ما شاءوا حتى تمتلىء أوانيهم، فيشربون ويدخرون، وكانت تصيف بظهر الوادي فتهرب منها أنعامهم إلى بطنه، وتشتو ببطنه فتهرب مواشيهم إلى ظهره؛ فشق ذلك عليهم، فزينت عقرها لهم «عنيزة أم غنم» وصدقة بنت المختار، فعقروها واقتسموا لحمها، وعاقرها: الأحمر، واسمه قدار، استعان برجل آخر، فلما شربت اختبأ لها في جانب تل، فضربها صاحبه بالسهم، وعقرها قدار بسيفه، واقتسموا لحمها، فرقى ولدها جبلاً اسمه: قارة، فرغى ثلاثا، ودخل صخرة أمه، فقال لهم صالح عليه السلام: أدركوا الفصيل، عسى أن يرفع عنكم العذاب، فلم يقدروا عليه حيث دخل الصخرة بعد رغائه، فقال لهم صالح عليه السلام: تصبح وجوهكم غداً مصفرة، وبعد غد محمرة، واليوم الثالث مسودة، ويصبحكم العذاب، فلما رأوا العلامات طلبوا أن يقتلوه، فأنجاه الله إلى أرض فلسطين. ولما كان ضحوة اليوم الرابع: تحنطوا وتكفنوا بالأنطاع، فأتتهم صيحة من السماء فتقطعت قلوبهم فهلكوا.

﴿فتولى عنهم وقال ياقوم لقد أبلغتكم رسالة ربي ونصحتُ لكم ولكن لا تُحبون الناصحين﴾، ظاهره: أن توليته عنهم بعد أن أبصرهم جاثمين؛ ولعله خاطبهم به بعد هلاكهم، كما خاطب رسول الله ﷺ أهل قليب بدر، وقال لهم: «قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حقًا، فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًا؟»(٢) أو ذَكَرَ ذلك على سبيل التحسر عليهم. قاله البيضاوي.

الإشارة: كل ما قص علينا الحق ـ جل جلاله ـ من قصص الأمم الماضية، فالمراد به: تخويف هذه الأمة المحمدية وزيادة في يقينهم، فالواجب على من أراد السلامة في الدارين أن يتمسك بما جاء به الرسول ﷺ من غير زيادة ولا نقصان، ويتحرى في ذلك جهده؛ يقصد بذلك رضا الله ورسوله. ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾(٣)، ومن سلك الطريق المستقيم وصل إلى النعيم المقيم. والله تعالى أعلم.

---

(١) التفحج: تباعد ما بين الفخذين. انظر النهاية (فحج).

(٢) جزء من حديث أخرجه البخاري في (المغازي ـ باب قتل أبي جهل) عن ابن عمر رضي الله عنهما.

(٣) من الآية ١٠١ من سورة آل عمران.

ثم ذكر قصة لوط عليه السلام، فقال:

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ
﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾
وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ
يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم
مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾

قلت: (شهوة): مفعول له، أو مصدر في موضع الحال.

يقول الحق جل جلاله: ﴿و﴾ أرسلنا ﴿لوطاً إذ قال لقومه﴾، واعظاً لهم: ﴿أتأتون الفاحشة﴾ أي: اللواط؛ توبيخاً وتقريعاً على تلك الفعلة المتناهية في القبح، ﴿ما سبقكم بها من أحدٍ من العالمين﴾ أي: ما فعلها أحد قبلكم، وبخهم على أمرين: إتيان الفاحشة، واختراعها أولاً، ثم قال لهم: ﴿إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء﴾، وصفهم بالشهوة البهيمية، وفيه تنبيه على أن العاقل ينبغي أن يكون الداعي له إلى المباشرة: طلب الولد وإبقاء النوع لا قضاء الوطر، ﴿بل أنتم قومٌ مسرفون﴾ أي: عادتكم السرف في كل شيء، حتى تجاوزتم ما أحل الله لكم من النساء إلى ما حرم عليكم من إتيان الذكور، وهو إضراب عن الإنكار إلى الإخبار بحالهم التي أدت بهم إلى ارتكاب أمثالها، وهي اعتياد الإسراف في كل شيء، أو عن الإنكار عليها إلى الذم لهم على جميع معايبهم، أو عن محذوف، مثل: لا عذر لكم فيه، بل أنتم قوم عادتكم الإسراف. قاله البيضاوي.

﴿وما كان جواب قومه﴾ له حين وعظهم، ﴿إلا أن قالوا أخرجوهم﴾ أي: لوط ومن آمن به، ﴿من قريتكم﴾ أي: ما أجابوه بشيء يصلح للجواب، لكن قابلوا نصحه بالأمر بإخراجه من قريتهم، والاستهزاء بهم، حيث قالوا: ﴿إنهم أناس يتطهرون﴾ من الفواحش.

قال تعالى: ﴿فأنجيناه وأهله﴾ أي: من آمن معه، ﴿إلا امرأته﴾ فإنها كانت تسر الكفر؛ ﴿كانت من الغابرين﴾ أي: الباقين في ديارهم فهلكوا وهلكت معهم.

﴿وأمطرنا عليهم مطراً﴾ أي: نوعاً عجيباً من المطر، بيَّنه بقوله: ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾[1]، ﴿فانظر كيف كان عاقبةُ المجرمين﴾.

(١) الآية ٧٤ من سورة الحجر.

رُوى أن لوط بن هاران بن تارح لما هاجر عمه إبراهيم إلى الشام، ونزل بالأردن، وكان هاجر هو معه، أرسله الله تعالى إلى أهل سدوم، ليدعوهم إلى الله، وينهاهم عما اخترعوه من الفاحشة، فلم ينتهوا عنها، فقلع جبريل مدينتهم، وجعل عاليها سافلها، وأمطر الحجارة على ماقربهم من القرى، وسيأتى فى سورة هود بقية قصتهم، إن شاء الله. والله تعالى أعلم.

الإشارة: إنما أهلك اللهُ قوم لوط حيث آثروا شهوة نفوسهم على عبودية ربهم، وغلبهم الطبع البهيمى على مقتضى العقل الصافي، وقد تقدم قول الغزالي: إن الشَّرَه إلى الوقاع من جملة المهلكات. فعلى المريد أن يصفى قصده، ولاينزل إلى أرض الحظوظ إلا بالإذن والتمكين والرسوخ فى اليقين، ولاينزل بالشهوة والمتعة. وقد قال ﷺ: «المؤمن يأكل بشهوة أهله»[1] فلا يأتي ماأحلَّ اللهُ لَهُ مِن متعة النِّساء إلا قياماً بحقِّ الغَيْر وطلباً للنسْلِ. وبالله التوفيق.

ثم ذكر قصة شعيب عليه السلام فقال:

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ
إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ
وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا
ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ
تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَٱذْكُرُوٓا۟
إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾
وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ فَٱصْبِرُوا۟
حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾ ۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ
لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ
﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن

(١) أخرجه الديلمى فى الفردوس (ح ٦٥٤٧) من حديث أبى أمامة الباهلى، بلفظ «المؤمن يأكل بشهوة عياله، والمنافق يأكل أهله بشهوته».

نَعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا
وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ
شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾
ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾
فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ
عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ و ﴾ أرسلنا ﴿ إلى مدين أخاهم شعيباً ﴾ ، ومدين: قبيلة من أولاد مدين بن إبراهيم، شعيب بن ميكائل بن يشجر بن مدين بن إبراهيم الخليل، على ما قيل. وقد تقدم في البقرة أن مدين ومدان من ولد ابراهيم عليه السلام ، وشعيب هذا يسمى خطيب الأنبياء؛ لحسن مراجعته قومه.

﴿ قال ياقوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، قد جاءتكم بينةٌ من ربكم ﴾ يريد المعجزة التي كانت له، وليس في القرآن بيان ما هي معجزته. وحمل الواحدي البينة على الموعظة. وقال في الكشاف: ومن معجزات شعيب: ما روي من محاربة عصا موسى التنين، حين دفع إليه غنمه، وولادة الغنم الدرع خاصة، حين وعده أن يكون له الدرع من أولادها، ووقوع عصا آدم في يده في المرات السبع، وغير ذلك من الآيات. هـ. وفيه نظر؛ لأن هذ وقعت بعد مقالته لقومه، وإنما كانت إرهاصات لموسى عليه السلام، وفي حديث البخاري: «ما بَعثَ الله نبيّاً إلاّ وآتاهُ ما مِثْلُه آمَن عليه البشرُ، وإنما كان الذي أُوتيتُه وحياً، وأرجو أن أكونَ أكثَرَهُم تابعاً يومَ القيامةِ»(١). وهو صريح في أنه لابد من الآية لكل رسول، ولعل الله تعالى لم يذكر معجزة شعيب وهود في القرآن مع وجودها؛ لظاهر الحديث.

ثم قال لهم: ﴿ فأوفوا الكيلَ والميزانَ ﴾ ، وكانوا مطففين، أي: فأوفوا المكيال الذي هو آلة الكيل، أي: كبروها؛ بدليل قوله: ﴿والميزان﴾ الذي هو الآلة، ويحتمل أن يريد بهما المصدر، أي: الكيل والوزن.

﴿ ولا تبخسوا الناس أشياءَهم ﴾ أي: لا تنقصوهم حقوقهم، وإنما قال: ﴿أشياءهم﴾، للتعميم تنبيهاً على أنهم كانوا يبخسون الجليل والحقير، والقليل والكثير، وقيل: كانوا مكّاسين لا يدعون شيئاً إلا مكسوه.
﴿ ولا تُفسدوا في الأرض ﴾ بالكفر والظلم، ﴿ بعد إصلاحها ﴾ بإقامة الشرائع وظهور العدل، ﴿ ذلكم خيرٌ لكم إن كنتم مؤمنين ﴾ أي: ذلك الذي أمرتكم به ونهيتكم عنه هو خير لكم من إبقائكم على ما أنتم عليه، ومعنى الخيرية: الزيادة مطلقاً؛ إذ لا خير فيما هم فيه، أو: في الإنسانية وحسن الأحدوثة وجمع المال. قاله البيضاوي.

(١) أخرجه بنحوه البخاري في (فضائل القرآن، باب كيف نزل الوحي) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿ولا تقعُدُوا بكل صِراطٍ﴾ أي: طريق ﴿تُوعِدُون﴾ من أراد الإيمان بالعقوبة، وكانوا يجلسون على الطرقات والمراصد، يقولون لمن يريد شعيباً: إنه كذاب فلا يفتنك عن دينك؛ ويوعدون من آمن، وقيل: كانوا يقطعون الطريق.

﴿وتَصُدُّون عن سبيل الله﴾ أي: تصدون الناس عن طريق الله، وهوالإيمان به وبرسوله، وهو الذي قعدوا لأجله في كل طريق، وقوله: ﴿من آمن به﴾؛ من أراد الإيمان به، أو من آمن حقيقة؛ كانوا يصدونه عن العمل، ﴿وتبغونها عِوَجاً﴾ أي: وتطلبون لطريق الله عوجا بإلقاء الشُّبَه فيها، أو بوصفها للناس بأنها مُعْوَجَّة. ﴿واذكروا إذ كنتم قليلاً﴾ عَدَدكم وعُددكم ﴿فكثَّرَكُم﴾ بالبركة في النسل والمال، ﴿وانظروا كيف كان عاقبةُ المفسدين﴾ من الأمم قبلكم، فاعتبروا بهم.

﴿وإن كانت طائفة منكم آمنوا بالذي أُرسلتُ به وطائفة لم يؤمنوا فاصبروا﴾ أي: تربصوا ﴿حتى يحكم اللهُ بيننا﴾ أي: بين الفريقين بنصر المحقين على المبطلين، فهو وعد للمؤمنين ووعيد للكافرين، ﴿وهو خير الحاكمين﴾؛ إذ لا معقب لحكمه، ولا حيف فيه.

﴿قال الملأُ الذين استكبروا من قومه﴾ في جوابه عن وعظه: ﴿لنُخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتَعودنَّ في ملتنا﴾ أي: ليكونن أحد الأمرين؛ إما إخراجكم من القرية أو عودكم في الكفر، وشعيب ﷺ لم يكن في ملتهم قط؛ لأن الأنبياء ـ عليهم السلام ـ لا يجوز عليهم الكفر مطلقاً، لكنهم غلَّبوا الجماعة على الواحد؛ فخُوطب هو وقومه بخطابهم، وعلى ذلك أُجري الجواب في قوله: ﴿قال أوَ لو كنا كارهين﴾. قاله البيضاوي. وقال ابن عطية: وعاد : قد يكون بمعنى صار، فلا يقتضي تقدم ذلك المحال، قلت: ويؤيده ما في حديث الجَهنميين: «قد عادوا حمماً»(١) أي: صاروا.

ثم قال شعيب ﷺ: ﴿قد افترينا على الله كذباً إن عُدْنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها﴾ أي: إن رجعنا إلى ملتكم بعد الخلاص منها، فقد اختلقنا على الله الكذب، وهذا كله في حق قومه كما تقدم. ﴿وما يكون لنا أن نعودَ فيها إلا أن يشاء الله ربُّنا﴾ خذلاننا وارتدادنا، وفيه تسليم للإرادة المغيبة، والعلم المحيط، فإن القلوب بيد الله يقلبها كيف يشاء. فإن قلت: هو معصوم فلا يصح فيه العود؟. قلت: قاله أدباً مع الربوبية، واستسلاماً لقهر

(١) جزء من حديث طويل أخرجه البخاري في (الرقاق ـ باب صفة الجنة والنار) ومسلم في (الإيمان ـ باب معرفة طريق الرؤية) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

الألوهية، كقول نبينا ﷺ: «يا مُقلِّبَ القلوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي علَى دِينِك»(١). ﴿وَسِعَ رَبُّنا كلَّ شيءٍ علماً﴾ أي: أحاط علمه بكل شيء مما كان وما يكون منا ومنكم، ﴿على الله توكلنا﴾ في أن يثبتنا على الإيمان، ويخلصنا من الإشراك. ﴿ربنا افتح بيننا﴾ أي: احكم بيننا ﴿وبين قومنا بالحق﴾ بالعدل، بتمييز المحق من المبطل، ﴿وأنت خير الفاتحين﴾ أي: الفاصلين.

﴿وقال الملأُ الذين كفروا من قومه لئن اتبعتُم شعيباً﴾ وتركتم دينكم ﴿إنكم إذاً﴾ أي: إذا اتبعتموه ﴿لخاسرون﴾؛ لاستبدالكم ضلالته بهداكم، أو لفوات ما يحصل لكم من البخس والتطفيف. ﴿فأخذتهم الرجفةُ﴾ أي: الزلزلة. وفي سورة الحجر. ﴿الصيحة﴾، ولعلها كانت من مبادئها، ﴿فأصبحوا في دارهم﴾ أي: في مدينتهم ﴿جاثمين﴾: باركين ميتين.

﴿الذين كذَّبوا شعيباً كأن لم يَغْنَوا فيها﴾ أي: استؤصلوا كأنهم لم يقيموا فيها ساعة. ﴿الذين كذَّبوا شعيباً كانوا هم الخاسرين﴾ ديناً ودنياً، بخلاف الذين صدقوه واتبعوه كما زعموا؛ فإنهم الرابحون، ولأجل التنبيه على هذا والمبالغة فيه كرر الموصول، واستأنف الجملتين وأتى بهما إسميتين.

﴿فتولى عنهم وقال ياقوم لقد أبلغتكم رسالات ربي ونصحتُ لكم﴾، قاله بعد هلاكهم، تأسفاً عليهم، ثم أنكر على نفسه فقال: ﴿فكيف آسى على قومٍ كافرين﴾ ليسوا أهلاً للحزن عليهم، لاستحقاقهم ما نزل بهم.

الإشارة: يؤخذ من قوله: ﴿ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها﴾ أن إقامة الشرائع، وظهور الدين من علامة إصلاح الأرض وبهجتها، وخصبها وعافيتها، وترك الشرائع وظهور المعاصي من علامة فساد الأرض وخرابها. ويؤخذ من قوله: ﴿ولا تقعدوا بكل صراط...﴾ الآية، أن حض الناس على الإيمان ودلالتهم على الله من أفضل القربات عند الله، وأعظم الوسائل إلى الله.

ويؤخذ من قوله: ﴿وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله﴾ أن الإنسان لايقف مع ظاهر الوعد والوعيد، ولعل الله تعالى علّق ذلك الوعد أو الوعيد بشروط وأسباب أخفاها، ولذلك كان العارف لايزول اضطراره، ولا يكون مع غير الله قراره. وفي بعض الآثار القدسية: «يا عبدي لا تأمن مكري وإن أمّنتك، فعلمي لايحيط به محيط». والله تعالى أعلم.

---

(٢) أخرجه مطولاً أحمد في المسند (٦/٩١) عن السيدة عائشة رضي الله عنها والترمذي في (القدر ـ باب ما جاء أن القلوب بين أصبعي الرحمن) من حديث أنس ﷺ. وفي (الدعوات، باب ٩٠) من حديث أم سلمة رضي الله عنها.

ولما سرّد قصص الأمم السالفة ذكر حاله معهم، فقال:

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وما أرسلنا في قرية من نبي ﴾ أي: رسول ﴿ إلا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء ﴾ أي: بالبؤس والضر، كالقحط والأمراض، ﴿ لعلهم يضَّرَّعون ﴾ أي: يتضرعون ويتذللون، ﴿ ثم بدَّلنا مكانَ ﴾ الحالة ﴿ السيئة ﴾ الحالة ﴿ الحسنة ﴾ أي: أعطيناهم، بدل ما كانوا فيه من البلاء والشدة، السلامة والسعة، ﴿ حتى عَفَوا ﴾: كثروا عَددا وعُددا، يقال: عفا النبات: إذا كثر، ومنه: «اعْفُوا اللّحى»[1]. ﴿ وقالوا قد مسَّ آباءنا الضراءُ والسراءُ ﴾؛ كفراً لنعمة الله عليهم، ونسياناً لذكره، واعتقاداً بأنه مِن عادة الدهر يتعاقب في الناس بين السراء والضراء، فقد مس آباءنا منه شيء مثل ما مسنا، ﴿ فأخذناهم بغتةً ﴾: فجأة ﴿ وهم لايشعرون ﴾ بنزول العذاب.

﴿ ولو أن أهل القرى ﴾ المتقدمة في قوله: ﴿وما أرسلنا في قرية من نبي﴾ وقيل: مكة وما حولها. وقيل: مطلقا، ﴿ آمنوا واتقَوا ﴾ مكان كفرهم وعصيانهم، ﴿ لفتحنا عليهم بركاتٍ من السماء والأرض ﴾؛ لوسَّعنا عليهم الخير، ويسرناه لهم من كل جانب. وقيل: المراد: المطر والنبات. ﴿ ولكن كذبوا ﴾ بالرسل، وكفروا النعم، ﴿ فأخذناهم بما كانوا يكسبون ﴾ من الكفر والمعاصي.

﴿ أفأمِن أهل القرى ﴾ أي: أبعد ذلك أمن أهل القرى ﴿ أن يأتيهم بأسنا بياتاً وهم نائمون ﴾؟ أي: ليلاً، في حال نومهم. ﴿ أوَ أَمِنَ أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ﴾ أيضاً ﴿ ضُحىً ﴾؛ ضحوة النهار﴿ وهم يلعبون ﴾ من

(١) جزء من حديث أخرجه البخاري في (اللباس ـ باب إعفاء اللحى) من حديث ابن عمر رضي الله عنه.

فرط الغفلة، أو يشتغلون بما لا ينفعهم ﴿ أفأمنوا مكرَ الله ﴾ وهو أن يستدرجهم بالنعم حتى يأخذهم بغتة؟ ﴿ فلا يأمنُ مكرَ الله إلا القومُ الخاسرون ﴾ الذين خسروا أنفسهم، بترك النظر والاعتبار، حتى هلكوا، فلم ينفعهم حينئذ الندم.

الإشارة: إظهار المحَن والمِنَن وتعاقبهما على الإنسان، حكمتها: الرجوع إلى الله، وتضرع العبد إلى مولاه، فمن فعل ذلك كان معتمداً عليه في الحالتين، مغترفاً من بحر المنة بكلتا اليدين، ومن نزلت به المحن ثم أعقبته لطائف المنن، فلم يرجع إلى مولاه، ولاشكره على ما خوله من نعماه، بل قال: هذه عادة الزمان؛ يتعاقب بالسراء والضراء على الإنسان، فهذا عبد منهمك في غفلته، قد اتسعت دائرة حسه، وانطمست بصيرة قدسه، يصدق عليه قوله تعالى: ﴿ أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾(١).

وقال القشيري في قوله تعالى: ﴿ ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا... ﴾ الآية: أي: لو آمنوا بالله واتَّقَوا الشرك (لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض) بأسباب العطاء، فإنْ سَبَقَ بخلافه القضاء فأبواب الرضا، والرضا أتم من العطاء. ويقال: ليس العبرة بالنعمة؛ العبْرة بالبركة في النعمة.هـ.

قوله تعالى: ﴿ ولكن كذَّبوا ﴾ أي: شكُّوا في هذا الوعد فلم يتقوا بالإيمان والتقوى حتى يتركوا الأسباب، والشاك في الصادق المصدوق مكذب. وقال الشيخ أبو العباس المرسي رضي الله عنه: للناس أسباب، وسببنا الإيمان والتقوى، ثم تلا هذه الآية: ﴿ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا...﴾ الآية، وقد تقدم عند قوله: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ ﴾(٢). ما يتعلق بالأمن من مكر الله.

ولما ذكر هلاك الأمم الماضية، خوَّف من خلفهم بعدهم إلى يوم القيامة، فقال:

﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (١٠٠) تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَائِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ (١٠١) وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ (١٠٢) ﴾

(١) من الآية ١٧٩ من سورة الأعراف.

(٢) الآية ٨٢ من سورة الأنعام.

قلت: (أن لو نشاء): «أن» مخففة، وهي وما بعدها: فاعل (يَهْدِ) أي: أو لم يتبين لهم قدرتنا على إهلاكهم لو نشاء ذلك؟ وإنما عدى «يهدي» باللام؛ لأنه بمعنى يتبين، و(نطبع): استئناف، أي: ونحن نطبع على قلوبهم.

يقول الحق جل جلاله: ﴿أَوَلَمْ يهدِ﴾ أي: يتبين ﴿للذين يرثون الأرضَ من بعد أهلها﴾ أي: يخلفون من قبلهم ويرثون ديارهم وأموالهم، ﴿أن لو نشاء أصَبْناهم﴾ أي: أهلكناهم ﴿بذنوبهم﴾ بسبب ذنوبهم، كما أهلكنا من قبلهم، لكن أمهلناهم ولم نهملهم، ﴿و﴾ نحن ﴿نَطْبَعُ على قلوبهم﴾ بالغفلة والانهماك في العصيان، ﴿فهم لا يسمعون﴾ سماع تدبر واعتبار.

﴿تلك القرى﴾، التي قصصنا عليك آنفًا، ﴿نقصُّ عليك من أنبائها﴾ من أخبارها، أي: بعض أخبارها، ولها أنباء غيرها لا نقصها عليك ﴿ولقد جاءتهم رسُلهم بالبينات﴾ بالمعجزات، ﴿فما كانوا ليؤمنوا﴾ عند مجيئهم، بها ﴿بما كذَّبوا من قبل﴾ مجيئها، يعني: أن ظهور المعجزات لم ينفعهم، بل الشيء الذي كذبوا به قبل مجيئها، وهو التوحيد وتصديق الرسل؛ استمروا عليه بعد مجيئها.

أو: «فما كانوا ليؤمنوا» مدة عمرهم بما كذبوا به أولاً، حين جاءتهم الرسل، فلم تؤثر فيم دعوتهم المتطاولة والآيات المتتابعة. ﴿كذلك يطبعُ الله على قلوب الكافرين﴾ فلا تلين شكيمتهم بالآيات والنذر.

﴿وما وجدنا لأكثرهم﴾ أي: لأكثر أهل القرى ﴿من عهدٍ﴾، بل جُلُّهم نقضوا ما عَهدناهم عليه من الإيمان والتقوى بإنزال الآيات ونصب الحجج، ﴿وإن وجدنا أكثرَهم﴾ أي: علمناهم ﴿لفاسقين﴾، و«إن» مخففة، واللام: فارقة.

الإشارة: ينبغي لمن فتح الله بصيرته أن ينظر بعين الاعتبار فيمن سلف قبله، كيف تركوا الدنيا ورحلوا عنها، ولم يأخذوا منها إلا ما قدموا أمامهم؟ قَدِموا على ما قدَّموا، وندموا على ما خلفوا، ولم ينفعهم الندم وقد زلت بهم القدم، فالدهر خطيب يُسمع القاصي والقريب، وهو ينادي بلسان فصيح، عادلا عن الكناية إلى التصريح، قائلا: أمَا حَصَلَ لكم الإنذار؟ أما كفاكم ماتشاهدون في الاعتبار؟ أين من سلف قبلكم؟. أوَ ما كانوا أشد منكم أو مثلكم؟ قد نما ذكرهم وعلا قدرهم، وخسف بعد الكمال بدرهم، فكأنهم ما كانوا، وعن قريب مضوا وبانوا، أفضوا إلى ماقدموا، وانقادوا قهراً إلى القضاء وسلموا، فيا أيها الغافلون، أنتم بمن مضى لاحقون، ويا أيها الباقون؛ أنتم إليهم تساقون، قضاءٌ مبرم، وحُكمٌ ملزم، ليس عنه محيد لأحد من العبيد.

ثم شرع في قصص موسى عليه السلام، فقال:

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ثم بعثنا﴾ من بعد الرسل المتقدمين ﴿موسى﴾ بن عمران ﴿بآياتنا﴾: بمعجزاتنا الدالة على صدقه، ﴿إلى فرعون وملئه فظلموا بها﴾ أى: طغوا بسببها، وزادوا عتواً على عتوهم، ﴿فانظر كيف كان عاقبة المفسدين﴾ كيف غرقوا عن آخرهم، وأكلهم البحر.

الإشارة: إذا أراد الله ـ تعالى ـ أن يُهلك قوماً بعث إليهم من يُذكرهم، فإذا زادوا في العتو والطغيان عاجلهم بالعقوبة. ذكر الشعراني: أن مدينة بالمشرق صنعوا وليمة يتنزهون فيها، فخرجوا إلى بستان، فلما صنعوا الطعام دخل عليهم فقير، فقال: أعطوني، فأعطوه، ثم قال: أعطوني فزادوه، ثم قال: أعطوني، فجروه حتى أخرجوه، فأرسل عليهم من أخرجهم من تلك المدينة وخربها، فهي خربة إلى اليوم. سبحان المدبر الحكيم الواحد القهار!.

ثم ذكر دعوة موسى إلى فرعون، وما كان من أمره معه، فقال:

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ ﴾

قلت: من قرأ: «عليّ»؛ بشد الياء، فحقيق: مبتدأ، وعليّ: متعلق به، و(ألاَّ أقول): خبره، أي: حقيق عليّ قول الحق. ومن قرأ: (علَى)؛ بالتخفيف، فحقيق: صفة لرسول، وعلى: حرف جر، و(ألاَّ أقول): مجرور، أي: إني رسول حقيق على قول الحق، وعدَّاه بعلى؛ لتضمنه معنى حريص، أو تكون (على) بمعنى الباء أي: حقيق بقول الحق، وقد يبقى على أصله لأمن الالتباس؛ والمعنى: حقيق على قول الحق أن أكون أنا قائله، لا يرضى إلا مثله ناطقاً به. انظر البيضاوى.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وقال موسى يافرعونُ إني رسولٌ من ربِّ العالمين، حقيقٌ﴾ واجب ﴿على أن لا أقول على الله إلا الحقَّ﴾؛ لأنني معصوم من النطق بغيره، فإن كذَّبتني فقد ﴿جئتكم ببينة من ربكم﴾ أي: بمعجزة واضحة، تدل على صدقي، وهي العصا. ﴿فأرسلْ معي بني إسرائيل﴾ أي: فخل سبيلهم، حتى يرجعوا معي إلى الأرض المقدسة: التى هى وطن آبائهم، وكان قد استعبدهم واستخدمهم في الأعمال الشاقة؛ وذلك أنه لما تُوفِّي يوسف عليه السلام غلب عليهم فرعونُ واستعبدهم حتى أنقذهم الله على يد موسى، وكان بين اليوم الذى دخل فيه يوسف مصر واليوم الذى دخله موسى رسولاً إلى فرعون: أربعمائة عام.

ثم طلب منه إظهار المعجزة، فقال:

﴿ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٠٦) فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ (١٠٧) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ (١٠٨) قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (١٠٩) يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (١١٠) قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (١١١) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ (١١٢) ﴾

قلت: يقال: أرجأ، بالهمز، يرجيء بمعنى أخر؛ فمن قرأ بالهمزة فعلى الأصل، ومن قرأه بغير الهمزة فيحتمل أن يكون بمعنى المهموز، وسهلت الهمزة، أو يكون بمعنى الرجاء، أي: أطمعه، وأما ضم الهاء وكسرها فلغتان، وأما إسكانها فلغة؛ أجرى فيها الوصل مجرى الوقف. وقد تتبع البيضاوي توجيه القراءات، فانظره إن شئت.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ قال ﴾ فرعون لموسى عليه السلام: ﴿ إن كنت جئت بآية ﴾ مَنْ عند مَن أرسلك، كما ذكرتَ، ﴿ فأت بها ﴾ وأحضرها ليثبت بها صدقك ﴿ إن كنت من الصادقين ﴾ في دعواك، ﴿ فألقى عصاه فإذا هي ثعبانٌ مبين ﴾ أي: ظاهر أمره، لايشك في أنه ثعبان، وهي الحية العظيمة.

رُوِي أنه لما ألقاها صار ثعباناً أشعر، فاغراً فاه، بين لحييْه ثمانون ذراعا، وضع لحيه الأسفل على الأرض والأعلى على سور القصر، ثم توجه نحو فرعون، فهرب منه وأحْدَثَ، وانهزم الناسُ مزدحمين، فمات منهم خمسة وعشرون ألفا، وصاح فرعون: ياموسى، أنشدك الذي أرسلك خذه، وأنا أُومن بك، وأرسل معك بني إسرائيل، فأخذه فعاد عصاً. قاله البيضاوي.

ثم أظهر له معجزة أخرى: ﴿ ونَزَعَ يدهُ ﴾ من جيبه، أو من تحت إبطه، ﴿ فإذا هي بيضاءُ للناظرين ﴾ أي: بيضاء بياضاً خارجاً عن العادة، يجتمع عليها النظارة، أو بيضاء للنظار، لا أنها كانت بيضاء في خلقتها، بل كانت شديدة الأدمة كلون صاحبها. رُوِي أنه كان شديد الأدمة فأدخل يده في جيبه أو تحت إبطه، ثم نزعها، فإذا هي بيضاء نورانية، غلب شعاعُها شعاعَ الشمس.

﴿ قال الملأُ من قوم فرعون إن هذا لساحر عليم ﴾، قيل: قاله هو وأشرافُ قومه، على سبيل المشاورة في أمره، فحكي عنه في سورة الشعراء، وعنهم هنا، أو قاله هو ووافقوه عليه، كعادة جلساء الملوك مع أتباعهم. ﴿ يريد أن يُخرجكم من أرْضكم ﴾ بالحيل، أو بالقتال، أو بإخراج بني إسرائيل، وكانوا خداماً لهم، فتخرب البلد

من بعدهم، لأنهم خدامها وعمارها. قال فرعون: ﴿ فماذا تأمرون ﴾ أي: تُشيرون عليّ أن أفعل؟ ﴿ قالوا أرْجِهْ ﴾ أي: أخّره ﴿ وأخاه ﴾ أي: أخّرهما حتى تنظر في أمرهما، وقيل: أمروه بسجنهما، ﴿ وأرسل في المدائن ﴾ أي: مدائن عمالتك ﴿ حاشرين ﴾ يحشرون لك السحرة، ﴿ يأتوك بكلّ ساحرٍ عليم ﴾.

ثم ذكر مجيئهم، وما كان من أمرهم مع موسى عليه السلام، فقال:

﴿ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ (١١٣) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ (١١٤) قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ (١١٥) قَالَ أَلْقُواْ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ (١١٦) ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (١١٧) فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ (١١٨) فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ (١١٩) ﴾

قلت: من قرأ: (أئن) بهمزتين، فهو اسم استفهام، ومن قرأ بهمزة واحدة، فيحتمل أن يكون خبراً، كأنهم قالوا: لابد لنا من أجر، أو استفهاماً حُذفت منه الهمزة، والتنكير للتعظيم، واستأنف الجملة، كأنها جواب عن سائل قال: فماذا قالوا إذ جاءوا؟ قالوا: إن لنا لأجراً... الخ، و(إنكم): عطف على ماسدّ مسده نعم، من تمام الجواب، كأنه قال: نعم نعطيكم الأجر ونقربكم.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وجاء السحرةُ فرعونَ ﴾ بعد ما أرسل الشرطة في طلبهم، ﴿ قالوا ﴾ لما وصلوا إليه: ﴿ إن ﴾ أئن ﴿ لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين ﴾ لموسى؟ ﴿ قال نعم ﴾ إن لكم أجراً ﴿ وإنكم لَمِنَ المقربين ﴾ إليّ. فأنعم لهم بالأجر، وزادهم التقريب منه والجاه عنده؛ تحريضًا لهم. واختُلف في عدد السحرة اختلافاً متباينا، من سبعين رجلا إلى سبعين ألفا، وكل ذلك لا أصل له في صحة النقل.

ولمّا خرجوا إلى الصحراء لمقابلته ﴿ قالوا يا موسى إما أن تُلقي وإما أن نكونَ نحن الملقين ﴾؛ خيّروا موسى مراعاة للأدب، وإظهاراً للجلادة، ولكن كانت رغبتهم في أن يلقوا قبله، ولذلك عبّروا عن إلقاء موسى بالفعل وعن إلقائهم بالجملة الإسمية، وفيه إشارة إلى أنهم أهل الإلقاء المتمكنون فيه. ولذلك أسعفهم، ﴿ قال ألقوا ﴾ أسعفهم كرمًا ومسامحة وازدراءً بهم، ﴿ فلما ألقوا سحروا أعين الناس ﴾، بأن خيلوا إليها خلاف ما في حقيقة الأمر، ﴿ واسترهبوهم ﴾ أي: خوفوهم بما أظهروا لهم من أعمال السحر، ﴿ وجاؤوا بسحر عظيم ﴾ في فنّه. رُوي أنهم ألقوا حبالاً غلاظاً، وخشبًا طوالا، كأنها حيات، ملأت الوادي، وركب بعضها بعضا.

﴿ وأوحينا إلى موسى أنْ ألقِ عصاكَ ﴾، فألقاها، فصارت ثعباناً عظيما، على قدر الجبل، وقيل: إنه طال حتى جاوز النيل، ﴿ فإذا هي تَلْقَفُ ﴾ أي: تبتلع ﴿ ما يأفكون ﴾ ما يُزوِّرونَهُ من إفكهم وكذبهم. رُوى أنها لما ابتلعت حبالهم وعصيهم، وكانت ملأت الوادي، فابتلعتها بأسرها، أقبلت على الحاضرين، فهربوا وازدحموا حتى هلك منهم جمع عظيم، ثم أخذها موسى فصارت عصا كما كانت، فقال السحرة: لو كان هذا سحراً لبقيت حبالنا وعصينا.

﴿ فوقعَ الحقُّ ﴾ أي: ثبت بظهور أمره، ﴿ وبَطَلَ ما كانوا يعملون. فغُلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين ﴾ أي: صاروا أذلاء مبهوتين، أو انقلبوا إلى المدينة مقهورين.

ولما رأى السحرة ذلك علموا أنه ليس من طوق البشر، وليس هو من السحر، فتحققوا أنه من عند الله، فآمنوا، كما أشار إليه بقوله:

﴿ وَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُواْ مِنْهَآ أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وأُلقي السحرةُ ﴾ على وجوههم ﴿ ساجدين ﴾ لما عرفوا الحق وتحققوا به، فآمنوا؛ لأن الحق بهرهم، واضطرهم إلى السجود بحيث لم يتمالكوا، أو ألهمهم الله ذلك وحملهم عليه، حتى ينكسر فرعون بالذين أراد بهم كسر موسى، وينقلب الأمر عليه.

﴿ قالوا آمنا بربِّ العالمين. ربِّ موسى وهارون ﴾ أبدلوا الثاني من الأول؛ لئلا يتوهم أنهم أرادوا به فرعون. ﴿ قال فرعونُ آمنتم به ﴾ أي: بالله أو بموسى، ﴿ قبل أن آذن لكم، إنَّ هذا لمكرٌ مكرتموه ﴾ أي: إن هذه لحيلة صنعتموها أنتم وموسى ﴿ في المدينة ﴾؛ في مصر، ودبرتموها قبل أن تخرجوا للميعاد؛ ﴿ لتُخرِجُوا منها أهلها ﴾ أي: القبط، وتخلص لكم ولبني إسرائيل، ﴿ فسوف تعلمون ﴾ عاقبة ما صنعتم.

ثم فصّل ما هددهم به، فقال: ﴿ لأُقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ﴾ من كل شق عضو، كيَدٍ ورِجلٍ من كل واحد، ﴿ ثم لأُصلبنّكم أجمعين ﴾ تفضيحاً لكم وتنكيلاً لأمثالكم، وليس في القرآن أنه أنفذ ذلك، ولكن رُوي عن ابن عباس وغيره أنه فعله. قيل: إنه أول من سنّ ذلك - أيْ: القطع من خلاف - فشرعه الله للقطاع تعظيماً لجرمهم، فلذلك سماه الله محاربة لله ورسوله.

﴿ قالوا ﴾ أي: السحرة لما خوفهم: ﴿ إنا إلى ربّنا منقلبون ﴾ بالموت، فيكرم مثوانا، فلا نُبالي بوعيدك، كأنهم اشتاقوا إلى اللقاء، فهان عليهم وعيده، أو إنا وأنت إلى ربنا منقلبون، فيحكم بيننا وبينك، ﴿ وما تَنْقِمُ منا ﴾ أي: وما تعيب علينا ﴿ إلا أن آمنا بآيات ربّنا لما جاءتْنا ﴾، وهو لا يعاب عند العقلاء، لأنه خير الأعمال، وأصل المناقب ومحاسن الخلال، ثم فزعوا إلى الله فقالوا: ﴿ ربنا أفْرِغْ علينا صبرا ﴾ أي: اصبب علينا صبراً يغمرنا، كما يُفرغ الماء على الشيء فيغمره، ﴿ وتوفنا مسلمين ﴾ ثابتين على الإسلام. قال البيضاوي: قيل: إنه فعل بهم ذلك، وقيل: إنه لم يقدر عليه، لقوله: ﴿ أنتما ومَن اتّبعكما الغالبون ﴾[1]. هـ. وقد تقدم قول ابن عباس وغيره. والله تعالى أعلم.

الإشارة: انظر من سبقت له العناية، هؤلاء السحرة جاءوا يحاربون الله فأمسوا أولياء الله، فكم من خصوص تخرج من اللصوص، وانظر أيضا صبرهم وثباتهم على دينهم، وعدم مبالاتهم بعدوهم، هكذا ينبغي أن يكون مَنْ مراده مولاه، لا يلتفت إلى شيء سواه، وعند هذه التصرفات يفتضح المدّعون ويثبت الصادقون، عند الامتحان يعز المرء أو يُهان.

ثم قال تعالى في تتمة قصة موسى عليه السلام:

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾ ﴾

(١) من الآية ٣٥ من سورة القصص.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وقال الملأُ من قوم فرعون أتذَرُ موسى وقومَه ﴾ أي: تتركهم يخالفون دينك ﴿ ليُفسدوا في الأرض ﴾ أي: يخربوا ملكك بتغيير دينك ودعوتهم إلى مخالفتك، ﴿ ويذَرك وآلهتَك ﴾ أي: يترك موسى دينك ومعبوداتك التي تعبد، قيل: كان يعبد الكواكب، وقيل: صنع لقومه أصناماً وأمرهم أن يعبدوها تقرباً إليه. ولذلك قال: ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ ﴾[1]. قال فرعون في جوابهم: ﴿ سنُقتّل أبناءهم ﴾ أي: ذكورهم ﴿ ونستحيي نساءهم ﴾ أي: بناتهم، كما كنا نفعل من قبل، ليُعلم أنَّا على ما كنا عليه من القهر والغلبة، ولايتوهم أنه المولود الذي حكم المنجمون والكهنة بذهاب ملكنا على يديه. ﴿ وإنا فوقهم قاهرون ﴾ غالبون، وهم مقهورون تحت أيدينا.

﴿ قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا ﴾، قاله تسكيناً لهم حين سمعوا قول فرعون وما هددهم به، ثم قال لهم: ﴿ إن الأرض لله يُورثها من يشاء من عباده ﴾ وسيورثها لكم إن صبرتم وآمنتم. ﴿ والعاقبة للمتقين ﴾، فتكون العاقبة لكم إن اتقيتم، وهو وعدٌ لهم بالنصر والعز، وتذكير بما وعدهم من إهلاك القبط وتوريثهم ديارهم وملكهم.

﴿ قالوا ﴾ أي: بنو إسرائيل: ﴿ أُوذينا من قبل أن تأتينا ﴾ بقتل الأبناء، ﴿ ومن بعد ما جئتنا ﴾ بإعادته، فلم يرتفع عنا الذل بمجيئك، ﴿ قال عسى ربُكم أن يُهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض ﴾، تصريحاً بما كنّى عنه أولاً، لما رأى أنهم لم يتسلوا بذلك، ولعله أتى بحرف الطمع، أي: الترجي؛ لعدم جزمه بأنهم المستخلفون بأعيانهم، أو أولادهم، وقد رُوي أن مصر إنما فتح لهم في زمن داود ﷺ. قاله البيضاوي. ﴿ فينظرَ كيف تعملون ﴾ أي: فإذا استخلفكم يرى ما تعملون من شكر أو كفران، أو طاعة أو عصيان، فيجازيكم على حسب ما يُوجد منكم من كفر أو إحسان.

الإشارة: ما وقع للأنبياء مع قومهم وقع مثله لأشياخ هذه الأمة وفقرائها مع أهل زمانهم، ولما كثرت الأحوال من الفقر أو خرق العوائد، وظهروا بتخريب ظواهرهم، وقعت بهم الشكاية إلى السلطان، وقالوا له: هؤلاء يخربون ملكك، فآلى على نفسه إنْ مكنه الله منهم لا يترك منهم أحداً، فكفى الله بأسه، فاستعانوا بالله وصبروا، واشتغلوا بذكر الله، وغابوا عمن سواه، فكانت العاقبة للمتقين.

ثم ذكر ابتلاءه لقوم فرعون، فقال:

﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ ﴾

(١) كما جاء في الآية ٢٤ من سورة النازعات.

قلت: عبّر في جانب الحسنة بإذا المفيدة للتحقيق، وعرَّف الحسنة؛ لكثرة وقوعها، وعبّر في جانب السيئة بإنْ المفيدة للشك، ونكّر السيئة لنُدورها.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ولقد أخذنا آلَ فرعونَ بالسنين﴾ أي: بالجدب والقحط لقلة الأمطار والمياه، ﴿ ونقصٍ من الثمرات ﴾ بكثرة العاهات، ﴿ لعلهم يذَّكَّرون ﴾ أي: لكي ينتبهوا أن ذلك من شؤم كفرهم ومعاصيهم، ويتعظوا، وترق قلوبهم بالشدائد، فيفزعوا إلى الله، ويرغبوا فيما عنده.

﴿ فإذا جاءتهم الحسنةُ ﴾؛ من الخصب والسعة والرخاء، ﴿ قالوا لنا هذه ﴾ أي: قالوا: هذه لنا ولسعودنا، ونحن مستحقون له. ﴿ وإن تُصبهم سيئة ﴾: جدب وبلاء ﴿ يطَّيَّروا بموسى ومن معه ﴾ أي: يتشاءموا بهم، ويقولون: ما أصابتنا إلا بشؤمهم، وهذا إغراق في وصفهم بالغباوة والقساوة؛ فإن الشدائد ترقق القلوب، وتذلل العرائك أي: الطبائع، وتزيل التماسك، سيما بعد مشاهدة الآيات، وهي لم تؤثر فيهم، بل زادوا عندها عتواً وانهماكاً في الغي.

قال تعالى: ﴿ ألا إنما طائرُهم عند الله ﴾ أي: سبب طائرهم وشرهم عنده، وهو حكمه ومشيئته، أو سبب شؤمهم عند الله، وهو أعمالهم المكتوبة عنده، فإنها التي ساقت إليهم ما يسوؤهم. قال ابن جزي: أي: حظهم ونصيبهم الذي قدر لهم من الخير والشر عند الله، وهو مأخوذ من زجر الطير، ثم سمي به ما يصيب الإنسان، ومقصود الآية: الرد عليهم فيما نسبوا إلى موسى من الشؤم. هـ. ﴿ ولكنّ أكثرهم لا يعلمون ﴾ أن ما يصيبهم من الله تعالى بلا واسطة، أو من شؤم أعمالهم.

الإشارة: هذه الخصلة جارية أيضا في هذه الأمة، أعني التطاير، ترى العوام إذا نزل بهم بلاء أو شدة قالوا: بظهور هؤلاء وقع بنا ما وقع، ولقد سمعت ممن حكى لي هذه المقالة عن العامة وقت ابتداء ظهور الفقراء، وذلك أنهم آذوهم أذى شديداً، فأرسل الله عليهم كثرة الأمطار كادت أن تكون طوفانا، فقالوا: ما أصابنا هذا إلا من شؤم هذه المرقعات التي ظهرت، ولم يدروا أن ذلك منهم لإذايتهم أهل الله. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر عتو آل فرعون، وعقوبته لهم، فقال:

﴿ وَقَالُواْ مَهۡمَا تَأۡتِنَا بِهِۦ مِنۡ ءَايَةٖ لِّتَسۡحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلۡجَرَادَ وَٱلۡقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٖ مُّفَصَّلَٰتٖ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ وَكَانُواْ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيۡهِمُ ٱلرِّجۡزُ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا

عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ
﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَٱنتَقَمْنَا
مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾ وَأَوْرَثْنَا
ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ
وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ
فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾ ﴾

قلت : (مهما) : اسم شرط جازم، و(تأتنا) : شرطها، وجملة (فما نحن) : جوابها، قيل: مركبة، وأصلها: «ما» الشرطية، ضمت إليها «ما» الزائدة، نحو: أينما، ثم قلبت الألف هاء، والمشهور: أنها بسيطة، ومحلها: رفع بالابتداء، أو نصب بفعل يفسره: «تأتنا»، والضمير في: «به» عائد على «مهما».

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وقالوا ﴾ أي: فرعون وقومه: ﴿ مهما تأتنا به من آية ﴾، وإنما سموها آية على زعم موسى، لا لاعتقادهم، ولذلك قالوا: ﴿ لتسحرنا بها ﴾ أي: لتسحر بها أعيننا وتشبه علينا، ﴿ فما نحن لك بمؤمنين ﴾ . وهذا من عظيم عتوهم وانهماكم في الكفر .

قال تعالى: ﴿ فأرسلنا عليهم الطوفان ﴾ وهو مطر شديد نزل بهم مع فيض النيل، حتى هدم بيوتهم وكادوا يهلكون، وامتنعوا من الزراعة، وقيل: الطاعون، وقيل: الجدري، وقيل الموتان، ﴿ والجراد ﴾ وهو المعروف، أكل زروعهم وثمارهم، حتى أكل ثيابهم وأبوابهم وسقف بيوتهم، ﴿ والقُمَّلَ ﴾ قيل: أولاد الجراد قبل نبات أجنحتها، وقيل: البراغيث، وقيل السوس، والتحقيق: أنه صغار القراد، دخل ثيابهم وشعورهم ولحاهم، وقرىء: «القَمْل» بفتح القاف وهو القمل المعروف، دخل ثيابهم وامتلأت منها، ﴿ والضفادع ﴾، وهي المعروفة، كثرت عندهم حتى امتلأت بها فروشهم وأوانيهم، وإذا تكلم أحدهم وثب الضفدع إلى فيه.﴿ والدمَ ﴾ صارت مياههم دماء فكان يستقي من البئر القبطي والإسرائيلي في إناء واحد، فيخرج ما يلي القبطي دماً، وما يلي الإ سرائيلي ماء .

قال البيضاوي : رُوي أنهم مُطروا ثمانية أيام في ظلمة شديدة، لا يقدر أحد أن يخرج من بيته، ودخل الماء بيوتهم حتى قاموا فيه إلى تراقيهم، وكانت بيوت بني إسرائيل متصلة ببيوتهم، فلم يدخل فيها قطرة، وركب على أرضهم فمنعتهم من الحرث والتصرف فيها، ودام ذلك عليهم أسبوعاً، فقالوا لموسى عليه السلام: أدع لنا ربك بما عهد

عندك يكشف عنا ونحن نؤمن بك، فدعا الله فكشف عنهم، ونبت لهم من الكلأ والزرع والثمار مالم يعهد مثله، ولم يؤمنوا، فبعث الله عليهم الجراد فأكلت زرعهم وثمارهم، ثم أخذت تأكل الأبواب والسقوف والثياب، ففزعوا إليه ثانيا، فدعا، وخرج إلي الصحراء، وأشار بعصاه نحو المشرق والمغرب، فرجعت إلى النواحي التي جاءت منها، فلم يؤمنوا، فسلط عليهم القمل وأكل ما أبقاه الجراد، فكان يقع في أطعمتهم ويدخل في ثيابهم وجلودهم فيمصها، ففزعوا إليه فرفع عنهم، فقالوا: قدتحققنا الآن أنك ساحر، ثم أرسل الله عليهم الضفادع بحيث لاينكشف ثوب ولا طعام إلا وجدت فيه، وكانت تملأ مضاجعهم، وتثب إلى قدورهم وهى تغلي وأفواههم عند التكلم، ففزعوا وتضرعوا، فأخذ عليهم العهود ودعا فكشف الله عنهم، ثم نقضوا العهد، فأرسل الله عليهم الدم، فصارت مياههم دمًا، حتى يجتمع القبطي مع الإسرائيلي على الماء، فيكون ما يلي القبطي دماً، وما يلي الإسرائيلي ماء، ويمص الماء من فم الإسرائيلي فيصير دماً فى فيه، وقيل: سلط عليهم الرعاف. هـ.

﴿ آياتٍ ﴾ أي: حال كون ماتقدم آيات ﴿ مُفصَّلاتٍ ﴾، مبينات، لا تشكل على عاقل أنها آيات الله ونقمته. قيل: كان بين كل واحدة منها شهر، وامتداد كل واحدة أسبوعا، وقيل: إن موسى ثبت فيهم، بعد ما غلب السحرة، عشرين سنة يريهم هذه الآيات على مهل، ﴿ فاستكبروا ﴾ عن الإيمان ﴿ وكانوا قوماً مجرمين ﴾ أي: عادتهم الإجرام.

﴿ ولمّا وقع عليهم الرِّجزُ ﴾ يعني: العذاب المفصل، أو الطاعون الذي أرسله عليهم بعد ذلك، ﴿ قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك ﴾ أى: بعهده عندك، وهو النبوة، أو بالذي عهده إليك أن تدعوه به فيجيبك كما أجابك فى آياتك. والمعنى: ادع الله متوسلاً إليه بما عهد عندك من النبوة والجاه، أو بدعائك إليه ووسائلك، ﴿ لئن كشفت عنا الرجز ﴾ : العذاب ﴿ لنؤمنن لك ﴾ أي: أقسمنا بعهد الله لئن كشفت عنا الرجز لنؤمن لك ﴿ ولنرسلنّ معك بنى إسرائيل ﴾ كما طلبت، قال تعالى: ﴿ فلما كشفنا عنهم الرِّجزَ إلى أجل هم بالغوه ﴾ إلى حد من الزمان هم بالغوه ثم يهلكون، وهو وقت الغرق أو الموت، وقيل: إلى أجل عينوه لإيمانهم، ﴿ إذا هم ينكُثُون ﴾ ؛ جواب «لمّا»، أي: فلما كشفنا عنهم جاءوا بالنكث من غير تأمل ولا توقف، ﴿ فانتقمنا منهم ﴾ أي: فأردنا الانتقام منهم، ﴿ فأغرقناهم في اليم ﴾ أي: البحر الذي لايدرك قعره أو لجته، ﴿ بأنهم ﴾ أي: بسبب أنهم ﴿ كذّبوا بآياتنا ﴾ التى أرسلناها عليهم. ﴿ وكانوا عنها غافلين ﴾ أي: أغرقناهم بسبب تكذيبهم بالآيات وعدم فكرهم فيها حتى صاروا كالغافلين عنها.

﴿ وأورثنا القوم الذين كانوا يُستَضعَفُون ﴾ بالاستعباد وذبح الأبناء ﴿ مشارقَ الأرضِ ومغاربها ﴾ يعنى: أرض الشام، ملكها بنو إسرائيل بعد الفراعنة والعمالقة، وتمكنوا من نواحيها ﴿ التى باركنا فيها ﴾ بالخصب وسعة العيش، وهى أرض الشام. وزاد ابن جزي: ومصر.

﴿ وتمت كلمةُ ربك الحسنى على بني إسرائيل ﴾ أي: نفذت ومضت واستقرت، والكلمة هنا: ما قضى في الأزل من إنقاذهم من عدوهم، وقيل: قوله: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ ﴾(١) وكانت حسنى؛ لما فيها من النصر والعز، ﴿ بما صبروا ﴾ أي: بسبب صبرهم على الشدائد ﴿ ودمَّرنا ﴾ أي: خربنا ﴿ ما كان يصنعُ فرعونُ وقومُه ﴾ من القصور والعمارات، ﴿ وما كانوا يَعْرِشُون ﴾ من البنيان المرتفع كصرح هامان، أو ما كانوا يرفعون من الكروم في البساتين على العرشان، فالأول من العرش، والثاني من العَريش .

الإشارة : قد جرت عادة الله في خلقه أن يظهر الخواص من عباده، فيُنْكَرُوا أو يستضعفوا، حتى إذا طَهَّروا من البقايا وتمكنوا من شهود الحق، منّ الله عليهم بالعز والنصر والتمكين، فمنهم من يمكن من التصرف في الحس والمعنى، ويقره الوجود بأسره، ومنهم من يمكّن من التصرف في الكون بهمته، ولكنه تحت أستار الخمول، لا يعرفه إلا من اصطفاه لحضرته، وهذا من شهداء الملكوت، ضَنَّ به الحق تعالى فلم يظهره لخلقه . والله تعالى أعلم وأحكم.

ثم ذكر نجاة موسى عليه السلام وقومه من فرعون، وخروجهم إلى الشام، فقال:

﴿ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ
قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ
مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا
وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ
سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن
رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله : ﴿ وجاوزنا ببني إسرائيل ﴾ أي: قطعنا بهم ﴿ البحرَ ﴾، رُوي أنهم عبروه يوم عاشوراء، بعد مهلك فرعون، فصاموه شكرا ،﴿ فأتوا على قوم ﴾ أي: مروا على قوم من العمالقة، وقيل: من لخم، ﴿ يعكُفُون على أصنام لهم ﴾ أي: يقيمون على عبادتها، قيل: كانت تماثيل البقر، وذلك أول شأن عبادة العجل،

(١) من الآية ٥ من سورة القصص.

وهؤلاء القوم، قيل: هم الجبارون الذين أمر موسى بقتالهم بعد وصوله إلى الشام، ولما رآهم بنو اسرائيل ﴿ قالوا يا موسى اجعل لنا إلهاً ﴾ أي: مثالاً نعبده ﴿ كما لهم آلهة ﴾ يعبدونها، ﴿ قال ﴾ لهم موسى عليه السلام: ﴿ إنكم قوم تجهلون ﴾، وصفهم بالجهل المطلق، وأكده بإن؛ لبُعد ما صدر منهم، بعد ما رأوا من الآيات الكبرى.

قال البيضاوي: ذكر ما أحدثه بنو إسرائيل من الأمور الشنيعة بعد أن مَنّ الله تعالى عليهم بالنعم الجسام، وأراهم من الآيات العظام، تسليةً لرسول الله ﷺ عما كان يرى منهم ويلقى من التشغيب، وإيقاظاً للمؤمنين حتى لا يغفلوا عن محاسبة أنفسهم ومراقبة أحوالهم. هـ. وذكر في «القوت» أن يهودياً قال لعلي رضي الله عنه: كيف اختلفتم وضربتم وجوه بعضكم بالسيف، ونبيكم قريب عهد بكم؟ فقال: أنتم لم تجف أقدامكم من ماء البحر حتى قلتم: ﴿اجعل لنا إلها كما لهم آلهة﴾.هـ.

ثم قال لهم موسى عليه السلام: ﴿ إن هؤلاء مُتَبَّرٌ ﴾: مدمر هالك ﴿ ما هُم فيه ﴾ يعني: أن الله تعالى يهدم دينهم الذي هم فيه، ويحطم أصنامهم ويجعلها رضاضاً. ﴿ وباطلٌ ﴾: مضمحل ﴿ ماكانوا يعملون ﴾ من عبادتها، وإن قصدوا بها التقرب إلى الله تعالى، وإنما بالغ في هذا الكلام تنفيراً وتحذيراً عما طلبوا. ﴿ قال أغيرَ الله أبغيكم ﴾ أطلب لكم ﴿ إلهاً ﴾ أي: معبوداً ﴿ وهو فضّلكم على العالمين ﴾ أي: والحال أنه قد خصكم بنعم لم يُعطها غيركم، وفيه تنبيه على سوء مقابلتهم حيث قابلوا تخصيص الله لهم بما استحقوه تفضلا، بأن قصدوا أن يشركوا به أخس شيء من مخلوقاته وأبلده، وهو البقر.

﴿ وإذْ أنجيناكم من آل فرعون ﴾ أي: واذكروا صنعه معكم في هذا الوقت حيث نجاكم من فرعون ورهطه ﴿ يسومُونَكم ﴾ أي: يذيقونكم ﴿ سوءَ العذاب ﴾، ثم بيَّنه بقوله: ﴿ يقتلون أبناءَكم ﴾ ذكوركم ﴿ ويستحيون نساءَكم ﴾ أي: بناتكم، ﴿ وفي ذلكم بلاءٌ من ربكم عظيم ﴾ أي: وفي ذلك القتل امتحان عظيم، أو في ذلك الإنجاء نعمة عظيمة وامتنان عظيم.

الإشارة: من جاوز بحر التوحيد وحاد عنه، ولم يغرق فيه، لا يخلو من طلب شرك جلي أو خفي؛ لأن النفس مادامت لم تغرق في بحر الوحدة، ولم تسبها جمال المعاني، قطعاً تميل إلى شيء من جمال الحس، لأن الروح في أصلها عشاقة، إن لم تعشق جمال الحضرة تعشق جمال الحس، ومن ركن إلى شيء مما سوى الله فهو شرك عند الموحدين من المحققين، ويؤخذ من الآية أن شكر النعم هو تلخيص التوحيد، وانفراد الوجهة إلى الله تعالى؛ لأن بني إسرائيل لمَّا أنعم الله عليهم بالإنجاء وفلق البحر قابلوا ذلك بطلب الشرك، فسقطو من عين الله واستمر ذلهم إلى يوم القيامة. والله تعالى أعلم.

ولما استقر بنو إسرائيل بالشام طلبوا من نبيهم نزول الكتاب وتقرير الشرائع، كما أشار إلى ذلك الحق تعالى بقوله:

﴿ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وواعدنا موسى ﴾؛ لإنزال الكتاب ﴿ ثلاثين ليلة ﴾ من ذي القعدة، ﴿ وأتممناها بعشر ﴾ من ذي الحجة، ﴿ فتمَّ ميقاتُ ربه ﴾ بالغاً ﴿ أربعين ليلة ﴾، رُوي أنه عليه السلام وعد بني إسرائيل، بمصر، أن يأتيهم بعد مهلك فرعون بكتاب من الله تعالى، فيه بيان ما يأتون وما يذرون، فلما هلك فرعون سأل ربه فأمره بصوم ثلاثين، فلما أتم أنكر خلوف فيه فتسوك، فقالت الملائكة: كنا نشم منك رائحة المسك فأفسدته بالسواك، فأمره الله تعالى أن يزيد عليها عشراً، ثم أنزل عليه التوراة .

﴿ وقال موسى لأخيه هارون ﴾، عند ذهابه إلى الطور للمناجاة: ﴿ اخلفني في قومي ﴾ أي:كن خليفتي فيهم ﴿ وأصلحْ ﴾ ما يجب أن يصلح من أمورهم، أو كن مصلحاً، ﴿ ولا تتبع سبيلَ المفسدين ﴾ أي: لاتتبع سبيل من يسلك الإفساد، ولا تطع من دعاك إليه.

الإشارة : كل من انقطع إلى الله تعالى بكليته واعتزل عن الخلق، وأخلى قلبه عما سوى الحق، حصلت له المناجاة والمكالمة، كما وقعت للكليم عليه السلام، وكل ما منحه الله للانبياء يكون منه نصيب للأولياء من هذه الأمة، والله تعالى أعلم . وفي الحديث: «مَنْ أخْلَصَ لله أرْبَعينَ صبَاحاً ظَهَرَتْ ينَابيعُ الحِكْمَةِ مِنْ قَلْبِهِ علَى لِسَانِه»(١) .

قال بعض الحكماء: والسر في ذلك أن الله تعالى أمر بطينة آدم فخمرت في الماء أربعين يوماً، فتربى فيها أربعون حجاباً ، فلولا تلك الحجب ما استطاع المقام في الأرض، فمن أيده الله على زوالها تشبه بالملأ الأعلى، وخرقت له العوائد، وأشرق النور من قلبه . ولهذا المعنى بقي داود عليه السلام ساجداً أربعين يوما، فقبلت توبته، ومكث إبراهيم عليه السلام في نار النمرود أربعين يوماً ، فاتخذه الله خليلا، وكان بعد ذلك يقول: ما رأيت أحلى من تلك الأيام، فمن أخلص في عبادته وأزال تلك الحجب عن قلبه كان ربانيا . قال تعالى: ﴿ وَلَكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ ﴾(٢). انظر الشطيبي .

ويؤخذ من الآية أن الشيخ إذا أراد أن يسافر من زاويته ينبغي له أن يخلف خليفة عنه ليقوم له بنظام الزاوية، إذ لا خير في قوم ليس فيهم من يعظهم في الله . وبالله التوفيق .

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية، بسند ضعيف عن أبي أيوب. ورواه أحمد بنحوه عن مكحول مرسلاً. راجع كشف الخفاء (٢/٢٢٤).
(٢) من الآية ٧٩ من سورة آل عمران.

ولما سمع سيدنا موسى عليه السلام كلامَ الحق بلا واسطة، طمع في الرؤية بلا واسطة، كما قال تعالى:

﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ولما جاء موسى لميقاتنا﴾ الذي وقتنا له ﴿وكلَّمه ربه﴾ من غير واسطة كما يكلم الملائكة. وفيما رُوي: أنه كان يسمع ذلك الكلام من كل جهة، وفيه تنبيه على أن سماع كلامه القديم ليس من جنس كلام المحدثين. قاله البيضاوي. وقال الورتجبي: أي: أسمع عجائب كلامه كليمه ليعرفه بكلامه؛ لأن كلامه مفاتيح كنوز الصفات والذات. هـ. وقال ابن جزي: لما سمع موسى كلام الله طمع في رؤيته، فسألها، كما قال الشاعر:

وأبرحُ ما يكُونُ الشَّوقُ يَوْماً … إذا دَنَتِ الديارُ من الدِّيَارِ

﴿قال ربِّ أرني أنظر اليك﴾ أي: أرني نفسك أنظر إليك، بأن تكشف الحجب عني، حتى أنظر إلى ذاتك المقدسة من غير واسطة، كما أسمعتني كلامك من غير واسطة. قال البيضاوي: وهو دليل على أن رؤيته تعالى جائزة في الجملة؛ لأن طلب المستحيل من الأنبياء محال، وخصوصاً ما يقتضي الجهل بالله، ولذلك رده بقوله تعالى: ﴿لن تراني﴾ دون لن أُرَى و لن أريك، ولن تنظر إليّ، تنبيهاً على أنه قاصر عن رؤيته لتوقفها على حال في الرائي، لم توجد فيه بعدُ، وجعلُ السؤال لتبكيت قومه الذين قالوا: ﴿أرنا الله جهرة﴾(١) خطأ، إذ لو كانت الرؤية ممتنعة لوجب أن يجهلهم ويزيح شبههم، كما فعل بهم حين قالوا: ﴿اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا﴾(٢)، والاستدلال بالجواب على استحالتها أشد خطأ؛ إذ لا يدل الإخبار عن عدم رؤيته إياه على أنه لا يراه أبداً، وألا يراه غيره أصلا، فضلاً عن أن يدل على استحالتها. ودعوى الضرورة فيه مكابرة وجهالة بحقيقة الرؤية. هـ.

وهو تعريض بالزمخشري وردٌ عليه، فإنه هنا أطلق لسانه في أهل السنة ـ عفا الله عنه ـ. والتحقيق: أن رؤيته تعالى برداء الكبرياء ـ وهي أنوار الصفات ـ جائزة واقعة ـ، وأما رؤية أسرار الذات ـ وهي المعاني الأزلية، التي هي كنه الربوبية ـ فغير جائزة؛ إذ لو ظهرت تلك الأسرار لتلاشت الأكوان واضمحلت، ولعل هذا المعنى هو الذي طلب سيدنا موسى عليه السلام، فلذلك قال له: ﴿لن تراني ولكن انظرْ إلى الجبل فإن استقرَّ مكانه﴾ عند تجلي هذه

(١) من الآية ١٥٣ من سورة النساء.
(٢) من الآية ١٣٨ من سورة الأعراف.

الأسرار له، ﴿فسوف تراني، فلما تجلى ربُّه للجبل﴾ أي: أظهر له شيئًا من أنوار الربوبية التي هي أسرار المعاني الأزلية، ﴿جعله دكاً﴾ أي: مدكوكًا مفتتا، والدك والدق واحد. وقرأ حمزة: «دكاء» بالمد، أي: أرضًا مستوية، ومنه: ناقة دكاء لاسنم لها. ﴿وخرَّموسى صَعِقاً﴾ مغشيا عليه من هول ما رأى، ﴿فلما أفاق قال﴾ تعظيماً لما رأى: ﴿سبحانك تُبت إليك﴾ من الجرأة والإقدام على السؤال بغير إذن، وقال بعضهم: تُبتُ إليك من عدم الاكتفاء بقوله: ﴿لن تراني﴾حتى نظر إلى الجبل، ﴿وأنا أولُ المؤمنين﴾ أنك لا تُرى بلا واسطة نور الصفات، أو أول أهل زماني إيمانا .

الإشارة: رؤية الحق جائزة واقعة عند الصوفية في الدارين، ولكن لا ينالها في هذه الدار إلا خواص الخواص، ويُعبّرون عنها بالشهود والعيان، ولا يكون ذلك إلا بعد الفناء، وفناء الفناء بعد موت النفس وقتلها، ثم الغيبة عن حسها ورسمها، تكون بعد التهذيب والتدريب والتربية على يد شيخ كامل، لايزال يسير به ويقطع به في المقامات، ويغيبه عن نفسه ورؤية وجوده، حتى يقول له: ها أنت وربك، وذلك أن الحق جل جلاله تجلى لعباده بأسرار المعاني خلف رداء الأواني، وهو حس الأكوان، فأسرار المعاني لا يمكن ظهورها إلا بواسطة الأواني، أو تقول: أسرار الذات لا تظهر إلا في أنوار الصفات، فلو ظهرت أسرار الذات بلا واسطة لاضمحلت الأشياء واحترقت، كما في الحديث: «حِجَابُهُ النُّورُ، لَوْ كَشَفَهُ لأحرقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ ما انْتَهى إِلَيْه بَصَرُهُ من خَلْقِهِ»(١) .

فالمراد بالنور نور الصفات، وهو الأواني الحاملة للمعاني، لو كشف ذلك النور حتى تظهر أسرار الذات لأحرقت كل شيء أدركه بصره . والواسطة عند المحققين هي عين الموسوط، فلايزال المريد يفنى عن عين الواسطة في شهود الموسوط حتى يغيب عن الواسطة بالكلية، أو تقول: لايزال يغيب عن الأواني بشهود المعاني حتى تشرق شمس العرفان، فتغيب الأواني في ظهور المعاني، فيقع العيان على فقد الأعيان، «كان الله ولا شيء معه، وهو الآن على ما عليه كان»، «ما حجبك عن الحق وجود موجود معه، إذ لا شيء معه، وإنما حجبك توهم موجود معه» .

والحاصل: أن الحق تعالى تكون رؤيته أولاً بالبصيرة دون البصر، لأن البصيرة تدرك المعاني، والبصر يدرك الحسيات، فإذا انفتحت البصيرة استولى نورها على نور البصر، فلا يرى البصر حينئذ إلا ما تراه البصيرة . قال بعض العارفين: هذه المزية العظمى - وهي رؤية الحق تعالى - في الدنيا على هذا الوجه: خاص بخواص الأمة

(١) أخرجه مسلم في (الإيمان - باب في قوله ﷺ: إن الله لاينام) من حديث أبي موسى.

المحمدية ـ دون سائر الأمم ـ وراثة عن نبيهم ﷺ، فإنه خص بالرؤية دون غيره من الأنبياء. وإلى ذلك أشار ابن الفارض في تائيته، مترجماً بلسان الحقيقة المحمدية، حيث قال:

ودونَكَ بحراً خُضْتُهُ، وقَفَ الأُلى ... بساحله، صَوْنًا لمَوضِع حُرْمتي

ولا تقْربُوا مالَ اليتيم إشارةٌ ... لكَفِّ يدٍ صُدَّتْ له، إذ تصدَّتِ

وما نالَ شيئاً منْه غيري سوى فتىً ... على قَدَمي في القبض والبسطِ ما فتي

قال شارحه القاشاني: أراد بهذا البحر: الرؤية التي مُنع منها موسى عليه السلام، وخص بها محمد ـ عليه الصلاة السلام ـ وأفراد من أتباعه. ثم قال: ورد في الخبر: أنه لما أفاق موسى عليه السلام من صعقته قيل له: ليس ذلك لك، ذلك ليتيم يأتي من بعدك، ثم قال: سبحانك تبتُ إليك عما تعديتُ لما ليس لي، وأنا أول المؤمنين بتخصيص محمد ﷺ بهذا المقام. هـ.

وقيل في قوله: ﴿فلما تجلى ربُّه للجبل﴾ أي: جبل العقل، بحيث طمس نوره بنور شمس العرفان، وخر موسى صعقاً، أي: ذهب وجوده في وجود محبوبه، وحصل له الزوال في مكان الفناء والسكر، فلما أفاق ورجع إلى البقاء تمسك بمقام العبودية والأدب مع الربوبية فقال: «سبحانك تبتُ إليك» من رؤية جبل الحس قبل شهود نور المعنى، وأنا أول المؤمنين بأن نور المعاني خلف رداء الأواني، لايدرك إلا بعد الصعقة، والله تعالى أعلم.

ثم ذكر نزول التوراة، فقال :

﴿ قَالَ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَـٰلَـٰتِى وَبِكَلَـٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ
وَكُن مِّنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا
لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾
سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَـٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ
لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ
يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟
بِـَٔايَـٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾ ﴾

قلت: الرُّشْد والرَّشَد: لغتان، قُرئ بهما.

يقول الحق جل جلاله: ﴿قال يا موسى إني اصطفيتُك﴾ اخترتك ﴿على الناس﴾ الموجودين في زمانك، وهارون، وإن كان نبياً، كان مأموراً باتباعه، ولم يكن كليما ولا صاحب شرع. فقد اصطفيتك على أهل زمانك ﴿برسالتي﴾ لك إليهم، ومن قرأ بالجمع فالمراد: أوقات التبليغ بأنواع الأحكام أو أسفار التوراة، ﴿و﴾ خصصتك ﴿بكلامي﴾، وقد شاركه نبينا محمد ﷺ مع زيادة الرؤية، ﴿فخُذْ ما آتيتك﴾ أي: أعطيتك من الرسالة والتكليم، واقنع بهما ولا تطلب غير ذلك، ﴿وكن من الشاكرين﴾ على هذه النعمة، وفيه نوع تأديب له. رُوي أن سؤال الرؤية كان يوم عرفة، وأعطاه التوارة يوم النحر.

قال تعالى: ﴿وكتبنا له في الألواح من كل شيء﴾ يحتاجون إليه ﴿موعظةً﴾ أي: تذكيراً ﴿وتفصيلاً لكل شيء﴾ يتوقفون عليه في الأحكام والوعظ. واختلف في الألواح؛ هل كانت سبعة أو عشرة أو اثنين، وهل كانت من زمرد أو زبرجد أو ياقوت أحمر، أو خشب، أو صخرة صماء، شقها الله تعالى لموسى عليه السلام فقطعها بيده، وكان فيها التوراة.

قال تعالى لموسى عليه السلام: ﴿فخُذْهَا﴾ أي: الألواح أو الرسالة ﴿بقوة﴾ أي: بجد واجتهاد، ﴿وأمُرْ قومكَ يأخذوا بأحسنها﴾ بأحسن ما فيها، فإن فيها ماهو حسن وأحسن منه؛ كالقصاص مع العفو، أو بواجباتها، فإن الواجب أفضل من المندوب، وهذا كقوله في كتابنا: ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم﴾(١)، ويجوز أن يراد بالأحسن: البالغ في الحسن مطلقاً، لا بالإضافة إلى غيره، كقولهم: الصيف أحر من الشتاء، فيكون الأمر بأخذ كل ما فيها لأنه بالغ الحسن، ثم بشرهم بخراب ملك عدوهم، فقال: ﴿سأُوريكُم دارَ الفاسقين﴾ أي: دار فرعون وقومه خاوية على عروشها، أي: أريكم كيف أقْفَرَتْ منهم لمّا هلكوا، وقيل: منازل عاد وثمود ومن هلك من الأمم، لتعتبروا بها، وقيل: جهنم.

وقرأ ابن عباس: «سأورثكم» با لثاء المثلثة، كقوله: ﴿وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾(٢).

﴿سَأَصْرِفُ عنْ آياتي﴾ المنصوبة في الآفاق والأنفس الدالة على قدرتنا ووحدانيتنا من عجائب المصنوعات فلا يتفكرون فيها، أو القرآن وغيره من الكتب، أصرفُ عنها ﴿الذين يتكبّرون في الأرض﴾ بالطبع علىَ قلوبهم فلا يتفكرون فيها، ولا يعتبرون؛ ولا يؤمنون بها، عقوبة لهم على تكبرهم، وقيل: الصرف: منْعهم من إبطالها

(١) من الآية ٥٥ من سورة الزمر.

(٢) من الآية ٥٩ من سورة الشعراء.

وإطفاء نورها، وإن اجتهدوا، كما فعل فرعون وغيره، فعاد عليهم بإعلائها وإظهار نورها، وذلك التكبر صدر منهم ﴿ بغير الحق ﴾ أي: تكبروا بما ليس بحق، وهو دينهم الباطل .

﴿ وإن يروا كل آية ﴾ مُنزلةٍ أو معجزة ﴿ لا يُؤمنوا بها ﴾ لعنادهم، واختلال نظرهم، بسبب انهماكهم في الهوى وحب الجاه، ﴿ وإن يَرَوْا سبيل الرُّشد ﴾ أي: طريق الصواب والحق ﴿ لا يتخذوه سبيلا ﴾ لاستيلاء الشيطان عليهم، ﴿ وإن يَرَوْا سبيلَ الغيِّ ﴾ أي: الضلال ﴿ يتخذوه سبيلاً ﴾ أي: يسلكونه ويتبعونه، لأن سجيتهم الضلال، ﴿ ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين ﴾ أي: ذلك الصرف بسبب تكذيبهم وعدم تدبرهم الآيات.

﴿ والذين كذَّبوا بآياتنا ولقاءِ الآخرة ﴾ أي: وبلقائهم الدار الآخرة، أو: ما وعد الله في الآخرة، ﴿ حَبِطَتْ أعمالُهم ﴾ لا ينتفعون بها، ﴿ هل يُجزَونَ إلا ما كانوا يعملون ﴾ أي: لا يجزون إلا مقدار أعمالهم . ﴿ وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾(١).

الإشارة: كل من أقامه الله في مقام من المقامات، أو حال من الأحوال، كيفما كان، يقال له: خذ ما آتيتك، واقنع بما أوليتك، وكن من الشاكرين عليه، وإلا سلبناك ما أعطيناك، فالرضا بالقسمة واجب، وطلب باب الفضل والكرم لازب، والأمر مُبهم، والعواقب مُغيبة، ومنتهى المقام على التعيين لا يعلم إلا بعد الموت. وقوله تعالى: ﴿ فخذها بقوة ﴾ أي: بجد واجتهاد. قال في الإحياء: الأخذ بالجد أن يكون القارئ متجرداً لله عند قراءته، منصرف الهمة إليه عن غيره، وهو يشير للحضور.

وقوله تعالى: ﴿يأخذوا بأحسنها﴾ قال الورتجبي: يأخذون بأبينها لهم، وهي المحكمات التي توجب العبودية، ويأخذون بمتشابهها التي هي وصف الصفات بحسن الاعتقاد والتسليم فيها، لأن علومها وحقائقها لاتكشف إلا للربانيين. قال تعالى: ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ... ﴾(٢) الآية. هـ. وقوله تعالى: ﴿سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض﴾. قال القشيري: سأحْرِمُ المتكبرين بركة الاتباع، حتى لايتلقوا الآيات التي يُكَاشَفُون بها بالقبول، ولا يسمعوا ما يُخَاطَبُون به بسمع الإيمان.هـ.

---

(١) من الآية ٤٩ من سورة الكهف.
(٢) الآية٧ من سورة آل عمران.

ثم شرع في ذكر مساوئ بني إسرائيل فبدأ بعبادتهم العجل، فقال:

﴿ وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ ﴾

قلت: «عِجْلاً»: مفعول أول لاتخذ، و«جسداً»: بدل منه، وحذف الثاني ـ أي: «إلهاً» ـ لدلالة أوله، و(له خوار): نعت له.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ واتخذ قومُ موسى من بعده ﴾ أي: من بعد ذهابه للميقات، ﴿ من حُلِيّهم ﴾ التي كانوا استعاروها من القبط، حين هموا بالخروج من مصر، وأضافتها إليهم؛ لأنها كانت تحت أيديهم، فصنع لهم منها السامري ﴿ عِجْلاً جسداً ﴾ بلا روح، فألقى في جوفه من تراب أثر فرس جبريل، فصار ﴿ له خُوارٌ ﴾، فقال لهم: ﴿ هذا إلهكم وإله موسى ﴾، فعكفوا على عبادته، واتخذوه إلهاً.

قال تعالى: ﴿ ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلاً ﴾ أي: ألم يروا، حين اتخذوه إلهاً، أنه لايقدر على كلام، ولا على إرشاد سبيل، كآحاد البشر، حتى حسبوا أنه خالق الأجسام والقوى والقدر، وهذا تقريع على فرط ضلالتهم وإخلالهم بالنظر. قال تعالى: ﴿ اتخذوه ﴾ إلهاً ﴿ وكانوا ظالمين ﴾ في اتخاذه، وضعوا الأشياء في غير محلها، أي: كانت عادتهم الظلم، فلم يكن اتخاذ العجل بدعاً منهم.

﴿ ولما سُقِطَ في أيديهم ﴾؛ كناية عن اشتداد ندمهم، فإن النادم المتحسر يعض يده غماً، فتصير يده مسقوطاً فيها. أو يسقط رأسه، أي: يطأطئها لبعض يده. وقال الدماميني: العرب تضرب الأمثال بالأعضاء، ولا تريد أعيانها، تقول للنادم: يُسقط في يده، وفي الذليل: رغم أنفه. هـ. أي: ولمّا ندموا على ما فعلوا، ﴿ ورأوا ﴾ أي: علموا ﴿ أنهم قد ضلّوا ﴾ باتخاذ العجل، ﴿ قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا ﴾ بالتجاوز عن خطيئتنا، ﴿ لنكونَنّ من الخاسرين ﴾ دنيا وأخرى.

الإشارة: كل من ركن إلى شيء وعكف على محبته من دون الله فهو في حقه عجل يعبده من دون الله، «ما أحببت شيئاً إلا وكنت عبداً له، وهو لايحب أن تكون عبداً لغيره». عافانا الله من ذلك.

ثم ذكر رجوع موسى عليه السلام من الطور، فقال:

﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ
أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى
وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ
رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟
ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾
وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾ ﴾

قلت: (بئسما): «ما» نكرة موصوفة: تمييز، تفسير للضمير المستكن في (بئس)، والمخصوص: محذوف، أي: بئس شيئاً خلفتموني خلافتكم هذه، و«ابن أم»: منادى مضاف، منصوب بفتحة مقدرة قبل ياء المتكلم، وأصله: ابن أمي، فحذفت الياء، وفتحت الميم تخفيفا.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ولما رجعَ موسى﴾ من ميقاته ﴿إلى قومه غضبان﴾ على قومه، ﴿أسِفاً﴾ أي: حزيناً عليهم حيث ضلوا، ﴿قال﴾ لهم، أو لأخيه ومن معه من المؤمنين: ﴿بئسما خلفتموني من بعدي﴾ أي: من بعد انطلاقي إلى المناجاة، ﴿أعَجِلتُم أمرَ ربكم﴾ أي: أسابقتم قضاء ربكم ووعده، واستعجلتم إتياني قبل الوقت الذي قدِّر فيه، أو أعجلتم عقوبة ربكم وإهلاكه لكم حيث عبدتم غيره.

﴿وألقى الألواحَ﴾؛ طرحها من شدة الغضب حمية للدين، رُوي أن التوارة كانت سبعة أسفار في سبعة ألواح، فلما ألقاها انكسرت، فرفع ستةَ أسْبَاعها، وكان فيها تفصيل كل شيء، وبقي سُبْعٌ كان فيه المواعظ والأحكام، ﴿وأخذَ برأسِ أخيه﴾: بشعر رأسه ﴿يَجرُّه إليه﴾؛ توهمًا في أنه قصّر في زجرهم، وهارونُ كان أكبر منه بثلاث سنين، وكان حمولاً ليّنًا، ولذلك كان أحبَّ إلى بني إسرائيل، ولما رأى هارون ما يفعل به أخوه ﴿قال ابنَ أمَّ﴾، ذكر الأم ليرققه، وكان شقيقًا له، ﴿إنَّ القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني﴾ حين أنكرتُ عليهم، فقد بذلتُ جهدي في كفهم، وقهروني حتى قاربوا قتلي، فلم أُقصِّر، ﴿فلا تُشمتْ بي الأعداء﴾؛ فلا تفعل بي ما يشمتون بي، أي: يستشفون بي لأجله، ﴿ولا تجعلني مع القوم الظالمين﴾ معدوداً في عدادهم بالمؤاخذة، أو نسبة التقصير.

﴿قال﴾ موسى: ﴿ربِّ اغفر لي﴾ ما صنعتُ بأخي، ﴿ولأخي﴾؛ إن فرَّط في كفهم، ﴿وأدْخلنا في رحمتك﴾ بمزيد الإنعام علينا، ﴿وأنت أرحمُ الراحمين﴾ فأنت أرحم منا على أنفسنا.

قال تعالى: ﴿إن الذين اتخذوا العجلَ سينالُهم غضبٌ من ربهم﴾؛ وهو ما أمرهم من قتل أنفسهم، أو الطاعون الذى سلط عليهم، ﴿وذلة في الحياة الدنيا﴾ وهى ضرب الجزية والهوان إلى يوم القيامة، ﴿وكذلك نجزي المفترين﴾ على الله، ولا فرية أعظم من فريتهم، حيث ﴿قالوا هذا إلهكم وإله موسى﴾، ولعله لم يفترِ أحدٌ مثلها قبلهم ولا بعدهم، حيث جعلوا البقر إلههم وإله الرسول، نسأل الله الحفظ.

ثم ذكر توبتهم، فقال: ﴿والذين عَمِلُوا السيئات﴾ من الكفر والمعاصى، ﴿ثم تابوا من بعدها﴾؛ من بعد السيئات ﴿وآمنوا﴾ واشتغلوا بما يقتضيه الإيمان من الأعمال الصالحات، ﴿إنَّ ربك من بعدها﴾ من بعد التوبة ﴿لغفورٌ رحيم﴾ وإنْ عَظُم الذنب؛ كجريمة عَبَدَة العجل ـ وكثُر؛ كجرائم بنى إسرائيل .

الإشارة: الغضب لله وبالله، والأسف على دين الله، من أمارة الغَيْرة على دين الله، لكنَّ صاحب هذا المقام مالك نفسه، يظهر الغلظة ويبطن الرحمة، قياماً بشهود الحكمة والقدرة، وأما ما صدر من سيدنا موسى ـ عليه السلام ـ فتشريع لأهل التشريع، لئلا يقع التساهل في تغيير المناكر. وساق الإمام الهروي هذه الآية في منازل السائرين في باب المراد، وهو المخصوص من ربه بما لم يرِدْه هو ولا خطر بباله، والإشارة بذلك إلى الضَّنَائن الذين وَرَدَ فيهم الخبر: «إنّ لله ضَنَائِن من خلقِه، ألْبَسَهُم النور السَّاطِع، وغَذَّاهم في رحمتِه، وفَعَلَ بِهِم وفَعَل...» أورده الإمام أبو نعيم في الحلية(١) .

وحاصله: أن المُرادين هم قوم مخصوصون، ملطوف بهم، محمول عنهم، ومنه: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُو أَن يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلاَّ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾(٢) فقد خُصَّ ـ عليه الصلاة والسلام ـ بما لم يخطر على باله قبل النبوة .

قال الهروي: والمراد: ثلاث درجات: الدرجة الأولى: أن يُعصَمَ العبد وهو مستشرف للجفاء؛ اضطراراً بتنغيص الشهوات وتعويق الملاذ، وسد مسالك المعاطب عليه، إكراماً، والدرجة الثانية: أن توضع عن العبد عوارض النقص، ويعافيه من سمة اللائمة، ويملكه عواقب الهفوات، كما فعل لسليمان عليه السلام في قتل الخيل؛ حمله على الريح الرُّخاء، فأغناه عن الخيل، وكما فعل لموسى عليه السلام؛ حين ألقى الألواح وأخذ برأس أخيه لم يعتب عليه كما عتب على آدم ونوح وداود ويونس ـ عليهم السلام ـ هـ.

قال شارحه الإمام عبد المعطي السكندري: وهذه الدرجة أتم في الحمل على الأعمال وركوب الأهوال، والتلطف في تعليم الإقبال مما قبلها، فإن ما قبلها منعٌ من الشهوات، وصيانة عن الآفات؛ جبراً وقهراً وحفظاً، وهذا حفظ عنها؛ بإظهارصفح برفق وإكرام ولطف، فتقوى المحبة في القلب، فيحمل ذلك على سرعة الموافقة، ومتى

(١) الجزء الأول ص٦ بنحوه عن ابن عمر ـ مرفوعاً.
(٢) من الآية ٨٦ من سورة القصص.

عرف العبد تقصيره في حق مولاه، ورأى مع ذلك تجاوزه عنه، وإحسانه إليه، فضلاً عن ترك مؤاخذته بما جناه، انغرس في قلبه محبته، وقوى بذلك نشاطه، وخفت عليه الأعمال، وقويت منه الأحوال، فكلاهما محفوظ معان، إلا أن الأول قهر مع تعلقه، وهذا إكرام ولطف بعد جريان هفوته، ثم ذكر الدرجة الثالثة، فانظره. هـ. بنقل المحشي.

ثم كمّل القصة، فقال:

﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ولما سكت ﴾ أي: سكن ﴿ عن موسى الغضبُ ﴾؛ لمّا كان الغضب هو الحامل له على مافعل صار كأنه كان يأمره به ويغريه عليه، حتى عبّر عن سكونه بالسكوت، أي: لما سكن غضبه ﴿ أخذَ الألواحَ ﴾ التي ألقاها، ﴿ وفي نُسختها ﴾ أي: وفيما نسخ فيها، أي: كُتب ﴿ هُدىً ورحمة ﴾ أي: بيان للحق وإرشاد إلى الصلاح والخير، ﴿ للذين هم لربهم يرهبون ﴾ أي: للذين يخافون ربهم ويهابونه؛ لأنهم هم المنتفعون بها، ودخلت اللام في المفعول؛ لضعف العامل بتأخره.

الإشارة: الغضب لأجل النفس يُفسد الإيمان، كالحنظل مع العسل، ولذلك قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ للذي قال له: أوصني، قال: «لا تَغْضَبْ»، ثم كرر عليه: أوصني، قال: «لا تَغْضَبْ»، ثلاثاً، لأن الغضب المفرط يغطي نور العقل، فيصدر من صاحبه أمور منكرة، قد يخرج بها عن الإيمان بالكلية، وقد يؤدي إلى قتل نفسه والعياذ بالله، والغضب معيار الصوفية؛ قال بعضهم: إذا أردت أن تعرف الرجل فغضبه وانظر مايخرج منه، إلى غير ذلك مما ورد فيه، فإن كان غضبه لله أو بالله فلا كلام عليه، وهو حال الأنبياء وأكابر الأولياء ـ رضي الله عنهم ـ.

ولما انقضت قضية العجل أراد سيدنا موسى عليه السلام أن يذهب بقوم، يعتذرون عن عبادة العجل، كما قال تعالى:

﴿ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَـٰتِنَا فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّـٰىَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَـٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ۞ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ... ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ واختارَ موسى قومه ﴾ من قومه ﴿ سبعين رجلاً ﴾ يعتذرون عن قومهم في عبادة العجل، ﴿ لميقاتنا ﴾ الذي وقتنا لهم يأتون إليه، وقيل: إن الله تعالى أمره به بأن يأتيه في سبعين من بني إسرائيل، فاختار من كل سبط ستةً، فزاد على السبعين اثنان، فقال: يتخلف منكم رجلان، فتشاجروا، فقال: إن لِمن قعد أجر من خرج، فقعد كالب ويوشع، وذهب معه الباقون، فلما دنوا من الجبل غشيه غمام، فدخل موسى بهم الغمام وخروا سُجداً، فسمعوه يكلم موسى، يأمره وينهاه، ثم انكشف الغمام، فأقبلوا إليه، وقالوا: ﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً ﴾(١)، ﴿ فأخذتهم الرجفة ﴾ أي: الصعقة، أو رجفة الجبل، عقاباً لهم على قولهم، فصعقوا منها، يحتمل أن تكون رجفة موت أو إغماء. والأول أظهر؛ لقوله: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ ﴾(٢).

﴿ فلما أخذتهُم الرَّجْفَةُ قال ﴾ موسى: ﴿ ربِّ لو شئتَ أهلكتَهم من قبل وإيَّايَ ﴾، تمنى هلاكهم وهلاكه قبل ذلك الوقت، لأنه خاف من تشغيب بني إسرائيل عليه، إن رجع إليهم دون هؤلاء السبعين، ربما قالوا :عرّضتهم للهلاك، أو يكون قال ذلك على وجه الاستسلام والانقياد للقضاء، أي: لو شئتَ أن تُهلكنا من قبل ذلك لفعلت، فإنا عبيدك وتحت قهرك تفعل بنا ماتشاء، أو يكون قاله على وجه التضرع والرغبة، أي: لو شئت أن تهلكنا قبل اليوم لفعلت، لكنك عافيتنا وأنقذتنا وأغرقت عدونا، فافعل بنا الآن كما عودتنا، وأحْيِ هؤلاء الذين أمتهم، إذ ليس ببعيد من عميم إحسانك، ﴿ أتُهلكُنا بما فعلَ السفهاءُ منّا ﴾ من العناد والتجاسر على طلب الرؤية، أو بما فعل السفهاء من عبادة العجل .

﴿ إنْ هي إلا فتنتُك ﴾ أي: ابتلاؤك حين أسمعتهم كلامك، حتى طمعوا في الرؤية، أو فتنتك لهم بأن أجريت الصوت من العجل حتى افتتنوا به، وهذا اعتراف بالقدر، ورجوع إلى قوله: ﴿ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ... ﴾(٣) الآية، ولذلك قيل: إنه قال له تعالى: نعم هي فتنتي يا حكيم الحكماء. هـ. أي: ما هذه الأمور كلها التي صدرت من بني إسرائيل إلا فتنتك ﴿ تُضلُّ بها من تشاء ﴾ ضلالته، باتباع المخايل، ﴿ وتهدي من تشاء ﴾ هدايته، فيقوى بها إيمانه، وهو اعتذار عن فعل السفهاء فإنه كان بقضاء الله ومشيئته .

﴿ أنت وليُّنا ﴾ القائم بأمرنا، أو ناصرنا من الوقوع في أسباب المهالك، ﴿ فاغفرْلنا ﴾ ما قارفنا من الذنوب، ﴿ وارحمنا ﴾ أي: اعصمنا من الوقوع في مثله، ﴿ وأنت خيرالغافرين ﴾؛ تغفر السيئة وتبدلها بالحسنة، ﴿ واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة ﴾ أي: حالة حسنة من حسن معيشة وتوفيق طاعة، ﴿ وفي الآخرة ﴾ حسنة؛ نعيم الجنة، ﴿ إنا هُدنا إليك ﴾ أي: تبنا إليك، من هادَ يهود: إذا رجع، أي: رجعنا إليك بالتوبة مما سلف منا .

(١) من الآية ٥٥ من سورة البقرة.
(٢) من الآية ٥٦ من سورة البقرة.
(٣) الآية ٨٥ من سورة طه.

الإشارة: السلامة من العطب هو في مقام الهيبة والأدب، ولذلك قيل: قف بالبساط، وإياك والانبساط. وأما مقام الإدلال فلا يصح إلا من أكابر الأنبياء، والأولياء المحققين بمقام المحبوبية، المتحفين بغاية الخصوصية، ومنه قول سيدنا موسى عليه السلام: ﴿أتهلكنا بما فعل السفهاء منا﴾، كما قال في الإحياء. والإدلال: هو انبساط يثور من مقام الأنس والتحقق بالمحبة الخاصة، ولا يتفق إلا من محبوب مأخوذ عنه، ليس عليه بقية من نفسه، ولا شعور بوجوده وأنانيته، وإلا رُدّ في وجهه وكان سبب عطبه. ومن الإدلال: ما وقع لأبي الحسن الشاذلي رضي الله عنه في حزبه الكبير، من قوله: وليس من الكرم ألا تحسن إلا لمن أحسن إليك... إلخ. وقد وقع لغيره من المحبوبين. والله تعالى أعلم.

ثم أجاب الحق ـ سبحانه وتعالى ـ سؤال موسى عليه السلام في قوله: (واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة) فقال:

﴿... قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾

يقول الحق جل جلاله: في جواب سيدنا موسى عليه السلام: ﴿قال عذابي أُصيب به من أشاءُ﴾ ممن أخذتْه الرجفة وغيرهم، ﴿ورحمتي وَسِعتْ كلَّ شيء﴾ في الدنيا للمؤمنين والكافرين، وفي الآخرة مخصوصة بالمؤمنين، ﴿فسأكتبها﴾ كتابة خاصة لا تليق بكم يا بني إسرائيل، إنما تليق بالأمة المحمدية الموسومة بالآداب المرضية، الذين ﴿يتقون﴾ الكفر والمعاصي، وإن وقعت هفوة بادروا إلى التوبة، ﴿ويُؤتون الزكاة﴾، خصصها بالذكر لأنها كانت أشق عليهم. ﴿والذين هم بآياتنا يؤمنون﴾ فلا يكفرون بشيء منها، بل يؤمنون بجميع الكتب والأنبياء، وليس ذلك لغيرهم. ولذلك خصهم الله بهذه الرحمة؛ فنَصَرهم على جميع الأمم، وأعلى دينهم على جميع الأديان، ومكّن لهم مالم يمكن لغيرهم.

﴿ الذين يتبعون الرسول ﴾ ﷺ ﴿ النبي الأميّ ﴾ وهو نبينا ومولانا محمد ﷺ، وكونه أميًا شرفٌ له، إذ الكتابة وسيلة للعلوم، وقد أعطى منها ما لم يُعْطَ أحَدٌ من العالمين، من غير تعب تعلمها، ولارتفاع الارتياب فى نبوته ﷺ، فهى من جملة معجزاته؛ قال تعالى: ﴿ وما كنت تتلو من قبله من كتاب... ﴾ الآية(١). قال بعضهم: لما قال الله تعالى: ﴿ورحمتي وسعت كل شيء﴾ طمع فيها كل أحد، حتى إبليس، فلما قال: ﴿فسأكتبها للذين يتقون﴾ يئس إبليس، وبقيت اليهود والنصارى، فلما قال: ﴿الذين يتبعون الرسول النبي الأمي﴾ يئس اليهود والنصارى. هـ.

﴿ الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوارة والإنجيل ﴾ اسمًا وصفة، ونص ما فى التوراة على ما فى صحيح البخارى، عن عبد الله بن سلام: «يا أيُّهَا النَّبِىُّ إنَّا أرْسَلْنَاكَ شَاهِداً ومُبَشِّرًا ونَذِيرًا، وحِرْزًا للأُمِّيينَ، أنْتَ عَبْدِى ورَسُولِى، سَمَّيْتُكَ المُتَوكِّلَ، لَيْسَ بفظٍ ولا غليظ ولا صَخَّابٍ فى الأَسْوَاقِ، ولا يُجَازِى بالسَّيِّئةَ السَّيِّئة، ولكنْ يَعفُو ويَصفحُ ، ولَنْ يَقْبِضَهُ الله حَتَّى يُقِيمَ بِهِ المِلَّةَ العَوْجاءَ، بأنْ يَقُولوا: لاَ إلهَ إلاَّ الله، فَيَفْتَحُ بِها أعيُنًا عُمْيًا، وآذانًا صُمّاً، وقُلوبًا غُلْفًا»(٢).

ومما فى التوراة أيضًا، وهو مما أجمع عليه أهل الكتاب، وهو باق فى أيديهم إلى الآن؛ أن الملك قد نزل على إبراهيم، فقال له: فى هذا العام يولد لك غلام اسمه إسحاق، فقال إبراهيم: يارب ليت إسماعيل يعيش يخدمك، فقال الله لإبراهيم: ذلك لك، قد استجيب لك فى إسماعيل، وأنا أباركه، وأنميه، وأكثره، وأعظمه بماذْماذْ، وتفسيره: محمد ﷺ.

ومن ذلك مما فى التوارة أيضا: أن الرب - تعالى - جاء من طور سيناء، وطلع على «ساغين»، وظهر من جبل فاران، ويعني بطور سيناء: موضع مناجاة موسى، وساغين موضع عيسى، وفاران هى مكة، موضع مولد نبينا محمد ﷺ، وفى التوراة أيضا: أن هاجر أم اسماعيل لما غضبت عليها سارة، تراءى لها ملكٌ، فقال لها: يا هاجر، أين تريدين، ومن أين أقبلت؟ فقالت: أهرب من سيدتى سارة، فقال لها: يا هاجر، ارجعى إلى سارة، وستحملين وتلدين ولداً اسمه إسماعيل، وهو يكون عيْن الناس، وتكون يده فوق الجميع، وتكون يد الجميع مبسوطة إليه بالخضوع.هـ.

وهذا الذى وعدها الملك إنما ظهر بمبعث النبي ﷺ وظهور دينه وعلو مكانه، ولم يكن ذلك لإسماعيل ولا لغيره من أولاده، لكن الأصل يشرف بشرف فرعه، وفى التوراة أيضا: أن الله أوحى إلى إبراهيم عليه السلام: قد أجبت دعاءك فى إسماعيل، وباركت عليه، وسيلد اثنى عشر عظيما، وأجعله لأمة عظيمة. وفى بعض كتبهم: لقد

(١) الآية ٤٨ من سورة العنكبوت.
(٢) أخرجه البخارى فى (تفسير سورة الفتح، باب: «إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيرا») من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص.

تقطعت السماء من بهاء مُحمدٍ المحمود، وامتلأت الأرض من حمده، لأنه ظهر بخلاص أمته.هـ. ونص ما في الإنجيل: أن المسيح قال للحواريين: إني ذاهب عنكم، وسيأتيكم الفارقَلِيط، الذي لا يتكلم من قِبل نفسه، إنما يقول كما يقال له. هـ. والفارقليط بالعبرانية: اسم محمد ﷺ، وقيل معناه: الشافع المشفع.

وعن شَهْر بن حَوْشب- في قصة إسلام كعب الأحبار، وهو من اليمن من حمير-: أن كعباً أخبره بأمره، وكيف كان ذلك، وكان أبوه من مؤمني أهل التوارة برسول الله ﷺ، قبل ظهوره، قال كعب: وكان أبي من أعلم الناس بالتوراة وكُتب الأنبياء، ولم يكن يدخر عني شيئًا مما كان يعلم، فلما حضرته الوفاة دعاني فقال: يا بني، قد علمتَ أني لم أكن أدخر عنك شيئاً مما كنتُ أعلم، إلا أني حَبَسْتُ عنك ورقتين فيهما ذكر نبي يُبعث، وقد أظل زمانه، فكرهت أن أُخبرك بذلك، فلا آمن عليك بعد وفاتي أن يخرج بعض هؤلاء الكذابين فتتبعه، وقد قطعتهما من كتابي، وجعلتهما في هذه الكوة التي ترى، وطينت عليهما، فلا تتعرض لهما حتى يخرج هذا النبي، فإذا خرج فاتبعه وانظر فيهما، فإن الله تعالى يزيدك بهذا خيرا، فلما مات والذي لم يكن شيء أحب إلي من أن ينقضي المأتم حتى أنظر ما في الورقتين، فإذا فيهما: «محمد رسول الله ﷺ خاتم النبيين لا نبي بعده، مولده بمكة، ومهاجره طيبة، ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يجزي بالسيئة الحسنة، ويعفو ويغفر ويصفح، أمته الحمَّادون، الذين يحمدون الله على كل شرف وعلى كل حال، وتُذلل ألسنتهم بالتكبير، وينصر الله نبيهم على كل من ناوأه، يغسلون فروجهم بالماء، ويتأزرون على أوساطهم، وأناجيلُهُمْ في صدورهم، ويأكلون قربانهم في بطونهم، ويؤجرون عليها، وتراحمهم بينهم تراحم بني الأم والأب، وهم أول من يدخل الجنة يوم القيامة من الأمم، وهم السابقون المقربون، والشافعون المشفع فيهم».(١) . ثم أسلم على يد عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

قال الحق جل جلاله في بقية أوصاف نبينا -عليه الصلاة السلام-: ﴿ يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، ويُحِلُّ لهم الطيبات ﴾ مما حرم على اليهود؛ كالشحوم وغيرها، ﴿ ويُحرِّم عليهم الخبائث ﴾ كالدم ولحم الخنزير وسائر الخبائث، أو كالربا والرشوة وغيرهما من المحرمات. قال ابن جزي: مذهب مالك أن الطيبات هي الحلال، وأن الخبائث هي الحرام. ومذهب الشافعي: أن الطيبات هي المستلذات ، إلا ما حرمه الشرع منها، كالخمر والخنزير، وأن الخبائث هي المستقذرات كالخنافس والعقارب. هـ.

﴿ ويضعُ عنهم إصْرَهم ﴾ أي: الثقل الذي عليهم، وهو مثال لما كُلفوا به - أي: بنو إسرائيل - في شرعهم من المشقات؛ كقتل الأنفس في التوبة، وقطع موضع النجاسة من الثوب، وتعيين القصاص في العمد والخطأ.(*)

---

(١) أخرجه بنحوه مختصراً الدارمي في (المقدمة - باب صفة النبي ﷺ) والبغوي في تفسيره، (٣/٢٨٩) وابن سعد في الطبقات ١/ ٣٦٠.
(*) من هنا يبدأ سقط كبير في المخطوطة الأصلية سيستمر حوالي عشرين صفحة.

﴿ والأغلال التي كانت عليهم ﴾، عبارة عما منعت منه شريعتهم، كتحريم الشحوم، وتحريم العمل يوم السبت، وشبه ذلك. ﴿ فالذين آمنوا به وعزّروه ﴾ أي: منعوه وحفظوه من عدوه، حتى لايقوى عليه، أو عظموه بالتقوية حتى انتصر، وأصله: المنع، ومنه التعزير، ﴿ ونصروه ﴾ حتى أظهروا دينه في حياته وبعد مماته، ﴿ واتبعوا النور الذي أُنزل معه ﴾ وهوالقرآن، وإنما سماه نوراً؛ لأنه بإعجازه ظاهر أمره ومظهر غيره، أو لأنه كاشف للحقائق مظهر لها. ﴿ أولئك هم المفلحون ﴾ الفائزون بالرحمة الأبدية، وهذا آخر جواب سيدنا موسى عليه السلام.

الإشارة: قوله تعالى ﴿ ورحمتي وسعت كل شيء ﴾ ، قال القشيري: لم يعلّقها بالمشيئة - يعني: كما قال في العذاب - لأنها نفس المشيئة، ولأنها قديمة، والإرادة لا تتعلق بالقديم، فلمّا كان العذاب من صفات الفعل علّقه بالمشيئة، بعكس الرحمة لأنها من صفات الذات. ويقال في قوله تعالى: ﴿ وسعت كل شيء ﴾ : مجالٌ لآمال العُصاة؛ لأنهم، وإن لم يكونوا من جملة المطيعين العابدين والعارفين، فهم «شيء». هـ.

قلت: وبهذا العموم تشبث إبليس في قضية له مع سهل، وذلك أنه لما تراءى له، ضحك، فقال له: كيف تضحك وقد أبلست من رحمة الله؟ فقال له: قال تعالي: ﴿ورحمتي وسعت كل شيء﴾ وأنا شيء، فسكت سهل، ثم تذكر تمام الآية، فقال: قال تعالى: ﴿فسأكتبها للذين يتقون﴾، فهي مقيدة لا مطلقة، فقال له: التقوى فعل العبد، والرحمة صفة الرب، ولا يتغير وصف الحق بفعل العبد، فعجز سهل. قلت: والجواب: أن إبليس جاء من جهة الفرق، ولو نظر للجمع لوجد الرحمة وصفه، والتقوى فعله، وفعله يغير وصفه، والكل منه وإليه. والله تعالى أعلم.

وقال الورتجبي: جميع الخلائق مستغرقون في بحر الرحمة، لأن إيجاد الحق إياهم، على أي وصف كانوا، عين رحمته، حيث دخلوا تحت نظره وسلطانه وربوبيته، ومباشرة قدرته فيهم، ثم إن الخلق بالتفاوت في الرحمة فالجمادات مستغرقة في نور فعله، وهي الرحمة الفعلية، والحيوانات مستغرقة في نور صفاته، وهي الرحمة الصفاتية، والعقلاء من الجن والإنس والملائكة مستغرقون في نور ذاته، وهي الرحمة القديمة الذاتية من جهة تعريفهم ربوبيته ووحدانيته، وهم من جهة الأجسام وما يجري عليها، في الرحمة العامة، ومن جهة الأرواح وما يجري عليها، في الرحمة الخاصة، وهم فيها بالتفاوت، فبعضهم في رؤية العظمة ذابوا، وبعضهم في رؤية القدم والبقاء تاهوا، وبعضهم في رؤية الجلال والجمال عشقوا وطاشوا، ومن خرج من مقام الرحمة إلى أصل الصفة، ومن الصفة إلى أصل الذات استغرق في الراحم، وفني عن الرحمة، فصار رحمة للعالمين، وهذا وصف نبينا - عليه الصلاة والسلام -، لأنه وصل بالكل إلى الكل، فوصفه برحمة الكل بقوله: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾(١)، ثم خص رحمته الخاصة الصفاتية، بعد أن عم الكل برحمته العامة للمتفردين بالله عن غير الله، القائنين بعظمته في عظمة الذين بذلوا وجوههم لحق ربوبيته عليهم بقوله: ﴿ فسأكتبها للذين يتقون . . . ﴾ .هـ .

(١) الآية ١٠٧ من سورة الأنبياء.

قال في الحاشية: واعتبر قوله: ﴿ فسأكتبها ﴾، فإنه يقتضي كون الرحمة السابقة مطلقة، والتغيير طارئ، والطارئ لا ينافي الذات . هـ. **قلت**: فتكون على هذا الرحمة التي وسعت كل شيء رحمة عامة، إذ لا يخلو مخلوق من رحمته في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فالخلق كلهم مرحومون إيجاداً وإمداداً، وأما في الآخرة فما من عذاب إلا والله أشد منه في قدرته، والرحمة التي كتبت للمتقين رحمة خاصة، ويدل على هذا مافي القوت(١) على قوله: ﴿ فسأكتبها للذين يتقون ﴾، قال: معناه خصوص الرحمة وصفوها لا كلها، إذ لا نهاية للرحمة، لأنها صفة الراحم الذي لا حد له، ولأنه لم يخرج من رحمته شيء، كما لم يخرج من حكمته وقدرته شيء.هـ.

وقال السيوطي: فسأكتبها في الآخرة، ووجه تخصيصها في الآخرة بالمؤمنين: تمحضها هنالك من غير شوب بضده، ولا كذلك في الدنيا، وإن كانت غالبة، والكافر عمته في الدنيا عموماً ظاهراً، وسلب منها في الآخرة بحسب الظاهر، وإن لم يخل عنها في الجملة، لأن غضبه تعالى لا حد له لولا رحمته.

وحاصله: أنه لم تفي جهنم بغضبه، لأنه لا يفي المتناهي بغير المتناهي ورحمته عمت الكافر في الدنيا لإمهاله وبسط نعمه عليه، وفي الإمهال فسحة في الحال وأمل الإقلاع في المآل، وقد يتفق كثيراً، أي: الإقلاع، فلا يتعين أن يكون الإمهال استدراجاً، على أنه إنما يتجلى تجلياً أولياً ذاتياً برحمة مطلقة من غير تفصيل، إذ لا تعدد في الذات، وإنما يظهر التفصيل بالصفات، وإن كان يسرى إليها من الذات، ولكن الرحمة تظهر أولاً من الذات، مع قطع النظر عن الصفات؛ لظهورها، ولا تظهر النقمة إلا من الصفات، وهي خفية في تجلي الذات المطلق، ولذلك قال: ﴿ ورحمتي وسعت كل شيء ﴾، وعلق العذاب على المشيئة، فخص به دونها. هـ. من الحاشية مع زيادة بيان.

ثم أمره بالدعاء إلى الإيمان، فقال:

﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥٨) ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ قل ﴾ يا محمد: ﴿ يا أيها الناس إني رسولُ الله إليكم جميعاً ﴾؛ الأحمر والأسود، والعرب والعجم، والإنس والجن، خص بهذه الدعوة العامة، وإنما بعثتْ الرسل إلى قومها خاصة. فادع الناس أيها الرسول إلى الله تعالى، ﴿ الذي له ملك السموات والأرض ﴾ يتصرف فيهما كيفما شاء، ﴿ لا إله إلا هو ﴾؛ لأن من ملك العالم كان هو الإله لا غير، ﴿ يُحي ويميت ﴾؛ لعموم قدرته ونفوذ أمره،

---

(١) أي قوت القلوب لأبي طالب المكي.

﴿ فآمنوا بالله ورسوله النبي الأُمي الذي يُؤمن بالله وكلماته ﴾ أي: ما أنزل عليه وعلى سائر الرسل قبله من كتبه ووحيه. وإنما عدل عن التكلم إلى الغيبة، أي: لم يقل: فآمنوا بالله وآمنوا؛ لإجراء هذه الصفات عليه، الداعية إلى الإيمان به واتباعه، ولذلك قال: ﴿ واتبعوه لعلكم تهتدون ﴾ إلى طريق الحق والرشد، جعل رجاء الاهتداء أثر الأمرين؛ تنبيهاً على أن من صدّقه، ولم يتابعه بالتزام شرعه فهو يعد في خطط الضلالة. قاله البيضاوي.

الإشارة: لاغنى للمريد عن متابعة الرسول ﷺ، ولو بلغ ما بلغ، لقوله تعالى: ﴿واتبعوه لعلكم تهتدون﴾، وغاية الاهتداء غير متناهية، لأن أدب العبودية مقرونٌ مع عظمة الربوبية، فكما أن الترقي في مشاهدة الربوبية لا نهاية له، كذلك أدب العبودية لا نهاية له، ولا تُعرف كيفية الأدب إلا بواسطة تعليمه عليه الصلاة والسلام، فواسطة النبي ﷺ لا تفارق العبد، ولو عرف ما عرف، وبلغ ما بلغ. والله تعالى أعلم.

ثم رجع الحق تعالى إلى الكلام مع بني إسرائيل، فقال:

﴿ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ومن قوم موسى ﴾، يعني بني إسرائيل، ﴿ أمةٌ ﴾ طائفة ﴿ يهدون ﴾ الناس بكلمة الحق، أو متلبسين ﴿ بالحق ﴾؛ وهم الذين ثبتوا حين افتتن الناس بعبادة العجل، والأحبار الذين تمسكوا بالتوراة من غير تحريف، أو الذين آمنوا بمحمد ﷺ، ﴿ وبه ﴾ أي: بالحق ﴿ يعدِلون ﴾ في أحكامهم وقضاياهم.
قال البيضاوي: أتبع ذكرهم ذكر أضدادهم على ما هو عادة القرآن؛ تنبيهاً على أن تعارض الخير والشر وتزاحم أهل الحق والباطل أمر مستمر. هـ.

الإشارة: في كل أمة، وفي كل عصر، أمة صالحة، يُبَصِّرُونَ الناس بالحق، ويدعون إلى الله، فمنهم مَنْ يهدي إلى تزيين الظواهر بالشرائع، وهم العلماء الأتقياء، ومنهم من يَهدي إلى تنوير السرائر بالحقائق، وهم الصوفية الأولياء، المحققون بمعرفة الله. وبالله التوفيق.

ثم ذكر أحوال بني إسرائيل، فقالوا:

﴿ وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾ ﴾

قلت: أسباطاً: بدل لاتمييز؛ لأن تمييز العدد يكون مفرداً، والتمييز محذوف، أي: فرقة أسباطاً. وقال الزمخشري: يصح تمييزاً ؛ لأن كل قبيلة أسباطٌ لاسبط. هـ. فكأنه قال: وقطعناهم اثنتى عشرة سبطا سبطا. والسبط فى بنى إسرائيل كالقبيلة عند العرب، و(أُمما) : بدل بعد بدل على الأول، وعلى الثانى بدل من أسباط.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وقطَّعناهم ﴾ أى: بنى إسرائيل، أى: فرقناهم ﴿ أثنتي عشرة أسباطاً ﴾ ؛ اثنى عشر سبطاً، ﴿ أُمما ﴾ متميزة، كل سبط أمة مستقلة، ﴿ وأوحينا إلى موسى إذ استسقاه قومه ﴾ فى التيه، ﴿ أن اضربْ بعصاك الحجر فانبجَستْ ﴾ ؛ انفجرت، إلا أن الانبجاس أخف من الانفجار، أى: فضرب فانبجست، وحذفه للإيماء إلى أن موسى لم يتوقف في الامتثال، وأن ضربه لم يكن مؤثراً يتوقف عليه الفعل من ذاته، بل سبب عادى وحكمة جارية، والفعل إنما هو بالقدرة الإلهية، أى: نبعت ﴿ منه اثنتا عشرةَ عيناً، قد علم كلُّ أُناس ﴾؛ كل سبط ﴿ مشربهم، وظلّلنا عليهم الغمام ﴾ لتقيهم من حر الشمس، ﴿ وأنزلنا عليهم المنَّ والسلوى ﴾، وقلنا لهم: ﴿ كلوا من طيبات ما رزقناكم وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ سبق فى سورة البقرة، وكذلك الإشارة[١].

ثم قال:

﴿ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُواْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُواْ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٔـٰتِكُمْ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ و ﴾ اذكروا ﴿ إذ قيلَ ﴾ لبنى إسرائيل: ﴿ اسكنوا هذه القرية ﴾؛ بيت المقدس، ﴿ وكُلوا منها حيث شئتم، وقولوا ﴾: أمرنا ﴿ حطةٌ، وادخلوا الباب سُجَّداً ﴾ سجود انحناء، ﴿ نغفرْ لكم خطيئاتِكم ﴾ التى سلفت، ﴿ سنزيد المحسنين ﴾؛ وعد بالغفران والزيادة عليه، وإنما أخرج الثانى مخرج الاستئناف، يعنى: سنزيد، ولم يقل: وسنزيد؛ للدلالة على أنه تفضل محض، ليس فى مقابلة ما أمروا به، ﴿فبدل الذين ظلموا منهم قولاً غير الذي قيل لهم ﴾؛ قالوا: حبة فى شعرة، مكان حطة، لأنهم حملوا الحطة؛ على الحنطة. ﴿ فأرسلنا عليهم رجزاً من السماء بما كانوا يظلمون ﴾ قد مر تفسيره، وإشارته، فى سورة البقرة[٢].

(١) راجع تفسير الآية ٦٠ من سورة البقرة.
(٢) راجع تفسير الآية ٥٨ من سورة البقرة.

تنبيه: وقع اختلاف كثير في اللفظ بين هذا الموضع من هذه السورة وبين سورة البقرة، في ﴿انفجرت﴾ و﴿انبجست﴾، وقوله: ﴿وإذ قلنا ادخلوا﴾ و﴿وإذا قيل لهم اسكنوا﴾، وقوله هنا: ﴿وكُلُوا﴾، وهناك ﴿فكُلُوا﴾. فقال الزمخشري: لا بأس باختلاف العبارتين، إذا لم يكن هناك تناقض. ووجّه بعضهم الفرق بأن ما في هذه السورة سيق في محل الغضب والعقاب على عبادة العجل، وما في سورة البقرة سيق في محل الامتنان، فلذلك عبّر هنا بانبجست؛ لأنه أقل من انفجرت، وعبّر هنا بقيل؛ مبنيًا للمجهول؛ تحقيرًا لهم أن يذكر نفسه لهم، وعبّر هنا بالسكنى؛ لأنه أشق من الدخول ويستلزمه، وعبّر هنا بالواو؛ لأن السكنى تجامع الأكل، بخلاف الدخول، فإن الأكل مسبب عنه، فعبّر بالفاء، وزاد في البقرة الواو في: ﴿سنزيد﴾، كأنه نعمة أخرى، بخلاف هذا، وزاد هنا ﴿منهم﴾؛ لتقدم ذكرهم في قوله: ﴿وإذ قيل لهم﴾، وعبّر هنا بالظلم؛ لأنه أعم من الفسق وغيره. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر اعتداءهم في السبت وما ترتب عليه، فقال:

﴿ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٣) وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (١٦٤) فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٥) فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ (١٦٦) ﴾

قلت: (إذ يَعْدُون): بدل من (القرية)، بدل اشتمال، أو منصوب بكانت، أو بحاضرة، و(إذ تأتيهم): منصوب بيعدون، و(سبتهم): مصدر مضاف للفاعل، يقال: سبت اليهود سبتًا: إذا عظم يوم السبت وقطع شغله فيه، و(شُرّعا): حال، ومعناه: ظاهرة قريبة منهم، يقال: شرع منه فلان إذا دنا منه.

يقول الحق جل جلاله: ﴿واسألهم عن القرية﴾ أي: اليهود، سؤال تقرير وتوبيخ على تقديم عصيانهم وعما هو من معلومهم، الذي لا يعلم إلا بتعليم أو وحي، وقد تحققوا أنك أُمي، فيكون ذلك معجزة وحجة عليهم، ﴿عن القرية﴾ أي: عن خبرها وما وقع لها، ﴿التي كانت حاضرةَ البحر﴾ قريبة منه، وهي «إيلة»، قرية بين مدين والطور، على شاطئ البحر، وقيل: مدين، وقيل: طبرية، ﴿إذ يَعْدُون في السّبت﴾: يتجاوزون حدود الله

بالاصطياد في يوم السبت، وكان حراماً عليهم لاشتغالهم عنه بالعبادة، ﴿ إذ تأتيهم حيتانُهم يوم سبتهم شُرّعاً ﴾ : ظاهرة على وجه الماء، دانية منهم، ﴿ ويوم لايَسْبِتُون لا تأتيهم ﴾ بل تغوص كلها في البحر ﴿ كذلك ﴾ أي: مثل هذا البلاء الشديد ﴿ نَبلوهم بما كانوا يفسقون ﴾ أي: بسبب فسقهم. وقيل: «كذلك»: متصل بما قبله، أي: لا تأتيهم مثل ذلك الإتيان الذي تأتيه يوم السبت.

ثم افترقت بنو إسرائيل ثلاث فرق: فرقة عصت بالصيد يوم السبت، وفرقة نهت عن ذلك واعتزلت القوم، وفرقة سكتت واعتزلت فلم تنه ولم تعص. ﴿ وإذ قالت أمةٌ منهم ﴾ ، وهي التي لم تنه ولم تعص، لمّا رأت مهاجَرة الناهية وطغيان العاصية: ﴿ لِمَ تَعِظُون قوماً اللهُ مهلكهم ﴾ بالموت بصاعقة، ﴿ أو معذبهم عذاباً شديدا ﴾ في الآخرة؟ ﴿ قالوا ﴾ : نهينا لهم ﴿ معذرة إلى ربكم ﴾ أي: عذراً إلى الله تعالى، حتى لا ننسب إلى تفريط في النهي عن المنكر، ﴿ ولعلهم يتقون ﴾ فينزجرون عن العصيان، إذ اليأس منهم لا يحصل إلا بالهلاك.

﴿ فلما نَسُوا ما ذُكِّروا به ﴾ أي: تركوا ما وُعظوا به ترك الناسي، ﴿ أنجينا الذين ينهون عن السوءِ وأخذنا الذين ظلموا ﴾ ؛ بالاعتياد ومخالفة أمر الله، ﴿ بعذاب بَئيس ﴾ : شديد، من بؤس يبؤس بؤساً، وقرىء (بيْئَس) على وزن ضيغم، و«بِئْس» بالكسر والسكون، كحذر، وبيس بتخفيف الهمزة، ومعناها واحد، أي: بما عاقبناهم بالمسخ، ﴿ بما كانوا يفسقون ﴾ أي: بسبب فسقهم.

قال ابن عباس: لا أدري ما فعل بالفرقة الساكتة؟ وقال عكرمة: لم تهلك؛ لأنها كرهت ما فعلوه. ورجع إليه ابن عباس وأعجبه، لأن كراهيتها تغيير المنكر في الجملة، مع قيام الفرقة الناهية به؛ لأنه فرض كفاية. قال تعالى: ﴿ فلما عتوا عما نُهوا عنه ﴾ ؛ تكبراً عن ترك ما نُهوا عنه، ﴿ قلنا لهم كونوا قردة خاسئين ﴾ أذلاء صاغرين. قال البيضاوي: «قلنا لهم كونوا»، هو كقوله: ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾(١)، والظاهر يقتضي أن الله تعالى عذَّبهم أولاً بعذاب شديد، فعتوا بعد ذلك، فمسخهم قردة وخنازير، ويجوز أن تكون الآية الثانية تقريراً وتفصيلاً للأولى.

رُوي أن الناهين لما أيسوا عن اتعاظ المعتدين، كرهوا مساكنتهم، فقسموا القرية بجدار فيه باب مطروق، فأصبحوا يوماً ولم يخرج إليهم أحد من المعتدين، فقالوا: إن لهم شأناً، فدخلوا عليهم فإذا هم قردة، فلم يعرفوا أنسباءهم، ولكن القردة تعرفهم، فجعلت تأتي أنسباءهم وتشم ثيابهم، وتدور باكية حولهم، ثم ماتوا بعد ثلاثة أيام. هـ.

الإشارة: المسخ على ثلاثة أقسام: مسخ الأشباح، ومسخ القلوب، ومسخ الأرواح، فمسخ الأشباح هو الذي وقع لبني إسرائيل، قيل: إنه مرفوع عن هذه الأمة، والصحيح: أنه يقع في آخر الزمان، ومسخ القلوب يكون بالانهماك

(١) الآية ٤٠ من سورة النحل.

في الذنوب، والإصرار على المعاصي، وعلامته: الفرح بتيسير العصيان، وعدم التأسف على ما فاته من الطاعة والإحسان، ومسخ الأرواح: الانهماك في الشهوات، والوقوف مع ظواهر الحسيات، أو تكثيف الحجاب، والوقوف مع العوائد والأسباب، دون مشاهدة رب الأرباب. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر عقوبة بني إسرائيل في الدنيا، فقال:

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ ﴾

قلت: تأذن: أعلم، وهي تفعل، وهي من الإيذان بمعنى الإعلام، كتوعّد وأوعد، أو: عزم، لأن العازم على الشيء يؤذن نفسه بفعله، وأجرى مجرى القسم كعلِم الله وشهد الله، ولذلك أجيب باللام القسمية.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ و ﴾ اذكروا ﴿ إذْ تأذّن ربك ﴾ أي: أعلم وأظهر ذلك في عالم الشهادة، ﴿ ليبعثنّ ﴾ على بني إسرائيل، أي: ليسلطن ﴿ عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب ﴾؛ كالإذلال وضرب الجزية، وقد بعث الله عليهم بعد سليمان عليه السلام بختنصر، فخرب ديارهم، وقتل مقاتلتهم، وسبى نساءهم وذراريهم، وضرب الجزية على من بقي منهم، وكانوا يؤدونها إلى المجوس، حتى بعث الله نبينا محمداً ﷺ ففعل بهم ما فعل، في بني قريظة والنضير وخيبر، ثم ضرب الله عليهم الجزية إلى آخر الدهر، ﴿ إن ربك لسريع العقاب ﴾ فعاقبهم في الدنيا، ﴿ وإنه لغفور رحيم ﴾ لمن تاب وآمن، وإنما أكد هنا الخبر باللام دون ما في آخر الأنعام(١)، لأن ماهنا في اليهود، وما في آخر الأنعام في المؤمنين، فأكد ما هنا باللام، فقال: ﴿لسريع العقاب﴾؛ زيادة في توبيخهم ونكالهم.

الإشارة: مواطن الذل والهوان هو الانهماك في المخالفة والعدوان، وقد ينسحب ذلك في الذرية إلى آخر الزمان، فإن الله تعالى يقول: أنا الملك الودود، أعاقب الأحفاد بمعاصي الجدود، ومواطن العز والحرمة والأمان: هو الطاعة والتعظيم والإحسان، ينسحب ذلك على الأحفاد، إلى منتهى الزمان، فإن الله تعالى يحفظ الأولاد ببركة الأجداد. وقد تذاكر بعض التابعين ما يكون في آخر الزمان من الفتن والفساد، فقال بعضهم: ياليتني كنت عقيماً أو لم أتزوج، فقال له من هو أكبر منه: ألا أدلك على ما يحفظ الله به عقبك؟ قال: نعم، دلني، قال: قوله تعالى: ﴿ وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً ... ﴾ الآية(٢). وبالله التوفيق.

(١) في قوله تعالى: ﴿إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم﴾ الآية الأخيرة من سورة الأنعام.
(٢) الآية ٩ من سورة النساء.

ثم قال تعالى في شأن اليهود:

﴿ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (١٦٨) فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا الْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لَّا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ ۗ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٦٩) وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ (١٧٠) ﴾

قلت: (أممًا): مفعول ثان لقطّعنا، أو حال، وجملة (منهم الصالحون): صفة، وجملة (يأخذون): حال من فاعل (ورثوا)، و(يقولون) عطف على (يأخذون)، أو حال، والفعل من (سيغفر): مسند إلى الجار والمجرور، أو إلى مصدر (يأخذون)، و(أن لا يقولوا): عطف بيان من (ميثاق الكتاب)، أو تفسير له، أو متعلق به، أي: لأن لا يقولوا، و(درسوا): عطف على (ألم يؤخذ) من حيث المعنى، أي: ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب ولم يدرسوا ما فيه، أو حال، أي: وقد درسوه، و(الذين يُمسّكون): مبتدأ، وجملة: (إنا لانضيع أجر المصلحين): خبر، والرابط: ما في المصلحين من العموم، فوضع موضع الضمير؛ تنبيهًا على أن الإصلاح كالمانع من التضييع، أو حذف العائد، أي: منهم، ويحتمل أن يكون عطفًا على (الذين يتقون) أي: خير للمتقين والذين يتمسكون بالكتاب.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وقطّعناهم ﴾ أي: فرقناهم ﴿ في الأرض أممًا ﴾: فرقًا، ففي كل بلد من البلدان فرقة منهم، فليس لهم إقليم يملكونه، تتمةً لإذلالهم، حتى لاتكون لهم شوكة قط، ﴿ منهم الصالحون ﴾ وهو من تمسك بدين التوراة، ولم يحرف، ولم يفرق، أو من آمن منهم بالنبي ﷺ في زمانه وبعده، ﴿ ومنهم دون ذلك ﴾ أي: ومنهم ناس دون ذلك، أي: منحطون عن الصلاح، وهم كفرتهم وفسقتهم، ﴿ وبلوناهم ﴾ أي: اختبرناهم ﴿ بالحسنات والسيئات ﴾ أي: بالنعم والنقم، ﴿ لعلهم يرجعون ﴾؛ ينتبهون فينزجرون عمّا هم عليه.

﴿ فخلَف من بعدهم خلْفٌ ﴾ أي: فخلف، من بعد الأولين، خلف، أي: بدل سوء، وهو مصدر نعت به، فالخلْف، بالسكون، شائع في الشر، يقال: جعل الله منك خلفا صالحًا. والمراد بالخلف في الآية: اليهود الذين أدركوا النبي ﷺ، ﴿ ورِثوا الكتاب ﴾؛ التوارة، من أسلافهم، يقرؤونها ويقفون على ما فيها، ﴿ يأخذون عرَض هذا الأدنى ﴾؛ حطام هذا الشيء الحقير، من الدنو، أو من الدناءة، وهو ما كانوا يأخذون من الرشا في الأحكام، وعلى تحريف الكلام. ﴿ ويقولون سيُغفر لنا ﴾؛ لايؤاخذنا الله بذلك ويتجاوز عنه، اغترارًا وحمقًا.

﴿ وإن يأتهم عَرَضٌ مثلُه يأخذوه ﴾ أي: يرجون المغفرة، والحال أنهم مصرون على الذنب، عائدون إلى مثله، غير تائبين منه، ﴿ ألم يُؤخذْ عليهم ميثاقُ الكتاب ﴾ أي: في الكتاب، وهو التوراة، ﴿ أن لا يقولوا على الله إلا الحق ﴾، وهو تكذيب لهم في قولهم: ﴿ سيُغفر لنا ﴾، والمراد: توبيخهم على القطع بالمغفرة مع عدم التوبة، والدلالة على أنه افتراء على الله، وخروج عن ميثاق الكتاب، ﴿ ودَرَسُوا ما فيه ﴾ أي: وقد درسوا ما فيه، وعلموا ما أُخذ عليهم فيه من المواثيق، ثم تجرأوا على الله، ﴿ والدارُ الآخرة خير للذين يتقون ﴾ مما يأخذ هؤلاء من العرض الفاني. ﴿ أفلا يعقلون ﴾[1] فيعلموا ذلك، ولا يستبدلوا الأدنى الحقير المؤدى إلى العقاب بالنعيم الكبير المخلد في دار الثواب، ومن قرأ بالخطاب فهو لهم، من باب التلوين في الكلام.

﴿ والذين يُمسِّكُون بالكتاب ﴾ أي: يتمسكون بالتوراة، ﴿ وأقاموا الصلاة ﴾ المفروضة عليهم، ﴿ إنا لا نضيع أجر المصلحين ﴾ منهم. وهذا فيمن مات قبل ظهور الإسلام، أو: والذين يمسكون بالقرآن، ﴿ وأقاموا الصلاة ﴾ مع المسلمين، ﴿ إنا لا نضيع أجر المصلحين ﴾.

الإشارة: تفريق النسب في البلدان، إن كان في الذل والهوان، فهو من شؤم المخالفة والعصيان، وإن كان مع العز وحفظ الحرمة، فقد يكون لقصد الخير والبركة، أراد الله أن يُنمي تلك البلاد، بنقل ذلك إليها، كأولاد الصالحين والعلماء وأهل البيت. ويؤخذ من قوله: ﴿وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون﴾، أن العبد مأمور بالرجوع إلى الله في السراء والضراء، في السراء بالحمد والشكر، وفي الضراء بالتسليم والصبر.

ويؤخذ من مفهوم قوله : ﴿وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه﴾، أن من عقد التوبة وحل عقدة الإصرار غفر له ما مضى من الأوزار. وفي قوله: ﴿ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب...﴾ الآية، تحذير لعلماء السوء. وقوله: ﴿والذين يُمسكون بالكتاب...﴾ الآية، أي: والذين يمسكون بظاهر الكتاب وأقاموا صلاة الجوارح، ﴿إنا لا نضيع أجر المصلحين﴾ مع عامة أهل اليمين، والذين يمسكون بباطن الكتاب وأقاموا صلاة القلوب - التي هي العكوف في الحضرة - حضرة الغيوب - إنا لانضيع أجر المصلحين لقلوبهم، وهو شهود ربّ العالمين مع المقربين، في حضرة الأنبياء والمرسلين، جعلنا الله منهم وفي حزبهم، آمين.

ولمَّا ذكر من تمسك بالكتاب طوعاً، ذكر من تمسك به كرهاً من أسلاف اليهود، فقال:

﴿ ۞ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾ ﴾

(١) قرأ نافع وابن عامر وحفص وأبو جعفر ويعقوب «تعقلون» بالخطاب، وقرأ الباقون بالغيب. انظر الإتحاف (٦٨/٢).

قلت: جملة (خذوا): محكية، أي: وقولنا لهم: خذوا.

يقول الحق جل جلاله: ﴿و﴾ اذكر ﴿إذ نتقنا﴾ أي: قلعنا ورفعنا ﴿الجبل فوقهم﴾ أي: فوق بني اسرائيل، ﴿كأنه ظلة﴾ أي: سقيفة، والظلة: كل ما أظلك، ﴿وظنوا﴾ أي: تيقنوا ﴿أنه واقع بهم﴾ أي: ساقط عليهم بسبب عصيانهم؛ لأن الجبل لا يثبت في الجو؛ لأنهم كانوا يوعدون به، وإنما عبّر بالظن؛ لأنه لم يقع بالفعل حين الظن، وسبب نتق الجبل أنهم امتنعوا من أحكام التوارة، فلم يقبلوها؛ لثقلها، فرفع الله الطور فوقهم، وقيل لهم: إن قبلتم ما فيها وإلاّ ليقعن عليكم، فقلنا لهم حين الرفع: ﴿خذوا ما آتيناكم﴾ من الأحكام ﴿بقوة، واذكروا مافيه﴾ بالعمل به، ولا تتركوه كالمنسى، ﴿لعلكم تتقون﴾ قبائح الأعمال ورذائل الأخلاق.

الإشارة: من لم ينقد إلى الله بملاطفة الإحسان، قيد إليه بسلاسل الامتحان، عجب ربك من قوم يُساقون إلى الجنة بالسلاسل.

ولما ذكر الميثاق الخاص، ذكر الميثاق العام، فقال:

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾ ﴾

قلت: (من ظهورهم): بدل من (بني آدم)، أي: من ظهور بني آدم، و(ذريتهم): مفعول به، و(بلى): حرف جواب، يُجاب بها عن الهمزة إذا دخلت على منفي، فخرجت عن الاستفهام إلى التقرير، وهو حمل المخاطب على الإقرار بما بعد النفي، نحو: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾[1]، فيجاب ببلى، أي: شرحت، وكذا نظائرها، ومنه: (ألست بربكم..) الآية.

وقد يجاب بها الاستفهام المجرد عن النفي، كما في الحديث: «أترضَوْنَ أَنْ تكونُوا رُبُعَ أهْلِ الجنّة؟ قالوا: بلى»[2]. ولكنه قليل، فلا يُقاس عليه، بل يوقف على ما سمع، والكثير: أنها جواب للنفي، ومعناها: إثبات مانفى، ورفع النفي، لا إثباته وتقريره، بخلاف «نعم»؛ فإنها تقرر ما قبلها من إثبات أو نفي، ولذا قال ابن عباس: (ولو قالوا: نعم، لكفروا)، وقد تقدم الفرق بينهما في سورة البقرة[3] ثم الكثير: مراعاة صورة النفي، فيجاب ببلى، وقد

---

(١) الآية الأولى من سورة الشرح.
(٢) أخرجه مسلم في (الإيمان ـ باب كون هذه الأمة نصف أهل الجنة) من حديث عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه.
(٣) راجع تفسير الآية ٨١ من سورة البقرة.

ينظر للمعنى وما يفيده الاستفهام الإنكاري من نفيه للنفي، فيصير الكلام إيجاباً، فيصح الجواب بنعم في الجملة، لكن لمّا كان محتملاً امتنع في الآية. انظر المغني. وقوله: (أن تقولوا): مفعول من أجله.

يقول الحق جل جلاله: ﴿و﴾ اذكروا ﴿إذْ أخذ ربُّك من بني آدم من ظهورهم﴾؛ من ظهور بني آدم ﴿ذريَّتهم﴾؛ وذلك أن الله تعالى لمّا خلق آدم، وأهبطه إلى الأرض، أخرج من صلبه نسيم بنيه، بعضهم من صلب بعض، على نحو ما يتوالدون، قرناً بعد قرن كالذر، وكان آدم بنَعْمان، وهو جبل يواجه عرفة، وقال لهم حين أخرجهم: ﴿ألستُ بربكم﴾؟ فأقروا كلهم، و﴿قالوا بلى﴾ أنت ربنا، ﴿شهِدنا﴾ بذلك على أنفسنا، لأن الأرواح حينئذ كانت كلها على الفطرة، علاَّمة درَّاكة، فلما ركبت في هذا القالب نسيت الشهادة، فبعث اللهُ الأنبياءَ والرسل يُذكِّرون الناس ذلك العهد، فمن أقرّ به نجا، ومن أنكره هلك، ويحتمل أن يكون ذلك من باب التمثيل، وأن أخذ الذرية من الظهر عبارة عن إيجادهم في الدنيا، وأما إشهادهم فمعناه: أن الله نصب لبني آدم الأدلة على ربوبيته، وشهدت بها عقولهم، فكأنه أشهدهم على أنفسهم، وقال: (ألست بربكم)؟ وكأنهم قالوا بلسان الحال: أنت ربنا.

والأول هو الصحيح؛ لتواتر الأخبار به، فقوله: (شهِدنا): هو من تمام الجواب، فهو تحقيق لربوبيته وأداء لشهادتهم بذلك، فينبغي أن يوقف عليه، وقيل: إنَّ (شهدنا): من قول الله أو الملائكة، فيوقف على (بلى)، لكنه ضعيف.

ثم ذكر حكمة هذا الأخذ، فقال: ﴿أن تقولوا﴾ أي: فعلنا ذلك كراهة أن تقولوا ﴿يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين﴾، أو كراهية أن تقولوا: ﴿إنما أشرك آباؤنا من قبلُ وكنا ذرية مَن بعدهم﴾ فاقتدينا بهم، ﴿أفتُهلكنا بما فعل المبطِلون﴾، يعني: آباءهم المبطلين بتأسيس الشرك، ولابد من حذف كلام هنا لتتم الحجة، والتقدير: أخذنا ذلك العهد في عالم الأرواح، وبعثنا الرسل يجددونه في عالم الأشباح، كراهة أن تقولوا: إنا كنا عن هذا غافلين، ويدل على هذا قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً ...﴾ الآية(١). وقوله: ﴿رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة﴾(٢)، ولا يكفي مجرد الإشهاد الروحاني في قيام الحجة؛ لأن ذلك العهد نسيته الأرواح حين دخلت في عالم الأشباح، فلا تهتدي إليه إلا بدليل يذكِّرها ذلك.

قال البيضاوي: والمقصود من إيراد هذا الكلام ها هنا: إلزام اليهود مقتضى الميثاق العام، بعد ما ألزمهم بالميثاق المخصوص بهم، والاحتجاج عليهم بالحجج السمعية والعقلية، ومنعهم من التقليد، وحملهم على النظر والاستدلال، كما قال تعالى: ﴿وكذلك نفصل الآيات﴾ الدالة على وحدانيتنا سمعًا وعقلاً، ﴿ولعلهم يرجعون﴾ عن التقليد واتباع الباطل.

---

(١) الآية ١٥ من سورة الإسراء. (٢) الآية ١٦٥ من سورة النساء.

الإشارة: أَخَذَ الحق جل جلاله العهد على الأرواح أن تعرفه وتُوحده مرتين، أحدهما: قبل ظهور الكائنات، والثاني: بعد ظهورها. والأول أخذه عليها في معرفة الربوبية، والثاني تجديداً له مع القيام بآداب العبودية . قال بعضهم: أخذ الأول على الأرواح يوم المقادير، وذلك قبل السموات والأرض بخمسين ألف سنة، ثم أخذ الثاني على النفوس بعد ظهورها في عالم الأشباح، كما نبهت عليه الآية والأحاديث.

وقال ابن الفارض في تائيته:

وَسَابِقِ عَهْدٍ لَمْ يَحُلْ مُذْ عَهِدْتُهُ ... ولا حِقِ عقْدٍ جَلَّ عَنْ حَلِّ فتْرَةِ

قال القاشاني : أراد بالعهد السابق: ما أخذه الله على الأرواح الإنسانية المستخرجة من صلب الروح الأعظم، الذي هو آدم الكبير، في صور المثل، قبل تعلقها بالأشباح، وهو عقد المحبة بين الرب والمربوب، في قوله سبحانه: ﴿وإذ أخذ ربك...﴾ الآية . وبالعهد اللاحق: ما أخذه عليهم بواسطة الأنبياء، من عقد الإسلام بعد التعلق بالأبدان، وهو توكيدٌ للعهد الأول، وتوثيقه بالتزام أحكام الربوبية والتزامها .هـ. وقال في الحاشية: كلام ابن الفارض ينظر إلى العهد الأول، الروحاني، وكلام غيره ينظر إلى الثاني النفساني، وهو ظاهر الآية .هـ. قلت: وفيه نظر، فإن كلام ابن الفارض مشتمل على العهدين معاً، الروحاني في الشطر الأولي، والنفساني في الشطر الثاني.

والحاصل مما تقدم: أن العهد أخذ علي الأرواح ثلاث مرات، أحدها: حين استخرجت من صلب الروح الأعظم الذي هو آدم الكبير، وهو معنى القبضة النورانية، التي أخذت من عالم الجبروت. والثاني: حين استخرجت من صلب آدم الأصغر، كالذر، والثالث: حيث دخلت في عالم الأشباح، علي ألسنة الرسل، ومن ناب عنهم، فالمذكور في الآية هو الثاني، وهو أحسن من حَمْلِ القاشاني الآية على الأول.

فالحاصل: أن الأخذ الأول كان على الأرواح مجردة عن مادة التطوير والتمثيل، بإقرارها إقرار النفوس، لا إقرار الألسنة، والأخذ الثاني كان على الأرواح بعد خروجها من الوجود العلمي إلى الوجود العيني، فتطورت الأرواح بصفاتها الذاتية، من سمع وبصر ولسان وغيرها، في عالم المثال، بصور مثالية؛ لتُبصر بها ظهور الرب، وتَسْمع خطابه، وتجيب سؤاله، بإقرارها حينئذ إقرار الألسنة، وهو الذي يقتضيه ظاهر الآية. وأما العهد الذي أخذه بواسطة الأنبياء في ظهور عالم الأشباح فإنما هو تذكير للعهدين، وتجديد لهما ، وهو الذي تقوم به الحجة عليها ، فلابد من انضمامه إلى الأوَّلَيْن في قيام الحجة ، كما تقدم .

فالموجودات ثلاث: علمي، ثم خيالي مثالي، ثم نوعي حسي. فأَخذَ على كل واحد عهدا؛ من الأوَّلَيْنِ بلا واسطة، والثالث بواسطة الرسل. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر وبال من نقض هذا العهد، مع تمكنه من العلم به، فقال:

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ
الْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ۚ فَمَثَلُهُ
كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ
كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ۚ فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا
بِآيَاتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُولَٰئِكَ
هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٧٨﴾ ﴾

قلت: أتبعه الشيطانُ: أدركه، يقال: أتبع القوم: لحقهم، ومنه: ﴿ فأتبعهم فرعون وجنوده ﴾(١) أي: لحق بني إسرائيل. قاله في الأساس.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ واتلُ عليهم ﴾؛ على اليهود ﴿ نبأ ﴾ أي: خبر ﴿ الذى آتيناه آياتنا ﴾؛ علماً بكتابنا، ﴿ فانسلخ منها ﴾؛ بأن كفر بها، وأعرض، ﴿ فأتبعه الشيطانُ ﴾ فأدركه ﴿ فكان من الغاوين ﴾. قال عبد الله بن مسعود: هو رجل من بني إسرائيل بعثه موسى عليه السلام إلى ملك مدين، داعياً إلى الله، فرشاه الملكُ، وأعطاه المُلك على أن يترك دين موسى، ويُتابع الملكَ على دينه، ففعل وأضل الناس على ذلك.

وقال ابن عباس: هو رجل من الكنعانيين، اسمه: «بلعم»، كان عنده الإسم الأعظم، فلما أراد موسى قتل الكنعانيين، وهم الجبارون، سألوه أن يدعو على موسى باسم الله الأعظم، فأبى، فألحوا عليه حتى دعا ألا يدخل المدينة، ودعا موسى عليه. فالآيات التى أعطيها، على هذا: اسم الله الأعظم، وعلى قول ابن مسعود: هو ما علمه موسى من الشريعة. قيل: كان عنده من صحف إبراهيم. وقال عبدالله بن عمرو بن العاص: هو أمية بن أبى الصلت الثقفى(٢)، وكان قد أُوتى علماً وحكمة، وأراد أن يُسلم قبل غزوة بدر، ثم رجع عن ذلك ومات كافراً، وكان قد قرأ الكتب، وخالط الرهبان، وسمع منهم أن الله تعالى مرسلٌ رسولاً في ذلك الزمان، فَرَجَا أن يكون هو، فلما بعث الله محمداً ﷺ حسده، وقال: ماكنت لأؤمن لرسول ليس من ثقيف.

---

(١) من الآية ٩٠ من سورة يونس.
(٢) أخرجه النسائى فى السنن الكبرى (التفسير- ٣٤٨/٦) والطبرى فى تفسيره (١٢٠/٩)، قال أبو حيان في البحر: والأولى فى مثل هذا - إذا ورد عن المفسرين - أن تحمل أقاويلهم على التمثيل، لا على الحصر فى معين، فإنه يؤدى إلى الاضطراب والتناقض

قال تعالى: ﴿ ولو شئنا لرفعناه ﴾ إلى منازل الأبرار ﴿ بها ﴾ أي: بسبب تلك الآيات وملازمتها، ﴿ ولكنه أخلد إلى الأرض ﴾ أي: مال إلى الدنيا وحطامها، أي: أخلد إلى أرض الشهوات، ﴿ واتبع هواه ﴾ في إيثار الدنيا واسترضاء قومه، أو صيانة رئاسته وجاهه. قال البيضاوي: وكان من حقه أن يقول: ولكنه أعرض عنها، فأوقع موقعه: ﴿ أخلد إلى الأرض واتبع هواه ﴾ مبالغةً وتنبيهاً على ما حمله عليه، وأن حب الدنيا رأس كل خطيئة. هـ. ﴿ فمثله ﴾ أي: فصفته التي هي مثلٌ في الخسة، ﴿ كمَثَل الكلب ﴾ أي: كصفته في أخس أحواله، وهو ﴿ إن تحمل عليه يلهث أو تتركْه يلهثْ ﴾ أي: يلهث دائما، سواء حمل عليه بالزجر والطرد، أو ترك ولم يتعرض له، بخلاف سائر الحيوانات؛ لضعف فؤاده، واللهث: إدلاع اللسان من التنفس الشديد، والمراد: لازم اللهث، وهو نفي الرفع ووضع المنزلة.

قال ابن جزي: اللهث: هو تنفس بسرعة، وتحريك أعضاء الفم، وخروج اللسان، وأكثر ما يعتري ذلك الحيوانات عند الحر والتعب، وهي حالة دائمة للكلب، ومعنى «إن تحمل عليه»: أن تفعل معه ما يشق عليه، من طرد أو غيره، أو تتركه دون أن تحمل عليه، فهو يلهث على كل حال، ووجه تشبيه ذلك الرجل به أنه إن وعظته فهو ضال، وإن لم تعظه فهو ضال، فضلالته على كل حال.هـ. وقال الواحدي: وذلك أنه زجر في المنام عن الدعاء على موسى، فلم ينزجر، وترك عن الزجر، فلم يهتد. هـ. وقيل: إن ذلك الرجل خرج لسانه على صدره، فصار مثل الكلب، وصورته ولهثه حقيقة.هـ. وفعل به ذلك حين دعا على موسى عليه السلام. وفي ابن عطية: ذكر المعتمد أن موسى قتله.

قال تعالى: ﴿ ذلك مَثَل القوم الذين كذَّبوا بآياتنا ﴾؛ صفتهم كصفة الكلب في لهثه وخسته، أو كصفة الرجل المشبه به، لأنهم إن أنذروا لم يهتدوا، وإن تركوا لم يهتدوا. أو شبههم بالرجل في أنهم رأوا الآيات فلم تنفعهم، كما أن الرجل لم ينفعه ما عنده من الآيات. وقال الواحدي: يعني: أهل مكة كانوا متمنين هادياً يهديهم، فلما جاءهم من لا يشكُّون في صدقه كذبوه، فلم يهتدوا لمَّا تُركوا، ولم يهتدوا أيضاً لما دعوا بالرسول، فكانوا ضالين عن الرسول في الحالتين. هـ.

﴿ فاقصص القصَصَ ﴾ المذكور على اليهود، فإنها نحو قصصهم، ﴿ لعلهم يتفكرون ﴾ تفكراً يؤدي إلى الاتعاظ، فيؤمنوا به، فإنَّ هذه القصص لا توجد عند من لم يقرأ إلا بوحي، فيتيقنوا نبوتك. ﴿ ساءَ ﴾ أي: قبح ﴿ مثلاً ﴾ مثل ﴿ القومُ الذين كذَّبوا بآياتنا ﴾؛ حيث شُبهوا بالكلاب اللاهثة. ﴿ وأنفسَهم كانوا يظلمون ﴾ بتعريضها للهلاك. قال البيضاوي: إما أن يكون داخلاً في الصلة، معطوفاً على ﴿ الذين كذبوا ﴾، بمعنى: الذين

جمعوا بين تكذيب الآيات وظلم أنفسهم، أو منقطعًا عنها، بمعنى: وما ظلموا بالتكذيب إلا أنفسهم، فإن وباله لا يتخطاها ولذلك قدّم المفعول. هـ.

﴿من يهد الله فهو المهتدى، ومن يضلل فأولئك هم الخاسرون﴾، هو تصريح بأن الهدى والضلال بيد الله تعالى، وأنّ هداية الله يخص بها بعضاً دون بعض، وأنها مستلزمة للاهتداء، والإفراد في الأول والجمع في الثاني؛ لاعتبار اللفظ والمعنى، تنبيهًا على أن المهتدين كواحد؛ لاتحاد طريقهم، بخلاف الضالين. والاقتصار في الإخبار عمّن هداه الله بالمهتدي: تعظيمٌ لشأن الاهتداء، وتنبيه على أنه، في نفسه، كمال جسيم، ونفع عظيم، لولم يحصُل له غيره لكفاه، وأنه المستلزم للفوز بالنعم الآجلة والعنوان لها . قاله البيضاوي .

الإشارة: في الحديث: «أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ القِيَامَةِ عَالِمٌ لَمْ يَنْفَعْهُ عِلْمُه»(١). والعلم النافع هو الذي تصحبه الخشية والمراقبة والتعظيم والإجلال، ويوجب لصاحبه الزهد والسخاء والتواضع والانكسار، وهو علم التوحيد الخاص، الذي هو مشاهدة الحق. وقال الورتجبي في قوله: ﴿آتيناه آياتنا فا نسلخ منها﴾: ذكر أنه تعالى أعطاه آياته، ولو أعطاه قرب مشاهدته ما انسلخ منه، لأن من رآه أحبه، ومن أحبه استأنس به واستوحش مما سواه، فمن ذلك تبين أنه كان مستدرجاً بوجدان آياته، وتصديق ذلك ما أخبر سبحانه من ارتداده عن دينه، واشتغاله بهواه وعداوة كليمه بقوله: ﴿فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين﴾، ولو ذاق طعم حبه لم يلتفت إلى غيره، مُكِرَ به في الأزل، فكان مكره مستداماً إلى الأبد، فالكرامات الظاهرة عارضة للامتحان بين الأزل والأبد، وعند الأصل القديم لا يعتبر العرض الطارئ. هـ.

وقال في الإحياء: إن بلعم أوتي كتاب الله تعالى فأخلد إلى الشهوات، فشبه بالكلب، أي: سواء أوتي الحكمة أو لم يؤتها فهو يلهث إلى الشهوات. هـ. وفي ذكر قصته تحذير لعلماء هذه الأمة وصلحائها. وقال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه: من أخلدت نفسه إلى أرض الشهوات، وغلبته عن النهوض إلى الطاعات، فدواؤه في حرفين، أحدهما: أن يذكر منّة الله عليه بنعمة الإيمان والإسلام، ويقيد هذه النعمة بالشكر، لئلا تفلت من يده، والثاني: أن يتوجه إلى الله بالتضرع والاضطرار، آناء الليل والنهار، وفي رمضان راجيًا الإجابة، قائلا: اللهم سَلِّم سَلِّم. فإن أهمل هاتين الخصلتين فالشقاوة لازمة له. هـ. بالمعنى لطول العهد به. وبالله التوفيق.

---

(١) أخرجه البيهقي في الشُّعب (باب في نشر العلم - ح ١٧٧٨) وزاد السيوطي في الجامع الصغير (ح ١٠٥) عزوه لابن عدي في الكامل والطبراني في الصغير عن أبي هريرة، وضعّفه.

ثم ذكر علامة أهل الضلالة والخسران، فقال:

﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ولقد ذرأنا ﴾؛ خلقنا ﴿ لجهنم كثيراً من الجن والإنس ﴾؛ كتبنا عليهم الشقاء في سابق الأزل، فهم من قبضة أهل النار، كما قال: «هؤلاء إلى الجنة ولا أبالي، وهؤلاء إلى النار ولا أبالي»(١).

ثم ذكر علامتهم فقال: ﴿ لهم قلوبٌ لايفقهون بها ﴾ المواعظ والتذكير؛ للأكنة التي جعلت عليها، ﴿ ولهم أعين لا يبصرون بها ﴾ دلائل وحدانيتنا وكمال قدرتنا، فلا ينظرون بها نظر اعتبار، ﴿ ولهم آذان لا يسمعون بها ﴾ الآيات والمواعظ، سماع تأمل وتدبر، ﴿ أولئك كالأنعام ﴾ في عدم التفقه والاستبصار، أو في أن هممهم ومشاعرهم متوجهة إلى أسباب التعيش، مقصورة عليها، فهممهم في بطونهم وفروجهم، ﴿ بل هم أضلُّ ﴾ من الأنعام، لأنها تطلب منافعها وتهرب من مضارها، وهؤلاء يقدمون على النار معاندة، وأيضاً: الأنعام رُفع عنها التكليف فلا تعذب، بخلاف الكافر، وأيضاً: البهائم تقبل الرياضة والتأديب لِماَ يراد بها، والكافرعاص على الدوام، ﴿ أولئك هم الغافلون ﴾ الكاملون في الغفلة المنهمكون فيها.

الإشارة: النار على قسمين: حسية ومعنوية، كما أن الجنة كذلك، فالنار الحسية لتعذيب الأشباح، والنار المعنوية لتعذيب الأرواح، والجنة الحسية لنعيم الأشباح، والمعنوية لنعيم الأرواح. النار الحسية معلومة. والنار المعنوية هي نار القطيعة وغم الحجاب، وأهلها هم أهل الغفلة، وهم كثير من الجن والإنس، ليس لهم قلوب تجول في معاني التوحيد، وليس لهم أعين تنظر بعين الاعتبار، وليس لهم آذان تسْمع المواعظ والتذكار، إن هم إلا كالأنعام، غير أن الله تعالى تفضل عليهم برسْم الإسلام. والجنة الحسية هي جنة الزخارف، والجنة المعنوية هي جنة المعارف، وأعدها الله لقلوب تجول في الأنوار والأسرار، ولأعين تنظر بعين الاعتبار والاستبصار، حتى تشاهد أنوار الواحد القهار، ولآذان تسمع المواعظ والتذكار، وتعي ما تسمع من الحكم والأسرار، وبالله التوفيق.

(١) أخرج أحمد في المسند (٥/٢٣٩) عن معاذ بن جبل: أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية: أصحاب اليمين وأصحاب الشمال، فقبض بيديه قبضتين فقال: «هذه في الجنة ولا أبالي وهذه في النار ولا أبالي».

ثم عرَّف بذاته؛ بتعريف أسمائه، فقال:

﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ولله الأسماءُ الحسنى ﴾ تسعة وتسعين، ﴿ فادعوه بها ﴾ أي: سموه بها. **قال ابن جزى**: أي: سموه بأسمائه، وهذا إباحة لإطلاق الأسماء على الله سبحانه، فأما ما ورد منها فى القرآن والحديث فيجوز إطلاقه على الله إجماعاً، وأما ما لم يرد، وفيه مدح ولا تتعلق به شُبهة، فأجاز أبو بكر بن الطيب إطلاقه على الله، ومنع ذلك أبو الحسن الأشعرى وغيره، ورأوا أن أسماء الله تعالى موقوفة على ماورد فى القرآن والحديث. وقد ورد فى حديث الترمذى عدتها(١)، أعني: تعيين التسعة والتسعين.

واختلف أهل الحديث: هل هى مرفوعة أو موقوفة على أبى هريرة؟ والذى فى الصحيح: «إنَّ للهِ تِسعَةً وتِسعِين اسْمَاً، مائةً إلاَ واحِداً، مَنْ أحْصَاهَا دَخَلَ الجَنَّةَ»(٢). وهل الإحصاء بالحفظ أو بالعلم أو بالتخلق أو بالتحقق؟ أقوال. قلت: كونها موقوفة بعيد جداً؛ إذ ليس هذا مما يقال بالرأى.

وسبب نزول الآية: أن أبا جهل سمع بعض الصحابة يقرأ، فيذكر الله مرة، والرحمن أخرى، فقال: يزعم محمد أن الإله واحد، وها هو يعبد آلهة كثيرة، فنزلت الآية مُبيِّنة أن تلك الأسماء الكثيرة هى لمسمى واحد، و(الحسنى): مصدر وُصف به، أو تأنيث أحسن، وحسن أسماء الله هي أنها صفة مدح وتعظيم وتمجيد، وقيل: الدعاء بها: التوسل بكل واحد منها.

قال تعالى: ﴿ وذَرُوا ﴾ أي: اتركوا ﴿ الذين يُلْحدون ﴾ أى: يميلون ﴿ في أسمائه ﴾ عن الكمال؛ إما بتعطيلها، أو إنكار شيء منها، وإما بزيادة فيها، مما يوهم نقصاً أو فساداً.

قال القشيري: الإلحاد: هو الميل عن القصد، وذلك على وجهين: بالزيادة والنقصان؛ فأهل التمثيل زادوا فألحدوا، وأهل التعطيل نقصوا فألحدوا. هـ. قال البيضاوي: أي: اتركوا تسْمية الزائغين فيها، الذين يسمونه بما لا توقيف فيه، إذ ربما يوهم معنىً فاسداً، كقولهم: يا أبا المكارم، يا أبيض الوجه، أو لا تبالوا بإنكارهم ما سمى به نفسه، كقولهم: ما نعرف إلا رحمان اليمامة، أو: وذروهم وإلحادهم فيها بإطلاقها على الأصنام، واشتقاقها منه؛ كاللات من الله، والعزى من العزيز، فلا توافقوهم عليه، أو أعرضوا عنهم ولا تحاوروهم. هـ.

(١) أخرج حديث الأسماء الحسنى الترمذى فى (الدعوات باب ٨٣) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.
(٢) أخرجه البخارى فى (الدعوات ـ باب لله مائة اسم غير واحد) ومسلم فى (الذكر والدعاء ـ باب فى أسماء الله تعالى وفضل من أحصاها) ـ من حديث أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ مرفوعاً.

قال ابن جزي: قيل: معنى (ذروا): اتركوهم فلا تجادلوهم ولا تتعرضوا لهم، فالآية، على هذا، منسوخة بالقتال، وقيل: معنى (ذروا) للوعيد والتهديد، كقوله: ﴿ ذرني والمكذبين ﴾ (١)، وهو الأظهر. هـ. قلت: وهو أليق بقوله بعده: ﴿سيجزون ما كانوا يعملون﴾ من الإلحاد وغيره.

الإشارة: قال القشيري بعد كلام: ويقال إن الله سبحانه وقف الخَلْق بأسمائه، فهم يذكرونها قالةً، وتعزّز بذاته، والعقول - وإنْ صَفَتْ - لا تهجم على حقائق الإشراف؛ إذ الإدراك لا يجوز على الحق، فالعقول عند بواده الحقائق متقنعة بنقاب الحيرة عن التعرض للإدراك، وطلبه في أحوال الرؤية. والحق سبحانه عزيز باستحقاق نعوت التعالي متفرِّد .هـ.

قلت: وأسماء الله الحسنى كلها تتجلى في مظاهر الإنسان، وتتوارد عليه انفراداً واجتماعاً، وقد تجتمع في واحد، إذا كان عارفًا، كلها، بحيث يتخلق بها، غير أن تجلياتها تختلف عليه، تارة ملكاً قدوساً، وتارة رحمانياً رحيما، وهكذا. وقد تقدم بيان كيفية التعلق والتخلق والتحقق بها، في شرحنا: الفاتحة الكبير، والله تعالى أعلم.

ولمّا ذكر فيما تقدم خواص قوم سيدنا موسى، ذكر هنا خواص هذه الأمة المحمدية، فقال:

﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وممن خلقنا ﴾ أي: ومن جملة ما خلقنا: ﴿ أمة ﴾: طائفة ﴿ يهدون ﴾ الناس ﴿ بالحق ﴾ ويحملونهم عليه، ﴿ وبه يعدلون ﴾ في حكوماتهم وقضاياهم. روي عن النبي ﷺ أنه قال: «هذه الآية لكم، وقد تقدم مثلها لقوم موسى»(٢).

قال البيضاوي: ذكر ذلك بعدما مابيّن أنه خلق للنار طائفة ضالين، ملحدين عن الحق، للدلالة على أنه خلق أيضاً للجنة أمة هادين بالحق، عادلين في الأمر، واستدل به على صحة الإجماع، لأن المراد منه أن في كل قرن طائفة بهذه الصفة؛ لقوله ﷺ: «لاتَزَالُ مِنْ أُمّتِي طَائِفَةٌ عَلَى الحَقّ، إلى أنْ يأتِيَ أَمْرُ اللّه»(٣) إذ لو اختص بعهد الرسول أو غيره لم يكن لذكره فائدة، فإنه معلوم. هـ.

الإشارة: هذه الأمة التي خلقها الله لهداية خلقه، وهي الطائفة التي لاتزال على الحق، وهي مؤلفة من العلماء الأتقياء على اختلاف أصنافهم وعلومهم، ومن الأولياء العارفين، فالعلماء يهدون إلى التمسك بالشرائع وإتقانها، والأولياء العارفون يهدون إلى التحقق بالحقائق وأذواقها، فالعلماء داعون إلى أحكام الله، والعارفون داعون إلى

(١) الآية ١١ من سورة المزمل.

(٢) أخرجه بنحوه الطبري في التفسير (٩/١٣٥).

(٣) أخرجه البخاري في (الاعتصام ـ باب قول النبي: لاتزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق) ومسلم في (الإمارة ـ باب قول النبي ﷺ: لاتزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق) من حديث المغيرة.

معرفة ذات الله، العلماء لإصلاح الظواهر، والأولياء لإصلاح البواطن، ولا يقوم هذا إلا بهذا ، فالظاهر من غير باطن فسق، والباطن من غير ظاهر إلحاد، وسيأتى عند قوله: ﴿ فلولا نفر من كل فرقة . . . ﴾(١) الآية، تمثيل منزلتهم عند الله. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر ضدهم، فقال:

﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾ ﴾

قلت: أصل الاستدراج: الاستصعاد، أو الاستنزال درجة بعد درجة، ومعناه: نسوقهم إلى الهلاك شيئاً فشيئا.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ والذين كذَّبوا بآياتنا ﴾، وألحدوا في أسمائنا، ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُم ﴾ أي: ندرجهم إلى الهلاك شيئاً فشيئا، ﴿ من حيث لا يعلمون ﴾ ما نريد بهم، وذلك أنْ تتواتر النعم عليهم، فيظنوا أنها لطفٌ من الله بهم، فيزدادوا بطراً وانهماكًا في الغي، حتى تحق عليهم كلمة العذاب. ﴿ وأُملي لهم ﴾ أي: وأمهلهم، أي: وأمدهم بالأموال والبنين والعُدة والعَدد، حتى تأخذهم بغتة، ﴿ إنَّ كيدي متين ﴾ أي: أخذي شديد، وإنما سماه كيداً لأن ظاهره إحسان وباطنه خذلان.

الإشارة: قال الشيخ زروق رضي الله عنه: الاستدراج: هو كُمون المحنة في عين المنة، وهو من درج الصبي؛ إذا أخذ في المشي شيئًا بعد شيء، ومنه: الدرج الذي يرتقي عليه إلى العلو، كذلك المستدرج هو الذي تُؤخذ منه النعمة شيئًا بعد شيء وهو لا يشعر. قال تعالى: ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُم من حيث لا يعلمون ﴾ .هـ. فالاستدراج ليس خاصـًا بالكفار، بل يكون في المؤمنين؛ خواصهم وعوامهم.

قال في الحكم: «خف مَن وجود إحسانه إليك، ودوام إساءتك معه، أن يكون ذلك استدراجاً لك؛ ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُم من حيث لا يعلمون ﴾» . وقال سهل بن عبد الله رضي الله عنه: نمدهم بالنعم، وننسيهم الشكر عليها، فإذا ركنوا إلى النعمة وحجبوا عن المنعم: أُخذوا.

وقال ابن عطاء رضي الله عنه: كلما أحدثوا خطيئة جددنا لهم نعمة، وأنسيناهم الاستغفار من تلك الخطيئة. وقال الشيخ ابن عباد رضي الله عنه: الخوف من الاستدراج بالنعم من صفة المؤمنين، وعدم الخوف منه مع الدوام على الإساءة من صفة الكافرين. يقال: من أمارات الاستدراج: ركوب السيئة والاغترار بزمن المُهلة، وحمل تأخير العقوبة على استحقاق الوصلة، وهذا من المكر الخفي. قال تعالى: ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُم من حيث لا يعلمون ﴾ أي: لا يشعرون بذلك،

(١) من الآية ١٢٢ من سورة التوبة.

وهو أن يلقي في أوهامهم أنهم على شيء، وليسوا كذلك، يستدرجهم في ذلك شيئاً فشيئاً، حتى يأخذهم بغتة، كما قال تعالى: ﴿فلما نسوا ماذُكروا به﴾؛ إشارة إلى مخالفتهم وعصيانهم، بعدما رأوا من الشدة، ﴿فتحنا عليهم أبواب كل شيء﴾ أي: فتحنا عليهم أسباب العوافي وأبواب الرفاهية، ﴿حتى إذا فرحوا بما أُوتوا﴾من الحظوظ الدنيوية، ولم يشكروا عليها برجوعهم منها إلينا، ﴿أخذناهم بغتة﴾ أي: فجأة،﴿ فإذا هم مبلسون﴾(١)؛ آيسون قانطون من الرحمة .هـ.

ثم ندبهم إلى التفكر، فقال:

﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾ أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾

قلت: (وما خلق) :عطف على (ملكوت)، و(أن عسى): مخففة، و(أن يكون): مصدرية، أو عطف على (ملكوت) أيضاً.

يقول الحق جل جلاله: ﴿أوَ لمْ يتفكروا﴾ في أمر محمد ﷺ؛ حتى يتحققوا أنه ﴿ما بصاحبهم من جِنَّة﴾؛ يعني: نبينا محمداً ﷺ. رُوي أنه ﷺ لما أُمر بالإنذار صعد الصّفا، فدعاهم، فَخْذاً فخذاً، يُحذّرهم بأس الله تعالى، فقال قائلهم: إن صاحبكم لمجنون، بات يُصوّت إلى الصباح، فنزلت(٢) .

﴿إن هو إلا نذير مبين﴾ أي: بيّن الإنذار واضح أمره، لا يخفى على ناظر. ﴿أو لم ينظروا﴾(*) نظر استدلال ﴿في ملكوت السماوات والأرض﴾ أي: في عظمتهما وما اشتملتا عليه من العجائب، ﴿وما خَلَق الله من شيء﴾ أي: وينظروا فيما خلق الله من شيء من الأجناس التي لا يمكن حصرها، لتدلهم على كمال قدرة صانعها ووحدة مبدعها، وعظم شأن مالكها ومتولي أمرها، ليظهر لهم صحة مايدعوهم إليه.

﴿وأنْ عسى أن يكون قد اقترب أجلُهم﴾ أي: أوَ لمْ ينظروا أيضا في اقتراب أجلهم وتوقع حلول الموت بهم، فيسارعوا إلى طلب الحق، والتوجه إلى ما ينجيهم من عذابه، قبل مفاجأة الموت ونزول العذاب. ﴿فبأي حيث بعده﴾ أي: بعد القرآن، ﴿يؤمنون﴾ إن لم يؤمنوا به، وهو النهاية في البيان؟ كأنه إخبار عنهم بالطبع

---

(١) الآية ٤٤ من سورة الأنعام.
(٢) أخرجه الطبري في التفسير، (٩/١٣٦) بإسناد صحيح إلى قتادة.
(*) إلى هنا ينتهي السقط الموجود في المخطوطة الأصلية.

على القلوب والتصميم على الكفر، بعد إلزام الحجة والإرشاد إلى النظر، وقيل: هو متعلق بقوله: ﴿وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلُهم﴾، كأنه قيل: لعل أجلهم قد اقترب، فما لهم لايُبادرون بالإيمان بالقرآن، وماذا ينتظرون بعد وضوحه؟ وإن لم يؤمنوا به فبأى حديث أحق منه يريدون أن يؤمنوا به؟!.. قاله البيضاوى.

ثم بيَّن أن أمرهم بيده، فقال:﴿ومن يُضلل اللهُ فلا هادىَ له﴾ أصلاً، ولايقدر أحد عليه، ﴿ونذرهم[١] في طُغيانهم يعمهون﴾ : يتحيرون. ومن قرأ بالياء فمناسب لقوله: (من يضلل)، ومن جزمه فعطف على محل: (فلا هادى له)؛ لأنه جواب الشرط.

الإشارة: قد أرشد الحق -تعالى- عباده إلى التفكر والاعتبار، وقد تقدم الكلام عليه في «آل عمران»[١]، وقد علَّم هنا أهل الاستدلال كيفيته؛ وهو أن ينظر الإنسان في أمر الرسول ﷺ، وما ظهر على يديه من المعجزات وخوارق العادات، وأعظمها القرآن العظيم، ثم ما أتى به من العلوم اللدنية والأسرار الربانية، وما نطق به من الحكم العجيبة، وما أخبر به من قصص الأمم الدارسة والشرائع المتقدمة، مع كونه أمياً لم يقرأ ولم يكتب، ولم يجالس أحداً ممن له خبرة بذلك، فتطلع عليه شمس المعرفة به حتى لا يخالطه وهمٌ، ولا يخطر بساحته خاطر سوء، ثم يتفكر في عجائب ملكوت السموات والأرض، وما اشتملتا عليه من ضروب المصنوعات، وعجائب المخلوقات، فيتحقق بوجود الصانع القادر على كل شيء، هذا إن لم يجد شيخاً يُخرجه من سجن الدليل، وإن وجده أستغنى عن هذا بإشراق شمس العرفان، والخروج إلى فضاء الشهود والعيان.

ثم ذكر أمر الساعة، التي خوَّفهم بها بقوله: ﴿وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم﴾، فقال:

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾ ﴾

قلت: إنما سميت القيامة ساعة: لسرعة حسابها، أو وقوعها، لقوله: ﴿وما أمرُ الساعةِ إلا كلمح البصر أو هو أقربُ﴾[٢].

(١) قرأ نافع وابن كثير وابن عامر وأبو جعفر (نذرهم) بنون العظمة ورفع الراء على الاستئناف، وقرأ أبو عمرو وعاصم ويعقوب بالياء على الغيبة ورفع الراء، وقرأ حمزة والكسائي بالياء وجزم الراء عطفا على محل قوله تعالى ﴿فلا هادى له﴾ راجع الإتحاف (٢/٧٠).

يقول الحق جل جلاله: ﴿ يسألونك ﴾ أي: قريش، ﴿ عن الساعة ﴾ أي: قيام الناس من قبورهم للحساب، ﴿ أيَّان مُرْسَاها ﴾ أي: متى إرساؤها، أي: ثبوتها ووقوعها؟ ﴿ قلْ إنما علمها عند ربي ﴾؛ استأثر بعلمها، لم يطلع عليها ملكاً مقرباً، ولا نبياً مرسلاً، ﴿ لا يُجلِّيها لوقتها ﴾ أي: لا يُظهرها عند وقت وقوعها، ﴿ إلا هو ﴾، والمعنى أن إخفاءها يستمر إلى وقت وقوعها، ﴿ ثَقُلَتْ في السموات والأرض ﴾؛ عظمت على أهلها من الملائكة والثقلين لهولها، وكأنه إشارة إلى الحكمة في إخفائها. أو ثَقُلَتْ على السموات والأرض أنفسهما؛ لتبدلهما وتغيرحالهما، ﴿ لا تأتيكم إلا بغتةً ﴾: فجأة على غفلة، كما قال ﷺ: «إنَّ الساعةَ تَهِيجُ بالنَّاسِ، والرَّجُلُ يُصلِحُ حَوْضَهُ، والرَّجُلُ يَسْقِي مَاشِيَتَهُ، والرَّجلُ يُقَوِّمُ سِلْعَته في سُوقِه، والرَّجُل يَخْفِضُ مِيزَانَه ويرفعه» .(١). والمراد: النفخ في الصور للصعق، لأن الساعة مُرَتَّبة عليه وقريبة منه.

﴿ يسألونك كأنك حَفِيٌّ عنها ﴾ أي: عالم بها، من حفي على الشيء: إذا سأل عنه، فإنَّ من بالغ في السؤال عن الشيء، والبحث عنه، استحكم علمه فيه، أي: يسألونك عن وقت قيامها، كأنك بليغ في السؤال عنها فعلمتها، وليس كما يزعمون، وأما قوله: ﴿ فِيمَ أنت من ذكراها ﴾(٢): فقيل: معناه: التعجب عن كثرة اهتمامه بالسؤال، أي: في أي شغل أنت من ذكراها والسؤال عنها؟ ولا يعارض ما هنا؛ لأنه استغنى عن ذلك بتلك الآية، وبعدها نزلت هذه، والله أعلم.

وقيل: «عنها»: يتعلق بـ(يسألونك)، أي: يسألونك عنها كأنك حفي بهم، أي: شفيق بهم، قيل: إن قريشاً قالوا: إنَّ بيننا وبينك قرابة، فقل لنا: متى الساعة؟ فقال له الحق تعالى: ﴿ قل إنما علمها عند الله ﴾؛ لا يعلمها غيره، وكرره؛ لتكرر «يسألونك». ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ أن علمها عند الله لم يؤته أحداً من خلقه.

الإشارة: إذا أشرق نور اليقين في القلب صارت الأمور المستقبلة حاصلة، والغائبة حاضرة، والآجلة عاجلة، فأهل اليقين الكبير قدّموا ما كان آتيا، فحاسبوا أنفسهم قبل أن يُحاسبوا، ووزنوا أعمالهم قبل أن توزن عليهم، وجازوا الصراط بسلوكهم المنهاج المستقيم، ودخلوا جنة المعارف قبل حصول جنة الزخارف، فالموت في حقهم إنما هو انتقال من حال إلى حال، ومن مقام إلى مقام، ومن دار الغرور إلى دار الهناء والسرور. وفي الحِكم: «لو أشرق لك نور اليقين في قلبك، لرأيت الآخرة أقرب إليك من أن ترحل إليها، ولرأيت محاسن الدنيا قد ظهرت كسفة الفَنَاء عليها».

(١) أخرجه بهذا اللفظ ابن جرير في التفسير، (٩/١٠٤) من حديث قتادة، وفي البخاري، عن أبي هريرة رفعه: «لتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه». أخرجه البخاري في (الرقاق ـ باب ٤) وبنحوه مسلم في (الفتن ـ باب قُرب الساعة).

(٢) الآية ٤٣ من سورة النازعات.

قال الشيخ ابن عباد رضي الله عنه: نور اليقين تتراءى به حقائق الأمور على ما هى عليه، فيحق به الحق، ويبطل به الباطل، والآخرة حق، والدنيا باطل، فإذا أشرق نور اليقين فى قلب العبد أبصر به الآخرة التى كانت غائبة عنه حاضرة لديه، حتى كأنها لم تزل، فكانت أقرب إليه من أن يرتحل إليها، فحق بذلك حقها عنده، وأبصر الدنيا الحاضرة لديه، قد انكسف نورها وأسرع إليها الفناء والذهاب، فغابت عن نظره بعد أن كانت حاضرة، فظهر له بطلانها، حتى كأنها لم تكن، فيوجب له هذا النظر اليقيني الزهادة في الدنيا والتجافي عن زهرتها، والإقبال على الآخرة، والتهيوء لنزول حضرتها، ووجدان العبد لهذا هو علامة انشراح صدره بذلك النور. كما قال النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ : «إنَّ النورَ إذا دَخَلَ القلبَ انشرحَ له الصَّدْرُ وانفَسَحَ، قِيلَ يارَسُولَ اللَّه: هَلْ لذلكَ مِنْ عَلامَةٍ يُعْرَفُ بِها ؟ قال: نَعَمْ. التَّجافى عَنْ دَارِ الغُرُورِ، والإنَابَةُ إلى دَارِ الخُلودِ، والاستِعْدَادُ للمَوْتِ قَبْلَ نُزُولِه»(١). أو كما قال ــ صلى الله عليه وسلم ــ.

وعند ذلك تموت شهواته وتذهب دواعي نفسه، فلا تأمره بسوء، ولا تطالبه بارتكاب منهي، ولا تكون له همة إلا المسارعة إلى الخيرات، والمبادرة لاغتنام الساعات والأوقات، وذلك لاستشعاره حلول الأجل، وفوات صالح العمل، وإلى هذا الإشارة بحديثي حارثة ومعاذ -رضي الله عنهما-. روى أنس بن مالك رضي الله عنه قال: بينما رسول الله ﷺ يمشي إذ استقبله شابٌ من الأنصار، فقال له النبي ﷺ: «كَيْفَ أصْبَحْتَ يا حارِثَةُ؟ قال: أصبحت مؤمناً بالله حقًا، قال: انظرْ ما تقول، فإن لكلِّ قَوْلٍ حقيقة؟ فقال: يا رسولَ اللَّه عَزَفَتْ نَفْسِي عن الدنيا فأسْهَرْتُ لَيْلِي وأظْمَأْتُ نهاري، وكأني بعَرْش ربي بارزاً، وكأنى أنظر إلى أهْلِ الجنَّة يتزَاورُون فيها، وكأنى أنظرُ إلى أهْلِ النار يتعاوون فيها، فقال: أبْصَرْتَ فالْزَمْ، عَبْدٌ نور اللَّهُ الإيمانَ فى قلبه..» إلى آخر الحديث(٢).

وروى أنس رضي الله عنه أيضاً: أن معاذ بن جبل دخل على النبى ﷺ وهو يبكى، فقال له: كيف أصبحتَ يا معاذ؟ فقال: أصبحتُ بالله مؤمناً، قال النبي ﷺ: «إنَّ لكل قول مصداقاً، ولكل حق حقيقة، فما مصداق ما تقول؟» فقال: يانبيَّ الله، ما أصبحتُ صباحًا قط إلا ظننتُ أني لا أُمْسي، ولا أمْسَيْتُ قط إلا ظننت أنى لا أُصْبِح، ولا خَطَوْتُ خطوةً قط إلا ظننتُ أنى لا أُتبِعُها أُخْرَى، وكأنى أنظرُ إلى كل أمةٍ جاثية تُدْعَى إلى كتابها، معها نبيُها وأوثَانُها التي كانت تعبدُ من دون الله، وكأني أنظرُ إلى عُقُوبَةِ أهْلِ النَّارِ وثوابِ أهْلِ الجنة. قال رسول الله ﷺ: «عرفْتَ فالْزَمْ». انظر بقية كلامه رضي الله عنه.

---

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٣٦٢/٧).

(٢) سبق تخريج الحديث عند تفسير الآية ١٢٦ من سورة الأنعام.

ثم أمر نبيه ﷺ بالاعتراف بالتقصير عن علم الغيب، الذى اختص الله به؛ كعلم الساعة وغيرها، فقال:

﴿ قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ١٨٨ ﴾

قلت: «وما مسنى السوء»: عطف على «استكثرتُ»، أى: لو علمتُ الغيب لاستكثرتُ الخير واحترست من السوء، أو لاستئناف، فيوقف على ما قبله، ويراد حينئذ بالسوء: الجنون، والأول أحسن؛ لاتصاله بما قبله، و(لقوم): يجوز أن يتعلق ببشير ونذير، أى: أُبشر المؤمنين وأُنذرهم، وخصهم بالبشارة والنذارة لانتفاعهم بهما، ويجوز أن يتعلق بالبشارة وحدها، فيُوقف على (نذير)، ويكون المتعلق بنذير محذوف، أى: نذير للكافرين، والأول أحسن. قاله ابن جزى.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ قل ﴾ لهم يا محمد: أنا ﴿ لا أملك لنفسى نفعاً ولا ضراً ﴾ أى: لا أجلب لها نفعاً ولا أدفع عنها ضرراً، ﴿ إلا ماشاء الله ﴾ من ذلك، فيعلمنى به، ويوفقنى عليه، وهو إظهار للعبودية والتبرى من ادعاء العلم بالغيوب، ﴿ ولو كنتُ أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء ﴾ أى: لو كنت أعلم ما يستقبلنى من الأمور المغيبة؛ كشدائد الزمان وأهواله، لاستعددت له قبل نزوله باستكثار الخير والاحتراس من الشر، حتى لايمسنى سوء، ﴿ إن أنا إلا نذير وبشير ﴾ أى: ما أنا إلا عبد مرسل بالإنذار والبشارة ﴿ لقوم يؤمنون ﴾؛ فإنهم المنتفعون بهما، أو نذير لمن خالفني بالعذاب الأليم، وبشير لمن تبعنى بالنعيم المقيم.

الإشارة: العبودية محل الجهل وسائر النقائص، والربوبية محل العلم وسائر الكمالات، فمن آداب العبد أن يعرف قدره، ولا يتعدى طوره، فإن ورد عليه شيء من الكمالات فهو وارد من الله عليه، وإن ورد عليه شيء من النقائص فهو أصله ومحله، فلا يستوحش منه، وكان شيخنا يقول: إن علمنّا فمن ربنا، وإن جهلنا فمِن أصلنا وفصلنا. أو كلام هذا معناه، فالاستشراف إلى الاطلاع على علم الغيوب من أكبر الفضول، وموجب للمقت من علام الغيوب. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر أصل النشأة، ليدل على نقص العبد وجهله، فقال:

﴿ ۞ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَجَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا لِيَسۡكُنَ إِلَيۡهَاۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتۡ حَمۡلًا خَفِيفٗا فَمَرَّتۡ بِهِۦۖ فَلَمَّآ أَثۡقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنۡ ءَاتَيۡتَنَا صَٰلِحٗا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ١٨٩ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحٗا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ١٩٠ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿هو الذى خلقكم من نفس واحدة﴾، آدم عليه السلام، ﴿وجعل منها زوجها﴾ أي: خلق من ضلعها زوجها حواء، سلها منه وهو نائم، ﴿ليسكن إليها﴾ ؛ ليستأنس بها، ويطمئن بها اطمئنان الشيء إلى جزئه أو جنسه.

﴿فلما تغشاها﴾ أي: جامعها حين رُكبت فيه الشهوة، ﴿حملت حملاً خفيفاً﴾ أي: خف عليها، ولم تلق منه ما تلقى بعض الحبالى من حملهن من الأذى والكرب، أو حملاً خفيفاً، يعني النطفة قبل تصورها، ﴿فمرتْ به﴾ أي: ذهبت وجاءت به، مخففة، واستمرت إلى حين ميلاده، ﴿فلما أثْقلتْ﴾ أي: ثقل حملها وصارت به ثقيلة لكبره في بطنها، ﴿دَعَوا الله ربهما﴾ آدم وحواء، قائلين: ﴿لئن آتيتنا﴾ ولداً ﴿صالحا﴾ أي: سوياً سالماً في بدنه، تام الخلقة، ﴿لنكونن﴾ لك ﴿من الشاكرين﴾ على هذه النعمة المجددة.

﴿فلما آتاهما﴾ ولداً ﴿صالحا﴾ كما سألا، جعل أولادُهما ﴿له شركاءَ فيما آتاهما﴾، فسموا عبد العزى وعبد مناف وعبد الدار. فالآية إخبار بالغيب في أحوال بني آدم ممن كفر منهم وأشرك، ولا يصح في آدم وحواء هذا الشرك؛ لعصمة الأنبياء، وهذا هو الصحيح. وقد يُعاتب الملكُ الأبَ على ما فعل أولادُه، كما إذا خرجوا عن طاعته فيقول له: أولادك فعلوا وفعلوا، على عادة الملوك.

وقيل: لما حملت حواء أتاها إبليسُ في صورة الرجل، فقال لها: وما يدريك ما في بطنك لعله بهيمة أو كلب، وما يدريك من أين يخرج؟ فخافت من ذلك، ثم قال لها: إن أطعتيني، وسميته عبد الحارث، فسأخلصه لكِ، وكان اسم ابليس في الملائكة: الحارث، وإن عصيتني قتلته، فأخبرتْ بذلك آدم، فقال لها: إنه عدونا الذى أخرجنا من الجنة، فلما ولدت مات الولد، ثم حملت مرة أخرى، فقال لها إبليس مثل ذلك، فعصته، فلما ولدت مات الولد، ثم حملت مرة ثالثة، فسمياه عبد الحارث؛ طمعًا في حياته(1)، فقوله: ﴿جعلا له شركاء فيما آتاهما﴾ أي: في التسمية لا غير، لا في عبادة غير الله.

والقول الأول أصح، لثلاثة أوجه: أحدها: أنه يقتضي براءة آدم وحواء من الشرك، قليله وكثيره، وذلك هو حال الأنبياء - عليهم السلام -. والثاني: أنَّ جمع الضمير في قوله: ﴿فتعالى الله عما يشركون﴾، يقتضي أن الشرك وقع من أولادهما، لا منهما. الثالث: أن هذه القصة تفتقر إلى نقل صحيح، وهو غير موجود. انظر: ابن جزي.

الإشارة: قال الورتجبي: في قوله ﴿ليسكن إليها﴾: لم يجد آدم عليه السلام في الجنة إلاسنا تجلي الحق، فكاد أن يضمحل بنور التجلي، لتراكمه عليه، فعلم الله - سبحانه - أنه لا يتحمل أثقال التجلي، وعرف أنه يذوب في نور

(1) هذه القصة يظهر عليها أنها من آثار أهل الكتاب، وقد أعلَّها أهلُ الحديث، رغم ورودها في كتب الحديث وغيرها. راجع تفسير: ابن كثير (٢/٢٧٥)، والإسرائيليات والموضوعات للشيخ أبي شهبة (١٧٩). والآية تتحدث عن (نمط) في السلوك البشري، وترسم نموذجاً لأي زوجين بشريين يريدان الإنجاب من الله - بإلحاح، وعندما يعطيهما الله تعالى ما سألاه، ينسبان ذلك لغير الله تعالى.

حسنه، وكل ما في الجنة مستغرق في ذلك النور، فيزيد عليه ضوء الجبروت والملكوت، فخلق منه حواء ليسكن آدم إليها، ويستوحش بها سُوَيْعات من سطوات التجلي، ولذلك قال ﷺ لعائشة –رضي الله عنها–: «كلميني ياحُميراء». ثم قال: وقال بعضهم: خلقها ليسكن آدم إليها، فلما سكن إليها غفل عن مخاطبة الحقيقة، بسكونه إليها، فوقع فيما وقع من تناول الشجرة .هـ. فكل من سكن إلى غير الله تعالى كان سكونه بلاء في حقه، يخرجه من جنة معارفه. والله تعالى أعلم.

ثم ردَّ على من أشرك من بني آدم، فقال:

﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿أيُشرِكون﴾ مع الله أصناماً جامدة، لا يخلقون شيئاً ﴿وهم يُخلَقون﴾، فهي مخلوقة غير خالقة. والله تعالى خالق غير مخلوق، ﴿ولا يستطيعون لهم نصراً﴾ أي: لا يقدرون أن ينصروا من عبدهم، ﴿ولا أنفسَهم ينصرون﴾ فيدفعون عنها ما يعتريها، فهي في غاية العجز والذلة، فكيف تكون آلهة؟

﴿وإن تدعوهم إلى الهُدى لا يتبعوكم﴾ أي: وإن تدعو الأصنام إلى الهدى لا تجيبكم، فلا تهتدي إلى مادعيت إليه؛ لأنها جمادات، أو: وإن تدعوهم إلى أن يهدوكم إلى الحق لا تجيبكم، ﴿سواءٌ عليكم أدعوتموهم أم أنتم صامتون﴾ عن دعائهم، فالدعاء في حقهم وعدمه سواء، وإنما لم يقل: أم صمتم؛ ليفيد الاستمرار على عدم إجابتهم؛ لأن الجملة الإسمية تقتضي الاستمرار.

ثم قال تعالى: ﴿إن الذين تدعون من دون الله﴾ أي: تعبدونهم وتسمونهم آلهة من دون الله، هم ﴿عبادٌ أمثالُكم﴾ من حيث إنها مسخرة مملوكة، فكيف يعبد العبد مع ربه، ﴿فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين﴾ في أنها تستحق أن تُعبد، والأمر للتعجيز؛ لأن الأصنام لا تقدر أن تجيب فلا تستحق أن تعبد

ثم عاد عليهم بالنقض فقال: ﴿ألهُمْ أرجلٌ يمشون بها أمْ لهم أيدٍ يبطشون بها أم لهم أعينٌ يبصرون بها أمْ لهم آذانٌ يسمعون بها﴾، ومعناه: أن الأصنام جمادات عادمة للحس والجوارح والحياة، ومن كان كذلك لا يكون

إلهاً، فإنَّ من وصف الإله الإدراك والحياة والقدرة. وإنما جاء هذا البرهان بلفظ الاستفهام؛ لأن المشركين مقرون أن أصنامهم لا تمشي، ولا تبطش، ولا تبصر، ولا تسمع، فلزمتهم الحجة، والهمزة في قوله: ﴿ألهم﴾ : للاستفهام مع التوبيخ، و(أم)، في المواضع الثلاثة: تضمنت معنى الهمزة ومعنى بل، وليست عاطفة. قاله ابن جزى. ﴿قل ادعوا شركاءكم﴾؛ استعينوا بهم في عداوتي، ﴿ثم كِيدُون فلا تُنظِرُون﴾ أي: لاتؤخرون، فإنكم وأصنامكم لا تقدرون على مضرتي وكيدي، ومفهوم الآية: الرد عليهم ببيان عجز أصنامهم وعدم قدرتها على المضرة.

الإشارة: كل ما سوى الله قد عمه العجز والتقصير، فليس بيده نفع ولاضر، وفي الحديث: «لو اجْتَمَعَ الإنْسُ والجنُّ على أنْ ينفعُوكَ بشَيْء لَمْ يَنْفَعُوكَ إلاَّ بشَيْءٍ قدْ كَتَبَه اللّهُ لك، ولو اجْتَمَعُوا على أنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إلاَّ بِشَيْءٍ قَدَّرَهُ الله عليكَ». أو كما قال ﷺ، فالخلق كلهم في قبضة القهر، مصروفون بقدرة الواحد القهار، ليس لهم أرجل يمشون بها، ولا أيد يبطشون بها، ولا أعين يبصرون بها، ولا آذان يسمعون بها، وإنما هم مجبورون في قوالب المختارين، فلا تركن إليهم أيها العبد في شيء، إذ ليس بيدهم شيء، ولا تخف منهم في شيء، إذ لا يقدرون على شيء . قال ابن جزى: وفيها ـ أي: في الآية ـ إشارة إلى التوكل على الله والاعتصام به وحده، وأن غيره لا يقدر على شيء.

ثم أفصح بذلك، فقال:

﴿ إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَـٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: قل لهم أيضًا يا محمد: ﴿إنَّ وَلِيِّيَ اللهُ﴾ أي: هو ناصري وحافظي منكم، فلا تضرونني ولو حرصتم أنتم وآلهتكم، ﴿الذى نزَّل الكتاب﴾ أي: القرآن، ﴿وهو يتولى الصالحين﴾ أي: ومن عادته تعالى أن يتولى الصالحين من عباده فضلاً عن أنبيائه، فلا أخافكم بعد أن تولى حفظي منكم.

الإشارة: قال القشيري: مَنْ قام بحقِّ الله تولّي أمورَه على وجه الكفاية، فلا يحوجه إلى أمثاله، ولايَدَعُ شيئاً من أحواله إلا أجراه على ما يريد بحُسْنِ إفضاله، فإن لم يفعل ما يريده جعل العبد راضياً بما يفعله، فرَوْحُ الرضا على الأسرار أتمُّ من راحة العطاء على القلوب . هـ.

ثم قال تعالى:

﴿ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾
وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ ۖ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله، في إتمام الرد على المشركين: ﴿ والذين تدعون من دونه ﴾ أي: تعبدونها من دونه، ﴿ لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون ﴾، فلا تُبال بهم أيها الرسول، ﴿ وإن تدعوهم إلى الهدى لا يسمعوا ﴾، يحتمل أن يريد الأصنام، فيكون تحقيراً لها، ورداً على من عبدها؛ فإنها جماد موات لا تسمع شيئاً، أو يريد الكفار، ووصفهم بأنهم لا يسمعون، يعني: سمعاً ينتفعون به، لإفراط نفورهم، أو لأن الله طبع على قلوبهم، ﴿ وتراهم ﴾ أي: الأصنام، ﴿ ينظرون إليك وهم لا يُبصرون ﴾؛ لأنهم مصورون بصورة من ينظر، فقوله: ﴿ وتراهم ينظرون إليك ﴾: مجاز، ﴿ وهم لا يُبصرون ﴾ حقيقةً، لأن لهم صورة الأعين، وهم لا يرون بها شيئاً. هذا إن جعلناه وصفاً للأصنام، وإن كان وصفاً للكفار فقوله: ﴿ وتراهم ينظرون إليك ﴾ حقيقة، ﴿ وهم لا يُبصرون ﴾ مجاز، لأن الإبصار وقع منهم في الحس، لكن لمَّا لم ينفعهم؛ لعمى قلوبهم، نفاه عنهم كأنه لم يكن.

قال المحشي: شاهدوا بأبصار رؤوسهم، لكنهم حجبوا عن الرؤية ببصائر أسرارهم وقلوبهم، فلم يعتد برؤيتهم. هـ.

الإشارة: في الآية تحويش للعبد إلى الاعتماد على الله واستنصاره به في جميع أموره، فلا يركن إلى شيء سواه، ولا يخاف إلا من مولاه، إذ لا شيء مع الله.

وقوله تعالى: ﴿ وتراهم ينظرون إليك... ﴾ الآية. قال المحشي: يقال: رُؤية الأكابر ليست بشهود أشخاصهم، لكن لِما يحصل للقلوب من مكاشفة الغيوب، وذلك على مقدار الاحترام وحضور الإيمان. هـ. يعني: أن النظر إلى الأكابر، من العارفين بالله، ليست مقصودة لرؤية أشخاصهم، وإنما هي مقصودة لفيضان أمدادهم، وذلك على قَدر التعظيم والاحترام، وصدق المحبة والاحتشام، فكل واحد من الناظرين إليهم يغرف على قَدر محبته وتعظيمه. رُوِي أن بعض الملوك زار قبر أبي يزيد البسطامي، فقال: هل هنا أحد ممن أدرك الشيخ أبا يزيد البسطامي؟ فأتى بشيخ كبير، فقال: أنا أدركته، فقال: ما سمعتَه يقول؟ فقال: سمعتُه يقول: (من رآني لا تأكله النار). فقال الملك: هذا لم يكن للنبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ ؛ فقد رآه كثير من الكفار فدخلوا النار، فكيف يكون لغيره؟ فقال له الشيخ: يا هذا، الكفار لم يروه ﷺ على أنه رسول الله، وإنما رأوه على أنه محمد بن عبد الله، فسكت. والله تعالى أعلم.

ثم أمر نبيه ﷺ بمكارم الأخلاق، فقال:

﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله لنبيه ﷺ: ﴿خُذِ العفوَ﴾ أي: اليسر من أخلاق الناس ولا تبحث عنها، أو: خذ من الناس، في أخلاقهم وأموالهم ومعاشرتهم، ما سهل وتيسر مما لا يشق عليهم؛ لئلا ينفروا. فهو كقول الشاعر:

خُذِ العَفْوَ مِنِّي تَسْتَدِيمِي مَوَدَّتِي(١) ....

أو: خذ في الصدقات ما سهل على الناس من أموالهم وهو الوسط، ولا تأخذ كرائم أموالهم مما يشق عليهم، أو تمسك بالعفو عمن ظلمك ولا تُعاقبه، وهذا أوفق لتفسير جبريل الآتي، ﴿وأمر بالعُرْفِ﴾ أي: المعروف، وهو أفعال الخير، أو العرف الجاري بين الناس. واحتج المالكية بذلك على الحكم بالعرف الذي يجري بين الناس. ﴿وأعرض عن الجاهلين﴾ أي: لا تكافئ السفهاء على قولهم أو فعلهم، واحلم عليهم. ولمّا نَزَلَتْ سأل رسولُ الله ﷺ جبريلَ عنها، فقال: «لا أدْرِي حَتّى أسْألَ، فعرج، ثم رَجعَ فَقَالَ: يا مُحَمَّدُ، إنّ اللَّه يأمُركَ أنْ تَصِلَ مَنْ قَطَعَكَ، وتُعْطِي مَنْ حَرَمَكَ، وتَعْفُو عمّنْ ظَلَمَكَ»(٢). وعن جعفر الصادق: (أمر الله نبيه ﷺ فيها بمكارم الأخلاق)، وهي على هذا ثابتة الحكم، وهو الصحيح. وقيل: كانت مداراة للكفار، ثم نسخت بالقتال.

﴿وإمّا يَنْزَغَنَّكَ من الشيطان نَزْغٌ﴾، ينخسنك منه نخس، أي: وسوسة تحملك على خلاف ما أمرت به؛ كاعتراء غضب، ومقابلة سفيه، ﴿فاستعذْ بالله﴾ والتجئ إليه؛ ﴿إنه سميعٌ عليمٌ﴾ يسمع استعاذتك، ويعلم ما فيه صلاح أمرك، فالاستعاذة عند تحريك النفس مشروعة، وفي الحديث: أن رجلا اشتد غضبه، فقال ﷺ: «إنّي لأعْلَمُ كلمة لو قالَهَا لذَهَبَ عنهُ ما به؛ أعُوذُ باللَّهِ من الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ»(٣).

الإشارة: كل ما أمر به الرسول ﷺ تُؤمر به أمته، وخصوصًا ورثته من الصوفية، فهم مطالبون بالتخلق بأخلاقه ﷺ أكثر من غيرهم، لأن غيرهم لم يبلغ درجتهم. وقال الورتجبي: ﴿خذ العفو﴾: أي: فاعف عنهم من قلة عرفانهم حقك، ﴿وأمر بالعُرف﴾ أي: تلطف عليهم في أمرك ونهيك لهم، فإنهم ضعفاء عن حمل وارد أحكام شرائعك وحقائقك، ﴿وأعرض عن الجاهلين﴾ الذين ليس لهم استعداد النظر إليك، ولا يعرفون حقوقك، فإنّ منكر معجزات أنبيائي وكرامات أوليائي لا يبلغ إلى درجة القوم. قال بعض المشايخ -حين ذكر أهل الظاهر-: دع هؤلاء الثقلاء. هـ. فوصف علماء الظاهر بالثقلاء؛ لثقل ظهورهم بعلم الرسوم، فلم ينهضوا إلى حقائق العلوم ودقائق الفهوم، وفي تائية ابن الفارض:

---

(١) هذا شطر بيت تمامه: (ولا تنطقي في سَوْرَتي حين أغضبُ) وهو لحاتم، راجع: تفسير أبي حيان (٤/ ٤٤٤).
(٢) أخرجه الطبري في التفسير (٩/ ١٥٥) عن سفيان بن عيينه عن أبي المرادي، وقال الحافظ ابن حجر في الكافي الشاف: (هذا منقطع، وأخرجه ابن مردويه موصولاً من حديث جابر وحديث قيس بن سعد). انظر تفسير البغوي (٣/ ٣١٦) مع حاشية المحقق.
(٣) أخرجه بنحوه البخاري في (بدء الخلق ـ باب صفه إبليس وجنوده) ومسلم في (البر ـ باب فضل من يملك نفسه عند الغضب) من حديث سليمان بن صرد.

وجُزْ مُثقلاً لو خفَّ طفَّ مُوكَّلاً بمنقُولِ أحْكَامٍ ومعْقُولِ حِكْمَةِ

قال شارحه: أمره بالمجاوزة عن المثقلين بأثقال العلوم الظاهرة، من الفقهاء، والمتكلمين بأحكام المنقولات، والفلاسفة الموكلين بالمعقولات والحكمة، ووصف مُثقلا بأنه: لو خف طفا، أي: لأنه لو كان خفيفاً بوضع الأثقال عنه كان طفيفا، لا يرى لنفسه قدراً، واللازم منتف فالملزوم مثله.هـ.

ثم إن البشر لابد أن تعتريه أحكام البشرية، كالغضب وشبهه، كما بيَّنه الحق تعالى بقوله:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾ ﴾

قلت: الطيف ـ بسكون الياء ـ: مصدر طاف به الخيال يطيف طيفاً، أو مخفف؛ من طيِّف؛ كهين ولين وميت. ومن قرأ (طائف): فاسم فاعل، والمراد به: لَمَّةُ الشيطان ووسوسته. وحذف مفعول (تذكروا)؛ للعموم على ما يأتي في المعنى. وقوله: (فإذا هم مبصرون): أتى بإذا الفجائية؛ ليقتضي سرعة تيقظهم، وبالجملة الإسمية ولم يقل: تذكروا فأبصروا؛ ليفيد أنهم كانوا على البصري، وإنما السِّنة طرقتهم ثم رجعوا عنها.

يقول الحق جل جلاله: ﴿إنَّ الذين اتَّقوا﴾ الشرك والمعاصي، ﴿إذا مسَّهُم طائفٌ من الشيطان﴾ أي: لَمَّةٌ منه، كما في الحديث: «إنَّ للشَّيطَانِ لَمَّةً وللمَلَكِ لَمَّةً...»(١) إلخ، فإذا أخذتهم تلك السنة وغفلوا ﴿تذكَّروا﴾ عقابَ الله وغضبه، أو ثواب الله وإنعامه، أو مراقبته والحياء منه، أو مننه وإحسانه، أو طرده وإبعاده، أو حجبه وإهماله، أو عدواة الشيطان وإغواءه، كلٌّ على قدر مقامه، فلما تذكروا ذلك ﴿فإذا هم مبصرون﴾ بسبب ذلك التذكر، أي: فإذا هم على بصيرة من ربهم التي كانوا عليها قبل المس، أو: فإذا هم مبصرون مواقع الخطأ ومكائد الشيطان فيحترزون منها، ولا يعودون إليها بخلاف المنهمكين في الغفلة، كما قال تعالى: ﴿وإخوانهم يَمدُّونهم في الغَي﴾ أي: وإخوان الشياطين، الذين لم يتقوا، يمدونهم، أي: ينصرونهم، ويكونون مدداً لهم في الضلال والغي؛ بالتزيين والحمل عليه، ﴿ثم لايُقصرون﴾؛ لايُمسكون عن إغوائهم حتى يُوردوهم النار، أو: لا يقصر الكفار عن غيهم وضلالهم حتى يهلكوا.

الإشارة: البصيرة حارسة للقلب، الذي هو بيت الرب، فإذا نامت طرقها الشيطان، فإن كان نومها خفيفاً أحسّت به وطردته، وهذه بصيرة المتقين، الذين ذكرهم الله تعالى بقوله: ﴿إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا﴾، وإذا كان نومها ثقيلاً سرق الشيطان ما فيها، ولم تفطن به، وهذه بصيرة الغافلين، الذين هم إخوان الشياطين.

(١) أخرجه الترمذي في (تفسير سورة البقرة، آية: ﴿الشيطان يعدكم الفقر...﴾) من حديث عبدالله بن مسعود. والمراد باللمّة: النزول والقرب، والمراد بها: ما يقع في القلب بواسطة الشيطان أو الملك. فأما كان من خطرات الخير فهو من الملك، وما كان من خطرات الشر فهو من الشيطان. راجع: النهاية (لمم ٤/٢٧٣).

قال القشيري: إنما يمس المتقين طيفُ الشيطان في ساعات غفلتهم عن ذكر الله، ولو أنهم استداموا ذكر الله بقلوبهم لما مسَّهم طائف الشيطان، فإن الشيطانَ لا يقْربُ قلباً في حال شهوده الله؛ لأنه يخنس عند ذلك، ولكل عازمٍ فترة، ولكلِّ عالمٍ هفوة، ولكل عابد شدة، ولكل قاصد فترة، ولكل سائر وقفة، ولكل عارفٍ حجبة. قال - عليه الصلاة والسلام -: «الحدَّةُ تعتري خيار أمتي»(١). فأخبر بأن خيار الأمة، وإن جلت رتبتهم، لا يتخلصون عن حدة تعتريهم في بعض أحوالهم، فتخرجهم عن دوام الحلم. هـ. وكأنه يشير إلى أن طائف الشيطان يمس الواصلين والسائرين، وهو كذلك بدليل أول الآية في قوله: ﴿ وإما ينزغنك ... ﴾ الآية، ومسه للسائر أو الواصل زيادة به، وترقية له، وتحويش له إلى ربه، والله تعالى أعلم.

ثم ردَّ الله على من طلب الآيات، فقال:

﴿ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِن رَّبِّي ۚ هَٰذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٢٠٣) ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وإذا لم تأتِهم ﴾ أي: الكفار، ﴿ بآية ﴾؛ بمعجزة مما اقترحوا، أو من القرآن حين يتأخر الوحي، ﴿ قالوا لولا ﴾؛ هلا ﴿ اجتبيتها ﴾ أي: تخيرتها وطلبتها من ربك، أو هلا اخترعتها وتقولتها من نفسك كسائر ما تقرأ ؟ ﴿ قل إنما أتبع ما يُوحى إليَّ من ربي ﴾ فلا أطلب منه آية، ﴿ فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ﴾(٢)، أو: لا أخترع القرآن من عند نفسي، بل أتبع ما يُوحى إليَّ من ربي.

﴿ هذا ﴾ القرآن ﴿ بصائرُ ﴾ للقلوب ﴿ من ربكم ﴾، أي: من عند ربكم، بها تُبصر الحق وتُدرك الصواب، ﴿ وهُدىً ورحمةٌ لقوم يؤمنون ﴾؛ وإرشاد أو طمأنينة لقلوب المؤمنين.

الإشارة: قد تقدم مرارًا ما في طلب الآيات من ضعف اليقين، وعدم الصدق بطريق المقربين، وإنما على الأولياء أن يقولوا: «هذا بصائر من ربكم وهدى ورحمة لقوم يؤمنون» بطريق المخصوصين. وبالله التوفيق.

ثم أمر بالإنصات للقرآن، الذي هو أعظم الآيات، فقال:

﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٢٠٤) ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وإذا قُرئ القرآنُ ﴾، مطلقاً، ﴿ فاستمعوا له وأنصتُوا ﴾؛ لكي تعتبروا وتتدبروا، فإنما نزل لذلك، وهل على الوجوب أو الاستحباب - وهو الراجح؟ قولان، وقيل: الاستماع المأمور به

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (١١/٦٤) عن ابن عباس رضي الله عنه، وضعفه السيوطي في الجامع الصغير(ح٣٨٠٨).
(٢) من الآية ٢٩ من سورة الكهف.

لقراءة الإمام في الصلاة، وقيل: في الخطبة، والأول الراجح، لوجهين: أحدهما: عموم اللفظ، ولادليل على تخصيصه، والثاني: أن الآية مكيّة، والخطبة إنما شُرعت بالمدينة. وقوله تعالى: ﴿ لعلكم تُرحمون ﴾ أي: بسبب ما تكتسبه القلوب من الرقة والخشية عند استماع القرآن، قال بعضهم: الرحمة أقرب شيء إلى مستمع القرآن؛ لهذه الآية. قاله ابن جزي.

الإشارة: الاستماع لكلام الحبيب أشهى للقلوب من كل حبيب، لاسيما لمن سمعه بلا واسطة، فكل واحد ينال من لذة الكلام على قدر حضوره مع المتكلم، وكل واحد ينال من لذه شهود المتكلم على قدر رفع الحجاب عن المستمع، والله تعالى أعلم.

ثم أمر بالذكر القلبي، فقال:

﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله، لنبيه ﷺ ولمن تبعه: ﴿ واذكر ربك في نفسك ﴾ أي: في قلبك؛ بحركة لسان القلب، أو في نفسك؛ سراً بحركة لسان الحس، ﴿ تضرُّعاً وخِيفَةً ﴾ أي: متضرعًا وخائفا، ﴿ ودونَ الجهر من القول ﴾ أي: متكلمًا كلاماً فوق السر ودون الجهر، فإنه أدخل في الخشوع والإخلاص، ولا حجة فيه لمن منع الذكر جهراً؛ لأن الآية مكية حين كان الكفر غالبًا، فكانوا يسبون الذاكر والمذكور، ولما هاجر المصطفى - عليه الصلاة والسلام - إلى المدينة، جهر الصحابةُ بالتكبير والذكر. فالآية منسوخة. انظر: الحاوي في الفتاوي للإمام السيوطي. فقد أجاب عن الآية بأجوبة.

فقوله: ﴿ بالغُدوِّ والآصال ﴾ أي: في الصباح والعشي، حين تتيقظ من نومك الشبيه بالبعث، وحين تريد النوم الشبيه بالموت، وقيل: المراد صلاةَ العصر والصبح، وقيل: صلاة المسلمين، قبل فرض الخمس، وقيل: للاستغراق، وإنما خص الوقتين؛ لأنهما محل الاشتغال، فأولى غيرهما. ﴿ ولا تكن من الغافلين ﴾ عن ذكر الله.

﴿ إن الذين عند ربك ﴾؛ يعني ملائكة الملأ الأعلى، ﴿ لا يستكبرون عن عبادته ويُسبحونه ﴾؛ ينزهونه عما لا يليق به، ﴿ وله يسجدون ﴾ أي: يخصونه بالعبادة والتذلل، لا يشركون به غيره، وهو تعريض بالكفار،

وتحريض للمؤمنين على التشبه بالملأ الأعلى، ولذلك شرع السجود عند قراءتها. وعن النبي ﷺ قال: «إذا قرأ ابنُ آدمَ السجدةَ، فَسَجَدَ، اعتزَلَ الشيطَانُ يَبْكِي، يقولُ: يَاوَيْلَهُ؛ أُمِرَ هذا بالسُّجُودِ فَسَجَدَ فَلَهُ الجَنَّةُ، وأُمِرْتُ بالسُّجُودِ فعصيْتُ فَلِيَ النارُ»(١).

الإشارة: اعلم أن الذكر على خمسة أقسام: ذكر اللسان فقط؛ لعوام المسلمين، وذكر اللسان مع القلب؛ لخواص الصالحين وأول المتوجهين، وذكر القلب فقط؛ للأقوياء من السائرين، وذكر الروح؛ لخواص أهل الفناء من المُوحدين، وذكر السر؛ لأهل الشهود والعيان من المتمكنين، وفي قطع هذه المقامات يقع السير للسائرين، فيترقى من مقام، إلى مقام، حتى يبلغ إلى ذكر السر، فيكون ذكر اللسان في حقه غفلة.

وفي هذا المقام قال الواسطي رضي الله عنه: الذاكرون في حال ذكره أشد غفلة من التاركين لذكره؛ لأن ذكره سواه. وفيه أيضا قال الغزالي: ذكر اللسان يُوجب كثرة الذنوب. وقال الشاعر:

مَا إِنْ ذَكَرْتُكَ إلاَّ هَمَّ يَلْعَنُنِي ... سِرِّي، وقَلْبِي، ورُوحِي، عِنْدَ ذِكْرَاكَ
حَتَّى كَأَنَّ رَقِيباً مِنْكَ يَهْتِفُ بِي: ... إِيَّاكَ، وَيْحَكَ، والتَّذْكَارَ إِيَّاكَ
أَمَا تَرَى الحَقَّ قَدْ لاَحَتْ شَوَاهِدُهُ ... وَوَاصَلَ الكُلَّ مِنْ مَعْنَاهُ مَعْنَاكَ

وقوله تعالى: ﴿إن الذين عند ربك﴾ ... الآية، قال القشيري: أثبت لهم عندية الكرامة، وحفظ عليهم أحكام العبودية؛ كي لا ينفك حال جمعهم عن نعت فرقهم، وهذه سُنَّة الله تعالى مع خواص عباده، يلقاهم بخصائص عين الجمع، ويحفظ عليهم حقائق عين الفرْق، لئلا يُخِلُّوا بآداب العبودية في أوان وجود الحقيقة. هـ.

❁ ❁ ❁

(١) أخرجه مسلم في (الإيمان ـ باب بيان إطلاق اسم الكفر على من ترك الصلاة) من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه.

سورة الأنفال

مدنية. وآياتها: ست وسبعون آية، نزلت كلها في غزوة بدر الكبرى، حين اختلف الصحابة - رضي الله عنهم - في قسمة الغنائم، وهي الأنفال. ووجه المناسبة لما قبلها: تحريض المؤمنين على الطاعة، والانقياد في شأن الغنائم وغيرها حتى يتشبهوا بالملائكة في سرعة الانقياد والخضوع لله تعالى، في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ﴾ الآية(١).

قال الحق جل جلاله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١) إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢) ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ (٣) أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٤)﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿يسألونك عن﴾ قسمة ﴿الأنفال﴾ وهي الغنائم، سميت الغنيمة نفلاً لأنها عطية من الله تعالى، وزيادة فضل، كما يسمى ما يشترطه الإمام للشجاع المقتحم خطرًا، نفلاً؛ لأنه عطية له زيادة على سهمه، وكما سمي يعقوب عليه السلام نافلة؛ لأنه عطية زائدة على ولد إبراهيم عليه السلام، حيث كان حفيده. ثم أجابهم الحق تعالى فقال: ﴿قل الأنفالُ لله والرسول﴾ أي: أمْرُها إلى الله ورسوله، يقسمها رسول ﷺ حيث يأمره الله تعالى، وفي الوضع الذي يعينه له.

وسبب نزولها: اختلاف المسلمين في غنائم بدر كيف تقسم، هل في المهاجرين لفقرهم، أو في الأنصار لنصرهم، أو فيهما معًا. قال ابن جزي: وذلك أنهم كانوا يوم بدر ثلاث فرق: فرقة مع النبي ﷺ في العريش تحرسه وتؤنسه، وفرقة اتبعوا المشركين فقتلوهم وأسروهم، وفرقة أحاطوا بأسلاب العدو وعسكرهم لما انهزموا، فلما انجلت الحرب واجتمع الناس، ورأت كل فرقة أنها أحق بالغنيمة من غيرها، اختلفوا فيما بينهم. فنزلت الآية. هـ.

(١) الآية: ٢٠٦ من سورة الأعراف.

وقيل: شرط رسول الله ﷺ لمن كان له غناء أن ينفله، فتسارع شبابهم حتى قتلوا سبعين وأسروا سبعين، ثم طلبوا نفلهم، وكان المال قليلاً، فقال الشيوخ والوجوه الذين كانوا عند الرايات: كنا ردءاً لكم، وفئة تنحازون إلينا، فلا تختصوا بشيء دوننا، فنزلت، فقسمها رسول الله ﷺ بينهم على السواء. ولهذا قيل: لا يلزم الإمام الوفاء بما وعد، وهذا قول الشافعي رضي الله عنه.

وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: لمَّا كان يَوْمُ بَدْرٍ قُتل أَخي عُمَيْرٌ، وقتلتُ سَعِيدَ بْنَ العَاصِ، وأخذْتُ سَيْفَهُ، وأتيتُ به رسول الله ﷺ، واستوهبته منه، فقال: «لَيْسَ هَذَا لِي، ولكن ضَعْهُ في القَبَضِ(١)»، فَطَرَحتُهُ، وفي قلبي مَالا يَعْلَمُهُ إلا الله من قَتْلِ أخِي وأخْذِ سَلَبي، فَمَا جَاوَزْتُها إلاَّ قليلاً حتى نزلت سُورَةُ الأنْفَال، فقال لي رسول الله ﷺ: «سأَلتَنِي السَّيفَ وَلَيْسَ لِي، وإنَّهُ قد صَارَ لِي فاذْهَبْ فَخُذْهُ»(٢).

﴿ فاتقوا الله ﴾ في المشاجرة والاختلاف، ﴿ وأصلحوا ذات بينكم ﴾ أي: أصلحوا الحال التي بينكم بالمواساة والموادة وسلامة الصدور، والمساعدة فيما رزقكم الله، وتسليم أمره إلى الله تعالى ورسوله، ﴿ وأطيعوا الله ورسوله ﴾ فيما يأمركم به ﴿ إن كنتم مؤمنين ﴾؛ فإن الإيمان يقتضي الاستماع والاتباع، أو إن كنتم كاملي الإيمان؛ فإن كمال الإيمان يقتضي التمسك بهذه الخصال الثلاث: امتثال الأوامر، واجتناب النواهي، وإصلاح ذات البين بالعدل والإحسان.

ثم ذكر شروط كمال الإيمان، فقال: ﴿ إنما المؤمنون ﴾ الكاملون في الإيمان: ﴿ الذين إذا ذُكر الله وَجِلتْ قلوبُهم ﴾؛ خافت واقشعرت لذكره؛ استعظاماً له وهيبة من جلاله، وقيل: هو الرجل يهم بالمعصية فيقال له: اتق الله، فينزع عنها خوفًا من عقابه، ﴿ وإذا تُليت عليهم آياته ﴾ القرآنية ﴿ زادتهم إيمانًا ﴾ أي: يقينًا وطمأنينة بتظاهر الأدلة التي اشتملت عليها، أو بالعمل بموجبها. وهو دليل على أن الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، بناء على أن العمل داخل فيه، والتحقيق: أن العمل خارج عنه، لكن نوره يتقوى به وينقص بنقصانه أو بالمعصية، وسيأتي في الإشارة الكلام عليه.

ومن أوصاف أهل الإيمان: التوكل على الله والاعتماد عليه، كما قال: ﴿ وعلى ربهم يتوكلون ﴾ وقد تقدم في «آل عمران» الكلام على التوكل(٣)، ثم وصفهم بإقامة الدين فقال: ﴿ الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم

(١) القبض ـ بالتحريك: بمعنى المقبوض، وهو ما جُمع من الغنيمة قبل أن تُقسَم. انظر: النهاية (قبض).
(٢) أخرجه أحمد في المسند ١/ ١٨٠ وابن أبي شيبة (١٢/ ٣٧٠) وسعيد بن منصور (٢٦٨٩) والطبري في التفسير، وبنحوه أخرجه أبو داود في (الجهاد، باب في النفل) والترمذي في (التفسير ـ سورة الأنفال).
(٣) راجع إشارة الآية ١٥٩ من سورة آل عمران.

ينفقون ﴾ في الواجب والتطوع. ﴿ أولئك هم المؤمنون حقًا ﴾ ؛ لأنهم حققوا إيمانهم بأن ضموا إليه مكارم أعمال القلب، من الخشية والإخلاص والتوكل، ومحاسن أعمال الجوارح التي هي العِيار عليها، كالصلاة والصدقة، ﴿ لهم درجات عند ربهم ﴾ أي: كرامات وعلو منزلة، أو درجات الجنة يرتقونها بأعمالهم، ﴿ ومغفرة ﴾ لما فرط من ذنوبهم، ﴿ ورزقٌ كريم ﴾ أعده لهم في الجنة، لا ينقطع مدده، ولا ينتهي أمده، بمحض الفضل والكرم.

الإشارة: الأنفال الحقيقة هي المواهب التي ترد على القلوب، من حضرة الغيوب؛ من العلوم اللدنية والأسرار الربانية، لاتزال تتوالى على القلوب، حتى تغيب عما سوى المحبوب، فيستغني غناء لا فقر معه أبداً، وهذه غنائم خصوص الخصوص، وغنائم الخصوص: هي القرب من الحبيب، ومراقبة الرقيب، بكمال الطاعة والجد والاجتهاد، وهذه غنائم العباد والزهاد، وغنائم عوام أهل اليمين: مغفرة الذنوب، والستر على العيوب، والنجاة من النار، ومرافقة الأبرار، وفي الحديث عنه ﷺ أنه قال: «مَنْ قَالَ عِنْدَ نومه: أَسْتَغْفِرُ اللهَ العَظِيمَ الذي لا إلهَ إلاّ هُوَ الحَيُّ القَيُّومَ وأَتُوبُ إليْه، غفَرَ اللهُ ذُنُوبَهُ، وإنْ كانَتْ مِثْلَ زَبَدِ البَحْرِ، وعَدَدَ الرِّمَالِ وعَدَدَ أيَّامِ الدُّنْيَا»(١).

قال الشيخ زروق: وهذه هي الغنيمة الباردة، وهذه الأمور بيد الله وبواسطة رسول الله ﷺ وهو معنى قوله: ﴿ قل الأنفال لله والرسول ﴾، ثم دل على موجباتها فقال: ﴿ فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم... ﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿ زادتهم إيمانا ﴾ : اعلم أن الإيمان على ثلاثة أقسام: إيمان لايزيد ولا ينقص، وهو إيمان الملائكة، وإيمان يزيد وينقص، وهو إيمان عامة المسلمين، وإيمان يزيد ولا ينقص وهو إيمان الأنبياء والرسل، ومن كان على قدمهم من العارفين الروحانيين الراسخين في علم اليقين، ومن تعلق بهم من المريدين السائرين، فهؤلاء إيمانهم دائماً في الزيادة، وأرواحهم دائماً في الترقي في المعرفة، يزيدون بالطاعة والمعصية؛ لتيقظهم وكمال توحيدهم، وفي الحكم: «وربما قضى عليك بالذنب فكان سبب الوصول». وقال أيضا: «معصية أورثت ذلاً وافتقاراً خير من طاعة أورثت عزاً واستكباراً» والله تعالى أعلم.

ثم تكلم على الخروج إلى غزوة بدر، فقال:

﴿ كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥ يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ ۝٦ ﴾

(١) أخرجه الترمذي في (الدعوات ـ باب ١٧) من حديث أبي سعيد رضي الله عنه.

قلت : (كما أخرجك) : خبر عن مبتدأ محذوف، أي: هذه الحال، وهي عزلهم عن تولية الأنفال في كراهتهم لها، كحال إخراجك في الحرب في كراهتهم لها، أو حالهم في كراهية ما رأيت من تنفيلك للغزاة، مثل حالهم في كراهية خروجك، أو صفة لمصدر الفعل المقدر في قوله: ﴿لله والرسول﴾، أي: الأنفال تثبت لله وللرسول ﷺ، مع كراهتهم، ثباتاً مثل ثبات إخراجك ربك من بيتك، يعني المدينة؛ لأنها مسكنه أو بيته منها، وجملة: (وإن فريقا) حال من أخرجك، أي: أخرجك في حال كراهية فريق من المؤمنين.

يقول الحق جل جلاله لنبيه ﷺ : قد كره أصحابك قسمتك للأنفال كما كرهوا إخراجك ﴿ ربُّك من بيتك بالحق﴾ لقتال العدو، والحال أن ﴿ فريقًا من المؤمنين لكارهون ﴾ خروجك لذلك، وتلك الكراهية من قِبل النفس وطبع البشرية، لا من قِبل الإنكار في قلوبهم لأمر الله ورسوله، فإنهم راضون مستسلمون، غير أن الطبع ينزع لحظّه، والعبد مأمور بمخالفته وجهاده.

وذلك الفريق الذي كره خروجك للقتال ﴿ يُجادلونك في الحق ﴾ أي: يخاصمونك في إيثارك الجهاد لإظهار الحق، حيث أرادوا الرجوع للمدينة، وقالوا: إنا لم نخرج لقتال، قالوا ذلك ﴿ بعد ما تبيَّن ﴾ لهم أنهم منصورون أينما توجهوا، بإعلام الرسول لهم، لكن الطبع البشري ينزع إلى مواطن السلامة، ﴿ كأنما يُساقون إلى الموت وهم ينظرون ﴾ أي: يكرهون القتال كراهة من يُساق إلى الموت، وهو يشاهد أسبابه، وكان ذلك لقلة عددهم وعدم تأهبهم، إذ رُوِي أنهم كانوا رَجَّالة، وما كان فيهم إلا فارسان، وذلك أن رسول الله ﷺ لم يخرج لقصد الجهاد، وإنما لملاقاة عير قُرَيْشٍ، لمّا سمع أنها قدمت من الشام، وفيها تجارةٌ عظيمةٌ، ومعها أربعون راكبًا، فيهم أبو سُفْيان، وعمرو بنُ العاص ، ومخرمة بن نوفل، وعمرو بن هشام، فأراد رسولُ الله ﷺ أن يتعرض لها ويأخذها غنيمة، حيث أخبره جبريل بقدومها من الشام، فأخبرَ رسولُ الله ﷺ المسلمينَ، فأعْجَبَهُم تلقيها، لكثرةِ المال وقلة الرجال، فلما خرجوا، بلَغ الخبرُ أبا سفيان، فسلك بالعير طريق السَاحِل، واستأجر من يذهب إلى مكة يستنفرها، فلما بلغهم خروج رسول الله ﷺ لعيرهم، نادى أبو جهل فوق الكعبة: يا أهل مكة، النَّجاءَ النجاءَ، على كل صَعْبٍ وذَلُولٍ، عِيرَكُمْ وأمْوالَكمْ إن أصَابَهَا مُحمَّدٌ لن تُفْلِحُوا بعدها أبدًا.

وقد رأت، قبل ذلك بثلاث ليال، عاتكةُ بنت المطلب، رؤيا؛ وهو أن رجلاً تمثل على جبل قبيس فنادى: يا آل لكع، أخرجوا إلى مصارعكم، ثم تمثل على الكعبة، فنادى مثل ذلك، ثم أخذ حجراً فضرب به، فلم يبق بيت في مكة إلا دخله شيء من ذلك الحجر، فحدثت بها العباس، وبلغ ذلك أبا جهل، فقال: أما ترضى رجالهم أن يتنبؤوا حتى تتنبأ نساؤهم؟ لنتربص ثلاثًا، فإن لم يظهر ما تقول لنكتبن عليكم يا بني هاشم أنكم أكذب بيت في العرب، فلما مضت ثلاث ليال جاء رسولُ أبي سفيان ليستنفرهم.

فخرج أبو جهل بجموع أهل مكة، ومضى بهم إلى بدر، وهو ماء كانت العرب تجتمع عليه لسوقهم يومًا في السنة، وكان رسول ﷺ بوادي ذَفِران، فنزل عليه جبريل بالوعد بإحدى الطائفتين: إما العيرُ وإما قُرَيْش، فاستشار فيه أصحابه، فقال بعضهم: ما خرجنا لقتال ولا تهيأنا له، وردد عليهم وقال: إن العير قد مضت على ساحل البحر، وهذا أبو جهل قد أقبل، فقالوا: يا رسول الله، عليكَ بالعيرِ ودعِ العدو، فغضب رسولُ الله ﷺ، فقام أبوبكر وعُمَرُ فأحْسَنَا، ثم قام سَعْد بن عُبَادة فقال: انظرْ في أمْرِكَ، وامضِ، فوالله لو سرْتَ إلى عَدَنٍ ما تَخَلَّفَ رجلٌ مِنْ الأنْصارِ، ثم قام المِقْدَادُ بْنُ عَمْرٍو فقال: إمْضِ يا رسول الله لما أمرك ربك، فإنا معك حيثما أحببتَ، لا نقولُ كما قالت بنو إسرائيل: ﴿ فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴾(١)، ولكن اذهب أنت وربكَ فقاتِلاَ إنا معكما مقاتلونَ، فتبسم رسول الله ﷺ، فقال: أشيرُوا علَيَّ أيها الناسُ، يريدُ الأنصار؛ لأنهم كانوا عددهم، وقد شرطوا حين بايعوه بالعقبة أنهم بُرءاء من ذمامه حتى يصل إلى ديارهم، فتخوف ألاَّ يروا نصرته إلا على عدو دهمه بالمدينة، فقام سَعْدُ بنُ معاذٍ وقال: لكأنكَ تُريدُنا يا رسولَ الله؟ فقال: أجَلْ، فقال: قدْ آمنَّا بِك وصدَّقْنَاك، وشَهِدْنَا أنَّ ماجِئتَ بِهِ هو الحقُّ، فأعطيْنَاكَ على ذلكَ عهودَنَا ومَوَاثِيقَنَا على السَّمْعِ والطَّاعَة، فامضِ يارَسُولَ الله لما أرَدْتَ، فوالذي بعثَكَ بالحقِ لو استعرَضْتَ بنَا هذا البَحْرَ فخُضْتَه لخضْنَاه معكَ، ما تَخَلَّفَ منَّا رجلٌ واحدٌ، وما نَكْرَه أنْ تَلْقَى بِنَا عدُوَّنَا، وإنا لَصُبُرٌ عِنْدَ الحَرْبِ، صُدُقٌ عِنْدَ اللقَاء، ولعلَّ الله يُرِيكَ منا ما تقرُّ به عينُكَ، فَسِرْ بنا على بَرَكَةِ الله، فنشَّطَهُ قَوْلُه، ثم قال: «سيرُوا علَى بَرَكَةِ الله، وأبْشِرُوا، فإنَّ الله قد وَعَدَنِي إحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ، والله لكأنِّي أنْظُرُ إلى مَصَارِعِ القَوْمِ».

ثم مضى رسول الله ﷺ حتى نزل بأصحابه آخر مياه من ميـاه بدر، فَبُنِي له هناك عريش، فجلس فيه هو وأبو بكر، فلما انتشب القتال أخذ قبضة من تراب فرمي بها وجوه القوم، وقال: شاهت الوجوه، فلم تبق عين من الكفار إلا وقع فيها شيء منها، ونزلت الملائكة في العنان، أي: السماء، فقُتل منهم سبعون، وأُسر سبعون، وقيل: إن رسول الله ﷺ لما فرغ من غزوة بدر، قيل له: عليك بالعير، فقال العباس ـ وهو في وثاقه: لا يصلح، فقيل له: لِمَ؟ فقال له: لأن الله وعدك إحدى الطائفتين، وقد أعطاك ما وعدك، فكره بعضهم قوله، ثم رجع ﷺ إلى المدينة منصوراً فرحاً مسروراً، وقد أنجزه الله ما وعده.

الإشارة: من حكمته تعالى الجارية في عباده أن كل ما يثقل على النفوس ويشق عليها في بدايته تكون عاقبته الفتح والنصر، والهناء والسرور، فكل ما تكرهه النفوس فغايته حضرة القدوس، وما تحقق سير السائرين إلا

(١) الآية ٢٤ من سورة المائدة.

بمحاربة نفوسهم ومخالفة عوائدهم. وفي الحديث عنه ﷺ، قال لابن عباس في حديث طويل: «وفِي الصَّبْرِ علَى مَا تَكْرَهُ خَيْرٌ كَثِيرٌ». والله تعالى أعلم.

ثم ذكر بقية قصة بدر، فقال:

﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ۝٧ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ۝٨ ﴾

قلت: (وإذ): ظرف لاذكر، محذوفة، و(أنها لكم): بدل اشتمال من (إحدى الطائفتين)، والشوكة: الحدة، مستعارة من واحد الشوك، وسميت الحرب شوكة لحدة سلاحها.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ و ﴾ اذكروا ﴿ إذ يعدكم الله إحدى الطائفتين ﴾؛ قريشاً، أو عِيرَهم، وعدكم ﴿ أنها لكم، وتَودون ﴾؛ وتتمنون ﴿ أنَّ غير ذات الشوكة ﴾ أي: ذات الحرب ﴿ تكونُ لكم ﴾ وهي العير، فإنها لم يكن فيها إلا أربعون رجلاً، وتكرهون ملاقاة النفير لكثرة عَدَدِهِمْ وعُدَدِهِمْ، ﴿ ويريد الله أن يُحق الحق ﴾ أي: يُظهر الحق، وهو الإسلام، بقتل الكفار وهلاكهم في تلك الغزوة، ﴿ بكلماته ﴾ أي: بإظهار كلماته العليا، أو بكلماته التي أوحي بها في هذه الحال، أو بأوامره للملائكة بالإمداد، أو بنفوذ كلماته الصادقة بهلاكهم، ﴿ ويقطع دابر الكافرين ﴾ أي: يستأصلهم ويقطع شوكتهم.

ومعنى الآية: أنكم تُريدون أن تُصيبوا مالاً ولا تلقوا مكروهاً، والله يريد إعلاء الدين وإظهار الحق، وما يحصل لكم من فوز الدارين. وإنما فعل ما فعل من سوقكم إلى القتال؛ ﴿ ليُحق الحق ويُبطل الباطل ﴾ أي: ليُظهر الدين ويبطل الكفر.

قال البيضاوي: وليس بتكرار؛ لأن الأول لبيان المراد، وما بينه وبين مرادهم من التفاوت، والثاني لبيان الداعي إلى حمل الرسول ﷺ على اختيار ذات الشوكة وقصره عليها. هـ. وقال ابن جزي: ليس تكراراً للأول؛ لأن الأول مفعول يريد، وهذا تعليل لفعل الله تعالى، ويحتمل أن يريد بالحق الأول الوعد بالنصرة، وبالحق الثاني الإسلام، فيكون المعنى: أنه نصرهم ليظهر الإسلام، ويؤيد هذا قوله: ﴿ ويُبطل الباطل ﴾ أي: يُبطل الكفر، ﴿ ولو كره المجرمون ﴾ ذلك، فإن الله لابد أن يظهر دينه على الدين كله، ولو كره الكافرون.

الإشارة: وعد الله المتوجهين إليه بالوصول إلى سر الخصوصية، وهى الولاية، لكن بعد المجاهدة والمحاربة للنفوس؛ لأن الحضرة لايدخلها إلا أهل التهذيب والتدريب، وترى كثيراً من الناس يتمنون أن تكون لهم من غير حرب ولا قتال، ويريد الله أن يحق الحق بكشف الحجب عن القلوب، حتى لايشاهدوا إلا الحق، ويبطل الباطل، وهو السَّوى، ولا يكون فى العادة إلا بعد موت النفوس وتهذيبها وتطهيرها بالرياضة على شيخ عارف. قال الششترى مترجماً عن لسان الحقيقة:

إنْ تُرِدْ وَصْلَنَا فَمَوْتك شَرْطٌ   لا يَنَالُ الوِصَالَ مَنْ فِيه فَضْلَه

ثم ذكر إمدادهم بالملائكة، فقال:

﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾

قلت: (إذ): بدل من (إذ يعدكم)، أو متعلق بقوله: (ليحق الحق)، أو باذكر.

يقول الحق جل جلاله: واذكروا حين كنتم ﴿تستغيثون ربكم﴾ وتدعون بالغوث والنصر، وذلك أن الصحابة ـ رضى الله عنهم ـ لمَّا علموا ألاَّ محيص لهم عن القتال أخذوا يقولون: ربنا انصرنا على عدوك، ياغياث المستغيثين أغثنا.

وعن عمر: رضي الله عنه (أنه ﷺ نَظَرَ إلى المُشْرِكينَ وهُمْ أَلفٌ، وإلى أصْحَابه وهُمْ ثَلاثُمائَةٍ، فاسْتَقْبَل القِبْلَةَ ومدَّ يديه يدعوه: «اللهم أَنْجِزْ لِي ما وَعَدْتَنِي، اللهُمَّ إن تَهْلكْ هذه العصابة لم تُعْبَد فى الأَرْضِ» ، فمازَالَ كَذَلكَ حتى سَقَطَ رِدَاؤُه، فقال أبُو بكرٍ: يا نَبِيَّ الله، كَفَاكَ مُنَاشَدَتَكَ ربَّكَ، فإنَّه سيُنْجِزُ لَكَ ما وَعَدَكَ)(١). وقد تقدم أن الأنبياء وكبراء الأولياء لايقفون مع ظاهر الوعد والوعيد، لسعة دائرة علمهم، بل لايزول اضطرارهم، ولا يكون مع غير الله قرارهم، ولعل ذلك الوعد يكون متوقفاً على شروط أخفاها الحق تعالى؛ لتظهر قهريته وانفراده بالعلم المحيط.

ولما استغاثوا بالله وأظهروا الحاجة إليه أجابهم فقال: ﴿فاستجاب لكم أني مُمدكم﴾؛ مقويكم ومكثركم ﴿بألفٍ من الملائكة مُردفين﴾ يتبع بعضهم بعضاً، ويتبع المؤمنين، فكانوا خلفهم ردْءاً لهم، فمن قرأ بفتح الدال

(١) أخرجه مسلم فى (الجهاد ـ باب الإمداد بالملائكة فى غزوة بدر).

فهو اسم مفعول، ومن قرأه بالكسر فاسم فاعل، وصح معنى القراءتين، لأن الملائكة المنزلين يتبع بعضهم بعضا، فمنهم تابعون ومتبوعون، ومن قرأ بالفتح فالمراد مردفين بالمؤمنين، فكانوا مقدمة الجيش، ومن قرأ بالكسر فالمراد مردفين للمؤمنين تابعين لهم، فكانوا ساقة للجيش.

ثم ذكر حكمة الإمداد بقوله: ﴿ وما جعله الله ﴾ أي: الإمداد، ﴿ إلا بُشرى ﴾ أي: بشارة بالنصر، ﴿ ولتطمئن به قلوبكم ﴾ فيزول ما بها من الوجل لقلتكم، ﴿ وما النصر إلا من عند الله ﴾، لا يتوقف على سبب، ﴿ إن الله عزيز ﴾ لا يغلب، ﴿ حكيم ﴾ في تدبير الأسباب وترتيبها رداء للقدرة الأزلية، فإمداد الملائكة، وكثرة العدد، والتأهب، وسائط، لا تأثير لها، فلا تحسبوا النصر منها، ولا تيأسوا منه بفقدها، فحُكم الأزل جلّ أن يضاف إلى العلل.

الإشارة: إظهار الفاقة والابتهال لايقدح في صحة التوكل على الكبير المتعال، بل هو شرف للإنسان، وتقريب من الكريم المنان، بل من شأن العارف الكامل الرجوع إلى الله في كل شيء، والتعلق به في كل حال، ولو وعده بالنصر أو الإجابة، لايقطع عنه السؤال، عبوديةً وتملقاً بين يدي الحبيب.

وقد اختلف الصوفية: أي الحالين أشرف: هل الدعاء والتضرع؟ أو السكوت والرضى تحت مجاري الأقدار؟ وقال بعضهم: يجب أن يكون العبد صاحب دعاء بلسانه، صاحب رضى بقلبه، ليجمع بين الأمرين. قال القشيري: والأَوْلى أن يُقال: إن الأوقات مختلفة، ففي بعض الأحوال الدعاءُ أفضلُ، وفي بعض الأحوال السكوت أفضل، وإنما يُعرف ذلك في الوقت؛ لأن علم الوقت يحصل في الوقت، فإذا وجد في قلبه إشارة إلى الدعاء؛ فالدعاء منه أولى، وإذا وجد إشارة إلى السكوت فالسكوت أتم. هـ. وقد تقدم في آل عمران إشارة الإمداد(١) . وبالله التوفيق.

ثم ذكر تأمينهم، فقال:

﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ﴾

(١) راجع إشارة الآية ١٢٥ من سورة آل عمران.

قلت : (إذ) : بدل ثان من (إذ يعدكم) ، أو متعلق بالنصر، لِمَا فى (عند الله) من معنى الفعل، أو بإضمار اذكروا. ومن قرأ بضم الياء، فهو من أغشى، أى: غطى، ومن قرأ بالتشديد، فهو من غشى المضعف، وكلاهما يتعدى إلى مفعولين، الكاف الأول والنعاس الثاني، ومن قرأ بالفتح والتخفيف، فهو من غشى يغشى؛ المتعدى إلى واحد، و(أمنة) : مفعول من أجله.

يقول الحق جل جلاله : واذكروا ﴿ إذ يُغشيكم ﴾ ، أى: حين كان يغشيكم ﴿ النُعاسَ ﴾ وأنتم فى القتال، حين ينزل عليكم الأمْن من العدو بعد شدة الخوف، وذلك لأجل الأمن الذى نزل من الله عليكم بعد شدة خوفكم. قال ابن مسعود رضي الله عنه : النعاس عند حضور القتال علامة أمْنٍ مِنَ العدو.

ثم ذكّرهم بمنة أخرى، فقال: ﴿ ويُنزل عليكم من السماء ماء ليُطهركم به ﴾ من الحدث والجنابة، ﴿ ويُذهب عنكم رجز الشيطان ﴾ أى: وسوسته وتخويفه إياهم من العطش، رُوى أنهم نزلوا فى كثيب رمل دهس، تسوخ فيه الأقدام، على ماء قليل، وناموا فاحتلم أكثرهم، فوسوس إليهم الشيطان، وقال: كيف تُنصرون وأنتم تصلون محدثين مجنبين، وتزعمون أنكم أولياء الله وفيكم رسوله ؟، فأشفقوا، فأنزل الله المطر، فمُطروا ليلاً حتى جرى الوادى، فاتخذوا الحياض على عدوته، وسقوا الركاب، واغتسلوا وتوضؤوا، وتلبد الرمل الذى بينهم وبين العدو، حتى ثبتت عليه الأقدام وزالت الدهوسة، وهذا معنى قوله: ﴿ وليَربطَ على قلوبكم ويُثبتَ به الأقدام ﴾ أى: وليربط على قلوبكم بالوثوق على لطف الله وزوال ماوسوس إليهم الشيطان، وذهاب الكسل عنها. ﴿ ويُثبت به الأقدام ﴾ حتى لا تسوخ فى الرمل، أو بالربط على القلوب حتى تثبت فى مداحض الحرب.

واذكروا أيضا: ﴿ إذ يوحي ربك إلى الملائكة أنى معكم ﴾ أى: أثبت أقدامكم حين أُوحي إلى الملائكة أنى معكم فى نصر المؤمنين وتثبيتهم، ﴿ فثبتوا الذين آمنوا ﴾ بتكثيرعددهم، أو بالبشارة لهم، أو بمحاربة أعدائهم، على قول من قال: إنهم باشروا القتال. ﴿ سأُلقى فى قلوب الذين كفروا الرعب ﴾ والجزع، حتى لايثبتوا لقتالكم، يحتمل أن يكون من خطاب الله للملائكة، أو استئناف؛ إخباراً للمؤمنين عما يفعله بعدوهم عاجلاً وآجلا. ثم قال للملائكة أو للمؤمنين: ﴿ فاضربوا فوق الأعناق ﴾ أى: أعاليها التى هى المذابح والرؤوس، ﴿ واضربوا منهم كل بَنَان ﴾ أى: أصابعهم، أى: جزوا رقابهم واقطعوا أطرافهم .

الإشارة : كان شيخ شيخنا يُشير على الفقراء، إذا كثرت عليهم الخواطر والهواجس، بالنوم، ويقول: من تشوش خاطره فليرقد حتى يشبع من النعاس، فإنه يجد قلبه؛ لأن النعاس أمنة من الله يذهب به رجز الشيطان وثقله، ويربط على القلوب فى الحضرة؛ لأنه زوال، وإذا زال العبد ظهر الحق وزهق الباطل.

وقوله تعالى: ﴿ ويُنزّل عليكم من السماء ماء ﴾ : هو ماء الغيب الذى يطهر القلوب من شهود السّوى، ويذهب به رجز الشيطان، وهى ظلمة الأكوان، التى تنعقد فى القلب من حب الهوى الذى هو من تزيين الشيطان، ويثبت به الأقدام، حتى تثبت عند مصادمة أنوار الحضرة، التى هى تجلى الذات، فلا يثبت لها إلا الشجعان والأبطا وأكابر الرجال. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر علة أمرهم بقتل الكفار، فقال:

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ ﴿١٤﴾ ﴾

قلت: (ذلكم) : مبتدأ حُذف خبره، أى: ذلكم العقاب أو العذاب، أو خبر، أى: الأمر ذلكم، أو منصوب بمضم يفسره فذوقوه، و(أن للكافرين): عطف على (ذلكم)، أو نصب على المفعول معه، وقرئ بالكسر؛ استئنافاً.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ذلك ﴾ الضرب لأعناق الكفار، أو الأمر به ﴿ بأنهم ﴾؛ بسبب أنه ﴿ شاقوا ﴾ أى: خالفوا ﴿ الله ورسوله ﴾، وصاروا كأنهم فى شق وهو فى شق؛ مبالغة فى المخالفة والمباعدة ﴿ ومن يشاقق الله ورسوله ﴾ ويبعد عنهما ﴿ فإن الله شديد العقاب ﴾ لكل من خالفه أو خالف رسوله، وه تقرير للتعليل، أو وعيد بما أعد الله لهم فى الآخرة بعد ماحاق بهم فى الدنيا، ﴿ ذلكم ﴾ العذاب ﴿ فذوقوه ﴾ وباشروا مرارته، ﴿ وأنَّ للكافرين عذابَ النار ﴾، والمعنى: ذُوقوا ماعجل لكم من النقمة فى الدنيا مع ما يحل عليكم فى الآخرة من عذاب النار، ووضع الظاهر موضع المضمر؛ للدلالة على أن الكفر سبب العذاب العاجل والآجل.

الإشارة : مخالفة الله ورسوله توجب الطرد والبعاد، وموافقة الله ورسوله توجب القربة والوداد، وهذ الموافقة التي توجب للعبد المحبة والوداد تحصل بخمسة أشياء: امتثال أمره، واجتناب نهيه، والإكثار من ذكره، والاستسلام لقهره، والاقتداء بنبيه ﷺ والتأدب بآدابه، والتخلق بأخلاقه، وبأضداد هذه الأشياء يحصل للعبد المخالفة التي توجب طرده وبُعده، وهي مخالفة أمره، وارتكاب نهيه، والغفلة عن ذكره والتسخط عند نزول قهره، وعدم الاقتداء بنبيه ﷺ؛ بارتكاب البدع المحرمة والمكروهة، حتى يُفضى به الحال إلى المشاققة والمباعدة، ﴿ ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب ﴾. وبالله التوفيق.

ثم نهى عن الفرار في الحرب، فقال:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾ ﴾

قلت: (زحفًا): مصدر، وزحف الصبي إذا دب على مقعده قليلاً قليلاً، سمي به الجيش المقابل للقتال؛ لأنه يتدفع للقتال شيئًا فشيئًا، ونصبه على الحال من فاعل «لقيتم»، أو «من الذين كفروا»، و(متحرفًا) و(متحيزًا): حالان، و(إلا) ملغاة، ووزن متحيز: متفيْعل، لا متفعل، وإلا لكان متحوزا؛ لأنه من حاز يحوز.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا ﴾ زاحفين لهم، تدبون إليهم ويدبون إليكم، تريدون قتالهم متوجهين إليهم، ﴿ فلا تُولوهم الأدبار ﴾ بالانهزام عنهم، فإنه حرام، وهو من الكبائر، ويفيد بألا يكون الكفار أكثر من ثلثي المسلمين، فإن زادوا على ثلثي المسلمين حلّ الفرار، وأن يكون المسلمون مسلحين، وإلا جاز الفرار ممن هو بالسلاح دونه، ﴿ ومن يُولِهم يومئذ دُبُره إلا متحرفاً لقتال ﴾، وهو أن يكرّ راجعًا أمام العدو ليرى عدوه أنه منهزم ثم يعطف عليه، وهو من مكائد الحرب، ﴿ أو متحيزاً إلى فئة ﴾ أي: منحازًا إلى جماعة من المسلمين ليستعين بهم، فإن كانت الجماعة حاضرة في الحرب، أو قريبة، فالتحيز إليها جائز باتفاق، واختلف في التحيز إلى المدينة والإمام والجماعة إذا لم يكن شيء من ذلك حاضرا.

ويُروى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: أنا فئة لكل مسلم. ورُوِي عن ابن عمر: أنه كان في سرية بعثهم رسول الله ﷺ، ففرّوا إلى المدينة، فقلت: يارسُولَ الله، نحن الفرّارُونَ، فقال: «أنتُمُ الكرّارُونَ، وأنا فِئتُكُمْ»(١).

فمن فرّ من الجهاد بالشرط المتقدم ﴿ فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنمُ وبئس المصيرُ ﴾، ومن هنا يفهم أنه من الكبائر. قال البيضاوي: وهذا إذا لم يزد العدو على الضعف، لقوله: ﴿ الآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ... ﴾(٢) الآية، وقيل: الآية مخصوصة بأهل بيته والحاضرين معه في الحرب. هـ.

الإشارة: يقول الحق جل جلاله للمتوجهين إليه بالمجاهدة والمكابدة: إذا لقيتم أعداءكم من القواطع؛ كالحظوظ، والشهوات، وسائر العلائق، فاثبتوا حتى تظفروا، ولا ترجعوا وتولوهم الأدبار فيظفروا بكم، إلا متحرفًا

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٢/٧٠) وأبو داود في (الجهاد ـ باب في التولي يوم الزحف) والترمذي وحسنه في (الجهاد ـ باب ماجاء في الفرار يوم الزحف).

(٢) الآية ٦٦ من سورة الأنفال.

لقتال، بإيثار بعض الرخص، ليقوى على ما هو أشد منها مشقة عليها، أو متحيزاً إلى جماعة من أكابر العارفين، فإنهم يُغنونه بالمشاهدة عن المجاهدة، إذا ملكهم زمام نفسه، وفعل كل ما يُشيرون به عليه، فإن ذلك يُفضي به إلى الراحة بعد التعب، والمشاهدة بعد المجاهدة، إذ لا تجتمع المجاهدة في الظاهر مع مشاهدة الباطن عند أهل الذوق.

قال القشيري ـ بعد كلامه على الآية: فالأقوياء من الأغنياء ينفقون على خَدَمِهم من نعمهم، والأصفياء من الأولياء يُنفقون على مريديهم من هِمَمِهم؛ يجبرون كَسْرَهم وينوبون عنهم، ويساعدونهم بحسن إرشادهم، ومَنْ أهمل مريداً وهو يعرف صِدْقَه، أو خالَفَ شيخًا وهو يعرف فضلَه وحقَّه، فقد باءَ من الله بسخطٍ، والله تعالى حسيبُه في مكافأته على ما حصل من قبيح وصفه. هـ.

ثم عزلهم عن الحول والقوة، فقال:

﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِىَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٨﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: فلَمْ تقتلوا الكفار بحولكم وقوتكم وذلتكم، وقلة عُددكم وعَددكم، وكثرة عدد عدوكم وعُددتهم، ﴿ ولكنَّ الله قتلهمْ ﴾ بواسطة مباشرتكم، حيث أيدكم وسلطكم عليهم، وإمداد الملائكة لكم، وإلقاء الرعب في قلوب عدوكم.

قال البيضاوي: رُوي أنه لما أطلّتْ قريش من العقنقل ـ اسم جبل ـ قال ﷺ: «هذهِ قُرَيْشٌ جاءَتْ بخُيَلائها وفَخْرِهَا، يُكَذِّبُون رَسُولَكَ، اللَّهُمَّ إنِّي أَسْأَلُكَ مَا وَعَدْتَنِي» ، فأتاهُ جبْريلُ، وقال له: خُذْ قَبْضَةً مِنْ تُرابٍ فارْمِهِمْ بها، فلمَّا التَقَى الجَمْعَانِ تناول كفًا من الحَصْبَاءِ فرَمى بها في وُجُوهِهِم، وقال: «شَاهَتْ الوُجُوه» ، فلَمْ يَبق مُشْرِكٌ إلا شُغِلَ بعَيْنيه، فانْهَزَمُوا. وردفهم المؤمنون يقتلونهم ويأسرونهم، ثم لما انصرفوا أقبلوا على التفاخر، فيقول الرجل: قتلتُ وأسرتُ، فنزلت الآية، والفاء جواب شرط محذوف، تقديره: إن افتخرتم بقتلهم فلَمْ تقتلوهم، ولكن الله قتلهم، ﴿ وما رميتَ ﴾ يا محمد رمياً توصلها إلى أعينهم، ولم تقدر عليه ﴿ إذْ رميتَ ﴾ أي: حين ألقيت صورة الرمي، ﴿ ولكنَّ الله رَمَى ﴾، أتى بما هو غاية الرمي، فأوصلها إلى أعينهم جميعًا، حتى انهزموا وتمكنتم من قطع دابرهم. هـ. فالرمي، حقيقة، إنما وقع من الله تعالى، وإن ظهر حساً من النبي ﷺ.

وإنما فعل ذلك ليقطع طرفا من الكفار، ويحد شوكتهم، ﴿ وليُبلي المؤمنين منه بلاءً حسناً ﴾ أي: ليختبر المؤمنين منه اختباراً حسنا، ليظهر شكرهم على هذه النعمة، أو لينعم عليهم نعمة عظيمة؛ بالنصر والغنيمة ومشاهدة الآيات، ﴿ إن الله سميع ﴾ لاستغاثتهم ودعائهم، ﴿ عليم ﴾ بنياتهم وأحوالهم. ﴿ ذلكم ﴾ أي: البلاء الحسن، أو القتل، أو الرمي، واقع لا محالة، أو الأمر ذلكم، ﴿ وأن الله موهن كيد الكافرين ﴾ أي: مضعف كيد الكافرين، ومبطل حيلهم، أي: المقصود بذلك القتل أو الرمي إبلاء المؤمنين، وتوهين كيد الكافرين وإبطال حيلهم.

الإشارة : يقول الحق جل جلاله للمريدين المتوجهين لحضرة محبوبهم: فلَمْ تقتلوا نفوسكم بمجاهدتكم؛ إذ لاطاقة لكم عليها، ولكن الله قتلها بالنصر والتأييد، حتى حييت بمعرفته، ويقول للشيخ : وما رميت القلوب بمحبتي ومعرفتي، ولكن الله رمى تلك القلوب بشيء من ذلك، وإنما أنت واسطة وسبب من الأسباب العادية، لا تأثير لك في شيء من ذلك.

حُكي أن الحلاج، لما كان محبوساً للقتل، سأله الشبلي عن المحبة، فقال: الغيبة عما سوى المحبوب، ثم قال: يا شبلي، ألست تقرأ كتاب الله؟ فقال الشبلي: بلى، فقال: قد قال الله لنبيه ـ عليه الصلاة والسلام ـ: ﴿وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى﴾، يا شبلي؛ إذا رمَى اللهُ قَلْبَ عبده بِمَحبَّةٍ من حبِّه، نادي عليه مدى الأزمان بلسان العتاب.هـ. والمقصود بذلك: تخصيص أوليائه المقربين بالمحبة والمعرفة والتمكين، وتوهين كيد الغافلين المنكرين لخصوصية المقربين. والله تعالى أعلم.

ولما أرادت قريش الخروج إلى غزوة بدر، تعلقوا بأستار الكعبة، وطلبوا الفتح، وقالوا: اللهم انصر أعلى الجندين، وأهْدَى الفئتين، وأكرم الحزبين، كما أشار إلى ذلك الحق تعالى بقوله:

﴿ إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُوا نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله لكفار مكة على جهة التهكم: ﴿ إن تستفتحوا ﴾ أي: تطلبوا الفتح، أي: الحكم على أهْدى الفئتين وأعلى الجندين وأكرم الحزبين، ﴿ فقد جاءكم ﴾ الحكم كما طلبتم، فقد نصر الله أعلى الجندين وأهدى الفئتين وأكرم الحزبين، وهو محمد ﷺ وحزبه، ﴿ وإن تنتهوا ﴾ عن الكفر ومعاداة الرسول، ﴿ فهو خير لكم ﴾؛ لتضمنه سلامة الدارين وخير المنزلين، ﴿ وإن تعودوا ﴾ لمحاربته ﴿ نعد ﴾ لنصره، ﴿ ولن تغني ﴾؛ تدفع ﴿ عنكم فئتكم ﴾؛ جماعتكم ﴿ شيئاً ﴾ من المضار ﴿ ولو كثُرت ﴾ فئتكم، إذ العبرة بالنصرة لا بالكثرة، ﴿ وإن الله مع المؤمنين ﴾ بالنصر والمعونة.

ومن قرأ بالفتح؛ فعلى حذف الجار، أي: ولأن الله مع المؤمنين، وقيل: الخطاب للمؤمنين، والمعنى: إن تستنصروا فقد جاءكم النصر، وإن تنتهوا عن التكاسل في القتال، والرغبة عما يختاره الرسول، فهو خير لكم، وإن تعودوا إليه نعد عليكم بالإنكار، أو تهييج العدو، ولن تغني، حينئذ، عنكم كثرتكم؛ إذ لم يكن الله معكم بالنصر، فإنه مع الكاملين في إيمانهم. قاله البيضاوي.

الإشارة: إن تستفتحوا أيها المتوجهون، أي: تطلبوا الفتح من الله في معرفته، فقد جاءكم الفتح، حيث صح توجهكم وتركتم حظوظكم وعلائقكم، لأن البدايات مَجْلاَةُ النهايات، من وجد ثمرة عمله عاجلاً فهو علامة القبول آجلاً، وإن تنتهوا عن حظوظكم وعوائقكم فهو خير لكم، وبه يقرب فَتْحُكُم، وإن تعودوا إليها نعد إليكم بالتأديب والإبعاد، ولن تغني عنكم جماعتكم شيئاً في دفع التأديب، أو البعد، ولو كثرت، وأن الله مع المؤمنين الكاملين في الإيمان؛ بالنصر والرعاية.

ثم أمر بالسمع والطاعة، فقال:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا اللهَ﴾ فيما أمركم به ونهاكم عنه، ﴿ورسولَه﴾ فيما ندبكم إليه، من الجهاد وغيره، ﴿ولا تَولوا﴾ أي: تُعرضوا عن الرسول ﴿وأنتم تسمعون﴾ القرآن يأمركم بالتمسك به، والاقتداء بهديه. والمراد بالآية: النهي عن الإعراض عن الرسول. وذكرُ طاعة الله إما هو للتوطئة والتنبيه على أن طاعة الله في طاعة الرسول، لقوله: ﴿من يُطعِ الرسولَ فقد أطاعَ الله﴾(١)، ثم أكد النهي بقوله: ﴿ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا﴾ بآذاننا، كالكفرة والمنافقين، ادَّعوا السماع، ﴿وهم لا يسمعون﴾ سماعاً ينتفعون به، فكأنهم لا يسمعون رأساً.

الإشارة: لما غاب عليه الصلاة والسلام بقي خلفاؤه في الظاهر والباطن؛ وهم العلماء الأتقياء، والعارفون الأصفياء. فمن تمسك بهم، واستمع لقولهم، فقد تمسك بالرسول ﷺ، ومن أعرض عنهم فقد أعرض عنه ﷺ، فمن تمسك بما جاءت به العلماء، فاز بالشريعة المحمدية، وكان من الناجين الفائزين. ومن تمسك بالأولياء العارفين، واستمع لهم، وتبع إرشادهم، فاز بالحقيقة الربانية، وكان من المقربين. ومن سمع منهم الوعظ والتذكير،

(١) من الآية ٨٠ من سورة النساء.

ثم صرفه عن نفسه إلى غيره، يصدق عليه قوله تعالى: ﴿ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون﴾ وكان من شر الدواب التى أشار إليهم تعالى بقوله:

﴿ ۞ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿إنَّ شر الدوابِّ عند الله﴾، وهو كل من يدب على وجه الأرض، ﴿الصمُّ﴾ عن سماع الحق، ﴿البُكمُ﴾ عن النطق به، ﴿الذين لا يعقلون﴾ الحق ولا يعرفونـه، عدهم من البهـائم ثم جعلهـم شرها؛ لإبطالهم ما مُيزوا به وفُضلوا لأجله، وهو استعمال العقل فيما ينفعهم من التفكر والاعتبـار. قال ابن قتيبة: نزلت هذه الآية فى بنى عبد الدار، فإنهم جدوا فى القتال مع المشركين، يعنى يوم بدر، وحكمها عام.

﴿ولو علِمَ الله فيـهم خيراً﴾، سـعادة كتبت لهم، أو انتفاعاً بالآيات، ﴿لأسـمعهُم﴾ سـماع تفَهُّم، ﴿ولو أسمعهم﴾، مع كونه قد علم الأخير فيهم، ﴿لتولَّوا﴾ عنه، ولم ينتفعوا به، وارتدوا بعد التصديق والقبول، ﴿وهم مُعرضون﴾ عنه، لعنادهم، وقيل: إنهم طلبوا من النبى ﷺ أن يُحيي لهم قُصى بن كلاب، ويشهد له بالرسالة، حتى يسمعوا منه ذلك، فأنزل الله: ﴿ولو عَلِمَ اللهُ فيهم خيراً لأسمعهم﴾ كلامه بعد إحيائه، ﴿ولو أسمعهم لتولوا وهم مُعرضُون﴾، لسبق الشقاوة فى حقهم.

الإشارة: اعلم أن الأمر الذى شرف به الآدمي وفضل غيره هو معرفة خالقه، واستعمال العقل فيما يقربه إليه، وسماع الوعظ الذى يزجره عن غيه، فإذا فقد هذا كان كالبهائم أو أضل، ولله در ابن البنا، حيث يقول فى مباحثه:

وَاعْلَمْ أنّ عُصْبَةَ الجُهَّالِ   بهَائِمٌ فى صُوَرِ الرِّجَالِ

واعلم أيضـا أن بعض القلوب لا تقبل علم الحقائق، فأشغلها بعلم الشرائع، ولو علم فيـها خيراً لأسمعـها تلك الأسرار، ولو أسمعها، مع علمه بعدم قبولها، لتولت عنها وأعرضت؛ لضيق صدرها وعدم التفرغ لها.

ثم دل على ما فيه حياة القلوب، فقال:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله ﴾ أى: أجيبوه فيما دعاكم إليه، ﴿ وللرسول ﴾ فيما دلكم عليه من الطاعة والإحسان، ﴿ إذا دعاكم لما يُحييكم ﴾ من العلوم الدينية؛ فإنها حياة القلب، كما أن الجهل موته، أو ﴿ إذا دعاكم لما يُحييكم ﴾ الحياة الأبدية، فى النعيم الدائم، من العقائد والأعمال، أو من الجهاد، فإنه سبب بقائكم؛ إذ لو تركتموه لغلبكم العدو وقتلكم، أو الشهادة، لقوله تعالى: ﴿ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾(١)، ووحد الضمير فى قوله: ﴿ إذا دعاكم ﴾ باعتبار ما ذكر، أو لأن دعوة الله تُسمع من الرسول.

وفى البخارى: أن الرسول ﷺ دعا أُبيّ بْنَ كَعْبٍ، وهو فى الصَّلاةِ، فلم يجب، فلما فرغ أجاب، فقال له ﷺ: «ما مَنَعكَ أن تجيبنى؟ فقال: كُنْتُ أُصلِّي، فقال: ألمْ تَسْمَعْ قوله: ﴿اسْتَجِيبُوا لله ولِلرسُولِ﴾.»(٢) فاختلف فيه العلماء، فقيل لأن إجابته ﷺ لا تقطع الصلاة، فيُجيب، ويبقى على صلاته، وقيل: إن دعاءه كان لأمر لا يقبل التأخير، وللمصلى أن يقطع الصلاة لمثله، كإنقاذ أعمى وشبهه.

ثم قال تعالى: ﴿ واعلموا أنَّ الله يَحُولُ بين المرء وقلبه ﴾؛ فينقله من الإيمان إلى الكفر، ومن الكفر إلى الإيمان، ومن اليقين إلى الشك، ومن الشك إلى اليقين، ومن الصفاء إلى الكدر، ومن الكدر إلى الصفاء. قال البيضاوى: هو تمثيل لغاية قربه من العبد؛ كقوله تعالى: ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾(٣)، وتنبيه على أنه مطلع على مكنونات القلوب، مما عسى أن يغفل عنها صاحبها، أو حث على المبادرة إلى إخلاص القلوب وتصفيتها، قبل أن يحول الله بينه وبين قلبه بالموت أو غيره، أو تصوير وتخييل لتملكه على العبد قلبه؛ فيفسخ عزائمه، ويغير مقاصده، ويحول بينه وبين الكفر، إن أراد سعادته، وبينه وبين الإيمان، إن قضى شقاوته. هـ. ﴿ و ﴾ اعلموا أيضاً ﴿ أنه إليه تُحشرون ﴾؛ فيجازيكم بأعمالكم وعقائدكم.

الإشارة: قد جعل الله، من فضله ورحمته، فى كل زمان وعصر، دعاة يدعون الناس إلى ما تحيا به قلوبهم، حتى تصلح لدخول حضرة محبوبهم، فهم خلفاء عن الله ورسوله، فمن استجاب لهم وصحبهم حيى قلبه، وتطهر سره ولبه، ومن تنكب عنهم ماتت روحه فى أودية الخواطر والأوهام.

---

(١) من الآية ١٦٩ من سورة آل عمران.

(٢) أخرجه البخارى فى (تفسير سورة الأنفال ـ باب قول الله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول..) وفيه أن المدعو هو «أبو سعيد المعلى» وليس «أُبى» أما حديث أُبَيّ فأخرجه الترمذى فى: (فضائل القرآن ـ باب ما جاء فى فضل فاتحة الكتاب) وأحمد فى المسند ٥/١١٤ والدرامى فى (فضائل القرآن ـ باب فضل فاتحة الكتاب) والحاكم فى المستدرك (١/٥٥٨) وصححه ووافقه الذهبى. وقال الحافظ ابن حجر: وجمع البيهقى بأن القصة وقعت لأُبى بن كعب ولأبى سعيد بن المعلى. راجع الفتح ٨/١٥٨.

(٣) الآية ١٦ من سورة ق.

وقوله تعالى: ﴿ واعلموا أن الله يَحولُ بين المرء وقلبه ﴾ ، حيلولة الحق تعالى بين المرء وقلبه هو تغطيته وحجبه عن شهود أسرار ذاته وأنوار صفاته، بالوقوف مع الحس، وشهود الفرق بلا جمع، ويعبر عنه أهل الفن بفقْدِ القلب، فإذا قال أحدهم: فقدتُ قلبي، فمعناه: أنه رجع لشهود حسه ووجود نفسه، ووجدان القلب هو احتضاره بشهود معاني أسرار الذات وأنوار الصفات، فيغيب عن نفسه وحسه، وعن سائر الأكوان الحسية، وفقدان القلب يكون بسبب سوء الأدب، وقد يكون بلا سبب؛ اختباراً من الحق تعالى، هل يفزع إليه في فقده أو يبقى مع حاله.

وقد تكلم الغزالي على القلب فقال، في أول شرح عجائب القلب من الإحياء: إن المطيع بالحقيقة لله هو القلب، وهو العالم بالله، والعامل لله، وهو الساعي إلى الله، والمتقرب إليه، المكاشف بما عند الله ولديه، وإنما الجوارح أتباع، والقلب هو المقبول عند الله، إذا سَلِمَ من غير الله، وهو المحجوب عن الله إذا صار مستغرقاً في غير الله، وهو المطالب والمخاطب، وهو المعاتب والمعاقب، وهو الذي يسعد بالقرب من الله، فيفلح إذا زكاه، ويخيب ويشقى إذا دنسه ودساه. ثم قال: وهو الذي إذا عرفه الإنسان فقد عرف نفسه، وإذا عرف نفسه فقد عرف ربه، وإذا جهله فقد جهل نفسه، وإذا جهل نفسه، جهل ربه، ومن جهل قلبه فهو لغيره أجهل، وأكثر الناس جاهلون بقلوبهم وأنفسهم وقد حيل بينهم وبين أنفسهم، فإن الله يحول بين المرء وقلبه، وحيلولته بأن يمنعه عن مشاهدته ومراقبته، ومعرفة صفاته، وكيفية تقلبه بين أصبعين من أصابع الرحمن، إلى أعلى عليين، ويرتقي إلى عالم الملائكة المقربين، ومن لم يعرف قلبه ليراقبه ويراعيه، ويترصد ما يلوح من خزائن الملكوت عليه وفيه، فهو ممن قال الله تعالى فيهم: ﴿ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ ﴾(١) الآية. هـ.

وقد أنشد من وجد قلبه، وعرف ربه، وغني بما وجد، فقال:

أَنَا القُرآن وَالسَّبعُ المَثَانِي ... وروحُ الرُّوحِ لا روح الأَوَانِي
فؤادي عند معلوم مقيم ... تناجيه وعندكم لساني
فَلاَ تَنظُرْ بِطَرْفِكَ نَحْوَ جِسْمِي ... وعُدْ عن التنعم بالأواني
فأَسْرَارِي تراءت مبهمات ... مُستَتَرَةً بأَنْوار المَعَاني
فَمَنْ فَهِمَ الإِشَارَةَ فَلِيَصُنْهَا ... وإلاَّ سوف يقتل بالسنانِ
كحَلاَّجِ المحبة إذ تبدَّتْ ... له شمسُ الحقيقة بالتداني

(١) الآية ١٩ من سورة الحشر.

ومن أسباب تشتت القلب وفقده دخولُ الفتنة عليه، الذى أشار إليه بقوله:

﴿ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٥﴾ ﴾

قلت: دخلت النون في (لاتصيبن)؛ لأنه في معنى النهي، على حد قوله: ﴿ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ ﴾(١). انظر البيضاوى.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ واتقوا فتنة ﴾، إن نزلت، ﴿ لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ﴾، بل تعم الظالم وغيره، ثم يبعث الناس على نيتهم، وذلك كإقرار المنكرَ بين أظهركم، والمداهنة فى الأمر بالمعروف، واقتراف الكبائر، وظهور البدع، والتكاسل في الجهاد، وعن الفرائض، وغير ذلك من أنواع الذنوب، وفي الحديث: «لتَأْمُرُنَّ بالمَعْرُوفِ ولَتَنْهَوُنَّ عن المُنْكَرِ، أو ليَعُمَّنَّكُمْ اللهُ بعذابه»(٢). أو كما قال ﷺ. قالت عائشة رضي الله عنها: أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: «نعم، إذا كثُر الخبث»(٣).

قال القشيرى، فى معنى الآية: احذروا أن ترتكبوا زلَّةً توجب لكم عقوبة لا تخص مرتكبها، بل يعمُّ شؤمُها مَنْ تعاطاها ومن لم يتعاطاها. وغير المجرم لا يُؤْخَذ بجرْم من أذنب، ولكن قد ينفرد واحدٌ بجرمٍ فيحمل أقوامٌ من المختصين بفاعل هذا الجُرْم، كأن يتعصبوا له إذا أُخِذَ بحكم ذلك الجرم، فبعد ألا يكونوا ظالمين يصيرون ظالمين بمعاونتهم وتعصبهم لهذا الظالم؛ فتكون فتنة لا تختص بمن كان ظالمًا في الحال، بل تصيب أيضًا ظالمًا في المستقبل؛ بسبب تعصبه لهذا الظالم، ورضاه به. هـ. وسيأتى تمامه فى الإشارة.

وحكى الطبرى أنها نزلت في علي بن أبي طالب وعمار بن ياسر وطلحة والزبير، وأن الفتنة ما جرى لهم يوم الجمل.هـ. قال تعالى: ﴿ واعلموا أن الله شديد العقاب ﴾ لمن ارتكب معاصيه وتسبب في فتنة غيره.

الإشارة: فى القشيرى، لما تكلم على تفسير الظاهر، قال: وأما من جهة الإشارة فإن العبدَ إذا باشر زلَّةً بنفسه عادت إلى القلب منها الفتنة، وهي العقوبة المعجلة، وتصيب النفس من الفتنة العقوبة، والقلبُ إذا حصلت

---

(١) من الآية ١٨ من سورة النمل.

(٢) أخرجه بلفظ مقارب الإمام أحمد فى المسند (٥/٣٨٨). والترمذى فى (الفتن - باب ما جاء فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر) وحسنه. من حديث حذيفة بن اليمان. ولفظ الترمذي: «والذى نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً منه، ثم تدعونه فلا يستجاب لكم».

(٣) أخرجه البخارى فى (المناقب، باب علامات النبوة فى الإسلام) عن أم المؤمنين زينب بنت جحش مطولاً. وفيه السائلة: زينب، وليست عائشة ـ رضي الله عن أزواجه نبينا الطاهرات.

منه فتنة، وهو همه بما لا يجوز، تَعدّتْ فتنته إلى السر وهى الحُجْبَة. وكذلك المُقَدّمُ فى شأنه، إذا فعل مالا يجوز، انقطعت البركات التى كانت تتعدى منه إلى مُتَّبعِيه وتلامذته، فكان انقطاع تلك البركات عنهم نصيبهم من الفتنة، وهم لم يعملوا ذنبًا، ويقال: إن الأكابر إذا سكتوا عن التنكيرعلى الأصاغر أصابتهم فتنة بتَرْكِهم الإنكار عليهم فيما فعلوا من الإجرام.

ثم قال: ويقال: إنَّ الزاهد إذا انحط إلى رخصة الشرع فى أخذ الزيادة من الدنيا بما فوق الكفاية - وإن كانت من وجه حلال - تعدت فتنتُه إلى من يتخرج على يديه من المبتدئين، فيحمله على ما رأى منه على الرغبة فى الدنيا، وتَرْكِ التقلل، فيؤديه إلى الانهماك فى أودية الغفلة فى الأشغال الدنيوية. والعابد إذا جَنَحَ إلى سوء ترك الأوراد تعدّى ذلك إلى ما كان ينشط فى المجاهدة به، ويتوطّن الكسل، ثم يحمله الفراغ وترك المجاهدة على متابعة الشهوات، فيصير كما قيل:

إن الشـــبابَ والفراغ والجِـدَةْ مَفْسَـدَةٌ للمــرء أى مفسـدة(1)

فهذا يكون نصيبهم من الفتنة، والعارف إذا رجع إلى ما فيه حظ له، نظر إليه المريدُ فتتداخله فتنة فَتْرَةٌ فيما هو به من صدق المنازلة، فيكون ذلك نصيبه من فتنة العارف. وبالجملة: إذا غفل المَلِكُ، وتَشاغَلَ عن سياسة رعيته، تَعَطَّلَ الجندُ والرعية، وعَظُمَ فيهم الخَلَلُ والبليّة، وفى معناه أنشدوا:

رُعَاتُك ضيّعوا - بالجهل منهم غُنَيْمـــاتٍ فَساسَتْها ذِئابُ.

انتهى كلامه رضي الله عنه.

ثم ذكّرهُمْ بالنعم، فقال:

﴿ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ واذكروا إذ أنتم قليل ﴾ أى: اذكروا هذه النعمة، حيث كنتم بمكة وأنتم قليل عَددكم مع كثرة عدوكم، ﴿ مستضعفون في الأرض ﴾ أى: أرض مكة، يستضعفكم قريش ويعذبونكم ويضيقون عليكم، ﴿ تخافون أن يتخطفكم الناسُ ﴾ أى: قريش، أو من عداهم، ﴿ فآواكم ﴾ إلى المدينة، وجعلها لكم مأوىً

(1) البيت لأبي العتاهية.. انظر: (نهاية الأرب ٣/ ٨٠ ومعاهد التنصيص ٢/ ٨٣).

تتحصنون بها من أعدائكم، ﴿ وأيدكُم ﴾ أي: قواكم ﴿ بنصره ﴾ على الكفار، أو بمظاهرة الأنصار، أو بإمداد الملائكة يوم بدر، ﴿ ورزقكم من الطيبات ﴾؛ من الغنائم، ﴿ لعلكم تشكرون ﴾ هذه النعم.

والخطاب للمهاجرين، وقيل: للعرب كافة؛ فإنهم كانوا أذلاء في أيدي فارس والروم، يخافون أن يتخطفهم الناس من كثرة الفتن، فكان القوى يأكل الضعيف منهم، فآواهم الله إلى الإسلام، فحصل بينهم الأمن والأمان، وأيدهم بنصره، حيث نصرهم على جميع الأديان، وأعزهم بمحمد ﷺ، ورزقهم من الطيبات، حيث فتح عليهم البلاد وملكوا ملك فارس والروم، فملكوا ديارهم وأموالهم، ونكحوا نساءهم وبناتهم، لعلهم يشكرون.

الإشارة: التذكير بهذه النعمة يتوجه إلى خصوص هذه الأمة، وهم الفقراء المتوجهون إلى الله، فهم قليل في كل زمان، مستضعفون في كل أوان، حتى إذا تمكنوا وتهذبوا، وطهروا من البقايا، منّ عليهم بالنصر والعز والتأييد، كما وعدهم بقوله: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ... ﴾ الآية(1)، والغالب عليهم شكر هذه النعم، لِما خصهم به من كمال المعرفة. والله تعالى أعلم.

ثم نهاهم عن الخيانة، فقال:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله ﴾؛ بتضييع أوامره وارتكاب نواهيه، ﴿ والرسول ﴾؛ بمخالفة أمره وترك سنته، أو بالغلول في الغنائم، أو بأن تُبطنوا خلاف ما تظهرون.

قيل: نزلت في أبي لبابة في قصة بَنِي قُرَيْظَةَ. روى أنه ﷺ حاصرهم إحْدَى وعشرين ليلةً، فَسَألوا الصُّلْحَ كما صالَحَ إِخْوَانَهُمْ بَنِي النَّضِير، علَى أَنْ يصيروا إلى إخوانهم بأذْرِعَاتٍ وأريحا من الشَّام، فأبَى إلا أن يَنْزِلُوا علَى حُكْمِ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ، فأبَوْا وقَالُوا: أرْسِلْ لنا أبا لُبَابَةَ، وكان مُنَاصِحاً لهمْ؛ لأنَّ عيالَهُ ومَالَهُ فِي أيْدِيهِمْ، فَبَعَثَهُ إِلَيهِمْ، فقالوا: ما تَرَى؟ هَلْ نَنْزِل على حُكْم سَعْدٍ؟ فأشارَ إلى حلْقِهِ، أنهُ الذَّبْحُ، فقال أبو لُبَابَة: فمازالت قَدَمَاي حتَّى عَلِمْتُ أنّي قَدْ خُنْتُ اللهَ ورسولَهُ، فنزل وشدَّ نَفْسَهُ إلى ساريةٍ في المسجد، وقال: والله لا أذُوقُ طعاماً ولا شَرَاباً حتى أمُوتَ، أو يَتوبَ اللهُ علَيّ، فَمَكَثَ سَبْعَةَ أيامٍ حتى خَرَّ مَغْشِياً عَلَيْهِ، ثم تَابَ اللهُ عليْهِ، فَقِيلَ لَهُ: قد تِيبَ علَيْكَ فَحُلَّ نفسك، فقال:

(1) الآية ٥ من سورة القصص.

لا والله لا أحلها حتى يكون رسول الله ﷺ هو الذى يحلنى، فجاء رسولُ الله ﷺ فحلَّه، فقال: إنَّ من تَمام تَوْبَتى أن أهْجُرَ دارَ قَوْمِى الَّتِي أصبْتُ فيها الذَّنْب، وأنْ أنخَلِعَ من مَالِى، فقال ﷺ: «يجْزِيكَ الثُّلُثُ أنْ تَتَصدَّقَ بِهِ»(١).

ثم قال تعالى: ﴿ وتخونوا أماناتكم ﴾ فيما بينكم، أو فيما أسر الرسول إليكم من السر فتفشوه، ﴿ وأنتم تعلمون ﴾ أن الخيانة ليست من شأن الكرام، بل هى من شأن اللئام، كما قال الشاعر:

لا يَكْتمُ السرَّ إلا كُلُّ ذِى ثِقَةٍ فالسرُّ عِنْدَ خِيَارِ النَّاسِ مَكْتُومُ

أو: وأنتم علماء تميزون الحسن من القبيح.

﴿ واعلموا أنما أموالكم وأولادُكُم فتنةٌ ﴾؛ لأنه سبب الوقوع فى الإثم والعقاب، أو محنة من الله تعالى ليبلوكم فيهم، فلا يحملنكم حبهم على الخيانة، كما فعل أبو لبابة. ﴿ وأنَّ الله عنده أجرٌ عظيم ﴾ لمن آثر رضا الله ومحبته عليهم، وراعى حُدود الله فيهم، فعلِّقوا هممكم بما يؤديكم إلى أجره العظيم، ورضاه العميم، حتى تفوزوا بالخير الجسيم.

الإشارة: خيانة الله ورسوله تكون بإظهار الموافقة وإبطان المخالفة، بحيث يكون ظاهره حسن وباطنه قبيح، وهذا من أقبح الخيانة، وينخرط فيه إبطان الاعتراض على المشايخ وإظهار الوفاق، وهو من أقبح العقوق لهم، وأما خيانة الأمانة فهى إفشاء أسرار الربوبية لغير أهلها، فمن فعل ذلك فسيف الشريعة فوق رأسه، إذا كان سالكاً غير مجذوب، لأن من أفشى سر الملك استحق القتل، وكان خائناً، ومن كان خائنًا لا يُؤمن على السر، فهو حقيق أن ينزع منه، إن لم يقتل أو يتب، ولله در القائل:

سَأَكْتُم عِلْمِي عَنْ ذَوِى الجَهْلِ طَاقَتِي(٢) وَلاَ أَنْثُرُ الدُّر النفيس على الْبَهَمْ

فَإِنْ قَدَّرَ اللهُ الكريمُ بلطْفِهِ وَلاَقَيْتُ أهلاً للعلوم وللحِكَمْ

بَذَلْتُ عُلومِي واسْتَفَدتُ عُلُومَهُمْ وإلاَّ فمخزونٌ لدىَّ ومُكْتَتَمْ

---

(١) أخرجه عن قتادة ـ مرسلاً ـ ابن جرير فى التفسير، وعزاه السيوطى فى الدر المنثور لسعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبى الشيخ وابن جرير.

(٢) إذا لم يعلم الجاهل وكتمنا عنه العلم، فما فائدة العلم إذن..؟!

ثم دلهم على ما فيه دواء القلوب ومحو العيوب، فقال:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله﴾، كما أمركم، ﴿يجعل لكم فرقاناً﴾؛ نوراً في قلوبكم، تفرقون به بين الحق والباطل، والحسن والقبيح. قال ابن جزي: وذلك دليل على أن التقوى تُنور القلب، وتشرح الصدر، وتزيد في العلم والمعرفة. هـ. أو: نصراً يُفرق بين المحق والمبطل؛ بإعزاز المؤمنين وإذلال الكافرين، أو مخرجاً من الشبهات، أو نجاة مما تحذرون في الدارين من المكروهات، أو ظهوراً يشهر أمركم ويثبت صيتكم، من قولهم: سطع فرقان الصبح، أي: نوره، ﴿ويكفر عنكم سيئاتكم﴾ أي: يسترها، فلا يفضحكم يوم القيامة، ﴿ويغفرْ لكم﴾؛ يتجاوز عن مساوئكم، أو يكفر صغائركم ويغفر كبائركم، أو يكفر ما تقدم ويغفر ما تأخر، ﴿والله ذو الفضل العظيم﴾، ففضله أعظم من كل ذنب، وفيه تنبيه على أن ما وعده لهم على التقوى تفضل منه وإحسان، لا أن تقواهم أوجبت ذلك عليه، كالسيد إذا وعد عبده أن يعطيه شيئاً في مقابلة عمل أمره به، مع أنه واجب عليه لا محيد له عنه. والله تعالى أعلم.

الإشارة: الفرقان الذي يلقيه الله في قلوب المتقين من المتوجهين هو نور الواردات الإلهية، التي ترد على القلوب من حضرة الغيوب، وهي ثلاثة أقسام: وارد الانتباه: وهو نور يفرق به بين الغفلة واليقظة، وبين البطالة والنهوض إلى الطاعة، فيترك غفلته وهواه، وينهض إلى مولاه، ووارد الإقبال: وهو نور يفرق به بين الوقوف مع ظلمة الحجاب وبين السير إلى شهود الأحباب، ووارد الوصال: وهو نور يفرق به بين ظلمة الأكوان، ونور الشهود، أو بين ظلمة سحاب الأثر وشهود شمس العرفان.

وإلى هذه الواردات الثلاثة أشار في الحكم بقوله: «إنما أورد عليك الوارد لتكون به عليه وارداً، أورد عليك الوارد ليسلمك من يد الأغيار، ويحررك من رق الآثار، أورد عليك الوارد ليخرجك من سجن وجودك إلى فضاء شهودك».

ثم ذكّر نبيه ﷺ بما فعل معه من الحفظ والرعاية من أعدائه اللئام، فقال:

﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ و﴾ اذكر، يا محمد، نعمة الله عليك بحفظه ورعايته لك ﴿إذ يمكُر بك الذين كفروا﴾ من قريش، حين اجتمعوا في دار الندوة ﴿ ليُثْبِتُوكَ ﴾ أي: يحبسوك في الوثاق والسجن، ﴿ أو يقتلوك ﴾ بسيوفهم، ﴿ أو يُخرجوك ﴾ من مكة.

وذلك أنهم لما سمعوا بإسلام الأنصار ومبايعتهم للنبي ﷺ، خافوا على أنفسهم، واجتمعوا في دار الندوة متشاورين في أمره، فدخل عليهم إبليس في صورة شيخ، وقال: أنا من نجد، سمعت اجتماعكم فأردت أن أحضركم، ولن تعدموا مني رأياً ونصحاً، فقال أبو البختري: أرى أن تحبسوه في بيت، وتسدوا منافذه، غير كوة تلقون إليه طعامه وشرابه فيها، حتى يموت، فقال الشيخ: بئس الرأي، يأتيكم من يقاتلكم من قومه، ويخلصه من أيديكم. فقال هشام بن عمرو: أرى أن تحملوه على جمل، فتخرجوه من أرضكم، فلا يضركم ما صنع، فقال الشيخ: بئس الرأي، يُفسد قوماً غيركم ويقاتلكم بهم. فقال أبو جهل: أنا أرى أن تأخذوا من كل بطن غلاماً، وتعطوه سيفاً، فتضربوه ضربة واحدة، فيتفرق دمه في القبائل، فلا يقوى بنو هاشم على حرب قريش كلهم، فإن طلبوا العقل عقلناه. فقال الشيخ: صدق هذا الفتى، فتفرقوا على رأيه، فأتى جبريل النبي ﷺ وأخبره الخبر، وأمره بالهجرة، فبيت علياً رضي الله عنه على مضجعه، وخرج مع أبي بكر إلى الغار، ثم سافر مهاجراً إلى المدينة(١).

قال تعالى: ﴿ ويمكرون ويمكر اللهُ ﴾ ؛ برد مكرهم عليهم، أو مجازاتهم عليه، أو بمعاملة الماكرين معهم، بأن أخرجهم إلى بدر، وقلل المسلمين في أعينهم، حتى تجرءوا على قتالهم، فقُتلوا وأُسروا، ﴿ والله خيرُ الماكرين ﴾ ؛ إذ لا يؤبه بمكرهم دون مكره، وإسناد أمثال هذا مما يحسن، للمزاوجة، ولا يجوز إطلاقها ابتداء؛ لما فيه من إيهام الذم. قاله البيضاوي.

الإشارة: وإذ يمكر بك أيها القلب الذين كفروا، وهم القواطع من العلائق والحظوظ والشهوات، ليحبسوك في سجن الأكوان، مسجوناً بمحيطاتك، محصوراً في هيكل ذاتك، أو يقتلوك بالغفلة والجهل وتوارد الخواطر والأوهام، أو يُخرجوك من حضرة ربك إلى شهود نفسك، أو من صحبة العارفين إلى مخالطة الغافلين، أو من حصن طاعته إلى محل الهلاك من موطن معصيته، أو من دائرة الإسلام إلى الزيغ والإلحاد، عائذاً بالله من المحن، والله خير الماكرين، فيرد كيد الماكرين، وينصر أولياءه المتوجهين والواصلين. وبالله التوفيق.

---

(١) أخرجه ابن جرير في التفسير، وأبو نعيم في الدلائل (باب عصمة رسول الله ﷺ حين تعاهد المشركين على قتله) عن ابن عباس، وأخرجه عبدالرزاق، في المصنف: (المغازي، باب من هاجر إلى الحبشة) عن عروة بن الزبير. وأخرجه ابن سعد في الطبقات (باب خروج رسول الله ﷺ وأبي بكر إلى المدينة) عن عائشة رضي الله عنها..

ثم ذكر مساوئ أهل المكر، فقال:

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ ﴾

قلت : «إذا»: ظرفية شرطية، خافضة لشرطها، معمولة لجوابها، أي: قالوا وقت تلاوة الآيات: لو نشاء ... إلخ.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وإذا تُتلى عليهم آياتنا ﴾ القرآنية ﴿ قالوا قد سمعنا ﴾ ما تتلوه علينا، ﴿ لو نشاء لقلنا مثل هذا إنْ هذا إلا أساطيرُ الأولين ﴾ أي: أخبارهم المسطورة أو أكاذيبهم المختلقة. قال البيضاوي: وهذا قول النَّضْر بن الحارث، وإسناده إلى الجمع إسناد ما فعله رئيس القوم إليهم، فإنه كان قاصهم، أي: يقص عليهم أخبار فارس والروم، فإذا سمع القرآن يقص أخبار الأنبياء قال: لو شئتُ لقلتُ مثل هذا، أو قول الذين ائتمروا في شأنه: وهذا غاية مكائدهم، وفرط عنادهم، إذ لو استطاعوا ذلك لسارعوا إليه، فما منعهم أن يشاءوا وقد تحداهم وقرعهم بالعجز عشر سنين، ثم قارعهم بالسيف، فلم يعارضوا، مع أنفتهم وفرط استنكافهم أن يغلَبوا، خصوصاً في باب البيان؟ هـ. بالمعنى.

الإشارة: هذه المقالة بقيت سُنةً في أهل الإنكار على أهل الخصوصية، إذا سمعوا منهم علوماً لدنية، أو أسراراً ربانية، أو حِكماً قدسية، قالوا: لو نشاء لقلنا مثل هذا، وهم لا يقدرون على كلمة واحدة من تلك الأسرار، وهذا الغالب على المعاصرين لأهل الخصوصية، دون من تأخر عنهم، فإنهم مغرورون عنده، ﴿ ولَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّه تَحْوِيلاً ﴾(١).

ثم ذكر استعجالهم للعذاب؛ عناداً وعتواً، فقال:

﴿ وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ ﴾

قلت : «الحق»: خبر كان.

---

(١) من الآية ٤٣ من سورة فاطر.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ و ﴾ اذكر ﴿ إذ قالوا اللهم إن كان هذا ﴾ الذى أتى به محمد ﴿ هو الحقَّ من عندك فأمطر علينا حجارةً من السماء ﴾ ؛ كأصحاب لوط، ﴿ أو ائتنا بعذاب أليم ﴾ ، قيل: القائل هذا هو النَّضْر بن الحارث، وهو أبلغ فى الجحود. رُوى أنه لما قال: «إن هذا إلا أساطير الأولين»، قال له النبى ﷺ: «ويلك إنه كلام الله» فقال هذه المقالة. والذى فى صحيحى البخارى ومسلم: أن القائل هو أبو جهل(١) ، وقيل: سائر قريش لمَّا كذبوا النبى ﷺ دعوا على أنفسهم، زيادة فى تكذيبهم وعتوهم. وقال الزمخشرى: ليس بدعاء، وإنما هو جحود، أى: إن كان هذا هو الحق فأمطر علينا، لكنه ليس بحق فلا نستوجب عقاباً. بالمعنى.

الإشارة: قد وقعت هذه المقالة لبعض المنكرين على الأولياء، فعجلت عقوبته، ولعل ذلك الولى لم تتسع دائرة حلمه ومعرفته، وإلا لكان على قدم نبيه ﷺ؛ حيث قال الله تعالى فى شأنه:

﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وما كان الله ليُعذبهم وأنت ﴾ موجود ﴿ فيهم ﴾ ، ونازل بين أظهرهم، وقد جعلتك رحمة للعالمين، خصوصاً عشيرتك الأقربين، ﴿ وما كان الله مُعذِّبَهُم وهم يستغفرون ﴾ قيل: كانوا يقولون: غفرانك اللهم، فلما تركوه عُذبوا يوم بدر، وقيل: وفيهم من يستغفر، وهو من بقى فيهم من المؤمنين، فلما هاجروا كلهم عُذبوا، وقيل: على الفرض والتقدير، أى: ما كان الله ليعذبهم لو آمنوا واستغفروا.

قال بعض السلف: كان لنا أمانان من العذاب: النبى ﷺ والاستغفار، فلما مات النبى ﷺ ذهب الأمان الواحد وبقى الآخر(٢) ، والمقصود من الآية: بيان ما كان الموجب لإمهاله لهم والتوقف على إجابة دعائهم، وهو وجوده ﷺ أومن يستغفر فيهم.

ثم قال تعالى: ﴿ وما لهم ألا يعذبهم الله ﴾ أى: وأىُّ شىء يمنع من عذابهم؟ وكيف لايعذبون ﴿ وهم يصُدُّون ﴾ الناس ﴿ عن المسجد الحرام ﴾ ؟ أى: يمنعون المتقين من المسجد الحرام، ويصدون رسوله عن

(١) أخرجه البخارى فى (تفسير سورة الأنفال) ومسلم فى (صفات المنافقين، باب فى قوله تعالى: ﴿وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم﴾) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه .
(٢) رسول الله ﷺ باقٍ فينا بهديه وسنته، ﴿واعلموا أن فيكم رسول الله﴾.

الوصول إليه. ﴿ وما كانوا أولياءَهُ ﴾ المستحقين لولايته مع شركهم وكفرهم، وهو ردٌّ لما كانوا يقولون: نحن ولاة البيت الحرام؛ فنصد من نشاء ونُدخل من نشاء. قال تعالى: ﴿ إنْ أولياؤُه إلا المتقون ﴾ أى: ما المستحقون لولايته إلا المتقون، الذين يتقون الشرك والمعاصى، ولا يعبدون فيه إلا الله، ويعظمونه، حق تعظيمه. ﴿ ولكنَّ أكثرهم لايعلمـون ﴾ أن لا ولاية لهم عليه، وإنما الولاية لأهل الإيمان، وكأنه نبه بالأكثر على أن منهم من يعلم ذلك ويعاند، أو أراد به الكل، كما يراد بالقلة العدم. قاله البيضاوى.

الإشارة: قد جعل الله رسوله ﷺ أماناً لأمته مادام حيّاً، فلما مات ﷺ بقيت سنته أماناً لأمته، فإذا أُميتت سنته أتاهم ما يوعدون من البلاء والفتن، وكذلك خواص خلفائه، وهم العارفون الكبار، فوجودهم أمان للناس، فقد قالوا: إن الإقليم الذى يكون فيه القطب لا يصيبه قحط ولابلاء، ولا هرج ولا فتن؛ لأنه أمان لذلك الإقليم، خلافة عن رسول الله ﷺ. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر تلاعبهم بالدين، فقال:

﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وما كان صلاتهم ﴾ التى يصلـونها فى بيت الله الحرام، ويسمونها صلاة، أو ما يضعون موضعها، ﴿ إلا مكاءً ﴾ أى: تصفيراً بالفم، كما يفعله الرعاة، ﴿ وتصديةً ﴾ أى: تصفيقاً باليد، الذى هو من شأن النساء، مأخوذ من الصدى، وهو صوت الجبال والجدران. قال ابن جزى: كانوا يفعلون ذلك إذا صلى المسلمون، ليخلطوا عليهم صلاتهم.

وقال البيضاوى: رُوى أنهم كانوا يطوفون بالبيت عراة، الرجال والنساء، مشبكين بين أصابعهم، يصفرون فيها ويصفقون، وقيل: كانوا يفعلون ذلك إذا أراد النبى ﷺ أن يُصلى، يخلطون عليه، ويرون أنهم يصلون أيضاً، ومساق الآية: تقرير استحقاقهم العذاب المتقدم فى قوله: ﴿ وما لهم ألا يعذبهم الله ﴾، أو عدم ولايتهم للمسجد، فإنها لا تليق بمن هذه صلاته. هـ.

قال تعالى: ﴿ فذوقوا العذاب ﴾ الذى طلبتم، وهو القتل والأسر يوم بدر، فاللام للعهد، والمعهود: (أو ائتنا بعذاب أليم)، أو عذاب الآخرة، ﴿ بما كنتم تكفرون ﴾ أى: بسبب كفركم اعتقاداً وعملاً.

الإشارة: وما كان صلاة أهل الغفلة عند بيت قلوبهم إلا ملعبة للخواطر والهواجس، وتصفيقاً للوسواس والشيطان، وذلك لخراب بواطنهم من النور، حتى سكنتها الشياطين واستحوذت عليها، والعياذ بالله، فيقال لهم: ذوقوا عذاب الحجاب والقطيعة، بما كنتم تكفرون بطريق الخصوص وتبعدون عنهم. والله تعالى أعلم.

ولما سلمت عير قريش من النبي ﷺ، ووقعت غزوة بدر، وكان مات فيها صناديدهم، حبس أبو سفيان ذلك المال، وأنفقه في حرب رسول الله ﷺ، فأنزل الله في ذلك وفي غيره، ممن أنفق في إعانة الكفار على حرب المسلمين قوله:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿إنَّ الذين كفروا يُنفقون أموالهم ليصدوا﴾ بذلك ﴿عن سبيلِ الله﴾، ويُحاربون الله ورسوله. قيل: نزلت في أصحاب العير؛ فإنه لما أُصيب قريش ببدر قيل لهم: أعينوا بهذا المال على حرب محمد، لعلنا ندرك منه ثأرنا، ففعلوا، وقيل: في المطْعمين يوم بدر، وكانوا اثني عشر رجلاً من قريش، يطعم كل واحد منهم، كل يوم، عشر جزر، وقيل: في أبي سفيان، استأجر ليوم أُحد ألفين من العرب، وأنفق عليهم أربعين أوقية.

قال تعالى: ﴿فسينفقونها﴾ بتمامها، ﴿ثم تكون عليهم حسرةً﴾ يتأسفون على إنفاقها من غير فائدة، فيصير إنفاقها ندماً وغماً، لفواتها من غير حصول المقصود، وجعل ذاتها تصير حسرة، وهي عاقبة إنفاقها؛ مبالغةً. قال البيضاوي: ولعل الأول إخبار عن إنفاقهم في تلك الحال، وهو إنفاق بدر، والثاني عن إنفاقهم فيما يُستقبل، وهو إنفاق غزوة أحد، ويحتمل أن يراد بهما واحد، على أن مساق الأول لبيان غرض الإنفاق، ومساق الثاني لبيان عاقبته، وهو لم يقع بعد.هـ. قلت: وهذا الأخير هو الأحسن.

ثم ذكر وعيدهم فقال: ﴿والذين كفروا﴾ أي: الذين ثبتوا على الكفر منهم؛ إذ أسلم بعضهم، ﴿إلى جهنم يُحشرون﴾؛ يضمون ويُساقون، ﴿ليَميزَ الله الخبيثَ من الطيِّبِ﴾؛ الكافرين من المؤمنين، أو الفساد من الصلاح، أو ما أنفقه المشركون في عدواة رسول الله ﷺ، وما أنفقه المسلمون في نصرته، أي: حشرهم إليه ليفرق بين الخبيث والطيب، ﴿ويجعل الخبيثَ بعضَهُ على بعض فيَركُمَه﴾ أي: يجمعه، أو يضم بعضه إلى بعض، حتى يتراكموا من فرط ازدحامهم، ﴿فيجعَلَهُ في جهنم﴾ كله، ﴿أولئك هم الخاسرون﴾ الكاملون في الخسران، لأنهم خسروا أنفسهم وأموالهم، والإشارة تعود على الخبيث؛ لأنه بمعنى الفريق الخبيث، أو على المنفقين ليصدوا عن سبيل الله. والله تعالى أعلم.

الإشارة: كل من أنفق ماله في لهو الدنيا وفرجتها، من غير قصدٍ حسن، بل لمجرد الحظ والهوى، تكون عليه حسرة وندامة، تنقضي لذاته وتبقى تبعاته، وهو من كفران نعمة المال، فهو معرض للزوال، وإن بقى فهو استدراج، وعلامة إنفاقه في الهوى: أنه إن أتاه فقير يسأله درهمًا منعه، وينفق في النزهة والفرجة الثلاثين والأربعين، فهذا يكون إنفاقه حسرة عليه، والعياذ بالله.

ثم ندب إلى التوبة، فقال:

﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ قل للذين كفروا ﴾؛ كقريش وغيرهم: ﴿ إن ينتهوا ﴾ عن الكفر ومعاداة الرسول بالدخول في الإسلام، ﴿ يغفر لهم ما قد سلف ﴾ من ذنوبهم، ولو عظمت، ﴿ وإن يعودوا ﴾ إلى الكفر وقتاله ﴿ فقد مضت سُنّتُ الأولين ﴾ أي: مضت عادتي مع الذين تحزبوا على الأنبياء بالتدمير والهلاك، كعاد وثمود وأضرابهم، وكما فعل بهم يوم بدر، فليتوقعوا مثل ذلك، وهو تهديد وتخويف.

الإشارة: قل للمنهمكين في الذنوب والمعاصي: لا تقنطوا من رحمتي، فإني لا يتعاظمني ذنب أغفره، فإن تنتهوا أغفر لكم ما قد سلف. وأنشدوا:

يستوجب العَفْوَ الفتى، إذا اعترف بما جَنَى، وما أتى، وما اقْتَرفْ
لقوله: (قُل للذين كفروا إنْ ينتهوا يُغفر لهم ما قد سلفْ)

وللشافعي رضي الله عنه:

فَلَمَّا قَسَا قَلْبِي وَضَاقَتْ مَذَاهِبِي جَعَلْتُ الرَّجَا مِنِّي لِعَفْوِكَ سُلَّمَا
تَعَاظَمَنِي ذَنْبِي، فَلَمَّا قَرَنْتُهُ بِعَفْوِكَ رَبِّي، كانَ عَفْوُكَ أَعْظَمَا
فَمَا زِلْتَ ذَا جُودٍ وَفَضْلٍ وَمِنَّةٍ تَجُودُ وتَعْفُو مِنَّـةً وتَكَرُّمَا

فإن لم ينته المنهمك في الهوى فقد مضت سُنة الله فيه؛ بالطرد والإبعاد، ويخاف عليه سوء الختام، والعياذ بالله.

ثم أمر بجهاد من لم ينته عن كفره، فقال:

﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ ۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: وقاتلوا من لم ينته عن كفره ﴿حتى لا تكونَ فتنة﴾، أي: حتى لايوجد منهم شرك، فهو كقوله عليه الصلاة السلام: «أُمِرْتُ أنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يقُولُوا: لا إلهَ إلاَّ الله»(١). ﴿ويكون الدين كلُّه لله﴾ بحيث تضمحل الأديان الباطلة ويظهر الدين الحق، ﴿فإن انتهوا﴾ عن الكفر وأسلموا، ﴿فإن الله بما يعملون بصير﴾؛ فيجازيهم على انتهائهم، وقرأ يعقوب بتاء الخطاب؛ على معنى: ﴿فإن الله بما تعملون﴾ يا معشر المسلمين؛ من الجهاد، والدعوة إلى الإسلام، والإخراج من ظلمة الكفر إلى نور الإيمان، ﴿بصير﴾ فيجازيكم، ويضاعف أجوركم بمن أسلم على أيديكم.

﴿وإن تَولَّوا﴾، ولم ينتهوا عن كفرهم، ﴿فاعلموا أن الله مولاكم﴾؛ ناصركم، فثقوا به ولا تبالوا بمعاداتهم، ﴿نِعْمَ المولى﴾؛ فلا يضيع من تولاه، ﴿ونِعْمَ النصير﴾؛ فلا يغلب من نصره.

الإشارة: يؤمر المريد بجهاد القواطع والعلائق والخواطر، حتى لا يبقى فى قلبه فتنة بشيء من الحس، ويكون القلب كله لله، فإن انتهت القواطع فإن الله بصير به، يجازيه على جهاده، ومجازاته: إدخاله الحضرة المقدسة، مع المقربين، وإن لم ينته فليستمر على مجاهداته وانقطاعه إلى ربه، وليستنصر به فى مجاهدته، فإن الله مولاه وناصره، وهو نعم المولى ونعم النصير.

ثم ذكر قَسْمَ الغنائم التى تنشأ عن القتال، فقال:

﴿ ۞ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ ﴾

(١) أخرجه البخارى فى (الاعتصام ـ باب الاقتداء بسنن النبى ﷺ) ومسلم فى (الإيمان ـ باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله) من حديث أبى هريرة رضي الله عنه.

قلت : (فأن لله) : مبتدأ حُذف خبره، أي: فكون خمسه لله ثابت، أو خبر، أي: فالواجب كون خمسه لله.

يقول الحق جل جلاله : ﴿ واعلموا أنما غَنِمتُم من شيء ﴾ مما أخذتموه من الكفار؛ قهراً بالقتال، لا الذى هربوا عنه بلا قتال، فكله للإمام فَيء، يأخذ حاجته ويصرف باقيه فى مصالح المسلمين، ولا الذى طرحه العدو خوف الغرق، فلواجده، بلا تخميس، وكذا ما أخذه من كان ببلاد العرب على وجه التلصيص، فأما ما أخذه بالقتال: فلله ﴿ خُمُسَه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكينِ وابن السبيل ﴾؛ الجمهور على أن ذكر الله للتعظيم كقوله: ﴿ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ ﴾(١)، وإنما المراد: قسم الخمس على الخمسة الباقية.

واختلف العلماء في الخمسة، فقال مالك: الرأى للإمام، يلحقه ببيت الفَىء، ويعطى من ذلك البيت لقرابة رسول الله ﷺ ما رءاه، كما يعطى منه اليتامى والمساكين وغيرهم، وإنما ذكر من ذكر على جهة التنبيه عليهم، لأنهم من أهم ما يدفع إليهم. وقال الشافعي : يعطى للخمسة المعطوفة على (الله)، ولا يجعل لله سهماً مختصاً، وإنما ذكر ابتداء تعظيماً، لأن الكل ملكه، وسهم الرسول يأخذه الإمام، يصرفه فى المصالح، فيعطى للأربعة المعطوفة على الرسول، ويفضل أهل الحاجة. وقال مالك: لا يجب التعميم، فله أن يعطى الأحوج، وإن حرم غيره، ومبنى الخلاف: هل اللام لبيان المصرف أو للاستحقاق، كما فى آية الزكاة.

وقال أبو حنيفة : على ثلاثة أسهم، لليتامى والمساكين وابن السبيل، قال: وسقط الرسول وذوو القربى بوفاته عليه الصلاة والسلام. وقال أبو العالية : يقسم على ستة، أخذاً بظاهر الآية، ويصرف سهم الله إلى الكعبة، وسهم الرسول فى مصالح المسلمين، وسهم ذوى القربى لأهل البيت الذين لا تحل لهم الزكاة، ثم يعطى سهم اليتامى والمساكين وابن السبيل.

قال البيضاوي : وذوو القربى: بنو هاشم، وبنو المطلب، لما روى: أنه ﷺ قسم سهم ذوي القربى عليهما، فقال عثمان وجبير بن مطعم: هؤلاء إخوانك بنوهاشم لاننكر فَضلَهُمْ لمكَانِك الذى جَعَلَكَ اللهُ مِنْهُمْ، أرأيت إخواننا من بَني المُطلب، أعْطَيْتَهمْ وحرَمْتَنَا، وإنَّما نَحنُ وهُمْ بمنْزِلةٍ واحدةٍ؟ فَقَالَ عليه الصلاة والسلام: «إنَّهُمْ لَمْ يُفارِقُونَا فِي جَاهِليةٍ ولا إسْلاَم» وشَبَّكَ بيْنَ أصابعهِ(٢). وقيل: بنو هاشم وحدهم. قلت : وهو مشهور مذهب مالك . وقيل: جميع قريش. هـ.

(١) من الآية ٦٢ من سورة التوبة.
(٢) أخرجه أبو داود فى (الخراج ـ باب فى بيان مواضع قسم الخمس) وابن ماجه فى (الجهاد ـ باب قسمة الخمس) من حديث جبير بن مطعم. وفى البخارى بعضه، راجع صحيح البخارى (فرض الخمس ـ باب: ومن الدليل على أن الخمس للإمام).

ثم قال تعالى: ﴿ إنْ كنتم آمنتم بالله ﴾، أي: إن كنتم آمنتم بالله فاعلموا أنه جعل الخمس لهؤلاء، فسلموه إليه، واقنعوا بالأخماس الأربعة، ﴿ وما ﴾ وكذا إن كنتم آمنتم بما ﴿ أنزلنا على عبدنا ﴾ محمد ﷺ من القرآن، في شأن الأنفال، ومن النصر والملائكة، ﴿ يوم الفرقان ﴾؛ يوم بدر، فإنه فرّق فيه بين الحق والباطل، ﴿ يوم التقى الجمعان ﴾؛ المسلمون والكفار، ﴿ والله على كل شيء قدير ﴾؛ فيقدر على نصر القليل على الكثير، بالإمداد بالملائكة، وبلا إمداد، ولكن حكمته اقتضت وجود الأسباب والوسائط، والله حكيم عليم.

الإشارة: واعلموا أنما غنمتم من شيء من العلوم اللدنية، والمواهب القدسية، والأسرار الربانية، بعد مجاهدة العلائق والعوائق، حتى صار دين القلب كله لله، فلله خمسه؛ فناء، وللرسول؛ بقاءً، ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل؛ تعظيماً وآداباً. يعني: أن العلم بالله يقتضي القيام بهذه الوظائف: الفناء في الله بالغيبة عما سواه، وشهود الداعي الأعظم، وهو رسول الله، والأدب مع عباد الله، ليتحقق الأدب مع الله. والله تعالى أعلم بأسرار كتابه.

ثم بيّن يوم الفرقان، فقال:

﴿ إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٤٤﴾ ﴾

قلت: (إذ): بدل من (يوم الفرقان)، أو ظرف لالتقى، أو لاذكر، محذوفة، والعدوة مثلث العين: شاطئ الوادي، و(الدنيا) أي: القربى، نعت له، و(القصوى): تأنيث الأقصى، وكان قياسه: قلب الواو ياء، كالدنيا والعليا؛ تفرقة بين الإسم والصفة، فجاء على الأصل كالقود، وسُمع فيه: «القصيا» على الأصل، وهو شاذ. و(الركب): مبتدأ، و(أسفل): ظرف خبره.

يقول الحق جل جلاله : واذكروا ﴿ إذ أنتم بالعُدْوَة الدنيا ﴾ أي: بعدوة الوادي القريبة من المدينة، ﴿ وهم ﴾ أي: كفار قريش، ﴿ بالعُدْوَة القصوى ﴾ أي: البعيدة منها، ﴿ والركبُ ﴾ أي: العير التي قصدتكم، ﴿ أسفل منكم ﴾ أي: في مكان أسفل منكم، يعني الساحل، ثم جمع الله بينكم على غير ميعاد، ﴿ ولو تواعدتُم ﴾ لهذا الجمع، أنتم وهم للقتال، ثم علمتم حالكم وحالهم ﴿ لاختلفتم في الميعاد ﴾ ؛ هيبة منهم؛ لكثرتهم وقلتكم، لتتحققوا أن ما اتفق لكم من الفتح والظفر ليس إلا صنيعًا من الله تعالى خارقًا للعادة، فتزدادوا إيمانًا وشكرا، ﴿ ولكن ﴾ الله جمع بينكم من غير ميعاد؛ ﴿ ليقضيَ اللهُ أمرًا كان مفعولاً ﴾ ؛ سابقًا في الأزل، وهو نصر أوليائه وقهر أعدائه في ذلك اليوم، لا يتخلف عنه ساعة.

﴿ ليَهلِكَ من هلك عن بينة ويحيى مَنْ حَيَّ عن بينة ﴾ ، أي: قدَّر ذلك الأمر العجيب ليموت من يموت عن بينة عاينها، ويعيش من يعيش عن حجة شاهدها، لئلا يكون له حجة ومعذرة، فإن وقعة بدر من الآيات الواضحة، فكل من عاينها ولم يؤمن قامت الحجة عليه. أو ليهلك بالكفر من هلك عن بينة وحجة قائمة عليه، ويحيى بالإيمان من حي به عن بينة من ربه، ﴿ وإنَّ الله لسميعٌ عليمٌ ﴾ بكفر من كفر وإيمان من آمن، فيجازي كلاً على فعله. ولعل الجمع بين وصف السمع والعلم؛ لاشتمال الأمرين على القول والاعتقاد.

واذكر أيضا ﴿ إذْ يُريكَهُمُ الله في مَنامك قليلاً ﴾ ، كان ﷺ قد رأى الكفار في نومه قليلاً، فأخبر بذلك أصحابه، فقويت نفوسهم وتجرءوا على قتالهم، وكانوا قليلاً في المعنى، ﴿ ولو أراكَهُمْ كثيراً ﴾ في الحس ﴿ لفشِلْتُم ﴾ لجبنتم، ﴿ ولتنازعتم في الأمر ﴾ ؛ في أمر القتال، وتفرقت آراؤكم، ﴿ ولكنَّ الله سلّم ﴾ أي: أنعم بالسلامة من الفشل والتنازع؛ ﴿ إنه عليمٌ بذات الصدور ﴾ أي: يعلم ما يكون فيها من الخواطر وما يغير أحوالها.

﴿ و ﴾ اذكر أيضا ﴿ إذْ يُريكُموهم ﴾ أي: يريكم الله الكفار، ﴿ إذ التقيتم في أعينكم قليلاً ﴾ ، حتى قال ابن مسعود لمن إلى جنبه: أتراهم سبعين؟ فقال: أراهم مائة، تثبتاً وتصديقاً لرؤيا الرسول ﷺ، ﴿ ويُقلِّلكم في أعينهم ﴾ ، حتى قال أبو جهل: إن محمداً وأصحابه أَكَلَةُ جزور ـ بفتح الهمزة والكاف ـ جمع آكل ـ، أي: قدر ما يكفيهم جزور في أكلهم .

قال البيضاوي : قللهم في أعينهم قبل التحام القتال؛ ليجترءوا عليهم ولا يستعدوا لهم، ثم كثَّرهم حين رأوهم مثليهم؛ لتفجأهم الكثرة فتبهتهم وتكسر قلوبهم، وهذا من عظائم آيات الله في تلك الوقعة، فإن البصر، وإن كان قد يرى الكثير قليلاً والقليل كثيراً، لكن لا على هذا الوجه ولا إلى هذا الحد، وإنما يتصور ذلك بصد الله الأبصارَ عن إبصار بعضٍ دون بعضٍ، مع التساوي في المرئي. هـ.

وإنما فعل ذلك في الجهتين؛ ﴿ ليقضيَ الله أمراً كان مفعولاً ﴾ أي: ليظهر الله أمراً كان سبق به القضاء والقدر، فكان مفعولاً في سابق العلم، لا محيد عنه، ومن شأن الحكمة إظهار الأسباب والعلل، كما أن من شأن القدرة إبراز ما سبق في الأزل، وإنما كرره؛ لاختلاف الفعل المعلل به؛ لأن الأول علة لالتقائهم من غير ميعاد، وهنا لتقليلهم في أعين الكفرة، أو للتنبيه على أن المطلوب من العبد هو النظر إلى سابق القدر، ليخف عليه ما يبرز منه من الشدائد والأهوال، ولذلك قال أثره: ﴿ وإلى الله تُرجعُ الأمور ﴾، وإذا كانت الأمور كلها راجعة إلى الله تعالى فلا يسع العبد إلا الرضا والتسليم لكل ما يبرز منها، **فكل ما يبرز من عند الحبيب حبيب**. والله تعالى أعلم.

الإشارة: الأرواح والأسرار بالعُدوة القريبة من بحر الحقائق، ليس بينها وبينه إلا إظهار أدب العبودية، وهو الذي بين بحر الحقيقة والشريعة، والأنفس وسائر القواطع بالعدوة القصوى منه، والقلب، الذي هو الركب المتنازع فيه، بينهما، أسفل من الروح، وفوق مقام النفس، الروح تريد أن تجذبه إليها ليسكن الحضرة، والنفس وجنودها تريد أن تميله إليها ليسكن وطن الغفلة معها، والحرب بينهما سجال، تارة ترد عليه الواردات الإلهية، التي هي جند الروح، فتنزل عليه بغتة من غير ميعاد، فتجذبه إلى الحضرة.

وتارة ترد عليه الخواطر والهواجم الردية فتحطه إلى أرض الحظوظ بغتة، ليقضي الله أمراً كان مفعولاً في سابق علمه، فإذا أراد الله عناية عبد قلّل عنه مدد الأغيار، حتى يراها كلا شيء، وقواه بمدد الأنوار حتى يغيب عنه كلُ شيء، فتذهب عنه ظلمة الأغيار، وإذا أراد الله خذلان عبد قطع عنه مدد الأنوار، وقوى عليه مدد الأغيار، حتى ينحط إلى الدرك الأسفل من النار، والعياذ بالله من سوء القضاء والقدر، وإليه الإشارة بقوله: (ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة) الآية. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر ما يقوى مدد الأنوار، وهو الصبر والذكر، فقال:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَـٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ ﴾

قلت: (بطراً ورئاء): مصدران في موضع الحال، أي: بطرين ومرائين، أو مفعول لأجله، و(يصدُّون): عطف على (بطرا)؛ على الوجهين، أي: صادين، أو للصد.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتُم فئةً ﴾؛ جماعة من الكفار عند الحرب، ﴿ فاثبتُوا ﴾ للقائهم، ولا تفروا، ﴿ واذكروا الله ﴾ في تلك الحال سراً داعين له، مستظهرين بذكره، متوجهين لنصره، معتمدين على حوله وقوته، غير ذاهلين عنه بهجوم الأحوال وشدائد الأهوال؛ إذ لا يذكر الله تعالى في ذلك الحال إلا الأبطال من الرجال، ﴿ لعلكم تفلحون ﴾ بالظفر وعظيم النوال. قال البيضاوي: وفيه تنبيه على أن العبد ينبغي ألا يشغله شيء عن ذكر الله، وأن يلتجئ إليه عند الشدائد، ويقبل عليه بشراشره[1]، فارغ البال، واثقاً بأن لطفه لا ينفك عنه في جميع الأحوال. هـ.

﴿ وأطيعوا الله ورسوله ﴾ فيما يأمركم به وينهاكم عنه؛ فإن الطاعة مفتاح الخيرات، ﴿ ولا تنازعوا ﴾ باختلاف الأراء، كما فعلتم في شأن الأنفال، ﴿ فتفشلوا ﴾ وتجبنوا، ﴿ وتذهب ريحُكم ﴾ أي: ريح نصركم بانقطاع دولتكم، شبه النصر والدولة بهبوب الريح؛ من حيث إنها تمشي على مرادها، لا يقدر أحد أن يردها، وقيل: المراد بها الريح حقيقة، فإن النصرة لا تكون إلا بريح يبعثه الله من ناحية المنصور تذهب إلى ناحية المخذول. وفي الحديث: «نُصِرْتُ بالصَّبَا، وأُهْلِكَتْ عَادٌ بالدَّبُورِ»[2]. ﴿ واصبرُوا إن الله مع الصابرين ﴾ بالمعونة والكلاءة والنصر.

﴿ ولاتكونُوا كالذين خرجُوا من ديارهم ﴾، يعني: أهل مكة، خرجوا ﴿ بطراً ﴾ أي: فخراً وأشَراً ﴿ ورئاء الناس ﴾؛ ليثنوا عليهم بالشجاعة والسماحة، وذلك أنهم لما بلغوا الجحفة أتاهم رسولُ أبي سفيان، يقول لهم: ارجعوا فقد سلمت عيركم، فقال أبو جهل: لا والله حتى نأتي بدراً، ونشرب بها الخمور، وتغني علينا القيان، ونطعم بها من حضرنا من العرب، فتسمع بنا سائر العرب، فتهابنا، فوافوها، ولكن سُقوا بها كأس المنايا، وناحت عليهم النوائح؛ مما نزل بهم من البلايا، فنهى الله المؤمنين أن يكونوا أمثالهم بطرين مرائين، وأمرهم أن يكونوا أهل تقوى وإخلاص، لأن النهي عن الشيء أمرٌ بضده. ﴿ ويصدّون عن سبيل الله ﴾ أي: خرجوا ليصدوا الناس عن طريق الله، باتباع طريقهم، ﴿ والله بما يعملون محيطٌ ﴾ فيجازيهم عليه.

الإشارة: خاطب الله المتوجهين إليه، السائرين إلى حضرته، وأمرهم بالثبوت ودوام السير، وبالصبر ولزوم الذكر عند ملاقاة القواطع والشواغب، وكل ما يصدهم عن طريق الحضرة، وذلك بالغيبة عنه والاشتغال بالله عنه،

---

(١) أي: بجملته، واحده: شُرْشُرَة.

(٢) أخرجه البخاري في (الاستسقاء ـ باب قول النبي ﷺ: «نُصرت بالصبا») ومسلم في (الاستسقاء ـ باب ريح الصباء والدبور). عن ابن عباس رضي الله عنهما.

وعدم الإصغاء إلى خوضه وتكديره، فمن صبر ظفر، ومن دام على السير وصل، وأمرهم أيضًا بطاعة الله ورسوله، ومن يدلهم على الوصول إليه، ممن هو خليفة عنه في أرضه، وأمرهم بعدم المنازعة والملاججة، فإن التنازع يُوجب تفرق القلوب والأبدان، ويوجب الفشل والوهن، ويذهب بريح النصر والإعزاز، كما أن الوفاق يوجب النصر ودوام العز.

ونهاهم عن التشبه بأهل الخوض والتكدير، ممن أولع بالطعن والتنكير، بل يكونون على خلافهم مخلصين في أعمالهم وأحوالهم، دالين على الله، داعين إلى طريق الله، يحببون الله إلى عباده، ويحببون عباد الله إلى الله، وهذه صفة أهل الله. نفعنا الله بذكرهم. آمين .

ثم ذكر الباعث على خروج الكفار لغزوة بدر، فقال :

﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله : ﴿ وإذْ زيّنَ لهم الشيطانُ أعمالهم ﴾ السيئة، ومن جملتها: خروجهم إلى حربك؛ بأن وسوس لهم، ﴿ وقال لا غالبَ لكم اليومَ من الناس وإني جارٌ لكم ﴾ ، قيل: قال لهم ذلك مقالة نفسانية، بأن ألقى في رُوعهم، وخيّل إليهم أنهم لا يُغلبون ولا يطاقون، لكثرة عَددهم وعُددهم، وأوهمهم أن اتباعهم إياه في ذلك قربة مجيرة لهم من المكاره.

﴿ فلما تراءاتِ الفئتان ﴾ أي: تلاقى الفريقان، ورأى بعضهم بعضاً، ﴿ نكصَ على عقبيه ﴾ ، رجع القهقهرى، أي: بطل كيده، وعاد ماخيل لهم أنه مجير لهم سبب هلاكهم، ﴿ وقال إني بريء منكم إني أرى مالا تَرَون إني أخافُ الله ﴾ ، أي: تبرأ منهم وخاف عليهم، وأيس من حالهم، لمّا رأى إمداد المسلمين بالملائكة.

وقيل: إن هذه المقالة كانت حقيقة لسانية. رُوي أن قريشاً، لما اجتمعت على المسير إلى بدر، ذكرت ما بينهم وبين بني كنانة من العداوة، فهموا بالرجوع عن المسير، فمثّل لهم إبليس في صورة سراقة بن مالك الكناني، وقال: لا غالب لكم اليوم وإني جارٌ لكم، وإني مجيركم من بني كنانة، فلما رأى الملائكة تنزل نكص على عقبيه، وكانت يده في يد الحارث بن هشام، فقال له: إلى أين؟ أتخذلنا في هذه الحالة؟ فقال: إني أرى مالا ترون، ودفع في صدر الحارث، فانطلق وانهزموا، فلما بلغوا مكة، قالوا: هزم النّاسَ سُرَاقَةُ، فبلغه ذلك، فقال: والله ماشعرت بسيركم حتى بلغني هزيمتكم! فلما أسلموا علموا أنه الشيطان.

وعلى هذا، يحتمل أن يكون معنى قوله: ﴿ إني أخافُ الله ﴾ أي: أخاف أن يصيبني مكروهاً من الملائكة، أو يهلكني، ويكون هـذا الوقت هو الوقت الموعود، إذ رأى فيـه ما لم ير قبله. والأول: ما قاله الحسن، واختاره ابن حجر. وقال الورتجبي: أي: إني أخاف عذاب الله، وذلك بعد رؤية البأس، ولا ينفع ذلك، ولو كان متحققاً في خوفه ما عصى الله طرفة عين. هـ.

وذكر ابن حجر عن البيهقي، عن عليّ ـ كرم الله وجهه ـ، قال: هبت ريح شديدة، فلم أر مثلها، ثم هبت ريح شديدة، وأظنه ذكر ثالثة، فكانت الأولى جبريل، والثانية ميكائيل، والثالثة إسرافيل، وكان ميكائيل عن يمين النبي ﷺ، وفيها أبوبكر، وإسرافيل عن يساره، وأنا فيها . وعن عليّ أيضاً: قيل لي ولأبي بكر يوم بدر: مع أحدكما جبريل، ومع الآخر ميكائيل، وإسرافيل ملك عظيم يحضر الصف ويشهد القتال. انتهى.

وقوله تعالى: ﴿ والله شديدُ العقاب ﴾، يجوز أن يكون من كلام إبليس، وأن يكون مستأنفا.

الإشارة: عادة الشيطان مع العوام أن يُغريهم على الطعن والإنكار على أولياء الله، وأيذائهم لهم، فإذا رأى غيرة الله على أوليائه نكص على عقبيه، وقال: إني منكم بريء؛ إني أرى مالا ترون، إني أخاف الله، والله شديد العقاب.

ثم ذكر مقالة المنافقين في شأن المسلمين، حيث خرجوا لغزوة بدر، فقال:

﴿ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: واذكروا ﴿ إذْ يقول المنافقون ﴾ من أهل المدينة، أو نفر من قريش كانوا أسلموا وبقوا بمكة، فخرجوا يوم بدر مع الكفار، منهم: قيس بن الوليد بن المغيرة، وأبو القيس بن الفاكه بن المغيرة، والحارث بن ربيعة بن الأسود، وعلي بن أمية بن خلف، ﴿ و ﴾ هم ﴿ الذين في قلوبهم مرض ﴾ أي: شك؛ لم تطمئن قلوبهم، بل بقي فيها شبهة، قالوا: ﴿ غرَّ هؤلاء دينُهم ﴾ أي: اغتر المسلمون بدينهم، فأدخلوا أنفسهم فيما لا طاقة لهم به، فخرجوا وهم ثلاثمائة وبضعة عشر إلى زهاء ألف. فأجابهم الحق تعالى بقوله: ﴿ ومن يتوكل على الله فإنّ الله عزيزٌ ﴾ أي: غالب لايذل من استجار به، وإن قلّ، ﴿ حكيمٌ ﴾ يفعل بحكمته البالغة ما يستبعده العقل، ويعجز عن دركه الفهم.

الإشارة: إذا عظم اليقين في قلوب أهل التقى أقدموا على أمور عظام، تستغرب العادة إدراكها، أو يغلب العطب فيها، فيقول المنافقون والذين في قلوبهـم مرض: غرَّ هؤلاء طريقتهم، ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز

لايُغلبُ، ولا يُغلبُ من انتسب إليه، وتوكل في أموره عليه، حكيم فلا يَخرج عن حكمته وقدرته شيء، أو عزيز لايُذل من استجار به، ولا يضيع من لاذ به، والتجأ إلى ذماره(١)، حكيم لا يقصر عن تدبير من توكل على تدبيره، قاله في الإحياء. ثم قال: وكل ما ذكر في القرآن من التوحيد هو تنبيه على قطع الملاحظة عن الأغيار، والتوكل على الواحد القهار. هـ. وبالله التوفيق.

ثم ذكر عاقبة أهل النفاق والريب، فقال:

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾ ﴾

قلت: جواب (لو) محذوف، أي: لرأيت أمراً عظيماً، و(الملائكة): فاعل (يتوفى) فلا يوقف على ما قبله، ويرجحه قراءة ابن عامر بالتاء، ويجوز أن يكون الفاعل ضمير (الله)، و(الملائكة): مبتدأ، و(يضربون): خبر، والجملة: حال من (الذين كفروا)، والرابط: ضمير الواو، وعلى هذا فيوقف على ما قبله، وعلى الأول (يضربون): حال من الملائكة، و(ذوقوا): عطف على (يضربون) على حذف القول، أي: ويقولون ذوقوا. و(ذلك): مبتدأ، و(بما قدمت): خبر، و(أن الله): عطف على «ما»؛ للدلالة على أن مقيدة بانضمامه إليه. انظر البيضاوي.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ولو ترى﴾ يا محمد، أو يا من تصح منكم الرؤية، حال ﴿الذين كفروا﴾ حين تتوفاهم ﴿الملائكة﴾ ببدر، أو مطلقاً، وهم ﴿يضربون وجوهَهم وأدبارَهم﴾، أو حين يتوفاهم الله ويقبض أرواحهم، حال كونهم الملائكة يضربون وجوهم وأدبارهم، أي: يضربون ما أقبل منهم وما أدبر، فيعمونهم بالضرب، أو يضربون وجوههم وظهورهم، أو أستاهَهم، لرأيت أمراً فظيعاً. ﴿و﴾ يقولون لهم: ﴿ذُوقُوا﴾ أي: باشروا ﴿عذابَ الحريق﴾ يوم القيامة؛ بشارة لهم بما يلقون من العذاب في الآخرة. وقيل: تكون معهم مقامع من حديد، كلما ضربوا التهبت النار منها، ﴿ذلك﴾ العذاب إنما وقع بكم ﴿بما﴾؛ بسبب ﴿قدمت أيديكم﴾ أي: بما كسبتم من الكفر والمعاصي، ﴿وأنّ الله ليسَ بظلامٍ للعبيد﴾؛ حتى يعذب بلا سبب، أو يهمل العباد بلا جزاء.

الإشارة: قد ذكر الحق جل جلاله حال الكاملين في العصيان في هذه الآية، وذكر في سورة النحل الكاملين في الطاعة، بقوله ﴿ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ طَيِّبِينَ ... ﴾ الآية(٢) وسكت عن المخلطين، ولعلهم يرون طرفاً من هذا أو طرفاً من هذا. والله تعالى أعلم.

---

(١) الذمار: الحوزة والحَرَمُ والأهل.. انظر: اللسان (ذمر).		(٢) الآية ٣٢ من سورة النحل.

ثم ذكر حال المتقدمين من الجبابرة، فقال:

﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾

قلت : (كدأب): خبر عن مضمر، أي: دأب هؤلاء مثل دأب آل فرعون، وهو عملهم وطريقتهم، التي دأبوا فيها، أي: داموا عليها، (ذلك): مبتدأ، و(بأنّ الله): خبر، وقال سيبويه: خبر، أي: الأمر ذلك، والفاء سببية.

يقول الحق جل جلاله: عادة هؤلاء الكفرة العاصين المعاصرين لك، في استمرارهم على الكفر والمعاصي، كعادة ﴿آلِ فرعون والذين﴾ مضوا ﴿مِنْ قبلهم﴾، ثم فسر دأبهم فقال: ﴿كفروا بآيات الله﴾ الدالة على توحيده، المنزلة على رسله، ﴿فأخذهم الله بذنوبهم﴾ كما أخذ هؤلاء، ﴿إن الله قوى شديد العقاب﴾؛ لا يغلبه في دفعه شيء.

﴿ذلك﴾ العذاب الذى حل بهم، بسبب ذنوبهم وكفرهم؛ لأن ﴿الله لم يكُ مغيراً نعمةً أنعمها على قوم﴾ فيبدلها بالنقمة، ﴿حتى يُغيّروا ما بأنفسهم﴾ أي: حتى يبدلوا ما بأنفسهم، من حال الشكر إلى حال الكفر، أو من حال الطاعة إلى حال المعصية، كتغيير قريش حالهم: من صلة الرحم، والكف عن التعرض لإيذاء الرسول ومن تبعه، بمعاداة الرسول، والسعي في إراقة دم من تبعه، والتكذيب بالآيات والاستهزاء بها، إلى غير ذلك مما أحدثوه بعد البعثة، ﴿وأنّ الله سميعٌ﴾ لما يقولون، ﴿عليم﴾ بما يفعلون.

دأبهم في ذلك التغيير ﴿كَدأب آلِ فرعون والذين من قبلهم كذّبوا بآيات ربهم فأهلكناهم بذنوبهم وأغرقنا آلَ فرعون﴾ لمّا بدلوا وغيّروا، ولم يشكروا ما بأيديهم من النعم، ﴿وكلٌّ﴾ من الفرق المكذبة ﴿كانوا ظالمين﴾؛ فأغرقنا آل فرعون، وقتلنا صناديد قريش؛ بظلمهم، وما كنا ظالمين.

الإشارة: إذا أنعم الله على قوم بنعم ظاهرة أو باطنة، ثم لم يشكروا الله عليها، بل قابلوها بالكفران، وبارزوا المنعم بالذنوب والعصيان، فاعلم أن الله تعالى أراد أن يسلبهم تلك النعم، ويبدلها بأضدادها من النقم، فمن شكر النعم فقد قيدها بعقالها، ومن لم يشكرها فقد تعرض لزوالها. فالشكر قيد الموجود وصيد المفقود، فمن أعطى ولم

يشكر، سُلب منها ولم يشعر، والشكر: ألا يُعْصَى الله بنعمه، كما قال الجنيد رضي الله عنه . والله تعالى أعلم

ومن جملة كفران النعم، نقض العهد، كما أبان ذلك بقوله:

﴿ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُوٓاْ ۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾

قلت : (فهم لا يؤمنون) : جملة معطوفة على جملة الصلة، والفاء للتنبيه على أن تحقق المعطوف عليه يستدعي تحقق المعطوف، و(الذين عاهدت) : بدل بعضٍ من (الذين كفروا)، و(فشرد) : جواب (إما)، والتشريد: تفريق على اضطراب.

يقول الحق جل جلاله: ﴿إنَّ شَّر الدوابِّ عند الله﴾ منزلة ﴿الذين كفروا﴾، تحقق كفرهم، وسبق به القدر، ﴿فهم لا يؤمنون﴾ أبداً؛ لِمَا سبق لهم من الشقاء. نزلت في قوم مخصوصين، وهم بنو قريظة، ﴿الذين عاهدتَّ منهم﴾ أي: أخذت عليهم العهد ألا يعاونوا عليك الكفار، ﴿ثم ينقُضُون عهدهم في كل مرةٍ﴾ أي: يخونون عهدك المرة بعد المرة، فأعانوا المشركين بالسلاح يوم أُحد، وقالوا: نسينا، ثم عاهدهم، فنكثوا ومالؤوهم عليه يوم الخندق، وركب كعبُ بن الأشرف في ملأ منهم إلى مكة، فحالفوا المشركين على حرب رسول الله ﷺ، فخرج إليهم رسول الله ﷺ، فقتل مقاتلتهم وسبا ذراريهم، ﴿وهم لا يتقون﴾ شؤم الغدر وتبعته، أو: لا يتقون الله في ذلك الغدر ونصرته للمؤمنين وتسليطه إياهم عليهم.

قال تعالى لنبيه عليه الصلاة السلام: ﴿فإمّا تَثقفنهُمْ﴾ أي: مهما تصادفهم وتظفر بهم ﴿في الحربِ فشرِّدْ بهم﴾ أي: فرِّق عنك من يُناصبك بسبب تنكيلهم وقتلهم، أو نكِّل بهم ﴿من خَلْفَهم﴾؛ بأن تفعل بهم من النقمة ما يزجرُ غيرهم؛ ﴿لعلهم يذكّرون﴾ أي: لعل من خلفهم يتعظون فينزجروا عن حربك.

﴿وإما تَخافنَّ من قوم﴾ معاهدين ﴿خيانةً﴾ أي: نقض عهد بأمارات تلوح لك، ﴿فانبذْ إليهم﴾ أي: فاطرح إليهم عهدهم ﴿على سواءٍ﴾ أي: على عدل وطريق قصد في العداوة، ولاتناجزهم بالحرب قبل العلم بالنبذ، فإنه يكون خيانة منك، أو على سواء في العلم بنقض العهد، فتستوي معهم في العلم بنقض العهد، ﴿إنَّ الله لا يُحب الخائنين﴾ أي: لا يرضى فعلهم، وهو تعليل للأمر بالنبذ والنهي عن مناجزة القتال المدلول عليه بالحال.

﴿ ولا تحسبن ﴾ ، يامحمد، ﴿ الذين كفروا سبَقُوا ﴾ قدرتنـا، ونجوا من نكالنا؛ ﴿ إنهم لا يُعجزُون ﴾ أى: لا يفوتون فى الدنيا والآخرة، فلا يعجزون قدرتنا، أو لايجدون طالبهم عاجزاً عن إدراكهم، بل الله مُحيط بهم أينما حلوا. والله تعالى أعلم.

الإشارة: شرفُ الإنسان وكمالهُ فى خمسة أشياء: الإيمان بالله، وبسائر ما يتوقف الإيمان عليه، والوفاء بالعهود، والوقوف مع الحدود، والرضى بالموجود، والصبر على المفقود. وذله وخستُه فى خمسة أشياء: الكفر والجحود، ونقض العهود، وتعدى الحدود، وعدم الرضى بالموجود، والجزع على المفقود.

وقال القشيرى فى قوله تعالى: ﴿ فإما تثقفنهم فى الحرب... ﴾ الآية: أى: إنْ صادَفْتَ واحداً من هؤلاء الذين دأبُهم نقضُ العهد، فاجعلهم عِبْرَةً لمن يأتي بعدهم، لئلا يسلكوا طريقهم، فيستوجبوا عقُوبتهم. كذلك مَنْ فَسَخَ عقده مع الله بقلبه، برجوعه إلى رُخَصِ التأويلات، ونزوله إلى السكون مع العادات، يجعله الله نكالاً لمن بعده، بحرمان ما كان خوّله وتنغيصه عليه. ثم قال عند قوله: ﴿وإما تخافن من قوم خيانة﴾: يريد، إذا تحقّقْت خيانة قوم منهم، فَصَرِّح بأن لا عهدَ بينك وبينهم، فإذا حصلت الخيانة زال سمتُ الأمانة، وخيانةُ كل أحدٍ على ما يليق بحاله. هـ.

ثم أمر بالاستعداد للحرب لمن نقض العهد، فقال:

﴿ وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وأعدوا لهم ﴾ ، أى: لناقضى العهد، أو لمطلق الكفار، ﴿ ما استطعتم من قوة ﴾ ، أى: ماقدرتم عليه من كل ما يتقوى به فى الحرب. وعن عقبة بن عامر، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول على المنبر: «ألاَ إنَّ القُوةَ الرَّمْىُ»(١) قالها ثلاثاً، ولعله عليه الصلاة والسلام خصه بالذكر؛ لأنه أعظم القوى، ﴿ و ﴾ أعدوا لهم أيضا ﴿ من رباط الخيل ﴾ أى: من الخيل المربوطة للجهاد، وهو اسم للخيل التى تربط فى سبيل الله، بمعنى مفعول، أو مصدر، أو جمع ربيط؛ كفصيل وفصال.

(١) أخرجه مسلم فى (الإمارة ـ باب فضل الرمى) عن عقبة بن عامر رضي الله عنه.

والمراد : الحث على استعداد الخيل العتاق التي تربط وتعلف بقصد الجهاد، وهو من جملة القوة، فهو من عطف الخاص على العام، للاعتناء بأمر الخيل لما فيها من الإرهاب. ولذلك قال: ﴿ تُرهبون به ﴾ أي: تخوفون بذلك الأعداء، أو بما ذكر من الخيل المربوطة، ﴿ عدو الله وعدوكم ﴾، يعني: كفار مكة، ﴿ وآخرين من دُونهم ﴾ أي: من غيرهم من الكفرة، كفارس والروم وسائر الكفرة، ﴿ لا تعلمونَهم ﴾ أي: لاتعرفونهم اليوم، ﴿ اللهُ يعلمهم ﴾، وسيمكنكم منهم، فتقاتلونهم وتملكون ملكهم، ﴿ وما تُنفقوا من شيءٍ في سبيل الله ﴾، في شأن الاستعداد وغيره؛ مما يستعان به على الجهاد، ﴿ يُوفَّ إليكم ﴾ جزاؤه، ﴿ وأنتم لا تُظلمون ﴾ بتضييع عمل أو نقص أجر، بل يضاعفه لكم أضعافاً كثيرة، بسبعمائة أو أكثر. والله تعالى أعلم.

الإشارة: وأعدوا، لجهاد القواطع والعلائق التي تعوقكم عن الحضرة، ما استطعتم من قوة، وهو العزم على السير من غير التفات، ومن رباط القلوب في حضرة الحق، تُرهبون به عدو الله، وهو الشيطان، وعدوكم، وهي النفس، وآخرين من دونهم: الحظوظ واللحوظ وخفايا خدع النفوس، لا تعلمونهم، الله يعلمهم؛ كالرياء والشرك الخفي، فإنه يدب دبيب النمل، وما تنفقوا من شيء يُوفّ إليكم أضعافاً مضاعفة، بالعز الدائم والغنى الأكبر، وأنتم لا تُظلمون.

وقال الورتجبي : أعلم الله المؤمنين والعارفين استعداد قتل أعداء الله، وسمى آلة القتال بقوة، وتلك القوة قوة الإلهية، التي لا ينالها العارف من الله إلا بخضوعه بين يديه، بنعت الفناء في جلاله، فإذا كان كذلك يلبسه الله لباس عظمته ونور كبريائه وهيبته، ويغريه إلى الدعاء عليهم، ويجعله منبسطاً، حتى يقول في سره: إلهي خذهم، فيأخذهم بلحظة، ويسقطهم صرعى بين يديه بعونه وكرمه، ويسلي قلب وليه بتفريجه من شرور مُعارضيه ومنكريه، وذلك سهم رمى نفوس الهمة عن كنانة الغيرة، كما رمى نبي الله ﷺ إلى منكريه حين قال: «شاهت الوجوه»، وهذا الرمي من الله بقوله: ﴿وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى﴾.

سمعت أن ذا النون المصري رضي الله عنه كان في غزو، وغلب المشركون على المؤمنين، فقيل له: لو دعوت الله، فنزل عن دابته وسجد، فهُزم المشركون في لحظة، وأُخذوا جميعاً، وأُسروا، وقُتلوا.

وأيضا: وأعدوا: أي: اقتبسوا من الله قوة من قوى صفاته لنفوسكم حتى يقويكم في محاربتها. قال أبو علي الروذباري، في قوله: ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ﴾، فقال: القوة هي الثقة بالله، قيل ظاهر الآية: إنه الرمي بسهام القِسي. وفي الحقيقة: رمي سهام الليالي في الغيب؛ بالخضوع والاستكانة، ورمي القلب إلى الحق؛ معتمداً عليه، راجعاً إليه عما سواه هـ.

ثم بيّن أن المعول على الله ونصرته، لا على السلاح والآلات بقوله: ﴿ هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين ﴾، أي: قواك بقوته الأزلية، ونصرك بنصرته الأبدية، ووفق المؤمنين بإعانتك على عدوك. ثم بيّن سبحانه أن نصرة المؤمنين لم تكن إلا بتأليفه بين قلوبهم، وجمعها على محبة الله ومحبة رسوله، بعد تباينها بتفرقة الهموم في أودية الامتحان، بقوله: ﴿ وألف بين قلوبهم ﴾ . وقال القشيري: الإشارة بقوله: ﴿ تُرهبون ﴾ : إلى أنه لا يجاهد على رجاء غنيمةٍ ينالها، أو إشفاء صدر عن قضية حقد، بل قصده أن تكون كلمة الله هي العليا. هـ.

ثم دلّ على الصلح لمصلحة، فقال:

﴿ ۞ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ وَإِن يُرِيدُوٓا۟ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وإنْ جَنَحُوا للسَّلْم ﴾ أي: وإن مالوا للصلح ﴿ فاجْنَحْ لها ﴾ أي: فصالحهم، ومل إلى المعاهدة معهم، وتوكل على الله؛ فلا تخف منهم أن يكونوا أبطنوا خداعاً؛ فإن الله يعصمك من مكرهم؛ ﴿ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ ﴾(١)، ﴿ إنه هو السميع ﴾ لأقوالهم، ﴿ العليم ﴾ بأحوالهم.

﴿ وإنْ يُريدُوا أن يخدعُوك ﴾ بعد الصلح ﴿ فإنَّ حَسْبَكَ الله ﴾ أي: فحسبك الله وكافيك شرهم، ﴿ هو الذي أيدَكَ ﴾ أي: قواك ونصرك ﴿ بنصرِه ﴾؛ تحقيقاً، ﴿ وبالمؤمنين ﴾؛ تشريفاً، أو ﴿ بنصره ﴾ قدرةً ﴿ وبالمؤمنين ﴾ حكمةً، والقدرة والحكمة منه وإليه، فلا دليل عليه للمعتزلة حيث نسبوا الفعل للعبد، وقالوا: العطف يقتضي المغايرة.

﴿ وألَّفَ بين قلوبهم ﴾ مع ما كان فيها في زمن الجاهلية من العصبية والضغائن والتهالك على الانتقام، حتى لايكاد يأتلف فيهم قلبان، ثم صاروا كنفس واحدة، وهذا من معجزاته ﷺ. قال تعالى: ﴿ لو أنفقتَ ما في الأرض جميعاً ﴾، في إصلاح ما بينهم، ﴿ ما ألَّفتَ بين قلوبهم ﴾؛ لتناهي عدواتهم إلى حد لو أنفق منفق في إصلاح

(١) من الآية ٤٢ من سورة فاطر.

ذات بينهم ما في الأرض من الأموال لم يقدر على الألفة بينهم، ﴿ولكنَّ الله ألفَ بينهم﴾ بقدرته البالغة؛ فإنه المالك للقلوب يُقلبها كيف يشاء. ﴿إنه عزيز﴾ تام القدرة، لا يَعصى عليه ما يريده، ﴿حكيم﴾ يعلم كيف ينبغي أن يفعل ما يريده.

قيل: إن الآية نزلت في الأوس والخزرج، كان بينهم إحنٌ وضغائن لا أمد لها، ووقائع هلكت فيها ساداتهم، فأنساهم الله ذلك، وألفَّ بينهم بالإسلام، حتى تصادقوا وصاروا أنصار الدين. وبالله التوفيق.

الإشارة: وإن مالت النفس وجنودها إلى الصلح مع صاحبها؛ بأن ألقت السلاح، ومالت إلى فعل كل ما فيه خير وصلاح، وعقدت الرجوع عن هواها، والدءوب على طاعة مولاها، فالواجب عقد الصلح معها، وتصديقها فيما تأمر به أو تَنْهَى عنه، مما يرد عليها، مع التوكل على مولاها، فإن خدعت بعد ذلك، أو رجعت إلى مألوفها، فالله يكفي أمرها، ويقوى صاحبها على ردها، إما بسبب شيخ كامل، أو أخ صالح، فإن الصحبة فيها سر كبير، لاسيما مع أهل الصفاء، الذين صفت قلوبهم، وألف الله بينهم بالمحبة والوداد، وحسن الظن والاعتقاد، وإما بسابق عناية ربانية وقوة إلهية. وبالله التوفيق.

ثم أمر نبيه بالاكتفاء بالله وعدم الالتفات إلى ما سواه، فقال:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾

قلت: (حسبك): مبتدأ، و(الله): خبر، ويصح العكس، و(من اتبعك): إما عطف على (الله)، أي: كفاك الله والمؤمنون، أو في محل نصب على المفعول معه، أو في محل جر؛ عطف على الضمير، على مذهب الكوفيين، أي: حسبك وحسب من اتبعك الله، والأول: أصح.

يقول الحق جل جلاله: ﴿يا أيها النبي حَسْبُكَ الله﴾ أي: كافيك الله، فلا تلتفت إلى شيء سواه، أي: لَمّا مَنَنْتُ عليك بائتلاف قلوب المؤمنين في نصرتك، فلا تلتفت إليهم في محل التوحيد، فإني حسبك وحدي بغير معاونة الخلق، فينبغي أن تفرد القدم عن الحدوث في سيرك مني إليّ، وأنا حسب المؤمنين عن كل ما دوني، وإن كان مَلَكًا مقربًا أو نبيًا مرسلاً، ولا ينبغي في حقيقة التوحيد النظر إلى غيري، وإنما أيدتك بواسطة المؤمنين، وذَكَرتُهم معي؛ تشريفاً لأمتك، وستراً لقدرتي، وإظهاراً لكمال حكمتي، وإلا فقدرتي لا يفوتها شيء، ولا تتوقف على شيء؛ «جل حكم الأزل أن يضاف إلى العلل».

قال البيضاوي: نزلت الآية تأييداً في غزوة بدر، وقيل: أسلم مع النبي ﷺ ثلاثة وثلاثون رجلاً وست نسوة، ثم أسلم عمر رضي الله عنه، فنزلت. ولذلك قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: نزلت في إسلامه.

الإشارة: ماخوطب به النبي ﷺ يخاطب به ورثته الكرام، من الاكتفاء بالله وعدم الإلتفات إلى ما سواه، وتصحيح عقد التوحيد، والاعتماد على الكريم المجيد. والله تعالى أعلم.

ثم أمره بالتحريض على الجهاد، فقال:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَـٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾

قلت : التحريض: هو الحث على الشيء والمبالغة في طلبه، وهو من الحرض، الذى هو الإشفاء على الهلاك.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ يأيها النبي حرّض المؤمنين ﴾ أي: حثهم ﴿ على القتال ﴾ أي: الجهاد. ثم أمرهم بالصبر والثبات للعدو بقوله: ﴿ إن يكنْ منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين، وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفًا من الذين كفروا ﴾، وهذا خبر بمعنى الأمر، أي: يقاتل العشرون منكم المائتين، والمائة الألف، وليثبتوا لهم، ولا يصح أن يكون خبرًا محضا، إذ لو كان خبراً محضاً لَمَا تخلف في الواقع، ولو في جزئية؛ إذ خبره تعالى لا يخلف.

قال الفخر الرازي: حَسُن هذا التكليف لما كان مسبوقًا بقوله: ﴿ حسْبُك الله ومن اتبعك من المؤمنين ﴾، فلما وعد المؤمنين بالكفاية والنصر كان هذا التكليف سهلاً؛ لأن من تكفل الله بنصره فإن أهل العالم لا يقدرون على إذايته. هـ.

وإنما كان القليل من المومنين يقاوم الكثير من الكفار ﴿ بأنهم ﴾؛ بسبب أنهم ﴿ قوم لا يفقهون ﴾، أي: لأنهم جهلة بالله واليوم الآخر، فلا يثبتون ثبات المؤمنين، رجاء الثواب والترقي في الدرجات، قتلوا أو ماتوا، بخلاف الكفار؛ فلا يستحقون من الله إلا الهوان والخذلان.

ولمَّا كلفهم بهذا في أول الاسلام، وشقَّ ذلك عليهم، خفف عنهم فقال: ﴿ الآنَ خففَ الله عنكم وعَلِمَ أن فيكم ضعفًا ﴾؛ فلا يقاوم الواحدُ منكم العشرة، ولا المائةُ الألفَ، ﴿ فإن يكن منكم مائة صابرة يَغْلِبُوا مائتين،

وإن يكن منكم ألفٌ يغلبوا ألفين بإذن الله ﴾؛ أمرهم بمقاومة الواحد لاثنين. وقيل: كان فيهم قلة، فلما كثروا خفف عنهم، وتكرير المعنى الواحد بذكر الأعداد المتناسبة؛ للدلالة على أن حكم القليل والكثير واحد، والضعف: ضعف البدن، لاضعف القلب.

قال بعض الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ: لما نزل التخفيف ذهب من الصبر تسعة أعشار، وبقي العشر. ولذلك قال تعالى هنا: ﴿ والله مع الصابرين ﴾، أي: بالنصر والمعونة، فكيف لا يغلب من يقاومهم ولو كثر عدده؟.

الإشارة: ينبغي لأهل التذكير أن يُحرضوا الناس على جهاد نفوسهم، الذي هو الجهاد الأكبر، وإنما كان أكبر؛ لأن العدد الحسي يقابلك وتقابله، بخلاف النفس فإنها جاء تحت الرماية خفية عدو حبيب، فلا يتقدم لجهادها إلا الرجال، فينبغي للشيوخ أن يحضوا المريدين على جهادها، ويهونوا لهم شأنها؛ فإنّ النفس لا يهول أمرها إلا قبل رمى اليد فيها، فاذا رميت يدك فيها بالعزم على قتلها ضعفت ولانت، وسهل علاجها، وإذا خفت منها، وسوّفت لها، طالت عليك وملكتك. ولابد في جهادها من شيخ يريك مساوئها، ويعينك بهمته على قتلها، وإلاَّ بقيتَ في العنتِ معها، والشغل بمعاناتها حتى تموت بلا حصول نتيجة جهادها، وهي المعرفة بسيدها وخالقها. والله تعالى أعلم.

ثم عاتبهم على أخذ الفداء من الأسارى، فقال:

﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ماكان لنبي أن يكونَ له أسرى ﴾ يقبضها ﴿ حتى يُثخنَ ﴾ أي: يبالغ ﴿ في الأرض ﴾؛ بالقتل حتى يذل الكفر ويقل حزبه، ويعز الإسلام ويستولي أهله. ﴿ تُريدون ﴾ بقبض الأسارى ﴿ عَرضَ الدنيا ﴾؛ حطامها بأخذ الفداء منهم، ﴿ والله يُريدُ الآخرة ﴾ أي: يريد لكم ثواب الآخرة، الذي يدوم ويبقى، أو يريد سبب نيل الآخرة من إعزاز دينه وقمع أعدائه، ﴿ والله عزيز ﴾ يغلب أولياءه على أعدائه، ﴿ حكيم ﴾ يعلم ما يليق بكمال حالهم ويخصهم بها، كما أمر بالإثخان، ومنَعَ مِنْ أخذ الفداء حين كانت الشوكة للمشركين، وخيّر بينه وبين المنّ لما تحولت الحال، وصارت الغلبة للمؤمنين.

رُوي أنه عليه الصلاة والسلام أُتِيَ يوم بدر بسَبْعِينَ أسيراً، فيهم العبّاسُ وعَقِيلُ بن أَبِي طَالِب. فاستأذن فِيهِمْ؛ فقال أبو بكر رضي الله عنه: قَوْمُكَ وأهلُك، استَبْقِهِمْ، لعلّ اللهَ يتوب علَيْهِمْ، وخُذْ مِنْهُمْ فِدْيةً تُقَوّى بِها أصحَابَك. وقال عمر

ﷺ: اضْرِبْ أعْنَاقَهُمْ، فإنهم أئِمَّةُ الكُفْر، وإنَّ الله أغْنَاكَ عَنِ الفِدَاءِ، فمكِّني من فُلاَن ـ لنَسِيبٍ لَهُ ـ ومكِّنْ عَلِيًّا وحَمْزَةَ مِنْ أخويهما، فَلْنَضْرِبْ أعْنَاقَهُمْ، فلم يَهْوَ ذلك رسولُ الله ﷺ، وقال: «إنَّ الله لَيُلِينُ قُلُوبَ رِجَالٍ حتَّى تكُونَ ألْيَنَ مِنْ كُلِّ لين، وإنَّ الله ليُشَدِّدُ قُلُوبَ رِجَالٍ حتَّى تكُونَ أشَدَّ من الحِجَارَة، وإن مَثَلَكَ ياأبَا بَكْرٍ مَثَلُ إبراهيم، قال: ﴿فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم﴾[1]، ومَثَلَكَ يا عُمَرُ مَثَلُ نوح، قال: ﴿رَبِّ لاَتَذَرْ على الأرض من الكافرين ديّاراً﴾»[2]. فخيَّر أصحابه، فأخذوا الفداء، فنزلت، فدخل عمر ﷺ على رسول الله ﷺ، فإذا هو وأبوبكر يَبْكِيَانِ، فقال: يارسول الله: أخْبِرْنِي، فَإنْ أجِد بُكاء بَكَيْتُ، وإلا تَبَاكَيْتُ؟ فقال: «أبْكِي على أصْحَابِكَ فِى أخْذِهِمُ الفداء ، ولقد عُرِضَ عليَّ عذابُهم أدْنَى مِنْ هذِهِ الشَجَرَة»[3] لِشَجَرَةٍ قَرِيبَةٍ.

والآية دليل على أن الأنبياء ـ عليهم السلام ـ يجتهدون، وإنه قد يكون الخطأ، ولكن لا يقرون عليه. قاله البيضاوي. قال القشيري: أخذ النبي ﷺ يوم بدرٍ منهم الفداء، وكان ذلك جائزاً لوجوب العصمة، ولكن لو قتلهم كان أولى هـ. وقال ابن عطية: إنما توجه العتاب للصحابة على استبقاء الرجال دون قتلهم، لاعلى الفداء؛ لأن الله تعالى قد كان خيَّرهم، فاختاروا الفداء على أن يقتل منهم سبعين، كما تقدم في سورة آل عمران[4]. ثم قال: والنبي عليه الصلاة والسلام خارج عن ذلك الاستبقاء. انظر تمامه في الحاشية.

فإن قلت: إذا كان الحق تعالى خيَّرهم فكيف عاتبهم، وهم لم يرتكبوا محظورا؟ فالجواب: أن العتاب تابع لعلو المقام، فالخواص يُعاتبون على المباح، إن كان فعله مرجوحاً، والحق تعالى إنما عاتبهم على رغبتهم في أمر دنيوي، وهو الفداء، حتى آثروا قتل أنفسهم على أخذه، ويدل عليه قوله: ﴿ تُرِيدون عَرَضَ الدنيا ﴾، وهذا إنما كان في بعضهم، وجُلهم إنما اختاروا الفداء استبقاء لقرابة الرسول عليه الصلاة والسلام. والله تعالى أعلم.

ثم قال تعالى في تمام عتابهم: ﴿ لولا كتابٌ من الله سبق ﴾ أي: لولا حكم الله سبق إثباته في اللوح المحفوظ، وهو ألا يعاقب المخطئ في اجتهاده، أو أنه سيحل لكم الغنائم، أو ما سبق في الأزل من العفو عنكم، ﴿ لمسّكم فيما أخذتُم ﴾؛ من الفداء أو من الأسارى، ﴿ عذابٌ عظيم ﴾. رُوى أنه عليه الصلاة والسلام قال، حين نزلت: «لو نزل العذاب ما نجا منه غيرُ عمر وسعد بن معاذ»؛ وذلك لأنه أيضاً أشار بالإثخان.

(١) الآية ٣٦ من سورة إبراهيم.
(٢) الآية ٢٦ من سورة نوح.
(٣) أخرجه أحمد في المسند (١/٣٨٣) والترمذي ببعض الاختصار في (تفسير سورة الأنفال) والحاكم وصححه ووافقه الذهبي في (المغازي، ٢١/٣) وكذلك أخرجه البيهقي في الدلائل (١٣٨/٣) كلهم عن ابن مسعود. وأخرجه بنحوه مسلم في (الجهاد ـ باب الإمداد بالملائكة) من حديث ابن عباس عن سيدنا عمر ـ رضي الله عن الجميع.
(٤) عند تفسير قوله تعالى: (أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا) الآية ١٦٥.

ثم أباح لهم الغنائم وأخذ الفداء فقال: ﴿ فكلوا مما غنمتم ﴾ من الكفار، ومن جملته: الفدية، فإنها من الغنائم، ﴿ حلالاً طيباً ﴾ أي: أكلاً حلالاً، وفائدته: إزاحة ما وقع في نفوسهم بسبب تلك المعاتبة، أو حرمتها على المتقدمين. رُوي أنه لما عاتبهم أمسكوا عنها حتى نزلت: ﴿ فكلوا مما غنمتم ﴾، ووصفه بالطيب؛ تسكيناً لقلوبهم، وزيادة في حليتها. وفي الحديث عنه ﷺ: «أُعْطِيتُ خَمْساً لَمْ يُعْطَهُنَّ أحَدٌ من الأنبِيَاء قَبْلي: أُحِلَّت لِيَ الغَنَائِم، ونُصِرْتُ بالرُّعْبِ مسيرَةَ شَهْرٍ، وجُعِلَتْ لِيَ الأرْضُ مَسْجِداً وطَهُوراً، وأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ، وخُصِصْتُ بِجوَامِعِ الكَلِمِ»(١). أو كما قال عليه الصلاة والسلام.

ثم قال تعالى: ﴿ واتقوا الله ﴾ في مخالفته؛ ﴿ إن الله غفور رحيم ﴾ أي: يغفر لكم ما فرط، ويرحمكم بإباحة ما حرم على غيركم؛ توسعةً عليكم. والله تعالى أعلم.

الإشارة: ما ينبغي للفقير المتوجه أن يكون له أتباع يتصرف فيهم ويستفيد منهم، عوضاً عن الدنيا، حتى يبالغ في قتل نفسه وتموت، ويأمن عليها الرجوع إلى وطنها من حب الرئاسة والجاه، أو جمع المال، والتمتع بالحظوظ، فإن تعاطي ذلك قبل موت نفسه كان ذلك سبب طرده، وتعجيل العقوبة له، حتى إذا تداركه الله بلطفه، وسبقت له عناية من ربه، فيقال له حينئذ: لولا كتاب من الله سبق لمسك فيما أخذت عذاب عظيم.

ثم بشَّر الأسارى بخلف ما أخذ منهم من الفداء بأكثر منه، فقال:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٧٠ وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدۡ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ فَأَمۡكَنَ مِنۡهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ٧١ ﴾

قلت: (أسْرى): جمع أسير، ويجمع على أسارى. وقرئ بهما، و(خيراً مما): اسم تفضيل، وأصله: أخْيَر، فاستغنى عنه بخير، وكذلك شر؛ أصله: أشر، قال في الكافية:

وغالباً أغناهم خير وشر		عن قولهم: أخيرُ منه وأشر.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ يا أيها النبي قلْ لمن في أيديكم من الأسرى ﴾ الذين أخذتم منهم الفداء: ﴿ إنْ يعلمِ اللهُ في قلوبكم خيراً ﴾ أي: إيماناً وإخلاصاً يكون في المستقبل، ﴿ يُؤتكم خيراً ﴾ أي: أفضل وأكثر ﴿ مما أُخذ منكم ﴾ من الفداء.

(١) أخرجه البخاري في (أول كتاب التيمم) ومسلم في (المساجد) من حديث جابر بن عبدالله ـ بلفظ: «وكان النبي يُبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس كافة، بدل: «وخصصت بجوامع الكلم»، وقد جاءت هذه العبارة بنحوها في رواية عند مسلم عن أبي هريرة، وفيها: (فضلت على الأنبياء بست) وساق الخمس السابقة.

رُوي أنها نزلت في العباس رضي الله عنه؛ كلّفه رسول الله ﷺ أن يفدي نفسه، وابني أخويه: عقيل بن أبي طالب ونوفل بن الحارث، فقال: يا محمد؛ تركتني أتكفف قريشًا ما بقيت، فقال له عليه الصلاة والسلام: وأين الذهب الذي دفعتَهُ لأم الفضل وقتَ خروجك، وقلت لها: لا أدري ما يصيبني في وجهي هذا، فإن حدَثَ بي حدثٌ فهو لكِ، ولعبدِ الله، وعُبيد الله والفضل، وقُثَم، قال له وما يدْريكَ؟ قال: أخبرني به ربي تعالى، قال: فأشْهَدُ أنكَ صادقٌ، وأن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله، والله لم يطلعْ عليه أحدٌ إلا الله، ولقد دفعته إليها في سوَادِ الليْلِ.

قال العباس: فأبْدلني الله خيراً من ذلك، أعطاني رسول الله ﷺ من المال الذي قدم من البحرين ما لم أقدر على حمله، ولي الآن عشرون عبداً، إن أدناهم يضرب - أي: يتجر - في عشرين ألفا، وأعطاني زمزم، ما أحب أنّ لي بها جميعَ أموالِ أهلِ مكة، وأنا أنتظرُ المغفرة منْ ربكم، يعني: الموعود بقوله تعالى: (يغفر لكم والله غفور رحيم)(١).

﴿ وإنْ يُريدوا ﴾؛ الأسارى ﴿ خيانتك ﴾؛ بنقض ما عهدوك به، ﴿ فقد خانوا الله من قبلُ ﴾؛ بالكفر والمعاصي﴿ فأمْكَنَ منهم ﴾ وأمكنك من ناصيتهم، فقبضوا وأسروا ببدر، ﴿ والله عليمٌ ﴾ لا يخفى عليه شيء، ﴿ حكيمٌ ﴾ فيما دبر وأمضى.

الإشارة: يقال للفقراء المتوجهين إلى الله، الذين بذلوا أموالهم ومهجَهم، وقتلوا نفوسهم في طلب محبوبهم: إن يعلم الله في قلوبكم خيراً، كصدق وإخلاص، يؤتكم أفضل مما أخذ منكم، من ذبح النفوس وحط الرؤوس ودفع الفلوس. وهو الفناء الأكبر، والسر الأشهر، الذي هو الفناء في الله، والغيبة عما سواه، وثمرته: المشاهدة التي تصحبها المكالمة، وهذا هو الإكسير والغنا الكبير، فكل من باع نفسه في طلب هذا فقد ربحت صفقته وزكت تجارته، مع غفران الذنوب، وتغطية المساوئ والعيوب. وبالله التوفيق.

ثم بيَّن فضائل المهاجرين والأنصار، ومنزلة من آمن ولم يهاجر، والذين هاجروا بعد الحديبية، تتميمًا للتحريض على الجهاد، فبدأ أولاً بالمهاجرين والأنصار، فقال:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ

(١) أخرجه الحاكم في (المستدرك ٣ / ٣٢٤) وصححه على شرط مسلم وأقره الذهبي. والطبري في تفسير الآية، عن السيدة عائشة رضي الله عنها.

حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا ۚ وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٧٢) وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ (٧٣) ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿إن الذين آمنو وهاجروا﴾ أوطانهم فى الخروج مع رسول الله ﷺ، لنصرة الدين بالجهاد، ﴿وجاهدوا بأموالهم﴾ فصرفوها فى الإعداد للجهاد، كالكراع والسلاح، وأنفقوها على المجاريح، ﴿وأنفسهم في سبيل الله﴾؛ بمباشرة القتال، ﴿والذين آوَواْ﴾ رسول الله ومن هاجر معه، وواسوهم بأموالهم، ﴿ونصرُوا﴾ دين الله ورسوله، ﴿أولئك بعضُهم أولياءُ بعض﴾ فى التعاون والتناصر، أو فى الميراث.

وكان المهاجرون والأنصار يتوارثون بالهجرة والنصرة، دون الأقارب، حتى نسخ بقوله: ﴿وَأُوْلُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾(١).

ثم ذكر من لم يهاجر فقال: ﴿والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من وَلايتهم من شيء﴾؛ لا فى النصرة، ولا فى الميراث، ﴿حتى يهاجروا﴾ إليكم، ﴿وإنِ استنصروكُم﴾ على المشركين ﴿في﴾ إظهار ﴿الدين فعليكم النصرُ﴾ أى: فواجب عليكم نصرهم وإعانتهم، لئلا يستولى الكفر على الإيمان، ﴿إلا على قومٍ﴾ كان ﴿بينكم وبينهم﴾ عهد و﴿ميثاقٌ﴾، فلا تنقضوا عهدهم بنصرهم، فإن الخيانة ليست من شأن أهل الإيمان. ﴿والله بما تعملون بصيرٌ﴾ لا يخفى عليه من أوفى ومن نقض.

﴿والذين كفروا بعضُهم أولياءُ بعضٍ﴾ فى الميراث. ويدل بمفهومه، على منع التوارث والموازرة بينهم وبين المسلمين. ﴿إلا تفعلوه﴾ أى: إلا تفعلوا ما أُمرتم به من موالاة المؤمنين ونصرتهم، أو نصرة من استنصر بكم ممن لم يهاجر، ﴿تكن فتنةٌ في الأرضِ﴾؛ با ستيلاء المشركين على المؤمنين، ﴿وفسادٌ كبير﴾ بإحلال المشركين أموال المؤمنين وفروجهم، أو: إلا تفعلوا ما أمرتم به من حفظ الميثاق، تكن فتنة فى الأرض، فلا يفى أحد بعهد أبداً، وفساد كبير بنهب الأموال والأنفس.

الإشارة: أهل التجريد، ظاهراً وباطناً، هم الذين آمنوا وهاجروا حظوظهم، وجاهدوا نفوسهم بسيوف المخالفة، وآوَوا من نزل أو التجأ إليهم من إخوانهم أو غيرهم، أو آووا أشياخهم وقاموا بأمورهم، ونصروا الدين بالتذكير

(١) الآية ٦ من سورة الأحزاب.

والإرشاد والدلالة على الله، أينما حلوا من البلاد، أولئك بعضهم أولياء بعض فى العلوم والأسرار، وكذلك فى الأموال. فقد قال بعض الصوفية: (الفقراء: لا رزق مقسوم، ولا سر مكتوم). وهذا فى حق أهل الصفاء من المتحابين فى الله.

والذين آمنو ولم يهاجروا هم أهل الأسباب من المنتسبين، قد نهى الله عن موالاتهم فى علوم الأسرار وغوامض التوحيد؛ لأنهم لا يطيقون ذلك؛ لشغل فكرتهم بالأسباب أو بالعلوم الرسمية، نعم، إن وقعوا في شبهة أوحيرة، وجب نصرهم بما يزيل إشكالهم، لئلا تقع بهم فتنة أو فساد كبير فى اعتقادهم. والله تعالى أعلم.

ثم أثنى على المهاجرين والأنصار، فقال:

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴿٧٤﴾ ﴾

قال البيضاوي: لما قسم المؤمنين ثلاثة أقسام - أى: مهاجرين، وأنصار، ومن آمن ولم يهاجر - بيّن أن الكاملين فى الإيمان منهم هم الذين حققوا إيمانهم، بتحصيل مقتضاه من الهجرة، والجهاد، وبذل المال، ونصرة الحق، ووعد لهم الوعد الكريم، فقال: ﴿لهم مغفرة ورزق كريم﴾؛ لا تبعة له، ولا فتنة فيه. ثم ألحق بهم فى الأمرين من يلتحق بهم ويتسم بسمتهم فقال:

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمۡۚ ... ﴾

أى: من جملتكم أيها المهاجرون والأنصار.هـ.

ثم نسخ الميراث المتقدم، فقال:

﴿ ... وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ ﴿٧٥﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله ﴿وأولُوا الأرحام﴾ من قرابة النسب، ﴿بعضُهم أولَى ببعض﴾ فى التوارث من الأجانب، وظاهره: توريث ذوي الأرحام، كالخال والعمة وسائر ذوى الأرحام، وبه قال أبو حنيفة، ومنعه مالك، ورأى أن الآية منسوخة بآية المواريث التى فى النساء، أو يراد بالأولية: غير الميراث، كالنصرة وغيرها. وقوله: ﴿فى كتابِ الله﴾ أى: فى القرآن، أو اللوح المحفوظ. ﴿إن الله بكل شيء عليم﴾ من أمر المواريث وغيرها، أو عليم بحكمة إناطتها بنسبة الإسلام والمظاهرة أولاً، وبالقرابة ثانيا، والله تعالى أعلم.

الإشارة: الناس ثلاثة: عوام، وخواص، وخواص الخواص. فالعوام: هم الذين لا شيخ لهم يصلح للتربية. والخواص: هم الذين صحبوا شيخ التربية، ولم ينهضوا إلى مقام التجريد. وخواص الخواص: هم الذين صحبوا شيخ التربية وتجردوا ظاهراً وباطناً، خربوا ظواهرهم، وعمّروا بواطنهم، وهم الذين خاضوا بحار التوحيد، وذاقوا أسرار التفريد. وهم الذين أشار المجذوب الى مقامهم بقوله:

ياقارئين علم التوحيد — هـذا البحور إليَّ تفْنى

هذا مقام أهل التجريد — الـواقفـين مع ربـي

فأهل التجريد، كالمهاجرين والأنصار، وأهل الأسباب من أهل النسبة، كمن لم يهاجر من الصحابة، ومن تجرد بعدُ ودخل معهم، التحق بهم. قال تعالى: ﴿ والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم ﴾، ومن لا نسبة له كمن لا صحبة له، وبالله التوفيق، وهو الهادي إلى سواء الطريق. وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد، وآله وصحبه، وسلم تسليماً، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين*.

* * *

* كُتب في آخر المجلد الأول من النسخة الأصلية: هذا آخر السفر الأول من (البحر المديد في تفسير القرآن المجيد)، ووافق الفراغ من تبييضه سادس عشر من جمادى الأولى، سنة ست عشر ومائتين وألف، يتلوه سورة التوبة بحول الله وقوته.
انتهى، بحوله وقوته، عشية يوم استخراجه من مبيضته؛ الجمعة ثالث وعشرين من جِمادى الأولى، أيضا، من تلك السنة المذكورة قبل. ونسأله الإعانة على التمام، بجاه النبي ـ عليه السلام ـ صلى الله عليه ـ على مرِ الليالي والأيام.

سُورَةُ التَّوْبَة

(مدنية) . ولها أسماء أُخر: سورة براءة؛ لتبرئها من المنافقين، والمُقَشْقِشَة، أي: المبرئة من النفاق، والبَحوث؛ لبحثها عن أحوال المنافقين، والمبعثرة والمنقرة والمثيرة، والحافرة؛ لأنها بعثرت ونقرت وأثارت وحفرت عن أحوال المنافقين، والمخزية والفاضحة، والمنكلة، والمشردة، والمدمدمة، وسورة العذاب؛ لأنها أخزت المنافقين، وفضحتهم، ونكلتهم، وشردتهم، ودَمْدَمت عليهم، وذكرت ما أعد الله لهم من العذاب.

وآياتها: مائة وثلاثون، وقيل: وتسع وعشرون. ومناسبتها: قوله: ﴿ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾(١)، فذكر في هذه السورة نقض ذلك الميثاق.

واتفقت المصاحف والقراء على ترك البسملة في أولها، فقال عثمان رضي الله عنه : أشبهت معانيها معاني الأنفال، أي: لأن في الأنفال ذكر العهود وفي براءة نبذها. وكانتا تدعى القرينتين في زمن رسول الله ﷺ، فلذلك قرنتُ بينهما ووضعتهما في السبع الطوال(٢)، وكان الصحابة قد اختلفوا: هل هما سورة واحدة أو سورتان؟ فتركت البسملة بينهما لذلك. وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : البسملة أمان، وبراءة نزلت بالسيف، فلذلك لم تبدأ بالأمان. وقال البيضاوي: لما اختلف الصحابة في أنهما سورة واحدة، وهي سابعة السبع الطوال، أو سورتان، تركت بينهما فرجة، ولم تُكتب بسم الله. هـ.

ثم ابتدأ بنقض عهود المشركين، فقال:

﴿ بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ۝١ فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ ۝٢ ﴾

قلت: (براءة): خبر عن مضمر، أي: هذه براءة، و(مِنَ): ابتدائية، متعلقة بمحذوف، أي: واصلة من الله، و(إلى الذين): متعلقة به أيضاً، أو مبتدأ لتخصيصها بالصفة، و(إلى الذين): خبر.

* بداية المجلد الثاني في النسخة الأصلية. (١) من الآية ٧٢ من سورة الأنفال.

(٢) أخرجه أحمد في المسند (١/٥٧) وأبو داود في (الصلاة، باب من جهر ببسم الله الرحمن الرحيم) والترمذي في (التفسير، سورة التوبة) والحاكم في (٢/٢٢١) وصححه ووافقه الذهبي.

يقول الحق جل جلاله: هذه ﴿ براءة ﴾ أى: تبرئة ﴿ من الله ورسوله ﴾ واصلة ﴿ إلى الذين عاهدتم من المشركين ﴾، فقد تبرأ الله ورسوله من كل عهد كان بين المشركين والمسلمين، لأنهم نكثوا أولاً، إلا أناساً منهم لم ينكثوا، وهم بنو ضمرة وبنو كنانة، وسيأتى استثناؤهم. قال البيضاوى: وإنما علقت البراءة بالله وبرسوله، والمعاهدة بالمسلمين؛ للدلالة على أنه يجب عليهم نبذ عهود المشركين إليهم، وإن كانت صادرة بإذن الله واتفاق الرسول؛ فإنهما برئا منها. هـ.

وقال ابن جزى: وإنما أسند العهد إلى المسلمين؛ لأن فعل الرسول ﷺ لازم للمسلمين، وكأنهم هم الذين عاهدوا المشركين، وكان النبى ﷺ قد عقد العهد مع المشركين إلى آجال محدودة، فمنهم من وفّى، فأمر الله أن يتم عهده إلى مدته، ومنهم من نقض أو قارب النقض، فجعل له أجل أربعة أشهر، وبعدها لا يكون له عهد. هـ. وإلى ذلك أشار بقوله: ﴿ فسيحوا فى الأرض أربعة أشهر ﴾ آمنين لا يتعرض لكم أحد، وبعدها لا عهد بينى وبينكم. وذكر الطبرى: أنهم أسلموا كلهم فى هذه المدة ولم يسح أحد. هـ.

وهذه الأربعة الأشهر: شوال، وذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، لأنها نزلت فى شوال، وقيل: هى عشرون من ذى الحجة، والمحرم، وصفر، وربيع الأول، وعشر من الآخر، لأن التبليغ كان يوم النحر؛ لما روى (أنها لمَّا نزلت أرسل رسولُ الله ﷺ علياً رضي الله عنه راكباً العَضْبَاء ليقْرأَهَا على أهل المَوْسِم، وكان قد بعث أبا بكرٍ رضي الله عنه أميراً على الموسم، فقيل: لَوْ بعثْتَ بها إلَى أَبى بكرٍ؟ فقال: «لا يُؤَدِّى عَنّى إلا رجلٌ مِنّى» فلمّا دنَا علىّ رضي الله عنه سَمِعَ أبوبَكْرٍ الرُّغَاءَ، فوَقَفَ، وقَالَ: هذا رُغَاء نَاقَة رَسُول الله ﷺ، فوقف، فلمَّا لَحِقَهُ قال: أَمِيرٌ أَوْ مأمُورٌ ؟ قال: مأمورٌ، فلما كان قبل التَرْوِيَة خَطَبَ أبو بكر رضي الله عنه، وحدَّثهُمْ عَنْ مناسكهم، وقَامَ علىٌّ – كرم الله وجهه – يومَ النّحر، عند جَمْرَةِ العَقَبَةِ، فقال: يا أيها النَّاس، إنى رَسُولُ رسول الله ﷺ إليكم، فقالُوا: بماذا؟ فقَرأ عليهمْ ثَلاثين أَوْ أَرْبَعين آيةً من أول السورة، ثم قال: أُمِرْتُ بأرْبَعٍ: ألا يَقْرَب البَيْتَ بعد هذا مُشْرِكٌ، ولايَطُوفَ بالبَيْت عُرْيَانٌ، ولا يَدْخُلَ الجنّةَ إلا نَفْسٌ مُؤْمِنَةٌ، وأنْ يتمّ إلَى كُلِّ ذى عَهْدٍ عَهْدُهُ.)(١).

ولعل قوله ﷺ: «ولا يؤدى عنى إلا رجل منى» خاص بنقض العهود؛ لأنه قد بعث كثيراً من الصحابة ليؤدوا عنه، وكانت عادة العرب ألاَّ يتولى العهد ونقضه على القبيلة إلا رجل منها. قاله البيضاوى مختصرا.

ثم قال تعالى لأهل الشرك: ﴿ واعلموا أنكم غير مُعجزى الله ﴾ أى: لا تفوتونه، وإن أمهلكم، ﴿ وأن الله مُخزى الكافرين ﴾ فى القتل والأسر فى الدنيا، والعذاب المهين فى الآخرة.

---

(١) أخرجه البخارى فى (الصلاة ـ باب ما يستر من العورة) ومسلم فى (الحج ـ باب لا يحج البيت مشرك) كلاهما من حديث أبى هريرة، وليس فيه ذكر قوله ﷺ: (لا يؤدى عنى إلا رجل منى)، وقد جاءت فى رواية عند أحمد فى المسند (٣/١) والترمذى فى (تفسير سورة التوبة).

الإشارة: قد وقع التبرؤ من أهل الشرك مطلقًا، أما الشرك الجلي فقد تبرأ منه الإسلام والإيمان، وأما الشرك الخفي فقد تبرأ منه مقام الإحسان، ولا يدخل أحدٌ مقام الإحسان حتى لا يعتمد على شيء، ولا يستند إلى شيء، إلا على من بيده ملكوت كل شيء، فيطرح الأسباب وينبذ الأرباب، ويرفض النظر إلى العشائر والأصحاب، حتى لا يبقى في نظره إلا الكريم الوهاب، فمن أصرَّ على شركه الجلي أو الخفي فإن الله يمهل ولا يهمل، فلابد أن يلحقه وباله: إما خزي في الدنيا، أو عذاب في الآخرة، كلٌّ على ما يليق به.

وقال القشيري: إنْ قَطَعَ عنهم الوصلة فقد ضَرَبَ لهم مدةً على وجه المُهْلَة، فأمَّنهم في الحال؛ ليتأهبوا لتَحَمُّلِ مقاساة البراءة فيما يستقبلونه في المآل. والإشارةُ فيه: أنهم إنْ أقلعوا في هذه المهلة عن الغيِّ والضلال، وجدوا في المآل مافقدوا من الوصال، وإنْ أبَوْا إلا التمادي في تَرْكِ الخدمة والحرمة، انقطع ما بينه وبينهم من الوصلة .هـ. والله تعالى أعلم.

ثم أمر بإظهار تلك البراءة للناس، فقال:

﴿ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ
وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ
يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾ ﴾

قلت: (وأذان): مبتدأ، أو خبر، على ما تقدم في براءة، وهو فَعال بمعنى إفعال؛ كالعطاء بمعنى الإعطاء، أي: وإعلام من الله ورسوله واصل إلى الناس، ورفع «رسوله»؛ إما عطف على ضمير بريء، أو على محل «إن» واسمها، أو مبتدأ حُذف خبره، أي: ورسوله كذلك.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وأذانٌ من الله ورسوله﴾ واصل إلى الناس، يكون ﴿يومَ الحج الأكبر﴾ وهو يوم النحر؛ لأن فيه تمام الحج ومعظم أفعاله، ولأن الإعلام كان فيه. ولما روى أنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ وقف يوم النحر، عند الجمرات، في حجة الوداع، فقال: «هذا يوم الحج الأكبر»(١)، وقيل: يوم عرفة؛ لقوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «الحج عرفة»(٢). ووصف الحج بالأكبر؛ لأن العمرة تسمى الحج الأصغر.

---

(١) أخرجه البخاري في (الحج ـ باب الخطبة أيام منى) عن نافع عن ابن عمر.

(٢) أخرجه أحمد في المسند (٤/٣٠٩) وأبو داود في (المناسك، باب من لم يدرك عرفة) والترمذي في (الحج، باب ما جاء فيمن أدرك الإمام بجمع فقد أدرك الحج)، كذلك أخرج الحديث النسائي وابن ماجه من حديث عبدالرحمن بن يعمر.

وذلك الإعلام بأنّ ﴿ الله بريء من المشركين ورسولُه ﴾ - عليه الصلاة والسلام - كذلك. قال البيضاوي: ولا تكرار؛ فإن قوله: ﴿براءة من الله﴾: إخبار بثبوت البراءة، وهذا إخبار بوجوب الإعلام بذلك، ولذلك علقه بالناس ولم يخص بالمعاهدين. هـ. ﴿ فإن تُبْتُم ﴾ يا معشر الكفار ورجعتم عن الشرك، ﴿ فهو ﴾ أي: الرجوع ﴿ خيرٌ لكم ﴾، ﴿ وإن توليتم ﴾ أي: أعرضتم عن التوبة وأصررتم على الكفر ﴿ فاعلموا أنكم غيرُ معجزي الله ﴾؛ لا تفوتونه طلبا، ولا تعجزونه هربا في الدنيا، ﴿ وبشِّر الذين كفروا بعذابٍ أليم ﴾ في الآخرة.

ولما أمر بنقض عهود الناكثين استثنى من لم ينقض فقال: ﴿ إلا الذين عاهدتُّم ﴾ أي: لكن الذين عاهدتم ﴿ من المشركين ﴾، وهم بنو ضمرة وبنو كنانة، ﴿ ثم لم ينقُصُوكم شيئاً ﴾ من شروط العهد، ولم ينكثوا، ولم يقتلوا منكم، ولم يضروكم قط، ﴿ ولم يُظاهروا عليكم أحدا ﴾ أي: لم يعاونوا عليكم أحداً من أعدائكم، ﴿ فأتموا إليهم عهدهم إلى ﴾ تمام ﴿ مُدتهم ﴾، وكانت بقيت لهم من عهدهم تسعة أشهر. ولا تجروهم مجرى الناكثين؛ ﴿ إن الله يحب المتقين ﴾، وهو تعليل وتنبيه على أن إتمام عهدهم من باب التقوى. قاله البيضاوي.

الإشارة: من أعظم شؤم الشرك: أن الله ورسولَه تبرآ من أهله مرتين: خاصة وعامة، فيجب على العبد التخلص منه خفياً أو جلياً، ويستعين على ذلك بصحبة أهل التوحيد الخاص، حتى يُخلصوه من أنواع الشرك كلها، فإن صدر منه شيء من ذلك فليبادر بالتوبة، فإن تولى وأصر على شركه، كان ذلك سبب هوانه وخزيه، وبالله التوفيق.

ثم أمر بجهاد المشركين، بعد الأربعة الأشهر التي أمهلهم فيها، فقال :

﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ فإذا انسلخَ الأشهرُ ﴾ أي: انقضى الأشهر ﴿ الحُرم ﴾ وهي الأربعة التي أمهلهم فيها، فمن قال: إنها شوال وذو القعدة وذو الحجة والمحرم، فهي الحرم المعروفة، زاد فيها شوال، ونقص رجب، وسميت حُرماً؛ تغليباً للأكثر، ومن قال: إنها ذو الحجة إلى ربيع الثاني، فسميت حرماً؛ لحرمتها ومنع القتال فيها حينئذ. وغلط من قال: إنها الأشهر الحرم المعلومة؛ لإخلاله بنظم الكلام ومخالفته للإجماع؛ لأنه يقتضي بقاء حرمة الأشهر الحرم. انظر البيضاوي.

فإذا انقضت الأربعة التي أمهلتهم فيها ﴿ فاقتلوا المشركين ﴾ الناكثين ﴿ حيثُ وجدتُموهم ﴾ من حل أو حرم، ﴿ وخُذوهم ﴾ أسارى، ويقال للأسير: أخيذ، ﴿ واحْصُروهم ﴾؛ واحبسوهم، ﴿ واقعدُوا لهم كل مرْصَد ﴾؛ كل ممر وطريق؛ لئلا ينبسطوا في البلاد، ﴿ فإن تابوا ﴾ عن الشرك وآمنوا، ﴿ وأقاموا الصلاة وآتواً الزكاة ﴾؛ تصديقاً لتوبتهم وإيمانهم؛ ﴿ فخلُّوا سبيلهم ﴾ أي: فدعوهم ولا تتعرضوا لهم بشيء من ذلك.

وفيه دليل على أن تارك الصلاة ومانع الزكاة لا يخلى سبيله، بل يقاتل؛ كما فعل الصديق رضي الله عنه بأهل الردة. والآية: في معنى قوله ﷺ: «أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لا إلهَ إلاَّ اللهُ، وَيُقِيمُوا الصَّلاَةَ، وَيُؤتُوا الزَّكَاةَ...» الحديث(١).

﴿ إن الله غفور رحيم ﴾، هو تعليل لعدم التعرض لمن تاب، أي: فخلوهم؛ لأن الله قد غفر لهم، ورحمهم بسبب توبتهم.

الإشارة: فإذا انقضت أيام الغفلة والبطالة التي احترقت النفس فيها، فاقتلوا النفوس والقواطع والعلائق حيث وجدتموهم، وخذوا أعداءكم من النفس والشيطان والهوى، واحصروهم، واقعدوا لهم كل مرصد يتعرضون فيه لكم، فإن أذعنوا، وانقادوا، وألقوا السلاح، فخلوا سبيلهم، إن الله غفور رحيم.

ولما أمر بقتال المشركين وأخذهم أينما ثُقفوا، استثنى من أتى يطلب الأمان، فقال:

﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ ﴾

قلت: «أحد»: فاعل بفعل يفسره: «استجارك».

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وإنْ ﴾ أتاك ﴿ أحدٌ من المشركين ﴾ المأمورين بالتعرض لهم، حيثما وجدوا، ﴿ استجارَكَ ﴾؛ يطلب جوارك، ويستأمنك، ﴿ فأجِرْهُ ﴾ أي: فأمنْهُ؛ ﴿ حتى يسمع كلامَ الله ﴾ ويتدبره، ويطلع على حقيقة الأمر، لعله يُسلم، ﴿ ثم أبلغْهُ مأمنه ﴾ أي: موضع أمنه إن لم يسلم، ولا تترك أحداً يتعرض له حتى يبلغ محل أمنه؛ ﴿ ذلك بأنهم قومٌ لا يعلمون ﴾ أي: ذلك الأمر الذي أمرتك به بسبب أنهم قوم لا علم لهم بحقيقة الإيمان، ولا ما تدعوهم إليه، فلابد من إيجارهم، لعلهم يسمعون ويتدبرون؛ فيكون ذلك سبب إيمانهم.

(١) أخرجه البخاري في (الاعتصام ـ باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ) ومسلم في (الإيمان ـ باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لاإله إلا الله). من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الإشارة: وإن استجارك ـ أيها العارف ـ أحد من عوام المسلمين ممن لم يدخل معكم بلاد الحقائق، وأراد أن يسمع شيئاً من علوم القوم، فأجره حتى يسمع شيئاً من علومهم وأسرارهم، فلعل ذلك يكون سبباً في دخوله في طريق القوم. ولا ينبغي للفقراء أن يطردوا من يأتيهم من العوام، بل يتلطفوا معهم، ويسمعوهم ما يليق بحالهم؛ لأنَّ العوام لاعلم لهم بما للخواص، فإنّ أطلعوا على ما خصهم الله به من العلوم دخلوا معهم، إن سبق لهم شيء من الخصوصية.

وقال شيخ شيوخنا سيدي علي الجمل رضي الله عنه: لا ينبغي لأهل الخصوصية أن يدخلوا بلد العموم إلا في جوار أحد منهم، وإلا أنكرته البلد؛ لأن البلد أمٌ تغير على غير أبنائها، ولا ينبغي أيضا للعموم أن يدخلوا بلد الخصوص إلا في جوار رجل منهم، وإلا أنكرته البلد.هـ. بالمعنى.

ثم استبعد الحق أن يكون للمشركين عهد مع المسلمين، فقال:

﴿ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨﴾ ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ ﴾

قلت: (إلا الذين): محله النصب على الاستثناء، أو جر على البدل من «المشركين»، أو رفع على الانقطاع، أي: لكن الذين عاهدتم فما استقاموا لكم، و(الإل): القرابة والحلف، وحذف الفعل في قوله: (كيف وإن يظهروا عليكم)؛ للعلم به بما تقدم، أي: كيف يكون لهم عهد والحال أنهم إن يظهروا عليكم.. إلخ

يقول الحق جل جلاله، في استبعاد العهد من المشركين والوفاء به: ﴿كيف يكونُ للمشركين عهدٌ عند الله وعندَ رسوله﴾؟ مع شدة حقدهم وعداوتهم للرسول وللمسلمين، مع ما تقدم لهم من النقض والخيانة فيه، ﴿إلا الذين عاهدتُم عند المسجد الحرام﴾ قيل: هم المستثنون قبلُ. وقال ابن اسحاق: هي قبائل بني بكر، كانوا

دخلوا وقت الحديبية، في المدة التي كانت بين رسول الله ﷺ وبين قريش، فلم يكن نقض إلا قريش وبنو الديل من بني بكر، فأُمر المسلمون بإتمام العهد لمن لم يكن نقض. وقال ابن عباس: هم قريش، وقال مجاهد: خزاعة، وفي هذين القولين نظر؛ لأن قريشاً وخزاعة كانوا أسلموا وقت الأذان؛ لأنهم أسلموا في الفتح، والأذان بعده بسنة.

قال تعالى في شأن من استثنى: ﴿ فما استقاموا لكم ﴾ على العهد ولم يغدروا، ﴿ فاستقيمُوا لهم ﴾ على الوفاء، أي: تربصوا بهم وانتظروا أمرهم، فإن استقاموا لكم فاستقيموا لهم، ﴿ إن الله يحب المتقين ﴾ الذين إذا عاهدوا وفوا، وإذا قالوا صدقوا.

ثم كرر استبعاد وفائهم فقال: ﴿ كيف ﴾ يصح منهم الوفاء بعهدكم ﴿ و ﴾ هم ﴿ إن يظهرُوا عليكم ﴾ ويظفروا بكم في وقعة ﴿ لا يرقُبوا ﴾ أي: لا يراعوا ﴿ فيكم إلاَّ ﴾؛ قرابة أو حلفًا، وقيل: ربوبية، أي: لا يراعون فيكم عظمة الربوبية ولايخافون عقابه، ﴿ ولا ذمَّةً ﴾ أي: عهدا، أو حقًا يعاب على إغفاله، ﴿ يرُضونكم بأفواههم ﴾؛ بأن يعدوكم بالإيمان، والطاعة، والوفاء بالعهد، في الحال، مع استبطان الكفر والغدْر، ﴿ وتأبى ﴾ أي: تمنع ﴿ قلوبهم ﴾ ماتفوه به أفواههم، ﴿ وأكثرهم فاسقون ﴾ متمردون، لاعقيدة تزجرهم، ولا مروءة تردعهم، وتخصيص الأكثر؛ لما في بعض الكفرة من التمادي على العهد، والتعفف عما يجر إلى أحدوثة السوء. قاله البيضاوي.

﴿ اشْتَروا بآيات الله ﴾ أي: استبدلوا بها ﴿ ثمناً قليلاً ﴾ أي: عرضًا يسيرا، وهو اتباع الأهواء والشهوات، ﴿ فصدُّوا عن سبيله ﴾؛ دينه المُوصل إليه، أو بيته بصد الحجاج عنه. ﴿ إنهم ساء ما كانوا يعملون ﴾ أيْ: قبُح عملهم هذا، أو ساء ماكانوا يعملون من كونهم ﴿ لايرقبون في مؤمن إلاَّ ولا ذمة ﴾؛ فيكون تفسيراً لعملهم السوء، لا تكريراً. وقيل: الأول في الناقضين العهد، وهذا خاص بالذين اشتروا، وهم اليهود، أو الأعراب الذين جمعهم أبوسفيان وأطعمهم.

وقوله تعالى: ﴿ في مؤمن ﴾: فيه إشارة إلى أن عداوتهم إنما هي لأجل الإيمان فقط، وقوله أولاً: ﴿فيكم﴾، كان يحتمل أن يظن ظان أن ذلك للإحن التي وقعت بينهم، فزال هذا الاحتمال بقوله: ﴿في مؤمن﴾. قاله ابن عطية.

﴿ وأولئك هم المعتدون ﴾ في الشرارة والقبح. ﴿ فإن تابوا ﴾ عن الكفر، ﴿ وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين ﴾؛ لهم ما لكم وعليهم ماعليكم، ﴿ ونفصِّلُ الآيات لقوم يعلمون ﴾، حث على تأمل مافصل من أحكام المعاهدين وخصال التائبين. قاله البيضاوي.

الإشارة: لا ينبغي للخواص أن يثقوا بمحبة العوام، ولا يغتروا بما يسمعون من عهودهم، فإن محبتهم على الحروف، مهما رأوا خلاف ما أملوا من حروفهم، وأطماعهم، نكثوا وأدبروا، فللعارف غنيٌ بالله عنهم. وفي ذلك

يقول سيدنا علي ـ كرم الله وجهه ـ:

مَا الفَخـرُ إلاَّ لأَهْلِ العِلْمِ، إنَّهُمُ عَلَى الهُدَى لمن استهْدَى أدلاَّءُ
وَقَدْرُ كل امرئ ما كَانَ يُحْسِنهُ والجَاهِلُون لأهْلِ العِلْمِ أعـــدَاءُ

ثم ذكر حكم من نقض العهد، فقال:

﴿ وَإِن نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا۟ فِى دِينِكُمْ فَقَـٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ
إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَـٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾ أَلَا تُقَـٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُمْ وَهَمُّوا۟
بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ
إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ قَـٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ
صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ
حَكِيمٌ ﴿١٥﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿وإن نكثُوا أيمانَهم﴾ أي: نقضوها ﴿من بعد عهدهم﴾ أي: من بعد ماأعطوكم من العهود على الوفاء بها، ﴿وطعنوا في دينكم﴾ بصريح التكذيب وتقبيح الأحكام، ﴿فقاتلُوا أئمةَ الكفر﴾ أي: فقاتلوهم لأنهم أئمة الكفر، فوضع أئمة الكفر موضع الضمير؛ للدلالة على أنهم صاروا بذلك ذوي الرئاسة والتقدم في الكفر، فهم أحِقاء بالقتل، وقيل: المراد رؤساء المشركين، والتخصيص: إما لأن قتلهم أهم، وهم أحق به، أو للمنع من مراقبتهم، ﴿إنهم لا أيمان لهم﴾ على الحقيقة، وإلاَّ لم يقدروا أن ينكثوها، واستشهد به الحنفية على أن يمين الكافر لاتلزم، وهو ضعيف؛ لأن المراد نفي الوثوق عليها، لا أنها ليست بأيمان. قاله البيضاوي. قلت: وما قالته الحَنَفِيَّةُ هو مذهب المالكية، إذا حنث في حال الكفر، ثم أسلم، فلا يلزمه شيء. وقرأ ابن عامر بكسر الهمزة، أي: لا إيمان لهم صحيحاً يعصم دماءهم.

﴿لعلهم ينتهون﴾ أي: ليكن غرضكم في مقاتلتهم أن ينتهوا عما هم عليه، كما هي طريقة أهل الإخلاص، لا إيصال الإذاية لهم، أو مقابلة عداوة.

ثم حضَّ على قتالهم فقال: ﴿ألاَ تقاتِلُون قوما نكثُوا أيمانهم﴾ التي حلفوها للرسول ﷺ وللمؤمنين على ألايعاونوا عليهم، فعاونوا بني بكر على خزاعة، ﴿وهمّوا بإخراج الرسول﴾ حين تشاوروا في أمره بدار الندوة

على ما مرّ، ﴿ وهم بدءوكم أولَ مرة ﴾ بالمعاداة والمقاتلة؛ لأنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ بدأهم بالدعوة، وإلزام الحجة بالكتاب والتحدي به، فعدلوا عن معارضته إلى المعاداة والمقاتلة، فما يمنعكم أن تعارضوهم وتصادموهم، ﴿ أتخشونهم ﴾ أي: أتهابون قتالهم حتى تتركوا أمري، ﴿ فالله أحقُّ أن تخشَوه إن كنتم مؤمنين ﴾ ؛ فإن قضية الإيمان ألا يُخَاف إلا منه.

ثم وعدهم بالنصر فقال: ﴿ قاتلُوهم يُعذِّبْهُم الله بأيديكم ويُخْزِهِمْ ﴾ ؛ يُهنهم بالقتل والأسر، ﴿ وينصُرُكُم عليهم ﴾ ، فيمكنكم من رقابهم، ويملككم أموالهم ونساءهم، ﴿ ويَشْفِ صدورَ قومٍ مؤمنين ﴾ ، يعني: بني خزاعة شفوا صدورهم من بني بكر؛ لأنهم كانوا أغاروا عليهم وقتلوا فيهم. وقيل: بطوناً من اليمن قدموا مكة وأسلموا، فلقوا من أهلها أذى شديداً، فشكوا إلى رسول الله ﷺ، فقال: أبشروا، فإن الفرج قريب. ﴿ ويُذْهِبْ غيظَ قلوبهم ﴾ ؛ بما لقوا منهم حين أغاروا عليهم، وقد أوفى الله بما وعدهم؛ بفتح مكة وهوازن.

والآية من المعجزات. قاله البيضاوي. وهذا يقتضي أن هذا التخصيص كان قبل الفتح، فيلتئم مع ما بعده، ويبعد التئامه مع ما قبله من البراءة، ونبذ العهد والإعلام بذلك؛ لكونه بعد الفتح، والله أعلم. قاله المحشي. ويمكن الجواب بأن يكون صدر السورة نزل بعد الفتح، وبعضها؛ من قوله: (وإن أحد من المشركين..) إلخ نزل قبل الفتح، فإن الآيات كانت تنزل متفرقة فيقول ﷺ: «اجعلوا هذه الآية في محل كذا» . والله تعالى أعلم.

ثم أخبر تعالى بأن بعض المشركين يتوب من كفره بقوله: ﴿ ويتوبُ اللهُ على من يشاءُ ﴾ هدايته، فيهديه للإيمان، ثمّ يتوب عليه، وقد كان ذلك في كثير منهم. ﴿ والله عليمٌ ﴾ بما كان ويكون، ﴿ حكيم ﴾ لا يفعل ولا يحكم إلا على وفق حكمته.

الإشارة: من رجع عن طريق القوم، ونقض عهد الأشياخ، ثم طعن في طريقهم، لا يرجى فلاحه، لا في الدنيا ولا في الآخرة، أعني في طريق الخصوص؛ لأنه جمع بين نقض العهد والطعن على الأولياء، وقد قال تعالى: «من آذى لي ولياً فقد آذنني بالحرب» . ومن رجع عنها؛ لضعف ووهن، مع بقاء الاعتقاد والتسليم، فربما تقع الشفاعة منهم فيلحق بهم، بخلاف الأول، فقد تقدم عن القشيري، في سورة آل عمران، أنهم يريدون الشفاعة فيه، فيخلق الله صورة على مثله، فإذا رأوها تركوا الشفاعة فيه، فيبقى مع عوام أهل اليمين. فانظره(١). وبالله التوفيق.

(١) راجع إشارة الآية ٩٠ من سورة آل عمران.

ثم عاتبهم على تأخر بعضهم عن الجهاد، فقال:

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾

قلت: «أم»: منقطعة، بمعنى الهمزة؛ للإنكار والتوبيخ على الحسبان، والخطاب للمؤمنين أو المنافقين، والوليجة: البطانة والصحبة.

يقول الحق جل جلاله: ﴿أم حسبتم﴾ أي: أظننتم ﴿أن تُتركوا﴾ من غير اختبار، ﴿ولمّا يعلمِ الله الذين جاهَدوا منكم﴾ أي: ولم يتبين الخُلّص منكم، وهم الذين جاهدوا، من غيرهم، والمراد: علمَ ظهور، أي: أظننتم أن تتركوا ولم يظهر منكم المجاهد من غيره. قال البيضاوي: نفى العلم، وأراد نفى المعلوم؛ للمبالغة، فإنه كالبرهان عليه من حيث أن تعلق العلم به مستلزم لوقوعه. هـ. بل يختبركم حتى يظهر الذين جاهدوا منكم.

﴿ولم يتخذُوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وَلِيجَةً﴾؛ بطانة، أي: جاهدوا، وأفردوا محبتهم لله ولرسوله وللمؤمنين، ولم يتخذوا من دونهم بطانة، أي: أصحاب سر يوالونهم ويبثون إليهم أسرارهم، بل اكتفوا بمحبة الله ومودة رسول الله والمؤمنين، دون موالاة من عاداهم، والتعبير بـ(لما): يقتضي أن ظهورَ ذلك متوقع، ﴿والله خبيرٌ بما تعملون﴾: تهديد لمن يفعل ذلك.

الإشارة: إفراد المحبة لله ولأولياء الله من أعظم القربات إلى الله، وأقرب الأمور الموصلة إلى حضرة الله، والالتفات إلى أهل الغفلة؛ بالصحبة والمودة، من أعظم الآفات والأسباب المبعدة عن الله، والعياذ بالله. وفي الحديث: «المَرْءُ علَى دِينِ خَليله»، و«المَرْءُ مع مَنْ أحَبَّ»، و«مَنْ أحَبَّ قَوْمًا حُشِرَ مَعَهم» إلى غير ذلك من الآثار في هذا المعنى.

ثم نهى عن دخول المشركين المساجد، فقال:

﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ما كان للمشركين﴾ أي: ما صح لهم ﴿أن يعمرُوا مساجدَ الله﴾ أي: شيئاً من المساجد، فضلاً عن المسجد الحرام، وقيل: هو المراد، وإنما جمع؛ لأنه قبلة المساجد وإمامها، فأمره كأمرها، ويدل عليه قراءة من قرأ بالتوحيد، أي: ليس لهم ذلك، وإن كانوا قد عمروه تغلباً وظلماً، حال كونهم ﴿شاهدين على أنفسهم بالكفر﴾؛ بإظهار الشرك وتكذيب الرسول، أي: ما استقام لهم أن يجمعوا بين أمرين متباينين: عمارة بيت الله، وعبادة غير الله، ﴿أولئك حَبِطَتْ أعمالُهم﴾ في الدنيا والآخرة؛ لما قارنها من الشرك والافتخار بها، ﴿وفي النار هم خالدون﴾، لأجل كفرهم.

﴿إنما يَعْمُرُ مساجدَ الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة﴾، أي: إنما تستقيم عمارتها بهؤلاء الجامعين للكمالات العلمية والعملية، ومن عمارتها: تزيينهابالفرش، وتنويرها بالسرج، وإدامة العبادة والذكر ودروس العلم فيها، وصيانتها مما لم تبن له؛ كحديث الدنيا.

وعن النبي ﷺ قال: قال الله تعالى: «إنَّ بُيُوتي في أرْضِي المَسَاجِدُ، وإنَّ زُوَّارِي فيها عُمَّارُهَا، فَطُوبَى لِعَبْدٍ تَطَهرَ في بيْتهِ، ثُم زَارَنِي في بيْتي، فَحَقٌّ على المَزُورِ أنْ يُكْرِم زائره». ووقف عبد الله بن مسعود على جماعة في المسجد يتذاكرون العلم فقال: بأبي وأمي العلماء، بروح الله ائتلفتم، وكتاب الله تلوتم، ومسجد الله عمرتم، ورحمة الله انتظرتم، أحبكم الله وأحب من أحبكم. هـ.

وإنما لم يذكر الإيمان بالرسول ﷺ؛ لما علم أن الإيمان بالله قرينه وتمامه الإيمانُ به، ولدلالة قوله: ﴿وأقام الصلاة وآتى الزكاة﴾ عليه. قاله البيضاوي.

﴿ولم يخش﴾ في أموره كلها ﴿إلا الله﴾، فهذا الذي يصلح لعمارة بيت الله، ﴿فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين﴾، وعبَّر بعسى، قطعاً لأطماع المشركين في الاهتداء والانتفاع بأعمالهم، وتوبيخاً لهم على القطع بأنهم مهتدون؛ فإن كان اهتداء هؤلاء، مع كمالهم، دائراً بين عسى ولعل، فما ظنك بأضدادهم؟، ومنعاً للمؤمنين أن يغتروا بأحوالهم فيتكلوا عليها. وفي الحديث عنه ﷺ: «مَنْ رأيْتُمُوه يَتَعَاهَدُ المسجِدَ فاشهدوا لهُ بالإيمان»، ثم تلا الآية(١).

الإشارة: مساجد الحضرة محرمة على أهل الشرك الخفي والجلي، لا يدخل الحضرة إلا قلب مفرد، فيه توحيد مجرد، لا يعمر مساجد الحضرة إلا قلب مطمئن بالله، غائب عما سواه، قد رفض الركون إلى الأسباب، وأفرد

(١) أخرجه الترمذي في (التفسير ـ سورة التوبة) وابن ماجه في (المساجد ـ باب لزوم المساجد وانتظار الصلاة) والدارمي في (الصلاة ـ باب المحافظة على الصلوات) من حديث أبي سعيد الخدري.

الوجهة لمسبب الأسباب، قطع الشواغل والعلائق حتى أشرقت أنوار الحقائق. إنما يعمر مساجد حضرة القدوس من آمن بالله واليوم الآخر، وأقام صلاة القلوب، وآتى زكاة النفوس، ولم يراقب أحداً من المخلوقين، فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين إلى حضرة رب العالمين.

ولما افتخر قوم من قريش بسقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام، بيّن الله تعالى أن الجهاد أفضل من ذلك، فقال:

﴿ ۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٩) الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (٢٠) يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ (٢١) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (٢٢) ﴾

قلت: السقاية والعمارة: مصدران، فلا يشبهان بالجثة، فلابد من حذف، أي: أجعلتم أهل سقاية الحاج كمن آمن، أو أجعلتم سقاية الحاج كإيمان من آمن.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ أجعلتم ﴾ أهل ﴿ سقاية الحاجّ، و ﴾ أهل ﴿ عمارة المسجد الحرام ﴾ من أهل الشرك المحبطة أعمالُهم، ﴿ كمن آمن بالله واليوم الآخر ﴾ من أهل الإيمان، ﴿ وجاهد في سبيل الله ﴾ لإعلاء كلمة الله، المثبتة أعمالهم، بل ﴿ لايستوون عند الله ﴾ أبداً؛ لأن أهل الشرك الذين حبطت أعمالهم في أسفل سافلين، إن لم يتوبوا، وأهل الإيمان والجهاد في أعلى عليين.

ونزلت الآية في علي ـ كرم الله وجهه ـ والعباس وطلحة بن شيبة، افتخروا، فقال طلحة: أنا صاحب البيت، وعندي مفاتحه، وقال العباس: أنا صاحب السقاية، وقال علي رضي الله عنه: لقد أسلمت وجاهدت مع رسول الله ﷺ، فبيّن الله تعالى أن الإيمان والجهاد أفضل، ووبخ من افتخر بغير ذلك فقال: ﴿ والله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ أي: الكفرة الذين ظلموا أنفسهم بالشرك ومعاداة الرسول ﷺ، وداموا على ذلك، وقيل: المراد بالظالمين: الذين يسوون بينهم وبين المؤمنين.

ثم أكد ذلك بقوله: ﴿ الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظمُ درجةً ﴾، وأعلى رتبة، وأكثر كرامة، ﴿ عند الله ﴾، ممن لم يستجمع هذه الصفات، أو من أهل السقاية والعمارة عندكم،

﴿ وأولئك هم الفائزون ﴾ بكل خير، الظافرون بنيل الحسنى والزلفى عند الله، دون من عداهم ممن لم يفعل ذلك.

ثم زاد في كرامتهم فقال: ﴿ يُبشرهم ربُّهم برحمةٍ منه ﴾ أي: تقريب وعطف منه ﴿ ورضوانٍ وجناتٍ لهم فيها ﴾ أي: في الجنان ﴿ نعيم مقيم ﴾؛ دائم، لانفاد له ولا انقطاع. وتنكير المبشر به؛ إشعار بأنه وراء التعيين والتعريف، حال كونهم ﴿ خالدين فيها أبدا ﴾، أكد الخلود بالتأبيد؛ لأنه قد يطلق على طُول المكث، ﴿ إن الله عنده أجر عظيم ﴾ يُستحقر دونه مشاق الأعمال المستوجبة له، أو نعيم الدنيا؛ إذ لا قدر له في جانب نعم الآخرة.

الإشارة: لا يستوي من قعد في وطنه مع عوائده وأسبابه، راكناً إلى عشائره وأحبابه، واقفاً مع هواه، غافلاً عن السير إلى مولاه، مع من هاجر وطنَه وأحبابَه، وخرق عوائدَه وأسبابَه، وجاهد نفسه وهواه، سائراً إلى حضرة مولاه، لا يستوون أبداً عند الله؛ لأن هؤلاء مقربون عند الله، والآخرون في محل البعد عن الله، ولو كثر علمهم وعملهم عند الله، شتان بين من همته القصور والحور، وبين من همته الحضور ورفع الستور، يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان، وجنات المعارف لهم فيها نعيم لأرواحهم، وهو الشهود والعيان، لا يحجب عنهم طرفة عين، إن الله عنده أجر عظيم، لا يخطر على قلب بشر. لا حرمنا الله من ذلك.

ثم نهى عن موالاة أهل الغفلة وإن قرُبوا نسبا، فقال:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ يا أيها الذين آمنوا لاتتخذوا آباءكم وإخوانكم ﴾؛ الذين بقوا على كفرهم ﴿ أولياءَ ﴾؛ توالونهم بالمحبة والطاعة، ﴿ إن استحبوا الكفرَ ﴾ واختاروه على الإيمان. نزلت في شأن المهاجرين؛ فإنهم لما أُمروا بالهجرة قالوا: إن هاجرنا قطعنا آباءنا وأبناءنا وعشائرنا، وذهبت تجارتنا، وبقينا ضائعين. وقيل: نزلت فيمن ارتد ولحق بمكة، فنهى الله عن موالاتهم. ﴿ ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون ﴾؛ بوضعهم الموالاة في غير موضعها.

﴿قل إن كَانَ آباؤكُم وأبناؤكُم وإخوانكُم وأزواجكم وعشيرتُكم﴾ أي: أصحابكم، أو أقرباؤكم، ﴿وأموال اقترفتُموها﴾؛ اكتسبتموها، ﴿وتجارة تخشَوْنَ كسادَها﴾ أي: فوات وقت إنفاقها، ﴿ومساكنُ ترضونها﴾؛ لحسنها وسعتها، فإن كان ذلك ﴿أحبَّ إليكم من الله ورسوله﴾ أي: من الإيمان بالله وصحبة رسوله، ﴿وجهادٍ في سبيله﴾، فآثرتم ذلك، وتخلفتم عن الإيمان والهجرة، ﴿فتربصوا حتى يأتي اللهُ بأمره﴾ أي: بعقوبة عاجلة أو آجلة، أو بنصر وفتح على المؤمنين، كفتح مكة وغيرها، والمراد بالمحبة: الاختيارية دون الطبيعة؛ فإنها لاتدخل تحت التكليف، والتحفظ عنها؛ لأن حب الأوطان والعشائر طبيعي، والحب المكلف به اختياري، بحيث يجاهد نفسه في إبدال الطبيعي بالاختياري.

ثم هدد من وقف مع حب الأوطان بقوله: ﴿والله لا يهدى القوم الفاسقين﴾ لايرشدهم ولا يوفقهم. وفي الآية تهديد عظيم، وقلَّ من تحفظ عنه. قاله البيضاوي.

الإشارة: الهجرة من أوطان الغفلة واجبة، ومفارقة الأصحاب والعشائر؛ الذين لا يوافقون العبد على النهوض إلى الله فريضة، فيجب على المريد أن يهاجر من البلد التي لا يجد فيها قلبه، ولا يجد فيها من يتعاون به على ربه، كائنة ما كانت، وما رأينا وليًا قط أنتج في بلده، إلا القليل، فلما هاجر ﷺ من وطنه إلى المدينة. وحينئذ نصر الدين، بقيت سنة في الأولياء، لا تجد ولياً يعمر سوقُه إلا في غير بلده، ويجب عليه أيضاً أن يعتزل من يشغله عن الله من الآباء والأبناء والأزواج والعشائر، وكذلك الأموال والتجارات التي تشغل قلبه عن الله، بعد أن يقيم **في أولاده حقوق الشريعة، فاللبيب هو الذي يجمع بين الحقيقة والشريعة، فلا يضيع من يعول، ولا يترك حق من يتعلق به من الزوجة أو غيرها، ويذكر الله مع ذلك، فيخالطهم بحسه، ويفارقهم بقلبه**، فإن لم يستطع وأراد دواء قلبه فليخير الزوجة، ويُوكل من ينوب عنه في القيام بحقوق العيال، حتى يقوى قلبه ويتمكن مع ربه، ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا، وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾(١).

ولإبراهيم بن أدهم رضي الله عنه:

هَجَرْتُ الخَلْقَ طُرّاً في رِضَاكَا وأَيْتَمْتُ البَنِينَ لِكَيْ أَرَاكَا

فَلَـوْ قَطَّعْتَنِـي إِرْبًا فَإِرْبًا لَمَا حَـنَّ الفُؤَادُ إِلى سِوَاكَا

وبالله التوفيق

(١) الآيتان: ٢ ـ ٣ من سورة الطلاق.

ثم ذكَّرهم بالنعم، فقال:

﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾ ﴾

قلت: (ويوم حنين): عطف على (مواطن)، أو منصوب بفعل مضمر، وهذا أحسن؛ لأن قوله: (إذ أعجبتكم كثرتكم) خاص بيوم حنين. انظر: ابن جزي.

يقول الحق جل جلاله، في تذكيرهم بالنعم: ﴿لقد نصركم الله في مواطن كثيرة﴾ أي: في مواقف الحرب ومداحضها في مواضع كثيرة، ﴿و﴾ نصركم أيضاً ﴿يوم حنين﴾، وهي غزوة كانت بعد فتح مكة، متصلة بها، في موضع يقال له: حنين، سمي باسم رجل كان يسكنه، وهو واد بين مكة والطائف، حارب فيه رسول الله ﷺ والمسلمون، وكانوا اثني عشر ألفاً: عشرة آلاف من الذين حضروا فتح مكة، وألفان انضموا إليهم من الطلقاء، قاتلوا هوازن وثقيف ومن انضم إليهم من قبائل العرب. وكانوا ثلاثين ألفاً، فلما التقوا مع بعض المشركين قال بعض المسلمين: لن نُغلبَ اليوم من قلة، إعجاباً بكثرتهم، واقتتلوا قتالاً شديداً، فأدرك المسلمين إعجابهم، واعتمادهم على كثرتهم، فانهزموا حتى وصل جُلهم إلى مكة، وبقي رسول الله ﷺ في مركزه، ليس معه إلا عمه العباس، آخذاً بلجامه، وابن عمه أبو سفيان بن الحارث، وناهيك شهادة على تناهي شجاعته ﷺ، فقال للعباس ـ وكان صيِّتاً ـ: صِحْ بالناس، فنادى: ياعبادَ الله، يا أصحاب الشجرة، يا أصحاب سورة البقرة، فكروا عنقاً واحداً، يقولون: لبيك لبيك، ونزلت الملائكة، فالتقوا مع المشركين، فقال -عليه الصلاة والسلام-: هذا حين حَمِيَ الوَطِيس(١)، ثم أخذ كفاً من تراب فرماهم، وقال: شاهت الوجوه، ثم قال: انهزموا وربِّ الكعبة، فانهزموا(٢).

(١) الوطيس: حفرة تحتفر تحت الأرض، فتوقد فيها النار ويصغّر رأسها، ويخرق فيها خرق للدخان. ثم يوضع فيها اللحم، ويسد، ثم يؤتى من الغد واللحم غابٌ لم يحترق، ولحمها شواء، وهي مجاز في شدة الحرب.
(٢) أخرجه بنحوه مسلم في (الجهاد ـ باب غزوة حنين) من حديث سيدنا العباس رضي الله عنه.

فأشار تعالى إلى مقالتهم معاتباً لهم عليها بقوله: ﴿ إذْ أعجبتكُم كثرتُكم فلم تُغن عنكم شيئاً ﴾ أي: فلم تُغن تلك الكثرة عنكم شيئاً من الإغناء، أو من أمر العدو. وهذه المقالة صدرت من غير النبي ﷺ كما تقدم؛ لأنه معصوم من الإعجاب، وإن ثبت أنه قال ذلك فليس على وجه الإعجاب، بل على وجه الإخبار، وعلى ذلك جرى الحكم في المذهب: من حرمة الفرار عند بلوغ اثني عشر ألفا، وكان المسلمون يومئذ اثني عشر ألفاً بالطلقاء؛ وهم مسلمة الفتح: وكانوا ألفين، وسُموا بالطلقاء؛ لمنّ النبي ﷺ عليهم، يقال لمن أطلق من أسر: طليق، وجمعه على طلقاء نادر؛ لأنه يشترط في فعيل، الذي يجمع على فعلاء، أن يكون بمعنى فاعل، كظريف وشريف، لا بمعنى مفعول، كدفين ودفني، وسخين وسخني، ومنه ـ طليق.

ثم قال تعالى: ﴿ وضاقتْ عليكم الأرضُ بما رَحُبَتْ ﴾؛ برحبها، أي: ضاقت على كثرة اتساعها، فلم تجدوا فيها مكاناً تطمئن إليه نفوسكم من الدهش، ﴿ ثم وليتم مدبرين ﴾؛ هاربين عن رسول الله ﷺ، ﴿ ثم أنزل الله سكينته ﴾ أي: طمأنينته ﴿ على رسوله وعلى المؤمنين ﴾ بعد انهزامهم، فرجعوا وقاتلوا، أو على من بقي مع الرسول ﷺ، ولم يفروا. وإعادة الجار؛ للتنبيه على اختلاف حالهما.

﴿ وأنزل جنوداً ﴾ من الملائكة ﴿ لم تروها ﴾ بأعينكم، وكانوا خمسة آلاف، أو ثمانية، أو ستة عشر، على اختلاف الأقوال. ﴿ وعذَّبَ الذين كفروا ﴾ بالقتل والأسر والسبي، ﴿ وذلك جزاءُ الكافرين ﴾ أي: ما فعل بهم هو جزاء كفرهم في الدنيا، ﴿ ثم يتوبُ الله من بعد ذلك على من يشاء ﴾ منهم، بالتوفيق للإسلام، ﴿ والله غفور رحيم ﴾ يتجاوز عنهم ويتفضل عليهم بالتوفيق والهداية.

رُوي أن أناساً منهم جاؤوا إلى رسول الله ﷺ وأسْلَمُوا، وقالوا: يارسولَ الله، أنْتَ خيرُ الناس وأبرهم، وقد سُبي أهْلُونا وأولادُنا، وأُخِذَتْ أموالُنَا ـ وقد سُبي يومئذ ستة آلاف نفس، وأخذ من الإبل والغنم مالا يحصى، فقال: «اختاروا، إما سَبْيكُمْ، وإما أموالَكُم». فقالوا: ماكُنَّا نَعْدِلُ بالأحْسَابِ شيئاً. فقال رسول الله ﷺ: «إنَّ هؤلاءِ جاءُونا تائبين، وأنا خَيَّرْتُهم بين الذَّراري والأموالِ، فلَمْ يَعْدلُوا بالأحْسَاب شيئاً، فمَنْ كان بيَدِهِ سبي فطابتْ نفسُهُ أَنْ يردَّهُ فشأْنُهُ، ومَنْ لا، فليُعْطِنَا، وليَكُنْ قَرْضاً علَيْنَا حتَّى نُصيبَ شيئاً فنُعْطِيهِ مثلَه»، فقالوا: رضينا وسَلَّمْنَا، فقال: «إنِّي لا أدْرِي، لعَلَّ فيكُمْ مَنْ لا يَرْضَى، فارجعوا حتى يرفع إليَّ عُرَفَاؤكُم أمركم» فرفعوا إليه أمْرَهمْ، وقالوا: قد رَضُوا، فردَّ السبي إليهم، وقسم الأموال في المؤلفة قلوبهم(١)، ترغيباً في تسكين قلوبهم للإسلام. والغزوة مطولة في كتب السيرة، والله تعالى أعلم.

---

(١) القصة أخرجها البخاري في (المغازي باب قول الله تعالى: ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم) عن عروة عن المسور ومروان.

الإشارة: لقد نصركم الله، يا معشر المريدين، على جهاد نفوسكم وتيسير أموركم، في مواطن كثيرة، إذا رجعتم إلى ربكم، واعتزلتم من حولكم وقوتكم في جميع أموركم، فمن علامة النجاح في النهاية الرجوع إلى الله في البداية، ما تعذر مطلب أنت طالبه بربك، ولا تيسر مطلب أنت طالبه بنفسك. فمن رجع إلى نفسه، أو استند إلى عقله وحدسه، لم تغن عنه شيئا، وضاقت عليه الأرض بما رحبت، ورجع من حيث جاء، فإن انتبه، ورجع إلى ربه، أنزل سكينة عليه، وأيده باليقين، ورجا أن يدرك أمله من رب العالمين.

قال الورتجبي: قوله تعالى: (ثم أنزل الله سكينته على رسوله)، سكينته -عليه الصلاة والسلام- زيادة أنوار كشف مشاهدة الله، له، حين خاف من مكر الأزل، فأراه الله اصطفائيته الأزلية، وأمنه من مكره، لا أنه ينظر من الحق إلى نفسه طرفة عين، لكن إذا غاب في بحر القدم لم ير للحدث أثرا، ورأى الحدثان متلاشية في فيض العظمة، ففزع منه به، فآواه الله منه إليه، حتى سكن به عنه. هـ.

ثم أمر بمنع المشركين من دخول البيت الحرام، فقال:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نَجَس﴾ أي: عين الخبث، مبالغة في خبثهم، إما لخبث باطنهم بالكفر، أو لأنهم لا يتطهرون من النجاسات، ولا يتوقون منها، فهم ملابسون لها غالباً. وعن ابن عباس رضي الله عنه: أن أعيانهم نجسة كالكلاب. قاله البيضاوي. ﴿فلا يقربوا المسجد الحرام﴾، وهو نص على منع المشركين ـ وهم عبدة الأوثان ـ من المسجد الحرام، وهو مجمع عليه، وقاس مالك على المشركين جميع الكفار من أهل الكتاب وغيرهم، وقاس على المسجد الحرام سائر المساجد، ومنع جميع الكفار من جميع المساجد.

وجعلها الشافعي عامة في الكفار، خاصةً بالمسجد الحرام، فمنع جميع الكفار من دخول المسجد الحرام خاصة، وأباح دخول غيره، وقصرها أبو حنيفة على موضع النهي، فمنع المشركين خاصة من دخول المسجد الحرام وأباح لهم دخول سائر المساجد، وأباح دخول أهل الكتاب في المسجد الحرام وغيره. قاله ابن جزي.

قوله تعالى: ﴿بعدَ عامهم هذا﴾ يعني: سنة تسع من الهجرة، حين حج أبو بكر بالناس، وقرأ عليٌ رضي الله عنه عليهم سورة براءة.

﴿ وإن خفتم عيلة ﴾ أي: فقراً بسبب منع المشركين من الحرم، وكانوا يجلبون لها الطعام، فخاف الناس قلة القوت منها، إذا انقطع المشركون عنهم، فوعدهم الله بالغنى بقوله: ﴿ فسوف يغنيكم الله من فضله ﴾؛ من عطائه وتفضله بوجه آخر، وقد أنجز وعده بأن أرسل السماء عليهم مدرارا، وأسلمت العرب كلها، وتمادى جلب الطعام إلى مكة، ثم فتح عليهم البلاد، وجلبت لهم الغنائم، وتوجه الناس إليهم من أقطار الأرض، ومازال كذلك إلى الآن.

وقيده بالمشيئة؛ لتنقطع الآمال إلى الله؛ ولينبه على أنه متفضل في ذلك، وإن الغنى الموعود يكون لبعض دون بعض، وفي عام دون عام، ﴿ إن الله عليمٌ ﴾ بأحوالكم، ﴿ حكيم ﴾ فيما يعطى ويمنع.

الإشارة: بيوت الحضرة – وهى القلوب المقدسة – لا ينبغي أن يدخلها شيء من شرك الأسباب، أو الوقوف مع رفق الأصحاب، أو الركون إلى معلوم حتى يفرد التعلق بالحي القيوم، ولاينبغي أيضا أن يدخلها شيء من نجاسة حس الدنيا وأكدارها وأغيارها، فيجب على أربابها الفرار من مواطن الكدر، والعزلة عن أربابها؛ لئلا يدخل فيها شيء من نجاستها، فتموت بعد حياتها، وكان عيسى –عليه الصلاة والسلام– يقول لأصحابه: (لاتجالسوا الموتى فتموت قلوبكم، قالوا: من الموتى ياروح الله؟ قال: المحبون للدنيا الراغبون فيها). فإن خفتم عيلة؛ بالفرار منهم واعتزال نجاستهم، فسوف يغنيكم الله من فضلِ غيْبه إن شاء، في الوقت الذى يشاء، إذ لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء. والله تعالى أعلم.

قال القشيري: ﴿ إنما المشركون نجس ﴾ أي: لأنهم فقدوا طهارة الأسرار، فبقوا في مزابل الظنون والأوهام، فَمُنِعُوا قُربانَ المساجد التي هي مساجدُ القرب، وأمَّا المؤمنون فطهَّرَهم عن التدنُّس بشهود الأغيار، فطالعوا الحقَّ فَرْداً فيما ينشيه من الأمرِ ويُمضيه من الحُكْم.هـ.

ثم أمر بجهاد أهل الكتاب، فقال:

﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله للمؤمنين: ﴿ قاتلوا ﴾ أهل الكتاب من اليهود والنصارى ﴿ الذين لايؤمنون بالله ﴾ على مايجب له، لإشراكهم عُزير وعيسى، ولتجسيمهم، ﴿ ولا باليوم الآخر ﴾؛ لأنهم ينكرون المعاد الجسماني،

فإيمانهم في الجانبين كلا إيمان، ﴿ولا يحرِّمُونَ ما حرَّمَ الله ورسولُه﴾ محمد ﷺ؛ لأنهم يحلون الخمر والميتة والدم ولحم الخنزير، وغير ذلك مما حرمته الشريعة المحمدية، ﴿ولا يَدِينُون دينَ الحق﴾ أي: لا يدخلون في الإسلام، الذي هو الدين الحق، الناسخ لسائر الأديان ومبطلها.

ثم بيَّن الذين أمر اللهُ بقتالهم بقوله: ﴿من الذين أوتوا الكتاب﴾؛ وهم اليهود والنصارى. وحين نزلت خرج رسول الله ﷺ لغزوة تبوك لقتال النصارى، ووصل إلى أوائل بلد العدو، فصالح أهل أذرح وأيلة، وغيرهما، على الجزية وانصرف، وذلك امتثال للآية.

قال تعالى: فقاتلوهم ﴿حتى يُعطوا الجزية﴾ أي: ما تقرر عليهم أن يعطوه، وقدْرها عند مالك: أربعة دنانير على أهل الذهب، وأربعون درهما على أهل الورق، يؤخذ ذلك من كل رأس، واتفق العلماء على قبول الجزية من اليهود والنصارى، ويلحق بهم المجوس؛ لقوله ﷺ: «سنُّوا بهم سنَّة أهلِ الكتاب»(١)؛ لأن لهم شبهة كتاب، فألحقوا بهم. واختلفوا في قبولها من عَبدة الأوثان؛ قال مالك: تؤخذ من كل كافر إلا المرتد، ولا تؤخذ من النساء والصبيان والمجانين.

وقوله تعالى: ﴿عن يدٍ﴾ أي: يباشر إعطاءها بيده، لايبعثها مع أحد، أو لا يمطل بها، كقولك: يداً بيد، أو عن استسلام وانقياد، كقولك: ألقى فلان بيده. ﴿وهم صاغرون﴾؛ أذلاء محقورون. وعن ابن عباس رضي الله عنه: تؤخذ الجزية من الذمي، وتوجأ عنقه، أي: تصفع.

الإشارة: يؤمر المريد بقتل نفسه وحظوظه وهواه، وأعظمها: حب الدنيا والرئاسة والجاه، ولايزال يخالف هواها، ويعكس مراداتها، ويحملها مايثقل عليها، حتى تنقاد إليه بالكلية، بحيث لايثقل عليه شيء، ويستوي عندها العز والذل، والفقر والغنى، والمدح والذم، والمنع والعطاء، والفقد والوجد، فإن استوت عندها هذه الأحوال فقد أسلمت وأعطت مايجب عليها، فيجب حفظها ورعايتها، وتصديقها فيما يرد عليها. وبالله التوفيق.

ثم ذكر الباعث على جهاد أهل الكتاب، وهو فساد اعتقادهم، فقال:

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ

(١) أخرجه مالك في الموطأ (الزكاة، باب جزية أهل الكتاب والمجوس) والشافعي في مسنده (الجزية) والبيهقي في السنن الكبرى (١٨٩/٩)، والبغوي في شرح السنة (١٦٩/١١) عن عبدالرحمن بن عوف.

ٱللَّهُۚ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ
ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا
هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٣١﴾ يُرِيدُونَ أَن يُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ
وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ
بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴿٣٣﴾

قلت: (عزيز): (مبتدأ)، و(ابن الله): خبر، فمن نونه جعله مصروفاً؛ لأنه عنده عربي، ومن حذف تنوينه: إما لمنعه من الصرف؛ للعلمية والعجمة عنده، وإما لالتقاء الساكنين؛ تشبيهاً للنون بحروف اللين، وهو ضعيف، والأول أحسن.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وقالت اليهودُ عُزيرٌ ابنُ الله﴾، قال ابن عباس: هذه المقالة قالها أربعة منهم، وهم: سَلام بن مِشْكَم، ونُعْمَانُ أولُقْمَانُ بْنُ أَوْفَى، وشَاس بن قَيس، ومَالِكُ بْنُ الصَّيْف[1]. وقيل: لم يقلها إلا فنحاص، ونسب ذلك لجميعهم؛ لسكوتهم عنه. **قال البيضاوي**: إنما قال ذلك بعضهم من متقدميهم، أو ممن كانوا بالمدينة، وإنما قالوا ذلك؛ لأنه لم يبق فيهم بعد وقعة بختنصر من يحفظ التوارة، وهو ـ أي عزير ـ لما أحياه الله بعد مائة عام، أملى عليهم التوارة حفظاً، فتعجبوا من ذلك، وقالوا: ما هذا إلا أنه ابن الله، والدليل على أن هذا القول كان فيهم أن الآية قُرئت عليهم فلم يكذبوا مع تهالكهم على التكذيب. هـ.

﴿وقالت النصارى المسيحُ ابنُ الله﴾، هو أيضاً قول بعضهم، وإنما قالوه استحالة أن يكون الولد بلا أب، أو لما كان يفعل من إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى، وتقدم الرد عليهم، وسبب إدخال هذه الشبهة عليهم، في سورة المائدة.[2]

قال تعالى: ﴿ذلك قولُهم بأفواههم﴾ من غير دليل ولا برهان، بل قالوا به من عندهم ﴿يُضاهِئونَ﴾ أي: يشابهون في هذه المقالة ﴿قولَ الذين كفروا من قبلُ﴾، يعني: قدماءهم، على معنى أن الكفر قديم فيهم. **قال ابن جزي**: فإن كان الضمير لليهود والنصارى، أي: المتقدمين، فالإشارة بقوله: (الذين كفروا من قبل) للمشركين من العرب، إذ قالوا: الملائكة بنات الله، وهم أول كافر، أو للصابئين، أو لأمم تقدمت، وإن كان الضمير للمعاصرين للنبي ﷺ؛ من اليهود والنصارى، فالذين كفروا من قبل هم أسلافهم المتقدمون. هـ.

---

(١) انظر تفسير البغوي (٤/٣٦).
(٢) عند تفسير قوله تعالى: ﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم...﴾ الآية ٧٢.

﴿ قاتَلَهُم اللهُ ﴾ أي: أهلكهم ودمرهم؛ لأن من قاتله الله هلك، فيكون دعاء، أو تعجباً من شناعة قولهم، ﴿ أنّى يُؤفكون ﴾ أي: كيف يصرفون عن الحق إلى الباطل.

﴿ اتخذوا أحبارهَم ﴾ أي: علماءَهم ﴿ ورهبانَهم ﴾؛ عُبّادَهم ﴿ أرباباً من دون الله ﴾؛ بأن أطاعوهم في تحريم ما أحل الله، وتحليل ما حرم الله، وفي السجود لهم، ﴿ والمسيحَ ابنَ مريَم ﴾؛ بأن جعلوه ابن الله، ﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحداً ﴾ وهو الله الواحد الحق، وأما طاعة الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ وسائر من أمر بطاعته، فهو في الحقيقة طاعة لله، ﴿ لا إله إلا هو ﴾؛ تقرير للتوحيد، ﴿ سبحانه عما يشركون ﴾؛ تنزيهاً له عن أن يكون معه شريك.

﴿ يريدون أن يُطفئوا ﴾ أي: يُخمدوا ﴿ نورَ الله ﴾؛ القرآن أو الإسلام بجملته، ﴿ بأفواههم ﴾ كقولهم فيه: سحر، وشعر، وغير ذلك، وفيه إشارة إلى ضعف حيلتهم فيما أرادوا، ﴿ ويأبى اللهُ ﴾؛ لا يرضى ﴿ إلا أن يُتمَّ نوره ﴾ بإعلاء التوحيد، وإظهار الإسلام، وإعزاز القرآن وأهله، ﴿ ولو كَرِهَ الكافرون ﴾ ذلك، فإن الله لا محالة يتم نوره، ويظهر دينه.

﴿ هو الذي أرسلَ رسولَهُ ﴾ محمداً ﷺ ﴿ بالهدى ودين الحق ليُظهرَهُ على الدين كله ﴾، الضمير في «يُظهره»: للدين الحق، أو للرسول ﷺ، واللام في «الدين»: للجنس، أي: على سائر الأديان فينسخها، أو على أهلها فيخذلهم، وقد أنجز وعده، وأظهر دينه ورسوله على الأديان كلها، حتى عم المشارق والمغارب، ﴿ ولو كَرِهَ المشركون ﴾ ذلك الإظهار، فيظهره الله رغماً عن أنفهم. وقيل: يتحقق ذلك عند نزول عيسى عليه السلام، حتى لا يبقى دين إلا دين الإسلام، والله تعالى أعلم.

الإشارة: من انطمس نور بصيرته نسب لله ما لا يليق بكمالاته، ومن لم تنهضه سوابق العناية وقف مع الوسائط، ولم ينفذ إلى شهود الموسوط، وقد عيَّر الله قوماً وقفوا مع الوسائط فقال: ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله ﴾، وقال، في شأن الواسطة العظمى؛ غيرةً على القلوب أن تقف مع غيره: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ ﴾(١)، ﴿ إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ ﴾(٢)، ودخل بعض العارفين على إنسان وهو يبكي، فقال: وما يبكيك؟ فقال له: مات أستاذي، فقال له ذلك العارف: ولم جعلت أستاذك من يموت؟.

فالوسائط؛ كالأنبياء والأولياء، إنما هم مُوَصِّلُونَ إلى الله، دالون عليه، فمن وقف معهم ولم ينفذ إلى الله فقد اتخذه رباً عند الخواص.

---

(١) من الآية ١٢٨ من سورة آل عمران. (٢) من الآية ١٢ من سورة هود.

وقال الورتجبي على هذه الآية: غيَّر الحق تعالى من بقي في رؤية المقتدَى بِهِ دون رؤية الحق، وإن كان وسيلة منه، فإن في إفراد القدم من الحدوث، النظر إلى الوسائط، وهو شرك، وتصديق ذلك تمام الآية؛ ﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا ﴾. غيرةُ الوحدانية ما أبقت في البيّن غيراً من الشواهد والآيات وجميع الخلق. قال الله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ﴾(١). ولما رأى ﷺ غيرة القدم على شأن استهلاك الغير زجر من مدحه وتجاوز في المدح فقال: «لا تطروني كما أطرت النصارى المسيح».

ثم قال الورتجبي: قال بعضهم في هذه الآية: سكنوا إلى أمثالهم، فطلبوا الحق من غير مظانه، وطُرق الحق واضحة لمن كحل بنور التوفيق، ويبصر سبل التحقيق، ومن أعمِيَ عن ذلك كان مردوداً عن طريق الحق إلى طرق الضالين من الخلق، وقد وقع أنهم معيرون وموبخون بقلة عرفانهم أهل الحقائق، وركونهم إلى أهل التقليد، وسقطوا عن منازل أهل التوحيد في التفريد، وهكذا شأن من اقتدى بالزوّاقين من أهل السالوس المتزينين بزى المشايخ والعارفين المتحققين، وتخلفَ خلفَ الجامعين للدنيا، الذين يقولون: نحن أبناء المشايخ ونحن رؤساء الطريقة، يُضْحك اللهُ الدهرَ من جهلهم حيث علموا أن الولاية بالنسب، حاشا أن من لم يذق طعم وِصَال الله، وقلبه معلق بغير الله، هو من أولياء الله.

قال الجنيد: إذا أراد الله بالمريد خيراً هداه إلى صحبة الصوفية، ووقاه من صحبة القراء. ولو اشتغلوا بشأنهم وجمع دنياهم، ولم يتعرضوا لأولياء الله، ولم يقصدوا إسقاط جاههم، لكفيهم شقاوتهم، لا سيما ويطعنون على الصديقين العارفين. قال الله في شأنهم: ﴿ يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون ﴾، كيف تطفأ بتراب حسبانهم أنوارُ شموس الصفات، التي تبرز من جباه وجوههم، ولئالىء خدودهم، وأصلها ثابت في أفلاك الوحدانية وسموات القيومية، ويزيد نورهم على نور؛ لأنه تعالى بلا نهاية ولا منتهى لصفاته.

قوله تعالى: (هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق): إن الله سبحانه سن سنة أزلية: ألا يجد أحدٌ سبيله إلا من يُقيض له أستاذاً عارفًا بالله، ويسرّ دينه وربوبيته، فيدله إلى منهاج عبوديته، ومعارج روحه وقلبه، إلى مشاهدة ربوبيته، ويكون هو واسطة بينه وبين الله، وإن كان الفضل بيد الله، يؤتيه من يشاء بغير علة ولا سبب، جعله واسطة للتأديب لا للتقريب، وصيره شفيعاً للجنايات، لا شريكاً في الهدايات، هداه نور القرآن، وبيّنه حقيقة البيان، مع إظهار البرهان. قيل: جعل الله الوسائط طريقًا لعباده إليه، وبعثهم أعلاماً على الطرق ونوراً يهتدى بهم، وعرفهم سبل الحق وحقيقة الدين، قال الله تعالى: (أرسل رسوله بالهدى ودين الحق). انتهى كلامه.

(١) من الآية ٩١ من سورة الأنعام.

ثم ذكر مساوئ الأحبار والرهبان، تنفيراً من طاعتهم، وذماً لمن اتخذهم أربابا، فقال:

﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَـٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَـٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

قلت: (يحمى عليها): الجار والمجرور: نائب الفاعل، وأصله: يوم تحمى النار الشديدة الحمى عليها، فجعل الإحماء للنار، مبالغةً، ثم حذفت النار، وأسند الفعل إلى الجار والمجرور؛ تنبيهاً على المقصود، فانتقل من صيغة التأنيث إلى صيغة التذكير.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن كثيرا من الأحبار والرهبان ليأكلون أموالَ الناس بالباطل ﴾ ؛ يأخذونها بالرشا في الأحكام، وسَمى أخذ المال أكلاً؛ لأنه الغرض الأعظم منه، ﴿ ويصدُّون عن سبيل الله ﴾ أي: يعوقون الناس عن الدخول في دينه، ﴿ والذين يكنزونَ الذهبَ والفضةَ ﴾ أي: يدخرونها ﴿ ولايُنفقونها ﴾ أي: الأموال المفهومة من الذهب والفضة، أو الكنوز، أو الفضة، واكتفى بذكرها عن الذهب؛ إذ الحُكم وا حد، ﴿ فبشِّرْهم بعذاب أليم ﴾ ؛ وهو الكي بها، وهذا الحكم يحتمل أن يرجع لكثير من الأحبار والرهبان، فيكون مبالغة في وصفهم، بالحرص على المال وجمعه، وأن يراد به المسلمون الذين يجمعون الأموال، ويقتنونها ولا يؤدون حقها، ويكون اقترانه بأكلة الرشا من أهل الكتب؛ للتغليظ. **ويدل عليه:** أنه لما نزلت على رسول الله ﷺ، ذكر ذلك عمر لرسول الله ﷺ، فقال: «إنَّ الله لم يفرض الزكاة إلا ليطَّيبَ بها ما بقي من أموالكم.»(١) وقوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ : «ما أدى زكَاته فلَيْسَ بكنْزٍ»(٢). وقال أبو ذر وجماعة من الزهاد: كل ما فضل عن حاجة الإنسان فهو كنز، وحمل الآية عليه.

(١) أخرجه أبو داود في (الزكاة، باب في حقوق المال) والحاكم في المستدرك (١/ ٤٠٩) من حديث ابن عباس، والحديث صححه الحاكم ووافقه الذهبي.

(٢) أخرجه البيهقي في الكبرى (كتاب الزكاة ٤/ ٨٣) وابن عدى في الكامل في (ترجمة سويد بن عبد العزيز ٣/ ١٣٦٢) من حديث ابن عمر مرفوعاً وأخرجه موقوفاً البخاري (٢/ ٢٧١).

ثم ذكر وعيدهم فقال: ﴿ يوم يُحمَى عليها ﴾ أي: على الأموال المكنوزة ﴿ في نار جهنم ﴾ أي: يوم توقد النار ذات الحمي الشديد عليها، حتى تكون صفيحة واحدة، ﴿ فتُكوى بها جباهُهم وجنوبهم وظهورهُم ﴾، خصهم بالعذاب، لأنهم كانوا يعرضون عن السائل، ويُولون ظهره، فيعرضون عنه بجباههم وجنوبهم. أو لأنها أشرف الأعضاء، لاشتمالها على الدماغ والقلب والكبد. أو لأنها أصول الجهات الأربع، التي هي مقادم الإنسان؛ مؤخره وجنبتاه.

يقال لهم: ﴿ هذا ما كنزتم لأ نفسكم ﴾ أي: لمنفعتها، وكان عينَ مضرتها وسببَ تعذيبها، ﴿ فذُوقوا ما كنتم تكنِزُون ﴾ أي: وبال كنزكم، أو ما كنتم تكنزونه. وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْ صاحِب ذهبٍ ولا فضةٍ لايُؤدى منها حقّها إلاّ إذا كان يومُ القيامة صُفِّحت له صفائح من نَار، فأحمي عليها في نار جهنم، فيُكوى بها جبينُه وجنبه وظهرُه، كلما بردت أُعيدت له، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، حتى يقضى بين العباد، فيرى سبيله: إما إلى الجنة وإما إلى النار». رواه مسلم بطوله(١).

قال ابن عطية: روى أن أصحاب النبي ﷺ قالوا: قد ذم الله تعالى كسب الذهب والفضة، فلوعلمنا أيّ المال خير حتى نَكْسبه؟ فقال عمر: أنا أسأل لكم رسول الله ﷺ، فسأله، فقال: «لِسَان ذَاكِر، وقَلْب شَاكِر، وزَوْجَة تُعِين المرء على دِينِه»(٢). ورُوي أن النبي ﷺ قال، لما نزلت الآية: «تبّاً للذّهَبِ والفِضّة»(٣). فحينئذ أشفق أصحابه، وقالوا ما تقدم. هـ. ولابن حجر:

من خيرمايتخذ الإنسانُ في دنياه كيما يستقيمَ دينُه.
قلبٌ شكور، ولسانٌ ذاكر، وزوجــةٌ صـــالحة تُعينُه.

وهو نظم لهذا الحديث، وقد تكلم عليه في الجامع وشرحِه. قاله المحشي.

الإشارة: هذه الآية تغبِّر في وجوه علماء السوء، الذين يتساهلون في أكل الدنيا بالعلم، كقبض الرشا، وقبض ما فوق أجرته في الأحكام، فترى بعض قضاة الجور يقبضون المثاقيل على إنزال يده على الحكم، مع أنه واجب عليه، حيث تعين عليه بنصب الإمام له، وتجر ذيلها على أغنياء الدنيا، الذين يجمعون الأموال ويكنزونها، فترى

(١) أخرجه مسلم في (الزكاة، باب إثم مانع الزكاة) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) أخرجه أحمد في المسند (٥/٢٧٨ ـ ٢٨٢) والترمذي في (التفسير ـ سورة التوبة) وابن ماجه في (النكاح باب أفضل النساء) عن ثوبان.
(٣) أخرج هذه الرواية الإمام أحمد في المسند (٥/٣٦٦) عن عبدالله بن أبي الهذيل.

أحدهم ينفق في نزهته وشهوة نفسه الأموال العريضة، وإذا أتاه فقير يسأله درهماً أو درهمين، تَمَعَّرَ(١) وجهه، وتغير لونه، فبشرهم بعذاب أليم. وبالله التوفيق.

ولمّا ذكر وعيد من لم يزك كنزه، ذكر الحول التي تجب به الزكاة، فقال:

﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ۚ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ۚ وَقَـٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَـٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾

قلت: (عند الله): معمول لعدة؛ لأنها مصدر، و(في كتاب الله): صفة لاثني عشر، و(يوم): متعلق بالثبوت المقدر في الخبر، أي: ثابتة في كتاب الله يوم خلق الأكوان والزمان، وقوله: (منها): أي: الأشهر، ثم قال: (فيهن). وضابط الضمير إن عاد على الجماعة المؤنثة، حقيقة أو مجازاً، إن كانت أكثر من عشرة، قلتَ: منها وفيها، وإن كانت أقل من عشرة، قلت: منهن وفيهن، قال تعالى: ﴿ يأكُلُهنّ ﴾(٢) وقال هنا: (فيهن). انظر الإتقان. و(كافة): حال من الفاعل أو المفعول.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ إنَّ عِدَّة الشهور ﴾ في كل سنة ﴿ عند الله ﴾؛ في علم تقديره، ﴿ اثنا عشرَ شهراً ﴾: أولها المحرم، وآخرها ذو الحجة. وأول من جعل أولها المحرم: عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه.

وهذه العدة ثابتة ﴿ في كتاب الله ﴾؛ اللوح المحفوظ، أو في حكمه، أو القرآن، ﴿ يومَ خلقَ السموات والأرض ﴾، أي: هذا أمر ثابت في نفس الأمر منذ خلق الله الأجرام والأزمنة، ﴿ منها ﴾ أي: الأشهر ﴿ أربعة حُرُم ﴾؛ واحد فرد، وهو رجب، وثلاثة سَرْد: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم، ﴿ ذلك الدين القيِّم ﴾ أي: تحريم الأشهر الحرم هو الدين القويم، دين إبراهيم وإسماعيل ـ عليهما السلام ـ وتمسكت به العرب حتى غيَّره بعضهم بالنسيء، ﴿ فلا تظلمُوا فيهن أنفسكم ﴾؛ بهتك حرمتها والقتال فيها، ثم نسخ بقوله: ﴿ وقاتلوا المشركين كافةً ﴾ أي: في الأزمنة كلها؛ ﴿ كما يُقاتلونكم كافة ﴾؛ لأنهم، إن قاتلتموهم فيها قاتلوكم فهذا نسخ لتحريم القتال في الأشهر الحرم.

---

(١) أي يتغير، وأصله: قلة النضارة وعدم إشراق اللون، من قولهم: مكانٌ أمعر، وهو الجدب الذي لا خصب فيه... انظر النهاية في غريب الحديث (معر)، واللسان (معر).
(٢) من الآية ٤٦ من سورة يوسف.

وقال عطاء: لا يحل للناس أن يغزوا في الأشهر الحرم، ولا في الحَرم، إلا أن يُبدأوا بالقتال، ويرده غزوه ﷺ حُنيناً والطائف في شوال وذي القعدة. ﴿ واعلموا أن الله مع المتقين ﴾ بالنصر والمعونة، وفيه بشارة وضمان لهم بالنصر بسبب تقواهم.

الإشارة: أهل الفهم عن الله: الأزمنةُ كلها عندهم حُرُم، والأمكنة كلها عندهم حَرَامٌ، فهم يحترمون أوقاتهم، ويغتنمون ساعاتهم لئلا تضيع. قال الحسن البصري: أدركتُ أقواماً كانوا على ساعاتهم أشفق منكم على دنانيركم ودراهيمكم، يقول: كما لا يخرج أحدكم ديناراً ولا درهماً إلا فيما يعود عليه نفعه، كذلك لايحبون أن يخرجوا ساعة من أعمارهم إلا فيما يعود عليهم نفعه وقال الجنيد رضي الله عنه: الوقت إذا فات لايُستدرك، وليس شئ أعز من الوقت. هـ.

وكل جزء يحصل له من العمر غير خال من عمل صالح، يتوصل به إلى مُلْك كبير لا يفنى، ولا قيمة لما يوصل إلى ذلك؛ لأنه في غاية الشرف والنفاسة، ولأجل هذا عظمت مراعاة السلف الصالح لأنفاسهم ولحظاتهم، وبادروا إلى اغتنام ساعاتهم وأوقاتهم، ولم يضيعوا أعمارهم في البطالة والتقصير، ولم يقنعوا من أنفسهم لمولاهم إلا بالجد والتشمير، وإلى هذا الإشارة بقوله: (فلا تظلموا فيهن أنفسكم) بتضييعها في غير ما يقرب إلى الله. ثم أمر بجهاد القواطع، التي تترك العبد في مقام الشرك الخفي، وبشّرهم بكونه معهم بالنصر والتأييد، والمعونة والتسديد.

ثم عاب على المشركين ما أحدثوا من النسيء، فقال:

﴿ إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُۥ عَامٗا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامٗا لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُۚ زُيِّنَ لَهُمۡ سُوٓءُ أَعۡمَٰلِهِمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾

قلت: (النسيء): التأخير، يقال بالهمزة ويقلبها ياء.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ إنما النسيءُ ﴾، وهو تأخير حرمة الشهر الحرام إلى شهر آخر، وذلك أن العرب كانوا أصحاب حروب وإغارات، وكانت محرمة عليهم في الأشهر الحرم، فيشق عليهم تركها، فيجعلونها في شهر حرام، ويحرمون شهراً آخر بدلاً منه، وربما أحلوا المحرم وحرموا صفر، حتى يُكملوا في العام أربعة أشهر محرمة، وإنما ذلك ﴿ زيادةٌ في الكفر ﴾؛ لأنه تحريم ما أحل الله، وتحليل ما حرم الله، وهو كفر آخر ضموه إلى كفرهم، ﴿ يُضَلُّ به الذين كفروا ﴾ عن الحق، ضلالاً زائداً على ضلالهم، أو يضلهم الله بذلك، ﴿ يُحلونه عاماً ﴾ أي: يحلون الشهر الحرام عاماً، ويحعلون مكانه آخر، ﴿ ويحرمونه عاما ﴾، فيتركونه على حرمته، فكانوا تارة ينسئون وتارة يتركون.

قيل: أول من أحدث ذلك: جُنَادة بن عوف الكنانى؛ كان يقوم على جمل فى الموسم فينادى: إن آلهتكم قد أحلت لكم المحرم فأحلوه، ثم ينادى من قابل: إن آلهتكم قد حرمت عليكم المحرم فحرموه، فتتبعه العرب.

ثم حرَّموا شهراً آخر مكان المحرم ﴿ ليواطئُوا ﴾؛ ليوافقوا ﴿ عِدَّةَ ما حرَّمَ الله ﴾، وهى الأربعة الحرم، ﴿ فيُحلّوا ما حرّم اللهُ ﴾ عليهم من القتال فى الأشهر الحرم، ﴿ زُيِّنَ لهم سوءُ أعمالهم ﴾ أى: خذلهم وأضلهم، والمُزين حقيقة: الله، أو الشيطان؛ حكمةً وأدباً. ﴿ والله لا يهدى القوم الكافرين ﴾ إلى طريق الرشد، ماداموا على غيهم، حتى يسلكوا سبيل نبيه ﷺ.

الإشارة: إنما تأخير التوبة واليقظة، وترك السير إلى مقام التصفية والترقية، زيادة فى البعد والقسوة، يضل به الذين هجروا طريق التربية والتصفية، عن مقام أهل الإحسان والمعرفة، فتارة يُحلون المقام مع النفس الأمارة، ويقولون: قد انقطعت التربية، وعُدِمَ الطبيبُ الذى يداويها ويخرجها عن وصفها، وتارة يُحرمون المقام معها والاشتغال بحظوظها وهواها، ويقولون: البركة لا تنقطع، والمدد لا ينعدم، ليوافقوا بين الأمر بمجاهدتها فى قوله: ﴿ والذين جاهدوا فينا ﴾، وبين من قال: قد انقطعت التربية، زُين لهم سوء أعمالهم، والله لا يهدى القوم الكافرين إلى السير والوصول إلى ربهم.

ثم عاتبهم على التأخر عن الجهاد فى غزوة تبوك، فقال:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيۡـًٔاۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ﴾

قلت: (اثاقلتم): أصله: تثاقلتم، أدغمت التاء فى الثاء، وجلبت الهمزة للساكن، وقرئ على الأصل، وضمن معنى الإخلاد، فعُدِّى بإلى.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ يا أيها الذين آمنوا مالكم إذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله ﴾؛ للجهاد مع رسول الله ﷺ، ﴿ اثاقلتم ﴾ أى: تباطأتم وأخلدتم ﴿ إلى الأرض ﴾ كسلاً وفشلاً، وكان ذلك فى غزوة تبوك، أُمروا بها بعد رجوعهم من الطائف، فى وقت عسر، وحر، وبُعد الشقة، وكثرة العدو، فشق عليهم ذلك، ﴿ أرضيتم

بالحياة الدنيا﴾ وكدرها، ﴿من الآخرة﴾، بدل الآخرة ونعيمها، ﴿فما متاع الحياة الدنيا﴾ أى: التمتع بها فى جانب الآخرة، ﴿إلا قليلٌ﴾؛ مستحقر، لسرعة فنائه ومزجه بالكدر.

﴿إلاّ تنفروا﴾ مع رسوله إلى ما استُنْفِرْتُم إليه، ﴿يُعذِّبكم عذاباً أليماً﴾ فى الدنيا والآخرة؛ فى الدنيا: بالإهلاك بأمرٍ فظيع، كقحط وظهور عدو، وغير ذلك من المهلكات، وفى الآخرة: بعذاب النار. ﴿ويستبدلْ﴾ مكانكم ﴿قوماً غيركم﴾ فى الدنيا، يكونون مطيعين لله ورسوله، كأهل اليمن وأمثالهم، ﴿ولا تضرُّوه شيئاً﴾؛ إذ لا يقدح تثاقلكم فى نصر دينه شيئاً، فإنه الغنى عن كل شيء، فى كل وقت. وقيل: الضمير للرسول ﷺ؛ فإن الله وعده بالعصمة والنصرة، ووعده حق، ﴿والله على كل شيء قدير﴾ لا يعجزه شيء، فيقدر على التبديل وتغيير الأسباب والنصرة بلا مدد، كمافعل معه فى الغار والهجرة، على ما يأتى.

الإشارة: ما لكم إذا قيل لكم: انفروا إلى من يُعرفكم بالله، ويعلمكم كيف تجاهدون نفوسكم فى طلب مرضاة الله، اثاقلتم وأخلدتم إلى أرض الحظوظ والشهوات، أرضيتم بالحياة الدنيا الدنية، بدل الحياة الأبدية، فى الحضرة القدسية؟ أرضيتم بحياة الأشباح بدل حياة الأرواح؟ فما متاع الحياة الدنيا الفانية فى جانب الحياة الأبدية فى الحضرة العلية، إلا نزر قليل حقير ذليل، إلا تنفروا لجهاد نفوسكم، يعذبكم عذاباً أليماً، بغم الحجاب، وشدة التعب والنصب، وتوارد الخواطر والهموم، وترادُف الأكدار والغموم، ويستبدل قوماً غيركم يكونون عارفين بالله، مَرْضيين عند الله، راضين عن الله، والله على كل شيء قدير.

ثم ذكر نصرته لرسوله بلا سبب، فقال:

﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾

قلت: «إن»: شرط، وجوابه محذوف، دلّ عليه قوله: ﴿فقد نصره الله﴾ أى: إن لم تنصروه فسينصره الله، الذى نصره حين أخرجه الذين كفروا، حال كونه ثانى اثنين، فدل بنصره فى الماضى على نصره فى المستقبل، وإسناد الإخراج إلى الكفرة؛ لأن همهم بإخراجه أو قتله كان سبباً لإذن الله له فى الخروج، و(إذ هما): بدل من (أخرجه)؛ بدل البعض، و(إذ يقول): بدل ثان، و(كلمة الله): مبتداء و(العليا): خبر. وقرأ يعقوب: بالنصب؛ عطفًا على ﴿كلمة الذين كفروا﴾، والأول: أحسن؛ للإشعار بأن كلمة الله عالية فى نفسها، فاقت غيرها أم لا.

يقول الحق جل جلاله: ﴿إلاَّ تنصروهُ﴾؛ تنصروا محمداً، وتثاقلتم عن الجهاد معه، فسينصره الله، كما نصره حين ﴿أخرجه الذين كفروا﴾ من مكة، حال كونه ﴿ثاني اثنين﴾ أي: لم يكن معه إلا رجل واحد، وهو الصدِّيق، ﴿إذْ هما في الغار﴾؛ نقب في أعلى غار ثور، وثور جبل عن يمين مكة، على مسيرة ساعة. ﴿إذْ يقولُ لصاحبه﴾: أبي بكر رضي الله عنه: ﴿لا تحزنْ إنّ الله معنا﴾ بالعصمة والنصرة.

رُوي أن المشركين طلعوا فوق الغار يطلبون رسول الله ﷺ، حين فقدوه من مكة، فأشفق أبو بكر على رسول الله ﷺ، فقال عليه الصلاة والسلام: «ما ظَنُّكَ باثْنَيْنِ اللهُ ثَالِثُهُمَا» (١) فأعماهم الله عن الغار، فجعلوا يترددون حوله فلم يروه. وقيل: لما دخل الغار بعث الله حمامتين، فباضتا في أسفله، والعنكبوت نسجت عليه.

﴿فأنزل اللهُ سكينتَهُ﴾ أي: أمَنَه الذي تسكن إليه القلوب، ﴿عليه﴾ أي: على رسوله ﷺ، أو على صاحبه، ﴿وأيَّدَه بجنودٍ لم تَرَوْها﴾، يعني الملائكة، أنزلهم ليحرسوه في الغار، أو يوم بدر وأحد وغيرهما، فتكون على هذا: الجملة معطوفة على: (فقد نصره الله). ﴿وجعل كلمةَ الذين كفروا﴾ وهي الشرك، أو دعوى الكفر، ﴿السفلى. وكلمةُ الله﴾ التي هي التوحيد، أو دعوة الإسلام، ﴿هي العُلْيَا﴾؛ حيث خلص رسوله ﷺ من بين الكفار، ونقله إلى المدينة، ولم يزل ينصره حتى ظهر التوحيد وبطل الكفر، ﴿والله عزيزٌ﴾؛ غالب على أمره، ﴿حكيم﴾ في أمره وتدبيره.

الإشارة: ماقيل في حق الرسول ﷺ يقال في حق ورثته، الداعين إلى الله بعده؛ من العارفين بالله، فيقال لمن تخلف عن صُحْبة وليّ عصره وشيخ تربية زمانه: إلا تنصروه فقد نصره الله وأعزه، وأغناه عن غيره، فمن صحبه فإنما ينفع نفسه، فقد نصره الله حين أنكره أهله وأبناء جنسه، كما هي سنة الله في أوليائه، لأن الداخل على الله منكور، والراجع إلى الناس مبرور، فمن دخل مع الخصوص قطعاً أنكرته العموم، فتخرجه ثاني اثنين هو وقلبه، فيأوى إلى كهف الأنس بالله، والوحشة مما سواه، فيقول لقلبه: لا تحزن إنّ الله معنا، فينزل الله عليه سكينة الطمأنينة والتأييد، وينصره بأجناد أنوار التوحيد والتفريد، فيجعل كلمة أهل الإنكار السفلى، وكلمة الداعين إلى الله هي العلياء، والله عزيز حكيم.

(١) أخرجه البخاري في (فضائل أصحاب النبي، باب مناقب المهاجرين) ومسلم في: (فضائل الصحابة، باب فضائل أبي بكر رضي الله عنه).

ثم نَهَّضَهم إلى الجهاد، فقال:

﴿ ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾

قلت: (يُهلكون): حال من فاعل (يحلفون)، أو بدل منه. قال في القاموس: (الشقة)، بالضم والكسر: البُعد والناحية يقصدها المسافر، والسفر البعيد والمشقة. هـ.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ انفِرُوا ﴾ للجهاد مع الرسول ﷺ، حال كونكم ﴿ خِفافاً ﴾؛ نشاطاً، ﴿ وثِقالاً ﴾؛ كسالى لمشقته، أو (خفافا) لمن قلّ عياله، (وثقالا) لمن كثر عياله، أو خفافاً لمن كان فقيراً، وثقالاً لمن كان غنياً، أو خفافاً ركباناً، وثقالاً مشاة، أو خفافاً بلا سلاح، وثقالاً بالسلاح، أو خفافاً شباباً، وثقالاً شيوخاً، أو خفافاً أصحاء، وثقالا مرضى. ولذلك قال ابنُ أمِّ مكتوم لرسول الله ﷺ: أعلَيَّ الغزو يارسول الله؟ قال: «نعم»، حتى نزل: ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ ﴾(١). ﴿ وجاهِدُوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ﴾ أي: بما أمكن؛ إمَّا بهما أو بأحدهما، ﴿ ذلكم خير لكم ﴾ مِنْ تركه، ﴿ إن كنتم تعلمون ﴾ ما في ذلك من الأجر العظيم والخير الجسيم، أي: لو علمتم ذلك ما قعدتم خلف سرية.

ثم عاتب من أراد التخلف، فقال: ﴿ لو كان عرضاً قريباً ﴾ من الدنيا، ﴿ وسفراً قاصداً ﴾؛ متوسطاً أو قريبا، ﴿ لاتَّبعوك ﴾ أي: لو كان مادعوا إليه أمراً دنيوياً كغنيمة كبيرة، أو سفرا متوسطا، لاتبعوك ولوافقوك على الخروج، ﴿ ولكن بَعُدَتْ عليهم الشُّقَّةُ ﴾ أي: المسافة التي تقطع بمشقة، وذلك أن الغزوة ـ أي: تبوك ـ كانت إلى أرض بعيدة، وكانت في شدة الحر، وطيب الثمار، فشقت عليهم. ﴿ وسيحلفون بالله ﴾ أي: المتخلفون إذا رجعت من تبوك، معتذرين، يقولون: ﴿ لو استطعنا ﴾ الخروج ﴿ لخرجنا معكم ﴾، لكن لم تكن لنا استطاعة من جهة العُدة والبدن وهذا إخبار بالغيب قبل وقوعه. ﴿ يُهلِكُون أنفسَهم ﴾ بوقوعها في العذاب، ﴿ والله يعلم إنهم لكاذبون ﴾ في ذلك؛ لأنهم كانوا مستطيعين الخروج، وإنما قعدوا كسلاً وجُبْناً، والله تعالى أعلم.

---

(١) الآية ٦١ من سورة النور.

الإشارة: انفروا إلى جهاد أنفسكم وقطع علائقكم وعوائقكم، لكي تستأهلوا لدخول حضرة ربكم، وسافروا إلى من يعينكم ويقوي مدد أجناد أنواركم، وهم المشايخ العارفون، فسيروا إليهم خفافاً وثقالاً، نُشَّاطاً وكُسَّالاً، والغالب أن النفس يشق عليها ما يكون سبباً في قتلها، فلا ينفر إليها خفافاً أول مرة إلا النادر.

ثم أمر ببذل الأموال والمُهج في طريق الوصول إلى حضرة الله، وعاتب من تخلف عن ذلك وطلب الراحة والبقاء في وطن نفسه. قال القشيري: أمرهم بالقيام بحقه، والبدار إلى أداء أمره على جميع أحوالهم، ﴿خفافاً﴾ أي: في حال حضور قلوبكم، فلا يمسكم نَصَبُ المجاهدات، ﴿وثقالا﴾ أي: إذا رُدِدْتم إليكم في مقاساة نصب المكابدات. فإنّ البيعة أُخِذَتْ عليكم في المنشط والمكره. هـ. ومثله عند الورتجبي عن أبي عثمان قال: خفافاً وثقالاً؛ في وقت النشاط والكراهية، فإن البيعة على هذا وقعت، كما روى عن جرير بن عبد الله أنه قال: بايعنا رسول الله على المنشط والمكره. هـ.

ثم عاتب رسولَه ﷺ لشدة قربه، وعظيم منزلته، وتَلَطَّفَ له على إذنه للمنافقين في التخلف، فقال:

﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾ لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله، لنبيه ـ عليه الصلاة والسلام ـ؛ ملاطفًا له في الكلام: ﴿ عفا اللهُ عنك لِمَ أذنْتَ لهم ﴾، لِمَ بادرت إلى الإذن إلى المنافقين في التخلف، واستكفيت بالإذن العام في قولنا: ﴿ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ ﴾(١)، فإن الخواص من المقربين لا يكتفون بالإذن العام، بل يتوقفون إلى الإذن الخاص. ولذلك عوتب يونس عليه السلام. والمعنى: لأي شيء أذنت لهم في القعود حين استأذنوك واعتذروا لك بأكاذيب؟ وهلا توقفت ﴿ حتى يتبين لك الذين صدقوا ﴾ في الاعتذار، ﴿ وتعلمَ الكاذبين ﴾ فيه.

قال ابن عطية: قوله: ﴿ الذين صدقوا ﴾ يريد: في استئذانك، وأنك لو لم تأذن لهم لخرجوا معك، وقوله: ﴿ وتعلم الكاذبين ﴾ يريد: أنهم استأذنوك يظهرون لك أنهم يقفون عند حدِّك، وهم كَذَبَة، قد عزموا على

---

(١) من الآية ٦٢ من سورة النور.

العصيان، أذِنْتَ أو لم تأذن. هـ. قال ابن جزي: كانوا قد قالوا: استأذنوه في القعود، فإن أذن لنا قعدنا، وإن لم يأذن قعدنا، وإنما كان يظهر الصادق من الكاذب لو لم يأذن لهم، فحينئذ كان يقعد العاصي والمنافق، ويسافر المطيع الصادق. هـ.

﴿ لا يستأذِنُك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يُجاهدوا بأموالهم وأنفسهم ﴾ أي: ليس من عادة المؤمنين أن يستأذنوك في أن يجاهدوا، بل الخُلَّص منهم يُبادرون إليه، ولا يوقفُونه على الإذن فيه، فضلاً عن أن يستأذنوا في التخلف عنه، ﴿ والله عليم بالمتقين ﴾ ؛ فيثيبهم ويقربهم، وهي شهادة لهم بالتقوى وَعِدَةٌ لهم بثوابه.

﴿ إنما يستأذِنُكَ ﴾ في التخلف ﴿ الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر ﴾، وخصص ذكر الإيمان بالله واليوم الآخر؛ إشعاراً بأن الباعث على الجهاد والوازع عنه: الإيمان وعدم الإيمان بهما، ﴿ وارتابتْ قلوبهم ﴾ أي: شكَّت في الإيمان والبعث، ﴿ فهم في ريبهم يترَدَّدُونَ ﴾: يتحيرون. ونزلت الآية في عبدالله بن أُبيّ والجَدّ بن قَيْس، وأمثالهما من المنافقين.

الإشارة: لا ينبغي للعارفين بالله؛ الداعين إلى الله، أن يأذنوا لمن استأذنهم في التخلف عن الجهاد الأكبر، ويرخصون له في البقاء مع النفس والهوى، وجمع حطام الدنيا، شفقةً ورحمةً؛ لأن الشفقة في هذا المعنى لا تليق بأهل التربية، فقد قالوا: الشفقة والرطوبة لا تليق بشيوخ التربية، بل لا يليق بهم إلا الأمر بما تموت به النفوس، وتحيا به الأرواح، وإن كان فيه حتفُهم. وقد قالوا أيضاً: إذا كان الشيخ يحرش على المريد[1]، ويقدمه للمهالك في نفسه أو ماله أو جاهه، فهو دليل على أنه يحبه وينصحه، وإذا كان يرخص له في أمور نفسه، ويأمره بالمقام معها، فهو غير ناصح له.

وأما الإذن في التجريد وعدمه: فإن رآه أهلاً له؛ لنفوذ عزمه، فيجب عليه أن يأمره به، وإن رآه لا يليق به؛ لعوارض قامت به، منعه منه، حتى ينظر ما يفعل الله به، وسأل رجلٌ القطبَ ابنَ مشيش، فقال له: ياسيدي؛ أستأذنك في مجاهدة نفسي؟ فقال له: ﴿لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم، والله عليم بالمتقين. إنما يستئذنك الذين لايؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم فهم في ريبهم يترددون﴾.

(١) أي: يدفعه.

ثم ذكر سبب تخلفهم، وهو عدم الإرادة، فقال:

﴿ ۞ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾

قلت: (مازادوكم إلا خبالاً) قال بعضهم: هو استثناء منقطع، أي: مازادوكم شيئاً، لكن خبالاً يُحْدِثُونه في عسكركم بخروجهم. قال ذلك؛ لئلا يلزم أن الخبال واقع في عسكر المسلمين، لكن خروجهم يزيد فيه. وفيه نظر؛ لأن الاستثناء المفرغ لا يكون منقطعاً، ويمكن هنا أن يكون متصلاً؛ لأن غزوة تبوك خرج فيها كثير من المنافقين، فحصل الخبال، فلو خرج هؤلاء المستأذنون في التخلف، القاعدون، لزاد الخبالُ بهم.

وقوله: (ولأوضعوا) أي: أسرعوا، والإيضاع: الإسراع، و(خلالكم): ظرف، أي: لأسرعوا بينكم بالمشي بالنميمة، وجملة: (يبغونكم): حال من فاعل «أوضعوا».

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ولو أرادوا ﴾؛ أراد المنافقون ﴿ الخروجَ ﴾ إلى الغزو معكم، وكانت لهم نية في ذلك ﴿ لأعدُّوا له عُدَّةً ﴾ أي: لاستعدوا له أهبتَهُ قبل أوانه. فما فعلوا، ﴿ ولكن ﴾ تثبطوا؛ لأنه تعالى كره ﴿ انبعاثهم ﴾، أي: نهوضهم للخروج، ﴿ فثبَّطَهم ﴾ أي: حبسهم وكسر عزمهم، كسلاً وجبناً، ﴿ وقيلَ ﴾ لهم: ﴿ اقعدوا مع القاعدين ﴾ من النساء والصبيان وذوى الأعذار، وهو ذم لهم وتوبيخ. والقائل في الحقيقة هو الله تعالى، وهو عبارة عن قضائه عليهم بالقعود، وبناه للمجهول تعليماً للأدب. قال البيضاوي: هو تمثيل لإلقاء الله كراهة الخروج في قلوبهم، أو وسوسة الشيطان بالأمر بالقعود، أو حكاية قول بعضهم لبعض، أو إذن الرسول لهم. هـ.

﴿ لو خرجوا فيكم ﴾ مازادكم خروجهم شيئاً ﴿ إلا خبالاً ﴾؛ فساداً وشرا. والاستثناء من أعم الأحوال، فلا يلزم أن يكون الخبال موجوداً، وزاد بخروجهم، أو إذا وقع خبال بحضور بعضهم معكم مازادكم هؤلاء القاعدون بخروجهم إلا خبالاً زائداً على ما وقع. ﴿ ولأوْضَعُوا ﴾ أي: لأسرعوا ﴿ خِلالَكُم ﴾ أي: فيما بينكم، فيسرعون في المشي بالنميمة والتخليط والهزيمة والتخذيل، ﴿ يبغونَكُم الفتنة ﴾ أي: حال كونهم طالبين لكم الفتنة، بإيقاع

الخلل بينكم، حتى تختلف قلوبكم ورأيكم، فيذهب ريح نصركم، ﴿ وفيكم ﴾ قوم ﴿ سمّاعُونَ لهم ﴾؛ فيقبلون قولهم، إما بحسن الظن بهم، أو لنفاق بهم، فيقع الخلل بسبب قبول قولهم، أو فيكم سماعون لأخباركم فينقلونه إلى غيركم، ﴿ والله عليم بالظالمين ﴾؛ فيعلم ضمائرهم، وما ينشأ عنهم، وسيجازيهم على فعلهم.

﴿ لقد ابْتَغَوُا الفتنة ﴾ أي: تشتيت أمرك وتفريق أصحابك ﴿ من قبلُ ﴾ أي: من قبل هذا الوقت، كرجوعهم عنك يوم أُحد، ليوقعوا الفشل في الناس، ﴿ وقلَّبُوا لك الأمورَ ﴾ أي: دبروها من كل وجه، فدبروا الحيل، ودوروا الآراء في إبطال أمرك، فأبطل الله سعيهم، ﴿ حتى جاء الحقُّ وظهر أمرُ الله ﴾ أي: علا دينه، ﴿ وهم كارهون ﴾ أي: على رغم أنفهم، والآيتان تسلية للرسول ﷺ والمؤمنين على تخلفهم، وبيان ما ثبطهم الله لأجله وكره انبعاثهم له، وهتك أستارهم، وكشف أسرارهم، وإزاحة اعتذارهم. انظر البيضاوي.

الإشارة: الناس على ثلاثة أقسام: قسم أقامهم الحق تعالى لخدمة أنفسهم وحظوظهم؛ عدلاً. وقسم أقامهم الحق تعالى لخدمة معبودهم؛ فضلاً. وقسم اختصهم بالتوجه إلى محبوبهم؛ رحمة وفضلاً.

فالأولون: أثقلهم بكثرة الشواغل والعلائق، ولو أرادوا الخروج منها لأعدوا له عدة بالتخفيف والزهد، ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم، وقيل: اقعدوا مع القاعدين، أقامهم لإصلاح عالم الحكمة، وأما أهل الخدمة: فرآهم لم يصلحوا لصريح معرفته، فشغلهم بخدمته، ولو أرادوا الخروج من سجن الخدمة إلى فضاء المعرفة لأعدوا له عدة؛ بصحبة أهل المعرفة الكاملة. وأما أهل التوجه إلى محبته وصريح معرفته فلم يشغلهم بشيء، ولم يتركهم مع شيء، بل اختصهم بمحبته، وقام لهم بوجود قسمته، ﴿ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾(١). وكل قسم لو دخل مع من فوقه على ما هو عليه، لأفسده، ومازاده إلا خبالاً وشرا. والله تعالى أعلم.

ولما دعا النبي ﷺ الناس إلى غزوة تبوك، قال له الجدُّ بنُ قَيْسٍ ـ من كبار المنافقين ـ: ائْذَنْ لي في القعود، ولا تفتني برؤية بنات بني الأصفر، فإني لا أصبر على النساء، فأنزل الله في شأنه(٢):

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ ۚ أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا۟ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا۟ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾

(١) الآية ٧٤ من سورة آل عمران.
(٢) أخرجه مطولاً ابن جرير في التفسير (١٠/١٠٤) وذكره الواحدي في الأسباب (٢٥٢)، من طريق علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس رضي الله عنه.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ومنهم من يقولُ ائذن لي﴾ في القعود، ﴿ولا تفتِنّي﴾؛ ولا توقعني في الفتنة، أي: في العصيان والمخالفة، بأن تأذن لي، وفيه إشعار بأنه لا محالة متخلف، أذِنَ أو لم يأذن، أو في الفتنة؛ بسبب ضياع المال والعيال؛ إذ لا كافل لهم بعدى، أو في الفتنة بنساء الروم، كما قال الجَدُّ بنّ قَيْس: قد علمت الأنصار أني مُولع بالنساء، فلا تفتني ببنات بني الأصفر، ولكني أُعينك بمال، واتركني.

قال تعالى: ﴿ألاَ في الفتنةِ سقطُوا﴾ أي: إن الفتنة هي التي سقطوا فيها، وهي فتنة الكفر والنفاق، لا ما احترزوا عنه، ﴿وإنّ جهنم لمحيطة بالكافرين﴾، أي: دائرة بهم يوم القيامة، أو الآن؛ لأن إحاطة أسبابها بهم كوجودها، ومن أعظم أسبابها: بغضك وانتظارهم الدوائر بك.

﴿إن تُصِبْكَ حسنة﴾؛ كنصر أو غنيمة في بعض غزواتك، ﴿تسؤهم﴾؛ لفرط حسدهم وبغضهم، ﴿وإن تُصبْك﴾ في بعضها ﴿مصيبة﴾؛ ككسر أو شدةٍ كيوم أحد، ﴿يقولوا قد أخذنا أمْرَنا من قبلُ﴾ أي: يتبجحوا بتخلفهم أو انصرافهم، واستحمدوا رأيهم في ذلك، ﴿ويتولَّوا﴾ عن متحدثهم ومجمعهم، أو عن رسول الله ﷺ، ﴿وهم فَرِحُون﴾ مسرورون بما صنعوا من التخلف عن الجهاد.

الإشارة: ومن ضعفاء اليقين من يستأذن المشايخ في البقاء مع الأسباب وفتنة الأموال، ويقول: لا تفتني بالأمر بالتجريد، فإني لا أقدر عليه، ويرضى بالسقوط في فتنة الأسباب والشواغل، فإن ضم إلى ذلك الإنكار على أهل التجريد، بحيث إذا رأى منهم نكبة أو كسرة من أجل التجريد، والخروج عن عوائد الناس وما هم عليه، فرح، وإذا رأى منهم نصراً وعزاً انقبض، ففيه خصلة من النفاق، والعياذ بالله.

ثم رد عليهم، بقوله:

﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَاۖ فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ قل ﴾ لهم يامحمد: ﴿ لن يصيبنا ﴾ من حسنة أو مصيبة، ﴿ إلا ماكتبَ اللهُ لنا ﴾ في اللوح المحفوظ، لا يتغير بموافقتكم ولا بمخالفتكم، ﴿ هو مولانا ﴾ ؛ متولى أمرنا وناصرنا، ﴿ وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ أي: وإليه فليفوض المؤمنون أمورهم؛ رضاً بتدبيره؛ لأن مقتضى الإيمان ألا يتوكل إلا على الله؛ إذ لا فاعل سواه، ﴿ قل ﴾ لهم: ﴿ هلْ تربّصُون ﴾ أي: تنتظرون ﴿ بنا إلا إحدى الحُسنيين ﴾ أي: إلا إحدى العاقبتين اللتين كل منهما حسنى: إما النصر وإما الشهادة، ﴿ ونحنُ نتربصُ بكم ﴾ أيضاً إحدى العاقبتين السُوأتين: إما ﴿ أن يصيبكُم اللهُ بعذابٍ من عنده ﴾ بقارعة من السماء، ﴿ أو بأيدينا ﴾ أي: أو بعذاب بأيدينا، وهو القتل على الكفر، ﴿ فتربصُوا ﴾ ما هو عاقبتنا، ﴿ إنا معكم مُتربّصُون ﴾ ما هو عاقبتكم.

الإشارة: ثلاثة أمور توجب للعبد الراحة من التعب، والسكون إلى رب الأرباب، وتذهب عنه حرارة التدبير والاختيار، وظلمة الأكدار والأغيار: **أحدها:** تحقيق العلم بسبقية القضاء والقدر، حتى يتحقق بأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه، وما أصابه لم يكن ليخطئه. قال تعالى: ﴿ قل لن يصيبنا إلا ماكتب الله لنا ﴾، ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ ﴾(١)، وليتأمل قول الشاعر:

مَالاَ يُقَدّرُ لايَكُونُ بِحِيلَةٍ ... أبَداً، ومَا هُو كَائنٌ سَيَكُونُ

سَيَكُونُ مَا هُوَ كَائنٌ في وَقْتِهِ ... وأَخُو الجهالَةِ مُتْعَبٌ مَحْزُونُ

وقد ورد عن سيدنا علي ـ كرم الله وجهه ـ أنه قال: سبع آيات: من قرأها أو حملها معه؛ لو انطبقت السماء على الأرض؛ لجعل الله له فرجاً ومخرجاً من أمره، فذكر هذه الآية: ﴿ قل لن يصيبنا ﴾، وآية في سورة يونس: ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ... ﴾ الآية (٢)، وآيتان في سورة هود: ﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ.. ﴾، الآية(٣)، ﴿ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم... ﴾ الآية(٤)، وقوله تعالى: ﴿ وكأين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياكم وهو السميع العليم ﴾(٥)، ﴿ مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾(٦) و ﴿ ولئن سألتهم... ﴾ في الزمر إلى قوله: ﴿ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾(٧)، ونظمها بعضهم فقال:

---

(١) من الآية ١٧ من سورة الأنعام.
(٢) الآية ١٠٧ من سورة يونس.
(٣) الآية ٦ من سوة هود.
(٤) الآية ٥٦ من سورة هود.
(٥) الآية ٦٠ من سورة العنكبوت.
(٦) الآية ٢ من سورة فاطر
(٧) الآية ٣٨ من سورة الزمر.

عليك بقل، وإن، وما، إنى، فى هود وكأيـن، ما يفتحْ، ولئن؛ مكمـــلا

وإنما أشار ﷺ إلى معنى الآيات لا إلى لفظها؛ لأنها كلها تدل على النظر لسابق القدر، والتوكل على الواحد القهار.

الأمر الثاني: تحقق العبد برأفته - تعالى - ورحمته، وأنه لايفعل به إلا ما هو فى غاية الكمال فى حقه، إن كان جمالاً فيقتضي منه الشكر، وإن كان جلالاً فيقتضي منه الصبر، وفيه غاية التقريب والتطهير وطي المسافة بينك وبين الحبيب. وفى الحكم: «خير أوقاتك وقت تشهد فيه وجودَ فاقتك، وترَدُّ فيه إلى وجود ذلتك، إن أردت بسط المواهب عليك فصحح الفقر والفاقة لديك، الفاقة أعياد المريدين». إلى غير ذلك من كلامه في هذا المعنى.

الأمر الثالث: تحققه بخالص التوحيد؛ فإذا علم أن الفاعل هو الله ولا فاعل سواه؛ رضى بفعل حبيبه، كيفما كان، كما قال ابن الفارض ﷺ:

أحِبَّايَ أنتمْ، أحسَنَ الدهرُ أم أسا فكونـــوا كما شئتمْ أنا ذلك الخِلّ

وكما قال صاحب العينية:

تَلَذُّ لِيَ الآلام إذْ كُنْتَ مُسْـقِمِي وإنْ تَخْتَبِرني فَهْي عِنْدي صَنَائِعُ
تَحَكَّم بِمَـا تَهْوَاهُ فِيَّ فَإنَّنِـي فَقِيرٌ لسُـلْطَـانِ المَحَبَّـةِ طَـائِـعُ

فهذه الأمور الثلاثة، إذا تفكر فيها العبد دام حبوره وسروره، وسهلت عليه شئونه وأموره.

وقوله تعالى: (قل هل تربصون بنا...) الآية، مثله يقول أهل النسبة لأهل الإنكار: هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين، إما حسن الختام بالموت على غاية الإسلام، يموت المرء على ما عاش عليه، وإما الظفر بمعرفة الملك العلام على غاية الكمال والتمام، ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعقوبة من عنده؛ بسبب إذايتكم، أو بدعوة من عندنا إذا أَذِنَ لنا. وبالله التوفيق.

ثم* ذكر سبب إبطال عملهم وصدقاتهم، فقال:

﴿ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾

* تفسير قوله تعالى: ﴿قل أنفقوا طوعاً أو كرهاً..﴾ الآية ٥٣، لايوجد فى النسخ الخطية التى بين أيدينا.

قلت : (أن تقبل) : بدل من ضمير (منعهم) ، أو على حذف الجار ، و(إلا أنهم كفروا) : فاعل، أي: وما منع قبول نفقاتهم، أو من قبول نفقاتهم، إلا كفرهم بالله وبرسوله، ويحتمل أن يكون الفاعل ضميراً يعود على الله تعالى و(أنهم) مفعول من أجله.

يقول الحق جل جلاله : ﴿ وما منعهم ﴾ ؛ وما منع المنافقين من قبول نفقاتهم وأعمالهم ﴿ إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله ﴾ ؛ إلا كفرُهم بالله وبرسوله، أو: ما منعهم الله من قبول نفقاتهم إلا لأجل كفرهم بالله وبرسوله، وكونهم ﴿ لا يأتونَ الصلاةَ إلا وهم كُسَالى ﴾ ؛ متثاقلين، ﴿ ولا ينفقون إلا وهم كَارِهُون ﴾ أي: لا يُعطون المال إلا في حال كراهيتهم للإعطاء؛ لأنهم لايرجون ثواباً ولا يخافون بتركها عقاباً، فهم يعطون ذلك رياء ونفاقا.

الإشارة: لا يتقبل الله إلا عمل المخلصين، إما إخلاص العوام؛ لقصد الثواب وخوف العقاب، أوإخلاص الخواص؛ لإظهار العبودية وإجلال الربوبية، وعلامة الإخلاص: وجود النشاط والخفة حال المباشرة للعمل، أو قبلها، والغيبة عنه بعد الوقوع، والله تعالى أعلم.

ثم نهى عن الاغترار بحال المنافقين، فقال:

﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله : ﴿ فلا تُعْجِبْكَ ﴾ ، أيها الناظر إلى المنافقين، كثرةُ ﴿ أموالُهم ولا أولادُهم ﴾ ؛ فإن ذلك استدراج ووبال لهم ﴿ إنما يريد الله ليُعذبَهم بها في الحياة الدنيا ﴾ ؛ بسبب ما يكابدون في جمعها وحفظها من المتاعب، وما يرون فيها من الأمراض والمصائب، أو ما ألزموا به من أداء زكاتها، مع كونهم لا يرجون خلَفها ﴿ وتَزْهَقَ أنفُسُهم وهم كافرون ﴾ ؛ فلا يسترفون التمتع بها في الدنيا؛ لقصر مدتها، ولا يجدون ثواب ما أعطوا منها؛ لعدم إيمانهم. وأصل الزهوق: الخروج بصعوبة، لصعوبة خروج أرواحهم، والعياذ بالله.

الإشارة: ينبغي لمريد الآخرة ألا يستحسن شيئاً من الدنيا، التي هي مَدْرَجة الاغترار، بل ينبغي له أن ينظر إليها وإلى أهلها بعين الغض والاحتقار، حتى ترتفع همته إلى دار القرار، وينبغي لمريد الحق ـ تعالى ـ ألا يحقر

شيئًا من مصنوعاته، ولا يصغر شيئاً من تجلياته، إذ ما في الوجود إلا تجليات العلي الكبير، إما من مظاهر اسمه الحكيم، أو اسمه القدير، فيعطي الحكمة حقها والقدرة حقها، ويتلون مع كل واحدة بلونها، وبالله التوفيق.

ثم ذكر وصف نفاق المنافقين، فقال:

﴿ وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾

قلت: الفَرَقُ: الخوف، و(مُدّخَلا): أصله: متدخلا، مفتعل من الدخول، قلبت التاء دالاً وأدغمت.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ويحلفون ﴾ لكم ﴿ بالله إنهم لمنكم ﴾ أي: من جملة المسلمين، ﴿ وما هم منكم ﴾؛ لكفر قلوبهم، ﴿ ولكنهم قوم يَفْرَقُون ﴾: يخافون منكم أن تفعلوا بهم ما تفعلون بالمشركين، فيظهرون الإسلام تقية وخوفا ﴿ لو يجدون ملْجأ ﴾ أي: حصناً يلتجئون إليه، ﴿ أو مغَارات ﴾؛ غيراناً، ﴿ أو مُدَّخلاً ﴾؛ نقباً أو جحراً ينجحِرُون فيه. وقرأ يعقوب: «مُدْخلاً»؛ بضم الميم وسكون الدال، أي: دخولا، أو مكاناً يدخلون فيه، ﴿ لولّوا إليه وهم يجمحون ﴾ أي: يسرعون إسراعاً لايردهم شيء كالفرس الجموح.

الإشارة: قد يتطفل على القوم من ليس منهم، فيظهر الوفاق ويبطن النفاق، كحال أهل النفاق، فينبغي أن يستر ويُحلُم عليه، كما فعل عليه الصلاة والسلام ـ بالمنافقين، تلطف معهم في حياتهم، والله يتولى سرائرهم، وبالله التوفيق.

ثم شرع يتكلم في مساوئ المنافقين، فقال:

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾

قلت: (لو): شرطية، و(أنهم): قال سيبويه: مبتدأ، والخبر محذوف: ولو رضاهم ثابت أو موجود.. الخ. وقال غيره: فاعل بفعل محذوف؛ ولو ثبت رضاهم، وجواب (لو): محذوف، أي: ولو أنهم رضوا لكان خيراً لهم.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ومنهم﴾ ؛ومن المنافقين ﴿من يلمزك﴾ أي: يعيبك، ويعترض عليك ﴿في﴾ قسم ﴿الصدقات﴾، ﴿فإن أُعطوا منها رَضُوا﴾ وفرحوا، ﴿وإنْ لَمْ يُعْطَوا منها﴾ شيئًا ﴿إذا هم يَسْخَطُون﴾. والآية نزلت في ابن أُبيّ؛ رأس المنافقين، قال: ألا تَرَوْنَ إلى صاحبِكُمْ إنَّما يَقْسِم صَدَقَاتِكُمْ في رُعاةِ الغَنَم، ويَزْعُمُ أنَّهُ يَعْدِل. وقيل: في ذي الخُوَيْصِرةَ رأس الخوارج، كان رسول الله ﷺ يقسم غنائم حنين، فاستعطف قلوب أهل مكة، فآثرهم بالعطاء، فقال: اعْدِلْ يارَسُولَ الله، فقال: «ويلَكَ، إنْ لَمْ أعْدِلْ فمنْ يَعْدِل؟»(١).

قال تعالى: ﴿ولو أنهم رَضُوا ما آتاهم اللهُ ورسولُه﴾ أي: بما أعطاهم الرسول من الغنيمة، وذَكَرَ اللهَ؛ للتعظيم وللتنبيه على أن ما فعله الرسول -عليه الصلاة والسلام- كان بأمر الله ووحيه، فكأنه فعله هو. ﴿وقالوا حسبنا الله﴾ أي: كفانا فضلُه، ﴿سيؤتينا اللهُ من فضله ورسولُهُ﴾ صدقة أو غنيمة أخرى، فيؤتينا أكثر مما أتانا، ﴿إنا إلى الله راغِبُون﴾ في أن يُغنينا من فضله وجوده، فلو فعلوا هذا لكان خيراً لهم من اعتراضهم عليك، الموجب لهم المقت والعذاب.

الإشارة: لا يكون المؤمن كاملاً حتى يستوي عنده المنع والعطاء، والفقد والوجد، والفقر والغنى، والعز والذل. وأما إن كان في حالة العطاء والوجد يفرح، وفي حالة المنع والفقد يسخط، فلا فرق بينه وبين أهل النفاق، إلا من حيث التوسم بالإيمان، ولو أنه رضي بما قسم الله له، واكتفي بعلمه، ورغب الله في زيادته من فضله، لكان خيراً له وأسلم. والله تعالى أعلم وأحكم.

ثم بيّن مصرف الصدقات الواجبة؛ قطعاً لأطماع من لايستحقها، فقال:

﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٦٠﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿إنما﴾ تدفع ﴿الصدقاتُ﴾ الواجبة - أي: الزكاة - لهؤلاء الثمانية، وهذا يُرَجِّحُ أن لَمْزَهم كان في قسم الزكاة لا في الغنائم، واختصاص دفع الزكاة بهؤلاء الثمانية مجمع عليه، واختلف: هل يجب تعميمهم؟ فقال مالك: ذلك إلى الإمام، إن شاء عمم وإن شاء خصص، وإن لم يلها الإمام؛ فصاحب المال

(١) أخرجه البخاري في (المناقب، باب علامات النبوة) ومسلم في (الزكاة، باب ذكر الخوارج وصفاتهم) من حديث أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه -.

مخير، وبه قال أبو حنيفة وأحمد، وأفتى به بعض الشافعية، وقال الشافعي: يجب أن تقسم على هذه الأصناف بالسواء، إن وجدت.

أولها: الفقير: وهو من لاشيء له، وثانيها: المسكين: وهو من له شيء لا يكفيه. فالفقير أحوج، وهو مشتق من فقار الظهر، كأنه أصيب فقاره، والمسكين من السكون، كأن العجز أسكنه. ويدل على هذا قوله تعالى: ﴿ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ ﴾(١)، فسماهم مساكين مع ملكهم السفينة، وأنه ﷺ سأل المسكنة؛ وقيل بالعكس، لقوله تعالى: ﴿ أو مسكينا ذا متربة ﴾(٢). وقيل: هما سواء. ﴿ والعاملينَ عليها ﴾ أي: الساعين في تحصليها وجمعها، ويدخل فيهم الحاشر والكاتب والمفرق، ولابأس أن يعلف خيلهم منها، ويضافون منها بلا سَرف. ﴿ والمؤلفةِ قلوبُهم ﴾ قال مالك: هم كفار ظهر ميلهم للإسلام، فيعطون ترغيباً في الإسلام. وقيل: قوم أسلموا ونيتهم ضعيفة، فيعطون ليتمكن الإسلام في قلبهم، وحكمُهم باق، وقيل: أشراف يترقب بإعطائهم إسلام نظائرهم.

﴿ وفي الرقاب ﴾ أي: في فك الرقاب، يشترون ويعتقون. ﴿ والغارمينَ ﴾، أي: مَنْ عليهم دَيْن، فيعطى ليقضي دينه، ويشرط أن يكون استدانه في غير فساد ولا سرف، وليس له ما يبيع في قضائه. ﴿ وفي سبيلِ الله ﴾ يعني: الجهاد، فيعطى منها المجاهدون وإن كانوا أغنياء، ويشترى منها آلة الحرب، ولا يبنى منها سور ولا مركب. ﴿ وابنِ السبيل ﴾ وهو الغريب المحتاج لما يوصله لبلده، ولم يجد مسلفا، إن كان مليًا ببلده، وإلا أعطى مطلقاً.

فرض الله ذلك ﴿ فريضةً من الله ﴾ أي: حقاً محدوداً عند الله. **قال ابن جزي**: ونصبه على المصدر- يعني: لفعل محذوف كما تقدم - فإن قيل: لِمَ ذكر مصرف الزكاة في تضاعيف ذكر المنافقين؟ فالجواب: أنه خص مصرف الزكاة في تلك الأصناف؛ ليقطع طمع المنافقين فيها، فاتصلت هذه الآية في المعنى بقوله: (ومنهم من يلمزك في الصدقات..) . هـ. ﴿ والله عليمٌ حكيم ﴾؛ يضع الأشياء في مواضعها.

الإشارة: إنما النفحات والمواهب للفقراء والمساكين، الذين افتقروا من السِّوى، وسكنوا في حضرة شهود المولى. وفي الحكم: «ورود الفاقات أعياد المريدين، ربما وجدت من المزيد في الفاقة مالاتجده في الصوم والصلاة، الفاقات بسُطُ المواهب. إن أردت بسط المواهب عليك فصحح الفقر والفاقة لديك. ﴿إنما الصدقات للفقراء والمساكين﴾».

(١) من الآية ٧٩ من سورة الكهف.   (٢) الآية ١٦ من سورة البلد.

وقال الهروى: الفقر صفة مهجورة، وهو ألذُّ ما يناله العارف، لكونها تدخله على الله، وتجلسه بين يدى الله، وهو أعم المقامات حكماً؛ لقطع العوائق، والتجرد من العلائق، واشتغال القلب بالله. قيل: الفقير الصادق لا يملِك ولا يُملَك. وقال الشبلي: الفقير لا يستغنى بشيء دون الله. وقال الشيخ ابن سبعين رضي الله عنه: الفقير هو الذى لا يحصره الكون. هـ. يعني: لخروج فكرته عن دائرة الأكوان. وقال القشيرى: الفقير الصاددق عندهم: مَنْ لا سماء تُظله، ولا أرض تَقُلُّه، ولا سهم يتناوله، ولا معلومَ يشغله، فهو عبدَ الله بالله. هـ.

وقال السهروردى في عوارفه: الفقر أساس التصوف، وبه قوامه، ويلزم من وجود التصوف وجود الفقر؛ لأن التصوف اسم جامع لمعاني الفقر والزهد، مع زيادة أحوال لابد منها للصوفي، وإن كان فقيراً زاهداً. وقال بعضهم: نهاية الفقر بداية التصوف؛ لأن التصوف اسم جامع لكل خلق سني، والخروج من كل خلق دني، لكنهم اتفقوا ألاّ دخول على الله إلا من باب الفقر، ومن لم يتحقق بالفقر لم يتحقق بشيء مما أشار إليه القوم.

وقال أبو إسحاق الهروى أيضًا: من أراد أن يبلغ الشرف كل الشرف؛ فليختر سبعاً على سبع، فإن الصالحين اختاروها حتى بلغوا سنام الخير. اختاروا الفقر على الغنى، والجوع على الشبع؛ والدُّون على المرتفع، والذلَّ على العز، والتواضع على الكبر، والحزن على الفرح، والموت على الحياة. هـ. وقال بعضهم: إن الفقير الصادق ليحترز من الغنى؛ حذراً أن يدخله؛ فيفسد عليه فقره، كما يحترز الغنى من الفقر؛ حذراً أن يفسد عليه غناه.

قال بعض الصالحين: كان لى مال، فرأيت فقيراً فى الحرم جالساً منذ أيام، ولا يأكل ولا يشرب وعليه أطمار رثة، فقلت: أُعينه بهذا المال؛ فألقيته في حجره، وقلت: استعنْ بهذا على دنياك، فنفض بها في الحصباء، وقال لى: اشتريتُ هذه الجلسة مع ربى بما ملكت، وأنت تفسدها عليّ؟ ثم انصرف وتركنى ألقُطها. فوالله ما رأيت أعز منه لمَّا بدَّدَها، ولا أذل منى لما كنت ألقطها. هـ.

وكان بعضهم إذا أصبح عنده شيء؛ أصبح حزيناً، وإذا لم يصبح عنده شيء؛ أصبح فرحاً مسروراً، فقيل له: إنما الناس بعكس هذا، فقال: إني إذا لم يصبح عندى شيء فلى برسول الله ﷺ أسوة، وإذا أصبح لى شيء لم يكن لى برسول الله ﷺ أسوة حسنة. هـ. وجمهور الصوفية: يفضلون الفقير الصابر على الغنى الشاكر، ويفضلون الفقر في الجملة على الغنى؛ لأنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ اختاره، وما كان ليختار المفضول. وشذ منهم يحيى بن معاذ الواعظ وأحمد بن عطاء.

قال القشيري: كان ابن عطاء يُفضل الغني على الفقر، فدعا عليه الجنيد فأُصيب عقله ثلاثين سنة، فلما رجع إليه عقله قال: إنما أصابني ما أصابني بدعاء الجنيد. وتكلم يحيي بن معاذ، ففضل الغني على الفقر، فأعطاه بعض الأغنياء ثلاثين ألف درهم، فدعا بعض المشايخ عليه، فقال: لابارك الله له فيها، فخرج عليه اللص فنهبه إياها. هـ. وحكى عن أبي يزيد البسطامي: أنه قال: أسري بروحي، فرأيت كأني واقف بين يدي الله، فسمعت قائلاً يقول: يا أبا يزيد، إن أردت القرب منا فأتنا بما ليس عندنا، فقلت: يامولاي وأي شيء ليس عندك، ولك خزائن السماوات والأرض؟ فسمعت: ياأبا يزيد، ليس عندي ذل ولا فقر، فمن أتاني بهما بلّغته. هـ.

وقال في الإحياء: الفقر المستعاذ منه: فقر المضطر، والمسئول هو: الاعتراف بالمسكنة والذلة والافتقار إلى الله عز وجل. هـ. قلت: والأحسن أن المستعاذ منه هو: فقر القلوب من اليقين، فيسكنها الجزع والهلع، والفقر المسئول هو: التخفيف من الشواغل والعلائق، والله تعالى أعلم.

وقد تكلم القشيري هنا على أخذ الزكاة وتركها، فقال: من أهل المعرفة من رأى أنَّ أَخْذَ الزكاةِ المفروضة أَوْلى، قالوا: لأن الله ـ سبحانه ـ جعل ذلك مِلْكاً للفقير، فهو أحل له من المتطوع به. ومنهم من قال: الزكاة المفروضة لأقوام مستحقة، ورأوا الإيثار على الإخوان أَوْلى، فلم يزاحموا أرباب السهمان، وتحرجوا من أخذ الزكاة، ومنهم من قال: إن ذلك وسخ الأموال، وهو لأصحاب الضرورات. وقالوا: نحن آثرنا الفَقْرَ اختياراً.. فَلَمْ يأخذوا الزكاة المفروضة. هـ.

وقوله تعالى: (والعاملين عليها) : هم: المستعدون للمواهب بالتفرغ والتجريد، (والمؤلفة قلوبهم) على حضرة محبوبهم، والجاذُّون في فك الرقاب من الجهل والغفلة؛ وهم أهل التذكير، الداعون إلى الله، (والغارمين) أي: الدافعون أموالهم ومهجهم في رضى محبوبهم، فافتقروا فاستحقوا حظهم من المواهب والأسرار، و(في سبيل الله) أي: والمجاهدون أنفسهم في مرضاة الله، (وابن السبيل) : السائحين في طلب معرفة الله. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر نوعاً آخر من مساوئ المنافقين، فقال:

﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾ ﴾

قلت: (قل أُذُنُ خير): من قرأ بالإضافة؛ فـ(لكم): متعلق بالاستقرار، أي: هو أذن خير كائن لكم. ومن قرأ بالتنوين؛ فـ(خير): خبر عن «أذن»؛ خبر ثان، ومن قرأ: «ورحمة»؛ بالرفع فعطف على (أذن خير)، ومن قرأ بالجر، فعطف على «خير» المجرور.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ومنهم الذين يُؤذون النبيَّ ويقولون﴾ فيه: ﴿هو أُذُنٌ﴾ يسمع كل ما يقال له ويصدقه؛ حقاً كان أو باطلا، فإذا حلفنا له أنا لم نقل شيئاً صدقنا. والقائل لهذه المقالة: قيل: هو نَبْتَل بْن الحَارِث، وكان من مردة المنافقين. وقيل: عتاب بن قشير، في جماعة، قالوا: محمد أُذن سامِعِه، نقول ماشئنا، ثم نأتيه فيصدقنا فيما نقول. قال البيضاوي: سمي بالجارحة للمبالغة؛ كأنه من فرط استماعه صار جملته آلة السماع، كما سمي الجاسوس عيناً. هـ.

قال تعالى في الرد عليهم: ﴿قل أُذُنُ خيرٍ لكم﴾ أي: هو لكم سماع خير وحق، فيسمع الخير والحق ويبلغه لكم، أو قل: هو أذنٌ خيرٌ لكم من كونه غير أذن؛ لأن كونه أذنا يقبل معاذيركم؛ ولو كان غير أذن لكذبكم وفضحكم. وفي (الوجيز) أي: مستمع خير وصلاح، لا مستمع شر وفساد.

قال البيضاوي: وهو تصديق لهم بأنه أذن، لكن لا على الوجه الذي ذموا به - يعني من تنقصه بقلة الحزم والانخداع - بل من حيث إنه يسمع الخير ويقبله. ثم فسر ذلك بقوله: ﴿يؤمنُ بالله﴾؛ يصدق بالله وبما له من الكمالات، ﴿ويؤمنُ للمؤمنين﴾؛ ويصدقهم؛ لما يعلم من خلوصهم، واللام مزيدة؛ للتفرقة بين إيمان التصديق وإيمان الإذعان والأمان، ﴿ورحمةٌ للذين آمنوا منكم﴾ أي: هو رحمة لمن أظهر الإيمان منكم، بحيث يقبله ولايكشف سره. وفيه تنبيه على أنه ليس يقبل قولكم؛ جهلاً بكم، بل رفقاً بكم وترحماً عليكم. قاله البيضاوي.

وفي ابن عطية: وخص الرحمة بالذين آمنوا؛ إذ هم الذين نجوا بالرسول وفازوا. وفي الوجيز: وهو رحمة لهم، لأنه كان سبب إيمانهم. هـ. فظاهره أن الإيمان الصادر منهم كان حقيقياً، وهو حُسْنُ خلافِ ظاهر. قال البيضاوي: أي: هو رحمة لمن وفقه الله للإيمان منكم.

﴿والذين يؤذون رسول الله﴾ بأي نوع من الإيذاء، ﴿لهم عذابٌ أليم﴾ موجع بسبب إيذائه.

الإشارة: تعظيم الرسول ﷺ ومدحه وذكر محاسنه، من أجلَ القربات وأعظم الطاعات؛ لأن تعظيمه ناشئ عن محبته، ومحبته عقد من عقود الإيمان، لا يتم الإيمان إلا بها، والإخلال بهذا الجانب من أعظم المعاصي عند الله، ولذلك قبح كفر المنافقين واليهود، الذين كانوا يؤذون جانب النبوة، وماعابه به المنافقون في هذه الآية هو عين الكمال عند أهل الكمال.

قال القشيري: عابوه بما هو أمارة كرمه، ودلالة فضله، فقالوا: إنه؛ لحُسْن خُلُقه، يسمع ما يقال له، وقد قال ﷺ: «المُؤْمِنُ غِرٌّ كَرِيمٌ، والمنافق خِبٌّ لَئِيمٌ»(١). قالوا: من الفاضل؟ قالوا: الفَطِنُ المُتَغَافِل، وأنشدوا:

وإذا الكــريمُ أتيْتَه بخــديعةٍ ... فرأيتَه فيمــــا تروم يُســـارعُ

فاعلمْ بأنَّكَ لم تُخادِعْ جاهلاً ... إنَّ الكريمَ ـ بفضله ـ يتخادع(٢). هـ.

وكل ولي يتخلق بهذا الخلق السني؛ الذي هو التغافل والانخداع في الله، وكان عبد الله بن عمر يقول: (من خدعنا في الله انخدعنا له). ورأى سيدنا عيسى عليه السلام رجلاً يسرق، فقال له: سرقت يافلان؟ فقال: والله ماسرقت، فقال عليه السلام: (آمنتُ بالله وكذبتُ عيني). فمن أخلاق الصوفي أن يؤمن بالله، ويؤمن للمؤمنين، كيفما كانوا، ورحمة للذين آمنوا، فمن آذى من هذا وصفه فله عذاب أليم. وبالله التوفيق.

ومن مساوئ المنافقين أيضا: أنهم يرضون الناس بسخط الله، كما أبان ذلك الحق تعالى بقوله:

﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَٰلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾ ﴾

قلت: إنما وحدَّ الضمير في (يُرضوه) إما لأن رضى أحدهما رضى الآخر، فكأنهما شيء واحد، أو لأن الكلام إنما هو في إيذاء الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ وإرضائه، فذكر الله تعظيماً لجانب الرسول، أو لأن التقدير: والله أحق أن يرضوه، ورسوله كذلك؛ فهما جملتان. والضمير في (أنه من يُحَادِدِ): ضمير الشأن، و(فأن): إما تأكيد

(١) أخرجه أبو داود في (الأدب، باب في حسن العشرة) والترمذي في (البر والصلة، باب ما جاء في البخيل) عن أبي هريرة، بلفظ: «الفاجر» بدل المنافق.

(٢) البيتان منسوبان إلى عبدالمجيد بن إسماعيل الرومي، راجع النجوم الزاهرة ٥/٢٧٢.

لأن الأولى، وجملة (فله): جواب، أو تكون بدلاً منها، أو في موضع خبر عن مبتدأ محذوف، أي: فحقٌ، أو واجب له نار جهنم.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ **يحلفون بالله** ﴾ أي: المنافقون، ﴿ **لكم** ﴾ أيها المؤمنون، حين يعتذرون في التخلف عن الجهاد وغيره، ﴿ **ليرضوكم** ﴾ أي: لترضوا عنهم وتقبلوا عذرهم، ﴿ **والله ورسولُه أحقُّ أن يُرضُوه** ﴾ بالطاعة والوفاق، واتباع ما جاء به، ﴿ **إن كانوا مؤمنين** ﴾ صادقين في إيمانهم. ﴿ **ألم يعلموا أنه** ﴾ أي: الأمر والشأن، ﴿ **من يُحادد اللهَ ورسولَهُ** ﴾ يعاديهما، ويخالف أمرهما ﴿ **فأنّ له** ﴾، فواجبٌ أن له ﴿ **نار جهنم خالداً فيها، ذلك الخِزيُ** ﴾ أي: الهول ﴿ **العظيم** ﴾، والهلاك الدائم، والعياذ بالله.

الإشارة: من أرضى الناسَ بسخط الله أسخطهم عليه وسخط عليه، ومن أسخط الناس في رضى الله أرضاهم عليه، ورَضي عنه، فمن أقر منكراً؛ حياء أو خوفاً من الناس، فقد أسخط مولاه، ومن أنكر منكراً، ولم يراقب أحداً، فقد أرضى مولاه، ومن راقب الناس لم يراقب الله، ومن راقب الله لم يراقب الناس، (والله ورسوله أحق أن يُرضُوه إن كانوا مؤمنين). وتأمل قول الشاعر:

مَنْ رَاقَبَ النَّاسَ مَاتَ غَمّاً وفَازَ باللّـذاتِ الجسُــور

وبالله التوفيق.

ومن أخلاقهم أيضا: الخوف من الفضيحة، والاستهزاء بالدين، كما أبان ذلك بقوله:

﴿ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾

قلت: الضمائر في «عليهم»، و«تنبئهم» و«قلوبهم»، تعود على المنافقين؛ خلافاً للزمخشري في الأولين، فقال: يعود على المؤمنين، وتبعه البيضاوي.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ **يحذَرُ المنافقون أن تُنزّلَ عليهم** ﴾ أي: في شأنهم، ﴿ **سورةٌ** ﴾ من القرآن على النبي ﷺ، ﴿ **تنبئهم** ﴾ أي: تخبرهم، أي: المنافقين، ﴿ **بما في قلوبهم** ﴾ من الشك والنفاق، وتهتك أستارهم،

وكانوا يستهزؤون بأمر الوحي والدين، فقال تعالى لنبيه ـ عليه الصلاة والسلام: ﴿قل﴾ لهم: ﴿استهزءوا﴾؛ تهديداً لهم، ﴿إن الله مُخرجٌ ما تحذَرُون﴾ من إنزال السورة فيكم، أو ما تحذرون من إظهار مساوئكم

﴿ولئن سألتهم﴾ عن استهزائهم، ﴿ليقولن إنما كنا نخوضُ ونلعبُ﴾ فيما بيننا. رُوِي أن ركباً من المنافقين مروا على رسول الله ﷺ، في غزوة تبوك، فقالوا: انظروا إلى هذا الرجل، يريد أن يفتح قصور الشام وحصونه، هيهات هيهات!! فأخبر الله نبيه، فدعاهم فقال: «قلتم: كذا وكذا؟» فقالوا: لا، والله، ما كنا في شيء من أمرك، ولا من أمر أصحابك، ولكنا كنا في شيء مما يخوض فيه الركب، ليقصر بعضنا على بعض السفر[1].

قال تعالى: ﴿قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزءون﴾، توبيخاً لهم على استهزائهم بما لا يصح الاستهزاء به، ﴿لا تعتذروا﴾ أي: لا تشتغلوا باعتذاراتكم الكاذبة؛ ﴿قد كفرتم بعد إيمانكم﴾ أي: قد أظهرتم الكفر بإيذاء الرسول والطعن عليه، بعد إظهار إيمانكم الكاذب. ﴿إن نعفُ عن طائفةٍ منكم﴾؛ بتوبتهم وإخلاصهم، حيث سبق لهم ذلك؛ كان منهم رجل اسمه مخشي، تاب ومات شهيداً. أو لكفهم عن الإيذاء، ﴿نُعذِّب طائفةً بأنهم كانوا﴾ في علم الله ﴿مجرمين﴾؛ مصرين على النفاق، أو مستمرين على الإيذاء والاستهزاء. والله تعالى أعلم.

الإشارة: الاستهزاء بالأولياء والطعن عليهم من أسباب المقت والبعد من الله، والإصرار على ذلك شؤمه سوء الخاتمة، وترى بعض الطاعنين عليهم يحذر منهم أن يكاشفوا بأسرارهم، وقد يُطلع الله أولياءه على ذلك، وقد لا يطلعهم، وبعد أن يطلعهم على ذلك لا يواجهوهم بكشف أسرارهم لتخلقهم بالرحمة الإلهية. والله تعالى أعلم.

ومن مساوئ المنافقين أيضاً: أمرهم بالمنكر ونهيهم عن المعروف، كما قال تعالى:

﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ هِىَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾ كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟

(١) أخرجه ابن جرير في تفسيره (١٠/١٧٣) عن قتادة.

أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَـٰدًا فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَـٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَـٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَـٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟ أُو۟لَـٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾

قلت : قال في الأساس: ومن المجاز: نَسيتُ الشيء: تركته، (نَسُوا الله فَنَسِيَهُم) . قال في المشارق: ونسى بمعنى ترك، معناه مشهور في اللغة، ومنه: (نسوا الله فنسيهم) أي: تركوا أمره فتركهم. وقوله: (كالذين من قبلكم): خبر، أي: أنتم كالذين، أو مفعول بمحذوف، أي: فعلتم مثل فعل من قبلكم.

يقول الحق جل جلاله : ﴿ المنافقون والمنافقاتُ بعضُهم من بعض ﴾ أي: متشابهة في الكفر والبعد عن الإيمان، لا فرق بين ذكورهم وإناثهم في النفاق والكفر، وهو نفي لأن يكونوا مؤمنين. وقيل: إنه تكذيب لهم في حلفهم بالله: ﴿إنهم لمنكم﴾ وتقرير لقوله: ﴿وما هم منكم﴾، وما بعده كالدليل عليه، فإنه يدل على مضادة حالهم لحال المؤمنين. وهو قوله: ﴿ يأمرون بالمنكر ﴾؛ كالكفر والمعاصي، ﴿ وينهَون عن المعروف ﴾؛ كالإيمان والطاعة، ﴿ ويقبِضُون أيديَهم ﴾ عن الإعطاء والمبار، وهو كناية عن البخل والشح. ﴿ نَسُوا الله ﴾ أي: غفلوا، أي: أغفلوا ذكره، وتركوا طاعته، ﴿ فنسِيَهم ﴾؛ فتركهم من لطفه ورحمته وفضله، ﴿ إن المنافقين هم الفاسقون ﴾؛ الكاملون في التمرد والفسوق عن دائرة الخير.

﴿ وَعَدَ اللهُ المنافقين والمنافقات والكفارَ ﴾ أي: المجاهرين بالكفر، ﴿ نارَ جهنم خالدين فيها ﴾ أي: مقدرين الخلود. قال ابن جزى: الأصل في الشر أن يقال: أوعد، وإنما يقال فيه: «وعد» إذا صرح بالشر. هـ. ﴿ هي حَسْبُهُم ﴾ أي: جزاؤهم عقاباً وعذاباً، وفيه دليل على عظم عذابها، ﴿ ولعنهم الله ﴾؛ أبعدهم من رحمته، وأهانهم، ﴿ ولهم عذابٌ مقيم ﴾ لاينقطع، وهو العذاب الذى وعدوه، أو ما يقاسونه من تعب النفاق، والخوف من المؤمنين.

﴿ كالذين من قبلكُم ﴾ أي: أنتم كالذين من قبلكم، أو فعلتم مثل فعل الذين من قبلكم، ﴿ كانوا أشدَّ منكم قوةً وأكثر أموالاً وأولاداً ﴾ ، وهو بيان لتشبيههم بهم، وتمثيل حالهم بحالهم، ﴿ فاستمتعوا بخلاقِهم ﴾ أي: نصيبهم من ملاذ الدنيا وحظوظها، فأملوا بعيداً وبنوا مشيداً، فرحلوا عنه وتركوه، فلا ما كانوا أملوا أدركوا، ولا إلى مافاتهم رجعوا، ﴿ فاستمتعتُم ﴾ أنتم ﴿ بخلاقكم ﴾ أي: بنصيبكم مما خلق الله لكم وقدره لكم في الأزل، ﴿ كما استمتع الذين من قبلكُم بخَلاقِهم ﴾ ، ثم تركوا ذلك ورحلوا عنه، كذلك ترحلون أنتم عنه وتتركونه.

قال البيضاوى : ذمَّ الأولين باستمتاعهم بحظوظهم المُخْدِجَة من الشهوات الفانية، والتهائهم بها عن النظر في العاقبة، والسعي في تحصيل اللذائذ الحقيرة؛ تمهيداً لذم المخاطبين بمشابهتهم واقتفاء آثارهم. هـ.

﴿ وخُضْتُم ﴾ في الباطل ﴿ كالذي خاضُوا ﴾ أي: كخوضهم، أو كالخوض الذي خاضوه، وقيل: كالذين خاضوا فيه، فأوقع الذم على الجمع. ﴿ أولئك حبِطتْ أعمالُهم في الدنيا والأخرة ﴾ أي: لم يستحقوا عليها ثواباً في الدارين، ﴿ وأولئك هم الخاسرون ﴾؛ الكاملون في الخسران، خسروا الدنيا والآخرة.

الإشارة: ينبغي لأهل الإيمان الكامل أن يتباعدوا عن أوصاف المنافقين؛ فيأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويمدّون أيديهم بالعطاء والإيثار، ويذكرون الله على سبيل الاستهتار، حتى يذكرهم برحمته. ويتشبهون بمن قبلهم من الصالحين الأبرار، فقد استمتعوا بلذيذ المناجاة، وحلاوة المشاهدات، وبلطائف العلوم والمكاشفات، أولئك الذين ثبتت لهم الكرامة من الله في الدنيا والآخرة، وأولئك هم الفائزون.

ثم هدد المنافقين بإهلاك من قبلهم، فقال:

﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله، في شأن المنافقين: ﴿ ألم يأتهم نبأُ ﴾: خبر ﴿ الذين من قبلِهمْ ﴾، كيف دمرهم الله وأهلكهم، حيث خالفوا رسلهم، ﴿ قوم نوح ﴾؛ أغرقهم بالطوفان، ﴿ و ﴾ قوم ﴿ عادٍ ﴾؛ أهلكهم بالريح، ﴿ وثمودَ ﴾؛ أهلكهم بالصيحة، ﴿ وقوم إبراهيمَ ﴾؛ أهلك نمرود ببعوض، وأهلك أصحابه به، أرسل عليهم سحابة من البعوض فخرطتهم، ودخلت بعوضة في دماغه فأكلت دماغه، حتى هلك، ﴿ وأصحابِ مدْيَنَ ﴾، وهم قوم شعيب، أُهلكوا بالنار يوم الظلة، ﴿ والمؤتفكاتِ ﴾؛ مدائن قوم لوط، ائتفكت بهم، أي: انقلبت، فصار عاليها سافلها، وأمطروا حجارات من سجيل. ﴿ أتتهم رسلُهم ﴾ أي: كل واحدة منهن أتاها رسول ﴿ بالبينات ﴾؛ بالمعجزات الواضحة، ﴿ فما كان اللهُ ليظلمهم ﴾ أي: لم يكن من عادته ما يشابه ظلم الناس، كالعقاب بلا جرم. ﴿ ولكن كانوا أنفسهم يَظلمُون ﴾؛ حيث عرضوها للعقاب بالكفر والتكذيب.

الإشارة: ينبغي للمؤمن المشفق على نفسه أن يتحرى مواطن الهلكة، فيجتنبها بقدر الإمكان؛ فينظر ما فعل الله بأهل المخالفة والمعاصي، فيهرب منها بقدر إمكانه، وينظر ما فعل بأهل طاعته وطاعة رسوله من النصر والعز في الدارين، فيبادر إليها فوق ما يطيق، ويعظم الرسل، ومن كان على قدمهم ممن حمل الأمانة بعدهم، ويشد يده على صحبتهم وخدمتهم؛ فهذا يسعد سعادة الدارين. وبالله التوفيق.

ثم ذكر أضداد المنافقين، فقال:

﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياءُ ﴾ أي: أصدقاء ﴿ بعض ﴾، وهذا في مقابلة قوله: ﴿ المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض ﴾، وخص المؤمنين بالوصف بالولاية، ﴿ يأمرون بالمعروف وينْهوْنَ عن المنكر ﴾؛ ضد ما فعله المنافقون، ﴿ ويُقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ﴾؛ ضد قوله: ﴿ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ﴾، ﴿ ويطيعون الله ورسوله ﴾ في سائر الأمور، ضد قوله: ﴿ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ﴾، ﴿ أولئك سيرحمهم الله ﴾ لا محالة؛ لأن السين مؤكدة للوقوع، ﴿ إن الله عزيزٌ ﴾؛ غالب على كل شيء، لايمتنع عليه ما يريده، ﴿ حكيم ﴾ يضع الأشياء مواضعها.

ثم ذكر ما أعد لهم فقال: ﴿ وعَدَ اللهُ المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهارُ خالدين فيها ومساكنَ طيبةٍ ﴾ أي: تستطيبها النفس، أو يطيب فيها العيش. وفي الحديث: «إنها قصور من اللؤلؤ والزبرجد والياقوت الأحمر»(١). وفي حديث آخر: «إنَّ في الجَنَّة غُرَفاً يُرَى ظَاهِرُهَا مِنْ بَاطِنِها، وبَاطِنُهَا مِنْ ظَاهِرِها، أَعدَّهَا اللهُ لِمَنْ أَطْعَمَ الطَعَامَ، وألانَ الكَلامَ، وبذَلَ السلامَ، وتَابعَ الصِيَامَ، وصَلَّى باللَّيْلِ والنَّاسُ نِيَامٌ» (٢).

وذلك ﴿ في جنات عَدْنٍ ﴾، أي: إقامةٍ وخلود. وعنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «جنات عدن: دار الله، التي لم ترها عين، ولا تخطر على قلب بشر، لا يسكنها غير ثلاثة: النبيون، والصديقون، والشهداء. يقول الله تعالى: طوبى لمن دخلك.»(٣) قاله البيضاوي. ثم قال: ومرجع العطف فيها ـ أي: في قوله: ﴿ومساكنَ طيبة﴾ ـ يحتمل

(١) أخرجه بسياق آخر مطولاً، البزار كما في كشف الأستار (٣/٥١)، وعزاه في الفتح السماوي (٢/٦٨٦) لابن أبي حاتم وابن مردويه كلهم عن الحسن عن عمران بن حصين وأبي هريرة.
(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند (٥/٣٤٣) والطبراني في الكبير (٣/٣٤٢) وعبدالرزاق في المصنف (١١/٤١٨) والبغوي في التفسير (٦/٣٠٦) عن أبي مالك الأشعري.
(٣) أخرجه البزار، (كشف الأستار ٤/١٩٢) وابن جرير في التفسير (١٠/١٨٠)، من حديث أبي الدرداء.

أن يكون لتعدد الموعود لكل واحد له، أي: فكل مؤمن ومؤمنة له جنات ومساكن، أو للجميع؛ على سبيل التوزيع، أي: فالجنات والمساكن معدة للجميع، ثم يقسمونها على حسب سعيهم في الدنيا، أو إلى تغاير وصفه - أي: الموعود - فكأنه وصفه أولاً بأنه جنس ما هو أبهى الأماكن التي يعرفونها؛ لتميل إليه طباعهم أول مايقرع أسماعهم. ثم وصفه بأنه محفوف بطيب العيش، معرى عن شوائب الكدرات التي لاتخلو عن شيء منها أماكن الدنيا، وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين. ثم وصفه بأنه دار إقامة وثبات في جوار رب العالمين، لايعتريهم فيها فناء ولا تغيير.

ثم وعدهم بما هو أكبر من ذلك فقال: ﴿ ورضوانٌ من الله أكبرُ ﴾؛ لأنه المبْدأ لكل سعادة وكرامة، والمؤدي إلى نيل الوصول والفوز باللقاء. وعنه ﷺ: «إن اللهَ تعالى يقُولُ لأهْلِ الجنَّةِ: هَلْ رَضيتُمْ؟ فيَقُولُون: ومَالَنَا لانَرْضَى وقَدْ أعْطَيْتَنَا ما لَمْ تُعْطِ أحداً منْ خَلْقك، فيَقُول: أنَا أُعطِيكُمْ أفضلَ منْ ذلك. قَالُوا: وأيّ شَيءٍ أفْضَلُ منْ ذلكَ؟ قَالَ: أُحلّ عَلَيْكُمْ رِضْوَاني فلاَ أسْخَطُ عَلَيْكُمْ أبَداً»(١). ﴿ ذلك ﴾ أي: الرضوان، أو جميع ماتقدم، ﴿ هو الفوزُ العظيم ﴾ الذي تستحقر دونه الدنيا وما فيها. هـ.

الإشارة: قد أعد الله لأهل الإيمان الحقيقي؛ الذين بذلوا مهجهم وأموالهم في مرضاته، جنات المعارف، تجري من تحت أفكارهم أنهار العلوم والحِكَم، ومساكن طيبة، هي: عكوف أرواحهم في الحضرة، متلذذين بحلاوة الفكرة والنظرة، في محل المشاهدة والمكالمة، والمسارزة والمناجاة، ورضوان من الله، الذي هو نعيم الأرواح، أكبر من كل شيء؛ لأن نعيم الأرواح أجلّ وأعظم من نعيم الأشباح، حتى إن المقربين ليضحكون على أهل اليمين، حين يرونهم يلعبون مع الولدان والحور، كما ذكر الغزالي. وأما المقربون فيشاركونهم في ذلك، ويزيدون عليهم بلذة الشهود.

قال القشيري، عند قوله تعالى: ﴿ إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ ﴾(٢): إنه لا تنافي بين اشتغالهم بلذاتهم مع أهليهم وبين شهود مولاهم، كما أنهم اليوم مستلذون بمعرفته بأي حالةٍ هم فيها، ولا يَقْدَحُ اشتغالهم بحظوظهم في معارفهم. انتهى لفظه، وهو حسن. والله تعالى أعلم.

---

(١) أخرجه البخاري في (الرقاق، باب صفة الجنة والنار) وفي مواضع أخرى، ومسلم في (الجنة، باب: إحلال الرضوان على أهل الجنة) من حديث أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه -.
(٢) الآية ٥٥ من سورة «يس».

ثم أمر نبيه بالإغلاظ على المنافقين، فقال:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَـٰمِهِمْ وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ ۚ وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ۚ فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ۖ وَإِن يَتَوَلَّوْا۟ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ يا أيها النبيُّ جاهد الكفار ﴾ بالسيف، ﴿ والمنافقين ﴾ باللسان؛ بإلزام الحجة وبإقامة الحدود؛ ما لم يظهر عليهم مايدل على كفرهم، فإن ظهر عليهم ذلك فحكمهم كحكم الزنديق، فيقتل على المشهور. ﴿ واغْلُظْ عليهم ﴾ بالقول والفعل، إن استوجبوا ذلك، ولاتراقبهم، ﴿ ومأواهم جهنمُ وبئس المصير ﴾ أي: المرجع، مصيرهم.

﴿ يحلفون بالله ما قالوا ﴾، رُوي: أنه ﷺ أقام في غزوة تبوك شهرين، ينزل عليه القرآن، ويعيب المتخلفين، فقال الجُلاس بن سُويد: لئن كان ما يقول محمد في إخواننا حقاً لنحن شرٌّ من الحمير، فبلغ النبي ﷺ؛ فاستحضره، فحلف بالله ما قال، فنزلت، فتاب الجُلاس وحَسُنَتْ توبته(١).

قال تعالى: ﴿ ولقد قالوا كلمةَ الكفر ﴾، يعني: ما تقدم من قول الجُلاس، أو قول ابن أُبيّ: سمِّنْ كلبَك يأكُلْك، أو: ﴿لئن رجعنا إلى المدينة﴾... الآية. ﴿ وكفروا بعد إسلامهم ﴾؛ وأظهروا الكفر بعد إظهار الإسلام، ولم يقل: بعد إيمانهم؛ لأنهم يقولون بألسنتهم: آمنا، ولم يدخل في قلوبهم، ﴿ وهَمُّوا بما لم ينالوا ﴾ من قتل النبي ﷺ وهو: أن خمسة عشر منهم توافقوا، عند مَرْجِعِهِ من تبوك، أن يدفعوه عن راحلته إلى الوادي، إذا وصل إلى العَقَبَة بالليل، فأخذ عمَّار بن ياسر بخطام راحلته يقودها، وحُذَيفة خلفها يسوقها، فبينما هم كذلك إذ سمع حُذَيفة تقعقع أخفاف الإبل وقعقعة السلاح، فقال: إليكم إليكم إليكم يا أعداء الله، فهربوا(٢). أو: هموا بإخراجه من المدينة، أو إخراج المؤمنين، أو هموا بأن يتوَّجوا عبد الله بن أُبيّ، وإن لم يرض رسول الله ﷺ، فلم ينالوا شيئًا من ذلك.

---

(١) أخرجه البيهقي في الدلائل (باب مرجع النبي ﷺ من تبوك) عن عروة بن الزبير.

(٢) أخرجه بنحوه أحمد في المسند ٥/٤٥٣ عن أبي الطفيل. والبيهقي في الدلائل (باب رجوع النبي ﷺ من تبوك) عن عروة.

﴿ وما نَقَمُوا ﴾ أي: وما عابوا وكرهوا ﴿ إلا أن أغناهم الله ورسولُهُ من فضله ﴾ الذى حقهم أن يشكروا عليه، وذلك أن أكثر أهل المدينة كانوا محاويج، فى ضَنْكٍ من العيش، فلما قَدِمَهم رسول الله ﷺ استغنوا بالغنائم، وقُتِل للجُلاَس مَولىً، فأمر رسول الله ﷺ بديته اثنى عشر ألفاً، فأُعطيت له، فاستغنى.

﴿ فإن يتوبُوا يَكُ خيراً لهم ﴾، وهذا حمل الجلاس على التوبة، والضمير يعود على الرجوع المفهوم من التوبة، ﴿ وإن يتولوا ﴾ عنك؛ بالإصرار على النفاق، ﴿ يعذبهم اللهُ عذاباً أليما فى الدنيا والآخرة ﴾؛ بالقتل والنار، ﴿ ومالهم فى الأرض من ولىٍّ ولا نصير ﴾ ينجيهم من العذاب.

الإشارة: كفار الخصوصية على قسمين: قِسْم أظهروا الإنكار على أهلها، وقسم أبطنوه وأظهروا الوفاق، ففيهم شبه بأهل النفاق، فينبغى الإعراض عن الجميع، والاشتغال بالله عنهم، وهو جهادهم والإغلاظ عليهم، فعداوة العدو حقا هو اشتغالك بمحبة الحبيب حقاً. وقد تَصْدُر عنهم فى جانب أهل الخصوصية مقالات ثم ينكرونها، وقد يَهُمّوا بما لم ينالوا من إذايتهم وقتلهم، لو قدروا. والله يتولى الصالحين.

ونزل فى ثعلبة بن حاطب، قوله تعالى:

﴿ ۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ومنهم من عاهدَ اللهَ ﴾ وقال: ﴿ لئن آتانا من فضله لنصّدّقَنّ ولنكونَنّ من الصالحين ﴾، وهو ثعلبة بن حاطب، أتى النبى ﷺ وقال: ادْعُ الله أن يرزقنى مالاً. فقال له النبى ﷺ: «يا ثعلبة، قليلٌ تُؤدى شُكْرَهُ خيرٌ من كثير لاتُطيقه». فراجعه، وقال: والذى بعثك بالحق، لئن رزقنى الله مالاً لأُعطين كلَّ ذى حقٍّ حقَّه، فدعا له، فاتخذ غنماً، فنَمَتْ كما تنمو الدود، حتى ضاقت بها المدينة، فنزل وادياً، وانقطع عن الجماعة والجمعة، فسأل عنه النبى ﷺ، فقيل: كثر ماله حتى لايسعه واد، فقال: «ياوَيْحَ ثعلبة». فبعث له مُصدقين لأخذ الصدقات؛ فاستقبلهما الناس بصدقاتهم، ومروا بثعلبة فسألاه الصدقة، وأقرآه الكتابَ الذى فيه الفرائض، فقال: ما هذه صدقة، ماهذه إلا أخت الجزية، فارجعا حتى أرى رأيى، فنزلت فيه الآية، فجاء ثعلبة بالصدقة، فقال: إن الله منعنى أن أقبل منك، فجعل يحثو التراب على رأسه، فقال له ﷺ: «هذا منك؛ فقد أمرتُك فلم

تطعنى» ، فقُبض الرسول ﷺ، فجاء بها إلى أبى بكر، فلم يقبلها، ثم جاء بها إلى عمرُ فى خلافته، فلم يقبلها منه، وهلك فى زمن عثمان، بعد أن لم يقبلها منه(١) .

وهذا معنى قوله: ﴿ فلما آتاهمْ من فَضْله بَخلُوا به ﴾ أى: منعوا حق الله منه، ﴿ وتولَّوا ﴾ عن طاعة الله، ﴿ وهم مُعرِضُون ﴾ أى: وهم قوم عادتهم الإعراض عنها، ﴿ فأعْقَبهم ﴾ أى: فأردفهم ﴿ نفاقا فى قلوبهم ﴾؛ عقوبة على العصيان بما هو أشد منه، أو فجعل الله عاقبة فعلهم ذلك نفاقاً متمكناً فى قلوبهم وسوء اعتقاد. قال البيضاوى: ويجوز أن يكون الضمير للبخل، والمعنى: فأورثهم البخلُ نفاقاً متمكناً فى قلوبهم ﴿ إلي يوم يَلْقَونه ﴾، أى: يلقون الله بالموت، والمراد: يلقون جزاءه أو عقابه. وذلك ﴿ بما أخلَفُوا اللهَ ما وعدوه ﴾ أى: بسبب إخلافهم ماوعدوه من التصدق والصلاح، ﴿ وبما كانوا يكذبُون ﴾ أى: وبكونهم كاذبين فيه؛ فإن خلف الوعد متضمن للكذب، مستقبح من الوجهين.

﴿ ألم يعلمُوا ﴾ أى: المنافقون، أو من عاهد الله، ﴿ أن الله يعلمُ سِرَّهُمْ ﴾ أى: ما أسروا فى أنفسهم من النفاق، ﴿ ونجواهم ﴾؛ ما يتناجون فيه، فيما بينهم، من المطاعن وتسمية الزكاة جزية، ﴿ وأنَّ الله علامُ الغيوب ﴾؛ فلا يخفى عليه شيء من ذلك، والله تعالى أعلم.

الإشارة: فى الحِكَم العطائية: «من تمام النعمة عليك: أن يرزقك ما يكفيك، ويمنعك ما يطغيك». وقال أبو سعيد الخدرى رضي الله عنه: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «خَيْرُ الرِّزْقِ ما يَكفِى، وخَيْرُ الذِّكْرِ الخَفِيُّ»(٢) وقال صلى الله عليه وسلم: «ما طَلَعَت شمْسٌ إلا وبِجَنْبيْها ملكان يُنادِيَانِ، يُسمعان الخَلائِقَ: أيُّها النَّاس، هلُمُّوا إلى ربِّكم، ما قَلَّ وكَفَى خَيْرٌ مما كَثُرَ وألْهَى»(٣). وقال بعض العارفين: كل من لا يعرف قدر ما زوى عنه من الدنيا، ابتلى بأحد وجهين: إما بحرص مع فقر يتقطع به حسرات، أو رغبة فى غنى تنسيه شكر ما أنعم به عليه.

---

(١) أخرجه الطبرانى فى الكبير (٨/ ٢٦٠) والبيهقى فى الدلائل(باب قصة ثعلبة بن حاطب ٥/ ٩٠) وابن جرير فى التفسير (١٠/ ١٨٩) . كذلك البغوى وغيره، كلهم عن أبى أمامة الباهلى، وذكر الحافظ ابن الحجر فى الكافى الشاف: أن إسناد هذه القصة ضعيف جداً. راجع: الكافى الشاف (٢/ ٢٩٢) والإصابة (١/ ٤٠١) والحاوى للسيوطى (٢/ ١٨٣) .
وثعلبة بن حاطب ـ المذكور فى القصة شهد بدراً. وقد قال ﷺ: «لايدخل النار أحد شهد بدراً والحديبية». وحكى ﷺ عن رب العزة أنه قال لأهل بدر: «اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم» فمن هذا شأنه، كيف يؤول به الأمر إلى ما آل إليه ماتزلت فيه الآيات؟ وقد أستشهد ثعلبة يوم أحد، وفى القصة المذكورة أنه هلك فى عهد عثمان. وهذا دليل على أن القصة غير صحيحة أصلاً، راجع فى هذا : الشهاب الثاقب فى الذب عن الصحابى ثعلبة بن حاطب. .

(٢) أخرجه أحمد ١/ ١٧٢، عن سعد بن مالك. وأخرجه ابن حبان ـ بتقديم وتأخير ـ عن سعد بن أبى وقاص (الإحسان ٢/ ٨٩ ح ٨٠٦) .

(٣) أخرجه أحمد فى المسند (٥/ ١٩٧) وابن حبان (٢٤٧٦ موارد) والحاكم (٢/ ٤٤٥)، وصححه ووافقه الذهبى كلهم عن أبى الدرداء. وقال الهيثمى (٣/ ١٢٢) : رجاله رجال الصحيح.

وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «لَيْسَ الغِنى بكثْرةِ العَرَضِ، إنما الغِنَى غِنَى النَّفْسِ». وغنى النفس عن الدنيا: شرف الأولياء المختارين، وعز أهل التقوى المؤمنين المحسنين. ولقد صدق قول الشاعر:

غِنَى النَّفْسِ ما يُغْنِيك عَنْ سَدّ خَلَّةٍ		فإن زِدتَ شَيْئاً عادَ ذَلِك الْغِنَى فَقْرا.

وقد قيل: من أخذ من الدنيا فوق ما يكفيه أعمى الله عيني قلبه. وقالت الجارية المجنونة لعبد الواحد بن زيد: يا عبد الواحد، اعلم أن العبد إذا كان في كفاية، ثم مال إلى الدنيا، سلبه الله حلاوة الزهد، فيظل حيراناً والهاً، فإن كان له عند الله تعالى نصيب، عاتبه وحياً في سره، فقال: عبدي؛ أردتُ أن أرفع قدرك عند ملائكتي وحملة عرشي، وأجعلك دليلاً لأوليائي وأهل طاعتي في أرضي، فملت إلى عرضٍ من أعراض الدنيا وتركتني؛ فورثتك بذلك الوحشة بعد الأنس، والذل بعد العز، والفقر بعد الغنى، عبدي؛ ارجعْ إلى ماكنت عليه، أرجعْ بك إلى ما كنت تعرفه .هـ. وقد تقدمت الحكاية. وفي بعض الكتب: إن أهون ما أصنع بالعالِم، إذا مال إلى الدنيا أن أسلبه حلاوة مناجاتي. هـ.

ثم ذم المنافقين بعيب آخر، فقال:

﴿ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾

قلت: (الذين): مبتدأ حذف خبره، أي: منهم الذين، أو خبر عن مبتدأ، أو منصوب على الذم، أو بدل من ضمير سرهم. وأصل المطوعين: المتطوعين، فأدغمت التاء في الطاء، و(جهدهم): مصدر جهد في الأمر: بالغ فيه.

يقول الحق جل جلاله: ومنهم ﴿الذين يلمزون﴾ أي: يعيبون ﴿المُطَّوِّعين من المؤمنين في الصدقات﴾، روي أنه ﷺ حث على الصدقة، فجاء عَبْدُ الرَّحْمنِ بْنُ عَوْفٍ بأرْبَعَة آلافِ دِرْهَم، وقال: كان لي ثمانيةُ آلافٍ، فأقرضت ربي أربعة، وأمسكتُ لعيالي أربعة. فقال رسول الله ﷺ: «بَارَكَ اللهُ لك فِيما أعْطَيْتَ وفِيما أمْسَكْتَ». فبارك الله له حتى صالحته إحدى زوجتيه عن نصف الثمن على ثمانين ألف درهم. وتصدّق عاصم بن عدي بثمانية أوسق تمراً، وجاء أبو عقيل الأنصاري بصاع تمر، فأمره رسول الله ﷺ أن يَنْثُرَه على تَمْرِ الصدقات،

فلمـزَهم المنافقـون، وقالـوا: ما أعطى عبد الرحمن وعاصم إلا رياءً، ولقد كان الله ورسوله لغنيين عن صاع أبى عقيل، فنزلت الآية(١).

ونزلت فى أبى عقيل: ﴿ والذين لا يجدُون إلا جُهْدَهُم ﴾ ؛ إلا طاقتهم، ﴿ فيسْخَرُون منهم ﴾ ؛ يستهزءون بهم. قال تعالى: ﴿ سخر الله منهم ﴾ ؛ جازاهم على سخريتهم، كقوله: ﴿ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾(٢)، ﴿ ولهم عذابٌ أليم ﴾ على كفرهم.

﴿ استَغْفِرْ لهم أو لا تستغفر لهم ﴾ ، يريد به التساوى بين الأمرين فى عدم الإفادة، كما نص عليه بقوله: ﴿ إن تستغفر لهم سبعينَ مرة فلن يغفرَ اللهُ لهم ﴾ ، رُوى أن عبد الله بن عبد الله بن أُبيّ ـ وكان من خيار المسلمين ـ سأل رسول الله ﷺ، فى مرض أبيه، أن يستغفر له، ففعل، فنزلت: ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴾(٣) ، وذلك لأنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ فَهِمَ من السبعين العدد المخصوص، وقال: ولو علمت أنى إن زدت على السبعين غُفر له، لزدت(٤) ، فبيّن له أن المراد به التكثير، دون التحديد، وقد شاع استعمال السبعة والسبعين والسبعمائة فى التكثير؛ لاشتمال السبعة على جملة أقسام العدد، فكأنه العدد بأسره قاله البيضاوى.

﴿ ذلك ﴾ أى: عدم قبول استغفارك بسبب أنهم ﴿ كفروا بالله ورسوله ﴾ أى: ليس لبُخل منا، ولا تقصير فى حقك، بل لعدم قابليتهم؛ بسبب الكفر الصارف عنها. ﴿ والله لا يهدى القوم الفاسقين ﴾ ؛ المتمردين فى كفرهم، وهو كالدليل على الحكم السابق، فإن مغفرة الكافر بالإقلاع عن الكفر، والإرشاد إلى الحق، والمنهمك فى كفره، المطبوع عليه، لا ينقلع ولايهتدى، والتنبيه على عذر الرسول فى استغفاره، وهو عدم يأسه من إيمانهم، مالم يعلم أنهم مطبُوعون على الضلالة، والممنوع هو الاستغفار بعد العلم؛ لقوله: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ ... ﴾ الآية(٥). قاله البيضاوى.

الإشارة: من نصب الميزان على المؤمنين فيما يصدر منهم، أو على الصالحين أو الأولياء فيما يظهر عليهم، حتى يسخر منهم، سخر الله منه، وأبعده من رحمته، فلا تنفع فيه شفاعة الشافعين ولا استغفار المستغفرين. وفى

(١) ذكره الواحدى فى أسباب النزول (٢٦٠) عن قتادة.
(٢) من الآية ١٥ من سورة البقرة.
(٣) من الآية ٦ من سورة المنافقون.
(٤) أخرجه بسياق آخر، البخارى فى (تفسير سورة التوبة). ومسلم فى (فضائل الصحابة، باب من فضائل عمر) عن ابن عمر.
(٥) الآية ١١٣ من سورة التوبة.

بعض الأخبار: «من تتبع عورة أخيه المؤمن تتبع الله عورته حتى يفضحه، ولو في جوف بيته» . ومن اشتغل بإذاية الأولياء، ولم يتب، مات على سوء الخاتمة، وذلك جزاء من حارب الله ـ والعياذ بالله ـ.

ثم ذكر تخلف المنافقين عن الجهاد، فقال:

﴿ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾

قلت: (خلافَ رسول الله): منصوب على الظرفية، أي: بعده، يقال: أقام خلاف الحي، أي: بعدهم، وقيل: مصدر خالف، فيكون مفعولاً لأجله، أو حال.

يقول الحق جل جلاله: ﴿فرِحَ المخَلَّفُون﴾ أي: الذين خلفهم الله عن الغزو، وأقعدهم عنه، ولذلك عبّر بالمخلفين دون المتخلفين، فرحوا ﴿بمقعدهم خلافَ رسولِ الله﴾ أي: بعده في غزوة تبوك، ﴿وكَرِهُوا أن يُجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله﴾؛ إيثاراً للراحة والدّعةِ على طاعة الله ورسوله. وفيه تعريض بالمؤمنين الذين آثروا عليها تحصيل رضاه؛ ببذل الأموال والمهج، وأما المنافقون فآثروا الراحة وقعدوا، ﴿وقالوا لا تَنفِروا في الحرّ﴾، قاله بعضهم لبعض، أو قالوه للمؤمنين تثبيطاً لهم. قال ابن جزي: قائل هذه المقالة رجل من بني سليم، ممن صعب عليه السفر إلى تبوك في الحر.هـ. ﴿قلْ نارُ جهنم أشدُّ حراً﴾، وقد آثرتموها بهذه المخالفة، ﴿لو كانوا يفقهون﴾ أن مآلهم إليها، أو كيف هي؟... ما اختاروها بإيثار الدعة على الطاعة.

﴿فليضْحكُوا قليلاً وليبكُوا كثيراً جزاءً بما كانوا يكسبُون﴾، وهو إخبار عما يؤول إليه حالهم في الدنيا والآخرة، أي: سيضحكون قليلاً، ويبكون كثيراً؛ لما يرون من سوء العاقبة، وأتى به على صيغة الأمر؛ للدلالة على أنه حَتْمٌ واجب وقوعه. قال ابن جزي: أمرٌ بمعنى الخبر، فضحكهم القليل في الدنيا مدة بقائهم فيها،

وبكاؤهم الكثير في الآخرة، أي: سيضحكون قليلاً في الدنيا، ويبكون كثيرا في الآخرة، وقيل: هو بمعنى الأمر، أي: يجب أن يكونوا يضحكون قليلاً ويبكون كثيراً في الدنيا، لِمَا وقعوا فيه.هـ.

﴿ فإن رَّجَعك اللهُ إلى طائفةٍ منهم ﴾ أي: فإن ردك الله من الغزو إلى المدينة، وفيها طائفة من المتخلفين - يعني منافقيهم - وكانوا اثنى عشر رجلاً ممن تخلف من المنافقين، وإنما لم يقل: إليهم؛ لأن منهم من تاب من النفاق، وندم على التخلف، ﴿ فاستأذونك للخروج ﴾ معك إلى غزوة أخرى بعد تبوك، ﴿ فقل لن تخرجوا معي أبداً ولن تُقاتلوا معي عدواً ﴾؛ عقوبة لهم، وفيها خزي وتوبيخ لهم، ﴿ إنكم رضيتم بالقعود أوَّلَ مرةٍ ﴾، يعني: عن تبوك، وهو تعليل لعدم خروجهم معه في المستقبل، ﴿ فاقعدوا مع الخالفين ﴾ أي: المتخلفين، أي: لعدم تأهلهم للجهاد كالنساء والصبيان.

الإشارة: من قلَّ إيقانه، وضعف نور إيمانه، فرح ببقائه، مع متابعة هواه وتيسير أمور دنياه، وكره ارتكاب مشاق المجاهدة، واقتحام حَرِّ المخالفة والمكابدة، وثبط من رآه يروم تلك الوجهة، ويريد أن يتأهب لدخول ميدان تلك الحضرة؛ فسيَنْدم قريباً، حين يفوز الشجعان بحضرة الوصال، ويتأهلون لمشاهدة الكبير المتعال، ولا ينفع الندم وقد زلت القدم، و إنما الصبر عند الصدمة الأولى.﴿ والسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ . أُولَئكَ الْمُقَرَّبُونَ . في جَنَّاتِ النَّعيمِ ﴾(١). وبالله التوفيق.

ثم نهى نبيه عن الصلاة على المنافقين، فقال:

﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾

قلت: (أبدا): ظرف لمات، أي: مات في مدة لا حياة بعدها؛ فإن حياة الكافر للتعذيب، وهي كلا حياة.

يقول الحق جل جلاله لنبيه ﷺ: ﴿ ولا تُصلِّ على أحدٍ ﴾ من المنافقين إذا مات على كفره، بحيث (مات أبدا) أي: موتة لا حياة بعدها. نزلت في عبدالله بن أُبيّ رأس المنافقين، فإنه لما مرض، دعا رسولَ الله ﷺ، فسأله أن يستغفر له ويكفنه في ثوبه الذي يلي جسده، ويصلي عليه، فلما مات أرسل قميصه ليُكفن فيه، وذهب ليصلي عليه، فنزلت. وروى أن رسول الله ﷺ لما تقدم للصلاة عليه جذبه جبريل بثوبه، وتلى عليه الآية

(١) الآيات ١١ ـ ١٣ من سورة الواقعة.

فانصرف، ولم يصل عليه. وقيل: صلى عليه ثم نزلت. وفي البخاري: أن رسول الله ﷺ لما تقدم للصلاة عليه جَذَبَهُ عمر، فقال: كيف تصلي عليه وقد نهاك ربك عن الصلاة على المنافقين؟ فقال: «إنَّمَا خَيَّرَنِيَ...» الحديث(١).

قال البيضاوي: وإنما لم ينه عن التكفين في قميصه، ونهى عن الصلاة عليه؛ لأن الضنة بالقيمص كانت مُخِلة بالكرم، ولأنه كان مكافأة لإلباس العباس قميصه حين أُسر ببدر(٢)، والمراد من الصلاة: الدعاء للميت والاستغفار له، وهو ممنوع في حق الكافر، ولذلك رتب النهى على قوله: (مات أبدا)؛ يعني: الموت على الكفر، فإن إحياء الكافرين للتعذيب، دون التمتع، فكأنه لم يحيى.هـ.

واستدل ابن عبد الحكم، بهذه الآية، على وجوب الصلاة على المؤمنين، وقرر اللخميُّ وجه الدليل منها بطريق النهي عن الشيء أمر بضده؛ لأن ضد النهي عن الصلاة أمر بها. وأبطله المازري قائلاً: وإنا هو من دليل الخطاب، ومفهوم المخالفة، وبيان عدم صحة كونها من باب النهي عن الشيء، أنَّ شرط ذلك اتحاد متعلق الأمر والنهي، كقولك لزيد: لا تسكن، ومعناه تحرك، ومتعلقهما هنا مختلف، فمتعلق النهي: المنافقون، ومتعلق الأمر: المؤمنون. وكذا رد كونها دالة مفهوم المخالفة . انظر الحاشية الفاسية.

ثم قال تعالى: ﴿ ولا تَقُمْ على قبره ﴾ أي: ولا تقف على قبره للدفن، أو الزيارة، ثم علل النهى فقال: ﴿ إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا ﴾، والحال أنهم ﴿ فاسقون ﴾؛ خارجون عن دائرة الإسلام.

ثم نهى عن الاغترار بمالهم فقال: ﴿ ولا تُعْجِبْكَ أموالُهم وأولادُهم إنما يريد اللهُ أن يُعذِّبهم بها في الدنيا وتزهَق أنفسُهم وهم كافرون ﴾، وقد تقدم، وإنما كرره؛ للتأكيد، وهو حقيق به، فإن الأبصار طامحة إلى الأموال والأولاد، والنفوس مجبولة على حبهما، فكرر النهي عن الاغترار بهما، ويجوز أن تكون هذه في فريق آخر غير الأول. والله تعالى أعلم.

---

(١) أخرجه البخاري في (الجنائز، باب ما يكره من الصلاة على المنافقين) ومسلم في (فضائل الصحابة، باب من فضائل عمر) وتمام الحديث: «إنما خيرني الله فقال: ﴿استغفر لهم أو لا تستغفر لهم..﴾ الآية، وسأزيد على سبعين» فصلى عليه رسول الله ﷺ، وأنزل الله عز وجل: ﴿ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره﴾.

(٢) أخرج البخاري في (الجهاد، باب الكسوة للأسارى) عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما ــ قال: (لما كان يوم بدر أتى بالعباس، ولم يكن عليه ثوب، فنظر النبي ﷺ له. قميصاً، فوجدوا قميص عبدالله بن أُبيّ يقدر عليه، فكساه النبي ﷺ إياه، فلذلك نزع النبي ﷺ قميصه الذي ألبسه).

الإشارة: إذا حصل للعبد القرب من الحبيب قربت منه الأشياء كلها، ورغبت في خلّته الملائكةُ والجنُ والإنسُ والروحانيون، فإذا مات صلت على جسده أجناد الأرض، وعلى روحه أجناد السماء، وفرحت بقدومه الملائكة والروحانيون، وربما شفعه الله في أهل عصره أجمعين، وإذا حصل للعبد البعد من ربه بعدت عنه الأشياء كلها، ورفضت جسده وروحه الجن والإنس والملائكة، فلا يصل عليه أحد، ولا يقف على قبره بشر، فالحذر الحذر من كل مايبعد من حضرة الحبيب من المخالفات والإصرار على الزلات، فإنه بريد الكفر الذى هو البعد الكبير. والعياذ بالله ـ. والبدارَ البدارَ إلى مايقرب من الحبيب، من أنواع الطاعات، والمسارعة إلى الخيرات، وسائر الأخلاق الحسنة والشيم المستحسنة. وبالله التوفيق.

ثم أشار إلى تخلفهم عن الجهاد مع قدرتهم عليه، فقال:

﴿ وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُواْ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وإذا أنزلتْ سورةٌ ﴾، أو بعضها، فى شأن الجهاد قائلة: ﴿ أن آمنوا بالله ﴾ وحده، ﴿ وجاهدوا مع رسوله ﴾ ﷺ، ﴿ استأذنَكَ ﴾ فى التخلف ﴿ أُولوا الطولْ منهم ﴾ أى: أولوا الغنى والسعة، ﴿ وقالوا ذَرْنا نكن مع القاعدين ﴾؛ الذين قعدوا لعذر، ﴿ رَضُوا بأن يكونوا مع الخوالف ﴾؛ مع النساء، جمع خالفة، وقد يقال: الخالفة؛ للذى لاخير فيه. ﴿ وطبع على قلوبهم ﴾ بالكفر والنفاق، ﴿ فهم لايفقهون ﴾ ما فى الجهاد وموافقة الرسول من السعادة، وما فى التخلف عنه من الشقاوة.

﴿ لكنِ الرسولُ والذين آمنوا معه جاهدُوا بأموالهم وأنفسهم ﴾ أى: إن تخلف هؤلاء ولم يجاهدوا، فقد جاهد من هو خير منهم، ﴿ وأولئك لهم الخيراتُ ﴾؛ منافع الدارين: النصر والغنيمة فى الدنيا، والجنة والكرامة فى الآخرة. وقيل: الحُور، لقوله: ﴿ فيهِنّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ ﴾[1]. ﴿ وأولئك هم المفلحون ﴾؛ الفائزون بالمطالب

(١) الآية ٧٠ من سورة الرحمن.

البهية والمراغب السنية. ﴿ أعَدَّ اللهُ لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك الفوزُ العظيم ﴾؛ بيان لبعض الخيرات الأخروية.

الإشارة: إذا ظهر الدعاة إلى الله يُشوقون الناس إلى حضرة الله؛ ترى من صُرِفَ عنه عِنَانُ العناية، ولم يضرب له مع السابقين بسهم الهداية، يميل إلى التقاعد إلى وطن الراحة، والميل إلى ما ألفه من سيىء العادة، يستأذن أن يتخلف مع النساء والصبيان، ويتنكب طريق الأقوياء من الشجعان، فإن تخلف هذا مع عوام الضعفاء فقد تقدم لهذا الأمر من يقوم به من الأقوياء، اختارهم الله لحضرته، وقواهم على مكافحة مشاهدته ومحبته، جاهدوا نفوسهم في معرفة محبوبهم، وبذلوا أموالهم ومهجهم في الوصول إلى مطلوبهم، (وأولئك لهم الخيرات وأولئك هم المفلحون).

ثم ذكر اعتذار الأعراب، فقال:

﴿ وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾ ﴾

قلت: (المُعَذِّرون): أصله: المعتذرون، نقلت حركة التاء إلى العين، وأدغمت التاء في الذال. وقرأ يعقوب: «المُعْذِرون»: اسم مفعول، من أعذر، إذا بالغ في العذر.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وجاء المُعذِّرون من الأعراب ﴾ يعتذرون في التخلف عن الغزو؛ ﴿ ليُؤْذَن لهم ﴾ في القعود، قيل: هم أسد وغطفان؛ استأذنوا في التخلف؛ معتذرين بالجهْد وكثرة العيال. قيل: كاذبين، وقيل: صادقين. وقيل: هم رهط عامر بن الطفيل، قالوا: إن غزونا معك غارت طيِّىء على أهالينا ومواشينا، وقيل: نزلت في قوم من غِفار. ﴿ وقَعَدَ الذين كذَبُوا اللهَ ورسوله ﴾ من غير هؤلاء، وهم قوم لم يجاهدوا ولم يعتذروا في تخلفهم، فكذبوا في دعواهم الإيمان بالله ورسوله، يقال: كذبت فلاناً ـ بالتخفيف، أي: أخبرته بالكذب. ثم ذكر وعيدهم فقال:﴿ سيُصيبُ الذين كفروا منهم عذابٌ أليم ﴾؛ في الدنيا بالقتل، وفي الآخرة بالنار.

الإشارة: المتخلفون عن طريق الخصوص على ثلاثة أقسام:

قسم: أقروا بها، وعرفوا صحتها، ثم شحوا بأنفسهم وبخلوا بأموالهم، فاعتذروا في التخلف عنها بأعذار باطلة، فهؤلاء لا حجة لهم عند الله، وقوم أقبح منهم، لم يلتفتوا إلى من جاء بها ولم يرفعوا بذلك رأساً. قال تعالى في مثلهم: ﴿وقعد الذين كذبوا الله ورسوله سيصيب الذين كفروا منهم عذاب أليم﴾.

وقسم: أقروا بها، وطلبوا الدخول فيها، لكن غلبتهم الأقدار، وأظهروا غاية الاعتذار، وتحقق عذرهم عند الواحد القهار، وإليهم الإشارة بقوله تعالى:

﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ ۞ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾

قلت: جواب «إذا» يحتمل أن يكون (تولوا)، وجملة (قُلْتَ): حال من الكاف في (أتوك)، أي: أتوك قائلاً: لاأجد.. إلخ، ويحتمل أن يكون الجوابُ: «قلتَ»، و(تولوا) استئناف لبيان حالهم حينئذ، و(من الدمع): للبيان، وهي، مع المجرور، في محل نصب على التمييز، فهو أبلغ من تفيض دمعُها؛ لأنه يدل على أن العين صارت دمعاً فياضاً، و(حزنا): علة، أو حال، أو مصدر لفعل دل عليه ما قبله، و(ألا يجدوا): متعلق به، أي: حزناً على ألا يجدوا ماينفقون، و(إنما السبيل) راجع لقوله: (ما على المحسنين من سبيل).

يقول الحق جل جلاله: ﴿ليس على الضُّعفاءِ﴾؛ كالهرْمى، ﴿ولا على المرضى﴾؛ كالزَّمْنَى ومن أضناه المرض، ﴿ولا على الذين لايجدون ماينفقون﴾ في الغزو ﴿حَرَجٌ﴾ أي: لا حرَج على هؤلاء في التخلف عن الغزو، ﴿إذا نَصَحُوا لله ورسوله﴾ بالإيمان والطاعة في السر والعلانية. قيل: نزلت في بني مُقَرِن، وهم ستة أخوة صحبوا النبي ﷺ، وقيل: في عبدالله بن مُغَفَل.

﴿ما على المحسنين من سبيل﴾ أي: ليس عليهم جناح، ولا إلى معاتبتهم سبيل، وإنما وضع المحسنين موضع المضمر؛ للدلالة على أنهم منخرطون في سلك المحسنين، غير معاتبين في ذلك، ﴿والله غفور رحيم﴾ بالمسيء فكيف بالمحسنين؟ ﴿ولا على الذين إذا ما أتوْكَ لتحملَهم﴾ معك إلى الغزو، وهم البكاؤون؛ سبعة من الأنصار: مَعْقِل بن يسَار، وصَخْر بن خنساء، وعبدالله بن كعب، وسالم بن عُمَيْر، وثَعْلَبة بن غَنَمة(١)،

(١) في الأصل: ختمة.

وعبدالله بن مُغفّل(١)، وعُلَية بن زيد. أتوا رسول الله ﷺ فقالوا: نذرنا الخروج فاحملنا على الخفاف المرْقُوعة، والنّعال المَخْصُوفَة، نغزوا معك، فقال: لا أجد، فتولّوْا وهم يبكون(٢). وقيل: هم بنو مُقَرّن، وقيل: أبو موسى وأصحابه، وعليه اقتصر البخارى.

﴿ قلتَ لا أجدُ ما أحملكم عليه ﴾، وليس عندى ما أحملكم عليه، ﴿ تولّوا ﴾ عنك ﴿ وأعينُهم تفيضُ من الدمع ﴾ أى: يفيض دمعها؛ ﴿ حزناً ﴾ على ﴿ ألاّ يجدوا ما يُنفقون ﴾ فى غزوهم.

زاد البخارى: فلما رجع أبو موسى وأصحابه، أُتى ـ عليه الصلاة والسلام ـ بنَهْب إبل(٣)، فدعاهم وحملهم عليها، فقالوا: يارسول الله، إنّكَ حلَفْتَ ألا تَحْمِلَنَا، فخفنا أن نكون أغفلناك يمينك، فقال: «ما أنا حملتكم، ولكن الله حملكم، وإنّى واللّه، ما أَحلِفُ على يَمِينٍ فَأرَى خَيْراً مِنْها إلاّ كَفَّرْتُ عن يَمِينِى وأتَيْتُ الذى هُوَ خَيْر»(٤). أو كما قال عليه الصلاة والسلام.

قال تعالى: ﴿ إنما السبيلُ ﴾ أى: الحرج والمعاتبة ﴿ على الذين يستأذنونَك ﴾ فى القعود، ﴿ وهم أغنياءُ ﴾؛ واجدون للأهبة، ﴿ رَضُوا بأن يكونوا مع الخَوالفِ ﴾؛ كالنساء والصبيان، وهو استئناف لبيان ما هو السبب لاستئذانهم من غير عذر، وهو رضاهم بالدناءة، والانتظام فى جملة النساء والصبيان؛ إيثاراً للدعة والكسل، ﴿ وطَبَعَ اللهُ على قلوبهم ﴾ بالكفر والغفلة، حتى غفلوا عن وخامة العاقبة، ﴿ فهم لايعلمون ﴾ ما يؤول إليه حالهم من الندم والأسف.

الإشارة: كل من لم ينهض إلى صحبة الخصوص؛ الذين جعلهم الله أدوية القلوب، توجه العتاب إليه يوم القيامة، إذ لا يخلو من لم يصحبهم من عَيب أو نقص أو خاطر سوء، حتى ربما يلقى الله بقلب سقيم.

قال الشيخ أبو الحسن الشاذلى رضي الله عنه: من لم يتغلغل فى علمنا هذا، مات مصراً على الكبائر وهو لايشعر. **وقال الغزالى:** دواء القلوب واجب عيناً على كل مسلم، فكل من قصر فى ذلك عُوقب يوم القيامة، إلا من حبسه عذر صحيح: من مرض مزمن، أو كبر سن، أو فقر مذْلق. قال تعالى: (ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لايجدون ماينفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله)، فإن أحبوا أولياء الله، وصدقوهم وعظموهم، ودلّوا الناس على صحبتهم، فهؤلاء محسنون، (ما على المحسنين من سبيل والله غفور) لضعفهم، (رحيم) بهم.

---

(١) فى الأصول: معقل.
(٢) أخرجه الطبرى فى التفسير (١٠/١٤٦) وذكره الواحدى فى الأسباب (٢٦٢) عن محمد بن كعب القرظى.
(٣) نهب أى: غنيمة.		(٤) أخرجه البخارى فى (المغازى، باب قدوم الأشعريين وأهل اليمن).

وقال الورتجبي: (إذا نصحوا لله ورسوله) أي: إذا عرّفوا عبادَ الله طريق الله، والأسوة بسنة رسوله الله. هـ. وقد قال الحواريون: ياروح الله، ما النصيحة لله؟ قال: تقديم حق الله على حق الناس. هـ. ولاحرج أيضا على من لم يجد ما ينفق على الأشياخ من الأموال، فإن من أعطى نفسه كفته عنْ إعطاء المال. قال تعالى: (ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم) إلى الحضرة (قلت لا أجد ما أحملكم عليه)؛ فإن بذل الأموال مع المهج أنهض من أحدهما، (تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون)؛ ليتحببوا به في قلوب المشايخ. قال بعض المشايخ: أردنا أن نجعل من يسوق مع من لايسوق على حد سواء، فلم يعتدلوا.هـ.

وقوله تعالى: (حزناً ألا يجدوا ما ينفقون)، ليس حزنهم على فوات الدنيا، وإنما حزنهم على تخلفهم عن رسول الله، وعن صحبة أهل الكمال. وقال القشيري: شقَّ عليهم أنْ يكونَ على قلب الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ منهم، أو بسببهم، شُغْلٌ، فتمنّوا أن لو أزيحت علتهم، لا ميلاً إلى الدنيا؛ ولكن لئلا يعود إلى قلب الرسول من فعلهم كراهةٌ، ولقد قيل:

مَنْ عفَّ خفَّ على الصديق لقاؤه وأخو الحوائج وجهه مملولُ. هـ(١)

ولما رجع ـ عليه الصلاة والسلام ـ من غزوة تبوك، جاء المنافقون يعتذرون بالأعذار الكاذبة، ففضحهم الله بقوله:

﴿ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٩٦﴾ ﴾

(١) في القشيري: (مُمَجِّجٌ مملُول) قلت: والبيت ورد غير منسوب في عيون الأخبار (٣/١٩١) وورد: (أنشد ثعلب) في أدب الدنيا والدين (٣٣٨).

قلت: مفعول (نبأ) الثانى: محذوف، أى: نبأنا جملة من أخباركم، و(جزاء): مصدر لمحذوف، أى: يجازون جزاء، أو علة، أى: للجزاء بما كسبوا.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ يعتذرون إليكم ﴾ يعنى: المنافقين، ﴿ إذا رجعتم إليهم ﴾ من تبوك، ﴿ قلْ ﴾ لهم: ﴿ لا تعتذروا ﴾ بالمعاذير الكاذبة؛ لأنه ﴿ لن نُؤمنَ لكم ﴾ أى: لن نصدقكم فيها؛ لأنه ﴿ قد نبأنا اللهُ من أخباركم ﴾؛ أعلمنا بالوحى، على لسان نبيه ﷺ، ببعض أخباركم، وهو ما فى ضمائركم من الشر والفساد.

﴿ وسيَرَى اللهُ عملكم ورسولُه ﴾: هل تتوبون من الكفر، أم تثبتون عليه؟ وكأنه استتابة وإمهال للتوبة، ﴿ ثم تُردُّون إلى عالم الغيب والشهادة ﴾ وهو الله، والأصل: ثم تردون إليه؛ فوضع هذا الوصف موضع الضمير؛ للدلالة على أنه مطلع على سرهم وعلانيتهم، لا يعزب عن علمه شىء من ضمائرهم وأعمالهم، ﴿ فينبئكم ﴾ أى: يخبركم ﴿ بما كنتم تعملون ﴾؛ بالتوبيخ والعقاب عليه.

﴿ سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم ﴾ من غزوكم؛ ﴿ لتُعرِضُوا عنهم ﴾ أى: عن عتابهم، ﴿ فأعْرِضُوا عنهم ﴾؛ لاتوبخوهم؛ ﴿ إنهم رِجْسٌ ﴾؛ لخبث قلوبهم لا ينفع فيهم التأنيب، فإن المقصود من العتاب: التطهير بالحمل على الإنابة، وهؤلاء أرجاس لا تقبل التطهير، فهو علة للإعراض وترك المعاتبة، ﴿ ومأواهم جهنمُ ﴾ أى: منقلبهم إليها، والمعنى: أن النار كفتهم عتابا، فلا تتكلفوا عتابهم، وذلك ﴿ جزاءً بما كانوا يكسبون ﴾ من الكفر والنفاق.

﴿ يحلفُون لكم لِترْضَوا عنهم ﴾ بحلفهم، فتستديموا عليهم ما كنتم تفعلون بهم من الستر والإرفاق، وإشراكهم فى الغنائم، ﴿ فإن تَرْضَوْا عنهم ﴾ بذلك ﴿ فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين ﴾ أى: فإن رضاكم لا يستلزم رضى الله، ورضاكم وحدكم لا ينفعهم إذا كانوا فى سخط الله وبصدد عقابه، أو إن أمكنهم أن يلَبسوا عليكم لايمكنهم أن يلبسوا على الله؛ فإنه يهتك سترهم وينزل الهوان بهم. والمقصود من الآية: النهى عن الرضا عنهم والاغترار بمعاذيرهم، بعد الأمر بالإعراض عنهم وعدم الالتفات نحوهم. قاله البيضاوى.

الإشارة: قد يظهر لهذه الطائفة منافقون، إذا ظهر على أهل الله عز أو نصر جاءوا يعتذرون عن تخلفهم عنه، ويحلفون أنهم على محبتهم؛ فلا ينبغى الاغترار بشأنهم، ولا مواجهتهم بالعتاب؛ بل الواجب الإعراض عنهم والغيبة فى الله عنهم، فسيرى الله عملهم ورسوله، ثم يردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبؤهم بما كانوا يعملون.

ثم ذكر منافقي البادية، فقال:

﴿ ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ ۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ الأعرابُ ﴾، وهم سكان البادية، قال ابن عزيز: يقال: رجل أعرابي، إذا كان بدوياً. وإن لم يكن من العرب، ورجل عربي، إذا كان منسوباً إلى العرب، وإن لم يكن بدويا. أهل البوادي من المنافقين هم ﴿ أشدُّ كفراً ونفاقاً ﴾ من أهل الحاضرة، وذلك لتوحشهم وقساوتهم، وعدم مخالطتهم لأهل العلم، وقلة استماعهم للكتاب، ﴿ وأجدرُ ﴾ أي: أحق ﴿ ألاّ يعلموا حدود ما أنزل اللهُ على رسوله ﴾ من الشرائع وفرائضها وسننها، لبُعدهم عن مجالس العلم، ﴿ والله عليمٌ حكيم ﴾؛ يعلم كل واحد من أهل الوبر والمدر، حكيم فيما يدبر من إسكان البادية، أو الحاضرة، ويختار لكل واحد بحكمته البالغة ما يليق به، وسيأتي بقية الكلام على سكنى الحاضرة أو البادية في الإشارة، إن شاء الله.

﴿ ومن الأعرابِ من يتخذ ﴾ أي: يعدّ ﴿ ما ينفقُ ﴾ من الزكاة وغيرها في سبيل الله، ﴿ مغْرَماً ﴾ أي: غرامة وخسراناً؛ إذ لا يحتسبه عند الله، ولا يرجو عليه ثواباً، وإنما ينفقه لرياء أو تقية، فيثقل عليه ثقل المغرم الذي ليس بحق، ﴿ ويتربصُ بكم الدوائرَ ﴾ أي: دوائر الزمان ونُوبه، أو ينتظر بكم مصائب الزمان، لينقلب الأمر عليكم؛ فيتخلص من الإنفاق الذي كلف به.

قال تعالى: ﴿ عليهم دائرةُ السَّوْءِ ﴾، وهو دعاء عليهم بنحو ما يتربصونه ـ أي: عليهم يدور من الدهر ما يسُوءهم ـ أو جعل الله دائرة السوء نازلة بهم. قال ابن عطية: كل ما كان بلفظ دعاء من جهة الله ـ عز وجل ـ فإنما هو بمعنى إيجاب الشيء؛ لأن الله تعالى لا يدعو على مخلوقاته وهي في قبضته، ومن هذا قوله: ﴿ ويل لكل همزة لمزة ﴾(١)، ﴿ ويل للمطففين ﴾(٢)، وهي كلها أحكام تامة تضمنها خبره تعالى.هـ. أو إخبار عن

(١) الآية الأولى من سورة الهمزة.
(٢) الآية الأولى من سورة المطففين.

وقوع ما يتربصونه عليهم. قال البيضاوي: الدوائر في الأصل: مصدر أضيف إليه السوء؛ للمبالغة، كقولك: رَجلُ صدق. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو: «السُّوء» هنا، وفي الفتح(١) بضم السين. هـ. ﴿ والله سميعٌ ﴾ لما يقولونه عند الإنفاق، ﴿ عليم ﴾ بما يضمرونه من الرياء وغيره.

ثم ذكر ضدهم، فقال: ﴿ ومن الأعرابِ من يؤمن بالله واليوم الآخر، ويتخذُ ما ينُفق ﴾ أي: يعد ما ينفقه من الزكاة وغيرها ﴿ قرباتٍ عند الله ﴾؛ تقربهم إليه زلفى؛ لإخلاصهم فيها. ﴿ وصلواتِ الرسول ﴾ أي: ويتخذ ما ينفق سببَ صلوات الرسول؛ لأنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ كان يدعو للمتصدقين، ويقول: اللهم صل على فلان، ويستغفر لهم. ولذلك سُن للمصدَّق عليه أن يدعو للمتصدق عند أخذ صدقته، لكن ليس له أن يصلي عليه، كما كان يفعل ﷺ؛ لأن ذلك منصبه، فله أن يتفضل به على غيره.

﴿ ألا إنها ﴾ أي: نفقاتهم، ﴿ قُرْبة لهم ﴾ تقربهم إلى حضرة ربهم، وهذا شهادة من الله لصحة معتقدهم وكمال إخلاصهم، ﴿ سيُدخلهم الله في رحمته ﴾، وعد من الله لهم بإحاطة الرحمة بهم، أو سيدخلهم في جنته التي هي محل رحمته وكرامته، والسين لتحقق وقوعه. ﴿ إن الله غفور رحيم ﴾؛ يغفر ما فرط من الخلل، ويتفضل برحمته على ما نقص عن درجات الكمال. قيل: إن الآية الأولى نزلت في أسد وغطفان وبني تميم؛ فهم الذين يتخذون ما ينفقون مغرماً. والثانية نزلت في عبد الله ذي البجادين وقومه؛ فهم الذين يتخذون ما ينفقون قربات عند الله وصلوات الرسول. والله تعالى أعلم.

الإشارة: قد ورد الترغيب في سكنى المدن؛ لأنها محل العلم وسماع الوعظ، وفيها من يستعان بهم على الدين، وورد الترغيب أيضًا في سكنى الجبال والفرار بالدين من الفتن، وخصوصًا في آخر الزمان. ولهذا اختار كثير من الصحابة والتابعين سكنى البوادي؛ كأبي ذر، وسلمة بن الأكوع، وغيرهما ـ رضي الله عنهم ـ.

والتحرير في المسألة: أن ذلك يختلف باختلاف الأشخاص والمقاصد، فمن كان مراده تحقيق الشريعة، وتحرير مسائل العلم الظاهر، والقيام بوظائف الدين، ولم يجد في البادية من يعينه على ذلك؛ فسكنى المدن أفضل له، ومن كان مراده تصفية قلبه وتحقيق علم الطريقة، وتهيئة القلب لإشراق أنوار الحقيقة، فالاعتزال في البوادي، وقرون الجبال، أوفق له، إن وجد من يستعين بهم على ذلك؛ لأن شواغل المدن وعوائدها كثيرة، وقد كثرت فيها الحظوظ والأهوية؛ فلا تجد فيها إلا من هو مفتون بدنيا أو مبتلىً بهوى، بخلاف أهل البادية، هذه العوائد فيهم قليلة، وجلّ أهلها على الفطرة.

وأيضاً: هم مفتقرون إلى من يسوسهم بالعلم أكثر من غيرهم، فمن تصدى لتعليمهم وتذكيرهم لا يعلم قدره إلا الله. قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه: [أرحم الناس بالناس: من يرحم من لا يرحم نفسه]. أي: من يرحم

(١) في قوله تعالى: ﴿ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات الظانين بالله ظن السوء..﴾ الآية ٦ من سورة الفتح.

الجاهل الذي لا يرحم نفسه؛ بأن يعلمه ما ينفع به نفسه ويرحمها. وقال الغزالي في الإحياء: يجب على العلماء أن يبعثوا من يعلم الناس في البوادي؛ فإن أخلّوا بذلك الأمر عاقبهم الله، فمن تعرض لتعليمهم قام بهذا الواجب. والله تعالى أعلم. وأما ما يذكر حديثاً: «أمتي في المدن، وقليل في البادية»، فلم يصح، بل قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ للرجل الذي أراد أن ينتقل إلى المدينة: « اعبد الله حيثما كنت، فإن الله لن يترك من أعمالك شيئاً» . وكذلك قوله: إذا أراد الله بعبد خيراً نقله من البادية إلى الحاضرة؛ لم أقف عليه حديثا. وبالله التوفيق.

ثم ذكر فضل السابقين إلى الإسلام، فقال:

﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾ ﴾

قلت: (السابقون): مبتدأ، (والذين اتبعوهم): عطف عليه، وجملة (رضي الله عنهم): خبر.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ والسابقُون الأولون ﴾ إلى الإسلام ﴿ من المهاجرين ﴾؛ وهم الذين صلوا إلى القبلتين، أو الذين شهدوا بدراً، أو الذين أسلموا قبل الهجرة، ﴿ و ﴾ من ﴿ الأنصار ﴾؛ وهم أهل بيعة العقبة الأولى، وكانوا سبعة، أو أهل العقبة الثانية، وكانوا سبعين، أو الذين أسلموا حين قدم عليهم مُصعب بن عُمير.

﴿ والذين اتبعوهم بإحسان ﴾؛ اللاحقين بالسابقين من الفريقين، أو من الذين اتبعوهم بالإيمان والطاعة إلى يوم القيامة، ﴿ رَضِيَ اللهُ عنهم ﴾ بقبول طاعتهم وارتضاء أعمالهم، ﴿ ورَضُوا عنه ﴾ بما نالوا من نِعَمه الدينية والدنيوية، ﴿ وأعدَّ لهم جنات تجري تَحْتَها الأنهارُ ﴾ وقرأ ابن كثير: «من تحتها»، كما هي في مصحف أهل مكة. ﴿ خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم ﴾ أي: الفلاح الدائم الكبير.

الإشارة: لكل زمان سابقون، قد شمروا عن ساق الجد والاجتهاد، ورفضوا كل ما يقطعهم عن محبوبهم من العشائر والأولاد، قد خرقوا عوائد أنفسهم، فأبدلوا العز بالذل، والجاه بالخمول، والغنى بالفقر، والرفعة بالتواضع، والرغبة بالزهد، وشغل الظاهر بالتفرغ؛ ليتفرغ بذلك الباطن. وسافروا في طلب محبوبهم، وصحبوا المشايخ، وخدموا الإخوان، حتى ارتفعت عنهم الحجب والأستار، وتمتعوا بمشاهدة الكريم الغفار؛ فتهيئوا لتذكير العباد، وحييت بهم الأقطار والبلاد. وفي مثلهم يقول الشاعر:

تَحْيَـــا بِكُم كُل أرضٍ تَنْزلُون بها كأنَّكُم فى بِقاعِ الأرض أمْطَـــار
وتَشْتَهِـــي العينُ فيكـم منْظرًا حسنًا كأنَّكـم فى عُيـــون النـاس أقْمَارُ

(فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون).

ثم ذكر بقية من المنافقين، فقال:

﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وممن حولكم ﴾، يا أهل المدينة، ﴿ من الأعراب منافقون ﴾ ساكنون حولكم، وهم: جُهينة، ومُزينة، وأسلم، وغفار، وأشجع، كانوا نازلين حول المدينة، أما أسلم وغفار فتابوا، ودعا لهم ـ عليه الصلاة والسلام ـ فقال: «أسلم سالمها الله، وغفار غفر الله لها»، وأما الباقى فأسلم بعضهم.

قال تعالى: ﴿ ومن أهل المدينة ﴾ قوم ﴿ مَرَدُوا ﴾ أى: استمروا ﴿ على النفاق ﴾، واجترءوا عليه، وتمرنوا وتمهروا فيه، ﴿ لا تعلمُهم ﴾ أى: لا تعرفهم يا محمد بأعيانهم، وهو بيان لمهارتهم وتنوقهم فى تحرى مواقع التهم إلى حد قد خفى عليك حالهم، مع كمال فطنتك وحِذقِ فراستك، ﴿ نحنُ نعلمهم ﴾، ونطلع على أسرارهم، إن قدروا أن يُلبسوا عليك فلا يقدرون أن يلبسوا علينا، ﴿ سنعذّبهم مرتين ﴾ بالفضيحة والقتل، أو بأحدهما وعذاب القبر، أو بأخذ الزكاة ونهك الأبدان فى الحرب، أو بإقامة الحدود وعذاب القبر، أو بتسليط الحُمى عليهم مرتين فى السنة، ﴿ ثم يُرَدُّون إلى عذاب عظيم ﴾ بعد الموت، وهو عذاب النار.

الإشارة: قد جعل الله ـ سبحانه ـ بحكمته وقدرته، فى كُلّ عصر وأوان بحرين: بحراً من النور وبحراً من الظلمة، من عصر النبى ﷺ إلى قيام الساعة، فلابد فى كل عصر من نور وظلمة، وإيمان وكفران، ونفاق وإخلاص، وصفاء وخوض، فأهل النور نورهم فى الزيادة إلى قرب قيام الساعة، وأهل الظلمة كذلك، إذ لا تعرف الأشياء إلا بأضدادها، ولا يظهر شرف النور إلا بوجود الظلمة، ولا شرف الصفاء إلا بوجود الخوض، ولا فضل العلم إلا بوجود الجهل، وهكذا جعل الله من كل زوجين اثنين، ليقع الفرار إلى الواحد الحق، فمن رام انفراد أحدهما فى الوجود فهو جاهل بحكمة الملك الودود. والله تعالى أعلم.

ولما ذكر من كمل صفاؤه من السابقين، ومن كمل خوضه من المنافقين، ذكر من جمع بين الصفاء والخوض، فقال:

﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿و﴾ قوم ﴿آخرونَ اعترفوا بذُنوبهم﴾؛ وهو التخلف عن الجهاد، ولم يعتذروا عن تخلفهم بالأعذار الكاذبة، وهم طائفة من المتخلفين لما بلغهم ما نزل في المتخلفين أوثقوا أنفسَهم على سوارى المسجد، وقالوا: لا نحل أنفسنا حتى يحلنا رسول الله ﷺ، فلما قدِم رسولُ الله ﷺ دخل المسجد، فصلى فيه ركعتين، على عادته، فرآهم وسأل عنهم، فذُكر له سببهم، فنزلت الآية فأطلقهم(١).

﴿خلطوا عملاً صالحاً﴾ بعمل سيىء ﴿وآخر سيئاً﴾ بعمل صالح، خلطوا العمل الصالح الذي هو إظهار الندم والاعتراف بالذنب، بآخر سيىء وهو التخلف وموافقة أهل النفاق، أو خلطوا عملاً صالحا، وهو ما سبق لهم من الجهاد مع الرسول، وغيره من الأعمال، بآخر سيىء، وهو تخلفهم عن تبوك. ﴿عَسَى اللهُ أن يتوبَ عليهم﴾ أي: يقبل توبتهم المدلول عليها بقوله: ﴿اعترفوا بذنوبهم﴾، والرجاء في حقه تعالى واجب. ﴿إن الله غفورٌ رحيمٌ﴾ يتجاوز عن التائب ويتفضل عليهم.

قال بعضهم: ما في القرآن آية أرجى لهذه الأمة من هذه الآية. وقال القشيري: قوله: ﴿وآخر سيئا﴾ بعد قوله: ﴿عملاً صالحا﴾، دليل على أن الزَّلّة لاتحبطُ ثوابَ الطاعة؛ إذ لو أحبطته لم يكن العملُ صالحاً، وهو كذلك. انتهى. قُلْتُ: وما ذكره من عدم الإحباط هو مذهب أهل السنة، خلافاً للمعتزلة، ولايعارضه حديث مسلم: «أنَّ رَجُلاً قَالَ: واللهِ لايَغْفِرُ اللهُ لِفُلاَنٍ، وإنَّ اللهَ قَالَ: مَنْ الذي يتَألّى(٢) علَيَّ ألاَّ أغفِرَ لِفُلاَنٍ، وإنّي غفَرْتُ له وأحْبَطْتُ عَمَلَكَ»(٣) أو كما قال؛ لأن هذا الرجل كان من بنى إسرائيل، ولعل شرعهم مخالف لشرعنا؛ لأن هذه الأمة المحمدية قد وضع الله عنها أثقال بنى إسرائيل، فهى ملة سمحة، ولعل هذا الرجل أيضا كان قانطاً من رحمة الله ومكذباً بها، فهو كافر. انظر الحاشية الفاسية.

الإشارة: الناس ثلاثة: سابقون ومخلطون ومنهمكون. فالسابقون فائزون، والمخلطون راجون، والمنهمكون هالكون، إلا من تاب وعمل صالحا، فالسابقون هم الذين غلب إحسانهم على إساءتهم، وصفاؤهم على كدرهم، إن هفوا رجعوا قريبا، فقد تمر عليهم السنين الطويلة ولايكتب عليهم ملك الشمال شيئاً؛ وذلك ليقظتهم، لا لعصمتهم،

(١) أخرجه البيهقى في الدلائل (باب حديث أبى لبابة وأصحابه ٥/٢٧٢) وابن جرير فى التفسير (١١/١٠) عن ابن عباس - رضي الله عنه.
(٢) يتألى: يحلف. والألية: اليمين.. انظر النهاية (ألى ١/٦٢).
(٣) أخرجه مسلم فى (البر والصلة، باب النهى عن تقنيط الإنسان من رحمة الله) من حديث جُندب ـ رضى الله عنه.

والمخلطون هم الذين يكثر سقوطهم ورجوعهم، عسى الله أن يتوب عليهم. والمنهمكون هم المصرون على الفواحش، فإن سبقت لهم عناية رجعوا، وإن لم تسبق لهم عناية فهم معرضون لنقمة الله وحلمه. والله تعالى أعلم.

ولما تاب الله على المتخلفين، وأطلقهم رسول الله ﷺ من الوثاق، قالوا: يارسول الله، هذه أموالنا التى خلفتنا، خذها فتصدق بها وطهرنا، فقال عليه الصلاة السلام: «ما أُمِرْتُ أنْ آخذَ مِنْ أمْوالِكُمْ شيئاً» . فأنزل الله فى ذلك:

﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله، لنبيه ـ عليه الصلاة السلام ـ: ﴿ خذ من أموالهم ﴾ التى عرضوها عليك، ﴿ صدقةً ﴾، وهو الثلث، فأخذ عليه الصلاة السلام من أموالهم الثلث، وترك لهم الثلثين، أو: خذ من أموالهم صدقة، وهى الزكاة المفروضة، والضمير لجميع المسلمين. من صفة تلك الصدقة: ﴿ تُطَهِّرهم ﴾ أنت يا محمد بها من الذنوب، أو حب المال المؤدى بهم إلى البخل، الذى هو أقبح الذنوب. وقرئ بالجزم؛ جواب الأمر.

﴿ وتُزكِّيهم ﴾ أى: تنمى بها حسناتهم، أو ترفعهم ﴿ بها ﴾ إلى درجات المخلصين، ﴿ وَصَلِّ عليهم ﴾ أى: ترحم عليهم، وادع لهم بالرحمة، فكان عليه الصلاة السلام يقول لمن أتاه بصدقته :«اللهُمَّ صَلِّ عَلَى آلِ فُلاَنٍ» . فأتى أبو أوفى بصدقته فقال: «اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى آلِ أبِي أوْفَى»(١).

﴿ إن صلاتك سَكَنٌ لهم ﴾؛ تسكن إليها نفوسهم، وتطمئن بها قلوبهم، لتحققهم بقبول دعائه عليه الصلاة السلام. قال القشيرى: انتعاشهم بهِمَّتك معهم أتم من استقلالهم بأموالهم . هـ. وجمع الصلوات؛ لتعدد الموعد لهم، وقرأ الأخَوانِ وحفص بالتوحيد. ﴿ والله سميعٌ عليم ﴾ أى: سميع باعترافهم عليم بندامتهم.

﴿ ألمْ يعلموا أن الله هو يقبلُ التوبَة عن عباده ﴾ إذا صحت، والضمير إما للتوب عليهم، والمراد أن يُمكن فى قلوبهم قبول توبتهم والاعتداد بصدقتهم، أو لغيرهم، والمراد به التحضيض على التوبة، ﴿ و ﴾ أنه هو الذى ﴿ يأخذُ الصدقات ﴾؛ يقبلها قبول من يأخذ شيئاً ليؤدى بدله، ﴿ وأن الله هو التوابُ الرحيمُ ﴾ أى: من شأنه قبول توبة التائبين، والمتفضل عليهم بجوده وإحسانه.

---

(١) أخرجه البخارى فى (الزكاة، باب صلاة الإمام ودعائه لصاحب الصدقة) ومسلم فى (الزكاة، باب الدعاء لمن أتى بصدقته) من حديث عبدالله بن أبى أوفى.

الإشارة: أخذ المشايخ من أموال الفقراء سبب في غناهم، واتساع حالهم حساً ومعنى، وقد قالوا: إذا أراد الله أن يغني فقيرا سلط عليه ولياً يأخذ ماله، أو أمره شيخه بإعطاء ماله، فإن ذلك عنوان على غناه. وقد ذكر ذلك شيخ أشياخنا سيدى على الجمل العرانى فى كتابه. وقد رأيت فى مناقب شرفاء وزان: أن الشيخ مولاى التهامى أرسل إلى أخيه مولاى الطيب، وكان من خواص تلامذته، أن يدفع إليه جميع ماله ليصنع به كسوة للمرابطين، فأرسل له جميع ما يملك، حتى كسوة الدار وأثاث البيت، فكان ذلك سبباً فى فيضان ماله، فلا تجد مدينة ولا قبيلة إلا وفيها مِلْكٌ من أملاك مولاى الطيب، حتى إلى بلاد الجزائر وما والاها، وذلك بسبب تجارة شيخه له. والله تعالى أعلم.

ثم هدد أهل التخليط، فقال:

﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿وقل اعملوا﴾ ما شئتم من خير أو شر، ﴿فسيرى اللهُ عملكُم﴾؛ فإنه لا يخفى عليه؛ خيراً كان أو شرا، ﴿و﴾ سيرى ذلك أيضا ﴿رسولُه والمؤمنون﴾، فيظهر لهم ما يبدو منكم، فإن الطول يفضح صاحبه. ﴿وستُرَدُّون إلى عالم الغيب والشهادة﴾؛ بالموت، ﴿فيُنبئكم بما كنتم تعملون﴾؛ فيخبركم بما عملتم؛ بالمجازاة عليه.

الإشارة: كل من ظهر بدعوى أو تعرض لمقام من المقامات يقال له: (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون)، فإن كان أمره مبنياً على أساس الإخلاص والتقوى ثبت وانتهض، وشعشع نوره، وإن كان مبنياً على غير أساس، افتضح وكَسَف نوره، وسيرد الجميع إلى عالم الغيب والشهادة، فيجازى كلاًّ بعمله.

ثم نزل فى شأن الثلاثة الذين خُلِّفُوا قوله تعالى:

﴿ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ﴾

قلت: الإرجاء هو التأخر، يقال: أرجاه ـ بالهمز وتركه ـ: أخره.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وآخرون﴾ من المتخلفين، تخلفوا من غير عُذر، ولم يعتذروا بشيء، ﴿مُرْجَوْنَ﴾ أى: مؤخرون ﴿لأمرِ الله﴾ فى شأنهم؛ ﴿إما﴾ أن ﴿يُعذِّبهم﴾ على تخلفهم عن الجهاد مع

رسوله، ﴿ وإما ﴾ أن ﴿ يتوب عليهم ﴾ حيث تابوا وندموا، والترديد باعتبار العباد، وفيه دليل على أن كلا الأمرين بإرادته تعالى، ﴿ والله عليمٌ ﴾ بأحوالهم، ﴿ حكيم ﴾ فيما فعل بهم.

والمراد بهؤلاء الثلاثة: كَعْب بن مالك، وهِلال بن أمية، ومُرَارَة بن الربيع، أمر رسولُ الله ﷺ الناس ألا يُسلموا عليهم ولا يكلموهم، فلما رأوا ذلك أخلصوا نياتهم، وفوضوا أمرهم إلى الله، فرحمهم[1]، وسيأتي تمام قصتهم وتوبة الله عليهم بعدُ، إن شاء الله.

الإشارة: وآخرون مؤخرون عن صحبة المشايخ العارفين، حتى ماتوا مفروقين، إما أن يعذبهم على ما أصروا من المساوئ والذنوب، وإما أن يتوب عليهم بفضله وكرمه، إنه عليم لايخفى عليه ما أسروا، حكيم فيما قضى عليهم من أمر الحجاب بعدله وقضائه.

ثم ذكر أهل مسجد الضرار، فقال:

﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا
لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ
(١٠٧) لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ
رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ (١٠٨) أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ
عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ
بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠٩) لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً
فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١١٠) ﴾

قلت: قرأ نافع وابن عامر: بغير واو[2]؛ مبتدأ حذف خبره، أي: معذبون، أو في: (لاتقم فيه أبدا)، أو في قوله: (لايزال)، أو صفة لقوله: (وآخرون)، على من يقول: إن «المُرْجَوْن» غير الثلاثة المخلفين، بل في المنافقين الذين كانوا معرضين للتوبة مع بنيانهم مسجد الضرار. ومن قرأ بالواو فعطف على قوله: (آخرون)، أو مبتدأ حُذف

(١) أخرج قصتهم البخاري في (المغازي، باب حديث كعب بن مالك) ومسلم في (التوبة، باب حديث توبة كعب بن مالك) من حديث عبدالله بن كعب عن أبيه.

(٢) في قوله تعالى: ﴿والذين اتخذوا....﴾.

خبره، أي: وممن وصفنا: الذين، أو منصوب على الذم، و(ضراراً) وما بعده: علة، وأصل (هارٍ): هائر، فأخرت الهمزة، ثم قلبت ياء، ثم حذفت؛ لالتقاء الساكنين.

يقول الحق جل جلاله: ﴿و﴾ منهم ﴿الذين اتخذوا مسجداً ضِرَارًا وكُفراً﴾ أي: لأجل المضارة بالمؤمنين وللكفر الذي أسروه، وهو تعظيم أبي عامر الكافر، ﴿وتفريقا بين﴾ جماعة ﴿المؤمنين﴾ الذين كانوا يصلون في مسجد قباء.

رُوي أن بَنِي عَمْرِو بن عوف لَمَّا بَنَوا مسجد قُباء سألوا رسُولَ الله ﷺ أن يأتيهمْ فيصلي فيه، فأتاهُمْ فصلَّى فيه، فَحسَدَتهم إخْوانُهُم بنو غَنْم بن عوفٍ، فبنوا مسجداً على قصد أن يؤمهم فيه أبو عامر الراهب، إذا قدم من الشام، فلما أتموه أتوا رسول الله ﷺ، فقالوا: إنا قد بنينا مسجداً لذي الحاجة والعلة والليلة المطيرة، فصل لنا فيه حتى نتخذَهُ مصلىً، وكان ذلك قبل خروجه لتبوك، فقال لهم: «إني علَى جَنَاحِ سفَرٍ، وإذَا قَدِمْنَا، إنْ شَاءَ اللهُ، صلَّيْنَا فيـه» . فلما قـدم أتوه، فأخـذ ثوبه ليقوم معـهم، فنزلت الآية، فدعا مـالك بن الدُّخْشُم، ومَعْن بن عدي، وعامر بن السَّكَن، فقال: انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدموه وحرقوه؛ ففعلوا، واتخذوا مكانه كناسة(1) .

ثم أشار إلى قصدهم الفاسد، فقال: ﴿وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله﴾ أي: واتخذوه انتظاراً ليؤمهم فيه من حارب الله ورسوله، يعني: أبا عامر الراهب، فإنه قال لرسول الله ﷺ يوم أحد: لا أجد قوماً يقاتلونك إلاّ قاتلتك معهم، فلم يزل يقاتله إلى يوم حنين، فانهزم مع هوازن، ثم هرب إلى الشام؛ ليأتي من قيصر بجنود يحارب بهم رسول الله ﷺ، فمات بِقِنَّسْرِين(2) طريداً وحيداً. وكان أهل المدينة يسمونه قبل الهجرة: الراهب، فسماه رسول الله ﷺ الفاسق.

وقوله: ﴿من قبلُ﴾ : متعلق بحارب، أي: حارب من قبل هذا الوقت، أو باتخذوا، أي: اتخذوا مسجدا من قبل أن ينافق هؤلاء بالتخلف؛ لأنه قبيل غزوة تبوك. ﴿وليَحلِفُنَّ إن أردنا إلا الحسنى﴾ أي: ما أردنا ببنيانه إلا الخصلة الحسنى، وهي الصلاة والذكر والتوسعة على المسلمين. ﴿والله يشهدُ إنهم لكاذبون﴾ في حلفهم.

ثم نهاه عن الصلاة فيه فقال: ﴿لاتَقُمْ فيه أبداً﴾ للصلاة؛ إسعافاً لهم، ﴿لمسجدٌ أُسِّسَ على التقوى من أول يوم﴾ من أيام وجوده، ﴿أحقُّ أن تقومَ فيه﴾ أي: أولى بأن تصلي فيه، وهو مسجد قباء، أسسه رسول الله ﷺ في أيام مُقامه بقباء، حين هاجر من مكة، من الاثنين إلى الجمعة، وهذا أوفق للقصة. وقيل: مسجد الرسول ﷺ؛ لقول أبي سعيد: سألت رسول الله ﷺ عنه؟ فقال: «مَسْجِدُكُمْ هذَا؛ مَسْجِدُ المَدِينَةِ»(3) .

(1) انظر تفسير البغوي ٤/٩٣ ـ ٩٤ وأسباب النزول للواحدي (٢٦٤) .
(2) قنسرين: مدينة قريبة من حلب من جهة حمص.
(3) أخرجه مسلم في (الحج، باب بيان أن المسجد الذي أسس على التقوى هو مسجد النبي ﷺ بالمدينة).

﴿فيه رجال يُحبون أن يتطهروا﴾، كانوا يستنجون بالماء، ويجمعون بين الماء والحجر، أو يتطهرون من المعاصي والخصال المذمومة، طلباً لمرضات الله تعالى، أو من الجنابة، فلا ينامون عليها، ﴿والله يُحبّ المُطّهّرين﴾؛ يرضى عنهم، ويُدْنيهم من جنابه إدْناء المحب لحبيبه.

وقيل: لما نزَلَتْ مشى رسول الله ﷺ، ومعه المُهاجرُون، حتى وقف على باب مسجد قُبَاءَ، فإذا الأنصارُ جلوسٌ، فقال: «أمُؤْمنُون أنْتم؟ فَسكتُوا، فأعادها، فقال عُمر: إنهم مُؤْمنُونَ وأنَا معَهُم، فقال عليه الصلاة والسلام: أتَرْضَوْنَ بالقَضَاءِ؟ فقالوا: نعَمْ، قال: أتَصبِرُونَ على البَلاءِ؟ قالوا: نعم، قال: أتَشْكُرُونَ في الرَّخَاءِ؟ قالوا: نَعَمْ، فقال عليه الصلاة والسلام: مُؤْمِنُونَ وَرَبِّ الكَعْبَةِ. فَجلَس، ثُمَّ قال: يا مَعْشَرَ الأنْصارِ، إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ قد أثْنَى عليْكُمْ، فما الذي تَصنْعُونَ عند الوُضُوءِ وعِنْدَ الغائط؟ فقالوا: يارسول الله، نُتْبِعُ الغَائِطَ الأحْجَارَ الثَّلاثَةَ، ثم نُتْبِعُ الأحْجَارَ المَاءَ. فقال: ﴿رِجَالٌ يُحِبُّون أنْ يَتَطَهَّرُوا﴾»(١).

﴿أفمن أسَّسَ بُنْيانه على تقوى من الله ورضوان﴾؛ بأن قصد به وجه الله، وابتغاء مرضاته، فَحَسُنَت النية في أوله، ﴿خيرٌ أمْ منْ أسس بنيانه على﴾ قصد الرياء والمنافسة، فكأنه بنى على ﴿شفا﴾ أي: طرف ﴿جُرُف﴾: حفرة ﴿هَارٍ﴾ أي: واهٍ ضعيف، أشرف على السقوط، أو ساقط، ﴿فانهارَ به في نار جهنم﴾ أي: طاح في جهنم، وهذا ترشيح للمجاز، فإنه لما شبهه بالجرف وصفه بالانهيار، الذي هو من شأن الجرف، وقيل: إن ذلك حقيقة، وإنه سقط في جهنم، وإنه لم يزل يظهر الدخان في موضعه إلى قيام الساعة.

والاستفهام للتقرير، والذي أُسس على التقوى والرضوان: هو مسجد قباء، أو المدينة، على ما تقدم، والذي أسس على شفا جرف هارٍ هو مسجد الضرار، وتأسيس البناء على التقوى هو تحسين النية فيه، وقصد وجه الله، وإظهار شرعه، والتأسيس على شفا جرف هار هو فساد النية وقصد الرياء، والتفريق بين المؤمنين، وذلك على وجه الاستعارة والتشبيه البالغ. قاله ابن جزي. ﴿والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ إلى ما فيه صلاح ونجاة.

﴿لايزالُ بُنيانُهمُ﴾ أي: مبنيهم، مصدر بمعنى المفعول، ﴿الذي بَنَوْا رِيبَةً﴾ أي: شكاً ونفاقاً ﴿في قلوبهم﴾، والمعنى: أن بناءهم هذا لايزال سبب شكهم وتزايد نفاقهم، فإنه حملهم على ذلك، ثم لمَّا هدمه الرسول ﷺ رسخ ذلك في قلوبهم وازداد، بحيث لايزول رسمه من قلوبهم، ﴿إلا أن تَقَطَّعَ﴾ أي: تتقطع ﴿قلوبُهم﴾

---

(١) قال الحافظ ابن حجر في الكافي الشاف: لم أجده هكذا، وكأنه ملفق من حديثين، فإن صدر الحديث أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث ابن عباس إلى قوله (ورب الكعبة)، وروى بقيته ابن مردويه. انظر الفتح السماوي (٢/٧٠٤).

بالموت، بحيث لا يبقى لها قابلية الإدراك، أو لايزال بنيانهم ريبة، أى: شكاً فى الإسلام بسبب بنيانه، لاعتقادهم صواب فعلهم، أو غيظاً بسبب هدمه، ﴿ والله عليمٌ ﴾ بنياتهم، ﴿ حكيم ﴾ فيما أمر من هدم بنيانهم.

الإشارة: من اراد ان يؤسس بنيان اعماله واحواله على التقوى والرضوان، فليؤسسه على الإخلاص والنية الحسنة، ومتابعة السنة المحمدية، فإنها لا تنهدم ابداً، ومن اراد ان يؤسسها على شفا جرف هارٍ فليؤسسها على الرياء والسمعة، وقصد الكرامات وطلب الأعواض، فإنها تنهدم سريعاً ولا تدوم، فما كان لله دام واتصل، وما كان لغير الله انقطع وانفصل. وبالله التوفيق.

ثم ذكر كرامة أهل الإخلاص، فقال:

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ﴾

قلت: جملة (يقاتلون): حال من (المؤمنين)؛ بياناً للشراء، أو استئنافاً؛ لبيان ما لأجله الشراء، وقيل: «يقاتلون»: بمعنى الأمر، و(وعداً): مصدر لما دل عليه الشراء، فإنه فى معنى الوعد، أى: وعدهم وعداً حقاً لاخلف فيه.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسَهم وأموالَهم بأن لهم الجنة ﴾ أى: عوضهم فى بذل مُهجهم وأموالهم فى سبيله الجنة ونعيمها، ومن جملته: النظر إلى وجهه الكريم. قال بعضهم: فانظر.. ماأكرمه سبحانه، فإنَّ أنفسنا هو خلقها، وأموالنا هو رزقها، ثم وهبها لنا، ثم اشتراها منا بهذا الثمن الغالى، فإنها لصفقة رابحة. هـ.

ثم بيَّن وجه الشراء فقال: ﴿ يُقاتِلُون فى سبيل الله ﴾ لإعلاء كلمة الله، ﴿ فيَقتلون ﴾ الكفارَ، ﴿ ويُقتلون ﴾ شهداء فى سبيل الله. وقرأ الأَخَوَانِ بتقديم المبنى للمفعول؛ لأن الواو لا ترتب، وأنَّ فعل البعض قد يسند إلى الكل، أى: فيموت بعضهم ويجاهد الباقى. وعد ذلك لهم ﴿ وعداً عليه حقاً ﴾؛ لا خلف فيه، مذكوراً ذلك الوعد ﴿ فى التوراة والإنجيل والقرآن ﴾ أى: إن الله بيَّن فى الكتابين أنَّ الله اشترى من أمة محمد أنفسهم وأموالهم بالجنة،

كما بيَّنه في القرآن، أو كل أمة أمرت بالجهاد ووعدهم هذا الوعد. ﴿ومن أوْفَى بعهده من الله﴾؟ هو مبالغة في الإنجاز، أي: لاَ أحد أوفى منه بالعهد، ﴿فاستبشرُوا ببيعِكُم الذي بايعتم به﴾ أي: فافرحوا به غاية الفرح، فإنه أوجب لكم أعظم المطالب، كما قال: ﴿وذلك هو الفوزُ العظيم﴾. قال بعضهم: ناهيك من بيع، البائع فيه رب العلا، والثمن جنة المأوى، والواسطة محمد المصطفى ﷺ.

الإشارة: قد اشترى الحق جل جلاله منا أنفسنا وأموالنا بالجنة، فمن باع نفسه لله؛ بأن خالف هواها وخرق عوائدها، وسعى في طلب مولاها، عوضه جنة المعارف، معجلة، وزاده جنة الزخاف، مؤجلة. ومن باع ماله؛ بأن أنفقه في مرضاة الله، وبخل بنفسه، عوضه جنة الزخارف، مؤجلة.

قال في الإحياء ـ في باب الذكر وفضيلته ـ: وأنه يوجب الأنس والحب، فإذا حصل الأنس بذكر الله انقطع عن غير الله، وما سوى الله هو الذي يفارقه عند الموت، فلا يبقى معه في القبر أهل، ولا مال، ولا ولد، ولا ولاية، ولايبقى معه إلا ذكر الله، فإن كان في أنس به تمتع به، وتلذذ بانقطاع العوائق الصارفة عنه، إذ ضرورات الحاجات في الحياة تصد عن ذكر الله، ولا يبقى بعد الموت عائق، فكأنه خلّى بينه وبين محبوبه، فعظمت غبطته، وتخلص من السجن الذي كان ممنوعاً فيه، عما به أنسُه.

ثم قال: ولأجل شرف ذكر الله عظمت رتبة الشهادة؛ لأن المطلوب هو الخاتمة، ومعنى الخاتمة: وداع الدنيا كلها، والقدوم على الله، والقلب مستغرق بالله، منقطع العلائق عن غيره، والحاضرُ صفَّ القتال قد تجرد قلبه لله، وقطع طمعه من حياته، حباً لله وطمعاً في مرضاته، وحالة الشهيد توافق معنى قولك: (لا إله إلا الله)، فإنه لامقصود له سوى الله. هـ. فما يجده أهل التملق من لذيذ الحلاوة في مناجاتهم، وأهل الشهود في حال غيبتهم في محبوبهم، ليس هو من نعيم الدنيا، بل من نعيم الجنة، قدَّمه الله لأوليائه، وهو معنى جنة المعارف المعجلة؛ عوضاً لمن باع نفسه لله.

قال بعض العارفين: النفوس ثلاثة: نفس معيبة، لا يقع عليها بيع ولا شراء، وهي نفس الكافر، ونفس تحررت؛ لا يصح بيعها، وهي نفس الأنبياء والمرسلين، لأنها خُلقت مطهرة من البقايا، ونفس يصح بيعها وشراؤها، وهي نفس المؤمن، فإذا باعها لله، واشتراها الحق تعالى منه، وقع عليها التحرير، وذلك حين تتحرر من رقّ الأكوان، وتتخلص من بقايا الأثر.

وقال بعض أهل التحقيق: اشترى الله تعالى أعز الأشياء بأجل الأشياء، وإنما اشترى الأنفس دون القلوب؛ لأن القلب حر لا يقع عليه البيع؛ لأنه لله؛ فلا يباع ولا يشترى، أما سمعت قول رسول الله ﷺ: «القلبُ بيت الرب».

أي: لأنه محل مناجاته، ومعدن معرفته، وخزانة سره، فليس للشيطان عليه من سبيل. قال تعالى: ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾(١). وأما النفس فإنها مملوكة تباع وتشترى. هـ.

ثم بيّن أوصاف البائعين، فقال:

﴿ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ ﴾

قلت: (التائبون): خبر، أي: هم التائبون، أو مبتدأ حُذِفَ خبره، أي: التائبون في الجنة وإن لم يجاهدوا، لقوله تعالى: ﴿ وَكُلاًّ وَعَدَ اللهُ الحُسْنَى ﴾(٢)، أو خبره ما بعده، أي: التائبون عن الكفر، على الحقيقة، هم الجامعون لهذه الخصال.

يقول الحق جل جلاله، في وصف البائعين أنفسهم وأموالهم: هم ﴿ التائِبُونَ ﴾ عن الكفر والمعاصي والهفوات والغفلات، ﴿ العابدون ﴾ لله، مخلصين له الدين، ﴿ الحامدون ﴾ لله في السراء والضراء وعلى كل حال، ﴿ السائحون ﴾ أي: الصائمون، لقوله عليه الصلاة والسلام: «سِيَاحةُ أُمتِي الصوم»(٣)، شبه بها من حيث إنه يعوق عن الشهوات، أو لأنه رياضة نفسانية يتوصل بها إلى الاطلاع على خفايا الملكوت والجبروت. أو السائحون للجهاد، أو لطلب لعلم، أو لزيارة المشايخ والإخوان.

﴿ الراكعون الساجدُون ﴾ في الصلاة، ﴿ الآمِرُونَ بالمعروف ﴾ أي: بكل ما هو معروف محمود، كالإيمان والطاعة، ﴿ والناهُون عن المنكر ﴾ أي: كل ما هو منكر في الشرع، كالكفر والمعاصي، ﴿ والحافظون لحدود الله ﴾ أي: لكل ما حده الشارع وعينه من الحقائق والشرائع. قال البيضاوي: وعطف قوله: ﴿والناهون عن المنكر﴾ دون ما قبله؛ للدلالة على أنه بما عطف عليه في حكم خصلة واحدة؛ كأنه قال: الجامعون بين الوصفين، وعطف أيضًا قوله: ﴿والحافظون لحدود الله﴾؛ للتنبيه على أن ما قبله مفصل الفضائل، وهذا مجملها، وقيل:

(١) من الآية ٦٥ من سورة الإسراء.
(٢) من الآية ٩٥ من سورة النساء.
(٣) أخرجه ابن جرير في التفسير (١١/٣٥) موقوفاً على السيدة عائشة، بلفظ «سياحة هذه الأمة الصيام»، وأخرجه مرفوعاً، عن عبيد بن عمير، بلفظ: (سئل النبي ﷺ عن السائحين فقال: «هم الصائمون»).

للإيذان بأن التعداد قد تم بالسابع، من حيث إن السبعة هو العدد التام، والثامن ابتداء لعدد آخر معطوف عليه، ولذلك سمي واو الثمانية. هـ. بالمعنى.

﴿ وبشِّر المؤمنين ﴾ الموصوفين بهذه الفضائل، ووضع المؤمنين موضع ضميرهم؛ للتنبيه على أن إيمانهم دعاهم إلى ذلك، وأن المؤمن الكامل من كان كذلك، وحذف المبشر به؛ للتعظيم، كأنه قيل: وبشرهم بما يجل عن إحاطة الأفهام وتعبير الكلام. قاله البيضاوي.

الإشارة: قد جمعت هذه الآية معارج الترقي من البداية إلى النهاية، فأول المقامات: التوبة، فإذا تابت النفس ورجعت عن هواها قصدت السير إلى حضرة مولاها، فاشتغلت بالعبادة الظاهرة، التي هي عمل الشريعة، فإذا ظهر عليها أمارات التوفيق، ولاحت لها أنوار التحقيق، حمدت الله وشكرته؛ تقييداً لتلك النعمة، ثم تسيح فكرتها في ميادين الغيوب من الملكوت إلى الجبروت، ثم ترد إلى مراسم الشريعة، **إذ منتهى الكمال: التزام الشرائع،** فتركع وتسجد البشرية، أدباً في عالم الأشباح، ويركع القلب ويسجد في مسجد الحضرة في عالم الأرواح، فحينئذ تصلح للوعظ والتذكير، فتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر الظاهرِين؛ لأهل التشريع، والباطنيْن؛ لأهل التحقيق، فالأول يسمى وعظاً وتذكيراً، والثاني يسمى تربية وترقية، ولا يقبل ذلك إلا ممن وقف مع الحدود، ووفى بالعهود، فيبشر حينئذ بالسعادة العظمى والمقام الأسنا.

قال القشيري: قوله تعالى: ﴿ السائحون ﴾ أي: الصائمون، ولكن عن شهود غير الله، المُمْتنعون عن خدمة غير الله، المكتفون من الله بالله. ويقال: السائحون الذين يسيحون في الأرض على جهة الاعتبار؛ طلباً للاستبصار، ويسيحون بقلوبهم في مشارق الأرض ومغاربها؛ بالتفكُّر في جوانبها ومناكبها، والاستدلال بتغيُّرها على مُنْشِيها، والتحقق بحكَم خالقها بما يَرَوْنَ من الآيات التي فيها، ويسيحون بأسرارهم في الملكوت، فيجدون رَوْحَ الوصال، ويعيشون بنسيم الأُنْسِ؛ بالتحقيق بشهود الحق. انتهى.

وانظر الورتجبي؛ فقد جعل وصف الإيمان يحمل على التوبة، ثم التوبة الصادقة تستدعي العبادات والمجاهدات المؤدية للعبودية، فإذا تمت له نعمة العبودية اقتضت حمد الله تعالى، فيحمده تعالى معترفاً بعجزه عن القيام بحمده؛ كما في حديث: «أنْتَ كَمَا أثْنَيْتَ علَى نَفْسِكَ»(١)، ثم الحمد والذكر يقتضي حبس النفس عَنْ مألوفاتها حين عاين حمَى هلال جماله في سماء الإيقان. ألا ترى كيف قال عليه الصلاة والسلام: «صُومُوا لِرؤيتِهِ»،

(١) أخرجه مسلم في (الصلاة، باب: ما يقال في الركوع والسجود) من حديث السيدة عائشة ـ رضي الله عنها.

ولايكون فطره إلا على حلاوة مشاهدته لقوله: «وأَفْطِرُوا لِرُؤيتِهِ»، فالسائحون طيارون بقلوبهم في أقطار الغيب، وذلك يقتضى الخضوع بنعت الفناء عند مشاهدة العظمة، فيركع شوقاً لجماله، وخضوعاً لجلاله، وعند ركوعه وخضوعه تحيط به أنوار الصفات، فيسجد لكل الجهات؛ (فأينما تولوا فثم وجه الله)(١). وهذا السجود يقتضى الغربة، والغربة تقتضى المشاهدة، والمشاهدة تُصير شاهدها متصفاً بصفاتها، فمن وقع في نور أسماء الله وصفاته صار متصفاً بوصف الربوبية، متمكناً فى العبودية، فيحكم بحكم الله، ويعدل بعدل الله، فيصفهم الله بهذه النعوت، قال: (الآمرون بالمعروف) الداعون الخلق إلى الحق، والناهون لهم عن متابعة الشهوات، والحافظون لحدود الله، القائمون فى مقام العبودية بعد كشف صفات الربوبية لهم، فلا يتجاوزون عن حد العبودية، وإن ذاقوا طعم حلاوة الربوبية؛ لأنهم فى محل التمكين على أسوة مراتب النبى ﷺ، مع كماله، قال: «أنا العبد لا إله إلا الله». انتهى.

ثم نهى نبيه عن الاستغفار للمشركين، وينخرط فيهم من تخلف عن تبوك من المنافقين، فقال:

﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ما كان﴾ ينبغى ﴿للنبيِّ والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين﴾ الذين ماتوا على الشرك، ﴿ولو كانوا أُولي قُرْبى﴾ أى: من قرابتهم، ﴿من بعد ماتبيّن لهم أنهم أصحابُ الجحيم﴾؛ لموتهم على الشرك. رُوى أنه عليه الصلاة والسلام قال لأبى طالب، لما حضرته الوفاة: «قُلْ: لا إِلَهَ إِلا الله، كلمة أُحَاجُّ لَكَ بها عنْدِ الله». فأبى، فقال: «والله لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عنك»، فكان يستغفر له حتى نزلت الآية(٢). وقيل: إن النبى ﷺ استأذن ربه أن يستغفر لأمه، فنزلت، وقيل: إن المسلمين أرادوا أن يستغفروا لآبائهم، فنزلت، وفيه دليل على جواز الاستغفار لأحيائهم؛ إذ لم يتحقق أنهم أصحاب الجحيم، فإنه طلب توفيقهم للإيمان.

ثم رفع إيهام النقض باستغفار إبراهيم عليه السلام لأبيه الكافر، فقال: ﴿وما كان استغفارُ إبراهيمَ لأبيه إلا عن موعدةٍ وعدها إياه﴾، وقيل: إنه ﷺ قال فى شأن عمه: «لأستغفرن لك، كما استغفر إبراهيم لأبيه»، فنزلت:

---

(١) من الآية ١١٥ من سورة البقرة.

(٢) أخرجه البخارى فى (مناقب الأنصار، باب: قصة أبى طالب) ومسلم فى (الإيمان، باب: الدليل على صحة إسلام من حضره الموت).

﴿وما كان استغفار إبراهيم لأبيه﴾. والموعدة التي وعدها إياه قوله: ﴿لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾(١). أي: لأطلبن المغفرة لك بالتوفيق للإيمان، فإنه يجب ما قبله.

والمعنى: لا حجة لكم في استغفار إبراهيم لأبيه، فإن ذلك لم يكن إلا لوعد تقدم بقوله: ﴿لأستغفرن لك..﴾ إلخ. ﴿فلما تبيَّنَ له أنه عدوٌّ لله﴾؛ بأن مات على الكفر، أو أوحى إليه بأنه لن يؤمن، ﴿تبرأ منه﴾؛ بأن قطع استغفاره له، ﴿إن إبراهيم لأواهٌ﴾ أي: لكثير التأوه، وهو كناية عن فرط ترحمه، أو كثير الدعاء، أو مؤمن، أو فقيه، أو كثير الذكر لله، أو كثير التأوه من خوف الله، ﴿حليمٌ﴾؛ صبور على الأذى، والجملة: لبيان ما حمله على الاستغفار.

الإشارة: الشفاعة لاتكون فيمن تحقق غضب الله عليه، فإن ذلك من سوء الأدب، كالدعاء بالمحال، وأما من لم يتحقق غضبه عليه فالشفاعة فيه مرغب فيها. قال عليه الصلاة والسلام: «اشْفَعُوا تُؤْجَرُوا»(٢)، والاستغفار شفاعة. وقد ورد في الخبر: «مَن اسْتَغْفَرَ لِلمُؤْمِنِينَ والمُؤْمِنَاتِ خَمْساً وعِشْرِين مَرَّةً كُتِبَ مِن الأَبْدَالِ».

والشفقة مطلوبة، مالم يظهر مراد الله من خلقه، فإن برز من عنصر القدرة شيء من القهريات، فالتسليم لمراده تعالى أحسن، فالله أرحم بعباده منك أيها الشفيق، وسيأتي عند قوله تعالى: ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾(٣)، وبالله التوفيق.

ثم عذَر نبيه في استغفاره لعمه قبل النهي، أو من استغفر من المسلمين لأسلافهم المشركين، فقال:

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١١٥) إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ يُحْيِي وَيُمِيتُ ۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (١١٦)﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿وما كان الله ليضل قوماً﴾؛ أي: يسميهم ضلالاً، ويؤاخذهم مؤاخذتهم، ﴿بعد إذ هداهم﴾ للإسلام، ﴿حتى يبين لهم ما يتقونَ﴾ أي: حتى يُبين لهم خطر ما يجب اتقاؤه، فإن خالفوا بعد

(١) من الآية ٤ من سورة الممتحنة.
(٢) أخرجه البخاري في (الأدب، باب: تعاون المؤمنين) ومسلم في (البر والصلة، باب: استحباب الشفاعة) من حديث أبي موسى الأشعري، وبقية الحديث: (ويقضي الله على لسان نبيه ما شاء).
(٣) الآية ٧٦ من سورة هود.

البيان، أضلهم وآخذهم إن لم يتوبوا. قال البيضاوي: وكأنه بيان عذر الرسول في قوله لعمه: «لأستغفرن لك»، ولمن استغفر لأسلافه المشركين قبل المنع. وقيل: إنه في قوم مضوا على الأمر الأول في القبلة والخمر، ولم يعلموا بالنسخ والمنع. وفي الجملة: دليل على أن الغافل غير مكلف. هـ. وقال ابن جزي: نزلت في قوم من المسلمين استغفروا للمشركين من غير إذن، فخافوا على أنفسهم من ذلك، فنزلت الآية تأنيساً لهم، أي: ما كان الله ليؤاخذكم بذلك قبل أن يُبيِّن لكم المنع من ذلك. هـ. ﴿ إن الله بكل شيءٍ عليمٌ ﴾؛ فيعلم أمرهم قبل النهي وبعده.

﴿ إن اللهَ له ملكُ السمواتِ والأرضِ ﴾، يتصرف فيهما وفي ساكنهما كيف يشاء، ﴿ يُحيي ﴾ من يريد إبرازه لعالم الشهادة، ﴿ ويُميت ﴾ من يريد رده لعالم الغيب، أو يحيي قلوباً بالإيمان والمعرفة، ويميت قلوباً بالكفر والغفلة. ﴿ وما لكم من دون الله من وليٍ ولا نصير ﴾.

قال البيضاوي: لمّا منعهم من الاستغفار للمشركين، ولو كانوا أولي قربى، وتضمن ذلك وجوب التبري منهم رأساً، بيّن لهم أن الله تعالى مالك كل موجود، ومتولي أمره والغالب عليه، ولايتأتى لهم ولاية ولانصرة إلا منه، ليتوجهوا إليه ويتبرؤوا مما عداه، حتى لايبقى لهم مقصود فيما يأتون ويذرون سواه. هـ.

الإشارة: وما كان الله ليضل قوماً عن السير إلى حضرته، أو الترقي في العلوم والمعارف بعد الوصول، حتى يُبين لهم مايتقون من سوء الأدب على لسان الشارع أو المشايخ، فإذا تبين لهم ذلك ثم ارتكبوه وأصروا عليه، أضلهم، وأتلفهم عن الوصول إلى حضرة قدسه، فإنّ كل طاعة وحسن أدب يقرب من الحضرة، وكل معصية وسوء أدب يبعد عن الحضرة، وقد قالوا: من أساء الأدب على البساط، طُرد إلى الباب، ومن أساء الأدب في الباب، طُرد إلى سياسة الدواب. وبالله التوفيق.

ثم ذكر توبته على الثلاثة المُرجوْن، فقال:

﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَـٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾

قلت: في «كاد» ضمير الشأن، أو يرتفع بها قلوبُ.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ لقد تابَ اللهُ على النبيِّ ﴾ أي: برأه وطهره من الذنوب، كقوله: ﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾(١)، ﴿ و ﴾ تاب على ﴿ المهاجرين والأنصارِ ﴾ مما عسى أن يكون ارتكبوه؛ إذ لا يخلو العبد من ذنب أو عيب. وقيل: هو حض على التوبة، وإظهار لفضلها، بأنها مقام الأنبياء والصالحين. وقيل: تاب عليهم من نقص المقامات التي ترقوا عنها، إلى ما هو أكمل منها، فما من أحد إلا وله مقام يستنقص بالنسبة إلى ما فوقه.

وقال الشيخ أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه: ذَكَرَ توبة من لم يذنب؛ لئلا يستوحش من أذنب، لأنه ذكر النبي ﷺ، والمهاجرين والأنصار، ولم يذنبوا، ثم قال: ﴿ وعلى الثلاثة الذين خُلِّفُوا ﴾، فذكر من لم يذنب؛ ليُؤنس من قد أذنب، فلو قال أولاً: لقد تاب على الثلاثة لتفطرت أكبادهم. هـ.

ثم وصفهم بقوله: ﴿ الذين اتبعُوه في ساعة العُسْرَة ﴾، يعني: حين محاولة غزوة تبوك. والساعة هنا بمعنى الحين والوقت، والعسرة: الشدة والضيق، أي: الذين خرجوا معه وقت العُسْرة والضيق، فقد كانوا في عسرة الظّهر، يعتقب العشرة على بعير واحد، وفي عسرة الزاد؛ حتى قيل: إن الرجلين كانا يقتسمان تمرة واحدة. ﴿ من بعد ما كادَ يَزِيغُ قلوبُ فريقٍ منهم ﴾ عن الثبات على الإيمان، أو عن اتباع الرسول ﷺ، لِما رأوا من الشدة والضيق وشدة الحر، ﴿ ثم تاب عليهم ﴾؛ كرره للتأكيد، وللتنبيه على أنه تاب عليهم لأجل ما كابدوا من العسر، ﴿ إنه بهم رؤوف رحيم ﴾؛ حيث قَبِلَهُم، وتاب عليهم، وتاب على الثلاثة، وهم: كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومُرارة بن الربيع، تخلفوا عن غزوة تبوك من غير عذر ولا نفاق، ولاقصد للمخالفة، فلما رجع رسول الله ﷺ عتب عليهم، وأمر الناس ألا يكلموهم، وأن يعتزلوا نساءهم، فبقوا على ذلك خمسين ليلة، ثم أنزل الله توبتهم. وقد وقع حديثهم في البخاري ومسلم(٢) وكتب السير.

ومعنى قوله: ﴿ الذين خُلِّفُوا ﴾ أي: تخلفوا عن الغزو. وقال كعب بن مالك: خلفوا عن قبول العذر، وليس بالتخلف عن الغزو، ويقوي ذلك كونه جعل: ﴿ حتى إذا ضاقتْ عليهم الأرضُ ﴾ غاية للتخلف، أي: خلفوا عن قبول العذر، وأخروا ﴿ حتى إذا ضاقت عليهم الأرضُ بما رَحُبَتْ ﴾ أي: برحبها وسعتها، وذلك لإعراض الناس

(١) من الآية ٢ من سورة الفتح.
(٢) انظر البخاري في (تفسير سورة التوبة، باب: قوله تعالى: (وعلى الثلاثة الين خُلِّفوا..) ، ومسلم في (التوبة، حديث توبة كعب ابن مالك وصاحبيه) .

عنهم بالكلية، وهو مثل لشدة الحيرة. ﴿ وضاقتْ عليهم أنفُسُهم ﴾؛ من فرط الوحشة والغم، ﴿ وظنّوا ﴾ أى: علموا ﴿ أن لا ملجأ مِنَ الله ﴾ أى: من سخطه ﴿ إلا إليه ﴾ أى: إلا إلى استغفاره والرجوع إليه، ﴿ ثم تاب عليهم ﴾؛ بالتوفيق بالتوبة، ﴿ ليتوبوا ﴾ بإظهارها والدوام عليها، وليعدّوا من التوابين، ﴿ إن الله هو التوابُ ﴾ لمن تاب، ولو عادوا فى اليوم سبعين مرة، ﴿ الرحيمُ ﴾؛ متفضل عليهم بالنعم التى لا تحصى.

الإشارة: قال الورتجبى: التوبة توبتان: توبة العبد، وتوبة الله، توبة العبد: الرجوع من الزلات إلى الطاعات، وتوبة الله: رجوعه إلى العبد بنعت الوصال، وفتح باب المآب، وكشف النقاب عن الاحتجاب، وطلب العتاب.

إذا مَرِضْنَا أتَيْنَاكُمْ نَعُودُكُمُ وتذنبون فنأتيكم ونعتذرُ.

انظر لطف الله بنبيه وأصحابه، كيف تاب لأجلهم مكان توبتهم، رجع إليهم قبل رجوعهم إليه، ليسهل عليهم طريق الرجوع إليه، فرجوعه إلى نبيه بكشف المشاهدة، ورجوعه إليهم بكشف القربة، فتوبته للنبى ﷺ من غيبته عن المشاهدة؛ باشتغاله بأداء الرسالة، وتوبة القوم من غيبتهم عن ملاحظة الحضرة، فلما ذاقوا طعم الجنايات، واحتجبوا عن المشاهدات؛ أدركهم فيض الوصال، وانكشف لهم أنوار الجمال، وهكذا سنة الله فى الأنبياء والأولياء، إذا ذابوا فى مقام الامتحان، وبقوا فى الحجاب عن مشاهدة الرحمن، تمطر عليهم وبل سحاب الكرم، ويلمع لأبصار أسرارهم نور شرف القدم؛ فيؤنسهم بعد إياسهم، ويوصلهم بعد قنوطهم. قال تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِى يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا ﴾(١)، وقال تعالى: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ... ﴾ الآية(٢). ثم قال عن بعضهم: توبة الأنبياء فى مشاهدة الخلق فى وقت الإبلاغ؛ إذ الأنبياء لا يغيبون عن الحضرة، بل لا يحضرون فى مواضع الغيبة؛ لأنهم فى عين الجمع أبدا. هـ.

قال المحشي: وحاصله: توبة الله المذكورة وَهْبِيَّةٌ، وهى فى كل أحد على حسب ما يليق بمقامه، وإنما يليق بمقام الرسل ترقيته عن مقام إلى أعلى، أو من شعور بخلق؛ لأجل الإبلاغ، إلى الغيبة عن ذلك، وكذلك أبداً كأهل الجنة. هـ.

ثم حضّ على الصدق، فقال:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ١١٩ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ﴾؛ بالمحافظة على ما أمركم به، والانكفاف عما نهاكم عنه، ﴿ وكونوا مع الصادقين ﴾ فى إيمانهم وأقوالهم وأفعالهم وعهودهم.

---

(١) الآية ٢٨ من سورة الشورى. (٢) الآية ١١٠ من سورة يوسف.

قال ابن جزي: ويحتمل أن يريد به صدق اللسان؛ إذ كان هؤلاء قد صدقوا ولم يعتذروا بالكذب، فنفعهم الله بذلك، ويحتمل أن يريد أعم من صدق اللسان؛ وهو الصدق في الأقوال والأعمال والمقاصد والعزائم، والمراد بالصادقين: المهاجرين، لقوله في الحشر: ﴿ للفقراء المهاجرين.... ﴾ : إلى قوله ﴿ وأولئك هم الصادقون ﴾(١). وقد احتج بها أبو بكر الصديق على الأنصار يوم السقيفة، فقال: (نحن الصادقون، وقد أمركم الله أن تكونوا معنا)؛ أي: تابعين لنا. هـ. زاد السهيلي: ولمّا استحق الصادقون أن تكون الخلافة فيهم، استحق الصِّدِّيقُ أن تكون الخلافة له، مادام حيا؛ إذ كان صديقاً. هـ.

الإشارة: الصدق سيف حازم، ما وضع على شيء إلا قطعه. ويكون في الأقوال، وهو صيانتها من الكذب، ولو أدى إلى التلف. وفي الأفعال، وهو صيانتها من الرياء وطلب العوض. وفي الأحوال، وهو تصفيتها من قصد فاسد، كطلب الشهرة، أو إدراك مقام من المقامات، أو ظهور كرامات، أو غير ذلك من المقاصد الدنية. قال القشيري: الصادقون هم السابقون الأولون، كأبي بكر وعمر وغيرهما، والصدق: استواء السِّرِّ والعلانية، وهو عزيز، وكما يكون في الأقوال يكون في الأحوال، وهو أتم. هـ.

ثم عاتب الحق تعالى أهل المدينة ومن جاورها على التخلف عن الغزو، فقال:

﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١٢٠) وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢١) ﴾

قلت: (ولا يرغبوا): منصوب بالعطف، أو مجزوم بالنهي، والوادي: أصله: فاعل، من وَدِيَ، إذا سال، وهو منقوص، وهو في اللغة: كل منفرج بين جبال وآكام يكون منفذاً للسيل.

(١) الآية ٨ من سورة الحشر.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ما كان﴾ يصح ﴿لأهل المدينة﴾، ولا لمن ﴿حولهم من الأعراب، أن يتخلفوا عن رسول الله﴾ فى غزوة ولا سرية ولا غيرهما، وهو نهى بصيغة النفى؛ للمبالغة. ﴿ولا﴾ ينبغى لهم أن ﴿يَرْغَبُوا بأنفسهم عن نفسه﴾؛ بأن يصونوها من اقتحام المشقات والمتاعب التى تحملها نبى الله ﷺ، حيث قعدوا عنه، ولم يكابدوا معه ما كابده من الأهوال.

رُوى أن أبا خَيْثمة دخل بستانه، بعد خروجه -عليه الصلاة والسلام- لتبوك، وكانت له امرأة حسناء، فرشت له فى الظل، وبسطت له الحصير، وقربت إليه الرطب والماء البارد، فنظر فقال: ظِلّ ظَلِيلٌ، ورطب يانع، وماء بارد، وامرأة حسناء، ورسول الله ﷺ فى الضِّحِّ[1] والريح، ما هذا بخير، فقام، فرحل ناقته، وأخذ سيفه ورمحه، ومر كالريح، فمدّ رسول الله ﷺ طرفه إلى الطريق، فإذا براكب يقطع السراب، فقال: كن أبا خيثمة، فكانهُ[2]، ففرح به رسول الله ﷺ، واستغفر له[3].

ثم علل النهى بقوله: ﴿ذلك﴾؛ إشارة إلى النهى عن التخلف المفهوم من الكلام، ﴿بأنهم﴾؛ أى: بسبب أنهم ﴿لايُصيبهم﴾ فى سفرهم ﴿ظَمَأٌ﴾ من حر العطش، أو عطش، ﴿ولا نَصَبٌ﴾؛ تعب، ﴿ولامَخمَصةٌ﴾؛ مجاعة، ﴿فى سبيل الله﴾، ﴿ولا يطئون﴾ يدوسون بأرجلهم أو بدوابهم ﴿مَوْطئًا﴾؛ مكاناً ﴿يغيظ الكفار﴾ أى: يغيظهم ذلك الوطء، ﴿ولا ينالون من عدو نيلاً﴾؛ كالقتل، والأسر، والنصب، وكل ما ينكبهم، ﴿إلا كُتب لهم به عملٌ صالحٌ﴾، أى: إلا استوجبوا به ثواباً جزيلاً. وذلك مما يوجب النهوض إلى الغزو معه ﷺ؛ فإن ﴿الله لا يُضيع أجرَ المحسنين﴾ على إحسانهم. وهوتعليل لقوله: ﴿إلا كتب لهم..﴾ الخ.

وفيه تنبيه على أن الجهاد إحسان، أما فى حق الكفار؛ فلأنه سعى فى تكميلهم بأقصى ما يمكن، كضرب المُداوى للمجنون، وأما فى حق المؤمنين؛ فلأنه صيانة لهم عن سطوة الكفار واستيلائهم على الإسلام. قاله البيضاوى.

﴿ولا يُنفقون نفقةً صغيرةً﴾ فى أمر الجهاد، ولو علاقة سيف، ﴿ولا كبيرةً﴾؛ مثل ما أنفق عثمان رضي الله عنه فى جيش العسرة، ﴿ولا يقطعُون وادياً﴾ فى سيرهم، وهو كل منفرج ينفذ فيه السيل، ﴿إلا كُتبَ لهم﴾ ذلك، ولم يضعْ منه شيء، ﴿ليجزيَهمُ اللهُ﴾ بذلك ﴿أحسنَ ما كانوا يعملون﴾، أى: جزاء أحسن أعمالهم، أو أحسن جزاء أعمالهم. قاله البيضاوى.

---

(١) الضِّح: بالكسر: ضوء الشمس إذا استمكن من الأرض... راجع النهاية ٨٧.

(٢) أى: فكان هو.

(٣) أخرجه بنحوه البيهقى فى الدلائل (باب لحوق أبى ذر وأبى خيثمة برسول الله ﷺ بعد خروجه). وانظر الفتح السماوى (٢/٧٠٧ ـ ٧٠٨).

الإشارة: لا ينبغي للفقراء أن يتخلفوا عن أشياخهم إذا سافروا لحج أو غزو أو تذكير أو زيارة، ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه، فيقعدون في الراحة والدعة؛ وشيخهم في التعب والنصب،؛ لأن مايصيبهم من مشاق السفر زيادة في ترقيهم ومعرفتهم، وتقوية لمعانيهم، إلى غير ذلك من فوائد السفر، فهو في حق السائرين أمر مؤكد، فكلما سار البدن في عالم الشهادة سار القلب في عالم الغيب، كما هو مجرب. والله تعالى أعلم.

ولما ذمّ الله تعالى من تخلف عن تبوك، ووسمه بالنفاق، لم يقدر أحد بعد ذلك على التخلف، فخفف عنهم بقوله:

﴿ ۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿وما كان المؤمنون﴾ يستقيم لهم أن ينفروا ﴿كافة﴾؛ جميعاً لنحو غزو، أو طلب علم، كما لا يستقيم لهم أن يقعدوا جميعاً، فإنه يخل، ويوهن للإسلام. قال ابن عباس: هذه الآية في البعوث إلى الغزو والسرايا، أي: لا ينبغي خروج جميع المؤمنين في السرايا، وإنما يجب ذلك إذا خرج رسول الله ﷺ بنفسه، ولذلك عاتبهم في الآية المتقدمة على التخلف عنه. فالآية الأولى في الخروج معه ﷺ، وهذه في السرايا التي كان يبعثها، وقيل: هي ناسخة لكل ماورد من الأمر بخروج الجميع، فهي دليل على أن الجهاد فرض كفاية.

﴿فلولا﴾: فهلا ﴿نَفَرَ من كل فرقة﴾؛ جماعة كبيرة، كقبيلة أو بلدة، ﴿طائفة﴾ قليلة منها؛ ﴿ليتفقّهوا في الدين﴾، أما إذا خرجوا للغزو؛ فإنه لا يخلو الجيش من عالم أو عارف يتفقهون، مع أن مشاق السفر تشحذ الأذهان، وترقق البشرية، فتستفيد الروح حينئذ علوماً لدنية، وأسراراً ربانية، من غير تعلم، وهذا هو العلم الذي يصلح للإنذار.

قال في الإحياء: التفقه: الفقه عن الله؛ بإدراك جلاله وعظمته، وهو العلم الذي يورث الخوف والخشية والهيبة والخشوع، ويحمل على التقوى وملازمتها، وهذا مقتضى الآية. فإن معرفة صفاته تعالى المخوفة والمرجوة هو الذي يحصل به الإنذار، لا الفقه المصطلح عليه. هـ. وأما إذا وقع الخروج لطلب العلم فالتفقه ظاهر.

ثم قال تعالى: ﴿ولِيُنذِرُوا قومَهم إذا رجعوا إليهم﴾، أي: وليجعلوا غاية سعيهم ومُعظم غرضهم من التفقه إرشاد القوم وإنذارهم. وتخصيصه بالذكر؛ لأنه أهم، وفيه دليل على أن التفقه والتذكير من فروض الكفاية، وأنه ينبغي أن يكون غرض المتعلم فيه أن يستقيم ويقيم، لا الترفع على الناس والتبسط في البلاد. قاله البيضاوي. وقوله: ﴿لعلهم يَحذَرُون﴾، أي: لعلهم يخافون مما حُذِروا منه.

قال البيضاوى: وقد قيل: للآية معنى آخر، وهو أنه لما نزل فى المتخلفين مانزل؛ تسابق المؤمنون إلى النفير، وانقطعوا عن التفقه، فأُمروا أن ينفر من كل فرقة طائفة إلى الجهاد، ويبقى أعقابهم يتفقهون، حتى لا ينقطع التفقه الذى هو الجهاد الأكبر؛ لأن الجدال بالحجة هو الأصل، والمقصود من البعثة، فيكون الضمير فى ﴿ ليتفقهوا ﴾، و﴿ لينذروا ﴾: للفرق البواقى بعد الطوائف النافرة للغزو، وفى ﴿ رجعوا ﴾: للطوائف النافرة، أى: ولينذروا البواقى من قومهم النافرين إذا رجعوا إليهم بما حصّلوا أيام غيبتهم من العلوم. هـ. وتقدير الآية على هذا: فلولا نفر من كل فرقةٍ طائفةٌ، وجلس طائفة ليتفقهوا فى الدين، ولينذروا قومهم الخارجين للغزو إذا رجعوا إليهم من غزوهم. والله تعالى أعلم.

الإشارة: قال القشيرى: لو اشتغل الكُلُّ بالتَّفَقُّه فى الدِّين لتعطَّل عليهم المعاش، ولمنعهم الكافر عن درك المطلوب، فجعل ذلك فرضاً على الكفاية. ويقال: المسلمون على مراتب: فعوامُّهم كالرعية للملِك؛ وكَتَبَةُ الحديث كخزنة الملِك. وأهلُ القرآن كحفّاظ الدفاتر ونفائس الأموال. والفقهاء بمنزلة الوكلاء؛ إذ الفقيه يوقّع الحكم عن الله. وعلماءُ الأصول كالقُوّادِ وأمراء الجيوش. والأولياءُ كأركان الباب. وأربابُ القلوب وأصحابُ الصفاء كخواص الملِك وجُلّسائه. فشغل قوماً بحفظ أركان الشرع، وآخرين بإمضاء الأحكام، وآخرين بالردّ على المخالفين، وآخرين بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وجعل قوماً مُفْرَدِين لحضور القلب؛ وهم أصحاب الشهود، ليس لهم شُغْلٌ، يراعون مع الله أنفاسَهم، وهم أصحاب الفراغ، لايستفزُّهم طلبٌ، ولا يهزُّهم أمر، فهم بالله لله، بمحو ما سِوى الله، وأمّا الذين يتفقهون فى الدِّين فهم الداعون إلى الله، وإنما يفهم الخلق عن الله بمَنْ كان يفْهَمُ عن الله. هـ.

قوله: وأما الذين يتفقهون.. إلخ، الداعون إلى الله على الحقيقة هم العارفون بالله، وهم أصحاب الشهود، الذين وصفهم قبل، وأما الفقهاء فى الدِّين فإنما يدعون إلى أحكام الله، وتعلم دينه دون معرفة ذاته وصفاته؛ فدعواهم ضعيفة التأثير، فلا ينهض على أيديهم ما ينهض على أيدى العارفين.

وقال الورتجبى، فى قوله تعالى: (ليتفقهوا فى الدين): قال المرتعش: السياحة والأسفار على ضربين: سياحة لتعلم أحكام الدين وأساس الشريعة، وسياحة لآداب العبودية ورياضة الأنفس، فمن رجع عن سياحة الأحكام قام بلسانه يدعو الخلق إلى ربه، ومن رجع من سياحة الأدب والرياضة قام فى الخلق يهديهم لأخلاقه وشمائله. وسياحة هى سياحة الحق، وهى رؤية أهل الحق والتأدب بآدابهم، فهذا بركته تعم البلاد والعباد. هـ.

ثم أمر بجهاد الأقرب فالأقرب، فقال:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿يا أيها الذين آمنو قاتلوا الذين يلونكم من الكفار﴾، أي: جاهدوا الأقرب فالأقرب بالتدريج، كما أمر رسوله ﷺ بإنذار عشيرته الأقربين، فإن الأقرب أحق بالشفقة والاستصلاح. وقيل: هم يهود حوالي المدينة، كقريظه والنضير وخيبر، وقيل: الروم بالشام؛ وهو قريب من المدينة، وكانت أرض العرب قد عمها الإسلام، وكانت العراق حينئذ بعيدة. ﴿وليجدوا فيكم غِلْظَة﴾؛ شدة وصبراً على قتالهم، ﴿واعلموا أن الله مع المتقين﴾ بالإعانة والنصر والحراسة.

الإشارة: ينبغي لأهل الوعظ والتذكير أن يبدأوا بالأقرب فالأقرب على التدريج، قال الرفاعي رضي الله عنه: إذا أراد الله أن يرقى عبداً إلى مقامات الرجال؛ كلفه بأمر نفسه أولاً، فإذا أدب نفسه واستقامت معه، كلفه بأهله؛ فإن أحسن إليهم وساسهم، كلفه بأهل بلده، فإن أحسن إليهم وساسهم، كلفه جهةً من البلاد، فإن هو نصحهم، وساسهم، وأصلح سريرته مع الله، كلفه رتبة ما بين السماء والأرض، فإن لله خلقاً لا يعلمهم إلا الله، ثم لا يزال يرتفع من سماء إلى سماء حتى يرتفع ويصل إلى محل القطب الغوث، وهناك يطلعه الله على بعض غيبه. انتهى.

والغلظة التي تكون في المذكر، إذا رأى منكراً، أو ذُكر له وأراد النهي عنه. وأما في الترغيب والإرشاد فينبغي أن يُغلب جانب اللطافة واللين. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر حال المنافقين عند نزول الوحي، لأن السورة جُلها في فضيحتهم، فقال:

﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا ۚ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿١٢٥﴾ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا ۚ صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وإذا ما أُنزلت سورةٌ ﴾ من القرآن، ﴿ فمنهم ﴾؛ فمن المنافقين ﴿ من يقولُ ﴾؛ إنكاراً واستهزاءً: ﴿ أيُّكم زادتْهُ هذه ﴾ السورة ﴿ إيماناً ﴾، كما يزعم أصحاب محمد: أن القرآن يزيدهم إيماناً، فلا زيادة فيه، ولا دليل أنه من عند الله. قال تعالى في الرد عليهم: ﴿ فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً ﴾؛ لتنوير قلوبهم، وصفاء سرائرهم، فتزيدهم إيماناً وعلماً؛ لما فيها من الإنذار والإخبار، ولانضمام الإيمان بها وبما فيها إلى إيمانهم، ﴿ وهم يستبشرون ﴾ بنزولها؛ لأنها سبب لزيادة إيمانهم، وارتفاع درجاتهم، بخلاف قلوب المنافقين؛ فلظلمانيتها وخوضها لم تزدهم إلا خوضا، كما قال تعالى:

﴿ وأما الذين في قلوبهم مرض ﴾؛ كفر وشك، ﴿ فزادتهم رجْساً إلى رِجْسِهِمْ ﴾ أي: كفراً بها، مضموماً إلى الكفر بغيرها، الذي كان حاصلاً فيهم، ﴿ وماتوا وهم كافرون ﴾ أي: وتحكم ذلك في قلوبهم حتى ماتوا عليه.

﴿ أوَ لاَ يَرَوْنَ ﴾ أي: المنافقون، ﴿ أنهم يُفتَنُون ﴾ أي: يُبتلون ويُختبرون بأصناف البليات، كالأمراض والجوع، أو بالجهاد مع رسول الله ﷺ، فيعاينون ما يظهر عليه من الآيات، أو يفضحون بكشف سرائرهم. يفعل ذلك بهم ﴿ في كل عامٍ مرةً أو مرتين، ثم لا يتوبون ﴾: لا ينتهون من نفاقهم وكفرهم، ﴿ ولا هم يذَّكَّرون ﴾؛ يعتبرون.

﴿ وإذا ما أُنزلت سورةٌ نظر بعضُهم إلى بعضٍ ﴾، يريدون الهرب، يقولون: ﴿ هل يراكم من أحدٍ ﴾ إذا قمتم، فإن لم يرهم أحد قاموا وانصرفوا. **قال البيضاوي**: تغامزوا بالعيوب، إنكاراً لها وسخرية، أو غيظاً؛ لما فيها من عيوبهم. هـ. **قال ابن عطية**: المعنى: إذا ما أنزلت سورة فيها فضيحتهم، نظر بعضهم إلى بعض على جهة التقرير، يفْهم من تلك النظرة: التقرير: هل معكم من ينقل عنكم؟ هل يراكم من أحد حين تدبرون أمركم؟ وقوله: ﴿ ثم انصَرَفُوا ﴾، أي: عن طريق الاهتداء، وذلك أنهم حينما بيّن لهم كشف أسرارهم، يقع لهم ـ لا محالة ـ تعجب وتوقف ونظر، فلو اهتدوا لكان ذلك الوقت مظنة لهم، فهم، إذ يصممون على الكفر، ويرتبكون فيه، كأنهم انصرفوا عن تلك الحال، التي كانت مظنة النظر الصحيح والاهتداء. هـ.

والتحقيق: أن معنى ﴿ انصرفوا ﴾: قاموا عن مجلس النبي ﷺ؛ مخافة الفضيحة. ﴿ صَرَفَ اللهُ قلوبَهم ﴾ عن الإيمان؛ دعاء عليهم، أو إخبار، فيستوجبون ذلك؛ ﴿ بأنهم ﴾؛ بسبب أنهم ﴿ قوم لا يفقهون ﴾؛ لا يفهمون عن الله؛ ولا عن رسوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ، أو لا يفقهون سوء فهمهم أو عدم تدبرهم.

الإشارة: زيادة الإيمان عند سماع القرآن يكون على حسب التصفية والتطهير من الأغيار، فبقدر ما يصفو القلب من الأغيار يكشف له عن أسرار القرآن. قال بعضهم: كنتُ أقرأ القرآن فلا أجد له حلاوة، فجاهدت نفسي

وطهرتها، فصرت كأني أسمعه من النبي ﷺ، يتلوه على أصحابه، ثم رفعت إلى مقام فوقه، فكنت أتلوه كأني أسمعه من جبريل يلقيه على رسول الله ﷺ، ثم منَّ عليَّ اللهُ بمنزلة أخرى، فأنا الآن أسمعه من المتكلم به، فعندها وجدت له نعيماً لا أصبر عليه. هـ. بلفظه.

مثل هذا يزيده القرآن إيقاناً، ويستبشر قلبه عند سماعه، وأما من كان مريض القلب بحب الدنيا، مَغْمُوراً بالشكوى والأوهام والخواطر، فلا يزيده القرآن إلا بُعداً؛ حيث لم يتدبر فيه، ولم يعمل بمقتضاه، وإذا حضر مثلُ هذا الغافل مجلسَ وعظ أو تذكير أو ذكر لم يطق الجلوس، بل نظر: هل يراه من أحد؟ ثم انصرف، صرف الله قلبه عن حضرة قدسه؛ لعدم فهمه عن ربه. والله تعالى أعلم.

ثم ختم السورة بذكر محاسن نبيه ـ عليه الصلاة والسلام ـ؛ لما ظهر عليه في هذه السورة من الرحمة والرأفة بالمؤمنين، ومن العفو والصفح عن المعتذرين، فقال:

﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾ ﴾

قلت: «عزيز»: صفة «لرسول»، و«ما عنتم»: فاعله، و«ما»: مصدرية، أي: عزيز عليه عَنَتُكُمْ، أو عزيز: خبر مقدم، و«ما عنتم» مبتدأ، والعنت: المشقة والتعب.

يقول الحق جل جلاله، مخاطباً العرب، أو قريش، أو جميع بني آدم: ﴿لقد جاءكم رسولٌ من أنفسكم﴾؛ محمدٌ ﷺ، أي: من قبيلتكم، بحيث تعرفون حسبه وصدقه وأمانته، وتفهمون خطابه، أو من جنسكم من البشر. وقرأ ابن نشيط: بفتح الفاء، أي من أشرافكم. قال ﷺ: «إنَّ اللهَ اصْطَفَى كِنَانَةَ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ، واصْطَفَى قُرَيشاً مِنْ كِنَانَةَ، واصْطَفى بَنِي هَاشِمٍ مِنْ قُرَيْشٍ، واصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ، فَأنَا مُصْطَفَى مِن مُصْطَفَيْنَ».

﴿عزيزٌ عليه﴾، أي: شديد شاق عليه ﴿ما عَنِتُّمْ﴾ أي: عنتكم ومشقتكم ولقاؤكم المكروه في دينكم ودنياكم. ﴿حريصٌ عليكم﴾ أي: على إيمانكم وسعادتكم وصلاح شأنكم، ﴿بالمؤمنين﴾ منكم ومن غيركم ﴿رؤوف رحيم﴾ أي: شفيق بهم، قدَّم الأبلغ منهما؛ لأن الرأفة شدة الرحمة؛ للفاصلة. وسمى رسوله هنا باسمين من أسمائه تعالى.

﴿ فإن تولَّوا ﴾ عن الإيمان بك، بعد هذه الحالة المشهورة، التي منَّ الله عليهم بها، ﴿ فقلْ حسبيَ اللهُ ﴾ أي: كافيني أمركم، فإن قلت ذلك؛ فإنه يكفيك شأنهم ويعينك عليهم، أو فإن أعرضوا فاستعن بالله وتوكل عليه، فإنه كافيك، ﴿ لا إله إلا هو ﴾؛ فلا يُتوكل إلا عليه، ﴿ عليه توكلتُ ﴾؛ فلا أرجو ولا أخاف إلا منه، ﴿ وهو ربُّ العرشِ العظيم ﴾، أي: المُلك العظيم، أو الجسم الأعظم المحيط، الذي تنزل منه الأحكام والمقادير.

وعن أُبَي: آخر مانزل هاتان الآيتان. وعن النبي ﷺ: «ما نَزَّل القرآنُ عليَّ إلاَّ آيةً آيةً، وحرفاً حرفاً، ما خَلاَ سورة براءة، و(قل هو الله أحد) فإنهما أُنْزِلَتاَ عليَّ ومَعَهُما سبعُون ألف صفٍ من الملائكة»[١] قاله البيضاوي. وهاتان الآيتان أيضاً مما وجدتاَ عند خزيمة بن ثابت، بعد جمع المصحف، فألحقتا في المصحف، بعد تذكر الصحابة لهما وإجماعهم عليهما. والله تعالى أعلم.

الإشارة: ينبغي لورثته -عليه الصلاة والسلام- الداعين إلى الله، أن يتخلقوا بأخلاقه ﷺ، فيشق عليهم ماينزل بالمؤمنين من المشاق والمكاره، وييسرون ولا يعسرون عليهم، ويحرصون على الخير للناس كافة، ويبذلون جهدهم في إيصاله إليهم، ويرحمونهم ويشفقون عليهم، فإن أدبروا عنهم استغنوا بالله وتوكلوا عليه، وفوضوا أمرهم إليه، من غير أسف ولا حزن.

وقال الورتجبي: قوله تعالى: ﴿ عزيز عليه ما عنتم ﴾، اشتد عليه مخالفتنا مع الحق، ومتابعتنا هوانا واحتجابنا عن الحق. قال بعضهم: شق عليه ركوبكم مراكب الخلاف. قال سهل: شديد عليه غفلتكم عن الله ولو طرفة عين. ثم قال في قوله تعالى: (فإن تولوا فقل حسبى الله...) الآية: سلّى قلبه بإعراضهم عن متابعته، مع كونه حريصاً على هدايتهم، أي: ففي الله كفاية عن كل غير وسِوَى.

قال القشيري: أمَره أن يَدْعُو الخلْقَ إلى التوحيد، ثم قال له: فإنْ أعرضوا عن الإجابة فكُنْ بنا، بنعت التجريد. ويقال: قال له: ﴿ يا أيها النبي حسبك الله ﴾، ثم أمره أن يقول: حسبى الله. قوله تعالى: ﴿ حسبك ﴾: عين الجمع، وقوله: ﴿ حسبى الله ﴾ فَرْق، بل هو الجمع، أي: قُلْ، ولكن بنا تقول، فنحن المتولون عنك وأنت مُسْتَهْلَكٌ في عين التوحيد؛ فأنت بنا، ومَحْوٌ عن غيرنا. هـ

وبالله التوفيق. ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

❁ ❁ ❁

(٢) عزاه فى الفتح السماوي، للثعلبي، من حديث السيدة عائشة، و قال الحافظ ابن حجر في الكافي الشاف: (إسناده واه)، وقال الولي العراقي: هو منكر جداً. وقال التفتازاني في حاشيته على الكشاف: هذا يخالف ما ثبت في أحاديث صحيحة وردت في أسباب نزول كثير من الآيات، فإنها نزلت متفردة. وذلك يدل على أن السورة لم تنزل جملة، ولو لم لم تكن إلا آية: «وعلى الثلاثة الذين خلفوا..» لكفى. هـ. راجع الفتح السماوى (٢/٧١١)

سُورَةُ يُونُسَ

مكية . وهي مائة وتسع آيات. ومناسبتها لما قبلها: قوله تعالى: ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم ﴾[1] مع قوله: ﴿ أكان للناس عَجَبًا أن أوحينا إلى رجل منهم ﴾، فقد تعجبوا منه مع كونهم يعرفون أمانته وصدقه .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ الر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝١ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ۝٢ ﴾

قلت: (عجباً) خبر كان، واسمها: (أن أوحينا)، ومن قرأ بالرفع فالأمر بالعكس، أو كان تامة، واللام متعلقة بعجباً، وهو مصدر للدلالة على أنهم جعلوه أعجوبة لهم، يتوجهون نحوه بإنكارهم واستهزائهم.

قال في المغني: المصدر الذى ليس فى تقدير حرف الموصول وصلته لايمنع التقديم عليه، على أن السعد قال فى المطوّل: إن معمول المصدر إذا كان ظرفًا أو شبهه، الأظهر أنه جائز التقديم، قال تعالى: ﴿ فلما بلغ معه السعي ﴾[2]، ﴿ ولا تأخذكم بهما رأفة ﴾[3] ومثل هذا كثير في الكلام، وليس كل ما أول بشيء حكمُه حكم ما أول به، مع أن الظرف مما يكفيه رائحة الفعل؛ لأن له شأناً ليس لغيره؛ لتنزله من الشيء منزلة نفسه؛ لوقوعه فيه وعدم انفكاكه عنه، ولهذا اتسع فى الظروف ما لم يتسع فى غيرها. هـ.

يقول الحق جل جلاله: أيها الرسول المجتبى المختار ﴿ تلك ﴾ الآيات التى تنزل عليك هى ﴿ آياتُ الكتاب الحكيم ﴾ ؛ الذى اشتمل على الحكم الباهرة والعبر الظاهرة، أو المحكم الذى لم ينسخ منه شيء بكتاب آخر بعده، أو كلام حكيم. ﴿ أكانَ للناس ﴾ أى: كفار قريش وغيرهم ﴿ عَجَبًا أن أوحينا إلى رجل منهم ﴾ ولم يكن من عظمائهم؟ والاستفهام للإنكار، والرد على من استبعد النبوة، أو تعجب من أن يبعث الله رجلاً من وسط الناس.

---

(١) الآية ١٢٨ من سورة التوبة.
(٢) من الآية ١٠٢ من سورة الصافات.
(٣) من الآية ٢ من سورة النور.

قيل : كانوا يقولون: العجب أن الله تعالى لم يجد رسولاً يرسله إلى الناس إلا يتيم أبي طالب. وهذا من فرط حماقتهم، وقصور نظرهم على الأمور العاجلة، وجهلهم بحقيقة الوحي والنبوة.

هذا .. وأنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ لم يكن يقْصر عن عظمائهم فيما يعتبرونه، إلا فى المال، وخفةُ الحال أعون شيء فى هذا الباب، ولذلك كان أكثر الأنبياء قبله كذلك ـ أى: خفافًا من المال ـ وقيل: تعجبوا من أنه بعث بشراً رسولاً، كما سبق فى سورة الأنعام. قاله البيضاوى.

ثم فسّر الوحي المذكور فقال: ﴿ أن أنذر الناس ﴾ أى: أوحينا إليه بأن أنذر الناس أى: خوفهم من غضب ربهم، ﴿ وبشّرِ الذين آمنوا ﴾، عمم الإنذار، إذ ليس من أحد إلا وفيه ما ينبغي أن ينذر منه، وخصص البشارة إذ ليس للكفار ما يصح أن يبشروا به، قاله البيضاوى.

أى: بشر المؤمنين بأنّ ﴿ لهم قَدَمَ صدْقٍ عند ربهم ﴾ أى: سابقة ومنزلة رفيعة، سميت قَدَمًا لأن السبق يكون بها، كما سميت النعمة يداً لأنها تُعْطى باليد، وأضيفت إلى الصدق لتحققها وللتنبيه على أنهم إنما ينالونها بصدق القول والنية. قال ابن جـزي: أى: عمل صالح قدموه، وقال ابن عباس: السعادة السابقة لهم فى اللوح المحفوظ. هـ. وقال ابن عطية: والصدق فى هذه الآية بمعنى الصلاح، كما تقول: رجل صدقٍ ورجل سوْءٍ. هـ.

﴿ قال الكافرون إنَّ هذا ﴾ الكتاب، أو ما جاء به الرسول، ﴿ لسحر(١) مبين ﴾ أى: بيِّن ظاهر، وقرأ ابن كثير والكوفيون: «لساحر»، على أن الإشارة إلى الرسول، وفيه اعتراف بأنهم صادفوا من الرسول أموراً خارقة للعادة، معجزة لهم عن المعارضة، وكلامهم هذا يحتمل أن يكون تفسيراً لما ذكره قبلُ من تعجبهم، أو يكون مستأنفاً.

الإشارة: تعجبُ الناس من أهل الخصوصية سُنّة ماضية، فكما خفى عن أعين الكفار سر النبوة، خفى عن أعين الخفافيش سر الخصوصية، فلا يطلع عليها إلا من سبق له قَدم صدق عند ربه، فسبحان من ستر سر الخصوصية بظهور وصف البشرية؛ فلم يدل عليها إلا من أراد أن يوصله إلى مشاهدة عظمة الربوبية.

قال فى لطائف المنن: فأولياء اللّه أهل كهف الإيواء، فقليل من يعرفهم، وسمعت الشيخ أبا العباس رضي الله عنه يقول: معرفة الولي أصعب من معرفة الله، فإنَّ الله تعالى معروف بكماله وجماله، ومتى تعرف مخلوقاً مثلك يأكل كما تأكل، ويشرب كما تشرب؟، وإذا أراد الله أن يعرفك بولي من أوليائه طوى عنك وجود بشريته، وأشهدك وجود خصوصيته. هـ.

---

(١) قرأ ابن كثير وعاصم وحمزة والكسائى «لساحر» بالألف وكسر الحاء. وقرأ الباقون «لسحر» بغير ألف، إشارة إلى الوحي ـ انظر الإتحاف (٢/١٠٤).

ثم فسر عظمة ربوبيته، فقال:

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ إن ربكم ﴾ الذى يستحق العبادة وحده هو ﴿ الله ﴾ الذى أظهر الكائنات من العدم إلى الوجود، وبه رد على من أنكر النبوة، كأنه يقول: إنما أدعوكم إلى عبادة الله الذى خلق الأشياء، فكيف تنكرون ذلك وهو الحق المبين؟ ثم فصّل ذلك فقال: ﴿ الذى خلق السماوات والأرض ﴾ التى هى أصول الكائنات، ﴿ فى ﴾ مقدار ﴿ ستة أيام ﴾ من أيام الدنيا، ولم يكن حينئذ ليل ولا نهار، والجمهور: أن ابتداء الخلق يوم الأحد. وفى حديث مسلم: يوم السبت، وأنه خلق الأرض، ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات، ثم دحا الأرض بعد ذلك. ﴿ ثم استوى على العرش ﴾ استواء يليق به، كاستواء الملك على سريره ليدبر أمر مملكته، ولذلك رتب عليه: ﴿ يدبّر الأمر ﴾، وقد تقدم الكلام عليه فى الأعراف(١).

قال البيضاوى: يُدبر أمر الكائنات على ما تقتضيه حكمته، وسبقت به كلمته، بتحريك أفلاكها، وتهيىء أسبابها، والتدبير: النظر فى عواقب الأمور لتجيء محمودة العاقبة. هـ.

﴿ ما من شفيع ﴾ تُقبل شفاعته ﴿ إلا من بعد إذْنه ﴾ له فى الشفاعة، وهو تقرير لعظمته وعزة جلاله، ورد على من يزعم أن آلهتهم تشفع لهم عند الله، وفيه إثبات الشفاعة لمن أذن له، كالأنبياء والأولياء والعلماء الأتقياء. ﴿ ذلكم الله ﴾ أى: الموصوف بتلك الصفات المقتضية للألوهية والربوبية هو ﴿ الله ربكم ﴾ لا غير؛ إذ لايشاركه أحد فى شيء من ذلك، ﴿ فاعبدوه ﴾ : أفردوه بالعبادة ﴿ أفلا تذكرون ﴾ أى: تتفكرون أدنى تفكر، فتعرفون أنه المستحق للربوبية والعبادة، لا ما تعبدونه من الأصنام.

﴿ إليه مرجعكم ﴾ بالبعث ﴿ جميعاً ﴾ فيجازيكم على أعمالكم، ويعاقبكم على شرككم، ﴿ وعد الله حقاً ﴾ : مصدر مؤكد لنفسه؛ لأن قوله: ﴿ إليه مرجعكم ﴾ وعدٌ من الله. ﴿ إنه يبدأ الخلق ﴾ بإظهاره فى الدنيا ﴿ ثم يُعيده ﴾ بعد إهلاكه فى الآخرة. ﴿ ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾، تعليل للعودة؛ وهى البعثة،

(١) راجع تفسير الآية: ٥٤ من سورة الأعراف.

وقوله: ﴿ بالقسط ﴾ أى: بالعدل؛ بأن يعدل فى جزائهم، فلا يظلم مثقال ذرة، أو بعدلهم وقيامهم على العمل فى أمورهم، أو بإيمانهم؛ لأنه العدل القويم، كما أن الشرك ظلم عظيم. وهو الأوجه لمقابلة قوله: ﴿ والذين كفروا لهم شراب من حميم وعذاب أليم ﴾ بسبب كفرهم وشركهم ـ الذى هو الظلم العظيم ـ لكنه غيَّر النظم للمبالغة فى استحقاقهم العذاب والتنْبيه على أن المقصود بالذات من الإبداء والإعادة هو الإثابة، وأما العقاب فإنما هو واقع بالعرض، وأنه تعالى يتولى إثابة المؤمنين بما يليق بلطفه وكرمه، ولذلك لم يعينه، وأما عقاب الكفرة فإنه إنما ساقه إليهم سوء اعتقادهم وشؤم أفعالهم.

والآية كالدليل لقوله : ﴿ إليه مرجعكم جميعا ﴾ ، فإنه لمّا كان المقصود من الإبداء والإعادة مجازاة الله المكلفين على أعمالهم، كان مرجع الجميع إليه لا محالة، ويؤيده قراءة من قرأ: «أنه يبدأ» بالفتح، أى: لأنه، ويجوز أن يكون منصوباً بما نصب «وعد الله». قاله البيضاوى.

الإشارة: تقدم بعض إشارة هذه الآية فى الأعراف، وقال الورتجبى هنا: جعل العرش مرآت تجلى قدسه ومأوى أرواح أحبابه لقوله: ﴿ ثم استوى . . . ﴾ الآية، ثم قال: ثم دعاهم إلى عبادته بعد معرفته بقوله: «فاعبدوه». وقال القشيرى: «ذلكم الله ربكم» تعريف، وقوله: ﴿ فاعبدوه ﴾ تكليف، فحصولُ التعريف بتحقيقه، والوصولُ إلى ماوَرَدَ به التكليف بتوفيقه. هـ. وقال فى قوله: ﴿ إليه مرجعكم جميعا ﴾ : الرجوع يقتضى ابتداء، والأرواح قبل حصولها فى الأشباح كان لها فى مواطن التسبيح والتقديس إقامة، والغائب إذا رجع إلى وطنه من سفره فلقدومه أثر عند محبّيه وذويه، وأنشدوا:

أيا قادماً من سَفْرةِ الهَجْرِ مَرْحَباً أنَا ذاكَ لا أنْساكَ مَا هَبَّت الصَّبا. هـ.

وفى الإحياء: كل من نسى الله أنساه ـ لا محالة ـ نفسه، ونزل إلى رتبة البهائم، وترك الترقى إلى أُفق الملأ الأعلى، وخان فى الأمانة التى أودعها له تعالى، وأنعم بها عليه، وكان كافراً لنعمته، ومتعرضاً لنقمته؛ فإن البهيمة تتخلص بالموت، وأما هذا فعنده أمانة سترجعُ ـ لا محالة ـ إلى مُودعها، فإليه مرجع الأمانة ومصيرها، وتلك الأمانة كالشمس الزاهرة، وإنما هبطت إلى هذا القالب الفانى وغربت فيه، وستطلع هذه الشمس عند خراب هذا القالب من مغربها، وتعود إلى بارئها وخالقها، إما مظلمة مُنكسة، وإما زاهرة مشرقة، والزاهرة المشرقة غير محجوبة عن حضرة الربوبية، والمظلمة أيضا راجعة إلى الحضرة؛ إذ المرجع ومصير الكل إليه، إلا أنها ناكسة رؤوسها عن جهة أعلى عليين، إلى جهة أسفل سافلين، ولذلك قال تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾(١) فبيَّن أنهم عند ربهم منكسون منحوسون، قد انقلبت وجوههم إلى أقفيتهم، وانتكست رؤوسهم عن جهة فوق إلى جهة أسفل، وذلك حكم الله تعالى فيمن حرَمَه توفيقه، ولم يهده طريقه، فنعوذ بالله من الضلال والنزول فى منازل الجُهال. هـ.

(١) من الآية ١٢ من سورة السجدة.

قلت: ظاهر كلامه: أن الروح لاترجع إلى وطنها وتتصل بحضرة ربها إلا بعد خراب هذا البدن، والحق أنها ترجع لأصلها، وتتصل بحضرة ربها مع قيام هذا البدن؛ إذا كمل تطهيرها وتمت تصفيتها من بقايا الحس، وانقطع عنها علائق هذا العالم الجسماني، فتتصل حينئذ بالعالم الروحاني، مع قيام العالم الجسماني، كما هو مقرر عند أهل التحقيق، والله تعالى أعلم.

ثم ذكر حكمة إيجاد النيرين، فقال:

﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾ ﴾

قلت: «ضياء»: مفعول ثان، أي: ذات ضياء، وهو مصدر كقيام، أو جمع ضوء كسياط، والياء منقلبة عن الواو، وفي رواية عن ابن كثير بهمزتين في كل القرآن على القلب، بتقديم اللام على العين، والضمير في «قدره» للشمس والقمر، كقوله: ﴿ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ ﴾(١)، أو للقمر فقط.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ هو الذي جعل الشمس ضياء ﴾ أي: ذات ضوء وإشراق أصلي، ﴿ والقمرَ نوراً ﴾ أي: ذا نور عارض، مقتبس من نور الشمس عند مقابلته إياها، ولذلك يزيد نورهُ وينقص، فقد نبه سبحانه بذلك على أنه خلق الشمس نيرة في ذاتها، والقمر نوراً بعرض مقابلة الشمس والاكتساب منها، فالنور أعم من الضياء، والضياء أعظم من النور. ﴿ وقدَّره منازلَ ﴾ أي: قدر سير كل واحد منهما منازل، أو القمر فقط، وخصصه بالذكر لسرعة سيره، ومعاينة منازله، وإناطة أحكام الشرع به. ولذلك علله بقوله: ﴿ لتعلموا عددَ السنينَ والحسابَ ﴾ أي: حساب الأوقات من الأشهر والأيام والليالي في معاملتكم وتصرفاتكم:

﴿ ماخلق اللهُ ذلك ﴾ الذي تقدم من أنواع المخلوقات ﴿ إلا بالحق ﴾ أي: ملتبساً بالحق، مراعياً فيه مقتضى الحكمة البالغة، لا عبثاً عارياً عن الحكمة، أو ما خلق ذلك إلا ليُعرف فيها، فما نُصبت الكائنات لتراها، بل لترى

(١) من الآية ٦٢ من سورة التوبة.

فيها مولاها. وقال الشيخ أبو العباس المرسي رضي الله عنه: الحق الذي خلق الله به كل شيء كلمة «كن». قال سبحانه ﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ ﴾(١). هـ. وهو بعيد هنا.

﴿ نُفَصِّلُ الآياتِ لقوم يعلمون ﴾(٢) فإنهم المنتفعون بالنظر فيها والاعتبار بها.

ثم بيّن وجه الاعتبار فقال: ﴿ إن في اختلاف الليل والنهار ﴾ أي: تعاقبهما بالذهاب والمجيء، أو بالزيادة والنقصان، ﴿ وما خلقَ اللهُ في السموات والأرض ﴾ من أنواع الكائنات وضروب المخلوقات، ﴿ لآياتٍ ﴾ دالة على وجود الصانع ووحدته، وكمال علمه وقدرته، ﴿ لقوم يتقون ﴾ الله، ويخشون العواقب، فإن ذلك يحملهم على التفكر والتدبر، بخلاف المنهمكين في الغفلة والمعاصي، الذين أشار إليهم بقوله:

﴿ إن الذين لا يرجون لقاءنا ﴾ أي: لا يتوقعونه، أو: لا يخافون بأسه لإنكارهم البعث، وذهولهم بالمحسوسات عما وراءها، ﴿ ورَضُوا بالحياة الدنيا ﴾: قنعوا بها بدلاً من الآخرة لغفلتهم عنها، ﴿ واطمأنوا بها ﴾ أي: سكنوا إليها مقصرين هممهم على لذائذها وزخارفها، وسكنوا فيها سكون من يظن أنه لا يزعج عنها. ﴿ والذين هم عن آياتنا ﴾ المتقدمة الدالة على كمال قدرتنا، ﴿ غافلون ﴾: لا يتفكرون فيها ولا يعتبرون؛ لانهماكهم في الغفلة والذنوب.

قال البيضاوي: والعطف إما لتغاير الوصفين، والتنبيه على أن الوعيد على الجمع بين الذهول عن الآيات رأساً، والانهماك في الشهوات، بحيث لا تخطر الآخرة ببالهم أصلاً، وإما لتغاير الفريقين، والمراد بالأولين: من أنكر البعث ولم يُرد إلاَّ الحياة الدنيا، وبالآخرين من ألهاه حبُّ العاجل عن التأمل في الآجل والإعداد له. هـ.

﴿ أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون ﴾ أي: بما واظبوا عليه وتمرنوا به من المعاصي. قال ابن عطية: وفي هذه اللفظة رد على الجبرية، ونص على تعلق العقاب بالتكسب. هـ

الإشارة: هو الذي جعل شمس العيان مشرقة في قلوب أهل العرفان، لاغروب لها مدى الأزمان، وجعل قمر توحيد الدليل والبرهان نوراً يهتدى به إلى طريق الوصول إلى العيان، وقدَّر السير به منازل ـ وهي مقامات اليقين ومنازل السائرين ـ ينزلون فيها مقاماً مقاما إلى صريح المعرفة، وهي التوبة والخوف، والرجاء والورع، والزهد والصبر، والشكر والرضى والتسليم والمحبة، والمراقبة والمشاهدة. ما خلق الله ذلك إلا بالحق، ليتوصل به إلى الحق. إن في اختلاف ليل القبض ونهار البسط على قلب المريد لآيات دالة له على السير، لقوم يتقون السِّوى، أو شواغل الحس.

(١) من الآية ٧٣ من سورة الأنعام.
(٢) قرأ ابن كثير وأبو عمرو وحفص ويعقوب بياء الغيب (يفصل)، والباقون بنون العظمة (نفصل) انظر الإتحاف (٢/ ١٠٤).

إن الذين لا يرجون الوصول إلينا لقصر همتهم، ورضوا بالحياة الدنيا وشهواتها، واطمأنوا بها ولم يرحلوا عنها، إذ لا يتحقق سير السائرين إلا بمجاهدة تركها والرحيل بالقلب عنها، والذين هم عن آياتنا غافلون؛ لانهماكهم في الهوى والحظوظ، أولئك مأواهم نار القطيعة وغم الحجاب، بما كانوا يكسبون من الاشتغال بالحظوظ والشهوات. وبالله التوفيق.

ثم ذكر أضدادهم، فقال:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَـٰنِهِمْ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَـٰرُ فِى جَنَّـٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَـٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَـٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ ﴾

قلت: (تجرى): جملة استئنافية، أو خبر ثان لإنّ، أو حال من الضمير المنصوب في ﴿يهديهم﴾. و(دعواهم): مبتدأ، و(سبحانك): مقول للخبر ـ أي: قولهم سبحانك. والتحية مأخوذة من تمنى الحياة والدعاء بها، يقال: حياه تحية، ويقال للوجه: مُحياً لوقوع التحية عند رؤيته، و(آخر): مبتدأ، و(أن الحمد لله): خبر، وأن مخففة.

يقول الحق جل جلاله: ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يَهْديهم ربُّهم﴾ أي: يسددهم ﴿بإيمانهم﴾؛ بسبب إيمانهم إلى الاستقامة والنظر، أوْ إلى سلوك سبيل يؤدي إلى الجنة، أوْ إلى إدراك الحقائق العرفانية، كما قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «مَنْ عَمِلَ بما علِم أوْرَثه الله عِلْمِ ما لَمْ يَعْلَمْ»، أو لما يشتهونه في الجنة، ﴿تجرى من تحتهم الأنهارُ﴾ الأربعة، ﴿في جنات النعيم﴾، ﴿دعواهم فيها﴾ أي: دعاؤهم فيها: ﴿سبحانك اللهم﴾ أي: اللهم إنا نسبحك تسْبيحاً. وروي: أن هذه الكلمة هي ثمر أهل الجنة، فإذا اشتهى أحدهم شيئاً قال: سبحانك اللهم، فينزل بين يديه. رواه ابن جريج وسفيان بن عيينة.

﴿وتحيتُهم فيها سلام﴾ أي: ما يحيي به بعضهم بعضاً، أو تحية الملائكة إياهم، أوتسليم الله تعالى عليهم فيها سلام، ﴿وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين﴾ أي: وخاتمة دعائهم في كل موطن حمده تعالى وشكره. والمعنى: أنهم إذا دخلوا الجنة وعاينوا عظمته وكبرياءه مجّدوه ونعتوه بنعوت الجلال، وقدّسوه عند مشاهدته عن كل تماثيل وخيال، فحيّاهم بسلام من عنده، وعند ما منحهم سلامه وأحلَّ عليهم رضوانه، وأدام لهم كرامته وجواره، وأراهم وجهه، حمدوه بما حمد به نفسه، فكانت بدايتهم بالتنزيه والتعظيم، وخاتمة دعائهم في كل موطن حمده وشكره على ما مكنهم فيه، من رؤية وجهه الكريم، ودوام النعيم المقيم، وسمى دعاء لأنه يستدعى المزيد من فضله. قاله المحشي.

الإشارة: إن الذين استكملوا الإيمان، وأخلصوا الأعمال، يهديهم ربهم إلى من يوصلهم إلى جنة حضرته، ببركة إيمانهم، تجرى من تحت أفكارهم أنهار العلوم، فى جنات مشاهدة طلعته، والتنعم بأنوار معرفته، فإذا عاينوا ذلك أدهشتهم الأنوار، فبادروا إلى التنزيه والتقديس، فيجيبهم الحق تعالى بإقباله عليهم بأنوار وجهه، وأسرار ذاته، فيحمدونه ويشكرونه على ما أولاهم من سوابغ نعمته، والسكون فى جوار حضرته، منحنا الله من ذلك الحظ الأوفر، آمين.

ولمَّا تعجب الكفار من بعث الرسول منهم، وكفروا به، استعجلوا ما خوفهم به من العذاب، فأنزل الله جواباً لهم:

﴿ ۞ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾ ﴾

قلت: (استعجالهم): نصب على المصدر، أى: استعجالاً مثل استعجالهم بالخير. **قال البيضاوى:** وضع موضع تعجيله لهم بالخير إشعاراً بسرعة إجابته لهم فى الخير، حتى كأن استعجالهم به تعجيل لهم.هـ. (فنذر): عطف على فعل محذوف دلت عليه الشرطية، كأنه قيل: ولكن لا نعجل ولا نقضى بل نمهلهم فنذر .. الخ.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ولو يعجلُ اللهُ للناس الشرَّ﴾ حيث يطلبونه، كقولهم: ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾(١)، ﴿ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾(٢) ﴿استعجالهم بالخير﴾؛ كما يعجل الله لهم الخير حين يسألونه ﴿لقُضى إليهم أجلُهم﴾ أى: لأميتوا وأهلكوا من ساعتهم، وقرأ ابن عباس ويعقوب: «لقَضَى» بالبناء للفاعل، أى: لقضى الله إليهم أجلهم، ولكن من حلمه تعالى وكرمه يمهلهم إلى تمام أجلهم، ﴿فنذرُ الذين لايرجون لقاءنا﴾ استدراجاً وإمهالاً ﴿فى طغيانهم يعمهون﴾: يتحيرون. والعمه: الخبط فى الضلال، وهذا التفسير أليق بمناسبة الكلام. وقيل: نزلت فى دعاء الإنسان على نفسه وماله وولده بالشر، أى: لو عجل اللهُ للناس الشر كما يحبون تعجيل الخير لهلكوا سريعاً، فهو كقوله ﴿وَيَدْعُ الإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ﴾(٣) ويكون قوله: ﴿فنذر . . . .﴾ الخ استئنافاً. والله تعالى أعلم.

الإشارة: من حلمه تعالى وسعة جوده أنه لا يعامل عبده بما يستحقه من العقاب، ولا يعاجله بما يطلبه إن لم يكن فيه سداد وصواب، حُكى أن رجلا قال لبعض الأنبياء ـ عليهم السلام ـ : قل لربى: كم أعصيه وأخالفه ولم يعاقبنى، فأوحى الله إلى ذلك النبى: ليعلم أنى أنا وأنت أنت . هـ. بل من عظيم كرمه تعالى أنه قد يعامل

---

(١) الآية ٣٢ من سورة الأنفال.
(٢) من الآية ٧٧ من سورة الأعراف.
(٣) من الآية ١١ من سورة الإسراء.

السائرين بعكس ما يستحقونه في جانب المخالفة؛ فقد تهوي بهم أنفسهم إلى مقام الخفض فيرتفعون، وإلى مقام البُعد فيقتربون، وهذا في قوم سبقت لهم العناية، فلم تضرهم الجناية، وحفت بهم الرعاية، فلم تستهوهم الغواية، إذا صدرت منهم المخالفة ندموا وانكسروا. والغالب فيمن كان تحت جناح الأولياء الكبار أن يسلك به هذا المسلك العظيم وما ذلك على الله بعزيز.

وإذا كان الحق تعالى يُعجل الخير ويمهل الشر، كان الواجب على العبد شكره على الدوام، لا الإعراض عنه ونسيانه، كما نبه عليه تعالى بقوله:

﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾

قلت : (لجنبه) : متعلق بحال محذوفة، أي: مضطجعاً لجنبه، و(كأن) مخففة

يقول الحق جل جلاله : ﴿ وإذا مَسَّ الإنسانَ الضرُّ ﴾ في بدنه أو ماله أو أحبابه، ﴿ دعانا ﴾ لإزالته مخلصاً فيه، وتضرع إلينا حال كونه مضطجعاً ﴿ لجَنْبه أو قاعداً أو قائماً ﴾، وفائدة الترديد تقسيم الدعاء لجميع الأحوال أو لأصناف المضار، ﴿ فلما كشفنا عنه ضُرَّه مرَّ ﴾ أي: مضى على طريقه واستمر على كفره، ولم يشكر الله على دفعه، أو مرَّ عن موقف الدعاء، ولم يرجع إليه. ﴿ كأن لم يَدْعُنَا ﴾ أي: كأنه لم يدعنا ﴿ إلى ﴾ كشف ﴿ ضُرّ مسَّهُ ﴾ قط ﴿ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ ﴾(١) ﴿ كذلك زُيّن للمسرفين ﴾ أي: مثل هذا التزيين زين للمسرفين ﴿ ماكانوا يعملون ﴾ من الانهماك في الشهوات، والإعراض عن شكر المنعم عند المسرات وذهاب العاهات.

وفي الآية تهديد لمن تشبه بهذه الحالة، بل الواجب على العبد دوام التجائه إلى ربه، والشكر له عند ظهور إجابته وإسدال عافيته.

الإشارة: من حسن الأدب؛ السكون تحت مجاري الأقدار، والتسليم لأحكام الواحد القهار، «فليس الشأن أن تُرزق الطلب، إنما الشأن أن تُرزق حسن الأدب»، وحسن الأدب: هو الفهم عن الله؛ فإذا شرح صدرك للدعاء، فادع ولا تكثر، فإن المدعو قريب، ليس بغافل فيُنبه، ولا ببعيد فتنادي عليه، فإذا دعوته وأجابك فاشكره، وإن أخرَّ عنك

(١) الآية ٨ من سورة الزمر.

الإجابة فاصبر؛ فقد ضمن الإجابة فيما يريد، لا فيما تريد، وفي الوقت الذي يريد لا في الوقت الذي تريد. والله تعالى أعلم.

ثم هدد من أساء الأدب، فقال:

﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ ۙ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ولقد أهلكنا القرونَ من قبلكم ﴾ يا أهل مكة، ﴿ لَمَّا ظلمُوا ﴾ بالكفر وتكذيب الرسل، ﴿ وجاءتهم رسلُهم بالبينات ﴾: بالمعجزات الواضحات، الدالة على صدقهم، ﴿ وما كانوا ليؤمنوا ﴾ أي: ما استقام لهم أن يؤمنوا، لما سبق لهم من الشقاء ولفساد استعدادهم، أو ما كانوا ليؤمنوا بعد أن هلكوا لفوات محله، ﴿ كذلك ﴾ أي: مثل ذلك الجزاء، وهو إهلاكهم بسبب تكذيبهم الرسل وإصرارهم عليه، بحيث تحقق أنه لا فائدة في إمهالهم. ﴿ نجزي القوم المجرمين ﴾ أي: نجزي كل مجرم، أو نجزيهم، ووضع المظْهر موضع المضمر؛ للدلالة على كمال جرمهم، وأنهم أعلام فيه. قاله البيضاوي.

﴿ ثم جعلناكم ﴾ يا أمة محمد ﴿ خلائف في الأرض من بعدهم ﴾ من بعد إهلاكهم، فقد استخلفناكم فيها بعد القرون التي أهلكناها، استخلاف من يختبرُ ﴿ لننظُرَ ﴾ أي: لنظهر ما سبق به العلم، فيتبين في الوجود، ﴿ كيف تعملون ﴾، أخيراً أم شراً؟ فنعاملكم على مقتضى أعمالكم.

وكان سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: إنما جعلنا خلفا لينظر كيف عملنا، فأروا الله حسن أعمالكم في السر والعلانية، وكان أيضا يقول: (قد استخلفتَ يا ابن الخطاب، فانظر كيف تعمل).

الإشارة: ما هلك من هلك إلا لإخلاله بالشرائع أو بالحقائق، فالشرائع، صيانة للأشباح، والحقائق صيانة للأرواح، فمن قام بالشرائع كما ينبغي صان نفسه من الآفات الدنيوية والأخروية، ومن قام بالحقائق على ماينبغي، صان روحه من الجهل بالله في هذه الدار، وفي تلك الدار، ومن قام بهما معاً صان جسمه وروحه، وكان من المقربين، ومن قام بالشرائع دون الحقائق صان جسمه وترك روحه معذبةً في هذه الدار بالخواطر والوساوس والأوهام، وفي تلك الدار بالبعد والمقام مع العوام. ومن قام بالحقائق دون الشرائع فإن كان دعوى عُذب جسمه وروحه لزندقته، وإن كان حقاً عذب جسمه هنا بالقتل، كما فُعل بالحلاج، والتحق بالمقربين في تلك الدار.

ويقال لأهل كل عصر: ولقد أهلكنا القرون من قبلكم بالبُعد وغم الحجاب، لما ظلموا بالوقوف مع الحظوظ والشهوات، وجاءتهم رسلهم التي توصلهم إلى ربهم ـ وهم أولياء زمانهم ـ بالآيات الواضحة على صدقهم، ولو لم يكن إلا هداية الخلق على يديهم ـ فأنكروهم، وما كانوا ليؤمنوا بهم لِمَا سبق لهم من البُعد، ثم جعلناكم خلائف فى الأرض من بعدهم، لننظر كيف تعملون مع شيوخ التربية في زمانكم، هل تنكرونهم أو تقرونهم. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر حال أهل الإنكار، فقال:

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥) قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٦) ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وإذا تُتلى عليهم ﴾ يعني كفار قريش ﴿ آياتُنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا ﴾ من المشركين ﴿ ائْتِ بقرآن غير هذا ﴾ أي: بكتاب آخر ليس فيه ما نستبعده من البعث والحساب، والعقاب بعد الموت، أو ما ذكره من سب آلهتنا، وعيب ديننا، أو اجعل هذا الكلام الذى من قِبلَك على اختيارنا، فأحل ما حرمته، وحرم ما أحللته؛ ليكون أمرنا واحداً وكلمتنا متصلة، ﴿ أو بَدِّله ﴾ بأن تجعل مكان الآية المشتملة على ذلك آية أخرى.

﴿ قل ﴾ لهم يا محمد: ﴿ ما يكون ﴾ : ما يصح ﴿ لى أن أبدِّله من تلقاء نفسى ﴾ : من قِبَل نفسى، وإنما اكتفى بالجواب المذكور عن التبديل؛ لاستلزام امتناعه امتناع الإتيان بقرآن آخر، قل لهم: ﴿ إنْ ﴾ أي: ما ﴿ أتبعُ إلا مايُوحى إليَّ ﴾ ، لا أقدر أن أقول شيئاً من عندي. قال البيضاوى: هو تعليل لما يكون، فإن المتبع لغيره في أمر لم يستبد بالتصرف فيه بوجه، وجواب للنقض بنسخ بعض الآيات لبعض، ورد لما عرّضوا له بهذا السؤال من أن القرآن كلامه واختراعه، ولذلك قيد التبديل فى الجواب وسماه عصياناً فقال: ﴿ إني أخاف إن عصيتُ ربى عذاب يوم عظيم ﴾ يوم القيامة، وفيه إيماء بأنهم استوجبوا العذاب بهذا الاقتراح. هـ.

﴿ قل لو شاءَ اللهُ ﴾ ﴿ ما ﴾ أرسلنى إليكم، ولا ﴿ تلوتُه عليكم، ولا أدْراكم ﴾ أي: أعلمكم ﴿ به ﴾ على لسانى. وفى قراءة ابن كثير: «ولأدراكم» بلام التأكيد، أي: لو شاء الله ما تلوته عليكم ولأعلمكم به على لسان غيرى.

والمعنى أنه الحق لا شك فيه، لو لم أُرسَل به أنا لأرسل به غيري. وحاصل المعنى: أن الأمر بمشيئة الله لا بمشيئتي، حتى أجعله على نحو ما تشتهون. ثم قرر ذلك بقوله: ﴿ فقدْ لبثتُ فيكم عُمُراً ﴾ منذ أربعين سنة ﴿ من قبله ﴾ أي: من قبل نزول هذا القرآن، لا أتلوه ولا أعلم منه شيئًا، وفيه إشارة إلى أن القرآن معجز خارق للعادة، فإن من عاش بين أظهرهم أربعين سنة لم يدرس فيها علماً، ولا يشاهد عالِماً، ولم ينشد قريضاً - أي شعراً - ولا خطبة، ثم قرأ عليهم كتاباً أعجزت فصاحته كل منطيق، وفاق كل منظوم ومنثور، واحتوى على قواعد عِلْمي الأصول والفروع، وأعرب عن أقاصيص الأولين وأحاديث الآخرين على ما هي عليه، عُلم أنه معلم به من عند الله. قاله البيضاوي.

فكل من له عقل سليم أدرك حقِّيته، ولذلك قرعهم بقوله: ﴿ أفلا تعقلون ﴾ أي: أفلا تستعملون عقولكم بالتدبر والتفكر، فتعلموا أنه ليس من طوْق البشر، بل هو من عند الحكيم العليم الواحد القهار.

الإشارة: إذا ظهر أهل التربية الداعون إلى الله بطريق صعبة على النفوس، يُسيرون الناس عليها، كخرق العوائد وتخريب الظواهر والتجريد، قال من لا يرجو الوصول إلى الله - لغلبة الهوى عليه: ائتونا بطريق غير هذا لنتبعكم عليه، يكون سهلاً على النفوس، موافقًا لعوائدنا، أو بدلوا هذا بطريق أسهل، وأما هذا الذي أتيتم به، فلا نقدر عليه، وربما رموه بالبدعة، فيقولون لهم: ما يكون لنا أن نبدله من تلقاء أنفسنا، إن نتبع إلا ما سلك عليه أشياخنا وأشياخهم، فما ربُّوْنا به نُربِّي به من تبعنا، فإن خالفنا طريقهم خفنا من عقاب الله، حيث غششنا من اتبعنا، وقد مكثنا معكم قبل صحبة أشياخنا سنين، فلم تروا علينا شيئاً من ذلك حتى صحبناهم، فدل ذلك على أنه موروث عن أشياخهم وأشياخ أشياخهم، أفلا تعقلون؟.

ثم سجل بالظلم على من كذَّب أو كذَب، فقال:

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَـٰٓؤُلَآءِ شُفَعَـٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ فمن أظلم ﴾ لا أحد أظلم ﴿ ممن افترى على الله كذباً ﴾ بأن تقوّل على الله ما لم يقل، وهذا بيان لبراءته مما اتهموه به من اختراعه القرآن، وإشارة إلى كذبهم على الله في نسبة الشركاء له

والولد، ﴿ أو كذَّب بآياته ﴾ فكفر بها، فلا أظلم منه ﴿ إنه ﴾ أي: الأمر والشأن ﴿ لا يُفلح المجرمون ﴾ أي: لا يظفرون ببغيتهم، ولاتنجح مساعيهم؛ لاشراكهم بالله. كما قال تعالى: ﴿ ويعبدون من دون الله مالايضرهم ولا ينفعهُم ﴾ من الجمادات التي لا تقدر على ضر ولا نفع، والمعبود ينبغي أن يكون مثيباً ومُعاقباً حتى تكون عبادته لجلب نفع أو دفع ضر. ﴿ ويقولون هؤلاء ﴾ الأوثان ﴿ شفعاؤنا عند الله ﴾ تشفع لنا فيما يهمنا من أمور الدنيا، أو في الآخرة إن يكن بعث، وكأنهم كانوا شاكين فيه، وهذا من فرط جهالتهم، حيث تركوا عبادة الموجد للأشياء، الضار النافع، إلى عبادة ما يُعلم قطعاً أنه لايضر ولاينفع. ﴿ قل أتنبِّئون اللهَ ﴾ أتخبرونه ﴿ بما لا يعلم ﴾ وجوده ﴿ في السموات ولا في الأرض ﴾ وهو أن له شريكاً فيهما يستحق أن يعبد. وفيه تقريع وتهكم بهم.

قال ابن جزي: هو رد عليهم في قولهم بشفاعة الأصنام، والمعنى: أن شفاعة الأصنام ليست بمعلومة لله الذي هو عالم بما في السموات والأرض، وكل ما ليس بمعلوم له فهو عدم محض، ليس بشيء، فقوله: ﴿ أتنبئون الله ﴾ تقرير لهم على وجه التوبيخ والتهكم، أي: كيف تعلمون الله بما لا يعلم. هـ. قال ابن عطية: وفي التوقيف على هذا أعظم غلبةٍ لهم، إذ لا يمكنهم إلا أن يقولوا: لا تفعل ولا تقدر أن نخبر الله بما لا يعلم.

ثم نزّه نفسه عن ذلك فقال: ﴿ سبحانه وتعالى ﴾ أي: تنزيهاً له وتعاظم ﴿ عما يشركون ﴾ أي: إشراكهم، أو عن الشركاء الذين يشركونهم معه. وقرأ الأخوان: بالتاء، أي: عما تشركون أيها الكفار.

الإشارة: في هذه الآية زجر كبير لأهل الدعوى، الذين ادعوا الخصوصية افتراء، ولأهل الإنكار الذين كذبوا من ثبتت خصوصيته، وتسجيل عليهم بالإجرام، وبعدم النجاح والفلاح، وفيها أيضاً: زجر لمن اعتمد على مخلوق في جلب نفع أو دفع ضر، أو اغتر بصحبة ولي يظن أنه يشفع له مع إصراره وعظيم أوزاره. والله تعالى أعلم.

ثم إن اختلاف الناس على الأنبياء وتكذيبهم وإشراكهم؛ إنما هو أمر عارض، حصل لهم باندراس العلم وقلة الإنذار، كما قال تعالى:

﴿ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخۡتَلَفُواْۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡ فِيمَا فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ١٩ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وما كان الناسُ إلا أمةً واحدةً ﴾ موحّدين، على الفطرة الأصلية، أو متفقين على الحق، وذلك في عهد آدم، إلى أن قتل قابيل أخاه هابيل، أو بعد الطوفان إلى زمان اختلافهم، أو الأرواح

حيث استخرجهم واستشهدهم، فاتفقوا على الإقرار، ثم اختلفوا في عالم الأشباح باتباع الهوى والأباطيل، أو ببعثة الرسل فتبعتهم طائفة وكفرت أخرى. ﴿ ولولا كلمة سبقتْ من ربك ﴾ في اللوح المحفوظ، بتأخير الحكم، أو العذاب الفاصل بينهم إلى يوم القيامة، فإنه يوم الفصل والجزاء، ﴿ لقُضي بينهم ﴾ عاجلاً ﴿ فيما فيه يختلفون ﴾ بإهلاك المُبْطِل وإبقاء المحق.

الإشارة: اختلاف الناس على الأولياء كاختلافهم على الأنبياء، أمر سبق به الحكم الأزلي لا محيد عنه، فمن طلب اتفاقهم عليه فهو جاهل بالله وبطريق أهل الله. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر اقتراحهم الآيات، فقال:

﴿ وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ويقولون ﴾ ؛ يقول الكفار: ﴿ لولا ﴾ ، هلاّ ﴿ أُنزلَ عليه آيةٌ ﴾ ظاهرة ﴿ من ربه ﴾ تدل على صدقه، يعاينها الناس كلهم، فتلجئهم إلى الإيمان به، وهذا الأمر على هذا الوجه لم يكن لنبي قط، إنما كانت الآية تظهر معرَّضة للنظر، فيهتدي بها قوم، ويكفر بها آخرون، ﴿ فقلْ ﴾ لهم: ﴿ إنما ﴾ علم ﴿ الغيب لله ﴾ مختص به، فلم أُطَّلِع عليه حتى أعلم وقت نزولها، ولعله علم ما في نزولها من الضرر لكم فصرفها عنكم، ﴿ فانتظروا ﴾ نزول ما اقترحتموه، ﴿ إني معكم من المنتظرين ﴾ لذلك، وهذا وعد قد صدقه الله بنصرته ـ عليه الصلاة السلام ـ وأخذهم ببدر وغيره، أو من المنتظرين لما يفعل الله بكم لعنادكم وجحودكم الآيات.

الإشارة: مازالت العامة تطلب من مشايخ التربية الكرامات، فجوابهم ما قال تعالى لنبيه ﷺ: (قل إنما الغيب لله) فانتظروا ما يظهر على أيديهم من الهداية والإرشاد، وإحياء البلاد والعباد بذكر الله، وهذا أعظم الكرامة، فإن إخراج الناس عن عوائدهم وعن دنياهم خارق للعادة، سيما في هذا الزمان الذي احتوت فيه الدنيا على القلوب، فلا ترى عالماً ولا صالحاً ولا منتسبًا إلا وهو مغروق في بحر ظلماتها، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

ثم ذكر جزئيات من الآيات لمن فهم واعتبر، فقال:

﴿ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ

وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمۡ إِذَا هُمۡ يَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغۡيُكُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۖ مَّتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُكُمۡ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٢٣﴾

قلت: (جاءتها): جواب «إذا»، وجملة (دعوا): بدل من «ظنوا» بدل اشتمال؛ لأن دعاءهم من لوازم الظن.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وإذا أذقنا الناسَ رحمةً ﴾، كصحة وعافية وخصب ﴿من بعد ضراء مستْهم ﴾، كمرض أو قحط ﴿إذا لهم مكرٌ في آياتنا ﴾ بالطعن فيها، والاحتيال في دفعها، فقد قحط أهل مكة حتى أكلوا الجلود والميتة، ثم رحمهم بالغيث، فطعنوا في آياته بالتكذيب، وكادوا رسوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ ﴿قل اللهُ أسرعُ مكراً ﴾ منكم، فقد دبر عقابكم قبل أن تدبروا كيدكم، ووصف مكر الله بالسرعة وإن كان الاستدراج يمهلهم؛ لأنه متيقن واقع لا محالة، وكل آتٍ قريب.

﴿ إنَّ رسلنا ﴾ الحفظة ﴿ يكتبون ما تمكرون ﴾ فتجازيكم عليه. قال البيضاوي: هو تحقيق للانتقام، وتنبيه على أن ما يدبرون في إخفائه لم يَخْفَ على الحفظة فضلاً أن يخفى على الله. وعن يعقوب: «يمكرون» بالياء ليوافق ما قبله. هـ. قال ابن جزي: هذه الآية للكفار، وتتضمن النهي لمن كان كذلك من غيرهم، والمكر هنا: الطعن في آيات الله وترك شكره، ومكر الله الموصوف بالسرعة هو عقابه لهم، سماه مكراً مشاكلة لفعلهم، وتسمية للعقوبة باسم الذنب. هـ.

فنزول الرحمة بعد الشدة آية تدل على كمال قدرته. وقد ورَدَ أنه لما نزل بهم القحط التجئوا إليه ﷺ وقالوا: يا محمد؛ إنك جئت تأمر بمكارم الأخلاق، وإن قومك قد هلكوا، فادع الله يغيثنا، فدعا، فنزل عليهم الغيث، فكانت معجزة له ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

ثم ذكر آية أخرى فقال: ﴿ هو الذي يُسيركم ﴾ بقدرته ﴿ في البرِّ والبحر، حتى إذا كنتم في الفلك ﴾: السفن، ﴿ وجَرَيْنَ بهم ﴾ بمن فيها، عدل عن الخطاب إلى الغيبة للمبالغة، كأنه تذكرة لغيرهم ليتعجب من حالهم، ففيه التفات. ومقتضى القياس: وجرين بكم ﴿ بريحٍ طيبةٍ ﴾: لينة الهبوب، ﴿ وفَرِحُوا بها ﴾ لسهولة السير بها، ﴿ جاءتها ريحٌ عاصفٌ ﴾ أي: شديد الهبوب، ﴿ وجاءهم الموجُ من كل مكانٍ ﴾ من كل جهة لهيجان البحر حينئذ، ﴿ وظنوا أنهم أُحيطَ بهم ﴾ أي: أهلكوا، أو سُدت عليهم مسالك الخلاص، كمن أحاط به العدو.

قال ابن عطية: ركوب البحر وقت حسن الظن به للجهاد والحج متفق على جوازه، وكذا لضرورة المعاش بالصيد ويتصرف للتجر، وأما ركوبه لطلب الدنيا والاستكثار فمكروه عند الأكثر. قلت: ما لم يكن لبلد تجرى فيه أحكام الكفار على المسلمين وإلا حرم. ثم قال: وأما ركوبه وقت ارتجاجه فممنوع، وفى الحديث: «من ركب البحر فى ارتجاجه فقد برِئَتْ منه الذمة» وقال النبى ﷺ: «البحر لا أركبه أبداً».

وعن على ـ كرم الله وجهه ـ أنه قال: لولا هذه الآية، لضربت عنق من يركب البحر. فقال ابن عباس: إنى لأعلم كلمات من قالهن عند ركوب البحر وأصابه عطب فعلىّ ديته، قيل: وما هى؟ قال: اللهم يا من له السموات خاشعة، والأرضون السبع خاضعة، والجبال الراسية طائعة، أنت خير حفظاً وأنت أرحم الراحمين، ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾(١) صلى الله على محمد النبى المصطفى، وعلى أهل بيته، وأزواجه وذريته، وعلى جميع النبيين والمرسلين، والملائكة المقربين، ﴿ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾(٢). قال بعض الفضلاء: جربته فصح. هـ.

ثم قال تعالى فى وصف الكفار عند إحاطة البحر بهم: ﴿ دعوا الله مخلصين له الدين ﴾ من غير إشراك؛ لتراجع الفطرة وزوال المعارض من شدة الخوف، قائلين: ﴿ لئن أنجيتنا من هذه ﴾ الشدة ﴿ لنكونن من الشاكرين ﴾، ﴿ فلما أنجاهم ﴾ إجابة لدعائهم ﴿ إذا هم يبغون فى الأرض ﴾ بالكفر والمعاصى، ﴿ بغير الحق ﴾ أى: سارعوا إلى ما كانوا عليه من البغى والفساد فى الأرض بغير الحق، واحترز بقوله: ﴿ بغير الحق ﴾ عن تخريب المسلمين ديار الكفرة، وإحراق زروعهم، وقلع أشجارهم، فإنها إفساد بحق. قاله البيضاوى. قلت: وفى كونه بغياً نظر، والأظهر أن قوله: ﴿ بغير الحق ﴾ تأكيد لا مفهوم له.

﴿ يأيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم ﴾ فإن وباله عائد عليكم، أو على أبناء جنسكم، وذلك ﴿ متاع الحياة الدنيا ﴾ تتمتعون به ساعة، ﴿ ثم إلينا مرجعكم ﴾ فى القيامة، ﴿ فننبئكم بما كنتم تعملون ﴾ بالجزاء عليه.

الإشارة: وإذا أذقنا الناس حلاوة المعرفة والعلم، بعد ضرر الجهل والغفلة، إذا لهم مكر فى آياتنا وهم الأولياء والمشايخ، الذين فتح الله بسببهم عليهم ـ بالطعن عليهم والانتقال عنهم، كما يفعله بعض المريدين، أو جُلُّ طلبة

---

(٢) الآية ٦٧ من سورة الزمر.

(٣) الآية ٤١ من سورة هود.

العلم، بنسيان مشايخهم ونسيان العهد إليهم، قل الله أسرع مكراً بهم، فيريهم أن الأمداد باقية، تجرى عليهم استدراجاً، ثم يحبس ذلك عنهم فتيبس أشجار معانيهم، وتظلم قلوبهم.

ثم قال تعالى: ﴿ هو الذي يُسيركم ﴾ إليه في بر الشريعة، وبحر الحقيقة، فيقع السير بينهما، فإذا كانت الشريعة أقوى نقص له منها وزاد في حقيقته، وإذا قويت حقيقته نقص له منها إلى شريعته، هكذا حتى تعتدلا، فتكمل تربيته، فإذا ركبوا سفن الأفكار وساروا بأرواحهم في تيار البحار، فخاضوا بأفكارهم بحار التوحيد وأسرار التفريد، وجرت أفكارهم في عالم الملكوت بريح طيبة ـ وهي ريح السلوك ـ جاءتها ريح عاصف، وهي الواردات الإلهية، تأتي من حضرة القهار، لا تصادم شيئاً إلا دمغته، فإذا خافوا على نفوسهم صدمات الجذب أو المحو؛ دَعوا الله مخلصين له الدين، فلما ردهم إلى السلوك اشتغلوا برياضة نفوسهم بالمجاهدة والمكابدة، فيغوا عليها كما بغت عليهم في أيام غفلتهم. وبالله التوفيق.

ثم حذّر من زهرة الدنيا، فقال:

﴿ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ إنما مَثَلُ الحياةِ الدنيا ﴾ في سرعة تقضيها، وذهاب نعيمها بعد إقبالها، واغترار الناس بها ﴿ كماءٍ أنزلناه من السماءِ فاختلط ﴾ أي: اشتبك ﴿ به نباتُ الأرضِ ﴾ حتى اختلط بعضه ببعض، ﴿ مما يأكلُ الناسُ والأنعام ﴾ من الزرع والبقول والحشيش، ﴿ حتى إذا أخذت الأرضُ زخرفها ﴾ أي: زينتها وبهجتها بكمال نباتها، ﴿ وازّينتْ ﴾ أي: تزينت بأصناف النبات وأشكالها وألوانها المختلفة؛ كعروس أخذت من ألوان الثياب والحلي فتزينت بها.

﴿ وظنَّ أهلُها ﴾ أي: أهل الأرض ﴿ أنهم قادرُون عليها ﴾ متمكنون من حصدها ورفع غلتها، ﴿ أتاها أمرُنا ﴾ أي: بعض الجوائح، كالريح والمطر، ﴿ ليلاً أو نهاراً فجعلناها ﴾ أي: زرعها ﴿ حصيداً ﴾: شبيهاً بما

حصد من أصله، ﴿ كأن لم تغنَ ﴾: كأن لم تقم ﴿ بالأمس ﴾، أو كأن لم يغن زرعها، أى: لم ينبت. والمراد: تشبيه الدنيا فى سرعة انقضائها بنبات احضرّ ثم صار هشيماً، ﴿ كذلك نفصّلُ الآيات لقوم يتفكرون ﴾ ويتدبرون عواقب الأمور، فيعلمون أن الدنيا سريعة الزوال، وشيكة التغير والانتقال، فيزهدون فيها ويجعلونها مزرعة لدار السلام، التى هى دار البقاء.

وهى التى دعا إليها عباده بقوله: ﴿ والله يدعو إلى دار السلام ﴾ أى: السلامة من الفناء وجميع الآفات، أو دار الله الذى هو السلام. وتخصيص هذا الاسم للتنبيه على ذلك، أو دار يُسلم اللهُ والملائكةُ فيها على من يدخلها، وهى الجنة، ﴿ ويهدى من يشاء ﴾ توفيقَه ﴿ إلى صراط مستقيم ﴾، التى توصل إليها وإلى رضوانه فيها، وهو الإسلام والتدرُّع بلباس التقوى، وفى تعميم الدعوة وتخصيص الهداية بالمشيئة دليل على أن الأمر غير الإرادة، وأن المُصِرّ على الضلالة لم يرد الله رشده. قاله البيضاوى.

الإشارة: ماذكره الحق تعالى فى هذه الآية هو مثال لمن صرف همته إلى الدنيا، وأتعب نفسه فى جمعها، فبنى وشيد وزخرف وغرس، فلما أشرف على التمتع بذلك اختطفته المنية، فلا ما كان أمّل أدرك، ولا إلى ما فاته من العمل الصالح رجع.

وفى بعض خطبه ـ عليه الصلاة والسلام ـ أنه قال: «أما رأيتم المؤاخَذين على الغِرة، المزعَجين بعد الطمأنينة، الذين أقاموا على الشبهات، وجنحوا إلى الشهوات، حتى أتتهم رسلُ ربهم، فلا ما كانوا أمّلوا أدركوا، ولا ما فاتهم رجعوا، قدموا على ما قدّموا، وندموا على ما خلفوا، ولم ينفع الندم وقد جف القلم». وقال أيضا ﷺ: «لا تخدعنكم زخارف دنيا دنية عن مراتب جنات عالية، فكأنْ قد كشف القناع، وارتفع الارتياب ولاقى كل امرىء مستقره، وعرف مثواه ومنقلبه».

ورُوى عن جابر رضي الله عنه أنه قال: شهدت مجلساً من مجالس رسول الله ﷺ، إذ أتاه رجل أبيض، حسن الشعر واللون، فقال: السلام عليك يا رسول الله، قال: وعليك السلام. قال: يارسول الله، ما الدنيا؟ فقال: حلم النائم، وأهلها مجازَون ومعاقبون. قال: يارسول الله، فما الآخرة؟. قال: الأبد، فريق فى الجنة، وفريق فى السعير، قال: يارسول الله، فما الجنة؟ قال: ترك الدنيا بنعيمها أبداً، ثم قال: فما خير هذه الأمة؟ قال: الذى يعمل بطاعة الله، قال: فكيف يكون الرجل فيها؟ ـ أى فى الدنيا ـ قال: متشمراً كطالب قافلة، قال: وكم القرار بها؟ قال: كقدر المتخلف عن القافلة، قال: فكم ما بين الدنيا والآخرة؟ قال كغمضة عين. ثم ذهب الرجل فلم يُر، فقال ﷺ: «هذا جبريل، أتاكم يزهدكم فى الدنيا».

وقال الورتجبي عند قوله: ﴿ والله يدعو إلى دار السلام ﴾ : الله تعالى يدعو العبادَ من هذه الدار الفانية إلى الدار الباقية، لئلا يفتتنوا بزخرفها وغرورها، وليصلوا إلى جواره ونعيم مشاهدته. هـ.

قال المحشي: قلت: وذلك أن أعلى اللذات التحقق بصفات الربوبية، وهي محبوبة للقلب والروح بالطبع، لما فيه من المناسبة لها. ولذلك قال: ﴿ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾(١)، ثم المناسب إنما هو بقاء لافناء فيه، وعز لا ذل فيه، وغنى لا فقر فيه، وكمال لا نقص فيه، وأمن لا خوف فيه، وهذا كله من أوصاف الربوبية، وحق كل عبد أن يطلب ملكًا عظيما لا آخر له، ولا يكون ذلك في الدنيا لانصرافها وشوبها بآلام مكدّرات، وإنما ذلك في الآخرة، ولكن الشيطان بتلبيسه وحسده يدعو إلى مالا يدوم من العاجلة، متوسلاً بما في الطبع من العجلة، والله يدعو إلى المُلك الحقيقي، وذلك بالزهد في العاجل والراحة منه عاجلاً، ليكون ملكا في الدنيا، وبالقرب من الله والرغبة في التحقق به وبأوصافه ليكون ملكاً في الآخرة.

وفي الطيبي: قيل لابن أدهم: مالنا ندعو فلا نجاب؟ فقال: لأنه دعاكم فلم تجيبوه، ثم قرأ: ﴿ والله يدعوا إلى دار السلام ﴾ ، ﴿ وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾(٢). هـ.

ثم فسر ما دعا إليه، فقال:

﴿ ۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٦) ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ للذين أحسنوا ﴾ فيما بينهم وبين ربهم بتوحيده وعبادته، وفيما بينهم وبين عباده بكف أذاهم وحمل جفاهم، لهم ﴿ الحسنى ﴾ أي: المثوبة الحسنى، وهي الجنة وزيادة، وهي النظر إلى وجهه الكريم، أو الحسنى: ما يثيب به على العمل، والزيادة: ما يزيد على ما يستحق العبد تفضلاً كقوله: ﴿ ويزيدهم من فضله ﴾(٣)، أو الحسنى: مثل حسناتهم، والزيادة: التضعيف بعشر أمثالها إلى سبعمائة أو أكثر، ﴿ ولا يرهقُ وجوهَهم ﴾: لا يغشاها ﴿ قَتَرٌ ﴾: غبرة فيها سواد تغير الوجه ﴿ ولا ذلّةٌ ﴾ أي: هوان، والمعنى لايرهقهم ما يرهق أهل النار، أو لا يرهقهم ما يوجب ذلك من خزي وسوء حال، ﴿ أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون ﴾: دائمون، لا زوال لهم عنها، ولا انقراض لنعيمها، بخلاف الدنيا وزخارفها فقد تقدم مثالها .

(١) من الآية ٨٥ من سورة الإسراء.
(٢) الآية ٢٦ من سورة الشورى.
(٣) من الآية ١٧٣ من سورة النساء.

الإشارة: للذين أحسنوا بالانقطاع إلى الله والزهد فيما سواه، الحسنى، وهى المعرفة، وزيادة، وهى الترقى فى المقامات، والعروج فى سماء المشاهدات، والازدياد من الأسرار والمكاشفات، وترداف المناجاة والمكالمات، ولايغشى وجوههم قتر ولا ذلة، بل وجوههم بنور البقاء ضاحكة مستبشرة، وهم خالدون فى نعيم الفكرة والنظرة.

ثم ذكر أضدادهم، فقال:

﴿ وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثۡلِهَا وَتَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۖ كَأَنَّمَآ أُغۡشِيَتۡ وُجُوهُهُمۡ قِطَعٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مُظۡلِمًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾

قلت: (والذين): مبتدأ على حذف مضاف، أى: جزاء الذين كسبوا، و(جزاء): خبر. أو على تقدير «لهم»، أو معطوف على (للذين أحسنوا) على مذهب من يجوز: فى الدار زيد والحجرةِ عمرو. أو (جزاء): مبتدأ، و(بمثلها): خبر، والجملة حينئذ كبرى. ومن قرأ (قِطَعا) بفتح الطاء فجمع قطيع، وهو مفعول ثان، و(مظلما): حال من الليل، ومن قرأ (قِطْعا) بالسكون فمصدر، و(مظلما) نعت له، أو حال منه أو من الليل.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ والذين كسبوا السيئات ﴾ كالكفر والشرك، وما يتبعهما من المعاصى، جزاؤهم ﴿ سيئة بمثلها ﴾ لا يزاد عليها، فلا تضاعف سيئاتهم، عدلاً منه سبحانه، ﴿ وترهقُهم ذِلةٌ ﴾ أى: هوان عند حشرهم للنار، ﴿ مالهم من الله من عاصم ﴾ يعصمهم من عذاب الله وغضبه، ﴿ كأنما أغشيت وجوهُهم قِطَعاً من الليل مظلماً ﴾ أى: يحشرون مسودة وجوههم، كأنما أُكْسِيَتْ وجوههم قِطَعاً كثيرة من الليل المظلم، أو قِطْعاً مظلماً من الليل، ﴿ أولئك أصحابُ النار هم فيها خالدون ﴾.

قال البيضاوى: هذا مما يحتج به الوعيدية - يعنى المعتزلة - فى تخليد العصاة. والجواب: أن الآية فى الكفار؛ لاشتمال السيئات على الكفر والشرك، ولأن الذين أحسنوا يتناول الكثير من أهل القبلة، فلا يتناوله قسيمه. هـ.

الإشارة: جزاء المعاصى البُعد والهوان، وتسْويد وجوه القلوب والأبدان، كما أن جزاء الطاعة التقريب والإبرار، وتنوير وجوه القلوب والأسرار والإحسان، وفى ذلك يقول ابن النحوى فى منفرجته:

وَمَعَاصِـي اللهِ سَـمَاجَتُها تَزْدَانُ لِذِي الخُلُقِ السَّمِجِ(١)

وَلِطَاعَتِـهِ وَصَبَاحَتِـها أَنْـوَارُ صَبَـاحٍ مُنْبَلِجِ

---

(١) سماجتها: من سمج - بالضم - أى: قبح - وتزدان، أى: تتزين وتحسن، والسمج: القبيح.

قيل لبعض الصالحين: ما بال المجتهدين من أحسن الناس خَلْقاً؟ قال: لأنهم خلَوْا بالرحمن فألبسهم نوراً من نوره. هـ. نعم، إن صحب المعصيةَ توبةٌ وانكسارٌ، وصحب الطاعة عز واستكبارٌ، انقلبت حقيقتهما، فقد تُقرب المعصية وتبعد الطاعة. وفي الحكم: «معصية أورثت ذلاً وافتقاراً خير من طاعة أورثت عزاً واستكباراً» وقال أيضا: «وربما قضى عليك بالذنب فكان سبب الوصول».

ثم ذكر موطن وعد المحسنين ووعيد المسيئين، فقال:

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾

قلت: (مكانكم): مفعول، أي: الزموا مكانكم، و(أنتم) تأكيد للضمير المنتقل إليه، و(شركاؤكم) عطف عليه.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ و ﴾ اذكر ﴿ يوم نحشرهم جميعاً ﴾ يعني فريق الحسنى، وفريق النار، ﴿ ثم نقول للذين أشركوا ﴾: الزموا ﴿ مكانكم ﴾ من الخزى والهوان، حتى تنظروا ما يُفعل بكم، ﴿ أنتم وشركاؤُكم ﴾ معكم، تمثل حينئذ معهم، ﴿ فَزَيَّلْنَا ﴾: فرقنا ﴿ بينهم ﴾ وقطعنا الوُصل التي كانت بينهم، ﴿ وقال شركاؤهم ﴾، ينطقها الله تعالى تكذيباً لهم فتقول: ﴿ ما كنتم إيَّانا تعبدون ﴾، وإنما عبدتم في الحقيقة أهواءكم؛ لأنها الأمارة لكم بالإشراك. وقيل المراد بالشركاء: الملائكة والمسيح.

﴿ فكفى بالله شهيداً بيننا وبينكم ﴾، فإنه العالم بحقيقة الحال، ﴿ إن كنا ﴾ أي: إنه الأمر والشأن كنا ﴿ عن عبادتكم لغافلين ﴾، لم نأمركم بها ولم نرضها. قال ابن عطية: وظاهر هذه الآية أن محاورتهم إنما هي مع الأصنام دون الملائكة وعيسى، بدليل القول لهم: ﴿ مكانكم أنتم وشركاؤكم ﴾. ودون فرعون، ومن عُبد من الجن، بدليل قوله: ﴿ إن كنا عن عبادتكم لغافلين ﴾، وهؤلاء لم يغفلوا قط عن عبادة من عبدهم. هـ.

﴿ هنالك تَبلُوا ﴾: في ذلك المقام تبلوا ﴿ كلُّ نفسٍ ما أسلفتْ ﴾ أي: تختبر ما قدمت من الأعمال خيراً أو شراً، فتعاين نفعه وضرره، وقرأ الأخوان: «تتلوا» من التلاوة، أي: تقرأه في صحائف أعمالها، أو من التلو، أي: تتبع عملها فتقودها إلى الجنة أو إلى النار. والمعنى: تفعل بها فعل المختبر لحالها المعرِّف لسعادتها وشقاوتها،

فتعرف ما أسلفت من أعمالها، ﴿ وردُّوا إلى الله ﴾ : إلى جزائه إياهم بما أسلفوا، ﴿ مولاهُمُ الحقّ ﴾ أى متولّى أمورهم على الحقيقة، لا ما اتخذوه مَولى بافترائهم، ﴿ وضلَّ ﴾ أى: ضاع وغاب ﴿ عنهم ما كانوا يفترون ﴾ من أن آلهتهم تشفع لهم، أو ما كانوا يدّعون أنها آلهة.

الإشارة: من أحب شيئاً كان عبداً له، ومن عبد شيئاً حُشر معه. رُوى: أن الدنيا تبعث على صورة عجوز شمطاء زرقاء، تنادى: أين أولادى وأحبابى؟ ثم تذهب إلى جهنم فيذهبون معها. فمن عبد دنياه وهواه وقف موقف الهوان، ومن أحب مولاه ولم يحب معه شيئاً سواه، وقف موقف العز والتقريب في مواطن الإحسان. فهناك تفضح السرائر، وتكشف الضمائر، وتظهر مقامات الرجال، ويفتضح من أسر النقص وادعى الكمال فيرتفع المقربون إلى شهود مولاهم الحق، ويبقى المدعون مع حظوظهم في حجاب الحس والخلق. والله تعالى أعلم.

ثم عرفهم من يستحق العبادة، فقال:

﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله : ﴿ قل ﴾ لهم: ﴿ من يرزقُكُم من السماء ﴾ بإنزال الأمطار، وإنبات الحبوب، فإن الأرزاق تحْصل بأسباب سماوية ومواد أرضية، أو من كل واحد منهما؛ توسعة عليكم، أو من السماء لأهل التوكل، ﴿ و ﴾ من ﴿ الأرض ﴾ لأهل الأسباب. وقل لهم أيضا: ﴿ أمَّن يملك السمعَ والأبصارَ ﴾ أى: من يستطيع خلقَهما وتسويتهما، أو من يحفظهما من الآفات مع كثرتهما، وسرعة انفعالهما من أدنى شيء، أو مَن أمرُهما بيده، إن شاء ذهب بهما؟ وقل لهم أيضا: ﴿ ومن ﴾ يقدر أن ﴿ يُخرج الحيَّ من الميت ويخرجُ الميت من الحيِّ ﴾، فيخرج الحيوان من النطفة، والنطفة من الحيوان؟ وهكذا.

وقل لهم أيضا: ﴿ ومن يُدبِّرُ الأمرَ ﴾ أى: ومن يلى تدبير العالم، من عرشه إلى فرشه؟ وهو تعميم بعد تخصيص، ﴿ فسيقولون الله ﴾ ، لا محيص لهم عن الإقرار بسواه؛ اذ لا يقدرون على المكابرة والعناد فى ذلك؛ لفرط وضوحه. ﴿ فقل أفلا تتقون ﴾ عقاب الله وغضبه؟ بسبب إشراككم معه ما لا يشاركه فى شيء من ذلك، ﴿ فذلكم الله ربكم الحقُّ ﴾ أى: المتولى لهذه الأمور هو ربكم، الذى يستحق أن تعبدوه، الثابت ربوبيته، لأنه هو

الذى أنشأكم وأحياكم ورزقكم ودبر أموركم، دون من تعبدونه من الأوثان. ﴿ فماذا بعد الحقِّ إلا الضلال ﴾ أى: ليس بعد الحق إلا الضلال، فمن تخطى الحق ـ الذى هو عبادة الله ـ وقع فى الضلال.

قال ابن عطية: حكمت هذه الآية بأنه ليس بين الحق والضلال منزلة ثالثة فى هذه المسئلة ـ التى هى توحيد الله تعالى ـ وكذلك هو الأمر فى نظائرها، وهى مسائل الأصول التى الحقّ فيها فى طرف واحد، لأن الكلام فيها إنما هو فى تقرير وجود ذات كيف هى، وذلك بخلاف مسائل الفروع التى قال تعالى فيها: ﴿ لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ﴾(١) . هـ.

﴿ فأنَّى تُصْرَفُون ﴾ عن الحق إلى الضلال.

﴿ كذلك حقت كلمت ربك على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون ﴾ أى: كما تحق الحق فى الاعتقادات؛ ﴿ كذلك حقتْ ﴾ أى: وجبت وثبتت ـ ﴿ كلمتُ ربك ﴾ فى اللوح المحفوظ ﴿ أنهم لا يؤمنون ﴾، وذلك فى قوم مخصوصين. قال البيضاوى: أى: كما حقت الربوبية لله، أو أن الحق بعده الضلال، أو أنهم مصروفون عن الحق، كذلك حقت كلمة الله وحكمه ﴿ على الذين فسقوا ﴾: تمردوا فى كفرهم، وخرجوا عن حد الإصلاح ﴿ أنهم لا يؤمنون ﴾ ، وهو بدل من الكلمة، أو تعليل لها، والمراد بها العِدَة بالعذاب. وقرأ نافع وابن عامر: «كلمات» بالجمع هنا، وفى آخر السورة، وفى غافر(٢) . هـ.

الإشارة: قل من يرزقكم من سماء الأرواح علوم الأسرار والحقائق، ومن أرض النفوس علوم الشرائع والطرائق؟ أمَّن يملك السمع والأبصار فيصرفهما إلى سماع الوعظ والتذكار، ونظر التفكر والاعتبار؛ ليلتحق صاحبهما بالمقربين الأبرار؟وقدّم السمع لأنه أنفع لإيصال النفع إلى القلب من البصر. أم من يخرج الحى من الميت، فيخرج العارف من الجاهل، والذاكر من الغافل، أو يخرج القلب الحى من الميت؛ بحيث يحييه بالمعرفة بعد الجهل؟ ومن يدبر الأمر لخواص عباده؟ أى: تدبيراً خاصاً، بحيث يقوم لهم بتدبير شئونهم، حيث لم يدبروا معه. فمن لم يدبر دبر له، فالفاعل لهذه الأمور هو الحق المنفرد بالوجود، فكل ما سواه باطل، كما قال القائل:

أَلا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلاَ اللّه بَاطِلُ ... وَكُلُّ نَعِيمٍ لا مَحَالَةَ زَائِلُ

قال ﷺ « أَصْدَقُ كَلِمَةٍ قَالَهَا الشاعِرُ كَلِمَةُ لَبِيدٍ: أَلا كُلُّ شَيْءٍ ... »الخ(٣) . فكل من صُرف عن شهود الحق إلى نظر السِّوى فهو فى ضلال. قال تعالى ﴿ فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنى تصرفون ﴾، لكن من حقت عليه

(١) الآية ٤٨ من سورة المائدة. (٢) فى قوله تعالى : ﴿وكذلك حقت كلمت ربك على الذين كفروا أنهم أصحاب النار﴾ الآية /٦.
(٣) راجع إشارة الآية ١٥٠ من سورة البقرة.

كلمة الشقاء لا يُؤمن بأهل الفناء والبقـــاء، فلا يزال في تعب وشقاء، إذ لا طريق إلى شهود الحق وإفراده بالوجود إلا بصحبة أهل الفناء والبقاء، الموصوفين بالكرم والجود، واعلم أن كل من لم يصل إلى مقام الشهود، فهو ضال عندهم في مذهبهم، وبالله التوفيق.

ثم ذكر عجز آلهتهم، احتجاجاً عليهم، فقال:

﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

قلت: من قرأ (يَهَدِّي)[1] بفتح الهاء، فأصله: يهتدي، نقلت حركة التاء إلى الهاء، وأدغمت في الدال. ومن قرأ بكسر الهاء فعلى التقاء الساكنين، حين سكنت التاء لتدغم، ومن كسر الياء فعلى الاتباع، ومن قرأ بالاختلاس فإشارة إلى عروض الحركة، ومن قرأ: «يهْدي» بالسكون، فمعناه يهدى غيره.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ قل ﴾ لهم: ﴿ هل من شركائكم من يبدأُ الخلقَ ﴾ بإظهاره للوجود ﴿ ثم يُعيده ﴾ بالبعث. فإن قلت كيف يحتج عليهم بالإعادة، وهم لا يعترفون بها؟ فالجواب: أنها لظهور برهانها وتواتر أخبارها كأنها معلومة عندهم، فلو أنصفوا ونظروا لأقروا بها، ولذلك أُمر الرسول بأن ينوب عليهم في الجواب، فقال: ﴿ قل اللهُ يبدأُ الخلق ثم يُعيده ﴾؛ لأن لجاجهم وجحودهم لا يتركهم يعترفون بها، ولذلك قال لهم: ﴿ فأنى تُؤفكون ﴾: تُصرفون عن سواء السبيل. و﴿ قل ﴾ لهم أيضاً: ﴿ هل من شركائكم من يهدي إلى الحق ﴾ بنصب الدلائل، وإرسال الرسل، والتوفيق للنظر والتدبر؟ ﴿ قل اللهُ يهدى للحق ﴾. قال البيضاوي: وهدى كما يعدى بإلى؛ لتضمنه معنى الانتهاء، يعدى باللام للدلالة على منتهى غاية الهداية. انظر تمامه.

﴿ أفمن يَهدى إلى الحق ﴾ وهو الله ﴿ أحقُّ أن يُتبع أمَّن لا يهدى ﴾ إلى شيء، فأولى ألا يهدى غيره ﴿ إلا أن يُهدى ﴾؟ أي: إلا أن يهديه غيره، وهي معبوداتهم، كالملائكة والمسيح وعزير، فلا يستطيعون أن يهدوا أنفسهم إلا أن يهديهم الله. وحمل ابن عطية الآية على الأصنام، وقال: معنى قوله: ﴿ أمن لا يهدى إلا أن يهدى ﴾ هي

(١) في قوله تعالى: «أمن لا يهدي». وقد قرأ حفص ويعقوب بفتح الياء وكسر الهاء وتشديد الدال، وقرأ ابن كثير وابن عامر وورش بفتح الياء والهاء وتشديد الدال. وقرأ أبو بكر بكسر الياء والهاء، وقرأ حمزة والكسائي بفتح الياء وإسكان الهاء وتخفيف الدال. وقرأ قالون وأبو عمرو بفتح الياء وتشديد الدال، واختلف في الهاء عنهما.. انظر الإتحاف (٢/١٠٩).

عبارة عن أنها لا تنتقل إلاَّ أن تنقَل. قال: ويحتمل أن يكون ما ذكره الله من تسبيح الجمادات؛ هو امتداؤه. ويحتمل أن يكون الاستثناء في اهتدائها إشارة إلى مناكرة الكفار يوم القيامة حسبما مضى في هذه السورة. هـ.
﴿ فما لكم كيف تحكمون ﴾ أي: أيُّ شيء حصل لعقولكم، فكيف تحكمون بشيء يقتضي العقل بطلانه بأدنى تفكر؟.

الإشارة: في الآية تحريض على رفع الهمة عن السِّوى، إلى من بيده البدء والإعادة، والإرشاد والهداية، إلا من جعل على يديه الإرشاد والهداية، وهم الأنبياء والأولياء والعلماء الأتقياء، فالخضوع إليهم خضوع إلى الله على الحقيقة، واتباعهم اتباع لله على الحقيقة، وكل من تبع غيرهم فإنما يتبع الظن والهوى دون الحق، كما أبان ذلك بقوله تعالى:

﴿ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ (٣٦) ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وما يتبع ﴾ أكثر المشركين في اعتقادهم ﴿ إلا ظَنًّا ﴾ مستنداً إلى خيالات فارغة وأقيسة فاسدة، كقياس الغائب على الشاهد، والخالق على المخلوق، بأدنى مشاركة موهومة. والمراد بالأكثر: الجميع، أو من ينتسب منهم إلى تمييز ونظر، ولم يرض بالتقليد الصرف، ﴿ إن الظنَّ لا يغني من الحق ﴾؛ من علم التحقيق ﴿ شيئا ﴾، أو ﴿ من ﴾ الاعتقاد ﴿ الحق شيئا ﴾ من الإغناء. قال البيضاوي: وفيه دليل على أن تحصيل العلم في الأُصول واجب، وأن الاكتفاء بالتقليد والظن غير جائز. هـ. وعدم الاكتفاء بالظن إنما هو في الأصول، وأما الفروع فالظن فيها كاف. ﴿ إن الله عليم بما يفعلون ﴾، هذا وعيد لهم على اتباعهم الظن، وإعراضهم عن النظر والاستدلال، وعلى عدم اتباعهم من يدلهم على الحق. والله تعالى أعلم.

الإشارة: الناس على قسمين: أهل تصديق وإيمان، وأهل شهود وعيان. فأهل التصديق والإيمان هم عامة أهل اليمين، وهم أكثر المسلمين من العلماء والصالحين، يستندون في معرفتهم بالله إلى الدليل والبرهان، فتارة يقوى عندهم الدليل فيترقَّون عن اتباع الظن إلى الجزم والتصميم، وتارة يضعف فيرجعون إلى اتباع الظن الراجح.

وأما أهل الشهود والعيان، فقد غابت عنهم الأكوان في شهود المكوِّن، فصاروا يستدلون بالله على وجود غيره، فلا يجدونه، حتى قال بعضهم: لو كُلفت أن أرى غيره لم أستطع، فإنه لا غير معه حتى أشهده، محال أن تشهده وتشهد معه سواه. وقال شاعرهم:

مذْ عرفْتُ الإلَـه لَم أرَ غَـيْرا   وَكذَا الغيْرُ عِندَنا ممْنُوعُ
مُذْ تَجمَّعْتُ ماخَشيتُ افْتِرَاقًا   فَأنَا اليَوم وَاصِلٌ مَجْمُوعُ

وقال آخر:

عجبتُ لِمَنْ يبْغِي عليْكَ شِهادَةً وأنْتَ الذِى أشْهَدْتَه كُلَّ شاهِد

وقال فى الحكم: «شتان بين من يستدل به أو يستدل عليه، المستدل به عرف الحق لأهله، فأثبت الأمر من وجود أصله، والاستدلال عليه من عدم الوصول إليه، وإلا .. فمتى غاب حتى يستدل عليه، ومتى بَعُدَ حتى تكون الآثار هى التى توصل إليه!».

ولا مطمع لأحد فى التطهير من الظنون والأوهام إلا بصحبة شيخ كامل عارف بالله، فيلقى إليه نفسه، فلايزال يسير به، حتى يقول له: ها أنت وربك، فحينئذ ترتفع عنه الشكوك والظنون والأوهام، ويبلغ فى مشاهدة الحق إلى عين اليقين وحق اليقين. وأما قول الجنيد رضي الله عنه: (أدركت سبعين صديقا، كلهم يعبدون الله على الظن والوهم، حتى الشيخ أبا يزيد، ولو أدرك صبياً من صبياننا لأسلم على يديه) . فقال الشيخ أبو العباس المرسى رضي الله عنه: معنى كلامه: أنهم ظنوا وتوهموا أنهم بلغوا إلى مقام النهاية، بحيث لا مقام فوق ذلك، ولو أدرك أحدُهم صبياً لنبههم على أن ما فاتهم أكثر مما أدركوا ولا نقادوا له. هـ بالمعنى. والله تعالى أعلم.

ولما ذكر أن اتباع الظن غير كاف، ذكر ما يجب اتباعه وهو القرآن، فقال:

﴿ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾ وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾

قلت: «تصديق»: مصدر، والعامل فيه «كان» محذوفة، أو «أنزل»، و«لا ريب»: خبر ثالث لها، و«من رب العالمين»: خبر آخر، أى: كائناً من رب العالمين، أو متعلق بتصديق أو بتفصيل، و«لا ريب»: اعتراض، أو بالفعل المعلل بهما ـ وهو «نزل» ـ ويجوز أن يكون حالاً من «الكتاب»، أو من الضمير فى «فيه»، و«أم»: منقطعة بمعنى بل مع الاستفهام الإنكارى، و«كيف» خبر كان.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وما كان هذا القرآنُ أن يُفترى من دون الله ﴾ أى: ما صح له أن يفترى من الخلق، إذ لا قدرة له على ذلك، ﴿ ولكن ﴾ كان ﴿ تصديقَ الذى بين يديه ﴾ من الكتب، أو: ولكن أنزله تصديقاً

لما سلف قبله من الكتب الإلهية، المشهود على صدقها؛ لأنه مطابق لها، فلا يكون كذباً، كيف وهو لكونه معجزاً عيار عليها، شاهد على صحتها؟ ﴿ وتفصيلَ الكتابِ ﴾ أي: وأنزله تفصيلَ ما حقق وأثبت من العقائد والشرائع، التي تضمنها الكتاب، ﴿ لا ريبَ فيه ﴾: لا ينبغي أن يرتاب فيه؛ لما احتفت به من شواهد الحق، وارتياب الكفار فيه كلا ريب. كائناً ﴿ من ربِّ العالمين ﴾، أو نزل منه.

﴿ أمْ ﴾: بل ﴿ يقولون افتراه ﴾ محمد من عند نفسه؟ ﴿ قل فأتُوا ﴾ أنتم ﴿ بسورةٍ مثله ﴾ في البلاغة وحسن النظم، وجودة المعنى، فإنكم مثلي في العربية والفصاحة، ﴿ وادعوا من استطعتم ﴾: مَنْ قدرتم عليه من الجن والإنس، يُعينكم على ذلك، ﴿ من دون الله ﴾ فإنه وحده قادر على ذلك، ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ أنه مفترىً.

﴿ بل كذّبوا ﴾ أي: سارعوا إلى التكذيب ﴿ بما لم يُحيطُوا بعلمه ﴾ وهو القرآن، بحيث لم يستمعوه، ولم يتدبروا آياته ويحيطوا بالعلم بشأنه، حتى يعلموا أحق هو أم لا، أونما جهلوه ولم يحيطوا به علماً، من ذكر البعث والجزاء، وسائر ما يخالف دينهم، ﴿ ولمَّا يأتهم تأويلُهُ ﴾ أي: ولم يقفوا بعدُ على تأويله، ولم تبلغ أذهانهم معانيه، أو لم يأتهم بعدُ تأويلُ ما فيه من الإخبار بالغيوب، حتى يتبين لهم أنه صدق أو كذب، والمعنى: أن القرآن معجز من جهة اللفظ والمعنى، ثم إنهم فاجئوا تكذيبه قبل أن يتدبروا نظمه، ويتصفحوا معناه.

ومعنى التوقع في ﴿ لمَّا ﴾ : أنه قد ظهر بالآخرة إعجازه؛ لمَا كرر عليهم التحدّي؛ فزادوا أذْهانهم في معارضته؛ فتضاءلت دونها، أو لمَا شاهدوا وقوع ما أخبر به طبق ما أخبر مراراً فلم يقلعوا عن التكذيب تمرداً وعناداً. قاله البيضاوي. قال ابن جزي: لمَا يأتهم مافيه من الوعيد لهم، أي: وسيأتيهم يوم القيامة أو قبله. ﴿ كذلك كذّبَ الذين مِن قبلهم ﴾ أنبياءهم، ﴿ فانظر كيف كان عاقبةُ الظالمين ﴾، فيه وعيد لهم بمثل ما عوقب به من قبلهم.

﴿ ومنهم ﴾ من المكذبين ﴿ من يؤمن به ﴾ أي: يصدق به في نفسه ويعلم أنه حق ولكن يعاند، أو مَن يؤمن به ويتوب عن كفره، ﴿ ومنهم من لا يؤمن به ﴾ في نفسه لفرط غباوته وقلة تدبره، أولا يؤمن فيما يستقبل فيموت على كفره، ﴿ وربك أعلم بالمفسدين ﴾: بالمعاندين أو المصرِّين.

الإشارة: إذا تطهرت القلوب من الأغيار، وتصفَّتْ من الأكدار، أوحي إليها بدقائق العلوم والأسرار، وما كان لتلك العلوم أن تُفترى من دون الله؛ ولكن تكون تصديقاً لما قبلها من علوم القوم وأسرارها، التي يهبها الله لأوليائه، وفيها تفصيل طريق السير، وما أوجبه الله على المريدين من الآداب، وشروط المعاملة، فمن طعن في ذلك فليأت بشيء من ذلك من عند نفسه، ويستعنْ على ذلك بأبناء جنسه، بل كذّب بمالم يُحط به علمُه، ولم يبلغه عقلُه

وفهمه، فإن كشفت عند الله الحقائق ظهر تأويل ما ينطق به أهل الحقائق، ومن الناس من يؤمن بهذه الأسرار، ومنهم من لا يؤمن بها ويطعن على أهلها، حتى ربما رموهم بالزندقة لأجلها، وربك أعلم بالمفسدين.

ثم أمر نبيه بالبراءة ممن كذبه، فقال:

﴿ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَٰكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾

قلت : «من» الموصولة لفظها مفرد، ومعناها واقع على الجمع أو غيره، فإن عاد الضمير عليها جاز فيه مراعاة المعنى ومراعاة اللفظ، فقوله: ﴿ومنهم من يستمعون﴾ راعى جانب المعنى، وقوله: ﴿ومنهم من ينظر﴾ راعى جانب اللفظ، فإن راعى أولاً اللفظ جاز أن يرجع إلى مراعاة المعنى، كقوله: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا ﴾[1] وأما إن راعى أولاً المعنى فلا يرجع إلى مراعاة اللفظ؛ لأن مراعاة المعنى أقوى. انظر الإتقان.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وإن كذبوك ﴾؛ كذبك قومك بعد إلزام الحجة لهم ﴿ فقل ﴾ لهم: ﴿ لى عملى ولكم عملكم ﴾ أى: فتبرأ منهم وقل لهم: لى جزاء عملى، ولكم جزاء عملكم، حقا كان أو باطلا، ﴿ أنتم بريئون مما أعمل وأنا برئ مما تعملون ﴾، لا تؤاخذون بعملى ولا أؤاخذ بعملكم، ولأجل ما فيه من إيهام الإعراض عنهم وتخلية سبيلهم قيل: إنه منسوخ بآية السيف.

﴿ ومنهم من يستمعون إليك ﴾ إذا قرأت القرآن، أو علمت الشرائع، ولكن لا يقبلون، كالأصم الذى لا يسمع أصلاً، ﴿ أفأنت تُسمع الصُّم ﴾ تقدر على إسماعهم ﴿ ولو كانوا لا يعقلون ﴾ أى: ولو انضم إلى صممهم فَقْدُ عقولهم، فهو أحرى فى عدم الاستماع.

قال البيضاوى: وفيه تنبيه على أن حقيقة استماع الكلام هو فهم المعنى المقصود منه، ولذلك لا توصف به - أى: بالاستماع - البهائم، وهو لا يتأتى إلا باستعمال العقل وتدبره. وعقولهم لما كانت مؤوفة - أى: قاصرة بمعارضة الوهم ومشايعة الإلف والتقليد بعدت أفهامهم عن فهم الحِكَم والمعانى الدقيقة، فلم ينتفعوا بسرد الألفاظ عليهم غير ما ينتفع به البهائم من كلام الناعق. هـ.

(١) من الآية ١٦ من سورة سيدنا (محمد ﷺ).

﴿ ومنهم من ينظر إليك ﴾ أي: يعاينون دلائل نبوتك، ولكن لايصدقون، كأنهم عمي عنها، ﴿ أفأنت تهدي العُمْيَ ﴾: تقدر على هدايتهم ﴿ ولو كانوا لا يُبصرون ﴾ أي: وإن انضم إلى عدم البصر عدم البصيرة، فإن المقصود من الإبصار هو الاعتبار والاستبصار، والعمدة فى ذلك البصيرة، فإذا فقدت فلا اعتبار ولا استبصار، ولذلك يُحدس الأعمى المتبصر، ويتفطن لما لا يدركه البصير الأحمق. والآية كالتعليل للأمر بالتبري.

﴿ إنَّ الله لا يظلم الناسَ شيئاً ﴾ بسلب حواسهم وعقولهم، ﴿ ولكن الناس أنفسَهم يظلمون ﴾ بإفسادها وإهمالها، وتفويت منافعها عليهم. وفيه دليل على أن للعبد كسباً، وأنه ليس مسلوب الاختيار بالكلية، كما زعمت الجبرية، ويجوز أن يكون وعيداً لهم، بمعنى: أن ما يحيق بهم يوم القيامة من العذاب عدل من الله، لا يظلمهم به، ولكنهم ظلموا أنفسهم باقتراف أسبابه. قاله البيضاوي.

الإشارة: إذا رأى أهل الوعظ والتذكير قوماً غرقوا في بحر الهوى، وأخذتهم شبكة الدنيا واستحوذت عليهم الغفلة، فذكّروهم وبذلوا جهدهم فى نصحهم، فلم ينفعوا، فليتبرؤوا منهم، وليقولوا: نحن بُراءٌ مما تعملون، وأنتم بريئون مما نعمل. ومنهم من يستمع إلى وعظك أيها الواعظ، ولكن لا يتعظ، أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون. ومنهم من يشاهد كرامتك وخصوصيتك ولكن لا يهتدي، أفأنت تهدى العمى ولو كانوا لايبصرون؟ ﴿إن الله لا يظلم الناس شيئًا﴾، بل في كل زمان يبعث من يذكر ويُداوى أمراض القلوب، (ولكن الناس أنفسهم يظلمون)، حيث حادوا عنهم، وأساءوا الظن بهم، وبالله التوفيق.

ثم ذكر وقت مجيء تأويل ما كذبوا به، فقال:

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾

قلت: ﴿ كأن لم يلبثوا ﴾: حال، أي: نحشرهم مشبهين بمن لم يلبث إلا ساعة. أو صفة ليوم، والعائد محذوف، أي: كأن لم يلبثوا قبله، أو لمصدر محذوف، أي: حشراً كأن لم يلبثوا قبله. وجملة: ﴿يتعارفون﴾: حال أخرى مقدرة، أو بيان لقوله: ﴿كأن لم يلبثوا﴾، أو لتعلق الظرف، والتقدير: يتعارفون يوم نحشرهم. و(إما): شرط،

و﴿نرينك﴾ فعله، ﴿أو نتوفينك﴾: عطف عليه. ﴿فإلينا﴾ جواب ﴿نتوفينك﴾، وجواب الأول محذوف، أي: إن أريتك بعض عذابهم في الدنيا فذاك، وإن توفيناك قبل ذلك فإلينا مرجعهم.

يقول الحق جل جلاله: ﴿و﴾ اذكر ﴿يومَ نحشرُهم﴾ ونجمعهم للحساب، فتقصر عندهم مدة لبثهم في الدنيا وفي البرزخ، ﴿كأن لمْ يلبثوا إلا ساعةً من النهار﴾ يستقصرون مدة لبثهم في الدنيا، أو في القبور؛ لهول ما يرون، حال كونهم ﴿يتعارفون بينهم﴾ أي: يعرف بعضهم بعضاً، كأن لم يتفارقوا إلا قليلاً، وهذا في أول حشرهم، ثم ينقطع التعارف؛ لشدة الأمر عليهم لقوله: ﴿ولا يسئل حميمٌ حميماً. يُبصرونهم﴾[1].

﴿قد خَسِرَ الذين كذَّبوا بلقاءِ الله﴾ خسراناً لاربح بعده، ﴿وما كانوا مهتدين﴾ إلى طريق الربح أصلاً، أو إلى طريق توصلهم إلى معرفة الله ورضوانه، لترك استعمال ما منحوه من العقل فيما يوصل إلى الإيمان بالله ورسله، فاستكسبوا جهالات أدت بهم إلى الرّدى والعذاب الدائم.

﴿وإما نُرِيَنَّكَ﴾ أي: مهما نبصرنك ﴿بعضَ الذى نَعِدُهم﴾ من العذاب في حياتك، كما أراه يوم بدر، ﴿أونتوفينَّك﴾ قبل أن نريك ﴿فإلينا مَرْجِعُهم﴾ فنريكه في الآخرة، ﴿ثم اللهُ شهيدٌ على ما يفعلون﴾، فيجازيهم عليه حينئذ، فالترتيب إخباري.

وقال البيضاوي، تبعاً للزمخشري: ذكر الشهادة وأراد نتيجتها ومقتضاها، وهو العقاب، ولذلك رتبها على الرجوع بثم، أو مؤدٍّ شهادته على أفعالهم يوم القيامة. هـ.

﴿ولكلِّ أمة﴾ من الأمم الماضية ﴿رسولٌ﴾ يبعثه إليهم، يدعوهم إلى الحق، ﴿فإذا جاء رسولُهم﴾ بالمعجزات «فكذبوه» ﴿قُضِيَ بينهم بالقسط﴾: بالعدل، فأنجى الرسولَ ومن تبعه، وأهلك المكذبين ﴿وهم لا يُظلمون﴾، حيث أعذر إليهم على ألسنة الرسل. وقيل معناه: لكل أمة يوم القيامة رسول تنسب إليه. كقوله: ﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾[2] فإذا جاء رسولهم الموقفَ ليشهد عليهم بالكفر أو بالإيمان ﴿قضى بينهم﴾ بإنجاء المؤمنين وعقاب الكافرين، كقوله: ﴿وجيء بالنبيين والشهداء وقضى بينهم﴾[3].

﴿ويقولون متى هذا الوعد﴾ الذى تعدنا، استبعاداً له واستهزاء به ﴿إن كنتم صادقين﴾ فيه، وهو خطاب منهم للنبي ﷺ.

---

(١) من الآيتين ١٠ – ١١ من سورة المعارج.
(٢) الآية ٧١ من سورة الإسراء.
(٣) الآية ٦٩ من سورة الزمر.

الإشارة: أهل الغفلة إذا بعثوا أو ماتوا ندموا على ما فوّتوا، وقصر بين أعينهم ماعاشوا فى البطالة والغفلة، كأن لم يلبثوا فى الدنيا إلا ساعة من نهار. فالبدار البدار أيها الغافل إلى التوبة واليقظة، قبل أن تسقط إلى جنبك، فتنفرد رهيناً بذنبك.

فأما أهل اليقظة ـ وهم العارفون بالله ـ فقد حصل لهم اللقاء، قبل يوم اللقاء، قد خسر الوصول من كذّب بأهل الوصول، وما كان أبداً ليهتدى إلى الوصول إلا بصحبة أهل الوصول. وإما نرينك أيها العارف بعض الذى نعدهم من الوصول لمن تعلق بك، أو نتوفينك قبل ذلك، فإلينا مرجعهم فنوصلهم بعدك بواسطة أو بغيرها. ولكل أمة رسول يبعثه الله يُذكر الناس ويدعوهم إلى الله، فإذا جاء رسولهم قُضى بينهم بالقسط، فيوصل من تبعه ويبعد من انتكبه. والله تعالى أعلم بأسرار كتابه.

ثم أجاب عن قولهم متى هذا الوعد، فقال:

﴿ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾

قلت: قدّم فى الأعراف[1] النفع، وهنا الضر؛ لأن السؤال فى الأعراف عن مطلق الساعة المشتملة على النفع والضر، وهنا السؤال عن العقاب الذى وعدهم به، بدليل قوله: ﴿قل أرأيتم إن أتاكم عذابه﴾. وقوله: ﴿إلا ما شاء الله﴾ منقطع، ويصح الاتصال. وقوله ﴿ماذا يستعجل منه المجرمون﴾ وضع المظهر موضع المضمر، أى: ماذا تستعجلون منه؟. والجملة الاستفهامية جواب الشرط، كما يقال: إن أتيتك ماذا تعطينى؟، أو محذوف، أى: إن أتاكم ألكم منه منعة أو به طاقة فماذا تستعجلون منه؟

وقال الواحدى: الاستفهام للتهويل والتفظيع، أى: ما أعظم ما تستعجلون منه، كما تقول: أعلمت ماذا تجنَى على نفسك؟. ﴿أثم إذا ما وقع﴾، دخلت همزة التقرير على «ثم» العاطفة، أى: إن استعجلتم ثم وقع بكم العذاب آمنتم به حين لا ينفعكم.

---

(١) فى قوله تعالى : ﴿قل لا أملك لنفسى نفعاً ولا ضراً..﴾ الآية ١٨٨.

يقول الحق جل جلاله: ﴿قل﴾ لهم: ﴿لا أملكُ لنفسي ضراً ولا نفعاً﴾، فكيف أملك لكم ما تستعجلون من طلب العذاب؟ ﴿إلا ما شاءَ اللهُ﴾: لكن ما شاء الله من ذلك يكون، أو: لا أملك إلا ما ملكني ربي بمشيئته وقدرته، ﴿لكلِّ أمةٍ أجلٌ﴾ مضروب إلى هلاكهم، ﴿إذا جاء أجلُهُمْ فلا يستأخرون﴾ عنه ﴿ساعةً﴾، ﴿ولا﴾ هم ﴿يستقدمون﴾ عنه، فلا تستعجلوا، فسيجيء وقتكم وينجز وعدكم، ﴿قل أرأيتم إن أتاكم عذابُه﴾ الذي تستعجلون ﴿بياتاً﴾ أي: وقت بيات واشتغال بالنوم، ﴿أو نهاراً﴾ حين تشتغلون بطلب معاشكم، ﴿ماذا يستعجل منه المجرمون﴾؟ أيّ شيء من العذاب يستعجلونه وكله مكروه لا يلائم الاستعجال؟ وهو متعلق بأرأيتم، لأنه في معنى أخبروني، و«المجرمون» وضع موضع المضمر؛ للدلالة على أنهم لجرمهم ينبغي أن يفزعوا من مجيء العذاب، لا أن يستعجلوه. قاله البيضاوي.

﴿أثم إذا ما وقع آمنتم به﴾ أي: أثم تؤمنون إذا وقع العذاب وعاينتموه، حين لا ينفعكم إيمانكم، ﴿آلآن﴾ أي: فيقال لكم الآن آمنتم حين فات وقته، ﴿وقد كنتم به تستعجلون﴾ تكذيبًا واستهزاء، ﴿ثم قيل للذين ظلموا﴾ بعد هلاكهم: ﴿ذُوقُوا عذابَ الخُلد﴾ أي: العذاب المؤلم الذي تخلدون فيه، ﴿هل تُجزَوْنَ إلا بما كنتم تكسِبُون﴾ من الكفر والمعاصي.

الإشارة: لا يشترط في الولي أن يكاشف بالأمور المغيبة حتى يحترز من المكاره أو يجلب المنافع، إذ لم يكن ذلك للنبي، فكيف يكون للولي؟ بل هو معرض للمقادير الجارية على الناس، يجري عليه مايجري عليهم، نَعمْ.. باطنه محفوظ من السخط أو القنط، يتلقى كل ما يلقى إليه بالرضا والتسليم. فمن شرط ذلك فيه فهو محروم من بركة أولياء زمانه. والله تعالى أعلم.

ثم استخبروا عن العذاب أوالوحي، هل هو حق أم لا؟ كما قال تعالى:

﴿ ۞ وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّيٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾

قلت: (أحق): مبتدأ، و الضمير فاعله سد مسد الخبر، و(إي): حرف جواب، بمعنى نعم، وهو من لوازم القسم، ولذلك يوصل بواوه، فيقال: إي والله، ولا يقال «إي» وحده.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ويستنبئونك ﴾ أي: يستخبرونك ﴿ أحقٌ هو ﴾ أي: ما تقول من الوعد أو ادعاء النبوة. قيل: قاله حيي بن أخطب لما قدم مكة. ﴿ قل ﴾ لهم: ﴿ إي وربي إنه لحقٌ ﴾ أي: العذاب الموعود لحق، أو ما ادعيته من النبوة لثابت، والأول أرجح لقوله: ﴿ وما أنتم بمعجزين ﴾: بفائتين العذاب الموعود.

﴿ ولو أنَّ لكلِّ نفسٍ ظلمتْ ﴾ بالشرك أو التعدى على الغير ﴿ ما فى الأرض ﴾ من خزائنها وأموالها ﴿ لافتدتْ به ﴾: لجعلته فدية لها من العذاب، ﴿ وأسرُّوا الندامة ﴾ أي: أخفى رؤساء هؤلاء الكفار الندامة خوف الشماتة والتعيير من سفلتهم، ﴿ لمَّا رأوا العذاب ﴾، أو جميعهم، لأنهم بهتوا بما عاينوا، مما لم يحتسبوا من فظاعة الأمر وهوله، فلم يقدروا أن ينطقوا، وقيل أظهروها، من قولهم: أسر الشيء: أظهره، ومنه: أسارير الوجه، ﴿ وقُضِيَ بينهم بالقسط وهم لا يُظلمون ﴾، ليس تكراراً؛ لأن الأول قضاء بين الأنبياء ومكذبيهم، والثانى فى جزاء المشركين على شركهم. قاله البيضاوى.

الإشارة: كثير من الناس من يستخبر عن شيخ التربية، أحق وجوده أم لا؟ قل: إي وربي إنه لحق، ولا يخلو منه زمان، إذ القطب والعدد الذى يقوم الوجود بهم لا ينقطع، والقطبانية لاتدرك من غير تربية أصلاً، وما أنتم بفائتين عنه إن طلبتموه بصدق الاضطرار. ولو أن لكل نفس ظلمت نفسها ـ حيث بقيت بعيبها رغم حجابها حتى لقيت مولاها ـ ما فى الأرض جميعا لافتدت به من البعد وغم الحجاب، وفوات القرب من الأحباب، وقد قضى بين الخلائق بالحق، فارتفع المقربون الذين لقوا الله بقلب سليم، وانحط الغافلون، الذين لقوا الله بقلب سقيم، وندموا على ترك صحبة من يخلصهم من عيبهم، فإن كانت لهم رئاسة علم أو صلاح أضمروا ذلك عمن قلدهم، ﴿ولا يظلم ربك أحدا﴾.

ولذلك قال:

﴿ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ألا إن لله ما فى السموات والأرض ﴾ خلقاً وملكاً وعبيدا، يتصرف فيهم تصرف المالك فى ملكه، فلا يتطرقه ظلم ولا جور. ويحتمل أن يكون تقريراً لقدرته على الإثابة والعقاب، ﴿ ألا إن وعد الله حقٌ ﴾ أي: ما وعد به من الثواب والعقاب، لاخلف فيه، ﴿ ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ لقصور

عقولهم، فلا يعلمون إلا ظاهراً من الحياة الدنيا، ﴿هو يُحيي ويُميت﴾ يحيي من يريد إظهاره للدنيا، ويميت من يريد نقله للآخرة، ﴿وإليه تُرجعون﴾ بالموت والنشور؛ لأن من قدر على الإيجاد والإعدام في الدنيا قدر عليها في العقبى؛ لأن القادر لذاته لا تزول قدرته، والمادة القابلة بالذات للحياة والموت قابلة لهما أبداً. هـ. من البيضاوي.

الإشارة: ما وعد به الحق سبحانه القاصدين إليه من الوصول والمعرفة به حق، إن وفوا بشرطه، وهو صحبة من يوصل إليه، مع الصدق والتعظيم، وإخلاص القصد، هو يحيي قلوباً بمعرفته، ويميت قلوباً بالغفلة والجهل به، وإليه ترجعون، فيظهر العارف من الجاهل والذاكر من الغافل.

فهذه موعظة لمن اتعظ، كما قال تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾

قلت: (بفضل الله) يتعلق بمحذوف، يفسره ما بعده، أي: ليفرحوا بفضل الله، أو بقوله «فليفرحوا». وكرر قوله: (فبذلك) تأكيداً، والفاء بمعنى الشرط، كأنه قال: إن فرحوا بشيء فبهما فليفرحوا.

يقول الحق جل جلاله: ﴿يا أيها الناسُ قد جاءتكم موعظة من ربكم﴾ يعني القرآن العظيم، ﴿وشفاء لما في الصدور﴾ من الشك والجهل، ﴿وهُدىً ورحمةٌ للمؤمنين﴾ هداية في بواطنهم بأنوار التحقيق، ورحمة في ظواهرهم بآداب التشريع.

قال البيضاوي: قد جاءكم كتاب جامع للحكمة العملية[1]، الكاشفة عن محاسن الأعمال وقبائحها، والراغبة في المحاسن، والزاجرة عن القبائح، والحكمة النظرية التي هي شفاء لما في الصدور من الشكوك وسوء الاعتقاد، وهدى إلى الحق واليقين، ورحمة للمؤمنين؛ حيث أنزلت عليهم فنجوا من ظلمات الضلال بنور الإيمان، وتبدلت مقاعدهم من طبقات النيران بمصاعد من درجات الجنان. والتنكير فيها للتعظيم. هـ.

﴿قل بفضل الله وبرحمته﴾ أي: بمطلق الفضل والرحمة، ﴿فبذلك فليفرَحُوا﴾ لا بغيره، أو الفضل: الإسلام، والرحمة: القرآن. وقرأ يعقوب بتاء الخطاب، ورُوي مرفوعاً، ويؤيده قراءة من قرأ: «فافرحوا»، ﴿هو خيرٌ

(١) في الأصول: «العلمية» والمثبت هو الذي في البيضاوي؛ وهو أنسب بالسياق.

مّا يجمعون ﴾ من حطام الدنيا، فإنها إلى الزوال، وقرأ ابن عامر: «تجمعون» بالخطاب، على معنى: فبذلك فليفرح المؤمنون، فهو خير مما تجمعون أيها المخاطبون.

الإشارة: قد جعل الله في خواصِّ أوليائه موعظة للناس بما يسمعون منهم من التذكير والإرشاد، وشفاء لما في الصدور، لما يسري منهم إلى القلوب من الإمداد، وما يكتسبه مَنْ صحبهم مِنْ أنوار التحقيق، وهدى إلى صريح العرفان وإشراق أنوار الإحسان، ورحمة بسكون القلوب والطمأنينة بذكر علام الغيوب، قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا، ففضل الله: أنوار الإسلام والإيمان، ورحمته: أنوار الإحسان، أوفضل الله: أحكام الشريعة، ورحمته: الطريقة والحقيقة، أو فضل الله: حلاوة المعاملة، ورحمته: حلاوة المشاهدة، أو فضل الله: استقامة الظواهر، ورحمته: استقامة البواطن، أو فضل الله: محبته، ورحمته: معرفته. إلى غير ذلك مما لا ينحصر، ولم يقل: فبذلك فلتفرح يا محمد؛ لأن فرحه ﷺ بالله، لا بشيء دونه.

ولما كانت موعظة القرآن العظيم مشتملة على التحليل والتحريم، رد الله تعالى على من افترى خلافه، فقال:

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾

قلت: (ما أنزل): نصب بأنزل أو بأرأيتم؛ لأنه بمعنى أخبروني.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ قل أرأيتم ﴾: أخبروني ﴿ ما أنزل الله لكم من رزق ﴾ بقدرته، وإن سترها بالأسباب العادية، وقوله: «لكم» دل على أن المراد منه: ما حلّ، ولذلك وبّخ على التبعيض بقوله: ﴿ فجعلتم منه حراماً وحلالاً ﴾ كالبحائر وأخواتها، ﴿ وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا ﴾(١).

﴿ قل ﴾ لهم: ﴿ آللهُ أذنَ لكم ﴾ في التحريم والتحليل، فتقولون ذلك عنه، ﴿ أم على الله تفترون ﴾ في نسبة ذلك إليه؟، ﴿ وما ظنّ الذين يفترون على الله الكذبَ يومَ القيامة ﴾، أيُّ شيء ظنهم يفعل بهم، أيحسبون

(١) من الآية ١٣٩ من سورة الأنعام.

أنه لا يجازيهم عليه؟ وفيه تهديد عظيم لهم، ﴿ إن الله لذو فضل على الناس ﴾، حيث أنعم عليهم بالعقل، وهداهم بإرسال الرسل وإنزال الكتب، وشرع لهم الأحكام، ﴿ ولكن أكثرهم لا يشكرون ﴾ هذه النعمة.

قال ابن عطية: ثنّى بإيجاب الفضل على الناس في الإمهال لهم مع الافتراء والعصيان، والإمهال داعية إلى التوبة والإنابة، ثم استدرك من لا يرى حق الإمهال ولا يشكره، ولا يبادر فيه على جهة الذم لهم، والآية بعد هذا تعم جميع فضل الله، وجميع تقصير الخلق في شكره، لا رب غيره. هـ.

الإشارة: الوقوف مع حدود الشريعة، والتمسك بالسنة النبوية قولاً وفعلاً، وأخذاً وتركاً، والاهتداء بأنوار الطريقة تخلية وتجلية، هو السير إلى أسرار الحقيقة، فمن تخطى شيئاً من ذلك فقد حاد عن طريق السير. وبالله التوفيق.

ثم هددهم بمراقبته عليهم، فقال:

﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (٦١) ﴾

قلت: الضمير في ﴿منه﴾ يعود على القرآن، وإن لم يتقدم ذكره؛ لدلالة ما بعده عليه، كأنه قال: وما تتلو شيئاً من القرآن، وقيل: يعود على الشأن، والأول أرجح؛ لأن الإضمار قبل الذكر تفخيم للشيء. قاله ابن جزي. قلت: والأحسن أن يعود على الله تعالى؛ لتقدم ذكره قبل، ومن قرأ: ﴿ولا أصغر﴾، ﴿ولا أكبر﴾ بالفتح فعطف على ﴿مثقال﴾ ممنوع من الصرف، أو مبني مع «لا»، ومن قرأ بالرفع فعطف على موضعه، أو مبتدأ، و﴿إلا في كتاب﴾: خبر.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وما تكون في شأن ﴾ أي: أمر من الأمور، والخطاب للنبي ﷺ والمراد هو وجميع الخلق، ولذلك قال في آخرها. ﴿ولا تعملون من عمل﴾، ومعنى الآية: إحاطة علم الله تعالى بكل شيء، ﴿ وما تتلو منه من قرآن ﴾ أي: وما تتلو شيئاً من القرآن، أو وما تتلو من الله من قرآن، أي: تأخذه عنه. ﴿ ولاتعملون من عمل ﴾ أي عمل كان، وهو تعميم للخطاب بعد تخصيصه بمن هو رأسهم(١)، ولذلك ذكر الحق تعالى، حيث خص بالذكر ما فيه فخامة وتعظيم، وذكر حيث عمم ما يتناول الجليل والحقير، أي: لا تعملون شيئاً

(١) أي: رأس المخاطبين، وهو رأس الوجود، سيدنا محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

﴿ إلا كنا عليكم شهوداً ﴾: رقباء مطلعين عليه ظاهراً وباطناً، ﴿ إذ تُفيضون فيه ﴾: حين تخوضون فيه وتندفعون إليه، يقال: أفاض الرجل في الأمر: إذا أخذ فيه بجد واندفع إليه، ومنه: ﴿ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ ﴾[1]، ﴿ وما يَعْزُبُ عن ربك ﴾ أي: ما يغيب عنه ﴿ من مثقال ذرة ﴾: ما يوازن نملة، ﴿ في الأرض ولا في السماء ﴾ والمراد: لا يغيب عنه شيء في الوجود بأسره، وخصهما لأن العامة لا تعرف غيرهما. قال في الكشاف: فإن قلت : لِمَ قدّم هنا الأرض بخلاف سورة سبأ[2]؟ فالجواب: أن السماء قدمت في سبأ لأن حقها التقديم، وقدمت الأرض هنا لما ذكرت الشهادةُ على أهل الأرض. هـ. ﴿ ولا أصغرَ من ذلك ولا أكبرَ إلا في كتاب مبين ﴾ أي: اللوح المحفوظ، أو علمه تعالى المحيط، المُبيِّن للأشياء على ما هي عليه.

الإشارة: هذه الآية وأمثالها هي أصل المراقبة عند القوم، وهي على ثلاثة أقسام: مراقبة الظواهر، ومراقبة القلوب، ومراقبة السرائر. فالأولى للعوام، والثانية للخواص، والثالثة لخواص الخواص.

فأما مراقبة الظواهر: فهي اعتقاد العبد أن الله يراه، ومطلع عليه في كل مكان، فينتجُ له الحياء من الله، فيستحيي أن يسئ الأدب معه وهو بين يديه، وفي بعض الأخبار القدسية: «إن كنتم تعتقدون أني لا أراكم، فالخَلَلُ في إيمانكم، وإن كنتم تعتقدون أني أراكم فلِمَ جعلتموني أهون الناظرين إليكم؟» .

وقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «أفضل الناس إيماناً من يعلم أن الله معه في كل مكان» أو كما قال ﷺ: ورُوي أن عبد الله بن عمر رضي الله عنه مرّ براعي غنم، فقال له: أعطنا شاة من غنمك، فقال له: ليست لي. فقال له : قل لصاحبها أكلها الذئب، فقال له الراعي: وأين الله؟!. ورُوِيَ أن رجلاً خلا بجارية فراودها على المعصية، وقال لها: لا ترانا إلا الكواكب، فقالت له: وأين مُكوكبُها؟.

وأما مراقبة القلوب فهي: تحقيق العبد أن الله مطلع على قلبه، فيستحي منه أن يجول فيما لا يعني، أو يدبر مالا يفيد ولا يجدي، أو يهم بسوء أدب؛ فإنْ جال في ذلك استغفر وتاب.

وأما مراقبة السرائر فهي: كشف الحجاب عن الروح، حتى ترى الله أقرب إليها من كل شيء، فتستحي أن تجول فيما سواه من المحسوسات، فإن فعلت بادرت إلى التوبة والاستغفار، فالتوبة لاتفارق أهل المراقبة مطلقاً، وقد تقدم في أول سورة النساء[3] بعض الكلام على المراقبة، فمن لم يُحكِم أمر المراقبة، لم يذق أسرار المشاهدة.

---

(١) من الآية ١٩٨ من سورة البقرة. (٢) في قوله تعالى «عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض...» الآية: ٣.
(٣) راجع إشارة الآية الأولى من سورة النساء.

فالمراقبة مفتاح المشاهدة، والمشاهدة مفتاح المعرفة، والمعرفة هى الولاية، التى أشار إليها بقوله:

﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ ﴾

قلت: «الذين آمنوا»: صفة للأولياء، أو منصوب على المدح، أو مرفوع به على تقدير: «هم»، أو مبتدأ، و«لهم البشرى»: خبر.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ألا إن أولياءَ الله ﴾ الذين يتولونه بالطاعة، وهو يتولاهم بالكرامة ﴿ لا خوفٌ عليهم ﴾ من لحوق مكروه، ﴿ ولا هم يحزنون ﴾ بفوات مأمول.

ثم فسرهم بقوله: ﴿ الذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾، فمن جمع بين الإيمان والتقوى فهو ولي ـ أعني الولاية العامة ـ وسيأتي بقية الكلام في الإشارة إن شاء الله، ﴿ لهم البُشْرَى في الحياة الدنيا ﴾ وهو ما بشّر به المتقين في كتابه، على لسان نبيه ﷺ من الحفظ والعز والكفاية، والنصر في الدنيا وما يثيبهم به في الآخرة، أوْ ما يُريهم من الرؤيا الصالحة يراها أو تُرى له. رُوى ذلك عن رسول الله ﷺ(١)، أو محبة الناس للرجل الصالح، أو ما يتحفهم به من المكاشفات، أو التوفيق لأنواع الطاعات، أو بشرى الملائكة عند النزع، أو رؤية المقعد قبل خروج الروح، ﴿ وفي الآخرة ﴾ هي الجنة أو تلقّي الملائكة إياهم عند الحشر بالبشرى والكرامة.

﴿ لاتبديلَ لكلماتِ الله ﴾ أي: لا تغيير لأقواله ولا اختلاف لمواعيده، واستدل ابن عمر بالآية على أن القرآن لا يقدر أحد أن يُغيره، ﴿ ذلك هو الفوزُ العظيم ﴾ الإشارة إلى كونهم مبشّرين في الدارين، أو لانتفاء الخوف والحزن عنهم مع ما بُشروا به، والله تعالى أعلم.

الإشارة: الولاية على قسمين: ولاية عامة، وولاية عرفية خاصة، فالولاية العامة، هي التي ذكرها الحق تعالى، فكل من حقق الإيمان والتقوى؛ فله من الولاية على قدر ما حصّل منها، والولاية الخاصة خاصة بأهل الفناء والبقاء، الجامعين بين الحقيقة والشريعة، بين الجذب والسلوك، مع الزهد التام والمحبة الكاملة، وصحبة من

(١) عن عبادة بن الصامت قال: سألت رسول الله ﷺ عن قوله: (لهم البشرى في الحياة الدنيا) قال: «هي الرؤيا الصالحة يَراها المسلم أو تُرى له»، أخرجه أحمد في المسند (٥/٣١٥)، والترمذي في: (الرؤيا، باب ذهبت النبوة وبقيت المبشرات) وابن ماجه في (الرؤيا ح ٣٨٩٨) والحاكم وصححه ووافقه الذهبي (٢/ ٣٤٠) والدارمي في: (الرؤيا).

تحققت ولايته. فقد سئل ـ عليه الصلاة السلام ـ عن أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، فقال: «الذين نَظَــرُوا إلَى بَاطِن الدنيَا، حيــنَ نَظَرَ النَّــاسُ إلى ظَاهِرِهَا، واهتَمُّوا بآجِلِ الدُّنيَـا حين اهتَمَّ النَّاسُ بعاجِلِـهَا؛ فأماتوا منهــا ما خَشُـوا أن يُميتهم، وتركوا منها ما علموا أن سيتركُهُم، فما عارضــهم من نائلهـــا عارض إلا رفضوه، ولا خادعهم من رفعتها خادع إلا وضعوه، خَلِقَت الدنيا في قلوبهم فما يجددونها وخربت بينهم فما يعمرونها، وماتت في صدروهم فما يُحيُونها، بل يهدمُونها، فيبنون بها آخرتهم، ويبيعونها فيشترون بها ما يبقى لهم، نظروا إلى أهلها صرْعى قد حلَّت بهم المثُلات، فما يرون أماناً دون ما يرجون، ولا خوفاً دون ما يجدون»

وفي حديث آخر: قيل: يارسول الله مَنْ أولياءُ الله؟ قال «المتحابُّون في الله» . وقال القشيري ﷺ: علامة الولي ثلاث: شغله بالله، وفراره إلى الله، وهمه الله. هـ

وقال أبو سعيد الخراز ﷺ: إذا أراد الله أن يوالي عبداً من عباده فتح عليه باب ذكره، فإذا اشتد ذكره فتح عليه باب القرب، ثم رُفع إلى مجلس الأنس، ثم أجلسه على كرسي التوحيد، ثم رفع عنه الحجب وأدخله دار الفردانية، وكشف له عن الجلال والعظمة، فإذا عاين ذلك بقي بلا هو، فحينئذ يفني نفسَه ويبرأ من دعاويها. هـ.

فأنت ترى كيف جعل الفناء هو نهاية السير والوصول إلى الولاية، فَمن لا فناء له لا محبة له، ومن لا محبة له لا ولاية له. وإلى ذلك أشار ابن الفارض ﷺ، في تائيته بقوله:

فلمْ تهوَني ما لم تكنْ فيَّ فانيًا ولم تَفْنَ ما لَمْ تجتلَى فيكَ صُورتي

وقوله تعالى: ﴿الذين آمنوا﴾ أي: إيمان الخصــوص، ﴿وكانوا يتقون﴾ ما ســوى الله؛ فلا يطمئنون إلى شيء ســواه، ﴿لهم البشرى في الحياة الدنيا﴾ حلاوة الذوق والوجــدان، مع مقام الشـــهود والعيان، ﴿وفي الآخرة﴾ بإدراك ما لا عين رأت، ولا أذن سـمعت، ولا خطر ببال من المعارف والأسرار. فمن أدرك هذا فليوطن نفسه على الإنكار.

ولذلك سلَّى نبيه، وينسحب على ورثته مما يلقونه من أهل الإنكار، فقال:

﴿ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾ ﴾

قلت: (إن) استئناف، ومن قرأ بالفتح فعلى إسقاط لام العلة.

يقول الحق جل جلاله لنبيه ﷺ: ﴿ولا يحزُنْكَ قولُهم﴾ في جانب الربوبية، أو في جانبك بالطعن والشتم والتهديد، فالعاقبة لك بالنصر والعز؛ فإن الله يُعز أولياءه، ﴿إنَّ العزَّةَ لله جميعاً﴾ أي: إن الغلبة لله جميعاً،

لا يملك غيرُه منها شيئاً، فهو يقهرهم وينصرك عليهم، ﴿ هو السميع ﴾ لأقوالهم، ﴿العليم﴾ بمكائدهم، فيجازيهم عليها.

الإشارة: الداخل على الله منكور، فكل من رام الخصوصية فليعوِّلْ على الطعن والإنكار، وليتسلَّ بما تسلى به النبي المختار، ولينتظر العز والنصر من الواحد القهار، فإن الأمر كله بيده كما قال:

﴿ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾

قلت: (وما يتبع): يحتمل الاستفهام، فتكون منصوبة بيتبع، أي: أيْ شيء يتبعون ما يتبعون؟ إلا الظن، ويحتمل النفي، أي: ما يتبع الذين يدعون الشركاء يقيناً؛ إن يتبعون إلا الظن، أو تكون «إن» تأكيداً لها، و«إلا الظن» إبطال لنفي «ما».

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ألا إن لله مَن في السموات ومن في الأرض ﴾ من الملائكة والثقلين ملكاً وعبيداً، فلا يصلح أحد منهم للألوهية، وإذا كان هؤلاء الذين هم أشرف الممكنات لا تصلح للربوبية، فأحرى الجامدات التي يدعونها آلهة، ﴿ وما يتبعُ الذين يدعُون من دون الله شركاءَ ﴾ أي: أيْ شيء يتبعون، تحقيراً لهم، أو ما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء يقيناً، ﴿ إن يتبعون إلاالظنَّ ﴾ وما سولت لهم أنفسهم، ﴿ وإن هم إلا يخرصون ﴾ : يكذبون فيما ينسبون إلى الله، أو يحزِرون(١) ويقدرون أنها شركاء تقديراً باطلاً، بل الواجب أن يعبدوا من عمت قدرته ونعمه على خلقه، ولذلك قال: ﴿ هو الذي جعل لكم الليلَ لتسكنوا فيه ﴾ راحة لأبدانكم، ﴿ والنهارَ مبصراً ﴾ طلبًا لمعاشكم، وفيه تنبيه على كمال قدرته وعظيم نعمته، ليدلهم على تفرده باستحقاق العبادة ﴿ إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون ﴾ سماع تدبر واعتبار.

الإشارة: كل من ركن إلى شيء دون الله، محبة أو خوفاً أو طمعاً فيه، فقد أشرك مع الله، ولم يتبع إلا الظن والوهم، وفي الحِكَم: «ماقادك شيء مثلُ الوهم، أنت حرٌ مما أنت عنه آيس، وعبد لما أنت فيه طامع، فكيف يترك العبد سيده الذي بيده ملك السموات والأرض، ويتعلق بعبيد مثله حقير؟. يترك الملك الكبير ويتعلق بالعبد الصغير.

---

(١) حزر الشيء: قدره تخميناً.

هو الذي جعل ليل القبض لتسكنوا فيه عن التعلق بالغير، ونهار البسط لتبصروا في انتشاركم الحقائق العرفانية والأسرار الربانية، إن كنتم تسمعون به ومنه، فتنزهونه عما لا يليق به، كما قال تعالى:

﴿ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَٰذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦٨) قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ (٦٩) مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (٧٠) ﴾

قلت: (عندكم): متعلق بالاستقرار، و(من سلطان) فاعل به؛ لأن المجرور والظرف إذا نفى يرفع الفاعل بالاستقرار، و(متاع): خبر، أي: ذلك متاع... الخ.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ قالوا ﴾ أي: المشركون ومن تبعهم: ﴿ اتخذ الله ولداً ﴾ أي: تبنّاه كالملائكة وغيرهم، ﴿ سبحانه ﴾ أي: تنزيهاً له عما يقول الظالمون، فإن التبني لا يصح إلا ممن يتصوّر منه الولد، ﴿ هو الغني ﴾ عن كل شيء، مفتقر إليه كلُّ شيء، والولد مسبب عن الحاجة، والحق تعالى ﴿ له ما في السموات وما في الأرض ﴾ ملكاً وعبيداً، فلا يفتقر إلى اتخاذ الولد، وهو الغني بالإطلاق، لا يحتاج إلى من يعينه، وواجب الوجود لا يفتقر إلى من يخلفه في ملكه. ﴿ إن عندكم ﴾ أي: ما عندكم ﴿ من سلطان ﴾ أي: برهان ﴿ بهذا ﴾، بل افتريتموه من عندكم، ﴿ أتقولون على الله مالا تعلمون ﴾، وهو توبيخ وتقريع على اختلاقهم وجهلهم، وفيه دليل على أن كل قول لا دليل عليه فهو جهالة، وأن العقائد لابد فيها من قاطع، وأن التقليد فيها غير سائغ. قاله البيضاوي.

قلت: والتحقيق أن إيمان المقلّد صحيح، وأن تقليد الأنبياء والرسل والكتب السماوية صحيح مكتفٍ عن الدليل.

ثم هدد أهل الشرك فقال: ﴿ قل إن الذين يفترون على الله الكذبَ ﴾ باتخاذ الولد وإضافة الشريك إليه، ﴿ لا يُفلحون ﴾: لا ينجون من النار، ولا يفوزون بالجنة، إنما ذلك الافتراء ﴿ متاع في الدنيا ﴾ يقيمون به رئاستهم في الكفر، فيتمتعون به قليلاً، أو لهم تمتع في الدنيا مدة أعمارهم، ﴿ ثم إلينا مرجعهم ﴾ بالموت، فيلقون الشقاء المؤبد، ﴿ ثم نُذيقهم العذابَ الشديدَ بما كانوا يكفرون ﴾.

الإشارة: إظهار الكائنات من الغيب إلى الشهادة كلها على حد سواء في الاختراع والافتقار، ليس بعضها أقرب من بعض، وأما قوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «الخَلْقُ عِيَالُ اللهِ وأَحَبُّ الخَلْقِ إلى اللهِ أنْفَعُهُمْ لِعِيَالِهِ» فمعناه أنهم في حفظه وكفالته مفتقرون إليه في إيصال المادة، كافتقار الولد إلى أبيه.

وأما قرب العبد من ربه بطاعته فمعناه قرب محبة ورضا، لا قرب مسافة أو نسب؛ إذ أوصاف العبودية غير مجانسة لأوصاف الربوبية، بل هي بعيدة منها مع شدة قربها، ولذلك قال في الحِكَم: «إلهي ما أقربَك مِنِّي وما أبْعَدَني عنك.. » الخ»، وقد تشرق على العبد أنوار الربوبية فتكسوه حتى يغيب عن حسه ورسمه فلا يرى إلا أنوار ربه، فربما تغلبه الأنوار، فيدّعي الاتحاد أو الحلول، وهو معذور عند أهل الباطن لسكره، وقد رفع التكليف عن السكران، فإذا صحَى وبقِي على دعواه قُتل شرعاً. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر بعض قصص الأنبياء عليهم السلام، تسلية لرسوله ﷺ، فقال:

﴿ ۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾

قلت: (وشركاءكم): مفعول معه، أو بفعل محذوف أي: اعزموا أمركم وأجمعوا شركاءكم ومن قرأ: «اجمعوا» بهمزة وصل، فشركاءكم: معطوف، و«غمة»: خفيًا، وفي الحديث: «فَإِنْ غُمَّ عَلَيْكُمْ فَاقْدُرُوا لَهُ».

يقول الحق جل جلاله: ﴿ واتل عليهم نبأ نوح﴾ أي: خبره مع قومه، قيل: اسمه عبدالغفار، وسمي نوحاً لكثرة نَوْحه من هيبة ربه، ﴿ إذ قال لقومه ياقوم إن كان كَبُرَ﴾ أي: عَظُم وشقّ ﴿ عليكم مقامي﴾ أي: كوني بين أظهركم، وإقامتي بينكم مدة مديدة أذكركم بالله، أو قيامي عليكم لوعظكم، أو نفسي ووجودي معكم، كقولك: فعلت كذا لمكان فلان، أي: له، أي: لو صعب عليكم وجودي بينكم، ﴿ وتذكيري﴾ لكم ﴿ بآيات الله﴾ أدعوكم بها إلى الله، ﴿ فعلى الله توكلتُ﴾ : وثقت به، فلا أبالي ببعدكم عني وتخويفكم إياي، ﴿ فأجمعوا أمركم﴾ أي: اعزموا عليه، ﴿ وشركاءكم﴾ مع شركائكم، أو وأمر شركائكم، أو أجْمِعُوا أمركم واتفقوا عليه وأجمِعوا شركاءكم. والمعنى: أنه أمرهم بالعزم والإجماع على قصده، والسعي في إهلاكه، على أي وجه يمكنهم؛ لشدة ثقته بالله وعدم مبالاته بهم.

﴿ ثم لا يكن أمرُكم﴾ في قصد إهلاكي ﴿ عليكم غُمَّة﴾ : مستوراً خفياً، بل اجعلوه ظاهراً مكشوفاً تتمكنون فيه، لأن من يكتم أمراً ويخفيه لا يقدر أن يفعل ما يريد، أو ثم لا يكن حالكم عليكم غماً، أي: لايلحقكم غم إذا

أهلكتموني وتخلصتم من ثقل مقامي وتذكيري. ﴿ثم اقْضُوا﴾ أي:أنفذوا قضاءكم ﴿إليَّ﴾ فيما تريدون. وقرأ السري بن ينْعَم: «أفضوا» بالفاء وقطع الهمزة، أي: انتهوا إليّ بشرّكم، ﴿ولا تُنظِرُون﴾ : ولاتمهلون.

﴿فإن توليتم﴾ : أعرضتم عن تذكيري، ﴿فما سألتكم من أجرٍ﴾ يوجب توليكم وإعراضكم لثقله عليكم. واتهامكم إياي لأجله، أو يفوتني إذا توليتم عني، ﴿إن أجرِيَ﴾ : ما ثوابي على الدعــوة والتذكير ﴿إلا على الله﴾ لا تعلق لي بشيء دونه، آمنتم أو توليتم، ﴿وأُمرتُ أن أكونَ مِنَ المســلمين﴾ المنقادين لحكمه، لا أخالف أمره، ولا أرجو غيره.

﴿فكذَّبوه﴾ : فأصروا على تكذيبه بعد إلزامهم الحجة، وتبين أن توليهم ليس إلا لعنادهم وتمرُّدهم فلا جرَم حقت عليهم كلمة العذاب، فهلكوا بالغرق، ﴿فنجيناه ومن﴾ آمن ﴿معه في الفلك﴾، وكانوا ثمانين، ﴿وجعلناهم خلائفَ﴾ عمروا الأرض بعد الهالكين وخلفوهم فيها، ولم يُعقب منهم إلا أولاد نوح عليه السلام، ﴿وأغرقنا الذين كذَّبوا بآياتنا﴾ بالطوفان، ﴿فانظرْ كيفَ كانَ عاقبةُ المنذَرين﴾، تعظيم لما جرى عليهم، وتحذير لمن كذب الرسول، وتسلية له. والله تعالى أعلم.

الإشارة: لا يكون الرجل كامل اليقين حتى يسقط من قلبه خوف المخلوقين، فلا يبالي بهم ولو أجمعوا على كيده، إذ ليس بيدهم شيء، وإنما أمْرهم بيد الله، ويقول لهم كما قال نوح عليه السلام: (فأجمعوا أمركم وشركاءكم.) وكمــا قال هود عليه السلام: ﴿فكيدوني جميعــا ثم لا تنظرون إني توكلت على الله ربي وربكم﴾(1). وفي الحديث: «لَو اجْتَمَعَ الخَلْقُ كلُّهُمْ علَى أنْ يَضُرُّوكَ بِشَيءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إلاَّ بِشَيءٍ قَدَّرَهُ اللهُ عليْكَ، جَفَّتِ الأقْلامُ وطُويت الصُّحُفُ». وقال أيضا ﷺ: «لا يَكْمُلُ إيمانُ العَبْدِ حتَّى يَكُون النَّاسُ عِنْدَه كالأباعد». يعني: لا يهابهم ولا يراقبهم. وبالله التوفيق.

ثم ذكر ما بين نوح وموسى ـ عليهما السلام ـ من الأنبياء، على سبيل الإجمال، فقال:

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾

(1) الآيتان ٥٥ – ٥٦ من سورة هود.

قلت : (بما كذبوا به) ذكر هنا الرابط، وحذفه فى سورة الأعراف، إشارة إلى جواز الأمرين، وإليه أشار فى الألفية، بقوله:

كذَا الذى جُرّ بما الموصُولُ جَرْ ... كـ «مُرَّ بالَّذِى مررْتُ فَهْوَ بَرّ»(١)

يقول الحق جل جلاله : ﴿ ثم بعثنا من بعده ﴾ : من بعد نوح عليه السلام ﴿ رسلاً ﴾ ، كهود وصالح وإبراهيم وغيرهم ﴿ إلى قومهم ﴾ ، كل رسول إلى قومه، ﴿ فجاءوهم بالبينات ﴾ : بالمعجزات الواضحات المثبتة لدعواهم، ﴿ فما كانوا ليؤمنوا ﴾ ، فما استقام لهم أن يؤمنوا لشدة شكيمتهم فى الكفر، ولسبق شقاوتهم، فما آمنوا ﴿ بما كذَّبوا به من قبل ﴾ مجيئهم المعجزات، يعنى أنهم طلبوا المعجزات ليؤمنوا، فلما جاءتهم استمروا على تكذيبهم، ﴿ كذلك نطبع على قلوب المعتدين ﴾ فلا تنفع فيهم معجزة ولا تذكير، وفيه دليل على أن الأفعال واقعة بقدرة الله، مع إثبات كسب العبد، لقيام عالم الحكمة ـ الذى هو رداء لتصرف القدرة ـ. والله تعالى أعلم.

الإشارة: كما بعث الله فى كل أمة رسولاً يذكرهم ويدعوهم إلى الله، بعث الله فى كل عصر وليّاً عارفًا، يدعو الخلق إلى معرفة الله وتوحيده الخاص، فمن سبقت له العناية آمن به من غير طلب آية، ومن سبق له الخذلان لا يصدق به ولو رأى ألف برهان. وبالله التوفيق.

ثم ذكر بعثة موسى وهارون ـ عليهما السلام ـ، مفصلة لما فيها من التأسى والتسلية، فقال:

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله : ﴿ ثم بعثنا ﴾ ، من بعد هؤلاء الرسل ﴿ موسى وهارون إلى فرعون وملئه بآياتنا ﴾ التسع، ﴿ فاستكبروا ﴾ عن اتباعها، ﴿ وكانوا قوماً مجرمين ﴾ معتادين الإجرام، فلذلك تهاونوا برسالة ربهم، واجترءوا على ردها، ﴿ فلما جاءهم الحقُّ من عندنا ﴾ وعرفوه، وهو بعثة موسى عليه السلام، لتظاهر المعجزات على يديه، القاهرة المزيحة للشك، ﴿ قالوا ﴾ من فرط تمردهم: ﴿ إنَّ هذا ﴾ الذى جئت به ﴿ لسحرٌ مبين ﴾ : ظاهر.

﴿ قال ﴾ لهم ﴿ موسى أتقولون للحقِّ لمَّا جاءكم ﴾ إنه سحر، فكيف يقدر السحرة على مثله؟ ﴿ أسحرٌ هذا ﴾ : أيتوهم أحد أن يكون هذا سحراً؟ ﴿ ولا يُفلح الساحرون ﴾ أى: لو كان سحراً لاضمَحلَّ، ولم يُبطل سحر

---

(١) انظر باب الموصول (حذف العائد).

السحرة، والعالم بأن الساحر لا يُفلح لا يستعمل السحر، فهذا كله من كلام موسى عليه السلام، أو من تمام قولهم؛ إن جعل قوله: «أسحرٌ هذا» محكيًا لقولهم، كأنهم قالوا: أجئتنا بالسحر لتطلب به الفلاح ولا يفلح الساحرون، والأول أرجح.

﴿ قالوا أجئتنا لتلفتنا ﴾ ؛ لتصرفنا ﴿ عما وجدنا عليه آباءَنا ﴾ من عبادة الأصنام، ﴿ وتكون لكما الكبرياءُ في الأرض ﴾ : الملك فيها، سمي الملك كبرياء لاتِّصاف الملوك بالتكبر، ﴿ وما نحن لكما بمؤمنين ﴾ : بمصدِّقين.

الإشارة: السحر على قسمين: سحر يسحر القلوب الى حضرة الرحمن، وسحر يسحرها إلى حضرة الشيطان، فالسحر الذي يسحر إلى حضرة الرحمن: هو ما جاءت به الأنبياء والرسل، وقامت به الأولياء بعدهم من الأمور التي تقرب إلى الحضرة، إمَّا ما يتعلق بالظواهر، كتبيين الشرائع، وإمَّا ما يتعلق بالبواطن، كتبيين الطرائق والأمور التي تُشرق بها أسرارُ الحقائق، وأما السحر الذي يسحر إلى حضرة الشيطان: فكل ما يشغل عن ذكر الرحمن، ولذلك قال عليه السلام: «اتقُوا الدُّنيَا فإنَّها أَسْحَرُ مِنْ هَارُوت ومَارُوت».

ثم ذكر معارضة فرعون، فقال:

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ (٧٩) فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ (٨٠) فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ (٨١) وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ (٨٢) ﴾

قلت: (ما جئتم به) موصولة على من قرأ: «السحر» بلا استفهام، ومن قرأ بالاستفهام فـ«ما» مبتدأ، و(جئتم) خبرها، و(السحر): بدل منه، أو خبر لمحذوف، أي: أهو السحر؟ أو مبتدأ حذف خبره، أي: السحر هو.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وقال فرعونُ ﴾ لما أراد معارضة موسى عليه السلام: ﴿ ائتوني بكلِّ ساحرٍ ﴾ وفي قراءة الأخوين: «سحَّار»، ﴿ عليم ﴾ : حاذق في فنه، ﴿ فلما جاء السحرة قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون ﴾ ، ﴿ فلما ألقوْا ﴾ حبالهم وعصيهم، فانقلبت حيَّات في أعين الناس، يركب بعضها بعضاً، ﴿ قال ﴾ لهم ﴿ موسى ماجئتم به السحرُ ﴾ أي: الذي جئتم به هو السحر، لا ما سماه فرعون وقومه سحراً من معجزات العصا. وقرأ البصري: «آلسحر» أي: أيّ شيء جئتم به السحر هو؟ ﴿ إن الله سيُبْطِلُه ﴾ : سيمحقه، أو سيظهر بطلانه، ﴿ إن الله لا يُصلح عملَ المفسدين ﴾ لا يثبته ولا يديمه، وفيه دليل على أن السحر تمويه لا حقيقة له، ﴿ ويُحِقُّ الله الحقَّ بكلماته ﴾ السابقة الأزلية، أو بأوامره وقضاياه، ﴿ ولو كره المجرمون ﴾ ذلك.

الإشارة: الأكوان كلها عند أهل التحقيق شعوذة سحرية، خيالية كخيال السحر الذي يظهره المشعوذ، تظهر ثم تبطن، وليس في الوجود حقيقة إلا الواحد الأحد الفرد الصمد، فهي ثابتة بإثباته، ممحوة بأحدية ذاته. وهي أيضاً

أشبه شيء بالظلال، والظلال لا وجود لها من ذاتها، وإنما تابعة لشواخصها، ولذلك قالوا: ظلال الأشجار لا تعوق السفن عن التّسْيار، فظلال الأكوان وأجرامها لا تعوق سفن الأفكار عن التسيار في بحار معاني الأسرار، بل تغيب عن ظلال حسها إلى فضاء شهود معانيها، فالعارف لا يحجبه عن الله شيء؛ لنفوذه إلى شهود أسرار الربوبية في كل شيء، والله تعالى أعلم.

ثم ذكر من تبع موسى، فقال:

﴿ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾

قلت: الضمير في «ملئهم» يعود على فرعون، وجمعه على ما هو المعتاد في ضمير العظماء، أو باعتبار آل فرعون، كما يقال: ربيعة ومُضَر، أو على الذرية، أو على «قومه»، و(أن يفتنهم) بدل من فرعون، أو مفعول بخوف، وأفرد ضمير الفاعل، فلم يقل: أن يفتنوهم؛ للدلالة على أن الخوف من الملأ كان بسبب فرعون.

يقول الحق جل جلاله: ﴿فما آمنَ لموسى﴾ أي: صدَّقه في أول مبعثه ﴿إلا ذريةٌ﴾: إلا شباب وفتيان ﴿من قومه﴾: من بني إسرائيل، آمنوا ﴿على خوفٍ من فرعونَ وملئهم﴾ أي: مع خوف من فرعون وقومه، أو على خوف من فرعون وملأ بني إسرائيل؛ لأن الأكابر من بني إسرائيل كانوا يمنعون أولادهم من الإيمان خوفاً من فرعون، وهذا أرجح. خافوا ﴿أن يفتنهم﴾: يعذبهم حتى يردهم عن دينهم، ﴿وإنَّ فرعونَ لعالٍ في الأرض﴾: لغالب فيها، ﴿وإنه لَمِن المسرفين﴾ في الكفر والعُتُوّ حتى ادعى الربوبية، واسترقّ أسباط الأنبياء.

الإشارة: أهل التصديق بأهل الخصوصية قليل في كل زمان، وإيذاء المنتسبين لهم سنة جارية في كل أوان، فكل زمان له فراعين يؤذون المنتسبين، والعاقبة للمتقين.

ثم أمرهم بالتوكل والثبات، فقال:

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وقال موسى ﴾ لقومه، لمَّا رأى خوفهم من فرعون: ﴿ يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا ﴾ أي: ثقوا به واعتمدوا عليه، ولا تبالوا بغيره، ﴿ إن كنتم مسلمين ﴾ مستسلمين لقضاء الله، أو منقادين لأحكامه، قائمين بطاعته بعد تحصيل الإيمان به، وقال لهم ذلك مع علمه بإيمانهم وإسلامهم؛ إنهاضاً لهم وتحريضاً على الصبر، كما تقول: إن كنت رجلاً فافعل كذا .

﴿ فقالوا على الله توكلنا ﴾ لأنَّا مؤمنون مخلصون، ﴿ ربنا لا تجعلنا فتنةً ﴾ أي: موضع فتنة ﴿ للقوم الظالمين ﴾ أي: لا تسلطهم علينا فيفتنونا، ﴿ ونجنا برحمتك من القوم الكافرين ﴾ أي: من كيدهم، أو من شؤم مشاهدتهم. وفي تقديم التوكل على الدعاء تنبيه على أن الداعي ينبغي أن يتوكل أولاً لتُجاب دعوته؛ لأنه يتسبب في نجاح أمره، ثم يدعو. والله تعالى أعلم.

الإشارة: التوكل هو ثمرة الإيمان ونتيجته، فكلما قوى الإيمان واشتددت أركانه قوى التوكل وظهرت أسراره، وكلما ضعف الإيمان ضعف التوكل، فالتوغل في الأسباب نتيجة ضعف الإيمان، والتقلل منها نتيجة صحة التوكل والإيقان، والتوكل: أن تكون بما في يد الله أوثق مما في يدك. قال تعالى: ﴿ ما عندكم ينفد وما عند الله باق ﴾[(١)] والتوكل قد يوجد مع الأسباب، ومع التجريد أنفع، وقد تقدم الكلام عليه في آل عمران[(٢)]. وبالله التوفيق.

ثم أمر بني إسرائيل باتخاذ المساجد، وجعلها في البيوت خوفاً من فرعون، فقال:

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تبوءا ﴾ أي: اتخذا ﴿ لقومكما بمصر بيوتاً ﴾ للصلاة والعبادة، وقيل: أراد الإسكندرية، وهي من مصر، ﴿ واجعلوا ﴾ أنتما وقومكما ﴿ بيوتكم ﴾ التي تسكنون فيها ﴿ قبلةً ﴾ : مصلًى ومساجد. رُوِي أن فرعون أخافهم، وهدم مواضع كانوا اتخذوها للصلاة، فأمروا بإخفائها وجعلها في بيوتهم، وتكون متوجهة نحو القبلة ـ يعني مكة ـ وكان موسى يصلي إليها.

فإن قلت: لِمَ خُصَّ موسى وهارون بالخطاب في قوله: ﴿ أن تبوءا ﴾، ثم خُوطب بها بنو إسرائيل في قوله: ﴿ واجعلوا بيوتكم ﴾؟، فالجواب: أن التبوأ واتخاذ المساجد مما يتعاطاه رؤوس القوم للتشاور، بخلاف جعل البيوت قبلة فمما ينبغي أن يفعله كل أحد.

(١) الآية ٩٦ من سورة النحل.
(٢) عند إشارة قوله تعالى: ﴿فإذا عزمت فتوكل على الله﴾ الآية ١٥٩.

﴿ وأقيموا الصلاة ﴾ فى تلك البيوت، أمروا بذلك أول مرة لئلا تظهر عليهم الكفرة ويفتنونهم عن دينهم، ﴿ وبشِّر المؤمنين ﴾ بالنصر والعز فى الدنيا، وبالجنة فى العقبى.

الإشارة: اتخاذ الأماكن للعبادة والعزلة مطلوب عند القوم، وفي الحِكَم: «ما نفع القلبَ شيءٌ مثلُ عزلةٍ يدخل بها ميدان فكرة»، وأصلهم فى ذلك: اعتزاله ﷺ فى غار حراء فى مبدأ الوحى، فالخلوة للمريد لابد منها فى ابتداء أمره، فإذا قوى نوره ودخل مقام الفناء؛ صلح له حينئذ الخلطة مع الناس، بحيث يكون جسده مع الخلق وقلبه مع الحق، فإن لله رجالاً أشباحهم مع الخلق تسعى، وأرواحهم فى الملكوت ترعى. وقال بعضهم: [الجسدُ فى الحانوت والقلب فى الملكوت]. فإذا رجع إلى البقاء لم يختَرْ حالاً على حال؛ لأنه مع الله على كل حال، وهذا من أقوياء الرجال. نفعنا الله بهم.

ثم ذكر دعاء موسى على فرعون، فقال:

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾

قلت: اللام فى (ليُضلوا) لام كى، متعلقة بآتيت محذوفة، أو بالمذكورة، ولفظ (ربنا) تكرار، أو تكون لام الأمر، فيكون دعاء عليهم بلفظ الأمر، بما علم من قرائن أحوالهم أنه لا يكون غيره. ﴿فلا يؤمنوا﴾: جواب الدعاء، أو عطف على (ليضلوا).

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وقال موسى ربنا إنك آتيت فرعون وملأهُ زينةً ﴾: ما يتزين به من الملابس والمراكب ونحوها، ﴿ وأموالاً ﴾: أنواعًا من المال ﴿ فى الحياة الدنيا ﴾ استدراجًا، ﴿ ربنا ﴾ آتيتهم ذلك ﴿ ليُضلوا عن سبيلك ﴾ طغيانًا وبطرًا بها، وصرفها فى غير محلها، أو ربنا اجعلهم ضالين عن سبيلك، كقول نوح عليه السلام: ﴿ ولا تزد الظالمين إلا ضلالا ﴾[1] لما أيس من إيمانهم، ﴿ ربنا اطمسْ على أموالهم ﴾ أى: أهلكها وامحقها، ﴿ واشدُدْ على قلوبهم ﴾ بالقسوة، واطبع عليها حتى لا تنشرح للإيمان، ﴿ فلا يؤمنوا حتى يرَوا العذابَ الأليم ﴾ أى: إن تطمس على أموالهم وتشدد على قلوبهم لا يؤمنوا إلا قهراً.

(١) الآية ٢٦ من سورة نوح.

وفي الآية دليل على جواز الدعاء على الظالم بالمعصية، أو الكفر، وقد فعله سعد بن أبي وقاص على الذي شهد فيه بالباطل، ووجهُ جوازه مع استلزامه وقوع المعاصي: أنه لم يُعتبر من حيث تأديته إلى المعاصي، ولكن من حيث تأديته إلى نِكاية الظالم وعقوبته، وهذا كما قيل في تمنى الشهادة أنه مشروع، وإن كان يؤدى إلى قتل الكافر للمسلم، وهو معصية ووهن في الدين، ولكن الغرض من تمنى الشهادة ثوابُها، لا نفسها.

﴿قال﴾ تعالى: ﴿قد أجيبَت دعوتكما﴾ يعني موسى وهارون، وكان يؤمِّن على دعاء أخيه، ﴿فاستقيما﴾ أي: اثبتا على ما أنتما عليه من الاستقامة والدعوة وإلزام الحجة، ولا تستعجلا، فإن ما طلبتما كائن ولكن في وقته، روى أنه مكث فيهم بعد الدعاء أربعين سنة، ﴿ولا تتبعانِّ سبيلَ الذين لا يعلمون﴾: طريق الجهلة في استعجال الأشياء قبل وقتها، أو في عدم الوثوق والاطمئنان بوعدنا، وقرأ ابن ذكوان: «ولا تتبعان» بالنون الخفيفة وكسرها لالتقاء الساكنين، وهو قليل، قال ابن مالك:

ولَمْ تَقَـعْ خَفِيفَـةٌ بَعْـدَ الألِـف[1].

ويحتمل أن تكون نون الرفع، و«لا» نافية، أي: والأمر لا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون.

الإشارة: دعاء الأولياء على الظالم مشروع بعد الإذن الإلهامي على ما يفهمونه، وقد مكث الشيخ أبو الحسن سنين لم يدع على ابن البراء[2]؛ حتى كان سنة في عرفة، فقال: الآن أُذن لي في الدعاء على ابن البراء.... الخ.

فإن لم يكن إذن فالصبر أولى، بل الأولى الدعاء له بالهداية، حتى يأخذ الله بيده؛ وهذا مقام الصديقين، فإذا وقع الدعاء مطلقًا وتأخرت الإجابة فلا يستعجل، فيكون تبع سبيل الذين لا يعلمون، وفي الحكم: «لا يكن تأخُّرُ أمدِ العطاء مع الإلحاح في الدعاء موجباً ليأسك؛ فقد ضمن لك الإجابة فيما يختار لك لا فيما تختار أنت لنفسك، وفي الوقت الذي يريد، لا في الوقت الذي تريد»، وقال أيضا: «لا يشككنَّك في الوعد عدم وقوع الموعود وإن تعين زمنه؛ لئلا يكون ذلك قدْحاً في بصيرتك، وإخماداً لنور سريرتك». وبالله التوفيق.

ثم أجاب دعاءهما، فقال:

﴿ ۞ وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ بَغۡيٗا وَعَدۡوًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ٩٠﴾

(١) عجز البيت: لكن شديدةٌ وكسرها أُلف.
(٢) هو أبو القاسم ابن البراء، قاضي تونس عند دخول الشيخ الشاذلي إليها. وقد رأى ابنُ البراء إقبالَ الناس على الشاذلي، فسعى في الكيد له واتهامه عند السلطان بالعمل على قلب نظام الحكم. ولكن الله نجاه من كل هذه المكائد.

﴿ آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾

قلت : (فأتبعهم) أي: تبعهم، يقال: تبع وأتبع، لغتان.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وجاوزنا ببني إسرائيل البحرَ ﴾ أي: جوزناهم في البحر يبساً؛ حتى بلغوا الشط الآخر حافظين لهم. رُوي أن بني إسرائيل حين جاوزوا البحر كانوا ستمائة ألف، وكان يعقوب عليه السلام قد دخل مصر في نيف وسبعين من ذريته، فتناسلوا حتى بلغوا وقت موسى العدد المذكور.

﴿ فأتْبعهم ﴾ : فأدركهم ﴿ فرعونُ وجنودُهُ ﴾ ، رُوي أنهم كانوا ثمانمائة ألف أدهم، سوى ما يناسبها من أواسط الخيل. تبعهم ﴿ بغياً وعدْواً ﴾ : باغين وعادين عليهم. مستمراً على بغيه ﴿ حتى إذا أدركه الغرقُ قال آمنتُ أنه ﴾ أي: بأنه ﴿ لا إله إلا الذي آمنتْ به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين ﴾ ، فآمن حين لا ينفع الإيمان بمعاينة الموت، ومن قال بصحة إيمانه فغلطٌ؛ كالحاتمي[1] فإنه قال في الفصوص: إنه من الناجين، وذلك من جملة هفواته.

قال تعالى لفرعون: ﴿ الآنَ ﴾ أي: أتؤمن الآن وقد أيست من نفسك، ﴿ وقد عَصَيْتَ قَبْلُ ﴾ مدة عمرك ﴿ وكنتَ من المفسدين ﴾ : الضالين المضلين، ﴿ فاليوم نُنجِّيك ﴾ أي: ننقذك مما وقع فيه قومك من قعر البحر، ونجعلك طافياً على وجه الماء، أو نلقيك على نجوة من الأرض ليراك الناس، فيتحققوا بغرق من معك، حال كونك ﴿ ببدنك ﴾ عارياً عن الروح، أو عرياناً بلا لباس، أو بدرعك، وكانت له دُروع من ذهب يعرف بها، وكان مظاهراً بينها.

﴿ لتكونَ لمَن خلْفَك آيةً ﴾ : لمن وراءك علامة يعرفون أنك من الهالكين، والمراد: بنو اسرائيل؛ إذ كان في نفوسهم من عظمته ما خيّل إليهم أنه لا يهلك، حتى كذبوا موسى عليه السلام حين أخبرهم بغرقه، إلى أن عاينوه منطرحاً على ممرهم من الساحل، أو لمن يأتي بعدك من القرون إذا سمعُوا مآل أمرك، فيكون ذلك عبرة ونكالاً للطغيان، أوْ حجة تدلهم على أن الإنسان على ما كان عليه من عظيم الشأن وكبرياء الملك مملوك مقهور، بعيد عن مظانّ الربوبية، أو آية تدل على كمال قدرته وإحاطة علمه وحكمته، فإن إفراده بالإلقاء إلى الساحل دون غيره؛ يفيد أنه مقصود لإزاحة الشك في أمره.

﴿ وإن كثيراً من الناس عن آياتنا لغافلون ﴾ ؛ لا يتفكرون فيها ولا يعتبرون بها، والإخبار بهذا الأخذ الذي وقع في قعر البحر من أعلام النبوة؛ إذ لا يمكن أن يخبر بها إلاّ علاّمُ الغيوب الذي لا يخفى عليه شيء، ولا يخلو منه مكان. والله تعالى أعلم.

---

(١) أي: الشيخ محيي الدين بن عربي.

الإشارة: كل من دخل بحر التوحيد علمًا ـ وهو فرعون برؤية نفسه ـ، ولم يصحب من يغيبه عنها غرق في بحر الزندقة والدعوى، فإن رجع إلى الإيمان بعد معاينة الهلاك بسيف الشريعة قيل له: الآن وقد عصيتَ قبلُ وكنتَ من المفسدين؟ فإن تاب حقيقة رُجي له النجاة، وإن قتل كان آية ونكالاً لمن خلفه. والله تعالى أعلم.

ثم ذكّر بنى إسرائيل بما أنعم عليهم، فقال:

﴿ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾

قلت: (مُبوّأ): ظرف بمعنى منزل.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ولقد بوأنا ﴾ أى: أنزلنا ﴿ بنى إسرائيل مُبوّأ صِدْقٍ ﴾ أى: منزل صدق، أى: منزلاً صالحاً مرْضياً يصدق فيه ظن قاصده وساكنه، فما ظن فيه من الكمالات وجدها صدقاً وحقاً، والمراد به: الشام وقراها، ﴿ ورزقناهم من الطيبات ﴾ من اللذائذ، وكانوا متفقين على دينهم، وعلى ظهور دين الإسلام، ﴿ فما اختلفوا ﴾ فى أمر دينهم ﴿ حتى جاءهم العلم ﴾ ، بأن قرؤوا التوراة وعلموا أحكامها، ثم طغوا وعصوا، أو فى أمر محمد ﷺ إلا من بعد ما علموا صدقه بنعوته وتظاهر معجزاته، ﴿ إن ربك يقضى بينهم يومَ القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ﴾، فيميز المحقَّ من المبْطل بالإنجاء والإهلاك.

الإشارة: قد يمد الله عباده بأنواع النعم، ثم يبعث لهم من يذكرهم بأيام الله، ويعرفهم به، فإذا اختلفوا عليه ظهر الشاكر من غيره، فيغير عليهم تلك النعم، فيوصل إليه أهل التصديق والاستماع والاتباع، ويبعد أهل الإنكار والابتداع. وبالله التوفيق.

ثم أمر بالسؤال لأهل العلم لمن وقعت له شُبهة، فقال:

﴿ فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿فإن كنتَ﴾ يا محمد ﴿فى شكٍ مما أنزلنا إليك فاسْأل الذين يقرؤن الكتاب من قَبلكَ﴾ الخطاب للرسول ﷺ، والمراد به: من وقع له شك، فإن الملك إذا أراد أن يُعرض بأحد؛ خاطب كبير القوم وهو يريد غيره، فهو كقول العامة: الكلام مع السارية وافهمي ياجارية.

وأما النبي ﷺ فهو بعيد من الشك؛ لأنه عين اليقين، وهو الذى علّم الناس اليقين، ولذلك قال ـ عليه الصلاة السلام ـ لما نزلت : «لا أشُكُّ ولا أسأل»(١) والمراد بالذين يقرءون الكتاب: من أسلم منهم، كعبد الله بن سلام وغيره، أو فإن كنت أيها المستمع فى شك مما أنزلنا إليك على لسان فاسأل... الخ، وفيه تنبيه على أن من خالجته شبهة فى الدين ينبغى أن يسارع إلى حلها، بالرجوع إلى أهل اليقين إن كانت فى التوحيد، أو إلى أهل العلم إن كانت فى الفروع.

قال ابن عطية: الخواطر التى لا ينجو منها أحد، هى خلاف الشك الذى يحال فيه على الاستشفاء بالسؤال. هـ. أى: فإنها معفوٌ عنها.

ثم قال تعالى: ﴿لقد جاءك الحقُّ من ربك﴾ واضحاً لا مدخل للمرية فيه بالآيات القاطعة ﴿فلا تكوننَّ من الممْتَرِين﴾ : الشاكّين بالتزلزل على ما أنت عليه من الجزم واليقين، ﴿ولاتكوننَّ من الذين كذّبوا بآيات الله فتكون من الخاسرين﴾ ، وهذا كله يجرى على ما تقدم من أنه لكل سامع. وقال البيضاوى: هو من باب التهييج والتثبيت، وقطع الأطماع عنه، كقوله: ﴿فلا تكونن ظهيراً للكافرين﴾(٢) هـ.

الإشارة: لا تنقطع عن العبد الأوهام والشكوك والخواطر، حتى يدخل مقام الإحسان ويكاشف بمقام الشهود والعيان، بالغيبة عن حس الأكوان، بسطوع أنوار المعانى عند غيبة الأوانى، ومن غاب عن حس نفسه غاب عنه حس جميع الأكوان؛ وذلك بصحبة أهل العرفان، الذين سلكوا الطريق حتى أفضوا إلى عين التحقيق، فزاحت عنهم الشكوك والأوهام، وانحلت عنهم الشُبَه، وزالت عن قلوبهم الأسقام، واطلعوا على تأويل المتشابه من القرآن، فبصحبة هؤلاء ترتفع الخواطر والشكوك، ويرتفع العبد إلى حضرة ملك الملوك، فجلوس ساعة مع هؤلاء تعدل عبادة سنين. وفى بعض الآثار: (تعلموا اليقين بمجالسة أهل اليقين) قلت: وقد منّ الله علينا بمعرفتهم وصحبتهم، بعد أن تحققنا بخصوصيتهم، فلله الحمد وله الشكر.

ثم أخبر عمن سبق له الشقاء، فلا ينفع فيه سؤال ولا صحبة، فقال:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾

---

(١) أخرجه ابن جرير فى تفسيره (١١/١٦٨)، عن قتادة وسعيد بن جبير، وزاد المناوى فى الفتح السماوى (٢/٧١٦) عزوه لعبدالرزاق فى تفسيره.
(٢) من الآية ٨٦ من سورة القصص.

يقول الحق جل جلاله: ﴿إن الذين حقتْ﴾ أي: ثبتت ﴿عليهم كلمتُ ربك﴾ بأنهم لا يؤمنون، أو بأنهم مخلدون في العذاب ﴿لا يؤمنون﴾ أبداً؛ إذ لا يكذب كلامه ولا ينتقض قضاؤه، ﴿ولو جاءتهم كلُّ آية﴾ وعاينوها فإن السبب الأصلي لإيمانهم هو تعلق إرادته تعالى، وقد أرادَ خلافه، فلا يؤمنوا ﴿حتى يَرَوُا العذابَ الأليم﴾ وحينئذ لا ينفعهم، كما لم ينفع فرعون، وبالله التوفيق.

الإشارة: من انتكبه التوفيق لا يصدق بأهل التحقيق، ولو رأى منهم ألف كرامة، فلا تنفك عنه الشكوك والأوهام؛ حتى يفضي إلى شرب كأس الحِمام، فيلقى الله بقلب سقيم، وربما مات على الشك، فيلحقه العذاب الأليم، عائذاً بالله من ذلك.

ثم وبخ من فوت إيمانه عن وقته، فقال:

﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾﴾

قلت: (فلولا) تحضيضية، و(إلا قوم يونس): استثناء منقطع، ويجوز الاتصال؛ فيكون الاستثناء من معنى النفي الذي تضَمَّنَهُ حرف التحضيض؛ لأن المراد بالقُرى: أهلها، كأنه قال: ما آمن أهل قرية من القرى الماضية فنفعها إيمانها إلا قوم يونس، ويؤيده قراءةُ الرفع. و«يونس»: عجمي مثلث النون.

يقول الحق جل جلاله: ﴿فلولا كانت﴾ هلاَّ وجُدت ﴿قريةٌ﴾ من القرى التي أهلكناها ﴿آمنتْ﴾ قبل معاينة العذاب، ولم تؤخر الإيمان إلى نزوله كما فعل فرعون، ﴿فنفعَها﴾ حينئذ ﴿إيمانُها﴾ بأن يقبله الله منها؛ فيكشف عنها العذاب، ﴿إلا﴾ لكن ﴿قومَ يونسَ لما آمنوا كشفنا عنهم عذابَ الخزي في الحياة الدنيا﴾، فرفعنا عنهم العذاب حين آمنوا بعد أن ظهرت مخايله، فنجوا ﴿ومتعناهم إلى حين﴾: إلى تمام آجالهم.

رُوِي أن يونس عليه السلام بُعث إلى أهل نينوى من الموصل، فكذبوه وأصروا على تكذيبه، فوعدهم بالعذاب إلى ثلاث، فلما دنا الموعد وأغامت السماء غيماً أسود ذا دخان شديد فهبط حتى غشي مدينتهم، فهابوا، فطلبوا يونس فلم يجدوه فأيقنوا صدقه، فلبسوا المُسوح وبرزوا إلى الصعيد بأنفسهم ونسائهم وصبيانهم ودوابهم، وفرقوا بين كل والدة وولدها، فحن بعضها إلى بعض وعلت الأصوات والضجيج، وأخلصوا التوبة والإيمان، وتضرعوا إلى الله تعالى، فرحمهم وكشف العذاب عنهم، وكان يوم عاشوراء ويوم الجمعة. والله تعالى أعلم.

الإشارة: ينبغي للعبد أن يعتني بتربية إيمانه وتقوية إيقانه قبل فوات إبّانه، وهو انصرام أجله. وتربيته تكون بصحبة أهل اليقين، فإن لم يعثر بهم فبمطالعة كتبهم، والوقوف على أخبارهم ومناقبهم، مع دوام التفكر والاعتبار،

والإكثار من الطاعة والخضوع والافتقار، والتمسك بالذل والانكسار. قال تعالى في بعض الأخبار: «أنا عند المنكسرةِ قلوبُهم من أجلي»، وبالله التوفيق.

كما أشار إلى ذلك بقوله:

﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ولو شاء ربُّك ﴾ هداية الخلق كلهم ﴿ لآمَن من في الأرض كلُّهم جميعاً ﴾ بحيث لا يتخلف عنه أحد، لكن حكمته اقتضت وجود الخلاف، فمن رام اتفاقهم على الإيمان فقد رام المحال، ولذلك قال: ﴿ أفأنت تُكرهُ الناسَ ﴾ بالقهر على ما لم يشأ الله منهم ﴿ حتى يكونوا مؤمنين ﴾ كلهم.

قال البيضاوي: وترتيب الإكراه على المشيئة بالفاء، وإيلاؤها حرف الاستفهام الإنكاري، وتقديم الضمير على الفعل، للدلالة على أن خلاف المشيئة مستحيل، فلا يمكنه تحصيله بالإكراه فضلاً عن الحث والتحريض عليه، إذ روى أنه - عليه الصلاة السلام - كان حريصاً على إيمان قومه، شديد الاهتمام به، فنزلت، ولذلك قرره بقوله: ﴿ وما كان لنفسٍ أن تؤمن إلا بإذن الله ﴾ ؛ بمشيئته وألطافه وتوفيقه؛ فلا تجهد نفسك في هداها، فإنه إلى الله تعالى. ﴿ ويجعلُ الرِّجس ﴾ : العذاب أو الخذلان فإنه سببه ﴿ على الذين لا يعقلون ﴾ : لا يستعملون عقولهم بالنظر في الحجج والآيات، أو لا يعقلون دلائل القرآن وأحكامه؛ لِما على قلوبهم من الطبع. ويؤيد الأول قوله ﴿قل انظروا...﴾ الخ. هـ.

الإشارة: في الآية تسلية لأهل التذكير حين يرون الناس لم ينفع فيهم تذكيرهم، وفيها تأديب لمن حرص على هداية الناس كلهم، أو يتمنى أن يكونوا كلهم خصوصاً، فإن هذا خلاف حكمته تعالى. قال تعالى: ﴿ ولا يزالون مختلفين ﴾(١) فالداعون إلى الله لا يكونون حرصا على الناس أبداً، بل يدعون إلى الله، ويذكّرون بالله، وينظرون ما يفعل الله اقتداء بنبي الله، بعد أن علمه الله كيف يكون مع عباد الله. والله تعالى أعلم.

ثم أمر باستعمال العقل في التفكر والاعتبار، فقال:

﴿ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ ﴾

(١) من الآية ١١٨ من سورة هود.

قلت : (ماذا) إن كانت استفهامية علقت (انظروا) عن العمل، وإن كانت موصولة فمفعول به، و(ما تغنى الآيات) : يحتمل الاستفهام في محل نصب بتغنى، أو النفي. «ثم ننجي» معطوف على محذوف دل عليه: (إلا مثل أيام) أي: فكانت عادتنا معهم أن نهلك المكذبين، ثم ننجي رسلنا ومن آمن معهم. و«كذلك» مصدر معمول لننجي، و(حقاً) اعتراض بينهما، وهو مصدر لفعل محذوف، أي: مثل ذلك الإنجاء ننجي المؤمنين يحق ذلك حقاً، وعلى هذا يوقف على: (الذين آمنوا)، ثم يبتدأ بقوله: (كذلك حقاً..) الخ. وقيل: خبر عن (الذين آمنوا) أي: والذين آمنوا مثلهم في الإنجاء، وهو ضعيف.

يقول الحق جل جلاله : ﴿ قل ﴾ للمشركين الذين طلبوا منك الآية: ﴿ انظروا ماذا في السموات والأرضِ ﴾ من الآيات والعِبَر، وعجائب الصنع ليدلكم علي وحدانية الله تعالى، وكمال قدرته، ثم بيّن أن الآيات لا تفيد من سبق عليه الشقاء، فقال: ﴿ وما تغنى الآياتُ والنُذُرُ عن قومٍ لا يؤمنون ﴾ في علم الله وحكمه، ثم هددهم بالهلاك فقال: ﴿ هل ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم ﴾ أي: مثل وقائعهم ونزول العذاب بهم؛ إذ لا يستحقون غيره، فهو من قولهم: أيام العرب، لوقائعها.

﴿ قل ﴾ لهم :﴿ فانتظروا ﴾ هلاككم ﴿ إني معكم من المنتظرين ﴾ لذلك، أو فانتظروا هلاكي إني معكم من المنتظرين هلاككم، ﴿ ثم نُنَجِّي رُسُلَنا ﴾ أي: عادتنا أن ننجي رسلنا ﴿ والذين آمنوا ﴾ معهم من ذلك الهلاك، ﴿ كذلك حقاً علينا ننج المؤمنين ﴾ من أصحاب محمد ﷺ حين نُهلك المجرمين؛ حقًا واجبًا علينا كما هي عادتنا مع من تحبب إلينا بالإيمان والطاعة.

الإشارة : أمر الحق - جل جلاله - أهل النظر والاستبصار بأن ينظروا ماذا في السموات والأرض من الأسرار والأنوار، أمرهم أن يشاهدوا أسرار الذات وأنوار الصفات، دون الوقوف مع الأجرام الحسّيات، أمرهم أن ينظروا المعاني خلف رقة الأواني، لا أن يقفوا مع الأواني، وإليه أشار ابن الفارض في خمريته، حيث قال:

وَلُطْفُ الأَوَانِي - في الحقيقة - تَابِعٌ ... لِلطْفِ المعَانِي، والمعَاني بِها تَسْمُو

فالأكوان كلها أواني حاملة للطف المعاني، وأصل الأواني معاني، تحسست وتكثفت فمَنْ لطُف الأواني وذوّبها بفكرته رجعت معاني، واتصلت المعاني بالمعاني، وغابت حينئذ الأواني، ولا يعرف هذا إلا من صحب أهل المعاني، وهم أهل الفناء والبقاء، ومن لم يصحبهم فحسبه الوقوف مع الأجرام الحسية، ويستعمل فكرة التصديق والإيمان، وهى عبادة التفكر والاعتبار والأولى فكرة أهل الشهود والاستبصار، وفي أمثالهم قال الشاعر:

هُم الرِّجالُ وغَبْنٌ أن يُقالَ لِمَنْ ... لَمْ يَتّصِفْ بِمعَانِي وَصْفِهِم رَجُلُ

وقد ذكر في الحِكَم هذه الإشارة فقال: «أباح لك أن تنظر ما في المُكَوِّنات، وما أباح لك أن تَقِفَ مع ذوات المكونات، (قل انظروا ماذا في السموات) فتح لك باب الأفهام، ولم يقل: انظروا السموات؛ لئلا يدلك على وجود الأجرام» .

ومن سبق له في العلم القديم الخذلان لا يخرج عن دائرة الأكوان، فلا يؤمن بوجود أهل الشهود والعيان، فما ينتظر مثل هذا إلا ما نزل بأمثاله، من هجوم الحِمام قبل خروجه من سجن الأجرام، فإنه لا ينجو من سجن الأكوان إلا من صحب أهل العرفان، الذين أفضوا إلى فضاء الشهود والعيان، وقليل ما هم.

ثم أمر نبيه بالتبرء من الشرك وأهله، فقال:

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ ﴾

قلت: (وأن أقم): عطف على (أن أكون) وإن كان بصيغة الأمر؛ لأنَّ الغرض وصل «أن» بما يتضمن معنى المصدر ليدل معه عليه، وصيغ الأفعال كلها كذلك، سواء الخبر منها والطلب، والمعنى: وأمرت بالإيمان والاستقامة.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ قلْ ﴾ يا محمد لأهل مكة أو لجميع الناس: ﴿ يا أيها الناسُ إن كنتم في شك من ديني ﴾، بأن شككتم في صحته حتى عبدتم غير الله، ﴿ فلا أعبدُ الذين تعبدون من دون الله ولكن أعبدُ الله الذي يتوفاكم ﴾ فهذا خلاصة ديني اعتقاداً وعملاً، فاعرضوها على العقل السليم، وانظروا فيها بعين الإنصاف، لتعلموا صحتها، وهو أني لا أعبد ما تخلقونه وتعبدونه، ولكن أعبد خالقكم، الذي هو يوجدكم ويتوفاكم. وإنما خص التوفي بالذكر لأنه أليق بالتهديد، انظر البيضاوي. ﴿ وأمرت أن أكون من المؤمنين ﴾ بالله وحده، الذي دل عليه العقل ونطق به الوحي.

﴿ وأنْ أقِمْ وجهَكَ للدين حنيفاً ﴾؛ مائلاً عن الأديان الفاسدة، أي: أمرت بالاستقامة بذاتي كلها في الدين والتوغل فيه، بأداء الفرائض والانتهاء عن القبائح، أو: أن أقيم وجهي في الصلاة باستقبال القبلة. وقيل لي: ﴿ ولا تكوننَ من المشركين ﴾ بالله في شيء، ﴿ ولا تَدْعُ من دون الله مالا ينفعُكَ ولا يُضُرُّكَ ﴾ بنفسه ولابدَعْوَته، ﴿ فإن فعلتَ ﴾ ودعوْتَه ﴿ فإنك إذاً من الظالمين ﴾، وهو تنفير وتحذير للغير من الميل إليه.

ثم بيَّن من يستحق العبادة والدعاء، وهو الله تعالى فقال: ﴿وإن يمسسك الله﴾ أي: يصيبك ﴿بضر فلا كاشف له﴾: لا رافع له ﴿ إلا هُو ﴾ أي: الله، ﴿ وإن يُردك بخيرٍ فلا رادَّ ﴾: لا دافع ﴿ لفضله ﴾ الذي أرادك به.

قال البيضاوي: ولعله ذكر الإرادة مع الخير، والمس مع الضر، مع تلازم الأمرين للتنبيه على أن الخير مراد بالذات، وأن الضر إنما مسهم لا بالقصد الأول، ووضع الفضل موضع الضمير للدلالة على أنه متفضل بما يريد بهم من الخير لا لاستحقاق لهم عليه، ولم يستثن لأن مراد الله لا يمكن رده. هـ.

﴿ يصيب به ﴾ بذلك الخير ﴿ من يشاء من عباده وهو الغفور الرحيم ﴾، فتعرّضوا لخيره بالتضرع والسؤال، ولا يمنعكم من ذلك ما اقترفتم من العصيان والزلل، فإنه غفور رحيم.

الإشارة: ينبغي لمن تمسك بطريق الخصوص، وانقطع بكليته إلى مولاه، أن يقول لمن خالفه في ذلك: إن كنتم في شك من ديني ـ من طريقي ـ فلا أعبدُ ما تعبدون من دون الله، من متابعة الهوى والحرص على الدنيا، ولكن أعبدُ الله الذي يتوفاكم، وأمرت أن أكون من المؤمنين، وأن أقيم وجهي للدين حنيفًا مائلاً عن دينكم ودنياكم، كما قال القائل:

تَرَكْتُ لِلنَّاسِ دُنْيَاهُم ودِينَهُم		شُغْلاً بِذِكْرِكَ يَادِيني ودُنْيَائي

وقال آخر:

تَرَكْتُ للنَّاسِ مَا تَهْوَى نُفُوسُهُم		مِنْ حُبِّ دُنْيَا ومِنْ عِزٍّ ومِنْ جَاهِ
كَذَاكَ تَرْكُ المَقَامَاتِ هُنَا وهُنَا		والقَصْدُ غَيْبَتُنَا عَمَّا سِوَى اللَّهِ.

﴿ ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك ﴾، وهو ما سوى الله، فليس بيد أحد ضر ولا نفع، ولا جلب ولا دفع، قال في الحكم: «لا ترفعنّ إلى غيره حاجة هو مُوردها عليك، فكيف يرفع إلى غيره ما كان هو له واضعا ؟! من لا يستطيع أن يرفع حاجته عن نفسه؛ فكيف يستطيع أن يكون لها عن غيره رافعا ؟!».

قال بعضهم: من اعتمد على غير الله فهو في غرور؛ لأن الغرور ما لا يدوم، ولا يدوم شيء سواه، وهو الدائم القديم، لم يزل ولا يزال، وعطاؤه وفضله دائمان، فلا تعتمد إلا على من يدوم عليك منه الفضل والعطاء، في كل نفس وحين وأوان وزمان. هـ.

وقال وهب بن منبّه: أوحى الله إلى داود ﷺ: يا داود أما وعزتي وجلالي وعظمتي لا ينتصر بي عبد من عبادي دون خلقي، أعلم ذلك من نيته فتكيده السموات السبع ومن فيهن، والأرضون السبع ومن فيهن، إلا جعلت له منهن فرجا ومخرجا، أما وعزتي وجلالي لا يعتصم عبد من عبادي بمخلوق، دوني، أعلم ذلك من نيته إلا قطعت أسباب السموات من يده، وأسخطتُ الأرض من تحته ولا أبالي في أي واد هلك. هـ.

وقال بعضهم: قرأت في بعض الكتب: أن الله عز وجل يقول: [وعزتي وجلالي، وجودي وكرمي، وارتفاعي فوق عرشي في علو مكاني، لأقطعن آمال كل مؤمّل لغيري بالإياس، ولأكسونه ثوب المذلة بين

الناس، ولأنحينّه من قربي، ولأقطعنه من وصلي، أيؤمّل غيري في النوائب، والشدائد بيدي، وأنا الحي، ويُرجى غيري ويقرع بالفكر باب غيري، وبيدي مفاتح الأبواب، وهي مغلقة وبابي مفتوح لمن دعاني، ومن ذا الذي أملني لنائبة فقطعت به دونها؟ ومن ذا الذي رجاني بعظيم جرمه فقطعت رجاءه مني؟ ومن ذا الذي قرع بابي فلم أفتح له؟ جعلت آمال خلقي بيني وبينهم متصلة، فقطعت بغيري، وجعلت رجاءهم مدخُوراً لهم عندي؛ فلم يرضوا بحفظي، وملأت سمواتي بمن لايملّون تسبيحي من ملائكتي، وأمرتهم ألا يغلقوا الأبواب بيني وبين عبادي، فلم يثقوا بقولي، ألم يعلم من طرقَتْه نائبة من نوائبي أنه لا يملك كشفها أحدٌ غيري؟ فما لي أراه بآماله مُعرضاً عني؟ ومالي أراه لاهياً إلى سواي، أعطيته بجودي ما لم يسألني، ثم انتزعته منه فلم يسألني رده، وسأل غيري، أفتراني أبدأ بالعطية قبل المسألة ثم أُسأل فلا أجيب سائلي؟ أبخيل أنا فيبخلني خلقي؟ أليس الدنيا والآخرة لي؟ أوليس الفضل والرحمة بيدي؟ أوليس الجود والكرم لي؟ أوليس أنا محل الآمال؟ فمن ذا الذي يقطعها دوني؟ وما عسى أن يؤمل المؤملون لو قلت لأهل سمواتي وأهل أرضي: أمّلوني، ثم أعطيتُ كل واحد منهم من الفكر مثل ما أعطيت الجميع، ما انتقص ذلك من ملكي عضو ذرّة، وكيف ينقص ملك كامل أنا فيه؟. فيا بؤس القانطين من رحمتي، ويابؤسَ من عصاني ولم يراقبني، وثَب على محارمي ولم يستَحِ منّي. هـ

ثم أزاح عذرهم بإرسال النذير، فقال:

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿قل يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم﴾ الرسول أو القرآن، ﴿فمن اهتدى﴾ بالإيمان والمتابعة ﴿فإنما يهتدي لنفسه﴾ ؛ لأن نفعه لها، ﴿ومن ضلّ فإنما يضل عليها﴾ ؛ لأن وبال الضلال عليها، ﴿وما أنا عليكم بوكيل﴾ أي: موكلٌ عليكم، فأقهركم على الإيمان، وإنما أنا بشير ونذير. وهو منسوخ بآية السيف. ﴿واتبع ما يُوحى إليك﴾ بالامتثال والتبليغ، ﴿واصبر حتى يحكم الله﴾ بينك وبين عدوك، بالأمر بالقتال ثم بالنصر والعز، ﴿وهو خير الحاكمين﴾ إذ لا يمكن الخطأ في حكمه، لاطلاعه على السرائر كاطلاعه على الظواهر.

الإشارة : يأيها الناس قد جاءكم من يُعرفكم بالحق من ربكم، فمن اهتدى بمعرفته واتباعه نفع نفسه، حيث أخرجها من غم الحجاب، وشفاها من سقم الشك والارتياب، ومن ضل عن معرفته فوباله عليه، حيث ترك نفسه في أودية الخواطـــر تَجُول، وحرمها من الله حقيقة الوصول. ويقال للعارف إذا أعرض الخلق عنه، ولم ينفع فيهم تذكيره ووعظه: اتبع ما يوحى إليك من وحي الإلهام، فإنه حق في حق الخصوص؛ إذ لا يتجلى في قلوبهم إلا ما هو حق، حيث تطهرت من خواطر الخلق. واصبر حتى يحكم الله بإرسال ريح الهداية، وهو خير الحاكمين. وبالله التوفيق، وهو الهادى إلى سواء الطريق .

❁ ❁ ❁

سُورَةُ هُودٍ

مكيــة إلا قوله تعالى: ﴿ إن الحسنات يُذهبن السيئات ﴾ ؛ نزلت في نبهان التمار بالمدينة، وهي مائة وثلاث وعشرون آية. ووجه المناسبة لما قبلها: قوله تعالى: ﴿ واتبع ما يُوحى إليك ﴾[1] ؛ وهو كتاب أحكمت آياته.

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ * الر ﴾.

قال في القوت، في تفسير ﴿ الر ﴾ : هذه ثلاثة أسماء: (الله، لطيف، رحيم). وقيل: هي حرف من اسم الرحمن. قلت: أو مختصرة من الرسول؛ خطاباً للنبي ﷺ. ويمكن أن يشير بالحروف للعوالم الثلاثة؛ فالألف لوحدة الجبروت، واللام لتدفق أنوار الملكوت، والراء لسريان إمداد الرحموت في سائر الموجودات، وأعظمها وعنصرها: نزول الكتاب العزيز. ولذلك بدأ بذكره، فقال:

﴿ الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾ أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٥﴾ ﴾

قلت : (كتاب) : خبر، أي: هذا كتاب. و(أحكمت) : صفة . و(من لدن) : خبر ثان، أو خبر «كتاب»، إن جعل مبتدأ، أو صفة له، إن كان خبراً. و(ألاّ تعبدوا) : «أن» : مفسرة، أو مصدرية في موضع مفعول لأجله، أو بدل من الآيات، أو مستأنف. و(أن استغفروا) : عطف عليه . و(حين) : متعلق بمحذوف، أي: ألا إنهم يثنونها حين يستغشون... إلخ. و(يعلم) : استئناف لبيان النقض عليهم.

يقول الحق جل جلاله : أيها الرسول المصطفى، هذا الذي تقرؤه ﴿ كتابٌ أُحكمت آياته ﴾ ؛ أتقنت، ونظمت نظماً محكماً، لا يعتريه خلل من جهة اللفظ ولا المعنى، أو أحكمت من النسخ بشريعة أخرى، أو أحكمت

---

(١) من الآية : ١٠٩ من سورة يونس.

بالحُجج والبراهين، أو جعلت حكيمة؛ لأنها مشتملة على أمهات الحكم العملية. ﴿ثم فُصِّلتْ﴾؛ بُيِّنت لاشتمالها على بيان العقائد والأحكام والمواعظ والأخبار. أو فصلت سورة سورة؛ ليسهل حفظها، وفُصلت بالإنزال نجماً نجماً، في أزمنة مختلفة. أو فُصل فيها ولُخص ما يحتاج إليه من الأحكام. و(ثم): للتفاوت في الحكم؛ لأن الأحكام صفة ذاتية، والتفصيل إنما هو بحسب من يفصل له. نزل ذلك الكتاب ﴿من لَّدنْ حكيمٍ خبيرٍ﴾، ولذلك كان محكماً مفصلاً بالغاً في ذلك الغاية؛ لأن الحكيم الخبير لايخفى عليه ما يخل بنظم الكلام.

قائلاً ذلك الكتاب: ألا تعبدوا معه غيره. وقال في القوت: ﴿كتاب أُحكمت آياته﴾ يعني: بالتوحيد، ﴿ثم فصلت﴾ أي: بالوعد والوعيد. ثم قال: ﴿من لدن حكيم﴾ أي: بالإحكام للأحكام، ﴿خبير﴾ بالتفصيل للحلال والحرام. ﴿ألا تعبدوا إلا الله﴾؛ هذا هو التوحيد الذي أحكمه. ﴿إنني لكم منه نذير﴾ بالعذاب، ﴿وبشير﴾ بالثواب لمن آمن به. هذا هو الوعد والوعيد. قال البيضاوي: ﴿إنني لكم منه﴾ أي: من الله، (نذير وبشير) بالعقاب على الشرك والثواب على التوحيد. ﴿وأن استغفروا ربكم﴾: عطف على «ألا تعبدوا»، ﴿ثم توبوا إليه﴾؛ ثم توصلوا إلى مطلبكم بالتوبة؛ فإن المعرض عن طريق الحق لابد له من رجوع. وقيل: استغفروا من الشرك، ثم توبوا إليه بالطاعة، ويجوز أن يكون «ثم»: للتفاوت بين الأمرين. هـ.

قال ابن جزي: (استغفروا ربكم) مما تقدم من الشرك والمعاصي، ثم ارجعوا إليه بالطاعة والاستقامة. هـ. وقال الواحدي: (استغفروا ربكم) من ذنوبكم السابقة، (ثم توبوا إليه) من المستأنفة متى وقعت. هـ. ﴿يُمتعكم متاعاً حسناً﴾؛ يحييكم حياة طيبة بالأرزاق والنعم والخيرات، فتعيشوا في أمن ودعة. ﴿إلى أجلٍ مسمىً﴾؛ تمام أجلكم، فلا يستأصلكم بالعذاب، أو يمتعكم بالرجاء فيه والرضا بقضائه؛ لأن الكافر قد يمتع بالأرزاق في الدنيا؛ استدراجاً، ﴿ويُؤتِ﴾ في الآخرة ﴿كلَّ ذي فضلٍ﴾؛ عمل صالحاً، ﴿فضلَه﴾ أي: جزاء فضله، فيُوفي ثواب عمله، أو يعطي كل ذي فضل في دينه جزاء فضله في الدنيا والآخرة. وهو وعد للمؤمن التائب بخير الدارين.

﴿وإن تَولَّوا﴾ أي: وإن تتولوا عما أمرتكم به، ﴿فإني أخاف عليكم عذاب يوم كبير﴾؛ يوم القيامة، أو يوم الشدة بالقحط والجوع، وقد نزل بهم حتى أكلوا الجيف. أو يوم بدر ﴿إلى الله مرجِعُكم﴾ أي: رجوعكم في ذلك اليوم الكبير، أو بالموت، ﴿وهو على كل شيء قدير﴾؛ فيقدر على بعثهم وعذابهم أشد العذاب. وكأنه تقرير لكبر اليوم.

﴿ألا إنهم يثْنُون صدورَ هم﴾؛ يلوونها عن الحق وينحرفون عنه، أو يعطفونها على الكفر وعداوة النبي ﷺ، أو يولون ظهورهم إلى النبي ﷺ؛ لئلا يروه من شدة البغض والعداوة، ﴿ليستخفوا منه﴾ أي: من الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ أو: من الله بسرهم، فلا يطلع رسوله والمؤمنين عليه. قيل: إنها نزلت في طائفة من المشركين، قالوا: إن أرخينا ستورنا، واستغشينا ثيابنا، وطوينا صدورنا على عداوة محمد ﷺ كيف يعلم ذلك؟

والحاصل : إن الإثناء إن كان عن الحق ـ فالضمير في: (منه)، يعود على الله، وإن كان عن النبي ﷺ فالضمير يعود عليه؛ وفي البخاري عن ابن عباس: (أنها نزلت فيمن كان يستحي أن يتخلّى أو يجامع فيفضي إلى السماء).

وقوله: ﴿ ألا حين يستغشون ثيابهم ﴾: يحتمل أن يكون عند النوم، فيكون الإثناء عن الحق، أو عن الله، أو عند مواجهة الرسول، فيكون الإثناء عن رؤيته ـ عليه الصلاة السلام، أو عن سماع القرآن. قال تعالى: ﴿ يعلم ما يسرون ﴾ في قلوبهم، ﴿ وما يعلنون ﴾ بأفواههم. ـ فقد استوى في علمه سرهم وعلانيتهم، فكيف يخفى عليه أمرهم واستخفاؤهم منه؟ ﴿ إنه عليم بذات الصدور ﴾ أي: بالأسرار صاحبة الصدور، أو بحقائق الصدور وما احتوت عليه.

الإشارة: يقول الحق جل جلاله: هذا كتاب أحكمت آياته بالتعريف بالذات، ثم فصلت ببيان الصفات، أو: أحكمت بتبيين الحقائق، ثم فصلت بتبيين الشرائع. أو: أحكمت ببيان ما يتعلق بعالم الأرواح من التعريف، ثم فصلت ببيان ما يتعلق بعالم الأشباح من التكليف، أو: أحكمت ببيان أسرار الملكوت، ثم فصلت ببيان أحكام الملك. ثم بيّن ما يتعلق بالذات فقال: ﴿ ألاّ تعبدوا إلا الله ﴾، وبيّن ما يتعلق بالصفات من التفصيل فقال: (وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه)، أو: بيّن ما يتعلق بالحقائق، ثم ما يتعلق بالشرائع، وهكذا. فإن جمعتم بين الحقائق والشرائع يمتعكم متاعاً حسناً؛ بشهود ذاته، والتنزه في أنوار صفاته، إلى أجل مسمى، وهو: النزول في مقعد صدق عند مليك مقتدر، ويؤت كل ذي فضل من المعرفة جزاء فضله من الشهود، فمن تولى عن هذا خاف من عذاب يوم كبير، وهو: غم الحجاب، والتخلف عن الأحباب. ثم عاتب أهل الشهود حيث تركوا مقام المشاهدة وتنزلوا إلى مقام المراقبة، بقوله: (ألا إنهم يثنون صدورهم...) الآية.

ثم بيّن كمال علمه تكميلاً لقوله: (يعلم ما يسرون وما يعلنون)، فقال:

﴿ ۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ٦ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وما من دابة في الأرض ﴾ أي: كل ما يدب عليها؛ عاقلاً أو غيره، ﴿ إلا على الله رزقُها ﴾؛ غذاؤها ومعاشها؛ لتكفله إياه بذلك؛ تفضلاً وإحساناً. وإنما أتى بعلى التي تقتضي الوجوب؛ تحقيقاً لوصوله، وتهييجاً على التوكل وقطع الوساوس فيه، ﴿ ويعلمُ مستقرها ومستودعها ﴾؛ أماكنها في الحياة والممات، أو الأصلاب والأرحام. أو: مستقرها في الأرض بعد وجودها، ومستودعها: موادها قبل إيجادها. أو بالعكس: مستقرها: موادها في العلم قبل الظهور، ومستودعها: إقامتها في الدنيا بعد الوجود. ﴿ كلٌّ ﴾ واحد من الدواب على اختلاف أجناسها وأصنافها ﴿ في كتابٍ مبين ﴾؛ مذكور في اللوح المحفوظ، أو في العلم القديم المبين للأشياء، قال البيضاوي: وكأنه أريد بالآية كونه عالماً بالمعلومات كلها، وبما بعدها بيان كونه قادراً على الممكنات بأسرها، تقريراً للتوحيد ولما سبق من الوعد والوعيد. هـ.

الإشارة: هم الرزق، وخوف الخلق، من أمراض القلوب ، ولا ينقطعان عن العبد حتى يكاشف بعلم الغيوب وهو التوحيد الخاص؛ أعني: الرسوخ في الشهود والعيان. وإنما يضر العبدَ ما كان ساكناً، وأما الخواطر التي تلمع وتذهب، فلا تضر؛ لأن الإنسان خلق ضعيفاً.

واعلم أن الرزق على قسمين: رزق الأرواح، ورزق الأشباح. فرزق الأرواح معنوي، وهو: قوت الروح من المعرفة وعلم اليقين. ورزق الأشباح حسي، وهو: الطعام والشراب. وقد تكفل الله بالأمرين معاً، وأمر بالتسبب فيهما، قياماً برسم الحكمة. فالتكفل حقيقة، والتسبب شريعة، فالعامة اشتغلوا بالتسبب في الرزق الحسي والبحث عنه، ولم يعبأوا بالرزق المعنوي، ولا عرفوه؛ من شدة إعراضهم عنه، مع أنهم لو فقدوا الرزق المعنوي لماتت أرواحهم. والخاصة اشتغلوا بالتسبب في الرزق المعنوي والبحث عنه، ولم يعبأوا بالرزق الحسي من شدة إعراضهم عنه، مع أنهم لو فقدوا الرزق الحسي لهلكت أشباحهم. وخاصة الخاصة يتسببون في الرزق الحسي والمعنوي، وليس هم مع إرادتهم في واحد منهما، وإنما هم أبداً مع إرادة مولاهم راتعين أبداً، حيث دفعتهم إرادة سيدهم في الحسي أو في المعنوي من غير تبرم ولا التفات لغيره، كما قال القائل(١) .

أَرَانِي كَالآلاتِ وَهْوَ مُحَرِّكِي أَنَا قَلَمٌ، وَالاقْتِدَارُ أَصَابِعُ

العامة قد حُجبوا عن الله بإرادتهم للرزق الحسي، حيث صار الرزق الحسي هو حظ النفوس. صاروا مع حظ نفوسهم لاغير، والخاصة وجدوا الله في طلبهم للرزق المعنوي، لأنه حق الله، لا حظ للنفس فيه، لأجل ذلك لمّا كانوا لله كان الله لهم. وخاصة الخاصة ليس هم مع إرادتهم في شيء، بل هُم بالله في الأحوال كلها لا بنفوسهم. قد انمحت إرادتهم في إرادة الله، فصارت إرادتهم إرادة الله، وفعلهم فعله. وهذا المقام يقال له: التمكين بالتلوين. هـ. قاله شيخ شيوخنا سيدي علي الجمل العمراني رضي الله عنه في كتابه، نفعنا الله بهم جميعاً.

قوله تعالى: ﴿ ويعلم مُستقرها ومُستودعها ﴾ أي: يعلم مستقرها في العلم، ومستودعها في العمل، أو مستقرها في الحال، ومستودعها في المقام، أو مستقرها في الفناء، ومستودعها في البقاء، أو مستقرها في التلوين ومستودعها في التمكين، أو مستقرها في عالم الأشباح، ومستودعها في عالم الأرواح. وأنشدوا:

كُـلُّ شَيْءٍ سَـمِعْتَهُ أَوْ تَـرَاهُ فَـهْـوَ لِلقبضتين يُشِـيـرُ
ضع قميصي عن العيون ترى ما غـاب عنك فـقـد أتاك البـشـيـر

(١) وهو الشيخ عبدالكريم الجيلي، في العينية.

فالمراد بالقبضتين: الحس والمعنى، وإن كانا في الأصل قبضة واحدة، لكن لما تجلت بالضدين سمَّاها قبضتين، فالحس رداء للمعاني. وسماه هنا قميصاً؛ لأنه يستر كالرداء، فإذا رفع القميص عن عيون البصيرة رأت ما غاب عنها من أنوار الملكوت وأسرار الجبروت، وهذا معنى قوله: ضع قميصي عن العيون. إلخ... ورَفْعُ حجاب المعنى عن البصيرة هو بشير الولاية وعنوانها. والله تعالى أعلم.

ولما بيَّن كمال علمه ذكر كمال قدرته، فقال:

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿وهو الذى خلق السموات والأرض﴾ وما بينهما وما فيهما ﴿في﴾ مقدار ﴿ستة أيام﴾ من أيام الدنيا، أو خلق العالم العلوى والسفلى في مقدار ذلك. وجمع السموات دون الأرض؛ لاختلاف العلويات بالأصل والذات دون السفليات. ﴿وكان عرشه على الماء﴾ قيل: لم يكن بينهما حائل، وكان موضوعاً على متن الماء. واستدل به على إمكان الخلاء، وعلى أن الماء أول حادث بعد العرش من أجرام هذا العالم. وقيل: كان الماء على متن الريح. والله أعلم بذلك. قاله البيضاوى.

قلت: الخلاء هو الفضاء الخارج عن دائرة الأكوان. وهو عند المتكلمين من جملة الممكنات، ووجه الاستدلال من الآية على إمكانه: أن العرش والماء لما كانا محصورين لزم أن يكون ماخرج عنهما خلاء، وكل ما سوى الله فهو ممكن. وعند الصوفية: هو أسرار الذات الأزلية الجبروتية، كما أن الأكوان هي أنوار الصفات الملكوتية، ولاشيء معه، ﴿سبحانه وتعالي عما يشركون﴾ . ونقل بعض أهل التاريخ: أن الله تعالى خلق بعد العرش ياقوتة صفراء، ذكروا من عظمتها وسعتها، ثم نظر إليها، فذابت من هيبته، فصارت ماء، فكان العرش مرتفعاً فوقها، ثم اضطرب ذلك الماء، فعلته زبدة، خلق منها الأرض، ثم ارتفع من الماء دخان خلق منه السموات[1]. هـ.

خلق ذلك ﴿ليبلُوكم أيُّكم أحسن عملاً﴾ أي: ليختبركمْ اختباراً تقوم به الحجة عليكم، ﴿أيكم أحسن عملاً﴾ بالزهد في هذا العالم الفاني، وتعلق الهمه بالعالم الباقي قال البيضاوي: أي: يعاملكم معاملة المبتلي لأحوالكم، كيف تعملون؟ فإن جملة ذلك أسباب ومواد لوجودكم ومعاشكم، وما تحتاج إليه أعمالكم، ودلائل

---

(١) كلام أهل التاريخ لابرهان عليه، والأصح: أن يرجع في هذا ـ إن أمكن معرفته ـ إلى علماء الطبيعة.. وإلا فإن الله تعالى يقول: ﴿ما أشهدتهم خلق السموات والأرض..﴾ الآية ٥١ من سورة الكهف.

وأمارات تستدلون بها وتستنبطون منها. ثم قال: فالمراد بالعمل ما يعم عمل القلب والجوارح. ولذلك قال ﷺ: «أيكم أحسن عقلاً وأورع عن محارم الله وأسرع في طاعة الله.» والمعنى: أكمل علماً وعملاً. هـ.

قال المحشي: ويتجه كون المعنى: أيكم أكثر شكراً لله على تمهيد تلك المنافع والمصالح. والشكر يشمل الطاعات القلبية والبدنية. ويحتمل أنه كآية: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾(١) . وأن بقاء الدنيا وخلقها إنما هو للتكليف، فإذا لم يبق في الأرض من يعبد الله انقضت الدنيا، وجاءت الساعة، كما تقتضيه الأحاديث الصحاح(٢) والمتبادر ماقدمناه، وحاصله: أنه خلق الأشياء من أجل ابن آدم، ولتدله على خالقه فيجني بها ثمار معرفته تعالى، ويعترف بشكره، وإفراد عبادته. وقد جاء. «خلقت الأشياء من أجلك وخلقتك من أجلي».

قلت : فيكون المعنى: هو الذي أظهر الوجود من عرشه إلى فرشه، ليختبركم أيكم أحسن عملاً بالاشتغال بالله، والعكوف في حضرته دون الوقوف مع ظاهر الكون، والاشتغال بحسه، مع كونه خُلق من أجله. ثم قال: وقوله تعالى: (ولئن قلت إنكم مبعوثون من بعد الموت...) الآية، هو: تنبيه على أن إنكار الكفار للبعث بعد إقرارهم بأن الله تعالى خالق العالم، الذي هو أعظم من البعث، تناقض منهم؛ لأن إقرارهم بقدرته على الأكبر، ثم إنكارهم لما هو أيسر تناقض هـ أي: ولئن ذكرت لهم البعث بعد الموت لقالوا ما هذا إلا سحر ظاهر. أي: ما البعث أو القول به، أو القرآن المتضمن لذكره إلا كالسحر في الخديعة أو البطلان. وقرأ حمزة ساحر أي: القائل بهذا. والله تعالى أعلم.

الإشارة: في صحيح البخاري قال ﷺ: «كَانَ اللهُ ولا شَيء معَه، وكَانَ عَرْشُهُ عَلَى المَاءِ» الحديث. فأخبر ﷺ أن الحق جل جلاله كان في أزله لاشيء معه، ثم أظهر الأشياء من نوره بنوره لنوره، فهو الآن على ما كان عليه. وعن أبي رَزِينٍ: قلنا: يا رسُول الله! أَيْنَ كَانَ رَبُّنَا قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ خَلْقَهُ؟ قال: «كَانَ في عَمَاءٍ مافَوْقَهُ هَوَاءٌ، ومَا تَحْتَهُ هَوَاءٌ، وخَلَقَ عَرْشَه عَلَى المَاءِ»(٣) والعماء هو: الخفاء، قال تعالى: ﴿فعَمِيَتْ عليهم الأنباءُ﴾(٤) ، أي: خفيت. ويقال للسحاب عماء؛ لأنه يخفي ما فيه، وقال الششتري: في المقاليد(٥) : كان في عمىً، ما فوقه هوَاء وما تحته هواء. هي الوحدة المُصْمتة الصَمَدية، البحر الطامس(٦) الذي هو الأزل والأبد، فلم يكن موجود غير الوجود الذي هو هو. هـ.

---

(١) الآية ٥٦ من سورة الذاريات.
(٢) ومنها قوله ﷺ : «لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض: الله الله». أخرجه مسلم (كتاب الإيمان، باب ذهاب الإيمان آخر الزمان).
(٣) أخرجه الترمذي في سننه، (كتاب تفسير القرآن، باب : ومن سورة هود) ، وحسنه. وأخرجه ابن ماجه (المقدمه، باب فيما أنكرت الجهمية) . قلت: وهذا من حديث الصفات. نؤمن به ونكل علمه إلى الله تعالى.
(٤) من الآية: ٦٦ من سورة القصص.
(٥) اسمه كاملاً: المقاليد الوجودية في أسرار الصوفية.
(٦) يقال: طريق طامس، أي: بعيد لامَسْلَكَ فيه.

والحاصل: أن الحق جل جلاله كان في سابق أزله ذاتاً مقدسة، لطيفة خفية عن العقول، نورانيه متصفة بصفات الكمال، ليس معها رسوم ولا أشكال، ثم أظهر الحق تعالى قبضة من نوره حسية معنوية؛ إذ لا ظهور للمعنى إلا بالحس، فقال لها: كوني محمداً، فمن جهة حسها محصورة، ومن جهة معناها لا نهاية لها، متصلة ببحر المعاني الأزلي، الذي برزت منه، وما نسبتها من ذلك البحر من جهة حسها إلا كخردلة في الهواء. وقد أشار ابن الفارض إلى وصف هذه الخمرة الأزلية ـ وهو تفسير للعماء المذكور قبلُ ـ فقال:

صَفاءٌ ولا ماءٌ، ولُطْفٌ ولا هَواً ونُورٌ ولا نارٌ، ورُوحٌ ولا جِسْمُ

تَقَدَّمَ كلَّ الكائناتِ حديثُها قديماً ولا شَكْلٌ هناك، ولا رَسْمُ

وقامت بها الأَشْياءُ ثَمَّ لحكمَةٍ بها احتَجَبَتْ عن كلِّ من لا له فَهْمُ

فالأشكال والرسوم متفرعة من تلك القبضة المحمدية، والقبضة متدفقة من بحر الجبروت الذي لا نهاية له، فهي منه حقيقة، وما ظهر تحديدها إلا من جهة حسها. فهي كثلجة في بحرٍ، ماؤها الباطني متصل في البحر، وظاهرها محدود محصور. فالأشكال كلها غريقة في بحر الجبروت، ولذلك قال صاحب العينية(١):

هُوَ العَرْشُ والكُرسيُّ والمَنْظَرُ البهي هو السِّدْرَةُ التي إليْهَا المَرَاجِعُ

وقال أيضاً:

هُوَ المُوجِدُ الأَشْيَاءِ وهُوَ وُجُودُهَا وعَيْنُ ذَوَاتِ الكُلِّ وهُوَ الجَوَامِعُ

فأَوْصَافُهُ والاسْمُ والأَثَرُ الذي هُوَ الكَوْنُ عَيْنُ الذَّاتِ واللهُ جَامِعُ

فالأكوان ثابتة بإثباته، ممحوة بأحدية ذاته، فالحق تعالى كما كان لاشيء معه، فهو الآن كما كان. إذ التغير في حقه تعالى مُحال، ولا يعلم هذه الأسرار إلا من صحب أهل الأسرار، وحسب من لم يصحبهم التسليم. كما رمزوا وأشاروا إليه:

وإن لَمْ تَرَ الهِلالَ فَسَلِّمْ لأُناسٍ رأَوْهُ بالأَبْصارِ

وقوله تعالى: ﴿ليبلُوكم أيكم أحسنُ عملاً﴾ أي: ليظهر منكم من يقف مع الأكوان، ومن ينفذ إلى شهود المكون. وهو الذي حسن عمله، وارتفعت همته. ولئن قلت أيها العامي: إنكم تحيون بالمعرفة من بعد موت قلوبكم بالجهل والغفلة إن صحبتمُوني، ليقولن أهلُ الإنكار: إن هذا إلا سحر مبين.

(١) غفر الله له. ولولا الأمانة العلمية لحذفت هذه الأبيات.

ثم خوفهم بالعذاب الذي استعجلوه، فقال:

﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨﴾ ﴾

قلت: (يوم): معمول لخبر ليس، وهو دليل جواز تقديمه إن كان ظرفاً.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ولئن أخرنا عنهم العذاب﴾ الموعود في الدنيا، أو في الآخرة، ﴿إلى أمة﴾ أي: أوقات معدودة قلائل، ﴿ليقولن﴾؛ استهزاء: ﴿ما يحبسه﴾؟ أي: ما يمنعه من الوقوع الآن؟ ﴿ألا يوم يأتيهم﴾ وينزل بهم كيوم بدر، أو يوم القيامة ﴿ليس مصروفاً عنهم﴾ ليس مدفوعا عنهم حين ينزل بهم، ﴿وحاق﴾؛ نزل وأحاط ﴿بهم ما كانوا به يستهزءون﴾، وضع الماضي موضع الاستقبال؛ تحقيقاً للوقوع، ومبالغة في التهديد.

الإشارة: إمهال العاصي ليس بإهمال له؛ فإن الله تعالى يمهل ولا يهمل. فإمهاله إما استدراج، أو انتظار لتوبته، فليبادر العبد بالتوبة قبل الفوات، وبالعمل الصالح قبل الممات. فما أبعد ما فات، وما أقرب ما هو آت، وبالله التوفيق.

ومما وقع به الاختبار: الوقوف مع النعم دون شهود المنعم، كما أبان ذلك بقوله:

﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾

قلت: (ولئن): شرط وقسم، ذكر جواب القسم، واستغنى به عن جواب الشرط.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ولئن أذقنا الإنسانَ منا رحمةً﴾ أي: أعطيناه نعمة يجد لذتها. ﴿ثم نزعناها منه﴾ أي: سلبنا تلك النعمة منه ﴿إنه ليؤس﴾؛ قنوط، حيث قلّ رجاؤه من فضل الله؛ لقلة صبره، وعدم ثقته بربه، ﴿كفور﴾: مبالغ في كفران ما سلف له من النعم، كأنه لم ير نعمة قط. ﴿ولئن أذقناه نعماءَ بعد ضرّاء مسّته﴾؛ كصحة بعد سقم، وغنى بعد فقر، أو علم بعد جهل، ﴿ليقولن ذهب السيئاتُ﴾. أي: المصائب التي مستني، ﴿عني﴾، ونسي مقام الشكر. ﴿إنه لفرح﴾ أي: بطر متعزز بها، ﴿فخور﴾ على الناس، متكبر بها، مشغول بذلك عن شكرها، والقيام بحقها. قال البيضاوي: وفي لفظ الإذاقة والمس تنبيه على أن ما يجده الإنسان في الدنيا من النعم

والمحن كالأنموذج لما يجده في الآخرة، وأنه يقع في الكفر والبطر بأدنى شيء؛ لأن الذوق: إدراك المطعم، والمس مبدأ الوصول إليه. هـ.

﴿ إلا الذين صبروا ﴾ على الضراء؛ إيماناً بالله، واستسلاماً لقضائه، ﴿ وعملوا الصالحات ﴾ شكراً لآلائه، سابقها ولاحقها، ﴿ أولئك لهم مغفرة ﴾ لذنوبهم، ﴿ وأجر كبير ﴾ أقله الجنة، وغايته النظرة. والاستثناء من الإنسان؛ لأن المراد به الجنس. ومن حمله على الكافر ـ لسبق ذكرهم ـ جعله منقطعاً. والله تعالى أعلم.

الإشارة: ينبغي للعبد أن يكون شاكراً للنعم، صابراً عند النقم، واقفاً مع المنعم دون النعم. إن ذهبت من يده نعمة رَجَى رجوعها، وإن أصابته نقمة انتظر انصرافها. والحاصل: أنه يكون عبداً لله في جميع الحالات.

حُكي أن سيدنا موسى عليه السلام قال: يارب دلني على عمل إذا عملته رضيت عني. قال: إنك لا تطيق ذلك، فخر موسى ساجداً متضرعاً، فقال: يابن عمران؛ إن رضاى في رضاك بقضائي . هـ. وقال ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ أول شيء كتبه الله في اللوح المحفوظ: أنا الله لا إله إلا أنا، محمد رسولي، فمن استسلم لقضائي، وصبر على بلائي، وشكر نعمائي، كتبته صديقاً، وبعثته مع الصديقين، ومن لم يستسلم لقضائي، ولم يصبر على بلائي، ولم يشكر نعمائي، فليتخذ رباً سوائي. هـ. ورُوي عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: ثلاث من رزقهن رزق خير الدنيا والآخرة: الرضا بالقضاء، والصبر على الأذى، والدعاء في الرخاء. هـ.

من جملة الأذى: التكذيب والإنكار، كما أبان ذلك بقوله تعالى لنبيه ـ عليه الصلاة والسلام ـ:

﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٞۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ ١٢ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٣ فَإِلَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٤ ﴾

يقول الحق جل جلاله لنبيه ﷺ: ﴿ فلعلك تاركٌ بعضَ ما يُوحَى إليك ﴾، فلا تبلغه وهو ما فيه تشديد على المشركين، مخافة ردهم واستهزائهم به. ولا يلزم من توقع الشيء وقوعه. فالعصمة مانعة من ذلك. فالرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ لم يترك شيئاً من الوحي إلا بلغه، ولكن الحق تعالى شجعه وحرضه على التبليغ في المستقبل، ولو قوبل بالإنكار.

ثم قال له: ﴿ وضائق به صدرُكَ ﴾؛ أي: ولعله يعرض لك في بعض الأحيان ضيق في صدرك، فلا تتلوه عليهم مخافة ﴿ أن يقولوا لولا أُنزل عليه كنز ﴾ ينفقه للاستتباع كالملوك، أو يستغني به عن طلب المعاش، ﴿ أو جاء معه ملكٌ ﴾ يشهد له، والقصد تسليته ﷺ عن قولهم، حتى يُبلغ الرسالة ولا يبالي بهم. وإنما قال: ﴿ضائق﴾؛ ليدل على اتساع صدره ﷺ، وقلة ضيقه في الحال. ﴿ إنما أنت نذير ﴾ ليس عليك إلا الإنذار بما أوحي إليك، ولا عليك، ردوا أو اقترحوا، فلا يضيق صدرك بذلك. ﴿ والله على كل شيء وكيل ﴾ فتوكل عليه، فإنه عالم بحالهم ومجازيهم على أقوالهم وأفعالهم.

﴿ أَمْ ﴾، بل ﴿ يقولون افتراه ﴾ أي: ما يوحى إليه، ﴿ قل ﴾ لهم: ﴿ فأتوا بعشر سُوَرٍ مثله ﴾ في البيان وحسن النظم. تحداهم أولاً بعشر سور، فلما عجزوا سهل الأمر عليهم وتحداهم بسورة. وتوحيد المثل باعتبار كل واحد. ﴿ مُفتريات ﴾ ؛ مختلقات من عند أنفسكم، إن صح أني اختلقته من عند نفسي؛ فإنكم عرب فصحاء مثلي. ﴿ وادعوا من استطعتم من دون الله ﴾ للمعاونة على المعارضة، ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ أنه مفترى. ﴿ فإن لم يستجيبوا لكم ﴾ ؛ فإن عجزوا عن الإتيان، ﴿ فاعلموا ﴾ أيها الرسول والمؤمنون ﴿ أنما أُنزل بعلم الله ﴾ ؛ بإذنه، أو بما لا يعلمه إلا الله من الغيوب. والمعنى: دوموا على إيمانكم، وزيدوا يقيناً فيه.

قال البيضاوي: وجمع الضمير؛ إما لتعظيم الرسول ﷺ، أو لأن المؤمنين كانوا يتحدونهم، فكان أمر الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ متناولاً لهم من حيث إنه يجب اتباعه عليهم في كل أمر إلا ما خصه الدليل. أو للتنبيه على أن التحدي مما يوجب رسوخ إيمانهم وقوة يقينهم. ولذلك رتب عليه قوله: ﴿ فاعلموا أنما أُنزل بعلم الله ﴾؛ ملتبساً بما لا يعلمه إلا الله، لأنه العالم والقادر بما لا يعلم ولا يقدر عليه غيره. ﴿ وأن لا إله إلا هو ﴾؛ لظهور عجز آلهتهم. ﴿ فهل أنتم مسلمون ﴾؟ ثابتون على الإسلام، راسخون مخلصون فيه، إذا تحقق عندكم إعجازه مطلقاً.

ويجوز أن يكون الكل خطاباً للمشركين، والضمير في ﴿ يستجيبوا ﴾ لمن استطعتم، أي: فإن لم يستجيبوا لكم، أي: من استعنتم به على المعارضة لعجزهم، وقد عرفتم من أنفسكم القصور عن المعارضة، ﴿ فاعلموا ﴾ أنه نظم لا يعلمه إلا الله وأنه منزل من عنده، وأن ما دعاكم إليه من التوحيد حق، فهل أنتم داخلون في الإسلام بعد قيام الحجة القاطعة؟ وفي مثل هذا الاستفهام إيجاب بليغ؛ لما فيه من معنى الطلب، والتنبيه على قيام الموجب، وزوال العذر. هـ. وقال في الوجيز: فإن لم يستجيبوا لكم؛ من تدعون إلى المعاونة، ولا تهيأ لكم المعارضة، فقد قامت عليكم الحجة، ﴿ فاعلموا أنما أُنزل بعلم الله ﴾ أي: أنزل والله عالم بإنزاله، وعالم أنه من عنده، ﴿ فهل أنتم مسلمون ﴾؟ استفهام، معناه الأمر، كقوله: ﴿ فهل أنتم منتهون ﴾(١) . هـ.

(١) من الآية ٩١ من سورة المائدة.

الإشارة: ينبغي لأهل الوعظ والتذكير أن يعمموا الناس في التذكير، ولا يفرقوا بين أهل الصدق، وأهل التنكير. بل ينصحوا العباد كلهم، ولا يتركوا تذكيرهم، مخافة الرد عليهم، ولا تضيق صدورهم بما يسمعون منهم، اقتداء بنبيهم ﷺ. وقد قال لقمان لابنه حين أمره بالتذكير: ﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾(١)، فإن طلبوا من المذكر الدليل فليقل: إنما أنا نذير، والله على كل شيئ وكيل. فإن قالوا: هذا الذي تذكر كلنا نعرفه، فليقل: فأتوا بسورة من مثله، أو بعشر سور من مثله. والله تعالى أعلم.

ولا ينفع الوعظ والإنذار إن كانت همته كلها مصروفة للدنيا، كما قال تعالى:

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾

قلت: «ما صنعوا فيها»: الضمير يعود على الدنيا، والظرف يتعلق بصنعوا. أو يعود على الآخرة، ويتعلق الظرف بحبط، أي: حبط في الآخرة ما صنعوا من الأعمال في الدنيا.

يقول الحق جل جلاله: ﴿من كان يريد﴾ بعمله ﴿الحياةَ الدنيا وزينتَها﴾، فكان إحسانه وبره رياء وسمعة، ﴿نُوفِّ إليهم أعمالَهم فيها﴾ أي: نوصل إليهم جزاء أعمالهم في الدنيا، من الصحة والرئاسة، وسعة الأرزاق، وينالون ماقصدوا من حمد الناس، وإحسانهم وبرهم، ﴿وهم فيها لا يُبخسون﴾ لا ينقصون شيئاً من أجورهم، فيحتمل: أن تكون الآية نزلت في أهل الرياء من المؤمنين الذين يراؤون بأعمالهم؛ كما ورد في حديث الغازي والغني القارئ المرائين، وأنهم أول من تُسعر بهم جهنم. ويحتمل أن تكون نزلت في الكفار، وهو أليق بقوله: ﴿أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النارُ﴾؛ لأنهم استوفوا ما تقتضيه صور أعمالهم الحسنة، وبقيت لهم أوزار العزائم السيئة. ﴿وحَبِطَ ما صنعوا فيها﴾ أي: في الدنيا، فكل ما صنعوا في الدنيا من الإحسان حبط يوم القيامة؛ لأنهم لم يريدوا به وجه الله. والعمدة في انتظار ثواب الأعمال هو الإخلاص، ﴿وباطلٌ ما كانوا يعملون﴾؛ لأنه لم تتوفر فيه شروط الصحة التي من جملتها الإخلاص.

الإشارة: في الحديث: «مَن كَانت الدُّنيا همَّه: فرّق اللهُ عليْه أمْرَه، وجعَل فقْرَه بيْنَ عيْنَيْه، ولم يأته من الدُّنيا إلا ما قُسم له. ومَن كَانت الآخرةُ نيتَه: جمع اللهُ عليْه أمْرَه، وجعَل غِناهُ في قلْبِه، وأتتْهُ الدُّنيا وهِي صاغِرة»(٢).

---

(١) الآية: ١٧ من سورة لقمان.
(٢) أخرجه الترمذي في [صفة القيامة، باب ٣٠] من حديث أنس بن مالك.؛ وابن ماجه: [الزهد، باب الهمّ بالدنيا] من حديث زيد بن ثابت.

قلت : ومن كان الله همه كفاه همّ الدارين. فطالبُ الدنيا أسير، وطالب الآخرة أجير، وطالب الحق أمير. فارفع همتك أيها العبد عن الدار الفانية، وعلق قلبك بالدار الباقية، ثم ارفعها إلى شهود الذات العالية، ولا تكن ممن قصر همته على هذه الدار فتكن ممن ليس له في الآخرة إلا النار. وحصّن أعمالك بالإخلاص، وإياك وملاحظة الناس؛ فتبوأ بالخيبة والإفلاس، وبالله التوفيق.

ثم ذكر ضد من تقدم، فقال:

﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾ ﴾

قلت : (أفمن كان): مبتدأ، والخبر محذوف، أي: كمن كان يريد الدنيا وزينتها.

يقول الحق جل جلاله : ﴿ أفمن كان على بينة ﴾، طريقة واضحة ﴿ من ربه ﴾ وهو النبي ﷺ والمؤمنون، كمن ليس كذلك، ممن همه الدنيا؟! والمراد بالبينة: ما أدرك صحته العقل والذوق، أي: على برهان واضح من ربه، وهو الدليل العقلي، والأمر الجلي. أو برهان من الله يدله على الحق والصواب فيما يأتيه ويذره، ﴿ ويتلوه ﴾ ؛ ويتبع ذلك البرهان ـ الذي هو دليل العقل، ﴿ شاهدٌ منه ﴾ أي: من الله يشهد بصحته، وهو: القرآن، لأنه مصباح البصيرة والقلب؛ فهو يشهد بصحة ما أدركه العقل من البرهان.

﴿ ومن قبله ﴾ أي: من قبل القرآن، ﴿ كتابُ موسى ﴾ يعني: التوراة، فإنها أيضا متلوة شاهدة بما عليه الرسول ومن تبعه من البينة الواضحة. أو البينة: القرآن، والشاهد: جبريل عليه السلام ، أو عليّ ـ كرم الله وجهه ـ، أو الإنجيل. وهو حسن، لقوله: ﴿ ومن قبله كتابُ موسى ﴾ ؛ فإن التوراة قبل الإنجيل. قال ابن عطية: وهنا اعتراض؛ وهو أن الضمير في «قبله» عائد على القرآن، فلِمَ لَمْ يذكر الإنجيل ـ وهو قبله ـ بينه وبين كتاب موسى؟ فالانفصال عنه: أنه خصّ التوراة بالذكر؛ لأن الملّتين متفقتان على أنها[1] من عند الله، والإنجيل قد خالف فيها. فكان الاستشهاد بما تقوم به الحجة على الكتابين أوْلى. وهذا كقول الجن: ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ ﴾[2]. وقول النجاشي: «إن هذا والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة» . هـ. وإذا فسرنا الشاهد بالإنجيل سقط الاعتراض.

---

(١) في ابن عطية: مجتمعتان أنهما.
(٢) من الآية ٣٠ من سورة الأحقاف.

ثم وصف التوراة بقوله: ﴿ إماماً ﴾ . أي: مؤتماً به في الدين، لأجله، ﴿ ورحمةً ﴾ على المنزل عليهم. ﴿ أولئك ﴾ أي: من كان على بينة من ربه، ﴿ يؤمنون به ﴾ أي: بالقرآن، ﴿ ومن يكفرْ به من الأحزاب ﴾: كأهل مكة، ومن تحزب منهم على رسول الله ﷺ، ﴿ فالنارُ موعده ﴾ يدخلها لا محالة، ﴿ فلا تكُ في مرية ﴾، شك ﴿ منه ﴾ أي: من ذلك الموعد، أو القرآن، ﴿ إنه الحقُ من ربك ﴾ الثابت وقوعه، ﴿ ولكن أكثرَ الناس لا يؤمنون ﴾؛ لقلة نظرهم، وإخلال فكرتهم.

الإشارة: لا يكون العبد على بينة من ربه حتى يتحقق فيه أمران، **أولهما**: التوبة النصوح، **والثاني**: الزهد التام. فإذا تحقق فيه الأمران كان على بينة من ربه. وهي درجات؛ أولها: بينة ناشئة عن صحيح النظر والاعتبار، وهي لقوم نظروا في الحجج والبراهين العقلية والدلائل السمعية، فأدركوا وجود الحق من طريق الإيمان بالغيب، وهم: أهل الدليل والبرهان. **وثانيها**: بينة ناشئة عن الرياضات والمجاهدات والاعتزال في الخلوات، فخرقت لهم العوائد الحسيات فرأوا كرامات وخوارق عادات، فأدركوا وجود الحق على وجه التحقيق والبيان، مع رقة الحجاب والوقوف بالباب. وهم: العُبّاد، والزهاد، والصالحون من أهل الجد والاجتهاد. **وثالثها**: بينة ناشئة عن الذوق والوجدان، والمكاشفة والعيان، وهي لقوم دخلوا في تربية المشايخ، فتأدبوا وتهذبوا، وشربوا خمرة غيبتهم عن حسهم ورسمهم؛ فغابوا عن الأكوان بشهود المكون. فهم يستدلون بالله على غيره. قَدَّسُوا الحق أن يحتاج إلى دليل، وهؤلاء هم الأفراد وخواص العباد، وإليهم أشار الشاعر بقوله:

الطُرُقُ شتّى وطَرِيقُ الحَقِّ مُفْرَدَةٌ والسَّالكون طَرِيـقِ الحقِّ أفرادُ
لا يُعرَفُون ولا تُدرَى مَسَالِكُهُم فَهُمْ على مَهَلٍ يَمْشُـون قُصَّـادُ
والنَّـاسُ في غَفْلَةٍ عمّا يُراد بِهِم فَجُـلُهُم عن سَبِيلِ الْحَـقِ رُقّـادُ

وقال في القوت: ﴿ أفمن كان على بينة من ربه ﴾ أي: من شهد مقام الله - عز وجل - بالبيان، فقام له بشهادة الإيقان، فليس هذا كمن زُين له سُوء عمله، واتبع هواه، فآثره على طاعة مولاه. بل هذا قائم بشهادته، متبع لشهيده، مستقيم على محبة معبوده. هـ. وقال الورتجبي: تقدير الآية على وجه الاستفهام: أفمن كان على بينة من ربه؛ كمن هو في الضلالة والجهالة؟ أفمن كان على معرفة من ربه، وولاية وسلامة وكرامة، وكل عارف إذا شاهد الحق سبحانه بقلبه وروحه، وعقله وسره، فأدرك فيض أنوار جماله، وقربه، يؤثر ذلك في هيكله حتى يبرز من وجهه نور الله الساطع، ويراه كل صاحب نظر، قال تعالى: ﴿ ويتلوه شاهدٌ منه ﴾، والبينة: بصيرة المعرفة، والشاهد: بروز نور المشاهدة منه. وأيضاً: البينة: كلام المعرفة. والشاهد: الكتاب والسنة. ثم قال عن الجنيد: البينة: حقيقة يؤيدها ظاهر العلم. هـ.

والحاصل: أن البينة أمر باطني، وهي: المعرفة، إما بالبرهان، أو بالعيان، والشاهد الذي يتلو هو العلم الظاهر، فيتفق ما أدركه العقل أو الذوق مع ما أفاده النقل، فتتفق الحقيقة مع الشريعة. كلٌّ في محله، الباطن منور بالحقائق، والظاهر مؤيد بالشرائع. وهذا غاية المطلوب والمرغوب. رزقنا الله من ذلك الحظ الأوفر بمنِّه وكرمه.

ثم ذكر وعيد من كذب بها فقال:

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أُوْلَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾

قلت: (مثلا): تمييز.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ومن أظلمُ﴾ أي: لا أحد أظلم ﴿ممن افترى على الله كذباً﴾؛ بأن أسند إليه مالم يقله، وكذب بما أنزله، أو نسب لله ما لا يليق بجلاله. ﴿أولئك يُعرضون على ربهم﴾ يوم القيامة، بأن يحبسوا في الموقف، وتعرض عليهم أعمالهم على رؤوس الأشهاد، ﴿ويقولُ الأشهادُ﴾ من الملائكة والنبيين، أو كل من شهد الموقف: ﴿هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين﴾ وهو تهويل عظيم لما يحيق بهم حينئذ، لظلمهم بالكذب على الله، ورد الناس عن طريق الله.

﴿الذين يصُدُّون عن سبيل الله﴾؛ عن دينه، ﴿ويبغونها عِوَجاً﴾؛ يصفونها بالانحراف عن الحق والصواب. أو يبغون أهلها أن يعوجوا عنها بالردة والكفر، أو يطلبون اعوجاجها بالطعن فيها. ﴿وهم بالآخرة هم كافرون﴾ أي: والحال أنهم كافرون بالبعث. وتكرير الضمير؛ لتأكيد كفرهم واختصاصهم به.

﴿ أولئك لم يكونوا معجزين في الأرض ﴾ أي: ما كانوا ليعجزوا الله في الدنيا أن يعاقبهم. بل هو قادر على ذلك، وأخرهم ليوم الموعود، ليكون أشد وأدوم. ﴿ وما كان لهم من دون الله من أولياءَ ﴾ يمنعونهم من العقاب، ﴿ يضاعف لهم العذاب ﴾ بسبب ما اتصفوا به، كما ذكره بقوله: ﴿ ما كانوا يستطيعون السمعَ وما كانوا يبصرون ﴾؛ لتصاممهم عن الحق، وبغضهم اهله. ﴿ أولئك الذين خسروا أنفسَهم ﴾ حين اشتروا عبادة الأصنام بعبادة الله، ﴿ وضل عنهم ما كانوا يفترون ﴾ من أن الأصنام تشفع لهم، أو خسروا بما بدلوا وضاع عنهم ما أملوا، فلم يبق لهم سوى الحسرة والندامة. ﴿ لا جرم ﴾ لا شك، أو لابد ﴿ أنهم في الآخرة هم الأخسرون ﴾: فلا أحد أكثر خسراناً منهم؛ حيث حرموا النعيم المخلد، واستبدلوه بالعذاب المؤبد.

ثم ذكر ضدهم فقال: ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأخبتُوا ﴾، أي: اطمأنوا أو خشعوا، أو تابوا ﴿ إلى ربهم. أولئك أصحابُ الجنة هم فيها خالدون ﴾؛ دائمون.

﴿ مَثَلُ الفريقين ﴾ المتقدمين؛ فريق الكافر، وفريق المؤمن: ﴿ كالأعمى والأصمّ والبصير والسميع ﴾، فمثل الكافر كمن جمع بين العمى والصمم، ومثل المؤمن كمن جمع بين السمع والبصر. فالواو لعطف الصفات، ويجوز أن يكون شبه الكافر بمن هو أعمى فقط، وبمن هو أصم فقط، والمؤمن بضدهما، فهو تمثيل للكافرين بمثالين، قاله ابن جزي. وقال البيضاوي: يجوز أن يراد به تشبيه الكافر بالأعمى؛ لتعاميه عن آيات الله، وبالأصم لتصاممه عن استماع كلام الله، وتأبيه عن تدبره معانيه. وتشبيه المؤمن بالسميع والبصير؛ لأن أمره بالضد، فيكون كل منهما مشبهًا باثنين باعتبار وصفين. أو تشبيه الكافر بالجامع بين العمى والصمم، والمؤمن بالجامع بين ضديهما، والعاطف لعطف الصفة على الصفة، كقوله: فالأيب الصَّابح فالغانم(١) فهذا من بيان اللف والطباق. هـ. ﴿ هل يستويان ﴾: هل يستوي الفريقان؟ ﴿ مثلاً ﴾؛ أي: من جهة التمثيل، بل لا استواء بينهما، ﴿ أفلا تذكرون ﴾؛ تتعظون بضرب الأمثال فترجعون عن غيكم.

الإشارة: كل من ترامى على مراتب الرجال، أو ادعى مقاماً من المقامات وهو لم يدركه، يريد بذلك إمالة وجوه الناس إليه، يفضح يوم القيامة على رؤوس الأشهاد، ويقال له: ﴿ هؤلاء الذين كَذبوا على ربهم... ﴾ الآية. فكل آية في الكفار تجر ذيلها على عُصاة المؤمنين. وقد تقدم أمارات من كان عل بنية من ربه، فمن أدعى مقاماً من تلك المقامات وهو يعلم أنه لم يصله نادت عليه الآية.

(١) فى الأصول: (القائم والصالح والأديب). والمثبت هو الذى فى البيضاوى. والشاهد فيه عطف صفات موصوف واحد بالفاء.

ثم شرع في ذكر قصص الأنبياء ـ عليهم السلام ـ تسلية لنبيه ﷺ وتتميماً لقوله: (فلعلك تارك)، (وضائق). فقال:

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَـٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾

قلت : من قرأ : إني؛ بالكسر، فعلى إرادة القول، ومن قرأ بالفتح، فعلى إسقاط الخافض، أي: بأني، و (بادي الرأي): ظرف لـ (اتبعك)، على حذف مضاف أي: وقت حدوث أول رأيهم. وهو من البدء أي: الحدوث، أو من البُدُوّ، أي: الظهور. أي: اتبعوك في ظاهر الرأي دون التعمق في النظر.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه﴾ فقال لهم: ﴿إني لكم﴾، أو بأني لكم ﴿نذير مبينٌ﴾ أي: بين ظاهر، أو أبين لكم موجبات العذاب، ووجه الخلاص منه، قائلا: ﴿ألا تعبدوا إلا الله﴾، ولا تعبدوا معه غيره، ﴿إني أخاف عليكم عذابَ يومٍ أليمٍ﴾؛ مُؤلم، وهو في الحقيقة صفة للعذاب، ووصف به زمانه على طريقة [جدّ جِدُّه، ونهاره صائم]؛ للمبالغة.

﴿فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نَراكَ إلا بشراً مثلنا﴾؛ لا مزية لك علينا تخصك بالنبوءة ووجوب الطاعة، ﴿وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلُنا﴾؛ أخساؤنا وسُقّاطنا؛ جمع أرذل. ﴿باديَ الرأي﴾؛ من أول الرأي من غير تفكر ولا تدبر، أي: اتبعك هؤلاء بادي الرأي من غير ترو. أو ظاهراً رأيهم خفيفًا عقلهم. وإنما استرذلوهم، لأجل فقرهم، جهلاً منهم، واعتقاداً أن الشرف هو المال والجاه. وليس الأمر كذلك. بل الشرف إنما هو بالإيمان والطاعة، ومعرفة الحق. وقيل: إنهم كانوا حاكة وحجامين. وقيل: أراذل في أفعالهم، لقوله: ﴿وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾(١). ثم قالوا: ﴿وما نَرى لكم﴾ أي: لك ولمتبعيك ﴿علينا من فضلٍ﴾ يؤهلكم للنبوءة، واستحقاق المتابعة. ﴿بل نظنكم كاذبين﴾؛ أنت في دعوى النبوءة، وهم في دعوى العلم بصدقك. فغلب المخاطب على الغائبين .

---

(١) الآية ١١٢ من سورة الشعراء.

الإشارة: تكذيب الصادقين سنة ماضية، وأتباع الخصوص موسومون بالذلة والقلة، وهم أتباع الرسل والأولياء، وهم أيضاً جُل أهل الجنة؛ لأن المصطفى ﷺ قال: «أهْلُ الجنَّـة كلُّ ضَعيـفٍ مُسْتَضْعَفٍ»(١) وقالت الجنة: مَالِي لاَ يَدْخلني إلا سُقَطُ الناس؟ فقال لها الحق تعالى: «أنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أشاء» حسبما في الصحيح.

ثم أجابهم بقوله:

﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾

قلت : «أنلزمكموها»: يصح في الضمير الثاني الوصل والفصل؛ لتقدم الأخص.

يقول الحق جل جلاله: ﴿قال﴾ نوح لقومه: ﴿يا قوم أرأيتم﴾ : أخبروني، ﴿إن كنت على بينة من ربي﴾ ؛ على طريقة واضحة من عند ربي، أو حجة واضحة شاهدة بصحة دعواي، ﴿وآتاني رحمة من عنده﴾ النبوة، ﴿فعميت﴾ ؛ خفيت ﴿عليكم﴾ فلم تهتدوا إليها، ﴿أنلزمكموها﴾ ؛ أنكرهكم على الاهتداء بها ﴿وأنتم لها كارهون﴾ لا تختارونها ولا تتأملون فيها. ولم يؤمر بالجهاد، بل تركهم حتى نزل بهم العذاب.

الإشارة: طريقة أهل التذكير ـ الذين هم على بينة من ربهم ـ: أنهم يُذكرون الناس، ولا يكرهون أحداً على الدخول في طريقهم، إذا عميت عليهم. والله تعالى أعلم.

ثم قال:

﴿ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله، حاكياً عن نوح عليه السلام: ﴿ويا قوم لا أسألكم عليه﴾ ؛ على التبليغ المفهوم من السياق، ﴿مالا﴾ : جُعلا أنتفع به، ﴿إن أجرى إلا على الله﴾ ؛ فإنه المأمول منه. ثم طلبوا منه طرد الضعفاء ليجالسوه، فقال لهم: ﴿وما أنا بطارد الذين آمنوا إنهم ملاقوا ربهم﴾ فيخاصمونى إن طردتهم، أو: إنهم ملاقوه

(١) أخرجه ابن ماجه في (الزهد، باب من لا يؤبه له) من حديث معاذ بن جبل.

فيفوزون بقربه، فكيف أطردهم؟ ﴿ولكني أراكم قوماً تجهلون﴾ لقاء ربكم، أو بأقدارهم، أو تسفهون عليهم فتدعُوهم أراذل، أو قوماً جُهالاً استحكم فيكم الجهل وشختم فيه، فلا ينفع فيكم الوعظ والتذكير. ﴿وياقوم من ينصرُني من الله﴾: من يدفع انتقامه عني ﴿إن طردتهم﴾ وهم بتلك الصفة الكاملة من الإيمان والخوف منه؟ ﴿أفلا تذكرون﴾ فتعلموا أن التماس طردهم، وتوقيف الإيمان عليه ليس بصواب.

الإشارة: قال القشيري: قوله تعالى: ﴿لا أسألكم عليه مالا﴾، فيه تنبيه للعلماء ـ الذين هم ورثة الأنبياء أن يتأدبوا بأنبيائهم، وألا يطلبوا من الناس شيئاً في بث علومهم، ولا يرتفقوا منهم بتعليمهم، والتذكير لهم، وما ارتفق من المستمعين في بث فائدة يذكّر بها من الدين، ويعظ بها المسلمين فلا يبارك الله فيما يُسمعون به عن الله، ولا ينتفعون به، ويحصلون به على سخط من الله هـ[1].

قلت: هذا إن كان له تشوف وتطلع بذلك، بحيث لو لم يعط لم يُعلم، أو لم يُذكر. وأما إن كان يعلم ويذكر لله، ثم يتصدق عليه لله، فلا بأس به إن شاء الله. ومازالت الأشياخ والأولياء يقبضون زيارات الفقراء، وكل من يأتيهم، ويذكرونهم ويعرفونهم بالله، لأن ذلك ربح للمعطي وتقريب له. وما ربح الناس إلا من فلسهم ونفسهم؛ يذلوها لله، فأغناهم الله. وقد تقدم عند قوله: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً﴾...[2] بعض الكلام على هذا المعنى، والله تعالى أعلم.

ولما قالوا له: لو كنت نبي الله، لأغناك الله عن التكسب، ولأعلمك بما يفعل أتباعك؛ فإنهم ما اتبعوك إلا في الظاهر دون الباطن، قال لهم:

﴿ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: قال نوح لقومه: ﴿ولا أقول لكم عندي خزائنُ الله﴾ حتى أُنفق منها متى شئت، فأستغني عن مباشرة الأسباب، بل ما أنا إلا بشر، أو لا أدعي ما ليس لي فتنكروا قولي، أي: لا أفوه لكم، ولا أتعاطى غير ما ألهمني الله له، فلست أقول: عندي خزائن الله، أي: القوة التي توجد بها الأشياء بعد عدمها. أو: عندي خزائن الله التي ينزل منها الأشياء، كالريح والمياه ونحوها، كما قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ﴾[3] فتبرأ عليه السلام من هذه الدعوى.

(١) بالمعنى. (٢) من الآية: ١٠٣ من سورة التوبة.
(٣) من الآية ٢١ من سورة الحجر.

ثم قال: ﴿ ولا أعلمُ الغيبَ ﴾ أي: ولا أقول: إني أعلم الغيب، فأعلم من أصحابي ما يسترونه عني في نفوسهم، فسبيلي قبول ما ظهر منهم. أو: لا أعلم أنهم اتبعوني في بادي الرأي من غير بصيرة وعقد قلب ﴿ ولا أقولُ إني ملكٌ ﴾ حتى تقولوا: ما نراك إلا بشراً مثلنا. ﴿ ولا أقول للذين تزدري أعينُكم ﴾ أي: تحتقرهم. من زريت على الرجل: قصرت به. قلبت تاؤه دالاً؛ لتجانس الزاي للتاء[1]، والمراد بهم ضعفاء المؤمنين، أي: لا أقول في شأن من احتقرتموهم، لفقرهم: ﴿ لن يُؤتيهم الله خيراً ﴾ ؛ فإنَّ ما أعد الله لهم في الآخرة خير مما آتاكم في الدنيا. ﴿ الله أعلم بما في أنفسهم ﴾ من خير أو غيره. ﴿ إني إذاً ﴾ أي: إن قلتُ شيئاً من ذلك، ﴿ لَمِنَ الظالمين ﴾ .

قال البيضاوي : وإسناده إلى الأعين؛ للمبالغة، والتنبيه على أنهم استرذلوهم بادي الرأي من غير روية، مما عاينوه من رثاثة حالهم وقلة منالهم، دون تأمل في معانيهم وكمالاتهم. وقال أيضًا: وإنما استرذلوهم لفقرهم؛ لأنهم لمّا لم يعلموا إلا ظاهراً من الحياة الدنيا كان الأحظ[2] بها أشرف عندهم، والمحروم منها أرذل. هـ.

الإشارة: لا يشترط في وجود الخصوصية ظهور الكرامة؛ فقد تظهر الكرامة على من لم تكمل له الاستقامة، فلا يشترط فيه الاطلاع على خزائن الغيوب، وإنما يشترط فيه التطهير من نقائص العيوب، لا يشترط فيه الإنفاق من الغيب، وإنما يشترط فيه الثقة بما ضمن له في الغيب. والله تعالى أعلم.

ثم استعجلوا العذاب، كما قال تعالى:

﴿ قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾

قلت : ﴿إن أردت﴾: شرط حذف جوابه؛ لتقدم ما يدل عليه، وكذا (إن كان الله يريد أن يُغويكم)، والتقدير: إن كان الله يريد أن يغويكم لا ينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم. أي: فكذلك. فهو من تعليق الشرط، كقولك: إن دخلت الدار، إن كلمت زيدا، فأنت طالق. فلا تطلق إلا بهما، ثم استأنف: (هو ربكم).

يقول الحق جل جلاله : ﴿ قالوا يا نوحُ قد جادلتنا ﴾ : خاصمتنا ﴿ فأكثرت جدالنا ﴾ : خصامنا ومخاطبتنا، ﴿ فأتِنا بما تَعِدُنا ﴾ من العذاب، ﴿ إن كنتَ من الصادقين ﴾ في الدعوى والوعيد، فإن مناظرتك

(١) لأن الزاي مجهورة والتاء مهموسة، فأبدل من التاء حرف مجهور من مخرجها.

(٢) في الأصول: (اللاحظ لها). والمثبت هو الذي في تفسير البيضاوي.

ووعظك لا يؤثر فينا. ﴿ قال ﴾ نوح ﷺ: ﴿ إنما يأتيكم به اللهُ ﴾ دوني ﴿ إن شاءَ ﴾ عاجلاً أو آجلا، ﴿ وما أنتم بمعجزين ﴾ بدفع العذاب عنكم، أو الهرب منه حتى تعجزوا القدرة الإلهية، ﴿ ولا ينفعكم نُصحي إن أردتُ أن أنصح لكم ﴾، وأراد الله ﴿ أن يُغويكم ﴾، فإن النصح مع سابق الشقاء عنت. وهذا جواب لما أوهموا من أن جداله كلام لا طائل تحته، وهو دليل على أن إرادة الله تعالى يصح تعلقها بالإغواء، وأن خلاف مراد الله تعالى محال. ولذلك قيل: مراد الله من خلقه ما هم عليه. ثم قال: ﴿ هو ربكُمْ ﴾؛ خالقكم والمتصرف فيكم وفق إرادته. ﴿ وإليه تُرجعون ﴾ فيجازيكم على أعمالكم.

الإشارة: ينبغي لأهل الوعظ، والتذكير أن لا يملوا ـ ولو أكثروا ـ إذا قابلهم الناس بالبُعد والإنكار، وليقولوا: ولا ينفعكم نصحنا إن أردنا أن ننصحكم ﴿ إن كان الله يريد أن يُغويكم... ﴾ الآية.

ولما كان المقصود من القصة تسلية رسوله ﷺ خاطبه في أثنائها بقوله:

﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَيَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ أمْ يقولون ﴾؛ أي: كفار قريش: هذا الذي يقرؤه محمد علينا، ويقصه من خبر مَن قبلنا ﴿ افتراه ﴾ من عنده. ﴿ قل ﴾ لهم: ﴿ إن افتريتُه ﴾؛ تقديراً ﴿ فعليَّ إجرامي ﴾؛ أي: وباله عليَّ دونكم، ﴿ وأنا بريء مما تُجرمون ﴾؛ مما ترتكبون من الإجرام بتكذيبكم وكفركم.

الإشارة: ينبغي لمن قوبل بالتكذيب والإنكار أن يكتفي بعلم الله، ويقول لمن كذبه ما قال نبيه ﷺ لمن كذبه: (إن افتريته فعلي إجرامي...) الآية. وفي الحِكَم: «متى آلمك عدم إقبال الناس عليك، أو توجههم بالذم إليك، فارجع إلى علم الله فيك، فإن كان لا يقنعك علمه فمصيبتك بعدم قناعتك بعلمه أشد من مصـيبتك بـوجود الأذى منهم».

قال الشـيخ زروق رضي الله عنه: وذلك لأن عدم قناعتك بعلمه يُصيبك في قلبك ودينك، وأذاهم يُصيبك في عرضك وبدنك ودنياك، وأيضاً: أذاهم يردك إليه، فهو فائدتك، وعدم القناعة بعلمه يردك إليهم، فهي مصيبة توجب ثلاثاً، هي علامة عدم القناعة بعلمه: أولها: التصنع والمراءاة، الثاني: طلب رضاهم بما أمكن في جميع الحالات. الثالث: إظهار علمه وعمله وحاله، ليعلموا برتبته.

والقناعة بعلمه علامتها ثلاث: أولها: قصد الإخلاص في كلٍّ، بحيث لا يبالي أين رآه الخلق، وكيف رأوه. الثاني: طلب رضاه بالعمل بطاعته، وترك مالا يرضيه، رضوا بذلك أو سخطوا. الثالث: الإكتفاء بعلمه فيما يجري عليه من حكمه وحكمته، قال إبراهيم التيمي رضي الله عنه لبعض أصحابه: ما يقول الناس فيَّ؟ فقال:

يقولون إنه مرائي، فقال: الآن طاب العمل. قال بشر الحافي: اكتفى - والله - بعلم الله. فلم يحب أن يدخل مع علم الله غيره، وقال أيضاً: سكون النفس لقبول المدح لها أشد عليها من المعاصي. وقال أحمد بن أبي الحواري رضي الله عنه: من أحب أن يعرف بشيء من الخير، أو يذكر به، فقد أشرك مع الله في عبادته؛ لأن من عمل على المحبة لا يحب أن يرى عمله غير محبوبه.

وقال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه: لا تنشر علمك، ليصدقك الناس، وانشر علمك ليصدقك الله. وإن كان لام العلة موجوداً، فَعِلَّة تكون بينك وبين الله من حيث أمرك، خير لك من عِلَّة تكون بينك وبين الناس، من حيث نهاك. ولِعِلَّة تردك إلى الله خير لك من علة تقطعك عن الله. هـ. المراد منه.

ثم تمم قصة نوح عليه السلام، فقال:

﴿ وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿وأوحي إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك﴾ بعد هذا ﴿إلا من قد آمن﴾ قبل، وكان هذا الوحي بعد أن مكث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم إلى الله تعالى. فكان الرجل منهم يأتيه بابنه، ويقول: يابني لا تصدق هذا الشيخ، فهكذا عَهِد إليَّ أبي وجدِّي. فلما نزل الوحي وأيس من إيمانهم دعا عليهم، وقال: ﴿رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً﴾(١). قال له تعالى: ﴿فلا تبتئس﴾: تحزن وتغتم ﴿بما كانوا يفعلون﴾ من التكذيب والإيذاء، أقنطه أولاً من إيمانهم، ونهاه أن يغتم لأجلهم.

ثم أمره بصنع السفينة، فقال: ﴿واصنع الفلكَ بأعيُننا﴾؛ بحفظنا ورعايتنا، أو بمرأى منا ومسمع غير محتاج إلى آلة حفظ وحرس، ﴿ووحينا﴾ إليك، كيف تصنعها، رُوي أنه لما جهل صنعها أوحى الله إليه: أن اصنعها على مثال جُؤجؤ الطائر. وروى أيضاً: أنها كانت مربعة الشكل، طويلة في السماء، ضيقة الأعلى، وأن المراد منها إنما كان الحفظ، لا سرعة المشي. والأول أرجح. أعني: على صورة ظهر الطائر. قال في الأساس: عملت سفينة نوح عليه السلام

(١) من الآية ٢٦ من سورة نوح.

من ساج، وهو خشب أسود، رزان، لا تكاد الأرض تبليه، يجلب من الهند. هـ. وفي رواية أخرى: صنعها نوح عليه السلام، وجبريل يصف له، فكان أسفلها كأسفل السفن وأعلاها كالسقف، وداخلها كالبيت، ولها أبواب في جوانبها. هـ.

ثم إن نوحاً عليه السلام لما تحقق هلاك قومه، رق عليهم، فَهَمَّ أن يُراجع الله في شأنهم، فقال له تعالى: ﴿ ولا تخاطبني ﴾؛ ولا تراجعني ﴿ في الذين ظلموا ﴾، ولا تدع باستدفاع العذاب عنهم؛ ﴿ إنهم مُغرقون ﴾: محكوم عليهم بالغرق لا محالة. فلا سبيل إلى كفه.

﴿ ويصنعُ الفلكَ ﴾، حكى ما وقع بصيغة الحال؛ استحضاراً لتلك الحال العجيبة، ﴿ وكلما مرَّ عليه ملأٌ ﴾: جماعة ﴿ من قومه سَخِروا منه ﴾: استهزءوا به، لأنه كان يعمل السفينة في برية بعيدة من الماء. أو أن عزته تنفي صنعته، فكانوا يضحكون منه، ويقولون له: صرت نجاراً بعد أن كنت نبياً. ﴿ قال ﴾ لهم: ﴿ إنْ تسخروا منا فإنا نسخرُ منكم كما تسخرون ﴾، فنسخر منكم حين يأخذكم في الدنيا الغرق، وفي الآخرة الحرق. ﴿ فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يُخزيه ﴾، وهو: الغرق، والحرق بعده، ﴿ ويحلُّ ﴾ أي: ينزل ﴿ عليه عذاب مقيمٌ ﴾: دائم، وهو النار يوم القيامة.

الإشارة: إذا تحقق الولي بإعراض الخلق عنه، وأيس منهم أن يتبعوه. فلا يحزن، ولا يغتم منهم، ففي الله غنى عن كل شيء، وليس يُغني عنه شيء. وفي إعراض الخلق راحة لقلب الولي ولبدنه، فإذا سخروا منه فليقل في نفسه: إن تسخروا منا اليوم، فنسخر منكم حين تحقق الحقائق، فيرتفع المقربون، ويتسفل الباطلون، وكان شيخ أشياخنا سيدي علي العمراني رضي الله عنه كثيراً ما يقول: ليت القيامة قامت، حتى يظهر الرجال من غيرهم. أو ما هذا معناه.

ثم ذكر مبدأ الطوفان، فقال:

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ وَمَنۡ ءَامَنَۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ ﴿٤٠﴾ ﴾

قلت: حتى: غاية لقوله: (ويصنع الفلك)، أو ابتدائية. و(اثنين) مفعول باحمل، و(أهلك): عطف عليه.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ حتى إذا جاء أمرُنا ﴾ بغرقهم، أو أمرنا للأرض بالفوران وللسحاب بالإرسال، ﴿ وفار التنورُ ﴾؛ نبع الماء منه وارتفع كالقدر تفور. والتنور: تنور الخبز، ابتدأ منه النبوع، على خرق العادة، أرادت ابنته أن تسجره ففار الماء في النار. رُوي أنه كان تنور آدم، خلص إلى نوح، فكان يوقد فيه، وقيل: كان في الكوفة في موضع مسجدها. وقيل: في الهند، وقيل: التنور: وجه الأرض(١). قاله ابن عباس.

---

(١) ورجح الطبري القول الأول؛ لأن ذلك هو المعروف من كلام العرب.

فلما فار بالماء ﴿ قلنا احْمِلْ فيها ﴾؛ في السفينة، ﴿ من كل زوجين اثنين ﴾؛ من كل نوع من الحيوان؛ ذكراً وأنثى - رُوِيَ أن نوحاً عليه السلام وقف على باب السفينة، وحشر إليه الوحوش، فكان الذكر يقع في يمينه، والأنثى في شماله، وهو يُدخل في السفينة. وآخر ما دخل الحمار، فتمسك الشيطان بذنبه؛ فزجره نوح فلم ينعق، فدخل معه، فجلس عند مؤخرالسفينة. ورُوِيَ أن نوحاً عليه السلام آذاه نتن الزبل والعذرة، فأوحى الله إليه: أن امسح على ذنب الفيل، ففعل فخرج من أنفه خنزير وخنزيرة، فكفياه أمر ذلك الأذى. ورُوِيَ أن الفأر آذى الناس، فأوحى الله إليه: أن امسح على جبهة الأسد ففعل، فعطس فخرج منه هرٌ وهرةٌ. فكفياه أمر الفأر[1] . انظر ابن عطية.

﴿ و ﴾ احمل أيضاً ﴿ أهْلَكَ ﴾ أي: امرأتك وبنيك ونساءهم، ﴿ إلا من سبقَ عليه القولُ ﴾ أنه من المغرقين يريد: ابنه كنعان وأمه واَعلة، فإنهما كانا كافرين. ﴿ و ﴾ احمل ﴿ من آمن ﴾ بك. قال تعالى: ﴿ وما آمن معه إلا قليلٌ ﴾، قيل: كانوا تسعةً وسبعين: زوجته المسلمة، وبنوه الثلاثة: حام وسام ويافث، ونساؤهم، واثنان وسبعون رجلاً وامرأة من غيرهم. وفي بعض الآثار: أن النبي ﷺ قال: «سام أبو العرب، ويافث أبو الروم، وحام أبو الحبش»[2] . قاله ابن عطية. وسيأتي خلافه في سورة الصافات. وهو الراجح. وقال البيضاوي: روي أن نوحاً عليه السلام اتخذ السفينة في سنتين، وكان طولها ثلاثمائة ذراع، وعرضها خمسين، وسمكها ثلاثين. وجعل لها ثلاثة بطون. فحمل في أسفلها الدواب والوحش، وفي وسطها الإنس، وفي أعلاها الطير. هـ . والله تعالى أعلم.

الإشارة: حتى إذا جاء أمرنا بكمال الطهارة من العيوب، وفار تنور القلب بعلم الغيوب، وجرت سفينة الفكرة في بحار التوحيد، وأسرار التفريد، قلنا: احمل فيها من كل زوجين اثنين؛ علم الشريعة والحقيقة، وعلم الحكمة والقدرة، وعلم الحس والمعنى، وعلم الأشباح والأرواح، وعلم الملك والملكوت. وتحمل من تمسك بها من أهل المحبة والوداد، إلا من سبق عليه القول بالمكث في مقام البعاد، وتحمل من آمن بخصوصيتها من العباد، فتقربه من مسلك التوفيق والتسديد، حين يمن الحق تعالى عليها بالقرب من أهل المحبة والوداد. وبالله التوفيق.

ثم أمرهم بالركوب في السفينة، فقال:

﴿ ۞ وَقَالَ ٱرْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٜىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَٰبُنَيَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ ٱلْمَآءِ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾

(١) هذه الأخبار ذكرها الطبري وغيره، وهي من الإسرائيليات التي ينبغي تنقية كتب التفسير منها.
(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٥/٩ والترمذي وحسنه في (المناقب، باب فضل العرب) والحاكم في المستدرك (٢/٥٤٦) وصححه ووافقه الذهبي، عن سمرة بن جندب ـ رضي الله عنه.

قلت : (مَجْرِيها ومرساها) : مشتقان من الجرى والإرسال، أى: الثبوت، وهما إما ظرفان زمانيان، أو مكانيان، وإما مصدران، والعامل فيهما: ما فى (بسم الله) من معنى الفعل. وإعراب «بسم الله»: إما حال مقدرة من الضمير فى «اركبوا»، أى: اركبوا متبركين بسم الله، أو قائلين: بسم الله، وقت إجرائها وإرسائها. أو (مجراها ومرساها): مبتدأ، و(بسم الله): خبر. فيوقف على (فيها) ؛ أى: إجراؤها وإرساؤها حاصل بسم الله.

يقول الحق جل جلاله : ﴿ وقال ﴾ نوح لمن كان معه: ﴿ اركبوا ﴾ فى السفينة وسيروا فيها. رُوى أنهم ركبوا أول يوم من رجب، وقيل: يوم العاشر منه، واستوت على الجودى يوم عاشوراء، ﴿ بسم الله مَجْرِيها ومُرْساها ﴾ أى: متبركين بسم الله وقت إجرائها، أو قائلين بسم الله وقت إجرائها وإرسائها، رُوى: أنه ﷺ كان إذا أراد أن يجرى السفينة قال: بسم الله، فتجرى، وإن أراد أن يوقفها قال: بسم الله، فتوقف. ﴿ إن ربي لغفور رحيم ﴾ ، فلولا مغفرته لما فرط منكم، ورحمته إياكم، لَما أنجاكم. فركبوا مسلمين وساروا .

﴿ وهي تجري بهم في موج كالجبال ﴾، والموج: ما يرتفع من الماء عند اضطرابه، أى: كل موجة من الطوفان كالجبال فى تراكمها وارتفاعها، وما قيل من أن الماء أطبق ما بين السماء والأرض، وكانت السفينة تجرى فى جوفه، لم يثبت. وكيف يكون الموج كالجبال؟ والمشهور أنه علا شوامخ الجبال، خمسة عشر ذراعاً، وإنْ صح ذلك فلعل ارتفاع الموج كالجبال كان قبل التطبيق.

﴿ ونادى نوحٌ ابنَه ﴾ ، كان كنعان. وقيل: كان لغير رشدة، وهو خطأ؛ لأن الأنبياء عُصمت من أن تزنى أزواجهم. والمراد بالخيانة فى قوله: ﴿ فَخَانَتَاهُما ﴾(١) . فى الدين. ﴿ وكان في معزل ﴾ ؛ فى ناحية، عزل نفسه فيها عن أبيه، أو عن دينه، فقال له أبوه: ﴿ يابُنيَّ اركب معنا ﴾ فى السفينة، ﴿ ولا تكن مع الكافرين ﴾ فى الدين، أو فى الاعتزال عنا، وكان يظنه مؤمناً، لإخفاء كفره. ﴿ قال سآوي إلى جبل يعصمُني ﴾ ؛ يمنعنى ﴿ من الماء ﴾ ، فلا أغرق، ﴿ قال لا عاصمَ اليوم من أمر الله إلا من رحم ﴾ أى: إلا الراحم، وهو الله، فلا عاصم إلا أرحم الراحمين. أو: ﴿لا عاصم﴾: لا ذو عصمة إلا من رحم الله، فلا معصوم إلا من رحمه الله. فالاستثناء حينئذ متصل. أو: لا عاصم اليوم من أمر الله لكن من رحمه الله فهو المعصوم. أو: لا ذو عصمة لكن الراحم يعصم من شاء، والاستثناء منقطع.

﴿ وحال بينهما الموجُ ﴾ ؛ بين نوح وابنه، ﴿ فكان من المغرَقين ﴾ ؛ فصار من المهلكين بالماء. رُوى أنه صنع بيتاً من زجاج، وحمل معه طعامه وشرابه، وصعد على وجه الماء فسلط الله عليه البول حتى غرق فى بوله(٢) . والله تعالى أعلم بشأنه.

---

(١) من الآية : ١٠ من سورة التحريم.
(٢) الآية صريحة فى أن الولد أراد أن يأوى إلى جبل يعصمه من الماء .. فماذا ينفع الزجاج هنا. وماذكره الشيخ المفسر لا دليل عليه.

الإشارة: إذا دخل العارف في بحر الفناء، وغاب عن حسه ورسمه، واتصل معناه ببحر معاني الأسرار، جرت سفينة فكرته في بحر الذات وأنوار الصفات، فقال لأصحابه: اركبوا فيها، بسم الله مجريها ومرساها، إن ربي لغفور رحيم، حيث غطى وصفكم بوصفه، ونعتكم بنعته. فوصلكم بما منه إليه، لا بما منكم إليه. فصارت سفن الأفكار تجرى بهم في موج كالجبال، وهي تيار بحر الذات. فالخمرة الأزلية الخفية الصافية بحر لا ساحل له، وما ظهر من أنوار الصفات أمواجه. فأنوار الآثار هي أمواج البحار، وما عظم من أمواجه يسمى التيار، ولذلك قيل: العارفون يغرقون في بحر الذات، وتيار الصفات، فتراهم إذا غرقوا في بحر الأسرار وتيار الأنوار، وساروا فيها بمدد أسرارهم، تلاطمت عليهم أمواجه. وهي تجرى بهم في موج كالجبال، فلا عاصم اليـــوم من أمر الله إلا من رحم، فآواه إلى جبل السنة المحمدية. فكان من الناجين.

وآخرون حال بينهم الموج، فكانوا من المغرقين، فالتبس الأمر عليهم، فقالوا بالحلول والاتحاد، أو نفى الحكمة والأحكام. وهذا في حق من ركب بلا رئيس ماهر، وإلا رده إلى سفينة النجاة، وهي: التمسك بالشريعة المحمدية في الظاهر، والتحقق بالحقيقة الأصلية. وبالله التوفيق.

ثم ذكر انتهاء الطوفان، فقال:

﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾

قلت : (بعدا) : منصوب على المصدر، أي: أبعدوا بعدًا.

يقول الحق جل جلاله : ﴿ وقيل ﴾ أي: قال الله: ﴿ يا أرضُ ابلعي ماءك ﴾ الذي خرج منك، فانفتحت أفواهاً، فرجع إليها ما خرج منها، ﴿ وياسماءُ أقلعي ﴾ : أمسكي عن الأمطار. رُوي أنها أمطرت من كل موضع، فبقي ما نزل منها بحاراًعلى وجه الأرض.

قال البيضاوي: نوديا بما ينادي به أولو العلم، وأُمرا بما يؤمرون به، تمثيلاً لكمال قدرته، وانقيادهما لما يشاء تكوينه فيهما، بالأمر المطاع، الذي يأمر المنقاد لحكمه، المبادر إلى امتثال أمره، مهابة من عظمته، وخشية من أليم عقابه. والبلع: النشف، والإقلاع: الإمساك .هـ .

﴿ وغِيضَ الماءُ ﴾ : نقص ولم ينشف ما خرج منها، ﴿ وقُضيَ الأمرُ ﴾ : وأنجز ما وعد من إهلاك الكافرين، وإنجاء المؤمنين، ﴿ واستوتْ ﴾ : استقرت السفينة ﴿ على الجُودى ﴾ ؛ جبل بالموصل. وقيل: بالشام. وتقدم أنه

نزل يوم عاشوراء، فصامه شكراً. وبقى ستة أشهر على الماء. ﴿ وقيل بُعْداً للقوم الظالمين ﴾؛ هلاكاً لهم. يقال: بعد، إذا بعد بعداً بعيداً، بحيث لا يرجى عوده، ثم استعير للهلاك. وخص بدعاء السوء.

والآية ـ كما ترى ـ في غاية الفصاحة؛ لفخامة لفظها وحسن نظمها، والدلالة على كنه الحال مع الإيجاز الخالي عن الإخلال. وإيراد الأخبار على البناء للمفعول دلالة على تعظيم الفاعل، وأنه متعين في نفسه، مستغن عن ذكره، إذ لا يذهب الوهم إلى غيره؛ للعلم به، فإن مثل هذه الأفعال لا يقدر عليها سوى الواحد القهار. قاله البيضاوي.

فإن قلت: قد عم الغرق الدنيا كلها، مع أن دعوة نوح عليه السلام لم تكن عامة، وقد قال تعالى: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾(١)؟ فالجواب: أن الكفر قد كان عم الموجودين في ذلك الزمان، مع تمكنهم من النظر والاستدلال على الصانع وتوحيده، ومع قدرتهم على الإتيان إلى نوح في أمر الشرائع، فقصروا في الجهتين. وأيضاً: لم تكن الأرض كلها معمورة بالناس، فكل من كان موجوداً سمع بدعوة نوح فجحدها. والله تعالى أعلم. وانظر ابن عطية عند قوله: ﴿ واصنع الفلك ﴾. والله تعالى أعلم.

الإشارة: إذا توالت على القلب الواردات الإلهية السماوية، والأحوال النفسانية المزعجة، خيف على العقل الاختطاف والاصطلام، فقيل يا أرض النفس ابلعي ماءك واسكني، ويا سماء الواردات أقلعي، وغيض الماء، أي: نقص هيجان الحال، وقضى الأمر بالاعتدال، واستوت سفينة الفكرة على جبل العقل، فحاز الشرف والكمال؛ لكونه برزخاً بين بحرين، يعطي الحقيقة حقها والشريعة حقها، فيعطي كل ذي حق حقه، ويوفي كل ذي قسط قسطه. وقيل: بُعداً لمن تخلف عن هذا المقام، وظلم نفسه بإلقائها في سجن الهوى وغيهب الظلام. والله تعالى أعلم.

ولمّا غرق كنعان مع من غرق، استفهم نوح عليه السلام ربه عن الوعد الذي وعده بإنجاء أهله، كما قال تعالى:

﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾

(١) من الآية: ١٥ من سورة الإسراء.

قلت : (وإنّ وعدك): عطف على (إن ابني) . و(أنت أحكم): حال من الكاف . و(إني أعظك): مفعول من أجله، أي: كراهية أن تكون من الجاهلين.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ونادى نوحٌ ربَّه ﴾ بعد تعميم الغرق، أي: أراد النداء بدليل عطف قوله: ﴿ فقال ربِّ إنَّ ابني من أهلي ﴾ ، فإنه هو النداء، أو تكون فصيحة؛ جواباً عن مقدر، كأن قائلا قال: ماذا قال في ندائه؟ فقال: إن ابني من أهلي وقد وعدتني أن تنجيني وأهلي، ﴿ وإن وعدَكَ الحقُّ ﴾ لا يتطرقه الخلف، فما باله غرق؟ ﴿ وأنت أحكمُ الحاكمين ﴾ ؛ لأنك أعلمهم وأعدلهم، فلم أعرف وجه حكمك عليه بالغرق. أو لأنك أكثر حكمة من ذوي الحكم، فلم أفهم حكمة غرقه.

﴿ قال ﴾ تعالى: ﴿ يا نوح إنه ليس من أهلك ﴾ ؛ لأنه خالفك في الدين، ولا ولاية بين الكافر والمؤمن، ﴿ إنه عملٌ غير صالح ﴾ أي: ذو عمل فاسد. جعل ذاته نفس العمل؛ مبالغةً. وقرأ الكسائي ويعقوب: (عَمِلَ) بلفظ الماضي. أي: عمل عملاً فاسداً، استحق به البعد عنك. أو: إنه ـ أي سؤالك ـ عملٌ غير صالح. ويقوي هذا قراءة ابن مسعود: «إنه عمل غير صالح أن تسألني ما ليس لك به علم». وقراءة الجماعة: ﴿ فلا تسألن ما ليس لك به علمٌ ﴾ أصواب هو أم لا، حتى تقف على كنهه. وإنما سمّي نداءه سؤالاً؛ لتضمنه معنى السؤال، بذكر الوعد واستنجازه واستفسار المانع.

ثم وعظه بقوله : ﴿ إني أعظُكَ أن تكون من الجاهلين ﴾ أي: إني أعظك؛ كراهة أن تكون من الجاهلين، الذين يسألون ما لا يوافق القدر. وقد استثنيته بقولي: ﴿ إلا من سبق عليه القول ﴾ . وليس فيه وصفه بالجهل، بل وعظه لئلا يقع فيه، والحامل له على السؤال، مع أنه استثنى له؛ غلبة الشفقة على الولد، مع كونه لم يتحقق أنه ممن سبق عليه القول.

﴿ قال ﴾ نوح: يا ﴿ رب إني أعوذُ بك أن أسألكَ ﴾ في المستقبل ﴿ ما ليس لي به علمٌ ﴾ ؛ ما لا علم لي بصحته. ﴿ وإلا تغفرْ لي ﴾ ما فرط مني من السؤال، ﴿ وترحمني ﴾ بالتوبة؛ تفضلاً وإحساناً، وبالتوفيق والعصمة في المستقبل، ﴿ أكن من الخاسرين ﴾ بسوء أدبي معك.

الإشارة: قال الورتجبي: أدّب نبيه نوحاً عليه السلام بأن لا يسأل إلا ما وافق القدر. وكل دعاء لم يوافق مراده تعالى في سابق علمه لم يؤثر في مراد الداعي. وقوله: (إنه عمل غير صالح) أي: ليس عمله على موافقة السنة، ثم وعظه، وقال: (إني أعظك أن تكون من الجاهلين)، الجاهل: من جهل قدر الله، أي: أنزهك عن سوء الأدب في السؤال، على غير قاعدة مرادك. هـ. وقال في الحكم: «ليس الشأن وجوب الطلب، إنما الشأن أن ترزق حسن الأدب».

ثم أمره بالنزول إلى الأرض من السفينة، فقال:

﴿ قِيلَ يَـٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَـٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَـٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَـٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَـٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾

قلت: «تلك»: مبتدأ. و«من أنباء»: خبر. و«نوحيها»: خبر ثان، و«ما كنت تعلمها»: خبر ثالث، أو حال من الهاء، أي: حال كونها مجهولة عندك وعند قومك.

يقول الحق جل جلاله: ﴿قيل يا نوحُ اهبط﴾ من السفينة إلى عمارة الأرض ﴿بسلامٍ منّا﴾، أي: متلبساً بسلامة من المكاره، من جهة حفظنا ورعايتنا. أو مسلماً عليك. ﴿وبركات عليك﴾؛ وزيادات في نسلك حتى تصير آدماً ثانيا. فالبركة هي: الخير النامي. أو: مباركاً عليك، ﴿وعلى أمم ممن معك﴾ أي: هم الذين معك، أو ناشئة ممن معك، فقد تشعبت الأمم ممن معه من ذريته. والمراد: المؤمنون، بدليل قوله: ﴿وأمم سنمتعهم﴾ في الدنيا، ونوسع عليهم فيها، ﴿ثم يمسُّهم منا عذاب أليم﴾ في الآخرة، وهم الكفار ممن نشأ من ذريته. وقيل: هم قوم هود وصالح ولوط وشعيب، والعذاب: ما نزل بهم في الدنيا.

﴿تلك﴾ القصة، أو خبر نوح عليه السلام، هي ﴿من أنباء الغيب﴾ أي: بعض أخبار الغيب ﴿نُوحيها إليك﴾؛ لا طريق إلى معرفتها إلا الوحي، ﴿ما كنتَ تعلمها أنتَ ولا قومُك من قبل هذا﴾ الوقت لولا إيحاؤنا إليك بها، فهي من دلائل نبوتك؛ لأنك لم تغب عنهم، ولم تخالط غيرهم، فتعين أنه من عند الله. فإن كذبوك ﴿فاصبرْ إن العاقبة للمتقين﴾ وأنت أعظمهم. فالعاقبة لك في الدنيا بالنصر والعز، وفي الآخرة بالرفيق الأعلى. أو فاصبر على مشاق التبليغ مع إيذاية قومك، كما صبر نوح عليه السلام. إن العاقبة للمتقين بالنصر في الدنيا، والجنة في الآخرة.

الإشارة: يقال للمريد إذا تمكن من الفناء، وارتفعت فكرته عن عالم الأكوان: اهبط إلى مقام البقاء؛ لتقوم بآداب العبودية بعد مشاهدة عظمة الربوبية، انزل إلى سماء الحقوق، أو أرض الحظوظ بالإذن والتمكين، والرسوخ في اليقين، لا بقصد متابعة الشهوة والمتعة. اهبط بسلام منا؛ أي: بسلامة من الرجوع أو الشقاء، وبركات عليك وعلى من تبعك. ولذلك قيل: من رجع إلى البقاء أمن من الشقاء. وأمم قد ضلوا عن متابعتك، سنمتعهم في الدنيا بمتابعة الهوى، ثم يمسهم منا عذاب الحجاب وسوء الحساب. تلك الواردات الإلهية نُوحيها إليك، ما كنت تعلمها أيها العارف من قبل هذا، أنت ولا من تبعك، فاصبر؛ فإن الجمال مقرون بالجلال، والعاقبة للمتقين. والله تعالى أعلم.

﴿قال﴾ هود عليه السلام: ﴿إني أُشهد الله﴾ على براءتي من شرككم، ﴿واشهدوا أني بريء مما تُشركون من دونه فكيدوني﴾ أي: اقصدوا كيدي وهلاكي، ﴿جميعاً﴾، أنتم وشركاؤكم، ﴿ثم لا تنظرون﴾؛ لا تؤخرون ساعة. وهذا من جملة معجزاته، فإن مواجهة الواحد الجم الغفير من الجبابرة، والفتاك العطاش إلى إراقة دمه، بهذا الكلام، ليس إلا لثقته بالله، ومنعهم من إضراره ليس إلا لعصمته إياه. ولذلك عقبه بقوله: ﴿إني توكلتُ على الله ربي وربكم﴾، فهو تقرير له. والمعنى: أنكم وإن بذلتم غاية وسعكم لم تضروني؛ فإني متوكل على الله، واثق بكلاءته، وهو مالكي ومالككم، لا يحيق بي ما لم يرده، ولا تقدرون على ما لم يقدره.

ثم برهن عليه بقوله: ﴿ما من دابة إلا هو آخذٌ بناصيتها﴾: إلا وهو مالك لها، قادرٌ عليها، يصرفها على مايريد بها. والأخذ بالنواصي تمثيل لذلك. قاله البيضاوي. وقال ابن جزي: أي: هي في قبضته وتحت قهره، وهذه الجملة تعليل لقوة توكله على الله، وعدم مبالاته بالخلق. هـ. ﴿إن ربي عليّ صراطٍ مستقيم﴾ أي: إنه على الحق والعدل، ولا يضيع عنده معتصم ولا يفوته ظالم. وقال في القوت: أخبر عن عدله في محله، وقيام حكمته، وأنه وإن كان آخذاً بنواصي العباد في الخير والشر، والنفع والضر؛ لاقتداره، فإن ذلك مستقيم في عدله، وصواب من حكمه. هـ.

﴿فإن تولَّوا﴾ أي: فإن تتولوا وتُعرضوا عما جئتكم به، ﴿فقد أبلغتكم ما أرسلتُ به إليكم﴾. أي: فقد أديت ما عليّ من الإبلاغ، فلا تفريط مني، ولا عذر لكم؛ فقد جاءكم النذير، وقامت الحجة عليكم، وما بقي إلا هلاككم. ﴿ويستخلف ربي قوماً غيركم﴾ يسكنون دياركم، ويعمرون بلادكم، فإن عتوا وطغوا سلك بهم مسلككم، ﴿ولا تضرونه﴾ بتوليكم عن الإيمان به، ﴿شيئاً﴾ من الضرر. أو لا تضرونه شيئاً إذا أهلككم واستخلف غيركم، ﴿إن ربي على كل شيءٍ حفيظٌ﴾؛ رقيب، فلا يخفى عليه أعمالكم، ولا يغفل عن مجازاتكم. أو حافظ مستول عليه، فلا يمكن أن يضره شيء. قاله البيضاوي.

الإشارة: ما يقال للأولياء إلا ما قيل للرسل، فإذا توجه العبد إلى مولاه، وسقط على من هو أهل للتربية، وترك ما كان عليه قبل من الانتساب إلى غيره، وخرق عوائد نفسه، أو أصابه شيء من المكاره، قال الناس: ما أعتراه إلا بعض الصالحين بسوء، فيقول لهم: إني أُشهد الله، واشهدوا أني بريء مما تشركون من دونه. فإن أجمعوا على إضراره أو قتله قال لهم: فكيدوني جميعاً ثم لا تنظرون.

﴿إني توكلت على الله ربي وربكم، ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها﴾، وأنتم دواب مقهورون تحت قبضة الحق، ﴿إن ربي على صراط مستقيم﴾؛ لا ينتقم إلا من أهل الانتقام، «من عاد لي ولياً فقد آذنته بالحرب»، فإن ذكرهم بالله ودلهم على الطريق، فكذبوه وأعرضوا عنه، قال: عسى أن يذهب بكم، ويستخلف قوماً غيركم، يكونون متوجهين إليه أكثر منكم، ولا تضرونه شيئا. وبالله التوفيق.

ثم ذكر نزول العذاب الذى وعدهم به، فقال:

﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا هُودٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَنَجَّيۡنَٰهُم مِّنۡ عَذَابٍ غَلِيظٖ ﴿٥٨﴾ وَتِلۡكَ عَادٞۖ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَعَصَوۡاْ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ ﴿٥٩﴾ وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَآ إِنَّ عَادٗا كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّعَادٖ قَوۡمِ هُودٖ ﴿٦٠﴾ ﴾

قلت : إنما قال هنا وفى قصة شعيب: (ولما)، بالواو، وفى قصة صالح ولوط: (فلما)، بالفاء؛ لأن قصة صالح ولوط ذكرهما بعد الوعيد، فى بالفاء التى تقتضى التسبب، كما تقول: وعدته فلما جاء الوعيد كان.. الخ، بخلاف قصة هود وشعيب لم يتقدم ذلك فيهما، فعطف بالواو. قاله الزمخشرى.

يقول الحق جل جلاله : ﴿ ولما جاء أمرنا ﴾ : عذابنا، أو أمرنا بالعذاب، ﴿ نجينا هوداً والذين آمنوا معه برحمة منا ﴾، وكانوا أربعة آلاف، ﴿ ونجيناهم من عذاب غليظ ﴾، وهو ريح السموم، وكانت تدخل أنوف الكفرة وتخرج من أدبارهم فتقطع أمعاءهم. والتكرير؛ لبيان ما نجاهم منه، وإعلاماً بأنه عذاب غليظ، وتعديداً للنعمة فى نجاتهم. ويحتمل أن يريد بالنجاة الأولى: من عذاب الدنيا، وهو الريح الذى نزل بقومهم، وبالنجاة الثانية: عذاب الآخرة، وهو العذاب الغليظ، ولذلك عطفه على النجاة الأولى التى أراد بها النجاة من الريح.

﴿ وتلك عادٌ ﴾ ؛ الإشارة إلى القبيلة، أو إلى قبورهم وآثارهم؛ تهويلاً وتهديداً، ﴿ جحدوا بآيات ربهم ﴾ ؛ كفروا بها، ﴿ وعصوا رسله ﴾، والجمع إما لأنّ من عصى رسولاً فكأنما عصى الكل؛ لأنهم متفقون فى الدعوة، مع أنهم أُمروا بطاعة كل رسول. وإمّا على إرادة الجنس، كقولك: فلان يركب الخيل، وإن لم يركب إلا فرساً واحداً. ﴿ واتبعوا أمر كلِّ جبارٍ عنيد ﴾ يعنى: كبراءهم الطاغين، والعنيد: الطاغي، والمعنى: عصوا من دعاهم إلى الإيمان وما ينجيهم، وأطاعوا من دعاهم إلى الكفر وما يرديهم، ﴿ وأُتبعوا في هذه الدنيا لعنةً ويومَ القيامة ﴾ أى: جعلت اللعنة تابعة لهم فى الدارين؛ فى الدنيا أهلكتهم، وفى الآخرة أحرقتهم.

﴿ ألا إن عاداً كفروا ربَّهم ﴾؛ جحدوه، أو كفروا نعمه. وفيه تشنيع لكفرهم وتهويل لأمرهم، بالإتيان بحرف التنبيه، وتكرار اسم عاد؛ ﴿ ألا بعداً لعاد ﴾ أى: هلاكاً لهم، دعا عليهم بالهلاك بعد أن هلكوا؛ للدلالة على أنهم كانوا مستحقين له، مستوجبين لما نزل بهم؛ بسبب ما حكى عنهم. وإنما كرر «ألا»، وأعاد ذكرهم؛ تفظيعاً لأمرهم، وحثّاً على الاعتبار بحالهم. ثم بيَّنهم بقوله: ﴿ قوم هود ﴾. فهو عطف بيان لعاد، وفائدته: تمييزهم عن عاد الثانية، التى هى عاد إرم، والإيماء إلى [استحقاقهم للبعد][1] بما جرى بينهم وبينه. قاله البيضاوى.

(١) فى الأصول: [استحقارهم له]. والمثبت هو الذى فى تفسير البيضاوى.

الإشارة: من أراد سلامة الدارين والظفر بقرة العين، فليتمسك بالإيمان بالله، وبكل رسول أتى من عند الله، وليتبع من يدعو إلى الله. وهم أهل المحبة والوداد، السالكون مناهج الرشاد والسداد. وليتجنب كل جبار عنيد، وهو: كل من يحول بينك وبين الله، ويغفلك عن ذكر الله. وقوله تعالى: (ألا بُعداً لعاد) وأخواتها، فيها تخويف لأهل القرب والوصال.

قال في الإحياء: ولخصوص المحبين مخاوف في مقام المحبة، ليست لغيرهم، وبعض مخاوفهم أشد من بعض، فأولها: خوف الإعراض، وأشد منه: خوف الحجاب، وأشد منه: خوف الإبعاد، وهذا المعنى من سورة هود هو الذي شيب سيد المحبين، أنه سمع: (ألابُعداً لعاد)، (ألا بُعداً لمدين)، وإنما تعظم هيبةُ البُعد وخوفُه في قلب من أَلِف القرب وذاقه، وتنعّم به. ثم قال: ثم خوف الوقوف وسلب المزيد، فإنا قدّمنا: أن درجات القرب لا نهاية لها.هـ.

ثم ذكر قصة صالح عليه السلام فقال:

﴿ ۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ ۖ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ ﴾

قلت: قال الشطيبي: صالح: هو ابن عبيد بن عابَر بن أرْفَخْشد بن سام بن نوح. وثمود هم أولاد ثمود بن عوص بن عاد بن إرم بن سام بن نوح . هـ. وفيه نظر؛ فقد ذكر البيضاوي في سورة الأعراف أن بين صالح ونوح تسعة أجداد، فانظره.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ و ﴾ أرسلنا ﴿ إلى ثمود أخاهم صالحاً، قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيرُه هو أنشأكم من الأرض ﴾ كونكم من الأرض؛ لأنه خلق آدم منها، والنطف التي هي مواد نسله أصلها منها، ﴿ واستعمركم ﴾ ؛ عمركم ﴿ فيها ﴾ وجعلكم تعمرونها بعد من مضى قبلكم، ثم تتركونها لغيركم. أو استبقاكم فيها مدة أعماركم، ثم ترحلون عنها. ﴿ فاستغفروه ثم توبوا إليه، إن ربي قريبٌ ﴾ من كل شيء، ﴿ مجيبٌ ﴾ لمن دعاه .

﴿ قالوا يا صالحُ قد كنتَ فينا مرجواً قبل هذا ﴾ أي: كنا نرجو أن ننتفع بك؛ لما نرى فيك من مخايل الرشد والسداد، فتكون لنا سيداً، أو مُستشاراً في الأمور، وأن توافقنا على ديننا، فلما سمعنا هذا القول منك انقطع رجاؤنا منك؛ ﴿ أتنهانا أن نعبدَ ما يعبد آباؤنا ﴾ قبلنا لتصرفنا عن ديننا، ﴿ وإننا لفي شكٍّ مما تدعونا إليه ﴾ من التوحيد، والتبري من الأوثان، ﴿ مُريب ﴾ : موقع في الريبة؛ مبالغة في الشك، ﴿ قال ياقومِ أرأيتُم إن كنتُ على بينة ﴾ ؛ طريقة واضحة ﴿ من ربي ﴾ وبصيرة نافذة منه، ﴿ وآتاني منه رحمةً ﴾ : نبوة، ﴿ فمن ينصرني من الله ﴾ ؛ من يمنعني من عذابه ﴿ إن عصيته ﴾ وأطعتكم في ترك التبليغ، وموافقتكم في الدين الفاسد، ﴿ فما تزيدونني ﴾ باستتباعكم ﴿ غيرَ تخسير ﴾ بترك ما منحني الله به، والتعرض لغضبه، أوفما تزيدونني بما تقولون لي غير تخسير لكم؛ لأنه يجركم إلى الخسران. والله تعالى أعلم.

الإشارة: كل منّ وجهه الحق تعالى يدعو إلى الله فإنما يدعو إلى خصلتين: إفراد الحق بنعوت الألوهية، والقيام بوظائف العبودية؛ شكراً لنعمة الإيجاد، وتوالي الإمداد. فقول صالح ﷺ: (اعبدوا الله مالكم من إله غيره)، هذا إفراد الحق بالربوبية، وقوله: (هو أنشأكم من الأرض)، هذه نعمة الإيجاد. وقوله: (واستعمركم فيها) هي: نعمة الإمداد، وقوله: (فاستغفروه ثم توبوا إليه)، هو القيام بوظائف العبودية؛ شكراً لتلك النعمتين. وفي قوله: (إن ربي قريب مجيب) : ترهيب وترغيب.

وقوله تعالى: (قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا) : يؤخذ من الآية: أن شُعاع الخصوصية، وآثارها، تظهر على العبد قبل شروق أنوارها، وهو جار في خصوص النبوة والولاية، فلا تظهر على العبد في الغالب حتى يتقدمها آثار وأنوار، من مجاهدة أو أنس، أو اضطرار أو انكسار، أو عرق طيب. والله تعالى أعلم. وكل من واجهه منهم تكذيب أو إنكار يقول: (أرأيتم إن كنتُ على بينة من ربي ...) الآية. وبالله التوفيق.

ثم ذكر معجزة الناقة، فقال:

﴿ وَيَٰقَوۡمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗۖ فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٞ قَرِيبٞ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمۡ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٖۖ ذَٰلِكَ وَعۡدٌ غَيۡرُ مَكۡذُوبٖ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا صَٰلِحٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَمِنۡ خِزۡيِ يَوۡمِئِذٍۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾ ﴾

قلت : «آية» : نصبت على الحال، والعامل فيها: معنى الإشارة . و(لكم) : حال مدها، تقدمت عليها لتنكيرها. و(من خزى يومئذ) ـ حذف المعطوف، أي: ونجيناهم من خزى يومئذ، ومن قرأ بكسر الميم أعربه، ومن قرأ بالفتح بناه؛ لاكتساب المضاف البناء من المضاف إليه. قاله البيضاوي . وقال في الألفية:

وابْنِ، أو اعْرِبْ ما كإِذْ قَدْ أُجْرِيا   واخترْ بِنَـا متْلُو فعْـلٍ بُنيا

وقَبْل فعْـلٍ معرب أو مُبْتَـدا   أعْرِبْ، ومنْ بنَى فَلَنْ يُفَنَّدا

وثمود: اسم قبيلة، يصح فيه الصرف باعتبار الحي أو الأب الأكبر، وعدمه باعتبار القبيلة. وقد جاء بالوجهين في هذه الآية.

يقول الحق جل جلاله : قال صالح لقومه بعد ظهور آية الناقة، وقد تقدم في الأعراف قصتها: ﴿ هذه ناقةُ الله لكم آيةً ﴾ تدل على صدقي، ﴿ فذروها تأكلْ في أرض الله ﴾؛ أي: ترعى نباتها وتشرب ماءها، ﴿ ولاتمسوها بسوء، فيأخذكم عذابٌ قريب ﴾ : عاجل، لا يتأخر عن مسكم لها بالسوء إلا ثلاثة أيام. ﴿ فعقروها ﴾ وقسموا لحمها، ﴿ فقال ﴾ لهم: ﴿تمتعوا﴾: عيشوا ﴿في داركم ﴾؛ منازلكم ﴿ ثلاثةَ أيام ﴾؛ الأربعاء والخميس والجمعة. وقيل: عقروها يوم الأربعاء، وتأخروا الخميس والجمعة والسبت، وهلكوا يوم الأحد. ﴿ ذلك وعدٌ غيرُ مكذوب ﴾ فيه، بل هو حق.

﴿ فلما جاء أمرُنا ﴾ : عذابنا، أو أمرنا بهلاكهم، ﴿ نجينا صالحاً والذين آمنوا معه ﴾، قيل: كانوا ألفين وثمانمائة رجل وامرأة. وقيل: أربعة آلاف، وقال كعب: كان قوم صالح أربعة عشر ألفاً، سوى النساء والذرية، ولقد كان قوم عاد مثلهم ست مرات. انظر القرطبي. قلت: وقول كعب: كان قوم صالح... إلخ، لعله يعني الجميع: من آمن ومن لم يؤمن، فآمن ألفان وثمانمائة، وهلك الباقي. وكذا هود، أسلم أربعة آلاف، وهلك الباقي.

قال تعالى: فنجينا ﴿ صالحاً ﴾ ومن معه ﴿ برحمة منا ﴾، ونجيناهم ﴿ من خِزْيِ يومئذ ﴾ وهو: هلاكهم بالصيحة، أو من هوان يوم القيامة، ﴿ إن ربك هو القوي العزيز ﴾؛ القادر على كل شيء، الغالب عليه، ﴿ وأخذ الذين ظلموا الصيحةُ فأصبحوا في ديارهم جاثمين ﴾؛ باركين على ركبهم، ميتين، ﴿ كأن لم يغنوا ﴾ : يعيشوا، أو يقيموا ﴿ فيها ﴾ ساعة، ﴿ ألا إن ثمودَ كفروا ربهم ﴾؛ جحدوه، ﴿ ألا بُعداً لثمود ﴾؛ هلاكاً وسحقاً لهم.

الإشارة : ما رأينا أحداً ربح من ولي وهو يطلب منه إظهار الكرامة، بل إذا أراد الله أن يوصل عبداً إليه كشف له عن سر خصوصيته، بلا توقف على كرامة. وقد يظهرها الله له بلا طلب؛ تأييدًا له، وزيادةً في إيقانه، فإن طلب الكرامة، وظهرت له، ثم أعرض عنه، فلا أحد أبعدُ منه. قال تعالى، في حق من رأى المعجزة ثم أعرض: (ألا بعداً لثمود) . وبالله التوفيق.

ثم ذكر قصة لوط، مع ما تقدمها من بشارة إبراهيم عليه السلام، فقال:

﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾ ﴾

قلت : «سلاماً»: منصوب على المصدر، أي: سلمنا سلاماً. ويجوز نصبه بقالوا؛ لتضمنه معنى ذكروا. (قال سلام): إما خبر، أي: أمرنا سلام، أو جواب سلام، وإما مبتدأ، أي: عليكم سلام. وكسر السين: لغة. وإنما رفع جوابه ليدل على ثبوت سلامه؛ فيكون قد حياهم بأحسن مما حيوه به. (فما لبث أن جاء)؛ «ما»: نافية و«أن جاء» : فاعل «لبث». ونكر وأنكر بمعنى واحد. والإيجاس: الإدراك أو الإضمار. و(من وراء إسحاق يعقوب) : من قرأ بالنصب فبفعل دل عليه الكلام، أي: ووهبنا لها يعقوب. ومن رفعه فمبتدأ، أي: ويعقوب مولود من بعده. و(شيخا) : حال، والعامل فيه: الإشارة، أي: أشير إليه شيخاً. و(أهل البيت) : نصب على المدح والاختصاص، أو على النداء.

يقول الحق جل جلاله : ﴿ ولقد جاءت رسلُنا إبراهيم ﴾ ، وهم الملائكة، قيل: ثلاثة: جبريل وميكائيل وإسرافيل. وقيل: تسعة، جاءوه ﴿ بالبشرى ﴾ ؛ بالولد. فلما دخلوا عليه ﴿ قالوا سلاماً ﴾ أي: سلمنا عليك سلاماً، أو ذكروا سلاماً، ﴿ قال سلام ﴾ أي: عليكم سلام، ﴿ فما لبث ﴾ أي: أبطأ، ﴿ أن جاء بعجل حنيذ ﴾ ؛ مشوى بالرضف، أي: بالحجر المحمى. وقيل: حنيذ بمعنى يقطر ودكه[1]. كقوله : ﴿ بعجلٍ سمينٍ ﴾[2]، فامتنعوا من أكله، ﴿ فلما رأى أيديهم لا تصل إليه ﴾ ؛ لا يمدون إليه أيديهم، ﴿ نكرهم ﴾ أي: أنكر ذلك منهم، ﴿ وأوجس ﴾ : أدرك، أو أضمر ﴿ منهم خيفة ﴾ أي: خوفاً، خاف أن يريدوا به مكروها؛ لامتناعهم من طعامه، وكان من عادتهم إذا مس من يطرقهم طعامهم أمنوه، وإلا خافوه.

والظاهر أنه أحس بأنهم ملائكة ونكرهم؛ لأنه تخوف أن يكون نزولهم لأمر أنكره الله عليه فأمنوه، وقالوا: ﴿ لاتخفْ إنا ﴾ ملائكة ﴿ أرسلنا إلى قوم لوط ﴾ لنعذبهم، وإنما لم نأكل طعامك؛ لأنا لا نأكل الطعام. ﴿ وامرأته قائمة ﴾ من وراء ستر تسمع محاورتهم، أو على رؤوسهم للخدمة، ﴿ فضحكتْ ﴾ سروراً بزوال الخيفة، أو بهلاك

(١) الودك: دسم اللحم.
(٢) من الآية ٢٦ من سورة الذاريات.

أهل الفساد، أو بإصابة رأيها، فإنها كانت تقول لإبراهيم: اضمم إليك لوطاً، فإني لأعلم أن العذاب نازل بهؤلاء القوم. وقيل: معنى ضحكت: حاضت. يقال: ضحكت الشجرة: إذا سال صمغها. وقيل: ضحكت سروراً بالولد الذي بُشرت به. فيكون في الكلام تقديم وتأخير، أي: فبشرناها فضحكت، وهو ضعيف.

قال تعالى: ﴿ فبشرناها بإسحاقَ ومن وراءِ إسحاق يعقوبَ ﴾ ولد ولدها. وتوجيه البشارة إليها؛ لأنه منْ نسلها، ولأنها كانت عقيمة حريصة على الولد، ﴿ قالتْ ياويلتا ﴾؛ يا عجباً، وأصله في الشر، فأطلق على كل أمر فظيع. وقرئ بالياء على الأصل، أي: ياويلتي ﴿ أألدُ وأنا عجوزٌ ﴾ ابنة تسعين، أو تسع وتسعين ﴿ وهذا بعْلي ﴾: زوجي، وأصله: القائم بالأمر، ﴿ شيخا ﴾؛ ابن مائة أو مائة وعشرين سنة، ﴿ إنَّ هذا لشيء عجيب ﴾ يتعجب منه؛ لكونه نشأ الولد من هرمين.

وهو استغراب من حيث العادة، لا من حيث القدرة، ولذلك قالوا: ﴿ أتعجبينَ من أمر الله ﴾؛ منكرين عليها، فإن خوارق العادات باعتبار أهل بيت النبوة، ومهبط الوحي ومظهر المعجزات. وتخصيصهم بمزيد النعم والكرامات ليس ببدع، ولذلك قالوا: ﴿ رحمةُ الله وبركاته عليكم أهلَ البيت ﴾ أي: بيت إبراهيم، فلا تستغرب ما يظهر منهم من خوارق العادات، لا سيما من نشأت وشابت في ملاحظة الآيات. ﴿ إنه ﴾ تعالى ﴿ حميدٌ ﴾؛ فاعل ما يستوجب به الحمد، أو محمود على كل حال، ﴿ مجيد ﴾؛ كثير الخير والإحسان. أو ممجَّد بمعنى العلو والشرف التام. قال ابن عطية هنا: إن في الآية دليلاً على أن الذبيح إسماعيل لا إسحاق. وفيه نظر[1]. وسيأتي في سورة الصافات ما هو الحق، إن شاء الله تعالى.

الإشارة: من شأن أهل الكرم والامتنان: المبادرة إلى من أتاهم بالبر والإحسان؛ إما بقوت الأرواح، أو بقوت الأشباح. من أتاهم لقوت الأرواح بادروه بإمداد الروح من اليقين والمعرفة، ومن أتاهم لقوت الأشباح بادروه بالطعام والشراب، كُلاً ما يليق به، ومن شأن الضيف اللبيب المبادرة إلى أكل ما قُدم إليه، من غير اختيار، إلا لمانع شرعي أو عادي. ومن شأن أهل التحقيق والتصديق ألا يتعجبوا مما يظهر من القدرة من الخوارق؛ إذ القدرة صالحة لكل شيء، حاكمة على كل شيء، هي تحكم على العادة، لا العادة تحكم عليها. وهذا شأن الصديقين؛ لا يتعجبون من شيء؛ ولا يستغربون شيئاً، ولذلك توجه الإنكار إلى سارة من الملائكة، ولم يتوجه إلى مريم؛ حيث سألت؛ استفهاماً، ولم تتعجب، ووصفت بالصديقية دون سارة. والله تعالى أعلم.

ولما تحقق إبراهيم عليه السلام بهلاك قوم لوط أسف عليهم، كما قال تعالى:

﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَـٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَـٰذَآ ۖ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾ ﴾

---

(١) راجع، مع تقريرنا بأن الذبيح هو إسماعيل عليه السلام.

قلت : «لما» حرف وجود لوجود، تفتقر للشرط والجواب. فشرطها: «ذهب»، وجوابها: محذوف، أي: جعل يجادلنا. والتأوه: التفجع والتأسف، ومنه قول الشاعر.

إذا ما قمتُ أُرحلُهَا بليلٍ تأوَّهُ آهةَ الرجل الحزين(١)

يقول الحق جل جلاله: ﴿ فلما ذهب عن إبراهيم الرَّوعُ ﴾، وهو ما أوجس في نفسه من الخيفة، ﴿ وجاءته البُشرى ﴾ بدل الروع، جعل ﴿ يُجادلنا ﴾ أي: يخاصم رسلنا ﴿ في ﴾ شأن ﴿ قوم لوط ﴾، ويدافع عنهم، قال: ﴿ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ﴾(٢)، ﴿ إن إبراهيمَ لحليمٌ ﴾، غير عجول من الانتقام إلى من أساء إليه، ﴿ أواهٌ ﴾: كثير التأوه والتأسف على الناس، ﴿ منيب ﴾: راجع إلى الله. والمقصود من ذلك: بيان الحامل له على المجادلة، وهي: رقة قلبه وفرط ترحمه. قال تعالى على لسان الملائكة: ﴿ يا إبراهيمُ أعرضْ عن هذا ﴾، الجدال؛ ﴿ إنه قد جاء أمرُ ربك ﴾ بهلاكهم، ونفذ قضاؤه الأزلي فيهم، ولا مرد لما قضى، ﴿ وإنهم آتيهم عذاب غير مردود ﴾: غير مصروف بجدال ولا دعاء ولا غير ذلك.

الإشارة: قال الورتجبي: قوله تعالى: (إن إبراهيم لحليم أواه): حليم بأنه كان لا يدعو على قومه، بل قال: ﴿ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾(٣). وتأوه زفرة قلبه من الشوق إلى جمال ربه، هكذا وصفُ العاشقين. ثم قال: ومجادلته كمال الانبساط، ولم يكن جهلاً، ولكن كان مُشفقاً، باراً كريماً، رأى مكانة نفسه في محل الخلة والاصطفائية القديمة، وهو تعالى يُحب غضب العارفين، وتغير المحبين، ومجادلة الصديقين، وانبساط العاشقين حتى يحثهم على ذلك.

وفي الحديث المروي عن النبي ﷺ قال: «لما أُسرى بي رأيت رجلاً في الحضرة يتذمر، فقلت لجبريل: من هذا؟ فقال: أخوك موسى يَتَذَمَّرُ علَى ربِّه ـ أي: يجترئ عليه انبساطاً ـ فقلت: وهل يليق له ذلك؟ فقال: يعرفه؛ فيتحمل عنه». ثم قال: ولا يجوز الانبساط إلا لمن كان على وصفهم. هـ . قال في الصحاح: يَتَذَمَّرُ على فلان: إذا تَنَكَّرَ له وأَوْعَدَهُ. قاله المحشي.

والحاصل أن ابراهيم عليه السلام حملته الشفقة والرحمة، حتى صدر منه ما صدر مع خلته واصطفائيته، فالشفقة والرحمة من شأن الصالحين والعارفين المقربين، غير أن العارفين بالله مع مراد مولاهم، يشفقون على عباد الله، مالم يتعين مراد الله، فالله أرحم بعباده من غيره. ولذلك قال لخليله، لما تعين قضاؤه: ﴿ ياإبراهيم أعرض عن هذا ﴾.

(١) عزاه القرطبي في تفسيره إلى المثقِّب العبْدِيّ.
(٢) من الآية: ٣٢ من سورة العنكبوت.
(٣) من الآية: ٣٦ من سورة ابراهيم.

فالشفقة التي تؤدي إلى معارضة القدر لا تليق بأهل الأقدار، وفي الحكم «ما ترك من الجهل شيئاً من أراد أن يحدث في الوقت غير ما أظهره الله». ولهذا قالوا: الشفقة لا تليق بالأولياء.

قال جعفر الصادق ـ رحمه الله ـ: ست خصال لا تحسن بستة رجال: لا يحسن الطمع في العلماء، ولا العجلة في الأمراء، ولا الشح في الأغنياء، ولا الكبر في الفقراء، ولا الشفقة في المشايخ، ولا اللؤم في ذوي الأحساب. وقولنا: الشفقة لا تليق بالأولياء، يعني إذا تعين مراد الله، أو إذا ظهرت المصلحة في عدمها، كأمر الشيخ المريد بما تموت به نفسه، فإذا كان الشيخ يحن على الفقراء في هذا المعنى لا تكمل تربيته. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر قصة هلاك لوط، فقال:

﴿ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾
وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ
فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ
مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا
رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ
إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا
عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ
وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾ ﴾

قلت : (سيء): مبني للمفعول، أصله: سُوِئ، نُقلت حركة الواو إلى السين بعد ذهاب حركتها، ثم قلبت الواو ياء. و(ذرعا) : تمييز محول عن الفاعل، أي: ضاق ذرعه، وهو كناية عن شدة الانقباض عن مدافعة الأمر المكروه، وعجزه عن مقاومته. و(لو أن لي بكم قوة) : إما للتمني فلا جواب له، أو محذوف، أي: لدفعت.

وفي (أَسْرِ) لغتان: قطع الهمزة، من الإسراء، ووصلها من السُّرى، وقرئ بهما معاً، و(إلا امرأتك) بالرفع؛ بدل من (أحد)، وبالنصب؛ منصوب بالاستثناء من (فأسر بأهلك). ومنشأ القراءتين: هل أخرجها معه، فالتفتت أم لا؟ فمن رفع ذهب إلى أنه أخرجها. ومن نصب ذهب إلى أنه لم يسر بها، وهما روايتان.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ولما جاءت رسلُنا﴾، وهم الملائكة المتقدمون، ﴿لوطاً سيء بهم﴾ ساءه مجيئُهم؛ لأنهم أتوه في صورة غلمان حسان الوجوه، فظن أنهم بشر، فخاف عليهم من قومه أن يقصدوهم للفاحشة، ولا يقدر على مدافعتهم، ﴿وضاقَ بهم ذرعا﴾ أي: ضاق صدره بهم، ﴿وقال هذا يومٌ عصيبٌ﴾: شديد، من عصبه: إذا شده، ورُوي أن الله تعالى قال لهم: لا تهلكوا قومه حتى يشهد عليهم لوط أربع شهادات، فلما مشى معهم منطلقاً بهم إلى منزله، قال لهم: أما بلغكم أمر هذه القرية؟ قالوا: وما أمرهم؟ قال: أشهد بالله أنها شر قرية في الأرض عملاً. قال ذلك أربع مرات. فدخلوا منزله، ولم يعلم بذلك أحد، فخرجت امرأته فأخبرتهم، ﴿وجاءه قومُه يُهرَعُون﴾؛ يُسرعون ﴿إليه﴾ كأنهم يُدفعون إليه دفعا، لطلب الفاحشة من أضيافه. ﴿ومن قبل﴾ ذلك الوقت ﴿كانوا يعملون السيئات﴾؛ الفواحش، كاللواطة وغيرها، مستمرين عليها مجاهرين بها، حتى لم يستحيوا، وجاءوا يهرعون إليها.

﴿قال يا قوم هؤلاء بناتي﴾ تزوجوهن، وكانوا يطلبونهن قبل، فلا يجيبهم لخبثهم، وعدم كفاءتهم، لا لحرمة المسلمات على الكفار، فإنه شرع طارئ؛ قال ابن جزى: وإنما قال لهم ذلك؛ ليقي أضيافه ببناته. قيل: ان اسم بناته، الواحدة: ريثا، والأخرى: غوثا. هـ. ولم يذكر الثالثة، فعرضهن عليهم(١)، وقال: ﴿هنَّ أطهرُ لكم﴾؛ أحلُّ لكم، أو أقل فحشا، كقولك: الميتة أطيب من المغصوب، ﴿فاتقوا الله﴾ بترك الفواحش، ﴿ولا تُخزون﴾؛ لا تفضحوني ﴿في ضيفي﴾؛ في شأنهم، فإن افتضاح ضيف الرجل خزى له. ﴿أليس منكم رجلٌ رشيدٌ﴾؛عاقل يهتدي إلى الحق ويرعوى عن القبيح.

﴿قالوا لقدْ علمتَ ما لنا في بناتك من حقٍّ﴾؛ من حاجة، ﴿وإنك لتعلم ما نُريد﴾ وهو إتيان الذكران، ﴿قال لو أن لي﴾؛ ليت لي ﴿بكم قوةً﴾؛ طاقة على دفعكم بنفسي، ﴿أو آوي إلى ركن شديد﴾؛ أو ألجأ إلى أصحاب أو عشيرةٍ يحمونَني منكم، شبه ما يتمنع بهم بركن الجبل في شدته، قال ﷺ: «رَحِمَ اللهُ أخي لُوطاً لقد كَانَ يأوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ»(٢) يعني: الله تعالى.

(١) قال مجاهد وغيره: إن المراد ببناته ﷺ نساء أمته، وأضافهم إليه؛ لأن كل نبي أب لأمته.

(٢) أخرجه البخاري في (أحاديث الأنبياء، باب: «ولوطاً إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون»).

رُوى أنه أغلق بابه دون أضيافه، وأخذ يجادلهم من وراء الباب، فتسوروا الجدار، فلما رأت الملائكة ما على لوط من الكرب؛ ﴿قالوا يالوطُ إنا رُسلُ ربك لن يصلُوا إليك﴾ : لن يصلوا إلى إضرارك بإضرارنا، فهونْ عليك ودَعْنا وإياهم. فخلاهم، فلما دخلوا ضرب. جبريل عليه السلام بجناحيه وجوههم، فطمس أعينهم، وأعماهم، فخرجوا يقولون: النجاء؛ النجاء في بيت لوط سـحرة، فقالت الملائكة للوط عليه السلام: ﴿ فأسْرِ بأهلك ﴾؛ سِر بهم ﴿ بقطعٍ من الليل﴾ : بطائفة منه ، ﴿ ولا يلتفت منكم أحدٌ ﴾ : لا يتخلف، أو لا ينظر إلى ورائه؛ لئلا يرى ما يهوله. والنهى فى المعنى يتوجه إلى لوط، وإن كان فى اللفظ مسنداً إلى أحد .

﴿ إلا امرأتك ﴾ ، اسمها: واهلة . أي: فلا تسر بها، أو: ولا ينظر أحد منكم إلى ورائه إلا امرأتك؛ فإنها تنظر. رُوى أنها خرجت معه، فلما سمعت صوت العذاب التفتت وقالت: ياقوماه، ؛ فأدركها حجر فقتلها، ولذلك قال: ﴿ إنه مُصيبُها ما أصابهم ﴾ من العذاب، ﴿ إنّ موعدَهُم ﴾ وقت ﴿ الصُبحُ ﴾ فى نزول العذاب بهم، فاستبطأ لوط وقتَ الصبح، وقال: هلا عُذبوا الآن؟ فقالوا: ﴿ أليس الصبح بقريب ﴾ .

﴿ فلما جاء أمْرنا ﴾ ؛ عذابنا، أو أمرنا به، ﴿ جعلنا ﴾ مدائنهم ﴿ عاليَها سافلَها ﴾ ، رُوى أن جبريل عليه السلام أدخل جناحه تحت مدائنهم، ورفعها إلى السماء، حتى سمع أهل السماء نباح الكلاب، وصياح الديكة، ثم قلبها بهم.

﴿ وأمطرنا عليهم ﴾ ؛ على المدائن، أي: أهلها، أو على ما حولها . رُوى أنه من كان منهم خارجَ المدائن أصابته الحجارة من السماء، وأما من كان فى المدائن، فهلك لمَّا قلبت. فأرسلنا عليهم ﴿ حجارةً من سجيل ﴾ : من طين طبخ بالنار، أو من طين متحجر كقوله: ﴿ حِجَارَةً مِّن طِينٍ﴾[١] ، وأصلها: سنكين[٢] ؛ ثم عرب، وقيل: إنه من أسجله إذا أرسله، أي: من مثل الشيء المرسل، وقيل: أصله من سجين، أي: جهنم، ثم أبدلت نونه لاماً، ﴿ منضود ﴾ : مضموم بعضه فوق بعض، معداً لعذابهم، أو متتابع يتبع بعضه بعضاً فى الإرسال ، كقطر الأمطار.

﴿ مُسوّمةً ﴾ أي: معلمة للعذاب، وقيل: معلمة ببياض وحمرة، أو بسيما تتميز به عن حجارة الأرض، أو باسْم من يرمى به؛ فكل حجارة كان فيها اسم من ترمى به، وقوله: ﴿ عند ربك ﴾ ، أي: فى خزائن علمه وقدرته، ﴿ وما هى من الظالمين ببعيد ﴾ ، بل هى قريبة من كل ظالم.

قال ابن جزى : الضمير للحجارة، والمراد بالظالمين: كفار قريش، فهذا تهديد لهم، أي: ليس الرمى بالحجارة ببعيد منهم؛ لأجل كفرهم، وقيل: الضمير للمدائن، أي: ليست مدائنهم ببعيد منهم؛ أفلا يعتبرون بها. كقوله:

---

(٢) من الآية ٣٣ من سورة الذاريات.
(٣) فى البيضاوى: «سنْكَ كِلْ».

﴿ وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ ﴾(١) . وقيل: الظالمين على العموم. هـ. وقال البيضاوي: وعنه ـ عليه الصلاة والسلام: «أَنَّهُ سَأَلَ جِبْرِيل، فقال: يَعْنِي: ظَالِمِي أُمَّتِك، مَا مِنْ ظَالِمٍ منهم؛ إلاَّ وَهُوَ معرض لحَجَرٍ يَسْقُط عَلَيْه مِنْ سَاعَةٍ؛ إلى ساعة»(٢). هـ.

الإشارة: الاعتناء بشأن الأضياف، وحفظ حرمتهم: من شأن الكرام، والاستخفاف بحقهم، والتجاسر عليهم، من فعل اللئام. وفي الحديث: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ باللهِ واليَوْمِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ». والإسراع إلى الفواحش من علامة الهلاك، لا سيما اللواط والسفاح. والإيواء إلى الله والاعتصام به من علامة الفلاح، والبعد عن ساحة أهل الفساد من شيم أهل الصلاح، وكل من اشتغل بالظلم والفساد فالرمي بالحجارة إليه بالمرصاد.

ثم ذكر قصة شعيب، فقال:

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ ﴾

قلت: «مفسدين» : حال مؤكدة لمعنى عاملها، وهو: «لا تعثوا». وفائدة ذكره: إخراج ما يُقصد به الإصلاح، كما فعله الخضر عليه السلام.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ و ﴾ أرسلنا ﴿ إلى مَدْيَن أخاهم شعيباً ﴾، أراد أولاد مدين بن إبراهيم عليه السلام أو أهل مدين، وهي بلده، فسميت باسمه، ﴿ قال يا قوم اعبدوا الله ﴾ وحده؛ ﴿ مالكم من إلهٍ غيره، ولا تنقُصوا المكيالَ والميزان ﴾ ، وكانوا مطففين. أمرهم أولا بالتوحيد؛ فإنه رأس الأمر، ثم نهاهم عما اعتادوه من: البخس المنافي للعدل، المخل بحكمة المعاوضة، ثم قال لهم: ﴿ إني أراكم بخير ﴾؛ بسعة كرخص الأسعار، وكثرة الأرزاق، فينبغي أن تشكروا عليها، وتتعففوا بها عن البخس، لا أن تنقصوا الناس حقوقهم، أو بسعة ونعمة، فلا

---

(١) من الآية: ٤٠ من سورة الفرقان.

(٢) عزاه في الفتح السماوي (٢/٧٢١) للثعلبي مرفوعاً، بغير إسناد.

تزيلوها بما أنتم عليه؛ فإن من لم يشكر النعم فقد تعرض لزوالها ، ﴿ وإني أخاف عليكم عذاب يوم محيط ﴾؛ يوم القيامة، فإنه محيط بكل ظالم، أو عذاب الاستئصال في الدنيا، ووصف اليوم بالإحاطة، وهي صفة العذاب؛ لاشتماله عليه.

﴿ وياقوم أوفوا المكيالَ والميزان بالقسط ﴾؛ بالعدل من غير زيادة ولا نقصان. صرح بالأمر بالاستيفاء بعد النهي عن ضده؛ مبالغةً، وتنبيهاً على أنهم لا يكفيهم الكف عن تعمد التطفيف، بل يلزمهم السعي في الإيفاء ولو بالزيادة، حيث لا يتأتى دونها، وقد تكون الزيادة محظورة، ولذلك أمرهم بالعدل في قوله: (بالقسط)، بلا زيادة ولا نقصان .

﴿ ولا تبخسوا الناسَ أشياءَهم ﴾ لا تنقصوهم حقهم، وهو تعميم بعد تخصيص، فإنه أعم من أن يكون في الميزان والمكيال وفي غيره، وكذا قوله: ﴿ ولا تعثَوا في الأرض مفسدين ﴾؛ فإن العثو ـ وهو الفساد ـ يعم تنقيص الحقوق وغيره من أنواع الفساد. وقيل: المراد بالبخس: المكس، كأخذ العشور في المعاملات، والعثو: السرقة وقطع الطريق والغارة، وأكده بقوله: ﴿ مفسدين ﴾ وفائدته: إخراج ما يقصد به الإصلاح، كما فعل الخضر عليه السلام، وقيل: معناه: مفسدين أمر دينكم ومصالح آخرتكم. قاله البيضاوي.

﴿ بقيتُ الله ﴾؛ أي: ما أبقاه لكم من الحلال بعد التنزه عن الحرام، ﴿ خيرٌ لكم ﴾ مما تجمعون بالتطفيف، ﴿ إن كنتم مؤمنين ﴾؛ فإن الإيمان يقتضي الاكتفاء بالحلال عن الحرام. أو إن كنتم مؤمنين فالبقية خير لكم، فإن خيريتها تظهر باعتبار الثواب والنجاة من العذاب، وذلك مشروط بالإيمان، أو: إن كنتم مصدقين لي في قولي لكم. وقيل: البقية: الطاعة، كقوله: ﴿ وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ ﴾(١) . وقرىء «تقية الله» بالتاء المثناة، وهي تقواه التي تكف عن المعاصي، ﴿ وما أنا عليكم بحفيظ ﴾؛ أحفظ عليكم أعمالكم، وأجازيكم عليها، إنما أنا نذير وناصح مبلغ، وقد أعذرت حين أنذرت. أو: أحفظكم عن القبائح وأمنعكم منها. أو: لست بحافظ عليكم نعم الله إن سُلبت عنكم بسوء صنيعكم. والله تعالى أعلم.

الإشارة: كما أمر الحق تعالى بالوفاء في الموازين أمر بالوفاء في الأعمال والأحوال والمقامات. ولذلك قيل للجنيد في النوم: [أفضل ما يتقرب به إلى الله عمل خفي، بميزان وفي]، فالوفاء في الأعمال: إتقانها في الظاهر، باستيفاء شروطها وآدابها، وإخلاصها في الباطن مع حضور القلب فيها. والوفاء في الأحوال: ألا تخرج عن قواعد الشريعة، بأن لا تكون محرمة ولا مكروهة، وأن يقصد بها موت النفوس وحياة الأرواح، والوفاء في المقام: ألا ينتقل عن مقام إلى غيره حتى يتحقق بالمقام الذي أنزل فيه. وفيه خلاف بين الصوفية: هل يصح الانتقال عن مقام قبل التحقق به، ثم يحققه في المقام الذي بعده، أم لا ؟ .

---

(١) من الآية: ٤٦ من سورة الكهف.

والمقامات التي ينزل فيها المريد: التوبة، والخوف، والرجاء، والورع، والزهد، والتوكل، والصبر، والرضى، والتسليم، والمحبة، والمراقبة، والمشاهدة بالفناء ثم البقاء، أو الإسلام، ثم الإيمان، ثم الإحسان. فلا ينتقل من مقام إلى ما بعده حتى يحقق المقام الذي هو فيه، ذوقاً وحالاً. وقيل: يجوز أن ينتقل إلى ما بعده إذا كان ذا قريحة فتحقق له ما قبله. والله تعالى أعلم. وطريق الشاذلية مختصرة، تطوى عن المريد هذه المقامات، فينزل في أول قدم في مقام الإحسان، شعر أم لا، ثم يحصل الفناء ثم البقاء، إن وجد شيخاً كاملاً تربى على يد شيخ كامل، وإلا فلا.

وقول الجنيد رَحِمَهُ اللَّهُ: (عمل خفي)، اعلم أن الخفاء على ثلاثة أقسام: خفاء عوام الصالحين، وهو: إخفاء الأعمال عن الناس مخافة الرياء. وخفاء المريدين، وهو: الإخفاء عن ملاحظة الخلق ومراقبتهم، ولو كانوا بين أظهرهم، فإخفاؤهم قلبي لا قالبي. وخفاء العارفين الواصلين، وهو: الإخفاء عن رؤية النفس، فهم يغيبون عن أنفسهم ووجودهم، في حال أعمالهم، فليس لهم عن نفوسهم إخبار، ولا مع غير الله قرار. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر ما أجابه به قومه فقال:

﴿ قَالُواْ يَـٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَـٰٓؤُاْ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ ﴾

قلت: «تأمرك أن نترك»: على حذف مضاف، أي: تأمرك بتكليف أن نترك؛ لأن الرجل لا يُؤمر بفعل غيره. و(أن نفعل): عطف على (ما)؛ أي: أو نترك فعلنا في أموالنا ما نشاء.

يقول الحق جل جلاله: ﴿قالوا يا شعيب أصلواتك﴾ التي تُكثر منها هي التي ﴿تأمرك﴾ أن تأمرنا ﴿أن نترك ما يعبد آباؤنا﴾ من الأصنام، وندخل معك في دينك المحدث، أجابوا به ما أمرهم به من التوحيد بقوله: ﴿مالكم من إله غيره﴾، على وجه التهكم والاستهزاء بصلواته. وكان كثير الصلاة، ولذلك جمعوها وخصوها بالذكر. وقرأ الأخَوان وحفص بالإفراد المراد به الجنس.

ثم أجابوه عن نهيهم عن التطفيف وأمرهم بالإيفاء، فقالوا: ﴿أو﴾ نترك ﴿أن نفعل في أموالنا ما نشاء﴾ من البخس وغيره؟ وقيل: كانوا يقطعون الدراهم والدنانير، فنهاهم عن ذلك.. ﴿إنك لأنت الحليم الرشيد﴾، تهكموا به وقصدوا وصفه بضده، من خفة العقل والسفه؛ لأن العاقل عندهم هو الحريص على جمع الدنيا وتوفيرها، وهو الحمق عند العقلاء، أو إنك موسوم بالحلم والرشد؛ فلا ينبغي لك أن تنهانا عن تنمية أموالنا والتصرف فيها. والله تعالى أعلم.

الإشارة: الإنكار على من أمر بالخروج عن العوائد والتقلل من الدنيا من طبع أهل الكفر والجهل، وكذلك رميه بالحمق والسفه. فلا تجد الناس اليوم يعظمون إلا من أقرهم على توفير دنياهم ورئاستهم، والتكاثر منها، وأما من زهدهم فيها وأمرهم بالقناعة، فإنهم يرفضونه، ويحمقونه. وهذا طبع من طبع الأمم الخالية، الجاهلة بالله، وبما أمر به، وفي الحديث: «لتتبعنَّ سنن من قبلكُمْ شبراً بشبرٍ، وذراعاً بذراعٍ، حتّى لوْ دخلُوا جُحْرَ ضَبٍّ لدخلتمُوه». وبالله التوفيق.

ثم ذكر موعظة شعيب لقومه، فقال:

﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ ﴿٨٩﴾ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ ﴿٩٠﴾ ﴾

قلت: جواب «إن كنت»: محذوف، أي: فهل ينبغي أن أخون في وحيه وأخالفه في أمره.

يقول الحق جل جلاله: ﴿قال﴾ شعيب لقومه: ﴿يا قوم أرأيتم إن كنت على بينةٍ من ربي﴾، وهي النبوة والعلم والحكمة، ﴿ورزقني منه﴾؛ من عنده، وبإعانته، بلا كد في تحصيله، ﴿رزقاً حسنا﴾: حلالاً، إشارة إلى ما آتاه من المال الحلال. فهل يسع لي بعد هذا الإنعام، الجامع للسعادات الروحانية والجسمانية، أن أخون في وحيه، وأخالفه في أمره ونهيه، حتى لا أنهاكم عن عبادة الأوثان، والكف عن العصيان، والأنبياء لا يبعثون إلا بذلك، وهذا منه اعتذار لما أنكروا عليه من الأمر بالخروج عن عوائدهم، وترك ما ألفوه من دينهم الفاسد، أي: كيف أترك ما أمرني به ربي من تبليغ وحيه، وأنا على بينة منه، وقد أغناني الله عنكم وعن غيركم. ولذلك قال إثره: ﴿وما أريدُ أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه﴾ أي: وما أريد أن آتي ما أنهاكم عنه؛ لأستبد به دونكم، فتتهموني إن أردت الاستبداد به. يقال: خالفني فلان إلى كذا: إذا قصده وأنت مول عنه، وخالفني عنه: إذا ولي عنه وأنت قاصده. ﴿إن أريدُ إلا الإصلاحَ ما استطعت﴾ أي: ما أريد إلا أن أصلحكم بأمري لكم بالمعروف، ونهيي لكم عن المنكر جهد استطاعتي.

قال البيضاوي: ولهذه الأجوبة الثلاثة على هذا النسق شأن، وهو التنبيه على أن العاقل يجب أن يراعي في كل ما يأتيه ويذره أحد حقوق ثلاثة: أهمها وأعلاها: حق الله تعالى. وثانيها: حق النفس، وثالثها: حق الناس. هـ .

قلت: فحق الله: كونه على بينة من ربه، وحق النفس: تمكينه من الرزق الحسن. وحق الناس: نصحهم من غير طمع، ولاحظ.

ثم قال: ﴿ وما توفيقي إلا بالله ﴾؛ وما توفيقى لإجابة الحق، والصواب، إلا بهدايته ومعونته، ﴿ عليه توكلت ﴾؛ فإنه القادر على كل شيء، وما عداه عاجز بل معدوم، ساقط عن درجة الاعتبار. وفيه إشارة إلى محض التوحيد، الذى هو أقصى مراتب العلم بالله. ﴿ وإليه أنيب ﴾؛ أرجع فى جميع أمورى. ﴿ وياقوم لايجرمنكم ﴾: لا يكسبنكم ﴿ شقاقي ﴾: معاداتى، ﴿ أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح ﴾ من الغرق، ﴿ أو قوم هود ﴾ من الريح، ﴿ أو قوم صالح ﴾ من الصيحة، والمعنى: لا تخالفونى فيجركم ذلك إلى الهلاك كما هلك الأمم قبلكم، ﴿ وما قوم لوط منكم ببعيد ﴾؛ زماناً ولا مكانا، فإن لم تعتبروا بمن قبلكم، فاعتبروا بهم؛ إذ هم ليسوا ببعيد منكم فى الكفر والمساوئ، فلا يبعد عنكم ما أصابهم. وإنما أفرد «بعيد»؛ لأن المراد: وما إهلاكهم، أو وما هم بشيء بعيد.

﴿ واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه ﴾ عما أنتم عليه؛ ﴿ إن ربي رحيم ﴾؛ عظيم الرحمة للتائبين، ﴿ ودود ﴾؛ متودد إليهم، فاعل بهم من اللطف والإحسان ما يفعل البليغ المودة بمن يوده، وهو وعد على التوبة بعد الوعيد على الإصرار. قاله البيضاوى.

الإشارة: قد تضمنت خطبة شعيب عليه السلام ست خصال، من اجتمعت فيه فاز بسعادة الدارين:

الأولى: فتح البصيرة، ونفوذ العزيمة، وتنوير القلب بمعرفة الله، حتى يكون على بينة من ربه.

الثانية: تيسير الرزق الحلال، من غير تعب ولا مشقة، يستعين به على طاعة ربه، ويقوم به بمؤنة أمره.

الثالثة: السعى فى إصلاح عباد الله وإرشادهم، ودعاؤهم إلى الله من غير طمع ولا حرف، ويكون حاله يصحح مقاله، فلا يترك ما أمر به، ولا يفعل ما نهى عنه.

الرابعة: الاعتماد على الله والرجوع إليه فى توفيقه وتسديده، وفى أمر دنياه ودينه، بحيث لا يرجو إلا الله، ولا يخاف إلا منه.

الخامسة: الحذر والتحذير من مخالفة ما جاءت به الرسل من عند الله، والتمسك بما أمروا به من طاعة الله، والاعتبار بمن هلك قبله ممن خالف أمر الله.

السادسة: تحقيق التوبة والانكسار، والاكثار من الذكر والاستغفار. فذلك سبب المودة من الكريم الغفار. ولأجل هذه الخطبة سمي شعيب خطيب الأنبياء. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر قصة هود عليه السلام، فقال:

﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾

قلت: «أخاهم»: عطف على نوح في قوله: (ولقد أرسلنا نوحاً)، و(هوداً): بدل.

يقول الحق جل جلاله: ﴿و﴾ أرسلنا ﴿إلى﴾ قبيلة ﴿عادٍ أخاهم هوداً، قال ياقوم اعبدوا الله﴾ وحده، ﴿مالكم من إلهٍ غيرُهُ﴾ يستحق أن يعبد، ﴿إن أنتم إلا مُفترون﴾ على الله، باتخاذ الأوثان آلهة. ﴿ياقوم لا أسألكم عليه﴾: على التبليغ ﴿أجرا﴾ حتى يثقل عليكم، أو تتهموني لأجله، ﴿إنْ أجْريَ إلا على الذي فطرني﴾؛ خلقني. بهذا خاطب كل رسول قومه؛ إزاحة للتهمة، وتمحيصاً للنصيحة، فإنها لا تنجع مادامت مشوبة بالمطامع. ﴿أفلا تعقلون﴾: أفلا تستعملون عقولكم؛ فتعرفوا المحق من المبطل، والصواب من الخطأ.

﴿وياقوم استغفروا ربكم﴾ من الشرك، ﴿ثم توبوا إليه﴾، ثم ارجعوا إليه بطاعته فيما أمر ونهى. أو: ثم توبوا من المعاصي؛ لأن التوبة من الذنوب لا تصح إلا بعد الإيمان، والتطهير من الشرك، ﴿يُرسل السماءَ عليكم مدراراً﴾ أي: كثير الدر، أي النزول، ﴿ويزدْكُم قوة إلى قوتكم﴾: يضاعف قوتكم، ويزدكم فيها. وإنما دعاهم إلى الله، ووعدهم بكثرة المطر وزيادة القوة؛ لأنهم كانوا أصحاب زروع وعمارات. وقيل: حبس الله عنهم المطر، وأعقم أرحام نسائهم ثلاثين سنة؛ فوعدهم هود عليه السلام على الإيمان والتوبة بالأمطار وتضاعف القوة بالتناسل. قاله البيضاوي.

وقال ابن جزي: وفي الآية دليل على أن التوبة والاستغفار سبب لنزول المطر. رُوي: أن عاداً كان المطر قد حُبس عنهم ثلاث سنين، فأمرهم بالتوبة والاستغفار، ووعدهم على ذلك بالمطر. هـ. ﴿ولا تتولَّوا﴾: ولا تُعرضوا عما أدعوكم إليه، ﴿مجرمين﴾؛ مصرين على إجرامكم.

الإشارة: في تكرير القصص والأخبار وَعظ وتذكير لأهل الاعتبار، وزيادة إيقان لأهل الاستبصار، وتهديد وتخويف لأهل الإصرار، وحث على المبادرة إلى التوبة والاستغفار. قوله تعالى: (وياقوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه)، أي: استغفروا ربكم من الشرك الخفي، ثم توبوا إليه من النظر إلى وجودكم، ورؤية أعمالكم، يرسل سحاب

الواردات الإلهية والعلوم الإلهامية على قلوبكم وأسراركم، مدراراً، ويزدكم قوة في شهود الذات إلى قوتكم في شهود الصفات، ولا تتولوا عن شهوده بشهود أثره، مجرمين معدودين في زمرة المجرمين المصرين على الكبائر، وهم لا يشعرون.

وقال الورتجبي: استغفروا من النظر إلى غيري، وتوبوا إليّ من نفوسكم، ورؤية طاعتكم وأعواضها، يرسل سماء القدم على قلوبكم مدرار أنوار تجليها، ويزدكم، أي: يزد قوة أرواحكم في طيرانها. انظر تمامه.

ثمَّ ذكر ما أجابه به قومه، فقال:

﴿ قَالُوا۟ يَـٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ
بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ
مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا
مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ
إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾ ﴾

قلت: (إن نقول إلا اعتراك): الاستثناء مفرغ، و«اعتراك»: مقول لقول محذوف، أي: ما نقول إلا قولنا اعتراك، و(ما من دابة): «ما» نافية، و«من» صلة و«دابة» مبتدأ مجرور بمن الزائدة، وجملة (إلا هو آخذ): خبر.

يقول الحق جل جلاله: ﴿قالوا ياهود ما جئتنا ببينة﴾؛ بمعجزة واضحة تدل على صدق دعواك، وهذا كذب منهم وجحود؛ لفرط عنادهم وعدم اعتدادهم بما جاءهم من المعجزات. وفي الحديث: «ما مِنْ نَبِيٍّ إلاَّ أُوتِي من المعجزاتِ ما مثلُه آمنَ عليهِ البشرُ، وإنَّما كانَ الذي أوتيته وحْياً أُوحى إلى، فأرجو أنْ أكونَ أكثرَهم تابعاً يومَ القيامة»(١). كما في الصحيح. ويحتمل أن يريدوا: ما جئتنا بآية تضطر إلى الإيمان بك، وإن كان قد أتاهم بآية نظرية. ولم يذكر في القرآن معجزة معينة لهود عليه السلام، مع الاعتقاد أنه لم يخل من معجزة؛ لما في الحديث.

ثم قالوا: ﴿وما نحن بتاركي آلهتنا﴾؛ بتاركي عبادتهم ﴿عن قولك﴾ أي: بسبب قولك، أو صادرين عن قولك، ﴿وما نحن لك بمؤمنين﴾ أبداً، وهو إقناط له عن الإجابة والتصديق. ﴿إن نقول إلا اعتراك﴾؛ أصابك ﴿بعض آلهتنا بسوء﴾؛ بجنون؛ لما سببْتها، ونهيت عن عبادتها، ولذلك صرت تهذو وتتكلم بالخرافات.

---

(١) أخرجه البخاري في (الاعتصام، باب قول النبي ﷺ بعثت بجوامع الكلم) ومسلم في (الإيمان، باب: وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ثم ذكر جواب قومه، فقال:

﴿ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ ۖ وَٱرْتَقِبُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ ﴾

قلت: «سوف تعلمون»: ذكره هنا بغير فاء، وفي الأنعام بالفاء(١)؛ لأن الكلام في سورة الأنعام مع الأمة المحمدية، فأتى بالفاء لمطلق السببية، وهنا مع قوم شعيب عليه السلام، فحذفها ؛ لأنه أبلغ في التهويل. فكأن الجملة بيانية لجواب سائل قال: فما يكون بعد ذلك؟ فقال: سوف تعلمون... الخ .

يقول الحق جل جلاله: ﴿ قالوا يا شعيبُ ما نفقه ﴾: ما نفهم ﴿ كثيراً مما تقول ﴾ من أمر التوحيد، وترك التبخيس، وما ذكرت من الدليل عليها؛ وذلك لانهماكهم في الهوى، وقصور عقلهم، وعدم تفكرهم. وقيل: قالوا ذلك استهانة بكلامه، أو لأنهم لم يلقوا إليه أذهانهم لشدة نفرتهم. ثم قالوا: ﴿ وإنا لنراك فينا ضعيفاً ﴾ ؛ لا قوة لك تمتنع بها منا إن أردنا بك سوءاً ، أو: نراك ناحل البدن، أو: ضرير البصر. وضعفه ابن عطية(٢). ﴿ ولولا رهطك ﴾ أي: قومك، الذين هم باقون على ملتنا ، وكونهم في عزة عندنا، ﴿ لرجمْناك ﴾: لقتلناك بالحجارة. أو بأصعب وجه، ﴿ وما أنت علينا بعزيز ﴾؛ فتمنعنا عزتك من رجمك.

قال البيضاوي: وهذا ديدن السفيه المحجوج، يقابل الحجج والآيات بالسب والتهديد. وفي إيلاء ضميره حرف النفي تنبيه على أن الكلام فيه لا في ثبوت العزة، وأن المانع لهم من إيذائه عزة قومه. ولذلك قال: ﴿ يا قوم أرَهْطي أعز عليكم من الله واتخذتموه وراءكم ظِهْرياً ﴾، وجعلتموه كالمنسي المنبوذ وراء الظهر، بإشراككم به، والإهانة لرسوله. وهو يحتمل الإنكار والتوبيخ والرد والتكذيب. والظهري: منسوب إلى الظهر، والكسر من تغيير البناء. هـ. قال ابن جزي: فإن قيل: إنما وقع الكلام فيه وفي رهطه، بأنهم هم الأعزة دونه، فكيف طابق جوابه كلامهم؟ فالجواب: أن تهاونهم به، وهو رسول الله، تهاون بالله. فلذلك قال: ﴿ أرهطي أعز عليكم من الله ﴾. هـ.

---

(١) في قوله تعالى: (قال ياقوم اعملوا على مكانتكم فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار إنه لايفلح الظالمون) الآية: ١٣٥ .

(٢) قال ابن عطية: وهذا ضعيف، لاتقوم عليه حجة بضعف بصره أو بدنه، والظاهر من قولهم «ضعيفاً» أنه ضعيف الانتصار والقدرة.

﴿ إن ربي بما تعملون محيط ﴾ فلا يخفى عليه شيء منها، فيجازى عليها بتمامها. ﴿ ويا قوم اعملوا على مكانتكم ﴾: على حالتكم من تمكنكم في الدنيا، وعزتكم فيها، ﴿ إني عامل ﴾ على حالي، ﴿ سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ﴾، يهينه في الدنيا والآخرة، ﴿ و ﴾ سوف تعلمون ﴿ من هو كاذب ﴾ مني ومنكم، ﴿ وارتقبوا ﴾؛ وانتظروا ما أقول لكم، ﴿ إني معكم رقيب ﴾: مرتقب لذلك. وهو فعيل بمعنى فاعل، كالصريح والرفيع. والله تعالى أعلم .

الإشارة: لا يفقه المواعظ والتذكير إلا أهل الإيمان والتنوير. وأما القلب القاسي بالكفر والمعاصي فلا يسمع إلا ما تسمعه البهائم من الناعق والراعي. فبقدر ما يرق القلب يتأثر بالمواعظ، وبقدر ما يغلظ باتباع الحظوظ والهوى؛ يغيب عن تدبر المواعظ. وسبب تنوير القلب ورقته: قربه من الله، وتعظيمه لحرمات الله، وتعظيم من جاء من عند الله من أنبيائه ورسله، وورثتهم القائمين بحجته، كالأولياء والعلماء الأتقياء. وسبب ظلمة القلب وقساوته: بعده من الله، وإهانته لحرمات الله، واتخاذه أمره ظهريا، وجعل ذكره نسياً منسيا. وبالله التوفيق.

ثم ذكر هلاك قوم شعيب، فقال:

﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ولما جاء أمرنا ﴾: عذابنا لقوم شعيب، ﴿ نجينا شعيباً والذين آمنوا معه برحمة منا ﴾، لا بعمل استحقوا به ذلك؛ إذ كل من عنده، ﴿ وأخذت الذين ظلموا الصيحةُ ﴾ قيل: صاح بهم جبريل فهلكوا، ﴿ فأصبحوا في ديارهم جاثمين ﴾ : ميتين. وأصل الجثوم: اللزوم في المكان. ﴿ كأن لم يَغْنَوا فيها ﴾ كأن لم يقيموا فيها ساعة، ﴿ ألا بُعداً لمدين كما بَعِدَتْ ثمودُ ﴾، شبههم بهم؛ لأن عذابهم كان أيضاً بالصيحة، غير أن صيحة ثمود كانت من فوق، وصيحة مدين كانت من تحت، على ما قيل، ويدل عليه: التعبير عنهما بالرجفة في آية أخرى[1]، والرجفة في الغالب إنما تكون من ناحية الأرض. وفي البيضاوي خلاف هذا، وهو غير جيد.

قال قتادة: بعث الله شعيباً إلى أمتين: أصحاب الأيكة، وأصحاب مدين، فأهلك أصحاب الأيكة بالظلة، على ما يأتي، وأما أهل مدين فصاح بهم جبريل صيحة؛ فهلكوا أجمعين. قيل: وآمن بشعيب من الفئتين: تسعمائة إنسان. وكان أهل الأيكة أهل غيطة وشجر، وكان شجرهم الدَّوم[2] ـ وهو شجر المُقْل.

---

(١) كما في قوله تعالى: ﴿ فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين ﴾. الأعراف ٧٨، ٩١.
(٢) الدَّوم: شجر يشبه النخلة.

الإشارة: سبب النجاة من الهلاك في الدارين: توحيد الله، وتعظيم من جاء من عند الله. وسبب الهلاك: الإشراك بالله، وإهانة من عظمه الله. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر رسالة موسى عليه السلام بعد شعيب؛ لأنه من تلامذته، فقال:

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ولقد أرسلنا موسى بآياتنا﴾؛ بمعجزاتنا الدالة على صدقه، ﴿وسلطان مبين﴾؛ وتسلط ظاهر على فرعون، أو برهان بيّن على نبوته. قال البيضاوي: والفرق بينهما: أن الآية تعم الأمارة والدليل القاطع، والسلطان يخص بالقاطع، والمبين يخص بما فيه جلاء. هـ. أرسلناه ﴿إلى فرعون وملئه﴾؛ جماعته، ﴿فاتبعوا أمرَ فرعون﴾ أي: اتبعوا أمره بالكفر بموسى، أو: فما اتبعوا موسى الهادي إلى الحق، المؤيد بالمعجزات القاهرة الباهرة، واتبعوا طريقة فرعون المنهمك في الضلالة والطغيان، الداعي إلى ما لا يخفى فساده على من له أدنى مسكة من العقل؛ لفرط جهالتهم، وعدم استبصارهم، ﴿وما أمرُ فرعون برشيد﴾ أي: ليس أمره برشد وصواب، وإنما هو غي وضلال.

﴿يَقْدُمُ قومَه يوم القيامة﴾ إلى النار، كما يتقدمهم في الدنيا إلى الضلال، ﴿فأوردهم﴾: أدخلهم ﴿النار﴾ ذكره بلفظ الماضي؛ مبالغة في تحققه، ونزّل النار لهم منزلة الماء، فسمى إتيانها موردا . ثم قال: ﴿وبئس الورد المورود﴾ أي: بئس المَوْرد الذي وردوه، فإنّ المورد إنما يراد لتبريد الأكباد، وتسكين العطش، والنار بضد ذلك. والآية كالدليل على قوله: ﴿وما أمر فرعون برشيد﴾؛ فإنّ من هذا عاقبته لم يكن في أمره رشد، أو تفسير له، على أن المراد بالرشيد: ما يكون مأمون العاقبة حميدها. قاله البيضاوي. ﴿وأُتبعوا في هذه لعنةً ويومَ القيامة﴾ أي: تتبعهم اللعنة في الدارين ﴿بئس الرفدُ المرفود﴾: بئس العون المعان، أو العطاء المعطى. فالرفد: العطاء، والإرفاد: المعونة، ومنه: رفادة قريش، أي: معونتهم للفقراء في الحج بالطعام. والمخصوص بالذم محذوف، أي: رفدهم، وهو اللعنة في الدارين.

الإشارة: إذا أردتَ أن تعرف قدر الرجل في مرتبة الخصوصية؛ فاسأل عن إمامه الذي يقتدي به، فإن كان من أهل الخصوصية فصاحبه من الخصوص، إن دامت صحبته معه، وإن كان من العموم فصاحبه من العموم.

والمراد بالخصوصية: تحقيق مقام الفناء، ودخول بلاد المعاني. فكل من لم يحصل مقام الفناء، ولم يشهد إلا المحسوسات فهو من العوام، ولو بلغ من العلم والعمل ما بلغ، ولو رأى من الكرامات أمثال الجبال. فمن صحب مثل هذا الذي لم يفن عن نفسه، ولم يخرج عن دائرة حسه، لم يخرج من العمومية؛ لأن نفسه فرعونية. قال تعالى: ﴿ وما أمر فرعون برشيد ﴾، وفي الخبر: «المرْءُ على دين خليله» وقال الشاعر:

عن المرءِ لا تسألْ وسَلْ عن قرينه فـكلُّ قرينٍ بالمُقـارَنِ يقْتَدى(١)

والله تعالى أعلم.

ثم وعظ نبيه بما جرى على الأمم المتقدمة آنفًا، فقال:

﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ ﴾

قلت: (ذلك): مبتدأ. و(من أنباء): خبر، و(نقصه): خبر ثان. وجملة: (منها قائم وحصيد): استئنافية لا حالية؛ لعدم الرابط.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ذلك ﴾ النبأ الذي أخبرناك به في هذه السورة، هو ﴿ من أنباء القرى ﴾ الماضية المهلَكة، ﴿ نقصه عليك ﴾، ونخبرك به؛ تهديدًا لأمتك وتسلية لك. ﴿ منها ﴾ ما هو ﴿ قائم ﴾ البناء باقي الأثر، ﴿ و ﴾ منها ﴿ حصيد ﴾ أي: محصود عافي الأثر، كالزرع المحصود. أو: منها ما هو ساكن بقوم آخرين، قائم العمارة بغير من هلك، ومنها ما هو دارس عفى أثره، واندرست أطلالُه.

قال تعالى: ﴿ وما ظلمناهم ﴾ بإهلاكنا إياهم، ﴿ ولكن ظلموا أنفسهم ﴾ بأن عرضوها له؛ بارتكابهم ما يوجب هلاكهم، فعبدوا معي غيري، ﴿ فما أغنت عنهم ﴾: ما نفعتهم، ولا قدرت أن تدفع عنهم العذاب، ﴿ آلهتهم التي يدعون من دون الله من شيء ﴾ من ذلك العذاب، ﴿ لما جاء أمر ربك ﴾؛ حين جاءهم عذابه

(١) البيت منسوب إلى عدي بن زيد. انظر: نهاية الأرب ٣/ ٦٥ والعقد الفريد ٢/ ٣٦١.

﴿ وكذلك أَخْذُ ربك ﴾ أي: مثل ذلك الأخذ الوبيل أخذ ربك ﴿ إذا أَخَذَ القرى وهي ظالمةٌ ﴾ فلا يمهلها، وقد يمهلها ثم يأخذها. فكل ظالم معرض لذلك. وفي الحديث عنه ﷺ: «إنَّ اللهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ، حتى إذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ». ثم قرأ: ﴿ وكذلك أخذ ربك .... ﴾ الآية. فالآية تعم قرى المؤمنين؛ حيث عبَّر بظالمة دون كافرة. قاله ابن عطية. ﴿ إن أخذه أليم شديد ﴾؛ وجيع عظيم، غير مرجو الخلاص منه، وهو مبالغة في التهديد والتحذير.

﴿ إن في ذلك ﴾ الذي نسرده عليك من قصص الأمم الدارسة، ﴿ لآية ﴾؛ لعبرة ﴿ لمن خاف عذابَ الآخرة ﴾ فيعتبر به ويتعظ؛ لعلمه بأن ما حاق بهم أنموذج مما أعد الله للمجرمين في الآخرة. وأما من أنكر الآخرة فلا ينفعه هذا الوعظ والتذكير؛ لفساد قلبه، وموت روحه.

﴿ ذلك ﴾ أي: يوم القيامة الذي وقع التخويف به، ﴿ يوم مجموعٌ له الناسُ ﴾: محشورون إليه أينما كانوا. وعبَّر باسم المفعول دون الفعل؛ للدلالة على الثبوت والاستقرار، ليكون أبلغ؛ لأن «مجموع» أبلغ من «يجمع». ﴿ وذلك يوم مشهود ﴾ أي: تشهده أهل السموات وأهل الأرض؛ لفصل القضاء، ويحضره الأولون والآخرون، لاقتضاء الثواب والعقاب. فاليوم مشهود فيه. فحذف الظرف اتساعاً. ﴿ وما نؤخره إلا لأجلٍ معدود ﴾ أي: إلا لانتهاء مدة معدودة في علم الله، لا يتقدم ولا يتأخر عنها، قد اختص الله تعالى بها. والله تعالى أعلم.

الإشارة: التفكر والاعتبار من أفضل عبادة الأبرار؛ لأنه يزهد في الدنيا الفانية، ويشوق إلى الدار الباقية، ويرقق القلب، ويستدعي مخافة الرب، فلينظر الإنسان بعين الاعتبار في الأمم الخالية، والقرون الماضية، والأماكن الدارسة؛ كيف رحل أهلها عن الدنيا أحوج ما كانوا إليها، وتركوها أحب ما كانت إليهم؟ وفي بعض الخطب الوعظية: أين الفراعين المتكبرة، وأين جنودها المعسكرات؟ أين الأكاسير المنكسرة؟ وأين كنوزها المقنطرات؟ أين ملوك قيصر والروم؟ وأين قصورها المشيدات؟ أين ملوك عدن، أهل الملابس والحيجان[1]؟ وأين ملوك اليمن، أهل العمائم والتيجان؟ قد دارت عليهم ـ والله ـ الأقدار الدائرات، وجرت عليهم برياحها العاصفات، وأسكنتهم تحت أطباق الرجام[2] المنكرات، وصيرت أجسامهم طعمة للديدان والحشرات، وأيمت منهم الزوجات، وأيتمت منهم البنين والبنات. أفضوا إلى ما قدموا، وانقادوا قهراً إلى القضاء وسلموا. فلا ما كانوا أملوا أدركوا، ولا إلى ما فاتهم من العمل الصالح رجعوا. وبالله التوفيق.

ثم ذكر شأن ذلك اليوم المشهود، فقال:

﴿ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ

(١) الحيجان: جمع غير قياسي للمِحْجَن، وهو: عصا مُعَقَّفة الرأس كالصولجان.
(٢) أي: الحجارة.

﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ۞ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾﴾

قلت: (يوم يأتي): العامل في الظرف: «لا تكلم»، أو: اذكر، مضمر. والضمير في «يأتي»: يعود على اليوم. وقال الزمخشري: يعود على «الله»؛ لعود الضمير عليه في قوله: (إلا بإذنه)، وضمير «منهم» على أهل الموقف المفهوم من قوله: (لا تكلم نفس).

يقول الحق جل جلاله: ﴿يوم يأتي﴾ ذلك اليوم المشهود، وهو: يوم الجزاء ﴿لا تكلم﴾، لا تتكلم ﴿نفس﴾ بما ينفع وينجي في جواب أو شفاعة ﴿إلا بإذنه﴾ تعالى، وهذا كقوله: ﴿لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن﴾[1]، وهذا في موقف، وقوله: ﴿هذا يوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون﴾[2]، في موقف آخر. والمأذون فيه هي الجوابات الحقية، أو الشفاعات المرضية، والممنوع منه هي الأعذار الباطلة.

ثم قسّم أهل الموقف، فقال: ﴿فمنهم شقي﴾ وجبت له النار بمقتضى الوعيد؛ لكفره وعصيانه. ﴿و﴾ منهم ﴿سعيد﴾ وجبتْ له الجنة بمقتضى الوعد؛ لإيمانه وطاعته. ﴿فأما الذين شقوا ففي النار لهم فيها زفير وشهيق﴾، الزفير: إخراج النفس، والشهيق: رده. ويستعملان في أول النهيق وآخره. أو الزفير: صوت المحزون، والشهيق: صوت الباكي. أو الزفير من الحلق، والشهيق من الصدر. والمراد بهما: الدلالة على شدة الكرب والغم، وتشبيه حالهم بمن استولت الحرارة على قلبه، وانحصرت فيه روحه، أو تشبيه حالهم بأصوات الحمير. قاله البيضاوي.

﴿خالدين فيها مادامت السموات والأرض﴾ أي: سموات النار وأرضها. وهي دائمة أبدا، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات﴾[3]، أو يكون عبارة عن التأبيد: كقول العرب: ما لاح كوكب وما ناح الحمام، وشبه ذلك بما يقصد به الدوام، وهذا أصح.

وقوله: ﴿إلا ما شاء ربك﴾، للناس هنا كلام واختلاف. وأحسن ما قيل فيه؛ ما ذكره البقاعي، قال: والذي ظهر لي ـ والله أعلم ـ أنه لما تكرر الجزم بالخلود في الدارين، وأن الشرك لا يغفر، والإيمان موجب للجنة، فكان

---

(١) من الآية: ٣٨ من سورة النبأ.
(٢) الآيتان: ٣٥ ـ ٣٦ من سورة المرسلات.
(٣) من الآية: ٤٨ من سورة ابراهيم.

ربما يُظن أنه لا يمكن غير ذلك، كما ظنه المعتزلة، لاسيما إذا تأمل القطع في مثل قوله: ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به﴾(١) ، مع تقييد غيره بالمشيئة في قوله: ﴿ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾(١)، جاء هذا الاستثناء معلما أن الأمر فيه إلى الله كغيره من الأمور، له أن يفعل في كلها ما يشاء، وإن جزم القول فيه، لكنه لا يقع غير ما أخبر به، وهذا كما تقول: اسكن هذه الدار عمرك إلا ما شاء زيد، وقد لا يشاء زيد شيئا. فكما أن التعليق بدوام السموات والأرض غير مراد الظاهر، كذلك الاستثناء، فلا يشاء الله قطع الخلود لأحد من الفريقين، وسوقه هكذا أدل على القدرة وأعظم في تقليد المنة. هـ.

وقال الجلال السيوطي، في «البدور السافرة في أمور الآخرة»: اعلم أن للعلماء في هذا الاستثناء أقوالاً، أشبهها بالصواب: أنه ليس باستثناء، وإنما «إلا» بمعنى «سوى»، كما تقول: لي عليك ألف درهم إلا ألفان، التي لي عليك، أي: سوى الألفين، والمعنى: خالدين فيها قدر مدة السموات والأرض في الدنيا سوى ما شاء ربك من الزيادة عليها، فلا منتهى له. وذلك عبارة عن الخلود. والنكتة في تقديم ذكر مدة السموات والأرض: التقريب إلى الأذهان بذكر المعهود أولاً، ثم أردفه بما لا إحاطة للدهر به. والجرى على عادة العرب في قولهم في الإخبار عن دوام الشيء وتأبيده: لا آتيك مادامت السموات والأرض. هـ. ومثله لابن عطية. قال: ويؤيد هذا التأويل قوله بعد: ﴿عطاء غير مجذوذ﴾ أي: غير مقطوع، وهذا قول الفراء؛ فإنه يقدر الاستثناء المنقطع بسوى، وسيبويه بلكن . هـ. وقال الورتجبي: قال ابن عطاء: (إلا ما شاء ربك) من الزوائد لأهل الجنة من الثواب. ومن الزوائد لأهل النار من العقاب. هـ. (إن ربك فعال لما يريد) من غير حجر ولا اعتراض.

﴿وأما الذين سُعِدوا ففي الجنة خالدين فيها ما دامت السمواتُ والأرض إلا ما شاء ربك﴾ كما تقدم. ﴿عطاء غير مَجذُوذٍ﴾: غير مقطوع، وهو تصريح بأن الثواب غير مقطوع، وتنبيه على أن المراد من الاستثناء تعليم الأدب فقط. والله تعالى أعلم.

الإشارة: السعادة على قسمين: سعادة الظاهر، وسعادة الباطن. والشقاوة كذلك. أما سعادة الظاهر ففي الدنيا بالراحة من التعب، وفي الآخرة بالنجاة من العذاب. وأما سعادة الباطن ففي الدنيا براحة القلب من كد الهموم والأحزان، باليقين والاطمئنان، في حضرة الشهود والعيان، وفي الآخرة بدوام النظر، في مقعد صدق عند مليك مقتدر. وشقاوة الظاهر باتصال الكد والتعب. وشقاوة الباطن بالبعد عن الله، وافتراقه عن حضرة مولاه.

قال في نوادر الأصول: الشقاوة: فراق العبد من الله، والسعادة اندساسه إليه. هـ. وقال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه في حزبه الكبير: والسعيد من أغنيته عن السؤال منك، والشقي حقاً من حرمته مع كثرة السؤال لك.

(١) الآية: ٤٨ من سورة النساء.

قال شيخ شيوخنا ـ سيدي عبد الرحمن الفاسي ـ في حاشيته عليه: ومدار السعادة: الجمع على الله والغيبة عمن سواه، فيفنى العبد عن وجوده، ويبقى بربه، فيشغله استغراقه في شهوده عن الشعور بغيريته، وينمحي عنه أمل شيء يرجى، أو خوف شيء يتقى، فليس له عن سوى الحق إخبار، ولا مع غيره قرار. وعندما حل بهذه الحضرة، وظفر بقُرة عينه، وحياة روحه، وسر حياته، لا يتصور منه سُول، ولا فوات مأمول. «أنت مع الأكوان مالم تشهد المكون، فإذا شهدته كانت الأكوان معك»، «اشْتَاقتْ الجنَّةُ إلى عَلِيٍّ وعَمَّارٍ وسَلْمَان وصهيب وبلال» كما في الأثر. نعم، إن رد إليه تصور منه الدعاء على وجه العبودية، وأداء الأمر وإظهار الفاقة، لا على وجه الاقتضاء والسببية. «جل حكم الأزل أن ينضاف إلى الأسباب والعلل».

ثم قال: وعلى ما تقرر في السعادة، فالشقاوة: احتجاب العبد بوجوده عن شهوده، فلا ينْفَكُّ عن أمل، ولا عن خوف عطب. فيستحثه الطبع للسؤال جلباً أو دفعا. وهو في ذلك في شقاء، سواء أعطى أو منع؛ لفقده قرةَ عينه وراحة قلبه، لأسْره في طبعه، ومكابدة أمره وهلعه. كما قال تعالى: ﴿ إن الانسان خلق هلوعا، إذا مسه الشر جزوعا، وإذا مسه الخير منوعا إلا المصلين ﴾(١). فلم يستثن من كد الطبع ومكابدته غير أهل الصلاة الدائمةَ، وهم أهل الوجهة لله، المواجهين بعناية الله، المتحققين بذكر الله. وقد ورد: «هُمُ القَوْمُ لاَ يَشْقَى جَلِيسُهُمْ» فضلا عنهم. وعلى الجملة: فالمراد بالسعادة والشقاوة في كلامه ـ أي: الشاذلي ـ الباطنة لا الظاهرة، والقلبية لا القالبية. وإن كان قد تطلق على ذلك أيضًا، لكن لكل مقام مقال. وقد قال تعالى: ﴿ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ ولا يَشْقَىٰ ﴾(٢).

قال في نوادر الأصول: تَابِعُ القرآن قد أجير من شقاء العيش في الدنيا؛ لراحة قلبه من غموم الدنيا وظلماتها، وسيْره في الأمور بقلبه في راحة؛ لأنه منشرحُ الصدر واسعه، وبدنه في راحة؛ لأنه ميسر عليه أمور الدنيا، تُهيأ له في يسر؛ لضمان الله، واكتنافه له. وكذا يجار في الآخرة من شقاء العيش في سجون النيران. أعاذنا الله من ذلك. هـ.

ثم حذَّر من الشرك، الذي هو سبب الخلود في النار، فقال:

﴿ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾ ﴾

---

(١) الآيات: ١٩ ـ ٢٢ من سورة المعارج.
(٢) من الآية ١٢٣ من سورة طه.

يقول الحق جل جلاله: ﴿فلا تك﴾ يا محمد ﴿في مرية﴾. في شك ﴿مما يعبد هؤلاء﴾ المشركون، أي: لا تشك في فساد ما هم فيه، بعد ما أنزل عليك من حال الناس، وتبيين ما لأهل السعادة الموحدين، مما لأهل الشقاء المشركين، ﴿ما يعبدون إلا كما يعبد آباؤهم من قبلُ﴾، وهو تعليل للنهي، أي: ما يعبدون عبادةً إلا كعبادة آبائهم. أو ما يعبدون شيئاً إلا مثل ما عبد آباؤهم من الأوثان؛ تقليداً من غير برهان، وقد بلغك ما لحق آباءهم من العذاب فسيلحقهم مثل ذلك؛ لاتفاقهم في سبب الهلاك. ﴿وإنا لموفوهم نصيبهم﴾ حظهم من العذاب، كآبائهم، ﴿غير منقوص﴾ من نصيبهم شيء. فالتوفية لا تقتضي التمام. تقول: وفيته حقه، وتريد وفاء بعضه. والله تعالى أعلم.

الإشارة: فلا تكن أيها العارف في مرية مما يعبد هؤلاء العوام، من جمع الدنيا، والتكاثر منها، وصرف الهمة إلى تحصيلها، واستعمال الفكر في أسباب جمعها، وانهماك النفس في حظوظها وشهواتها. ما يعبدون إلا كما يعبد آباؤهم من قبل، ممن سلك هذا المسلك الذميم، وإنا لموفوهم نصيبهم غير منقوص، بانحطاط درجتهم عن درجة المقربين. قال بعض الحكماء: دار الدنيا كأحلام المنام، وسرورها كظل الغمام، وأحداثها كصوائب السهام، وشهواتها: كمشرب الشمام، وفتنتها كأمواج الطوام. هـ.

ولما ذكر رسالة موسى عليه السلام، وشأن فرعون ووبال من تبعه، ذكر نزول التوراة عليه، فقال:

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾ ﴾

قلت: (وإنّ كُلاً لما ليوفينهم): إن: مخففة عاملة، والتنوين في (كُلاً) عوض عن المضاف. و«ما»: موصولة، واللام: لام الابتداء، و(ليوفينهم): جواب لقسم محذوف، وجملة القسم وجوابه: صلة «ما»، أي: وإن كل الفريقين للذين، والله، ليوفينهم ربك أعمالهم. ومن قرأ: «لمّا»؛ بالتشديد، فعلى أن (إن) نافية، و«لما» بمعنى إلا، وقيل: غير هذا.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب﴾: التوراة، ﴿فاختُلف فيه﴾؛ فآمن به قوم وكفر به قوم، كما اختلف هؤلاء في القرآن، ﴿ولولا كلمة سبقت من ربك﴾ وهي: كلمة الإنظار إلى يوم القيامة، ﴿لقُضي بينهم﴾ بإنزال ما يستحقه المبطل من الهلاك، ونجاة المحق. ﴿وإنهم﴾ أي: قوم موسى، أو كفار قومك، ﴿لفي شك منه﴾ أي: التوراة، أو من القرآن، ﴿مريب﴾: موقع في الريبة. ﴿وإنَّ كُلاً﴾ من

الفريقين المختلفين، المؤمنين والكافرين، للذين ﴿ليوفينهم ربك﴾ جزاء أعمالهم، ولا يهمل منه شيئا. ﴿إنه بما يعملون خبير﴾ فلا يفوته شيء منه وإن خفي.

الإشارة: الاختلاف على الأنبياء والأولياء سنة ماضية. ولولا أن الله سبحانه حكم في سابق علمه أنه لا يفضح الضمائر إلا يوم تُبلى السرائر، لفضح أسرار البطالين، وأظهر منار الذاكرين من السائرين أو الواصلين. لكنه سبحانه أخر ذلك بحكمته وحلمه، إلى يوم الدين. والله تعالى أعلم.

ثم بيّن أصل الأعمال وأفضلها، وهي الاستقامة، فقال:

﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ وَلَا تَرْكَنُوٓا۟
إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾
وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾
وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾ ﴾

قلت: (ومن تاب): عطف على فاعل (استقم)؛ للفصل، (فتمسَّكم): جواب النهي. ويقال: ركِن يركَن: كعلِم يعلم، وركَن يركُن: كدخل يدخل. و (ثم لا تنصرون): مستأنف لا معطوف، و(طرفي): منصوب على الظرفية. و(زلفا): جمع زلفة، كقربة، أزلفه: قربه.

يقول الحق جل جلاله: ﴿فاستقمْ﴾ يا محمد ﴿كما أُمرت﴾، ﴿و﴾ ليستقم ﴿من تابَ معك﴾ من الكفر وآمن بك. وهي شاملة للاستقامة في العقائد؛ كالتوسط بين التشبيه والتعطيل، بحيث يبقى العقل مصوناً من الطرفين، وفي الأعمال؛ من تبليغ الوحي، وبيان الشرائع كما أنزل، والقيام بوظائف العبادات من غير تفريط ولا إفراط. وهي في غاية العسر. ولذلك قال عليه الصلاة والسلام: «شيّبَتْنِي هُود»[(١)] . قاله البيضاوي.

قال المحشي الفاسي: واللائق أن إشفاقه - عليه الصلاة والسلام - من أجل أمته لا من أجل نفسه؛ لأجل عصمته، وإنما أشفق عليهم لتوعد اللعين لهم بقوله: ﴿لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾[(٢)] . هـ. قلت: ولايبعد

---

(١) الحديث كاملاً: «شيبتني هود، والواقعة، والمرسلات، وعم يتساءلون، وإذا الشمس كورت». أخرجه الترمذي وحسنه في (كتاب التفسير - سورة الواقعة) والحاكم في المستدرك (٢/٣٤٣) وصححه ووافقه الذهبي، وأخرجه البيهقي في الدلائل (١/٣٥٧) والبغوى في شرح السنة (١٤/٣٧٢) وفي التفسير، كلهم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.
(٢) من الآية: ١٦ من سورة الأعراف.

أن يكون أشفق ـ عليه الصلاة والسلام ـ من صعوبة استقامته التي تليق به، فبقدر ما يعلو المقام يطلب بزيادة الأدب، وبقدر ما يشتد القرب يتوجه العتاب. ولذلك كان الحق تعالى يعاتبه على ما لا يعاتب عليه غيره. وقد قالوا: حسنات الأبرار سيئات المقربين. وقد تقدم كلام الإحياء في قوله: ﴿ألا بعدا لعاد﴾(١) .

ثم قال تعالى: ﴿ولا تَطْغَوا﴾؛ ولا تخرجوا عما حد لكم، ﴿إنه بما تعملون بصير﴾، فيجازيكم على النقير والقطمير، وهو تهديد لمن لم يستقم، وتعليل للأمر والنهي. ﴿ولا تركنوا إلى الذين ظلموا﴾: لا تميلوا إليهم أدنى ميل، فإن الركون: هو الميل اليسير، كالتزيي بزيهم، وتعظيم ذكرهم، وصحبتهم من غير تذكيرهم ووعظهم. ﴿فتمسكم النار﴾؛ لركونهم إليهم. قال الأوزاعي: ما من شيء أبغض إلى الله تعالى مِنْ عالِمٍ يزورُ عاملاً(٢) . هـ. وقال سفيان: في جهنم واد لا يسكنه إلا القراء الزائرون للملوك .هـ. وقال رسول الله ﷺ: «مَنْ دَعَا لِظَالِمٍ بالبَقَاءِ ـ أى : بأن قال: بارك الله فى عمرك ـ فَقَدْ أَحَبَّ أَنْ يُعْصَى اللهَ في أَرْضِه»(٣) وسئل سفيان عن ظالم أشرف على الهلاك في برية، هل يسقى شربة ماء؟ فقال: لا. فقيل له: يموت؟! فقال: دعه يموت. هـ. وهذا إغراق، ولعله في الكافر المحارب، والله أعلم.

قال البيضاوى: وإذا كان الركون إلى من وجد منه ما يسمى ظلماً موجباً للنار، فما ظنك بالركون إلى الظالمين الموسومين بالظلم، ثم بالميل إليهم، ثم بالظلم نفسه، والانهماك فيه. ولعل الآية أبلغ ما يتصور فى النهى عن الظلم والتهديد عليه. وخطاب الرسول ﷺ ومن معه من المؤمنين بها؛ للتثبيت على الاستقامة التي هى العدل؛ فإن الزوال عنها بالميل إلى أحد طرفي إفراط أو تفريط، ظلم على نفسه أو غيره، بل ظلم فى نفسه. هـ.

﴿ومالكم من دون الله من أولياء﴾؛ من أنصار يمنعون العذاب عنكم، ﴿ثم لا تُنصرون﴾: ثم لا ينصركم الله إن سبق فى حكمه أنه يعذبكم.

ولمّا كان الركون إلى الظلم، أو إلى من تلبس به فتنة، وهي تكفرها الصلاة، كما فى الحديث(٤)، أمر بها إثره، فقال: ﴿وأقم الصلاةَ طرفي النهار﴾ غدوة وعشية، ﴿وزُلَفاً من الليل﴾؛ ساعات منه قريبة من النهار. والمراد بالصلاة المأمور بها: الصلوات الخمس. فالطرف الأول: الصبح، والطرف الثاني: الظهر والعصر، والزلف من الليل: المغرب، والعشاء . ﴿إن الحسنات يُذهبن السيئات﴾؛ يكفرنها قال ابن عطية: لفظ الآية عام فى

---

(١) راجع إشارة الآيات: ٥٨ ـ ٦٠ من سورة نفسها.
(٢) المراد بالعامل هنا: الحاكم أو الوالي.
(٣) قال الحافظ العراقي في المغني: لم أجده مرفوعاً، وإنما أورده ابن أبي الدنيا في كتاب الصمت، من قول الحسن البصري.
(٤) سيذكر الشيخ الحديث بعد قليل.

الحسنات خاص في السيئات؛ لقوله ﷺ: «ما اجتنبتْ الكبائر»، ثم قال: وروى أن رسول الله ﷺ قال: «الجُمُعَةُ إلى الجُمعةِ كفَّارَة، والصَّلَوَاتُ الخَمسُ، ورمضَانُ إلَى رَمَضَانَ كفارة لمَا بينَهُمَا ما اجتُنِبَت الكبائر»[1] انظر تمامه في الحاشية.

قال ابن جزى: رُوى أن رجلا قبّل امرأة، [قلتُ: هو نبهان التمار]، فذكر ذلك للنبى ﷺ وصلّى معه الصلاة، فنزلت الآية، فقال ﷺ: «أين السائل؟» فقال: ها أنا ذا، فقال: «قَدْ غَفَرَ اللهُ لَكَ بصلاتك معَنَا». فقال الرجل: أَلِيَ خاصةً، أو للمسلمين عامّةً؟ فقال: «للمسلمين عامّةً»[2]. والآية على هذا مدنية. وقيل: إن الآية كانت قبل ذلك، وذكرها النبى ﷺ للرجل مستدلاً بها. والآية على هذا مكية كسائر السورة، وإنما تُذهب الحسناتُ - عند الجمهور - الصغائر إذا اجتنبت الكبائر. هـ. قلت: وقيل: تكفر مطلقاً؛ اجْتُنِبَتْ الكبائر أم لا، وهو الظاهر، لأنه إذا حصل اجتناب الكبائر كفرت بلا سبب؛ لقوله تعالى: ﴿إن تجتنبوا كبائر ....﴾[3] الآية. وقوله عليه الصلاة والسلام: «ما اجتنبت الكبائر». معناه: أن الصلوات والجمعة مكفرة لما عدا الكبائر.

والحاصل: أن من اجتنب الكبائر كفرت عنه الصغائر بلا سبب؛ لنص الآية. ومن ارتكب الكبائر والصغائر وصلى، كفرت الصغائر دون الكبائر، وبهذا تتفق الآية مع الحديث. والله تعالى أعلم.

قال ابن عطية في قوله تعالى: ﴿إنَّ اللهَ اشْتَرَىٰ...﴾[4] الآية: الشهادة ماحية لكل ذنب إلا لمظالم العباد. وقد روى: «أن الله يتحمل عن الشهيد مظالم العباد، ويجازيهم عنه». ختم الله لنا بالحسنى. انتهى.

﴿ذلك﴾ أي: ما تقدم من وعظ ووعد ووعيد، وأمر الاستقامة، أو القرآن كله، ﴿ذكرى للذاكرين﴾: عظة للمتقين، وخص الذاكرين؛ لمزيد انتفاعهم بالوعظ، لصقالة قلوبهم. وفي الخبر: «لكل شيء مصقلة، ومصقلة القلوب ذكر الله». ﴿واصبرْ﴾ على مشاق الاستقامة، ودوامها ﴿فإن الله لا يُضيع أجرَ المحسنين﴾ وهم: أهل الاستقامة ظاهراً وباطنا.

الإشارة: الاستقامة على ثلاثة أقسام: استقامة الجوارح، واستقامة القلوب، واستقامة الأرواح والأسرار. أما استقامة الجوارح فتحصل بكمال التقوى، وتحقيق المتابعة للسنة المحمدية. وأما استقامة القلوب

---

(١) أخرجه مسلم في: (الطهارة، باب الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة.. مكفرات) عن أبي هريرةٍ رضي الله عنه.
(٢) أخرجه بنحوه البخاري في (التفسير، سورة هود) ومسلم في (التوبة، باب قوله: إن الحسنات يذهبن السيئات) من حديث ابن مسعود - رضي الله عنه. أما قول المفسر: [هو نبهان التمار] فقد جاء في سياق آخر، للثعلبي في تفسيره، وقال الحافظ ابن حجر في الفتح ٨/٢٠٧: وهذا إن ثبت حمل على واقعة أخرى، لما بين السياق من المغايرة.
(٣) من الآية: ٣١ من سورة النساء.
(٤) من الآية: ١١١ من سورة التوبة.

فتحصل بتطهيرها من سائر العيوب، كالكبر والعجب، والرياء، والسمعة، والحقد والحسد، وحب الجاه والمال، وما يتفرع عن ذلك من العداوة والبغضاء، وترك الثقة بمجيء الرزق، وخوف سقوط المنزلة، من قلوب الخلق، والشح والبخل، وطول الأمل، والأشر والبطر، والغل والمباهاة، والتصنع والمداهنة، والقسوة والفظاظة والغلظة، والغفلة والجفاء، والطيش، والعجلة، والحمية، وضيق الصدر، وقلة الرحمة. إلى غير ذلك من أنواع الرذائل.

فإذا تطهر القلب من هذه العيوب اتصف بأضدادها من الكمالات: كالتواضع لله، والخشوع بين يديه، والتعظيم لأمره، والحفظ لحدوده، والتذلل لربوبيته، والإخلاص في عبوديته، والرضى بقضائه، ورؤية المنة له في منعه وعطائه. ويتصف فيما بين خلقه بالرأفة والرحمة، واللين والرفق، وسعة الصدر والحِلم، والاحتمال والصيانة، والنزاهة والأمانة، والثقة والتأني، والوقار، والسخاء والجود، والحياء، والبشاشة والنصيحة. إلى غير ذلك من الكمالات.

وأما استقامة الأرواح والأسرار، فتحصل بعدم الوقوف مع شيء سوى الله تعالى، وعدم الالتفات إلى غيره حالا كان أو مقاما أو كرامة، أو غير ذلك: كما قال الششتري رضي الله عنه:

فلا تلْتفِت في السِّير غيراً، وكلُّ ما		سوى الله غيرٌ، فاتخذْ ذِكرَه حِصْنا
وكلُّ مقامٍ لا تقُمْ فيهِ إنَّه		حجابٌ، فجِدَّ السَّير واستَنْجِد العَونا
ومهْما ترى كلَّ المراتِبِ تجْتَلي		عليْكَ فحلْ عنها، فعَن مِثْلِها حُلْنا
وقُلْ: ليس لي في غَيرِ ذاتِكَ مَطْلبٌ		فلا صورةٌ تُجْلَى ولا طَرفةٌ تُجنَى

وقوله تعالى: ﴿ولا تركنوا إلى الذين ظلموا﴾: هو نهي عن صحبة الغافلين والميل إليهم. قال بعض الصوفية: قلت لبعض الأبدال: كيف الطريق إلى التحقيق، والوصول إلى الحق؟ قال: لا تنظر إلى الخلق؛ فإن النظر إليهم ظلمة، قلت: لابد لي، قال: لا تسمع كلامهم؛ فإن كلامهم قسوة، قلت: لابد لي، قال: لا تعاملهم؛ لأن معاملتهم خسران وحسرة ووحشة، قلت: أنا بين أظهرهم لابد لي من معاملتهم؟ قال: لا تسكن إليهم؛ فإن السكون إليهم هلكة. قلت: هذا لعله يكون؟ قال: يا هذا، أتنظر إلى اللاعبين، وتسمع كلام الجاهلين، وتعامل البطالين، وتسكن إلى الهلكى، وتريد أن تجد حلاوة الطاعة، وقلبك مع غير الله عز وجل!! هيهات! هذا ما لا يكون أبدا. هـ. ونقل الورتجبي عن جعفر الصادق: ولا تركنوا إلى نفوسكم فإنها ظلمة. هـ.

ثم ذكر سبب هلاك الأمم الماضية، وهو فشو الظلم، وعدم تغيير المنكر، فقال:

﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ (١١٦) وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ (١١٧) ﴾

قلت: (لولا)، تحضيضية، ويقترن بها هنا معنى التفجع والتأسف، كقوله: ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ﴾[1]، و«إلا قليلاً»: منقطع، ولا يصح اتصاله، إلا إذا جعل استثناء من النفي اللازم للتحضيض. أي: ما كان في القرون الماضية أولو بقية إلا قليل. يقال: فلان من بقية القوم، أي: خيارهم، وإنما قيل فيه «بقية»؛ لأن الشرائع والدول تقوى أولاً ثم تضعف. فمن ثبت في وقت الضعف على ما كان في أوله، فهو بقية الصدر الأول. قاله ابن عطية. وقوله: «بظلم»: حال من «ربك»؛ أي: ما كان ربك ليهلك القرى ظالماً لهم، أو متعلق بيهلك.

يقول الحق جل جلاله: ﴿فلولا﴾: فهلا ﴿كان من القرون من قبلكم﴾؛ كقوم نوح وعاد وثمود ومن تقدم ذكرهم، ﴿أُولو بقية﴾ من الرأي، والعقل ينكرون عليهم، أي: فهلا وجد فيهم من فيه بقية من العقل والحزم والثبوت، ﴿ينهون عن الفساد في الأرض﴾، لكن قليلا ممن أنجينا منهم كانوا كذلك، فأنكروا على أهل الفساد، واعتزلوهم في دينهم؛ فأنجيناهم. وفي هذا تحريض على النهي عن المنكر والأمر بالمعروف، وأنه سبب النجاة في الدارين. ﴿واتَّبع الذين ظلموا ما أُترفوا فيه﴾: ما أنعموا فيه من الشهوات، واهتموا بتحصيل أسبابها، وأعرضوا عما وراء ذلك، ﴿وكانوا مجرمين﴾ كافرين. قال البيضاوي: كأنه أراد أن يبين ما كان السبب لاستئصال الأمم الماضية، وهو: فشو الظلم فيهم، واتباع الهوى، وترك النهي عن المنكرات مع الكفر. هـ.

﴿وما كان ربك ليُهلك القرى بظلم﴾ أي: متلبساً بظلم، ﴿وأهلُها مصلحون﴾، فيعذبهم بلا جرم، أي: ما كان ليعذبهم ظالماً لهم بلا سبب. أو ما كان ليهلك القرى بشرك وأهلها مصلحون فيما بينهم، لا يضمون إلى شركهم فساداً وبغياً، وذلك لفرط رحمته ومسامحته في حقوقه. ومن ذلك قدَّم الفقهاءُ، عند تزاحم الحقوق، حقوق العباد. وقال بعضهم: [الذنوب ثلاثة: ذنب لا يغفره الله، وهو الشرك. وذنب لا يعبأ الله به، وهو ما كان بينه وبين عباده، وذنب لا يتركه الله، وهو حقوق عباده]. وقالوا: قد يبقى المُلك مع الشرك ولا يبقى مع الظلم.

الإشارة: أولو البقية الذين ينهون عن الفساد في الأرض هم: أهل النور المخزون المستودع في قلوبهم من نور الحق، إذا قابلوا منكراً دمغوه بالحال أو المقال، وإذا قابلوا فساداً أصلحوه، وإذا قابلوا فتنة أطفأوها. وإذا قابلوا بدعة

---

(١) من الآية: ٣٠ من سورة يس.

أحمدوها. وإذا واجهوا ضالا أرشدوه، أو غافلا ذكروه، أو طالباً للوصول وصلوه، يمشون في الأرض بالنصيحة، لا يخافون في الله لومة لائم. أولئك لهم الأمن وهم مهتدون.

قال رسول الله ﷺ: «والذي نفس محمد بيده لئن شئتم لأُقسمن لكم: إنَّ أحبَّ عباد الله إلى الله الذين يُحببون الله إلى عباده، ويحببون عباد الله إلى الله، ويمشون في الأرض بالنصيحة» أما كونهم يحببون الله إلى عباده؛ فلأنهم يذكرون لهم آلاءه وإحسانه وبره. والنفس تُحب بالطبع من أحسن إليها. وأما كونهم يحببون عباد الله إلى الله؛ فلأنهم يردونهم عن غيهم وحظوظهم، التي تبعدهم عن ربهم. فإذا رجعوا إليه أحبهم.

وسئل ذو النون المصري رضي الله عنه عن وصف الأبدال، فقال: سألتَ عن دياجي الظلام؛ لأكشفُ لك عنهم، هم قوم ذكروا الله بقلوبهم، تعظيمًا لربهم؛ لمعرفتهم بجلاله، فهم حجج الله تعالى على خلقه، ألبسهم الله ـ تعالى ـ النور الساطع من محبته، ورفع لهم أعلام الهداية إلى مواصلته، وأقامهم مقام الأبطال لإرادته، وأفرغ عليهم من مخافته، وطهّر أبدانهم بمراقبته، وطيبهم بطيب أهل معاملته، وكساهم حُللاً من نسج مودته، ووضع على رؤوسهم تيجان مبرته، ثم أودع القلوب من ذخائر الغيوب، فهي متعلقة بمواصلته، فهممهم إليه ثائرة، وأعينهم بالغيب ناظرة، قد أقامهم على باب النظر من رؤيته، وأجلسهم على كراسي أطباء أهل معرفته، ثم قال لهم: إن أتاكم عليل منْ فقدي فداووه، أو مريض من فراقي فعالجوه، أو خائف مني فانصروه، أو آمن مني فحذروه، أو راغب في مواصلتي فمنُّوه، أو راحل نحوي فزودوه، أو جبان في متاجرتي فشجعوه، أو آيسٌ من فضلي فرجّوه، أو راج لإحساني فبشروه، أو حسن الظن بي فباسطوه، أو محب لي فواصلوه، أ و معظم لقدرتي فعظموه، أو مسيء بعد إحساني فعاتبوه، أو مسترشد فأرشدوه. هـ.

وهذا بقدر الله ومشيئته، كما قال تعالى:

﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾

قلت: الاستثناء من ضمير «يزالون».

يقول الحق جل جلاله: ﴿ولو شاء ربك لجعل الناس أمةً واحدة﴾، متفقين على الإيمان، أو الكفران، لكن مقتضى الحكمة وجود الاختلاف؛ ليظهر مقتضيات الاسماء في عالم الشهادة؛ فاسمه: الرحيم والكريم يقتضي وجود من يستحق الكرم والرحمة، وهم: أهل الإيمان. واسمه: المنتقم والقهار يقتضي وجود من يستحق الانتقام

والقهرية، وهم أهل الكفر والعصيان. قال البيضاوي: وفيه دليل ظاهر على أن الأمر غير الإرادة، وأنه تعالى لم يرد الإيمان من كل أحد، وأن ما أراد يجب وقوعه. هـ.

﴿ ولا يزالون مختلفين ﴾؛ بعضهم على الحق، وهم أهل الرحمة والكرم، وبعضهم على الباطل، وهم أهل القهرية والانتقام. أو مختلفين في الأديان والملل والمذاهب، ﴿ إلا من رَّحِمَ ربك ﴾؛ إلا ناساً هداهم الله من فضله، فاتفقوا على ما هو أصل الدين والعمدة فيه، كالتوحيد والإيمان بجميع الرسل وبما جاءوا به، وهم المؤمنون.

وقوله: ﴿ ولذلك خلقهم ﴾؛ إن كان الضمير للناس، فالإشارة إلى الاختلاف، واللام للعاقبة، أي: ولتكون عاقبتهم الاختلاف خلقهم، وإن كان الضمير يعود على «من»، فالإشارة إلى الرحمة، أي: إلا من رحم ربك وللرحمة خلقه. ﴿ وتمت كلمة ربك ﴾ الأزلية على ما سبق له الشقاء، أي: نفذ قضاؤه ووعيده في أهل الشقاء، أو هي قوله للملائكة: ﴿ لأملأنَّ جهنم من الجِنَّة والناس أجمعين ﴾؛ أي: من أهل العصيان منهما، لا من جميعهما.

الإشارة: الاختلاف بين الناس حكم أزلي، لا محيد عنه. وقد وقع بين أهل الحق وبين أهل الباطل. فقد اختلفت هذه الأمة في الأصول والفروع. أما الأصول فأهل توحيد الدليل وقع بينهم تخالف في صفات الحق، كالمعتزلة والقدرية والجهمية والجبرية مع أهل السنة. وأما الفروع فالاختلاف بينهم شهير. فقد كان في أول الاسلام اثنا عشر مذهبًا. ولا تجد علمًا من علم الفروع إلا وبين أهله اختلاف، إلا أهل التوحيد الخاص، وهم: المحققون من الصوفية، فكلهم متفقون في الأذواق والوجدان، وإن اختلفت طرقهم، وكيفية سيرهم. فهم متفقون في النهايات، التي هي معرفة الشهود والعيان، على طريق الذوق والوجدان، وفي ذلك يقول ابن البنا ـ رحمه الله ـ:

مَذاهبُ الناس على اختلاف ومذهب القوم على ائتلاف

وأما قول من قال: [مازالت الصوفية بخير ما اختلفوا، فإذا اتفقوا فلا خير فيهم]، فالمراد بالاختلاف: تغيير بعضهم على بعض، عند ظهور نقص أو عيب أو ذنب. فإذا اتفقوا وسكت بعضهم عن بعض فلا خير فيهم. وقوله عليه الصلاة والسلام: «خلاف أمتي رحمة». المراد: الاختلاف في الفروع كاختلاف المذاهب؛ ففي ذلك رخصة لأهل الاضطرار؛ لأن من قلد عالما لقي الله سالما. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر حكمة سرد قصص الأنبياء، فقال:

﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ (١٢٠) ﴾

قلت: «وكُلاًّ» مفعول «نقص»، و«ما نثبت به»: بدل، أو «ما» مفعول «نقُصُّ» و«كلا»: مصدر. أي: ونقص

عليك كُلاً من الاقتصاص ما نثبت به فؤادك.

يقول الحق جل جلاله: وكل نبأ ﴿ **نقص عليك** ﴾ من أخبار الرسل، ونخبرك به ﴿ **ما نثبت به فؤادك** ﴾، ليزيدك يقيناً وطمأنينة وثباتاً بما تسمع من أخبارهم، وما جرى لهم مع قومهم، وما لقوا من الأذى منهم، فتتسلى بهم، وتثبت على أداء الرسالة، واحتمال أذى الكفار. ﴿ **وجاءك في هذه** ﴾ السورة، أو الأنبياء المقتصة عليك، ﴿ **الحق** ﴾ أي: ما هو حق، ﴿ **وموعظة وذكرى للمؤمنين** ﴾، فيتحملون، ويصبرون لما يواجههم من الأذى والإنكار.

الإشارة: ذكر أحوال الصالحين، وسيرهم وكراماتهم؛ جند من جنود القلب، وذكر أشعارهم ومواجيدهم جند من جنود الروح، وقد ورد: أن عند ذكرهم تنزل الرحمة، أي: رحمة القلوب باليقين والطمأنينة. والله تعالى أعلم.

ثم أمره بتهديد من خالفه، فقال:

﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ **وقل للذين لا يؤمنون اعملوا على مكانتكم** ﴾: حالكم ﴿ **إنا عاملون** ﴾ على حالنا، ﴿ **وانتظروا** ﴾ وقوع ما نزل بمن قبلكم ممن خالف رسوله؛ فإنه نازل بكم، ﴿ **إنا منتظرون** ﴾ ما وعدنا ربنا من النصر والعز.

﴿ **ولله غيبُ السموات والأرض** ﴾ لا يعلمه غيره؛ فلا يعلم غيب العواقب، ووقت وقوع المواعد إلا هو. ﴿ **وإليه يُرجع الأمرُ كلُّه** ﴾ فيرجع لا محالة أمرهم وأمرك إليه، ﴿ **فاعبده وتوكل عليه** ﴾؛ فإنه كافيك أمرهم وأمر غيرهم. وفي تقديم العبادة على التوكل تنبيه على أنه إنما ينفع التوكل العابد دون البطال. ﴿ **وما ربك بغافل عما تعملون** ﴾ أنت وهم، فيجازي كلاً ما يستحقه. أو عما يعمل الكافرون، فيمهلهم ولا يهملهم.

الإشارة: (فاعبده وتوكل عليه): يقول تعالى: يا عبدي؛ قُم بخدمتي أقم لك بقسمتي، قف ببابي وانتسب لجنابي؛ أكفك شئونك، وتكن من أحبابي. أأدعوك لداري، وأمنعك من وجود إبراري، أأكلفك بخدمتي، ولا أقوم لك بقسمتي، فثِق بي كفيلاً، واتخذني وكيلاً، أعطك عطاء جزيلا، وأمنحك فخراً جليلاً. قال القشيري: ويقال: إن التوكل: سكون القلب بضمان الربِّ. ويقال: سكون الجأش في طلب المعاش، ويقال: الاكتفاء بوعده عند عدم نَقْده، أو الاكتفاء بالوعد عند فقد النقد. وسيأتي تمامه في سورة الفرقان، إن شاء الله. وبالله التوفيق. وهو الهادي إلى سواء الطريق. وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما.

❁ ❁ ❁

سورة يوسف

مكية . وهى مائة وإحدى عشرة آية . وكأنها تتميم لما ذُكر قبلها من قصص الأنبياء، فهي من جملة ما يُثبّت به الفؤاد، ويقع به التسلية، مما يواجه به العبد من الأنكاد. وإنما أفردت بالسورة، لمزيد شرح وطول.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾
نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ
لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾ ﴾

قلت : (قرآنا) : حال، و(عربيا) : نعت له . و(لعلكم) : يتعلق بأنزلناه أو بعربيا . و (أحسن) : مفعول (نقصُّ)، و(بما أوحينا) : مصدرية، ويجوز أن يكون (هذا القرآن) : مفعولَ (نقصُّ)، و(أحسن القصص) : مصدر.

يقول الحق جل جلاله : أيها الرسول المجتبى، والمحبوب المنتقى، ﴿ تلك ﴾ الآيات التى تُتلى عليك هى ﴿ آيات الكتاب ﴾ المنزل عليك من حضرة قدسنا، ﴿ المبين ﴾ أى: الظاهر صدقه، الشهير شأنه. أو الظاهر أمره فى الإعجاز والبلاغة، الواضح معانيه فى الفصاحة، والبراعة. أو المبين للأحكام الظاهرة والباطنة. أو البَيِّنُ لمن تدبره أنه من عند الله. أو المبين لمن سأل تعنُّتاً من أحبار اليهود سؤالَهم؛ إذ رُوى أنهم قالوا لكبراء المشركين: سلوا محمدا: لِمَ انتقل يعقوب من الشام؟ وعن قصة يوسف. فنزلت السورة.

﴿ إنا أنزلناه ﴾ أى: الكتاب، ﴿ قرآناً ﴾ أى: مقروءاً، أو مجموعاً، ﴿ عربيًّا ﴾ بلغة العرب ﴿ لعلكم تعقلون ﴾ أى: أنزلناه بلغتكم كى تفهموه وتستعملوا عقولكم فى معانيه؛ فتعلموا أن اقتصاصه كذلك ممن لم يتعلم القصص، ولم يخالط من يعلم ذلك، معجز؛ إذ لا يتصور إلا بالإيحاء.

﴿ نحن نقصُّ عليك أحسنَ القَصَص ﴾ ؛ أحسن الاقتصاص؛ لأنه اقتص على أبدع الأساليب، أو أحسن ما يُقص؛ لاشتماله على العجائب والحِكَم والآيات والعِبَر، ﴿ بما أوحينا إليك هذا القرآن ﴾ مشتملا على هذه السورة التى فيها قصة يوسف، التى هى من أبدع القصص، ﴿ وإن كنتَ من قبله لَمِنَ الغافلين ﴾ عن هذه

القصة، لم تخطر ببالك، ولم تقرع سمعك. قال البيضاوي: وهو تعليل لكونه موحىً، و«إنْ» هذه: مخففة، واللام هي الفارقة. هـ.

الإشارة: ما نزل القرآن بلسان عربي مبين إلا لنعقل عظمة ربنا ونعرفه، وذلك لا يكون إلا بعد استعمال العقول الصافية، والأفكار المنورة، في الغوص على درر معانيه. فحينئذ تطلع على أنوار التوحيد وأسرار التفريد، وعلى أنوار الصفات، وأسرار الذات، وعلى توحيد الأفعال وتوحيد الصفات وتوحيد الذات. قال تعالى: ﴿ مافرطنا في الكتاب من شيء ﴾(١)، لكن لا يحيط بهذا إلا أهل التجريد، الذين صفت عقولهم من الأكدار، وتطهرت من الأغيار، وملئت بالمعارف والأسرار. قال تعالى: ﴿ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الأَلْبَابِ ﴾(٢). وهم: أهل العقول الصافية المتفرغة من شواغل الحس. والله تعالى أعلم.

ثم شرع في ذكر القصة، فقال:

﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ
(٤) قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ
عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٥) وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ
عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٦) ﴾

قلت: (إذ قال): معمول لا ذكر، أو بدل من (أحسن القصص)؛ إن جعل مفعولاً، بدل اشتمال، و(يا أبت): أصله: يا أبي، عوض من الياء تاء التأنيث؛ لتناسبهما في الزيادة، ولذلك قلبت في الوقف هاء، في قراءة ابن كثير وأبي عمر ويعقوب. وإنما أعاد العامل في «رأيتهم»؛ لطول الكلام، وجمع الشمس والقمر والكواكب جمع العقلاء؛ لوصفهم بصفاتهم.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ إذ قال يوسفُ لأبيه ﴾ يعقوب بن اسحق بن ابراهيم: ﴿ ياأبتِ إني رأيتُ ﴾ في النوم ﴿ أحدَ عشرَ كوكباً والشمسَ والقمرَ رأيتهُم لي ساجدين ﴾. وقد ذكر البيضاوي حديثاً في تفسير هذه الكواكب فانظره. قيل: إن يوسف عليه السلام كان نائماً في حجر أبيه، فنظر فيه، وقال في نفسه: أترى هذا الوجه

(١) من الآية ٣٨ من سورة الأنعام.
(٢) من الآية ٢٩ من سورة ص.

أحسن أم الشمس أم القمر؟ فإذا بيوسف قد انتبه من نومه، وقال: ﴿ يا أبت إني رأيت أحد عشر كوكبا . . . ﴾ الخ، فلما قص الرؤيا على أبيه بكى، فقال يوسف: لم تبكي يا أبتي؟ قال: يابني لم يسجد مخلوق لمخلوق إلا عند المحنة، والبلاء، ألا ترى الملائكة لما أسجدهم الله لآدم، كيف ابتلى بالخروج من الجنة؟ ثم قال له: يابني؛ الشمس والقمر أنا وخالتك ـ وكانت أمه قد ماتت ـ والإحْدى عشر كوكبا إخوتك. هـ.

﴿ قال يا بُنيَّ ﴾، وهو تصغير ابن، صغر للشفقة أو لصغر السن، وكان ابن ثنتي عشرة سنة، ﴿ لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيداً ﴾ ؛ فيحتالوا لإهلاكك حيلة. فَهِمَ يعقوبُ عليه السلام من رؤياه أن الله يصطفيه لرسالته، ويفوقه على إخوته، فخاف عليه حسدهم. ومن خاف من شيء سلط عليه.

والرؤيا تختص بالنوم، والرؤية، بالتاء بالبصر. قال البيضاوي: وهي انطباع الصورة المنحدرة من أفق المتخيلة إلى الحس المشترك، والصادِقة منها إنما يكون باتصال النفس بالملكوت؛ لما بينهما من التناسب عند فراغها من تدبير البدن أدنى فراغ. انظر تمامه فيه. وأخرج الحاكم في المستدرك، والطبراني في الأوسط، عن ابن عمر قال: لقي عمر علياً ـ رضي الله عنهما ـ فقال: يا أبا الحسن، الرجل يرى الرؤيا فمنها ما يصدق، ومنها ما يكذب ، قال: نعم. سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من عبد ولا أمة ينام فيمتلئ نوما إلا عرج بروحه إلى السماء. فالتي لا تستيقظ إلا عند العرش فتلك الرؤيا التي تصدُق، والتي تستيقظ دون العرش فتلك الرؤيا التي تكذبُ»[1] .هـ. فمنها ما تكون واضحة المعنى لا تحتاج إلى تعبير، ومنها ما تكون خفية تحتاج إلى تعبير. والمعبر يحتاج إلى علم وفراسة وزيادة إلهام، فعلم التعبير علم مستقل، قد أعطى الله منه ليوسف عليه السلام حظاً وافراً.

ولما قال يعقوب لابنه : ﴿ لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيداً ﴾ قال: يا أبت، الأنبياء لايكيدون، قال له: ﴿ إن الشيطان للإنسان عدو مبين ﴾ ؛ ظاهر العداوة؛ لأجل ما فعل بآدم وحواء، فلا يألُوا جهدا في تسويلهم، وإثارة الحسد فيهم، حتى يحملهم على الكيد. قيل: لم يسمع كلام يوسف في رؤياه إلا خالته ـ أم شمعون ـ فقالت لإخوته: التعب عليكم، والإقبال على يوسف. فحركهم ذلك حتى فعلوا ما فعلوا. وقيل: أخبرت بذلك ولدها شمعون، فأخبر شمعون إخوته؛ فخلوا به وقالوا له: إنك لم تكذب قط. فأخبرنا بما رأيت في نومك، فأبى. فأقسموا عليه، فأخبرهم. فوقعوا فيما فعلوا به.

ثم قال له: ﴿ وكذلك ﴾ أي: وكما اجْتَباك لهذه الرؤيا الدالة على شرف وعز وكمال نفس، ﴿ يجتبيك ربكُ ﴾ للنبوة والملك، أو لأمور عظام، ﴿ ويُعلِّمك ﴾ أي: وهو يعلمك ﴿ من تأويل الأحاديث ﴾ ؛ من تعبير

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٤/٣٩٦ و ٣٩٧).

الرؤيا؛ لأنها أحاديث الملك إن كانت صادقة، وأحاديث الشيطان إن كانت كاذبة. أوْ يعلمك من تأويل غوامض علوم كتب الله، وسنن الأنبياء وحكم الحكماء. ﴿ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ ﴾ بالنبوة، أو بأن يجمع لك بين نعمة الدنيا، ونعمة الآخرة، ﴿ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ ﴾ يريد: سائر بنيه. ولعله استدل على نبوتهم بضوء الكواكب، ﴿ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ ﴾؛ من قبلك، أو من قبل هذا الوقت. فأتمها على إبراهيم بالرسالة والخلة والإنجاء من النار، وإسحاق بالرسالة والإنقاذ من الذبح(١)، وهم: ﴿ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ ﴾، فهما عطف بيان لأبويك، ﴿ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ ﴾ بمن يستحق الاجتباء، ﴿ حَكِيمٌ ﴾ لا يخلو فعله من حكمة، نعمة كانت أو نقمة.

الإشارة: البداية مجلاة النهاية، يوسف عليه السلام نزلت له أعلام النهاية في أول البداية. وكذلك كل من سبق له شيء من العناية، لابد تظهر أعلامه في أول البداية؛ «من أشرقت بدايته أشرقت نهايته». من كانت بالله بدايته كانت إليه نهايته.

وأوصاف النهاية تأتي على ضد أوصاف البداية؛ فكمال العز في النهاية لا يأتي إلا بعد كمال الذل في البداية. وتأمل قول الشاعر:

تَذَلَّلْ لِمَنْ تَهْوَى لِتَكْسِبَ عِزَّةً فَكَمْ عِـزَّةٍ قَدْ نَالَهَا المرءُ بِالذُّلِّ

وتأمل قضية سيدنا يوسف عليه السلام؛ ما نال العز والملك حتى تحقق بالذل، والملك وكمال الغنى في النهاية لا يأتي إلا بعد كمال الفقر في البداية، وكمال العلم لا يأتي إلا بعد إظهار كمال الجهل، وكمال القوة لا يأتي إلا بعد كمال الضعف.. وهكذا جعل الله تعالى بحكمته الأشياء كامنة في أضدادها؛ «تحقق بأوصافك يمدك بأوصافه». فالاجتباء يكون بعد الابتلاء، وإتمام النعم يكون بعد تقديم النقم، وذلك لتكون أحلى وأشهى، فيعرف قدرها ويتحقق منه شكرها، وهذا السر في تقديم أهوال يوم القيامة على دخول الجنة؛ ليقع نعيمها في النفس كل موقع. ولا فرق بين جنة الزخارف، وجنة المعارف. (حُفَّت الجنة بالمكاره، وحُفت النار بالشهوات). والله تعالى أعلم.

ثم قال تعالى:

﴿ ۞ لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿٧﴾ إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ ﴾

---

(١) الثابت أن الذبيح هو سيدنا إسماعيل عليه السلام. راجع التعليق على تفسير الآية ١٢٤ من سورة البقرة.

قلت : (يوسف) : عجمي، وفي سينه ثلاث لغات: الضم - وهو الأشهر - والفتح، والكسر.

يقول الحق جل جلاله : ﴿لقد كان في يوسفَ وإخوته﴾ أي: في قصصهم ﴿آيات﴾ ؛ دلائل قدرة الله وحكمته، وعلامة نبوتك، حيث أخبرتَ بها من غير تعلم. ففي ذلك آيات ﴿للسائلين﴾ أي: لمن سأل عن قصتهم. والمراد بإخوته: علاته العشرة، والعلات: أبناء أمهات لأب واحد، فكانوا إخوته لأبيه، وهم: يهوذا، وروبيل، وشمعون، ولاوى، وريالون، ويشجر، ودنية من بنت خالته ليًا، تزوجها يعقوب أولاً، فلما توفيت تزوج راحيل، فولدت له بنيامين، ويوسف. وقيل: جمع بينهما، ولم يكن الجمع حينئذ محرمًا. وأربعة آخرون من سُرِّيتين، وهم: دان، وتفتالى، وجاد، وآشر.

﴿إذ قالوا لَيُوسُفُ وأخوه﴾ بنيامين، وخُص بالإضافة؛ لأنه شقيقه، ﴿أحبُّ إلى أبينا منا ونحنُ عصبةٌ﴾ أي: والحال أنا جماعة أقوياء، فنحن أحق بالمحبة؛ لأنهما لا كفاءة فيهما. والعصبة: العشرة ففوق. ﴿إن أبانا لفي ضلالٍ﴾ ؛ خطأ ﴿مبين﴾ ؛ ظاهر؛ لتفضيل المفضول. روى أنه كان أحب إليه؛ لما كان يرى فيه من مخايل الخير، وكان إخوته يحسدونه، فلما رأى الرؤيا ضاعف له المحبة، بحيث لم يصبر عنه، فتناهى حسدهم حتى حملهم على التعرض لقتله. وهكذا شأن الحسد يبلغ بصاحبه أمرًا عظيمًا.

الإشارة: كان يعقوب عليه السلام لا يفارق يوسف ليلاً ولا نهارًا. وهكذا شأن المحبين. وأنشدوا:

وَلِي كَبِدٌ يَسْرِي إِلَيْهِم سَلامَه بِجَمْرٍ تلَظِّي، والفؤادُ ضِرامُه
وأجْفانُ عَيْنٍ لا تَمَلُّ من البُكَا وصَبٌ تَشَكَّى للحبيب غَرَامَه
فأنتُم سُروري، أنتُم غايةُ المُنَى وقَلْبِي إلَيْكم والغَرامُ زِمامُه
فَوَالله ما أحبَبتُ ما عِشْتُ غَيرَكم لأن اشتياقي لا يحل اكتتامه. هـ.

قال الجنيد، رضي الله عنه : رأيت غلاماً حسن الوجه يعنف كهلاً حسنا، فقلت: ياغلام، لِمَ تفعل هذا؟ قال: لأنه يدعى أنه يهوانى، ومنذ ثلاث ما رآنى، قال: فوقعت مغشيا على، فلما أفقتُ ما قدرت على النهوض، فقيل لى فى ذلك، فقلت: ينبغى للمحب ألا يفارق باب محبوبه على أى حال. وأنشدوا:

لاَزِمِ البابَ إنْ عَشِقتَ الجَمَالا واهْجُرِ النَّوم إنْ أردتَ الوِصَالا
واجْعلِ الروحَ منك أوَّل نَقْدٍ لحبيبٍ أنْوارُه تَتَلالا

قلت : فالحبيب غيور؛ لا يحب أن يرى في قلب حبيبه غيره . فإذا رأى فيه شيئاً أخرجه منه، وفرق بينه وبينه؛ غيرةً منه واعتناء به، وهو السر في افتراق يوسف من أبيه . والله تعالى أعلم .

ثم تعرضوا ليوسف، فقالوا:

﴿ ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ۝٩ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ۝١٠ ﴾

يقول الحق جل جلاله : قال إخوة يوسف لما حركهم الحسد : ﴿ اقتلوا يوسف ﴾ ؛ قيل: إنما قاله شمعون ودان، ورضي به الآخرون، ﴿ أو اطْرَحُوه أرضاً ﴾ ؛ أي : في أرض بعيدة يأكله السباع، أو يلتقطه أحد، فإن فعلتم ﴿ يَخْلُ لكم وجهُ أبيكم ﴾ أي: يصفُ إليكم وجه أبيكم؛ فيقبل بكليته عليكم، ولا يلتفت عنكم إلى غيركم، ولا ينازعكم في محبته أحد، ﴿ وتكونوا من بعده ﴾ ؛ من بعد يوسف، أو الفراغ من أمره، أو قتله، أو طرحه، ﴿ قوماً صالحين ﴾ تائبين إلى الله عما جنيتم، مع محبة أبيكم . أو صالحين في أمور دنياكم؛ فإنها تنتظم لكم بخلو وجه أبيكم لكم، ﴿ قال قائل منهم ﴾ هو يهوذا، وكان أحسنهم فيه رأياً، وقيل: روبيل: ﴿ لاتقتلوا يوسفَ ﴾ ؛ فإن القتل عظيم، ﴿ وألقوه في غيابة[1] الجُبِّ ﴾ : في قعره، سمي به لغيبته عن أعين الناظرين . ومن قرأ بالجمع، فكان بتلك الجب غيابات، ﴿ يلتقطْه ﴾ : يأخذه ﴿ بعضُ السيارة ﴾ أي: الذين يسيرون في الأرض، ﴿ إن كنتم فاعلين ﴾ ما يفرق بينه وبين أبيه ولابد، أو كنتم فاعلين بمشورتي .

الإشارة: إن أردت أن يخلو لك وجه قلبك فيخلو لك وجه حبيبك، حتى تشاهده عياناً وتعرفه إيقاناً، فاقتل كل ما يميل إليه قلبك ويعشقه من الهوى، واطرح عن عين بصيرتك رؤية السِّوى، ترى من أنوار وجهه وأسرار محاسنه، ما تبتهج به القلوب والأسرار، وتتنزه في رياض محاسنه البصائر والأبصار.وأنشدوا :

إنْ تلاشَى الكَوْن عَنْ عَيْنِ كَشْفِي ... شَاهَدَ القلبُ غَيْبَهُ في بَيَان

فَاطْرَحِ الكَوْنَ عن عِيَانِكَ وامْحُ ... نُقْطَةَ الغَيْنِ إنْ أرَدْتَ تَرَانِي

(١) قرأ الجمهور «غيابة» بالإفراد هنا وفي الموضع التالي في الآية (١٨) وقرأ نافع «غيابات» بالجمع في الموضوعين، وقد سار المفسر هنا على قراءة الجمهور، وسار في الموضع التالي على قراءة نافع.

ثم احتالوا على أبيهم في إرسال يوسف معهم، كما قال تعالى:

﴿ قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأۡمَ۬نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرۡسِلۡهُ مَعَنَا غَدٗا يَرۡتَعۡ وَيَلۡعَبۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّي لَيَحۡزُنُنِيٓ أَن تَذۡهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأۡكُلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَأَنتُمۡ عَنۡهُ غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُواْ لَئِنۡ أَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ إِنَّآ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

قلت : (تأمننا): اجتمع نونان، فيجوز الادغام، وبه قرأ أبو جعفر، وقرأ الجماعة بالإشمام. وقوله: (يرتع ويلعب) : جواب الأمر، فمن قرأ بكسر العين فجزمه بحذف الياء، وهو من رعي الإبل، ومن قرأ بالإسكان فهو من الرتع، وهي الإقامة في الخصب والتنعم، والتاء على هذا أصلية. ووزن الفعل: يفعل، ووزنه على الأول يفتعل، قال ابن عطية: فيرتع على قراءة نافع من رعي الإبل، أي: يتدرب في رعي الإبل وحفظ المال. قال أبو علي: وقراءة ابن كثير: (نرتع) بالنون (ويلعب) بالياء، فنزعها حسن؛ لإسناد النظر في المال والرعاية إليهم، واللعب إلى يوسف لصباه، وقرأ أبو عمر وابن عامر: (نرتع ونلعب)؛ بالنون فيهما، وإسكان العين والباء، من الرتوع، وهو: الإقامة في الخصب والمرعى في أكل وشرب، وقرأ عاصم والأخوان: (يرتع ويلعب) بإسناد ذلك كله إلى يوسف. هـ. **قلت** : وكذا قرأ نافع، غير أنه يكسر العين وهم يسكنون.

(ونحن عصبة) : حال، والرابط الواو، والعصبة: الجماعة من العشرة إلى فوق.

يقول الحق جل جلاله : قال إخوة يوسف لأبيهم: ﴿ يا أبانا مَالكَ لا تأمَنَّا علي يوسف ﴾ أي: لم تخافنا عليه؟ ﴿ وإنا له لناصحون ﴾ نشفق عليه، ونريد له الخير. أرادوا أن يستنزلوه عن رأيه في حفظه منهم لما تنسم من حسدهم. **قلت** : قد نصحوه في الحقيقة حيث تسببوا في ملكه وعزه. رُوِي أنهم لما قالوا له: (مالك....) إلخ، اهتزت أركانه، واصفر لونه، واصطكت أسنانه، وتحركت جوانبه، كأنه علم بما في قلوبهم بالفراسة. ثم قالوا: ﴿ أرسلْه معنا غداً يرتع ﴾ : يتسع في أكل الفواكه ونحوها. أو يتعلم الرعاية، ﴿ ويلعبْ ﴾ بالاستباق والانتضال، ﴿ وإنا له لحافظون ﴾ أن يناله مكروه.

﴿ قال ﴾ يعقوب : ﴿ إني ليحزنني أن تذهبوا به ﴾ لشدة مفارقته عليَّ، وقلة صبري عنه، ﴿ وأخافُ أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافِلون ﴾ : لاشتغالكم بالرتع واللعب، أو لقلة اهتمامكم به، وإنما خاف عليه من الذيب؛

لأن الأرض كانت مذأبة، وقيل: رأى في المنام أن الذئاب أحدقت بيوسف فكان يخافه، وإنما كان تأويلها: إحداق إخوته به حين أرادوا قتله. ﴿ قالوا لئن أكله الذئب ونحن عصبة ﴾: جماعة، ﴿ إنا إذا لخاسرون ﴾: مغبونون من القوة والحزم، أو مستحقون بأن يدعى عليهم بالخسارة.

الإشارة: لم يسمح يعقوب عليه السلام بفراق حبيبه ساعة، وكذلك العبد لا ينبغي أن يغفل عن سيده لحظة؛ لأن الغفلة فراق، والذكر اجتماع، والعبد لا صبر له عن سيده. وأنشدوا:

فلأبكين على الفراق كما بكى ... أسفا لفرقة يوسف يعقوبُ

ولأدْعُونَّكَ في الظلام كما دعا ... عند البلية ربَّهُ أيوبُ

وأنشدوا أيضاً في ذم الغفلة:

غَفَلْتَ عَنِ الأَيَّامِ يَا أَخِي فَانْتَبِهْ ... وَشَمِّرْ فإن الموتَ لا شك واقعْ

على أي شيء هو حزنك قائم ... جنود المنايا تأتيك فانهض وسارعْ

قيل: إن بعض الصالحين رأى أستاذه في المنام، فقال له: ياأستاذ، أي الحسرات عندكم أعظم؟ قال: حسرة الغافلين. وأنشدوا:

تيقظ إلى التّذكار فالعمر قد مضى ... وحتى متَى ذا السكرُ من غفلة الهوى

ورأى ذو النون المصري بعض الصالحين في المنام، فقال له: ما فعل الله بك؟ قال: أوقفني بين يديه، وقال: يامدعي، ادعيت محبتي ثم غفلت عني. وأنشدوا:

تغافلت عن فهم الحقيقة بالهوى ... فلا أذنٌ تُصْغِي ولا عينٌ تَذرِفُ

ضعفت ولكن في أمانيك قوةٌ ... فيا تابعَ اللذاتِ كم تتخلفُ

ورأى عبد الله بن مسلمة والده في النوم، فقال له: يا أبت، كيف ترى حالك؟ فقال له: ياولدي عشنا غافلين. وأنشدوا:

غفلتَ وحادِي الموتِ يحدوك للبِلاَ ... وجسمك يا مغرور أصبح معتلا

وحتى متى ياصاح بابك مغلق ... أتاك نذير الموت والعمر قد ولّي

قيل: ما أصاب يعقوب ما أصابه في ولده إلا من أجل خوفه عليه، وغفلته عن استيداعه ربه، ولو استودعه ربه لحفظه، لكن لا ينفع حذر من قدر. (وكان أمر الله قدراً مقدورا).

ثم ذكر انصرافهم بيوسف، وما كان من شأنه، فقال:

﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ ﴾

قلت: (لمّا) حرف وجود لوجود، يطلب الشرط والجواب، وجوابها هنا محذوف، أي: فعلوا به ما فعلوا. وقيل: جوابها: (أجمعوا)، وقيل: (أوحينا)؛ على زيادة الواو فيهما، وجملة: (وهم لا يشعرون): حال من (تنبئنهم)، فيكون خطاباً ليوسف عليه السلام، أو من (أوحينا)؛ أي: وهم لا يشعرون حين أوحينا إليه. فيكون حينئذ الخطاب لسيدنا محمد ﷺ، و(صبر جميل): مبتدأ، والخبر محذوف، أي: مثل. أو: خبر عن مبتدأ، أي: أمري صبر جميل. و (على قميصه): في موضع نصب على الظرف، أي: فوق قميصه. أو: حال من الدم؛ إن جوز تقديمها على المجرور.

يقول الحق جل جلاله: ﴿فلما ذهبوا﴾ بيوسف معهم ﴿وأجمَعُوا﴾ أي: عزموا ﴿أن يجعلوه في غيابات[1] الجُبِّ﴾؛ وهو بئر بأرض الأردن، أو بين مصر ومدين، أو على ثلاثة فراسخ من مقام يعقوب.

قال الفراء: كان حفره شداد بن عاد. فانظره. قال السدي: ذهبوا بيوسف وبه عليهم كرامة، فلما برزوا في البرية أظهروا له العداوة، وجعل أخوه يضربه فيستغيث بالآخر فيضربه، فجعل لا يرى منهم رحيما. فضربوه حتى كادوا يقتلونه، فجعل يصيح: يا أبتاه يا يعقوب، لو تعلم ما صنع بابنك بنو الإماء. هـ. وكان إخوته سبعة من خالته الحرة، والباقون من سريتين له، كما تقدم.

وقال ابن عباس رضي الله عنه: كان يعقوب عليه السلام ينظر إلى يوسف عليه السلام حتى غاب عنه، وعن نظره، فلما علموا أنهم غيبوه عنه، وضعوه في الأرض وجروه عليها، ولطموا خده، فجرد شمعون سكينه وأراد ذبحه، فتعلق بذيل

(١) راجع التعليق على تفسير الآية ١٠، من نفس السورة.

روبيل وضربه، وكذلك جميع إخوته؛ إذا لجأ لواحد منهم طرده، فضحك عند ذلك يوسف عليه السلام، فقال له يهوذا: ليس هذا موضع الضحك يا يوسف، فقال: من تعزز بغير الله ذل، ظننت أنه لا يصيبني وأنا بينكم مكروه لما رأيت من قوتكم وشدتكم، فسلطكم الله على بشؤم تلك الفكرة؛ حتى لا يكون التوكل إلا عليه والتعزز إلا به. هـ. بالمعنى.

وقال الفراء: كانت زينب بنت يعقوب عليه السلام ـ أخت يوسف ـ وكانت رأت في منامها كأن يوسف وضع بين الذئاب وهم ينهشون، فانتبهت فازعة، ومضت إلى أبيها باكية، فقالت يا أبت، أين أخي يوسف؟ قال: أسلمته إلى إخوته، فمضت خلفه حتى لحقت به، فأمسكته، وتعلقت بذيله، وقالت: لا أفارقك اليوم يا أخي أبدا، فقال لها إخوتها: يا زينب، أرسليه من يدك، فقالت: لا أفعل ذلك أبدا؛ لأني لا أطيق فراق أخي، فقالوا: بالعشي نرده إليك ويأتيك. ثم أقبل يوسف عليه السلام يقبل رأسها ويديها، ويقول لها: يا أختاه دعيني أسير مع إخوتي أرتع وألعب، فذهب، وجلست تشيعه بعينها، ودموعها تتناثر مما رأت؛ خوفاً عليه. هـ.

فلما غابوا به عنها فعلوا به ما تقدم، وهموا بقتله، فقال لهم يهوذا: أما عاهدتموني ألا تقتلوه؛ فأتوا به إلى البئر فدلوه فيها فتعلق بشفيرها، فربطوا يده، ونزعوا قميصه ليلطخوه بالدم، ويحتالوا به على أبيهم، فقال: يا إخوتاه ردّوا عليّ قميصي أتوارى به، فقالوا: ادعُ الأحد عشر كوكباً والشمس والقمر يلبسوك ويؤنسوك. فلما بلغ نصفها ألقوه، وكان فيها ماء، فسقط، ثم آوى إلى صخرة كانت فيها فقام عليها يبكي، فجاءه جبريل بالوحي، كما قال: ﴿ وأوحينا إليه . . . ﴾ الخ. وكان ابن سبع عشرة سنة، وقيل: كان مراهقا. وقال ابن عطية: كان ابن سبع سنين، أوحي إليه في صغره كما أوحي إلى يحيى وعيسى ـ عليهما السلام ـ.

وفي القَصَص: أن ابراهيم عليه السلام، حين ألقي في النار، جُرد من ثيابه، فأتاه جبريل بقميص من حرير الجنة فألبسه إياه، فدفعه إبراهيم إلى إسحق، وإسحق إلى يعقوب، فجعله في تميمة علقها على يوسف، فأخرجه جبريل وألبسه يوسف.

ثم قال له فيما أوحى إليه: ﴿ لتنبئنهم ﴾ أي: لتحدثنهم ﴿ بأمرهم هـذا ﴾؛ بما فعلوا بك، ﴿ وهم لا يشعرون ﴾ أنك يوسف، لعلو شأنك وبعده عن أوهامهم، وطول العهد المغير للحال والهيئات. وذلك إشارة إلى ما قال لهم بمصر، حين دخلوا عليه ممتارين، فعرفهم وهم له منكرون، إلى أن قال لهم: ﴿ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ ﴾(١) وفي رواية: أوحي إليه: يا يوسف لا تحزن على ما أصابك، فإنك تصل إلى ملك كبير، ويقف إخوتك بين يديك. بشره بما يؤول إليه أمره، إيناساً وتطبيباً لقلبه. وقيل: ﴿ وهم لا يشعرون ﴾ متصل بقوله: ﴿ وأوحينا ﴾ أي: آنسناه بالوحي وهم لا يشعرون ذلك.

(١) الآية ٨٩ من سورة يوسف.

﴿ وجاءوا أباهم عِشَاءً﴾ آخر النهار، وقرئ ﴿عُشى﴾ بضم العين والقصر، جمع أعشى، أي: عُشي من البكاء. فجاءوا إليه ﴿يبكُون﴾ أي: متباكين. روي أنه لما سمع بكاءهم فزع وقال: يابني، أين يوسف؟ فقالوا: ﴿يا أبانا إنا ذهبنا نستبق﴾؛ أي: نتسابق بأقدامنا في العَدْو، أو الرمي ﴿وتركنا يوسفَ عند متاعنا فأكله الذئبُ وما أنت بمؤمنٍ لنا﴾: بمصدق لنا ، ﴿ولو كنا صادقين﴾؛ لسوء ظنك، وفرط محبتك ليوسف.

﴿وجاءوا على قميصِه﴾: فوق قميصه ﴿بدمٍ كذبٍ﴾، أي: ذي كذب بمعنى مكذوب فيه؛ لأنهم ذبحوا جدياً، ولطخوا قميصه بدمه. رُوي أنه لما سمع بخبر يوسف صاح ودعا بقميصه فأخذه، وألقاه على وجهه، وبكى حتى خضب وجهه بدم القميص، وقال: ما رأيت كاليوم ذئبًا أحلم من هذا! أكل ابني ولم يمزق عليه قميصه.

وفي رواية أخرى: أنه لما رأى صحة القميص ضحك، فقالوا له: الضحك والبكاء من فعل المجانين! فقال: أما بكائي فعلى يوسف لما رأيت الدم، وأما ضحكي، فإني لما رأيت صحة القميص رجوت أن الحديث غير صحيح، ولذلك ﴿قال بل سوّلتْ لكم أنفسكم أمراً﴾ أي: سهلت لكم، وهونت في أعينكم أمراً عظيماً حتى أقدمتم عليه. وقيل: لما سمع مقالهم غشي عليه إلى الصباح، وهم يبكون بأجمعهم، ويقولون بينهم: بئس ما فعلناه بيوسف ووالده، وأي عذر لنا عند الله. فلما أفاق نظر إلى أولاده وقال: هكذا يا أولادي كان ظني فيكم، بئس ما فعلتم، وبئس ماسولت لكم أنفسكم ﴿فصبر جميل﴾ أي: فأمري صبري جميل. وفي الحديث: «الصبرُ الجميل الذي لا شكوى فيه إلى الخلق»(١). ﴿واللهُ المستعانُ على ما تصفون﴾ أي: على احتمال ما تصفونه من هلاك ابني يوسف، وهذه الجريمة كانت قبل استنبائهم، إن صح أنهم تنبأوا. وقد تقدم في سورة البقرة الخلاف في نبوة الأسباط فراجعه(٢).

الإشارة: في هذه الآية رجاء كبير لأهل العصيان، وبشارة وتأنيس لمن أراد مقام الإحسان، بعد الإساءة والغفلة والنسيان، وذلك أن هؤلاء السادات فعلوا بيوسف عليه السلام ما فعلوا، فلما تابوا بعد هذا الفعل العظيم اجتباهم الحق تعالى، وتاب عليهم، وقربهم حتى صاروا أنبياء، على حد قول بعض العلماء. ولذلك قيل: [كم من خصوص خرجوا من اللصوص، وكم من عابد ناسك خرج من ظالم فاتك]. وفي الحكم: «من استغرب أن ينقذه الله من

(١) أخرجه ابن جرير في التفسير (١٢/١٦٦) عن حبان بن أبي جبلة، مرسلاً.
(٢) راجع تفسير الآية ١٣٦ من سورة البقرة.

شهوته، وأن يخرجه من وجود غفلته، فقد استعجز القدرة الالهية، وكان الله على كل شيء مقتدرا». وللشافعي رضي الله عنه:

قَلَمَّا قَسَا قَلْبِي وَضَاقَتْ مَذَاهِبِي جَعَلْتُ الرَّجَا مِنِّي لِعَفْوِكَ سُلَّمَا
تَعَاظَمَنِي ذَنْبِي فَلَمَّا قَرَنْتُهُ بِعَفْوِكَ رَبِّي كَانَ عَفْوُكَ أَعْظَمَا

وهذا إنما يكون بالتوبة النصوح، والنهوض التام، والمجاهدة الكبيرة، كما فعل إبراهيم بن أدهم، والفضيل ابن عياض، والشيخ أبو يعزى، وغيرهم ممن كانوا لصوصاً فصاروا خصوصاً. قال النبي ﷺ: «مَنْ لم يَغْلِبْ نَفْسَه وهواهُ فَلَيْسَ لَهُ حظٌ في عُقْبَاه». وأنشدوا:

جَنَيْنَا على النفس التي لك رُشْدُها بطَبْعِ الْهَوَى فيها وتِيهٍ مِنَ الحِجَا
جَزَى الله خَيْراً مَنْ أعَدَّ لدائه دَوَاءَ التُّقَى فاستَعْمَلَ الْخَوفَ والرَّجَا
جَبَانٌ وتَرْجُو أنْ تُلَقَّبَ فَارِساً متى شَابَه الْعَضْبُ اليَمانيُّ دُمْلُجَا

وفيها أيضا: تنويه بمقام الصابرين وعاقبة المتقين، فإن يعقوب عليه السلام، لما استعمل الصبر الجميل، جمع الله شمله بولده مع ما أعد له من الثواب الجزيل. ويوسف عليه السلام، لما صبر على ما أصابه من المحن؛ عوضه العز الدائم بترادف المنن. وفي الخبر: «أعلى الدرجات درجات الصابرين». لكل عمل ثواب محدود، وثواب الصبرين غير محدود ولا معدود. قيل: إن الله تعالى أعطى لكل صابر قصراً في الجنة مسيرة الشمس أربعين يوماً، من درة بيضاء معلقة في الهواء، ليس تحته دعامة، ولا فوقه علاقة، وله أربعة آلاف باب، يدخل من كل باب سبعون ألف ملك، يسلمون على صاحبه ولا ترجع النوبة إليهم أبدا. هـ.

ثم ذكر خروج يوسف من البئر، وبيعه، ودخوله مصر، فقال:

﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ

ٱلْأَحَادِيثِۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾

قلت : (بضاعة) : حال من المفعول، أي: وأخفوه مبضعًا به للتجارة . و(لنعلمه) : عطف على محذوف، أي: مكناه في الأرض ليتصرف فيها بالعدل ولنعلمه .. إلخ . و(دراهم) : بدل من (ثمن) . قال الهروى: الأَشُدُّ: من خمسة عشر إلى أربعين سنة . وهو جمع شدة ، مثل: نعمة وأنعم ، وهي: القوة والجلادة في البدن والعقل .هـ .

يقول الحق جل جلاله : ﴿ وجاءت سيارة ﴾ ؛ رفقة تسير من مدين إلى مصر، فنزلوا قريبًا من الجب، وكان ذلك بعد ثلاث من إلقائه فيه. ﴿ فأرسلوا واردَهم ﴾ الذي يرد الماء، ويستقي لهم، وهو: مالك بن ذعر الخزاعي، ﴿ فأدلى دلوه ﴾ أرسلها في الجب ليملأها، فتعلق بها يوسف، فلما رآه ﴿ قال يا بُشرى هذا غلام ﴾ ؛ نادى البشرى، بشارة لنفسه، أو لقومه، كأنه قال: تعال هذا أوانك . وقيل: اسم لصاحبه، ناداه ليعينه على إخراجه فأخرجوه، ﴿ وأسَرُّوه ﴾ أي: أخفاه الوارد، وأصحابه عن الرفقة، وقالوا: دفعه إلينا أهل الماء لنبيعه بمصر، حال كونه ﴿ بضاعة ﴾ ؛ أي: متاعا مبْضعا به للتجارة، أي: يباع ويتجر بثمنه. ﴿ والله عليم بما يعملون ﴾ لم يخف عليه أسرارهم .

﴿ وشَرَوه ﴾ أي: باعه السيارة من الرفقة، أو إخوته، فيكون الضمير راجع لهم. رُوى أن يهوذا كان يأتيه كل يوم بالطعام ، فأتاه يومئذ فلم يجده فيها، وأخبر إخوته فأتوا الرفقة وقالوا: هذا غلامنا فاشتروه، وسكت يوسف خوفًا من أن يقتلوه. أو اشتروه من إخوته؛ لأن شرى قد يستعمل بمعنى اشترى. فاشتراه الرفقة منهم ﴿ بثمن بَخْس ﴾ ؛ أي: مبخوس، لزيفه أو نقصانه، ﴿ دراهم معدودة ﴾ قليلة، فإنهم يَزِنُون ما بلغ الأوقية، ويعدُّون ما دونها . قيل: كان عشرين درهمًا. وقيل: اثنين وعشرين. رُوى أن الذى اشتراه منهم مالك بن ذعر المتقدم، وكان صعلوكًا، فسأل يوسف أن يدعو له فدعا له فصار غنيًا. رُوى أنه قال لهم: بكم تبيعونه؟ فقالوا له: إن اشتريته بعيوبه بعناه لك . فقال: وما عيوبه؟ فقالوا: سارق كذاب، يرى الرؤيا الكاذبة. فقال لهم: بكم تبيعونه لي مع عيوبه؟ ويوسف عليه السلام ينظر إليهم ولا يتكلم، وهو يقول في نفسه: ما أظنه يقوم بثمني؛ لأنهم يطلبون أموالاً كثيرة. قال لهم مالك: معي دراهم قليلة تعد ولا توزن، فقالوا له : هاتها. فاشتراه منهم بتلك الدراهم المعدودة. قال ابن عباس: كانت سبعة عشر درهمًا، جعل له ذلك جزاء لما قوم نفسه، وظن أنهم يطلبون فيه الأموال. هـ . ﴿ وكانوا فيه من الزاهدين ﴾ : الراغبين عنه. يحتمل أن يكون الضمير لإخوته، وزهدهم فيه ظاهر. أو يكون للرفقة، فإن كانوا

بائعين فزهدهم فيه لأنهم التقطوه والملتقط للشيء متهاون به خائف من انتزاعه، وإن كانوا مبتاعين فلأنهم اعتقدوا أنه آبق.

قال الفراء: لما اشتراه منهم مالك، قال لهم: اكتبوا لي كتابا بخطكم بأنكم بعتم مني هذا الغلام بكذا وكذا، فكتبوا له ذلك، فلما أراد الرحيل قالوا له: اربطه لئلا يهرب، فلما همّ بربطه قال له يوسف: خلني أودّع ساداتي؛ فلعلي لاألقاهم بعد هذا اليوم. فقال له مالك: ما أكرمك من مملوك، حيث يفعل بك هذا وأنت تتقرب منهم. فقال له يوسف: كل أحد يفعل ما يليق به، فقال له: دونك، فقصدهم وهُم قيام صفاً واحدا، فلما دنا منهم بكوا وبكى يوسف عليه السلام، ثم قالوا: والله لقد ندمنا يايوسف على ما فعلنا، ولولا الخشية من والدنا لرددناك. هـ. ثم ذهبوا به إلى مصر فباعوه، فاشتراه العزيز الذي كان على خزائن مصر. واسمه: «قطفير»، وكان الملك يومئذ «ريان بن الوليد العلقمي»، وقد آمن بيوسف، ومات في حياته.

﴿ وقال الذى اشتراه من مصر لامرأته ﴾ راعيل، أو زليخا، ﴿ أكرمي مثواه ﴾؛ اجعلي مقامه عندنا كريماً، والمعنى: أحسني تعهده، ﴿ عسى أن ينفعنا ﴾ في ضياعنا وأموالنا، نستظهر به في مصالحنا، ﴿ أو نتخذه ولداً ﴾ أي: نتبنَّاه، وكان عقيما، لما تفرس فيه من الرشد. ولذلك قيل:(أفرس الناس عزيز مصر، وابنة شعيب التي قالت: ﴿ يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ ﴾(١)، وأبو بكر حين استخلف عمر)(٢).

قال البيضاوي: رُوي أنه اشتراه العزيز وهو ابن تسع عشرة سنة، ولبث في منزله ثلاث عشرة سنة، واستوزره الريان وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة، وتوفي وهو ابن مائة وعشرين سنة. واختلف فيما اشتراه به مَنْ جعل شراءً غير الأول، فقيل: عشرون ديناراً، وزوجا نعل، وثوبان أبيضان. وقيل: ملؤه ـ أي وزنه ـ فضة، وقيل: ذهبا. هـ. وقيل: مسكاً وحريراً.

﴿ وكذلك مكّنّا ليوسف في الأرض ﴾ أي: وكما مكنا محبته في قلب العزيز، أو كما مكناه في منزله، أو كما أنجيته، وعطفنا عليه العزيز، مكناه في الأرض، ليتصرف فيها بالعدل، ﴿ ولنُعلّمه من تأويل الأحاديث ﴾؛ أي: من تأويل كتب الله المتقدمة، أو من تأويل الأحكام الحادثة بين الناس ليحكم فيها بالعدل، أو من تعبير المنامات، ليستعد لها قبل حلولها. أي: كان القصد في إنجائه وتمكينه: إقامته العدل، وتيسير أمور الناس، وليَعلَم معاني كُتب الله وأحكامه فينفذها، ﴿ والله غالبٌ على أمره ﴾: لا يرده شيء، ولا ينازعه فيما يريد جبار ولا عنيد، أو: غالب

(١) من الآية ٢٦ من سورة القصص.
(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢/٣٤٦) وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي، عن ابن مسعود وكذلك أخرجه الطبراني في الكبير (٨/١٨٥ ح ٨٨٢٩).

على أمر يوسف، فيدبر أمره بالحفظ والرعاية، والنصر والعز في عاقبة أمره، خلاف ما أراد به إخوته، ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ أن الأمر كله بيده، أو لا يفهمون لطائف صنعه، وخفايا لطفه.

﴿ ولما بلغ أشده ﴾ ؛ منتهى اشتداد جسمه، وكمال عقله. وتقدم تفسير الهروي له، وحده. وقيل: ما بين الثلاثين والأربعين، ﴿ آتيناه حُكماً ﴾ : حكمة، وهي النبوة. أو العلم المؤيد بالعمل. أو حُكمًا بين الناس بالعدل. ﴿ وعلما ﴾ يعني: علم تأويل الأحاديث، أو علماً بأسرار الربوبية، وكيفية آداب العبودية. ﴿ وكذلك نجزي المحسنين ﴾ إذا كمل عقلهم، وتوفر آدابهم، وكمل تهذيبهم، آتيناهم الحكمة وكمال المعرفة. وفيه تنبيه على أنه تعالى إنما آتاه ذلك جزاء على إحسانه وإتقانه عمله في عنفوان شبابه.

الإشارة: من ظن انفكاك لطف الله عن قدره؛ فذلك لقصور نظره، لاسيما لطفه بالمتوجهين إليه، أو العارفين به الواصلين لحضرته. فكل ما ينزل بهم فإنما هو أقدار جارية، وأمداد سارية، وأنوار بهية، وألطاف خفية، تسبق لهم الأنوار قبل نزول الأقدار، فلا تحوم حول قلوبهم الأكدار، ولا تغير قلوبهم رؤية الأغيار، عند نزول شدائد الأقدار، يحفظ عليهم أسرار التوحيد، وينزل عليهم أنوار التأييد، عند نزول القضاء الشديد، والبلاء العتيد. ولابن الفارض رضي الله عنه:

أحِبَّــائِي أنْتُمْ، أحْسَـــنَ الدَّهْـرُ أم أسا فَكُونُوا كَمَـــا شِـئْـتُمْ أنا ذَلكَ الخِـــل

وقال صاحب العينية:

تَلَذُّ لِي الآلامُ إذْ كُنْتَ مُسْــقِمِي وإنْ تَخْتَبِرْنِي فَهْيِ عِنْـدِي صَنَائِعُ
تَحَكَّمْ بِما تَهْــواهُ فِيَّ فَــإنَّنِـي فَقِيـرٌ لِسُلْطَانِ المَحَبَّـةِ طَائِـعُ

وقد جرت عادة الله تعالى أن يعقب الجلال بالجمال، والمحن بالمنن، والذل بالعز، والفقر بالغنى، فبقدر ما تشتد المحن تأتي بعدها مواهب المنن، وبقدر ما ينزل من الجلال يأتي بعده الجمال. سُنة الله في خلقه، ولن تجد لسنة الله تبديلا. لاراد لما قضي، ولا معقب لما به حكم وأمضي.

قال تعالى: ﴿ والله غالبٌ على أمره ﴾ : قال بعض المفسرين: هذه الآية هي قطب هذه السورة، ثم قال: أراد آدم البقاء في الجنة، وما أراد الله ذلك، فكان الأمْر مُراد الله. وأراد إبليس أن يكون رأس البررة الكرام، وأراد الله أن يكون إمام الكفرة اللئام، فكان الأمر كما أراد الله. وأراد النمرود هلاك إبراهيم عليه السلام، ولم يرده الله، فكان الأمر كما

أراد الله. وأراد فرعون هلاك موسى عليه السلام، فأهلكه الله، ونجى موسى. وأراد داود أن يكون الملك لولده ميشا، وأراد الله أن يكون لسليمان عليه السلام، فكان كما أراد الله. وأراد أبو جهل هلاك سيدنا محمد ﷺ ونبوة الوليد بن المغيرة، فأهلك الله أبا جهل والوليد ونبأ محمداً ﷺ. وأراد المنذر بن عاد البقاء في الدنيا، فأهلكه الله وخرب ملكه. وأراد إرم العاتي، الذي بنى إرم ذات العماد، يحاكي بها الجنة، أن يسكنها خالداً فيها، فكذبه الله، وحال بينه وبينها، وغيبها عنه، حتى مات بحسرتها. هـ.

ثم ذكر مراودة زليخا ليوسف، وما كان من شأنهما، فقال:

﴿ وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾ ﴾

قلت: المراودة: المطالبة، من راد يرود: إذا جاء وذهب لطلب الشيء، ومنه الرائد. و(هيت): اسم فعل معناه: تعال، أو أقبل، مبني على الفتح كأين، واللام للتبيين، كالتي في: سقيا لك، وقرأ ابن كثير: بالضم؛ تشبيهاً بحيث، ونافع وابن عامر بالفتح، وهي لغة فيه. وقرئ: «هِئْتُ» بالهمز؛ كجئت، من هاءَ يهيء: إذا تهيأ. و(معاذ الله): مصدر لمحذوف، أي: أعوذ بالله معاذاً. و(إنه): ضمير الشأن. و(لولا): حرف امتناع، وجوابها محذوف، أي: لخالطها، ولا يجوز أن يكون (وهَمّ بها) جوابها؛ لأن حكمها حكم الشرط، فلا يتقدم عليها جوابها. قاله البيضاوي.

قلت : وبهذا يُرد على من وقف على (همت به) ، كالهبطي ومن تبعه، إلا أن يُحمل على أنه ابتداء كلام مع حذف الجواب. واستحسنه البعض؛ ليكون همُّ يوسف خارجاً عن القسم، (وكذلك): في موضع المصدر، أي: ثبتناه مثل ذلك التثبيت لنصرف.. الخ، و(المخلصين) بالفتح: اسم مفعول من: أخلصه الله. وبالكسر: اسم فاعل بمعنى: أخلص دينه لله.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وراودته ﴾ للفاحشة، أي: تمحلت وطلبت منه أن يواقعها ﴿ التي هو في بيتها ﴾ ؛ وهي زليخا. وترك التصريح بها؛ استهجاناً. فراودته عن نفسه، ﴿ وغلقتِ الأبوابَ ﴾ ، قيل: كانوا سبعة. والتشديد للتكثير، أو للمبالغة في الإيثاق، ﴿ وقالت هَيت لك ﴾ أي: أقبل وبادر، أو تهيأتُ لك. رُوي أنها تزينت بأحسن ما عندها، وقالت: تعال يا يوسف، ﴿ قال مَعَاذَ الله ﴾ ؛ أي: أعوذ بالله معاذاً، ﴿ إنه ﴾ أي: الشأن، ﴿ ربي أحسن مثواي ﴾ ؛ سيدي أحسن إقامتي وتربيتي، إذ قال لك أكرمي مثواي، فما جزاؤه أن أخونه في أهله، أو أنه تعالى ربي أحسن مَنزلي؛ بأن عطف عليّ قلبَ سيدي، ولطف بي في أموري، فلا أعصيه، ﴿ إنه لا يُفلحُ الظالمون ﴾ ؛ المجاوزون الإحسان إلى الإساءة، أو الزناة؛ فإن الزنى ظلم على الزاني والمزنيّ بأهله.

﴿ ولقد هَمّتْ به وهمَّ بها ﴾ ، قال ابن جزي: أكْثَرَ الناسُ الكلامَ في هذه الآية، حتى ألفوا فيها التآليف، فمنهم مفرط ومُفرِّط؛ وذلك أن منهم من جعل هَمّ المرأة وهَمّ يوسف من حيث الفعل الذي أرادته. وذكروا من ذلك روايات من جلوسه بين رجليها، وحله للتكة، وغير ذلك مما لا ينبغي أن يقال به؛ لضعف نقله ولنزاهة الأنبياء عن مثله، ومنهم من قال: همت به لتضربه على امتناعه، وهمّ بها ليقتلها أو يضربها؛ ليدفعها. وهذا بعيد يرده قوله: ﴿ لولا أن رأى برهان رَبِّه ﴾ . ثم قال: والصواب ـ إن شاء الله ـ: أنها همت به من حيث مرادُها، وهَمّ بها كذلك، لكنه لم يعزم على ذلك، ولم يبلغ إلى حد ماذكر من حل التكّة، بل كان همه خطرة خطرت على قلبه، ولم يتابعها، ولكنه بادر إلى التوبة والإقلاع عن تلك الخطرة، حتى محاها من قلبه، لمَّا رأى برهان ربه. ولا يقدح هذا في عصمة الأنبياء؛ لأن الهم بالذنب ليس بذنب، ولا نقص في ذلك؛ لأن من همّ بذنب ثم تركه كتب له حسنة. هـ.

قلت : وكلامه حسن؛ لأن الخطرات لا طاقة للبشر على تركها، وبمجاهدة مخالفتها فُضّل البشر على جنس الملائكة، وقال البيضاوي: والمراد بهمه: ميل الطبع، ومنازعة الشهوة، لا القصد الاختياري، وذلك مما لايدخل تحت التكليف، بل الحقيق بالمدح والأجر الجزيل، لمن يكف نفسه عن الفعل عند قيام هذا الهم أو مشارفته، كقوله: قتلته لو لم أخف الله.هـ. ومثله في تفسير الفخر، وأنه مال إليها بمقتضى الطبع، ومُنع منه بصارف العصمة؛ كالصائم يشتاق الماء البارد، ويمنعه منه صومه. ومثله أيضا في لطائف المنن: همت به همّ إرادة، وهمّ

بها همّ ميل لا همّ إرادة. قال المحشي الفاسي: وفيه نظر؛ لأن ذلك لا يتصور في النفوس المطمئنة. وإنما ذلك شأن أرباب التلوين والمجاهدة، دون أهل التمكين والمشاهدة، وخصوصاً الأنبياء؛ إذ صارت نفوسهم مشاكلة للروح، مندرجة فيها، ولذلك صارت مطمئنة، وميلها حينئذ إنما يكون للطاعة، وأما غير الطاعة، فهي بمنزلة القذر والنتن تشمئز منه، ولا يتصور بحال ميلها إليه. ثم أطال الكلام في ذلك.

قلت: أما تفسير الهم بالميل فلا يليق بالنفس المطمئنة. وأما تفسيره بالخاطر فيتصور في المطمئنة وغيرها. وإنما سماه الله تعالى هماً في حق يوسف عليه السلام؛ لأن الأنبياء ـ عليهم السلام ـ لعلو منصبهم، وشدة قربهم من الحضرة، يشدد عليهم في مطالبة الأدب، فيجعل الخاطر في حقهم همّاً، وظنا. كما قال تعالى: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا ﴾(١) فيمن خفف الذال، أو كما قال تعالى في حق يونس عليه السلام: ﴿ فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ ﴾(٢)؛ على أحد التفاسير. والله تعالى أعلم.

ثم قال تعالى: ﴿ لولا أن رأى برهانَ ربه ﴾ لخالطها. والبرهان الذي رأى: قيل: ناداه جبريل: يا يوسف تكون في ديوان الأنبياء، وتفعل فعل السفهاء. وقيل: رأى يعقوب عاضاً على أنامله، يقول: إياك يايوسف والفاحشة. وقيل: تفكر في قبح الزني فاستبصر. وقيل: رأى زليخا غطت وجه صنمها حياءً منه، فقال: أنا أولى أن أستحي من ربي. ﴿ كذلك ﴾ أي: مثل ذلك التثبيت ثبتناه؛ ﴿ لِنصرِفَ عنه السُوءَ ﴾؛ خيانة السيد، ﴿ والفحشاءَ ﴾، الزنى؛ ﴿ إنه من عبادنا المُخلَصين ﴾ الذين أخلصناهم لحضرتنا. أو من الذين أخلصوا وجهتهم إلينا.

﴿ واسْتَبَقَا البابَ ﴾ أي: تسابقا إلى الباب، وابتدرا إليه، وذلك أن يوسف عليه السلام فرّ منها؛ ليخرج حين رأى البرهان، وأسرعت وراءه لتمنعه الخروج، ﴿ وقَدّتْ قميصَه من دُبُرٍ ﴾ أي: شقت قميصه من خلف لما اجتذبته لترده. والقَدُّ: الشق طولا، والقَطّ: الشق عرضًا، ﴿ وألفيا سيدها ﴾: وصادفا زوجها ﴿ لدى الباب ﴾؛ وفيه إطلاق السيد على الزوج، وإنما أفرد الباب هنا، وجمعه في قوله: ﴿ وغلقت الأبواب ﴾ لأن المراد هنا الباب البراني الذي هو المخرج من الدار. ﴿ قالتْ ﴾ لزوجها: ﴿ ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يُسجن أو عذابٌ أليم ﴾ ؟ قالته إيهامًا أنها فرت منه؛ تبرئة لساحتها عند زوجها، وإغراء له عليه؛ انتقامًا لنفسها لما امتنع منها. ﴿ قال هي راودتني عن نفسي ﴾: طالبتني بالمواقعة بها. قال ذلك تبرئة لساحته، ولو لم تكذب عليه ماقاله.

---

(١) من الآية: ١١٠ من سورة يوسف.

(٢) من الآية/ ٨٧ من سورة الأنبياء.

﴿وشَهِدَ شاهدٌ من أهلها﴾، قيل: ابن عمها. وقيل: ابن خالها صبياً في المهد. وكونه من أهلها أوجب للحجة عليها، وأوثق لبراءة يوسف. وكونه لم يتكلم قط، ثم تكلم كرامة ليوسف عليه السلام،وعن النبي ﷺ: «تكلم في المهد أربعةٌ: ابنُ ماشِطَةَ ابنة فِرْعَون، وشَاهِدُ يُوسُفَ، وصَاحِب جُرَيْجٍ، وعيسَى». وذكر مسلم في صحيحه ـ في قصة الأخدود ـ: «أن امرأة أُتِي بها لتُطْرَح في النار، ومعها صبي يرضع، فقال لها: يا أُمَهْ، أصبري، لا تجزعي. فإنك على الحق..»[1] وعَدّ بعضهم عشرة تكلموا في المهد، فذكر إبراهيم عليه السلام، ويحيى ابن زكريا، ومريم، ونبينا محمد ﷺ، وطفلا في زمنه عليه السلام، وهو: مبارك اليمامة، وقد نظمهم السيوطي، وزاد واحداً، فقال:

تَكلــَّم في المَهْـدِ النَّبِيُّ مُـحَـمَّـدٌ ... ويحـيى وعـيـسى والخليلُ ومـريمُ
وصَـبِيُّ جُـرَيْجٍ ثم شـاهِدُ يُوسُفٍ ... وطفلٌ لدى الأُخْـدُود يَرْويه مُـسْلِمُ
وطِـــفْلٌ عليْـه مُرَّ بِالأمَـةِ الَّتـي ... يُقـال لهـا تَزْنِـي ولا تَتَكَـلَّـمُ
ومَاشِطَةٌ في عَـهْدِ فرعـونَ طِفْلُها ... وفي زَمَنِ الهـادِي المُبَارَكُ تُـخْـتَمُ

وذكر ابن وهب عن أبي لهيعـة قال: بلغني أن المولود فيما تقـدم كان يولد في الليل، فيصـبح يمشي مع أمه.هـ. وضعف ابن عطية كون شاهد يوسف صبيًا بالحديث: «لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة»، وبأنه لو كان الشاهد صبياً لكان الدليل نفس كلامه، دون أن يحتاج إلى الاستدلال بالقميص. هـ. وقد يجاب بأن الحصر باعتبار بني إسرائيل، مع أن الوحي يتزايد شيئًا فشيئاً، فأخبر بثلاثة، ثم أخبر بآخرين، وبأن الاستدلال وقع بهما تحقيقاً للقضية.

ثم ذكر الحق تعالى ما قاله الشاهد، فقال: ﴿إن كان قميصُه قُدَّ من قُبلٍ فصدقتْ وهو من الكاذبين﴾؛ لأنه يدل على أنها قدت قميصه من قُدامه بالدفع عن نفسها. أو لأنه أسرع خلفها فعثر بذيله فانقدَّ جيبُه. ﴿وإن كان قميصُه قُدَّ من دُبر فكذبتْ وهو من الصادقين﴾؛ لأنها جذبته إلى نفسها حين فرَّ منها. والجملة الشرطية محكية بالقول، أي: قال: إن كان... إلخ. وتسميتها شهادة؛ لأنها أدت مؤداها. والجمع بين «إنْ» و«كان»: على تأويل: إن يعلم أنه كان، ونحوه، ونظيره: قولك: إن أحسنتَ إليَّ فقد أحسنتُ إليك من قبل. فإن معناه: إن تمتن عليّ بإحسانك أمتن عليك بإحساني. ومعناه: إن ظهر أنه كان قميصه.. الخ.

(١) أخرجه مسلم في (الزهد والرقائق، باب قصة أصحاب الأخدود...) من حديث صهيب رضي الله عنه.

﴿ فلمَا رأى﴾ زوجُها قميصَ يوسف ﴿قُدَّ من دبُرٍ قال إنه﴾ أي: قَوْلُكِ: ﴿ما جزاء...﴾ الخ. ﴿من كَيْدِكُنَّ﴾؛ من حيلتكن. والخطاب لها ولأمثالها ولسائر النساء، ﴿إن كَيْدَكُنَّ عظيم﴾؛ لأن كيد النساء ألطف وأعلق بالقلب، وأشد تأثيراً من النفس والشيطان؛ لأنهن يواجهن به الرجال، والنفس والشيطان يوسوسان مسارقة. ثم التفت العزيزُ إلى يوسف، وقال:﴿ يوسفُ﴾ أي: يا يوسف. وحذف النداء؛ إشارة إلى تقريبه وملاطفته، ﴿أعْرِضْ عن هذا﴾ الأمر واكتمه، ولا تذكره، ﴿واستغفري﴾ يازليخا ﴿لذنبك إنك كنت من الخاطئين﴾؛ من القوم المذنبين، من خطأ؛ إذا أذنب متعمداً. والتذكير للتغليب. قاله البيضاوي.

الإشارة: إذا أراد الله أن يصافي عبده بخصوصية النبوة أو الولاية، كلأه بعين الرعاية، وجذبه إليه بسابق العناية؛ فإذا امتحنه أيدّه بعصمته، وسابق حفظه ورعايته. ولا يلزم من ثبوت الخصوصية عدم وصف البشرية؛ فالشهوة في البشر أمر طبيعي، وبمجاهدتها ظهر شرفه. لكن النفس المطمئنة لا تحتاج في دفعها إلى كبير مجاهدة.

والنفس اللوامة لابد في دفعها من المكابدة والمجاهدة؛ فالهواجم والخواطر ترد على القلوب كلها، لكن النفس المطمئنة لها قوة على دفعها، وقد تتصرف فيها بإمضاء ما قدره الله الواحد القهار عليها. ﴿وكان أمر الله قدرا مقدورا﴾. وذلك كمال في حقهم لا نقصان؛ إذ بذلك تتميز قهرية الربوبية من ضعف العبودية، فما ظهرت كمالات الربوبية إلا بظهور نقائص العبودية. أما الإصرار على العيوب فلا يوجد مع الخصوصية مطلقا، وأما هجومها على العبد من غير إصرار فيكون مع وجود خصوصية النبوة والولاية، وقد تقع بها الزيادة إن صحبها الانكسار والإنابة. وفي الحكم: «ربما قضى عليك بالذنب فكان سبب الوصول». والله تعالى أعلم.

واعلمْ أن ما امتحن به الصديق عليه السلام مع العصمة، قد وقع مثله كثيراً في هذه الأمة المحمدية مع الحفظ والامتناع؛ ذكر الرصاع في كتاب التحفة: أن بعض الطلبة كان ساكناً في مدرسة فاس، فخرجت امرأة ذات يوم إلى الحمام بابنتها، فتلفَتْ البنت وبقيت كذلك إلى الليل، فرأت باباً خلفه ضوء، فأتت إليه، فوجدت فيه رجلا ينظر في كتاب، فقالت: إن لم يكن الخير عند هذا فلا يكون عند أحد. فقرعت الباب، فخرج الرجل فذكرت له قصتها، وأنها خافت على نفسها. فرأى أنه تعيّنَ عليه حفظها، فأدخلها وجعل حصيراً بينه وبينها، وبقي كذلك ينظر في كتابه، فإذا بالشيطان زين له عمله، فحفظه الله ببركة العلم، فأخذ المصباح، وجعل يحرك أصابعه واحداً بعد واحد حتى أحرقها، والبنت تنظر إليه وتتعجب، ثم خرج ينظر إلى الليل فوجده مازال، فأحرق أصابع اليد الأخرى، ثم لاح الضوء، فقال: اخرجي، فخرجت إلى دارها سالمة، فذكرت القضية لوالديها، فأتى أبوها إلى مجلس العلم، وذكر القصة للشيخ، فقال للحاضرين: أخرجوا أيديكم وأمدوا على دعائي لهذا الرجل، فأخرجوا أيديهم، وبقي رجل، فعلم الشيخ أنه صاحب القضية، فناداه، فأخبره، فذكر أنه زوجه الأب منها. هـ. مختصرا.

فمن ترك شيئاً لله عوضه الله مثله، أو أحسن منه. وكذلك فعل الحق تعالى بيوسف عليه السلام قد زوجه زليخا على ما يأتي إن شاء الله.

وحدثني شيخ شيخي مولاي العربي رضي الله عنه، أنه وقف على حكايات تناسب هذا؛ وهو أن رجلاً صالحاً تعلق قلبه بابنة الملك، فلما رأى نفسه أنه لا يقدر على تزوجها تلطف حتى دخل عليها في قبتها ليلاً، فوجدها نائمة على فراشها مُلقى على وجهها رداؤها، وشمعة تشعل عند رأسها، وأخرى عند رجلها، وطعام موضوع عندها. فكشف عن وجهها فرأى من الجمال ما أبهر عقله؛ فجعل يتردد في نفسه، ويخاصمها على فعل الفاحشة، فبينما هو كذلك إذ أبصر لوحاً فوق رأسها مكتوباً فيه ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا﴾(١)، فتاب لله تعالى عليه، وزجر نفسه عن هواها، فوضع يده في ذلك الطعام ليأكل منه، وترك فيه أثراً، فلما أفاقت البنت رأت أثر اليد في الطعام، فسألت أهل الدار، فكلهم قالوا: ما دخل عليك أحد منا، فتيقنت أن رجلاً دخل عليها، وكان يخطبها كثيرٌ ممن له الرئاسة والجاه، فخافت على نفسها من أن يطرقها أحد منهم فيغصبها، فقالت لأبيها: لابد أن تزوجني، فقال في نفسه: والله لا أزوجها الا لرجل صالح، فخرج مختفيا إلى المدرسة، فأتى بعض الناس، فقال: سمعت هنا برجل صالح، فأردت أن أزوره؛ فأشار إلى ذلك الرجل الذي دخل على بنته ثم سأل ثانياً، وثالثاً، فكلهم أشار إليه، فأتى إليه فقال له: إن لي بنتا جميلة خطبها مني كثير من الناس، فأردت أن أزوجكها، فجهزها بما يليق بها، وزوجها إياه. هـ.

وذكر ابن عرضون: أن رجلاً كان بالقيروان من العلماء الأتقياء، يقال له شقران، وكان جميل الصورة، فهوته امرأة، فأرسلت إلى عجوز، وأسرت إليها أمره على أن توصله إليها، فأتت إليه العجوز، وقالت: عندي ابنة مريضة، وأرادت أن توصي، وعسى أن تصل إليها وتدعو لها، فلبس ثيابه، ومشى معها إلى أن وصلت إلى الدارفأدخلته، فوجد صبية جميلة، فقالت له: هلُمّ، فقال: إني أخاف الله رب العالمين. فقالت له العجوز: هيهات ياشقران، والله لئن لم تفعل لأصيحنّ، وأقول: إنك دخلت علينا وعارضتنا، فقال لها: إن كان ولابد فدعيني حتى أدخل الحجرة، فقالت له: افعل ما بدا لك، فدخل الحجرة، فقال: اللهم إنها ما هوت مني إلا صورتي فغيّرها، فخرج من الحجرة، وقد ظهر عليه الجذام. فلما رأته، قالت: اخرج، فخرج سالماً. وهذه الحكاية مشهورة ببلاد القيروان. هـ.

قلت: وقد نزل بنا في حال شبابنا كثير مما يشبه هذا، فحفظنا الله بمنّه وكرمه وحسن رعايته. فلله المنة والحمد، لا أحصي ثناء عليه.

---

(١) من الآية ٢ من سورة الطلاق.

ولما شاع خبر زليخا مع يوسف عليه السلام، عاب عليها بعض النسوة، كما قال تعالى:

﴿ ۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ﴾

قلت: (نسوة): اسم جمع لامرأة. وتأنيثه غير حقيقي، ولذلك جرد فعله من التاء. و(في المدينة) متعلق بقال، أي: أشعن الخبر في المدينة، أو: صفة لنسوة، فيتعلق بالاستقرار. و(حبا): تمييز. و(حاشَ لله): قال أبو علي الفارسي: هي هنا فعل، والدليل على ذلك من وجهين، أحدهما: أنها دخلت على لام الجر، ولا يدخل حرف على حرف. والآخر: أنها حذف منها الألف، على قراءة الجماعة، والحروف لا يحذف منها شيء. وقرأها أبو عمرو بالألف على الأصل، والفاعل بحاش ضميرُ يوسف، أي: بعد يوسف عن الفاحشة لخوف الله.

وقال الزمخشري: حاش: وضع موضع المصدر، كأنه قال: تنزيهاً لله. وحذف منه التنوين؛ مراعاة لأصله من الحرفية. وقال البيضاوي: هو حرف يفيد معنى التنزيه في باب الاستثناء، فوضع موضع التنزيه. واللام للبيان، كما في قولك: سقيالك. هـ. و(ليكونن): نون التوكيد الخفيفة كتبت بالألف؛ لشبهها بالتنوين.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وقال نسوة في المدينة﴾: مصر، وكانوا خمسا: زوجة الحاجب، والساقي، والخباز، والسجان، وصاحب الدواب. قلن: ﴿امرأتُ العزيز تُراودُ فتاها﴾: خادمها ﴿عن نفسه﴾ أي: تطلب مواقعة غلامها إياها، ﴿قد شَغَفَها حُباً﴾؛ قد دخل شغافَ قلبها حبُّه، وهو غلافه، ﴿إنا لنراها في ضلال مبين﴾؛ في خطأ عن الرشد بيِّن ظاهر. ﴿فلما سمعتْ بمكرهنّ﴾؛ باغتيابهن. وسماه مكراً؛ لأنهن أخفينَه كما يخفي الماكر مكره. وقيل: كانت استكتمتْهن سرها فأفشينه. فلما بلغها إفشاؤه ﴿أرسلتْ إليهن﴾ تدعوهن. قيل:

دعت أربعين امرأة فيهن الخمس. ﴿ وأعتدتْ ﴾: أعدت ﴿ لهن مُتكأً ﴾؛ ما يتكئن عليه من الوسائد ونحوها. وقيل: المتكأ: طعام ، فإنهم كانوا يتكئون للطعام عند أكله، وقرئ في الشاذ: «مَتْكاً»، بسكون التاء وتنوين الكاف، وهو الأترج. ﴿ وآتتْ كلَّ واحدةٍ منهن سكِّيناً ﴾ ليقطعن به. وهذا يدل على أن الطعام كان مما يقطع بالسكاكين كالأترج. وقيل: كان لحماً.

﴿ وقالت اخْرُجْ عليهن ﴾، فأسعفها؛ لأنه كان مملوك زوجها، فخرج عليهن، ﴿ فلما رأينه أكْبَرْنَه ﴾: عظمن شأنه وجماله الباهر، وعن النبي ﷺ أنه قال: «رأَيْتُ يُوسُفَ لَيْلَةَ المعراج كَالْقَمَرِ لَيْلَةَ البَدْرِ». وقيل: كان يُرى تلألؤ وجهه على الجدران. ﴿ وقطّعنَ أيْدِيَهُنَّ ﴾: جرحنها بالسكين؛ لفرط الدهشة. اشتغلن بالنظر إليه، وبُهتْنَ من جماله حتى قطعن أيديهن، وهُنّ لا يشعرن، كما يقطع الطعام. ﴿ وقُلْنَ حاشَ لله ﴾؛ تنزيهاً له عن صفات العجز عن أن يخلق مثله. أوتنزيها له أن يجعل هذا بشراً. اعتقدوا أن الكمال خاص بالملائكة، وكونه في البشر في حيز المحال، أو تعجباً من قدرته على خلق مثله. ﴿ ما هذا بشراً ﴾؛ لأن هذا الجمال غير معهود للبشر، ﴿ إنْ هذا إلاّ مَلَكٌ كريمٌ ﴾ على الله؛ لأن الجمع بين الجمال الرائق، والكمال الفائق، والعصمة البالغة. من خواص الملائكة.

﴿ قالت ﴾ لهن: ﴿ فذلِكُنَّ الذي لُمتُنّني فيه ﴾؛ توبيخاً لهن على اللوم، أي: فهو ذلك الغلام الكنعاني، الذي لمتنني في الافتتان به قبل أن ترونه. ولو كنتن رأيْتُنَّهُ لعذرتُنّني، ﴿ ولقد راودتُه عن نفسه فاستعصمَ ﴾: فامتنع طلباً للعصمة. أقرت لهن حين عرفت أنهن يعذرنها؛ كي يعاونها على إلانة عريكته، ﴿ ولئن لم يفعلْ ما آمُرُهُ ﴾ به ﴿ ليُسْجَنَنَّ وليكوناً من الصاغرين ﴾ الأذلاء، وهو من صغِر، بالكسر، يَصغَر صغاراً. فقلن له: أطع مولاتك.

﴿ قال ربِّ السجنُ أحبُّ إليَّ مما يدعونني إليه ﴾ من فعل الفاحشة؛ بالنظر إلى العاقبة. وإن كان مما يشتهيه النفس. لكن رُبَّ شهْوة ساعة أوْرَثَتْ حزْنا طويلا. قيل: إنما ابتلي بالسجن لقوله هذا، وإنما كان اللائق به أن يسأل الله العافية، فالاختيار لنفسه أوقعه في السجن، ولو ترك الاختيار لكان معصوماً من غير امتحان بالسجن، كما كان معصومًا وقت المراودة، ﴿ وإلاّ تصْرِفْ عني ﴾: وإن لم تصرف عنى ﴿ كيدهُنَّ ﴾ من تحبيب ذلك إليّ، وتحسينه عندي بالتثبيت على العصمة، ﴿ أصْبُ إليهن ﴾؛ أمِلْ إلى جانبهن بطبعي ومقتضى شهوتي، ﴿ وأكن من الجاهلين ﴾؛ من السفهاء بارتكاب ما يدعونني إليه. فإن الحكيم لا يفعل ما هو قبيح. أو من الذين لا يعملون بما يعلمون، فإنهم جهال، وكلامه هذا: تضرع إلى الله تعالى، واستغاثة به.

﴿ فاستجاب له ربه ﴾ : أجاب دعاءه الذى تضمنه كلامه، ﴿ فصرف عنه كيدهنّ ﴾ حيث ثبته على العصمة حتى وطن نفسه على مشقة السجن،وآثرها على اللذة الفانية؛ ﴿ إنه هو السميع ﴾ لدعاء الملتجئين إليه، ﴿ العليم ﴾ بإخلاصهم أو بما يصلح بهم.

الإشارة: الحب إذا كان على ظاهر القلب، ولم يخرق شغافه، كان العبد مع دنياه، وآخرته، بين ذكر، وغفلة. فإذا دخل سويداء القلب، وخرق شغافه نسي العبد دنياه وأخراه، وغاب عن نفسه وهواه، وضل في محبة مولاه. ولذلك قيل لعاشقة يوسف: (إنا لنراها فى ضلال مبين) أى: فى استغراق فى المحبة حتى ضل عنها ما دون محبوبها. ومنه قوله تعالى: ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَىٰ ﴾(١) أى: وجدك ضالا فى محبته، فهداك إلى حضرة مشاهدته ومقام قربه، فكان قاب قوسين أو أدنى. وعلامة دخول المحبة شغاف القلب أربعة أشياء: الاستيحاش، والإيناس، وذكر الحبيب مع الأنفاس، وحضوره مع الخواطر والوسواس. وأنشدوا:

تَاللهِ مَا طَلَعَتْ شَمْسٌ وَلا غَرِبتْ إلاَّ وذِكْرُكَ مَقْرُونٌ بِأَنْفَاسي
ولاَ جَلَسْتُ إلى قومٍ أُحَدِّثُهُمْ إلاَّ وأَنْتَ حَدِيثي بَيْنَ جُلاَّسي
ولا شَرِبْتُ لَذِيذَ المَاءِ مِنْ ظَمَأٍ إلاَّ رَأَيْتُ خَيَالاً مِنْكَ فِي الْكَاسِ
إنْ كَانَ لِلنَّاسِ وَسْوَاسٌ يُوَسْوِسُهُمْ فَأَنْتَ واللهِ وَسْوَاسِي وخَنَّاسي
لَولا نَسِيمٌ بِذِكْرَاكُمْ أُفِيقُ بِهِ لَكُنْتُ مُحْتَرِقًا مِنْ حَرِّ أَنْفَاسي

وقال آخر:

خَيَالُكَ فى وَهْمِي، وذِكْرُكَ فى فَمِي ومَثْوَاكَ فِي قَلْبِي، فَأَيْنَ تَغِيبُ؟

قوله تعالى: (فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن....) الآية: أدهشتهم طلعة يوسف، وجماله الباهر. وزليخا لما استمرت معه لم تفعل شيئاً من ذلك. كذلك المريد إذا استشرف على أنوار الحضرة وجمالها، أدهشته وحيرته، فلولا التأييد الإلهي ما أطاقها، فإذا صبر على صدماتها واستمر مع تجليات أنوارها ذهب دهشه، واطمأن قلبه بشهود محبوبه من وراء أردية العز والكبرياء، وهذه هى الطمأنينة الكبرى والسعادة العظمى.

وقوله تعالى: (قال رب السجن أحب إليّ)، هكذا ينبغى للعبد أن يكون؛ يختار ما يبقى على ما يفنى؛ فرب شهوة ساعة أورثت حزنًا طويلاً، ورب صبر ساعة أورثت نعيماً جزيلا. وبالله التوفيق.

---

(١) الآية ٧ من سورة الضحى.

ثم ذكر سجن يوسف، وما يتبعه من إخراجه، وتمليكه وتمكينه، فقال:

﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ ٣٥ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجۡنَ
فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ وَقَالَ ٱلۡأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي
خُبۡزٗا تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۖ نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٣٦ قَالَ لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ
تُرۡزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ قَبۡلَ أَن يَأۡتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ إِنِّي تَرَكۡتُ مِلَّةَ قَوۡمٖ
لَّا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ٣٧ وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ
وَيَعۡقُوبَۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشۡرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ
أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ٣٨ ﴾

قلت: (ليسجننه) : مفسر للفاعل، أي: ظهر لهم سجنه؛ إذ الجملة لا تكون فاعلاً على المشهور، وجوزه بعضهم مستدلاً بالآية. وقيل: محذوف، أي: بدا لهم رأى ليسجننه. وقال الإمام القصار، الفاعل هو القسم المفهوم من اللام الموطئة له، أي: بدا لهم قسمهم ليسجننه.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ثم بَدَا لهم﴾ أي: ظهر للعزيز وأهله، ﴿من بعد ما رأوا الآيات﴾ الدالة على براءة يوسف؛ كشهادة الصبي، وقَدِّ القميص، وقطع الأيدي، واستعصامه منهن، فظهر لهم سجنه. وأقسموا ﴿ليَسْجُنُنَّهُ حتى حين﴾: حتى يظهر ما يكون منه؛ ليظن الناس أنها مُحقة فيما ادعت عليه. فخدعت زوجها حتى وافقها على سجنه. ورُوى أنه لما أدخل السجن ندمت زليخا على سجنه، وعيل صبرها على فراقه، فأرسلت إلى السجان ليطلقه، فأبى، فلبث فيه سبع سنين.

﴿ودخلَ معه السجنَ فتيان﴾ أي: فسجنوه واتفق أنه دخل معه فى ذلك اليوم رجلان آخران، من عبيد الملك: ساقيه وخبازه، اتهما أنهما أرادا أن يَسُمّاه، ﴿قال أحدهما﴾ وهو الساقي: ﴿إني أراني﴾ في المنام ﴿أعصرُ خمراً﴾ أي: عنبا. وسماه خمراً: باعتبار ما يؤول إليه. رُوى أنه قال: رأيت كأن الملك دعاني وردني إلى قصره، فبينما أنا أدور في القصر، وإذا بثلاثة عناقيد من العنب، فعصرتها، وحملت ذلك إلى الملك لأسقيه له.

﴿ وقال الآخرُ ﴾ وهو الخباز: ﴿ إني أراني أحمل فوق رأسي خبزاً تأكلُ ﴾ : تنهش ﴿ الطيرُ منه ﴾، قال: رأيت كأن العزيز دعاني، وأخرجني من السجن، ودفع لي طيفورة عليها خبز، فوضعتها على رأسي، والطير تأكل منه. ﴿ نبئنا بتأويلِه إنا نراك من المحسنين ﴾ ؛ من الذين يحسنون تأويل الرؤيا. وإنما قالا له ذلك؛ لأنهما رأياه في السجن يعظ الناس ويعبر رؤياهم، أو من المحسنين إلى أهل السجن، كان ﷺ إذا رأى محتاجاً طلب له، وإذا رأى مضيقاً وسع عليه؛ فقالا له: فأحسن إلينا بتأويل ما رأينا إن كنت تعرفه.

﴿ قال لا يأتيكما طعامٌ تُرزقَانِه ﴾ في النوم، ﴿ إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكُما ﴾ تأويله في الدنيا. أو: لا يأتيكما طعام ترزقانه في اليقظة؛ لتأكلاه إلا أخبرتكما به، ما هو؟ وما لونه؟ وماصفته؟ وكم هو؟ قبل أن يأتيكما، إخباراً بالغيب، فيأتيهما كذلك؛ معجزة. وصفَ نفسه بكثرة العلم والمكاشفة؛ ليكون وسيلة إلى دعائهما إلى التوحيد.

ثم قال لهما: ﴿ ذلكما مما علمني ربي ﴾ بالوحي والإلهام. وليس ذلك من قبيل التكهن أو التنجيم. رُوي أنهما قالا له: من أين لك هذا العلم، وأنت لست بكاهن ولا منجم؟ فقال لهما: ﴿ ذلكما مما علمني ربي إني تركتُ ملّةَ ﴾ ؛ طريقة ﴿ قومٍ لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة همْ كافرون ﴾ أي: علمني ذلك لأني تركت ملة أهلِ الكفر، ﴿ واتبعتُ ملة آبائي إبراهيمَ وإسحق ويعقوبَ ﴾، وإنما قال ذلك؛ تمهيدا للدعوة، وإظهاراً أنه من بيت النبوة؛ لتقوى رغبتهما في الاستماع إليه، والوثوق به. ﴿ ما كان لنا ﴾ : ما صح لنا معشر الأنبياء ﴿ أن نُشركَ بالله من شيء ﴾ أيّ شرك كان، ﴿ ذلك ﴾ التوحيد ﴿ من فضل الله علينا ﴾ بالوحي ﴿ وعلى الناس ﴾ ببعثنا إليهم، وإرشادنا إياهم وتنبيهتهم عليه، ﴿ ولكن أكثر الناس لا يشكرون ﴾ هذا الفضل؛ فيُعرضون عنه. أو من فضل الله علينا بالوحي والإلهام، وعلى الناس بنصب الدلائل وإنزال الآيات. ولكن أكثرهم لا ينظرون إليها، ولا يستدلون بها، فيوحدون خالقها، فهم كمن كفر النعمة ولم يشكرها.

الإشارة: جرت عادة الحق ـ تعالى ـ في خلقه أنه لا يأتي الامتكان إلا بعد الامتحان، ولا يأتي السلوان إلا بعد الأشجان، ولا يأتي العز إلا بعد الذل، ولا يأتي الوجد إلا بعد الفقد. فبقدر ما يضيق على البشرية تتسع ميادين الروحانية، وبقدر ما تسجن النفس وتحبس عن هواها، تتسع الروح في مشاهدة مولاها.

وقوله تعالى: ﴿ ودخل معه السجن فتيان ﴾: إشارة إلى أن امتحانه بالسجن كان لتكميل حقيقته وشريعته، فمن رأى أنه يحمل الطعام فإشارة إلى حمل لواء الشريعة، ومن رأى أنه يعصر خمراً فإشارة إلى تحقيق خمرة الحقيقة، فيكون من أهل مقام الإحسان، ولذلك قال: ﴿ إنا نراك من المحسنين ﴾، ثم ذكر نتيجة مقام الإحسان ـ وهو التوحيد الخاص ـ فقال: ﴿ ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء ﴾. وذكر أن ذلك ناله من باب الكرم لا من باب العمل، فقال: ﴿ ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ﴾. والله تعالى أعلم.

ثم دعاهم إلى التوحيد، فقال:

﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ (٣٩) مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٤٠) ﴾

قلت: الإضافة في (صاحبي السجن): على معنى (في)؛ كقولك:

يا سَـارِقَ اللَّيْـلَةَ أَهْـلَ الـدَّارِ.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ يا صاحِبي السجن ﴾ أي: ياساكنيه، أو يا صاحِبي فيه؛ ﴿ أأرباب متفرقون ﴾: متعددون، ﴿ خيرٌ أم اللهُ الواحدُ ﴾ المتوحّد في الألوهية، ﴿ القهارُ ﴾: الغالب على أمره، لايقاومه غيره، ﴿ ما تعبدون ﴾ أنتم ومن على دينكم من أهل مصر، ﴿ من دونه إلا أسماءً سميتموها أنتم وآباؤكم ﴾ أي: ما تعبدون إلا مسميات أسماء من الحجارة والخشب، سميتموها آلهة من غير حجة تدل على استحقاقها للعبادة. والمعنى: سميتم آلهة مالا يستحق الألوهية، ثم عبدتموها. ﴿ ما أنزل اللهُ بها ﴾ أي: بعبادتها ﴿ من سلطان ﴾: من حجة ولا برهان. ﴿ إن الحُكمُ ﴾ في أمر العبادة ﴿ إلا لله ﴾؛ لأنه المستحق لها دون غيره، من حيث إنه الواجب لذاته، الموجد للكل، هو المالك لأمره، ﴿ أمَرَ ﴾ على لسان أنبيائه ﴿ ألا تعبدوا إلا إياه ﴾ ولا تعبدوا معه سواه ﴿ ذلك الدين القيم ﴾ القويم الذي لا عوج فيه، ﴿ ولكن أكثرَ الناس لا يعلمون ﴾ دلائل توحيده، فيتخبطون في جهالتهم. قال البيضاوي: وهذا من التدرج في الدعوة وإلزام الحجة؛ بيّن لهم أولاً: رجحان التوحيد على اتخاذ الآلهة على طريق الخطابة، ثم برهن على أن ما يُسمونها آلهة،

ويعبدونها لا تستحق الألوهية، ثم دل على ما هو الحق القويم، والدين المستقيم، الذى لا يقتضى العقلُ غيره، ولا يرتضى العلم دونه. هـ.

الإشارة: كل من لم يجمع قلبه على مولاه، واتبع حظوظه وهواه، فله أرباب متفرقون بقدر ما يميل إليه قلبُه من هذا العرض الفاني. قال ابن عطية: وقد ابتلى بأرباب متفرقين من يخدم أبناء الدنيا ويؤملهم.هـ. وفي الحديث: «خَابَ مَنْ رَجَى غَيْرَ الله وضَلَّ سَعْيُه، وطَابَ وَقْتُ مَنْ وَثِقَ بالله» . ولله در القائل:

حَرَامٌ عَلى مَنْ وحَّدَ الله رَبَّهُ ... وأَفْرَدَهُ أَنْ يَجْتَدِى أَحَداً رِفْدَا

فَيَا صَاحِبِى قِفْ بِى عَلَى الْحَقِّ وَقْفَةً ... أَمُوتُ بِهَا وَجْداً وأَحْيَا بِهَا وَجْداً

وَخَلِّ مُلوكَ الأَرْضِ تَجْهد جُهْدَهَا ... فَذا المُلْكُ مُلكٌ لا يُبَاعُ ولا يُهْدَى

ثم فسر لهما الرؤيا، فقال:

﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ ﴿٤١﴾ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٖ مِّنۡهُمَا ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾

قلت : (منهما) : يتعلق بظن، والظن يحتمل أن يكون بمعنى اليقين؛ لأن قوله: (قضى الأمر) يقتضى ذلك، أو يبقى على بابه.

يقول الحق جل جلاله: قال يوسف: ﴿ **يا صاحبي السجن** ﴾ المستفتيان عن الرؤيا، ﴿ **أما أحدُكُما** ﴾ وهو الساقى، ﴿ **فيسْقى ربه خمراً** ﴾ كما كان يسقيه قبلُ، ويعود إلى ما كان عليه، ﴿ **وأما الآخرُ فيُصلبُ فتأكلُ الطير من رأسه** ﴾، فقالا: كَذَبْنَا ما رأينا شيئًا، فقال: ﴿ **قُضِيَ الأمرُ الذى فيه تستفتيان** ﴾، سبق به القضاءُ فى الأزل، وهو ما يؤول إليه أمركما، ولذلك وحده ولم يقل: قضى أمراكما. رُوى أنه لما دعاهما إلى التوحيد أسلم الساقى وأبى الخباز، فأُخرج بعد ثلاث وصُلب.

﴿ **وقال للذى ظنَّ أنه ناج منهما** ﴾ يوسف، أى: تيقن، أو غلب على ظنه أنه ناج منهما، إما عن وحي، على الأول، أو باجتهاد بسبب الرؤيا: ﴿ **اذْكُرنى عند ربك** ﴾؛ عند سيدك، وهو المَلِك، وقل له: غلامٌ سُجِنَ ظُلْمًا،

لعله يُخلصني. قال ابن عطية: يحتمل أن يذكره بعلمه ومكانته، ويحتمل أن يذكره بمظلمته وما امتحن به بغير حق. أو يذكره بهما. هـ. وقال الورتجبي: يحتمل أن قوله: ﴿ اذكرني عند ربك ﴾ : عرِّف له طريقتي مع الله حتى يعرفني أني رسول الله، ويطيعني في طاعة الله، وينجو بذلك من عذابه، ويصل إلى ثوابه، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وليوحد الله تعالى، ويتخلص من كيد الشيطان، وما معه من الإنسان. هـ .

﴿ فأنساهُ الشيطانُ ذكرَ ربه ﴾ أي: فأنسى الساقي أن يذكر يوسف لربه. أوْ أنسى يوسفَ ذكرَ الله حتى استغاث بغيره، فأدبه، ﴿ فلبثَ في السجن ﴾، وفي الحديث عنه ﷺ: «رَحِمَ اللهُ أَخِي يُوسُفَ، لَوْ لَمْ يَقُلْ: اذْكُرْنِي عند ربِّك، لَمَا لَبِثَ فِي السِّجْنِ سَبْعاً بَعْدَ الْخَمْسِ» .

روى أن جبريل عليه السلام أتاه بعد المقالة، فقال له: مَن أخرجك من الجُبّ، وخلّصك من القتل، وعصمك من الفاحشة؟ فقال: الله. فقال: كيف تعتصم بغيره، وتثق بالمخلوق، وترفع قصتك إليه، وتترك ربك؟! قال: ياجبريل؛ كلمات جرت على لساني، وأنا تائب لا أعود لمثلها. هـ. والاستعانة بالمخلوق، وإن كانت جائزة شرعًا، لكنها لاتليق بمقام الأقوياء. ﴿ فلبث في السجن بِضع سنين ﴾ البضع: من الثلاث إلى التسع. روى أن يوسف عليه السلام سجن خمس سنين أولاً، ثم سجن بعد المقالة سبع سنين.

الإشارة: النسيان والغفلة التي لا تثبت في القلب، والخواطر التي ترد وتذهب من أوصاف البشرية التي لاتنافي الخصوصية، إذ لا انفكاك للعبد عنها. قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾(١) فالطيف لا ينجو منه أحد؛ لأنه من جملة أوصاف العبودية التي بها تعرف كمالات الربوبية. وقد قال تعالى في حق سيد العارفين: ﴿ وإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ﴾(٢)، فالعصمة التي تجب للأنبياء إنما هي مما يوجب نقصاً أو غضاً من مرتبتهم. وهذه الأمور إنما توجب كمالاً؛ لأنها بها يتحقق كمال العبودية التي هي شرف العبد. فافهم وسلم، ولا تنتقد، فإن هذه الأمور لايفهمها إلا العارفون بالله، دون غيرهم من أهل العلم الظاهر.

وقال الورتجبي: إن يوسف عليه السلام لم يعلم وقت إيمان الملك، ولم يأت وقت دخوله في الإسلام، فأنساه الشيطان ذكر ربه، في سابق حكمه، على تقدير وقت إيمان الملك، فلبث في السجن إلى وقت إيمان الملك، فنسيان يوسف: احتجابه عن النظر إلى قدره السابق. هـ .

---

(١) من الآية ٢٠١ من سورة الأعراف.

(٢) من الآية ٢٠٠ من سورة الأعراف.

ثم ذكر سبب خروجه من السجن، فقال:

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ (٤٣) قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ (٤٤) وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ (٤٥) يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ (٤٦) قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ (٤٧) ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ (٤٨) ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ (٤٩) ﴾

قلت: يقال: عبَرت الرؤيا ـ بالتخفيف ـ عبارة، وهو أفصح من عبَّرت ـ بالتشديد ـ تعبيراً. واللام للبيان، أو لتقوية العامل؛ لضعف الفعل بتأخيره عن مفعوله. والأصل: تعبرون الرؤيا. وأصل (ادكر): اذتكر، فقلبت التاء دالا مهملة، وأدغمت المعجمة فيها فبقيت دالاً. وإليه أشار ابن مالك بقوله:

في ادَّانَ وازْدَدْ وادَّكِرْ دالا بَقِي(١)

و(دأبا) حال، أي: دائبين، أو مصدر بإضمار فعله، أي: تدأبون دأباً. وفيه لغتان: السكون، والفتح.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وقال الملكُ ﴾؛ وهو ملك مصر الذى كان العزيز وزيراً له، واسمه: «ريان بن الوليد»، وقيل: «مصعب بن الريان»، وكان من الفراعنة ـ رُوى أن يوسف عليه السلام لما لبث فى السجن سبْع سنين سجد، وقال: إلهى، خلصنى من السجن. فكلما دعا يوسف أمنت الملائكة، فاتفق فى الليلة التى دعا فيها يوسف أن رأى الملكُ تلك الرؤيا التى ذكرها بقوله: ﴿ إنى أرى ﴾ فى المنام ﴿ سبع بقرات سِمَانٍ ﴾ خرجن من نهر يابس، وسبع بقرات عجاف ـ مهازيل ـ خرجن بأثرهن فابتلعت المهازيلُ السمان، ﴿ وسبعَ سنبلات خُضْرٍ ﴾ قد انعقد حبُّها، ﴿ و ﴾ سبعا ﴿ أُخر يابسات ﴾ قد أدركت، فالْتوت اليابسات على الخضر حتى غلبن عليها. فلما رأى

(١) صدر البيت : (طاتا افتعال رُد إثْر مُطْبَق). انظر باب الإبدال.

ذلك انتبه مرعوبا، وجمع ندماءه، ودعا المفسرين، فقال: ﴿ يا أيها الملأ أفتوني في رؤياي ﴾ ؛ اعبروها، ﴿ إن كنتم للرؤيا تعبُرون ﴾ أي: إن كنتم عالمين بعبارة الرؤيا.

﴿ قالوا ﴾: هذه ﴿ أضغاثُ أحلامٍ ﴾ ؛ تخاليطها، جمع ضِغْث، وأصله: ما جمع من أخلاط النبات وحُزِم، فاستعير للرؤيا الكاذبة. وإنما جمعوا ﴿ أحلام ﴾ ؛ للمبالغة في وصف الحلم بالكذب. ثم قالوا: ﴿ وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين ﴾، والمعنى: ليس لها تأويل عندنا؛ لأنها أكاذيب الشيطان، وإنما التأويل للمنامات الصادقة.

﴿ وقال الذي نجا منهما ﴾ من صاحبي السجن، وهو الساقي، وكان حاضراً ﴿ وادَّكَرَ بعد أُمة ﴾ أي: وتذكر بعد جماعة من السنين، وهي سبع سنين، ﴿ أنا أُنبئُكم بتأويله فأرسلون ﴾ إلى من عنده علمها، أو إلى السجن. رُوي أنه لما سمع مقالة الملك بكى، فقال الملك: مالك تبكي؟ قال: أيها الملك؛ إن رؤياك هذه لا يعبرها إلا الغلام العبراني الذي في السجن، فتغير وجه الملك، وقال: إني نسيته، وما ذكرته منذ سبع سنين، ما خطر لي ببال. فقال الساقي: وأنا مثلك، فقال له الملك: وما يدريك أنه يعبر الرؤيا؟ فحدثه بأمره، وأمر الساقي فقال له: امض إليه وسله، فقال: إني والله أستحي منه؛ لأنه أوصاني ونسيت، فقال له: لاتستح منه؛ لأنه يرى الخير والشر من مولاه فلا يلومك. فأتاه.

فقال: ﴿ يوسفُ ﴾ أي: يا يوسف، ﴿ أيها الصِّدِّيق ﴾: المبالغ في الصدق. وإنما وصفه بالصِّدِّيقية لما جرب من أحواله، وما رأى من مناقبه، مع ما سمع من تعبير رؤياه ورؤيا صاحبه، ﴿ أفتنا في سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف، وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات ﴾ أي: أفتني في رؤيا ذلك واعبرها ليَ، ﴿ لعلي أرجعُ إلى الناس ﴾ أي: أعودُ إلى الملك ومن عنده، أو إلى أهل البلد؛ إذ قيل: إن السجن كان خارج البلد. ﴿ لعلّهم يعلمون ﴾ تأويلها. أو يعلمون فضلك ومكانتك. وإنما لم يجزم بعلمهم؛ لأنه ربما اختُرِم دونه، أو لعلهم لا يفهمون ما يقول لهم.

﴿ قال ﴾ في تعبيرها: ﴿ تزرعون سبعَ سنين دأبًا ﴾ أي: على عادتكم المستمرة من الخصب والرخاء. ﴿ فما حصدتمُ فذَرُوهُ ﴾: اتركوه ﴿ في سُنبُله ﴾ ؛ لئلا تأكله السوس، وهي نصيحة خارجة عن عبارة الرؤيا، ﴿ إلا قليلاً مما تأكلون ﴾ في تلك السنين، أي: لا تدرسوا منه إلا ما تحتاجون إلى أكله خاصة، وذلك أن أرض مصر لا يبقى فيها الطعام عامين. فعلمهم حيلة يبقى بها السنين المخصبة إلى السنين المجدبة، وهو أن يتركوه في سنبله غير مُدرَس؛ فإن الحبة إذا بقيت في غشائها حُفظت بإذن الله.

﴿ثم يأتي من بعد ذلك سبع شِدَادٌ﴾ أي: ذات شدة وجوع ﴿يأكُلْنَ ما قدمتم لهن﴾ أي: يأكل أهلهن ما ادخرتم لأجلهن. أسند الأكل إلى السنين مجازاً؛ تطبيقاً بين المعبر والمعبر به، ﴿إلا قليلاً مما تحصنون﴾ أي: مما تخزنون وتخبئون للزراعة والبذر. ﴿ثم يأتي من بعد ذلك عام فيه يُغاثُ الناسُ﴾ أي: يغيثهم الله بالفرج من القحط، أو يغاث بالمطر، لكن مصر إنما تسقى من النيل. ﴿وفيه﴾ أيضا ﴿يَعْصِرُونَ﴾ العنب والزيتون؛ لكثرة الثمار. أو يعصرون الضروع لحلب اللبن؛ لأجل الخصب. وهذه بشارة بشرهم بها بعد أن أوّل البقرات السمان والسنبلات الخضر بسنين مخصبة. والعجاف واليابسات بسنين مجدبة، وابتلاع العجاف السمان بأكل ما جمع في السنين المخصبة في السنين المجدبة. ولعله علم ما في السنة الثامنة من الخصب والرخاء بالوحي، أو بأن انتهاء الجدب لا يكون إلا بالخصب، وبأن سُنة الله الجارية أن يوسع على عباده بعد ما ضَيّق عليهم، لقوله ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾(١). والله تعالى أعلم.

الإشارة: الروح في أصل نشأتها علامة دَرّاكة، تكاشف بالأمور قبل وقوعها، إذا غابت عن إحساسها الذي حجبها عن ذلك العلم، ولو كانت من كافر إذا غابت عن حسها بنوم، أو اصطلام عقل. فمن طهرها من دنس الشرك بالتوحيد، وغيبها عن شواغل الحس بالتفرغ والتجريد، رجعت إلى أصلها، وفاضت عليها العلوم التي كانت لها قبل التركيب في هذا القالب الحسي، علماً وكشفاً. ولا شيء أنفع لها في الرجوع من السهر والجوع. وفي الجوع أسرار كثيرة حسية، ومعنوية، وبسببه جمع الله شمل يوسف بأبيه وإخوته. وبه أيضا ملّك الله يوسف ونصره ومكنه في الأرض حتى ملك مصر وأهلها. ولذلك قال نبينا ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «اللهم أعِنّي علَيْهِم ـ أي على قريش ـ بِسَبْعٍ كَسَبْعِ يُوسُفَ»(٢).

وذكر الغزالي في الإحياء، في أسرا ر الجوع، أربعين خصلة. وفي بعض الأثر: (أن الله تعالى عذب النفس بأنواع من العذاب، ومع كل عذاب يقول لها: من أنا؟ فتقول هي: ومن أنا؟ حتى عذبها بالجوع، فقالت: أنت ربي سبحانك الواحد القهار). والممدوح منه؛ هو المتوسط دون إفراط ولاتفريط، كما قال البوصيري:

وَاخْشَ الدَّسَائِسَ مِنْ جُوعٍ وِمِنْ شِبَعٍ ... فَرُبَّ مَخْمَصَةٍ شَرٌّ مِنَ التُّخَمِ

وبالله التوفيق.

(١) الآية ٥ من سورة الشرح.

(٢) أخرجه البخاري في أكثر من موضع، منها: (كتاب التفسير ـ سورة الروم).

ثم ذكر خروجه من السجن وتمكينه من الملك، فقال:

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ
ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ
عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ
ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ
وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ
رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا
مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ
فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾
وَلَأَجْرُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ولما جاء الرسول من عند يوسف بالتعبير، وسمعه الملك، تعجب منه، واستعظم علمه وعقله وقال: لا ينبغي لمثل هذا أن يُسجن، ﴿ ائتوني به، فلما جاءه الرسولُ ﴾ ليخرجه، ﴿ قال ارجع إلى ربك فاسأله ما بالُ النِّسوة اللاتى قطّعْنَ أيديهن ﴾: ما شأنهن حتى قطعن أيديهن، وهل رأين منى ميلاً إليهن. وإنما تأنى فى الخروج، وقدّم سؤال النسوة، والفحص عن حاله؛ ليظهر براءة ساحته، وليعلم الملك أنه سُجن ظلماً، فلا يقدر الحاسد أن يتوسل به إلى تقبيح أمره. وفيه دليل على أنه ينبغى أن يتقى مواضع التهم، ويجتهد فى نفيها، وفي الحديث: «مَنْ كَانَ يُؤمِنُ باللهِ واليومِ الآخِرِ فَلا يَقِفَنّ مَواقِفَ التُّهَم».

وفيه دليل على حلمه وصبره، وعدم اهتباله بضيق السجن؛ إذ لم يُجب الداعي ساعة دُعي بعد طول سجنه. ومن هذا المعنى تواضع معه نبينا ﷺ حيث قال: «لَو لَبِثْتُ فِي السِّجْنِ مَا لَبِثَ يُوسُفُ لأَجَبْتُ الدَّاعِي»(١). ولم يذكر امرأة العزيز كرماً، ومراعاةً للأدب، ورعياً لذمام زوجها، وستراً لها. بل ذكر النسوة اللاتى قطعن أيديهن.

---

(١) أخرجه البخارى فى (تفسير يوسف - باب فلما جاءه الرسول قال ارجع إلى ربك...) عن أبى هريرة رضى الله عنه.

ثم قال: ﴿ إن ربي بكيدهن عليم ﴾ حين قلن لي: أطع مولاتك. وفي عبارته تعظيم لكيدهن، والاستشهاد عليه بعلم الله، وبراءته مما قذف به، والوعيد لهن على كيدهن. ثم جمع الملك النسوة، وكُن ستًا أو سبعًا، مات منهن ثلاث ويوسف في السجن، وبقي أربع ومعهن امرأة العزيز. و﴿ قال ﴾ لهن: ﴿ ما خطبكُنَّ ﴾ ، ما شأنكن ﴿ إذ راودتُنَّ ﴾ أي: حين راودتن ﴿ يوسفَ عن نفسه ﴾ ، وأسند المراودة إلى جميعهن؛ لأن الملِك لم يتحقق أن امرأة العزيز هي التي راودته وحدها. ﴿ قلنَ حاشَ لله ﴾ ، تنزيهاً لله أن يعجز عن خلق عفيف مثله، أو تنزيهاً ليوسف أن يعصيه؛ لأجل خوف الله. وهذه تبرئة ليوسف ولهن، أو لهن فقط. وتكون تبرئة يوسف في قولهن: ﴿ ما علمنا عليه من سُوءٍ ﴾ : من ذنب.

﴿ قالت امرأةُ العزيز الآن حَصْحَص الحق ﴾ أي: تبين ووضح، أو ثبت واستقر، ﴿ أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين ﴾ في قوله: ﴿راودتني عن نفسي﴾ فلما رجع إليه الرسول، وذكر ما قالته النسوة، وما أقرت به امرأة العزيز، قال: ﴿ ذلك ليعلم أني لم أخُنْهُ بالغيب ﴾ أي: فعلت ذلك التثبت والتأني في الخروج ليعلم العزيز أني لم أخنه في زوجته ﴿ بالغيب ﴾ في حال غيبته، أو بظهر الغيب وراء الأستار والأبواب المغلقة، بل تعففت عنها. ﴿ وأن الله لا يهدي كيدَ الخائنين ﴾ أي: لا ينفذه ولا يسدده. أو لا يهدي الخائنين لكيدهم. وأوقع الفعل على الكيد؛ مبالغةً. وفيه تعريض بامرأة العزيز في خيانتها زوجها، وتوكيد لأمانته.

رُوي عن ابن عباس أنه لما قال: ﴿ لم أخُنْــه بالغيب ﴾ قال له جبريل عليه السلام: ولاحين هممت. فقـــال: ﴿ وما أبرئُ نفسي ﴾ لا أنزهها في عموم الأحوال، أو لا أزكيها على الدوام. قاله تواضعًا وإظهاراً للعبودية، وتنبيهاً على أنه لم يرد بذلك تزكية نفسه، ولا العجب بحاله، بل إظهاراً لنعمة العصمة والتوفيق.

ثم قال: ﴿ إنَّ النفسَ لأمارةٌ بالســـوء ﴾ بحيث إنها مائلة بالطبع إلى الشهوات، فتهُم بهــا، وتستـــعمل القـــوى والجـــوارح في نيلهـــا في كل الأوقات، ﴿ إلاّ ما رحم ربي ﴾ : إلا وقت رحمـــة ربي بالعصـــمة والحفظ، أو: إلا ما رحم الله من النفوس فيعصمها من ذلك. وقيل: الاستثناء منقطع، أي: لكن رحمة ربي هي التي تصرف الإساءة، ﴿ إن ربي غفور رحيم ﴾ ، يغفر ما همت به النفوس، ويرحم من يشاء بالعصمة. أو يغفر للمستغفر ذنبه المعترف على نفسه، ويرحمه بالتقريب بعد تعرضه للإبعاد.

وقيل: إن قوله تعالى: ﴿ ذلك ليعلم أني لم أخُنْه بالغيب ﴾ إلى هنا، هو من كلام زليخا. والأول أرجح(١).

---

(١) ورجح الحافظ ابن كثير القول الثاني، وقال: إنه الأشهر والأليق والأنسب بسياق القصة.

﴿ وقال الملك ائتوني به أستخلصه لنفسي ﴾ أي: أجعله خاصتي وخلاصتي، أو أجعله خالصا لنفسي. قال أولاً: ﴿ ائتوني به ﴾ فقط، فلما تبين له حاله وظهر كماله، قال: ﴿ ائتوني به أستخلصه لنفسي ﴾ رُوي أنه لما أراد أن يخرجه أرسل إليه بخلعة يأتي فيها، وكان بين السجن والبلد: أربعة فراسخ، فقال يوسف: لا أخرج من السجن حتى لا يبقى فيه أحد، فأمر الملك بخروج جميع مَن فيه. فلما خرج من السجن اغتسل وتنظف، ولبس ثياباً جددا، فلما دخل على الملك، قال: اللهم إني أسألك من خيره، وأعوذ بعزتك وقدرتك من شره. ثم سلم عليه ودعا له بالعبرانية، فقال: ما هذا اللسان؟. فقال: لسان آبائي. وكان الملك يعرف سبعين لساناً، فكلمه بها، فأجابه بجميعها، فتعجب منه، فقال: أحب أن أسمع رؤياي، فحكاها، ونعت له البقرات والسنابل وأماكنها، فأجلسه على السرير، وفوض إليه أمره. وهذا معنى قوله تعالى: ﴿ فلما كلمه قال إنك اليوم لدينا مكين أمين ﴾ أي: فلما أتوا به وكلمه وشاهد منه الرشد والدهاء، ﴿ قال إنك اليومَ ﴾ عندنا ﴿ مكينٌ ﴾ أي: في مكانة ومنزلة، ﴿ أمين ﴾: مؤتمن على كل شيء، ثم فوض إليه أمر المملكة.

وقيل: توفي قطفير ـ أي: العزيز ـ فنصَّبه منصبه، وزوجه من زليخا بعد أن شاخت، وافتقرت، فدعا الله تعالى فرد عليها جمالها وشبابها، فوجدها عذراء، وولد منها إفرائيم وميشا. ثم قال له الملك: ما ترى نصنع في هذه السنين المخصبة؟.

﴿ قال اجعلني على خزائنِ الأرض ﴾ أي: أرض مصر ألي أمرها. والخزائن: كل ما يخزن فيه طعام ومال وغيرهما. ﴿ إني حفيظٌ ﴾ لها ممن لا يستحقها، ﴿ عليم ﴾ بوجوه التصرف فيها. قال البيضاوي: ولعله عليه السلام لما رأى أنه يستعمله في أمره لا محالة، آثر ما تعم فوائده وعوائده، وفيه دليل على جواز طلب التولية، وإظهار أنه مستعد لها، والتولي من يد الكافر، إذا علم أنه لا سبيل إلى إقامة الحق وسياسة الخلق إلا بالاستظهار به. وعن مجاهد: أن الملك أسلم على يديه. هـ. قلت: وقد تقدم عن الورتجبي ما يدل عليه.

وقال ابن عطية: وطلب يوسف للعمل إنماهو حسبة منه عليه السلام؛ لرغبته أن يقع العدل، ونحو هذا هو دخول أبي بكر رضي الله عنه في الخلافة، مع نهيه المستشيرَ له من الأنصار عن أن يتأمّر على اثنين. فجائز للفاضل أن يعمل ويطلب العمل إذا رأى ألا عوض منه. هـ. وفي «الاكتفاء في أخبار الخلفاء»: أن عمر أراد أبا هريرة على العمل، فامتنع، فقال له: أوليس يوسف خيراً منك، وقد طلب العمل؟ فقال: يوسف نبي بن نبي، وأنا ابن أميمةَ، فأنا أخاف ثلاثاً واثنين: أن أقول بغير علم، وأقضي بغير عدل، وأن يضرب ظهري، ويشتم عرضي، ويؤخذ مالي. هـ.

﴿ وكذلك مكّنّا ليوسف ﴾ أي: ومثل ذلك الصنع الجميل الذى صنعنا بيوسف مكناه ﴿ في الأرض ﴾ ؛ أرض مصر، ﴿ يتبوأ منها حيثُ يشاءُ ﴾ : ينزل من بلادها حيث يريد هو، أو ينزل منها حيث نريد(١)، ﴿ نُصيب برحمتنا من نشاء ﴾ في الدنيا والآخرة، ﴿ ولا نُضيع أجر المحسنين ﴾، بل نوفى أجورهم عاجلاً وآجلاً. ويوسف أفضلهم في زمانه، فمكّنه الله من أرض مصر، حتى ملكها بأجمعها؛ وذلك أنه لما فوض إليه الملك اجتهد في جمع الطعام وتكثير الزراعات، حتى دخلت السنون المجدبة، وعم القحط مصر والشام، ونواحيهما، وتوجه الناس إليه، فباعهم في السنة الأولى بالدراهم والدنانير حتى لم يبق لهم منها شيء، ثم في السنة الثانية بالحلى والحلل، ثم في السنة الثالثة بأمتعة البيوت، ثم في الرابعة بالدواب، ثم في الخامسة بالرباع والعقار، ثم في السادسة بأولادهم، ثم في السابعة برقابهم حتى استرقهم جميعا، ثم عرض الأمر على الملك فقال: الرأى رأيك. فأعتقهم ورد إليهم أموالهم.

قال تعالى: ﴿ ولأجرُ الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾ الشرك والفواحش، فهو أحق بالرغبة وأولى بالطلبة. وقال ابن جزى في قوله: ﴿ نُصيب برحمتنا من نشاء ﴾: الرحمة هنا المراد بها الدنيا، وكذلك الأجر في قوله: ﴿ ولا نُضيع أجر المحسنين ﴾، بدليل قوله بعد ذلك: ﴿ ولأجرُ الآخرة خير ﴾ فأخبر تعالى أن رحمته في الدنيا يصيب بها من يشاء من مؤمن وكافر، وطائع وعاصٍ، وأن المحسنين لابد من أجرهم في الدنيا. فالأول في المشيئة، والثاني واقع لا محالة. ثم أخبر أن أجر الآخرة خير من ذلك كله ﴿ للذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾، وفيه إشارة إلى أن يوسف عليه السلام جمع الله له بين الدنيا والآخرة .هـ.

الإشارة: في الآية ثلاث فوائد: الأولى: مدح التأنى في الأمور، ولو كانت جلالية؛ لأنه يدل على كمال العقل والرزانة، وطمأنينة القلب. وذم العجلة؛ لأنها من خفة العقل والطيش، وعدم الصبر والاحتمال. يؤخذ ذلك من تأنى يوسف عليه السلام في السجن بعد طول مدته. وفي الحديث: «التَّأنِّي مِنَ الله، والعَجَلَةُ من الشَّيْطَانِ»(٢).

الثانية: عدم تزكية النفس، ودوام اتهامها، ولو بلغت من التصفية ما بلغت. وقد تقدم في قوله تعالى: ﴿ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لاَّ يُؤْخَذْ مِنْهَا ﴾(٣)، وقال بعض الصوفية: وكيف يصح لعاقل أن يزكى نفسه والكريم بن الكريم بن الكريم بن الكريم يقول: ﴿ إن النفس لأمارة بالسوء ﴾، والنفوس ثلاثة: أمارة، ولوامة، ومطمئنة. وزاد بعضهم: اللهامة من قوله تعالى: ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾(٤)..

---

(١) هذا المعنى على قراءة (نشاء) بالنون، وبها قرأ ابن كثير، انظر الإتحاف (٢/١٤٩).

(٢) أخرجه الترمذى فى (كتاب البر والصلة، باب ما جاء في التأني والعجلة) بلفظ «الأناة»، من حيث سهل بن سعيد الساعدى، وأخرجه ـ بلفظ المفسر، البيهقى فى: شعب الايمان، من حديث أنس. وضعف السيوطى حديث البيهقى. انظر الجامع الصغير (ح/٣٣٩٠)

(٣) من الآية ٧٠ من سورة الأنعام. (٤) الآية: ٨ من سورة الشمس.

الثالثة : تسلية أهل البلاء، إذا صحبهم الإحسان والتقوى، وبشارتهم بالعز بعد الذل، والغنى بعد الفقر، والنصر والتمكين فى الأرض بعد الاستضعاف والهوان، يؤخذ ذلك من قوله: ﴿ وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض يتبوأ منها حيث يشاء نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين ﴾ . وفى ذلك يقول الشاعر:

وكُلُّ عَـبْـــدٍ أرَادَ اللهُ عِـزَّتَـــهُ ... فَـهُـــوَ العَزِيزُ، وعِـزُّ اللهِ يغْشَـاه
قَـدْ لاحَ عِـزٌّ لَه فِي الأَرْضِ مُنْتَـشِـرٌ ... فَـهُـــو الحَـبِـيبُ لِمَنْ نَادَاهُ لبَّـاهُ
يا حُـسْنَهُ ومَـتى قَـدْ طَـالَ مَطْلَبُـهُ ... تَاجُ البـرية والرحـمنُ صَـفَّـاه .

ولما أصاب أرض كنعان ما أصاب سائر البلاد، وسمع يعقوب عليه السلام بأن مَلِكَ مصر يبيع الطعام، أرسل بنيه ـ غير بنيامين ـ إلى مصر للميرة، كما قال تعالى:

﴿ وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا
جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ
ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ
وَإِنَّا لَفَـٰعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفِتْيَـٰنِهِ ٱجْعَلُوا۟ بِضَـٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ
أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وجاء إخوة يوسف ﴾ إلى مصر للميرة، ﴿ فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون ﴾ ، إنما أنكروه؛ لبعد العهد ولتغير سنه، ولأنهم فارقوه فى سن الحداثة، ولتوهمهم أنه هلك، أو لقلة تأملهم فى حاله؛ لشدة هيبتهم إياه، أو لأنه كان مُلثمًا. رُوى أنهم دخلوا عليه فى قصر مُلكه وهو فى هيئة عظيمة من الملك، والتاج على رأسه، فقال لهم بعد أن عرفهم: من أنتم، وما أمركم، وما جاء بكم إلى بلادى، ولعلكم عيون؟ فقالوا: معاذ الله، نحن بنوا أب واحد، وهو شيخ صدِّيق، نبى من الأنبياء، اسمه يعقوب. قال: كم أنتم؟ قالوا: كنا اثنى عشر، فذهب أحدنا إلى البرية، فهلك. فقال: فكم أنتم هاهنا؟ قالوا: عشرة. قال: فأين الحادى عشر؟ قالوا: عند أبيه يتسلى به عن الهالك، قال: فمن يشهد لكم؟ قالوا: لا يعرفنا هاهنا من يشهد لنا. قال: فَدَعُوا عندى بعضكم رهينة، وائتونى بأخ لكم من أبيكم حتى أصدقكم، فاقترعوا؛ فأصابت شمعون. وهذا معنى قوله: ﴿ ولما جَهَّزَهم بجَهَازهم ﴾ أعطاهم ما اشتروا منه من الطعام، وأوقر ركابهم، ﴿ قال ائتونى بأخ لكم من أبيكم ﴾ وهو: بنيامين

ـ بكسر الباء ـ على وزن إسرائيل، قاله فى القاموس. وقيل: كان يوسف عليه السلام يعطى لكل نفس حملاً، ولا يزيد عليه، فسألوه حملاً زائداً لأخيهم من أبيهم؛ فأعطاهم، وشرط عليهم أن يأتوا به؛ ليعلم صدقهم. ثم قال لهم: ﴿ ألا ترونَ أنى أُوفى الكيلَ وأنا خيرُ المنزِلين ﴾ للأضياف. قال لهم ذلك؛ ترغيباً فى رجوعهم، وقد كان أحسن ضيافتهم غاية الإحسان.

رُوى أنه عليه السلام نادى صاحب المائدة، وقال له: لا تنزل هؤلاء بدار الغرباء، ولا بدار الأضياف، ولكن أدخلهم دارى، وانصب لهم مائدة كما تنصبها لى، واحفظهم وأكرمهم. فسأله عنهم، فلم يجب، فبسط لهم الفرش والوسائد، فلما جن الليل أمر أن توضع بين أيديهم الموائد، والشماع، والمجامر، وهم ينظرون من كوة إلى دار الأضياف، وقد بلغ بهم الجهد، فكانوا يعطونهم قرصة شعير لكل أحد من الغرباء، وهم يرون ما بين أيديهم من الإكرام والطعام، وقد بلغ الحمل من الطعام ألفا ومائتى دينار. فقال بعضهم لبعض: إن هذا الملك أكرمنا بكرامة ما أكرم بها أحداً من الغرباء! فقال شمعون: لعل الملك سمع بذكر آبائنا فأكرمنا لأجلهم. وقال آخر: لعله أكرم فقرنا وفاقتنا. ويوسف عليه السلام ينظر إليهم من كوة ويسمع كلامهم، ويبكى. ثم قال لولده ميشا: أشدد وسطك بالمنطقة واخدم هؤلاء القوم، فقال له: من هم يا أبت؟ فقال: هم أعمامك يابنى، قال: يا أبت هؤلاء الذين باعوك؟ قال: نعم، باعونى حتى صرت ملك مصر، ماتقول يابنى، أحسَنوا أم أساءوا؟ قال: بل أحسنوا، فما أقول لهم؟ قال: لا تكلمهم، ولا تُفش لهم سراً حتى يأذن الله بذلك، فبقوا فى الضيافة ثلاثاً أو أكثر، ثم جهزهم، وأرسلهم، وشرط عليهم أن يأتوا بأخيه بنيامين.

قال لهم: ﴿ فإن لم تأتونى به فلا كيلَ لكم عندى ولا تقربون ﴾ . أى: لا تدخلوا ديارى ولا تقربوا ساحتى، ﴿ قالوا سنُراود عنه أباه ﴾ أى: سنجتهد فى طلبه منه، ﴿ وإنا لفاعلون ﴾ ذلك، لا نتوانى فيه، ﴿ وقال لفتيته ﴾ ؛ لغلمانه الكيالين، وقرأ الأخوان وحفص: ﴿ لفتيانه ﴾ ، بجمع الكثرة: ﴿ اجعلوا بضاعتَهم ﴾ أى: ثمنهم الذى اشتروا به، ﴿ فى رحالهم ﴾ ؛ فى أوعيتهم. فأمر أن يجعل بضاعة كل واحد فى رحله، وكانت نعالا وأدَماً. وإنما فعل ذلك يوسف تكرماً وتفضلاً عليهم، وترفقًا أن يأخذ ثمن الطعام منهم، وخوفًا من أن لا يكون عند أبيه ما يرجعون به إليه.

﴿ لعلهم يعرفُونها ﴾ أى: لعلهم يعرفون هذه اليد والكرامة فى رد البضاعة إليهم، فيرجعون إلينا. فليس الضمير للبضاعة؛ لأن ميز البضاعة لا يعبر عنه بلعل، وإنما المعنى: لعلهم يعرفون لها يداً وتكرمة، ويرون حقها ﴿ إذا انقلبوا الى أهلهم لعلهم يَرْجِعُون ﴾ ، أى: لعل معرفتهم بهذه الكرامة تدعوهم إلى الرجوع. وقصد بذلك

استمالتهم والإحسان إليهم. أو: لعلهم يعرفون البضاعة، ولا يستحلون متاعنا فيرجعون به إلينا، وضعف هذا ابن عطية، فقال: وقيل: قصد يوسف برد البضاعة أن يتحرجوا من أخذ الطعام بلا ثمن فيرجعوا لدفع الثمن. وهذا ضعيف من وجوه. ثم قال: ولسرورهم بالبضاعة، وقولهم: ﴿ هذه بضاعتُنا رُدَّتْ إلينا ﴾، يكشف أن يوسف لم يقصد هذا، وإنما قصد أن يستميلهم ويصلهم كما تقدم.

الإشارة: قوله: ﴿ فعرفهم وهم له منكرون ﴾، كذلك أهل الخصوصية من أهل مقام الإحسان، يعرفون مقامات أهل الإيمان ومراتبهم، وأهل مقام الإيمان ينكرونهم ولا يعرفون مقامهم، كما قال القائل:

تَرَكْنَا الْبُحُـــورَ الزَّخِـرَاتِ وَرَاءنَـا فَمِنْ أَيْنَ يَدْرِي النَّاسُ أَيْنَ تَوَجَّهْنَا؟

فكلما علا بالولي المقام خفي عن الأنام، ولا يعرف مراتب الرجال إلا من دخل معهم، وشرب مشربهم، وإلا فهو جاهل بهم. وقوله تعالى: ﴿فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي﴾: كذلك الحق ـ جل جلاله ـ يقول لعبده: ائتني بقلبك، فإن لم تأتني به فلا أقبل طاعتك، ولا تقرب إلى حضرتي. قال النبي ﷺ: «إِنَّ اللهَ لاَ يَنْظُرُ إلى صُوَرِكُم وَلا إلَى أَعْمَالِكُم، وإِنَّما يَنْظُرُ إِلى قُلُوبِكُم ونِيَّاتِكُم». أو كما قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

وقوله تعالى: ﴿ سنراود عنه أباه ﴾ : كذلك ينبغي للعبد أن يحتال على قلبه حتى يرده إلى ربه؛ وذلك بقطع العلائق، والفرار من الشواغل والعوائق، حتى تشرق عليه أنوار الحقائق.

وقوله تعالى: ﴿ اجعلوا بضاعتهم في رِحَالِهِم ﴾ ... الآية. كذلك ينبغي للواعظ والمذكر أن يبشر الناس، وينمي بضاعتهم، وهو: الإيمان والمحبة لله ومعرفته، ويجعلها في قلوبهم بحسن وعظه، ونور حاله، فيكون ممن ينهض الناس حاله، ويدل على الله مقاله. ولا يقنط الناس ويفلسهم من الإيمان والمحبة، بل ينبغي أن يجمع بين التبشير والتحذير، والترغيب والترهيب، ويغلب جانب الترغيب بذكر إحسان الله وآلائه.. لعلهم يعرفون ذلك إذا انقلبوا إلى أسبابهم، لعلهم يرجعون إلى الله في غالب أحوالهم. وبالله التوفيق.

ثم ذكر رجوعهم من مصر إلى أبيهم، فقال:

﴿ فَلَمَّا رَجَعُوٓا إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ

مِن قَبْلُ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُوا۟ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ
رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا
وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا
مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾
وَقَالَ يَٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ
مِن شَىْءٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾

قلت : (نكتل): أصله: نَكْتَيِل، بوزن نفتعل، من الكيل، قلبت الياء ألفاً لتحرك ما قبلها، ثم حذفت للساكنين. و(حفظا): تمييز، ومن قرأ بالألف فحال، كقوله: لله دره فارساً، أو تمييز، وهو أرجح. و(ما نبغى): استفهامية، أو نافية. و(نمير أهلنا): عطف على محذوف، أي: ردت فنستظهر بها ونمير.... إلخ. قال في القاموس: مار يَمير؛ بالكسر: جلَب الطعام. هـ. و (إلا أن يحاط): استثناء مفرغ من أعم الأحوال، أي: لتأتنني به على كل حال إلا حال الإحاطة بكم.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ فلما رجعوا إلى أبيهم قالوا يا أبانا مُنع منا الكيلُ﴾ أي: حكم بمنعه بعد هذا، إن لم نذهب بأخينا بنيامين، ﴿فأرْسِل معنا أخانا نكتلْ﴾ أي: نرفع المانع من الكيل، ونكتل ما نحتاج إليه. وقرأ الأخوان بالياء: ﴿ يكتل ﴾ لنفسه، فنضم اكتياله إلى اكتيالنا، ﴿ وإنا له لحافظون ﴾ من أن يناله مكروه. ﴿ قال هل آمنكم عليه ﴾ أي: ما آمَنكم عليه ﴿ إلا كما أمِنْتُكم على أخيه من قبلُ ﴾، وقد قلتم في يوسف: ﴿وإنا له لحافظون﴾، ﴿ فاللهُ خيرٌ حفظا ﴾(١)؛ فأثق به، وأفوض أمرى إليه، ﴿ وهو أرحمُ الراحمين ﴾، فأرجو أن يرحمنى بحفظه، ولا يجمع عليَّ مصيبتين.

﴿ ولما فتحوا متاعَهُم ﴾: أوعيتهم، ﴿ وجدوا بضاعتَهَم رُدَّتْ إليهم قالوا يا أبانا ما نبغى ﴾ أي: ما نطلب، فهل من مزيد على هذه الكرامة، أكرمنا وأحسن مثوانا، وباع منا، ورد علينا متاعنا، ولا نطلب وراء ذلك إحساناً. أو: ما نتعدى في القول، ولا نزيد على ما حكينا لك من إحسانه. أو: ما نبغى على أخينا، ولا نكذب على الملك. ﴿ هذه بضاعتنا رُدَّتْ إلينا ﴾، هو توضيح وبيان لقولهم:﴿ما نبغي﴾، أي: ردت إلينا فنتقوى بها. ﴿ ونمير

(١) قراءة حمزة والكسائي وحفص: «حافظاً» بالألف، وقرأ الآخرون: «حفظاً» بغير الألف، على المصدر، انظر الإتحاف (٢/ ١٥٠).

أهلنا ﴾ : نسوق لهم الميرة ـ وهو: الطعام حين نرجع إلى الملك ،﴿ ونحفظُ أخانا ﴾ من المكاره في ذهابنا وإيابنا .. ﴿ ونزدادُ كيلَ بعيرٍ ﴾ بزيادة حِمل بعير أخينا، إذ كان يوسف عليه السلام لا يعطي إلا كيل بعير لكل واحد.

﴿ ذلك كيلٌ يسير ﴾ أي: ذلك الطعام الذي أتينا به شيء قليل لا يكفينا حتى نرجع ويزيدنا كيل أخينا. أوْ ذلك الحمل الذي يزيدنا لبعير أخينا ـ كيل قليل عنده ، يسهل عليه لا يتعاظمه، فلا يمنعنا منه . كأنهم استقلوا ما كيل لهم؛ فأرادوا أن يضاعفوه بالرجوع إلى الملك، ويزدادوا إليه ما يكال لأخيهم. وقيل: إنه من كلام يعقوب عليه السلام، والمعنى: أن حمل بعير شيء قليل لا يخاطَر لمثله بالولد.

﴿ قال لن أرسِلَهُ معكم ﴾ ؛ لأني رأيت منكم ما رأيت، ﴿ حتى تُؤتون موثقاً من الله ﴾ ؛ حتى تعطوني ما أثق به من عهد الله، وتحلفوا ليَ الأيمان الموثقة ﴿ لتأتنني به ﴾ في كل حال، ﴿ إلا أن يُحاطَ بكم ﴾ ؛ إلا أن تغلبوا، ولا تطيقوا الإتيان به. أو: إلا أن تهلكوا جميعا ويحيط الموت بكم ﴿ فلما آتَوْهُ موثقَهم ﴾ ؛ عهدهم وحلفوا له، ﴿ قال ﴾ أبوهم : ﴿ الله على ما نقولُ ﴾ من طلب الموثق وإتيان الولد ﴿ وكيل ﴾ أي: مطلع رقيب، لا يغيب عنه شيء.

ثم وصاهم ﴿ وقال ﴾ لهم: ﴿ يابَنِي لا تدخلوا من بابٍ واحدٍ وادخلوا من أبواب متفرقة ﴾ . وكانت في ذلك العهد خمسا: باب الشام، وباب المغرب، وباب اليمن، وباب الروم، وباب طَيْلُون. فقال لهم: ليدخل كل أخوين من باب، خاف عليهم العين؛ لأنهم أهل جمال وأُبهة، مشتهرين في مصر بالقربة والكرامة؛ فإذا دخلوا كبكبة واحدة أصابتهم العين. ولعله لم يوصهم بذلك في المرة الأولى؛ لأنهم كانوا مجهولين حينئذ، وللنفس آثار من العين، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «العَيْنُ حَقٌّ، تُدْخِلُ الرَّجُلَ القَبْرَ والجَمَلَ القِدْرَ»(١).

وكان عليه الصلاة والسلام يتعوذ منها، بقوله: «اللهم إنِّي أعُوذ بك من كُلِّ نَفْسٍ هَامَّةٍ، وعَيْنٍ لاَمَّةٍ»(٢). ويؤخذ من الآية والحديث: التحصن منها قياماً برسم الحكمة. والأمر كله بيد الله. ولذلك قال يعقوب عليه السلام: ﴿ وما أغنى عنكم من الله من شيء ﴾ مما قُضِي عليكم بما أشرت به عليكم، والمعنى: أن ذلك لا يدفع من قدر الله شيئاً، فإن الحذر لا يمنع القدر، ﴿ إن الحُكْم إلا لله ﴾ فما حكم به عليكم لا ترده حيلة، ﴿ عليه توكلتُ وعليه فليتوكل المتوكلون ﴾ أي: ما وثقت إلا به، ولا ينبغي أن يثق أحد إلا به. وإنما كرر حرف الجر؛ زيادة في الاختصاص؛ ترغيباً في التوكل على الله والتوثق به.

(١) قال في كشف الخفاء: (ح ١٧٩٧) رواه أبو نعيم عن جابر مرفوعاً، وحديث «العين حق» بدون الزيادة، متفق عليه. مكث أخرجه البخاري في (الطب، باب العين حق) ومسلم في (السلام، باب الطب والمرضى) من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في (كتاب الأنبياء، باب ١٠) من حديث ابن عباس، قال: كان النبي ﷺ يعوذ الحسن والحسين ويقول ... وذكر الحديث.

الإشارة: رُوى أن إخوة يوسف لما رجعوا عنه صاروا لا ينزلون منزلا إلا أقبل عليهم أهل ذلك المنزل بالكرامات والضيافات، فقال شمعون: لما قدمنا إلى مصر ما التفت إلينا أحد، فلما رجعنا صار الناس كلهم يكرموننا؟ فقال يهوذا: الآن أثر الملك عليكم، ونور حضرته قد لاح عليكم. هـ. قلت: وكذلك من قصد حضرة العارفين لايرجع إلا محفوفاً بالأنوار، معموراً بالأسرار، مقصوداً بالكرامة والإبرار.

قوله تعالى:﴿ فأرسل معنا أخانا . . . ﴾ إلخ،قال الأستاذ القشيرى: المحبة غيورٌ؛ لما كان ليعقوب تَسَلٍّ عن يوسف برؤية بنيامين، أبت المحبة إلا أن تُظهر سُلْطانها بالكمال، فغارت على بنيامين أن ينظر إليه يعقوب بعين يوسف.هـ. قلت: وكذلك الحق تعالى غيور أن يرى في قلب حبيبه شيئاً غيره، فإذا رأى ذلك أزاله عنه، وفرق بينه وبين ذلك الشيء، حتى لا يُحب شيئاً سوى محبوبه. هذا مما يجده أهل الأذواق في قلوبهم.

وقوله تعالى في وصية يعقوب:﴿ لا تدخلوا من باب واحد ﴾، فيه إشارة إلى أن الدخول على الله لا يكون من باب واحد بحيث يلتزم المريد حالة واحدة وطريقة واحدة؛ كالعزلة فقط، أو الخلطة فقط، أو الصمت على الدوام، أو ذكر الاسم على الدوام. بل لابد من التلوين قبل التمكين وبعده؛ فالعزلة على الدوام: مقام الضعف، والخلطة من غير عزلة بطالة. بل لا يكون عارفًا حتى يعرف الله، ويكون قلبُه معه في العزلة والخلطة، والصمت والكلام، والقبض والبسط، والفقد والوجد، ويترقى من ذكر الاسم إلى الفكرة والنظرة، كما هو مقرر عند أهل الفن.

وقوله تعالى: ﴿ عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون ﴾، فيه تهييج على مقام التوكل، وحث على الثقة بالله في جميع الأمور. وفي ذلك يقول الشاعر:

تَوَكَّلْ على الرَّحمنِ في كُلِّ حَاجَةٍ ... وَثِقْ بالله، دبّر الخلق أجمعْ

وضَعْ عنكَ هَمَّ الرِّزقِ؛ فالربُّ ضامنٌ ... وكفَّ عن الكَوْنَيْنِ والخلق أربع

قوله : «والخلق أربع»: أراد العالم العلوى والسفلى، والدنيا والآخرة. وكلها أكوان مخلوقة يجب كف البصر والبصيرة عن الميل إليها، والوقوف معها. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر رجوعهم إلى مصر، واتصال يوسف بأخيه، وإمساكه عنده إلى أن اتصل بأبيه، فقال:

﴿ وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ

ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠
أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ
ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟
عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ
وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا
سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ
فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ
ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ ۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ
ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ ﴾

قلت : (ما كان): جواب «لما»، و(إلا حاجة) : استثناء منقطع. و (جزاؤه) : مبتدأ، و (من) : شرطية أو موصولة، وخبرها: (فهو جزاؤه)، والجملة: خبر (جزاء) الأول. أو (جزاؤه) : مبتدأ، و(من) : خبر، على حذف مضاف، أي: جزاؤه أخذ من وُجد في رحله، وتم الكلام، و(فهو جزاؤه): جملة مستقلة تقريرية لما قبلها.

يقول الحق جل جلاله : ﴿ ولما دخلوا من حيثُ أمرهم أبُوهم ﴾ أي: من أبواب متفرقة في البلد ، ﴿ ما كان يُغني عنهم ﴾ أي: ما أغنى عنهم رأي يعقوب واتِّباعهم له ﴿ من الله من شيء ﴾مما قضى عليهم، فاتُّهموا بالسرقة وظهرت عليهم، فأُخذ بنيامين الذي كان الخوف عليه، وتضاعفت المصيبة على يعقوب، ﴿ إلا حاجةً ﴾: لكن حاجة ﴿ في نفس يعقوب ﴾ يعني: شفقته عليهم، وتحرزه من أن يعانوا، ﴿ قضاها ﴾ ؛ أظهرها ووصى بها. ﴿ وإنه لَذُو علم لِمَا علمناه ﴾ بالوحي ونصب الدليل. ولذلك قال: ﴿وما أغنى عنكم من الله من شيء﴾؛ فلم يغتر بتدبيره، ففيه تنزيه ليعقوب عن الوقوف مع الأسباب والعوائد، ورفع إيهام وقوفه مع عالم الحكمة. ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ سر القدر، وأنه لا ينفع منه الحذر.

قال ابن عطية: قوله: ﴿ ما كان يغني عنهم من الله من شيء ﴾ ، معناه : ما ردأ عنهم قدراً؛ لأنه لو قُضي أن تصيبهم عين لأصابتهم، مفترقين أو مجتمعين. وإنما طمع يعقوب عليه السلام أن تصادف وصيته القدر في سلامتهم.

ثم أثنى الله ـ عز وجل ـ على يعقوب بأنه لقن مما علمه الله من هذا المعنى، واندرج غيره في ذلك العموم، وقال: إن أكثر الناس ليس كذلك.هـ.

﴿ ولما دخلوا على يوسف آوى إليه أخاه ﴾ أي: ضم إليه بنيامين على الطعام، أو في المنزل. رُوي أنه أضافهم، فأجلسهم اثنين اثنين، فبقي بنيامين وحيداً فبكى، وقال: لو كان يوسف حياً لجلس معي، فأجلسه معه على مائدته، ثم قال: لينزل كل اثنين بيتا، وهذا لا ثاني له فيكون معي، فبات عنده وقال له: أتحب أن أكون أخاك بدل أخيك الهالك؟ قال: من يجد إذاً مثلك، ولكن لم يلدك يعقوب ولا راحيل، ﴿ قال إني أنا أخوك ﴾ وعرفه بنفسه، ﴿ فلا تبتئسْ ﴾ لا تحزن ﴿ بما كانوا يعملون ﴾ في حقنا من الأذى، أو: لا تحزن بما يعمله فتياني، ولا تبالي بما تراه في تحيُّلي في أخذك.

﴿ فلما جَهَّزَهُم بجَهَازِهِم جعل السِّقاية ﴾، التي هي الصواع، ﴿ في رَحْلِ أخيه ﴾، وهي إناء يشرب بها الملك، ويأكل فيها، وكان من فضة، وقيل: من ذهب. وقيل: كان صاعا يُكال به. وقصد بجعله في رحل أخيه أن يحتال على إمساكه معه؛ إذ كان شَرْعُ يعقوب أنّ من سرق استعبده المسروق منه. ﴿ ثم أذَّن مُؤَذِّنٌ ﴾ بعد أن انصرفوا: ﴿ أيتها العير إنكم لسارقون ﴾، والخطاب لإخوة يوسف، وإنما استحل رميهم بالسرقة مع علمه بأنهم أبرياء؛ لما في ذلك من المصلحة في المآل، وبوحي لا محالة، وإرادة من الله تعالى عَنَتَهم بذلك، يقويه قوله تعالى: ﴿ كذلك كدنا ليوسف ﴾، ويمكن من أن يكون فيه تورية، وفيها مندوحة عن الكذب، أي: إنكم لسارقون يوسف من أبيه، حين باعوه.

﴿ قالوا وأقبلوا عليهم ماذا تفقدون ﴾أي: أيُّ شيء ضاع منكم؟ والفقد: غيبة الشيء عن الحس. ﴿ قالوا نَفقدُ صُوَاعَ الملِكِ ﴾ الذي يكيل به، أو يشرب فيه، ﴿ ولمن جاء به حِمْلُ بعيرٍ ﴾ من الطعام، ﴿ وأنا به زعيم ﴾ كفيل أؤديه إلى من رده. وفيه دليل على جواز الجعل، وضمان الجعل قبل تمام العمل. قاله البيضاوي.

﴿ قالوا تالله لقد عَلِمْتُم ما جئنا لنُفسد في الأرض وما كنا سارقين ﴾ فيما مضى، استشهدوا بعلمهم بديانتهم على براءة أنفسهم؛ لِمَا عرفوا منهم من الديانة والأمانة في دخولهم أرضهم، حتى كانوا يجعلون الأكمة في أفواه إبلهم؛ لئلا تنال زرع الناس، ﴿ قالوا فما جزاؤه ﴾أي: السارق، ﴿ إن كنتم كاذبين ﴾ في ادعاء البراءة. ﴿ قالوا جزاؤه مَن وُجِدَ في رَحْلِهِ فهو جزاؤُه ﴾؛ يحبس في سرقته، ويُسْتَرَقّ للمسروق منه، وهذا كان قصد يوسف عليه السلام، وهي كانت شريعة يعقوب، وكانت أيضا شريعتنا في أول الإسلام ثم نسخ بالقطع. ثم قالوا: ﴿ كذلك نجزي الظالمين ﴾ بالسرقة.

﴿ فبَدَأَ ﴾ المؤذن أو يوسف؛ لأنهم رُدُّوا إلى مصر، أي: بدأ في التفتيش، ﴿ بأوعيتِهم قبلَ وعَاءِ أخيه ﴾ بنيامين، تقية للتهمة، ﴿ ثم استخرجها ﴾ أي: السقاية، أو الصواع؛ لأنه يُذكر ويؤنث، ﴿ من وعاء أخيه ﴾ ﴿ كذلك ﴾ أي: مثل ذلك الكيد ﴿ كِدْنَا ليوسفَ ﴾ أي: علمناه الحيلة بالوحي في أخذ أخيه، ﴿ ما كان لِيأْخُذَ أخاه في دين الملك ﴾ ملك مصر؛ لأن دينه كان الضرب وتغريم ضعف ما أُخذ دون الاسترقاق. ﴿ إلا أن يشاءَ اللهُ ﴾ أن يجعل ذلك الحكم حكم الملك. أو: لكن أخذه بمشيئة الله وإرادته. ﴿ نرفعُ درجات من نشاء ﴾ بالعلم والعمل، كما رفعنا درجته، ﴿ وفوق كلِّ ذي علمٍ عليم ﴾ أرفع درجة منه.

قال البيضاوي: واحتج به من زعم أنه تعالى عالم بذاته؛ إذ لو كان ذا علم لكان فوقه من هو أعلم منه ـ أي: لدخوله تعالى في عموم الآية ـ والجواب: أن المراد كل ذي علم من الخلق؛ لأن الكلام فيهم، ولأن العليم هو الله تعالى. ومعناه: الذي له العلم البالغ، ولأنه لا فرق بينه وبين قولنا: فوق كل العلماء عليم، وهو مخصوص. هـ.

قلت: وقد ورد ثبوت العلم له تعالى في آيات وأحاديث. كقوله تعالى: ﴿ أنزله بعلمه ﴾(١)، و﴿ أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ ﴾(٢) «وإني على عِلمٍ مِن عِلمِ اللهِ علَّمَنِيه»(٣) إلى غير ذلك مما هو صريح في الرد عليهم.

الإشارة: يؤخذ من قوله تعالى: ﴿ ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم ﴾: امتثال أمر الأب فيما يأمر وينهى، ولا فرق بين أب البشرية وأب الروحانية ـ وهو الشيخ ـ، فامتثال أمره واجب على المريد، ولو كان فيه حتف أنفه، وأمره مقدم على أمر الأب كما تقدم في سورة النساء. وقد قالوا: أركان التصوف ثلاثة: الاجتماع، والاستماع، والاتباع. وقوله تعالى: ﴿ ما كان يُغني عنهم من الله من شيء إلا حاجة .... ﴾ إلخ: فيه الجمع بين مراعاة القدرة والحكمة، فالقدرة تقتضي التفويض؛ إذ لا فعل لغير الله، والحكمة تقتضي الحذر، واستعمال الأسباب؛ لأن الحكمة رداء للقدرة. فالكمال هو الجمع بينهما؛ ستراً لأسرار الربوبية، فالباطن ينظر لتصريف القدرة، والظاهر يستعمل أستار الحكمة.

وقوله تعالى: ﴿ فلما جهزهم بجهازهم جعل السقاية في رَحْلِ أخيه ... ﴾ الآية. هذا من فعل أهل التصريف بالله، المأخوذين عنهم، لا يدخل تحت قواعد الشرع؛ لأن فاعله مفعول به، أو ناظر بنور الله إلى غيب مشيئة الله، كأفعال

---

(١) من الآية ١٦٦ من سورة النساء.
(٢) من الآية ١٤ من سورة هود.
(٣) جزء من حديث موسى الخضر وأخرجه البخاري في (أحاديث الأنبياء، باب حديث الخضر)، من حديث ابن عباس رضي الله عنه.

الخضر عليه السلام. قال الورتجبي: إن الله سبحانه إذا خصّ نبياً، أو ولياً ألبسه صفاته بتدريج الحال؛ ففي كل حالة له يكسوه نوراً من صفته، فمن جملة صفاته: كيد الأزل ومكر الأبد، فكسى علم كيده قلب يوسفَ، حتى كاد برؤية كيد الله الأزلي، فعرفه فيه أسرار لطف صنائعه، وعلم حقائق أفعاله وقدرته. هـ.

وقوله: ﴿ نرفع درجات من نشاء ﴾ : أي: بالعلم بالله؛ كالكشف عن أسرار ذاته وأنوار صفاته، والتخلق بمعاني أسمائه، والتحقق بمقامات اليقين، ومنازل السائرين. وهذه درجات المقربين، وليس فوقها إلا درجة الأنبياء والمرسلين. أو بالعلم بأحكام الله وشرائعه؛ كالعلم بأحكام العبادات والعادات، وسائر المعاملات. وهذه درجات عامة أهل اليمين من العلماء الأتقياء والصالحين، ومنتهى درجاتهم هي ابتداء درجات العارفين المقربين، ثم الأنبياء والمرسلين. ﴿ وفوق كل ذي علم عليم ﴾، ومنتهى العلم إلى الله العظيم.

ثم ذكر جوابهم، فقال:

﴿ ۞ قَالُوٓا۟ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾

قلت : معنى الشرط والجواب: إن ثبت أن بنيامين يسرق فقد سرق أخ له، أي: سرقته كسرقة أخيه، و(مكانا): تمييز.

يقول الحق جل جلاله : قال إخوة يوسف، لما ظهرت السرقة عليهم: ﴿ إن يسرقْ ﴾ بنيامين ﴿ فقد سرق أخٌ له ﴾ أخوه يوسف ﴿ من قبل ﴾، فهذا الأمر إنما صدر من ابنَيْ راحيل، لا منا، قصدوا بذلك رفع المضرة عن أنفسهم، ورموا بها يوسف وشقيقه، وهذه السرقة التي رموه بها؛ قيل: كانت ورثت عمته من أبيها منطقة، وكانت تحضن يوسف وتحبه، فلما شب، أراد يعقوب انتزاعه منها، فشدت المنطقة على وسطه، ثم أظهرت ضياعها، ففتش عليها، فوجدت مشدودة على وسطه، فصارت أحق به في حكمهم، وقيل: كان لجده من أمه صنم من ذهب، فسرقه وكسره، وألقاه في الجيف. وقيل: كان في البيت عناق أو دجاجة فأعطاها السائل(١).

(١) لم يرد نص ثابت عن النبي ﷺ في تعيين المراد بالسرقة التي وصفوه بها، فالله أعلم بالذي كان.

﴿ فأسرَّها يوسفُ في نفسه ولم يُبدها لهم ﴾ أي: أخفى هذه الإجابة، ولم يكذبهم فيها. أو: الحزازة التي وجد في نفسه من قولهم: «فقد سرق أخ له من قبل»؛ أي: أسر كراهية مقالتهم. أو: المقالة التي يفسرها قوله: ﴿ قال أنتم شرٌّ مكانًا ﴾؛ أي: قال في نفسه خفية: أنتم شر مكانًا، أي: أنتم أقبح منزلة في السرقة بسرقتكم أخاكم، أو بسوء صنيعكم بما فعلتم معي. ﴿ والله أعلم بما تَصِفُون ﴾، وقد علم سبحانه أن الأمر ليس كما يصفون، فهو إشارة إلى كذبهم فيما نسبوا إليه من السرقة.

﴿ قالوا يأيها العزيزُ إن له أبا شيخًا كبيرًا ﴾ في السن، أو القدر، ذكروا حاله؛ استعطافًا له، وكانوا أعلموه بشدة محبة أبيه فيه، ﴿ فخُذ أحدَنا مكانه ﴾؛ فإن أباه ثكلان، أي: حزين على أخيه الهالك، يستأنس به، ﴿ إنا نراك من المحسنين ﴾ إلينا، فأتمم إحسانك، أو من المتعودين الإحسان فلا تغير إحسانك. ﴿ قال معاذَ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعَنا عنده ﴾ فإنَّ أَخْذَ غيره ظلم، فلا آخذ أحداً مكانه؛ ﴿ إنا إذاً لظالمون ﴾ في مذهبكم؛ لأن الله أمرنا باسترقاق السارق؛ فاسترقاق غيره ظلم.

الإشارة: النفس الأمارة من شأنها الانتصار، ودفع النقائص عنها والعار. والنفس المطمئنة من شأنها الاكتفاء بعلم الله، والرضا بما يجري به القضاء من عند الله، فإذا اختلجها شيء من الانتصار أَسَرَّتْه، ولم تخرجه إلى حالة الإظهار.

قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه: آداب الفقير المتجرد أربعة أشياء: الحرمة للأكابر، والرحمة للأصاغر، والانتصاف من نفسه، وعدم الانتصار لها. هـ. فالفقير إذا انتصرلنفسه فقد نقض العهد مع ربه، فيجب عليه التوبة. وقالوا: [الصوفي دمه هدر، وعرضه وماله مباح]. يعني: أنه لا ينتصر لنفسه، فكل من آذاه لا يخاف من جانبه؛ فكأنه مباح، مع كونه حراماً بالشريعة، بل هو أشد حرمة من غيره. والله تعالى أعلم.

ثم قال تعالى:

﴿ فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى

كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِيٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾

قلت: (نَجيا): حال، أي: انفردوا عن الناس مناجين. وإنما أفرده؛ لأنه مصدر، أو بزنته. و(من قبل ما): يحتمل أن تكون مزيدة ومصدرية مرفوعة بالابتداء، أي: تفريطكم في يوسف واقع من قبل هذا. قاله ابن جزي. وفيه نظر؛ فإن الظرف المقطوع لا يقع خبراً، أوْ منصوبة بالعطف على مفعول (تعلموا)، أي: لم تعلموا أخذ ميثاق أبيكم، وتفريطكم في يوسف قبل هذا.

يقول الحق جل جلاله: ﴿فلما استيأسوا﴾؛ أي: يئسوا ﴿منه﴾ من يوسف أن يجيبهم إلى ما دعوه إليه من أخذ أحدهم مكان أخيهم، ﴿خَلَصُوا﴾ أي: تخلصوا من الناس، وانفردوا عنهم ﴿نَجِيًّا﴾ متناجين، يناجي بعضهم بعضاً: كيف وقع للصاع؟ وكيف يتخلصون من عهد أبيهم؟ ثم فسر تلك المناجاة: ﴿قال كبيرُهمْ﴾ في السن، وهو رُوبيل، أو في الرأي، وهو شمعون، وقيل يهوذا: ﴿ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله﴾؛ عهداً وثيقاً، وحلفتم له لتأتن بابنه إلا أن يُحاط بكم؟ فكيف تصنعون معه، ﴿ومن قبلُ﴾ هذا ﴿فرطتم في يوسف﴾ واعتذرتم بالأعذار الكاذبة؟ ﴿فلن أبرح الأرض﴾؛ فلن أفارق أرض مصر ﴿حتى يأذن لي أبي﴾ في الرجوع، ﴿أو يحكم الله لي﴾: أو يقضي لي بالخروج منها، أو بتخليص أخي منهم قهراً، ﴿وهو خيرُ الحاكمين﴾؛ لأن حكمه لا يكون إلا بالحق.

رُوي أنهم كلموا العزيز في إطلاقه، فقال روبيل، وقيل: يهوذا: أيها الملك، لتتركن أخانا أو لأصيحن صيحة تضع منها الحوامل، ووقف شعر جسده؛ فخرجت من ثيابه، فقال يوسف لابنه الصغير، واسمه نائل: قم إلى جنبه ومُسَّه، فمسه، وكان بنو يعقوب إذا غضب أحدهم لا يسكن غضبه إلا إذا مسه أحد من آل يعقوب، فلما مسه ولد يوسف عليه السلام سكن غضبه، فقال: من هذا؟ إن في هذا البلد لبذراً من بذر يعقوب.

وقيل: إنهم هموا بالقتال، وقال يهوذا لإخوته: تفرقوا في أسواق مصر، وأنا أصيح صيحة تشق مراريهم، فاذا سمعتم صوتي، فاضربوا يميناً وشمالاً، فلما غضب، وأراد أن يصيح، مسه ولد يوسف فسكن، فلما لم يسمعوا صوته أتوا إليه فوجدوه قد سكن غضبه، فقال: إن هنا بذراً من آل يعقوب.

ثم قال لهم: ﴿ارجعوا إلى أبيكم فقولوا يا أبانا إنّ ابنك سرق﴾ على ماشهدنا من ظاهر الأمر، ﴿وماشهدْنا إلا بما علمنا﴾ بأن رأينا الصاع استُخرج من وعائه. ﴿وما كنا للغيب حافظين﴾ أي: ما كنا

لباطن الأمر حافظين، فلا ندري أسرق، أو أحد دسه في وعائه؟ أو ما كنا حين أعطيناك العهد حافظين للغيب، عالمين بالقدر المغيب، وأنك تصاب به كما أصبت بأخيه. ﴿ واسأل القرية التي كنا فيها ﴾ ؛ وهى القرية التى لحقهم فيها المنادى، أى: أرسل إليهم واسألهم عن القصة إن اتهمتنا. ﴿ و ﴾ سل أيضا ﴿ العير ﴾ : أهل العير، ﴿ التى أقبلنا فيها ﴾ ، والعير: جماعة الإبل. ﴿ وإنا لصادقون ﴾ فيما أخبرناك به. هذا تمام وصية كبيرهم. فلما رجعوا إلى أبيهم، وقالوا له ما قال لهم كبيرهم،

﴿ قال ﴾ لهم أبوهم: ﴿ بل سَوَّلَتْ لكم أنفسُكم أمراً ﴾ أى: زينت لكم أمراً فصنعتموه، وإلا فمن أين يدرى الملك أن السارق يُؤخذ في السرقة، إذ ليست بشريعته، ﴿ فصبر جميلٌ ﴾ أى: فأمرى صبر جميل، ﴿ عسى اللهُ أن يأتيني بهم جميعاً ﴾ ؛ بيوسف وبنيامين، وأخيهما الذى بقى بمصر، ﴿ إنه هو العليمُ ﴾ بحالى وحالهم، ﴿ الحكيم ﴾ فى تدبيره. رُوى أن عزرائيل دخل ذات يوم على يعقوب ـ عليهما السلام ـ فقال له يعقوب: جئت لقبض روحى، أو لقبض روح أحد من أولادى وأهلى؟. قال: إنما جئت زائراً، فقال له: أقسمت عليك بالله إلا ما أخبرتنى، هل قبضت روح يوسف؟ فقال: لا، بل هو حى سَوِىّ، وهو ملك وله خزائن، وجنود وعبيد، وعن قريب يجمع الله شملك به.هـ.

الإشارة: فلما استيأس القلب من الدنيا، والرجوع إليها، وقطع يأسه من حظوظها وهواها، خلصت له المناجاة، وصفت له أنوار المشاهدات، وأنواع المكالمات، والقلب هو كبير الأعضاء وملكها، فيقول لها: ألم تعلموا أن الله قد أخذ عليكم موثقاً ألا تعصوه ولا تُخالفوه، ومن قَبل هذا، وهو زمان البطالة، قد فرطتم فى عبادته، فلن أبرح أرض العبودية حتى يأذن لى فى العروج إلى سماء شهود عظمة الربوبية، أو يحكم لى بالوصال، وهو خير الحاكمين. فإن وقعت من الجوارح هفوة فيقال لها: ارجعوا إلى أبيكم ـ وهو القلب ـ فقولوا: إن ابنك سرق، أى: تعدى وأخذ ماليس له من الهوى فيما ظهر لنا، وماشهدنا إلا بما علمنا، فرب معصية فى الظاهر طاعة فى الباطن، واسأل البشرية التى كنا فيها والخواطر التى أقبلنا على المعصية فيها، فيقول القلب: بل زينت لكم أنفسكم أمر الهوى، فدواؤكم الصبر الجميل، والتوبة للعظيم الجليل، عسى الله أن يأتينى بهم جميعاً، فنصرفهم فى طاعة الله ومرضاته. والله تعالى أعلم بأسرار حِكَمِ كتابه، فعلم الإشارة يقبل مثل هذا وأكثر. وإياك والانتقاد؛ فقد قالوا فى باب الإشارة أرق من هذا وأغرب. وبالله التوفيق.

ثم قال تعالى:

﴿ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ يَٰبَنِىَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾

قلت: يا أسفى، وياويلتى، وياحسرتى، مما عوض فيه الألف عن ياء المتكلم. والأسف: أشد الحزن. وقيل: شدة الحسرة. و(كظيم): إما بمعنى مفعول، كقوله: (وهو مكظوم)؛ أي: فهو مملوء غيظاً على أولاده، ممسك له في قلبه، تقول: كظم السقاء؛ إذا شد على ملئه. أو بمعنى فاعل؛ كقوله: ﴿ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ ﴾(1)؛ من كظم البعير جرّته؛ إذا ردها في جوفه. و(تفتأ): من النواقص اللازم للنفي، وحذفه هنا لعدم الإلباس؛ لأنه لو كان مثبتاً لأُكد باللام والنون. والحـرض: المريض المشرف على الهلاك، وهو في الأصل مصدر، ولذلك لا يؤنث ولا يثنى ولا يجمع. والبث: أشد الحزن.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وتولى ﴾ يعقوب عن أولاده، أي: أعرض ﴿ عنهم ﴾ لما لم يصدقهم، كراهةً إما صادف منهم، ورجع إلى تأسفه ﴿ وقال يا أسفا ﴾ أي: ياشدة حزني ﴿ على يوسف ﴾. وإنما تأسف على يوسف دون أخويه لأن محبته كانت أشد؛ لإفراط محبته فيه، ولأن مصيبته سبقت عليهما. ﴿ وابيضّتْ عيناه ﴾ من كثرة البكاء ﴿ من الحُزن ﴾، كأنَّ العَبْرةَ محقت سوادها، وقيل: ضعف بصره، وقيل: عمي. وقد رُوي أنه: «حَزِنَ يعْقُوبُ حُزْنَ سبعين ثَكْلَى، وأُعطِي أجْرَ مائة شَهِيدٍ، وما ساءَ ظَنُّه بالله قَطّ».

وفيه دليل على جواز التأسف والبكاء عند التفجع. ولعل أمثال ذلك لا يدخل تحت التكليف، فإنه قلَّ من يملك نفسه عند الشدائد، وقد بكى رسول الله ﷺ وقال: «القَلْبُ يَحْزَنُ، والعَيْنُ تَدْمَعُ، ولا نَقُولُ إلاّ ما يُرْضِي رَبّنَا، وإنَّا على فِرَاقِك يإبراهيم لمَحزُونون».

﴿ فهو كظيم ﴾ أي: مملوء غيظا على أولاده؛ لما فعلوا. أو كاظم غيظه، ماسك له، لم يظهر منه شيئا، ولم يَشْكُ لأحد.

(1) من الآية ١٣٤ من سورة آل عمران.

﴿قالوا تالله تَفْتَؤُا﴾: لا تزال ﴿تذكرُ يوسفَ﴾ تفجعًا عليه، ﴿حتى تكون حَرَضًا﴾: مشرفًا على الهلاك، ﴿أو تكون من الهالكين﴾: من الميتين/﴿قال إنما أشكو بَثّي﴾ أي: شدة همى ﴿وحزني﴾ الذى لاصبر عليه، ﴿إلى الله﴾ لا إلى أحد منكم ولا غيركم، فَخَلُّونى وشِكَايتى، فلستُ مِمَّن يجزع ويَضْجَرَ، فيستحق التعنيف، وإنما أشكو إلى الله، ولا تعنيف فيه؛ لأن فيه إظهار الفقر، والعجز بين يديه، وهو محمود. ﴿وأعلمُ من الله ما لا تعلمون﴾ أي: أعلم من لطف الله ورأفته ورحمته، ما يوجب حسن ظنى وقوة رجائى، وأنه لا يخيب دعائى، ما لا تعلمون. أو: وأعلم من طريق الوحي من حياة يوسف ما لا تعلمون؛ لأنه رأى ملك الموت فأخبره بحياته، كما تقدم. وقيل: علم من رؤيا يوسف أنه لا يموت حتى تخر له إخوته سُجَّدًا.

﴿يابَنى اذهبوا﴾ إلى الأرض التي تركتم بها أخويكم، ﴿فتحسَّسُوا من يوسفَ وأخيه﴾ أي: تعرفوا من خبرهما، وتفحَّصوا عن حالهما. والتحسس: طلب الشيء بالحواس. وإنما لم يذكر الولد الثالث؛ لأنه بقى هناك اختيارًا، وفي ذكر يوسف دليل على أنه كان عالماً بحياته. ﴿ولا تيأسُوا من رَوْحِ الله﴾: لا تقنطوا من فرجه وتنفيسه، أو من رحمته، وقرئ بضم الراء، أي: من رحمته التي يحيى بها العباد، أي: ولا تيأسوا من حى معه روح الله؛ فكل من بقي روحه يرجى، أي: ويوسف عندى، فمن معه روح الله فلا تيأسوا من رجوعه. ﴿إنه﴾ أي: الشأن ﴿لاييأسُ من رَوْحِ الله إلا القومُ الكافرون﴾ بالله وصفاته؛ لأن العارف لا يقنط من رحمته في شيء من الأحوال. وإنما جعل اليأس من صفة الكافر؛ لأن سببه تكذيبٌ بالربوبية، أو جهل بصفة الله وقدرته، والجهل بالصفة جهل بالموصوف، فالإياس من رحمة الله كفر.

وأما حديث الرجل الذى قال: (إذا متُّ فاحرقونى، ثم اذْرونى في البحر والبر في يوم رائح، فلَئِن قدر الله عليَّ ليعذبنى عذاباً ما عذبه أحد من الناس)، حسبما في الصحيح[1]، فليس فيه اليأس ولا تعجيز القدرة، لكن لما غلبه الخوف المفرط لم يتأمل ولم يضبط حاله؛ إما لحقه من الخوف وغمره من الدهش والخشية، دون عقد ولا إصرار على نفى الرحمة واليأس منها. ويدل على ذلك قوله: (لما قال له الرب ـ تعالى ـ: ماحملك على هذا؟ قال: مخافتك، فغفر له). ولم يقل اليأس من رحمتك. انظر المحشى الفاسى.

الإشارة: لم يتأسف يعقوب عليه السلام على فقد صورة يوسف الحسية، إنما تأسف على فقد ما كان يشاهد فيه من جمال الحق وبهائه، في تجلي يوسف وحسن طلعته البهية، وفي ذلك يقول ابن الفارض:

عَيْنِي لِغَيْرِ جَمَالِكُمْ لاَ تَنْظُرُ		وسِوَاكُمُ فِي خَاطِرِي لا يَخْطُرُ

(١) أخرج قصة هذا الرجل البخارى في (الرقاق، باب الخوف من الله) من حديث أبي سعيد الخدرى رضى الله عنه.

فلما فقد ذلك التجلي الجمالي حزن عليه، وإلا فالأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ أولى بالغنى بالله عما سواه . فإذا حصل للقلب الغنى بالله لم يتأسف على شيء، ولم يحزن على شيء؛ لأنه حاز كل شيء، ولم يفته شيء . «ماذا فقد من وجده، وما الذي وجد من فقده» . ولله در القائل:

أنَا الفَقِيرُ إلَيْكُمْ والغَنِيُّ بِكُمْ ... ولَيْسَ لِي بَعْدَكُمْ حِرْصٌ عَلَى أحَدِ

وهذا أمر محقق، مذوق عند العارفين؛ أهل الغنى بالله . وقوله: (إنما أشكو بثي وحزني إلى الله): فيه رفع الهمة عن الخلق، والاكتفاء بالملك الحق، وعدم الشكوى فيما ينزل إلى الخلق .. وهو ركن من أركان طريق التصوف، بل هو عين التصوف . وبالله التوفيق .

ثم ذهبوا إلى مصر كما أمرهم أبوهم، قال تعالى:

﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوا أَإِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَٰذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ﴾

قلت: (من يتق ويصبر): من قرأ بالياء: أجرى الموصول مجرى الشرط؛ لعمومه وإبهامه، فعطف على صلته بالجزم، ومنه قول الشاعر:

كَذَلِكَ الذي يَبْغِي عَلَى النَّاسِ ظَالِماً ... تُصِبْهُ عَلَى رَغْمٍ عَوَاقِبُ مَا صَنَعْ

يقول الحق جل جلاله: ﴿فلما دخلوا عليه﴾ علي يوسف حين رجعوا إليه مرة ثالثة، ﴿قالوا يا أيها العزيز مسنا وأهلنَا الضرُّ﴾ شدة الجوع، ﴿وجئنا﴾ إليك ﴿ببضاعة مُزْجَاة﴾ : رديئة، أو قليلة، أو ناقصة، تدفع

وترد، من أزجيته، دفعته. ومنه: ﴿ يُزْجِي سَحَابًا ﴾(١) قيل: كانت دراهم زيوفاً وقيل: الصنوبر وحبة الخضراء. وقيل: سَويق المُقْل أى: الدوم. وقيل: عروضًا. ﴿ فأوْفِ لنا الكَيْلَ ﴾ : أتممه لنا، ﴿ وتصدّقْ علينا ﴾ بالمسامحة، وقبول المزجاة، أو بالزيادة على ثمننا. وهذا يقتضى أن الصدقة كانت حلالاً على الأنبياء قبل نبينا ﷺ، وهو خلاف المشهور. أو برد أخينا، ﴿ إن الله يجزى المتصدِّقين ﴾ أحسن الجزاء. والتصدق: التفضل مطلقاً، ومنه قوله ﷺ فى القصر: «هذِه صَدَقَةٌ تَصَدَّق اللهُ عَلَيْكُم بها، فأقبلوا صدقته»(٢).

رُوى أن يعقوب عليه السلام لما أرسلهم المرة الثالثة ليتحسسوا أخبار يوسف وأخيه، أرسل معهم كتاباً ونصه: بسم الله الرحمن الرحيم، من يعقوب الحزين إلى عزيز مصر، ولو عرفت اسمك لذكرتك فى كتابى هذا، يا من اعتز بعز الله، فالله يُعِزُّ من يشاء ويذل من يشاء، وإنى أيها العزيز قد اشمأز قلبى، وقطع الحزن أوصالى، وإنى ناء إلى الإقراح، دائم البكاء والصياح، وإنى من نطفة آباء كرام، فكيف يتولد اللصوص منى وأنا من الخصوص! وقد أُخبرت أنك وضعت الصّاع بالليل فى رحل ولدى الأصغر، وإنى حزين عليه كما كنتُ حزيناً على أخيه الفقيد، حزنًا دائماً سرمداً شديداً. وإن كنت أفجعتنى فى الآخر فإن قلبى لا محالة طائر. ثم ختمه بالسلام.

فلما دفعوه ليوسف قرأه، وبكى بكاء شديداً، ثم دفعه لأخيه بنيامين فقرأه وبكى أيضاً. ثم نزل عن سريره، ثم دفع لهم الكتاب الذى كانوا كتبوه لمالك بن ذعْر لمّا باعوه بخطوط شهادتهم، كان أخذه من مالك حين باعه. فلما قرأوه تغيرت ألوانهم وتضعضعت أركانهم، وبُهتوا، فقال لهم: ﴿ هلْ علمْتم ما فعلتم بيوسفَ وأخيه ﴾؛ من إيذاء يوسف، وتفريقه من أبيه، ومضرة أخيه من بعده، فإنهم كانوا يذلونه ويشتمونه، أى: هل علمتم قبحه فتبتم منه؟ قاله نصحاً وتحريضاً لهم على التوبة. ﴿ إذ أنتم جاهِلُون ﴾ أى: فعلتم ذلك حين كنتم جاهلين قُبح ذلك. وإنما سماهم جاهلين؛ لأن فعلهم حينئذ فعل الجهال، أو لأنهم حينئذ كانوا صبياناً طياشين، فعرفوه حينئذ على ظن، فقالوا: ﴿ أئنك لأنتَ يوسفُ ﴾؟ بالاستفهام التقريرى. وقرأ ابن كثير على الإيجاب. قيل: عرفوه بذوائبه وشمائله حين نزل إليهم وكلمهم. وقيل: تبسم فعرفوه بثناياه. وقيل: رفع التاج عن رأسه فعرفوه بِشَامةٍ كانت فى رأسه بيضاء، وكانت لسارة ويعقوب مثلها.

﴿ قال ﴾ لهم: ﴿ أنا يوسفُ وهذا أخى ﴾ من أبى وأمى. ذكره تعريفاً لنفسه به، وتفخيماً لشأنه، وإدخالاً له فى المنة بقوله: ﴿ قد منّ الله علينا ﴾ بالسلامة والكرامة والعز، ﴿ إنه من يتقِ ﴾ الله ﴿ ويصبرْ ﴾ على بلواه، وعلى طاعته وتقواه ﴿ فإن الله لا يضيع أجر المحسنين ﴾، وضع المحسنين موضع المضمر؛ تنبيهًا على أن المحسن جمع بين الصبر والتقوى. فمن اتقى الله وصبر فهو محسن..

(١) من الآية ٤٣ من سورة النور.
(٢) أخرجه مسلم فى (صلاة المسافرين، باب صلاة المسافرين وقصرها) من حديث سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه.

﴿ قالوا تالله لقدْ آثرَكَ اللهُ علينا ﴾ بحسن الصورة وكمال السيرة، أو فضلك علينا رغماً على أنفنا، ﴿ وإن كنا لخاطئين ﴾ أي: والحال أن شأننا أنَّا كنا مذنبين فيما فعلنا معك. ﴿ قال لا تثريبَ ﴾: لا عتاب ﴿ عليكم اليوم ﴾ أي: لا عقوبة عليكم في هذا اليوم. ثم دعا لهم فقال: ﴿ يغفرُ الله لكم ﴾، فيوقف على اليوم. وقيل: يتعلق بيغفر، فيوقف على ما قبله، وهو بعيد؛ لأنه تحكم على الله، وإنما يصلح أن يكون دعاء، إذ هو الذي يليق بآداب الأنبياء، فكأنه أسقط حق نفسه بقوله: ﴿ لا تثريب عليكم اليوم ﴾، ثم دعا الله أن يغفر لهم الله حقه. قاله ابن جزي، وصدر به البيضاوي. وبه تعلم ضعف وقف الهبطي. ثم قال في تمام دعائه: ﴿ وهو أرحمُ الراحمين ﴾؛ فإنه يغفر الصغائر والكبائر، ويتفضل على التائب.

قال البيضاوي: ومن كرم يوسف عليه السلام أنهم لما عرفوه أرسلوا له، وقالوا: إنك تدعوننا بالبكرة والعشي إلى الطعام، ونحن نستحي منك لما فرط منا فيك، فقال لهم: إن أهل مصر كانوا ينظرون إليَّ بالعين الأولى، ويقولون: سبحان من بلغ عبداً بيع بعشرين درهما ما بلغ، ولقد شُرِّفتُ بكم، وعظمت في أعينهم حيث إنكم إخوتي، وإني من حفدة إبراهيم عليه السلام. هـ.

الإشارة: من رام الدخول إلى حضرة الكريم الغفار، فليدخل من باب الذل والانكسار. وفي الحِكَم: «ما طلب لك شيء مثل الاضطرار، ولا أسرع بالمواهب مثل الذلة والافتقار». فإذا قرعت الباب، ورمت الدخول مع الأحباب، فقل بلسان التضرع والانكسار: ياأيها العزيز الغفار مسنا الضر، وهو البعد والغفلة، وجئنا ببضاعة مزجاة؛ عمل مدخول، وقلب معلول، فأَوْفِ لنا ما أملناه من الجزاء المأمول، وتفضل علينا بالقبول والوصول، وقل: اليوم نغفر لكم ونغطي مساوءكم، ونوصلكم بما منى إليكم من الإحسان، لا بما منكم إلينا من الطاعة والإذعان. هؤلاء إخوة يوسف لما أظهروا فاقتهم، واستقلوا بضاعتهم، وأحضروا شكايتهم، سمح لهم وقربهم، وكشف لهم عن وجهه الجميل، ومنحهم العطاء الجزيل، فما ظنك بالرب العظيم الجليل، الذي هو أرحم الراحمين، ومحل أمل القاصدين.

ثم أمرهم بالرجوع إلى أبيهم، والإتيان به وبمن معه من أولادهم، فقال:

﴿ ٱذْهَبُواْ بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ

وَجۡهِهِۦ فَٱرۡتَدَّ بَصِيرٗاۖ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوۡفَ أَسۡتَغۡفِرُ لَكُمۡ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾ ﴾

قلت : جواب (لولا) : محذوف، أي: لولا أن تفندون لقلت إنه قريب، أو لصدقتموني.

يقول الحق جل جلاله : قال يوسف لإخوته لما عرفوه، وأزال ما بينه وبينهم من الوحشة، وقد أخذ قميصه: ﴿ اذهبوا بقميصي هذا ﴾، رُوى أن هذا القميص كان لإبراهيم الذى لبسه حين كان فى النار، وقيل: ألبسه له جبريل حين خرج من النار، وكان من ثياب الجنة، ثم كان لإسحاق ثم ليعقوب، ثم كان دفعه ليوسف، فكان عنده فى حِفَاظ من قصب، وكان فى عنقه فى الجب، وأمره جبريل بإرساله، وقال: إن فيه ريح الجنة، لا يلقى على مبتلى إلا عوفى. قال ابن عطية: وهذا كله يحتاج إلى سند، والظاهر: أنه قميص يوسف الذى هو منه بمنزلة قميص كل أحد. وبهذا تتبين الغرابة فى أن وجد يعقوب ريحه من بعد، ولو كان من قميص الجنة لما كان فى ذلك غرابة، ويجده كل أحد.هـ.

قلت: وما قاله لا ينهض؛ لأن ما ظهر من الجنة إلى دار الدنيا لا يبقى على حاله دائماً؛ لأنه من أسرار الغيب، بل لا يجده إلا أهل الذوق من أهل القرب، كنور الحجر الأسود، وغيره مما نزل من الجنة. والله تعالى أعلم.

ثم قال لهم اذهبوا به: ﴿ فألقوه على وجه أبي يأتِ بصيراً ﴾ أى: يرجع بصيراً، علم ذلك بوحى، أو تجربة من القميص، ﴿ وأتونى بأهلكم أجمعين ﴾ ؛ نسائكم وذراريكم وأموالكم.

﴿ ولما فَصَلَتِ العيرُ ﴾ من مصر، وخرجت من عمارتها، ﴿ قال أبوهم ﴾ لمن حضره: ﴿ إنى لأجِدُ ريحَ يوسف ﴾ ؛ أوجده الله، ريح ما عبق من قميصه حين أقبل إليه به يهوذا من ثمانين فرسخا؛ لأن يعقوب كان إذ ذاك ببيت المقدس، ويوسف بمصر، ﴿ لولا أن تُفَنِّدون ﴾ ؛ تنسبونى إلى الفند، وهو: نُقصان عقْلٍ يحدث من هرَم. ولذلك لا يقال عجوز مفندة؛ لأن نقصان عقلها ذاتى. أى: لولا أن تحمقونى لقلت إنه قريب، أو لصدقتمونى فى ذلك، أو لولا أن تلومونى، وتردوا علىّ قولى لقلت إنه ريح يوسف. ﴿ قالوا ﴾ أى: الحاضرون: ﴿ تالله إنك لفى ضلالِكَ القديم ﴾ أى: إنك لفى خطئك القديم بالإفراط فى محبة يوسف، وإكثار ذكره، وتوقع لقائه.

﴿ فلما أن جاءَ البشير ﴾ أي: المبشر، وهو: يهوذا. رُوي أنه قال: كنتُ أحزنْتُه بِحَمل قميصه المُلَطَّخ بالدم إليه، اليوم أفرحُه بحمل هذا إليه. وفي رواية عنه قال: إني ذهبت إليه بقميص التَّرْحة، فدعوني أذهب إليه بقميص الفرحة. فلما وصل إليه ﴿ ألقاه على وجهه ﴾؛ طرح البشيرُ القميصَ على وجه يعقوب، أو: ألقاه يعقوبُ بنفسه على وجهه، ﴿ فارتدَّ بصيراً ﴾ بقدرة الله وبركة القميص. ﴿ قال ألم أقلْ لكم إني أعلمُ من الله مالا تعلمون ﴾ من حياة يوسف، وإنزال الفرج.

﴿ قالوا يا أبانا استغفرْ لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين ﴾، وقد اعترفنا بذنوبنا، وسألنا المغفرة. ﴿ قال سوف أستغفر لكم ربي إنه هو الغفور الرحيم ﴾، أخره إلى السَّحَر، أو إلى صلاة الليل، أو إلى ليلة الجمعة، تحرياً لوقت الإجابة، أو إلى أن يتحلل لهم من يوسف، فإن عفو المظلوم شرط في المغفرة، ويؤيده ما رُوي أنه لما اجتمع به، وتحلل منه، استقبل يعقوبُ القبلة قائماً يدعو، ويوسفُ خلفه يؤمن، وقاموا خلفهما أذلةً خاشعين، حتى نزل جبريل وقال: إن الله قد أجاب دعوتك في أولادك، وعقد مواثيقهم بعدك على النبوة. وهو، إن صح، دليل نبوتهم، وأن ما صدر منهم كان قبل نبوتهم، قاله البيضاوي.

الإشارة: اعلم أن الحق ـ جل جلاله ـ جعل للبشرية عيْنَين حسيين، تبصر بهما الحسيات، وجعل للقلب عينين معنويين يرى بهما المعاني. فالأول: يسمى البصر، والثاني: البصيرة. فأحد عيني القلب تبصر أنوار الشريعة، والأخرى تبصر أسرار الحقيقة. وقد يغشى القلب ظلمةُ الكفر، فتغطيهما معاً، وهو: عمى البصيرة. وقد يغشاه ظلمة المعاصي، واتباع الحظوظ والهوى، فتعمى عين الحقيقة، وتضعف عين الشريعة، ودواؤهما: إلقاء قميصِ المعرفة على وجه عين الحقيقة، وجلباب العصمة على عين الشريعة، فيرجع القلب بصيراً. ولابد من صحبة شيخ عارف يعطيه هذا القميص، ويقول: اذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه بصيرتكم، تأتي بصيرة عارفة، فإذا قرب منها هذا القميص هبَّ عليها نسيم الوصال، وهاج عليها الوجدُ والحالُ. وأنشدت بلسان المقال:

سُوَيْداء قَلْبِي أَصْبَحَتْ حَرَمًا لَكُم تَطُوفُ بهـا الأَسرارُ من عَالَم اللُّطف
ومسائلُ مَا بيْنَ المُحِبِّين أَصْبَحَتْ تَجِلُّ عن التَّعْرِيف والرَّسم والعُرْف
رَسَائِل جَاءَتْنَا بِرُؤْيَا جِنَابِكُم عَوارِفُ عُرف فَاقَ كُلَّ شذَا عَرف

ثم ذكر دخول يعقوب مصر، وجمع شمله بيوسف ـ عليهما السلام ـ، فقال:

﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَـٰٓأَبَتِ هَـٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَـٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَـٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه﴾. قبل هذا الكلام محذوفات، وهي: فرحل يعقوب بأهله حتى بلغوا إليه، ولما دخلوا على يوسف.... الخ.

رُوى أن يوسف عليه السلام وجه إليه رواحل وأموالاً ليتجهز إليه بمن معه، وأرسل إليه مائة وثمانين كسوة من رفيع الثياب والعمائم لإخوته، وقميصان مُذهبان للإناث، فلما وصلت إلى يعقوب لبس، وألبس أولاده، وركبوا المراكب، وخرجوا من أرض كنعان يريدون مصر، فلما قربوا، أمرَ يوسف عليه السلام العساكر أن تخرج معه للقائهم، فأول من لقيهم ثلاثون ألف فارس، كلهم يسجدون بين يدى يعقوب، وهو يتعجب من عظم تلك الأجناد، ويضحك من نصر الله تعالى، وعزه لابنه. ثم لقيهم البغال، والجوارى لنساء إخوته وأولادهم. ثم لقيهم أربعون ألف شيخ من الوزراء والكبراء. ثم استقبلهم يوسف عليه السلام مترجلاً ماشياً على قدميه، متواضعاً لأبيه، فى مائة ألف، كلهم على أرجلهم، معهم الملك «ريَّان»، ثم سلم يوسف عليه السلام والملك على أبيه، ثم أقبلا يبكيان، وبكى إخوته وضج الناس بالبكاء، ثم ضم إليه أبويه، وقيل: أباه وخالته، ﴿وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين﴾، ثم حُمل يعقوب عليه السلام فى هودج من الذهب، ويوسف عليه السلام، وإخوته يمشون بين يديه مترجلين حتى دخلوا مصر، ثم أتوا إلى قصر مملكته.

قال ابن عباس: فجلس يوسف عليه السلام على سريره، وأبوه عن يمينه، وخالته عن شماله، وإخوته بين يديه، فخروا له سجداً؛ لأنها كانت عادتهم في ذلك الزمان ـ يعني تحيتهم على الملوك ـ رُوى أنهم قالوا في سجودهم: سبحان مؤلف الشتات بعد الإياس، سبحان كاشف الضر بعد البأس. فقال يوسف لأبيه: ﴿يا أبت هذا تأويل رؤياى من قبل...﴾ الخ ـ هكذا ذكر القصة صاحب الزهر الأنيق فى قصة يوسف الصديق. وهذا معنى قوله: ﴿فلما دخلوا على يوسف﴾ بلده ومملكته ﴿آوى إليه أبويه﴾؛ أى: اعتنقهما، وسلم عليهما، وضمهما إليه. قيل: الأبوين حقيقة. وقيل: أباه وخالته. وتنزّل الخالة منزلة الأم تنزيلَ العم منزلة الأب في

قوله: ﴿ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ ﴾(١).

﴿ وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين ﴾ من القحط وأصناف المكاره. والمشيئة متعلقة بالدخول المكيف بتلك الهيئة لا بالأمن. وقال ابن جزي: راجعة إلى الأمن. قال البيضاوي: وكان أولاد يعقوب الذين دخلوا مصر اثنين وسبعين رجلاً، وامرأة، وكانوا حين خرجوا مع موسى ستمائة ألف وخمسمائة وبضعة وتسعين رجلاً سوى الذرية، والهرمى.هـ.

﴿ ورفع أبويه على العرش ﴾، أي: حين دخلوا قصر مملكته، ﴿ وخرُّوا له سُجداً ﴾؛ تحية وتكرمة؛ فإن السجود كان عندهم يجري مجرى التحية. وقيل: معناه: خروا لأجله سجداً لله؛ شكراً. وقول البيضاوي: الرفع مؤخر عن الخرور، فيه نظر؛ لما تقدم عن صاحب الزهر الأنيق، ولا داعي إلى الخروج عن الظاهر إلا بنص صريح.

قال ابن عطية: واختلف في هذا السجود؛ فقيل: كان المعهود عندنا من وضع الوجه بالأرض، وقيل: بل دون ذلك؛ كالركوع البالغ ونحوه، مما كان سيرة تحيتهم للملوك في ذلك الزمان. وأجمع المفسرون أن ذلك السجود كيفما كان، إنما كان تحيةً لا عبادة.

قال قتادة: هذه كانت تحية الملوك عندهم، وأعطى الله هذه الأمة السلام تحية أهل الجنة. ثم قال: قال أبو عمرو الشيباني: تقدم يوسفُ يعقوب عليه السلام في المشي في بعض تلك المواطن، فهبط جبريل فقال: أتتقدم أباك؟ إن عقوبتك لذلك ألا يخرج من نسلك نبي. هـ. قال المحشي الفاسي: وما أظن لهذا صحة، وقد كان من ذريته «يوشع بن نون» عليه السلام، ويوسف المذكور في سورة الطَّوْل(٢) على قول. وفي البيضاوي: وكان عمر يوسف مائة وعشرين سنة، وقد ولد له من راعيل: إفرائيم وميشا، وهو جد يوشع بن نون ورحمة امرأة أيوب .هـ. قلت: المذكور في قصة أيوب أن زوجه رحمة إنما كانت ابنة إفرائيم بن يوشع لابنته.

ثم قال: ﴿ يا أبتِ هذا تأويلُ رؤيايَ من قبلُ ﴾؛ التي رأيتها أيام الصبا، وهي: رؤيا أحد عشر كوكبا والشمس والقمر يسجدون لي، ﴿ قد جَعَلَها ربي حقا ﴾: صدقاً. وكان بين رؤياه وبين صدق تأويلها ثمانون عاما، وقيل: أربعون، وهو الأصح. ﴿ وقد أحسنَ بي إذ أخرجني من السجن ﴾، ولم يذكر الجب؛ لئلا يخجل إخوته، ولأنه خرج من الجب إلى الرق، ومن السجن إلى الملك، فالنعمة هنا أوضح. ﴿ وجاء بكم من البَدْوِ ﴾: من البادية؛ لأنهم كانوا أصحاب المواشي وأهل البدو، فعد عليهم من النعم انتقالهم للحاضرة؛ لأنها محل الراحة. ﴿ من بعد أن نزغ الشيطانُ بيني وبين إخوتي ﴾: أفسد بيننا وحرش، من نَزَغَ الدابة إذا نخسها. ﴿ إن ربي لطيف لمَا يشاء ﴾

(١) من الآية ١٣٣ من سورة البقرة. (٢) أي سورة غافر من الآية ٣٤.

أي: لطيف التدبير لما يشاء من الأمور؛ إذ ما من صعب إلا وتنفذ فيه مشيئته، ويتسهل دونها، ﴿ إنه هو العليم﴾ بوجوه المصالح والتدابير، ﴿ الحكيم ﴾ الذي يفعل كل شيء في وقته، على وجه تقتضيه الحكمة.

رُوي أن يوسف ﷺ طاف بأبيه ـ عليهما السلام ـ في خزائنه، فلما أدخله خزانة القرطاس، قال: يابني، ما أغفلك، عندك هذه القراطيس وما كتبت لي على ثماني مراحل، قال: أمرني جبريل، قال: أو ما تسأله؟ قال: أنت أبسط مني، سله، فقال جبريل: أمرني ربي بذلك؛ لقولك: (إني أخاف أن يأكله الذئب)، فهلا خفتني. هـ. قاله البيضاوي. وزاد في القوت: لِمَ خفت عليه الذئب ولم ترجني؟ ولِمَ نظرت إلى غفلة إخوته، ولم تنظر إلى حفظي له؟ فهذا على معنى قول يوسف ﷺ للساقي: (اذكرني عند ربك)، فهذا مما يعتب على الخصوص من خفي سكونهم، ولمح نظرهم إلى ما سوى الله عز وجل.هـ.

الإشارة: ما أحلى الوصال، بعد الفراق، وما ألذ شهود الحبيب على الإشتياق، فبقدر طول البين يعظم قدر الوصول، وبقدر حمل مشاق الطلب يظفربالمأمول. فجدّ أيها العبد في طلب مولاك، وغب في سيرك إليه عن حظوظك وهواك، تظفر بالوصل الدائم في عزك وعُلاك، وتتصل بكل ما كنت تأمله من مطالبك ومُناك. وأنشدوا:

وَإِنِ امْــرُءٌ أَمْــسَى بِقُــرْبِــكَ نَازِلاً فَـأَهْلاً بِهِ، حَـازَ الْفَـضَــائِلَ كُلَّهــــا
وألبسـتـه حُـلَى المحـاسِــن فاكْتَسَى حُلَلَ الرضَـا فـازْداد قُـرْبًا مَـا انْتَـهى

وبالله التوفيق.

ثم إن يوسف ﷺ لما تمكن من المَلك الفاني، اشتاق إلى المُلك الباقي، فقال:

﴿ ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾ ﴾

قلت: (فاطر): نعت المنادى، أو منادى بنفسه.

يقول الحق جل جلاله، حاكياً عن يوسف ﷺ: ﴿ ربِّ قد آتيتني من المُلكِ ﴾ أي: من بعض الملك، وهو ملك مصر، ﴿ وعلمتني من تأويل الأحاديثِ ﴾؛ الكتب المتقدمة، أو تأويل الرؤيا. و«من»: للتبعيض فيهما؛ إذ لم يعط ملك الدنيا كلها، ولا أحاط بالعلم كله. ﴿ فاطرَ السموات والأرض ﴾: مبدعهما ومنشئهما، ﴿ أنت وليي في

الدنيا والآخرة﴾: أنت ناصري ومتولي أمري في الدارين، ﴿توفني مسلماً﴾: اقبضني مسلمًا، ﴿وألحقني بالصالحين﴾ من آبائي، أو جماعة الصالحين في الرتبة والكرامة، أو بالصالحين لحضرة قدسك.

رُوي أن يعقوب عليه السلام أقام معه أربعاً وعشرين سنة، ثم توفي، فنقله يوسف عليه السلام إلى الشام ليُدفن مع أبويه. هكذا ذكر بعض المفسرين. وقال في الزهر الأنيق: بقي يعقوب عليه السلام بمصر أربعين سنة في أطيب وقت، وأكمل عافية، ثم أوحى الله إلى جبريل: أن انزل إلى يعقوب، وقل له: يرحل إلى الأرض المقدسة، عند قبور آبائه، يجاورهم حتى أُلحقه بهم. فنادى يعقوبُ عليه السلام يوسفَ وأولاده، وقال لهم: قد أمرني ربي بمجاورة أبي؛ ليقبض روحي هناك، ثم ودّعهم، وخرج إلى الأرض المقدسة، فزار قبور آبائه فبكى، فرأى في المنام إبراهيم على كرسي، وإسماعيل عن يمينه، وإسحق عن يساره، وهم يقولون: الْحق بنا يا يعقوب، فانتبه، ثم قام فوجد قبراً محفوراً تخرج منه رائحة المسك، فقال: لمن هذا؟ قال له ملَكٌ عنده: هو لمن يتمنى سكناه، فقال: أنا، فقبض روحه ملكُ الموت، ثم نزل جبريلُ وميكائيلُ ـ عليهما السلام ـ وكفناه، وصليا عليه، ودفناه.

قال كعب الأحبار: توفي يعقوب وهو ابن مائتي سنة، ولما وصل نعيُه يوسفَ بكى، وبكى معه إخوته. هـ. «قلت»: ظاهره أنهم لم يحضروا موته، وهو خلاف قوله تعالى: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ﴾(١)، إلا أن يؤول بمعنى: قَرُب، فتكون وصيته وقعت حين أراد الرجوع إلى الشام، وهو خلاف الظاهر.

ثم إن يوسف تاقت نفسه إلى الملك المخلد، فتمنى الموت، فقال: ﴿رب قد آتيتني من الملك . . . .﴾ إلخ. رُوي أنه عاش بعد قوله هذا مدة، ثم ماتت زليخا، ولم يتزوج بعدها، وعاش بعدها أربعين يوماً، ثم اشتاق إلى اللقاء واللحوق بآبائه، فتوفاه الله طيِّبا طاهراً، فتخاصم أهل مصر في مدفنه، حتى هموا بالقتال، فرأوا أن يجعلوه في صندوق من مَرْمَر ـ أي: رُخام ـ فيدفنوه في النيل بحيث يمر عليه الماء، ثم يصل إلى مصر؛ ليكونوا شرْعًا فيه. وفي رواية: أنهم دفنوه على ضفة النيل؛ فخصبت وجدبت الأخرى؛ فنقلوه للأخرى؛ فخصبت وجدبت الأولى، فجعلوه في صندوق، ودفنوه في النيل؛ فاخضرت الجهتان، ثم نقله موسى عليه السلام إلى مدفن آبائه. وكان عمره: مائة وعشرين سنة، وقد تقدم ذكر أولاده الثلاثة: إفراثيم، وميشا، ورحمة امرأة أيوب، وتقدم البحث فيها، وذكر في الزهر الأنيق أنه ولد له من زليخا عشرة أولاد، فانظره. والله تعالى أعلم.

الإشارة: إذا كان العبد في زيادة من الأعمال، وفي الترقي إلى مقامات الكمال، فلا بأس أن يتمنى البقاء في هذه الدار؛ لزيادة الزاد إلى دار القرار، وإذا كان في نقصان من الأعمال، أو خاف النقصان بعد الكمال، فلا بأس بطلب الرحيل والانتقال؛ كما طلبه الصِّدِّيق عليه السلام بعد الملك التام. وكما فعل عمر رضي الله عنه حين انتشرت

---

(١) الآية ١٣٤ من سورة البقرة.

رعيته، وخاف التقصير في سيرته. وقد تقدم في سورة البقرة تفصيل ذلك، ولقد أحسن الشاعر في التحذير، من الاغترار بزخرف هذه الدار، فقال:

هُو الحِمَـــامُ فَــلا تُبْعِـدْ زِيَارَتَـــه		ولا تَقُــلْ: لَيْتَنِى منــه على حَــذَرِ
يَاوَيْحَ مَنْ غَـرَّه دَهْـــرٌ فَسُرَّ بِــه		لَمْ يَخْلُص الصَّفْوُ إلا شِيبَ بالكَدَرِ
أنْظُـــر لِمَنْ بادَ تَنْظُرْ آيةً عَـجَــبًا		وعِبْرَةً لأُولِى الأبْصَــارِ والبَصَرِ
بَادُوا فعَــادُوا حَدِيثًــا، إنَّ ذَا عَجَبٌ		مــا أوْضَحَ الرُّشْدَ لولا غَـفْلَةُ النَّظَرِ
تَنَافَسَ النَّــاسُ في الدُّنيا وقَدْ عَلِمُوا		أنَّ المُقَــامَ بِهــا كـاللَمْحِ بالبَصَرِ
فَخَــلِّ عن زَمَـنٍ تَخْشَى عَوَاقِبَه		إنَّ الزَّمَانَ إذا فَـــكَّرت ذُو غِـيَــرِ
وَاعْمَلْ لأُخْرَاكَ لا تَبْخَـلْ بِمَكْرُمَةٍ		ومَـهِّـدِ العُذْرَ، لَيْس العينُ كـالأثَرِ

ثم نبه الحق تعالى أن الإخبار بقصة يوسف عليه السلام من أعلام النبوة لنبينا ﷺ فقال:

﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ
(١٠٢) وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ (١٠٣) وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ هُوَ
إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ (١٠٤) وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ
عَنْهَا مُعْرِضُونَ (١٠٥) وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ (١٠٦) أَفَأَمِنُوٓا۟ أَن تَأْتِيَهُمْ
غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١٠٧) ﴾

قلت: (ذلك): مبتدأ، و(من أنباء الغيب): خبر. و(نوحيه): حال.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ذلك﴾ أي: خبر يوسف وقصته، هو ﴿من أنباء﴾ أخبار ﴿الغيب﴾ التي لم يكن لك بها علم، وإنما علّمته بالوحي الذي ﴿نُوحيه إليك﴾ فأخبرتهم به. ﴿وما كنت لديهم﴾ أي: وما حضرت عندهم، ﴿إذ أجمعوا أمرهم﴾: حين عزموا أمرهم على أن يجعلوه في غَيَابة الجب، ﴿وهم يمكرون﴾ به، وبأبيه؛ ليرسله معهم. ومن المعلوم الذي لا يخفى على مكذبيك أنك ما لقيت أحداً من الأحبار

فتعلمت ذلك منه، فتحققوا أنه وحى من عند الله، ولكن جحدوا؛ ﴿وما أكثرُ الناس ولو حرصْتَ﴾ على إيمانهم، وبالغت فى إظهار الآيات لهم، ﴿بمؤمنين﴾؛ لعنادهم وتصميمهم على الكفر. ﴿وما تسألُهم عليه﴾ على تبليغ هذا النبأ، أو القرآن، ﴿من أجرٍ﴾؛ كما يفعله حملة الأخبار من الأحْبار. ﴿إن هو إلا ذِكْرٌ﴾: عظة من الله، ﴿للعالمين﴾ من الجن والإنس.

﴿وكأيِّن﴾: كثيراً ﴿من آيةٍ فى السموات والأرضِ﴾ الدالة على وجود صانعها وتوحيده، وكمال قدرته وتمام حكمته، ﴿يَمرُّونَ عليها﴾ ويشاهدونها، ﴿وهم عنها مُعْرِضُون﴾: لا يتفكرون فيها، ولا يعتبرون. ﴿وما يؤمن أكثرُهُم بالله﴾ أى: وما يصدق أكثرهم بوجود الله فى إقرارهم بوجوده، وخالقيته للأشياء، وأنه الرزّاق المميت، ﴿إلا وهم مشركون﴾ بعبادة الأصنام، أو باتخاذ الأحبار والرهبان أرباباً، أو بنسبة التبنى إليه، أو بالوقوف مع الأسباب، أو غير ذلك من أنواع الشرك الجلى والخفى. قيل: نزلت فى مشركى مكة، وكانوا يقولون فى تلبيتهم: لبيك لا شريك لك إلا شريكاً تملكه وما ملك. وقيل: فى أهل الكتاب. ﴿أفأمنوا أن تأتيهم غاشيةٌ﴾: عقوبة تغشاهم وتشملهم، ﴿من عذابِ الله﴾ المرسل على الأمم المتقدمة، ﴿أو تأتيهم الساعةُ بغتة﴾: فجأة، ﴿وهم لا يشعرون﴾ بإتيانها، غير مستعدين لها.

الإشارة: قوله تعالى: ﴿وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين﴾: مثله يقال لأهل الوعظ والتذكير، الداعين إلى مقام الخصوصية، وما أكثر الناس ولو حرصت على هدايتهم، بمهتدين إلى مقام الخصوصية؛ لأن أهل الخصوصية أفراد قليلون فى كل زمان؛ قال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾(١) . وتقدم فى سورة هود(٢) ما يتعلق بقوله: ﴿وما تسألهم عليه من أجر﴾ .

وقوله تعالى: ﴿وكأيِّن من آية . . .﴾ الخ، فيه ذم الغفلة، والإعراض عن التفكر والاعتبار؛ فإن الحق ـ جل جلاله ـ ما أظهر هذه الكائنات إلا ليعرف بها، وتظهر فيها أسرار ذاته، وأنوار صفاته. قال فى لطائف المنن: فما نصبت الكائنات لتراها، ولكن لترى فيها مولاها؛ فمراد الحق منك أن تراها بعين من لا يراها؛ تراها من حيث ظهوره فيها، ولا تراها من حيث كونيتها. قال(٣): ولنا فى هذا المعنى:

ما أثبتَ لَكَ العالم إلا ... لِتَراهَا بِعَيْنِ مَن لاَ يَرَاهَا

فَارْقَ عَنْها رُقِيَّ مَنْ لَيْس يَرْضَى ... حَالَةً دُون أن يَرى مَوْلاَهَا .هـ.

(١) من الآية ١٣ من سورة سبأ. (٢) عند إشارة الآية ٢٩.
(٣) أى: الشيخ السكندرى صاحب لطائف المنن

وقوله تعالى: ﴿وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون﴾ : لا ينجو من الشرك الخفي إلا أهل التوحيد الخاص، وهم الذين غابوا عن الأكوان جملةً بشهود المكون، قد سقط من نظرهم وجود الأغيار، وتطهرت سرائرهم من لوث الأكدار، ولم يبق في مشهدهم إلا الواحد القهار، فلم يعتمدوا على الوسائط والأسباب، برؤية مسبب الأسباب، ولم يركنوا إلى العشائر والأصحاب، فإن التفتوا إلى غيره؛ غفلةً، أدبهم، وردهم إلى حضرته. هذا شأنهم معه أبداً. جعلنا الله منهم، وخرطنا في سلكهم. آمين.

ثم أوضح طريقهم، فقال:

﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾

قلت: (أدعو): حال من الياء، و(على بصيرة): حال ثان، و(أنا ومن اتبعني): الضمير. تأكيد للمستكن في (أدعو)، أو في (على بصيرة)، أو مبتدأ خبره: (على بصيرة)، مقدم.

يقول الحق جل جلاله: ﴿قل﴾ يا محمد: ﴿هذه سبيلي﴾: طريقي الذي جئتُ به من عند ربي؛ وهي الدعوة إلى التوحيد، والتأهب ليوم المعاد. ثم فسرها بقوله: ﴿أدعو إلى الله﴾، أو حال كوني داعياً إلى الله؛ أي: إلى توحيده ومعرفته والأدب معه، ﴿على بصيرة﴾: حجة واضحة، وبينة من ربي، لا عن تقليد أو عمى. أدعو إلى الله ﴿أنا ومن اتبعني﴾؛ فمن كان على قدمي فهو يدعو أيضاً إلى الله على بصيرة وبينة من ربه، ﴿وسبحان الله﴾: وأنزهه عن الشركاء والأنداد، ﴿وما أنا من المشركين﴾ به شركاً جلياً ولا خفياً، بل مخلصاً موحداً.

الإشارة: لا يصلح العبد أن يكون داعياً إلى الله حتى يكون على بصيرة من ربه، بحيث لا يبقى فيه تقليد بحت، ولا يختلجه شك ولا وهم. والدعاة إلى الله على ثلاث مراتب: فمنهم من يدعو على بصيرة الإسلام؛ وهم الدعاة إلى معرفة أحكام الله وشرائعه، ومنهم من يدعو على بصيرة الإيمان، وهم الدعاة إلى معرفة صفات الله تعالى وكمالاته، ومعرفة ما يجب له تعالى وما يستحيل وما يجوز على طريق البرهان الواضح. ومنهم من يدعو إلى الله على بصيرة الإحسان، وهم الدعاة إلى معرفة الذات العلية على نعت الشهود والعيان، من طريق الذوق والوجدان، وهم العارفون بالله، أهل النور الخرق، بحيث كل من واجههم خرق النور إلى باطنه. وهذه الدعوة الحقيقية والبصيرة النافذة، وأهل هذا المقام هم أهل التربية النبوية، فدعوة هؤلاء أكثر نفعا، وأنجح تأثيرا؛ في زمن يسير؛ يهدى الله على أيديهم الجم الغفير.

قال في نوادر الأصول: الداعي إلى الله على بصيرة ـ أي معاينة ـ هو الذي قلبه عند الله، وعلى بصيرة في الطريق، ومحل القلوب في تلك المراتب؛ ناطقا بالله، عن الله، فلذلك يلج آذان المستمعين، مع الكسوة التي تخرق كل حجاب، وهو نور الله، لأنه خرج من قلب مشحون بالنور، فخرق كل حجاب قد تراكم على قلوب المخلطين، فخلصها إلى نور التوحيد فأنارها؛ بمنزلة جمرة وصلت النفخة إليها، فالتهبت نارا، فأضاءت البيت. وهذا سبيل الناطق عن الله. ثم قال: وكيف يجوز الدعاء إلى الله لمن ليس عند الله، وهو لله، وإنما قلبه عند نفسه ولنفسه، مشغول بنهمته وشهواته وأحواله، وإنما هذا لمن تفرغ من نفسه، واشتغل بالله. هـ.

ثم رد على من زعم من الكفار أن الرسول من البشر، فقال:

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾ ﴾

قلت: (يوحى): نعت لرجال، وكذا (من أهل القرى): نعت ثان، و(حتى): غاية لمحذوف، أي: وما أرسلنا إلا رجلاً يوحى إليهم فأوذوا مثلك، ودام عليهم، حتى إذا استيأسوا جاءهم نصرنا.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وما أرسلنا من قبلك﴾ يامحمد ﴿إلا رجالاً﴾؛ بشراً لا ملائكة، وهو رد لقولهم: ﴿لو شاء ربنا لأنزل ملائكة﴾[1]، وقيل: معناه: نفي استنباء النساء. وصفة أولئك الرجال: ﴿يوحى إليهم﴾[2] كما أوحي إليك، فتميزوا بالوحي عن غيرهم، وهم ﴿من أهل القُرى﴾. وهم المدن والأمصار، والمداشر[3] الكبار؛ لأنهم أحلم وأعلم، بخلاف أهل العمود فإنهم أهل جفاء وجهالة. قال الحسن: (لم يبعث الله نبياً من أهل البادية، ولا من النساء، ولا من الجن).

قال ابن عطية: والتَّبَدِّي مكروه إلا في الفتن، وحين يُفَرُّ بالدين، لحديث: «يُوشِكُ أَنْ يَكُونَ خَيْرُ مَالِ المُسْلِمِ غَنَما يَتْبَعُ بها سَعَفَ الجِبَالِ...[4]» الحديث. وفي ذلك أذن رسول الله ﷺ لسلمة بن الأكوع[5].هـ.

(١) من الآية ١٤ من سورة فصلت. (٢) قرأ حفص (نوحي) بنون العظمة. (٣) المداشر: القرى.

(٤) أخرجه البخاري في (كتاب الإيمان، باب من الدين الفرار من الفتن) من حديث أبي سعيد الخدري.

(٥) أخرج البخاري في (الفتن، باب التعرب في الفتنة)، عن سلمة بن الأكوع: (أنه دخل على الحجاج، فقال: يا ابن الأكوع، ارتددت على عقبيك؟ قال: لا، ولكن رسول الله ﷺ أذن لي في البدو).

قلت : والفتنة تتنوع بتنوع المقامات؛ ففتنة أهل الظاهر: تعذر إقامة الشريعة لكثرة الهرج والفتن، وفتنة أهل الباطن: تعذر جمع القلب بالله؛ لكثرة الحس، وتعرض الشواغل والعلائق. فمن وجد ذلك في الحواضر فلينتقل إلى البوادي، إن وجد من يعينه على الدين. والغالب أن الحواضر في هذا الزمان يغلب فيها العوائد والشهوات، وتعترى فيها الشواغل والشواغب، بخلاف البادية. فإذا كان عليه الصلاة والسلام أذن لسلَمة: خوف فتنة الظاهر، فأولى خوف فتنة الباطن؛ لأنه إذا فسد القلب فسد الجسد كله.

ثم قال ابن عطية: وقال ﷺ: «لا تعرب في الإسلام[(١)]» . وقال: «مَنْ بَدَا جَفَا»[(٢)]. وعن معاذ بن جبل أنه قال: (الشَّيْطَانُ ذِئْبُ الإِنْسانِ، كذِئْبِ الغَنَمِ؛ يأخُذُ الشَّاةَ القاصية؛ فإيَّاكُمْ والشِّعَابَ، وعليكم بالمساجِدِ، والجماعاتِ، والعامةِ)[(٣)].

ثم قال: ويعترض هذا ببدو يعقوب، وينفصل عن ذلك بوجهين: أحدهما: أن ذلك البدو لم يكن في أهل العمود، بل بتَقَرِّ في منازل وربوع، والثاني: إنما جعله بدواً بالإضافة إلى مصر، كما هي بنات الحواضر الصغار بدْو بالإضافة إلى الحواضر الكبار.هـ.

قلت : فالتعرب المنهى عنه هو اعتزال الرجل وحده في جبل أو شِعْبٍ، وأما إن تقرر في جماعة يقيمون الدين، ويجتمعون عليه، فليس بتعرب ولا بدو. ويدل عليه جواب ابن عطية الأول عن يعقوب ﷺ. والحاصل : أن أهل القلوب يفتشون على مصالح قلوبهم، فأينما وجدوها فهي حاضرتهم. وقد ظهر في البوادي أكابر من الأولياء، ربما لم يظهروا في الحواضر. والله تعالى أعلم.

ثم قال تعالى: ﴿ أفلم يسيروا ﴾ أي: كفار مكة، ﴿ في الأرض فينظروا كيف كان عاقبةُ الذين من قبلهم ﴾ من المكذبين لرسلهم: كيف هلكوا وتركوا آثارهم يشاهدونها خراباً دارسة، فيحذروا تكذيبك؛ ليؤمنوا ويتأهبوا للدار الآخرة؛ ﴿ ولَدَارُ الآخرةِ ﴾ أي: ولدار الحياة الآخرة ﴿ خير للذين اتقوا ﴾ الشرك والمعاصي، ﴿ أفلا تعقلون ﴾، وتستعملون عقولكم لتعلموا أنها خير. أو: أفلا يعقلون الذين يسيرون في الأرض ليعلموا أن الدنيا فانية، والدار الآخرة خير؛ لأنها باقية.

---

(١) ورد : «لا تعرب بعد الهجرة»، أخرجه، مطولاً، عبد الرزاق في المصنف، (باب: لا رضاع بعد الفطام، ٧/٤٦٤ح ١٣٨٩٩)، من حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنه..

(٢) أخرجه أحمد في المسند (٢/٣٧١)، وأبو داود في (الصيد، باب اتباع الصيد) والترمذي في (الفتن، باب سكنى البادية) والنسائي في (الصيد، باب اتباع الصيد) من حديث أبي هريرة، وصححه الترمذي.

(٣) أخرجه أحمد في المسند (٥/٢٣٣) من حديث معاذ بن جبل.

فإن أبيتم وكذبتم نبيكم فقد كذب من قبلكم رسلهم، وآذوهم، وتأخر نصرهم؛ ﴿حتى إذا استيأس الرسل﴾ من النصر، أو من إيمان قومهم؛ لانهماكهم في الكفر، وتماديهم من غير وازع، ﴿وظنوا﴾ أي: تيقنوا ﴿أنهم قد كذبوا﴾[1] أي: أن قومهم كذبوهم فيئسوا من إيمانهم. أو: وظنوا أن من آمن بهم قد كذبوهم؛ لطول البلاء وتأخر النصر. وأما قراءة (كُذِبوا)؛ بالتخفيف؛ فمعناه: وظنوا أنهم قد كذب عليهم في وعد النصر.. وأنكرت عائشة ـ رضي الله عنها ـ هذه الرواية، وقالت: معاذ الله؛ لم تكن الرسل تظن بربها ذلك. كما في البخاري[2].

وقد يجاب بأن ذلك كانت خواطر وهواجس من وساوس النفس، يمر ولا يثبت، وهو من طبع البشر، لا يدخل تحت التكليف. وسماه ظنًا؛ مبالغة في طلب المراقبة، كما تقدم في قوله: ﴿ولقد همت به وهم بها﴾. وقال ابن جزي، على هذه القراءة: الضميران يعودان على المرسل إليهم، أي: ظن الأتباع أن الرسل قد كذبوا عليهم في دعوى الرسالة، أو في مجيء النصر لما اشتد عليهم البلاء، وتأخر عنهم النصر.

فلما يئسوا ﴿جاءهم نصرنا فنُجِّي من نشاء﴾ نجاته، وهو: النبي والمؤمنون. وإنما لم يعينهم؛ للدلالة على أنهم الذين يستأهلون نجاتهم بالمشيئة القديمة، لا يشاركهم فيها غيرهم، ﴿ولا يُردُّ بأسُنا عن القوم المجرمين﴾ إذا نزل بهم. وفيه بيان المستثنين بالمشيئة، كأنه قال: ولا نشاء نجاة المجرمين.

الإشارة: قد وجد كثير من الأولياء بالمدن والحواضر، وكثير منهم في القرى والمداشر. وفضل الله يؤتيه من يشاء، لا يختص بمكان ولا زمان، غير أن جلهم جمعوا بين علم المدن وتفرغ البوادي، يعني: جمعوا بين شريعة المدن وحقيقة البوادي؛ لأن أهل المدن شريعتهم قوية، وحقيقتهم ضعيفة. والبوادي بالعكس؛ لكثرة العلائق في المدن وخفتها في البوادي، والحقيقة تحتاج إلى تفرغ كبير وتفكر كثير، والله تعالى أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وظنوا أنهم قد كذبوا﴾ بالتخفيف، معناه: أنهم لم يقفوا مع ظاهر الوعد؛ لسعة علمهم؛ لأن ذلك الوعد قد يكون في علم الغيب متوقفًا على شروط خفية لا يعلمها ذلك النبي أو الولي، ليتحقق انفراده تعالى بالعلم الحقيقي، والقهرية الغالبة. فلذلك كان العارفون لا يزول اضطرارهم، ولا يكون مع غير الله قرارهم.

وقال الورتجبي: إنهم استغرقوا في قُلْزُوم[3] الأزلية، وغابوا تحت بحار الديمومية، ولم يروا الحق من كمال استغراقهم في الحق. فلما لم يروه ناداهم لسان غيْرة قهر القدم: أين أنتم؟ غبتم عنه وعن الحقيقة، فتطلَّع أنوار الحقيقة عليهم، ويأخذ لطفها عن شبكات امتحان القهر. وهذا دأب الحق مع الأنبياء والأولياء حتى لا يسكنوا إلى ما وجدوا منه، بل يفنوا به عن كل ماله إليهم. هـ.

---

(١) قرأ «كذِبوا» بالتخفيف، عاصم وحمزة والكسائي وأبو جعفر، وقرأ الباقون «كُذِّبوا» بالتشديد. انظر القراءة وتوجيهها في الإتحاف (١٥/٢) والبحر المحيط (٣٤٧/٥).

(٢) (كتاب التفسير، باب سورة يوسف).

(٣) أي: بحر.

قال المحشي الفاسي: وحاصل ما أشار إليه: أن قراءة التخفيف تشير إلى أخذهم عن الوقوف مع الوعد، والسكون إليه، غيبةً في الحق عن مقتضى وعده، لا تكذيباً لوعده، بل ذلك أحوالٌ غالبة آخذة عن الصفة، غيبةً في الموصوف. وهذا حال الصوفي كما يعرف ذلك أهله. وهو صحيح في نفسه ولكنه بعيد عن مرمى الآية؛ فإن صاحب الغيبة لا يوصف بظن خلاف الوعد، وإن كان غائباً عنه. وأقرب منه ما ذكره الترمذي الحكيم: من أن ظن ذلك كان لظن فقد شرط في الموعود أوجب عدم القطع لوقوع الوعد. والله أعلم.

وقد قال في الحِكم: «لا يشككك في الوعد عدم وقوع الموعود، وإن تعين زمنه». يعني أنه قد يتخلف لفقد شرط؛ كما في قضية الجرْو الذي تخلف جبريل من أجله. أو لعدم تحقيق الوقت؛ لأن تعيينه كان من قبل أنفسهم من غير وحي، فلما تأخر ظنوا ذلك بأنفسهم. والله تعالى أعلم.هـ.

والحاصل: أن الرسل - عليهم الصلاة والسلام - لما تأخر عنهم النصر هجس في أنفسهم تخلف الوعد؛ خوفاً أن يكون متوقفاً على شرط لم يعلموه، أو جعلوا له وقتاً فهموه من أمارات، فلما تأخر عنه ظنوا أنه قد تخلف. وأما قضية الجرو الذي أشار إليها: فكان جبريل عليه السلام وعد نبينا ﷺ أن يأتيه في وقت مخصوص، فدخل جرو البيت، فلم ينزل في ذلك الوقت، فلما نزل بعد ذلك، قال: «إنما تَخلّفنا عن الوقت؛ لأنَّ الملائكةَ لا تَدْخُلُ بيْتاً فيه كلبٌ»(١). كما في الصحيح.

ثم قال تعالى:

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ لقد كان في قصصهمْ ﴾ أي: في قصص الأنبياء وأممهم، أو في قصة يوسف وإخوته، ﴿ عبرةٌ لأولي الألباب ﴾: لذوي العقول الصافية الخالصة من شوائب الإلف والعادة، ومن الركون إلى الحس؛ لأن الإخبار بهم على يد نبي أمي آية واضحة لمن تفكر بقلب خالص. ﴿ ما كان حديثاً يُفترى ﴾ أي: ما كان القرآن حديثًا مُفترىً، ﴿ ولكن ﴾ كان ﴿ تصديقَ الذي بين يديه ﴾ من الكتب الإلهية، ﴿ وتفصيلَ كل شيء ﴾ يحتاج إليه في الدارين؛ إذ ما من أمر ديني إلا وله مستند من القرآن بوسط، أو بغير وسط. ﴿ وهُدى ﴾ من الضلال، ﴿ ورحمةً ﴾ ينال بها خير الدارين، ﴿ لقوم يؤمنون ﴾: يصدقون به، ويتدبرون في معانيه.

(١) أخرجه البخاري في (كتاب اللباس / باب: لا تدخل الملائكة بيتاً فيه صورة).

الإشارة : تفكر الاعتبار يشد عُروة الإيمان، وفكرة الاستبصار تشد عُروة الإحسان. قال في الحكَم: «الفكرة فكرتان: فكرة تصديق وإيمان، وفكرة شهود وعيان. فالأولى: لأهل التفكر والاعتبار، والثانية: لأهل الشهود والاستبصار». ومرجع الاعتبار إلى خمسة أمور:

الأول: التفكر في سرعة انصرام الدنيا وانقراضها، وذهاب أهلها. قرناً فقرناً، وجيلاً فجيلاً. فيوجب ذلك الزهد في الدنيا، والإعراض عن زخارفها الغرارة، والتأهب للدار الباقية.

الثاني: التفكر في الدار الباقية، ودوام نعيمها، أو عذابها. وذلك مرتب على السّعْى في هذه الدار، فيوجب ذلك انتهاز الفرصة في الأعمال، واغتنام الأوقات والساعات قبل الفوات.

الثالث: التفكر في النعم التي أنعم الحق ـ تعالى ـ بها على الإنسان؛ إما ظاهرة؛ كالعافية في البدن، والرزق الحلال، وما يتبع ذلك مما لا يحصى؛ قال تعالى: ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا ﴾(١) . وإما باطنة: كنعمة الإسلام والإيمان، وصحيح العرفان، والاستقامة في الدين، ولا سيما إن رزقه الله من يأخذ بيده من شيخ عارف. فهذه نعمة عظمى قلّ من يسقط عليها. فيوجب له ذلك الشكر الذي هو أعلى المقامات، ومتكفّل بالزيادات، قال تعالى: ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ ﴾(٢) .. ولا يعرف العبد ما عليه من النعم إلا بالتفكر في أضدادها، والنظر إلى أهل البلاء.

الرابع: التفكر في عيوبه ومساوئه، لعله يسعى في تطهيرها، أو يشتغل بها عن عيوب غيره.

الخامس: التفكر فيما أظهر الله تعالى من أنواع المكونات، وضروب المصنوعات؛ فيعرف بذلك جلالة الصانع، وعظيم قدرته، وإحاطة علمه، وحكمته. فإن اتصل بشيخ عارف غيّبه عنها بشهود مكونها.

وبالله التوفيق. وهو الهادي إلى سواء الطريق.

●●●

(١) من الآية ٣٤ من سورة إبراهيم..

(٢) من الآية ٧ من سورة إبراهيم.

فهرس المجلد الثاني

تفسير سورة المائدة ٣
تفسير سورة الأنعام ٩٥
تفسير سورة الأعراف ١٩٥
تفسير سورة الأنفال ٣٠٣
تفسير سورة التوبة ٣٥٥
تفسير سورة يونس ٤٤٧
تفسير سورة هود ٥٠٧
تفسير سورة يوسف ٥٧١

* * *

البحر المديد

في تفسير القرآن المجيد

لأبي العباس أحمد بن محمد بن عجيبة

١١٦١ هـ - ١٢٢٤ هـ

تحقيق وتعليق

أحمد عبدالله القرشي رسلان

المجلد الثالث

من أول سورة الرعد حتى آخر سورة المؤمنون

طبع على نفقة د. حسن عباس زكي

القاهرة ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م

تفسير ابن عجيبة

«البحر المديد»

بسم الله الرحمن الرحيم

سُورَةُ الرَّعْدِ

مكية إلى قوله: ﴿ ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه ﴾، والباقى مدنى، وقيل: مدنية كلها. وآيها: خمس وأربعون. ومناسبتها لما قبلها: قوله: ﴿ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ ﴾، مع قوله ﴿ تلك آيات الكتاب والذي أنزل إليك من ربك الحق ﴾؛ فإنه كالدليل على كونه غير مفترى.

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ * الٓمٓرۚ ... ﴾.

قيل: معناه: أنا أعلم، الله أعلم وأرى. وقيل: مختصرة من لفظ المرسل، على عادة رمز المحبين. أو إشارة إلى العوالم الأربعة: فالألف لوحدة الجبروت، واللام لتدفق أنوار الملكوت، والميم لحس عالم الملك، والراء لسريان أمداد الرحموت.

قال تعالى: ﴿ ... تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ﴾

قلت: ﴿تلك﴾: مبتدأ، و﴿آيات﴾: خبر، و﴿الذى أنزل﴾: مبتدأ، و﴿الحق﴾: خبر، والجملة الثانية كالحجة على الجملة الأولى.

يقول الحق جل جلاله: أيها المرسل المعظم، والحبيب المفخم، ﴿ تلكَ ﴾الآيات التى تتلوها على الناس هى ﴿ آياتُ الكتابِ ﴾ المنزل من حضرة قدسنا. ﴿ و ﴾ الكتاب أى: القرآن ﴿ الذى أُنزل إليك من ربك ﴾ هو ﴿ الحق ﴾ الذى لاريب فيه، ﴿ ولكنَّ أكثرَ الناسِ لا يؤمنون ﴾؛ لإخلالهم بالنظر والتأمل فيه.

الإشارة: لَوْ صفَتْ القلوب من الأكدار، ومُلئت بالمعارف والأنوار؛ لفهمتْ أسرار الكتاب، وجواهر معانيه، ولأدركت معرفة الحق من كلامه؛ لأن الكلام صفة المتكلم، ولكن أكثر الناس اشتغلوا بمتابعة الهوى، فصُرفوا عن فهم الكلام، وفاتهم معرفة المتكلم، ولذلك لم يكتف الحق تعالى بآيات الكتاب حتى ذكر دلائل توحيده وكمال قدرته، فقال:

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ ﴾

قلت: ﴿الله﴾: مبتدأ، و﴿الذى رَفَعَ﴾: خبره، ويجوز أن يكون الموصول صفة، والخبر: ﴿يُدبر الأمر﴾، و﴿عَمَد﴾: اسم جمع عمود، وقياس جمعه: عُمد، كرسول ورُسُل، وشهاب وشُهُب، وليس جمعاً خلافاً لأبى عبيد. قاله ابن عطية. وقال البيضاوى: جمع عِماد، كإهاب وأُهب. وجملة: ﴿ترونها﴾: إما حال، أو استئنافية؛ فالضمير للسماوات، وإما صفة لعمَد فالضمير لها، أى: ليس لها عمَد مرئية، فيقتضى بالمفهوم أن لها عمداً لا تُرى. وقيل: إن عمدها جبل قاف المحيط بالدنيا. والجمهور: أنه لا عمد لها البتة. فالمراد نفى العمد، ونفى رؤيتها. قاله ابن جزى.

يقول الحق جل جلاله مستدلاً على وجوده، وكمال قدرته: ﴿ اللهُ الذى رفعَ السموات ﴾ فوقكم كالسقف المرفوع ﴿ بغير عَمَد ﴾ : أساطين، بل بقدرة أزلية، ﴿ ترونها ﴾ مرفوعة فوقكم. أو بغير عمد مرئية، بل بعمد خفية، وهى: أسرار الذات العلية؛ إذ لا فاعل سواه. ﴿ ثم استوى على العرش ﴾ استواء استيلاء وإحاطة، حتى صار العرشُ غيباً فى إحاطة قهريته وأسرار ذاته. وقد كانت العرب تجعل لملوكها سريراً يجلسون عليه لتدبير المملكة، فخاطبنا الحق تعالى بقدر ما نفهم[1]، ولذلك رتب عليه قوله: ﴿ وسَخَّر الشمسَ والقمر ﴾ ؛ لأن هذا من تدبير ملكه، أى: ذللهما لما أراد منهما، كالحركة المستمرة على حد من السرعة؛ لينتفع بهما عباده فى معاشهم ومعالم دينهم. ﴿ كلٌ ﴾ منهما ﴿ يجرى لأجَلٍ مُسمى ﴾ : لمدة معينة تتم فيها أدواره، أو لغاية مضروبة ينقطع فيها سيرهما؛ وهى يوم القيامة حين تكوّر الشمس والقمر. ﴿ يُدبر الأمر ﴾ ؛ أمر ملكه من الإيجاد والإعدام، والإحياء والإماتة، وغير ذلك، ﴿ يُفصل الآياتِ ﴾ : ينزلها، ويبين معانيها مفصلة، أو يُحدث الدلائل واحداً بعد واحد؛ ﴿ لعلكم بلقاء ربكم تُوقنون ﴾ : لكى تتفكروا فيها، وتتحققوا كمال قدرته، فتعلموا أنّ مَنْ قدر على خلق هذه الأشياء وتدبيرها قادر على الإعادة والجزاء.

الإشارة: الله الذى رفع سموات الأرواح، وزينها بنجوم العلم وقمر التوحيد، وأشرق عليها شموس العرفان وأسرار التفريد، ثم استوى بأسرار ذاته وأنوار صفاته على العرش، وهو قلب العارف؛ لأنه سرير المعرفة، ومحل بيت الرب، وسخر شمس المعرفة وقمر التوحيد، يجريان بالترقى إلى محل التمكين، وهو الأجل المسمى لهما، يدبر أمر السير والترقى، ويُفصّل دلائل الطريق الموصلة إلى عين التحقيق؛ لعلكم بالوصال إلى ربكم توقنون، حين يكون ذوقاً وكشفاً. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر العالم السفلى، فقال:

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ

(١) سئل الإمام مالك، عن الاستواء على العرش، فقال: (الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب..)، وإذا كان علم حقيقة الصفات فرع عن علم حقيقة الذات المقدسة، وإذا كنا لانحيط بالله علما، فإننا لن نحيط بصفات الله علما، كذلك، فنقول: آمنا به، كلٌ عند ربنا.

أَعْنَـٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ ﴾

قلت: ﴿رواسي﴾: جمع راسية، من رسى الشيء: ثبت، و﴿جنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان﴾ مَنْ خَفَضَ عطف على ﴿أعناب﴾، ومن رفع عطف على ﴿جنات﴾. و﴿صنوان﴾: نعت تابع، و﴿غير﴾: عطف عليه.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وهو الذى مدَّ الأرض ﴾؛ بسطها طولاً وعرضاً؛ لتثبت عليها الأقدام وتتقلب عليها الحيوان والأنام، ﴿ وجعلَ فيها رواسى ﴾: جبالاً ثوابت لتستقر وتثبت، فلا تميد كالسفينة، ﴿ و ﴾ جعل فيها ﴿ أنهاراً ﴾ مطردة دائمة الجرى، من غير نفاد ولا فتور. ضمها إلى الجبال؛ لأنها أسبابٌ لتولدها فى العادة. ﴿ ومن كل الثمراتِ جعل فيها زوجين اثنين ﴾ أى: وجعل فيها صنفين اثنين من كل الثمرات؛ فكل ثمرة فيها صنفان؛ أحمر وأسود، أو حلو وحامض، قال ابن جزى: فإن قيل: تقتضى الآية أنه تعالى خلق مِن كل ثمرة صنفين، وقد خلق من كثير من الثمرات أصنافاً كثيرة؟ فالجواب: أن ذلك زيادة فى الاعتبار، وأعظم فى الدلالة على القدرة بذكر الاثنين؛ لأن دلالة غيرهما من باب أولى. هـ.

﴿ يُغشى الليلَ النهارَ ﴾، أى: يجعل الليلَ غشاءً على النهار ولباساً له، فيصير الجو مظلماً بعدما كان مُضيئاً. ﴿ إنَّ فى ذلك لآيات ﴾؛ دلائل وجوده وباهر قدرته ﴿ لقوم يتفكرون ﴾ فيها؛ فإن وجودها وتخصيصها فى هذا الشكل العجيب، دليل على وجود صانع حكيم، دبر أمرها، وهيأ أسبابها.

﴿ وفى الأرض قِطَعٌ متجاورتٌ ﴾؛ قريب بعضها من بعض، مع اختلاف أوصافها، بعضها طيبة وبعضها سبخة، وبعضها رخوة وبعضها صلبة، وبعضها يصلح للزرع دون الشجر، وبعضها بالعكس، وبعضها معادن مختلفة. ولولا تخصيص قادر مخصص لتلك الأفعال، على وجه دون وجه، لم يكن الحكم كذلك؛ لاشتراك تلك القطع فى الطبيعة الأرضية، وما يلزمها ويعرض لها بتوسط ما يعرض من الأسباب السماوية، من حيث إنها متضامة متشاركة فى السبب والأوضاع. قاله البيضاوى. ﴿ وجناتٌ من أعناب وزرعٌ ونخيلٌ ﴾؛ أى: وفى الأرض أيضاً بساتين فيها أنواع من الأعناب والزروع، والنخيل، من صفة تلك النخيل: ﴿ صِنْوَانٌ ﴾ أى: نخلات كثيرة متفرعة من أصل واحد، ﴿ وغيرُ صنوان ﴾ أى: غير متفرعة، بل كل نخلة منفردة بأصل واحد، ﴿ يُسقى بماءٍ واحد. ونُفضّلُ بعضها على بعضٍ فى الأُكُلِ ﴾ أى: فى الثمر المأكول؛ قدراً وشكلاً، وطعماً، ورائحةً ولوناً،

مع اتفاق الماء الذى تُسقى به. وذلك مما يدل أيضاً على الصانع القادر الحكيم، فإن إيجادها، مع اختلاف الأصول والأسباب، لا يكون إلا بتخصيص قادر مختار. وفيه رد على الطبائعيين. ﴿إن فى ذلك لآياتٍ لقوم يعقلون﴾: يستعملون عقولهم بالتفكر والاعتبار، فيُدركون عظمة الواحد القهار.

الإشارة: ذَكَرَ أولاً سماء الأرواح، وما يُناسبها من أنوار التوحيد وأسرار التفريد، وذكر هنا أرض النفوس، وما يلائمها من جبال العقول وأنهار العلوم، فقال: وهو الذى مد أرض النفوس، وجعل فيها جبالاً من العقول الشامخة، حتى أدركت الصانع، وتحققت بوجوده ووحدانيته، بالدلائل الواضحة، والبراهين القطعية. وأنبع منها أنهاراً من العلوم الرسمية، والرقائق الوعظية. وجعل فيها من كل صنف؛ من ثمار ما جنت بمجاهدتها صنفين اثنين: قبضاً وبسطاً، منعاً ووجداً، ذُلاً وعزاً، فقراً وغنىً. يغْشيانها غشاء الليلِ للنهار؛ فإذا كان ليل القبض غشيه نهار البسط، فيزيله، وإذا كان المنع غشيه الوجد، وإذا كان الذل غشيه العز، وإذا كان الفقر غشيه الغنى، وهكذا. ودوام حال من قضايا المحال.

وفى أرض النفوس أيضاً قطع متجاورة، مع اختلاف ألوانها وطبائعها، وعلومها ومعارفها، ومواجدها وألسنتها. وفيها أيضا جنات المعارف ـ إن اتصلت بطبيب عارفٍ ـ من أعناب الحقائق الناشئة عن خمرة الأزل، وزرع الشرائع الناشئة عن الكسب والتحصيل، ونخيل الأذواق والوجدان، صنوان وغير صنوان ـ يعنى من تعتريه الأحوال، ومن لا تعتريه لكمال رسوخه، تُسقى بخمرة واحدة، وهى الخمرة الأزلية، على أيدى الوسائط، أو بلا وسائط، وهو نادر. ونُفضل بعضها على بعض فى الأذواق والوجدان؛ فترى العارفين بعضهم قطب فى الأحوال، وبعضهم قطب فى المقامات؛ كان الجنيد رضي الله عنه قطبًا فى العلوم، وكذا الشاذلى والجيلانى والغزالى، وأمثالهم. وكان الشيخ أبوزيد قطباً فى الأحوال، وكان سهلُ التسْتُرى قطباً فى المقامات. والأولياء كلهم لا يخرجون عن هذا التقسيم، كل واحد وما يغلب عليه، مع مشاركته لغيره فى الثلاث(١). والله تعالى أعلم.

ولما ذكر دلائل قدرته ذكر وعيد من أعرض عنها حتى أنكر البعث، فقال:

﴿ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٥﴾ ﴾

(١) هذه الإشارة ينبغى أن تتضمن توجيهاً: لدراسة الكون دراسة علمية؛ والاستفادة فى ذلك فى إعمار الأرض، وإنقاذ المسلمين من التخلف العلمى والحضارى، ومن التبعية لحضارة الغرب المادية؛ فانظر إلى قوله تعالى: (يتفكرون)، (يعقلون) ومتعلقهما، أعنى: الأرض، والرواسى، والأنهار، والنبات، والرى.. وغير ذلك، كيف غفلنا نحن المسلمين عن التفكر، والتعقل فى هذه الموضوعات؟ وما العلم الطبيعى إلا مبنى على هذا الأصل، فلله الأمر من قبلُ ومن بعد.

قلت : ﴿فعجب﴾: خبر، و﴿قولهم ﴾: مبتدأ، و﴿أئذا كنا ...﴾ الخ ـ محكي به . واختلف القراء هنا، وفي مواضع من القرآن، فمنهم من قرأ بالاستفهام في الأول دون الثاني، ومنهم بالعكس، ومنهم من قرأ بالاستفهام فيهما. فمن قرأ بالاستفهام في الأول دون الثاني فإنما القصد هو الثاني؛ لأنهم إنما أنكروا كون الإنسان يصير تراباً ثم يُبعث، وأما كونهم يصيرون تراباً فلا إنكار عندهم فيه. ومَن قرأ بالاستفهام في الثاني فعلى الأصل، ومن قرأ بالاستفهام فيهما فزيادة تأكيد. والعامل في ﴿إذا ﴾ محذوف، دل عليه: ﴿لفي خلق جديد﴾ أي: أنُجَدَّدُ إذا .... إلخ.

يقول الحق جل جلاله : ﴿ وإن تعجبْ ﴾ يامحمد من إنكارهم البعث ﴿ فعجبٌ قولُهم ﴾ أي: فقولهم حقيق بأن يتعجب منه، فإنَّ من قدر على إنشاء ما قصَّ عليك من عجائب السماوات والأرض، وأنواع الثمار على اختلاف أصنافها وألوانها، كانت الإعادة أيسر شيء عليه، فالآيات المعدودة كما هي دالة على وجود المبدأ، فهي دالة على إمكان الإعادة، لأنها دالة على كمال قدرته تعالى. ثم فسر قولهم في الإنكار: قالوا: ﴿ أئذَا كنا تراباً أئنا لفي خَلْقٍ جديد ﴾ أي: أنُجَدَّدُ إذا متنا، وكنا تراباً، ﴿ أولئك ﴾ القائلون ذلك، أو المنكرون البعث، ﴿ الذين كفروا بربهم ﴾ ؛ لأنهم كفروا صفة القدرة، ﴿ وأولئك الأغلالُ في أعناقهم ﴾ أي: مقيدون بالضلال، قد أحاط بهم الشقاء، لا يُرجى خلاصهم، أو: يُغلُّون يوم القيامة. ﴿ وأولئك أصحابُ النار هم فيها خالدون ﴾ لا ينفكون عنها. وتوسط ضمير الفصل؛ لتخصيص الخلود بالكفار، ففيه رد على المعتزلة. والله تعالى أعلم.

الإشارة : إنكار بعث الأرواح من غفلاتها وجهلها، كإنكار بعث الأشباح بعد موتها، يُتعجب من الأول كما يتعجب مِن الثاني؛ فالقدرة صالحة، فمن قدر على بعث الأشباح بعد موتها الحسي قدر على بعث الأرواح بعد موتها المعنوي. «من استغرب أن ينقذه الله من شهوته، وأن يخرجه من وجود غفلته، فقد استعجز قدرة الإلهية؛ ﴿وكان الله على كل شيء مقتدرا﴾» . وقد أحيا الله أرواحاً كثيرة كانت ميتة بالجهل والمعاصي، فصارت عارفة بالله، من خواص أولياء الله مَنْ كانوا لصوصاً فصاروا خُصوصاً، ومنهم من كانوا كفارا، فصاروا أبرارا. وبالله التوفيق.

ثم استمر بهم الإنكار حتى استعجلوا ممن أوعدهم بذلك العذاب، فقال تعالى:

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٦﴾ ﴾

قلت : «المثُلات» : جمع مثُلة، كسمُرة، وهي العقوبة العظيمة، التي تجعل الإنسان مثلاً لمن بعده. وفيها لغات وقراءات شاذة. و﴿على ظلمهم﴾: حال، والعامل فيه: المغفرة.

يقول الحق جل جلاله : ﴿ ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة ﴾ أي: بالنقمة قبل العافية، طلبوا نزول العذاب الذي أوعدهم به؛ استهزاء، ﴿ وقد خلَتْ ﴾ : مضَتْ ﴿ من قَبلِهمُ المَثُلات ﴾ : عقوبات أمثالهم من

المكذبين، أو المصيبات الدواهي، حتى صاروا مثلاً لمن بعدهم. فمالهم لم يعتبروا، ولم يخافوا حلول مثلها عليهم؟ ﴿ وإنَّ ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم ﴾ أي: مع ظلمهم أَنْفُسَهُمْ بالكفر والمعاصي، فسترهم وأمهلهم في الدنيا. فالمغفرة هنا لغوية، وقيل: يغفر لهم بالتوبة. وقيل: بلا قيد التوبة، بل بمجرد الحلم. قال البيضاوي: وفيه جواز العفو قبل التوبة، فإن التائب ليس على ظلمه، ومن منع ذلك خص الظلم بالصغائر المكفرة باجتناب الكبائر. هـ. ﴿ وإنَّ ربك لشديدُ العقاب ﴾ لمن يريد تعذيبه، أو للكفار. وعن النبي ﷺ أنه قال: «لَوْلاَ عَفْوُ اللهِ وَتَجَاوُزُه ما هَنَأ أَحَدَ العَيْش، ولَوْلاَ وَعِيدُه وَعِقَابُه لاتَّكَلَ كُلُّ أَحَد»(١) . قاله البيضاوي.

الإشارة: ترى بعض المستهزئين بالأولياء يؤذيهم بلسانه، أو بغيره، ويقول: إن كان بيده ما يفعل يفعله بي، والله تعالى يقول: «مَنْ آذَى لِي ولياً فقد آذَنْتُهُ بالحرْب». ولكن الحق تعالى يمهل ولا يهمل؛ ﴿وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم وإن ربك لشديد العقاب﴾.

ثم طلبوا المعجزة، كما قال تعالى:

﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ ۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾ ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُۥ مُعَقِّبَـٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ ... ﴾ .

قلت: ﴿وسارب﴾ : عطف على جملة ﴿من هو﴾ أي: ومن هو سارب، ليكمل التقسيم أربعة: من أسر، ومن جهر به، ومن استخفى، ومن سرب؛ أي: برز. انظر ابن جزي. و﴿المتعال﴾ : منقوص، يجوز في الوقف عليه حذف الياء وإثباتها، وكذلك: هادٍ، و واقٍ، وشبهه، غير أن الراجح في المعرَّف بأل الإثبات، وفي المنَوّنِ: الحذف. قال ابن مالك:

وحَـذْفُ يَا المنْقُوصِ ذي التَّنوين مـا   لَمْ يُنْصَب) أَوْلَى مِنْ ثُبُوتٍ فَـاعْلَمَـا
وَغَـيْـرُ ذِي التَّنْـوِينِ بِالْعَـكْسِ، وَفِي   نَحْـو مُـرٍ: لُزُومُ رَدِّ اليَـا اقْتُـفِي

وأثبتها ابن كثير في الجميع، ووافقه يعقوبُ في المُعَرَّف بأل، وحَذَفَها غيرُه مطلقاً.

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٢١٤٥) عن سعيد بن المسيب، مرسلاً، وزاد في الفتح السماوي (٧٣٨/٢) عزوه للثعلبي.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ويقول الذين كفروا﴾ من أهل مكة: ﴿لولا﴾: هلا ﴿أُنزل عليه آيةٌ﴾ أى: معجزة واضحة ﴿من ربه﴾ كما أوتى موسى وعيسى. ولم يعتدوا بالآيات المنزلة عليه؛ كانشقاق القمر وانقياد الشجر، وتسليم الحجر، وأعظمها: القرآن العظيم. وذلك عناد منهم. قال تعالى: ﴿إنما أنت مُنذرٌ﴾؛ مُرْسَل إليهم لتنذرهم كغيرك من الرسل، وما عليك إلا الإتيان بما تصح به نبوتك من جنس المعجزات، لا مما يُقترح عليك. ﴿ولكل قوم هادٍ﴾؛ رسول يهديهم إلى الحق والصواب، مخصوص بمعجزات من جنس ما هو الغالب عليهم؛ ففى زمن موسى عليه السلام كان الغالب عليهم السحر، فأوتى بالعصا تنقلب حية؛ ليبطل سحرهم، وفى زمن عيسى عليه السلام كان الغالب عليهم الطب، فأوتى إبراء الأكمه والأبرص، وإحياء الموتى الذى يعجزون عن مثله، وفى زمن نبينا محمد ﷺ كان الغالب عليهم البلاغة والفصاحة، بها كانوا يتباهون ويتناضلون، فأوتى القرآنَ العظيم، أعجز ببلاغته البلغاء والفصحاء. أو: ولكل قوم هاد، يقدر على هدايتهم، وهو الله تعالى، أى: إنما عليك الإنذار، والله هو الهادى لمن يشاء، أو: ولكل قوم واعظ ومذكر من نبيٍّ أو ولِيّ. رُوى أنها لما نزلت قال رسول الله ﷺ: «أنَا المُنْذِرُ، وأنْتَ يا عَلِيُّ الهَادِى»(١).

ثم أردف ذلك ما يدل على كمال علمه وقدرته، وشمول قضائه وقدره؛ تنبيهاً على أنه تعالى قادر على إنزال ما اقترحوه، وإنما لم يُنزله؛ لعلمه بأن اقتراحهم كان عناداً لا استرشاداً. أو أن وقت الإنزال لم يحضر، فقال: ﴿الله يعلمُ ما تحمل كلُّ أنثى﴾ هل هو ذكر أو أنثى، أو تام أو ناقص، أو حسن أو قبيح(٢). وهو من الخمس التى اختص بها. ﴿وما تَغيضُ الأرحامُ وما تزداد﴾ أى: ما تنقص فى الجثة بمرض الجنين أو إسقاطه، وما تزداد بنمو الجنين إلى أمده أو أكثر. قال البيضاوى: مدة الحمل عندنا أربع سنين، وخمس عند مالك، وسنتان عند أبى حنيفة. رُوى أن الضحاك وُلد لسنتين، وهرم بن حيان لأربع سنين. وأعلى عدده لا حد له. (٣) ـ قلت: يعنى مع تحققه ـ وقيل: المراد نقصان دم الحيض وزيادته. هـ. ﴿وكل شيء عنده بمقدار﴾: بقدر محدود، ووقت مخصوص، لايجاوزه ولا ينقص عنه، فالحق ـ تعالى ـ قد خص كل حادث بوقت مخصوص معين، وهيأ له أسباباً تسوقه إليه على ما تقتضيه حكمته.

---

(١) أخرجه الطبرى فى تفسيره (١٣/١٠٨) عن ابن عباس. وانظر تفسير ابن كثير (٢/٥٠٢) والألوسى (١٣/٨).

(٢) هذا النوع الذى ذكره الشيخ المفسر، من المعرفة، ليس هو النوع الذى اختص الله نفسه بعلمه ـ وهو يعلمه أيضاً ـ فإن هذا العلم ممكن للإنسان، بل قد علمه فعلاً عن طريق الأشعة وغيرها. والأساس فى فهم الآية قوله تعالى فى الآية «ما»، وهى التى تدل على الماهية. فقوله تعالى: ﴿الله يعلم ما تحمل كل أنثى﴾ أى: يعلم ماهيته وحقيقته، هل يكون شخصاً مؤمناً أو كافراً، سعيدا أو شقياً فى الدنيا والآخرة، يعلم كنهه وهويته ومعتقده، واتجاهاته وميوله، وفكره وعمله، ونيته ومصيره، علماً كلياً وتفصيلياً، وهو ما يستحيل على العقل البشرى أن يعلمه، فالله هو المختص وحده بعلم ذلك كله، فضلاً على علمه: هل هو ذكر أو أنثى.. الخ ما يعلمه الإنسان بأدوات العلم التجريبى.

(٣) ما قاله الإمام البيضاوى عن مدة الحمل يرجع فيه إلى أهل الطب المختصين، ﴿فاسألوا أهل الذكر﴾، وقد قال أهل الاختصاص: إن الجنين إذا ظل فى الرحم أكثر من مدته، فإن الرحم قد ينفجر. الخ ما قالوا.

﴿ عالمُ الغيبِ والشهادة ﴾ أي: الغائب عن الحس، والظاهر فيه ﴿ الكبيرُ ﴾: العظيم الشأن، الذى يصغر كل شيء دون عظمته وكبريائه، ﴿ المتعال ﴾: المستعلى عن سمة الحوادث، أو: المستعلي بقدرته على كل شيء. ﴿ سواءٌ منكم من أسرَّ القولَ ﴾ فى نفسه ﴿ ومن جهر به ﴾ لغيره، ﴿ ومن هو مُستخف بالليل ﴾: طالب للخفاء مستتراً بظلمة الليل، ﴿ و ﴾ من هو ﴿ سارب بالنهار ﴾ أى: بارز فيه. فقد أحاط الله بذلك، علما وسمعا وبصراً. فالآية مقررة لما قبلها من كمال علمه وشموله.

﴿ له معقباتٌ ﴾ أى: لمن أسر أو جهر، أو استخفى أو برز، ﴿ معقبات ﴾ : ملائكة تعتقب فى حفظه، أى: يعقب بعضُها بعضاً، اثنان بالليل واثنان بالنهار، أو : لأنهم يعقبون أقواله وأفعاله فيكتبونها. أو: جماعة من الملائكة وَكَّلهم الله بحفظ الآدمى، يعقب بعضُهم بعضًا، وهو مناسب لقوله: ﴿ يحفظونه من أمر الله ﴾ أى: يحرسونه من الآفات التى تنزل من أمر الله وإرادته. أو: يحفظونه من عقوبة الله وغضبه. إذا أذنب ذنبًا أمهلوه واستغفروا له. أو: يراقبون أحواله من أجل أمر الله، إذ أمرهم الله بذلك، أو يكون صفة للمعقبات، أى: له معقبات من أجل أمر الله، حيث أمرهم بحفظه. وقيل: الضمير فى ﴿ له ﴾: يعود إلى النبى ﷺ، المتقدم فى قوله: ﴿إنما أنت منذر﴾، فتكون نزلت فيمن أراد غدر النبى ﷺ سراً، على ما يأتى فى الآية الآتية. والله تعالى أعلم.

الإشارة: قد تقدم مراراً حالُ من طلب الكرامة من الأولياء، وأنه جاهل بهم، ولا يعرفهم مادام يلتمس الكرامة منهم. وأىُّ كرامة أعظم من الاستقامة، والمعرفة بالله، على نعت الشهود والعيان؟!. وقوله تعالى: ﴿ولكل قوم هادٍ﴾ أى: ولكل عصر عارف بالله، يهدى الناس إلى حضرة الله، وهم ورثة الهادى الأعظم والنبى الأفخم، نبينا ـ عليه الصلاة والسلام ـ أولهم سيدنا على ـ كرم الله وجهه؛ للحديث المتقدم، لأنه أول من أظهر علم التصوف وأفشاه، ثم أخذه عنه الحسن البصرّى وهذبه، ثم حبيب العجمى، ثم داود الطائى، ثم معروف الكرخي، ثم سرى السقطى، ثم إمام الطريقة: أبو القاسم الجنيد، ثم انتشر فى الأرض، فلكل عصرٍ رجالٌ يحملون لواء الحقيقة، ويهدون الناس إلى لباب الشريعة. وهم العارفون بالله. قال رسول الله ﷺ: «يَبْعَثُ اللهُ عَلَى رأس كُلِّ مائةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لهذِهِ الأُمَّةِ أَمْرَ دِينِهَا»(١) أى: يجدد الطريقة بعد دروسها، ويحيى الحقيقة بعد خمود أنوارها، ويُظهر الشريعة بعد خفاء أعلامها. وقد يكون واحداً ومتعددا. وقد بعث الله فى رأس هذه المائة الثالثة عشر، أربعةً أحيا الله بهم الحقيقة، وأظهر بهم أنوار الشريعة، يمشون فى الأرض بالنصيحة، ويهدون الناس إلى رب العالمين، والله ولى المتقين، وشهرتهم تُغنى عن تعيينهم، وتقدم اثنان فى العقود.

(١) أخرجه ابن داود فى (الملاحم، باب ما يذكر فى قرن المائة) من حديث أبى هريرة، وصححه السيوطى فى الجامع الصغير (ح ١٨٤٥).

وقوله تعالى: ﴿الله يعلم ما تحمل كل أنثى﴾: ما تحمل كل نفس من العلوم، وما تحمل كل روح من الأسرار. وما تغيض الأرحام، أي: القلوب، فقد تنقص أنوارها بمباشرة الأغيار، وقد تزداد بالتفرغ أو صحبة العارفين الكبار. وكل شيء عنده بمقدار، فالفتح له وقت معلوم، وحد محدود، والمراتب والمقامات مقسومة محدودة في الأزل، كل أحد يأخذ ما قُسِم له. وقوله تعالى: ﴿سواء منكم من أسر القول...﴾ إلخ، فيه تحقيق المراقبة وتشديد المحاسبة على الخواطر والقلوب. والله تعالى أعلم.

وإذا كان العبد على هدايةٍ من ربه أو نعمة، فلا تزول عنه إلا من جهته، كما قال تعالى:

﴿ ... إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾ ﴾

قلت: ﴿وإذا﴾: ظرف، والعامل فيه: مادل عليه الجواب، أي: لا يرد ما قضى إذا أراد إنفاذه. و﴿خوفاً وطمعاً﴾: منصوبان على العلة بتقدير المضاف، أى: إرادة الخوف والطمع؛ ليتحد الفاعل. أو بتأويل: يجعلكم ترون البرق خوفاً وطمعاً. و ﴿الثقال﴾ : نعت للسحاب، وجمعه؛ لأن السحاب جنس بمعنى الجمع. وجملة: ﴿وهم يجادلون﴾: إما استئنافية، أو حال من الموصول. و﴿المحال﴾: المكر والخديعة. من مَحَلَ بفلان إذا كاده وعرَّضه للهلاك، ومنه تَمَحَّل: إذا تكلَّف استعمال الحيلة، فالميم أصلية، ووزنه: فِعَال، وقيل: مشتق من الحيلة، فالميم زائدة، ووزنه: مِفْعَل، وأصله: مِحْيَل.

يقول الحق جل جلاله: ﴿إن الله لا يُغيِّرُ ما بقومٍ﴾ من النعم والعافية إلى النقمة والبلية ﴿حتى يُغيِّرُوا﴾ هم ﴿ما بأنفسهم﴾ من الطاعة وترك المعصية، إلى ارتكاب الذنوب. فلا يسلب النعم عن قوم إلا بارتكاب ذنب، ولو من البعض إذا سكت الكل. ﴿وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مردّ له﴾ أى: فلا رادّ له ولا معقب لحكمه، ﴿وما لهم من دونه من والٍ﴾ أى: ليس لهم من يلي أمرهم، ويدفع عنهم السوء الذى قضاه الله عليهم، وأراد نزوله بهم؛ لأن وقوع خلاف مراد الله تعالى محال.

﴿هو الذى يُريكم البرْقَ خوفاً وطمعاً﴾ أى: خوفاً مما ينشأ عن البرق من الصواعق والأمور الهائلة، وطمعاً فى نزول الغيث الذى يكون معه غالباً، ﴿وينشئ﴾ أى: يخلق ﴿السحاب﴾؛ الغيم المسْحب، ﴿الثِّقَال﴾:

المثقل بالمطر الحاملة له، ﴿ وَيُسبحُ الرعدُ بحمده ﴾ أي: ملتبساً بحمده، يقول: سبحان الله وبحمده. أو: يدل الرعد بنفسه على وحدانيته تعالى وكمال قدرته، ملتبساً بالدلالة على كمال فضله، ونزول رحمته. وعن ابن عباس رضي الله عنه: سُئل النبي ﷺ عن الرعد؛ فقال: «مَلَكٌ مُوَكَّلٌ بالسَّحَابِ، لَه مَخَارِيقُ مِنْ نَارٍ يَسُوقُ السَّحَابَ»(١).

﴿ و ﴾ تسبح أيضا ﴿ الملائكةُ من خِيفَتِه ﴾ أي: من خوفه وإجلاله، ﴿ ويُرسل الصواعقَ ﴾؛ نار تنزل من السماء وقت ضرب الرعد، ﴿ فيصيب بها من يشاء ﴾ فيهلكه، ﴿ وهم يجادلون فى الله ﴾ أي: الكفار، حيث يكذبون رسوله فيما يصفه به من كمال العلم والقدرة، والتفرد بالألوهية، وبعث الناس وحشرهم للمجازاة، ﴿ وهو شديد المِحَال ﴾ أي: شديد المكر بأعدائه، الذين أرادوا أن يمكروا بنبيه ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

رُوِى أن عامر بن الطُّفَيْل وأرْبَدَ بن ربيعة وفدا على رسول الله ﷺ قاصدين لقتله، فأخذ عامر بالمجادلة مع سيدنا رسول الله ﷺ ليشغله، ودار أرْبَدُ من خلفه؛ ليضربه بالسيف، فتنبه له الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ وقال: «اللَّهُمَّ اكفنيهما بِمَا شِئْتَ» ، فأرسل الله على أرْبَدَ صاعقة فقتلته، ورُمِيَ عامرٌ بغدة، فمات فى بيت امرأة سَلُولِيَّة، فكان يقول: غُدَّة كغُدَّة البعير، وموت فى بيت امرأة سَلُولِيَّة! فنزلت الآية من أولها(٢)، وهو قوله: ﴿له معقبات ...﴾ إلخ، على قول.

الإشارة: من جريان حكمته تعالى فى خلقه أنه لا يسلب النعم عنهم إلا بسوء أدبٍ منهم، كلٌّ على قدر مقامه، فالنعم الظاهرة يسلبها بترك الطاعة الظاهرة، أو بالمخالفة الظاهرة، والنعم الباطنة يسلبها بترك المراقبة الباطنة أو المشاهدة الباطنة. فلكل مقام حقوق وآداب؛ فمن أخَلَّ بحقوق مقام نقص له منه، إلا أن يتوب. وقد يسيء الأدب فتؤخر العقوبة عنه، فيظن أنه لم يُسْلَب. ولو لم يكن إلا ترك المزيد. وقد يبعد، وهو لا يشعر، ولو لم يكن إلا وتركه وما يريد. كما فى الحِكَم.: «إن الله لا يغير ما فى القلوب من أنوار الشهود والعيان، حتى يغيروا ما بأنفسهم من حسن الأدب بسوء الأدب». وهذا ما لم يتحقق له مقام المحبوبية والتمكن مع الله فى المعرفة. وإلا فالرعاية والعناية محفوفة بقلبه، فقد يبلغ الولي إلى مقام يقال له: افعل ما شئت فقد غفرتُ لك، كما وقع لأهل بدر، وراجعْ ما تقدم عند قوله: ﴿ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾(٣) وقد يُغير الله قلب عبده اختباراً له، فيسلبه حلاوة المعاملة أو المعرفة، فإن هو اضطرب وتضرع ردَّ له حاله، وإن لم يضطرب ولم يفزع إلى الله لم يرد له شيئاً. وإليه الإشارة بقوله: ﴿ وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مَردَّ له . . . ﴾ الآية.

(١) أخرجه فى سياق طويل، أحمد فى المسند (٢/ ٢٧٤) والترمذي في (تفسير سورة الرعد)، وقال: حسن غريب.
(٢) أخرجه ابن جرير فى التفسير (١٢٦/١٣) عن ابن عباس رضي الله عنه فى سياق أطول من هذا. وهو ضعيف لوجود السدى والكلبى فى السند.
(٣) الآية ٨٢ من سورة الأنعام.

هو الذى يُريكم بَرْقَ لمعان أنوار المشاهدة، عند الاستشراف على الحضرة القدسية، خوفاً من الرجوع؛ لعدم إطاقة ذلك النور، وطمعاً فى الوصول إلى التمكين، فلا يزال تترادف عليه البروق حتى يستمر ذلك كبرق متصل، وهى أنوار المواجهة. وينشئ سحاب الواردات ثِقالاً بالعلوم والأسرار، ويرسل الصواعق تصعق وجود الحس عن أسرار المعانى، فيصيب بها من يشاء ممن سبقت له العناية. وأهل الإنكار والتكذيب بطريق الخصوص يجادلون فى الله بتكذيب أوليائه وإنكار هذه الأنوار، وهو شديد المحال، فيمكر بهم ويتركهم فى مقام البُعد، وهم لا يشعرون.

ومن جملة التغيير الذى يسلب النعم ويوجب النقم: الركون إلى غير الله بالدعاء وغيره، كما قال تعالى:

﴿ لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّۖ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيۡءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ إِلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ (١٤) وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَظِلَٰلُهُم بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ۩ (١٥) ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿له دعوةُ الحق﴾؛ لأنه الذى يحق أن يُدعى فيجيب، دون غيره؛ فإنما له الدعاء الباطل؛ لأنه يُدعى فلا يسمع ولا يجيب. أو: له دعوة الحق، وهى كلمة التوحيد؛ «لا إله إلا الله»، فمن دعا إليها فقد دعا إلى الحق. والأول أرجح؛ لمناسبة قوله: ﴿والذين يَدْعون من دونه لا يستجيبون لهم بشىء﴾، أى: والأصنام الذين يدعونهم من دونه لا يستجيبون لهم بشىء مما طلبوا، أو: والمشركون الذين يدعون أصناماً من دون الله لا يستجيبون لهم بشىء، فحذف المفعول؛ للدلالة عليه، فلا يستجيبون لهم ﴿إلا كباسط كَفَّيْه إلى الماء﴾؛ إلا استجابة كاستجابة من بسط كفيه إلى الماء يشير إليه، ﴿ليبلغ فَاهُ﴾؛ أى: يطلب منه أن يصعد إليه ويبلغ فاه ﴿وما هو ببالغه﴾ أى: ليس الماء ببالغ فاه؛ لأنه جماد لا يشعر بدعائه، ولا يقدر على إجابته من حيث هو، شبَّه إجابة الأصنام لمن عبدهم بإجابة الماء لمن بسط إليه كفه، وأشار إليه بالإقبال إلى فيه، ولا يبلغ فاه أبداً؛ لأنه جماد لا يسمع ولا يعقل، وكذلك الأصنام لا تسمع ولا تجيب من بسط إليها يده ليطلب منها؛ لأنها خشب وأحجار. ﴿وما دعاء الكافرين﴾ للأصنام ﴿إلا فى ضلال﴾ وخسران وضياع.

ثم ذكر الحقيق بالعبادة والطلب، فقال: ﴿ولله يسجدُ من فى السموات والأرض طوعاً وكرهاً﴾ يحتمل أن يكون السجود حقيقة، فالملائكة والمؤمنون يسجدون طوعاً فى الشدة والرخاء، والكفار يسجدون كرهاً فى الشدة والضرورة. أو يكون مجازاً؛ وهو: انقيادهم لما أراد منهم، شاءوا أو كرهوا. ﴿و﴾ تسجد أيضاً ﴿ظلالهم﴾؛ بانقيادها لله تعالى فى طولها وقصرها، وميلها من جانب إلى جانب، ﴿بالغدو والآصالِ﴾، أى: طرفَىْ النهار. وخصَّ هذان الوقتان - وإن كان سجودهما دائماً -؛ لأن الظلال إنما تَعظُم وتَكْبُر فيهما. وقال الواحدى: كل شخص مؤمن أو كافر ظله يسجد لله تعالى، ونحن لا نقف على كيفية ذلك. هـ.

وقال القشيري: ذلك سجود شهادة، لا سجود عبادة، فإن امتنع من إقامة الشهادة قوم قالةً فقد شهد كل جزء منهم من حيث البرهان والدلالة، فكل مخلوقٍ من عين وأثر، حجر ومدر أو غير ذلك؛ فمن حيث البرهان لله ساجد، ومن حيث البيان للواحد شاهد. هـ.

وقال أبو حيان: عن الفراء: الظل في الأصل مصدر، ثم أطلق على الخيال الذي يظهر للجرم طولُه بسبب انخفاض الشمس، وقصره بسبب ارتفاعها، فهو منقاد لله تعالى في طوله وقصره وميله من جانب. ثم قال: والحاصل أنها جارية على مقتضى إرادته تعالى ومشيئته، من الامتداد والتقلص، والفيء والزوال. هـ.

وقيل: لا يعلم تسبيح الجماد والنبات والحيوان البهيمي وسجودها؛ إلا مَنْ كاشفه الله تعالى بحقيقة ذلك من نبي أو ملك أو صدِّيق. وأما حمدها لله تعالى وتسبيحها بلسان الحال فيعلمه العلماء . قاله المحشى الفاسي.

الإشارة: كل من تعلق في نوائبه بغير الله، أو ركن في حوائجه إلى غير مولاه، فهو كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه، وليس بواصل إليه، ولا ببالغ قصده ومناه، بل دعاؤه في تلف وخسران، وجزاؤه الخيبة والحرمان. فالواجب على العبد أن يقْصر حوائجه على مولاه، وينقاد إليه بكليته في حال الطوع والإكراه. إما أن ينقاد إليه بالإحسان، أو بسلاسل الامتحان. «عَجِبَ رَبُّكَ مِنْ قَوْمٍ يُسَاقُونَ إِلَى الجَنَّةِ بِالسَّلاَسِلِ»(١).

ثم ذكر الحقيق بالدعوة، والعبادة، فقال:

﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿قل﴾ يا محمد للمشركين: ﴿من ربُّ السموات والأرض﴾ أي: خالقهما، ومدبر أمرهما، ﴿قل﴾ لهم: هو ﴿الله﴾ لا خالق سواه، ولا مدبر غيره، أجاب عنهم بذلك، إذ لا جواب لهم سواه؛ لأنهم يقرون به، ولكنهم يشركون به. فأبطل ذلك بقوله: ﴿قل أفاتخذتم من دونه أولياء﴾؛ أصناماً جامدة تتولونها بالمحبة والنصرة والدفع، وهم جوامد ﴿لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً﴾ أي: لا يقدرون أن يجلبوا لأنفسهم نفعاً، ولا يدفعون عنهم ضراً، فكيف يقدرون أن ينفعوا غيرهم ممن عبدهم، أو يدفعون عنه ضراً؟!. وهو دليل على ضلالهم وفساد رأيهم، في اتخاذهم الأصنامَ أولياء، رجاء أن يشفعوا لهم.

---

(١) هذا لفظ حديث صحيح أخرجه البخاري في (كتاب الجهاد، باب الأسارى في السلاسل) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿ قل هل يستوى الأعمى والبصيرُ ﴾ أى: الكافر الجاهل، الذى عميت بصيرته بالجهل والشرك، والمؤمن الموحد الذى انفتحت بصيرته بالإيمان والعلم. أو المعبود الغافل عن عبادة من عبده، والعالم بأسرار عباده. ﴿ أم هل تستوي الظلماتُ والنور ﴾؛ الكفر والإيمان، أو الجهل والعلم. ﴿ أم ﴾: بل ﴿ جعلوا لله شركاءَ ﴾ من صفتهم، ﴿ خَلقوا كخلقه، فتشابه ﴾؛ التبس ﴿ الخلقُ عليهم ﴾ فلم يدروا ما خلق الله مما خلق أصنامُهم، وهذا كله داخل فى الإنكار. والمعنى: هل خلق شركاؤهم خلقًا كخلق الله، فالتبس الخلق عليهم، فلم يُميزوا خلق الله من خلق أصنامهم، حتى ظنوا أنها تستحق أن تُعبد مع الله، أو يُطلب منها حوائج دون الله؟!.

ثم أبطل ذلك بقوله: ﴿ قل اللهُ خالقُ كل شىء ﴾، قال البيضاوى: والمعنى أنهم ما اتخذوا له شركاء خالقين مثله حتى يتشابه الخلق عليهم، فيقولوا: هؤلاء خلقوا كما خلق الله، واستحقوا العبادة كما استحقها، ولكنهم اتخذوا شركاء عاجزين لا يقدرون على ما يقدر عليه الخلق، فضلاً عما يقدر عليه الخالق. هـ. ﴿ قل اللهُ خالق كل شىء ﴾؛ لاخالق غيره فيشاركه فى العبادة. جعل الخلق مُوجبَ العبادة، ولازم استحقاقها، ثم نفاه عما سواه؛ ليتحقق انفراده بالربوبية والقهرية كما أفاده قوله: ﴿ وهو الواحدُ ﴾ فى الألوهية، ﴿ القهار ﴾ بتصريف أحكام الربوبية. هـ.

الإشارة: إذَا علِم العبدُ أن ربه قائم بأمر خلقه، مدبر لشأن ملكه، من عرشه إلى فرشه، جعل حوائجه كلها وَقْفاً عليه، وانحاش بكليته إليه، ورفع همته عن خلقه، إذ ليس بيدهم ضر ولا نفع، ولا جلب ولا دفع، بل هم عاجزون عن إصلاح أنفسهم، فكيف يقدرون أن ينفعوا غيرهم؟! وفى الحِكَم العطائية: «لا ترفعن إلى غيره حاجة هو موردها عليك، فكيف يرفع إلى غيره ما كان هو له واضعًا، من لا يستطيع أن يرفع حاجة عن نفسه: فكيف يستطيع أن يكون لها من غيره رافعا». وقال بعض العارفين من المُكَاشَفين - رضى الله عنهم -: قيل لى فى نوم كاليقظة، أو يقظة كالنوم: لا تُبْدِيَنّ فاقة فأُضَاعفها عليك؛ مكافأةً لسوء أدبك، وخروجك عن حد عبوديتك. إنما ابتليتك بالفاقة لتفزع بها إلىّ، وتتضرع بها لدىّ، وتتوكل فيها علىّ. سبكتك بالفاقة لتصير ذهباً خالصاً، فلا تزيفن بعد السبك، وسَمَتُّكَ بالفاقة وحكمت لنفسى بالغنى، فإن وصلتها بى وصلتك بالغنى، وإن وصلتها بغيرى قطعت عنك مواد معونتى، وحسمت أسبابك من أسبابى، طرداً لك عن بابى. فمن وكلتُه إلىّ ملك، ومن وكلته إليه هلك. هـ.

وقال الشيخ أبو الحسن الشاذلى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: آيست من نفع نفسى لنفسى، فكيف لا آيس من نفع غيرى لها، ورجوت الله لغيرى فكيف لا أرجوه لنفسى؟. هـ. فالبصير من اعتمد فى أموره على مولاه، والأعمى من ركن فى حوائجه إلى سواه. فأنوار التفويض والتسليم لا تستوى مع ظلمات الشرك والتدبير؛ ﴿قل هل يستوى الأعمى والبصير أم هل تستوى الظلمات والنور﴾. وبالله التوفيق.

ثم ضرب مثلاً لنور العلم مع ظلمات الجهل، فقال:

﴿ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَىٰ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٨﴾ ﴾

قلت: ﴿جُفاء﴾: حال. و﴿الحسنى﴾ : مبتدأ، و﴿للذين﴾: خبر مقدم. و﴿الذين لم يستجيبوا﴾: مبتدأ، و﴿لو أن﴾: خبر، أو (للذين): متعلق بيضرب، و﴿الحسنى﴾: نعت لمصدر محذوف، و﴿الذين﴾: معطوف على ﴿الذين﴾ الأولى، أي: يضرب الأمثال للذين استجابوا الاستجابة الحسنى وللذين لم يستجيبوا، ثم استأنف قوله: لو أن... إلخ.

يقول الحق جل جلاله: ﴿أنزل من السماء﴾ أي: السحاب، أو ناحية السماء، ﴿ماءً﴾؛ مطراً، ﴿فسالتْ﴾ به ﴿أودية﴾ : أنهار، جمع واد، وهو الموضع الذي يسيل الماء فيه بكثرة، فاتسع واستعمل للماء الجاري فيه. ﴿بقَدَرها﴾ أي: بقَدَر صغرها وكبرها، كل يسيل على قدره، أو بقدرماقسم في قسمة الله تعالى، وعلم أنه نافع غير ضار، ﴿فاحتمل السيلُ زَبَداً﴾ أي: رفعه على وجه الماء، وهو ما يحمله السيْل من غثاء ونحوه، أو ما يطفو على الماء من غليانه، ﴿رابياً﴾: عالياً على وجه الماء، ﴿ومما تُوقدون عليه في النار﴾(١) من ذهب وفضة، وحديد ورصاص ونحاس، وغيره، ﴿ابتغاءَ﴾ أي: لطلب ﴿حلية﴾ كالذهب والفضة، ﴿أو متاعٍ﴾ كالحديد والنحاس يصنع منه ما يتمتع به؛ من الأواني وآلات الحرب والحرث. والمقصود بذلك: بيان منافعها، فكل واحد منهما له ﴿زَبَدٌ مثله﴾ أي: مثل زبد الماء، وهو خبثه الذي تخرجه النار عند سبكه.

﴿كذلك يَضْرِبُ اللهُ الحقَّ والباطل﴾؛ فمثل الحق ـ وهو العلم بالله وبأحكامه ـ كمثل الأمطار الغزيرة، ومثل القلوب التي سكن فيها، وجرت حِكَمُه على ألسنة أهلها؛ كالأودية والأنهار والخلجان، كلٌّ يحمل منه على قدره، وسعة صدره. ومثل الباطل الذي دمغه وذهب به؛ كالزبد وخبث الحديد والنحاس، أو الذهب والفضة. وسيأتي في الإشارة تكميله إن شاء الله. ورُوِي مثل هذا عن ابن عباس. وإنكار ابن عطية له جمود، وتَذَكَّرْ حديث البخاري:

(١) قرأ حمزة والكسائي وحفص (يوقدون) بالياء. على أن الضمير للناس. وقرأ الباقون بالتاء على الخطاب.. انظر الإتحاف (٢/١٦٢).

«مثل ما بعثنى الله به من الهدى...» الحديث(١)، فإنه يشهد لذلك التأويل. وتقدم له بنفسه فى قوله: ﴿ أأرباب متفرقون ﴾(٢) ما يشير إلى تفسير أهل الإشارة والرموز. وراجع ما تقدم لنا فى خطبة الكتاب يظهر لك الحق والصواب.

قال البيضاوى: مَثَّلَ الحقُّ فى إفادته وثباته، بالماء الذى ينزل من السماء، فتسيل به الأودية على قدر الحاجة والمصلحة، فتنتفع به أنواع المنافع، ويمكث فى الأرض، فيثبت بعضه فى منابعه، ويسلك بعضه فى عروق الأرض إلى العيون والآبار، وبالفِلِزِّ الذى ينتفع به فى صَوْغ الحلى، واتخاذ الأمتعة المختلفة، ويدوم ذلك مدة متطاولة. والباطلُ، فى قلة نفعه وسرعة ذهابه، بزبدهما، وبيَّن ذلك بقوله: ﴿ فأما الزَّبَدُ فيذهب جُفَاءً ﴾، أى: مَرْمياً به، من جفاه: رمى به وأبعده، أى: يرمى به السيل والفلز المذاب. هـ. ﴿ وأما ما ينفع الناس ﴾ كالماء، وخالص الذهب أو الحديد، ﴿ فيمكثُ فى الأرض ﴾ لينتفع به أهلها. ﴿ كذلك يضرب اللهُ الأمثالَ ﴾ لإيضاح المشكلات المعنوية، بالمحسوسات المرئية.

﴿ للذين استجابوا لربهم ﴾ بالإيمان والطاعة، ﴿ الحسنى ﴾ أى: المثوبة الحسنى، أو الجنة. ﴿ والذين لم يستجيبوا له ﴾ من الكفرة ﴿ لو أنَّ لهم ما فى الأرض جميعاً ومثله معه لافتدوا به ﴾ من هول ذلك المطلع. أو: يضرب الأمثال للذين استجابوا الاستجابة الحسنى، وللذين لم يستجيبوا له. ثم بيَّن مثال غير المستجيبين بقوله: ﴿لو أن لهم...﴾ إلخ: ﴿ أولئك لهم سُوءُ الحساب ﴾؛ أقبحه وأشده، وهو أن يناقش فيه، بأن يحاسَب العبد على كل ذنب، ولا يغفر منه شىء، ﴿ ومأواهم ﴾: مرجعهم ﴿ جهنمُ وبئس المهادُ ﴾؛ الفراش والمستقر، والمخصوص محذوف، أى: هذا .

الإشارة: قد اشتملت الآية على ثلاثة أمثلة: مثال للعلم النافع، ومثال للعمل الخالص، وللحال الصافى. فمثّل الحقُّ تعالى العلم النافع بالمطر النازل من السماء، فإنه تحيا به الأرض، وتجرى به الأودية والعيون والآبار، ويحبس فى الخلجان والقدور لنفع الناس، وتتطهر به الأرض من الخبث؛ لأنه ترمى به السيول فيذهب جفاء، كذلك العلم النافع تحيا به النفوس بعد الموت بالجهل والشك، وتحيا به الأرواح بعد موتها بالغفلة والحجاب، وتمتلئ به القلوب على قدر وسعها وسعتها، وعلى قدر ما قُسم لهم من علم اليقين، أو عين اليقين، أو حق اليقين، وتتطهر به النفوس من البدع وسائر المعاصى.

---

(١) لفظ الحديث كاملاً: «مثل مابعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير، أصابت أرضاً، فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادِب، أمسكت الماء فنفع الله الناس، فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصاب منها طائفة أخرى، إنما هى قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ، فذلك مثل من فقه في دينِ الله، ونفعه الله به، فعلِم وعلّم. ومثل من لم يرفع بذلك رأساً، ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به» أخرجه البخارى فى (العلم، باب فى من علِم وعلّم) ومسلم فى (الفضائل، باب بيان مابعث النبى به من الهدى والعلم) من حديث أبى موسى ﷺ.

(٢) من الآية ٤٠ من سورة يوسف.

ومثَّل العمل الخالص الذى تَصَفَّى من الرياء والعجب وسائر العلل، بالحديد المصفى من خبثه؛ لتصنع منه السيوف والآلات، أو النحاس المصفى لتصنع منه الأوانى، وغيرها مما ينفع به الناس.

ومثَّل الحال الصافى من العلل بالذهب المصفى، أو الفضة، إذا صفيت وذهب خبثها؛ ليصنع بهما الحلى والحلل؛ ليتزين بها أهلها، فأشار إلى المثال الأول ـ وهو العلم ـ بقوله: ﴿أنزل من السماء ماء﴾ إلخ. وأشار الى الحال بقوله: ﴿ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية﴾، وأشار إلى العمل بقوله: ﴿أو متاع زبد مثله﴾. وقدّم الحال، لشرفه، ومثَّله بالذهب والفضة؛ لزيادة الرغبة فيه؛ لأنه ثمرة العمل، ومرجعه إلى الوجدان والأذواق، وهو عزيز لا يجده إلا المقربون.

والحاصل: أن المراتب أربعة: العلم، والعمل، والحال، والمقام. وإنما لم يضرب الحق تعالى مثلاً للمقام؛ لأن النزول فيه لا يكون إلا بعد التصفية، فليس فيه علة، يحتاج إلى التصفية منها. فمقامات اليقين كلها يجرى فيها العلم، والعمل، والحال، والمقام. فالتوبة مثلا: يتعلق العلم بمعرفة حقيقتها، وفضليتها، ثم يسعى فى العمل بالمجاهدة والرياضة حتى يذهب زبده وخبثه، حتى يذوق حلاوة الاستقامة مع بقية الخوف من السقوط، وهذا هو الحال، ثم تطمئن النفس، وترسخ التوبة النصوح، وهذا هو المقام. وكذلك الصبر، يتعلق به العلم أولاً ثم يسعى فى مرارة استعماله حتى يذوق حلاوة الشدة والفاقة ثم يرسخ فيه، وهكذا يجرى فى المقامات كلها.. وهى اثنا عشر مقاماً: التوبة، والخوف، والرجاء والورع، والزهد، والصبر، والشكر، والرضى، والتسليم، والمحبة، والمراقبة، والمشاهدة. وهى: بروج شمس المعرفة، وقمر التوحيد. وكذلك معرفة الشهود والعيان: يتعلق العلم أولاً بأسرار التوحيد، ثم يعمل فى خرق عوائد نفسه حتى تموت، فيشرق عليها أنوار التوحيد، غير أنها تظهر وتخفى، ثم يصير الشهود مقاماً، رسوخاً وتمكيناً.

وقد أشار فى الحكم إلى بعض هذا فقال: «حسن الأعمال نتائج حسن الأحوال، وحسن الأحوال من التحقق بمقامات الإنزال». وكل واحد من الثلاثة يحتاج إلى تصفية حتى يذهب زبده وخبثه؛ فتصفية العلم بالإخلاص والتحقيق، فيذهب عنه قصد الرئاسة والجاه، أوالتوصل إلى الدنيا، ويذهب به الشكوك والأوهام؛ فهذا زبده. وتصفية العمل بالإخلاص فى أوله، والإتقان والحضور فى وسطه، والكتمان فى آخره، فيذهب عنه الرياء والعجب به، والتوصل به إلى حظ نفسانى. وتصفية الحال بصحة القصد وإفراد الوجهة، وإذا هاج عليه الوارد ملك نفسه وأمسكها، فيذهب به قصد الظهور، وطلب المراتب الدنيوية والكرامات الحسية، التى هى من حظ النفس وتشتيت القلب، إن لم يفرد وجهته لله، وانحلال عزمه وخمود نوره، إن لم يمسك نفسه عند هواجم الحال. فهذا زبد الحال الذى يذهب عنه بمجاهدة النفس، ويمكث فى أرض القلوب صفاء اليقين والمعرفة وخالص العمل فى مقام العبودية. وبالله التوفيق.

ثم ذكر حال من عرف هذا العلم النازل، وحال من أنكره، فقال:

﴿ ۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾ ﴾

قلت: ﴿أولئك..﴾ الخ: جملة خبر الموصولات، إن رفعت بالابتداء، وإن جُعلت صفاتٍ لأُولي الألباب: فاستئناف بذكر ما استوجبوا بتلك الصفات. و﴿جنات﴾: بدل من ﴿عُقبى الدار﴾. و﴿من صلَح﴾: عطف على الواو بفصل المفعول، و﴿سلام عليكم﴾: محكي بحال محذوفة، أي: قائلين سلام عليكم، وحذْف الحال ـ إذا كان قولاً ـ كثيرٌ مطرد.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ أفمن يعلم أنما أُنزِل إليك من ربك ﴾ هو ﴿ الحقُّ ﴾ فيستجيب له، وينقاد له ﴿ كمَنْ هو أعمى ﴾ عمى القلب، لا يستجيب ولا يستبصر؟ أنكر الحق ـ جل جلاله ـ على من اشتبه عليه الحق من الباطل، بعدما ضرب المثل، فإن الأمور المعنوية، إذا ضرب لها الأمثال المحسوسة، صارت في غاية الوضوح لاتخفى إلاّ على الخفافشة، الذين انطمس نور قلوبهم بالكفر أو المعاصي. ولذلك قال: ﴿ إنما يتذكر أولوا الألباب ﴾؛ ذوو العقول الصافية والقلوب المنورة، التي تطهرت من كدر العوائد والشهوات، ولم تركن إلى المألوفات والمحسوسات.

ثم وصفهم بقوله: ﴿ الذين يُوفون بعهد الله ﴾؛ ما عقدوه على نفوسهم من معرفة عظمة الربوبية والقيام بوظائف العبودية، حين قالوا: ﴿ بلى ﴾(١). ﴿ ولا ينقُضُون الميثاق ﴾؛ ما أوثقوه على نفوسهم، وتحملوه من المواثيق التي بينهم وبين الله، وبينهم وبين عباد الله. وهو تعميم بعد تخصيص؛ تأكيداً على الوفاء بالعهود. ﴿ والذين يَصِلُونَ ما أمر اللهُ به أن يوصَلَ ﴾ من الرحم، وموالاة المؤمنين، وحضور مجالس الصالحين، والعلماء العاملين، والاقتداء بقولهم والاهتداء بهديهم. ﴿ ويخْشون ربهم ﴾: غضبه وعذابه، أو إبعاده وطرده، ﴿ ويخافون سوءَ الحساب ﴾: مناقشته، فيحاسبون أنفسهم قبل أن يحاسبوا.

(١) في قوله تعالى: (وإذ أخذ ربك من بني آدم..) الآية ١٧٢ من سورة الأعراف.

﴿ والذين صَبروا ﴾ على مشاق الطاعة وترك المخالفة، أو على ما تكرهه النفوس، ويخالفه الهوى. فعلوا ذلك ﴿ ابتغاء وَجهِ ربهم ﴾؛ طلباً لرضاه، أو لرؤية وجهه وشهود ذاته، لا فخراً ورياء، وطلباً لحظ نفسانى. ﴿ وأقاموا الصلاة ﴾ المفروضة، بحيث حافظوا على شروطها وأركانها، وحضور السر فيها، ﴿ وأنفقوا مما رزقناهم ﴾ من الأموال فرضاً ونفلا، ﴿ سِراً وعلانيةً ﴾؛ إن تحقق الإخلاص، وإلا تعيَّن الإسرار. أو سراً لمن لا يعرف بالمال، وجهراً لمن يعرف به؛ لئلا يُتهم، أو ليُقتدى به. ﴿ ويدرءُونَ بالحسنة السيئةَ ﴾ أى: يدفعون الخصلةَ السيئة بالخصلةِ الحسنة، فيجازون الإساءة بالإحسان؛ امتثالاً لقوله تعالى: ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ ﴾(١)، أو: يدفعون الشرك بقول: «لا إله إلا الله»، أو يفعلون الحسنات فيدرءون بها السيئات، كقوله: ﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ﴾(٢). قيل: نزلت فى الأنصار. وهى عامة.

ثم ذكر جزاءهم، فقال: ﴿ أولئك لهم عُقْبَى الدارِ ﴾ أى: عاقبة دار الدنيا وما يؤول إليه أهلُها. وهى: الجنة التى فسَّرها بقوله: ﴿ جناتُ عَدنٍ ﴾ أى: إقامة، ﴿ يدخُلونها ﴾ مخلدين فيها. والعدْن: الإقامة، وقيل: هى بطنان الجنة، أى: مداخلها لا ربضُها، فيدخلونها ﴿ ومن صَلَحَ من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم ﴾ أى: يَلْحَقُ بهم مَنْ صلح من أهلهم، وإن لم يبلغ فى العمل مبلغهم، تبعاً لهم وتعظيماً لشأنهم، أو بشفاعتهم لهم. وهو دليل على أن الدرجة تعلو بالشفاعة، وأن الموصوفين بتلك الصفات يقرب بعضهم من بعض، لما بينهم من القرابة والوصلة فى دخول الجنة؛ زيادة فى أُنسهم، لكن يقع التفاوت فى الدرجات والنعيم والقرب، على قدر اجتهادهم فى التحقق بتلك الصفات، والدءوب عليها. والتقييد بالصلاح يدل على أن مجرد الانتساب لا ينفع من غير عمل.

﴿ والملائكةُ يدخلون عليهم من كل بابٍ ﴾ من أبواب المنازل، أو من أبواب الفتوح والتحف، قائلين: ﴿ سلامٌ عليكم ﴾؛ بشارة بدوام السلامة، هذا ﴿ بما صبرتم ﴾، أو سلامة لكم بسبب صبركم . ﴿ فَنِعْمَ عُقْبَى الدار ﴾ التى سكنوها ورحلوا عنها دارهم هذه.

الإشارة : أفمن تَصفَّتْ مرآة قلبه من الأكدار والأغيار، حتى أبصرت أمطار العلوم والأسرار النازلة من سماء الملكوت على النبى المختار، فتضلع منها حتى امتلأ منها قلبه وسره، ونبع بأنهار العلوم لسانه وفكره، كمن هو أعمى القلب والبصيرة، فلم يرفع بذلك رأسا؟ إنما ينتفع بتلكِ العلوم أولوا القلوب الصافية التى ذهب خبثها، فصفت علومها وأعمالها وأحوالها من زبد المساوئ والعيوب، الذين دخلوا تحت تربية المشايخ، فأوفوا بعهودهم، وواصلوهم،

---

(١) من الآية ٩٦ من سورة المؤمنون.
(٢) من الآية ١١٤ من سورة هود.

وخافوا ربهم أن يبعدهم من حضرته، أو يناقشهم الحساب؛ فحاسبوا أنفسهم على الأنفاس والأوقات، وصبروا على دوام المجاهدات، حتى أفضوا إلى فضاء المشاهدات، وأقاموا صلاة القلوب ـ وهي العكوف في حضرة الغيوب ـ وأنفقوا مما رزقهم من سعة العلوم ومخازن الفهوم، ويقابلون الإساءة بالإحسان؛ لأنهم أهل مقام الإحسان. أولئك لهم عقبى الدار؛ وهى العكوف فى حضرة الكريم الغفار، تدخل على أبواب قلوبهم المواهب والأسرار، تقول بلسان الحال: سلام عليكم بما صبرتم فى مجاهدتكم، فنعم عقبى الدار.

ثم شفع بضدهم، فقال:

﴿ وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٢٥﴾ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ ﴿٢٦﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿والذين ينقُضُون عهدَ الله...﴾ الذى أخذه عليهم فى عالم الذر، حيث قال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾(١)، ثم كفروا به بعد بعث الرسل المنبهين عليه. أو ينقضون العهود فيما بينهم وبين عباد الله، إن أعطوا ذلك من أنفسهم، ﴿ويقطعونَ ما أمر الله به أن يوصل﴾ من الأرحام، أو ممن يدل على الله من الأنبياء، والعلماء الأتقياء؛ فإنّ الله أمر بوصلهم، ﴿ويُفسدون في الأرض﴾ بالظلم والمعاصي، وتهييج الفتن، ﴿أولئك لهم اللعنةُ﴾: البُعد والطرد من رحمة الله، ﴿ولهم سُوءُ الدَّارِ﴾: سوء عاقبة الدار، وهو العذاب والهوان، حيث اغتروا فى الدنيا بسعة الأرزاق، وظنوا أن ذلك من علامة إقبال الحق.

ولم يدروا أن الله ﴿يبسُطُ الرزقَ لمن يشاءُ﴾، ولو كان من أهل الشقاء، ﴿ويَقْدِرُ﴾؛ يُضيقه على من يشاء، ولو كان من أهل السعادة والعناية، ﴿وفرِحُوا بالحياة الدنيا﴾ واطمأنوا بها، وقنعوا بنعيمها الفانى، ﴿وما الحياةُ الدنيا﴾ فى جنب الآخرة ﴿إلا متاعٌ﴾؛ إلا متعة لا تدوم، كعُجالَة الراكب وزاد الراعي. وفى الحديث عنه ﷺ: «مَالِي وللدُّنيَا، إنَّمَا مَثَلِي ومَثَلُ الدُّنيَا كَرَاكِبٍ سَافَرَ فِي يَوْمٍ صَائِفٍ، فَاسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ، ثم رَاحَ عَنْهَا وَتَرَكَهَا»(٢). والمعنى: أنهم أشروا بما نالوا من الدنيا، ولم يصرفوها فيما يستوجبون به نعيم الآخرة، واغتروا بما هو فى جنبه نزر قليل النفع، سريع الزوال. قاله البيضاوى.

(١) من الآية ١٧٢ من سورة الأعراف.
(٢) أخرجه الإمام أحمد فى المسند (٣٠١/١) والحاكم (٣٠٩/٤) وصححه ووافقه الذهبي من حديث ابن عباس رضى الله عنه، قال: دخل عمر على رسول الله ﷺ وهو على حصير، قد أثر فى جنبه، فقال: يانبى الله لو اتخذت فراشاً أوثر من هذا؟ فقال: مالى وللدنيا... الحديث.

الإشارة : لا شيء أفسد على المريد من نقض عهود المشايخ، والرجوع عن صحبتهم؛ فإنه لمّا دخل في حماهم انقبض عنه الشيطان والدنيا والهوى، وأسفوا عليه، فإذا رجع إليهم، واتصلوا به، فعلوا به مالم يفعلوا بغيره؛ كمن هرب من عدوه ثم اتصل به. وتنسحب عليه الآية من قوله: ﴿والذين ينقضون عهد الله﴾ إلى قوله: ﴿أولئك لهم اللعنة﴾؛ أي: البُعد عن الحضرة، (ولهم سوء الدار) وهو: غم الحجاب والبقاء من وراء الباب. فإذا رجعت إليه الدنيا يقال له: (الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر)؛ فلا تغتر ولا تفرح بالعرض الفاني، فما الحياة الدنيا في الآخرة إلا متاع قليل، ثم التحسر الوبيل.

ثم أجاب عمن طلب المعجزة ليؤمن، فقال:

﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله : ﴿ ويقولُ الذين كفروا ﴾ من أهل مكة: ﴿ لولا أُنزل عليه آيةٌ ﴾ ظاهرة ﴿ من ربه ﴾ كما أنزلتْ على مَنْ قبله فنؤمن حينئذ؟ ﴿ قل ﴾ لهم: ﴿ إنَّ اللهَ يُضِلُّ مَن يشاء ﴾ بعد ظهور الآيات والمعجزات. وليس الإيمان والهداية بيد العبد في الحقيقة. ﴿ ويهدي إليه من أناب ﴾ أي: من أقْبَل ورجع عن عناده من غير احتياج إلى معجزة. قال البيضاوي: وهو جواب، يجري مجرى التعجب من قولهم، كأنه قال: قل لهم ما أعظم عنادكم! ﴿ إن الله يُضِلُّ من يشاء ﴾ ممن كان على صفتكم، فلا سبيل إلى اهتدائه، وإن نزلت كل آية، ويهدي إليه من أناب لما جئت به، بل بأدنى منه من الآيات. هـ.

الإشارة : تقدم مراراً أن من سبقت له من الله عناية الخصوصية، لم يتوقف على ظهور آية. ومن لم يسبق له شيء في الخصوصية لا ينفع فيه ألف آية. فالله تعالى يضل من يشاء عن دخول حضرته، ولو رأى من أولياء زمانه ما رأى، ويهدي إلى حضرته من أناب، ورجع بلا سبب. وبالله التوفيق.

ثم وصف أهل الإنابة، فقال:

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾ ﴾

قلت : الموصول: بدل ممن أناب، أو خبر عن مضمر، أي: هم. والموصول الثاني بدل ثان، أو مبتدأ، وجملة ﴿طوبى﴾ : خبر، وهي فُعْلى، من الطيب، كبشرى من البشارة، قلبت ياؤها واواً؛ لضم ما قبلها، ومعناها: أصبت خيراً وطيباً. وقيل: شجرة في الجنة. وسوغ الابتداء بها: ما فيها من معنى الدعاء.

يقول الحق جل جلاله، فى وصف من سبقت له الهداية واتصف بالإنابة: هم ﴿ الذين آمنوا ﴾ بالله وبرسوله إيماناً تمكّن من قلوبهم، واطمأنت إليه نفوسُهم؛ فإذا حركتهم الخواطر والهواجم، أو فتن الزمان وأهواله ﴿ تطمئن قلوبُهم بذِكْرِ الله ﴾، وترتاح بذكر الله؛ أُنساً به، واعتماداً عليه ورجاء منه، أو بذكر رحمته بعد القلق من خشيته، أوبذكر آلائه ودلائله الدالة على وجوده ووحدانيته، أو بكلامه القرآن، الذى هو أقوى المعجزات. قاله البيضاوى. وقال فى القوت: معنى تطمئن بذكر الله: تهش وتستأنس به. قال شيخ شيوخنا سيدى عبد الرحمن الفاسى بعد كلام: والحاصل أن المراد من الطمأنينة: السكون إلى المذكور، والأُنس به، ووجود الرَّوْحِ والفرح والانشراح، والغنى به. هـ.

قال تعالى: ﴿ ألا بذِكْرِ الله تطمئن القلوبُ ﴾ لا بغيره، فلا تسكن إلا إليه، ولا تعتمد إلا عليه؛ فإن سكنت إلى غيره ذهب نورها، وعظم قلقها. ﴿ الذين آمنوا وعملوا الصالحات طُوبَى لهم ﴾ أى: لهم عيش طيب وحياة طيبة. أو الجنة، أو شجرة فيها، ﴿ وحُسنُ مآب ﴾ أى: مرجع يرجعون إليه بعد الموت.

الإشارة: الطمأنينة على قسمين: طمأنينة إيمان، وطمأنينة شهود وعيان. قوم اطمأنوا إلى غائب موجود، وقوم إلى آخر مشهود. قوم اطمأنوا بوجود الله من طريق الإيمان على نعت الدليل والبرهان، وقوم اطمأنوا بشهود الله من طريق العيان على نعت الذوق والوجدان. وهذه ثمرة الإكثار من ذكر الله.

قال الشيخ الشاذلى رضي الله عنه: حقيقة الذكر: ما اطمأن بمعناه القلب، وتجلى فى حقائق سحاب أنوار سمائه الرب. هـ. وقال الورتجبى: إنْ كان الإيمان من حيث الاعتقاد، فطمأنينة القلب بالذكر، وإن كان من حيث المشاهدة فطمأنينة القلوب بالله وكشف وجوده. هـ. فطمأنينة الإيمان لأهل التفكر والاعتبار من عامة أهل اليمين. وطمأنينة العيان لأهل الشهود والاستبصار من خاصة المقربين. أهل الأولى يستدلون بالأشياء على الله، وأهل الثانية يستدلون بالله على الأشياء؛ فلا يرون إلا مظهر الأشياء. وشتان بين من يستدل به أو يستدل عليه؛ المستدل به عرف الحق لأهله، وأثبت الأمر من وجود أصله، والاستدلال عليه من عدم الوصول إليه. وإلا فمتى غاب حتى يستدل عليه! ومتى بَعُدَ حتى تكون الآثار هى التى توصل إليه؟!. كما فى الحِكَم.

وقال فى المناجاة: «إلهى كيف يُستدل عليك بما هو فى وجوده مفتقر إليك؟!. أيكون لغيرك من الظهور ماليس لك، حتى يكون هو المظهر لك؟! متى غِبْتَ حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك؟ ومتى بعدت حتى تكون الآثار هى التى توصل إليك؟!».

وقال الشيخ أبو الحسن رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «كيف يُعرف بالمعارف من به عُرِفت المعارف؟! أم كيف يُعرف بشيء مَنْ سَبَقَ وجوده كُلَّ شيء؟ أي: وظهر بكل شيء». وفي ذلك يقول الشاعر:

عَجِبْتُ لِمَنْ يَبْغِي عَلَيْكَ شَهَادَةً وأَنْتَ الَّذِي أَشْهَدْتَهُ كُلَّ شَاهِدِ

وقال آخر:

لَقَدْ ظَهَرْتَ فَمَا تَخْفَى عَلَى أَحَدٍ إلاَّ عَلَى أَكْمَهٍ لاَ يُبْصِرُ القَمَرَا

لَكِنْ بَطَنْتَ بِمَا أَظْهَرْتَ مُحْتَجِباً وَكَيْفَ يُبْصَرُ مَنْ بِالْعِزَّةِ اسْتَتَرَا

وأهل طمأنينة الإيمان على قسمين؛ باعتبار القرب والبُعد: فمنهم من يطمئن بوجود الحق على نعت القرب والأنس، وهم أهل المراقبة من الزهاد والصالحين، والعلماء العابدين المجتهدين، وهم متفاوتون في القرب على قدر تفرغهم من الشواغل والعلائق، وعلى قدر التخلية والتحلية. ومنهم من يطمئن إليه على نعت البعد من قلبه، وهم أهل الشواغل والشواغب، والعلائق والعوائق. وعلامة القرب: وجود حلاوة المعاملة، كلذيذ المناجاة، والأنس به في الخلوات، ووجود حلاوة القرآن والتدبر في معانيه، حتى لا يشبع منه في كل أوان. وعلامة البعد: فقد الحلاوة المذكورة، وعدم الأنس به في الخلوة، وفقد حلاوة القرآن، ولو كان من أعظم علماء اللسان.

وأهل طمأنينة الشهود على قسمين أيضاً: فمنهم من تشرق عليه الأنوار، وتحيط به الأسرار، فيغرق في الأنوار وتطمس عنه الآثار، فيسكر ويغيب عن الأثر في شهود المؤثر، ويسمى عندهم هذا المقام: مقام الفناء. ومنهم من يصحو من سكرته، ويفيق من صعقته، فيشهد المؤثر، لا يحجبه جمعه عن فرقه، ولا فرقه عن جمعه، ولا يضره فناؤه عن بقائه، ولا بقاؤه عن فنائه، يعطي كل ذي حق حقه، ويوفي كل ذي قسط قسطه، وهومقام البقاء، ولايصح وجوده إلاَّ بعد وجود ما قبله، فلا بقاء إلا بعد الفناء، ولا صحو إلا بعد السكْر. ومن ترامى على هذا المقام ـ أعني مقام البقاء ـ من غير تحقيق مقام السكر والفناء فهو لم يبرح عن مقام أهل الحجاب.

واعلمْ أن طمأنينة الإيمان تزيد وتنقص، وطمأنينة العيان، إن حصلت، تزيد ولا تنقص. فمواد أسباب زيادة طمأنينة الإيمان أشياء متعددة، فمنهم من تزيد طمأنينته بالتفكر والاعتبار، إمَّا في عجائب المصنوعات وضروب المخلوقات، فيطمئن إلى صانعٍ عظيم القدرة باهر الحكمة. وإما بالنظر في معجزات الرسول ﷺ، وباهر علمه، وعجائب حكمه وأسراره، وإخباره بالأمور الغيبية السابقة والآتية، مع كونه نبياً أُميا. فإذا تحقق بمعرفة الرسول فقد

تحقق بمعرفة الله، واطمأن به؛ لأنه الواسطة العظمى، بين الله وبين عباده. ومنهم من تزيد طمأنينته بموالاة الطاعات وتكثير القربات، كالذكر وغيره. ومنهم من تزيد طمأنينته بزيارة الأولياء أحياء أو ميتين. ومادة الأحياء أكثر، ونور طمأنينتهم أبهر، لاسيما العارفين، وفى الأثر: تعلموا اليقين بمجالسة أهل اليقين.

وأما طمأنينة أهل الشهود: فزيادتها باعتبار زيادة الكشف وحلاوة الشهود، والترقى فى العلوم والأسرار، والاتساع فى المقامات إلى مالا نهاية له، فى هذه الدار الفانية وفى الدار الباقية، ففى كل نَفَس يُجدد لهم كشوفات وترقيات ومواهب وتُحف، على قدر توجههم وتحققهم. حققنا الله بمقامهم، وأتحفنا بما أتحفهم. آمين.

ولابد فى تحصيل طمأنينة الشهود من صُحبة شيخ عارف طبيبٍ ماهر، يقدح عين البصيرة حتى تنفتح؛ فما حجب الناس عن شهود الحق إلا طمسُ البصيرة، فإذا اتصل بشيخ عارفٍ كحل عين بصيرته أولاً بإثمد علم اليقين، فيدرك شعاع نور الحق قريباً منه، ثم يكحل عينه ثانياً بإثمد عين اليقين، فيدرك عدمه لوجود الحق، أى: يغيب عن حسه بشهود معناه القائم به. ثم يكحل عينه بإثمد حق اليقين؛ فيدرك وجود الحق ـ بلا واسطة قدرة وحكمة، معنى وحساً، لا يتحجب بأحدهما عن الآخر. وإلى هذا أشار فى الحِكَم بقوله: «شعاع البصيرة يُشهدك قرب الحق منك، وعين البصيرة يُشهدك عدمك لوجوده، وحق البصيرة يُشهدك وجود الحق، لا عدمك ولا وجودك. كان الله ولا شيء معه، وهو الآن على ما كان عليه».

وأهل طمأنينة الشهود هم خاصة ورثة الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ الذى أشار إليه بقوله:

﴿ كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾ ﴾

قلت: ﴿كذلك﴾: مفعول مطلق بأرسلناك، أى: مثل ذلك الإرسال المتقدم أرسلناك. وقال ابن جزى: الكاف تتعلق بالمعنى الذى فى قوله: ﴿ يضل من يشاء ويهدى اليه من أناب ﴾ . هـ. أى: كما أن الإضلال والهداية بيده كذلك اختصاصك بالرسالة إلى أمة... إلخ، وجملة: ﴿وهم يكفرون﴾: حال من ضمير ﴿عليهم﴾ أى: لتتلو عليهم فى حال كفرهم لعلهم يؤمنون. و﴿متاب﴾: مفعل، من التوبة.

يقول الحق جل جلاله: قد أرسلنا قبلك رسلاً فأنذروا وبشروا قومهم، ﴿ كذلك أرسلناك ﴾ أى: مثل ذلك الإرسال أرسلناك فى أمة، أو كما هدينا من أناب إلينا اختصصناك برسالتنا، ﴿ فى أُمة قد خلتْ ﴾؛ مضت ﴿ من قبلها ﴾ أى: تقدمها ﴿ أمَمٌ ﴾ أرسل إليهم رسلهم؛ فليس ببدع إرسالك إلى هذه الأمة الأمية، ﴿ لِتَتْلُوَا عليهم الذي أوحينا إليك ﴾: لتقرأ عليهم الكتاب، الذى أوحينا إليك، والحالة أنهم ﴿ يكفرون بالرحمن ﴾ أى: بالبليغ

الرحمة الذى أحاطت بهم نعمته، ووسعت كل شيء رحمته، فلم يشكروا ما أنعم به عليهم، وخصوصًا إرسالك إليهم، وإنزال القرآن عليهم، الذى هو مناط المنافع الدينية والدنيوية. قيل: نزلت فى أبى جهل، وقيل: فى قريش حين قالوا: لا نعرف الرحمن، والمعنى: أرسلناك إليهم رحمة لتتلوَ عليهم ما هو مناط الرحمة، ﴿ **وهم يكفرون بالرحمن** ﴾ ـ، والحال: أنهم يكفرون ببليغ الرحمة. ﴿ **قل هو ربى** ﴾ أى: الرحمن خالقى ومتولى أمرى، ﴿ **لا إله إلا هو** ﴾؛ لامستحق للعبادة غيره، ﴿ **عليه توكلتُ** ﴾ فى أمورى، ومن جملتها نصرى عليكم. ﴿ **وإليه متَاب** ﴾؛ مرجعى فى أمورى كلها،، لا أرجع إلى أحد غيره، ولا أتعلق بشيء سواه.

الإشارة: قد بعث الله فى كل عصر عارفًا بالله يحيى به الدين، ويعرف الطريق إلى رب العالمين؛ فالأرض لاتخلو ممن يقوم بالحجة، غير أنهم تارة يخفون؛ لفساد الزمان، وتارة يظهرون؛ رحمة للأنام. فإذا وقع الإنكار عليهم، أو استغرب وجودهم، يقال لهم: كذلك أرسلنا فى كل أمة نذيرًا، وداعيًا، فإرسالكم أنتم وإظهاركم ليس ببدع، لتعلموا الناس ما أوحى إليكم من طريق الإلهام؛ فإظهاركم رحمة، وهم يكفرون هذه النعمة. فاعتمدوا على الرحمن، وثقوا بالواحد المنان، وارجعوا إليه فى كل حال وشأن. فمن توكل عليه كفاه، ومن التجأ إليه حماه.

ثم رجع إلى تتميم الجواب عن قول الكفار: (لولا أُنزل عليه آية من ربه)، فقال:

﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ (٣١) ﴾

قلت: جواب ﴿لو﴾: محذوف، أى: لم يؤمنوا؛ لسابق الشقاء، أو: لكان هذا القرآن، وسيأتى بيانه.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ **ولو أن قرآناً** ﴾ أنزل عليك، من صفته: ﴿ **سُيِّرتْ به الجبالُ** ﴾ أى: زعزعت عن مقارها، ﴿ **أو قُطِّعَت به الأرضُ** ﴾: تصدعت وتشققت من خشية الله عند قراءته، أو: تشققت فجعلت أنهارا وعيونا، ﴿ **أو كُلِّمَ به الموتى** ﴾؛ فتجيب من قبورها جهراً، لمَا آمنوا؛ لعنادهم وغلبة الحسد عليهم. فهذا كقوله تعالى: ﴿ **وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا** ﴾(١)،

(١) من الآية ١١١ من سورة الأنعام.

أو: ولو أن قرآناً بهذه الصفة: من تسيير الجبال، وتقطيع الأرض، وتكليم الموتى، لكان هذا القرآن؛ لأنه الغاية فى الإعجاز، والنهاية فى التذكير والإنذار، والأول أرجح؛ لمناسبة ما قبله وما بعده.

رُوى أن قريشاً قالوا: يامحمد، إنْ سَرَّك أن نتبعك فَسَيِّرْ بقرآنك الجبالَ عن مكة، حتى تتسع لنا فنتخذها بساتين وقطائع. أو سخر لنا به الريح لنركبها، فَنَتَّجِرَ بها إلى الشام. أو ابعث لنا قُصَىَّ بن كلاب فإنه كان شيخَ صِدْقٍ، أو غيره من آبائنا، فيكلمونا فيك، ويشهدوا لك بما تقول. فنزلت الآية.

﴿ بل لله الأمرُ جميعاً ﴾ ؛ ليس لى منه شيء، فهو القادر على الإتيان بما اقترحتموه من الآيات، إلا أن الإرادة لم تتعلق بذلك؛ لأنه علم أنه لا ينجع فيكم شيء من ذلك؛ لفرط عنادكم، فإذا رأيتموها قلتم: ﴿ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴾(١). وبيَّن ذلك قولُه: ﴿ أفلم ييأسِ الذين آمنوا ﴾ من إيمانهم مع ما رأوا من أحوالهم، وفرط عنادهم، علماً منهم ﴿ أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً ﴾، أو: ﴿ أفلم ييأس ﴾ أى: يعلم ﴿ الذين آمنوا ﴾ أن الهداية بيد الله، ومشيئته، فلو شاء لهدى الناس جميعا. وكون «ييأس» بمعنى «علم»: لغة هوازن؛ فقد علموا بما أعلمهم أن الله لايهدى من يضل. وقد قرأ على وابن عباس وجماعة: «أفلم يتبين الذين آمنوا»، وهو يقوى تفسير ييأس بيعلم.

قال البيضاوى: وإنما استعمل اليأس بمعنى العلم، لأنه مسبب عن العلم، فإن الميئوس منه لا يكون إلا معلوماً. ولذلك علّقه بقوله: ﴿ أن لو يشاء اللهُ لهَدى الناس جميعاً ﴾؛ فإن معناه نفى هدى بعض الناس؛ لعدم تعلق المشيئة باهتدائهم، وهو - على الأول - يتعلق بمحذوف تقديره: أفلم ييأس الذين آمنوا من إيمانهم؛ علمًا منهم أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعا. أو: بآمنوا، على حذف الجار، أى: بأن الله... الخ. هـ.

﴿ ولا يزال الذين كفروا ﴾ من قريش والعرب، ﴿ تُصيبهُم بما صنعوا ﴾ من الكفر والمعاصى، ﴿ قارعةٌ ﴾: داهية تقرعهم؛ تقلقهم، وتصيبهم فى أنفسهم وأولادهم وأموالهم. أو غزوات المسلمين إليهم، إمّا أن تنزل بهم ﴿ أو تَحُلُّ قريباً من دارهم ﴾ فيفزعون منها وتتطاير إليهم شررها. وقيل: نزلت فى كفار مكة، فإنهم لا يزالون مصابين بما صنعوا برسول الله ﷺ، كان لايزال يبعث السرايا، فتُغير حواليهم وتختطف أموالهم. وعلى هذا يجوز أن يكون ضمير ﴿ تَحُل ﴾ خطابا للرسول ﷺ أى: تحل بجيشك قريباً من دارهم، ﴿ حتى يأتى وعد الله ﴾ بالموت أو بالبعث أو فتح مكة. ﴿ إنَّ الله لا يُخلف الميعاد ﴾؛ لامتناع الخلف فى وعده تعالى.

(١) كما جاء فى الآية ١٥ من سورة الحجر.

الإشارة: لو أن عارفًا بالله سيَّر الجبال عن أماكنها، وفجر الأرض عيوناً، وكلمه الموتى لما آمن بخصوصيته إلا من سبقت له عناية الخصوصية. فلو شاء الله لهدى الناس إلى معرفته جميعا. لكن الحكمة اقتضت وجود الخلاف، قال تعالى: ﴿ ولايزالون مختلفين ﴾(١)، فمن لم يهتد إلى معرفتهم لا يزال تطرقه قوارع الشكوك والأوهام، وخواطر السوء، أو تحل قريباً من قلبه، إن لم تتمكن فيه، حتى يأتي وعد الله بحضور موته، فقد يتداركه اللطف والرعاية، وقد يتسع الخرق عليه فيموت على الشك، والعياذ بالله. بخلاف من صَحِبَ أهل الطمأنينة واليقين، لا يموت إلا على اليقين؛ لأن همة الشيوخ قد حلّقَتْ عليه، والعناية قد حفت به. والله ولي المتقين.

قال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه: (والله لا يكون الشيخ شيخًا حتى تكون يده مع الفقير أينما ذهب)، والمراد باليد: الهمة والحفظ. ووقت الموت أولى بالحضور، وقد شاهدنا ذلك من إخواننا ممن حضره الموت منهم، أخبر أنه يرى شيخه حاضراً معه. فلله الحمة والمنة.

ثم سلّى رسول الله ﷺ من إذاية قومه، فقال:

﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله، في تسلية رسوله ﷺ: ﴿ **ولقد استهزئ برسل من قبلك** ﴾ فأوذوا وأهينوا، ﴿ **فأمليتُ للذين كفروا** ﴾: أمهلتهم في دعة ورغد عيش، مدة من الزمان، ﴿ **ثم أخذتهم** ﴾ بالهلاك والاستئصال، ﴿ **فكيف كان عقاب** ﴾ ؟ أي: عقابي إياهم، وهو تهويل لما نزل بهم، وتخويف لغيرهم من المستهزئين بالرسول ﷺ والمقترحين عليه الآيات.

الإشارة: الاستهزاء بأهل الخصوصية في بدايتهم سُنة ماضية، ويتسلون بمن سلف من خصوص الأنبياء والأولياء. وماهدد به الكفار يهدد به أهل الإنكار. وبالله التوفيق.

ثم وبخهم على الشرك وأوعدهم عليه، فقال:

﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۗ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ۚ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَـٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ ۗ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَقُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾ ﴾

(١) من الآية ١١٨ من سورة هود.

قلت : ﴿أفمن﴾ مع صلته: مبتـدأ ، والخبر محذوف، أي: أفمن هو رقيب على كل شيء أحق أن يعبد أم غيره. أو كمن ليس كذلك؟!.

يقول الحق جـل جـلاله : ﴿ أَفَمَنْ هو قائمٌ على كل نَفْس ﴾؛ أي: حـفيظ رقيب على عـمل كل نفس ﴿ بما كسبتْ ﴾ من خير أو شر، لا يخفى عليه شيء من أعمالهم، ولا يفوت عنده شيء من جزائهم، أحق أن يُعبد أم غيره؟. أو كمن ليس كذلك ممن هو جماد لا يسمع، ولا يعقل!!. ﴿ وجعلوا لله شركاءَ ﴾ بعد هذا البيان التام، ﴿ قل ﴾ لهم: ﴿ سَمُّوهُم ﴾ أي: اذكروا أسماءهم، فلا تجدون إلا أسـماء إناث؛ كـالـلات والعزى ومنـاة، أو أسماء أحجار وخشب؛ فبأي وجه تستحق أن تعبد، وتشرك مع الله في ألوهيته؟.

﴿ أم تُنبئُونَه بما لا يعلمُ في الأرضِ ﴾ ؛ بل أتخبرونه بما لا يعلم وجوده في الأرض، وهذا تهكم بهم، كأنهم علموا استحقاق الأصنام العبادة، ولم يعلمها الحق تعالى، وهو محال. والمعنى: أن الله لا يعلم لنفسه شركاء وإذا لم يعلمهم فليسوا بشيء، فكيف تفترون الكذب في عبادتهم؟ ﴿ أم ﴾ تسمونهم شركاء، ﴿ بظاهرٍ من القولِ ﴾، من غير حقيقةٍ واعتبار معنى، كتسمية الخبث مسكاً، والبول عطراً.

﴿ بل زُيِّن للذين كفروا مكرُهُم ﴾ أي: انخداعهم وغرورهم حتى توهموا الباطل حقًا، أو مكرهم بالإسلام وكيدهم لأهله، ﴿ وصدُّوا[1] عن السبيل ﴾ أي: وصدوا الناس عن طريق الحق، حيث منعوهم من الإسلام. ومن قرأ بضم الصاد مبنياً للمفعول فمعناه: صدَّهُم الشيطانُ عن طريق الحق وضلوا عنه. ﴿ ومن يُضلل اللهُ فما له من هادٍ ﴾ أي: من يخذله الله فليس له من يوفقه غيره. ﴿ لهم عذابٌ في الحياة الدنيا ﴾ بالقتل والأسر، وسائر ما يصيبهم من المصائب، ﴿ ولعذابُ الآخرة أشقُّ ﴾ ؛ لشدته ودوامه، ﴿ ومالهم من الله ﴾ أي: من عذابه ﴿ من وَاقٍ ﴾ يقيهم ويعصمهم منه.

الإشارة : كل من تحقق أن الله قائم عليه استحيا منه أن يُسيء الأدب بين يديه، يقول الله تعالى في بعض الأخبار: «إن كنتم تعتقدون أني لا أراكم، فالخلل في إيمانكم، وإن كنتم تعتقدون أني أراكم فَلِمَ جعلتموني أهون الناظرين إليكم؟». وكل من وقف مع الأسباب واعتمد عليها، أو طمع في الخلق وركن إليهم، فقد جعل لله شركاء، فيقال له: سمِّ هؤلاء تجدهم خلقاً عاجزين، لا قدرة لهم على شيء، ولا ينفعوك بشيء إلا ما قَسَم الله لك في الأزل. بل زين لضعفاء اليقين مكرهم، حتى انخدعوا وافتتنوا برؤية الأسباب، أي: كفروا كفراً دون كفر؛ بأن شكّوا في

(١) قرأ عاصم وحمزة والكسائي، بضم الصاد، على البناء للمفعول، وقرأ الباقون بالفتح على البناء للفاعل.. انظر الإتحاف (٢/١٦٢).

الرزق، والشكُّ فى الرزق شكٌ فى الرزّاق، وصدوا عن طريق اليقين، والغنى برب العالمين، لهم عذاب فى الحياة الدنيا بالذل والحرص والحرمان.

قال بعض العارفين: لو قيل للطمع: من أبوك؟ لقال: الشك في المقدور، ولو قيل له: ما حرفتك؟ لقال: الذل والهوان، ولو قيل له: ما غايتك؟ لقال: الحرمان. وفى الحِكَم: «ما بَسَقَتْ أغصانُ ذُلٍّ إلاَّ عَلَى بَذْرِ طَمَعٍ». وقال الشاعر:

العَبْـدُ حرٌّ ما قَنـعْ والحرُّ عَبْدٌ ما طَمَعْ

ولعذاب الآخرة أشق؛ حيث يسقط بضعف يقينه عن درجة المقربين على سبيل الدوام، وما لهم من الله من واق يقيهم من غم الحجاب، وعدم اللحوق بالأحباب الذين ترقوا إلى القرب من الحبيب. والله تعالى أعلم.

ثم وصف الجنة؛ تشويقاً وترغيباً فى سلوك طريقها وهو الإيمان، فقال:

﴿ ۞ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾ ﴾

قلت: ﴿مثل الجنة﴾: مبتدأ. قال سيبويه: الخبر محذوف، أى: فيما يتلى عليكم صفة الجنة. وقال الفراء: الخبر هو: ﴿تجرى...﴾ إلخ، وعلى قول سيبويه يكون ﴿تجرى﴾: حالاً من العائد المحذوف، أى: التى وُعدها المتقون حَالَ كَوْنِهَا تجرى... إلخ. والمراد بالمثل هنا: الصفة، لا ضرب المثل. و ﴿ظِلُّها﴾: مبتدأ حُذِف خبره، وظلها كذلك. والأُكُل بضم الهمزة: المأكول، ويجوز فيه ضم الكاف وإسكانها، وأما الأكل بالفتح فمصدر.

يقول الحق جل جلاله: صفة الجنة التى وُعدَها المتقون هى غرف وقصور ﴿تجري من تحتها الأنهارُ﴾ من ماء وخمر وعسل ولبن، ﴿أُكُلُهَا دائمٌ﴾؛ ما يؤكل من ثمارها وأنواع أطعمتها لا ينقطع، ﴿وظِلُّها﴾ دائم، لا يُنسخ بالشمس كظلال الدنيا، ﴿تلك﴾ الجنة الموصوفة بهذه الأوصاف هى ﴿عُقْبَى الذين اتقوا﴾ الشرك والمعاصى، هى مآلهم وعاقبة استقرارهم، ﴿وعُقْبَى الكافرين النار﴾ لا محيد عنها، هى مآلهم وإليها رجوعهم. وفى ترتيب العقبيين إطماع للمتقين، وإقناط للكافرين.

الإشارة: مثل جنة المعارف التى وعدها المتقون لكل ما يشغل عن الله هى حضرة مقدسة، يتنعم فيها أسرار العارفين، تجرى من تحت قلوبهم أنهار العلوم والحكم، لذتها وقُوت الأرواح فيها دائم، وهى الفكرة فى ميادين أنوار

التوحيد، وجولان الروح فى فضاء أسرار التفريد. وظل روحها وريحانها دائم، وهو: سكون القلب إلى الله، وفرح الروح بشهود الله. وإليه أشار ابن الفارض بقوله، رحمه الله، فى وصف خمرتها:

وإنْ خَطَرَتْ يوماً على خاطِرِامرئ   أقامتْ بهِ الأفراحُ وارْتَحلَ الْهَمّ

تلك عقبى الذين اتقوا السّوى، وعقبى المنكرين لوجود أهل هذه الجنة نار القطيعة والبعد. أعاذنا الله من ذلك.

ثم ذكر حال الفريقين: أهل الفرح بالله، وأهل الإنكار على أحباء الله، فقال:

﴿ وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ إِلَيْهِ أَدْعُوا۟ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ (٣٦) وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ (٣٧) ﴾

قلت: ﴿حُكْمًا﴾: حال من ضمير ﴿أنزلناه﴾.

يقول الحق جل جلاله، فى حق من سبقت له السعادة: ﴿ والذين آتيناهم الكتاب ﴾؛ كعبد الله بن سلام ومخيريق وأصحابهما، ومن أسلم من النصارى، وهم: ثمانون رجلا: أربعون بنجران، وثمانية باليمن، واثنان وثلاثون من الحبشة. أو: كل من آمن من أهل الكتاب، فإنهم كانوا ﴿ يفرحون ﴾ بما يوافق كتبهم. ثم ذكر ضدهم فقال: ﴿ ومن الأحزاب من يُنكرُ بعضَه ﴾ أى: ومن كَفَرَتهِمْ الذين تحزبوا على رسول الله ﷺ بالعداوة والشحناء؛ ككعب بن الأشرف وأصحابه من اليهود، والعاقب والسيد وأشياعهما من النصارى، ﴿ من يُنكر بعضه ﴾، وهو مايخالف شرائعهم التى نُسخت به، أو ما يوافق ما حرّفوا منها.

﴿ قل إنما أُمِرتُ أن أعبدَ اللهَ ولا أُشركَ به ﴾، وهو جواب للمنكرين، أى: قل لهم: إنما أمرت فيما أنزل إلىّ أن أعبد الله وأوحده، وهو العمدة فى الأديان كلها، فلا سبيل لكم إلى إنكاره. وأما إنكاركم ما يخالف شرائعكم فليس ببدع مخالفة الشرائع والكتب الإلهية فى جزئيات الأحكام؛ لأنها تابعة للمصالح والعوائد، وتتجدد بتجددها. ﴿ إليه أدعو ﴾ لا إلى غيره، ﴿ وإليه مآب ﴾ أى: وإليه مرجعى بالبعث لا إلى غيره. وهذا هو القدْر المتفق عليه من الشرائع، وهو الأمر بعبادة الله وحده، والدعاء إليه، واعتقاد المآب إليه، وهو الرجوع بالبعث يوم القيامة؛ فلا يخالف ما قبله من الشرائع، فلا معنى للإنكار حينئذ.

﴿ وكذلك أنزلناه ﴾ أي: ومثل هذا الإنزال المشتمل على أصول الدين المجمع عليها، ﴿ أنزلناه حُكْماً عربياً ﴾ أي: يحكم في القضايا والوقائع، بما تقتضيه الحكمة، مترجماً بلسان العرب؛ ليسهل عليهم فهمه وحفظه. ﴿ ولئن اتبعتَ أهواءَهُم ﴾ التي يدعونك إليها؛ كتقرير دينهم، والصلاة إلى قبلتهم بعدما حُوِّلْتَ عنها، ﴿ بعد ما جاءكَ من العِلم ﴾ بنسخ ذلك، ﴿ مالك من اللهِ منَ وليَّ ﴾ ينصرك، ﴿ ولاواق ﴾ يقيك عتابه. وهو حسم لأطماعهم، وتهييج للمؤمنين على الثبات في دينهم. وبالله التوفيق.

الإشارة: الفرح بما أُنزل من عند الله هو مقدمات الفرح بالله، فإذا رفعت أكنة الغفلة عن القلب تلذذ بسماع الخطاب من وراء الباب، وذلك أمارة القرب. وهذا مقام أهل المراقبة من المحبين. فإذا جدَّ في السير رُفعت عنه الحجب والأستار، وواجهته الأنوار والأسرار، فيكاشف بأسرار الذات وأنوار الصفات، فيتلذذ بشهود المتكلم، فيسمع حينئذ الكلام من المتكلم به بلا واسطة. وهذا مقام أهل الشهود من المحبين المقربين. (ومن الأحزاب)، وهم أهل الرئاسة والجاه، من ينكر وجود بعض هذه المقامات؛ تعصباً وحمية. أو ينسبها لنفسه غلطاً وجهلا، فيقول له من تحقق بهذا المقام: إنما أمرتُ أن أعبد الله ولا أشرك به، إليه أدعو وإليه مآب. ويغيب عنه بالاشتغال بالله، وبالدعاء إليه. فإن غفل واشتغل به، أو ركن إلى قوله، قيل له: ولئن اتبعت أهواءهم بعد ما جاءك من العلم؛ مالك من الله من وليٍّ ولا واق.

ولما قالت اليهود ـ لعنهم الله ـ لو كان محمد رسولاً لما أُولع بالنساء، ردَّ الله عليهم بقوله:

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ولقد أرسلنا رُسُلاً من قَبلكَ ﴾ يامحمد، ﴿ وجعلنا لهم أزواجاً ﴾ كثيرة: كداود عليه السلام؛ كان له مائة امرأة، وابنه كان له ألف، على ما قيل، وغيرهما من الأنبياء والرسل. ﴿ و ﴾ جعلنا لهم منهن ﴿ ذُريةً ﴾، وأنت يامحمد منهم؛ فليس ببدع أن يكون الرسول بشراً، يتزوج النساء، ويحتاج إلى ما يحتاج إليه البشر، إلا أنه لا يشغله ذلك عن أداء الرسالة، ونصيحةِ الأمة، وإظهارِ شريعة الدين، والقيام بحقوق رب العالمين. ولما أجابهم بشبهتهم قالوا: أظهر لنا معجزة كما كانت لهم، كالعصا وفلق البحر، وإحياء الموتى؟ فأنزل الله ﴿ وما كان لرسول ﴾؛ ما صح له ولم يكن في وسعه ﴿ أن يأتي بآية ﴾ تُقترح عليه، ويظهرها ﴿ إلا بإذنِ الله ﴾ وإرادته؛ فإنه القادر على ذلك. ﴿ لكل أجل ﴾ من آجال بني آدم وغيرهم، ﴿كتاب﴾ يُكتب فيه وقت موته، وانتقاله من الدنيا.

﴿ يمحو الله مايشاء ﴾ من ديوان الأحياء، فيكتب في الأموات، ﴿ ويُثبتُ ﴾ من لا يموت. قيل: إن هذا الكتاب يُكتب ليلة القدر، أو ليلة النصف من شعبان، ويجمع بينهما بأن الكتابة تقع ليلة النصف، وإبرازه للملائكة ليلة القدر ، ﴿ وعنده أمُّ الكتاب ﴾ أي: الأصل المنسوخ منه كتب الآجال، وهو اللوح المحفوظ، أو العلم القديم. وهذا التفسير يناسب اقتراح الآيات؛ لأنهم إذا أجيبوا بظهور الآية ولم يؤمنوا، عوجلوا بالهلاك، وذلك له كتاب محدود. قال الورتجبي: بيّن الحق ـ سبحانه ـ أن أوان إتيان الآية بأجل معلوم في وقت معروف، بقوله: ﴿لكل أجل كتاب﴾ أي: لكل مقدور في الأزل في قضية مرادة وقت معلوم في علم الله، لا يأتي إلا في وقته هـ.

أو: ﴿ لكل أجل ﴾ أي: عصر وزمان ، ﴿ كتاب ﴾ فيه شريعة مخصوصة على ما يقتضيه استصلاحهم. ﴿ يمحو الله مايشاء ﴾: ينسخ ما يستصوب نسخه من الشرائع، ﴿ ويُثبت ﴾ ما تقتضي الحكمة عدم نسخه. ﴿ وعنده أم الكتاب ﴾ وهو: اللوح المحفوظ؛ فإنه جامع للكائنات. وهذا يترتب على قوله: ﴿ ومن الأحزاب من ينكر بعضه ﴾، وهو ما لا يوافق شريعتهم. قال سيدي عبد الرحمن الفاسي: ﴿ يمحو الله ما يشاء ﴾ مايستصوب نسخه، ﴿ ويُثبت ﴾ ما تقتضيه حكمته، فلا ينكر مخالفته للشرائع في بعض الأحكام مع موافقته للحكم، وهو الأصول الثابتة في أصول الشرائع، ولذا قال: ﴿ وعنده أمُّ الكتاب ﴾ أي: لا يبدل. هـ. وقريب منه للبيضاوي.

وقيل: إن المحو والإثبات عام في جميع الأشياء. قال ابن جزي: وهذا ترده القاعدة المتقررة بأن القضاء والقدر لا يتبدل، وعلم الله لا يتغير. هـ. **قلت** : أما القضاء المبرم وهو: علم الله القديم الذي استأثر الله به، فلا شك أنه لا يتبدل ولا يتغير، وأما القضاء الذي يبرز إلى علم الخلائق من الملائكة وغيرهم، فيقع فيه المحو والإثبات، وذلك أن الحق تعالى قد يُطلعهم على بعض الأقضية، وهي عنده متوقفة على أسباب وشروط، يخفيها عنهم بقهريته، ليظهر اختصاصه بالعلم الحقيقي، فإذا أراد الملائكة أن ينفذوا ذلك الأمر محاه الله تعالى، وأثبت ما عنده في علم غيبه، وهو أمّ الكتاب، حتى قال بعضهم: إن اللوح الحفوظ له جهتان: جهة تلي عالَم الغيب، وفيه القضاء المبرم، وجهة تلي عالَم الشهادة، وفيه القضاء الذي يُرد ويُمْحى؛ لأنه قد تكتب فيه أمور، وهي متوقفة على شروط وأسباب في علم الغيب، لم تظهر في هذه الجهة التي تلي عالَم الشهادة، فيقع فيها المحو والإثبات، وبهذا يندفع إشكالات كقوله في الحديث: «لا يَرُدُّ القَضَاءَ إلا الدُّعَاءُ، وصلة الرحم تزيد في العُمُر»(١).

(١) أخرجه بنحوه الترمذي، في (كتاب القدر، باب: ما جاء لا يرد القدر إلا الدعاء)، من حيث سلمان . وأخرج البخاري في (الأدب باب، من بسط له في الرزق) من حديث أبي هريرة قال ﷺ: «من سره أن يبسط له في رزقه وأن ينسأ له في أثره، فليصل رحمه» .

وقول ابن مسعود، وعمر - رضى الله عنهما -: اللهم إن كنت كتبتنا فى ديوان الشقاء فامحنا، واكتبنا فى ديوان السعادة، فإنك تمحو ماتشاء وتثبت. هـ. أى: إن كنت أظهرت شقاوتنا فامحها، وأظهر سعادتنا؛ فإنك تمحو ماتشاء. . إلخ. وفى ابن عطية ما يشير إلى هذا، قال: وأصوب ما يفسر به أم الكتاب، أنه كتاب الأمور المجزومة التى سبق القضاء فيها بما هو كائن، وسبق ألا تبدل، ويبقى المحو والتثبيت فى الأمور التى سبق فى القضاء أن تبدل وتُمحى وتثبت. قال نحوه قتادة . هـ.

الإشارة: قوله تعالى: ﴿ولقد أرسلنا رسلا من قبلك...﴾ الآية، قد أثبت تعالى لأهل خصوصية النبوة والرسالة الأزواج والذرية، وكان ذلك كمالاً فى حقهم. وكذلك أهل خصوصية الولاية، تكون لهم أزواج وذرية، ولا يقدح فى مرتبتهم، بل يزيد فيها، وذلك بشرط أن يقع ذلك بعد التمكين، أو يكون فى صحبة شيخ عارف كامل عند أمره ونهيه، يكون فعل ذلك بإذنه، فإذا كان هذا الشرط فإن التزوج يزيد صاحبه تمكيناً من اليقين.

قال الورتجبى فى هذه الآية: أَعْلَمَ تَعالى، بهذه الآية، الجُهَّال أنه إذا شَرَّف ولياً أو صِدِّيقًا بولايته ومعرفته لم يَضُرُّ به مباشرة أحكام البشرية من الأهل والولد، ولم يكن بسْط الدنيا له قدحاً فى ولايته . هـ.

وقال الغزالى فى الإحياء، فى الترغيب فى النكاح: قال تعالى فى وصف الرسل ومَدْحِهم: ﴿ ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجاً وذُرية ﴾، فذكر ذلك فى معرض الامتنان وإظهار الفضل، ومَدح أولياءه بسؤال ذلك فى الدعاء، فقال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ ﴾[1] الآية، ويقال: إن الله تعالى لم يذكر فى كتابه من الأنبياء إلا المتأهلين. وقالوا: إن يحيى عليه السلام قد تزوج فلم يجامع. قيل: إنما فعل ذلك لنيل الفضل وإقامة السُّنة، وقيل: لغض البصر. وأما عيسى عليه السلام فإنه سينكح إذا نزل الأرض، ويولَد له.

وأما الأخبار فقوله ﷺ : «النِّكَاحُ سُنَّتِى، فَمَنْ أَحَبَّ فِطْرَتِى فَلْيَسْتَنَّ بِسُنَّتِى». وقال أيضا ﷺ : «تَنَاكَحُوا تَكَاثَرُوا؛ فإنِّى أُبَاهِى بِكُم الأمم يَوْمَ القِيامَة، حتَّى السِّقْطُ». وقال أيضا: «مَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِى فَلَيْسَ مِنِّى، وإنَّ مِنْ سُنَّتِى النِّكَاح، فَمَنْ أَحَبَّنِى فَلْيَسْتَنَّ بِسُنَّتِى». وقال ﷺ: «مَنْ تَرَكَ التَّزَوُّج مَخَافَةَ العَيْلَة فَلَيْسَ مِنَّا». وقال ﷺ: «مَنْ نَكَحَ لله وأَنْكَحَ لله اسْتَحَقَّ وِلايَةَ الله».

---

(١) من الآية ٧٤ من سورة الفرقان.

ثم قال[١]: وقال ابن عباس لابنه: لا يتم نسك الناسك حتى يتزوج. وكان ابن مسعود يقول: لو لم يبق من عمرى إلا عشرة أيام لأحببت أن أتزوج، لا ألقى الله عَزَباً. وكان معاذ رضي الله عنه مطعوناً وهو يقول: زوجونى، لا ألقى الله عزباً. وكان ماتت له زوجتان بالطاعون. وكان عُمَرُ يكثر النكاح، ويقول: لا أتزوج إلا للولد. وكان لعليّ رضي الله عنه أربع نسوة، وسبع عشرة سرية، وهو أزهد الصحابة. فدل أن تزوج النساء لا يدل على الرغبة فى الدنيا.

قال سفيان: كثرة النساء ليس من الدنيا. واستدل بقضية عليّ رضي الله عنه قال: وكان أزهد الصحابة. ورُوى أن بشر الحافى رُئِىَ فى المنام، فقيل له: ما فعل الله بك؟ فقال: رفعت إلى منازلى فى الجنة فأشرفت على مقامات الأنبياء، ولم أبلغ منازل المتأهلين. وفى رواية: قال لى: ما كنت أحب أن تلقانى عَزَباً، قال الرائى: فقلت له: ما فعل أبو نصير التمار؟ قال: رُفع فوقى بسبعين درجة؛ بصبره على بُنياته وعياله. وقد قيل: فضل المتأهل على العزب كفضل المجاهد على القاعد، وركعةٌ مِنْ متأهل أفضل من سبعين ركعة من عزب. هـ. كلام الغزالى باختصار.

وقوله تعالى: ﴿يمحو الله ما يشاء ويُثبت﴾، من جملة ما يقع فيه المحو والإثبات الواردات الإلهية التى ترد على القلوب من تجليات الغيوب؛ فإن القلب إذا تطهر من الأكدار، وصفا من الأغيار، كان كل ما يتجلى فيه من الغيوب فهو حق، إلا أنه ينسخ بعضها بعضًا؛ فقد يخبر الولى بأمر يكون، أو لا يكون على حسب ما تجلى فى قلبه، ثم يمحو الله ذلك، ويثبت فى قلبه خلافه. أو يظهر فى الوجود خلاف ما أخبر، وليس بكذب فى حقه، ولكن الحق تعالى يُظهر لخلقه أموراً من مقدوراته، متوقفًا وجودُها على أسبابٍ وشروطٍ أخفاها الحق تعالى عن خلقه، ليظهر عجزهم عن إحاطة علمه. فالنسخ إنما يقع فى فعله لا فى أصل علمه.

قال الأستاذ القشيرى: المشيئة لا تتعلق إلا بالحدوث، والمحو والإثبات لا يكون إلا من أوصاف الحدوث، فصفات ذات الحق ـ سبحانه ـ؛ من كلامه وعلمه، لا يدخل تحت المحو والإثبات، إنما يكون المحو والإثبات من صفات فعله. هـ. وقال سهل رضي الله عنه: ﴿يمحو الله ما يشاء ويثبت﴾ الأسباب، ﴿وعنده أُمُّ الكتاب﴾؛ القضاء المبرم . هـ.

وقال شيخ شيوخنا، سيدى عبد الرحمن الفاسى: ﴿وعنده أم الكتاب﴾: العلم الأول الثابت الذى لا يطرأ عليه تغيير ولا تبديل، ولا يقبل النسخ والتحريف. ومطالعته: بالفناء عن الحقيقة الخَلْقِية، والبقاء بالأنوار الصمدانية، والأنفاس الرحمانية. قال فى القوت: والمحبة من أشرف المقامات، ليس فوقها إلا مقام الخُلة، وهو مقام فى المعرفة الخاصة، وهى: تخلل أسرار الغيب، فيطلع على مشاهدة المحبوب، بأن يعطى إحاطة بشيء من علمه بمشيئته، على مشيئته

(١) أى: الإمام الغزالى، رحمه الله تعالى.

التى لا تتقلب، وعلمه القديم الذى لا يتغير. وفى هذا المقام: الإشراف على بحار الغيوب، وسرائر ما كان فى القديم، وعواقب ما يدب. ومنه: مكاشفة العبد بحاله، وإشهاده من المحبة مقامه، والإشراف على مقامات العباد فى المآل، والاطلاع عليهم فى تقلبهم فى الأبد؛ حالا ومآلا . هـ.

قلت: هذا الاطلاع إنما هو إجمالي لا تفصيلي، وقد يقع فيه المحو والإثبات؛ لأنه من جملة المعلومات التى دخلت عالم التكوين، التى يقع فيها التبديل والتغيير.

ثم قال صاحب القوت: وقد قال أحسن القائلين : ﴿ **ولا يُحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء** ﴾[1]، والاستثناء واقع على إعطاء الإحاطة بشيء من شهادة علمه، بنورٍ ثاقبٍ من وصفه، وشعاع لائحٍ من سبحانه، إذا شاء، وذلك إذا أخرجت النفس من الروح، فكان روحانياً، خُروجَ الليلِ من النهار. هـ.

ثم تمّم الجواب عن اقتراحهم الآيات، فقال:

﴿ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤١﴾ وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا ۖ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٤٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾ ﴾

قلت : ﴿وإما﴾: شرطية، اتصلت ما الزائدة بأن الشرطية؛ للتأكيد، والجواب: ﴿فإنما ...﴾ إلخ، أو: فلا تحتفل فإنما... الخ، و﴿لا معقب﴾ : فى موضع الحال، أى: يحكم نافذاً حكمه، كقوله: جاء زيد لا سلاح معه، أى: حاسراً. و﴿من عنده﴾: عطف على ﴿بالله﴾.

يقول الحق جل جلاله لنبيه ﷺ؛ تسكيناً له: ﴿ **وإما نُرينَّكَ بعضَ الذى نَعدُهم** ﴾ من العذاب الذى استعجلوه، ﴿ **أو نَتوفَّينك** ﴾ قبل أن ترى ذلك، فلا تحتفل بشأنهم، ﴿ **فإنما عليك البلاغُ** ﴾ للرسالة لا غير، ﴿ **وعلينا الحسابُ** ﴾ : المجازاة. والمعنى: كيفما دار الحال دُرْ معه، أريناك بعض ما أوعدناهم فى حياتك، أو توفيناك قبله، فلا تهتم بإعراضهم، ولا تستعجل بعذابهم؛ فإنا فاعلون ذلك لا محالة، وهذا طلائعه، فقد فتحنا عليك كثيراً من بلادهم ونقصناها عليهم.

---

(١) من الآية: ٢٥٥ من سورة البقرة.

﴿أوَ لم يروا أنا نأتى الأرضَ﴾ أى: أرض الكفرة، ﴿ننقُصُها من أطرافها﴾ بما نفتحه على المسلمين منها، فيخافوا أن نُمَكِّنك من أرضهم، وتنزل بساحتهم، منصوراً عليهم، فإذا نزلتَ بساحتهم، ولم يخضعوا لك، فساء صباح المنذرين. وقيل: الأرض جنس، ونقصها بموت الناس، وهلاك الثمرات، وخراب البلاد، وشبه ذلك. وذلك مقدمات العذاب الذى حَكَمَ به عليهم، ﴿والله يحكُمُ لا مُعقبَ لحُكْمِه﴾: لا راد له. والمعقب: الذى يعقب الشىء بالإبطال، ومنه قيل لصاحب الدَّيْن: معقب؛ لأنه يعقب غريمه للاقتضاء، والمعنى: أنه حكم للإسلام بالإقبال، وعلى الكفرة بالإدبار، وذلك كائن لا يمكن تغييره. ﴿وهو سريعُ الحساب﴾ فيحاسبهم عما قليل فى الآخرة، بعدما عذّبهم بالقتل والإجلاء فى الدنيا.

﴿وقد مكَرَ الذين من قَبلهم﴾ بأنبيائهم، وبمن تبعهم، ﴿فلله المكر جميعاً﴾، إذ لا يُؤبه بمكرٍ دون مكره، فإنه القادر على ما هو المقصود منه دون غيره. سمَّى العقوبة باسم الذنب؛ للمشاكلة، ﴿يعلم ما تكسب كل نفس﴾ فينفذ جزاءها. ﴿وسيعلم الكافر﴾(١) أى: جنس الكافر، بدليل قراءة: «الكفار»، ﴿لِمَنْ﴾ هى ﴿عُقْبى الدار﴾ أى: لمن تكون العاقبة فى الدارين، دار الفناء ودار البقاء، هل لأهل الإسلام المعد لهم دار السلام؟ أو للكفار المعد لهم دار البوار؟ قال البيضاوى: وهذا كالتفسير لمكر الله بهم، واللام تدل على أن المراد بالعُقبى العاقبة المحمودة، مع ما فى الإضافة إلى الدار كما عرفت. هـ.

﴿ويقول الذين كفروا﴾ من رؤساء اليهود: ﴿لستَ مرسلاً﴾، ولم نجد لك ذكراً فى كتابنا، ولا ما يشهد لك عندنا. قال تعالى: ﴿قل﴾ لهم: ﴿كفى بالله شهيداً بينى وبينكم﴾؛ فإنه أظهرَ من الأدلة على رسالتى مايغنى عن شاهد يشهد عليها منكم، ولا من غيركم. ﴿و﴾ يشهد لى أيضا: ﴿مَنْ عنده علمُ الكتاب﴾ الأول؛ العلم الحقيقى، كعبد الله بن سلام، ومن أسلم من اليهود والنصارى الذين علموا صفته ﷺ من التوراة والإنجيل، وعلماء المؤمنين الذين عندهم علم القرآن، وما احتوى عليه من النظم المعجز، والعلوم الغيبية الدالة على نبوته ﷺ. أو علم اللوح المحفوظ، وهو الله، أى: كفى بالله الذى لا يستحق العبادة غيره، وبمن لا يعلم ما فى اللوح المحفوظ إلا هو، شهيدا بيننا. ويؤيده قراءة من قرأ: «ومِنْ عِنْدِه»؛ بكسر الميم. وعلم الكتاب، على الأول: مرفوع بالظرف؛ فإنه معتمد على الموصول. ويجوز أن يكون مبتدأ، والظرف خبره. وهو متعين على الثانى. قاله البيضاوى.

الإشارة: قد قال تعالى فى الحديث القدسى: «مَنْ آذَى لِى وَلِيًا فَقَدْ آذَنَ بِالْحَرْبِ». وجرت عادة الله تعالى أن ينتقم لأوليائه، ويغار عليهم، ولو بعد حين، فإذا أُوذى أحدهم، واستعجل ذلك يقول له الحق تعالى ما قال لنبيه ﷺ: ﴿فإما نرينك بعض الذى نعدهم أو نتوفينك﴾ قبل ذلك، فليس الأمر بيدك، فإنما عليك بلاغ ما جاء به

---

(١) قرأ ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائى «الكفار» جمع تكسير. وقرأ الباقون. (الكافر) على الإفراد... انظر الإتحاف (٢/١٦٣).

نبيك؛ من نصح العباد، وإرشادهم إلى معالم دينهم، وتصفية بواطنهم، وعلينا الحساب؛ فنُجازى مَنْ أَقْبَلَ ومَنْ أَدْبَرَ. ومن جملة الانتقام: حَبْسُ الأمطار، ونقص الثمار، وتخريب البلاد، وكثرة موت العباد، فتنقص الأرض من أطرافها. أفلم يعتبروا بذلك، ويقصروا عن مكرهم بأولياء الله؟.

وقد مكر الذين من قبلهم بأولياء زمانهم، فلم يغنوا شيئًا، فمَكَرَ الله بهم، وخذلهم عن طاعته، وسيعلم أهل الإنكار لِمن تكون عاقبة الدار. ويقول الذين كفروا بخصوصية ولىّ من أولياء الله: لست ولياً . فيقول لهم: كفى بالله شهيداً بينى وبينكم، ومن عنده علم الخصوصية، وهم: السادات الصوفية، فلا يعرف الولىّ إلا ولىٌّ مثله، ولا يعرف أهلَ الخصوصية إلا مَنْ له الخصوصية. وبالله التوفيق. وهو الهادى إلى سواء الطريق.

* * *

سورة إبراهيم

مكية. وهى إحدى وخمسون آية. ومناسبتها لما قبلها: قوله: ﴿قل كفى بالله شهيدا﴾[1]، مع قوله: ﴿كتاب أنزلناه﴾؛ فإنه تصريح بالشهادة له. أو: ﴿ومن عنده علم الكتاب﴾، على تفسيره بالقرآن، مع قوله: ﴿كتاب أنزلناه إليك﴾.

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم الٓر ... ﴾

الألف: آلاؤه، واللام: لطفه، والراء: رحمته. فكأنه يقول: بآلائنا ولطفنا ورحمتنا أنزلنا إليك كتابنا، ولذلك رتّب عليه قوله:

﴿ ... كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٣﴾ ﴾

قلت: (كتاب): خبر، أى: هذا كتاب، و (بإذن): متعلق بتخرج، أو حال من فاعله، أو مفعوله. و(إلى صراط): بدل من (النور). (الله الذى)؛ من رفعه فعلى الابتداء، والموصول خبره، أو خبر عن محذوف، ومن خفضه فبدل من (العزيز)، و(الذين يستحبون): صفة للكافرين أو نصب، أو رفع على الذم.

يقول الحق جل جلاله: أيها الرسول المحبوب، هذا ﴿كتابٌ أنزلناه إليك لتُخرج الناس﴾ بدعائك إياهم إلى العمل به، ﴿من الظلمات إلى النورِ﴾؛ من ظلمات الضلال والجهل إلى نور الهداية والعلم، ﴿بإذنِ ربهم﴾؛ بتوفيقه وهدايته وتسهيله، ﴿إلى صراط العزيز الحميد﴾ أى: لتخرجهم إلى نور العلم الذى هو سلوك طريق العزيز الحميد، التى توصل إلى رضوانه ومعرفته. وفى ذكر الوصفين إشارة إلى أنه لا يذل سالكه، ولا يخيب سائله، بل تحمد عاقبته.

ثم ذكر الموصوف بهما بقوله: ﴿اللهِ الذى له ما فى السموات وما فى الأرض﴾ أى: الموصوف بالعزة والحمد هو الله الذى استقر له ما فى السموات وما فى الأرض ملكاً وعبيداً. ثم ذكر وعيد من كفر بكتابه أو به،

---

(١) من الآية ٤٣ سورة الرعد.

فقال: ﴿ ووَيلٌ للكافرين ﴾ بكتابه، ولم يخرجوا به من ظلمات كفرهم، ﴿ من عذابٍ شديد ﴾، والويل: كلمة عذاب تقال لمن استحق الهلاك، أي: هلاك لهم من أجل عذاب شديد يلحقهم. وقيل: واد في جهنم.

ثم ذكر وجه استحقاقهم العذاب بقوله: ﴿ الذين يستحبون الحياةَ الدنيا ﴾؛ يختارونها ﴿ على الآخرةِ ﴾، فإنَّ من أحب شيئاً اختاره وطلبه، ﴿ ويصُدُّون ﴾ الناس ﴿ عن سبيل الله ﴾؛ بتعويقهم عن الإيمان، ﴿ ويبغونها عوجاً ﴾ أي: ويبغون لها زيغاً، ونُكُوباً عن الحق، ليتوصلوا للقدح فيها، فحذف الجار وأوصل الفعل إلى الضمير، ﴿ أولئك في ضلال بعيد ﴾ أي: في تلف بعيد عن الحق، بحيث ضلوا عن الحق، وبعدوا عنه بمراحل. والبُعد في الحقيقة: للضال، ووُصف به فعله؛ للمبالغة.

الإشارة: قد أخرج ﷺ أمته من ظلمات عديدة إلى أنوار متعددة، أولها: ظلمة الكفر والشرك إلى نور الإيمان والإسلام، ثم من ظلمة الجهل والتقليد إلى نور العلم والتحقيق، ثم من ظلمة الذنوب والمعاصي إلى نور التوبة والاستقامة، ثم من ظلمة الغفلة والبطالة إلى نور اليقظة والمجاهدة، ثم من ظلمة الحظوظ والشهوات إلى نور الزهد والعفة، ثم من ظلمة رؤية الأسباب، والوقوف مع العوائد، إلى نور شهود المسبب، وخرق العوائد، ثم من ظلمة الوقوف مع الكرامات وحلاوة الطاعات إلى نور شهود المعبود، ثم من ظلمة الوقوف مع حس الأكوان الظاهرة إلى شهود أسرار المعاني الباطنة، فيغيب عن الأكوان بشهود المكون. وهذا آخر ظلمة تبقى في النفس، فتصير حينئذ روحاً، وسراً من أسرار الله، ويصير صاحبها روحانياً ربانياً عارفاً بالله، ولا يبقى حينئذ إلا الترقي في شهود الأسرار أبداً سرمداً. وهذا محل القطبانية والتهيؤ للتربية النبوية، ويصير ولياً محمدياً، يُخرج الناس من هذه الظلمات إلى هذه الأنوار.

وأما من لم يبلغ هذا المقام، فإنما له الإخراج من أحد هذه الأشياء؛ فالغزاة والمجاهدون يُخرجون من ظلمة الكفر إلى نور الإيمان، والعلماء يُخرجون من ظلمة الجهل إلى نور العلم، والعُباد والزهاد يُخرِجون مَنْ صَحِبَهم من الذنوب إلى التوبة والاستقامة. وأما ما بقي من الظلمات فلا يُخْرِج منها إلا الربانيون الروحانيون، أهل التربية النبوية، بإذن ربهم، يدلهم على صراط العزيز الحميد، الموصل إلى العز المديد. وويل لمن أنكر هؤلاء، واشتغل بمتابعة حظوظه وهواه، واستحبَّ حياة دنياه على أخراه، أولئك في ضلال عن حضرة الحق بعيد. وبالله التوفيق.

ولمّا كان الإخراج من هذه الظلمات لا يكون إلا بالمقال والحال، بعث الله الرسلَ، وورثتهم من الأولياء الداعين إلى الله بلسان قومهم، كما قال تعالى:

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٤ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿وما أرسلنا من رسولٍ﴾ قبلك ﴿إلا بلسانِ قومه﴾، وأنت بعثناك بلسان قومك. وإنما قال: بلسان قومه، ولم يقل بلسان أمته؛ لأن الأمة قد تكون أوسع من قومه، كما في حق نبينا ـ عليه الصلاة والسلام ـ فقد بُعث إلى العرب والعجم، والجن والإنس، فقومه الذين يفهمون عنه: يُتَرْجِمُونَ إلى من لا يفهم، فتقوم الحجة عليهم. وكذلك إعجاز القرآن يُدركه أهل الفصاحة والبلاغة، فإذا وقع العجز عن معارضته منهم قامت الحجة على غيرهم، كما قامت الحجة في معجزة موسى عليه السلام بعجز السحرة، وفي معجزة عيسى بعجز الأطباء.

ثم بيّن الحكمة، في كون الداعي لا يكون إلا بلسان قومه، بقوله: ﴿ليُبيّن لهم﴾ ما أُمروا به؛ فيفهمونه عنه بسرعة، ثم ينقلونه ويترجمونه لغيرهم، فتقوم الحجة عليهم و لذلك أُمرَ النبي ﷺ بإنذار عشيرته أولاً، فإذا فهموا عنه بلّغوا إلى غيرهم. قال البيضاوي: ولو نزل على من بعث إلى أمم مختلفة كتب على ألسنتهم استقل ذلك بنوع من الإعجاز، لكن أدى إلى اختلاف الكلمة وإضاعة فضل الاجتهاد في تعلم الألفاظ ومعانيها، والعلوم المتشعبة منها، وما في إتعاب القرائح وكد النفس من القرب المقتضية لجزيل الثواب. هـ.

فالرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ إنما عليهم البيان بلسانهم، والهداية بيد ربهم، ولذلك قال تعالى: ﴿فيُضِلُّ اللهُ من يشاءُ﴾ إضلاله، فيخذله عن الإيمان، ﴿ويهدي من يشاء﴾ بالتوفيق له، ﴿وهو العزيزُ﴾ الغالب على أمره، فلا يُغلَب على مشيئته، ﴿الحكيم﴾ في صنعه، فلا يضل ولا يهدي إلا لحكمة أرادها. والله تعالى أعلم.

الإشارة: ما بعث الله وليًا داعياً إلا بلسان قومه، وقد يخرق له العادة، فيطلعه على جميع اللغات، كما قال المرسي رضي الله عنه: من بلغ هذا المقام لا يخفى عليه شيء. وذلك من باب الكرامة؛ كما كان ﷺ يخاطب كل قوم بلغتهم؛ معجزة له ﷺ؛ فقد اتسع علمه ـ عليه الصلاة والسلام ـ فأحاط بحقائق الأشياء وأسمائها ومفهوماتها، وأصول اللغة وفروعها، فعلم ما علمه سيدنا آدم عليه السلام، أو أكثر، وإلى ذلك أشار القطب ابن مشيش في تصليته المشهورة بقوله: «وتنزلت علوم آدم فأعجز الخلائق». وقال البوصيري في همزيته:

لَكَ ذَاتُ العُلومِ مِنْ عالِمِ الغيْـ ... ـبِ وَمِنْهَــــا لآدَمَ الأَسْـــماءُ

ولمّا كان علاج موسى عليه السلام في إخراج أمته من الظلمات إلى النور، قريبًا من علاج نبينا ـ عليه الصلاة والسلام ـ ذكره بإثره، كما فعل في سورة طه، فقال:

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ
إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾
وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ
يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم
بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن
كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ
لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾ ﴾

قلت: (أنْ أخرج): إما تفسيرية لا محل لها، أي: وقلنا: أن أخرج؛ لأن في الإرسال معنى القول، أو على إسقاط الخافض، أي: بأن أخرج؛ فإنَّ صيغ الأفعال سواء في الدلالة على المصدر، فيصح أن توصل بها «أن» الناصبة.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ولقد أرسلنا موسى بآياتنا﴾؛ كاليد والعصا، وسائر معجزاته التسع، وقلنا له: ﴿أنْ أخرج قومَك﴾؛ بني إسرائيل، وفرعون وملأه؛ ﴿من الظلمات إلى النور﴾؛ من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان، أما فرعون وملؤه فظاهر، وأما بنو إسرائيل فقد كان فرعون فتَنَ جلّهم، وأضلهم مع القبط، فكانوا أشياعاً متفرقين، لم يبق لهم دين. فإن قلتَ: إذا كان موسى عليه السلام مبعوثاً إلى القبط، فلِمَ لَمْ يرجع إليهم بعد خروجه عنهم إلى الشام؟ فالجواب: أنه لما بلَّغهم الرسالة قامت الحجة عليهم، فيجب عليهم أن يهاجروا إليه للدين.

ثم أمره بالتذكير فقال: ﴿وذكِّرْهُم بأيامِ الله﴾: بوقائعه التي وقعت على الأمم الدارجة قبلهم، وأيام العرب: حروبها. أو ذكِّرهم بنعَم الله وآلائه، وبنقمه وبلائه؛ فالأيام تطلق على المعنيَيْن. ﴿إنَّ في ذلك لآياتٍ لكل صبارٍ﴾ في بلائه، ﴿شكور﴾ لنعمائه. وإنما خصه؛ لأنه إذا سمع ما نزل على مَن قبله من البلاء، وأُفيض عليهم من النعماء، اعتبر وتنبه لما يجب عليه من الصبر والشكر. وقيل: المراد لكل مؤمن، وإنما عبَّر عنهم بذلك؛ تنبيهاً على أن الصبر والشكر عنوان الإيمان. قاله البيضاوي.

﴿وإذ قال موسى لقومه اذكروا نعمةَ الله عليكم إذْ أنجاكم﴾: حين أنجاكم ﴿من آلِ فرعونَ﴾: رهطه، ﴿يسومونكم﴾: يُولونكم ﴿سُوءَ العذابِ﴾: أقبحه، يستعبدونكم ويُكلفونكم مشاق الأعمال، ﴿ويُذبّحون

أبناءكم ويستحْيون نساءكم ﴾، قال البيضاوى: المراد بالعذاب هنا غير المراد به فى سورتَىْ البقرة والأعراف؛ لأنه هناك مفسر بالتذبيح والقتل، ومعطوف عليه هنا، فهو هنا إما جنس العذاب، أو استعبادهم واستعمالهم بالأعمال الشاقة. هـ. ﴿ وفي ذلكم ﴾ الامتحان ﴿ بلاء ﴾ أى: ابتلاء ﴿ من ربكم عظيم ﴾ ؛ اختبركم به حتى أنقذكم منه، ليعظم شكركم، أو: فى ذلك الإنجاء بلاء، أى: نعمة واختبار عظيم، لينظر كيف تعملون فى شكر هذه النعمة.

ولذلك قال لهم موسى عليه السلام: ﴿ وإذْ تأذَّنَ ربكُمْ ﴾ أى: آذن، بمعنى أعلمَ، كتوعَّد وأوعد، غير أنَّ تأذن أبلغ من آذن؛ لما فى تفعّل من التكلف والمبالغة، أى: أعلمكم، وقال: والله ﴿ لئن شكرتم ﴾ يابنى إسرائيل ما أنعمتُ به عليكم من الإنجاء وغيره، بالإيمان والعمل الصالح، وبالإقرار باللسان، وإفراد النعمة للمنعم بالجنَان، ﴿ لأزيدَنَّكُم ﴾ نعمة على نعمة. وهذا الخطاب، وإن كان لبنى إسرائيل، يعم جميع الخلق، والزيادة إما من خير الدنيا، أو ثواب الآخرة. وشكر الخواص يكون على السراء والضراء؛ فتكون الزيادة فى الضراء، إما فى الثواب أو فى التقريب. ثم ذكر ضده فقال: ﴿ ولئن كفرتم ﴾ ما أنعمتُ به عليكم، وقابلتموه بالكفر والعصيان، ﴿ إنَّ عذابى لشديد ﴾؛ فأعذبكم به على كفركم. قال البيضاوى: ومن عادة أكرم الأكرمين أن يصرح بالوعد ويُعرض بالوعيد. هـ. فصرح بوصول الزيادة إليهم، ولم يقل: أعذبكم عذاباً شديداً، بل عظم عذابه فى الجملة.

﴿ وقال موسى ﴾، فى شأن من لم يشكر: ﴿ إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً ﴾ من الثقلين، ﴿ فإنَّ الله لغنىٌ ﴾ عن شكركم، ﴿ حميد ﴾: محمود على ألسنة خلقه، من الملائكة وغيرهم. فكل ذرة من المخلوقات ناطقة بحمده؛ حالاً أو مقالاً، فهو غنى أيضا عن حمدكم، فما ضررتم بالكفر إلا أنفسكم؛ حيث حرمتموها مزيد الإنعام، وعرضتموها لشديد الانتقام. وبالله التوفيق.

الإشارة: ذكر الحق تعالى فى هذه الآية مقامين من مقامات اليقين: الصبر والشكر، ومدح من تخلق بهما واستعملهما فى محلهما، فيركب أيهما توجه إليه منهما، ويسير بهما إلى ربه. فالصبر عنوان الظفر، وأجره لاينحصر، والشكر ضامن للزيادة، قال بعض العارفين: (لم يضمن الحق تعالى الزيادة فى مقام من المقامات إلا الشكر)، فدل أنه أفضل المقامات وأحسن الطاعات، من حيث إنه متضمن للفرح بالله، وموجب لمحبة الله. ولا شك أن مقام الشكر أعلى من مقام الصبر؛ لأن الشاكر يرى المنن فى طى المحن، فيتلقى المهالك بوجه ضاحك؛ لأنه لا يكون شاكراً حقيقة حتى يشكر فى السراء والضراء، ولا يشكر فى الضراء حتى يراها سراء، باعتبار ما يُواجَه به فى حال الضراء من الفتوحات القلبية، والمواهب اللدنية، فتنقلب النقمة نعمة. بخلاف مقام الصبر، صاحبه يتجرع مرارة الصبر؛ لأنه لم يترق إلى شهود المبلى فى حال بلائه، ولو ترقى إلى شهوده للَذَّتْ لديه البلايا، كما قال صاحب العينية:

تلَـذُّ لِيَ الآلاَمُ؛ إذْ كُنتَ مُسْـــقِمِي ... وإنْ تَختَبِرنِي فَهْيَ عِنْدى صَنَائِعُ

لكن هذه الأحوال تختلف على العبد باعتبار القوة والضعف؛ فتارة تجده قوياً يتلقى المهالك بوجه ضاحك، وتارة تصادفه الأقدار ضعيفًا؛ فلا يبقى معه إلا الصبر وتجرع مرارة البلاء، والعياذ بالله. قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه في كتاب القصد: «رأيت كأني مع النبيين والصديقين، فأردت الكون معهم، ثم قلت: اللهم اسلك بي سبيلهم مع العافية مما ابتليتهم، فإنهم أقوى ونحن أضعف منهم، فقيل لي: قل: وما قدّرت من شيء فأيدْنا كما أيدتهم».

ثم ذكّرهم بمن سلف قبلهم، فقال:

﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ ۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ... ﴾

قلت: (شك): فاعل بالمجرور، و(فاطر): نعت له.

يقول الحق جل جلاله، حاكياً عن نبيه موسى عليه السلام في تذكير قومه، أو من كلامه؛ تذكيراً لهذه الأمة: ﴿ألم يأتكم نبأُ الذين مِن قبلكم﴾: ما جرى عليهم حين عصوا أنبياءهم؛ ﴿قومِ نوح وعادٍ وثمود والذين من بعدهم﴾ كقوم شعيب، وأمم كثيرة ﴿لا يعلمهم إلا اللهُ﴾؛ لكثرة عددهم، واندراس آثارهم. ولذلك قال ابن مسعود: كذب النسّابون. ﴿جاءتهم رسلهم بالبينات﴾؛ بالمعجزات الواضحات، ﴿فردُّوا أيديَهُم في أفواههم﴾؛ ليعضوا عليها؛ غيظاً مما جاءت به الرسل، كقوله: ﴿عضوا عليكُم الأنامِلَ منْ الغيظ﴾(١). أو: وضعوها عليها؛ تعجباً منهم، أو: استهزاءً بهم، كمن غلب عليه الضحك. أو إسكاتًا للأنبياء، وأمراً لهم بإطباق الأفواه، أو: ردوها في أفواه الأنبياء، يمنعونهم من التكلم، أو: ردوا أياديهم، أي: نِعم الأنبياء عليهم، وهي: مواعظهم والشرائع التي أتوهم بها من عند الله، ردوها في أفواه الأنبياء حيث كذبوها، ولم يعملوا بها، كما تقول لمن لم يمتثل أمرك: ترك كلامي في فمي وذهب. ﴿وقالوا إنا كفرنا بما أُرْسِلتُم به﴾ على زعمكم، ﴿وإنا لفي شكٍّ مما

(١) من الآية ١١٩ من سورة آل عمران.

تدعوننا إليه﴾ من التوحيد والإيمان، ﴿مُريب﴾: مُوقع في الريبة، أو: ذي ريبة، وهو: قلق النفس بحيث لاتطمئن إلى شيء.

فأجابتهم الرسل عن دعواهم الشك في الربوبية، ﴿قالت رُسُلُهم أفي الله شكٌ﴾: أفي وجوده شك، أو في ألوهيته، أو في وحدانيته شك؟ قال البيضاوي: أُدخلت همزة الإنكار على الظرف؛ لأن الكلام في المشكوك فيه، لا في الشك، أي: إنما ندعوكم إلى الله، وهو لا يحتمل الشك؛ لكثرة الأدلة، وظهور دلالتها عليه. هـ. وأشار إلى ذلك بقوله: ﴿فاطرِ السموات والأرض﴾ أي: خالقهما ومبدعهما على هذا الشكل الغريب، والإتقان العجيب؛ إذ لا يصدر إلا من إله عظيم القدرة، باهر الحكمة، واحد في ملكه؛ ﴿لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا﴾(١) ، وهو ﴿يدعوكم﴾ إلى الإيمان والتوحيد، ببعثه إيانا، والتصديق بنا، ﴿ليغفرَ لكم من ذُنُوبكم﴾ إن آمنتم، أي: يغفر لكم بعض ذنوبكم، وهو ما تقدم قبل الإسلام، ويبقى ما يُذنب بعده في المشيئة، أو: ما بينكم وبينه دون المظالم.

والجمهور: أنه يغفر للكافر ما سلف مطلقاً، وقيل: «من»: زائدة، على غير مذهب سيبويه. قال البيضاوي: وجيئ بمن، في خطاب الكفرة، دون المؤمنين في جميع القرآن؛ تفرقةً بين الخطابين، ولعل المعنى فيه أن المغفرة، حيث جاءت في خطاب الكفار، مرتبة على الإيمان، وحيث جاءت في خطاب المؤمنين مشفوعة بالطاعة، والتجنب عن المعاصي، ونحو ذلك؛ فيتناول الخروج عن المظالم. هـ. ﴿ويؤخِّرَكُم إلى أجلٍ مسمىً﴾: إلى وقت سماه الله، وجعله آخر أعماركم. وقال الزمخشري تبعاً للمعتزلة: يؤخركم إن آمنتم إلى آجالكم، وإن لم تؤمنوا عاجلكم بالهلاك قبل ذلك الوقت، وهذا على قولهم بالأجلين. وأهل السنة يأبون هذا؛ فإن الأجل عندهم واحد محتوم، والله تعالى أعلم.

الإشارة: التفكر والاعتبار أفضل عبادة الأبرار، وفي الحديث: «تفكر ساعة أفضل من عبادة سبعين سنة». فيتفكر العبد فيما سلف قبله من القرون الماضية والأمم الخالية، كيف رحلوا عن ديارهم المشيدة، وفروشهم الممهدة، واستبدلوها بضيق القبور، وافتراش التراب تحت الجُنوب، وجاءهم الموت وهم غافلون، وتجرعوا كأسها وهم كارهون، فلا ما كانوا أمّلوا أدركوا، ولا إلى مافاتهم رجعوا، قدِموا على ما قدّموا، وندموا على ما خلفوا، ولم ينفع الندم وقد جف القلم. فيوجب هذا التفكرُ الانحياش إلى الله، والمسارعةَ إلى طاعة الله، والزهد في هده الدار الفانية، والتأهب للسفر إلى الدار الباقية؛ فيفوز فوزاً عظيما. وفي تكذيب الصادقين تسلية للعارفين، وللمتوجهين من المريدين، إذا قُوبلوا بالإيذاء والتكذيب، وبالله التوفيق.

---
(١) من الآية ٢٢ من سورة الأنبياء.

ثم ذكر ما أجاب به الكفارُ رسلَهم، فقال:

﴿ ... قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَـٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: وقال الذين كفروا لرسلهم: ﴿ إنْ أنتم إلا بشرٌ مثلُنا ﴾ لا فضل لكم علينا، فلِمَ تختصون بالنبوة دوننا، ولو شاء الله أن يبعث رسلا إلى البشر لأرسلهم من جنس أفضل، كالملائكة، أو: ما أنتم إلا بشر، والبشر لا يكون رسولاً. قال ابن جزى: يحتمل أن يكونَ استبعاداً لتفضيل بعض البشر على بعضٍ بالنبوة، أو يكون إحالة لنبوة البشر، والأول أظهر؛ لطلبهم البرهان بقولهم: ﴿ فأتونا بسلطانٍ مبينٍ ﴾، ولقول الرسل: ﴿ ولكن الله يَمُنُّ على من يشاءُ من عباده ﴾ . هـ. ثم قالوا للرسل: ﴿ تُريدون أن تَصدُّونا عما كان يعبدُ آباؤُنا ﴾ من الأصنام بهذه الدعوى، ﴿ فأتونا بسلطانٍ مبين ﴾: ببرهان بيِّن يدل على فضلكم، واستحقاقكم لهذه المرتبة التى هى مرتبة النبوة. كأنهم لم يعتبروا ما جاءوا به من البينات والحجج، فاقترحوا عليهم آية أخرى؛ تعنتاً ولجاجاً.

﴿ قالت لهم رُسلُهم إن نحن ﴾: ما نحن ﴿ إلا بشر مثلُكم ولكن الله يَمُنُّ على من يشاءُ من عباده ﴾ بالنبوة والرسالة، فمَنّ علينا بذلك، وإن كنا بشراً مثلكم، سلّموا لهم مشاركتهم فى الجنس، وجعلوا الموجب لاختصاصهم بالنبوة فضل الله ومنَّه عليهم. وفيه دليل على أن النبوة مواهب عطائية لا كسبية. ثم أجابوهم عما اقترحوا بقولهم: ﴿ وما كان لنا أن نأتيكم بسلطانٍ إلا بإذنِ الله ﴾، فليس لنا الإتيان بآيات، ولا فى قدرتنا أن نأتيكم بما اقترحتموه، وإنما هو أمر متعلق بمشيئة الله، يخص من يشاء بها، على ما تقتضيه حكمته وسابق إرادته.

﴿ وعلى الله فليتوكَّلِ المؤمنون ﴾، فلنتوكل نحن عليه، فى الصبر على معاناتكم ومعاداتكم. عمموا الأمر بذكر المؤمنين؛ للإشعار بأن الإيمان موجب للتوكل، وقصدوا به أنفسهم قصداً أوليا، ألا ترى قولهم: ﴿ ومالنا ألا نتوكل على الله ﴾ أىْ: أىُّ عذر لنا فى ترك التوكل على الله؟ ﴿ وقد هدَانَا سُبُلنا ﴾ أى: طرقنا التى نعرفه بها، فنوحده، ونعلم أن الأمور كلها بيده، ﴿ ولنصْبِرَنَّ على ماآذيتمونا ﴾: على أذاكم حتى يحكم الله بيننا، وهو جواب عن قسم محذوف، أكدوا به توكلهم، وعدم مبالاتهم بما يجرى من الكفار عليهم. ﴿ وعلى الله فليتوكل المتوكلون ﴾ أى: فليثبت المتوكلون على ما استحدثوه من توكلهم، المسبب عن إيمانهم. قاله البيضاوى تبعاً للزمخشرى.

قال ابن جزى: إن قيل: لِمَ كرر الأمر بالتوكل؟ فالجواب عندى: أن قوله: ﴿ وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ راجع إلى ما تقدم من طلب الكفار: ﴿ فأتونا بسلطان مبين ﴾ أى: حجة ظاهرة، فتوكل الرسل فى ورود ذلك إلى الله. وأما قوله: ﴿ فليتوكل المتوكلون ﴾ فهو راجع إلى قولهم : (ولنصبِرنَّ على ما آذيتمونا) أى: نتوكل على الله فى دفع أذاكم. هـ. وهو حسن، لكن التعبير بالمتوكلين يقتضى أن التوكل حاصل، والمطلوب الدوام عليه، وقد يقال: إنما عبَّر ثانياً بفظ المتوكلين؛ كراهية إعادة اللفظ بعينه، أى: من كان متوكلاً على الله فإنه الحقيق بذلك. وقال فى القوت: أى: ليتوكل عليه فى كل شيء مَنْ توكل عليه فى شيء. وهذا أحسن وجوهه. قال فى الحاشية: والوجه الآخر: وعليه فلْيتوكل، فى توكله مَنْ توَكَّلَ عليه فى الأشياء؛ لأن الوكيل فى كل شيء واحد، فينبغى أن يكون التوكل فى كل شيء واحد. هـ.

الإشارة: سر الخصوصية مستور بأوصاف البشرية، ولا فرق بين خصوصية النبوة، والولاية. سترها الحق تعالى غيرةً عليها أن يعرفها من لا يعرف قدرها؛ فلا يطلع عليها إلا من سبقت له من الله العناية، وهبت عليه ريح الهداية. وفى الحِكَم: «سبحان من ستر سر الخصوصية بظهور وصف البشرية، وظهر بعظمة الربوبية فى إظهار العبودية». وقال أيضاً: «سبحان من لم يجعل الدليل على أوليائه إلا من حيث الدليل عليه، ولم يوصل إليهم إلا من أراد أن يوصله إليه». قال فى لطائف المنن: فأولياء الله أهل كهف الإيواء، فقليل من يعرفهم، ولقد سمعت شيخنا أبا العباس المرسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: معرفة الولى أصعب من معرفة الله؛ فإن الله معروف بكماله وجماله، وحتى متى تعرف مخلوقاً مثلك، يأكل كما تأكل، ويشرب كما تشرب؟ قال فيه: وإذا أراد الله أن يعرفك بولى من أوليائه طوى عنك وجود بشريته، وأشهدك وجود خصوصيته. هـ.

قلت: ومعنى: «طوى عنك وجود بشريته»، هو: عدم الوقوف مع أوصافها اللازمة للنقائص، بل تنفذ منها إلى شهود خصوصيته، التى هى محل الكمالات. فأوصاف البشرية الذاتية للبشر لا تزول عن الولى، ولا عن النبى كالأكل والشرب، والنوم والنكاح، والضعف والفقر، وغير ذلك من نعوت البشر؛ لأنها فى حقهم رداء وصوان لستر خصوصيتهم؛ صيانةً لها أن تتبدل بالإظهار، وينادى عليها بلسان الاشتهار، ولذلك اختفوا عن كثير من الخلق. وإلى هذا أشار فى الحِكَم بقوله: «لا يلزم من ثبوت الخصوصية عدم البشرية».

وقال صاحب كتاب (أنوار القلوب): لله سبحانه عباد ضنَّ بهم عن العامة، وأظهرهم للخاصة، فلا يعرفهم إلا شكل، أو محب لهم، ولله عباد ضنَّ بهم عن الخاصة والعامة، ولله عباد يُظهرهم فى البداية ويسترهم فى النهاية، ولله عباد يسترهم فى البداية ويُظهرهم فى النهاية، ولله عباد لا يظهر حقيقة ما بينه وبينهم إلى الحفظة فمن سواهم، حتى يلقوه بما أودعهم منه فى قلوبهم، وهم شهداء الملكوت الأعلى، والصفْح(١) الأيمن مِنَ العرش؛ الذين

(١) الصفح: الجنب.

يتولى الله قبض أرواحهم بيده، فتطيب أجسادهم به، فلا يعدوا عليها الثرى، حتى يُبعثوا بها مشرقةً بنور البقاء الأبد مع الباقي الأحد عز وجل. هـ.

وقال أبويزيد رضي الله عنه : أولياء الله تعالى عرائس، ولا يرى العرائس إلا من كان مَحرماً لهم، وأما غيرهم فلا. وهم مخبأُون عنده في حجاب الأنس، لا يراهم أحد في الدنيا ولا في الآخرة. هـ. وجميع ما أجاب به الأنبياءُ قومهم يجيب به الأولياءُ من أنكر عليهم، من قوله: (إن أنتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا)، من التعلق بالأسباب والانهماك في الحظوظ، ومتابعة الهوى، وحب الدنيا، ومن قولهم: (فأتونا بسلطان مبين) إلى تمام ما أجابوا به. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر تخويف الكفار للرسل بإخراجهم من الديار، فقال:

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَٱسْتَفْتَحُوا۟ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾ ﴾

قلت: (وا ستفتحوا): معطوف على (أوحى)؛ إن كان الضمير للرسل، واستئناف إن كان للكفار. و(يسقى): معطوف على محذوف، أي: يلقى فيها ويسقى، و(صديد): عطف بيان لماء، و(يتجرعه): صفة لماء، أو حال من ضمير (يسقى).

يقول الحق جل جلاله: ﴿وقال الذين كفروا لرُسُلهم﴾؛ تخويفاً لهم: والله ﴿لنُخرجنَّكم من أرضنا أو لتعودُنَّ في مِلَّتنا﴾، حلفوا ليكونن أحد الأمرين؛ إما إخراج الرسل من ديارهم، أو عودهم إلى ملتهم، والعود هنا بمعنى الصيرورة؛ لأنهم لم يكونوا على ملتهم، كما تقدم في قصة شعيب عليه السلام. ويجوز أن يكون الخطاب لكل رسول، ولمن آمن معه، فغلّب الجماعة على الواحد، وقال الذين كفروا في كل عصر لكل رسول أتاهم: لنخرجنك، أو لتعودَن في ملتنا. ﴿فأوحى إليهم ربُّهم﴾ أي: إلى رسلهم، مجتمعين أو مفترقين - على القولين - وقال في إيحائه: والله ﴿لَنُهلكنَّ الظالمين﴾ فتخلى بلادهم، ﴿ولَنُسكِننكُم الأرضَ من بَعدِهم﴾ أي: أرضهم وديارهم،

لقوله: ﴿ وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها ﴾(١). ﴿ ذلك ﴾ الميراث والإسكان ﴿ لمن خاف مقامي ﴾ أى: قيامه للحساب بين يدى فى القيامة، أو قيامى على عبادى، وحفظى لأعمالهم، واطلاعى على سرهم وعلانيتهم. أو خاف عظمة ذاتى وجلالى، ﴿ وخاف وعيدِ ﴾ أى: وعيدى بالعذاب، أو عذابى الموعود للكفار.

﴿ واستفتحوا ﴾ أى: استفتح الرسل: طلبوا من الله الفتح على أعدائهم، أو القضاء بينهم وبين أعاديهم، كقوله: ﴿ ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق ﴾(٢)، واستفتح الكفرة واستنصروا على غلبة الرسل، على نحو قول أبى جهل فى غزوة بدر: اللهم، أقطعنا للرحم، وآتانا بما لا يعرف، فأحنه الغداة، أى: أهلكه. أو: استفتح الفريقان معًا، فكل واحد منهما سأل الله أن يُهلك المبطل وينصر المحق. وقرأ ابن عباس ومجاهد وابن محيصن: بكسر التاء؛ على الأمر للرسل بطلب الفتح. ﴿ وخاب ﴾: خسر ﴿ كلُّ جبارٍ ﴾: متكبر على الله، ﴿ عنيدٍ ﴾: معاند للحق ولمن جاء به. وهذا هو الفتح الذى فتح لهم، وهو: خيبة المتكبرين وفلاح المؤمنين.

ثم ذكر مآل خيبتهم بقوله: ﴿ من ورائه جهنمُ ﴾ أى: أمامه وبين يديه، فإنه مرْصد بها، واقف على شفيرها فى الدنيا، مبعوث إليها بعد الموت فيلقى فيها، ﴿ ويُسقى من ماءٍ صديد ﴾، وهو مايسيل من جلود الكفار من القيح والدم. ﴿ يتجرَّعُه ﴾: يتكلف جرعه، أى: زهوقه فى حلقه. روى: «أن الكافر يؤتى بالشربة منه فيتكرهها، فإذا أُدنيت منه شوت وجهه، وسقطت فيها فروة رأسه، فإذا شربها قطعت أمعاءه»(٣). فيتجرعه ﴿ ولا يكاد يُسِيغُه ﴾ أى: لا يقارب أن يُسيغه، أى: يبتلعه بصعوبة فكيف يُسيغه، بل يكلف به ويطول عذابه ثم يبتلعه؛ لأن نفى «كاد» يقتضى الوقوع. والسوغ: جواز الشراب على الحلق بسهولة، وهذا بخلافه. ﴿ ويأتيه الموتُ ﴾ أى: أسباب الموت ﴿ من كل مكانٍ ﴾؛ من أجل الشدائد التى تُحيط به من جميع الجهات. أو: من كل مكان من جسده حتى من أصول شعره وإبهام رجليه. ﴿ وما هو بميت ﴾ فيستريح، ﴿ ومن ورائه ﴾: من بين يديه ﴿ عذابٌ غليظ ﴾ أى: يستقبل فى كل وقت عذاباً أشد مما هو عليه، وقيل: هو الخلود فى النار، وقيل: حبس الأنفاس فى الأجساد. قاله الفضيل بن عياض. وقيل: قوله: ﴿ واستفتحوا ﴾: كلام منقطع عن قصة الرسل، بل نزل فى أهل مكة حين استفتحوا بطلب المطر فى السنة التى أخذتهم بدعوة الرسول ﷺ، فخيب الله رجاءهم ولم يسقهم، وأوعدهم أن يسقيهم - بدَلاً من سقياهم المطر - صديدَ أهل النار. قال معناه البيضاوى.

---

(١) من الآية ١٣٧ من سورة الأعراف. (٢) من الآية ٨٩ من سورة الأعراف.
(٣) أخرجه أحمد فى المسند (٥/٢٦٥) والترمذى فى (أبواب صفة جهنم، باب ما جاء فى صفة شراب أهل النار) والحاكم فى المستدرك (٢/٣٥١) وصححه ووافقه الذهبى، عن أبى أمامة مرفوعاً.

الإشارة: ما خوَّفت الكفارُ به رسلَهم خوفت به العوامُ فقراءَهم وأولياءهم، قال التجيبى، فى الإنالة، لما تكلم على خفاء الأولياء، قال: ومعلوم أن العصمة لم تثبت إلا للنبيين والرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ وأنّ غيرهم يصيب ويخطئ، ويذنب ويتوب، لكن لما سُطرت مناقب الرجال، وكراماتهم، ولم تذكر سيئاتهم، وطال العهد بهم، ظن أكثر الخلق أن ليس لهم سيئات، وقد كان لهم فى أزمانهم المُحب والمُبغض، والمسلِّم والمنتقد. ثم قال: فمن يرضى يقول أحسن ما يعلم، ومن يسخط يقول أقبح ما يعلم، وقد رأى أولئك فى أزمانهم من الأذى والتنقص، وإساءة الظن بهم ما كان يقصر عنه صبر غيرهم، وقد أُخْرِجَ أبو يزيد البسطامى من بسطام مراراً، ورُفِع الشبلى والخواص والنورى للسلطان، وتستر الجنيد بالفقه حين ضُيِّقَ على الفقراء، وقُبض على الحلاج ، وضُرب، ومُثِّل به، على أنه ساحر زنديق . هـ. المراد منه.

قلت: وقد وقع بنا في مدينة تِطوان أيام التجريد أمثال هذا، فقد خُوفنا بالضرب مراراً، وسُجنا وأُخرجنا من زاويتنا، وقال لنا محتسبُهُم: والله لنخرجنكم من مدينتنا، ونركبكم فى سفينةٍ إلى بر النصارى، فقلت له: حبًا وكرامة، ولعلنا نُذكرهم الله حتى يسلموا، ولما وصل الخبر بهذه المقالة إلى شيخنا، كتب لنا بهذه الآية: ﴿وقال الذين كفروا لرسلهم.... ﴾ الخ. وكل آية فى الكفار تجر ذيلها على من تشبه بهم، وإن كان مُسلماً. وبالله التوفيق.

ثم ضرب مثلاً لعمل الكفار، فقال:

﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَرَمَادٍ ٱشۡتَدَّتۡ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوۡمٍ عَاصِفٖۖ لَّا يَقۡدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ ﴿١٨﴾ ﴾

قلت: (مثل): مبتدأ، والخبر محذوف عند سيبويه، أي: فيما يتلى عليكم مثلهم. وقال الفراء: الخبر ما بعده، وهو جملة: (أعمالهم كرماد)، أو (أعمالهم): بدل، والخبر: (كرماد)، وعلى قول سيبويه تكون جملة: (أعمالهم): مستأنفة لبيان مثلهم.

يقول الحق جل جلاله: ﴿مَثَلُ﴾ أعمال ﴿الذين كفروا بربهم﴾؛ فى عدم الانتفاع بها وذهابها: ﴿كرمادٍ اشتدت به الريحُ﴾ فى الهوى بسرعة ﴿فى يومٍ عاصف﴾: شديد ريحه. والعصْف: اشتداد الريح. وصف به زمانه؛ للمبالغة، كقولهم: نهاره صائم، وليله قائم. شبه صنائعهم؛ من الصدقة، وصلة الرحم، وإغاثة الملهوف، وعتق الرقاب، ونحو ذلك من مكارمهم؛ فى حبوطها ـ لبنائها على غير أساس من الإيمان بالله، والتوجه بها إليه ـ بغبار طارت به الريح العاصفة ﴿في يوم عاصفٍ، لا يقْدِرُون﴾ يوم القيامة ﴿مما كسبوا﴾ من أعمالهم ﴿على شيءٍ﴾ من الانتفاع بها؛ لحبوطها، وتلاشيها، فلا يقدرون منها على شيء، ولا يجدون ثوابها،

وحيل بينهم وبين النفع، كما حالت الرياح بينك وبين ما تنسفه، فهو كما قيل: فذلكة التمثيل. ﴿ ذلك ﴾ ؛ إشارة إلى ضلالهم مع حسبانهم أنهم محسنون، ﴿ هو الضلال البعيد ﴾ أى: هو الغاية فى البُعد عن طريق الحق.

الإشارة: العمل الذى يثبت لصاحبه هو الذى يصحبه الإخلاص فى أوله، والإسرار فى آخره، والتبرى فيه من الحول والقوة، وفى الحديث عنه ﷺ أنه قال: «إنَّ الإبقاءَ علَى العمل أَشَدُّ مِنَ العمل، وإنَّ الرجلَ لَيَعْمَلُ العمل فيُكتب له عَمَلٌ صَالِحٌ، معمول به فى السر، يضعّف أجره بسبعين ضعفاً، فلا يزال به الشيطان حتى يذكره للناس ويعْلنه، فيكتب علانيته، ويمحى تضعيف أجره كله، ثم لا يزال به الشيطان حتى يذكره للناس ويُحب أن يُحمد عليه، فيُمحى من العلانية ويكتب رياء، فاتقى الله امرؤ صان دينه، وإن الرياء شرك» . رواه البيهقى(١).

وبهذا تظهر فضيلة عمل القلوب، كعبادة التفكر والاعتبار، أو الشهود والاستبصار، أو نية صالحة وهدى صالح، أو زهد فى القلب، وورع وصبر، وشكر وحلم، وغير ذلك من أعمال القلوب، التى لا يطلع عليها ملك فيكتبه، ولاشيطان فيُفسده، بل يتولى جزاءه أكرمُ الأكرمين. ولذلك قيل: ذرة من أعمال القلوب أفضل من أمثال الجبال من أعمال الجوارح. وقال عليه الصلاة والسلام: «تفكر ساعة أفضل من عبادة سبعين سنة» ولهذا أمر به - أى: بالتفكر - بعد ضرب المثل للعمل الظاهر، فقال:

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ألم ترَ ﴾ يامحمد، أو أيها السامع، ﴿ أن الله خلق السماوات والأرض بالحق ﴾ ؛ لتدل على الحق، أو بالوجه الذى يحق أن تُخلق لأجله، وهو التعريف بخالقها، وبقدرته الباهرة التى تقدر على الإيجاد والإعدام، ولذلك قال: ﴿ إن يشأ يُذهبكم ويأت بخلْق جديد ﴾، أى: إن يشأ يعدمكم ويستبدل مكانكم خلقًا آخر. فإنّ من قدر على إيجاد صورهم، وما تتوقف عليه مادتهم، قادر على أن يبدلهم بخلق آخر؛ ﴿ وما ذلك على الله بعزيز ﴾ أى: بمتعذر، أو ممتنع؛ لأن قدرته عامة التعلق، لا تختص بمقدور دون آخر، ومن كان هذا شأنه كان حقيقًا بأن يُفرد بالعبادة والقصد؛ رجاء لثوابه، وخوفا من عقابه يوم الجزاء، الذى أشار إليه بقوله: ﴿وبرزوا لله... ﴾ إلخ.

---

(١) فى شعب الإيمان (باب فى إخلاص العمل لله وترك الرياء ح ٦٨١٣، ح ٦٨٦٤) من حديث أبى الدرداء، مرة بلفظ (إن الإبقاء) ومرة بلفظ «إن الاتقاء».

الإشارة: ألم تر أن الله خلق سماوات الأرواح، لشهود الحق فى مقام التعريف، وأرض النفوس لعبادة الحق فى مقام التكليف. الأرواح مستقرها سماء الحقائق، والأشباح مقرها أرض الشرائع. عالم الأرواح محل التعريف، وعالم الأشباح محله التكليف. والأرواح لا تنفك عن الأشباح فى الصورة الخلقية، غير أنها تعرج عنها بالتصفية والذكر، حتى تترقى إلى عالم الأرواح، فلا تشهد إلا الأرواح فى محل الأشباح؛ وهذا من أعظم أسرار الربوبية، التى يطلع عليها العارفون بالله، فإذا أطلعهم الله على هذا المقام؛ كُوشفوا بأسرار الذات العلية، وبعالم الأرواح الذى هو مظهر أرواح الأنبياء والرسل، فلا يغيبون عن الله ساعة، ولا عن رسول الله ﷺ، ولا عن مقام أرواح الأنبياء والأولياء. وفى هذا المقام قال الشيخ أبو العباس المرسى رضي الله عنه: لى ثلاثون سنة، ما غاب عنى الحق طرفة عين. وقال أيضاً: لو غاب عنى رسول الله ﷺ ساعة ما عددتُ نفسى من المسلمين. وقال شيخ شيوخنا سيدى على الجمل العمرانى رضي الله عنه: مما منَّ الله به علىَّ أنى ما ذكرتُ رسولَ الله ﷺ ولا خطر على قلبى إلا وجدتنى بين يديه... الخ كلامه. نفعنا الله بهم

وأهل هذا المقام موجودون فى كل زمان، فإن القادر فى زمانهم هو القادر فى زماننا، وفى قوله تعالى: ﴿إن يشأ يذهبكم..﴾ الآية، إشارة إلى هذا، أى: إن يشأ يذهبكم عن شهود أنفسكم، ويأت بخلق جديد، تُشاهدون به أسرار ربكم، وماذلك على الله بعزيز. قال أبو المواهب التونسى رضي الله عنه: حقيقة الفناء محو واضمحلال، وذهاب عنك وزوال. هـ. فيبرزون من عالم الأشباح إلى عالم الأرواح، كما قال تعالى:

﴿ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَـٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ قَالُواْ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَـٰكُمْ ۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾ ﴾

قلت: (تبعا): جمع تابع، أو مصدر نُعت به؛ للمبالغة على حذف مضاف، أى: كنا لكم ذا تبع، و(من عذاب الله من شيء): مِنْ، الأولى؛ للبيان، والثانية زائدة، هذا المختار. و(محيص): إما مصدر، أو اسم مكان.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وبرزوا لله﴾ أى: لأمر الله ﴿جميعاً﴾، فيبرزون من قبورهم يوم القيامة حفاةً عراةً، لفصل القضاء، أو: برزوا لله على ظنهم؛ فإنهم كانوا يرتكبون الفواحش خفية، ويظنون أنها تخفى على الله، فإذا كان يوم القيامة انكشفوا لله عند أنفسهم. وإنما عبَّر بالماضى؛ لتحقق وقوعه. فيقول حينئذ ﴿الضعفاءُ﴾ وهم: الأتباع، لضعف رأيهم عندهم، ﴿للذين استكبروا﴾ وهم الرؤساء الذين استتبعوهم وغووهم: ﴿إنا كنا لكم

تَبَعاً ﴾ في الكفر، وتكذيب الرسل، والإعراض عن نصحهم، ﴿ فهل أنتم مُغْنون عنا من عذابِ الله من شيء ﴾ أي: فهل أنتم دافعون عنا شيئاً من عذاب الله؟.

﴿ قالوا ﴾، أي: رؤساؤهم، في جوابهم واعتذارهم: ﴿ لوهدانا الله لهديناكم ﴾ أي: لو هدانا الله للإيمان، ووفقنا إليه لهديناكم، ولكن ضللنا فأضللناكم، أي: اخترنا لكم ما اخترنا لأنفسنا، ولو هدانا الله لطريق النجاة من العذاب لهديناكم وأغنيناه عنكم، لكن سُدَّ دوننا طريق الخلاص، ﴿ سواءٌ علينا أجزِعْنا أمْ صبَرْنا ﴾، أي: مستوٍ علينا الجزع والصبر، ﴿ مالنا من محيص ﴾: من مهرب وملجى، ويحتمل أن يكون قوله: ﴿ سواءٌ علينا .. ﴾ إلخ، من كلام الفريقين معاً، ويؤيده ما رُوى أنهم يقولون: تعالوا نجزع، فيجزعون خمسمائة عام، فلا ينفعهم، فيقولون: تعالوا نصبر، فيصبرون كذلك، ثم يقولون: ﴿ سواء علينا أجزعنا أم صبرنا مالنا من محيص ﴾. نسأل الله العصمة بمنّه وكرمه.

الإشارة: إذا ترقى العارفون، ومن تعلق بهم، عن عالم الأشباح إلى عالم الأرواح، وبرزوا لشهود الله في كل شيء، وقبل كل شيء، وبعد كل شيء، وعند كل شيء، وتنزهوا في حضرة الأسرار، ورُفعوا يوم القيامة مع المقربين الأبرار، بقى ضعفاء اليقين؛ الذين تعوقوا عن صُحبتهم، في غم الحجاب، وتعب الحس والخواطر، مسجونين في سجن الأكوان، فيقولون لمن عوَّقهم عن صحبة العارفين من أهل الرئاسة والجاه: إنا كنا لكم تبعاً، فهل تمنعون شيئاً مما نحن فيه من غم الحجاب، وسقوط الدرجة؟ فيقولون: لو هدانا الله لصحبتهم لهديناكم. فإذا نظروا يوم القيامة إلى ارتفاع درجاتهم ضجوا، وفزعوا على مافاتهم، فلا ينفعهم ذلك؛ فما لهم من محيص عن تخلفهم عن مقام المقربين. رُوى أن أهل عليين إذا أشرفوا على الأسفلين تشرق منازلهم من أنوار وجوههم. وسيأتي - إن شاء الله - الحديث عند قوله: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾(١).

ثم ذكر خطبة الشيطان على أهل النار، فقال:

﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ۖ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٢) ﴾

قلت: (إلا أن دعوتُكم): الاستثناء منقطع، ويجوز الاتصال، و(بما أشركتمون): مصدرية، أو موصولة إسمية، و(من قبل): يتعلق بأشركتمون، وعلى الثاني: بكفرت.

(١) الآية ١٧ من سورة السجدة.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وقال الشيطانُ﴾، أي: إبليس الأقدم ﴿لَمَّا قُضِي الأمرُ﴾ أي: أمر الحساب، وفرغ منه، ودخل أهلُ الجنةِ الجنةَ، وأهلُ النارِ النارَ. رُوِى أنه يُنصب له منبر من نار، فيقوم خطيباً في النار على أهل النار، يعني على الأشقياء من الثقلين، فيقول في خطبته: ﴿إنَّ الله وعدكم وعدَ الحق﴾، أي: وعداً حقاً أنجزه لكم، وهو وعد البعث والجزاء، ﴿ووعدتكم﴾ وعد الباطل، وهو: ألاَّ بعث ولا حساب، وإن كان واقعاً شيء من ذلك فالأصنام تشفع لكم، ﴿فأخْلَفتكم﴾، أي: فظهر خلاف ما وعدتكم، جعل تبين خلف وعده كالإخلاف منه؛ مجازاً. ﴿وما كان لِيَ عليكم من سلطان﴾؛ من تسلط، فألجئكم إلى الكفر والمعاصي، ﴿إلا أن دعوتُكُم﴾؛ إلا دعائي إياكم إليها بتسويل وتزيين، ﴿فاستجبتمْ لِي﴾، وهو ليس من جنس التسلط، لكنه تهكم بهم، على طريقة قوله:

تَحِـيَّـةُ بَيْنِهِمْ ضَـرْبٌ وَجِـيعُ(1).

ويجوز أن يكون الاستثناء منقطعًا، أي: ما تسلطت عليكم بالقهر، لكن دعوتكم فأسرعتم إجابتي، ﴿فلا تلوموني﴾؛ فإنَّ من اشتهر بالعداوة لا يُلام على أمثال ذلك، ﴿ولُوموا أنفسكم﴾؛ حيث أطعتموني حين دعوتكم، ولم تطيعوا ربكم لما دعاكم. ولا حجة للمعتزلة في الآية على أن العبد يخلق أفعاله؛ لأن كسب العبد مقدر في ظاهر الأمر، لقيام عالم الحكمة، وهو رداء لعالم القدرة، فالقدرة تبرز، والحكمة تستر، وهو ما يظهر من اختيار العبد، ولا اختيار له في الحقيقة؛ قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾(2)، ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾(3).

ثم قال لهم: ﴿ما أنا بمُصْرِخِكُم﴾: بمغيثكم من العذاب، ﴿وما أنتم بمُصرِخِيَّ﴾: بمغيثي، ﴿إني كفرت بما أشركتمونِ من قبلُ﴾، أي: إني كفرت اليوم بإشراككم إياي من قبل هذا اليوم في دار الدنيا، بمعنى: تبرأت منه واستنكرته، كقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾(4). أو: إني كفرت بالله الذي أشركتموني معه في طاعته من قبل، حين امتنعْتُ من السجود. والأول أظهر.

قال تعالى: ﴿إنَّ الظالمين لهم عذابٌ أليم﴾. ويحتمل أن يكون من تتمة خطبة الشيطان، قال البيضاوي: وفي حكاية أمثال ذلك لطف للسامعين، وإيقاظ لهم، حتى يُحاسبوا أنفسهم ويتدبروا عواقبهم. هـ.

الإشارة: ينبغي لك أيها العبد الصالح الناصح لنفسه أن تصغي بسمع قلبك إلى هذه المقالة، التي تصدر من الشيطان عند فوات الأوان، فتبادر إلى خلاص نفسك مادمت في قيد حياتك، قبل حلول رمسك(5)، قبل أن تزل

(1) عَجُزُ بيت أوله: وخيل قد دلفت، لها نَجِيعٌ.
(2) من الآية ١١٢ من سورة الأنعام.
(3) من الآية ٣٠ من سورة الإنسان، ومن الآية ٢٩ من سورة التكوير.
(4) من الآية ١٤ من سورة فاطر.
(5) أي: دخول القبر.

بك القدم، حيث لا ينفعك الندم، فتحاسب نفسك، وتتدبر فى عواقب أمرك، وتصحح عقائد توحيدك، وتعمل جهدك فى طاعة ربك، وتجتنب مواقع غرور الشيطان، وتعتمد على فضل الكريم المنان، وتجعل الموت نصب عينيك، وما هو مستقبل تجعله حاصلاً، وما هو متوقع تجعله واقعًا؛ فكل ما هو آت قريب، و(إن ما توعدون لآت وما أنتم بمعجزين)(١) . وفى الحِكَم: «لو أشرق نور اليقين فى قلبك لرأيت الآخرة أقرب من أن ترحل إليها، ولرأيت محاسن الدنيا وكسفة الفناء ظاهرة عليها». وبالله التوفيق.

ثم شفع بأضداد مَنْ غرّهم الشيطان، فقال:

﴿ وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴿٢٣﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وأُدخل الذين آمنوا ﴾ ، أى: أدخلهم الله على أيدى الملائكة ﴿ جنات تجري من تحتها الأنهارُ خالدين فيها ﴾ ، فيدخلونها ﴿ بإذن ربهم ﴾ ؛ بأمره، فيأذن للملائكة أن تُدخلهم حين يقضى بينهم. ﴿ تحيتُهم فيها سلامٌ ﴾ أى: تحييهم الملائكة، أو الخدام، حين يتلقونهم يسلمون عليهم، ويهنئونهم، على ما فى الحديث.

الإشارة: فى ذكر هذه الآية بعد خطبة الشيطان تنبيه على وجه الخلاص منه، حتى لا يكون من أهل خطبته، وهو تصحيح الإيمان وتقوية مواده، وهو ماذكرنا قبل فى مواد طمأنينة أهل الإيمان. وإن أسعده الله بصحبة عارف رقّاه إلى شهود العيان، فلا يكون للشيطان ولا لغيره عليه سلطان، لتحقيق عبوديته، وارتقائه إلى شهود عظمة ربوبيته؛ قال تعالى: ﴿ إن عبادى ليس لك عليهم سلطان ﴾(٢)، وهم الذين رسخت فى قلوبهم شجرة الإيمان، وارتفعت أغصانها إلى الرحمن، الذى أشار إليها بقوله:

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ

(١) من الآية ١٣٤ من سورة الأنعام. (٢) من الآية ٤٢ من سورة الحجر.

﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْآخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ (٢٧) ﴾

قلت : (كلمة طيبة) : يجوز أن يكون مفعولاً بمحذوف، أي: جعل كلمة، وتكون الجملة تفسيرية لضرب المثل، وأن تكون (كلمة) : بدلا من (مثلا)، و(شجرة) : صفة لها، أو خبراً عن مضمر، أي: هي شجرة.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ألم ترَ ﴾ يا محمد، أو أيها السامع، ﴿ كيف ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً ﴾ لأهل «لا إله إلا الله»، وهم: أهل التوحيد، الذين رسخ التوحيد في قلوبهم، وعبّروا عنه بألسنتهم. فمثال الكلمة الطيبة التي نطقوا بها، ورسخ معناها في قلوبهم؛ ﴿ كشجرةٍ طيبة ﴾ : كالنخلة مثلا، ﴿ أصلُها ثابت ﴾ في الأرض، غائص بعروقه فيها، ﴿ وفرعها في السماء ﴾ ؛ أي: أعلاها. أو يريد الجنس، أي: فروعها وأفنانها في السماء، ﴿ تُؤتي أُكُلها ﴾ : تُعطي ما يؤكل من ثمرها ﴿ كل حين ﴾ وقّته الله لإثمارها، فقيل: سنة، وبه قال ابن عباس وجماعة من المفسرين والفقهاء، واستدلوا بها على من حلف لا يُكلم أخاه حيناً لزمه سنة، وعن ابن عباس أيضا والضحاك وغيرهما: ﴿ كل حين ﴾ ؛ أي: غدوة وعشية، ومتى أريد جناها. قلت: وهذا هو الظاهر.

واختُلف في هذه الشجرة الطيبة، التي ضرب الله بها المثل لكلمة الإخلاص، فقيل: غير معينة، وقيل: النخلة، وبه قال الجمهور. قال الشطيبي: وقيل: جوزة الهند، فإنها ثابتة الأصل، متصلة النفع، يكون طعمها أولاً لبناً، ثم عسلاً، ثم تنعقد طعاماً، ويصنع بلبنها ما يصنع بلبن المواشي، ثم يكون كالخل، ثم كالخمر، ثم كالزيت، كل هذا قبل عقد الطعم، وأما النخلة فهي: ستة أشهر طلع رخص، وستة أشهر رطب طيب، فنفعه متصل. وقال أبو حنيفة: إنه ببلاد اليمن نوعٌ من التمر، يقال له: الباهين، يطعم السنة كلها. هـ. قلت: وقد ذكر ابن مقشب جوزة الهند، ووصفها كما قال الشطيبي، وقوله: «في النخلة ستة أشهر..» إلخ، فيه نظر، وصوابه: ثلاثة، فإن المعاينة ترده.

والمشبه بهذه الشجرة: المؤمن الكامل الدائم نفعه، المتصل علمه، أوقاته معمورة بذكر الله، أو تذكير عباد الله، وحركاته وسكناته في طاعة الله، حيث أراد بها وجه الله، فكل حين وساعة يصعد منه عمل إلى الله.

ثم قال تعالى: ﴿ ويضربُ اللهُ الأمثالَ للناسِ لعلهم يتذكرون ﴾ ؛ لأن في ضربها زيادة إيضاح وإفهام وتذكير؛ فإنه تصوير للمعاني وتقريبها من الحس، لتفهم سريعاً.

ثم ذكر ضدها فقال: ﴿ ومَثَلُ كلمة خبيثة ﴾ ؛ كلمة الكفر (كشجرة) كمثل شجرة؛ ﴿ خبيثة ﴾ ، كالحنظلة مثلاً، ﴿ اجتُثت ﴾ : استؤصلت، وأُخذت جثتها، وقُلعت بالكلية (من فوق الأرض)، أي: قطعت من فوق الأرض؛ لأن عروقها قريبة منه، ﴿ ما لها من قرار ﴾ : استقرار. وهذا في مقابلة قوله: ﴿ أصلها ثابت ﴾ . قال البيضاوي:

واختُلف في الكلمة والشجرة؛ ففُسرت الكلمة الطيبة بكلمة التوحيد - أي: (لا إله إلا الله)، ودعوة الإسلام والقرآن، والكلمة الخبيثة بالإشراك بالله تعالى، والدعاء إلى الكفر، وتكذيب الحق. ولعل المراد بهما ما يعم ذلك، فالكلمة الطيبة: ما أعرب عن حق، أو دعا إلى صلاح، والكلمة الخبيثة: ما كان على خلاف ذلك. وفُسرت الشجرة الطيبة بالنخلة، ورُوى ذلك مرفوعاً، وبشجرة في الجنة، والخبيثة بالحنظلة، ولعل المراد بهما أيضاً ما يعم ذلك.هـ.

﴿ يُثبت اللهُ الذين آمنوا بالقول الثابت ﴾ وهو: لا إله إلا الله، أو كل ما يثبت فى القلب، ويتمكن فيه من الحق، بالحجة الواضحة ﴿ فى الحياة الدنيا ﴾ مدة حياتهم، فلا يزلون إذا افتتنوا فى حياتهم، أو عند موتهم، وهى حسن الخاتمة، ﴿ وفى الآخرة ﴾ عند السؤال، فلا يتلعثمون إذا سُئلوا عن معتقدهم فى القبر، وعند الموقف، فلا تدهشهم أهوال القيامة. رُوى أنه ﷺ ذكر قبض روح المؤمن فقال: «ثُمَّ تُعَادُ رُوحه فى جَسَده، فيأتيه ملَكَانِ، فيُجْلِسَانه فى قَبْره، ويَقُولاَنِ له: مَنْ رَبُّكَ، ومَادِينُك، ومَنْ نَبِيُّك؟ فيقولُ: رَبِّى الله، ودِينى الإسْلاَمُ، ونَبِيى محمدٌ ﷺ. فينادى مُنَادٍ من السَّمَاءِ: أَنْ صَدَقَ عَبْدِى. فذلك قوله تعالى: ﴿يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت﴾»(١). قلت: والقدرة صالحة لهذا كله. قال الغزالى: هو أشبه شيء بحال النائم.

﴿ ويُضلُّ اللهُ الظالمين ﴾ الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والتقليد، فلا يهتدون إلى الحق، ولا يثبتون فى مواقف الفتن. ﴿ ويفعلُ الله مايشاء ﴾؛ من تثبيت بعض، وإضلال آخرين، من غير اعتراض عليه ولا تعقيب لحكمه.

الإشارة: الكلمة الطيبة، هى كلمة التوحيد، والشجرة الطيبة هى شجرة الإيمان، وأصلها هو: التوحيد الثابت فى القلب، وفروعها: الفرائض والواجبات، وأغصانها: السنن المؤكدات، وأوراقها: المندوبات والمستحبات، وأزهارها: الأحوال والمقامات، وأذواقها : الوجدان وحلاوة المعاملات، وانتهاء طيب أثمارها: العلوم وكشف أسرار الذات، الذى هو مقام الإحسان، وهى معرفة الشهود والعيان. فمن لم يبلغ هذا المقام لم يجْن ثمرة شجرة إيمانه. ومن نقص شيئًا من هذه الفروع نقص بقدرها من شجرة إيمانه، إمَّا من فروعها، أو من أغصانها، أو من ورقها، أو من حلاوة أذواقها، أو مِنْ عَرْف أزهارها، أو من طيب ثمرتها. ومعلوم أن الشجرة إذا نبتت بنفسها فى الخلاء، ولم تُلَقَّحْ كانت ذَكَّارة، تورق ولا تثمر، فهى شجرة إيمان من لا شيخ له يصلح للتربية، فإن الفروع والأوراق كثيرة، والثمار ضعيفة، أىُّ ريح هاج عليها أسقطها. وراجع ما تقدم فى إشارة قوله تعالى: ﴿ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ ﴾(٢). وبالله التوفيق.

(١) أخرجه بنحوه مطولاً أبو داود فى (السنّة، باب المسألة فى القبر) والحاكم فى المستدرك (٣٧/١) وصححه من حديث البراء بن عازب. وأصل الحديث فى الصحيحين. (٢) من الآية ٣٥ من سورة المائدة.

ثم ذكر وبال من أنكر هذه النعمة ـ أعنى نعمة الإيمان ـ فقال:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ (٢٨) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ (٢٩) وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ (٣٠) ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ألم ترَ ﴾ يا محمد ﴿ إلى الذين بدَّلوا ﴾ شكر ﴿ نعمتَ الله كفراً ﴾؛ بأن وضعوا الكفر مكان الشكر، أو: بدلوا نفس النعمة كفراً؛ فإنهم لما كفروها سُلبت منهم، فصاروا تاركين لها مُحصلين للكفر مكانها؛ كأهل مكة، خلقهم الله من نسل إسماعيل عليه السلام، وأسكنهم حَرَمَه، وجعلهم خُدَّام بيته، ووَسَّع عليهم أبواب رزقه، وعطف عليهم قلوب خلقه، وتمم شرفهم ببعْثة نبيه محمد ﷺ، فكفروا ذلك، فقحطوا، وجاعوا حتى أكلوا الميتة، وأُسِرَوا وقُتِلوا يوم بدر، وصاروا كذلك مسلوبى النعمة، موصوفين بالكفر، وعن عمر بن الخطاب وعليّ بن أبى طالب ـ رضى الله عنهما ـ: أنها نزلت فى الأفجرَيْن من قريش: بنى المغيرة، وبنى أمية؛ فأمَّا بنو المغيرة فكفيتموهم يوم بدر، وأما بنو أمية فمُتِّعوا إلى حين. ﴿ وأحلّوا قومَهم ﴾: من أطاعهم فى الكفر والتبديل، أى: أنزلوهم ﴿ دارَ البوار ﴾: دار الهلاك، بحملهم على الكفر معهم. ثم فسرها بقوله: ﴿ جهنم يصلونها ﴾: يحترقون فيها، ﴿ وبئس القرارُ ﴾؛ وبئس المستقر جهنم.

ثم بيَّن كفرهم، فقال: ﴿ وجعلوا لله أنداداً ﴾: أشباهاً وأمثالا، يعبدونها معه، ﴿ ليُضلّوا(١) عن سبيله ﴾؛ عن طريق التوحيد، أى: ليكون عاقبتهم الضلال أو الإضلال، على القراءتين، أى: ليضلوا فى أنفسهم، أو ليضلوا غيرهم. وليس الضلال أو الإضلال كان غرضهم فى اتخاذ الأنداد، ولكن لمَّا كان نتيجته وعاقبته جُعل كالغرض. ﴿ قل تمتعوا ﴾ بشهواتكم الدنيوية، فإنها فانية، أو بعبادتكم الأوثان، فإنها من قبيل الهوى، والأمر للتهديد. وفى التهديد بصيغة الأمر إيذان بأن المهدد عليه كالمطلوب؛ لإفضائه إلى المهدد به، وأن الأمرين كائنان لامحالة، فلابد من وقوع تمتعهم، ولابد من إفضائهم إلى النار. ولذلك علقه بقوله: ﴿ فإنَّ مصيرَكم إلى النار ﴾، وأن المخاطب، لانهماكه فيه، كالمأمور به من آمر مطاع. قاله البيضاوى.

الإشارة : ظهور أهل التربية فى زمان الغفلة والجهل نعمة عظيمةٌ، لكن لا يعرفها إلا من سقط عليها، ومن أنكرها، وسَدَّ بابها، وعوّق الناس عن الدخول فى طريقها، فقد بدل نعمة الله كفراً، وأحلَّ الناس ـ من تبعه ـ دار

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو: بفتح الياء، وقرأ الباقون بضمها، من أضل. انظر: الإتحاف (١٦٩/٢).

البوار، وهي: الإقبال على الدنيا، والانهماك في الغفلة، وخراب الباطن من نور اليقين، وكثرة الخواطر والوساوس، والحرص والجزع والهلع، وغير ذلك من أمراض القلوب. وأيُّ عذاب للمؤمن أشد من هذا في الدنيا؟ ويسقط في الآخرة عن درجة المقربين، ومن لم يصحب أهل التوحيد الخالص لا يخلو من عبادة أنداد وأشباه؛ بمحبته لهم والركون إليهم. ومن أحب شيئاً فهو عبد له. قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه ذات يوم: إنا لا نحب إلا الله، ولا نحب معه شيئاً سواه. فقال له بعض الحاضرين: قال جدك رسول الله ﷺ: «النفس مجبولة على حب من أحسن إليها». فقال له الشيخ: إنا لا نرى الإحسان إلا من الله، ولا نرى معه غيره. هـ. بالمعنى.

ثم ذكر ضد أهل الشرك، فقال:

﴿ قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾ ﴾

قلت: (يقيموا): جواب شرط مقدر، يتضمنه قوله: (قل)، تقديره: إن تقل لهم أقيموا يقيموا، ومعمول القول، على هذا، محذوف. وفيه تنبيه على أنهم لفرط مطاوعتهم للرسول - عليه الصلاة والسلام -، بحيث لا ينفك فعلهم عن أمره، وأنه كالسبب الموجب له، أي: مهما قلتَ أقاموا وأنفقوا. وقيل: جزم بإضمار لام الأمر. ولايصح أن يكون جواب الأمر من غير حذف؛ لأن أمر المواجهة لا يجاب بلفظ الغيبة. انظر البيضاوي. وقال ابن عطية: إلاّ إن ضمّن (قل) معنى: بلّغ أو أدِّ، فيصح أن يكون (يقيموا): جواب أمره. و(سراً وعلانية): حالان، أو ظرفان، ومن قرأ: «لا بيع» بالبناء[1] فقد بنى «لا» مع اسمها بناء التركيب، ومن قرأ بالرفع فقد أهملها.

يقول الحق جل جلاله: ﴿قل لعباديَ الذين آمنوا﴾، خصهم بالإضافة إليه؛ تشريفاً لهم، وتنويهاً بقدرهم، وتنبيهاً على أنهم الذين قاموا بحقوق العبودية. قل لهم يامحمد: ﴿يُقيموا الصلاة﴾ التي هي عنوان الإيمان، بإتقان شروطها وأركانها وآدابها، ﴿ويُنفقوا مما رزقناهم﴾ من الأموال، فرضاً ونفلاً، ﴿سراً وعلانيةً﴾ أي: مُسرين ومعلنين، أو في سر وعلانية، والأحب: إعلان الواجب، وإخفاء المُتَطَوَّع به، إلا في محل الاقتداء لأهل الإخلاص. ﴿من قبل أن يأتي يومٌ لا بيع فيه﴾ فيبتاع المقصر ما يتدارك به تقصيره، أو ما يفدي به نفسه، ﴿ولا خلالٌ﴾: ولا مخاللة ومودة تنفع في ذلك اليوم، حتى ينفع الخليلُ خليلَهَ، وإنما ينفع العملُ الصالح، كالإنفاق لوجه الله، وإقام الصلاة، وغير ذلك.

الإشارة: قد مدح الله هاتين الخصلتين: الصلاة والإنفاق، وأمر بهما في مواضع من القرآن؛ لأنهما عنوان الصدق، أحدهما: عمل بدني، والآخر: عمل مالي. أما الصلاة فإنها طهارة للقلوب، واستفتاح لباب الغيوب، وهي

(١) قرأ ابن كثير وابن عمرو ويعقوب «لا بيعَ فيه ولا خلالَ»، وقرأ الباقون «لا بيعٌ فيه ولا خلالٌ». راجع الإتحاف (١٦٩/٢).

محل المناجاة، ومعدن المصافاة، تتسع فيها ميادين الأسرار، وتُشرق فيها شوارق الأنوار، كما في الحِكَم. وفي بعض الأخبار: (إن العبد إذا قام إلى الصلاة رفع الله الحُجُب بينه وبينه، وواجهه بوجهه، وقامت الملائكة من لدن منكبيه إلى الهواء، يصلون بصلاته، ويُؤَمِّنون على دعائه، وإن المصلي لينثر عليه البر من عنان السماء إلى مفرق رأسه، ويناديه منادٍ: لو يعلم المناجي من يناجي ما انفتل[1]. وإن أبواب السماء لتفتح للمصلي. وإن الله تعالى يباهي ملائكته بصفوف المصلين). وفي التوراة: يا ابن آدم لا تعجز أن تقوم بين يَدَيَّ مصليًا باكيا، فأنا الذي اقتربتُ من قلبك، وبالغيب رأيتَ نوري. هـ. فكانوا يرون أن تلك المراقبة والبكاء، وتلك الفتوح التي يجدها المصلي في قلبه من دنو الرب من القلب.

وأما الصدقة فإنها برهان على إيمان صاحبها، وفي الحديث: «الصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ»، فهي تدل على خروج حب الدنيا من القلب، وعلى اتصاف صاحبها بمنقبة السخاء، التي هي أفضل الخصال، وفي الحديث: «السَّخِيُّ قَرِيبٌ مِنَ اللهِ، قَرِيبٌ مِنَ النَّاسِ، قَرِيبٌ مِنَ الجَنَّةِ، بَعِيدٌ مِنَ النَّارِ، والبَخِيلُ بَعِيدٌ مِنَ اللهِ، بَعِيدٌ مِنَ النَّاسِ، بَعِيدٌ مِنَ الجَنَّةِ، قَرِيبٌ مِنَ النَّارِ، ولجَاهِلٌ سَخِيٌّ أَحَبُّ إلى اللهِ مِنْ عَالِمٍ بَخِيلٍ».

ثم ذكّرهم بالنعم، ليقيدوها بالشكر قبل أن تُسلب منهم، كما سلبت ممن ذكر قبل، فقال:

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾ ﴾

قلت: (الله): مبتدأ، و(الذي)، وما بعده: خبر، و(رزقاً لكم): مفعول أخرج، و(من الثمرات): بيان له، حال، ويجوز العكس، ويجوز أن يراد بالرزق: المصدر، فينصب على العلة أو المصدر؛ لأن (أخرج) فيها معنى «رَزَقَ»، و(دائبَيْن): حال، والدءوب: الدوام على عمل واحد، و(من كل ما سألتموه): يحتمل أن تكون «ما» مصدرية، أو موصولة، أو موصوفة.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ اللهُ الذي خلق السموات والأرض ﴾ من أجلكم، السماء تُظلكم، والأرض تُقلكم، ﴿ وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمراتِ رزقاً لكم ﴾ تعيشون به وتتفكهون منه. ويشمل الملبوس،

---

(١) أي: ما انصرف.

كالقطن ، والكتان، وشبه ذلك ﴿ وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره ﴾ : بمشيئته وقدرته، إلى حيث توجههم مع أسباب حكمته، تغطية لقدرته، وهو ما يتوقف عليه جريها وإرساؤها، من الجبال والقلاع، ﴿ وسخّر لكم الأنهار ﴾ مطردة لانتفاعكم بالسفن والشرب، وسائر منافعها، فجعلها مُعدّة لانتفاعكم وتصرفكم. وقيل: تسخير هذه الأشياء: تعليم كيفية اتخاذها والانتفاع بها.

﴿ وسخَّرلكم الشمسَ والقمرَ دائبين ﴾ ؛ متمادِيين فى الطلوعِ والغروب، يدأبان فى سيرهما وإنارتهما، وإصلاح ما يصلحانه من المكونات، بقدرة خالقهما، ﴿ وسخَّر لكم الليلَ والنهارَ ﴾ يتعاقبان لسكناتكم ومعايشكم. ﴿ وآتاكم من كل ما سألتموه ﴾ أى: وآتاكم بعض جميع ما سألتموه، وهو مايليق بكم، وما سبق لكم فى مشيئته وعلمه. قال البيضاوى: ولعل المراد بما سألتموه: ما كان حقيقًا بأن يسأل؛ لاحتياج الناس إليه، سُئل أو لم يسأل.هـ. وقرأ الضحاك وابن عباس: «من كُلٍّ» ؛ بالتنوين، أى: وآتاكم من كل شيء احتجتم إليه، وسألتموه بلسان الحال. ويجوز على هذا أن تكون «ما» نافية، فى موضع الحال، أى: وآتاكم من كل شيء غير سائليه.

﴿ وإن تعدوا نعمتَ الله لا تُحصوها ﴾ : لا تحصروها، ولا تطيقوا عدَّ أنواعها، فضلاً عن أفرادها، فإنها غير متناهية؛ فمنها ظاهرة، ومنها باطنة، كالهداية والمعرفة. قال طلق بن حبيب: إن حق الله أثقل من أن يقوم به العباد، ونعمه أكثر من أن يحصيها العباد، ولكن أصبحوا توابين، وأمسوا توابين. هـ. وقال أبو الدرداء: من لم ير نعمة الله إلا فى مطعمه ومشربه، فقد قلَّ علمه، وحضر عذابه.هـ. ﴿ إنَّ الإنسانَ لظلوم ﴾ ؛ يظلم النعمة لمَّا غفل عن شكرها، أو بظلم نفسه لمَّا عرضها للحرمان، بارتكاب المعاصى، ﴿ كفّارٌ ﴾ : شديد الكفران، وقيل: ظلوم فى الشدة يشكو ويجزع، كفّار فى النعمة يجمع ويمنع. قاله البيضاوى.

الإشارة: الله الذى أنزل من سماء الملكوت علومًا وأسرارًا، تحيا به القلوب والأرواح، فأخرج به من أرض النفوس ثمرة اليقين والطمأنينة، رزقًا لأرواحكم. وسخر لكم فلك الفكرة تجرى فى بحر التوحيد، وفضاء التفريد بأمره. وسخر لكم أنهار العلوم، منها ما هو علم الرسوم لإصلاح الظواهر، ومنها ما هو علم الحقائق لإصلاح الضمائر. وسخر لكم شمس العرفان وقمر الإيمان، دائبين، يستضيىء بقمر التوحيد فى السير إلى معرفة أنوار الصفات، وبشمس العرفان إلى أسرار الذات. وسخَّر لكم ليل القبض لتسكنوا فيه، ونهار البسط لتنشروا فى اقتباس العلوم، وربما أفادك فى ليل القبض ما لم تستفده فى نهار البسط؛ (لا تدرون أيهم أقرب نفعا). وآتاكم من كل ماسألتموه حين كمل تهذيبكم، وصح وصلكم، فيكون أمركم بأمر الله. وإن تعدوا نعمة الله لا تحصُوها؛ إذ نعمة الإيجاد ونعمة الإمداد لا حدَّ لهما فى هذه الدار وفى تلك الدار، ففى كل نَفَسٍ يمدهم بمَدَدٍ جديد، ومع هذا كله يغفل العبد عن هذه النعم!! إن الإنسان لظلوم كفار. وشكرها: نسبتها لمعطيها، وحمد الله عليها. وفى الحكم: «لاتدهشك واردات النعم عن القيام بحقوق شكرك؛ فإنَّ ذلك مما يحط من وجود قدرك».

قال سهل بن عبد الله رضي الله عنه: ما من نعمة إلا والحمد أفضل منها، والنعمة التى ألهم بها الحمد أفضل من الأولى؛ لأن الشكر يستوجب المزيد. وفى أخبار داود عليه السلام أنه قال: إلهى، ابنُ آدمَ ليس فيه شعرة إلا وتحتها نعمة، وفوقها نعمة، فمن أين يكافئها؟ فأوحى الله تعالى إليه: ياداود، إنى أُعطِى الكثيرَ وأَرْضَى باليسير، وإنَّ شكر ذلك أن تعلم أن مابك من نعمة فمنى. هـ.

ومن جملة النعم التى يجب الشكر عليها ـ وهى التى بدّلها الكفار كفراً ـ عمارة بيت الله الحرام، ودعاء إبراهيم عليه السلام، الذى أشار إليه الحق تعالى بقوله:

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾
رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾
رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ
فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾
رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿٣٨﴾ ﴾

قلت: قال هنا: ﴿ اجعل هذا البلد ﴾ بالتعريف، وقال فى سورة البقرة: ﴿ بَلَدًا ﴾(١) بالتنكير، قال البيضاوى: الفرق بينهما أن المسؤول فى الأول ـ أى: فى التعريف ـ إزالة الخوف وتصييره أمناً، وفى الثانى جعله من البلاد الآمنة. هـ. وفرّق السهيلى: بأن النبى ﷺ كان بمكة حين نزول آية إبراهيم؛ لأنها مكية؛ فلذلك قال فيه: «البلد»؛ بلام التعريف التى للحضور، بخلاف آية البقرة، فإنما هى مدنية، ولم تكن مكة حاضرة حين نزولها، فلم يعرفها بلام تعريف الحضور. هـ. قال ابن جزى: وفيه نظر؛ لأن ذلك كان حكاية عن إبراهيم عليه السلام، ولا فرق بين كونه بالمدينة أو بمكة. هـ.

قلت: لا نظر فيه؛ لأن الحق تعالى لم يحك لنا قصص الأنبياء بألفاظهم، وإنما ترجم عنها بلسان عربى، فينزل على رعاية مقتضى الحال. ولذلك اختلفت الألفاظ فى قصص الأنبياء؛ لأن كل قصة تنزل على ما يقتضيه المقام والحال، من تعريف وتنكير، واختصار وإطناب. وقد ذكر أبو السعود فى سورة الأعراف ما يؤيد هذا، فانظره. والله تعالى أعلم.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ و ﴾ اذكر ﴿ إذْ قال إبراهيمُ ربِّ اجعل هذا البلد ﴾ يعنى: مكة، ﴿ آمناً ﴾ لمن فيها من أغدرة الناس عليها، أو من الخسف والعذاب، أو من الطاعون والوباء، ﴿ واجْنُبنى ﴾ أى: امنعنى

(١) فى الآية ١٢٦.

واعصمني، ﴿ وبَنِيَّ ﴾ من بعدي، من ﴿ أن نعبد الأصنامَ ﴾ أي: اجعلنا منهم في جانب بعيد. قال البيضاوي: وفيه دليل على أن العصمة للأنبياء بتوفيق الله وحفظه إياهم، وهو بظاهره لا يتناول أحفاده وجميع ذريته، وزعم ابن عيينة أن أولاد إسماعيل لم يعبدوا الصنم، محتجاً به، وإنما كانت لهم حجارة يدورون بها، ويسمونها الدوار، ويقولون: البيت حجر، وحيثما نصبت حجراً فهو بمنزلته. هـ. قال ابن جزى: و﴿ بَنِيَّ ﴾ يعني: من صُلْبه، وفيهم أُجيبت دعوته، وأما أعقاب بنيه فعبدوا الأصنام. هـ. وقد قال في الإحياء: عنى إبراهيمُ عليه السلام بالأصنام، الذهب والفضة، بمعنى: حبهما والاغترار بهما، والركون إليهما. قال عليه الصلاة والسلام: «تَعِسَ عبدُ الدِّينَارِ والدِّرْهَمِ...» الحديث؛ لأن رتبة النبوة أجلّ من أن يُخْشى عليها أن تعتقد الألوهية في شيء من الحجارة. هـ.

قلت: الظاهر أن يبقى اللفظ على ظاهره، في حقه وفي حق بنيه. أما في حقه فلسعة علمه وعدم وقوفه مع ظاهر الوعد، كما هو شأن الأكابر، لا يزول اضطرارهم، ولا يكون مع غير الله قرارهم، وهذا كقوله: ﴿ ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربي شيئا ﴾(١). وتقدم هذا المعنى مراراً. وأما في حق بنيه فإنما قصد العموم في نسله، لكن لم يجب إلا فيما كان من صلبه؛ فإن دعاء الأنبياء ـ عليهم السلام ـ لا يجب أن يكون كله مجاباً، فقد يُجابون في أشياء، ويمنعون من أشياء. وقد سأل نبينا ﷺ لأمته أشياء، فأجيب في البعض، ومنع البعض. كما في الحديث(٢).

ثم قال إبراهيم عليه السلام: ﴿ ربِّ إنهن أضللن كثيراً من الناس ﴾ أي: إن الأصنام أتلفت كثيراً من الخلق عن طريق الحق، فلذلك سألتُ منك العصمة، واستعذتُ بك من إضلالهن، وإسناد الإضلال إليهن باعتبار السببية، كقوله: ﴿وغرتهم الحياة الدنيا﴾(٣). ﴿ فمن تبعني ﴾ على ديني ﴿ فإنه مني ﴾؛ لا ينفك عني في أمر الدين، ﴿ ومن عصاني فإنك غفور رحيم ﴾، تقدر أن تغفر له ابتداء، أو بعد التوفيق للتوبة. وفيه دليل على أن كل ذنب فلله أن يغفره، حتى الشرك، إلا أن الوعيد فرّق بينه وبين غيره. قاله البيضاوي. قال ابن جزى: ﴿ ومن عصاني ﴾؛ يريد: بغير الكفر، أو عصاه بالكفر ثم تاب منه، فهو الذي يصح أن يُدعى له بالمغفرة، ولكنه ذكر اللفظ بالعموم؛ لما كان فيه ـ عليه السلام ـ من التخلق بالرحمة للخلْق، وحسن الخُلق. هـ.

﴿ ربنا إني أسكنت من ذريتي ﴾ أي: بعض ذريتي، وهو: إسماعيل عليه السلام، أو: أسكنت ذرية من ذريتي، وهو إسماعيل ومن وُلِد منه؛ فإن إسكانه متضمن لإسكانهم، ﴿ بوادٍ غير ذي زرع ﴾ يعني: وادي مكة، لأنها حجرية

(١) من الآية ٨٠ من سورة الأنعام.

(٢) قال ﷺ: «سألت ربي ثلاثاً، فأعطاني ثنتين، ومنعني واحدة. سألت ربي أن لايهلك أمتي بالسَّنة فأعطانيها، وسألته أن لايهلك أمتي بالغرق فأعطانيها، وسألته أن لايجعل بأسهم بينهم فمنعنيها، أخرجه مسلم في (كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض) من حديث عامر بن سعد عن أبيه.

(٣) من الآية ٧٠ من سورة الأنعام.

لاتنبت، والوادى: ما بين الجبلين، وإن لم يكن فيه ماء. ولم يقل: ولا ماء، ولعله علم بوحى أنه سيكون فيه الماء، ﴿ عند بيتك المحرَّم ﴾ الذى حرّمه على الجبابرة من التعرض له والتهاون به، أو: لم يزل محترماً تهابُه الجبابرة، أو مُنع منه الطوفان، فلم يستأصله ويمح أثره. وهذا الدعاء وقع منه أول ما قدم، ولم يكن موجوداً، فلعله قال ذلك باعتبار ما كان، أى: عند أثر بيتك المحرم، أو باعتبار ما يؤول إليه من بنائه وعمارته واحترامه.

وقصةُ إنزاله ولده بمكة: أن هاجر كانت مملوكة لسارة، وهبها لها جبارٌ من الجبابرة؛ وذلك أن إبراهيم عليه السلام دخل مدينة، وكان فيها جبار يغصب النساء الجميلات، فأخذها، وأدخلها بيتاً، فلما دخل عليها دعت عليه، فسقط، ثم قالت: يارب إن مات قتلونى فيه، فقام. فلما دنا منها، دعت عليه، فسقط، فقال فى الثالثة: ما هذه إلا شيطانة، أخرجوها عنى، وأعطوها هاجر، فعصمها الله منه، وأخدمها هاجر، ثم وهبتها لإبراهيم، فوطئها فحملت بإسماعيل، فلما ولدته غارت منها، فتعب إبراهيم معها، ثم ناشدته سارةُ أن يخرجها من عندها، فركب البراق، وخرج بها تحمل ولدها حتى أنزلها مكة، تحت دوحة، قريباً من موضع زمزم. فلما ولى تبعته، وهى تقول: لِمَنْ تتركنا فى هذه البلاد، وليس بها أنيس؟ ثم قالت: آللهُ أمرك بهذا؟ قال: نعم، قالت: إذاً لا يُضيعنا. فرجعت تأكل من مِزود، ثم تركها لها، وتشرب من قربة ماء، فلما فرغ الماء نشف اللبن، وجعل الولدُ يتخبط من العطش، فجعلت تطوف من الصفا، وكان جبلاً صغيراً قريباً منها، وتذهب إلى المروة، وتسعى بينهما، لعلها ترى أحداً، فلما بلغت سبعة أطواف وسمعت صوتاً فى الهواء، فقالت: أغثْ إن كان معك غياث، فتبدّى جبريلُ بين يديها حتى وصل إلى موضع زمزم، فهمز بعقبه ففار الماء، فلما رأته دهشت، وخافت عليه يذهب؛ فجعلت تحوطه، وتقول: زم زم، فانحصر الماء. قال ﷺ: «يَرْحَمُ اللهُ أُمَّ إسْمَاعِيل، لَوْ تَرَكَتْهُ، كَانَ عَيْناً مَعِيناً»(١). فشربت، ودرّ لبنُها.

ثم إن جرهم رأوا طيوراً تحوم ، فقالوا: لا طيور إلا على الماء. فقصدوا الموضع، فوجدوها مع ابنها، وعندها عين، فقالوا لها: أتشركيننا فى مائك، ونشركك فى ألباننا؟ ففعلت. وفى حديث البخارى: «قالوا لها: أتحبين أن نسكن معك؟ قالت: نعم، ولكن لا حق لكم فى الماء». فرحلوا إليها، وسكنوا معها، ثم زوجوا ولدها منهم. وحديث إتيان إبراهيم يتعاهد ابنه، وبنائهما الكعبة، مذكور فى البخارى(٢) والسِّيَر.

ثم قال: ﴿ ربنا ليُقيموا الصلاة ﴾ أى: ما أسكنتهم بهذا الوادى البلقع(٣) من كل مرتفق ومرتزق، إلا لإقامة الصلاة عند بيتك المحرم. وتكرير النداء وتوسيطه، للإشعار بأنها المقصودة بالذات من إسكانهم ثَمَّةَ. والمقصود من الدعاء: توفيقهم لها، وقيل: اللام للأمر، وكأنه طلب منهم الإقامة، وسأل من الله أن يوفقهم لها. ﴿ فاجعل أفئدةَ

(١) أخرجه البخارى فى (أحاديث الأنبياء، باب : تزفُّون : النَّسَلان فى المشى) من حديث ابن عباس ـ رضى الله عنه.
(٢) فى الموضع السابق ذكره.
(٣) البلْقَع: هى الأرض القفر التى لاشىء بها: انظر: اللسان (بلقع ١/٣٤٨).

من الناس﴾ أي: اجعل أفئدة من بعض الناس، ﴿تهوى إليهم﴾ أي: تسرع إليهم شوقًا ومحبة، و«من»: للتبعيض، ولذلك قيل: لو قال: أفئدة الناس لازدحمت عليه فارس والروم، ولحجت اليهودُ والنصارى. وقيل: للبيان؛ أي: أفئدة ناسٍ. ﴿وارزقهم من الثمرات﴾ مع كونهم بواد لا نبات فيه، ﴿لعلهم يشكرون﴾ تلك النعمة، فأجاب دعوته، فجعله حرماً آمناً تُجبى إليه ثمرات كل شيء، حتى إنه يوجد فيه الفواكه الربيعية والصيفية والخريفية، في يوم واحد.

﴿ربنا إنك تعلم ما نُخفي وما نُعلن﴾ أي: تعلم سرنا، كما تعلم علانيتنا، والمعنى: إنك أعلم بأحوالنا ومصالحنا، وأرحم منا بأنفسنا، فلا حاجة لنا إلى الطلب، لكننا ندعوك إظهاراً لعبوديتك، وافتقاراً إلى رحمتك، واستجلاباً لنيل ما عندك . قاله البيضاوي. أي: فيكون مناسبًا لحاله في قوله: «علمه بحالي يُغني عن سؤالي». وقيل: ما نُخفي من وَجْد الفرقة، وما نعلن من التضرع إليك والتوكل عليك. وتكرير النداء؛ للمبالغة في التضرع واللجوء إلى الله تعالى. ﴿وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء﴾؛ لأن علمه أحاط بكل معلوم. و«من»: للاستغراق.

الإشارة: ينبغي للعبد أن يكون إبراهيمياً، فيدعو بهذا الدعاء على طريق الإشارة، فيقول: رب اجعل هذا القلب آمناً من الخواطر والوساوس، واجنبني وبنيّ، أي: بعّدني ومن تعلق بي، أن نعبد الأصنام، التي هي الدنانير والدراهم، وكل ما يُعشق من دون الله، (رب إنهن أضللن كثيراً من الناس) فتلفوا في حبها والحرص عليها، فلا فكرة لهم إلا فيهما، ولا شغل لهم إلا جمعهما، فمن تبعني في الزهد فيهما، والغنى بك عنهما، فإنه مني، ومن عصاني، واشتغل بمحبتهما وجمعهما، (فإنك غفور رحيم) .

وقوله: ﴿ربنا إني أسكنت من ذريتي بوادٍ غير ذي زرع﴾ فيه: تعليم اليقين لمن طلب تربية اليقين. قال الورتجبي: فيه إشارة إلى تربية أهله بحقائق التوكل والرضا والتسليم، ونِعْم التربية ذلك، فأعلمنا بسنته القائمة الحنيفية السمحة السهلة، الخليلية الحبيبية، الأحمدية المصطفوية ـ صلوات الله عليهما ـ أن العارف الصادق ينبغي له ألا يكون معوله على الأملاك والأسباب ـ في حياته وبعد وفاته ـ لتربية عياله، فإنه تعالى حسبه، وزاد في تربيتهم بأن يؤدّبهم بإقامة الصلاة، إظهاراً للعبودية، وإخلاصاً في المعرفة، وطلباً للمشاهدة، ومناجاة في القربة بقوله: «ربنا ليقيموا الصلاة». إلخ.

وقال القشيري: أخبر عن صدق توكله وتفويضه، أي: أسكنت قوماً من ذريتي بوادٍ غير ذي زرع، عند بيتك المحرّم. وإنما رد الرِّفق لهم في الجِوارِ فقال: ﴿عند بيتك المحرم﴾، ثم قال: ﴿ليقيموا الصلاة﴾. أي: أسكنتُهم لإقامة

حقك، لا لطلب حظوظهم. ويقال: اكتفى بأن يكونوا فى ظلال عنايته عن أن يكونوا فى ظلال نعيمهم. ثم قال: قوله: ﴿بواد غير ذى زرع﴾ أى: أسكنتهم هذا الوادى، ولا متعلق من الأغيار لقلوبهم، ولا متناول لأفكارهم وأسرارهم، فهم مطروحون ببابك، مقيمون بحضرتك، جارٍ فيهم حكمك، إن راعيتهم كفيتهم، وكانوا أعزَّ خلق الله، وإن أقصيتهم وأويقتهم كانوا أضعف وأذلَّ خلقك. هـ.

وقوله تعالى: ﴿فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم﴾: قال القشيرى: ليشتغلوا بعبادتك، فأفرد قوماً يقومون لهم بكفايتهم، وارزقهم من الثمرات، فإنَّ من قام بحقِّ الله قام اللهُ بحقِّه. فاستجاب الله دعاءه فيهم، فصارت القلوبُ من أهل كل برٍ وبحرٍ كالمجبولة على محبة ذلك البيت، ومحبة أولئك المصلين من سُكانه. وقال الورتجبى: سأل أن يجعلهم مرادى جلاله وجماله، ويجعلهم آية الصادقين والعاشقين، بقوله: (فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم)، تميل بوصف الإرادة والمحبة لك، والاقتداء بهم فى إقامة سُنتك، وألبسهم لباس أنوارك، وألق فى قلوب خلقك محبتهم بمحبتك. هـ. ومعنى قوله: مرادى جلاله وجماله: أى: مظهراً لجلاله وجماله، يعشقهم البرُّ والفاجر، والكامل والناقص، فقد ظهر فيهم الجلال والجمال. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر بقية كلام إبراهيم عليه السلام فقال:

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾ ﴾

قلت: (لسميعُ الدعاء): من إضافة أمثلة المبالغة إلى مفعوله، أى: لسميع دعاء من دعاه. و(من ذريتى): عطف على مفعول «اجعل»، أى: اجعلنى وبعض ذريتى مقيمين للصلاة.

يقول الحق جل جلاله، حاكياً عن خليله عليه السلام: ﴿الحمدُ لله الذى وهبَ لي على الكِبَر﴾ أى: مع كبر سنى عن الولد، ﴿إسماعيلَ وإسحاقَ﴾، رُوى أنه وُلد له إسماعيل لتسع وتسعين سنة، وإسحاق لمائة وثنتى عشرة سنة، وقيل: غير ذلك. وإنما ذكر كبر سنه؛ ليكون أعظم فى إظهار النعمة، وإظهاراً لما فيه من الآية، ولذلك قال: ﴿إنَّ ربى لسميعُ الدعاء﴾ أى: يجيب من دعاه، من قولك: سمع الملك كلامى، إذا اعتنى به. وفيه إشعار بأنه تقدم منه سؤال الولد، فسمع منه، وأجابه حين وقع اليأس منه، ليكون من أجلِّ النعم وأجلاها.

ثم طلب الاستقامة له ولولده بقوله: ﴿ ربَ اجعلني مقيمَ الصلاة ﴾ أي: مُتقناً لها، مواظباً عليها، ﴿ ومن ذريتي ﴾ فاجعل من يُقيمها. والتبعيض؛ لعلمه بالوحي أنّ منْ ولده منْ لا يقيمها، أو باستقرار عادته في الأمم الماضية أن منهم من يكون كفاراً. ﴿ ربنا وتقبل دعاءِ ﴾ أي: استجب، أو تقبل عبادتي. ﴿ ربنا اغفر لي ولوالدي ﴾، وكان هذا الدعاء قبل النهي، أو قبل تحقق موتهما على الكفر، أو يريد آدم وحواء. ﴿ وللمؤمنين يوم يقوم الحسابُ ﴾ أي: يثْبت ويتحقق وجوده، مستعار من القيام على الرِّجل، كقولهم: قامت الحرب على ساق. أو يقوم إليه أهله، فحذف المضاف، أي: يقوم أهل الحساب إليه، وأسند إليه قيامهم؛ مجازا.

الإشارة: إتيان النسل البشرى، أو الروحانى، من أجلّ النعم وأكملها على العبد. وفي الحديث: «إذَا مَاتَ العَبْدُ انْقطَعَ عَمَلُه إلاّ مِنْ ثَلاَثٍ: صدقةٍ جَارِيَةٍ، أو علْمٍ بثّه في صُدُورِ الرِّجَال، أوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يدْعُو له بَعْدَ مَوْته» . والولد الروحانى أتم؛ لتحقق استقامته في الغالب. وطلب ذلك محمود كما فعل الخليل وزكريا، وغيرهما، وقد مدح الله مَنْ فعل ذلك بقوله: ﴿ والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين ﴾(١) . وقرة عين في الذرية: أن يكونوا على الاستقامة في الدين، وسلوك منهاج الصالحين. وكل ما أتوا به من الطاعة والإحسان فللوالدين حظ ونصيب من ذلك، ولا فرق بين الولد الروحانى والبشرى، وفي ذلك يقول الشاعر(٢):

والمَـرْءُ في ميزانه أتْبَـــاعُهُ   فاقدرْ إذنْ قدرَ النبيَّ مُحمَّـدِ

والله تعالى أعلم.

ثم تمم قوله: (يوم يقوم الحساب) بذكر أهواله، فقال:

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ
فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾
وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ
نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾
وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا
لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ ﴾

---

(١) من آية ٧٤ من سورة الفرقان. (٢) وهو الإمام البوصيرى. انظر ديوانه/١٢٢. وفيه: فاقدر إذن فضل النبى محمد ﷺ.

قلت: (يوم يأتيهم) : مفعول ثان لأنذر، ولا يصح أن يكون ظرفاً. و(نُجبْ دعوتك) ؛ جواب الأمر.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ولا تحسبنَّ ﴾ أيها السامع، أن ﴿ اللهَ غافلاً عما يعملُ الظالمون ﴾، أو أيها الرسول، بمعنى: دُمْ على ما أنت عليه من أن الله مطلع على أفعالهم، لا تخفى عليه خافية، غير غافل عنهم. وهو وعيد بأنه معاقبهم على قليله وكثيره لا محالة. وقيل: إنه تسلية للمظلوم؛ وتهديد للظالم؛ فالحق تعالى يمهل ولا يهمل. ﴿ إنما يؤخرهم ﴾، أي: يؤخر عذابهم ﴿ ليوم تشخصُ فيه الأبصارُ ﴾، أي: تحد فيه النظر، من غير أن تطرف؛ من هول ما ترى.

﴿ مُهطعين ﴾: مسرعين إلى الداعي؛ مذلة واستكانة، كإسراع الأسير والخائف ونحوه. أو مقبلين بأبصارهم، لايطرفون؛ هيبة وخوفا، ﴿ مُقنعي رؤوسهم ﴾: رافعيها إلى السماء كرفع الإبل رأسها عند رعيها أعالي الشجر. وذلك من شدة الهول، أو من أجل الغل الذى فى عنقه، كقوله: ﴿ إنا جعلنا في أعناقهم أغلالا فهي إلى الأذقان فهم مقمحون ﴾(١). وقال الحسن فى هذه الآية: وجوه الناس يوم القيامة إلى السماء لا ينظر أحد إلى أحد. هـ. ﴿ لا يرتدُّ إليهم طرفهم ﴾، بل تقف أعينهم شاخصة لا تطرف، أو: لا يرجع إليهم نظرهم فينظروا إلى أنفسهم، ﴿ وأفئدتهم هواء ﴾: خلاء، محترقة، فارغة من الفهم، لا تعي شيئاً؛ لفرط الحيرة والدهشة. ومنه يُقال للأحمق وللجبان: قلبه هواء، أي: لا رأى فيه ولا قوة. وقيل: خالية من الخير، خاوية من الحق.

﴿ وأنذر الناس ﴾ يامحمد، أي: خوفهم هذا اليوم، وهو: ﴿ يوم يأتيهم العذابُ ﴾، يعنى يوم القيامة، أو يوم الموت؛ فإنه أول مطلع عذابهم، ﴿ فيقول الذين ظلموا ﴾ بالشرك والتكذيب: ﴿ ربنا أخِّرنا إلى أجل قريب ﴾ أى: أخِّر العذاب عنا، وردنا إلى الدنيا، وأمهلنا إلى أجل قريب، ﴿ نُجب دعوتك ﴾ حينئذ ﴿ ونتبعِ الرسلَ ﴾، ونظيره: ﴿ لولا أخرتنى إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين ﴾(٢). قال تعالى لهم: ﴿ أوَ لمْ تكونوا أقسمتم من قبلُ ﴾ أنكم باقون فى الدنيا، ﴿ مالكم من زوال ﴾ عنها بالموت ولا بغيره، ولعلهم أقسموا بطراً وغروراً. أو دل عليه حالهم؛ حيث بنوا مشيداً، وأمّلوا بعيداً. أو أقسموا أنهم لا يُنقلون إلى دار أخرى، وأنهم إذا ماتوا لا يُزالون عن تلك الحالة، ولا ينقلون إلى دار الجزاء، كقوله: ﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت ﴾(٣).

﴿ وسكنتُم فى مساكن الذين ظلموا أنفسَهم ﴾ بالكفر والمعاصى، من الأمم السالفة كعاد وثمود، ﴿ وقد تبيَّن لكم كيف فعلنا بهم ﴾ بما تُشاهدون من آثارهم الدارسة، وديارهم الخربة، وما تواتر عندكم من أخبارهم،

(١) الآية ٨ من سورة يس. (٢) الآية ١٠ من سورة المنافقون. (٣) الآية ٣٨ من سورة النحل.

﴿ و ﴾ قد ﴿ ضربنا لكم الأمثالَ ﴾ من أحوالهم، أى: بيَّنا لكم أنكم مثلهم فى الكفر واستحقاق العذاب، أو بيَّنا لكم صفات ما فعلوا، وما فُعل بهم، التى هى فى الغرابة كالأمثال المضروبة.

الإشارة: كما أمهل سبحانه الظالمين إلى دار الشدائد والأهوال، أمهل عباده الصالحين إلى دار الكرامة والنوال؛ لأن هذه الدار لاتسع ما أراد أن يعطيهم من الخيرات؛ لأنها ضيقة الزمان والمكان، فقد أجلّ مقدارهم أن يجازيهم فى دار لا بقاء لها، وتلك الدار باقية لا نفاد لها، ففيها يتمحض الجمال والجلال. فبقدر ما ينزل على أهل الجلال من الأهوال ينزل على أهل الجمال من الكرامة والنوال. وتأمل ما تمناه أهل الجلال حين نزلت بهم الأهوال من قولهم: (ربنا أخِّرنا إلى أجل قريب نُجب دعوتك ونتبع الرسل)، ثم بادر إلى إجابة الداعى، واتباع الرسول الهادى، فى كل ما جاء به من الأوامر والنواهى، واعتبر بمساكن الذين ظلموا أنفسهم، كيف فعل بهم الزمان؟ وكيف غرتهم الأمانى وخدعهم الشيطان، حتى أسكنهم دار الذل والهوان؟ فشد يدك على الطاعة والإحسان، والشكر لله على الهداية لنعمة الإسلام والإيمان، وعلق قلبك بمقام الإحسان؛ فإن الله يرزق العبد على قدر نيته. وبالله التوفيق.

ثم ذكر ما فعل بأهل المكر والخذلان، فقال:

﴿ وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾ ﴾

قلت: (وإن كان مكرُهم)؛ «إن» نافية، واللام للجحود، ومن قرأ «لَتزول»؛ بفتح اللام، فإن مخففة، واللام فارقة؛ و(يوم تُبدل): بدل من (يوم يأتيهم)، أو ظرف للانتقام، أو مقدر باذكر، أو (بمخلف وعده). ولا يجوز أن ينتصب بمخلف؛ لأن ما قبل «إن» لا يعمل فيما بعدها. و(السماوات): عطف على (الأرض)، أى: وتبدل السماوات.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وقد مكروا ﴾ بك يامحمد ﴿ مكرَهم ﴾ الكلى، واستفرغوا جهدهم فى إبطال الحق وتقرير الباطل، ﴿ وعند الله مكرُهم ﴾ أى: مكتوب عنده فعلهم، فيجازيهم عليه. أو عند الله ما يمكرهم به

جزاء لمكرهم، وإبطالاً له، ﴿ وإن كان مكرُهم ﴾ في العظم والشدة ﴿ لتزولَ منه الجبال ﴾ الثوابت لو زالت؛ تقديراً، أو ما كان مكرهم لِتزولَ منه الجبال، أي: الشرائع والنبوات الثابتة كالجبال الرواسي. والمعنى على هذا تحقير مكرهم؛ لأنه لا تزول منه تلك الجبال الثابتة الراسخة، أو: وإن مكرهم لَتزولُ منه الجبال من شدته، ولكن الله عصم ووقى. وقيل: الآية متصلة بما قبلها، أي: وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم، ومكروا مكرهم في إبطال الحق.

﴿ فلا تحسبنَّ اللهَ مخلفَ وعده رسلَه ﴾، يعني: وعد النصر على الأعداء. وقدّم المفعول الثاني، والأصل: مخلف رسله وعده، فقدّم الوعد؛ ليُعلم أنه لا يخلف الوعد أصلاً على الإطلاق، ثم قال: ﴿ رسله ﴾؛ ليعلم أنه إذا لم يخلف وعد أحد من الناس، فكيف يخلف وعد رسله وخيرة خلقه؟! فقدّم الوعد أولاً بقصد الإطلاق، ثم ذكر الرسل لقصد التخصيص. ﴿ إن الله عزيز ﴾: غالب لا يماكر، قادر لا يدافع، ﴿ ذو انتقام ﴾ لأوليائه من أعدائه.

يظهر ذلك ﴿ يوم تُبدَّل الأرضُ غيرَ الأرضِ ﴾، أو اذكر ﴿ يوم تبدل الأرض غير الأرض ﴾، فتبدل أرض الدنيا يوم القيامة بأرض بيضاء عفراء[1]، كقُرْصة النَّقِيّ[2]، كما في الصحيح[3]. ﴿ و ﴾ تبدل ﴿ السماوات ﴾ بأن تنشق وتُطوى كطي السجل للكتب، ويبقى العرش بارزاً، وهو سماوات الجنة.

قال البيضاوي: والتبديل يكون في الذات، كقوله: بدلت الدراهم بالدنانير، وعليه قوله: ﴿ بدلناهم جلوداً غيرها ﴾[4]، وفي الصفة، كقولك: بدلت الحلقة خاتماً، إذا أذبتها وغيرت شكلها. وعليه قوله: ﴿ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حسنات ﴾[5]. والآية تحتملها، فعن علي رضي الله عنه: تبدل أرضاً من فضة وسموات من ذهب، وعن ابن عباس - رضي الله تعالى عنهما -: هي تلك الأرض، وإنما تغير صفاتها، ويدل عليه ما روى أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «تُبدَّلُ الأرْضُ غَيْرَ الأرْضِ فتَنْبَسط، وتُمَدّ مد الأديم العكاظيّ؛ لا ترى فيها عوجاً ولا أمتا»[6].

قال ابن عطية: وأكثر المفسرين على أن التبديل يكون بأرض بيضاءَ عفراءَ، لم يُعصَ اللهُ فيها، ولا سُفِكَ فيها دم، وليس فيها مَعْلَم لأحد. ورُوي أن النبي ﷺ قال: «المؤمنُ في وَقْتِ التبديلِ في ظل العرْش». ورُوي عنه ﷺ أنه قال: «الناسُ، وقتَ التبديل، علَى الصِّرَاط»[7]. ورُوي أنه قال: «الناس حينئذ أضيافُ الله؛ فلا يُعجزهم ما

(١) العفرة: بياض ليس بالناصع.. انظر النهاية (عفر).

(٢) قرصة النَّقِيّ: الدقيق النقي من الغش والنخال انظر فتح الباري (١١/٣٨٣).

(٣) قال ﷺ: (يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء، كقرصة النقي، ليس فيها علَمٌ لأحد. أخرجه البخاري في (الرقاق، باب يقبض الله الأرض يوم القيامة). ومسلم في (صفات المنافقين، باب في البعث والنشور) من حديث سهل بن سعد الساعدي.

(٤) من الآية ٥٦ من سورة النساء.

(٥) من الآية ٧٠ من سورة الفرقان.

(٦) جزء من حديث الصور المشهور المروي عن أبي هريرة.

(٧) أخرجه مسلم في (صفات المنافقين وأحكامهم، باب في البعث والنشور) من حديث السيدة عائشة - رضي الله عنها.

(٨) أخرجه بنحوه ابن أبي حاتم في تفسيره (٧/٢٢٥٣) من حديث أبي أيوب الأنصاري. وانظر تفسير ابن كثير (٢/٥٤٤).

وفى سراج المريدين لابن العربى: أن الله خلق الأرض مختلفة محدودبة؛ ويخلقها يوم القيامة مستوية، لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً، متماثلة بيضاء كخبزة النقى، كما فى الصحيح، وأما تبديل السموات فليس فى كيفيتها حديث، وإنما هو مجهول. وفى حديث مسلم: «أين يكون الناس يوم تبدل الأرض؟ قال: هم على الصراط» . قال: يحتمل أنه الصراط المعروف، ويحتمل أنه اسم لموضع غيره، تستقر الأقدام عليه، وكأنه الأظهر؛ للحديث الآخر. وقد سألته عائشة ـ رضى الله عنها ـ أين يكون الناس يوم تبدل الأرض؟ قال ﷺ: «هُمْ فى الظُّلْمَةِ دُونَ الجِسْرِ»(١). والجسر: الصراط. هـ.

أما تبديل الأرض: فظاهر الآيات أنها قبل البعث والحشر، فلا يقع البعث والحشر، إلا على الأرض المبدلة؛ كقوله: ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ ﴾(٢). وقوله: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴾(٣).. ثم قال: ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ ﴾(٤). وقوله: ﴿ إذا وقعت الواقعة ﴾(٥)، ثم قال: ﴿ إذا رجت الأرض رجا وبست الجبال بسا ﴾(٦)، إلى غير ذلك من الآيات. والأرواح حينئذ أضياف الله، أو فى ظل العرش، أو دون الجسر، حيث يعلم الله. وأما تبديل السماوات فظاهر الأخبار أنه وقت وقوف الناس فى المحشر، حيث تشقق السماء بالغمام وتنزل الملائكة تنزيلا. والله تعالى أعلم.

﴿ وبرزوا للهِ الواحدِ القهار ﴾ ، أى: وبرزوا من أجداثهم؛ لمحاسبة الواحد القهار، أو لمجازاته. وتوصيفه بالوصفين؛ للدلالة على أنه فى غاية الصعوبة، كقوله: ﴿ لمن الملك اليوم لله الواحد القهار ﴾(٧)، وأن الأمر إذا كان لواحد غلاب لا يغالب فلا مستغاث لأحد إلى غيره ولا مستجار، ﴿ وترى المجرمين يومئذ مُقرَّنين ﴾ : قرن بعضهم إلى بعض ﴿ فى الأصفاد ﴾ : فى القيود، أو الأغلال، كل واحد قُرن مع صاحبه، على حسب مشاركتهم فى العقائد والأعمال، كقوله: ﴿ وإذا النفوس زُوِّجتْ ﴾(٨). أو قُرنوا مع الشياطين، أو مع ما اكتسبوا من العقائد الزائفة والأهوية الفاسدة، أو قرنت أيديهم وأرجلهم إلى رقابهم بالأغلال. فقوله: ﴿ فى الأصفاد ﴾ : متعلق بمقرنين، أو حال من ضميره. والصفد: القيد أو الغل.

﴿ سرابيلُهم ﴾ : قُمُصانُهم، والسربال: القميص، ﴿ من قَطِران ﴾ ، وهو الذى تهنأ به الإبل، أى: تدهن به. وللنار فيه اشتعال شديد، فلذلك جُعِل قَميصَ أهل النار. قال البيضاوى: وهو أسود منتن، تشتعل فيه النار بسرعة،

---

(١) أخرجه مسلم مطولاً فى (الحيض، باب بيان صفة منى الرجل والمرأة) من حديث ثوبان، مولى رسول الله ﷺ.
(٢) من الآية ٤٧ من سورة الكهف.
(٣) الآيتان ١٠٥-١٠٦ من سورة طه. (٤) من الآية ١٠٨ من سورة طه. (٥) الآية الأولى من سورة الواقعة.
(٦) الآيتان: ٤ ـ ٥ من سورة الواقعة. (٧) الآية ١٦ من سورة غافر. (٨) الآية ٧ من سورة التكوير.

يُطلى به جلود أهل النار، حتى يكون طلاؤه لهم كالقميص، ليجتمع عليهم لذع القطران ووحشة لونه ونتن ريحه، مع إسراع النار في جلودهم. على أنّ التفاوت بين القطرانين كالتفاوت بين النارين. هـ.

﴿ وتغشى وجوهَهُم النار ﴾، أي: تكسوها وتأكلها؛ لأنهم لم يتوجهوا بها إلى الحق، ولم يخضعوا بها إلى الخالق، كما تطلع على أفئدتهم؛ لأنها فارغة من المعرفة والنور، مملوءة بالجهالات والظلمة. ونظيره قوله: ﴿ أفمن يتقي بوجهه سوء العذاب يوم القيامة ﴾(١)، وقوله تعالى: ﴿ يوم يسحبون في النار على وجوههم ﴾(٢).

فعل ذلك بهم؛ ﴿ ليجزي اللهُ كلَّ نفس ما كسبت ﴾ من الإجرام، أو ما كسبت مطلقاً؛ لأنه إذا بيّن أن المجرمين معاقبون لإجرامهم؛ علم أن المطيعين يُثابون لطاعتهم. ويتعين ذلك إذا علق اللام ببرزوا. ﴿ إن الله سريع الحساب ﴾، فيحاسب الناس في ساعة واحدة؛ لأنه لا يشغله حسابٌ عن حساب، فكل شخص يظهر له أنه واقف بين يديه، يُحاسب في وقتِ حسابِ الآخر؛ لأن ذلك وقت خرق العوائد.

﴿ هذا ﴾ القرآن، أو ما فيه من الوعظ والتذكير، أو ما وصفه من قوله: ﴿ ولا تحسبن الله غافلا... ﴾(٣) إلخ، ﴿ بلاغ للناس ﴾؛ أي: كفاية لهم عن غيره في الوعظ وبيان الأحكام، يقال: أعطيته من المال ما فيه بلاغ له، أي: كفاية. أو بلاغ؛ أي: تبليغ لهم، كقوله: ﴿ إن عليك إلا البلاغ ﴾(٤)، ﴿ وما على الرسول إلا البلاغ ﴾(٥)، وقوله: ﴿ ولِيُنذروا به ﴾: عطف على محذوف، أي: لِيُنصحوا به، ولينذروا به، أو متعلق بمحذوف، أي: ولينذروا به أنزلناه، ﴿ وليعلموا أنما هو إله واحد ﴾ بالنظر والتأمل فيما فيه من الآيات الدالة على وحدانيته تعالى، أو المنبهة على ما يدل عليه. ﴿ وليذَّكَّر ﴾ أي: ليتعظ به ﴿ أولوا الألباب ﴾ أي: القلوب الصافية بالتدبر في أسرار معانيه وعجائب علومه وحكمه، فيرتدعوا عما يُرديهم، ويتذرعوا بما يحظيهم. واعلم أنه سبحانه ذكر لهذا البلاغ ثلاث فوائد، هي الغاية والحكمة في إنزال الكتاب: تكميل الرسل للناس، واستكمالهم القوة النظرية التي منتهى كمالها التوحيد، وإصلاح القوة العملية التي هي التدرع بكمال التقوى. جعلنا الله من الفائزين بغايتها. قال معناه البيضاوي.

الإشارة: قد مكر أهلُ الغفلة بالأولياء، قديماً وحديثاً، واحتالوا على إطفاء نورهم، فأبى الله إلا نصرهم وعزهم؛ (إن الله عزيز ذو انتقام) فينتقم لهم وينصرهم. ووقت نصرهم هو حين يتحقق فناؤهم عن الرسوم والأشكال، فتبدل الأرض عندهم غير الأرض والسماوات؛ فتنقلب كلها نوراً مجموعاً ببحر الأنوار، وبمحيطات أفلاك الأسرار،

(١) من الآية ٢٤ من سورة الزمر.
(٢) من الآية ٤٨ من سورة القمر.
(٣) الآية ٤٢ من سورة إبراهيم.
(٤) من الآية ٤٨من سورة الشورى.
(٥) الآية ٥٤ من سورة النور.

فتذهب ظلمة الأكوان بتجلى نور المكون، ﴿ الله نور السماوات والأرض ﴾(١). وبرزوا من سجن الأكوان لشهود الواحد القهار.

وقال الورتجبى: يريد أن أرض الظاهر وسماء الظاهر تبدل من هذه الأوصاف، وظلمة الخليقة، إلا أنها منورة بنور جلال الحق عليها، وأنها صارت مَشْرِق عيان الحق للخلق حين بدا سطوات عزته، بوصف الجبارية والقهارية بقوله: ﴿ وأشرقت الأرض بنور ربها ﴾(٢) وهناك يأخى يدخل الوجود تحت أذيال العدم؛ من استيلاء قهر أنوار القدم، قال: ﴿ كل شئ هالك إلا وجهه ﴾(٣). قيل: فأين الأشياء إذ ذاك؟ قال: عادت إلى مصادرها. وقال: متى كانوا شيئاً حتى صاروا لا شيء؟! لأنهم أقل من الهباء فى الهواء فى جنب الحق. هـ.

وترى المجرمين، وهم الغافلون، مقرنين فى قيود الأوهام، والشكوك، مسجونين فى محيطات الأكوان، سرابيلهم ظلمة الغفلة، تغشى وجوههم نارُ القطيعة، لا تظهر عليها بهجة المحبين، ولا أسرار العارفين. فعل ذلك بهم؛ ليظهر فضيلة المجتهدين. هذا بلاغ للناس، وليُنذروا به وبال الغفلة والحجاب، وليتحقق أولوا الألباب أن الوجود إنما هو للواحد القهار. وبالله التوفيق، وهو الهادى إلى سواء الطريق.

* * *

(١) من الآية ٣٥ من سورة النور.

(٢) من الآية ٦٩ من سورة الزمر.

(٣) من الآية ٨٨ من سورة القصص.

سورة الحجر

مكيـــة. وهى تسع وتسعون آية. ومناسبتها لما قبلها: قوله تعالى: ﴿**هَذَا بَلاغٌ للناس**﴾(١)، مع قوله جل جلاله: ﴿**تلْكَ آيات الكتاب**﴾؛ فهى تتميم لعنوان القرآن، وتفسير له.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ ﴿١﴾ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ
مُسۡلِمِينَ ﴿٢﴾ ذَرۡهُمۡ يَأۡكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴿٣﴾ وَمَآ أَهۡلَكۡنَا
مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٞ مَّعۡلُومٞ ﴿٤﴾ مَّا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ ﴿٥﴾ ﴾

قلت: رُب: حرف جر، تدل على التقليل غالبًا. وفيها ثمانى لغات: التخفيف، والتثقيل مع ضم الراء وفتحها بالتاء، ودونها. وتدخل عليها (ما) فتكفها عن العمل، ويجوز دخولها حينئذ على الفعل، ويكون ماضيًا، أو منزلا منزلته فى تحقيق وقوعه، وقد تدخل على الجملة الإسمية؛ كقول الشاعر:

رُبَّما الجَامِلُ المُؤَبَّـــلُ فِيــهِمْ وعَنَـــاجِيجُ بَيْنَهُنَّ المِهَـــارُ

وجملة: (إلا ولها): صفة لقرية، والأصل ألا يدخلها الواو، كقوله: ﴿**إلا لهَا مُنْذِرون**﴾(٢)، لكن لما شابهت صورة الحال دخلت عليها؛ تأكيدا لوصفها بالموصوف.

يقول الحق جل جلاله: أيها الرسول المعظم، ﴿**تلك**﴾ الآيات التى تتلوها هى ﴿**آياتُ الكتاب**﴾ الذى أنزلناه إليك، ﴿**و**﴾ آيات ﴿**قرآن**﴾ عربى ﴿**مبين**﴾؛ واضح البيان، مبينا للرشد والصواب، فمن تمسك به وآمن بما فيه كان من المسلمين الناجين، ومن تنكب عنه وكفر به كان من الكافرين الهالكين، وسيندم حين لا ينفع الندم، كما قال تعالى: ﴿**ربَمَا يودُّ الذين كفروا لو كانوا مسلمين**﴾ : متمسكين بما فيه حتى يكونوا من الناجين. وهذا التمنى قيل: يكون عند الموت، وقيل: فى القيامة، وقيل: إذا خرج العصاة من النار، وهذا أرجح؛ لحديثٍ فى ذلك(٣). ومعنى التقليل فيه: أنه تدهشهم أهوال يوم القيامة، فإن حانت منهم إفاقة فى بعض الأوقات تمنوا أن لو كانوا مسلمين.

---

(١) من الآية ٥٢ من سورة إبراهيم. (٢) من الآية ٢٠٨ من سورة الشعراء.

(٣) عن أبى موسى الأشعرى عن النبى ﷺ قال: «إذا اجتمع أهل النار فى النار، ومعهم من شاء الله من أهل القبلة، قال الكفار لمن فى النار من أهل القبلة: ألستم مسلمين؟ قالوا: بلى، قالوا: فما أغنى عنكم إسلامكم وأنتم معنا فى النار؟ قالوا: كانت لنا ذنوب فأخذنا =

قال تعالى: ﴿ ذرهم ﴾ : دعهم اليوم ﴿ يأكلوا ويتمتعوا ﴾ بدنياهم، ﴿ ويُلْهِهِمُ الأملُ ﴾ : ويشغلهم توثقهم بطول الأعمار، واستقامة الأحوال، عن الاستعداد للمعاد، ﴿ فسوف يعلمون ﴾ سوء صنيعهم إذا عاينوا جزاءهم. والأمر للتهديد، والغرض: حصول الإياس من إيمانهم، والإيذان بأنهم من أهل الخذلان، وأنَّ نصحهم بعد هذا تعب بلا فائدة. وفيه إلزام الحجة لهم. وفيه التحذير عن إيثار التنعم، وما يؤدى إليه طول الأمل من الهلاك عاجلًا وآجلاً، ولذلك قال تعالى بعدُ: ﴿ وما أهلكنا من قريةٍ إلا ولها كتابٌ معلوم ﴾ أى: أجل مقدر كتب فى اللوح المحفوظ، ﴿ ما تسبق من أمة أجلها ﴾؛ أى: أجَلَ هلاكها، ﴿ وما يستأخرون ﴾ عنه ساعة. وتذكير الضمير فى ﴿يستأخرون﴾؛ للحمل على المعنى، لأن الأمة واقعة على الناس. والله تعالى أعلم.

الإشارة: انظر هذا التهديد العظيم، والخطر الجسيم لمن تمتع بدنياه، وعكف على حظوظه وهواه: (ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون). ولله در القائل:

تَفَكَّرْتُ فِى الدُّنْيَا وفِى شَهَواتِهَا ... ولَذَّاتِهَا حَتَّى أطَلْتُ التَّفَكُّرا
وكَيْفَ يَلَذُّ العَيْشَ مَنْ هُو سَالِكٌ ... سَبِيلَ المَنَايَا رَائِحًا أوْ مُبَكِّرَا
فَلاَ خَيْرَ فِى الدُّنيا ولاَ فِى نَعِيمِهَا ... لِحُرٍّ مُقِلٍّ كَانَ أوْ مُكْثِرَا

ثم أجاب من اقترح الآيات، فقال:

﴿ وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ۝٦ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٧ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ ۝٨ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وقالوا ﴾؛ أى: كفار قريش: ﴿ ياأيها الذين نُزِّل عليه الذكْرُ ﴾ فى زعمه، أو قالوه تهكمًا، ﴿ إنك لمجنون ﴾ أى: إنك لتقول قول المجانين، حين تدعى أنه ينزل عليك الذكر، أى: القرآن. ﴿ لوْ ما ﴾: هلا ﴿ تأتينا بالملائكة ﴾ ليصدقوك فيما تدعى، أو يعضدوك على الدعوى، أو للعقاب على تكذيبنا، ﴿ إن كنت من الصادقين ﴾ فى دعواك، قال تعالى: ﴿ ما نُنَزِّلُ الملائكةَ ﴾؛ لعذابهم أو لغيره ﴿ إلا بالحق ﴾ من الوحى، والمصالح التى يريدها الله، لا باقتراح مقترح، أو اختيار كافر، أو: إلا تنزيلاً ملتبساً بالحق، أى: بالوجه

= بها، فيغضب الله تعالى لهم، بفضل رحمته، فيأمر بكل من كان من أهل القبلة فى النار فيخرجون منها، فحينئذ يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين». أخرجه ابن جرير فى التفسير، وابن أبى عاصم فى السُّنة (٤٠٥/١)، وابن أبى حاتم فى تفسيره (٢٢٥٥/٧) والحاكم فى المستدرك (٤٤٢/٢) وصححه.

الذى قدره فى الأزل، واقتضته الحكمة الإلهية، وهو أنه لا تنزل إلا باستئصال العذاب، وقد سبق فى العلم القديم أن من ذريتهم من سبقت كلمتنا له بالإيمان، أو يراد بالحق: العذاب، ويؤيده قوله: ﴿ وما كانوا إذاً منظَرين ﴾ ؛ أى: ولو نزلت الملائكة لعوجلوا، وما كانوا، إذا نزلت، مُؤخرين عن العذاب ساعة.

ثم رد إنكارهم نزولَ الذكر واستهزاءَهُمْ، فقال: ﴿ إنا نحن نزلنا الذِّكرَ ﴾ ؛ أى: القرآن، وأكده بأن وضمير الفصل، وحفظه بعد نزوله، كما قال: ﴿ وإنا له لحافظون ﴾ من التحريف، والزيادة والنقص، بأن جعلناه معجزاً، مبايناً لكلام البشر، لا يخفى تغيير نظمه على أهل اللسان. قال القشيرى: نزل التوراة، ووكَّل حفظها إلى بنى إسرائيل، بما استحفظوا من كتاب الله، فحرفوا وبدَّلوا، وأنزل القرآن، وأخبر أنه حافظه، فلا جرم أنه كتاب عزيز، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. ويقال: إنه أُخبر أنه حافظ القرآن، وإنما يحفظه بقرائه، فقلوبُ القُرَّاءِ هى خزائنُ كتابه؛ وهو لا يضيع حفظة كتابه، فإن فى ذلك تضييع كتابه. هـ.

وقال ابن عطية على قوله: ﴿ ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه ﴾(١): ذهبت جماعة من العلماء إلى أنهم بدلوا ألفاظاً من تلقائهم، وأن ذلك ممكن فى التوراة؛ لأنهم استحفظوها، وغير ممكن فى القرآن؛ لأن الله تعالى ضمن حفظه. هـ.

الإشارة: كل ما جاء فى القرآن من الإنكار على الرسل على أيدى الكفرة وتنقيصهم، والاستهزاء بهم، ففيه تسلية لمن بعدهم من الأولياء. وكذلك ما ذكره الحق تعالى من مقالات أهل الجهل فى جانبه؛ كقوله: ﴿ لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ﴾(٢)، وقوله: ﴿ وقالت اليهود يد الله مغلولة ﴾(٣) ، إلى غيرذلك من مقالات أهل الجهل، فكأن الحق تعالى يقول: لو سلِم أحد من الناس، لسلمتُ أنا وأنبيائى، الذين هم خاصة خلقى، فليكن بى وبرسلى أسوة لمن أُوذى من أوليائى. وبالله التوفيق.

ثم تمم تلك التسلية، فقال:

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ (١٠) وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ
يَسْتَهْزِءُونَ (١١) كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (١٢) لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ
(١٣) وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ (١٤) لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ
قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ (١٥) ﴾

---

(١) من الآية ٧٥ من سورة البقرة.
(٢) من الآية ١٨١ من سورة آل عمران.
(٣) من الآية ٦٤ من سورة المائدة.

يقول الحق جل جلاله في تسلية رسوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: ﴿ **ولقد أرسلنا من قَبْلك** ﴾ رسلا ﴿ **في شِيَعِ** ﴾ : فرق ﴿ **الأولين** ﴾ أي: القرون الماضين، جمع شيعة، وهي: الفرقة المتفقة على طريق واحد، وتتشيع لمذهب أو رجل، من شاعه إذا تبعه، أي: نبأنا رجالاً فيهم، وجعلناهم رسلاً إليهم، فكذبوهم واستهزءوا بهم، فكانوا: ﴿ **ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزءون** ﴾ كما يفعل بك هؤلاء المجرمون.

﴿ **كذلك نَسْلُكُه** ﴾ أي: ندخل الاستهزاء ﴿ **في قلوب المجرمين** ﴾ . والسلك: إدخال الشيء في الشيء كالخيط في المخيط، وفيه دليل على أنه تعالى يخلق الباطل في قلوبهم. وإذا سلك في قلوبهم التكذيب ﴿ **لا يؤمنون به** ﴾ أبداً. أو: نسلكه، أي: القرآن؛ مستهزءاً به، أي: مثل ذلك السلك نسلك الذكر في قلوب المجرمين؛ مُكَذَّباً غير مؤمن به، ثم هددهم على عدم الإيمان به، فقال: ﴿ **وقد خلت سُنَّةُ الأولين** ﴾ أي: تقدمت طريقتهم على هذه الحالة من الكفر والاستهزاء، حتى هلكوا بسبب ذلك، أو مضت سنته في الأولين بإهلاك من كذب الرسل منهم، فيكون وعيداً لأهل مكة.

﴿ **ولو فتحنا عليهم** ﴾ أي: على هؤلاء المقترحين المعاندين من كفار قريش، ﴿ **باباً من السماء فظلوا فيه يعرُجون** ﴾ : يصعدون إليها، ويرون عجائبها طول نهارهم، لكذبوا، أو فظلت الملائكة يعرجون فيها وهم يشاهدونهم لقالوا؛ من شدة عنادهم وتشكيكهم في الحق: ﴿ **إنما سُكِّرتْ** ﴾ : حيرت ﴿ **أبصارُنا** ﴾ ، فرأينا الأمر على غير حقيقته؛ من أجل السكر الذي أصابنا بالسحر.

ويحتمل أن يكون مشتقاً من السَكر بفتح السين، وهو السد، أي: سُدَّت أبصارنا، ومُنعنا من الرؤية الحقيقية. ﴿ **بل نحن قوم مسحورون** ﴾ ؛ سحرنا محمد، كما قالوا عند ظهور غيره من الآيات. قال البيضاوي: وفي كلمتي الحصر والإضراب دلالة على جزمهم بأن مايرونه لا حقيقة له، بل هو باطل خُيِّل ما خيل لهم بنوع من السحر. هـ. وذلك من فرط عنادهم، وشقاوتهم. والعياذ بالله.

الإشارة: هذا كله من قبيل التسلية لأهل الخصوصية، إذا قوبلوا بالإنكار والاستهزاء، فيرجعون إلى الله، والاكتفاء بعلمه، والاشتغال بالله عنه. وقد قال شيخ شيوخنا سيدي علي الجمل ﷺ : عداوة العدو حقًا هي اشتغالك بمحبة الحبيب، وأما إذا اشتغلت بعداوة العدو نال مراده منك، وفاتتك محبة الحبيب. وقال الولي الصالح سيدي أبو القاسم الخصاصي ﷺ لبعض تلامذته: لا تشتغل قط بمن يؤذيك، واشتغل بالله يرده عنك، فإنه هو الذي حركه عليك، ليختبر دعواك في الصدق. وقد غلط في هذا الأمر خلق كثير اشتغلوا بإيذاء من آذاهم، فدام الأذى مع الإثم، ولو أنهم رجعوا إلى الله لردهم عنهم، وكفاهم أمرهم . هـ .

ثم دلهم على المعجزة الحقيقية، التي تدلهم على التوحيد الذي فيه نجاتهم، فقال:

﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ
رَجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ ﴿١٨﴾ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا
رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ ﴿٢٠﴾
وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴿٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا
مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ ﴿٢٣﴾
وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ **ولقد جعلنا فى السماء بروجا** ﴾؛ اثنى عشر برجًا، وهى: الحَمَل، والثور، والجَوْزاء، والسرطان، والأسد، والسُّنبلة، والميزان، والعقرب، والقوس، والجدْى، والدلو، والحوت، والبرج عبارة عن قطعة فى الفلك تقطعها الشمس فى شهر؛ فتقطع البروج كلها فى سنة، ستة يمانية، وستة شمالية، وهى مختلفة الهيئات والخواص، على ما دل عليه الرصد والتجربة، وكل ذلك بقدرة المدبر الحكيم. قال تعالى: ﴿ **وزيَّناها** ﴾ بالأشكال والهيئات البهية ﴿ **للناظرين** ﴾ المعتبرين؛ ليستدلوا بها على قدرة مبدعها، وتوحيد صانعها. ﴿ **وحفظناها من كل شيطانٍ رجيم** ﴾: مرجوم، فلا يقدر أن يصعد إليها ليسترق السمع منها، أو يوسوس أهلها، أو يتصرف فى أمرها، أو يطلع على أحوالها.

﴿ **إلا من استَرَق السمعَ** ﴾ أى: حفظناها من الشياطين، إلا من استرق منها. والاستراق: الاختلاس، رُوى أنهم يركبون بعضهم بعضاً حتى يصلوا إلى السماء، فيسمعون أخبار السماء من الغيب، فيخطف الجن الكلمة قبل الرمى فيلقيها إلى الكهنة، ويخلط معها مائة كذبة، كما فى الصحيح. ورُوى عن ابن عباس: أنهم كانوا لا يحجبون عن السماوات، فلما ولد عيسى عليه السلام مُنعوا من ثلاث سماوات، فلما وُلد محمد ﷺ مُنعوا من كلها بالشهب. وقيل: الاستثناء منقطع، أى: ولكن من استرق السمع، ﴿ **فأتْبَعه** ﴾ لحقه ﴿ **شهابٌ مبين** ﴾؛ ظاهر للمبصرين. والشهاب: شُعلة نار يقتبسها الملك من النجم، ثم يضرب به المسترق، وقيل: النجوم هى التى تضرب بنفسها، فإذا أصابت الشيطان قتلته أو خبلته فيصير غولاً.

ثم ذكر معجزة الأرض فقال: ﴿ **والأرضَ مددناها** ﴾: بسطناها، ﴿ **وألقينا فيها رواسىَ** ﴾؛ جبالاً ثوابت، ﴿ **وأنبتنا فيها** ﴾؛ فى الأرض، أو فيها وفى الجبال ﴿ **من كل شيء موزون** ﴾؛ مقدر بمقدار معين تقتضيه

حكمته. فالوزن مجاز، أو ما يوزن حقيقة كالعشب النافعة، أو كالذهب والفضة وسائر الأطعمة. ﴿ **وجعلنا لكم فيها معايش** ﴾ تعيشون بها من المطاعم والملابس، ﴿ و ﴾ خلقنا لكم ﴿ **من لستم له برازقين** ﴾ من الولدان والخدمة والمماليك، وسائر ما تظنون أنكم ترزقونهم ظناً كاذبا؛ فإن الله يرزقكم وإياهم.

قال البيضاوى: وفذلكة الآية: الاستدلال بجعل الأرض ممدودة بمقدار معين، مختلفة الأجزاء فى الوضع، محدثة فيها أنواع النباتات والحيوان المختلفة خلقة وطبيعة، مع جواز ألا تكون كذلك؛ على كمال قدرته، وتناهي حكمته، والتفرد في ألوهيته، والامتنان على العباد بما أنعم فى ذلك ليوحدوه ويعبدوه. ثم بالغ فى ذلك فقال: ﴿ **وإن من شيء إلا عندنا خزائنه** ﴾ أى: وما من شيء إلا ونحن قادرون على إيجاده وتكوينه أضعاف ما وجد منه، فضرب الخزائن مثلاً لاقتداره، أو شبه مقدوراته بالأشياء المخزونة التى لا يحوج إخراجها إلى كلفة واجتهاد. هـ. قال ابن جزى: ﴿ **وإن من شيء إلا عندنا خزائنه** ﴾؛ قيل: المطر، واللفظ أعم من ذلك، والخزائن: المواضع الخازنة، وظاهر هذا أن الأشياء موجودة قد خلقت. هـ. ﴿ **وما نُنزِّله** ﴾ أى: نبرزه من عالم الغيب إلى عالم الشهادة، ﴿ **إلا بقَدرٍ معلوم** ﴾: بمقدار محدود فى وقت معلوم اقتضته الحكمة وتعلقت به المشيئة، لا يزيد ولا ينقص على ما سبق به العلم.

﴿ **وأرسلنا الرياحَ لواقحَ** ﴾: حوامل للماء فى أوعية السحاب، يقال: لقحت الناقة والشجرة إذا حملت، فهى لاقحة، وألْقَحَتْ الريحُ الشجرَ فهى ملقحة. ولواقح: جمع لاقحة، أى: حاملة، أو جمع ملقحة على حذف الميم الزائدة، فهى على هذا ملقحة للسحاب أو الشجر، ونظيره: الطوائح، بمعنى المطيحات فى قوله:

ومُخْتَبِـط مِمَّـا تُطِيـحُ الطَّـوائحُ(١)

والرياح أربعة: صَبًا، ودَبُور، وجَنوب، وشمال. والعرب تسمى الجنوب الحامل واللاقحة، وتسمى الشمال الحائل والعقيم. وفى البخارى ﷺ: «نُصِرْتُ بالصَّبَا، وأُهْلِكَتْ عادٌ بالدَّبُور»(٢). وروى أبو هريرة رضي الله عنه، عنه ﷺ أنه قال: «الريحُ الجنوب من الجنة، وهى اللواقح التى ذكرالله، وفيها منافع للناس»(٣). وفى حديث: «الرِّيحُ مِنْ نفس الرحمن»(٤). والإضافة هنا إضافة خلق إلى خالق، كما قال: ﴿ **من روحى** ﴾ (٥). ومعنى نفس الرحمن، أى:

---

(١) عجز بيت صدره: (لبيك يزيد ضارع لخصومة). وينسب البيت لأكثر من واحد، والمختبط: طالب العرف المحتاج، تطيح: تذهب وتهلك، والطوائح: جمع المطيحة، بمعنى السنين أو الجوائح. انظر حاشية الشهاب (٥/٢٨٩).

(٢) أخرجه البخارى؛ (كتاب الاستسقاء، باب إذا هبت الريح) من حديث ابن عباس - رضي الله عنه -.

(٣) أخرجه ابن جرير فى تفسيره. ووزاد السيوطى، فى الدر المنثور (٤/١٧٩)، عزوه لابن أبى الدنيا فى كتاب السحاب، وأبى الشيخ فى العظمة، والديلمى فى المسند، وابن مردويه، من حديث أبى هريرة.

(٤) أخرجه أبو داود فى (الأدب، باب: ما يقول إذا هاجت الريح)، عن أبى هريرة، مرفوعاً، بلفظ: (الريح من روح الله)؛ مطولاً.

(٥) من الآية ٢٩ من سورة الحجر.

من تنفيسه وإزالة الكرب والشدائد، فمن التنفيس بالريح: النصر بالصبا، وذر الأرزاق بها، وجلب الأمطار، وغير ذلك مما يكثر عده. قاله ابن عطية.

والمختار في تفسير اللواقح: أنها حاملة للماء، بدليل قوله: ﴿ **فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه** ﴾ أي: جعلناه لكم سقيا. يقال: سقى وأسقى بمعنى واحد عند الجمهور. ﴿ **وما أنتم له بخازنين** ﴾: بممسكين له في الجبال، والغدران، والعيون، والآبار، فتخرجونه متى شئتم، بل ذلك من شأن المدبر الحكيم، فإن طبيعة الماء تقتضي الغور، فوقوفه دون حد لابد له من مسبب مخصص، وجريه بلا انتهاء لا يكون إلا بقدرة السميع العليم، الذي لا تتناهى قدرته. أو: ﴿ **وما أنتم له بخازنين** ﴾؛ بقادرين متمكنين من إخراجه وقت الاحتياج إليه. نفى عنهم ما أثبته لنفسه بقوله: ﴿ **عندنا خزائنه** ﴾.

﴿ **وإنا لنحن نُحيي ونُميت** ﴾ أي: نحيي من نريد إحياءه بإيجاد الحياة فيه، ونميت من نريد إماتته بإزالة الحياة منه. وقد أول الحياة بما يعم الحيوان والنبات. وتكرير الضمير؛ للدلالة على الحصر. ﴿ **ونحن الوارثون** ﴾: الباقون إذا مات الخلائق كلهم.

﴿ **ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين** ﴾ أي: علمنا من تقدم؛ ولادةً، ومن تأخر، أو من خرج من أصلاب الرجال ومن لم يخرج بعدُ، أو من تقدم إلى الإسلام والجهاد وسبق إلى الطاعة، ومن تأخر، لا يخفى علينا شيء من أحوالكم. وهو بيان لكمال علمه بعد الاحتجاج على كمال قدرته، فإنَّ ما يدل على كمال قدرته دليل على كمال علمه. قيل: رغَّب رسولُ الله ﷺ في الصف الأول، فازدحموا عليه، فنزلت، وقيل: إن امرأة حسناء كانت تصلي خلف رسول الله ﷺ، فتقدم بعض القوم؛ لئلا ينظر إليها، وتأخر بعض؛ ليبصرها، فنزلت(١). قاله البيضاوي.

﴿ **وإن ربك هو يحشرهم** ﴾ لا محالة للجزاء، كأن هذا هو الغرض من ذكر العلم بالمتقدمين والمتأخرين؛ لأنه إذا أحاط بهم علماً لم تصعب عليه إعادتهم وحشرهم. ﴿ **إنه حكيمٌ** ﴾ باهر الحكمة، ﴿ **عليم** ﴾؛ واسع العلم والإحاطة بكل معلوم. قال البيضاوي: وفي توسيط الضمير - يعني في قوله: ﴿ **هو يحشرهم** ﴾؛ للدلالة على أنه القادر والمتولي لحشرهم لا غيره، وتصدير الجملة بأن؛ لتحقيق الوعيد والتنبيه على أن ما سبق من الدلالة على كمال قدرته وعلمه بتفاصيل الأشياء يدل على صحة الحكم. هـ.

الإشارة: ولقد جعلنا في سماء قلوب العارفين بروجاً، وهي المقامات التي ينزلون فيها بشموس عرفانهم، وهي: التوبة، والخوف، والرجاء، والورع، والزهد، والصبر، والشكر، والرضى، والتسليم، والمحبة، والمراقبة،

والمشاهدة. وزيناها للناظرين؛ أي: السائرين حتى يقطعوها جملة محمولين بعناية الجذب، حتى يَحْلُو لهم ما كان مُراً على غيرهم، وحفظنا سماء قلوبهم من طوارق الشيطان، إلا ما كان طيفًا خياليًا لا يثبت، بل يتبعه شهاب الذكر فيحرقه، وأرضَ النفوس مددناها لقيام رسم العبودية، وظهور عالم الحكمة وآثار القدرة، وألقينا فيها جبال العقول الرواسى، لتعرف الرب من المربوب الذى اقتضته الحكمة. وأنبتنا فيها من العلوم الرسمية والعقلية، ما قدر لها فى العلم المكنون، وجعلنا لكم فيها من علم اليقين، وعين اليقين، وحق اليقين ما تتقوت به قلوبكم، وتعيش به أرواحكم وأسراركم، وتعولون به من لستم له برازقين من المريدين السائرين.

سُئل سهل رضي الله عنه عن القوت، فقال: هو الحى الذى لا يموت، فقيل: إنما سألناك عن القوام. فقال: القوام هو العلم، فقيل: سألناك عن الغذاء، فقال: الغذاء هو الذكر، فقيل: سألناك عن طعام الجسد، فقال: مالَكَ وللجسد، دع من تولاّه أولاً يتولاه آخراً، إذا دخلت عليه علة رده إلى صانعه، أما رأيت الصنعة إذا عيبت ردوها إلى صانعها حتى يصلحها. وأنشدوا:

يَا خَادِمَ الجِسْمِ كَمْ تَشْقَى بِخِدْمتِهِ ... وَتَطْلُب الربْـحَ ممـا فيه خُسْرَانُ

عليك بالنفسِ فاسـتكمل فضيلتـها ... فأنت بالنفـس لا بالجسم إنســانُ

واستكمال فضيلة النفس هو تزكيتها وتحليتها حتى تشرق عليها أنوار العرفان، وتخرج من سجن الأكوان. وبالله التوفيق. ثم قال تعالى: ﴿وإن من شيء﴾ من الأرزاق المعنوية والحسيه، أو العلوم اللدنية، والفتوحات القدسية، ﴿إلا عندنا خزائنه﴾؛ فمن توجه بكليته إلينا فتحنا له خزائن غيبنا، وأطلعناه على مكنون سرنا شيئاً فشيئا، ﴿وما نُنزله إلا بقدر معلوم﴾. وقال الورتجبى: عِلْم الإشارة فى الآية: دعوة العباد إلى حقائق التوكل، وهى: قطع الأسباب، والإعراض عن الأغيار، قيل: كان الجنيد رضي الله عنه إذا قرأ هذه الآية ؛ ﴿وإن من شيء إلا عندنا خزائنه﴾ ، قال : فأين تذهبون؟. وقال حمدون: قطع أطماع عبيده عمن سواه بقوله: ﴿وإن من شئ إلا عندنا خزائنه﴾، فمن رفع بعد هذا حاجته إلى غيره، فهو لجهله ولؤمه. هـ.

وأرسلنا رياح الهداية لواقح، تلقح الطمأنينة والمعرفة فى قلوب المتوجهين، وتلقح اليقين والتوفيق فى قلوب الصالحين، وتلقح الإيمان والهداية فى قلوب المؤمنين، فأنزلنا من سماء الغيب ماء العلم اللدنى، فأسقيناكموه على أيدى وسائط الشيوخ، أو بلا واسطة، وما أنتم له بخازنين، بل يفيض على قلوبكم عند غلبة الحال، أو لهداية مريد، أو عند الاحتياج إليه عند استفتاح القلوب، وإنا لنحن نُحيى قلوباً بالمعرفة واليقين، ونُميت قلوباً بالجهل والكفر، ونحن الوارثون؛ لبقاء أنوارنا على الأبد. ولقد علمنا المستقدمين منكم إلى حضرة قدسنا بالاستعداد، وإعطاء الكلية

من نفسه، ولقد علمنا المستأخرين عنها بسبب ضعف همته، وإن ربك هو يحشرهم؛ فيُقرب قومًا لسبقهم، ويبعد آخرين لتأخرهم. إنه حكيم عليم.

ثم ذكر أول نشأة الثقلين، ليدل بها على الحشر والإعادة، فقال:

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ ﴾

قلت: قال في الصحاح: الحَمأُ المسْنُونُ: المنتن المتغير. وسُنَّةُ الوجه: صورته، ثم قال: والمسْنُونُ: المصوَّرُ، وقد سَنَنْتُهُ أَسُنُّه سنًّا إذا صوَّرتُه، والمسْنُونُ: المُمَلَّسُ. وفي القاموس: الحَمأُ المسْنُونُ: المنْتِنُ، ورجلٌ مَسْنُونُ الوجه: مُمَلَّسُهُ، حَسَنُهُ، سَهْلُهُ. أو في وَجْهِهِ وأَنْفِهِ طُولٌ. وسنن الطين: عمله فخاراً. هـ. وفي ابن عطية: هو من سننت السكين والحجر: إذا أحكمت تلميسه. انظر بقية كلامه. وموضع ﴿من حمأ﴾: نعت لصلصال، أي: كائن من حمأ. و(الجان): منصوب بمحذوف يفسره ما بعده.

يقول الحق جل جلاله: ﴿**ولقد خلقنا الإنسانَ**﴾؛ أي: أصله، وهو آدم، ﴿**من صلصَال**﴾ أي: طين يابس يصلصل. أي: يصوت إذا نقر فيه وهو غير مطبوخ، فإذا طُبخ فهو فخار، ﴿**من حمأ**﴾: من طين أسود ﴿**مسنون**﴾: متغير منتن، من سننت الحجر على الحجر إذا حككته به؛ فإنَّ ما يسيل بينهما يكون منتناً، ويسمى سنيناً. أو مسنون: مصور، أو مصبوب لينصور، كالجواهر المذابة تصب في القوالب، من السن، وهو الصب، كأنه أفرغ الحمأ فصور منها تمثال إنسان أجوف، فيبس حتى إذا نقر صلصل، ثم غير ذلك طوراً بعد طور حتى سواه ونفخ فيه من روحه.

﴿**والجانَّ**﴾ وهو: إبليس الأول، ومنه تناسلت الجن، ﴿**خلقناه من قبلُ**﴾ أي: من قبل خلق الإنسان، ﴿**من نار السَّمُوم**﴾: من نار الحر الشديد النافذ في المسام، ولا يمتنع خلق الحياة في الأجرام البسيطة، كما لم يمتنع خلقها في الجواهر المجردة، فضلاً عن الأجساد المؤلفة، التي الغالب فيها الجزء الناري، فإنها أقبل منها لها من التي الغالب فيها الجزء الأرضي. وقوله: ﴿**من نار**﴾: لاعتبار الغالب، كقوله: ﴿**خلقكم من تراب**﴾(١). ومساق الآية كما هو للدلالة على قدرة الله تعالى، وبيان بدء خلق الثقلين، فهو للتنبيه على المقدمة الثانية التي يتوقف عليها إمكان الحشر، وهو قبول المواد للجمع والإحياء. قاله البيضاوي.

(١) من الآية ١١ من سورة فاطر.

الإشارة : اعلم أن الخمرة الأزلية، حين تجلت فى مرائى جمالها، تلونت فى تجليها، فتجلت نورانية ونارية، ومائية وترابية، وسماوية وهوائية، إلى غير ذلك من ألوان تجلياتها، فكانت الملائكة من النور، والجن من النار، والآدمى من التراب، إلا أن الآدمى فيه روح نورانية سماوية، فاجتمع فيه الضدان: النور والظلمة؛ فشرف قدره فى الجملة، فاستحق الخلافة، فإذا غلبت روحانيته على جسمانيته فضل على جميع التجليات، وما مثاله إلا كالمرآةالتى خلفها الطلاءُ، فينطبع فيه الوجود بأسره، إذا صقلت مرآة قلبه، فتكون معرفته بالحق أجلى وأنصع من معرفة غيره؛ لأن المرآة التى خلفها الطلاء يتجلى فيها ما يقابلها أكثر من غيرها. وأيضا بشرية الآدمى كالياقوتة السوداء إذا صقلت كانت أعظم اليواقيت. وسيأتى بقية الكلام عند قوله تعالى: ﴿ **ولقد كرمنا بنى آدم** ﴾(١) إن شاء الله.

ثم ذكر تشريف آدم الملائكة بالسجود له، فقال:

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (٢٨) فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ (٢٩) فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٣٠) إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ (٣١) قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ (٣٢) قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (٣٣) قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (٣٤) وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ (٣٥) قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (٣٦) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ (٣٧) إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ (٣٨) قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٣٩) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ (٤٠) قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ (٤١) ﴾

قلت : (وإذْ قال): ظرف لاذكر، وقوله: (فقَعُوا): أمْرٌ، من وقَع، يقع، قَعْ ، فهو مما حُذفت فاؤه. وقوله: ﴿فسجد﴾ معطوف على محذوف، أى: فخلقه، وأمر الملائكة فسجدوا.

---

(١) من الآية ٧٠ من سورة الإسراء.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ و ﴾ اذكر يا محمد ﴿ **إذْ قال ربك للملائكة** ﴾، قبل خلق آدم: ﴿ **إني خالق بشرًا من صلْصَالٍ من حمأٍ مسنونٍ** ﴾، وصفه لهم بذلك ليظهر صدق من يمتثل أمره، قال تعالى: ﴿ **فإذا سويتُه** ﴾: عدلت خلقته وهيأتها لنفخ الروح فيها، ﴿ **ونفختُ فيه من روحي** ﴾؛ حين جرى آثاره في تجاويف أعضائه فحيي، وأصل النفخ: إجراء الروح في تجويف جسد آخر. ولما كان الروح يتعلق أولاً بالبخار اللطيف المنبعث من القلب، وتفيض عليه القوة الحيوانية فيسرى في تجاويف الشرايين إلى أعماق البدن، جعل تعلقه بالبدن نفخًا. قاله البيضاوي. وأضاف الروح إلى نفسه إضافة ملك إلى مالك، أي: من الروح الذي هو لي، وخلق من خلقي.

فإذا نفختُ فيه ﴿ **فَقَعُوا** ﴾: فاسقطوا ﴿ **له ساجدين. فسجد الملائكةُ** ﴾ حين أكمل خلقته، وأمرهم بالسجود، وقيل: اكتفى بالأمر الأول، ﴿ **كلُّهم أجمعون** ﴾، أكد بتأكيدين للمبالغة في التعميم ومنع التخصيص، ﴿ **إلا إبليس أبى** ﴾: امتنع ﴿ **أن يكون مع الساجدين** ﴾، قال البيضاوي: إن جُعِل الاستثناء منقطعاً اتصل به قوله: ﴿ **أبىَ** ﴾؛ أي: لكن إبليس أبَى أن يسجد(١)، وإن جُعِل متصلاً كان قوله ﴿ أبَى ﴾: استئنافاً، على أنه جواب سائل قال: هلا سجد؟ فقال: أبى..الخ. **قلت**: والأحسن: أن يقدر السؤال بعد قوله: ﴿ **إلا إبليس أبى** ﴾ أي: وما شأنه؟ فقال: أبى أن يكون مع الساجدين.

قال تعالى: ﴿ **يا إبليسُ مالكَ** ﴾؛ أيّ شيء عرض لك، ﴿ **ألا تكونَ مع الساجدين** ﴾ لآدم؟ ﴿ **قال لم أكن لأسجُدَ** ﴾ أي: لا يصح مني، بل ينافي حالي أن أسجد ﴿ **لبشرٍ** ﴾ جسماني كثيف، وأنا روحاني لطيف، وقد ﴿ **خلقتَه من صلصالٍ من حمأٍ مسنونٍ** ﴾، وهو أخس العناصر، وخلقتني من نار وهي أشرفها. استنقص آدم من جهة الأصل، وغفل عن الكمالات التي خصه الله بها، منها: أنه خلقه بيديه بلا واسطة، أي: بيد القدرة والحكمة، بخلاف غيره، ومنها: أنه خصه بالعلوم التي لم توجد عند غيره من الملائكة، ومنها: أنه نفخ فيه من روحه المضافة إلى نفسه، ومنها: أنه جعله خليفة في أرضه... إلى غير ذلك من الخواص التي تشرف بها فاستحق السجود.

---

(١) وهذا هو الصحيح؛ فإبليس، بنص الآية السابقة عن خلق الجان، قد خُلق من نار السموم، فهذا نص في اختلاف خلقته، وخلقه، عن الملائكة، فهو جنس آخر غير الملائكة التي خلقها الله من نور، ولا يعصون الله ما أمرهم، فهذان دليلان قطعيان في الثبوت والدلالة، على أن إبليس ليس، ولم يكن من الملائكة، لاخلْقاً ولاخلُقاً، فالاستثناء منقطع.

قال له تعالى لمَّا امتنع واستكبر: ﴿ فاخرجْ منها ﴾ أي: من السماء، أو من الجنة، أو من زمرة الملائكة، ﴿ فإنك رجيمٌ ﴾: مطرود من الخير والكرامة؛ فإنَّ من يُطرد يُرجم بالحجر، أو شيطان يرجم بالشهب، فهو وعيد يتضمن الجواب عن شبهته، أي: ليس الشرف بالأصل، إنما الشرف بالطاعة والقرب. ﴿ وإن عليك اللعنةَ ﴾: الطرد والإبعاد ﴿ إلى يوم الدين ﴾؛ يوم الجزاء، ثم يتصل باللعن الدائم. وقيل: إنما حد اللعن لأنه أبعد غاية يضربها الناس، أو لأنه يعذب فيه بما ينسى اللعن، فيصير كأنه زال عنه ذلك اللعن.

﴿ قال ربِّ فأنْظِرنى ﴾: أخرنى ﴿ إلى يوم يُبعثون ﴾، أراد أن يجد فسحة فى الإغواء، ونجاة من الموت، إذ لا موت بعد وقت البعث، فأجابه إلى الأول دون الثانى، ﴿ قال فإنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم ﴾: المعين فيه أجلك عند الله، وانقراض الناس كلهم، وهو النفخة الأولى عند الجمهور.

وهذه المخاطبة، وإن لم تكن بواسطة، لا تدل على منصب إبليس؛ لأن خطاب الله له على سبيل الإهانة والإذلال. قاله البيضاوى. وجزم ابن العربى، فى سراج المريدين، بأن كلام الحق تعالى إنما كان بواسطة، قال: لأن الله لا يكلم الكفار الذين هم من جند إبليس، فكيف يكلم من تولى إضلالهم. هـ. وتردد المازِرىُّ فى ذلك وقال: لا قاطع فى ذلك، وإنما فيه ظواهر، والظواهر لاتفيد اليقين. ثم قال: وأما قوله: ﴿ ما منعك أن تسجد ﴾: فيحتمل أن يكون بواسطة أو بغيرها، تقول العرب: كلمت فلاناً مشافهة، بالكلام، وتارة بالبعث. هـ. قلت: الظاهر أنه كلمه بلا واسطة من وراء حجاب، كلامَ عتابٍ وإهانة، كما يوبخ الكفار يوم القيامة، مع أن الواسطة محذوفة عند المحققين، وإن وُجِدَتْ، صُورةً.

ثم قال: ﴿ ربِّ بما أغويتنى ﴾ أي: بسبب إغوائك لى، ﴿ لأُزَيِّنَنَّ لهم فى الأرض ﴾، وقيل: الباء للقسم، أى: بقدرتك على إغوائى، لأزينن لهم المعاصى والكفر فى الدنيا، التى هى دار الغرور. قال ابن عطية: قوله: ﴿ ربِّ ﴾: مع كفره، يُخرج على أنه يقر بالربوبية والخلق، وهذا لا يدفع فى صدر كفره. وقال، على قوله: ﴿لم أكن لأسجد﴾: ليس هذا موضع كفره عند الحذاق؛ لأن إبايته إنما هى معصية فقط، أى: وإنما كفره لاعتراضه لأمر الحق واستكباره. وأما قوله وتعليله فإنما يقتضي أن آدم مفضول، وقد أمره أن يسجد لمن هو أفضل منه، فرأى أن ذلك جور، فقاس وأخطأ، وجهل أن الفضائل إنما هى حيث جعلها الله تعالى المالك للجميع. هـ. مختصراً. وقال المازرى: أما كفر إبليس فمقطوع به؛ لقوله: ﴿ استكبر وكان من الكافرين ﴾[١] ثم قال: ويؤكده قوله: ﴿ ربِّ بما أغويتنى ﴾، وقوله: ﴿ لأملأن جهنم منك . . . ﴾ الآية[٢]، وغير ذلك من ظواهر ما يدل على كفره.

---

(١) من آية ٣٤ من سورة البقرة.

(٢) الآية ٨٥ من سورة (ص).

وأما: هلْ حدث هذا الكفر بعد إيمان سابق، أو لم يزل كافراً منذ كان؟ فهذا لا يحصله إلا نص قرآن، أو خبر متواتر، أو إجماع أمة، وهي المحصلة للعلم، وهذه الثلاثة مفقودة هنا. هـ. قلت: والظاهر أن كفره لم يظهر إلا بعد الأمر بالسجود لآدم، وإنما سبق به العلم القديم، وكان قد أظهر الإيمان والعبادة والله تعالى أعلم.

وقوله : ﴿ **ولأغوينّهم أجمعين** ﴾ ؛ أي: لأحملنهم على الغواية أجمعين، ﴿ **إلا عبادكَ منهم المخلَصين** ﴾ ؛ الذين أخلصتهم لطاعتك، وطهرتهم من الشهوات، فلا يعمل فيهم كيدي. ومن قرأ بالكسر فمعناه: الذين أخلصوا دينهم لله، وتحصنوا بالإخلاص في سائر أعمالهم. ﴿ **قال** ﴾ تعالى: ﴿ **هذا صراطٌ عليَّ مستقيمٌ** ﴾ ، الإشارة إلى نجاة المخلصين، أو إلى العبادة والإخلاص، أي: هذا الطريق الذي سلكه أهل الإخلاص في عبوديتهم هو طريق وارد عليَّ، وموصل إلى جِواري، لا سبيل لك على أهله؛ لأنه مستقيم لا عوج فيه. وقيل: الإشارة إلى انقسام الناس إلى غاو ومخلص، أي: هذا أمر إليَّ مصيره، والنظر فيه لي، عليَّ أن أراعيه وأبينه، مستقيم لا انحراف فيه. وقرأ الضحاك ومجاهد والنخعي، وغيرهم: «علِيٌّ»؛ بكسر اللام والتنوين، من العلو والشرف، والإشارة حينئذ إلى الإخلاص، أي: هذا الإخلاص طريق رفيع مستقيم لا تنال أنت بإغوائك أهلَه يا إبليس.

الإشارة: إنما يصعب الخضوع للجنس أو لمن دونه، في حق من يغلب حسه على معناه، وفرقُه على جمعه، وأما من غلب معناه على حسه، حتى رأى الأشياء الحسية أواني حاملة للمعاني، أي : لمعاني أسرار الربوبية، بل رآها أنواراً بارزة من بحر الجبروت، لم يصعب عليه الخضوع لشيء من الأشياء؛ لأنه يراها قائمة بالله، ولا وجود لها مع الله، فلا يخضع حينئذ إلا لله، فالملائكة ـ عليهم السلام ـ نفذت بصيرتهم، فرأوا آدم عليه السلام قبلة للحضرة القدسية، فغلب عليهم شهود المعاني دون الوقوف مع الأواني، فخضعوا لآدم صورةً، ولله حقيقة. وإبليس وقف مع الحس، وحجب بالفرق عن الجمع، فلم ير إلا حس آدم دون معناه، فامتنع عن السجود. وفي الحِكَم العطائية: «فمن رأى الكون، ولم يشهد الحق فيه، أو عنده، أو قبله، أو بعده، أو معه، فقد أعوزه وجود الأنوار، وحجبت عنه شموس المعارف بسحب الآثار». ولهذا المعنى صعب الخضوع للأشباح؛ لغلبة الفرق على الناس، إلا من سبقت له العناية، فإنه يخضع مع الفرق؛ محبةً لله، حتى يفتح الله عليه في مقام الجمع، فيخضع لله وحده. والتوفيق لهذا، والسير على منهاجه ـ أعني الخضوع لمن يوصل إلى الله ـ هو الصراط الذي أشار إليه الحق تعالى بقوله: (هذا صراط علَيَّ مستقيم) . والله تعالى أعلم.

ثم ذكر من لا تسلط للشيطان عليه، فقال:

﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ

جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾

قلت: (إلا من اتبعك): يحتمل أن يكون منقطعاً، ويريد بالعباد: الخصوص من أهل الإيمان والإخلاص، أى: إن عبادى المخلَصين لا تسلط لك عليهم، لكن من اتبعك من الغاوين فهو من حزبك. ويحتمل الاتصال، ويريد بالعباد جميع الناس، أى: إن عبادى كلهم ليس لك عليهم سلطان، إلا من اتبعك من أهل الغواية، فإنك تتسلط عليه بالوسوسة والتزيين والتحريض فقط، فيتبعك؛ لقوله يوم القيامة: ﴿ **وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى** ﴾(١). وعلى الإتصال يكون المستثنى منه أكثر من المستثنى، وإلا تناقض مع قوله: ﴿لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين﴾. قال أبو المعالى: كون المستثنى أكثر من المستثنى منه ليس معروفاً في كلام العرب. انظر ابن عطية والبيضاوى .

و﴿منهم﴾: حال من جزء مقدم، أى: لكل باب جزء حاصل منهم مقسوم، أو من المستكن فى الظرف لا من مقسوم؛ لأن الصفة لا تعمل فيما تقدم موصوفها. و﴿إخواناً ﴾: حال من الضمير المضاف إليه؛ لأنه جزء ما أضيف إليه، والعامل فيه: الاستقرار، أو معنى الإضافة، وكذا: ﴿على سُرُر متقابلين﴾، ويجوز أن يكونا صفتين لإخوان، أو حالين من ضميره .

يقول الحق جل جلاله : ﴿ **إنَّ عبادى** ﴾ المتحققين بالعبودية لى، المخلصين فى أعمالهم، ﴿ **ليس لك** ﴾ يا إبليس ﴿ **عليهم سلطانٌ** ﴾ أى: غلبة وتسلط بالغواية والإضلال، ﴿ **إلا من اتبعك من الغاوين** ﴾ الذين سبقت لهم الغواية، وتنكبتهم العناية. ﴿ **وإنَّ جهنم لموعدهم** ﴾: لموضع إيعاد الغاوين أو المتبعين لك ﴿ **أجمعين** ﴾، ﴿ **لها سبعة أبواب** ﴾ يدخلون فيها لكثرتهم، أو طبقات ينزلونها بحسب مراتبهم فى المتابعة، وفى كل طبقة باب يسلك منه إليها، فأعلاها: جهنم، وهى للمذنبين من الموحدين، ثم لظى لليهود، ثم الحُطمة للنصارى، ثم السعير للصابئين، ثم سقر للمجوس، ثم الجحيم للمشركين، وكبيرهم أبو جهل، ثم الهاوية، وهى الدرك الأسفل، للمنافقين،

---

(١) من الآية ٢٢ من سورة إبراهيم.

وعبَّر فى الآية عن النار؛ جملة، بجهنم؛ إذ هى أشهر منازلها وأولها، وهو موضع العصاة الذين لا يخلدون، ولهذا رُوِى أن جهنم تخرب وتبلى، يعنى: حين يخرج العصاة منها. وقيل: أبواب الطبقات السبع كلها من جهنم، ثم ينزل من كل باب إلى طبقته التى تفضي إليه. قاله ابن عطية.

قال البيضاوى: ولعل تخصيص العدد بالسبعة، لانحصار مجامع المهلكات فى الركون إلى المحسوسات، ومتابعة القوة الشهوية والغضبية. هـ. فالقوة الشهوية محلها ست وهى: السمع والبصر والشم واللسان والبطن والفرج. والقوة الغضبية فى البطش باليد والرجل، فالمعاصى المهلكات جلها من هذه السبع، ومَلِكها القلب، إذا صلح صلحت، وإذا فسد فسدت. كما فى الحديث. ثم قال البيضاوى: أو لأن أهلها فرق سبع. هـ. يعنى: الفرق التى تقدمت للطبقات، قال تعالى: ﴿ لكل بابٍ منهم ﴾ أى: من الأتباع ﴿ جُزءٌ مَّقْسومٌ ﴾ أفرد له، لا يدخل إلا منه، ولا يسكن إلا فى طبقته. وقد تقدم أهل كل طبقة، من عصاة الموحدين إلى المنافقين.

ثم شفع بضدهم، على عادته سبحانه وتعالى فى كتابه، فقال: ﴿ إنَّ المتقين ﴾ للكفر والفواحش، أو لمتابعة إبليس، ﴿ في جنات وعيون ﴾، لكل واحد جنة وعين، أو لكل واحد جنات وعيون، يقال لهم عند دخولهم: ﴿ ادخلُوها ﴾، وقرأ رويس عن يعقوب: «أُدخِلوها»؛ بضم الهمزة وكسر الخاء، على البناء للمفعول، فلا يكسر حينئذ التنوين، أى: تقول الملائكة لهم: ادخلوها، أو قد أدخلهم الله إياها. ﴿ بسلام ﴾ أى: سالمين من المكاره والآلام، أو مسلماً عليكم بالتحية والإكرام، ﴿ آمنين ﴾ من الآفة والزوال.

﴿ ونزَعْنا ما فى صُدُورهم من غِلّ ﴾ أى: من حقد وعداوة كانت فى الدنيا، وعن على رضي الله عنه: (أرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير منهم)، أو من التحاسد على درجاتِ ومراتبِ القُرْبِ.

قلت: أما التحاسد على مراتب القرب فلا يكون؛ لاستغناء كل أحد بما لديه، وأما التأسف والندم على فوات ذلك بالتفريط فى الدنيا فيحصل، ففى الحديث: «ليس يَتَحَسَّرُ أَهْلُ الجنَّةِ علَى شيء إلاَّ علَى ساعَةٍ مَرَّتْ لهمْ لَمْ يذْكرُوا الله فيهَا»(١). ولا يحصل التحسر حتى يرى ما فاته باعتبار وقوفه. قال ابن عطية: ذكر هنا نزع الغل من قلوب أهل الجنة، ولم يذكر له موطناً، وجاء فى بعض الحديث أن ذلك على الصراط، وجاء فى بعضها: أن ذلك على أبواب الجنة، وفى بعضها: أن الغل يبقى على أبوابها كمعاطن الإبل. ثم قال: وجاء فى بعض الأحاديث: أن نزع الغل إنما يكون بعد استقرارهم فى الجنة. والذى يقال فى هذا: أن الله ينزعه فى موطن من قوم وفى موطن من آخرين. هـ.

---

(١) أخرجه البيهقى فى شعب الإيمان (باب فى محبة الله عز وجل ٥١٢) من حديث معاذ بن جبل، وعزاه السيوطى فى الجامع الصغير (٢/٤٧١) للطبرانى والبيهقى فى الشعب، ورمز له بالحسن.

قلت: والذي جاء في الأحاديث الواردة في أخبار الآخرة: أن أهل الجنة، إذا قربوا منها وجدوا على بابها عينين، فيغتسلون في إحداهما، فتنقلب أجسادهم على صورة آدم عليه السلام، ثم يشربون من الأخرى فتطهر قلوبهم من الغل والحسد، وسائر الأمراض، وهو الشراب الطهور. قال القشيري في قوله تعالى: ﴿ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴾(١) : يقال: يُطَهِّرهم من محبة الأغيار، ويقال: ويطهّرهم من الغِلّ والغشّ والدَعْوَى... الخ ما يأتي إن شاء الله تعالى. والله تعالى أعلم، وسترى وتعلم.

ثم قال تعالى: ﴿ إخواناً ﴾، أي: لما نزعنا ما في صدورهم من الغل صاروا إخواناً متوددين، لا تباغض بينهم ولا تحاسد، ﴿ على سُرُرٍ متقابلين ﴾ ؛ يقابل بعضهم بعضاً على الأسرة، لا ينظر أحد في فناء صاحبه. وقال شيخ شيوخنا سيدي عبد الرحمن الفاسي: المتجه أن المقابلة معنوية، وهي عدم إضمار الغل والإعراض، سواء اتفق ذلك حساً أم لا، ومن أضمر لأخيه غلاً فليس بمقابله، ولو كان وجهه إلى وجهه، بل ذلك أخلاقُ نِفَاقٍ، ولذلك شواهد بذمه لا بمدحه. هـ. ﴿ لا يَمسُّهم فيها نَصَبٌ ﴾ أي: تعب، ﴿ وما هم منها بمخْرَجين ﴾ ، لأن تمام النعمة لا يكون إلا بالخلود والدوام فيها. أكرمنا الله بتمام نعمته، ودوام النظر إلى وجهه. آمين.

الإشارة: لا ينقطع عن العبد تسلط الشيطان حتى يدخل مقام الشهود والعيان، حين يكون عبداً خالصاً لله، حراً مما سواه، وذلك حين ينخرط في سلك القوم، ويزول عنه لوث الحدوث والعدم، فيفنى من لم يكن، ويبقى من لم يزل، وذلك بتحقيق مقام الفناء، ثم الرجوع إلى مقام البقاء. قال الشيخ أبو المواهب رضي الله عنه: من رجع إلى البقاء أمن من الشقاء؛ وذلك أن العبد حين يتصل بنور الله، ويصير نوراً من أنواره، يحترق به الباطل ويدمغ، فلا سبيل للأغيار عليه. ولذلك قال بعضهم: نحن قوم لا نعرف الشيطان، فقال له القائل: فكيف، وهو مذكور في كتاب الله تعالى، قال تعالى: ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾(٢) ؟. فقال: نحن قوم اشتغلنا بمحبة الحبيب، فكفانا عداوة العدو. وحين يتحقق العبد بهذا المقام ينخرط في سلك قوله تعالى: ﴿ إن المتقين في جنات وعيون. ادخلوها بسلام آمنين. ونزعنا ما في صدورهم من غل.. ﴾ الآية، وهذا لا ينال إلا بالخضوع لأهل النور، حتى يوصلوه إلى نور النور، فيصير قطعة من نور، غريقًا في بحر النور. ومع هذا لا ينقطع عنه الخوف والرجاء، لقوله تعالى:

﴿ ۞ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ ﴾

(١) من الآية ٢١ من سورة الإنسان.
(٢) من الآية ٦ من سورة فاطر.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ نبئ ﴾ : أخبر، ﴿ عبادي أني أنا الغفور الرحيم ﴾ لمن آمن بي، وصدق رسلي، ﴿ وأنَّ عذابي هو العذابُ الأليم ﴾ لمن كفر بي، وجحد رسلي، أو بعضهم. قال البيضاوي : هي فذلكة ما سبق من الوعد والوعيد، وتقرير له، وفي ذكر المغفرة دليل على أنه لم يرد بالمتقين متقي الذنوب بأسرها، كبيرها وصغيرها، وفي توصيف ذاته بالغفران والرحمة دون التعذيب. أي: لم يقل وأنا المعذب المؤلم. ترجيح الوعد. هـ.

وذكر ابن عطية أن سبب نزولها: أن رسول الله ﷺ جاء إلى جماعة من أصحابه، عند باب بني شَيْبَةَ في الحرم، فوجدهم يضحكون، فزجرهم ووعظهم، ثم ولى، فجاءه جبريل عن الله، فقال: يامحمد أَتُقَنِّط عبادي؟ وتلى عليه الآية، فرجع بها رسول الله ﷺ إليهم وأعلمهم(١). هـ. ثم قال: ولو لم يكن هذا السبب لكان ما قبلها يقتضيها؛ إذ تقدم ذكر ما في النار وذكر ما في الجنة، فأكّد تعالى تنبيه الناس بهذه الآية.هـ.

قيل: وهذه الآية أبلغ ما في القرآن في إثارة الخوف والرجاء، من الآي التي لا تشبهها في الإجمال؛ لما فيها من التصريح، ثم الرجاء فيها أغلب؛ لأجل التقديم، مع ذكره في آية الرجاء، لصفاته العلية وأسمائه الحسنى، وذلك يؤذن بالتهمم به وترجيحه، وهو مذهب الصوفية في حال الحياة والممات.

الإشارة : الخوف والرجاء يتعاقبان على الإنسان، فتارة يغلب عليه الخوف، وتارة يغلب عليه الرجاء. هذا قبل الوصول، وأما بعد الوصول فالغالب عليهم الاعتدال، قال في التنبيه: أما العارفون الموحدون فإنهم على بساط القرب والمشاهدة، ناظرون إلى ربهم، فانون عن أنفسهم، فإذا وقعوا في ذلة، أو أصابتهم غفلة، شهدوا تصريف الحق تعالى لهم، وجريان قضائه عليهم. كما أنهم إذا صدرت منهم طاعة، أو لاح منهم لائح من يقظة، لم يشهدوا في ذلك أنفسهم، ولم يروا فيها حولهم ولا قوتهم؛ لأن السابق إلى قلوبهم ذكر ربهم، فأنفسهم مطمئنة تحت جريان أقداره، وقلوبهم ساكنة بما لاح لهم من أنواره، ولا فرق عندهم بين الحالين؛ لأنهم غرقى في بحار التوحيد، قد استوى خوفهم ورجاؤهم، فلا ينقص من خوفهم ما يجتنبونه من العصيان، ولا يزيد في رجائهم ما يأتون من الإحسان. هـ. قلت: بل طرق الرجاء عندهم أرجح، كما تقدم؛ لأن الرجاء ناشئ عن غلبة المحبة، وهي غالبة. والله تعالى أعلم.

---

(١) أخرجه بنحوه الطبري في تفسيره (١٤ / ١٠٢) عن رجل من أصحاب النبي ﷺ، وذكره الواحدي في أسباب النزول (٢٨٣) بدون سند.

ثم ذكر قصة إبراهيم مع أضيافه؛ لاشتمالها على الرحمة، وهي البشارة بالولد، وعلى النقمة، وهي الإعلام بتعذيب قوم لوط، فقال:

﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا
لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾
قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ
رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴿٥٦﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ
مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ
الْغَابِرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾

قلت: ﴿سلامًا﴾: مفعول بمحذوف، أي: سلمنا سلامًا، أو نسلم عليكم سلاماً. والضيف يطلق على الواحد والجماعة، والمراد هنا: جماعة من الملائكة. و(تبشرون): قرئ بشد النون؛ بإدغام نون الرفع في نون الوقاية، وبالتخفيف؛ بحذف إحدى النونين، وبالفتح، على أنها نون الرفع. و(يقنط): بالفتح والكسر، يقال: قنط كضرب وعلم.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ونبئهم﴾ أي: وأخبر عبادي ﴿عن ضيف إبراهيم﴾ حين بشروه بالولد، وأعلموه بعذاب قوم لوط، لعلهم يعتبرون فيرجون رحمته ويخافون عذابه. أو: ونبئهم أن من اعتمد منهم على كفره وغوايته، فالعذاب لاحق به في الدنيا، كحال قوم لوط. ثم ذكر قصتهم من أولها فقال: ﴿ونبئهم عن ضيف إبراهيم﴾، وذلك حين ﴿دخلوا عليه﴾، وهم أربعة: جبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل، ﴿فقالوا سلاماً﴾ أي: نُسلم عليكم سلامًا، قال: سلام، ثم أتاهم بعجل حنيذ، فلما قربه إليهم، قالوا: إنا لا نأكل طعاماً إلا بثمن، فقال إبراهيم: إن له ثمناً، قالوا: وما ثمنه؟ قال: تذكرون اسم الله على أوله، وتحمدونه على آخره، فنظر جبريل إلى ميكائيل فقال: حق لهذا أن يتخذه ربه خليلاً، فلما رأى أنهم لا يأكلون فزع منهم. ومن طريق آخر: أن جبريل مسح بجناحه العجْل، فقام يدرج حتى لحق بأمه في الدار. هـ. هكذا ذكر القصة المحشي الفاسي عن ابن حجر.

فلما أحس إبراهيم عليه السلام بالخوف منهم ﴿قال إنا منكم وَجِلون﴾: خائفون؛ إما لامتناعهم من أكل طعامه، أو لأنهم دخلوا بغير إذن، أو في غير وقت الدخول. والوجل: اضطراب النفس لتوقع مكروه. ﴿قالوا لا توْجَلْ﴾:

لا تخف، ثم عللوا نهيه عن الخوف فقالوا: ﴿ إنا نُبشِّرك بغلام ﴾ وهو إسحاق، لقوله: ﴿ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ ﴾(١)، ﴿ عليم ﴾ إذا بلغ أوان العلم. ﴿ قال أبشّرتمُوني على أن مَسَّنِي الكِبَرُ ﴾ أي: أبشرتموني بالولد مع أني قد كبر سني، وكان حينئذ من مائة سنة وأكثر، ﴿ فبِمَ تُبَشِّرونِ ﴾ ؟ أي: فبأي أعجوبه تبشرون؟ أو فبأي شيء تبشرون؟ فإن البشارة بما لا يتصور وقوعه عادة بشارة بغير شيء. قال ذلك على وجه التعجب من ولادته في كِبَرِهِ.

﴿ قالوا بشرناك بالحق ﴾: باليقين الثابت الذي لا محالة في وقوعه، فلا تستبعده، ولا تشك فيه، ﴿ فلا تكن من القانطين ﴾: من الآيسين، فإن الله تعالى قادر على أن يخلق بشراً من غير أبوين، فكيف من شيخ فانٍ وعجوز عاقرٍ. وكان استعجاب إبراهيم باعتبار العادة دون القدرة؛ ولذلك ﴿ قال ومن يَقْنَطُ من رحمة ربه ﴾ أي: لا ييأس من رحمة ربه ﴿ إلا الضالون ﴾: المخطئون طريق المعرفة، فلا يعرفون سعة رحمته تعالى، وكمال قدرته. قال القشيري: أي: مَنْ الذي يقنط من رحمة الله إلا من كان ضالاً، فكيف أخطأ ظنكم بي، فتوهمتم أني أقنط من رحمة ربي؟. هـ. وفيه دليل على تحريم القنوط؛ قال تعالى: ﴿ إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾(٢).

﴿ قال فما خَطْبُكم أيها المرسلون ﴾ أي: ما شأنكم الذي أُرسلتم لأجله سوى البشارة؟ ولعله علم أن كمال المقصود ليس هو البشارة فقط، لأنهم كانوا عدداً، والبشارة لا تحتاج إلى عدد، ولذلك اكتفى بالواحد في بشارة زكريا ومريم. أو لأنهم بشروه في تضاعيف الحال؛ لإزالة الوجل، ولو كانت تمام المقصود لابتدروه بها. ثم أجابوه: ﴿ قالوا إنا أُرسلنا إلى قوم مجرمين ﴾؛ يعني: قوم لوط؛ لأن شأنهم الإجرام بفعل الفاحشة، ﴿ إلا آلَ لوطٍ ﴾ أي: لكن آل لوط لم نُرْسَل إلى عذابهم؛ إذ ليسوا مجرمين. أو أرسلنا إلى قوم أجرموا كلهم، إلا آل لوط، لنهلك المجرمين وننجي آل لوط، ويدل عليه قوله: ﴿ إنا لمنجُّوهُم أجمعين ﴾ من العذاب الذي يهلك به قوم لوط.

قال ابن جزي: قوله: ﴿ إلا آل لوط ﴾: يحتمل أن يكون استثناء من قومه، فيكون منقطعاً؛ لوصف القوم بالإجرام، ولم يكن آل لوط مجرمين. ويحتمل أن يكون استثناء من الضمير في ﴿ مجرمين ﴾؛ فيكون متصلاً، كأنه قال: إلى قوم أجرموا كلهم إلا آل لوط فلم يجرموا، وقوله: ﴿ إلا امرأته ﴾؛ استثناء من آل لوط، فهو استثناء من استثناء. قيل: وفيه دليل على أن الأزواج من الآل؛ لأنه استثنى امرأته من آله. وقال الزمخشري: إنما هو

(١) من الآية ٧١ من سورة هود. (٢) من الآية ٨٧ من سورة يوسف.

استثناء من الضمير المجرور في قوله: ﴿إنا لمنجوهم﴾، وذلك هو الذي يقتضيه المعنى. هـ. أي: إنا لمنجوهم من العذاب ﴿إلا امرأته قدَّرنا إنها لمن الغابرين﴾؛ الباقين في العذاب مع الكفرة؛ لتهلك معهم، وقرأ أبو بكر عن عاصم: «قدرنا» بالتخفيف، وهما لغتان، يقال: قدَّر الله كذا وقدره. قال البيضاوي: وإنما علق، والتعليق من خواص أفعال القلوب؛ لتضمنه معنى العلم، ويجوز أن يكون (قدرنا): أجرى مجرى قلنا؛ لأن التقدير بمعنى القضاء قول، وأصله: جعل الشيء على مقدار غيره، وإسناد التقدير إلى أنفسهم، وهو فعل الله تعالى؛ لما لهم من القرب والاختصاص. هـ.

قلت: وفيه إشارة إلى حذف الوسائط، كما هو توحيد المحققين. والله تعالى أعلم.

الإشارة: لا يلزم من ثبوت الخصوصية عدم وصف البشرية، فالوجل والخوف والفرح والحزن والتعجب والاستعظام للأشياء الغريبة، كل ذلك من وصف البشر، يقع من الخصوص وغيرهم، لكن فرق بين خاطر وساكن؛ فالخصوص تهجم عليهم ولا تثبت، بخلاف العموم.

ويؤخذ من الآية: أن صحبة الخصوص لا تنفع إلا مع الاعتقاد والتعظيم، فإنَّ امرأة نبي الله لوط كانت متصلة به حساً، ومصاحبة له، ولم ينفعها ذلك، حيث لم يكن لها فيه اعتقاد ولا تعظيم. وكذلك صحبة الأولياء: لا تنفع إلا مع الصدق والتعظيم. وقول ابن عطاء الله: «سبحان من لم يجعل الدليل على أوليائه إلا من حيث الدليل عليه. ولم يوصل إليهم إلا من أراد أن يوصله إليه»: مقيد بوصول التعظيم والاعتقاد، والاستماع والاتباع. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر قصة هلاك قوم لوط، فقال:

﴿ فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ (٦١) قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ (٦٢) قَالُواْ بَلْ جِئْنَٰكَ
بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمْتَرُونَ (٦٣) وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ (٦٤) فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ
ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ (٦٥) وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ
ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ (٦٦) وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ (٦٧)
قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ (٦٨) وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ (٦٩) قَالُوٓاْ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ (٧٠)
قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ (٧١) لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ (٧٢) فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ (٧٣)

فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾
وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾

قلت: ﴿**وقضينا إليه ذلك الأمر**﴾، القضاء هنا بمعنى القدر السابق، وضمنه معنى أوحينا، فعداه بإلى. و(أنّ دابر): بدل من الأمر، وفي ذلك تفخيم الأمر وتعظيم له، و﴿**مُصبحين**﴾: حال من «هؤلاء»، أو من ضمير مقطوع، وجمعه؛ للحمل على المعنى؛ لأن دابر بمعنى دوابر، أي: قطعنا دوابرهم حال كونهم داخلين في وقت الصباح. و﴿**لعمرك**﴾: مبتدأ، والخبر محذوف، أي: قسمي، قال ابن عزيز: عَمْرٌ وعُمُرٌ واحد، ولا يقال في القسم إلا مفتوحاً، وإنما فتح في القسم فقط؛ لكثرة الاستعمال.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ **فلما جاء آلَ لوطٍ المرسلون** ﴾، وهم أضياف إبراهيم، فلما دخلوا عليه ولم يعرفهم، ﴿ **قال إنكم قومٌ منكَرون** ﴾ لا نعرفكم. أو تنكركم نفسي؛ مخافة أن تطرقوني بشيء، ﴿ **قالوا بل جئناك بما كانوا فيه يمترون** ﴾ أي: ما جئناك بما تنكرنا لأجله، بل جئناك بما يسرك، وهو: قطع الفاحشة من بلدك، وإتيان العذاب لعدوك الذي توعدناهم، فكانوا يمترون فيه ويشكون في إتيانه، ﴿ **وأتيناك بالحق** ﴾؛ باليقين الثابت، وهو إتيان العذاب لا محالة، ﴿ **وإنَّا لصادقون** ﴾ فيما أخبرناك به.

﴿ **فأسْرِ بأهلك** ﴾: فاذهب بهم ﴿ **بقطْعٍ من الليل** ﴾ أي: فاخرج بهم في طائفة من الليل، قيل: آخره، ﴿ **واتَّبِع أدبارهم** ﴾ أي: كن خلفهم في ساقتهم، حتى لا يبقى منهم أحد، أو: أمره بالتأخر عنهم؛ ليكونوا قدامه، فلا يشتغل قلبه بهم لو كانوا خلفه؛ لخوفه عليهم، أي: ليسرع بهم، ويطلع على أحوالهم. ﴿ **ولا يلتفتْ منكم أحدٌ** ﴾ خلفه، لينظر ما وراءه، فيرى من الهول ما لا يطيقه، أو: ولا ينصرف أحد منكم، ولا يتخلف لغرض فيصيبه ما أصابهم. وقيل: نُهوا عن الالتفات ليوطنوا أنفسهم على الهجرة. ﴿ **وامضوا حيث تُؤمرون** ﴾ أي: إلى حيث أمركم الله، وهو الشام أو مصر، وقال بعضهم: «ما من نبي هلك إلا لحق بمكة، وجاور بها حتى مات».

﴿ **وقضينا** ﴾: أوحينا ﴿ **إليه ذلك الأمرَ** ﴾، وهو هلاك قومه، ذكره مبهماً ثم فسره بقوله: ﴿ **أنَّ دابر هؤلاء مقطوع** ﴾ وهو كناية عن استئصالهم، والمعنى: أنهم يستأصلون عن آخرهم حتى لا يبقى منهم أحد، حال كونهم وقت العذاب ﴿ **مُصْبِحين** ﴾: داخلين في الصباح.

﴿ **وجاء أهلُ المدينة** ﴾، وهي سدوم، ﴿ **يستبشرون** ﴾ بأضياف لوط؛ طمعاً فيهم في فعل الفاحشة، والظاهر: أن هذا المجيء إليه، وما جرى له معهم من المحاورة، كان قبل الإعلام بهلاكهم، كما تقدم في هود. وانظر ابن عطية. فلما جاءوه يراودونه عن ضيفه ﴿ **قال إنَّ هؤلاء ضيفي فلا تَفْضَحُون** ﴾؛ بهتك حرمة ضيفي، فإن

من فُضح ضيفه فقد فُضح هو، ومن أُسيء إلى ضيفه فقد أُسيء إليه، ﴿ واتقوا الله ﴾ في ركوب الفاحشة، ﴿ ولا تُخزُونِ ﴾: ولا تهينوني بإهانتهم. والخزى هو الهوان، أو: ولا تخجلون فيهم، من الخزاية وهو الحياء.

﴿ قالوا أو لم ننْهك عن العالمين ﴾؛ عن أن تجير منهم أحداً، أو تحول بيننا وبينهم، وكانوا يتعرضون لكل أحد، وكان لوط عليه السلام يمنعهم ويزجرهم عنه بقدر وسعه. وذكر السدى: أنهم إنما كانوا يفعلون الفاحشة بالغرباء، ولايفعلونها بعضهم ببعض، فكانوا يعترضون الطرق. هـ. أو: أو لم ننهك عن ضيافة العالمين وانزالهم؟ ﴿ قال هؤلاء بناتي ﴾ تُزَوِّجُوهُنَّ إياكم، وقد كان يمنعهم قبل ذلك؛ لكفرهم، فأراد أن يقى أضيافه بهن. ولعله لم يكن حراماً فى شريعته. أو يريد بالبنات نساء القوم؛ فإن نبى كل أمة بمنزلة أبيهم، ﴿ إن كنتم فاعلين ﴾ قضاء الوطر، أو: ما أقول لكم من التزويج، فأبوا، ولجوا فى عملهم.

قال تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿ لعَمْرُكَ ﴾: لحياتك يامحمد، أقسم بحياته - عليه الصلاة والسلام - لشرف منزلته عنده. قال ابن عباس - رضى الله عنهما : «ما خلق الله خلقا أكرم عليه من محمد ﷺ، وما أقسم بحياة أحد إلا بحياته، فقال: ﴿ لعَمْرُكَ إنهم لفي سَكْرتهم يعمهون ﴾ قال القرطبى: وإذا أقسم الله بحياة نبيه فإنما أراد التصريح لنا أنه يجوز لنا أن نحلف بحياته. وقد قال الإمام أحمد فيمن أقسم بالنبى ﷺ: ينعقد به يمينه، وتجب الكفارة بالحنث، واحتج بكون النبى ﷺ أحد ركنى الشهادة. قال ابن خُوَيْز مَنْدَاد: هذا إذ استدل من جوّز الحلف به عليه الصلاة والسلام، بأن أيمان المسلمين جرت من عهده ﷺ حتى إن أهل المدينة إلى يومنا هذا إذا جاء صاحبه قال له: احلف لى بما حوى هذا القبر، وبحق ساكن هذا القبر، يعنى النبى ﷺ. هـ(١).

قلت: ومذهب مالك أنه لا ينعقد يمين بغير الله، وصفاته، وأسمائه. وقيل: إن قوله تعالى: ﴿ لعمرك ﴾: هو من قول الملائكة للوط، أو لحياتك يا لوط، ﴿ إنهم لفي سَكْرتهم يعمهون ﴾: أى: لفى غوايتهم، أو شدة غلمتهم التى أزالت عقولهم وتمييزهم بين الخطأ والصواب، يتحيرون. والغلمة: شهوة الوقاع. والعمه: الحيرة، أى: إنهم لفى عماهم يتحيرون، فكيف يسمعون نصح من نصحهم؟ والضمائر لقوم لوط، وقيل: لقريش، والجملة: اعتراض.

قال تعالى: ﴿ فأخذتهم الصيحةُ ﴾، يعنى: صيحة هائلة مهلكة. قال ابن عطية: هذه الصيحة صيحة الرجعة، وليست كصيحة ثمود. هـ. وقيل: صاح بهم جبريل فأهلكتهم الصيحة، ﴿ مُشْرِقِينَ ﴾: داخلين فى وقت شروق الشمس؛ فابتدئ هلاكهم بعد الفجر مصبحين، واستوفى هلاكهم مشرقين. ﴿ فجعلنا عاليَها ﴾ أى: عالى المدينة، أو قراها، ﴿ سافلَها ﴾، فصارت منقلبة بهم.

(١) مُلَخَّصاً.

رُوى أن جبريل عليه السلام اقتلعَ المدينة بجناحيه ورفعها، حتى سمعت الملائكة صراخ الديكة ونباح الكلاب، ثم قلبها وأرسل الكل، فمن كان داخلَ المدينة أو القرى مات، ومن كان خارجاً عنها أرسلت عليه الحجارة، كما قال تعالى: ﴿ وأمطرنا عليهم حجارةً من سجيل ﴾ : من طين متحجر مطبوخ بالنار. وقد تقدم فى سورة هود[1] مزيد بيان لهذا. ﴿ إنَّ فى ذلك لآيات للمتوسِّمين ﴾ : المتفكرين المعتبرين المتفرسين فى الأمور، الذين يتثبتون فى نظرهم حتى يعرفوا حقيقة الشيء بسمته، ﴿ وإنها ﴾ أى: المدينة أو القرى، ﴿ لَبِسَبِيلٍ مُقيم ﴾ : لفى طريق ثابت يسلكه الناس، ويمرون به، ويرون آثارها. ﴿ إنَّ فى ذلك لآيةً ﴾ : لعبرة ﴿ للمؤمنين ﴾ بالله ورسله؛ فإنهم هم المهتدون للتفكر والاعتبار، دون من غلبت عليه الغفلة والاغترار، كحال الكفار والفجار. والله تعالى أعلم.

الإشارة : ما بعث الله داعياً يدعو إليه إلا وكان أول ما يدعوهم إليه، بعد الإيمان، الخروج من العوائد والحظوظ النفسانية، وما هلك من هلك من الأمم إلا بالبقاء معها، وعدم الخروج عنها، وما نجى من نجى إلا بالخروج عنها. وكذلك فى طريق الخصوصية: ما بعث الله ولياً مربياً إلا وكان أول ما يأمر: بخرق العوايد؛ لاكتساب الفوائد، فلا طريق لخصوصية الولاية إلا منها. وفى الحكم: «كيف تخرق لك العوائد، وأنت لم تخرق من نفسك العوائد». فمن تربى فى الرئاسة والجاه فلا مطمع له فى الخصوصية حتى يبدلهما بالخمول والذل، وكذلك من تعود جمع الدنيا واحتكارها، فلابد من الزهد فيها والخروج عنها، وكذلك سائر العوائد النفسانية، والحظوظ الجسمانية، فمن جاور قوماً منهمكين فيها، ولم يجد من يساعده على خرقها، فليهاجر منها، ويقال له: فأسر بأهلك بقطع من الليل واتبع أدبارهم، ولا يلتفت منكم أحد إلى الرجوع، إلا بعد الرسوخ والتمكين فى معرفة الحق تعالى، وليمض حيث يجد من ينهض معه إلى الله فى نقل عوائدها وعوائقها.

وقوله تعالى: ﴿وجاء أهل المدينة يستبشرون﴾: هذه عادة أهل الغفلة، إن جاءهم من يجدون فيه موافقة هواهم، هرعوا إليه مستبشرين، وإن جاء من ينصحهم ويأمرهم بالخروج عن أهوائهم أدبروا عنه، ومقتوه، وربما أخرجوه من بلدهم، قال تعالى فى أمثالهم: (لعمرك إنهم لفى سكرتهم يعمهون) . وبالله التوفيق.

ثم ذكر قصة شعيب عليه السلام، فقال:

﴿ وَإِن كَانَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٖ مُّبِينٖ ﴿٧٩﴾ ﴾

قلت: «إن»: مخففة، واللام فارقة.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وإن كان أصحابُ الأيكة لظالمين ﴾ ، وهم قوم شعيب، كانوا يسكنون غيضة. وهى الأيكة. والأيكة: الشجر الملتف، قيل: كانت من الدوح، وقيل: من السدر، فكانوا يسكنون فيها، ويرتفقون بها

(١) راجع تفسير الآيات ٨١ ـ ٨٣.

فى معايشهم، فبعث الله لهم شعيباً عليه السلام فكفروا به، فسلط الله عليهم الحر سبعة أيام، ثم رأوا سحابة فخرجوا فاستظلوا تحتها، فاضطرمت عليهم ناراً، فاحترقوا. قال تعالى: ﴿ فانتقمنا منهم ﴾ بالهلاك بالحر، ﴿ وإنهما ﴾، يعنى: سدوم مدينة قوم لوط، والأيكة قرية شعيب. وقيل: الأيكة ومدين؛ لأن شعيبا عليه السلام كان مبعوثاً إليهما، وكان ذكر أحدهما مغن عن الآخر، ﴿ لَبِإمامٍ مبينٍ ﴾: لبطريق واضح يسلك منه إلى الشام، فيعتبر كل من وقف بآثارهم. والإمام: ما يؤتم به، ويوصل إلى المقصود من طريق أو غيره. وقيل: ﴿وإنهما﴾ أى: لوط وشعيب، على طريق من الشرع واضح. والله تعالى أعلم.

الإشارة : ما أهلك الله قوماً إلا كانوا عبرة لمن بعدهم، فالعاقل يبحث عن سبب هلاكهم، فيعمل جهده فى التحرز منه، والغافل منهمك فى غفلته، لا يلقى لذلك بالاً، حتى يأتيه ما يوعد. وبالله التوفيق.

ثم ذكر قصة صالح عليه السلام، فقال:

﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ (٨٠) وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (٨١) وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ (٨٢) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ (٨٣) فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٤) ﴾

قلت: (بيوتا): مفعول (ينحتون)، بمعنى يتخذون، أو يصنعون. و(آمنين): حال من فاعل (ينحتون) .

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ولقد كذَّب أصحاب الحِجْرِ المرسلين ﴾؛ هم قوم ثمود، والحِجْر: واديهم الذى يسكنونه، وهو بين المدينة والشام. كذبوا صالحاً عليه السلام، ومن كذّب واحداً من الرسل فكأنما كذّب الجميع؛ لأنهم جاءوا بأمر متفق عليه، وهو التوحيد، أو يراد به الجنس، كما تقول: فلان يركب الخيل، وإنما يركب فرساً واحداً، أو يراد به صالح ومن معه من المؤمنين؛ لموافقتهم له فيما يدعو إليه. ﴿ وآتيناهم آياتنا ﴾ يعنى: الناقة، وما كان فيها من العجائب، كسقيها وشربها ودرها، أو ما نزل على نبيهم من الكتب، أو ما نصب لهم من الأدلة. ﴿ فكانوا عنها معرضين ﴾: لم ينظروا فيها، ولم يعتنوا بأمرها.

﴿ وكانوا ينحتون ﴾: يصنعون، والنحت: النقر بالمعاول فى الحجر والعود وشبهه، فكانوا يتخذون ﴿ من الجبال ﴾؛ بالنقر فيها، ﴿ بيوتاً ﴾ يسكنونها ﴿ آمنين ﴾ من الانهدام، ونقب اللصوص، وتخريب الأعداء؛ لوثوقها. أو من العذاب؛ لفرط غفلتهم، أو حسبانهم أن الجبال تحميهم منه. ﴿ فأخذتهم الصيحةُ مصبحين ﴾ : داخلين فى وقت الصباح، ﴿ فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون ﴾ من بناء البيوت الوثيقة، واستكثار الأموال والعدد.

الإشارة: من علامة الغفلة عن الله: الإنكار على أولياء الله، والإعراض عما خصهم الله تعالى به من الآيات وخوارق العادات، كالعلوم اللدنية والمواهب القدسية، وكمال المعرفة، والرسوخ في اليقين، وشهود رب العالمين، مع الاشتغال بعمارة هذه الدار، ونسيان دار القرار؛ كأنه أمن من الموت؛ من شدة الاغترار. وسبب ذلك: عدم التفكر والاعتبار. ولذلك قال تعالى بإثر قصص من أهلكهم من الأمم الغافلة:

﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ **وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما** ﴾ من الكائنات ﴿ **إلا بالحق** ﴾ أي: إلا خلقًا ملتبسًا بالحق، وهو الدلالة على كمال قدرتنا وباهر حكمتنا، فمن كمال القدرة: إهلاك أهل الفساد، ودفع شرورهم وإبطال فسادهم، ومن باهر حكمته أنه لم يهلكهم إلا بسبب عتوهم وفسادهم. فالحكمة رداء للقدرة، القدرة تبرز، والحكمة تستر، فإظهار الكائنات يدل على كمال القدرة، وترتيبها على أسباب وشروط يدل على باهر الحكمة. ومن مقتضيات الحكمة: ترتيب الجزاء على العمل، بحيث لا يهمل عملاً، فأهل الإكرام يترتب إكرامهم وإنعامهم على عملهم الصالح، واعتقادهم الصحيح، وما قاسوه من المجاهدة والمكابدة. وأهل الانتقام يترتب الانتقام منهم على عملهم الفاسد، واعتقادهم الباطل، وعلى ما قالوا في الدنيا، التي هي مزرعة الآخرة، من الدعة والحظوظ الفانية، ولذلك رتَّب عليه قوله:

﴿ **وإنَّ الساعة لآتيةٌ** ﴾ فيجازى فيها من يستحق الإكرام، ويعاقب من يستحق الانتقام، وينتقم لك فيها ممن يكذبونكَ، ﴿ **فاصفح** ﴾ اليوم ﴿ **الصفحَ الجميل** ﴾ ولا تعجل بالانتقام، وعاملهم معاملة الصفوح الحليم. وكان هذا قبل الأمر بالقتال. ﴿ **إنَّ ربك هو الخلاق** ﴾ الذي خلقك وخلقهم، وبيده أمرك وأمرهم، ﴿ **العليمُ** ﴾ بحالك وبحالهم، فهو الحقيق بأن تتكل عليه حتى يحكم بينك وبينهم. أو: هو الخلاق لأشباحكم وأرواحكم، العليم بما هو الأصلح لكم في الوقت، وقد علم أن الصفح اليوم أصلح. والخلاق أبلغ من الخالق باعتبار اللغة، وأفعال الله تعالى كلها عظيمة كثيرة.

الإشارة : ما نصبت لك الكائنات لتراها بعين الفرق، بل لترى فيها مولاها بعين الجمع. وما جعل لك هذه الدار لتتخذها دار القرار، وإنما جعلها قنطرة ومعبرا لدار القرار. إنما جعل لك الدنيا الفانية مزرعة للدار الباقية. وإن الساعة لآتية، فاصبر في هذه الدار اللمحة اليسيرة على شدائد الزمان، وجفوة الإخوان، واصفح الصفح الجميل،

حتى ترد النعيم الباقي، والجزاء الجزيل. وتخلق بأخلاق الحليم الكريم، إن ربك هو الخلاق العليم، فلا قدرة لك على شيء إلا بقدرة السميع العليم.

ثم أمر نبيه بالغنى بالله وبكلامه، عن التطلع إلى زهرة الدنيا، والمراد: الأمر بدوامه على ما كان عليه، فقال:

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ (٨٧) لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ (٨٨) وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ (٨٩) كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ (٩٠) ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ (٩١) فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٩٢) عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ (٩٣) فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ (٩٤) إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ (٩٥) ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٩٦) وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ (٩٧) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ (٩٨) وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ (٩٩) ﴾

قلت: السبع المثاني: هي الفاتحة عند الجمهور، و(من المثاني): للبيان، وعطف القرآن عليها من عطف العام على الخاص. و(أنزلنا): نعت لمفعول النذير، أي: أنا النذير عذاباً مثل العذاب الذي أنزل على المقتسمين. وقيل: صفة لمصدر محذوف يدل عليه: (ولقد آتيناك)؛ فإنه بمعنى أنزلنا إليك إنزالاً مثل ما أنزلنا على المقتسمين، وهم، على هذا، أهل الكتاب. و(عِضين): جمع عِضة. وأصله: عِضْوة، من عَضَوْتَ الشيء: فَرَّقْتَه، حُذفت لامه، وعوض منها هاء التأنيث، فجمع على عضين، كعِزَةٍ وعزين. وقيل: أصله: عضهة؛ من عضهته: رميته بالبهتان، قال في الصحاح: عَضَهَهُ عضْهاً: رماه بالبهتان. وقد أعْضَهْتَ، أي: جئتَ بالبهتان. فهما قولان في أصل عِضة. هل هو واوي أو هائي. والموصول مع صلته نعت للمقتسمين.

يقول الحق جل جلاله، لنبيه عليه الصلاة والسلام: ﴿ **ولقد آتيناك سبعاً من المثاني** ﴾، وهي فاتحة الكتاب؛ لأنها سبع آيات، وتثنى ـ أي: تكرر ـ في كل صلاة، فالمثاني من التثنية، وقيل: من الثناء؛ لأن فيها الثناء على الله تعالى، وقيل: السبع المثاني هي السبع الطوال، وهي البقرة وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، والأنفال مع براءة. ولذلك تركت البسملة بينهما. وكونها مثاني؛ لتثنية قصصها، أو ألفاظها، وقيل: هي الحواميم السبع. ﴿ و ﴾ آتيناك ﴿ **القرآنَ العظيم** ﴾، ففيه الغنية والكفاية عن كل شيء.

﴿ لا تمدن عينيك ﴾ : لا تطمح ببصرك طموح راغب ﴿ إلى ما متعنا به أزواجاً منهم ﴾ أى: أصنافًا من الكفار، من زهرة الحياة الدنيا، فإنه مستحقر بالإضافة إلى ما أوتيته. وفى حديث أبى بكر: «من أوتى القرآن، فرأى أن أحدا أوتى من الدنيا أفضل مما أوتى، فقد صغر عظيماً وعظم صغيراً».(١) قال ابن جزى: أى: لا تنظر إلى ما متعناهم به فى الدنيا، ومعنى الآية: تزهيد فى الدنيا، كأنه يقول: قد آتيناك السبع المثانى والقرآن العظيم؛ فلا تنظر إلى الدنيا، فإن الذى أعطيناك أعظم منها. هـ.

وروى أنه ﷺ وافى مع أصحابه أذرعات، فرأى سبع قوافل ليهود بنى قُرَيْظَة والنَّضير، فيها أنواع البرّ، والطيب والجواهر، وسائر الأمتعة، فقال المسلمون: لو كانت هذه الأموال لنا لتقوينا بها، ولأنفقناها فى سبيل الله، فقال لهم عليه الصلاة والسلام: «قد أعطيتم سبع آيات هى خير من هذه السبع القوافل».(٢) .

﴿ ولا تحزن عليهم ﴾ : لا تتأسف على كفرهم؛ حيث أنذرتهم فلم ينزجروا ولم يؤمنوا. أو: حيث متعناهم بالدنيا فلم ينتفعوا بها، ولم يصرفوها فى مرضاة الله، ﴿ واخفض جناحك للمؤمنين ﴾ ؛ أى: تواضع وألن جانبك للمؤمنين، وارفق بهم. والجناح، هنا، استعارة. ﴿ وقل إنى أنا النذير المبين ﴾ : البين الإنذار، أنذرتكم ببيان وبرهان أن عذاب الله نازل بكم إن لم تؤمنوا، وفى الحديث: «أنا النذير، والموت مغير، والقيامة الموعد». أو كما قال عليه الصلاة والسلام، وفى حديث آخر: «أنَا النَّذِيرُ العُرْيَانُ». وكانت العرب، إذا رأى أحدهم جيشاً يقصدهم، تجرد من ثيابه، ثم أنذر قومه ليصدقوه، أى: وقل: إنى أنذرتكم أن ينزل بكم عذابه.

﴿ كما أنزلنا على المقتسمين ﴾، أى: مثل العذاب الذى أنزل على المقتسمين، وهم أهل الكتاب، الذين آمنوا ببعض الكتب وكفروا ببعض، فاقتسموا قسمين. والعذاب الذى نزل بهم هو الذل والهوان وضرب الجزية، أوتسليط عدوهم عليهم. وقيل: هم كفار قريش؛ اقتسموا أبواب مكة فى الموسم، فوقف كل واحد منهم على باب، وكانوا اثنى عشر رجلاً، لينفروا الناس عن الإيمان بالرسول عليه الصلاة والسلام، يقول أحدهم: هو ساحر، والآخر: هو شاعر، فأهلكهم الله يوم بدر. وقيل: هم الرهط الذين اقتسموا، أى: تقاسموا ليبيتوا صالحاً، فأسقط الله عليهم الغار الذى كمنوا فيه، فشدخهم.

أو: آتيناك القرآن، وأنزلناه عليك كما أنزلنا التوراة على المقتسمين، وهم اليهود، ﴿ الذين جعلوا القرآن عضين ﴾ أى: أجزاء متفرقة، وقالوا فيه أقوالاً مختلفة، فقالوا؛ عناداً وكفراً: بعضه موافق للتوراة والإنجيل، وبعضه

(١) قال الولى العراقى: لم أقف عليه، وقال الحافظ ابن حجر فى الكافى الشاف: لم أجده من حديث أبى بكر.
وأخرجه ابن عدى فى الكامل (٧٨٧/٢)، ولفظه: (من تعلم القرآن وظن أن أحداً...) فذكره من حديث ابن مسعود مرفوعاً..
وراجع الفتح السماوى (٧٥٠/٢).
(٢) قال المناوى فى الفتح السماوى: لم أقف عليه. وذكره الواحدي فى الأسباب (٢٨٣) عن الحسين بن الفضل؛ مرسلاً.

باطل مخالف لهما. وإذا قلنا المقتسمين: هم كفار قريش، حيث اقتسموا أبواب مكة، فقد جعلوا القرآن عضين؛ أجزاء متفرقة، فقد قسموه إلى شعر وسحر وكهانة وأساطير الأولين، أو جعلوه بهتاناً متعدداً، على تفسير العضة بالبهت. وفي الحديث: «لعن رسول الله ﷺ العاضهة والمستعضهة» (١) أي: الباهتة، والمستبهتة: الطالبة له.

قال تعالى في وعيد المقتسمين: ﴿فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون﴾ من التقسيم والتكذيب، أو عن كل ما عملوه من الكفر والمعاصي، وفي البخاري: «لنسألنهم عن لا إله إلا الله». فإن قيل: كيف يجمع بين هذا وبين قوله: ﴿فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان﴾؟(٢) فالجواب: أن السؤال المثبت هو على وجه الحساب والتوبيخ، والسؤال المنفي هو على وجه الاستفهام المحض؛ لأن الله تعالى يعلم الأعمال، فلا يحتاج إلى سؤال. وقيل: في القيامة مواطن وخوارق، فموطن يقع فيه السؤال، وموطن يذهب بهم إلى النار بغير سؤال.

قال تعالى لنبيه عليه الصلاة والسلام: ﴿فاصدع بما تؤمر﴾: فاجهر، وصرح به، وأنْفِذْه، من صدع بالحجة: إذا تكلم بها جهاراً. أو: فَرِّقْ، بما تؤمر به، بين الحق والباطل، وأصله: الشق والإبانة، و ﴿ما﴾: مصدرية، أو موصولة، والعائد محذوف، أي: بما تؤمر به من الشرائع. ﴿وأعرض عن المشركين﴾ فلا تلتفت إلى مايقولون، ولا يمنعك ذلك من تبليغ الوحي والصدع به وإظهاره.

﴿إنا كفيناك المستهزئين﴾ بك، وبما أنزلنا إليك؛ بأن أهلكنا كل واحد منهم بمصيبة تخصه، من غير سعي من النبي ﷺ في ذلك. وكانوا خمسة من أشراف قريش: الوليد بن المغيرة، والعاصي بن وائل، وعدي بن قيس، والأسود بن المطلب، والأسود بن يغوث، كانوا يبالغون في إيذاء النبي ﷺ، والاستهزاء به، فقال جبريل للنبي ﷺ: «أُمرتُ بأن أكفيكهم» فأومأ إلى ساق الوليد فمرَّ بنبَّالٍ فتعلق بثوبه سهم، فلم ينعطف لأخذه، تعظماً، فأصاب عرقاً في عقبه فمات. وقيل: خدش بأسفل رجله فمات من تلك الخدشة. وأومأ إلى أخمص العاص؛ فدخلت فيها شوكة، فانتفخت حتى صارت كالرحى، فمات. وأشار إلى أنف الحارث فامتخط قيحاً فمات. وأومأ إلى الأسود ابن عبد يغوث، وهو قاعد في أصل شجرة، فجعل ينطح رأسه بالشجرة، ويضرب وجهه بالشوك حتى مات. وقيل: استسقى بطنه فمات، ولعله جمع بينهما. وأومأ إلى عيني الأسود بن المطلب فعمي. وفي السيرة، بدل عدي بن قيس، الحارث بن الطلاطلة، وأن جبريل أشار إلى رأسه فامتخط قيحاً فقتله(٣).

(١) عزاه في الفتح السماوي (٢/٧٥٢) لابن عدي في الكامل من حديث ابن عباس، وفي إسناده ضعف.
وقوله: العاضهة والمستعضهة: أي: الساحرة والمستسحرة ... انظر النهاية (٣/٢٥٥).

(٢) الآية ٣٩ من سورة الرحمن.

(٣) أخرجه الطبراني في الأوسط، كما في المجمع (٧/٤٦)، وأبو نعيم في الدلائل، (باب قوله: فاصدع بما تؤمر ٢/٣١٦) والبيهقي في الدلائل (باب المستهزئون وأسماؤهم) من حديث ابن عباس رضي الله عنه.

وقيل: هم الذين قُتلوا ببدر؛ كأبى جهل، وعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأمية بن خلف، وعقبة بن أبى معيط. والأول أرجح؛ لأن الله تعالى كفاه أمرهم بمكة قبل الهجرة. إلا أن يكون عبّر بالماضى عن المستقبل؛ لتحققه، أى: إنا سنكفيك المستهزئين ﴿ الذين يجعلون مع الله إلهاً آخر ﴾ يعبدونه من دون الله ﴿ فسوف يعلمون ﴾ عاقبة أمرهم فى الدارين.

ثم سلّى نبيه عن أذاهم فقال: ﴿ ولقد نعلمُ أنك يضيق صدرُك بما يقولون ﴾ فى جانبنا؛ من الشرك والطعن فى القرآن، والاستهزاء بك، فلا تعبأ بهم، ولا تلتفت إليهم. ﴿ فسبِّح بحمد ربك ﴾ أى: فنزه أنت ذاتنا وصفتنا، مكان مقالتهم فينا؛ فإن مثلك منزهنا لا غير، ﴿ وكن من الساجدين ﴾ أى: المصلين، أو: فافزع إلى الله فيما نابك وضاق منه صدرك بالتسبيح والتحميد.﴿ وكن من الساجدين ﴾ ؛ من المصلين، يكفك، ويكشف الغم عنك، وعنه ﷺ: «أنه كان إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة»(١) أو: فنزهه عما يقولون، حامداً له على أن هداك للحق، وكن من الساجدين له شكراً.

﴿ واعبدْ ربك حتى يأتيك اليقين ﴾ أى: الموت، فإنه متيقن لحاقه، وليس اليقين من أسماء الموت، وإنما العلم به يقين، لا يمترى فيه، فسمى يقينا؛ تجوزاً. أو: لما كان يحصل اليقين بعده بما كان غيباً سمى يقيناً. والمعنى: فاعبده مادمت حياً، ولا تُخلّ بالعبادة لحظة. وفى بعض الأحاديث عنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ أنه قال: «إن الله لم يُوح إلىّ أن أجمع المال، وأكون من التاجرين، وإنما أوحى إلىّ أن: سبح بحمد ربك وكن من الساجدين، واعبد ربك حتى يأتيك اليقين»(٢). أو كما قال عليه الصلاة والسلام.

الإشارة : يقال للعابد، أو الزاهد: ولقد آتيناك سبعًا من المثانى والقرآن العظيم، تتمتع بحلاوته، وبالتهجد بتلاوته، ففيه كفايتك وغناك، فلا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أصنافاً من أهل الدنيا، الراغبين فيها، المشتغلين بها عن عبادة خالقها. قيل: لما نزلت هذه الآية قال ﷺ: «إياكم والنظر فى أبناء الدنيا، فإنه يقسى القلب ويورث حب الدنيا، ولا تكثروا الجلوس مع أهل الثروة، فتميلوا لزينة الدنيا؛ فوالله لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى الكافر منها جرعة ماء» . وقال ﷺ: «من تواضع لغنى لأجل غناه اقترب من النار مسيرة سنة، وذهب ثلثا دينه» . هذا إن تواضع بجسمه فقط، فإن تواضع بجسمه وقلبه ذهب دينه كله.

ويقال للعارف: ولقد آتيناك شهود المعانى، وغيبناك عن حس الأوانى، حتى شهدت المتكلم بالسبع المثانى، فسمعت القرآن من مُنزله دون واسطة. وذلك بالفناءِ، عن الوسائط، فى شهود الموسوط، حتى يفنى عن نفسه فى حال قراءته.

---

(١) أخرجه بنحوه أبو داود فى (الصلاة، باب وقت قيام النبى ﷺ الليل) عن حذيفة، وأخرجه الإمام أحمد (٥/٣٨٨) فى قصة الخندق مطولاً.

(٢) أخرجه ابن عدى فى الكامل (٥/١٨٩٧) والواحدى: فى الوسيط (٣/٥٤) والبغوى فى تفسيره (٤/٣٩٧) عن جبير بن نفيل، مرسلاً..

ويقال له: لا تمدن عينيك إلى شهود الحس، ولا إلى ما متعنا به أصنافاً من أهل الحس، الواقفين مع شهود الحس؛ فإن ذلك يحجبك عن شهود المعانى القائمة بالأوانى، بل المفنية للأوانى عند سطوع المعانى. ولا تحزن عليهم حيث رأيتهم منهمكين فى الحس؛ فإن قيام عالم الحكمة لا يكون إلا بوجود أهل الحس، واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين بخصوصيتك، وقل: إنى أنا النذير المبين من الاشتغال بالبطالة، والغفلة، حتى ينزل بأهلهما ما نزل على المقتسمين، الذين جعلوا القرآن عِضين؛ أجزاء متفرقة؛ فما كان فيه مما يدل على التسهيل لجواز جمع الدنيا واحتكارها والاشتغال بها أخذوا به، وما كان فيه مما يدل على الزهد فيها، والانقطاع إلى الله عنها، والتجريد عن أسبابها، رفضوه. فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون.

فاصدع، أيها العارف الواعظ، بما تُؤمر؛ من الأمر بالزهد، والانقطاع إلى الله، ولرفض كل ما يشغل عن الله، ولا تراقب أحداً فى ذات الله، وأعرض عن المشركين، الذين أشركوا فى محبة الله سواه، وشهدوا الأكوان موجودة مع الله، وهى ثابتة بإثباته، ممحوه بأحدية ذاته، فلا وجود لها فى الحقيقة مع الله. فإن استهزءوا بك، وصغروا أمرك، فسيكفيكهم الله. فاشتغل بالله عنهم، فلا يضيق صدرك بما فيه يخوضون، (فسبح بحمد ربك) أى: نزهه عن شهود السّوى معه، حامداً الله على ما أولاك من نعمة توحيده، (وكن من الساجدين) لله شكراً، وقياماً برسم العبودية، أو: كن من الساجدين بقلبك فى حضرة القدس، حتى يأتيك اليقين[١].

وفى الورتجبى، فى قوله: (ولقد نعلم أنك يضيقُ صدرك)، قال: واسى الحقُّ حبيبَه بما سمع من أعدائه، وقال له: أنت بمرأىً منا، يضيق صدرك؛ من لطافتك، بما يقول الجاهلون بنا فى حقنا، مما لا يليق بتنزيهنا، فنزه أنت صفتنا مكان مقالتهم فينا، فإنَّ مثلك منزهنا لا غير، وكن من الساجدين حتى ترانا بوصف ما علمت منا، وتخرج من ضيق الصدر بما تشاهد من جمالنا، فإذا كنت تعايننا سقط عنك ضيق صدرك من جهة مقالتهم. هـ.

وبالله التوفيق، وهو الهادى إلى سواء الطريق.

❁ ❁ ❁

(١) اليقين ـ هنا ـ هو الموت. أى: اعبد ربك إلى آخر لحظة من عمرك.

سُورَةُ النَّحْلِ

مكية، إلا قوله: ﴿ وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ماعوقبتم به... ﴾ الآية، نزلت في غزوة أحد. وهي مائة وثمان وعشرون آية. ومناسبتها لما قبلها قوله: ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾(١)؛ وهو الموت وما بعده من البعث والحساب، وهو أمر الله الذى أشار إليه بقوله:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿ أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ①﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ أتى أمرُ الله ﴾ أي: البعث والحساب. وعبّر بالماضى؛ لتحقق وقوعه، أو: ثبت أمره وقضاؤه، وقد جف القلم بما يكون، لا عن سؤال واستعجال، وتدبير من الخلق، ولو كان كذلك لنافى انفراده بتدبير ملكه، ولذلك نزه نفسه بقوله: ﴿ سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾. أو: إهلاك الله إياهم يوم بدر، وكانوا يستعجلون ما أوعدهم الرسول من قيام الساعة، وإهلاكهم ونصره عليهم، استهزاء وتكذيباً؛ ولذلك قال: ﴿ فلا تستعجلوه ﴾، والمعنى: أن الأمر الموعود به بمنزلة الماضى، لتحقق وقوعه من حيث إنه واجب الوقوع؛ فلا تستعجلوا وقوعه، فإنه لا خير لكم فيه، ولا خلاص لكم منه.

ورُوى لما نزل قوله: ﴿ أتى أمر الله ﴾، وثب رسول الله ﷺ قائماً، ورفع الناس رؤوسهم، فلما قال: ﴿ فلا تستعجلوه ﴾، سكن. وكان المشركون يقولون: إن صح ما يقول محمد من قيام الساعة، فالأصنام تشفع لنا وتخلصنا، فقال تعالى: ﴿ سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾ أى: تنزه وجلّ عن أن يكون له شريك، فيدفع ما أراد بهم. هـ.

وقرأ الأخوان بالخطاب، على وفق قوله: (فلا تستعجلوه)، والباقون بالغيب، على تلوين الخطاب، أو على أن الخطاب للمؤمنين، أى: أتى أمر الله أيها المؤمنون فلا تستعجلوه، سبحانه وتعالى عما يشركه به المشركون. أو: لهم ولغيرهم. والله تعالى أعلم.

الإشارة: إذا أشرق نورُ اليقين فى صميم القلوب تحقق وقوع ما وعد الله به من أمر الغيوب، فصار الماضى آتيا، والمستقبل واقعاً. وفي الحكم: «لو أشرق نور اليقين فى قلبك، لرأيت الآخرة أقرب من أن ترحل إليها، ولرأيت الدنيا وكسفةُ الفناء ظاهرةٌ عليها». وكذلك المقادير المستقبلة والمواعيد الغيبية، كلها عند أهل اليقين محققة الوقوع، واجبة الحصول، ينتظرون وقوعها فى مواقيتها، شيئًا فشيئًا، ويتلقونها بالمعرفة والأدب؛ فإن كانت جلالية فبالرضى والتسليم، وإن كانت جمالية فبالحمد والشكر، هكذا نظرهم دائماً إلى ما يبرز من عنصر القدرة، ليس لهم

(١) من الآية الأخيرة من سورة الحِجْر.

وقت دون ما هم فيه، ولا أمل دون ما أقامهم الحق تعالى فيه، ليس لهم عن أنفسهم إخبار، ولا مع غير الله قرار، ولا يستعجلون ما تأخر وقوعه من أقداره، ولا يشركون مع الله فى تدبيره واختياره. قد هجم عليهم اليقين، فهم، فى عموم أوقاتهم، مستغرقون فى شهود المحبوب، غائبون عن كل مرغوب ومطلوب، سوى شهود وجه المحبوب، جعلنا الله منهم بمنّه وكرمه. آمين.

وسبب وجود هذا فى قلوبهم حياة روحهم بالإيمان التام، والمعرفة الكاملة، كما أبان ذلك الحق تعالى بقوله:

﴿ يُنَزِّلُ الْمَلَٰٓئِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ (٢) ﴾

قلت: (أن أنذروا): مفسرة، بمعنى أى؛ لأن الوحى فيه معنى القول. أو مصدرية فى موضع الجر، بدلا من الروح، أو النصب بنزع الخافض، أو مخففة من الثقيلة. وقوله: (لا إله إلا أنا): جرى على المعنى، ولم يجر على اللفظ، وإلا لقال: لا إله إلا الله. انظر ابن عطية. قال المحشى الفاسى: وسر ذلك هنا: التصريح بالمقصود، وأن الإله الواحد هو المتكلم لا غيره، كما قيل فى قوله: ﴿ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴾(١)، أى: ولم يقل: فإياه فارهبوا، بل نقل الكلام من الغيبة إلى التكلم؛ مبالغة فى الترهيب، وتصريحاً بالمقصود، كأنه قال: فأنا ذلك الإله الواحد، فإياى فارهبون لا غير. هـ.

قلت: وكأنه قال هنا: يُنزل الملائكةَ بالوحى أن أعلموا أنه لا يُعبد إلا إله واحد، وأنا ذلك الواحد.

يقول الحق جل جلاله، تحقيقاً لِما وعدهم به، وأن ذلك الوعد، مع دنوه وقربه بالوحى، فلا خلف فيه، فقال: ﴿ يُنزِّلُ الملائكةَ ﴾ أى: جبريل، جمعه؛ تعظيماً، أو: لأنه قد ينزل معه غيره من الملائكة، فيحضرون الوحى؛ حرَسا له. أو: لأنه قد ينزل بالوحى غيره من الملائكة، كما فى صحيح مسلم: «إن سورة الحمد نزل بها ملك لم ينزل إلى الأرض قبل ذلك»(٢). وقال عليه الصلاة والسلام: «إن إسرافيل وُكّل بى فى ثلاث سنين، فكان يأتينى بالكلمة والكلمتين، ثم كان جبريل يأتينى بالقرآن فى كل وقت». ورُوى أن خالد بن سنان كان نبيًا، وكان يأتيه بالوحى مالك خازن النار، وكان بعد عيسى عليه السلام، ولم يبق فى النبوة إلا عشرين يوماً، ثم مات، فلقصر مدته لم يُعد نبياً، بعد عيسى ونبينا محمد ﷺ، وإنما كانت فترة خمسمائة عام. وذكر ابن العربى أن ذا القرنين كان ينزل عليه ملك، يقال له: رفائيل، فكان يلقى إليه الوحي، ويطوى له الأرض. هكذا نقل الشطيبى عنه فى اللباب، فانظره.

---

(١) من الآية ٥١ من سورة النحل.
(٢) أخرجه بطوله مسلم فى (صلاة المسافرين، باب فضل الفاتحة وخواتيم سورة البقرة) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

وقوله: ﴿ بالروح ﴾ أى: بالوحي، أو القرآن؛ فإنه سبب حياة القلوب والأرواح الميتة بالجهل والحجاب، أو سبب حياة الدين بعد موته واندراسه بالكفر؛ فإن الوحي يقوم فى الدين مقام الروح من الجسد. يُنزل ذلك ﴿ من أمره ﴾ أى: من أجل أمره وبيان شأنه، أو بأمره وإذنه، ﴿ على من يشاء من عباده ﴾ أن يصطفيه للرسالة، قائلاً لهم: ﴿ أنْ أنذروا ﴾: خوفوا أهل الشرك، أو أعلِموا عبادى ﴿ أنه ﴾ أى: الأمر والشأن، ﴿ لا إله إلا أنا فاتقون ﴾؛ بترك الكفر والمعاصى، أى: اجعلوا بينكم وبين غضبه وقاية، بأن توحدوه، وتطيعوه فيما أمر به.

قال البيضاوى: والآية تدل على أن نزول الوحي بواسطة الملائكة، وأن حاصله: التنبيه على التوحيد، الذى هو القوة العلمية، والأمر بالتقوى الذى هو أقصى كمالات القوة العملية. وأن النبوة عطائية – أى: لا كسبية –، والآيات التى بعدها دليل على وحدانيته، من حيث إنها تدل على أنه تعالى هو الموجد لأصول العالم وفروعه، على وفق الحكمة والمصلحة، ولو كان له شريك لقدَرَ على ذلك، فيلزم التمانع. هـ.

الإشارة: قوله تعالى: ﴿ بالروح ﴾: قال الورتجبى: الروح: الوحي الإلهي، سماه بالروح؛ لأنه كلامه صدر من ذاته، وهو حياة قلوب الصديقين من المكلَّمين والمحدَّثين، وهو سبب حياة قلوب المؤمنين، يحييهم بعلمه من موت الجهالة. هـ.

وقال القشيرى فى قوله: ﴿ على من يشاء من عباده ﴾: على الأنبياء بالوحى والرسالة، وعلى أسرار أرباب التوحيد، وهم المُحَدَّثون بالتعريف والعلم. فالتعريف للأولياء من حيث الإلهام والخواطر، أى: الواردات. وإنزال الملائكة على قلوبهم غير ممنوع، ولكنهم لا يؤْمَرون أن يتكلموا بذلك، ولا يحمِلون الرسالة إلى الخلق. هـ.

قلت: وكأنه ينظر إلى قوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «علماء أمتى كأنبياء بنى إسرائيل»، فهم يشاركون الأنبياء فى الوحي الإلهامي، ولا يبلغون ذلك إلا لمن صدقهم وتبعهم فى طريقهم. والله تعالى أعلم.

ثم عرَّف بنفسه، بما أظهر من تجلياته العلوية والسفلية، فقال:

﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ
مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا
تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ
إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ
وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا
جَآئِرٌ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾ ﴾

قلت: (والأنعام): منصوب بمحذوف، يفسره: (خلقها)، أو معطوف على «الإنسان»، و(خلقها لكم): بيان لما خُلقتُ لأجله، وما بعده تفصيل له. و(منها تأكلون): إنما قدّم المعمول؛ للمحافظة على رؤوس الآي، أو: لأن الأكل منها هو المعتمد عليه في المعاش، وأما الأكل من غيرها من سائر الحيوانات المأكولات فعلى سبيل التداوى والتفكه. قاله البيضاوى. قلت: ولعله، عند مالك، للاختصاص، أى: منها تأكلون لا من غيرها؛ إذ لا يؤكل عنده غيرها من البهائم الإنسية.

وقوله: (لكم): يحتمل أن يتعلق بما قبلها أو بما بعدها، ويختلف الوقف باختلاف ذلك. (إلا بشق): فيه لغتان: الكسر والفتح، بمعنى التعب والكلفة، وقيل: المفتوح مصدر شقّ الأمرُ عليه، أى: صعُبَ، والمكسور بمعنى: النصف، كأنه ذهب نصف قُوّتِهِ بالتعب. (والخيل): عطف على «الأنعام». و(زينة): مفعول من أجله، عطف على موضع «لتركبوها»: أى: للركوب والزينة، أو مفعول مطلق، أى: لتتزينوا بها زينة.

يقول الحق جل جلاله: ﴿خلق السموات والأرض﴾: أوجدهما ﴿بالحق﴾ أى: ملتبسًا بالحق؛ لتدل على وحدانية الحق، وكمال قدرته وباهر حكمته، حيث أوجدهما على مقدار مخصوص، وشكل بديع، وأوضاع مختلفة، وهيئات متعددة. أوْ: خلقهما بقضائه وتدبيره الحق، لا بمشاركة وتدبيرِ أحد معه، ولا بمعاونة شريك ولا ظهير، ولذلك نزه نفسه بقوله: ﴿تعالى عما يشركون﴾، كما نزه نفسه، ابتداءً، لمّا نفَى الاستعجال؛ لأنه من تدبير الخلق أيضا والصدور عن رأيهم، وفى معناه: تنزيل الوحى على ما يشاء، لا على ما يشاء غيره؛ لانفراده أيضا فى ملكه. وفى إبرازه ذلك، على ما يخالف آراء الخلق، أدل دليل على وحدانيته فى ملكه، وإنما وضع كل شيء ودبره؛ دلالةً على وحدانيته وهدايته لخلقه إليه.

ثم شفع بخلق الإنسان فقال: ﴿خلق الإنسان﴾ أى: جنسه ﴿من نُطفة﴾: من ماء مهين يخرج من مكان مهين، ﴿فإذا هو خصيم مبين﴾: مجادل، كثير الجدل والخصام، مبين لحجته، أو: خصيم: مكافح لخالقه، قائل: (من يحيى العظام وهى رميم). رُوى أن أُبيَّ بن خلَف أتى النبى ﷺ بِعظْمٍ رَمِيم، فقال: يا محمد، أترَى الله يحيِى هذا بعد ما قد رمَّ؟ فقال: «نعم». فنزلت. فعلى الأول: تكون الآية عامة لكل إنسان، وعلى الثانى: خاصة بالكافر. والأول أظهر.

ولمّا ذكر نعمة الإيجاد ذكر نعمة الإمداد، فقال: ﴿والأنعامَ﴾ وهى: الإبل والبقر والغنم، ﴿خلقها﴾: أوجدها ﴿لكم فيها دِفءٌ﴾؛ ما يُدفأُ به فيقى البرد، يعنى: ما يتخذ من جلود الأنعام وأصوافها من الثياب، ﴿و﴾ لكم

فيها أيضا ﴿ منافعُ ﴾ أُخر؛ كنسلها وظهورها. وإنما عبّر بالمنافع؛ ليتناول عوضها. ﴿ ومنها تأكلون ﴾ أي: تأكلون ما يؤكل منها؛ من اللحوم والشحوم والألبان. ﴿ ولكم فيها جَمَالٌ ﴾ أي: زينة وبهجة ﴿ حين تُريحون ﴾؛ تردونها من مراعيها إلى مِرَاحِها بالعشي، ﴿ وحين تسرحون ﴾؛ تخرجونها إلى المرعى بالغداة؛ فإن الأفنية والمشارعَ والطرق تتزين بها في الذهاب والرواح، ويجل أهلها في أعين الناظرين إليها. وقدَّم الإراحة؛ لأن الجمال فيها أظهر؛ لأنها تقبل ملأى البطون، حاملة الضروع، ثم تأوي إلى الحظائر حاضرة لأهلها.

﴿ وتحمل أثقالكم ﴾: أحمالكم عليها من الأمتعة وغيرها ﴿ إلى بلدٍ ﴾ بعيد، ﴿ لم تكونوا بالغيه ﴾ عليها، فضلاً عن أن تحملوها على ظهوركم، ﴿ إلا بِشِقِّ الأنفس ﴾؛ إلا بكلفة ومشقة فديحة، أو: إلا بذهاب شِقها، أي: نصف قوتها من التعب. ﴿ إن ربكم لرؤوف رحيم ﴾؛ حيث رحمكم بخلقها وذللها للحمل، والركوب عليها، وأنعم عليكم بالأكل من لحومها وألبانها.

﴿ و ﴾ خلق لكم ﴿ الخيلَ والبغالَ والحميرَ لتركبوها ﴾، ﴿ و ﴾ تتزينوا بها ﴿ زينةً ﴾، أو للركوب والزينة. قال البيضاوي: وتغيير النظم ـ أي: حيث لم يقل: وللزينة ـ؛ لأن الزينة بفعل الخالق، والركوب من فعل المخلوق ـ أي: باعتبار الحكمة ـ، ولأن المقصود خلقها للركوب، وأما التزين بها فحاصل بالعَرَضِ. وقرئ بغير واو، فيحتمل أن يكون علة لركوبها، أو مصدراً في موضع الحال من الضمير، أي: متزينين، أو متزيناً بها. واستُدلَّ به على حرمة لحومها، ولا دليل فيه؛ إذ لا يلزم من تعليل الفعل بما يقصد منه، غالباً، ألا يقصد منه غيره أصلا، ويدل عليه أن الآية مكية. وعامة المفسرين والمحدثين أن الحمر الأهلية حرمت عام خيبر. هـ. ﴿ ويخلق ما لا تعلمون ﴾ مما لا يُحيط البشرُ بعلمها؛ من عجائب المخلوقات، وضروب المصنوعات، مما يؤكل ومما لا يؤكل، وما خلقَ في الجنة والنار، مما لا يخطر على قلب بشر.

﴿ وعلى الله قصدُ السبيل ﴾ أي: وعلى الله بيان السبيل القصد، أي: الطريق الموصل إلى المقصود. أو: على الله تقويم طريق الهدى؛ بنصب الأدلة وبعث الرسل، فهو من إضافة الصفة إلى الموصوف، أي: السبيل القصد، أي: القاصد المستقيم الموصل إلى المطلوب؛ كأنه يقصد الوجه الذي يقصده السالك لا يميل عنه. والمراد من السبيل: الجنس، ولذلك أضاف إليه القصد، وقال: ﴿ ومنها جائرٌ ﴾ عن القصد، أو عن الله، كطريق اليهود والنصارى وغيرهم. والسبيل بمعنى الطريق، يُذكر ويؤنث، وأُنِّثَ هنا. وتغيير الأسلوب ـ أي: حيث لم يقل: قصد السبيل والجائر ـ؛ لأنه ليس بحق على الله أن يبين طريق الضلالة، ولأن المقصود، بالأصالة، بيان سبيله، وتقسيمُ السبيل إلى القصد والجائر إنما جاء بالعرض. ﴿ ولو شاء لهداكم أجمعين ﴾ أي: ولو شاء هدايتكم أجمعين لهداكم إلى قصد السبيل، هداية مستلزمة للاهتداء. قاله البيضاوي.

الإشارة : هذه العوالم من العرش إلى الفرش كلها نُصبت للآدمي، وخلقت من أجله، السماوات تُظله، والأرض تُقله، والحيوانات تخدمه وتنفعه، يتصرف فيها؛ خليفة عن الله في ملكه. فالواجب عليه شكر هذه النعم، وألا يقف معها، ويشتغل بها عن خدمة خالقها. يقول الحق تعالى، في بعض كلامه بلسان الحال أو المقال: «يا ابنَ آدم، خَلَقتُ الأشياءَ من أجلِكَ، وخلقْتُكَ من أجلي، فلا تَشْتَغِل بما خُلِق لأجلك عمَّا خُلقتَ لأجْلِه» . والواجب عليه أيضاً من طريق الخصوص: ألا يقف مع حس أجرامها، دون النفوذ إلى أسرار معاني خالقها ومُظهرها؛ لئلا يبقى مسجوناً بمحيطاته، محصوراً في هيكل ذاته، بل ينفذ إلى فضاء شهود بحر المعاني، المحيط بالأواني، والمفني لها، بصحبة شيخ كامل، يُخرجه من سجن الأكوان إلى فضاء شهود المُكوِّن. وبالله التوفيق.

وقوله: ﴿ وعلى الله قصد السبيل ﴾ : اعلم أن الحق ـ جل جلاله ـ بيَّن طريق الوصول إلى نعيمه الحسي والفوز برضوانه، وطريق الوصول إلى حضرة قدسه ومحل شهوده وعيانه، وأرسل الرسل ببيان الطريقين. فوكل ببيان الأولى العلماء، ووكل ببيان الثانية الأولياء. فالعلماء قاموا ببيان الشرائع الموصلة إلى نعيم الأشباح، والأولياء العارفون قاموا ببيان الحقائق الموصلة إلى نعيم الأرواح، وهو النعيم الأكبر؛ قال تعالى: ﴿ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾(١) . فالرضوان على قسمين: قوم نالهم الرضوان من طريق الخطاب مع سدْل الحجاب ، وهم أهل الشرائع، وقوم نالهم الرضوان بمكافحة الخطاب ورفع الحجاب، وهم أهل الحقائق، وهم المقربون، نفعنا الله بهم، وخرطنا في سلكهم. آمين .

ثم ذكر بقية التجليات، فقال:

﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾
يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ
لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ
مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي
الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ الَّذِي
سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى
الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلْقَى فِي

(١) من الآية ٧٢ من سورة التوبة.

﴿ ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ ﴾

قلت: (لكم منه شراب): يحتمل أن يتعلق بأنزل، أو يكون فى موضع خبر (شراب)، أو صفة لماء؛ و(مواخر): جمع ماخرة، يقال: مخرت السفينة الماء مخراً: شقته، وقيل: المخر: صوت جَرْيِ الفلك فى البحر من هبوب الريح. وقيل: معناه: تجيىء وتذهب بريح واحدة. و(لتبتغوا): عطف على «لتأكلوا»، و(أن تميد): مفعول من أجله، أى: كراهة أن تميد بكم. و(أنهاراً وسُبلاً): مفعول بمحذوف، أى: وخلق أو وجعل أنهاراً، وقيل: معطوف على «رواسى»؛ لأن ألقى، فيه معنى الجعل، و(علامات): عطف على (أنهاراً وسبلاً)، أو نصب على المصدر، أى: ألقى ذلك؛ لعلكم تعتبرون، وعلامات دالة على وحدانيته.

يقول الحق جل جلاله: ﴿هو الذى أنزل من السماء﴾ أى: السحاب، أو جانب السماء، ﴿ماء﴾: مطراً ﴿لكم منه شراب﴾ تشربونه بلا واسطة، أو بواسطة العيون والأنهار والآبار؛ لأنه يُحبس فيها، ثم يشرب منها، لقوله: ﴿فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ﴾(١)، وقوله: ﴿فَأَسْكَنَّاهُ فِي الأَرْضِ﴾(٢)، ﴿ومنه شجرٌ﴾ أى: ومنه يكون شجر، يعنى: الشجر الذى ترعاه المواشى، وقيل: كل ما نبت على الأرض فهو شجر، ﴿فيه تُسِيمُون﴾: ترعون مواشيكم، من أسام الماشية: رعاها، وأصلها: السومة، التى هى العلامة؛ لأنها تؤثر بالرعى علامات.

﴿ يُنبتُ لكم به الزرعَ﴾، وقرأ أبو بكر بالنون؛ على التفخيم، ﴿والزيتونَ والنخيلَ والأعناب ومن كل الثمرات﴾ أى: ومن بعض كل الثمرات؛ إذْ لم ينبت فى الأرض كل مايمكن من الثمار. قال البيضاوى: ولعل تقديم ما يسام فيه على ما يؤكل منه؛ لأنه سيصير غذاءً حيوانياً هو أشرف الأغذية ـ يعنى اللحم ـ، ومن هذا: تقديم الزرع، والتصريح بالأجناس الثلاثة وترتيبها. هـ.

﴿إنّ فى ذلك لآية لقوم يتفكرون﴾، فيستدلون على وجود الصانع وباهر قدرته، فإن من تأمل الحبة تقع فى الأرض يابسة، ويصل إليها نداوة تنفذ فيها، فينشق أعلاها، ويخرج منه ساق الشجر، وينشق أسفلها فيخرج منه عروقها، ثم ينمو ويخرج منه الأوراق والأزهار، والأكمام والثمار، ويشتمل كل منها على أجسام مختلفة الأشكال والطبائع، مع اتحاد المواد، علِمَ أن ذلك ليس إلا بفعل فاعل مختار، مقدس عن منازعة الأضداد والأنداد، ولعل وصل الآية به؛ لذلك. قاله البيضاوى باختصار.

(١) من الآية ٢١ من سورة الزمر.		(٢) من الآية ١٨ من سورة المؤمنون.

﴿ وسخَّر لكم الليلَ والنهارَ والشمس والقمرَ والنجومَ ﴾(١)؛ بأن هيأها لمنافعكم، ﴿ مسخرات بأمره ﴾، أي: مذللات لما يريد منها، وهو حال من الجميع، أي: نفعكم بها حال كونها مسخرات لله، منقادة لحكمه، أو لما خلقن له، ﴿ إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾ أي: لأهل العقول السليمة الصافية من ظلمة الغفلة والشهوات، وإنما جمع هنا، دون ما قبله وما بعده؛ لأن الأولى راجعة إلى إنزال المطر، وهو متحد، والثالثة راجعة إلى ما ذرأ في الأرض، وهو متحد في الجنس والهيئة، بخلاف العوالم العلوية، فإنها مختلفة في الجنس والهيئة. وقال البيضاوي: جمع الآية وذكر العقل؛ لأنها تتضمن أنواعاً من الدلالة ظاهرة لذوي العقول السليمة، غير مُحْوِجَةٍ إلى استيفاء فكر، كأحوال النبات. هـ.

﴿ وما ذرأ ﴾ أي: وسخر لكم ما ذرأ، فهو عطف على الليل، أي: سخر لكم ما خلق لكم في الأرض من حيوانات ونبات، ﴿ مختلفًا ألوانه ﴾؛ أبيض وأسود، أحمر وأصفر، مع اتحاد المادة، فالماء واحد والزهر ألوان، ﴿ إن في ذلك لآية لقوم يذَّكرون ﴾؛ يتذكرون أن اختلافها في الألوان والطبائع، والهيئات والمناظر، ليس إلا بصنع صانع حكيم.

﴿ وهو الذي سخَّر البحرَ ﴾: ذلله بحيث هيأه للتمكن من الانتفاع به؛ بالركوب فيه، والاصطياد، والغوص، ﴿ لتأكلوا منه لحمًا طريًا ﴾ هو السمك، ووصفه بالطراوة؛ لأنه أرطب اللحوم، فيسرع إليه الفساد، فيسارع إلى أكله طرياً، ولإظهار قدرته في خلقه؛ عذباً طرياً في ماء زُعاق(٢) أُجاج، واحْتَجَّ به مالك على أن من حلف ألا يأكل لحماً حنث بأكل السمك، وأجيب بأن مبنى الأيْمان على العرف، وهو لا يُفهم منه عند الإطلاق؛ ألا ترى أن الله سمى الكافر دابة، ولا يحنث من حلف ألا يركب دابة بركوبه. قاله البيضاوي. ويجاب بالاحتياط للحنث؛ فالحنث يقع بأدنى شيء، بخلاف البر، لا يقع إلا بأتم الأشياء.

﴿ وتستخرجوا منه حلْيةً ﴾؛ كاللؤلؤ والمرجان، ﴿ تلْبسونها ﴾؛ يلبسها نساؤكم، وأسند اللباس إليهم؛ لأن لباس النساء تزين للرجال(٣)، فكأنه مقصودٌ لهم، ﴿ وترى الفلك ﴾: السفن ﴿ مواخر فيه ﴾؛ جواري فيه تمخر الماء، أي: تشقه، أو تُصوت من هبوب الريح، ﴿ ولتبتغوا من فضله ﴾: من سعة رزقه؛ بركوبه للتجارة، أو: وترى الفلك جواري فيه؛ لتركبوها، ولتبتغوا من سعة رزقه. قال ابن عطية: فيه إباحة ركوب البحر للتجارة وطلب الأرباح. هـ. ﴿ ولعلكم تشكرون ﴾ أي: تعرفون نعم الله فتقوموا بشكرها. ولعل تخصيصه بتعقيب الشكر؛ لأنه أقوى في باب الإنعام؛ من حيث جعل المهالك سبباً للانتفاع، وتحصيل المعاش. قاله البيضاوي.

---

(١) قرأ حفص وابن عامر: (والنجومُ مسخراتٌ)؛ بالرفع على الابتداء، وقرأ الباقون بالنصب.. انظر الإتحاف (٢/١٨١).
(٢) الزُّعاق من الماء: المرُّ الغليظ، لا يطاق شربه... انظر: لسان العرب (زعق).
(٣) هذا في المنزل، وللأزواج فقط، وأما ما سوى ذلك فهو ـ أي: اللباس ـ للتستر والاحتشام، تعبداً لله، وطاعة لأمره، ﴿وليضربن بخمرهن على جيوبهن...﴾ الآية.

﴿ وألقى فى الأرض رواسى ﴾؛ جبالاً رواسى أرست الأرض؛ كراهة ﴿ أن تميد بكم ﴾؛ تميل وتضطرب؛ لأن الأرض قبل أن تُخلق فيها الجبال كانت كرة خفيفة بسيطة، وكان من حقها أن تتحرك كالسفينة على البحر، فلما خُلقت الجبال تفاوتت جوانبها؛ بثقلها نحو المركز، فصارت كالأوتاد التى تمنعها عن الحركة. وقيل: لما خلق الله الأرض جعلت تمور ـ أى: تتحرك ـ فقالت الملائكة: ما يستقر أحد على ظهرها، فأصبحت وقد أُرْسِيَتْ بالجبال. ﴿ وأنهـاراً ﴾ أى: وجعل فيها أنهاراً تطرد؛ لسقى الناس والبهائم، وسائر المنافع، وذكره بعد الجبال؛ لأن الغالب انفجارها منها، ﴿ وسُبلاً ﴾ أى: وجعل فيها طُرقاً ﴿ لعلكم تهتدون ﴾ لمقاصدكم، أو لمعرفة ربكم، بالنظر فى دلالة هذه المصنوعات المتقدمة، على صانعها.

﴿ و ﴾ جعل فيها ﴿ علامات ﴾: معالم يَسْتَدِلُّ بها السابلة على معرفة الطرق؛ من الجبال، والمناهل، والرياح، وغير ذلك، ﴿ وبالنجم هم يهتدون ﴾ إلى الطرق بالليل، فى البرارى والبحار، والمراد بالنجم: الجنس، بدليل قراءة: «وبالنُّجُمِ» بضمتين؛ على الجمع. وقيل: المراد: الثريا، والفرقدان وبنات نعش[1]، والجَدْى. والضمير لقريش؛ لأنهم كانوا كثيري الأسفار للتجارة، مشهورين بالاهتداء فى مسايرهم بالنجوم، وإخراج الكلام عن سنن الخطاب، وتقديم النجم، وإقحام الضمير؛ للتخصيص، كأنه قيل: وبالنجم خصوصاً، هؤلاء خصوصاً يهتدون، يعنى: قريشاً، فالاعتبار بذلك، والشكر عليهم ألزم لهم وأوجب عليهم. هـ. وأصله للزمخشرى.

الإشارة: هو الذى أنزل من سماء الغيوب ماء، أى: علماً لدنياً تحيا به القلوب، وتتطهر به النفوس من أدناس العيوب. لكم منه شراب، أى: خمرة تحيا بها الأرواح، وتغيب عن حضرة الأشباح، ويخرج منه على الجوارح أشجار العمل، تثمر بالأذواق، فيه تسيمون، أى: فى أذواق العمل ترعون بنفوسكم وقلوبكم، ثم ترحلون عنه إلى حلاوة شهود ربكم، فمن وقف مع حلاوة العمل، أو المقامات أو الكرامات، بقى محجوباً عن ربه، وعليه نبّه صاحب البردة بقوله:

وَراعِها، وهْيَ فى الأعْمَالِ سائِمَةٌ		وإنْ هِيَ اسْتَحْلَتِ المَرْعَى فلا تُسِمِ

وقال فى الحكم: «ربما وقفت القلوب مع الأنوار، كما حُجِبَتْ النفوس بكثائف الأغيار».

وقال الششترى:

وقد تحْجُبُ الأنوار للعبدِ مثْـل ما		تبعد[2] من إظلام نفْس حوَتْ ضِغنا .

---

(١): الفَرْقَدان: نجمان فى السماء لا يَغْرُبَانِ، انظر اللسان (فرقد). وبنات نعش: سبعة كواكب، تشاهد جهة القطب الشمالى. انظر (المعجم الوسيط/نعش).

(٢) فى ديوان الششترى: تقيد.

يُنبت بذلك العلم طعام نَفوسكم من قوت الشريعة، ومصباح قلوبكم من عمل الطريقة، وثمرة الأعمال فى عوالم الحقيقة، وفواكه العلوم من مخازن الفهوم. وسخر لكم ليل القبض، ونهار البسط؛ لتسكنوا فيه؛ لِما خصكم فيه من مقام التسليم والرضا، ولتبتغوا من فضله؛ من فيض العلوم وكشف الغطاء، فتشرق حينئذ شمس العرفان، ويستدير قمر الإيمان، وتطلع نجوم العلم، كل مسخر فى محله، لا يستتر أحد بنور غيره، وهذا مقام أهل التمكين، يستعملون كل شيء فى محله. وما ذَرَأ لكم فى أرض نفوسكم من أنواع العبادات وأحوال العبودية، متلونة باعتبار الأزمنة والأمكنة، وهو الذى سخر بحر المعانى؛ لتأكلوا منه لحماً طريًا؛ علماً جديداً لم يخطر على قلب بشر، وتستخرجوا منه جواهر ويواقيت من الحِكَم، تلبسونها وتتزين قلوبكم وألسنتكم بها.

وترى الفلك، أي: سفن الفكرة، فيه مواخر؛ عائمة فى بحر الوحدة، بين أنوار الملكوت وأسرار الجبروت؛ لتبتغوا من فضله، وهي معرفة الحق بذاته وأسمائه وصفاته، ولعلكم تشكرون، فتقيدوا هذه النعم الجسام؛ لئلا تزول. وألقى فى أرض البشرية جبال العقول؛ لئلا يلعب بها ريحُ الهوى، وأجرى عليها أنهاراً من العلوم حين انزجرت عن هواها، وجعل لها طُرقاً تهتدى بها إلى معرفة ربها، فتهتدى أولاً إلى نجم الإسلام، ثم إلى قمر توحيد البرهان، ثم إلى شهود شمس العرفان. وبالله التوفيق.

ولما ذكر دلائل التوحيد، أنكر على من أشرك بعد هذا البيان، فقال:

﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾

قلت: (وما يشعرون أيان يبعثون)، الضمير الأول للأصنام، والثانى للكفار الذين عبدوهم، وقيل: للأصنام فيهما، وقيل: للكفار فيهما، و(لاجرم): إما أن يكون بمعنى لا شك، أو لابد، أو تكون «لا» نفيًا لِما تقدم. و«جَرَم»: فعل، بمعنى وجب، أو حق، و(أن الله): فاعل بجَرَم.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ أفمن يَخلُقُ ﴾ كل شيء، ويقدر على كل شيء، ﴿ كمن لا يَخْلُق ﴾ شيئاً، ولا يقدر على شيء، بل هو أعجز من كل شيء؟ وهو إنكار على من أشرك مع الله غيره، بعد إقامة الدلائل

ثم ذكر سبب إصرارهم على الكفر ـ وهو إنكار البعث والتكبر ـ فقال: ﴿فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم مُنكِرةٌ وهم مستكبرون﴾ أى: فالمنكرون للبعث قلوبهم منكرة لوحدانيته تعالى، وهم مستكبرون عن اتباع الرسل فيما جاءوا به، والخضوع لهم؛ لأن المؤمن بالآخرة يكون طالباً للدلائل، متأملاً فيما يسمع، فينتفع به، خاضعاً للحق، متبعاً لمن جاء به، بخلاف الكافر، يكون حاله بالعكس؛ منهمكاً فى الغفلة، متبعاً للهوى، يُنكر بقلبه ما لا يعرف إلا بالبرهان[1]، اتباعاً للأسلاف، وتقليداً لهم، وركوناً إلى المألوف.

قال تعالى؛ تهديداً لمن هذا وصفه: ﴿لا جَرَمَ﴾: لابد، أو لا شك، أو حقّ ﴿أنّ الله يعلم ما يُسرون وما يعلنون﴾، فيجازيهم عليه؛ ﴿إنه لا يحب المستكبرين﴾ مطلقاً، فضلاً عن الذين استكبروا عن توحيده واتباع رسوله. ومفهومه: أنه يحب المتواضعين الخاضعين للحق، ولمن جاء به، وهم المؤمنون. والله تعالى أعلم.

الإشارة: قد تضمنت الآية ثلاث خصال من خصال أهل التوحيد: **الأولى**: رفع الهمة عن الخلق، وتعلقها بالخالق فى جميع المطالب والمآرب؛ إذ لا يترك العبد من هو خالق كل شىء، قادر على كل شىء، دائم لا يموت، ويتعلق بعبد عاجز ضعيف، لا يقدر على نفع نفسه، فكيف ينفع غيره؟ (أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون)، (والذين تدعون من دون الله لا يَخلقون شيئاً وهم يُخلقون أموات غير أحياء). وأنشدوا فى هذا المعنى:

حَرَامٌ عَلى مَنْ وَحَّد الله ربَّهُ ... وأفْرَدَهُ أنْ يَجْتَدِى أحَداً رِفْدَا
فيَا صَاحِبِى قفْ بى علَى الحَقِّ وَقْفَةً ... أمُوتُ بِهَا وَجْداً، وأحْيَا بِهَا وَجْدَا
وقُلْ لِمُلُوكِ الأرْضِ تَجْهَدُ جُهْدَهَا ... فَذَا المُلْكُ مُلْكٌ لا يُبَاعُ ولا يُهْدى

والخصلة الثانية: تذكر البعث وما بعده، وتقريبُه وجعله نصب العين؛ إذ بذلك يحصل الزهد فى هذه الدار الفانية، والاستعداد والتأهب للدار الباقية، وبه تلين القلوب، وتتحقق بعلم الغيوب، وبه يحصل الخضوع للحق، والتعظيم لمن جاء به. بخلاف من أنكره، أو استبعده، قال تعالى: (فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون).

---

(١) هذا من سمات المؤمنين، وليس الكافرين، فالكافرون: لا برهان لهم؛ (..لا برهان له به..)، (قل هاتوا برهانكم..) .. (قل هل عندكم من علم..) (لولا يأتون عليهم بسلطان).
ويرحم الله أسلافنا، علمونا ذلك، فنقلنا عنهم هذه القاعدة: (إن كنت ناقلاً ـ فالصحة، وإن كنت مدَّعيا: فالدليل)، والله ـ تقدس وتعالى ـ أمرنا ألا نتبع إلا ما قام عليه الدليل، (ولا تقف ماليس لك له علم)، والعلم هو ما قام عليه البرهان الجلي.

المتكاثرة على كمال قدرته، وباهر حكمته، بذكر ما تقدم من أنواع المخلوقات وبدائع المصنوعات، وكان حق الكلام: أفمن لا يخلق كمن يخلق، لكنه عكس؛ تنبيهاً على أنهم، بالإشراك بالله، جعلوه من جنس المخلوقات العجزة، شبيهاً بها. والمراد بمن لا يخلق، كل ما عُبد من دون الله، وغلب أولى العلم منهم، فعبَّر بمن، أو يريد الأصنام، وأجراها مجرى أولى العلم؛ لأنهم سموها آلهة، ومن حق الإله أن يعلم، أو للمشاكلة بينه وبين من يخلق. ﴿ أفلا تذكَّرون ﴾؛ فتعرفوا فساد ذلك؛ فإنه لظهوره كالحاصل للعقل الذى يحضر عنده بأدنى تذكر والتفات.

ولما ذكر أنواعاً من المخلوقات على وجه الاستدلال على وحدانيته ـ وفى ضمنها: تعداد النِعَم على خلقه ـ أعقبها بقوله: ﴿ وإن تعدوا نعمةَ الله لا تُحصوها ﴾ أى: لا تطيقوا عدها، فضلاً أن تطيقوا القيام بشكرها. ثم أعقبها بقوله: ﴿ إنَّ الله لغفور رحيم ﴾؛ تنبيهاً على أن العبد فى محل التقصير، لولا أن الله يغفر له تقصيره فى أداء شكر نعمه، ويرحمه ببقائها مع تقصيره فى شكرها.

﴿ والله يعلم ما تُسِرُّون وما تُعلنون ﴾ من عقائدكم وأعمالكم، وهو وعيد لمن كفر النعم وأشرك مع الله غيره، سراً أو علانية، ثم قال تعالى: ﴿ والذين تدعون ﴾[1] أى: والأصنام الذين تعبدونهم ﴿ من دون الله لا يَخْلُقون شيئًا ﴾؛ لظهور عجزهم. لمَّا نفى المشاركة بين من يخلق ومن لا يخلق، بيَّن أنها لا تخلق شيئًا؛ ليتحقق نفي الألوهية عنها؛ ضرورةً. ثم علل عجزها، وعدم استحقاقها للألوهية بقوله: ﴿ وهم يُخلقون ﴾ أى: وهم مخلوقون مفتقرون فى وجودهم إلى التخليق، والإله لابد أن يكون واجب الوجود.

وهم، أيضا، ﴿ أمواتٌ غير أحياء ﴾ أى: لم تكن لهم حياة قط، ولا تكون، وذلك أغرق فى موتها ممن تقدمت له حياة، ثم مات. والإله ينبغى أن يكون حياً بالذات لا يعتريه الممات. ﴿ وما يشعرون أيَّان يُبعثون ﴾ أى: لا يعلمون وقت بعثهم، أو بعثِ عبدَتِهِمْ، فكيف يكون لهم وقت يجازون فيه من عبدهم، والإله ينبغى أن يكون عالماً بالغيوب، قادراً على الجزاء لمن عبده؟ وفيه تنبيه على أن البعث من توابع التكليف. قاله البيضاوى.

قال ابنُ جُزَىْ: نفى عن الأصنام صفة الربوبية، وأثبت لهم أضدادها؛ وهى أنهم مخلوقون غير خالقين، وغير أحياء، وغير عالمين وقت البعث، فلما قام البرهان على بطلان ربوبيتهم، أثبت الربوبية لله وحده، فقال: ﴿ إلهكم إله واحد ﴾ . هـ. وهو تصريح بما أقام عليه الحجج والبراهين بما تقدم.

(١) قرأ عاصم ويعقوب: «يدعون»: بالياء. على الالتفات. وقرأ الباقون «تدعون» بتاء الخطاب انظر الإتحاف (٢/١٨٢).

الخصلة الثالثة: التواضع والخضوع لله، ولمن دعا إلى الله، وهو سبب المحبة من الله، ورفع الدرجات عند الله؛ قال ﷺ: «مَنْ تواضعَ للهِ رفعَهُ، ومَنْ تكبّر وضعَهُ الله». وقال أيضا: «مَنْ تواضعَ دُون قَدْره، رفَعَهُ الله فوق قَدْره». بخلاف المتكبر؛ فإنه ممقوت عند الله، مطرود عن باب الله؛ قال تعالى: (إنه لا يحب المستكبرين). وفي الحديث: «لا يَدْخُلُ الجنّةَ مَنْ في قَلْبِه مِثْقَالُ ذَرّةٍ مِنْ خَرْدلٍ مِنْ كِبْرٍ»(١)، أو كما قال ﷺ، والتكبر: بَطَرُ الحق وغَمْطُ الناس، أي: جحد الحق، واحتقار الناس. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر وصف المتكبرين، ووبال تكبرهم، فقال:

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾ قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾

قلت: (ماذا)، يجوز أن يكون اسماً واحداً مركباً منصوباً بـ (أنزل)، وأن تكون (ما): استفهامية في موضع رفع بالابتداء، و(ذا): بمعنى «الذي» :خبر، وفي أنزل ضميرٌ محذوف، أي: ما الذي أنزله ربكم؟ واللام في (ليحملوا): لام العاقبة والصيرورة، أي: قالوا: هو أساطير الأولين؛ فأوجب ذلك أن يحملوا أوزارهم وأوزار غيرهم، وقيل: لام الأمر، و(بغيرعلم): حال من المفعول في (يُضلونهم)، أو من الفاعل، و(تشاقُّون): من قرأه بالكسر؛ فالمفعول: ضمير المتكلم، وهو الله تعالى، ومن قرأه بالفتح؛ فالمفعول محذوف، أي: تشاقون المؤمنين من أجلهم. و(ظالمي أنفسهم): حال من ضمير المفعول في: «تتوفاهم».

(١) أخرجه مسلم في (الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه)، من حديث ابن مسعود ـ رضي الله عنه.

يقول الحق جل جلاله : ﴿ وإذا قيل لهم ﴾ أي: كفار قريش: ﴿ ماذا أنزل ربكم ﴾ على رسوله محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ؟ ﴿ قالوا ﴾ : هو ﴿ أساطيرُ الأولين ﴾ أي: ماسطره الأولون وكتبوه من الخرافات. وكان النضر بن الحارث قد اتخذ كتب التواريخ، ويقول: إنما يُحدِّث مُحمدٌ بأساطير الأولين، وحديثي أجمل من حديثه. والقائل لهم هم المقتسمُون، وتسميته، حينئذ، مُنزلاً؛ إما على وجه التهكم، أو على الفَرض والتقدير، أي: على تقدير أنه منزل، فهو أساطير لا تحقيق فيه. ويحتمل أن يكون القائل لهم المؤمنين، فلا يحتاج إلى تأويل.

﴿ ليحملوا أوزارَهم كاملةً يوم القيامة ﴾ أي: قالوا ذلك؛ ليُضلوا الناس، فكان عاقبتهم أن حملوا أوزار ضلالهم كاملة، ﴿ ومن أوزارِ الذين يُضلونهم ﴾ : وبعض أوزار ضلال من كانوا يضلونهم ـ وهو حصة التسبب في الوقوع في الضلال ـ حال كونهم ﴿ بغيرعلم ﴾ أي: يضلون من لا يعلم أنهم ضُلاّل. وفيه دليل على أن الجاهل في العقائد غير معذور؛ إذ كان يجب عليه أن يبحث عن الحق وأهله، وينظر في دلائله وحُججه(١).

قال البيضاوي: (بغيرعلم) : حال من المفعول؛ أي: يضلون من لا يعلم أنهم ضُلاّل، وفائدتها: الدلالة على أن جهلهم لا يعذرهم؛ إذ كان عليهم أن يبحثوا، ويميزوا بين المحق والمبطل. هـ. وقال المحشي: ففيه ذم تقليد المبطل، وأن مقلده غير معذور، بخلاف تقليد المحق الذي قام بشاهد صدقه المعجزة، أو غير ذلك، كدليل العقل والنقل فيما تعتبر دلالته. هـ. قلت: ويجوز أن يكون حالاً من الفاعل، أي: يضِلُّون في حال خلوهم من العلم، فقد جمعوا بين الضلال والإضلال.

قال تعالى في شأن أهل الإضلال: ﴿ ألاَ سَاءَ ما يَزِرُونَ ﴾ ، أي: بئس شيئاً يزرونه فعلهم هذا.

﴿ قد مكر الذين من قَبلهم ﴾ أي: دبروا أموراً ليمكروا بها الرسل، ﴿ فأتى اللهُ بُنيانهم من القواعد ﴾ أي: قصد ما دبروه من أصله، فهدمه، ﴿ فخرَّ عليهم السَّقْفُ من فوقهم ﴾ ، وصار ما دبروه، وبنوه من المكر، سبب هلاكهم، ﴿ وأتاهم العذابُ من حيث لا يشعرون ﴾ ؛ لا يحتسبون ولا يتوقعون، وهو على سبيل التمثيل. وقال ابن عباس وغيره: المراد به نمرود بن كنعان، بنى الصرح ببابل، سُمْكُهُ خمسة آلاف ذراع؛ ليترصّد أمر السماء، فبعث الله ريحاً فهدمته، فخرَّ عليه وعلى قومه، فهلكوا، وقيل: إن جبريل عليه السلام هدمه، فألقى أعلاه في البحر، وانجعف(٢) من أسفله.

---

(١) ما ذكر الشيخ هو كلام المعتزلة ـ عموما ـ أما كلام أهل السنة ـ فيما يختص بمن ثبت له عقد الإسلام ـ فهو إعذاره بالجهل، وتبليغه الحجة حتى يتبين له الحق بياناً لا يغيب على مثله، وحتى يعرف الحق ويميزه، كما يميز الشمس.. فإن أصر على فعل الشرك أو الكفر بعد هذا فهو كافر، لا عذر له، يقول الشوكاني تعليقا على حديث سجود معاذ للنبي ﷺ : «وفي هذا الحديث دليل على أن من سجد ـ جاهلا ـ لغير الله، لم يكفر، وقال في السيل الجرار: «فلابد من شرح الصدر بالكفر، فلا اعتبار بما يقع من طوارىء عقائد الشرك، لاسيما مع الجهل بمخالفتها لعقائد الإسلام، إلى غير ذلك مما قرره ابن العربي، والقاسمي، وابن القيم وغيرهم، في هذه المسائل. فتأملها؛ لأنها خطيرة جداً، فعدم إحكام هذه الأصول يوقعنا في جحيم تكفير جهلة المسلمين. والأمر لله.

(٢) يقال: جعفه جعفاً: قلبه وقلعه. فانجعف. انظر اللسان: (جعف).

﴿ثم يَوْمَ القيامة يُخزيهم﴾: يذلهم ويعذبهم بالنار، ﴿ويقول أين شركائِيَ﴾، أضافها إلى نفسه؛ استهزاء، أو حكاية لإضافتهم إياها إليه في الدنيا؛ زيادةً في توبيخهم، أي: أين الشركاء ﴿الذين كنتم تُشاقون فيهم﴾: تعادون المؤمنين في شأنهم، أو تشاقونني في شأنهم؛ فإن مُشاقة المؤمنين كمشاقته، أو تحاربون وتخارجون، فتكونون في شق والحق في شق، ﴿قال الذين أُوتوا العلم﴾؛ وهم الأنبياء والعلماء الذين كانوا يدعونهم إلى التوحيد، فيشاقونهم ويتكبرون عليهم، أو الملائكة: ﴿إنّ الخزى اليوم والسُّوءَ﴾: الذلة والعذاب ﴿على الكافرين﴾. وفائدة قولهم ذلك لهم: إظهارُ الشماتة وزيادة الإهانة، وحكايته، ليكون لطفاً لمن سمعه من المؤمنين، فيزيد حذراً وحزماً في الطاعة، وقال الواحدي: إن الخزي اليوم والسوء عليهم لا علينا. هـ. أي: فيقولونه؛ اعترافاً واستبشاراً بإنجاز ما وعدهم الله، كما قالوا: الحمد لله الذي هدانا لهذه الهداية.

ثم وصفهم بقوله: ﴿الذين تتوفاهم الملائكةُ﴾؛ تقبض أرواحهم ﴿ظالمى أنفسهم﴾؛ بأن عرضوها للعذاب المخلد، ﴿فألقوُا السَّلَمَ﴾ أي: استسلموا، وألقوا القياد من أنفسهم، حين عاينوا الموت، قائلين: ﴿ما كنا نعملُ من سُوءٍ﴾: من كفر وعدوان، يحتمل أن يكون قولهم ذلك قصدوا به الكذب؛ اعتصاماً به، كقولهم: ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾(١)، أو يكونوا أخبروا على حساب اعتقادهم في أنفسهم، فلم يقصدوا الكذب، ولكنه كذب في نفس الأمر. قال الحسن: هي مواطن، فمرة يُقرون على أنفسهم، كما قال تعالى: ﴿وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾(٢)، ومرة يجحدون كهذه الآية، فتجيبهم الملائكة بقولهم: ﴿بلى﴾ قد كنتم تعملون السوء والعدوان، ﴿إن الله عليم بما كنتم تعملون﴾ فهو يجازيكم عليه. وقيل: إن قوله: ﴿فألقوُا السَّلَمَ﴾ إلى آخر الآية، راجع إلى شرح حالهم يوم القيامة، فيتصل في المعنى بقوله عز وجل: ﴿أين شركائي الذين كنتم تُشاقون فيهم﴾ إلخ، فيكون الرادُّ عليهم بقوله: (بلى)، هو الله تعالى، أو: أولوا العلم، ويُقوى هذا قوله بعده: ﴿فادخلوا أبواب جهنم﴾؛ لأن دخولها لا يكون إلا بعد البعث والحساب، لا بعد الموت؛ إذ لا يكون بعد الموت إلا العرض عليها غُدواً وعشيا، والمراد بدخول أبوابها، أي: التي تفضي إلى طبقاتها، التي هي بعضها على بعض، وأبوابها كذلك، كل صنف يدخل من بابه المُعَدّ له، ﴿خالدين فيها فلبئس مثوى﴾ أي: مقام ﴿المتكبرين﴾ جهنم.

الإشارة: وإذا قيل لأهل الغفلة والإنكار: ماذا أنزل ربكم، على قلوب أولياء زمانكم؛ من المواهب وأسرار الخصوصية؟ قالوا: أساطير الأولين، ثم عوَّقوا الناس عن الدخول في طريقهم؛ لتطهير قلوبهم، فيحملوا أوزارهم

(١) كما حكى عنهم الله تعالى في الآية ٢٣ من سورة الأنعام.
(٢) من الآية ١٣٠ من سورة الأنعام.

كاملة يوم القيامة؛ حيث ماتوا مصرين على الكبائر وهم لا يشعرون. ويحملون من أوزار الذين يضلونهم عن طريق الخصوص بغير علم، بل جهلاً وعناداً وحسداً، ألا ساء ما يزرون.

قلت : الذى أتلف العوام عن الدين ثلاثة أصناف: علماء السوء، وفقراء السوء - وهم أهل الزوايا والنسبة -، وقراء السوء؛ لأن هؤلاء هم المقتدى بهم، والمنظور إليهم، فإذا رأوهم أقبلوا على الدنيا، وقصروا فى الدين، تبعوهم على ذلك؛ فضلوا معهم، فقد ضلوا وأضلوا، وإذا أنكروا على أولياء الله، ومكروا بهم، اقتدوا بهم فى ذلك، فيتولى الله حفظ أوليائه، ويهدم مكرهم؛ قال تعالى: (فأتى الله بنيانهم من القواعد) .. الآية، فإذا كان يوم القيامة أبعدهم عن حضرته، وأسكنهم مع عوام خلقه. فإذا أنكروا ما فعلوا فى الدنيا، يقال لهم: (بلى إن الله عليم بما كنتم تعملون)، فيخلدون فى عذاب القطيعة والحجاب، فبئس مثوى المتكبرين. والله تعالى أعلم .

ثم ذكر أضدادهم، فقال:

﴿ ۞ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُواْ خَيْرًا لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾

قلت : (خيراً) : منصوب بفعل محذوف، أى: أنزل خيراً، فهو مطابق للسؤال؛ لأن المؤمنين معترفون بالإنزال، بخلاف قوله: (أساطير الأولين) ؛ فهو مرفوع على الخبر؛ لأنهم لا يقرون بالإنزال، فلا يصح تقدير فعله. وإنما عدلوا بالجواب عن السؤال؛ لإنكارهم له، وقالوا: هو أساطير الأولين ولم ينزله الله. و(للذين) : خبر، و(حسنة) : مبتدأ، والجملة: بدل من (خيراً) ، أو تفسير الخير الذى قالوه، والظاهر أنه استئناف من كلام الحق. (جنات عدن) : يحتمل أن يكون هو المخصوص بالمدح، فيكون مبتدأ، وخبره فيما قبله، أو خبر ابتداء مضمر، أو مبتدأ، وخبره: (يدخلونها) ، أو محذوف، أى: لهم جنات عدن. و(طيبين) : حال من مفعول «توفاهم».

يقول الحق جل جلاله : ﴿ وقيل للذين اتقوا ﴾ الشرك، وهم المؤمنون: ﴿ **ماذا أنزل ربكم قالوا** خيراً ﴾ ، أى: أنزل خيراً، مقرين بالإنزال، غير مترددين فيه ولا متلعثمين عنه، على خلاف الكفرة؛ لمَّا ذكر الحق تعالى مقالة الكفار الذين قالوا: أساطير الأولين، عادل ذلك بذكر مقالة المؤمنين من أصحاب النبى ﷺ، وأوجب لكل فريق ما يستحق من العقاب أو الثواب، رُوى أن العرب كانوا يبعثون أيام الموسم من يأتيهم بأخبار النبى ﷺ، فإذا جاء الوفد، وسأل المقتسمين من الكفار، قالوا له: أساطير الأولين، وإذا سأل المؤمنين: ماذا أنزل ربكم؟ قالوا: خيراً. فنزلت الآية فى شأن الفريقين.

ثم ذكر جزاء المؤمنين فقال: ﴿ للذين أحسنوا فى هذه الدنيا ﴾ بالإيمان والطاعة، ﴿ حسنة ﴾ أى: حالة حسنة؛ من النصر، والعز، والتمكين فى البلاد، مع الهداية للمعرفة والاسترشاد. ﴿ ولَدارُ الآخرة خيرٌ ﴾ أى: ولثواب الآخرة خير مما قدّم لهم في الدنيا؛ لدوامه، وصفائه، وعظيم شأنه، وعن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ اللهَ لا يَظْلِمُ المُؤْمِنَ حَسَنَةً، يُثَابُ عليها الرزْقَ فِي الدُّنيا، ويُجَازَى بِهَا فِي الآخِرَة»(١). ﴿ ولنعم دارُ المتقين ﴾ دار الآخرة، حذفت، لتقدم ذكرها، أو هى: ﴿ جناتُ عـدنٍ يدخلونها ﴾على الأبد، ﴿ تجرى من تحتها الأنهارُ لهم فيها ما يشاؤونَ ﴾ من أنواع المشتهيات؛ حسية ومعنوية، وفي تقديم الظرف فى قوله: (فيها)؛ تنبيه على أن الإنسان لا يجد جميع ما يريد إلا فى الجنة. قاله البيضاوى.

﴿ كذلك يَجزى اللهُ المتقين ﴾ الذين قالوا خيراً وفعلوا خيراً، وأحسنوا فى دار الدنيا حتى ماتوا على الإحسان، كما قال: ﴿ الذين تتوفاهم الملائكة طيبين ﴾: طاهرين من ظُلم أنفسهم بالكفر والمعاصى؛ لأنه فى مقابلة ظالمى أنفسهم، وقيل: فرحين؛ لبشارة الملائكة إياهم بالجنة، أو طيبين بقبض أرواحهم؛ لتوجه نفوسهم بالكلية إلى الحضرة القدسية. قاله البيضاوى. وقال ابن عطية: (طيبين): عبارة عن صلاح حالهم، واستعدادهم للموت. وهذا بخلاف ما قال فى الكفرة: (ظالمى أنفسهم)، والطيب لا خبث معه، ومنه قوله تعالى: ﴿ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا ﴾(٢). هـ.

وقال الترمذى الحكيم: (طيبين) أى: مستعدين للقاء، يُسلِّم عليهم، ويقال لهم: ادخلوا الجنة بلا هول ولاحساب، بخلاف غير المستعد للقاء، فإنما يسلم عليه، ويقال له: ادخل الجنة بعد أهوال القبر وأهوال القيامة. هـ. وهذا معنى قوله: ﴿ يقولون سلام عليكم ﴾؛ لا يلحقكم بعدُ مكروهٌ. وهذا لأجل الاستعداد كما تقدم. ثم تقول لهم: ﴿ ادخُلوا الجنة ﴾ بعد بعثكم، أو بأرواحكم فى عالم البرزخ، إن كانوا من الشهداء أو الصديقين، ﴿ بما كنتم تعملون ﴾ فى دار الدنيا.

فإن قلت: كيف التوفيق بين الآية وبين الحديث: «لن يَدْخُلَ أحدُكُم الجنَّةَ بعمَلِه، قالوا: ولا أَنْتَ؟ قالَ: ولا أنَا، إلاَّ أنْ يَتَغَمَّدَنى اللهُ بِرَحْمَتِه»؟ فالجواب: أن الهداية لصالح العمل، والتوفيق له، هو برحمة الله أيضا، فالعمل الصالح رحمة من رحمات الله، فما دخل أحد الجنة إلا برحمته، فرجعت الآية إلى الحديث. ومقصد الحديث: نفى وجوب ذلك على الله تعالى بالعقل، كما ذهب إليه فريق من المعتزلة. وهنا جواب آخر صوفى؛ وهو الجمع بين الحقيقة والشريعة، فنسبة العمل إلى العبد شريعة، ونفيه عنه، بإجراء الله ذلك عليه، حقيقة. فالآية سلكت مسلك الشريعة فى

(١) أخرجه مسلم بنحوه فى (صفات المنافقين وأحكامهم، باب: جزاء المؤمن بحسناته فى الدنيا والآخرة). من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.
(٢) من الآية ٧٣ من سورة الزمر.

نسبة العمل للعبد؛ فضلاً ونعمة؛ «من تمام نعمته عليك أن خلق فيك ونسب إليك». والحديث سلك مسلك الحقيقة؛ لأن الدين كله دائر بين حقيقة وشريعة، فإذا شرَّع القرآنُ حققته السُّنة، وإذا شرَّعت السُّنةُ حققها القرآن. والله تعالى أعلم.

الإشارة: وقيل للذين اتقوا التقوى الكاملة: ماذا أنزل ربكم من المقادير؟ قالوا: خيراً، فكل ما ينزل بهم من قدر الله وقضائه، جلاليًا كان أو جماليًا، جعلوه خيراً، وتلقوه بالرضا والتسليم. يقولون: إذا كنتَ أنتَ المبْتَلِي، فافعل ما شئت، لا يتضعضعون ولا يسأمون، ولا يشكون لأحد سوى محبوبهم؛ لأن الشكوى تنافي دعوى المحبة، كما قال الشاعر:

إنْ شَكَوْتَ الهَـوَى فما أنت منّـا ... احمِلِ الصَّـدَّ والجفـا يا مُعَنَّـا
تَدَّعِي مَذْهبَ الهَـوى ثم تَشْـكُو ... أين دَعْوَاك في الهوَى، قل لِي: أيْنَا؟
لَو وجَـدْنَاكَ صـابراً لِهَـوانا ... لأعْطَينَـاكَ كُـلَّ ما تتَـمنّى.

وإنما قالوا، في كل ما ينزل بهم: خيراً، أو جعلوه لطفًا وبرا؛ لما يجدون في قلوبهم، بسببه، من المزيد والألطاف، والتقريب وطي مسافة النفس، ما لا يجدونه في كثير من الصلاة والصيام سنين؛ لأن الصلاة والصيام من أعمال الجوارح، وما يحصل في القلب من الرضا والتسليم، وحلاوة القرب من الحبيب، من أعمال القلوب، وذرة منها خير من أمثال الجبال من أعمال الجوارح(١).

وفي الخبر: «إذا أحبَّ اللهُ عبدَ ابتَلاهُ، فإنْ صَبَرَ اجتَباه، وإن رضِيَ اصْطَفاه». وفي صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: «عَجبًا لأمرِ المؤْمنِ، إنَّ أمرَهُ كُلَّهُ له خَيرٌ، وليْسَ ذَلكَ لأحَدٍ إلاَّ للمؤْمِنِ. إن أصابَتْهُ سرَّاءُ شكَر، فكَانَ خَيراً لَهَ، وإنْ أصَابتْه ضرَّاءُ صبَرَ، فكَانَ خيراً لَهُ»(٢)، وفي البخاري ومسلم أن رسول الله ﷺ قال: «ما يُصيبُ المؤمنَ من وَصَبٍ، ولا نَصَبٍ، ولا سَقَمٍ، ولا حَزَنٍ، حتى الهَمُّ يُهِمُّه، إلا كفَّر له من سيئاته»(٣)، وقال أيضـا: ﷺ: «ما مِنْ مُسْلم يُصيبُه أذىً من مرض فما سواه، إلا حَطَّ به عنه سيِّئاته كما تَحُطُّ الشَّجرَةُ ورقَها»(٤). وروى عن عيسى عليه السلام أنه كان يقول: لا يكون عالماً من لم يفرح بدخول المصائب والأمراض على جسده وماله؛ لما يرجو بذلك من كفارة خطاياه. هـ. فتحصل أن ما ينزل بالمؤمن كُلُّه خير، فإذا سئل: ماذا أنزل ربكم؟ قال: خيراً.

---

(١) ليس هذا مفيداً لتقليل شأن الصلاة والصوم.. إلخ، وإنما يريدك الشيخ أن تجعل عمل القلب مع عمل الجارحة.
(٢) رواه مسلم في (الزهد، باب المؤمن أمره كله خير)، عن صهيب رضي الله عنه.
(٣) رواه البخاري في (المرض، باب ماجاء في كفارة المرض)، ومسلم في (البر والصلة، باب ثواب المؤمن فيما يصيبه)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.
(٤) أخرجه البخاري في (المرض، باب قول المريض: إني وجع)، ومسلم في (البر والصلة، باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض..) من حديث ابن مسعود ـ رضي الله عنه.

ثم قال تعالى: ﴿ للذين أحسنوا في هذه الدنيا ﴾؛ أي: بالرضا عنى فى جميع الأحوال، والاشتغال بذكرى فى كل حال، لهم فى الدنيا ﴿ حسنةٌ ﴾: حلاوة المعرفة، ودوام المشاهدة، ﴿ ولدارُ الآخرة خيرٌ ﴾؛ لصفاء المشاهدة فيها، واتصالها بلا كدر؛ إذ ليس فيها من شواغل الحس ما يكدرها، بخلاف الدنيا؛ لأن أحكام البشرية لا ينفك الطبع عنها، كغلبة النوم، وتشويش المرض وغيره، بخلاف الجنة، ليس فيها شيء من الكدر، ولذلك مدحها بقوله: ﴿ ولنِعْم دارُ المتقين ﴾.

ثم قال: ﴿ كذلك يجزي الله المتقين ﴾ لكل ما يشغل عن الله؛ الذين تتوفاهم الملائكة طيبين، طاهرين، مطهرين من شوائب الحس، ودنس العيوب، طيبة نفوسهم بحب اللقاء، قد طيبوا أشباحهم بحسن المعاملة، وقلوبهم بحسن المراقبة، وأرواحهم بتحقيق المشاهدة. تقول لهم الملائكة الكرام: سلام عليكم، ادخلوا جنة المعارف إثر موتكم، وجنة الزخارف إثر بعثكم؛ بما كنتم تعملون من تطهير أجسامكم من الزلات، وتطهير قلوبكم من الغفلات، وتطهير أرواحكم من الفترات. وبالله التوفيق.

ثم ذكر وعيد أضدادهم، الذين قالوا فيما أنزل لهم: (أساطير الأولين)، فقال:

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ
وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟
وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن
دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ
مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا
أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ
عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾
إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ هل ينظرون ﴾ أى: ما ينظر هؤلاء الكفرة، الذين قالوا فيما أنزل الله من الوحي: هو أساطير الأولين، ﴿ إلا أن تأتيهم الملائكة ﴾؛ لقبض أرواحهم، ﴿ أو يأتي أمرُ ربك ﴾: قيام الساعة، أو العذاب المستأصل لهم فى الدنيا، ﴿ كذلك ﴾ أى: مثل ذلك التكذيب والشرك، ﴿ فعل الذين من قبلهم ﴾، فأصابهم ما أصابهم، ﴿ وما ظلمهم الله ﴾ بإهلاكهم، ﴿ ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾؛ لكفرهم ومعاصيهم، المؤدية إلى عذابهم.

﴿ فأصابهم ﴾ جزاء ﴿ سيئاتُ ما عملوا ﴾ من الكفر والمعاصي، وهو العذاب، ﴿ وحاقَ ﴾ أي: وأحاط ﴿ بهم ما كانوا به يستهزؤون ﴾ أي: نزل بهم العذاب الذى كانوا يستهزءون به. والحيْق لا يكون إلا فى الشر.

﴿ وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شىء نحن ولا آباؤنا ولاحرَّمنا من دونه من شيء ﴾ ؛ كالبحائر والسوائب والحوامى. قالوا ذلك على وجه المجادلة والمخاصمة، والاحتجاج على صحة فعلهم، أى: إنّ فعْلَنَا هو بمشيئة الله، فهو صواب، ولو شاء الله ألا نفعله ما فعلناه. والجواب: أن الاحتجاج بالقدر لا يصح فى دار التكليف، وقد بعث الله الرسل بالنهى عن الشرك، وتحريم ما أحل الله، ونحن مكلفون باتباع الشريعة، لا بالنظر إلى فعل الحقيقة من غير شريعة؛ فإنه زندقة؛ فالشريعة رداء الحقيقة، فمن خرق رداء الشريعة، وتمسك بالحقيقة وحدها، فقد استحق العقاب، ولذلك قال تعالى: ﴿ كذلك فَعل الذين من قَبلهم ﴾ ؛ فأشركوا بالله، وحرموا ما أحل الله، وردوا رسله. ﴿ فهل على الرسلِ إلا البلاغُ المبين ﴾ أي: الإبلاغ الموضح للحق؛ فمن تمسك بما جاءوا به فهو على صواب، ومن أعرض عنه فهو على ضلال، ولا ينفعه تمسكه بالحقيقة من غير اتباع الشريعة. والحقيقة هى أنه لا يقع فى ملكه إلا ما يريد، طاعة كان أو معصية، كفراً أو إيماناً، لكن الأمر غير تابع للإرادة، ونحن مكلفون باتباع الأمر فقط.

ثم بيَّن أن البعثة أمر جرت به السنة الإلهية فى الأمم الماضية، جعلها سببًا لهدى من أراد اهتداءه، وزيادة الضلال لمن أراد إضلاله، كالغذاء الصالح، فإنه ينفع المزاج السوى ـ أى: المعتدل ـ ويقويه، ويضر المزاج المنحرف ويعييه، فقال: ﴿ ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً ﴾ قائلاً: ﴿ أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوتَ ﴾ ؛ أى: يأمر بعبادة الله وحده واجتناب ما سواه، ﴿ فمنهم من هدى الله ﴾ ؛ وفقهم للإيمان وأرشدهم إليه، ﴿ ومنهم من حقتْ عليه الضلالةُ ﴾ ؛ فلم يوفقهم، ولم يُرد إرشادهم؛ فليس كل من تمسك بشىء وأُمْهل فيه يدل أنه على صواب، كما ظن المشركون، بل النظر إلى ما جاءت به الرسل من الشرائع، وكلها متفقة على وجوب التوحيد وإبطال الشرك.

ثم أمرهم بالنظر والاعتبار بحال من أشرك وكذب الرسل، فقال: ﴿ فسيروا فى الأرض ﴾ يا معشر قريش، ﴿ فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ﴾ ؛ كعاد وثمود وغيرهم، لعلكم تعتبرون.

ثم نهى نبيه عن الحرص عليهم فقال: ﴿ إنْ تَحرِص ﴾ يا محمد ﴿ على هُداهم فإن الله لا يَهدى من يُضلُّ ﴾ أي: من يريد إضلاله وقضى بشقائه؛ وهو الذى حقت عليه الضلالة، وقرأ غير الكوفيين بالبناء للمفعول(1)، وهو أبلغ، أي: فإن الله لا يُهدى من يضله، أى: لا يهدى غيرُ الله من يريد اللهُ إضلاله. ﴿ ومالهم من ناصرين ﴾ ؛ ليس لهم من ينصرهم؛ يدفع العذاب عنهم.

---

(١) قرأ عاصم وحمزة والكسائي: «يهدى»؛ بفتح الياء وكسر الدال، على البناء للفاعل، أي: لا يهدى الله من يضله. وقرأ الباقون: «يُهْدَى» بضم الياء وفتح الدال، على البناء للمفعول، يعنى: من أضله الله فلا هادى له. انظر الإتحاف (٢/ ١٨٤) والبحر المحيط (٥/ ٤٧).

الإشارة: هل ينظر من عكف على دنياه، وأكب على متابعة حظوظه وهواه، إلا أن تنزل الملائكة لقبض روحه، فيندم حيث لا ينفع الندم، وقد زلت به القدم، فيتمنى ساعة تُزاد فى عمره فلا يجدها، أو يأتى أمر ربك؛أمرٌ يحول بينه وبين العمل الصالح؛ كمرض مزمن، أو فتنة مضلة. كذلك فعل من قبله، اغتر بدنياه حتى اختطف لأخراه. وما ظلمهم الله، بل بعث الرسل وأخلفهم بأهل الوعظ والتذكير، فحادوا عنهم، فأصابهم جزاء سيئات ما عملوا من الغفلة والبطالة، وحاق بهم ما كانوا به يستهزءون، من وبال التقصير، وفوات مقام أهل الجد والتشمير.

وقال الذين أشركوا فى محبة الله سواه؛ من الحظوظ وزهرة الدنيا: لو شاء الله ما فعلنا ذلك، محتجين بالقدر، مع الإقامة على البطالة والخذلان. كذلك فعل مَنْ قَبْلَهُمْ من أهل الغفلة، فهل على الرسل وخلفائهم إلا البلاغ المبين؟ فقد حذَّروا من متابعة الدنيا، وبلَّغوا أن الله غيور لا يُحب من أشرك معه غيره فى محبته، فقد بعث فى كل أمة وعصر نذيراً، يأمر بعبادة الله وحده، واجتناب كل ما سواه؛ فمنهم من هداه الله، فاختاره لحضرته، فلم يُحب سواه. ومنهم من حقت عليه الضلالة عن مقام الخصوص، فبقى فى مقام البعد؛ مُكَذِّباً بطريق الخصوص. فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين؛ كان عاقبتهم الحرمان ولزوم الخذلان. ويقال للعارف المذكِّر لمثل هؤلاء: (إن تحرص على هداهم فإن الله لا يهدى من يضل).. الآية. وبالله التوفيق.

ثم ذكر مقالة أخرى لأهل الشرك، وهو إنكار البعث، فقال:

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾ ﴾

قلت: (وأقسموا): عطف على (وقال الذين أشركوا)؛ إيذاناً بأنهم، كما أنكروا التوحيد، أنكروا البعث، مقسمين عليه؛ زيادةً فى القطع على فساده، فرد الله عليهم بأبلغ رد، فقال: (بلى). قاله البيضاوى. وتقدم الكلام على «بلى»، فى البقرة والأعراف(١)، و (وعداً): مصدر مؤكد لنفسه، وهو ما دل عليه «بلى»؛ فإن «يبعث» وعد، أى: بلى، وعدهم ذلك وعداً حقا، ونصب ابن عامر، فيكون عطفاً على «نقول»، أو جواباً للأمر.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وأقسموا ﴾ أى: المشركون، ﴿ بالله جهد أيمانهم ﴾ أى: أبلغها وأوكدها، ﴿ لا يبعثُ اللهُ من يموت ﴾، فردَّ الله عليهم بأبلغ رد، فقال: ﴿ بلى ﴾ يبعثهم؛ ﴿ وعداً عليه ﴾ إنجازه

(١) راجع تفسير الآية ٨١ من سورة البقرة، والآية ١٧٢ من سورة الأعراف.

﴿ حقًا ﴾، لا يخلف؛ لامتناع الخلف في وعده، أو: لأن البعث مقتضى حكمته؛ لتنزيه فعله عن العبث، ﴿ ولكنَّ أكثرَ الناس لا يعلمون ﴾ أنهم يُبعثون، إما لعدم علمهم بأنه من موجبات الحكمة، التي جرت عادته بمراعاتها، وإما لقصور نظرهم باعتبار المألوف، ووقوفهم مع العوائد، فتوهموا امتناعه، وقالوا: ﴿ أئذَا كُنَّا تُرَابًا أئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾(١)، ولم ينظروا إلى قدرة الله التي لا يعجزها شيء.

ثم بيَّن حكمة البعث، فقال: ﴿ لِيُبَيِّنَ لهم ﴾ أي: يبعثهم؛ ليبين لهم ﴿ الذي يختلفون فيه ﴾؛ وهو الحق من الباطل؛ فإن الناس مختلفون في أديانهم ومذاهبهم؛ فيبعثهم الله؛ ليُبين لهم الحق فيما اختلفوا فيه، فيظهر من كان على الحق ممن كان على الباطل، ﴿ وليَعْلَم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين ﴾ فيما كانوا يزعمون؛ من عدم البعث، وتمسكهم بالحق، وهو إشارة إلى السبب الداعي إلى البعث، المقتضي له من حيث الحكمة، وهو التمييز بين الحق والباطل، والمحق والمبطل.

ثم بيَّن كمال قدرته الموجبة للبعث وغيره فقال: ﴿ إنما قولُنا لشيء إذا أردناه أن نقولَ له كن فيكون ﴾، فأمره بين الكاف والنون، فإذا كان إيجاد الأشياء من العدم بلفظ «كن»، فأولى إعادتها. وكون أمره بين الكاف والنون كناية عن السرعة، وإلاَّ فلايحتاج إلى لفظ «كن». بل مهما أراد شيئاً، أظهره؛ أقرب من لحظ العيون، وإنما جاءت العبارة على قدر ما تفهم العقول، وعلى هذا فلا يحتاج إلى ما تَعَسَّفَه ابن عطية وغيره؛ من كون القول في الأزل، وإظهاره فيما لا يزال ـ يعني: في وقت إظهاره ـ؛ فإن الكلام إنما خرج مخرج الاستعارة أو المجاز، فلا يتوقف إيجاد الأشياء على «كن». والله تعالى أعلم.

الإشارة: ترى بعض الجهال يقسمون بالله جهد أيمانهم: أن الله لا يفتح على فلان، لِمَا يرون فيه من الجهل والغباوة، أو من الطغيان والمعاصي، فلا يبعث الله روحه بإحيائها بعد موتها، وتلفها في عالم الحس، مع أن القدرة صالحة؛ قال في الحكم: «من استغرب أن ينقذه الله من شهوته، وأن يخرجه من وجود غفلته، فقد استعجز القدرة الإلهية، وكان الله على كل شيء مقتدرا». فإن سبقت له العناية يقل الحقُّ تعالى في شأنه: بلى، يبعثه، ويحيي روحه بالمعرفة واليقين، وعداً عليه حقًا، ولكن أكثر الناس لا يعلمون أن قدرته عامة. فكم من جاهل غبي يخرج منه عالِمٌ ولي، وكم من خصوص خرجوا من اللصوص، والله يختص برحمته من يشاء. يبعثهم؛ ليُبين لهم الذي يختلفون فيه؛ من نفوذ قدرته تعالى وعموم تعلقها، وليعلم الذين كفروا بطريق الخصوص أنهم كانوا كاذبين فيما زعموا؛ (إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون).

(١) من الآية ٥ من سورة الرعد.

ثم ذكر الطريق الموصلة إلى إحياء الأرواح، فقال:

﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾

قلت : (الذين صبروا): نعت للذين هاجروا ، أو على تقدير: (هم)، أو نصب على المدح.

يقول الحق جل جلاله : ﴿ **والذين هاجروا فى الله** ﴾ أى: طلب رضا الله، أو: فى نصر دينه، أو: طلب معرفته، ﴿ **من بعد ما ظُلموا** ﴾؛ من بعد ما ظلمهم الكفار بالإيذاء والتضييق، وهم: رسول الله ﷺ وأصحابه المهاجرون. ظلمهم قريش وضيقوا عليهم، فهاجر بعضهم إلى الحبشة، وبعضهم إلى المدينة. قال ابن عطية: الجمهور أنها نزلت فى الذين هاجروا إلى أرض الحبشة؛ لأن الآية مكية، وهجرة المدينة لم تكن وقت نزول الآية.هـ . **قلت :** والمختار: العموم، ويكون من جملة الإخبار بما سيقع، أو: هم المحبوسون المعذبون بمكة، بعد هجرة رسول الله ﷺ؛ وهم بلال، وصُهَيب، وعمَّار، وخبَّاب، وأبو جَنْدَل بن سُهَيل(١)، أو: كل من هاجر من بلده؛ لإقامة دينه.

﴿ **لنبوئَنَّهم فى الدنيا حسنةً** ﴾ أى: لننزلنهم فى الدنيا بقعة حسنة، وهى المدينة، أو منزلة حسنة، وهى العز والتمكين فى البلاد، وكل أمل بلَغَهُ المهاجرون، أو حياة حسنة، وهى الاستقامة والمعرفة. ﴿ **ولأجرُ الآخرة أكبرُ** ﴾ مما يُعجل لهم فى الدنيا؛ من سعة الأموال، وتعظيم الشأن والحال، وهو النعيم الدائم. وعن عمر رضي الله عنه: أنه كان، إذا أُعطى رجلاً من المهاجرين عطاءه من قسمْ الغنائم، يقول له: (خذ، بارك الله لك فيه، هذا ما وعدك الله فى الدنيا، وما ادخر لك فى الآخرة أفضل)(٢). والضمير فى قوله: ﴿ **لو كانوا يعلمون** ﴾ لكفار قريش، أى: لو علموا أن الله يجمع لهؤلاء المهاجرين خير الدارين لوافقوهم. أو للمهاجرين، أى: لو علموا أن أجر الآخرة خير مما عجل لهم لزادوا فى اجتهادهم وصبرهم.

ثم وصفهم بالصبر والتوكل فقال: ﴿ **الذين صبروا** ﴾ على الشدائد، كأذى الكفرة، ومفارقة الوطن، ونزول الفاقة، ﴿ **وعلى ربهم يتوكلون** ﴾ فيما نزل بهم، منقطعين إلى الله، مفوضين إليه الأمر كله، فآواهم إليه، وكفاهم كل مؤونة، ورزقهم من حيث لا يحتسبون.

الإشارة : والذين هاجروا حظوظهم وهواهم، وكل ما نهى الله عنه؛ ابتغاء مرضات الله، أو فارقوا أوطانهم

(١) فى الأصول: وأبو جندل وسهيل. (٢) ذكره البغوى فى تفسيره (٥/٢٠).

وديارهم في طلب معرفة الله، كما فعل كثير من الصوفية، فقلَّ أن تجد وليًا إلا وهاجر من بلده؛ لإقامة دينه وجبر قلبه، وإفراغ سره لربه، من بعد ما ظُلموا بإيذاء الخلق ـ كما هو سنة الله في خواصه ـ لنبوئنهم في الدنيا حسنة، وهي معرفة الشهود والعيان في الباطن، واستقامة الدين والعافية في الظاهر. هذا في الدنيا، ولأجر الآخرة أكبر وأكبر؛ إذ فيه مالا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. الذين صبروا على مجاهدة النفوس، وحط الرءوس، ودفع الفلوس، أو على ضروب الفاقات، ونزول البليات، وركوب الأهوال والآفات، إذ لا يأتي الجمال إلا بعد الجلال، ولا تأتي الحلاوة إلا بعد المرارة.

لا تَحْسَبِ المجْدَ تمراً أنت آكلُه لنْ تبلُغَ المجْدَ حتَّى تلْعَقَ الصبْرا(١)

وعلى ربهم يتوكلون، أي: مفوضين في أمورهم كلها لله، ليس لهم مع الله اختيار، ولا لهم عن أنفسهم إخبار، بل هم كالميت بين يدي الغاسل. حققنا الله من هذا المقام بالحظ الأوفر.. آمين.

ولابد من الواسطة في الوصول إلى هذا، إما رسول أو خليفته، كما قال تعالى:

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾

قلت : (بالبينات) : يتعلق بأرسلنا الذي في أول الآية، على التقديم والتأخير، أي: وما أرسلنا إلا رجالاً بالبينات، فاسألوا أهل الذكر، أو بأرسلنا؛ مضمراً، وكأنه جواب سائل قال: بم أُرسلوا به؟ فقال: بالبينات، أو: صفة لرجال، أي: رجالاً ملتبسين بالبينات، أو: بيوحي. انظر البيضاوي.

يقول الحق جل جلاله، في الرد على قريش ،حيث قالوا: الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً: ﴿ **وما أرسلنا من قبلك** ﴾ يا محمد ﴿ **إلا رجالاً** ﴾ بشراً، ﴿ **يوحى إليهم** ﴾(٢) كما يُوحى إليك. فليس ببدع أن يكون الرسول بشراً، بل جرت السنة الإلهية بأن لا يبعث للدعوة العامة إلا بشراً يوحى إليه على ألسنة الملائكة؛ إذ لا يطيق كل البشر رؤية الملائكة ولا التلقي منهم. فإن شككتم ﴿ **فاسألوا أهل الذكر** ﴾ : أهل الكتاب، أو علماءهم الأحبار، أي: الذين لم يسلموا، لأنهم لا يتهمون في شهادتهم، من حيث إنهم مدافعون في صدر ملة محمد ﷺ ، وأنتم إلى

(١) من قصيدة لأبي الطيب أحمد بن الحسين، المعروف بالمتنبي.
(١) قرأ الجمهور: (يوحى) بالياء وفتح الحاء، وقرأ حفص (نوحي) بالنون وكسر الحاء .. انظر الإتحاف (٢/ ١٨٤).

تصديق من لم يؤمن من أهل الكتاب أقرب من تصديقكم المؤمنين منهم، فاسألوهم؛ ليخبروكم: هل كانت الرسل ملائكة أو بشراً، ﴿ **إن كنتم لا تعلمون** ﴾ ذلك.

قال البيضاوى: وفى الآية دليل على أنه تعالى لم يرسل امرأة ولا ملكاً للدعوة العامة. وأما قوله: ﴿ **جَاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً** ﴾(١)؛ فمعناه: رسلاً إلى الأنبياء. وقيل: لم يُبعثوا إلى الأنبياء إلا متمثلين بصورة الرجال. ورُدَّ بما رُوى أنه عليه ﷺ رأى جبريل عليه السلام على صورته التى هو عليها مرتين. وعلى وجوب المراجعة إلى العلماء فيما لا يعلم. هـ. ومفهوم قوله: «الدعوة العامة»: أن الدعوة الخاصة؛ كالأنبياء ـ عليهم السلام ـ، فإن الله يبعث إليهم الملك ليعلمهم أمر دينهم.

ثم قال تعالى: ﴿ **بالبينات والزُبر** ﴾ أى: أرسلناهم بالمعجزات والكتب. ﴿ **وأنزلنا إليك الذكر** ﴾ أى: القرآن؛ لأنه تذكير ووعظ، ﴿ **لتُبَيِّن للناس ما نُزِّل إليهم** ﴾ من الأحكام، مما أمروا به ونهوا عنه، ومما تشابه عليهم منه. والتبيين أعم من أن ينص على المقصود، أو يرشد إلى ما يدل عليه، كالقياس ودليل العقل. قاله البيضاوى. **قال ابن جزى:** يحتمل أن يريد: لتبين القرآن بسردك نصَّهُ وتعليمه، أو لتُبين معانيه بتفسير مُشكله، فيدخل فى هذا ما سنته السنة من الشريعة. هـ. ﴿ **ولعلهم يتفكرون** ﴾ فى عجائبه وأسراره، فيخوضون بسفن أفكارهم فى تيار بحر معانيه وأنواره، فينتبهون للحقائق والشرائع.

الإشارة: كما لم يبعث الله فى الدعوة العامة ـ وهى دعوة الرسالة ـ إلا رجالاً من البشر، كذلك لم يبعث الله فى الدعوة الخاصة ـ وهى دعوة الولاية إلى سر الخصوصية ـ إلا رجالاً من البشر أحياء، يُربون التربية النبوية العرفية، فلا يصلح للتربية النساء؛ لقلة عقلهن(٢)، ولا الجن؛ لانحرافه عن الاعتدال الذى فى البشر، ولا الميت؛ لعدم وجود بشريته؛ فإنَّ بشرية الحى تمد البشرية، والروحانية تمد الروحانية. فلا تتهذب البشرية إلا بشهود بشرية الشيخ، ولا تصفى الروحانية إلا بالقرب من روحانية الشيخ. ولذلك قالوا: الثدى الميتة لا ترضع. وقولنا: «التربية العرفية»؛ أعنى: بالصحبة العرفية، وأما التربية الغيبية، على وجه خرق العادة، كطيران الشيخ إلى المريد، أو المريد إلى الشيخ، فلا تجد صاحب هذه التربية إلا منحرفاً لإحدى الجهتين، إما إلى الحقيقة أو إلى الشريعة، بخلاف التربية العرفية، فلا يكون صاحبها، فى الغالب، إلا معتدلاً كاملا.

---

(١) من الآية الأولى من سورة فاطر.

(٢) هذا رأى الشيخ المفسر، لكن تاريخ المسلمين لايمنع من هذا، وسير الصالحات الزاهدات تبرهن على عكس ذلك، إقرأ مثلاً كتاب ذكر النسوة التعبدات الصوفيات، لأبى عبدالرحمن السلمى، وتراجم الصالحات فى سير أعلام النبلاء، وفى حلية الأولياء وفى صفة الصفوة. وعلى أية حال: من يقوم بتربية الأولاد فى بيوت المسلمين الصالحين؟ ورب امرأة صالحة تربى رجلاً، بل رجالاً.

وقوله تعالى: (فاسألوا أهل الذكر)؛ هم العارفون بالله، فإذا أشكل علينا أمر من أمر القلوب؛ كأسرار التوحيد، وأمر الخواطر، رجعنا إليهم؛ لأنهم أهل الذوق والكشف، يُجيبون سائلهم بالهمة والحال، حتى يقلعوا عروق ما أشكل على السائل، إن أتاهم متعطشًا لهفانًا، وكذا ما أشكل في أمر الدنيا، من فعلٍ تريد أن تفعله أو تتركه، فينبغي الرجوع إليهم؛ لأنهم ينظرون بنور الله، فلا ينطقهم الله إلا بما هو حق سبق به القدر. وأما أمور الدين، فإن كان له علم بالشريعة الظاهرة فالرجوع إليه، وإن لم يكن له علم بالظاهر، فالعلماء قائمون بهذا الأمر.

وقوله تعالى: (إن كنتم لا تعلمون)؛ يُفهم منه أن من كان من أهل الفهم عن الله، يأخذ العلم عن الله بإلهام أو تجل حقيقي، فلا يحتاج إلى سؤالهم، حيث صفت مرآة قلبه، وقد يكون الولي ذاكراً، باعتبار قوم، وغيرذاكر، باعتبار آخرين، الذين هم أنهض منه حالاً، وأصوب مقالاً. والله تعالى أعلم.

ثم هدد أهل المكر بأهل الخصوصية، فقال:

﴿ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾ ﴾

قلت: (مكروا السيئات): صفة لمحذوف، أي: المكرات السيئات، والتخوف، قيل: معناه: التنقص، وهو أن تنقصهم شيئاً فشيئا. رُوي أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ توقف في معناها، فقال على المنبر: ما تقولون فيها؟ فسكتوا، فقام شيخ من هذيل، فقال: هذه لغتنا، التخوف: التنقص. فقال: هل تعرف العرب ذلك في أشعارها؟ فقال: نعم. قال شاعرنا أبو كثير يصف ناقته:

تَخَوَّفَ الرَّحْلُ مِنْهَا تَامِكًا قَرِداً   كَمَا تَخَوَّفَ عُودَ النَّبْعَةِ السَّفَنُ[١]

فقال عمر: عليكم بديوانكم؛ لا تضلوا، قالوا: وما ديواننا؟ قال: شعر الجاهلية؛ فإن فيه تفسير كتابكم ومعاني كلامكم. هـ.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ أفأمن الذين مكروا ﴾ المكرات السيئات برسول الله ﷺ وبالمؤمنين، حيث قصدوا ردَّ دينه، وصدوا الناس عن طريقه، ﴿ **أن يخسف الله بهم الأرض** ﴾ كما خسف بقارون، ﴿ **أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون** ﴾ أي: بغتة من حيث لا يظنون، كما فعل بقوم لوط، ﴿ **أو يأخذهم في**

(١) اختلف في نسبة البيت، فنسبه الزمخشري في تفسيره لزهير، وأبو حيان لأبي كثير الهذلي، ونسبه ابن منظور لابن مقبل، مرة، ولذي الرمة، أخرى، وقوله: تامكاً قرداً، أي: سناماً مرتفعاً، والنبعة: واحدة النبع، وهو من شجر الجبال، والسفن: المبرد.

تقلبهم﴾؛ في متاجرهم ومسايرهم في طلب معاشهم، ﴿فما هم بمعجزين﴾؛ بفائتين قدرتنا حتى نعجز عن أخذهم، ﴿أو يأخذهم على تخوُّف﴾: على تنقص، بأن ينقص أموالهم وأنفسهم، شيئاً فشيئاً، حتى يهلكوا جميعًا من غير أن يهلكهم جملة واحدة. وعليه يترتب قوله: ﴿فإن ربكم لرؤوف رحيم﴾ حيث لم يهلكهم دفعة واحدة، أو: على تخوف: على مخافة بأن يهلك قومًا قبلهم، فيتخوفوا، فيأتيهم العذاب وهم متخوفون. وهو قسيم قوله: (وهم لا يشعرون)، وقوله: ﴿فإن ربكم لرؤوف رحيم﴾ أي: حيث لم يعاجلكم بالعقوبة. والله تعالى أعلم.

الإشارة: ما خوف به أهل المكر بالأنبياء والرسل، يُخوف به أهل المكر بالأولياء والمنتسبين، وقد تقدم هذا مراراً.

ثم أمر بالتفكر والاعتبار؛ لأنه سبب النجاة من الاغترار، فقال:

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾ ﴾

قلت: الاستفهام للإنكار، و(من شيء): بيان لـ «ما». والضمير في (ظلاله) يعود على (ما)، أو على (شيء). و(سُجَّدًا): حال من الظلال، وكذا جملة: (وهم داخرون)، وجمعه بالواو؛ لأنه من صفة العقلاء. وقال الزمخشري: هما حالان من الضمير في (ظلاله)؛ إذ هو بمعنى الجمع؛ لأنه يعود على قوله: (من شيء)، فعلى الأول يكون السجود من صفة الظلال، وعلى الثاني يكون من صفة الأجرام. و (من دابة): يحتمل أن يكون بياناً لـ (ما في السموات وما في الأرض) معًا؛ لأن كل حيوان يصح أن يوصف بأنه يدب، ويحتمل أن يكون بياناً لـ(ما في الأرض) خاصة، فعلى الأولى: يكون عطف الملائكة عليه، من عطف الخاص على العام؛ تشريفًا لهم، وعلى الثاني: من عطف المباين.

يقول الحق جل جلاله: ﴿أو لم يروا﴾ أي: أهل المكر والخدع بالرسل والمؤمنين، ﴿إلى ما خلق الله من شيء﴾؛ من الأجرام والأشكال؛ كالجبال والأشجار والبحار؛ ليظهر لهم كمال قدرته وقهره، فيخافوا سطوته وبطشه، حتى لا يمكروا بخواصه. حال كون ما خلق من الأجرام ﴿يتفيؤا﴾ أي: يميل ﴿ظلاله عن اليمين والشمائل﴾ أي: يرجع الظل من جانب إلى جانب، أي: يميل عن الأيمان والشمائل، وذلك أن الظل من وقت

طلوع الشمس إلى الزوال يكون إلى جهة، ومن الزوال إلى الغروب يكون إلى جهة أخرى. ثم يمتد الظل ويعم بالليل إلى طلوع الشمس. والتفيؤ :من الفيء، وهو: الظل الذى يرجع بعكس ما كان غدوة. وقال رُوبة بن العجاج: يقال بعد الزوال: ظل وفيءّ، ولا يقال قبله إلا ظل. ففى لفظ «يتفيأ»، هنا، تجوز.

وقال فى سلوة الأحزان: فاء الظل: معناه: رجع بعكس ما كان من بكرة إلى الزوال؛ وذلك أن الشمس من وقت طلوعها إلى الزوال، إنما هى فى نسخ الظل العام قبل طلوعها، فإذا زالت، ابتدأ رجوع الظل العام، ولا يزال ينمو حتى تغيب الشمس فيعم. والظل الممدود فى الجنة لم يذكر الله تعالى فيها فيئًا؛ لأنه لا مُذهِبَ له، ولا تكون الفيأة إلا بعد ذهاب الظل، ولا ذهاب لظل الجنة، فلا يتعقل له فيأة. هـ. واستعمال اليمين والشمال، فى غير الإنسان، تجوز؛ فإنهما فى الحقيقة خاص بالإنسان. هـ.

حال كون تلك الأجرام، أو الظلال ﴿ سُجَّداً لله ﴾، قيل: حقيقة. قال الضحاك: إذا زالت الشمس سَجد كل شيء قبلَ القبلة، من نباتٍ أو شجر، ولذلك كان الصالحون يستحبون الصلاة فى ذلك الوقت. وقال مجاهد: إنما تسجد الظلال، لا الأشخاص. وقيل: هو عبارة عن الخضوع والطاعة، وميلان الظلال ودورانها بالسجود، كما يقال للمشير برأسه نحو الأرض، على جهة الخضوع: ساجداً، ثم استشهد لذلك. هـ. قال شيخ شيوخنا سيدى عبد الرحمن الفاسي: والمتَّجهُ: أنه خضوع وطاعة للمشيئة وانقياد، لا حقيقة؛ لأنه لا يقال فيه، كذلك: أو لم يروا، وإنما يُرَى الانقياد. وخص الظل؛ لأنه مشهود ذلك فيه، ولو حاول صاحبه عدمه أو ضده، لم يستطع، بخلاف الأفعال الاختيارية، فإن الجبر فيها غير محسوس، فظهر سر الإشارة للظلال. والله أعلم. هـ.

قال البيضاوى: المراد من السجود: الاستسلام، سواء كان بالطبع أو الاختيار، يقال: سجدت النخلة، إذا مالت لكثرة الحمل، وسجد البعير، إذا طأطأ رأسه ليركب. أو ﴿ سُجداً ﴾: حال من الظلال ﴿ وهم داخرون ﴾: حال من الضمير، والمعنى: ترجع الظلال، بارتفاع الشمس وانحدارها، بتقدير الله تعالى، من جانب إلى جانب، منقادة إلى ما قُدِّر لها من التفيؤ، أو واقعة على الأرض، ملتصقة بها، على هيئة الساجد، والأجرام فى أنفسها أيضا داخرة، أى: صاغرة منقادة لأفعال الله. هـ.

﴿ ولله يسجد ما فى السموات وما فى الأرض ﴾ أى: ينقاد لإرادته، وتأثير قدرته؛ طبعاً، ولتكليفه وأمره؛ طوعًا؛ ليصح إسناده إلى عامة أهل السموات والأرض. وقوله: ﴿ من دابة ﴾: بيان لهما؛ لأن الدبيب هو الحركة الجسمانية، سواء كان فى أرض أو سماء، ﴿ والملائكةُ ﴾؛ عطف على المبين به، عطف خاص على عام،

أو عطف المجردات على الجسمانيات، وبه احتج من قال: إن الملائكة أرواح مجردة. قاله البيضاوى. قلت: وهو خلاف الجمهور. بل الملائكة : أجسام لطيفة نورانية متحيزة، لها مادة نورانية وتشكيل مخصوص، غير أن الله تعالى أعطاها قوة التشكيل؛ لأنها قريبة من أسرار المعانى الأزلية. وعبَّر الحق تعالى بـ «ما»؛ ليشمل العقلاء وغيرهم.

ثم قال تعالى فى وصف الملائكة: ﴿ وهم لا يستكبرون ﴾ عن عبادته، ﴿ يخافون ربَّهم من فوقهم ﴾؛ هو تقرير، وبيان؛ لنفى الاستكبار عنهم، أى: يخافون عظمة ربهم من فوقهم؛ إذ هم محاطون بأفلاك أسرار الجبروت، مقهورون تحت القدرة والمشيئة، أو: يخافون عذاب ربهم أن يُرْسَل عليهم من فوقهم، أو: يخافون ربهم وهو من فوقهم بالقهر والغلبة. والجملة: حال من الضمير فى (يستكبرون)، أو بيان له وتقرير؛ لأن من خاف ربه لم يستكبر عن عبادته، ﴿ ويفعلون ما يُؤمرون ﴾ من الطاعة وتدبير الأمور التى أمرهم بتدبيرها. وفيه دليل على أن الملائكة مكلفون مدارون بين الخوف والرجاء. قاله البيضاوى.

الإشارة: كل ما دخل تحت عالم التكوين لزمته العبودية، وأحاطت به القهرية، فلابد من الخضوع لأحكام الواحد القهار، تكليفية كانت أو تعريفية، فمن لم ينقد لها بملاطفة الإحسان، قيد بسلاسل الامتحان. وبهذا امتاز الخصوص من العموم، فالخصوص علموا أن سلسلة الأقدار فى عنقهم، تجرهم إلى مراد ربهم، فاستسلموا لها، وانقادوا، وخضعوا، وتأدبوا لها، فاستحقوا التقريب والاصطفائية. والعموم جهلوا هذه السلسلة، أو علموها، ولم يقدروا على الاستسلام لها؛ فاستحقوا البُعد من حضرة الحق؛ إذ لا يدخلها إلا أهل التهذيب والتأديب. وبالله التوفيق.

ثم نهى عن الشرك الجلى والخفى، فقال:

﴿ ۞ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٥١﴾ وَلَهُۥ
مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾ وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ
ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنكُم بِرَبِّهِمۡ
يُشۡرِكُونَ ﴿٥٤﴾ لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾

قلت: (إلهين اثنين)، إلهين: مفعول أول، واثنين: تأكيد، والثانى: محذوف، أى: معبودين لكم، وفائدة التأكيد: التنبيه على أن المقصود هو النهى عن الاثنينية؛ تنبيهاً على أن الاثنينية تنافى الألوهية، كما ذكر الواحد فى قوله: ﴿ إنما هو إله واحد ﴾؛ إثبات الوحدانية دون الإلهية. قاله البيضاوى. وعبارة صاحب المطول: لفظ إلهين حامل لمعنى الجنسية ـ أعنى: الإلهية ـ ومعنى العدد ـ أعنى: الاثنينية ـ وكذا لفظ «الله» حامل لمعنى الجنسية والوحدة،

والغرض المسوق له الكلام في الأول: النهي عن اتخاذ الاثنين من الإله؛ لا إثبات جنسه، فَوَصَفَ الإلهين باثنين وإله بواحد؛ إيضاحاً لهذا الغرض وتفسيراً له. هـ. ويحتمل أن يكون «اثنين» مفعولاً أولا، و«إلهين» مفعولاً ثانياً.

وقوله: (فإياى): مفعول بفعل محذوف، أي: ارهبوا، ولا يعمل فيه (ارهبون)؛ لأنه أخذ مفعوله، وهو: ياء المتكلم، و(واصباً): حال من (الدين). و(ما بكم): إما شرطية، أو موصولة متضمنة معنى الشرط؛ باعتبار الإخبار دون الحصول؛ فإن استقرار النعمة بهم يكون سبباً للإخبار بأنها من الله، لا سبباً لحصولها منه؛ لأن جواب الشرط يكون مسبباً عن فعله، واستقرار النعمة بهم ليس سبباً في حصولها من الله، وإنما هو سبب في الإخبار بأنها من الله. فتأمله. وأصله للبيضاوي، والجملة: يحتمل أن تكون استئنافية، أو حالية، فيتصل الكلام بما قبله، أي: كيف تتقون غير الله، والحال أن ما بكم من نعمة فمنه وحده؟ واللام في (ليكفروا): لام الأمر على وجه التهديد، كقوله بعدُ: (فتمتعوا)، فعلى هذا يبتدأ بها، وقيل: هي لام العاقبة، فعلى هذا توصل بما قبلها؛ لأنها في الأصل لام كي، وهو بعيد.

يقول الحق جل جلاله: ﴿**وقال الله لا تتخذوا إلهين اثنين**﴾ بأن تعبدوا الله تعالى، وتعبدوا معه الأصنام، ﴿**إنما هو إله واحد**﴾ لا شريك له ولا ظهير، ولا معين ولا وزير، ﴿**فإياى فارهبون**﴾، عَدَلَ من الغيبة إلى التكلم؛ مبالغةً في الترهيب، وتصريحاً بالمقصود، كأنه قال: فأنا ذلك الإله الواحد، فإياى فارهبون، لا غيرى، ﴿**وله ما في السموات والأرض**﴾؛ خلقاً وملكاً وعبيداً، ﴿**وله الدين**﴾ أي: الطاعة والانقياد ﴿**واصباً**﴾: لازماً، أو: واجباً وثابتاً؛ لما تقرر أنه الإله وحده، والحقيق بأن يرهَبَ منه، فلا يُدَان لأحد إلا هو. وقيل: ﴿**وله الدِّين**﴾ أي: الجزاء ﴿**واصباً**﴾ أي: دائماً، فلا ينقطع ثوابه لمن آمن، ولا عقابه لمن كفر. ﴿**أفغير الله تتقون**﴾ مع أنه ليس بيد غيره نفع ولا ضر؟!

كما قال: ﴿**وما بكم من نعمةٍ فمن الله**﴾ أيْ: وأيّ شيء اتصل بكم من نعمة فهو من الله وحده، ﴿**ثم إذا مسكم الضرُّ فإليه تجأرون**﴾ أي: فلا تتضرعون عند الشدة إلا إليه، ولا تستغيثون إلا به. والجؤار: رفع الصوت في الدعاء والاستغاثة، ﴿**ثم إذا كشف الضر عنكم إذا فريقٌ منكم بربهم يشركون**﴾ وهم: كفاركم، ففي وقت الشدة ينسون أصنامهم، وفي الرخاء يرجعون إليها. فعلوا ذلك؛ ﴿**ليكفروا بما آتيناهم**﴾ من نعمة الكشف عنهم، كأنهم قصدوا بشركهم كفران النعمة، أو يكون تهديداً، أي: ليكفروا ما شاءوا فسوف يعلمون، كقوله: ﴿**فتمتعوا**﴾ بكفركم ﴿**فسوف تعلمون**﴾ عاقبة أمركم.

الإشارة : قال في التنوير: أبى المحققون أن يشهدوا غير الله؛ لما حققهم به من شهود القيومية، وإحاطة الديمومية. هـ. فمن فتح اللهُ بصيرته، لم يشهد مع الحق سواه؛ إذ الأكوان ثابتة بإثباته، ممحوة بأحدية ذاته، فما حجبك عن الحق وجود موجود معه؛ إذ لا شيء معه، وإنما حجبك توهم موجود معه،. فمن غاب عن ثنوية نفسه غاب عن ثنوية الأكوان، ووقع على عين الشهود والعيان. فما ظهر في الوجود إلا أسرار ذاته وأنوار صفاته. وبالله التوفيق.

ثم ذكر جهالة أهل الشرك وسفاهة رأيهم، فقال:

﴿ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْ ۗ تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾ ﴾

قلت: الضمير في (يجعلون) للكفار، وفي (يعملون) لهم، أو للأصنام. و(لهم ما يشتهون): يجوز أن يكون (ما يشتهون) مبتدأ، وخبره: (لهم)، وأن يكون مفعولاً بفعل مضمر، أي: ويجعلون لأنفسهم ما يشتهون، وأن يكون معطوفاً على البنات، وهذا منعه البصريون؛ لاتحاد الفاعل والمفعول، وهو الواو، وضمير لهم في الغيبة، فلا يقال: زيد ضربه، وإنما يقال: ضرب نفسه، ولا يقال: أنا ضربتني، ويجوز ذلك في أفعال القلوب. وقال البيضاوي: ولا يبعد تجويزه في المعطوف، كما في الآية.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ **ويجعلون** ﴾ أي: كفار العرب ﴿ **لما لا يعلمون** ﴾ إلاهيتهم ببرهان ولا حجة، وهم الأصنام. أو: لمَا لا علم لهم من الجمادات التي يعبدونها، ﴿ **نصيبا مما رزقناهم** ﴾ من الزرع والأنعام، بقولهم: هذا لله وهذا لشركائنا، ﴿ **تالله لتُسألُنّ** ﴾؛ سؤال توبيخ وعتاب ﴿ **عما كنتم تفترون** ﴾ من أنها آلهة بالتقرب إليها، أو عما كنتم تفترون على الله من أنه أمَركم بذلك.

﴿ **ويجعلون لله البنات** ﴾؛ من قولهم: الملائكة بنات الله، وكانت خزاعة وكنانة يقولون ذلك. ﴿ **سبحانه** ﴾؛ تنزيهاً له عن ذلك، ﴿ **ولهم ما يشتهون** ﴾ أي: ويجعلون لأنفسهم ما يشتهون، وهم البنون، والمعنى: أنهم يجعلون لله البنات التي يكرهونها ـ وهو منزه عن الولد ـ، ويختارون لأنفسهم ما يشتهون من الذكور. ﴿ **وإذا بُشّر أحدهم بالأنثى** ﴾

أي: أُخبر بولادتها عنده، ﴿ظلّ﴾ أي: صار ﴿وجهُهُ مُسوداً﴾: متغيراً تغير مغتم؛ من الكآبة والحياء من الناس، ﴿وهو كظيم﴾: ممتلئ غيظاً، ﴿يتوارى﴾؛ يختفي ﴿من القوم﴾ أي: من قومه؛ حياء منهم، ﴿من سوء ما بُشِّر به﴾؛ من قُبح المبشر به، متفكراً في نفسه، ﴿أيُمسكُه على هُون﴾ أي: يتركه، عنده، على ذل وهوان، ﴿أم يَدُسه في التراب﴾ أي: يخفيه فيه ويئده، وهي: الموءودة، وتذكير الضمير؛ للفظ «ما»، ﴿ألا ساءَ﴾: بئس ﴿ما يحكمُون﴾ حكمهم هذا؛ حيث نسبوا لله تعالى البنات، التي هي عندهم بهذا المحل.

﴿للذين لا يؤمنون بالآخرة مَثَلُ السَّوْء﴾ أي: صفة السوء، وهي: الحاجة إلى الولد المنادية بالموت، واستبقاء الذكور؛ استظهاراً بهم، وكراهة البنات ووأدهن خشية الإملاق، ﴿ولله المَثَلُ الأعلى﴾ أي: الصفة العليا، وهو الوجوب الذاتي والغنى المطلق، والجود الفائق، والنزاهة عن صفات المخلوقين، والوحدانية في الذات والصفات والأفعال. وقال الأزهري: المثل الأعلى، أي: التوحيد والخلق والأمر، ونفي كل إله سواه. ويترجم عن هذا كله بقول: «لا إله إلا الله». هـ. ﴿وهو العزيز﴾ في ملكه، ﴿الحكيم﴾ في صنعه، أي: المنفرد بكمال القدرة والحكمة، فالقدرة مُظهرة للأشياء في أوقاتها، والحكمة تسترها برداء أسبابها وشروطها. والله تعالى أعلم.

الإشارة: ينبغي لأهل التوحيد الكامل أن يتنزهوا عن شبهة الشرك في أعمالهم وأموالهم، فلا يشركون فيما رزقهم الله، من الأموال، أحداً من المخلوقين، يجعلون لهم نصيباً في أموالهم، على قصد الحفظ، أو إصلاح النتاج، كما تفعله العامة مع الصالحين، فإن ذلك مما يقدح في صفاء التوحيد؛ إذ لا فاعل سواه. وقوله تعالى: ﴿وإذا بُشر أحدهم بالأنثى...﴾ الآية، فيه ذم وتهديد لمن يكره البنات، وينقبض من زيادتهن؛ لأن فيه نزغة من فعل الجاهلية، بل ينبغي إظهار البسط والبرور بهن أكثر من الذكور، ولا شك أن النفقة عليهن أكثر ثواباً من الذكور، وفي الحديث: «مَنِ ابْتُلِيَ بِهذهِ البَنَاتِ، فأَحْسَنَ إليهِنَّ، كُنَّ لَهُ حِجَاباً مِنَ النَّار».[1] إلى غير ذلك من أحاديث كثيرة تُرغب في الإحسان إليهن. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر حكمة إمهاله تعالى للكفار، فقال:

﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾ ﴾

(١) أخرجه البخاري في (الزكاة، باب اتقوا النار ولو بشق تمرة)، ومسلم في (البر والصلة، باب فضل الإحسان إلى البنات) عن السيدة عائشة ـ رضي الله عنها.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ولو يُؤاخذ اللهُ الناسَ بظلمهم﴾ أى: بكفرهم ومعاصيهم الصادرة من بعضهم، ﴿ماترك عليها﴾ أى: على الأرضِ ﴿من دابة﴾: نسمة تدب عليها، بشؤم ظلمهم. وعن ابن مسعود: (كاد الجُعَل[١] يهلك فى جُحره بذنب ابن آدم). وقيل: لو هلك الآباء بكفرهم لم يكن الأبناء، ﴿ولكن يُؤخرهم إلى أجل مسمى﴾ سماه لأعمارهم، أو لعذابهم، ﴿فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون﴾ عنه ﴿ساعة ولايستقدمون﴾ عليه، بل يهلكون، أو يُعذبون حينئذ لا محالة، فالحكمة فى إمهال أهل الكفر والمعاصى؛ لئلا يعم العذاب، كقوله: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾[٢]، و(لعل الله تعالى يُخرج من أصلابهم من يُوحد الله). والله تعالى أعلم.

الإشارة: إن الله يهم أن ينزل إلى أهل الأرض عذاباً؛ لمايرى فيهم من كثرة الظلم والفجور، فإذا رأى حلَق الذكر ومجالس العلم رفع عنهم العذاب. وفى بعض الأخبار: «لَوْلاَ شُيوخٌ ركع، وصِبْيَانٌ رُضَّعٌ، وبهَائمُ رُتَّعٌ، لصُبَّ عليْكُمُ العذَابُ صَبّاً» .[٣].

ثم ذكر وعيد الكفار، فقال:

﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ (٦٢) ﴾

قلت: (أن لهم الحسنى): بدل من (الكذب)، ومن قرأ (مفرطون)؛ بالكسر، فاسم فاعل من الإفراط، وهو: تجاوز الحد، ومن قرأها بالفتح؛ فاسم مفعول، من أفرط فى طلب الماء، إذا قدمه. ومن قرأ بالتشديد؛ فمن التفريط.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ويجعلون لله ما يكرهون﴾ لأنفسهم من البنات، والشركاء فى الرئاسة وأراذل الأموال، ﴿وتصف ألسنتُهم الكذبَ﴾ مع ذلك، وهو ﴿أن لهم الحسنى﴾ عند الله، وهى الجنة. وهذا كقوله: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ﴾[٤]. قال تعالى: ﴿لا جرَمَ أنَّ لهم النارَ﴾ أى: لاشك، أو حقا أن لهم النار، ﴿وأنهم مُفْرَطُونَ﴾؛ مقدّمون إليها، أو متركون فيها، أو مفرطون فى المعاصى والظلم، متجاوزون الحد فى ذلك. أو مفرطون فى الطاعة؛ من التفريط.

---

(١) الجُعَل: حيوان كالخنفساء... انظر: النهاية (جعل، ١/٢٧٧).

(٢) من الآية ٢٥ من سورة الأنفال.

(٣) أخرجه البيهقى فى الكبرى (صلاة الاستسقاء، باب استحباب الخروج بالضعفاء والصبيان ٣/٣٤٥) والطبرانى فى الأوسط (ح ٦٥٣٩)، وابن عدى فى الكامل (٤/١٦٢٢) عن مالك بن عبيدة الديلي، عن أبيه، عن جده.

(٤) من الآية ٥٠ من سورة فصلت.

الإشارة: الواجب في حق الأدب أن ما كان من الكمالات ينسب إلى الله تعالى، كائناً ما كان، وما كان من النقائص ينسب إلى العبد، وإن كان، في الإيجاد والاختراع، كل من عند الله، وهو بهذا الاعتبار في غاية الحسن.

كما قال صاحب العينية رضي الله عنه:

وكُلُّ قَبِيحٍ إنْ نَسَبْتَ لِحُسْنِه أَتَتْكَ مَعَانِي الحُسْنِ فِيهِ تُسَارِعُ
يُكَمِّلُ نُقْصَانَ القَبِيحِ جَمَالُهُ فَمَا ثَمَّ نُقْصَانٌ وَلاَ ثَمَّ بَاشِعُ

ثم سلّى نبيه ﷺ بقوله:

﴿ تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾

قلت: (وهدى ورحمة): معطوفتان على «لتبين»، وانتصبا على المفعولية من أجله، أي: لأجل البيان والهدى والرحمة.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ تالله لقد أرسلنا ﴾ رسلاً ﴿ إلى أمم من قبلك ﴾ يامحمد، ﴿ فزيَّن لهم الشيطانُ أعمالهم ﴾ السوء، فرأوها حسنة، فأصروا على قبائحها، وكذبوا الرسل، فصبروا حتى نُصروا. فاصبر كما صبروا، حتى تنصر كما انتصروا. فكان عاقبة من اتبع الشيطان الهلاك والوقوع في العذاب، ﴿ فهو وليهم ﴾ أي: متولى أمورهم ﴿ اليومَ ﴾ في الدنيا، ﴿ ولهم عذاب أليم ﴾ في الآخرة، أو: فهو وليهم يوم القيامة، على أنه حكاية حال آتية، أي: لا ولى لهم غيره في ذلك اليوم، وهو عاجز عن نصر نفسه، فكيف ينصر غيره؟ ﴿ وما أنزلنا عليك الكتاب ﴾: القرآن ﴿ إلا لتُبين لهم ﴾: للناس ﴿ الذى اختلفوا فيه ﴾؛ من التوحيد، والقدر، وأحوال المعاد، وأحكام الأفعال، ﴿ وهدى ورحمة لقوم يؤمنون ﴾ به، فإنهم المنتفعون بإنزاله.

الإشارة: كل من وقف دون الوصول إلى مشاهدة الحق، فهو مُزين له في عمله، مُستدرج به وهو لا يشعر، وحظه يوم القيامة الندم والأسف. وفي ذلك يقول أبو المواهب[1]:

مَنْ فَاتَهُ مِنْكَ وَصْلٌ حَظُّهُ النَّدَمُ وَمَنْ تَكُنْ هَمَّهُ تَسْمُو به الهِمَمُ

(١) التونسي، صاحب «قوانين حكم الإشراق».

وناظرٌ فى سوى معناك حقٌّ له ... يقتصُ من جفنه بالدمع وهو دمُ
والسمعُ إن جال فيه من يحدثه ... سوى حديثك أمسى وقره الصممُ

فهذه علامات الوصول إلى الحق، بحيث ترتفع همته إلى حضرة الحق، ويصرف نظره فى معانى أسرار التوحيد، وسمعه فيما يقرب إلى صريح التفريد، ومن لم يبلغ هذا المقام، لم ينقطع عنه تزيين الشيطان، فيُزين له عمله، فيقف معه. وبالله التوفيق.

ثم ذكر دلائل توحيده وباهر قدرته، وفى معرفتهما معرفة ذاته، فقال:

﴿ وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٦٥) ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ **والله أنزل من السماء ماءً** ﴾ ؛ مطراً ﴿ **فأحيا به الأرض بعد موتها** ﴾ ؛ أنبت فيها أنواع النبات بعد يبسها، فكانت هامدة غبْراء، غير منبتة، شبيهة بالميت، فصارت، بعد إنزال المطر، مخضرة مهتزة رابية شبيهة بالحى. ﴿ **إن فى ذلك لآيةً لقوم يسمعون** ﴾ سماع تدبر وإنصاف؛ فإن هذه الآية ظاهرة، تُدرك بأدنى تنبيه وسماع، غير محتاجة إلى كثرة تفكر واعتبار.

الإشارة: والله أنزل من سماء الغيوب ماء العلوم النافعة، فأحيا به أرض النفوس الميتة بالغفلة والجهل، فصارت مبتهجة بأنوار التوحيد وأسرار التفريد، وفى ذلك يقول الشاعر:

إنَّ عرفان ذى الجلال لعزٌّ ... وضياءٌ وبهجة وسُرور
وعلى العارفين أيضًا بهاءٌ ... وعليهمْ من المحبَّة نُورْ
فهنيئًا لمن عرفك، إلهى ... هو، والله، دهره، مسرورْ

ثم ذكر دليلاً آخر، فقال:

﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ (٦٦) وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٦٧) ﴾

قلت: سقى وأسقى: لغتان، على المشهور. والضمير فى (بطونه): للأنعام، وذكّره باعتبار ما ذكر[1]، كقوله: ﴿ **كلاَّ إنها تذكرةٌ ، فمن شاء ذكره** ﴾[2]، أو: باعتبار الجنس، وعدّه سيبويه فى المفردات المبنية على: أفعال،

(١) أي: مما فى بطون ماذكرناه.
(٢) الآيتان: ١١ ـ ١٢ من سورة عبس.

كأخلاق وأكباش، فهو، عنده، اسم جمع، كقوم ورهط، فلفظه مفرد ومعناه جمع، فذكّره هنا؛ مراعاة للفظه، وأنثه، فى سورة المؤمنين؛ مراعاة لمعناه. ومن قال: إنه جمع «نعم»، جعل الضمير للبعض؛ فإن اللبن لبعضها دون جميعها.

و(من) فى قوله : «مما»؛ للتبعيض، و «من بين فرث»؛ لابتداء الغاية، و(من ثمرات) : يتعلق بمحذوف، أى: ونسقيكم من ثمرات النخيل، يدل عليه (نُسقيكم) الأول. و(تتخذون) : استئناف لبيان الإسقاء، أو يكون (ثمرات) : عطفاً على (مما فى بطونه)، أو يتعلق (من ثمرات) بتتخذون، أى: تتخذون من ثمرات النخيل سَكَراً. وكرر (منه) للتأكيد، أو يكون (تتخذون) : صفة لمحذوف، أى: شىء تتخذون منه سكرا.

يقول الحق جل جلاله : ﴿ **وإنَّ لكم** ﴾ أيها الناس، ﴿ **فى الأنعام** ﴾ وهى: الإبل والبقر والغنم، ﴿ **لعبرةً** ﴾ ظاهرة تدل على كمال قدرته، وعجائب حكمته، وهى أنا ﴿ **نُسْقيكم مما فى بطونه** ﴾ أى: بعض ما استقر فى بطونه من الغذاء، ﴿ **من بين فَرْث** ﴾ ؛ وهو ما فى الكرش من القذر، ﴿ **ودم** ﴾ ؛ وهو ما تولد من لباب الغذاء، ﴿ **لبناً خالصاً** ﴾ من روائح الفرث، صافياً من لون الدم. والمعنى: أن الله يخلق اللبن متوسطاً بين الفرث والدم يكتنفانِه، ومع ذلك فلا يُغير له لوناً ولا طعماً ولا رائحة. وعن ابن عباس: (إن البهيمة إذا اعتلفت، وانطبخ العلف فى كرشها، كان أسفله فرثاً، وأوسطه لبناً، وأعلاه دماً). ثم وصفه بقوله: ﴿ **سائغاً للشاربين** ﴾ ؛ سهل المرور فى حلقهم، حتى قيل: لم يغصّ أحدٌ قط من اللبن. وروى ذلك عن النبى ﷺ(١).

﴿ و ﴾ نُسقيكم، أيضا، ﴿ **من ثمرات النخيل والأعناب** ﴾ أى: من عصيرهما. ثم بيّن كيفية الإسقاء فقال: ﴿ **تتخذون منه** ﴾ أى: مما ذكر ﴿ **سَكَراً** ﴾ يعنى الخمر، سميت بالمصدر، ونزل قبل تحريم الخمر، فهى منسوخة بالتحريم. وقيل: هى على وجه المنة بالمنفعة التى فى الخمر، ولا تعرُّض فيها لتحليل الخمر ولا تحريم، وهذا هو الصحيح. وفى دعوى النسخ نظر؛ لأن النسخ إنما يكون فى الأحكام المشروعة المقررة، وهنا ليس كذلك، إنما فيه امتنان واعتبار فقط. ﴿ و ﴾ تتخذون من ثمراتها ﴿ **رزقًا حسنًا** ﴾ ؛ كالتمر، والزبيب، والدبْس ـ وهو ما يسيل من الرطب ـ، والخلُّ، والربُّ(٢)، وقيل: السُّكْرُ: المائع من هاتين الشجرتين؛ كالخل، والرُّب، والرزق الحسن: العنب والتمر. ﴿ **إنَّ فى ذلك لآية** ﴾ دالة على كمال قدرته تعالى، ﴿ **لقوم يعقلون** ﴾ ؛ يستعملون عقولهم بالتأمل، والنظر فى الآيات.

---

(١) روى ذلك بلفظ: «ماشرب أحدٌ لبناً فيشرق»، عزاه السيوطى، فى الدر (٤/٢٨) ، لابن مردويه عن يحيى بن أبى كبشة عن أبيه عن جده؛ مرفوعاً.

(٢) الرُّبُّ: ما يطبخ من التمر ... انظر: النهاية (ربب ٢/١٨١) .

الإشارة: كما استخرج الحق، جل جلاله، من بين فرث ودم لبناً خالصاً سائغاً للشاربين، استخرج مذهب أهل السنة، القائلين بالكسب، من بين مذهب الجبرية ومذهب المعتزلة، بين قوم أفرطوا، وقوم فرطوا. واستخرج أيضاً مذهب الصوفية ـ أعني: المحققين منهم ـ من بين الواقفين مع ظاهر الشريعة والمتمسكين بمجرد الحقيقة، بين قوم تفسقوا وقوم تزندقوا، بين قوم وقفوا مع عالم الحكمة، وقوم وقفوا مع شهود القدرة من غير حكمة، وهو، إن لم يكن عن غلبة سُكرٍ، كُفْرٌ. واستخرج، أيضاً، مذهب أهل التربية من بين سلوك محض وجذب محض، فأهل السلوك المحض محجوبون عن الله، وأهل الجذب المحض غائبون عن طريق الله، وأهل التربية برزخ بين بحرين، الجذب في بواطنهم، والسلوك على ظواهرهم. ولا يعرف هذا إلا من شرب مشربهم، قد أخذوا من ثمرات نخيل الشرائع وأعناب الحقائق، سكراً في قلوبهم، بشهود محبوبهم، ورزقًا حسناً؛ معرفة في أسرارهم، وعبودية في ظواهرهم، فصاروا جامعين بين جذب الحقائق وسلوك الشرائع، كل واحد في محله. وبالله التوفيق.

ثم ذكر دليلاً آخر، فقال:

﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ (٦٨) ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٦٩) ﴾

قلت: (أن اتخذى): مفسرة للوحى الذى أوحى إلى النحل، أو مصدرية، أى: بأن اتخذى. و(من): للتبعيض فى الثلاثة مواضع، (ثم كُلِى): عطف على (اتخذى). و(من): للتبعيض؛ لأنها لا تأكل من جميع الشجر، وقيل: من كل الثمرات التى تشتهيها، فتكون للبيان. و (ذُللاً): حال من السبل، أو من الضمير فى (اسلكى).

يقول الحق جل جلاله: ﴿وأوحى ربك إلى النحل﴾ أى: ألهمها، وقذف فى قلوبها ذلك. والوحى على ثلاثة أقسام: وحْيُ إلهام، ووحْيُ منام، ووحْيُ أحكام. وقال الراغب: أصل الوحى: الإشارة السريعة، إما بالكلام؛ رمزاً، وإما بصوت مجرد عن التركيب، أو بإشارة ببعض الجوارح، والكناية. ويقال للكلمة الإلهية التى تُلقى إلى الأنبياء: وحى، وذلك أضْرُبٌ؛ إما برسول مشاهَد، وإما بسماع كلام من غير معاينة، كسماع موسى كلام الله، وإما بإلقاءٍ فى الروع، وإما بإلهام، نحو: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ ﴾(١)، وإما تسخير، كقوله: ﴿وأوحى ربك إلى النحل﴾، أو بمنام، كقوله ﷺ: «انقطع الوحى، وبقى المبشرات؛ رؤيا المؤمن»(٢).

---

(١) من الآية ٧ من سورة القصص.

(٢) أخرجه البخارى فى (التعبير، باب المبشرات)، بلفظ: «لم يبق من النبوة إلا المبشرات، قالوا: وما المبشرات؟ قال: الرؤيا الصالحة». من حديث أبى هريرة رضي الله عنه.

ثم بيّن ما أوحى إليها فقال: ﴿ أن اتخذى ﴾ ، أو بأن اتخذى ﴿ من الجبال بيوتًا ﴾ تأوين إليها، كالكهوف ونحوها، ﴿ ومن الشجر ﴾ بيوتاً، كالأجْبَاح(١) ونحوها، ﴿ ومما يعرشون ﴾ أى: يهيئون، أو يبنون لك الناس من الأماكن، وإلا لم تأو إليها. وذكرها بحرف التبعيض؛ لأنها لا تُبنى فى كل جبل، وكل شجر، وكل ما يعرش؛ من كرْم أو سقف، ولا فى كل مكان منها. وإنما سمى ما تبنيه، لتتعسل فيه، بيتاً؛ تشبيهاً ببناء الإنسان؛ لما فيه من حسن الصنعة وصحة القسْمة، التى لا يقوى عليها حُذَّاق المهندسين إلا بآلات وأنظار دقيقة. ولعل ذكره: للتنبيه على ذلك. قاله البيضاوى. **قلت**: وليس للنحل فعل فى الحقيقة، وإنما هو صنع العليم الحكيم فى مظاهر النحل.

ثم قال لها: ﴿ ثم كُلى من كل الثمرات ﴾ التى تشتهيها، حلوها ومرها. قيل: إنها ترعى من جميع النوار إلا الدفلة(٢) . ﴿ فاسْلُكى ﴾ أى: ادخلى ﴿ سُبل ربك ﴾ ؛ طُرقه فى طلب المرعى، أو: فاسلكى؛ راجعة إلى بيوتك، سبلَ ربك، لا تتوعر عليك ولا تلتبس. وأضافها إليه؛ لأنها خلقه ومِلْكه. ﴿ ذُللاً ﴾ : مطيعة منقادة لما يراد منك، أو اسلكى طرقه؛ مذللة مسخرة لك، فلا تعسر عليك وإن توعرت، ولا تضل عن العَود منها وإن بعُدت. قال مجاهد: لم يتوعَّر على النحل قط طريق.

﴿ يخرجُ من بطونها شرابٌ ﴾ وهو العسل، عدَل عن خطاب النحل إلى خطاب الناس: لأنه محل الإنعام عليهم، والمقصود من خلق النحل وإلهامه؛ لأجلهم. وسماه شراباً؛ لأنه مما يشرب. وظاهر الآية أن العسل يخرج من بطون النحل، وهو ظاهر كلام سيدنا على بن أبى طالب رضي الله عنه فى تحقيره للدنيا، قال: (أشرف لباس ابن آدم فيها نفثة دود، وأشرف شراب فيها رجيع نحلة - أو قيء نحلة -، وأشرف لذة فيها مبال فى مبال) . وجمهور الناس على أن العسل يخرج من أفواه النحل. قاله ابن عطية. قلت: والذى ألفيناه، ممن يتعاطاهم، أنه يخرج من دبرهم.

وقوله: ﴿ مختلفٌ ألوانه ﴾ أى: أبيض، وأحمر، وأسود، وأصفر، بحسب اختلاف سن النحل، ومراعيها. وقد يختلف طعمه ورائحته باختلاف مرعاه. ومنه قول عائشة للنبى - عليه الصلاة والسلام: (جَرَستْ نحلُه العُرْفُطَ)(٣) وهو نبت منتن الرائحة، شُبهت رائحته برائحة المغافير(٤) .

ثم قال تعالى: ﴿ فيه شفاء للناس ﴾ ؛ إما بنفسه، كما فى الأمراض البلغمية، أو مع غيره، كما فى سائر الأمراض، إذ قلما ما يكون معجون إلا والعسل جزء منه. قاله البيضاوى. قال السيوطى: قيل: لبعضها، كما دل

---

(١) الجُبْحُ: هي مواضع النحل فى الجبل، وفيها تعسّل، وقيل: الأجباح: حجارة الجبل.. انظر اللسان - جبح.

(٢) الدفلة : نبت مرٌ، أخضر، حسن المنظر انظر.. اللسان (دخل، ٢/١٣٩٧) .

(٣) جاء ذلك فى حديث شرب النبى ﷺ العسل. وأخرجه البخارى فى (الطلاق، باب لم تُحرم ما أحل الله لك) . والعُرفط - بالضم - : شجر الطَّلح، وله صمغ كريه الرائحة، فإذا أكلته النحلة حصل فى عسلها من ريحه. انظر النهاية (عرفط) .

(٤) المغافير : جمع مغفور ومغفار، وهو صمغ حلو، له رائحة كريهة، يسيل من شجر العرفط، يؤكل، أو يوضع فى ثوب، ثم ينضح بالماء، فيشرب. انظر اللسان (غفرة ٥/٣٢٧٥) .

عليه تنكير شفاء، أو لكلها بضميمةٍ إلى غيره - أقول: وبدونــها، بنيــة - وقد أمر به ﷺ من استطلق بطنه، رواه الشيخان. هـ. قال ابن جزى: لأن أكثر الأدوية مستعملة من العسل؛ كالمعاجن، والأشربة النافعة من الأمراض. وكان ابن عمر يتداوى به من كل شيء، فكأنه أخذه من العموم. وعلى ذلك يدل الحديث عن النبى ﷺ: «أن رجلا جاء إليه فقال: أخي يَشْتَكي بَطْنَه ،فقال: اسْقِه عَسَلاً، فَذَهب ثم رجع، فقال: قَدْ سَقَيْتُهُ فما نفع، قال: فاذْهَبْ فَاسْقِه عَسَلاً، فَقَدْ صدقَ الله وكَذَبَ بَطْنُ أخيك، فسقاه، فَشَفَاهُ الله عز وجل»(١).

﴿ إنَ في ذلك لآية لقوم يتفكرون ﴾ ؛ فإن من تدبر اختصاص النحل بتلك العلوم الدقيقة والأفعال العجيبة حق التدبر، علِم، قطعاً، أنه لابد له من قادر مدبر حكيم، يلهمها ذلك ويحملها عليه، وهو الحق تعالى.

الإشارة: إنما كان العسل فيه شفاء للناس؛ لأن النحل ترعى من جميع العشب، فتأخذ خواص منافعها. وكذلك العارف الكامل يأخذ النصيب من كل شيء، ويعرف الله فى كل شيء، فإذا كان بهذه المنزلة، كان فيه شفاء للقلوب، كل من صحبه، بصدق ومحبة، شفاه الله، وكل من رآه، بتعظيم وصدق، أحياه الله. وقد قالوا فى صفة العارف: هو الذى يأخذ النصيب من كل شيء، ولا يأخذ النصيب منه شيئاً، يصفو به كدر كل شيء، ولا يكدر صفوه شيء، قد شغله واحد عن كل شيء، ولم يشغله عن الواحد شيء.. إلى غير ذلك من نعوته. وقال الورتجبى: قال أبو بكر الوراق: النحلة لمَّا تبعت الأمر، وسلكت سبيلها على ما أمرت به، جعل لعابها شفاء للناس، كذلك المؤمن، إذا اتبع الأمر، وحفظ السر، وأقبل على مولاه، جعل رؤيته وكلامه ومجالسته شفاء للخلق، ومن نظر إليه اعتبر، ومن سمع كلامه اتعظ، ومن جالسه سعد. هـ.

ثم ذكر دلالة أخرى على قدرته، وهى الإحياء والإماتة، فقال:

﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ والله خلقكم ﴾: أظهركم إلى عالم الشهادة، ﴿ ثم يتوفاكم ﴾: يردكم إلى عالم الغيب عند انتهاء آجالكم، ﴿ ومنكم من يُردُّ إلى أرذَلِ العُمرِ ﴾ أى: أخسه، يعني: الهرَم والخرف، الذى يشابه الطفولية فى نقصان القوة والعقل. وقيل: هو خمس وتسعون سنة، وقيل: خمس وسبعون سنةً، والتحقيق: أن ذلك لا ينضبط بسن. ﴿ لكي لا يعْلم بعد علْم شيئا ﴾ ؛ ليصير إلى حالة شبيهة بحالة الطفولية، فى نقصان العقل والنسيان وسوء الفهم. وليس المراد نفى العلم بالكلية، بل عبارة عن قلة العلم؛ لغلبة النسيان. وقيل: المعنى: لئلا يعلم زيادة على علمه شيئاً. قال عكرمة: (من قرأ القرآن لم يصر بهذه المنزلة).

(١) أخرجه البخارى فى (الطب، باب الدواء بالعسل)، ومسلم فى (السلام، باب التداوى بسقى العسل) عن أبى سعيد الخدرى ﷺ.

قلت: جاء في بعض الأحاديث ما يقتضي تخصيص القارئ للقرآن بالمتبع له، وأنه الذي يُمتعه الله بعقله حتى يموت، وهو الذي يشهد له الحس، أي: الوجود في الخارج، بالصدق، لوجود الخرف في كثير ممن يحفظه. قاله في الحاشية.

﴿إن الله عليم قدير﴾ أي: عليم بمقادير الأشياء وأوقاتها، قدير على إيجاد الأشياء وإعدامها، عند انتهاء آجالها، فيميت الشاب النشط عند تمام أجله، ويبقى الهرم الفاني إلى انقضاء أجله. قال البيضاوي: وفيه تنبيه على أن تفاوت أعمار الناس ليس إلا بتقدير قادر حكيم، ركب أبنيتهم، وعدل أمزجتهم، على قدر معلوم، ولو كان ذلك بمقتضى الطبائع لم يقع التفاوت إلى هذا المبلغ. هـ.

الإشارة: الخلق والتوفي هو من جملة الظهور والبطون، عند أهل التوحيد الخاص، والرد إلى أرذل العمر لا يلحق العارفين بالله. وقد قيل، في استثناء قوله: ﴿إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾(١) من الرد إلى أسفل سافلين: إن الصالح لا يدركه الخَرَف وإن أدركه الهرم. وذلك دليل على سعادته، وعدم تشويه صورته في الآخرة، والله تعالى قادر على وقاية أوليائه مما يشين به أعداءه عاجلاً. وفي الحديث: «إذا قرأ الرجلُ القرآنَ، واحتشَى من أحاديث رسول الله ﷺ - أي: امتلأ - وكانتْ هناك غريزةٌ - يعني: فقه نفس ومعرفة -، كان خليفةً من خلفاء الأنبياء»(٢).

ثم سفه رأى من أشرك بعد هذه الدلائل، فقال:

﴿ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلرِّزۡقِۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُواْ بِرَآدِّي رِزۡقِهِمۡ عَلَىٰ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَهُمۡ فِيهِ سَوَآءٌۚ أَفَبِنِعۡمَةِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ٧١ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿والله فضَّل بعضكم على بعض في الرزق﴾، فمنكم غني ومنكم فقير، ومنكم ملوك مستغنون عن غيرهم، ومنكم مماليك محتاجون إلى غيرهم، ﴿فما الذين فُضّلوا﴾؛ وهم الموالي، أي: السادات، ﴿برادّي رزقهم﴾: بمعطي رزقهم ﴿على ما ملكتْ أيمانُهم﴾: على مماليكهم، أي: ليس الموالي بجاعلي مارزقناهم من الأموال وغيرها، شركة بينهم وبين مماليكهم، ﴿فهُم﴾ أي: المماليك ﴿فيه سواءٌ﴾ مع

---

(١) من الآية ٦ من سورة البلد.

(٢) عزاه السيوطي في الجامع الصغير (٧٩٤) للرافعي في تاريخه، عن أبي أمامة، وضعّفه. وانظر: فيض القدير، للمناوي (١/٤١٦).

ساداتهم. وهو احتجاج على وحدانيته تعالى، وإنكارٌ ورد على المشركين، فكأنه يقول: أنتم لا تسوّون بين أنفسكم وبين مماليككم فى الرزق، ولا تجعلونهم شركاء لكم، بل تأنفون من ذلك، فكيف تجعلون عبيدى شركاء لى فى ألوهيتى؟! وهذا كقوله: ﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلاً مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِيمَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾(١). ويحتمل أن يكون ذماً وعتاباً لمن لا يحسن إلى مملوكه، حتى يرد ما رزقه الله عليه، كما فى الحديث: « أطعموهم مما تأكلون، وألبسوهم مما تلبسون»(٢).

﴿ أفبنعمة الله يجحدون ﴾، حيث يجعلون له شركاء، فإنه يقتضى أن يضاف إليهم بعض ما أنعم الله عليهم، ويجحدوا أنه من عند الله، أو حيث أنكروا هذه الحجج، بعد ما أنعم الله عليهم بإيضاحها، أو حيث بخسوا مماليكهم مما يجب لهم من الإنفاق. على التفسير الثانى.

الإشارة: والله فضَّل بعضكم على بعض فى أرزاق العلوم، والأسرار والمواهب، فمنكم غنى بالله، ومنكم فقير منه فى قلبه، ومنكم عالم به ومنكم جاهل، ومنكم قوى اليقين ومنكم ضعيف، فما الذين فُضّلوا بالعلوم اللدنية والأسرار الربانية برادّى تلك العلوم على الجهلة وضعفاء اليقين، بأن يطلعوهم على أسرار الربوبية قبل استحقاقها ـ فإن ذلك بخس بحقها ـ حتى يرونهم أهلاً لها؛ بأن يبذلوا لهم أنفسهم وأموالهم، ويملكون لهم رقابهم يتصرفون فيها تصرف المالك فى مملوكه، فحينئذ يشاركونهم فيما منحهم الله من أرزاق العلوم وأسرار الفهوم، وقد قيل: لا تؤتوا الحكمة غير أهلها فتظلموها، ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم.

وفى هذا المعنى يقول الشاعر:

سأكْتُمُ علْمِى عَنْ ذَوِى الجَهْلِ طَاقَتِى ... ولا أَنْثُرُ الدرَّ النفيسَ على البَهم
فإنْ قَدَّرَ اللهُ الكريمُ بلُطْفِه ... ولاقَيْتُ أهلاً للعُلُوم وللحِكَمْ
بَذَلْتُ عُلُومِى واستَفَدْتُ عُلومهم ... وإلاّ فمخْزُونٌ لَدَىَّ ومُكْتَتَمْ
فمَنْ منَحَ الجهَّالَ علماً أضَاعَهُ ... ومَنْ منَعَ المستوجبين فقدْ ظَلَمْ

ثم ذكّرهم بالنعم التى لا قدرة لأحد عليها، فقال :

﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ۚ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ (٧٢) ﴾

(١) من الآية ٢٨ من سورة الروم.
(٢) أخرجه مسلم فى (الزهد، باب حديث جابر الطويل)، من حديث أبى اليسر.

قلت : الحفدة: جمع حافد، وهو الخديم المسرع فى الخدمة، والحفْد فى اللغة: الخدمة، ومنه فى القنوت: «وإليك نسعى ونحفد»، أي: نسرع فى خدمتك. وسموا أولاد الأولاد حفدة؛ لأنهم يُسرعون فى خدمة جدهم، حين كبر ولزم الدار، وقيل: هم البنات؛ لأنهن يخدمن الدار.

يقول الحق جل جلاله : ﴿ والله جعل لكم من أنفسكم أزواجاً ﴾ ؛ حيث خلق حواء من ضلع آدم، وسائر النساء من نطفة الرجال، والنساء خلقهن لكم، لتتأنسوا بهن، ولتتمتعوا بهن فى الحلال، وليكون أولادكم مثلكم. ﴿ وجعل لكم من أزواجكم بَنين ﴾ من صلبكم ﴿ وحفَدةً ﴾ ؛ أولاد أولادكم أو بناتكم؛ فإن البنات يخدمن فى البيوت أشد الخدمة، أو الأصهار من قِبل النساء، أو الخدَم، ﴿ ورزقكم من الطيبات ﴾ ؛ من اللذائذ والمشتهيات؛ كأنواع الثمار والحبوب والفواكه، والحيوان؛ أكلاً وركوباً وزينة، أو الحلالات، و«من»: للتبعيض؛ فإن طيبات الدنيا أنموذج من نعيم الآخرة. ﴿ أفَبالباطلِ يؤمنون ﴾ وهو أن الأصنام تنفعهم؛ لأن الأصنام باطلة لا حقيقة لوجودها، وإضافة النفع لها: كفرٌ بنعمة الله، ولذلك قال: ﴿ وبنعمة الله هم يكفرون ﴾ ؛ حيث أضافوها إلى أصنامهم، أو حيث حرّموا منها ما أحله الله لهم كالبحائر والسوائب. والله تعالى أعلم.

الإشارة : والله جعل لكم من أنفسكم المطهرة أصنافاً من العلوم اللدنية. قال أبو سليمان الدارانى: (إذا اعتقدت النفوس على ترك الآثام، جالت فى الملكوت، ثم عادت إلى ذلك العبد بطرائف الحكمة، من غير أن يؤدى إليها عالم علماً). وجعل لكم من تلك العلوم بنين روحانيين، وهو التلامذة، يحملون تلك العلوم، وحفدة: من ينقل ذلك عنهم إلى يوم القيامة، ورزقكم من الطيبات، وهى حلاوة المعرفة عند العارفين، وحلاوة الطاعات عند المجتهدين. أفبالباطل ـ وهو ما سوى الله ـ يؤمنون، فيقفون مع الوسائط والأسباب، ويغيبون عن مسبب الأسباب، وبنعمة الله ـ التى هى شهود الحق بلا وسائط ـ هم يكفرون.

ثم عاب على من وقف مع غير الله، فقال:

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ (٧٣) فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٧٤) ﴾

قلت : ﴿ رِزْقاً ﴾: مفعول بيملك، فيحتمل أن يكون مصدراً، أو اسماً لما يرزق، فإن كان مصدراً، فشيئاً مفعول به؛ لأن المصدر ينصب المفعول، وإن كان اسماً، فشيئاً بدل منه. وجمع الضمير فى ﴿يستطيعون﴾، وأفرده فى ﴿يمْلك﴾؛ لأن (ما) مفردة؛ لفظاً، واقعة على الآلهة، فراعى أولاً اللفظ، وفى الثانى المعنى .

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ويعبدون من دون الله ﴾ أي: غيره ﴿ مالا يملك لهم رزقًا من السموات ﴾؛ بالمطر ﴿ والأرض ﴾؛ بالنبات، فلا يرزقونهم من ذلك ﴿ شيئًا ولا يستطيعون ﴾: لا يقدرون على شيء من ذلك؛ لعجزهم، وهم الأصنام، ﴿ فلا تضربوا لله الأمثالَ ﴾؛ لا تجعلوا له أشباهاً تشركونهم به، أو تقيسونهم عليه، فإنَّ ضرب المثل تشبيه حال بحال، ﴿ إنَّ الله يعلمُ ﴾ ألاَّ مِثلَ لهُ، أو فساد ما يقولون عليه من القياس، ﴿ وأنتم لا تعلمون ﴾ ذلك، ولو علمتموه لما تجرأتم عليه، فهو تعليل للنهي، أي: إنه يعلم كنه الأشياء، وأنتم لاتعلمون، فدعوا رأيكم، وقفوا عندما ما حد لكم.

الإشارة: كل من ركن إلى شيء دون الحق تعالى، أو اعتمد عليه في إيصال المنافع أو دفع المضار، تصدق عليه الآية، وتجر ذيلها عليه، فلا تجعلوا لله أمثالاً تعتمدون عليهم وتركنون إليهم، فالله يعلم من هو أولى بالاعتماد عليه والركون إليه، وأنتم لا تعلمون ذلك، أو تعلمون ولا تعملون، ولقد قال من علِمَ ذلك وتحقق به:

حَرَامٌ عَلَى مَنْ وَحَّدَ اللهَ رَبَّهُ		وأَفْرَدَهُ أَنْ يجتدى أَحَداً رِفْدا
فَيَا صَاحِبِي، قِفْ بِي عَلَى الحَقِّ وَقْفَةً		أَمُوتُ بِها وَجْداً، وأَحْيَا بِها وَجدا
وقُلْ لمُلوكِ الأَرْضِ تَجْهَدُ		فَذَا المُلْكُ مُلْكٌ لا يُبَاعُ ولا يُهْدَى

قال سهل رضي الله عنه: «ما من قلب ولا نفس إلا والله مطلع عليه في ساعات الليل والنهار، فأيما نفس أو قلب رأى فيه حاجة إلى غيْرِهِ، سلط عليه إبليس». وقال الأستاذ أبو علي الدقاق رضي الله عنه: من علامة المعرفة: ألا تسأل حوائجك، قلَّتْ أو كثُرت، إلا من الله سبحانه، مثل موسى عليه السلام؛ اشتاق إلى الرؤية، فقال: رب أرني أنظر إليك، واحتاج مرة إلى رغيف، فقال: رب إني لما أنزلتَ إلى من خير فقير. هـ. وقال في التنوير: اعلم، رحمك الله، أن رفع الهمة عن المخلوقين، وعدم التعرض لهم، أزين لهم من الحلي للعروس، وهم أحوج إليه من الماء لحياة النفوس... إلخ كلامه رضي الله عنه.

ثم ضرب مثلاً لنفسه، ولمن يُعبد معه، فقال:

﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُۥنَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٧٥) وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٧٦) ﴾

قلت : «عبداً» : بدل من «مثَلاً» ، «ومن» : نكرة موصوفة ، أى : عبداً مملوكاً ، وحراً رزقناه منا رزقاً حسناً ، وقيل : موصولة . «وسرا وجهرا» : على إسقاط الخافض ، وجمع الضمير فى «يستوون» ؛ لأنه للجنسين ، و«رجلين» : بدل من : «مثَلاً» .

يقول الحق جل جلاله : ﴿ ضَرَبَ اللهُ مثلاً ﴾ لضعف العبودية ، وعظمة الربوبية ، ثم بيَّنه فقال : ﴿ عبداً مملوكًا لا يقدرُ على شىء ﴾ ، وهذا مثال للعبد ، ﴿ ومن رزقناه ﴾ أى : وحراً رزقناه ﴿ منا رزقًا حسناً ، فهو ﴾ يتصرف فيه كيف يشاء ، ﴿ يُنفق منه سراً وجهراً ﴾ ، وهذا : مثال للرب تبارك وتعالى ، مَثَّلَ ما يشرك به من الأصنام بالمملوك العاجز عن التصرف رأسًا ، ومَثَّل لنفسه بالحر المالك الذى له مال كثير ، فهو يتصرف فيه ، وينفق منه كيف شاء .

وقيل : هو تمثيل للكافر المخذول والمؤمن الموفق . وتقييد العبد بالمملوك ؛ للتمييز من الحر ؛ فإنه أيضا عبدٌ لله . وبسلْب القدرة عن المكاتب والمأذون فى التصرف ، فإن الأصنام إنما تشبه العبد القِنّ(١) الذى لا شوب حرية فيه ، بل هى أعجز منه بكثير ، فكيف تضاهى الواحد القهار ، الذى لا يعجزه مقدور؟ ولذلك قال : ﴿ هل يستوون ﴾ ؟ أى : العبيد العجزة ، والمتصرف بالإطلاق . ﴿ الحمد لله ﴾ على بيان الحق ووضوحه ؛ لأنها نعمة جليلة يجب الشكر عليها ، أو الحمد كله لله لا يستحقه غيره ، فضلاً عن العبادة ؛ لأنه مولى النعم كلها . ﴿ بل أكثرهم لا يعلمون ﴾ أى : لا علم لهم : فيضيفون النعم إلى غيره ويعبدونه لأجلها ، أو لا يعلمون ما يصيرون إليه من العذاب فيشركون به .

ثم ضرب الله مثلاً آخر فقال : ﴿ وضربَ اللهُ مثلاً ﴾ ، ثم بيَّنه بقوله : ﴿ رجلين أحدهما أبْكَمُ ﴾ ؛ وُلد أخرس ، لا يَفهم ولا يُفهم ، ﴿ لا يقدر على شىء ﴾ من الصنائع والتدابير ؛ لنقصان عقله ، ﴿ وهو كَلٌّ ﴾ أى : ثقيل عيال ﴿ على مولاه ﴾ الذى يلى أمره ، ﴿ أينما يُوجهه ﴾ : يرسله فى حاجة أو أمر ﴿ لا يأتِ بخير ﴾ ؛ بنجح وكفاية مهم . وهذا مثال للأصنام . ﴿ هل يستوى هو ﴾ أى : الأبكم المذكور ، ﴿ ومن يأمر بالعدل ﴾ ؛ ومن هو منطيقٌ متكلم بحوائجه ، ذو كفاية ورشد ، ينفع الناس ويحثهم على العدل الشامل لمجامع الفضائل ، ﴿ وهو على صراط مستقيم ﴾ أى : وهو فى نفسه على طريق مستقيم ، لا يتوجه إلى مطلب إلا ويحصله بأقرب سعْى؟

وهذا مثال للحق تعالى ، فضرب هذا المثل لإبطال المشاركة بينه وبين الأصنام ، وقيل : للكافر والمؤمن . والأصوب : كون المثَلَيْن معًا فى الله مع الأصنام ؛ لتكون الآية من معنى ما قبلها وما بعدها فى تبيين أمر الله ، والرد على أمر الأصنام . والله تعالى أعلم

(١) العبد القِنّ : الذى مُلِكَ هو وأبواه ، ويقابله : عبد المملكة ، الذى مُلِك هو دون أبويه . انظر : النهاية (قنن) .

الإشارة: الحق تعالى موصوف بكمالات الربوبيه، منعوت بعظمة الألوهية، وعبيده موسومون بنقائص العبودية، وقهرية الملكية. فمن أراد أن يمده الله فى باطنه بكمالات الربوبية؛ من قوة وعلم، وغنى وعز، ونصر وملك، فليتحقق فى ظاهره بنقائص العبودية؛ من ذل، وفقر، وضعف، وعجز، وجهل. فبقدر ما تجعل فى ظاهرك من نقائص العبودية يمدك فى باطنك بكمالات الربوبية؛ «تحقق بوصفك يمدك بوصفه»، والتحقق بالوصف إنما يكون ظاهراً بين خلقه، لا منفرداً وحده؛ إذ ليس فيه كبير مجاهدة؛ إذ كل الناس يقدرون عليه، وإنما التحقق بالوصف ـ الذى هو ضامن للمدد الإلهى ـ هو الذى يظهر بين الأقران. وبالله التوفيق.

ثم بيّن كمال علمه وقدرته، بعد أن ذكر كمالات ذاته، فقال:

﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَٰرَ وَالْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾

قلت: أمهات: جمع أم، زيدت فيه الهاء؛ فرقاً بين من يعقل ومن لا يعقل، قاله ابن جزى. والذى لغيره حتى ابن عطية: إنما زيدت؛ للمبالغة والتأكيد. وقرئ بضم الهمزة، وبكسرها؛ إتباعاً للكسرة قبلها.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ولله غيبُ السمواتِ والأرض﴾ أى: يعلم ما غاب فيهما، كان محسوساً أو غير محسوس؛ قد اختص به علمه، لا يعلمه غيره. ثم برهن على كمال قدرته فقال: ﴿وما أمرُ الساعةِ﴾ أى: قيام القيامة، فى سرعته وسهولته، ﴿إلا كلمح البصر﴾؛ كرد البصر من أعلى الحدقة إلى أسفلها، ﴿أو هو أقرب﴾: أو أمرها أقرب منه؛ بأن يكون فى زمان نصف تلك الحركة، بل أقل؛ لأن الحق تعالى يحيى الخلائق دفعة واحدة، فى أقل من رمشة عين، و «أو» للتخيير، أو بمعنى بل. ﴿إن الله على كل شىء قدير﴾؛ فيقدر على أن يُحيى الخلائق دفعة، كما قدر أن يوجدهم بالتدريج.

ثم دلّ على قدرته فقال: ﴿والله أخرجكم من بُطون أمهاتكم لا تعلمون شيئًا﴾؛ جهالاً، ﴿وجعل لكم السمعَ﴾ أى: الأسماع ﴿والأبصارَ والأفئدة﴾ أى: القلوب، فتكتسبون، بما تُدركون من المحسوسات، العلوم البديهية، ثم تتمكنون من العلوم النظرية بالتفكر والاعتبار، ثم تُدركون معرفة الخالق ﴿لعلكم تشكرون﴾ نعمة الإيجاد ونعمة الإمداد، أظهركم أولاً من العدم، ثم أمدكم ثانياً بضروب النعم، طوراً بعد طور، حتى قدمتم عليه.

وقدّم فى جميع القرآن نعمة السمع على البصر؛ لأنه أنفع للقلب من البصر، وأشد تأثيراً فيه، وأعم نفعاً منه فى الدين؛ إذ لو كانت الناس كلهم صماً، ثم بُعِثت الرسل، فمن أين يدخل عليهم الإيمان والعلم؟ وكيف يدركون آداب العبودية وأحكام الشرائع؟ إذ الإشارة تتعذر فى كثير من الأحكام. وإنما أفرده، وجمع الأبصار والأفئدة؛ لأن متعلق السمع جنس واحد، وهى الأصوات، بخلاف متعلق البصر، فإنه يتعلق بالأجرام والألوان، والأنوار والظلمات، وسائر المحسوسات، وكذلك متعلق القلوب؛ معاني ومحسوسات، فكانت دائرة متعلقهما أوسع مع متعلق السمع. والله تعالى أعلم.

الإشارة: ما غاب فى سماوات الأرواح من علوم أسْرار الربوبية، وفى أرض النفوس من علوم أحكام العبودية، هو فى خزائن الله، يفتح منهما ما شاء على من يشاء؛ إذ أمره تعالى بين الكاف والنون. وما أمر الساعة، التى يفتح الله فيها الفتح على عبده، بأن يميته عن نفسه، ثم يحييه بشهود طلعة ذاته، إلا كلمح البصر أو هو أقرب. لكن حكمته اقتضت الترتيب والتدريج، فيُخرجه إلى هذا العالم جاهلاً، ثم يفتح سمعه للتعلم والوعظ، وبصره للنظر والاعتبار، وقلبه للشهود والاستبصار، حتى يصير عالماً عارفاً بربه، من الشاكرين الذين يعبدون الله، شكراً وقياماً برسم العبودية. وبالله التوفيق.

ثم حضّ على التفكير، الذى هو سبب المعرفة وشبكة العلوم، فقال:

﴿ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ
لَءَايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ
ٱلْأَنْعَـٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ
أَثَـٰثًا وَمَتَـٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَـٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ
أَكْنَـٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ
يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٢﴾
يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾

قلت: ﴿مسخرات﴾: حال من ﴿الطير﴾، و﴿سكنا﴾: مصدر وُصف به، أى: شيئاً سكناً، أو: فَعَلٌ؛ بمعنى مفعول. و﴿أثاثا﴾: مفعول بمحذوف، أى: وجعل من أوبارها أثاثاً.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ألم يروا﴾، وفي قراءة: ﴿ألم تروا﴾[1]؛ بتوجيه الخطاب لعامة الناس، ﴿إلى الطير مسخراتٍ﴾: مذللات للطيران بما خلق لها من الأجنحة والأسباب المواتية، ﴿في جو السماء﴾؛ في الهواء المتباعد من الأرض. ﴿ما يُمسكهنَّ﴾ فيه ﴿إلا اللهُ﴾؛ فإن ثِقَلَ جسدها يقتضي سقوطها، ولا علاقة فوقها ولا دعامة تحتها تمسكها، ﴿إنَّ في﴾ تسخيره ﴿ذلك﴾ لها ﴿لآيات﴾؛ لعبراً ودلالة على قدرته تعالى؛ إذ لا فاعل سواه؛ فإنّ إمساك الطيران في الهواء هو على خلاف طباعها، لولا أن القدرة تحملها، ففيه آيات ﴿لقوم يؤمنون﴾؛ لأنهم هم المنتفعون بها.

﴿والله جعل لكم من بيوتكم سكنًا﴾: موضعاً تسكنون فيه وقت إقامتكم، كالبيوت المتخذة من الحجر والمدَر. و«مِنْ» للبيان، أي: جعل لكم سكناً، أي: موضعاً تسكنونه، وهو بيوتكم، ﴿وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتًا﴾، هي القباب المتخذة من الأدم، ويجوز أن يتناول المتخذة من الوبَر والصوف والشعر، فإنها، من حيث إنها نابتة على جلودها، كأنها من جلودها، ﴿تستخفونها﴾ أي: تجدونها خفيفة، يخف عليكم حملها ونقلها ﴿يوم ظَعنكم﴾ أي: سفركم، وفيه لغتان: الفتح والسكون[2]، ﴿ويوم إقامتكم﴾: حضوركم، أو نزولكم، ﴿و﴾ جعل ﴿من أصوافها﴾ أي: الغنم، ﴿وأوبارها﴾ أي: الإبل، ﴿وأشعارها﴾ أي: المعز، ﴿أثاثًا﴾: متاعاً لبيوتكم؛ كالبُسُط والأكسية، ﴿ومتاعًا﴾ تمتعون به ﴿إلى حين﴾؛ إلى مدة من الزمان، فإنها «لصلابتها» تبقى مدة مديدة، أو: إلى مماتكم، أو: إلى أن تقضوا منها أوطاركم، أو: إلى أن تبلى.

﴿والله جعل لكم مما خلق﴾ من الشجر والجبال والأبنية، وغيرها، ﴿ظِلالاً﴾ تتقون بها حر الشمس، ﴿وجعل لكم من الجبال أكنانًا﴾؛ جمع: كَن، ما تكنون، أي: تستترون به من الحر والبرد، كالكهوف والغيران والبيوت المجوفة فيها، ﴿وجعل لكم سرابيل﴾ جمع: سربال؛ ثياباً من الصوف والكتان والقطن وغيرها، ﴿تقيكم الحرَّ﴾ والبرد، وخص الحر بالذكر، اكتفاء بأحد الضدين، أو لأن وقاية الحر كانت أهم عندهم. ﴿وسرابيل تقيكم بأسكم﴾: حربكم، كالطعن والضرب. وهي: الدروع، وتسمى: الجواشن، جمع جَوشن، وهو الدرع، ﴿كذلك﴾؛ كإتمام هذه النعم؛ بخلق هذه الأشياء المتقدمة، ﴿يُتم نعمتَه عليكم﴾ في الدنيا؛ بخلق ماتحتاجون إليه، ﴿لعلكم﴾ يا أهل مكة ﴿تُسْلمون﴾ أي: تنظرون في نعمه، فتؤمنون به، أو تنقادون لحكمه. وفي قراءة: بفتح التاء، أي: تَسلمون من العذاب بالإيمان، أو تنظرون فيها، فتوحدون، وتَسلمون من الشرك، أو من الجراح؛ بلبس الدروع.

(١) وهي قراءة ابن عامر وحمزة ويعقوب. وقرأ الباقون: (يروا)؛ بالغيب لقوله «يعبدون». انظر الإتحاف (٢/١٨٧).
(٢) قرأ ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي بإسكان العين، والباقون بفتحها.

﴿ فإن تولوا ﴾ : أعرضوا، ولم يقبلوا منك، أو لم يُسلموا. ﴿ فإنما عليك ﴾ يامحمد ﴿ البلاغُ المبين ﴾ أى: الإبلاغ البين، فلايضرك إعْراضهم حيث بَلَّغْتَهُمْ.

﴿ يعرفون نِعَمتْ الله ﴾ أى: يُقِرون بأنها من عنده، ﴿ ثم يُنكرونها ﴾ بإشراكهم وعبادتهم غيرَ المنعِم بها، وبقولهم: إنها بشفاعة آلهتنا، أو بسبب كذا، أو بإعراضهم عن حقوقها. وقيل: نعمة الله: نبوة نبينا محمد ﷺ، عرفوها بالمعجزات، ثم أنكروها؛ عناداً. ﴿ وأكثرهم الكافرون ﴾ ؛ الجاحدون؛ عناداً. وذكر الأكثر؛ إمّا لأن بعضهم لم يعرف الحق؛ لنقصان عقله، أو لتفريطه فى النظر، أو لم تقم عليه الحجة؛ لأنه لم يبلغ حد التكليف، أو كان فيهم من داخله الإسلام، ومن أسلم بعد ذلك. وإما لأنه أقام الأكثر مقام الكل، كقوله: ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴾(١). قال بعضه البيضاوى .

الإشارة: قال الورتجبى: بيَّن الحقُّ تعالى قدرته فى إمساكه أطيار الأرواح فى هواء الملكوت وسماء الجبروت، حتى ترفرفت بأجنحة العرفان والإيقان، على سرادق مجده وبساط كبريائه، مسخرات بأنوار جذبه، ما يمسكهن إلا الله، بكشف جماله لها، أمسكها به عن قهر سلطانه وسُبحات جلاله، حتى لا تفنى ـ أى: تتلاشى ـ فى بهائه. هـ.

والله جعل لكم من بيوتكم سكناً ـ وهى العبودية ـ، تسكنون فيها وتأوون إليها، بعد طيران الفكرة فى جو أنوار الملكوت، وميادين أسرار الجبروت. أو الحضرة تسكن فيها قلوبكم، فتصير مُعَشَّشَ أرواحكم، إليها تأوون، وفيها تسكنون. وجعل لكم منازل تنزلون فيها عند السير إلى حضرة ربكم، وهى المقامات التى يقطعها المريد، ينزل فيها ويرتحل عنها. وجعل لكم من أردية الأكوان وألوانها واختلاف أصنافها، تمتعًا بشهود أنوار مكونها فيها، إلى انطوائها وظهور أضدادها بقيام الساعة، فتظهر القدرة وتبطن الحكمة، ويظهر المعنى ويبطن الحس.

والله جعل لكم مما خلق من الأكوان ظلالاً، والظلال لا وجود لها من ذاتها، فكذلك الأكوان لا وجود لها مع الحق، وإنما هى ظلال. والظلال ليست بموجودة ولا مفقودة. وجعل لكم من جبال العقل أكناناً، تستترون بنوره من جذب الاصطلام؛ بمواجهة أنوار الحضرة. وجعل لكم سرابيل الشرائع تقيكم حرَّ الحقيقة، وسرابيل الحقائق تقيكم بأس سهام الأقدار، فإنَّ من عرف الله؛ حقيقة؛ هان عليه ما يُواجَهُ به من المكاره. وفى هذا المعنى أنشد بعضهم:

نِلْبِسْ عَمَامْ مِنِ الماءْ ... وِنْشِدْهَا شَدّ مَائِلْ
وِنِلْبِسْ مِنِ الثَّلْجِ بِرْنُسْ ... إذا حِمِت الْقَوائِلْ
وِنِشْعِلْ مِنِ الرِّيحْ قَنْدِيلْ ... وِمْنِ الضَّبَابْ فَتَائِلْ(٢)

(١) من الآية ٧٥ من سورة النحل.
(٢) هذا شعر عامى، أو زجل، وهو جيد المعنى، ويعبر عن همة عالية عند قائله. وقوله: إذا حمت القوائل، يعنى: إذا اشتد الحر فى أوقات الظهيرة. وبقية الزجل واضح المعنى.

والمراد بعمامة الماء: كناية عن الحقيقة؛ لأنها كالماء لحياة النفوس. وميل شدها: كناية عن قوتها، وتكبيرها؛ على الشريعة. والمراد ببرنس الثلج: برد التشريع، فإذا قويت الحقيقة، وخاف من الاحتراق، نزل إلى برد التشريع. والمراد بالريح: هبوب نسيم الواردات الإلهية، يشعل منها قنديل الفكرة ـ التى هى سراج القلب ـ، فإذا ذهبت فلا إضاءة له، وهذه حالة السائر، وأما الواصل فقد سكن النور فى قلبه، فلا يحتاج إلى سراج غيره تعالى. وفى ذلك يقول الشاعر:

كُلُّ بيتٍ أنت سَـــاكِنُهُ ... غيرُ مُحْتَـــاجٍ إلى سُرُجِ
وَجْهُك المحمُــودُ حُجَّتُنا ... يوم يأتِي النَّـاس بالحجج

والمراد بالضباب: وجود السوى، فإنه يحترق عند اشتعال الفكرة. والله تعالى أعلم. وباقى الآية ظاهر إشارته.

ثم ذكر وعيد من أعرض عن هذه النعم، التى هى دلائل قدرته، فقال:

﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ
(٨٤) وَإِذَا رَءَا الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ (٨٥) وَإِذَا رَءَا الَّذِينَ
أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْا
إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ (٨٦) وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُم
مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٨٧) الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ
بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ (٨٨) وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا
بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً
وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ (٨٩) ﴾

قلت: «تبيانا»: حال من الكتاب، وهو مصدر، قال فى القاموس: والتبيان: مصدر شاذ. وفى ابن عطية: والتبيان: اسم، لا مصدر. والمصادر فى مثله مفتوحه، كالترداد والتكرار. هـ. وقال فى الصحاح: لم يجئ على الكسر إلا هذا، والتِّلقاء. هـ.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ و ﴾ اذكر ﴿ يومَ نبعثُ من كل أمة ﴾ من الأمم ﴿ شهيداً ﴾ أى: رسولا يشهد لها أو عليها، بالإيمان أو بالكفر، وهو يوم القيامة، ﴿ ثم لا يُؤْذَنُ للذين كفروا ﴾ فى الاعتذار؛ إذ لا عذر لهم.

(١) فى باب أحوالهم عند الخروج من الدنيا، حكى القشيرى فى الرسالة، عن أبى محمد الهروى ،أنه قال: ومكثت عند الشبلى، الليلة التى مات فيها، فكان يقول ـ طول ليله ـ: هذين البيتين:

كل بيت أنت ساكنة ... غير محتاج إلى السرج
وجهك المأمول حجتنا ... يوم يأتى النـاس بالحجج

أو: في الرجوع إلى الدنيا. وعبَّر بثم؛ لزيادة ما يحيق بهم من شدة المنع من الاعتذار، مع ما فيه من الإقناط الكلي. ﴿ ولا هم يُستعتَبون ﴾ : لايطلب منهم العتبى، أى: الرجوع إلى ما يرضى الله. والمعنى: أنهم لا يؤذن لهم فى الاعتذار عما فرطوا فيه مما يرضى الله، ولا يطلب منهم الرجوع إلى تحصيله. ﴿ وإذا رأى الذين ظلموا ﴾: كفروا ﴿ العذاب ﴾ : جهنم ﴿ فلا يُخفف عنهم ﴾ العذابُ ﴿ ولا هم يُنظرون ﴾ ؛ يُمهلون عنه إذا رأوه .

﴿ وإذا رأى الذين أشركوا شركاءَهم ﴾ : أوثانهم التى دعوها شركاء لله، أو الشياطين الذين شاركوهم فى الكفر؛ بالحمل عليه، ﴿ قالوا ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعُوا من دونك ﴾ أى: نعبدهم ونطيعهم من دونك. وهو اعتراف بأنهم كانوا مخطئين فى ذلك. ﴿ فألْقَوا إليهم القولَ ﴾ قالوا لهم: ﴿ إنكم لكاذبون ﴾ أى: أجابوا بالتكذيب فى أنهم شركاء الله، أو أنهم عبدوهم حقيقة، وإنما عبدوا أهواءهم؛ كقوله: ﴿ كَلاَّ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ ﴾(١)، وقوله: ﴿ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴾(٢)، أو لأنهم، لما كانوا غير راضين بعبادتهم، فكأن عبادتهم لم تكن لهم.﴿ وألْقَوا إلى الله يومئذ السَّلَم ﴾ أى: الاستسلام، أى: استسلموا لحكمه (يومئذ) ، بعد أن تكبروا عنه فى الدنيا، ولا ينفع يومئذ، ﴿ وضلّ عنهم ﴾ أى: غاب وضاع وبطل ﴿ ما كانوا يفترون ﴾ من أن آلهتهم تنصرهم وتشفع لهم.

﴿ الذين كفروا وصدُّوا ﴾ الناس ﴿ عن سبيل الله ﴾ ؛ بالمنع من الإسلام، والحمل على الكفر، ﴿ زدناهم عذابًا ﴾ ؛ بصدهم، ﴿ فوق العذابِ ﴾ المستحق بكفرهم. قال ابن مسعود: «عقارب، أنيابها كالنخل الطوال، تلسعهم». وعن عبيد بن عمير: عقارب كالبغال الدُّلْم ـ أى: السود جداً، والأدلم: الشديد السواد. وذلك العذاب ﴿ بما كانوا يُفسدون ﴾ أى: بكونهم مفسدين؛ بصدهم عما فيه صلاح العالم.

﴿ و ﴾ اذكر أيضا: ﴿ يومَ نبعثُ في كل أمةٍ شهيداً عليهم من أنفسهم ﴾ ؛ يعنى: نبيهم؛ فإنَّ نبى كل أمة بعث منها. ﴿ وجئنا بك ﴾ يامحمد ﴿ شهيداً على هؤلاء ﴾ ؛ على أمتك، أو على هؤلاء الشهداء، ﴿ ونزَّلنا عليك الكتابَ ﴾ : القرآن ﴿ تبيانًا ﴾ ؛ بيانًا بليغًا ﴿ لكل شيءٍ ﴾ من أمور الدين على التفصيل، أو الإجمال؛ بالإحالة على السنة أو القياس. ﴿ وهُدًى ﴾ من الضلالة، ﴿ ورحمة ﴾ بنور الهداية لجميع الخلق. وإنما حُرم المحروم؛ لتفريطه، ﴿ وبُشرى ﴾ بالجنة، وغيرها، ﴿ للمسلمين ﴾ الموحدين خاصة. وبالله التوفيق.

الإشارة: قد بعث الله فى كل دهر وعصر شهيداً يشهد على أهله، ويكون حجة عليهم يوم القيامة، وهم صنفان: صنف يشهد على من فرط فى أحكام الشريعة، وهم: العلماء الأتقياء، وصنف يشهد على من فرط فى

(١) من الآية ٨٢ من سورة مريم. (٢) من الآية ٣ من سورة القصص.

أسرار الحقيقة، وهم: الأولياء الكبراء ، أعني: العارفين بالله ، فمن فرط في شيء منهما قامت عليه الحجة؛ فإذا اعتذر لا ينفعه، وإذا طلب الرجوع لا يجده، وإذا أحاط به عذاب الحجاب لا ينفك عنه. وكل من أحب شيئا من دون الله، تبرأ منه يوم القيامة، وكل من أنكر الخصوصية على أولياء زمانه، وصد الناس عنه؛ تضاعف عذابه، وكثف حجابه يوم القيامة. والله تعالى أعلم

ولما ذكر أن القرآن فيه تبيان كل شيء، ذكر آية تضمنت أصول الأحكام، فيها تبيان كل شيء؛ إجمالاً، فقال:

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٩٠ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿إنَّ الله يأمر بالعدل﴾ أي: التوحيد، أو الإنصاف، أو فعل الفرائض، ﴿والإحسان﴾، وهو: فعل المندوبات. وذلك في حقوق الله تعالى، وفي حق عباده، أو العدل في الأحكام، كل واحد فيما ولى فيه؛ «كلكم راع». والإحسان إلى عباد الله بَرهم وفَاجرهم. قال ابن عطية: العدل: هو فعل كل مفروض؛ من عقائد وشرائع، وسير مع الناس في أداء الأمانات، وترك الظلم، والإنصاف، وإعطاء الحق. والإحسان هو: فعل كل مندوب إليه.

وقال البيضاوي: ﴿إن الله يأمر بالعدل﴾: بالتوسط في الأمور؛ اعتقاداً، كالتوحيد المتوسط بين التعطيل والتشريك، والقول بالكسب، المتوسط بين محض الجبر والقدر، وعملاً، كالتعبد بأداء الواجبات، المتوسط بين البطالة والترهب، وخلُقاً، كالجود المتوسط بين البخل والتبذير، والإحسان: إحسان الطاعات، وهو إما بحسب الكمية، كالتطوع بالنوافل، أو بحسب الكيفية، كما قال ـ عليه الصلاة والسلام: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك». ﴿وإيتاء ذي القربى﴾: وإعطاء الأقارب ما يحتاجون إليه، وهو تخصيص بعد تعميم؛ للمبالغة.

﴿وينهى عن الفحشاء﴾: عن الإفراط في متابعة القوة الشهوية، كالزنى؛ فإنه أقبح أحوال الإنسان وأشنعها، ﴿والمنكر﴾: ما ينكر على متعاطيه في إيثاره القوة الغضبية، ﴿والبغي﴾: الاستعلاء والاستيلاء على الناس، والتجبر عليهم، فإنها الشيطنة التي هي مقتضى القوة الوهمية، ولا يوجد من الإنسان شر إلا وهو مندرج في هذه الأقسام، صادر بتوسط إحدى هذه القوى الثلاث، ولذلك قال ابن مسعود رضي الله عنه: «هي أجمع آية في القرآن للخير والشر. وصارت سبب إسلام عثمان بن مظعون، فلو لم يكن في القرآن غير هذه الآية لصدق عليه أنه تبيان لكل شيء، وهدى ورحمة للعالمين، ولعل إيرادها عقب قوله: ﴿ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء﴾؛ للتنبيه عليه .هـ.

وفي القوت: هي قطب القرآن. هـ. وعن عثمان بن مظعون: أنه قال: لَمَّا نزلت هذه الآية؛ قرأتها على أبي طالب، فعجب، وقال: آلَ غالبٍ، اتبعوه تُفلحوا، فوالله إن الله أرسله ليأمر بمكارم الأخلاق. هـ. قال ابن عطية:

﴿وإيتاء ذى القربى﴾: لفظ يقتضى صلة الرحم، ويعم جميع إسداء الخير إلى القرابة، وتركه مبهماً أبلغ؛ لأن كل من وصل فى ذلك إلى غاية ـ وإن علت ـ يرى أنه مقصر، وهذا المعنى المأمور به فى جانب ذى القربى داخل تحت العدل والإحسان، لكنه تعالى خصه بالذكر؛ اهتماماً به وحضاً عليه. هـ.

﴿ يَعِظُكُم ﴾ بما ذكر من التمييز بين الأمر والنهى، والخير والشر، ﴿ لعلكم تذكَّرون ﴾: تتعظون فتنهضون إلى ما أمرتكم به وندبتكم إليه، وتتكفوا عما نهيتكم عنه وحذرتكم منه.

الإشارة: (إن الله يأمر بالعدل)؛ بالتوسط فى الأمور كلها، كالتوسط فى السير والمجاهدة؛ فإن الإسراف يوقع فى الملل، قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «لا يكن أحدكم كالمنبت؛ لا أرضاً قطع، ولا ظهراً أبقى». وقال ﷺ أيضاً: «إنَّ اللهَ لا يملّ حتى تَملوا». والله ما رأيت أحداً أسرف فى الأحوال فوصل إلى ما قصد، إلا النادر، وخير الأمور أوسطها. ويأمر بالإحسان، وهو: مقام الشهود والعيان. (وإيتاء ذى القربى)؛ قرابة الدين، وهم: الإخوان فى الله، ما يستحقونه من النصح والإرشاد، (وينهى عن الفحشاء): الركون لغير الله، (والمنكر): التكبر على عباد الله، (والبغى): ظلم أحد من خلق الله، من الفيل إلى الذرة.

وقال فى الإحياء: بين التبذير والإقتار المذمومين وسط، وهو المحمود المأمور به، والواجب منه شيئان: واجب بالشرع، وواجب بالمروءة. والسخى هو الذى لا يمنع واجب الشرع ولا واجب المروءة، فإن منع واحداً منهما فهو بخيل، كالذى يمنع أداء الزكاة، ويمنع أهله وعياله النفقة، أو يؤديها لا بطيب نفسه، بل بتكلف ومشقة. وكالذى يتيمم الخبيث من ماله، ولا يعطى من أطيبه وأوسطه، فهذا كله بُخل. وأما واجب المروءة فهو: ترك المضايقة والاستقصاء فى المحقرات، وذلك يختلف؛ فيستقبح من الغنى ما لا يستقبح من الفقير، ويستقبح من الرجل مع أقاربه مالا يستقبح مع الأجانب، وكذلك الجار والمماليك والضيف. هـ.

وقال الورتجبى: إن الله تعالى دعا عباده إلى الاتصاف بصفته، منها: العدل والإحسان والشفقة والرحمة، والقدس، والطهارة عما لا يليق به. فهو العادل والمحسن، والرحمن الرحيم، غير ظالم جائر، وهو مُنزه عن جميع العلل، فمن كُسِي أنوار هذه الصفات، بنعت الذوق والمباشرة، واستحلى ترْبيتها يخرج عادلاً محسناً، رؤوفاً رحيماً، طاهراً مطهراً، صادقاً مصدقا، ولياً، حبيباً محبوباً، مريداً مراداً، مُراعًى محفوظاً، يعدل بنفسه فيدفعها عن الشك والشرك، ورؤية الغير وطلب العوض فى العبودية، ويأخذ منها الإنصاف بينها وبين عباد الله، ويحسن إلى من أساء إليه، ويعبد الله بوصف الرؤية وشهود غيبه، ويراعى ذوى القرابة، فى المعرفة والمحبة؛ من المريدين والصادقين، ويرحم الجهال من المسلمين، وينهى نفسه عن مباشرة فواحش الأنانية، ومباشرة الهوى والشهوة،

ويدفعها عن الظلم؛ باستكباره عن العبودية، ويأمرها بإذعانها عند تراب أقدام أولياء الله؛ لتكون مطمئنة فى عبودية الحق، ذاكرة لسلطان ربوبيته، وقهر جبروته وملكوته وإحاطته بكل ذرة، وفناء الخليقة فى حقيقته . هـ.

ومن مكارم الأخلاق الداخلة تحت العدل: الوفاء بالعهد، كما قال تعالى:

﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۖ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ إِنَّمَا عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾

قلت : ﴿وقد جعلتم﴾: حال، و﴿أنكاثا﴾: حال من الغزل، وهو: جمع نِكْث ـ بالكسر ـ بمعنى منكوث، أى: منقوض. و﴿أن تكون﴾: مفعول من أجله، و﴿تتخذون﴾: جملة حالية من ضمير «تكونوا».

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وأوفوا بعهد الله ﴾ ؛ كالبيعة للرسول ـ عليه الصلاة السلام ـ وللأمراء، والأيمان، والنذور، وغيرها، ﴿ إذا عاهدتم ﴾ الله على شىء من ذلك، ﴿ ولا تنقضوا الأيمان ﴾ ؛ أيمان البيعة، أو مطلق الأيمان، ﴿ بعد توكيدها ﴾ ؛ بعد توثيقها بذكر الله، أو صفته، أو أسمائه، ﴿ وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً ﴾ ؛ شاهداً ورقيباً، بتلك البيعة؛ فإن الكفيل مراع لحال المكفول رقيب عليه، ﴿ إن الله يعلم ما تفعلون ﴾ فى نقض الأيمان والعهود. وهو تهديد لمن ينقض العهد، وهذا فى الأيمان التى فى الوفاء بها خير، وأما ما كان تركه أولى فيُكفِّرْ عن يمينه، وليفعل الذى هو خير، كما فى الحديث.

﴿ ولا تكونوا كالتى نَقَضَتْ غزلها ﴾ : أفسدته ﴿ من بعد قوة ﴾ أى : إبرام وإحكام؛ ﴿ أنكاثاً ﴾ أى: طاقات، أى: صيرته طاقات كما كان قبل الغزل، بحيث حلت إحكامه وإبرامه، حتى صار كما كان، والمراد :

تشبيه الناقض بمَن هذا شأنه، وقيل: هى «ريطة بنت سعد القرشية»؛ فإنها كانت خرقاء - أى: حمقاء - تغزل طول يومها ثم تنقضه، فكانت العرب تضرب بها المثل لمن قال ولم يُوف، أو حلف ولم يَبر فى يمينه. ﴿ تتخذون أيمانكم دَخَلا بينكم ﴾ أى: لا تكونوا متشبهين بامرأة خرقاء، متخذين أيمانكم مفسدة ودخلا بينكم. وأصل الدخل: ما يدخل الشيء، ولم يكن منه، يقال: فيه الدخل والدغل، وهو قصد الخديعة.

تفعلون ذلك النقض؛ لأجل ﴿ أن تكون أمةٌ هى أربى من أمة ﴾: بأن تكون جماعة أزيد عدداً وأوفر مالاً، من جماعة أخرى، فتنقضون عهد الأولى لأجل الثانية؛ لكثرتها. نزلت فى العرب، كانت القبيلة منهم تحالف الأخرى، فإذا جاءها قبيلة أقوى منها، غدرت الأولى، وحالفت الثانية. وقيل: الإشارة بالأربى هنا إلى كفار قريش؛ إذ كانوا حينئذ أكثر من المسلمين، فحذر من بايع على الإسلام أن ينقضه لما يرى من قوة كفار قريش.

﴿ إنما يبلوكم ﴾: يختبركم ﴿ اللهُ به ﴾؛ بما أمر من الوفاء بالعهد؛ لينظر المطيع منكم والعاصى. أو: بكون أمة هى أربى، لينظر أتتمسكون بحبل الوفاء بعهد الله وبيعة رسوله، أم تَغْتَرُّونَ بكثرة قريش وشوكتهم، وقلة المؤمنين وضعفهم؟ ﴿ وليُبَيِّننَّ لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون ﴾ فى الدنيا؛ حين يجازيكم على أعمالكم بالثواب والعقاب. ﴿ ولو شاء اللهُ لجعلكم أمةً واحدة ﴾؛ أهل دين واحد متفقين على الإسلام، ﴿ ولكن يُضل من يشاء ﴾ بعدله، ﴿ ويهدى من يشاء ﴾ بفضله، ﴿ ولَتُسألُنَّ يوم القيامة ﴾؛ سؤال تبكيت ومجازاة، ﴿ عما كنتم تعملون ﴾ فى الدنيا؛ لتُجازوا عليه .

﴿ ولا تتخذوا أيمانكم دَخَلاً بينكم ﴾، كرره؛ تأكيداً؛ مبالغة فى قبح المنهى عنه من نقض العهود، ﴿ فتزِلَّ قدمٌ ﴾ عن محجة الإسلام ﴿ بعد ثُبوتها ﴾: استقامتها عليه، والمراد: أقدامهم، وإنما وُحد ونُكِّر؛ للدلالة على أن زلل قدم واحد عظيم، فكيف بأقدام كثيرة؟ ﴿ وتذوقوا السُّوءَ ﴾: العذاب فى الدنيا ﴿ بما صددتم عن سبيل الله ﴾ أى: بصدكم عن الوفاء بعهد الله، أو بصدكم غيركم عنه؛ فإن من نقض البيعة، وارتد، جعل ذلك سُنَّة لغيره، ﴿ ولكم عذابٌ عظيم ﴾ فى الآخرة.

﴿ ولا تشتروا بعهد الله ﴾ أى: لا تستبدلوا عهد الله وبيعة رسوله ﷺ بأخذكم ﴿ ثمناً قليلاً ﴾: عرضاً يسيراً من الدنيا، بأن تنقضوا العهد لأجله. قيل: هو ما كانت قريش يعدونه لضعفاء المسلمين، ويشترطون لهم على الارتداد، ﴿ إنَّما عند الله ﴾ من النصر والعز، وأخذ الغنائم فى الدنيا، والثواب الجزيل فى الآخرة، ﴿ هو خيرٌ لكم ﴾ مما يعدونكم، ﴿ إن كنتم تعلمون ﴾ ذلك فلا تنقضوا، أو إن كنتم من أهل العلم والتمييز.

﴿ما عندكم﴾ من أعْرَاضِ الدنيا ﴿يَنْفَدُ﴾ ؛ ينقضي ويفنى، ﴿وما عند الله﴾ من خزائن رحمته، وجزيل نعمته ﴿باقٍ﴾ لا يفنى، وهو تعليل للنهى عن نقض العهد؛ طمعًا في العَرَضِ الفانى، ﴿وليجزين(١) الذين صبروا﴾ على الوفاء بالعهود، أو على الفاقات وأذى الكفار، أو مشاق التكاليف، ﴿أجرهم بأحسنِ ما كانوا يعملون﴾ بما يرجح فعله من أعمالهم، كالواجبات والمندوبات، أو بجزاء أحسن من أعمالهم . وبالله التوفيق.

الإشارة: الوفاء بالعهود، والوقوف مع الحدود، من شأن الصالحين الأبرار، كالعباد والزهاد، والعلماء الأخيار. وأما أهل الفناء والبقاء من العارفين: فلا يقفون مع شيء، ولا يعقدون على شيء، هم مع ما يبرز من عند مولاهم في كل وقت وحين، ليس لهم عن أنفسهم إخبار، ولا مع غير الله قرار . يتلونون مع المقادير كيفما تلونت، وذلك من شدة قربهم وفنائهم في ذات مولاهم. قال تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾(٢)، فهم يتلونون مع الشئون البارزة من السر المكنون؛ فمن عقد معهم عقداً، أو أخذ منهم عهداً، فلا يعول على شيء من ذلك؛ إذ ليست أنفسهم بيدهم، بل هي بيد مولاهم. وليس ذلك نقصاً في حقهم، بل هو كمال(٣)؛ لأنه يدل على تغلغلهم في التوحيد حتى هدم عزائمهم، ونقض تدبيرهم واختيارهم. ولا يذوق هذا إلا من دخل معهم، وإلاَّ فحسْبه التسليم، وطرح الميزان عنهم، إن أراد الانتفاع بهم. والله تعالى أعلم .

وهذه الحالة التى أقامهم الحق تعالى فيها هى الحياة الطيبة، التى أشار إليها الحق تعالى بقوله:

﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿من عَمِلَ صالحاً﴾ ؛ بأن صحبه الإخلاص، وتوفرت فيه شروط القبول، ﴿من ذَكَرٍ أو أنثى وهو مؤمن﴾ ؛ إذ لااعتداد بأعمال الكفرة في استحقاق الثواب، وإنما المتوقع عليها تحقيق العقاب، ﴿فلنحيينَّهُ حياةً طيبةً﴾ في الدنيا، بالقناعة والكفاية مع التوفيق والهداية. قال البيضاوى: يعيش عيشاً طيباً، فإنه، إن كان موسراً، فظاهر، وإن كان معسراً يطيبُ عيشه بالقناعة، والرضا بالقسمة، وتوقع الأجر العظيم، بخلاف الكافر، فإنه، إن كان معسرا، فظاهر، وإن كان موسراً لم يدعه الحرص وخوف الفوات أن يهنأ بعيشه، وقيل: في الآخرة، أي: في الجنة .هـ. ﴿ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾ من الطاعة، فيجازيهم على الحسن بجزاء الأحسن. وبالله التوفيق.

(١) قرأ ابن كثير وعاصم وأبو جعفر: (ولنجزين)؛ بالنون، وقرأ الباقون بالياء على الغيب.
(٢) من الآية ٢٩ من سورة الرحمن.
(٣) العارف الحق هو الذى يلتزم أمر الله ويجتنب مناهيه، وهو شاهد بقلبه مولاه، فانٍ عما سواه.

الإشارة: الحياة الطيبة إنما تتحقق بكمالها عند أهل التجريد؛ حيث انقطعت عنهم الشواغل في الظاهر، والعلائق في الباطن، فاطمأنت قلوبهم بالله، وسكنت أرواحهم في حضرة الله، وتحققت أسرارهم بشهود الله، فدام سرورهم، واتصل حبورهم بحلاوة معرفة محبوبهم، وهذه نتيجة شرب الخمرة الأزلية، كما قال ابن الفارض في مدحها:

وإنْ خَطَرَتْ يوماً على خاطرِ امرئٍ أقامتْ به الأفـــراحُ، وارتحلَ الهمّ

هذا في الخطور، فما بالك بالسكون ودوام الحضور؟ وقال أيضا في شأنها:

فمـــا ســكنَتْ والهـمّ، يوماً، بموضع كـــذلك لا يســـكُنْ مع النَّغَم الغَـم

وإنما تحقق لهم هــذا الأمر العظيم؛ لرسوخ قدمهم في مقام الإحسان، وسكونهم في جنة العرفان، فهَبَّ عليهم نسيم الرضا والرضوان، وترقت أرواحهم إلى مقام الروح والريحان، فقلوبهم بحار زاخرة لا تكدرها الدلاء، وأرواحهم أنوار ساطعة لا يؤثر فيها ليل القبض والابتلاء، وأسرارهم بأنوار المواجهـة مشرقة، فدام سرورها بـكل ما يبرز من عنصر القضاء. والحاصل: أن أهل هذا المقام عندهم من الإكسير والقوة ما يقلبون به الأعيان، فيقلبون الشريات خيريات، والمعاصي طاعات، والإساءة إحسانا، والجلال جمالا.. وهكذا، فأنَّى تغير قلوبَ هؤلاء الأكدارُ؟ وأنى تنزل بساحتهم الأغيارُ، وهم في حضرة الكريم الغفار؟ نفعنا الله بذكرهم، وخرطنا في سلكهم، آمين.

ومن جملة الحياة الطيبة: التنعمُ بحلاوة القرآن، ولا يتحقق ذلك إلا بالبعد والحفظ من خوض الشيطان، ولذلك أمر بالتعوذ منه عند قراءته، فقال:

﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ فإذا قرأتَ القرآنَ ﴾ ؛ أردت قراءته، كقوله: ﴿ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ ﴾(١)، ﴿ فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم ﴾ أي: فسل الله أن يعيذك من وسواسه؛ لئلا يوسوسك في القراءة، فيحرمك حلاوة التلاوة؛ فإنه عدو لا يحب لابن آدم الربح أبداً، والجمهور على أنه مستحب عند التلاوة، وعن عطاء: أنه واجب. ومذهب مالك: أنه لا يتعوذ في الصلاة. وعند الشافعي وأبي حنيفة: يتعوذ في كل ركعة؛ تمسكاً بظاهر

(١) من الآية ٦ من سورة المائدة.

الآية؛ لأن الحكم المرتب على شرط يتكرر بتكرره، وأخذ مالك بعمل أهل المدينة فى ترك التعوذ فى الصلاة. وهو تابع للقراءة فى السر والجهر، وعن ابن مسعود: قرأتُ على النبى ﷺ فقلت: أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، فقال: «قل: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم»(١).

ثم قال تعالى: ﴿إنه ليس له سلطانٌ﴾ أى: تسلط وولاية ﴿على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون﴾ أى: لا تسلط له على أولياء الله المؤمنين به، والمتوكلين عليه، فإنهم لا يطيعون أوامره، ولا يصغون إلى وساوسه، إلا فيما يحتقر، على ندور وغفلة. ﴿إنما سلطانه﴾ أى: تَسَلُّطُهُ ﴿على الذين يتولونه﴾: يحبونه ويطيعونه، ﴿والذين هم به﴾ أى: بالله، أو: بسبب الشيطان، ﴿مشركون﴾؛ حيث حملهم على الشرك فأطاعوه.

الإشارة: الاستعاذة الحقيقية من الشيطان هى: الغيبة عنه فى ذكر الله أو شهوده، فلا ينجح فى دفع الشيطان إلا الفرار منه إلى الرحمن. قال تعالى: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾(٢). فإن الشيطان كالكلب، كلما اشتغلت بدفعه قوى نبحه عليك، فإما أن يخرق الثياب، أو يقطع الإهاب، فإذا رفعت أمره إلى مولاه كفه عنك. وقد قال شيخ شيوخنا سيدى على الجمل رضي الله عنه: عداوة العدو حقًا هو اشتغالك بمحبة الحبيب حقا، وأما إذا اشتغلت بعداوة العدو، فاتتك محبة الحبيب، ونال مراده منك. هـ.

فالعاقل هو الذى يشتغل بذكر الله باللسان، ثم بالقلب، ثم بالروح، ثم بالسر، فحينئذ يذوب الشيطان ولا يبقى له أثر قط، أو يذعن له ويسلم شيطانه، فإنما حركه عليك؛ ليوحشك إليه. وفى الحكم: إذا علمت أن الشيطان لا يغفل عنك، فلا تغفل أنت عمن ناصيتك بيده. فإذا تعلقتَ بالقوى المتين، هرب عنك الشيطان اللعين. وسيأتى مزيد كلام إن شاء الله عند قوله تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ..﴾(٣) الآية. وبالله التوفيق.

ومن أقبح وسوسة الشيطان: الطعن فى القرآن، كما أبان ذلك الحق تعالى بقوله:

﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾

---

(١) عزاه المناوى فى الفتح السماوى (٢/٧٥٨) للثعلبى.
(٢) من الآية ٥٠ من سورة الذاريات.
(٣) من الآية ٦ من سورة فاطر.

قلت : ﴿والله أعلمُ بما يُنزِّل﴾: معترض بين الشرط، وهو: ﴿إذا﴾ وجوابه، وهو: ﴿قالوا﴾؛ لتوبيخ الكفار، والتنبيه على فساد سندهم. و﴿هدى وبشرى﴾: عطف على: «ليُثبت».

يقول الحق جل جلاله : ﴿ وإذا بدّلنا آيةً مكان آيةٍ ﴾ ؛ بأن نسخنا الأولى؛ لفظاً أو حكماً، وجعلنا الثانية مكانها ، ﴿ والله أعلم بما ينزّل ﴾ من المصالح، فلعل ما يكون في وقت، يصير مفسدة بعده ، فينسخه، ومالا يكون مصلحة حينئذ، يكون مصلحة الآن، فيثبته مكانه. فإذا نسخ، لهذه المصلحة، ﴿ قالوا ﴾ أي: الكفرة: ﴿ إنما أنت مُفتَر ﴾ : كذاب مُتقَوِّل على الله، تأمر بشيء ثم يبدو لك فتنهى عنه، قال تعالى:﴿ بل أكثرهم لا يعلمون ﴾ حكمة النسخ ولا حقيقة القرآن، ولا يميزون الخطأ من الصواب.

﴿ قل نزّله روحُ القُدُس ﴾ يعني: جبريل. والقدس: الطهر والتنزيه؛ لأنه روح مُنزه عن لوث البشرية. نزله ﴿ من ربك ﴾ ملتبساً ﴿ بالحق ﴾: بالحكمة الباهرة، أو مع الحق في أمره ونهيه وإخباره، أو أنزله حقاً، ﴿ ليُثبّتَ الذين آمنوا ﴾ على الإيمان؛ لأنه كلام الله، ولأنهم إذا سمعوا الناسخ والمنسوخ، وتدبروا ما فيه من رعاية المصالح، رسخت عقائدهم، واطمأنت قلوبهم. ﴿ و ﴾ أنزله ﴿ هدى وبُشرى للمسلمين ﴾ المنقادين لأحكامه، أي: نزله؛ تثبيتاً وهداية وبشارة للمسلمين.

﴿ ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يُعلّمه بَشَرٌ ﴾ يعنون: غلاماً نصرانياً اسمه: جَبر، وقيل: يعيش . قيل: كانا غلامين، اسم أحدهما: جَبر، والآخر يَسار، وكانا يصنعان السيوف، ويقرآن التوراة والإنجيل، فكان النبي ﷺ يجلس إليهما، ويدعوهما إلى الإسلام، فقالت قريش: هذان هما اللذان يعلمان محمداً ما يقول. قال تعالى في الرد عليهم: ﴿ لسانُ الذي يُلحدون إليه أعجمي ﴾ أي: لغة الرجل الذي يميلون قولهم عن الاستقامة إليه، وينسبون إليه تعليم القرآن، أعجمي، ﴿ وهذا ﴾ القرآن ﴿ لسانٌ عربي مبين ﴾؛ ذو بيان وفصاحة. قال البيضاوي: والجملتان مستأنفتان؛ لإبطال طعنهم، وتقريره يحتمل وجهين؛ أحدهما: أن ما سمعه منه كلام أعجمي لا يفهمه هو ولا أنتم، والقرآن عربي تفهمونه بأدنى تأمل، فكيف يكون، - أي: القرآن - ما تلقفه منه؟ وثانيهما: هب أنه تلقف منه المعنى باستماع كلامه، لكن لم يتلقف منه اللفظ؛ لأن ذلك أعجمي وهذا عربي، والقرآن، كما هو معجز باعتبار المعنى، معجز باعتبار اللفظ، مع أن العلوم الكثيرة التي في القرآن لا يمكن تعلمها إلا بملازمة معلم فائق في تلك العلوم مدة متطاولة، فكيف يعلم جميع ذلك من غلام سُوقي، سمع منه، بعض أوقات، كليمات عجمية، لعله لم يعرف معناها؟! فطعنهم في القرآن بأمثال هذه الكلمات الركيكة دليل على غاية عجزهم. هـ.

الإشارة: كما وقع النسخ في وحي أحكام، يقع في وحي إلهام؛ فقد يتجلى في قلب الولي شيء من الأخبار الغيبية، أو يأمر بشيء يليق، في الوقت، بالتربية، ثم يُخبر أو يأمر بخلافه؛ لوقوع النسخ أو المحو، فيظن من لامعرفة له بطريق الولاية أنه كذب، فيطعن أو يشك، فيكون ذلك قدحاً في بصيرته، وإخماداً لنور سريرته، إن كان داخلاً تحت تربيته. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر وبال من طعن في كلام الله، فقال:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٠٥﴾ مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٠٩﴾ ﴾

قلت: «من كفر» : شرطية مبتدأ، وكذلك ﴿من شرح﴾. و﴿فعليهم غضب﴾: جواب عن الأولى والثانية؛ لأنهما بمعنى واحد، ويكون جواباً للثانية، وجواب الأولى: محذوف يدل عليه جواب الثانية. وقيل: ﴿من كفر﴾: بدل من ﴿الذين لا يؤمنون﴾، أو من المبتدأ في قوله:﴿ أولئك هم الكاذبون ﴾، أو من الخبر. و﴿إلا من أكره﴾: استئناف من قوله: ﴿من كفر﴾.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ إنَّ الذين لا يؤمنون ﴾ ؛ لا يُصدِّقون ﴿ بآيات الله ﴾، ويقولون: هي من عند غيره، ﴿ لا يهديهم الله ﴾ إلى سبيل النجاة، أو إلى اتباع الحق، أو إلى الجنـة. ﴿ ولهم عذاب أليم ﴾ في الآخرة. وهـذا في قومٍ علِمَ أنهم لا يؤمنون، كقوله: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾(١). وقال ابن عطية: في الآية تقديم وتأخير، والمعنى: إن الذين لا يهديهم الله لا يؤمنون بالله. ولكنه قدَّم وأخر؛ تهمماً بتقبيح أفعالهم. هـ.

قال البيضاوي: هددهم على كفرهم، بعـد ما أماط شبهتهم، ورد طعنهم فيه، ثم قلب الأمر عليهم، فقـال: ﴿ إنما يفتري الكذبَ الذين لا يؤمنون بآيات الله ﴾ ؛ لأنهم لا يخافون عذاباً يردعهم عنه، ﴿ وأولئك هم الكاذبون ﴾ على الحقيقة، أو الكاملون في الكذب؛ لأن تكذيب آيات الله، والطعن فيها، بهذه الخرافات أعظم الكذب. وأولئك الذين عادتهم الكذب لا يصرفهم عنه دين ولا مروءة. أو الكاذبون في قولهم: ﴿ إنما أنت مفتر ﴾، ﴿ إنما يعلمه بشر ﴾. هـ. والكلام كله مع كفار قريش.

(١) من الآية ٩٦ من سورة يونس.

ثم ذكر حكم من ارتد عن الإيمان؛ طوعاً أو كرهاً، فقال: ﴿ من كفر بالله من بعد إيمانه ﴾ فعليهم غضب من الله، ﴿ إلا من أُكْرِه ﴾ على التلفظ بالكفر، أو على الافتراء على الله، ﴿ وقلبه مطمئن بالإيمان ﴾؛ لم تتغير عقيدته، ﴿ ولكنْ من شرح بالكفر صدراً ﴾ أي: فتحه ووسعه، فاعتقده، وطابت به نفسه، ﴿ فعليهم غضبٌ من الله ولهم عذاب عظيم ﴾؛ إذ لا أعظم من جرمه.

رُوِى أن قريشاً أكرهوا عماراً وأبويه - وهما ياسر وسمية -على الارتداد، فربطوا سمية بين بعيرين، وطعنوها بحربة في قلبها، وقالوا: إنك أسلمت من أجل الرجال، فماتت ـ رحمة الله عليها ـ وقتلوا ياسراً زوجها، وهما أول قتيلين في الإســـلام. وأعطاهم عمار بلسانه ما أرادوا؛ مُكرهاً، فقيل: يا رسول الله؛ إن عماراً كفر، فقال: «كلا، إن عمَّاراً ملِئ إيمانًا من قَرْنه إلى قَدَمِه، واختَلَطَ الإيمانُ بلَحْمه ودَمِه». فَأَتَى عمَّار رسولَ الله ﷺ وَهُوَ يَبكي، فَجَعَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَمْسَحُ عَيْنَيْه، ويقول: «مَالك، إنْ عَادُوا لكَ فعُدْ لَهُمْ بِما قُلْتَ»(١).

وهو دليل على جواز التكلم بالكفر عند الإكراه. وإن كان الأفضل أن يجتنب عنه، إعزازا للدين، كما فعل أبواه. لما رُوِى أنّ مسيلمة أخذ رجلين، فقال لأحدهما: ما تقول في محمد؟ فقال: رسول الله. وقال: ماتقول فيَّ؟ فقال: أنت أيضا، فخلى سبيله، وقال للآخر: ما تقول في محمد؟ فقال: رسول الله، فقال: ما تقول فيَّ؟ فقال: أنا أصم، فأعاد عليه ثلاثاً، فأعاد جوابه، فقتله، فبلغ رسول الله ﷺ. فقال: أما الأول فقد أخذ برخصة الله، وأما الآخر فقد صدع بالحق، فهنيئاً له(٢). هـ. قاله البيضاوي.

قال ابن جزى: وهذا الحكم فيمن أكره على النُطق بالكفر، وأما الإكراه على فعل وهو كفر، كالسجود للصنم، فاختلف؛ هل يجوز الإجابة إليه أو لا؟ فأجازه الجمهور، ومنعه قوم. وكذلك قال مالك: لا يلزم المكره يمين، ولا طلاق، ولا عتاق، ولا شيء فيما بينه وبين الله، ويلزمه ما كان من حقوق الناس، ولا تجوز له الإجابة إليه؛ كالإكراه على قتل أحدٍ أو أخذ ماله. هـ. وذكر ابن عطية أنواعاً من الأمور المكره بها، فذكر عن مالك: أن القيد إكراه، والسجن إكراه، والوعيد المخوف إكراه، وإن لم يقع، إذا تحقق ظلم ذلك المتعدي، وإنفاذه فيما يتوعد به. ثم ذكر خلافاً في الحنث في حق من حلف؛ للــدرء عن ماله، لظــالم، بخــلاف الدرء عن النفس والبــدن، فإنه لايحنث، قولاً واحداً، إلا إذا تبرع باليمين، ففي لزومه خلاف. وانظرالمختصر في الطلاق.

---

(١) ذكره الواحدي في أسباب النزول (٢٢٨) عن ابن عباس. وأخرجه بنحوه الحاكم في المستدرك (٢/٣٥٧) من حديث محمد بن عمار بن ياسر، وصححه، ووافقه الذهبي. وانظر تفسير الطبري (١٤/١٨٠).
(٢) عزاه السيوطي في الدر (٤/٢٥٠) لابن أبي شيبة عن الحسن؛ مرسلاً.

ثم علل نزول العذاب بهم، فقال: ﴿ ذلك ﴾ الوعيد ﴿ بأنهم استحبُّوا الحياةَ الدنيا على الآخرة ﴾ أى: بسبب أنهم آثروها عليها، ﴿ وأنَّ الله لايهدى القوم الكافرين ﴾ ، الذين سبق لهم الشقاء، فلا يهديهم إلى ما يوجب ثبات الإيمان فى قلوبهم، ولا يعصمهم من الزيغ. ﴿ أولئك الذين طَبَعَ اللهُ على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم ﴾ ؛ فغابت عن إدراك الحق والتدبر فيه، ﴿ وأولئك هم الغافلون ﴾ الكاملون فى الغفلة، حتى أغفلتهم الحالة الزائفة عن التأمل فى العواقب. ﴿ لاجَرَمَ ﴾ : لاشك ﴿ أنهم فى الآخرة هم الخاسرون ﴾ ؛ حيث ضيعوا أعمارهم، وصرفوها فيما أفضى بهم إلى العذاب المخلد. قاله البيضاوى.

الإشارة: من سبق له البِعاد لا ينفعه الكد والاجتهاد، ومن سبقت له العناية لا تضره الجناية. ففى التحقيق: ماثَمَّ إلا سابقة التوفيق. فمن كان فى عداد المريدين السالكين، ثم أكره على الرجوع إلى طريق الغافلين، ﴿فمن أكره وقلبه مطمئن بالإيمان﴾، أى: بالتصديق بطريق الخصوص، وهومصمم على الرجوع إليها؛ فلا بأس عليه أن ينطق بلسانه، ما يُرى أنه رجع إليهم. فإذا وجد فسحة فرّ بدينه. وكذلك إذا أخذه ضعف أو فشل وقت القهرية، ثم أنهضته العناية، ففرّ إلى الله، التحق بأولياء الله، وأما من شرح صدره بالرجوع عن طريق القوم، وطال مقامه مع العوام، فلا يفلح أبداً فى طريق الخصوص، والتحق بأقبح العوام، إلا إن بقى فى قلبه شىء من محبة الشيوخ والفقراء، فلعله يحشر معهم، ودرجته مع العوام.

قال القشيرى: إذا علِمَ اللهُ صدْقَ عبده بقلبه، وإخلاصَهُ فى عقْده، ثم لحقته ضرورة فى حاله، خَفَّفَ عنه حُكْمَه، ورفع عنه عناءه، فإذا تلفظ بكلمة الكفر؛ مُكْرَهاً، وهو بالتوحيد محقق، عُذر فيما بينه وبين ربه. وكذلك الذين عقدوا بقلوبهم، وتجردوا لسلوك طريق الله، ثم اعْتَرَضَتْ لهم أسبابٌ، فاتفقت لهم أعذارٌ، فنفذ ما يوجبه الحال، وكان لهم ببعض الأسباب اشتغالٌ، أو إلى شىء من العلوم رجوعٌ، لم يقدح ذلك فى حجة إرادتهم، ولا يُعَدّ ذلك منهم شكاً وفَسْخاً لعهودهم، ولا تنتفى عنهم سِمَةُ الفيئة إلى الله. هـ. **قلت:** هذا إن بقوا فى صحبة الشيوخ، ملازمين لهم، أو واصلين إليهم، وأما إن تركوا الصحبة، أو الوصول، فلا شك فى رجوعهم إلى العمومية.

ثم قال فى قوله: ﴿ ولكن من شرح بالكفر صدراً ﴾ : من رجع باختياره، ووضع قدمًا فى غير طريق الله، بحُكْمِ هواه، فقد نَقَضَ عَهْدَ إرادته لله، وفَسَخَ عقد قصده إلى الله، وهو مُسْتَوْجِبُ الحَجْبَةَ، إلى أن تتداركه الرحمة. هـ. قال شيخ شيوخنا، سيدى عبد الرحمن الفاسى، ما نصه: وفى مكاتبة لشيخنا العارف أبى المحاسن يوسف بن محمد: فإن اختلفت الأشكال، وتراكمت الفتن والأهوال، وتصدعت الأحوال، ربما ظهر على العارف وصف لم يكن معهوداً، وأمر لم يكن بالذات مقصوداً، فيكون معه قصور فى جانب الحق، لا فى جانب الحقيقة، فلا يضر، إن رجع فى ذلك لمولاه؛ فراراً، وإلى ربه؛ اضطراراً. ﴿ففروا إلى الله﴾. هـ.

ثم رغب فى التوبة، فقال:

﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٠﴾ ﴾

قلت : ﴿إن﴾ الثانية: تأكيد، والخبر للأول .

يقول الحق جل جلاله : ﴿ ثم إن ربك للذين هاجروا ﴾ من دار الكفر إلى المدينة ﴿ من بعد ما فُتنوا ﴾ أى: عُذبوا على الإسلام؛ كعمار بن ياسر، وأشباهه؛ من المعذبين على الإسلام. هذا على قراءة الضم. وقرأ ابن عامر: «فتنوا»؛ بفتح التاء، أى: فتنوا المسلمين وعذبوهم، فتكون فيمن عذب المسلمين، ثم أسلم وهاجر وجاهد، كعامر ابن الحضرمى، أكره مولاه جبراً حتى ارتد، ثم أسلما وهاجرا ثم جاهدا، وصبرا على الجهاد وما أصابهم من المشاق، ﴿ إن ربك من بعدها ﴾؛ من بعد الهجرة والجهاد والصبر، ﴿ لغفور رحيم ﴾ أى: لغفور لما مضى قبلُ، رحيم؛ يجازيهم على ما صنعوا بعدُ.

الإشارة : من نزلت به قهرية، أو حصلت له فترة، حتى رجع عن طريق القوم، ثم تاب وهاجر من موطن حظوظه وهواه، وجاهد نفسه فى ترك شواغل دنياه، واستعمل السير إلى من كان يدله على الله؛ ﴿إن ربك من بعدها لغفور رحيم﴾؛ يغفر له ما مضى من فترته، ويلحقه بأصحابه وأبناء جنسه. وبالله التوفيق.

ثم ذكر يوم الجزاء لمن صبر وهاجر، أو الخسران لمن جحد وكفر، فقال:

﴿ ۞ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾ ﴾

قلت : ﴿يوم﴾: منصوب باذكر، أو بغفور رحيم.

يقول الحق جل جلاله : واذكر ﴿ يوم تأتى كلُّ نفس تُجادلُ عن نفسها ﴾؛ عن ذاتها، وتسعى فى خلاصها، لايهمها شأن غيرها؛ ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ، وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ، وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴾[١]، ﴿ وتُوفَّى كلُّ نفس ﴾ جزاء ﴿ ما عملت ﴾ على التمام، ﴿ وهم لا يُظلمون ﴾ : لا يُنقصون من أجورهم مثقال ذرة.

الإشارة : النفس التى تجادل عن نفسها، وتوفى ما عَمِلَتْ من خير أو شر، إنما هى النفس الأمارة أو اللوامة. وأما النفس المطمئنة بالله، الفانية فى شهود ذات الله، لا ترى وجوداً مع الله؛ فلا يتوجه عليها عتاب، ولا يترتب عليها حساب؛ إذ لم يبق لها فعل تُحاسب عليه. وعلى تقدير وجوده فقد حاسبت قبل أن تحاسَب، بل هى فى عداد

(١) الآيات: ٣٤ ـ ٣٦ من سورة عبس.

السبعين ألفا، الذين يدخلون الجنة بغير حساب، وهم المتوكلون. أو تقول: هى فى عداد من يلقى الله بالله، فليس لها شيء سوى الله، فحجته، يوم تجادل النفوس، هو الله. كما قال الشاعر:

وجهك المحمود حُجتنا يوم يأتى الناسُ بالحُجج

وبالله التوفيق.

ثم ضرب مثلاً لمن كفر النعم، فقال:

﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾

قلت : ﴿قرية﴾: بدل من: ﴿مثلا﴾.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وضرب الله مثلاً ﴾، ثم فسره بقوله: ﴿ قريةً ﴾: مكة، وقيل: غيرها. ﴿ كانت آمنة ﴾ من الغارات، لا تُهَاج، ﴿ مطمئنة ﴾ لا تحتاج إلى الانتقال عند الضيق أو الخوف، ﴿ يأتيها رزقها ﴾: أقواتها ﴿ رغداً ﴾: واسعا ﴿ من كل مكان ﴾ من نواحيها، ﴿ فكفرتْ بأنعُمِ الله ﴾؛ بطرت بها، أو بنبى الله، سيدنا محمد ﷺ، ﴿ فأذاقها الله لُباسَ الجوع والخوف ﴾، استعار الذوق لإدراك أثر الضرر، واللباس لِمَا غشيهم واشتمل عليهم من الجوع والخوف، أما الإذاقة فقد كثر استعمالها فى البلايا حتى صارت كالحقيقة، وأما اللباس فقد يستعيرونه لما يشتمل على الشيء ويستره؛ يقول الشاعر:

غَمْرُ الرِّدَاءِ إذَا تَبَسَّمَ؛ ضَاحِكًا غَلِقَتْ لِضَحْكَتِهِ رِقَابُ المَالِ

فقد استعار الرداء للمعروف، فإنه يصون عِرْضَ صاحبه صون الرداء؛ لما يلقى عليه، والمعنى: أنهم لما كفروا النعم أنزل الله بهم النقم، فأحاط بهم الخوف والجوع إحاطة الثوب بمن يستتر به، فإن كانت مكة، فالخوف من سرايا النبى ﷺ وغاراته عليهم، وإن كان غيرها، فمن كل عدو، وذلك بسبب ما كانوا يصنعون من الكفر والتكذيب.

﴿ ولقد جاءهم رسولٌ منهم ﴾، يعنى: محمداً ﷺ، والضمير لأهل مكة. عاد إلى ذكرهم بعد ذكر مثَلِهم. ﴿ فكذَّبوه فأخذهم العذاب ﴾: الجوع والقحط، ووقعه بدر، ﴿ وهم ظالمون ﴾؛ ملتبسون بالظلم، غير تائبين منه. والله تعالى أعلم.

الإشارة: ضرب الله مثلاً؛ قلباً كان آمناً مطمئناً بالله، تأتيه أرزاق العلوم والمواهب من كل مكان، فكفر نعمة الشيخ، وخرج من يده قبل كماله، فأذاقه الله لباس الفقر بعد الغنى بالله، والخوف من الخلق، وفوات الرزق، بعد اليقين؛ بسبب ما صنع من سوء الأدب وإنكار الواسطة، ولو خرج إلى من هو أعلى منه؛ لأن من بان فضله عليك وجبت خدمته عليك، ومن رزق من باب لزمه. وهذا أمر مُجرب عند أهل الذوق بالعيان، وليس الخبر كالعيان، هذا إن كان أهلاً للتربية، مأذوناً له فيها، جامعاً بين الحقيقة والشريعة، وإلا انتقل عنه إلى من هو أهل لها. وبالله التوفيق.

ثم أمر بالشكر، الذى هو قيد النعم، فقال:

﴿ فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾ ﴾

قلت: ﴿الكذب﴾: مفعول بتقولوا، و ﴿هذا حلال وهذا حرام﴾: بدل منه، أى: لا تقولوا الكذب، وهو قولكم: ﴿هذا حلال وهذا حرام﴾، و﴿ما﴾ فى قوله: ﴿لما تصف﴾؛ موصولة، ويجوز أن ينتصب الكذب بـ ﴿تصف﴾، ويكون «ما» مصدرية. ويكون قوله: ﴿هذا حلال وهذا حرام﴾ معمولاً لتقولوا، أى: لا تقولوا: هذا كذا وهذا كذا؛ لأجل وصف ألسنتكم الكذب.

يقول الحق جل جلاله: ﴿فكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيبًا﴾، أمرهم بأكل ما أحل لهم، وشُكر ما أنعم عليهم، بعد ما زجرهم عن الكفر، وهددهم عليه، بما ذكر من التمثيل والعذاب الذى حل بهم؛ صداً لهم عن صنيع الجاهلية ومذاهبها الفاسدة. قاله البيضاوى. ﴿واشكروا نعمتَ الله﴾؛ لتدوم لكم ﴿إن كنتم إياه تعبدون﴾ فلا تنسبوا نعمه إلى غيره، كشفاعة الأصنام وغيرها. ﴿إنما حرّم عليكم الميتةَ والدمَ ولحم الخنزيرِ وما أُهل لغير الله به، فمن اضطر غير باغٍ ولا عادٍ فإن الله غفور رحيم﴾، تقدم تفسيرها فى البقرة

والمائدة(١). قال البيضاوي: أمرهم بتناول ما أحل لهم، وعدد عليهم محرماته، ليعلم أن ما عداها حل لهم. ثم أكد ذلك بالنهي عن التحريم والتحليل بأهوائهم بقوله: ﴿ولا تقولوا لما تصفُ ألسنتكم الكذبَ هذا حلالٌ وهذا حرام﴾ لما لم يحله الله ولم يحرمه، كما قالوا: ﴿مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا...﴾(٢) الآية.هـ. تقولون ذلك؛ ﴿لتفتروا على الله الكذب﴾ بنسبة ذلك إليه. ﴿إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون﴾ أبداً؛ لأنهم تعجلوا فلاح الدنيا بتحصيل أهوائهم، فحُرموا فلاح الآخرة، ولذلك قال: ﴿متع قليل﴾ أي: لهم تمتع في الدنيا قليل، يفنى ويزول. ﴿ولهم عذاب أليم﴾ في الآخرة.

﴿وعلى الذين هادوا حرّمنا ما قصصنا عليك من قبل﴾ في سورة الأنعام بقوله: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ..﴾(٣) الآية، ﴿وما ظلمناهم﴾ بالتحريم، ﴿ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾؛ حيث فعلوا ما عوقبوا به عليه. ذكر الحق تعالى ما حرم على المسلمين، وما حرم على اليهود؛ ليعلم أن تحريم ما عدا ذلك افتراء على الله. والله تعالى أعلم.

الإشارة: يقول الحق - جل جلاله -، لمن بقي على العهد؛ من شكر النعم؛ بالإقرار بفضل الواسطة: ﴿فكلوا مما رزقكم الله﴾ من قوت اليقين وفواكه العلوم، ﴿واشكروا نعمة الله﴾ إن كنتم تخصونه بالعبادة وإفراد الوجهة. إنما حرّم عليكم مايشغلكم عنه، كجيفة الدنيا والتهارج عليها، ونجاسة الغفلة، وما يورث القساوة والبلادة، وقلة الغيرة على الحق، وما قبض من غير يد الله، أو ما قصد به غير وجه الله، إلا وقت الضرورة فإنها تبيح المحذور. والله تعالى أعلم.

ثم حضّ على التوبة لمن وقع في شيء من هذا، فقال:

﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٩﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ثم إن ربك للذين عملوا السُّوء﴾؛ كالشرك، والافتراء على الله، وغير ذلك، ﴿بجهالة﴾ أي: ملتبسين في حال العمل بجهالة، كالجهل بالله وبعقابه، وعدم التدبر في عواقبه؛ لغلبة الشهوة عليه، ﴿ثم تابوا من بعد ذلك وأصلحوا﴾ عملهم، ﴿إن ربك من بعدها﴾ أي: التوبة، أو الجهالة، ﴿لغفور﴾ لذلك السوء، ﴿رحيمٌ﴾ بهم؛ يثيبهم على الإنابة.

---

(١) راجع تفسير الآية ١٧٣ من سورة البقرة، والآية ٣ من سورة المائدة.
(٢) من الآية ١٣٩ من سورة الأنعام.
(٣) من الآية ١٣٦ من سورة الأنعام.

الإشارة : كل من أساء الأدب، ثم تاب وأناب، التحق بالأحباب. قال بعضهم: «كل سوء أدب يثمر أدباً فهو أدب». والتوبة تتبع المقامات؛ فتوبة العوام: من الهفوات، وتوبة الخواص: من الغفلات، وتوبه خواص الخواص: من الفترات عن شهود الحضرات. وبالله التوفيق.

ولمّا رغّب في الشكر ذكر أنه من ملة خليله إبراهيم عليه السلام، ودين حبيبه ـ عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم ـ؛ تحريضاً عليه، فقال تعالى:

﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله : ﴿ إنَّ إبراهيم كان أمةً ﴾ أي: إماماً قدوة؛ قال تعالى: ﴿ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾(١)، قال ابن مسعود: «الأُمة: معلِّم الناسِ الخيرَ، أو أمة وحده، اجتمع فيه ما افترق في غيره، فكان وحده أمة من الأمم؛ لكماله واستجماعه لخصال الكمال التي لا تكاد تجتمع إلا في أشخاص كثيرة، كقول الشاعر:

وليْسَ علَى الله بمسْــتنْكَرٍ أنْ يجمعَ العالَمَ فِي واحِدِ(٢)

وهو رئيس الموحـدين، وقدوة المحققين، جادل فرق المشركين، وأبطل مذاهبهم الزائغة بالحجج الدامغة. ولذلك عقّب ذكره بتزييف مذاهب المشركين. أو: لأنه كان وحده مؤمناً وسائر الناس كفاراً. قاله البيضاوي. وكان ﴿ قانتاً لله ﴾؛ مطيعاً قائماً بأوامره، ﴿ حنيفاً ﴾؛ مائلاً عن الباطل، ﴿ ولم يَكُ من المشركين ﴾، وأنتم يا معشر قريش تزعمون أنكم على دينه، وأنتم مشركون.

وكان ﴿ شاكراً لأنعُمِه ﴾، لا يخل بشكر قليل منها ولا كثير. ولذلك ذكرها بلفظ جمع القلة، ﴿ اجتباه ﴾: اختاره للنبوة والرسالة والخلة. ﴿ وهداه إلى صراط مستقيم ﴾؛ التي توصل إلى حضرة النعيم، ودعا إليها، ﴿ وآتيناه في الدنيا حسنة ﴾؛ بأن حببناه إلى كافة الخلق، ورزقناه الثناء الحسن في الملل كلها، حتى إنّ أرباب

(١) من الآية ١٢٤ من سورة البقرة.
(٢) البيت للحسن بن هانئ، المعروف بأبي نُواس.

الملك والجبابرة يتولونه ويثنون عليه. ورزقناه أولاداً طيبة، وعمراً طويلا فى الطاعة والمعرفة، ومالاً حلالا. ﴿ وإنه في الآخرة لمن الصالحين ﴾ لحضرتنا، المقربين عندنا، اللذين لهم الدرجات العلا؛ كما سأله ذلك بقوله: ﴿ وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾(١).

﴿ ثم أوحينا إليك ﴾ يا محمد ﴿ أن اتبعْ ملةَ إبراهيم ﴾ ؛ دينه ومنهاجه فى التوحيد، والدعوة إليه بالرفق، والمجادلة بالتى هى أحسن، كل واحد بحسب فهمه. وكان ﴿ حنيفاً ﴾ ؛ مائلاً عما سوى الله، ﴿ وما كان من المشركين ﴾ ، بل كان قدوة الموحدين. كرره؛ رداً على اليهود والنصارى والمشركين فى زعمهم أنهم على دينه مع إشراكهم. والله تعالى أعلم.

الإشارة: كل من تمسك بطاعة الله ظاهراً، أو مال عما سوى الله باطناً، وشكر الله دائماً، ودعا الناس إلى هذا الأمر العظيم: كان ولياً إبراهيمياً، محمدياً، خليلاً حبيباً، مقرباً، قد اجتباه الحق تعالى إلى حضرته، وهداه إلى صراط مستقيم، وعاش فى الدنيا سعيداً، ومات شهيداً، وألحق بالصالحين. جعلنا الله منهم بمنّه وكرمه.

ولما ادَّعَتِ اليهود أنها على ملة إبراهيم دون غيرها، رَد الله عليهم بأن السبت ليس من ملته، فقال:

﴿ إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ إنما جُعِلَ السبتُ ﴾ أى: فُرض تعظيمه وإفراده للعبادة، ﴿ على الذين اختلفوا فيه ﴾ على نبيهم، وهم: اليهود؛ أمرهم موسى عليه السلام أن يتفرغوا للعبادة يوم الجمعة، فأبوا وقالوا: نريد يوم السبت؛ لأنه تعالى فرغ فيه من خلق السموات والأرض، فألزمهم الله السبت، وشدّد عليهم فيه. وقيل: لما أمرهم بيوم الجمعة، قَبِلَ بعضهم، وأبى أكثرهم، فاختلفوا فيه. وقيل: اختلافهم: هو أن منهم من حرّم الصيد فيه، ومنهم من أحله، فعاقبهم الله بالمسخ. والتقدير على هذا: إنما جعل وبال السبت ـ وهو المسخ، (على الذين اختلفوا) ؛ فأحلوا فيه الصيد تارة، وحرموه أخرى، أو أحله بعضهم، وحرمه بعضهم، وذكرهم هنا؛ تهديداً للمشركين، كذكر القرية التى كفرت بأنعم الله، ﴿ وإن ربك ليحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ﴾ ؛ فيجازى كل فريق بما يستحقه، فيثيب المطيع، ويعاقب العاصى.

الإشارة: الاختلاف على الأكابر؛ كالشيوخ والعلماء، والتقدم بين أيديهم بالرأى والكلام، من أقبح المساوىء، وسو الأدب يوجب لصاحبه العطب؛ كالقطع عن الله، والبعد من ساحة حضرته. قال بعضهم: إذا جالست الكبراء؛ فدع ما تعلم لما لا تعلم؛ لتفوز بالسر المكنون. والله تعالى أعلم.

(١) من الآية ٨٣ من سورة الشعراء.

ثم أمر نبيه بالدعوة إلى الله، فقال:

﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ادْعُ ﴾ يامحمد الناسَ ﴿ إلى سبيل ربك ﴾؛ إلى طريقه الموصل إليه، وهو: الإسلام والإيمان، والإحسان؛ لمن قدر عليه، ﴿ بالحكمة ﴾؛ بسياسة النبوة، أو بالمقالة المحكمة، وهو الدليل الموضح للحق المزيح للشبهة، ﴿ والموعظة الحسنة ﴾؛ مواعظ القرآن ورقائقه، أو الخطابات المقنعة والعبر النافعة، ﴿ وجادلهم ﴾ أى: جادل معاندتهم ﴿ بالتى هى أحسن ﴾؛ بالطرق التى هى أحسن طرق المجادلة؛ من الرفق واللين، وإيثار الوجه الأيسر، والمقدمات التى هى أشهر؛ فإن ذلك أنفع فى تليين لهبهم، وتبيين شغبهم، فالأولى: لدعوة خواص الأمة الطالبين للحق. والثانية: لدعوة عوامهم، والثالثة: لدعوة معاندهم.

قال ابن جزى: الحكمة هى: الكلام الذى يظهر جوابه، والموعظة: هى: الترغيب والترهيب. والجدال هو: الرد على الخصم. وهذه الأشياء الثلاثة يسميها أهل العلوم العقلية بالبرهان والخطابة والجدل، وهذه الآية تقتضى مهادنة نُسخت بالسيف. وقيل: إن الدعاء بهذه الطريقة، من التلطف والرفق، غير منسوخ، وإنما السيف لمن لا تنفعه هذه الموعظة من الكفار، وأما العصاة فهى فى حقهم مُحكمة إلى يوم القيامة باتفاق. هـ.

﴿ إنّ ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين ﴾ أى: إنما عليك البلاغ والدعوة. وأما حصول الهداية والضلال والمجازاة عليهما فليس من شأنك، بل الله أعلم بالضالين والمهتدين، وهو المجازى للجميع.

الإشارة: الدعاء بالحكمة هو الدعاء بالهمة والحال، يكون من أهل الحق والتحقيق؛ لأهل الصدق والتصديق. والدعاء بالموعظة الحسنة هو الدعاء بالمقال من طريق الترغيب والتشويق، يكون لأهل التردد فى سلوك الطريق. والدعاء بالمجادلة الحسنة هو الدعاء بالوعظ والتذكير. وذِكْرُ بيانِ الطريق، وفضيلة علم التحقيق، يكون لأهل الإنكار؛ إن وصلوا إلى أهل التحقيق. والحاصل: أن الدعاء بالحكمة: لأهل المحبة والتصديق. والدعاء بالموعظة: لأهل التردد فى الطريق. والدعاء بالمجادلة: لأهل الإنكار؛ حتى يعرفوا الحق من الباطل. وإن شئت قلت: الدعاء بالحكمة هو للعارفين الكبار، والدعاء بالموعظة الحسنة هو لأهل الوعظ والتذكار من الصالحين الأبرار، والدعاء بالمجادلة الحسنة هو للعلماء الأخيار. وقد تجتمع فى واحد؛ إن جمع بين الظاهر والباطن. والله تعالى أعلم.

ولما أمره بالدعوة العامة أمره بالصبر العام؛ لأن الدعوة لا تنفك عن الأذى، فيحتاج صاحبها إلى صبر كبير، فقال:

﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ (١٢٦) وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ (١٢٧) إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ (١٢٨) ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وإنْ عاقبتم ﴾ من آذاكُمْ ﴿ فعَاقبوا بمثل ما عُوقبتم به ﴾ أي: إن صنع بكم صنيع سوء فافعلوا مثله، ولا تزيدوا عليه. والعقوبة، في الحقيقة، إنما هي في الثانية. وسميت الأولى عقوبة؛ لمشاكلة اللفظ. وقال الجمهور: إن الآية نزلت في شأن حمزة بن عبدالمطلب، لما بَقَر المشركون بطنه يوم أحد، قال النبي ﷺ: «لئن أظفَرَنِي الله بِهِمْ لأُمَثّلَنّ بسبْعِين منهم». فنزلت الآية(١)، فكفّر النبيُّ ﷺ عن يمينه، وترك ما أراد من المُثْلَةِ. ولا خلاف أن المثلة حرام، وقد وردت أحاديث بذلك. ومقتضى هذا: أن الآية مدنية. ويحتمل أن تكون الآية عامة، ويكون ذكرهم حمزة على وجه المثال. وتكون، على هذا، مكية كسائر السورة.

واختلف العلماء فيمن ظلمه رجل في مال، ثم ائتمن عليه، هل يجوز خيانته، في القدر الذي ظلمه فيه؟ فأجاز ذلك قوم؛ لظاهرالآية، ومنعه مالك؛ لقوله ﷺ: «أدِّ الأمَانَةَ لِمَنْ ائْتمَنَكَ، ولا تَخُنْ مَنْ خَانَكَ»(٢). قاله ابن جزى.

﴿ ولئن صبرتم ﴾، ولم تعاقبوا من أساء إليكم، ﴿ لهو ﴾ أي: الصبر ﴿ خيرٌ للصابرين ﴾؛ فإن العقوبة مباحة، والصبر أفضل من الانتقام، ويحتمل أن يريد بالصابرين هنا العموم، أو يريد المخاطبين، كأنه قال: فهو خير لكم.

ثم صرح بالأمر لرسوله به؛ لأنه أولى الناس به؛ لزيادة علمه بالله، فقال: ﴿ واصبر وما صبرك إلا بالله ﴾؛ إلا بتوفيقه وتثبيته. رُوِى أنه ﷺ قال لأصحابه: «أما أنا فأصبر كما أمرت، فماذا تصنعون؟» قالوا: نصبر كما ندبنا. ﴿ ولا تحزنْ عليهم ﴾؛ على الكافرين؛ حيث لم يؤمنوا؛ حِرْصاً عليهم. أو على المؤمنين؛ لأجل ما فعل بهم. ﴿ ولا تَكُ في ضيق مما يمكرون ﴾ أي: لا يضيق صدرك بمكرهم، ولا تهتم بشأنهم، فأنا ناصرك عليهم. والضيق ـ بفتح الضاد مُخَفّفاً ـ من ضيّقٍ؛ كَمَيْتٍ ومَيِّتٍ. وقرئ بالكسر، وهو مصدر. ويجوز أن يكون الضيق والضيق مصدريْن، معاً، لِضاق.

---

(١) أخرجه الواحدى فى أسباب النزول (ص ٢٩١) عن ابن عباس. وأخرجه البزار (كشف الأستار، ٢/٣٢٧) فى سياق أطول، عن أبى هريرة، وراجع طبقات ابن سعد (٣/١٢ ـ ١٣) وتفسير ابن كثير (٢/٥٩٢).

(٢) أخرجه أبو داود فى (البيوع والإجارات، باب فى الرجل يأخذ حقه من تحت يده)، والترمذى فى (البيوع، ح ١٢٦٤) عن أبى هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

﴿ إنَّ الله مع الذين اتقوا ﴾ الكفر والمعاصى، ﴿ والذين هم محسنون ﴾ فى أعمالهم، فهو معهم بالولاية والنصر والرعاية والحفظ. أو مع الذين اتقوا الله بتعظيم أمره. والذين هم محسنون بالشفقة على خلقه. أو مع الذين اتقوا ما يقطعهم عن الله، والذين هم محسنون بشهود الله كما قال النبى ﷺ : «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه». فهو معهم بالمحبة والوداد؛ «فإذا أحببته كنت له». والله تعالى أعلم.

الإشارة: من شأن الصوفية: الأخذ بالعزائم، والتمسك بالأحسن فى كل شيء، ممتثلين لقوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ﴾(١). ولذلك قالوا: الصوفي: دمه هدر، وماله مباح؛ لأنه لا ينتصر لنفسه، بل يدفع بالتى هى أحسن السيئة. فالصبر دأبهم، والرضى والتسليم خُلقهم.

وحقيقة الصبر هى: حبس القلب على حكم الرب، من غير جزع ولا شكوى. **ومواطنه أربعة**: الطاعة، والمعصية، والنعمة، والبلية. فالصبر على الطاعة: بالمبادرة إليها، وعن المعصية: بتركها، وعلى النعمة: بشكرها، وأداء حق الله فيها، وعلى البلية: بالرضى وعدم الشكوى بها.

وأقسام الصبر ستة: صبر فى الله، وصبر لله، وصبر مع الله، وصبر بالله، وصبر على الله، وصبر عن الله. أما الصبر فى الله: فَهُوَ الصبر فى طلب الوصول إلى الله، بارتكاب مشاق المجاهدات والرياضات. وهو صبر الطالبين والسائرين. وأما الصبر لله: فهو الصبر على مشاق الطاعات وترك المذهبات ونزول البليات، يكون ذلك ابتغاء مرضاة الله، لا لطلب أجر ولا نيل حظ. وهو صبر المخلصين. وأما الصبر مع الله: فهو الصبر على حضور القلب مع الله، على سبيل الدوام؛ مراقبة أو مشاهدة. فالأول: صبر المحبين، والثانى: صبر المحبوبين.

وأما الصبر بالله: فهو الصبر على ما ينزل به من المقادير، لكنه بالله لا بنفسه، وهو صبر أهل الفناء من العارفين المجذوبين السالكين. وأما الصبر على الله: فهو الصبر على كتمان أسرار الربوبية عن غير أهلها، أو الصبر على دوام شهود الله. وأما الصبر عن الله: فهو الصبر على الوقوف بالباب عند جفاء الأحباب، فإذا كان العبد فى مقام القرب واجداً لحلاوة الأنس، مشاهداً لأسرار المعانى، ثم فقد ذلك من قلبه، وأحس بالبعد والطرد ـ والعياذ بالله ـ فليصبر، وليلزم الباب حتى يَمن الكريم الوهاب، ولا يتزلزل، ولا يتضعضع، ولا يبرح عن مكانه، مبتهلاً، داعياً إلى الله، راجياً كرم مولاه، فإذا استعمل هذا فقد استعمل الصبر؛ قياماً بأدب العبودية. وهو أشد الصبر وأصعبه، لا يطيقه إلا العارفون المتمكنون، الذين كملت عبوديتهم، فكانوا عبيداً لله فى جميع الحالات، قرَّبهم أو أبعدهم.

رُوِىَ أن رجلا دخل على الشبلى رضي الله عنه، فقال: أى صبر أشد على الصابر؟ فقال له الشبلى: الصبر فى الله، قال:

---

(١) من الآية ١٨ من سورة الزمر.

لا، قال: الصبر لله، قال: لا، قال: الصبر مع الله، قال: لا، فقال له: وأي شيء هو؟ فقال: الصبر عن الله. فصاح الشبلى صيحة عظيمة، كادت تتلف فيها روحه. هـ. لأن الحبيب لا يصبر عن حبيبه. لكن إذا جفا الحبيب لا يمكن إلا الصبر والوقوف بالباب، كما قال الشاعر:

إنْ شَكَوْتَ الهوَى، فما أنت مِنّا　　احْمِلِ الصَّدَ والجفاء، يا مُعنّـا

وقال رجل لأبى محمد الحريرى رضي الله عنه: كنت على بساط الأنس، وفتح على طريق البسط، فزللت زلة، فحجبت عن مقامى، فكيف السبيل إليه؟ دلنى على الوصول إلى ما كنت عليه. فبكى أبو محمد وقال: يا أخى، الكل فى قهر هذه الخطة، لكنى أنشدك أبياتاً لبعضهم، فأنشأ يقول:

قف بالديار؛ فهـــذه آثارهـم　　تبكى الأحبـة؛ حسرة وتشوقا
كم قد وقفتُ بربعهـا مسـتخبرا　　عن أهـلـه؛ أو سـائلا، أو مشـفقا
فأجابنى داعى الهوى فى رسمها　　فارقْتَ من تهـوى؛ فعـز الملتقَى

ومن هذا المعنى قضية الرجل الذى بقى فى الحرم أربعين سنة يقول: لبيك. فيقول له الهاتف: لا لبيك ولا سعديك، وحجك مردود عليك. فقيل له فى ذلك، فقال: هذه بابه، وهل ثَمَّ باب أخرى أقصده منها؟ فقبله الحق تعالى، ولبى دعوته. وكذلك قضية الرجل الذى قيل له، من قِبلِ الوحى: إنك من أهل النار؛ فزاد فى العبادة والاجتهاد. فهذا كله يصدق عليه الصبر عن الله. لكن لا يفهم كماله إلا من كملت معرفته، وتحقق بمقام الفناء، فحينئذ قد يسهل عليه أمره؛ لكمال عبوديته، كما قال القائل:

وَكُنْتُ قَدِيمًا أَطْلُبُ الوَصْـلَ مِنْهُمُ　　فَلَمَّا أَتَانِى العِـلْمُ وارْتَفَع الجَـهْلُ
تَيقنت أنَّ العَبْـدَ لا طَـلَبَ لَـهُ　　فَإِنْ قَرَبُوا: فَضْلٌ، وإِنْ بَعَّدُوا: عَدْلُ
وإنْ أظْهَرُوا لَمْ يُظْهِرُوا غيْرَ وَصْفِهِمْ　　وإنْ سَتَرُوا فالسَتْرُ مِنْ أَجْلِهِمْ يَحْلُو

وأما من لم تكمل معرفته، فقد ينكره ويذمه، كالعباد والزهاد والعشاق، فإنهم لا يطيقونه، فإما أن يختل عقلهم، أو يرجعون إلى الانهماك فى البطالة. والله تعالى أعلم. وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

●●●

سُورَةُ الإسراءِ

مكية، إلا قوله: ﴿ وإن كادوا ليفتنونك... ﴾ الآيات الثمان. وهي: مائة وعشر آيات. وكأنّ وجه المناسبة لِمَا قبله قوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا ﴾(١)، إشارة إلى أن مَن اتقى الله، وحصَّل مقام الإحسان، أسرى بروحه إلى عالم الملكوت وأسرار الجبروت. وافتتح السورة بالتنزيه، لئلا يتوهم الجهال أنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ عرج به للقاء الحق تعالى في جهة مخصوصة، فنزه الحقُّ تعالى نفسه، في افتتاح سورة الإسراء؛ دفعاً لهذا الإيهام، فقال:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١) ﴾

قلت: «سبحان»: مصدر غير متصرف، منصوب بفعل واجب الحذف، أي: أسبحُ سبحان. وهو بمعنى التسبيح، أي: التنزيه، وقد يستعمل علَماً له، فيقطع عن الإضافة ويمنع الصرف، كقول الشاعر:

قَدْ أَقُولُ لَمَّا جَاءَنِي فَخْرُهُ ... سُبْحَانَ مِنْ عَلْقَمَةَ الْفَاخِرِ (٢)

و «ليلاً»: منصوب على الظرفية لأسرى. وفائدة ذكره، مع أن السرى هو السير بالليل، ليفيد التقليل، ولذلك نكّره، كأنه قال: أسرى بعبده مسيرة أربعين ليلة في بعض الليل، وذلك أبلغ في المعجزة. ويقال: أسرى وسرى، رباعياً وثلاثياً.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ سبحان الذى أسرى بعبده ﴾ وهو: نبينا محمد ﷺ، أي: تنزيهاً له عن الأماكن والحدود والجهات، إذ هو أقرب من كل شيء إلى كل شيء. وإنما وقع الإسراء برسوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ ليقتبس أهلُ العالم العلوي، كما اقتبس منه أهل العالم السفلي، فأسرى به ﴿ ليلاً من المسجد الحرام ﴾ بعينه؛ لِمَا رُوِي أنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ قال: « بَيْنَما أنَا فى المَسْجِدِ الحرَامِ فى الحِجْرِ، عِنْدَ البَيْتِ، بيْنَ النَّائم واليقْظَانِ، إذْ أتَانِي جبْرِيلُ بالبرَاقِ»(٣).

(١) من الآية ١٢٨ من سورة النحل.
(٢) البيت للأعشى. انظر ديوانه، ص٩٣، ولسان العرب (سبح).
(٣) أخرجه بطوله البخارى فى مواضع، منها: (مناقب الأنصار، باب المعراج)، ومسلم فى (الإيمان، باب الإسراء)، من حديث أنس ابن مالك عن مالك بن صعصعة.

أو: من الحرم؛ لِمَا رُوِى أنه كان نائماً في بيت أم هانئ بعد صلاة العشاء، فأُسْرِيَ به، وسماه مسجداً؛ لأن الحرم كله مسجد. قاله البيضاوى. قلت: والظاهر أنه وقع مرتين: مرة بجسده من البيت، ومرة بروحه من بيت أم هانئ. والله تعالى أعلم بما كان.

قال في المستخْرج من تفسير الغزنوني وغيره: قيل: كان رؤيا صادقة، وقيل: أسرى بروحه، وهو خلاف القرآن، وإن أسند إلى عائشة ـ رضي الله عنها ـ، والجمهور على ما رواه عامة الصحابة، دخل كلام بعضهم في بعض، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أتاني جبريل عليه السلام، وإذا دابة فوق الحمار ودون البغل، خطوها مد بصرها، فمرّ بي بين السماء والأرض إلى بيت المقدس، فنُشِرَ لي رَهْط من الأنبياء، فصليت بهم. وإذا أنا بالمعراج، وهو أحسن ما رأيت، فعرج بي، فرأيت في سماء الدنيا رجلاً أعظم الناس وجهاً وهيكلاً، فقيل: هذا أبوك آدم، وفي السماء الثانية شابيْن، فقيل: هما يحيى وعيسى، وفي الثالثة رجلاً أفضل الناس حُسناً، فقيل: أخوك يوسف، وفي الرابعة إدريس، وفي الخامسة هارون، وفي السادسة موسى، وفي السابعة إبراهيم ـ صلوات الله على جميعهم. فانتهيتُ إلى سِدرة المنتهى، فَغَشِيَتْهَا ملائكةٌ، كأنهم جراد من ذهب، فرأيتُ جبريل عليه السلام يتضاءل كأنه صَعْوة ـ أي: عصفور ـ فتخلف، وقال: وما منا إلا له مقام معلوم، فجاوزت سبعين حجاباً، ثم احتملني الرفرف إلى العرش، فنُوديتُ: حَيِّ ربك. فقلت: لا أُحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك»(١). فلما أخبر بما رأى كذَّبه أهل مكة، ولو كان في النوم ما أنكره المشركون. وقيل: كانا معراجين، بمكة والمدينة، في النوم واليقظة.هـ.

قلت: وقوع المعراج بالمدينة غريب. قال المهدوي: مرتَبة الإسراء بالجسم إلى تلك الحضرات العلِية خاصة بنبينا، لم يكن لغيره من الأنبياء. وعدَّه السيوطي من الخصائص. قال ابن جزي: وحجة الجمهور: أنه لو كان مناماً، لم تُنكره قريش، ولم يكن في ذلك ما يُكَذَّبُ، ألا ترى أن أُم هانئ قالت له ـ عليه الصلاة والسلام: (لا تُخبر بذلك أحدا). وحجة من قال إنه كان مناماً: قوله تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ ﴾(٢)، وإنما يقال: الرؤيا، في المنام، ويقال، فيما يرى بالعين: رؤية، وقوله، في آخر حديث الإسراء: «فاستيقظتُ وأنا في المسجد الحرام». ثم قال: وقد يجمع بينهما بأنه وقع مرتين(٣). هـ.

وقوله تعالى: ﴿ إلى المسجد الأقصى ﴾ هو: بيت المقدس؛ لأنه لم يكن حينئذ وراءه مسجد، ﴿ الذي باركنا حوله ﴾ ببركات الدين والدنيا؛ لأنه مهبط الوحي ومتعبد الأنبياء، ومحفوف بالأنهار والأشجار والثمار. أسرينا

(١) أخرج حديث الإسراء والمعراج، برواياته المتعددة، وطرقه؛ البخارى في (الصلاة، باب كيف فرضت الصلاة في الإسراء)، و(بدء الخلق، باب ذكر الملائكة)، و(مناقب الأنصار، باب المعراج). ومسلم في (الإيمان، باب الإسراء).

(٢) من الآية ٦٠ من سورة الإسراء.

(٣) وهذا هو الصواب.

به؛ ﴿ لِنُرِيَه من آياتنا ﴾ الدالة على عجائب قدرتنا، ونكشفَ له عن أسرار ذاتنا، فأطْلعه الله على عجائب الملكوت، وأراه سنَا الجبروت. رَوَى عكرمةُ عن ابن عباس: أنه قال: قد رأى محمدٌ ربه، قلت: أليس الله يقول: ﴿ لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ ﴾(١)، قال: ويحك، ذلك إذا تجلى بنوره الذى هو نوره، وقد رأى ربه مرتين.هـ. قلت: معنى كلامه: أنه إذا تجلى بنوره الأصلى، من غير واسطة، لا يمكن إدراكه، وأما إذا تجلى بواسطة المظهر فإنه يُمكن إدراكه، والحاصل: أن الحق تعالى إنما يتجلى على قدر الرائى، لا على قدره؛ إذ لا يطيقه أحد. وسيأتى، فى الإشارة، بقية الكلام عليه، إن شاء الله.﴿ إنه هو السميعُ البصير ﴾ أى: السميع لأقوال حبيبه فى حال مناجاته، البصيرُ بأحواله، فيكرمه ويُقربه على حسب ذلك.

الإشارة: قال بعض الصوفية: إنما قال تعالى: ﴿ بعبده ﴾، ولم يقل: بنبيه: ولا برسوله؛ ليدل على أن كل من كملت عبوديته كان له نصيب من الإسراء. غير أن الإسراء بالجسد مخصوص به ـ عليه الصلاة والسلام ـ، وأما الإسراء بالروح فيقع للأولياء؛ على قدر تصفية الروح، وغيبتها عن هذا العالم الحسى، فتعرج أفكارهم وأرواحهم إلى ما وراء العرش، وتخوض فى بحار الجبروت، وأنوار الملكوت، كلٌّ على قدر تخليته وتحليته. وإنما خص الإسراء بالليل؛ لكونه محل فراغ المناجاة والمواصلات، ولذلك رتب بعثه مقاماً محموداً على التهجد بالليل فى هذه السورة. قاله المحشى.

وقوله تعالى: ﴿ سبحان الذى أسرى ﴾، قال الورتجبى: أى: تنزه عن إشارة الجهات والأماكن فى الفوقية، وما يتوهم الخلق؛ من أنه إذ أوْصل عبده إلى وراء الوراء، أنه كان فى مكان، أى: لا تتوهموا برفع عبده إلى ملكوت السموات، أنه رفع إلى مكان، أو هو فى مكان، فإن الأكوان والمكان أقل من خردلة فى وادى قدرته، أى: فى بحر عظمته؛ ألا ترى إلى قوله عليه الصلاة والسلام: «الكون فى يمين الرحمن أقل من خردلة». والعِندية والفوقية منه، ونزّه نفسه عن أوهام المشبّهات، حيث توهموا أنه أسرى به إلى المكان، أى: سبحان من تنزه عن هذه التهمة . هـ. وقال القشيرى: أرسله الحق تعالى؛ ليتعلم أهلُ الأرض منه العبادة، ثم رقّاه إلى السماء ليتعلّمَ منه الملائكةُ ـ عليهم السلام ـ آدابَ العبادة، قال تعالى: ﴿ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴾(٢)، وما التفتَ يميناً ولا شمالا، ما طمع فى مقام، ولا فى إكرام، تحرر عن كلِّ طلبٍ وأرَبٍ، تلك الليلة. هـ.

---

(١) من الآية ١٠٣ من سورة الأنعام.
(٢) من الآية ١٧ من سورة النجم.

قلت: ولذلك أكرمه الله تعالى بالرؤية، التي مُنع منها نبيه موسى عليه السلام، حيث وقع منه الطلب ، ربما دلهم الأدب على ترك الطلب ،، وقال الورتجبي: أسرى به عن رؤية فعله وآياته، إلى رؤية صفاته، ومن رؤية صفاته إلى رؤية ذاته، وأشهده مَشاهد جماله، فرأى الحق بالحق، وصار هنالك موصوفاً بوصف الحق، فكان صورتُه روحَه، وروحُه عقلَه، وعقلُه قلبَه، وقلبُه سرَّه، فرأى الحق بجميع وجوده؛ لأن وجوده فانٍ بجميعه، فصار عيناً من عيون الحق، فرأى الحق بجميع العيون، وسمع خطابه بجميع الأسماع، وعرف الحق بجميع القلوب.هـ.

وقال، في قوله تعالى: ﴿ إلى المسجد الأقصى ﴾: سبب بداية المعراج بالذهاب إلى المسجد الأقصى، لأن هناك الآية الكبرى؛ من بركة أنوار تجليه لأرواح الأنبياء وأشباحهم، وهناك بقربه طور سيناء، وطور زيتا، والمصيصة، ومقام إبراهيم وموسى وعيسى، وفي تلك الجبال مواضع كشوف الحق، ولذلك قال: (باركنا حوله)، انظر تمامه.

ولمّا كان لسيدنا موسى عليه السلام مزيد كلام ومراجعة مع نبينا ـ عليه الصلاة والسلام ـ في قضية الإسراء، ذكره بإثره، فقال:

﴿ وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴿٢﴾ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾ ﴾

قلت: (ذرية): منادى، أي: يا ذرية من حملنا مع نوح، والمراد: بني إسرائيل. وفي ندائهم بذلك: تلطف وتذكير بالنعم، وقيل: مفعول أول بتتخذوا، أي: لا تتخذوا ذرية من حملنا مع نوح من دوني وكيلاً، فتكون كقوله: ﴿ وَلا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا ﴾ (١).

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وآتينا موسى الكتابَ ﴾ التوراة ﴿ وجعلناه ﴾ أي: التوراة ﴿ هُدىً لبني إسرائيل ﴾، وقلنا: ﴿ ألا تتخذوا من دوني وكيلاً ﴾ تُفوضون إليه أموركم، وتُطيعونه فيما يأمركم. بل فوضوا أُموركم إلى الله، واقصدوا بطاعتكم وجه الله، يا ﴿ ذريةَ مَنْ حملنا مع نوح ﴾، فاذكروا نعمة الإنجاء من الغرق، وحملَ أسلافكم في سفينة نوح، ﴿ إنه كان عبداً شكوراً ﴾؛ يحمد الله ويشكره في جميع حالاته. وفيه إيماء بأن إنجاءه ومن معه كان ببركة شكره، وحَثٌّ للذرية على الاقتداء به. والله تعالى أعلم.

الإشارة: المقصود من إرسال الرسل وإنزال الكتب هو، إفراد الوجهة إلى الحق، ورفعُ الهمة عن الخلق، حتى لا يبقى الركون إلا إليه، ولا الاعتماد إلا عليه، وهو مقتضى التوحيد. قال تعالى: ﴿ لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا ﴾(٢). وبالله التوفيق.

---

(١) من الآية ٨٠ من سورة آل عمران.
(٢) من الآية ٩ من سورة المزمل.

ثم ذكر ما أحدث بنو إسرائيل، وما جرى عليهم في القضاء السابق، فقال:ـ

﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وقضينا إلى بني إسرائيل ﴾ أي: أخبرناهم وأوحينا إليهم ﴿ في الكتاب ﴾؛ التوراة، وقلنا: والله ﴿ لتُفسدُنّ في الأرض مرتين ﴾ الخ. أو: قضينا عليهم ﴿ في الكتاب ﴾؛ اللوح المحفوظ، ﴿ لتفسدُنّ في الأرض مرتين ﴾ أي: إفسادتين، أُولاهُمَا: مخالفة أحكام التوراة وقتل أشعياء، وقيل: أرمياء. وثانيتهما: قتل زكريا ويحيى، وقَصْدُ قتل عيسى عليه السلام، ﴿ ولتَعلُنَّ علواً كبيراً ﴾؛ ولتستكبرن عن طاعة الله، أو لتظلمن الناس وتستعلون عليهم علواً كبيرا.

﴿ فإذا جاء وعدُ ﴾؛ عقاب ﴿ أُولاهما ﴾ أي: أول مرتي الإفساد؛ بأن أفسدوا في الأرض المرة الأولى ﴿ بعثنا عليكم عباداً لنا ﴾؛ بختنصر وجنوده ﴿ أولي بأس شديد ﴾؛ ذوي قوة وبطش في الحرب شديد، ﴿ فجاسوا ﴾؛ فترددوا لطلبكم ﴿ خلال الديار ﴾؛ وسطه؛ للقتل أو الغارة، فقتلوا كبارهم وسبوا صغارهم، وحرقوا التوراة، وخربوا المسجد. وفي التذكرة للقرطبي: أنه سلّط عليهم في المرة الأولى بخُتنصر، فسباهم، ونقل ذخائر بيت المقدس على سبعين ألف عَجَلَة، وبقوا في يده مائة سنة. ثم رحمهم الله تعالى وأنقذهم من يده، على يد ملك من ملوك فارس، ثم عصوا، فسلط عليهم ملك الروم قيصر. هـ. قال تعالى: ﴿ وكان وعداً مفعولاً ﴾ أي: وكان وعد عقابهم وعداً مقضياً لابد أن يُفعل.

﴿ ثم رددنا لكم الكرة ﴾ أي: الدولة والغلبة ﴿ عليهم ﴾ أي: على الذين بُعثوا عليكم، فرجع المُلك إلى بني إسرائيل، واستنقذوا أسراهم، فقيل: على يد «بهمَن بن اسفنديار»؛ ملك فارس، فاستنقذهم، ورد أسراهم إلى الشام، وملّكَ دانْيال عليهم، فاستولوا على من كان فيها من أتباع بختنصر، وقيل: على يد داود عليه السلام حين قتل جالوت. قال تعالى: ﴿ وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثرَ نفيراً ﴾ أي: عدداً مما كنتم. والنفير: من ينفر مع الرجل من قومه، وقيل: جمع نَفر، وهم: المجتمعون للذهاب إلى الغزو.

ثم قال تعالى لهم: ﴿ إنْ أحسنتم ﴾ بفعل الطاعة والعمل الصالح، ﴿ أَحْسَنْتُمْ لأنفسكم ﴾ ؛ لأن ثوابه لها، ﴿ وإن أسأتم فلها ﴾ ؛ فإنّ وبالها عليها. وذكر باللام للازدواج. ﴿ فإذا جاء وعدُ الآخرة ﴾ أي: وعد عقوبة المرة الأخيرة، بأن أفسدوا في المرة الآخرة، بعثنا عليكم عباداً لنا آخرين، أولي بأس شديد ﴿ لِيَسُوءُوا وجوهكم ﴾، يجعلوها تظهر فيها آثار السوء والشر، كالكآبة والحزن، كقوله: ﴿ سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾(١) ﴿ وليدخلوا المسجد ﴾ ؛ بيت المقدس ﴿ كما دخلوه أول مرة وليُتبروا ﴾ ؛ وليُهلكوا ﴿ ما عَلَوا ﴾ عليه ﴿ تتبيراً ﴾ ؛ إهلاكا، أو مدة علوهم. قال البيضاوي: وذلك بأن الله سلّط عليهم الفرس مرة أخرى، فغزاهم ملكُ بابِل، اسمه «حَرْدُون»، وقيل: «حَرْدوس»، قيل: دخل صاحب الجيش مَذْبح قرابينهم، فوجد دماً يغلي، فسأل عنه، فقالوا: دم قربان لم يُقبل منا. فقال: ماصدقتموني، فقتل عليه ألوفًا منهم، فلم يهدأ الدم. ثم قال: إن لم تصدقوني ما تركت منكم أحداً، فقالوا: دم يحيى، فقال: لِمثل هذا ينتقم منكم ربكم، ثم قال: يا يحيى، قد علم ربي وربك ما أصاب قومك، فاهدأ بإذن الله، قبل ألاّ أُبقي منهم أحداً، فهدأ. هـ.

وقال السهيلي في كتاب «التعريف والإعلام»: المبعوث في المرة الأولى هم أهل بابل، وكان إذ ذاك عليهم «بختنصر»، حين كذّبوا أرمياء وجرحوه وحبَسوه. وأما في المرة الأخيرة: فقد اختلف فيمن كان المبعوث عليهم، وأن ذلك كان بسبب قتل يحيى بن زكريا. فقيل: بختنصر، وهذا لا يصح؛ لأن قتل يحيى كان بعد رفع عيسى، وبختنصر كان قبل عيسى بزمان طويل.هـ. وقول الجلال السيوطي: وقد أفسدوا في الأولى بقتل زكريا، فبعث عليهم جالوت وجنوده، ولا يصح؛ لأنه يقتضي أن داود تأخر عن زكريا، وهو باطل.

ثم قال تعالى لبني إسرائيل: ﴿ عسى ربُكم أن يرحَمكم ﴾ بعد المرة الأخرى ويجبر كسركم، ﴿ وإن عُدتُم عُدْنَا ﴾ إلى عقوبتكم، وقد عادوا بتكذيب نبينا محمد ﷺ، وقصد قتله، فعاد إليهم بتسليطه عليهم، فقتل من بني قريظة سبعمائة في يوم واحد، وسبى ذراريهم، وباعهم في الأسواق، وأجلى بني النضير، وضرب الجزية على الباقين. هذا في الدنيا، ﴿ وجعلنا جهنم للكافرين ﴾ منهم ومن غيرهم ﴿ حصيراً ﴾ ؛ محبسًا، لا يقدرون على الخروج منها، أبدَ الآباد. وقيل: بساطاً كبسط الحصير، كقوله: ﴿ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ ﴾(٢). والله تعالى أعلم.

الإشارة: قد قضى الحقُّ جل جلاله ما كان وما يكون في سابق علمه، فما من نفَس تُبديه إلا وله قدر فيك يُمضيه. فالواجب على العبد أن يكون ابن وقته، إذا أصبح نظر ما يفعل الله به. فأسرار القدر قد استأثر الله بعلمها،

(١) من الآية ٢٧ من سورة الملك.
(٢) من الآية ٤١١ من سورة الأعراف.

وأبهم على عباده أمرَها، فلو ظهرت لبطل سر التكليف. ولذلك لما سُئل عنه سيدنا علي ـ كرم الله وجهه ـ قال للسائل: (بحر عميق لا تطيقه)، فأعاد عليه السؤال، فقال: (طريق مظلم لا تسلكه)؛ لأنه لا يفهم سر القضاء والقدر، إلا من دخل مقام الفناء والبقاء، وفرّق بين القدرة والحكمة، وبين العبودية والربوبية، فإذا تحقق العارف بالوحدة، علِمَ أنّ الحق تعالى أظهر من خلقه مظاهر أعدهم للإكرام، وأظهر خلقاً أعدهم للانتقام، وأبهم الأمر عليهم، ثم خلق فيهم كسباً واختياراً فيما يظهر لهم، وكلفهم؛ لتقوم الحجة عليهم، وتظهر صورة العدل فيهم. ﴿ولا يظلم ربك أحدا﴾. فالقدرة تُبرز ما سبق في الأزل، والحكمة تستر أسرار القدر. لكن جعل للسعادة علامات كالتوفيق والهداية للإيمان، وللشقاوة علامات؛ كالخذلان والكفران. نعوذ بالله من سوء القضاء وحرمان الرضا. آمين.

ومن علامة السعادة: التمسك بما جاء به القرآن العظيم، كما قال تعالى:

﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾ ﴾

قلت: «وأنَّ الذين»: إما عطف على «أن» الأولى، أو على «ويبشر» بإضمار يخبر.

يقول الحق جل جلاله: ﴿إنَّ هذا القرآن يهدى للتى﴾؛ للطريق التى ﴿هى أقومُ﴾ الطرق وأعدلها، ﴿ويُبشِّرُ المؤمنين الذين يعلمون﴾ الأعمال ﴿الصالحاتِ أنَّ لهم أجراً كبيراً﴾ وهو: الخلود فى النعيم المقيم، وزيادة النظر إلى وجهه الكريم. ﴿و﴾ يخبر ﴿أنَّ الذين لا يُؤمنون بالآخرة أعتدنا﴾ أى: أعددنا ﴿لهم عذاباً أليماً﴾، أو: ويبشر المؤمنين ببشارتين: ثوابهم، وعقاب أعدائهم.

الإشارة: لا شك أن القرآن يهدى إلى طريق الحق؛ إما إلى طريق تُوصل إلى نِعم جنانه، أو إلى طريق تُوصل إلى شهوده ودوام رضوانه، فالأولى طريق الشرائع والأحكام، والثانية طريق الحقائق والإلهام، لكن لا يدرك هذا من القرآن إلا من صفت مرآة قلبه بالمجاهدة والذكر الدائم، ولذلك أمر شيوخُ التربية المريد بالاشتغال بالذكر المجرد، حتى يُشرق قلبه بأنوار المعارف، ويرجع من الفناء إلى البقاء، ثم بعد ذلك يُمر بالتلاوة، ليذوق حلاوة القرآن، ويتمتع بأنواره وأسراره، وقد أنكر بعضُ من لا معرفة له بطريق التربية على الفقراء هذا الأمر ـ أعنى: ترك التلاوة فى بدايتهم ـ؛ محتجاً بهذه الآية، ولا دليل فيها عليهم؛ لأن كون القرآن يهدى للتى هى أقوم يعنى: التمسك والتدبر فى معانيه، ولا يصح ذلك على الكمال إلا بعد تصفية القلوب، كما هو مجرب، ولا ينكر هذا إلا من لا ذوق له فى علوم القوم، وربما يُذكر وجود التربية من أصلها، ويسد البابَ فى وجوه الناس، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

فإذا اتصل العبد بأهل هذا الطريق، ثم تأخر الفتح عنه، فلا يقنط ولا يستعجل، كما أبان ذلك الحق تعالى بقوله:

﴿ وَيَدْعُ الْإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ ۖ وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾ وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ ﴾

قلت: (دعاءه): مفعول مطلق. والإضافة في قوله: (آية الليل) و (آية النهار): بيانية، أي: فمحونا الآية التي هي الليل، وجعلنا الآية التي هي النهار مبصرة. وإذا أريد بالآيتين الشمس والقمر؛ تكون للتخصيص، أي: وجعلنا نيري الليل والنهار آيتين، أو: وجعلنا الليل والنهار ذوي آيتين.. الخ، و (كل شيء): منصوب بفعل مضمر، يفسره ما بعده، وكذا: (وكل إنسان) و (يلقاه منشوراً): صفتان لكتاب.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ويدعُ الإنسانُ ﴾ على نفسه وولده وماله ﴿ بالشرِّ ﴾ عند الغضب والقنط. ﴿ دعاءَهُ بالخير ﴾؛ مثل دعائه بالخير. وهو ذم له يدل على عدم صبره، وربما وافق وقت الإجابة فيهلك، ﴿ وكان الإنسانُ عَجُولاً ﴾؛ يسارع إلى كل ما يخطر بباله، لا ينظر عاقبته. ويجوز أن يريد بالإنسان الكافر، وبالدعاء استعجاله بالعذاب؛ استهزاء، كقول النضر بن الحارث: اللهم انصر خير الحزبين؛ ﴿ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ.. ﴾ الآية(١). وقيل: المراد بالإنسان: آدم عليه السلام، فإنه لما انتهى الروح إلى سُرّته ذهب ليقوم، فسقط، وهو بعيد. فإذا نزلت بالإنسان قهرية فلا يقنط ولا يستعجل، فإنّ وقت الفرج محدود، فالليل والنهار مطيتان، يُقربان كل بعيد، ويبليان كل جديد، ويأتيان بكل موعود.

ولذا قال تعالى إثره: ﴿ وجعلنا الليلَ والنهارَ آيتين ﴾ دالتين على كمال قدرتنا، وباهر حكمتنا، يتعاقبان على الإنسان، يُقربان له كل بعيد، ويأتيان له بكل موعود. ﴿ فمحونا آيةَ الليل ﴾ أي: فمحونا الآية التي هي الليل؛ بأن جعلناها مظلمة، لتسكنوا فيه، ﴿ وجعلنا آيةَ النهار مُبصرةً ﴾ أي: مضيئة مشرقة لتبتغوا؛ من فضله، أو: وجعلنا نيري الليل والنهار آيتين، وهما: الشمس والقمر، ﴿ فمحونا آية الليل ﴾، وهو القمر؛ بأن جعلناه أطلس، لا نور فيه من ذاته، بل نوره مستمد من نور الشمس، ﴿ وجعلنا آية النهار ﴾، وهي الشمس ﴿ مبصرةً ﴾ للناس، أو مبصراً فيها بالضوء الذاتي، ﴿ لتبتغوا فضلاً من ربكم ﴾؛ لتطلبوا في بياض النهار أسباب معاشكم، ﴿ ولتعلموا ﴾؛

(١) الآية ٣٢ من سورة الأنفال.

باختلافهما وبحركتهما، ﴿ عددَ السنينَ والحسابَ ﴾؛ وحساب الأوقات من الأشهر والأيام، في معاملتكم وتصرفاتكم، ﴿ وكلَّ شيء ﴾ تفتقرون إليه في أمر الدين والدنيا ﴿ فصَّلناه تفصيلاً ﴾؛ بيَّناه تبييناً لا لبس فيه، أو: وكل شيء يظهر في الوجود، فصَّلناه وقدَّرناه في اللوح المحفوظ تفصيلاً، فلا يظهر في عالم الشهادة إلا ما فُصل في عالم الغيب.

﴿ وكل إنسانٍ ألزمناه طائره ﴾ أي: حظه وما قُدر له من خير وشر، فهو لازم ﴿ في عُنقه ﴾؛ لاينفك عنه. ويقال لكل ما لزم الإنسان: قد لزم عنقه. وإنما قيل للحظ المقدر في الأزل من الخير والشر: طائر؛ لقول العرب: جرى لفلان الطائر بكذا من الخير والشر، على طريق الفأل والطيرة، فخاطبهم الله بما يستعملون، وأعلمهم أن ذلك الأمر الذي يجعلونه بالطائر هو ملزم لأعناقهم، لا محيد لهم عنه، كالسلسلة اللازمة للعنق، يُجر بها إلى ما يُراد منه. ومثله: ﴿ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ ﴾(١)، وقال مجاهدٌ: «ما من مولود يولد إلا في عنقه ورقة، مكتوب فيها شقي أو سعيد». أو: وكل إنسان ألزمناه عمله؛ يحمله في عنقه، ﴿ ونُخرج له يوم القيامة كتاباً ﴾ مكتوب فيه عمله، وهو صحيفته. ﴿ يلقاه منشوراً ﴾، ويقال له: ﴿ اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً ﴾؛ محاسباً، لا تحاسبك إلا نفسك، أو: رقيباً وشهيداً على عملك، أو: لا يعُدّ عليك أعمالك إلا نفسك. والله تعالى أعلم.

الإشارة: ينبغي للإنسان أن يكون داعياً بلسانه، مفوضاً لله في قلبه، لا يعقد على شيء من الحظوظ والمآرب، فقد يدعو بالخير في زعمه، وهو شر في نفس الأمر في حقه، وقد يدعو بالشر وهو خير. وقد تأتيه المضار من حيث يرتقب المسار، وقد تأتيه المسار من حيث يخاف الضرر؛ ﴿ والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾. فالتأني والسكون من علامة العقل، والشَّرَهُ والعَجَلة من علامة الحمق. فما كان من قسمتك لابد يأتيك في وقته المقدر له، وما ليس من قسمتك لا يأتيك، ولو حرصت كل الحرص. فكل شيء سبق تفصيله وتقديره، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلوم إلا نفسه، كما قال تعالى:

﴿ مَّنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿١٧﴾ ﴾

(١) من الآية ١٣١ من سورة الأعراف.

يقول الحق جل جلاله: ﴿من اهتدى﴾ وآمن بالله وبما جاءت به الرسل ﴿فإنما يهتدى لنفسه﴾؛ لأن ثواب اهتدائه له، لا يُنجى اهتداؤه غيره، ﴿ومن ضلَّ﴾ عن طريق الله ﴿فإنما يضلُّ عليها﴾؛ لأن إثم إضلاله على نفسه، لا يضر به غيره في الآخرة، ﴿ولا تزر﴾ أي: لا تحمل نفس ﴿وازرةٌ﴾؛ آثمة ﴿وِزرَ﴾ نفس ﴿أخرى﴾ أي: ذنوب نفس أخرى، بل إنما تحمل وزرها، إلا من كان إماماً في الضلالة، فيحمل وزره ووزر مَن تبعه، على ما يأتي في آية أخرى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾(١).

ومن كمال عدله تعالى: أنه لا يُعذِّب حتى يُنذر ويُعذر على ألسنة الرسل، كما قال تعالى: ﴿وما كنا مُعذبين﴾ أحداً في الدنيا ولا في الآخرة ﴿حتى نبعث رسولاً﴾ يُبين الحجج، ويمهد الشرائع، ويلزمهم الحجة.

وفيه دليل على أن لا حُكم قبل الشرع، بل الأمر موقوف إلى وروده، فمن بلغته دعوته، وخالف أمره، واستكبر عن اتباعه، عذبناه بما يستحقه. وهذا أمر قد تحقق بإرسال آدم عليه السلام ومن بعده من الأنبياء الكرام ـ عليهم السلام ـ في جميع الأمم، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً﴾(٢)، ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيهَا نَذِيرٌ﴾(٣)، فإن دعوتهم إلى الله قد انتشرت، وعمت الأقطار، واشتهرت، انظر إلى قول قريش الذين لم يأتهم نبي بعد إسماعيل عليه السلام: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الآخِرَةِ﴾(٤)، فإنه يُفهم منه أنهم سمعوه في الملة الأولى، فمن بلغته دعوة أحد منهم، بوجه من الوجوه، فقصَّر، فهو كافر مستحق للعذاب. فلا تغتر بقول كثير من الناس بنجاة أهل الفترة، مع إخبار النبي ﷺ أن آباءهم، الذين مضوا في الجاهلية، في النار، وأن ما يدحرج من الجُعَل(٥) خير منهم، إلى غير ذلك من الأخبار. قاله البقاعي.

وقال الإمام أبو عبدالله الحليمي ـ أحد أجلاء الشافعية، وعظماء أئمة الاسلام ـ في أول منهاجه، في باب: «من لم تبلغه الدعوة»: وإنما قلنا: إن من كان منهم عاقلاً مميزاً إذا رأى ونظر، إلا أنه لا يعتقد ديناً فهو كافر؛ لأنه، وإن لم يكن سمع دعوة نبينا محمد ﷺ، فلا شك أنه سمع دعوة أحد من الأنبياء قبله، على كثرتهم وتطاول أزمان دعوتهم، ووفور مَددِ الذين آمنوا واتبعوهم، والذين كفروا بهم وخالفوهم، فإنَّ الخبر قد يبلغ على لسان المخالف، كما

(١) من الآية ١٢ من سورة العنكبوت.
(٢) من الآية ٢٦ من سورة النحل.
(٣) من الآية ٢٤ من سورة فاطر.
(٤) من الآية ٧ من سورة ص.
(٥) الجعل: حيوان معروف كالخنفساء ... انظر: النهاية في غريب الحديث (جعل).

يبلغ على لسان الموافق، وإذا سمع أيّةَ دعوة كانت إلى الله تعالى، فترك أن يستدل بعقله، كان مُعْرِضاً عن الدعوة فكفر، والله أعلم. وإن أمكن أن يكون لم يسمع قط بدين، ولا بدعوة نبى، ولا عرف أن فى العالم من يُثبت إلهاً، وما نرى أن ذلك يكون، فأمره على الاختلاف، يعني: عند من يُوجب الإيمان بمجرد العقل، ومن لا يُوجبه إلا بانضمام النقل.هـ.

وقال الزركشى، فى آخر باب النيات، من شرحه على المنهاج: وقد أشار الشافعي إلى عسر تصور عدم بلوغ الدعوة، حيث قال: وما أظن أحداً إلا بلغته الدعوة، إلا أن يكون قوم من وراء النهر. وقال الدميرى: وقال الشافعي: ولم يبق أحد لم تبلغه الدعوة. انتهى؛ على نقل شيخ شيوخنا سيدى عبدالرحمن الفاسى رضي الله عنه.

ثم قال تعالى: ﴿ وإذا أردنا أن نُهلك قريةً ﴾ أى: تعلقت إرادتنا بإهلاكها؛ لإنفاذ قضائنا السابق، ودنا وقتُ إهلاكها، ﴿ أمرنا مُتْرفيها ﴾؛ منعميها، بمعنى رؤسائها؛ بالطاعة على لسان رسول بعثناه إليهم، ويدل على ذلك ما قبله وما بعده، فإن الفسق هو الخروج عن الطاعة، لقوله: ﴿ ففسقُوا فيها ﴾؛ خرجوا عن أمرنا. وقيل: أمرناهم: ألهمناهم الفسق وحملناهم عليه، أو: جعلنا لهم أسباب حملهم على الفسق؛ بأن صببنا عليهم من النعم ما أبطرهم، وأفضى بهم إلى الفسوق، ﴿ فحقَّ عليها القولُ ﴾؛ وجب عليها كلمة العذاب السابق بحلوله، أو بظهورِ معاصيهم. ﴿ فدمرناها تدميراً ﴾؛ أهلكناها بإهلاك أهلها وتخريبها. ﴿ وكم أهلكنا ﴾ أى: كثيراً أهلكنا ﴿ من القُرون ﴾ أى: الأمم ﴿ من بعد نوح ﴾؛ كعاد وثمود وأصحاب الأيكة، ﴿ وكفى بربك بذنوب عباده خبيراً بصيراً ﴾؛ عالماً ببواطنها وظواهرها، فيعاقب عليها أو يعفو. وبالله التوفيق.

الإشارة: من اهتدى إلى حضرة قدسنا فإنما يهتدى لينعم نفسه بأسرار قدسنا، ومن ضل عنها فإنما يضل عليها؛ حيث حرمها لذيذ المعرفة. فإن كان فى رفقة السائرين، ثم غلبه القضاء، فلا يتعدى وبال رجوعه إلى غيره، بل ما كان يصل إليه من المدد يرجع إلى أصحابه، وما كنا معذبين أحداً؛ بإسدال الحجاب بيننا وبينه، حتى نبعث من يُعَرِّف بنا، ويكشف الحجاب بيننا وبين من يريد حضرتنا. والمراد بالحجاب: حجاب الوهم؛ بإثبات حس الكائنات، فلو انهتك حجاب الوهم لوقع العيان على فقد الأعيان، ولو أشرق نورُ الإيقان لغطى وجودَ الأكوان. وإذا أردنا أن نتلف قلوباً أمرنا أربابها بالتنعم بالحظوظ والشهوات، فخرجوا عن طريق المجاهدة والرياضة، فحق عليها القول بغم الحجاب، فدمرناها تدميراً، أى: تركناها تجول فى أودية الخواطر والشكوك، فتلفت وهلكت، نعوذ بالله من شر الفتن ودرك المحن.

وسَبَبُ الهلاك هو حب الدنيا، كما قال تعالى:

﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَـٰٓؤُلَآءِ وَهَـٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْـَٔاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَـٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾ ﴾

قلت : (لمن نُريد): بدل من ضمير (له)؛ بدل بعض من كل. و (كُلاً): مفعول (نُمد)، و (هؤلاء): بدل منه. و(كيف): حال، و (درجات) و(تفضيلا): تمييز.

يقول الحق جل جلاله: ﴿من كان يُريد﴾ بعمله الدنيا ﴿العاجلة﴾، مقصوراً عليها همه، ﴿عجَّلنا له فيها ما نشاء لمن نُريد﴾ التعجيل له. قيَّد المعجل والمعجل له بالمشيئة والإرادة؛ لأنه لا يجد كل متمن ما يتمناه، ولا كل واحد جميع ما يهواه. قاله البيضاوي. ﴿ثم جعلنا له﴾ في الآخرة ﴿جهنم يصلاها﴾؛ يدخلها ويحترق بها، حال كونه ﴿مذموماً مدحوراً﴾؛ مطروداً من رحمة الله. والآية في الكفار، وقيل: في المنافقين، الذين يغزون مع المسلمين لقصد الغنائم. والأصح: أنها تعم كل من اتصف بهذا الوصف.

﴿ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها﴾؛ عمل لها عملها اللائق بها، وهو: الإتيان بما أمر به، والانتهاء عما نهى عنه، لا التقرب بما يخترعون بآرائهم. وفائدة اللام في قوله: «لها»: اعتبار النية والإخلاص. والحال أن العامل ﴿مؤمن﴾ إيماناً صحيحاً لا شرك معه ولا تكذيب، فإنه العمدة، ﴿فأولئك﴾ الجامعون للشروط الثلاثة ﴿كان سعيهم مشكوراً﴾ عند الله، مقبولاً مثاباً عليه؛ فإن شُكر الله هو الثواب على الطاعة.

﴿كُلاًّ نُمدُّ﴾ أي: كل واحد من الفريقين نُمد بالعطاء مرة بعد أخرى، ﴿هؤلاء﴾ المريدين للدنيا، ﴿وهؤلاء﴾ المريدين للآخرة، نُمد كلاّ ﴿من عطاء ربك﴾ في الدنيا، ﴿وما كان عطاءُ ربك﴾ فيها ﴿محظوراً﴾؛ ممنوعاً من أحد، لا يمنعه في الدنيا مؤمن ولا كافر، تفضلاً منه تعالى. ﴿أنظر كيف فضلنا بعضهم على بعض﴾ في الرزق والجاه، ﴿وللآخرةُ أكبرُ درجاتٍ وأكبرُ تفضيلاً﴾ من الدنيا، فينبغي الاعتناء بها دونها، والتفاوت في الآخرة حاصل للفريقين، فكما تفاوتت الدرجات في الجنة تفاوتت الدركات في النار.

وسبب التفاوت: زيادة اليقين، والترقي في أسرار التوحيد لأهل الإيمان، أو الانهماك في الكفر والشرك لأهل الكفران. ولذلك قال تعالى: ﴿ لا تجعلْ مع الله إلهًا آخر ﴾ تعبده. والخطاب لكل سامع، أو للرسول ﷺ، والمراد أمته، ﴿ فتقعد ﴾؛ فتصير حينئذ ﴿ مذموماً مخذولاً ﴾؛ جامعاً على نفسك الذم من الملائكة والمؤمنين، والخذلان من الله. ومفهومه: أن الموحد يكون ممدوحاً منصوراً في الدارين.

الإشارة: قال ﷺ: «مَنْ كانَت الدُّنيَا همَّهُ، فرَّقَ اللهُ علَيْه أمْرَهُ، وجعَل فقْرَهُ بيْنَ عيْنَيْه، ولَمْ يأته مِنَ الدُّنيا إلاَّ مَا قُسِمَ لَهُ. ومَنْ كانَتِ الآخِرةُ نيَّتَهُ، جمعَ اللهُ عليه أمْرَهُ، وجَعَلَ غِناهُ في قلْبِه، وأتَتْهُ الدُّنْيَا وهِيَ صاغِرَةٌ»(١)، واعلم أن الناس على قسمين؛ قوم أقامهم الحق لخدمته، وهم: العباد والزهاد، وقوم اختصهم بمحبته، وهم: العارفون بالله؛ أهل الفناء والبقاء، قال تعالى: ﴿كلاً نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك، وما كان عطاء ربك محظوراً. انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض﴾؛ في الكرامات والأنوار، وفي المعارف والأسرار. وفضلُ العارفين على غيرهم كفضلِ الشمس على سائر الكواكب، هذا في الدنيا، ﴿وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا﴾، يقع ذلك بالترقي في معارج أسرار التوحيد، وبتفاوت اليقين في معرفة رب العالمين. وقال القشيري في تفسير الآية: منهم من لا يغيب عن الحضرة لحظة، ثم يجتمعون في الرؤية، ويتفاوتون في النصيبِ لكلٍ. وليس كلُّ أحد يراه بالعين الذي يراه به صاحبه. وأنشدوا:

لو يَسْمَعُون ـ كما سمعتُ ـ حديثها ... خَرُّوا لِعَزَّةَ رُكَّعاً وسجودا (٢)

وقال الورتجبي: فضَّل العابدين بعضهم على بعض في الدنيا بالطاعات، وفضَّل العارفين بعضهم على بعض بالمعارف والمشاهدات، فالعباد في الآخرة في درجات الجنان متفاوتون، والعارفون في درجات وصال الرحمن متفاوتون. وقال القشيري أيضاً: من كانت مشاهدته اليوم على الدوام، كانت رؤيته غداً على الدوام، ومن لا فلا. هـ. وقد تقدم تفاوت الناس في الرؤية بأبسط من هذا، عند قوله تعالى: ﴿ لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ ﴾(٣). والله تعالى أعلم.

ثم بيَّن السعي للآخرة، فقال:

﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا (٢٣) وَٱخْفِضْ

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند (٥/١٨٣)، وابن ماجة في (كتاب الزهد، باب الهم في الدنيا) من حديث زيد بن ثابت، وأخرجه الترمذي في (القيامة، باب ٣٠) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.
(٢) البيت لكثير عزة. انظر ديوانه (٤٤٢)، وتزيين الأسواق (١/٤١).
(٣) الآية ١٠٣ من سورة الأنعام.

لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا۟ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ ﴾

قلت: (قضى)، هنا، بمعنى حكم وأوجب وأمر، لا بمعنى القضاء؛ إذ لو كان كذلك لما عُبد غير الله. وفي مصحف ابن مسعود: «ووصى ربك ألا تعبدوا». و(أن): مفسرة، أو مصدرية، أي: بأن لا تعبدوا، و(إما): إن الشرطية دخلت عليها «ما» المؤكدة. و (فلا تقل): جوابها. وتوحيد ضمير الخطاب في (عندك)، وفيما سبق ـ مع أن ما سبق ضمير الجمع ـ؛ للاحتراز عن التباس المراد، فإنّ المقصود نهي كل أحد عن تأفيف والديه ونهرهما. ولو قوبل الجمع بالجمع، أو بالتثنية، لم يحصل هذا المرام.

و«أفٍّ»: اسم فعل، معناها: قول مكروهٌ، يقال عند الضجر ونحوه. قال الهروي: أي: لا تقل لهما ما يكون فيه أدنى تبرم، ويقال لكل ما يضجر منه ويستثقل: أُفّ لَهُ. وقال في القاموس: أفَّ، يؤفُّ، ويئفُّ: تأفف من كَرْبٍ أوْ ضَجَر. وأُفّ: كلمة تكره، وأفف تأفيفًا، وتأفّفَ، قالها[1]، ولغتها أربعون، ثم ذكرها. وحركتها للبناء، وتنوينها للتنكير.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وقضى ربُّك ﴾؛ أَمَر أمْرًا مقطوعًا به، بـ ﴿ ألاَّ تعبدوا إلا إياه ﴾؛ لأن غاية التعظيم لا يكون إلا لمن له غاية العظمة ونهاية الإنعام، وهو الله وحده، ﴿ و ﴾ أحسنوا ﴿ بالوالدين إحسانًا ﴾؛ لأنهما السبب الظاهر في وجود العبد، وبهما قامت نعمة الإمداد من التربية والحفظ في مظاهر الحكمة، وإلاَّ فما ثَمّ إلا تربية الحق تعالى، ظهرت في مظاهر الوالدين، لكن أمر بشكر الواسطة؛ «من لم يشكر الناس لم يشكر الله».

ثم أمر ببرهما، فقال: ﴿ إما يبلغنّ عندك الكبَرَ أحدُهما أو كلاهما ﴾ أي: مهما بلغ زمن الكِبَرِ، وهما عندك في كفالتك، هما أو أحدهما، ﴿ فلا تقلْ لهما أُفّ ﴾ أي: فلا تضجر فيما يستقذر منهما ويستثقل من مؤنتهما، ولاتنطق بأدنى كلمة توجعهما، فأحرى ألا يقول لهما ما فوق ذلك. فالنهي عن ذلك يدل على المنع من سائر أنواع الإيذاء؛ قياسًا بطريق الأحْرى. وقال في الإحياء: الأُفّ: وسخ الظفر، والتف: وسخ الأذن، أي: لا تصفهما بما تحت الظفر من الوسخ، فأحرى غيره، وقيل: لا تتأذّ بهما كما يتأذى بما تحت الظفر.هـ.

﴿ ولاتنهرهما ﴾؛ ولا تزجرهما عما لا يعجبك بإغلاظٍ، فإن كان لإرشاد ديني فبرفق ولين. ﴿ وقل لهما قولاً كريمًا ﴾؛ جميلاً لينًا لا غلظ فيه، ﴿ واخفض لهما جناحَ الذل ﴾؛ أَلِنْ لهما جانبك الذليل، وتذلل لهما وتواضع. استعار للذل جناحًا، وأضافه إليه؛ مبالغة؛ فإنّ الطير إذا تذلل أرخى جناحه إلى الأرض، كذلك الولد، ينبغي أن يخضع لأبويه، ويلين جانبه، ويتذلل لهما غايه جهده. وذلك ﴿ مِنَ الرحمة ﴾ أي: من إفراط الرحمة

(١) أي: قال كلمة «أف».

لهما والرقة والشفقة عليهما. ﴿وقل ربِّ أرحمهما﴾ أي: وادع الله أن يرحمهما برحمته الباقية، ولا تكتف برحمتك الفانية، وإن كانا كافرين؛ لأن من الرحمة أن يهديهما للإسلام، فقل: اللهم ارحمهما ﴿كما ربياني صغيراً﴾ أي: رحمة مثل رحمتهما عليّ وتربيتهما وإرشادهما لي في صغري، وفاء بعهدك للراحمين. فالكاف في محل نصب؛ على أنه نعت لمصدر محذوف، أي: رحمة مثل تربيتهما، أو مثل رحمتهما لي، على أن التربية رحمة. ويجوز أن يكون لهما الرحمة والتربية معاً، وقد ذكر أحدهما في أحد الجانبين والآخر في الآخر، كما يلوح له التعرض لعنوان الربوبية، كأنه قيل: رب ارحمهما، وربِّهِما كما ربياني صغيرا. ويجوز أن يكون الكاف للتعليل، كقوله: ﴿وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ﴾(١).

ولقد بالغ الحق تعالى في التوصية بالوالدين؛ حيث شفع الإحسان إليهما بتوحيده سبحانه، ونظمهما في سلك القضاء بعبادته، ثم ضيق في برهما حتى لم يُرخص في أدنى كلمة تتفلت من المتضجر، وختمها بأن جعل رحمته التي وسعت كلَّ شيء مشبهة بتربيتهما. وعن النبي ﷺ أنه قال: «رِضَا اللهِ في رِضَا الوَالِدَين، وَسَخَطُهُ في سَخَطِهِمَا»(٢). ورُوِي: أن رجلا قال لرسول الله ﷺ: إن أبَوَيَّ بلَغَا مِنْ الكِبَرِ إلى أنِّي ألِي منهما ما ولَيَا مِنِّي في الصغر، فهل قضيتهما حقهما؟ قال: «لا؛ فإنهما كانا يفعلان ذلك وهما يحبان بقاءك، وأنت تفعل ذلك وأنت تريد موتهما». ورُوِي أن شيخاً أتى النبي ﷺ فقال: إن ابني هذا له مال كثير، ولا ينفق عليَّ من ماله شيئاً، فنزل جبريل وقال: إن هذا الشيخ أنشأ في ابنه أبياتاً، ما قَرِعَ سَمْعٌ بمثلها، فاستنشدها، فأنشدها الشيخ، فقال:

غَـذَوْتُك مَـولُودا، ومُنْتُك يَافِـعـاً، تُعلُّ بما أُجْـرِي عليك، وتَنْهَلُ
إذاَ ليلَةٌ ضَـافَـتْك بالسُّقْمِ لَـم أبِتْ؛ لسُـقْـمِكَ، إلا بـاكِـيـاً أتَمَلْمَلُ
كَـأَنِّي أنـا المَطْـرُوقُ دُونَـك بالذي طُرِقتَ به دُوني، وعَـيْني تَهْـمَلُ
فَـلَمَّا بَـلَـغْتَ السِّـنَّ والـغَـايَـةَ الَّـتي إلَيْـهـا مَـدَى مَـاكُنْتُ فِـيك أُؤَمِّلُ
جَـعَـلْتَ جَـزَائي غِـلْـظَةً وفَظَاظَةً كَـأنَّك أنتَ المُنْعِمُ المُـتَـفَـضِّلُ
فَـلَيْتَكَ، إذ لَــمْ تَـرْعَ حَـقَّ أُبُـوَّتـي، فَعلْتَ كَمَا الجَارُ المجاورُ يَفْعَلُ(٣)

(١) من الآية ١٩٨ من سورة البقرة.
(٢) أخرجه الترمذي في (البر، باب الفضل في رضا الوالدين)، وابن حبان (الإحسان ـ البر والصلة ح ٤٣٠)، وصححه الحاكم في المستدرك (١٥٢/٤) من حديث عبدالله بن عمرو.
(٣) أخرجه بنحوه البيهقي في الدلائل (٣٠٤/٦)، والطبراني في الأوسط عن جابر بن عبدالله. وفي آخره: فأخذ النبي ﷺ بتلابيب ابنه وقال: «أنت ومالك لأبيك».

ومن تمام برهما: زيارتهما بعد موتهما، والدعاء لهما، والتصدق عليهما، ففي الحديث: « إنما الميت فى قبره كالغريق، ينتظر دعوة تلحقه من ابنه أو أخيه أو صديقه، فإذا لحقته كانت أحب إليه من الدنيا وما فيها» . وروى مالك فى الموطأ عن سعيد بن المسيب أنه قال: (كان يقال: إن الرجل ليرفع بدعاء ولده من بعده، وأشار بيده نحو السماء)، وهو مرفوع إلى النبى ﷺ: من طريق أبى هريرة قال: «إن الله ليرفع العبد الدرجة، فيقول: يارب، أنّى لى بها؟! فيقول: باستغفار ابنك لك»(١)، وسأل رجل النبى ﷺ: هل بقى من بر أبوىّ شىء أبرهما به، بعد موتهما؟ فقال: «نعم.. الصلاة عليهما ـ أى: الترحم والاستغفار لهما ـ، وإنفاذ عهدهما من بعدهما، وصلة الرحم التى لاتوصل إلا بهما، وإكرام صديقهما»(٢) .

قال تعالى: ﴿ ربكم أعلمُ بما فى نفوسكم ﴾ من قصد البر إليهما، واعتقاد ما يجب لهما من التوقير. وكأنه تهديد على أن يُضمر لهما كراهة واستثقالا، ﴿ إن تكونوا صالحين ﴾ ؛ قاصدين للصلاح، أو طائعين لله، ﴿ فإنه كان للأوابين ﴾ : التوابين، أو الرجّاعين إلى طاعته، ﴿ غفوراً ﴾ لما فرط منهم عند حرج الصدر؛ من إذاية ظاهرة أو باطنة، أو تقصير فى حقهما. ويجوز أن يكون عاماً لكل تائب، ويندرج فيه الجانى على أبويه اندراجاً أوليا. والله تعالى أعلم.

الإشارة: كل ما أوحى الله تعالى به فى حق والدى البشرية، يجرى مثله فى والد الروحانية، وهو الشيخ، ويزيد؛ لأنه أوكد منه؛ لأنَّ أب البشرية كان السبب فى خروجه إلى دار الدنيا، معرضاً للعطب أو السلامة، وأب الروحانية كان سبباً فى خروجه من ظلمة الجهل إلى نور العلم والوصلة، وهما السبب فى التخليد فى النعيم الذى لا يفنى ولايبيد. وقد تقدم فى سورة النساء تمام هذه الإشارة(٣) . والله تعالى أعلم.

ثم أمر بالإحسان إلى القرابة؛ لقربهما من الوالدين، تعظيماً لهما، فقال:

﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَـٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَـٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾ ﴾

(١) أخرجه أحمد فى المسند (٢/٥٠٩)، وابن ماجة في (الأدب، باب بر الوالدين) من حديث أبى هريرة رضي الله عنه.
(٢) أخرجه أبو داود فى (الأدب، باب فى بر الوالدين) وابن ماجة في (الأدب، باب صل من كان أبوك يصل) والحاكم فى المستدرك (٣٠٦٦/٢)، وصححه ووافقه الذهبى من حديث مالك بن ربيعة الساعدى الأنصاريّ.
(٣) راجع إشارة الآية ٣٦ من سورة النساء.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وآتِ ذا القُربى حقه ﴾ أى: أعط ذا القرابة حقه؛ من البر، وصلة الرحم، وحسن المعاشرة. وقال أبو حنيفة: إذا كانوا محاويج فقراء: أن ينفق عليهم. وقيل: الخطاب للرسول ﷺ أن يُؤتى قرابته من بيت المال، ﴿ و ﴾ آت ﴿ المسكينَ ﴾ حقه ﴿ وابنَ السبيل ﴾؛ الغريب، من برهما والإحسان إليهما، ﴿ ولا تبذِّرْ تبذيراً ﴾؛ بصرف المال فيما لا ينبغى، وإنفاقه على وجه السرف. قال ابن عزيز: التبذير فى النفقة: الإسراف فيها، وتفريقها فى غير ما أحل الله. هـ. وأصل التبذير: التفريق. رُوى عن النبى ﷺ أنه قال لسعد، وهو يتوضأ: «مَا هذَا السَّرَفُ؟ فقال: أَو فِي الوُضُوءِ سَرَفٌ؟ فقال: نَعَمْ، وإِنْ كنْتَ علَى نَهرٍ جَارٍ»(١).

﴿ إنَّ المبذّرين كانوا إخوانَ الشياطين ﴾ أى: أمثالهم فى الشر؛ فإن التضييع والإتلاف شر. أو: على طريقتهم، أو: أصدقاؤهم وأتباعهم؛ لأنهم يطيعونهم فى الإسراف، رُوى أنهم كانوا ينحرون الإبل ويتياسرون عليها ـ أى: يتقامرون ـ من الميسر، وهو القمار. ويُبذرون أموالهم فى السمعة، فنهاهم الله تعالى عن ذلك، وأمرهم بالإنفاق فى القرابات. ﴿ وكان الشيطانُ لربِّه كفوراً ﴾؛ مبالغاً فى الكفر، فينبغى ألا يطاع .

﴿ وإما تُعْرِضنَّ عنهم ﴾ أى: وإن أعرضت عما ذكر من ذوى القربى والمسكين وابن السبيل؛ حياء من الرد، حيث لم تجد ما تُعطيهم، ﴿ ابتغاءَ رحمةٍ من ربك ترجوها ﴾أى: لطلب رزق تنتظره يأتيك لتعطيهم منه، ﴿ فقلْ لهم قولاً ميسوراً ﴾؛ فقل لهم قولاً ليناً سهلا، بأن تعدهم بالعطاء عند مجئ الرزق، وكان ﷺ إذا سأله أحد، ولم يجد ما يعطيه، أعرض عنه، حياء منه. فأمرَ بحسن القول مع ذلك، مثل: رزقنا الله وإياكم، والله يُغنيكم من فضله، وشبه ذلك.

ثم أمره بالتوسط فى العطاء، فقال: ﴿ ولا تجعل يدكَ مغلولةً إلى عُنقك ﴾ أى: لا تمسكها عن الإنفاق كل الإمساك، ﴿ ولا تبسُطها كلَّ البسط ﴾، وهو استعارة لغاية الجود، فنهى الحقُّ تعالى عن الطرفين، وأمر بالتوسط فيهما، كقوله: ﴿ إِذَا أَنفقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا . . . ﴾(٢) الآية. ﴿ فتقعُدَ ملوماً محسوراً ﴾ أى: فتصير، إذا أسرفت، ملومًا عند الله وعند الناس؛ بالإسراف وسوء التبذير، محسورا: منقطعاً بك، لا شيء عندك. وهو من قولهم: حسر السفر بالبعير: إذا أتعبه، ولم يُبْقِ له قوة. وعن جابر رضي الله عنه: بينا رَسُولُ اللهِ ﷺ جَالِسٌ، أتاهُ صبى،

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى المسند (٢/٢٢١)، وابن ماجة فى (الطهارة، باب ماجاء فى القصد فى الوضوء) من حديث عبدالله بن عمرو.
(٢) من الآية ٦٧ من سورة الفرقان.

فقال له: إن أُمّي تَسْتَكْسيكَ الدِّرْعَ الذى عليكَ، فدَخَلَ دارَهُ ونَزَعَ قَميصَهُ وأعطاه، وقَعَدَ عُرْيَاناً، وأذَّن بلالٌ، وانتظره للصلاة، فلم يخرجْ، فأنزل الله: ﴿ولا تجعل يدك...﴾ الآية(١).

ثم سلاّه بقوله: ﴿إنَّ ربك يبسط الرزق﴾؛ يوسعه ﴿لمن يشاءُ ويَقْدِرُ﴾؛ يضيقه على من يشاء. فكل ما يصيبك من الضيق فإنما هو لمصلحة باطنية، ﴿إنه كان بعباده خبيراً بصيراً﴾؛ يعلم سرهم وعلانيتهم، فيعلم مِنْ مصالحهم ما يخفى عليهم؛ فيرزقهم على حسب مصالحهم، ويضيق عليهم على قدر صبرهم. والحاصل: أنه يُعطى كل واحد ما يَصلح به، والله أعلم.

الإشارة: أمر الحق ـ جل جلاله ـ رسوله ﷺ، وخلفاءه ممن كان على قدمه، أن يعطوا حق الواردين عليهم من قرابة الدين والنسب، والمساكين والغرباء، من البر والإحسان حساً ومعنى؛ كتعظيم ملاقاتهم وإرشادهم إلى ما ينفع بواطنهم، والإنفاق عليهم، من أحسن ما يجد، حساً ومعنى، وخصوصاً الإخوان فى الله. فكل ما يُنفق عليهم فهو قليل فى حقهم، ولا يُعد سرفًا، ولو أنفق ملء الأرض ذهبًا. قال فى القوت: دعا إبراهيمُ بن أدهم الثوريَّ وأصحابَه إلى طعام، فأكثر منه، فقال له سفيانُ: يا أبا اسحاق؛ أما تخاف أن يكون هذا سرفاً؟ فقال إبراهيم: ليس فى الطعام سرف. هـ. قلت: هذا إن قدّمه إلى الإخوان الذاكرين الله؛ قاصداً وجه الله، وأما إن قدمه؛ مفاخرة ومباهاة دخله السرف. قاله فى الحاشية الفاسية، ومثله فى تفسير القشيرى، وأنه لا سرف فيما كان لله، ولو أنفق ما أنفق. بخلاف ما كان لدواعى النفس ولو فلسًا. هـ. وأما الخروج عن المال كله فمذموم، إلا من قوى يقينه، كالصدّيق، ومن كان على قدمه. وكذلك الاستقراض على الله، واشتراؤه بالدَّين من غير مادة معلومة، إن كان قوى اليقين، وجرّب معاملته مع الحق، فلا بأس بفعل ذلك؛ وإلاّ فليكف؛ لئلا يتعرض لإتلاف أموال الناس فيتلفه الله. وبالله التوفيق.

ولما أمر بما يُقربنا إليه نهى عما يُبعدنا عنه، فقال:

﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّي ٱلْقَتْلِۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾ وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥۚ وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ ﴾

(١) ذكره البغوى فى تفسيره (٥/ ٩٠)، والواحدى فى أسباب النزول ص ٩٤). وقال الحافظ ابن حجر فى الكافى الشاف: لم أجده.

قلت : (خشية) : مفعول من أجله؛ لأن الخشية قلبية، بخلاف الإملاق، فإنه حسى؛ فَجُرَّ بمن فى سورة الأنعام.(١) وهذه الآية فى أغنياء العرب، الذين كانوا يخشون وقوع الفقر، وما فى «الأنعام» نزلت فى فقرائهم، الذين كان الفقر واقعاً بهم، ولذلك قدَّم هناك كاف الخطاب، وأخَّره هنا، فتأمله. و«خِطأ» يقال: خطئ خطأ، كأثم إثماً. وقرأ ابن عامر: «خَطأ»، بفتحتين، فهو إما اسم مصدر أخطأ، أو لغة فى خطئ، كمِثل ومَثل، وحِذر وحَذر. وقرأ ابن كثير: «خِطاء»؛ بالمد، إما لغة، أو مصدر خاطأ. انظر البيضاوى.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ولا تقتلوا أولادكم ﴾ مخافة الفاقة المستقبلة، وقد كانوا يقتلون البنات ـ وهو الوأد ـ مخافة الفقر، فنهاهم عن ذلك، وضمن لهم أرزاقهم، فقال: ﴿ نحن نرزقهم وإياكم ، إنَّ قتلهم كان خِطأً ﴾؛ إثماً ﴿ كبيراً ﴾؛ لما فيه من قطع التناسل وانقطاع النوع وإيلام الروح. ﴿ ولاتقربوا الزنا ﴾، نهى عن مقاربته بالمقدمات. كالعزم، والنظر وشبهه، فأحرى مباشرته، ﴿ إنه كان فاحشةً ﴾ أى: فعلة ظاهراً فُحشها وقُبحها ، ﴿ وساء سبيلاً ﴾؛ قبح طريقاً طريقُهُ، وهو غصب الأبْضاع؛ لما فيه من اختلاط الأنساب وهتك محارم الناس، وتهييج الفتن.

﴿ ولا تقتلوا النفسَ التي حرَّم اللهُ إلا بالحق ﴾؛ إلا بإحدى ثلاث: كفر بعد إيمان، وزنى بعد إحصان، وقتل مؤمن معصوم؛ عمداً، كما فى الحديث(٢). ويلحق بها أشياء فى معناها: كالحِرابَة، وترك الصلاة، ومنع الزكاة. ﴿ ومن قُتل مظلوماً ﴾ أى: غير مستوجب للقتل ﴿ فقد جعلنا لوَلِيِّه ﴾ أى: الذى يلى أمره بعد وفاته، وهو الوارث، ﴿ سُلطاناً ﴾؛ تسلطاً بالمؤاخذة بمقتضى القتل بأخذ الدية، أو القصاص، وقوله: «مظلوماً»: يدل على أن القتل عمد؛ لأن الخطأ لا يُسمى ظلماً. أو: جعلنا له حجة غالبة، ﴿ فلا يُسرفْ فى القتل ﴾؛ بأن يقتل من لا يحق قتله، أو بالمثلة، أو قتل غير القاتل، ﴿ إنه ﴾ أى: الولى ﴿ كان منصوراً ﴾؛ حيث وجب القصاص له، وأمر الولاة بمعونته. أو: إنه، أى: المقتول، كان منصوراً فى الدنيا؛ بثبوت القصاص ممن قتله، وفى الآخرة بالثواب.

﴿ ولا تقربُوا مالَ اليتيم ﴾ فضلاً عن أن تتصرفوا فيه ﴿ إلا بالتى هى أحسنُ ﴾؛ إلا بالطريقة التى هى أحسن، كالحفظ والتنمية، ﴿ حتى يبلغ أشُدَّه ﴾؛ حتى يتم رشده، ثم يدفع له، فإن دفعه لمن يتصرف فيه بالمصلحة فلا بأس، ﴿ وأوفُوا بالعهد ﴾ إذا عاهدتم الله أو الناس، ﴿ إن العهدَ كان مسئولاً ﴾ أى: مطلوباً الوفاء

(١) فى قوله تعالى: ﴿قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم...﴾ الآية ١٥١.
(٢) أخرجه البخارى فى (الديات، باب قول الله تعالى: «أن النفس بالنفس...الخ)، ومسلم فى (القسامة، باب مايباح به دم المسلم) عن عبد الله بن مسعود، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله، إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة».

به، فيطلب من المعاهد ألا يُضيعه، أو: مسئولاً عنه، فيُسأل عنه الناكث ويُعاتب عليه، أو: يُسأل العهد نفسُه لِمَ نُكِثَ، تبكيتًا للناكث، ﴿ وأوفوا الكيل إذا كِلْتم ﴾ ولا تبخسوا فيه، ﴿ وزِنُوا بالقسطاس المستقيم ﴾؛ بالميزان السوى. والقسطاس: لغة رومية، ولا يقدح ذلك فى عربية القرآن؛ لأن غير العربى، إذا استعملته العرب، فأجرته مجرى كلامهم فى الإعراب والتعريف والتنكير، صار عربياً. قاله البيضاوى. ﴿ ذلك خيرٌ وأحسنُ تأويلاً ﴾ أى: أحسن عاقبة ومآلاً. والله تعالى أعلم.

الإشارة: ولا تقتلوا ما أنتجته الأفكار الصافية من العلوم؛ بإهمال القلوب فى طلب رزق الأشباح، خشية لحوق الفقر، فإنّ الله ضامن لرزق الأشباح والأرواح. ولا تميلوا إلى الحظوظ، التى تُخرجكم عن حضرة الحق؛ فإن ذلك من أقبح الفواحش. ولا تقتلوا النفس بتوالى الغفلة والجهل، التى حرّم الله قتلها وإهمالها، وأمر بإحيائها بالذكر والعلم، ومن قُتل بذلك مظلوماً؛ بحيث غلبته نفسه، ولم تساعده الأقدار، فقد جعلنا لعقله سلطاناً، أى: تسلطاً عليها؛ بمجاهدتها وقتلها وردها إلى مولاها، فلا يُسرف فى قتلها، بل بسياسة وحيلة، كما قال القائل:

واحْـتَلْ عَلَى النَّفْسِ فَـرُبَّ حِـيلَةْ أَنْفَعُ فِى النُّصْـرَةِ مِنْ قَـبِـيلَةْ

إنه كان منصوراً ، إن انتصر بمولاه، وآوى بها إلى شيخ كامل، قد فرغ من تأديب نفسه وهواه. وقد تقدم باقى الإشارة فى سورة الأنعام (١) وغيرها. وبالله التوفيق.

ثم قال تعالى:

﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾
وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ
عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ
فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾ أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنَـٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا
عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ ﴾

(١) راجع إشارة الآيتين: ١٥١ - ١٥٢ من سورة الأنعام.

قلت: قفا الشيء يقفوه: تبعه. والضمير في «عنه»: يجوز أن يعود لمصدر «لاتَقْفُ»، أو لصاحب السمع والبصر. وقيل: إن «مسئولاً» مسند إلى «عنه»، كقوله تعالى: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ﴾(١)، والمعنى: يسأل صاحبه عنه، وهو خطأ؛ لأن الفاعل وما يقوم مقامه لا يتقدم. قاله البيضاوى.

قال ابن جزى: الإشارة فى «أولئك»: إلى السمع والبصر والفؤاد، وإنما عاملها معاملة العقلاء فى الإشارة بأولئك؛ لأنها حواس لها إدراك، والضمير فى «عنه»: يعود على «كل»، ويتعلق «عنه» بمسئولا. هـ. وضمير الغائب يعود على المصدر المفهوم من «مسئولا». و(مَرَحاً): مصدر فى موضع الحال. و(مكروها): نعت لسيئة، أو بدل منها، أوخبر ثان لكان.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ولا تَقْفُ﴾؛ تتبع ﴿ما ليس لك به علمٌ﴾، فلا تقل مالا تحقيق لك به؛ من ذم الناس ورميهم بالغيب. فإذا قلت: سمعتُ كذا، أو رأيت كذا، أو تحقق عندى كذا، مما فيه نقص لأحد، فإنك تُسأل يوم القيامة عن سند ذلك وتحقيقه. وهذا معنى قوله: ﴿إنَّ السمعَ والبصرَ والفؤادَ كلُّ أولئك كان عنه مسئولاً﴾. قال البيضاوى: ولا تتبع ما لم يتعلق علمك به؛ تقليداً، أو رجماً بالغيب. واحتج به من منع اتباع الظن، وجوابه: أن المراد بالعلم هو الاعتقاد الراجح المستفاد من سند، سواء كان قطعيًا أو ظنيًا؛ إذ استعماله بهذا المعنى شائع. وقيل: إنه مخصوص بالعقائد. وقيل: بالرمى وشهادة الزور، ويؤيده قوله ﷺ: «من قَفَا مُؤْمناً بِماَ لَيْسَ فِيهِ، حَبَسَهُ اللهُ فِى رَدْغَةِ الخَبَالِ(٢)، حتَى يأتِىَ بِالمخْرَجِ»(٣). ﴿إن السمعَ والبصرَ والفؤادَ كلُّ أولئك﴾ أى: كل هذا الأعضاء الثلاثة ﴿كان عنه مسئولاً﴾؛ كل واحد منها مسئول عن نفسه، يعنى: عما فعل به صاحبه. هـ مختصرا.

﴿ولا تَمشِ فى الأرض مرحاً﴾ أى: ذا مرح، وهو: التكبر والاختيال، ﴿إنك لن تخرق الأرضَ﴾؛ لن تجعل فيها خرقاً؛ لشدة وطأتك ﴿ولن تبلغ الجبال طُولاً﴾؛ تتطاول عليها؛ عزاً وعلواً، وهو تهكم بالمختال، وتعليل للنهى، أى: إذا كنت لا تقدر على هذا، فلا يناسبك إلا التواضع والتذلل بين يدى خالقك، ﴿كلُّ ذلك﴾ المذكور، من قوله: ﴿لا تجعل مع الله إلهاً آخر﴾ إلى هنا، وهى: خَمْسٌ وعشرون خصلة، قال ابن عباس: (إنها المكتوبة فى ألواح موسى)، فكل ما ذكر ﴿كان سَيِّئةً عند ربك﴾(٤) أى: خصلة قبيحة ﴿مكروهاً﴾ أى: مذموماً مبغوضاً. والمراد بما ذكر: من المنهيات دون المأمورات.

(١) من الآية ٧ من سورة الفاتحة.
(٢) قال ابن الأثير: وردغة الخبال، جاء فى الحديث أنها عصارة أهل النار.. انظر النهاية (خبل ـ ردغ).
(٣) أخرجه أحمد فى المسند (٢/ ٧٠) وأبو داود فى (الأقضية، باب فيمن يعين على خصومة من غير أن يعلم أمرها)، من حديث ابن عمر، بلفظ: «من قال فى مؤمن ماليس فيه أسكنه الله ردغة الخبال، حتى يخرج مما قال».
(٤) قرأ عاصم وابن عامر وحمزة والكسائى وخلف «سيئه»، بضم الهمز والهاء مضافاً لهاء المذكر الغائب. اسم كان، وقرأ الباقون «سيئة» بفتح الهمزة ونصب تاء التأنيث مع التنوين على التوحيد خبر كان... انظر الإتحاف (٢/ ١٩٧) والبحر المحيط (٦/ ٣٥).

﴿ ذلك مما أوحى إليك ربُّك من الحكمة ﴾؛ التى هى علم الشرائع، أو معرفة الحق لذاته، والعلم للعمل به. ﴿ ولا تجعلْ مع الله إلهاً آخر ﴾، كرره، للتنبيه على أن التوحيد مبدأ الأمر ومنتهاه، وأنه رأس الحكمة وملاكها، ومن عُدِمَهُ لم تَنْفَعْهُ علومه وحكمه، ولو جمع أساطير الحكماء، ولو بلغت عنان السماء. والخطاب للرسول ﷺ، والمراد: غيره ممن يتصور منه ذلك. ورتب عليه، أولاً: ما هو عاقبة الشرك فى الدنيا، وهو: الذم والخذلان، وثانيا: ما هو نتيجته فى العقبى. فقال: ﴿ فتلقى فى جهنم ملوماً ﴾؛ تلوم نفسك، وتلومك الملائكة والناس، ﴿ مدحوراً ﴾؛ مطروداً من رحمة الله.

ثم قبّح رأيهم فى الشرك، فقال: ﴿ أفأصفاكُم ربُّكم بالبنين ﴾، وهو خطاب لمن قال: الملائكة بنات الله. والهمزة للإنكار، أى: أفخصَّكم ربكم بأفضل الأولاد، وهم البنون، ﴿ واتخذَ من الملائكة إناثاً ﴾؛ بناتٍ لنفسه، ﴿ إنكم لتقولون قولاً عظيماً ﴾ أى: عظيم النكر والشناعة، لا يُقْدَرُ قَدْرُهُ فى إيجاب العقوبة؛ لخرمه لقضايا العقول، بحيث لا يجترئ عليه أحد؛ حيث تجعلونه تعالى من قبيل الأجسام المتجانسة السريعة الزوال، ثم تضيفون إليه ما تكرهونه، وتُفضلون عليه أنفسكم بالبنين، ثم جعلتم الملائكة، الذين هم أشرف الخلق، أدونهم، تعالى الله عن قولكم علواً كبيرا.

الإشارة: ينبغى للإنسان الكامل أن يكون فى أموره كلها على بينة من ربه، فيُحَكِّم على ظاهره الشريعة المحمدية، وعلى باطنه الحقيقة القدسية، فإذا تجلى فى باطنه شيء من الواردات أو الخواطر فليعرضه على الكتاب والسُّنَّة، فإن قبلاه أظهره وفعله، وإلاَّ رده وكتمه، كان ذلك الأمر قولياً أو فعلياً، أو تركاً أو عقداً؛ فقد انعقد الإجماع على أنه لا يحل لامرئٍ مسلم أن يقدم على أمر حتى يعلم حكم الله فيه، وإليه الإشارة بقوله: ﴿ ولا تَقْفُ ما ليس لك به علم ﴾، فإن لم يجد نصاً فى الكتاب أو السنة فليستفت قلبه، إن صفا من خوض الحس، وإن لم يَصْفُ فليرجع إلى أهل الصفاء، وهم أهل الذكر. قال تعالى: ﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴾(١)، ولا يستفت أهل الظنون، وهم أهل الظاهر، قال تعالى: ﴿ إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴾(٢).

وقال القشيري فى تفسير الآية هنا: ﴿ ولا تَقْفُ ما ليس لك به علم ﴾ أى: جانب محاذاة الظنون، وما لم يُطْلِعْكَ الله عليه، فلا تتكلف الوقوف عليه من غير برهان. فإذا أُشْكِلَ عليك شيءٌ فى حكم الوقت، فارجعْ إلى الله،

(١) من الآية ٤٣ من سورة النحل، ومن الآية ٧ من سورة الأنبياء.
(٢) من الآية ٣٦ من سورة يونس.

فإنْ لاحَ لقلبك وَجْهٌ من التحقيق فكن مع ما أريد، وإن بقى الحال على حدّ الالتباس فَكِلْ عِلْمَه إلى الله، وقِفْ حيثما وقفت. ويقال: الفرق بين من قام بالعلم، ومن قام بالحق: أنَّ العلماء يعرفون الشيء أولاً، ثم يعملون بعلمهم، وأصحابُ الحقائق يجْرِى، بحكم التصريف عليهم، شىء، ولا عِلمَ لهم به على التفصيل، وبعد ذلك يُكْشَف لهم وجهُه، فربما يجرى على لسانهم شيء لا يدرون وَجْهَه، ثم بعد فراغهم من النطق به يظهر لقلوبهم برهان ما قالوه من شواهد العلم؛ إذ يتحقق ذلك بجريان الحال في ثاني الوقت. انتهى. قلت: وإلى هذا المعنى أشار في الحكم العطائية بقوله: "الحقائق ترد في حال التجلى مُجْمَلَةً، وبعد الوعى يكون البيان، ﴿ فإذا قرأناه فاتبع قرآنه﴾ ".

قوله تعالى: ﴿ ولا تمشِ في الأرض مرحاً﴾، ورد في بعض الأخبار، في صفة مشى الصوفية: أنهم يدبون على أقدامهم دبيب النمل، متواضعين خاشعين، ليس فيه إسراع مُخل بالمروءة، ولا اختيال مُخل بالتواضع. والله تعالى أعلم.

ثم أمر بالرجوع إلى كتابه، فقال:

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ولقد صرَّفنا ﴾؛ بيَّنا ﴿ في هذا القرآن ﴾ من الأمثال والعبر، والوعد والوعيد؛ ﴿ ليذَّكروا ﴾؛ ليتعظوا به، ﴿ وما يزيدُهم ﴾ ذلك ﴿ إلا نفوراً ﴾ عن الحق وعناداً له.

الإشارة: من شأن القلوب الصافية: إذا سمعت كلام الحبيب فرحت واهتزت، أو خشعت واقشعرت من هيبة المتكلم، كلٌّ على ما يليق بمقامه، ومن شأن القلوب الخبيثة المكدرة: نفورها من كلام الحق؛ إذ الباطل لا يُقاوم الحق، ولا يطيق مواجهته. والله تعلى أعلم.

ثم أبطل مذاهب أهل الشرك، فقال :

﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ قلْ ﴾ يا محمد: ﴿ لو كان معه ﴾ في الوجود ﴿ آلهةٌ ﴾ تستحق أن تُعبد، ﴿ كما تقولون ﴾ (١) أيها المشركون، أو كما يقول المشركون أيها الرسول، ﴿ إذاً لا بتغوا ﴾؛ لطلبوا

(١) قرأ حفص وابن كثير: (يقولون) بالياء، وقرأ الآخرون بالتاء،، انظر الإتحاف (٢/١٩٩).

﴿إلى ذى العرش سبيلاً﴾؛ طريقًا يقاتلونه. وهذا جواب عن مقالتهم الشنعاء. والمعنى: لطلبوا إلى من هو ملك الملك طريقاً بالمعاداة، كما تفعل الملوك بعضهم مع بعض. وهذا كقوله: ﴿ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾(١). وقيل: لا بتغوا إليه سبيلاً بالتقرب إليه والطاعة؛ لعلمهم بقدرته، وتحققهم بعجزهم، كقوله: ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ ﴾(٢). ثم نزه نفسه عن ذلك فقال: ﴿سبحانه﴾؛ تنزيهاً له ﴿وتعالى﴾؛ ترافع ﴿عمّا يقولون﴾ من الشركاء، ﴿علواً﴾؛ تعالياً ﴿كبيراً﴾ لاغاية وراءه. كيف لا؛ وهو تعالى فى أقصى غاية الوجود! وهو الوجوب الذاتي، وما يقولونه؛ من أنّ له تعالى شركاء وأولاداً، فى أبعد مراتب العدم، أعني: الامتناع؛ لأنه من خواص المحدثات الفانية.

﴿يسبح له السمواتُ السبعُ﴾(٣) أى: تنزهه، ﴿والأرضُ ومن فيهن﴾ كلها تدل على تنزيهه عن الشريك والولد، ﴿وإنْ من شيء إلا يُسبح بحمده﴾؛ ينزهه عما هو من لوازم الإمكان، وتوابع الحدوث، بلسان الحال، حيث تدل بإمكانها وحدوثها على الصانع القديم، الواجب لذاته. قاله البيضاوى. وظاهره: أن تسبيح الأشياء حاليٌ لا مقالي، والراجح أنه مقالي. ثم مع كونه مَقالياً لا يختص بقول مخصوص، كما قال الجلال السيوطى، أى: تقول: سبحان الله وبحمده. بل كل أحد يُسبح بما يناسب حاله. وإلى هذا يرشد كلام أهل الكشف، حتى ذكر الحاتمى: أن من لم يسمعها مختلفة التسبيح لمْ يسمعها، وإنما سمع الحالة الغالبة عليه. وورد فى الحديث: «ما اصطيد حوت فى البحر، ولا طائر يطير، إلاّ بما ضيع من تسبِيح الله تعالى»(٤). وفى الحديث أيضا: «ما تطلع الشمس فيبقى خلق من خلق الله، إلا يسبح الله بحمده، إلا ما كان من الشيطان وأعتى بنى آدم».

ومذهب أهل السنة: عدم اشتراط البِنية للعلم والحياة، فيصح الخشوع من الجماد، والخشية لله والتسبيح منه له. وقد قال ابن حجر على حديث حنين الجذع: فيه دلالة على أن الجمادات قد يخلق الله لها إدراكًا كالحيوان، بل كأشرف الحيوان، وفيه تأييد لمن يحمل قوله: ﴿وإن من شيء إلا يُسبح بحمده﴾ على ظاهره. هـ.

وقال ابن عطية: اختلف أهلُ العلم فى هذا التسبيح؛ فقالت فرقة: هو تجوز، ومعناه: أن كل شيء تبدو فيه صفة الصانع الدالة عليه، فتدعو رؤية ذلك إلى التسبيح من المعتبر. وقالت فرقة: قوله: ﴿من شيء﴾: لفظه عموم،

(١) من الآية ٩١ من سورة المؤمنون.
(٢) من الآية ٥٧ من سورة الإسراء.
(٣) قرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي وحفص ويعقوب: (تسبح) بالتاء، وقرأ الآخرون بالياء، انظر: الاتحاف٢/١٩٩.
(٤) عزاه السيوطى فى الدر (٤/٣٣٣) لأبى الشيخ عن مرثد بن أبى مرثد.
(٥) ذكره السيوطى بنحوه فى الدر (٤/٣٣٢) وعزاه لابن مردويه، عن عمرو بن عبسة، عن النبى ﷺ.

ومعناه الخصوص في كل حي ونام، وليس ذلك في الجمادات الميتة. فمن هذا قول عكرمة: الشجرة تُسبح، والاسطوانة لا تُسبح. قال يزيد الرقاشي للحسن ـ وهما في طعام، وقد قدّم الخِوان ـ: أيسبح هذا الخوان يا أبا سعيد؟ فقال: قد كان يُسبح مدة. يريد أن الشجرة، في زمان نموها واغتذائها، تُسَبّح. وقد صارت خواناً أو نحوه، أي: صارت جمادا. وقالت فرقة: هذا التسبيح حقيقة، وكل شيء، على العموم، يُسبح تسبيحاً لا يسمعه البشر ولا يفقهه، ولو كان التسبيح ما قاله الآخرون؛ من أنه أثر الصنعة، لكان أمراً مفهوماً، والآية تنطق بأنه لا يُفقه، وينفصل عنه؛ بأن يريد بقوله: ﴿لا تفقهون﴾ : الكفار والغفلة، أي: أنهم يُعرضون عن الاعتبار؛ فلا يفقهون حكمة الله في الأشياء. هـ.

قال شيخ شيوخنا؛ سيدي عبد الرحمن العارف: وربما يدل للعموم تسبيح الحصى في يده ـ عليه الصلاة السلام ـ، وكذا حنين الجذع ومحبة أُحد، وكذا تسبيح الطعام. وأما التخصيص بالناميات؛ من نبات غير يابس، وحجر متصل بموضعه، فهو خصوص تسبيح بالاستمداد إلى الحياة، ولا ينتفي مطلق الاستمداد؛ لأن الجماد يستمد الوجود وبقاءه من الله، فهو عام، وقد قال تعالى: ﴿ يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ ﴾[1] ، وتدبر حنين الجذع.هـ. وسيأتي في الإشارة بقية كلام عليه، وقال البيضاوي أيضا في قوله: ﴿ولكن لا تفقهون تسبيحهم﴾ أيها المشركون؛ لإخلالكم بالنظر الصحيح الذي به يفهم التسبيح. ويجوز أن يحمل التسبيح على المشترك من اللفظ والدلالة؛ لإسناده إلى ما يتصور منه اللفظ، وإلى مالا يتصور منه، وعليهما، أي: ويحمل ـ عند من جوز إطلاق اللفظ على معنييه .هـ.

﴿إنه كان حليماً﴾ ؛ حيث لم يُعاجلكم بالعقوبة، مع ما أنتم عليه من موجباتها؛ من الإعراض عن النظر في الدلائل الواضحة، الدالة على التوحيد، والانهماك في الكفر والإشراك، ﴿ غفوراً ﴾ لمن تاب منكم. وبالله التوفيق.

الإشارة: كل ما دخل عالم التكوين من العرش إلى الفرش، أو ما قُدر وجوده من غيرهما؛ كله قائم بين حس ومعنى، بين عبودية وربوبية، بين قدرة وحكمة. فالحس محل العبودية، فيه تظهر قهرية الربوبية، والمعنى هو أسرار الربوبية القائمة بالأشياء، فالأشياء كلها تنادي بلسان معناها، وتقول: سبحانه ما أعظم شأنه، ولكن لا يفقه هذا التسبيح إلا من خاض بحار التوحيد، وغاص في أسرار التفريد.

فالأشياء ثابتة بإثباته، ممحوة بأحدية ذاته، قائمة من حيث حسها، ممحوة من حيث معناها، ولا وجود للحس من ذاته، وإنما هو رداء لكبرياء ذاته. وفي الحديث، في وصف أهل الجنة: «وليس بينهم وبين أن ينظروا إلى الرحمن إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن» . فمن خرق حجاب الوهم، وفنى عن دائرة الحس في دار

(١) من الآية ١٠ من سورة سبأ.

الدنيا، لم يحتجب الحق تعالى عنه فى الدارين طرفة عين. فتحصل أن الأشياء كلها تُسبح من جهة معناها بلسان المقال، ومن جهة حسها بلسان الحال، وتسبيحها كما ذكرنا. ولايذوق هذا إلا من صحب العارفين الكبار، حتى يخرجوه عن دائرة حس الأكوان إلى شهود المكون. وحسب من لم يصحبهم التسليم، كما قال القائل:

إذا لَمْ تَرَ الْهِلالَ فَسَلِّمْ لأُنَاسٍ رَأَوْهُ بِالأَبْصَارِ

والله تعالى أعلم.

وسبب عدم فقه تسبيح الأشياء: غفلة القلوب، وطبع الأكنّة عليها، كما قال تعالى:

﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ الظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾ وَقَالُوٓا أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ ﴾

قلت: (أن يفقهوه): مفعول من أجله، أى: كراهة أن يفقهوه، و(نفورا): مصدر فى موضع الحال. والضمير فى (به): يعود على «ما»، أى: نحن أعلم بالأمر الذى يستمعون به من الاستهزاء والسخرية.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وإذا قرأتَ القرآنَ﴾ الناطق بالتنزيه والتسبيح، ودعوتهم إلى العمل بما فيه؛ من التوحيد، ورفض الشرك، وغير ذلك من الشرائع، ﴿جعلنا﴾ بقدرتنا ومشيئتنا المبنية على دواعى الحِكَمِ الخفية ﴿بينَك وبين الذين لا يُؤمنون بالآخرة﴾، خَصَّ الآخرة بالذكر من بين سائر ما كفروا به؛ دلالة على أنها معظم ما أمروا بالإيمان به، وتمهيداً لما سينقل عنهم من إنكار البعث، أى: جعلنا بينك وبينهم ﴿حجاباً﴾ يمنعهم عن فهمه والتدبر فيه، ﴿مستوراً﴾ عن الحس، خفياً، معنوياً، وهو الران الذى يَسْبَحُ على قلوبهم من الكفر، والانهماك فى الغفلة. أو: ذا ستر، كقوله: ﴿وَعْدُهُ مَأْتِيًّا﴾(١)، أى: آتياً، فهو ساتر لقلوبهم عن الفهم والتدبر.

(١) من الآية ٦١ من سورة مريم.

نَفَى عنهم فقه الآيات، بعد ما نفى عنهم فقه الدلالات المنصوبة في الأشياء؛ بياناً لكونهم مطبوعين على الضلالة، كما صرح به في قوله: ﴿ وجعلنا على قلوبهم أكنةً ﴾ ؛ أغطية تكنها، وتحول بينها وبين إدراك الحق وقبوله. فعلنا ذلك بهم؛ كراهة ﴿ أنْ يفقهوه ﴾، ﴿ و ﴾ جعلنا ﴿ في آذانهم وقراً ﴾؛ ثقلاً وصمماً يمنعهم من استماعه. ولمّا كان القرآن معجزاً من حيث اللفظ والمعنى، أثبت لمنكريه ما يمنع عن فهم المعنى وإدراك اللفظ. قاله البيضاوي.

﴿ وإذا ذكرتَ ربك في القرآن وحده ﴾ أي: واحداً غير مشفوع به آلهتهم، ﴿ ولّوا على أدبارهم نُفوراً ﴾؛ هَرَبا من استماع التوحيد، والمعنى: وإذا ذكرت في القرآن وحدانية الله تعالى، فرَّ المشركون عن ذلك؛ لما في ذلك من رفض آلهتهم وذمها. قال تعالى: ﴿ نحن أعلم بما يستمعون به ﴾ أيْ: بالأمر الذي يستمعون به؛ من الاستهزاء، وكانوا يستمعون القرآن على وجه الاستهزاء، ﴿ وإذْ هم نجوى ﴾ أيْ: ونحن أعلم بغرضهم، حين هم جماعة ذاتْ نجوى، يتناجون بينهم ويخفون ذلك. ثم فسر نجواهم بقوله: ﴿ إذْ يقول الظالمون ﴾، وضع الظالمين موضع الضمير؛ للدلالة على أن تناجيهم بقولهم هذا محض ظلم، أي: إذ يقولون: ﴿ إن تتبعون إلا رجلاً مسحوراً ﴾؛ مجنوناً قد سُحر حتى زال عقله.

﴿ انظر كيف ضربوا لك الأمثالَ ﴾، مثلوك بالساحر، والشاعر، والكاهن، والمجنون، ﴿ فضلُّوا ﴾ عن الحق في جميع ذلك، ﴿ فلا يستطيعون سبيلاً ﴾ إلى الهدى، أو إلى الطعن فيما جئتَ به بوجه؛ فهم يتهافتون، ويخبطون، كالمتحير في أمره لا يدري ما يفعل. ونزلت في الوليد بن المغيرة وأصحابه من الكفار.

﴿ وقالوا أئذا كنا عظاماً ورفاتاً أئنا لمبعوثون خلقًا جديداً ﴾، أنكروا البعث، واستبعدوا أن يجعلهم خلقاً جديداً، بعد فنائهم وجعلهم تراباً. والرفات: الذي بلي، حتى صار غباراً وفتاتًا. و «أئذا»: ظرف، والعامل فيه: ما دل عليه قوله: (لمبعوثون)، لا نفسه؛ لأن ما بعد «إن» والهمزة، لا يعمل فيما قبله، أي: أنُبعث إذا كنا عظاما.. الخ. والله تعالى أعلم.

الإشارة: قد تقدم في سورة «الأنعام»[(1)] تفسير الأكنة التي تمنع من فهم القرآن والتدبر فيه، والتي تمنع من الشهود والعيان، فراجعه، إن شئت. وفي الآية تسلية لمن أوذي من الصوفية فرمي بالسحر أو غيره. وبالله التوفيق.

ثم أمر نبيه بالجواب عما أنكروه من البعث، فقال:

﴿ ۞ قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾ ﴾

(1) راجع إشارة الآية ٢٥ من سورة الأنعام.

قلت: (قريباً) : خبر كان، أو ظرف له؛ على أن «كان» تامة، أي: عسى أن يقع في زمن قريب. و(أن يكون): إما: اسم «عسى»، وهي تامة، أو خبرها، والاسم مضمر، أي: عسى أن يكون البعث قريباً، أو: عسى أن يقع في زمن قريب. و(يوم يدعوكم) : منصوب بمحذوف؛ اذكروا يوم يدعوكم. أو: بدل من «قريب»؛ على أنه ظرف. انظر أبا السعود. و(بحمده) : حال من ضمير (تستجيبون)، أي: منقادين له، حامدين له؛ لما فعل بكم.

يقول الحق جلا جلاله: ﴿ قلْ ﴾ يا محمد لمن أنكر البعث: ﴿ كُونوا حجارة أو حديدًا ، أو خلقًا ﴾ آخر ﴿ مِمّا يكْبُرُ ﴾ أي: يعظم ﴿ في صدوركم ﴾ عن قبول الحياة، فإنكم مبعوثون ومُعادون لا محالة، أي: لو كنتم حجارة أو حديداً، أو شيئاً أكبر عندكم من ذلك، وأبعد من الحياة، لقدرنا على بعثكم؛ إذ القدرة صالحة لكل ممكن. ومعنى الأمر هنا: التقدير، وليس للتعجيز، كما قال بعضهم. انظر ابن جزى، ﴿ فسيقولون من يُعيدنا ﴾ إلى الحياة مرة أخرى، مع ما بيننا وبين الإعادة، من مثل هذه المباعدة؟ ﴿ قل الذي فطركم أول مرة ﴾ ولم تكونوا شيئاً؛ لأن القادر على البدء قادر على الإعادة، بل هي أهون، ﴿ فسيُنْغِضُون ﴾ ؛ يُحركون ﴿ إليك رؤوسَهم ﴾ ؛ تعجباً واستهزاءً، ﴿ ويقولون ﴾ ؛ استهزاء: ﴿ متى هو ﴾ أي: البعث، ﴿ قل عسى أن يكون قريباً ﴾ ، فإنَّ كل ما هو آتٍ قريب.

واذكروا ﴿ يومَ يدعوكم ﴾ ؛ يناديكم من القبور على لسان إسرافيل، ﴿ فتستجيبونَ ﴾ أي: فتبعثون من القبور ﴿ بحمده ﴾ ؛ بأمره، أو ملتبسين بحمده، حامدين له على كمال قدرته، عند مشاهدة آثارها، ومعاينة أحكامها، كما قيل: إنهم يقومون ينفضون التراب عن رؤوسهم، ويقولون: سبحانك اللهم وبحمدك، ﴿ وتظنون إن لبثتم ﴾ ؛ ما لبثتم في الدنيا ﴿ إلا قليلاً ﴾ ؛ لما تَرون من الهول، أو تستقصرون مدة لبثكم في القبور، كالذي مرَّ على قرية. والله تعالى أعلم.

الإشارة: من كان قلبه أقسى من الحجارة والحديد، واستغرب أن يُنقذه الله من شهوته، وأن يخرجه من وجود جهالته وغفلته، فقُل لهم: كونوا حجارة أو حديداً، أو خلقاً أكبر من ذلك، فإن الله قادر على أن يُحيي قلوبكم بمعرفته، ويُلينها بعد القساوة، بسبب شرب خمرته. فسيقولون: من يُعيدنا إلى هذه الحالة؟ قل: الذي فطركم على توحيده أول مرة، حين أقررتم بربوبيته، يوم أخذ الميثاق. فسيُنْغضون إليك رؤوسهم؛ تعجباً واستغراباً، ويقولون: متى هو هذا الفتح؟! قل: عسى أن يكون قريبا؛ يوم يدعوكم إلى حضرته بشوق مقلق، أو خوف مزعج، بواسطة شيخ عارف، أو بغير واسطة، فتستجيبون بحمده ومنته، وتظنون إن لبثتم في أيام الغفلة إلا قليلا؛ فتلين قلوبكم، وتطمئن نفوسكم، وتنشرح صدوركم، وتحسُن أخلاقكم، فلا تخاطبون العباد إلا بالتي هي أحسن، كما قال تعالى:

﴿ وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنسَانِ
عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ
وَكِيلًا ﴿٥٤﴾ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَآتَيْنَا
دَاوُودَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وقلْ لعبادى ﴾ المؤمنين: ﴿ يقولوا ﴾ للمشركين الكلمة ﴿ التى هى أحسنُ ﴾ ولا تخاشنوهم، ﴿ إن الشيطان يَنْزَغُ بينهم ﴾؛ يهيج بينهم الجدال والشر، فلعل المخاشنة لهم تُفضى إلى العناد وازدياد الفساد. وكان هذا بمكة، قبل الأمر بالقتال، ثم نُسخ(١). وقيل: فى الخطاب من المؤمنين بعضهم لبعض، أمرهم أن يقولوا، فيما بينهم، كلاماً ليناً حسنا. ﴿ إن الشيطانَ ينزغ بينهم ﴾ العداوة والبغضاء؛ ﴿ إنَّ الشيطان كان للإنسان عدواً مبيناً ﴾؛ ظاهر العداوة.

يقولون لهم فى المخاطبة الحسنة: ﴿ ربكم أعلمُ بكم إن يشأ يرحمْكُم ﴾ بالتوبة والإيمان، ﴿ أو إن يشأ يعذبكُم ﴾ بالموت على الكفر. وهذا تفسير للكلمة التى هى أحسن، وما بينهما اعتراض، أى: قولوا هذه الكلمة ونحوها، ولا تصرحوا بأنهم من أهل النار؛ فإنه يثير الشر، مع أن ختام أمرهم غيب. ﴿ وما أرسلناك عليهم وكيلا ﴾؛ موكولاً إليك أمرهم، فتجبرهم على الإيمان، وإنما أرسلناك مبشراً ونذيراً، فَدارهم، ومُر أصحابك باحتمال الأذى منهم. رُوى أن المشركين أفرطوا فى إيذائهم؛ فشكوا إلى رسول الله ﷺ فنزلت، وقيل: شتم رجلٌ عمر رضي الله عنه، فهمّ به، فأمره الله بالعفو.

﴿ وربك أعلمُ بمن فى السموات والأرض ﴾ وبأحوالهم، فيختار منهم لنبوته وولايته من يشاء. وهو رد لاستبعاد قريش أن يكون يتيم أبى طالب نبياً، وأن يكون العُراة الجياع أصحابه. ﴿ ولقد فضّلنا بعض النبيين على بعض ﴾ بالفضائل النفسانية، والتفرغ من العلائق الجسمانية، لا بكثرة الأموال والأتباع، حتى يستبعدوا نبوة سيدنا محمد ﷺ لقلة ماله، وضعف أصحابه؛ فإن سيدنا داود عليه السلام كان مثله فى قلة ماله وأتباعه، ثم قواه بالملك والنبوة. ولذا قال: ﴿ وآتينا داود زبوراً ﴾؛ وقيل: هو إشارة إلى تفضيل نبينا محمد ﷺ؛ فإنه مذكور فى الزبور، وهو أنه خاتم الأنبياء، وأمته خير الأمم، وأنهم يرثون الأرض بالفتح عليهم؛ قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾(٢). والله تعالى أعلم.

---

(١) دعوى النسخ هنا، لابرهان عليها، ولامجال لها؛ فالأخلاق لاتنسخ.

(٢) الآية ١٠٥ من سورة الأنبياء.

الإشارة: من أوصاف الصوفية ـ رضى الله عنهم ـ أنهم هينون لينون كلفّة حرير، لا ينطقون إلا بالكلام الحسن، ولا يفعلون إلا ما هو حسن، ويفرحون ولا يحزنون، وينبسطون ولا ينقبضون. من رأوه مقبوضاً بسطوه، ومن رأوه حزيناً فرّحوه، ومن رأوه جاهلاً أرشدوه بالتى هى أحسن. وهم متفاوتون فى هذا الأمر، مفضل بعضهم على بعض فى الأخلاق والولاية، فكل من زاد فى الأخلاق الحسنة زاد تفضيله عند الله. وفى الحديث: «إنَّ الرَّجُل لَيُدرِك؛ بِحُسْن الخلُق، دَرَجَةَ الصائم النهار، القَائِمِ اللَّيْل»(١). وبالله التوفيق.

ثم رجع إلى الكلام مع المشركين والرد عليهم، فقال:

﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾ ﴾

قلت: (أولئك): مبتدأ، و(الذين يدعون): صفته، و(يبتغون): خبره. وضمير «يدعون»: للكفار، وفى «يبتغون»: للآلهة المعبُودين. وقيل: الضمير فى «يدعون» و«يبتغون»: للأنبياء المذكورين قبلُ فى قوله: ﴿فضّلنا بعض النبيين على بعض﴾، والوسيلة: ما يتوسل به ويتقرب إلى الله، و(أيهم): بدل من فاعل (يبتغون)، و«أيّ»: موصولة، أى: يبتغى من هو أقرب إليه تعالى ـ الوسيلة، فكيف بمن دونه؟ أو ضمَّنَ معنى يبتغون: يحرصون، أى: يحرصون أيهم يكون إليه تعالى أقرب؟

يقول الحق جل جلاله: ﴿قلْ﴾ لهم: ﴿ادعوا الذين زعمتم﴾ أنهم آلهة تعبدونهم ﴿من دونه﴾ كالملائكة والمسيح وعُزير، أو كالأصنام والأوثان، ﴿فلا يملكون﴾؛ لا يستطيعون ﴿كشف الضر عنكم﴾، كالمرض والفقر والقحط، ﴿ولا تحويلاً﴾ لذلك عنكم إلى غيركم، قال تعالى: ﴿أولئك الذين يدعون﴾ أنهم آلهة، هم فى غاية الافتقار إلى الله والتوسل إليه، كلهم ﴿يبتغون إلى ربهم الوسيلةَ﴾ أى: التقرب بالطاعة، ويحرصون ﴿أيهم أقربُ﴾ إلى الله من غيره، فكيف يكونون آلهة؟ أو: أولئك الذين يدعونهم آلهة، يطلبون إلى ربهم الوسيلة

(١) أخرجه، بنحوه، أحمد فى المسند (٦/١٣٣) وأبو داود فى (الأدب، باب فى حسن الخلق) عن عائشة رضي الله عنها، وأخرجه الحاكم فى المستدرك (١/٦٠) عن أبى هريرة، وصححه، ووافقه الذهبى.

بالطاعة، يطلبها أيهم أقرب، أي: الذي هو أقرب، فكيف بغير الأقرب؟ ﴿ ويرجون رحمته ويخافون عذابه ﴾ كسائر العباد، فكيف يزعمون أنهم آلهة؟ ﴿ إنَّ عذاب ربك كان محذوراً ﴾ ؛ مخوفاً، أي: حقيقاً بأن يحذره كل أحد، حتى الرسل والملائكة. أعاذنا الله من جميعه. آمين.

الإشارة: كل ما دخل عالم التكوين لزمته القهرية والعبودية، فهو عاجز عن إصلاح نفسه، فكيف يصلح غيره؟ ولا يستطيع أن يدفع عن نفسه، فكيف يدفع عن غيره؟ فارفع همتك، أيها العبد، إلى مولاك، وأنزل حوائجك كلها به دون أحد سواه، فكل ما سواه مفتقر إليه، والفقير المضطر لا ينفع نفسه، فكيف ينفع غيره؟ والله يتولى هداك.

ثم بيَّن قهريته تعالى، فقال:

﴿ وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وإن من قرية ﴾ أي: أهلها، ﴿ إلا نحن مُهلكوها قبلَ يوم القيامة ﴾ ؛ بالموت والاستئصال، ﴿ أو مُعذبوها عذاباً شديداً ﴾ ؛ بالقتل وغيره، ﴿ كان ذلك في الكتاب ﴾ ؛ في اللوح المحفوظ ﴿ مسطوراً ﴾ ؛ مكتوباً. وقال في المستخرج: وإن من قرية إلا نحن مهلكوها؛ الصالحة بالإفناء، والطالحةُ بالبلاء، أو معذبوها بالسيف؛ إذا ظهر فيهم الزنى والربا. هـ. قال ابن جزي: رُوي أن هلاك مكة بالحبشة، والمدينة بالجوع، والكوفة بالترك، والأندلس بالخيل. ثم قال: وأما هلاك قرطبة وأشبيلية وطُليطلة وغيرها، فبأخذ الروم لها. هـ. قلت: قد استولى العدو على الأندلس كلها فهو خرابها. أعاد الله عِمارتها بالإسلام. آمين.

وقال في حُسْن المحاضرة: وأخرج الحاكم في المستدرك عن كعب قال: الجزيرة آمنة من الخراب حتى تخرب أرمينية ـ والجزيرة أرض بالبصرة، وموضع باليمامة، لا جزيرة الأندلس ـ ثم قال: ومصر آمنة من الخراب حتى تخرب الجزيرة: والكوفة آمنة من الخراب حتى تخرب مصر، ولا تكون الملحمة حتى تخرب الكوفة، ولا تفتح مدينة الكفر حتى تكون الملحمة، ولا يخرج الدجال حتى تُفتح مدينة الكفر. قال: وأخرج الديلمي في مسند الفردوس، وأورده القرطبي في التذكرة من حديث حذيفة مرفوعاً: يبدو الخراب في أطراف الأرض، حتى تخرب مصر، ومصر آمنة من الخراب حتى تخرب البصرة، وخراب البصرة من العراق، وخراب مصر من جفاف النيل، وخراب مكة من الحبشة، وخراب المدينة من الجوع، وخراب اليمن من الجراد، وخراب الأُبُلَّةِ من الحِصار، وخراب فارس من الصعاليك، وخراب الترك من الديلم، وخراب الديلم من الأرمن، وخراب الأرمن من الخَزَز، وخراب

الخرز من الترك، وخراب الترك من الصواعق، وخراب السند من الهند، وخراب الهند من الصين، وخراب الصين من الرملْ، وخراب الحبشة من الرجفة، وخراب العراق من القحط. هـ .

قلت: وسكت عن المغرب، ولعله المعنيُّ بقوله عليه الصلاة والسلام: «لا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الحَقِّ حَتَّى يَأتِي أمْرُ اللهِ»(١). زاد في رواية: وهم أهل المغرب، ورجحه صاحب المدخل(٢)، قال: لأنهم متمسكون بالسنة أكثر من المشرق(٣). والله تعالى أعلم بغيبه.

الإشارة: القرية محل تقرر السر، وهو القلب، فإما أن يُهلكه الله بالتلف والضلال، وإما أن يُعذبه عذاباً شديداً؛ بالمجاهدات والمكابدات، ثم ينعمه نعيماً كبيراً بالمشاهدات والمناجات. كان ذلك في الكتاب مسطوراً، فريق في الجنة وفريق في السعير.

ثم أجاب عن تأخر الآيات بعد اقتراحها، فقال:

﴿ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾ ﴾

قلت: (أنْ نرسل): مفعول «منعنا»، و(إلا أن كذَّب): فاعل.

يقول الحق جل جلاله: وما صَرَفَنَا عن إرسال الآيات التي اقترحتها قريش بقولهم: اجعل لنا الصَّفَا ذَهَباً، إلا تكذيب الأولين بها، فهلكوا، وهم أمثالهم في الطبع، كعاد وثمود، وأنها لو أرسلت لكذبوها، فيهلكوا أمثالهم، كما مضت به سنتُنا، وقد قضينا في أزلنا ألا نستأصلهم؛ لأن فيهم من يؤمن، أو يلد من يؤمن.

ثم ذكر بعض الأمم المهلَكة بتكذيب الآيات المقترحة فقال: ﴿ وآتينا ثمودَ الناقةَ ﴾ بسبب سؤالهم، ﴿ مُبصرةً ﴾؛ بينة ذات إبصار، أو بصائر واضحة الدلالة، يُدركها كلُّ من يبصرها. ﴿ فظلموا بها ﴾؛ فكفروا بها، أو: فظلموا أنفسهم بسبب عقرها، فهلكوا، ﴿ وما نُرسل بالآياتِ ﴾ المقترحة ﴿ إلا تخويفاً ﴾ من نزول العذاب المستأصِل، فإن لم يخافوا نزل بهم، أو: وما نرسل بالآيات غير المقترحة، كالمعجزات وآيات القرآن، إلا تخويفاً بعذاب الآخرة؛ فإن أمر من بعث إليهم مؤخر إلى يوم القيامة. قاله البيضاوي .

(١) أخرجه البخاري في (المناقب. باب ٢٨) ومسلم في (الإمارة، باب قوله ﷺ: لاتزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، من حديث معاوية رضي الله عنه.

(٢) هو ابن الحاج العبدري صاحب «المدخل إلى الشرع الشريف».

(٣) في تعيين هذه الطائفة يقول الإمام النووي: يحتمل أن هذه الطائفة مفرقة بين أنواع المؤمنين، منهم شجعان مقاتلون، ومنهم فقهاء محدثون، ومنهم زهاد، وآمرون بالمعروف وناهون عن المنكر، ومنهم أهل أنواع أخرى من الخير، ولايلزم أن يكونوا مجتمعين، بل قد يكونون متفرقين في أقطار الأرض. هـ.

قال فى الحاشية: ومقتضى حديث الكسوف، وقوله فيه: «ذلك يُخوف بهما عباده»: أن التخويف لا يختص بالخوارق، بل يعم غيرها، مما هو معتاد نفْيه، ويأتى غبا. وفى الوجيز: (بالآيات) أى: العبر والدلالات. وفى الورتجبى: الآيات هى: الشباب والكهولة والشيبة، وتقلب الأحوال بك، لعلك تعتبر بحال، أو تتعظ بوقت . هـ.

الإشارة: إمساك الكرامات عن المريد السائر أو الولى: رحمة واعتناء به، فلعله؛ حين تظهر له، يقف معها ويستحسن حاله، أو يزكى نفسه ويرفع عنها عصا التأديب، فيقف عن السير، ويُحرم الوصول إلى غاية الكمال، وفى الحكم: «ما أرادت همة سالك أن تقف عندما كشف لها، إلا نادته هواتف الحقيقة: الذى تطلب أمامك» . وقال الششترى رضي الله عنه:

ومـهـمـا ترى كلَّ المـراتبِ تجْتـلى ... عليْكَ، فـحُلْ عنهـا، فـعَن مـثْلهـا حلْنا

وقُلْ: ليْس لى فى غَيْـر ذاتكِ مَطْلبٌ ... فـلا صـورةٌ تُجْلى، ولا طُرْفَـةٌ تُجْنى

ولما نزّه تعالى نفسه فى أول السورة عن الجهة، التى تُوهمها قضيةُ الإسراء، صرّح هنا بأنه محيط بكل مكان وزمان، لا يختص بمكان دون مكان، فقال:

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّءْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْءَانِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وإذْ قلنا لك ﴾ فيما أوحينا إليك ﴿ إنَّ ربك أحَاطَ بالناس ﴾ علماً وقدرة، وأسراراً وأنوارا، كما يليق بجلاله وتجليه، فلا يختص بمكان ولا زمان، بل هو مظهر الزمان والمكان، وقد كان ولا زمان ولامكان، وهو الآن على ما عليه كان، ﴿ وما جعلنا الرؤيا التي أريناك ﴾ فى قضية الإسراء، قال ابن عباس: «هى رؤيا عين، حيث رأى أنوار جبروته فى أعلى عليين، وشاهد أسرار ذاته أريناك ذلك فى ذلك المكان ﴿ إلا فتنةً للناس ﴾؛ اختباراً لهم، من يصدق بذلك ولا يكيف، ومن يجحده من الكفرة. ومن يقف مع ظاهره، فيقع فى التجسيم والتحييز، ومن تنهضه السابقة إلى التعشق؛ فيجاهد نفسه حتى تعرج روحه إلى عالم الملكوت، فتكاشف بإحاطة أسرار الذات بكل شىء.

وإنما خص الحق تعالى إحاطته بالناس، مع أنه محيط بكل شىء، كما فى الآية الأخرى: ﴿ ألا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ ﴾(١)؛ لأنهم المقصودون بالذات من هذا العالم، وما خلق إلا لأجلهم. فاكتفى بالإحاطة بهم عن إحاطته بكل شىء.

(١) من الآية ٥٤ من سورة فصلت.

ثم قال تعالى: ﴿ والشجرةَ الملعونة في القرآن ﴾ وهي: شجرة الزقوم، أي: ما جعلناها إلا فتنة للناس. وذلك أن قريشاً لما سمعوا أن في جهنم شجرة الزقوم، سخروا من ذلك، فافتتنوا بها، حيث أنكروها، وكفروا بالقرآن، وقالوا: كيف تكون شجرة في النار، والنار تحرق الشجر؟! وقفوا مع الإلف والعادة، ولم ينفذوا إلى عموم تعلق القدرة. ومن قدر على حفظ وبر السَّمَنْدَل(١) منها، وهو يمشي فيها، قدر على أن يخلق في النار شجرة، ولم تحرقها. وقال أبو جهل: ما أعرف الزقوم إلا التمر بالزبد. فإن قيل: أين لُعِنت شجرة الزقوم في القرآن؟ فالجواب: أن المراد لعنة آكلها، وقيل: إن اللعنة هنا بمعنى الإبعاد، وهي في أصل الجحيم.

قال تعالى: ﴿ ونُخوِّفهم ﴾ بأنواع التخويف، أو بالزقوم، ﴿ فما يزيدُهُم إلا طغياناً كبيراً ﴾ ؛ عتواً مجاوزاً للحد.

الإشارة: الأكوان ثابتة بإثباته، ممحوة بأحدية ذاته. فإذا انمحت الأكوان ثبتت وحدة المكون. «كان الله ولاشيء معه، وهو الآن على ما كان عليه»، من قامت به الأشياء، وهو وجودها ونور ذاتها، ومحيط بها، كيف تحصره، أو تحيزه، أو تحول بينه وبين موجوداته؟ قيل لسيدنا علي ـ كرم الله وجهه ـ: يا ابن عم رسول الله ﷺ: أين كان ربنا قبل خلق الأشياء؟ فتغير وجهه، وسكت، ثم قال: قولكم: أين؟ يقتضي المكان، وكان الله ولا زمان ولامكان، وهو الآن على ما عليه كان. هـ.

وقال الشيخ الشاذلي: (قيل لي: يا علي؛ بي قُلْ، وعلى دُل، وأنا الكل). وفي الحديث: «لاَ تَسُبُّوا الدهْرَ، فَإنَّ اللهَ هُوَ الدَّهْرُ، بِيَده الليْلُ والنَّهَار»، ولا يفهم هذا على التحقيق إلا أهل الذوق، بصحبة أهل الذوق. وإلا فسلّم تسلم، واعتقد التنزيه وبطلان التشبيه. وبالله التوفيق، وهو الهادي إلى سواء الطريق.

ثم بيَّن عداوة إبليس المتقدمة في قوله: ﴿ إن الشيطان كان للإنسان عدوا مبيناً ﴾، فقال:

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ ﴾

(١) السَّمَنْدَل: طائر، إذا انقطع نسله، وهَرِمَ، ألقى نفسه في الجمر، فيعود إلى شبابه. وقيل: هو دابة، يدخل النار فلا تحرقه.. انظر اللسان (سمندل/٣/٢١٠٥)

قلت: (طينا): منصوب على إسقاط الخافض، أو: حال من الراجع إلى الموصول، و(أرأيتك): الكاف للخطاب، لاموضع لها. وتقدم الكلام عليه فى سورة الأنعام(١). و(هذا): مفعول «أرأيت»، و(جزاء): مصدر، والعامل فيه: «جزاؤكم»، فإنَّ المصدر ينصب بمثله أو فعله أو وصفه، وقيل: حال موطئة لقوله:«موفورا».

يقول الحق جل جلاله: ﴿و﴾ اذكر ﴿إذْ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليسَ﴾ امتنع، و﴿قال أأسجدُ لمن خلقتَ طيناً﴾ أى: من طين؛ فهو أصله من الطين، وأنا أصلى من النار، فكيف أسجد له وأنا خير منه؟! ثم ﴿قال﴾ إبليس: ﴿أرأيْتكَ هذا الذى كرمتَ عليَّ﴾ أى: أخبرنى عن هذا الذى كرمته علىَّ؛ بأمرى بالسجود له، لِمَ كرمته علىّ؟ ﴿لئن أخرتنِ﴾ أى: والله لئن أخرتنِ ﴿إلى يوم القيامة لأحْتنِكنَّ﴾؛ لأستأصلن؛ من احتنكت السَّنةُ أموالَهم؛ أى: استأصلتها. أى: لأهلكن ﴿ذريتَه﴾؛ بالإغواء والإضلال، ﴿إلا قليلاً﴾؛ أو: لأميلنهم وأَقُودَنَّهُمْ، مأخوذ من تحنيك الدابة، وهو أن يشد على حنكها بحبل فتنقاد. أى: لأقودنهم إلى عصيانك، إلا قليلا، فلا أقدر أن أقاوم شكيمتهم؛ لما سبق لهم من العناية.

قال ابن عطية: وحكَمَ إبليس على ذرية آدم بهذا الحكم؛ من حيث رأى الخلْقَةَ مجوفةً مختلفةَ الأجزاءِ، وما اقترن بها من الشهوات والعوارض؛ كالغضب ونحوه، ثم استثنى القليل؛ لعلمه أنه لابد أن يكون فى ذريته من يصلب فى طاعة الله. هـ. قلت: إنما يحتاج إلى هذا: من وقف مع ظاهر الحكمة فى عالم الحس، وأما من نفذ إلى شهود القدرة فى عالم المعانى: فلا.

﴿قال﴾ تعالى: ﴿اذهبْ﴾؛ امض لما قصدته، وهو: طرد وتخلية لما بينه وبين ما سولت له نفسه. ﴿فمن تبعك منهم فإنَّ جهنم جزاؤكم﴾؛ التفت إلى الخطاب، وكان الأصل أن يقال: جزاؤهم، بضمير الغيبة؛ ليرجع إلى ﴿من تبعك﴾، لكنه غلب المخاطب؛ ليدخل إبليس معهم، فتُجازون على ما فعلتم ﴿جزاء موفورا﴾؛ وافراً مكملا، لا نقص فيه. ﴿واستفزز﴾؛ استخفف، أو اخدع ﴿من استطعتَ منهم﴾ أن تستفز ﴿بصوتك﴾؛ بدعائك إلى الفساد، ﴿وأَجلِبْ عليهم﴾ أى: صِحْ عليهم، من الجلبة، وهى: الصياح، ﴿بخَيْلكَ ورَجِلكَ﴾؛ أى: بأعوانك؛ من راكب وراجل، قيل: هو مجاز، أى: افعل بهم جهدك. وقيل: إن له من الشياطين خيلا ورجالاً. وقيل: المراد: بيان الراكبين فى طلب المعاصى، والماشين إليها بأرجلهم. ﴿وشارِكهمْ في الأموال﴾؛ بحملهم على كسبها وجمعها من الحرام، والتصرف فيها على مالا ينبغى، كإنفاقها فى المعاصى، ﴿والأولادِ﴾؛ بالحث على التوصل إلى الولد بالسبب الحرام، كالزنى وشبهه من فساد الأنكحة، وكتسمية الولد عبد شمس وعبدالحارث وعبدالعزى.

(١) راجع تفسير الآية ٤٠ من سورة الأنعام.

وقال في الإحياء: قال يونس بن زيد: بلغنا أنه يُولد مع أبناء الإنس من أبناء الجن، ثم ينشأون معهم. قال ابن عطية: وما أدخله النقّاشُ؛ من وطء الجن، وأنه يحبل المرأة من الإنس، فضعيف كله. هـ. قال في الحاشية: وضَعْفُهُ ظاهر، والآية مشيرة لرده؛ لأنها إنما أثبتت المشاركة في الولد، لا في الإيلاء، فإنه لم يرد، ولو قيل به لكان ذريعة لفساد كبير، ولكان شبهة يُدْرأ بها الحد، ولا قائل بذلك. وانظر الثعالبي الجزائري؛ فقد ذكر حكاية في المشاركة في الوطء عمن اتفق له ذلك، فالله أعلم. وأما عكس ذلك؛ إيلاء الإنسي الجنية، فأمر لا يحيله العقل، وقد جاء الخبر به في أمر بلقيس(١). قاله المحشي الفاسي.

﴿وعِدْهُمْ﴾ بأن لا بعث ولا حساب، أو المواعد الباطلة؛ كشفاعة الآلهة، والاتكال على كرامة الآباء، وتأخير التوبة، وطول الأمل، ﴿وما يعدُهم الشيطانُ إلا غروراً﴾ وباطلاً. والغرور: تزيين الخطأ بما يُوهم أنه صواب. قاله البيضاوي.

الإشارة: ينبغي لك أيها الإنسان أن تكون مضاداً للشيطان، فإذا امتنع من الخضوع لآدم فاخضع أنت لأولاد آدم؛ بالتواضع واللين، وإذا كان هو مجتهداً في إغواء بني آدم بما يقدر عليه، فاجتهد أنت في نصحهم وإرشادهم، وتعليمهم ووعظهم وتذكيرهم، بقدر ما يمكنك، واستعمل السير إليهم بخيلك ورجلك، حتى تنقذهم من غروره وكيده. وإذا كان هو يدلهم على الشرك الجلي والخفي، في أموالهم وأولادهم، فدلَّهم أنت على التوحيد، والإخلاص، في اعتقادهم وأعمالهم وأموالهم. وإذا كان يعدهم بالمواعد الكاذبة، فعدهم أنت بالمواعد الصادقة؛ كحسن الظن بالله، إن صحبه العمل بما يرضيه. فإن فعلت هذا كنت من عباد الله الذين ليس له عليهم سلطان، كما أشار إليهم بقوله:

﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾ رَّبُّكُمُ الَّذِي
يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ ۚ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ
الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ الْإِنسَانُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنتُمْ
أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن
يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ۙ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ
عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾﴾

قلت: (أفأمنتم): الهمزة للتوبيخ، والفاء للعطف على محذوف، أي: أنجوتم من البحر فأمنتم.

---

(١) قصة سيدنا سليمان من أكثر القصص امتلاء بالإسرائيليات، فعليك بما هو في القرآن، وما صح من حديث رسولنا الكريم ﷺ.

يقول الحق جل جلاله: ﴿إِنَّ عبادى﴾ المخلصين، الذين يتوكلون علىَّ فى جميع أمورهم، ﴿ليس لك عليهم سلطانٌ﴾ أى: تسلط وقدرة على إغوائهم؛ حيث التجأوا إلىَّ، واتخذونى وكيلا؛ ﴿وكفى بربك وكيلاً﴾؛ حافظاً لمن توكل عليه، فيحفظهم منك ومن أتباعك.

ثم ذكر ما يحث على التعلق به، والتوكل عليه فى جميع الأحوال الدينية والدنيوية، فقال: ﴿ربكم الذي يُزجي﴾؛ يجرى ﴿لكم الفلك﴾ ويسيرها ﴿في البحرِ لتبتغوا من فضله﴾ بالتجارة والربح، وجَلْبِ أنواع الأمتعة التى لا تكون عندكم، ﴿إنه كان بكم رحيماً﴾ فى تسخيرها لكم؛ حيث هيأ لكم ما تحتاجون إليه فى سيرها، وسهل عليكم ما يعسر من أسباب معاشكم ومعادكم.

﴿وإذا مسَّكم الضُّر فى البحر﴾ يعنى: خوف الغرق، ﴿ضَلَّ﴾؛ غاب عنكم ﴿من تَدْعون﴾؛ من تعبدون من الآلهة. أو: من تستغيثون به فى حوادثكم، ﴿إلا إيَّاه﴾ وحده، فإنكم حينئذ لا يخطرُ ببالكم سواه، ولا تدعون، لكشفه، إلا إياه، فكيف تعبدون غيره، وأنتم لا تجدون فى تلك الشدة إلا إياه؟ ﴿فلما نجَّاكم﴾ من الغرق ﴿إلى البر أعرضتم﴾ عن التوحيد، أو عن شكر النعمة، ﴿وكان الإنسانُ كفوراً﴾ بالنعم، جحوداً لها، إلا القليل، وهو كالتعليل للإعراض.

﴿أفأمِنْتُم﴾ أى: أنجوتم من البحر، وأمنتم ﴿أن يَخْسف بكم جانبَ البَر﴾؛ بأن يقلبه عليكم وأنتم عليه، أو يخسف بكم فى جوفه، كما فعل بقارون، ﴿أو يُرسلَ عليكم حاصباً﴾ أى: ريحاً حاصباً، يرميكم بحصباء كقوم لوط، ﴿ثم لا تجدوا لكم وكيلاً﴾؛ حافظاً لكم منه، فإنه لاراد لفعله. ﴿أم أمنتم أن يُعيدكم فيه تارةً أخرى﴾؛ بأن يخلق فيكم دواعى تحملكم إلى أن ترجعوا لتركبوا فيه؛ ﴿فيُرسلَ عليكم قاصِفًا من الريح﴾ أى: ريحاً شديدة، لا تمر بشىء إلا قصفته، أى: كسرته، ﴿فيُغرقكم﴾، وعن يعقوب: «فتغرقكم»؛ على إسناده إلى ضمير الريح. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو: بنون التكلم فى الخمسة. يفعل ذلك بكم ﴿بما كفرتم﴾؛ بكفركم، أى: بسبب إشراككم، أو كفرانكم نعمة الإنجاء، ﴿ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعاً﴾؛ مطالباً يتبعنا بثأركم، كقوله: ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾(١)، أو: لا تجدوا نصيراً ينصركم منه. والله تعالى أعلم.

الإشارة: العباد الذين ليس للشيطان عليهم سلطان، هم الذين أضافهم إلى نفسه؛ بأن اصطفاهم لحضرة قدسه، وشغلهم بذكره وأُنسه، لم يركنوا إلى شىء سواه، ولم يلتجئوا إلاَّ إلى حماه. فلا جرم أنه يحفظهم برعايته، ويكلؤهم بسابق عنايته. فظواهرهم قائمة بآداب العبودية، وبواطنهم مستغرقة فى شهود عظمة الربوبية. فلمَّا قاموا بخدمة الرحمن، حال بينهم وبين كيد الشيطان، وقال لهم: ربكم الذى يُزجى لكم فلك الفكرة فى بحر الوحدة؛ لتبتغوا

(١) الآية ١٥ من سورة الشمس.

الوصول إلى حضرة الأحدية، إنه كان بكم رحيماً. ثم إذا غلب عليكم بحر الحقيقة، وغرقتم فى تيار الذات، غاب عنكم كل ما سواه، وطلبتم منه الرجوع إلى بر الشريعة، فلما نجاكم إلى البر أعرضتم عن شهود السَّوى، وجحدتم وجوده، لكن القلوب بيد الرحمن، يُقلبها كيف شاء؛ فلا يأمن العارف من المكر، ولو بلغ ما بلغ، ولذلك قال: أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البر؛ فتغرقون فى الحس، وتشتغلون بعبادة الحس، أو يُرسل عليكم حاصبًا: وارداً قهارياً، يُخرجكم عن حد الاعتدال، أم أمنتم أن يُعيدكم فى بحر الحقيقة، تارة أخرى، بعد الرجوع للبقاء، فيرسل عليكم وارداً قهارياً يُخرجكم عن حد الاعتدال، ويحطكم عن ذروة الكمال، ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعا. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر كرامة بنى آدم، وتفضيلهم؛ رداً لقول الشيطان «أرأيتك هذا الذى كرمت علَيّ»، فقال:

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ولقد كرَّمنا بني آدم ﴾ قاطبة، برهم وفاجرهم، أى: كرمناهم بالصورة الحسنة، والقامة المعتدلة، والتمييز بالعقل، والإفهام بالكلام، والإشارة والخط، والتهدى إلى أسباب المعاش والمعاد، والتسلط على ما فى الأرض، والتمتع به، والتمكن من الصناعات، وغير ذلك مما لا يكاد يُحيط به نطاق العبارة. ومن جملته: ما ذكره ابن عباس رضي الله عنه؛ من أن كل حيوان يتناول طعامه بفيه، إلا الإنسان يرفعه إليه بيده، وأما القرد فيده بمنزلة رجله؛ لأنه يطأ بها القاذورات؛ فسقطت حرمتها.

﴿ وحملناهم ﴾ أى: بنى آدم، ﴿ فى البر والبحر ﴾ ؛على الدواب والسفن؛ فيمشون محمولين فى البر والبحر. يقال: حملته حملاً: إذا جعلت له ما يركب. ﴿ ورزقناهم من الطيبات ﴾ ؛ من فنون النعم، وضروب المستلذات مماً يحصل بصُنعهم وبغير صنعهم ، ﴿ وفضلناهم ﴾ بالعلوم والإدراكات، مما ركّبْنَا فيهم ﴿ على كثير ممن خلقنا ﴾ وهم: من عدا الملائكة ـ عليهم السلام ـ. ﴿ تفضيلاً ﴾ عظيمًا، فحق عليهم أن يشكروا هذه النعم ولا يكفروها، ويستعملوا قواهم فى تحصيل العقائد الحَقِّيِّة، ويرفضوا ما هم عليه من الشرك، الذى لا يقبله أحد ممن له أدنى تمييز، فضلاً عمن فُضِّل على من عدا الملأ الأعلى، والمستثنى جنس الملائكة، أو الخواص منهم، ولا يلزم من عدم تفضيل الجنس؛ عدم تفضيل جنس بنى آدم على الملائكة، عدم تفضيل بعض أجزائه؛ كالأنبياء والرسل، فإنهم أفضل من خواص الملائكة، وخواص الملائكة ـ كالمقربين مثلا ـ أفضل من خواص بنى آدم، كالأولياء، والأولياء أفضل من عوام الملائكة. والله تعالى أعلم.

الإشارة: قد كرّم الله هذا الآدمي، وشرفه على خلقه؛ بخصائص جعلها فيه، **منها:** أنه جعله نسخة من الوجود، فيه ما في الوجود، وزيادة، قد انطوت فيه العوالم بأسرها، من عرشها إلى فرشها، وإلى هذا المعنى أشار ابن البنا، في مباحثه، حيث قال:

يا سابقاً في موكب الإبداع ... ولاحقاً في جيش الاختراع
اعقِلْ فأنتَ نُسخةُ الوُجُود ... لله ما أعلاك من موجُود
أليْس فيك العرشُ والكرسيُّ ... والعالم العُلْويُّ والسُّفْليُّ
ما الكونُ إلا رجلٌ كبيرُ ... وأنتْ كونٌ مثْلُه صغيرُ

وقال آخر:

إذا كنتَ كُرسِيّاً، وعرْشاً، وجنّةً، ... ونَاراً، وأفلاكاً تدوّر، وأمْلاكا
وكُنْتَ من السّرِّ المَصُون حقيقةً ... وأدركْتَ هذا بالحقيقةِ إدْرَاكا
فَفِيمَ التّأنّي في الحضيضِ؛ تثبُّطاً ... مُقيماً معَ الأسْرى، أمَا آن إسْرَاكا؟!

ومنها: أنه جعله خليفة في ملكه، وجعل الوجود بأسره خادماً له، ومنتفعاً به، الأرض تُقله، والسماء تُظله، والجهات تكتنفه، والحيونات تخدمه، والملائكة تستغفر له، إلى غير ذلك مما لا يعلمه الخلق. قال تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾(١).

ومنها: أن جعل ذاته مشتملة على الضدين: النور والظلمة، الكثافة واللطافة، الروحانية والبشرية، الحس والمعنى، القدرة والحكمة، العبودية وأسرار الربوبية، إلى غير ذلك. ولذلك خصه بحمل الأمانة.

ومنها: أنه جعله قلب الوجود، هو المنظور إليه من هذا العالم، وهو المقصود الأعظم من إيجاد هذا الكون، فهو المنعَّم دون غيره، إن أطاع الله، ألا ترى قوله تعالى: ﴿ وَتَرَى الْمَلائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ ﴾(٢)، فنعيم الجنان خاص بهذا الإنسان، أو: من التحق به من مؤمني الجان. وقال الورتجبي: كرامة الله تعالى لبني آدم سابقة

(١) من الآية ١٣ من سورة الجاثية.
(٢) من الآية ٧٥ من سورة الزمر.

على كون الخلق جميعا؛ لأنها من صفاته، واختياره، ومشيئته الأولية. أوجد الخلق برحمته، وخلق آدم وذريته بكرامته، الخلق كلهم فى حيز الرحمة، وآدم وذريته فى حيز الكرامة. الرحمة للعموم، والكرامة للخصوص. خلق الكلّ لآدم وذريته، وخلق آدمَ وذريته لنفسه، ولذلك قال: ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾(١)، جعل آدم خليفته، وجعل ذريته خلفاء أبيهم، الملائكة والجن فى خدمتهم، والأمر والنهى والخطاب معهم، والكتاب أُنزل إليهم، والجنة والنار والسموات والأرض والشمس والقمر والنجوم، وجميع الآيات، خُلِقَ لهم. والخلق كلهم طُفيل لهم، ألا ترى الله يقول لحبيبه ﷺ: «لولاك ما خلقت الكون»؟ ولهم كرامة الظاهر، وهي: تسوية خلقهم، وظرافة صورهم، وحسن نظرتهم، وجمال وجوههم، حيث خلق فيها السمع والأبصار والألسنة، واستواء القامة، وحسن المشى، والبطش، وإسماع الكلام، والتكلم باللسان، والنظر بالبصر، وجميع ذلك ميراث فطرة آدم، التى صدرت من حسن اصطناع صورته. الذى قال: ﴿خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ (٢)، فنور وجوههم من معادن نور الصفة، وأنوار الصفات نوّرت آدم وذريته، فتكون نوراً من حيث الصفات والهيئات، والحسن والجمال، متصفون متخلقون بالصفات الأزلية، لذلك قال عليه الصلاة والسلام: «خَلَقَ آدَمَ على صُورَتِهِ»؛ من حيث التخلق لا من حيث التشبيه. انظر تمامه. والحاصل أنه فضلهم بالخَلْق والخُلُق، وذلك يجمع محاسن الصورة الظاهرة والباطنة .هـ. قاله المحشى الفاسى.

ثم ذكر محل ظهور كرامة بنى آدم، وهو يوم القيامة، فقال:

﴿يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَـٰمِهِمْ ۖ فَمَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَـٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ وَمَن كَانَ فِى هَـٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾﴾

قلت: يجوز فى (أعمى) ـ الثانى ـ: أن يكون وصفاً كالأول، وأن يكون من أفعل التفضيل، وهو أرجح؛ لعطف «وأضل» عليه، الذى هو للتفضيل. وقال سيبويه: لا يجوز أن يقال: هو أعمى من كذا، وإنما يقال: هو أشد عمى، لكن إنما يمتنع ذلك فى عمى البصر، لا فى عمى القلب. قاله ابن جزى.

يقول الحق جل جلاله: واذكر ﴿يوم ندعو كلَّ أناس بإمامهم﴾؛ بنبيهم. فيقال: يا أُمَّةَ فلان، يا أمة فلان، احضروا للحساب. أو: بكتاب أعمالهم، فيقال: يا صاحب الخير وياصاحب الشر، فهو مناسب لقوله: (فمن أوتى...) إلخ.

(١) من الآية ٤١ من سورة طه.
(٢) من الآية ٧٥ من سورة ص.

وقال محمد بن كعب القرظي: بأسماء أمهاتهم، فيكون جمع «أم»، كخف وخفاف، لكن في الحديث: «إنكُمْ تُدْعَوْنَ يوْمَ القِيَامَةِ بأسمائكُم وأسماءِ آبَائكمُ»(١)، ولعل ما قاله القرظي مخصوص بأولاد الزنا. وفي البيضاوي: قيل: بأمهاتهم، والحكمة في ذلك: إجلال عيسى وإظهار شرف الحسن والحسين، وألا يفتضح أولاد الزنى. هـ.

وقال أبو الحسن الصغير: قيل لأبي عمران: هل يدعى الناس بأمهاتهم يوم القيامة أو بآبائهم؟ قال: قد جاء في ذلك شيء أنهم يدعون بأمهاتهم فلا يفتضحوا. وفي البخاري ـ باب يدعى الناس بآبائهم، وساق حديث ابن عمر: «يُنْصَبُ لِكُلِّ غَادِرٍ لِوَاءٌ يوْمَ القِيَامَةِ. يُقَالُ: هَذِهِ غَدْرَةُ فُلاَنِ ابنُ فُلاَن»(٢)، فظاهر الحديث أنهم يدعون بآبائهم، وهو الراجح، إلا فيمن لا أب له. والله تعالى أعلم.

ثم قال تعالى: ﴿ فمن أوُتي كتابه بيمينه ﴾ أي: فمن أوتي صحيفة أعماله، يومئذ، من أولئك المدعويين بيمينه؛ إظهاراً لخطر الكتاب، وتشريفًا لصاحبه، وتبشيراً له من أول الأمر، ﴿ فأولئك يقرأون كتابهم ﴾ المؤتى لهم. والإشارة إلى «مَن»: باعتبار معناها؛ لأنها واقعة على الجمع؛ إيذاناً بأنهم حزب مجتمعون على شأنٍ جليل، وإشعاراً بأن قراءتهم لكتبهم يكون على وجه الاجتماع، لا على وجه الانفراد؛ كما في حال الدنيا. وأتى بإشارة البعيد؛ إشعاراً برفع درجاتهم، أي: أولئك المختصون بتلك الكرامة، التي يُشْعِرُ بها الإيتاء المذكور، يقرأون كتابهم ﴿ ولا يُظلمون فتيلاً ﴾؛ ولا ينقصون من أجور أعمالهم المرسومة في صحيفتهم أدنى شيء، فإن الفتيل ـ وهو: قشر النواة ـ مَثَلٌ في القلة والحقارة.

ثم ذكر أهل الأخذ بالشمال فقال: ﴿ ومن كان في هذه ﴾ الدنيا، التي فَعَلَ بهم ما فعل من فنون التكريم والتفضيل، ﴿ أعمى ﴾؛ فاقد البصيرة، لا يهتدي إلى رشده، ولا يعرف ما أوليناه من نعمة التكرمة والتفضيل، فضلاً عن شكرها والقيام بحقوقها، ولا يستعمل ما أودعنا فيه؛ من العقل والقوى، فيما خلق له من العلوم والمعارف، ﴿ فهو في الآخرة أعمى ﴾ كذلك، لا يهتدي إلى ما ينجيه مما يرديه؛ لأن النجاة من العذاب والتنعم بأنواع النعم الأخروية مرتب على العمل في الدنيا، ومعرفة الحق، ومن عمي عنه في الدنيا فهو في الآخرة أشد عمى عما ينجيه، ﴿ وأضلُّ سبيلاً ﴾ عنه؛ لزوال الاستعداد الممكن لسلوك طريق النجاة. وهذا بعينه هو الذي أخذ كتابه

(١) أخرجه أحمد في المسند (٥/١٩٤)، وأبو داود في (الأدب، باب في تغيير الأسماء) عن أبي الدرداء، وصححه الهيثمي في المجمع (٣/٦٩).
(٢) أخرجه البخاري في (كتاب الأدب، باب يدعى الناس بآبائهم).

بشماله، بدلالة ما سبق من القبيل المقابل، ولعل العدول عن التصريح به إلى ذكره بهذا العنوان؛ للإشعار بالعلة الموجبة له، فإنَّ العمى عن الحق والضلال هو السبب فى الأخذ بالشمال، وهذا كقوله فى الواقعة: ﴿ وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ ﴾(١)، بعد قوله: ﴿ وَأَمَّا إِن كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴾(٢) . والله تعالى أعلم.

الإشارة: يدعو الحق تعالى، يوم القيامة، الأمم إلى الحساب بأنبيائها ورسلها، ثم يدعوهم، ثانياً، للكرامة بأشياخها وأئمتها التى كانت تدعوهم إلى الحق على الهُدَى المحمدى. فيقال: يا أصحاب فلان، ويا أصحاب فلان، اذهبوا إلى الجنة، لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون. وهذا فى حق أهل الحق والتحقيق، الدالين على سلوك الشريعة، والتمسك بأنوار الحقيقة؛ ذوقًا وكشفا، فكل من تبعهم، وسلك منهاجهم، كان من السبعين ألفًا الذين يدخلون الجنة بغير حساب، وهم: أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. وأما من لم يكن من حزبهم، ولم يدخل تحت تربيتهم، فإن استعمل عقله وقُواه فيما يُنجيه يوم القيامة؛ كان من الذين يُؤتون كتابهم بيمينهم، ولا يظلمون فتيلاً. ومن أهمل عقله واستعمل قواه فى البطالة والهوى، كان من القبيل الذى عاش فى الدنيا أعمى، ويكون فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا، والعياذ بالله.

ثم ذكر نوعاً من هذا القبيل، الذى أعمى الله بصيرته، فقال:

﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَـٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَـٰكَ ضِعْفَ الْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَـٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾ ﴾

قلت: «وإن»: مخففة من الثقيلة فى الموضعين، واسمها: ضمير الشأن، واللام هى الفارقة بينها وبين النافية، أى: إن الشأن قاربوا أن يفتنوك. و(سُنّة): مفعول مطلق، أى: سنَّ الله ذلك سُنة.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وإن كادُوا ﴾ أى: كفار العرب، ﴿ ليَفتنُونك عن الذى أوحينا إليك ﴾؛ من أمرنا ونهينا، ووعدنا ووعيدنا، ﴿ لتفترىَ علينا غيره ﴾؛ لتقول ما لم أقل لك، مما اقترحوا عليك. نزلت فى ثقيف،

(١) الآية ٩٢ من سورة الواقعة (٢) الآية ٩٠ من نفس السورة.

إذ قالوا للنبى ﷺ: لا نَدْخُلُ فى أَمْرِكَ حتى تُعْطِيَنَا خِصَالاً نَفْتخِرُ بها على العرَبِ: لانُعْشَرُ، وَلانُحشَرُ، وَلاَ نَحْنِى فى صلاَتِنا، وكُلُّ رِباً لنَا فهُو لنَا، وكلُّ رِباً علَيْنَا فهو موْضُوعٌ، وأنْ تُمتِّعنا باللات سَنَةً، وأن تُحَرِّمَ وَادِينَا كما حرمت مكة، فإذا قالت العَرَبُ: لِمَ فَعلْتَ؟ فقُل: الله أمَرنِى بذلك. فأبى عليهم رسولُ الله ﷺ(١)، وخَيّب سعيهم. فالآية، على هذا، مدنية. وقيل: في قريش، قالوا للنبى ﷺ: لا نُمكنك من استلام الحجر، حتى تلمّ بآلهتنا، وتمسّها بيدك(٢). وقيل: قالوا: اقْبل بعض أمرنا، نقبل بعض أمرك، والآية، حينئذ، مكية كجميع السورة.

﴿ وإذاً لا تخذوكَ خليلاً ﴾ أى: لو فعلت ما أرادوا منك لصرت لهم وليًا وحبيبًا، ولخرجت من ولايتى، ﴿ ولولا أنْ ثبتناك ﴾ على ما أنت عليه من الحق؛ بعصمتنا لك، ﴿ لقد كِدتَ تركنُ إليهم شيئاً قليلاً ﴾ من الركون، الذى هو أدنى ميل، أى: لولا أن عصمناك، لقاربت أن تميل إليهم؛ لقوة خدعهم، وشدة احتيالهم. لكن عصْمتنا منعتك من المقاربة. وهو صريح فى أنه ـ عليه الصلاة السلام ـ ما همّ بإجابتهم، مع قوة الداعى إليها، ولا قارب ذلك. وهو دليل على أن العصمة بتوفيق الله وحفظه. قاله البيضاوى. وفيه رد على ابن عطية، حيث قال: قيل: إنه همّ بموافقتهم، لكن كان ذلك خطرة، والصواب: عدم ذلك؛ لأن التثبيت والعصمة مانعٌ من ذلك.

وقد أجاد القشيرى فى ذلك، ونصه: ضربنا عليك سرادقات العصمة، وآويناك فى كنف الرعاية، وحفظناك عن خطر اتباع هواك، فالزَّلَلُ منك محال، والافتراءُ فى نعتك غير موهوم، ولو جنَحْتَ لحظةً إلى جانب الخلاف لتضَاعفَتْ عليكَ شدائدُ البلاء؛ لكمالِ قَدْرِك وعلّوِّ شأنك؛ فإنّ كل مَنْ هو أعلى درجةً فذَنْبُه ـ لو حصل ـ أشدُّ تأثيراً. ﴿ ولولا أن ثبتناك . . . ﴾ الآية: لو وكلناك ونفسَكَ، ورفعنا عنك ظِلَّ العصمة، لقاربت الإلمام بشيء مما لا يجوز من مخالفة أمرنا، ولكنّا أفردناك بالحفظ، بما لا تتقاصر عنكَ آثارُه، ولا تَغْرُبُ عن ساحتك أنوارُه. ﴿ إذًا لأذقناك ضِعْفَ الحياة وضِعْف الممات ﴾، هبوطُ الأكابر على قدر صعودهم. هـ.

﴿ إذاً ﴾ أى: لو قاربت أن تركن إليهم أدنى ركون ﴿ لأذقناك ضعف ﴾ عذاب ﴿ الحياة ﴾، ﴿ وضِعْفَ ﴾ عذاب ﴿ الممات ﴾، أى: مِثْلَيْ ما يُعَذّبُ غيرك فى الدنيا والآخرة؛ لأن خطأ الخطير أخطر. وكأن أصل الكلام: عذاباً ضعفاً فى الحياة، وعذاباً ضعفا فى الممات، أى: مضاعفاً، ثم حذف الموصوف، وأقيمت الصفة مقامه، ثم أضيفت

(١) قال الحافظ ابن حجر فى الكافى الشاف: لم أجده، وذكره الثعلبى عن ابن عباس من غير سند. وذكره الواحدى فى الأسباب (ص ٢٩٧) بدون سند أيضاً.
(٢) أخرجه الطبرى (١٥/ ١٣٠) عن سعيد بن جبير، بسند ضعيف.

إضافة موصوفها. وقيل: الضعف من أسماء العذاب. وقيل: المراد بضعف الحياة: عذاب الآخرة؛ لأن حياته دائمة، وبضعف الممات: عذاب القبر. ﴿ثم لاتجدُ لك علينا نصيراً﴾ يدفع عنك العذاب.

﴿وإن كادوا﴾ أي: كاد أهل مكة ﴿لَيَستفزُونك﴾؛ ليزعجونك بعداوتهم ومكرهم ﴿من الأرض﴾ التى أنت فيها. وهي: أرض مكة، ﴿ليُخرجوكَ منها وإذاً لا يلبثون خِلافَكَ إلاَّ قليلاً﴾؛ إلا زمناً قليلا. وقد كان كذلك، فإنهم أُهلكوا ببدر بعد هجرته ﷺ، وقيل: نزلت فى اليهود؛ فإنهم حسَدوا مقام النبى ﷺ بالمدينة، فقالوا: الشام مقام الأنبياء، فإن كنت نبياً فالحقْ بها حتى نؤمن بك. فوقع ذلك فى قلبه ﷺ، فخرج مرحلة، فنَزَلَت(١)، فرَجَعَ ﷺ، ثم قتل منهم بنى قريظة، وأجلى بنى النضير بقليل، ﴿سُنَّة من قد أرسلنا قَبلك من رُسلنا﴾ أى: عادته تعالى: أن يُهلك من أُخْرِجَتْ رسلهم من بين أظهرهم، فقد سنّ ذلك فى خلقه، وأضافها إلى الرسل؛ لأنها سُنت لأجلهم. ﴿ولا تجد لسُنَّتنا تحويلاً﴾ أى: تغييراً وتبديلا.

الإشارة : من شأن العارف الكامل أن يأخذ بالعزائم، ويأمر بما يقتل النفوس، ويوصل إلى حضرة القدوس، وهو كل ما يثقل على النفوس، فإن أتاه من يفْتنه ويرده إلى الهوى، حفظته العناية، واكتنفته الرعاية، فيقال له: وإن كادوا ليفتنونك عن الذى أوحينا إليك؛ وحْى إلهام، لتفترى علينا غيره، فتأمر بالنزول إلى الرخص والتأويلات، وإذاً لاتخذوك خليلا. ولولا أن ثبتناك؛ بالحفظ والرعاية، لقد كدت تركنُ إليهم شيئاً قليلاً، وهي: خواطر تخطر ولا تثبت. إذاً لأذقناك ضعف الحياة، وهو: الذل والحرص والطمع. وضعف الممات، وهو: السقوط عن مقام المقربين، أهل الرَّوح والريحان. وإن كادوا ليستفزونك من أرض العبودية، ليخرجوك منها إلى إظهار الحرية،،من العز والجاه، وإذاً لا يلبثون خلافك ممن اتبعك إلا قليلا؛ لأن من رجع إلى مباشرة الدنيا والحس قلّ مدده، فُيقل انتفاعه، فلا يتبعه إلا القليل. هذه سُنة الله فى أوليائه، ولن تجد لسنة الله تحويلا.

ثم أمر بمراسم الشريعة، التى هى عنوان العناية، فقال:

﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودٗا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ﴿٧٩﴾ ﴾

---

(١) أخرجه ابن أبى حاتم فى تفسيره (٧/٢٣٤١) والبيهقى فى الدلائل (باب ماروى فى سبب خروج النبى ﷺ) إلى تبوك عن عبدالرحمن بن غنم، وضعف الحافظ ابن كثير فى تفسيره (٣/٥٣) هذا القول؛ لأن هذه الآية مكية. وسكنى المدنية بعد ذلك.

قلت: الدلوك: الميل. واشتقاقه من الدَّلْك؛ لأن من نظر إليها حينئذ يدلك عينه. واللام للتأقيت بمعنى: عند. و(قرآن): عطف على (الصلاة)، أو منصوب بفعل مضمر، أي: اقرأ قرآن الفجر، أو على الإغراء.

يقول الحق جل جلاله: ﴿أقم الصلاةَ لدلُوكِ﴾ أي: عند زوال ﴿الشمس﴾، وهو إشارة إلى إقامة الصلوات الخمس، فدلوك الشمس: زوالها؛ وهو إشارة إلى الظهر والعصر، وغسق الليل: ظلمته، وهو إشارة إلى المغرب والعشاء، ﴿وقرآنَ الفجر﴾؛ صلاة الصبح، وإنما عبَّر عن صلاة الصبح بقرآن الفجر؛ لأن القرآن يُقرأ فيها أكثر من غيرها؛ لأنها تُصلى بسورتين طويلتين، ثم مدحها بقوله: ﴿إنَّ قرآن الفجر كان مشهوداً﴾؛ تشهده ملائكةُ الليل وملائكة النهار، أو: يشهده الجم الغفير من المصلين، أو فيه شواهد القدرة؛ من تبدل الظلمة بالضياء، والنوم، الذى هو أخو الموت، بالانتباه.

ثم أمر بقيام الليل فقال: ﴿ومن الليل﴾ أي: بعض الليل ﴿فتهجدْ به﴾ أي: اترك الهجود، الذى هو النوم فيه، للصلاة بالقرآن، ﴿نافلةً لك﴾ أي: فريضة زائدة لك على الصلوات الخمس، أو فريضة زائدة لك؛ لاختصاص وجوبها بك، أو نافلة زائدة لك على الفرائض؛ غير واجبة. وكأنه، لما أمر بالفرائض، أمر بعدها بالنوافل. وتطوعه ـ عليه الصلاة والسلام؛ لزيادة الدرجات، لا لجبر خلل أو تكفير ذنب؛ لأنه مغفور له ما تقدم وما تأخر. و«من»: للتبعيض، والضمير فى «به»: للقرآن. والتهجد: السهر، وهو: ترك الهجود، أي: النوم. فالتفعل هنا للإزالة؛ كالتأثم والتحرج، لإزالة الإثم والحرج.

ثم ذكر ثوابه فى حقه ـ عليه الصلاة والسلام ـ فقال: ﴿عسى أنْ يبعثك ربك مقاماً محموداً﴾ عندك وعند جميع الناس، وهي: الشفاعة العظمى. وفيه تهوين لمشقة قيام الليل. رَوى أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «المقَام المحمُود هُوَ المقَامُ الَّذِي أَشْفَعُ فِيهِ لأمَّتِي(١)». وقال ابن عباس رضي الله عنهما: مقاماً محموداً يحمده فيه الأولون والآخرون، ويشرف فيه على جميع الخلائق، يسأل فيُعطى، ويشفع فيُشَفَّع. وعن حذيفة: يُجْمع الناس فى صعيد واحد، فلا تتكلم فيه نفس إلا بإذنه، فأول مدعو محمدٌ ﷺ، فيقول: «لبيك وسعديك. والشر ليس إليك، والمَهدى من هديت، وعبدك بين يديك، وبك وإليك، لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك، تباركت وتعاليت، سبحانك رب البيت». ثم يأذن له فى الشفاعة. والله تعالى أعلم.

وقال ابن العربى المعافرى فى أحكامه: وَاخْتُلِفَ فى وجه كون قيام الليل سبباً للمقام المحمود على قولين، فقيل: إن البارئ تعالى يجعل ما يشاء من فضله سبباً لفضله، من غير معرفة منا بوجه الحكمة. وقيل: إن قيام الليل فيه

(١) أخرجه أحمد فى المسند (٢/٤٤١)، والترمذى وحسَّنه فى (التفسير، سورة الإسراء)، والبيهقى فى الدلائل (٥/٤٨٤)، وأصل الحديث عند البخارى ومسلم.

الخلوة به تعالى، والمناجاة معه دون الناس، فيعطى الخلوة به والمناجاة في القيامة، فيكون مقاماً محموداً، ويتفاضل فيه الخلق بحسب درجاتهم. وأجلُّهم فيه؛ درجةً: نبينا محمد ﷺ، فيعطى من المحامد ما لم يُعط قبل، ويُشَفَّع فيَشْفَع. هـ. قال شيخ شيوخنا سيدى عبدالرحمن الفاسي: وقد يقال: إن ذلك مرتب على قوله: (أقم الصلاة..) الآية، ولا يخص بقيام الليل، والصلاةُ، مطلقاً مفاتحةٌ للدخول على الله ومناجاةٌ له، ولذلك جاء في حديث الشفاعة افتتاحه بأن «يخر ساجداً حامداً، فيؤذن حينئذ بالشفاعة». ومن تواضع رفعه الله. هـ.

الإشارة: قوم اعتنوا بإقامة صلاة الجوارح، وهم: الصالحون الأبرار، وقوم اعتنوا بإقامة صلاة القلوب، التى هى الصلاة الدائمة، وهم العارفون الكبار، وقوم اعتنوا بسهر الليل في الركوع والسجود، وهم العباد والزهاد والصالحون، أولوا الجد والاجتهاد. وقوم اعتنوا بسهره في فكرة العيان والشهود، وهم المقربون عند الملك الودود. الأولون يُوفَّون أجرهم على التمام بالحور والولدان، والآخرون يُكشف لهم الحجاب ويتمتعون بالنظر على الدوام، الأولون محبون، والآخرون محبوبون، الأولون يشفعون في أقاربهم ومن تعلق بهم، والآخرون قد يشفع واحد منهم في أهل عصره. وما ذلك على الله بعزيز.

ولما أمره بالقيام بوظائف العبودية، أمره بالتعلق في أموره كلها بالربوبية، فقال:

﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿وقل﴾ يا محمد: ﴿ربّ أَدْخلنى﴾ في الأمور كلها ﴿مُدْخلَ صدقٍ﴾؛ بأن أدخل فيها بك لا بنفسي، ﴿وأخرجنى﴾ منها ﴿مُخرجَ صدقٍ﴾ كذلك، مصحوباً بالفهم عنك، والإذن منك في إدخالى وإخراجي. وقيل: أدخلنى قبرى مدخل صدق راضياً مرضياً، وأخرجنى منه عند البعث مخرج صدق، أى: إخراجاً مرضياً مُلقى بالكرامة. فيكون تلقيناً للدعاء بما وعده من البعث، المقرون بالإقامة للمقام المحمود، التى لا كرامة فوقها. وقيل: المراد: إدخال المدينة، والإخراج من مكة. وقيل: إدخاله ـ عليه الصلاة والسلام ـ مكة؛ ظاهراً عليها، وإخراجه منها؛ آمناً من المشركين. وقيل: إدخاله الغار، وإخراجه منه سالماً. وقيل: إدخاله فيما حمله من أعباء الرسالة، وإخراجه منه مؤدياً حقه. وقيل: إدخاله في كل ما يلائمه من مكان أو أمر، وإخراجه منه بالحفظ والرعاية، بحيث يدخل بالله ويخرج بالله. وهو الراجح كما قدمناه.

﴿واجعل لى من لدُنك﴾ أى: من مستبْطَن أمورك، ﴿سُلطاناً نصيراً﴾ أى: حجة ظاهرة، تنصرنى على من يخالفنى ويعادينى، أو: عزاً ناصراً للإسلام، مظهراً له على الكفر. فأُجيبتْ دعوته ـ عليه الصلاة والسلام ـ

بقوله: ﴿ ألا إن حزبَ اللهِ هُمُ الغالبُونَ ﴾(١)، ﴿ لِيُظهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ﴾(٢)، ﴿ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ... ﴾(٣) الآية، ويقوله: ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ... ﴾(٤) الآية. وذلك حين يظهر الحق، ويزهق الباطل، كما قال: ﴿ وقل جاء الحق ﴾ أي: الإسلام أو الوحي، ﴿ وزهق الباطلُ ﴾؛ ذهب، وهلك الكفر والشرك، وتسويلات الشيطان؛ ﴿ إنَّ الباطلَ ﴾ كائنا ما ﴿ كان زهوقا ﴾ أي: شأنه أن يكون مضمحلاً غير ثابت. وعن ابن مسعود رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ دَخَلَ مَكَّةَ يَوْمَ الفَتْحِ، وحَوْلَ البيْتِ ثَلاثُمائةٍ وسِتُّون صَنَماً، فَجَعَلَ يَطْعَنُ بمخْصَرةٍ(٥) كانت بيده في عين كل واحد، ويقول: جاءَ الحَقُّ وَزَهَقَ البَاطِلُ، فَيَنْكَبُّ لِوَجْهِه، حتى أَلْقَى جميعَها، وبَقِيَ صَنَمُ خُزَاعَةَ فوقَ الكَعْبَةِ، وكَانَ من صُفْرٍ،(٦) فقال: يا عَلِيُّ، ارْمِ بِهِ؛ فصَعَدَ إليه، ورَمَى به، فكَسَرَهُ(٧). هـ.

الإشارة: إذا تمكن العارفون من شهود حضرة القدس ومحل الأنس، وصارت معشش قلوبهم؛ كان نزولهم إلى سماء الحقوق وأرض الحظوظ بالإذن والتمكين، والرسوخ فى اليقين. فلم ينزلوا إلى سماء الحقوق بسوء الأدب والغفلة، ولا إلى أرض الحظوظ بالشهوة والمتعة، بل دخلوا فى ذلك بالله ولله، ومن الله وإلى الله، كما فى الحكم. ثم قال: ﴿ وقل رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق ﴾؛ ليكون نظرى إلى حولك وقوتك إذا أدخلتنى، وانقيادى إليك إذا أخرجتنى. ﴿ واجعل لى من لدنك سلطاناً نصيرا ﴾ ينصرني ولا ينصر عليّ، ينصرنى على شهود نفسي، حتى أغيب عنها وعن متعتها وهواها، ويغنينى عن دائرة حسى، حتى تتسع عليّ دائرة المعانى عندى، وأفضى إلى فضاء الشهود والعيان، فحينئذ يزهق الباطل، وهو ما سوى الله، ويجيء الحق، وهو وجود الحق وحده، فأقول حينئذ: ﴿ وقل جاء الحق وزهق الباطل إنَّ الباطل كان زهوقًا ﴾، وإنما أثبته الوهم والجهل، وإلا فلا ثبوت له؛ ابتداء وانتهاء.

وثبوت الوهم والجهل فى القلب: مرض من الأمراض، وشفاؤه فى التمسك بما جاء به القرآن العظيم، كما قال تعالى:

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ ﴾

(١) من الآية ٥٦من سورة المائدة. (٢) من الآية ٣٣ من سورة التوبة. (٣) من الآية ٥٥ من سورة النور.
(٤) الآيتان: ١٧١ ـ ١٧٢من سورة الصافات.
(٥) المخصرة: ما يختصره الإنسان بيده، فيمسكه؛ من عصاً ونحوها... انظر: مختار الصحاح، (خصر). (٦) أى: من نُحاس.
(٧) أخرجه البخارى فى (التفسير، سورة الإسراء)، ومسلم فى (الجهاد، باب فتح مكة).

قلت: (من): للبيان، قدمت على المُبيَّن؛ اعتناء، فالقرآن كله شفاء. وقيل: للتبعيض، والمعنى: أن منه ما يشفى من المرض الحسى، كالفاتحة وآية الشفاء، ومن المرض المعنوى، كآيات كثيرة.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ونُنزِّلُ من القرآنِ ما هو شفاءٌ﴾ لما فى الصدور، ومن سقام الريب والجهل، وأدواء الأوهام والشكوك، ﴿ورحمة للمؤمنين﴾ به، العالمين بما احتوى عليه من عجائب الأسرار وغرائب العلوم، المستعملين أفكارهم وقرائحهم فى الغوْص على درره ويواقيته، أى: وننزل ما هو تقويم دينهم واستصلاح نفوسهم، ورفع الأوهام والشكوك عنهم، كالدواء الشافى للمرض، وعن النبى ﷺ: «من لم يستشف بالقرآن لا شفاه الله»(١). ﴿ولا يزيدُ الظالمين﴾؛ الكافرين المكذبين، الواضعين الأشياء فى غير محلها، مع كونه فى نفسه شفاء من الأسقام، ﴿إلا خسارا﴾؛ إلا هلاكاً بكفرهم وتكذيبهم به. ولا يفسر الخسران هنا بالنقصان؛ فإن ما بهم من داء الكفر والضلال حقيق بأن يُعبَّر عنه بالهلاك، لا بالنقصان المنبئ عن حصول بعض مبادئ الإسلام، فهم فى الزيادة فى مراتب الهلاك، من حيث إنهم، كلما جدّدوا الكفر والتكذيب بالآيات النازلة ازدادوا بذلك هلاكاً.

وفيه إيماء إلى أن ما بالمؤمنين من الشُّبَه والشكوك المعترية لهم فى أثناء الاهتداء والاسترشاد، بمنزلة الأمراض، وما بالكفرة؛ من الجهل والعناد بمنزلة الموت والهلاك، وإسناد زيادة الخسران إلى القرآن، مع أنهم هم المزدادون فى ذلك بسوء صنيعهم؛ باعتبار كونه سبباً لذلك، حيث كذّبوا به، وفيه تعجيب من أمره؛ حيث جعله مدار الشفاء والهلاك. قاله أبو السعود.

الإشارة: لا يحصل الاستشفاء بالقرآن إلا بعد التصفية والتطهير للقلب، بالتخلية والتحلية، على يد شيخ كامل، عارف بأدواء النفوس، حتى يتفرغ القلب من الأغيار والأكدار، ويذهب عنه وساوس النفوس وخواطر القلوب؛ ليتفرغ لسماع القرآن والتدبر فى معانيه. وأما إن كان القلب محشواً بصور الأكوان، مصروفاً إلى الخواطر والأغيار، لا يذوق له حلاوة، ولا يدرى ما يقول، فلا يهتدى لما فيه من الشفاء، إذ لا يستشفى بالقرآن إلا من له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد. ولأجل ذلك كان من شأن شيوخ التربية أن يأمروا المريد بالذكر المجرد، حتى تُشرق عليه أنواره، وتذهب به عنه أغياره. وحينئذ يأمره بتلاوة القرآن؛ ليذوق حلاوته، فإذا كمل تطهيره، تمتع بحلاوة شهود المتكلم، فيسمعه من الحق بلا واسطة، وهو المراد بالرحمة المذكورة بعد الشفاء. والله تعالى أعلم.

وإذا أدرك العبدُ هذه النعمة العظمى، وجب عليه دوام الشكر، كما نبَّه عليه تعالى بذكر ضدها، فقال:

﴿ وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ أَعۡرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسٗا ﴿٨٣﴾ قُلۡ كُلّٞ يَعۡمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَنۡ هُوَ أَهۡدَىٰ سَبِيلٗا ﴿٨٤﴾ ﴾

(١) عزاه فى الكنز (٢٨١١٠٦) للدارقطني فى الأفراد، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وإذا أنعمنا على الإنسان﴾؛ بالصحة والعافية والنعمة، ﴿أعرضَ﴾ عن ذكرنا، فضلاً عن القيام بالشكر، ﴿ونأى﴾ أى: تباعد ﴿بجانبه﴾؛ لوى عطفه وبعد بنفسه. فالنأى بالجانب: أن يلوى عن الشيء عِطفَه ويوليه عُرض وجهه، فهو تأكيد للإعراض. أو عبارة عن التكبر؛ لأنه من ديْدن المستكبرين، ﴿وإذا مسَّه الشرُّ﴾؛ من فقر، أو مرض، أو نازلة من النوازل، ﴿كان يؤوساً﴾؛ شديد اليأس من روْحنا وفرجنا. وفى إسناد المسِّ إلى الشر، بعد إسناد الإنعام إلى ضمير الجلالة؛ إيذان بأن الخير مراد بالذات، والشر ليس كذلك. وهذا الوصف المذكور هنا هو وصف للإنسان باعتبار بعض أفراده ممن هو على هذا الوصف، ولا ينافيه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾[1]، ونظائره؛ فإن ذلك فى نوع آخر من جنس الإنسان. وقيل: أريد به الوليد بن المغيرة.

قال تعالى: ﴿قُل كلٌّ﴾ أى: كل واحد منكم وممن هو على خلافكم ﴿يعملُ على شاكلته﴾؛ على طريقته التى تُشاكل حاله من الهُدى والضلالة، ﴿فربُّكم أعلم بمن هو أهدى سبيلاً﴾ أى: فربكم، الذى يراكم على هذه الأحوال والطرق، أعلم بمن هو أسدّ طريقاً وأبين منهاجاً. وقد فسرت الشاكلة أيضا بالطبيعة والعادة والدين والنية. والله تعالى أعلم.

الإشارة: ينبغى للمؤمن المشفق على نفسه أن يمعن النظر فى كلام سيده، فإذا وجده مدَحَ قوماً بعمل، بادر إلى فعله، أو بوصف، بادر إلى التخلق به، وإذا وجده ذم قوماً، بسبب عمل، تباعد عنه جهده، أو بوصف تطهر منه بالكلية. وقد ذم الحق تعالى هنا من بطر بالنعمة وغفل عن القيام بشكرها، ومن جزع عند المصيبة وأيس من ذهابها، فليكن المؤمن على عكس هذا، فإذا أصابته مصيبة أو بلية تضرع إلى مولاه، ورجى فضله ونواله، وإذا أصابته نعمة دنيوية أو دينية أكثر من شكرها، وشهد المنعم بها فى أخذها وصرفها، ولا سيما نعمة الإيمان والمعرفة، وتصفية الروح من غبش الحس والوهم، حتى ترجع لأصلها، الذى هو سر من أسرار الله، الذى أشار إليه بقوله تعالى:

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ويسألونك عن الروح﴾ أى: عن حقيقة الروح، الذى هو مدبر البدن الإنسانى، ومبدأ حياته. رُوى أن اليهود قالوا لقريش: سلوه عن أصحاب الكهف، وعن ذى القرنين، وعن الروح،

(١) من الآية ٥١ من سورة فصلت.

فإن أجاب عنها كلها أو سكت فليس بنبي، وإن أجاب عن بعض وسكت عن بعض فهو نبي. فبيّن لهم القصتين وأبهم أمر الروح، وهو مبهم في التوراة، فقال: ﴿قل الروح من أمر ربي﴾، أظهر في مقام الإضمار؛ إظهاراً لكمال الاعتناء بشرفه، أي: هو من جنس ما استأثر الله بعلمه من الأسرار الخفية، التي لا يكاد يحوم حولها عقولُ البشر. ﴿وما أُوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾ لا يمكن تعلقه بأمثال هذه الأسرار.

رُوى أنه ﷺ لما قال لهم ذلك، قالوا: نحن مختصون بهذا الخطاب، قال عليه الصلاة والسلام: «بل نحن وأنتم». فقالوا: ما أعجب شأنك، ساعة تقول: ﴿وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً﴾(١)، وتارة تقول هذا، فنزلت: ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِّكَلِمَاتِ رَبِّي﴾(٢) الآية. ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلامٌ...﴾(٣) الآية. وهذا من ركاكة عقولهم؛ فإن من الحكمة الإنسانية أن يعلم من الخير ما تسعه الطاقة البشرية، بل ما نيط به المعاش والمعاد، وذلك بالإضافة إلى ما لا نهاية له من متعلقات علمه سبحانه، قليل ينال به خير: كثير في نفسه.

وقال ابن حجر: أخرج الطبراني عن ابن عباس أنهم قالوا: أخبرنا عن الروح، وكيف تُعذب الروح في الجسد؛ وإنما الروح من الله ؟. هـ. قلت: يُجاب بأنها لما برزت لعالم الشهادة لحقتها العبودية، وأحاطت به القهرية. وقال القشيري: أرادوا أن يُغالطوه فيما به يجيب، فأمَرَه أن ينطق بأمرٍ يُفصح عن أقسامِ الروح، لأنَّ ما يُطْلَقُ عليه لفظ «الروح» يدخل تحت قوله: ﴿قل الروح من أمر ربى﴾، ثم قال: وفى الجملة: الروح مخلوقة، والحق أجرى العادة بأن يخلق الحياة للعبد، ما دام الروح في جسده، والروح لطيفة تَقرب للكثافة فى طهارتها ولطافتها. وهى مخلوقة قبل الأجساد بألوفٍ من السنين. وقيل: إن أدركها التكليف، كان للروح صفاء التسبيح، وضياء المواصلة، ويُمن التعريف بالحق. هـ. وقيل: المراد بالروح: خلق عظيم روحاني من أعظم الملائكة، وقيل: جبريل عليه السلام، وقيل: القرآن. ومعنى (من أمر ربى)؛ من وحيه وكلامه، لا من كلام البشر. والله تعالى أعلم بمراده.

الإشارة: قد أكثر الناسُ الكلام فى شأن الروح، فرأى بعضهم أن الإمساك عنها أولى؛ لأن الرسول - عليه الصلاة والسلام - لم يجب عنها. وبيّن الحق تعالى أنها من أمر الله وسر من أسراره. ورأى بعضهم أن النهى لم يرد عن الخوض فيها صريحاً، فتكلم على قدر فهمه. فقال بعضهم: حقيقة الروح: جسم لطيف مشتبك بالبدن اشتباك الماء بالعود الأرطب، وقال صاحب (الرموز فى فتح الكنوز) على حديث: «من عرف نفسه عرف ربه»: قد ظهر

(١) من الآية ٢٦٩ من سورة البقرة.
(٢) من الآية ١٠٩ من سورة الكهف.
(٣) من الآية ٢٧ من سورة لقمان، وعزاه الحافظ ابن حجر في الكافي الشاف للثعلبي في التفسير، بغير سند ولا راو.

لى من سر هذا الحديث ما يجب كشفه ويستحسن وصفه، وهو: أن الله، سبحانه، وضع هذا الروح فى هذه الجثة الجثمانية، لطيفة لاهوتية، فى كثيفة ناسوتية، دالة على وحدانيته تعالى وربانيته، ووجه الاستدلال من عشرة أوجه: **الأول:** أن هذا الهيكل الإنسانى لَمَّا كان مفتقراً إلى محرك ومدبر، وهذا الروح هو الذى يدبره ويحركه، علمنا أن هذا العالم لابد له من محرك ومدبر. **الثانى:** لَمَّا كان مدبر الجسد واحداً؛ علمنا أن مدبر هذا العالم واحد لا شريك له فى تدبيره وتقديره. قال تعالى: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾(١). **الثالث:** لَمَّا كان لا يتحرك هذا الجسم إلا بتحريك الروح وإرادته؛ علمنا أنه لا يتحرك بخير أو شر إلا بتحريك الله وقدرته وإرادته. **الرابع:** لَمَّا كان لا يتحرك فى الجسد شىء إلا بعلم الروح وشعورها، لا يخفى على الروح من حركة الجسد شىء، علمنا أنه تعالى لا يعزب عنه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء. **الخامس:** لَمَّا كان هذا الجسد لم يكن فيه شىء أقرب إلى الروح من شىء؛ علمنا أنه تعالى قريب إلى كل شىء، ليس شىء أقرب إليه من شىء، ولا شىء أبعد إليه من شىء، لا بمعنى قرب المسافة؛ لأنه منزه عن ذلك. **السادس:** لَمَّا كان الروح موجوداً قبل الجسد، ويكون موجوداً بعد عدمه؛ علمنا أنه تعالى موجود قبل خلقه، ويكون موجوداً بعد عدمهم، ما زال، ولا يزال، وتقدس عن الزوال. **السابع:** لَمَّاكان الروح فى الجسد لا تعرف له كيفية؛ علمنا أنه تعالى مقدس عن الكيفية. **الثامن:** لَمَّا كان الروح فى الجسد لا تعرف له كيفية ولا أينية، بل الروح موجود فى سائر الجسد، ما خلا منه شىء فى الجسد. كذلك الحق سبحانه موجود فى كل مكان، وتنزه عن المكان والزمان. **التاسع:** لَمَّا كان الروح فى الجسد لا يحس ولا يجس ولا يُمس، علمنا أنه تعالى منزه عن الحس والجس والمس. **العاشر:** لَمَّا كان الروح فى الجسد لا يُدرك بالبصر، ولا يمثل بالصور، علمنا أنه تعالى لاتُدركه الأبصار، ولا يمثل بالصور والآثار، ولا يشبه بالشموس والأقمار، ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾(٢) .هـ. وحديث «من عرف نفسه...» الخ،، قال النووى: غير ثابت، وقال السمعانى: هو من كلام يحيى ابن معاذ الرازى.والله تعالى أعلم.

وسئل أبو سعيد الخراز عن الروح، أمخلوقة هى؟ قال: نعم. ولولا ذلك لما أقرت بالربوبية حتى قالت: «بلى». قلت: لما انفصلت عن الأصل كستها أردية العبودية، فأقرت بالربوبية. وقال الورتجبى: الروح: شعاع الحقيقة، يختلف آثارها فى الأجساد. قال: ومن خاصيتها أنها تميل إلى كل حسن ومستحسن، وكل صوت طيب؛ وكل رائحة طيبة؛ لحسن جوهرها وروح وجودها، ظاهرها غيب الله، وباطنها سر الله، مصورة بصورة آدم، فإذا أراد الله

(١) من الآية ٢٢ من سورة الأنبياء.
(٢) من الآية ١١ من سورة الشورى.

خلق آدمى أحضر روحه، فصور صورته بصورة الروح؛ فلذلك قال عليه الصلاة والسلام؛ إشارة وإبهاما: «خلق الله آدم على صورته» . هـ . قلت: يعني: أن إظهار الروح من بحر الجبروت، في التجلي الأول، كان على صورة آدم، ثم خلق آدم على صورة الروح الأعظم، وهو التجلي الأول من بحر المعاني، فكانت أول التجليات من ذات الرحمن، فقال في حديث آخر: «إن الله خلق آدم على صورة الرحمن» . والله تعالى أعلم. وقيل: الصوت الطيب روحاني، ولتشاكله مع الروح، صار يهيج الروح ويحثها للرجوع لأصلها، إذا كان صاحبها له ذوق سليم، يسمع من صوت طيب كريم. سمع أبو يزيد نغمة، فقال: أجد النغم نداء منه تعالى. وقيل: إن الروح لم تدخل في جسد آدم إلا بالسماع، فصارت لا تخرج من سجنه إلا بالسماع. والله تعالى أعلم.

ثم بيَّن قوله: ﴿ وما أُو تيتم من العلم إلا قليلاً ﴾ ، فقال:

﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ ﴾

قلت : قال ابن جزي: هذه الآية متصلة المعنى بقوله: ﴿ وما أُوتيتم من العلم إلا قليلاً ﴾ أي: في قدرتنا أن نذهب بالذي أوحينا إليك، فلا يبقى عندكم شيء من العلم.هـ. (إلا رحمة): يحتمل أن يكون متصلاً، أي: لا تجد من يتوكل برده إلا رحمة ربك. أو منقطعا، أي: لو شئنا لذهبنا بالقرآن، لكن رحمة من ربك تمسكه من الذهاب، و(لا يأتون): جواب القسم؛ الدال عليه اللام الموطئة، وسد مسد جواب الشرط. ولولا اللام لكان جواباً للشرط، ولم يُجزَمْ؛ لكون الشرط ماضياً، كقول زهير:

فإنْ أتاهُ خليلٌ يومَ مسألةٍ ... يقولُ لا غائبٌ ما لي ولا حَرَمُ (١)

و(إلا كفورا) : استثناء مفرغ منصوب بأبَى؛ لأنه في معنى النفي، أي: ما رضي أكثرهم إلا الكفر به.

يقول الحق جل جلاله : ﴿ ولئنْ شئنا لنَذْهَبَنَّ بالذي أوْحَينا إليك ﴾ أي: بالقرآن الذي هو منبع العلوم التي أُوتيتموها، ومقتبس الأنوار، فلا يبقى عندكم من العلم إلا قليلا. والمراد بالإذهاب: المحو من المصاحف

(١) انظر ديوانه /٩١.

والصدور. وعن ابن مسعود رضي الله عنه: (أول ما تفقدون من دينكم: الأمانة، وآخر ما تفقدون الصلاة، وليصلين قوم ولادين لهم. وإن هذا القرآن تصبحون يوماً وما فيكم منه شيء. فقال رجل: كيف ذلك، وقد أثبتناه في قلوبنا، ودوناه في مصاحفنا، وعلمناه أبناءنا، وأبناؤنا يعلمه أبناءهم؟! فقال: يسرى عليه، ليلاً، فيصبح الناس منه فقراء، ترفع المصاحف، وينزع ما في القلوب)(١). ﴿ ثم ﴾ إن رفعناه ﴿ لا تجدُ لك به ﴾ أي: القرآن ﴿ علينا وكيلاً ﴾ أي: من يتوكل علينا استرداده مسطوراً محفوظاً، ﴿ إلا رحمةً من ربك ﴾؛ فإنها إن تأتك لعلها تسترده، أو: لكن رحمة من ربك أمسكته؛ فلم يذهب. ﴿ إنَّ فضله كان عليك كبيراً ﴾، كإرْسالك للناس كافة، وإنزال الكتاب عليك، وإنعامه في حفظك، وغير ذلك مما لا يحصى.

ثم نوّه بقدر الكتاب الذي أنزله فقال: ﴿ قل لئن اجتمعت الإنسُ والجنُ ﴾ ،واتفقوا ﴿ على أن يأتوا بمثلِ هذا القرآنِ ﴾ المنعوت بما لا تدركه العقول من النعوت الجليلة في البلاغة، وحسن النظم، وكمال المعنى، ﴿ لا يأتون بِمثله ﴾ أبداً؛ لما تضمنه من العلوم الإلهية، والبراهين الواضحة، والمعاني العجيبة، التي لم يكن لأحد بها علم، ثم جاءت فيه على الكمال، ولذلك عجزوا عن معارضته. وقال أكثر الناس: إنما عجزوا عنه؛ لفصاحته، وبراعته، وحسن نظمه. ووجوه إعجازه كثيرة. وإنما خص الثقلين بالذكر؛ لأن المنكر كونه من عند الله منهما، لا لأنّ غيرهما قادر على المعارضة. وإنما أظهر في محل الإضمار، ولم يقل: لا يأتون به؛ لئلا يتوهم أن له مثلا معينا، وإيذاناً بأن المراد نفي الإتيان بمثلٍ مّا، أي: لا يأتون بكلام مماثل له فيما ذكر من الصفات البديعة، وفيهم العرب العاربة، أرباب البراعة والبيان. فلا يقدرون على الإتيان بمثله ﴿ ولو كان بعضُهم لبعضٍ ظهيراً ﴾ أي: ولو تظاهروا وتعاونوا على الإتيان بمثله ما قدروا. وهو عطف على مقدر، أي: لا يأتون بمثله لو لم يكن بعضهم ظهيراً لبعض، ولو كان.. الخ. ومحله النصب على الحالية، أي: لا يأتون بمثله على كل حال مفروض، ولو على هذه الحالة.

ثم قال تعالى: ﴿ ولقد صرَّفنا ﴾ أي: كررنا ورددنا على أنحاء مختلفة، توجب زيادة تقرير وبيان، وركادة رسوخ واطمئنان، ﴿ للناس في هذا القرآن ﴾ المنعوت بما ذكر من النعوت الفاضلة، ﴿ من كل مَثَلٍ ﴾؛ من كل معنى بديع، هو، في الحسن والغرابة واستجلاب الأنفس، كالمثل؛ ليتلقوه بالقبول، أو بيّنّا لهم كل شيء محتاجون إليه من العلوم النافعة، والبراهين القاطعة، والحجج الواضحة. وهذا يدل على أن إعجاز القرآن هو بما فيه من

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (باب في الأمانات../٥٢٧٣) ببعض الاختصار، موقوفاً.

المعاني والعلوم، ﴿ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلا كُفُوراً ﴾؛ إلا جحوداً وامتناعاً من قبوله. وفيه من المبالغة ما ليس في نفي مطلق الإيمان؛ لأنَّ فيه دلالة على أنهم لم يرضوا بخصلة سوى الكفور والجحود، وأنهم بالغوا في عدم الرضا حتى بلغوا مرتبة الإباء. وبالله التوفيق.

الإشارة: كما وقع التخويف بإذهاب خصوصية النبوة والرسالة، يقع التخويف بإذهاب خصوصية الولاية والمعرفة العيانية، فإن القلوب بيد الله، يُقلبها كيف يشاء. والخصوصية أمانة مودعة في القلوب، فإذا شاء رفعها رفعها، ولذلك كان العارف لا يزول اضطراره. وما زالت الأكابر يخافون من السلب بعد العطاء، ويشدون أيديهم على الأدب؛ لأن سوء الأدب هو سبب رفع الخصوصية، والعياذ بالله.

قال القشيري: سُنّةُ الحقِّ مع خيار خواصه؛ أن يُديم هم شهود افتقارهم إليه؛ ليكونوا في جميع الأحوال مُنْقادين بجريانِ حُكْمِه، ثم قال: والمرادُ والمقصودُ: إدامة تَفَرُّدِ سِرِّ حبيبه به، دونَ غيره .هـ. وأما سلب الأولياء بعضهم لبعض فلا يكون في خصوصية المعرفة بعد التمكين؛ إذ لا مانع لما أعطى الكريم، وإنما يكون في خصوصية التصريف وسر الأسماء، إذا كان أحدهما متمكناً فيه، وقابل من لم يتمكن، قد ينجذب إلى القوى بإذن الله، وقد يُزال منه إذا طغى به. والله تعالى أعلم.

ثم أظهر الحق تعالى جحودهم وعتوهم، فقال:

﴿ وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ
وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ
وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ
تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ
إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِي ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ
مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِي
وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾ ﴾

قلت: من قرأ «كسفاً» بالتحريك: فهو جمع. ومن قرأ بالسكون: فمفرد. و(قبيلاً): حال من «الله». وحذف حال الملائكة؛ لدلالة الأول عليه. و(أن يؤمنوا): مفعول ثان لمنَع. و(إلا أن قالوا): فاعل «منع».

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وقالوا ﴾ أي: كفار قريش، عند ظهور عجزهم، ووضوح مغلوبيتهم بالإعجاز التنزيلي، وغيره من المعجزات الباهرة، معلِّلين بما لا يمكن في العادة وجوده، ولا تقتضي الحكمة وقوعه، من الأمور الخارقة للعادة، كما هو ديْدن المبهوت المحجوج، قالوا للنبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ في جمع من أشرافهم: إن مكة قليلة الماء، فـفجر لنا فيها عيناً من ماء، وهو معنى قوله تعالى: ﴿ لن نُؤمن لك حتى تَفْجُرَ لنا من الأرض ﴾؛ أرض مكة ﴿ يَنْبوعًا ﴾؛ عيناً لا ينشف ماؤها. وينبوع: يفعول، من نبع الماء إذا خرج.

﴿ أو تكون لك جنّةٌ ﴾ أي: بستان يستر أشجاره ما تحتها من العرصة، ﴿ من نخيلٍ وعِنَبٍ فتفجرَ الأنهارَ ﴾ أي: تجريها بقوة، ﴿ خلالها ﴾؛ في وسطها ﴿ تفجيراً ﴾ كثيراً، والمراد: إما إجراء الأنهار خلالها عند سقيها، أو إدامة إجرائها، كما ينبيء عنه «الفاء»، ﴿ أو تُسْقِطَ السماءَ كما زعمتَ علينا كِسَفًا(١) ﴾؛ قطعاً متعددة، أو قطعاً واحداً، و(كما زعمت): يعنون بذلك قوله تعالى: ﴿ إن نَشأ نَخْسِفْ بِهِمُ الأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ ﴾(٢)، ﴿ أو تأتي بالله والملائكة قَبِيلاً ﴾ أي: مقابلاً؛ نُعاينه جهراً، أو ضامناً وكفيلاً يشهد بصحة ما تدعيه، ﴿ أو يكون لك بيتٌ من زُخرف ﴾ أي: ذهب. وقرئ به. وأصل الزخرفة: الزينة، ﴿ أو تَرْقَى في السماء ﴾ أي: في معارجها؛ فحذف المضاف. ﴿ ولن نؤمن لرُقِيك ﴾ أي: لأجل رُقيك فيها وحده ﴿ حتى تنزل ﴾ منها ﴿ علينا كتابا ﴾ فيه تصديقك، ﴿ نقرؤه ﴾ نحن، من غير أن يتلقى من قبلك. وعن ابن عباس رضي الله عنه: قال عبدُالله بنُ أُميَّة لرسول ﷺ ـ وكان ابن عمته ـ: لن أؤمن لكَ حتّى تتّخذَ إلى السماء سلّماً، ثم ترقى فيه وأنا أنظر، حتّى تأتيها، وتأتي معك بصك منشور، معه أربعة من الملائكة يشْهدُونَ أنك كما تقول. هـ. ثم أسلم عبدالله بعد ذلك. ولم يقصدوا بتلك الاقتراحات الباطلة إلا العناد واللجاج. ولو أنهم أوتوا أضعاف ما اقترحوا من الآيات، ما زادهم ذلك إلا مكابرة. وإلا فقد كان يكفيهم بعض ما شهدوا من المعجزات، التي تخر لها صُم الجبال.

قال تعالى لنبيه ـ عليه الصلاة والسلام ـ: ﴿ قلْ ﴾؛ تعجباً من شدة شكيمتهم. وفي رواية «قال»: ﴿ سبحان ربي ﴾؛ تنزيهاً له من أن يتحكم عليه أو يشاركه أحد في قدرته. أو تنزيهاً لساحته ـ سبحانه ـ عما لا يليق بها، من مثل هذه الاقتراحات الشنيعة، التي تكاد السموات يتفطرن منها، أو عن طلب ذلك، تنبيهاً على بطلان ما قالوه، ﴿ هل كنتُ إلا بشرًا ﴾ لا ملَكاً، حتى يتصور مني الرقي في السماء ونحوه، ﴿ رسولاً ﴾؛ مأموراً من قبل ربي

---

(١) قرأ نافع وابن عامر وعاصم: (كسفا) بفتح السين، أي: قطعاً، جمع كسفة، وقرأ الباقون: بسكون السين؛ على التوحيد، جمع «كسفة»؛ كسدرة وسدر. انظر: شرح الهداية (٢/ ٣٩٠)، والإتحاف (٢/ ٢٠٥).
(٢) من الآية ٩ من سورة سبأ.

بتبليغ الرسالة، كسائر الرسل. وكانوا لا يأتون قومهم إلا بما يظهره الله على أيديهم، حسبما يلائم حال قومهم، ولم يكن أمر الآيات إليهم، ولا لهم أن يتحكموا على ربهم بشيء منها.

﴿وما مَنَعَ الناسَ﴾ أي: الذين حكيت أباطيلهم، ﴿أنْ يُؤمنوا إذ جاءهم الهُدَى﴾ أي: الوحي، وهو ظرف لمنع، أو يؤمنوا، أي: وما منعهم وقت مجيئ الوحي المقرون بالمعجزات المستدعية للإيمان، أن يؤمنوا بالقرآن وبنبوتك، ﴿إلا أن قالوا﴾ أي: إلا قولهم: ﴿أبَعثَ اللهُ بشراً رسولاً﴾، منكرين أن يكون الرسول من جنس البشر. وليس المراد أن هذا القول صدر من بعضهم؛ فمنع بعضاً آخر منهم، بل المانع هو الاعتقاد الشامل للكل، المستتبع بهذا المقول منهم. وإنما عبَّر عنه بالقول؛ إيذاناً بأنه مجرد قول يقولونه بأفواههم من غير روية، ولامصداق له في الخارج. وقصر المانع من الإيمان فيما ذكر، مع أن لهم موانع شتى، إما لأنه معظمها، أو لأنه المانع بحسب الحال، أعني: عند سماع الجواب بقوله تعالى: ﴿هل كنتُ إلا بشراً رسولاً﴾؛ إذ هو الذى يتشبثون به حينئذ، من غير أن يخطر ببالهم شبهة أخرى من شبههم الواهية.

﴿قلْ﴾ لهم من قِبلَنا؛ تثبيتاً للحكمة، وتحقيقاً للحق المزيح للريب: ﴿لو كان﴾ أي: لو وُجد واستقر ﴿في الأرض﴾؛ بدل البشر ﴿ملائكةٌ يمشونَ مطمئنين﴾ قارين ساكنين فيها، ﴿لنزّلنا عليهم من السماء مَلَكاً رسولاً﴾ يهديهم إلى الحق؛ لتمكنهم من الاجتماع به والتلقي منه. وأما عامة البشر فهم بمعزل من استحقاق المفاوضة مع الملائكة؛ لأنها منوطة بالتناسُب والتجانس، فبعث الملائكة إليهم مناقض للحكمة التى يدور عليها أمر التكوين والتشريع. وإنما يبعث الملك إلى الخواص، المختصين بالنفوس الزكية، المؤيدة بالقوة القدسية، فيتلقون منهم ويُبلغون إلى البشر.

﴿قل كفى بالله﴾ وحده ﴿شهيداً﴾ على أنى أديتُ ما عليَّ من مواجب الرسالة، وأنكم فعلتم ما فعلتم من التكذيب والعناد. فهو شهيد ﴿بيني وبينكم﴾، وكفى به شهيداً، ولم يقل: بيننا؛ تحقيقاً للمفارقة، وإبانة للمباينة، ﴿إنه كان بعباده﴾ من الرسل والمرسل إليهم، ﴿خبيراً بصيراً﴾؛ محيطاً بظواهر أعمالهم وبواطنها، فيجازيهم على ذلك. وهو تعليل للكفاية. وفيه تسلية للرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ وتهديد للكفار، والله تعالى أعلم.

الإشارة: طلب الكرامات من الأولياء جهل بطريق الولاية، وسوء الظن بهم، إذ لا يشترط في تحقيق الولاية ظهور الكرامة، وأىُّ كرامة أعظم من كشف الحجاب بينهم وبين محبوبهم، حتى عاينوه وشاهدوه حقاً، وارتفعت عنهم الشكوك والأوهام، وصار شهود الحق عندهم ضرورياً، ووجود السِّوَى محالاً ضرورياً، فلا كرامة أعظم من

هذه؟ وكلامنا مع العارفين، وأما الصالحون والعباد والزهاد فهم محتاجون إلى الكرامة؛ ليزداد إيقانهم، وتطمئن نفوسهم؛ إذ لم يرتفع عنهم الحجاب، ولم تنقشع عنهم سحابة الأثر.

والهداية بيد الله، كما قال تعالى:

﴿ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَـٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا وَرُفَـٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ ﴾

قلت: (على وجوههم): حال من ضمير «نحشرهم»، و(عُميًا..) الخ: حال أيضًا من ضمير «وجوههم». و(مأواهم): استئناف، وكذا: (كلما..) الخ.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ومن يَهدِ اللهُ ﴾ إلى الحق الذى جاء من قبله على أيدى الرسل، ﴿ فهو المهتد ﴾ إليه، وإلى ما يؤدى إليه من الثواب، أو فهو المهتدى إلى كل مطلوب، ﴿ ومن يُضلل ﴾ أى: يخلق فيه الضلال، كهؤلاء المعاندين، ﴿ فلن تجد لهم أولياء من دونه ﴾ ينصرونهم من عذابه، أو يهدونهم إلى طريقه، ويُوصلونهم إلى مطالبهم الدنيوية والأخروية. ووحد الضمير أولاً فى قوله: (فهو المهتد)، مراعاة للفظ «من»، وجمع ثانياً فى (لهم)؛ مراعاة لمعناها؛ تلويحاً بوحدة طريق الحق، وتعدد طرق الضلال.

﴿ ونحشرُهم ﴾، فيه التفات من الغيبة إلى التكلم؛ إيذاناً بكمال الاعتناء بأمر الحشر، أى: ونسوقهم ﴿ يوم القيامة على وجوههم ﴾ أى: كابين عليها؛ سَحْباً، كقوله: ﴿ يوم يسحبون فى النار على وجوههم ﴾[1]، أو: مشياً إلى المحشر بعد القيام، فقد رُوى أنه قيل لرسول الله ﷺ: كيف يمشون على وجوههم؟ قال: «الذى أمْشَاهُمْ عَلَى أقْدَامِهِمْ قَادِرٌ عَلَى أنْ يُمْشِيَهُمْ عَلَى وُجُوهِهِمْ»[2]. حال كونهم ﴿ عُمْيًا وبُكمًا وصُمًا ﴾؛ لا يُبصرون ما يقر أعينهم، ولاينطقون بما يُقبل منهم، ولا يسمعون ما يلذ مسامعهم، لمَّا كانوا فى الدنيا لا يستبصرون بالآيات والعبر، ولا ينطقون بالحق ولا يستمعونه. ويجوز أن يُحشروا، بعد الحساب، من الموقف إلى النار، مؤوفي[3] القُوى والحواس. وأن يُحشروا كذلك، ثم تعاد إليهم قواهم وحواسهم، فإنَّ إدراكاتهم بهذه المشاعر فى بعض المواطن مما لا ريب فيه.

(١) من الآية ٤٨ من سورة القمر.
(٢) أخرجه أحمد فى المسند (٢/٣٥٤)، والترمذى وحسنه فى (التفسير ـ سورة الإسراء) من حديث أبى هريرة رضي الله عنه.
(٣) مؤوفي: صيغة جمع مضافة، من الآفة، وهى العاهة. وإيف الزرع: أصابته آفة، فهو مؤوف؛ على وزن: معوف. انظر مختار الصحاح (أوف).

﴿ مأواهم جهنم ﴾ ؛ هي مسكنهم، ﴿ كلما خَبَتْ ﴾ ؛ خمدت ﴿ زدناهم سعيراً ﴾ ؛ توقداً، أي: كلما سكن لهبها، وأكلت جلودهم ولحومهم، ولم يبق فيهم ما تتعلق به النار وتحرقه، زدناهم توقداً؛ بأن بدلناهم جلوداً غيرها فعادت ملتهبة ومسعرة. ولعل ذلك عقوبة على إنكارهم البعث مرة بعد مرة، لِيَرَوْها عياناً، حيث لم يعلموها برهاناً، كما يُفصح عنه قوله: ﴿ ذلك ﴾ أي: ذلك العذاب ﴿ جزاؤهم بأنهم ﴾ ؛ بسبب أنهم ﴿ كفروا بآياتنا ﴾ العقلية والنقلية، الدالة على وقوع الإعادة دلالة واضحة. ﴿ وقالوا ﴾ ؛ منكرين البعث أشد الإنكار: ﴿ أئذا كُنَّا عظاماً ورُفاتاً أئنا لمبعوثون خَلقًا جديداً ﴾ أي: أنوجدُ خلقًا جديداً بعد أن صِرنا ترابا؟ و«خلقاً»: إما مصدر مؤكد من غير لفظه، أي: لمبعوثون مبعثا جديداً، أو حال، أي: مخلوقين مستأنفين.

الإشارة: من يهده الله إلى صريح المعرفة وسر الخصوصية فهو المهتد إليها، يهديه أولاً إلى صحبة أهلها، فإذا تربى وتهذب أشرقت عليه أنوارها. ومن يُضلله عنها، فلا ينظر ولا يهتدي إلى صحبة أهلها، فيُحشر يوم القيامة محجوباً عن الله، كما عاش محجوباً. يموت المرء على ما عاش عليه، ويُبعث على ما مات عليه، لا يُبصر أسرار الذات في مظاهر النعيم، ولا ينطق بالمكالمة مع الرحمن الرحيم، ولا يسمع مكالمة الحق مع المقربين؛ وذلك بسبب إنكاره لأهل التربية في زمانه، وقال: لا يمكن أن يبعث الله من يحيي الأرواح الميتة بالجهل؛ بالمعرفة الكاملة. وفيه إنكار لعموم القدرة الأزلية، وتحجير على الحق. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر دلائل عموم قدرته، فقال:

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾ ﴾

قلت: (وجعل): عطف على «قادر»؛ لأنه في قوة قدر، أو استئناف. و(لو أنتم): الضمير: فاعل بفعل يفسره مابعده، كقول حاتم:

لَوْ ذَاتُ سِوَارٍ لَطَمَتْنِي(١).

وفائدة ذلك الحذف والتفسير؛ للدلالة على الاختصاص والمبالغة. وقيل في إعرابه غير هذا.

---

(١) مثَل لحاتم الطائي، انظر ديوانه (٢٦).

يقول الحق جل جلاله: ﴿أوَ لم يروا﴾ أى: أوَلم يتفكروا ولم يعلموا ﴿أنَّ الله الذى خلق السموات والأرضَ﴾ من غير مادة، مع عظمها، ﴿قادرٌ على أن يخلُق مثلهم﴾ فى الصِّغر والحقارة. على أن المثل مقحم، أى: على أن يخلقهم خلقاً جديداً؛ فإنهم ليسوا أشد خلقاً منهم، ولا الإعادة بأصعب من الإبداء، ﴿وجعل لهم﴾ أى: لموتهم وبعثهم ﴿أجلاً﴾ محققًا ﴿لاريب فيه﴾ وهو: القيامة. ﴿فأبى الظالمون إلا كفوراً﴾؛ إلا جحوداً، وضع الظاهر موضع الضمير؛ تسجيلاً عليهم بالظلم وتجاوز الحد فيه.

﴿قلْ﴾ لهم: ﴿لو أنتم تملكونَ خزائنَ رحمةِ ربي﴾؛ خزائن رزقه وسائر نعمه التى أفاضها على كافة الموجودات، ﴿إذًا لأمْسَكْتم﴾؛ لبخلتم، ﴿خشـيةَ الإنفاق﴾؛ مخافة النفاد بالإنفاق، إذ ليس فى الدنيا أحد إلا وهو يختار النفع لنفسه، ولو آثر غيره بشيء فإنما يُؤثره لغرض يفوقه، فهو إذاً بخيل بالإضافة إلى جود الله سبحانه، إلا من تخلق بخلق الرحمن؛ من الأنبياء وأكابر الصوفية. ﴿وكان الإنسانُ قَتوراً﴾؛ مبالغًا فى البخل؛ لأن مبنى أمره على الحاجة والضنة بما يحتاج إليه، وملاحظة العوض فيما يبذل. يعنى: أن طبع الإنسان ومنتهى نظره: أن الأشياء تتناهى وتفنى، وهو لو ملك خزائن رحمة الله لأمسك خشية الفقر، وكذلك يظن أن قدرة الله تقف دون البعث، والأمر ليس كذلك، بل قدرته لا تتناهى، فهو يخترع من الخلق ما يشاء، ويخترع من الأرزاق مايريد، فلا يخاف نفاد خزائن رحمته. وبهذا النظر تتصل الآية بما قبلها. انظر ابن عطية.

قلت: ويمكن أن تتصل فى المعنى بقوله: (أبعثَ اللهُ بشراً رسولا)، فكأنَّ الحق تعالى يقول لهم: لو كانت بيدكم خزائن رحمته، لخصصتم بالنبوة من تريدون، لكن ليست بيدكم، ولو كانت بيدكم؛ تقديراً، لأمسكتم خشية الإنفاق؛ لأن طبع الإنسان البخل وخوف الفقر، فهو كقوله تعالى: ﴿ أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ ﴾(١)، بعد قوله: ﴿ وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ﴾ (٢). والله تعالى أعلم.

الإشارة: الحق تعالى قادر على أن يخلق ألف عالمَ فى لحظة، وأن يفنى ألف عالم فى لحظة، فلا يعجزه شيء من الممكنات. وكما قدر أن يحيى الإنسان بعد موته الحسى؛ هو قادر على أن يحييه بعد موته المعنوى بالجهل والغفلة، على حسب ما سبق له فى المشيئة، وجعل لذلك أجلاً لاريب فيه، فلا يجحد هذا إلا من كان ظالماً كفورا. قل لمن يخصص الولاية بنفسه، أو بأسلافه، وينكر أن يفتح الله على قوم كانوا جُهالاً: لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربى إذاً لأمسكتم الخصوصية عندكم؛ خشية أن ينفد ما عندكم، وكان الإنسان قتوراً، لا يُحب الخير إلا لنفسه.

(١) الآية ٩ من سورة ص.
(٢) الآية ٤ من سورة ص.

ثم سلّى رسوله ﷺ عما اقترحوا عليه من الآيات؛ تشغيباً وعناداً، بما جرى لموسى عليه السلام مع قومه، بعد ظهور الآيات، فلم تنفعهم شيئاً، فقال:

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍۢ ۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾ ﴾

قلت: قال في الأساس: ثبره الله: أهلكه هلاكاً دائماً، لا ينتعش بعده، ومن ثَم يدعو أهلُ النار: واثبوراه. وما ثبرك عن حاجتك: ما ثبطك عنها. وهذا مثبرُ فلانة: لمكان ولادتها، حيث يثبرها النفاس. وفي القاموس: الثبر: الحبْسُ والمنع، كالتثبير والصرف عن الأمر وعن الحبيب، واللعن والطرد. والثبور: الهلاك والويل والإهلاك .هـ. و(إذا جاءهم): إما متعلق بآياتنا، أو بقلنا محذوف.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ولقد آتينا موسى تسعَ آيات بينات﴾؛ واضحات الدلالة على نبوته، وصحة ما جاء به من عند الله. وهي: العصا، واليد، والجراد، والقُمل، والضفادع، والدم، والطوفان، والسنون، ونقص الثمرات. وقيل: انفجار الماء من الحجر، ونتق الطور، وانفلاق البحر، بدل الثلاث. وفيه نظر؛ فإن هذه الثلاث لم تكن لفرعون، وإنما كانت بعد خروج سيدنا موسى عليه السلام. وعن صفوان بْن عسال: أن يهودياً سأل النبي ﷺ عنها فقال: «ألاَّ تشْرِكوا به شيْئاً، ولا تسرِقُوا، ولا تزْنُوا، ولا تَقْتُلوا النَّفس التي حرَّم اللهُ إلاَّ بالحَقّ، ولا تَسْحَرُوا، ولا تأكلُوا الرِّبَا، ولا تمشوا ببريءٍ إلى ذي سُلْطَانٍ ليَقْتُلَهُ، ولا تقذفُوا المُحْصَنَةَ، ولا تفرّوا من الزَّحْفِ، وعليكم، خاصَّةَ اليهود، ألاّ تَعْدُوا في السَّبْتِ». فقبَّل اليهوديُ يدَهُ ورجْلَهَ ـ عليه الصلاة والسلام[(١)].

قلت: ولعل الحق تعالى أظهر لهم تسعاً، وكلفهم بتسع، شكراً لما أظهر لهم، فأخبر ـ عليه الصلاة والسلام ـ السائل عما كلفهم به؛ لأنه أهم، وسكت عما أظهر لهم؛ لأنه معلوم. وإنما قبَّل السائلُ يده؛ لموافقته لما في التوراة، وقد علم أنه ما علمه رسول الله ﷺ إلا بالوحي، وقوله عليه الصلاة والسلام: «وعليكم، خاصة اليهود، ألا تعدوا»، حكم مستأنف زائد على الجواب، ولذلك غيّر فيه سياق الكلام.

(١) أخرجه الترمذي في (الاستئذان، باب ما جاء في قبلة اليد والرجل)، وقال: حسن صحيح. والنسائي في (تحريم الدم، باب السحر)، والإمام أحمد (٤/٢٣٩) والحاكم وصححه في (الإيمان ١/٩).

قال تعالى: ﴿فسل(١) بني إسرائيل﴾ أي: سل، يا محمد، بني إسرائيل المعاصرين لك عما ذكرنا من قصة موسى؛ لتزداد يقينا وطمأنينة، أو :ليظهر صدقك لعامة الناس، أو: قلنا لموسى: سل بني إسرائيل مِن فرعون، أي: اطلبهم منه؛ ليرسلَهم معك، أو سل بني إسرائيل أن يعضدوك ويكونوا معك. ويؤيد هذا: قراءة رسول الله ﷺ «فَسَال»؛ على صيغة الماضي، بغير همز، وهي لغة قريش. ﴿إذْ جاءهم﴾ أي: آتينا موسى تسع آيات حين جاءهم بالرسالة، أو قلنا له: سل بني إسرائيل حين جاءهم بالوحي. ﴿فقال له فرعونُ﴾ حين أظهر له ما آتيناه من الآيات، وبلغة ما أرسل به: ﴿إني لأظنك يا موسى مسحوراً﴾ أي: سُحرت فتخبط عقلك.

﴿قال﴾ له موسى: ﴿لقد علمتَ﴾ يا فرعون، ﴿ما أنزل هؤلاء﴾ الآيات التي ظهرت على يدي ﴿إلا ربُّ السموات والأرض﴾؛ خالقهما ومدبرهما، ولا يقدر عليها غيره، حال كونها ﴿بصائرَ﴾؛ بينات تبصرك صدقي، ولكنك تعاند وتكابر، وقد استيقنتها أنفسكم، فجحدتم؛ ظلمًا وعلوا، ﴿وإني لأظنك يافرعونُ مثبوراً﴾ أي: مهلكاً مقطوعاً دابرك، أو مغلوباً مقهوراً، أو مصروفاً عن الخير. قابل موسى عليه السلام قول فرعون: ﴿إني لأظنك يا موسى مسحوراً﴾ بقوله: ﴿وإني لأظنك يا فرعون مثبورا﴾؛ وشتان ما بين الظنين؛ ظنُّ فرعون إفك مبين، وظن موسى حق اليقين؛ لأنه بوحى من رب العالمين، أو من تظاهر أماراته.

﴿فأراد فرعون أن يستفزهم﴾ أي: يستخفهم ويزعجهم ﴿من الأرض﴾؛ أرض مصر، ﴿فأغرقناه ومَنْ معه جميعاً﴾؛ فعكسنا عليه علمه ومكره، فاستفززناه وقومه من بلده بالإغراق.﴿وقلنا من بعده﴾ من بعد إغراقه ﴿لبني إسرائيل اسكنُوا الأرضَ﴾ التي أراد أن يستفزكم هو منها. أو أرض الشام. وهو الأظهر، إذ لم يصح أن بني إسرائيل رجعوا إلى مصر بالسكنى. وانظر عند قوله: ﴿ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾(٢) ﴿فإذا جاء وعد الآخرة﴾ أي: الحياة الآخرة، أو الدار الآخرة، أي: قيام الآخرة، ﴿جئنا بكم لفيفًا﴾؛ مختلطين إياكم وإياهم، ثم نحكم بينكم ونميز سعداءكم من أشقيائكم. واللفيف: الجماعات من قبائل شتى. والله تعالى أعلم.

الإشارة: لا ينفع في أهل الحسد والعناد ظهور معجزة ولا آية، ولا يتوقف عليها من سبقت له العناية، لكنها تزيد تأييداً، وطمأنينة لأهل اليقين، وتزيد نفوراً وعناداً، لأهل الحسد من المعاندين. وبالله التوفيق.

(١) قرأ ابن كثير والكسائي: «فسَلْ»؛ بنقل حركة الهمزة إلى السين. وقرأ الباقون: (فاسأل). انظر الإتحاف ٢٠٦/٢.
(١) الآية ٥٩ من سورة الشعراء.

ولما ذكر آية موسى عليه السلام ذكر آية نبينا محمد ﷺ وهو القرآن، فقال:

﴿ وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾ ﴾

قلت: تقديم المعمول، وهو (بالحق): يؤذن بالحصر. و(قرآنا): مفعول بمحذوف يُفسره ما بعده.

يقول الحق جل جلاله في شأن القرآن: ﴿ وبالحق أنزلناه وبالحق نزل ﴾ أى: ما أنزلنا القرآن إلا ملتبساً بالحق، المقتضى لإنزاله، وما نزل إلا بالحق الذى اشتمل عليه من الأمر والنهى، والمعنى: أنزلناه حقاً مشتملا على الحق. أو: ما أنزلناه من السماء إلا محفوظاً بالرصد من الملائكة، وما نزل على الرسول إلا محفوظاً من تخليط الشياطين. ولعل المراد: عدم اعتراء البطلان له أولاً وآخراً. ﴿ وما أرسلناك إلا مبشراً ﴾ للمطيعين بالثواب، ﴿ ونذيراً ﴾ للعاصين بالعقاب، وهو تحقيق لحقية بعثه ـ عليه الصلاة والسلام ـ إثر تحقيق حقية إنزال القرآن.

﴿ وقرآناً فرقناه ﴾ أى: أنزلناه مفرقاً منجماً فى عشرين سنة، أو ثلاث وعشرين. قال القشيرى: فرق القرآن؛ ليهون حفظه، ويكثر تردد الرسول عليه من ربه، وليكون نزوله فى كل وقت، وفى كل حادثة وواقعة؛ دليلا على أنه ليس مما أعانه عليه غيره. هـ. ﴿ لتقرأه على الناس على مُكْث ﴾؛ على مهلٍ وتؤدة وتثبتٍ؛ فإنه أيسر للحفظ، وأعون على الفهم، ﴿ ونزلناه تنزيلا ﴾ على حسب ما تقتضيه الحكمة والمصلحة، والحوادث الواقعة.

﴿ قل ﴾ للذين كفروا: ﴿ آمنوا به أو لا تؤمنوا ﴾، فإنّ إيمانكم لا يزيده كمالاً، وامتناعكم منه لا يزيده نقصاناً. أو: أمر باحتقارهم وعدم الاكتراث بهم، كأنه يقول: سواء آمنتم به أو لم تؤمنوا؛ لأنكم لستم بحجة، وإنما الحجة لأهل العلم، وهم: المؤمنون من أهل الكتاب، الذين أشار إليهم بقوله: ﴿ إن الذين أُوتوا العلم من قَبْله ﴾ أى: العلماء الذين قرأوا الكتب السالفة من قبل تنزيله، وعرفوا حقيقة الوحى وأمارات النبوة، وتمكنوا من التمييز بين الحق والباطل، والمحق والمبطل، ﴿ إذا يُتلى عليهم ﴾ القرآن ﴿ يَخرُّون للأذقان ﴾ أى: يسقطون على وجوههم ﴿ سُجَّداً ﴾؛ تعظيماً لأمر الله، أو شكراً لإنجازه ما وعد فى تلك الكتب؛ من نعتك، وإظهارك، وإنزال القرآن عليك. والأذقان: جمع ذقن، وهو: أسفل الوجه حيث اللحية. وخصها بالذكر؛ لأنها أول ما تلقى فى الأرض من وجه الساجد. والجملة: تعليل لما قبلها من قوله: ﴿ آمنوا به أو لا تؤمنوا ﴾؛ من عدم المبالاة. والمعنى: إن لم تؤمنوا

فقد آمن منْ هو أعلى منكم وأحسن إيماناً منكم. ويجوز أن يكون تعليلاً لقُل، على سبيل التسلية للرسول ـ عليه الصلاة السلام، كأنه يقول: تسلَّ بإيمان العلماء عن إيمان الجهلة، ولا تكترث بإيمانهم وإعراضهم.

﴿ ويقولون ﴾ في سجودهم: ﴿ سبحان ربّنا ﴾ عن خلف وعده، ﴿ إن كان وعْدُ ربنا لمفعولاً ﴾ أي: إن الأمر والشأن كان وعد ربنا مفعولا لا محالة، ﴿ ويَخِرُّون للأذقان ﴾ كرره؛ لاختلاف السبب، فإن الأول: لتعظيم الله وشكر إنجاز وعده. والثاني: لمَا أثر فيهم من مواعظ القرآن، ﴿ يَبْكُونَ ﴾: حال، أي: حال كونهم باكين من خشية الله، ﴿ ويزيدهم ﴾ القرآنُ ﴿ خشوعًا ﴾، كما يزيدهم علماً بالله تعالى.

الإشارة: وبالحق أنزلناه، أي بالتعريف بأسرار الربوبية، وبالحق نزل؛ لتعليم آداب العبودية. أو: بالحق أنزلناه، يعني: علم الحقيقة، وبالحق نزل علم الشريعة والطريقة. وما أرسلناك إلا مبشراً لأهل الإخلاص بالوصول والاختصاص، ونذيراً لأهل الخوض بالطرد والبعد. وقرآنا فرقناه، لتقرأه نيابة عنا، كي يسمعوه منا بلا واسطة، عند فناء الرسوم والأشكال، ونزّلناه، للتعريف بنا تنزيلا، قل آمنوا به؛ لتدخلوا حضرتنا، أو لا تؤمنوا، فإن أهل العلم بنا قائمون بحقه، خاشعون عند تلاوته، متنعمون بشهودنا عند سماعه منا. وبالله التوفيق.

ولما كان القرآن مشتملاً على أسماء كثيرة من أسماء الله الحسنى، وكان عليه الصلاة والسلام يقول في دعائه: «يا ألله، يارحمن»، قالوا: إنه ينهانا عن عبادة إلهين، وهو يدعو إلهاً آخر. وقالت اليهود: إنك لتُقل ذكر الرحمن، وقد أكثر الله تعالى ذكره في التوراة، فأنزل الله رداً على الفريقين:

﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ... ﴾

قلت: «أي»: شرطية، و(ما): زائدة؛ تأكيدا لما في «أيا» من الإبهام، وتقدير المضاف: أيَّ الأسماء تدعو به فأنت مُصيب.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ قلْ ﴾ يا محمد للمؤمنين: ﴿ ادعوا الله أو ادعوا الرحمنَ ﴾؛ نادوه بأيهما شئتم، أو سموه بأيهما أردتم. والمراد: إما التسوية بين اللفظين؛ فإنهما عبارتان عن ذاتٍ واحد، وإن اختلف الاعتبار، والتوحيد إنما هو للذات، الذي هو المعبود بالحق، وإما أنهما سيان في حسن الإطلاق والوصول إلى المقصود، فلذلك قال: ﴿ أيًّا مَا تدعوا ﴾؛ أيّ اسم تدعوا به تصب، ﴿ فله الأسماءُ الحسنى ﴾ فيكون الجواب محذوفًا، دلّ عليه الكلام. وقيل: التقدير أياما تدعو به فهو حسن، فوضع موضعه: ﴿ فله الأسماء الحسنى ﴾؛ للمبالغة والدلالة على ما هو الدليل عليه؛ إذ حسن جميع الأسماء يستدعي حسن ذَيْنِك الاسمين، وكونها حسنى؛ لدلالتها على صفات الكمال من الجلال والجمال؛ إذ كلها راجعة إلى حسن ذاتها، وكمالها؛ جمالاً وجلالاً.

قال في شرح المواقف: ورد في الصحيحين: «إِنَّ للهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْماً، مائَةً إِلاَّ وَاحِداً، مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الجَنَّةَ»(١)، وليس فيها تعيين تلك الأسماء. لكن الترمذي والبيهقي عيَّناها. وهي الطريقة المشهورة، ورواية الترمذي: «الله الذي لا إله إلا هو، الرحمن، الرحيم، الملك، القدوس، السلام، المؤمن، المهيمن، العزيز، الجبار، المتكبر، الخالق، البارئ المصور، الغفار القهار، الوهاب الرزاق، الفتاح العليم، القابض الباسط، الخافض الرافع، المعز المذل، السميع البصير، الحكم العدل، اللطيف الخبير، الحليم العظيم، الغفور الشكور، العلي الكبير، الحفيظ المقيت، الحسيب الجليل، الكريم الرقيب، المجيب، الواسع الحكيم، الودود المجيد، الباعث الشهيد، الحق الوكيل، القوي المتين، الولي الحميد، المحصي المبدئ المعيد، المحيي المميت، الحي القيوم، الواجد الماجد، الواحد، الأحد الصمد، القادر المقتدر، المقدم المؤخر، الأول الآخر، الظاهر الباطن، الوالي المتعالي، البر التواب، المنتقم العفو الرؤوف، مالك الملك ذو الجلال والإكرام، المقسط الجامع، الغني المغني المانع، الضار النافع، النور الهادي، البديع الباقي، الوارث، الرشيد، الصبور»(٢).

وقد ورد التوقيف بغيرها، أمَّا في القرآن؛ فكالمولى، والنصير والغالب، والقاهر والقريب، والرب والأعلى، والناصر والأكرم، وأحسن الخالقين، وأرحم الراحمين، وذي الطول، وذي القوة، وذي المعارج، وغير ذلك. وأما في الحديث، فكالمنان، والحنان، وقدر ورد في رواية ابن ماجة(٣) أسماء ليست في الرواية المشهورة؛ كالقائم، والقديم، والوتر، والشديد، والكافي، وغيرها.

وإحصاؤها: إما حفظها؛ لأنه إنما يحصل بتكرار مجموعها وتعدادها مراراً، وإما ضبطها؛ حصراً وعلماً وإيماناً وقياماً بحقوقها، وإما تعلقاً وتخلقًا وتحققاً. وقد ذكرنا في شرح الفاتحة الكبير كيفية التعلق والتخلق والتحقق بها. وفي ابن حجر: أن اسماء الله مائة، استأثر الله بواحد، وهو الاسم الأعظم، فلم يُطلع عليه أحداً، فكأنه قيل: مائة لكن واحد منها عند الله. وقال غيره: ليس الاسم الذي يكمل المائة مخفياً، بل هو الجلالة. وممن جزم بذلك البيهقي، فقال: الأسماء الحسنى مائة، على عدد درجات الجنة، والذي يكمل المائة: «الله»، ويؤيده قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾(٤). فالتسعة والتسعون لله؛ فهي زائدة عليه وبه تكمل المائة. هـ.

---

(١) أخرجه البخاري (الدعوات، باب لله مائة اسم غير واحد)، ومسلم في (الذكر، باب في أسماء الله تعالى..) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) أخرجه الترمذي في (الدعوات، باب ٨٣). وأخرج البيهقي روايته في (السنن الكبرى، كتاب الإيمان، باب أسماء الله عز وجل ثناؤه) من حديث أبي هريرة.
(٣) أخرجها في (الدعاء، باب أسماء الله عز وجل).
(٤) من الآية ١٨٠ من سورة الأعراف.

قلت: ولعله ذكر اسماً آخر يكمل التسعة والتسعين. وإلا فهو مذكور في الرواية المتقدمة من التسعة والتسعين. والله تعالى أعلم.

الإشارة: (قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن)، قال الورتجبي: إن الله سبحانه دعا عباده إلى معرفة الاسمين الخاصين، اللذين فيهما أسرار جميع الأسماء والصفات والذات، والنعوت والأفعال؛ فالله اسمهُ، وهو اسمُ عَيْنِ جَمْعِ الجمعِ، والرحمن اسم عين الجمع؛ فالرحمن مندرج تحت اسمه: «الله»؛ لأنه عين الكل، وإذا قلت: الله؛ ذكرت عين الكل. ثم قال: وإذا قال «الله»؛ يفنى الكل، وإذا قال: «الرحمن»؛ يبقى الكل، من حيث الاتصاف والاتحاد، فالاتصاف بالرحمانية يكون، والاتحاد بالألوهية يكون. ثم قال: عن الأستاذ: من عظيم نعمه سبحانه على أوليائه: أنه يُنزههم بأسرارهم في رياض ذكره؛ بتعداد أسمائه الحسنى، فيتنقلون من روضة إلى روضة، ومن مأنس إلى مأنس، ويقال: الأغنياء تنزههم في بساتينهم، وتنزههم في منابت رياحينهم. والفقراء تنزههم في مشاهد تسبيحهم، ويستروحون إلى ما يلوح لأسرارهم من كشوفات جلاله وجماله.هـ. قلت: والعارفون تنزههم في مشاهدة أسرار محبوبهم، وما يكشف لهم من روض جماله وجلاله. وبالله التوفيق.

ثم أمره بإخفاء قراءته عن المشركين؛ لئلا يسبوا القرآن ومن جاء به، فقال:

﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ولا تجهرْ﴾ بقراءة صلاتك، بحيث تُسمع المشركين، فإن ذلك يحملهم على السب واللغو فيها، ﴿ولا تُخافت﴾ أي: تُسر ﴿بها﴾؛ حتى لا تُسمع من خلفك من المؤمنين، ﴿وابتغ بين ذلك سبيلاً﴾؛ واطلب بين المخافتة والإجهار طريقًا قصدا، فإنّ خير الأمور أوسطها. والتعبير عن ذلك بالسبيل باعتبار أنه طريق يتوجه إليه المتوجهون، ويؤمه المقتدون ليوصلهم إلى المطلوب. رُوى أن أبا بكر رضي الله عنه كان يخفت، ويقول: أُنَاجِي ربّي، وقَدْ علِمَ حَاجَتِي. وعُمرُ رضي الله عنه كان يجهر، ويقول: أطردُ الشّيْطَانَ وأُوقظُ الوسْنَانَ. فلما نزلت، أَمَرَ رسولُ الله ﷺ أبا بكرٍ أنْ يَجْهَرَ قليلا، وعمر أن يَخْفض قليلاً(١).

وقيل: المعنى: ﴿ولا تجهر بصلاتك﴾ كلها، ﴿ولا تُخافت بها﴾ بأسرها، ﴿وابتغ بين ذلك سبيلاً﴾؛ بالمخافتة نهاراً والجهر ليلا. وقيل: (بصلاتك)؛ بدعائك. وذهب قوم إلى أنها منسوخة؛ لزوال علة السب واللغو؛

(١) أخرجه بنحوه أبو داود في (التطوع، باب في رفع الصوت بالقراءة في صلاة الليل)، والترمذي في (المواقيت، باب ما جاء في قراءة الليل) عن أبي قتادة.

بإظهار الدين وإخفاء الشرك وبطلانه؛ فالحمد لله على ذلك كما قال تعالى: ﴿وقل الحمدُ لله الذى لم يتخذ ولداً﴾ كما يزعم اليهود والنصارى وبنو مدلج؛ حيث قالوا: عُزير ابن الله، والمسيح ابن الله، والملائكة بنات الله. تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً، ﴿ولم يكن له شريك فى الملك﴾؛ فى الألوهية؛ كما تقول الثنوية القائلون بتعدد الآلهة. ﴿ولم يكن له وَلِيٌّ من الذُّلِّ﴾ أى: لم يكن له ناصر ينصره (من الذُل) أى: لم يذل فيحتاج إلى ولي يُواليه؛ ليدفع ذلك عنه. وفى التعرض فى أثناء الحمد لهذه الصفات الجليلة؛ إيذان بأن المستحق للحمد مَن هذه نعوته، دون غيره؛ إذ بذلك يتم الكمال، وما عداه ناقص حقير، ولذلك عطف عليه: ﴿وكبِّره تكبيراً﴾ عظيماً، وفيه تنبيه على أن العبد وإن بالغ فى التنزيه والتمجيد، واجتهد فى العبادة والتحميد، ينبغى أن يعترف بالقصور عن حقه فى ذلك. رُوى أنه عليه الصلاة والسلام كان إذا أفصح الغلام من بنى عبدالمطلب علّمه هذه الآية: (وقل الحمد لله...) الخ[١]. والله تعالى أعلم.

الإشارة: الإجهار بالذكر والقراءة والدعاء، مباح لأهل البدايات، لمن وجد قلبه فى ذلك، وأما النهى الذى فى الآية فمنسوخ؛ لأن الصحابة، حين هاجروا من مكة، رفعوا أصواتهم بالقراءة والتكبير. لكن المداومة عليه من شأن أهل البُعد عن الحضرة، وأما أهل القرُب فالغالب عليهم السكوت أو المخافتة؛ قال تعالى: ﴿وَخَشَعَتِ الأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلا تَسْمَعُ إِلاَّ هَمْسًا﴾[٢]. وأما أمر الرسول عليه الصلاة والسلام لأبى بكر رضي الله عنه بالإجهار قليلاً، وعمر بالخفض قليلاً؛ فإخراج لهم عن مرادهم؛ تربيةً لهم. وختم السورة بآية العز؛ إشارة إلى أن من أسرى بروحه، أو بجسده إلى الملأ الأعلى كان عاقبته العز والرفعة فى الدارين.

❁ ❁ ❁

(١) أخرجه ابن السنى فى عمل اليوم والليلة (باب ما يلقن الصبى إذا أفصح بالكلام)، من حديث عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده.
(٢) من الآية ١٠٨ من سورة طه.

سورة الكهف

مكية. وهي مائة وإحدى عشرة آية، أو خمس عشرة. ووجه المناسبة لما قبلها: أنه لمّا أمر نبيه ﷺ بالحمد لله على كمال تنزيهه، أخبر أنه يستحق ذلك لإنعامه بأجلّ النعم، وهو إنزال الكتاب العزيز، الذى هو سبب الهداية الموصلة إلى النعيم المقيم. أو تكون تتميماً لقوله: ﴿ وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ ... ﴾(1) الخ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَّا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾ ﴾

قلت: (قَيِّماً): حال من الكتاب، والعامل فيه: «أنزل»، ومنعه الزمخشرى؛ للفصل بين الحال وذى الحال، واختار أن العامل فيه مضمر، تقديره: جعله قيّماً، و«لينذر»: يتعلق بأنزل، أو بقيّماً. والفاعل: ضمير الكتاب، أو النبى ﷺ، و«بأساً»: مفعول ثان، وحذف الأول، أى: لينذر الناس بأساً، كما حذف الثانى من قوله: (ويُنذر الذين قالوا...) الخ؛ لدلالة هذا عليه، و(مِن عِلْمٍ): مبتدأ مجرور بحرف زائد، أو فاعل بالمجرور؛ لاعتماده على النفى، و«كلمة»: تمييز.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ الحمدُ لله ﴾ أي: الثناء الجميل حاصل لله، والمراد: الإعلام بذلك؛ للإيمان به، أو الثناء على نفسه، أو هما معا. ثم ذكر وجه استحقاقه له، فقال: ﴿ الذى أنزل على عبده الكتابَ ﴾ أى: الكتاب الكامل المعروف بذلك من بين سائر الكتب، الحقيق باختصاص اسم الكتاب، وهو جميع القرآن. رتّب استحقاق الحمد على إنزاله؛ تنبيهاً على أنه أعظم نعمائه، وذلك لأنه الهادى إلى ما فيه كمال العباد، والداعى إلى ما به ينتظم صلاح المعاش والمعاد.

وفى التعبير عن الرسول ﷺ بالعبد، مضافاً إلى ضمير الجلالة تنبيه على بلوغه ﷺ إلى معاريج العبادة وكمال العبودية أقصى غاية الكمال، حيث كان فانياً عن حظوظه، قائماً بحقوقه، خالصاً فى عبوديته لربه.

---

(1) الآية ١٠٦ من سورة الإسراء.

﴿ ولم يجعلْ له ﴾ أى: للكتاب ﴿ عِوَجاً ﴾، شيئاً من العوج، باختلافٍ في اللفظ، وتناقض فى المعنى، وانحراف فى الدعوة. قال القشيرى: صانه عن التناقض والتعارض، فهو كتابٌ عزيزٌ من ربٍّ عزيز، ينزل على عبدٍ عزيز.

﴿ قَيِّماً ﴾ : مستقيماً متناهياً في الاستقامة، معتدلاً لا إفراط فيه ولا تفريط، فهو تأكيد لما دل عليه نفى العوج، مع إفادته كون ذلك من صفاته الذاتية، حسبما تُنبئ عنه الصيغة. أو قَيِّماً بالمصالح الدينية والدنيوية للعباد، على ما ينبئ عنه ما بعده من الإنذار والتبشير، فيكون وصفاً له بالتكميل، بعد وصفه بالكمال، أو: قَيِّمًا على ما قبله من الكتب السماوية، وشاهداً بصحتها ومهيمناً عليها. ﴿ ليُنذر ﴾ : ليُخوِّف اللهُ تعالى به، أو الكتاب، والأول أَوْلى؛ لتناسب المعطوفين بعده، أى: أنزل الكتاب لينذر بما فيه الذين كفروا ﴿ بأساً ﴾ : عذاباً ﴿ شديداً من لدنه ﴾ أى: صادراً من عنده، نازلاً من قِبَله، فى مقابلة كفرهم وتكذيبهم.

﴿ ويُبشِّر ﴾ ـ بالتشديد والتخفيف، ﴿ المؤمنين ﴾: المصدقين به، ﴿ الذين يعملون ﴾ أى: العُمال ﴿ الصالحاتِ ﴾ التى تَثْبتُ فى تضاعيفه ﴿ أنَّ لهم ﴾ أى: بأن لهم فى مقابلة إيمانهم وأعمالهم ﴿ أجراً حسناً ﴾، هو الجنة وما فيها من المثوبات الحسنى، ﴿ ماكثين فيه ﴾ أى: فى ذلك الأجر ﴿ أبداً ﴾ على سبيل الخلود. والتعبير بالمضارع فى الصلة ـ أعنى: الذين يعملون ـ؛ للإشعار بتجدد الأعمال الصالحات واستمرارها، وإجراء الموصول على الموصوف بالإيمان؛ إيماءً بأن مدار قبول الأعمال هو الإيمان.

وتقديم الإنذار على التبشير؛ لإظهار كمال العناية بزجر الكفار عما هم عليه، مع مراعاة تقديم التخلية على التحلية. وتكرير الإنذار بقوله تعالى: ﴿ وُينذرَ الذين قالوا اتخذ اللهُ ولداً ﴾ : متعلق بفرقة خاصة، ممن عمَّه الإنذار السابق، من مستحقى البأس الشديد؛ للإيذان بكمال فظاعة حالهم، لغاية شناعة كفرهم وضلالهم، أى: وينذر، من بين سائر الكفرة، هؤلاء المتفوهين بمثل هذه القولة العظيمة، وهم كفار العرب الذين قالوا: الملائكة بنات الله، واليهود القائلون: عزير ابن الله، والنصارى القائلون: المسيح ابن الله.

﴿ ما لهم به من عِلْمٍ ﴾ أى: مالهم باتخاذه الولد شيء من علم أصلا؛ لضلالهم وإضلالهم، ﴿ ولا لآبائهم ﴾ الذين قلدوهم، فتاهوا جميعًا فى تيه الجهالة والضلالة، أو: ما لهم علم بما قالوا، أصواب أم خطأ، بل إنما قالوه؛ رمياً بقولٍ عن عمي وجهالة، من غير فكر ولا روية، كقوله تعالى: ﴿ خَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾(١) . أو: ما لهم علم بحقيقة ما قالوا، وبعظَم رتبته فى الشناعة، كقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا، لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا، تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ﴾(٢)، وهو الأنسب لقوله ﴿ كَبُرتْ كلمةً ﴾ أى: عظمت مقالتهم هذه فى الكفر والافتراء؛ لما فيها من نسبته سبحانه إلى ما لا يكاد يليق بجناب كبريائه؛ لما فيه من التشبيه والتشريك، وإيهام احتياجه تعالى إلى ولد يُعينه ويخلفه. فما أقبحها مقالة ﴿ تخرج من أفواههم ﴾ أى: يتفوهون

---

(١) الآية ١٠٠ من سورة الأنعام.
(٢) الآيات : ٨٨ - ٩٠ من سورة مريم.

بها من غير حقيقة ولا تحقيق لمعناها، ﴿إن يقولون إلا كذباً﴾ : ما يقولون في ذلك إلا قولاً كذبا، لا يكاد يدخل فيه إمكان الصدق أصلا.

الإشارة: من كملت عبوديته لله، وصار حراً مما سواه، بحيث تحرر من رق الأكوان، وأفضى إلى مقام الشهود والعيان، أنزل الله على قلبه علم التحقيق، وسلك به منهاج أهل التوفيق، منهاجاً قيماً، لا إفراط فيه ولا تفريط، محفوظاً في باطنه من الزيغ والإلحاد، وفي ظاهره من الفساد والعناد، قد تولى الله أمره وأخذه عنه، فهو على بينة من ربه فيما يأخذ ويذر. فإن أذِنَ له في التذكير وقع في مسامع الخلق عبارته، وجليت إليهم إشارته، فبشّر وأنذر، ورغّب وحذّر، يُبشر أهل التوحيد والتنزيه بنعيم الجنان، وبالنظر إلى وجه الرحمن، ويُنذر أهل الشرك بعذاب النيران، وبالذل والهوان، نعوذ بالله من موارد الفتن.

ولمّا كانت قريش تتفوه بشيء من هذه الكلمات، التي شنّع الله على من تفوه بها، وكان عليه الصلاة والسلام يتأسف من ذلك، خفف عنه ذلك، وأمره بالتسلي عنهم، فقال:

﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ إِنَّا جَعَلۡنَا مَا عَلَى ٱلۡأَرۡضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبۡلُوَهُمۡ أَيُّهُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيۡهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾ ﴾

قلت : (أسفا) : مفعول من أجله لباخع، أو حال، أي: متأسفاً، وجواب «إن» : محذوف، أي: إن لم يؤمنوا فلعلك باخع نفسك.

يقول الحق جل جلاله : ﴿فلعلك﴾ يامحمد ﴿باخعٌ﴾: مهلك ﴿نفسَك﴾ وقاتلها بالغم والأسف على تخلف قومك عن الإيمان وفراقهم عنك، ﴿على آثارهم﴾ إذا تولوا عنك، عندما تدعوهم إلى الله. شبهه، لأجل ما تداخله من الوجد على توليتهم، بمن فارقته أعزته، وهو يتحسر على آثارهم، ويبخع نفسه وجداً عليهم.﴿إن لم يؤمنوا بهذا الحديث﴾ أي: القرآن الذي عبّر عنه في صدر السورة بالكتاب، صدر ذلك منك ﴿أسفًا﴾ أي: بفرط الحزن والتأسف عليهم.

ثم علل وجه إدبارهم عن الإيمان، وهو اغترارهم بزهرة الدنيا، فقال: ﴿إنا جعلنا ما على الأرض﴾ ؛ من الأشجار والأزهار والثمار، وما اشتملت عليه من المعادن، وأنواع الملابس والمطاعم، والمراكب والمناكح، ﴿زينة لها﴾ أي: مبهجة لها، يستمتع بها الناظرون، وينتفعون بها مأكلاً وملبساً، ونظراً واعتباراً، حتى إن الحيّات والعقارب؛ من حيث تذكيرها بعذاب الآخرة، من قبيل المنافع، بل كل حادث داخل تحت الزينة من حيث دلالته على الصانع، وكذلك الأزواج والأولاد، بل هم من أعظم زينتها، داخلون تحت الابتلاء. جعلنا ذلك ﴿لنبلوهم﴾ :

لنختبرهم، حتى يظهر ذلك للعيان، ﴿ أَيُّهم أحسنُ عملاً ﴾ ، أيهم أزهد فيها، وأقبلهم على الله بالعمل الصالح؛ إذ لا عمل أحسن من الزهد في الدنيا؛ إذ هو سبب للتفرغ لأنواع العبادة، بدنية وقلبية.

قال أبو السعود: وحسن العمل: الزهد فيها، وعدم الاكتراث بها، والقناعة باليسير منها، وصرفها على ما ينبغى، والتأمل فى شأنها، وجعلها ذريعة إلى معرفة خالقها، والتمتع بها حسبما أذن الشرع، وأداء حقوقها، والشكر على نعمها، لا جعلها وسيلة إلى الشهوات، والأغراض الفاسدة، كما يفعله الكفرة وأهل الأهواء.. انظر بقية كلامه.

﴿ وإنا لجاعلون ما عليها ﴾ ؛ عند تناهى الدنيا، ﴿ صعيداً جُرُزًا ﴾ أى: تراباً يابساً، لا نبات فيه، بعدما كان يتَعجب من بهجته النظارُ، ويتشرف بمشاهدته الأبصار، فلا يغتر بما يذهب ويفنى إلا من لا عقل له، فلا تستغرب إدبارهم، إذ لا عقل لهم.

ويحتمل أن يكون تسليةً للنبى ﷺ؛ من حيث إنه أرشده إلى شهود تدبير الحق، فيسلو، بذلك، عن إعراضهم؛ لغيبته فى المصور المدبر عن الصور، وعن الزينة فى المُزَيِّن، فالكون مظهر الصفات ومرآتها، ويغيب فى الذات ـ التى هى معدنها ـ بإفناء الظاهر، وإفناء الأفعال، كما نبّه عليه بقوله: ﴿ وإنا لجاعلون ... ﴾ الخ.

الإشارة: الخصوصية ـ من حيث هى ـ لها بداية ونهاية، فمن شأن أهل بدايتها: الحرص على الخير لهم ولعباد الله، فيتمنون أن الناس كلهم خصوص أو صالحون، فإذا رأوا الناس أعرضوا عنها تأسفوا عليهم، وإذا أقبلوا عليهم فرحوا من أجلهم، زيادة فى الهداية لعباد الله، فإذا تمكنوا منها ورسخت أقدامهم فيها، وحصل لهم الفناء الأكبر، لم يحرصوا على شيء، ولم يتأسفوا من فوات شيء، لهم ولغيرهم. وقد يتوجه العتاب لهم على الحرص فى بدايتهم؛ تكميلاً لهم، وترقية إلى المقام الأكمل.

وقوله تعالى: ﴿إنا جعلنا ما على الأرض...﴾ إلخ، هو حكمة تخلف الناس عن الخصوصية، حتى يتميز الطالب لها من المعرض عنها، فمن أقبل على زينة الدنيا وزهرتها، فاتته الخصوصية، وبقى من عوام الناس، ومن أعرض عنها وعن بهجتها، وتوجه بقلبه إلى الله، كان من المخصوصين بها، المقربين عند الله.

وهذا هو أحسن الأعمال التى اختبر الله به عباده بقوله: ﴿لنبلوهم أيهم أحسن عملا﴾، وفى الحديث: «الدنيا مال مَنْ لاَ مَالَ لَه، لَهَا يَجْمَعُ مَنْ لاَ عَقْلَ لَه. وعليها يُعَادِى مَنْ لاَ عِلْمَ عِنْدَه»(١). وفى الزهد والترغيب أحاديث كثيرة مفردة بالتأليف، وبالله التوفيق.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى المسند (٦/٧١)، والبيهقى فى شعب الإيمان (باب فى الزهد/ ١٠٦٣٧) عن السيدة عائشة ـ رضى الله عنها، بدون العبارة الأخيرة.

ثم شرع في قصة أهل الكهف المقصودة بالذات، فقال

﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴿١٢﴾ ﴾

قلت: (أم): منقطعة مقدرة ببل، التي هي للانتقال من حديث إلى حديث، لا للإبطال، والهمزة: للاستفهام عند الجمهور، وبمعنى «بل»، فقط، عند غيرهم، و(عجبا): خبر كان، و(من آياتنا): حال منه، و(إذ أوى): ظرف لعجباً، لا لحَسِبْتَ، أو مفعول اذكر، أي: اذكر هذا الوقت العجيب، وهو حين التجأ الفتية إلى الكهف، و(لنا) و(مِنْ أمرنا) :يتعلق بـ (هيىء)، و(أي الحزبين): معلق لنعلم عن المفعولين؛ لما فيه من معنى الاستفهام، وهو مبتدأ، و«أحصى»: خبره، وهو فعل ماضٍ، و(أمدا): مفعوله.

و(لِما لبثوا): حال منه، أو مفعول «أحصى»، واللام زائدة، و(ما): موصولة، و(أمدا): تمييز، وقيل: (أحصى): اسم تفضيل، من الإحصاء بحذف الزوائد، و(أمدا): منصوب بفعل دل عليه أحصى، أي: يحصي كقوله:

وأَضْرَبَ مِنَّا بالسُّيوفِ القَوَانِسَا(١)

لأن اسم التفضيل لا ينصب المفعول به، إجماعاً، ويجوز أن يكون تمييزاً بعد اسم التفضيل.

يقول الحق جل جلاله: ﴿أم حَسِبْتَ﴾ أي: ظننت يامحمد، والمراد: حسبان أمته ﴿أنَّ أصحاب الكهف﴾، وهو الغار الواسع في الجبل. واختلف في موضعه؛ فقيل: بقرب فلسطين، وقيل: بالأندلس بمقربة من لوشة في جهة غرناطة. وذكر ابن عطية أنه دخل كهفهم، وفيه موتى، ومعهم كلبهم، وعليهم مسجد، وقريب منه بناء يقال له الرَّقيم، قد بقي موضع جدرانه، وفي تلك الجهة آثار يقال لها: مدينة «دقيوس»، والله أعلم. وقال ابن جزي: ومما يُبعد ذلك ما رُوي أن معاوية مرَّ عليهم، وأراد الدخول إليهم ولم يدخل، هيبةً، ومعاوية لم يدخل الأندلس قط، وأيضاً: فإن الموتى في لَوْشة يراهم الناس، ولا يدرك أحد الرعب الذي ذكر الله في أهل الكهف. هـ.

(١) هذا عَجُزٌ: صدره: أكرّ وأحمى للحقيقة منهم... وهو للعباس بن مِرْداس... وقوله: القوانسا: جمع قَوْنَس، وهو أعلى بيضة الرأس. انظر: اللسان (قنس ٣٧٥١/٥)، والمغنى لابن هشام (٧٠٩/٢).

والمشهور: أن الرقيم هو اللوح المكتوب فيه أسماؤهم وأنسابهم، وكان جُعِل ذلك الكتاب فى خزانة الملك، وهو لوح من رصاص أو حجر، أمر بكتب أسمائهم فيه لما شكا قومُهم فقْدَهم. وقيل: اسم كلبهم.

أى: أظننت أنهم ﴿ كانوا ﴾ فى قصتهم ﴿ من ﴾ بين ﴿ آياتنا عَجَبًا ﴾ أى: كانوا عجباً دون باقى آياتنا، ليس الأمر كذلك. والمعنى: أن قصتهم، وإن كانت خارقة للعادة، ليست بعجيبة، بالنسبة إلى سائر الآيات التى من تعاجيبها ما ذكر من خلق الله تعالى على الأرض، من الأجناس والأنواع الفائتة الحصر من مادة واحدة، بل هى عندها كالنزر الحقير. وقال القشيرى: أزال موضع الأعجوبة من أوصافهم، بما أضاف إلى نفسه بقوله: (من آياتنا)، وقَلْبُ العادةِ مِنْ قِبَلِ اللهِ غيرُ مُسْتَنْكَرٍ ولا مُبْتَدَعٍ. هـ.

ثم ذكر أول قصتهم، فقال: ﴿ إذْ أوَى الفتيةُ ﴾ : جمع فتى، وهو الشاب الكامل، أى: اذكر حين التجأ الفتية إلى الكهف، هاربين بدينهم، خائفين على إيمانهم من كفار قومهم، ورأسهم «دقيانوس»، على ما يأتى فى قصتهم. ﴿ فقالوا ﴾ ؛ حين دخلوا الغار: ﴿ ربَّنا آتنا من لدُنك ﴾ ؛ من مستبطن أمورك وخزائن رحمتك الخاصة المكنونة عن أعين العادات، ﴿ رحمةً ﴾ خاصة تستوجب الرفق والأمن من الأعداء، ﴿ وهَيِّءْ ﴾ : أصلح ﴿ لنا من أمرنا ﴾ الذى نحن عليه من مفارقة الكفار ومهاجرتهم، ﴿ رَشَدًا ﴾ : هداية نصير بها راشدين مهتدين، أو: اجعل أمرنا كله رشداً وصواباً، كقولك: لقيت منك أسداً، فتكون من باب التجريد، أو: إصابة للطريق الموصل إلى المطلوب، وأصل التهيئة: إحداث هيئة الشيء.

﴿ فَضَرَبْنَا على آذانهم ﴾ أى: أَنَمْنَاهُمْ، شبَّه الإنامة الثقيلة المانعة من وصول الأصوات إلى الآذان بضرب الحجاب عليها، وتخصيص الآذان بالذكر مع اشتراك سائر المشاعر لها فى الحَجْب عن الشعور عند النوم؛ لأنها تحتاج إلى الحجب أكثر، إذ هى الطريقة للتيقظ غالباً. والفاء فى (فضربنا): مثلها فى قوله: ﴿ فاسْتَجَبْنَا لَه ﴾(١) ، بعد قوله: ﴿ إذ نادى ﴾ ، فإنَّ الضرب المذكور، وما ترتب عليه من التقليب ذات اليمين وذات الشمال، والبعث، وغير ذلك، إيتاء رحمةٍ لدُنِّيَّةٍ خفيةٍ عن أبصار المستمسكين بالأسباب العادية؛ استجابة لدعوتهم، أى: فاستجبنا لهم وأنَمْناهم، ﴿ فى الكهف سنينَ عدداً ﴾ أى: ذوات عدد، أو تُعَدُّ عددا، أو معدودة، ووصفُ السنين بذلك: إمّا للتكثير، وهو الأنسب بكمال القدرة، أو التقليل، وهو الأليق بمقام إنكار كون القصة عجباً من سائر الآيات العجيبة؛ فإن مدة لبثهم كبعض يوم عنده تعالى.

---

(١) من الآية ٩٠ من سورة الأنبياء.

﴿ ثم بعثناهم ﴾ ؛ أيقظناهم من تلك النومة الشبيهة بالموت، ﴿ لنعلم ﴾ علم مشاهدة، أي: ليتعلق علمنا تعلقاً حالياً كتعلقه أولاً تعلقاً استقبالياً، ﴿ أيُّ الحزبين ﴾ : الفريقين المختلفين في مدة لبثهم المذكور في قوله: ﴿قالوا لبثنا يوماً...﴾ الخ، ﴿ أحصى ﴾ أي: أضبط ﴿ لما لبثوا ﴾ : للبثهم، ﴿ أمداً ﴾ أي: غاية، فيظهر بذلك عجزهم، ويفوضوا ذلك إلى العليم الخبير، ويتعرفوا حالهم وما صنع الله بهم، من حفظ أبدانهم وأديانهم، فيزدادوا يقيناً بكمال قدرته وعلمه، وليتيقنوا به أمر البعث، ويكون ذلك لطفاً بمؤمني زمانهم، وآية بينة لكفارهم، وعبرةً لمن يأتي بعدهم، فهذه حِكَمٌ لإيقاظهم بعد نومهم، والله عليم حكيم.

الإشارة: عادته تعالى فيمن انقطع إليه بكليته، وآوى إلى كهف رعايته، وأيس من رفق مخلوقاته، أن يكلأه بعين عنايته، ويرعاه بحفظ رعايته، ويُغَيِّبَ سمع قلبه عن صوت الأكدار، ويصون عين بصيرته عن رؤية الأغيار، حين انحاشوا إلى حِمى رحمته المانع، وتظللوا تحت ظل رشده الواسع. وبالله التوفيق.

ثم تمم قصتهم، فقال:

﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا مِن دُونِهِ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ ءَالِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾ ﴾

قلت : (بالحق): إما صفة لمصدر محذوف، أو حال من ضمير «نقُصُّ»، أو من «نبأهم»، أو صفة له، على رأي من يرى حذف الموصول مع بعض صلته، أي: نقُصُّ قصصاً ملتبساً بالحق، أو نقصه متلبسين بالحق، أو نقص نبأهم ملتبساً بالحق، أو نبأهم الذي هو ملتبس بالحق. و﴿إذ قاموا﴾: ظرف لربطنا، ﴿وشططاً﴾: صفة لمحذوف، أي: قولاً شططاً، أي: ذا شطط، وُصِف به؛ للمبالغة. و(هؤلاء): مبتدأ، وفي اسم الإشارة: تحقير لهم، و(قومنا): عطفُ بيانٍ له. و(اتخذوا): خبر، و(ما يعبدون): موصول، عطف على الضمير المنصوب، أو مصدرية، أي: وإذ

اعتزلتموهم ومَعْبُودِيهِمْ إلا الله، أو عبادتهم إلا عبادة الله، وعلى التقديرين: فالاستثناء متصل على تقدير أنهم كانوا مشركين يعبدون الله والأصنام. ومنقطع؛ على تقدير تمحضهم بعبادة الأوثان، ويجوز أن تكون (ما) نافية؛ على أنه إخبار من الله ـ تعالى ـ عن الفتية بالتوحيد، معترض بين «إذ» وجوابه العامل فيها.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ نحن نقصُّ عليك نبأهم ﴾ ، والنبأ: الخبر الذى له شأن وخطر، قصَّصا ملتبساً ﴿ بالحق ﴾ : بالصدق الذى لا يطرقه كذب ولا ريبة.

وخبرهم، حسبما ذكر محمد بن إسحاق: أنه قد مرج أهل الإنجيل، وظهرت فيهم الخطايا، وطغت ملوكهم، فعبدوا الأصنام وذبحوا للطواغيت، وكان مَنْ بَالَغَ فى ذلك وعتا عتواً كبيراً: «دقيانوس»؛ فإنه غلا فيه غلواً كبيرا، فجاس خلال الديار والبلاد؛ بالعبث والفساد، وقتل من خالفه ممن تمسك بدين المسيح، وكان يتتبع الناس فيُخيرهم بين القتل وبين عبادة الأوثان، فمن رغب فى الحياة الدنيا الدنية: تبعه وصنع ما يصنع، ومن آثر عليها الحياة الأبدية: قتله وقطع آرابه[1] ، وعلقها بسور المدينة وأبوابها. فلما رأى الفتيةُ ذلك، وكانوا عظماء مدينتهم، وكانوا بنى الملوك، قاموا فتضرعوا إلى الله تعالى، واشتغلوا بالصلاة والدعاء، فبينما هم كذلك إذ دخل عليهم أعوان الجبار، فأحضروهم بين يديه، فقال لهم ما قال، فخيَّرهم بين القتل وبين عبادة الأوثان، فقالوا: إن لنا إلهاً ملأ السماواتِ والأرض عظمَةً وجبروتاً، لن ندعو من دونه أحداً، ولن نُقر بما تدعونا إليه أبدا، فاقض ما أنت قاض، فأمر بنزع ما عليهم من الثياب الفاخرة، وأخرجهم من عنده. زاد فى رواية: وضمنهم أهلهم، وخرج إلى مدينة (نينوى)؛ لبعض شأنه، وأمهلهم إلى رجوعه؛ ليتأملوا فى أمرهم، وإلاَّ فعل بهم ما فعل بسائر المسلمين.

فأجمعت الفتيةُ على الفرار والالتجاء إلى الكهف الحصين، فأخذ كلٌّ منهم من بيت أبيه شيئاً، فتصدقوا ببعضه، وتزودوا بالباقى، فأَوَوْا إلى الكهف. وفى رواية: أنهم مروا بكلب فتبعهم، على ما يأتى فى شأنه، فجعلوا يُصلُّون فى ذلك الكهف آناء الليل وأطراف النهار، ويبتهلون إلى الله ـ سبحانه ـ بالأنين والجُؤار، ففوضوا أمر نفقتهم إلى «يمليخا»، فكان إذا أصبح يضع عنه ثيابه الحسان، ويلبس ثياب المساكين، ويدخل المدينة ويشترى ما يهمهم، ويتحسس ما فيها من الأخبار، ويعود إلى أصحابه، فلبثوا على ذلك إلى أن قَدِم الجبارُ المدينةَ فطلبهم، وأحضر آباءهم، فاعتذروا بأنهم عصَوْهم ونهبوا أموالهم، ويذروها فى الأسواق، وفروا إلى الجبل.

فلما رأى «يمليخا» ما رأى من الشر رجع إلى أصحابه وهو يبكى، ومعه قليل من الزاد، فأخبرهم بما شهد من الهول، ففزعوا إلى الله ـ عز وجل ـ وخروا له سُجداً، ثم رفعوا رؤوسهم وجلسوا يتحدثون فى أمرهم، فبينما هم كذلك

(١) أى أعضاءه. واحده: إِرْبٌ .. انظر اللسان (أرب ١/٥٥).

إذ ضرب الله على آذانهم فناموا، ونفقتُهم عند رؤوسهم. فخرج «دقيانوس» فى طلبهم بخَيْله ورَجله، فوجدهم قد دخلوا الكهف، فأمر بإخراجهم فلم يُطق أحدٌ منهم أن يَدخله، فلما ضاق بهم ذرعاً، قال قائل منهم: أليس لو كنتَ قدرتَ عليهم قتلتهم؟ قال: بلى. قال: فابْنِ عليهم باب الكهف ودَعْهم يموتوا؛ جُوعاً وعطَشا، ففعل فكان شأنهم ما قص الله تعالى، إذ قال:

﴿ إنهم فتيةٌ ﴾ ، استئناف بياني، كأن سائلا سأل عن حالهم، فقال: إنهم فتية شبان كاملون فى الفتوة ﴿ آمنوا بربهم ﴾ ، فيه التفات إلى ذكر الربوبية التى اقتضت تربيتهم وحفظهم، ﴿ وزدناهم هُدىً ﴾ ؛ بأن ثبّتناهم على ما كانوا عليه، وأظهرنا لهم من مكنونات محاسننا ما آثروا به الفناء على البقاء. وفيه التفات إلى التكلم؛ لزيادة الاعتناء بشأنهم، ﴿ وربطنا على قلوبهمْ ﴾ أى: قويناهم، حتى اقتحموا مضايق الصبر على هجر الأهل والأوطان، والنعيم والإخوان، واجترأوا على الصدع بالحق من غير خوف ولا حذر، والرد على دقيانوس الجبار؛ ﴿ إذْ قاموا ﴾ أى: انتصبوا لإظهار شعار الدين، قال مجاهد: خرجوا من المدينة فاجتمعوا على غير ميعاد. فقال أكبرهم: إنى لأجد فى نفسى شيئاً، إن ربى هو رب السموات والأرض، فقالوا: نحن أيضاً كذلك، فقاموا جميعا ﴿ فقالوا ربُّنا ربُّ السمواتِ والأرضِ ﴾ ، وعزموا على التصميم بذلك. وقيل: قاموا بين يدى الجبار من غير مبالاة به، حين عاتبهم على ترك عبادة الأصنام، فحينئذ يكون ما سيأتى من قوله تعالى: (هؤلاء...) إلخ: منقطعًا صادراً عنهم، بعد خروجهم من عنده.

ثم قالوا: ﴿ لن ندعوَ من دونه إلهًا ﴾ ، لا استقلالاً ولا اشتراكاً، ولم يقولوا: رباً؛ للتصميم على الرد على المخالفين، حيث كانوا يُسمون أصنامهم آلهة، وللإشعار بأن مدار العبودية على وصف الألوهية. ﴿ لقد قُلنا إذاً شَطَطًا ﴾ : قولاً ذا شطط، وهو الجور والتعدى، أى: لقد جُرنا وأفرطنا فى الكفر، وقلنا قولاً خارجاً عن حد المعقول، إنْ دعونا إلهاً غير الله جَزْماً.

﴿ هؤلاء قومُنَا ﴾ قد ﴿ اتخذوا من دونه آلهةً ﴾ ، فيه معنى الإنكار، ﴿ لولا ﴾ : هلا ﴿ يأتونَ عليهم ﴾ : على ألوهيتهم ﴿ بسلطان بيّن ﴾ : بحجة ظاهرة، ﴿ فمن أظلمُ ﴾ أى: لا أحد أظلم ﴿ ممن افترى على الله كذباً ﴾ بنسبة الشريك إليه؛ فإنه أظلم من كل ظالم.

﴿ وإذ اعتزلتموهم ﴾ أى: فارقتموهم ﴿ و ﴾ فارقتم ﴿ ما يعبدون إلا اللهَ فأووا إلى الكهف ﴾ : فالتجئوا إليه، والمعنى: وإذ اعتزلتموهم اعتزالاً اعتقادياً فاعتزلوهم اعتزالاً جسمانيا، ﴿ ينشرْ لكم ربُكم ﴾ : يبسط لكم ويوسع عليكم ﴿ من رحمته ﴾ فى الدارين، ﴿ ويهيئْ لكم من أمركم ﴾ الذى أنتم بصدده من الفرار بالدين، ﴿ مِرفَقًا ﴾ : ما ترتفقون به، أى: تنتفعون، وجزمهم بذلك؛ لنصوع يقينهم، وقوة وثوقهم بفضل الله. والله تعالى أعلم.

الإشارة: قد وصف الله ـ تعالى ـ أهلَ الكهف بخمسة أوصاف هى من شعار الصوفية؛ الإيمان، الذى هو الأساس، وزيادة الاهتداء بتربية الإيقان إلى الوصول الى صريح العرفان، وربط القلب فى حضرة الرب، والقيام فى إظهار الحق أو لداعى الوجد، والصدع بالحق من غير مبالاة بأحد من الخلق.

وقال الورتجبى فى قوله تعالى: ﴿ وزدناهم هُدىً ﴾ : أى: زدناهم نوراً من جمالى، فاهتدوا به طرق معارف ذاتى وصفاتى، وذلك النور لهم على مزيد الوضوح إلى الأبد؛ لأن نورى لا نهاية له. وقال عند قوله: ﴿ إذ قاموا ﴾ : قد استدل بهذه الآية بعضُ المشايخ على حركة الواجدين فى وقت السماع والذكر؛ لأن القلوب إذا كانت مربوطة بالملكوت ومحل القدس حرَّكها أنواعُ الأذكار وما يَرِد عليها من فنون السماع. والأصل قوله: ﴿ وربطنا على قلوبهم إذ قاموا ﴾ ، نعم هذا المعنى إذا كان القيام قياماً بالصورة، أى: الحسية فى القيام الحسى، وإذا كان القيام من جهة الحفظ والرعاية، والربط من جهة النقل من محل التلوين إلى محل التمكين، فالاستدلال بها فى السكون فى الوجد أحسن، إذا كان الربط بمعنى التسكين والقيام بمعنى الاستقامة. هـ.

قلت : الحاصل: أنا إذا حملنا القيام على الحسى ففيه دليل لأهل البداية على القيام فى الذكر والسماع. وإذا حملناه على القيام المعنوى، وهو النهوض فى الشىء، أو الاستقامة عليه كان فيه دلالة لأهل النهاية على السكون وعدم التحرك، وكأنه يشير إلى قضية الجنيد فى بدايته ونهايته. والله تعالى أعلم.

وقال ابن لب: قد اشتهر الخلاف بين العلماء فى القيام لذكر الله ـ تعالى ـ وقد أباحته الصوفية، وفعلته ودامت عليه، واستفادوه من كتاب الله تعالى من قوله ـ عز وجل ـ فى أصحاب الكهف: ﴿ إذ قاموا فقالوا ربُّنا ربُّ السموات والأرض ﴾ ، وإن كانت الآية لها محامل أخر سوى هذا. هـ. قلت : وقوله تعالى: ﴿ الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً ﴾(١) : صريح فى الجواز.

وقال فى القوت : وقد روينا أنه ﷺ مرَّ برجل يظهر التأوه والوجد، فقال مَنْ كان معه: أتراه يارسولَ الله مُرائياً؟ فقال: «لا، بل أوَّاه منيب»(٢)، وقال لآخر: أظهر صوته بالآية: «أَسْمِع الله عز وجل ولا تُسَمِّع» ، فأنكر عليه بما شهد فيه، ولم ينكر على أبى موسى قوله: (لو علمتُ أنك تَسمع لحبَّرته لك تحبيرا) ؛ لأنه ذو نية فى الخير وحسن قصد به، ولذا كل من كان له حسن قصد، ونية خير، فى إظهار عمل، فليس من السمعة والرياء فى شىء؛ لتجرده من الآفة الدنيوية، وهى الطمع والمدح. هـ.

(١) من الآية ١٥١ من سورة آل عمران.

(٢) أخرجه بنحوه أحمد فى المسند (١٥٩/٤)، والطبرانى فى الكبير (٢٩٥/١٧)، عن عقبة بن عامر، وحسَّنه الهيثمى فى المجمع (٣٧٢/٩).

ثم ذكر حالهم في الكهف، فقال:

﴿ ۞ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾ ﴾

قلت: (تزاور) أصله: تتزاور، فأدغمت التاء في الزاي. وقرأ الكوفيون بحذفها، وابن عامر ويعقوب: «تزْوَرُّ» كتَمرد، كلها من الزَّوْر بمعنى الميل. و(ذات اليمين): ظرف بمعنى الجهة. وجملة: (وهم في فجوة): حال، و(ذراعيه): مفعول «باسط»؛ لأنه حكاية حال، أي: يبسط، و(فرارًا): مصدر؛ لأنه عبارة عن معنى التولية، أو حال، أي: لوليت فارًا، و﴿رُعْبًا﴾: مفعول ثان لملئت، أو تمييز.

يقول الحق جل جلاله، في بيان حالهم بعدما أووا الى الكهف: ﴿وترى الشمسَ إذا طلعت تزاوَرُ﴾ أي: تنتحي وتميل ﴿عن كهفهم﴾ الذي أووا إليه، والخطاب للرسول ﷺ، أو لكل أحد ممن يصلح للخطاب. وليس المراد الإخبار بوقوع الرؤية تحقيقًا، بل الإنباء بكون الكهف بحيث لو رأيته ترى الشمس إذا طلعت تميل عن كهفهم ﴿ذاتَ اليمين﴾ أي: جهة ذات يمين الكهف، عند الداخل إلى قعره، ﴿وإذا غربَت﴾ أي: وتراها إذا غربت ﴿تقرِضُهم﴾ أي: تقطعهم وتتعدى عنهم ﴿ذاتَ الشمال﴾ أي: جهته وجانبه الذي يلي المشرق. وكان ذلك بتصريف الله تعالى على منهاج خرق العادة؛ كرامة لهم. وقيل: كان باب الكهف شماليًا يستقبل بنات نعش(١)، ﴿وهم في فجوةٍ منه﴾: في موضع واسع منه، وذلك موقع لإصابة الشمس، ومع ذلك يُنحيها الله عنهم.

﴿ذلك من آيات الله﴾ أي: ما صنع الله بهم من ميل الشمس عنهم عند طلوعها وغروبها، من آيات الله العجيبة الدالة على كمال علمه وقدرته، وفضيلة التوحيد وكرامة أهله عنده سبحانه. قال بعضهم: هذا قبل سد دقيانوس باب الكهف، قلت: كان قبل السد وبعد هدم السد؛ لأنه هُدم بعدُ، فما قام أهل الكهف حتى وجدوه مهدومًا. وظاهر الآية يُرجح من قال: إنه من باب خرق العادة.

---

(١) بنات نعش : سبعة كواكب تُشاهد جهة القطب الشمالي.. انظر المعجم الوسيط (نعش).

﴿ من يَهدِ الله فهو المهتدِ ﴾ الذى أصاب الفلاح . والمراد: إما الثناء عليهم، والشهادة بإصابة المطلوب، والإخبار بتحقيق ما أمّلوه من نشر الرحمة وتهيئة المرافق، أو التنبيه على أن أمثال هذه الآية كثيرة، ولكن المنتفع بها هو مَنْ وفقه الله وهداه للاستبصار بها، ﴿ ومن يُضلل ﴾ أى: يخلق فيه الضلال؛ بصرف اختياره إليه، ﴿ فلن تجد له ﴾، ولو بالغت فى التتبع والاستقصاء، ﴿ وليّاً ﴾ : ناصراً ﴿ مُرشداً ﴾، يهديه إلى ما ذكر من الفلاح. والجملة معترضة بين أجزاء القصة.

ثم قال: ﴿ وتحسبُهُم ﴾ بالفتح والكسر، أى: تظنهم ﴿ أيقاظاً ﴾، لانفتاح أعينهم، أو لكثرة تقلبهم، وهو جمع «يقظ»؛ بضم القاف وكسرها، ﴿ وهم رقود ﴾ أى: نيام، ﴿ ونُقلِّبهم ﴾ فى رقودهم ﴿ ذاتَ اليمين ﴾ أى: جهة تلى أيمانهم، ﴿ وذات الشمال ﴾ أى: جهة تلى شمائلهم؛ لكى لا تأكل الأرضُ ما يليها من أبدانهم. قال ابن عباس رضي الله عنه: لو لم يتقلبوا لأكلتهم الأرض. قيل: كانوا يتقلبون مرتين فى السنة. وقيل: مرة يوم عاشوراء. وقيل: فى تسع سنين.

﴿ وكلبهم باسطٌ ذراعيه ﴾، حكاية حال ماضية أى: يبسط ذراعيه، وهو من المرفق إلى رأس الأصابع. ﴿ بالوصيد ﴾ أى: بموضع من الكهف، وقيل: بالفناء من الكهف، وقيل: العَتَبة. وهذا الكلب، قيل: هو كلبٌ مَروا به فتبعهم، فطردوه مراراً، فلم يرجع، فأنطقه الله، فقال: يا أولياء الله لا تخشوا إصابتى؛ فإنى أُحب أحباء الله، فناموا حتى أحرُسَكم. وقيل: هو كلبُ راعٍ مروا به فتبعهم(١) على دينهم، ومر معه كلبه، ويؤيده قراءة: (وكَالِبُهُمْ) أى: وصاحب كلبهم، وقيل: هو كلب صيد لهم أو زرع، واختُلف فى لونه؛ قيل أحمر، وقيل: أصفر، وقيل: أصهب(٢).

﴿ لو اطلعتَ عليهم ﴾ أى: لو عاينتهم وشاهدتهم. والاطلاع: الإشراف على الشيء بالمعاينة والمشاهدة، ﴿ لوليّتَ منهم فراراً ﴾ : هرباً بما شاهدت منهم، ﴿ ولمُلئتَ منهم رُعْباً ﴾، أى: خوفاً يملأ الصدور برُعبه، لِمَا ألبسهم الله من الرهبة، أو لعظم أجرامهم وانفتاح أعينهم، وكانت منفتحة كالمستيقظ الذى يريد أن يتكلم. وعن معاوية: أنه غزا الروم فمرّ بالكهف، فقال: لو كُشف لنا عن هؤلاء فنظرنا إليهم، فقال ابن عباس رضي الله عنه: ليس لك ذلك؛ قد منع الله تعالى مَنْ هو خير منك، حيث قال: ﴿لو اطلعت عليهم...﴾ الآية، فلم يسمع، وقال: ما أنتهى حتى أعلَمَ علمهم، فبعث ناساً، وقال: اذهبوا فانظروا، ففعلوا، فلما دخلوا بعث الله ريحاً فأحرقتهم. هـ(٣).

الإشارة: للصوفية ـ رضى الله عنهم ـ تشبه قوى بأهل الكهف، فى الانقطاع إلى الله، والتجرد عن كل ما سواه، والانحياش إلى الله، والفرار من كل ما يشغل عن الله، والتماس الرحمة الخاصة من الله، وطلب التهيئة لكل رشد

---

(١) أي الراعي.
(٢) الأصهب: الأشقر. وقال الحافظ ابن كثير فى تفسيره (٣/٧٦): واختلفوا فى لونه على أقوال لا حاصل لها ولا طائل تحتها، ولا دليل ولا حاجة إليها، بل هي مما ينهى عنه، فإن مستندها رجم بالغيب.
(٣) عزاه المناوى فى الفتح السماوى (٢/٧٩٢) لابن أبى حاتم، وعبد بن حميد، وابن أبى شيبة، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس. وقال الحافظ ابن حجر فى الكافى الشاف: وإسناده صحيح.

وصواب، ولهذا المعنى ختم الشيخ القطب ابن مشيش تصليته المشهورة بما دعَوا به، حين أووا إلى كهف الإيواء؛ تَشَبُّهاً بهم فى مطلق الانقطاع والفرار من مواطن الحس. ولذلك لمَّا تشبهوا بهم حفظهم الله ـ أى: الصوفية ـ ممن رام أذاهم، وغيّبهم عن حس أنفسهم، وأشهدهم عجائب لطفه وقدرته، ومن تمام التشبه بهم: أنك قلّ أن تجد فرقة تُسافر منهم إلا ويتبعهم كلب يكون معهم، حتى شهدتُ ذلك فى جُل أسفارنا مع الفقراء؛ تحقيقاً لكمال التشبيه. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر بعثهم من نومهم، فقال:

﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُواْ بَيْنَهُمْۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْۖ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍۚ قَالُواْ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وكذلك ﴾ أى: وكما أنمناهم وحفظنا أجسادهم من البلاء والتحلل، وكان ذلك آية دالة على كمال قدرتنا، ﴿ بعثناهم ﴾ من النوم ﴿ ليتساءلوا بينهم ﴾ أى: ليسأل بعضُهم بعضاً، فيترتب عليه مافصّل من الحِكَم البالغة، أو: ليتعرفوا حالهم وما صنع الله بهم، فيزدادوا يقيناً على كمال قدرة الله، ويستبصروا أمر البعث، ويشكروا ما أنعم الله به عليهم.

﴿ قال قائلٌ منهم ﴾ هو رئيسهم، واسمه: «مكْسَلِمينا»: ﴿ كم لبثتمْ ﴾ فى منامكم؟ لعله قال ذلك؛ لِمَا رأى من مخالفة حالهم، لِمَا هو المعتاد فى الجملة، ﴿ قالوا ﴾ أى: بعضهم: ﴿ لبثنا يوماً أو بعض يوم ﴾، قيل: إنما قالوا ذلك؛ لأنهم دخلوا الكهف غُدوة، وكان انتباههم آخر النهار، فقالوا: ﴿ لبثنا يوما ﴾، فلما رأوا أن الشمس لم تغرب بعدُ قالوا: ﴿ أو بعض يوم ﴾، وكان ذلك إخباراً عن ظنٍ غالب، فلم يُعْزَوْا إلى الكذب.

﴿ قالوا ﴾ أى: بعضٌ آخر منهم، بما سنح له من الأدلة، ولِمَا رأى من طول أظافرهم وشعورهم: ﴿ ربكُم أعلمُ بما لبثتم ﴾ أى: أنتم لا تعلمون مدة لبثكم، وإنما يعلمها الله ـ سبحانه ـ، وهذا رد منهم على الأولين بأجمل ما يكون من حسن الأدب، ﴿ فابعثوا أحَدكم بورقكم(١) هذه إلى المدينة ﴾، أعرضوا عن البحث عن المدة، وأقبلوا على

(١) قرأ أبو عمرو وحمزة وأبو بكر: بورْقكم ـ ساكنة الراء ـ والباقون بكسرها . راجع الإتحاف ٢/٢١٢.

ما يهم فى الوقت، والورق: الفضة، مضروبة أو غير مضروبة، ووصفُها باسم الإشارة يقتضى أنها كانت معينة ليشترى بها قوت ذلك اليوم، وحملها دليل على أن التزود لا ينافى التوكل، وقد كان نبينا ﷺ يتزود لغار حراء ليتعبد فيه. ثم قالوا: ﴿ فلينظر أيُّها ﴾ أىْ: أىُّ أهلها ﴿ أزكى طعاماً ﴾ أىْ: أحل وأطيب، أو أكثر وأرخص، ﴿ فليأتِكُمْ برزقٍ منه ﴾ أى: من ذلك الأزكى طعاماً، ﴿ وليتلطفْ ﴾ : وليتكلف اللطفَ فى دخول المدينة وشراء الطعام، لئلا يُعرف، ﴿ ولا يُشْعِرَنَّ بكم أحداً ﴾ ؛ ولا يخبر بكم ولا بمكانكم أحداً من أهل المدينة، أو: لا يفعل مايؤدى إلى ذلك.

ثم علل النهى بقوله: ﴿ إنهم إن يَظْهَرُوا عليكم ﴾ : يطلعوا عليكم، أو يظفروا بكم، والضمير: للأهل المقدر فى «أيها»، أىْ: إنَّ أهل المدينة إن يظفروا بكم ﴿ يَرجُموكم ﴾ إن ثبتم على ما أنتم عليه، ﴿ أو يُعيدوكم في مِلَّتِهِمْ ﴾ أى: يصيروكم إليها ويدخلوكم فيها؛ كرهاً، كقوله تعالى: ﴿ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾[1] ، وقيل: كانوا على ملتهم ثم خالفوهم للحق. ﴿ ولن تُفلحوا إذاً ﴾ ؛ إن دخلتم فيها، ولو بالكره والجبر، ﴿ أبداً ﴾ ، لا فى الدنيا ولا فى الآخرة، وفيه من التشديد والتحذير ما لا يخفى.

الإشارة: وكذلك بعثنا مَنْ توجه إلينا من نوم الغفلة والجهالة ليتساءلوا بينهم؛ ليتعرفوا ما أنعم الله به عليهم من اليقظة والنجاة من البطالة، فإذا انتبهوا من نوم الغفلة، استصغروا أيام البطالة؛ لأن أيام الغفلة قليلة أمدادها، وإن كثرت آمادها، وفى الحِكَم: «رب عمر اتسعت آماده، وقلَّتْ أمداده» . بخلاف زمان اليقظة، فإنه كثيرة أمداده، وإن قلَّتْ آماده، فهو طويل؛ معنىً، وإن قلَّ؛ حساً، ولذلك قال فى الحِكَم أيضا: «ورب عمر قليلةٌ آماده، كثيرةٌ أمداده» . وقال أيضا: «من بورك له فى عمره : أدرك فى يسيرٍ من الزمان مِنْ مِنَن الله تعالى مالا يدخل تحت دوائر العبارة ولا تلحقه الإشارة» .

فإن توقفوا على قوت أشباحهم التمسوا أطيبه وأزكاه وأحله، فإنَّ أكل الحلال يُنور القلوب وينشط الأعضاء للطاعة، وتلطفوا فى أخذه من غير مزاحمة ولا حرص ولا تعب، فإنْ أطلعهم الله على سره المكنون من أسرار ذاته بالغوا فى إخفائه، حتى لا يُشْعروا به أحداً من خلقه، غير من هو أهلٌ له؛ لأنهم، إن أظهروه لغيرهم، رجموهم أو أعادوهم إلى ملتهم، بأن يقهروهم إلى الرجوع عن طريق القوم، ولن يفلحوا إذاً أبدا. وبالله التوفيق.

---

(١) من الآية ١٣ من سورة إبراهيم.

ثم ذكر اطلاع قوم أهل الكهف عليهم، فقال:

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُواْ ٱبْنُواْ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِٱلْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّيٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ... ﴾

قلت: ﴿إذ يتنازعون﴾: ظرف لقوله: (أعثرنا)، لا ليعلموا، أي: أعثرنا هم عليهم حين يتنازعون بينهم... إلخ، و(رجما): حال، أي: راجمين بالغيب، أو مفعول مُطلق، أي: يرجمون رجماً .

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وكذلك ﴾ أي: وكما أنمناهم وبعثناهم لازدياد يقينهم ﴿ أعْثَرْنا عليهم ﴾: أطلعنا الناس عليهم ﴿ ليَعْلموا ﴾ أي: ليعلم القوم الذين كانوا في ذلك الوقت ﴿ أنَّ وعد الله ﴾ أي: وعده بالبعث والثواب والعقاب ﴿ حقٌ ﴾ صادق لا خُلْف فيه، أو: ثابت لا مرد له؛ لأن نومهم وانتباههم كحال من يموت ثم يُبعث، ﴿ وأنَّ الساعة ﴾ أي: القيامة، التي هي عبارة عن وقت بعث الخلائق جميعاً؛ للحساب والجزاء، ﴿ لاريبَ فيها ﴾: لا شك في قيامها، فإنَّ مَنْ شاهد أنه جل وعلا توفَّى نفوسهم وأمسكها ثلاثمائة سنة وأكثر، حافظاً لأبدانها من التحلل والفساد، ثم أرسلها كما كانت، لا يبقى معه ريب، ولا يختلجه شك، في أن وعده تعالى حق، وأنه يبعث مَنْ في القبور، ويجازيهم بأعمالهم.

وكان ذلك الإعثار ﴿ إذْ يتنازعون ﴾ : حين كانوا يتنازعون ﴿ بينهم أمْرَهُم ﴾ ، في أمر البعث مختلفين فيه؛ ففرقة أقرّت، وفرقة جَحَدَتْ، وقائل يقول: تُبعْث الأرواح فقط، وآخر يقول: تُبعث جميعُ الأجسام بالأرواح، قيل: كان ملك المدينة حينئذ رجلاً صالحاً، ملَكها ثمانياً وعشرين سنة، ثم اختلف أهلُ مملكته في البعث كما تقدم، فدخل الملِكُ بيته وغلق الباب، ولبس مسحاً وجلس على رماد، وسأل ربه أن يظهر الحق، فألقى الله ـ عز وجل ـ في نفس رجل من ذلك البلد الذي فيه الكهف، أن يهدم بنيان فم الكهف، فهدم ماسدّ به «دقيانوس» بابَ الكهف؛ ليتخذه حظيرة لغنمه، فعند ذلك بعثهم الله ـ تعالى ـ فجرى بينهم من التقاول ما جرى.

رُوي أنّ المبعوث لمّا دخل المدينة؛ ليشتري الطعام، أخرج دراهمه، وكانت على ضرب (دقيانوس)، فاتهموه أنه وجد كنزاً، فذهبوا به إلى الملك، فقص عليه القصة، فقال بعضهم: إن آباءنا أخبرونا أن فتية فروا بدينهم من

(دقيانوس)، فلعلهم هؤلاء، فانطلق الملكُ وأهلُ المدينة؛ من مسلم وكافر، فدخلوا عليهم وكلموهم، ثم قالت الفتية للملك: نُودعك الله ونعيذك به من الإنس والجن، ثم رجعوا إلى مضاجعهم، فماتوا، فألقى المَلِكُ عليهم ثيابه، وجعل لكل منهم تابوتاً من ذهب، فرآهم في المنام كارهين للذهب، فجعلها من الساج، وبنى على باب الكهف مسجدا. وقيل: لما انتهوا إلى الكهف قال لهم الفتى: مكانَكم حتى أدخل أولاً؛ لئلا يفزعوا، فدخل، فعُمِّيَ عليهم المدخل، فبنوا ثَمَّةَ مسجداً.

وقيل: التنازُع فيه: أمر الفتية قبل بعثهم، أي: أعثرنا عليهم حين يتذاكرون بينهم أمرهم، وما جرى بينهم وبين دقيانوس من الأحوال والأهوال، ويتلقون ذلك من الأساطير وأفواه الرجال. وعلى التقديرين: فالفاء في قوله: ﴿ فقالوا ابنُوا ﴾ فصيحة، أي: أعثرنا عليهم فرأوا ما رأوا، ثم ماتوا، فقال بعضهم: ﴿ ابنُوا عليهم ﴾: على باب كهفهم ﴿ بُنياناً ﴾؛ لئلا يتطرق إليهم الناس، ففعلوا ذلك؛ ضناً بمقامهم ومحافظة عليهم.

ثم قالوا: ﴿ ربهم أعلمُ بهم ﴾، كأنهم لما عجزوا عن إدراك حقيقة حالهم؛ من حيث النسبة، ومن حيث العدد، ومن حيث بُعد اللبث في الكهف، قالوا ذلك؛ تفويضاً إلى علام الغيوب. أو: يكون من كلامه سبحانه؛ رداً لقول الخائضين في حديثهم من أولئك المتنازعين، ﴿ قال الذين غلبوا على أمرهم ﴾، وهو الملك والمسلمون، وكانوا غالبين في ذلك الوقت: ﴿ لنتَّخذَنَّ عليهم مسجداً ﴾، فذكر في القصة أنه جعل على باب الكهف مسجداً يصلى فيه.

ثم وقع الخوض في عهد نبينا ـ عليه الصلاة والسلام ـ بين نصارى نجران حين قدموا المدينة، فجرى بينهم ذكر أهل الكهف وبين المسلمين في عددهم، كما قال تعالى: ﴿ سيقولون ثلاثةٌ رابعُهُم كلبهم ﴾، وهو قول اليعقوبية من النصارى، وكبيرهم السيد، وقيل: قالته اليهود، ﴿ ويقولون خمسة سادِسُهم كلبهُم ﴾، هو قول النسطورية منهم، وكبيرهم العاقب، ﴿ رجماً بالغيب ﴾: رمياً بالخبر من غير اطلاع على حقيقة الأمر، أو ظناً بالغيب من غير تحقيق، ﴿ ويقولون سبعة وثامنهمْ كلبهم ﴾، وهو ما يقوله المسلمون بطريق التلقي من هذا الوحي، وعدم نظمه في سلك الرجم بالغيب، وتغيير سبكه؛ بزيادة الواو المفيدة لزيادةِ تأكيد النسبة فيما بين طرفيها، يَقضي بصحته.

قال تعالى: ﴿ قلْ ﴾ يامحمد؛ تحقيقاً للحق، ورداً على الأولين: ﴿ ربي أعلم بعدَّتهم ﴾ أي: ربي أقوى علماً بعدتهم، ﴿ ما يعلمهم ﴾ أي: ما يعلم عددهم ﴿ إلا قليلٌ ﴾ من الناس، قد وفقهم الله تعالى للاطلاع عليهم بالدلائل أو بالإلهام. قال ابن عباس رضي الله عنه: «أنا من ذلك القليل»، قال: حين وقعت الواو انقطعت العدة، وأيضا حين سكت عنه تعالى ولم يقل: رجماً بالغيب، علم أنه حق. وعن علي ـ كرم الله وجهه ـ: أنهم سبعة، أسماؤهم: يمليخا، وهو الذي ذهب بورقهم، ومكسيلمينيا، وهو أكبرهم والمتكلم عنهم، ومشلينا، وفي رواية الطبري: ومجْسَيْسِيا بدله، وهؤلاء أصحاب يمين الملك، وكان عن يساره: مرنوش ودبرنوش وجشاذنوس، وكان يستشير هؤلاء الستة

فى أمره، والسابع: الراعى الذى تبعهم حين هربوا من دقيانوس، واسمه: كفشططيوش(1). وذكر ابن عطية عن الطبرى غير هؤلاء، وكلهم عجميون، قال: والسندُ فى معرفتهم واهٍ. والله تعالى أعلم.

الإشارة: عادة الحق تعالى فى أوليائه أن يُخْفِيهم أولاً عن أعين الناس، رحمةً بهم؛ إذ لو أظهرهم فى البدايات؛ لفتنوهم وردوهم إلى ما كانوا عليه، حتى إذا تخلصوا من البقايا، وتمكنوا من معرفة الحق وشهوده، أعثر عليهم من أراد سعادته ووصوله إلى حضرته؛ ليعلموا أن وعد الله بإبقاء العدد الذين يحفظ الله بهم نظام العالم فى كل زمان حق، وأنّ خراب العالم بانقراضهم، وقيام الساعة لا ريب فيه. وفى الآية تنبيه على ذم الخوض بما لا علم للعبد به، ومدح من رد العلم إلى الله فى كل شىء. والله تعالى أعلم.

ثم نهى نبيه عن المجادلة بعد وضوح الحق، فقال:

﴿ ... فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾ وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ ﴾

قلت: (إلا أن يشاء): استثناء مفرغ من النهى، أى: لا تقولن فى حال من الأحوال، إلا حال ملابسةٍ بمشيئته تعالى على الوجه المعتاد، وهو أن تقول: إن شاء الله، أو: فى وقت من الأوقات، إلا وقت إن شاء الله.

يقول الحق جل جلاله: ﴿فلا تُمَارِ﴾ أى: لا تجادل ﴿فيهم﴾؛ فى شأن أهل الكهف ﴿إلا مِراءً ظاهراً﴾ قدر ما تعرض له الوحى من وصفهم، من غير زيادة عليه، مع تفويض العلم إلى الله، فلا تُصرح بجهلهم، ولاتفضح خطأهم، فإنه يُخل بمكارم الأخلاق، ﴿ولا تَسْتَفْتِ فيهم﴾: فى شأنهم ﴿منهم﴾؛ من الخائضين ﴿أحداً﴾؛ فإن فيما أوحى إليك لمندوحة عن ذلك، مع أنهم لا علم لهم بذلك.

---

(1) فى النطق بهذه الأسماء اختلاف كثير، وقال الحافظ ابن كثير: فى تسميتهم بهذه الأسماء، واسم كلبهم، نظر فى صحته، والله أعلم، فإن غالب ذلك متلقى عن أهل الكتاب. وقد قال الله تعالى: ﴿فلا تمار فيهم إلا مراءً ظاهراً﴾ أى: سهلاً هيناً، فإن الأمر فى معرفة ذلك لا يترتب عليه كبير فائدة. انظر تفسير ابن كثير ٣/٧٨.

﴿ ولا تقولنّ لشيء ﴾ أى: لأجل شيء تعزم عليه: ﴿ إنى فاعلٌ ذلك ﴾ الشيء ﴿ غداً ﴾ : فيما يستقبل من الزمان مطلقاً، فيصدق بالغد وما بعده؛ لأنه نزل حين قالت اليهود لقريش: سلوه عن الروح، وعن أصحاب الكهف، وعن ذى القرنين. فسألوه ﷺ فقال: «غداً أخبركم» ، ولم يستثن، فأبطأ عليه الوحى، حتى شقّ عليه، وكذبته قريشٌ، ثم نزلت السورة بعد أربعة عشر يوماً، أو قريباً منها(١)، على ما ذكره أهل السِّيَر، أى: لا تقُلْ إنى فاعل شيئاً فى حال من الأحوال إلا متلبساً بمشيئته على الوجه المعتاد، وهو أن تقول: إن شاء الله، أو فى وقت من الأوقات، إن شاء الله أن تقوله، بمعنى: أن يأذن لك فيه، فإن النسيان بمشيئته تعالى.

﴿ واذكر ربكَ ﴾ بقولك: إلا أن يشاء الله؛ مستدركاً له، ﴿ إذا نسيتَ ﴾ : إذا فرط منك نسيان ثم ذكرته. وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنه: ولو بعد سنة ما لم يحنث. ولذلك جوّز تأخير الاستثناء. وعامة الفقهاء على خلافه، إذ لو صح ذلك لما تقرر طلاق ولا عتاق، ولم يعلم صدق ولا كذب، وقال القرطبى: هذا فى تدارك الترك والتخلص من الإثم، وأما الاستثناء المغير للحكم فلا يكون إلا متصلاً به، ويجوز أن يكون المعنى: واذكر ربك؛ بالتسبيح والاستغفار؛ إذا نسيت الاستثناء؛ مبالغة فى الحث عليه، أو: اذكر ربك إذا اعتراك نسيان؛ لتستدرك ما فات، وحُمل على أداء الصلاة المنسية عند ذكرها. وسيأتى فى الإشارة بقية الكلام عليها.

﴿ وقل عسى أن يَهْدِيَنِ ربى ﴾ : يوفقنى ﴿ لأقربَ من هذا ﴾ أى: لنبأ أقرب وأظهر من نبأ أصحاب الكهف، من الآيات والدلائل الدالة على نبوتى، ﴿ رَشَداً ﴾ أى: إرشاداً للناس ودلالة على ذلك. وقد فعل عز وجل ذلك؛ حيث آتاه من البينات ما هو أعظم وأبين لقصص الأنبياء، المتباعدة أيامهم، والإخبار بالغيوب والحوادث النازلة فى الأعمار المستقبلة إلى قيام الساعة. أو: لأقرب رشداً وأدنى خيراً من المنْسِى، أى: عسى أن يدلنى على ما هو أصلح لى من الذى نسيته؛ إذ يجوز أن يكون نسيانه خيراً له من ذكره؛ إذ فيه إظهار قهريته تعالى، وغناه عن خلقه، وعدم مبالاته بإدبار من أدبر وإقبال من أقبل، أو: الطريق الأقرب من هذا الذى هدى إليه أهل الكهف؛ رشداً وصواباً، وقد فعل ذلك حيث هداه إلى الدين القيِّم الذى أظهره على الأديان كلها، ولو كره المشركون.

﴿ ولَبِثُوا في كهفهم ﴾ ؛ أحياءً، مضروباً على آذانهم، ﴿ ثلاث مائةٍ سنينَ وازدادوا تسعاً ﴾ ، رُوى عن على ـ كرم الله وجهه ـ أنه قال: عند أهل الكتاب أنهم لبثوا ثلاثمائة سنة شمسية، والله تعالى ذكر السنة القمرية، والتفاوت بينهما فى كل مائة ثلاثُ سنين، فيكون ثلاث مائة سنة وتسع سنين. هـ. ﴿ قُلِ اللهُ أعلم بما لَبِثُوا ﴾ أى: الزمان

(١) عزاه السيوطى فى الدر (٤/٣٩٤) لابن المنذر عن مجاهد، فى سياق طويل، وأخرج الطبرى (١٥/١٩١) نحوه فى سياق طويل، عن ابن عباس.

الذى لبثوا فيه. ﴿له غيبُ السموات والأرض﴾ أى: ما غاب فيهما، وخفى من أحوال أهلها، ﴿أبصِرْ به وأسمعْ﴾ أى: ما أسمعه وما أبصره. دل بصيغة التعجب على أن سمعه تعالى وبصره خارج عما عليه إدراك المدركين؛ لأنه تعالى لا يحجبه شيء، ولا يحول دونه حائل، ولا يتفاوت بالنسبة اليه اللطيف والكثيف، والصغير والكبير، والخفى والجلى. والتعجب فى حقه تعالى مجاز؛ لأنه إنما يكون مما خفي سببه، ولأنه دهشة وروعة تلحق المتعجب عند معاينة مالم يعتَدْه، وهو تعالى منزّه عن ذلك، فيُؤوّل بأنه مبالغة فى إحاطة سمعه وبصره بكل شيء، كما تقدم.

﴿ما لهم من دونه من وليٍّ﴾ أى: ما لأهل السموات والأرض من دونه تعالى من ولى؛ يتولى أمورهم وينصرهم إلا هو سبحانه، ﴿ولا يُشرِكُ في حُكمِهِ﴾: فى قضائه فى علم الغيب ﴿أحداً﴾ منهم، ولا يجعل له فيه مدخلا، وقرئ بالخطاب لكل أحد، أى: ولا تشرك أيها السامع فى حكمه وتدبيره أحدا من خلقه، فإنه لا فعل له ولا تدبير. والله تعالى أعلم.

الإشارة: قد تضمنت إشارة الآية خمس خصال من خصال الصوفية:

الأولى: ترك المراء والجدال، إلا ما كان على وجه المذاكرة والمناظرة فى استخراج الحق أو تحقيقه، من غير ملاججة ولا مخاصمة، فى سهولة وليونة وسلامة القلوب.

الثانية: استفتاء القلوب فيما يعرض من الأمور؛ قال ﷺ: «واستَفْتِ قَلْبَكَ، وإنْ أفتاك المُفْتون وأفتوك، فالبر ما اطمأن القلب وسكن إليه، والإثم ما حاك فى الصدر وتردد»(١)، والمراد بالقلوب التى تُستَفْتَى. القلوب الصافية المنورة بذكر الله، الزاهدة فيما سوى الله، فإنها إذا كانت بهذه الصفة لا يتجلى فيها إلا الحق، ولا تسكن إلا إلى الحق، بخلاف القلوب المخوضة بحب الدنيا والهوى، فلا تفتى إلا بما يوافق هواها.

الثالثة: التفويض إلى مشيئة الله وتدبيره، والرضا بما يبرز به القضاء، بحيث لا يعقد على شيء، ولا يجزم بفعل شيء، إلا ملتبساً بمشيئة الله، فينظر ما يفعل الله. فالعاقل إذا أصبح نظر ما يفعل الله به، والجاهل إذا أصبح نظر ما يفعل بنفسه، كما قال صاحب الحِكَم.

الرابعة: الاشتغال بالذكر والفكر، حتى يغيب عما سوى المذكور؛ قال تعالى: (واذكر ربك إذا نسيت) أى: إذا نسيت ما سواه، حينئذ تكون ذاكراً حقيقة، فالذكر الحقيقي: هو الذى يغيب صاحبه عن شهود نفسه ورسمه وحسه، حتى يكون الحق تعالى هو المتكلم على لسانه؛ لشدة غيبته فيه، وهذا أمر مشاهد لمن عثر على شيخ التربية والتزم صحبته.

(١) أخرجه بنحوه الإمام أحمد فى المسند (٤/٢٢٤)، وابن عساكر فى تاريخ دمشق (تهذيب ٣/٢١٢) عن وابصة. وصححه محقق المسند. وزاد فى كشف الخفاء (٢/١٢٤) عزو الحديث لأبى يعلى وأبى نعيم.

الخامسة : التماس الترقي والزيادة في الاهتداء واليقين، فكل مقام يدركه ينبغي أن يطلب مقاماً أعلى منه، ولا نهاية لعلمه تعالى ولا لعظمته، (وقل عسى أن يهديني ربي لأقرب من هذا رشدا) ، وبالله التوفيق.

ثم أمره بتلاوة كتابه الذي هو أصل كل رشد وصواب، وأقرب هداية لذوي الألباب، فقال تعالى:

﴿ وَٱتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله : ﴿ واتلُ ما أُوحي إليك من كتاب ربك ﴾ أي: اسرده على ما نزل، ولا تسمع لقولهم: ﴿ ٱئْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَآ ﴾(1)، أو اتبع أحكامه، ﴿ لامُبدِّل لكلماته ﴾ : لا قادر على تبديله غيره، أو: لامغير لما وعد بكلماته للمخالفين له، ﴿ ولن تجدَ ﴾ أبداً ﴿ من دونه مُلتحداً ﴾ أي: ملجأ، تعدل إليه عند إلمام مُلمة، أو: لن تجد، إن بدلت؛ تقديراً، وخالفت ما أنزل إليك، ملتحداً: ملجأ تميل إليه . والله تعالى أعلم.

الإشارة : القرآن شفاء لكل داء فمن نزلت به شدة حسية أو معنوية، دنيوية أو دينية، ففزع إليه بالتلاوة أو الصلاة به ، رأى فَرَجاً ، وقريباً، فالالتجاء إلى كلام الله هو الالتجاء إلى الله، فإنَّ الحق تعالى يتجلى في كلامه للقلوب على قدر صفائها، وأما من التجأ إلى غير الله فقد خاب رجاؤه وبطل سعيه؛ قال تعالى: (ولن تجد من دونه ملتحدا) تميل إليه فيأويك. والله تعالى أعلم.

ثم أمر بصحبة الفقراء، الذين يُعينونه على تلاوة كتابه ونصر دينه والتمسك به، فقال:

﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ ﴾

قلت : (ولا تعد): نهي مجزوم بحذف الواو، و(عيناك) : فاعل، و(تريد) : حال من الكاف، أو من فاعل (تَعْدُ) .

يقول الحق جل جلاله : ﴿ واصبر نفسك ﴾ أي: احبسها ﴿ مع الذين يدعون ربهم ﴾ أي: يعبدونه ﴿ بالغداةِ والعَشيِّ ﴾ ، قيل: الصلوات الخمس، فالغداة: الصبح، والعَشيّ: الظهر وما بعده ، وقيل: الصبح والعصر،

(1) من الآية ١٥ من سورة يونس.

قلت: والأظهر أنها الصلاة التي كانوا يصلونها قبل فرض الصلاة، وهي ركعتان بالغداة والعشي. قال ابن عطية: ويدخل في الآية مَنْ يدعو في غير صلاة، ومن يجمع لمذاكرة علم، وقد روى عبدالله بن عمر عن النبي ﷺ أنه قال: «لَذِكْرُ اللهِ بالغَدَاةِ والعَشِيِّ أفْضَلُ مِنْ حَطْمِ السُّيُوفِ فِي سَبِيلِ اللهِ، ومِنْ إعْطَاءِ المَالِ سحا»(١).

وقيل: (يدعون ربهم) في جميع الأوقات، وفي طرفَيْ النهار، والمراد بهم فقراء المؤمنين؛ كعمار وصهيب وخباب وبلال، رُوِيَ أن رؤساء الكفرة من قريش قالوا لرسول الله ﷺ: لو أبعدت هؤلاء عن نفسك لجالسناك وصحبناك، وقالوا: إن ريح جِبَابِهم تؤذينا، فنزلت الآية(٢). رُوِي أنه ﷺ لما نزلت خرج إليهم وجلس بينهم، وقال: «الحمدُ لله الذي جعَلَ في أمتي مَنْ أُمِرْتُ أنْ أصْبِر نَفْسِي معه»(٣). وقيل: نزلت في بيان أهل الصُفَّة، وكانوا نحو سبعمائة، فتكون الآية مدنية.

ثم وصفهم بالإخلاص، فقال: ﴿ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾ أي: معرفة ذاته، لاجنة ولا نجاة من نار، ﴿ ولا تَعْدُ عيناك عنهم ﴾ أي: لا تجاوزهم بنظرك إلى غيرهم، من عداه: إذا جاوزه، وفي الوجيز: ولا تصرف بصرك عنهم إلى غيرهم من ذوي الهيئات والزينة، ﴿ تُرِيدُ زِينَةَ الحياةِ الدنيا ﴾ أي: تطلب مجالسة الأشراف والأغنياء وأصحاب الدنيا.

﴿ ولا تُطِعْ ﴾ في تنحية الفقراء عن مجلسك ﴿ من أغفلنا قلبه عن ذِكْرِنا ﴾ أي: جعلناه غافلاً عن الذكر وعن الاستعداد له، كأولئك الذين يدعونك إلى طرد الفقراء عن مجلسك، فإنهم غافلون عن ذكرنا، على خلاف ما عليه المؤمنون من الدعاء في مجامع الأوقات، وفيه تنبيه على أن الباعث على ذلك الدعاء غفلة قلبية عن جناب الله - سبحانه - حتى خفي عليه أن الشرف إنما هو بتحلية القلب بالفضائل، لا بتحلية الجسد بالملابس والمآكل. ﴿ واتَّبَعَ هواه ﴾: ما تهواه نفسه، ﴿ وكان أمره فُرُطاً ﴾: ضياعاً وهلاكاً، وهو من التفريط والتضييع، أو من الإفراط والإسراف، فإن الغفلة عن ذكر الله - تعالى - تؤدي إلى اتباع الهوى المؤدي إلى التجاوز والتباعد عن الحق والصواب. والله تعالى أعلم.

الإشارة: في الآية حثٌ على صحبة الفقراء والمُكْث معهم، وفي صحبتهم أسرار كبيرة ومواهب غزيرة، إذ بصحبتهم يَكتسبُ الفقير آداب الطريق، وبصحبتهم يقع التهذيب والتأديب، حتى يتأهل لحضرة التقريب،

---

(١) عزاه في كنز العمال (١/٤٢٩ ح ١٨٥٠) لابن شاهين في الترغيب في الذكر عن ابن عمر. وأخرجه، بدون العبارة الأخيرة، الديلمي في الفردوس (٣/٤٥٤ ح ٥٤٠٢) عن أنس.. وحطم السيوف، أي: كسرها.

(٢) أخرجه البيهقي في الشعب (باب في الزهد وقصر الأمل) عن سلمان، وزاد السيوطي عزوه في الدر (٤/٣٩٦) لابن مردويه، وأبي نعيم في الحلية.

(٣) أخرجه الطبري (١٥/٢٣٥) عن قتادة، وأخرجه البيهقي في الموضع السابق ذكره، ضمن الرواية ذاتها عن سلمان.

ويصحبتهم تدوم حياة الطريق، ويصل العبد إلى معالم التحقيق، وفى ذلك يقول الشيخ أبو مدين رضي الله عنه :

مَـا لَذَّةُ العَـيْشِ إلا صُـحـبـةُ الفُـقَـرا   هُمُ السَّـلاَطِينُ والسَّادَاتُ والأُمَـرا
فَـاصْحَبْـهُمُ وتَأَدَّبْ فِي مَـجَـالِسِـهِم   وَخَـلِّ حظَّكَ مَـهْمَـا خَلَّفُـوك وَرَا

إلى آخر كلامه.

وقوله تعالى: ﴿ واصبر نفسك ﴾ قال القشيرى: لم يقل: واصبر قلبك؛ لأن قلبه كان مع الحق تعالى، فأمره بصحبة الفقراء جَهْراً بجهر، واستخلص قلبه لنفسه سراً بسرٍّ. هـ. قال الورتجبى: اصبر نفسك مع هؤلاء الفقراء، العاشقين لجمالى، المشتاقين إلى جلالى، الذين هم فى جميع الأوقات يسألون متى لقاء وجهى الكريم، ويريدون أن يطيروا بجناح المحبة إلى عالم وَصْلي، حتى يكونوا مُتسلين بصحبتك عن مقام الوصال، وفى رؤيتهم لك رؤية ذلك الجمال. هـ.

وقوله تعالى: ﴿ يريدون وجهه ﴾، بيّن أن دعاءهم وسؤالهم إنما هو رؤيته ولقاؤه، شوقاً إليه ومحبة فيه، من غير تعلق بغيره، أو شُغل بسواه، بل همتهم الله لا غيره، وإلاَّ لَمَا صدق قصر إرادتهم عليه. قال فى الإحياء: من يعمل اتقاء من النار خوفاً، أو رغبة فى الجنة رجاء، فهو من جملة النيات الصحيحة؛ لأنه ميل إلى الموعود فى الآخرة، وإن كان نازلاً بالإضافة إلى قصد طاعة الله وتعظيمه لذاته ولجلاله، لا لأمرٍ سواه. ثم قال: وقول رويم: الإخلاص: ألا يريد صاحبه عليه عوضاً فى الدارين، هو إشارة لإخلاص الصديقين، وهو الإخلاص المطلق، وغيره إخلاص بالإضافة إلى حظوظ العاجلة. هـ. من الحاشية.

ثم أمره بالصدع بالحق، فقال:

﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّـٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا (٢٩) ﴾

قلت: «الحق»: خبر، أى: هذا الذى أُوحى إليّ الحقُّ.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وقل ﴾ يامحمد لأولئك الغافلين المتبعين أهواءهم، أو: لمن جاءك من الناس: هذا الذى جئتكم به من عند ربى هو ﴿ الحقُّ من ربكم ﴾ أى: من جهة ربكم، لا من جهتى، حتى يتصور فيه التبديل، أو يمكن التردد فى اتباعه. ﴿ فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفرْ ﴾، وهو تهديد، أى: فمن شاء أن يؤمن فليؤمن كسائر المؤمنين، ولا يتعلل بما لا يكاد يصلح للتعليل، ومن شاء أن يكفر فليفعل، وفيه مع التهديد الاستغناء عن متابعتهم، وعدم المبالاة بهم وبإيمانهم.

ثم أوعدهم على الكفر، فقال: ﴿ إنا أعتدنا للظالمين ﴾ أي: هيأنا للكافرين بالحق، بعد ما جاء من الله سبحانه، والتعبير عنهم بالظالمين؛ للتنبيه على أن اختيارهم الكفر ظلمٌ وتجاوزٌ عن الحد، ووضعٌ للشيء في غير محله، أي: هيأنا لهم ﴿ ناراً ﴾ عظيمة ﴿ أحاط بهم ﴾ أي: محيطٌ بهم ﴿ سُرادِقُها ﴾ أي: سورها المحيط بها، والتعبير بالماضي؛ لتحقق وقوعه، والسرادق: ما يحيط بالشيء، كالجدار ونحوه. قيل: هو حائط من نار، وقيل: دخانها. ﴿ وإن يستغيثوا ﴾؛ من العطش ﴿ يُغاثوا بماء كالمهل ﴾: كمُذاب الحديد والرصاص في الحرارة. وقيل: كردىء الزيت في اللون، ﴿ يشوى الوجوه ﴾ إذا قُدم ليشرب؛ بحرارته. عن النبي ﷺ أنه قال: «هو كَعَكَرِ الزَّيْتِ، فَإذَا قُرِّبَ مِنَ الكافر سَقَطَتْ فَرْوَةُ وَجْهِهِ فِيهِ، فإذا شَرِبَهُ تَقَطَّعَت أَمْعَاؤُه»(١).

﴿ بئسَ الشرابُ ﴾ ذلك، ﴿ وساءت ﴾؛ النار ﴿ مُرتفقًا ﴾: متكأ، وأصل الارتفاق: نصب المرفق تحت الخد ليتكئ عليه، وأنى ذلك في النار، وإنما هو لمقابلة قوله في المؤمنين: ﴿ وحسنت مرتفقاً ﴾.

الإشارة: ينبغي للواعظ، أو المُذكر، أو العالم، ألا يحرص على الناس، بل يستغني بالله في أموره كلها، وإنما يُبين الحق من الباطل، ويقول: هذا الحق من ربكم، فمن شاء فليؤمن ومن يشاء فليكفر. هذا إذا كان لعامة الناس، وأما إن كان لخاصتهم؛ كأهل الرئاسة والجاه، فاختلف فيه؛ فقال بعضهم: يسلك هذا المنهاج، يُبين الحق ولا يبالي، محتجاً بالآية، قال: نحن أمة محمدية، قال تعالى له: ﴿ وقل الحق من ربكم... ﴾ الآية، وقال بعضهم: ينبغي أن يلين لهم القول؛ لقوله تعالى: ﴿ فقولا له قولاً لينًا لعلَّه يتذكَّرُ أو يخشَى ﴾(٢)، وهو الأليق بطريق السياسة، فمن أعرض عن الوعظ، وبقي على ظلمه، فالآية تجر ذيلها عليه. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر ضدهم، فقال:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ مَنۡ أَحۡسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾
أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَيَلۡبَسُونَ
ثِيَابًا خُضۡرٗا مِّن سُندُسٖ وَإِسۡتَبۡرَقٖ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِۚ نِعۡمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتۡ مُرۡتَفَقٗا ﴿٣١﴾ ﴾

---

(١) أخرجه، دون العبارة الأخيرة، أحمد في المسند (٣/ ٧٠)، والترمذي في (صفة جهنم، باب ما جاء في صفة شراب أهل النار)، والبغوي في تفسيره (٥/ ١٦٨)، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.
(٢) الآية ٤٤ من سورة طه.

قلت : جملة: (إنا لا نضيع) : خبر «إن»، والعائد محذوف، أي: أحسن عملا، أو: وقع الظاهر موقعه؛ فإن من أحسن عملا في الحقيقة هو الذي آمن وعمل صالحا. و﴿أولئك﴾: استئناف؛ لبيان الأجر، أو: خبر «إن»، وما بينهما اعتراض، أو خبر بعد خبر. و(من أساور) : ابتدائية، و(من ذهب) : بيانية، و(أساور) : جمع أسورة، أو أسوار جمع سوار، فهو جمع الجمع.

يقول الحق جل جلاله : ﴿ إن الذين آمنوا ﴾ أي: اختاروا الإيمان، من قوله: (فمن شاء فليؤمن)، وكأنه في المعنى عطف على قوله: (أعتدنا للظالمين)، أي: والذين آمنوا هيأنا لهم كذا وكذا، ولعل تغيير سبكه: للإيذان بكمال تنافي مآلَيْ الفريقين، أي: إن الذين آمنوا بالحق الذى أُوحي إليك ﴿ وعَمِلُوا ﴾ الأعمال ﴿ الصالحات ﴾، حسبما بيّن فيما أوحي إليك، ﴿ إنا لا نُضيعُ أجرَ من أحسن عملاً ﴾، وأتقنه على ما تقتضيه الشريعة.

﴿ أولئك ﴾ ؛ المنعوتون بهذه النعوت الجليلة ﴿ لهم جناتُ عدن تجري ﴾ من تحت قصورهم ﴿ الأنهار ﴾ ؛ من ماء ولبن وخمر وعسل، ﴿ يُحلَّون فيها من أساورَ من ذهب ﴾ أي: كل واحد يُحلَّى بسوارين من ذهب. وكانت الأساور عند العرب من زينة الملوك، ﴿ ويَلْبَسُون ثياباً خُضْراً ﴾ ، وخصت الخضرة بثيابهم؛ لأنها أحسن الألوان وأكثرها طراوة. وتلك الثياب ﴿ من سُنْدُسٍ وإستبرقٍ ﴾ ، السندس: ما رقّ من الديباج، والإستبرق: ما غلظ منه، جمع النوعين؛ للدلالة على أن فيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين، ﴿ متكئين فيها على الأرائك ﴾ جمع أريكة، وهو السرير في الحجَال، أي: متكئين على الأسرة المزينة بالستور الرفيعة، كحال العرائس المتنعمين. ﴿ نِعم الثوابُ ﴾ ذلك، ﴿ وحَسُنَتْ مُرتفقاً ﴾ : متكأ. والآية عامة وإن نزلت في خصوص الصحابة رضي الله عنهم، وأماتنا على منهاجهم. آمين.

الإشارة: إن الذين آمنوا إيمان الخصوص، وعملوا الأعمال التي تقرب إلى حضرة القدوس؛ وهي تحمُّل ما يثقل على النفوس، أولئك لهم جنات المعارف، تجري من تحت قلوبهم أنهار العلوم والمواهب، يُحلَّون فيها بمقامات اليقين، ويلبسون ثياب العز والنصر والتمكين، متكئين على سرر الهنا والسرور، قد انقضت عنهم أيام المحن والشرور، جعلنا الله فيهم بمنّه وكرمه.

ثم ضرب مثلاً لمن اغتر بدنياه، ولمن زهد فيها وأقبل على مولاه، فقال:

﴿ ۞ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾

وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ
قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ
أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي وَلَآ أُشْرِكُ
بِرَبِّيٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ
مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ
فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ
فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّيٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾
وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ
ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾

قلت : «رجلين»: بدل من «مثلا»، وجملة ﴿جعلنا...﴾ بتمامها: بيان للتمثيل، أو صفة لرجلين، و﴿ماشاء الله﴾: خبر، أي: هذا ما شاء الله، أو الأمر ماشاء الله، أو مبتدأ حُذف الخبر، أي: الذي شاء الله كائن، أو شرطية، والجواب محذوف، أيْ: أيّ شيء شاء الله كان، و(هنالك): ظرف مقدم، و(الولاية): مبتدأ، والظّرف: إشارة إلى الآخرة، وهذا أحسن.

يقول الحق جل جلاله : ﴿ واضربْ لهم ﴾ أي: للفريقين؛ فريق المؤمنين والكافرين المتقدمين، ﴿ مَثَلاً ﴾؛ من حيث عصيان الكافر، مع تقلبه في النعيم، وطاعة المؤمن، مع مكابدته مشَاقّ الفقر، وما كان مآلهما، لا من حيث ما ذكر من أن للكافر في الآخرة كذا وللمؤمن كذا، أي: واضرب لهم حالي ﴿ رجُلَيْن ﴾ مقدرين أو محققين، هما أخوان من بني إسرائيل، أو شريكان: كافر، واسمه قُطروس، ومؤمن، اسمه يهوذا، اقتسما ثمانية آلاف دينار، أو ورثَاها من أبيهما، فاشترى الكافر بنصيبه ضياعاً وعقاراً، وصرف المؤمن نصيبه إلى وجوه البر.

رُوي: أن الكافر اشترى أرضًا بألف دينار، فقال صاحبه المؤمن: اللهم إن فلانا اشترى أرضاً بألف، وإني أشترى منك أرضاً في الجنة بألف، فتصدق بألف دينار، ثم إن صاحبه بنى داراً بألف دينار، فقال المؤمن: اللهم إن صاحبي بني داراً بألف، وإني أشترى منك داراً في الجنة بألف، فتصدق بألف دينار، ثم إن صاحبه تزوج

امرأة بألف دينار، فقال: اللهم، إن فلاناً تزوج بألف دينار، وإنى أخطب منك من نساء الجنة بألف، فتصدق بألف دينار، ثم إن صاحبه اشترى خادماً ومتاعاً بألف دينار، فقال: اللهم إن فلاناً اشترى خادماً ومتاعاً بألف، وإنى أشترى منك خادماً ومتاعاً من الجنة بألف، فتصدق بألف دينار، ثم أصابته حاجة، فقال: لعل صاحبى يُناولنى معروفه، فأتاه، فقال: ما فعل مالك؟ فأخبره قصته، فقال: أو إنك لمن المصدقين بهذا؟ والله لا أعطيك شيئاً، فلما توفيا آل أمرهما إلى ما ذكر الله فى سورة الصافات بقوله: ﴿ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ، يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ... ﴾(١) الآية.

وبيّن حالهما فى الدنيا بقوله: ﴿ جعلنا لأحدهما ﴾ وهو الكافر، ﴿ جنتين ﴾ : بستانين ﴿ من أعناب ﴾ : من كروم متنوعة، ﴿ وحففناهما بنخلٍ ﴾ أى: جعلنا النخل محيطة بهما محفوظاً بها كرومهما، ﴿ وجعلنا بينهما ﴾ : وسطهما ﴿ زرعاً ﴾ ؛ ليكون كل منهما جامعاً للأقوات والفواكه، متواصل العمارة، على الهيئة الرائقة، والوضع الأنيق. ﴿ كلتا الجنتين آتت أُكُلَها ﴾ : ثمرها وبلغ مبلغاً صالحاً للأكل، ﴿ ولم تَظْلِم منه شيئًا ﴾ أى: لم تنقص من أكلها شيئاً فى كل سنة، بخلاف سائر البساتين، فإن الثمار غالباً تكثر فى عام وتقل فى عام، ﴿ وفجّرْنا خِلالهما ﴾ : فيما بين كل من الجنتين ﴿ نَهَراً ﴾ على حدةٍ، وقرئ بالسكون. والنهر: الماء الكثير، وكان لكل بستان نهر؛ ليدوم شربها ويدوم بهاؤها.

ولعل تأخير تفجير النهر عن ذكر إيتاء الأكل، مع أن الترتيب الخارجى العكس؛ للإيذان باستقلال كل من إيتاء الأكل وتفجير النهر فى تكميل محاسن الجنتين، كما فى قصة البقرة ونحوها، ولو عكس لأوهم أن المجموع خصلة واحدة بعضها مرتب على بعض.

﴿ وكان له ثمرٌ ﴾ أى: وكان لصاحب الجنتين أنواع من المال غير الجنتين، من ثَمَّرَ مالَه: إذا كثر. قال ابن عباس: الثمر: جميع المال؛ من الذهب، والفضة، والحيوان، وغير ذلك. وقال مجاهد: هو الذهب والفضة خاصة. ﴿ فقال لصاحبه ﴾ المؤمن، أخيه أو شريكه، ﴿ وهو يُحاوره ﴾ : يراجعه فى الكلام، من حَار إذا رجع، وذلك أنه سأله عن ماله فيما أنفقه، فقال: قدمتُه بين يدى، لأقْدَمَ عليه، فقال له: ﴿ أنا أكثرُ منك مالاً وأعزُّ نفراً ﴾ : حشماً وأعواناً وأولاداً ذكوراً؛ لأنهم الذين ينفرون معه.

﴿ ودخل جَنَّتَهُ ﴾ : بستانه الذى تقدم وصفه، وإنما وحّده؛ إما لعدم تعلق الغرض بتعدده، أو لاتصال أحدهما بالآخر، أو لأن الدخول يكون فى واحدٍ واحد. فدخله ﴿ وهو ظالمٌ لنفسه ﴾ ؛ ضارٌ لها بعُجْبه وكفره، ﴿ قال ﴾ حين دخوله: ﴿ ما أظنُّ أن تَبِيدَ هذه ﴾ الجنة، أى: تفنى ﴿ أبدًا ﴾ ؛ لطول أمده وتمادى غفلته، وإنكاراً لفناء الدنيا

(١) الآيتان ٥٠ ـ ٥١ من سورة الصافات. وانظر تفسير البغوى ٥/ ١٧٠، وزاد المسير ٥/١٣٨.

وقيام الساعة، ولذلك قال: ﴿ وما أظنُّ الساعة قائمةً ﴾ أي: كائنة فيما سيأتي، ﴿ ولئن رُددتُ إلى ربي ﴾ ؛ بالبعث عند قيامها، كما تقول، ﴿ لأجدنَّ ﴾ حينئذ ﴿ خيراً منها ﴾ : من الجنتين ﴿ مُنقلبًا ﴾ أي: مرجعاً وعاقبة، أي: كما أعطاني هذا في الدنيا سيعطيني أفضل منه في الآخرة، ومدار هذا الطمع واليمين الفاجرة: اعتقاد أنه تعالى إنما أولاه ما أولاه في الدنيا؛ لاستحقاقه لذاته، وكرامته عليه، ولم يدْرِ أن ذلك استدراج.

﴿ قال له صاحبه ﴾ ؛ أخوه المسلم ﴿ وهو يُحاوره أكفرتَ بالذى خلقك ﴾ أي: أصلك ﴿ من ترابٍ ﴾ ، فإن خلق آدم عليه السلام من تراب متضمن لخلق أولاده منه؛ إذ لم تكن فطرته مقصورة على نفسه، بل كانت أنموذجًا منطوياً على فطرة سائر أفراد الجنس، انطواءً مجانساً مُستتبعاً لجريان آثارها على الكل، فكان خلْقُه عليه السلام من تراب خلقاً للكل منه، ﴿ ثم من نطفة ﴾ هي مادتك القريبة، ﴿ ثم سوَّاك رجلا ﴾ أي: عدلك وكملك إنساناً ذكراً، أو صيرك رجلاً، وفي التعبير بالموصول مع صلته: تلويح بدليل البعث، الذى نطق به قوله تعالى: ﴿ يا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ﴾(١) .

قال البيضاوي: جعل كفره بالبعث كفراً بالله؛ لأنه منشأ الشك في كمال قدرة الله، ولذلك رتّب الإنكار على خلقه إياه من التراب، فإن مَنْ قدر على إبداء خلقه منه قدر أن يعيده منه. هـ.

ثم قال أخوه المسلم: ﴿ لَكِنَّا ﴾ أصله: لكن أنا، وقُرئ به، فحُذفت الهمزة، فالتقت النونان فوقع الإدغام، ﴿ هو الله ربِّي ﴾ ، «هو»: ضمير الشأن، مبتدأ، خبره: «هو الله ربي»، وتلك الجملة: خبر «أنا»، والعائد منها: الضمير، وقرئ بإثبات «أنا» في الوصل والوقف، وفي الوقف خاصة، ومدار الاستدراك قوله تعالى: ﴿أكفرت﴾ ، كأنه قال: أنت كافر، لكني مؤمن موحد، ﴿ ولا أُشركُ بربي أحداً ﴾ ، وفيه تنبيه على أن كفره كان بالإشراك. قاله أبو السعود.

قال شيخ شيوخنا سيدي عبد الرحمن الفاسي: والذي يظهر من قوله: ﴿ولولا اذ دخلت...﴾ الآية، ومن قوله: ﴿ياليتنى لم أشرك...﴾ الآية، أنه إشراك بالله في عدم صرف المشيئة إليه، ودعوى الاستقلال بنفسه دونه، وقد قال وهب بن منبه: (قرأت في تسعين كتاباً من كتب الله أن من وكَل إلى نفسه شيئاً من المشيئة فقد كفر)، ثم شكه في البعث تكذيب بوعد الله، وهو كفر صراح. هـ.

﴿ ولولا إذْ دخلتَ جنتك ﴾ : بستانك، ﴿ قلتَ ماشاء الله ﴾ أي: هلاَّ قُلتَ عند دخولها: ﴿ ماشاء الله ﴾ أي: الأمر ماشاء الله، أو ماشاء الله يكون، والمراد: تحضيضه على الاعتراف بأنها وما فيها بمشيئة الله تعالى، إن شاء أبقاها، وإن شاء أخفاها، ﴿ لا قوةَ إلا بالله ﴾ أي: لا قوة لي على عمارتها وتدبير أمرها إلا بمعونة الله وإقداره.

---

(١) من الآية ٥ من سورة الحج.

قال النبي ﷺ: «مَنْ رأى شيئًا فأعجبه فقال: ما شاءَ اللهُ لا قوةَ إلاّ بالله، لَمْ يضرَّهُ شيء»(١). وقال لأبي هريرة: «ألاَ أدلُّك على كلمةٍ من كنوز الجنّة؟ قال: بلى يارسول الله، قال: لاَ قوةَ إلاّ بالله، إن قالها العبد قال الله عز وجل: أسلم عبدي واستسلم»(٢). وقال لعبدِ اللهِ بنِ قيسٍ: «ألاَ أدلُّك على كنزٍ من كنوزِ الجنّة؟ قال: بلى، يارسولَ الله، قال: لاَ حولَ ولا قوّةَ إلاّ بالله»(٣).

ثم قال له أخوه المسلم: ﴿ إن ترنِ أنا أقلَّ منك مالاً وولداً ﴾ في الدنيا، وفيه تقوية لمن فسر النفر بالولد، ﴿ فعسى ربي أن يُؤتين ﴾ في الآخرة أو في الدنيا ﴿ خيراً من جنتك ﴾ والمعنى: إن ترني أفقر منك فأنا أتوقع من صُنع الله سبحانه أن يقلب ما بي وبك من الفقر والغنى، فيرزقني جنة خيراً من جنتك، ويسلبك؛ لكفرك نعمته، ويخرب جنتك، ﴿ ويُرسل عليها حُسْبانًا ﴾: عذاباً ﴿ من السماء ﴾ يُذهبها، من بَرَدٍ أو صاعقة، وهو جمع: حُسْبَانَة، وهي: المرامي من هذه الأنواع المذكورة، وتطلق أيضاً، في اللغة، على سهام تُرمى دفعة واحدة، ﴿ فتُصبح صعيداً زَلَقًا ﴾ أي: أرضًا ملساء، يزلق عليها؛ لاستئصال ما عليها من النبات والشجر والبناء، ﴿ أو يُصبح ماؤها ﴾ أي: النهر الذي خلالَها ﴿ غورًا ﴾: غائراً ذاهباً في الأرض، و«زلقاً» و«غوراً»: مصدران، عبَّر بهما عن الوصف؛ مبالغةً. ﴿ فلن تستطيعَ له طَلَبًا ﴾ أي: لن تستطيع أبداً للماء الغائر طلباً، بحيث لا يبقى له أثر يطلبه به، فضلاً عن وجدانه ورده.

﴿ وأُحيطَ بثَمَرِه ﴾ أي: هلكت أشجاره المثمرة، وأمواله المعهودة، وأصله: من إحاطة العدو، وهو عطف على مُقدر، كأنه قيل: فوقع بعض ما وقع من المحذور، وأهلكت أمواله، رُوِي أن الله تعالى أرسل عليها ناراً فأحرقتها وغار ماؤها. ﴿ فأصبح يُقلِّب كفَّيه ﴾ ظهراً لبطن، أو يضرب يديه واحدة على أخرى، يصفق بهما، وهو كناية عن الندم، كأنه قال: فأصبح يندم ﴿ على ما أنفق فيها ﴾ أي: في عمارتها من الأموال. وجعل تخصيص الندم بها دون ما هلك الآن من الجنة؛ لأنه إنما يكون على الأفعال الاختيارية. انظر أبا السعود.

﴿ وهي ﴾ أي: الجنة ﴿ خاويةٌ ﴾: ساقطة ﴿ على عُرُوشها ﴾ أي: دعائمها المصنوعة للكروم، فسقطت العروش أولاً ثم سقطت الكروم عليها. وتخصيص حالها بالذكر، دون الزرع والنخل، إمّا لأنها العمدة وهما من متمماتها، وإمّا لأن ذكر هلاكها مُغْنٍ عن ذكر هلاك الباقي؛ لأنها حيث هلكت، وهي مشتدة بعروشها فهلاك

(١) أخرجه ابن السني في عمل اليوم والليلة (ح ٢٠٦) من حديث أنس؛ مرفوعاً، والبيهقي في شعب الإيمان (باب في تعديد نعم الله عز وجل، ح ٤٣٧٠).

(٢) أخرجه أحمد في المسند (٢/٢٩٨) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في (المغازي، باب غزوة خيبر)، ومسلم في (الذكر، باب استحباب خفض الصوت بالذكر) من حديث أبي موسى الأشعري.

ماعداها أولى، وإمّا لأن الإنفاق فى عمارتها أكثر. ﴿ ويقولُ ﴾ أى: يقلب وهو يقول: ﴿ ياليتني لم أشركْ بربى أحداً ﴾ ، كأنه تذكر موعظة أخيه، وعلِمَ أنه إنما أُتِيَ من قِبَلِ شِرْكِهِ، فتمنى أنْ لم يكن مشركاً فلم يصبه ماأ صابه.

﴿ ولم تكن له فئةٌ ﴾ : جماعة ﴿ ينصرونه ﴾ : يقدرون على نصره؛ بدفع الهلاك عن أمواله، ﴿ من دون الله ﴾، فإنه القادر على ذلك وحده، ﴿ وما كان منتصراً ﴾ أى: وما كان فى نفسه ممنوعاً بقوته من انتقامه سبحانه منه.

﴿ هنالك ﴾ ؛ فى ذلك المقام، وفى تلك الحال ﴿ الولايةُ لله الحقّ ﴾ أى: النصرة له وحده، لا يقدر عليها أحد غيره ، وقُرئ: «الحقِ» بالكسر، صفة لله، وبالرفع، نعت للولاية. ويُحتمل أن يكون: «هنالك» ظرفاً لمنتصراً، أى: وماكان ممتنعاً من انتقام الله منه فى ذلك الوقت، ففيه تنبيه على أن قوله: «ياليتنى لم أشرك»: كان عن اضطرار وجزع مما دهاه، فلذلك لم ينفعه، كقوله تعالى: ﴿ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ﴾(١) . وحينئذ استأنف تعالى الإخبار عن كمال حفظه لأوليائه فقال: ﴿ الولايةُ لله الحق ﴾ أى: الحفظ والرعاية والنصرة إنما هى من الله لأوليائه فى الدنيا والآخرة، لا يخذلهم فى حال من الأحوال، بل يتولى سياستهم ونصرهم وهدايتهم، كما هو شأن من اعتز بالله، دون من اعتز بغيره، فقوله: «ولم تكن له فئة»: رد لقوله: «وأعزُّ نفراً»؛ أى: بل النصرة لله لأوليائه، دون من تولى غيره.

والحاصل: أن من تولي اللهَ فعاقبته النصرة، ومن تولى غيره فعاقبتُه الخذلان. والعياذ بالله. ويحتمل أن يكون قد تَم الكلام على القصة، ثم أعاد الكلام إلى ما قبل القصة، فقال: ﴿ هنالك ﴾ عند ذلك، يعنى: يوم القيامة ﴿ الولايةُ لله الحق ﴾ ؛ يتولون الله ويُؤمنون به، ويتبرأون مما كانوا يعبدون، ﴿ هو خيرٌ ثواباً ﴾ أى: خير من يرجى ثوابه، ﴿ وخيرٌ عُقبًا ﴾ أى: عاقبة لأوليائه. والعُقب: العاقبة، يقال: عاقبة كذا وعُقْباه وعقبه، أى: آخره. والله تعالى أعلم.

الإشارة: قد ضرب الله مثلاً لمن عكف على هواه، وقصر همته على زخارف دنياه، ولمن توجه بهمته إلى مولاه، وقدّم دنياه لأخراه، فكان عاقبة الأول: الندم والخسران، وعاقبة الثانى: الهدا والرضوان، أوْلمن وقف مع علمه واعتمد عليه، ولمن تبرأ من حوله وقوته فى طلب الوصول إليه.

قال فى لطائف المنن: لا تدخل جنة علمك وعملك، وما أعطيت من نور وفتح فتقول كما قال من خذِل، فأخبر الله عنه بقوله: ﴿ ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال ما أظن أن تبيد هذه أبدا . . . ﴾ الآية. ولكن ادخلها كما بيّن

(١) من الآية ٨٥ من سورة غافر.

لك، وقل كما رَضي لك: ﴿ ولولا إذ دخلت جنتك قلت ماشاء الله لا قوة إلا بالله ﴾، وافهم ههنا قوله ﷺ: «لاحَــوْلَ ولاَ قُــوَّةَ إلاَّ بالله كَنْزٌ من كُنُوزِ الجنةِ»(١). وفي رواية أخــرى: «كنز من كنوز تحت العــرش». فالترجمة:(٢) ظاهر الكنز، والمكنوز فيها: صدق التبرى من الحول والقوة، والرجوع إلى حول الله وقوته.

ثم ضرب مثلاً في سرعة ذهابها وفنائها، فقال:

﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَـٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَـٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَـٰقِيَـٰتُ ٱلصَّـٰلِحَـٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾ ﴾

قلت: ﴿ كماءٍ ﴾: خبر عن مضمر، أي: هي كماء، ويجوز أن يكون مفعولاً ثانياً لاضْرِبْ، على أنه بمعنى «صَيِّر».

يقول الحق جل جلاله: ﴿ واضربْ لهم مَثَل الحياة الدنيا ﴾ أي: واذكر لهم ما يشبهها في زهرتها ونضارتها، وسرعة انقراضها وفنائها؛ لئلا يطمئنوا إليها ويغفلوا عن الآخرة، هي ﴿ كماءٍ أنزلناه من السماء ﴾ وهو المطر، ﴿ فاختلط به ﴾ أي: بسببه ﴿ نباتُ الأرض ﴾ بحيث التف وخالط بعضُه بعضاً؛ من كثرته وتكاثفه، ثم مرت مدة قليلة ﴿ فأصبح هشيماً ﴾ أي: مهشوماً مكسوراً، ﴿ تذروه الرياحُ ﴾ أي: تُفرقه وتطيره، كأن لم يَغْنَ بالأمس، ﴿ وكان الله على كل شيء مقتدراً ﴾: قادراً، ومن جملة الأشياء: الإفناء والإنشاء.

﴿ المالُ والبنونَ زينةُ الحياةِ الدنيا ﴾ أي: مما تذروه رياح الأقدار، ويلحقه الفناء والبوار، ويدخل في الزينة: الجاهُ، وجميعُ ما فيه للنفس حظ؛ فإنه يفني ويبيد، ثم ذكر ما لا يفنى فقال: ﴿ والباقياتُ الصالحاتُ ﴾؛ وهي أعمال الخير بأسرها، أو: الصلوات الخمس، أو: «سبحان الله، والحمد لله، ولا إله الا الله، والله أكبر»، زاد بعضهم: «ولا حول ولاقوة إلا بالله العلي العظيم». قال عليه الصلاة السلام: «هي من كنز الجنة، وصفايا الكلام، وهن الباقيات الصالحات، يأتين يوم القيامة مقدمات ومعقبات»(٣).

---

(١) أخرجه البخاري في (الدعوات، باب الدعاء إذا علا عَقَبَةً)، ومسلم في (الذكر والدعاء، باب استحباب خفض الصوت بالذكر)، من حديث أبي موسى الأشعري. بلفظ: «ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة؟ فقلت: بلى يا رسول الله. قال: لا حول ولا قوة إلا بالله».

(٢) أي: اللفظ والكلام المنطوق به.

(٣) أخرجه الطبراني في الأوسط (٤/ ٢٢٠ ح ٤٠٤٧) بلفظ: «قولوا: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله؛ فإنهن يأتين يوم القيامة مستقدمات ومنجيات ومجنبات، وهن الباقيات الصالحات»، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

أو: الهمات العالية والنيات الصالحة؛ إذ بها ترفع الأعمال وتُقبل. أو: كل ما أريد به وجه الله، وسميت باقيةً: لبقاء ثوابها عند فناء كل ما تطمح إليه النفس من حظوظ الدنيا وزينتها الفانية.

قال في الإحياء: كل ما تذروه رياح الموت فهو زهرة الحياة الدنيا، كالمال والجاه مما ينقضي على القرب، وكل ما لا يقطعه الموت فهو الباقيات الصالحات، كالعلم والحرية؛ لبقائهما؛ كمالاً فيه، ووسيلة إلى القرب من الله تعالى، أما الحرية من الشهوات فتقطع عن غير الله، وتجرده عن سواه، وأما العلم الحقيقى فيفرده بالله ويجمعه عليه. هـ.

وهى، أى: الباقيات الصالحات ﴿خيرٌ عند ربك﴾ أى: فى الآخرة ﴿ثوابًا﴾ أى: عائدة تعود على صاحبها، بخلاف ما شأنه الفناء من المال والبنين؛ فإنه يفنى ويبيد. وهذا كقوله تعالى: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ﴾(١) . وقوله : ﴿عند ربك﴾: بيان لما يظهر فيه خيريتها، لا لأفضليتها من المال والبنين مع مشاركتها لها فى الخيرية؛ إذ لا مشاركة لهما فى الخيرية فى الآخرة. ثم قال تعالى: ﴿وخيرٌ أملاً﴾ أى: ما يؤمله الإنسان ويرجوه عند الله تعالى،؛حيث ينال صاحبها فى الآخرة كل ما كان يُؤمله فى الدنيا، وأما ما مرّ من المال والبنين فليس لصاحبه فيه أمل يناله. وتكرير «خير»؛ للإشعار باختلاف حيثيتى الخيرية والمبالغة فيه.

الإشارة: قد تقدم، مراراً، التحذير من الوقوف مع بهجة الدنيا وزخارفها الغرارة؛ لسرعة ذهابها وانقراضها. رَوى أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «يا أبا هريرة تريد أن أريك الدنيا؟ قلت: نعم، فأخذ بيدى، وانطلق، حتى وقف بى على مزبلة، رؤوس الآدميين ملقاة، وبقايا عظام نخرة، وخِرَق بالية قد تمزقت وتلوثت بنجاسات الآدميين، فقال: يا أبا هريرة؛ هذه رؤوس الآدميين التى تراها، كانت مثل رؤوسكم، مملوءة من الحرص والاجتهاد على جمع الدنيا، وكانوا يرجون من طول الأعمار ما ترجون، وكانوا يَجِدُّون فى جمع المال وعمارة الدنيا كما تَجِدُّونَ، فاليوم قد تعرّت عظامهم، وتلاشت أجسامهم كما ترى، وهذه الخرق كانت أثوابهم التى كانوا يتزينون بها، وقت التجمل ووقت الرعونة والتزين، فاليوم قد ألقتها الرياح فى النجاسات، وهذه عظام دوابهم التى كانوا يطوفون أقطار الأرض على ظهورها، وهذه النجاسات كانت أطعمتهم اللذيذة التى كانوا يحتالون فى تحصيلها، وينهبها بعضُهم من بعض، قد ألقوها عنهم بهذه الفضيحة التى لا يقربها أحد؛ من نتنها، فهذه جملة أحوال الدنيا كما تُشاهد وترى، فمن أراد أن يبكى على الدنيا فليبك، فإنها موضع البكاء. قال أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فبكى جماعة الحاضرين»(٢).

(١) من الآية ٩٦ من سورة النحل

(٢) لم أقف على حديث بهذا السياق.

ثم ذكر ما يكون بعد فناء الدنيا التى تقدم مثالها من أهوال الحشر والحساب، فقال:

﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ۚ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ ﴾

قلت: ﴿ويوم﴾: معمول لمحذوف، أى: واذكر، أو عطف على قوله: «عند ربك»، أى: والباقيات الصالحات خير عند ربك ويوم القيامة، و(حشرناهم): عطف على (نُسيِّر)؛ للدلالة على تحقق الحشر المتفرع على البعث الذى ينكره المشركون، وعليه يدور أمر الجزاء، وكذا الكلام فيما عطف عليه؛ منفيًا وموجباً، وقيل: هو للدلالة على أن حشرهم قبل التسْيير والبروز؛ ليعاينوا تلك الأهوال، كأنه قيل: وحشرناهم قبل ذلك. و(نغادر): نترك، يقال: غادره وأغدره: إذا تركه، ومنه: الغدير؛ لما يتركه السيل فى الأرض من الماء، و(صفًا): حال، أى: مصطفين.

يقول الحق جل جلاله: ﴿و﴾ اذكر ﴿يوم نُسيِّرُ الجبالَ﴾ أى: حين نقلعها من أماكنها ونسيرها فى الجو، على هيئتها، كما ينبئ عنه قوله تعالى: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾(١) أو: نسير أجزاءها بعد أن نجعلها هباء منثوراً، والمراد من ذكره: تحذير الغافلين مما فيه من الأهوال، وقرئ: «تُسيَّر» بالبناء للمفعول؛ جرياً على سَنَن الكبرياء، وإيذاناً بالاستغناء عن الإسناد إلى الفاعل؛ لظهور تعينه، ثم قال: ﴿ وترى الأرضَ﴾ أى: جميع جوانبها، والخطاب للرسول ﷺ، أو لكل من يسمع، ﴿ بارزةً﴾: ظاهرة، ليس عليها جبل ولا غيره. بل تكون ﴿قَاعًا صَفْصَفًا، لا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلا أَمْتًا﴾(٢). ﴿ وحشرناهم﴾: جمعناهم إلى الموقف من كل حدب، مؤمنين وكافرين، ﴿ فلم نُغادرْ﴾ أى: لم نترك ﴿ منهم أحداً﴾.

﴿ وعُرِضُوا على ربك﴾، شبهت حالتهم بحال جُنْدٍ عُرِضَ على السلطان، ليأمر فيهم بما يأمر. وفى الالتفات إلى الغيبة، وبناء الفعل للمفعول، مع التعرض لعنوان الربوبية، والإضافة إلى ضميره ـ عليه الصلاة والسلام ـ من

(١) الآية ٨٨ من سورة النمل.
(٢) الآيتان ١٠٧ – ١٠٨ من سورة طه.

تربية المهابة، والجرى على سَنَن الكبراء، وإظهار اللطف به ﷺ ما لايخفى. قاله أبو السعود. ﴿ صَفًّا ﴾ أى: مَصْطَفِّينَ غير متفرقين ولا مختلطين، كل أمة صَفٌّ، وفي الحديث الصحيح: «يَجْمَعُ اللهُ الأولين والآخرين في صَعِيدٍ واحِدٍ، صفوفاً، يُسْمِعُهُمُ الداعِي وَيَنْفُذُهُمُ البَصَرُ...»(١) الحديث بطوله. وفي حديث آخر: «أهل الجنة، يوم القيامة، مائة وعشرون صفاً، أنتم منها ثمانون صفا»(٢).

يقال لهم ـ أى: للكفرة منهم: ﴿ لقد جئتمونا كما خلقناكم أولَ مرة ﴾، وتركتم ما خولناكم وما أعطيناكم من الأموال وراء ظهوركم. أو: حفاة عراة غُرْلاً، كما فى الحديث.

وهذه المخاطبة، بهذا التقريع، إنما هى للكفار المنكرين للبعث، وأما المؤمنون المُقِرون بالبعث فلا تتوجه إليهم هذه المخاطبة، ويدل عليه ما بعده من قوله: ﴿ بل زعمتم أن لن نجعل لكم موعداً ﴾ أى: زعمتم فى الدنيا أنه، أى: الأمر والشأن، لن نجعل لكم وقتاً يَتَنَجَّزُ فيه ما وعدته من البعث وما يتبعه. وهو إضراب وانتقال من كلام، إلى كلام، كلاهما؛ للتوبيخ والتقريع.

﴿ ووُضع الكتاب ﴾ أى: كتاب كل أحد، إما فى يمينه أو شماله، وهو عطف على: (عُرِضوا)، داخلٌ تحت الأمور الهائلة التى أريد بذكرها تذكير وقتها، وأورد فيه ما أورد فى أمثاله من صيغة الماضى؛ لتحقق وقوعه، وإيثار الإفراد؛ للاكتفاء بالجنس، والمراد: صحائف أعمال العباد. ووضعها إما فى أيدى أصحابها يميناً وشمالاً، أو فى الميزان. ﴿ فترى المجرمين ﴾ قاطبة، المنكرون للبعث وغيرهم، ﴿ مشفقين ﴾: خائفين ﴿ مما فيه ﴾ من الجرائم والذنوب، ﴿ ويقولون ﴾، عند وقوفهم على ما فى تضاعيفه؛ نقيراً أو قطميراً: ﴿ يا ويلتنا ﴾ أى: ينادون بتهلكتهم التى هُلكوها من بين التهلكات، ومستدعين لها؛ ليهلكوا، ولا يرون تلك الأهوال، أى: يا ويلتنا احضرى؛ فهذا أوان حضورك، يقولون: ﴿ ما لهذا الكتاب لا يُغادرُ ﴾: لا يترك ﴿ صغيرةً ولا كبيرةً ﴾ من ذنوبنا ﴿ إلا أحصاها ﴾ أى: حواها وضبطها، وجملة ﴿لايغادر﴾: حال محققة؛ لِمَا فى الاستفهام من التعجب، أو استئنافية مَبْنية على سؤال مقدر، كأنه قيل: ما شأنه حتى يتعجب منه؟ فقال: لا يغادر سيئة صغيرة ولا كبيرة إلاّ أحصاها، ﴿ ووجدوا ماعملواْ ﴾ فى الدنيا من السيئات، أو جزاء ماعملوا ﴿ حاضراً ﴾: مسطورا عتيدا، ﴿ ولايظلم ربُك أحداً ﴾، فيكتب مالم يعمل من السيئات، أويزيد فى عقابه المستحق له. والله تعالى أعلم.

---

(١) أخرجه بطوله البخارى فى (تفسير سورة الإسراء، باب قوله تعالى: ﴿ذرية من حملنا مع نوح...﴾)، ومسلم فى (الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها)، عن أبى هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أحمد فى المسند (١/٤٥٣)، والبزاز (كشف الأستار/٣٥٣٤) عن ابن مسعود.

الإشارة: ويوم نُسير جبال الحس، أو الوهم، عن بساط المعاني، وترى أرض العظمة بارزة ظاهرة لا تخفى على أحد، إلا على أكْمَهَ لا يُبصر القمر في حال كماله، وحشرناهم إلى الحضرة القدسية، فلم نغادر منهم، أى: ممن ذهب عنه الحس والوهم، أحداً، وعُرضوا على ربك؛ لشهود أنوار جماله وجلاله، صفاً، للقيام بين يديه، فيقول لهم: لقد جئتمونا من باب التجريد، كما خلقناكم أول مرة، مُطَهَّرِينَ من الدنس الحسي، غائبين عن العلائق والعوائق، وكنتم تزعمون أن هذا اللقاء لا يكون في الدنيا، وإنما موعده الجنة، ومن مات عن شهود حسه، وعن حظوظه، حصل له الشهود واللقاء قبل الموت الحسي، ووضع الكتاب في حق أهل الحجاب، فترى المجرمين من أهل الذنوب مشفقين مما فيه، ووجود العبد: ذَنْبٌ لا يقاس به ذنب، فَنَصْبُ الموازين، ومناقشةُ الحسابِ؛ إنما هو لأهل الحجاب، وأما العارفون الفانون عن أنفسهم، الباقون بربهم، لم يبق لهم ما يُحاسبون عليه؛ إذ لايشهدون لهم فعلاً، ولا يرون لأحد قوة ولا حولا. والله تعالى أعلم.

ولمّا كان سبب العذاب ووجود الحجاب هو التكبر على رب الأرباب، ذكر وبالَهُ بإثر الحشر والحساب، أو تقول: لمّا ذكر قصة الرجلين ذكر قُبح صنيع من افتخر بنفسه، وأنه شبيه بإبليس، وكل من افتخر واستنكف عن الانتظام في سلك فقراء المؤمنين كان داخلاً في حزبه. وقال الواحدى: ثم أمر الله تعالى نبيه أن يذكر لهؤلاء المتكبرين عن مجالسة الفقراء قصة إبليس وما وَرَّثَهُ الكِبْرُ، فقال:

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ ۞ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ ﴾

قلت: (إلا إبليس): استثناء منقطع، إذا قلنا: إن ابليس لم يكن من الملائكة، وإذا قلنا: إنه منهم يكون متصلا، ويكون معنى «كان»: صار، أى: إلا إبليس صار من الجن لمّا امتنع من السجود، أو بأن الملائكة كان منهم قوم يقال لهم الجن، وهم الذين خُلقوا من النار. وجملة (كان من الجن): استئنافية سيقت مساق التعليل، كأنه قيل: ما له لم يسجد؟ فقيل: كان أَصْلُهُ جنيا.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ و ﴾ اذكر ﴿ إذْ قلنا للملائكةِ ﴾ أى: وقت قولنا لهم: ﴿ اسجدوا لآدمَ ﴾ سجود تحية وتكريم، ﴿ فسجدوا ﴾ جميعاً؛ امتثالاً للأمر، ﴿ إلا إبليسَ ﴾ أبى واستكبر؛ لأنه ﴿ كان من الجنّ ﴾،

وكان رئيسهم في الأرض، فلما أفسدوا أرسل الله عليهم جنداً من الملائكة، فغزوهم، فهربوا في أقطار الأرض، وأُخذ إبليس أسيراً، فعرجوا به إلى السماء، فأسلم وتعبد في أقطار السموات، فلما أُمرت الملائكة بالسجود امتنع ونزع لأصله، ﴿ ففسقَ ﴾ أي: خرج ﴿ عن أمر ربه ﴾ أي: عن طاعته، أو صار فاسقاً كافراً بسبب أمر الله تعالى؛ إذ لولا ذلك لَمَا أبى، والتعرض لوصف الربوبية المنافية للفسق؛ لبيان كمال قُبح ما فعله.

قال تعالى: ﴿ أفتتخذونه وذريَّته ﴾ أي: أولاده، أو أتباعه، وهم الشياطين، جُعلوا ذرية؛ مجازاً. وقال قتادة: إنهم يتوالدون كما يتوالد بنو آدم. وقيل: يُدْخِل ذنَبه في دبره فيبيض فتنفلق البيضة عن جماعة من الشياطين. والهمزة للإنكار والتعجب، والفاء للتعقيب، أي: أعَقبَ علِمِكُم بصدور تلك القبائح منه، تتخذونه وذريته ﴿ أولياءَ ﴾ ؛ أحباء ﴿ من دوني ﴾ ؛ فتستبدلونهم، وتطيعونهم بدل طاعتي، والحال أنهم، أي: إبليس وذريته ﴿ لكم عدو ﴾ أي: أعداء. وأفرد؛ تشبيهاً له بالمصدر، كالقبول والولوع، ﴿ بئس للظالمين ﴾ : الواضعين للشيء في غير محله، ﴿ بدلاً ﴾ استبدلوه من الله تعالى، وهو إبليس وذريته. وفي الالتفات إلى الغيبة، مع وضع الظاهر موضع الضمير، من الإيذان بكمال السخط، والإشارة إلى أن ما فعلوه ظلم قبيح، ما لا يخفى.

﴿ ما أشهدتُهم ﴾ أي: ما أحضرت إبليس وذريته، أو: جميع الكفار ﴿ خلْقَ السمواتِ والأرضِ ﴾ ، حيث خلقتهما قبل خلقهم، ﴿ ولا خلقَ أنفسهم ﴾ : ولا أشهدت بعضهم خلق بعض، كقوله: ﴿ ولا تَقْتُلُوا أنفُسَكُمْ ﴾(١). قاله البيضاوي.

قلت: الظاهر إبقاء الأنفس على ظاهرها، أي: ما أحضرتهم خلق أنفسهم، أي: ما كانوا حاضرين حين خلقت أنفسهم، بل هم مُحْدَثُونَ في غاية العجز والجهل، فكيف تتخذونهم أولياء من دوني؟ وفي الآية رد على المنجِّمين الذين يخوضون في أسرار غيب السموات بالتخمين، وعلى الطبائعيين من الأطباء ومن سواهم، من كل متخوض في هذه الأشياء، وعلى الكهّان وكل من يتطلع على الغيب بطريق الحدس، والمصدقين لهم. انظر ابن عطية.

قال تعالى: ﴿ وما كنت مُتَّخِذَ المضلِّينِ ﴾ من الشياطين ﴿ عَضُداً ﴾ أي: أعواناً في شأن الخلق، أو في شأن من شؤوني، حتى تتخذوهم أولياء وتُشركوهم في عبادتي، وكان الأصل أن يقول: وما كنت متخذهم، فوقع المظهر موقع الضمير؛ ذماً لهم، وتسجيلاً عليهم بالإضلال، وتأكيداً لما سبق من إنكار اتخاذهم أولياء، وفيه تهكم بهم وإيذان بكمال ركاكة عقولهم وسخافة آرائهم؛ حيث لا يفهمون هذا الأمر الجلي الذي لا يكاد يشتبه على أبلدِ الصبيان، فيحتاجون إلى التصريح به. انظر أبا السعود.

(١) من الآية ٢٩ من سورة النساء.

الإشارة: فى الآية تنفيرٌ من الاستكبار والترفع على عباد الله تشبيهاً بإبليس، وحثٌّ على التواضع والخضوع لله في خلقه وتجلياته كيفما كانت، وفيها أيضا الحض على إفراد الوجهة والمحبة لله، والتبرى من كل ما سواه مما يشغل عن الله، وفيها أيضا: النهى عن التطلع إلى ما لم يرِدْ به من أسرار القدر نصٌّ صريح فى كتاب الله ولا فى سنة رسول الله من أسرار القدر، وفيها أيضا: النهى عن الاستعانة بأعداء الله فى أى شأن كان. وبالله التوفيق.

ثم ذكر وبال من اتخذ ولياً غير الله، فقال:

﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُواْ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾ ﴾

قلت: «موْبقاً»: اسم مكان، أو مصدر، من: وَبَقَ وبوقاً، كوثب وثوباً، ووَبِقَ وبقاً، كفرح فرحاً.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ و ﴾ اذكر ﴿ يومَ يقولُ ﴾ الحق تعالى للكفار؛ توبيخاً وتعجيزاً لهم: ﴿ نادُوا شركائيَ الذين زعمتم ﴾ أنهم شفعاؤكم؛ ليشفعوا لكم، والمراد بهم كل ما عُبد من دون الله، أو إبليس وذريته، ﴿ فَدَعَوْهم ﴾ أى: نادوهم للإغاثة، ﴿ فلم يستجيبوا لهم ﴾ : فلم يغيثوهم، ﴿ وجعلنا بينهم ﴾ أى: بين الداعين والمدعوين ﴿ مَّوبقاً ﴾ أى: مهلكاً يهلكون فيه جميعاً، وهو النار، وقيل: العداوة، وهى نوع من الهلاك، لقول عمر رضي الله عنه: «لا يكن حُبك كلَفاً، ولا بُغْضك تلفاً»(1). وقيل: المراد بالبيْن: الوصل، أى: وجعلنا وصلهم فى الدنيا هلاكاً فى الآخرة، كقوله: ﴿ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ ﴾(2)، وقيل: المراد بالشركاء: الملائكة، وعُزير، وعيسى ـ عليهم السلام ـ، ويراد حينئذ بالموبق: البرزخ البعيد، أى: وجعلنا بينهم وبين من عبدوهم برزخاً بعيداً؛ لأنهم فى قعر جهنم، وهم فى أعلى عليين.

﴿ ورأى المجرمون النارَ ﴾ ، وضع المُظْهَرَ موضع المُضْمَر؛ تصريحاً بإجرامهم، وذماً لهم، أى: ورأوا النار ﴿ فظنوا ﴾ أى: أيقنوا ﴿ أنهم مُّواقعوها ﴾ ؛ مخالطوها وواقعون فيها، ﴿ ولم يجدوا عنها مَصْرِفًا ﴾ أى: انصرافاً ومعدلاً ينصرفون إليه، نسأل الله السلامة من مواقع الهلاك.

---

(1) قال المناوى فى الفتح السماوى ٧٩٦/٢: «لم أقف عليه»، ومعنى المثل: لايكن حبك حباً مفرطا يؤدى إلى الولع والهيام، وبغضك بغضاً مفرطاً يجر إلى التلف.

(2) من الآية ٩٤ من سورة الأنعام.

الإشارة: من اتخذ الله ولياً، بموالاة طاعته وإفراد محبته، كان الله له ولياً ونصيراً عند احتياجه وفاقته، ومجيباً له عند دعائه واستغاثته، ومن اتخذ ولياً غير الله خاب ظنه ومناه، فإذا استغاث به جعل بينه وبين المستغيث به موبقاً وبرزخاً بعيداً، ومن والَى أولياء الله فإنما والى الله، ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ ﴾(١). وبالله التوفيق.

ثم ذكر كفرهم بالقرآن، مع كونه آيةً واضحة للعيان، فقال:

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا (٥٤) وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا (٥٥) وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ ۖ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا (٥٦) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا (٥٧) وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِ مَوْئِلًا (٥٨) وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا (٥٩) ﴾

قلت: ﴿جدلاً﴾: تمييز، و﴿ربك﴾: مبتدأ، و﴿الغفور﴾: خبره، و﴿ذو الرحمة﴾: خبر بعد خبر، وقيل: الخبر: (لو يؤاخذهم)، و﴿الغفور ذو الرحمة﴾: صفتان للمبتدأ، وإيراد المغفرة على جهة المبالغة دون الرحمة؛ للتنبيه على كثرة الذنوب، وأيضاً: المغفرة ترك المؤاخذة، وهي غير متناهية، والرحمة فعل، وهو متناهي، وتقديم الوصف الأول؛ لأن التخلية قبل التحلية، و(المُهْلَك)؛ بضم الميم وفتح اللام: اسم مصدر، من أهلك، فالمصدر، على هذا، مضاف للمفعول؛ لأن الفعل متعد، وقرئ بفتح الميم، من هلك، فالمصدر، على هذا، مضاف للفاعل.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ولقد صرَّفنا ﴾ أي: كررنا وأوردنا على وجوهٍ كثيرة من النظر العجيب، ﴿ في هذا القرآنِ للناس ﴾؛ لمصلحتهم ومنفعتهم، ﴿ من كل مَثَلٍ ﴾؛ من كل خبر يحتاجون إليه، أو: من كل مثل

---

(١) من الآية ١٠ من سورة الفتح.

مضروب يعتبرون به، ومن جملته ما مر من مثل الرجلين، ومثل الحياة الدنيا. أو: من كل نوع من أنواع المعانى البديعة الداعية إلى الإيمان، التى هى، فى الغرابة والحسن واستجلاب القلوب، كالمثل المضروب، ليتلقوه بالقبول، فلم يفعلوا. ﴿ وكان الإنسانُ ﴾ بحسب جِبلّته ﴿ أكثرَ شيءٍ جدلاً ﴾ أى: أكثر الأشياء، التى يتأتى منها الجدل، جدلاً، وهو هنا شدة الخصومة بالباطل، والمعنى: أن جدله أكثر من جدل كل مجادل، وفيها ذم الجدل. وسببها: مجادلة النضر بن الحارث كما قيل، وهى عامة.

﴿ وما منع الناسَ ﴾ أى: أهل مكة الذين حكيت أباطيلهم، من ﴿ أن يؤمنوا ﴾ بالله تعالى، ويتركوا ما هم فيه من الإشراك، ﴿ إذْ جاءهُم الهُدَى ﴾ أى: حين جاءهم القرآن الهادى إلى الإيمان، بسبب ما فيه من فنون العلوم وأنواع الإعجاز، فيؤمنوا، ﴿ ويستغفروا ربهم ﴾ عما فرط منهم من أنواع الذنوب، التى من جملتها: مجادلتهم للحق بالباطل، ﴿ إلا أن تأتيهم سُنّةُ الأولين ﴾ أى: ما منعهم إلا إتيان سنة الأولين، وهو نزول العذاب المستأصل أو انتظاره، فيكون على حذف مضاف، أى: انتظار سنة الأولين، وهو الهلاك. قال ابن جزى: معناها أن المانع للناس من الإيمان والاستغفار هو القضاء عليهم بأن تأتيهم سُنّة الأمم المتقدمة، وهى الإهلاك فى الدنيا، أو يأتيهم العذاب أى: عذاب الآخرة. هـ. قلت: والظاهر أن معنى الآية: ما منعهم من الإيمان إلا انتظار آية يرونها عياناً، كعادة الأمم الماضية، فيهلكوا كما هى سُنّة الله فى خلقه، أو: عذاب ينزل بهم جهراً، وهو معنى قوله: ﴿ أو يأتيهم العذابُ قُبُلاً ﴾ أى: مقابلة وعياناً.

قال تعالى: ﴿ وما نُرسل المرسلين ﴾ إلى الأمم ﴿ إلا مبشرين ومنذرين ﴾ أى: مبشرين للمؤمنين بالثواب، ومنذرين للكافرين بالعقاب، دون إظهار الآيات واقتراح المعجزات، ﴿ ويُجادل الذين كفروا بالباطل ﴾؛ باقتراح الآيات؛ كالسؤال عن قصة أصحاب الكهف ونحوها. يفعلون ذلك ﴿ ليُدْحِضوا به ﴾ أى: بالجدال ﴿ الحقَّ ﴾، أى: يزيلونه عن مركزه ويبطلونه، من إدحاض القدم وهو إزلاقها. وجدالهم: قولهم لرسلهم عليهم السلام: ﴿ مَا أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾(١)، ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لأَنزَلَ مَلائِكَةً ﴾(٢)، ونحوها. ﴿ واتخذوا آياتى ﴾ التى تخرّ لها صُمُّ الجبال، وهو القرآن، ﴿ وما أُنذروا ﴾ أى: وإنذارى لهم، أو: الذى أنذروا به من العذاب والعقاب، ﴿ هُزُواً ﴾؛ مهزوءا به، أو محل استهزاء.

(١) الآية ١٥ من سوة يس.
(٢) الآية ٢٤ من سورة المؤمنون.

﴿ ومن أظلمُ ممن ذُكِّرَ بآياتِ ربه ﴾ وهو القرآن العظيم، ﴿ فأعْرَضَ عنها ﴾ ؛ فلم يتدبرها ولم يؤمن بها، أي: لاأحد أظلم منه؛ لأنه أظلم من كل ظالم؛ حيث ضم إلى المجادلة التكذيب والإعراض، ﴿ ونَسِيَ ما قدمت يداه ﴾ من الكفر والمعاصي، ولم يتفكر في عاقبتها، ﴿ إنا جعلنا على قلوبهم أكِنَّةً ﴾ : أغطية كثيرة تمنعهم من التدبر في الآيات، وهو تعليل لإعراضهم ونسيانهم بأنهم مطبوع على قلوبهم، فعل ذلك بهم كراهة ﴿ أن يفقهوه ﴾، أو: منعناهم أن يقفوا على كنهه. ﴿ و ﴾ جعلنا ﴿ في آذانهم وَقْراً ﴾ أي: ثِقلاً يمنعهم من استماعه، ﴿ وإن تَدْعُهُمْ إلى الهدى فلن يهتدوا إذاً أبداً ﴾ أي: فلن يكون منهم اهتداء ألبتةَ مدة التكليف؛ للطبع المتقدم على قلوبهم، وهذا في قوم مخصوصين سبق لهم الشقاء.

و«إذاً» : حرف جزاء وجواب، وهو، هنا، عن سؤال من النبي ﷺ المدلول عليه بكمال عنايته بإسلامهم، كأنه قال ﷺ: مالي لا أدعوهم؟ فقال: إن تدعهم... الخ. وجمع الضمير الراجع إلى الموصول في هذه المواضع الخمسة باعتبار معناه، كما أن إفراده في المواطن الخمسة المتقدمة باعتبار اللفظ.

﴿ وربُّكَ الغفور ﴾ : البليغ المغفرة ﴿ ذو الرحمة ﴾ الموصوف بها، ﴿ لو يُؤاخذهم بما كسبوا ﴾ من المعاصي، التي من جملتها: ما حكى عنهم من مجادلتهم بالباطل، وإعراضهم عن آيات ربهم، وعدم مبالاتهم بما اجترحوا من الموبقات، ﴿ لعجَّلَ لهم العذابَ ﴾ قبل يوم القيامة؛ لاستجلاب أعمالهم لذلك، والمراد: إمهال قريش، مع إفراطهم في عداوة رسول الله ﷺ، ﴿ بل لهم موعدٌ ﴾ وهو يوم القيامة، أو يوم بدر، والمعطوف عليه بَل: محذوف، أي: لكنهم ليسوا بمؤاخذين، ﴿ بل لهم موعدٌ لن يجدوا من دونه موئلاً ﴾ أي: ملجأ يلتجئون إليه، أو مَنْجىً ينجون به، يقال: وألَ: أي: نجا، ووأل إليه: أي: التجأ إليه.

﴿ وتلك القرى ﴾ ؛ أي: قرى عاد وثمود وأضرابها، أي: وأهل تلك القرى ﴿ أهلكناهم ﴾ بالعذاب ﴿ لَمَّا ظلموا ﴾ أي: وقت ظلمهم، كما فعلت قريش بما حكى عنهم، ﴿ وجعلنا لِمَهْلِكِهِم ﴾ أي: عيّنّا لهلاكهم ﴿ موعداً ﴾ أي: وقتاً مُعيناً، لا محيدَ لهم عن ذلك، فلتعتبر قريش بذلك ولا تغتر. والله تعالى أعلم.

الإشارة: قد صرّف الله في كتابة العزيز كل ما يحتاج إليه العباد، من علم الظاهر والباطن، لكن خوض القلوب فيما لا يعني، وكثرة مجادلتها بالباطل، صرفتها عن فهم أسرار الكتاب واستخراج غوامضه. فمن صفت مرآة قلبه أدرك ذلك منه. وتصفيتها بصحبة أهل الصفاء، وهم العارفون بالله، ولا تخلو الأرض منهم حتى يأتي أمر الله، وما منع الناس من الإيمان بهم وتصديقهم إلا انتظارهم ظهور كرامتهم، ونزول العذاب على من آذاهم، وهو جهل بطريق الولاية؛ لأنهم رحمة للعباد، أرسلهم الحق تعالى في كل زمان، يُذَكِّرون الناس بالتحذير والتبشير، وبملاطفة الوعظ والتذكير، فاتخذهم الناس وما ذكروا به هزواً ولعبا، حيث حادوا عن تذكيرهم، ونفروا عن

صحبتهم، فلا أحد أظلم ممن ذُكِّر بالله وبآياته، فأعرض واستكبر ونسي ما قدمت يداه من المعاصي والأوزار، سَبَبُ ذلك: جَعْلُ الأكنة على القلوب، وسَفْحُ رَانِ المعاصي والذنوب، فلا يفقهون وعظاً ولا تذكيرا، ولا يستعمون تحذيراً ولا تبشيرا، وإن تدعهم إلى الهدى والرجوع عن طريق الردى، فلن يهتدوا إذاً أبدا؛ لِما سبق لهم في سابق القضاء، فلولا مغفرته العامة، ورحمته التامة، لعجل لهم العذاب، لكن له وقت معلوم، وأجل محتوم، لا محيد عنه إذا جاء، ولا ملجأ منه ولا منجا. نسأل الله العصمة بمنّه وكرمه.

ولمّا ذكر الحق جل جلاله قصة أهل الكهف، وكان وقع فيها عتاب للرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ حيث لم يستثن بتأخير الوحي، وبقوله: ﴿ولا تقولن لشيء ...﴾ الخ، ذكر هنا قصة موسى مع الخضر ـ عليهما السلام ـ وكان سَبَبُهَا عتابَ الحق لموسى عليه السلام؛ حيث لم يردّ العلم إليه، حين قال له القائل: هل تعلم أحداً أعلم منك؟ فقال: لا، فذكر الحق تعالى قصتهما؛ تسليةً لنبينا عليه الصلاة والسلام بمشاركة العتاب، فقال:

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ ﴾

قلت: ﴿لا أبرح﴾: ناقصة، وخبرها: محذوف: اعتماداً على قرينة الحال؛ إذ كان ذلك عن التوجه إلى السفر، أي: لا أبرح أسير في سفري هذا، ويجوز أن تكون تامة، من زال يزول، أي: لا أفارق ما أنا بصدده حتى أبلغ... الخ.

يقول الحق جل جلاله: ﴿و﴾ اذكر ﴿إذ قال موسى لفتاه﴾ يوشع بن نون بن إفرائيم بن يوسف عليه السلام، وكان ابن أخته، سُمي فتاه؛ إذ كان يخدمه ويتبعه ويتعلم منه العلم. والفتى في لغة العرب: الشاب، ولمّا كانت الخدمة أكثر ما تكون من الفتيان، قيل للخادم: فتى، ويقال للتلميذ: فتى، وإن كان شيخاً، إذا كان في خدمة شيخه، فقال موسى عليه السلام: ﴿لا أبرحُ﴾: لا أزال أسير في طلب هذا الرجل، يعني: الخضر عليه السلام، ﴿حتى أبلغَ مَجْمَعَ البحرين﴾، وهو ملتقى بحر فارس والروم مما يلي المشرق، وهذا مذهب الأكثر. وقال ابن جزي: مجمع البحرين: عند «طنجة»؛ حيث يتجمع البحر المحيط والبحر الخارج منه، وهو بحر الأندلس. **قلت**: وهو قول كعب بن محمد القرظي. ﴿أو أَمْضِيَ حُقُباً﴾ أي: زمناً طويلاً أتيقن معه فوات الطلب. والحقب: الدهر، أو ثمانون سنة، أو سبعون.

وسبب هذا السفر: أن موسى عليه السلام لما ظهر على مصر، بعد هلاك القبط، أمره الله تعالى أن يُذكر قومه هذه النعمة، فقام فيهم خطيباً بخطبة بليغة، رقّت بها القلوب، وذرفت منها العيون، فقالوا له: من أعلم الناس؟ فقال: أنا. وفي رواية: هل تعلم أحداً أعلم منك؟ فقال: لا. فعتَبَ الله عليه؛ إذ لم يَرُدَّ العلم إليه عز وجل، فأوحى الله إليه: أعلم

منك عبدٌ لى بمجمع البحرين، وهو الخضر(١)، وكان قبل موسى عليه السلام، وكان فى مُقَدَّمَةِ ذى القرنين، فبقى إلى زمن موسى عليه السلام، وسيأتى ذكر التعريف به فى محله، إن شاء الله.

وقال ابن عباس رضي الله عنه: إن موسى عليه السلام سأل ربه: أىُّ عبادك أحب إليك؟ قال: الذى يذكرنى ولا ينسانى، قال: فأى عبادك أقضى؟ قال: الذى يقضي بالحق ولا يتبع الهوى، قال: فأى عبادك أعلم؟ قال: الذى يستقى علم الناس إلى علمه، عسى أن يصيب كلمةً تدله على هدى، أو ترده عن ردى، قال: يا رب إن كان فى عبادك من هو أعلم منى فدلنى عليه؟ قال: أعلم منك الخضر، قال: أين أطلبه؟ قال: على ساحل البحر عند الصخرة(٢). قال: يارب، كيف لى به ؟ قال: خُذ حُوتاً فى مِكْتَلٍ، فحيثما فقدتَه فهو هناك، فأخذ حُوتاً مشوياً، فجعله فى مِكْتَلٍ، فقال لفتاه: إذا فقدتَ الحوت فأخبرنى، وذهبا يمشيان إلى أن اتصلا بالخضر، على ما يأتى تمامه، إن شاء الله تعالى. وحديث الخطبة هو الذى فى صحيح البخارى(٣) وغيره. والله تعالى أعلم أىُّ ذلك كان.

الإشارة: قصة سيدنا موسى مع الخضر ـ عليهما السلام ـ هى السبب فى ظهور التمييز بين أهل الظاهر وأهل الباطن، فأهل الظاهر قائمون بإصلاح الظواهر، وأهل الباطن قائمون بتحقيق البواطن. أهل الظاهر مغترفون من بحر الشرائع، وأهل الباطن مغترفون من بحر الحقائق. قيل: هو المراد بمجمع البحرين، حيث اجتمع سيدنا موسى، الذى هو بحر الشرائع، والخضر عليه السلام، الذى هو بحر الحقائق، ولا يُفهم أن سيدنا موسى عليه السلام خالٍ من بحر الحقائق، بل كان جامعاً كاملاً، وإنما أراد الحق تعالى أن ينزله إلى كمال الشرف، بالتواضع فى طلب زيادة العلم؛ تأديباً له وتربية، حيث ادعى القوة فى نسبته العلم إلى نفسه، وفى الحِكَم: «منعك أن تدعى ما ليس لك مما للمخلوقين، أفَيبيح لك أن تدعى وصفه وهو رب العالمين!».

وهذه عادة الله تعالى مع خواصِّ أحبائه، إذا أظهروا شيئاً من القوة، أو خرجوا عن حد العبودية، ولو أنملة، أدبهم بأصغر منهم علماً وحالاً؛ عناية بهم، وتشريفاً لهم؛ لئلا يقفوا دون ذروة الكمال، كقضية الشاذلى مع المرأة التى قالت له: تَمُنُّ على ربك بجوع ثمانين يوما، وأنا لى تسعة أشهر ماذقت شيئاً. وكقضية الجنيد والسَّرِي فى جماعةٍ من الصوفية، حيث تكلموا فى المحبة، وفاض كل واحد على قدر اتساع بحره فيها، فقامت امرأة بالباب، عليها جبة صوف، فردت على كل واحد ما قال، حيث أظهروا قوة علمهم، فأدبهم بامرأة.

ويؤخذ من طلب موسى الخضر ـ عليهما السلام ـ والسفر إليه: الترغيب فى العلم، ولاسيما علم الباطن، فطلبه أمر مؤكد. قال الغزالى رضي الله عنه: هو فرض عين؛ إذ لا يخلو أحد من عيب أو اصرار على ذنب، إلا الأنبياء ـ عليهم السلام ـ وقد قال الشاذلى رضي الله عنه: من لم يتغلغل فى علمنا هذا مات مُصراً على الكبائر وهو لا يشعر. وبالله التوفيق.

---

(١) أخرج حديث موسى والخضر، البخارى فى مواضع منها: (العلم، باب ما ذكر فى ذهاب موسى عليه السلام فى البحر إلى خضر)، و(أحاديث الأنبياء، باب حديث الخضر)، و(التفسير، سورة الكهف)، ومسلم فى (الفضائل، باب من فضائل الخضر).

(٢) أخرجه الطبرى فى التفسير (١٥/٢٧٧) وعزاه السيوطى فى الدر (٤/٤٢٣) لابن المنذر، وابن أبى حاتم فى التفسير.

(٣) أخرج البخارى حديث الخطبة فى (تفسير سورة الكهف، باب «فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما»)، عن أبيّ بن كعب.

ثم ذكر بقية القصة، فقال:

﴿ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ ﴾

قلت : ﴿بينهما﴾: ظرف مضاف إليه؛ اتساعًا، أو بمعنى الوصل، و﴿سَرَبًا﴾: مفعول ثان لاتخذ، و﴿إذ أوينا﴾: متعلق بمحذوف، أي: أخبرني ما دهاني حين أويتُ إلى الصخرة حتى لم أخبرك بأمر الحوت، فإني نسيتُ أن أذكر لك أمره. و﴿أن أذكره﴾: بدل من الهاء في (أنسانيه)؛ بدل اشتمال؛ للمبالغة، و﴿عجبا﴾: مفعول ثان لاتخذ، وقيل: إن الكلام قد تم عند قوله: (في البحر)، ثم ابتدأ التعجب فقال: (عجبا) أي: أَعْجَبُ عجبًا، وهو بعيد. قاله ابن جزي. قلت: وهذا البعيد هو الذي ارتكب الهبطي. و(قصصا): مصدر، أي: يقصان قصصا.

يقول الحق جل جلاله : ثم إن موسى ويوشع ـ عليهما السلام ـ حملا حوتاً مشوياً وخُبزاً، وسارا يلتمسان الخضر، ﴿ فلما بلغا مَجْمَعَ بينهما ﴾ ؛ بين البحرين، أو مجمع وصل بعضهما ببعض، وجدا صخرة هناك، وعندها عين الحياة، لا يصيب ذلك الماءُ شيئاً إلا حَيِيَ بإذن الله، وكانا وَصَلاَ إليها ليلاً، فناما، فلما أصاب السمكة رَوْحُ الماء وبردُه اضطرب في المِكْتَل، ودخل البحر، وقد كانا أكَلاَ منه، وكان ذلك بعد استيقاظ يوشع، وقيل: توضأ عليه السلام من تلك العين، فانتضح الماء على الحوت، فحيي ودخل البحر، فاستيقظ موسى، وذهبا، و﴿ نَسِيَا حوتَهما ﴾ أي: نسيا تفقد أمره وما يكون منه، أو نسي يوشع أن يعلمه، وموسى عليه السلام أن يأمر فيه بشيء، ﴿ فاتخذ ﴾ الحوت ﴿ سبيله ﴾ أي: طريقه ﴿ في البحر سَرَباً ﴾ ؛ مسلكاً كالطاق، قيل: أمسك الله جرية الماء على الحوت فجمد، حتى صار كالطاق في الماء؛ معجزة لموسى أو الخضر ـ عليهما السلام.

﴿ فلما جاوزا ﴾ مجمع البحرين، الذي جُعل موعداً للملاقاة، وسارا بقية ليلتهما ويومهما إلى الظهر، وجد موسى عليه السلام حرَّ الجوع، فـ ﴿ قال لفتاه آتنا غداءنا ﴾ أي: ما نتغدى به، وهوالحوت، كما يُنبئ عنه الجواب، ﴿ لقد لَقِينا من سفرنا هذا نصباً ﴾ : تعباً وإعياء. قيل :لم يَنْصَبْ موسى ولم يَجُعْ قبل ذلك، ويدل عليه الإتيان بالإشارة، وجملة (لقد لقينا) : تعليل للأمر بإيتاء الغذاء، إما باعتبار أن النَّصَب إنما يعترى بسبب الضعف الناشئ عن الجوع، وإمَّا باعتبار ما في أثناء التغذي من استراحة مَّا.

﴿ قال ﴾ فتاه عليه السلام : ﴿أرأيتَ إذْ أوينا إلى الصخرة ﴾ أى: التجأنا إليها ونمنا عندها، ﴿ فإنى نسيتُ الحوت ﴾ أى: أخبرنى ما دهانى حتى لم أذكر لك أمر الحوت، فإنى نسيتُ أن أذكر لك أمره، ومراده بالاستفهام تعجيب موسى عليه السلام مما اعتراه من النسيان، مع كون ما شاهده من العظائم التى لا تكاد تنسى ،﴿ وما أنسانيهُ إلا الشيطانُ ﴾ بوسوسته الشاغلة له عن ذلك، ﴿ أن أذكره ﴾ ، ونسبته للشيطان؛ هضماً لنفسه، واستعمال الأدب فى نسبة النقائص إلى الشيطان، وإن كان الكل من عند الله. وهذه الحالة، وإن كانت غريبة لا يعهد نسيانها، لكنه قد تَعَوَّدَ بمشاهدة أمثالها من الخوارق مع موسى عليه السلام، وأَلِفَهَا قبل اهتمامه بالمحافظة عليها، أو لاستغراقه وانجذاب سره إلى جناب القدس، حتى غاب عن الإخبار بها.

قلت: والظاهر أن نسيانه كان أمراً إلهيا قهرياً بلا سبب، وحكمته ما لقى من النصب؛ لتعظُم حلاوة العلم الذى يأخذه عن الخضر عليه السلام، فإن المُساق بعد التعب ألذ من المساق بغير تعب، ولذلك: «حفت الجنة بالمكاره» .

ثم قال: ﴿ واتخذ ﴾ الحوتُ ﴿ سبيلَه فى البحر عَجَباً ﴾ ، فيه حذف، أى: فحيى الحوت، واضطرب، ووقع فى البحر، واتخذ سبيله فيه سبيلاً عجباً، أو اتخاذاً عجباً يتعجب منه، وهو كون مسلكه كالطاق، ﴿ قال ﴾ موسى عليه السلام: ﴿ ذلك ما كنا نبغ ﴾ أى: ذلك الذى ذكرت من أمر الحوت هو الذى كُنا نطلبه؛ لكونه أمارة للفوز بالمرام، ﴿ فارتدَّا ﴾ أى: رجعا ﴿ على ﴾ طريقهما الذى جاءا منه، يقُصّان. يتبعان ﴿ آثارهما قَصَصاً ﴾ ، حتى أتيا الصخرة ﴿ فوجدا عبداً من عبادنا ﴾ ، التنكير؛ للتفخيم والإضافة؛ للتعظيم، وهو الخضر عليه السلام عند الجمهور، واسمه: بَلْيَا بن مَلْكَان يُعْصوا، والخضر لقب له؛ لأنه جلس على فروةٍ بيضاء فاهتزّت تحته خضراء، كما فى حديث أبى هريرة عنه ـ صلى الله عليه وسلم[1].

وقال مجاهد: سمى خضراً؛ لأنه كان إذا صلى اخضر ما حوله، ثم قال: وهو ابن عابر بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح، وكان أبوه ملكا. هـ. وفى الحديث أن النبى ﷺ ذكر قصة الخضر، فقال: كان ابن ملك من الملوك، فأراد أبوه أن يستخلفه من بعده، فأبى وهرب، ولحق بجزائر البحر، فلم يقدر عليه. قيل: إنه شرب من عين الحياة؛ فمُتع بطول الحياة.

رُوى أن موسى عليه السلام حين انتهى إلى الصخرة رأى الخضر عليه السلام على طنْفَسَةٍ ـ أى: بساط ـ على وجه الماء، فسلم عليه. وعنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ أنه قال: انتهى موسى إلى الخضر، وهو نائم مُسَجى عليه ثوب، فسلَّمَ عليه فاستوى جالساً، وقال: عليك السلام يانبى بنى إسرائيل، فقال موسى: من أخبرك أنى نبى بنى اسرائيل؟ قال: الذى أدراكَ بى، وذلك علىّ.

---

(١) أخرجه البخارى فى (أحاديث الأنبياء، باب حديث الخضر مع موسى) .

قال تعالى فى حق الخضر: ﴿آتيناه رحمةً من عندنا﴾، هى الوحى والنبوة، كما يُشعر به تنكير الرحمة، وإضافتها إلى جناب الكبرياء ،وقيل: هي سر الخصوصية، وهى الولاية. ﴿وعلَّمناه من لَدُنَّا عِلْماً﴾ خاصّاً، لايكتنه كُنْهه، ولا يُقدر قدره، وهو علم الغيوب، أو أسرار الحقيقة، أو علم الذات والصفات، علماً حقيقياً. فالخضر عليه السلام قيل: إنه نبي؛ بدليل قوله فيما يأتى: ﴿وما فعلته عن أمري﴾، وقيل: وَلِيٌّ، واختُلف: هل مات، أو هو حى؟ وجمهور الأولياء: أنه حي، وقد لقيه كثيرٌ من الصلحاء والأولياء، حتى تواتر عنهم حياته(١). والله تعالى أعلم.

الإشارة: إنما صار الحوت دليلاً لسيدنا موسى عليه السلام بعد موته وخروجه عن إلفه، ثم حيى حياة خصوصية لَمَّا أنفق عليه من عين الحياة، كذلك العارف لا يكون دالاً على الله، وإماماً يقتدى به حتى يموت عن شهود حسه، ويخرق عوائد نفسه، ويفنى عن بشريته، ويبقى بربه، حينئذ تحيا روحه بشهود عظمة ربه، ويصير إماماً ودليلاً موصلاً إليه، ويَظهر منه خرق العوائد، كما ظهر من الحوت، حيث أمسك عن الماء الجرية فصار كالطَّاق، وذلك اقتدار، وإلى ذلك تشير أحوال الخضر، فكان الحوت مظهراً لحاله فى تلك القصة. قاله فى الحاشية بمعناه.

وقال قبل ذلك فى قوله: ﴿واتخذ سبيله فى البحر عَجَبًا﴾: أى اتخذ الحوتُ، وجُوِّزَ كونُ فاعلِ (اتخذ): موسى، أى: اتخذ موسى سبيل الحوت فى البحر عجباً وخرقَ عادة؛ بأن مشى على الماء فى طريق الحوت، حتى وجد الخضر على كبد البحر. ثم قال: وعلى الجملة: فالقصة تشير من جهة الخضر: للاقتدار وإسقاط الأسباب، ومن جهة موسى: لإثبات الأسباب؛ حكمة، وحالة الاقتدار أشرف، وصاحب الحكمة أكمل ونفعه عام، بخلاف الآخر، فإن نفعه خاص. هـ.

وقوله تعالى: ﴿وعلمناه من لدنَّا علما﴾، العلم اللدنى: هو الذى يفيض على القلب من غير اكتساب ولا تعلم، قال عليه الصلاة والسلام: «من عَمِلَ بِمَا عَلِمَ أَوْرَثَهُ اللهُ عِلْمَ مَا لَمْ يَعْلَمْ». وذلك بعد تطهير القلب من النقائص والرذائل، وتفرغه من العلائق والشواغل، فإذا كمل تطهير القلب، وانجذب إلى حضرة الرب، فاضت عليه العلوم اللدنية، والأسرار الربانية، منها ما تفهمها العقول وتدخل تحت دائرة النقول، ومنها ما لا تفهمها العقول ولا تحيط بها النقول، بل تُسلم لأربابها، من غير أن يقتدى بهم فى أمرها، ومنها ما تفيض عليهم فى جانب علم الغيوب؛ كمواقع القدر وحدوث الكائنات المستقبلة، ومنها ما تفيض عليهم فى علوم الشرائع وأسرار الأحكام، ومنها فى أسرار الحروف وخواص الأشياء، إلى غير ذلك من علوم الله تعالى. وبالله التوفيق.

---

(١) بين أهل العلم خلاف فى شأن الخضر، هل هو نبى أم لا؟ وهل هو حى أم لا؟... راجع فى ذلك تفسير: ابن كثير (٣/٩٩)، وفتح البارى (٦/٤٣٤)، والمعالم الصوفية فى قصة سيدنا موسى والخضر، للأستاذ الدكتور جودة المهدى، فى حولية كلية أصول الدين بطنطا، العدد الأول، /١٩٨٧م.

ثم تمم قصتهما بعد التقائهما، فقال:

﴿ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ ﴾

قلت: «رُشْدًا»: مفعول ثاني لعلمت، أو: علة لأتبعك، أو: مصدر بإضمار فعله، أو: حال من كاف «أتبعك»، أو: على إسقاط الخافض، أي: من الرشد، وفيه لغتان: ضم الراء وسكون الشين، وفتحهما، وهو: إصابة الخير، و﴿خُبْرًا﴾: تمييز محول عن الفاعل، أي: لم يحط به خبرك. و«لا أعصي»: عُطِفَ على: «صابرا».

يقول الحق جل جلاله: ولما اتصل موسى بالخضر ـ عليهما السلام ـ استأذنه في صحبته ليتعلم منه، ملاطفة وأدبًا وتواضعًا، وكذلك ينبغي لمن يريد التعلم من المشايخ: أن يتأدب ويتواضع معهم. ﴿قال له موسى هل أتبعك على أن تُعلِّمَنِ مما عُلِّمتَ رُشداً﴾ أي: مما علمك الله من العلم الذى يدل على الرشد وإصابة الصواب، لعلى أرشد به فى دينى. ولا ينافى كونه نبياً ذا شريعة أن يتعلم من غيره من أسرار العلوم الخفية؛ إذ لا نهاية لعلمه تعالى، وقد قال له تعالى فيما تقدم: أعلم الناس من يبتغى علم غيره إلى علمه. رُوى أنهما لما التقيا جلسا يتحدثان، فجاءت خُطافة أوعصفور فنقر فى البحر نقرة أو نقرتين، فقال الخضر: ياموسى خطر ببالك أنك أعلم أهل الأرض؟ ما علمك وعلمى وعلم الأولين والآخرين فى جنب علم الله إلا أقل من الماء الذى حمله هذا العصفور.

ولمَّا سأله صُحْبَتَهُ ﴿قال﴾ له: ﴿إنك لن تستطيع معىَ صبراً﴾؛ لأنك رسول مكلف بحفظ ظواهر الشرائع، وأنا أطلعنى الله تعالى على أمور خفية، لا تتمالك أن تصبر عنها؛ لمخالفة ظاهرها للشريعة. وفى صحيح البخارى: «قال له الخضر: يا موسى، إنى على علم من علم الله علَّمَنيه، لا تعلمه أنت، وأنتَ على علمٍ من علم الله علَّمكه الله، لا أعلمه»(١).

ثم علل عدم صبره بقوله: ﴿وكيف تصبرُ على ما لم تُحط به خُبْراً﴾؟ لأنى أتولى أموراً خفية لاخُبر لك بها، وصاحب الشريعة لا يُسلم لصاحب الحقيقة العارية من الشريعة، ﴿قال﴾ له موسى عليه السلام: ﴿ستجدنى إن

(١) جاء ذلك فى رواية البخارى، التى أخرجها فى (العلم، باب ما يستحب للعالم إذا سئل: أىّ الناس أعلم) ؟ من حديث أُبىّ بن كعب.

شاء الله صابراً ﴾ معك، غير مُعترض عليك. وتوسيط الاستثناء بين مفعولى الوجدان لكمال الاعتناء بالتيمن، ولئلا يتوهم تعلقه بالصبر، ﴿ ولا أعصِى لك أمراً ﴾، هو داخل فى الاستثناء، أى: ستجدنى إن شاء الله صابراً وغير عاص.

وقال القشيرى: وَعَدَ من نفسه شيئين: الصبر، وألاّ يعصيه فيما يأمره به. فأما الصبر فَقَرَنَه بالمشيئة، حتى وجده صابراً، فلم يقبضْ على يدى الخضر فيما كان منه من الفعل. والثانى قال: ﴿ولا أعصى لك أمراً﴾، فأطلق ولم يستثن، فعصى، حيث قال له الخضر: ﴿فلا تسألنى عن شىء﴾، فكان يسأله، فبالاستثناء لم يخالف، وبالإطلاق خالف. هـ. قال شيخ شيوخنا سيدى عبدالرحمن الفاسى: وفيه نظر؛ للحديث الصحيح: «يرحم الله موسى، لو صبر...» مع أن قوله: «ولا أعصى...» الخ، غير خارج عن الاستثناء، كما تقدم، وإن احتمل خروجه، والظاهر: أن الاستثناء، كالدعاء، إنما ينفع إذا صادف القدر، وهو هنا لم يصادف، مع أنه هنا عارضه علم الخضر بكونه لم يصبر من قوله: ﴿لن تستطيع معى صبراً﴾، وقد أراد الله نفوذ علم الخضر. هـ.

وقال ابن البنا: أن العهد إنما هو على قدر الاستطاعة، وإن الوفاء بالملتزم إنما يكون فيما لا يخالف الشرع، فلاطاعة لمخلوق فى معصية الخالق؛ لأن موسى ﷺ لم يلتزم إلا ذلك. ولمّا رأى ما هو محرم تكلم.. فافهم. هـ.

ثم شرط عليه التسليم لِمَا يرى، فقال: ﴿ فإن اتبعتنى فلا تسألنى عن شىء ﴾ تشاهده من أفعالى، فهمْتَه أم لا، أى: لا تفاتحنى بالسؤال عن حكمته، فضلاً عن مناقشته واعتراضه، ﴿ حتى أُحْدِثَ لك منه ذكراً ﴾ ؛ حتى أبتدى بيانه لك وحكمته، وفيه إيذان بأن ما يصدر منه له حكمة خفية، وعاقبة صالحة. وهذا من أدب المتعلم مع العالم، والتابع مع المتبوع، أنه لا يعترض على شيخه بل يسأل؛ مُسترشدا بملاطفةٍ وأدب، وهذا فى العلم الظاهر. وسيأتى فى الإشارة ما يتعلق بعلم الباطن.

الإشارة : قد أخذ الصوفية - رضى الله عنهم - آداب المريد مع الشيخ من قضية الخضر مع موسى - عليهما السلام -؛ فطريقتهم مبنية على السكوت والتسليم، حتى لو قال لشيخه: لِمَ؟ لَمْ يفلح أبداً، سواء رأى من شيخه منكراً أو غيره، ولعله اختبار له فى صدقه، أو اطلع على باطن الأمر فيه، فأحوالهم خضرية، فالمريد الصادق يُسلم لشيخه فى كل ما يرى، ويمتثل أمره فى كل شىء، فَهِمَ وجه الشريعة فيه أم لا، هذا فى علم الباطن، وأما علم الظاهر فمبنى على البحث والتفتيش، مع ملاطفة وتعظيم.

قال الورتجبى: امتحن الحق تعالى موسى ﷺ بصحبة الخضر؛ لاستقامة الطريقة ولتقويم السنة فى متابعة المشايخ، ويكون أسوة للمريدين والقاصدين فى خدمتهم أشياخ الطريقة. هـ. قال القشيرى فى قوله: (فلا تسألن عن شىء) : قال: ليس للمريد أن يقول لشيخه: لِمَ، ولا للمتعلم أن يقول لأستاذه، ولا للعامى أن يقول للمفتى فيما يفتى ويحكم: لِمَ. هـ.

وقال ابن البنا في تفسيره: يُؤخذ من هذه القصة: ترك الاعتراض على أولياء الله إذا ظهر منهم شيء مخالف للظاهر؛ لأنهم فيه على دليل غير ظاهر لغيرهم، اللهم إلا أن يدعوك إلى اتباعه، فلا تتبعه إلا عن دليل، ويُسلم له في حاله، ولا تعترض عليه، ولا يمنعك ذلك من طلب العلم والتعلم منه، وإن كنت لا تعمل بعمله؛ لأنه لا يجب عليك تقليده إلا عن دليل، فلا تعمل مثل عمله، وأنت ترى أنه مخالف لك في ظنك، ولاعلم لك بحقيقة باطن الأمر، فلا تقفُ ما ليس لك به علم . والله الموفق والمرشد. هـ.

قلت: ما ذكره إنما هو في حق من لم يدخل تحت تربيته، فإنما هو طالب علم أو تبرك، وأما من التزم صحبته على طريق التربية فلا يتأخر عن امتثال ما أمره به، كيفما كان، نعم، إن لم ينبغ التوقف والتأني في الاقتداء به.

وقال في القوت في قوله: ﴿فلا تسألن عن شيء﴾: الشيء في هذا الموضع وصف مخصوص من وصف الربوبية من العلم، الذي علمه الخضر عليه السلام من لدنه، لا يصلح أن يسأل عنه، من معنى صفات التوحيد ونعوت الوحدانية، لا يوكل إلى العقول، بل يخص به المراد المحمول. هـ.

قال المحشي الفاسي: وهو ـ أي: المحمول ـ ما يَرشَقُ فيهم من وصف الحق وقدرته، فيتصرفون، وهم في الحقيقة مُصرَّفون، وهؤلاء هم أهل القبضة، الذين علّمهم سرّ الحقيقة، فلهم قدرة لنفوذ شعاعها فيهم، فتتكوّن لهم الأشياء، وتنفعل لحملهم سر الحقيقة وظهورها لهم وفيهم، وهم كما قال: مرادون محمولون، فما يجري عليهم: قدر ﴿وما رميت...﴾ الآية. هـ.

ثم ذكر ما أراه من الخوارق، فقال:

﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ ۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ ﴾

قلت: ضمَّن ركوب السفينة معنى الدخول فيها، فعداه بفي، وقد تركه على أصله في قوله: ﴿لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾(١).

يقول الحق جل جلاله: ﴿فانطلقا﴾ أي: موسى والخضر، وسكت عن الخادم؛ لكونه تبعاً، وقيل: إن يوشع لم يصحبهما، بل رجع، فصارا يمشيان على ساحل البحر، فمرت بهم سفينة، فكلموهم أن يحملوهم، فعرفوا الخضر، فحملوهم بغير نوْل، فلما لَجَّجُوا البَحْرَ أخذ الخضرُ فأساً فخرق السفينة، فقلع لوحاً أو لوحين مما يلي الماء، فحشاها موسى بثوبه، و﴿قال أخرقتها لتُغرق أهلَها﴾ أو: ليَغرَق أهلُها(٢)، ﴿لقد جئتَ﴾ أي: أتيتَ وفعلت، ﴿شيئاً إمْرًا﴾ أي: عظيماً هائلاً، يقال: أَمِر الأمرُ: عظمُ ، ﴿قال﴾ الخضر: ﴿ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبراً﴾؛ تذكيراً لما قاله له من قبلُ، وإنكاراً لِعدم الوفاء بالعهد، ﴿قال﴾ موسى ﷺ: ﴿لا تُؤاخذني بما نسيتُ﴾ أي: بنسياني، أو بالذي نسيته، وهو وصيته بأن لا يسأله عن حكمة ما صدر عنه من الأفعال الخفية الأسباب قبل بيانه، أراد: نسي وصيته، ولا مؤاخذة على الناسي، وفي الحديث: «كانت الأولى من مُوسى نسياناً» . أو: أراد بالنسيان الترك، أي: لا تُؤاخذني بما تركت من وصيتك أول مرة. ﴿ولا تُرهقني﴾ أي: لا تُغْشِنِي ولا تُحمِّلْنِي ﴿من أمري﴾ ، وهو اتباعك، ﴿عُسراً﴾ أي: لا تعسِّرْ عليَّ في متابعتك، بل يسرها عليّ؛ بالإغضاء والمسامحة.

﴿فانطلقا﴾ أي: فقبل عذره؛ فخرجا من السفينة فانطلقا ﴿حتى إذا لقيا غلاماً فقتله﴾ قيل: كان يلعب مع الغلمان ففتَلَ عنقه، وقيل: ضرب رأسه بحجر، وقيل: ذبحه، والأول أصح؛ لوروده في الصحيح، رُوي أن اسم الغلام «جيسور» بالجيم، وقيل: بالحاء المهملة، فإن قلت: لِمَ قال ﴿خرقها﴾؛ بغير فاء، وقال ﴿فقتله﴾ بالفاء؟ فالجواب: أن «خَرَقَهَا»: جواب الشرط، و﴿قتله﴾: من جملة الشرط، معطوفاً عليه، والجزاء هو قوله: (قال أقتلت)، فإن قلت: لِمَ خولف بينهما؟ فالجواب: أن خرق السفينة لم يتعقب الركوب، وقد تعقب القتل لِقاء الغلام. هـ. وأصله للزمخشري.

وقال البيضاوي: ولعل تغيير النظم بأن جعل خرقها جزاء، واعتراض موسى ﷺ مستأنفًا في الأولى، وفي الثانية ﴿فقتله﴾ من جملة الشرط، واعتراضه جزاء؛ لأن القتل أقبح، والاعتراض عليه أدخل، فكان جديراً بأن يجعل عمدة الكلام، ولذلك وصله بقوله: ﴿لقد جئت شيئًا نُكرًا﴾ أي: منكراً. هـ. وناقشه أبو السعود بما يطول ذكره.

---

(١) من الآية ٨ من سورة النحل.
(٢) بفتح الياء والراء، على الغيب، وأهلُها: بالرفع على الفاعلية، وهي قراءة حمزة والكسائي، وقرأ الباقون بضم التاء وكسر الراء، مخففة مع سكون الغين؛ على الخطاب، وأهلَها بالنصب على المفعولية.. انظر الإتحاف (٢/ ٢٢١) .

﴿ قال ﴾ موسى ﷺ في اعتراضه: ﴿ أقتلتَ نفساً زاكية ﴾(١): طاهرة من الذنوب، وقرئ بغير ألف؛ مبالغةً، ﴿ بغير نَفْسٍ ﴾ أي: بغير قتلِ نفسٍ محرمةٍ، فيكون قصاصاً. وتخصيص نفي هذا القبيح بالذكر من بين سائر القبيحات من الكفر بعد الإيمان، والزنا بعد إحصان؛ لأنه أقرب إلى الوقوع؛ نظراً لحال الغلام. ﴿ لقد جئتَ شيئًا نُكرًا ﴾ أي: مُنكراً، قيل: أنكرُ من الأول، إذ لا يمكن تداركه، كما يمكن تدارك الأول؛ بالسد ونحوه. وقيل: «الإمْر» أعظم؛ لأن قتل نفس واحدة أهون من إغراق أهل السفينة.

﴿ قال ﴾ له الخضرُ ﷺ: ﴿ ألم أقل لك إنك لن تستطيعَ معي صبراً ﴾، زاد «لك»؛ لزيادة تأكيد المكافحة؛ بالعتاب على رفض الوصية وقلة التثبت والصبر، لما تكرر منه الإنكار، ولم يَرْعَوِ بالتذكير، حتى زاد في النكير في المرة الثانية بذكر المنكر. ﴿ قال ﴾ موسى ﷺ: ﴿ إنْ سألتك عن شيء بعدها ﴾؛ بعد هذه المرة ﴿ فلا تُصاحبني ﴾ إن سألتَ صُحبتَكَ، وقرأ يعقوب: «فلا تصحبني»؛ رباعياً، أي: لا تجعلني صاحباً لك، ﴿ قد بلغتَ من لدُنّي عُذراً ﴾ أي: قد أعذرتَ ووجدت مِنْ قِبَلِي عذراً في مفارقتي، حيث خالفتك ثلاث مرات. وعن النبي ﷺ: «يرحم الله أخِي مُوسَى، استحيا، فقال ذلك، لَوْ لَبِثَ مع صَاحِبِهِ لأبْصَرَ أعْجَبَ الأعَاجِيب»(٢). وفي البخاري: «وددنا لو صبر موسى، حتى يقص الله علينا من أمرهما»(٣).

﴿ فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية ﴾، هي أنطاكية، وقيل: أيْلة، وقيل الأُبُلّة، وهي أبعد أرض الله من السماء، وقيل: برقة، وقال أبو هريرة وغيره: هي بالأندلس. ويُذكر أنها الجزيرة الخضراء. قلت: وهي التي تسمى اليوم طريفة، وأصلها بالظاء المشالة. وذلك على قول أن مجمع البحرين عند طنجة وسبتة. وعن النبي ﷺ: «كانوا أهل قرية لِئاماً». وقال قتادة: شر القرى التي لا يُضاف فيها الضيف، ولا يعرف لابن السبيل حقه.

ثم وصف القرية بقوله: ﴿ استطعما أهلها ﴾ أي: طلبا منهم طعاماً، ولم يقل: استطعماهم، على أن يكون صفة لأهل؛ لزيادة تشنيعهم على سوء صنيعهم، فإن الإباء من الضيافة، مع كونهم أهلها قاطنين بها، أشنع وأقبح.

رُوي أنهما طافا بالقرية يطلبان الطعام، فلم يطعموهما. واستضافاهم ﴿ فأبَوا أن يُضيفوهما ﴾ بالتشديد، وقرئ بالتخفيف. يقال: ضافه: إذا كان له ضيفاً، أضافه وضيّفه: أنزله ضيفاً. وأصل الإضافة: الميل، من: ضاف السهمُ

(١) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر: «زاكية»؛ بألف بعد الزاي، وتخفيف الياء، اسم فاعل من «زكا»، وقرأ الباقون: «زكية»؛ بتشديد الياء من غير ألف... انظر الإتحاف ٢/٢٢١.

(٢) أخرجه، بنحوه، أبو داود في (الحروف والقراءات ح ٢٩٨٤)، وأصل الحديث في صحيح مسلم في (الفضائل، باب من فضائل الخضر).. في سياق طويل.

(٣) أخرجه البخاري في (التفسير، سورة الكهف).

عن الغرض: مال، ونظيره: زاره، من الازْوِرَار، أي: الميل. فبينما هما يمشيان، ﴿فوجدا فيها جداراً﴾، قال وهب: كان طوله مائة ذراع، ﴿يُريد أن ينقضَّ﴾ أي: يسقط، استعار الإرادة للمشارفة؛ للدلالة على المبالغة في ذلك، والانقضاض: الإسراع في السقوط، وهو انفعال، من القض، يقال: قضضته فانقض، ومنه: انقضاض الطير والكوكب؛ لسقوطه بسرعة. وقرئ: أن ينقاض، من انقاضت السنُّ: إذا سقطت طولاً. ﴿فأقامه﴾ قيل: مسحه بيده فقام، وقيل: نقضه وبناه، وهو بعيد. ﴿قال﴾ له موسى: ﴿لو شئتَ لاتخذتَ عليه أجراً﴾ نتعشى به، وهو تحريض له على أخذ الجُعل، أو تعريض بأنه فضول، وكأنه لَمَّا رأى الحِرمَان ومساس الحاجة كان اشتغاله بذلك في ذلك الوقت مما لا يعني، فلم يتمالك الصبر عليه.

قال ابن التين: إن الثالثة كانت نسياناً؛ لأنه يبعد الإنكار لأمر مشروع، وهو الإحسان لمن أساء. هـ. وفيه نظر؛ فقد قال القشيري في تفسير الآية: لم يقل موسى: إنك ألْمَمْتَ بمحظور، ولكن قال: لو شئتَ، أي: فإن لم تأخذ بسببك فهلا أخذت بسببنا، فكان أخْذُ الأجر خيراً من الترك، ولئن وَجَبَ حقُّهم فلِمَ أخللت بحقنا؟ ويقال: إنَّ سَفَرَه ذلك كان سفرَ تأديب، فَرُدَّ إلى تَحَمُّلِ المشقة، وإلاَّ فهو نسي، حيث سقى لبنات شعيب، وكان ما أصابه من التعب والجوع أكثر، ولكنه كان في ذلك الوقت محمولاً، وفي هذا الوقت مُتَحَمِّلاً. هـ.

قلت: لأن الحق تعالى أراد تأديبه فلم يحمل عنه، فكان سالكاً محضاً، وفي وقت السقي: كان مجذوباً محمولاً عنه.

ثم قال القشيري: وكما أن موسى كان يُحب صحبة الخضر؛ لما له فيه من غرض استزادةٍ من العلم، كان الخضر يحب ترك صحبته؛ إيثاراً للخلوة بالله عنه. هـ. قاله في الحاشية الفاسية.

الإشارة: يُؤخذ من خرق السفينة أن المريد لا تفيض عليه العلوم اللدنية والأسرار الربانية حتى يخرق عوائد نفسه، ويعيب سفينة وجوده، بتخريب ظاهره، حتى لا يقبله أحد(١)، ولا يُقبل عليه أحد، فبذلك يخلو بقلبه ويستقيم على ذكر ربه، وأما مادام ظاهره متزيناً بلباس العوائد، فلا يطمع في ورود المواهب والفوائد.

ويُؤخذ من قتل الغلام: أنه لابد من قتل الهوى، وكل ما فيه حظ للنفس والشيطان، والطريق في ذلك أن تنظر ما يثقل على النفس فتُحمله لها، وما يخف عليها فتحجزها عنه، حتى لايثقل عليها شيء من الحق. ويؤخذ من إقامة الجدار رسم الشرائع؛ قياماً بآداب العبودية، وصوناً لكنز أسرار الربوبية. ويؤخذُ منه أيضاً: الإحسان لمن أساء إليه، فإن أهل القرية أساءوا؛ بترك ضيافة الخضر، فقابلهم بالإحسان؛ حيث أقام جدارهم. والله تعالى أعلم.

---

(١) في هذا الكلام نظر.

ثم ذكر افتراقهما، وبيان الحكمة فى تلك الخوارق التى فعل، فقال:

﴿ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾ ﴾

قلت : ﴿هذا﴾، الإشارة إما إلى نفس الفراق، كقولك: هذا أخوك، أو إلى الوقت الحاضر، أى: هذا وقت الفراق. أو إلى السؤال الثالث. و(بينى) : ظرف مضاف إليه المصدر؛ مجازاً، وقرئ بالنصب، على الأصل، و﴿غَصْبا﴾: مصدر نوعي ليأخذ.

يقول الحق جل جلاله : ﴿قال﴾ الخضر عليه السلام: ﴿هذا فراقُ بينى وبينك﴾ فلا تصحبنى بعد هذا، ﴿سأنبئك بتأويل مالم تستطع عليه صبراً﴾ أى: سأخبرك بالخبر الباطن، فيما لم تستطع عليه صبراً؛ لكونه منكراً فى الظاهر، فالتأويل: رجوع الشيء إلى مآله، والمراد هنا: المآل والعاقبة، وهو خلاص السفينة من اليد العادية، وخلاص أبوَىْ الغلامِ من شره، مع الفوز بالبدل الأحسن، واستخراج اليتيمين للكنز، وفى جعل صلة الموصول عدم استطاعته، ولم يقل: «بتأويل ما رأيت»؛ نوعُ تعريضٍ به، وعتابه عليه السلام.

ثم جعل يفسر له، فقال: ﴿أما السفينةُ﴾ التى خرقتُها، ﴿فكانت لمساكين﴾: ضُعفاء، لا يقدرون على مدافعة الظلمة، فسماهم مساكين؛ لذلهم وضعفهم، ومنه قوله ﷺ: «اللهُمَّ أحْيِنِى مِسْكِيناً، وأمِتْنِى مِسْكِيناً، واحْشُرْنِى فى زُمرةِ المَسَاكِينِ»(١). فلم يُرد مسكنة الفقر، وإنما أراد التواضع والخضوع، أى: احشرنى مخبتاً متواضعاً، غير جبار ولا متكبر، وقيل: كانت السفينة لعشرة إخوة: خمسة زَمْنَى(١) ، و خمسة ﴿يعملون فى

---

(١) أخرجه الترمذى فى (الزهد، باب ما جاء أن فقراء المهاجرين يدخلون الجنة قبل أغنيائهم) ، وابن ماجة (فى الزهد، باب مجالسة الفقراء).

البحر ﴾. وإسناد العمل إلى الكل، حينئذ، بطريق التغليب، ولأن عمل الوكيل بمنزلة الموكل. ﴿ فأردتُ أن أعيبها ﴾ : أجعلها ذات عيب، ﴿ وكان وراءهم ملكٌ ﴾ أى: أمامهم، وقرئ به، أو خلفهم، وكان رجوعهم عليه لامحالة، وكان اسمه: «جلندى بن كركر» وقيل: «هُدَدُ بن بُدَد»، قال ابن عطية: وهذا كله غير ثابت، يعنى: تسمية الملك. ﴿ يأخذُ كلَّ سفينة ﴾ صالحة، وقرئ به، ﴿ غَصْبًا ﴾ من أصحابها.

وكان حق النظم أن يتأخر بيانُ إرادة التعيُّب عن خوف الغصب، فيقول: فكانت لمساكين، وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة صالحة، فأردت أن أعيبها؛ لأن إرادة التعيب مُسَبَّبٌ عن خوف الغصب، وإنما قدّم؛ للاعتناء بشأنها؛ إذ هى المحتاجة إلى التأويل، ولأن فى التأخير فصلاً بين السفينة وضميرها، مع توهم رجوعه إلى الأقرب. قال البيضاوى: ومبنى ذلك ـ أى: التعيب وخوف الغصب ـ على أنه متى تعارض ضرران يجب حمل أهونهما بدفع أعظمهما، وهو أصل ممهد، غير أن الشرائع فى تفاصيله مختلفة. هـ.

﴿ وأما الغلامُ ﴾ الذى قتلتُه، ﴿ فكان أبواه مؤمنين ﴾ وقد طُبع هو كافراً، وإنما لم يصرح بكفره؛ لعدم الحاجة إليه؛ لظهوره من قوله: ﴿ فخشينا أن يُرهقهما ﴾ : فخفنا أن يغشى الوالدَيْن المؤمنَيْن ﴿ طغيانًا ﴾ عليهما ﴿ وكفراً ﴾ بنعمتهما؛ لعقوقه وسوء صنيعه، فيُلْحِقَهُمَا شراً، أو لشدة محبتهما له فيحملهما على طاعته، أو يقرن بإيمانهما طغيانه وكفره، فيجتمع فى بيت واحد مؤمنان وطاغ كافر، فلعله يميلهما إلى رأيه فيرتدا. وإنما خشى الخضر عليه السلام منه ذلك؛ لأن الله سبحانه أعلمه بحاله وأطلعه على عاقبة أمره، وقرئ: «فخاف ربك»، أى: كره سبحانه كراهية من خاف سوء عاقبة الأمر. ويجوز أن يكون القراءة المشهورة من قول الله سبحانه على الحكاية، أى فكرهنا أن يرهقهما طغياناً وكفراً؛ ﴿ فأردنا أنْ يبدلهما ربُّهما خيراً منه ﴾ ؛ بأن يرزقهما بدله ولداً ﴿ خيراً منه زكاةً ﴾ : طهارة من الذنوب والأخلاق الردية، ﴿ وأقربَ رُحْمًا ﴾ أى: رحمة وعطفاً، وفى التعرض لعنوان الربوبية والإضافة إليهما ما لا يخفى؛ من الدلالة على وصول الخير إليهما، فلذلك قيل: ولدت لهما جارية، تزوجها نبى من الأنبياء فولدت نبياً، هدى الله تعالى على يديه أمة من الأمم، وقيل: ولدت سبعين نبياً، وقيل: أبدلهما ابناً مؤمناً مثلهما.

﴿ وأما الجدارُ ﴾ الذى أقمتُ ﴿ فكان لغلامين يتيمين فى المدينة ﴾ أى: القرية المذكورة فيما سبق، ولعل التعبير عنها بالمدينة؛ لإظهار نوع اعتداد بها، باعتداد ما فيها من اليتيمين وأبيهما الصالح، قيل: اسم اليتيمين: أصرم وصريم. ﴿ وكان تحته كنزٌ لهما ﴾ من فضة وذهب، كما فى الحديث(٢)، والذم على كنزهما إنما هو لمن لم يؤد زكاته، مع أن هذه شريعة أخرى. قال ابن عباس: (كان لوحًا من ذهب، مكتوب فيه: عجبت لمن يؤمن

(١) أى: مرضى بمرض مزمن.

(٢) أخرجه الترمذى فى (تفسير سورة الكهف)، والحاكم فى المستدرك (٢/٣٦٩)، عن أبى الدرداء؛ مرفوعاً.

بالقدر كيف يحزن؟ وعجبت لمن يؤمن بالرزق كيف يتعب؟ وعجبت لمن يؤمن بالموت كيف يفرح؟ وعجبت لمن يؤمن بالحساب كيف يغفل؟وعجبت لمن يعرف الدنيا وتقلبها بأهلها كيف يطمئن إليها؟ لا إله الا الله، محمد رسول الله)(١) . وقيل: كانت صحفا فيها علم مدفون.

﴿ وكان أبوهما صالحاً ﴾ ، فيه تنبيه على أن سَعْيَه فى ذلك كان لصلاح أبيهما، وفيه دليل على أن الله تعالى يحفظ أولياءه فى ذريتهم، قيل: كان بينهما وبين الأب الذى حُفظا به سبعة أجداد. قال محمد بن المنكدر: (إن الله تعالى ليحفظ بالرجل الصالح ولده، وولد ولده، ومَسْرِيته التى هو فيها، والدويرات التى حولها، فلا يزالون فى حفظ الله وستره) . وكان سعيد بن المسيب يقول لولده: إنى لأزيد فى صلاتى من أجلك، رجاء أن أُحْفَظَ فيك، ويتلو هذه الآية. وفى الحديث: «ما أحسن أحدٌ الخلافة فى ماله إلا أحسن الله الخلافة فى تركته»(٢). ويؤخذ من الآية: القيام بحق أولاد الصالحين؛ اذ قام الخضر عليه السلام بذلك.

﴿ فأراد ربك ﴾ أى: مالكك ومُدبر أمرك. وفى إضافة الرب إلى ضمير موسى عليه السلام، دون ضميرهما، تنبيه له عليه السلام على تحتم كمال الانقياد، والاستسلام لإرادته سبحانه، ووجوب الاحتراز عن المناقشة فيما برز من القدرة فى الأمور المذكورة وغيرها. أراد ﴿ أن يبلغا أشُدَّهما ﴾ : حلْمَهُمَا وكمالَ رأيِهِمَا، ﴿ ويستخرجا كنزهما ﴾ من تحت الجدار، ولولا أنى أقمته لانقض، وخرج الكنز من تحته، قبل اقتدارهما على حفظ المال وتنميته، وضاع بالكلية؛ ﴿ رحمةً من ربك ﴾ مصدر فى موضع الحال، أى: يستخرجا كنزهما مَرْحُومَيْنِ به من الله تعالى. أو: يتعلق بمضمر، أى: فعلت ما فعلت من الأمور التى شاهدتها، ﴿ رحمة من ربك ﴾؛ بمن فُعل له أو به.

وقد استعمل الخضر عليه السلام غاية الأدب فى هذه المخاطبة؛ فنسب ما كان عيباً لنفسه، وما كان ممتزجاً له ولله تعالى؛ فإن القتل بلا سبب ظاهرُه عيبٌ، وإبداله بخير منه خير، فأتى بضمير المشاركة، وما كان كمالاً محضاً، وهو إقامة الجدار، نسبه لله تعالى.

ثم قال: ﴿ وما فعلتهُ ﴾ أى: ما رأيْتَ من الخوارق ﴿ عن أمري ﴾ أى: عن رأيى واجتهادى، بل بوحى إلهى ملَكى، أو إلهامي، على اختلافٍ فى نبوته أو ولايته، ﴿ ذلكِ ﴾ أى: ما تقدم ذكره من التأويلات، ﴿ تأويلُ ﴾ أى: مآل وعاقبة ﴿ مالم تَسْطِع عليه صبراً ﴾ أى: تفسير مالم تستطع عليه صبراً، فحذف التاء؛ تخفيفاً، وهو فذلكة لِماَ تقدم، وفى جعل الصلة غير ما مرَّ تكرير للتنكير عليه وتشديد للعتاب. قيل: كل ما أنكر سـيدنا موسى

---

(١) أخرجه الطبرى فى تفسيره (٦/١٦) . وانظر تفسير ابن كثير (٩٩/٣) .
(٢) عزاه فى كنز العمال (١٦٠٧١) لابن المبارك، عن ابن شهاب، مرسلاً. وذكره؛ مرفوعاً: ابن عدى فى الكامل (٢٢٩١/٦) عن ابن عمر، وضعّفه.

عليه السلام على الخضر قد جرى له مثـله، ففي هذه الأمثلة حجة عليـه، وذلك أنه لما أنكر خرق السـفينة، نودي: يا موسى أين كان تدبيرك هذا وأنت مطروح في اليم؟ فلما أنكر قتل الغلام قيل له: أين إنكارك من وكْزك القبطي وقضائك عليه؟ فلما أنكر إقامة الجدار، نودي: أين هذا من رفعك الحجر لبنات شعيب دون أجر؟ والله تعالى أعلم.

رُوي أنه قال له: لو صبرتَ لأتيتُ بك على ألفي عجيبة، كلها مما رأيت. ولما أراد موسى عليه السلام أن يفارقه، قال له: أوصني، قال: لا تطلب العلم لتحدث به، واطلبه لتعمل به. هـ.

وفي رواية: قال لـه: اجعـل همتك في معادك، ولا تخض فيما لا يعنيـك، ولا تأمن الخوفَ، ولا تيأس الأمْن، وتدبر الأمور في علانيتك، ولا تذر الإحسان في قدرتك. فقـال له: زدني يا ولي الله، فقـال: ياموسى إياك واللجاجة، ولا تمش في غير حاجة، ولا تضحك من غير عَجَب، ولا تُعير أحداً بخطيئة بعد الندم، وابك على خطيئتك يا ابن عمران، وإياك والإعجاب بنفسك، والتفريط فيما بقي من عمرك، فقال له موسى: قد أبلغت في الوصية، أتم الله عليك نعمته، وغمرك في رحمته، وكلأك من عدوه. فقال الخضر: آمين. فأوصني أنت يانبي الله، فقال لـه موسى: إياك والغضب إلا في الله، ولا ترضى عن أحد إلا في الله، ولا تحب لدنيا ولا تبغض لدنيا، فإنك تخرج من الإيمان وتدخل في الكفر، فقال له الخضر: قد أبلغت في الوصية يا ابن عمران، أعانك الله على طاعته، وأراك السرور في أمرك، وحببك إلى خلقه، وأوسع عليك من فضله، قال موسى: آمين.

تنبيـه: قد تقدم أن الجمهور على حياة الخضر عليه السلام. وسبب تعميره أنه كان على مقدمة ذي القرنين، فلما دخل الظلمات أصاب الخضر عين الحياة، فنزل فاغتسل منها، وشرب من مائها، فأخطأ ذو القرنين الطريق، فعاد، فلم يصادفها، قالوا: وإلياس أيضاً في الحياة، يلتقيان في كل سنة بالموسم، واحتج من قال بموت الخضر بقوله ـ عليه الصلاة والسلام، كما في الصحيح، بعد صلاة العشاء: «أرأيْتكُمْ ليْلتَكُمْ هذِهِ، فإنّه علَى رأسِ مائةَ سنَةٍ، لا يبْقى ممنْ هُوَ اليوْمَ علَى ظهْرِ الأرْضِ أحدٌ»(١)، ويجاب بأن الخضر عليه السلام كان في ذلك الوقت في السحاب، أو يخصص الحديث به؛ كما يخص بإبليس ومن عمِّر من غيره. والله تعالى أعلم.

الإشارة: الاعتراض على المشايخ موجب للبُعد عنهم، والبُعد عنهم موجب للبُعد عن الله، فلا وصول إلى الله إلا بالوصول إليهم مع التعظيم والاحترام؛ «سبحان من لم يجعل الدليل على أوليائه إلا من حيث الدليل عليه، ولم يصل إليهم إلا من أراد أن يوصله إليه»؛ كما في الحِكَم. فالواجب على المريد، إذا كان بين يدي الشيخ، السكوت

---

(١) أخرجه البخاري في (العلم، باب السمر في العلم)، ومسلم في (فضائل الصحابة، باب قوله ﷺ: لا تأتي مائة سنة وعلى الأرض نفس منفوسة اليوم)، من حديث ابن عمر ـ رضي الله عنه.

والتسليم والاحترام والتعظيم، إلا أن يأمره بالكلام، فيتكلم بآداب ووقار وخفض صوت، فإذا رأى منه شيئاً يخالف ظاهر الشريعة فليسلم له، ويطلب تأويله، فإن الشريعة واسعة، لها ظاهر وباطن، فلعله اطلع على مالم يفهمه المريد.

وكذلك الفُقراء لا ينكر عليهم إلا ما كان محرّماً مجمعاً على تحريمه، ولا تأويل فيه، كالزنا بالمعينة أو اللواط، وأما ما اختلف فيه، ولو خارج المذهب، فلا ينكر عليه، وكذلك ما فيه تأويل. هذا إن صحت عدالته، فقد قالوا: إن صحت عدالة المرء فليترك وما فعل. وتأمل قضية شيخ شيوخنا سيدى عبدالرحمن المجذوب فى مسألة الثور الذى أمر الفقراء بذبحه، فلما ذبحوه تبين أنه كان صدقة عليه، وكذلك غيره من أرباب الأحوال، يُلتمس لهم أحسن المخارج، فإن أحوالهم خضرية، وما رأينا أحداً أولع بالإنكار فأفلح أبدا. وبالله التوفيق.

ثم ذكر قصة ذى القرنين، الذى وقع السؤال عنه مع الروح وأهل الكهف، فقال:

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ويسألونك﴾ أى: اليهود، سألوه على وجه الامتحان، أو قريش، بتلقينهم. والتعبير بالمضارع؛ للدلالة على استمرارهم على ذلك إلى ورود الجواب، والمراد: ذو القرنين الأكبر، وكان على عهد إبراهيم عليه السلام، ويقال: إنه الذى قضى لإبراهيم حين تحاكم إليه فى بئر السبع بالشام، واسمه تبرس، وقيل: هرديس(١)، وأما ذو القرنين الأصغر، بالقرب من زمن عيسى عليه السلام، واسمه الإسكندر، وهو صاحب أرسطو الفيلسوف، وقيل: المراد به هذا الأصغر، واقتصر عليه المحلّى.

قال الإمام الرازى: والأول أظهر؛ لأن من بلغ مُلكه من السعة والقوة إلى الغاية التى نطق بها التنزيل إنما هو الأكبر، كما شهدت به كتب التواريخ. قلت: كلاهما بلغا الغاية القصوى، وملكا المشارق والمغارب، أما ذو القرنين الأكبر، فقيل: إنه كان ملِكاً عادلاً صالحاً، ملك الأقاليم، وقهر أهلها من الملوك، ودانت له البلاد، وإنه كان داعياً

(١) ليس فى هذا الشأن خبر عن الرسول الأعظم ﷺ.

إلى الله تعالى، سائراً فى الخَلق بالمعونة التامة والسلطان المؤيد المنصور، وكان الخضر على مقدمة جيشه، بمنزلة المستشار الذى هو من الملك بمنزلة الوزير. وقيل: كان ابن خالته. وذكر الأزرقى وغيره أنه أسلم على يد إبراهيم عليه السلام، فطاف معه بالكعبة مع إسماعيل. ورُوى أنه حج ماشياً، فلما سمع إبراهيم عليه السلام بقدومه تلقاه ودعا له، وأوصاه بوصايا. ويقال: إنه أُتى بفرس ليركب، فقال: لا أركب فى بلد فيه الخليل، فعند ذلك سخَّر له السحاب، وطوى له الأسفار، فكانت السحاب تحمله وعساكره وجميع آلاتهم، إذا أرادوا غزو قوم. وسئل عنه علىّ رضي الله عنه: أكان نبياً أو ملَكَا - بالفتح؟ فقال: لم يكن نبياً ولا ملَكَا، ولكن كان عبداً أحبَّ الله فأحبه الله، وناصَحَ الله فناصحه، فسخر له السحاب، ومدَّ له الأسباب(١).

وقال مجاهد: ملك الأرض أربعةٌ: مؤمنان وكافران، فالمؤمنان: سليمان وذو القرنين، والكافران: نمرود وبختنصر. هـ.

وأما ذو القرنين الأصغر، وهو الإسكندر اليوناني، فروى أنه لما مات أبوه جمع مُلْكَ الروم بعد أن كان طوائف، ثم قصد ملوك العرب وقهرهم، ثم مضى حتى أتى البحر الأخضر، ثم عاد إلى مصر، فبنى الإسكندرية وسماها باسمه، ثم دخل الشام وقصد بنى إسرائيل، وورد بيت المقدس وذبح فى مذبحة، ثم انعطف الى أرمينية وباب الأبواب، ودان له العراقيون والقبط والبربر، واستولى على ملوك الفرس، وقصد السند وفتحه، وبنى مدينة سرنديب وغيرها، ثم قصد الصين، وغزا الأمم البعيدة، ورجع إلى العراق ومرض ومات.

رُوى أن أهل النجوم: قالوا له: إنك تموت على أرض من حديد، وتحت سماء من خشب، فبلغ بابل، ورعُف، وسقط عن دابته، فبسطت له دروع من حديد، فنام عليها، فآذته الشمس، فأظلوه بترس من خشب، فنظر، فقال: هذه أرض من حديد وسماء من خشب، فمات، وهو ابن ألف وستمائة سنة، وقيل: ثلاثة آلاف، قال ابن كثير: وهو غريب. قلت: والذى لابن عساكر: أنه عاش ستاً وثلاثين سنة، وأنه كان بعد داود وسليمان ـ عليهما السلام ـ ثم قال ابن عساكر بعد كلام: وإنما بيّنا هذا؛ لأن كثيراً من الناس يعتقدون أنهما واحد، وأن المذكور فى القرآن العظيم هو المتأخر، فيقع بذلك خطأ كبير. كيف لا، والأول كان عبداً صالحًا مؤمناً، ملَكاً عادلاً، وزيره الخضر عليه السلام، وقد قيل: إنه كان نبياً، وأما الثانى فقد كان كافراً، وزيره أرسْطَاطَاليس الفيلسوف، وقد كان بينهما من الزمان أكثر من ألفىْ سنة، فأين هذا من ذلك؟!.هـ فتأمله مع ما ذكر فى اللُباب من تعزيته أمه، مما يدل على إسلامه، قال فيه: لما علم ذو القرنين أن الموت استعجله، دعا بكاتبه، فقال له: أكتب تعزيتى لأمى، بسم الله

---

(١) انظر تفسير الطبرى ١٦/٨، والبغوى ٥/١٩٧.

الرحمن الرحيم، من الإسكندر ابن قيصر، رفيق أهل الأرض بجسده وأهل السماء بروحه، إلى أمي رومية ذات الصفا، التي لم تتمتع بثمرتها في دار الفناء، وعما قريب تجاوره في دار البقاء، يا أماه؛ أسألك بودك لي ودي لك، هل رأيت لِحَيٍّ قراراً في الدار الدنيا؟ وانظري إلى الشجر والنبات يخضر ويبتهج، ثم يهشم ويتناثر، كأن لم يغنَ بالأمس، وإني قد قرأت في بعض الكتب فيما أنزل الله: يادنياي ارحلي بأهلك، فإنك لستِ لهم بدار، إنما الدنيا واهبة الموت، موروثة الأحزان، مفرقة الأحباب، مخربة العمران، وكل مخلوق في دار الأغيار ليس له قرار. انظر بقية كلامه فيه. ولا يلزم من صحبته أرسطاطاليس أن يكون على دينه. والله تعالى أعلم.

واختُلِفَ في ذي القرنين المذكور في القرآن: هل كان نبياً أو ملَكاً ـ بفتح اللام ـ أو ملِكاً ـ بالكسر ـ وهو الصحيح، واختلف في وجه تسميته بذي القرنين؛ فقيل: كان في رأسه أو تاجه ما يشبه القرنين، وقيل: لأنه كان له ذؤابتان، وقيل: لأنه دعا الناس إلى الله عز وجل، فضُرب بقرنه الأيمن، ثم دعا إلى الله فضرب بقرنه الأيسر، وقيل: لأنه رأى في منامه أنه صعد الفلك فأخذ بقرني الشمس، وقيل: لأنه انقرض في عهده قرنان، وقيل: لأنه سخر له النور والظلمة، فإذا سرى يهديه النور من أمامه، وتحوطه الظلمة من ورائه. هـ.

ثم ذكر الحق تعالى الجواب، فقال: ﴿ قل سأتلو عليكم ﴾ أي: سأذكر لكم ﴿ منه ذكراً ﴾ أي: خبراً مذكوراً، أو قرآناً يخبركم بشأنه، والسين؛ للتأكيد، والدلالة على التحقق المناسب لمقام تأييده ﷺ، وتصديقه بإنجاز وعده، لا للدلالة على أن التلاوة ستقع في المستقبل؛ لأن هذه الآية نزلت موصولة بما قبلها، حين سألوه ﷺ عنه، وعن الروح، وعن أهل الكهف، فقال: غداً أُخبركم، فتأخر الوحي كما تقدم، ثم نزلت السورة مفصلة.

ثم شرع في تلاوة ذلك الذكر، فقال: ﴿ إنا مكنَّا له في الأرض ﴾ أي: مكنا له فيها قوة يتصرف فيها كيف يشاء، بتيسير الأسباب وقوة الاقتدار، حيث سخر له السحاب، ومدّ له في الأسباب، وبسط له النور، فكان الليل والنهار عليه سواء، وسهل له السير في الأرض، وذللت له طرقها، ﴿ وآتيناه من كل شيء ﴾ أراده من مهمات ملكه ومقاصده المتعلقة بسلطانه ﴿ سبباً ﴾ أي: طريقاً يوُصله إليه؛ من علم، أو قدرة، أو آلة، فأراد الوصول إلى الغرب ﴿ فأتْبَع سبباً ﴾ : طريقاً يوصله إليه.

﴿ حتى إذا بلغ مَغْرِب الشمس ﴾ أي: منتهى الأرض من جهة المغرب، بحيث لا يتمكن أحد من مجاوزته، ووقف على حافة البحر المحيط الغربي، الذي فيه الجزاير المسماة بالخالدات، التي هي مبدأ الأطوال على أحد القولين. ﴿ وجدَها ﴾ أي: الشمس، ﴿ تغربُ في عينٍ حَمِئَة ﴾ أي: ذات حمأ، وهو الطين الأسود،

وقرئ: حامية، أي: حارة، رُوى أن معاوية رضي الله عنه قرأ حامية، وعنده ابن عباس، فقال ابن عباس: حمئة، فقال معاوية لعبد الله بن عمرو بن العاص: كيف تقرأ؟ قال: كما يقرأ أمير المؤمنين، ثم وجه إلى كعب الأحبار كيف تجد الشمس تغرب؟ قال: في ماء وطين، كذا نجده في التوراة، فوافق قول ابن عباس رضي الله عنه.

وليس بينهما تنافٍ؛ لجواز كون العين جامعة بين الوصفين، وأما رجوع معاوية إلى قول ابن عباس بما سمعه من كعب الأحبار، مع أن قراءته أيضاً متواترة، فلكون قراءة ابن عباس قطعية في مدلولها، وقراءته محتملة، ولعله لمّا بلغ ساحل البحر المحيط رآها كذلك، إذ ليس في مطمح نظره غير الماء، كما يلوح به قوله تعالى: ﴿وجدها تغرب﴾، ولم يقل: كانت تغرب؛ فإن الشمس في السماء لا تغرب في الأرض.

﴿ ووجد عندها ﴾ أي: تلك العين ﴿ قوماً ﴾؛ قيل: كان لباسهم جلود الوحش، وطعامهم ما لفظه البحر، وكانوا كفاراً، فخيّره الله تعالى بين أن يعذبهم بالقتل، وأن يدعوهم إلى الإيمان، فقال: ﴿ قلنا ياذا القرنين إما أن تُعذِّبَ ﴾ بالقتل من أول الأمر، ﴿ وإمّا أن تتخذ فيهم حُسناً ﴾؛ أمراً ذا حُسْنٍ، وذلك بالدعوة إلى الإسلام والإرشاد إلى الشرائع، واستدل بهذا على نبوته، ومن لم يقل بها قال: كان بواسطة نبي كان معه في ذلك العصر، أو إلهاماً، بعد أن كان التخيير موافقًا لشريعة ذلك النبي، ﴿ قال ﴾ ذو القرنين، لمن كان عنده: مختاراً للشق الأخير، وهو الدعاء إلى الإسلام: ﴿ أمّا من ظَلَم ﴾ في نفسه، وأصرّ على الكفران، ولم يقبل الإيمان ﴿ فسوف نُعذِّبُه ﴾ بالقتل. وعن قتادة: أنه كان يطبخ من كفر في القدور(١)، ﴿ ثم يُرَدُّ إلى ربه ﴾ في الآخرة ﴿ نُعَذِّبُهُ ﴾ فيها ﴿ عذابًا نُكْراً ﴾؛ منكراً فظيعاً، لم يُعهد مثله، وهو عذاب النار. وفيه دلالة ظاهرة على أن الخطاب لم يكن بطريق الوحي إليه، أي: حيث لم يقل: «ثم يرد إليك»، وأن مقاولته كانت مع النبي، أو مع من عنده من أهل مشورته.

﴿ وأما مَنْ آمن ﴾ بموجب دعوته ﴿ وعَمِلَ ﴾ عملا ﴿ صالحا ﴾ حسبما يقتضيه الإيمان ﴿ فله ﴾ في الدارين ﴿ جزاء الحُسنى ﴾(٢)، أي: المثوبة الحسنى، أو الفعلة الحسنى جزاء، على قراءة النصب، على أنه مصدر مؤكد للجملة، قُدّم عليه المبتدأ؛ اعتناءً، أو حال، أو تمييز. ﴿ وسنقول له من أمرنا ﴾ أي: مما نأمر به ﴿ يُسْراً ﴾ : سهلاً ميسراً، غير شاق عليه. والله تعالى أعلم.

---

(١) لايصح نسبة هذا ـ إطلاقاً ـ لذى القرنين ـ رحمه الله.

(١) قرأ حفص وحمزة والكسائي وخلف ويعقوب: «جزاءً»؛ بفتح الهمزة؛ منونةً، وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر: بالرفع؛ من غير تنوين، على الابتداء، والخبر: الظرف قبله، والحسنى مضاف إليها... انظر: شرح الهداية (٢/ ٤٠٢)، والإتحاف (٢/ ٢٢٤).

الإشارة: ذو القرنين لَمَّا أقبل بكليته على مولاه، ودعا إلى الله، ونصح لله، مكّنه الله تعالى من الأرض، ويسر له أموره، حتى قطع مشارقها ومغاربها، وكذلك من انقطع إلى الله، ورفع همته إلى مولاه، وأرشد الخلق إلى الله، تكون همته قاطعة، يقول للشيء كن فيكون، بقدرة الله وقدره. وسخر له الكون بأسره، يكون عند أمره ونهيه «أنت مع الأكوان مالم تشهد المكون، فإذا شهدته كانت الأكوان معك». يقول الله تعالى، في بعض كلامه: «يا عبدى كن لى كما أريد، أكن لك كما تريد».

قال القشيري: ذو القرنين مكّن له فى الأرض جهراً، فكانت تُطوى له إذا قطع أحوازها، وسُهل له أن يتدرج فى مشارقها ومغاربها، ويحظر أقطارها ومناكبها، ومن كان فى محل الإعانة من الأولياء؛ فالحق سبحانه يُمكنه فى المملكة، ليحصل عند همته ما أراد من حصول طعام أو شراب، أو غيره من قطع مسافة، أو استتار عن أبصار، وتصديق مأمول، وتحقيق سؤال، وإجابة دعاء، وكشف بلاء، وفوق ذلك تمكينه من تحقيق همه له فى أمره، ثم فوق ذلك فى التمكين فى أن يُحضِر بهمتهم قوماً بما شاءوا، ويمنع قوماً عما شاءوا، فلهم من الحق تحقيق أمل، إذا تصرفوا فى المملكة بإرادات فى سوانح وحادثات، وفوق هذا التمكين فى المملكة إيصال قوم إلى منازل ومحالٍّ، فالله يحقق فيهم همتهم.هـ. قلت: وفوق ذلك كله تمكينهم من شهود ذاته، فى كل وقت وحين، حتى لو طلبوا الحجاب لم يُجابوا، ولو كُلفوا أن يروا غيره لم يستطيعوا، وهؤلاء هم الذين لهم التمكين فى الإيصال إلى منازل السائرين ومحالّ الواصلين. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر سَيْرَ ذى القرنين إلى جهة المشرق، فقال:

﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ﴾

قلت: ﴿مَطْلِع﴾ فيه لغتان: الكسر والفتح، و﴿كذلك﴾: خبر عن مضمر، أى: أمر ذى القرنين كما وصفنا لك، أو صفة مصدر محذوف لِوَجَد، أو ﴿نجعل﴾ أى: وجدا أو جعلا كذلك، أو صفة لقوم، أى: على قوم مثل ذلك القبيل، الذى تغرب عليهم الشمس فى الكفر والحكم، أو صفة لستر، أى: ستراً مثل ستركم.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ثم أَتبع﴾ ذو القرنين ﴿سبباً﴾: طريقاً راجعاً من مغرب الشمس، موصلاً إلى مشرقها، ﴿حتى إذا بلغ مَطْلِعَ الشمس﴾ أى: الموضع الذى تطلع عليه الشمس أولاً من معمورة الأرض، قيل: بلغه فى اثنتى عشرة سنة، وقيل: فى أقل من ذلك.

﴿ وجدها تطلُع على قوم﴾ عراة ﴿لم نجعل لهم من دونها ستراً ﴾ من اللباس والبنيان، قيل: هم الزنج، وفى اللباب: قيل: إنهم بنو كليب، وقيل: إن بنى كليب طائفة منهم، وهم قوم بآخر صين الصين، على صور بنى آدم، إلاّ أنهم لهم أذناب كأذناب الكلاب، ووجوه كوجوه الكلاب، وأكثر قُوتِهم الحوت، ومَن مات منهم أكلوه، وملأوا موضع دماغه مسكاً وعنبرا، وحبسوه عندهم؛ تبركاً بآبائهم وأبنائهم. ثم قال: وليس لهم لباس إلا الجلود على عورتهم.هـ.

وعن كعب: أن أرضهم لا تمسك الأبنية، وبها أسراب، فإذا طلعت الشمس دخلوا الأسراب أو البحر، فإذا ارتفع النهار خرجوا إلى معايشهم، يتراعون فيها كما ترعى البهائم. قال رجل من سمَرْقَنْد: خرجت حتى جاوزت الصين، فقالوا لى: بينك وبينهم مسيرة يوم وليلة، فاستأجرت رجلاً حتى بلغتهم، فإذا أحدهم يفرش أذنه، ويلبس الأخرى، وكان صاحبى يُحسن لسانهم، فسألهم فقالوا: جئتنا تنظر كيف تطلع الشمس. قال: فبينما نحن كذلك إذ سمعنا كهيئة الصلصلة، فغشي عليّ، ثم أفقت وهم يمسحوننى بالدهن، فلما طلَعت الشمس على الماء، إذا هى فوق الماء كهيئة الزيت، فأدخلونا سرباً لهم، فلما ارتفع النهار خرجوا إلى البحر يصطادون السمك فيطرحونه فى الشمس فينضج(١) . هـ. وعن مجاهد: من لا يلبس الثياب من السودان عند مطلع الشمس أكثر من جميع أهل الأرض.هـ.

وقوله تعالى: ﴿ كذلك ﴾ أى: أمر ذى القرنين كما وصفنا، فى رفعة المحل وبسط الملك، أو أمره فيهم كأمره فى أهل مغرب الشمس، من التخيير والاختيار، أو وجد قوماً عند مطلع الشمس كذلك، وحكم فيهم، بحكم أولئك. أو: (لم نجعل لهم) ستراً مثل ستركم من اللباس والأكنان والجبال. قال الحسن: كانت أرضهم لا جبل فيها ولا شجر، ولا تحمل البناء، فإذا طلعت الشمس هربوا إلى البحر.هـ. قال تعالى: ﴿ وقد أحطْنا بما لديه ﴾ من الأسباب والعُدَد، وما صدر عنه وما لاقاه ﴿ خُبْراً ﴾ : علماً تعلق بظواهره وخفايا أمره، يعنى: أن ذلك بلغ من الكثرة بحيث لا يحيط به إلا علم اللطيف الخبير.

الإشارة: كان ذو القرنين فى الظاهر يلتمس مطلع الشمس الحسية، وفى الباطن يلتمس مطلع الشمس المعنوية، وهى شمس القلوب، التى تكشف أستار الغيوب، ثم أتبع سبَباً يُوصل إلى شمس العيان، فوجدها تطلع على قلوب أهل العرفان، لم يجعل لهم من دونها ستْراً على الدوام، لما أتحفهم به من غاية الوصال والإكرام، حتى قال قائلهم: لو حجب عني الحق تعالى طرفة عين ما أعددت نفسي من المسلمين، وكذلك رسول الله ﷺ، أو تقول: وجدها تطلع على أهل التجريد، الخائضين فى بحار التوحيد، وأسرار التفريد، وفيهم قال المجذوب رضي الله عنه:

أَقَــارِئِــينَ عِلْمَ التَّــوْحِــيــدِ هَنَا الْبُــحُــورُ إِلَىَّ تُنْبِــي
هَــذَا مَــقَــامُ أَهْلِ التَّــجْــرِيــدِ الْوَاقِــفِــينَ مَــعَ رَبِّــي

---

(١) قال الألوسى معقباً: (وأنت تعلم أن مثل هذه الحكايات لاينبغى أن يلتفت إليها ويعول عليها، وما هى إلا أخبار عن هيان بن بيان، تحكيها العجائز لصغار الصبيان) . انظر روح المعانى (١٦/٣٦) .

قد تجردوا من لباس الزينة والافتخار، ولبسوا لباس المسكنة والافتقار، فعوضهم الله تعالى في قلوبهم لباس الغنى والعز والاقتدار، صبروا قليلاً، واستراحوا زمناً طويلاً، تذللوا قليلاً، وعزّوا عزاً طويلا، جعلنا الله منهم بمنّه وكرمه.

ثم أخذ ذو القرنين من الجنوب إلى الشمال، كما قال تعالى:

﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُواْ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴿٩٨﴾ ۞ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى وَكَانُواْ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾ ﴾

قلت: ﴿بين السدين﴾: مفعول، لا ظرف؛ لأنه يستعمل متصرفا.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ثم أتْبَعَ﴾ ذو القرنين ﴿سبباً﴾: طريقاً ثالثاً بين المشرق والمغرب، سالكاً من الجنوب إلى الشمال، ﴿حتى إذا بلغ بين السدين﴾: بين الجبلين، اللذين سدَّ ما بينهما، وهو منقطع أرض الترك، مما يلي المشرق، لا جبال أرمينية وأذربيجان، كما توهم، وفيه لغتان: الضم والفتح، وقيل: ما كان من فعل الله فهو مضموم، وما كان من عمل الخلق فهو مفتوح. ﴿وجد من دونهما﴾ أي: من ورائهما: مما يلي بر الترك، ﴿قوماً﴾: أمة من الناس ﴿لا يكادون يفقهون﴾: يفهمون ﴿قولاً﴾؛ لغرابة لغتهم، وقلة فطنتهم، وقرئ بالضم؛ رباعياً، أي: لا يُفصحون بكلامهم، واختلف فيهم، قيل: هم جيل من الترك؛ قال السدي: الترك سَرِيَّة من يأجوج ومأجوج، خرجت، فضرب ذو القرنين السد، فبقيت خارجة. قلت: ولعلهم طلبوا منه ذلك، حين اعتزلوا قومهم، ثم قال: فجميع الترك منهم. وعن قتادة: أنهم ـ أي: يأجوج ومأجوج ـ اثنتان وعشرون قبيلة،

سد ذو القرنين على إحدى وعشرين، وبقيت واحدة، فسُموا الترك؛ لأنهم تُرِكُوا خارجين. قال أهل التاريخ: أولاد نوح عليه السلام ثلاثة: سام وحام ويافث، فسام أبو العرب والعجم والروم، وحام أبو الحبشة والزنج والنوبة، ويافث أبو الترك والخرز والصـــقالبة ويأجوج ومأجوج. هـ.

وقرئ بالهمز فيهما؛ لأنه من أجيج النار، أى: ضوؤها وشررها، شُبهوا به فى كثرتهم وشدتهم، وهو غير منصرف؛ للعجمة والعلَمية.

﴿ قالوا ياذا القرنين ﴾ ، إما أن يكون قالوه بواسطة ترجمان، أو يكون فَهم كلامهم، فيكون من جملة ما آتاه الله تعالى من الأسباب، فقالوا له: ﴿ إن ياجوج وماجوج ﴾(١)، قد تقدم أنهم من أولاد يافث. وما يقال: إنهم من نطفة احتلام آدم لم يصح، واختلف فى صفاتهم، فقيل: فى غاية صغر الجثة وقصر القامة، لا يزيد قدمهم على شبر، وقيل: فى نهاية عِظم الجسم وطول القامة، تبلغ قدودهم نحو مائة وعشرين ذراعاً، وفيهم من عرضه كذلك.

قال عبد الله بن مسعود: سألتُ النبى ﷺ عن يأجوج ومأجوج، فقال: «هم أمم، كل أمة أربع مائة ألف، لايموت الرجل منهم حتى ينظر إلى ألف ذَكَر من صلبه، كلهم قد حمل السلاح»، قيل: يارسول الله صفهم لنا، قال: «هم ثلاثة أصناف: صنف منهم أمثال الأرز ـ وهو شجر بالشام طول الشجرة عشرون ومائة ذراع ـ وصنف عرضه وطوله سواء، عشرون ومائة ذراع، وصنف يفرش أذنه ويلتحف بالأخرى، لا يمرون بفيل ولا وحش ولاخنزير إلا أكلوه، ومن مات منهم أكلوه، مُقَدِّمتهمْ بالشام، وسَاقَتُهمْ بخراسان، يشربون أنهار المشرق، وبُحيرة طبرية».(٢).

فقالوا له: ﴿ إنَّ ياجوج وماجوج مفسدون فى الأرض ﴾ أى: فى أرضنا، بالقتل، والتخريب، وإتلاف الزرع، قيـل: كانوا يخرجون أيام الربيـع، فلا يتركون أخضر إلا أكلوه، ولا يابساً إلا احتملوه، وكانوا يأكلون الناس أيضا. ﴿ فهل نجعلُ لك خَرْجًا ﴾ أى: جُعْلاً من أموالنا ﴿ على أن تجعلَ بيننا وبينهم سداً ﴾ ؛ بالفتح وبالضم، أى: حاجزاً يمنعهم منا؟

﴿ قال ما مكّنى ﴾ ـ بالفك وبالإدغام ـ أى: ما مكننى ﴿ فيه ربى ﴾ ،وجعلنى فيه مكيناً قادراً من الملك والمــال وسائر الأســباب، ﴿ خيرٌ ﴾ من جعْــلِكم، فلا حاجة لى به، ﴿ فأعينونى بقوة ﴾ الأبدان وعمل الأيدى، كصنَّاع يحسنون البناء والعمل، وبآلاتٍ لابد منها فى البناء، ﴿ أجعلْ بينكم وبينهم رَدْمًا ﴾ أى: حاجزاً حصيناً، وبرزخاً مكيناً، وهو أكبر من السد وأوثق، يقال: ثوب مُردم؛ إذا كان ذا رقاع فوق رقاع، وهذا إسعاف لهم فوق ما يرجون.

---

(١) هذه قراءة الجماعة؛ (بدون همز)، وقرأ عاصم بالهمز.. انظر إتحاف فضلاء البشر (٢/ ٢٢٥).

(٢) عزاه السيوطى فى الدر (٤/ ٤٥٠) لابن أبى حاتم، وابن مردويه وابن عدى، وابن عساكر، وابن النجار، وفيه أن السائل هو حذيفة.

﴿آتُونى زُبَرَ الحديد﴾: جمع زبرة، وهى القطعة الكبيرة، وهذا لا ينافى رد خراجهم؛ لأن المأمور الإيتاء بالثمن أو المناولة، كما ينبئ عنه قراءة: «ائتونى»؛ بوصل الهمزة، أى: جيئونى بزبر الحديد، على حذف الباء، ولأن إيتاء الآلة من قبيل الإعانة بالقوة، دون الخراج على العمل.

قال القشيرى: استعان بهم فى الذى احتاج إليه منهم، ولم يأخذ منهم عُمالة؛ لما رأى أن من الواجب عليه حق الحماية على حسب المُكْنَة. هـ.

ولعل تخصيص الأمر بالإتيان بها دون سائر الآلات؛ من الفحم والحَطب وغيرهما؛ لأن الحاجة إليها أمسُّ؛ لأنها الركن فى السد، ووجودها أعز. قيل: حفر الأساس حتى بلغ الماء، وجعل الأساس من الصخر والنحاس المذاب، والبنيان من زبر الحديد، وجعل بيْنهما الفحم والحطب، حتى سد ما بين الجبلين إلى أعلاهما، وكان بينهما مائة فرسخ، وذلك قوله تعالى: ﴿حتى إذا سَاوى بين الصَّدَفَينِ﴾، وقرئ بضمهما[1]، أى: مازال يبنى شيئاً فشيئاً حتى إذا جعل ما بين ناصيتى الجبلين من البنيان مساوياً لهما فى السَّمْك. قيل: كان ارتفاعه: مائتى ذراع، وعرضه: خمسون ذراعا. وقرئ (سوّى)؛ بالتشديد، من التسوية.

فلما سوّى بين الجبلين بالبناء، ﴿قال﴾ للعَمَلَة: ﴿انفخوا﴾ النيران فى الحديد المبنى، ففعلوا ﴿حتى إذا جعله﴾ أى: المنفوخ فيه ﴿ناراً﴾ أى: كالنار فى الحرارة والهيئة. وإسناد الجعل إلى ذى القرنين، مع أنه من فعل العملة؛ للتنبيه على أنه العمدة فى ذلك، وهم بمنزلة الآلة. ﴿قال﴾ للذين يتولون أمر النحاس من الإذابة وغيرها: ﴿آتُونى أُفرغ عليه قِطْراً﴾ أى: آتونى نحاساً مُذاباً أُفرغه عليه، وإسناد الإفراغ إلى نفسه، لِمَا تقدم.

﴿فما اسطاعوا﴾ أى: استطاعوا ﴿أن يَظْهَرُوه﴾ أىْ: يعلوه بالصعود لارتفاعه، والفاء فصيحة، أى: ففعلوا ما أمرهم به من إيتاء القطر، فأفرغوه عليه، فاختلط والتصق بعضه ببعض، فصار جبلاً صلْدًا، فجاء يأجوج ومأجوج فقصدوا أن يعلوه أو ينتقبوه ﴿فما اسطاعوا أن يَظْهَرُوه﴾؛ لارتفاعه وملاسته، ﴿وما استطاعوا له نَقْباً﴾؛ لصلابته، وهذه معجزة له؛ لأن تلك الزُبَر الكبيرة إذا أثرت فيها حرارة النار لا يقدر أحد أن يجول حولها، فضلاً عن إفراغ القطر عليها، فكأنه تعالى صرف النار عن أبدان المباشرين للأعمال. والله على كل شىء قدير.

﴿قال﴾ ذو القرنين، لمن عنده من أهل تلك الديار وغيرهم: ﴿هذا﴾ أى: السد، أو تمكينه منه، ﴿رحمةٌ﴾ عظيمة ﴿من ربى﴾ على كافة العباد، لا سيما على مجاوريه، وفيه إيذان بأنه ليس من قبيل الآثار الحاصلة بمباشرة الخلق، بل هو إحسان إلهى محض، وإن ظهر بمباشرتى. والتعرض لوصف الربوبية؛ لتربية معنى الرحمة.

---

(١) أى: الصاد والدال فى «الصدفين». وهى قراءة ابن كثير، وأبى عمرو، وابن عامر، ويعقوب. وقرأ أبو بكر: بضم الصاد وإسكان الدال، وقرأ الباقون بفتحهما.. انظر الإتحاف (٢/٢٢٧).

﴿ فإذا جاء وعدُ ربى ﴾ : وقت وعده بخروج يأجوج ومأجوج، أو بقيام الساعة؛ بأن شارف قيامُها، ﴿ جعله ﴾ أى: السد المذكور، مع متانته ورصانته، ﴿ دكّاءَ ﴾ : مدكوكاً مبسوطاً مستوياً بالأرض، وفيه بيان عظمة قدرته تعالى، بعد بيان سعة رحمته، ﴿ وكان وعد ربى حقًا ﴾ : كائناً لا محالة.

رُوِى عنه ﷺ أنه قال: «إنّ يأجُوجَ ومأجُوجَ يَحْفِرُون السد، حتّى إذا كادُوا يرَوْنَ شُعَاعَ الشَّمْسِ، قَالَ الَّذِى عَلَيْهِمْ: ارْجعُوا فَسَتَحْفِرونه غداً، فيُعِيدُهُ اللهُ كأشَدِّ ما كَانَ، حتّى إذَا بَلَغتْ مُدَّتُهُمْ، حفروا، حتّى إذَا كَادُوا يرَوْنَ شُعَاعَ الشَّمْسِ، قَالَ الذِى عَلَيْهِم: ارْجِعُوا فَسَتَحفِرُونَهُ غداً إنْ شَاءَ الله، فيَعُودُونَ إليْه، وهُوَ على هَيْئَتِهِ كما تركُوه، فيَحفِرُونَهُ فيَخْرُجُونَ عَلَى النَّاس»(١). وسيأتى فى الأنبياء تمام قصة خروجهم، إن شاء الله، وهذا آخر كلام ذى القرنين.

قال تعالى: ﴿ وتركنا بعضهم يومئذ ﴾ : يوم مجىء الوعد، ويخرجون، ﴿ يموجُ فى بعض ﴾ ؛ يزدحمون فى البلاد، أو: يموج بعض الخلق فى بعض، فيضطربون ويختلطون إنسهم وجنهم، حيارى من شدة الهول. رُوِى أنهم يأتون البحر فيشربونه ويأكلون دوابه، ثم يأكلون الشجر وما ظفروا به، ممن لم يتحصن منهم من الناس، ولايقدرون على دخول مكة والمدينة وبيت المقدس، ثم يبعث الله عليهم مرضاً فى رقابهم، فيموتون مرة واحدة، فيرسل الله طيراً فترميهم فى البحر، ثم يرسل مطراً تغسل الأرضَ منهم، ثم توضع فيها البركة، وهذا بعد خروج الدجال ونزول عيسى عليه السلام، ثم تنقرض الدنيا، كما قال تعالى:

﴿ ونُفخ فى الصُّور ﴾ ؛ لقيام الساعة، ﴿ فجمعناهم جمعاً ﴾ ، وسكت الحق تعالى عن النفخة الأولى؛ اكتفاء بذكرها فى موضع آخر، أى: جمعنا الخلائق بعدما تفرقت أوصالهم، وتمزقت أجسادهم، فى صعيد واحد؛ للحساب والجزاء، جمعاً عجيباً لا يُكْتَنَهُ كُنْهُهُ، ﴿ وعرَضْنَا جهنم ﴾ ؛ أظهرناها وأبرزناها ﴿ يومئذ ﴾ أى: يوم إذ جمعنا الخلائق كافة، ﴿ للكافرين ﴾ منهم، بحيث يرونها ويسمعون لها تغيظاً وزفيراً، ﴿ عَرضاً ﴾ فظيعاً هائلاً لا يقدر قدره، وخص العَرض بهم، وإن كان بمرأىً من أهل الموقف قاطبة؛ لأن ذلك لأجلهم.

ثم ذكر وصفهم بقوله: ﴿ الذين كانت أعيُنهم ﴾ وهم فى الدنيا ﴿ فى غطاء ﴾ كثيف وغشاوة غليظة ﴿ عن ذكرى ﴾ : عن سماع القرآن وتدبره، أو: عن ذكرى بالتوحيد والتمجيد، أو كانت أعين بصائرهم فى غطاء عن ذكرى على وجه يليق بشأنى، ﴿ وكانوا لا يستطيعون سمعاً ﴾ أى: وكانوا مع ذلك؛ لفرط تصامُمهم عن الحق وكمال عداوتهم للرسول ﷺ، لايستطيعون استماعاً منه لذكرى وكلامى، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولامن خلفه، وهذا تمثيل لإعراضهم عن الأدلة السمعية، كما أن الأول تصوير لتعاميهم عن الآيات المشاهدة بالأبصار.

(١) أخرجه بنحوه، مطولاً، أحمد فى المسند (٢/ ٥١٠)، والترمذى فى (التفسير)، وابن ماجة فى (الفتن، باب فتنة الرجال)، من حديث أبى هريرة رضي الله عنه.

الإشارة: السياحة فى أقطار الأرض مطلوبة عند الصوفية فى بداية المريد، أقلها سبع سنين، وقال شيخ شيوخنا سيدى على الجمل رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أقلها أربع عشرة سنة. وفيها فوائد، منها: زيارة الإخوان، والمذاكرة معهم، وهى ركن فى الطريق، ومنها: نفع عباد الله، إن كان أهلاً لتذكيرهم، (فلأن يهدى الله به رجلاً واحداً خير له مما طلعت عليه الشمس). ومنها: تأسيس باطنه وتشحيذ معرفته، ففى كل يوم يلقى تجليًا جديداً، وتلويناً غريباً، يحتاج معه إلى معرفة كبيرة وصبر جديد، فالمريد كالماء، إذا طال مُكثه فى مكانه أنتن وتغيَّر، وإذا جرى عذُب وصفَى. ومنها: أنه قد يلقى فى سياحته من يربحُ منه، أو يزيد به إلى ربه.

رُوى أن ذا القرنين بينما هو يسير فى سياحته إذ رُفع إلى أمة صالحة، يهدون بالحق وبه يعدلون، يقسمون بالسوية، ويحكمون بالعدل، وقبورهم بأبواب بيوتهم، وليْسَتْ لبيوتهم أبواب، وليس عليهم أُمراء، وليس بينهم قضاة، ولا يختلفون ولا يتنازعون، ولا يقتتلون، ولا يضحكون ولا يحزنون، ولا تُصيبهم الآفات التى تُصيب الناس، أطول الناس أعماراً، وليس فيهم مسكين ولا فظ ولا غليظ، فعجب منهم، وقال: خبِّرونى بأمركم، فلم أر فى مشارق الأرض ومغاربها مثلكم، فما بال قبوركم على أبواب بيوتكم؟ قالوا: لئلا ننسى الموت؛ ليمنعنا ذلك من طلب الدنيا، قال: فما بال بيوتكم لا أبواب لها؟ قالوا: ليس فيها متهم، ولا فينا إلا أمين مؤتمن. قال: فما بالكم ليس فيكم حكَّام؟ قالوا: لا نختصم، قال: فما بالكم ليس فيكم أغنياء؟ قالوا: لا نتكاثر. قال: فما بالكم ليس فيكم ملوك؟ قالوا: لا نفتخر، قال: فما بالكم لا تتنازعون ولا تختلفون؟ قالوا: من أُلفة قلوبنا وصلاح ذات بيننا، قال: فما بال طريقتكم واحدة وكلمتكم مستقيمة؟ قالوا: من أجل أننا لا نتكاذب، ولا نتخادع، ولا يغتاب بعضنا بعضاً. قال: أخبرونى من أين تشابهت قلوبكم واعتدلت سيرتكم؟ قالوا: صلحت صدورنا فنزع منها الغل والحسد، قال: فما بالكم ليس فيكم فقير ولا مسكين؟ قالوا: من قِبَل أنَّا نقسم بيننا بالسوية. قال: فما بالكم ليس فيكم فظ ولا غليظ؟ قالوا: من قِبَل الذلة والتواضع، قال: فما جعلكم أطول الناس أعمارا؟ قالوا: من قِبَل أنَّا لا نتعاطى إلا الحق ونحكم بالسوية. قال: فما بالكم لا تضحكون؟ قالوا: لا نغفُل عن الاستغفار. قال: فما بالكم لا تحزنون؟ قالوا: من قِبَل أنَّا وطَّنَّا أنفسنا للبلاء. فقال: فما بالكم لا تصيبكم الآفاتُ كما تصيب الناس؟ قالوا: لأنا لا نتوكل على غير الله، قال: هل وجدتم آباءكم هكذا؟ قالوا: نعم، وجدنا آباءنا يرحمون مساكينهم، ويُواسون فقراءهم، ويعفون عمن ظلمهم، ويُحسنون إلى من أساء اليهم، ويحلمون عمن جهل عليهم، ويَصلُون أرحامهم، ويؤدون أماناتهم، ويحفظون وقت صلاتهم، ويُوفون بعهدهم، ويَصدُقون فى مواعدهم، فأصلح الله تعالى بذلك أمرهم وحفظهم، ما كانوا أحياءاً، وكان حقًا علينا أن نخلفهم فى تركتهم. فقال ذو القرنين: لو كنت مُقيماً لأقمت فيكم، ولكن لم أُومر بالمقام. هـ. ذكره الثعلبى.

وقال في القوت: قوله تعالى، في صفة أعدائه المحجوبين: ﴿ كانت أعينهم في غطاء عن ذكرى ﴾ : دليل الخطاب في تدبر معناه أن أولياءه المستجيبين له سامعون منه مكاشفون بذكره، ناظرون إلى غيبه، قال تعالى في ضده: ﴿ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ ﴾[1]، وقال: ﴿ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ... ﴾[2] الآية. هـ.

وسبب غطاء القلوب عن الاستماع والاستبصار هو اتباع الهوى ومحبة غير المولى، فلذلك أنكره الحق تعالى على الكفار بقوله:

﴿ أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَ إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾ ﴾

قلت: ﴿أن يتخذوا﴾: سد مسد المفعولين، أو حذف الثاني، أي: أحَسِبوا اتخاذهم نافعهم و﴿نزلا﴾: حال من جهنم.

يقول الحق جل جلاله؛ منكراً على الكفار المتقدمين: ﴿ أفحسب الذين كفروا ﴾ حين أعرضوا عن ذكرى، وكانت أعينهم في غطاء عن رؤية دلائل توحيدي، ﴿ أن يتخذوا عبادي ﴾ كالملائكة والمسيح وعزير، أو الشياطين؛ لأنهم عباد، ﴿ من دُونِي أولياءَ ﴾ أي: معبودين من دوني، يُوالونهم بالعبادة، أن ذلك ينفعهم، أو: ألا نعذبهم على ذلك، بل نعذبهم على ذلك، ﴿ إنا أعتدنا ﴾؛ يسَّرنا وهيأنا ﴿ جهنمَ للكافرين نُزُلاً ﴾ أي: شيئاً يتمتعون به أول ورودهم القيامة. والنزُل: ما يقدم للنزيل أي: الضيف، وعدل عن الإضمار؛ ذماً لهم على كفرهم، وإشعاراً بأن ذلك الإعتاد بسبب كفرهم، وعبَّر بالإعْتادِ؛ تهكمًا بهم، وتخطئة لهم، حيث كان اتخاذهم أولياء من قبيل العتاد، وإعداد الزاد ليوم المعاد، فكأنه قيل: إنا أعتدنا لهم، مكان ما أعدوا لأنفسهم من العدة والذُخْرِ، جهنم؛ عدة لهم. وفي ذكر النُزل: إيماء إلى أن لهم وراء جهنم من العذاب ما هو أنموذج له، وتستحقر دونه، وقيل: النزل: موضع النزول، أي: أعتدناها لهم منزلاً يقيمون فيه. والله تعالى أعلم.

الإشارة: ما أحببتَ شيئاً إلا وكنتَ له عبداً، وهو لا يُحب أن تكون لغيره عبدا، فأَفْرد قلبك لله، وأَخْرِج منه كلَّ ما سواه، فحينئذ تكونُ عبداً لله، حراً مما سواه، فكل ما سوى الله باطلٌ، وظل آفل، فكن إبراهيمياً، حيث قال: ﴿ لاأحب الآفلين ﴾[3]، فارفع أيها العبد همتك عن الخلق، وعلقها بالملك الحق، فلا تُحب إلا الله، ولا تطلب شيئاً

(١) مِن الآية ٢٠ من سورة هود.
(٢) الآية ٢٤ من سورة هود.
(٣) مِن الآية ٧٦ من سورة الأنعام.

سواه، كائناً ما كان، من جنس الأشخاص، أو من جنس الأحوال أو المقامات أو الكرامات؛ لئلا تنخرط في سلك من اتخذ من دون الله أولياء، فتكون كاذباً في العبودية.

رُوِى عن الشيخ أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنه أنه قال: قرأتُ الفاتحة، فقلت: الحمد لله رب العالمين. فقال لي الهاتف مِنْ قِبَلِ الله تعالى: صدقت، فقلت: الرحمن الرحيم، فقال: صدقت. فقلت: مالك يوم الدين، فقال: صدقت. فلما قلتُ: إياك نعبد، قال كذبتَ؛ لأنك تعبد الكرامات، قال: ثم أدبني، وتبت لله تعالى. ذكره ابن الصباغ مُطولاً. قلت: ولعله قبل ملاقاة الشيخ، ولذلك عاتبه بقوله: يا أبا الحسن عِوضَ ما تقول: «سَخِّرْ لي خلقك»، قل: يارب كن لي، أرأيت إن كان لك أيفوتك شيء؟ نفعنا الله بجميعهم.

وهذا الغلط يقع للمتوجهين ولغيرهم، يظنون أنهم يُحسنون صُنعاً، وهم يسيئون، كما قال تعالى:

﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿١٠٦﴾ ﴾

قلت: ﴿أعمالا﴾: تمييز، و﴿في الحياة﴾: متعلق بسعيهم.

يقول الحق جل جلاله: ﴿قل﴾ يامحمد: ﴿هل نُنبئكم﴾ يامعشر الكفرة ﴿بالأخسرين أعمالاً﴾ أي: بالذين خسروا من جهة أعمالهم؛ كصدقةٍ، وعتق، وصلة رحم، وإغاثة ملهوف، حيث عملوها في حال كفرهم فلم تُقبل منهم، وهم: ﴿الذين ضلَّ سعيُهُم﴾ أي: بطل بالكلية ﴿في الحياة الدنيا﴾ أي: بطل ما سَعْوا فيه في الحياة الدنيا وعملوه، ﴿وهم يَحسبون﴾: يظنون ﴿أنهم يُحسنُون صُنعًا﴾ أي: يأتون بها على الوجه الأكمل، وقد تركوا شرط صحتها وكمالها، وهو الإيمان، واختلف في المراد بهم، فقيل: مشركو العرب، وقيل: أهل الكتابين، ويدخل في الأعمال ما عملوه في الأحكام المنسوخة المتعلقة بالعبادات. وقيل: الرهبان الذين يحبسون أنفسهم في الصوامع ويحمّلونَها على الرياضات الشاقة.

والمختار: العموم في كل من عمل عملاً فاسداً، يظن أنه صحيح من الكفرة، بدليل قوله: ﴿أولئك الذين كفروا بآيات ربهم﴾: بدلائل التوحيد، عقلاً ونقلاً، ﴿ولقائه﴾: البعث وما يتبعه من أمور الآخرة، ﴿فحَبِطَتْ﴾ لذلك ﴿أعمالُهم﴾ المعهودة حبوطاً كلياً، ﴿فلا نُقيم لهم﴾ أي: لأولئك الموصوفين بحبوط

الأعمال، ﴿ يومَ القيامة وزنًا ﴾ أى: فنُهينُهم، ولا نجعل لهم مقداراً واعتباراً؛ لأن مدار التكريم: الأعمالُ الصالحة، وقد حبطت بالمرة؛ قال ﷺ: «يُؤتى بالرَّجُل السَّمين العَظِيم يوْمَ القِيَامة، فلاَ يزَنُ جنَاحَ بَعُوضَةٍ؛ اقرَأوا إن شِئتُمْ: ﴿فلا نُقِيمُ لَهُمْ يوْمَ القِيَـامَةِ وَزْنًا﴾»(١). أو: لا نضع لأجل وزن أعمالهم ميزاناً؛ لأن الكفر أحبطها. أو: لا نقيم لهم وزناً نافعاً. قال أبوسعيد الخدرى رضي الله عنه : يأتى أناسٌ بأعمالهم يوم القيامة، هى عندهم فى العِظَم كجبال تهامة، فإذا وزنوها لا تزن شيئاً، فذلك قوله: ﴿فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا﴾.

ثم بيّن مآل كفرهم بعد أن بيّن مآل أعمالهم، فقال: ﴿ ذلك ﴾ الصنف الذين حبطت أعمالهم ﴿ جزاؤُهم جهنمُ ﴾، أو الأمر ذلك، ثم استأنف بقوله: ﴿ جزاؤُهم جهنمُ بما كفروا ﴾ أى: بسبب كفرهم المتضمن لسائر القبائح، التى من جملتها ما تضمنه قوله: ﴿ واتَّخذُوا آياتى ﴾ الدالة على توحيدى أو كلامى، أو معجزاتى، ﴿ ورسُلى هُزُواً ﴾ أى: مهزواً بهم، فلم يقتنعوا بمجرد الكفر، بل ارتكبوا ما هو أعظم، وهو الاستهزاء بالآيات والرسل. عائذاً بالله من ذلك.

الإشارة: كل آية فى الكفار تجر ذيلها على الغافلين، فكل من قنع بدون عبادة فكرة الشهود والعيان، ينسحب عليه من طريق الباطن أنه ضل سعيه، وهو يحسب أنه يُحسن صُنعاً، فلا يقام له يوم القيامة وزن رفيع، فتنسحب الآية على طوائف، منها: منْ عَبَدَ اللهَ لطلب المنزلة عند الناس، وهذا عين الرياء؛ رُوى عن عثمان أنه قال على المنبر: (الرياء سبعون باباً، أهونها مثل نكاح الرجل أمه). ومنها: من عَبَدَ اللهَ لطلب العوض والجزاء عند الخواصّ، ومنها: من عبدالله لطلب الكرامات وظهور الآيات، ومنها: من عبدالله بالجوارح الظاهرة، وحجب عن الجوارح الباطنة، وهى عبادة القلوب، فإن الذرة منها تعدل أمثال الجبال من عبادة الجوارح، ومنها: من وقف مع الاشتغال بعلم الرسوم، وغفل عن علم القلوب، وهو بطالة وغفلة عند المحققين، ومنها: من قنع بعبادة القلوب، كالتفكر والاعتبار، وغفل عن عبادة الأسرار، كفكرة الشهود والاستبصار، والحاصل: أن كل من وقف دون الشهود والعيان فهو بطّال، وإنْ كان لا يشعر، وإنما ينكشف له هذا الأمر عند الموت وبعده، وسيأتى عند قوله تعالى: ﴿ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴾(٢)، زيادة بيان على هذا إن شاء الله. فقد يكون الشىء عبادة عند قوم وبطالة عند آخرين؛ حسنات الأبرار سيئات المقربين. ولايفهم هذا إلا من ترقى عن عبادة الجوارح إلى عبادة القلوب والأسرار. وبالله التوفيق.

---

(١) أخرجه البخارى فى (تفسير سورة الكهف)، ومسلم فى (صفات المنافقين وأحكامهم، باب صفة القيامة والجنة والنار)، عن أبى هريرة رضي الله عنه.
(٢)الآية ٤٧ من سورة الزمر.

ثم ذكر ضد من تقدم من الكفرة، فقال:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾ قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١١٠﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿إن الذين آمنوا﴾ بآيات ربهم ولقائه، ﴿وعملوا﴾ الأعمال ﴿الصالحات، كانت لهم﴾؛ فيما سبق من حكم الله تعالى ووعده، ﴿جنَّاتُ الفردوسِ﴾، وهي أعلى الجنان. وعن كعب: أنه ليس في الجنة أعلى من جنة الفردوس، وفيها الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر، أي: أهل الوعظ والتذكير من العارفين. وعن رسول الله ﷺ أنه قال: «في الجنَّةِ مائةُ درجةٍ، ما بيْنَ كلِّ درجتين كما بيْنَ السَّماءِ والأرْضِ، أعلاها الفِرْدَوس، ومِنْها تفجَّرُ أنهارُ الجنَّةِ، فوْقَها عرْشُ الرحْمن، فإذا سألْتُم اللهُ فسلُوه الفِرْدَوْسَ»(١).

وقال أيضا ﷺ: «جنان الفردوس أربع: جنتان من فضَّةٍ، أبنيتهما وآنيتهما، وجنَّتان من ذهب، أبنيتهما وما فيهما، وما بين القومِ وبين أن ينظُرُوا إلى ربهمْ إلا رِداءُ الكبْرياءِ على وجْهِه»(٢)، وقال قتادة: الفردوس: ربوة الجنة. وقال أبو أمامة: هي سرة الجنة. وقال مجاهد: الفردوس: البستان بالرومية. وقال الضحاك: هي الجنة الملتفة الأشجار.

كانت لهم ﴿نُزُلاً﴾ أي: مقدمة لهم عند ورودهم عليه، على حذف مضاف، أي: كانت لهم ثمار جنة الفردوس نُزلا، أو جعلنا نفس الجنة نُزلا؛ مبالغةً في الإكرام، وفيه إيذان بأن ما أعدَّ الله لهم على ما نطق به الوحي على لسان النبوة بقوله: «أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطَرَ على قلب بشر». هو بمنزلة النُّزُل بالنسبة إلى الضيافة وما بعدها، وإن جُعلَ النُّزُل بمعنى المنزل؛ فظاهر. ﴿خالدين فيها لا يبْغُون عنها حِوَلاً﴾ أي: لا يطلبون تحولاً عنها؛ إذ لا يتصور أن يكون شيء أعز عندهم، وأرفع منها، حتى تنزع إليه أنفسهم، أو تطمح نحوه أبصارهم. ونعيمهم مجدد بتجدد أنفاسهم، لا نفادَ له ولا نهاية؛ لأنه مكون بكلمة «كن»، وهي لا تتناهى.

(١) أخرجه، بنحوه، البخاري في (كتاب التوحيد، باب: وكان عرشه على الماء)؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) أخرجه البخاري في (تفسير سورة الرحمن، باب ومن دونهما جنتان)، ومسلم في (الإيمان، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سبحانه وتعالى)، من حديث عبدالله بن قيس.

قال تعالى: ﴿ قل لو كان البحرُ ﴾ أي: جنس البحر ﴿ مِدَادًا ﴾ ، وهو ما تمد به الدواة من الحبْر، ﴿ لِكلماتِ ربي ﴾ وهي ما يقوله سبحانه لأهل الجنة، من اللطف والإكرام، مما لا تكيفُه الأوهام، ولا تحيط به الأفكار، فلو كانت البحار مداداً والأشجار أقلاماً لنفدت، ولم يبق منها شيء، ﴿ قبل أن تنفد كلماتُ ربي ﴾ ؛ لأن البحار متناهية، وكلمات الله غير متناهية. ثم أكده بقوله: ﴿ ولو جئنا بمثله مَدَدًا ﴾ أي: لنفد البحر من غير نفاد كلماته تعالى، هذا لو لم يجئ بمثله مدداً، بل ولو جئنا بمثله ﴿ مددًا ﴾ ؛ عوناً وزيادة؛ لأن ما دخل عالم التكوين كله متناهٍ.

﴿ قل ﴾ لهم: ﴿ إنما أنا بشرٌ مثلكم ﴾ يتناهى كلامي، وينقضي أجلي، وإنما خُصصت عنكم بالوحي والرسالة؛ ﴿ يُوحى إليَّ ﴾ من تلك الكلمات: ﴿ أنما إلهكم إله واحد ﴾ لا شريك له في الخلق، ولا في سائر أحكام الألوهية، ﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه ﴾ : يتوقعه وينتظره، أو يخافه، فالرجاء: توقع وصول الخير في المستقبل، فمن جعل الرجاء على بابه، فالمعنى: يرجو حسن لقاء ربه وأن يلقاه لقاء رضىً وقبول. ومن حمله على معنى الخوف، فالمعنى: يخاف سوء لقائه. قال القشيري: حَمْلُه على ظاهره أوْلى؛ لأن المؤمنين قاطبةً يرجون لقاءَ الله، فالعارفون بالله يرجون لقاءه والنظر إليه، والمؤمنون يرجون لقاءه وكرامته بالنعيم المقيم. هـ. بالمعنى.

والتعبير بالمضارع في (يرجو)؛ للدلالة على أن اللائق بحال المؤمنين: الاستمرار والاستدامة على رجاء اللقاء، أي: فمن استمر على رجاء لقاء كرامة الله ورضوانه ﴿ فليعمل ﴾ ؛ لتحصيل تلك الطلبة العزيزة ﴿ عملاً صالحًا ﴾ ، وهو الذي توفرت شروط صحته وقبوله، ومدارها على الإتقان؛ ظاهراً، و الإخلاص؛ باطناً. وقال سهل: العمل الصالح: المقيد بالسنَّة، وقيل: هو اعتقاد جواز الرؤية وانتظار وقتها. ﴿ ولا يُشركْ بعبادةِ ربه أحدًا ﴾ إشراكاً جلياً، كما فعل الذين ضلَّ سعيهم في الحياة الدنيا؛ حيث كفروا بآيات ربهم ولقائه، أو إشراكاً خفياً، كما يفعله أهل الرياء، ومن يطلب به عوضاً أو ثناءً حسنا.

قال شهر بنُ حَوْشب: جاء رجل إلى عبادة بن الصامت، فقال: أرأيت رجلا يُصلي يبتغي وجه الله، ويحب أن يُحمد عليه، ويتصدق يبتغي وجه الله ويُحب أن يُحمد عليه، ويحج كذلك؟ قال عبادة: ليس له شيء، إن الله تعالى يقول: «أنا خيرُ شريك، فمن كان له شريك فهو له». وروى أن جُنْدَبَ بْنَ زُهَيْرٍ قَالَ لِرَسُولِ الله ﷺ: إنّي لأعْمَلُ العَمَلَ لله تَعَالى، فإذا اطُّلِعَ عَلَيْهِ سرَّني، فقال له عليه الصلاة والسلام: «لَكَ أجْرَانِ: أجْرُ السِّرِّ، وأجْرُ العَلاَنِيَةِ» (١)

(١) أخرجه الترمذي في (الزهد، باب عمل السر)، وابن ماجة في (الزهد، باب الثناء الحسن)، عن أبي هريرة بدون ذكر جندب ابن زهير.

وذلك إذا قصد أن يُقتدَى به، وكان مُخلصاً في عمله. وعنه ﷺ أنه قال: «اتقوا الشرك الأصغر، قالوا: وما الشرك الأصغر؟ قال: الرياء»(١).

وقال ﷺ ـ لما نزلت هذه الآية ـ: «إن أخوف ما أخاف على أمتي الشرك الخفي، وإياكم وشرك السرائر، فإنَّ الشرك أخفى في أمتي من دبيب النمل على الصفا في الليلة الظلماء»، فشق ذلك على القوم، فقال النبي ﷺ: «ألا أدلكم على ما يذهب الله عنكم صغير الشرك وكبيره؟ قالوا: بلى، قال: قولوا: «اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم، وأستغفرك من كل ما لا أعلم».

وعنه ﷺ أنه قال: «مَنْ قَرأ آخِرَ سُورَة الكَهف ـ يعني: ﴿إن الذين آمنوا ...﴾ إلى آخره ـ كَانَتْ لَهُ نُوراً من قَرْنِه إلى قَدَمِه، وَمَنْ قَرأَها كلّها كانَتْ له نُوراً من الأرْضِ إلى السَّماء»(٢). وعنه ﷺ: «مَنْ قَرأ عِنْدَ مَضْجعه: ﴿قل إنما بشر مثلكم...﴾ الخ، كَانَ لَهُ مِنْ مَضْجَعِه نُوراً يَتَلألأُ إلى مَكَّةَ، حَشْوُ ذلكَ النُّور ملائكةٌ يُصلُّون حَتَّى يَقُوم، وإنْ كانَ بِمَكَّةَ كان لَهُ نُورا إلى البَيْتِ المَعْمُور». قلت: ومما جرّب أن من قرأ هذه الآية؛ (إن الذين آمنوا...) الخ، ونوى أن يقوم في أي ساعة شاء، فإن الله تعالى يُوقظه بقدرته. وانظر الثعلبي.

الإشارة: إن الذين آمنوا إيمان الخصوص، وعملوا عمل الخصوص ـ وهو العمل الذي يقرب إلى الحضرة ـ كانت لهم جنة المعارف نُزلا، خالدين فيها لا يبغون عنها حولا؛ لأنَّ من تمكن من المعرفة لا يُعزل عنها، بفضل الله وكرمه، كما قال القائل:

مُذْ تَجمَّعتُ ما خشيتُ افتِراقاً فأنَا اليَومَ وَاصِلٌ مَجْمُوعُ

ثم يترقون في معاريج التوحيد، وأسرار التفريد، أبداً سرمدا، لا نهاية؛ لأن ترقيتهم بكلمة القدرة الأزلية، وهي كلمة التكوين، التي لا تنفد؛ (قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي...) الآية. هذا مع كون وصف البشرية لا يزول عنهم، فلا يلزم من ثبوت الخصوصية عدم وصف البشرية. قل: إنما أنا بشر مثلكم يُوحى إليّ وحي إلهام، ويلقى في روعي أنما إلهكم إله واحد، لا ثاني له في ذاته ولا في أفعاله، فمن كان يرجو لقاء ربه في الدنيا لقاء الشهود والعيان، ولقاء الوصول إلى صريح العرفان؛ فليعمل عملاً صالحا، الذي لا حظ فيه للنفس؛ عاجلاً ولا آجلا، ولايشرك بعبادة ربه أحدا، فلا يقصد بعبادته إلا تعظيم الربوبية، والقيام بوظائف العبودية، والله تعالى أعلم، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم تسليما، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم*.

❁ ❁ ❁

(١) أخرجه أحمد في المسند (٥/٤٢٨)، والبغوي في شرح السنة (١٤/٣٢٤).
(٢) أخرجه أحمد في المسند (٣/٤٣٩)، وابن السني في عمل اليوم والليلة (باب ما يستحب أن يقرأ في اليوم والليلة) من حديث معاذ. قال الحافظ ابن حجر: وفي إسناده ابن لهيعة.
* في آخر نسخة د. حسن عباس: انتهى الجزء الثاني من تفسير القرآن المجيد، للعلامة الأديب، فريد عصره، ووحيد دهره، سيدي أحمد بن عجيبة الشريف، غفر الله له، ولكاتبه، وللمسلمين أجمعين، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً.. أمين.

سورة مريم

مكية ـ وهى ثمان وتسعون آية. والمقصود من السورة الرد على النصارى فى إشراكهم عيسى عليه السلام لله تعالى فى ألوهيته، فهى كالتتميم لقوله: ﴿ولا يشرك بعبادة ربه أحداً﴾[1].

قال تعالى: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿كهيعص ①﴾

قيل: هى مختصرة من أسماء الله تعالى، فالكاف من كافٍ، والهاء من هادٍ، والياء من يمين، والعين من عليم أو عزيز، والصاد من صادق. قاله الهروي عن ابن جبير.

قال أبو الهيثم: جعل الياء من يمين، من قولك: يَمَن الله الإنسانَ يَيْمنُهُ يَمناً فهو ميْمون. هـ. ولذا ورد الدعاء بها، فقد رُوى عن عليّ ـ كرم الله وجهه ـ أنه كان يقول: (يا كهيعص؛ أعوذ بك من الذنوب التى تُوجب النقم، وأعوذ بك من الذنوب التى تغير النعم، وأعوذ بك من الذنوب التى تهتك العِصَم، وأعوذ بك من الذنوب التى تحبس غيث السماء، وأعوذ بك من الذنوب التى تُديل الأعداء، انصرنا على من ظلمنا)[2]. كان يقدم هذه الكلمات بين يدى كل شدة. فيحتمل أن يكون توسل بالأسماء المختصرة من هذه الحروف، أو تكون الجملة، عنده، اسماً واحداً من أسماء الله تعالى، وقيل: هو اسم الله الأعظم. ويحتمل أن يشير بهذه الرموز إلى معاملته تعالى مع أحبائه، فالكاف كفايته لهم، والهاء هدايته إياهم إلى طريق الوصول إلى حضرته، والياء يُمنه وبركته عليهم وعلى من تعلق بهم، والعين عنايته بهم فى سابق علمه، والصاد صدقه فيما وعدهم به من الإتحاف والإكرام. والله تعالى أعلم.

وقيل: هى مختصرة من أسماء الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ أي: يا كافى، يا هادى، يا ميمون، يا عين العيون، أنت صادق مصدق. وعن ماضى بن سلطان تلميذ أبى الحسن الشاذلى ـ رضى الله عنهما ـ: [أنه رأى فى منامه أنه اختلف مع بعض الفقهاء فى تفسير قوله: (كهيعص. حم. عسق)، فقلت: هى أسرار بين الله تعالى وبين رسوله ﷺ، وكأنه قال: «كاف»؛ أنت كهف الوجود، الذى يؤم إليه كلُّ موجود، «ها»؛ هبنا لك الملك، وهيأنا لك الملكوت، «يع»؛ يا عين العيون، «ص»؛ صفات الله (من يُطع الرسولَ فقد أطاع الله)، «حا»؛ حببناك، «ميم»

---

(1) من الآية ١١٠ من سورة الكهف.

(2) أخرجه بنحوه الإمام أحمد فى المسند (١/ ١١٢).

ملّكناك، «عين» علمناك، «سين»؛ ساررناك، «قاف»؛ قربناك. فنازعونى فى ذلك ولم يقبلوه، فقلت: نسير إلى النبى ﷺ ليفصل بيننا، فسرنا إليه، فلقينا رسول الله ﷺ، فقال لنا: الذى قال محمد بن سلطان هو الحق]. وكأنه يشير إلى أنها صفات أفعال.

قال تعالى:

﴿ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾ ﴾

قلت: (ذكر): خبر عن مضمر، أى: هذا ذكر، والإشارة للمتلو فى هذه السورة؛ لأنه باعتبار كونه على جناح الذكر فى حكم الحاضر الشاهد. وقيل: مبتدأ حُذف خبره، أى: فيما يتلى عليك ذكر رحمت ربك. وقيل: خبر عن (كهيعص)، إذا قلنا؛ هى اسم للسورة، أى: المسمى بهذه الحروف ذكر رحمة ربك، و(عبده): مفعول لرحمة ربك، على أنها مفعول لما أضيف إليها، أو لذكر، على أنه مصدر أضيف إلى فاعله على الاتساع. ومعنى ﴿ذكر الرحمة﴾: بلوغها إليه، و(زكريا): بدل منه، أو عطف بيان، و(إذ نادى): ظرف لرحمة، وقيل: لذكْر، على أنه مضاف إلى فاعله، وقيل: بدل اشتمال من زكريا، كما فى قوله: ﴿ **وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ**... ﴾[1]، و(منّى): حال من العظْم، أى: كائناً منى، و(شيئاً): تمييز.

يقول الحق جل جلاله: هذا الذى نتلوه عليك فى هذه السورة هو ﴿ **ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا** ﴾. قال الثعلبى: [فيه تقديم وتأخير]. أى: ذكر ربك عبده زكريا برحمته، ﴿ **إِذْ نَادَى رَبَّهُ** ﴾ وهو فى محرابه فى طلب الولد ﴿ **نِدَاءً خَفِيًّا** ﴾: سراً من قومه، أو فى جوف الليل، أو مخلصاً فيه لم يطلع عليه إلا الله. ولقد راعى عليه السلام حسن الأدب فى إخفاء دعائه، فإنه أدْخَلُ فى الإخلاص وأبْعَدُ من الرياء، وأقرب إلى الخلاص من كلام الناس، حيث طلب الولد فى غير إبّانه ومن غائلة مواليه الذين كان يخافهم.

﴿ **قَالَ** ﴾ فى دعائه: ﴿ **رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي** ﴾ أى: ضعف بدنى وذهبت قوتى. وإسناد الوهن إلى العظْم؛ لأنه عماد البدن ودعامة الجسد، فإذا أصابه الضعف والرخاوة أصاب كله، وإفراده للقصد إلى الجنس المنبىء عن شمول الوهن إلى كل فرد من أفراده. ووهن بدنه عليه السلام: لكبر سنه، قيل: كان ابن سبعين، أو خمساً وسبعين، وقيل: مائة، وقيل: أكثر.

---

(١) الآية ١٦ من السورة نفسها.

﴿ واشتعل الرأسُ شيبًا ﴾ أى: ابيــضَّ شَمَطاً. شبه عليه السلام الشيب من جهة البياض والإنارة بشواظ النار، وانتشاره فى الشعر وفُشوِّه فيه وأخذه منه كل مأخذ باشتعالها، ثم أخرجه مخرج الاستعارة، ثم أسند الاشتعال إلى محل الشعر ومنبته وهو الرأس، وأُخرجه مخرج التمييز، ففيه من فنون البلاغة وكمال الجزالة ما لا يخفى، حيث كان الأصل: واشتعل شيب رأسى، فأسند الاشتعال إلى الرأس؛ لإفادة شموله لكلها، فإن وِزَانَهُ: اشتعل بيته ناراً بالنسبة إلى اشتعلت النار فى بيته، ولزيادة تقريره بالإجمال أولاً، والتفصيل ثانياً، ولمزيد تفخيمه بالتكثير من جهة التنكير.

ثم قال: ﴿ ولم أكن بدعائك ربِّ شقيًا ﴾ أى: لم أكن بدعائى إياك خائباً فى وقت من أوقات هذا العمر الطويل، بل كنت كلما دعوتك استجبتَ لى. توسل إلى الله بسابق حسن عوائده فيه، لعله يشفع له ذلك بمثله، إثر تمهيد ما يستدعى ويستجلب الرأفة من كبر السن وضعف الحال. والتعرض فى الموضعين لوصف الربوبية لتحريك سلسلة الإجابة بالمبالغة فى التضرع، ولذلك قيل: من أراد أن يُستجاب له فليدعُ الله بما يناسبه من أسمائه وصفاته.

ثم قال: ﴿ وإنى خفتُ الموالى ﴾ أى: الأقارب، وهم: بنو عمه، وكانوا أشرار بنى إسرائيل، فخاف ألا يحسنوا خلافته فى أمته، فسأل الله تعالى ولداً صالحاً يأمنه على أمته. وقوله: ﴿ من ورائى ﴾ : متعلق بمحذوف، أى: جور الموالى، أو مما فى الموالى من معنى الولاية، أى: خفت أن يلوا الأمر من ورائى، ﴿ وكانت امرأتى عاقرًا ﴾ : لا تلد من حين شبابها، ﴿ فهبْ لى من لدنك ﴾ أى: أعطنى من محض فضلك الواسع، وقدرتك الباهرة، بطريق الاختراع، لا بواسطة الأسباب العادية؛ لأن التعبير بِلَدُنّ يدل على شدة الاتصال والالتصاق، ﴿ وليًا ﴾ : ولداً من صلبى، يلِى الأمر من بعدى.

والفاء: لترتيب ما بعدها على ما قبلها، فإن ما ذكره عليه السلام من كبر السن وعقر المرأة موجب لانقطاع رجائه عن الولد بتوسط الأسباب، فاستوهبه على الوجه الخارق للعادة، ولا يقدح فى ذلك أن يكون هناك داعٍ آخر إلى الإقبال على الدعاء المذكور، من مشاهدته للخوارق الظاهرة عند مريم، كما يعرب عنه قوله تعالى: ﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ﴾(١). وعدم ذكره هنا اكتفاء بما تقدم، فإن الاكتفاء بما ذكر فى موطن عما ترك فى موطن آخر من النكتة التنزيلية. وقوله: ﴿ يرثنى ﴾ : صفة لوليًا، وقرئ بالجزم هو وما عطف عليه جواباً للدعاء، أى: يرثنى من حيث العلم والدين والنبوة، فإن الأنبياء ـ عليهم السلام ـ لا يورثون من جهة المال. قال: ﷺ «نحن معاشر الأنبياءِ لا نُورَثُ»(٢). وقيل: يرثنى فى الحبورة، وكان عليه السلام حبرًا.

(١) من الآية ٣٨ من سورة آل عمران.
(٢) أخرجه الإمام أحمد فى المسند (٢/٤٦٣).

﴿ ويرثُ من آل يعقوب ﴾ النبوة والمُلك والمال. قيل: هو يعقوب بن إسحاق. وقال الكلبى ومقاتل: هو يعقوب ابن ماثان، أخو عمران بن ماثان، أبى مريم، وكانت زوجة زكريا أخت أم مريم، وماثان من نسل سليمان عليه السلام، فكان آل يعقوب أخوال يحيى. قال الكلبى: كان بنو ماثان رؤوس بنى إسرائيل وملوكهم، وكان زكريا رئيس الأحبار يومئذ، فأراد أن يرث ولده حبورته، ويرث من بنى ماثان ملكهم. هـ.

﴿ واجعله ربِّ رَضِيًّا ﴾ أى: مرضياً، فعيل بمعنى مفعول، أى: ترضى عنه فيكون مرضياً لك، ويحتمل أن يكون مبالغة من الفاعل، أى: راضياً بتقديرك وأحكامك التعريفية والتكليفية. والله تعالى أعلم.

الإشـارة: طلب الوارث الروحانى ـ وهو وارث العلم والحال ـ جائز ليبقى الانتفاع به بعد موته. وقيل: السكوت والاكتفاء بالله أولى، ففى الحديث: «يرحمُ اللَّهُ أخانا زكرِيًّا، ومَا كَان علَيْه مَنْ يَرِثُه»(١). وقوله تعالى: ﴿نداء خفياً﴾. الإخفاء عند الصوفية أولى فى الدعاء والذكر وسائر الأعمال، إلا لأهل الاقتداء من الكَمَلَة، فهم بحسب ما يبرز فى الوقت.

وقوله تعالى: ﴿ ولم أكن بدعائك رب شقيا ﴾. فيه قياس الباقى على الماضى، فالذى أحسن فى الماضى يحسن فى الباقى، فهذا أحد الأسباب فى تقوية حسن الظن بالله؛ وأعظم منه من حسّن الظن بالله؛ لما هو متصف به تعالى من كمال القدرة والكرم، والجود والرأفة والرحمة، فإن الأول ملاحظ للتجربة، والثانى ناظر لعين المنَّة. قال فى الحكم: «إن لم تحسن ظنك به لأجل وصفه، حسّن ظنك به لوجود معاملته معك، فهل عوّدك إلا حَسَناً؟ وهل أسدى إليك إلا مننا؟».

ثم ذكر إجابته لزكريا عليه السلام، فقال:

﴿ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ لَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ مِن قَبۡلُ سَمِيّٗا ۝٧ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيّٗا ۝٨ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ وَقَدۡ خَلَقۡتُكَ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ تَكُ شَيۡـٔٗا ۝٩ قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٖ سَوِيّٗا ۝١٠ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنَ ٱلۡمِحۡرَابِ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ أَن سَبِّحُواْ بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ۝١١ ﴾

(١) أخرجه عبد الرزاق فى تفسيره (٣/٢)، وابن جرير (٤٨/١٦) عن قتادة.

قلت : «عتِياً» : مصدر، من عتا يعتو، وأصله : عتوو، فاستثقل توالى الضمتين والواوين، فكسرت التاء، فقلبت الأولى ياء؛ لسكونها وانكسار ما قبلها، ثم قُلبت الثانية أيضًا؛ لاجتماع الواو والياء، وسبق إحداهما بالسكون. (قال كذلك) : خبر، أي: الأمر كذلك، فيوقف عليه، ثم يقول: (قال ربك)، أو مصدر لقال الثانية، أي: مثل ذاك القول قال ربك. و(سوياً) : حال من فاعل (تكلم).

يقول الحق جل جلاله : ﴿ يا زكريا ﴾، كلمهُ بواسطة الملَك: ﴿ إنا نُبشركَ ﴾ ونجيب دعوتك ﴿ بغُلامٍ اسمه يَحيى ﴾ ؛ لأنه حيى به عُقْمُ أمه. أجاب نداءه فى الجملة، لا من كل وجه، بل على حسب المشيئة، فإنه طلب ولداً يرثُه، فأجيب في الولد دون الإرث؛ فإن الجمهور على أن يحيى مات قبل موت أبيه ـ عليهما السلام ـ وقيل: بقى بعده برهة، فلا إشكال حينئذ. وفى تعيين اسمه تأكيد للوعد وتشريف له، وفى تخصيصه به ـ كما قال تعالى: ﴿ لم نجعل له من قبلُ سَمِيًّا ﴾ أى: شريكاً فى الاسم، حيث لم يتسم به أحد قبله ـ مزيد تشريف وتفخيم له عليه السلام؛ فإن التسمية بالأسماء البديعة الممتازة عن أسماء الناس تنويه بالمسمى لا محالة[1]. وقيل: (سميًا) : شبيهًا فى الفضل والكمال، كما قال تعالى: ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴾[2] فإنه عليه السلام لم يكن قبله أحد مثله فى بعض أوصافه، لأنه لم يهم بمعصية قط، وأنه ولد لشيخ فانٍ، وعجوز عاقر، وأنه كان حصوراً، ولم تكن هذه الخصال لغيره.

﴿ قال ربَ أنّى يكونُ لى غلامٌ ﴾ أى: من أين وكيف يحدث لى غلام، ﴿ وكانت امرأتى عاقراً ﴾: عقيمة، ﴿ وقد بلغتُ من الكِبَر عتيًا ﴾ : يبسًا فى الأعضاء والمفاصل، ونحولاً فى البدن، لِكِبَرِه، وكان سنُّه إذ ذاك مائة وعشرين، وامرأته ثمان وتسعين. وتقدم الخلاف فيه. وإنما قاله عليه السلام مع سبق دعائه وقوة يقينه، لاسيما بعد مشاهدته للشواهد المذكورة فى آل عمران؛ استعظاماً لقدرة الله تعالى، وتعجيباً منها، واعتداداً بنعمته تعالى عليه فى ذلك، بإظهار أنه من محض فضل الله وكرمه، مع كونه فى نفسه من الأمور المستحيلة عادة. وقيل: كان دهشًا من ثمرة الفرح، وقيل: كان ذلك منه استفهامًا عن كيفية حدوثه. وقيل: بل كان ذلك بطريق الاستبعاد، حيث كان بين الدعاء والبشارة ستُون سنة، وكان قد نسى دعاءه، وهو بعيد.

﴿ قال كذلك ﴾ أى: الأمر كما ذكر من كبر السن وعقم المرأة، لكن هو على قدرتنا هين، ولذلك قال: ﴿ قال ربك هو علىَ هيّنٌ ﴾، أو مثل ذلك القول البديع قال ربك، ثم فسره بقوله: ﴿ هو علىَ هيِّن ﴾، أو «مثل» مقحمة، أى: ذلك قال ربك. والإشارة إلى مصدره، الذى هو عبارة عن إيجاد الولد السابق، أو كذلك قضى ربك.

---

(١) وجه الفضيلة: أن الله تعالى تولى تسميته، ولم يكل ذلك إلى أبويه، فسمّاه باسم لم يُسبق إليه... راجع: زاد المسير (٥/٢١٠).
(٢) من الآية ٦٥ من سورة مريم.

ثم قال: ﴿هو عليَّ هيِّن وقد خلقتُك من قبلُ ولم تكُ شيئًا﴾ أي: وقد أوجدت أصلك «آدم» من العدم، ثم نشأتَ أنت من صلبه، ولم تك شيئًا، فإن نشأة آدم عليه السلام وتصويره منطوية على نشأة أولاده، ولذلك قال في آية أخرى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾(١) الآية. انظر تفسير أبي السعود.

﴿قال ربِّ اجعلْ لي آية﴾ أي: علامة تدلني على تحقق المسئول، وبلوغ المأمول، وهو حمل المرأة بذلك الولد، لأتلقى تلك النعمة العظيمة بالشكر حين حدوثها، ولا أؤخر الشكر إلى وقت ظهورها، وينبغي أن يكون سؤاله الآية بعد البشارة ببرهة من الزمان؛ لما يُروى أن (يحيى كان أكبر من عيسى - عليهما السلام - بستة أشهر، أو بثلاث سنين)، ولا ريب في أن دعاء زكريا عليه السلام كان في صغر مريم، لقوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ﴾(٢)، وهي إنما ولدت عيسى عليه السلام وهي بنت عشر سنين، أو ثلاث عشرة سنة، أو يكون تأخر ظهورُ الآية إلى قرب بلوغ مريم - عليها السلام.

﴿قال﴾ له تعالى: ﴿آيتك ألاّ تُكلّم الناس﴾ أي: أن لا تقدر على أن تُكلم الناسَ مع القدرة على الذكر، ﴿ثلاثَ ليالٍ﴾ بأيامهن، للتصريح بها في آل عمران(٣)، حال كونك ﴿سويًا﴾ أي: سَوِيّ الخلْق سليم الجوارح، مابك شائبة بَكَمٍ ولا خَرَس، وإنما مُنعت بطريق الاضطرار مع كمال الأعضاء. وحكمة منعه؛ لينحصر كلامه في الشكر والذكر في تلك الأيام.

﴿فخرج على قومه من المحراب﴾: من المصلى، وكان مغلقاً عليه، فالمحراب مكان التعبد، أو من الغرفة، وكانوا من وراء المحراب ينتظرونه أن يفتح لهم الباب، ليدخلوا ويُصلوا، إذ خرج عليهم متغيراً لونه، فأنكروه، وقالوا له: مالَك؟ ﴿فأوحى إليهم﴾ أي: أومأ إليهم، وقيل: كتب في الأرض: ﴿أن سبِّحوا﴾ أي: صلوا ﴿بُكرةً وعَشيًا﴾: صلاة الفجر وصلاة العصر، ولعلها كانت صلاتهم. أو: نزهوا ربكم طرفي النهار، ولعله أُمِر أن يُسبح فيها شكراً، ويأمر قومه بذلك. والله تعالى أعلم.

الإشـارة: إجابة الدعاء مشروطة بالاضطرار، قال تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾(٤) وفي الحِكَم: «ما طَلَبَ لك شيءٌ مثلُ الاضطرار، ولا أسرع بالمواهب مثل الذلة والافتقار». فإذا اضطررت إلى مولاك، فلا محالة يجيب دعاك، لكن فيما يريد لا فيما تريد، وفي الوقت الذي يريد، لا في الوقت الذي تريد. فلا تيأس ولا تستعجل (والله يعلم وأنتم لا تعلمون). فإذا رأيت مولاك أجابك فيما سألته، فاجعل كلامك كله في شكره وذكره، واستفرغ أوقاتك، إلا من شهود إحسانه وبره. وبالله التوفيق.

---

(١) الآية ١١ من سورة الأعراف.
(٢) من الآية ٣٨ من سورة آل عمران.
(٣) في قوله تعالى: ﴿قال آيتك ألا تُكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزًا﴾ الآية ٤١.
(٤) من الآية ٦٢ من سورة النمل.

ثم ذكر وصيته ليحيى عليه السلام ونعوته، فقال:

﴿ يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾ ﴾

قلت: «صبيا»: حال من مفعول «آتيناه»، و«حناناً» و«زكاة»: عطف على «الحُكْم». و«من لدنا»: متعلق بمحذوف، صفة له مؤكدة لما أفاده التنوين من الفخامة الذاتية، أي: وآتيناه الحكم وتحنُّناً عظيماً واقعاً من جنابنا، أوشفقة في قلبه ورحمة على أبويه وغيرهما. قال ابن عباس: (ما أدرى ما حناناً إلا أن يكون تعطف رحمة الله على عباده). ومنه قولهم: «حنانَيْكَ»، مثل سعديْك، وأصله: من حنين الناقة على ولدها، و(براً): عطف على «تقياً».

يقول الحق جل جلاله: ﴿ **يا يحيى** ﴾ أي: قلنا يا يحيى، وهذا استئناف طُوى قبله جمل كثيرة، مما يدل على ولادته ونشأته، حتى أوحى إليه، ثم قال له: ﴿ **يا يحيى خُذ الكتاب** ﴾ أي: التوراة، وقيل: كتاب خُص به، فدلت الآية على رسالته. وفي تفسير ابن عرفة: أن يحيى رسول كعيسى. هـ. وقوله: ﴿ **بقوة** ﴾ أي: بجد واجتهاد، وقيل: بالعمل به، ﴿ **وآتيناه الحُكم صبياً** ﴾، قال ابن عباس: (الحكم هنا النبوة، استنبأه وهو ابن ثلاث سنين)، قلت: كون الصبي نبياً جائز عقلاً، واقع عند الجمهور، وأما بعثه رسولاً فجائز عقلاً، وظاهر كلام الفخر[1] هنا أنه واقع، وأن يحيى وعيسى بُعثا صغيرين. وقال ابن مرزوق في شرح البخاري ما نصـــه: (الأعم: بعث الأنبيـاء بعد الأربعين)؛ لأنه بلوغ الأشــد، وقيل: أرسل يحيى وعيسى - عليهما الســلام - صبيين. وقال ابن العربي: يجوز، ولم يقع.

وقول عيسى عليه السلام: (إني عبد الله) إخبار عما وجب في المستقبل، لا عما حصل. واستُشْكِل جواز بعث الصبي بأنه تكليف، وشرطُه: البلوغ، إن كانت الشرائع فيه سواء. انظر المحشي الفاسي. قلت: والذي يظهر أن يحيى وعيسى - عليهما السلام - تنبئا صغيرين، وأرسلا بعد البلوغ. والله تعالى أعلم. وقيل: الحكم: الحكمة وفهم التوراة والفقه في الدين. رُوي أنه دعاه الصبيان إلى اللعب، فقال: ما لِلَعِبٍ خُلقت.

﴿ **و** ﴾ آتيناه ﴿ **حنانًا** ﴾ أي: تحنُّنًا عظيـمًا ﴿ **من لَدُنَّا** ﴾: من جناب قدسنا، أو تحنـنـاً من الناس عليه. قـال عوف: الحنان المحبَّب، ﴿ **وزكاة** ﴾: طهـارة من العيـوب والذنوب، أو صدقـة تصدقنا به على أبويه، أو: وفقناه للتصدق على الناس. ﴿ **وكان تقياً** ﴾؛ مطيعاً لله، متجنباً للمعاصي، ﴿ **وبراً بوالديه** ﴾: لطيفاً بهما محسناً إليهما،

---

(١) أي الفخر الرازي في تفسيره.

﴿ولم يكن جباراً عصياً﴾؛ متكبراً عاقاً، فالجبّار: هو المتكبر، لأنه يجبر الناس على أخلاقه. وقيل: من لا يقبل النصيحة، أو عاصياً الله تعالى. ﴿وسلامٌ عليه﴾ أي: سلامة من الله تعالى عليه، ﴿يوم وُلِدَ﴾ من أن يناله الشيطان بما ينال بنى آدم، ﴿ويومَ يموتُ﴾ من عذاب القبر، ﴿ويوم يُبعث حياً﴾ من هول القيامة وعذاب النار.

رُوى أن يحيى وعيسى - عليهما السلام - التقيا، فقال له يحيى: استغفر لى، فأنت خيرمنى، فقال له عيسى: أنت خير منى، أنا سلمت على نفسى وأنت سلم الله عليك.

الإشـارة: أخذ الكتاب بالقوة - وهو الجد والاجتهاد فى قراءته - هو أن يكون متجرداً لتلاوته، منصرف الهمة إليه عن غيره، فلا يصدق على العبد أن يأخذ كتاب ربه بقوة، حتى يكون هكذا عند تلاوته. قال الورتجبى: ﴿خُذ الكتابَ بقـوة﴾ أى: خـذ كتابنا بنا لابك، والكتاب كلام الحق الأزلى، أى: خـذ الكتاب الأزلى بالقوة الأزلية. هـ. ومعناه أن يكون التالى فانياً عن نفسه، متكلماً بربه، ويسمعه من ربه، فهذا حال المقربين. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر قصة مريم - عليها السلام - فقال:

﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَـٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَـٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَـٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ ﴾

قلت: (إذ انتبذت): بدل اشتمال من مريم، على أن المراد بها نبؤها، فإن الظرف مشتمل على ما فيها، وقيل: بدل الكل، على أن المراد بالظرف ما وقع فيه. وقيل: «إذ» ظرف لنبأ المقدر، أى: اذكر نبأ مريم حين انتبذت؛ لأن الذكر لا يتعلق بالأعيان، لكن لا على أن يكون المأمور به ذكر نبأها عند انتباذها فقط، بل كل ما عطف عليه وحكى بعده بطريق الاستئناء داخل فى حيز الظرف متمم للنبأ. و(مكاناً): مفعول بانتبذت، باعتبار ما فيه من معنى الإتيان، أى: اعتزلت وأتَتْ مكاناً شرقياً، أو ظرف له، أى: اعتزلت فى مكان شرقى. و(بَشراً): حال. وجواب (إن كنت): محذوف، أى: إن كنت تقياً فإنى عائذة بالرحمن منك. و(بَغِيًّا) أصله: بغوي، على وزن فعول،

فأدغمت الواو - بعد قلبهـا ياء - في الياء، وكسرت الغين للياء[1]، و(لنجعله): متعلق بمحذوف، أي: ولنجعله آية فعلنا ذلك، أو معطوف على محذوف، أي: لنُبين لهم كمال قدرتنا ولنجعله.. الخ. أو على جملة: (هو على هين)؛ لأنها في معنى العلة، أي: كذلك قال ربك؛ لقدرتنا على ذلك؛ ولنجعله.. إلخ.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ **واذكرْ** ﴾ يا محمد ﴿ **في الكتاب** ﴾: القرآن، والمراد هذه السورة الكريمة؛ لأنها هي التي صُدرت بذكر زكريا، واستتبعت بذكر قصة مريم؛ لما بينهما من الاشتباك. أي: اذكر في الكتاب نبأ ﴿ **مريم إذ انتبذتْ** ﴾؛ حين اعتزلت ﴿ **من أهلها** ﴾ وأتت ﴿ **مكانًا شرقيًا** ﴾ من بيت المقدس، أو من دارها لتتخلى فيه للعبادة، ولذلك اتخذت النصارى المشرق قبلة. وقيل: قعدت في مشربة لتغتسل من الحيْض، محتجبة بشيء يسترها، وذلك قوله تعالى: ﴿ **فاتخذتْ من دونهم حجابًا** ﴾، وكان موضعها المسجد، فإذا حاضت تحولت إلى بيت خالتها، وإذا طهرت عادت إلى المسجد. فبينما هي تغتسل من الحيض، محتجبةً دونهم، أتاها جبريل عليه السلام في صورة آدمي، شاب أمرد، وضيء الوجه.

قال تعالى: ﴿ **فأرسلنا إليها رُوحنا** ﴾: جبريل عليه السلام، عبّر عنه بذلك؛ توْفية للمقام حقه. وقرىء بفتح الراء؛ لكونه سببًا لما فيه روح العباد، يعني اتباعه والاهتداء به، الذي هو عدة المقربين في قوله: ﴿ **فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ، فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ** ﴾[2]. ﴿ **فتمثَّل لها بشرًا سويًا** ﴾: سويّ الخلق، كامل البنية، لم يفقد من حِسان نعوت الآدمية شيئًا، وقيل: تمثل لها في صورة شاب تِرْب[3] لها، اسمه يوسف، من خدَم بيت المقدس، وإنما تمثل لها في تلك الصورة الجميلة لتستأنس به، وتتلقى منه ما يلقى إليها من كلامه تعالى؛ إذ لو ظهر لها على صورة الملَكية، لنفرت منه ولم تستطع مقاومته.

وأما ما قيل من أن ذلك لتَهيج شهوتُها، فتنحدر نطفتها إلى رحمها، فغلط فاحش، ينحو إلى مذهب الفلاسفة، ولعلها نزعة مسروقة من مطالعة كتبهم، يُكذبه قوله تعالى: ﴿ **قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيًا** ﴾، فإنه شاهد عدل بأنه لم يخطر ببالها ميل إليه، فضلاً عن ما ذكر من الحالة المترتبة على أقصى مراتب الميل والشهوة. نعم يمكن أن يكون ظهر على ذلك الحُسن الفائق والجمال اللائق؛ لابتلائها واختبار عِفتها، ولقد ظهر منها من الورع والعفاف ما لا غاية وراءه. وذِكْرُ عنوان الرحمانية؛ للمبالغة في العياذ به تعالى، واستجلاب آثار الرحمة الخاصة، التي هي العصمة مما دهمها. قاله أبو السعود. وقولها: ﴿ **إن كنتَ تقيًا** ﴾ أي: تتقي الله فتُبالي بالاستعاذة به.

---

(١) أي لمناسبة الياء. (٢) الآيتان ٨٨ - ٨٩ من سورة الواقعة.
(٣) أي: في مثل سنها: فالتِّرْبُ: اللِّدَةُ والسِّنُّ... انظر: اللسان (ترب ١/٤٢٥).

﴿ قال إنما أنا رسولُ ربك ﴾ أى: لستُ ممن يتوقع منه ما توهمت من الشر، وإنما أنا رسول من استعذت برحمانيته؛ ﴿ لأهَبَ لك غُلامًا ﴾ أى: لأكون سبباً فى هبة الغلام، أو: ليهب لك ربُك غُلاماً - فى قراءة الياء -. والتعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميرها؛ لتشريفها وتسليتها، والإشعار بعلية الحكم؛ فإن هبة الغلام لها من أحكام تربيتها. وقوله: ﴿ زكيًا ﴾ أى: طاهراً من العيوب صالحاً، أو تزكو أحواله وتنمو فى الخير، من سن الطفولية إلى الكبر.

﴿ قالت أنَّى يكونُ لى غلامٌ ﴾ كما وصفتَ، ﴿ و ﴾ الحال أنه ﴿ لم يَمْسَسنى بشرٌ ﴾ بالنكاح، ﴿ ولم أكُ بغيًا ﴾؛ زانية فاجرة تبتغي الرجال؟ ﴿ قال ﴾ لهـا الملك: ﴿ كذلك ﴾ أى: الأمر كما قلتُ لك ﴿ قال ربكِ هو عليَّ هيِّنٌ ﴾ أى: هبة الغلام من غير أن يمسسك بشرٌ هين سهل على قدرتنا، وإن كان مستحيلاً عادة؛ لأنى لا أحتاج إلى الأسباب والوسائط، بل أمرنا بين الكاف والنون، ﴿ و ﴾ إنما فعلنا ذلك ﴿ لنجعله آيةً للناس ﴾ يستدلون به على كمال قدرتنا. والالتفات إلى نون العظمة؛ لإظهار كمال الجلالة، ﴿ و ﴾ لنجعله ﴿ رحمةً ﴾ عظيمة كائنة ﴿ منا ﴾ عليهم، ليهتدوا بهدايته، ويُرشدوا بإرشاده. ﴿ وكان ﴾ ذلك ﴿ أمراً مقضيًا ﴾ فى الأزل، قد تعلق به قضاء الله وقدره، وسُطِّر فى اللوح المحفوظ، فلا بُدّ من جريانه عليك، أو: كان أمراً حقيقاً بأن يقضى ويفعل؛ لتضمنه حِكَماً بالغة وأسراراً عجيبة. والله تعالى أعلم.

الإشـارة: لا تظهر النتائج والأسرار إلا بعد الانتباذ عن الفجار، وعن كل ما يشغل القلب عن التذكار، أو عن الشهود والاستبصار، فإذا اعتزل مكاناً شرقيًا، أى: قريباً من شروق الأنوار والأسرار، بحيث يكون قريباً من أهل الأنوار، أو بإذنهم، أرسل الله إليه روحاً قدسيًا، وهو وارد ربانى تحيا به روحُه وسرُه وقلبُه وقالبُه، فيهب له علماً لدنيا، وسراً ربانياً، يكون آية لمن بعده، ورحمة لمن اقتدى به وتبعه. وبالله التوفيق.

ثم ذكر حملها وولادتها وما كان من شأنها مع قومها، فقال:

﴿ ۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا

﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ
أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا
﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى
بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ
عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾﴾

قلت : (رُطباً) : تمييز، فيمن أثبت التاءين[1]، أو حذف إحداهما، ومفعول به، فيمن قرأ بتاء واحدة مع كسر القاف.

يقول الحق جل جلاله : ﴿ **فحملَتْهُ** ﴾ بأن نفخ جبريل فى درعها، فدخلت النفخة فى جوفها. قيل: إن جبريل عليه السلام رفع درعها فنفخ فى جيبه، وقيل: نفخ عن بُعد، فوصل الريح إليها فحملت فى الحال، وقيل: إن النفخة كانت فى فيها، وكانت مدة حملها سبعة أشهر، وقيل: ثمانية. ولم يعش ولد من ثمانية. وفى ابن عطية: تظاهرت الروايات أنها ولدت لثمانية أشهر، ولذلك لا يعيش ابن ثمانية أشهر؛ حفظاً لخاصية عيسى، فتكون معجزة له .هـ. وقيل: تسعة أشهر. وقيل: ثلاث ساعات، حملته فى ساعة، وصُور فى ساعة، ووضعته فى ساعة حين زالت الشمس. وقيل: ساعة، ما هو إلا أن حملت فوضعت، وسنها حينئذ ثلاث عشرة سنة، وقيل: عشر سنين، وقد حاضت حيضتيْن.

﴿ **فانتبذَتْ به** ﴾ أى: فاعتزلت ملتبسة به حين أحست بقرب وضعها، ﴿ **مكانًا قَصيًا** ﴾ : بعيداً من أهلها وراء الجبل، وقيل: أقصى الدار. ﴿ **فأجاءها المخاضُ** ﴾ ؛ فألجأها المخاض. وقرئ بكسر الميم. وكلاهما مصدر، مَحَضت المرأة: إذا تحرك الولد فى بطنها للخروج، ﴿ **إلى جِـذْعِ النخلة** ﴾ لتستتر به، أو لتعتمد عليه عند الولادة، وهو ما بين العِرق والغصن. وكانت نخلة يابسة، لا رأس لها ولا قعدة، قد جيىء بها لبناء بيت، وكان الوقت شتاء، والتعريف فى النخلة إما للجنس أو للعهد، إذ لم يكن ثَمَّ غيرها، ولعله تعالى أَلهمها ذلك ليريها من آياتها ما يسكن روعتها، وليطعمها الرطب، الذى هو من طعام النفساء الموافق لها.

﴿ **قالت** ﴾ حين أخذها وجع الطلْق: ﴿ **يا ليتنى متُّ** ﴾[2] بكسر الميم، من مات يَمَاتُ، وبالضم، من مات

---

(١) فى قوله تعالى: (تساقط).
(٢) قرأ نافع وحفص وحمزة والكسائى وخلف: «مِت» بكسر الميم، والباقون بالضم.

يموت، ﴿ قبل هذا ﴾ الوقت الذى لقيتُ فيه ما لقيت، وإنما قالته، مع أنها كانت تعلم ما جرى لها مع جبريل عليه السلام من الوعد الكريم؛ استحياء من الناس، وخوفاً من لائمتهم، أو جرياً على سنن الصالحين عند اشتداد الأمر، كما رُوى عن عمر رضي الله عنه أنه أخذ تِبْنَةً من الأرض، فقال: «ليتني هذه التبنة ولم أكن شيئا». وقال بلال: (ليت بلالاً لم تلده أمه). ثم قالت: ﴿ وكنتُ نَسْيًا ﴾(١) أى: شيئًا تافهًا شأنه أن يُنسى ولا يُعتد به، ﴿ منسيًا ﴾ لا يخطر ببال أحد من الناس. وقُرئ بفتح النون، وهما لغتان؛ نِسى ونَسْى، كالوَتْر والوِتْر. وقيل: بالكسر: اسم ما ينسى، وبالفتح: مصدر.

﴿ فناداها ﴾ أى: جبريل عليه السلام ﴿ مِنْ تحتها ﴾، قيل: إنه كان يقبل الولد من تحتها، أى: من مكان أسفل منها. وقيل: من تحت النخلة، وقيل: ناداها عيسى عليه السلام، ويرجحه قراءة من قرأ بفتح الميم، أى: فخاطبها الذى تحتها: ﴿ أن لا تحزنى ﴾، أو: بألا تحزنى، على أنّ «أنْ» مفسرة، أو مصدرية، حذف عنها الجار. ﴿ قد جعل ربك تحتَك ﴾ أى: بمكان أسفل منك ﴿ سَرِيًا ﴾ أى: نهراً صغيراً، حسبما رُوى مرفوعًا.(٢) قال ابن عباس رضى الله عنهما: (إن جبريل عليه السلام ضرب برجله الأرض، فظهرت عين ماء عذب، فجرى جدولا). وقيل: فعله عيسى، أى: ضرب برجله فجرى، وقيل: كان هناك نهر يابس - أجرى الله تعالى فيه الماء، كما فعل مثله بالنخلة، فإنها كانت يابسة لا رأس لها، فأخرج لها رأسًا وخُوصًا وثمراً. وقيل: كان هناك نهرُ ماء. والأول أظهر؛ لأنه الموافق لبيان إظهار الخوارق، والمتبادر من النظم الكريم.

وقيل: (سريا) أى: سيداً نبيلاً رفيعَ الشأن جليلاً، وهو عيسى عليه السلام، والتنوين حينئذ للتفخيم. والجملة تعليل لانتفاء الحزن المفهوم من النهى. والتعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميرها؛ لتشريفها وتأكيد التعليل وتكميل التسلية.

ثم قال: ﴿ وهُزّى إليك ﴾ أى: حركى النخلة إليك، أى: جاذبة لها إلى جهتك. فهزُّ الشىء: تحريكه إلى الجهات المتقابلة تحريكاً عنيفًا، والمراد هنا ما كان بطريق الجذب والدفع. والباء فى قوله: ﴿ بجذع النخلة ﴾: صلة للتأكيد، لقول العرب: هزَّ الشىء وهز به، أو للإلصاق. فإذا هززت النخلة ﴿ تَسَّاقَط ﴾(٣) أى: تتساقط. وقُرئ: تساقطَ، وتُسقِط، أى: النخلة عليك إسقاطاً متواتراً بحسب تواتر الهز ﴿ رُطبًا جنيًا ﴾ أى: طرياً، وهو ما قطع قبل يبسه. فعيل بمعنى مفعول، أى: مجنيًا صالحًا للاجتناء. ﴿ فكُلى ﴾ من ذلك الرطب

---

(١) قرأ حفص وحمزة بفتح النون، والباقون بكسرها.. انظر الإتحاف (٢/٢٣٥).
(٢) أخرج المرفوع الطبرانى فى المعجم الصغير (١/٢٤٤) من حديث البراء بن عازب، وأخرجه فى الكبير (١٢/٣٤٦ ح١٣٣٠٣) من حديث ابن عمر.
(٣) هذه قراءة نافع، وابن كثير، وأبى عمرو، وابن عمرو، والكسائى. وقرأ حفص «تُساقِط» بضم التاء وتخفيف السين وكسر القاف. وقرأ حمزة «تَساقَط» بفتح التاء والقاف وتخفيف السين، والأصل: تتساقط. انظر: التبصرة/٢٥٦، والإتحاف (٢/٢٣٥).

﴿ واشربي ﴾ من ذلك السري، ﴿ وقَرِّي عيناً ﴾ ؛ وطيبي نفساً وارفضي عنك ماأحزنك وأهمك، فإنه تعالى قد نزه ساحتك عن التُهم، بما يفصح بـه لسان ولدك من التبرئة . أو: وقري عيناً بحفظ الله ورعايته في أمورك كلها. وقرة العين: برودتها، مأخوذ من القرّ، وهو البرد؛ لأن دمع الفرح بارد، ودمع الحزن سُخن، ولذلك يقال: قرة العين للمحبوب، وسُخنة العين للمكروه.

﴿ فإما تَرَيِنَّ من البشر أحداً ﴾ آدمياً كائناً من كان ﴿ فقولي ﴾ له إن استنطقك أو لامك: ﴿ إني نذرتُ للرحمن صوماً ﴾ أي: صمتاً، وقُرىء كذلك، وكان صيامهم السكوت، فكانوا يصومون عن الكلام كما يصومون عن الطعام. وذكر ابن العربي في الأحوذي: أن نبينا ـ عليه الصلاة والسلام ـ اختص بإباحة الكلام لأمته في الصوم، وكان محرماً على من قبلنا، عكس الصلاة . هـ . قالت: ﴿ فلن أُكَلِّمَ اليوم إنسياً ﴾ أي: بعد أن أخبرتكم بنذري، وإنما أكلم الملائكة أو أناجي ربي. وقيل: أُمرت بأن تُخبر عن نذرها بالإشارة. قال الفراء: العرب تُسمى كل ما وصل إلى الإنسان كلاماً، ما لم يؤكّد بالمصدر، فإذا أُكد لم يكن إلا حقيقة الكلام. هـ . وإنما أُمرت بذلك ونذرته؛ لكراهة مجادلة السفهاء ومقاولتهم، وللاكتفاء بكلام عيسى عليه السلام؛ فإنه نص قاطع في قطع الطعن.

﴿ فأتت به قومَها ﴾ عندما طَهُرت من نفاسها، ﴿ تحمله ﴾ أي: حاملة له. قال الكلبي: احتمل يوسف النجار ـ وكان ابن عمها ـ مريمَ وابنها عيسى، فأدخلهما غاراً أربعين يوماً، حتى تعلَّتْ من نفاسها، ثم جاءت به تحمله بعد أربعين يوماً، وكلمها عيسى في الطريق، فقال: يا أمه، أبشري، فإني عبد الله ومسيحه. فلما رآها أهلُها، بَكَوا وحزنوا، وكانوا قوماً صالحين. ﴿ قالوا يا مريمُ لقد جئتِ ﴾ أي: فعلت ﴿ شيئاً فَرِيّاً ﴾ : عظيماً بديعاً منكراً، من فَرَى الجلد: قطعه. قال أبو عبيدة: (كل فائق من عَجَب أو عمل فهو فَرِيّ). قال النبي ﷺ: في حق عمر رضي الله عنه : «فلم أرَ عبقرياً من النّاس يفْرِي فَرِيَه»(١) أي: يعمل عمله.

﴿ يا أخت هارون ﴾، عنوا هارون أخا موسى؛ لأنها كانت من نسله، أي: كانت من أعقاب من كان معه في طبقة الأخوة، وكان بينها وبينه ألفُ سنة. أو يا أخت هارون في الصلاح والنسك، وكان رجلاً صالحاً في زمانهم اسمه هارون، فشبهوها به. ذُكِر لما مات تبع جنازته أربعون ألفاً، كلهم يسمى هارون من بني إسرائيل. وقيل: إن هارون الذي شبهوها به كان أفسق بني إسرائيل، فشتموها بتشبيهها به. ﴿ ما كان أبوك ﴾ عمران ﴿ امْرأَ سَوْءٍ

---

(١) أخرجه البخاري في مواضع، منها: (فضائل الصحابة، باب مناقب عمر بن الخطاب رضي الله عنه) عن عبد الله بن عمر، وأخرجه مسلم في (فضائل الصحابة، باب من فضائل عمر رضي الله عنه) عن أبي هريرة، ولفظ الحديث كاملاً كما في البخاري: قال ﷺ: «أريت في المنام أني أنزع بدلْو على بكرةِ على قليب، فجاء أبو بكر فنزع ذنوباً أو ذنوبين نزعاً ضعيفاً، والله يغفر له، ثم جاء عمر بن الخطاب، فاستحالت غرباً، فلم أر عبقرياً يفري فريه، حتى روى الناس وضربوا بعطنٍ».

وما كانت أُمك بغياً ﴾ ، فمن أين لك هذا الولد من غير زوْج؟. هذا تقرير لكون ما جاءت به فرياً منكراً، أو تنبيهٌ على أن ارتكاب الفواحش من أولاد الصالحين أفحش الفواحش.

﴿ فأشارتْ إليه ﴾ أي: إلى عيسى أن كلموه، ولم تكلمهم وفاء بنذرها، وإشارتها إليه من باب الإدلال، رجوعاً لقوله لها: (وقرى عيناً)، ولا تقر عينها إلا بالوفاء بما وُعدت به؛ من العناية بأمرها والكفاية لشأنها، وذلك يقتضى انفرادها بالله وغناها به، فتدل بالإشارة. وكان ذلك طوعَ يدها، وتذكّر قضية جريج. قاله فى الحاشية. ﴿ قالوا ﴾ منكرين لجوابها: ﴿ كيف نُكلم من كان فى المهد صبياً ﴾ ، ولم يُعهد فيما سلف صبى يكلمه عاقل. «كان» هنا: تامة. و«صبياً»: حال. وقيل: زائدة، أى: من هو فى المهد.

﴿ قال ﴾ عيسى عليه السلام: ﴿ إنى عبد الله ﴾ ، أنطقه الله تعالى بذلك، تحقيقاً للحق، ورداً على من يزعم ربوبيته. قيل كان المستنطق لعيسى زكريا ـ عليهما السلام ـ وعن السدى: (لما أشارت إليه، غضبوا، وقالوا: لَسُخْرِيَتُّها بنا أشدُّ علينا مما فعلت). رُوى أنه عليه السلام كان يرضع، فلما سمع ذلك ترك الرضاع، وأقبل عليهم بوجهه، واتكأ على يساره، وأشار بسبابته، فقال ما قال. وقيل: كلمهم بذلك، ثم لم يتكلم حتى بلغ مبلغاً يتكلم فيه الصبيان.

ثم قال فى كلامه: ﴿ آتانى الكتابَ ﴾ : الإنجيل: ﴿ وجعلنى ﴾ مع ذلك ﴿ نبيًا ، وجلعنى مباركًا ﴾ : نفّاعاً للناس، معلماً للخير ﴿ أينما كنتُ ﴾ أى: حيثما كنت، ﴿ وأوصانى بالصلاة ﴾ : أمرنى بها أمراً مؤكداً، ﴿ والزكاة ﴾ ؛ زكاة الأموال، أو بتطهير النفس من الرزائل ﴿ مادمتُ حيًا ﴾ فى الدنيا. ﴿ و ﴾ جعلنى ﴿ براً بوالدتى ﴾ فهو عطف على ﴿ مباركًا ﴾ . وقرئ بالكسر، على أنه مصدر وُصف به مبالغةً، وعبّر بالفعل الماضى فى الأفعال الثلاثة؛ إما باعتبار ما سبق فى القضاء المحتوم، أو بجعل ما سَيَقع واقعاً لتحققه. ثم قال: ﴿ ولم يجعلنى جباراً شقيًا ﴾ عند الله تعالى، بل متواضعًا ليناً، سعيداً مقرباً، فكان يقول : سلونى، فإن قلبى لين، وإنى فى نفسى صغير، لما أعطاه الله من التواضع.

ثم قال: ﴿ والسلام علىَّ يوم ولدتُ ويوم أموتُ ويوم أُبعث حيًا ﴾ ، كما تقدم على يحيى. وفيه تعريض بمن خالفه، فإن إثبات جنس السلام لنفسه تعريض بإثبات ضده لأضداده، كما فى قوله تعالى: ﴿ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ ﴾(١) ؛ فإنه تعريض بأن العذاب على من كذّب وتولى.

فهذا آخر كلام عيسى عليه السلام، وهو أحد من تكلم فى المهد، وقد تقدم ذكرهم فى سورة يوسف نظماً ونثراً. وكلهم معروفون، غير أن ماشطة ابنة فرعون لم تشتهر حكايتها. وسأذكرها كما ذكرها الثعلبى. قال: قال ابن عباس: (لما أسرى بالنبى ﷺ مرت به ريح طيبة فقال: يا جبريل ما هذه الرائحة؟ قال: رائحة ماشطة بنتِ فرعون، كانت

(١) الآية ٤٧ من سورة طه.

تمشطها، فوقع المشط من يدها، فقالت: بسم الله، فقالت ابنته: أبي؟ فقالت: لا، بل ربي وربك ورب أبيك. فقالت: أُخبر بذلك أبي؟ قالت: نعم، فأخبرته فدعاها، وقال: من ربك؟ قالت: ربي وربك في السماء، فأمر فرعون ببقرة - أي: آنية عظيمة من نحاس - فأُحْمِيَتْ، ودعاها بولدها، فقالت: إن لي إليك لحاجةً، قال: وما حاجتك؟ قالت: تجمع عظامي وعظامَ ولدي فتدفنها جميعاً، قال: وذلك لك علينا من الحق، سأفعل ذلك لك، فأمر بأولادها واحداً واحداً، حتى إذا كان آخر ولدها، وكان صبياً مرضعاً، قال: اصبري يا أمه.. فألقاها في البقرة مع ولدها[1].هـ.

الإشارة: يؤخذ من الآية أمور صوفية، منها: أن الإنسان يُباح له أن يستتر في الأمور التي تهتك عرضه، ويهرب إلى مكان يُصان فيه عرضه، إلا أن يكون في مقام الرياضة والمجاهدة، فإنه يتعاطى ما تموت به نفسه، ومنها: أنه لا بأس أن يلجأ الإنسان إلى ما يخفف آلامه ويسهل شدته، ولا ينافي توكله. ومنها: أن لا بأس أن يتمنى الموت إذا خاف ذهاب دينه أو عرضه، أو فتنة تحول بينه وبين قلبه. ويُؤخذ أيضاً من الآية: أن فزع القلب عند الصدمة الأولى لا ينافي الصبر والرضا؛ لأنه من طبع البشر، وإنما ينافيه تماديه على الجزع.

ومنها: أن تحريك الأسباب الشرعية لا ينافي التوكل، لقوله تعالى: (وهُزي إليك). لكن إذا كانت خفيفة مصحوبة بإقامة الدين، غير معتمد عليها بقلبه، فإن كان متجرداً فلا يرجع إليها حتى يكمل يقينه، ويتمكن في معرفة الحق تعالى. وقد كانت في بدايتها تأتي إليها الأرزاق بغير سبب كما في سورة آل عمران[2]، وفي نهايتها قال لها: (وهُزي إليك). قال الشيخ أبو العباس المرسي رضي الله عنه: كانت في بدايتها متعرفًا إليها بخرق العادات وسقوط الأسباب، فلما تكمل يقينها رجعت إلى الأسباب، والحالة الثانية أتم من الحالة الأولى، وأما من قال: إن حبها أولاً كان لله وحده، فلما ولدت انقسم حبها، فهو تأويل لا يرضى ولا ينبغي أن يلتفت إليه، لأنها صدّيقة، والصدّيق والصدّيقة لا ينتقلان من حالة إلا إلى أكمل منها.

ومنها: أن الإنسان لا بأس أن يوجب على نفسه عبادة، إذا كان يتحصن بها من الناس، أو من نفسه، كالصوم أو الصمت[3] أو غيرهما، مما يحجزه عن العوام، أو عن الانتصار للنفس.

وقوله تعالى: (والسلام عليّ يوم وُلدتُ...) الآية: قال: الورتجبي: سلام يحيى سلام تخصيص الربوبية على العبودية. ثم قال: وسلام عيسى من عين الجمع، سلام فيه مزية ظهور الربوبية في معدن العبودية. وأرفع المقامين سلام الحق على سيد المرسلين كفاحًا في وصاله وكشف جماله، ولو سَلَّم عليه بلسانه كان بلسان الحدث، ولا يبلغ رتبة سلامه بوصف قِدَمه. هـ.

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (١/٣٠٩) مرفوعاً. والحديث في مجمع الزوائد (١/٦٥) وعزاه لأحمد والبزار والطبراني في الكبير والأوسط.
(٢) في قوله تعالى: ﴿كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا قال يامريم أنى لك هذا قالت هو من عند الله..﴾ الآية ٣٧.
(٣) قلت: ما قاله جائز في الصوم، وغير جائز في الصمت؛ لما ورد في الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر الذي نذر الصوم والصمت أن يتم صومه، وأن يتكلم. فتأمله؛ فإنه دقيق.

ثم شرع في الرد على النصارى، وعلى من أشرك معه غيره، فقال تعالى:

﴿ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾

قلت: ﴿وإن الله﴾: عطف على قوله: (إنى عبد الله) فيمن كسر، وعلى حذف اللام فيمن فتح، أي: ولأن الله ربى وربكم. وقال الواحدى وأبو محمد مكي: عطف على قوله: (بالصلاة) أي: أوصانى بالصلاة وبأن الله... الخ: وقال المحلي: بالفتح، بتقدير اذكر، وبالكسر بتقدير «قل». و(قول الحق): مصدر مؤكد لقال، فيمن نصب، وخبر عن مضمر، فيمن رفع، أي: هو، أو هذا. و(إذا قضى): بدل من (يوم الحسرة)، أو ظرف للحسرة. و(هم في غفلة وهم لا يؤمنون): جملتان حاليتان من الضمير المستقر في الظرف في قوله: (في ضلال مبين) أي: مستقرين في الضلال وهم في تينك الحالتين.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ **ذلك** ﴾ المنعوت بتلك النعوت الجليلة، والأوصاف الحميدة هو ﴿ **عيسى ابنُ مريم** ﴾، لا ما يصفه النصارى به من وصف الألوهية، فهو تكذيب لهم على الوجه الأبلغ والمنهاج البرهاني، حيث جعله موصوفًا بأضداد ما يصفونه به. وأتى بإشارة البعيد؛ للدلالة على علو رُتبته وبُعد منزلته، وامتيازه بتلك المناقب الحميدة عن غيره، ونزوله منزلة المشاهد المحسوس.

هذا ﴿ **قولُ الحق** ﴾، أو قال عيسى ﴿ **قولَ الحق** ﴾ الذي لا ريب فيه، وأنه عبد الله ورسوله، ﴿ **الذى فيه يمترون** ﴾ أي: يشكون أو يتنازعون، فيقول اليهود: ساحر كذاب، ويقول النصارى: إله، أو ابن الله. ﴿ **ما كان لله أن يتخذ من ولد** ﴾ أي: **ما صح**، أو ما استقام له أن يتخذ ولداً، ﴿ **سبحانه** ﴾ وتعالى عما يقولون علواً كبيراً، فهو تنزيه عما بهتوه، ونطقوا به من البهتان، وكيف يصح أن يتخذ الله ولداً، وهو يحتاج إلى أسباب ومعالجة، وأمره تعالى أسرع من لحظ العيون، ﴿ **إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون** ﴾.

ثم قال لهم عيسى عليه السلام: ﴿ **وإنَّ الله ربي وربكم فاعبدوه** ﴾، فهو من تمام ما نطق به في المهد، ومابينهما اعتراض، للمبادرة للرد على من غلط فيه، أي: فإني عبد، وإن الله ربى وربكم فاعبدوه وحده ولا تُشركوا معه غيره، ﴿ **هذا** ﴾ الذى ذكرت لكم من التوحيد ﴿ **صراط مستقيم** ﴾ لا يضل سالكه ولا يزيغ متبعه.

قال تعالى: ﴿ فاختلف الأحزابُ من بينهم ﴾ ، الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها، تنبيهًا على سوء صنيعهم، بجعلهم ما يُوجب الاتفاق منشأ للاختلاف، فإن ما حكى من مقالات عيسى عليه السلام، مع كونها نصوصاً قاطعة فى كونه عبده تعالى ورسوله، قد اختلفت اليهود والنصارى بالتفريط والإفراط، وفرّق النصارى، فقالت النسطورية: هو ابن الله، وقالت اليعقوبية: هو الله هبط إلى الأرض ثم صعد إلى السماء، وقالت الملْكانية: هو ثالث ثلاثة. ﴿ فويلٌ للذين كفروا ﴾ وهم: المختلفون فيه بأنواع الضلالات. وأظهر الموصول فى موضع الإضمار؛ إيذاناً بكفرهم جميعًا، وإشعاراً بعِلّيّةِ الحكم، ﴿ من مَشْهَدِ يومٍ عظيم ﴾ أى: ويل لهم من شهود يوم عظيم الهول والحساب والجزاء، وهو يوم القيامة، أو: من وقت شهوده أو مكانه، أو من شهادة اليوم عليهم، وهو أن تشهد عليهم الملائكة والأنبياء - عليهم السلام - وألسنتهم وأيديهم وأرجلهم، بالكفر والفسوق.

﴿ أسمِعْ بهم وأبصِرْ ﴾ أى: ما أسمعهم وما أبصرهم، تعجب من حدة سمعهم وإبصارهم يومئذ. والمعنى: أن أسماعهم وأبصارهم ﴿ يوم يأتوننا ﴾ للحساب والجزاء جدير أن يُتعجب منها، بعد أن كانوا فى الدنيا صما عمياً. أو: ما أسمعهم وأطوعهم لما أبصروا من الهدى، ولكن لا ينفعهم يومئذ مع ضلالهم عنه اليوم، فقد سمعوا وأبصروا، حين لم ينفعهم ذلك. قال الكلبى: لا أحد يوم القيامة أسمع منهم ولا أبصر، حين يقول الله لعيسى: ﴿ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾(١) .هـ. ويحتمل أن يكون أمر تهديد لا تعجب، أى: أسمعهم وأبصرهم مواعيد ذلك اليوم، وما يحيق بهم فيه، فالجار والمجرور، على الأول، فى موضع رفع، وعلى الثانى: نصب. ﴿ لكن الظالمونَ اليومَ ﴾ أى: فى الدنيا، ﴿ فى ضلال مبين ﴾ أى: لا يدرك غايته، حيث غفلوا عن الاستماع والنظر بالكلية. ووضع الظالمين موضع الضمير؛ للإيذان بأنهم فى ذلك ظالمون لأنفسهم حيث تركوا النظر.

﴿ وأنذرهم يوم الحسرة ﴾ يوم يتحسر الناس قاطبة، أما المسىء فعلى إساءته، وأما المحسن فعلى قلة إحسانه، ﴿ إذ قُضى الأمر ﴾ أى: فرغ من يوم الحساب، وتميز الفريقان، إلى الجنة وإلى النار.

رُوى أن النبى ﷺ سُئل عن ذلك، فقال: «حين يجاء بالموت على صورة كبش أملح، فيُذبح، والفريقان ينظرون، فينادى؛ يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت، فيزداد أهل الجنة فرحًا إلى فرحهم، وأهل النار غمًا إلى غمهم، ثم قرأ ﷺ: ﴿وأنذرهم يوم الحسرة إذْ قُضى الأمر وهم فى غفلة﴾، وأشار بيده إلى الدنيا»(٢) قال مقاتل: (لولا ما قضى الله من تعميرهم فيها، وخلودهم؛ لماتوا حسرة حين رأوا ذلك). ﴿ وهم ﴾ فى

(١) الآية ١١٦ من سورة المائدة.

(٢) أخرجه البخارى فى (التفسير، باب: ﴿وأنذرهم يوم الحسرة﴾). ومسلم فى (الجنة وصفة نعيمها، باب: النار يدخلها الجبارون)، من حديث أبى سعيد الخدرى - رضى الله عنه -.

هذا اليوم ﴿فى غفلة﴾ عما يراد بهم فى الآخرة، ﴿وهم لا يُؤمنون﴾ بهذا؛ لاغترارهم ببهجة الدنيا، فلابد أن تنهد دعائمها، وتمحى بهجتها، ويفنى كل ما عليها، قال تعالى: ﴿إنا نحن نرث الأرض ومَنْ عليها﴾ لا ينبغى لأحد غيرنا أن يكون له عليها وعليكم ملك ولا تصرف، أو: إنا نحن نتوفى الأرض ومن عليها، بالإفناء والإهلاك، توفى الوارث لإرثه، ﴿وإلينا يُرجعون﴾ ؛ يُردون إلى الجزاء، لا إلى غيرنا، استقلالاً أو اشتراكاً. والله تعالى أعلم.

الإشارة: ينبغى للعبد المعتنى بشأن نفسه أن يحصّن عقائده بالدلائل القاطعة، والبراهين الساطعة، على وفاق أهل السُّنَّة، ثم يجتهد فى صحبة أهل العرفان، أهل الذوق والوجدان، حتى يُطلعوه على مقام الإحسان، مقام أهل الشهود والعيان. فإذا فرط فى هذا، لحقه الندم والحسرة، فى يوم لا ينفع فيه ذلك. فكل مَنْ تخلف عن مقام الذوق والوجدان؛ فهو ظالم لنفسه باخس لها، يلحقه شيء من الخسران، ولابد أنْ تبقى فيه بقية من الضلال، حيث فرط عن اللحوق بطريق الرجال، قال تعالى: ﴿لكن الظالمون اليوم فى ضلال مبين﴾.

(وأنذرهم يوم الحسرة) أى: يوم يرفع المقربون ويسقط المدعون. فأهل الذوق والوجدان حصل لهم اللقاء فى هذه الدار، ثم استمر لهم فى دار القرار. رُوى أن الشيخ أبا الحسن الشاذلى رضي الله عنه قال يوماً بين يدى أستاذه: (اللهم اغفر لى يوم لقائك). فقال له شيخه ـ القطب ابن مشيش ـ رضى الله عنهما: هو أقرب إليك من ليلك ونهارك، ولكن الظلم أوجب الضلال، وسبقُ القضاء حَكَمَ بالزوال عن درجة الأُنْس ومنازل الوصال، وللظالم يومٌ لا يرتاب فيه ولايخاتل، والسابق قد وصل فى الحال، «أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا لكن الظالمون اليوم فى ضلال مبين». هـ. كلامه رضي الله عنه.

ثم استتبع بذكر قصص الأنبياء، تتمة للرد على أهل الشرك، بأن الملل كلها متفقة على إبطاله، وقدّم الخليل؛ لأنه إمام أهل التوحيد، فقال:

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ ﴾

قلت: (إذ قال): بدل اشتمال من (إبراهيم)، وما بينهما: اعتراض، أو متعلق بكان.

يقول الحق جل جلاله: ﴿**واذكر في الكتاب**﴾؛ القرآن أو السورة، ﴿**إبراهيم**﴾ أي: أتل على الناس نبأه وبلغه إياهم، كقوله: ﴿**وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ**﴾(١)؛ لأنهم ينتسبون إليه عليه السلام، فلعلهم باستماع قصته يقلعون عما هم عليه من الشرك والعصيان. ﴿**إنه كان صدّيقًا**﴾؛ ملازما للصدق في كل ما يأتي ويذر، أو كثير التصديق؛ لكثرة ما صدق به من غيوب الله تعالى وآياته وكتبه ورسله، فالصدّيق مبالغة في الصدق، يقال: كل من صدق بتوحيد الله وأنبيائه وفرائضه، وعمل بما صدق به فهو صدّيق، وبذلك سُمي أبو بكر الصدّيق، وسيأتي في الإشارة تحقيقه عند الصوفيه، إن شاء الله.

والجملة: استئناف مسوق لتعليل موجب الأمر؛ فإن وصفه عليه السلام بذلك من دواعي ذكره، وكان أيضا ﴿**نبياً**﴾، أي: كان جامعاً بين الصديقية والنبوة، إذ كل نبي صِدّيق، ولا عكس. ولم يقل: نبياً صديقاً؛ لئلا يتوهم تخصيص الصديقية بالنبوة.

﴿**إذْ قال لأبيه**﴾ آزر، متلطفا في الدعوة مستميلاً له: ﴿**يا أبتِ**﴾، التاء بدل من ياء الإضافة، أي: يا أبي، ﴿**لِمَ تعبدُ ما لا يسمع**﴾ ثناءك عليه حين تعبده، ولا جُؤَارك إليه حين تدعوه، ﴿**ولا يُبْصِرُ**﴾ خضوعك وخشوعك بين يديه، أو: لا يسمع ولا يبصر شيئاً من المسموعات والمبصرات، فيدخل في ذلك ما ذكر دخولاً أولياً، ﴿**ولا يُغْني عنك شيئاً**﴾ أي: لا يقدر أن ينفعك بشيء في طلب نفع أو دفع ضرر.

انظر؛ لقد سلك عليه السلام في دعوته وموعظته أحسن منهاج وأقوم سبيل، واحتج عليه بأبدع احتجاج، بحسن أدب، وخلق جميل، لكن وقع ذلك لسائر ركب متن المكابرة والعناد، وانتكب بالكلية عن محجة الصواب والرشاد، أي: فإنَّ من كان بهذه النقائص يأبى مَن له عقل التمييز من الركون إليه، فضلاً عن عبادته التي هي أقصى غاية التعظيم، فإنها لا تحقُ إلا لمن له الاستغناء التام والإنعام العام، الخالق الرازق، المحيي المميت، المثيب المعاقب، والشيء لو كان مميزاً سميعاً بصيراً قادراً على النفع والضر، لكنه ممكن، لاستنكف العقل السليم عن عبادته، فما ظنك بجماد مصنوع من حجر أو شجر، ليس له من أوصاف الأحياء عين ولا أثر.

ثم دعاه إلى اتباعه؛ لأنه على المنهاج القويم، مُصدّراً للدعوة بما مرّ من الاستعطاف والاستمالة، حيث قال: ﴿**يا أبتِ إني قد جاءني من العلم مالم يأتِكَ**﴾، لم يَسِمْ أباه بالجهل المفرط، وإن كان في أقصاه، ولا نفسه بالعلم الفائق، وإن كان في أعلاه، بل أبرز نفسه في صورة رفيق له، أعرفَ بأحوال ما سلكاه من الطريق،

(١) من الآية ٦٩ من سورة الشعراء.

فاستماله برفق، حيث قال: ﴿ فاتّبِعْنِى أهدِكَ صراطًا سوِيًّا ﴾ أى: مستقيمًا موصلاً إلى أسمى المطالب، منجياً من الضلال المؤدى إلى مهاوى الردى والمعاطب.

ثم ثبّطه عما كان عليه من عبادة الأصنام، فقال: ﴿ يا أبتِ لا تعبدِ الشيطانَ ﴾، فإن عبادتك للأصنام عبادة له، إذ هو الذى يُسولُها لك ويغريك عليها، ثم علل نهيه فقال: ﴿ إن الشيطان كان للرحمن عَصيًا ﴾، فهو تعليل لموجب النهى، وتأكيد له ببيان أنه مستعصٍ على ربك، الذى أنعم عليك بفنون النعم، وسينتقم منه فكيف تعبده ؟.

والإظهار فى موضع الإضمار؛ لزيادة التقرير، والاقتصارُ على ذكر عصيانه بترك السجود من بين سائر جناياته؛ لأنه ملاكها، أو لأنه نتيجة معاداته لآدم وذريته، فتذكيره به داعٍ لأبيه إلى الاحتراز عن موالاته وطاعته. والتعرض لعنوان الرحمانية؛ لإظهار كمال شناعة عصيانه.

وقوله: ﴿ يا أبتِ إني أخاف أن يمسَّك عذابٌ من الرحمن ﴾ تحذير من سوء عاقبة ما كان عليه من عبادة الشيطان، وهو اقترانه معه فى الهوان الفظيع. و(من الرحمن): صفة لعذاب، أى: عذاب واقع من الرحمن، وإظهار (الرحمن)؛ للإشعار بأن وصف الرحمانية لا يدفع حلول العذاب، كما فى قوله تعالى: ﴿ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴾(١)، ﴿ فتكونَ للشيطان وليًا ﴾ أى: فإذا قرنت معه فى العذاب تكون قريناً له فى اللعن المخلد. فهذه موعظة الخليل لأبيه، وقد استعمل معه الأدب من خمسة أوجه:

الأول: ندائه: بياأبت، ولم يقل ياآزر، أو ياأبى.

الثانى: قوله: (مالا يسمع...) الخ، ولم يقل: لِمَ تعبد الخشب والحجر.

الثالث: قوله: (إنى قد جاءنى من العلم مالم يأتك)، ولم يقل له: أنك جاهل ضال.

الرابع: قوله: (إنى أخاف)، حيث عبَّر له بالخوف ولم يجزم له بالعذاب.

الخامس: فى قوله: (أن يمسك)، حيث عبَّر بالمس ولم يُعبر باللحوق أو النزول. والله تعالى أعلم.

الإشارة: قد جمع الحق تبارك وتعالى لخليله مقام الصدِّيقية والنبوة مع الرسالة والخلة، وقدَّم الصديقية لتقدمها فى الوجود فى حال الترقى، فالصديقية تلى مرتبة النبوة، كما تقدم فى سورة النساء. فالصدِّيق عند الصوفية هو الذى يَعْظُمُ صدقه وتصديقه، فيصدِّق بوجود الحق وبمواعده، حتى يكون ذلك نصب عينيه، من غير تردد ولا تلجلج، ولا توقف على آية ولا دليل. ثم يبذل مهجته وماله فى مرضاة مولاه، كما فعل الخليل، حيث قدم

(١) الآية ٦ من سورة الانفطار.

بدنه للنيران وطعامه للضيفان وولده للقربان. وكما فعل الصدِّيق، حيث واسى النبى ﷺ بنفسه فى الغار، وخرج عن ماله خمس مرار. وكما فعل الغزالى حيث قدم نفسه للخرابِ، حين اتصل بالشيخ وخرج عن ماله وجاهه فى طلب مولاه .،ولذلك قال الشيخ أبو الحسن الشاذلى رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: فى حقه: «إنا لنشهد له بالصدِّيقية العظمى»، وناهيك بمن شهد له الشاذلى بالصدِّيقية.

ومن أوصاف الصدِّيق أنه لا يتعجب من شيء من خوارق العادة، مما تبرزه القدرة الأزلية، ولا يتعاظم شيئاً ولا يستغربه، ولذلك وصف الحق تعالى مريم بالصديقية دون سارة، حيث تعجبت، وقالت: ﴿ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴾(١)، وأما مريم فإنما سألت عن وجه ذلك، هل يكون بنكاح أم لا، والله تعالى أعلم.

وفي الآية إشارة إلي حسن الملاطفة فى الوعظ والتذكير، لا سيما لمن كان معظماً كالوالدين، أو كبيراً في نفسه. فينبغى لمن يذكره أن يأخذه بملاطفة وسياسة، فيقر له المقام الذى أقامه الله تعالى فيه، ثم يُذكره بما يناسبه فى ذلك المقام، ويشوقه إلى مقام أحسن منه، وأما إن أنكر له مقامه من أول مرة، فإنه يفرّ عنه ولم يستمع إلى وعظه، كما هو مجرب. وبالله التوفيق.

ثم ذكر جواب أبيه له، فقال:

﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ ﴾

قلت : هذا استئناف بيانى، مبنى على سؤال نشأ عن صدر الكلام، كأنه قيل: فماذا قال أبوه عندما سمع هذه النصائح الواجبة القبول؟ فقال مصراً على عناده: أراغب... الخ.

يقول الحق جل جلاله : ﴿ قال ﴾ له أبوه فى جوابه: ﴿ أراغبٌ أنتَ عن آلهتى ﴾ أى: أمعرض ومنصرف أنت عنها فوجّه الإنكار إلى نفس الرغبة، مع ضرب من التعجب، كأن الرغبة عنها مما لا يصدر عن العاقل، فضلاً عن ترغيب الغير عنها، ثم هدده فقال: ﴿ لئن لم تَنْتَهِ ﴾ عن وعظك ﴿ لأرجُمنَّكَ ﴾ بالحجارة، أى: والله لئن لم تنته عما أنت عليه من النهى عن عبادتها لأرجمنك بالحجر، وقيل باللسان، ﴿ واهجرنى ﴾ أى: واتركنى ﴿ مليًا ﴾ أى: زمناً طويلاً، أو ما دام الأبد، ويسمى الليل والنهار ملَوان، وهو عطف على محذوف، أى: احذرنى واهجرنى.

(١) الآية ٧٢ من سورة هود.

﴿ قال ﴾ له إبراهيم عليه السلام : ﴿ سلامٌ عليك ﴾ منى، لا أصيبك بمكروه، وهو توديع ومُتاركة على طريق مقابلة السيئة بالحسنة، أي: لا أشافهك بما يؤذيك، ولكن ﴿ سأستغفر لك ربى ﴾ أى: أستدعيه أن يغفر لك. وقد وفى عليه السلام بقوله فى سورة الشعراء: ﴿ وَاغْفِرْ لأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴾(١)· أو: بأن يوفقك للتوبة ويهديك للإيمان. والاستغفارُ بهذا المعنى للكافر قبل تبين أنه يموت على الكفر مما لا ريب فى جوازه، وإنما المحظور استدعاء المغفرة مع بيان شقائه بالوحى، وأما الاستغفار له بعد موته فالعقل لا يحيله. ولذلك قال ﷺ لعمه أبى طالب: «لا أزال أستغفر لك مالم أنه عنك» . ثم نهاه عنه كما تقدم فى التوبة. فالنهى من طريق السمع، ولا اشتباه أن هذا الوعد من إبراهيم، وكذا قوله: ﴿ لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ ﴾(٢) وقوله: ﴿ وَاغْفِرْ لأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴾(٣) إنما كان قبل انقطاع رجائه من إيمانه، بدليل قوله: ﴿ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ﴾(٤).

وقوله تعالى: ﴿ إنه كان بى حَفِيًا ﴾ أى: بليغًا فى البر والألطاف، رحيماً بى فى أمورى، قد عوّدنى الإجابة. أو عالما بى يستجيب لى إن دعوتُه، وفى القاموس: حَفِىَ كرضِىَ، حَفاوةً. ثم قال: واحتفا: بالَغَ فى إكْرامه وأظْهَرَ السُّرُورَ والفَرَحَ به، وأَكْثَرَ السُّؤالَ عن أحواله، فهو حافٍ وحفِيٌّ. هـ.

﴿ وأعتزلُكم ﴾ أي: أتباعد عنك وعن قومك، ﴿ وما تَدْعُونَ من دون الله ﴾ بالمهاجرة بدينى، حيث لم تؤثر فيكم نصائحى، ﴿ وأدعو ربي ﴾ : أعبده وحده، أو أدعوه بطلب المغفرة لك - أى قبل النهى - أو: أدعوه بطلب الولد، كقوله: ﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾(٥)، ﴿ عسى ألا أكون بدعاءِ ربي شقيًا ﴾ أى: عسى ألا أشقى بعبادته، أو: لا أخيب فى طلبه، كما شقيتم أنتم فى عبادة آلهتكم وخبتم. ففيه تعريض بهم، وفى تصدير الكلام بعسى من إظهار التواضع وحسن الأدب، والتنبيه على أن الإجابة من طريق الفضل والكرم، لا من طريق الوجوب، وأن العبرة بالخاتمة والسعادة، وفى ذلك من الغيوب المختصة بالعليم الخبير ما لا يخفى.

الإشارة: انظر كيف رفض آزرُ من رغب عن آلهته، وإن كان أقرب الناس إليه، فكيف بك أيها المؤمن ألاَّ ترفض من يرغب عن إلهك ويعبد معه غيره، أو يجحد نبيه ورسوله، بل الواجب عليك أن ترفض كل مايشغلك عنه، غيرةً منك على محبوبك، وإذا نظرت بعين الحقيقة لم تجد الغيرة إلا على الحق، إذ ليس فى الوجود إلا الحق، وكل ما سواه باطل على التحقيق.

---

(١) الآية ٨٦ من سورة الشعراء. (٢) فى الآية ٤ من سورة الممتحنة. (٣) من الآية ٨٦ من سورة الشعراء.
(٤) الآية ١١٤ من سورة التوبة. (٥) الآية ١٠٠ من سورة الصافات.

فمن اعتزل كل ما سوى الله، وأفرد وجهته إلى مولاه، لم يَشْقَ فى مَطلبه ومسْعاه، بل يطلعه الله على أسرار ذاته، وأنوار صفاته، حتى لا يرى فى الوجود إلا الواحد الأحد الفرد الصمد. وبالله التوفيق.

ثم ذكر نتيجة الانفراد عمن يصد عن الله، فقال:

﴿ فَلَمَّا ٱعۡتَزَلَهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۖ وَكُلًّا جَعَلۡنَا نَبِيّٗا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبۡنَا لَهُم مِّن رَّحۡمَتِنَا وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ لِسَانَ صِدۡقٍ عَلِيّٗا ﴿٥٠﴾ ﴾

قلت: (وكُلاّ): مفعول أول لجعلنا، و(علِياً): حال من اللسان.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ **فلما اعتزلهم** ﴾ أى: اعتزل إبراهيمُ قومَه ﴿ **وما يعبدون من دون الله** ﴾ بأن خرج من «كوثى» بأرض العراق، مهاجراً إلى الشام واستقر بها، ﴿ **وهبنا له إسحاقَ** ﴾ ولده ﴿ **ويعقوبَ** ﴾ حفيده، بعد أن وهب له إسماعيل من أمَته هاجر، التى وُهبت لزوجه سارة، ثم وهبتها له، فوُلد له منها إسماعيل، ولما حملت هاجر بإسماعيل غارت منها سارة، فخرج بها مع ولدها إسماعيل حتى أنزلهما مكة، فكان سبب عمارتها. ثم حملت سارة بإسحاق، ثم نشأ عنه يعقوب، وإنما خصهما بالذكر لأنهما كانا معه فى بلده، وإسحاق كان متصلاً به يسعى معه فى مآربه، فكانت النعمة بهما أعظم.

ولعل ترتيب هبتهما على اعتزاله هاهنا لبيان كمال عظم النعمة التى أعطاها الله تعالى إياه، فى مقابلة من اعتزلهم من الأهل والأقارب، فإنهما شجرة الأنبياء، لهما أولاد وأحفاد، لكل واحد منهم شأن خطير وعدد كثير. ﴿ **وكُلاً جعلنا نبياً** ﴾ أى: وكل واحد منهما أو منهم جعلناه نبياً ورسولا.

﴿ **ووهبنا لهم من رحمتنا** ﴾ هى النبوة، وذكرها بعد ذكر جعلهم أنبياء؛ للإيذان بأنها من باب الرحمة والفضل. وقيل: الرحمة: المال والأولاد، وما بسط لهم من سعة الرزق، وقيل: إنزال الكتاب، والأظهر أنها عامة لكل خير دينى ودنيوى. ﴿ **وجعلنا لهم لسانَ صدقٍ علياً** ﴾: رفيعًا فى أهل الأديان، فكل أهل دين يتلونهم، ويثنون عليهم، ويفتخرون بهم؛ استجابة لدعوته بقوله: ﴿ **وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ** ﴾[1].

والمراد باللسان: ما يوجد به الكلام فى لسان العرب ولغتهم، وإضافته إلى الصدق، ووصفه بالعلو؛ للدلالة على أنهم أحقاء لما يثنون عليهم، وأن محامدهم لا تخفى على تباعد الأعصار، وتبدل الدول، وتحول الملل والنحل. والله تعالى أعلم.

---

(١) الآية ٨٤ من سورة الشعراء.

الإشارة: كل من اعتزل عن الخلق وانفرد بالملك الحق، طلباً فى الوصول إلى مشاهدة الحق، لابد أن تفيض عليه المواهب القدسية والأسرار الوهبية والعلوم اللدنية، وهى نتائج فكرة القلوب الصافية، وفى الحكم: «مانفع القلب شيء مثل عزلة يدخل بها ميدان فكرة» . قال الجنيد رضي الله عنه : أشرف المجالس وأعلاها الجلوس مع الفكرة فى ميدان التوحيد. وقال الشيخ أبو الحسن الشاذلى رضي الله عنه : (ثمار العزلة: الظفر بمواهب المنة، وهى أربعة: كشف الغطاء، وتنزل الرحمة، وتحقق المحبة، ولسان الصدق فى الكلمة، قال الله تعالى: ﴿ **فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له . . .** ﴾ الآية) . وقال بعض الحكماء: من خالط الناس داراهم، ومن داراهم راءاهم، ومن راءاهم وقع فيما وقعوا، فهلك كما هلكوا.

وقال بعض الصوفية: قلت لبعض الأبدال المنقطعين إلى الله: كيف الطريق إلى التحقيق؟ قال: لا تنظر إلى الخلق، فإن النظر إليهم ظلمة، قلت: لابد لى، قال: لا تسمع كلامهم، فإن كلامهم قسوة، قلت: لابد لى، قال: لا تعاملهم، فإن معاملتهم خسران ووحشة، قلت: أنا بين أظهرهم، لابد لى من معاملتهم، قال: لا تسكن إليهم، فإن السكون اليهم هلكة، قلت: هذا لعله يكون، قال: يا هذا أتنظر إلى اللاعبين، وتسمع كلام الجاهلين، وتعامل البطالين، وتسكن إلى الهلكى، وتريد أن تجد حلاوة الطاعة وقلبك مع الله؟! هيهات.. هذا لا يكون أبداً، ثم غاب عنى.

وقال القشيرى رضي الله عنه : فأرباب المجاهدات، إذا أرادوا صون قلوبهم عن الخواطر الردية لم ينظروا إلى المستحسنات - أى: من الدنيا - . قال: وهذا أصل كبير لهم فى المجاهدات فى أحوال الرياضة .هـ. وقال فى «القوت» : ولا يكون المريد صادقاً حتى يجد فى الخلوة من الحلاوة والنشاط والقوة ما لا يجده فى العلانية، وحتى يكون أُنسه فى الوحدة، وروحه فى الخلوة، وأحسن أعماله فى السر .هـ.

قلت : العزلة عن الخلق والفرار منهم شرط فى بداية المريد، فإذا تمكن من الشهود، وأنس قلبه بالملك الودود، واتصل بحلاوة المعانى، ينبغى له أن يختلط بالخلق ويربى فكرته؛ لأنهم حينئذ يزيدون فى معرفته ويتسع بهم؛ لأنه يراهم حينئذ أنواراً من تجليات الحق، ونواراً يرعى فيهم، فيجتنى حلاوة الشهود، وفى ذلك يقول شيخ شيوخنا المجذوب:

الخَـلْقُ نَوارٌ وأنَا رَعيْتُ فِيهِـمُ ... هُمُ الحِجَابُ الأكْبَرُ والمَدْخَلُ فيهِمُ.

وفى مقطعات الششترى:

عـين الزحـام ... هم الوصول لحيِّنا.

وبالله التوفيق.

ثم ذكر قصة موسى عليه السلام، فقال:

﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾ ﴾

قلت: «نَجِياً»: حال من أحد الضميرين في (ناديناه) أو (قربناه)، وهو أحسن. و«هارون»: عطف بيان.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ واذكرْ في الكتاب موسى ﴾، قدّم ذكره على ذكر اسماعيل لئلا ينفصل عن ذكر يعقوب؛ لأنه من نسله، ﴿ إنه كان مُخْلِصاً ﴾(١): موحداً، أخلص عبادته من الشرك والرياء، وأسلم وجهه لله تعالى، وأخلص نفسه عما سواه. وقرئ بالفتح، على أن الله تعالى أخلصه من الدنس. قال القشيري أي: خالصاً لله، لم يكن لغيره بوجهِ. ثم قال: ولم يُغْضِ في اللهِ على شيءِ.هـ.

﴿ وكان رسولاً نبيًا ﴾ أرسله الله تعالى إلى الخلق فأنبأهم عنه، ولذلك قدَّم رسولا مع كونه أخص وأعلى، ﴿ وناديناه من جانب الطور الأيمن ﴾، الطور: جبل بين مصر ومدين، أي: ناديناه من ناحيته اليمنى، وهي التي تلي يمين موسى عليه السلام، فكانت الشجرة في جانب الجبل عن يمين موسى، أو من أيمن، أي: من جانبه الميمون، ومعنى ندائه منه: أنه سمع الكلام من تلك الناحية، ﴿ وقربناه نجيًا ﴾ أي: مناجياً لنا نُكلمه بلا واسطة، فالتقريب: تقريبُ تكرمة وتشريف، مثّلَ حاله عليه السلام بحال من قرّبه الملك لمناجاته واصطفاه لمصاحبته. وقيل: (نجيا) من النجو، وهو العلو والارتفاع، أي: رفعناه من سماء إلى سماء، حتى سمع صريف القلم يكتب له في الألواح.

﴿ ووهبنا له من رحمتنا ﴾ أي: من أجل رحمتنا ورأفتنا به، أو من بعض رحمتنا ﴿ أخاه هارون ﴾، أي: وهبنا له مؤازرة أخيه ومعاضدته، إجابةً لدعوته: ﴿ وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي، هَٰرُونَ أَخِي ﴾(٢) لا نفسَه؛ لأنه كان أكبر منه، وُجد قبله، حَال كونه ﴿ نبياً ﴾: رسولاً مُشْرَكاً معه في الرسالة. والله تعالى أعلم.

الإشارة: كما وصف الحق تعالى خليله بالصديقية وصف كليمه بالإخلاص، وكلاهما شرط في حصول سر الخصوصية، سواء كانت خصوصية النبوة أو الولاية، فمن لا تصديق عنده لا سير له، ومن لا إخلاص له لا وصول له. وحقيقة الإخلاص: إخراج الخلق من معاملة الحق، وهي ثلاث طبقات؛ سفلى، ووسطى، وعليا.

---

(١) قرأ عاصم وحمزة والكسائي وخلف (مخلَصاً) بفتح اللام.
(٢) الآيتان ٢ - ٣ من سورة طه.

فالسفلى: أن يفعل العبادة لله تعالى، طالباً لعوض دنيوى، كسعة الأرزاق، وحفظ الأموال والبدن، فهذا إخلاص العوام، وإنما كان إخلاصاً لأنهم لم يلاحظوا مخلوقاً فى عملهم.

والوسطى: أن يعبد الله مخلصاً، طالباً لعوض أخروى، كالحور والقصور.

والعليا: أن يفعل العبادة قياماً برسم العبودية، وأدباً مع عظمة الربوبية، غير ملتفت لجنة ولا نار، ولا دنيا ولا آخرة، مع تعظيم نعيم الجنان، لأنه محل اتصال الرؤية؛ كما قال ابن الفارض رضي الله عنه:

ليس شوقى من الجنان نعيماً غير أنى أريدها لأراكَ

فإذا تحقق للعبد مقام الإخلاص الكامل، صار مقرباً نجياً فى محل المشاهدة والمكالمة. وبالله التوفيق.

ثم ذكر نبيه إسماعيل عليه السلام فقال:

﴿ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ واذكر فى الكتاب إسماعيل ﴾، فصل ذكره عن أبيه وأخيه؛ لإبراز كمال الاعتناء بأمره، لإيراده مستقلاً بترجمته، ﴿ إنه كان صادق الوعد ﴾، هذا تعليل لموجب الأمر بذكره. وإيراده عليه السلام بهذا الوصف؛ لكمال شهرته به.

رُوى أنه واعد رجلا أن يلقاه فى موضع، فجاء إسماعيل، وانتظر الرجلَ يومه وليلته ـ وقيل: ثلاثة أيام ـ فلما كان فى اليوم الآخر، جاء الرجل، فقال له إسماعيل: مازلتُ هنا من أمس. وقال الكلبى: انتظره سنة، وهو بعيد. قال ابن عطية: وقد فعل مثل هذا نبينا ﷺ قبل مبعثه، ذكره النقاش وأخرجه الترمذى وغيره، وذلك فى مبايعة وتجارة[1] هـ. وقال القشيرى: وعد من نفسه الصبر على ذبح أبيه، فصبر على ذلك، إلى أن ظهر الفداء، وصدق الوعد دلالة حفظ العهد.هـ.

وقال ابن عطاء: وعد لأبيه من نفسه الصبر، فوفى به، فى قوله: ﴿ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾[2] .هـ. وهذا مبنى على أنه الذبيح، وسيأتى تحقيق المسألة إن شاء الله(٣).

---

(١) أخرج أبو داود فى (الأدب، باب فى العدة) عن عبد الله بن أبى الحمساء، قال: بايعتُ النبى ﷺ ببيع قبل أن يُبعث، وبقيتْ له بقية، فوعدته أنْ آتيه بها فى مكانه، فنسيت، ثم ذكرت بعد ثلاث، فجئت فإذا هو فى مكانه، فقال: «يافتى، لقد شققت علىّ، أنا هاهنا منذ ثلاثٍ أنتظرك».

(٢) الآية ١٠٢ من سورة الصافات.

(٣) سبق التعليق على هذه المسألة عند تفسير الآية ١٢٤ من سورة البقرة.

﴿ وكان رسولاً نبيًا ﴾ أي: رسولاً لجرهُم ومن وَالاهم، مخبراً لهم بغيب الوحي، وكان أولاده على شريعته، حتى غيرها عَمرو بن لحي الخزاعي، فأدخل الأصنام مكة. فمازالت تُعبَد حتى محاها نبينا محمد ﷺ بشريعته المطهرة.

﴿ وكان ﴾ إسماعيل ﴿ يأمر أهله بالصلاة والزكاة ﴾، قدّم الأهل اشتغالاً بالأهم، وهو أن يُقبل بالتكميل على نفسه، ومن هو أقرب الناس إليه، قال تعالى: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ ﴾(١)، ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ ﴾(٢)، ﴿ قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا ﴾(٣)، وقصد إلى تكميل الكل بتكميلهم؛ لأنهم قدوة يُؤتسى بهم. وقيل: أهله: أمته؛ لأن الأنبياء ـ عليهم السلام ـ آباء الأمم. ﴿ وكان عند ربه مَرْضِيًّا ﴾؛ لاتصافه بالنعوت الجليلة التي من جملتها ما ذكر من الخصال الحميدة. والله تعالى أعلم.

الإشارة: قد وصف الحق ـ جل جلاله ـ نبيه إسماعيل بثلاث خصال، بها كان عند ربه مرضيا، فمن اتصف بها كان مرضيا مقرباً: الوفاء بالوعد، والصدق في الحديث؛ لأنه مستلزم له، وأمر الناس بالخير. أما الوفاء بالعهد فهو من شيم الأبرار، قد مدح الله تعالى أهله، ورغّب فيه وأمر به، قال تعالى: ﴿ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا ﴾(٤). وقال تعالى: ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ ﴾(٥) فإخلاف الوعد من علامة النفاق، قال ﷺ: «آية المنافق ثلاث: إذا حدّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان» وخلف الوعد إنما يضر إذا كان نيته ذلك عند عقده، أو فرط فيه، وأما إن كان نيته الوفاء، ثم غلبته المقادير، فلا يضر، لا سيما في حق أهل الفناء، فإنهم لا حكم لهم على أنفسهم في عقد ولا حل، بل هم مفعول بهم، زمامهم بيد غيرهم، كل ساعة ينظرون ما يفعل الله بهم، فمثل هؤلاء لا ميزان عليهم في عقد ولا حل. فمثلهم مع الحق كمثل الأطفال المحجر عليهم في التصرف، ولذلك قالوا: (الصوفية أطفال في تربية الحق تعالى). فإياك أن تطعن على أولياء الله إذا رأيت منهم شيئاً من ذلك، والتمس أحسن المخارج، وهو ماذكرته لك، فإنه عن تجربة وذوق. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر نبيه إدريس عليه السلام، فقال:

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾ ﴾

---

(١) الآية ٢١٤ من سورة الشعراء.
(٢) الآية ١٣٢ من سورة طه.
(٣) الآية ٦ من سورة التحريم.
(٤) الآية ١٧٧ من سورة البقرة.
(٥) الآية ٩١ من سورة النحل.

يقول الحق جل جلاله : ﴿ واذكر فى الكتاب إدريس ﴾ وهو سبط شيث، وجَدّ أبى نوح، فإنه نوح بن لامك بن متوشلَخ بن أخنوخ، وهو إدريس عليه السلام، واشـتقاقه من الدرس؛ لكثرة دراسته لما أوحى إليه، وكثرة ذكره لله تعالى.

رُوِى أنه كان خياطاً فكان لا يدخل الإبرة ولا يخرجها إلا بذكر الله. ورُوِى أنه جاء إليه الشيطان يفتنه بفستق، فقال له: هل يقدر ربك أن يجعل الدنيا فى هذه الفُسْتقة؟ فقال له عليه السلام: (الله قادر على أن يدخل الدنيا كلها فى سم هذه الإبرة، ونخس عينه) ذكره السنوسى فى شرح مقرأه. قال ابن وهب: إنه دعا قومه إلى لا إله إلا الله، فامتنعوا فهلكوا. وفى حديث أبى ذر: أنه رسول، وجمع بينه وبين حديث الشفاعة، وقولهم لنوح: إنك أول رسول، بأن تكون رسالته لقومه خاصة، كهود وصالح، وكذا آدم وشيث، فإنه أرسل لبنيه لتعليم الشرائع والإيمان، ولم يكونوا كفاراً، وخلفه فى ذلك شيث، قال المحشى الفاسي: والأظهر عندى فى نوح أنه أول رسول من أهل العزم، لا مطلقا.

قال ابن عطية: والأشهر أن إدريس عليه السلام لم يرسل، وإنما هو نبى فقط، وذهب إلى ذلك ابن بطال، ليسلم من المعارضة، وهى مدفوعة بما ذكرنا.هـ. فالمشهور أن إدريس رسول إلى قومه. رُوِى أنه تعالى أنزل عليه ثلاثين صحيفة، وأنه أول من خط بالقلم، ونظر فى علم النجوم والحساب، وخاط الثياب. قيل: وهو أول نبى بُعث إلى أهل الأرض.

قال تعالى فى وصفه: ﴿ إنه كان صِدّيقًا نبيا ﴾ : خبران لكان، والثانى مخصص للأول؛ إذ ليس كل صدّيق نبى. ﴿ ورفعناه مكانا عليا ﴾، هو شرف النبوة والزلفى عند الله تعالى. وقيل: علو الرتبة بالذكر الجميل فى الدنيا، كما قال تعالى فى حق نبينا: ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾(١)، وقيل: الجنة، وقيل: السماء الرابعة، وهو الصحيح.

رُوِى عن كعب وغيره فى سبب رفعه أنه مشي ذات يوم فى حاجته، فأصابه وهج الشمس وحرها، فقال: يارب أنا مشيت يومًا، فكيف بمن يحملها مسيرة خمسمائة عام فى يوم واحد!، اللهمّ خَفِّفْ عنه من ثقلها، واحمل عنه حرها، فلما أصبح الملَك وجد من خفة الشمس وحرها ما لا يعرف، فقال: يارب كلفتنى بحمل الشمس، فما الذى قضيت فيه؟ فقال: إن عبدى إدريس سألنى أن أُخفف عنك حملها وحرّها فأجبته، قال: يارب اجعل بينى وبينه خُلّـة، فأذن له، حتى أتى ادريس، فقال له إدريس: أخبرت أنك أكرم الملائكة عند مَلَك الموت، فاشفع لى ليؤخر

(١) الآية ٤ من سورة الشرح.

أجلى، لأزداد شكراً وعبادة، فقال له الملك: لا يؤخر الله نفساً اذا جاء أجلها، فقال: قد علمت ذلك، ولكنه أطيب لنفسي، قال: نعم، ثم حمله ملك الشمس على جناحه فرفعه إلى السماء[1]. رُوي أنه مات هناك وردت إليه روحه بعد ساعة، فهو في السماء الرابعة حي. وهذه قصص الله أعلم بصحتها. وبالله التوفيق.

الإشارة: ارتفاع المكان والشأن يكون على قدر صفاء الجنان، والإقبال على الكريم المنان، فبقدر التوجه والإقبال يكون الارتفاع والوصال.

بقــدر الكد تكســب المعــالي   ومَــنْ رَامَ العلا سَهِرَ الليالي
أتبغــي العـز ثم تنـام ليـلا   يَغُوصُ البحر منْ طلب اللآلي

قال بعضهم: من عامل الله على بساط الأنس: رفع، لا محالة، إلى حضرة القدس. وبالله التوفيق.

ثم ذكر مدحهم في الجملة، فقال:

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٖ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنۡ هَدَيۡنَا وَٱجۡتَبَيۡنَآۚ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ خَرُّواْۤ سُجَّدٗاۤ وَبُكِيّٗا ۩ (٥٨) ﴾

قلت: «أولئك»: مبتدأ، و«الذين»: خبره، أو «الذين»: صفته، و«إذا تتلى»: خبره. والإشارة إلى المذكورين في السورة، وما فيه من معنى البُعد؛ للإشعار بعلو رتبتهم وبُعد منزلتهم في الفضل، و(من النبيين): بيان للموصول، و(من ذرية): بدل منه بإعادة الجار، و(سُجداً وبُكيًا): حالان من الواو، و(بكيا): جمع باك، كمساجد وسجود، وأصله: بكوي، فاجتمع الواو والياء، وسُبق إحداهما بالسكون، فقلبت الواو ياء، وأدغمت في الياء، وحركت الكاف بالكسر المجانس للياء.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ **أولئك** ﴾ المذكورون في السورة الكريمة هم ﴿ **الذين أنعم الله عليهم** ﴾ بفنون النعم الدينية والدنيوية، ﴿ **من النبيين من ذرية آدم** ﴾، وهو إدريس عليه السلام ونوح، ﴿ **وممن حملنا مع نوح** ﴾ أي: ومن ذرية من حملناهم في السفينة، وهو إبراهيم؛ لأنه من ذرية سام بن نوح، ﴿ **ومن ذرية إبراهيم** ﴾، وهم إسماعيل وإسحاق ويعقوب، وقوله: ﴿ **وإسرائيل** ﴾ أي: ومن ذرية إسرائيل، وهو يعقوب، وكان منهم موسى وهارون وزكريا ويحيى وعيسى، وفيه دليل على أن أولاد البنات من الذرية. ﴿ **وممن هدينا** ﴾ أي: ومن جملة من هديناهم إلى الحق واجتبيناهم إلى النبوة من غير هؤلاء.

(١) عقّب ابن كثير على هذه الرواية وأمثالها بأن فيها غرابة ونكارة، وهي من أخبار كعب الأحبار من الإسرائيليات.

﴿إذا تُتلى عليهم آياتُ الرحمن خَرُّوا سُجداً وبُكِيّاً﴾ ، هذا استئناف؛ لبيان خشيتهم من الله تعالى وإخباتهم له، مع مالهم من علو الرتبة وسمو الطبقة فى شرف النسب، وكمال النفس والزلفى من الله عز وجل، أى: إذا تتلى عليهم، آيات الرحمن، إما عند نزولها عليهم، أو بسماعها من غيرهم، لحديث: «أحب أن أسمعه من غيرى» . ثم بكى ﷺ عند قوله تعالى: ﴿فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيدٍ وجئنا بك على هؤلاء شهيدا﴾(١) فكان الأنبياء عليهم السلام مثله، إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا ساجدين وباكين. عن النبى ﷺ قال: «اتْلُوا القُرآنَ وابْكُوا، فَإنْ لمْ تَبْكُوا فَتَبَاكَوْا»(٢) . وعن عمر رضي الله عنه أنه قرأ سورة مريم، فسجد فيها، فقال: (هذا السجود، فأين البكاء) ؟

قال بعضهم: ينبغى أن يدعو الساجد فى سجوده بما يليق بآيتها، فهاهنا يقول: اللهم اجعلنى من عبادك المنعم عليهم، المهديين الساجدين لك، الباكين عند تلاوة آياتك. وفى الإسراء يقول: اللهم اجعلنى من الخاضعين لوجهك، المسبحين بحمدك، وأعوذ بك أن أكون من المستكبرين عن أمرك، وهكذا. والذى ورد فى الخبر: يقول: «سَجَدَ وَجْهِى للذى خَلَقَه وصوَّره، وشقَّ سمعَه وبَصَرَه، بحوله وقُوته، اللهم اكتب لى بها أجراً، وضع عنى بها وزراً، واجعلها لى عندك ذخرا، وتقبلها منى كما تقبلتها من عبدك داود عليه السلام» . والله تعالى أعلم.

الإشارة: قد أثنى الله تعالى على هؤلاء السادات المُنعَم عليهم بكونهم إذا سمعوا كلام الحبيب خضعوا ورقت قلوبهم، وهو أول درجة المحبة، وفوقه الفرح بكلام الحبيب من مكان قريب، وفوقه الفرح بشهود المتكلم، وهنا ينقطع البكاء؛ لدخول صاحب هذا المقام جنة المعارف، وليس فى الجنة بكاء.

وأيضاً: من شأن القلب فى أول أمره الرطوبة، يتأثر بالواردات والأحوال، فإذا استمر عليها اشتد وصلُب بحيث لا يؤثر فيه شىء من الواردات الإلهية. وفى هذا المعنى قال أبو بكر رضي الله عنه، حين رأى قوماً يبكون عند سماع القرآن: (كذلك كنا ثم قست القلوب)(٣) ، فعبَّر عن تمكنه بالقسوة، تواضعاً واستتاراً، وإنما أثنى على هؤلاء السادات بهذه الخصلة؛ لأنها سُلَّم لما فوقها. والله تعالى أعلم.

---

(١) الآية ٤١ من سورة النساء، والحديث: أخرجه البخارى فى (التفسير ـ سورة النساء)، ومسلم فى (الصلاة، باب: فضل استماع القرآن) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه .

(٢) الحديث أخرجه بنحوه ابن ماجة فى (إقامة الصلاة، باب فى حسن الصوت بالقرآن) من حديث سعد بن أبى وقاص.

(٣) قال الحافظ أبو نعيم : «.. عن أبى صالح: لما قدم أهل اليمن ـ زمان أبى بكر ـ وسمعوا القرآن، جعلوا يبكون، قال: فقال أبو بكر: [هكذا كنا، ثم قست القلوب] . قال الشيخ أبو نعيم رحمه الله: «ومعنى قوله: قست القلوب: قويت، واطمأنت بمعرفة الله تعالى. أ.هـ. الحلية، جـ١ ، ص ٣٣ ـ ٣٤ ويحتمل أن يكون المعنى: أنهم كانوا أرقاء القلوب بمشاهدتهم لحضرة النبى صلى الله عليه وسلم.. ثم طال الأمد.. فقست القلوب.. وهذا منه تواضع، رضى الله عنه.

ثم ذكر أضدادهم، فقال:

﴿ ۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا ﴿٦٠﴾ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَأۡتِيّٗا ﴿٦١﴾ لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا إِلَّا سَلَٰمٗاۖ وَلَهُمۡ رِزۡقُهُمۡ فِيهَا بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ﴿٦٢﴾ تِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنۡ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّٗا ﴿٦٣﴾ ﴾

قلت : (جنات عدن) : بدل من الجنة، بدل بعض؛ لاشتمالها عليها، وما بينهما اعتراض، أو نصب على المدح. و(إلا سلامًا) : منقطع، أي: لكن يسمعون سلامًا، ويجوز اتصاله، على أن المراد بالسلام الدعاء بالسلامة، فإن أهل الجنة أغنياء عنه، فهو داخل فى اللغو. و(بالغيب) : حال من عائد الموصول، أي: وعدها، أو من العباد، و(مأتِيـًا) : أصله مأتوى، فأبدل وأدغم كما تقدم.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ **فخَلَفَ من بعدهم** ﴾ أي: جاء بعد أولئك الأكابر، ﴿ **خَلْفٌ** ﴾ أي: عقب سوء، يقال لعقب الخير «خَلَفٌ» بفتح اللام ، ولعقب الشر «خَلْف» بسكون اللام، أي: فعقبهم وجاء بعدهم عقب سوء، ﴿ **أضاعوا الصلاة** ﴾ أي: تركوها وأخروها عن وقتها، ﴿ **واتبعوا الشهوات** ﴾؛ من شرب الخمر، واستحلال نكاح الأخت، من الأب، والانهماك فى فنون المعاصى، وعن على رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: هم من بَنى المُشيد، وركب المنضود، ولبس المشهور. قلت: ولعل المنضود: السُرج المرصعة بالجواهر والذهب. وقال مجاهد: هذا عند اقتراب الساعة، وذهاب صالح أمة محمد ﷺ، ينزو بعضهم على بعض فى السكك والأزقة.هـ. ﴿ **فسوف يلقون غيًا** ﴾ : شرًا، فكل شر عند العرب غيٌ، وكل خير رشاد. قال ابن عباس: الغيُّ: واد فى جهنم، وإن أودية جهنم لتستعيذ من حرِّه، أُعد للزانى المـصرِّ، ولشارب الخمر المدمن، ولأهل الرياء والعقوق والزور، ولمن أدخلت على زوجها ولداً من غيره. هـ.

﴿ **إلا من تاب وآمن وعمل صالحًا** ﴾ ، هذا يدل على أن الآية فى الكفار. ﴿ **فأولئك** ﴾ المنعوتون بالتوبة والإيمان والعمل الصالح، ﴿ **يدخلون الجنة** ﴾ بموجب الوعد المحتوم، أو يُدخلهم الله الجنة، ﴿ **ولا يُظلمون شيئًا** ﴾ : لاينقصون من جزاء أعمالهم شيئًا، وفيه تنبيه على أن كفرهم السابق لايضرهم، ولاينقص أجورهم، إذا صححوا المعاملة مع ربهم.

﴿ جناتِ عدنٍ ﴾ أى: إقامة، لإقامة داخلها فيها على الأبد، ﴿ التى وعد الرحمنُ عبادَه بالغيب ﴾ أى: ملتبسين بالغيب عنها لم يروها، وإنما آمنوا بها بمجرد الإخبار، أو ملتبسة بالغيب، أى: غائبة عنهم غير حاضرة. والتعرض لعنوان الرحمانية؛ للإيذان بأن وعده وإنجازه لكمال سعة رحمته تعالى، ﴿ إنه كان وعده مأتياً ﴾ ؛ يأتيه من وعُد به لا محالة، وقيل: هو مفعول بمعنى فاعل، أى: آتياً لا محالة، وقيل: مأتيا: منجزاً، من أتى إليه إحسانا، أى: فعله.

﴿ لايسمعون فيها لغواً ﴾ أى: فضول كلام لا طائل تحته، وهو كناية عن عدم صدور اللغو عن أهلها. وفيه تنبيه على أن اللغو ينبغي للعبد أن يجتنبه فى هذه الدار ما أمكنه. وفى الحديث: «مِنْ حُسْنِ إسْلاَمِ المرْءِ تَرْكُهُ مالا يَعْنِيهِ»(١). وهو عَامٌّ فى الكلام وغيره. ﴿ إلا سلامًا ﴾، أى: لايسمعون لغواً، لكن يسمعون تسليم الملائكة عليهم، أو تسليم بعضهم على بعض، ﴿ ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا ﴾ أى: على قدرهما فى الدنيا، إذ ليس فى الجنة نهار ولا ليل، بل ضوء ونور أبداً. قال القرطبي: ليلهم إرخاء الحجب وإغلاق الأبواب، أى: ونهارهم رفع الحجب وفتح الأبواب.

قال القشيرى: الآية ضرب مثل لما عهد فى الدنيا لأهل اليسار، والقصد: أنهم أغنياء مياسير فى كل وقت. هـ. وسيأتى عند قوله: ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ ﴾(٢) كيفية أرزاقهم.

قال تعالى: ﴿ تلك الجنة ﴾ : مبتدأ وخبر، جىء بهذه الجملة؛ لتعظيم شأن الجنة وتعيين أهلها، وما فى اسم الإشارة من معنى البعد؛ للإيذان ببُعد منزلتها وعلو رتبتها، أى: تلك الجنة التى وصفت بتلك الأوصاف العظيمة هى ﴿ التى نُورث ﴾ أى: نورثها ﴿ مِنْ عبادنا من كان تقياً ﴾ لله بطاعته واجتناب معاصيه، أى: نُديمها عليهم بتقواهم، ونمتعهم بها، كما يبقى عند الوارث مال مورثه يتمتع به، والوراثة أقوى ما يستعمل فى التملك والاستحقاق من الألفاظ؛ من حيث إنها لايعقبها فسخ ولااسترجاع ولا إبطال. وقيل: يرث المتقون من الجنة المساكن التى كانت لأهل النار، لو آمنوا وأطاعوا، زيادة فى كرامتهم. والله تعالى أعلم.

الإشارة: قوله تعالى: ﴿فخلف من بعدهم خلف...﴾ الآية تنسحب على من كان أسلافه صالحين، فتنكب عن طريقهم، فضيّع الدين، وتكبر على ضعفاء المسلمين، واتبع الحظوظ والشهوات، وتعاطى الأمور العلويات، فإن ضم إلى ذلك الافتخار بأسلافه، أو بالجاه والمال، كان أغرق فى الغى والضلال، يصدق عليه قول القائل:

إن عاهدوك على الإحسان أو وعدُوا ... خانوا العهود ولكن بعد ما حلفوا
بل يفخرون بأجداد لهم سلفت ... نِعم الجدود، ولكن بئس ما خلّفوا

---

(١) أخرجه الترمذى فى (الزهد باب ١١)، وابن ماجة فى (الفتن، باب: كف اللسان فى الفتنة) عن أبى هريرة رضي الله عنه.
(٢) الآية ٧١ من سورة الزخرف.

إلا من تاب ورجع إلى ما كان عليه أسلافه، من العلم النافع والعمل الصالح، والتواضع للصالح والطالح، فيرافقهم فى جنة الزخارف أو المعارف، التى وعد الرحمن عباده المخصوصين بالغيب، ثم صارت عندهم شهادة ، إنه كان وعده مأتيا، لايسمعون فيها لغواً ؛ لأن الحضرة مقدسة عن اللغو، (إلا سلاماً)؛ لسلامة صدورهم، ولهم رزقهم فيها من العلوم والأسرار والمواهب، فى كل ساعة وحين، لايرث هذه الجنة إلا من اتقى ما سوى الله، وانقطع بكليته إلى مولاه. وبالله التوفيق.

ولما أبطأ الوحى عن النبى ﷺ قال:«يا جبريل ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا؟» فنزل(١):

﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾ ﴾

قلت: وجه المناسبة لما قبله ـ والله أعلم ـ: أن الحق جل جلاله لما سرد قصص الأنبياء وما نشأ بعدهم، وكان جبريل هو صاحب وحيهم الذى ينزل به عليهم، ذكر هنا أن نزوله ليس باختياره ، فقال: ﴿وما نتنزل...﴾ الخ.

يقول الحق جل جلاله، حاكياً لقول جبريل عليه السلام: ﴿ وما نتنزَّلُ ﴾ عليك يا محمد ﴿ إلا بأمرِ ربك ﴾، وذلك حين أبطأ الوحى عنه ﷺ، لما سئل عن أصحاب الكهف وذى القرنين والروح، فلم يدر كيف يجيب، ورجا أن يوحى إليه فيه، فأبطأ عليه أربعين يوماً. قاله عكرمة. وقال مجاهد: ثنتى عشرة ليلة، أو خمس عشرة. فشقّ على النبى ﷺ مشقة شديدة. وقال: يا جبريل قد اشتقت إليك، فقال جبريل: إنى كنت أشْوَق، ولكنى عبد مأمور، إذا بُعثت نزلت، وإذا حُبست احتَبستُ، فأنزل الله هذه الآية وسورة الضحى(٢)، والتنزل: النزول على مَهَل، وقد يُطلق على مطلق النزول، والمعنى: وما نتنزل وقتاً غِبّ وقتٍ(٣) إلا بأمر الله تعالى، على ما تقتضيه حكمته.

وقيل: هو إخبار عن أهل الجنة أنهم يقولون عند دخولها مخاطبين بعضهم لبعض بطريق التبجح والابتهاج، أى: ما نتنزل هذه الجنان إلا بأمر الله تعالى ولطفه، وهو مالك الأمور كلها، سالفها ومُتَرَقَّبُها وحاضرها ، فما وجدناه وما نجده هو من لطفه وفضله. هـ. قلت: ولايخفى حينئذ مناسبته.

ثم قال: ﴿ له ما بين أيدينا وما خَلْفَنا وما بين ذلك ﴾ أى: وما نحن فيه من الأماكن والأزمنة، فلا ننتقل من مكان إلى مكان، ولا ننزل فى زمان دون زمان، إلا بأمره ومشيئته، وعن مقاتل: ﴿ له ما بين أيدينا ﴾ من

---

(١) أخرجه البخارى فى (التفسير ـ سورة مريم) وفى (التوحيد، باب ﴿ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين﴾) من حديث ابن عباس.
(٢) أخرجه الطبرى فى تفسيره (١٦/١٠٣)، وعزاه ابن حجر فى الكافى الشافى لأبى نعيم فى الدلائل.
(٣) غب بمعنى بعد، ومنه قولهم: غب سلام.

أمر الدنيا، ﴿ وماخلفنا ﴾ من أمر الآخرة، ﴿ وما بين ذلك ﴾ مما بين النفختين، وهو أربعين سنة. أو ما بين أيدينا بعد الموت، وما خلفنا قبل أن يخلقنا، وما بين ذلك مدة حياتنا، أي: له علم ذلك كله، ﴿ وما كان ربك نَسِيًّا ﴾: تاركاً لك ومهملاً شأنك، أو: ذاهِلاً عنك حتى ينسى أمر الوحي إليك؛ لأنه مُحال، يعني: أن عدم نزول جبريل لم يكن إلا لعدم الأمر به؛ لحكمة بالغة فيه، ولم يكن تركه تعالى لك إهمالاً وتوديعاً، كما زعمت الكفرة. وفي إعادة اسم الرب المضاف إلى ضميره ﷺ من تشريفه والإشعار بعلية الحكم ما لا يخفى.

وقوله تعالى: ﴿ ربُّ السموات والأرض وما بينهما ﴾ بيان لاستحالة النسيان عليه تعالى؛ فإن من بيده ملكوت السموات والأرض وما بينهما كيف يتصور أن يحوم حول ساحته الغفلة والنسيان. والفاء في قوله:﴿ فاعبُدْه واصطَبِرْ لعبادته ﴾ لترتيب ما بعدها على ما قبلها، من كونه تعالى رب السموات والأرض وما بينهما. أو من كونه تعالى غير تارك له عليه السلام، أو غير ناسٍ لأعمال العاملين، والمعنى على الأول: فحين عرفته تعالى بما ذكر من الربوبية الكاملة فاعبده، أو حين عرفته تعالى لاينساك، أو: ينسى أعمال العاملين فأقبل على عبادته واصطبر على مشاقها، ولاتحزن بإبطاء الوحي وهزْءِ الكفرة، فإنه يراقبك ويلطف بك في الدنيا والآخرة، ﴿ هل تعلم له سَمِيًّا ﴾ أي: شبيهاً ونظيراً، أو هل تعلم أحداً تسمى بهذا الاسم غير الله تعالى، والتسمية تقتضي التسوية بين المتشابهين، ولا مثل له، لا موجوداً ولا موهوماً، مع أن المشركين مع غلوهم في المكابرة لم يسموا الصنم بالجلالة أصلاً، ولم يتجاسر أحد أن يسمى بهذا الاسم، ولو تجاسر أحدٌ لهلك.

وقيل: إن أحداً من الجبابرة أراد أن يسمي ولده بهذا الإسم، فخسف به وبتلك البلدة. ذكره القشيري في التحبير. والله تعالى أعلم.

الإشارة: ما قاله جبريل عليه السلام من كونه لاينزل إلا بأمر ربه ليس خاصاً به؛ بل كل أحد لا حركة له ولاسكون إلا بالله وبمشيئته، فلا يصدر عن أحد من عبيده قول ولافعل، ولا حركة ولاسكون، إلا وقد سبق في علمه وقضائه كيف يكون، فلا انتقال ولانزول إلا بقدر سابق وتحريك لاحق؛ «ما من نفَس تبديه إلا وله قدر فيك يمضيه». وقال الشاعر:

مشـــيناها خطى كُتبت علينا ومن كُتبت عليه خطى مشـاها

ومن قســـمت منيتـه بأرض فليس يمـوت في أرض سـواها

فراحة الإنسان أن يكون ابن وقته، كل قت ينظر ما يفعل الله به، فبهذا ينجو من التعب، ويتحقق له الأدب. وبالله التوفيق.

ثم ردَّ على من أنكر البعث، بعد أن ردَّ على من اعتقد الشرك، وبهما كفرت العرب، فقال:

﴿ وَيَقُولُ الْإِنسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ﴿٦٧﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾ ﴾

قلت: (أئذا): ظرف، والعامل فيه محذوف، أي: أأُخرج إذا مت، لا المتأخر عن اللام؛ لأنه لايعمل ما بعدها فيما قبلها، إلا أن يرخص في الظروف. واللام في «لَسَوْفَ» ليست للتأكيد، فإنه مُنْكِرٌ، وكيف يحقق ما ينكر، وإنما كلامه حكاية لكلام النبي ﷺ، كأنه الذي قال: والله إن الإنسان إذا مات لسوف يُخرج حيًا، فأنكر الكافر ذلك وحكى قوله، فنُزلت الآية على ذلك، قاله الجرجاني: و(الشياطين): عطف على ضمير المنصوب، أو مفعول معه. و(جِثيًا): حال من ضمير (لنحضرنهم) البارز، أي: لنحضرنهم جاثين، جمع جاث، من جثى إذا قعد على ركبتيه، وأصله: «جثوو» بواوين، فاستثقل اجتماعهما بعد ضمتين، فكسرت الثاء تخفيفًا، وانقلبت الواو الأولى ياء؛ لانكسار ما قبلها، فاجتمعت واو وياء، وسبقت إحداهما بسكون، فقلبت الواو ياء، وأدغمت الأولى في الثانية، ومن قرأ بكسر الجيم: فعلى الإتْبَاعِ.

و«أيُّهم»: مبني عل الضم عند سيبويه، لأنه موصول، فحقه البناء كسائر الموصولات، لكنه أعرب في بعض التراكيب للزوم الإضافة، فإذا حذف صدْرُ صِلَتِهِ زاد نقصُه فقوى شبه الحرف فيه، وهو منصوب المحل بلننزعن، وقرئ منصوباً على الإعراب، ومرفوعاً عند الخليل وغيره بالابتداء، وخبره: «أشد»، والجملة محكية، والتقدير: لننزعن من كل شيعة الذين يُقال لهم أيهم أشد... الخ. وقال يونس: علق عنها الفعل وارتفعت بالابتداء، و(عتيًا) و(صليًا) أصلهما: عتوى وصلوى، من عتى وصلى، بالكسر والفتح، فاعلاً بما تقدم.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ **ويقول الإنسانُ** ﴾ أي: جنس الإنسان، والمراد الكفرة، وإسناد القول إلى الكل لوجود القول فيما بينهم، وإن لم يقله الجميع، كما يقال: بنو فلان قتلوا فلاناً، وإنما القاتل واحد، وقيل: القائل: أُبيُّ بن خلَف، فإنه أخذ عظامًا بالية، ففتتها، وقال: يزعم محمد أنا نُبعث بعد ما نموت ونصير إلى هذا الحال، فنزلت. أي: يقول بطريق الإنكار والاستبعاد: ﴿ **أئذا ما متُّ لسوف أُخرج حيًا** ﴾ أي: أأبعث من الأرض بعد ما مِتُّ وأُخرج حياً؟ قال تعالى: ﴿ **أولا يذْكرُ الإنسانُ** ﴾، من الذِّكر الذي يُراد به التفكر، ولذلك قُرىء بالتشديد من

التذكير. والإظهارُ فى موضع الإضمار؛ لزيادة التقرير والإشعار بأن الإنسانية من دواعى التفكر فيما جرى عليها من شؤون التكوين، فإذا ترك التفكر التحق بالبهائم، فهلاً يذكر أصله!، وهو ﴿ أنا خلقناه من قبلُ ﴾ أى: من قبل الحالة التى فيها، وهى حالة حياته، ﴿ ولم يكُ شيئاً ﴾ أى: والحال أنه لم يك شيئاً أصلاً، وحيث خلقناه وهو فى تلك الحال فلأن نبعث الجمْع بتفرقاته أولى وأظهر؛ لأن الإعادة أسهل من البدء.

قال تعالى: ﴿ فوربك لنحشرنهم ﴾ أى: لنجمعنهم بالسّوق إلى المحشر بعدما أخرجتهم من الأرض. وإقسامه سبحانه بربوبيته مضافة إلى ضميره ـ عليه الصلاة والسلام؛ لتحقيق الأمر، والإشعار بعلِّيته، وتفخيم شأنه، ورفع منزلته ﷺ، وفيه إثبات البعث بالطريق البرهانى على أبلغ وجه وآكده، كأنه أمر واضح غنى عن التصريح به، وإنما المحتاج إلى البيان ما بعد ذلك من الأهوال، أى: حيث ذكر الحشر وما بعده. ولم يصرح بنفس البعث؛ لتحقق وضوحه، وإنما قال: ﴿ فوربك لنحشرنهم ﴾ أى: نجمعهم ﴿ والشياطينَ ﴾ المغوين لهم، إلى المحشر، وقيل: إن الكفرة يُحشرون مع قرنائهم من الشياطين التى كانت تغويهم، كل منهم مع شيطانه فى سلسلة، ﴿ ثم لنحُضِرنَّهم حول جهنم جثيا ﴾: باركين على ركبِهم؛ لما يدهمُهم من هول المطلع، والجثو: جلسة الذليل الخائف.

والآيــة كمـا ترى، صريحة فى الكفرة، فهم الذين يُساقون من الموقف إلى شاطىء جهنم، جُثاة؛ إهانة بهم، أو لعجزهم عن القيام لما اعتراهم من شدة الخوف. وأما قوله تعالى: ﴿ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ﴾(١) فهى عامة للناس فى حال الموقف قبل التواصل إلى الثواب والعقاب، فإن أهل الموقف جاثون على الرُكب، كما هو المعتاد فى مقام التقاول والخصام، قلت: ولعل هذا فيمن يُناقش الحساب، وأما غيرهم فيلقى عليهم سحابة كنفه، ثم يقررهم بذنوبهم ويسترهم، كما فى الحديث.

﴿ ثم لننْزِعَنَّ من كل شيعةٍ ﴾ أى: من كل أمة تشيعت ديناً من الأديان، ﴿ أيُهم أشدُّ على الرحمن عِتياً ﴾ أى: من كان منهم أعصى وأعتى، فيطرحهم فيها. قال ابن عباس: أى: أيهم أشد جرأة، وقال مجاهد: فجوراً وكذباً، وقال مقاتل: علواً، أو غلواً فى الكفر، أو كبراً، وقال الكلبى: قائدهم ورأسهم، أى: فيبدأ بالأكابر فالأكابر بالعذاب، ثم الذى يليهم جرماً. وفى ذكر الأشدية تنبيه على أنه تعالى يعفو عن بعض أهل العصيان من غير الكفرة، إذا قلنا بعموم الآية، وأما إذا خصصناها بالكفرة، فالأشدية باعتبار التقديم للعذاب.

قال تعالى: ﴿ ثم لنحنُ أعلمُ بالذين هم أولى بها صِليّاً ﴾ أى: أولى بصليها وأحق بدخولها، وهم المنتزعون الذين هم أشدهم عتواً، أو رؤوسهم، فإن عذابهم مضاعف لضلالهم وإضلالهم.

---

(١) الآية ٢٨ من سورة الجاثية .

﴿ وإن منكم إلا واردُها ﴾ ، فيه التفات لإظهار مزيد الاعتناء، وقرىء: «وإن منهم». ويحتمل أن يكون الخطاب لجميع الخلق، أي: وإن منكم أيها الناس ﴿ إلا واردها ﴾ أي: واصلها وحاضرها، يمرُ بها المؤمنون وهي خامدة، وتنهار بغيرهم. وعن جابر أنه ﷺ سُئل عن ذلك فقال: «إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الجنَّةِ الجنَّة قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: أليسَ قَدْ وعدنَا ربُّنا أَنْ نَرِدَ النَّارَ؟ فَيُقَالُ لَهُمْ: قَدْ وَرَدْتُمُوهَا وَهِيَ خَامِدَةٌ». وأما قوله تعالى: ﴿ أُوْلَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾ فالمراد به الإبعاد عن عذابها، وقيل: ورودها: الجواز على الصراط بالمرور عليها.

وعن ابن مسعود: الضمير في (واردها) للقيامة، وحينئذ فلا يعارض: ﴿ لا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ﴾(١)، ولا ما جاء فيمن يدخل الجنة بغير حسابٍ، ولا مرور على الصراط، فضلاً عن الدخول فيها، على أنه اختلف في الورود، فقيل: الدخول وتكون برداً وسلاماً على المؤمن. وقيل: المرور كما تقدم، وقيل: الإشراف عليها والاطلاع. قال القشيري: كلٌ يَرِدُ النارَ، ولكن لا ضيرَ منها ولاإحساس لأحدٍ إلا بمقدار ما عليه من السيئات، والزلل، فأشدُّهم فيها انهماكاً: أشدهم فيها بالنار اشتعالاً واحتراقاً، وأما برىء الساحة، نقي الجانب بعيد الذنوب، فكما في الخبر: «إن النار عند مرورهم ربوة كربوة اللَّبَن - أي: جامدة كجمود اللبن حين يسخن - فيدخلونها ولايحسون بها، فإذا عبروها قالوا: أليس قد وعدنا جهنم على الطريق؟ فيقال لهم: عبرتم وماشعرتم» . هـ.

﴿ كان على ربك حتماً مقضياً ﴾ أي: كان وُرودهم إياها أمراً محتوماً أوجبه الله تعالى على ذاته، وقضى أنه لابد من وقوعه. وقيل: أقسم عليه، ويشهد له: «إلا تحلة القسم»(٢).

﴿ ثم نُنَجِّي الذين اتقوا ﴾ الكفرَ والمعاصي، بأن تكون النار عليهم برداً وسلاماً، على تفسيرالورود بالدخول، وعن جابر أنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «الوُرُودُ الدُّخُولُ، لايَبْقَى بَرٌّ ولافَاجِرٌ إلاَّ دخلَهَا، فَتَكُونُ عَلَى المُؤْمِنِينَ بَرْداً وسَلاَمًا، كَمَا كَانَتْ عَلَى إبْرَاهِيم، حتَّى إنَّ لِلنَّارِ ضَجِيجاً مِنْ بَرْدِهِمْ»(٣). وإن فسرنا الورود بالمرور، فنجاتهم بالمرور عليها والسلامة من الوقوع فيها، ﴿ ونذرُ الظالمين فيها جثياً ﴾: باركين على ركبهم، قال ابن زيد: الجثي شر الجلوس، لايجلس الرجل جاثياً إلا عند كرب ينزل به. هـ.

---

(١) من الآية ١٠١ من سورة الأنبياء.

(٢) يقصد حديث: «لايموت لمسلم ثلاثة من الولد فيلج النار، إلا تحلة القسم» أخرجه البخاري في (الأيمان والنذر، باب قول الله تعالى: «وأقسموا بالله جهد أيمانهم») ومسلم في (البر والصلة، باب: فضل من يموت له ولد فيحتسبه).

(٣) أخرجه أحمد في المسند (٣/٣٢٩) والحاكم في المستدرك (الأهوال ٤/٥٨٧)، والبيهقي في الشعب (١/٣٣٦)، من حديث جابر ابن عبدالله. والحديث: صححه الحاكم ووافقه الذهبي، وقال الهيثمي في المجمع (٧/٥٥): رواه أحمد، ورجاله ثقات.

الإشارة: من أراد كرامة الآخرة فَلْيُرَبِّ يقينه فيها، حتى تكون نصب عينيه، فإنه يرد على الله كريماً. ومن أراد السلامة من أهوالها فليخفف من أوساخها وأشغالها، ويلازم طاعة الله واتباع الرسول ﷺ. ومن أراد سرعة المرور على الصراط فليلزم اليوم اتباع الصراطِ المستقيم، فبقدر ما يستقيم عليها تستقيم أقدامه على الصراط، وبقدر ما يزل عنها يزلُّ عن الصراط.

قال في الإحياء، لما تكلم على العدل في الكيل والوزن، قال بعد كلامه: وكل مكلف فهو صاحب موازين في أفعاله وأقواله وخطراته، فالويل له إن عدل عن العدل، ومال عن الاستقامة، ولولا تعذُّر هذا واستحالته لما ورد قوله تعالى: (وإن منكم إلا واردها..) الآية، فلا ينفك عبدٌ ليس معصوماً عن الميل عن الاستقامة، إلا أن درجات الميل تتفاوت تفاوتاً عظيماً، فبذلك تتفاوت مدة إقامتهم في النار إلى أوان الخلاص، حتى لايبقى بعضُهم إلا بقدر تحلة القسم، ويبقى بعضهم ألفاً وألوف سنين، نسأل الله تعالى أن يقربنا من الاستقامة والعدل، فإن الاستداد على متن الصراط المستقيم من غير ميل عنه غير مطموع فيه؛ فإنه أدق من الشعرة، وأحدّ من السيف، ولولاه لكان المستقيم عليه لايقدر على جواز الصراط الممدود على متن النار، الذي من صفته أنه أدق من الشعر، وأحدّ من السيف، وبقدر الاستقامة على الصراط المستقيم يخف مرور العبد يوم القيامة على الصراط. هـ.

وقال الترمذي الحكيم: يجوز الأولياء والصديقون وهم لايشعرون بالنار، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾(1)، وإنما بعُدوا عنها لأن النور احتملهم واحتوشهم، فهم يمضون في النار، حتى إذا خرجوا منها قال بعضهم لبعض: أليس قد وُعدنا النار، فذكر ما تقدم. ثم قال: فأما ضجة النار فمن بردهم، وذلك أن الرحمة باردة تطفيء غضب الرب، فبالرحمة نالوا النور، حتى أشرق في قلوبهم وصدورهم، فكان نوره في قلوبهم، والرحمة مظلة عليهم، فخمدت النار من بردهم عندما لقُوهَا، فضجت من أجل أنها خلقت منتقمة، فخافت أن تضعف عن الانتقام. ولذلك رُوى أنها تقول: «جُزْ يا مؤمن فقد أطفأ نورُك لهبي».(2) هـ.

وقال الورتجبي: إذا كان جمال الحق مصحوبهم، فلا بأس بالوقوف في النيران، فإن هناك أهل الجنان.

إذا نزلت سـلمى بواد فماؤها زلال وسَلسال، وسيحانها ورْدُ. هـ.

وقال جعفر الصادق: لولا مقاربة النفوس ما دخل أحد النار، فلما فارقتهم نفوسهم أوردهم النار بأجمعهم، فمَنْ كان أشد إعراضا عن خبث النفس كان أسرع نجاة من النار، ألا ترى الله يقول: (ثم نُنجي الذين اتقوا). هـ. قلت.

(1) من الآية ١٠١ من سورة الأنبياء.

(2) رواه أبو نعيم في الحلية (٣٢٩/٩)، والخطيب في تاريخ بغداد (١٩٤/٥)، والطبراني في الكبير، وابن عدي في الكامل، والحكيم الترمذي في نوادر الأصول، وفي سنده: سليم بن منصور بن عمار، وهو ضعيف، انظر: مجمع الزوائد (٣٦٠/١٠)، وكشف الخفاء (٣٧٣/١ - ٣٧٤).

وقد تقدم أن من لاحساب عليهم - وهم المقربون - يمرون على الصراط ولايحسون به، وهم الذين يمرون عليه كالطير أو كالبرق، جعلنا الله منهم بمنّه وكرمه، وبجاه خير الخلق مولانا محمد نبيه وحبه، آمين.

ثم ذكر أحوال من سقط في جهنم ويبقى فيها جثياً، فقال:

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا ﴿٧٤﴾ ﴾

قلت: «هم أحسن»: صفة لِكَمْ.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وإذا تُتلى عليهم ﴾؛ على الكفرة ﴿ آياتُنا ﴾ الناعية عليهم فظاعة حالهم ووخامة مآلهم، والناطقة بحسن عاقبة المؤمنين، حال كونها ﴿ بينات ﴾: واضحات في نفسها، أو بينات الإعجاز، أو بينات المعاني، ﴿ قال الذين كفروا ﴾ أي: قالوا، ووضع الموصول موضع الضمير؛ للتنبيه على أنهم قالوا ما قالوا كافرين بما يُتلى عليهم رادين له، أو: قال الذين تمرّدوا في الكفر والعتو؛ وهم النضْر بن الحارث وأتباعه، قالوا ﴿ للذين آمنوا ﴾، اللام للتبليغ، أي: قالوا مبلغين الكلام لهم، وقيل: لام الأجل، كقوله تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ ﴾(١) أي: لأجلهم وفي حقهم، والأول أولى؛ لأن الكلام هنا كان معهم بدليل قوله: ﴿ أيُّ الفريقين ﴾ أي: المؤمنين والكفار، ﴿ خيرٌ ﴾ كأنهم قالوا: أينا ﴿ خيرٌ مقاماً ﴾ أي: مكاناً: نحن أو أنتم، وقرىء بالضم، أي: موضع إقامة ومنزل، ﴿ وأحسنُ نديّاً ﴾؛ مجلسًا ومجتمعاً، أو: أينا خير منزلاً ومسكناً، وأحسن مجلساً؟.

يُروى أنهم كانوا يُرجلون شعورهم ويدهنونها، ويتزينون بالزينة الفاخرة، ثم يقولون ذلك لفقراء المؤمنين، يريدون بذلك أن خيريتهم، حالاً، وأحسنيتهم، مقالاً، مما لايقبل الإنكار، وأنّ ذلك لكرامتهم على الله سبحانه وزلفاهم عنده، وأنّ الحال التي عليها المؤمنون ؛من الضرورة والفاقة ورَثَاثة الحال؛ لقصور حظهم عند الله. وما هذا القياس العقيم والرأي السقيم إلا لكونهم جَهلةً لا يعلمون إلا ظاهراً من الحياة الدنيا، وذلك مبلغهم من العلم، فردّ عليهم بقوله: ﴿ وكم أهلكنا قبلهم من قَرْنٍ هم أحسنُ أثاثا ﴾: مالاً ومتاعا ﴿ ورِءْياً ﴾؛ منظراً، أي: كثيراً من القرون التي كانوا أفضل منهم، فيما يفتخرون به من الحظوظ الدنيوية، كعاد وثمود وأضرابهم العاتية قبل هؤلاء،

(١) الآية ١١ من سورة الأحقاف.

أهلكناهم بفنون العذاب، ولو كان ما آتيناهم لكرامتهم علينا، لما فعلنا بهم ما فعلنا، وفيه من التهديد والوعيد ما لايخفى، كأنه قيل: فلينتظر هؤلاء أيضاً مثل ذلك.

و« أثاثا »: تمييز، وهو متاع البيت، أو ما جد منه، و« رِءْياً »: كذلك، فِعْل من الرؤية بمعنى المنظر، قال ابن عزيز: «رءيا» بهمزة ساكنة: ما رأيت عليه من شارة حسنة وهيئة، وبغير همز: يجوز أن يكون على معنى الأول[١]، ويجوز أن يكون من الريّ. أي: منظرهم مُرتو من النعمة. وَزِيًا، بالزاى المعجمة، فى قراءة ابن عباس، يعنى هيئة ومنظرا. هـ.

الإشارة: رفعة القدر والمقام لاتكون بالتظاهر بمفاخر اللباس والطعام، ولا بحسن الهيئة ومنظر الأجسام، وأنما يكون باحتظاء القلوب بمعرفة الله، وتمكين اليقين من القلوب، واطلاعها على أسرار الغيوب، مع القيام بوظائف العبودية، أدباً مع عظمة الربوبية، ونسيان النفوس والاشتغال عنها بالعكوف فى حضرة القدوس، فأهل القلوب لايعبأون بظواهر الأشباح، وإنما يعتنون بحياة الأرواح.

كمل حقيقتك التى لم تَكْمُلِ والجسم دعه فى الحضيض الأسفل

فقوت قلوبهم التواجد والأذكار، وحياة أرواحهم العلوم والأسرار، وأنشدوا:

بالقوت إحياءُ الجسوم، وذكره تحيا به الألباب والأرواح

هو عيشهم ووجودهم وحياتهم حقاً ورَوْح نفوسهم والرَّاح.

وأما من عَظُمَ جهلُه، وكَثُفَ حجابه، فإنما ينظر إلى بهجة الظواهر وتزيينها بأنواع المفاخر، أو إلى من عظم جاهه وكثرت أتباعه، وهذه نزعة جاهلية، حيث قالوا حين يتلى عليهم الوعظ والتذكير: (أى الفريقين خير مقاما وأحسن نديا)، ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴾[٢]. وبالله التوفيق.

ثم ذكر الحق تعالى مدد الفريقين؛ أهل الضلال وأهل الإيمان، فقال:

﴿ قُلْ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا (٧٥) وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ هُدًى وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا (٧٦) ﴾

(١) أى: هو مهموز الأصل، أى: منظراً ، من الرؤية، سهلت همزته بإبدالها ياء، ثم أدغمت الياء فى الياء.
(٢) الآية ٧ من سورة الروم.

قلت : «ويزيد» : عطف على «فليمدد» ؛ لأنه فى معنى الخبر، أى: من كان فى الضلالة يمده الله فيها، ويزيد فى هداية الذين اهتدوا مدداً لهدايتهم، أو عطف على «فسيعلمون»، وجمع الضمير فى (رأوا) وما بعدها؛ باعتبار معنى (مَنْ)، وأفرد أولاً باعتبار لفظها.

يقول الحق جل جلاله : ﴿ **قُلْ** ﴾ يا محمد: ﴿ **مَنْ كان** ﴾ مستقراً ﴿ **فى الضلالة** ﴾ مغموراً فى الجهل والغفلة عن عواقب الأمور، مشتغلاً بالحظوظ الفانية، ﴿ **فليَمْدُدْ له الرحمنُ مَداً** ﴾ أى: يمد له بطول العمر وتيسير الحظوظ، إما استدراجاً، كما نطق به قوله تعالى: ﴿ **إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا** ﴾(١)، أو قطعاً للمعاذير كما نطق به قوله تعالى: ﴿ **أَوَ لَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ** ﴾(٢)، أو: (فليمدد له): يدعه فى ضلاله، ويمهله فى كفره وطغيانه، كقوله تعالى: ﴿ **وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ** ﴾(٣). والتعرض لعنوان الرحمانية؛ لبيان أن أفعالهم من مقتضيات الرحمة مع استحقاقهم تعجيل الهلاك.

وكأنه جل جلاله لما بيَّن عاقبة الأمم المهلَكة، مع ما كان لهم من التمتع بفنون الحظوظ العاجلة، أمر رسوله ﷺ أن يجيب هؤلاء المفتخرين بما لَهُم من الحظوظ بمآل أمر الفريقين، وهو استدراج أهل الضلالة ثم أخذهم، وزيادة هداية أهل الإيمان ثم إكرامهم، كما بيَّن ذلك بقوله: ﴿ **حتى إذا رأوا ما يُوعدون** ﴾، فهو غاية للحد الممتد، أى: نمد لهم فى الحياة وفنون الحظوظ حتى ينزل بهم ما يوعدون؛ ﴿ **إمَّا العذابَ** ﴾ الدنيوى بالقتل، والأسر، وغلبة أهل الإيمان عليهم، ﴿ **وإما الساعةَ** ﴾، وهو يوم القيامة وما ينالهم فيه من الخزى والهوان، و«إما» هنا: لمنع الخُلو، لا لمنع الجمع؛ فإن العذاب الأخروى لا ينفك عنهم بحال.

﴿ **فسيعلمون** ﴾ حينئذ ﴿ **من هو شرٌ مكانًا** ﴾ من الفريقين، بأن يشاهدوا الأمر على عكس ما كانوا يُقدِّرون، فيعلمون أنهم شر مكاناً، لا خير مقاماً، ﴿ **و** ﴾ يعلمون أنهم ﴿ **أضعفُ جنداً** ﴾ أى: جماعة وأنصاراً، لا أحسن نديّاً، كما كانوا يدعونه، وليس المراد أن لهم يوم القيامة جنداً سيضعف، وما كان له من فئة ينصرونه من دون الله، وإنما ذكر ذلك رداً لما كانوا يزعمون أن لهم أعواناً وأنصاراً، يفتخرون بهم فى الأندية والمحافل، فردٌ ذلك بأنه باطل وظل آفل، ليس تحته طائل.

ثم ذكر فريق أهل الإيمان فقال: ﴿ **ويزيدُ اللهُ الذين اهتدوا هُدىً** ﴾ أى: كما يمد لأهل الضلالة؛ زيادة فى ضلالهم، كذلك يزاد فى هداية أهل الهداية؛ ثواباً على طاعتهم؛ لأن كلا يجزى بوصفه، فلا تزال الهداية تنمو فى

---

(١) من الآية ١٧٨ من سورة آل عمران.
(٢) من الآية ٣٧ من سورة فاطر.		(٣) من الآية ١١٠ من سورة الأنعام.

قلوبهم حتى يردوا موارد الكرم، أمَّا فى الدنيا فبكشف الحجاب وانقشاع السحاب حتى يشاهدوا رب الأرباب، فما كانوا يؤمنون به غيباً صار عيانا، وأمَّا فى الآخرة فبنعيم الحور والقصور، ورؤية الحليم الغفور.

فقد بيَّن الحق تعالى حال المهتدين إثر بيان حال الضالين، وأن إمهال الكافر وتمتيعه بالحظوظ ليس لفضله، وأن منع المؤمن من تلك الحظوظ ليس لنقصه، بل قوم عجلت لهم طيباتهم فى الحياة الدنيا الفانية، وقوم ادخرت لهم طيباتهم للحياة الباقية، قال تعالى: ﴿ **والباقياتُ الصالحاتُ** ﴾ ؛ كأنواع الطاعات، ﴿ **خيرٌ عند ربك** ﴾ ؛ لبقاء فوائدها ودوام عوائدها.. وقد تقدم تفسيرها(١).

والتعرض لعنوان الربوبية والإضافة إلى ضميره ﷺ لتشريفه، أى: فهى أفضل ﴿ **ثواباً** ﴾ أى: عائدة مما يتمتع به الكفرة من النعم الفانية، التى يفتخرون بها؛ لأن مآلها الحسرة السرمدية والعذاب الأليم، ومآل الباقيات الصالحات النعيم المقيم فى دار الدوام، كما أشير إليه بقوله: ﴿ **وخيرٌ مَرَدّاً** ﴾ أى: مرجعاً وعاقبة، وتكرير الخير لمزيد الاعتناء بشأن الخيرية وتأكيد لها فى التفضيل، مع أن ما للكفرة بمعزل من أن يكون له خيرية فى العاقبة، ففيه نوع تهكم بهم. والله تعالى أعلم.

الإشارة: اعلم أن الحق ـ جل جلاله ـ يرزق العبد على قدر نيته، ويمده على قدر همته، فمن كانت همته فى الحظوظ العاجلة والشهوات الفانية، أمده الله فيها، ومتعه بها ما شاء، على حسب القسمة، ثم أعقبه الندم والحسرة، ومن كانت همته الآخرة، أمده سبحانه فى الأعمال التى توصله إلى نعيمها، كصلاة وصيام وصدقة وتدريس علم، وأذاقه من حلاوتها ما يُهون عليه مرارتها، ثم أعقبه النعيم الدائم من القصور والحور، وأنواع الطيبات، مما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين.

ومن كانت همته الله ـ أى: الوصول إلى حضرته دون شيء سواه ـ أمده الله فى الأعمال التى توصله إليه، وهى أعمال القلوب؛ من التخلية والتحلية، كالتخلية من الرزائل والتحلية بالفضائل، وكقطع المقامات بأنواع المجاهدات، ورأس ذلك أن يُوصله إلى شيخ كامل جامع بين الحقيقة والشريعة، بين الجذب والسلوك، قد سلك الطريق على شيخ كامل، فإذا وصله إليه وكشف له عن سر خصوصيته فليستبشر بحصول المطلب وبلوغ الأمل. وبالله التوفيق.

ثم ذكر بعض من مدّ له فى الضلالة وخصه بزيادة ضلالته، فقال:

﴿ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾ ﴾

(١) راجع تفسير الآية ٤٦ من سورة الكهف.

يقول الحق جل جلاله في حق العاص بن وائل: ﴿ **أفرأيت الذى كفر بآياتنا** ﴾: القرآن المشتمل على البعث والحساب، قال خبَّاب بن الأرَت: كان لى على العَاص بن وَائل دَيْنٌ، فاقْتَضَيْتُه، فقَالَ: لاَ، والله لا أَقْضِيكَ حتى تَكْفُرَ بمُحَمَّدٍ، فَقُلْتُ: لاَ والله لا أَكْفُرُ بمُحَمَّدٍ حتَّى تَمُوتَ ثم تُبعث، قال العاص: فإذا مِتُّ ثم بُعثت، جِئتنى وسيكون لى ثَمَّ مالٌ وولدٌ، فأعطيك، لأنكم تزعمون أن فى الجنة ذهباً وفضة - استهزاء واستخفافًا - وفى رواية البخارى: «**كُنت قَيْنًا**(١) **فى الجاهلية، فصنعتُ للعاصى سيفًا فجئتُ أتَقَاضَاه...**»(٢) **فذكر الحديث. فالهمزة للتعجيب من حاله، للإيذان بأنها من الغرابة والشناعة بحيث يقضى منها العجب، والفاء للعطف على مقدر** يقتضيه المقام، أى: أنظرت فرأيت الذى كفر بآياتنا الباهرة التى من حقها أن يؤمن بها كل من شاهدها.

﴿ **وقال** ﴾ مستهزءاً بها، مصدّراً باليمين الفاجرة: والله ﴿ **لأُوتَيَنَّ** ﴾ فى الآخرة ﴿ **مالاً وولداً** ﴾ أى: انظر إلى حاله فتعجب من حالته البديعة وجرأته الشنيعة، ﴿ **أَطَّلَع الغيبَ** ﴾ أى: أبلغ من عظمة الشأن إلى أن يرتقى إلى علم الغيب، الذى استأثر به العليم الخبير، حتى ادعى أن يؤتى فى الآخرة مالاً وولداً، وأقسم عليه، ﴿ **أم اتخذ عند الرحمن عَهْداً** ﴾ بذلك، فإنه لايتوصل إلى العلم بذلك إلا بأحد هذين الطريقين، وهذا رد لكلمته الشنعاء، وإظهار لبطلانها إثر ما أشير إلى التعجب منها.

والتعرض لعنوان الرحمانية للإشعار بعلِّية الرحمة للإيتاء، فإن الرحمة تقتضى الإعطاء على الدوام. والعهد: قيل: كلمة الشهادة، أو العمل الصالح، فإن وعده تعالى بالثواب عليها كالعهد، قال القشيرى: ﴿ **أَطَّلَع الغيبَ** ﴾ فقال بتعريف له منا، ﴿ **أم اتخذ عند الرحمن عهداً** ﴾ أى: ليس الأمر كذلك. ثم قال: ودليل الخطاب يقتضى أن المؤمن إذا أمَّلَ من الله شيئاً جميلاً، فالله تعالى يحققه له؛ لأنه على عهد مع الله تعالى، والله لا يُخلف الميعاد. هـ.

ثم أبطل ما أمله الكافر فقال: ﴿ **كلا** ﴾ أى: انزجر عن هذه المقالة الشنيعة، فهو ردع له عن التفوه بتلك العظيمة، وتنبيه على خطئه، قال تعالى: ﴿ **سنكتبُ ما يقول** ﴾ أى: سنظهر ما كتبنا عليه، فهو كقول الشاعر:

إذَا ما انْتَسَبْنَا لَمْ تَلِدْنِى لَئِيمَةٌ

أى: تبين أنى لم تلدنى لَئِيمَةٌ، أو: سنحفظ عليه ما يقول فنجازيه عليه فى الآخرة، أو سننتقم منه انتقام من كتب جريمةً فى الحال ويجازى عليها فى المآل، فإن نفس الكتابة لم تتأخر عن القول لقوله تعالى: ﴿ **ما يَلفِظُ من قَوْلٍ إلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ** ﴾(٣) قال ابن جزى: إنما جعله مستقبلاً؛ لأنه إنما يظهر الجزاء والعقاب فى المستقبل. هـ.

---

(١) القيْن: الحدّاد والصانع، والجمع أقيان وقيون. انظر اللسان (قين ٥/٣٧٩٨).

(٢) أخرجه البخارى فى (البيوع. باب ذكر القين والحدّاد)، وفى (تفسير سورة مريم)، ومسلم فى (صفات المنافقين وأحكامهم، باب ٤).

(٣) الآية ١٨ من سورة ق.

قلت: والظاهر إنما أبرزه بصورة المستقبل، تنبيهاً على عدم نسخه، وأنه ماض نافذ. قاله في الحاشيه.

﴿ وَنَمُدُّ له من العذاب مَداً ﴾، مكان ما يدعيه لنفسه من الإمداد بالمال والأولاد، أي: نطول له من العذاب ونمد له فيه ما يستحقه، أو نزيد في مضاعفة عذابه، لكفره وافترائه على الله سبحانه، واستهزائه بآياته العظام، ولذلك أكده بالمصدر، دلالةً على فرط الغضب والسخط.

﴿ ونَرِثُه ما يقولُ ﴾، قال مكي: حرف الجر محذوف، أي: نرث منه ما يقول . هـ. والظاهر أن (ما): بدل من الضمير، وهو الهاء، أي: نرث ما يقول وما يدعيه لنفسه اليوم من المال والولد. وفيه إيذان بأنه ليس لما يقول مصداق موجود سوى القول، أي: ننزع منه ما آتيناه، ﴿ ويأتينا ﴾ يوم القيامة ﴿ فرْداً ﴾ لايصحبه مال ولاولد كان له في الدنيا، فضلا أن يؤتي ثَمَّةَ مالا وولداً زائدا. وقال القشيري: فرداً بلا حجة على قوله وقَسَمِه: (لأوتين مالاً وولداً)، وذلك منه استهزاء ومحض كفر. والله تعالى أعلم.

الإشارة: يُفهم من الآية أن الانسان إذا آمن بآيات الله وعمل بما أمره الله يكون له عهد عند الله، فإذا تمنى شيئا أو مناَّه غيره لا يخيبه الله، ويتفاوت الناس في العهد عند الله، على قدر تفاوتهم في طاعته ومعرفته، وسيأتي في قوله: ﴿ لا يملكون الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهدا ﴾[1] زيادة بيانه. والله تعالى أعلم.

ثم رد على أهل الضلالة مازعموا، من نفع الأصنام لهم، فقال:

﴿ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّاۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: واتخذ المشركون الأصنام ﴿ آلهةً ﴾ يعبدونها من دون الله ﴿ ليكونوا لهم عِزاً ﴾ يوم القيامة، ووصلة عنده يشفعون لهم، ﴿ كلا ﴾ لايكون ذلك أبداً، فهو ردع لهم عن ذلك الاعتقاد الباطل، وإنكارٌ لوقوع ما علَّقوا به أطماعَهم، ﴿ سيكفرون بعبادتهم ﴾ أي: تجحد الآلهة عبادتَهم لها، بأن يُنطقهم الله تعالى وتقول ما عبدتمونا، أو: سيكفر الكفرة عبادتهم لها حين شاهدوا سوء عاقبة عبادتهم لها، كقوله: ﴿ والله ربنا ما كنا مشركين ﴾[2] ﴿ ويكونون عليهم ضِداً ﴾ أي: تكون الآلهة، التي كانوا يرجون أن تكون لهم عزاً، ضداً للعز،

---

(١) الآية ٨٧ من هذه السورة.

(٢) من الآية ٢٣ من سورة الأنعام.

أى: ذلاً وهواناً ؛ لأنهم تعززوا بمخلوق بسخط الخالق، وقد قال ﷺ: «من طلب رضا المخلوق بمعصية الخالق عاد حامده من الناس ذاماً»(١). وتكون عوناً عليهم، وآلة لعذابهم، حيث تجعل وقود النار وحَصَب جهنم، أو تكون الكفرة ضداً وأعداء للآلهة، كافرين بها، بعد أن كانوا يُحبونها كحب الله،ويعبدونها من دون الله، وتوحيد الضد؛ لتوحيد المعنى الذى عليه تدور مضادتهم، فإنهم بذلك كشىء واحد، كقوله عليه الصلاة والسلام: «وهُمْ يَدٌ على مَنْ سِوَاهُمْ»(٢).

وسبب عبادتهم للأصنام تزيين الشيطان، وفَاء بقوله: ﴿ لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ ﴾(٣) كما قال تعالى: ﴿ ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين ﴾ أى: سلطهم عليهم ومكنهم من إغوائهم، بقوله تعالى: ﴿ وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم ﴾(٤) الآية.

وهذا تعجيب لرسوله ﷺ مما نطقت به الآيات الكريمة عن هؤلاء الكفرة، العتاة المردة، من فنون القبائح من الأقاويل والأفاعيل، والتمادى فى الغى، والانهماك فى الضلال، والتصميم على الكفر، من غير صارف يلويهم، ولا عاطف يثنيهم، وإجماعهم على مدافعة الحق بعد اتضاحه، وتنبيه على أن جميع ذلك بإضلال الشياطين وإغوائهم، لا أن له مسوغاً فى الجملة، أى: ألم تر ما فعلت الشياطين بالكفرة حتى صدر منهم ما صدر من تلك القبائح والعظائم، وليس المراد تعجيبه عليه السلام من مطلق إرسال الشياطين عليهم، كما يوهمه تقليل الرؤية، بل عما صدر عنهم من حيث إنها من آثار إغواء الشياطين، كما ينبئ عنه قوله تعالى: ﴿ تَؤُزُهُم أزا ﴾ أى: تغريهم وتهيجهم على المعاصى تهييجاً شديداً، بأنواع الوساوس والتسويلات. فالأز والاستفزاز أخوان، معناهما: شدة الانزعاج، وجملة (تؤزهم): حال مقدرة من الشياطين، أو استئناف وقع جواباً عن صدر الكلام، كأنه قيل: ماذا تفعل بهم الشياطين؟ قال: (تؤزهم أزا).

﴿ فلا تعجلْ عليهم ﴾ بأن يهلكوا حسبما تقتضى جناياتهم ويبيدوا عن آخرهم، وتطهرُ الأرض من فسادهم، ﴿ إنما نعدّ لهم عَدًّا ﴾ أى: لاتستعجل بهلاكهم، فإنه لم يبق لهم إلا أيام وأنفاس قلائل نعدها عداً، ثم نأخذهم أخذاً. والله تعالى أعلم.

(١) أخرجه البزار (كشف الأستار ٤/٢١٨) من حديث السيدة عائشة. وقال الهيثمى فى المجمع: (١٠/٢٢٨): رواه البزار من طريق قطبة بن العلاء عن أبيه، وكلاهما ضعيف . و ورد معنى الحديث عند الترمذى، ولفظه: «من التمس رضا الناس بسخط الله، سخط الله عليه، وأسخط الناس عليه».

(٢) طرف مِن حديث أخرجه أحمد فى المسند (١/١٢٢) وأبو داود فى: (الديات، باب أيُقاد المسلم بالكافر)، والنسائى فى (القسامة، باب القود بين الأحرار والعبيد) من حديث سيدنا علي.

(٣) من الآية ٣٩ من سورة الحجر.

(٤) من الآية ٦٤ من سورة الإسراء ٤٣.

الإشارة: كل من اتخذ شيئاً يتعزز به من دون الله وطاعته انقلب عليه ذُلاً وهواناً، ولذلك قيل: «من تعزز بمخلوق مات عزه» . فإن أردت عزاً لايفنى فلا تتعزز بعز يفنى، وهو التعزز بالمال أو الجاه، أو غير ذلك مما يفنى، وسيأتى عند قوله: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا ﴾(١) . ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾(٢) زيادة بيان. وكما أرسل الحق تعالى الشياطين على الكافرين تزعجهم إلى المعاصى أرسل الملائكة والواردات الإلهية إلى المؤمنين تنهضهم إلى طاعة الله، وتزعجهم إلى السير لمعرفة الله. فالملائكة تحرك العبد إلى الطاعة، والواردات تزعجه إلى الحضرة، تخرجه عن عوائده وتدمغ له من علائقه، وعوائقه، حتى ينفرد لحضرة الحق: وفى الحكم: «الوارد يأتى من حضرة قهار، لأجل ذلك لايصادمه شيء إلا دمغه؛ ﴿بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق﴾». وقال أيضا: «متى وردت الواردات الإلهية عليك هدمت العوائد لديك؛ ﴿إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها﴾» .

وقال القشيرى على قوله: (تؤزهم أزا) : أى: تزعجهم إزعاجاً، فخاطر الشيطان يكون بإزعاج وظلمة، وخاطر الحقّ يكون بَرَوْحٍ وسكون، وهذه إحدى الفوارق بينهمـا . هـ. قلت: ومن الفوارق أيضًا: أن خاطر الحق لا يأمر إلا بالخير مع برودة وانشراح فى القلب وسكون وأناة .. وفى الحديث «العجلة من الشيطان، والآناة من الرحمن» (٣) . هـ. بخلاف خاطر الشيطان؛ فإنه لا يأمر إلا بالشر، وقد يأمر بالخير إذا كان يجرُّ به إلى الشر، وعلامته أن يكون فيه ظلمة ودخن وعجلة وبطش، وقد استوفى الكلام عليهم فى النصيحة الكافية. وبالله التوفيق.

ثم ذكر مآل فريق الإيمان وفريق الضلال، فقال:

﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ لَّا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾ ﴾

قلت : (يوم نحشر) : إما ظرف لفعل مؤخر؛ للإشعار بضيق العبارة عن حصره؛ لكمال جماله أو فظاعته، والتقدير: يوم نحشر المتقين إلى الرحمن، ونسوق المجرمين، نفعل بالفريقين مالا يفى به نطاق المقال، أو ظرف لاذكر، و(وفْدا) و(وِرْدا) : حالان.

---

(١) من الآية ١٠ من سورة فاطر.
(٢) من الآية ٨ من سورة المنافقون.
(٣) أخرجه البيهقى فى السنن الكبرى (١٠/١٠٤) بتقديم وتأخير، من حديث أنس بن مالك، وعزاه فى مجمع الزوائد لأبى يعلى عن أنس، وقال: ورجاله رجال الصحيح.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ يوم نحشرُ المتقين ﴾: نجمعهم ﴿ إلى الرحمن ﴾ أى: إلى ربهم يغمرهم برحمته الواسعة، ﴿ وَفْداً ﴾ : وافدين عليه، كما يفد الوفود على الملوك، منتظرين لكرامتهم وإنعامهم. وعن على كرم الله وجهه: (لما نزلت هذه الآية، قلت: يا رسول الله، إنى قد رأيت الملوك ووفودهم، فلم أر وفداً إلا راكبًا، فما وفد الله ؟ قال: «يا على؛ إذا حان المنصرَفُ من بين يدى الله، تلقت الملائكة المؤمنين بنُوقٍ بيض، رِحالُهَا وأزِمَّتها الذَهَبُ، على كل مركب حُلة لا تُساويها الدنيا، فيلبس كل مؤمن حلة، ثم يستوون على مراكبهم، فتهوى بهم النوق حتى تنتهى بهم إلى الجنة، فتتلقاهم الملائكة ﴿ سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين ﴾» .

﴿ ونَسُوقُ المجرمين ﴾ كما تُساق البهائم ﴿ إلى جهنم وِرْداً ﴾: عطاشا، فإن من يرد الماء لا يرده إلا للعطش، أو كالدواب التى ترد الماء، أى: يوم نحشر الفريقين نفعل ما نفعل مما لايفى به نطاق العبارة، لما يقع فيه من الدواهى الطامة، أو الكرائم العامة، أو: اذكر يوم نحشر الفريقين، على طريق الترغيب والترهيب.

وقوله تعالى: ﴿ لا يملكون الشفاعة ﴾: استئناف مبين لما فيه من الأمور الدالة على هوله، وضمير الواو: إما لجميع العباد المدلول عليهم بذكر الفريقين لانحصارهم فيها، أو إلى المتقين فقط، أو إلى المجرمين.

و(من اتخذ): منصوب على الاستثناء، أو بدل من الواو، أى: لايملك العباد أن يشفعوا لغيرهم إلا من استعد له بالتحلى بالإيمان والتقوى، ففيه ترغيب للعباد فى تحصيل الإيمان والتقوى، المؤدى إلى نيل هذه الرتبة العليا. أولا يملك المتقون الشفاعة إلا شفاعة من اتخذ العهد بالإسلام والعمل الصالح، أو لا يملك المجرمون أن يشفع لهم إلا من كان منهم مسلما، فيشفع فى مثله. فَمَن، على هذا الثالث، بدل من الواو فقط. والأول أحسن؛ لعمومه.

قال ابن مسعود رضي الله عنه : سمعت النبى ﷺ يقول: «أما يَعْجزُ أحدكُم أنْ يتَّخذَ كُلَّ صباَحٍ ومَساءٍ عهداً عند الله، يقُولُ كُلَّ صبَاحٍ ومسَاءٍ: اللهُمَّ فَاطرَ السموَات والأرْض، عالمَ الغيْب والشَّهادة، إنِّى أعْهدُ إليْكَ فى هذه الحياة الدنيا، بأنى أشْهدُ أنْ لا إله إلاَّ أنت، وحْدك لاشَريك لَكَ، وأنَّ مُحمَّداً عبْدُك ورسولُك، فلا تكلنى إلى نفسى، فإنكَ إنْ تَكلْنى إلى نفسْىِ تُقَرِّبْنى منَ الشرِّ وتُباعدْنى منَ الخيْرِ، وإنِّى لاَ أثقُ إلاَّ برَحْمَتكَ، فاجْعَلْ لى عنْدكَ عهْداً تُوفِّينيه يَوْمَ القيامَة، إنَّكَ لاتُخلفُ الميعادَ. فإذا قَالَ ذَلكَ طُبعَ عليْه طابَع ووُضعَ تحْتَ العرْشِ، فإذَا كانَ يوْمُ القيامَة نَادى مُنادٍ: أيْنَ الذينَ لَهُمْ عنْدَ الله عهْدٌ فيَدْخُلُون الجنَّة» . هـ.

الإشارة: ورود العباد على الله يوم القيامة يكون على قدر ورودهم إليه اليوم فى الدنيا، فبقدر التوجه إليه اليوم تعظم كرامة وروده فى الآخرة، فمن ورد على الله تعالى من باب الطاعة الظاهرة حملته صور الطاعات إلى الآخرة، ومن ورد من باب الطاعات القلبية حملته الأنوار إلى الفراديس العالية، ومن ورد من باب الطاعات

السرية- كالفكرة والنظرة فى مقام المشاهدة - حمله الحق إلى الحضرة القدسية، فيكون فى مقعد صدق عند مليك مقتدر. قال شيخ شيوخنا، سيدى عبدالرحمن العارف في قوله تعالى: (وفداً): قيل: ركباناً على نجائب طاعتهم، وهم مختلفون، فمن راكب على صور الطاعات، ومن راكب على نجائب الهمم، ومن راكب على نجائب الأنوار، ومن محمول يحمله الحق فى عقباه، كما يحمله اليوم فى دنياه، وليس محمول الحق كمحمول الخلق. هـ.

وقوله تعالى: (لايملكون الشفاعة...) الآية، اعلم أن العهد الذى تكون به الشفاعة يوم القيامة هو الطاعة وتربية اليقين والمعرفة، فتقع الشفاعة لأهل الطاعات على قدر طاعتهم وإخلاصهم، وتقع لأهل اليقين على قدر يقينهم، وهم أعظم من أهل المقام الأول، وتقع لأهل المعرفة على قدر عرفانهم، وهم أعظم من القسمين، حتى إن منهم من يشفع فى أهل عصره كلهم، وقد سَمِعْتُ من شيخنا الفقيه، شيخ الجماعة سيدى التاودى بن سودة، أن بعض الأولياء قال عند موته: يارب شفعنى فى أهل زمانى، فقال له الحق تعالى - من جهة الهاتف - : لم يبلغ قدرك هذا، فقال: يارب إن كان ذلك من جهة عملى واجتهادى فَلَعَمْرِى إنه لم يبلغ ذلك، وإن كان من جهة كرمك وجودك فوعزتك وجلالك لهو أعظم من هذا، فقال له: إنى شفعتك فى أهل عصرك. هـ. بالمعنى. فمن رجع إلى كرم الله وجوده، ودخل من هذا الباب، وجد الإجابة أقرب إليه من كل شيء. وبالله التوفيق.

ثم كرر الرد على أهل الشرك والضلال وشنّع عليهم، فقال:

﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾ ﴾

قلت: «هدّاً»: مصدر مؤكد لمحذوف، هو حال من الجبال، أى: تهد هدّاً. و«أن دعواه»: على حذف اللام، أى: لأن دعوا، وفيه احتمالات أُخر.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وقالوا اتخذ الرحمنُ ولداً ﴾ هذه المقالة صدرت من اليهود والنصارى، ومن يزعم من العرب أن الملائكة بنات الله، لعن الله جميعهم، فسبحان الله وتعالى عن ذلك علواً كبيراً، فحكى جنايتهم إثر جناية عَبَدة الأصنام، وعطف القصة على القصة لاشتراكهم فى الضلالة، قال تعالى فى شأنهم: **﴿ لقد جئتم شيئاً إدّاً ﴾** أى: فعلتم أمراً منكراً شديداً، لايقادر قدره، فهو رد لمقالتهم الباطلة، وتهويل لأمرها بطريق الالتفات

المنبئ عن كمال السخط وشدة الغضب، المفصح عن غاية التشنيع والتقبيح، وتسجيل عليهم بغاية الوقاحة والجهل. و(جاء) يستعمل بمعنى فعل، فيتعدى تعديته، والإد - بكسر الهمزة وفتحها، وقُرئ بهما في الشاذ -: العظيم المنكر، الإدُّ: الشدة، قيل: الأدُّ: في كلام العرب: أعظم الدواهي.

ثم وصفه وبيّن هوله فقال: ﴿ تكادُ السمواتُ يتفطَّرنَ منه ﴾: يتشققن مرة بعد أخرى، من عظم ذلك الأمر وشدة هوله، وهو أبلغ من «ينفطرن» كما قرئ به، ﴿ وتنشقُّ الأرضُ ﴾ أي: وتكاد تنشق وتذهب، ﴿ وتخرُّ الجبالُ ﴾ أي: تسقط وتنهدم ﴿ هدًّا ﴾ بحيث لايبقى لها أثر. والمعنى: أن هول تلك الكلمة الشنعاء وعظمها، بحيث لو تصورت بصورة محسوسة، لم يُطق سمعها تلك الأجرام العظام، ولتفتتت من شدة قبحها، أو: إن فظاعتها واستجلاب الغضب والسخط بها بحيث لولا حلمه تعالى، لخر العالم وتبددت قوائمه، غضبًا على من تفوه بها. قال محمد بن كعب: كاد أعداء الله أن يقيموا علينا الساعة، يعني: لأن ما ذكر أوصاف الساعة.

وذلك ﴿ أن دَعَوا للرحمنِ ولداً ﴾ أي: تكاد تنفطر السموات وتنشق الأرض، وتنهدم الجبال؛ لأجل أن دعوا، أي: نسبوا أو سموا للرحمن ولدا، ﴿ وما ينبغي للرحمنِ أن يتخذَ ولداً ﴾ أي: قالوا اتخذ الرحمن ولداً، أو دعوا له ولداً، والحال أنه مما لايليق به تعالى اتخاذ الولد؛ لاستحالته عليه تعالى. ووضع الرحمن موضع الضمير؛ للإشعار بعلية الحكم؛ لأن كل ما سواه تعالى منعَم عليه برحمته، أونعمة من أثر الرحمة، فكيف يتصور أن يجانس من هو مبدأ النعم ومولى أصولها وفروعها، حتى يتوهم أن يتخذه ولداً، وقد صرح به قوله عز قائلاً: ﴿ إن كل من في السموات والأرض ﴾ أي: ما منهم من أحد من الملائكة أو الثقلين ﴿ إلا آتي الرحمنِ عبداً ﴾؛ مملوكًا لله في الحال بالانقياد وقهرية العبودية. ﴿ لقد أحصاهم ﴾ أي: حصرهم وأحاط بهم، بحيث لايخرج أحد من حيطة علمه، وقبضة قدرته وقهريته، ما وجد منهم وما سيوجد، وما يقدر وجوده لو وجد، كل ذلك في علمه وقضائه وقدره وتدبيره، لاخروج لشيء عنه، وفي ذلك تصوير لقيام ربوبيته على كل شيء، وأنه عالم بكل شيء، جملة وتفصيلاً، ﴿ وكلهم آتيه يومَ القيامة فرداً ﴾ أي: وكل واحد منهم يأتي يوم القيامة فرداً من الأموال والأنصار والأتباع، متفرداً بعمله، فإذا كان شأنه تعالى وشأنهم كذلك فأنى يتوهم احتمال أن يتخذ شيئاً منهم ولداً؟!.

وفي الحديث القدسي: «قال الله تعالى: كذّبني عبدي، ولم يكن له ذلك، وشتمني عبدي ولم يكن له ذلك، أما تكذيبُه إياي؛ فأن يقول: من يُعيدُنا كما بدأنا؟ وأما شَتمُه إياي؛ فأن يقول: اتخذ الله ولداً، وأنا الأحدُ الصمدُ، لم ألِد ولم أُولَد، ولم يكن لي كُفواً أحد»(١). وهو في البخاري. وفي صيغة اسم الفاعل في قوله: «آتيه» من الدلالة على إتيانهم كذلك ألبتة ما ليس في صيغة المضارع لو قيل يأتيه. والله تعالى أعلم.

---

(١) الحديث أخرجه البخاري (في تفسير سورة الإخلاص) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الإشارة: إذا علمت أيها المؤمن أن الحق جل جلاله يغضب هذا الغضب الكلي على من أشرك مع الله، أو اعتقد فيه ما ليس هو عليه من التنزيه وكمال الكمال، فينبغي لك أن تخلص مَشربَ توحيدك من الشرك الجلي والخفي، علماً وعقداً وحالاً وذوقاً، حتى لايبقى في قلبك محبة لشيء من الأشياء ولا خوف من شيء، ولاتعلق بشيء، ولاركون لشيء، إلا لمولاك، وحينئذ يصفى مشرب توحيدك، وتكون عبداً لله خالصاً حراً مما سواه، ومهما بقى فيك شيء من محبة الهوى نقص توحيدك بقدره، ولم تصل إليه مادمت تميل إلى شيء سواه. وفي ذلك يقول الششترى رضي الله عنه:

إنْ تُرِدَ وَصْلَنَا فَموتك شَرْطٌ لا يَنَالُ الوِصَالَ مَنْ فِيهِ فَضْلَه

فكن عبداً لله حقيقة، وانخرط في سلك قوله: ﴿ إن كل من في السموات والأرض إلا آتي الرحمن عبدا ﴾. فحينئذ تكون حراً مما سواه، ويُملكك الوجود بأسره، يكون عند أمرك ونهيك. وفي ذلك يقول القائل:

دَعَـوْنى لملـكهم فلما أجبتهم قالوا دعـوناك للمُلك لا للمِـلك

وإذا فتحت عين القدرة وعين الحكمة وضعت كل شيء في محله، فتتنزه بعين القدرة في رياض الملكوت وبحار الجبروت، وتتنزه بعين الحكمة في بهجة الملك وأسرار الحكمة. فعين القدرة تقول: كل من في السموات والأرض نور من أنوار الرحمن، وسر من أسرار ذاته، وعين الحكمة تقول: كل من في السموات والأرض عبد مملوك تحت قهرية ذاته، فاعرف الضدين، وأنزل كل واحد في محله، تكنْ عارفاً بالله، فإن أردت أن تعرفه بضد واحد بقيت جاهلاً به. فالحكمة تثبت العبودية صورة؛ صوناً لكنز الربوبية، والقدرة تغيبك عنها بشهود أسرار الربوبية، وفي الحكم: «سبحان من ستر سر الخصوصية بظهور وصف البشرية، وظهر بعظمة الربوبية في إظهار العبودية».

فالعبودية لازمة من حيث العبد، والغيبة عنها واجبة من حيث الرب، فإثبات العبودية، حكمةٌ، فرق، والغيبة عنها في شهود أنوار الربوبية: جمع، فالعارف مجموع في فرقه، مفروق في جمعه.

ولما ذكر قبائح الكفرة أتبعه بذكر محاسن المؤمنين، فقال:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾ ﴾

قلت: لما استحقر الكفرةُ أحوالَ المؤمنين حتى قالوا: ﴿ أينا خير مقاماً وأحسن نديا ﴾، أخبر الله تعا المؤمنين وبشرهم أنهم سيعزهم ويلقى مودتهم في قلوب عباده.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ إنَّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعلُ لهم الرحمنُ ﴾ في قلوب الناس مودة وعطفاً، حتى يحبهم كل من سمع بهم، فيحبهم ويحببهم إلى عباده من أهل السموات والأرض، أي: سيحدث

لهم فى القلوب مودةً من غير تعرض لأسبابها، سوى ما لهم من الإيمان والعمل الصالح، أو ﴿ وُدًّا ﴾ فيما بينهم، فيتحابون ويتوادون ويحبهم الله.

قال القشيري: يجعل في قلوبهم ودّاً لله، وهو نتيجة أعمالهم الخالصة، وفي الخبر: «لايزال العبد يتقرب إليَّ بالنوافل حتى يحبني وأحبه». والتعرض لعنوان الرحمانية؛ لمَا أنّ الموعود من آثارها، وأن مودتهم رحمة بهم وبمن أحبهم. وعن النبي ﷺ أنه قال لعليّ رضي الله عنه: «قل اللَّهُمَّ اجْعَلْ لِي عِنْدَكَ عَهْداً، واجعل لِي في صُدُورِ المؤمنين مَوَدَّةً» فنزلت الآية(١). وفي حديث البخاري وغيره: «إذا أحَبَّ اللهُ عبداً قال لجبْرِيل: إنِّي أُحبُّ فُلاناً فأحِبَّهُ، فيُحِبُّهُ جبْرِيلُ، ثُمَّ يُنَادَى في أهْلِ السَّماءِ إنَّ اللهَ قَدْ أحبَّ فُلاناً فأحِبُّوه، فيُحبُّهُ أهْلُ السَّماءِ، ثُمَّ يَضع لَهُ المحبة فِي الأرْض»(٢).

وقال قتادة: (سيجعل لهم الرحمن ودا) قال: أي والله وداً في قلوب أهل الإيمان. وإن هرم بن حيان يقول: ماأقبل عبدٌ بقلبه على الله إلا أقبل الله بقلوب أهل الإيمان إليه، حتى يرزقه مودتهم ورحمتهم. قلت: ولفظ الحديث: «ما أقْبَلَ عبدٌ بقلْبِه إلى اللهِ عز وجل إلا جَعَلَ اللهُ قلوبَ المؤمنين تَفِدُ إليه بالودِّ والرحمةِ، وكان الله إليه بكل خيرٍ أسْرَعَ»(٣). نقله في الترغيب. وفي حديث آخر: «يعطى المؤمنُ وداً في صدور الأبرار، ومهابة في صدور الفجار». فتَوَدُّد الناس للعبد دليل على قبوله عند مولاه. أنتم شهداء الله في أرضه. وفي بعض الأثر: «لايموت العبد الصالح حتى يملأ مسامعه مما يُحب، ولا يموت الفاجر حتى يملأ مسامعه مما يكره». بالمعنى.

وأتى الحق جل لجلاله بالسين؛ لأن السورة مكية، وكانوا إذ ذلك ممقوتين عند الكفرة، فوعدهم ذلك، ثم أنجزه لهم حين جاء الإسلام، فعزوا وانتصروا، وتعشقت إليهم قلوب الخلق من كل جانب، كما هو مسطر في تواريخهم. وقيل: الموعود في القيامة، حين تعرض حسناتهم على رؤوس الأشهاد كأنها أنوار الشمس الضاحية(٤)، ولعل إفراد هذا بالوعد من بين مالهم من الكرامات السنية؛ لأن الكفرة سيقع بينهم يومئذ تقاطع وتباغض وتضاد. والله تعالى أعلم.

(١) عزاه في المنثور (٥١٢/٤) لابن مردويه والديلمي، عن البراء.

(٢) أخرجه البخاري في (بدء الخلق، باب: ذكر الملائكة)، ومسلم في (البر والصلة، باب إذا أحب الله عبدا) من حديث أبي هريرة.

(٣) أخرجه الطبراني في الأوسط (١٨٦/٥ ح٥٠٢٥) بزيادة في أوله، من حديث أبي الدرداء، وقال الهيثمي في المجمع: (٢٤٧/١٠): رواه الطبراني في الكبير والأوسط. وفيه محمد بن سعيد بن حسان المصلوب، وهو كذاب.

(٤) التعبير بالاستقبال بالنسبة إلى الله تحقيق، كالماضي، والحاضر، فليس عند الله زمن كما هو عندنا. والأحسن في تأويل الآية أن نجعل السين حرف توكيد. والله أعلم.

الإشارة : سُنَّة الله تعالى فى أوليائه، فى حال بدايتهم، أن يُسلط عليهم الخلق، وينزل عليهم الخمول والذل بين عباده، حتى يمقتهم أقرب الناس إليهم، رحمة بهم واعتناء بقلوبهم؛ لئلا تسكن إلى غيره . قال الشيخ أبو الحسن الشاذلى ﷺ: اللهم إن القوم قد حكمت عليهم بالذل حتى عزوا.. إلخ. فإذا تطهروا من البقايا وكملت فيهم المزايا، وتمكنوا من معرفة الحق، أعزهم وألقى مودتهم فى قلوب عباده، هذا دأبه معهم فى الغالب، وقد يحكم على بعضهم بالخمول حتى يلقاه على ذلك، ولا يكون ذلك نقصاً فى حقه بل كمالاً، وهم شهداء الملكوت، لم يأخذوا من أجرهم شيئاً. والله تعالى أعلم.

ولما ختم السورة الكريمة، أمر نبيه ﷺ بتبليغها، فقال:

﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًۢا ﴿٩٨﴾ ﴾

قلت : الفاء لتعليل أمر ينساق إليه النظم الكريم، كأنه قيل ـ بعد إيحاء السورة الكريمة: بلغ هذا المنزّل عليك، وبشر به، وأنذر؛ فإنما يسرناه .. الخ. قاله أبو السعود.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ فإنما يسرناه ﴾ أى: القرآن ﴿ بلسانك ﴾ بأن أنزلناه على لغتك، والباء بمعنى «على»، وقيل: ضمّن التيسيرَ معنى الإنزال، أى: يسرنا القرآن وأنزلناه بلغتك ﴿ لتبشّر به المتقين ﴾ أى: السائرين إلى التقوى بامتثال ما فيه من الأمر والنهى، ﴿ وتُنذرَ به ﴾ أى: تخوف به ﴿ قوماً لُداً ﴾ لايؤمنون به، لجاجًا وعنادا، واللُّدُّ: جمع ألَد، وهو الشديد الخصومة، اللجوج المعاند.

﴿ وكم أهلكنا قَبْلَهم من قَرنٍ ﴾ أى: كثيراً من القرون الماضية أهلكنا قبل هؤلاء المعاندين، فهو وعد لرسول الله ﷺ بالنصر على الكفرة ووعيد لهم بالهلاك، وحث له ﷺ على الإنذار، أى: دُم على إنذارك لهم، فسيهلكون كما أهلكنا من قبلهم من القرون، ﴿ هل تُحِسُّ منهم من أحدٍ ﴾ أى: هل تشعر بأحد منهم، وترى له من باقية ﴿ أو تَسْمَعُ لهم رِكْزاً ﴾ أى: صوتاً خفيا، هيهات قد انقطع دابرهم وهدأت أصواتهم، وخربت قصورهم وديارهم، وكذلك نفعل بغيرهم، والمعنى: أهلكناهم بالكلية، واستأصلناهم بحيث لايُرى منهم أحد، ولا يسمع لهم صوت خفى ولا جلى. وجملة: (هل تحس) : استئناف مقرر لمضمون ما قبله، وأصل الرِّكز: الخفاء، ومنه: رَكَزَ الرمحَ؛ إذا غيب طرَفه فى الأرض، والرِّكاز: المال المدفون المخفى. والله تعالى أعلم.

الإشارة : ما أنزل الله القرآن وسهله على عباده إلا ليقع به الوعظ والتذكير، فأمر اللهُ رسوله فى حياته بالبشارة والإنذار به، وبقى الأمر لخلفائه، فالواجب على العلماء والأولياء أن يتصدوا للوعظ والتذكير، ولا يكفى عنه تعليم رسوم الشريعة، فإن الوعظ إنما هو التخويف والتبشير، كما قال تعالى: ﴿ لتُبشر به المتقين وتُنذر به قوما لُداً ﴾ .

لكن لا يتصدى للوعظ إلا من له نور يمشي به في الناس، فيسبقه نورُ قلبه إلى القلوب المستمعة، فيقع كلامهم في قلوب السامعين. قال في الحكم: «تسبق أنوارُ الحكماء أقوالَهم، فحيثما صار التنوير وصل التعبير». هذا النور هو نور المعرفة الذي هي مقام الفناء، ويشترط فيه أيضا: أن يكون مأذونا له في الكلام من شيخ كامل، أو وحي إلهامي حقيقي، فحينئذ يقع كلامه في مسامع الخلق. وفي الحكم: «من أُذن له في التعبير حسنت في مسامع الخلق عبارته، وجليت إليهم إشارته».

وقال أيضا: «ربما برزت الحقائق مكسوفة الأنوار، إذا لم يؤذن لك فيها بالإظهار». وفي أمثال هؤلاء المتصدين للوعظ والتذكير ورد الخبر القدسي: «إنّ أودّ الأوِدّاء إليّ من يُحببني إلى عبادي، ويُحبب عبادي إليّ، ويمشون في الأرض بالنصيحة» .. جعلنا الله من خواصهم بمنّه وكرمه آمين. وصلّى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه، وسلّم تسليما.

* * *

سُورَةُ طه

مكية. وهي مائة وخمس وثلاثون آية. ووجه مناسبتها لما قبلها قوله: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ﴾(١) مع قوله: ﴿ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى﴾، كأنه يقول: فإنما سهلناه عليك لترتاح به لا لتتعب. ثم افتتحها برموز بينه وبين حبيبه، فقال:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿طه ﴿١﴾ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى ﴿٤﴾ الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ ﴿٦﴾ وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾﴾

قلت: عن ابن عباس أن «طه» من أسماء الله تعالى، وقيل: معناه: طوبى لمن هدى، وقيل: ياطاهر يا هادي، فالطاء تشير إلى طهارته ﷺ وتطهيره من دنس الحس، والهاء تشير إلى هدايته في نفسه، وهدايته غيره إلى حضرة القدس.

ورُوي عنه ﷺ أنه قال: «لي عشرة أسماء..» فذكر أن منها «طه ويس»، وقيل: معناه: طأ الأرض بقدمك؛ لأنه كان يرفع رِجْلاً في الصلاة ويضع أخرى في طول تهجده، فأبدل الهمزة ألفاً، والضمير للأرض، ورُد بأنه لو كان كذلك لكُتبت بالألف، فإنّ الكتابة بصورة الحرف مع التلفظ بخلافه من خصائص حروف المعجم. وقيل: معناه: يارجل. وهو مروي عن ابن عباس والحسن ومجاهد وغيرهم، وهو عندهم على اللغة النبطية، أو السريانية(٢). قيل: من جعل معنى «طه» يا رجل، لم يقف على طه، وكذا من جعله اسمًا للنبي ﷺ؛ لأن النداء تنبيه على ما بعده، ومن جعلها افتتاحاً، أو على وجه من الوجوه المذكورة في البقرة، وقف عليها، إلا في قول من جعلها قَسَماً، فإنه لا يقف عليها؛ لأن قوله: (ما أنزلنا...) الخ جواب قسم.

---

(١) من الآية ٩٧ من سورة مريم.

(٢) انظر تفسير البغوي (٥/٢٦٢)، وزاد المسير (٥/٢٦٩).

قلت: المتبادر من سبب نزولها ومن قوله: (ما أنزلنا): إما القسم أو النداء، فالقَسَم على أن ذلك من أسماء الله، والنداء على كون ذلك بمعنى يارجل، أو من أسمائه ﷺ. وأمّا غير ذلك فبعيد، إلا أن يكون ما بعد ذلك استئنافًا بعد الوقف على «طه». قاله في الحاشية.

و (إلا تذكرة): مفعول لأجله. والاستثناء منقطع، أى: ما أنزلناه لتتعب به، لكن أنزلناه للتذكرة والوعظ، و(تنزيلا): مصدر مؤكد لمضمر مستأنف مقرر لما قبله، أى: أنزل تنزيلاً، والأصح: أنه بدل من اللفظ بفعله الناصب له، فلا يجمع بينه وبين المبدل منه، وفيه معنى التأكيد لما قبله، أو هو نص فى معناه، وإنما تلون الكلام بالالتفات، أو منصوب على المدح والاختصاص، أو مفعول بيخشى، أو حال من «القرآن»، و(الرحمن): رفع على المدح، وقد عرفت أن المرفوع مدحاً، فى حكم الصفة الجارية على ما قبلها، وإن لم يكن تابعاً له فى الإعراب، ولذلك ألزموا حذف المبتدأ؛ ليكون فى صورة متعلقٍ من متعلقاته. وقرئ بالجر؛ صفةً للموصول، وما قيل من أن الموصولات لا توصف إلا بالذى وحده فمذهب كوفى، أو (الرحمن): مبتدأ، و (على العرش): خبره. و «على»: متعلقة باستوى، قُدمت للفواصل. و (إن تجهر): شرط، والجواب محذوف دل عليه (فإنه ...) الخ، أى: فالله غنى عن جهرك، فإنه ... الخ.

يقول الحق جل جلاله؛ تسلية لرسوله ﷺ، أو ترويحاً له من التعب: يا محمد ﴿ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى﴾ أى: لتتعب نفسك بالمجاهدة فى العبادة.

رُوى أنه ﷺ كان يَقُومُ بالليل حتى تورّمت قدماه، فقال له جبريل عليه السلام: «أبق على نفسك، فإنّ لها عليك حقّا». أى: ما أنزلناه عليك لتتعب بنهك نفسك(١) وحملها على الرياضات الشاقة، والشدائد الفادحة، وما بعثت إلا بالحنيفية السمحة. أو: ما أنزلناه لتتعب نفسك فى تبليغه بمكابدة الشدائد فى مقاومة العتاة ومحاورة الطغاة، وفرط التأسف على كفرهم والتحسر على إيمانهم، كقوله: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾(٢)، بل للتبليغ، وقد فعلت. وإطلاق الشقاء فى هذا المعنى شائع، ومنه قولهم: أشقى من رائض مُهر، وقيل: إن أبا جهل والنضر بن الحارث قالا لرسول ﷺ: إنك شقى، حيث تركت دين آباءك، وما نزل عليك هذا القرآن إلا لتشقى، فردّ الله ذلك عليهم. والأول أظهر، والعموم أحسن، فإنه نفى عنه جميع الشقاء فى الدنيا والآخرة.

﴿إلا تذكرةً لمن يخشى﴾ أى: ما أنزلناه لتتعب، لكن أنزلناه تذكرة وموعظة لمن يخشى الله ـ عز وجل ـ؛ ليتأثر بالإنذار، لرقة قلبه ولين عريكته، أو لمن علِمَ الله أنه يخشى بالتخويف، وتخصيصها بهم مع عموم التذكرة والتبليغ؛ لأنهم المنتفعون بها.

(١) أي: إجهاد نفسك.
(٢) الآية ٣ من سورة الشعراء.

﴿ تنزيلاً ﴾ أي: أنزل تنزيلاً، أو حالَ كَوْنِ القرآن تنزيلاً، أي: منزلاً ﴿ ممن خلق الأرض والسموات العلى ﴾، ونسبة التنزيل إلى الموصول بعد نسبته إلى نون العظمة بقوله: (ما أنزلنا)؛ لبيان فخامته تعالى بحسب الأفعال والصفات، إثر بيانها بحسب الذات بطريق الإبهام، ثم التفسير لزيادة تحقيق وتقرير. وتخصيص خلقهما بالذكر؛ لتضادهما. وتقديم الأرض لكونه أقرب إلى الحس، ووصف السموات بالعُلى، وهو جمع «عليا»؛ لتأكيد الفخامة مع ما فيه من مراعاة الفواصل. وكل ذلك إلى قوله: (له الأسماء الحسنى)، مسوق لتعظيم المنزل ـ عز وجل ـ المستتبع بتعظيم المنزَّل عليه، الداعي إلى تربية المهابة وإدخال الروعة، المؤدية إلى استنزال المتمردين عن رتبة العتو والطغيان، واستمالتهم إلى الخشية، المفضية إلى التذكير والإيمان.

ثم قال تعالى: ﴿ الرحمنُ ﴾ أي: هو الرحمن، ووصف تعالى بالرحمانية إثر وصفه بالخالقية؛ للإيذان بأن ربوبيته تعالى، وقيامَه بالأشياء، من طريق الرحمة والإحسان، لا بالإيجاب، وفيه إشارة إلى أن تنزيله القرآن أيضاً من رحمته ـ تعالى ـ، كما ينبئ عنه قوله عز من قائل: ﴿ الرَّحْمَنُ، عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴾(١). أو: (الرحمن على العرش استوى): مبتدأ وخبر، وجعل الرحمة عنوان الموضوع الذي من شأنه أن يكون معلوم الثبوت للموضوع عند المخاطب؛ للإيذان بأن ذلك أمر بيِّن لا خفاء فيه، غني عن الإخبار صريحاً. والاستواء على العرش مجاز عن المُلك والسلطان، يقال: استوى فلان على سرير الملك؛ مراداً به ملْك الملك والتصرف، وإن لم يقعد على سرير أصلاً، والمراد: تعلق قدرته وقهريته في جميع الكائنات بالتدبير والتصرف التام.

وسُئل أحمد بن حنبل عن الاستواء، فقال: استواء مَنْ غلَبَ وقهر، لا استواء كما يتوهم البشر. وسئل عنه مالك والشافعي ـ رضي الله عنهما ـ فقالا: الاستواء معلوم، والكيفية مجهولة، والإيمان به واجب، والسؤال عن هذا بدعة وضلالة، آمنوا بلا تشبيه، وصدّقوا بلا تمثيل، وأمسكوا عن الخوض في هذا كل الإمساك.

وقال الجنيْد رضي الله عنه: خلق الله العرش فوق سبع سموات، وجعله قبلة لدعاء المخلوقات، وقابله بقلب عبده المؤمن، ليكون محلاً للتجليات والتنزلات والمخاطبات. هـ. وقد تقدم الكلام عليها في الأعراف مستوفياً(٢).

﴿ له ما في السموات وما في الأرضِ ﴾، سواء كان ذلك بالجزئية منهما أو بالحلول فيهما، ﴿ وما بينهما ﴾ من الموجودات الكائنة في الجو دائما، كالهواء والسحاب، أو أكثريا؛ كالطير، أي: له ذلك وحده دون غيره، لا شركةً ولا استقلالاً، كل ما ذكر هو له؛ ملكاً وتصرفاً، وإحياء وإماتة، وإيجاداً واعداماً، ﴿ وما تحت الثرى ﴾: وما وراء التراب المتصل بالهوى السفلي. وعن محمد بن كعب: أنه ما تحت الأرضين السبع. وعن السدي: أن

(١) الآيتان: ١ ـ ٢ من سورة الرحمن.
(٢) راجع تفسير الآية ٥٤ من سورة الأعراف.

الثرى هو الصخرة التى عليها الأرض السابعة، وذكره مع دخوله تحت مافى الأرض؛ لزيادة التقرير. ﴿ وإن تجهر بالقول ﴾ أي: وإن تجهر بذكره تعالى ـ أو دعائه، فاعلم أنه تعالى غنى عن جهرك؛ ﴿ فإنه يعلمُ السرَّ وأخْفَى ﴾ أي: ما أسررته إلى غيرك، وشيئاً أخفى من ذلك، وهو ما أخطرته ببالك، من غير أن تتفوه به أصلاً أو: السر: ما أسررته فى نفسك، وأخفى منه: ما ستُسره فى المستقبل. وهو إمّا نهى عن الحركة، كقوله تعالى: ﴿ وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ ﴾(١) وإما إرشاد للعباد إلى أن الجهر ليس لإسماعه تعالى؛ بل لغرض آخر من تأنيس النفس بالذكر وتثبيته فيها، ومنعها من الاشتغال بغيره، وقطع الوسوسة عنها، وهضمها بالتضرع والجؤار. هذا والغرض من الآية: بيان إحاطة علمه تعالى بجميع الأشياء، إثر بيان سعة سلطانه وشمول قدرته بجميع الكائنات.

ثم بيَّن الموصوف بتلك الكمالات، فقال: ﴿ الله ﴾ أي: ما ذكر من صفات الكمال، موصوفها الله المعبود بالحق، ﴿ لا إله إلا هو ﴾ أي: لا معبود بحق إلا هو، ولا مستحق للعبادة إلا هو. وهو تصريح بما تضمنه ما قبله من اختصاص الألوهية به سبحانه، فإنَّ ما أسند إليه تعالى من خلق جميع الموجودات، ومن الرحمانية والمالكية للكل، والعلم الشامل، يقتضى اختصاصه تعالى بالألوهية والربوبية، وقوله تعالى: ﴿ له الأسماء الحسنى ﴾ بيان لكون ما ذكر من الخالقية والرحمانية والمالكية والعالمية أسماءه تعالى وصفاته، من غير تعدد فى ذاته تعالى؛ فالأسماء والصفات كثيرة، والمسمى والموصوف واحد. و(الحسنى): تأنيث الأحسن، فُعلى، يُوصف به الواحد المؤنث، والجمع المذكر والمؤنث، كـ ﴿ مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴾(٢)، و ﴿ آيَاتِنَا الْكُبْرَىٰ ﴾(٣). والله تعالى أعلم.

الإشارة: من تأمل القرآن العظيم، وما جاء به الرسول ـ عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم ـ وجده يدل على مايُفضى إلى الراحة دون التعب، وإلى السعادة العظمى دون الشقاء، لكن لا يتوصل إلى الراحة إلا بعد التعب، ولا يُفضى العبد إلى السعادة الكبرى إلا بعد الطلب، فإذا اجتهد العبد فى طلب ربه، وكله إلى شيخ ينقله من عمل الجوارح إلى عمل القلوب، فإذا وصل العمل إلى القلب استراحت الجوارح، وأفضى حينئذ إلى رَوْح وريحان، وجنة ورضوان، أعنى جنة العرفان. ولذلك قال الشيخ أبو الحسن: ليس شيخك من يدلك على تعبك، إنما شيخك من يريحك من تعبك، كما فى لطائف المنن.

وقال شيخنا القطب ابن مشيش: وقد سُئل عن قوله ﷺ: «يَسِّرُوا ولا تُعَسِّرُوا» فقال: دلوهم على الله، ولاتدلوهم على غيره، فإن من دلَّك على الدنيا فقد غشك، ومن دلَّك على العمل فقد أتعبك، ومن دلَّك على الله فقد

(١) من الآية ٢٠٥ من سورة الأعراف. (٢) من الآية ١٨ من سورة طه.
(٣) من الآية ٢٣ من سورة طه.

نصحك.هـ. فإذا دلك على الله غيّبك عن وجود نفسك بشهود ربك، وهى السعادة العظمى، كما تقدم فى سورة هود. فمن اتخذ شيخاً ثم لم ينقله من مقام التعب، ولم يُرحله من مقام إلى مقام، فاعلم أنه غير صالح للتربية.

وقوله تعالى: ﴿إلا تذكرة لمن يخشى﴾، قال شيخ شيوخنا سيدى عبد الرحمن العارف: قيل: أنزل اللهُ القرآنَ لتذكير سابق الوصال؛ لأن الأرواح لمّا دخلت الأشباح اكتسبت خشية ووحشة وفرقة عن معادنها، فأنزل الله القرآن تأنيساً؛ لأن المحب يأنس بكتاب حبيبه وكلامه. وقال جعفر الصادق: أنزل اللهُ القرآنَ موعظةً للخائفين، ورحمة للمؤمنين، وأنساً للمحبين. وأيضاً: القرآن يُذَكِّر عظمة الله الموجبة خشيته، فهو مُذهب للغفلة. ثم قال: وفى الشهود الحاصل بالتذكير رفعُ المشقة، ووجدان الراحة بالطاعة، لكونه يصير محمولاً، وقد قال: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾(1)، أى: لشهودى فيها، وفى ذلك قرة عين، وراحةٌ، وأنس، وتشابه حال المصلى بحال موسى، بجامع النجوى، فلذلك ذكر فى سياقه. والله أعلم.هـ.

وقوله تعالى: ﴿الرحمنُ على العرش استوى﴾، تفسيرها هو الذى قصد ابن عطاء الله فى الحِكَم بقوله: «يا من استوى برحمانيته على عرشه، فصار العرش غيباً فى رحمانيته، كما صارت العوالم غيباً فى عرشه، مَحَقْتَ الآثار بالآثار، ومحوت الأغيار بمحيطات أفلاك الأنوار. وأنت خبير بأن الرحمانية وصف لازم للذات، والصفة لا تفارق الموصوف، فإذا استوت الرحمانية على العرش وغمرته؛ فقد استوت عليه أسرار الذات وغمرته، وهى أفلاك الأنوار التى أحاطت بالعرش والآثار، ومحت كل شىء، حتى لم يبق إلا الذى ليس كمثله شىء، وليس معه شىء، وهو السميع البصير. وما نسبة حس الآثار بالنسبة إلى أفلاك الأسرار التى استوت عليه إلا كالهباء فى الهواء. والله تعالى أعلم وأعظم.

ثم ذكر قصص موسى عليه السلام، وتسليته لرسوله ﷺ، وعما لقى من التعب فى تبليغ الوحى، فقال:

﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ
نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾
إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ
﴿١٣﴾ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ

(1) من الآية ١٤ من سورة طه.

أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾ ﴾

قلت : قال القشيرى: أجرى الله [سنته](١) فى كتابه أن يذكر قصة موسى فى أكثر المواضع التى يذكر فيها حديث نبينا ـ عليه الصلاة والسلام ـ يتبعه بذكر موسى، تنبيهاً على علو شأنه، لأنه كما أن التخصيص بالذكر يدل على شرف المذكور، فالتكرير فى التفصيل يوجب التفضيل فى الوصف؛ لأن القضية الواحدة إذا أعيدت مراراً كثيرة كانت فى باب البلاغة أتم، ولاسيما فى كل مرة فائدة زائدة. هـ.

قلت : ولعل وجه تناسقهما فى الذكر قرب المنزلة، ومشاركة الصفة، وذلك باعتبار المعالجة وهداية الأمة، فإن أمة موسى عليه السلام كانت انتشرت فلم يقع لنبى هداية على يديه لقومه مثله، إلا لنبينا ـ عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم ـ فإن أمته انتشرت وشاعت مسير الشمس والقمر، وفى حديث البخارى ما يدل على هذا، حين عرضت عليه الأمم ﷺ مرة، فرأى أمة موسى عليه السلام كثيرة، ثم رأى أمته قد سدت الأفق. فانظر لفظه فيه(٢).

وقال أبو السعود: المناسبة إنما هى تقرير أمر التوحيد الذى إليه انتهى مساق الحديث، وبيان أنه مستمر فيما بين الأنبياء، كابراً عن كابر، وقد خوطب به موسى عليه السلام، حيث قيل له: ﴿ إننى أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى ﴾، وبه ختم عليه السلام مقاله، حيث قال: ﴿ إِنَّمَا إِلَٰهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾(٣)، ثم ردَّ مناسبة التسلية بأن مساق النظم الكريم إنما هو لصرفه عليه السلام عن اقتحام المشاق. فانظره.

و (هل): لفظة استفهام، والمراد به التشويق لما يخبره به، أو التنبيه. و (إذ رأى): ظرف للحديث؛ لأن فيه معنى الفعل، أو لمضمر مؤخر، أى: حين رأى كان كيت وكيت، أو: لاذكر، أى: اذكر وقت رؤيته.. الخ.

يقول الحق جل جلاله : ﴿ وهل أتاك حديثُ موسى ﴾ أى: قصته فى معالجة فرعون، فإنا سنذكرها لك تسلية وتقريراً لأمر التوحيد، ﴿ إذْ رأى ناراً ﴾ تلمع فى الوادى، وذلك أنه عليه السلام استأذن شعيبا عليه السلام فى

---

(١) مابين المعكوفتين زيادة ليست فى الأصول.

(٢) قال ابن عباس رضي الله عنه: خرج علينا النبى ﷺ يوماً، فقال: عرضت علىّ الأمم، فجعل يمر النبى معه الرجلان، والنبى معه الرهط، والنبى ليس معه أحد، ورأيت سواداً كثيراً سد الأفق، فرجوت أن تكون أمتى . فقيل: هذا موسى وقومه . ثم قيل لى: انظرْ، فرأيت سواداً كثيراً سد الأفق، فقيل لى: انظر هكذا وهكذا، فرأيت سواداً كثيراً سد الأفق، فقيل: هؤلاء أمتك، ومع هؤلاء سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب...» الحديث أخرجه البخارى فى (الطب، باب من لم يرق)

(٣) من الآية ٩٨ من سورة طه.

الخروج إلى أمه وأخيه، فخرج بأهله، وأخذ على غير الطريق، مخافةً من ملوك الشام، فلما وافى وادى طُوى، وهو بالجانب الغربى من الطور، وُلد له ولد في ليلة مظلمة شاتية مثلجة، وكانت ليلة الجمعة، وقد ضل عن الطريق، وتفرقت ماشيته، ولا ماء عنده، فقدحَ النار فلم تورِ المِقْدَحة.

فبينما هو فى ذلك ﴿إِذْ رأى نارًا﴾ على يسار الطريق من جانب الطور، ﴿فقال لأهله امكثوا﴾ أى: أقيموا مكانكم. أمرهم عليه السلام بذلك؛ لئلا يتبعوه، كما هو المعتاد من النساء. والخطاب للمرأة والخادم والولد، وقيل: لها وحدها، والجمع للتعظيم، ﴿إِنى آنستُ﴾ أى: أبصرت ﴿نارًا﴾، وقيل: الإيناس خاص بإبصار ما يُؤنس به. ﴿لعلى آتيكم منها بقَبَسٍ﴾ أى: بشعلة مقتبسة من معظم النار، وهو المراد بالجذوة فى سورة القصص(١)، وبالشهاب القبس، (٢) ﴿أو أجدُ على النار هُدىً﴾؛ هادياً يدلنى إلى الطريق، فهو مصدر بمعنى الفاعل، و (أوْ) فى الموضعين: لمنع الخلو، لا لمنع الجمع؛ إذ يمكن أن يقتبس من النار ويجد هادياً. ومعنى الاستعلاء فى قوله: ﴿على النار﴾؛ لأن أهلها يستعلون عليها عند الاصطلاء، ولما كان الإيتاء بها غير محقق، صدَّر الجملة بكلمة الترجي.

﴿فلما أتاها﴾ أى: النار التى آنسها. قال ابن عباس رضي الله عنهما: رأى شجرة خضراء، حفت بها، من أسفلها إلى أعلاها، نارٌ بيضاء، تتقدُ كأضوء ما يكون، فوقف متعجباً من شدة ضوئها، رُوى أن الشجرة كانت عوسجة، وقيل: سَمُرَة(٣).. بينما هو ينظر، ﴿نُودى﴾ فقيل: ﴿يا موسى إِنى أنا ربك﴾، أو بأنى أنا ربك، وتكرير الضمير؛ لتأكيد الدلالة، وتحقيق المعرفة وإماطة الشبهة. يروى أنه لما نودى ياموسى، قال عليه السلام: مَنْ المتكلم؟ فقال الله عز وجل: (أنا ربك)، فوسوس إليه الخاطر: لعلك تسمع كلام شيطان، قال: فلما قال: (إننى أنا)، عرفت أنه كلام الله عز وجل. قيل: إنه سمعه من جميع الجهات بجميع الأعضاء.

ثم قال له: ﴿فاخلعْ نعليك﴾؛ لأنه أليق بحسن الأدب، ومنه أخذ الصوفية ـ رضى الله عنهم ـ خلع نعالهم بين يدى المشايخ والأكابر، وقيل: ليباشر الوادى المقدس بقدميه، ومنه يؤخذ تعظيم المساجد، بخلعها ولو طاهرة، وقيل: إن نعليه كانتا من جلد حمار غير مدبوغ. وقيل: النعلين: الكونين، أى: فرغ قلبك من الكونين إن أردت دخول حضرتنا. وقوله تعالى: ﴿إِنك بالوادِ المقدَّس﴾: تعليل لوجوب الخلع، وبيان لسبب ورود الأمر بذلك. رُوى أنه عليه السلام خلعهما وألقاهما وراء الوادى، و ﴿طُوى﴾: بدل من الوادى، وهو اسم له. وقُرأ منوناً؛ لتأوله بالمكان، وغير المنون؛ لتأوله بالبقعة.

---

(١) فى قوله: ﴿لعلى آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون﴾، من الآية ٢٩ من سورة القصص.
(٢) فى قوله: ﴿سآتيكم منها بخبر أو آتيكم بشهاب؛ قبس لعلكم تصطلون﴾، من الآية ٧ من سورة النمل.
(٣) انظر تفسير الطبرى (١٦/١٤٣)، والبغوى (٤/٢٦٥).

﴿ وأنا اخترتُك ﴾ أى: اصطفيتُكَ للنبوة والرسالة، وقرأ حمزة: (وإنَّا اخترناك) بنون العظمة، ﴿ فاستمع لما يُوحى ﴾ أى: للذى يُوحى إليك، أو لوحينا إليك، وهو: ﴿ إننى أنا الله لا إله إلا أنا ﴾، فالجملة بدلَ من «ما». ﴿ فاعبدنى ﴾؛ أفردنى بالعبادة والخضوع، والفاء لترتيب ما بعدها على ماقبلها، فإن اختصاص الألوهية به سبحانه من موجبات تخصيص العبادة به تعالى. ﴿ وأقم الصلاة لذكرى ﴾: لتذكرنى فيها؛ لاشتمالها على الأذكار، وأُفردت بالذكر، مع اندراجها فى الأمر بالعبادة؛ لفضلها على سائر العبادات؛ لما نيطت به من ذكر المعبود، وشغل القلب واللسان بذكره، فإنَّ الذكر كما ينبغى لا يتحقق إلا فى ضمن العبادة.

أو «لذكرى»: لإخلاص ذكرى وابتغاء وجهى، بحيث لا تُرائى بها غيرى. وقيل: لذكرى إياها، وأمرى بها فى الكتب، أو لأن أذكرك فيها بالمدح والثناء، وقيل: لأوقات ذكرى، وهى مواقيت الصلوات، وقيل: لذكر صلاتى إذا نسيتها، لما روى أنه عليه الصلاة والسلام قال: «مَنْ نَامَ عَنْ صَلاَةٍ، أَوْنَسِيَها، فَلْيُصَلِّهَا إِذَا ذَكَرَهَا؛ لأَنَّ اللهَ تَعالى يقُول: ﴿وأقم الصلاة لذكرى﴾»(١).

قال بعضهم: [أصول العمل ثلاثة](٢): أقوال وأفعال وأحوال، فأفضل الأقوال: لا إله إلا الله، وأفضل الأفعال: الصلاة لله أو بالله، وأفضل الأحوال: الطمأنينة بشهود الله.

﴿ إن الساعةَ آتيةٌ ﴾: كائنة لا محالة، وهو تعليل لوجوب العبادة وإقامة الصلاة، وإنما عبَّر بالإتيان؛ تحقيقاً لحصولها، بإبرازها فى معرض أمر محقق متوجه نحو المخاطبين. ﴿ أكادُ أُخفيها ﴾ أى: لا أظهرها، بأن أقول: آتية فقط، فلا تأتى إلا بغتة، أو أكاد أظهرها بإيقاعها، مِنْ أخفاه، إذا أظهره، فأخفى ـ على هذا ـ من الأضداد. وردّه ابن عطية، فإن الذى بمعنى الظهور هو: «خفى» الثلاثى، لا «أخفى». وقال الزمخشرى: قد جاء فى بعض اللغات: أخفى بمعنى خفى، أى: ظهر، فلا اعتراض.

ونقل الثعلبى عن ابن عباس وأكثر المفسرين أن المعنى: أكاد أخفيها عن نفسى، فكيف عن غيرى؟ وكذلك هو فى مصحف أُبى، وفى مصحف عبد الله: فكيف يعلمها مخلوق، وفى بعض القراءات: وكيف أظهرها لكم؟ قال قطرب: فإن قيل: كيف يُخفى الله تعالى عن نفسه، وهو خلّق الأشياء؟ قلنا: إن الله تعالى كلم العرب بكلامهم الذى يعرفونه. انظر بقية كلامه.

---

(١) أخرجه بنحوه: البخارى فى (مواقيت الصلاة، باب من نسى صلاة فليصل إذا ذكرها)، ومسلم فى (المساجد، باب قضاء الصلاة الفائتة، واستحباب تعجيل قضائها)، من حديث أنس رضي الله عنه.

(٢) مابين المعكوفتين: مشتبه فى المخطوطة الأم، وغير موجود فى غيرها.

وظهور علاماتها لا يزيل إخفاءها. قال ابن عرفة فى تفسيره: وإذا ظهرت عند وقوع الأشراط لم ينسلخ عنها معنى الخفاء المتقدم، غاية الأمر أنها بذكر الأشراط وسط بين الإخفاء والإظهار، فتكون مقاربة لكل واحد منهما.هـ.

وقوله تعالى: ﴿ لتُجزى كُلُّ نفس بما تسعى ﴾ متعلق بآتية، أو بأُخفيها ـ على معنى: أظهرها، لتُجزى كل نفس بسعيها، أى: بعملها خيراً كان أو شراً. ﴿ فلا يَصُدَّنك عنها ﴾ أى: عن ذكر الساعة ومراقبتها والاستعداد لها ﴿ من لا يؤمن بها ﴾ حتى تكسلَ عن التزود لها. والنهى ـ وإن كان بحسب الظاهر متوجهاً للكافر عن صد موسى عليه السلام ـ لكنه فى الحقيقة نهى له عليه السلام عن الانصداد عنها، على أبلغ وجه، فإنَّ النهى عن أسباب الشيء المؤدية إليه نهى عنه بالطريق البرهانى، كقوله تعالى: ﴿ لا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي ﴾(١)، أى: لا تتبع فى الصد عنها من لا يؤمن بها ﴿ واتَّبعَ هواه ﴾ أى: ما تهواه نفسه من اللذات الفانية، ﴿ فتَرْدَى ﴾ : فتهلك؛ فإنَّ الإغفال عنها، وعن تحصيل ما يُنجى من أهوالها، مستتبع للهلاك لا محالة. وبالله التوفيق.

الإشارة: وهل أتاك أيها العارف حديث موسى، كيف سار إلى نور الحبيب، ومناجاة القريب، إذ رأى ناراً فى مرأى العين، وهو نورُ تَجلِّى الحبيب بلا بيْن، فقال لأهله ومن تعلق به: امكثوا، أقيموا فى مقام الطلب، واصبروا وصابروا ورابطوا على قلوبكم، فى نيل المطْلَبِ، إنى آنست ناراً، وهو نور وجه الحبيب فى مرائى تجلياته، وهذا مقام الفناء، لعلى آتيكم منها بقبس، تقتبسون منه أنواراً لقلوبكم وأسراركم. أو أجد على النار هدى يهدينى إلى مقام البقاء والتمكين، فلما أتاها، وتمكن من شهودها، نودى يا موسى: إنى أنا ربك، فلا نار ولا أثر، وإنما وجه الحبيب قد تجلى وظهر، فى مرأى الأثر، فاخلع نعليك، أى: اخرج عن الكونين إن أردت شهود حضرة المكون، كما قال القائل:

واخلع النعلين، إن جئتَ إلى ... ذلك الحى؛ ففيه قدسنا

وعن الكونين كن منخلعــا ... وأزل ما بيننا من بيْنِنا

إنك بالواد المقدس، أى: بحر حضرة القدس ومحل الأنس، قد طويت عنك الأكوان، وأبصرت نور الشهود والعيان، وأنا اخترتك لحضرتى، واصطفيتك لمناجاتى، فاستمع لما يوحى إليك منى، فأنا الله لا إله إلا أنا وحدى، فإذا تمكنت من شهودى، فانزل لمقام العبودية؛ شكراً، وأقم الصلاة لذكرى، إن الساعة آتية لا محالة، فأُكرم مثواك، وأُجل منصبك، وأرفعك مع المقربين، فلا يصدنك عن مقام الشهود أهلُ العناد والجحود، فتسقط عن مقام القرب والأنس، وتصير فى جوار أهل حجاب الحس، ولعل هذا المنزع هو الذى انتحى ابنُ الفارض، حيث قال فى كلام له:

---

(١) من الآية ٨٩ من سورة هود.

آنـسْـتُ فـي الحَـيِّ نـاراً ... لَيْـلاً فَـبَـشَّـرْتُ أهلي
قُـلْـتُ: امْـكُـثُـوا، فَـلَـعلّـي ... أجِـدْ هُـداي، لَـعَـلّـي
دَنَـوْتُ مِـنـهـا فكانَـتْ ... نـارالـتـكـلـم قـبـلـي
نوديتُ منهـا كـفـاحـاً: ... رُدّوا لَـيـالـي وَصْلي
حـتى إذا مـا تَـدانَـى الـ ... مـيـقـاتُ في جَمْعِ شَملي
صـارَتْ جِـبـالِيَ دكـاً ... من هَـيْـبَـةِ المُـتَجَـلّي
ولاحَ سِـرٌ خَـفِـيٌ ... يـدْرِيـه مَـنْ كـانَ مِـثْلي
فـالموتُ فـيـهِ حـيـاتي ... وفي حَـيـاتـي قَـتْـلي
وصِـرْتُ مُـوسَـى زَمَـاني ... مُـذ صـار بَـعْـضِـي كُلي

قوله: «صارت جبالي دكا»، أي: جبال وجوده، فحصل الزوال من هيبة نور المتجلي، وهو الكبير المتعال. وهذا إنما يكون بعد موت النفس وقهرها، فإنها حينئذ تحيا بشهود ربها، حياة لا موت بعدها. وقوله: «مذ صار بعضي كلي»، يعني: إنما حصلت له المناجاة والقرب الحقيقي حين فنيت دائرة حسه، فاتصل جزء معناه بكل المعنى المحيط به، وهو بحر المعاني المفنى للأواني. وبالله التوفيق.

ثم ذكر مكالمته مع كليمه عليه السلام، فقال:

﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا
وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ
حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَٱضْمُمْ يَدَكَ
إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾ ﴾

قلت: (وما): استفهامية، مبتدأ، و (تلك): خبر، أو بالعكس، فما: خبر، وتلك: مبتدأ، وهو أوفق بالجواب. و(بيمينك): متعلق بالاستقرار؛ حالاً، أي: وما تلك، قارةً أو مأخوذة بيمينك، والعامل معنى الإشارة. وقيل: (تلك): موصولة، أي: وما التي هي بيمينك، والاستفهام هنا: إيقاظ وتنبيه له عليه السلام على مما سيبدو له من العجائب، وتكرير النداء؛ لزيادة التأنيس والتنبيه.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وما تلك بيمينك يا موسى ﴾ ، إنما سأله؛ ليريه عظيم ما يفعل بها؛ من قلبها حية، فمعنى السؤال: تقريره على أنها عصى، ليتبين له الفرق بين حالها قبل قلبها وبعده، وقيل: إنما سأله ليؤنسه وينبسط معه، فأجابه بقوله: ﴿ هي عَصَايَ ﴾ ، نسبها لنفسه تحقيقاً لوجه كونها بيمينه، رُوي أنها كانت عصا آدم عليه السلام، فأعطاها له شعيب، حين قدمه لرعي غنمه، على ما يأتي في سورة القصص. وكان في رأسها شُعبتان، وفي أسفلها سنان، واسمها نبعة، في قول مقاتل(١).

﴿ أتوكأ عليها ﴾ أي: أعتمد عليها إذا مشيت، وعند الإعياء، والوقوف على رأس قطيع الغنم، ﴿ وأهشُّ ﴾ أي: أخبط ﴿ بها ﴾ الورق من الشجر؛ ليسقط ﴿ على غنمي ﴾ فتأكله. وقرئ بالسين، وهو زجر الغنم، تقول العرب: هَس هَس، في زجرها، وعداه بعلى؛ لتضمنه معنى الإقبال والتوجه. ﴿ ولِيَ فيها مآرِبُ أُخرى ﴾ أي: حاجات أخرى من هذا الباب. قال ابن عباس: كان موسى عليه السلام يحمل عليها زاده وسقاءه، فجعلت تأتيه وتحرسه، ويضرب بها الأرض فتخرج ما يأكل يومَه، ويُركز بها فيخرج الماء، فإذا رفعها ذهب، وكان يرد بها عن غنمه ونعمه الهوام بإذن الله، وإذا ظهر له عدو حاربت وناضلت عنه، وإذا أراد الاستسقاء من البئر أَدْلاَهَا، فطالت على طول البئر وصارت شعبتاها كالدلو فيستقي بها، وكان يظهر على شعبتيها كالشمعتين بالليل فيستضيء بها، وإذا اشتهى ثمرة ركزها فتغصّنت غصن تلك الشجرة وأورقت وأثمرت. فهذه المآرب(٢).

وكأنه عليه السلام فهم أن المقصود من السؤال بيان حقيقتها، وتفصيل منافعها بطريق الاستقصاء، فلذلك أطنب في كلامه، فلما بدت منها خوارق بديعة عَلِمَ أنها آية باهرة ومعجزات قاهرة، وأيضاً: الإطناب في مناجاة الأحباب محمود.

﴿ قال ﴾ له تعالى: ﴿ أَلْقِهَا يا موسى ﴾ لترى من شأنها ما لم يخطر ببالك، قيل: إنما أُمِر بإلقائها؛ قطعاً للسكون إليها، لِمَا كان فيها من المآرب، وبالغ الحق تعالى في ذلك بقلبها حية، حتى خاف منها، وحين قطعه عنها، وأخرجها من قلبه ،بالفرار منها ردها إليه بقوله: ﴿خذها ولا تخف﴾؛ ﴿ فألقاها ﴾ على الأرض ﴿ فإذا هي حيةٌ تَسْعَى ﴾ ، رُوي أنه عليه السلام ألقاها فانقلبت حية صفراء، في غلظ العصا، ثم انتفخت وعظمت، فلذلك شبهت بالجان تارة، وبالثعبان مرة أخرى، وعبَّر عنها هنا بالاسم العام للحالين، وقيل: انقلبت من أول الأمر ثعباناً، وهو أليق بالمقام، كما يفصح عنه قوله عز وجل: ﴿ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ ﴾(٣)، وإنما سميت بالجان في الجلادة وسرعة المشي، لا في صغر الجثة. وقيل: الجان عبارة عن ابتداء حالها، والثعبان عن انتهائه.

---

(١) انظر تفسير البغوي (٥/٢٦٨).
(٢) قال الحافظ ابن كثير عن هذه المآرب: الظاهر أنها ـ أي: العصا ـ لم تكن كذلك، ولو كانت كذلك لما استنكر موسى عليه السلام صيرورتها ثعباناً، فما كان يفرُّ منها هارباً، ولكن كل ذلك من الأخبار الإسرائيلية، انظر: تفسير ابن كثير (٣/١٤٥).
(٣) من الآية ١٠٧ من سورة الأعراف

﴿ قال ﴾ تعالى: ﴿ خُذها ﴾ ياموسى، ﴿ ولا تخفْ ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنه: انقلبت ثعباناً ذكراً، يبتلع كل شيء من الصخر والشجر، فلما رآه كذلك خاف ونفر، ولحقه ما يلحق البشرعند مشاهدة الأهوال من الخوف والفزع، إذ لايلزم من ثبوت الخصوصية عدم وصف البشرية. ﴿ سنعيدُها سِيرَتَها الأولى ﴾ أي: سنعيدها، بعد الأخذ، إلى حالتها الأولى التى كانت عليها عصا، قيل: بلغ عليه السلام عند ذلك من الثقة وعدم الخوف إلى حيث كان يدخل يده فى فمها «ويأخذ بلَحْيَيْهَا. فلما أخذها عادت عصا، وحكمة قلبها وأخذها هنا؛ ليكون معها على ثقة عند مخاصمة فرعون، وطمأنينةٍ من أمره، فلا يعتريه شائبة دهش ولا تزلزل. والسيرة: فعلة من السير، يجوز بها إلى الطريقة والهيئة، وانتصابها على نزع الخافض.

ثم أراه معجزة أخرى، فقال: ﴿ واضممْ يدكَ إلى جناحك ﴾ أي: أدخلها تحت عضدك، فجناح الإنسان: جنباه، مستعار من جناح الطير، ﴿ تخرجْ بيضاءَ ﴾ : جواب الأمر، أي: إن أدخلتها تخرج بيضاء شعاعية، ﴿ من غير سُوءٍ ﴾ أي: حال كونها كائنة من غير عيب بها؛ كبرص ونحوه. رُوى أنه عليه السلام كان ادم اللون، فأخرج يده من مدرعته بيضاء، لها شعاع كشعاع الشمس، تضيء حال كونها ﴿ آيةً أخرى ﴾ أى: معجزة أخرى غير العصا. ﴿ لنُرِيَكَ من آياتنا الكبرى ﴾ أي: فعلنا مافعلنا؛ لنريك بعض آياتنا العظمى، أو: لنريك الكبرى من آياتنا. قال ابن عباس: «كانت يد موسى أكبر آياته». والله تعالى أعلم.

الإشارة: يقال للفقير: وما تلك بيمينك أيها الفقير؟ فيقول : هى دنياى أعتمد عليها فى معاشى وقيام أمورى، وأُنفق منها على عيالى، ولى فيها حوائج أخرى؛ من الزينة والتصدق وفعل الخير، فيقال له: ألقها من يدك أيها الفقير، واخرج عنها، أو أخرجها من قلبك إن تيسر ذلك مع الغيبة عنها، فألقاها وخرج عنها، فيلقيها، فإذا هى حية كانت تلدغه وتسعى فى هلاكه وهو لا يشعر. فلما تمكن من اليقين، وحصل على غاية التمكين، قيل له: خذها ولا تخف منها، حيث رفضت الأسباب، وعرفت مسبب الأسباب، فاستوى عندك وجودها وعدمها، ومنعها وإعطاؤها، سنعيدها سيرتها الأولى، تأخذ منها مأربك، وتخدمك ولا تخدمها. يقول الله تعالى: «يادنياى، اخدمى من خدمنى، وأتبعى من خدمك» (١).

وأما قوله تعالى فى حديث آخر مرفوعًا: «تمررى على أوليائى ولا تحلو لهم فتفتنهم عنى»(٢) فالمراد بالمرارة: ما يصيبهم من الأهوال والأمراض وتعب الأسفار، وإيذاء الفجار وغير ذلك. وقد يلحقهم الفقر الظاهر شرفاً لهم، لقوله ﷺ: «الفقر فخرى وبه أفتخر»(٣). أو كما قال عليه السلام إن صح. وقال شيخنا البوزيدى رضي الله عنه :

(١) أخرجه الخطيب البغدادى فى تاريخه (٤٤/٨) عن ابن مسعود مرفوعاً. وقال الشوكانى فى الفوائد (ص/٢٣٨): «وفى إسناده الحسن بن داود والحديث موضوع». والحديث فى الإتحاف السنية (٢٥٧) للديلمى مختصراً.

(٢) أخرجه البيهقى فى الشعب (ح ٩٨٠٠) بنحوه ومطولاً عن قتادة بن النعمان، وقال البيهقى: لم نكتبه إلا بهذا الإسناد، وفيه مجاهيل. والحديث فى الإتحافات (٢٥٨) للديلمى.

(٣) قال القارى فى الأسرار المرفوعة (ص ٢٥٥، ح ٣٢٠) «قال الحافظ ابن حجر: «موضوع لا أصل له».

الحديث الأول: في الصالحين المتوجهين من أهل الظاهر، والثاني ـ يعني تمرري..الخ ـ في الأولياء العارفين من أهل الباطن. هـ. ويقال له أيضا ـ إن تجرد وألقى الدنيا من يده وقلبه: اضمم يدَ فكرتك إلى قلبك، تخرج بيضاء نورانية صافية، لا تخليط فيها ولا نقص، هي آية أخرى، بعد آية التجريد والصبر على مشاقه.

وقال في اللباب: اليد: يدَ الفكر، والجيب: جيب الفهم، وخروجها بيضاء بالعرفان. هـ. قال الورتجبي: أرى الله موسى من يده أكبر آية، وذلك أنه ألبس أنوار يد قدرته يد موسى، فكان يدُ موسى يدَ قدرة الله، من حيث التخلق والاتصاف، كما في حديث: «كنت له سمعاً وبصراً ولساناً ويداً» .هـ. وبالله التوفيق.

ثم ذكر ابتداء رسالة موسى عليه السلام، فقال:

﴿ ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرۡ لِيٓ أَمۡرِي ﴿٢٦﴾ وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي ﴿٢٨﴾ وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي ﴿٣١﴾ وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي ﴿٣٢﴾ كَيۡ نُسَبِّحَكَ كَثِيرٗا ﴿٣٣﴾ وَنَذۡكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرٗا ﴿٣٥﴾ ﴾

قلت: (هارون): مفعول أول، و(وزيرا): مفعول ثان، قُدِّم؛ اعتناء بشأن الوزارة، و (لِي): صلة، لاجعل، أو متعلق بمحذوف؛ حال من (وزيرا)؛ لأنه صفة له في الأصل. و (من أهلي): إما صفة وزيراً، أو صلة لاجعل، وقيل: إن (لي وزيراً): مفعولا اجعل، و (هارون): عطف بيان لوزير. و (أخي) في الوجهين: بدل من هارون، أو عطف بيان آخر.

يقول الحق جل جلاله، لنبيه موسى عليه السلام: ﴿ اذهبْ إلى فرعونَ ﴾ بما رأيته من الآيات الكبرى. وادعه إلى عبادتي وحدي، وحذره من نقمتي، ﴿ إنه طغى ﴾ أي: جاوز الحد في التكبر والعتو والتجبر، حتى تجاسر على دعوى الربوبية. ﴿ قال ﴾ موسى عليه السلام مستعيناً بربه عز وجل: ﴿ رب اشرح لي صدري ﴾ أي: وسعه حتى لا يضيق بحمل أعباء الرسالة، ﴿ ويسِّرْ لي أمري ﴾ أي: سهِّله حتى لا يصعب عليَّ شيء أقصده. والجملة استئنافية بيانية، كأن سائلاً قال: فماذا قال عليه السلام، حين أُمر بهذا الأمر الخطير والخطب العسير؟ فقيل: قال رب اشرح لي صدري...الخ.

كأنه، لما أُمر بهذا الخطاب الجليل، تضرع إلى ربه الجليل، وأظهر عجزه وضعفه، وسأل ربه تعالى أن يوسع صدره، ويفَسِّح قلبه، ويجعله عليماً بشؤون الناس وأحوالهم، حليماً صفوحاً عنهم، ليلتقى ما عسى أن يرد عليه من

الشدائد والمكاره، بجميل الصبر وحسن الثبات، فيلقاها بصدر فسيح، وجأش رابط، وأن يسهل عليه مع ذلك أمره، الذى هو أجلّ الأمور وأعظمها، وأصعب الخطوب وأهولها، بتيسير الأسباب ورفع الموانع. وفى زيادةكلمة (لى)، مع انتظام الكلام بدونها، تأكيد لطلب الشرح والتيسير؛ بإبهام المشروح والميسّر أولاً، ثم تفسيرهما ثانياً، وفى تقديمهما وتكريرهما: إظهار مزيد اعتناء بشأن كل من المطلوبين، و فضل اهتمام باستدعاء حصولهما.

ثم قال: ﴿ واحْلُلْ ﴾ أى: امشط وافسح ﴿ عقدة من لسانى ﴾، رُوى أنه كان فى لسانه رتة من أثر جمرة أدخلها فاه فى صغره. وذلك أنه كان فى حجر فرعون ذات يوم، فلطمه ونتف لحيته، فقال فرعون لآسية امرأته: هذا عدو لى، فقالت آسية: على رسلك، إنه صبى لا يفرق بين الجمر والياقوت، ثم جاءت بطستين فى أحدهما الجمر، وفى الآخر الياقوت، فأخذ جبريل بيد موسى فوضعها على النار، حتى رفع جمرة ووضعها على لسانه، فبقيت له رتة فى لسانه، واختلف فى زوال العقدة بكمالها؛ فمن قال به تمسك بقوله تعالى: ﴿ قال قد أوتيت سؤلك ياموسى ﴾، ومن لم يقل به احتج بقول: ﴿ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا ﴾(١)، وقوله تعالى: ﴿ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴾(٢)

وأجاب عن الأول: بأنه لم يسأل حلّ عقدة لسانه بالكلية، بل حلّ عقدة تمنع الإفهام، فخفف بعضها لدعائه، لا جميعها، ولذلك نكّرها ووصفها بقوله: ﴿ من لسانى ﴾ أى: عقدة كائنة من عقد لسانى.﴿ يفقهوا قولى ﴾ أى: إن تحل عقدة لسانى يفقهوا قولى.

﴿ واجعل لي وزيراً ﴾ أى: مُعيناً ومُقوياً ﴿ مِنْ أهلى هارونَ أخى ﴾؛ ليعيننى على تحمل ما كلفتنى به من أعباء التبليغ. ﴿ أُشدد به أزرى ﴾ أى: قوِّ به ظهرى، ﴿ وأشركه في أمرى ﴾؛ واجعله شريكاً لى فى أمر الرسالة، حتى نتعاون على أدائها كما ينبغى، ﴿ كى نُسبحك كثيراً ﴾، هو غاية للأدعية الثلاثة الأخيرة، من قوله: (واجعل لى وزيراً...) الخ، ولاشك أن الاجتماع على العبادة والذكر سبب فى دوامهما وتكثيرهما. وفى الحديث: «يد الله مع الجماعة»(٣)، ولذلك ورد الترغيب فى الاجتماع على الذكر: والجمع فى الصلاة؛ ليقوى الضعيف بالقوى، والكسلان بالنشيط، وقيل: المراد بكثرة التسبيح والذكر ما يكون منها فى تضاعيف أداء الرسالة ودعوة المردة العتاة، لأنه هو الذى يختلف فى حالتى التعدد والانفراد، فإن كُلاً منهما يصدر منه، بتأييد الآخر، من إظهار الحق، مالا يصدر منه حال الانفراد. والأول أظهر.

و﴿كثيراً﴾: وصفٌ لمصدر أو زمن محذوف، أى: ننزهك عما لا يليق بجلالك وجمالك، تنزيهاً كثيراً، أو زمناً كثيراً، ومن جملة ذلك: ما يدعيه فرعونُ الطاغية، وتقبله منه الفئة الباغية من ادعاء الشرك فى الألوهية.

(١) من الآية ٣٤ من سورة القصص. (٢) من الآية ٥٢ من سورة الزخرف.
(٣) أخرجه الترمذى فى (الفتن، باب ما جاء فى لزوم الجماعة)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وقال الترمذى: حديث حسن.

﴿ ونذكرك ﴾ ؛ بأن نصفك بما يليق بك من صفات الكمال، ذكراً ﴿ كثيراً ، إنك كنت بنا بصيراً ﴾ أى: عالماً بأحوالنا، وبأن ما دعوناك به مما يصلحنا ويقوينا على ما كلفتنا من أداء الرسالة، و (بنا) : متعلق ببصيرا. والله تعالى أعلم.

الإشارة : فإذا انخلعت أيها الفقير عن الكونين، وألقيت عصاك بوادى البين، فاذهب إلى فرعون نفسك ووجود حسك، إنه طغى عليك، حيث حجبك عن شهود ربك، فلا حجاب بينك وبين ربك، إلا حجاب نفسك، ووقوفك مع شهود حسك، فهو أكبر الفراعين فى حقك، فاهدم وجوده، وأغرق فى بحرالحقيقة شهوده، وذلك بالغيبة عنه فى شهود مولاه، فإذا تعسر الأمر عليك فاستعن بمولاك، وقل: اللهم اشرح لى صدرى، ووسعه لمعرفتك، ويسر لى أمرى فى السير إلى حضرة قدسك، واحلل عقدة الكون من قلبى ولسانى، حتى لا أعقد إلا على محبتك، ولا أتكلم إلا بذكرك وشكرك، كما قال الشاعر:

فإن تكلمتُ لم أنطق بغيركم		وإن صمتُّ فأنتم عقْدُ إضمارى.

واجعل لى وزيراً من أهلى، وهو شيخى، أشدد به أزرى، وأشركه فى أمرى، حتى يتوجه بكلية همته إلى سرى، كى ننزهك تنزيهاً كثيراً ، بحيث لا نرى معك غيرك، ونذكرك كثيراً، بحيث لا نفتر عن ذكرك بالقلب أو الروح أو السر، إنك كنت بنا بصيرا. قال الورتجبى: قوله تعالى: (اذهب إلى فرعون..) الخ، لما علم موسى مراد الحق منه بمكابدة الأعداء، والرجوع من المشاهدة إلى المجاهدة، سأل من الحق شرح الصدر، وإطلاق اللسان، وتيسير الأمر، ليطيق احتمال صحبة الأضداد ومكابدتهم. ثم قال: فطلب قوة الإلهية وتمكيناً قادرياً بقوله: (رب اشرح لى صدرى) ، عرف مكان مباشرة العبودية أنها حق الله، وحق الله في العبودية مقام امتحان، وفى الامتحان حجاب عن مشاهدة الأصل، فخاف من ذلك، وسأل شرح الصدر، أى: إذا كنتُ فى غين الشريعة عن مشاهدة غيب الحقيقة، اشرح صدرى بنور وقائع المكاشفة، حتى لا أكون محجوباً بها عنك. ألا ترى إلى سيد الأنبياء والأولياء صلوات الله عليه، كيف أخبر عن ذلك الغين، وشكى من صحبة الأضداد فى أداء الرسالة، بقوله: «إنه ليغان على قلبى فاستغفر الله فى اليوم سبعين مرة» هـ. وفيه مقال(١)، إذ هو غين أنوار لا غين أغيار، فتأمله. والله تعالى أعلم.

ثم أجاب الحق جل جلاله سؤاله، فقال:

﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾
إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ

---

(١) بل فيه مقالات، فالشريعة يستحيل أن تكون غيناً، والله تعالى يقول فيها ﴿ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها﴾ ويقول: ﴿وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا..﴾. ويقول: ﴿وكذلك جعلناه نوراً﴾ فشريعته روح ونور.

يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُۥ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِيٓ أُخْتُكَ
فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا
فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِيٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾
وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴿٤١﴾ ﴾

قلت: (مرة): منصوب على الظرفية الزمانية، وأصله: فعلة، من المرور، اسم للمرور الواحد، ثم شاع فى كل فرد واحد من أفراد أمثاله، ويقرب منها الكرة والرجعة. و (إذْ): ظرف لمننا، و (أنِ اقذفيه): مفسرة، أو مصدرية، و(يأخذه): جواب «أن اقذفيه». و(لتُصنع): متعلق بألقيتُ، عطف على علة مضمرة، أى: ليتعطف عليك ولتربى على حفظى ورعايتى. و(إذ تمشى): ظرف (لتصنع) على أن المراد وقت مشيها إلى بيت فرعون، وما يترتب عليه من القول والرجع إلى أمه.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ قال ﴾ الله تعالى لموسى عليه السلام: ﴿ قد أُوتيتَ سُؤْلك ﴾ أى: أعطيت مسؤولك، وبلغنا لك مأمولك فى كل ما طلبت منا. والإيتاء، هنا، عبارة عن تعلق الإرادة بوقوع تلك المطالب وحصولها، وإن كان وقوع بعضها مستقبلا، ولذلك قال: ﴿ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ ﴾(١)، وإعادة النداء فى قوله: ﴿ ياموسى ﴾ تشريفاً له بتوجيه الخطاب بعد تشريفه بإجابة المطلب.

ثم ذكّره بنعمة أخرى قد سلفت، فقال: ﴿ ولقد مَنَنَّا عليك مرة أخرى ﴾ قبل أن يكون منك لنا طلب، فكيف لا نجيبك بعد الطلب؟ وتلك المنة: ﴿ إذْ أوحينا إلى أمك ﴾ حين تحيرت فى أمرك، وخافت عليك من عدوك، فأوحينا إليها وحى منام أو إلهام أو بملك كريم ـ عليهما السلام ـ فقلنا لها: ﴿ أنِ اقْذفيه فى التابوت ﴾ أى: ضعيه فيه، وأغلقي عليه حتى لا يصل الماء إليه، ﴿ فاقذفيه فى اليمِّ ﴾ أى: ألقيه فى البحر بتابوته، ﴿ فليُلقه اليمُّ بالساحل ﴾ أى: فسيرميه البحرُ بالساحل، ولمّا كان إلقاء البحر له بالساحل أمراً واجب الوقوع؛ لتعلّق الإرادة الربانية به، جعل البحر كأنه مأمور بإلقائه، ذو تمييز، مطيع، فإنْ يُلقه ﴿ يأخُذْه عدوٌ لى وعدوٌ له ﴾ وهو فرعون. ولا تخافى عليه؛ ﴿ إنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾(٢). وتكرير عداوته والتصريح بها؛ للإشعار بأن عداوته له، مع تحققها، لا تضره، بل تؤدى إلى محبته، لأن الأمر بما فيه الهلاك؛ من القذف فى البحر، ووقوعه فى يد العدو، مشعر بأن هناك ألطافاً خفية، ومنناً كامنة مندرجة تحت قهر صورى.

---

(١) من الآية ٣٥ من سورة القصص.

(٢) كما جاء فى الآية ٧ من سورة القصص.

وليس المراد بالساحل نفس الشاطئ، بل ما يقابل الوسط، وهو ما يلي الساحل من البحر، حيث يجرى ماؤه إلى نهر فرعون، لِمَا رُوِى أنها جعلت فى التابوت قطناً محلوجاً، ووضعته فيه، ثم قيَّرته(١) وألقته فى اليم. وقيل: كان التابوت من البردى، صنعته أمه. وقال مقاتل: صنعه لها رجل مؤمن اسمه «حزقيل»، ثم طلته بالقار ـ أى: الزفت ـ وألقته فى اليم، وكان يشرع منه إلى بستان فرعون نهركبير، فدفعه الماء إليه، فأتى به إلى بركة فى البستان، وكان فرعون جالساً ثَمَّ مع آسية بنت مزاحم، فأمر به فأُخرج، فإذا فيه صبى أصبح الناس وجهاً، فأحبه فرعون حبًا شديداً لا يكاد يتمالك الصبر عنه، وذلك قوله تعالى: ﴿ وألقيتُ عليك محبةً منى ﴾، قال ابن عباس: «أحبه وحبّبه إلى خلقه». وقال قتادة: «ملاحة كانت فى عينى موسى، ما رآه أحد إلاّ عشقه»، أى: وألقيتُ عليك محبة عظيمة كائنة منى، قد زرعت فى القلوب، بحيث لا يكاد يصبر عنك من رآك، ولذلك أحبك عدو الله وأهله، وذلك ليتعطف عليك.

﴿ ولِتُصنع على عينى ﴾ أى: ولتربّى بالحنو والشفقة، وتغذى بمرأى منى، مصحوباً برعايتى وحفظى، فى أحسن تربية ونشأة. وكان ابتداء ذلك: ﴿ إذْ تمشي أُختك ﴾ تتبع تابوتك، فلما أُخرجتَ التمسوا لك المراضع، ﴿ فتقولُ ﴾ لفرعون وآسية، حين رأتهما يطْلُبَانِ له مُرضعة يقبل ثديها، وكان لا يقبل ثدياً. وصيغة المضارع فى الفعلين؛ لحكاية الحال الماضية، والأصل: إذ مشت فقالت: ﴿ هل أدلُّكم على من يكفله ﴾؟ يضمه إلى نفسه ويربيه، وذلك إنما يكون بقبول ثديها. رُوِىَ أنه فشا الخبر بمصر أن آل فرعون أخذوا غلاماً فى النيل لا يرتضى ثدى امرأة، واضطروا إلى تتبع النساء، فخرجت أُختُه مريم لتتعرف خبره، فجاءت متنكرة، فقالتْ ما قالت، وقالوا: نعم، فجاءت بأمه فقبِل ثديها.

قال تعالى: ﴿ فرَجَعْنَاك إلى أمك ﴾؛ وفاء بعهدنا، ﴿ كي تقرَّ عينُها ﴾ بلقائك، ﴿ ولا تحزن ﴾ أى: ولا يطرأ عليها حزن بفراقك بعد ذلك، ﴿ وقتلتَ ﴾ بعد ذلك ﴿ نفساً ﴾، وهى نفس القبطى الذى استغاثه الإسرائيلى عليه. قال كعب: كان إذ ذاك ابن ثنتى عشرة سنة، ﴿ فنجيناك من الغَمّ ﴾ أى: غم قتله، خوفاً من عقاب الله تعالى بالمغفرة، ومن اقتصاص فرعون، بوحينا إليك بالمهاجرة، ﴿ وفتناك فتونًا ﴾ أى: ابتليناك ابتلاءً عظيماً، وخلصناك مرة بعد أُخرى، حتى صلَحْتَ للنبوة والرسالة، وهو تحمل ما ناله فى سفره من الهجرة عن الوطن، ومفارقة الأحباب، والمشى راجلاً، وفقد الزاد، بعد ماخلصه من الذبح، ثم من البحر، ثم من القصاص بالقتل. وسُئل عنها ابن عباس، فقال: خلَّصناك من محنة بعد محنة، ولد فى عام كان يقتل فيه الغلمان، فهذه فتنة، وألقته

(١) أى: دهنته بالقار.

أمه في البحر، وهمّ فرعون بقتله، وقتل قبطياً، وأجَّرَ نفسه عشر سنين، وضل الطريق، وتفرقت غنمه في ليلة مظلمة، فكل واحدة من هذه فتنة .هـ. لكن الذي يقتضيه النظم الكريم أن لا تعد إجارته نفسه وما بعدها من الفتون؛ لأن المراد: ما وقع له قبل وصوله إلى مدين، بدليل قوله تعالى: ﴿ فلبثتَ سنينَ في أهل مَدْيَنَ ﴾، إذ لا ريب أن الإجارة وما بعدها كانت بعد وصوله إلى مدين، أي: لبثت عشر سنين في أهل مدين.

وقال وَهْب: لبث عند شعيب ثمانياً وعشرين سنة، عشراً منها في مهر امرأته صفراء بنت شعيب، وثماني عشرة أقام عنده حتى وُلد له. وأشار باللبث في مدين، دون الوصول إليها، إلى ما أصابه في تضاعيفها، من فنون الشدائد والمكاره، التي كل واحدة منها فتنة. و « مدين» : بلدة شعيب عليه السلام، على ثماني بمراحل من مصر، ولم تبلغها مملكة فرعون، خوفاً على نفسه من هيبة النبوة أن يصيبه ما أصاب مَنْ خالفه.

﴿ ثم جئتَ ﴾ إلى المكان الذي آنستَ فيه النار، ورأيتَ فيه الخوارق، وخُصصتَ فيه بالرسالة، ﴿ على قَدَرٍ ﴾ قدرته لك في الأزل، ووقت عينته لك، لأكلمك وأرسلك فيه إلى فرعون، فما جئتَ إلا على ذلك القدَر، غير متقدم ولا متأخر، وقيل: على مقدار من الزمان، يُوحى فيه إلى الأنبياء، وهو رأس أربعين سنة. ﴿ واصْطنعتُكَ لنفسي ﴾ أي: اختصصتك بالرسالة والمحبة والمناجاة، وهو تذكير لقوله: ﴿ وأنا اخترتك ﴾، وتمهيد لإرساله عليه السلام إلى فرعون مؤيَّداً بأخيه، حسبما طلب، بعد تذكيره المنن السالفة، زيادة في وثوقه عليه السلام بحصول نظائرهم اللاحقة، والعدول عن نون العظمة الواقعة في قوله تعالى: ﴿ وفتناك ﴾ إلى تاء المتكلم؛ لمناسبتها للنفس؛ فإنها أدخل في تحقيق الاصطناع والاستخلاص. والله تعالى أعلم.

الإشارة: قال قد أوتيت سؤلك أيها الفقير، حيث وصلناك إلى من يأخذ بيدك، ويُرشدك إلى ربك ويُربيك. ولقد مننا عليك مرة أخرى، حيث أنشأناك بين أبوين مسلمين، فقذفناك في تابوت الإسلام، ثم في نهر الإيمان، ثم رميناك في بحر العرفان، وألقينا عليك محبة منا، فأحببناك وأحببتنا، وألقينا محبتك في قلوب عبادنا، فتربيت في حفظنا ورعايتنا، فلما فارقتَ الأوطان وهجرت الإخوان، في طلب تحقيق العرفان، رددناك إليهم بعد التمكين، لتنهضهم إلى الله، فتقرّ أعينهم بطاعة رب العالمين، وقتلت نفساً كانت تحجبك عن ربك، فنجيناك من غم الحجاب، وأخرجناك من سجن الأكوان، إلى فضاء الشهود والعيان، وفتناك بمجاهدة نفسك فتوناً عظاماً، فتنة الفقر، ثم فتنة الذل، ثم فتنة هجر الأوطان، حتى تخلصت من حبس الأكوان، وجئت إلينا على قدر قدرناه لك، ووقت عيناه لفتحك، فاصطنعتك لنفسي، وأجتبيتك لحضرتي بسابق عنايتي، من غير حول منك ولا قوة، فعنايتنا فيك سابقة، فأين كنت حين واجهتك عنايتنا، وقابلتك رعايتنا؟ لم يكن في أزلنا إخلاص أعمال، ولا وجود أحوال، بل لم يكن هناك إلا محض الإفضال ووجود النوال، كما في الحكم. وأنشدوا:

فَلاَ عَمَلٌ مِنّى إليك اكْتَسَبْتُه سِوَى مَحْضِ فَضْلٍ لا بِشَىءٍ يُعَلَّلُ

وقال آخر:

قَدْ كُنْتُ أَحْسبُ أَنْ وَصْلَك يُشْتَرَى بنَفائسِ الأَمْوَالِ والأَرْبَاحِ

وَظَنَنْتُ جَهْلاً أَنَّ حبَّك هَيِّنٌ تُفْنَى عَلَيْه كَرائمِ الأَرْوَاحِ

حتّى رَأَيْتُك تَجْتَبِى وَتَخُصُّ مَنْ تَخْتَارُهُ بلطَائفِ الإِمْنَاحِ

فَعَلِمْتُ أَنَّك لا تُنَالُ بحيلَةٍ فَلَوَيْتُ رَأْسِى تحت طَىِّ جَنَاحِ

وَجَعَلْتُ فى عُشِّ الغَرَامِ إقَامَتى أبداً وفيه تَوَطُّنِى وَرَوَاحِ

ثم أرسلهما الحق تعالى إلى فرعون، فقال:

﴿ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله لسيدنا موسى عليه السلام: ﴿اذهب أنت وأخوك﴾ أى: ليذهب معك أخوك ﴿بآياتى﴾: بمعجزاتى التى أريتكها، من اليد والعصا، فإنهما وإن كانتا اثنتين، لكن فى كل واحدة منهما آيات، فإنّ فى انقلاب العصا حيواناً: آية، وكونها ثعباناً عظيماً: آية، وسرعة حركته، مع عِظَمِ جرمه: آية، وكذلك اليد؛ فإنّ بياضها فى نفسه آية، وشعاعها آية، ثم رجوعها إلى حالتها الأولى آية. والباء للمصاحبة، أى: اذهبا مصحوبَيْنِ بمعجزاتنا، مستمسكَيْنِ بها، ﴿ولاتَنِيا﴾: لا تفترا ولا تقصرا ﴿فى ذكرى﴾ عند تبليغ رسالتى، ولا يشغلكما معاناة التبليغ عن ذكرى، بما يليق بحالكما؛ من ذكر لسان أو تفكر أو شهود، فلا تغيبا عن مشاهدتى باشتغالكما بأمرى، حتى لا تكونا فاترين فى عينى.

﴿اذهبَا إلى فرعون إنه طغى﴾: تجبر وعلا.ولم يكن هارون حاضراً وقت هذا الوحى، وإنما جمعهما؛ تغليباً. رُوى أنه أوحى إلى هارون وهو بمصر أن يتلقى موسى ـ عليهما السلام، وقيل: سمع بإقباله فتلقاه.

﴿ فقولا له قولاً ليناً ﴾ ؛ لأنَّ تليين القول مما يكسر ثورة عناد العتاة، ويلين عريكة الطغاة. قال ابن عباس: أى: لا تعنفا فى قولكما. وقيل: القول اللين: ﴿ هل لك إلى أن تزكى . . ﴾ الخ، ويعارضه قوله بعد: ﴿ فقولا إنا رسولا ربك ﴾ وقيل: كنّياه، وكان له ثلاثة كنىً: أبو العباس، وأبو الوليد، وأبو مرة. وقيل: عِدَاه على قبول الإيمان شباباً لا يهرم، ومُلكاً لا ينزع منه إلا بالموت، وتبقى عليه لذة المطعَم والمشرب والمنكح إلى الموت.وقيل: اللطافة فى القول؛ فإنه رباك وأحسن تربيتك، وله عليك حق الأبوة، ﴿ لعله يتذكَّر ﴾ بما بلغتماه من ذكر، ويرغب فيما رغبتماه فيه، ﴿ أويخشى ﴾ عقابى.

ومحل الجملة: النصب على الحال من ضمير التثنية، أى: فقولاً له قولاً لينا، رَاجِيَيْنِ تذكرته، أى: باشرا وعظه مباشرةَ من يرجو ويطمع أن يُثمر علمُه ولا يخيب سعيُه. وفائدة هذا الإبهام: الحَثُّ على المبالغة فى وعظه. هذا جواب سيبويه عن الإشكال، وهو أنه تعالى علِم أنه لا يؤمن، وقال: ﴿ لعله يتذكَّر ﴾ ، فصرف الرجاء إلى موسى وهارون، أى: اذهبا على رجائكما. وقال الوراق: قد تذكَّر حين ألجمه الغرق. وقال الزجاج: خاطبهم بما يعقلون. قلت: كونه تعالى علم أنه لا يؤمن هو من أسرار القدر الذى لايكشف فى هذه الدار، وهو من أسرار الحقيقة، وإنما بُعثتْ الرسل بإظهار الشرائع، فخاطبهم الحق تعالى بما يناسب التبليغ فى عالم الحكمة، والله تعالى أعلم. وجدوى إرسالهما إليه، مع العلم بإحالته، إلزام الحجة وقطع المعذرة.

﴿ قالا ربنا إننا نخاف أن يَفْرُطَ علينا ﴾ أى: يعجل علينا بالعقوبة، ولا يصبر إلى تمام الدعوة وإظهار المعجزة. وهو من « فَرطَ» إذا تقدم، ومنه: الفارط، للوليد الذى مات صغيراً. وقرئ بضم الياء، من « أفرط» إذا حَمله على العجلة، أى: نخاف أن يحمله حامل من الاستكبار و الخوف على المُلك أو غيرهما، على المعاجلة والعقاب، ﴿ أو أن يطغى ﴾ ؛ يزداد طغياناً، كأن يقول فى شأنك مالا ينبغى، لكمال جرأته وقساوته، وإظهار «أن»؛ لإظهار كمال الاعتناء بالأمر، والإشعار بتحقيق الخوف من كل منهما، وهذا القول يحتمل أن يكون قاله موسى ودخل هارون بالتبع، إيذاناً بأصالة موسى عليه السلام فى كل قول وفعل، وتبعية هارون عليه السلام، أو يكون هارون قال ذلك بعد تلاقيهما، فحكى الله قولهما عند نزول الآية، كما فى قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾(١)، فإن هذا الخطاب قد حكى لنا بصيغة الجمع، مع أن كلا من المخاطبين لم يخاطب إلا بطريق الانفراد؛ لاستحالة جمعهم فى الوجود، فكيف باجتماعهم فى الخطاب؟.

---

(١) من الآية ٥١ من سورة «المؤمنون».

﴿ قال ﴾ تعالى لهما: ﴿ لاتخافا ﴾، وهو استئناف بيانى، كأن قائلا قال: فماذا قال لهما ربهما عند تضرعهما إليه؟ فقيل: قال: لا تخافا ما توهمتما من الأمرين، ﴿ إننى معكما ﴾ بحفظى ورعايتى ونصرى ومعونتى، ﴿ أسمعُ وأرى ﴾ ما يجرى بينكما وبينه من قول وفعل، فأفعل فى كل حال ما يليق بها؛ من دفع ضر وشر، وجلب نفع وخير.

﴿ فأتياهُ ﴾، أمر بإتيانه، الذى هو عبارة عن الوصول إليه، بعد ما أمر بالذهاب إليه، فلا تكرار، ﴿ فقولا ﴾ له: ﴿ إنا رسولا ربك ﴾ إليك، أمر بذلك من أول الأمر، ليعرف الطاغية شأنهما، ويبنى جوابه على ذلك، ﴿ فأرسِلْ معنا بنى إسرائيل ﴾ أى: أطلقهم من الأسر والقهر، وأخرجهم من تحت يدك العادية. وليس المراد إرسالهم معه إلى الشام، بدليل قوله: ﴿ ولا تعذِّبْهم ﴾ بإبقائهم على ما كانوا عليه من العذاب، فإنهم كانوا تحت مملكة القبط، يستخدمونهم فى الأعمال الصعبة، من الحفر ونقل الأحجار، وضرب اللبن والطين، وبناء المدائن، وغير ذلك من الأعمال الشاقة، ويقتلون ذكور أولادهم عاماً دون عام، فكانت رسالة موسى إلى فرعون بالإيمان بالله وحده، وتسريح بنى اسرائيل. رُوى أنه لمّا رغبه فى الإيمان بذكر ما أعد الله لأهله من الخلود فى الجنة والملك الدائم، أعجبه، فقال: حتى أستشير هامان، وكان غائباً، فقدِم، فأخبره، فقال هامان: قد كنتُ أرى لك عقلاً، بينما أنت رب تصيرُ مربوباً، وبينما أنت تُعبَد تصير تعبد غيرك، فغلبه على رأيه.

فقال له موسى: ﴿ قد جئناك بآيةٍ من ربك ﴾، قال فرعون: وما هى؟ فأدخل يده فى جيب قميصه ثم أخرجها بيضاء، لها شعاع كشعاع الشمس، فعجب منها، ولم يُره العصا إلا بعد ذلك، يوم الزينة. قاله الثعلبى. قلت: والذى يظهر من سورة الشعراء (١)ـ بل هو صريح فيها ـ أنه أراه العصا واليد. وإنما أفردت فى اللفظ، هنا؛ لأن المراد اثبات الحجة بصحة الرسالة، لا تعدد الآية، وكذلك قوله تعالى: ﴿ قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾(٢)، ﴿ أَوَ لَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴾(٣)، وأما قوله تعالى: ﴿ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾(٤)؛ فالظاهر أن المراد بها آية من الآيات.

ثم قال له: ﴿ والسلامُ على من اتبعَ الهُدى ﴾ أى: وسلام الله وملائكته والمؤمنين المقتضى سلامة الدارين، على من اتبع الهدى، بتصديق آيات الله تعالى الهادية إلى الحق، دون من اتبع الغى والهوى، وفيه من الترغيب،

---

(١) فى قوله تعالى: ﴿قال أولو جئتك بشىء مبين. قال فأت به إن كنت من الصادقين. فألقى عصاه فإذا هى ثعبان مبين. ونزع يده فإذا هى بيضاء للناظرين﴾. الشعراء: ٣٠ ـ ٣٣.
(٢) من الآية ٤٩ من سورة آل عمران.
(٣) من الآية ٣٠ من سورة الشعراء.
(٤) من الآية ١٠٦ من سورة الأعراف.

فى اتباعها على ألطف وجه، مالا يخفى. ﴿ إنا قد أُوحى إلينا ﴾ من جهة ربنا، ﴿ أنَّ العذابَ ﴾ الدنيوى والأخروى ﴿ على من كذَّب ﴾ بآيات الله ﴿ وتولى ﴾ أى: أعرض عن قبولها، وفيه من التلطف فى الوعيد حيث لم يصرح بحلول العذاب به مالا مزيد عليه. والله تعالى أعلم.

الإشارة: ينبغى لأهل العلم ولأهل الوعظ والتذكير أن يتعاونوا على نشر العلم ووعظ العباد، ويتوجهوا إليهم فى أقطار البلاد، فإن ذلك فرض كفاية على أهل العلم، ولا يشغلهم نشر العلم عن ذكر الله، ولا تذكير العباد عن شهود الله، كما قال الله تعالى: ﴿ ولاتنيا فى ذكرى ﴾ أى: ولا تغفلا عن شهودى وقت إرشاد عبادى، فإن توجهوا إلى الجبابرة والفراعنة فليلينوا لهم المقال، وليدعوهم إلى أسهل الخلال، فإن ذلك أدعى إلى الامتثال، خلافاً لمن قال هذه ملة موسوية، وأما الملة المحمدية فقال تعالى فيها: ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾(١)؛ فإنَّ بيان الحق لا ينافى أن يكون بملاطفة وإحسان، فإن خاف الواعظ من صولة المتجبر فإن الله معه، يحفظه ويرعاه، ويسمعه ويراه، فإن لم يسمع لقوله ولم يتعظ لوعظه، فقد بلغ ما عليه، وليقل بلسان الحال أو المقال: (والسلام على من اتبع الهدى). وبالله التوفيق.

ثم ذكر جواب فرعون، فقال:

﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾
قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾
ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ
أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ ۞
مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾ ﴾

قلت: (خَلْقَه): يحتمل أن يكون اسماً بمعنى المخلوق، فيكون مفعولاً أولا، و (كل شيء): مفعولاً ثانيا، أو يكون مصدراً بمعنى الخلقة، فيكون مفعولاً ثانيا، أى: أعطى كل شيء خِلقته وصورته التى هو عليها.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ قال ﴾ فرعونُ فى جواب موسى، لما أتاه مع أخيه وبلغا الرسالة، وقالا له ما أمرهما به ربهما، وإنما حذفه للإيجاز، وللإشعار بأنهما لما أمرا بذلك سارعا إلى الامتثال من غير تلعثم، أو بأن

---

(١) من الآية ٢٩ من سورة الكهف.

ذلك من الظهور بحيث لا حاجة إلى التصريح به، فقال لهما فرعون: ﴿فمن ربكما ياموسى﴾؟ لم يضف الرب إلى نفسه ؛لغاية عتوه وطغيانه، بل أضافه إليهما، وفى الشعراء: ﴿ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾(١)، والجمع بينهما تعدد الدعوة، ففى كل مرة حكى لنا ما قال. وتخصيص النداء بموسى، مع توجيه الخطاب إليهما؛ لأنه الأصل فى الرسالة، وهارون وزيره.

﴿قال﴾ موسى عليه السلام مجيباً له: ﴿ربنا الذى أعطى كُلَّ شيء خلقه﴾ أى: ربنا هو الذى أعطى كل شيء خلقه، أى: مخلوقاته؛ مما يحتاجون إليه ويرتفقون به فى قوام أبدانهم ومعايشهم، أو أعطى كل شيء خِلْقته وصورته التى يختص بها، ولم يجعل خلق الإنسان فى خلق البهائم، ولاخلق البهائم فى خلق الإنسان. ولكن خلق كل شيء فقدره تقديراً. أو أعطى كل شيء فعله وتصرفه، فاليد للبطش، والرجل للمشى، واللسان للنطق، والعين للنظر، والأذن للسمع، أو أعطى كل شيء شكله من جنسه، للإنسان زوجةً، وللبعير ناقةً، وللفرس رَمَكةً، وللحمار أتاناً. ﴿ثم هدى﴾ إلى طريق الانتفاع والارتقاء، بما أعطاه وعرفه كيف يتوصل إلى بقائه وكماله، فألهمه الرضاع والأكل والشرب والجماع، وطلب الرعى وتوقى المهالك، وكيف يأتى الذكرُ الأنثى.

ولمّا كان الخلق ـ الذى هو عبارة عن تركيب الأجزاء وتسوية الأجسام ـ مقدماً على الهداية، التى هى عبارة عن إيداع القوى المحركة والمدركة فى تلك الأجسام، عطف بثم المفيدة للتراخى. ولقد ساق عليه السلام جوابه على نمط رائق، وأسلوب لائق؛ حيث بيّن أنه تعالى عالم قادر بالذات، خالق لجميع الكائنات، منعم عليهم بجميع النعم السابغات، هادٍ لهم إلى طرق المرتفقات.

﴿قال﴾ فرعون: ﴿فما بالُ القرونِ الأُولى﴾ أى: ما حالها بعد الموت، وما فعل الله بها؟ فقال له موسى: هذا غيب لا يعلمه إلا الله، وهو معنى قوله: ﴿علمها عند ربي﴾، أو ما حال القرون الماضية والأمم الخالية، وماذا جرى عليهم من الحوادث المفصلة؟ فأجابه عليه السلام بأن العلم بأحوالهم مفصلةً مما لا ملامسة له بمنصب الرسالة، وإنما علمها عند الله عز وجل. وكأنّ عدو الله، لما خاف أن يُبهت، ويُفتضح، ويظهر للناس حجة موسى عليه السلام، أراد أن يصرفه عليه السلام إلى مالا يعنى، من ذكر الحكايات التى لامسيس لها بمنصب الرسالة؛ فلذلك أعرض عنه، و﴿قال علمها عند ربى﴾، وهذا أحسن من الأول؛ لأنه لو كان سؤاله عن أحوالها بعد الموت لأمكن أن يقول له: من اتبع الهدى منهم فقد سلم وتنعم، ومن تولى فقد عُذب وتألم، حسبما نطق به قوله تعالى: ﴿والسلام على من اتبع الهدى﴾. وقيل: فما بالها لم تبعث كما يزعم موسى، أو: ما بالها لم تكن على دينك، أو: ما بالها كذبت ولم يُصبها عذاب، وكلها بعيدة.

(١) الآية ٢٣ من سورة الشعراء.

قلت: والذى يظهر أن الطاغية فَهِمَ قوله تعالى: ﴿ثم هدى﴾ أى: إلى الإيمان، فاعترض بقوله: فما بال القرون الأولى لم تؤمن حتى هلكت؟ فأجابه موسى عليه السلام بقوله: ﴿علمها عند ربى﴾، فهو أعلم بمن ضل عن سبيله، وهو أعلم بمن اهتدى. وقوله: ﴿فى كتاب﴾ أى: اللوح المحفوظ، فقد أُثبتتْ فيه بتفاصيلها، ويجوز أن يكون ذلك عبارة عن تمكنه وتقريره فى علم الله ـ عز وجل ـ تمكن من استحفظ الشىء، وقيده بالكتابة، كما يلوح به قوله تعالى: ﴿لايَضِلُّ ربى﴾ أى: لا يخطئ ابتداء، ﴿ولا ينسى﴾ فيتذكر. وفيه تنبيه على أن كتابته فى اللوح المحفوظ ليس لحاجته إليه فى العلم به ابتداء أو بقاءاً. وإظهار (ربى) فى موضع الإضمار، للتلذذ بذكره، وللإشعار بعلّية الحكم؛ فإن الربوبية مما تقتضى عدم الضلال والنسيان.

ولقد أجاب عليه السلام عن السؤال بجواب عبقرى بديع، حيث كشف عن حقيقة الحق حجابها، مع أنه لم يخرج عما كان بصدده من بيان شُئونه تعالى، ووصف الحق تعالى بأوصاف لا يمكن عدو الله أن يتصف بشىء منها، لا حقيقة ولا مجازاً، ولو قال له: هو الخالق الرازق، وشبه ذلك، لأمكن أن يغالط ويدعى ذلك لنفسه.

ثم تخلص إليه؛ حيث قال، بطريق الحكاية عن الله عز وجل، أو من كلامه عليه السلام: ﴿الذى جعل لكمُ الأرضَ مِهاداً﴾(١) أى: كالمهد تتمهدونها بالسكن والقرار، أى: جعل كل موضع منها مهداً لكل واحد منكم. ﴿وَسَلَكَ لكم فيها سُبُلاً﴾ أى: طُرقاً تتوصلون بها من قطر إلى قطر، لتقضوا منها مآربكم، وتنتفعوا بمرافقها ومنافعها، ووسطها بين الجبال والأودية لتعرف أمارات سُبلها. ﴿وأنزل من السماء ماءً﴾ هو المطر، ﴿فأخرجنا به﴾، يحتمل أن يكون من كلام الله، وما قبله من كلام موسى، أو كله من كلام الله تعالى، حكاه موسى عليه السلام، وإنما التفت إلى التكلم؛ للتنبيه على ظهور ما فيه من الدلالة على كمال القدرة والحكمة، والإيذان بأنه لا يتأتى إلا من قادر مطاع عظيم الشأن، أى: فأخرجنا بذلك الماء ﴿أزواجًا﴾: أصنافاً، سميت أزواجاً؛ لازدواجها، واقتران بعضها ببعض، كائنة ﴿من نباتٍ شتى﴾: متفرقة، جمع شتيت: أى: متفرق، وهو، فى الأصل، مصدر، يستوى فيه الواحد والجمع، يعنى: أنها مختلفة فى الشكل واللون والطعم والرائحة والنفع، وبعضها صالح للناس على اختلاف صلاحها لهم، وبعضها للبهائم.

ومن تمام نعمته تعالى أن أرزاق عباده، لمّا كان تحصيلها بعمل الأنعام، جعل علَفَها مما يفضل عن حاجتهم، ولا يليق بكونه طعاماً لهم، وهو معنى قوله: ﴿كُلوا وارْعَوا أنعامكم﴾، والجملة: حالٌ، على إرادة القول، أى: أخرجنا منها أصناف النبات، قائلين: كلوا وارعوا أنعامكم، آذنين فى ذلك لكم.

(١) قرأ عاصم وحمزه والكسائى: (مَهْدًا). وقرأ باقى السبعة: «مِهاداً». انظر الإتحاف (٢/٢٤٧).

﴿ إن فى ذلك ﴾ المذكور، من شئونه تعالى، وأفعاله وأنعامه، ﴿ لآيات ﴾ جليلة واضحة الدلالة على عظيم شأنه تعالى، فى ذاته وصفاته وأفعاله، وعلى صحة نبوة موسى وهارون ـ عليهما السلام، ﴿ لأولى النُّهَى ﴾ أى: العقول الصافية، جمع «نُهْيَة»، سمى بها العقل، لنهيه عن اتباع الباطل، وارتكاب القبيح، أى: لذوى العقول الناهية عن الأباطيل، التى من جملتها ما يدعيه الطاغية وما يقبله منه الفئة الباغية. وتخصيص كونها آيات لهم، مع أنها آية للعالمين؛ لأنهم المنتفعون بها.

﴿ منها خلقناكم ﴾ أىْ: من الأرض الممهدة لكم، خلقناكم بخلق أبيكم آدم عليه السلام، وأنتم فى ضمنه، إذ لم تكن فطرته مقصورة على نفسه عليه السلام، بل كانت أنموذجاً منطوياً على فطرة سائر أفراد الجنس، انطواء إجماليا، فكان خلقه عليه السلام منها خلقاً لكل منها، وقيل: خلقت أبدانكم من النطفة المتولدة من الأغذية المتولدة من الأرض. وقال عطاء: إن الملَك الموكل بالرحم ينطلق، فيأخذ من تراب المكان الذى يُدفن فيه العبد، فيذره على النطفة، فتخلق من التراب ومن النطفة.هـ.

﴿ وفيها نُعيدكم ﴾ بالإماتة وتفريق الأجزاء، والكلام على الأشباح دون الأرواح، فإنها، بعد السؤال، تصعد إلى السماء، كما يأتى عند قوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ... ﴾(١) الآية. ولم يقل: وإليها نُعيدكم؛ إشارة إلى استقرار العبد فيها، ﴿ ومنها نُخرجكم تارةً أخرى ﴾ بتأليف أجزائكم المتفتتة، المختلطة بالتراب، على الهيئة السابقة، ورد الأرواح إليها. وكون هذا الإخراج تارة أخرى: باعتبار أن خلقهم من الأرض إخراج لهم منها، وإن لم يكن على التارة الثانية. والتارة فى الأصل: اسم للتوْر، وهو الجريان، فالتارة واحدة منه، ثم أطلق على كل فعلة واحدة من الفعلات المتحدة، كما مر فى المرة. والله تعالى أعلم.

الإشارة: ربنا الذى أعطى كل شيء خلقه، مما سبق لهم فى أزله، ثم هدى إلى الأسباب الموصلة إليه، فمنهم من كان حظه فى الأزل قوت الأشباح، هداه إلى أسبابها، وهم أهل مقام البعد، ومنهم من كان حظه قوت القلوب، فهداه إلى أسبابها من المجاهدة فى الطاعات وأنواع القربات، وهم أنواع:

فمنهم من شغلهم بتدريس العلوم وتدقيق الفهوم، وتحرير المسائل وتمهيد النوازل، وهداهم إلى أسباب ذلك، وهم حملة الشريعة، إن صحت نيتهم وثبت إخلاصهم. ومنهم من شغلهم بتوالى الطاعات وتعمير الأوقات، وهداهم إلى أسبابها، وقواهم على مشاقها، وهم العباد والزهاد. ومنهم من شغلهم بإطعام الطعام والرفق بالأنام، وتعمير الزوايا وقبول الهدايا، وهداهم إلى أسباب عمارتها والقيام بها، وهم الصالحون. ومنهم: من كان حظه قوت الأرواح، وهم المريدون السائرون، أهل الرياضة والتصفية، والتخلية والتحلية، والتهذيب والتدريب، وهداهم إلى أسبابها، ووصلهم

(١)الآية ٨٨ من سورة الواقعة.

إلى شيخ كامل يُبينها ويسلكها، وهم فى ذلك مقامات متفاوتة، على حسب صدقهم وجدهم، ومنهم من كان حظه قوت الأسرار، وهم العارفون الكبار، السابقون المقربون، أهل الفناء والبقاء، أهل الرسوخ والتمكين، فهداهم إلى ما أملوا، ووصلهم إلى ما طلبوا. نفعنا الله بهم، وخرطنا فى سلكهم. آمين.

وقوله: ﴿ فما بال القرون الأولى... ﴾ الآية، فيه زجر للمريد عن الاشتغال بالحكايات الماضية، لأن فى ذلك شُغلاً عن الله، إلا ما كان فيه زيادة إلى الله، فتلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم. وقوله تعالى: ﴿ الذى جعل لكم الأرض مهاداً ﴾ أى: جعل أرض النفوس مهاداً للقيام برسم العبودية، وسلك فيها سبلاً توصل إلى مشاهدة الربوبية، لمن سلكها بالرياضة والمجاهدة، وأنزل من سماء الملكوت ماء الواردات الآلهية، تحيا به الأرواح، فتخرج أصنافاً من العلوم والحكم شتى، كلُوا برعى القلوب فى نوار تجلياتها، وارعوا لقوت أشباحكم من ثمار حسياتها، إن فى ذلك لآيات لأولِى النُهى. (منها خلقناكم) : من أرض نفوسكم أخرجناكم، بشهود عظمة الربوبية، وفيها نُعيدكم؛ للقيام برسم العبودية، ومنها نُخرجكم؛ لتكونوا لله، لا لشىء دونه. أو منها خلقناكم، أى: أخرجناكم من شهود ظلمتها إلى نور خالقها، بالفناء عنها، وفيها نُعيدكم بالرجوع إلى الأثر فى مقام البقاء، (ومنها نُخرجكم تارة أخرى) ؛ بعقد الحرية فى مقام البقاء، فتكونوا عبيداً شُكَّراً. وبالله التوفيق.

ثم إن فرعون لم تنفعه هذه الموعظة، ولا ما رأى من الآيات الباهرة، حتى طلب المعارضة، كما أبان ذلك الحق سبحانه بقوله:

﴿ وَلَقَدْ أَرَيْنَـٰهُ ءَايَـٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾ ﴾

قلت: (موعداً) : مصدر، مفعول أول لـ(اجعل). و(مكاناً) : مفعول بفعل محذوف، أى: تعدنا مكاناً سُوى، لا بموعد؛ لأنه وصف، ويجوز نصبه على إسقاط الخافض، و(يوم الزينة) : على حذف مضاف، أى: مكان يوم الزينة، و (أن يحشر) : عطف على يوم، أو الزينة.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ولقد أريناه ﴾ أى: فرعون، ﴿ آياتنا ﴾، حين قال له: ﴿ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ، فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ، وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴾(١)، وعبّر بالجمع، مع

(١) الآيات: ٣١ ـ ٣٣ من سورة الشعراء.

كونهما اثنتين، باعتبار ما في تضاعيفهما من الخوارق، التي كل واحدة منها آية. وقد رأى فرعونُ من هاتين الآيتين أموراً دواهي، فإنه روي أنه عليه السلام، لما ألقى العصا، انقلبت ثعباناً أشعر، فاغراً فاه، بين لَحْيَيْه ثمانون ذراعاً، وضع لحيه الأسفل على الأرض، والأعلى على سور القصر، ثم توجه نحو فرعون، فهرب وأحدث، وانهزم الناس مزدحمين، فمات منهم خمسة وعشرون ألفاً من قومه، فصاح فرعون: يا موسى أنشدك الذي أرسلك إلا أخذته، فأخذه، فعاد عصاً. ورُوي أنها، لما انقلبت حية ارتفعت في السماء قدر ميل، ثم انحطت مقبلة نحو فرعون، وجعلت تقول: يا موسى مُرني بما شئت، ويقول فرعون: أنشدك .. الخ. ونزع يده من جيبه، فإذا هي بيضاء بياضاً نورانياً خارجاً عن العادة. ففي تضاعيف كلٍّ من الآيتين آيات جمة، لكنها لما كانت غير مذكورة بالصراحة، أكدت بقوله تعالى: ﴿ كلَّها ﴾، كأنه قيل: أريناه آياتنا بجميع مستتبعاتها وتفاصيلها، قصداً إلى بيان أنه لم يبق له في ذلك عذر.

وقيل: أريناه آياتنا التسع، وهو بعيد؛ لأنها إنما ظهرت على يده عليه السلام بعد ما غلبت السحرة على مَهَل، في نحو من عشرين سنة، والكلام هنا قبل المعارضة، اللهم إلا أن يكون الحق تعالى أخبرنا أنه أراه الآيات التسع كلها، فأبى عن الإيمان، ثم رجع إلى إتمام القصة.

وأبعد منه: من عدّ في الآيات ما جُعِل لإهلاكهم، لا لإرشادهم إلى الإيمان؛ من فلق البحر، وما ظهر بعد مهلكه من الآيات الظاهرة لبني إسرائيل؛ من نتق الجبل والحجر، وغير ذلك، وكذلك من عدّ منها الآيات الظاهرة على يد الأنبياء ـ عليهم السلام ـ؛ حيث حكاها موسى عليه السلام لفرعون، بناء على أن حكايته إياها له في حكم إظهارها بين يديه؛ لاستحالة الكذب عليه، فإنّ حكايته إياها لفرعون مما لم يجر ذكره هنا، فكل هذا بعيد من سياق النظم الكريم.

قال تعالى: ﴿ فَكَذَّبَ ﴾ فرعونُ موسى، ﴿ وأَبَى ﴾ الإيمان والطاعة، مع ما شاهد على يده من الشواهد الناطقة بصدقه. جحوداً وعناداً؛ لعتوه واستكباره، وقيل: كذّب بالآيات جميعاً، وأبَى أن يقبل شيئاً منها.

﴿ قال أجئتنا لتُخرِجَنا من أرضنا بسحرك يا موسى ﴾، هذا استئناف مُبين لكيفية تكذيبه وإبائه. والمجيء إما على حقيقته، أو بمعنى الإقبال على الأمر والتصدي له، أي: أجئتنا من مكانك الذي كنتَ فيه ترعى الغنم؛ لتُخرجنا من أرضنا؟ أو: أقبلت إلينا؛ لتخرجنا من مصر؛ بما أظهرت لنا من السحر، فإن ذلك مما لا يصدر عن عاقل؛ لكونه من باب محاولة المحال، وإنما قاله؛ تحريضاً لقومه على مقت موسى والبعد عنه، بإظهار أن مراده عليه السلام إخراج القبط من وطنهم، وحيازة أموالهم، وإهلاكهم بالكلية، حتى لا يميل أحد إليه، (والله غالب على أمره). وسمى ما أظهره عليه السلام من المعجزة الباهرة سحراً، ثم ادعى أنه يعارضه، حيث قال: ﴿ فلنأتينك بسحرٍ مثله ﴾ أي: وإذا كان الأمر كذلك، فوالله لنأتينك بسحر مثل سحرك، ﴿ فاجعلْ بيننا وبينك موعداً ﴾ أي: وعداً ﴿ لا نُخلفه ﴾ أي: لا نخلف ذلك الوعد، ولا نجاوزه ﴿ نحنُ ولا أنتَ ﴾، بل نجتمع فيه وقت ذلك الموعد،

وإنما فوض اللعينُ أمرَ الوعد إلى موسى عليه السلام؛ للاحتراز عن نسبته إلى ضعف القلب ودخول الرعب إليه، وإظهار الجلادة، بإظهار أنه متمكن من تهيئة أسباب المعارضة، طال الأمر أو قصر، كما أن تقديم ضميره على ضمير موسى عليه السلام، وتوسيط كلمة «النفي» بينهما؛ للإيذان بمسارعته إلى عدم الاختلاف.

وقوله تعالى: ﴿مكاناً سُوىً﴾ أي: يكون ذلك الوعد ـ أي: وعد الاجتماع ـ في مكان مستوٍ، تستوي مسافته بيننا وبينك، عدلا، لا ظلم على أحد في الإتيان إليه، منا ومنك، وفيه لغتان: ضم السين وكسرها.

﴿قال﴾ لهم موسى عليه السلام: ﴿موعدُكُم يومُ الزينة﴾ أي: مكان الزينة؛ لأن يوم الزينة يدل على مكان مشتهر باجتماع الناس فيه في ذلك اليوم، وهو يوم عيد لهم، في كل عامٍ يتزينون ويجتمعون فيه، وقيل: يوم النيروز، .وقيل: يوم عاشوراء، وقيل: يوم سوق لهم. ﴿وأن يُحشر الناسُ ضحى﴾ أي: موعدكم يوم الزينة، وحشرُ الناس ضحى، أو يوم حشر الناس في وقت الضحى، يجتمعون نهاراً جهاراً، أراد عليه السلام أن يكون أبلغ في إظهار الحجة وإدحاض الباطل، بكونه على رؤوس الأشهاد. والله تعالى أعلم.

الإشارة: من سبق له البعد عن الرحمن، لا ينفع فيه خوارق معجزاتٍ، ولا قاطع برهان ودليل، أبعده التكبر والطغيان، ودفعُ الحق بالباطل. نعوذ بالله من موارد الخذلان.

ثم ذكر جمعهم، وما كان من شأنهم، فقال:

﴿ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟
عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟
ٱلنَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا
بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾
قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ
يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ
أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ
حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ ﴾

قلت: (إن هذان لساحران): مَنْ خَفَّفَ (إن): جعلها نافية، أو مخففة، واللام فارقة. ومَنْ ثقّلها وقرأها: (هذان)؛ بالألف، فقيل: على لغة بلْحارث بن كعب وخثعم وكنانة، فإنهم يلْزَمُونَ الألف؛ رفعاً ونصباً وجرا، ويُعْرِبُونَها تقديراً، وقيل: اسمها: ضمير الشأن، أي: إنه الأمر والشأن هاذان لهما ساحران. وقيل: «إن» بمعنى «نعم»، لا تعمل، وما بعدها: جملة من مبتدأ وخبر. وقالت عائشة ـ رضى الله عنها ـ: إنه خطأ من الكُتاب، مثل قوله: ﴿ والمقيمين الصلاة ﴾(١)، ﴿ وَالصَّابِئُونَ ﴾(٢)، فى المائدة، ويرده تواتر القراءة.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ فتولَّى فرعونُ ﴾ أي: انصرف عن المجلس، ورجع إلى وطنه، ﴿ فجمعَ كيدَهُ ﴾ أي: حِيلَه وسَحرته؛ ليكيد به موسى عليه السلام، ﴿ ثم أتى ﴾ الموعد، ومعه ما جمعه من كيده وسحرته، وسيأتى عددهم.

﴿ قال لهم موسى ﴾، حيث اجتمعوا من طريق النصيحة: ﴿ ويلَكُم ﴾ أي: ألزمَكم اللهُ الويل، إن افتريتم على الله الكذب، ﴿ لا تفتروا على الله كذباً ﴾ بإشراك أحد معه، كما تعتقدون فى فرعون، أو بأن تحيلوا الباطل حقاً، ﴿ فَيُسْحِتَكُمْ ﴾ أي: يستأصلكم، بسببه، ﴿ بعذابٍ ﴾ لا يُقَادَر قدره، وقرئ رباعياً وثلاثياً، يقال: سحت وأسحت. فالثلاثى: لغة أهل الحجاز، والرباعى: لغة بنى تميم ونجد. ﴿ وقد خاب ﴾ وخسر ﴿ من افترى ﴾ على الله، كائناً من كان، بأى وجه كان، فيدخل الافتراء المنهى عنه دخولاً أولياً، أو: قد خاب فرعون المفترى على الله، فلا تكونوا مثله فى الخيبة.

﴿ فتنازعوا ﴾ أي: السحرة، حين سمعوا كلامه عليه السلام، ﴿ أمرَهُم ﴾ أي: فى أمرهم الذى أُريد منهم؛ من مغالبته عليه السلام، وتشاوروا وتناظروا ﴿ بينهم ﴾ فى كيفية المعارضة، وتشاجروا، ورددوا القول فى ذلك، ﴿ وأسَرُّوا النجوى ﴾ أي: من موسى عليه السلام؛ لئلا يقف عليه فيدافعه، ونجواهم على هذا هو قوله: ﴿ قالوا إنْ هذان ﴾ أي: موسى وهارون، ﴿ لساحران ﴾ عظيمان ﴿ يُريدان أن يُخرجاكم من أرضكم ﴾؛ مصر، بالاستيلاء عليها ﴿ بسحرهما ﴾ الذى أظهره قبل، ﴿ ويَذْهبا بطريقتكُمُ المثلى ﴾ أي: بمذهبكم، الذى هو أفضل المذاهب وأمثلُها، بإظهار مذهبهما وإعلاء دينهما.

قال ابن عطية: والأظهر، فى الطريقة هنا، أنه السيرة والمملكة. والمُثلى: تأنيث الأمثل، أي: الفاضلة الحسنة .هـ. وقيل: الطريقة هنا: اسم لوجوه القوم وأشرافهم، لأنهم قدوة لغيرهم، والمعنى: يريدان أن يصرفا وجوه الناس وأشرافَهم إليهما، ويُبطلان ما أنتم عليه. وقال قتادة: (طريقتهم المثلى يومئذ: بنو إسرائيل، كانوا أكثر القوم

(١) من الآية ١٦٢ من سورة النساء.
(٢) من الآية ٦٩ من سورة المائدة. وللألوسى ـ رحمه الله ـ كلام طيب فى هذه القضية، راجعه فى تفسيره (١٦/ ٢٢٤).

عدداً وأموالاً، فقال فرعون: إنما يريدان أن يذهبا به لأنفسهما). ولا شك أن حمل الإخراج على إخراج بنى إسرائيل من بينهم، مع بقاء قوم فرعون على حالهم آمِنين فى ديارهم: بعيد، مما يجب تنزيه التنزيل عن أمثاله.

وقوله تعالى: ﴿ فأجمِعُوا كيدكم ﴾ : تصريح بالمطلوب، أى: إذا كان الأمر كما ذكر، من كونهما ساحرين يُريدان إخراجكم من بلادكم، فأجمعوا كيدكم، أى: اجعلوه مُجمعاً عليه، بحيث لا يتخلف عنه واحد منكم، وارموه عن قوس واحدة. وقرأ أبو عمرو: (فاجْمَعُوا)، من الجمع، أى: فاجمعوا أدوات سحركم ورتبوها كما ينبغى، ﴿ ثم ائتُوا صفًا ﴾ أى: مصطفين، أمروا بذلك؛ لأنه أَهْيَبُ فى صدور الرائين، وأَدْخَلُ فى استجلاب الرهبة من المشاهدين. قيل: كانوا سبعين ألفاً، مع كلّ واحد منهم حبل وعصا، وأقبلوا عليه إقبالة واحدة، وقيل: كانوا اثنين وسبعين ساحراً؛ إثنان من القبط، والباقى من بنى إسرائيل، وقيل: تسعمائة؛ ثلاثمائة من الفُرس، وثلاثمائة من الروم، وثلاثمائة من الإسكندرية، وقيل: خمسة عشر ألفاً. والله تعالى أعلم. ولعل الموعد كان مكاناً متسعاً، خاطبهم موسى عليه السلام بما ذكر فى قطْر من أقطاره، وتنازعوا أمرهم فى قطر آخر، ثم أمروا أن يأتوا وسطه على الوجه المذكور.

ثم قالوا فى آخر نجواهم: ﴿ وقد أفلح اليوم من استعلى ﴾ ؛ فاز بالمطلوب مَنْ غلب، يريدون بما وعدهم فرعون من الأجر والتقريب، أو بالرئاسة والجاه والذكر الحسن فى الناس. وقيل: كان نجواهم أن قالوا ـ حين سمعوا مقاله موسى عليه السلام: ما هذا بقول ساحر، وقيل: كان ذلك أن قالوا: إنْ غلبنا موسى اتبعناه، وقيل: قالوا فيها: إنْ كان ساحراً غلبناه، وإن كان من السماء فله أمر. فيكون إسرارهم حينئذ من فرعون، ويحمل قولهم: ﴿ إنْ هذان لساحران... ﴾ الخ، على أنهم اختلفوا فيما بينهم على الأقاويل المذكورة، ثم أعرضوا عن ذلك بعد التنازع والتناظر، واستقرت آراؤهم على المغالبة والمعارضة. والله تعالى أعلم بما كان.

ثم طلبوا المعارضة، فقالوا: ﴿ ياموسى إما أن تُلقى ﴾ ما تلقيه أولاً، ﴿ وإما أن نكون أول من ألقى ﴾ ما نلقيه. خيروه عليه السلام فيما ذكر؛ مراعاة للأدب، لِما رأوا عليه من مخايل الخير، وإظهاراً للجلادة، ﴿ قال بل أَلقُوا ﴾ أنتم أولاً، مقابلة لأدبهم بأحسن منه، فَبَتَّ القول بإلقائهم أولاً، وإظهاراً لعدم المبالاة بسحرهم، ومساعدة لما أوهموا من الميل إلى البدء، وليستفرغوا أقصى جهدهم وسعيهم، ثم يُظهر اللهُ سبحانه سلطانه، فيقذف بالحق على الباطل فيدمغه، كما تعودَ من ربه.

فألقوا ما عندهم، ﴿ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴾ أى: ففوجىء موسى، وتخيل سعى حبالهم وعصيهم من سحرهم، وذلك أنهم كانوا لطخوها بالزئبق، فلما ضربت عليها الشمس اضطربت واهتزت، فخيل إليه أنها تتحرك. قلت: هكذا ذكر كثير من المفسرين. والذى يظهر أن تحريكها إنما كان

من تخييل السحر الذي يقلب الأعيان في مرأى العين، كما يفعله أهل الشعوذة، وهو علم معروف من علوم السحر، ويدل على ذلك ما ورد أنها انقلبت حيات تمشى على بطونها، تقصد موسى عليه السلام، فكيف يفعل الزئبق هذا؟ قال ابن جزي: استدل بعضهم بهذه الآية أن السحر تخييل لا حقيقة له.هـ.

﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً ﴾ أي: خوفاً، ﴿موسى﴾ أي: أضمر في نفسه بعض خوف، من جهة الطبع البشري المجبول على النفرة من الحيات، والاحتراز من ضررها. وقال مقاتل: إنما خاف موسى، إذ صنع القوم مثل صنيعه، بأن يشكُّوا فيه، فلا يتبعوه، ويشك فيه من تابعه. ﴿قلنا لا تخف﴾ ما توهمت، ﴿إنك أنت الأعلى﴾؛ الغالب عليهم، والجملة: تعليل للنهيه عن الخوف، وتقرير لغلبته، على أبلغ وجه، كما يُعرب عنه الاستئناف، وحرف التحقيق، وتأكيد الضمير، وتعريف الخبر، ولفظ العلو.

ثم قال له: ﴿وألقِ ما في يمينك﴾ أي: عصاك، وإنما أبهمت؛ تفخيماً لشأنها، وإيذاناً بأنها ليست من جنس العصا المعهودة، بل خارجة عن حدود أفراد الجنس، مبهمة الكنه، مستتبعة لآثار غريبة، وأما حملُ الإبهام على التحقير، بمعنى: لا تبال بكثرة حبالهم وعصيهم، وألق العُوَيْد الذي في يدك، فإنه بقدرة الله تعالى يتلقفها مع وحدته وكثرتها، وصغره وكبرها، فيأباه ظهور حالها، وما وقع منها فيما مر من تعظيم شأنها.

وقوله تعالى: ﴿ تَلْقَفْ ما صنعوا ﴾: جواب الأمر، من لقفه، إذا ابتلعه والتقمه بسرعة، أي: تبتلع، وتلتقم بسرعة، ما صنعوا من الحبال والعصي، التي تخيل إليك، والجملة الأمرية معطوفة على النهي عن الخوف، موجبة لبيان كيفية غلبته عليه السلام وعلوه، وإدحاض الخوف عنه، فإن ابتلاع عصاه لأباطيلهم، التي منها أوجس في نفسه ما أوجس، مما يقلع مادته بالكلية. وهذا، كما ترى، صريح في أن خوفه عليه السلام لم يكن ـ كما قال مقاتل ـ من خوف شك الناس وعدم اتباعه له عليه السلام، وإلا لعلله بما يزيله من الوعد بالنصر الذي يُوجب اتباعه. فتأمله. قاله أبو السعود. وفيه نظر بأن قوله: ﴿تلقف ما صنعوا﴾ صريح في عدم الالتباس؛ إذ لا ينبغي التباس مع ابتلاع عصاه لعصيهم، فتأمله. ﴿إنما صنعوا كَيْدُ ساحرٍ﴾ أي: إن الذي صنعوه كيد ساحر وحِيَلُه. وقرأ أهل الكوفة: (سِحْرٍ)؛ بكسر السين، فالإضافة للبيان، كما في «علم فقه»، أو: كيد ذي سحر، أو يسمى الساحر سحراً؛ مبالغة. والجملة تعليل لقوله: (تلقف) أي: تبتلعه؛ لأنه كيد ساحر، ﴿ولا يُفلح الساحرُ حيث أتى﴾ أي: حيث وُجد، وأين أقبل، وهو من تمام التعليل. والله تعالى أعلم.

الإشارة: يقال للفقير، المتوجه إلى الله تعالى، من قبل الحق: إمّا أن تُلقى الدنيا من يدك، وإمّا أن تكون أول من ألقاها عنك، أي: إما أن تتركها اختياراً، أو تزول عنك اضطرارا؛ لأن عادته تعالى، مع المتوجه الصادق، أن يدفع عنه كل ما يشغله من أمور الدنيا. فيقول ـ إن كان صادق القلب ـ: بل ألقها، ولا حاجة لي بها، فألقاها الحق تعالى،

وأخرجها من يده، عناية به، فإذا أشغالها وعلائقها كانت تسعى فى هلاكه وخراب قلبه وتضييع عمره، فأوجس فى نفسه خيفة من العيلة ولحوق الفاقة، قلنا: لا تخف، حيث توجهت إلى مولاك، فإن الله يرزق بغير حساب وبلا أسباب، وألق ما فى يمين قلبك من اليقين، تلقف ما صنعوا، أى: ما صنعت بك خواطر السوء والشيطان، لأنه يعد بالفقر ويأمر بالفحشاء، وإنما صنعوا ذلك؛ تخويفاً وتمويهاً، لا حقيقة له، كما يفعل الساحر، (ولا يفلح الساحر حيث أتى).

ثم ذكر إسلام السحرة، وما كان من شأنهم، فقال:

﴿ فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ ﴾

قلت: (فى جذوع النخل)، قال المحلى: أي: عليها، وهو مذهب كوفى، وأما مذهب البصريين فيقولون: ليست «فى» بمعنى «على»، ولكن شبه المصلوب، لتمكنه فى الجذع، بالحالّ فى الشيء، وهو من الاستعارة التعبيرية. و(من خلاف): فى موضع الحال، أى: مختلفات.

يقول الحق جل جلاله: فلما ألقى موسى عصاه انقلبت حية عظيمة، فابتلعت تلك الحبال والعصى، ﴿ فأُلقى السحرةُ سُجداً ﴾ لما تيقنوا أن ذلك ليس من باب السحر، وإنما هى آية من آيات الله. رُوى أن رئيسهم قال: كنا نغلب أعين الناس، وكانت الآلات تُبقى علينا، فلو كان هذا سحراً، فأين ما ألقينا من الآلات؟ فاستدلوا بما رأوا على صحة رسالة موسى. فألقاهم ما شاهدوه على وجوههم، فتابوا وآمنوا، وأتوا بما هو غاية الخضوع، قيل: لم يرفعوا رؤوسهم حتى رأوا الجنة والنار، والثواب والعقاب. وعن عكرمة: لما خروا سُجداً، أراهم الله تعالى، فى سجودهم، منازلهم فى الجنة. ولا ينافيه قولهم: ﴿ إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا ﴾، لأن كون تلك المنازل منازلهم هو السبب فى صدور هذا القول منهم.

﴿ قالوا آمنا برب هارون وموسى ﴾، قدّموا هارون؛ إما لكبر سنه، أو للمبالغة فى الاحتراز عن التوهم الباطل من جهة فرعون، حيث كان ربّى موسى عليه السلام فى صغره، فلو قدّموا موسى لربما توهم اللعين وقومه، من أول الأمر، أن مرادهم فرعون، فأزاحوا تلك الخطرة من أول مرة. ﴿ قال آمنتم له ﴾ أى: لموسى، واللام؛ لتضمن الفعل معنى الانقياد والخضوع، أى: أذعنتم له ﴿ قبل أن آذنَ لكم ﴾ أى: من غير أن آذن لكم، ﴿ إنه ﴾ أى: موسى ﴿ لكبيرُكُم ﴾ أى: أستاذكم وأعلمكم فى فنكم، ﴿ الذى علّمكُمُ السحرَ ﴾، فتواطأتم على ما فعلتم. وهذه منه شبهة واهية؛ أين كان موسى عليه السلام، وأين كان السحرة، حتى علمهم؟ ولكن صدر منه هذا؛ خوفاً على الناس أن يتبعوا موسى عليه السلام، ويقتدوا بالسحرة، فأوهم عليهم، مع ما سبق فى علم الله من ضلالتهم.

ثم أقبل على السحرة بالوعيد، فقال: ﴿ فلأقَطِّعَنّ أيديَكم ﴾ أى: فوالله لأقطعن أيديكم ﴿ وأرجُلَكم من خلاف ﴾ أى: اليد اليمنى والرجل اليسرى. وتعيين تلك الحال؛ للإيذان بتحقيق هذا الأمر وإيقاعه لا محالة، فتعيين تلك الحالة المعهودة من باب السياسة، أو لأنها معهودة لمن خرج عن حكم طاعته. ﴿ ولأصلبنَّكم فى جذوع النخل ﴾ أى: عليها، وإتيان كلمة «فى»؛ للدلالة على إبقائهم عليها زمناً مديداً، تشبيهاً فى استمرارهم عليها باستقرار الظرف فى المظروف المشتمل عليه، وقيل: هو أول من صلب. ﴿ ولتعلمنّ أيُّنا ﴾، يريد نفسه أو موسى عليه السلام، حيث خافوا من عصاه فأسلموا، فهِم اللعين أن إيمانهم لم يكن للمعجزة، إنما كان خوفاً، حيث رأوا عصاه ابتلعت حبالهم وعصيهم، أو يريد (أينا) أى: أنا أو رب موسى وهارون، الذى آمنتم به، ﴿ أشدُّ عذاباً وأبقى ﴾ أى: أدوم. قالوا: لم يثبت فى القرآن أن فرعون فعل بأولئك المؤمنين ما أوعدهم به، ولم يثبت فى الأخبار، لكن رُوى عن ابن عباس، وغيره، أنه أنفذه. وروى أن امرأة فرعون كانت تسأل: من غلب؟ فيقال لها: موسى، فقالت: آمنت برب موسى وهارون، فأرسل إليها فرعون يُهددها، وقال: انظروا أعظم صخرة، فإن استقرت على قولها فألقوها عليها، فلما ألقوها رفعت بصرها إلى السماء فأريت بيتها فى الجنة، فمضت على قولها، وانتزعت روحها منها، وألقيت الصخرة على جسد لا روح فيه. قاله الثعلبى. والله تعالى أعلم.

الإشارة: من سبقت له العناية، لا تضره الجناية. هؤلاء السحرة جاءوا يحادون الله ورسوله، فأضحوا أولياء الله. رُوى أن موسى عليه السلام لما قال لهم: ﴿ ألقوا ما أنتم ملقون ﴾، سمع هاتفاً يقول: ألقوا يا أولياء الله، فتحير موسى عليه السلام، و أوجس فى نفسه خيفة، وقال: كيف أعارض أولياء الله، فلما ألقى عصاه ظهرت ولايتهم. فكم من لصوص خرج منهم الخصوص. ففى أمثال هؤلاء تقوية لرجاء أهل الجناية، إذا طلبوا من الله سرَّ العناية، وإدراكَ مقام الولاية، ولذلك ابتدأ القشيرى فى رسالته بذكر من تقدم له جنايات من الأولياء، كالفضيل، وابن ادهم، وأضرابهم ـ رضى الله عن جميعهم ـ.

ثم ذكر ثبوت السحرة على الإيمان، وعدم مبالاتهم بتهديد فرعون، فقال:

﴿ قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا
تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ
خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا
قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ
فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾ ﴾

قلت : (هذه الحياة الدنيا) : نصب على إسقاط الخافض، اتساعاً، لا نصب على الظرفية؛ لأن الظرف المختص لا ينتصب على الظرفية، على المشهور، و(الذى فطرنا) : عطف على (ما جاءنا) ، أو قَسَمٌ حُذف جوابه، أى: وحق الذى فطرنا لا نؤثرك.. إلخ.

يقول الحق جل جلاله، حاكياً عن السحرة، لمّا خوفهم فرعونُ: ﴿ قالوا ﴾ غير مكترثين بوعيده: ﴿ لن نُؤْثِرَكَ ﴾ أى: لن نختارك، باتباعك ﴿ على ما جاءنا ﴾ من الله تعالى على يد موسى عليه السلام ﴿ من البينات ﴾ أى: المعجزات الظاهرة؛ لأن ما ظهر من العصا كان مشتملاً على معجزات جمة، كما تقدم. ﴿ والذى فَطَرَنَا ﴾: خلقنا وخلق سائر المخلوقات، أى: لن نختارك على ما ظهر لنا من دلائل صحة نبوة موسى، ولا على الذى خلقنا، حتى نتبعك ونترك الحق، وكان ما شاهدوه آية حسية، وهذه آية عقلية. وإيراده بعنوان فاطريته تعالى؛ للإشعار بعِلّية الحكم، فإن خالقيته تعالى لهم ولفرعون ـ وهو من جملة مخلوقاته ـ مما يوجب عدم إيثارهم له عليه سبحانه، أو: وحق الذى فطرنا لانؤثرك على ما جاءنا، ﴿ فاقض ما أنت قاضٍ ﴾ أى: فاصنع ما أنت صانعه، أو: فاحكم ما أنت حاكمه. وهو جواب لقوله: (لأقطعن أيديكم..) إلخ. ﴿ إنما تقضى هذه الحياة الدنيا ﴾ أى: إنما تصنع ما تهواه، أو تحكم ما تراه فى هذه الحياة الدنيا الفانية، ولا رغبة لنا فى البقاء فيها، رغبة فى سكنى الدار الدائمة، بسبب موتنا على الإيمان.

﴿ إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا ﴾ التى اقترفنا، من الكفر والمعاصى، ولايؤاخذنا بها فى الآخرة، فلا نغتر بتلك الحياة الفانية، حتى نتأثر بما أوعدتنا به من القطع والصلب، ﴿ و ﴾ يغفر لنا أيضا ﴿ ما أكرهتنا عليه من السحر ﴾ الذى عملناه فى معارضة موسى عليه السلام، بإكراهك وحشرك لنا من المدائن القاصية، وخصوه بالذكر، مع اندراجه فى خطاياهم؛ إظهاراً لغاية نفرتهم عنه، ورغبة فى مغفرته، وفى ذكره الإكراه: نوع اعتذار؛ لاستجلاب المغفرة، وقيل: أرادوا الإكراه على تعلم السحر، لما رُوى أن رؤساءهم كانوا اثنين وسبعين؛ إثنان منهم من القبط، والباقى من بنى إسرائيل، وكان فرعون أكرههم على تعلم السحر، وقيل: إنه أكرههم على المعارضة، حيث رُوى أنهم قالوا لفرعون: أرنا موسى نائماً، ففعل، فوجدوه تحرسه عصاه، فقالوا: ما هذا بسحر، فإن الساحر إذا نام بطل سحره، فأبى إلا أن يعارضوه. لكن يأباه تصديهم للمعارضة بالرغبة والنشاط، كما يُعرب عنه قولهم: ﴿ إِنَّ لَنَا لأَجْراً.. ﴾(١) الخ، وقولهم: ﴿ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴾(٢)، إلا أن يُقال: لما رأوا جِدَّهُ طمعوا وطلبوا الأجر. ﴿ والله خيرٌ وأبقى ﴾ أى: وثواب الله خير من إيثار الدنيا الفانية، وأبقى فى الدار الباقية، أو: والله فى ذاته خير، وجزاؤه أبقى، نعيماً كان أو عذابا.

(١) من الآية ١١٣ من سورة الأعراف. (٢) من الآية ٤٤ من سورة الشعراء.

ثم عللوا خيريته وبقاءه فقالوا: ﴿ إنه من يأت ربه مجرمًا ﴾ بأن يموت على الكفر والمعاصى، ﴿ فإنّ له جهنمَ لا يموتُ فيها ﴾ فيستريح وينتهى عذابه، وهذا تحقيق لقوله: (وأبقى)، ﴿ ولا يحيا ﴾ حياة ينتفع بها، وضمير (إنه): للشأن، وفيه تنبيه على فخامة مضمون الجملة؛ لأن مناط وضع الضمير موضعه ادعاء شهرته المغنية عن ذكره، مع ما فيه من زيادة التقرير، فإن الضمير لا يفهم منه أول الأمر إلا شأنٌ مبهمٌ له خطر، فيبقى الذهن مترقباً لما يعقبه، فيتمكن، عند وروده، فَضل تمكن، كأنه قيل الشأن الخطير هذا.

﴿ ومن يأتِهِ مؤمنًا ﴾ به تعالى، وما جاء من عنده من المعجزات، التى من جملتها ما شهدناه، حال كونه ﴿ قد عمل الصالحات ﴾ أى: الأعمال الصالحات، وهى كل ما استقام شرعاً وخلص عقداً، ﴿ فأولئك ﴾ أى: من يأت مؤمنا.. الخ. وجمع الإشارة؛ باعتبار معنى «مَن»، كما أن الإفراد فى الفعلين السابقين باعتبار لفظها، وما فيه من معنى البُعد؛ للإشعار بعلو درجهتم وبُعد منزلتهم، أى: فأُولئك المؤمنون العاملون للصالحات، ﴿ لهم ﴾ بسبب إيمانهم وأعمالهم الصالحات ﴿ الدرجات العُلى ﴾ أى: المنازل الرفيعة، وليس فيه ما يدل على عدم اعتبار الإيمان المجرد عن العمل فى استتباع الثواب،؛ لأن ما نيط بالإيمان المقرون بالأعمال الصالحة هو الفوز بالدجات العلى، لا بالثواب مطلقا.

ثم فسر تلك الدرجات، فقال: ﴿ جناتُ عدْنٍ ﴾ أى: إقامة على الخلود، حال كونها ﴿ تجرى من تحتها الأنهارُ خالدين فيها وذلك جزاء من تزكى ﴾، الإشارة إلى ما أنتج لهم من الفوز بالدجات العلى. والبعد فى الإشارة؛ للتفخيم، أى: ما تقدم من الفوز بالدرجات العلى هو جزاء من تطهر من دنس الكفر والمعاصى، بما ذكر من الإيمان والأعمال الصالحة، وهذا تحقيق لكون ثوابه تعالى أبقى. وتقدم ذكر حال المجرم، للمسارعة إلى بيان أشدية عذابه ودوامه، رداً على ما ادعاه فرعون بقوله: ﴿ أينا أشدُ عذابا وأبقى ﴾، هذا وقد قيل: إن قوله: ﴿ إنه من يأت.... ﴾ الخ، ابتداء كلام من الله عز وجل. والله تعالى أعلم.

الإشارة: فى الآية تحريض للفقراء أهل النسبة وأرباب الأحوال، على الثبوت فى طريق السلوك، وعدم الرجوع عنها، حين يكثر عليهم الإنكار والتهديد، والتخويف بأنواع العذاب، فلا يكترثون بذلك ولا يتضعضعون، وليقولوا كما قال سحرة فرعون: (لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذى فطرنا، فاقض ما أنت قاض، إنما تقضى هذه الحياة الدنيا...) الآية. وقد جرى هذا على كثير من الصوفية، أُوذوا على النسبة، فمنهم من قُتل، ومنهم من طُوف، ومنهم من أُجلى عن وطنه، إلى غير ذلك مما جرى عليهم، ومع ذلك لم يرجعوا عما هم عليه، حتى وصلوا إلى حضرته تعالى وذاقوا. وما رجع من رجع إلا من الطريق، وأما من وصل فلا يرجع أبداً، ولو قُطع إرباً إرباً. والله ولي المتقين.

ثم ذكر خروج بني إسرائيل إلى الشام وغرق فرعون، فقال:

﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ولقد أوحينا إلى موسى أنْ أسرِ بعبادى﴾ بعدمالبث يدعو فرعون إلى الله تعالى ويُريه الآيات المفصلات، بعد غلبة السحرة، نحواً من عشرين سنة، كما فصّل ذلك فى الأعراف، فلما أيس من إيمانهم أوحى الله بالخروج عنهم، أي: والله لقد أوحينا إلى موسى أن أسر، أو بأن أسر بعبادى الذين أرسلتك لإنقاذهم من يد فرعون، أي: سر بهم من مصر ليلاً إلى بحر القلزم. والتصدير بالقسم؛ لإبراز كمال العناية بمضمونها، والتعبير عنهم بعبادى؛ لإظهار الرحمة والاعتناء بهم، والتنبيه على غاية قبح صنيع فرعون، حيث استعبدهم، وهم عباده عز وجل، وفعل بهم من فنون العذاب ما فعل. ﴿فاضربْ لهم﴾ أى: اجعل لهم، أو اتخذ لهم ﴿طريقًا في البحر يبساً﴾ أى: يابساً لا ماء فيه، ﴿لا تخاف دركًا﴾ أى: حال كونك آمنا من أن يُدرككم العدو، ﴿ولا تخشى﴾ الغرق. وقرأ حمزة: "لا تخف، بالجزم، جواباً للأمر، فيكون (ولا تخشى): إما استئناف، أى: وأنت لا تخشى، أو عطف عليه، والألف للإطلاق، أو بقدر الجزم، كقوله:

أَلَمْ يَأْتِيكَ والأَنْباءُ تَنْمِي(١) ... إلخ.

وتقديم نفي خوف الدرك، للمسارعة إلى إزاحة ما كانوا عليه من الخوف، حيث قالوا: ﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾(٢). ﴿ فَأَتْبَعَهُمْ فرعونُ بجنوده ﴾ أي: تبعهم ومعه جنوده حتى لحقهم، يقال: اتبعتهم، أي: تبعتهم، إذا كانوا سبقوك ولحقتهم، ويؤيده قراءة: (فاتَّبَعَهُمْ) بالشد. وقيل: الباء زائدة، والمعنى: فأتبعهم فرعون جنودَه، أي: ساقهم خلفهم، وأيا ماكان، فالفاء فصيحة مُعْرِبة عن مضمر قد طوى ذكره، ثقة بظهوره، وإيذاناً بكمال مسارعة موسى إلى الامتثال، أى: ففَعَل ما أُمر به من الإسراء بهم، وضرب الطريق فى البحر وسلكوه، فأتبعهم بجنوده براً وبحراً.

رُوى أن موسى عليه السلام خرج بهم أول الليل، وكانوا ستمائة وسبعين ألفاً، فأخبر فرعون بذلك، فأتبعهم بعساكره، وكانت مقدمته سبعمائة ألف، فقص أثرهم فلحقهم، بحيث تراءى الجمعان، فلما أبصروا رهج(٣) الخيل، قالوا: ﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ، قَالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾(٤). فلما قربوا، قالوا: ياموسى أين نمضى، البحر أمامنا، وخيل فرعون خلفنا، فعند ذلك ضرب موسى عصاه البحر فانفلق على ثنتى عشرة فرقة،

(١) هذا صدر بيت عجزه: بما لاقَتْ لَبُونُ بَني زِيادِ. وهو لقيس بن زهير العبسي.. انظر تفسير القرطبى.
(٢) الآية ٦١ من سورة الشعراء. (٣) الرهج: الغبار. (٤) الآيتان ٦١ ـ ٦٢ من سورة الشعراء.

﴿ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴾(١) أي: كالجبل العظيم من الماء، وكانوا يمرون به، وكلهم بنو أعمام، لا يرى بعضهم بعضاً، فقالوا: قد غرق إخواننا، فأوحى الله إلى أطواد الماء: أن اشتبكي، وصارت شبابك، يرى بعضهم بعضا، ويسمع بعضهم كلامَ بعض، فلما أتى فرعونُ الساحلَ، وجد البحر منفلقا، فقال: سحر موسى البحر، فقالوا: إن كنت رباً فادخل كما دخل، فجاء جبريل على رمَكَةٍ وديق، أي: تحب الفحل، وكان فرعون على حصان، فاقتحم جبريل بالرمكة الماء، فلم يتمالك حصان فرعون، فاقتحم البحر على إثره، ودخل القبط كلهم، فلما لَجَّجوا، أوحى الله تعالى إلى البحر أن أغرقهم، فعلاهم البحر وأغرقهم.

فعبَر موسى عليه السلام بمن معه من الأسباط سالمين، وأما فرعون وجنوده ﴿ فغَشِيَهم من اليمّ ما غشيهم ﴾ أي: علاهم منه وغمرهم من الأمر الهائل، الذي لا يُقادر قدره ولا يبلغ كنهه. قال القشيري: فغرقوا بجملتهم، وآمن فرعونُ لما ظهر له البأس، فلم ينفعه إقراره، وكان ينفعه لو لم يكن إصرارُه، وقد أدركته الشقاوةُ التي سَبَقَتْ له من التقدير.هـ. وقال الكواشي: (وغشيهم) من الغضب والغرق، وغير ذلك، مالا يعلم حقيقته إلا الله تعالى. هـ. فإبهام الصلة؛ للتهويل والتفخيم، وقيل: (غشيهم من اليم) ما سمعت قصته في غير هذه السورة، وليس بشيء؛ فإن مدار الإبهام على التهويل والتفخيم، بحيث يخرج عن حدود الفهم والوصف، لا سماع قصته فقط.

﴿ وأضلّ فرعونُ قومَه ﴾ أي: أتلفهم وسلك بهم مسلكاً أدى بهم إلى الخيبة والخسران، حيث ماتوا على الكفر، وأوصلهم إلى العذاب الهائل الدنيوى، المتصل بالعذاب الدائم الأخرى، ﴿ وما هدى ﴾ أي: ما أرشدهم قط إلى طريق توصلهم إلى مطلب من المطالب الدينية والدنيوية. وهو تقرير لإضلاله وتأكيد له، وفيه نوع تهكم به في قوله: ﴿ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾(٢)، فإن نفى الهداية عن شخص مشعر بكونه ممن يتصور منه الهداية فى الجملة، وذلك إنما يتصور فى حقه بطريق التهكم. والله تعالى أعلم.

الإشارة: انظر عاقبة من شدّ يده على دينه، وصبر على شدائد زمانه، كيف خرقت له العوائد، وجاءه العز والنصر فأنساه تلك الشدائد، وأهلك الله من كان يؤذيه من الأعداء، وسلك به سبيل النجاة والهدى، وهذه عادة الله مع أوليائه، يُشدد عليهم أولاً بضروب البلايا والمحن، ثم يعقبهم العز والنصر وضروب المنن، ولذلك ذكّر الله بنى إسرائيل بما أنعم عليهم بعد البحر، فقال:

﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ قَدۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ عَدُوِّكُمۡ وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنَ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَلَا تَطۡغَوۡاْ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبِيۖ وَمَن يَحۡلِلۡ عَلَيۡهِ غَضَبِي فَقَدۡ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَإِنِّي لَغَفَّارٞ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ ﴿٨٢﴾ ﴾

(١) من الآية ٦٣ من سورة الشعراء. (٢) من الآية ٢٩ من سورة غافر.

يقول الحق جل جلاله لبني إسرائيل، بعد ما أنجاهم من الغرق، وأفاض عليهم من فنون النعم الدينية والدنيوية: ﴿ يابني إسرائيل قد أنجيناكم من عدوكم ﴾؛ فرعون وقومه، حيث كانوا ﴿ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ﴾(١)، ﴿ وواعدناكم جانبَ الطُّورِ الأيمنَ ﴾ أي: واعدناكم بواسطة نبيكم، إتيان جانب الطور، الجانب الأيمن منه للمناجاة وإنزال التوراة. وهل هو الطور الذى أبصر فيه النار ووقعت فيه الرسالة، أو غيره؟ خلاف. ونسبة المواعدة إليهم مع كونه لموسى عليه السلام خاصة، أو له وللسبعين المختارين، نظرٌ إلى ملابستها إياهم، وسراية منفعتها إليهم، وإعطاء لمقام الامتنان حقه. كما فى قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ﴾(٢)؛ حيث نسب الخلق والتصوير للمخاطبين، مع أن المخلوق كذلك هو آدم عليه السلام.

ثم قال تعالى: ﴿ ونزَّلنا عليكم ﴾ حين تُهتم ،﴿ المنَّ والسَّلْوى ﴾ أى: الترنجبين والطيْر السُّمانى، حيث كان ينزل عليهم المنُّ وهم فى التيه، مثل الثلج، من الفجر إلى الطلوع، لكل إنسان صالح، ويبعث الجنوب عليهم السُّمانى، فيذبح الرجل منه ما يكفيه. وقلنا لهم: ﴿ كُلوا من طيباتِ ما رزقناكم ﴾ أى: من لذائذه، أو حلاله. وفى البدء بنعمة الإنجاء ثم بالنعمة الدينيه ثم بالنعمة الدنيوية من حسن الترتيب مالا يخفى. ﴿ ولا تطغَوا فيه ﴾ أى: فيما رزقناكم بالإخلال بشكره، والتَعدى لما حدَّ لكم فيه، كالترفه والبطر والمنع من المستحق. وقال القشيرى: مجاوزة الحلال إلى الحرامِ، أو بالزيادة على الكفاف ومالابدَّ منه، فأزاد على سدِّ الرمق، أو بالأكل على الغفلة والنسيان. هـ. وقيل: لا تدخروا، فادَّخَروا فتعودوا، وقيل: لا تنفقوه فى المعصية، ﴿ فيَحِلَّ عليكم غضبى ﴾ بفعل شيء من ذلك، أى: ينزل ويجب، من حَلَّ الدينْ؛ إذا وجب. ﴿ ومن يَحْلِلْ عليه غضبى فقد هَوَى ﴾ أى: تردَّى وهلك، أو وقع فى المهاوى.

﴿ وإنى لغفارٌ ﴾ أى: كثير الغفران ﴿ لمن تابَ ﴾ عن الشرك والمعاصى، التى من جملتها الطغيان فيما ذكر، ﴿ وآمن ﴾ بما يجب الإيمان به، ﴿ وعَمِلَ صالحًا ﴾ أى: عملاً صالحاً مستقيماً عند الشرع، وفيه ترغيب وحث لمن وقع فى زلَّة أو طغيان على التوبة والإيمان، ﴿ ثم اهتدى ﴾ أى: استقام على الهدى ودام عليها حتى مات. وفيه إشارة إلى أن من لم يستمر عليها بمعزل عن الغفران. قال الكواشى: (ثم اهتدى) أى: علم أن ذلك بتوفيق من الله تعالى. هـ.

الإشارة: إذا ذهبت عن العبد أيام المحن، وجاءت له أيام المنن، فينبغى له أن يتذكر ما سلف له من المحن، وينظر ما هو فيه الآن من المنن، ليزاداد شكراً وتواضعاً، فتزداد نعمه، وتتواتر عليه الخيرات. وأما إن نسى أيام

(١) من الآية ٤٩ من سورة البقرة. (٢) من الآية ١١ من سورة الأعراف.

المحن، ولم يشكر ما هو فيه من المنن، فحقيق أن تزول عنه، ويرجع إلى ما كان عليه. وتَذَكَّرْ حديث الأبرص والأقرع والأعمى، حسبما في الصحيح(١). فإن الأبرص والأقرع ،حين شفاهما الله وأغناهما، أنكرا ما كانا عليه، فرجعا إلى ما كانا عليه، والأعمى حين أقر بما كان عليه، وشكر الحال الذى حال إليه، دامت نعمته وكثر خيره. فالشكر قيد الموجود وصيد المفقود. فيقال لأهل النعم، إن قاموا بشكرها: كُلوا من طيبات ما رزقناكم، ولا تطغوا فيه، بأن تصرفوه في غير محله، أو تمنعوه عن مستحقه، ﴿ فيحلَّ عليكم غضبى... ﴾ الآية.

وقوله تعالى: ﴿ وإني لغفار لمن تاب.. ﴾ إلخ، قال القشيرى: ﴿وإني لغفار لمن تاب﴾ من الزَّلَّة ﴿وآمن﴾ فلم يَرَ أعمالَه من نفْسه، بل جميع الحوادث من الحقِّ، ﴿وعمل صالحاً﴾ فلم يُخلّ بالفرائض، ﴿ثم اهتدى﴾ للسُّنَّة والجماعة. وقال أيضا: ثم اهتدى بنا إلينا.هـ.

قال الورتجبى: التائب: المنقطعُ إلى الله، والمؤمن: العارف بالله، والعمل الصالح: تركه ما دون الله، فإذا كان كذلك، فاهتدى بالله إلى الله، ويكون مغموراً برحمة الله، ومعصوماً بعصمة الله. هـ.

ثم ذكر فتنة بنى إسرائيل بالعِجْل، بعد ذهاب موسى إلى المناجاة، فقال:

﴿ ۞ وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ مِنۢ بَعۡدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَمۡ يَعِدۡكُمۡ رَبُّكُمۡ وَعۡدًا حَسَنًاۚ أَفَطَالَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡعَهۡدُ أَمۡ أَرَدتُّمۡ أَن يَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُم مَّوۡعِدِي ﴿٨٦﴾ قَالُواْ مَآ أَخۡلَفۡنَا مَوۡعِدَكَ بِمَلۡكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلۡنَآ أَوۡزَارٗا مِّن زِينَةِ ٱلۡقَوۡمِ فَقَذَفۡنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلۡقَى ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخۡرَجَ لَهُمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٞ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله لموسى عليه السلام، لما ذهب إلى الطور، لموافاة الميقات، للعهد الذى عهد إليه، واختار سبعين من بنى إسرائيل، يحضرون معه؛ لأخذ التوراة بأمره تعالى، فلما دنا من الجبل حمله الشوق، فاستعجل إلى الجبل، وترك قومه أسفله، فقال له الحق جل جلاله: ﴿ وما أعْجَلَكَ عن قومك ياموسى ﴾ أى: ماحملك على

(١) أخرج حديث الثلاثة البخاريُّ في (أحاديث الأنبياء، باب حديث أبرص وأعمى وأقرع بنى إسرائيل)، ومسلم في (الزهد، ح٢٩٦٤) من حديث أبى هريرة رضي الله عنه.

العَجلَة، وأيُّ شيء أعجلك منفرداً عن قومك، وقد أمرتك باستصحابهم، ولعل في إفرادك عنهم عدم اعتناء بهم؟ فأجاب عليه السلام بقوله: ﴿ هُمْ أُولاءِ على أَثَرى ﴾ أي: هم هؤلاء قريباً مني، فهم معي، وإنما سبقتهم بخطا يسيرة، ظننت أنها لا تُخلُّ بالمعية، ولا تقدح في الاستصحاب، فإن ذلك مما لا يُعتد به فيما بين الرفقة.

قال الكواشي: ولما كان سُؤال الرب تعالى لموسى يقتضي شيئين: أحدهما: إنكار العَجلَة، والثاني: السؤال عن السبب والحامل عليها، كان أهم الأمرين إلى موسى بَسطَ العذر وتمهيد العلة في نفس ما أنكر عليه، فاعتل أن قال: إن ما وُجدَ مني تقدم يسير، لا يُعتد بمثله في العادة لقربه، كما يتقدم الوفدَ رئيسُهم ومُتقدمُهم، ثم عقبه بجواب السؤال فقال: ﴿ عَجِلْتُ إليك رَبِّ لترضَى ﴾؛ لتزداد عني رضا؛ لمسارعتي إلى الامتثال لأمرك، واعتنائي بالوفاء بعهدك؛ لأنه ظن أن إسراعه إليه أبلغ في رضاه. وفي هذا دليل على جواز الاجتهاد للأنبياء ـ عليهم السلام ـ والمعنى: لتعلم أني أُحبك ولا قرار لي مع غيرك. هـ.

وقال القشيري: (هم أولاء على أثرى)؛ ما خلَّفْتُهم لتضييعي إياهم، ولكن عَجِلْتُ إليك ربِّ لترضى. قال: يا موسى، رضائي في أن تكون معَهم، ولا تتقدمهم ولا تَسْبِقَهم، وكونُكَ مع الضعفاءِ، الذين استصحبتَهم في حصول رضاي، أبلغُ مِنْ تقَدُّمِكَ عليهم. هـ.

﴿ قال ﴾ له تعالى: ﴿ فإنا قد فتنَّا قومَك من بعدك ﴾ أي: ابتليناهم بعبادة العجل من بعد ذهابك من بينهم. رُوى أنهم أقاموا على ما وصاهم به موسى عليه السلام عشرين ليلة، بعد ذهابه، فحسبوها مع أيامها أربعين، وقالوا: قد أكْملنا العدة، وليس من موسى عين ولا أثر، وكان وعدهم أن يغيب عنهم أربعين يوماً، واستخلف هارون على من بقي منهم، وكانوا ستمائة ألف، فافتتنوا بعبادة العجل كلهم، ما نجا منهم إلا اثنا عشر ألفا. وهذا معنى قوله تعالى: ﴿ وأَضلَّهُمُ السامريُّ ﴾، حيث كان هو السبب في فتنتهم، فقال لهم: إنما أخلف موسى عليه السلام ميعادكم؛ لِماَ معكم من حلي القوم، فهو حرام عليكم، فكان من أمر العجل ما يأتي تفسيره إن شاء الله. فإخباره تعالى بهذه الفتنة عند قدومه عليه السلام، قبل وقوعها، إما باعتبار تحققها في علمه تعالى، وإما باعتبار التعبير عن المتوقع بالواقع، كما في قوله تعالى: ﴿ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ﴾(١)، أو لأن السامري كان قد عزم على إيقاع الفتنة عند ذهاب موسى عليه السلام، وتصدى لها بترتيب مبادئها، فكانت الفتنة واقعة عند الإخبار بها.

والسامري منسوب إلى قبيلة من بني إسرائيل، يقال لها: سامرة، وقيل: كان رجلاً من كرمان. وقال ابنُ عباس: كان من قرية يعبدون البقر، فدخل في بني إسرائيل وأظهر الإسلام، وفي قلبه ما فيه من حب عبادة البقر، فابتلى اللهُ به بني إسرائيل، واسمه: موسى بن ظفر.

---

(١) من الآية ٤٤ من سورة الأعراف.

﴿فرجع موسى إلى قومه﴾ بعدما استوفى الأربعين وأخذ التوراة، لا عقب الإخبار بالفتنة، كما يتوهم من قوله تعالى: ﴿غضبانَ أسِفاً﴾، فإن كون الرجوع بعد الأربعين أمر مقرر مشهور، يرفع كون الرجوع عقب الفتنة. والأسف: أشد الغضب، وقيل: أسفا: حزيناً جزعاً على ضلال قومه. ﴿قال يا قوم ألَم يَعِدْكُم ربُّكم وعداً حسناً﴾؛ بأن يعطيكم التوراة فيها ما فيها من النور والهدى، ﴿أفَطَالَ عليكم العهدُ﴾ أي: مدة مفارقتي إياكم. والهمزة للإنكار، والمعطوف محذوف، أي: أوَعَدَكم ذلك فطال زمان الإنجاز، فأخطأتم بسببه، ﴿أم أردتم أن يَحِلَّ عليكم غضبٌ﴾ شديد كائن ﴿من ربكم﴾ أي: من مالك أمركم، ﴿فأخلفتم موعدى﴾ أي: وعدى إياكم بالثبات على ما أمرتكم به إلى أن أرجع من الميقات، أو وعْدَكم إياى بأن تثبتُوا على ماأمرتكم به، على إضافة المصدر إلى فاعله أو مفعوله، والفاء، لترتيب ما بعدها، كأنه قيل: أنسيتم الوعد بطول العهد فأخلفتمونى خطأ ﴿أم أردتم﴾ حلول الغضب عليكم فأخلفتموه؛ عمداً. ؟

﴿قالوا ما أخلفنا موعدك﴾ أي: وعدنا إياك بالثبات على ما أمرتنا به، ﴿بِمَلْكنا﴾ أي: بسلطاننا وقدرتنا، ونحن نملك أمرنا.وفيه لغتان: فتح الميم وكسرها. يعنــون: لو خلينـا وأُمورنَا، ولم يسوِّل لنا السـامريُّ ما سوله، ما أخلفنا، ولكن غلبنا على أمرنا، واستغوانا السامرى مع مساعدة الأحوال.

وقال القشيرى: أي: لم نكن فى ابتداءِ حالنا قاصدين إلى ما حَصَلَ منَّا، ولا عالمين بما آلَتْ إليه عاقبة أمرنا، وإنَّ الذى حملنا عليه حُلِيِّ القبط، صاغَ السامريُّ منه العجل، فآلَ الأمرُ إلى ما بلغ من الشر، وكذلك الحرامُ لا يخلو شؤمه من الفتنة والشر.هـ.

وقوله تعالى: ﴿ولكِنَّا حُمِّلْنَا أوزاراً من زينةِ القوم﴾، استدراك عما سبق، واعتذار ببيان منشأ الخطأ، أي: حملنا أحمالا من حُلى القبط، التى استعرناها منهم، حين هممنا بالخروج من مصر باسم العرس. وقيل: كانوا استعاروها لعيد كان لهم، ثم لم يردوها إليهم، مخافة أن يقفوا على أمرهم. وقيل: لما رمى البحر أجساد القبط، وكان غالب ثيابهم الذهب والفضة، التقطها بنو إسرائيل، فهى زينة القوم التى صيغ منها العجل، ولعل تسميتها أوزاراً؛ لأنها تبعات وآثام، حيث لم تحل الغنائم لهم.

﴿فقذفناها﴾ أي: فى النار رجاء الخلاص من عقوبتها، أو قذفناها إلى السامرى وألقاها فى النار، ﴿فكذلك ألقى السامريُّ﴾ ما كان معه منها كما ألقيناه، أو ألقى ما كان معه من تراب حافر فَرَس جبريل، كان قد صرَّه فى عمامته، وكان ألقى إليه الشيطان: أنه ما خالط شيئاً إلا حيى، فألقاه فى فمه فصار يخور.

رُوى: أنه قال لهم: إنما تأخر موسى عنكم، لما معكم من الأوزار، فالرأى أن نحفر حفرة ويُسجر فيها نار، ونقذف فيها كل ما معنا، ففعلوا، ﴿فأخرج لهم﴾ من ذلك الحلى المذاب ﴿عِجْلاً﴾أي: صورة عجل

﴿جَسداً﴾ أى: جثة ذات لحم ودم، أو جسداً من ذهب لا روح فيه، ﴿له خُوار﴾ أى: صوت عِجْل، ﴿فقالوا﴾ أى: السامرى ومن افتتن به: ﴿هذا إلهكم وإله موسى فَنَسِيَ﴾ أى: غفل عنه وذهب يطلبه فى الطور. فقوله تعالى: (فَأَخْرَجَ لهم...) الخ.. هو من كلام الله تعالى، حكاية لنتيجة فتنة السامرى، قولاً وفعلا، قصداً إلى زيادة تقريرها، وتمهيداً للإنكار عليهم، وليس من كلام المعتذرين، وإلا لقال: فَأَخْرَجَ لنا.. والله تعالى أعلم.

الإشارة: ينبغى لرئيس القوم، إذا كان فى سفر، أن يكون وسَطهم، أو سائقاً لهم، ولا يتقدمهم أو يستعجل لأمر عنهم، فإن التأنى كله من الله، والعَجَلة كلها من الشيطان، والخير كله فى الاجتماع مع الضعفاء والمساكين، حتى يكون كأحدهم، فإن فارقهم، لأمر مهم، فليستخلف عليهم من يثق به فى دينه، وليكن اعتماده فى ذلك على ربه، ونظره كله إلى رعايته وحفظه. قال الكواشى: عن ابن عطاء: أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام: أتدرى من أين أُتيت؟ ـ يعنى فى فتنة قومه ـ قال: لا يارب، قال: حين قلت لهارون: اخلفنى فى قومى، أين كنتُ أنا حين اعتمدتَ على هارون؟. هـ.

فكل فتنة أو ضلال يُصيب الفقراء، فإنما ذلك من عدم الاجتماع مع أهل الفن، أو قلة الاستماع لهم، فإن أصابتهم فتنة الأسباب، والركون إلى شىء من الدنيا فى غيبة الشيخ، فليرجع إليهم غضبان أسفا، وليقل لهم: ألم يعدكم ربكم وعداً حسناً، وهو الفتح الكبير لو صبرتم على السير والتجريد، أفطال عليكم العهد، فقد كانت الرجال تمكث فى خدمة الأشياخ العشرين والثلاثين سنة، أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم، بالإبعاد وإسْدال الحجاب، حيث خالفتم عهود أشياخكم، فإن اعتذروا فليقبل عذرهم، وإن ركنوا إلى عبادة شىء من عجل الدنيا فليخرجه من أيديهم، وليقل: وانظر إلى إلهك الذى ظلت عليه عاكفاً، لنحرقنه ثم لننسفنه فى اليم نسفا. وبالله التوفيق.

ثم ذكر الإنكار على عَبَدَة العجل، فقال:

﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ
هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟
لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾
أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ إِنِّى خَشِيتُ
أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴿٩٤﴾ ﴾

قلت: (ألا يرجع): «أن» مخففة، لأنَّ الناصبة لا تقع بعد أفعال اليقين، ومن قرأ بالنصب جعل الرؤية بصرية.

يقول الحق جل جلاله، مُنكراً على عبدة العجل ومقبحاً لرأيهم: ﴿ أفلا يَرَوْنَ ﴾ أي: أفلا يتفكرُ هؤلاء الضالون المضلون فيعلمون ﴿ أن ﴾ الأمر والشأن: ﴿ لا يرجع إليهم ﴾ العجل كلاماً، ولا يرد عليها جواباً، وإنما هو جماد لا روح فيه؟ فكيف يتوهمونه أنه إله؟ وتعليق الإبصار بما ذكر مع كونه عدمياً؛ للتنبيه على كمال ظهوره، المستدعي لمزيد تشنيعهم وتركيك عقولهم. ﴿ و ﴾ هو أيضاً ﴿ لا يملك لهم ضراً ولا نفعاً ﴾ أي: أفلا يرون أيضاً أن العجل لا يقدر أن يدفع عنهم ضراً، أو يجلب لهم نفعاً؟ أو لا يقدر على أن يضرهم إن لم يعبدوه، أو ينفعهم إن عبدوه.

﴿ ولقد قال لهم هارونُ من قبلُ ﴾ أي: والله لقد نصحهم هارون ونبههم على الحق، من قبل رجوع موسى عليه السلام إليهم، وقال لهم: ﴿ ياقوم إنما فُتنتم به ﴾ أي: وقعتم في الفتنة بالعِجْل أو ضللتم به، والمعنى: إنما فعل بكم الفتنة، لا الإرشاد إلى الحق، ﴿ وإنَّ ربكم الرحمنُ ﴾ وحده، لا العِجْل، أرشدهم إلى الحق بعد أن زجرهم عن الباطل. والتعرض لعنوان الرحمانية؛ للاعتناء باستمالتهم إلى الحق المُفضي إلى الرحمة الشاملة، أي: إن ربكم الذي يستحق أن يُعبد هو الرحمن لا غير. ﴿ فاتبعوني ﴾ على الثبات على الدين، ﴿ وأطيعوا أمري ﴾ من ترك عبادة ما علمتم شأنه.

﴿ قالوا ﴾ في جواب هارون عليه السلام: ﴿ لن نبرح عليه عاكفين ﴾ أي: لن نزال على عبادة العجل مقيمين ﴿ حتى يرجع إلينا موسى ﴾، جعلوا رجوعه عليه السلام غاية لعكوفهم على عبادة العجل، لكن لا على طريق الوعد بتركها عند رجوعه، بل بطريق التعلل والتسويف، وقد دسُّوا تحت ذلك أنه عليه السلام لا يرجع بشيء مبين لإبطالها، تعويلاً على مقالة السامري.

رُوي أنهم، لما قالوا ذلك، اعتزلهم هارون عليه السلام في اثني عشر ألفاً ممن لم يعبد العجل، فلما رجع موسى وسمع الصياح والجلَبة(١)، وكانوا يرقصون حول العجل، قال للسبعين الذين كانوا معه: هذا صوت الفتنة، فلما وصل إليهم قال لهم ما قال من قوله: (ألم يعدكم....)الخ. وسمع منهم ما قالوا من قولهم: (ما أخلفنا...)الخ. فلما رأى هارون أخذ شعره بيمينه، ولحيته بشماله، غضباً، ﴿ قال يا هارونُ ﴾، وإنما جرده من الواو؛ لأنه استئناف بياني، كأنه قيل: ماذا قال موسى لهارون حين سمع جوابهم له؟ وهل رضي بسكوته بعدما شهد منهم ما شهد؟ فقيل: ﴿ قال ياهارونُ ما منعك إذْ رأيتَهم ضلّوا ﴾ بعبادة العجل، وبلغوا من المكابرة إلى أن شافهوك بتلك المقالة الشنعاء، ﴿ ألا تتَّبعنِ ﴾ أي: أن تتبعني. على أن «لا» مزيدة، أي: أيّ شيء منعك، حين رأيت ضلالتهم، من أن

(١) في الأصول: والجبلة.

تتبعني فيما أمرتك، وتعمل بوصيتي فتقاتلهم بمن معك؟. قال ابن عطية: والتحقيق: أن «لا» غير مزيدة، ويُقدر فعل، أي: ما منعك مجانبتهم وسوّل لك ألا تتبعن. هـ. قلت: وفيه نظر؛ لأن مجانبة هارون عليه السلام للقوم كانت حاصلة، وإنما أنكر عليه عدم مقاتلتهم، أو عدم لحوقه ليخبره، فتأمله. وقيل: المعنى: ما حملك على ألا تتبعن، فإن المنع من الشيء مستلزم للحمل على مقابله، وقيل: ما منعك أن تلحقني وتُخبرني بضلالهم، فتكون مفارقتك زجراً لهم، وهذا أظهر.

﴿ أفعَصَيتَ أمرى ﴾ بالصلابة فى الدين والمحاماة عليه، فإن قوله: (اخلفنى فى قومى) متضمن للأمر بهما حتماً، فإن الخلافة لا تتحقق إلا بمباشرة الخليفة ما كان يباشره المستخلِف لو كان حاضراً، والهمزة للإنكار، والفاء للعطف، أى: أخالفتنى فعصيتَ أمرى.

﴿ قال يابنَ أمَّ ﴾، خص الأم بالذكر؛ استعطافاً لحقها، وترقيقًا لقلبه، لا لما قيل من أنه كان أخاه لأمه، فإن الجمهور على أنهما شقيقان. قال له: ﴿ لا تأخذْ بلحيتى ولا برأسى ﴾ أى: بشعر رأسى. وقد كان عليه السلام أخذ بهما كما تقدم، من شدة غيظه وفرط غضبه لله، وكان حديداً متصلباً فى كل شيء، فلم يتمالك حين رآهم يعبدون العجل، حتى فعل ما فعل. ثم اعتذر له أخوه بقوله: ﴿ إني خشيتُ ﴾ إن قاتلتُ بعضهم ببعض وتفرقوا، ﴿ أن تقول فرقتَ بين بنى إسرائيل ﴾ برأيك، مع كونهم أبناء رجل واحد، كما ينبئ عنه ذكرهم بذلك العنوان دون القوم ونحوه. وأراد عليه السلام بالتفريق ما يستتبعه القتال من التفريق: الذى لا يُرى بعده اجتماع، فخشيتُ أن تقول: فرقت بينهم، ﴿ ولم ترقبْ قولى ﴾ أى: قوله: (اخلفنى فى قومى وأصلح..)الخ، يعنى: إنى رأيت أن الأصلح هو فى حفظ الدماء والمداراة معهم، إلى أن ترجع إليهم، فلذلك استأنيتك؛ لتكون أنت المتدارك للأمر بما رأيت، لاسيما وقد كانوا فى غاية القوة، ونحن على القلة والضعف، كما يُعرب عنه قوله: ﴿ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي ﴾(١). والله تعالى أعلم.

الإشارة: كل من اعتمد على غير الله، أو مال بمحبته إلى ما سوى الله، فهو فى حقه عجل بنى إسرائيل، فيقال له: كيف تركن إليه وهو لا يملك لك ضراً ولا نفعاً، وإنما فُتنت به عن السير إلى ربك، وانطمست به حضرة قدسك، فربك الرحمن الكريم المنان، فاتبع ما أمرك به من الطاعات، وكن عبداً له فى جميع الحالات، تكن خالصاً لله، حُراً مما سواه. وبالله التوفيق.

---

(١) من الآية ١٥٠ من سورة الأعراف.

ثم وجَّه العتاب إلى السامري، فقال:

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا۟ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴿٩٦﴾ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿قال﴾ موسى عليه السلام في توبيخ السامري: ﴿فما خطبُك يا سامريُّ﴾ أي: ماشأنك، وما مطلوبك فيما فعلتَ من فتنة القوم؟ خاطبه بذلك؛ ليظهر للناس بطلانُ كيده باعترافه، وليفعل به وبما صنع من العقاب ما يكون نكالاً للمفتونين به، ولمن خلفهم من الأمم من بعده، ﴿قال﴾ السامري في جوابه: ﴿بَصُرْتُ بما لم يَبْصُرُوا به﴾ أي: علمت مالم يعلمه القوم، وفطنت لما لم يفطنوا به، أو رأيتُ مالم يروه، وهذا أنسب، وقد كان رأى جبريل عليه السلام، جاء راكباً فرساً، وكان كلما رفع الفرس يده أو رجله عن الطريق اليبس، اخضر ما تحت قدمه بالنبات، فعرف أن له شأناً، فأخذ من موطئه شيئاً من التراب. وذلك قوله تعالى: ﴿فقبضتُ قبضةً من أَثَرِ الرسولِ﴾ أي: أثر فرس الرسول، وهو جبريل، الذي أرسل إليك ليذهب بك إلى الطور.

وقال في اللباب: كان السامري من المقربين لموسى عليه السلام، فرأى جبريلَ راكباً على فرس، وقد دخل البحر فانفلق، فأخذ من أثره، ولم ير ذلك إلا من كان مع موسى. هـ. وقال قتادة: كان السامري عظيماً في بني إسرائيل، من قبيلة يقال لها: سامرة، ولكن عدو الله نافق، بعدما قطع البحرَ مع بني إسرائيل، فلما مرت بنو إسرائيل بالعمالقة، وهم يعكفون على أصنام لهم، وكانوا يعبدون البقر، ﴿قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾(١). فاغتنمها السامري فاتخذ العجل. هـ.

وقال الكواشي: وإنما عرف السامريُّ جبريلَ من بين سائر الناس؛ لأن أمه ولدته في السنة التي يُقتل فيها الغلمان، فوضعته في كهف؛ حذراً عليه، فبعث الله تعالى جبريل؛ ليربيه لِمَا قضى على يديْه من الفتنة. هـ. وضعَّفه ابن عطية. قلت: ولعل تضعيفه من جهة النقل، وأما القدرة فهي صالحة ليقضي الله أمراً كان مفعولا.

(١) من الآية ١٣٨ من سورة الأعراف.

ثم قال: فأخذت تلك القبضة ﴿فنبذتُها﴾ في فم تلك الصورة المذابة من الحُلي، فصارت تخور، ﴿وكذلك سَوَّلَتْ لي نفسي﴾؛ أي: زينت. والإشارة: نعت لمصدر محذوف، أي: سَوَّلَتْ لي نفسي تسويلاً كائناً مثل ذلك التسويل البديع.

وحاصل جوابه: أن ما فعله إنما صدر منه بمحض اتباع هوى النفس الأمارة وإغوائها، لا لشيء آخر من البرهان العقلي أو الإلهام الإلهي، فعند ذلك ﴿قال﴾ له موسى عليه السلام: ﴿فاذهبْ﴾ أي: اخرج من بين الناس، ﴿فإنَّ لك في الحياة﴾ أي: في مدة حياتك، ﴿أن تقولَ لا مِساس﴾ والمعنى: أن لك في مدة حياتك أن تفارقهم مفارقة كلية، لا بحسب الاختيار، بل بحسب الاضطرار الملجيء إليه، وذلك أنه تعالى رماه بداء عقام[1]، لا يكاد يَمَسُّهُ أحد، أو يمسُّ أحداً، إلا حُمَّ من ساعته حمى شديدة، فتحامَى الناسَ وتحاموه، وكان يَصيح بأقصى طوقه: لامساس. وقيل: إن موسى عليه السلام نفاه من قومه، وأمر بني إسرائيل ألا يخالطوه ولايقربوه. قال الحسن: (جعل الله عقوبة السامري ألا يماَس الناسَ ولا يماسوه. جعل ذلك له ولمن كان منه إلى يوم القيامة). فكأن الله تعالى شدَّد عليه المحنة، وجعل ذلك عقوبة له في الدنيا. ويقال: ابتلي بالوسواس، وأصل الوسواس من ذلك الوقت. وقال قتادة: بقاياه اليوم يقولون ذلك: لا مساس. ويقال: إن موسى همَّ بقتل السامري، فقال الله تعالى له: لا تقتله؛ فإنه سخي. ولعل الحكمة في عقابه بهذه العقوبة: أن مخالطته للناس نشأت من هذه الفتنة، فعوقب بالطرد والبعد عنهم.

ثم قال له الله: ﴿وإنَّ لك موعداً﴾ أي: في الآخرة، ﴿لن تُخْلَفه﴾ أي: لن يُخلفك الله ذلك الوعد، بل يُنجزه لك ألبتةَ، بعد ما عاقبك في الدنيا. أو لن تجاوزه ولن تخطئه، بل لابد لك من ملاقاته. ﴿وانظر إلى إلهك﴾ العجل، ﴿الذي ظَلْتَ عليه عاكفاً﴾؛ مقيماً على عبادته، ﴿لنُحرِّقنه﴾ أي: والله لنحرقنه بالنار، وقيل بالمبْرد، مبالغةً في الحرق، ويعضده قراءة: «لنحْرُقنه»، ﴿ثم لنَنْسِفَنَّه﴾ أي: لنذرينه بالريح ﴿في اليمِّ﴾؛ في البحر، رماداً، أو مبروداً كأنه هباء، ﴿نَسْفاً﴾ بحيث لا يبقى منه عين ولا أثر، وقد فعل عليه السلام ذلك كله حينئذ، كما يشهد بذلك الأمرُ بالنظر، وإنما لم يصرح به؛ تنبيهاً على كمال ظهوره، واستحالة الخلف في وعده المؤكد باليمين.

ثم نبَّه على الحق فقال: ﴿إنما إلهكم الله﴾ أي: إنما معبودكم المستحق للعبادة هو الله. والجملة: استئنافية مسوقة لتحقيق الحق، إثر إبطال الباطل، بتلوين الخطاب وتوجيهه إلى الكل، ثم وصفه بقوله: ﴿الذي لا إله إلا هو﴾ وحده، من غير أن يُشاركه في الألوهية شيء من الأشياء، ﴿وَسِعَ كل شيء علما﴾ أي: وسع علمه كل ما من شأنه أن يُعلم. وجملة: (وسع): بدل من الصلة، أي: إنما إلهكم: الذي وسع كل شيء علماً لا غيره كائناً

(١) العُقام: الداء الذي لايبرأ منه.

ماكان، فيدخل فيه العجل دخولاً أولياً. وهذا ختم كلام موسى عليه السلام، بتقرير أمر التوحيد، كما كان افتتاح الوحي إليه به بقوله: ﴿ إنني أنا الله لا إله إلا أنا ﴾. والله تعالى أعلم.

الإشارة: انظر أثر حافر فرس جبريل: كيف حييت به الأشباح، فكيف لا تحيا بتقبيل أثر وطء العارفين بالله، أو بتقبيل أقدامهم، بل كل من خضع لهم وقبَّل أقدامهم حييت روحه، وشعشعت أنواره، وتحقق عرفانه، كما هو معلوم؛ لأن الخضوع لأولياء الله إنما هو خضوع لله؛ لأنهم يدلون على الله، ويبعدون عن كل ماسواه. وانظر السامري؛ حين خضع لغير الله بمجرد هواه كيف طُرد وأُبعد، حتى صار مثلاً في الناس. فقالت الصوفية: ينبغي للفقير أن يفر من أبناء جنسه، ويكون كالسامريِ، إذا رأى أحداً قال: لا مساس، وأنشدوا:

وخَفْ أبناءَ جنسك، واخش منهم ... كما تخشى الضراغم والسَّنْبتا

وخالِطْهم، وزايلهم؛ حِذاراً ... وكن كالسامري إذا لُمِسْتَ

والسنبتاء: كل حيوان جرىء، وقيل: اسم للنمر

ويقال، لمن ركن إلى شيء دون الله تعالى؛ مِنْ علم، أو عمل، أو حال، أو مقام، أو فنى في مخلوق: (وانظر إلى إلهك الذي ظلت عليه عاكفاً لنُحرقنه ثم لننسفنه في اليم نسفا). وفي بعض الأثر: يقول الله: « يا عبدي، لا تركن لشيء دوني، فإنْ ركنتَ إلى علم جهّلناك فيه، وإن ركنتَ إلى عمل رددناه عليك، وإن ركنتَ إلى حال وقفناك معه، وإن ركنتَ إلى معرفة نكرناها عليك. فأي حيلة لك أيها العبد، فكن لنا عبداً أكن لك رباً» . أوكما قال. وإليه الإشارة بقوله: (إنما إلهكم الله...) الآية.

ثم ذكَّر نبيه ﷺ بنعمة إطْلاعه على هذه القصص البديعة، فقال:

﴿ كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ... ﴾

قلت: محل الكاف: نصب على أنه نعت لمصدر محذوف، أي: نقص عليك قصاً مثل ذلك القص المارّ. وما في الإشارة من معنى البُعد؛ للإيذان بعلو درجته ـ عليه الصلاة والسلام ـ وبُعد منزلته في الفضل. و(من أنباء): في محل النصب، إما على أنه مفعول (نقُص)؛ باعتبار معناه، أي: نقص عليك بعض أنباء، وإما على أنه متعلق بمحذوف؛ صفة للمفعول، أي: نقص عليك خبراً كائناً من أخبار ما قد سبق.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ كذلك ﴾ أي: مثل ذلك القصص البديع الذي سمعته ﴿ نقصُّ عليك من أنباء ما قد سبق ﴾ أي: من أخبار الأمم الماضية والقرون الخالية؛ ليكون تبصرة لك، وزيادة في علمك، وتذكيراً لغيرك، وعبرة لمن يقف عليه ممن يأتي بعدك. والله تعالى أعلم.

الإشارة: حكايات الصالحين وسِيَر العارفين جند من جنود القلب، فيها تنشيط لمن يريد اللحوق بهم، وتشويق لمقاماتهم، وتسلية لمن يُصاب فى ذات الله بمثل ما أصابهم. وبالله التوفيق.

ثم ذكر وعيد من أعرض عن القرآن المشتمل على هذه الأنباء الحسان، فقال:

﴿... وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا
﴿١٠٠﴾ خَٰلِدِينَ فِيهِ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ
يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ
أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾
فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ
لَا عِوَجَ لَهُۥ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا
مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ
عِلْمًا ﴿١١٠﴾﴾

قلت: (من أعرض): شرطية أو موصولة، وعلى كلٍّ فهى صفة لذكْرًا، و(خالدين): حال من فاعل (يحمل)، أو الجمع، باعتبار معنى«مَن»، و (حِملًا): تمييز، تفسير لضمير (ساء)، والمخصوص محذوف، أى: ساء حملاً وزرهم، و (يوم يُنفخ): بدل من (يوم القيامة)، أو منصوب باذكر. و(يتخافتون): استئناف مُبين لحالهم يومئذ، أو حال أخرى من (المجرمين). و(قاعًا): حال من ضمير (يذرها)، أو مفعول ثان ليذر. و(صفصفًا): حال ثانية، أو بدل من المفعول الثانى، وجملة: (لا ترى): استئناف مبين لما سبق من القاع الصفصف، أو حال أخرى، و(يومئذ): ظرف ليتبعون، أو بدل من (يوم القيامة).

يقول الحق جل جلاله: ﴿وقد آتيناك﴾ يا محمد ﴿من لَدُنا﴾؛ خصوص عنديتنا ﴿ذِكْرًا﴾ عظيماً وقرآناً كريماً، جامعاً لكل كمال، مُخبراً بعجائب القصص والأمثال. ﴿مَنْ أعرَضَ عنه﴾ أى: عن ذلك الذكْر العظيم الشأن، المستتبع لسعادة الدارين، بأن لم يؤمن به، ﴿فإنه يحملُ يومَ القيامة وِزْرًا﴾ أى: عقوبة ثقيلة فادحة على كفره وسائر ذنونه. وتسميتها وزرًا؛ لتشبيهها فى ثقلها على المعاقَب، وصعوبة احتمالها، بالحمل الذى يُثقل الحامل ويُنقِضُ ظهره، وقيل: يُجسَّم، ويُجعل على ظهره فى طريق الحشر، والأول أنسب لقوله:

﴿ خالدين فيه ﴾ أى: فى ذلك الوزر، وهو العذاب، أو فى ذلك الحمل الثقيل؛ لاستمراره فيه بعد دخول النار، ﴿ وساء لهم يوم القيامة حِملاً ﴾ أى: بئس حملهم هذا يوم القيامة، وإعادة يوم القيامة؛ لزيادة التهويل.

﴿ يوم يُنفَخُ فى الصُّور ﴾ أى: ذلك اليوم هو يوم يُنفخ فى الصور، أو: اذكر يوم ينفخ فى الصور نفخة البعث، ﴿ ونَحشُر المجرمين ﴾ أى: المشركين ﴿ يومئذٍ ﴾ أى: يوم ينفخ فى الصور، وأعاده، تهويلاً، حَال كونهم ﴿ زُرقًا ﴾ أى: زُرق العيون. وإنما جُعلوا كذلك؛ لأن الزرقة أسوأ ألوان العين وأبغضها إلى العرب، وكانت تتشاءم بزرقة العين، كما قال الشاعر:

لَقَدْ زَرِقَتْ عَيْنَاكَ يا ابْنَ مُكَعْبَرٍ ألاَ كُلُّ ضَـبِّيٍّ مِنَ اللؤْم أزرقُ.

وقيل زرقاً، أى: عُمياً؛ لأن حدقة العين تزرق من شدة العمى. وقيل: عِطاشاً؛ لأن سواد العين يتغير من شدة العطش ويزرق.

﴿ يتخافَتُونَ بينهم ﴾ أى: يخفضون أصواتهم ويخفونها؛ لِمَا علا صدورهم من الرعب والهول. يقول فى تلك المخافتة بعضهم لبعض: ﴿ إن لبثتم إلا عَشْراً ﴾ أى: ما لبثتم فى الدنيا إلا عشر ليال؛ استقصاراً لمدة لبثهم فيها، لزوالها، أو لتأسفهم عليها، لما شهدوا الشدائد والأهوال، أو فى القبر، وهو الأنسب بحالهم، فإنهم، حيث يُشاهدون البعث الذى كانوا ينكرونه فى الدنيا ويعدونه من قبيل المحال لا يتمالكون من أن يقولوا ذلك؛ اعترافاً به، وتحقيقاً لسرعة وقوعه، كأنهم قالوا: قد بعثتم وما لبثتم فى القبر إلا مدة يسيرة. وقيل: ما بين النفختين، وهو أربعون سنة. رُوى أنه يرفع العذاب عن الكفار فى تلك المدة، فيستقصرون تلك المدة إذا عاينوا أهوال يوم القيامة، لأنهم فى طول مدتهم فى عذاب القبر لا يعقلون.

قال تعالى: ﴿ نحن أعلم بما يقولون ﴾، وهو مدة لبثهم، أو نحن عالمون اليوم بما يقولون فى ذلك الوقت قبل وقوعه، ﴿ إذْ يقولُ أمثلُهم طريقةً ﴾ أى: أعدلهم رأياً وأوفاهم عقلاً: ﴿ إن لبثتم إلا يوماً ﴾، ونسبة هذا القول إلى أمثلهم: استرجاع منه تعالى، لكن لا لكونه أقرب إلى الصدق، بل لكونه أدل على شدة الهول.

﴿ ويسألونك عن الجبال ﴾ أى: عن مآل أمرها، وقد سأل عنها رجل من ثقيف، وقيل: مشركو مكة، على طريق الاستهزاء، ﴿ فقلْ ﴾ لهم: ﴿ يَنسِفُها ربى نَسْفًا ﴾ أى: يجعلها كالرمل، ثم يُرسل عليها الرياح فتفرقها، أو يقلعها ويطرحها فى البحار كالهباء المنثور، ﴿ فيذرُها ﴾ أى: يترك ماكان تحتها من الأرض ﴿ قاعًا

صفصفاً ﴾ أي: أرضاً مستوية؛ لأن الجبال إذا سُويت، وجُعل سطحها مساوياً لسائر أجزاء الأرض، فقد جعل الكل سطحًا واحدا. فالضمير في (يذرها) إما للجبال، باعتبار أجزائها السافلة، الباقية بعد النسف، وهي مقارها ومراكزها، وإما للأرض، المدلول عليها بقرينة الحال؛ لأنها الباقية بعد نسف الجبال.

والقاع والقيعة: ما استوى من الأرض وصلُب، وقيل: السهل، وقيل: مالانبات فيه. والصفصف: الأرض المستوية الملساء، فإن أجزاءها صف واحد من كل جهة، ﴿ لا ترى فيها ﴾ أي: في الأرض الذي نسفت جبالُها ﴿ عِوَجًا ﴾ أي: اعوجاجاً وانخفاضاً، ﴿ ولا أمْتًا ﴾ ؛ نتوءاً وارتفاعاً. قال ابن عباس: العوج: الأودية، والأمت: الروابي. وقال مجاهد: العوج: الانخفاض، والأمت: الارتفاع؛ والمعنى: أنك، إن تأملت بالمقاييس الهندسية، وجدتها مستوية الجهات. والخطاب لكل من يتأتى منه الرؤية.

﴿ يومئذ ﴾ أي: يوم إذ نسفت الجبال، ﴿ يتبعون الداعيَ ﴾ أي: يتبع الناسُ داعي الله تعالى إلى المحشر، وهو إسرافيل عليه السلام، يدعو الناس بعد النفخة الثانية، قائمًا على صخرة بيت المقدس: أيها الناس هلموا إلى ربكم، بعد أن يدعوهم إلى الخروج من قبورهم، قائلاً: أيتها العظام النخرة، والأوصال المتمزقة، واللحوم المتفرقة؛ قوموا إلى العرض والحساب، فَيُقبلون من كل جانب منتشرين، كأنهم جراد منتشر، لا يدرون أين يذهبون، فَيُنادي حينئذ من الصخرة للجمع للحساب. هذا ما تدل عليه الأحاديث والأخبار.

وقوله تعالى: ﴿ لا عِوَجَ له ﴾ أي: لا يعوجُ له مدعو ولا يعدل عنه، فلا يزيغ عنه، بل كلهم يقصدون صوته، من مشارق الأرض ومغاربها وجوانبها. والتقدير: لا عوج للصوت عن أحد، بل يصل إليه أينما كان، ويتوجه إليه حيث كان، ﴿ وخشعتِ الأصواتُ للرحمن ﴾ أي: خضعت وسكنت لهيبته ﴿ فلا تسمع إلا همساً ﴾ أي: صوتاً خفياً. والهمس: صوت وطء الأقدام في نقلها إلى المحشر، أي: انقطعت أصوات اللسان، فلا تسمع إلا همس الأقدام في مشيها إلى المحشر، من شدة الهيبة والخوف.

﴿ يومئذٍ لا تنفعُ الشفاعة ﴾ أي: يوم إذ يقع ما ذكر من الأمور الهائلة لا تنفع شفاعة أحد، ﴿ إلا من أَذِنَ له الرحمنُ ﴾ في الشفاعة، كالأنبياء والأولياء والعلماء الأتقياء، ﴿ ورَضِيَ له قولاً ﴾ أي: ورضي قوله في المشفوع له بحيث يقبل شفاعته. وقيل: (ورضي له قولا) في الدنيا، وهو: لا إله إلا الله، مخلصا من قلبه.. أو: إلا من أذن له الرحمن أن يشفع فيه، ورضي لأجله قولاً من الشافع. وهذا أليق بمقام التهويل. وأما من عداه فلا تنفع، وإن وقعت؛ لقوله تعالى: ﴿ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴾(١).

---

(١) الآية ٤٨ من سورة المدثر.

﴿يعلم ما بين أيديهم﴾ أى: ما تقدمهم من الأحوال، أو من أمر الدنيا، ﴿وما خلفهم﴾: وما بعدهم مما يستقبلونه، أو من أمر الآخرة، ﴿ولا يُحيطون به علماً﴾ أى: لا تُحيط علومهم بذاته المقدسة، بحيث يدركون كنْه الربوبية، أو: لا تحيط علومهم بمعلوماته تعالى. قال القشيرى: الكناية(١) فى قوله: (به)، يحتمل أن تعود إلى (مابين أيديهم وما خلفهم)، ويحتمل أن تعود إلى الحقّ ـ سبحانه ـ وهو طريقة السَّلَف، يقولون: يُعلَم الحق ولا يحيط به العلم، كما قالو: إنه يُرى ولا يُدْرَك.هـ.

الإشارة: وقد آتيناك من لدُنَّا ذِكْراً، أى: قرآناً يجمع القلوبَ على الله، ويدل على مشاهدة الله. من أعرض عنه ـ أى: عن الله ـ ولم يتوجه إليه بكليته، فإنه يحمل وِزراً، يثقله عن الترقى إلى مقام العارفين، فيبقى مُخلداً فى حضيض الغافلين، وذلك فى يوم يجمع اللهُ فيه الأولين والآخرين، فيُكرم المتقين، ويُهين المجرمين، حيث يزول عنهم ما كانوا فيه من الدعة والسعة، كأنهم مالبثوا فيه غير ساعة.

ويسألونك، أيها العارف، عن جبال العقل، حين تطلع على نور قمره شمسُ العرفان، فقل ينسفها ربى نسفا، فيذر أرض النفس، حين استولت عليها أسرار المعانى، قاعاً صفصفاً، لاتصالها بفضاء المعانى، حين ذهبت أغيار الأوانى، لاترى فيها انخفاضاً ولا ارتفاعا. وإنما ترى وجوداً متصلا، وبحراً طامساً، ليس فيه بُعدٌ ولا قُرب، ولا علو ولا سفل، وفى ذلك يقول الشاعر:

من أبصر الخلق كالسرابِ ... فقد ترقى عن الحجابِ
إلى وجـود تراه رَتْقًـا ... بـلا ابتعـاد ولا اقتراب
ولم يشاهد به سـواه ... هناك يُهدى إلى الصواب
فلا خطـاب به إليـه ... ولا مشير إلى الخطاب

والمراد بالخلق: جميع الكائنات، فلا خطاب من العبد إلى ربه، لمحو العبد من شدة القرب، ولم تبق له إشارة ولا عبارة. وفى الحِكَم: «ما العارفُ مَنْ إذا أشار وجد الحق أقرب إليه من إشارته، بل العارف من لا إشارة له؛ لفنائه فى وجوده، وانطوائه فى شهوده». وقالوا: من عرف الله كلّ لسانه، وإليه الإشارة بقوله: ﴿وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلاهمسا﴾. وهذا بعد اتباع الداعى إلى الله وصحبته، من غير عوج عنه، ولا خروج عن رأيه، حتى يقول له: ها أنت وربك. فحينئذ تحصل الهيبة والتعظيم، فلا يقدر أحد أن يرفع صوته، وهو فى حضرة الملك الكريم، وهذا شأن الصوفية، كلامهم كله تخافت وتسارر؛ لغلبة الهيبة عليهم.

(١) أى: الضمير.

قوله تعالى: ﴿ يومئذ لا تنفع الشفاعة ﴾ أى: فى دخول الحضرة، (إلا من أذن له الرحمن) فى التربية والترقية، (ورضىَ له قولاً)، وهو ذكر الله، يأمر به من أراد شفاعته فيه، حتى تستولى عليه أنوار الذكر، فيدخل مع الأحباب، ويجلس على بساط الاقتراب، فحينئذ يحصل له العلم بالله، على نعت الذوق والوجدان، وشهود العيان، لاعلى نعت الدليل والبرهان.

وقوله تعالى: ﴿ ولا يُحيطون به علماً ﴾ إشارة إلى عدم الإحاطة بكُنْه الربوبية لمن دخل الحضرة، فلو حصل لهم الإحاطة بالكنْه لم يبق لهم ترَقٍّ، وكيف؟ وهم يترقون فى أسرار الذات وأنوار الصفات دائماً سرمداً، فى هذه الدار وفى تلك الدار!، ففى كل ساعة يتجدد لهم من لذيذ المشاهدات وأنوار المكاشفات، ماتعجز عنه العقول، وتكِلُّ عنه طروس النقول. نعم يحصل لهم العلم الضرورى بالذات العلية، ويُشاهدون ما تجلى من أسرارها وأنوارها، وتسرح فكرتهم فى بحر الأولية والآخرية، والظاهرية والباطنية، والعظمة الفوقية وما تحت الثرى، ويخوضون فى بحار الأحدية، ويتفكرون فى قاموس كنه الربوبية، فلا خوف ولا ملل، من غير إحاطة، كما تقدم. والله تعالى أعلم.

فإذا رجعوا إلى مشاهدة الرسوم خضعت وجوههم للحى القيوم، كما قال تعالى:

﴿ ۞ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾ ﴾

قلت: (وقد خاب..) الخ: استئنافٌ، تعليلٌ ما لأجله عنت وجوههم، أو اعتراض، كأنه قيل: خابوا وخسروا، أو حال من الوجوه، و(مَنْ): عبارة عنها، مُغنية عن ضميرها، أى: خضعت الوجوه، والحال أنها خابت حين حملت ظلما. وقيل: (الوجوه) على العموم، فالمعنى حينئذ: وقد خاب من حمل منهم ظلماً، ومن قرأ: «فلا يخف»: فعلى النهى، وهو جواب، ومن قرأ بالرفع: فعلى الخبر، أى: فهو لا يخاف.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وعَنَتِ الوجوهُ للحى القيوم ﴾ أى: ذلت وخضعت خضوع العناة، أى: الأسارى فى يد الملك القهار، ومنه قيل للأسير: «عانٍ»، أى: خاضع ذليل، وفى ذلك يقول أمية بن أبى الصلت:

مَلِيكٌ عَلَى عَرْشِ السَّماءِ مُهَيْمِنٌ ... لِعِزَّتِـه تَعْنُو الوُجُـوهُ وتَسْجُدُ

ولعلها وجوه المجرمين، كقوله تعالى: ﴿ سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾(١)، ويؤيده وصله بقوله: ﴿ وقد خابَ من حَمَلَ ظلماً ﴾ أى: وعنت الوجوه؛ لأنها قد خابت وخسرت حين حملت ظلما.

(١) من الآية ٢٧ من سورة الملك.

قال ابن عباس رضي الله عنه: (خسر من أشرك بالله ولم يتب)، فإنما تذل وجوه من أشرك بالله، وأما أهل التوحيد فأشار إليهم بقوله: (ومن يعمل من الصالحات...) الخ، فهو قسيمٌ لقوله: (وقد خاب من حمل ظلما)، لا لقوله: (وعنت الوجوه).

وإذا حملنا (عنَت) على مطلق الخضوع أو السجود كان عاماً؛ لأن الخلائق كلها تخضع لله فى ذلك الوقت. ثم فصلهم: فمن حمل ظلما فقد خاب وخسر، ﴿ومن يعمل من الصالحات﴾ أى: بعضها، ﴿وهو مؤمن﴾، فالإيمان شرط فى صحة الطاعات وقبول الحسنات، ﴿فلا يخاف ظُلماً﴾ أى: منع ثواب قد استحقه بموجب الوعد، أو زيادة عقاب على موجب سيئاته، ﴿ولا هَضْماً﴾ أى: كسراً ونقصاً من ثواب حسناته، وأصل الهضم: النقص والكسر؛ يقال: هضمت لك من حقك، أى: حططت، وهضمت الطعام: حططته إلى أسفل المعدة، وامرأة هضيمة الكشح: أى: ضامرة البطن، فالحق تعالى إنما تعرض لنفى الظلم والهضم عن عامل الصالحات؛ لأن نفى ذلك إنما يكون مع العمل، ففيه يتوهم الهضم والنقص، وأما بدونه فلا.. نعم، الإيمان المجرد نافع على مذهب أهل السنة، لكن صاحبه على خطر فى نفوذ الوعيد، ولو غفر له، فإنه ناقص عن درجة عامل الصالحات، كما علم شرعا. والله تعالى أعلم.

الإشارة: إذا سرحت الفكرة وجالت فى أقطار الملكوت وأسرار الجبروت، وتحققت بعدم الإحاطة، رجعت إلى عش العبودية، وخضعت للحى القيوم، وقد خاب وخسر من لم يبلغ إلى هذا المقام، حين حمل ظلماً بالميل إلى الشيء من السوى، بغلبة الطبع والهوى، وأما من نهض إلى مولاه، واشتغل بالأعمال التى تقربه إلى حضرته، فلا يخاف ظلماً ولا هضما؛ فإن الله يرفع العبد على قدر همته، وينعمه على قدر طاعته. وبهذا جاء الوحى والتنزيل، كما قال تعالى:

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾

قلت: (وكذلك): عطف على قوله: (كذلك نقص)، و«ذلك»: إشارة إلى إنزال ما سبق من الآيات المتضمنة للوعيد، المنبئة عما سيقع من أهوال يوم القيامة.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وكذلك﴾ أي: ومثل ذلك الإنزال المتقدم، ﴿أنزلناه﴾ أي: القرآن كله، وإضماره، من غير سبقية ذكره؛ للإيذان بنباهة شأنه، وكونه مركوزاً في العقول، حاضراً في الأذهان، حال كونه: ﴿قرآناً عربياً﴾؛ ليفهمه العرب، ويقفوا على ما فيه من النظم المعجز، الدال على كونه خارجاً عن طوق البشر، نازلاً من عند خلاّق القوى والقُدَر. ﴿وصرَّفْنا فيه من الوعيد﴾ أي: كررنا فيه بعض الوعيد، أو من جنس الوعيد، ﴿لعلهم يتقون﴾ أي: كي يتقوا الكفر والمعاصي بالفعل، ﴿أو يُحدثُ لهم ذِكْراً﴾؛ اتعاظاً واعتباراً يؤديهم إلى الاتقاء، ﴿فتعالى اللهُ﴾ أي: تعاظم شأنه عما يصفه الكفرة، وتهاون العصاة، الذين لم يحدث فيهم القرآن زجراً ولا وعظاً، أي: ارتفع بذاته وتنزه عن مماثلة المخلوقين في ذاته وصفاته وأفعاله، ﴿الملكُ﴾ لها، النافذ أمره ونهيه، الحقيق بأن يُرجى وعده، ويُخشى وعيده، ﴿الحقُّ﴾ في ألوهيته لذاته، أو الثابت الذي لا يمكن عدمه، أزلاً وأبداً.

﴿ولا تَعْجَلْ بالقرآنِ من قبل أن يُقضى إليك وحيُه﴾ أي: وإذا كنا أنزلنا عليك قرآناً عربياً، وصرفنا فيه من الوعيد، فأَمْهِلْ عند نزوله، حتى يقرأه عليك الملك، ولا تعجل به قبل أن يتم وحيه، ويفرغ من قراءته عليك. كان ﷺ، إذا ألقى جبريلُ عليه الوحي، يتبعه عند تلفظ كل حرف وكل كلمة، لكمال اعتنائه بالتلقي والحفظ، فنهى عن ذلك؛ لأنه ربما يشغله التلفظ بكلمة عن سماع ما بعدها، ولأنّ المراد من الألفاظ فهم المعاني المتضمنة للعلوم التي لا حصر لها، ولذلك أمره باستفاضة العلم واستزادته منه فقال: ﴿وقل ربِّ زِدْني علماً﴾ أي: وقل في نفسك، أو بلسانك: رب زدني علما، والمراد: سل الله عز وجل زيادة العلم به وبأحكامه؛ إذ لا نهاية لعلمه كما لانهاية لذاته، فإنه الموصل إلى مطلبك دون الاستعجال. والله تعالى أعلم.

الإشارة: وكذلك أنزلناه قرآناً عربياً، يُعرب عن كمال ظهور ذاته وأنوار صفاته، وصرفنا فيه من الوعيد، لمن تخلف عن شهوده، بعد كمال ظهوره، لعلهم يتقون ما يحجبهم عن رؤيته، أو يُحدث لهم ذكراً، أي: شوقاً يُزعجهم إلى النهوض إلى حضرته، والوصول إليه، فتعالى الله الملك الحق أن يتصل بشيء، أو يتصل به شيء(١)، وإنما الوصول إليه: العلم بإحاطته ووحدة ذاته.

ولا تعجل، أيها العارف، بالقرآن الذي ينزل على قلبك من وحي الإلهام، من قبل أن يُقضى إليك وحيه، فإنّ الورادات الإلهية تأتي مجملة، وبعد الوعي يكون البيان، (فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ثم إن علينا بيانه)، ولكن استزِدْ من ربك العلوم اللدنية والكشوفات الإلهية، أي: لا يكن همك استعجالَ الواردات أو بقاءها، وليكن همك استزادة العلوم ومعرفة واهبها، فإن العلوم وسائل لمعرفة المعلوم، والوصول للحي القيوم. وبالله التوفيق.

(١) رحم الله الشيخ ابن عجيبة، وأثابه على هذه الكلمة العظيمة. ولنا أن نفهم منها نفي الحلول والاتحاد، الذي هو مذهب أهل الزيغ والإلحاد.

ثم بيّن تصريف الوعيد على ارتكاب العصيان وبيان منشئه، وهو عداوة الشيطان فقال: (ولقد..) الخ.. أوتقول: لما نهاه عن العجلة لأجل خوف النسيان، قال له: قد نسي أبوك آدم، فالنسيان من طبع الإنسان، فقال:

﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ﴾

قلت: يقال: عهد إليه الملك، وأوعد إليه، وتقدم إليه: إذا أمره ووصاه.

يقول الحق جل جلاله: ﴿و﴾ الله ﴿لقد عَهِدْنا﴾ وتقدمنا ﴿إلى آدم﴾ من غرور الشيطان وعداوته، ووصيناه ألا يغتر به، ﴿فقلنا يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك﴾، فلا تغتر بنصحه، ﴿فنَسِيَ﴾ ذلك العهد ولم يحتفل به، حتى غفل عنه، واغتر بإظهار نصحه، حتى أكل من الشجرة، متأولاً أن النهي للتنزيه، أو عن عين الشجرة، لا عن جنسها، فأكل من غيرها، ﴿ولم نَجِدْ له عَزْماً﴾ أي: ثبات قدم، وحزماً في الأمور، إذ لو كان كذلك لما غرّه الشيطان بوسوسته، وقد كان ذلك منه عليه السلام في بدء أمره، قبل أن يجرب الأمور؛ ويتولى حارها وقارها، ويذوق شرْيها وأريها(١). وعن النبي ﷺ: «لو وُزنت أحلام بني آدم ـ أي: عقولهم ـ بحلم آدم، لرجح حلمه»(٢).

وقيل: (ولم نجد له عزما) على الذنب، فإنه أخطأ، أو تأول، ولم يتعمد، وأما قوله: (وعصى...)؛ فلعلو شأنه وقُربه عُد عصياناً في حقه، «حسنات الأبرار سيئات المقربين».

ثم شرع في بيان المعهود، وكيفية ظهور نسيانه وفقدان عزمه، فقال: ﴿وإذْ قلنا﴾ أي: واذكر وقت قولنا ﴿للملائكة اسجدوا لآدم﴾، وتعليق الذكر بالوقت، مع أن المقصود تذكير ما وقع فيه من الحوادث؛ للمبالغة في إيجاب ذكرها، فإن الوقت مشتمل على تفاصيل الأمور الواقعة فيه، فالأمر بذكره أمر بذكر تفاصيل ما وقع فيه

---

(١) الشَّري: الحنظل، والأرْي: العسل.

(٢) أخرجه ابن جرير في التفسير (١٦/٢٢١)، وسعيد بن منصور، وابن عساكر، وابن المنذر، كما عزاه لهم السيوطي في الدر المنثور (٤/٥٥٣) عن أبي أمامة الباهلي، موقوفاً.

بالطريق البرهاني، أي: اذكر ماوقع في ذلك الوقت منا ومنه، حتى يتبين لك نسيانه وفقدان عزمه، فقد أمرنا الملائكة بالسجود ﴿ فسجدوا ﴾ كلهم﴿ إلا إبليس أبَى ﴾ السجود واستكبر، أو فعل الإباء وأظهره.

﴿ فقلنا ﴾ عقب ذلك، اعتناء بنصحه، وهو العهد الذي عهدناه إليه: ﴿ يا آدمُ إنَّ هذا ﴾ الذي رأيته فعَلَ ما فعل ﴿ عدوٌ لك ولزوجك ﴾؛ حيث لم يرض بالسجود لك، ﴿ فلا يُخرجنكما من الجنة ﴾ أي: لا يكونن سبباً لإخراجكما من الجنة، والمراد: نهيهما عن الاغترار به، ﴿ فتشقى ﴾: جواب النهي، أي: فتتعب بما ينالكما من شدائد الدنيا، من الجوع والعطش، والفقر والضر، وتعب الأبدان في تحصيل المعاش واللباس، فيكون عيشك من كد يمينك. قال ابن جبير: (أهبط إلى آدم ثور أحمر، فكان يَحرث عليه، ويمسح العرق عن جبينه، فهو شقاؤه). ولم يقل: فتشقيا؛ لأنه غلّب الذَّكَرَ؛ لأن تعبه أكثر، مع مراعاة الفواصل.

قال تعالى له: ﴿ إنَّ لك ﴾ يا آدم ﴿ أن لا تجوع فيها ولا تَعْرى ﴾ من فقد اللباس، ﴿ وأنك لا تظمأ ﴾: لا تعطش ﴿ فيها، ولا تضحى ﴾؛ تبرُز للشمس فيؤذيك حرها، إذ ليس في الجنة شمس ولا زمهرير. والعدول عن التصريح له بما في الجنة من فنون النعم من المآكل والمشارب، والتمتع بأصناف الملابس البهية والمساكن المرضية ـ مع أن فيها من الترغيب في البقاء فيها مالا يخفى ـ إلى ما ذكر من نفي نقائضها، التي هي الجوع والعطش والعرى والضحو؛ لتنفير تلك الأمور المنكرة؛ ليبالغ في التحامي عن السبب المؤدى إليها، على أن الترغيب قد حصل له بما أباح له من التمتع بجميع ما فيها، سوى ما استثنى من الشجرة، حسبما نطق به قوله تعالى: ﴿ يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا ﴾(١)، وقد طوى ذكرها هنا؛ اكتفاءً بما في موضع آخر، واقتصر هناك على ما ذكر من الترغيب المتضمن للترهيب، ونفيُ الجوع وما بعده عن أهل الجنة لأنهم لا يُعْوِزون طعاماً ولا شراباً ولا كِنّاً، بل كلما تمتعوا بشيء مما ذكر، أتبعهم بأمثاله أو أفضل منه، من غير أن ينتهوا إلى حد الضرورة.

قال تعالى: ﴿ فوسوس إليه الشيطانُ ﴾ أي: أنهى إليه وسوسته، أو أسرها إليه، ﴿ قال ﴾ فيها: ﴿ يا آدمُ هل أدلُّكَ على شجرة الخُلْد ﴾؟ أي: شجرة من أكل منها خلد، ولم يمت أصلا، سواء كان على حاله، أو بأن يكون ملكاً، ﴿ و ﴾ أدلك على ﴿ مُلكٍ لا يَبْلَى ﴾ أي: لا يفنى ولا يزول، ولا يَخْتَلُّ بوجه من الوجوه، ﴿ فأكلا منها فبدتْ لهما سوآتُهما ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: عريا عن النور الذي كان الله تعالى ألبسهما، حتى بدت فروجهما. ﴿ وطفِقَا يَخْصِفَان ﴾؛ يرقّعَان ﴿ عليهما من ورقِ الجنة ﴾، وقد تقدم في الأعراف(٢).

---

(١) من الآية ٣٥ من سورة البقرة.

(٢) راجع تفسير الآية ٢٢ من سورة الأعراف.

الإشارة: ولقد عهدنا إلى آدم ألا ينسانا، وألا يغيب عن شهودنا بمُتْعَةِ جنتنا، فنسى شهودنا، ومال إلى زخارف جنتنا، فأنزلناه إلى أرض العبودية، حتى يتطهر من البقايا، وتكمل فيه المزايا، فحينئذ نُسكنه في جوارنا، ونكشف له عن حضرة جمالنا، على سبيل الخلود في دارنا.

قال جعفر الصادق: عهدنا إلى آدم ألا ينسانا، فنسي واشتغل بالجنة، فابتلى بارتكاب النهى، وذلك أنه ألهاه النعيم عن المنعم، فوقع من النعمة في البلية، فأُخرج من النعيم والجنة؛ ليعلم أن النعيم هو مجاورة المنعم، لا الالتذاذ بالأكل والشرب. فلا ينبغى لأحد أن ينظر إلى ما سواه، نسأل الله تعالى أن يمدنا وإياك بالتوفيق والعناية.هـ. قال بعض الحكماء: إنما نسى آدم العهد؛ لأنه لما خلقت له زوجته أوقع الله فى قلبه الأنس بها، وابتلاه بشهوات النفس فيها، فرأى فى وجهها شجرة الحسن بادية، وشهوة الوقاع عليه غالبة. هـ. أى: فترك النظر إلى جمال المعانى، واشتغل بحس الأوانى، فأفضى به إلى ترك الأدب، ولزمه التعب، فليحذر المريد جهده من الميل إلى الحظوظ، وليكن على حذر من الغفلة حين تناولها، والعصمةُ من الله.

وقوله تعالى: ﴿ ولم نجد له عزمًا ﴾، قال الحاتمى: أى: على انتهاك الحرمة، بل وقع بمطالعة قدَر سابق، أنساه ما توجه على التركيب من خطاب الحِجْر. هـ. قال شيخ شيوخنا سيدى عبد الرحمن الفاسي: ومما أشار إليه من مطالعة القدر يتضح لك قوله عليه السلام: «فحج آدمُ موسى»(١)، وليس ذلك لغيره إن لم يكن مجبوراً ومأخوذاً عنه، وهذا القدر هو الفارق بين ما يجرى من المخالفة على الولى وغيره. وقد نبه على ذلك الجنيد بقوله: (وكان أمر الله قدراً مقدوراً)، فأشار لغلبة القدر وقهره، من غير وجود عزم من العبد.هـ. قلت: احتجاج آدم وموسى ـ عليهما السلام ـ لم يكن فى عالم الأشباح، الذى هو محل التشريع، إنما كان فى عالم الأرواح، الذى هو محل التحقيق، فالنظر فى ذلك العالم الروحانى، إنما هو لسر الحقيقة، وهو ألا نسبة لأحد فى فعل ولا ترك، فمن احتج بهذا غَلَب، بخلاف عالم الأشباح، لا يصح الاحتجاج بالقدر؛ لأن فيه خرق رداء الشريعة. فتأمله.

وقال فى التنوير: اعلم أن أكل آدم من الشجرة لم يكن عناداً ولا خلافاً، فإما أن يكون نسى الأمر، فتعاطى الأكل وهو غير ذاكر، وهو قول بعضهم، ونحمل عليه قوله سبحانه: (فَنَسِيَ)، وإن كان تناوله، ذاكراً للأمر، فهو إنما تناول لأنه قيل له: ﴿ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ ... ﴾(٢) الآية، فلحبه فى الله، وشغفه به، أحب مايؤديه إلى الخلود فى جواره والبقاء عنده، أو ما يؤديه إلى الملَكِية؛ لأن آدم عليه السلام عاين قُرب الملائكة من الله،

---

(١) أخرجه البخارى فى (القدر، باب تحاج آدم وموسى عند الله)، ومسلم فى (القدر، باب حجاج آدم وموسى عليهما السلام) عن أبى هريرة. واللفظ: «حاج موسى آدم، فقال له: أنت الذى أخرجت الناس من الجنة بذنبك وأشقيتهم؟ قال آدم: ياموسى أنت الذى اصطفاك الله برسالاته وبكلامه، أتلومنى على أمر كتبه الله علىّ قبل أن يخلقنى؟ فحج آدم موسى».

(٢) من الآية ٢٠ من سورة الأعراف.

فأحب أن يأكل من الشجرة؛ ليتناول الملَكِية، التي هي في ظنه أفضل، لاسيما وقد قال سبحانه: ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾(١)، قال آدم ﷺ: (ما ظننتُ أن أحداً يحلف بالله كاذبا)، فكان كما قال الله سبحانه: ﴿فدلاهما بغرور﴾ .هـ.

وسُئل ابن عطاء عن قوله تعالى: ﴿هل أدلك على شجرة الخلد﴾؟ فقال: قال آدم ﷺ: يارب لِمَ أدّبتنى، وإنما أكلتُ من الشجرة طمعاً فى الخلود فى جوارك؟ فقال الله: يا آدم طلبتَ الخلود من الشجرة لا منى، والخلود بيدى وملكى، فأشركْتَ بى، وأنت لا تعلم، ولكن نبهتك بالخروج من الجنة حتى لا تنسانى فى وقت من الأوقات.هـ. والحاصل: أنه إمَّا أن يُحمل النسيان على حقيقته، ويكون معه وقوع الأكل بمطالعة القدر وقبضة الجبر، ولا يُعارضه: ﴿مانهاكما ربكما عن هذه الشجرة﴾؛ لأنه اتفق ذلك صورة وظاهراً، مع شهود الجبر باطناً، وإمَّا أن يُحمل النسيان على الترك، بتأويل أن النهى ليس على التحتم، فتركه لما أمل من جوار الحق وقربه فى الأكل، فقدمه؛ لأنه أرجح عنده. قاله المحشى.

وقوله تعالى: ﴿فوسوس إليه الشيطان . . .﴾ الآية، يؤخذ منه سد باب التأويلات والرخص فى الأمر الممنوع شرعاً، فإن أُبيح بعضه ومُنع البعض فلا توسعة، فلأن تترك مباحاً خير من أن تقع فى محرم، وقد كان السلف يتركون مائة جزء من المباح، خوفاً من الوقوع فى المحرم. والله الهادى إلى سواء الطريق.

ثم قال تعالى:

﴿... وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾
قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ
هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ
يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ
ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ وَلَعَذَابُ
ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾﴾

(١) الآية ٢١ من سورة الأعراف.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وعصى آدمُ ربَّه ﴾ بما ذكر من أكل الشجرة ﴿ فَغَوى ﴾ أى: ضل عن مطلوبه، الذى هو الخلود، بل ترتب عليه نقيضه، فكان تأميل ذلك باطلاً فاسداً؛ لأنه خلاف القدر، أو عن الرشد، حيث اغتر بقول العدو. وقال الكواشي: فعل فعلاً لم يكن له فعله، أو أخطأ طريق الحق، حيث طلب الخلد بأكل المنهى عنه، فخاب ولم ينل مراده. هـ. وفى وصفه ﷺ بالعصيان والغواية، مع صغر زلته، تعظيم لها، وزجر بليغ لأولاده عن أمثالها.

﴿ ثم اجتباه ربُّه ﴾، أى: اصطفاه وقرّبه إليه، بالحمل على التوبة والتوفيق لها. وفى التعرض لعنوان الربوبية، مع الإضافة إلى ضميره، مزيد تشريف له ﷺ، يعنى: آدم. ﴿ فتاب عليه ﴾ أى: قَبِلَ توبته حين تاب هو وزوجته، قائلين: ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا ... ﴾(١) الآية. ﴿ وهَدَى ﴾ أى: هداه إلى الثبات على التوبة والتمسك بأسباب العصمة. وإفراد آدم ﷺ بقبول توبته واجتبائه؛ لأصالته فى الأمور، واستلزام قبول توبته لقبول توبتها. ﴿ الرجالُ قوامون على النساءِ ﴾(٢).

﴿ قال اهبطا منها جميعًا ﴾، وهو استئناف بيانى، كأنّ سائلاً قال: فما قال تعالى بعد قبول توبته؟ فقيل: قال له ولزوجته: (اهبِطاَ منها) أى: انزلا من الجنة إلى الأرض، حال كونكم ﴿ بعضُكم لبعضٍ عدوٌّ ﴾ أى: متعادين فى أمر المعاش، كما عليه الناس من التجاذب والتحارب والاختلاف فى الدين. والجمع؛ لأنهما أصل الذرية ومنشأ الأولاد. وفى اللباب: ولما أُهبطوا إلى الأرض ألقى آدمُ يده تحت خده، وبكى مائة سنة، وألقت حواءُ يدها على رأسها، وجعلت تصيح وتصرخ، فبقيت سُنّة فى النساء. ولم يزل آدم يبكى حتى صار بخديه أخاديد من كثرة الدموع، وجرى من عينيه على الأرض جدولان، يجريان إلى قيام الساعة. وأُهبط آدم على ورقة من ورق الجنة، كان يتستر بها، وفى يده قبضة من ريحان الجنة، فلما اشتغل بالبكاء أدارتها الرياحُ فى أرض الهند، فصار أكثر نباتها طيباً. انظر بقية كلامه.

﴿ فإمّا يأتينكم منى هُدىً ﴾ أى: هداية من رسول وكتاب يهدى إلى الوصول إلىّ، أى: سيأتيكم منى رسل وكتاب. والخطاب لهما بما اشتملا عليه من ذريتهما. ﴿ فمن اتبع هُدَاىَ ﴾ بأن آمن بالرسل وبما جاءوا به من عند الله ﴿ فلا يضلُّ ﴾ فى الدنيا ﴿ ولا يشقى ﴾ فى الآخرة. ووضع الظاهر موضع المضمر يعنى: من اتبع هداى، مع الإضافة إلى ضميره تعالى؛ لتشريفه والمبالغة فى إيجاب اتباعه. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: (من قرأ الفرقان، واتبع ما فيه، هداه الله من الضلالة، ووقاه يوم القيامة سوء الحساب، وذلك لأن الله تعالى يقول: ﴿فمن اتبع هداى﴾(٣)؛ أى: كتابى ورسولى، ﴿فلا يضل﴾ فى الدنيا، ﴿ولا يشقى﴾ فى الآخرة.) وفى لفظ آخر: (أجار الله

(١) من الآية ٢٣ من سورة الأعراف.
(٢) من الآية ٣٤من سورة النساء.
(٣) أخرجه الطبرى فى التفسير (١٦/٢٥٥) موقوفاً، وعزاه السيوطى فى الدر (٤/٥٥٦) لابن أبى شيبة والطبرانى وأبى نعيم فى الحلية وابن مردويه، مرفوعاً.

تابع القرآن أن يضل فى الدنيا ويشقى فى الآخرة) . قال ابن عرفة: والعطف بالفاء فى قوله: (فإما..) الخ، إشارة إلى أن العداوة سبب فى أن يبعث لهم الرسل يهدونهم إلى طريق الحق، فضلاً منه تعالى، ولذلك أتى «بإن»، دون «إذا» المقتضية للتحقيق الموهم للوجوب . فانظره.

﴿ ومن أعرَضَ عن ذِكْرِى ﴾ ؛ عن القرآن، أو عن الهُدى الذاكر لى والداعى إلىّ، ﴿ فإنَّ له معيشةً ضنكًا ﴾ : ضيقاً، مصدر وصف به، ولذلك يستوى فيه المذكر والمؤنث، يقال: منزل ضنك وعيشة ضنك. وقرئ: «ضنكى» كسكرى. وإنما كان عيشهُ ضيقاً؛ لأن مجامع همته، ومطامح نظره مقصورة على أغراض الدنيا، وهو متهالك على ازديادها، وخائف من انتقاصها، بخلاف المؤمن الطالب للآخرة، فإنّ نور الإيمان يُوجب له القناعة، التى هى رأس الغنى وسبب الراحة، فيحيى حياة طيبة . وقيل: هو عذاب القبر. ورُوى ذلك عن النبى ﷺ. قال أبو سعيد الخدرى: «يُضيق عليه قبره ، حتى تختلف أضلاعه، ويسلط عليه تسعة وتسعون تنينا...» الحديث، وقيل: الصبر على الزقوم والضريع والغسلين.

﴿ ونحشُره يومَ القيامةِ أعمى ﴾ : فاقد البصر كقوله: ﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا ﴾(٢). لا أعمى عن الحجة كما قيل. ﴿ قال ربِّ لِمَ حشرتني أعمى وقد كُنت بصيراً ﴾ فى الدنيا؟ ﴿ قال كذلك ﴾ أى: مثل ذلك فعلتَ أنت؛ ﴿ أتتك آياتُنا ﴾ أى: حججنا النيرة على أيدى رسلنا ﴿ فنسيتَها ﴾ أى: عميتَ عنها، وتركتها ترك المنسي الذى لا يذكر قط، ﴿ وكذلك اليومَ تُنسى ﴾: تترك فى العمى والعذاب، جزاء وفاقاً. وحشره أعمى لايدل على دوامه، بل يزيله عنه فيرى أهوال الموقف ومقعده، وكذلك الصمم والبكم يزيلهما الله تعالى عنهم. ﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ﴾(٣)، فيومُ القيامة ألوان. ثم قال تعالى : ﴿ وكذلك ﴾ أى: مثل ذلك الجزاء الموافق للجنايات. ﴿ نجزي من أسرَف ﴾ وتعدى؛ بالانهماك فى الشهوات، ﴿ ولم يُؤمن بآياتِ ربه ﴾ ، بل كذّب بها وأعرض عنها، ﴿ ولعذابُ الآخرة ﴾ على الإطلاق، أو عذاب النار، ﴿ أشدُّ وأبقى ﴾ من ضنك العيش، أو منه ومن الحشر أعمى، عائذاً بالله من جميع ذلك.

الإشارة: قوله تعالى: ﴿ وعصى آدمُ ربَّه ﴾ ، اعلم أن العصيان الحقيقى هو عصيان القلوب، كالتكبر على عباد الله وتحقير شيء من خلق الله، وكالاعتراض على مقادير الله، وعدم الرضا بأحكام الله. قال بعض الصوفية:(أذنبتُ ذنباً فأنا أبكى منه أربعين سنة، قيل: وما هو؟ قال: قلت لشيء كان: ليته لم يكن) . وأما معصية

---

(١) من الآية ٩٧ من سورة الإسراء.

(٢) من الآية ٣٨ من سورة مريم.

الجوراح، إن لم يكن معها إصرار، فقد تُوجب القرب من الكريم الغفار؛ «معصية أورثت ذُلاً وافتقاراً خير من طاعة أورثت عزاً واستكباراً»، وربما قضى عليك بالذنب فكان سبب الوصول. وتأمل معصية إبليس حيث كانت من القلب أورثت طرداً وإبعاداً، ومخالفة آدم؛ حيث كانت بالجوارح أورثت قُرباً واجتباء.

والحاصل: أن كل ما يَردُّ العبد إلى مولاه، ويحقق له العبودية والانكسار، فهو شرف له وكمال، وكل ما يُقوى وجود النفس ورفعتها فهو نقص وإبعاد، كائناً ما كان، فالعصمة والحِفظة إنما هى من المعاصي القلبية، أو من الإصرار، وأما معاصى الجوارح فيجرى على العبد ما كتب، ولا تنقصه، بل تكمله، كما تقدم. فالتنزيه إنما يكون من النقائص، وهى التى تُوجب البعد عن الحق، لا مما يؤدى إلى الكمال، وبهذا تفهم أن ما وقع من الأنبياء ـ عليهم السلام ـ مما صورته المعصية، ليس بنقص، إنما هو كمال. وكذا ما يصدر من الأولياء، على سبيل الهفوة، فتأمله، ولا تبادر بالاعتراض، حتى تصحب الرجال، فيعلموك النقص من الكمال.

قال الواسطى: العصيان لا يُؤثر فى الاجتبائية، وقوله: ﴿وعصى﴾ أى: أظهر خلافاً، ثم أدركته الاجتبائية، فأزالت عنه مذمة العصيان، ألا ترى كيف أظهر عذره بقوله: ﴿فنسى ولم نجد له عزما﴾.هـ. وقال الشيخ أبو الحسن الشاذلى رضي الله عنه: (نعمت المعصية أورثت الخلافة).

واعلم أن آدم عليه السلام قد أهبط إلى الأرض قبل أن يخلق، قال تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾(١)؛ فقد استخلفه قبل أن يخلقه، لكن حكمته اقتضت وجود الأسباب، فكان أكله سبباً فى نزوله للخلافة والرسالة وعمارة الأرض، فهو نزول حساً، ورفعة معنى، وكذلك زلة العارف تنزله لشرف العبودية، فيرتفع قدره عند الله.

وقوله تعالى: (بعضكم لبعض عدو)، هذا فيمن غلبت عليه الطينية الإمشاجية، وأما من غلبت عليه الروحانية فهم إخوان متحابون، أخلاء متقون، قال تعالى: ﴿الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ﴾(٢).

وقوله تعالى: (فإما يأتينكم منى هدى) أى: داع يدعو إلىَّ، ويهدى إلى معرفتى ودخول حضرتى، فمن تبعهم دخل تحت تربيتهم، فلا يضل ولا يشقى، بل يهتدى ويسعد السعادة العظمى. ومن أعرض عن ذكرهم ووعظهم، وتنكب عن صحبتهم، فإن له معيشة ضنكاً، مصحوبة بالحرص والطمع، والجزع والهلع، ونحشره يوم القيامة أعمى عن شهود ذاتنا، فلا يرى إلا الأكوان الحسية، والزخارف الحسية دون أسرار الذات القدسية. قال ربِّ لِمَ حشرتنى أعمى عن شهود أسرار المعانى، عند رؤية الأوانى، وقد كنتُ بصيراً فى الدنيا ببصر الحس؟ قال: كذلك أتتك آياتنا، وهم الأولياء العارفون، فنسيتَها، ولم تحتفل بشأنها، وكذلك اليوم تُنسى؛ لأن المرء يموت على ما عاش عليه، ويُبعث على ما مات عليه.

(١) من الآية ٣٠ من سورة البقرة.		(٢) الآية ٦٧ من سورة الزخرف.

قال الورتجبي: ونحشره يوم القيامة أعمى، يعني: جاهلاً بوجود الحق، كما كان جاهلاً في الدنيا، كما قال عليّ ـ كرم الله وجهه ـ: من لم يعرف الله في الدنيا لا يعرفه في الآخرة. وقيل: عن رؤية أوليائه وأصفيائه. هـ. وقال القشيري: في الخبر: «مَنْ كان بحالة لقي الله بها»(١). فمَن كان في الدنيا أعمى القلب، يُحشر على حالته، يعيش على ما جهل، ويُحشر على ما جهل، ولذلك يقولون: (من بعثنا من مرقدنا) ؟ إلى أنْ تصيرَ معارفُهم ضرورية ، كما يتركون التدبُّرَ في آياتِه يُتركون غداً في العقوبة من غير رحمةٍ على ضعفِ حالاتهم. هـ.

وكذلك نجزي من أسرف بالعكوف على شهواته، واغتنام أوقات لذاته، حتى انقضت أيام عمره في البطالة، نجزيه غم الحجاب والبعد عن حضرة الأحباب، حيث لم يصدق بوجود آيات ربه؛ وهم الدعاة إلى الله. ولعذاب حجاب الآخرة أشد وأبقى؛ لدوامه واتصاله، نعوذ بالله من غم الحجاب وسوء الحساب، والتخلف عن حضرة الأحباب. وبالله التوفيق.

ثم حضّ على الاعتبار في هذه الدار، فقال:

﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾ ﴾

قلت: (أفلم) : الهمزة للإنكار التوبيخي، والفاء للعطف على محذوف، أي: أغفلوا فلم يهد لهم. وعدى الهداية باللام لتضمنها معنى التبيين، والفاعل مضمونُ (كم أهلكنا) ،أي: أفلم يُبين لهم مآل أمرهم كثرة إهلاكنا للقرون الأولى؟ وقيل: الفاعل ضمير عائد إلى الله. و (كم..) الخ: مُعلق للفعل سد مسد مفعوله. أي: أفلم يُبين الله لهم كثرة إهلاك القرون من قبلهم ؟ والأوجه: أنْ لا يُلاحظ له مفعول، كأنه قيل: أفلم يفعل الله لهم الهداية، ثم قيل بطريق الالتفات: كم أهلكنا.. الخ؛ بياناً لتلك الهداية. و (مِنَ القُرون) : في محل نصب، نعت لمفعول محذوف، أي: قرناً كائناً من القرون.

(١) يؤيد هذا قوله ـ صلى الله عليه سلم: «من مات على شيء بعثه الله عليه». أخرجه أحمد في المسند (٣/٣١٤)، والحاكم في المستدرك (٤/٣١٢) من حديث جابر رضي الله عنه.

وجملة (يمشون): حال من القرون، أى: أهلكناهم وهم فى حال أمن وتقلب فى ديارهم، أو من الضمير فى «لهم»، مؤكد للإنكار، والعامل: «يهد»، والمعنى: أفلم يهد لهم إهلاكنا للقرون السالفة، كقوم نوح ولوط وأصحاب الأيكة، حال كونهم، أى: قريش ـ ماشين فى مساكنهم إذا سافروا إلى الشام، و (أجل مسمى): عطف على (كلمة)، أو استئناف، أى: وأجل مسمى حاصل لهم.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لهم ﴾ أى: أو لم يبين لهم عاقبة أمرهم ﴿ كم أهلكنا قبلَهم من القرون ﴾ أي: كثرة إهلاكنا للقرون السالفة قبلهم، وهم ﴿ يمشون في مساكنهم ﴾ إذا سافروا إلى الشام، كأصحاب الحجر، وثمود، وفرعون، وقوم لوط، مشاهدين لآثار ديارهم خارية، مع علمهم بما جرى عليهم، بسبب تكذيبهم، فإنّ ذلك مما يُوجب أن يهتدوا إلى الحق، فيعتبروا، لئلا يحل بهم مثل ما حلّ بأولئك، أو: ﴿أفلم يهد لهم﴾ كثرة إهلاكنا للقرون السالفة قبلهم، حال كونهم آمنين، ﴿يمشون﴾ فى ديارهم ويتقلبون فى رباعهم ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾(١).

﴿ إنّ في ذلك ﴾ الإهلاك الفظيع ﴿ لآيات ﴾ كثيرة عظيمة واضحة الهداية، دالة على الحق ﴿ لأُولى النُّهى ﴾؛ لذوى العقول الناهية عن القبائح، التى من أقبحها ما يتعاطاه كفار مكة من الكفر بآيات الله، والتعامى عنها، وغير ذلك من فنون المعاصى.

﴿ ولولا كلمةٌ سبقتْ من ربك ﴾، وهو تأخير العذاب عن هذه الأمة إلى الآخرة؛ لحكمة، لعجلنا لهم الهلاك كما عجلنا لتلك القرون المهلكة، التى يمرون عليها ولا يعتبرون، فأصروا على الكفر والعصيان، فلولا تلك العِدَة بتأخير العذاب ﴿ لكان لِزاماً ﴾ أى: لكان عقاب جناياتهم لازماً لهؤلاء الكفرة، بحيث لا يتأخرون عن جناياتهم ساعة، لزوم ما أنزل بأولئك الغابرين، وفى التعرض لعنوان الربوبية، مع الإضافة إلى ضميره ـ عليه الصلاة والسلام ـ تلويح بأن ذلك التأخير تشريف له ﷺ، كما ينبىء عنه قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴾(٢) واللزام: مصدر لازم، وصف به؛ للمبالغة، ﴿ وأجلٌ مسمىً ﴾ أي: لولا كلمة سبقت بتأخيرهم، وأجل مسمى لأعمارهم أو عذابهم، وهو يوم القيامة، أو يوم بدْرٍ، لَمَا تأخر عذابهم أصلاً. وإنما فصله عما عطف عليه، للمسارعة إلى بيان جواب «لولا»، وللإشعار باستقلال كل منهما بنفى لزوم العذاب المعجل، ومراعاة فواصل الآية الكريمة.

---

(١) كما جاء فى الآية ٧٨ من سورة الأعراف.

(٢) من الآية ٣٣ من سورة الأنفال.

﴿ فاصبر على ما يقولون ﴾ أى: إذا كان الأمر على ما ذكرنا؛ من أن تأخير عذابهم ليس بإهمال، بل إمهال، وأنه لازم لهم ألبتة. فاصبر على ما يقولون من كلمات الكفر؛ فإن علمه ﷺ بأنهم هالكون لا محالة مما يسليه ويحمله على الصبر، أو اصبر على ما يقولون، واشتغل بالله عنهم، ولا تلتفت إلى هلاكهم ولا بقائهم، فالله أدرى بهم. ﴿ وسَبِّحْ بحمدِ ربك ﴾ أى: نزّهه عما ينسبون إليه، ما لا يليق بشأنه الرفيع، حامداً له على ما خصك به من الهدى، معترفاً بأنه مُولى النعم كلها.

قال الورتجبى: سماع الأذى يُوجب المشقة، فأزال عنه ما كان قد لحقه من سماع ما يقولونه بقوله: (وسبح بحمد ربك) أي: إن كان سماع ما يقولون يُوحشك، فتسبيحنا يُروحك. هـ. أو: صَلِّ وأنت حامد لربك، الذى يبلغك إلى كمال هدايتك، ويرجح هذا قوله: ﴿ قبل طُلوع الشمسِ وقبل غُروبها ﴾، فإن توقيت التنزيه غير معهود، فإنَّ المراد بقبل طلوع الشمس: صلاة الفجر، وقبل غروبها: صلاة الظهر والعصر، وقيل: العصر فقط.

﴿ ومن آناء الليل ﴾ أى: ساعاته ﴿ فسبِّحْ ﴾ أى: صَلِّ، والمراد به المغرب والعشاء، وآناء: جمع «إنَى»، بالكسر والقصر، أو «أناء» بالفتح والمد. وتقديم المجرور فى قوله تعالى: ﴿ ومن آناء الليل فسبح ﴾؛ لاختصاصها بمزيد الفضل، فإن القلب فيها أجمع، والنفس إلى الاستراحة أميل، فتكون العبادة فيها أشق، ولذلك قال تعالى: ﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلاً ﴾(١). ﴿ و ﴾ سبح أيضا، ﴿ أطرافَ النهار ﴾ وهو تكرير لصلاتى الفجر والمغرب؛ إيذاناً باختصاصهما بمزيد مزية. وجمع (أطراف) بحسب اللفظ مع أمن اللبس، أو يراد بأطراف النهار :الفجر والمغرب والظهر؛ لأنها(٢) نهاية النصف الأول من النهار وبداية النصف الثانى، أو يريد التطوع فى أجزاء النهار.

قلت: وإذا حملناه على التنزيه ـ وهو أن يقول: سبحان الله، أو: لا إله إلا الله، أو كل ما يدل على تنزيه الحق ـ يكون تخصيص هذه الأوقات بالذكر؛ لشرفها. فقد وردت أحاديث فى الترغيب فى ذكر الله أول النهار وآخره، وآناء الليل حين ينتبه من نومه، بحيث يكون كلما تيقظ من نومه سبّح الله وهلّله وكبّره، قبل أن يعود إلى نومه. وهكذا كان أهل اليقظة من السلف الصالح. وقوله تعالى: ﴿ لعلك ترضى ﴾ أى: بما يعطيك من الثواب الجزيل، بالتسبيح فى هذه الأوقات. أو ترضى بالشفاعة فى جميع الخلائق، فتقر عينك حينئذ. وفى صحيح البخارى: «إِنَّكُمْ تَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ الشمس ليس دونها سحاب، فَإِنِ استَطَعْتُم أَلا تُغْلَبُوا عَلَى صَلاَةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ

(١) الآية ٦ من سورة المزمل. (٢) أى: صلاة الظهر.

غروبها فافعلوا، ثُم تَلا هذه الآية: «وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها»»(١) ففيه ترجيح من فسرها بالصلاة، وفيه إشارة إلى أن الصلاة ذكر وإقبال على الله وانقطاع إليه، وذلك مزرعة المشاهدة والرؤية فى الآخرة. وقد جاء فى أهل الجنة: «أنهم يرون ربهم بكرة وعشياً» . هذا فى حق العموم، وأما خصوص الخصوص، ففى كل ساعة ولحظة. والله تعالى أعلم.

الإشارة: أفلَم يَهد لأهل الإيمان والاعتبار، وأهل الشهود والاستبصار، كم أهلكنا قبلهم من القرون الخالية، والأمم الماضية، فهم يمشون فى مساكنهم الدارسة، ويُشاهدون آثارهم الدائرة، كيف رحلوا عنها وتركوها ، واستبدلوا ما كانوا فيه من سعة القصور بضيق القبور، وما كانوا عليه من الفُرش الممهدة بافتراش التراب وتغطية اللحود الممددة، فيعتبروا ويتأهبوا للحوق بهم، فقد كانوا مثلهم أو أشد منهم، قد نما ذكرهم، وعلا قدرهم، وخسف بعد الكمال بدرهم. فكأنهم ما كانوا، وعن قريب مضوا وبانوا، وأفضوا إلى ما قدموا، وانقادوا؛ قهراً، إلى القضاء وسلموا، ففى ذلك عبَر وآيات لأولى النُهى. لكن القلوب القاسية لا ينفع فيها وعظ ولا تذكير، فلولا كلمة الرحمة والحلم بتأخير العذاب، وأجل مسمى لأعمارهم؛ لعجل لهم العقاب.

فاصبر، أيها المتوجه إلى الله، المنفرد بطاعة مولاه، على ما يقولون، مما يُكدر القلوب، واشتغل بذكر ربك وتنزيهه، مع الطلوع والغروب وآناء الليل والنهار، حتى تغيب فى حضرة علام الغيوب، لعلك ترضى بمشاهدة المحبوب. وبالله التوفيق.

ولمّا كان محصل الاعتبار هو صرف الهمة عن هذه الدار، أمر به نبيه ﷺ ومن كان على قدمه، فقال:

﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾ ﴾

قلت: (زهرة): مفعول بمحذوف، يدل عليه (متّعْنَا) أى: أعطينا، أو على الذم، وفيه لغتان: سكون الهاء وفتحها.

---

(١) أخرجه بنحوه البخارى (كتاب مواقيت الصلاه، باب فضل صلاة العصر) ، ومسلم (كتاب المساجد، باب فضل صلاتى الصبح والعصر) من حديث جرير بن عبدالله . ووقع عند مسلم أن الذى قرأ الآية هو جرير، راوى الحديث.

يقول الحق جل جلاله لنبيه ﷺ: ﴿ ولا تمدنَّ عينيك ﴾ أى: لا تطِل نظرهما، بطريق الرغبة والميل ﴿ إلى ما متعنا به ﴾ من زخارف الدنيا ﴿ أزواجًا منهم ﴾ أى: أصنافاً من الكفرة، والمعنى: لا تنظر إلى ما أعطيناه أصناف الكفرة من زخارف الدنيا الغرارة، ولا تستحسن ذلك، فإنه فانٍ، وهو من ﴿ زهرة الحياةِ الدنيا ﴾ أى: بهجتها، ثم يفنى ويبيد، كشأن الزهر، فإنه فائق المنظر، سريع الذبول والذهاب.

متعناهم بذلك، وأعطيناهم الأموال والعز فى الدنيا؛ ﴿ لنفتنهم فيه ﴾ أى: لنعاملهم معاملة من يبتليهم ويختبرهم، هل يقومون بشكره فيؤمنوا بك، ويصرفوه فى الجهاد معك، وينفقوه على من آمن معك.. أم لا؟ أو لنعذبهم فى الآخرة بسببه، فلا تهتم بذلك. ﴿ ورزقُ ربك ﴾ أى: ما ادخر لك فى الآخرة ﴿ خيرٌ ﴾، أو: ورزقك فى الدنيا من الكفاف مع الهُدى، خير مما منحهم فى الدنيا، لأنه مأمون الغائلة؛ بخلاف ما منحوه، فعاقبته الحساب والعقاب. ﴿ وأبقى ﴾؛ فإنه لا ينقطع نفسُه أو أثره، بخلاف زهرة الدنيا، فإنها فانية منقطعة.

فالواجب: الاشتغال بما يدوم ثوابه، ولذلك قال له ﷺ: ﴿ وَأْمُرْ أهلَك بالصلاةِ ﴾، أمره بأن يأمر أهل بيته، أو التابعين له من أمته، بالصلاة، بعد ما أمر هو بقوله: (وسبح بحمد ربك) على ما مر؛ ليتعاونوا على الاستعانة على الخصاصة، ولا يهتموا بأمرِ المعيشة، ولا يلتفتوا لغنى أرباب الثروة. ﴿ واصْطَبِر عليها ﴾؛ وتكلف الصبر على مداومتها، غير ملتفت لأمر المعاش، ﴿ لا نسألُكَ رزقًا ﴾ أى: لا نُكلفك أن ترزق نفسك ولا أهلك، ﴿ نحن نرزقك ﴾ وإياهم، ففرغ قلبك لمشاهدة أسرارنا، ﴿ والعاقبةُ ﴾ المحمودة ﴿ للتقوى ﴾ أى: لأهل التقوى. رُوى أنه ﷺ كان إذا أصاب أهْلَه ضُر أو خصاصة أَمَرَهُمْ بِالصلاةِ، وتلا هذه الآية(١). والله تعالى أعلم.

الإشارة: ما خوطب به نبينا ﷺ خوطب به خاصة أمته، فلا تمدن عينيك، أيها الفقير، إلى ما متع به أهل الدنيا، من زهرتها وبهجتها، بل ارفع همتك عن النظر إليها، واستنكف عن استحسان ما شيدوا وزخرفوا، فإن ذلك حمق وغرور. كان عروة بن الزبير رضي الله عنه إذا رأى أبناء السلاطين وشاراتهم دخل داره وتلا: (ولا تمدن عينيك) ... الآية. وكان يحيى بن معاذ الرازى يقول لعلماء زمانه: ياعلماء السوء؛ دياركم هامانية، ومراكبكم قارونية، وملابسكم فرعونية، فأين السنة المحمدية؟.

ولا تشتغل بطلب رزق، فرزق ربك ـ وهو ما يبرز لك فى وقتك من عين المنة، من غير سبب ولا خدمة ـ خير وأبقى، أما كونه خيراً؛ فلِما يصحبه من اليقين والفرح بالله وزيادة المعرفة، وأما كونه أبقى؛ لأن خزائنه لا تنفد،

(١) أخرجه البيهقى فى شعب الإيمان (باب فى الصبر، ح٩٧٠٥)، وأبو نعيم فى الحلية (٨/١٧٦) من حديث عبدالله بن سلام. وعزاه الهيثمى فى مجمع الزوائد (٧/٦٧) للطبرانى فى الأوسط، من حديث ابن سلام، وقال: رجاله ثقات.

مع بقاء أثره في القلب من ازدياد اليقين، والتعلق برب العالمين. (وأمر أهلك بالصلاة)واصطبر أنت عليها، فإن رزقنا يأتيك لا محالة، في الوقت الذي نريده، (لا نسألك رزقا) لك ولا لأهلك، (نحن نرزقك)، لكن رزق المتقين، لا رزق المترفين، (والعاقبة للتقوى). وبالله التوفيق.

ثم ذكر بعض أقاويل الكفرة، التي أمر عليه الصلاة والسلام بالصبر عليها. أو تقول: ثم رد على من طلب المعجزة، بعد هذا البيان التام، فقال:

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ ۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾ وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿وقالوا﴾ أي: كفار مكة: ﴿لولا﴾: هلا ﴿يأتينا بآية من ربه﴾ تدل على صدقه، أو بآية مما اقترحوها؛ من تفجير الأرض وتسيير الجبال، ولم يعدوا ما شهدوا من المعجزات التي تخر لها الجبال من قبيل الآيات؛ مكابرة وعناداً. قال تعالى: ﴿أولم تأتهم بينة ما في الصحف الأولى﴾ أي: أو لم يأتهم القرآن الذي فيه بيان ما في الصحف الأولى؛ التوراة والإنجيل والزبور، وسائر الكتب السماوية؛ لاشتماله على ما فيها، وزيادة علوم وأسرار. وهذا رد من جهته تعالى لمقالتهم، وتكذيب لهم فيما دسوا تحتها، من إنكار إتيان الآية، بإتيان القرآن الكريم، الذي هو أبهر الآيات، وأسنى المعجزات، وأعظمها، وأبقاها؛ لأن حقيقة المعجزة: اختصاص مدعي النبوة بنوع من الأمور الخارقة للعادة، أيّ أمر كان، ولا ريب في أن العلم أجلّ الأمور وأعلاها؛ إذ هو أصل الأعمال، ولقد ظهر، مع حيازته لعلوم الأولين والآخرين، على يد أمي، لم يمارس شيئاً من العلوم، ولم يدارس أحداً من أهلها أصلاً، فأيّ معجزة تراد بعد وروده؟ وأيّ آية ترام مع وجوده؟! وفي إيراده بعنوان كونه بينة لما في الصحف الأولى، أي: شاهداً بحقية ما فيها من العقائد والأحكام، التي أجمعت عليها كافة الرسل، مالا يخفى من تنويه شأنه وإنارة برهانه، ومزيد تقرير وتحقيق لإتيانه. وقال بعض أهل المعاني: أو لم يأتهم بيان ما في الكتب الأولى، من أنباء الأمم الذين أهلكناهم، لما سألوا الآيات، فأتتهم، فكفروا بها، كيف عجلنا لهم الهلاك؟ فما يؤمن هؤلاء، إن أتتهم البينة، أن يكون حالهم كأولئك.

﴿ ولو أنَّا أهلكناهم ﴾ في الدنيا ﴿ بعذابٍ ﴾ مستأصل، ﴿ من قَبْله ﴾ أي: من قبل إتيان البينة، وهو نزول القرآن ومجيء محمد ﷺ، ﴿ لقالوا ربنا لولا أرسلتَ إلينا رسولاً ﴾ يدعونا مع كتاب يهدينا، ﴿ فنتَّبِعَ آياتك ﴾ التي جاءتنا بها، ﴿ من قبل أن نَّذِلَّ ﴾ بالعذاب في الدنيا، ﴿ ونَخْزَى ﴾ بدخول النار يوم القيامة، ولكنا لم نهلكهم قبل إتيانها، فانقطعت حجتهم، فإذا كان يوم القيامة ﴿ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ ﴾(١).

﴿ قُلْ ﴾ لأولئك الكفرة المتمردين: ﴿ كُلٌّ ﴾ أي: كل واحد منكم ومنا، ﴿ متربصٌ ﴾: منتظر ما يؤول إليه أمرنا وأمركم، (فتربصوا)؛ فانتظروا. أو كُلٌّ منتظر دوائر الزمان، ولمن يكون النصر، ﴿ فتربصوا فستعلمون ﴾ عن قريب ﴿ من أصحابُ الصراطِ السَّوِيِّ ﴾ أي: المستقيم، أو السواء، أي: الوسط الجيد، ﴿ ومن اهتدى ﴾ من الضلالة، هل نحن أو أنتم. والله تعالى أعلم.

الإشارة: لا يُشترط في الولي العارف بالله، الداعي إلى الله، إظهار الآيات، ويكفي، برهاناً عليهم، كونهم على بينة من ربهم، وهداية الخلق على أيديهم، وما أظهروه من علم أسرار التوحيد، ومن فنون علم الطريق، مع كون بعضهم أميين، لم يتقدم له مدارسة علم قط، كما شهدناهم، بعثهم الله في كل عصر، يُعرفون بالله، ويدلون على أسرار ذاته وأنوار صفاته، على سبيل العيان، لتقوم الحجة على العباد، فإذا بُعثوا يوم القيامة جاهلين بالله محجوبين عن شهود ذاته، متخلفين عن مقام المقربين، يقولون: لولا أرسلت إلينا رسولاً يُعرفنا بك، فنتبع آياتك حتى نصل إليك، من قبل أن نذل بالانحطاط عن درجة المقربين، أو نخزى بإسدال الحجاب. يقول الحق تعالى: قد بعثتهم، فأنكرتموهم، فإذا اغتروا اليوم، واحتجوا بقول من قال: انقطعت التربية، فقل: كلٌّ متربص فتربصوا، فستعلمون من أصحاب الصراط السَّوِي ومن اهتدى. وبالله التوفيق، وهو الهادي إلى سواء الطريق، وصلَّى الله على سيدنا ومولانا محمد، وعلى آله وصحبه، وسلَّمَ تسليما.

❁ ❁ ❁

(١) من الآية ٩ من سورة الملك.

سُورَةُ الأَنبِيَاءِ

مكية. وهى مائة واثنتا عشرة آية. ومناسبتها لما قبلها: قوله تعالى: ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ﴾(١)؛ لأن علمَ ذلك إنما يظهر، حقيقةً، يوم الحساب الذى صدَّر به السورة، فقال تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ... ﴾

قلت: (وهم): مبتدأ، و(فى غفلة): خبر، و(معرضون): خبر بعد خبر، والجملة: حال من الناس. و(من ذكْر): فاعل بيأتى. و(مِن): صلة، و(من ربهم): صفة لذكْر، أى: حاصل من ربهم، أو متعلق بيأتيهم، أو صفة لذكر، وجملة (استمعوه): حال من مفعول «يأتيهم»، بإضمار (قد) أو بدونه، والاستثناء مفرغ من أعم الأحوال. و(هم يلعبون): حال أيضاً من فاعل «استمعوه»، و(لاهية): حال من واو «يلعبون»، و (قلوبهم): فاعل بلاهية.

يقول الحق جل جلاله: ﴿اقتربَ للناس حسابُهم﴾ أى: قَرُبَ قيام الساعة التى هى محل حسابهم. قال ابن عباس: «المراد بالناس: المشركون، وهو الذى يفصح عنه ما بعده، ولم يقل تعالى: «اقترب حساب الناس»، بل قدّم لام الجر على الفاعل؛ للمسارعة إلى إدخال الروعة، فإن نسبة الاقتراب إليهم من أول الأمر مما يسوؤهم ويورثهم رهبة وانزعاجاً، كما أن تقديم اللام فى قوله تعالى: ﴿خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا﴾؛ (٢) لتعجيل المسرة؛ لأن كون الخلق لأجل المخاطبين مما يسرهم ويزيدهم رغبة وشوقاً إليه تعالى.

وفى إسناد الاقتراب إلى الحساب المنبئ عن التوجه نحوهم، مع صحة إسناد الاقتراب إليهم بأن يتوجهوا نحوه، من تفخيم شأنه، وتهويل أمره، مالا يخفى، لِماَ فيه من تصويره بشيء مقبل عليهم، لا يزال يطلبهم حتى يصيبهم لامحالة. ومعنى اقترابه: دنوه منهم شيئاً فشيئاً حتى يلحقهم؛ لأن كل آت قريب، أى: دنا حساب أعمالهم السيئة الموجبة للعقاب.

﴿وهم فى غفلة﴾ تامة منه، ساهون بالمرة عنه، غير ذاكرين له، لا أنهم غير مبالين به، مع اعترافهم بإتيانه، بل هم منكرون له، كافرون به، ﴿معرضون﴾ عن الآيات والنُّذُر المنبهة لهم عن سِنة الغفلة. ﴿ما يأتيهم من ذكر﴾

(١) من الآية ١٣٥ من سورة طه.

(٢) من الآية ٢٩ من سورة البقرة.

أى: من طائفة نازلة من القرآن، تذكر ذلك الحساب، وتنبههم عن الغفلة عنه، كائن أو نازل ﴿من ربهم﴾، أو ذاكر ومذكر من ناحية ربهم. وفى إضافته إليه سبحانه دلالة على شرفه، وكمال شناعة ما فعلوه من الإعراض عنه، وفى التعبير بعنوان الربوبية تشنيع لكمال عتوهم، ومِنْ صفة ذلك الذكر ﴿مُحْدَث﴾ تنزيله بحسب اقتضاء الحكمة، بمعنى أنه نزل شيئاً فشيئاً، أو قريب عهد بالنزول، فمعانى القرآن قديمة، وإظهاره بهذه الحروف والأصوات حادث. وقال ابن راهويه: قديم من رب العزة، محدث إلى أهل الأرض.

فما ينزل عليهم شىء من القرآن يذكرهم ويعظهم ﴿إلا استمعوه وهم يلعبون﴾؛ لا يتعظون به، ولا يتدبرون فى معانيه، ﴿لاهيةً قلوبُهم﴾؛ ساهية، معرضة عن التفكر والتدبر فى معانيه. وتقدير الآية: مايأتيهم من ذكر من ربهم محدث، فى حال من الأحوال، إلا حال استماعهم إياه كانوا لاعبين مستهزءين به، لاهين عنه، حال كون قلوبهم لاهيةً عنه؛ لتناهى غفلتهم وفرط إعراضهم عن النظر والتفكر فى عواقب الأمور. والله تعالى أعلم.

الإشارة: حمل الآية على العموم هو الظاهر عند الصوفية. وقد ورد عن رجل من الصحابة أنه كان يبنى، فلقى بعض الصحابة فقال: ماذا نزل اليوم من القرآن؟ فقال له: ﴿اقترب للناس حسابهم﴾، فنفض التراب، وقال: والله لا بنيتُ. هـ. أى: اقترب للناس حسابهم على النقير والقطمير، وهم فى غفلة عن التأهب والاستعداد، معرضون عن اتخاذ الزاد، ما يأتيهم من ذكر من ربهم، يعظهم ويوقظهم، إلا استمعوه بآذانهم، وهم يلعبون ساهون عنه بقلوبهم؛ لحشوها بالوساوس الشيطانية والعلائق النفسانية. لاهية قلوبهم عن التفكر والاعتبار والتدبر والاستبصار.

قال القشيرى: ويقال: الغفلة على قسمين؛ غافلٌ عن حسابه؛ لاستغراقه فى دنياه، وغافلٌ عن حسابه؛ لاستهلاكه فى مولاه، فالغفلة الأولى سِمَةُ الهجر، والثانية صِفَةُ الوصل، فالأولون لا يستفيقون من غفلتهم إلا فى عسكر الموتى، وهؤلاء لا يرجعون عن غيبتهم أبدَ الأبد؛ لفنائهم فى وجود الحق. هـ. قلت: القسمة ثلاثية: قوم غفلوا عن حسابهم؛ لاشتغالهم بحظوظهم وهواهم، وهم: الغافلون الجاهلون، وقوم ذكروا حسابهم، وجعلوه نصب أعينهم، وتأهبوا له، وهم: الصالحون والعباد والزهاد، وقوم غفلوا عنه، وغابوا عنه؛ لاستغراقهم فى شهود مولاهم، وهم: العارفون المقربون. جعلنا الله منهم بمنّه وكرمه.

ثم ذكر المنهمكين فى الغفلة، فقال:

﴿ ... وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّى يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٤﴾ بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٥﴾ مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ ﴾

قلت : «الذين ظلموا» : بدل من الواو، مُنبئ عن كونهم موصوفين بالظلم فيما أسروا به. وقال الكلبي: فيه تقديم وتأخير، أراد الذين ظلموا أسروا النجوى. فيكون «الذين» : مبتداء و«أسروا» : خبر مقدم.

وقال قطرب: على لغة بعض العرب، يقولون: أكلوني البراغيث، وهي بلغة بلحارث وغيرهم. وقال الفراء: بدل من الناس، أي: اقترب للناس وهم الذين ظلموا. و(هل هذا..) إلخ: بدل من النجوى، أو مفعول بقول مضمر، كأنه قيل: ماذا قالوا في نجواهم؟ فقيل: قالوا: هل هذا.. إلخ و(أنتم تبصرون) : حال من واو «تأتون» ؛ مقررة للإنكار، مؤكدة للاستبعاد. و(من قرية) : فاعل آمنت، و«من» : صلة للعموم. و(أهلكناها) : صفة لقرية.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وأَسَرُّوا النجوى ﴾ : أخفوا تناجيهم بحيث لم يشعر أحد بما قالوا، وهم ﴿ الذين ظلموا ﴾ بالكفر والطغيان، قائلين في تلك النجوى الشنيعة: ﴿ هل هذا ﴾ أي: ما هذا الرجل الذي يزعم أنه رسول ﴿ إلا بشرٌ مثلكم ﴾ أي: من جنسكم، وما أتى به سحر، ﴿ أفتأتون السحر وأنتم تُبصرون ﴾ أي: تعلمون ذلك فتأتونه، وتحضرونه على وجه الإذعان والقبول، وأنتم تعاينون أنه سحر؟. قالوا ذلك، بناء على ما ارتكز في اعتقادهم الزائغ، أن الرسول لا يكون إلا مَلَكاً، وأنّ كل ما يظهر على يد البشر من الخوارق هو من قبيل السحر، وغاب عنهم أن إرسال البشر إلى البشر هو الذي تقتضيه الحكمة التشريعية. قاتلهم الله أنى يؤفكون. وإذا أسروا ذلك ولم يعلنوه؛ لأنه كان على طريق توثيق العهد؛ خفية، وتمهيداً لمقدمات المكر والكيد في هدم أمر النبوة، وإطفاء نور الدين. ﴿والله متم نوره ولو كره الكافرون﴾.

ثم فضح الله سرهم ونجواهم بقوله: ﴿ قل(١) ربي يعلم القولَ في السماء والأرض ﴾ أي: قل يا محمد: ربي يعلم القول، سراً كان أو جهراً، سواء كان في السماء أو الأرض، فلا يخفى عليه ما تناجيتم به، فيفضحكم به ويجازيكم عليه. وقرأ أكثر أهل الكوفة: (قال) ؛ على الخبر، وهو حكاية من جهته تعالى لِمَا قاله ـ ﷺ ـ بعد ما أوحى إليه أحوالهم وأقوالهم؛ بياناً لظهور أمرهم وانكشاف سرهم، وإيثار القول المشتمل على السر والجهر؛ للإيذان بأن علمه تعالى بالسر والجهر على وتيرة واحدة، لاتفاوت بينهما بالجلاء والخفاء، كما في علوم الخلق.

﴿ وهو السميعُ العليم ﴾ أي: المبالغ في العلم بالمسموعات والمعلومات، التي من جملة ما أسروه من النجوى، فيجازيهم بأقوالهم وأفعالهم. ﴿ بل قالوا أضغاثُ أحلام ﴾ ، هو إضراب من جهته تعالى، وانتقال من حكاية قولهم السابق إلى حكاية قول آخر مضطرب في مضارب البطلان، أي: لم يقتصروا على أن يقولوا في حقه ـ عليه الصلاة والسلام ـ: هل هذا إلا بشر، وفي حق ما ظهر على يديه من القرآن الكريم: إنه السحر، بل قالوا: هو تخاليط

---

(١) قرأ حمزة والكسائي وحفص: «قال ربي». وقرأ الباقون : «قل» على الأمر. انظر الإتحاف (٢/ ٢٦١).

أحلام وأباطيلها، فهو أشبه شيء بالهذيان، ثم أضربوا عنه، وقالوا: ﴿ بل افتراه ﴾ من تلقاء نفسه، من غير أن يكون له أصل أو شبهة أصل. ثم قالوا: ﴿ بل هو شاعر ﴾، وما أتى به شعر يُخيل إلى السامع، لا حقيقة لها. وهكذا شأن المبطل المحجوج، متحير، لايزال يتردد بين باطل وأبطل، ويتذبذب بين فاسد وأفسد.

فالإضراب الأول، كما ترى، من جهته تعالى، والثانى والثالث من قِبلهم. وقد قيل: الكل من قِبلهم، حيث أضربوا عن قولهم: هو سحر، إلى أنه تخاليط أحلام، ثم إلى أنه كلام مفترى، ثم إلى أنه قول شاعر، وهو بعيد؛ لأنه لو كان كذلك لقال: قالوا: بل أضغاث أحلام ... الخ.

ثم قالوا: ﴿ فلْيأتِنا بآيةٍ ﴾؛ وهو جواب عن شرط محذوف، يُفصح عنه السياق، كأنه قيل: وإن لم يكن كما قلنا، بل كان رسولاً من الله تعالى، فليأتنا بمعجزة ظاهرة ﴿ كما أُرسل الأولون ﴾ أى: مثل الآية التى أُرسل بها الأولون؛ كاليد، والعصا، والناقة وشبه ذلك. فالكاف: صفة لمصدر محذوف، أى: إتياناً مثل إتيان الأولين.

قال تعالى: ﴿ ما آمنتْ قبلَهم من قرية أهلكناها ﴾ أى: أهلكنا أهلها، ﴿ أَفَهُمْ ﴾ أى: هؤلاء المقترحون عليك الآيات، ﴿ يؤمنون ﴾ أى: قد اقترحتْ الأمم السالفة الآيات على رُسلها، فأُعطوا ما اقترحوا، فلم يؤمنوا، فأهلكناهم، فكيف يؤمن هؤلاء، وهم أعتى منهم؟ فالهمزة: لإنكار الوقوع، والفاء: للعطف على مقدر، فأفادت إنكار وقوع إيمانهم. والمعنى: لم تؤمن أمة من الأمم المهلكة عند إعطاء ما اقترحوه من الآيات، أهم لم يؤمنوا، فهؤلاء يُؤمنون، لو أُجيبوا إلى ما سألوا وأُعطوا ما اقترحوه، مع كونهم أعتى منهم وأطغى؟ فهم فى اقتراح الآيات كالباحث على حتفه فطلبه، وفي ترك إجابتهمّ إبقاء عليهم، كيف لا، ولو أعطوا ما اقترحوا، مع عدم إيمانهم قطعاً، لوجب استئصالهم، بجريان سُنَّةِ الله تعالى في الأمم السالفة أن المقترحين، إذا أُعطوا ما اقترحوا، فلم يؤمنوا، نزل بهم عذاب الاستئصال لا محالة، وقد سبقت كلمة الحق منه تعالى أن هؤلاء لا يُعذبون بعذاب الاستئصال، فلذلك لم يُظهر لهم ما اقترحوا من الآيات. والله تعالى أعلم.

الإشارة: العلماء بالله، الداعون إلى الله، هم ورثة الأنبياء والرسل، فما قيل فى الأصل قد قيل فى الفرع، فكل عصر يُوجد من يُنكر على خواص ذلك العصر، ويرميهم بالسحر والجنون. والافتراء على الله سُنة ماضية. غير أن أولياء هذه الأمة على قدم نبيهم، رحمة للعالمين، فمن آذاهم لا يُعاجَل بالعقوبة فى الغالب، وقد تكون باطنية، كقسوة القلوب، والخذلان، والشكوك، والأوهام. وهذا الوصف فى العارفين الكملة، وأما الزهاد والعباد والصالحون: فمن آذاهم عُوجل بالعقوبة في الغالب؛ لنقص كمالهم، وعدم اتساع دائرة معرفتهم. وبالله التوفيق.

ثم ردّ على من أنكر رسالة البشر، فقال:

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۖ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ ﴿٨﴾ ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله في جواب قول الكفرة: ﴿ هَلْ هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾(١) بعد تقديم الجواب عن قولهم: ﴿ فليأتنا بآية ﴾؛ لأنهم قالوه بطريق التعجيز، فلابد من المسارعة إلى رده، كما تقدم مراراً في الكتاب العزيز، كقوله ﴿ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللَّهُ .. ﴾(٢) الآية، ﴿ مَا نُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ إِلاَّ بِالْحَقِّ ﴾ الآية(٣). إلى غير ذلك، فقال جل جلاله: ﴿ وما أرسلنا قَبلك ﴾ في الأمم السالفة ﴿ إلا رجالاً ﴾؛ بشراً من جنس القوم الذين أُرسلوا إليهم؛ لأن مقتضى الحكمة أن يُرسل البشر إلى البشر، والملَك إلى الملَك، حسبما نطق به قوله تعالى: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولاً ﴾(٤) فإن عامة البشر لا تطيق المفاوضة مع الملك؛ لتوقفها على التناسب بين المفاوض والمستفيض؛ فبعث لكل جنس ما يناسبه؛ للحكمة التي يدور عليها فلك التكوين والتشريع، والذي تقتضيه الحكمة الإلهية أن يبعث الملك إلى خواص البشر المختصين بالنفوس الزكية، المؤيدين بالقوة القدسية، المتعلقين بالعالم الروحاني والجسماني، ليتلقوا من جانب العالم الروحاني، ويلقوا إلى العالم الجسماني، فبعث رجالاً من البشر يوحي إليهم على أيدي الملائكة أو بلا واسطة.

والمعنى: وما أرسلنا إلى الأمم، قبل إرسالك إلى أمتك، إلا رجالاً مخصوصين من أفراد الجنس، متأهلين للاصطفاء والإرسال، ﴿ نُوحي إليهم ﴾، بواسطة الملك، ما يُوحى من الشرائع والأحكام، وغيرهما من القصص والأخبار، كما يُوحي إليك من غير فرق بينهما، ﴿ فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون ﴾ أي: فاسألوا، أيها الجهلة، أهلَ العلم؛ كأهل الكتب الواقفين على أحوال الرسل السالفة - عليهم الصلاة والسلام - لتزول شبهتكم إن كنتم لا علم لكم بذلك. أُمروا بذلك؛ لأن إخبار الجم الغفير يُوجب العلم الضروري، لاسيما وهم كانوا يشايعون المشركين عداوته ﷺ، ويشاورونهم في أمورهم، فإذا أخبروهم أن الرسل إنما كانوا بشراً، ولم يكونوا ملائكة، حصل لهم العلم بالحق، وقامت الحجة عليهم.

(١) من الآية ٣ من سورة الأنبياء
(٢) من الآية ٣٣ من سورة هود.
(٣) الآية ٨ من سورة الحجر.
(٤) الآية ٩٥ من سورة الإسراء.

وتوجيه الخطاب إلى الكفرة فى السؤال، بعد توجيهه إلى الرسول - عليه الصلاة والسلام - فى الإرسال؛ لأنه الحقيق بالخطاب فى أمثال تلك العلوم والحقائق الأنيقة، وأما الوقوفُ عليها باستخبار من الغير فهو من وظائف العوام.

ثم بيَّن كون الرسل - عليهم الصلاة والسلام - أسوة لأفراد الجنس فى أحكام البشرية، فقال: ﴿ وما جعلناهم جسدًا ﴾ أى: أجساداً، فالإفراد لإرادة الجنس، أو ذوى جسد، ﴿ لا يأكلون الطعامَ ﴾ أى: وما جعلناهم أجساداً صمدانيين، أغنياء عن الطعام والشراب، بل مُحتاجين إلى ذلك؛ لتحقيق العبودية التى اقتضت شرفهم. ﴿ وما كانوا خالدين ﴾ ؛ لأن كل من يفتقر إلى الغذاء لابد يتحلل بدنه بسرعة، حسبما جرت العادة الإلهية، والمراد بالخلود: المكث المديد، كما هو شأن الملائكة أو الأبدية. وهم معتقدون أنهم كانوا يموتون. والمعنى: بل جعلناهم أجساداً مفتقرة صائرة إلى الموت عند انقضاء آجالهم، لا ملائكة ولا أجساداً صمدانية.

﴿ ثم صَدَقْناهم الوعد ﴾ بالنصر وإهلاك أعدائهم، وهو عطف على ما يُفْهَمُ من وحيه تعالى إليهم، كأنه قيل: أوحينا إليهم ما أوحينا، ثم صدقناهم فى الوعد، الذى وعدناهم فى تضاعيف الوحى، بإهلاك أعدائهم، ﴿ فأنجيناهم ومَنْ نشاء ﴾ من المؤمنين وغيرهم، ممن تستدعى الحكمة إبقاءه، كمن سيُؤمن هو أو بعض فروعه، وهو السر فى حماية العرب من عذاب الاستئصال. أو يخص هذا العموم بغير نبى الرحمة ﷺ؛ فإن أمته لا تستأصل، وإن بقى فيها من يكفر بالله؛ لعل الله يُخرج من أصلابهم من يوحد الله تعالى. ﴿ وأهلكنا المسرفين ﴾ أى: المجاوزين الحد فى الكفر والمعاصى.

ولمّا ذكر برهان حَقّيَّةِ الرسول - عليه الصلاة والسلام - ذكر حقية القرآن المنزل عليه، الذى ذكر فى صدر السورة إعراض الناس عما يأتيهم من آياته، فقال: ﴿ لقد أنزلنا إليكم ﴾ ، صدّره بالقسم؛ إظهاراً لمزيد الاعتناء بمضمونه، وإيذاناً بكون المخاطبين فى أقصى مراتب التنكير، أى: والله لقد أنزلنا إليكم، يا معشر قريش، ﴿ كتاباً ﴾ عظيم الشأن نيِّر البرهان. فالتنكير للتفخيم، أى: كتاباً جليل القدر ﴿ فيه ذِكْرُكم ﴾ أى: شرفكم وحسن صيتكم، كقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾(١)، أو فيه تذكيركم وموعظتكم، أو ما تحتاجون إليه فى أمر دينكم ودنياكم، أو ما تطلبون به حسن الذكر والثناء من مكارم الأخلاق، ﴿ أفلا تعقلون ﴾ فتتدبروا فى معانيه حتى تُدركوا حقيته. فالهمزة للإنكار التوبيخى. وفيه حث لهم على التدبر فى أمر الكتاب، والتأمل فى تضاعيفه من فنون المواعظ والزواجر، التى من جملتها القوارع السابقة واللاحقة، والمعطوف: محذوف، أى: أَعَمِيَتْ بصائركم فلا تعقلون؟ والله تعالى أعلم.

---

(١) من الآية ٤٤ من سورة الزخرف.

الإشارة: ثبوت الخصوصية لا ينافي وصفَ البشرية، فنسبة أهل الخصوصية من البشر كاليواقيت بين الحجر. ولا فرق بين خصوصية النبوة والولاية في الاتصاف بأوصاف البشرية، التي لا تُودي إلى نقص في مراتبهم العلية. وتتميز خصوصية النبوة من الولاية بوحي الأحكام، وتتميز خصوصية الولاية من العمومية بالتطهير من الرذائل والتحلي بالفضائل، وبالغيبة عن رؤية الأكوان، بإشراق شمس العرفان، وذلك بالفناء عن الأثر بشهود المؤثِر، ثم بالبقاء بشهود الأثر؛ حكمةً، مع الغيبة عنه، قدرةً، ولا يعرف هذا إلا أهل الذكر الحقيقي، فلا يعرف مقام الأولياء إلا من دخل معهم، ولا يُسأل عنهم إلا أمثالُهم؛ (فاسْألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون). فلا يشترط في الولي استغناؤه عن الطعام والشراب؛ إذ لم يكن للأنبياء، فكيف بالأولياء؟ ولا استغناؤه عن النساء، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ﴾(١)، نعم؛ صاحب الخصوصية مالك لنفسه من غلبة الشهوة عليه، ينزل إلى أرض الحظوظ بالإذن والتمكين، والرسوخ في اليقين. جعلنا الله منهم بمنّه وكرمه. وتقدم الكلام على قوله تعالى: ﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ ﴾ في سورة النحل(٢). وبالله التوفيق.

ثم بيّن ما أجمل في قوله: (وأهلكنا المسرفين)، فقال:

﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ ﴿١٥﴾ ﴾

قلت: كم: خبرية مفيدة للتكثير، ومحلها نصب، مفعول بقصمنا، و(من قرية): تمييز، و(كانت..) الخ: صفة لقرية.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وكم قَصَمْنَا من قرية ﴾ أي: كثيراً أهلكنا من أهل قرية ﴿ كانت ظالمةً ﴾ بآيات الله تعالى، كافرين بها. وفي لفظ القصم - الذي هو عبارة عن الكسر؛ بإبانة أجزاء المكسور وإزالتها بالكلية - من الدلالة على قوة الغضب والسخط ما لا يخفى. ﴿ وأنشأنا ﴾ أي: أحدثنا ﴿ بعدها ﴾ أي: بعد إهلاكها ﴿ قوماً آخرين ﴾ ليسوا منهم نسباً ولا ديناً، ففيه تنبيه على استئصالهم وقطع دابرهم بالكلية. ﴿ فلما أحسُّوا بأسنا ﴾ أي: أدركوا عذابنا الشديد إدراكَ المشاهَد المحسوس ﴿ إذا هم منها ﴾ أي: من القرية ﴿ يركُضُون ﴾: يهربون مدبرين راكضين دوابهم. فقيل لهم، بلسان الحال أو المقال من الملَك، أو ممن حضرهم من المؤمنين،

(١) من الآية ٣٨ من سورة الرعد.		(٢) الآية ٤٣ من سورة النحل.

بطريق الاستهزاء والتوبيخ: ﴿لا تركُضُوا وارجعـوا إلى مـا أُترِفْتُم فيـه﴾ من النعم والتلذذ ﴿و﴾ إلى ﴿مساكِنِكُم﴾ التى كنتم تفتخرون بها، ﴿لعلكم تُسألون﴾؛ تُقصدون للسؤال، إذ كانوا أغنياء، أو للتشاور والتدبر فى المهمات والنوازل، أو تُسألون الفداء فتَفْتَدُوا من العذاب، أو تُسألون عن قتل نبيكم وفيم قتلتموه.

قيل: نزلت فى أهل حاضُورا، قرية باليمن، وكان أهلها العرب، فبعث الله إليهم نبياً فكذبوه وقتلوه، فسلط الله تعالى عليهم بُخْتَنصَّرْ، فقتلهم وسباهم، فلما انهزموا وهربوا قالت لهم الملائكة: لا تركضوا، وارجعوا إلى مساكنكم وأموالكم؛ استهزاءً بهم، وأتبعهم بُختنصر، فأخذتهم السيوف، ونادى مناد من السماء: يالَثَارات الأنبياء، فلما رأوا ذلك أقروا بالذنوب حين لم ينفعهم، فقالوا: ﴿يا ويلنا﴾؛ يا هلاكنا؛ ﴿إنا كنا ظالمين﴾ مستوجبين العذاب. وهذا اعتراف منهم وندم حين لم ينفعهم ذلك.

﴿فما زالتْ تلك دعواهم﴾ أى: فما زالوا يُرددون تلك الكلمة، ويدعون بها ، ويقولون: يا ويلنا، ﴿حتى جعلناهم حصيداً﴾ أى: مثل الحصيد، وهو المحصود من الزرع والنبات، فهو فعيل بمعنى مفعول، فلذلك لم يجمع، كجريح وقتيل. وجعلناهم ﴿خامدين﴾؛ ميتين، من خمدت النار إذا طفئت. وهو، مع «حصيداً»، فى حيز المفعول الثانى لجعل، كقولك: جعلته حلواً حامضاً، والمعنى: جعلناهم جامعين لمماثلة الحصيد والخمود، أو حال من الضمير المنصوب فى «جعلناهم»، ولفظ الآية يقتضى العموم. والله تعالى أعلم.

الإشارة: وكم من قرية من قرى القلوب قصمنا أهلها، أى: ما فيها من الشكوك والأوهام، كانت ظالمة بتلك الخواطر، فأخرجناهم منها، وأنشأنا بعدها أنواراً وأسراراً وعلوماً آخرين. فلما أحسوا بأسنا بورود الواردات الإلهية عليها، التى تأتى من حضرة القهار، إذا هم منها يركضون؛ لأن الواردات الإلهية تأتى من حضرة القهار، لأجل ذلك لا تصادم شيئاً من الظلمات إلا دمغته، فيقال لتلك الظلمات، التى هى الشكوك والأوهام: لا تركضوا، ولكن ارجعوا أنواراً، وانقلبوا وارداتٍ وأسراراً، وتنعموا فى محلكم بشهود الحق، لعلكم تُسألون، أى: تُسْتَفْتَوْنَ فى الأمور، لأن القلب إذا صفا من الأكدار استفتى فى العلوم، وفى الأمور التى تعرض، قالوا بلسان الحال ـ أى تلك الظلمات ـ: يا ويلنا إنا كنا ظالمين؛ بحجب صاحبنا عن الله، فما زالت تلك دعواهم حتى صاروا خامدين، هامدين، ساكنين تحت مجارى الأقدار، مطمئنين بالله الواحد القهار، وهذه إشارة دقيقة، لا يفهمها إلا دقيق الفهم غزير العلم. وبالله التوفيق.

ثم بيّن أن إهلاك تلك القرى الظالمة كان لحكمة بليغة ومصلحة بديعة، ولم يكن عبثًا؛ لأنه تعالى منزه عن اللعب فى خلقه، فقال:

﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ ﴾

قلت: (لاعبين): حال من فاعل خلق، و«إن كنا»: شرط حُذف جوابه، أي: إن كنا فاعلين اتخذناه من لُدُنا، وقيل: نافية.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وما خلقنا السماءَ والأرضَ وما بينهما ﴾ من المخلوقات التي لا تُحصى أجناسها، ولا تُعد أفرادها، ولا تُحصر أنواعها وآحادها، على هذا النمط البديع والأسلوب الغريب، ﴿ لاعبين ﴾؛ خالية عن الحِكم والمصالح، بل لحِكَم بديعة ومصالح عديدة، دينية تَقْضي بسعادة الأبد أو بشقاوته، ودنيوية لا تُعد ولاتُحصى، وهذا كقوله: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ﴾[1]، فالمراد من الآية: إشارة إجمالية إلى أن تكوين العالم، وإبداع بني آدم، مؤسس على قواعد الحِكَم البالغة، المستتبعة للغايات الجليلة، وتنبيه على أن ماحكي من العذاب الهائل، والعقاب النازل بأهل القُرى، من مقتضيات تلك الحِكم، ومتفرع عليها حسبما اقتضته أعمالهم. وإنما فعل ذلك؛ عدلاً منه، ومجازاة على أعمالهم، وأن المخاطبين المتقدمين ـ وهم قريش ـ على آثارهم؛ لأن لهم ذنوباً مثل ذنوبهم. وإنما عبَّر عن نفي الحكمة باللعب، حيث قال: ﴿لاعبين﴾؛ لبيان كمال تنزهه تعالى عن الخلق الخالي عن الحكمة، بتصويره بصورة مالا يرتاب أحد في استحالة صدوره منه سبحانه، وهو اللهو واللعب، بل إنما خلقناهما، وما بينهما؛ لتكون مبدأ الوجود الإنساني وسبباً لمعاشه، ودليلاً يقوده إلى تحصيل معرفتنا، التي هي الغاية القصوى والسعادة العظمى.

ثم قرر انتفاء اللعب واللهو عنه، فقال: ﴿ لو أردنا أن نتخذ لهواً ﴾ أي: ما يلهى به ويلعَب، ﴿ لاتَّخذناه من لدُنَّا ﴾ أي: من أنفسنا؛ لعلمنا بحقائق الأشياء، واستغنائنا عن جلب المصالح ودرء المفاسد. والمعنى: لو أردنا أن نخلق شيئاً، لا لتحصيل مصلحة لكم، ولا لدرء مفسدة عنكم، لفعلنا ذلك في أنفسنا؛ بأن نخلق عوالم ومظاهر عارية عن الحكمة والمصلحة؛ لأنا أحق منكم بالاستغناء عما يجلب المصلحة ويدرأ المفسدة، لكن من عادتنا ربط الأسباب بمسبباتها، وأنا لم نخلق شيئاً عبثاً، بل خلقنا كل نوع من النبات والحيوانات والجمادات؛ لمصلحة ومنفعة، علِمها، من علِمها وجهِلها من جهِلها، فحصل من هذا نفي التحسين والتقبيح؛ عقلاً، بهذه الشرطية، وإثباته سمعا.

(١) من الآية ٢٧ من سورة ص.

أو: ﴿لاتخذناه من لدُنَّا﴾ مما يليق بشأننا من المجردات، لا من الأجسام المرفوعة والأجرام الموضوعة، كعادة الجبابرة؛ مِنْ رفع العروش وتحسينها، وتمهيد الفرش وتزيينها، لأغراض عِراض، لكن يستحيل إرادتنا لذلك؛ لمنافاته للحكمة الإلهية المنزهة عن الأغراض. هـ. من أبي السعود، وأصله للزمخشري. وفيه تكلف.

وسأل طاوسُ ومجاهدُ الحسنَ عن هذه الآية؟ فقال: اللهو: المرأة. وقال ابن عباس: «الولد». ومعنى (لاتخذناه من لدُنَّا): بحيث لا يطلعون عليه، وما اتخذنا نساءاً وولداً من أهل الأرض. نزلت في الذين قالوا: اتخذ الله ولدا. وتكون الآية، حينئذ تتميماً لِما قبلها، أي: ليس اللعب واللهو من شأننا، إذ لو أردنا أن نتخذ لهواً لاتخذناه من لدنا. قال شيخ شيوخنا، سيدي عبدالرحمن الفاسي: حمل الآية على الزوجة غير مفيد، إلا أن يراد بذلك مجرد الرحمة والشفقة، مما يمكنُ عقلاً، فيصح دخول النفي الشرعي عليه. انظر ابن عرفة، فقد جوّز، عقلاً، اتخاذه على معنى الرحمة. وكذا ابن عطية في آية الزمر[١]. ومنع ذلك القشيري. قلت: وكأنه لِما يشير إليه قوله تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾[٢] فإن القهر لايناسب التبني بوجه، وقد يقال: إنه مانع سمعي شرعي، لا عقلي، فلا يخالف ما قاله ابن عرفة ولا ابن عطية. وفيه نظر؛ لأنه يؤدي إلى تعطيل اسمه القهار ونحوه، وهو محال، والله أعلم هـ.

قلت: قد حمل النسفي الآية على الولد، فقال: ﴿لو أردنا أن نتخذ لهواً﴾ أي: ولداً، أو امرأة، رد على من قال عيسى ابنه، ومريم صاحبته، ﴿لا تخذناه من لدُنَّا﴾ من الولدان أو الحور، ﴿إن كنا فاعلين﴾ أي: إن كنا ممن يفعل ذلك، ولسنا ممن يفعله لاستحالته في حقنا. هـ. قلت: والذي تكلف الحمل الأول رأى أن حمله على الولد يقتضي جواز الاتخاذ عقلاً؛ وإنما منعه عدم الإرادة. وأجاب ابن عرفة: بأن يحمل الاتخاذ على معنى الرحمة، لا على حقيقة البنوة. قلت: من خاض بحار التوحيد الخاص وحاز مقام الجمع، لا يتوقف في مثل هذا؛ إذ تجليات الحق لا تنحصر، لكن لم يوجد منها، ولم تتعلق إرادته إلا بما هو كمال في حقه تعالى في باب القدرة، وأما باب الحكمة، فهي رداء لمحل النقائص، فافهم، واصحب أهلَ الجمع حتى يفهموك ما ذكرتُ لك، والسلام.

ثم قال تعالى: ﴿بل نقذفُ بالحق على الباطل﴾ أي: نرمي بالحق، الذي هو الجد، على الباطل، الذي من جملته اللهو، وهو إضراب عن اتخاذ الولد، بل عن إرادته، كأنه قيل: لكنا لا نريده، بل شأننا أن نقذف بالحق على الباطل ﴿فيدْمَغُه﴾: فيمحقه بالكلية، كما فعلنا بأهل القُرى المحكية وأمثالهم. وقد استعير، لإيراد الحق على الباطل، القذف، الذي هو الرمي الشديد، وللباطل الدمغ، الذي هو تشتيت الدماغ وتزهيق الروح، فكأنَّ الباطل حيوان له دماغ، فإذا تشتت دماغه مات واضمحل، ﴿فإذا هو زاهق﴾ أي: فإذا الباطل ذاهب بالكلية، متلاش عن أصله. وفي (إذا) الفجائية والجملة الاسمية من الدلالة على كمال السُرعة في الذهاب والبطلان ما لا يخفى.

---

(١) في قوله تعالى: ﴿لو أراد الله أن يتخذ ولداً لاصطفى مما يخلق مايشاء...﴾ الآية.

(٢) من الآية ٤ من سورة الزمر.

ثم ردّ على أهل الباطل فقال: ﴿ ولكم الويلُ مما تصفون ﴾ أي: وقد استقر لكم الويل والهلاك؛ من أجل ماتصفونه، سبحانه، بما لايليق بشأنه الجليل، من الولد والزوجة، وغير ذلك مما هو باطل. وهو وعيد لقريش ومن دان دينهم، بأنّ لهم أيضاً مثل ما لأولئك القرى المتقدمة من الهلاك، إن لم ينزجروا. والله تعالى أعلم.

الإشارة: ما نصبتْ لك الكائنات لتراها كائنات، بل لتراها أنواراً وتجليات، الأكوان ثابتة بإثباته، ممحوة بأحدية ذاته، فالغير والسِّوى عند أهل الحق باطل، والباطل لايثبت مع الحق. قال تعالى (بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق). قال القشيري: تُدْخِلُ نهارَ التحقيق على ليالي الأوهام، أي: فتمحى، وتبقى شمس الأحدية ساطعة. هـ. وبالله التوفيق.

ثم قرر وحدانيته تعالى في ملكه وملكوته، فقال:

﴿ وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾
يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ
فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾
أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةًۖ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْۖ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِىۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ
لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ
إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وله من في السموات والأرض ﴾ أي: له جميع المخلوقات، خلقاً وملكاً، وتدبيراً وتصرفاً، وإحياء وإماتة، وتعذيباً وإثابة، من غير أن يكون لأحد في ذلك دخل، لا استقلالاً ولا استتباعاً، ولا فرق بين أهل العالم العلوي والسفلي، ﴿ ومَنْ عنده ﴾ وهم الملائكة - عليهم السلام - عبّر عنهم بذلك إثر ما عبّر عنهم بمن في السموات؛ تنزيلاً لهم - لكرامتهم عليه، وزلفاهم عنده - منزلة المقربين عند الملك، وهو مبتدأ وخبره: ﴿ لا يستكبرون عن عبادته ﴾ أي: لا يتعاظمون عنها، ولا يَعُدون أنفسهم كبراء، ﴿ ولا يستحسرون ﴾ أي: لايكِلّون ولا يَعْيون، ﴿ يُسبِّحُون الليلَ والنهار ﴾ أي: ينزهونه في جميع الأوقات، ويُعظمونه ويمجدونه دائماً. وهو استئناف بياني، كأنه قيل: ماذا يصنعون في عبادتهم، أو كيف يعبدون؟ فقال: يُسبحون ... الخ. ﴿ لا يفْتُرون ﴾ أي: لا يتخلل تسبيحَهم فترة أصلاً، ولا شغل آخر.

ولمّا برهن على وحدانيته تعالى فى ملكه بأنه تعالى خلق جميع المخلوقات على منهاج الحكمة، وأنهم قاطبة تحت ملكه وقهره، وأنّ عباده مذعنون لطاعته، ومثابرون على عبادته، ومنزهون له عن كل مالا يليق بشأنه، أنكر على من أشرك معه بعد هذا البيان، فقال: ﴿ أم اتخذوا آلهةً ﴾ يعبدونها ﴿ من الأرض ﴾ أى: اتخذوها من جنس الأرض، أحجاراً وخشباً، ﴿ هم يُنْشِرُون ﴾ أى: يبعثون الموتى. وهـذا هو الذى يدور عليه الإنكار والتجهيل والتشنيع، لانفس الاتخاذ، فإنه واقع لا محالة، أى: بل اتخذوا آلهة من الأرض، هم مع حقارتهم، ينشرون الموتى، كلا.. فإن ما اتخذوها آلهة بمعزل من ذلك، وهم، وإن لم يقولوا بذلك صريحاً، لكنهم حيث ادعوا لها الألوهية، فكأنهم ادعوا لها الإنشار، ضرورة؛ لأنه من خصائص الإلهية، ومعنى التخصيص فى تقديم الضمير فى: ﴿هم يُنشرون﴾: التنبيه على كمال مباينة حالهم للإنشار، الموجبة لمزيد الإنكار، كما فى قوله تعالى: ﴿ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ ﴾(١). وفى قوله تعالى: ﴿ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴾(٢)، فإنّ تقديم الجار والمجرور؛ للتنبيه على كمال مباينة أمره تعالى لأن يشك فيه ويستهزأ به.

ثم أبطل الاشتراك فى الألوهية، فقال: ﴿ لو كان فيهما آلهةٌ إلا اللهُ ﴾ أى: لو كان فى السماوات والأرض آلهة غير الله، كما هو اعتقادهم الباطل، ﴿ لفسدَتَا ﴾ أى: لفسد نظامهما بما فيهما، لوجود التمانع، كعادة الملوك، أو لبطلتا بما فيهما، ولم يوجد شىء منهما؛ للزوم العجز لهما، بيان ذلك: أن الألوهية مستلزمة للقدرة على الاسْتِبْدَادِ بالتصرف فيهما على الإطلاق، تغييراً وبديلاً، وإيجاداً وإعداماً، وإحياء وإماتة، فبقاؤهما على ما هما عليه من غير فساد، إما بتأثير كل منها، وهو محال؛ لاستحالة وقوع الأثر الواحد بين مؤثرين، وإما بتأثير واحد منها، فالباقى بمعزل عن الإلهية، والمسألة مقررة فى علم الكلام.

و(إلا): صفة لآلهة، كما يُوصف بغير، ولمّا كانت حرفاً، ظهر إعرابها فى اسم الجلالة، ولا يصح رفعه على البدل؛ لعدم وجود النفى. ثم قال تعالى: ﴿ فسبحان الله ﴾ أى: فسبحوا سُبحان الله اللائق به، ونزهوه عما لا يليق به من الأمور، التى من جملتها: أن يكون له شريك فى الألوهية. وإيراد الجلالة فى موضع الإضمار، حيث لم يقل فسبحانه؛ للإشعار بعلية الحكم، فإنّ الألوهية مناط لجميع صفات كماله، التى من جملتها: تنزهه تعالى عما لا يليق به، ولتربية المهابة وإدخال الروعة. ثم وصفه بقوله: ﴿ ربِّ العرش ﴾، وخصه بالذكر، مع كونه رب كل شىء؛ لعظم شأنه؛ لأنّ الأكوان فى جوفه كلا شىء، أى: تنزيهاً له عما يصفونه عن أن يكون من دونه آلهة.

ثم بيّن قوة عظمته وعز سلطانه القاهر، فقال: ﴿ لا يُسأل عما يَفعل ﴾ أى: لا يمكن لأحد من مخلوقاته أن يناقشه أو يسأله عما يفعل؛ هيبةً وإجلالاً، ﴿ وهم يُسألون ﴾ أى: وعباده يُسألون عما يفعلون، نقيراً وقطميراً؛ لأنهم مملوكون له تعالى، مستعبدون، ففيه وعيد للكفرة، فالآية تتميم لقوله: (لاعبين)، بل خلقنا الأشياء كلها

(١) من الآية ١٠ من سورة إبراهيم. (٢) من الآية ٦٥ من سورة التوبة.

لحكمة، فمنها ما أدركتم حكمته، ومنها ما غاب عنكم، فكِلُوا أمره إلى الله، ولا تسألوه عما يفعل، فإنه لا يُسأل عن فعله، وأنتم تُسألون.

ثم قال تعالى: ﴿أم اتخذوا من دونه آلهةً﴾، هو إضراب وانتقال من إظهار بطلان كون ما اتخذوه آلهة؛ بإظهار خلوها من خصائص الألوهية، التي من جملتها إنشار الموتى، وإقامة البرهان القاطع على استحالة تعدد الإله، إلى إظهار بُطلان اتخاذهم تلك الآلهة، مع عرائها عن تلك الخصائص، وتبكيتهم بإلجائهم إلى إقامة البرهان على دعواهم الباطلة. والهمزة: لإنكار ما اتخذوه واستقباحه، أي: بل اتخذوا من دونه - أي: متجاوزين إياه تعالى، مع ظهور شؤونه الجليلة الموجبة لتفرده بالألوهية - آلهة، مع ظهور خلوهم عن خصوص الإلهية بالكلية.

﴿قلْ﴾ لهم، بطريق التبكيت: ﴿هاتُوا برهانَكم﴾ على ما تدّعُونَه، من جهة العقل والنقل؛ فإنه لا صحة لقول لا دليل عليه في الأمور الدينية، لاسيما في هذا الأمر الخطير، فإن بُهتوا فقل لهم: ﴿هذا ذكر مَنْ معي وذكر مَنْ قبلي﴾ أي: بهذا نطقت الكتب السماوية قاطبة، وشهدت به سُنَّة الرسل المتقدمة كافة. فهذا الوحي الوارد في شأن التوحيد المتضمن للبرهان القاطع ﴿ذكرُ من معي﴾ من أمتي، أي: عظتهم، ﴿وذكرُ من قبلي﴾ من الأمم السالفة، أي: بهذا أَمَرنا ربُنا ووعظنا، وبه أمر مَنْ قبلنا، يعني: انفراده سبحانه بالألوهية واختصاصه بها.

وقيل: المعنى: هذا كتاب أُنزل على أمتي، وهذا كتاب أُنزل على أمم الأنبياء - عليهم السلام - قبلي، فانظروا: هل في واحد منها غير الأمر بالتوحيد والنهي عن الإشراك، ففيه تبكيت لهم. ﴿بل أكثرهم لا يعلمون الحقَّ﴾ أي: لا يفهمونه، ولا يميزون بينه وبين الباطل، فهو إضراب وانتقال من تبكيتهم بمطالبة البرهان، إلى بيان أنه لا ينجع فيهم المحاجة؛ لجهلهم وعنادهم، ولذلك قال: ﴿فهم معرضون﴾ أي: فهم؛ لأجل جهلهم وعتوهم مستمرون على الإعراض عن التوحيد واتباع الرسول، لا يَرْعَوُونَ عما هم عليه من الغي والضلال، وإن كررت عليهم البينات والحجج. أو معرضون عما أُلقي عليهم من البراهين العقلية والنقلية؛ لانهماكهم.

﴿وما أرسلنا مِن قَبْلِكَ من رسول إلا يوحى(١) إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾، هذا مقرر لِما قبله؛ من كون التوحيد مما نطقت به الكتب الإلهية، وأجمعت عليه الرسل - عليهم السلام - قاطبة. وصيغة المضارع في (يوحى)؛ لحكاية الحال الماضية؛ استحضاراً لصورة الوحي العجيبة. والله تعالى أعلم.

الإشارة: قوله تعالى: (ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته)، العندية، هنا، عندية اصطفاء وتقريب، وهذه صفة العارفين المقربين، لا يستكبرون عن عبادته، بل خاضعون لجلاله وقهريته على الدوام، ولا يستحسرون:

(١) قرأ حمزة والكسائي وحفص: (نُوحي)؛ بالنون وكسر الحاء، على التعظيم، وقرأ الآخرون - بالياء وفتح الحاء.(انظر: الإتحاف ٢٦٢/٢).

لا يملُّون منها ولا يشبعون، غير أنهم يتلونون فيها؛ من عبادة الجوارح إلى عبادة القلوب؛ كالتفكر والاعتبار، إلى عبادة الأرواح؛ كالشهود والاستبصار، إلى عبادة الأسرار؛ كالعكوف في حضرة الكريم الغفار، يُنزهون الله تعالى في جميع الأوقات، لا يفترون عن تسبيحه بالمقال أو الحال.

وقوله تعالى: ﴿أم اتخذوا آلهة...﴾ الخ، تَصْدُق على من مال بقلبه إلى محبة الأكوان، أو ركن إلى الحظوظ والشهوات، وقوله تعالى: ﴿لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا﴾، اعلم أن ثلاثة أشياء إذا تعدد مدبرها فسد نظامها؛ أولها: الألوهية، فلو تعددت لفسد نظام العالم، وثانيها: السلطنة، إذا تعددت في قُطْر واحد فسدت الرعية، وثالثها: الشيخوخة، إذا تعددت على مريد واحد فسدت تربيته، كالطبيب إذا تعدد على مريض واحد فسد علاجه. والله تعالى أعلم.

وقوله تعالى: ﴿لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون﴾ قال الكواشي: يعني: لا يُسأل عن فعله وحُكمه؛ لأنه الرب، وهم يُسألون؛ لأنهم عبيده. وبعض الناس يقول: هذه آية الدبوس[1]. قلت: وقد تقلب السين زايا، ومعناها: أن كل ماتحكم به القدرة: يجب حنو الرأس له، من غير تردد ولا سؤال. ثم قال: ولو نظر النظر الصحيح لرآها أنصف آية في كتاب الله تعالى؛ وذلك لأنه جمع فيها بين صفة الربوبية وصفة العبودية. هـ.

وقوله: ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا يُوحَي إليه أنه لا إله إلا أنا﴾ يعني: أن التوحيد مما أجمعت عليه الرسل والكتب السماوية. والفناء فيه على ثلاثة أقسام: فناء في توحيد الأفعال، وهو ألا يرى الفعل إلا من الله، ويغيب عن الوسائط والأسباب، وفناء في توحيد الصفات، وهو أن يرى ألا قادر ولا سميع ولا بصير ولا متكلم إلا الله، وفناء في توحيد الذات، وهو أن يرى ألا موجود إلا الله، ذوقاً ووجداً وعقداً. كما قال صاحب العينية:

هُوَ الموجِدُ الأشْيَاءِ، وَهْوَ وُجُودُهَا وعَيْنُ ذَوَاتِ الكُلِّ، وَهْوَ الجوَامِعُ[2]

وقد أشار بعضهم إلى هذه الفناءات، فقال:

فـيـفنى، ثم يفنى، ثم يفنى، فكان فنـاؤه عين البـقـاءِ

وهنا ـ أي: في مقام الفناء والبقاء ـ انتهت أقدام السائرين، ورسخت أسرار العارفين، مع ترقيات وكشوفات أبد الآبدين، جعلنا الله من حزبهم. آمين.

---

(١) هكذا في الأصول.

(٢) المراد: أن الحق تعالى قيوم الأشياء ومفيضها من العدم، والمتجلي عليها بمراده منها، إذ أنها في ذاتها فانية من قبلُ ومن بعدُ؛ لأنه لا قيومية لها من ذاتها. هذا هو المعنى الذي ينبغي أن يفهم من خلال هذا البيت وأشباهه.

ثم أنكر على من ادعى الولد له، فقال:

﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ (٢٦) لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ
وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (٢٧) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم
مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ (٢٨) ۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ
نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٢٩) ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿وقالوا اتخذ الرحمنُ ولداً﴾، حكى الله تعالى جناية أخرى لبعض المشركين، جيء بها؛ لبيان بطلانها. والقائل بهذه المقالة حيٌ من خزاعة، وقيل: قريش وجهينة وبنو سلمة وبنو مليح، يقولون: الملائكة بنات الله، وأمهاتهم سروات الجن، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً. والتعرض لعنوان الرحمانية المنبئة عن كون جميع ماسواه مربوباً له تعالى، نعمة أو منعمًا عليه؛ لإبراز كمال شناعة مقالتهم الباطلة، ﴿سبحانه﴾ أي: تنزه تنزيهاً يليق بكمال ذاته، وتقدّس عن الصاحبة والولد، ﴿بل﴾ هم ﴿عبادٌ﴾ لله تعالى، و«بل» إبطال لما قالوا، أي: ليست الملائكة كما قالوا، ﴿بل عبادٌ مكرمون﴾؛ مقربون عنده، ﴿لا يسبقونه﴾ أي: لا يتقدمونه ﴿بالقول﴾، ولا يتكلمون إلا بما يأمرهم به. وهذه صفة أخرى لهم، منبهة على كمال طاعتهم وانقيادهم لأمره تعالى، أي: لا يقولون شيئاً حتى يقوله تعالى أو يأمرهم به. وأصله: لا يسبق قولُهم قولَه، ثم أسند السبق إليهم؛ لمزيد تنزههم عن ذلك، ﴿وهم بأمره يعملون﴾ أي: لا يعملون إلا ما أمرهم به، وهو بيان لتبعيتهم له تعالى في الأفعال، إثر بيان تبعيتهم له في الأقوال، فإن نفي سبقيتهم له تعالى بالقول: عبارة عن تبعيتهم له تعالى فيه، كأنه قيل: هم بأمره يقولون وبأمره يعملون، لا بغير أمره أصلا.

﴿يعلمُ ما بين أيديهم وما خلْفَهم﴾ أي: ما عملوا وما هم عاملون، وقيل: ما كان قبل خلقهم وما يكون بعد خلقهم. وهو تقرير لتحقق عبوديتهم؛ لأنهم إذا كانوا مقهورين تحت علمه تعالى وإحاطته انتفت عنهم أوصاف الربوبية المكتسَبَة من مجانسة البنوة، ﴿ولا يشفعون إلا لمن ارتضى﴾ أن يشفع له، مهابة منه تعالى. قال ابن عباس: «هم أهل لا إله الا الله»، ﴿وهم من خشيته﴾ عز وجل ﴿مشفقون﴾: خائفون مرتعدون. قال بعضهم: أصل الخشية: الخوف مع التعظيم، ولذلك خص بها العلماء، وأصل الإشفاق: الخوف مع الاعتناء، فعند تعْديته بمن: يكون معنى الخوف فيه أظهر، وعند تعديته بعلى: ينعكس الأمر؛ فيكون معنى الإشفاق فيه أظهر.

﴿ومن يَقُلْ منهم﴾ أي: من الملائكة؛ إذ الكلام فيهم، ﴿إني إلهٌ من دونه﴾ أي: متجاوزاً إياه تعالى، ﴿فذلك﴾ الذي فرض أنه قال ذلك فرض المحال، ﴿نَجْزِيه جهنم﴾ كسائر المجرمين، ولا ينفى هذا عنهم

ماذكر قبلُ من صفاتهم السنية وأفعالهم المرضية؛ لأنه فرض تقدير، وفيه من الدلالة على قوة ملكوته تعالى، وعزة جبروته، واستحالة كون الملائكة بحيث يتوهم في حقهم ما توهمه أولئك الكفرة، مالا يخفى، ﴿كذلك نجزي الظالمين﴾ أي: مثل ذلك الجزاء الفظيع نجزي الظالمين، الذين يضعون الأشياء في غير مواضعها، ويتعدون أطوارهم.

قال الكواشي: هذا القول وارد على سبيل التهديد والوعيد الشديد على ارتكاب الشرك، كقوله: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾(١) .هـ. فالقصد: تفظيع أمر الشرك، وأنه لو صدر ممن صدر لأحبط عمله، وكان جزاء صاحبه جهنم، ومثل ذلك الجزاء نجزي الظالمين، وهم الكافرون، والحاصل: أنه على سبيل الفرض، مع علمه تعالى أنه لا يكون من الملائكة، فهو من إخباره عما لا يكون كيف يكون؛ لعلمه بما لايكون، مما جاز أن يكون، كيف يكون .هـ. من الحاشية الفاسية ببعض اختصار.

فالكاف من «كذلك»: في محل مصدر تشبيهي، مؤكد لمضمون ما قبله. والقصر، المستفاد من التقديم للمصدر، معتبر بالنسبة إلى النقصان دون الزيادة، أي: لا جزاء أنقص منه. والله تعالى أعلم.

الإشارة: أنوار الملكوت متدفقة من بحر أسرار الجبروت، من غير تفريع، ولا تولد، ولا علاج، ولا امتزاج، بل: كن فيكون، لكن حكمته تعالى اقتضت ترتيب الأشياء وتفريع بعضها من بعض، ليبقى السر مصوناً والكنز مدفوناً. فأسرار الذات العلية منزهة عن اتخاذ الصاحبة والولد، بل القدرة تبرز الأشياء بلا علاج ولا أسباب، والحكمة تسترها بوجود العلاج والأسباب. فكل ما ظهر في عالم التكوين قد عمَّتْهُ قهرية العبودية، وانتفت عنه نسبة البُنوة لأسرار الربوبية، فأهل الملأ الأعلى عباد مكرمون، مقدّسون من دنس الحس، مستغرقون في هَيَمان القرب والأنس، وأهل الملأ الأسفل مختلفون، فمن غلب عقلُه على شهوته، ومعناه على حسه، وروحانيته على بشريته، فهو كالملائكة أو أفضل. ومن غلبت شهوته على عقله، وحسه على معناه، وبشريته على روحانيته، كان كالبهائم أو أضل. ومن التحق بالملأ الأعلى، من الأولياء المقربين، انسحب عليه ما مدحهم به تعالى من قوله: (يُسبحون الليل والنهار لا يَفْتُرون)، ومن قوله: (لا يسبقونه بالقول)، بأن يدبروا معه شيئاً قبل ظهور تدبيره، وهم بطاعته يعملون، ولا يشفعون إلا لمن ارتضى، وهم من خشية هيبته مشفقون، (ومن يقل منهم إني إله من دونه)؛ بأن يدعي شيئاً من أوصاف الربوبية، كالكبرياء، والعظمة على عباده، فذلك نجزيه جهنم، وهي نار القطيعة، كذلك نجزي الظالمين. وفي الحِكَم: «منعك أن تدعي ما ليس لك مما للمخلوقين، أفيبيح لك أن تدعي وصفه وهو رب العالمين»؟.

(١) من الآية ٨٨ من سورة الأنعام.

ثم برهن على وحدانيته، فقال:

﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ
شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا
لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾
وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

قلت: «فِجاجاً»: حال من «سُبل»، وأصله: وصف له، فلما تقدم أُعرب حالاً. وقيل «سُبُلاً»: بدل من «فِجاجاً». وفي إتيانه: إيذان أن تلك الفجاج نافذة؛ لأن الفج قد يكون نافذاً وقد لا. قاله المحشي.

يقول الحق جل جلاله: ﴿أوَ لَمْ يرَ الذين كفروا﴾ رؤية اعتبار ﴿أنَّ السمواتِ والأرضَ﴾ أي: جماعة السموات وجماعة الأرض ﴿كانتا﴾، ولذلك لم يقل كُنَّ، ﴿رتْقاً﴾ أي: ملتصقة بعضها ببعض. والرتق: الضم والالتصاق. وهو مصدر بمعنى المفعول، أي: كانتا مرتوقتين، أي: ملتصقتين، ﴿ففتقناهما﴾؛ فشققناهما، فالفتق ضد الرتق. قال ابن عباس رضي الله عنهما: «كانتا شيئًا واحداً متصلتين، ففصل الله بينهما، فرفع السماء إلى حيث هي، وأقرّ الأرض». وفي رواية عنه: أرسل ريحاً فتوسطتهما ففتقتهما. وقال السدي: (كانت السموات مؤتلفة طبقة واحدة، ففتقها، فجعلها سبع سموات، وكذلك الأرض، كانت طبقة واحدة، ففتقها، فجعلها سبع أرضين).

فإن قيل: متى رأوهما رتقاً حتى جاء تقريرهم بذلك؟ قلنا: مصب الكلام والتقرير هو فتق السماوات ورفعها، وهو مشاهد بالأبصار، وهم متمكنون من النظر والاعتبار، فيعلمون أن لها مدبراً حكيماً، فتَقَهَا ورفعها، وهو الحق جل جلاله، وذكر الرتق زيادة إخبار، فكأنه قال: ألم يروا إلى فتق السماوات ورفعها؟ وقال الكواشي: لمّا كان القرآن معجزاً، كان وروده برتقهما كالمشاهد المرئي، أو: لمّا كان تلاصق السماوات والأرضين، وما بينهما، وتباينهما، جائزاً عقلاً، وجب تخصيص التلاصق من التباين، وليس ذلك إلا لله تعالى. هـ.

وقيل: كانت السماوات صلبة لا تمطر، والأرض رتقاً لا تنبت، ففتق السماء بالأمطار، والأرض بالنبات. ورُوى هذا عن ابن عباس أيضاً، وعليه أكثر المفسرين، وعلْم الكفرةِ الرتقِ والفتق، بهذا المعنى، مما لا خفاء فيه. والرؤية على الأول رؤية علم، وعلى الثاني رؤية عين.

﴿وجعلنا من الماء كل شيءٍ حيّ﴾ أي: خلقنا من الماء كل حيوان، كقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ﴾(١)، وذلك لأنه من أعظم مواده، أو لفرط احتياجه إليه، وحبه له، وعدم صبره عنه، وانتفاعه به، ويدخل

(١) من الآية ٤٥ من سورة النور.

فى ذلك: النبات؛ مجازاً دون الملائكة، فألْ فيه للحقيقة والماهية، إلا أنه صرفه عن ذلك إلى العهد الذهنى قرينةُ الجعل، كما فى آية: ﴿فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ﴾(١)، فإن القرينة تخلص ذلك للبعضية وإرادة الأشخاص. وقيل: المراد به: المنِىُّ. فألْ فيه، حينئذ، للعهد الذهنى فقط. قال القشيرى: كُلُّ مخلوقٍ حىٌّ فَمِنَ الماء خَلْقُه، فإنَّ أصلَ الحيوان الذى يحصل بالتناسل النطفةُ، وهى من جملة الماء. هـ. وتقدم أن الملائكة لا تناسل فيها. ﴿أفلا يؤمنون﴾ بالله وحده، وهو إنكار لعدم إيمانهم، مع ظهور ما يُوجبه حتماً من الآيات الآفاقية والأنفُسية، الدالة على تفرده تعالى بالألوهية.

﴿وجعلنا في الأرض رواسيَ﴾ أى: جبالاً ثوابت، من رسا الشيءُ؛ إذا ثبت ورسخ، ﴿أن تميد بهم﴾ أى: كراهية أن تتحرك وتضطرب بهم، أو لئلا تميد بهم ـ بحذف اللام، و«لا»؛ لعدم الإلباس. ﴿وجعلنا فيها﴾ أى: فى الأرض، وتكرير الجعل؛ لاختلاف المجعولَيْن، ولتوفية مقام الامتنان حقه، أو فى الرواسى؛ لأنها المحتاجة إلى الطرق، ﴿فجاجًا﴾: جمع فج، وهو الطريق الواسع، نفذ أم لا، أى: جعلنا فى الأرض مسالك واسعة، و﴿سُبلاً﴾ نافذة. فالسبل هى الفجاج مع قيد النفوذ. فإن قيل: أىّ فرق بين هذا وبين قوله: ﴿لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجًا﴾(٢) ؟ فالجواب: أنه هُنا بيَّن أنه خلقها على هذه الصفة، وهناك بيَّن أنه جعل فيها طُرقاً واسعة، وليس فيه بيان أنه خلقها كذلك، فما هنا تفسير لما هناك. انظر النسفى.

وقوله تعالى: ﴿لعلهم يهتدون﴾ أى: إلى البلاد المقصودة بتلك السبل، أو إلى مصالحهم ومهماتهم. ﴿وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً﴾ من السقوط، كقوله: ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾(٣)، أو من الفساد والانحلال إلى الوقت المعلوم، أو من استراق السمع بالشهب، كما قال: ﴿وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ﴾(٤). ﴿وهم﴾ أى: الكفار ﴿عن آياتها﴾ أى: عن الأدلة التى فيها، كالشمس والقمر والنجوم، وغير ذلك مما فيها من العجائب الدالة على وحدانيته تعالى وقدرته وحكمته، التى بعضها محسوس، وبعضها معلوم بالبحث فى علمى الطبيعة والهيئة، ﴿مُعْرِضُون﴾ لا يتدبرون فيها، فيقفون على ما هم عليه من الكفر والضلال، فيؤمنون.

﴿وهو الذي خلق الليلَ﴾ لتسكنوا فيه، ﴿والنهارَ﴾ لتتصرفوا فيه، ﴿والشمسَ﴾ لتكون سراجَ النهار، ﴿والقمرَ﴾ ليكون سراج الليل، وهذا بيان لبعض تلك الآيات التى هم عنها معرضون. وقوله: ﴿كلٌّ﴾ أى: كلهم، والمراد: جنس الطوالع، ﴿في فَلَكٍ يَسْبَحُون﴾ أى: يسيرون سير العائم فى الماء. عن ابن عباس رضي الله عنهما: الفلك السماء، وقيل: موج مكفوف تحت السماء، يجرى فيه الشمس والقمر والنجوم. وجمهور أهل الهيئة أن الفلك:

---

(١) من الآية ١٧ من سورة يوسف.
(٢) من الآية ٢٠ من سورة نوح.
(٣) من الآية ٦٥ من سورة الحج.
(٤) الآيـة ٧ من سورة الصافات.

جسم مستدير، وأنهن تسعة، وهل هي السموات السبع، فيكون الكرسي ثامناً، والعرش تاسعاً، أو غيرهن، فتكون تحت السموات أو فوقها؟ قولان لهم. والمراد هنا: الجنس، كقولك: كَسَاهُمُ الأميرُ حلةً، أي: حُلة حُلةً، وجعل الضمير واو العقلاء؛ لأن السباحة حالُهم.

قال في المستخرج من كتاب الغزنوني: «كلٌّ» أي: كل واحد من الشمس والقمر وسائر السيارة، وإن لم تُذْكرن؛ **لأنه جمع قوله: (يَسْبَحُونَ) والمعنى: يجرون كالسابح، أو يدورون، والسيارة تجري في الفلك على عكس جري** الفلك، ولها تسعة أفلاك، فالقمر في الفلك الأدنى، ثم عطارد، ثم الزهرة، ثم الشمس، ثم المريخ، ثم المشتري، ثم زُحل، والثامن: فلك البروج، والتاسع: الفلك الأعظم. هـ. وقال في سورة يس: خص الشمس والقمر هنا، وفي سورة الأنبياء؛ لأن سيرهما أبداً على عكس دوْر الفلك، وسَيْر الخمسة قد يكون موافقاً لسيره عند رجوعها. هـ. والله تعالى أعلم.

الإشارة: أو لم ير الذين كفروا بوجود التربية أن سموات الأرواح وأرض النفوس كانتا رتقًا صلبة، ميتة بالجهل، ففتقناهما بالعلوم وأسرار التوحيد؟ والمعنى: أن بعض الأرواح والنفوس تكون ميتة صلبة، فإذا صَحِبَتْ أهل التربية، انفتقت بالعلوم والأسرار، فهذا شاهد بوجود أهل التربية، ومن قال بانقطاعها فقوله مردود بالمشاهدة. وجعلْنا من ماء الغيب - وهي الخمرة الأزلية - كلَّ شيء حي، أفلا يؤمنون بوجود هذا الماء عند أربابه؟ وجعلنا في أرض النفوس جبالاً من العقول؛ لئلا تميل إلى الهوى فتموت، وجعلنا فيها طُرقاً يسلك منها إلى الحضرة، وهي كيفية الرياضة وأنواع المجاهدة، وهي طرق كثيرة، والمقصد واحد، وهو الوصول إلى الفناء والبقاء، التي هي معرفة الحق بالعيان، وهو قوله تعالى: (لعلهم يهتدون) إلى الوصول إلى حضرتنا.

وجعلنا السماء، أي: سماء القلوب الصافية، سقفاً محفوظاً من الخواطر والوساوس والشكوك والأوهام والشياطين، قال بعضهم: (إذا كان الحق تعالى قد حفظ السماء بالشهب من الشياطين، فقلوب أوليائه أولى بالحفظ). وهم عن آياتها، أي: عن دلائل حفظها وصيانتها معرضون؛ لانهماكهم في الغفلة. وهو الذي خلق ليل القبض ونهار البسط وشمس العرفان وقمر توحيد الدليل والبرهان، كلٌّ في موضعه، لا يتعدى أحد على صاحبه، ولكل واحد سير معلوم وأدب محتوم. وبالله التوفيق.

ولمّا قامت الحجة على الكفرة بما ذكرَ من الآيات والدلائل القاطعة، وانقطعوا، قالوا: ننتظر به ريب المنون، فنستريح منه، فأنزل الله تعالى:

﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِين مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله لنبيه - عليه الصلاة والسلام -: ﴿وما جعلنا لبشرٍ من قبلكَ الخُلدَ﴾ أي: البقاء الدائم؛ لكونه مخالفاً للحكمة التكوينية والتشريعية، ﴿أفإن مِتَّ﴾ بمقتضى حكمتنا ﴿فَهُم الخالدون﴾ بعدك؟ نزلت حين قالوا: نتربص به ريب المنون، فنفى عنه الشماتة بموته، فإن الشماتة بالموت مما لا ينبغي أن يصدر من عاقل، أي: قضى الله ألا يخلد في الدنيا بشراً، فإن مِتَّ - يا محمد - أيبقى هؤلاء الكفرة؟ كلا؛ ﴿كُل نفْسٍ ذائقةُ الموت﴾ أي: ذائقة مرارة مفارقتها جسدها، فتستوي أنت وهم فيها، فلا تتصور الشماتة بأمر عام.

﴿ونبلُوكم﴾، الخطاب: إما للناس كافة بطريق التلوين، أو للكفرة بطريق الالتفات، وسمي ابتلاء، وإن كان عالماً بما سيكون من أعمال العاملين قبل وجودهم؛ لأنه في صورة الاختبار، أي: نختبركم ﴿بالشر والخير﴾، أي: بالفقر والغنى، أو بالضر والنفع، أو بالعطاء والمنع، أو بالذل والعز، أو بالبلاء والعافية، ﴿فتنةً﴾؛ اختباراً، هل تصبرون وتشكرون، أو تجزعون وتكفرون. و«فتنة»: مصدر مؤكد «لنبلوكم»، من غير لفظه. ﴿وإلينا تُرجعون﴾ لا إلى غيرنا، فنجازيكم على حسب ما يُؤخذ منكم؛ من الصبر والشكر، أو الجزع والكفران. وفيه إيماء إلى أن المقصود من هذه الدنيا: الابتلاء والتعرض للثواب والعقاب. والله تعالى أعلم.

الإشارة: لابد لهذا الوجود بما فيه أن تنهد دعائمه، وتُسلب كرائمه، ولابد من الانتقال من دار الفناء إلى دار البقاء، ومن دار التعب إلى دار الهناء، ومن دار العمل إلى دار الجزاء. فالعاقل من أعرض بكليته عن هذه الدار، وصرف وجهته إلى دار القرار، فاشتغل بالتزود للرحيل، وبالتأهب للمسير، فلا مطمع للخلود في هذه الدار، وقد رحل منها الأنبياء والصالحون والأبرار، وتأمل قول الشاعر:

صبراً في مجال الموت صبراً فما نيل الخلود بمستطاع

وقوله تعالى: ﴿ونبلوكم بالشر والخير فتنة﴾، اعلم أن تخالف الآثار وتنقلات الأطوار على العبد من أفضل المنن عليه، إن صَحِبَتْه اليقظة، فيرجع إلى الله تعالى في كل حال تنزل به، إن أصابته ضراء رجع إلى الله بالصبر والرضا، وإن أصابته سراء رجع إليه بالحمد والشكر، فيكون دائمًا في السير والترقي، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا تُرجعون﴾ أي: بهما. فالرجوع إلى الله في السراء والضراء من أركان الطريق، والرجوع إلى الله في الضراء بالصبر والرضا، وفي السراء بالحمد والشكر، ورؤية ذلك من الله بلا واسطة. وفي الحديث عنه ﷺ: «من ابتُلي فَصبَرَ، وأُعطي فَشَكَرَ، وظُلم فغفر أو ظَلَم فاسْتَغْفَرَ»، ثم سكت - عليه الصلاة والسلام - فقالوا: ماله يا رسول الله؟ قال: «أولئك لَهُمُ الأمنُ وهم مُهتَدونَ»[1]. وقال ﷺ: «عَجبًا لأمرِ المُؤمن، إنّ أمرَهُ كلّهُ خير، وليْسَ ذلكَ لأحَدٍ إلاّ للمؤمنِ، إن أصابَتْهُ سرّاءُ شكَر، فكَانَ خيراً لَهُ، وإنْ أصابَتهُ ضرّاءُ صبر، فكَانَ خيراً لَهُ»[2].

(١) عزاه في الجامع الصغير (ح ٨٢٨١)، للطبراني والبيهقي، عن سخبرة، وحسنه.
(٢) أخرجه مسلم في (الزهد، باب: المؤمن أمره كله خير)، عن صهيب رضي الله عنه.

والرجوع إلى الله فى الضراء أصعب، والسير به أقوى؛ لِماَ فيه من التصفية والتطهير من أوصاف البشرية، ولذلك قدّمه الحق تعالى. وفى الحديث: «إذا أَحبّ اللهُ عبدًا ابْتلاَهُ، فإن صبر اجتباه، وإن رضى اصطفاه». وفى الخبر عن الله تعالى: «الفقر سجنى، والمرض قيدى، أحبس بذلك من أحببتُ من عبادى». وبه يحصل على عمل القلوب؛ الذى هو الصبر والرضا والزهد والتوكل، وغير ذلك من المقامات، وذرة من أعمال القلوب أفضل من أمثال الجبال من أعمال الجوارح، ومن أعمال القلوب يُفضى إلى أعمال الأرواح والأسرار، كفكرة الشهود والاستبصار. وفكرة ساعة أفضل من عبادة سبعين سنة، بل من أَلفِ سنة، كما قال الشاعر:

كُلُّ وقتٍ مِنْ حَبِيبِي قَــدْرُه كَـأَلْفِ حَجَّــةْ

لأن المقصود من الطاعات وأنواع العبادات: هو الوصول إلى مشاهدة الحق ومعرفته، فالفكرة والنظرة لاجزاء لها إلا زيادة كشف الذات وأنوار الصفات، منحنا الله من ذلك، الحظ الأوفر. آمين.

ومن جملة الشر الذى ابتلى الله به عباده: إذاية الخلق، كما قال لنبيه ـ عليه الصلاة والسلام ـ :

﴿ وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِي يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾ خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤١﴾ ﴾

قلت: (أهذا الذى): مقول لحال محذوفة، أى: قائلين: أهذا الذى، وحذف الحال، إذا كان قولاً، مطرد. (وهم بذكر الرحمن): حال، و(بل تأتيهم): عطف على (لا يكُفُّون) أى: لا يكفونها، بل تأتيهم.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وإذا رآك الذين كفروا ﴾ أى: المشركون ﴿ إن يتخذونك ﴾؛ ما يتخذونك ﴿ إلا هُزُواً ﴾؛ مهزوءاً بك؛ على معنى قصر معاملتهم معه ـ عليه الصلاة والسلام ـ على اتخاذهم إياه هزواً، كأنه قيل: ما يفعلون بك إلا اتخاذك هزواً. نزلت فى أبى جهل ـ لعنه الله ـ، مرّ به النبى ﷺ، فضحك وقال: هذا نبىُّ بنى عبد مناف[1]. قال القشيرى: (لو شاهدوه على ما هو عليه من أوصاف التخصيص، وما رقّاه الله من المنزلة،

(١) عزاه السيوطى فى الدر (٤/٥٧٣) لابن أبى حاتم عن السدى.

لظلوا له خاضعين، ولكنهم حُجِبُوا عن معانيه وسريرته، وعاينوا فيه جسمه وصورته) . فاستهزءوا بما لم يُحيطوا بعلمه، حاَل كونهم يقولون: ﴿ أهذا الذى يَذْكُرُ ﴾ أى: يعيب ﴿ آلهتكم ﴾ ، فالذكر يكون بخير وبضده، فإنْ كان الذاكر صديقاً للمذكور فهو ثناء. وإن كان عدواً فهو ذم. ﴿ وهم بذكر الرحمن ﴾ أى: بذكر الله وما يجب أن يذكر به من الوحدانية، ﴿ هم كافرون ﴾ ؛ لا يصدقون به أصلاً، فهم أحق بالهزء والسخرية منك؛ لأنك مُحق وهم مُبطلون. والمعنى أنهم يعيبون - عليه الصلاة والسلام - أن يذكر آلهتهم، التى لا تضر ولا تنفع، بالسوء، والحال: أنهم بذكر الرحمن، المنْعِم عليهم بأنواع النعم، التى هى من مقتضيات رحمانيته، كافرون، لا يذكرونه بما يليق به من التوحيد وأوصاف الكمال، أو: بما أُنزل من القرآن؛ لأنه ذكر الرحمن، ﴿ هم كافرون ﴾ ؛ جاحدون، فهم أحقاء بالعيب والإنكار. وكرر لفظ «هُم» للتأكيد، أو لأن الصلة حالت بينه وبين الخبر، فأعيد المبتدأ.

ثم قال تعالى: ﴿ خُلِقَ الانسانُ من عَجَل ﴾ ، العَجَل والعَجَلة مصدران، وهو تقديم الشىء على وقته. والمراد بالإنسان: الجنس، جُعل لفرط استعجاله، وقلة صبره، كأنه خُلق من العَجَلة، والعرب تقول لمن يكثر منه الشىء: خُلق منه، تقول لمن يكثر منه الكرم: خُلق من الكرم. ومن عجلته: مبادرته إلى الكفر واستعجاله بالوعيد. رُوى أنها نزلت فى النضر بن الحارث، حين استعجل العذاب بقوله: ﴿ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا .. ﴾ الآية(١) ، كأنه قال: ليس ببدع منه أن يستعجل، فإنه مجبول على ذلك، وطبعُه، وسجيته.

وعن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : أن المراد بالإنسان آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، فإنه حين بلغ الروح صدره أراد أن يقوم. ورُوى: أنه لما دخل الروح فى عينيه نظر إلى ثمار الجنة، ولماَّ وصل جوفه اشتهى الطعام، فكانت العجلة من سجيته، وسرت فى أولاده. وإنما منَع الإنسان من الاستعجال وهو مطبوع عليه، ليتكمل بعد النقص، كما أمره بقطع الشهوة وقد ركّبها فيه؛ لأنه أعطاه القدرة التى يستطيع بها قمع الشهوة وترك العَجَلة. قال القشيرى: العَجَلَةُ مذمومةٌ، والمُسَارَعَةُ محمودةٌ. والفرق بينهما: أن المسارعة: البِدارُ إلى الشىء فى أول وقته، والعَجَلَة: استقباله قبل وقته، والعَجَلةُ سمة وسوسة الشيطان، والمسارعةُ قضية التوفيق.هـ.

وقال الورتجبى: خلقهم من العَجَلة، وزجرَهم عن التعجيل؛ إظهاراً لقهاريته على كل مخلوق، وعجزهم عن الخروج عن ملكه وسلطانه. وحقيقة العَجَلة متولدة من الجهل بالمقادير السابقة .هـ. قلت: مازالت الطمأنينة والرَّزانةُ من شأن العارفين، وبها عُرِفوا، والعَجَل والقلق من شأن الجاهلين، وبها وُصفوا.

(١) الآية ٣٢ من سورة الأنفال.

وقيل: العَجَل الطين، بلغة حِمْير، ولا مناسبة له هنا.

قال تعالى، صارفاً للخطاب عن الرسول إلى المستعجلين: ﴿ سأُوريكم آياتي ﴾ : نقَماتي، كعذاب النار وغيره، ﴿ فلا تستعجلون ﴾ بالإتيان بها، وهو نهى عما جُبلت عليه نفوسهم؛ ليقهروها عن مرادها من الاستعجال.

﴿ ويقولون متى هذا الوعد ﴾ : إتيان العذاب، أو القيامة، ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ في وعدكم بأنه يأتينا، قالوه استعجالاً بطريق الاستهزاء والإنكار، لا طلباً لتعيين وقته، والخطاب للنبى ﷺ والمؤمنين الذين يتلون الآيات الكريمة المنبئة عن مجيء الساعة. قال تعالى: ﴿ لو يعلمُ الذين كفروا ﴾ ، هذا استئناف مسوق لبيان شدة هول ما يستعجلونه، وفظاعة ما فيه من العذاب، وأنهم يستعجلونه لجهلهم بشأنه. وقوله تعالى: ﴿ حين لا يَكُفُّون عن وجوههم النارَ ولا عن ظهورهم ولا هم يُنصرون ﴾ : مفعول «يعلم»، وهو عبارة عن الوقت الموعود، الذى كانوا يستعجلونه. وقوله: ﴿ لو يعلمُ الذين كفروا ﴾ أى: حين يرون ويعلمون حقيقة الحال، وهو معاينة العذاب. وجواب «لو» محذوف، أى: لو يعلمون الوقت الذى يستعجلونه بقولهم: متى هذا الوعد؟ وهو الوقت الذى تحيط بهم النار من ورائهم وقدامهم، فلا يقدرون على دفعها ومنعها من أنفسهم، ولا يجدون ناصراً ينصرهم، لَمَا كانوا بهذه الصفة من الكفر والاستهزاء والاستعجال، ولكن جهلهم به هو الذى هوّنه عندهم.

﴿ بل تأتيهم بغتة ﴾ أى: بل تأتيهم النار أو الساعة فجأة، ﴿ فتبهتُهُم ﴾ : فتُحيّرهم أو تغلبهم، ﴿ فلا يستطيعون ردَّها ﴾ ؛ فلا يقدرون على دفعها عنهم، أى: النار أو الساعة، ﴿ ولاهم يُنظرون ﴾ : يُمهلون؛ ليستريحوا طرفة عين.

ثم سلّى رسوله عن استهزائهم، فقال: ﴿ ولقد استُهزئ برسل من قبلك فحاقَ ﴾ : نزل أو أحاط أو حلّ ﴿ بالذين سخروا منهم ﴾ أى: من أولئك الرسل ـ عليهم السلام ـ جزاء ﴿ ما كانوا به يستهزؤون ﴾ ، وهو العذاب الدائم. نسأل الله العافية.

الإشارة: كل من خرق عوائد نفسه، وخرج عن عوائد الناس، أو أمر بالخروج عن العوائد، رفضه الناس واتخذوه هُزواً، سنة الله التى قد خلت من قبل، لم يأت أحد بذلك إلا عُودى، فإن ظهر عليه أثر الخصوصية؛ من علم لدنى، أو هداية خلق على يده، استعجلوه بإظهار الكرامة، كما هو شأن الإنسان، خُلق من عَجَل، فيقول: سأوريكم آياتى، فإن الأمر إذا كان مؤسساً على الحق لابد أن تظهر أنواره وأسراره، فلو يعلم الذين كفروا بطريق الخصوص، حين ترهقهم الحسرة، وتُحيط بهم الندامة، إذا رأوا أهل الصفاء يسرحون فى أعلى عليين حيث شاءوا، وجوههم كالشموس الضاحية، لبادروا إلى الانقياد لهم، وتقبيل التراب تحت أقدامهم، ولكنهم اليوم فى غفلة ساهون.

ويقال لمن أنكر عليه أهلُ زمانه طريقَ التجريد وخرقَ العوائد: ولقد استُهزئ بمن كان قبلك ممن سلك هذه الطريق، فأُوذوا، وضُربوا، وأُخرجوا من بلادهم، فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزؤون، إما في الدنيا أو في الآخرة.

فإذا نزل بأسه فلا حافظ منه إلا الرحمن، كما قال تعالى:

﴿ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَٰنِ ۗ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا ۚ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾ بَلْ مَتَّعْنَا هَٰؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ ۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿قلْ﴾ لهم يا محمد: ﴿من يكلؤكُم﴾: يحفظكم ﴿بالليل والنهار من﴾ بأس ﴿الرحمنِ﴾ الذي تستحقونه، إذا نزل بكم ليلاً أو نهاراً. قال الواسطي: من يحفظكم بالليل والنهار من الرحمن أن يظهر عليكم ما سبق فيكم؟ وقال ابن عطاء: من يكلؤكم من أمر الرحمن سوى الرحمن، وهل يقدر أحد على الكلاءة سواه؟. وتقديم الليل؛ لأن الدواهي فيه أكثر وقوعاً وأشد وقْعاً. وفي التعرض لعنوان الرحمانية إيذان بأن كلاءتهم ليس إلا برحمته العامة. ﴿بل هم عن ذِكْرِ ربهم معرضون﴾ أي: بل هم معرضون عن ذكره، ولايُخطِرونه ببالهم، فضلاً أن يخافوا بأسه، حتى إذا رزقوا الكلاءة عرفوا مَن الكالىء، وصلحوا للسؤال عنه.

والمعنى: أنه أمر رسوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ بسؤالهم عن الكالىء، ثم أضرب عنه، وبيَّن أنهم لا يصلحون لذلك، لإعراضهم عن ذكر من يكلؤهم. هكذا للزمخشري ومن تبعه. وقال ابن جزي: والمعنى: أنه تهديد وإقامة حجة عليهم؛ لأنهم لو أجابوا عن هذا السؤال لاعترفوا بأنه ليس لهم مانع ولاحافظ غيره تعالى ـ يعني لِمَا جربوه في أحوال محنتهم ـ ثم قال: وجاء قوله: (بل هم عن ذكر ربهم معرضون،) بمعنى أنهم، إذا سُئلوا ذلك السؤال، لم يجيبوا عنه، لأنهم تقوم عليهم الحجة إن أجابوا، ولكنهم يعرضون عن ذكر الله. هـ. أي: يعرضون عن أن يقولوا: كالئنا الله عتواً وعناداً. وهو معنى قوله: (بل هم عن ذكر ربهم معرضون)، كأنه قال: لو سُئلوا، لم يجدوا جواباً، إلا أن يقولوا: هو الله، لكنهم يعرضون عن ذكره؛ مكابرة. قلت: وما قاله ابن جزي أحسن مما قاله الزمخشري ومن تبعه، وأقرب.

ثم قال تعالى: ﴿أمْ لهم آلهةٌ تمنعُهم من دوننا﴾، هذا انتقال من بيان جهلهم بحفظه تعالى، أو إعراضهم عن ذكره، إلى توبيخهم باعتمادهم على آلهتهم. والمعنى: ألهم آلهة تمنعهم من العذاب تجاوز منعنا وحفظنا، فهم يعولون عليها واثقون بحفظها؟ وفي توجيه الإنكار والنفي إلى وجود الآلهة بما ذكر من المنع، لا إلى نفس الصفة،

بأن يقال: أم تمنعهم آلهتهم ..إلخ، من الدلالة على سقوطها عن مرتبة الوجود، فضلاً عن رتبة المنع، مالا يخفى. ثم قال تعالى: ﴿ لا يستطيعون نصرَ أنفسهم ولا هم منّا يُصْحَبُون ﴾ أى: يُجارون. والصاحب: المُجِير الوافى، يعنى: أن الأصنام لا تُجير نفسها، ولا نُجيرهم نحن، أو لا يصحبُهم نصر من جهتنا، فهم لا يستطيعون أن ينصروا أنفسهم، ولا يُصحبون بالنصر والتأييد من جهتنا، فكيف يتوهم أن ينصروا غيرهم؟.

﴿ بل متعنا هؤلاء وآباءهم حتي طال عليهم العُمُرُ ﴾، إضراب عما توهموه من منع آلهتهم وحفظها لهم، أى: ما هم فيه من الحفظ والكلاءة إنما هو منا، لا من مانع يمنعهم من إهلاكنا، وما كلأناهم وآباءهم الماضين إلا تمتيعاً لهم بالحياة الدنيا وإمهالاً، كما متعنا غيرهم من الكفار وأمهلناهم حتى طال عليهم الأمد فقست قلوبهم، وظنوا أنهم دائمون على ذلك، وهو أمل كاذب. ﴿ أفلا يَرَوْن أنَّا نأتي الأرضَ ننقُصُها من أطرافها ﴾ أى: ألا ينظرون فيرون أنَّا نأتى أرض الكفرة فننقصها من أطرافها؛ بإدخالها فى أيدى المسلمين، فكيف يتوهمون أنهم ناجون من بأسنا. وهو تمثيل وتصوير لما يخربه الله من ديارهم على أيدى المسلمين، ويضيفها إلى دار الإسلام. وفى التعبير بنأتى: إشارة إلى أن الله تعالى يجْريه على أيدى المسلمين، وأن عساكرهم كانت تأتيهم لغزوهم غالبة عليهم، ناقصة من أطراف أرضهم. ﴿ أفهم الغالبون ﴾ على رسول الله ﷺ والمؤمنين، أى: أفكفار مكة يغلبون بعد أن نقصنا من أطراف أرضهم؟ أى: ليس كذلك، بل يغلبهم الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ وأصحابه الكرام، وقد تحقق ذلك وأنجز الله وعده، والله غالب على أمره.

الإشارة: قل من يكلؤ قلوبكم وأسراركم من الرحمن، أن يذهب بما أودع فيها من المعارف وأنوار الإحسان؟ فلا أحد يحفظها إلا من رحمها بما أودع فيها، ولهذا كان العارفون لا يزول اضطرارهم، ولا يكون مع غير الله قرارهم، لا يعتمدون على عمل ولا حال، ولا على علم ولا مقال، وفى الحكم: «إلهى، حكمك النافذ، ومشيئتك القاهرة، لم يتركا لذى حال حالاً، ولا لذى مقال مقالا». وقال أيضا: «إلهى كم من طاعة بنيتُها وحالة شيدتُها، هدم اعتمادى عليها عدلك، بل أقالنى منها فضلك». وكثير من الناس غافلون عن هذا المعنى، بل هم عن ذكر ربهم معرضون.

قال الورتجبى: قوله تعالى: (قل من يكلؤكم...) الآية، أخبر عن كمال إحاطته بكل مخلوق، وتنزيهه عن العَجَلة بمؤاخذتهم، كأنه يقول: أنا بذاتى تعاليت، أدفع بلطفى القديم عنكم قهرى القديم، ولولا فضلى السابق وعنايتى القديمة بالرحمة عليكم، من يدفعه بالعلة الحدثانية؟ وهذا من كمال لطفى عليكم، وأنتم بعد معرضون عنى يا أهل الجفا، وذلك قوله: (بل هم عن ذكر ربهم معرضون) . هـ بلفظه مع تصحيف فى النسخة.

وقوله تعالى: (بل متعنا هؤلاء...) الآية، تمتيع العبد بطول الحياة، إن كان ذلك فى طاعة الله، وازدياد فى معرفته، فهو من النعم العظيمة. وفى الحديث: «خَيْرُكُم مَنْ طَالَ عُمُرُهُ وحَسُنَ عَمَلُهُ»(١). لكن عند الصوفية: أنه لا ينبغي للمريد أن ينظر إلى ما مضى من عمره فى طريق القوم، فقد كان بعض الشيوخ يقول: لا يكن أحدكم عبد الدهور وعبد العدد. قال الشيخ أبو العباس المرسى رضي الله عنه: معنى كلامه: أنه لا ينبغى للفقير أن يعد كم له فى طريق القوم، ليقول: أنا لى كذا وكذا من السنين فى طريق القوم. هـ بالمعنى. ولعل علة النهى؛ لئلا يرى للأيام تأثيراً فى الفتح، فقد قالوا: هى لمن صدق لا لمن سبق.

وقوله تعالى: (أفلا يرون أنا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها) قال القشيرى: فيه إشارة إلى سقوط قوى العبد بمرور السنين، وتطاول العمر، فإن آخر الأمر(٢) كما قيل:

آخِرُ الأمرِ ما تَرَى: القبرُ واللَّحدُ والثرى

وكما قيل:

طَوَى العَصْرانِ(٣) مانَشَرَاهُ منى فأبلَى جِدَّتِي نَشْرٌ وطَيٌّ
أرانى كلَّ يوم فى انتقاصٍ ولا يبقى مع النقصان شيءٌ(٤)

وكأنه فسر الأرض بأرض النفوس من باب الإشارة. والله تعالى أعلم.

ولمَّا بيَّن الحق تعالى غاية هول ما يستعجله المستعجلون، ونهاية سوء حالهم، عند إتيانه، ونعى عليهم جهلهم بذلك، وإعراضهم عند ذكر ربهم، الذى يكلؤهم من طوارق الليل والنهار، أمر نبيه - عليه الصلاة والسلام - بأن يخبرهم أن ما ينذرهم به، مما يستعجلونه، إنما هو بالوحى، لا من عنده، فقال:

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾

---

(١) أخرجه الترمذى (ح ٢٣٢٩) عن عبدالله بن بسر، وحسَّنه، بلفظ: «خير الناس من طال عمره وحَسُنَ عمله».
(٢) فى الأصول: إلى آخر الأمد.
(٣) فى الأصول: «العمران مانشاه»، والمثبت: من لطائف الإشارات... والعصران: الغداة والعشى، أو الليل والنهار. انظر: اللسان (عصر ٤/٢٩٦٨).
(٤) نسب البيتان إلى محمد بن يعقوب بن إسماعيل، انظر: الوافى بالوفيات (٥/٢٢٢)، كما نُسبا إلى أبى بكر بن أبى الدنيا، كما فى تاريخ بغداد (١٤/٣١١).

قلت: من قرأ: «يَسمع» بفتح الياء، فالصُّم: فاعل، والدعاء: مفعول، ومن قرأ بضم التاء، رباعى؛ فالصم: مفعول أول، والدعاء: مفعول ثان. ومن قرأ: «مثقال» بضم اللام، فكان تامة، وبالنصب: خبر كان، أى: وإن كان العمل المدلول عليه بوضع الموازين.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ قل ﴾ لهم يا محمد :﴿ إنما أُنذِرُكُم ﴾ وأخوفكم من العذاب الذى تستعجلونه، أو بالساعة الموعودة، ﴿ بالوحي ﴾ القرآنى الصادق، الناطق بإتيانه، وفظاعة شأنه، أى: إنما شأنى أن أُنذركم بالإخبار به، لا بإتيانه؛ فإنه مخالف للحكمة الإلهية؛ إذ الإيمان برهانى لا عيانى، فإذا أنذرتَهم فلا يسمع إنذارك إلا من سبقت له العناية، دون من سبق له الشقاء، ولذلك قال تعالى: ﴿ ولا يسمع الصمُّ الدعاءَ ﴾ أى: الإنذار، أو لا تُسمع أنت الصمَّ الدعاءَ ﴿ إذا ما يُنذَرُون ﴾؛ يُخوَّفون، واللام فى ﴿ الصم ﴾ للعهد، وهو إشارة إلى هؤلاء المنذرين، والأصل: ولا يسمعون إنذارك إذا يُنذرون، فوضع الظاهر موضع المضمر؛ إشارة إلى تصاممهم وسد أسْماعهم إذا أنذروا، وتسجيلاً عليهم بذلك. وفى التعبير بالدعاء، دون الكلام فى الإنذار، إشارة إلى تناهى صممهم فى حال الإنذار، فإن الدعاء من شأنه أن يكون بأصوات عالية مكررة مقارنة لهيئة دالة عليه، فإذا لم يسمعوا، مع هذه الحالة، يكون صممهم فى غايةٍ لا غاية وراءها.

﴿ ولئن مستْهم نفحةٌ ﴾ أى: دفعة يسيرة ﴿ من عذاب ربك ﴾ أى: كائنة منه، ﴿ ليقولُنَّ ياويلنا إنا كنا ظالمين ﴾، وهذا بيان لسرعة تأثيرهم من مجيء نفس العذاب، إثر بيان عدم تأثرهم من مجرد الإخبار به، لانهماكهم فى الغفلة، أى: والله لئن أصابهم أدنى شيء من هذا العذاب الذى يُنذرون به، لذلوا، ودَعوا بالويل على أنفسهم، وأقروا بأنهم ظلموا أنفسهم حين تصامموا وأعرضوا. وقد بُولغ فى الكلام، حيث عبَّر بالمس والنفح؛ لأن النفح يدل على القلة، فأصل النفح: هبوب رائحة الشيء، يُقال: نفحه بعطية، إذا أعطاه شيئاً يسيراً، مع أن بناءها للمرة مؤكد لقلتها.

ثم بيَّن ما يقع عند إتيان ما أنذروه، فقال: ﴿ ونضع الموازينَ القسْطَ ﴾ أى: نقيم الموازين العادلة التى تُوزن بها الأعمال، وهو جمع ميزان، وهو ما يوزن به الشيء ليُعرف كميّته. وعن الحسن: «هو ميزان له كفتان ولسان»، وإنما جمع الموازين؛ لتعظيم شأنها، والوزن لصحائف الأعمال فى قول، وقيل: وضع الميزان كناية عن تحقيق العدل، والجزاء على حسب الأعمال. وإفراد القسط؛ لأنه مصدر وصف به؛ للمبالغة، كأنها فى نفسها قسط، أو على حذف مضاف، أى: ذوات القسط. وقوله: ﴿ ليومِ القيامة ﴾ أى: لأهل يوم القيامة، أى: لأجلهم، أو فى يوم القيامة، ﴿ فلا تُظلم نفسٌ شيئًا ﴾ من الظلم، ولا تنقص حقاً من حقوقها، بل يُؤتى كل ذى حق حقه، إن خيراً فخيرٌ، وإن شراً فشر.

﴿ وإن كان مثقالَ حبةٍ من خَرْدَلٍ ﴾ أي: وإن كان الشيء أو العمل مثقال حبة من خردل، ﴿ أتينا بها ﴾ : أحضرناها وجازينا عليها، وأنث ضمير المثقال؛ لإضافته إلى حبة، ﴿ وكفى بنا حاسبين ﴾، إذ لا مزيد على علمنا وعدلنا، أو عالمين حافظين، لأن من حسب شيئاً علمه وحفظه، قاله ابن عباس ـ رضي الله عنهما.

الإشارة: كان ﷺ يُنذر الناس ويذكّرهم بالوحي التنزيلي، وبقي خلفاؤه يذكرون بالوحي الإلهامي، موافقاً للتنزيلي، ولا يسمع وعظهم ويحضر مجالسهم إلا من سبقت له سابقة العناية، وأما من انتكبت عنه العناية تنكب مجالسهم، وتصامم عن وعظهم وتذكيرهم، ولا يسمع الصمُّ الدعاء إذا ما ينذرون، ولا يندمون إلا حين تنزل بهم الأهوال، ولا ينفع الندم وقد جف القلم، وذلك حين تُوضع موازين الأعمال، فتثقل أعمال المخلصين، وتخف أعمال المخلّطين، ولا تُوضع الموازين إلا لأهل النفوس الموجودة، وأما من غاب عن نفسه في شهود محبوبه، لفنائه في شهوده، وانطوائه في وجوده، فلا ينصب له ميزان؛ إذ لا يشهد لنفسه حساً ولا فعلاً ولا تركاً، وإنما الفعل كله للواحد القهار. ويكون من السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بغير حساب، جعلنا الله من خواصهم بمنّه وكرمه. آمين.

ثم شرع في تفصيل ما أجمل في قوله: ﴿وما أرسلنا قبلك إلا رجالاً نُوحي إليهم﴾، إلى قوله: ﴿وأهلكنا المسرفين﴾(١)، فقال:

﴿ لَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله : ﴿ ولقد آتينا موسى وهارون الفرقانَ وضياءً وذِكْراً للمتقين ﴾، هذه الأوصاف كلها للتوراة، فهي فرقان بين الحق والباطل، وضياء يستضاء به، ويتوصل به إلى سبيل النجاة، وذِكْراً، أي: شرفاً، أو وعظاً وتذكيراً. وتوكيده بالقسم؛ لإظهار كمال الاعتناء به، أي: والله لقد آتيناهما وحيًا ساطعاً وكتاباً جامعاً بين كونه فارقاً بين الحق والباطل، وضياء يُستضاء به في ظلمات الجهل والغواية، وذكراً ينتفع به الناس، أو شرفاً لمن عمل به، وتخصيص المتقين بالذكر؛ لأنهم المستضيئون بأنواره، المغتنمون لمغانم آثاره، أو ذكر ما يحتاجون إليه من الشرائع والأحكام، ودخلت الواو في الصفات، كقوله تعالى: ﴿ وَسَيِّداً وَحَصُوراً وَنَبِيًّا ﴾(٢)، وتقول: مررت بزيد الكريم والعالم والصالح.

(١) الآيات: ٧ ـ ٩.
(٢) من الآية ٣٩ من سورة آل عمران.

ثم وصف المتقين أو مدحهم بقوله: ﴿ الذين يخشَون ربهم ﴾، حال كونهم ﴿ بالغيب ﴾ أى: يخافون عذابه تعالى، وهو غائب عنهم غيرُ مشاهَدٍ لهم، ففيه تعريض بالكفرة، حيث لايتأثرون بالإنذار ما لم يُشاهدوا ما أنذروه. أو يخافون الله فى الخلاء كما يخافونه بين الناس، أو يخافونه بمجرد الإيمان به غير مشاهدين له، ﴿ وهُمْ من الساعة مشفقون ﴾ أى: خائفون معتنون بالتأهب لها. وتخصيص إشفاقهم منها بالذكر، بعد وصفهم بالخشية على الإطلاق؛ للإيذان بكونها أعظم المخلوقات، وللتنصيص على الاتصاف بضد ما اتصف به الكفرة الغافلون عنها، وإيثار الجملة الاسمية؛ للدلالة على ثبات الإشفاق ودوامه لهم.

﴿ وهذا ﴾ أى: القرآن الكريم، أشير إليه بهذا؛ إيذاناً بغاية وضوح أمره، ﴿ ذِكْرٌ ﴾ يتذكر به من تذكر، وصفه ببعض أوصاف التوراة؛ لموافقته له فى الإنزال، ولما مرّ فى صدر السورة من قوله: ﴿ ما يأتيهم من ذكر... ﴾(١) إلخ، ﴿ مباركٌ ﴾ ؛ كثير الخير، غزير النفع، يتبرك به على الدوام. قال القشيرى: وصْفُه بالبركة هو إخبارٌ عن ثباته، من قولهم: بَرَكَ البعيرُ، وبَرَكَ الطائرُ على الماء، أى: دَاوَمَ. وهذا الكتاب دائم، لا يأتيه الباطلُ من بين يديه ولا من خلْفه، وهو دالّ على كلامه القديم، فلا انتهاء له، كما لا ابتداء له ولا انتهاء لكلامه. هـ. ﴿ أنزلناه ﴾ على محمد ﷺ، وهو صفة ثانية للكتاب ﴿ أفأنتم له منكرون ﴾؛ استفهام توبيخى، أى: جاحدون أنه منزل من عند الله، والمعنى: أبَعْدَ أن علمتم أن شأنه كشأن التوراة، فى الإنزال والإيحاء، أنتم منكرون؛ لكونه منزلاً من عندنا؛ فإن ذلك، بعد ملاحظة التوراة، مما لا مساغ له أصلاً. وبالله التوفيق.

الإشارة: كل ما وصف به التوراة وصف به كتابنا العزيز، قال تعالى ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ﴾(٢) وقال: ﴿ وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً ﴾(٣)، وقال هنا: ﴿ وهذا ذكر مبارك ﴾، فزاده البركة؛ لعموم خيره ودوام نفعه، وخصوصاً للمتقين الذين يخشون ربهم بالغيب: قال القشيرى: والخشية بالغيب: إطراقُ السريرة فى أول الحضور، باستشعار الوَجَلِ من جريان سوء الأدب، والحذَرُ من أنْ يبدوَ من الغيبِ بَغَتَات التقدير، مما يوجِبُ حجبة العبد. هـ.

ثم ذكر بقية المشاهير من الرسل، وبدأ بإبراهيم؛ لموافقة شريعتنا له، ولكونه أصل الجُلّ منهم، فقال:

﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ

---

(١) الآية: ٢.
(٢) من الآية الأولى من سورة الفرقان.
(٣) من الآية ١٧٤ من سورة النساء.

وَءَابَآؤُكُمْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾

قلت: «إذ قال»: ظرف لآتينا، أو لرُشْدَه.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ولقد آتينا إبراهيمَ رُشدَه ﴾ أي: الرشد اللائق به وبأمثاله من كُبراء الرسل، وهو الاهتداء الكامل، المستند إلى الهداية الخاصة الحاصلة بالوحي، مع الاقتدار على إصلاح الأمة وإرشادها بسياسة النبوة والوحي الإلهي، ﴿ من قبلُ ﴾ أي: من قبل إيتاء موسى وهارون التوراة، وتقديم ذكرهما، لما بين التوراة والقرآن من الشبه التام. وقيل: من قبل إنزال القرآن، أو من قبل استنبائه، أو من قبل بلوغه، ﴿ وكُنا به عالمين ﴾ أي: بأنه أهل لما آتيناه، أو عالمين برُشده، وما خصصناه به من الهداية الخاصة. ﴿ إذ قال لأبيه وقومه ﴾ أي: آتيناه ذلك حين قال لأبيه، أو اذكر وقت قوله لهم: ﴿ ما هذه التماثيلُ ﴾ أي: الأصنام المصورة على صورة السباع والطيور والإنسان، وفيه تجاهل بهم؛ تحقيراً لها، مع علمه بتعظيمهم لها؛ توبيخاً لهم على إجلالها مع كونها خشباً وأحجاراً لاتضر ولا تنفع، ﴿ التي أنتم لها عاكفون ﴾ أي: لأجل عبادتها مقيمون، فلما عجزوا عن الدليل ﴿ قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين ﴾ فقلدناهم، فأبطله عليه السلام، على طريقة التوكيد بالقسم، فقال: ﴿ لقد كنتم أنتم وآباؤكم ﴾ الذين سنُّوا لكم هذه السُّنَّة الباطلة، ﴿ في ضلال مبين ﴾: ظاهر بيِّن، بحيث لا يخفى على أحد من العقلاء، أي: والله لقد كنتم مستقرين في ضلال عظيم ظاهر؛ لعدم استناده إلى دليل، فالتقليد إنما يجوز فيما يحتمل الحقِّية في الجملة، لا فيما اتضح بطلانه، سيما في أمر التوحيد.

﴿ قالوا أجئتنا بالحق ﴾ أي: بالجد، ﴿ أم أنت من اللاعبين ﴾، فتقول ما تقول على الملاعبة والمزاح. والمعنى: أجادٌّ أنتَ، أم لاعب فيما تقول؟ قالوا ذلك؛ استعظامًا منهم لإنكاره، واستبعاداً لكون ماهم عليه ضلال، وتعجيباً من تضليله إياهم.

ثم أضرب عنهم؛ مخبراً بأنه جاد فيما قال، غير لاعب، بإقامة البرهان على بطلان ما ادعوه فقال: ﴿ بل ربُّكم ربُّ السموات والأرض الذي فطرهنَّ ﴾، لا التماثيل التي صورتم. وقيل: هو إضراب عما بنوا عليه مقالتهم؛ من اعتقاد كونها أرباباً لهم، كما يُفصح عنه قولهم: ﴿ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ ﴾(١)، كأنه قال: ليس الأمر كذلك، بل ربكم رب السموات والأرض الذي خلقهن وأنشأهن، فالضمير للسماوات والأرض، وصفه تعالى بإيجادهن، إثر وصفه تعالى بربوبيته لهن؛ تحقيقًا للحق، وتنبيهًا على أن ما لا يكون كذلك بمعزل من

(١) من الآية ٧١ من سورة الشعراء.

الربوبية، أى: أنشأهن بما فيهن من المخلوقات، التى من جملتها أنتم وآباؤكم وما تعبدونه، من غير مثالٍ يحْتَذِيه، ولا قانون ينتحيه. وقيل: الضمير للتماثيل، وهو أدخل فى تضليلهم، وأظهر فى إلزام الحجة عليهم؛ لِما فيه من التصريح المُغنى عن التأمل فى كون مايعبدونه من المخلوقات، والأول أقرب.

ثم قال عليه السلام: ﴿ وأنا على ذلكم ﴾ الذى ذكرتُ: من كون ربكم ربَّ السماوات والأرض، دون ماعداه، كائناً ماكان،﴿ من الشاهدين ﴾ أى: العالمين به على سبيل الحقيقة، المبرهنين عليه، فإن الشاهد على الشيء: مَنْ تحققه وبرهن عليه، كأنه قال: وأنا أعلم ذلك، وأتحققه، وأُبرهن عليه، والله تعالى أعلم.

الإشارة: زخارف الدنيا وبهجتها، من تشييد بناء، وتزويق سقف وحيطان، وإنشاء غروس وبساتين، وجمع أموال، وتربية جاه، كلها تماثيل لاحقيقة لها، فانية لا دوام لها. فمن عكف عليها، وأولع بخدمتها وجمعها وتحصيلها، كان عابداً لها، فينبغى لذى الرشد والعقل الوافر، الذى تحرر منها، أن يُنكر عليهم، ويقول لهم: ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون، فإن قالوا: وجدنا آباءنا يفعلون هذا، وعلماءنا مثلنا، فليقل لهم: لقد كنتم وآباؤكم وعلماؤكم فى ضلال مبين، عما كان عليه الأنبياء والأولياء والسلف الصالح. فإن قالوا: أجادٌ أنت أم لا؟ فليقل: بل ربكم الذى ينبغى أن يُفرد بالمحبة والخدمة، هو رب السماوات والأرض، لا ما أنتم عليه من محبة الدنيا وبهجتها، وأنا على ذلكم من الشاهدين.

ثم ذكر كسره للأصنام، وما ترتب عليه، فقال:

﴿ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا
لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٩﴾
قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾
قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا
يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ
رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ
شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾

قلت: (مَن فَعَل): استفهام، وقيل: موصولة، و(إنه): خبرها، أى: الذى فعل هذا معدود من الظلمة، و(يذْكُرهم): إما مفعول ثان لسمع؛ لتعلقه بالذات، على قول، أو صفة لفتى. و(يُقال): صفة أخرى لفتى. و«إبراهيم»: نائب فاعل يُقال.

يقول الحق جل جلاله حاكياً عن خليله عليه السلام: ﴿ وتالله لأكيدنّ أصنامكم ﴾ أي: لأمكرنّ بها، وأجتهد في كسرها، وفيه إيذان بصعوبة الانتهاز، وتوقفه على الحيل والسياسة، وذلك الكيد ﴿ بعد أن تُولُّوا مُدبرين ﴾؛ بعد ذهابكم عنها إلى عيدكم. قال مجاهد: إنما قاله سراً، ولم يسمعه إلا رجلٌ فأفشاه عليه، وقال: سمعت فتى يذكرهم. وقال السدي: كان لهم في كل سنة مجمعٌ وعيد، فإذا رجعوا من عيدهم دخلوا على أصنامهم فسجدوا لها، وقال أبو إبراهيم: يا إبراهيم، لو خرجتَ معنا إلى عيدنا لأعجبك، فخرج إلى بعض الطريق، وقال: إني سقيم، أشتكي رجلي. فلما مضوا نادى في آخرهم - وقد بقي ضعفاء الناس -: ﴿ تالله لأكيدنَّ أصنامكم بعد أن تُولُّوا مدبرين ﴾ فسمعوه، ثم دخل بيت الأصنام، فوجد طعاماً كانوا يضعونه عندها للبركة، فإذا رجعوا أكلوه، فقال: ﴿ ألا تأكلون ﴾؟ استهزاءً بها، فلم يجبه أحد، فقال: ما لكم لا تنطقون ﴿ فَرَاغَ ﴾؛ مال ﴿ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بالْيمين ﴾(١).

﴿ فجعلهم جُذاذًا ﴾ أي: قطعاً، جمع جذيذ. وفيه لغتان: الكسر، كخفيف وخِفاف، والضم؛ كحطيم وحُطام. رُوي أنها كانت سبعين صنماً مصطفة. وثَمّ صنم عظيم مستقبل الباب، وكان من ذهب، وفي عينيه جوهرتان تضيئان بالليل، فكسر الكل بفأس كان بيده، ولم يُبق إلا الكبير، علّق الفأس في عنقه، وذلك قوله تعالى: ﴿ إلا كبيراً لهم ﴾ أي: للأصنام ﴿ لعلهم إليه ﴾ أي: إلى إبراهيم عليه السلام ﴿ يرجعون ﴾؛ فيحاجهم بما سيأتي فيغلبهم، أو إلى دينه؛ إذا قامت الحجة عليهم. وقيل: إلى الكبير يسألونه عن الكاسر؛ لأن من شأن الكبير أن يرجع إليه في الملمات. وقيل: إلى الله تعالى وتوحيده، عند تحققهم بعجز آلهتهم عن دفع ما يصيبهم وعن الإضرار بمن كسرهم.

فلما رجعوا من عيدهم ،ورأوا ما صُنع بآلهتهم، ﴿ قالوا مَن فعلَ هذا بآلهتنا ﴾، على طريق الإنكار والتوبيخ، ﴿ إنه لَمِنَ الظالمين ﴾ أي: لشديد الظلم؛ لجرأته على الآلهة، التي هي عندهم في غاية التوقير والتعظيم. أو لَمِنَ الظالمين حيث عرّض نفسه للهلكة، ﴿ قالوا ﴾ أي: بعضُ منهم، وهو من سمع مقالته: ﴿ سمعنا فتىً يذكرهم ﴾ أي: يعيبهم، فلعله فعل ذلك بها، ﴿ يُقال له إبراهيم ﴾ أي: يقال له هذا الاسم. ﴿ قالوا ﴾ أي: السائلون: ﴿ فأْتُوا به على أعين الناس ﴾ أي: بمرأى منهم، بحيث يكون نصبَ أعينهم، لا يكاد يخفى على أحد، ﴿ لعلهم يشهدون ﴾ عليه بما سُمع منه، أو بما فعله، كأنهم كرهوا عقابه بلا بينة، أو يَحضرون عقوبتنا له.

فلما أحضروه ﴿ قالوا أأنت فعلتَ هذا بآلهتنا يا إبراهيم ﴾؟ واختصر إحضاره؛ للتنبيه على أن إتيانهم به، ومسارعتهم إلى ذلك، أمر محقق غني عن البيان ﴿ قال ﴾ إبراهيم عليه السلام: ﴿ بل فعله كبيرُهُم هذا ﴾، غار أن

---

(١) كما جاء في الآية ٩٣ من سورة الصافات.

يُعبدوا معه، مشيراً إلى الذى لم يكسره. وعن الكسائى: أنه يقف على (بل فعله) أى: فعله من فعله، ثم ابتدأ: كبيرهم هذا يُخبركم فسلوه ... إلخ، والأكثر: أنه لا وقف، والفاعل: كبيرهم. وهذا: بدل، أو وصف، ونسبَ الفعل إلى كبيرهم، وقصده تقريره لنفسه وإسناده لها، على أسلوب تعريضى؛ تبكيتاً لهم، وإلزاماً للحجة عليهم، لأنهم إذا نظروا النظر الصحيح علِموا عجز كبيرهم، وأنه لا يصلح للألوهية، وهذا كما لو كتبت كتاباً بخط أنيق، وأنت شهير بحسن الخط، ومعك صاحب أُمىّ، فقال لك قائل: أأنت كتبت هذا؟ فتقول: بل كتبه هذا، وهو يعلم أنه أُمىّ لا يُحسن الكتابة، فهو تقرير لإثبات الكتابة لك على أبلغ وجه.

قال الكواشي: ومن الجائز أن يكون أذِنَ الله تعالى له في ذلك كما أذِنَ ليوسف حين نادى على إخوته: ﴿ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴾(١)، ولم يكونوا سارقين؛ لِمَا فى ذلك من المصلحة؛ لأنهم إذا نظروا النظر الصحيح، وسألوا، علِموا أن كبيرهم لم يفعل شيئاً، وأنه عاجز عن النطق، فضلاً عن الفعل، فلا يجوز أن يُعبد، ولا يستحق العبادة إلا القادر الفعال. هـ.

وقيل: أسند الفعل إلى كبيرهم؛ لأنه الحامل له على كسرها، حيث رآه يُعظّم أكثر منها، ويُعبد من دون الله، فاشتد غضبه حتى كسرها، وهو بعيد؛ إذ لو كان كذلك لكسره أولاً. فتحصل أنه عليه السلام إنما قصد التعريض بعبادتهم، لا الإخبار المحض، حتى يكون كذباً. فإن قلت: قد ورد فى الحديث أن إبراهيم كذب ثلاث كذبات(٢)؟ فالجواب: أن معنى ذلك: أنه قال قولاً ظاهره الكذب، وإن كان القصد به معنى آخر. قاله ابن جزى.

ثم قال لهم: ﴿ فاسألوهم ﴾ عن حالهم، ﴿ إن كانوا ينطقون ﴾ فتجيبكم بمن كسرهم، وأنتم تعلمون عجزهم عنه، ﴿ فرجعوا إلى أنفسهم ﴾ أى: رجعوا إلى عقولهم، وتفكروا بقلوبهم، وتذكروا أنّ ما لا يقدر على دفع المضرة عن نفسه ولا على الإخبار بمن كسره، فكيف يستحق أن يكون معبوداً؟ ﴿ فقالوا ﴾ أى: قال بعضهم لبعض: ﴿ إنكم أنتم الظالمون ﴾ على الحقيقة، حيث عبدتم من لا ينطق ولا يضر ولا ينفع؛ لأنّ من لا يدفع عن رأسه الفأس، فكيف يدفع عن عابده البأس! فأنتم الظالمون بعبادتها؛ لا من ظلمتموه بقولكم: (إنه لمن الظالمين). أو: أنتم الظالمون لا من كسرها، ﴿ ثم نُكِسُوا على رؤوسهم ﴾، وردّوا إلى أسفل سافلين، أُجرى الحقُّ على لسانهم فى القول الأول، ثم أدركتهم الشقاوة، أى: انقلبوا إلى المجادلة، بعدما استقاموا بالمراجعة، شبّه عودهم

(١) من الآية ٧٠ من سورة يوسف.
(٢) الحديث أخرجه البخارى فى (أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿واتخذ الله إبراهيم خليلا﴾.) ومسلم فى الفضائل، باب من فضائل إبراهيم، من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.

إلى الباطل بصيرورة أسفل الشيء أعلاه، قائلين: ﴿لقد علمتَ﴾ يا إبراهيم ﴿ما هولاء ينطقون﴾، فكيف تأمرنا بسؤالها ؟.

﴿قال﴾؛ مبكتاً لهم وتوبيخاً: ﴿أفتعبدون من دون الله﴾ أي: متجاوزين عبادته تعالى إلى ﴿ما لاينفعكم شيئًا﴾ من النفع، ﴿ولا يضرُكُم﴾ إن لم تعبدوه، فإنَّ العلم بالحالة المنافية للألوهية مما يُوجب اجتناب عبادته، ﴿أفٍ لكم ولما تعبدون من دون الله﴾، أفٍّ: اسم صوت تدل على التضجر، تضجر عليه السلام من إصرارهم على الباطل، بعد انقطاع عذرهم ووضوح الحق، فأفَّف بهم وبأصنامهم، أي: لكم ولأصنامكم هذا التأفف، ﴿أفلا تعقلون﴾ أن من هذا وصفه لا يستحق أن يكون إلهاً. والله تعالى أعلم.

الإشارة: من أراد أن يكون إبراهيمياً حنيفياً فليكسر أصنام نفسه، وهي ما كانت تهواه وتميل إليه من الحظوظ النفسانية والشهوات الجسمانية، حتى تنقلب حقوقاً ربانية، فحينئذ يريه الحق ملكوتَ السمواتِ والأرض، ويكون من الموقنين. وأمُّ الشهوات: حب الدنيا، ورأسها: حب الرئاسة والجاه، وأكبر الأصنام: وجودك الحسي، فلا حجاب أعظم منه، ولذلك قيل:

وُجودُكَ ذَنْبٌ لاَ يُقَاسُ بِه ذَنْبُ

فإن غبتَ عنه، وكسرته، غابت عنك جميعُ العوالم الحسية، وشهدتَ أسرار المعاني القدسية، فشهدت أسرار الذات وأنوار الصفات، وإلى هذا المعنى أشار ابن العريف رضي الله عنه بقوله :

بَدَا لَكَ سِرٌّ طَالَ عَنْكَ اكْتِتَامُهُ		وَلاَحَ صَبَاحٌ كُنْتَ أَنْتَ ظَلاَمُهُ
فَأَنْتَ حِجَابُ القَلْبِ عَنْ سِرِّ غَيْبِهِ		وَلَوْلاَكَ لَمْ يُطْبَعْ عَلَيْهِ خِتَامُهُ
فَإِنْ غِبْتَ عَنْهُ حَلَّ فِيهِ، وَطَنَّبَتْ		عَلَى مَوْكِبِ الكَشْفِ المَصُونِ خِيَامُهُ
وَجَاءَ حَدِيثٌ لا يُمَلُّ سَمَاعُهُ		شَهِيٌّ إِلَيْنَا نَثْرُهُ وَنِظَامُهُ
إِذَا سَمِعَتْهُ النَّفْسُ طَابَ نَعِيمُهَا		وَزَالَ عَنِ القَلْبِ المُعَنَّى غَرَامُهُ

فالغيبة عن وجود العبد فناء، والرجوع إليه لوظائف العبودية بقاء، وإليه الإشارة بقوله تعالى: (إلا كبيراً لهم لعلهم إليه يَرجعون) أي: إلا كبير الأصنام، وهو وجودك الوهمي، فلا ينبغي الغيبة عنه بالكلية حتى يترك وظائف العبودية والقيام بحقوق البشرية، فإنَّ هذا اصطلام، بل ينبغي ملاحظته، لعله يقع الرجوع إليه في مقام البقاء، والله تعالى أعلم.

ثم ذكر قصة تحريقه وإنجائه، فقال:

﴿ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿قالوا حرِّقوه﴾ أي: قال بعضهم لبعض، لَمَّا عجزوا عن المحاجة، وضاقت عليهم الحيل، وعييت بهم العلل، وهذا دَيْدنُ المبطل المحجوج، إذا قُرِعَت شبهه بالحجة القاطعة وافتضح، لم يبق له حينئذ إلا المناصبة والمعاداة، فناصبوا إبراهيم عليه السلام، وقالوا حرِّقوه بالنار؛ لأنه أشد العقوبات، ﴿وانصرُوا آلهتكم﴾ بالانتقام لها ﴿إن كنتم فاعلين﴾ للنصر، أي: إن كنتم ناصرين آلهتكم نصراً مؤزراً، فاختاروا له أهول المعاقبات، وهو الإحراق، وإلاَّ فقد فرطتم في نصرتها، والذى أشار بالإحراق نمرود، أو رجل من أكراد فارس، اسمه «هيْزن»، وقيل: «هدير»، خسفت به الأرض، فهو يتجلجل إلى يوم القيامة(١).

رُوي أنهم، لما أجمعوا على حرقه عليه السلام، بنوا له حظيرة بكُوثَى - قرية من قرى الأنباط بالعراق - فجمعوا صلاب الحطب من أصناف الخشب، مدة أربعين يوماً، وقيل: شهراً، حتى إن المرأة تنذر: لَئِنْ أصابت حاجتها لتحطِبَنَّ فى نار إبراهيم. ثم أوقدوا ناراً عظيمة، لا يكاد يحوم حولها أحد، حتى إن كانت الطير لتمرُّ بها، وهي في أقصى الجو فتحترق من شدة وهجها، ولم يقدر أحد أن يقربها، فلم يعلموا كيف يُلقونه عليه السلام فيها، فأتى إبليس وعلمهم علمَ المنجنيق، فعملوه. وقيل: صنعه لهم رجل من الأكراد، فخسف الله تعالى به في الأرض مثل الآخر، ثم عمدوا إلى إبراهيم عليه السلام، فوضعوه فيه مغلولاً مقيداً مجرداً، فصاحت السماءُ والأرضُ ومن فيها من الملائكة: يا ربنا، إبراهيم، ليس في الأرض أحد يعبدك غيرُه، يُحرق فيك، فأْذَنْ لنا في نصرته، فقال لهم: إن استغاث بواحد منكم فأغيثوه، فرموا به فيها من مكان شاسع، فقال له جبريل عليه السلام، وهو في الهواء: ألك حاجة؟ فقال: أما إليك فلا. قال: فسل ربك. فقال: حسبي من سؤالي علمه بحالي(٢)، فرفع همته عن الخلق، واكتفى بالواحد الحق، فجعل الله الخطيرةَ روضة. وهذا معنى قوله: ﴿قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم﴾ أي: كوني ذات برد وسلام، أي: ابردي برداً غير ضار.

---

(١) أخرجه الطبرى (١٧/٤٣) عن شعيب الجبائى.

(٢) انظر تفسير الطبرى (١٧/٤٤) والبغوى (٥/٣٢٧) وابن كثير (٣/١٨٤). والوارد فى ابن كثير: «أما إليك: فلا،وأما إلى الله، فبَلَى».

قال ابن عباس: لو لم يقل «وسلاماً» لمات إبراهيم من بردها، ولم تبق يومئذ نار إلا طفئت، ظنت أن الخطاب توجه لها، فما انتفع أحد من أهل الأرض يومئذ بنار، ولم تبق دابة إلا أتت تطفئ عنه النار، إلا الوزغ[١]. فلذلك أمر نبينا ﷺ بقتلها[٢]، وسماها فويسقا[٣]. قال السدي: فأخذت الملائكة بضَبْعَي إبراهيم وأقعدوه على الأرض، فإذا عين ماء عذب وورد أحمر ونرجس. قال كعب: ما أحرقت النار من إبراهيم إلا وثاقه[٤]. وروُي أنه عليه السلام مكث فيها سبعة أيام، وقيل: أربعين، وقيل: خمسين، والأول أقرب.

قال إبراهيم عليه السلام: ما كنتُ أياماً قط أنعم مني من الأيام التي كنتُ فيها. قال ابن يسار: وبعث الله تعالى ملك الظل فقعد إلى جنبه يؤنسه، قالوا: وبعث الله بقميص من حرير الجنة. قلت: وقد تقدم ذكره في سورة يوسف[٥]. وأتاه جبريل فقال: إن ربك يقول: أما علمت أن النار لا تضر أحبائي. فنظر نمرود من صرحه، فأشرف عليه، فرآه جالساً في روضة مونقة، ومعه جليسٌ على أحسن ما يكون من الهيئة، والنار محيطة به، فنادى: يا إبراهيم هل تستطيع أن تخرج منها؟ قال: نعم، قال: فاخرج، فقام يمشي فخرج منها، فاستقبله نمرود وعظّمه. وقال: من الرجل الذي رأيتُه معك؟ قال ذلك ملك الظل، أرسله ربي ليؤنسني، فقال: إني مُقرب إلى إلهك قرباناً لِماَ رأيته من قدرته وعزته فيما صنع بك. فقال عليه السلام: لا يقبل الله منك مادمت على دينك هذا، حتى تفارقه إلى ديني، قال: لا أستطيع ترك ملكي، ولكن سأذبح له أربعة آلاف بقرة، فذبحها، وكف عن إبراهيم[٦] عليه السلام.

قال شعيب الجبائي: أُلقِي إبراهيم في النار وهو ابن ست عشرة سنة، وذبح إسحاق[٧] وهو ابن سبع سنين، وولدته سارة وهي بنت تسعين سنة، ولمّا علمت ما أراد من ذبحه بقيت يومين وماتت في الثالث[٨]..هـ. وهذا كما ترى من أكبر المعجزات، فإنّ انقلاب النار هواء طيباً، وإن لم يكن بدعاً من قدرة الله، لكنه من أكبر الخوارق، واختلف في كيفية برودتها؛ فقيل: إن الله تعالى أزال ما فيها من الحر والإحراق، وقيل: دفع الله عن جسم إبراهيم حرها وإحراقها مع تَرْكِ ذلك فيها، والله على كل شيء قدير.

---

(١) قال في النهاية: الوزغ: جمع وزَغة وهي التي يقال لها: سامُ أبْرَص، انظر النهاية (وزغ)، والأثر أخرجه الطبري.

(٢) جاء فيما أخرجه البخاري في (أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿واتخذ الله إبراهيم خليلا﴾)، ومسلم في (السلام، باب استحباب قتل الوزغ) عن أم شريك.

(٣) أخرجه مسلم في الموضع السابق ذكره، عن السيدة عائشة وابن عامر بن سعد عن أبيه.

(٤) أخرجه الطبري (١٧/٤٤) عن كعب.

(٥) راجع تفسير الآية ٩٦ من سورة يوسف.

(٦) ذكره البغوي في تفسيره (٥/٣٢٩) وصاحب زاد المسير (٥/٣٦٧).

(٧) راجع: التعليق على تفسير الآية ١٢٤ من سورة البقرة.

(٨) أخرجه الطبري (١٧/٤٥).

قال تعالى: ﴿ وأرادوا به كيداً ﴾ ؛ مكراً عظيماً فى الإضرار، ﴿ فجعلناهم الأخسرين ﴾ أى: أخسر من كل خاسر، حيث جاء سعيهم فى إطفاء نور الحق برهاناً قاطعاً على أنه عليه السلام على الحق، وهم على الباطل، وموجباً لارتفاع درجته واستحقاقهم للهلاك، فأرسل الله على نمرود وقومه البعوض، فأكلت لحومهم وشربت دماءهم، ودخلت بعوضة فى دماغ نمرود فأهلكته بعد المحنة الشديدة، وبالله التوفيق.

الإشارة: أجرى الله تعالى عادته فى المتوجه الصادق، إذا أراد الوصول إلى حضرته، أن يبتليه قبل أن يُمكنه، ويمتحنه قبل أن يُصافيه؛ لأنَّ محبته تعالى مقرونة بالبلاء، والداخل على الله منكور، والراجع إلى الناس مبرور. فإذا رُمى الولى فى منجنيق الابتلاء، وأُلقى فى نار الجلال، وتعرضت له الأكوان: ألك حاجة؟ فيقول ـ إن كان مؤيداً ـ: أمَّا إليك فلا، وأما إلى الله فبلى، فإذا قيل له: سله، فيقول: علمه بحالى يغنى عن سؤالى. فلا جرم أن الله تعالى يقول لنار الجلال: كونى برداً وسلاماً على وليى، فينقلب حرها برداً وسلاماً، فلا يرى أياماً أحلى من تلك الأيام التى ابتُلى فيها. وهذا أمر مجرب مَذُوق، وأما إن التفت إلى التعلق بغير الله تعالى، فإ نَّ البلاء يُشدد عليه، أو يخرج من دائرة الولاية، والعياذ بالله. فالولى هو الذى يقلب الأعيان بهمته، وبالنور الذى فى قلبه، حسية كانت أو معنوية، فيقلب الخوف أمناً، والحزن سروراً، والقبض بسطاً، والفاقة غنىً، وهكذا.. فحينئذ تنفعل له الأشياء وتطيعه، وتخرق له العوائد، حتى لو أُلقى فى النار الحسية لبردت. قال الورتجبى: كان الخليل منُوراً بنور الله، وكان فعل النار من فعل الله، فغلب نور الصفة على نور الفعل، ولو بقيت النار حتى وصل إليها الخليل لصارت مضمحلة، فعلم الحق ذلك، فقال لها: (كونى برداً وسلاماً على إبراهيم) حتى تبقى لظهور معجزته وبيان كرامته . هـ. ومصداق ماذكره: قول النار يوم للقيامة للمؤمن: جُز فقد أطفأ نورك لهبى[1]، كما ورد. والله أعلم

ثم ذكر هجرة إبراهيم إلى الشام، فقال:

﴿ وَنَجَّيْنَـٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَـٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾

قلت: «إلى الأرض»: يتعلق بحال محذوفة، ينساق إليها الكلام، أى: ذاهباً بهما إلى الأرض.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ونجيناه ﴾ أى: إبراهيم ﴿ ولوطاً ﴾ ابن أخيه هاران، ذاهباً بهما من العراق ﴿ إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين ﴾ ، وهى أرض الشام. وبركاته العامة: أنَّ أكثر الأنبياء بُعثوا فيها، فانتشرت فى العالمين شرائعهم، التى هى مبادئ الخيرات الدينية والدنيوية، وهى أرض المحشر، فيها يجمع الناس،

(١) أخرجه الخطيب فى تاريخ بغداد (٥/١٩٤) وأبو نعيم فى الحلية (٩/٣٢٩)، عن يعلى بن منبه، وقال فى مجمع الزوائد (١٠/٣٦٠): رواه الطبرانى، وفيه سليم بن منصور بن عمار، وهو ضعيف.

وفيها ينزل عيسى عليه السلام ،وقال أُبى بن كعب: ما من ماء عذب إلاَّ وأصله من تحت صخرة بيت المقدس، وهى أرض خِصب، يعيش فيها الفقير والغنى.

قال ابن اسحاق: خرج إبراهيم من كُوثى من أرض العراق، وخرج معه لوط وسارة، فنزل حَرّان، ثم خرج منها إلى مصر، ثم خرج منها إلى الشام، فنزل السَّبُعَ من أرض فلسطين بزوجه سارة، بنت عمه هاران الأكبر، ونزل لوط عليه السلام بالمؤتكفة، وبينهما مسيرة يوم وليلة، وكلاهما من الشام.

﴿ ووهبنا له إسحاقَ ويعقوبَ نافلةً ﴾ أى: وهبنا له إسحاق ولداً من صلبه، وزاد يعقوب، ولد ولده، نافلة؛ لأنه سأل ولداً بقوله: ﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾(١) فأُعطيه، وأُعطى يعقوب نافلة، زائداً على ما سأل؛ لأنه أعطى من غير سؤال، فكأنه تبرعاً. قال ابن جزى: واختار بعضهم ـ على هذا ـ الوقف على «إسحاق» لبيان المعنى، وهذا ضعيف؛ لأنه معطوفٌ على كل قول. هـ. وقيل: (نافلة) يرجع لهما معاً، أى: أعطيناه ولداً وولد ولدٍ، عطيةً، فيكون حالاً منهما معاً، قيل: هومصدر، كالعاقبة من غير لفظ الفعل، الذى هو (وهبنا) وقيل: اسم، ﴿ وكُلاًّ ﴾ أى: كل واحد من هؤلاء الأربعة، ﴿ جعلنا صالحين ﴾؛ بأن وفقناهم لصلاح الظاهر والباطن، حتى استحقوا الخصوصية. والله تعالى أعلم.

الإشارة: الهجرة سُنَّة من سُنن الأنبياء والأولياء، فكل من لم يجد فى بلده من يعينه على دينه، يجب عليه الانتقال إلى بلدٍ يجد فيها ذلك. وكذلك المريد إذا لم يجد قلبه فى محل؛ لكثرة عوائده وشواغله، بحيث يشوش عليه قلبه، فلينتقل إلى بلد تقل فيها العلائق والشواغل، إن وجد فيها من يحرك معهم فنّه، كان بادية أو حاضرة. والغالب أن الحاضرة تكثر فيها العوائد والحظوظ والشهوات، فلا يدخلها المريد حتى يتقوى ويملك نفسه، يأخذ النصيب من كل شيء، ولا ينقص من نصيبه شيء، وقد تقدم هذا مراراً. وبالله التوفيق.

ثم مدحهم بالإمامة والاهتداء، فقال:

﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ (٧٣) ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وجعلناهم ﴾ أى: إبراهيم وإسحاق ويعقوب، ﴿ أئمةً ﴾ يُقتدى بهم فى أمور الدين؛ إجابة لدعوته بقوله: ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِي ﴾(٢) أى: فاجعل أئمة، ﴿ يهدُون ﴾ الخلق إلى الحق، ﴿ بأمرِنا ﴾

(١) الآية ١٠٠ من سورة الصافات.
(٢) كما جاء فى الآية ١٢٤ من سورة البقرة.

لهم بذلك، وإرسالنا إياهم حتى صاروا مكملين، أو يهدون الخلق بإرادتنا ومشيئتنا. ﴿ وأوحينا إليهم فعلَ الخيرات ﴾ وهى جميع الأعمال الصالحة، أى: أمرناهم أن يفعلوا جميع الخيرات، ليتم كمالهم بانضمام العمل الصالح إلى العلم، وأصله: أن يفعلوا الخيرات، ثم فعلَ الخيرات، ﴿ وإقامَ الصلاةِ وإيتاءَ الزكاة ﴾، وهو من عطف الخاص على العام؛ دلالة على فضله وشرفه، وأصله: وإقامة الصلاة، فحذفت التاء المعوضة من إحدى الألفين؛ لقيام المضاف إليه مقامها. ﴿ وكانوا لنا عابدين ﴾ : قانتين مُطيعين، لا يخطر ببالهم غير عبادتنا ومشاهدتنا. وأنتم يا معشر العرب والعجم من ذريتهم، فاتبعوهم فى ذلك. وبالله التوفيق.

الإشارة: إنما يعظم جاه العبد عند الله بثلاثة أمور: انحياشه بقلبه إلى الله، ومسارعته إلى ما فيه رضا الله، وإرشاد العباد إلى الله، بدعائهم إلى الله بالحال والمقال، فبقدر ما يقع من هداية الخلق على يديه يعلو مقامه عند الله، إنْ حصلت المعرفة بالله، وبهذا تعرف شرف مرتبة مشيخة الصوفية، الدالين على الله، الداعين إلى حضرة الله، إن تكلموا وقع كلامهم فى قلوب الخلق، فيرجعون إلى الله من ساعتهم، مجالسهم كلها وعظ وتذكير، حالهم يُنهض إلى الله، ومقالهم يدل على الله، ففى ساعة واحدة يتوب على يديهم من الخلق ما لا يتوب على يد العالم فى سنين؛ وذلك لإنهاض الحال والمقال، فلا جرَمَ أنهم أعز الخلق إلى الله، وأعظمهم قدراً عند الله.

قال السهروردى فى العوارف: ورد فى الخبر عن رسول الله ﷺ أنه قال: «والذى نفس محمد بيده لئن شئتم لأُقسمن لكم، إن أحب عباد الله إلى الله الذين يُحَبِّبُونَ الله إلى عباده، ويُحَبِّبُونَ عباد الله إلى الله، ويمشون فى الأرض بالنصيحة» . وهذا الذى ذكر رسول الله ﷺهو رتبة المشيخة والدعوة؛ فإن الشيخ يُحبب الله إلى عباده حقيقة، ويحبب عباد الله إلى الله.

فأما كونه يُحبب عباد الله إلى الله؛ لأن الشيخ يسلك بالمريد طريق الاقتداء برسول الله ﷺ فى أفعاله وأخلاقه. ومن صح اقتداؤه واتباعه أحبه الله، قال تعالى: ﴿ قُلْ إن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾(١)، ووجه كونه يُحبب اللهَ إلى عباده؛ لأنه يسلك بالمريد طريق التزكية، وإذا تزكت النفس انجلت مرآة القلب، ودخل فيها نور العظمة الإلهية، ولاح فيها جمال التوحيد، وذلك ميراث التزكية، قال الله تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴾(٢)، وفلاحها: الظفر بمعرفة الله، فإذا عرفه، قطعاً، أحبه وفنى فيه. فرتبة المشيخة من أعلى الرتب؛ لأنها خلافة النبوة فى الدعوة إلى الله.

---

(١) من الآية ٣١ من سورة آل عمران. (٢) من الآية ٩ من سورة الشمس.

ثم قال: فعلى المشايخ وقار لله، وبهم يتأدب المريد ظاهراً وباطناً، قال الله تعالى: ﴿ أُوْلَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ﴾(١)، فالمشايخ، لمَّا اهتدَوا، أُهِّلوا للاقتداء بهم، وجُعِلوا أئمة للمتقين، قال رسول الله ﷺ، حاكياً عن الله عز وجل: «إذا كان الغالبُ على عبدى الاشتغال بى، جعلت همته ولذَّتَه فى ذكرى، فإذا جعلت همته ولذته فى ذكرى، أحبنى وأحببته، ورفعتُ الحجابَ فيما بينى وبينه، لايسهو إذا سَهَا الناسُ، أولئك كلامُهُم كلام الأنبياء، أولئك الأبطالُ حقاً، أولئك الذين إذا أردتُ بأهلِ الأرضِ عقوبةً أو عذاباً، ذكرتُهم فصرفتُه بهم عنهم»(٢). انتهى كلامه رضي الله عنه.

ومن كلام ذى النون المصرى ـ لمّا تكلم على الأبدال ـ قال: فهممُهم إليه ثائرة، وأعينهم إليه بالغيب ناظرة، قد أقامهم على باب النظر من رؤيته، وأجلسهم على كراسى أطباء أهل معرفته، ثم قال لهم: إن أتاكم عليل من فقدى فداووه، أو مريض من فراقى فعالجوه، أو خائف منى فانصروه، أو آمن منى فحذِّروه، أو راغب فى مواصلتى فمنوه، أو راحل نحوى فزودوه، أو جبان فى متاجرتى فشجعوه، أو آيس من فضلى فرجُّوه، أو راجٍ لإحسانى فبشروه، أو حسن الظن بى فباسطوه، أو مُعظِّم لقدرى فعظموه، أو مسىء بعد إحسانى فعاتبوه، أو مسترشد فأرشدوه. هـ. وهذه صفة مشايخ التربية على ما شهدناهم، وما شهدنا إلا بما علمنا. وبالله التوفيق.

ثم ذكر نبيه لوطاً ونوحاً ـ عليهما السلام ـ فقال:

﴿ وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾

قلت: «ولوطاً»: إما مفعول بمحذوف يُفسره قوله: «آتيناه» أى: وآتينا لوطاً، أو: باذكر. و«نوحاً»: مفعول باذكر.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ولوطاً آتيناه حُكماً ﴾ أى: حكمة، أو نبوة، أو فصْلاً بين الخصوم بالحق، ﴿ وعلماً ﴾ بنا وبما ينبغى علمه للأنبياء ـ عليهم السلام ـ من علم السياسة، ﴿ ونجيناه من القرية التي كانت تعمل الخبائث ﴾؛ اللواطة، وقذف المارة بالحصى، وغيرها، وصُفت بصفة أهلها، وأسندت إليها على حذف

(١) من الآية ٩٠ من سورة الأنعام.
(٢) عزاه فى كنز العمال (١/١٨٧٢) لأبى نعيم فى الحلية، عن الحسن، مرسلاً.

مضاف، أي: من أهل القرية، بدليل قوله: ﴿ إنهم كانوا قوم سَوْءٍ فاسقين ﴾ : خارجين عن طاعة الله ورسوله. ﴿ وأدخلناه في رحمتنا ﴾ أي: في أهل رحمتنا، أو جنتنا، ﴿ إنه من الصالحين ﴾ الذين صلحت ظواهرهم وبواطنهم، فنجيناه؛ جزاء على صلاحه، كما أهلكنا قريته؛ عقاباً على فسادهم.

﴿ و ﴾ اذكر ﴿ نوحًا ﴾ ، وقدّم هؤلاء عليه؛ لتعلقهم بإبراهيم، أي: خبره، ﴿ إذْ نادى ﴾ أي: دعا الله تعالى على قومه بالهلاك، أي: اذكر نبأه الواقع وقت دعائه، ﴿ من قبلُ ﴾ هؤلاء المذكورين، ﴿ فاستجبنا له ﴾ دعاءه الذي من جملته قوله: ﴿ أني مغلوب فانتصر ﴾(١)، ﴿ فنجيناه وأهله ﴾ المؤمنين به، من ولده وقومه، ﴿ من الكرب العظيم ﴾ ، وهو الطوفان وتكذيب أهل الطغيان. وأصل الكرب: الغم الشديد، ﴿ ونصرناه ﴾ نصراً مستتبعاً للانتقام، ﴿ من القوم الذين كذبوا بآياتنا ﴾ أي: منعناه من إذايتهم، ﴿ إنهم كانوا قومَ سَوْءٍ ﴾ ، تعليل لما قبله، ﴿ فأغرقناهم أجمعين ﴾ ، صغيرهم وكبيرهم، ذكرهم وأنثاهم؛ لأن الإصرار على تكذيب الحق، والانهماك في الشر والفساد، مما يُوجب الإهلاك العام. والله تعالى أعلم.

الإشارة: نبي الله لوط عليه السلام لمّا هاجر من أرض الظلمة إلى الأرض المقدسة، أعطاه الله العلم والحكمة. فكل من هاجر من وطن الغفلة إلى محل الذكر واليقظة، وهجر ما نهى الله عنه عوّضه الله علماً بلا تعلم، وأجرى على لسانه ينابيع الحكمة. قال أبو سليمان الداراني رضي الله عنه: إذا اعتقدت النفس على ترك الآثام، جالت في الملكوت، وعادت إلى ذلك العبد بطرائف الحكمة، من غير أن يُؤدّيَ إليها عالمٌ علماً. ومصداقه الحديث: «من عمل بما يعلم، ورثه الله علْمَ ما لم يعلم».

ولمّا أجهد نفسه في تغيير المنكر نجّاه الله من أذاهم وما لحق بهم، وكذلك نبيه نوح عليه السلام؛ لما دعا قومه إلى الله، وأجهد نفسه في نصحهم، نجاه الله من شرهم، وجعل النسل من ذريته، فكان آدم الأصغر. وهذه عادة الله تعالى في خواصه، يُكثر فروعهم، ويجعل البركة في تركتهم. وبالله التوفيق.

ثم ذكر داود وسليمان ـ عليهما السلام ـ فقال:

﴿ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا

---

(١) من الآية ١٠ من سورة القمر.

مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ ﴿٨٠﴾ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾

قلت: (وداود): عطف على (نوحاً)، أو معمول لاذكر، و(إذ يحكمان): ظرف للمضاف المقدر، أي: اذكر خبرهما، و(إذ نفشت): ظرف للحكم. (ففهمناها): عطف على (يحكمان)؛ فإنه في حكم الماضي.

يقول الحق جل جلاله: ﴿و﴾ اذكر خبر ﴿داودَ وسليمانَ إذْ يحكمان﴾ أي: وقت حكمهما ﴿في الحرث﴾ أي: في الزرع، أو في الكرم المتدلي عناقيده، والحرث يطلق عليهما، ﴿إذ نَفَشَتْ﴾: دخلت ﴿فيه غنمُ القوم﴾ فأفسدته ليلاً، فالنفش: الرعي بالليل، والهمَلُ بالنهار، وهما الرعي بلا راع. ﴿وكنا لحُكْمِهم﴾ أي: لهما وللمتحاكمين إليهما، أو على أنَّ أقل الجمع اثنان، ﴿شاهدين﴾، كان ذلك بعلمنا ومرأى منا، لم يغب عنا شيء منه، ﴿ففهمناها﴾ أي: الحكومة، أو الفتوى، ﴿سليمانَ﴾، وفيه دليل على أن الصواب كان مع سليمان.

وقصتهما على ما قال ابن عباس وغيره: أن رجلين دخلا على داود عليه السلام، أحدهما: صاحب حرث، والآخر صاحب غنم، فقال صاحب الزرع: إنَّ هذا نفشت غنمه ليلاً، فوقعت في حرثي، فلم تُبق منه شيئاً، فقال له داود: اذهب فإن الغنم لك، ولعله استوت قيمتاهما ـ أي: قيمة الغنم كانت على قدر النقصان في الحرث ـ فخرج الرجلان على سليمان، وهو بالباب، وكان ابن إحدى عشرة سنة، فأخبراه بما حكم به أبوه، فدخل عليه، فقال: يا نبي الله؛ لو حكمت بغير هذا لكان أرفق بالفريقين، قال: وما هو؟ قال: يأخذ صاحبُ الغنم الأرضَ ليُصلحها، حتى يعود زرعها كما كان، ويأخذ صاحب الزرعِ الغنمَ ينتفع بألبانها وصوفها ونسلها، فإذا كمل الزرع، رُدت الغنم إلى صاحبها، والأرض بزرعها إلى ربها، فقال داود: وُفقت يابُني، وقضى بينهما بذلك.

والذي يظهر: أن حكمهما ـ عليهما السلام ـ كان باجتهاد، ففيه دليل على أن الأنبياء يجتهدون فيما لم ينزل فيه وحي، فإنَّ قول سليمان عليه السلام: «هذا أرفق»، وقوله: «أرى أن تدفع..» الخ، صريح في أنه ليس بطريق الوحي، وإلا لبت القول بذلك، ولعله وجه حكم داود عليه السلام قياس ذلك على جناية العبد، فإنَّ العبد فيما جنى. وإذا قلنا: كان بوحي، يكون حكم سليمان ناسخاً لحكم داود عليه السلام.

وأما حُكْم إفساد المواشي للزرع في شرعنا: فقال مالك والشافعي: يضمن أربابُ المواشي ما أفسدت بالليل دون النهار؛ للحديث الوارد في ذلك[1]، على تفصيل في مذهب مالك فيما أفسدت بالنهار. وقال أبو حنيفة: لا يضمن ما أفسدت بالليل ولا بالنهار؛ لقوله عليه الصلاة والسلام: ـ «العَجْماءُ جُرْحُها جُبَار»[2]، ما لم يكن معها سائق أو قائد، فيضمن عنده.

قال تعالى: ﴿ وكُلاًّ آتينا حُكماً وعلماً ﴾ أي: كل واحد منهما آتيناه حكماً، أي: نبوة، وعلماً: معرفة بمواجب الحكم، لا سليمان وحده. وفيه دليل على أن خطأ المجتهد لا يقدح في علمه ولا يرفع عنه صفة الاجتهاد.

ثم بيّن ما اختص به كل واحد منهما من المعجزات، فقال: ﴿ وسخَّرنا ﴾ أي: ذللنا ﴿ مع داود الجبالَ ﴾، حال كونها ﴿ يُسَبِّحْنَ ﴾ أي: مسبحات؛ ينزهْنَ الله تعالى بلسان المقال، كما سبّح الحصا في كف نبينا عليه الصلاة والسلام. ﴿ و ﴾ سخرنا له ﴿ الطيرَ ﴾؛ كانت تسبح معه. وقدّم الجبال على الطير؛ لأن تسخيرها وتسبيحها أغرب وأدخل في الإعجاز؛ لأنها جماد. قال الكواشي: كان داود إذا سبّح سبّح معه الجبالُ والطير، وكان يفهم تسبيح الحجر والشجر، وكان إذا فتَر من التسبيح، يُسمعه الله تعالى تسبيح الجبال والطير؛ لينشط في التسبيح ويشتاق إليه. ورُوي أنه كان إذا سار سارت الجبال معه مسبحة، قال قتادة: «يسبحن»، أي: يصلين معه إذا صلى، وهذا غير ممتنع في قدرة الله تعالى. وفي الأثر: «كان داود يمرُّ، وصِفَاح الروحاء تُجاوبه، والطير تساعده». ﴿ وكنا فاعلين ﴾ بالأنبياء أمثال هذا وأكثر، فليس ذلك ببدع منا ولا صعب على قدرتنا.

﴿ وعلمناه صنعةَ لَبُوسٍ ﴾ أي: صنعة الدروع. واللبوس لغة في اللباس، والمراد: الدرع، ﴿ لكم ﴾ أي: نافع لكم، ﴿ لِيُحْصِنَكُم ﴾[3] أي: اللبوس، أو داود. وقرئ بالتأنيث، أي: الصنعة، أو اللبوس بتأويل الدرع. وقرئ بنون العظمة، أي: الله تعالى، وهو بدل اشتمال من «لكم». وقوله: ﴿ من بأسكم ﴾ أي: من حرب عدوكم، أو من وقع السلاح فيكم، ﴿ فهل أنتم شاكرون ﴾ الله على ذلك؟ وهو استفهام بمعنى الأمر؛ للمبالغة والتقريع.

ثم ذكر ما اختص به سليمان عليه السلام فقال: ﴿ ولسليمانَ الريحَ ﴾ أي: وسخرنا له الريح. وإيراد اللام هنا، دون الأولى؛ للدلالة على ما بين التسخيرين من التفاوت، فإن تسخير ما سخر لسليمان عليه السلام كان بطريق الانقياد الكلي والامتثال لأمره ونهيه، بخلاف تسخير الجبال، لم يكن بهذه المثابة، بل بطريق التبعية والاقتداء. حال كون الريح

---

(١) عن البراء بن عازب: «كانت له ناقة ضارية، فدخلت حائطاً، فأفسدت فيه، فكلّمَ رسول الله ﷺ، فقضى بأن حفظ الحوائط بالنهار على أهلها، وأن حفظ الماشية بالليل على أهلها، وأن على أهل الماشية ما أصابت ماشيتهم بالليل» أخرجه أبو داود في (البيوع، باب المواشي تفسد زرع القوم) وابن ماجه في (الأحكام، باب الحكم فيما أفسدت المواشي).

(٢) أخرجه البخاري في (الزكاة: باب في الركاز الخمس)، ومسلم في (الحدود، باب جرح العجماء) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) قرأ أبو جعفر وابن عامر وحفص «لتحصنكم» بالتاء، وقرأ أبو بكر عن عاصم بالنون، وقرأ الآخرون (ليحصنكم) بالياء. انظر الإتحاف (٢/٢٦٦).

﴿ عاصفةً ﴾ شديدة الهبوب، من حيث إنها كانت تقطع مسافة بعيدة فى مدة يسيرة، وكانت رُخاء فى نفسها، طيبة، وقيل: كانت رُخاء تارة، وعاصفة أخرى، على حسب ما أراد منها. أو رُخاء فى ذهابه وعاصفة فى رجوعه؛ لأن عادة المسافرين: الإسراع فى الرجوع، أو عاصفة إذا رفعت البساط ورخاء إذا جرت به.

﴿ تجري بأمره ﴾ ؛ بمشيئة سليمان، ﴿ إلى الأرض التي باركنا فيها ﴾ بكثرة الأنهار والأشجار والثمار، وهى الشام. وكان منزله بها، وتحمله إلى نواحيها. قال وهب: كان سليمان إذا خرج من منزله عكفت عليه الطير، وقام له الجن والإنس حتى يجلس على سريره، وكان غزّاءً؛ لا يقصر عن الغزو، فإذا أراد غزواً أمر فضرب له بخشب، ثم يُنصب له على الخشب، ثم حَمَلَ عليه الناس والدواب وآلة الحرب، فإذا حمل معه ما يريد أمر العاصف فدخلت تحت الخشب فاحتملته، فإذا استقلت، أمر الرخاء فمرت به شهراً فى روحته وشهراً فى غدوته، إلى حيث أراد.هـ. ﴿ وكُنَّا بكل شيء عالمين ﴾ أى: أحاط علمنا بكل شيء، فنُجرى الأشياء على ما سبق به علمنا، واقتضته حكمتنا.

﴿ ومن الشياطين ﴾ ، قيل: لمَّا ذكر تسخير الريح - وهى شفافة لا تعقل - ذكر ما هو شفاف يعقل، وهم الشياطين، مع سرعة الحركة فى الكل، أى: وسخرنا له من الشياطين ﴿ من يغوصون ﴾ فى البحار، ويستخرجون ﴿ له ﴾ من نفائسه، كالدر والياقوت، ﴿ ويعملون عملاً دون ذلك ﴾ أى: غير ما ذكر؛ من بناء المدن والقصور والمحاريب والتماثيل والقدور الراسيات، وقيل: الحمام، والنورة، والطاحون، والقوارير، والصابون، مما استخرجوه له، ﴿ وكنا لهم حافظين ﴾ أن يزيغوا عن أمره، أو يُبدلوا، أو يوجد منهم فساد فيما هم مسخرون فيه، على ما هو مقتضى جبلتهم. وقال الزجاج: كان يحفظهم من أن يُفسدوا ما عملوا، وكان دأبهم أن يُفسدوا بالليل ما عملوه بالنهار. وقيل: وكّل بهم جمعاً من الملائكة، وجمعاً من مؤمنى الجن. رُوى أن المُسَخَّر له عليه السلام: كفارهم، لا مؤمنهم؛ لقوله تعالى: (ومن الشياطين). والله تعالى أعلم.

الإشارة: قوله تعالى: (ففهمناها سليمان)، قال الورتجبى: بيّن، سبحانه، أن الفضل متعلق بفضله، لا يتعلق بالصغر والكبر والشيخوخة والاكتساب والتعلم، إنما الفهم تعريف الله أحكام ربوبيته بنور هدايته، وإبراز لطائف علومه الغيبية، فحيث يظهر ذلك فهناك مواضع الفهوم من العلوم، فهو سبحانه منّ على سليمان بعلمه، ولمْ يمنّ عليه بشيء خارج عن نفسه؛ من الملك، والحدثان أفضل من العلم؛ فإنّ العلم صفة من صفاته تعالى، فلمّا جعله متصفاً بصفاته منّ عليه بجلال كبريائه .هـ. وقال فى قوله: ﴿ وكُلاًّ آتينا حُكمًا وعلمًا ﴾ : حُكما؛ معرفة بالربوبية، وعلماً بالعبودية .هـ.

وقوله تعالى: (وسخرنا مع داود الجبال....) إلخ. (ولسليمان الريح...) الآية، لمّا كانا ـ عليهما السلام ـ مع المُكَوِّن كانت الأكوان معهما، «أنت مع الأكوان ما لم تشهد المكون، فإذا شهدته كانت الأكوان معك»، وذكر في القوت: أن سليمان عليه السلام لبس ذات يوم قميصاً رفيعاً جديداً، ثم ركب البساط، وحملته الريح، فبينما هو يسير إذ نظر إلى عِطفه نظرةً، فأنزلته الريح، فقال: لِمَ أنزلتني ولم آمرك؟! فقالت: نطيعك إذا أطعت الله، ونعصيك إذا عَصَيْتَه. فاستغفر وحملته. هـ. بالمعنى. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر أيوب عليه السلام، فقال:

﴿ ۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿و﴾ اذكر خبر ﴿أيوبَ﴾ عليه السلام ﴿إذْ نادى ربَّه﴾: دعاه: ﴿أني﴾ أي: بأني ﴿مسَّنيَ الضرُّ﴾ وهو بالضم: ما يصيب النفس من مرض وهزال، وبالفتح: الضرر في كل شيء، ﴿وأنت أرحم الراحمين﴾، تلطف في السؤال؛ حيث ذكر نفسه بما يوجب الرحمة، وذكر ربه بغاية الرحمة، ولم يصرح بالمطلوب؛ من كمال أدبه، فكأنه قال: أنت أهل أن تَرحم، وأيوب أهلٌ أن يُرحم، فارحمه، واكشف عنه ضره الذي مسه. عن أنس: أنه أخبر عن ضعفه حين لم يقدر على النهوض إلى الصلاة، ولم يشتك، وكيف يشكو، والله تعالى يقول: ﴿إنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً نِّعْمَ الْعَبْدُ﴾(١).

وقيل: إنما اشتكى إليه؛ تلذذاً بالنجوى، لا تضرُّراً بالشكوى، والشكاية إليه غاية في القُرب، كما أن الشكاية منه غاية في البُعد، وسيأتي في الإشارة تكميله، إن شاء الله. رُوي أن أيوب عليه السلام، كان من الروم، وهو أيوب بن أُموص ابن تارَح بن رعويل بن عيص بن إسحاق. وكانت أمه من ولد لوط عليه السلام اصطفاه الله للنبوة والرسالة، وبسط عليه الدنيا؛ فكان له ثلاثة آلاف بعير، وسبعة آلاف شاة، وخمسمائة فدان، يتبعها خمسمائة عبد، لكل عبد امرأة وولد، وكان له سبعة بنين، وسبع بنات. قاله النسفي.

زاد الثعلبي: وكانت له المثنيةُ من أرض الشام كلها، وكان له فيها من صنوف المال ما لم يكن لأحد؛ من الخيل والبقر والغنم والحُمُر وغيره، وكان براً تقياً رحيماً بالمساكين، يكفل الأرامل والأيتام، ويُكرم الضيف، ويبلغ

(١) من الآية ٤٤ من سورة ص.

ابن السبيل، شاكراً لأنعم الله، لا يصيب منه إبليس ما يصيب من أهل الغنى من الغفلة والغرّة، وكان معه ثلاثةٌ قد آمنوا به: رجل من اليمن واثنان من بلده، كُهُولا. قال وهب: فسمع إبليس تَجَاوُبَ الملائكة بالصلاة عليه في السماء فحسده، فقال: إلهي، عبدك أيوب أنعمتَ عليه فشكرك، وعافيته فحمدك، ولم تجرّبه بشدّة ولا بلاء، فلو جربته بالبلاء ليكفرنّ بك وبنعمتك، فقال له تعالى: انطلق، فقد سلطتك على ماله، فجمع عفاريته وأخبرهم، فقال عفريت من الجن: أُعطيتُ من القوة ما إذا تحوّلت إعصاراً من نار أحرقتُ كل شيء آتي عليه، فقال له إبليس: دونك الإبل ورعاتها، فجاءها حتى وثبت في مراعيها، فأثار من تحت الأرض إعصاراً من نار فأحرقها وأحرق رعاءها. فلما فرغ منها تمثل إبليس براعيها، وجلس على قَعُودٍ منها، فأتاه، وقال: يا أيوب، إن ربك الذي عبدته قد أحرق إبلك ورُعَاءَها، فقال أيوب: هو ماله، أعارَنيه، يفعل فيه ما يشاء، فرجع إبليس خاسئًا، حين حمد أيوبُ ربه، فقال عفريت آخر: عندي من القوة ما إذا صحتُ لم يسمع صوتي ذو رُوح إلا خرجت روحه، قال له إبليس: ائت الغنم ورعاءَها، فأتى، فصاح، فصارت أمواتاً ورعاتها، ثم خرج إبليس متمثلاً بقهْرَمَان[1] الرعاة، فقال له كمقالته في الإبل، فأجابه أيوب بمثل ما أجابه فيها، فرجع خاسئاً، فقال عفريت آخر: عندي من القوة ما إذا تحولتُ ريحًا عاصفاً نسفتُ كل شيء أتيت عليه، قال إبليس: فأتِ الفدادين والحرث، فجاءها، فهبّتْ ريح عاصفة فنسفت كل شيء، حتى كأنه لم يكن ثَـمّ شيء، فخرج إبليس متمثلاً بقهرَمان الحرث، فقال له مثل قوله الأول، وردّ عليه مثل رده، حتى أتى على جميع ماله، وأيوب يحمد الله تعالى.

فقال إبليس: إلهي؛ إن أيوب يقول: إنك ما متعتَه إلا بنفسه وولده، فهل تسلطني على ولده، فإنها الفتنة؟ قال الله تعالى: قد سلطتك على ولده، فجاء إبليس فقلب عليهم القصر منكسين، وانطلق إلى أيوب متمثلاً بالمُعلم الذي يُعلمهم الحكمة، وهو جريح، فقال: يا أيوب؛ لو رأيت بنيك كيف عُذبوا؟ ونُكّسوا على رؤوسهم، وسال دماغهم من أنوفهم، فلم يزل من قوله حتى رقّ أيوبُ وبكى، وقبض قبضة من التراب فوضعها على رأسه، فصعد إبليس مسروراً، ثم ذهب أيوب، فلما أبصر ذلك استغفر، وصعد قرناؤه من الملائكة، بتوبته فبادروا إلى الله تعالى، وهو أعلم، فوقف إبليس خاسئاً، فقال: إلهي؛ إنما هوّن أيوب خطر المال والولد، فهل أنت مسلطي على جسده؟ فإني لك زعيم إن سلّطْتني على جسده ليكفرنّ بك، قال الله تعالى: قد سلطتك على جسده، ولكن ليس لك سلطان على لسانه وقلبه وعقله، فجاءه إبليس فوجده ساجداً، فجاء من قِبل الأرض، فنفخ في منخره نفخة اشتعل منها جسده، فَوَهِلَ، وخرج من قرنه إلى قدمه تآليل مثل آليَاتِ الغنم، ووقعت به حكة لا يملكها، فحك بأظفاره، ثم بالمسُوح الخشنة، ثم بالحجارة، حتى نغل لحمه، وتغير، ونش، وتدود، فأخرجه أهل القرية، وجعلوه على كناسة، وجعلوا له عريشًا، ورفضه الخلق كلهم، إلا «رحمة»؛ امرأته بنت إفرائيم بن يوسف عليه السلام، فقامت عليه بما يصلحه.

(١) القهرمان: هو المسيطر الحفيظ على من تحت يديه، وهو فارسي معرب.. انظر اللسان (قهرم).

روى أنس أن النبى ﷺ قال: «إنّ أيُّوبَ نبى الله لَبث به بَلاؤه ثَمَانِى عَشْرَةَ سَنَة، فَرفَضه القَريبُ والبَعيدُ(١)». الحديث، وقال كعب: سبع سنين، وقيل: ثلاث عشرة سنة، وما قاله - عليه الصلاة والسلام - إن ثبت، هو الصحيح. وقال الحسن: مكث أيوب مطروداً على كناسة، فى مزبلة بنى إسرائيل سبع سنين وشهراً، يختلف فيه الدود. ويمكن الجمع بين الأقوال بأن الشدة كانت سبعاً والباقى مقدمات لها.

رُوى أن امرأته قالت له يوماً: لو دعوتَ الله عز وجل؟ فقال لها: كم كانت مدة الرخاء؟ قالت: ثمانين سنة. فقال: إنى أستحيى من الله أن أدعوه وما بلغتْ مدة بلائى مدة رخائى. هـ . ورُوى أن الدود أكل جميع جسده حتى بقى عظاماً نخرة، وهو مع ذلك لا يفتر عن ذكر الله وحمده وشكره، فصرخ إبليس صرخة، وقال: أعيانى هذا العبد الذى سألتُ ربى أن يسلطنى عليه، فقالت له العفاريت: أرأيت آدم حين أخرجته من الجنة، ما أتيته إلا من قِبَلِ امرأته، فتمثل لها بصورة رجل طيب، وفي رواية الحسن: في هيئة ليست كهيئة بنى آدم، فى أحسن صورة، فقال لها: أين بعلك يا أمة الله؟ فقالت: هو ذاك ،يحك قروحه، ويتردد الدود فى جسده، فقال لها: أنا إله الأرض الذى صنعتُ بصاحبك ما صنعت؛ لأنه عبد إله السماء وتركنى، فلو سجد لى سجدة واحدة لرددت لكما ما كان لكما.

وقال وهب: قال لها: لو أكل طعاماً ولم يسمّ عليه لعُوفِىَ من البلاء، فأخبرتْ أيوب، فقال: أتاك عدوُ الله ليفتنك عن دينك، ثم أقسم، إن عافاه الله، ليضربنها مائة ضربة. ثم حلف لا يأكل لها طعاماً، فبقى مهملاً لا يأتى إليه أحد، وقال عند ذلك: (مسنى الضر) من طمع إبليس فى سجودى له، (وأنت أرحم الراحمين)، فقيل له: (اركض برجلك) فركض، فنبعت عين ماء، فاغتسل منها، فلم يبق من دائه شىء، وسقطت الدود من جسده، وعاد شبابه وجماله. ثم ضرب برجله فنبعت عين أخرى، فشرب منها، فلم يبق فى جوفه داء إلا خرج، وكانت امرأته «رحمة» حين حلف، تركته مدة، ثم ندمت وعادت، فوجدته فى أحسن هيئة، فلم تعرفه، فقالت له: أين الرجل المبتلى الذى كان هنا؟ قال: أنا هو، شفاني الله، ثم عرفته بضحكه، فتعانقا، ثم أمره الله تعالى أن يأخذ جماعة من القضبان فيضربها ضربة واحدة ليبرّ فى يمينه .هـ(٢).

(١) أخرجه فى حديث طويل ابن حبان (بترتيب ابن بلبان ٧/٢٨٩٨)، وابن أبى حاتم فى التفسير (٨/٢٤٥٩)، والبزار (كشف الأستار/٢٣٥٧)، وقال الهيثمى (٨/٢٠٨): رواه أبو يعلى، والبزار، ورجال البزار رجال الصحيح.

(٢) جل ما ذكره الشيخ المفسر من روايات فى قصة أيوب أخرجه الطبرى في تفسيره (١٧/٦٥) وما بعدها، وذكره البغوى وغيره فى تفاسيرهم. وهذا مما يجب تنزيه الأنبياء عنه. وقد ردَّ العلماء المحققون هذه الأخبار، وقال الدكتور أبو شهبة فى كتابه (الإسرائيليات والموضوعات): والذى يجب أن نعتقده أن أيوب ﷺ ابتلى، ولكن بلاءه لم يصل إلى حد هذه الأكاذيب. فأيوب ﷺ أكرم على الله من أن يلقى على مزبلة، وأن يصاب بمرض ينفر الناس من دعوته ويقززهم منه.. إلخ كلامه. انظر: كتاب الإسرائيليات والموضوعات. فهو كتاب نفيس.

قلت: تسليط الشيطان على بشرية الأنبياء الظاهرة: جائز وواقع. وأما الأمراض المنفرة، فإن كانت بعد التبليغ وتقرير الشرائع، فجائز عند بعضهم، وهو الصواب، جمعاً بين ما ثبت في الأخبار عن السلف وبين الدلائل العقلية في تنزيه الأنبياء ـ عليهم السلام ـ، لأن العلة هي تنفير الخلق عنهم، وبعد التبليغ فلا يضر، وقد ورد أن شُعيباً عليه السلام عمي في آخر عمره، وكذلك يعقوب، وكان بعد تبليغ الرسالة، فلم يضر.

ثم قال تعالى في حق أيوب عليه السلام: ﴿ فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضُرّ ﴾؛ إنعاماً عليه، فلمّا قام من مرضه جعل يلتفت فلا يرى شيئاً مما كان له من الأهل، والمال، ثم أحيا الله أولاده بأعيانهم، ورزقه مثلهم، ورد عليه ماله، بأن أخلف له مثله، وذلك قوله تعالى: ﴿ وآتيناه أهلَه ومثلهم معهم ﴾ وقيل: كان ذلك بأن ولد له ضعف ما كان له. وقال عكرمة: آتيناه أهله في الآخرة، ومثلهم معهم في الدنيا، والأول هو ظاهر الآية، ردهم الله تعالى بأعيانهم؛ إظهاراً لكمال قدرته تعالى.

ثم قال ﴿ رحمةً من عندنا ﴾: مفعول من أجله، أي: آتينا ما ذكر لرحمتنا أيوب، ﴿ وذكرى للعابدين ﴾ أي: وتذكرة لغيره من العابدين؛ ليصبروا كما صبر، ويُثابوا كما أُثيب، أو لرحمتنا العابدين، الذين من جملتهم أيوب، وذكرنا إياهم بالإحسان، وعدم نسياننا لهم. والله تعالى أعلم.

الإشارة: ما ينزل بالمؤمن من الأوجاع والأسقام والشدائد والنوائب، في النفس، أو في الأهل، كله رحمة، عظيمة، ومنّة جسيمة، ويقاس عليه: مفارقة الأحباب والأوطان ومشاق الأسفار والمتاعب البدنية، ويُسمى عند الصوفية: التعرفات الجلالية؛ لأن الله تعالى يتعرف إليهم بها؛ ليعرفوه عياناً، ولذلك تجدهم يفرحون بها، وينبسطون عند ورودها؛ لما يتنسمون فيها، ويجدون بعدها، من مزيد الاقتراب وكشف الحجاب، وطي مسافة البُعد بينهم وبين رب الأرباب، فهم يؤثرونها على الأعمال الظاهرة؛ لِمَا يتحققون بها من وجود الأعمال الباطنية؛ كالصبر والزهد والرضا والتسليم، وما ينشأ عنها، عند ترقيق البشرية، من تشحيذ الفكرة والنظرة، وغير ذلك من أعمال القلوب.

وفي الحكم: «إذا فتح لك وجهة من التعرف، فلا تُبالي معها إن قلّ عملك؛ فإنه ما فتحها لك إلاّ وهو يريد أن يتعرف إليك منها، ألم تعلم أن التعرف هو مورده عليك، والأعمال أنت مهديها إليه، وأين ما تهديه إليه مما هو مورده عليك؟». قال الشيخ ابن عباد رضي الله عنه: معرفة الله تعالى هي غاية المطالب، ونهاية الأماني والمآرب، فإذا واجه اللهُ عبده ببعض أسبابها، وفتح له باب التعرّف له منها، فذلك من النعم الجزيلة عليه، فينبغي ألا يكترث بما يفوته بسبب ذلك من أعمال البر، وما يترتب عليها من جزيل الأجر، وليعلم أنه سلك به مسلك الخاصة المقرّبين،

المؤدّى إلى حقائق التوحيد واليقين، من غير اكتساب من العبد ولا تَعَمُّلٍ، والأعمالُ التى من شأنها أن يتلبس بها هي باكتسابه وتعمله، وقد لا يسلم من دخول الآفات عليها، والمطالبة بوجود الإخلاص فيها، وقد لا يحصل له ما أمّله من الثواب عند مناقشة الحساب، وأين أحدهما من الآخر؟.

ومثاله: ما يُصاب به الإنسان من البلايا والشدائد التى تُنَغِّصُ عليه لذات الدنيا، وتمنعه من كثير من أعمال البر، فإنَّ مرادَ العبد أن يستمر بقاؤه في الدنيا، طيِّبَ العيش ناعمَ البال، ويكون حاله فى طلب سعادة الآخرة حال المترفين؛ فلا تسخو نفسه إلا بالأعمال الظاهرة، التى لا كثير مُؤْنَةٍ عليه فيها ولا مشقة، ولا تقطع عنه لذة، ولا يفوته شهوة، ومراد الله منه أن يُطهره من أخلاقه اللئيمة، ويحول بينه وبين صفاته الذميمة، ويُخرجه من أَسْرِ وجوده إلى متسع شهوده، ولا سبيل إلى الوصول إلى هذا المقام على غاية الكمال والتمام، إلا بما يُضادُ مراده، ويشوش عليه معتادَه، وتكون حاله حينئذ المعاملة بالباطن، ولا مناسبة بينها وبين الأعمال الظاهرة، فإذا فَهِم هذا عَلِم أن اختيار الله له، ومرادَه منه، خيرٌ من اختياره لنفسه ومراده لها.

وقد رُوى أن الله تعالى أوحى إلى بعض أنبيائه: «إني إذا أنزلت بعبدى بلائى، فدعانى، فماطلته بالإجابة، فشكانى، قلت: عبدى كيف أرحمك من شيء به أرحمك.؟ وفي حديث أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «قال الله تعالى: إذا ابتليت عبدى المؤمن فلم يشكني إلى عُوّاده، أنشطته من عقالي، وبدّلته لحماً خيراً من لحمه، ودماً خيراً من دمه، ويستأنف العمل»[1].

ثم نقل عن أبى العباس ابن العريف رضي الله عنه قال: كان رجل بالمغرب يُدْعى أبا الخيَّار، وقد عمَّ جسده الجذامُ، ورائحة المسك تُوجد منه على مسافة بعيدة، لقيه بعضُ الناس، فقال له: يا سيدى كأن الله تعالى لم يجد للبلاء مَحلاً من أعدائه حتى أنزله بكم، وأنتم خاصة أوليائه!! فقال لي: اسكت، لا تقل ذلك؛ لأنا لمّا أشرفنا على خزائن العطاء، لم نجد عند الله أشرف ولا أقرب من البلاء، فسألناه إيّاه[2]، وكيف بك لو رأيت سيِّد الزهّاد، وقطبَ العباد، وإمام الأولياء والأوتاد، فى غار بأرض طرطوس وجبالها، ولحمُه يتناثر، وجلده يسيل قيْحاً وصديداً، وقد أحاط به الذباب والنمل، فإذا كان الليل لم يقنع بذكر الله وشكره على ما أعطاه من الرحمة، حتى يشدّ نفسه بالحديد، ويستقبل القبلة عامّةَ ليله حتى يطلع الفجر.هـ.

(١) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (الجنائز، باب ما ينبغي لكل مسلم أن يستشعره من الصبر..)، والحاكم في المستدرك (الجنائز ٣٤٩/١) عن أبي هريرة، وصححه الحاكم، وأقره الذهبي.
(٢) أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتداوي. وقال: «اسألوا الله العافية».

وقد تكلم الصوفية فى قول أيوب عليه السلام: ﴿مسنى الضر﴾؛ هل شكى ضرر جسمه، أو ضرر قلبه من جهة دينه؟ قال بعضهم: قيل: إنه أراد النهوض إلى الصلاة فلم يستطع، فقال: (مسنى الضر)، وقيل: إنه أكل الدود جميع جسده، حتى بقى عظاماً، فلما قصد الدودُ قلبَه ولسانَه غار على قلبه؛ لأنه موضع المعرفة والتوحيد، والنبوة والولاية، وأسرار الله تعالى، وخاف انقطاع الذكر، فقال: (مسنى الضر)، وقيل: خاف تبدد همه وتفرق قلبه، وليس فى العقوبة شىء أشد من تبدد الهم، فتارة يقول: لعلى ببلائى مُعاقب، وتارة يقول: بضرى مُستدرج، فلما خاف تشتيت خاطِره عليه، قال: (مسنى الضر).هـ.

قلت: هذا المقام لا يليق بالأنبياء، وإنما يجوز على غيرهم؛ إذ الأولياء يترقون عن هذا المقام فكيف بالأنبياء! وقال بعضهم: قال: مسنى الضر من شماتة الأعداء، واقتصر عليه ابن جزى، وفيه شىء؛ إذ كثير من الأولياء سقط الناس من عينهم، فلا يبالون بخيرهم ولا شرهم، ولامدحهم ولا ذمهم، فكيف بالأنبياء - عليهم السلام - ؟!

وقال القشيرى: كان ذلك منه إظهاراً للعجز، لا اعتراضاً، فلا يُنافى الصبر، مع ما فيه من التنفيس عن الضعفاء من الأمة، ليكون أسوة. ويقال: إن جبريل أمره بذلك، وقال له: إن الله يغضب إن لم يُسأل، وسيان عنده البلاء والعافية، فسَله العافية. ويقال: إن أيوب كان مُكاشَفاً بالحقيقة، مأخوذاً عنه، وكان لا يُحِسُّ بالبلاء، فَستَرَ عليه، فردَّه إليه، فقال: مَسنى الضُرُّ، وقيل: أُدخَلَ على أيوب تلك الحالة، فاستخرج منه تلك المقالة؛ ليظهر عليه سمة العبودية[1].هـ.

وقال الورتجبى: سُئل الجنيد عن قوله: (مسنى الضر)، فقال عرّفه فاقة السؤال، ليمنّ عليه بكرم النوال، وفى الحديث المروى عن النبى ﷺ: أنه جاء إليه رجل فسأله عن قول ايوب «مسنى الضر»، فبكى - عليه الصلاة والسلام - وقال: والذى بعثنى بالحق نبياً ما شكى فقراً نزل من ربه، ولكن كان فى بلائه سبع سنين وسبعة أشهر وسبعة أيام وسبع ساعات، فلما كان فى بعض الساعات وثب ليُصلى، فلم يستطع النهوض، فقال: (مسنى الضر) الخ. ثم قال عليه الصلاة والسلام -: أكل الدود عامة جسد حتى بقى عظاماً نخرة[2]، فكادت الشمس تطلع من قُبله وتخرج من دُبره، وما بقى إلا قلبه ولسانه، وكان قلبه لا يخلو من ذكر الله، ولسانه لا يخلو من ثنائه على ربه، فلما أحب الله له الفرج، بعث إليه الدودتين؛ إحداهما إلى لسانه والأخرى إلى قلبه، فقال: يا رب ما بقى إلا هاتان الجارحتان، أذكرك بهما، فأقبلت هاتان الدودتان إليهما ليشغلانى عنك ويطلعان على سرى، مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين.هـ.

وفى قوله تعالى: (رحمة من عندنا وذكرى للعابدين): تسلية لمن أصيب بشىء من هذه التعرفات الجلالية، وقد تقدم فى أول الإشارة الكلام على هذا. والله تعالى أعلم.

---

(١) باختصار. (٢) لم أقف عليه.

ثم ذكر ما بقى من مشاهير الأنبياء، فقال :

﴿ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ و ﴾ اذكر ﴿ إسماعيلَ ﴾ بن إبراهيم، وكان أكبر من إسحاق، ﴿ وإدريسَ ﴾ واسمه: أخنوخ بن شيث بن آدم. قاله النسفي ﴿ وذا الكفل ﴾ وهو إلياس، أو زكريا، أو يوشع بن نون، قلت: كونه زكريا بعيد؛ لأنه سيذكره بخصوصه بعدُ. وسُمي ذا الكفل؛ لأنه ذو حظ من الله، والكفل: الحظ. أو تكفل بضعف عمل أنبياء زمانه، أو بصيام النهار وقيام الليل. وقال أبو موسى الأشعرى: إنَّ ذا الكفل لم يكن نبياً، ولكنه كان عبداً صالحاً، تكفل بعمل رجل صالح عند موته، وكان يُصلى لله تعالى، فى كل يوم، مائة صلاة، فأحسن الله عليه الثناء.هـ. وقال عمر بن عبدالله بن الحارث: إن نبياً من الأنبياء قال: من تكفل لى أن يصوم النهار ويقوم الليل ولا يغضب؟ فقال شاب: أنا، فمات ذلك النبى، فجلس ذلك الشاب يقضى بين الناس، فجاءه الشيطان فى صورة إنسان؛ ليُغضبه وهو صائم، فضرب الباب ضرباً شديداً، فقال: من هذا؟ فقال: رجل له حاجة، فأرسل له رجلاً، فلم يرض، ثم أرسل معه آخر، فلم يرض، فخرج إليه فأخذ بيده فانطلق معه إلى السوق، ثم خلاه وذهبَ، فسُمى ذا الكفل. هـ.

﴿ كلٌّ من الصابرين ﴾ أى: كل واحد من هؤلاء موصوف بالصبر التام على مشاق التكليف وشدائد النوب، ﴿ وأدخلناهم في رحمتنا ﴾ ؛ فى النبوة، أو فى الآخرة، ﴿ إنهم من الصالحين ﴾ أى: الكاملين فى الصلاح الذى لا تحوم حوله شائبة الفساد، وهم الأنبياء، فإن صلاحهم معصوم من كدر الفساد. والله تعالى أعلم.

الإشارة: قد مدح الله هؤلاء السادات بخصلتين، من تحقق بهما: التحق بهم، وانخرط فى سلكهم: الصبر على مشاق الطاعة، وعلى ترك المعصية، وفى حال البلية. والصلاح، وهو: إصلاح الظاهر بالشريعة، وإصلاح الباطن بنور الحقيقة. فمن تحقق بهاتين الخصلتين كان من المقربين مع النبيين والصديقين. وبالله التوفيق.

ثم ذكر يونس عليه السلام، فقال:

﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿و﴾ اذكر ﴿ذا النُّون﴾ أى: صاحب الحوت، وهو يونس عليه السلام، ﴿إذ ذهبَ مُغاضِبًا﴾ أى: مراغمًا لقومه، فاراً عنهم، وغضب من طول دعوته إياهم، وشدة شكيمتهم، وتمادى إصرارهم، فخرج مهاجراً عنهم، قبل أن يُؤمر، وقيل: وعدهم بالعذاب فلم يأتهم لميعادهم؛ لأجل توبتهم، ولم يشعر بها، فظن أنه كذبهم، فغضب من ذلك، فهو من باب المغالبة؛ للمبالغة؛ أو لأنه غضب لما رأى منهم من الإصرار، وغضبوا لمفارقته إياهم، وكان من حقه عليه السلام أن يصبر وينتظر الإذن الخاص من الله تعالى، فلما استعجل ابتلى ببطن الحوت، وقال ابن عباس: قال جبريلُ ليونس عليه السلام: انطلق إلى أهل نِينَوى فأنذرهم أن العذاب قد حضرهم، قال: ألتمس دابة، قال: الأمر أعجل من ذلك، فانطلق إلى السفينة فركبها، فاحتبست السفينة فساهموا فسُهِم، فجاءه الحوت يبصبص بذنبه، فنودي الحوت: إنا لم نجعل يونس لك رزقاً، إنما جعلناه لك حِرزاً، فالتقمه، ومرَّ به على الأُبلة، ثم على دجلة، ثم مرَّ به حتى ألقاه بنِينَوَى . هـ.

وقال وهب بن منبه رضي الله عنه: إنَّ يونس كان عبداً صالحاً ضيِّق الخلق،(٢) فلما حمل أثقال النبوة تفسخ منها تفسُّخَ الرُّبَع(١) تحت الحمل الثقيل، فقذفها وخرج هارباً عنها، ولذلك أخرجه الله من أولى العزم، قال لنبيه ﷺ: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾(٣) وقال: ﴿وَلا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ﴾(٤) أى: لا تلق أمرى كما ألقاه. هـ. وأما قول الحسن: مغاضباً لربه، فلا يليق بمقام الأنبياء - عليهم السلام - إلا أن يحمل على أن خروجه بلا إذن كأنه مغاضب. والله تعالى أعلم.

ثم قال تعالى: ﴿فظنَّ أن لن نقْدِرَ عليه﴾ أى: لن نضيق عليه، أو لن نقدر عليه بالعقوبة، فهو من القدَر، ويؤيده قراءة من شدَّد، وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: دخلت يوماً على معاوية، فقال: لقد ضربتنى أمواج القرآن البارحة، فغرقت فيها، فلا أرى لنفسى خلاصاً إلا بك، قال: وما هى؟ فقرأ الآية... فقال: أو يظن نبى الله ألا يقدر عليه؟ قال: هذا من القدر لا من القدرة .هـ.

وقيل: إنه على حذف الاستفهام. أى: أيظن أن لن نقدر عليه، وقيل: هو تمثيل لحاله بحال من ظن أن لن يقدر عليه، أى: تعامل معاملة من ظن أن لن نقدر عليه؛ حيث استعجل الفرار. قلت: لإعْلاء مقامه كثرت مطالبته بالأدب، فحين خرج من غير إذن خاص؛ عُدَّ خروجه كأنه ظن ألا تنفذ فيه القدرة، وتمسك عليه السلام بالإذن العام، وهو الهجرة من دار الكفر، وهو لا يكفى فى حق أمثاله، فعوقب بالسجن فى بطن الحوت.

(١) الربع: ولد الناقة أول ما يُحمل عليه. (٢) هذا لايصح أن يوصف به سيدنا يونس، الذى قال فيه سيدنا محمد: «لاينبغى لأحد أن يقول أنا خير من يونس بن متى».

(٣) من الآية ٣٥ من سورة الأحقاف.

(٤) من الآية ٤٨ من سورة القلم. وانظر تفسير الطبرى (١٧/٧٧)، والبغوى (٥/٣٥٠).

﴿ فنادى في الظلمات ﴾ أي: فى الظلمة الشديدة المتكاثفة كقوله: ﴿ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَـاتٍ... ﴾(١)، أو فى ظلمة بطن الحوت والبحر والليل: ﴿ أن لا إله إلا أنتَ ﴾ أى: بأنه لا إله إلا أنت، أو تفسيرية، أى: قال لا إله إلا أنت، ﴿ سبحانك ﴾ أى: أنزهك تنزيهاً لائقاً بك من أن يعجزك شيء، أو: تنزيهاً لك عما ظننتُ فيك، ﴿ إني كنتُ من الظالمين ﴾ لنفسى؛ بخروجى عن قومى قبل أن تأذن لى، أو من الظالمين لأنفسهم بتعريضها للهلكة، وعن الحسن: ما نجاه، والله، إلا إقراره على نفسه بالظلم.

﴿ فاستجبنا له ﴾ أى: أجبنا دعاءه الذى دعا فى ضمن الاعتراف بالذنب على ألطف وجه وأحسنه. عن رسول الله ﷺ: «مَا مِنْ مَكْرُوبٍ يَدْعُو بِهَذَا الدُّعَاءِ إلاَّ اسْتُجِيبَ لَهُ»(٢). ﴿ ونجيناه من الغم ﴾: الذلة والوحشة والوحدة، وذلك بأن قذفه الحوت إلى الساحل بعد أربع ساعات، وقيل: بعد ثلاثة أيام، ﴿ وكذلك نُنجي المؤمنين ﴾ أى: مثل ذلك الإنجاء الكامل نُنجى المؤمنين من غمومهم، إذا دعوا الله، مخلصين فى دعائهم. وعنه ﷺ أنه قال: «اسم الله الذى إذا دعُى به أجاب، وإذا سُئل به أعطى: دعوة يونس بن متى، قيل: يا رسول الله، أليونس خاصة؟ قال: بل هى عامة لكل مؤمن، ألم تسمع قول الله تعالى: ﴿وكذلك ننجى المؤمنين﴾». وهنا قراءات فى ﴿ نُنجي ﴾، مذكورة فى كتب القراءات، تركتها لطول الكلام فيها.

الإشارة: من تحققت له سابقة العناية لا تُبعده الجناية، ولا تخرجه عن دائرة الولاية، بل يؤدب فى الدنيا بالابتلاء فى بدنه أو ماله، على قدر الجناية وعلو المقام، ثم يرد إلى مقامه. وها هنا حكايات للصوفية - رضى الله عنهم - من هذا النوع، منها: حكاية خير النساج رضي الله عنه، قيل له: أكان النسج صنعتك؟ قال: لا، ولكن كنتُ عاهدت الله واعتقدت ألا آكل الرطب، فغلبتنى نفسى واشتريت رطلاً منه، فجلستُ لآكله، فإذا رجل وقف علىّ، وخنقنى، وقال: يا عبد السوء، أتهرب من مولاك - وكان له عبد اسمه: «خير، أبَقَ منه، ألقى الله شبهه علىّ - فحملنى إلى حانوته، وقال: اعمل عملك، أمرنى بعمل الكرياس - وهو القطن - فدليت رجلى لأنسجه، فكأنى كنت أعمله سنين، فبقيت معه أشهراً، فقمتُ ليلة إلى صلاة الغداة، وقلت: إلهى لا أعود، فأصبحت، فإذا الشبه قد زال عنى، وعُدتُ إلى صورتى التى كُنتُ عليها، فأُطلقت، فثبت علىّ هذا الاسم، فكان سببه اتباع شهوتى.

ومنها قضية أبى الخير العسقلانى رضي الله عنه قال: اشتهيتُ السمك سنين، ثم ظهر له من وجه حلال، فلما مد يده ليأكل، أخذت شوكة من عظامه إصبعه، فذهبت فى ذلك، فقال: إلهى هذا لمن مد يده لشهوة من حلال، فكيف

(١) من الآية ١٧ من سورة البقرة.
(٢) أخرجه الترمذى فى (الدعوة باب ٨٢)، وأبو يعلى (٢/٦٥)، والحاكم فى المستدرك (١/٥٠٥)، وصححه ووافقه الذهبى، من حديث سعد بن أبى وقاص. وأخرجه أحمد فى قصة (١/١٧٠).

بمن مد يده لشهوة من حرام. ومنها: قضية إبراهيم الخواص رَحِمَهُ اللهُ قال: كنت جائعاً فى الطريق، فوافيت الرَّى - اسم بلدة - فخطر ببالى أن لي بها معارف، فإذا دخلتها أضافونى وأطعمونى، فلمَّا دخلت البلد رأيت فيها مُنكراً احتجت أن آمر فيه بالمعروف، فأخذونى وضربونى، فقلتُ فى نفسى: من أين أصابنى هذا، على جوعى؟ فنُوديت فى سرى: إنك سكنت إلى معارفك بقلبك، ولم تسكن إلى خالقك.

وأمثال هذا كثير بأهل الخصوصية، يُؤدبون على أقل شيء من سوء الأدب؛ لشدة قربهم، ثم يُردون إلى مقامهم. ومن هذا النوع قصة سيدنا يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ حيث خرج من غير إذن خاص، فأدَّبه، ثم رده إلى النبوة والرسالة، وقد كنتُ سمعت من بعض الأشياخ أن أيوب عَلَيْهِ السَّلَامُ إنما أصيب فى ماله، لأنه كان بجوار ماله كافر، فكان يداريه؛ لأجل ماله، فأصيب فيه وفى بدنه؛ تأديباً وتكميلاً له. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر زكريا عَلَيْهِ السَّلَامُ فقال:

﴿ وَزَكَرِيَّآ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرۡنِي فَرۡدٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ يَحۡيَىٰ وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ و ﴾ اذكر خبر ﴿ زكريا إذ نادى ربَّهُ ﴾ فى طلب الولد، وقال: ﴿ ربِّ لاتذرني فَرْداً ﴾؛ وحيداً بلا ولد يرثنى، ثم ردّ أمره إليه؛ مستسلماً، فقال: ﴿ وأنت خيرُ الوارثين ﴾، فحسبى أنت، وإنْ لم ترزقنى وارثاً فلا أبالى؛ فإنك خير وارث، ﴿ فاستجبنا له ﴾ دعاءه، ﴿ ووهبنا له يحيى ﴾ ولداً ﴿ وأصلحنا له زوجه ﴾ أى: أصلحناها للولادة بعد عُقمها، أو أصلحناها للمعاشرة بتحسين خَلْقها. وكانت قبل سيئة الخلَق، ﴿ إنهم ﴾ أى: ما تقدم من الأنبياء، ﴿ كانوا يُسارعون في الخيرات ﴾ أى: إنما استحقوا الإجابة إلى مطالبهم، وأسعفناهم فيما أمّلوا؛ لمبادرتهم أبواب الخير، ومسارعتهم إلى تحصيلها، مع ثباتهم واستقرارهم فى أصل الخير كله، وهو السر فى إتيان: «فى»، دون «إلى»، المشعرة بخلاف المقصود؛ من كونهم خارجين عن أصل الخيرات، متوجهين إليها، كما فى قوله تعالى: ﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾(١).

﴿ و ﴾ كانوا ﴿ يدعوننا رغَباً ورَهَباً ﴾؛ طمعاً وخوفاً، وهما مصدران فى موضع الحال، أو المفعول له، أى: راغبين فى الثواب أو الإجابة، وراهبين من العقاب أو الخيبة، أو للرغبة والرهبة، ﴿ وكانوا لنا خاشعين ﴾:

---

(١) من الآية ١٣٣ من سورة آل عمران.

متواضعين خائفين، أي: إنما نالوا هذه المراتب العلية، واستحقوا هذه الخصوصية؛ لاتصافهم بهذه الأوصاف الحميدة. والله تعالى أعلم.

الإشارة: الغالب في وراثة الخصوصية الحقيقية أن تكون لغير ورثة النسب، وأما الخصوصية المجازية، التي هي مقام الصلاح أو العلم، فقد تكون لورثة النسب، وتكون لغيرهم. والخصوصية الحقيقية هي مقام الفناء والبقاء، والتأهل للتربية النبوية، ولا بأس بطلب وارث هذه الخصوصية، لئلا ينقطع النفع بها. وقد قيل، في قول الشيخ ابن مشيش رضي الله عنه: اسمع نداءى بما سمعت به نداء عبدك زكريا، إنه أشار إلى طلب الوارث الروحاني. والله تعالى أعلم.

وقوله تعالى: ﴿إنهم كانوا يسارعون في الخيرات﴾، فيه إشارة إلى بيان سبب حصول الخصوصية؛ لأن بابها هو المسارعة إلى عمل الخيرات وأنواع الطاعات، وأوكدها ثلاثة: دوام ذكر الله، وحسن الظن بالله، وبعباد الله. وفي الحديث: «خصلتان ليس فوقهما شيء من الخير: حسن الظن بالله، وحسن الظن بعباد الله». وقوله: ﴿ويدعوننا رَغَباً ورهباً﴾، هذه حالة الطالبين المسترشدين المتعطشين إلى الله، يدعونه رغبًا في الوصول، ورهباً من الانقطاع والرجوع، وقد تكون للواصلين؛ رغبًا في زيادة الترقي، ورهباً من الوقوف أو الإبعاد. وقال بعضهم: الرغب والرهب حاصلتان لكل مؤمن، إذ لو لم تكن رغبة لكان قنوطاً، وهو كفر، ولو لم تكن رهبة لكان أمناً، والأمن كفر. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر مريم وابنها ـ عليهما السلام ـ فقال:

﴿ وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩١﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿و﴾ اذكر ﴿التي أحصنتْ فرْجَها﴾ على الإطلاق من الحلال والحرام، والتعبير عنها بالموصول؛ لتفخيم شأنها، وتنزيهها عما زعموه في حقها. ﴿فنفخنا فيها من رُوحِنَا﴾ أي: أجرينا روح عيسى فيه وهو في بطنها، أو نفخنا في درع جيبها من ناحية روحنا، وهو جبريل عليه السلام، فأحدثنا بذلك النفخ عيسى عليه السلام، وإضافة الروح إليه تعالى؛ لتشريف عيسى عليه السلام. ﴿وجعلناها وابنها﴾ أي: قضيتهما، أو حالهما، ﴿آيةً للعالمين﴾، فإن من تأمل حالهما تحقق بكمال قدرته تعالى. وإنما لم يقل آيتين، كما قال: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ﴾(١)، لأن مجموعهما آية واحدة، وهي ولادتها إياه من غير فحل. وقيل: التقدير: وجعلناها آية وابنها كذلك، فآيةً مفعول المعطوف عليه، فحذف أحدهما لدلالة الآخر عليه. والله تعالى أعلم.

---

(١) من الآية ١٢ من سورة الإسراء.

الإشارة: مَنْ حَصَّلَ التقوى في صغره، كان آية في كِبَرِهِ. تقول العامة: الثور الحراث في الربك يبان، وتقول الصوفية: البداية مجلاة النهاية. وقالت الحكماء: الصغر يخدم على الكبر. وبالله التوفيق.

ثم ذكر اتفاقهم في التوحيد، فقال:

﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ وَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ۖ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ ﴿٩٣﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴿٩٤﴾ ﴾

قلت: «أمة»: حال من «أمتكم»، أي: متحدة أو متفقة، والعامل فيه ومعنى الإشارة، والإشارة إلى طريق الأنبياء المذكورين قبلُ.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ إنّ هذه ﴾ الطريق والسيرة التي سلكها الأنبياء المذكورون، واتفقوا عليها، وهو التوحيد، هي ﴿ أُمتكم ﴾ أي: ملتكم التي يجب أن تكونوا عليها، ولا تخرجوا عنها، حال كونها ﴿ أمةً واحدةً ﴾، غير مختلفة فيما بين الأنبياء - عليهم السلام - وإن اختلفت شرائعهم. وفي الحديث: «الأنبِيَاءُ أبناء عَلاَّتٍ، أُمهاتُهمْ شتَّى، وأبوهم واحد» والعلات: الضرائر، أي: شرائعهم مختلفة، وأبوهم واحد، وهو التوحيد. قال القشيري: ﴿ وأنا ربكم فاعبدون ﴾ أي: ربيتكم؛ اختياراً، فاعبدوني؛ شكراً وافتخاراً.هـ. والخطاب للناس كافة.

﴿ وتقطعوا أمرهم ﴾، أصل الكلام: وتقطعتم في أمر دينكم وتفرقتم. إلاَّ أن الكلام صرف إلى الغيبة، على طريقة الالتفات؛ ليَنْعي عليهم ما أفسدوه في الدين. والمعنى: فجعلوا أمر دينهم فيما ﴿ بينهم ﴾ قِطَعًا، وصاروا أحزاباً متفرقة، كأنه يُنْهِي إلى أهل التوحيد قبائح أفعالهم، ويقول: ألا ترون إلى عظيم ما ارتكب هؤلاء في دين الله، الذي أجمعت عليه كافة الأديان؟ ثم توعدهم بقوله: ﴿ كُلٌّ إلينا راجعون ﴾ أي: كل واحد، من الفرق المتقطعة، راجع إلينا بالبعث، فنجازيهم حينئذ بحسب أعمالهم.

ثم فصَّل الجزاء فقال: ﴿ فمن يعملْ ﴾ شيئاً ﴿ من الصالحاتِ وهو مؤمنٌ ﴾ بالله ورسله وبما يجب الإيمان به. قال القشيري: (وهو مؤمن، أي: في المآل بأن يختم له به)، وكأنه يشير إلى الخاتمة؛ لأن من لم يختم له بالإيمان لا ثواب لأعماله، والعياذ بالله، ﴿ فلا كُفْرَانَ لسَعْيِهِ ﴾ أي: لا حرمان لثواب عمله، بل سعيُه مشكور مقبول، فالكفران مَثَلٌ في حرمان الثواب، كما أن الشكر مثلٌ في إعطائه، وعبَّر عن ذلك بالكفران، الذي هو ستر النعمة

وجحدها؛ لبيان كمال تنزهه تعالى عنه. وعبّر عن العمل بالسعي؛ لإظهار الاعتداد به، ﴿ وإنَّا له ﴾ أي: لسعيه ﴿ كاتبون ﴾ ؛ مُثبتون في صحائف أعمالهم، نأمر الحفظة بذلك، لا نغادر من ذلك شيئا. والله تعالى أعلم.

الإشارة: الصوفية ـ رضي الله عنهم ـ، في حال سيرهم إلى الحضرة وسلوكهم في طريق التربية، مختلفون بحسب الأزمنة والأمكنة والأشخاص. وفي حال نهايتهم ـ وهو الوصول إلى حضرة الشهود والعيان، وإشراق شمس العرفان، الذي هو مقام الإحسان، ويُعبِّرون عنه بالفناء والبقاء، وهو التوحيد الخاص ـ متفقون، وفي ذلك يقول القائل:

عباراتنا شتى، وحسْنك واحد وكُلٌّ إلى ذاك الجمَـالِ يُشـير

لأن ما كان ذوقاً ووجداً لا يختلف، بل يجده كل من له ذوق سليم. نعم تتفاوت أذواقهم على حسب مشاربهم، ومشاربُهم على حسب إعطائهم نفوسَهم وبيعها لله، وتتفاوت أيضاً بحسب التخلية والتفرغ، وبحسب الجد والاجتهاد، وكلهم على بصيرة من الله وبينة من ربهم. نفعنا الله بذكرهم، وخرطنا في سلكهم، آمين.

ثم تمم قوله: ﴿كُلٌّ إلينا راجعون﴾، فقال:

﴿ وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ (٩٥) حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ (٩٦) وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ (٩٧) ﴾

قلت: «حرام»: مبتدأ، وفيه لغتان: حرام وحِرْم، كحلال وحِلّ. و«أنهم..» إلخ: خبر، أو فاعل سد مسده، على مذهب الكوفيين والأخفش. والجملة: تقرير لقوله: (كُلٌّ إلينا راجعون)، و«لا» نافية، أي: ممتنع على قرية أهلكناها عدمُ رجوعهم إلينا بالبعث، بل كل إلينا راجعون. وقيل: «لا» زائدة، والتقدير: ممتنع رجوع قرية أردنا إهلاكها عن غيهم، «فإنهم»: على هذا: فاعل بحرام. قاله القصار. و«حتى»: ابتدائية، غاية لما يدل عليه ما قبلها، أي: يستمرون على ما هم عليه من الهلاك، حتى إذا قامت القيامة يرجعون إلينا، ويقولون: ياويلنا. وقال أبو البقاء: «حتى»: متعلقة في المعنى بحرام، أي: يستقر الامتناع، أي: هذا الوقت. و«فإذا هي»: جواب «إذا». وفي الأزهري: وقد يجمع بين الفاء وإذا الفجائية؛ تأكيداً، خلافاً لمن منع ذلك. قال تعالى: (فإذا هي شاخصة)، فإنه لو قيل: إذا هي، أو فهي شاخصة لصح. هـ. وقيل: «ياويلنا»: على حذف القول، أي: إذا فتحت قالوا: ياويلهم. و«اقترب»: عطف على «فُتحت».

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وحرامٌ ﴾ أي: ممتنع ﴿ على ﴾ أهل ﴿ قريةٍ أهلكناها ﴾؛ قدرنا هلاكها، أو حكمنا بإهلاكها؛ لعتوهم، ﴿ أنهم إلينا لا يَرجعون ﴾ بالبعث والحشر، بل لابد من بعثهم وحشرهم وجزائهم على أعمالهم. وتخصيص امتناع عدم رجوعهم بالذكر مع شمول الامتناع للكل؛ لقوله: ﴿كُلٌّ إلينا راجعون﴾؛ لأنهم المنكِرون للبعث والرجوع دون غيرهم. وقيل: المعنى: وممتنع على قرية، أردنا إهلاكها، رجوعهم إلى التوبة، أو ممتنع على قرية، أهلكناها بالفعل، رجوعهم إلى الدنيا. وفيه رد على مذهب القائلين بالرجعة من الروافض وأهل التناسخ، على أن «لا» صلة. وقُرئ بالكسر(١)، على أنه تعليل لما قبله، فحرام، على هذا، خبر عن مبتدأ محذوف، أي: ذلك العمل الصالح حرام على قرية أردنا إهلاكها؛ لأنهم لا يرجعون عن غيهم.

وقال الزجاج: المعنى: وحرام على قرية، أردنا إهلاكها، أن يُتَقَبَّلَ منهم عمل؛ لأنهم لا يرجعون، أي: لا يتوبون، ويجوز حمل المفتوحة على هذا بحذف اللام، ويستمرون على ما هم عليه من الهلاك، أو: فليستمر امتناعهم من الرجوع.

﴿ حتى إذا فُتحتْ يأجوجُ ومأجوج ﴾ ونُفخ في الصور، وقامت القيامة، فيرجعون، ولا ينفعهم الرجوع. ويأجوج ومأجوج قبيلتان، يقال: الناس عشرة أجزاء، تسعة منها يأجوج ومأجوج. والمراد بفتحها: فتح سدها، على حذف مضاف؛ أي: حتى إذا فُتح سد يأجوج ومأجوج، ﴿ وهم ﴾ أي: يأجوج ومأجوج، وقيل: الناس بعد البعث، ﴿ من كل حَدَبٍ ﴾ أي: نشز ومرتفع من الأرض، ﴿ ينسِلُونَ ﴾: يسرعون، وأصل النسل: مقاربة الخطو مع الإسراع. ويدل على عَود الضمير ليأجوج ومأجوج: قوله - عليه الصلاة والسلام -: «ويفتح ردم يأجوج ومأجوج، فيخرجون على الناس، كما قال الله تعالى: ﴿من كل حدب ينسلون...﴾» الحديث(٢)، ويؤيد إعادته على الناس قراءة مجاهد: «من كل جدث»؛ بالجيم، وهو القبر.

ثم قال تعالى: ﴿ واقتربَ الوعدُ الحقُّ ﴾ أي: ما بعد النفخة الثانية من البعث والحساب، ﴿ فإذا هي شاخصةٌ ﴾ أي: فإذا القصة أو الشأن، وهو ﴿ أبصارُ الذين كفروا ﴾ شاخصة، أي: مرتفعة الأجْفان، لا تكاد تطرق من شدة الهول، حال كونهم يقولون: ﴿ ياولينا ﴾؛ ياهلكتنا، هذا أوانك، فاحضري، ﴿ قد كُنَّا في غفلة ﴾ تامة ﴿ من هذا ﴾ الذي دهمنا؛ من البعث، والرجوع إليه تعالى، للجزاء، ولم نعلم، حيث نُبِّهْنَا عليه بالآيات والنُذر، أنه حق، ﴿ بل كنا ظالمين ﴾ بتلك الآيات والنذر، مُكذبين بها، أو ظالمين أنفسنا؛ بتعريضها للعذاب

(١) في قوله: «إنهم».
(٢) أخرجه، مطولاً، مسلم، في (الفتن، وأشراط الساعة، باب ذكر الدجال)، من حديث النواس بن سمعان.

المخلد. وهو إضراب عما قبله، من وصف أنفسهم بالغفلة، أى: لم نكن غافلين عنه، حيث نُبّهنا عليه بالآيات والنذر، بل كنا ظالمين بتكذيبهم، والله تعالى أعلم.

تذييل: روَى حذيفة أن النبى ﷺ قال: «أول الآية: الدّجال، ونزول عيسى، ونار تخرج من قرن عدن، تسوق الناس إلى المحشر - أى الشام - تقيل معهم إذا قالوا، والدُّخان، والدّابة، ثم يأجوج ومأجوج»(١). قلت: وبعد موت يأجوج ومأجوج، تبقى مدة عيسى عليه السلام، فى أمْنَةٍ ورَغَدِ عيْشٍ. قيل: سبع سنين، وقيل: أربعون. ثم يُقبض عيسى، ويُدفن فى روضته ﷺ، ثم تهب ريح تقبض المؤمنين، فلا يبقى من يقول الله الله، قيل: مائة سنة، وقيل: أقل، ثم تخرب الكعبة، ثم يُنفخ فى الصور للصعق، واقترب الوعد الحق. والله تعالى أعلم.

الإشارة: الحضرة محرمة على قلبٍ خراب، أهلكه الله بالوساوس والخواطر، وفتحت عليه من الشواغل والشواغب والخواطر يأجوج ومأجوج، فأفسدته وخربته وجعلته مزبلة للشياطين. فحرام عليه رجوعه إلى الحضرة حتى يتطهر من هذه الوساوس والخواطر، ومن الشواغل والعلائق. قال بعض الصوفية: (حضرة القدوس محرمة على أهل النفوس). فإذا اقترب وعد الحق، وهو أجل موته، قال: ياويلنا إنا كنا عن هذا غافلين، لم نتأهب للقاء رب العالمين، حتى لقيتُه بقلب سقيم. والعياذ بالله.

ثم ذكر مآل الكفرة إذا وقع الوعد الحق، فقال:

﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿إنكم﴾، يا كفار قريش ومن دان دينكم، ﴿وما تعبدون من دون الله﴾ من الأصنام والشياطين؛ لأنهم، لطاعتهم لهم واتباعهم خطواتهم، فى حكم عبادتهم، ويدخل فيه الشمس والقمر والنجوم، وكل ما عُبد من دون الله ممن لا يعقل، للحديث الوارد فى دخولهم النار، تبكيتاً لمن عبدهم؛ لأنهم لا

(١) أخرجه مسلم فى (الفتن، باب الآيات التى تكون قبل قيام الساعة). من حديث حذيفة بن أسيد. ولفظه كاملاً: «إن الساعة لا تكون حتى تكون عشر آيات: خسف بالمشرق وخسف بالمغرب، وخسف فى جزيرة العرب، والدخان، والدجال، ودابة الأرض، ويأجوج ومأجوج، وطلوع الشمس من مغربها، ونار تخرج من قعر عدن ترحل الناس».

يتضررون بالنار. وأما من يعقل فلا يدخل؛ حيث عبَّر بما. وقيل: يدخل، ثم استثناه بقوله: ﴿إن الذين سبقت لهم منا الحسنى...﴾، فكل من عبد شيئاً من دون الله فهو معه، ﴿حَصَبُ جهنم﴾ أي: حطبها، وقرئ بالطاء، أي: وقودها ﴿أنتم لها واردون﴾ أي: فيها داخلون.

﴿لو كان هؤلاء آلهةً﴾ كما زعمتم ﴿ما وردوها﴾؛ ما دخلوا النار، ﴿وكلٌّ فيها خالدون﴾ أي: وكل من العابد والمعبود في النار خالدون. ﴿لهم فيها زفير﴾ أي: للكفار في النار أنينٌ وبكاء وعويل، ﴿وهم فيها لا يسمعون﴾ شيئاً؛ لأن في سماع بعضهم بعضاً نوع أُنس. قال ابن مسعود رضي الله عنه: يُجعلون في توابيت من نار، ثم جعلت التوابيت في توابيت أُخَر لها مسامير من نار، فلا يسمعون شيئاً.

رُوِي أن النبي ﷺ دَخَلَ المَسْجِدَ الحَرام، وَصَنَادِيدُ قُرَيْشٍ فِي الحَطِيمِ، وَحَوْلَ الكَعْبَةِ ثلاثمائة وَسِتُونَ صَنَماً، فَجلَسَ إِلَيْهِمْ، فَعَرَضَ لَهُ النَّضْرُ بْنُ الحَارِثِ، فكلّمهُ النبي ﷺ حَتَّى أَفْحَمَهُ، ثُمَّ تلا عليه وعليهم: ﴿إنكم وماتعبدون من دون الله حصب جهنم...﴾ الآيات الثلاث. ثم أَقْبَلَ عَبْدُ اللهِ بْنُ الزِّبَعْرَى فرآهم يتساهمون، فقال: فيم خوضكم؟ فأخفى الوَلِيدُ ما قاله النبي ﷺ، ثم أخبره بعضهم بما قاله، عليه الصلاة والسلام، فقال ابن الزبعرى للنبي ﷺ: أأنت قلت: ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم﴾؟ قال: نعم، قال: قد خصمتك، ورب الكعبة، أَلَيْست اليَهُودُ تعبد عُزَيراً، والنصارى تعبد المَسِيحَ، وبَنُو مُلَيْحٍ يعبدون الملائكَةَ؟ فقال النبي ﷺ: «بَلْ هُمْ يَعْبُدُون الشياطِينَ الّتي أَمَرَتْهُمْ بهذا، فأنزل الله تعالى: ﴿إن الذين سبقت لهم منا الحسنى..﴾»(١).

قلت: كل من عَبَدَ شيئاً من دون الله فإنما عَبَدَ في الحقيقة الشيطان؛ لأنه أمر به وزينه له، ويدل على ذلك أنهم يتبرؤون يوم القيامة، حين تتحقق الحقائق، من عبادتهم، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ، قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾(٢) مع قوله تعالى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾(٣). والله تعالى أعلم.

---

(١) أخرجه بنحوه الواحدي في الأسباب (٤١٣). والطبراني في الكبير (١٢/١٥٣ ح ١٢٧٣٩)، عن ابن عباس وأخرجه، مختصراً، الطبري (١٧/٩٧)، والحاكم في (التفسير ٢/٣٨٥) وصححه، ووافقه الذهبي.

(٢) الآيتان: ١٧ ـ ١٨ من سورة الفرقان. (٣) من الآية ٣٨ من سورة العنكبوت.

الإشارة: من أحب شيئاً حُشر معه، من أحب أولياء الله حُشر معهم، ومن أحب الصالحين حُشر معهم، ومن أحب الفجار حُشر معهم، ومن أحب الدنيا بُعث معها، ثم بعث إلى النار، وهكذا.. المرء مع من أحب.

ثم استثنى بذكر حال أهل السعادة، فقال:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿إن الذين سبقت لهم منا الحسنى﴾ أي: الخصلة الحسنى، أو المشيئة الحسنى، وهى السعادة، أو التوفيق للطاعة، أو البُشرى بالثواب، ﴿أولئك عنها﴾: عن جهنم ﴿مبعدون﴾؛ لأنهم فى الجنة، وشتان ما بينهما. قال القشيرى: لم يقل متباعدون؛ ليَعْلَم العابدون أن المدارَ على التقدير وسبق الحكم من الله، لا على تَبَاعُدِ العبد وتَقَرُّبه .هـ. وكأنه يشير لقوله: «هؤلاء إلى الجنةِ ولا أُبالي»[(١)]، أى: بأعمالهم.

﴿لا يسمعون حَسِيسَهَا﴾ أى: صوتها الذى يحس، وحركة تلهبها، وهذه مبالغة فى الإبعاد، أى: لا يقربوها حتى لا يسمعوا صوتها أو صوت من فيها. قال الكواشي: لا يسمعون صوت النار وحركة تلهبها إذا نزلوا منازلهم من الجنة .هـ. وقال ابن عطية: وذلك بعد دخولهم الجنة؛ لأن الحديث يقتضى أن فى الموقف تزفر جهنم زفرة لا يبقى نبى ولا ملك إلا خرَّ على ركبتيه. هـ. قال شيخ شيوخنا سيدى عبد الرحمن الفاسى: محمل الحديث، إن صح فى حق الأنبياء والأكابر، على شهود الجلال والإجلال لله تعالى، ولذلك يقولون: «نفسى نفسى»، لا من خوف النار .هـ.

قلت: أما كون الناس يُصعقون يوم القيامة، فيكون المصطفى أول من يفيق، فثابت فى الصحيح، أما سبب الصعقة فقد ورد فى غير البخارى: «أنه يُؤتى بجهنم، ولها سبعون ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها، ثم تزفر زفرة، فلا يبقى نبى ولا ملك إلا خرّ»[(٢)] ... الحديث، ويؤيده قوله تعالى: ﴿وَجِاْيٓءَ يَوْمَئِذٍ

---

(١) بعض حديث، أخرجه الإمام أحمد فى المسند (١٨٦/٤) والحاكم فى المستدرك (٣١/١)، وابن حبان (١٨٠٦ موارد)، عن عبد الرحمن بن قتادة السلمى. والحديث، صححه الحاكم، ووافقه الذهبى.

(٢) أخرجه، بدون العبارة الأخيرة، مسلم فى (الجنة وصفه نعيمها، باب فى شدة حر نار جهنم..) من حديث ابن مسعود رضى الله عنه.

بِجَهَنَّمَ ﴾(١) والأنبياء ـ عليهم السلام ـ بَشَر عبيد، قد تعمهم القهرية، ولا تقدح فى منصبهم، وليس صعقهم خوفا، لكن غلبة ودهشًا، كما صعق موسى ـ عليه السلام ـ عند الرؤية، ونبينا ـ عليه الصلاة والسلام ـ حين تجلى له جبريل على صورته. والله أعلم. وقال جعفر الصادق: وكيف يسمعون حسيسها، والنار تخمد بمطالعتهم، وتتلاشى برؤيتهم؟ ثم ذكر حديث قول النار للمؤمن: جُز.. إلخ

ويدل على أن هذه الحالة إنما هى بعد دخولهم الجنة، قوله تعالى: ﴿ وهم فيما اشتهت أنفُسُهُم ﴾ من النعيم ﴿ خالدون ﴾ : دائمون، والشهوة: طلب النفس للذة. وهو بيان لفوزهم بالمطالب، إثر بيان خلاصهم من المهالك والمعاطب، أى: دائمون فى غاية التنعم، ﴿ لا يحزنهم الفزعُ الأكبر ﴾ ، وهو القيام من القبور عند صيحة البعث، بدليل قوله: ﴿ وتتلقاهم الملائكةُ ﴾ . قال ابن عباس: «تتلقاهم الملائكة بالرحمة، عند خروجهم من القبور»، قائلين: ﴿ هذا يومُكم الذي كنتم تُوعدون ﴾ بالكرامة والثواب، والنعيم المقيم فيه، أى: بعد دخولكم الجنة.

وقال الحسن: الفزع الأكبر: الانصراف إلى النار. وعن الضحاك: حين يُطبق على أهل النار. وقيل: حين نفخة الصعق، وقيل: حين يُذبح الموت. قلت: من سبقت له الحسنى ينجو من جميعها. وقيل: تتلقاهم الملائكة على أبواب الجنة، مُهنئين لهم قائلين: (هذا يومكم الذى كنتم توعدون) فى الدنيا، ويُبشرون بما فيه من فنون المثوبات على الإيمان والطاعات. وهذا، كما ترى، صريح فى أن المراد بالذين سبقت لهم الحسنى: كافةُ المؤمنين الموصوفين بالإيمان والأعمال الصالحة، لا من ذكر؛ من المسيح، وعُزير، والملائكة، كما قيل. قاله أبو السعود، قلت: وقد يجاب بأنها نزلت فى شأنهم وتعم غيرهم؛ لأن سبب النزول لا يخصص. والله تعالى أعلم.

الإشارة: قال الجنيد رضي الله عنه : ﴿إن الذين سبقت لهم منا الحسنى﴾ أى: سبقت لهم منا العناية فى البداية، فظهرت لهم الولاية فى النهاية. هـ. (أولئك عنها) أى: عن نار القطيعة، وهى أغيار الدنيا، مُبعدون، لا يسمعون حسيسها، ولا ما يقع فيها من الهرج والفتن، لغيبتهم عنها بالكلية فى الشغل بالله تعالى، فهم فيما اشتهت أنفسهم؛ من لذة الشهود، والقُرب من الملك الودود، خالدون دائمون، لا يحزنهم الفزع الأكبر فى الدنيا والآخرة، وتتلقاهم الملائكة بالبُشرى بالوصول، هذا يومكم الذى كنتم توعدون، وهو يوم ملاقاة الحبيب والعكوف فى حضرة القريب، عند مليك مقتدر. منحنا الله من ذلك الحظ الأوفر بمنّه وكرمه.

---

(١) من الآية ٢٣ من سورة الفجر.

ثم ذكر أوصاف ذلك اليوم، فقال:

﴿ يَوْمَ نَطْوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾ ﴾

قلت: «يوم»: ظرف لاذكر، أو لقوله: «لا يحزنهم الفزع»، أو لتتلقاهم. والسجل: الصحيفة، والكتاب: مصدر، و«كما بدأنا»: منصوب بمضمر، يُفسره ما بعده، و«ما»: موصولة.

يقول الحق جل جلاله: واذكر ﴿يوم نَطْوِى السماءَ﴾؛ وذلك يوم الحشر والناس فى الموقف، فتجمع وتُكَوَّر وتُطوى ﴿كطَيِّ السِّجِلِّ﴾؛ الصحيفة ﴿للكتاب﴾ أى: لأجل الكتابة فيها؛ لأن الكاتب يطوى الصحيفة على اثنين؛ ليكتب فيها. فاللام للتعليل، أو بمعنى «على»، أى: كطى الصحيفة على الكتابة التى فيها، لتُصان، وقرأ أبو جعفر: «تُطوى»؛ بالبناء للمفعول. وذلك بمحو رسومها وتكوير نجومها وشمسها وقمرها. وأصل الطى: الدرج، الذى هو ضد النشر. وقرأ الأخوان وحفص: (للكُتُبِ) بالجمع، أى: للمكتوبات، أى: كطى الصحيفة؛ لأجل المعانى الكثيرة التى تكتب فيها، أو كطيها عليها؛ لتُصان. فالكتاب أصله مصدر، كالبناء، ثم يوقع على المكتوب. **وقيل**: السجل: ملك يطوى كتب ابن آدم، إذا رفعت إليه، فالكتاب، على هذا، اسم للصحيفة المكتوب فيها، والطى مضاف إلى الفاعل، وعلى الأول: إلى المفعول.

﴿كما بدأنا أول خَلْقٍ نُعيده﴾ أى: نعيد ما خلقنا حين نبعثهم، كما بدأناهم أول مرة، فالتنوين فى ﴿خَلْقٍ﴾ مثله فى قولك: أول رجل جاءنى، تريد أول الرجال. والتقدير: كما بدأنا أول الخلائق، نعيدهم حفاةً عراة غُرلاً. قال ﷺ: «إنَّكُمْ تُحْشَرُونَ يَوْمَ القيامَةِ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلاً. وأول مَنْ يُكْسَى إبْرَاهِيمُ خَلِيلُ اللهِ»(١)، أى: لأنه جرد فى ذات الله ، فقالت عائشة ـ رضى الله عنها ـ: واسوءتاه! فلا يحتشم الناس بعضهم من بعض؟ فقال: «لكل امرئ منهم يومئذ شأن يُغنيه»(٢). ثم قرأ ـ عليه الصلاة والسلام ـ: ﴿كما بدأنا أول خلق نعيده﴾.

---

(١) أخرجه البخارى فى (أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: «واتخذ الله إبراهيم خليلاً») ومسلم فى (الجنة وصفه نعيمها، باب فناء الدنيا)، عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) هذا ليس من الحديث السابق. بل هو حديث آخر، أخرجه مسلم فى الموضع السابق، عن السيدة عائشة، بلفظ: «يُحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلاً، قلت: يارسول الله؛ النساء والرجال جميعاً، ينظر بعضهم إلى بعض؟ قال: «ياعائشة الأمر أشد من أن ينظر بعضهم إلى بعض».

كما بدأناه من الماء نعيده كيوم ولدته أمه. قلت: قد استدل بعضهم، بظاهر الآية والحديث، أن أهل الجنة ليس لهم أسنان، ولا دليل فيه؛ لأن المقصود من الآية: الاستدلال على كمال قدرته تعالى، وعلى البعث الذى تُنكره الكفرة، لا بيان الهيئة، وعدمُ وجودها نقصان، ولا نقص فى الجنة.

ثم أكد الإعادة بقوله: ﴿ وعداً علينا ﴾ أى: نُعيده وعداً، فهو مصدر مؤكد لغير فعله؛ بل لِمَا فى «نعيده» من معنى العِدة، أى: وعدنا ذلك وعداً واجباً علينا إنجازه؛ لأنا لا نُخلف الميعاد، ﴿ إنا كنا فاعلين ﴾ لما ذكرنا لا محالة، فاستعدوا له، وقدّموا صالح الأعمال للخلاص من هذه الأهوال. وبالله التوفيق.

الإشارة: إذا أشرقت على القلب شموسُ العرفان، انطوت عن مشهده وجودُ الأكوان، وأفضى إلى فضاء العيان، فلا سماء تظله ولا أرض تحمله، وفى ذلك يقول الششترى رضي الله عنه:

لقد تجلى ما كان مخبى　　　والكونْ كُلٌّ طـويت طىّ

وهذا غاية من سبقت له من الله الحسنى، فأشرقت عليه أنوار التوجه فى البداية، وأنوار المواجهة فى النهاية، فزاحت عنه الأكوان، وفاضت عليه بحار أسرار العرفان، فصار يتصرف بهمته فى الوجود بأسره، كما قال تعالى:

﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ (١٠٥) إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ (١٠٦) ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ولقد كتبنا في الزَّبور ﴾ كتاب داود عليه السلام، ﴿ من بعْد الذِّكْر ﴾: التوراة، أو اللوح المحفوظ، ﴿ أنَّ الأرض ﴾ أى: جنس الأرض، يعنى: مشارقها ومغاربها، ﴿ يرثُها عبادي الصالحون ﴾ وهم أمة نبينا محمد ﷺ، ففى الآية ثناء عليهم وبشارة لهم، وإخبار بظهور غيب تحقق ظهوره فى الوجود؛ مِن فَتْح الله على هذه الأمة مشارقَ الأرض ومغاربها، كقوله: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾(١). وقال القشيرى: على قوله: ﴿عبادى الصالحون﴾: هم أمة محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ وهم بجملتهم قوم صالحون لنعمته، وهم المطيعون، وآخرون صالحون لرحمته وهم العاصون.هـ.

قال فى الحاشية الفاسية: والظاهر أن حديث: «لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خالفهم حتى يأتى أمر الله»، مفسر للآية، وموافق لوعدها. قيل: وهذه الطائفة مُفْتَرِقَةٌ من أنواع المؤمنين، ممن فيه عائدة على الدين ونفع له؛ من شجعان مقاتلين، وفقهاء ومحدِّثين، وزهاد وصالحين، وناهين وآمرين

(١) من الآية ٥٥ من سورة النور.

بالمعروف.هـ. قلت: وعارفين متمكنين، علماء بالله ربانيين. ثم قال: وغير ذلك من أنواع أهل الحسنى، ولا يلزم اجتماعهم، بل يكونون متفرقين في أقطار. هـ. قلت: وفيه نظر؛ لأن مراد الآية الأمة كلها، كما قال القشيري، ومراد الحديث بعضها، فلا يليق أن يكون تفسيراً لها، وهي أعم منه. وقيل: المراد بالأرض: أرض الشام، وقيل: أرض الجنة.

ثم قال تعالى: ﴿ إنَّ في هذا ﴾ أي: ما ذكر في السورة الكريمة من الأخبار والمواعظ البالغة، والوعد والوعيد، والبراهين القاطعة الدالة على التوحيد وصحة النبوة، ﴿ لبلاغًا ﴾ أي: كفاية، أو سبب بلوغ إلى البغية، من رضوان الله تعالى، ومحبته، وجزيل ثوابه، فمن تبع القرآن وعمل به، وصل إلى ما يرجو من الثواب العظيم، فالقرآن زادُ الجنة كبلاغ المسافر، فهو بلاغ وزاد ﴿ لقومٍ عابدين ﴾ أي: لقوم همتُهم العبادة دون العادة. وبالله التوفيق.

الإشارة: قد أورث الله أرضه وبلاده لأهل التوجه إلى الله، والإقبال عليه. فوراثة كل أحد على قدر توجهه وإقباله على مولاه. والمراد بالوراثة: التصرف بالهمة ونفوذ الكلمة في صلاح الدين وهداية المخلوقين، وهم على قسمين: قسم يتصرف في ظواهر الخلق بإصلاح ظواهرهم، وهم العلماء الأتقياء، فهم يبلغون الشرائع والأحكام، لإصلاح نظام الإسلام، وقد تقدم تفصيلهم في سورة التوبة عند قوله تعالى: ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ... ﴾[1] إلخ، وقسم يتصرفون في بواطنهم؛ وهم أهل التصرف العارفون بالله، على اختلاف مراتبهم؛ من غوث وأقطاب وأوتاد، وأبدال، ونجباء، ونقباء، وصالحين، وشيوخ مربين، فهم يعالجون بواطن الناس بالتربية بالهمة والحال والمقال، حتى يتطهر مَنْ يصحبهم من الرذائل، ويتحلي بأنواع الفضائل، فيتأهل لحضرة القدس ومحل الأنس. وهؤلاء حازوا الوراثة النبوية كلها، كما قال ابن البنا في مباحثه:

تَبِعَــهُ الْعَــالِمِ في الأقــوال والعـابدِ الزاهدِ في الأفـعال

وبهمـا الصوفي في السـباق لكنــه قــد زاد بالأخــلاق .

ثم ختم ذكر الأنبياء ـ عليهم السلام ـ بذكر سيد الوجود، وعين الرحمة، ومنبع الكرم والجود، وهو نبينا ـ عليه الصلاة والسلام ـ فقال:

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ

(١) الآية ١٢٢ من سورة التوبة.

﴿مَا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾ قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾﴾

قلت: ﴿رحمة﴾: مفعول لأجله، أو حال.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وما أرسلناك﴾ يا محمد ﴿إلا رحمةً للعالمين﴾ أي: ما أرسلناك بما ذكر من الشرائع والأحكام، وغير ذلك؛ مما هو مناط سعادة الدارين، لعلة من العلل، إلا لرحمتنا الواسعة للعالمين قاطبة. أو ما أرسلناك فى حال من الأحوال، إلا حال كونك رحمة لهم، فإن ما بُعثتَ به سببٌ لسعادة الدارين، ومنشأ لانتظام مصالحهم فى النشأتين، ومن لم يضرب له فى هذه المغانم بسهم فإنما أُوتى من قِبل نفسه، حيث فرط فى اتباعه، وقيل: إنه رحمة حتى فى حق الكفار فى الدنيا؛ بتأخير عذاب الاستئصال، والأمن من المسخ والخسف والغرق، حسبما نطق به قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾(١).

﴿قل إنما يوحى إليّ أنما إلهكم إلهٌ واحد﴾ أى: ما يوحى إلىّ إلا أنه لا إله لكم إلا إله واحد؛ لأنه المقصود الأصلى من البعثة، وأما ما عداه فإنما هو من الأحكام المتفرعة عليه، لا يصح بدونه. و «إنما» الأولى: لقصر الحكم على الشىء، كقولك: إنما يقوم زيد، والثانية: لقصر الشىء على الحكم، كقولك: إنما زيد قائم، أى: إنما يُوحى إلىّ وحدى أنما إلهكم واحد. ﴿فهل أنتم مسلمون﴾ أى: مخلصون العبادة لله وحده، أو منقادون لِمَا أمركم به من الإسلام؟ والاستفهام بمعنى الأمر، أى: أسلموا. ﴿فإن تولوا﴾ عن الإسلام، ولم يلتفتوا إلى ما يوجبه من استماع الوحى، ﴿فقل آذنتُكم﴾ أى: أعلمتكم ما أُمرت به، أو بمحاربتى لكم ومخالفتى لدينكم، لتكونوا ﴿على سواءٍ﴾، أو كائنين على سواء فى الإعلام به، لم أطوه عن أحد منكم، أو مستوين أنا وأنتم فى العلم بما أعلمتكم به من الشرائع، لم أظهر بعضكم على شىء كتمته عن غيره. وفيه دليل بطلان مذهب الباطنية. قيل: وهذه من فصاحة القرآن وبلاغته.

﴿وإنْ أدْرِى﴾ أى: ما أدرى ﴿أقريبٌ أم بعيدٌ ما تُوعدون﴾ من البعث والحساب متى يكون؛ لأن الله تعالى لم يُطلعنى عليه، ولكن أنبأنى أنه آت لا محالة، وكل آت قريب. ولذلك قال: ﴿وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ﴾(٢)، أو: لا أدرى متى يحل بكم العذاب، أو ما توعدون من إظهار المسلمين وظهور الدين، ﴿إنه يعلم الجهرَ من القول ويعلم ما تكتمون﴾ أى: إنه عالم بكل شىء، يعلم ما تجهرون به؛ من الطعن فى الإسلام وتكذيب الآيات، وما تكتمونه فى صدوركم من الأحقاد للمسلمين، فيجازيكم عليه نقيراً وقطميرا. ﴿وإنْ أدري

(١) الآية ٣٣ من سورة الأنفال.
(٢) من الآية ٩٧ من سورة الأنبياء.

لعله فتنةٌ لكم﴾ أي: ما أدرى لعل تأخير العذاب عنكم في الدنيا امتحان لكم؛ لينظر كيف تعملون، أو استدراج لكم، وزيادة في افتتانكم، ﴿ومتاعٌ إلى حين﴾ أي: تمتع لكم إلى حين موتكم؛ ليكون حجة عليكم، أو إلى أجل مقدر تقتضيه المشيئة المبنية على الحِكَم البالغة.

﴿قل(١) ربِّ احكُم بالحق﴾ أي: اقض بيننا وبين كفار مكة بالعدل، المقتضي لتعجيل العذاب. فهو كقول شعيب عليه السلام: ﴿ رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ ﴾(٢)، أو بما يحق عليهم من العذاب، واشدد عليهم، كقوله ﷺ: «اللَّهُمَّ اشْدُدْ وطأتَكَ علَى مُضَرَ»(٣)، وقد استجيب دعاؤه ـ عليه الصلاة والسلام ـ، حيث عُذبوا ببدر أيَّ تعذيب. وقرأ الكسائي وحفص: ﴿قال﴾؛ حكاية لدعائه ﷺ. ثم استعان بالله على إبطال ما كانوا يؤملون من النصرة لهم، وتكذيبهم في ذلك، فقال: ﴿وربُّنا الرحمنُ﴾؛ كثير الرحمة على عباده، ﴿المستعان على ما تصفون﴾ من كون الغلبة لكم. كانوا يصفون الحال على خلاف ما جرت عليه، وكانوا يطمعون أن تكون الشوكة والغلبة لهم، فكذب الله ظنونهم، وخيَّب آمالهم، وغيَّر أحوالهم، ونصر رسوله ﷺ عليهم، وخذلهم؛ لكفرهم. وبالله التوفيق.

الإشارة: قال الشيخ أبو العباس المرسي رضي الله عنه: الأنبياء ـ عليهم السلام ـ خُلقوا من الرحمة، ونبينا ﷺ هو عين الرحمة، قال تعالى: ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾ .هـ. وقال أيضا: الأنبياء ـ عليهم السلام ـ لأممهم صدقة، ونبينا ﷺ لنا هدية. قال ﷺ: «وأنا النعمة المهداة». فالصدقة للفقراء، والهدية للكبراء. ثم إن غاية الرحمة: الوصول إلى التوحيد الخاص؛ لأنه سبب الزلفى من الله والاختصاص، ولذلك أمره به، بعد أن جعله رحمة، فقال: ﴿قل إنما يُوحى إليَّ أنما إلهكم إله واحد ...﴾ إلخ. فمن أعرض عنه فقد أوذن بالبُعد والطرد. ولعل تأخير العقوبة عنه، في الدنيا، استدراج ومتاع إلى حين.

ثم إن الصارف عن الدخول إلى التوحيد الخاص ـ وهو توحيد العيان ـ: القواطع الأربع: النفس، والشيطان، والدنيا، والهوى. زاد بعضهم: الناس ـ أي: عوام الناس، فإذا حكم الله بين العبد وبين هذه القواطع، وصل إلى صريح المعرفة. ﴿قل ربِّ احكم بالحق﴾؛ أي: احكم بيني وبين عدوي بحكمك الحق، حتى تدفعه عني وتدمغه، ﴿وربنا الرحمن المستعان﴾ به ﴿على ما تصفون﴾ من التعويق والتشنيب. والله المستعان، وعليه أتوكل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

● ● ●

(١) قرأ حفص (قال) بصيغة الماضي ـ وقرأ الباقون (قل). انظر الإتحاف (٢/٢٦٨).
(٢) من الآية ٨٩ من سورة الأعراف.
(٣) جزء من حديث أخرجه البخاري في (الدعوات، باب الدعاء على المشركين بالهزيمة)، ومسلم في (المساجد، باب استحباب القنوت في جميع الصلاة) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

سورة الحج

مكية إلا ست آيات نزلت بالمدينة، وهي: ﴿هذان خصمان...﴾ إلى: ﴿صراط الحميد﴾. وهي ثمان وسبعون آية. ومناسبتها لِمَا قبلها: قوله: ﴿ وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴾(1) من قيام الساعة، وهي التي خوّف بها في قوله:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾ ﴾

قلت: زلزلة: مصدر مضاف إلى فاعله على المجاز، أو إلى الظرف، وهي الساعة. و(يوم): منصوب بتذهل.

يقول الحق جل جلاله: ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم﴾، الخطاب عام لجميع المكلفين ممن وُجد عند النزول، وينخرط في سلكهم من سيوجد إلى يوم القيامة. ولفظ «الناس» يشمل الذكور والإناث. والمأمور به مطلق التقوى، الذي هو امتثال الأوامر واجتناب النواهي ظاهراً وباطناً، والتعرض لعنوان الربوبية، مع إضافتها لضمير المخاطبين؛ لتأكيد الأمر، وتأكيد إيجاب الامتثال به؛ لأن الربوبية دائمة، والعبودية واجبة بدوامها، أي: احذروا عقوبة مالك أموركم ومربيكم.

ثم علل وجوب التقوى بذكر بعض عقوبته الهائلة عند قيام الساعة، فقال: ﴿إن زلزلة الساعة شيء عظيم﴾، فإن ملاحظة عظمها وهولها وفظاعة ما هي من مبادئه ومقدماته، مما يوجب مزيد اعتناء بملابسة التقوى والتدرع بها. والزلزلة: التحرك الشديد والإزعاج العنيف، بطريق التكرير، بحيث تزيل الأشياء من مقارها، وتخرجها عن مراكزها، وهي الزلزلة المذكورة في قوله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ الآية(2). واختُلِفَ في هذه الزلزلة وما ذكر بعدها، هل هي قيام الساعة عند نفخة الصعق، أو بعدها عند الحشر؟ فقال الحسن رضي الله عنه: إنها تكون يوم القيامة. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: زلزلة الساعة: قيامها. وعن علقمة والشعبي: أنها قبل طلوع الشمس من مغربها، فإضافتها إلى الساعة؛ لكونها من أشراطها. قال الكواشي: وهذه الزلزلة تكون قبل قيام الساعة

(1) من الآية 109 من سورة الأنبياء.

(2) الآية الأولى من سورة الزلزلة.

من أشراطها. قالوا: ومن أشراط الساعة، قبل قيامها، ست آيات: بينما الناس فى أسواقهم، إذ ذهب ضوء الشمس، ثم تناثرت النجوم، ثم وقعت الجبال على وجه الأرض، فتحركت واضطربت الأرض، ففزع الإنسُ والجن، وماج بعض فى بعض؛ خوفا ودهشاً، فقالت الجنُ للإنس : نحن نأتيكم بالخبر، فذهبوا، فرأوا البحار تأجّجُ ناراً، فبينما هم كذلك إذ تصدعت الأرض إلى الأرض السابعة، ثم جاءتهم الريح فماتوا. هـ.وانظر ابن عطية. قاله المحشى. والتحقيق: ما قدمناه عند قوله: ﴿ وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ ﴾(١)، وأنّ الريح إنما تقبض أرواح المؤمنين، وهذه الزلزلة إنما تقع عند نفخة الصعق. والله تعالى أعلم. وفى التعبير بـ(شيء عظيم) إيذان بأن العقول قاصرة عن إدراك كنهها، والعبارة ضيقة، لا تحيط بها إلا على وجه الإبهام

ثم هوّل شأنها، فقال: ﴿ يوم ترونها ﴾ أى: الزلزلة، وتُشاهدون هول مطلعها، ﴿ تذهل كل مرضعة ﴾ أى: مباشرة للإرضاع، ﴿ عما أرضعت ﴾ أى: تغفل وتغيب، من شدة الدهش عما هى بصدد إرضاعه من طفلها، الذى ألقمته ثديها. فالمرضعة، بالتاء، هى المباشرة الإرضاع بالفعل، والمرضع - بلا تاء - لمن شأنها ترضع، ولو لم تباشر الإرضاع. والتعبير عنه «بما»، دون «من»؛ لتأكيد الذهول، كأنها من شدة الهول لاتدرى من هو بخصوصه، وقيل: «ما» مصدرية، أى: تذهل عن إرضاعها. والأول أدل على شدة الهول وكمال الانزعاج.

﴿ وتضع كل ذات حمل حملها ﴾ أى: تلقى جنينها من غير تمام، كما أن المرضعة تذهل عن ولدها قبل الفطام. وهذا على قول من يقول: إنها قبل نفخة الصعق ظاهر، وأما على من يقول، إنها بعد قيام الساعة، فقد قيل: إنه تمثيل؛ لتهويل الأمر وشدته. ﴿ وترى الناس سُكارى ﴾ أى: وترى أيها الناظر الناس سكارى، على التشبيه، من شدة الهول، كأنهم سكارى لمّا شاهدوا بساط العزة وسلطنة القهرية، حتى قال كلُّ نبى: نفسى نفسى. ﴿ وما هم بسُكارى ﴾ على التحقيق، ﴿ ولكنَّ عذاب الله شديد ﴾، فخوف عذابه هو الذى أذهل عقولهم، وطيّر تمييزهم، وردهم فى حال من يَذهب السكرُ بعقله وتمييزه. وعن الحسن: وترى الناس سكارى من الخوف، وما هم بسكارى من الشراب. وقرئ: (سكْرى)؛ كعطشى. والمعنى واحد، غير أن فعْلى يختص بما فيه آفة، كجرحى وقتلى ومرضى. والله تعالى أعلم

الإشارة: يا أيها الناس اتقوا ربكم وتوجهوا إليه بكليتكم، حتى تُشرق على قلوبكم أنوار ربكم، فتزلزل أرض نفوسكم، وتدك جبال عقولكم، عند سطوع شمس العرفان، والاستشراف على مقام الإحسان. إن زلزلة الساعة، التى تشرف فيها على أسرار الذات، شيء عظيم. يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت، لو كانت أنثى،

(١) الآية ٩٧ من سورة الأنبياء.

وتضع كل ذات حمل حملها كذلك، أو تضع كل ذات حمل أثقالها؛ بالغيبة فى ربها، وترى الناس سكارى من خمر المحبة، وما هم بسكارى من شراب الدّوالى(١)، لكن من خمر الكبير المتعالى، كما قال الششترى فى الخمرة الأزلية ـ بعد كلام:

لاَ شَرَابَ الدّوالي؛ إنّهـــا أرْضيَّة خَمْرُهَا دُون خَمْرِي، خَمْرَتي أزَلِيّة.

ولكن عذاب الله ـ الذى قدمه قبل دخول جنته المعنوية وحفت به، وهى جنه المعارف ـ شديد، ولكنه يحلو فى جانب ما ينال بعده، كما قال الشاعر:

والنَّفْسُ عزّتْ، ولكنْ فيكَ أبْذُلُهَا والذُّلُّ مرٌّ، ولكن فى رضاكَ حَلاَ

يا من عذابى عَــذْبٌ فى محبته لاأشـــتكى منك لاصدًا ولا ملَلا.

ثم ذكر حال من أنكرها، (٢) ولم يتأهب للقائها، فقال:

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٤﴾ ﴾

قلت: (ومن الناس): خبر، و(من يجادل): مبتدأ، و(بغير علم): حال من ضمير «يُجادل»، و(أنه): نائب فاعل (كُتب)، أى: كتب عليه إضلال من تولاه، و(فأنه): من فتح: عنده خبرعن مبتدأ مضمر، أى: فشأنه أن يضله، والجملة جواب «مَن»، إن جعلتها شرطية، وخبر، إنْ جعلتها موصولة متضمنة لمعنى الشرط، ومن كسر: فخبر، أو جواب «مَن».

يقول الحق جل جلاله: ﴿ومن الناس من يُجادل﴾ ويخاصم ﴿في الله﴾ أى: فى شأنه، ويقول مالا يليق بجلال كبريائه وكمال قدرته، ملابساً ﴿بغير علم﴾، بل بجهل عظيم حمله على ما فعل. نزلت فى النضر ابن الحارث، وكان جدلاً، يقول: الملائكة بنات الله، والقرآن أساطير الأولين، ولا بعث بعد الموت، والله غير قادر على إحياء من بلِى وصار رميما(٣). وهى عامة له ولأضرابه من العتاة المتمردين، وكل من يخاصم فى الدين بالهوى. ﴿ويتّبعُ﴾ فى ذلك ﴿كلَّ شيطان مَرِيد﴾؛ عاتٍ متمرد، مستمر فى الشر. قال الزجاج: المريد والمارد: المرتفع الأملس، أى: الذى لا يتعلق به شيء من الخير، والمراد: إما رؤساء الكفرة الذين يدعونهم إلى الكفر، وإما إبليس وجنوده.

(١) أى : العنب. وراجع التعليق على إشارة الآية ٢١٩ من سورة البقرة. (٢) أى : الساعة.
(٣) ذكره البغوى فى تفسيره (٥/٣٦٥).

ثم وصف الشيطان المريد بقوله: ﴿ كُتِبَ عليه ﴾ أي: قضي على ذلك الشيطان ﴿ أنه ﴾ أي : الأمر والشأن ﴿ من تولاه ﴾ أي: اتخذه وليًا وتبعه، ﴿ فأنه ﴾ أي: الشيطان ﴿ يُضِلُّه ﴾ عن سواء السبيل، ﴿ ويهديه إلى عذاب السعير ﴾ أي: النار. والعياذ بالله.

الإشارة: ومِن الناس من تنكبت عنه سابقةُ الخصوصية، فجعل يجادل فى طريق الله، وينكر على المتوجهين إلى الله، إذا خرقوا عوائد أنفسهم، وسَدَّ الباب في وجوه عباد الله، فيقول: انقطعت التربية النبوية، وذلك منه بلا علْمٍ تحقيقٍ ولا حجةٍ ولا برهان، وإنما يتبع فى ذلك كُلَّ شيطانٍ مريد، سوَّل له ذلك وتبعه فيه. كُتب عليه أنه من تولاه، وتبعه في ذلك، فأنه يُضله عن طريق الخصوص، الذين فازوا بمشاهدة المحبوب، ويهديه إلى عذاب السعير، وهو غم الحجاب والحصر فى سجن الأكوان، وفى أسر نفسه وهيكل ذاته، عائذاً بالله من ذلك.

ثم برهن على قيام الساعة، التي خوَّفَ منها، ورد من يجادل فيها، فقال:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٧﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث﴾ أي: إن شككتم فى أمر البعث، فمُزيل ريبكم أن تنظروا فى بدء خلقكم، وقد كنتم فى الابتداء تُراباً وماء، وليس سبب إنكاركم البعث إلا هذا، وهو صيرورة الخلق ترابًا وماء، فكما بدأكم منه يعيدكم منه، كما قال تعالى: ﴿ فإنا خلقناكم ﴾ أي: أباكم ﴿ من تراب، ثم ﴾ خلقناكم ﴿ من نطفة ثم من علقة ﴾ أي: قطعة دم جامدة، ﴿ ثم من مضغة ﴾ أي: لحمة صغيرة، بقدر ما يمضغ، ﴿ مُخلَّقة ﴾ أي: مصورة الخلقة، ﴿ وغيرِ مُخلَّقة ﴾ أي: لم يتبين خلقها وصورتها بعدُ.

والمراد: تفصيل حال المضغة؛ من كونها أولاً مضغة، لم يظهر فيها شيء من الأعضاء، ثم ظهرت بعد ذلك شيئاً فشيئا. وكان مقتضى الترتيب أن يُقدم غيرالمخلقة على المخلقة، وإنما أُخرت عنها؛ لأنها عدم الملكة، والملكة أشرف من العدم.

وإنما فعلنا ذلك؛ ﴿ لنُبيّنَ لكم ﴾، بهذا التدريج، كمال قدرتنا وحكمتنا؛ لأن من قدر على خلق البشر من تراب أولاً، ثم من نطفة ثانياً، وقدر على أن يجعل النطفة علقةً، والعلقة مضغة، والمضغة عظاماً، قدر على إعادة ما بدأ، بل هو أهون في القياس ﴿ ونُقِرُّ ﴾ أي: نثبت ﴿ في الأرحام ما نشاء ﴾ ثبوته ﴿ إلى أجل مسمى ﴾: وقت الولادة، ومالم نشأ ثبوته أسقطته الأرحام. ﴿ ثم نُخرجُكم ﴾ من الرحم ﴿ طفلاً ﴾، أي: حال كونكم أطفالاً. والإفراد باعتبار كل واحد منهم، أو بإرادة الجنس، ﴿ ثم لتبلغوا أشدَّكم ﴾ أي: ثم نربيكم؛ لتبلغوا كمال عقلكم وقوتكم. والأشد: من ألفاظ الجموع التي لم يستعمل له واحد. ووقته: قيل: ثلاثون سنة، وقيل: أربعون.

﴿ ومنكم من يُتوفى ﴾ قبل بلوغ الأشد أو بعده، ﴿ ومنكم من يُردُّ إلى أرذل العُمُر ﴾ أي: أخسه، وهو الهرَمُ والخرف، ﴿ لكيلا يعلمَ من بعد علم شيئاً ﴾ أي: لكيلا يعلم شيئاً من بعد ما كان يعلمه من العلوم، مبالغة في انتقاص علمه، وانتكاس حاله، أي: ليعود إلى: ما كان عليه في أوان الطفولية، من ضعف البنية، وسخافة العقل، وقلة الفهم، فينسى ما علمه، وينكر ما عرفه، ويعجز عما قدر عليه. قال ابن عباس: من قرأ القرآن، وعمل به، لا يلحقه أرذل العمر. ثم ذكر دليلاً آخر على البعث، فقال: ﴿ وترى الأرضَ هامدةً ﴾: ميته يابسة، ﴿ فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت ﴾؛ تحركت بالنبات ﴿ وربَتْ ﴾؛ انتفخت ﴿ وأنبتتْ من كل زوج ﴾: صنف ﴿ بهيج ﴾: حسن رائق يسر ناظره.

﴿ ذلك بأن الله هو الحق ﴾ أي: ذلك الذي ذكرنا؛ من خلق بني آدم، وإحياء الأرض، مع ما في تضاعيف ذلك من أصناف الحِكم، حاصل بهذا، وهو أن الله هو الحق، أي: الثابت الوجود. هكذا للزمخشري ومن تبعه، وقال ابن جُزي: والظاهر: أن الباء ليست سببية، كما قال الزمخشري، وهو أيضا مقتضى تفسير ابن عطية، وإنما يُقدر لها فعل يتعلق به ويقتضيه المعنى، وذلك أن يكون التقدير: ذلك الذي تقدم من خلق الإنسان والنبات، شاهد بأن الله هو الحق، وبأنه يحيي الموتى ،وبأن الساعة آتية، فيصح عطف ﴿ وأن الساعة ﴾ على ما قبله، بهذا التقدير، وتكون هذه الأشياء المذكورة، بعد قوله: (ذلك)، مما استدل عليه بخلقة الإنسان والنبات. هـ.

قال المحشي الفاسي: ويرد عليه: أن تقديره عاملاً خاصاً يمنع حذفه، وإنما يحذف إذا كان كوناً مُطلقًا، فلا يقال: زيد في الدار، وتريد ضاحكٌ مثلا، إلا أن يقال في الآية: دل عليه السياق، فكأنه مذكور. وعند الكواشي:

ليعلموا بأن الله هو الحق. وقال القرطبي: قوله: ﴿ذلك بأن الله هو الحق﴾، لمّا ذِكر افتقار الموجودات إليه، وتسخيرها على وفق اقتداره واختياره، قال بعد ذلك: ﴿ذلك بأن الله هو الحق﴾، نبه بهذا على أن كل ما سواه، وإن كان موجوداً؛ فإنه لاحقيقة له من نفسه؛ لأنه مسخر ومُصَرَّفٌ، والحق الحقيقي هو الموجود المطلق، الغني المطلق، وإنّ وجود كل موجود من وجوب وجوده، ولهذا قال في آخر السورة: ﴿ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ ﴾(١)، والحق هو الوجود الثابت، الذي لا يزول ولا يتغير، وهو الله تعالى. ثم قال عن الزجاج: (ذلك) في موضع رفع، أي : الأمر ما وُصِفَ لكم وبُيِّن؛ لأن الله تعالى هو الحق، ويجوز كونه في مَوْضِعِ نصب، أي: فعل ذلك بأن الله هو الحق، قادر على ما أراد. هـ.

وذلك أيضا شاهد بأنه ﴿ يُحيي الموتى ﴾ كما أحيا الأرض، مرة بعد أخرى، ﴿ وأنه على كل شيء قدير ﴾ أي: مبالغ في القدرة، وإلاَّ لَمَا أوجد هذه الموجودات الفائتة الحصر. وتخصيص إحياء الموتى بالذكر، مع كونه من جملة الأشياء المقدور عليها؛ للتصريح بمافيه النزاع، وللطعن في نحور المنكرين. ﴿ وأنَّ الساعة آتيةٌ ﴾ : قادمة عليكم، ﴿ لاريبَ فيها ﴾ ، وإيثار اسم الفاعل على الفعل؛ للدلالة على تحقق إتيانها وتقريره ألْبَتَّةَ. ومعنى نفي الريب عنها: أنها، في ظهور أمرها ووضوح دلائلها، بحيث ليس فيها مظنة الريب، ﴿ وأنَّ الله يبعثُ من في القبور ﴾ ؛ لأنه تعالى حكم بذلك ووعد به، وهو لا يخلف الميعاد، والتعبير بـ (من في القبور): خرج مخرج الغالب، وإلاَّ فهو يبعث كل من يموت. والله تعالى أعلم وأحكم.

الإشارة: يا أيها الناس المنكرون لوجود التربية النبوية، وظهور أهل الخصوصية في زمانهم، الذين يحيي الله الأرواح الميتة، بالجهل والغفلة، على أيديهم؛ إن كنتم في ريب من هذا البعث فانظروا إلى أصل نشأتكم وتنقلات أطواركم، فمن فعل ذلك وقدر عليه، قدر أن يحيي النفوس الميتة بالغفلة في كل زمان. وفي الحِكَم: «من استغرب أن ينقذه الله من شهوته، وأن يُخرجه من وجود غفلته، فقد استعجز القدرة الإلهية، وكان الله على كل شيء مقتدرا». وجرت عادته أنه لا يحييها في الغالب إلا على أيدي أهل الخصوصية. وترى أرض النفوس هامدة ميتة بالغفلة، فإذا أنزلنا عليها ماء الحياة، وهي الواردات الإلهية، وأسقيناها الخمرة القدسية، اهتزت فرحاً بالله، وربت، وارتفعت بالعلم بالله، وأنبتت من أصناف العلوم والحكم، ما تَبَهَّجُ منه العقول، ذلك شاهد بوحدانية الحق، وأن ما سواه باطل. وبالله التوفيق.

---

(١) من الآية ٦٢ من سورة الحج.

ثم ذكر نوعاً آخر من أهل الإنكار والجدل، فقال:

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾ ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٩﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ومن النـاس من يُجادل في الله ﴾ أى: فى شـأنه ،فيصفه بغير ما هو أهله، وهو أبو جهل، كما قال ابن عباس رضي الله عنه، وقيل: هو من يتصدى لإضـلال الناس، كائناً من كان. حال كونه ﴿ بغير علم ﴾، بل بجهل وهوىً. والمراد بالعلم: الضرورى، كما أن المراد بالهدى فى قوله: ﴿ ولا هُدى ﴾: هو الاستدلال والنظر الصحيح، الهادى إلى المعرفة. ﴿ ولا كتاب منير ﴾ أى: وحي يستند إليه، والحجة إنما تقوم بأحد هذه الثلاثة، أى: يجادل فى شأنه تعالى، من غير تمسك بمقدمة ضرورية، ولا بحجة نظرية، ولا ببرهان سمعى.

حال كونه ﴿ ثاني عِطْفِه ﴾ أى: لاوياً عُنُقَهُ عن طاعة الله؛ كبراً وعتواً، أو عاطفاً بجانبه، وطاوياً كَشْحَهُ(١)، معرضاً متكبراً، فثنْى العطف كناية عن التكبر. وقرأ الحسن بفتح العين، أى: مانعاً تعطفه على المساكين؛ قسوةً. فعل ذلك الجدال ﴿ ليُضلَّ عن سبيل الله ﴾ أى: ليضل الناس عن سبيل الله؛ فإنْ غرضه بالمجادلة إضلال المؤمنين، أو جميع الناس، وقرأ المكى وأبو عمر: بفتح الياء، أى: ليصير ضالاً عن سبيل الله. وجعل ضلاله غاية لجداله، من حيث إن المراد به الضلال المبين، الذى لاهداية بعده، مع تمكنه منها قبل ذلك، أى: ليرسخ فى الضلالة أىّ رسوخ، ﴿ له في الدنيا خزيٌ ﴾: هوان وذُل، وهو القتل يوم بدر، وهو بيانُ نتيجة ما سلكه من الطريقة، أى: يثبت له، بسبب ما فعل، خزى وصغار، وهو ما أصابه ببدر، ﴿ ونُذيقه يومَ القيامة عذابَ الحريق ﴾ أى: النار المحرقة.

﴿ ذلك ﴾ أى: ما ذكر من العذاب الدنيوى والأخروى. وما فى الإشارة من البُعد؛ للإيذان بكونه فى الغاية القاصية من الهول والفظاعة، أى: ذلك العذاب الهائل ﴿ بما قدمتْ يداك ﴾ أى: بسبب ما اقترفْتَهُ من الكفر والمعاصى. وإسناده إلى يديه؛ لأن الاكتساب فى الغالب بهما. والالتفات؛ لتأكيد الوعيد وتشديد التهديد. أو يقال له يوم القيامه: ﴿ ذلك بما قدمت يداك وأنَّ الله ليس بظلاَّم للعبيد ﴾، فلا يأخذ أحداً بغير ذنب ولا بذنب غيره. وهو خبر عن مضمر، أى: والأمر أنَّ الله ليس بمعذبٍ لعبيده بغير ذنب، وأما عطفه على «بما» فغير سديد، ولفظ المبالغة؛ لاقترانه بلفظ الجمع فى العبيد، ولأن قليل الظلم منه، مع علمه بقبحه واستغنائه عنه، كالكثير منا. قاله النسفى.

---

(١) الكَشْح: الخَصْر.

وقيل: «ظلام» : بمعنى: ذى ظلم، فتكون الصيغة للنَّسَب. والتعبير عن ذلك بنفى الظلم، مع أن تعذيبهم بغير ذنب، ليس بظلم قطعًا، على ماتقرر فى مذهب أهل السنة، فضلاً عن كونه ظلمًا بالغاً؛ لأن الحق تعالى إنما يُظهر لنا كمال العدل، وغاية التنزيه، وإن كان فى نفس الأمر جائز أن يعذب عباده بلا ذنب، ولا يسمى ظلماً؛ لأنه تصرف فى ملكه، لكنه تعالى لم يظهر لنا فى عالم الشهادة إلا كمال العدل. والله تعالى أعلم.

الإشارة: من يخاصم فى طريق القوم، وينفيها عن أهلها، إما أن يكون تقليداً، وهو ما تقدم، أو يكون تكبراً وعتواً، بحيث لم يرض أن يحط رأسه لهم، وهو ما أشير إليه هنا. ولا شك أن المتكبر لابد أن يلحقه ذل، ولو عند الموت. ويوم القيامة يُحشر صاغراً كالذر، كما فى الحديث. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر حال المذبذبين، بعد ذكر حال المجادلين المصمِّمين، فقال:

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١١﴾ يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنفَعُهُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدْعُو لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ ۚ لَبِئْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ ﴿١٣﴾ ﴾

قلت: (لَمَن ضره) : قال ابن عطية: جرى فيه إشكال؛ وهو دخول اللام على «مَنْ» ، وهو فى الظاهر مفعول، واللام لا تدخل على المفعول. وأجيب بثلاثة أوجه؛ أحدها: أن اللام متقدمة على موضعها، والأصل أن يقال: يدعو مَنْ لَضَرُّهُ أقرب، فموضعها الدخول على المبتدأ، وثانيها: أنّ «يدعو» تأكيد ليدعو الأول، وتم الكلام عنده، ثم ابتدأ قوله: (لَمَن ضره) ، فمن مبتدأ، وخبره: (لبئس المولى) - قلت: وإياه اعتمد الهبطى فى وقفه، وثالثها: أن معنى «يدعو» : يقول يوم القيامة هذا الكلام، إذا رأى مضرة الأصنام، فدخلت اللام على مبتدأ فى أول الكلام.هـ.

قلت: والأقرب ما قاله الزجاج، وهو: أن مفعول (يدعو) محذوف، ويكون ضميراً يعود على الضلال، وجملة: (يدعو) : حال، والمعنى: ذلك هو الضلال البعيد يدعوه، أى: حال كونه مدعوا له، ويكون قوله: (لمن ضره) مستأنفاً مبتدأ، خبره: «لبئس المولى» . نقله المحشي. وحكم المحلى بزيادة اللام.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ومن الناس من يعبد الله على حَرْفٍ﴾ أى: على طرف من الدين لاثبات له فيه، كالذى ينحرف إلى طرف الجيش، فإن أحس بظفر قرّ، وإلا فر. وفى البخارى عن ابن عباس: «كان الرجل

يَقدمُ المدينة، فإن ولدت امرأتُهُ غلاماً ونُتجتْ خيْلُه، قال: هذا دينٌ صالح، وإن لم تَلِد إمرأته، ولم تنتج خيلُه، قال: هذا الدين سُوء»(١). وكأن الحق تعالى سلك فى الآية مسلك التدلى، بدأ بالكافر المصمم، يجادل جدالاً مجملاً، يتبع فيه كل شيطان مريد. والثاني: مقلد مجادل، من غير دليل ولا برهان، والثالث: كافر أسلم إسلاماً ضعيفاً. ثم قابل الأقسام الثلاثة بضدهم، بقوله: ﴿إن الله يدخل الذين آمنوا...﴾الآية

ثم كمَّل حال المذبذب بقوله: ﴿ فإن أصابه خيرٌ ﴾ أي: دنيوي؛ من الصحة فى البدن، والسعة فى المعيشة، ﴿ اطمأن به ﴾ أي: ثبت على ما كان عليــه ظاهراً، لا أنه اطمــأن به اطمئنان المؤمنين، الذين لا يلويهم عنه صــارف، ولايثنيهم عنه عاطف. ﴿ وإن أصابته فتنةٌ ﴾ : بلاء فى جسده، وضيق فى معيشته ، أو شيء يفتتن به، من مكروه يعتريه في بدنه أو أهله أو ماله، ﴿ انقلب على وجهه ﴾ أي: ارتد ورجع إلى الكفر، كأنه تنكس بوجهه إلى أسفل. أو انقلب على جهتـه التى كان عليها. وتقدم عن ابن عـباس أنهـا نزلت فى أعـاريب قدمـوا المدينة، مهاجرين، فكان أحدهم إذا صحَّ بدنه ونـتجتْ فَرَسُهُ مُهْراً سريا، وولدت امرأته غلامًا سويًا، وكثُرَ مالُه وماشيته، قال: ما أصبتُ، مذ دخلت في ديني هذا، إلا خيراً، واطمأن، وإن كان الأمر خلافه، قال: ما أصبتُ إلاشراً، وانقلب عن دينه. وعن أبى سعيد رضي الله عنه : أنَّ يهودياً أَسْلَمَ فَأَصابَتْهُ مَصَائبُ، وتَشَاءمَ بالإِسْلامِ، فأَتَى النَّبى ﷺ فقَال: أَقِلْنِي، فقال: «إنَّ الإسْلاَمْ لا يُقالُ»، فنَزَلت(٢).

﴿ خسر الدنيا والآخرة ﴾ : فقدهما، وضيعهما؛ بذهاب عصمته، وحبوط عمله بالارتداد. وقرأ يعقوب: خاسر، على الحال. ﴿ ذلك هو الخسران المبين ﴾؛ الواضح، الذى لا يخفى على أحد أنه لاخسران مثله.

ثم بيَّن وجه خسرانه بقوله: ﴿ يدعو ﴾ أي: يعبد ﴿ من دون الله ﴾ أي: متجاوزاً عنه تعالى، ﴿ مالا يضرُّه ﴾ إذا لم يعبده، ﴿ وما لا ينفعه ﴾ إذا عبده. ﴿ ذلك ﴾ الدعاء ﴿ هو الضلالُ البعيد ﴾ أي: التلف البعيد عن الحق.

﴿ يدعو ﴾ أي: يعبد ﴿ لَمَن ضرُّهُ ﴾ أي : الصنم الجامد الذى ضرره ﴿ أقربُ من نفعه ﴾. وقرأ ابن مسعود: «يدعو من ضره» ، بحذف اللام. أو: ذلك هو الضلال البعيد يدعوه هذا المذبذب المنقلب على وجهه. قال ابن جزي: وهنا إشكال: وهو أنه تعالى وصف الأصنام بأنها لاتضر ولا تنفع، ثم وصفها بأن ضررها أكثر من نفعها، فنفى الضر ثم أثبته؟ والجواب : أن الضر المنفى أولاً يُراد به ما يكون من فعلها، وهى لاتفعل شيئاً، والضر الثانى، الذى أثبتـه لهـا، يُراد به مـا يكون بسـبـبهـا من العـذاب وغيـره. هـ . ﴿ لبئس المولى ﴾ أي: الناصر، ﴿ ولبئس العشيرُ ﴾ أي: الصاحب. أو: يدعو ويصرخ يوم القيامة، حين يرى استضراره بالأصنام، ولا يرى لها أثر الشفاعة، ويقول لِمَنْ ضره أقرب من نفعه: لبئس المولى هو ولبئس العشير. والله تعالى أعلم.

(١) أخرجه البخارى فى (التفسير، سورة الحج) عن ابن عباس رضي الله عنه .
(٢) ذكره الواحدي فى الأسباب (٣١٧)، بدون إسناد، عن عطية العوفى عن أبى سعيد الخدرى.

الإشارة: ومن الناس من يعبد الله على حرف؛ على طرف من الدين، غير متمكن فيه، فإنه أصابه خير، وهو ماتُسر به النفس من أنواع الجمال، اطمأن به، وإن أصابته فتنة، وهو ما يؤلم النفس وينغص عليها مرادها وشهوتها من أنواع الجلال، انقلب على وجهه. أوْ: ومن الناس من يعبد الله على طمع في الجزاء الدنيوى أو الأخروى، فإن أصابه خير فرح واطمأن به، وإن أصابته فتنة سخط وقنط وانقلب على وجهه. أو: ومن الناس من يعبد الله ويسير إليه على حرف، أى: حالة واحدة، فإن أصابه خير؛ كقوة ونشاط وورود حال؛ اطمأن به وفرح، وإن أصابته فتنة؛ كضعف وكسل وذهاب حال، انقلب على وجهه، ورجع إلى العمومية، أو وقف عن السير، خسر الدنيا والآخرة. خسران الدنيا: ما يفوته من عز الله ونصره لأوليائه، وحلاوة برد الرضا والتسليم، ولذيذ مشاهدته. وخسران الآخرة: ما يفوته من درجة المقربين، ودوام شهود رب العالمين. فالواجب على العبد أن يكون عبداً لله فى جميع الحالات، لا يختار لنفسه حالاً على حال، ولا يقف مع مقام ولا حال، بل يتبع رياح القضاء، ويدور معها حيث دارت، ويسير إلى الله فى الضعف والقوة.

قال بعضهم: سيروا إلى الله عَرْجَى ومكاسير. وفى الحكم: «إلهى؛ قد علمتُ، باختلاف الآثار وتنقلات الأطوار، أن مرادك منى أن تتعرف إلىّ فى كل شيء، حتى لا أجهلك فى شيء». وقال أيضا: «لا تطلبن بقاء الواردات، بعد أن بسطت أنوارها، وأودعت أسرارها، فلك فى الله غنى عن كل شيء، وليس يغنيك عنه شيء». فكن عبد المحوِّل، ولا تكن عبد الحال، فالحال تَحُولُ وتتغير، والله تعالى لا يحول ولا يزول، فكن عبداً لله، ولا تكن عبداً لغيره.

لِكُلِّ شَيْءٍ، إن فارقْتَهُ، عِوَضٌ وَلَيْسَ لله، إنْ فَارقْتَ مِنْ عِوَضِ

ثم شفع الحق تعالى بضد ماذكره قبلُ، فقال:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿إن الله يُدخلُ الذين آمنوا﴾، وتمكنوا من الإيمان، وعبدوا الله وحده فى جميع الحالات، ولم يعبدوه على حرف، ﴿وعملوا﴾ الأعمال ﴿الصالحات﴾، ﴿جناتٍ تجري من تحتها﴾ أى: من تحت قصورها ﴿الأنهارُ﴾ الأربعة. وهذا بيان حال المؤمنين العابدين له تعالى فى جميع الحالات، وأنّ الله تفضل عليهم، بما لاغاية وراءه، إثر بيان سوء حال الكفرة، من المجاهرين والمذبذبين، وأنّ معبودهم لا ينفعهم،

بل يضرهم مضرة عظيمة. ثم قال تعالى: ﴿ إن الله يفعل ما يريد ﴾ من الأفعال المتقنة، المبنية على الحِكَم البالغة الرائقة، التي من جملتها: إثابة من آمن به، وصدّق رسوله، وعبده على كل حال، وعقابُ من أشرك به، وكذب رسول الله، أوعبده على حرف. وبالله التوفيق.

الإشارة: إن الله يُدخل الذين آمنوا، واطمأنوا به، وعبدوه فى جميع الحالات، وقاموا بعمل العبودية فى كل الأوقات، جنات المعارف، تجرى من تحتها أنهار العلوم والحكم، إن الله يفعل ما يريد؛ فيقرب هذا، ويُبعد هذا، بلا سبب؛ «جَلّ حُكْمُ الأزلِ أن يُضَافَ إلى العِلَلِ». وبالله التوفيق.

ولمّا كان نفوذ هذا الوعيد فى المشركين، وإنجاز وعد المؤمنين؛ تصديقاً لرسوله ﷺ، ونصرة له، ذكر حال من غاظه ذلك وكرهه، فقال:

﴿ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: لا تظنوا أن الله غير ناصر لرسوله ﷺ؛ بل هو ناصر له فى الدنيا والآخرة لامحالة، فمن كان ﴿ يظن أن لن ينصرهُ الله في الدنيا والآخرة ﴾، ويغيظه ذلك من أعاديه وحُساده، ويفعل ما يدفع ذلك؛ من الخدع والمكائد، فليبالغ فى استفراغ المجهود، وليجاوز كل حد معهود، فعاقبة أمره أن يختنق خنقاً من ضلال مساعيه، وعدم إنتاج مقدماته ومبادئه. ﴿ فليمدد بسبب إلى السماء ﴾ أى: فليمدُد حبلاً إلى سقف بيته، ﴿ ثم ليقطع ﴾ أى: ليختنق، من قَطَعَ: إذا اختنق؛ لأنه يقطع نفَسَه بحبس مجاريه. أو: ليقطع من الأرض، بعد ربط الحبل فى العنق وربطه فى السقف.

﴿ فلينظر هل يُذهِبَنّ كيدُه ﴾ أى: فليصور فى نفسه أنه إن فعل ذلك؛ هل يذهب نصر الله الذى يغيظه بسبب فعله، وسمى فعله كيداً، على سبيل الاستهزاء؛ لأنه لم يكدْ به محسوده، إنما كاد به نفسه. والمراد: ليس فى يده إلا ماليْس بمُذهب لما يغيظه، فتَحَصَّلَ أن الضمير فى (ينصره) يعود على النبى ﷺ، وإن لم يتقدم ذكره صراحة، لكنه معهود؛ إذ الوحى إنما ينزل عليه. وقيل: يعود على «مَن» ، والمعنى على هذا: من ظن - بسبب ضيق صدره، وكثرة غمه - أن لن ينصره الله، فليختنق وليمت بغيظه، فإنه لا يقدر على غير ذلك، فموجب الاختناق، على هذا ، القنوطُ والسخط من القضاء، وسوء الظن بالله تعالى، حتى يئس من نصره.

قال ابن جزى: وهذا القول أرجح من الأول؛ لوجهين: أحدهما: أن هذا القول مناسب لمن يعبد الله على حرف؛ لأنه، إذا أصابته فتنة، انقلب وقنط، حتى ظنّ أن لن ينصره الله. ويؤيده من فسّر (أن لن ينصره الله) أى: لن يرزقه؛ إذ لا خير فى حياة تخلو من عون الله عز وجل، فيكون الكلام، على هذا، متصلاً بما قبله. ويؤيده أيضا: قوله تعالى، قبله: ﴿إن الله يفعل ما يريد﴾ أى: الأمور بيد الله، فلا ينبغى لأحد أن يسخط من قضاء الله، ولا ينقلب إذا أصابته فتنة، والوجه الثانى: أن الضمير فى «ينصره» ، على هذا، يعود على ما تقدّمه ذكر، دون الأول. هـ. وانظر ابن عطية والكواشى، ففيهما ما يدفع درك ابن جزى، ورده للأول، بما فى سبب الآية ونزولها من المناسبة.

ثم قال تعالى: ﴿وكذلك أنزلناه آيات﴾ أى: ومثل ذلك الإنزال البديع، المنطوى على الحكَم البالغة، أنزلناه، أى: القرآن الكريم كله، حال كونه ﴿آيات بينات﴾: واضحات الدلالة على معانيها الرائقة، ﴿وأن الله يهدي به * من يريد﴾ هدايته؛ ابتداء، أو يثبته على الهدى دواماً، ومحل «أن» : إما الجار، أى: ولأن الله يهدى، أو الرفع، أى: والأمر أن الله يهدى من يريد.

الإشارة: من غلبته نفسُه، وملكته وأسرته فى يدها؛ فدواؤه: الفزع إلى الله، والاضطرار إليه آناء الليل والنهار، والمنهاج الواضح فى علاجها وقهرِها: هو الفزع إلى أولياء الله، العارفين به، الذين سلكوا طريق التربية على يد شيخ كامل، فإذا ظفر بهم، فليلزم صحبتهم، وليتبع طريقهم، وليسارِع إلى فعل كل ما يشيرون به إليه، من غير تردد ولا توقف، فهِم معناه، شرعاً، أم لا، فلا شك أن الله ينصره ويؤيده، ويظفر بنفسه فى أسرع مدة. وليس الخبر كالعيان، وجرِّبْ.. ففى التجريب علم الحقائق، وكذلك من ابتلى بالوسواس وخواطر السوء فى أمر التوحيد، فليفزع إليهم، حتى يقلعوا من قلبه عروق الشكوك والأوهام، وتذهب عنه الأمراض والأسقام، بإشراق شمس العرفان على قلبه، ويفضى إلى طريق الذوق والوجدان، وغير هذا عناء وتعب، ولو فرض أنه يسكن عنه ذلك، فلا يذهب عنه بالكلية، فربما يهيج عليه فى وقت الضعف عند الموت، فلا يستطيع دفعه، فيلقى الله بقلب سقيم. والعياذ بالله.

فإن قلت: هذا الذى دللتنى عليه عزيز غريب، فقد دللتنى على عنقاء مغرب؟ قلت: والله، إن حسنت الظن بالله وبعباد الله، واضطررت إليه اضطرار الظمآن إلى الماء، لوجدته أقرب إليك من كل شىء. والله، لقد وجدناهم وظفرنا بهم، على مناهج الجنيد وأضرابه، يغنون بالنظر، ويسيرون بالمريد حتى يقول له: ها أنت وربك. والمنة لله. فمن ترك ما قلنا له، وآيس من الدواء، وظن أن لن ينصره الله فى الدنيا والآخرة، فليمت غيظاً وقنطا، فلا يضر إلا نفسه؛ لأن الله يهدى من يريد، فيوفقه للدواء، ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئا. وبالله التوفيق.

ثم ذكر مآل من آمن بالقرآن، الذى هو آيات بينات، ومآل من أعرض عنه، فقال:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّـٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾ ﴾

قلت : إنّ ﴿ الله يفصل﴾ : خبر «إنّ» الأولى.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ إن الذين آمنوا ﴾ بما ذكر من الآيات البينات، أو بكل ما يجب الإيمان به - فيدخل ما ذكر دخولاً أولياً - أي: آمنوا بذلك، بهداية الله وإرادته، ﴿ والذين هادوا والصابئين ﴾، وهم قوم من النصارى، اعتزلوهم، ولبسوا المسوح، وقيل: أخذوا من دين النصارى شيئاً، ومن دين اليهود شيئا، وهم القائلون بأن للعالم أصلين: نوراً وظلمة، ويعتقدون تأثير النجوم. ﴿ والمجوس ﴾ وهم الذين يعبدون النار، ويقولون: إن الخير من النور، والشرمن الظلمة، ﴿ والذين أشركوا ﴾، وهم عبدة الأصنام؛ من العرب وغيرهم، فهذه ستة أديان، خمسة للشيطان، وواحد للرحمن. ﴿ إن الله يفصِلُ بينهم يوم القيامة ﴾؛ في الأحوال و الأماكن، فلا يجازيهم جزاء واحدا، ولا يجمعهم في موطن واحد. أو يحكم بين المؤمنين، وبين الفرق الخمسة المتفقة على ملة الكفر، بإظهار المحق من المبطل، فيُكْرِم المحق ويهين المبطل، ﴿ إن الله على كل شيء شهيد ﴾ أي: عالم بكل شيء، مراقب لأحواله، حافظ له، مطلع على سره وعقده. ومن قضية الإحاطة بتفاصيل كل فرد من أفراد الفرق المذكورة: إجراء جزائه اللائق عليه، وهو أبلغ وعيد. والله تعالى أعلم.

الإشارة: كما يفصل اللهُ يوم القيامة بين الملل المستقيمة والفاسدة؛ يفصل أيضا بين أرباب القلوب المستقيمة الصحيحة المعمورة بنور الله، وبين أرباب القلوب السقيمة الخارية من النور، المعمورة بالظلمة من الوساوس والخواطر، فيرفع الأولين مع المقربين الصديقين، ويسقط الآخرين في أسفل سافلين، أو مع عامة أهل اليمين. وبالله التوفيق.

ثم برهنَ على كونه شهيداً على الأشياء؛ بسجودها له، وخضوعها من هيبته، فقال:

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ (١٨) ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ألم ترَ ﴾، أيها السامع، أو من يتأتى منه الرؤية، أي: رؤية علم واستبصار، أو: يا محمد، علماً يقوم مقام العيان، ﴿ أنّ الله يسجد له ﴾ أي: ينقاد إليه انقياداً تامّاً ﴿ من في السموات ﴾ من الملائكة، ﴿ ومن في الأرض ﴾ من الإنس والجن والملائكة. ويحتمل أن تكون «من» : عامة للعاقل وغيره،

فيدخل كل ما في السموات من عجائب المصنوعات، وكل ما في الأرض من أنواع المخلوقات. ويكون قوله: ﴿والشمسُ والقمرُ والنجومُ والجبالُ والشجرُ والدوابُّ﴾، من عطف الخاص على العام؛ لاستبعاد ذلك منها عادة.. ويُحتمل أن يكون السجود على حقيقته، ولكن لا نفقه ذلك، كما لا نفقه تسبيحهم.

ونقل الكواشي عن أبي العالية: (ما في السماء نجم، ولا شمس، ولا قمر، إلا يقع ساجدا حين تغيب، ثم لا ينصرف حتى يُؤذن له). وذكر في صحيح البخاري: «أن الشمس لا تطلع حتى تسجد وتستأذن»(١). وقال مجاهد: (سجود الجبال والشجر والدواب: تَحَوُّلُ ظِلالِها). أو سجودُها: طاعتها؛ فإنه ما من جماد إلا وهو مطيع لله تعالى، خاشع، يُسبح له. شبّه طاعتها له وانقيادها لأمره بسجود المكلف الذي كلٌّ خضوعٍ دونه.

﴿وكثيرٌ من الناس﴾ يسجد لله تعالى سجود طاعة وعبادة ﴿وكثيرٌ حقَّ عليه العذابُ﴾؛ حيث امتنع من هذا السجود، الذي هو سجود عبادة؛ لكفره وعتوه. قال ابن عرفة: قوله: «وكثير»: يحتمل كونه مبتدأ، ويكون في الآية حذف المقابل، أي: وكثير من الناس مثاب، وكثير حق عليه العذاب. فلا يرد سؤال الزمخشري. هـ. وقدّره غيرُه: وكثير من الناس يسجدون، وكثير يأبى السجود؛ فحق عليه العذاب. وقيل: وكثير حق عليه العذاب بإنكاره النبوة، وإن سجد للصانع؛ كالفلاسفة واليهود والنصارى. هـ.

﴿ومن يُهِنِ اللهُ﴾؛ بأن صرفته الشقاوة عن الانقياد لأمره الشرعي، ﴿فما له من مُكرِمٍ﴾ بالسعادة، أو يوم القيامة، بل يذل ويهان، ﴿إن الله يفعل ما يشاء﴾ في ملكه؛ يُكرم من يشاء بفضله، ويُهين من يشاء بعدله، لا معقب لحكمه. اللهم أكرمنا بطاعتك ومحبتك، واجعلنا منقادين لأمرك وحكمك، ونعّمنا بحلاوة شهودك ومعرفتك، إنك على كل شيء قدير. هكذا يُدعى في هذه السجدة. وبالله التوفيق.

الإشارة: قد تجلى الحق جل جلاله بأسرار ذاته لباطن الأشياء، وبأنوار صفاته لظاهرها، فتعرف لكل شيء بأسرار ذاته وأنوار صفاته، فعرفه كلُّ شيء، ولذلك سجد له وسبح بحمده. وفي الحِكَم: «أنت الذي تَعَرَّفْتَ لكل شيء، فما جَهِلَكَ شيءٌ». فظواهر الأواني ساجدة لأسرار المعاني، وخاضعة للكبير المتعالي، ولايفقه هذا إلا من خاض بحر المعاني، ولم يقف مع حس الأواني، ولم يمتنع من الانقياد والخضوع لجلال الحق وكبريائه في الظاهر والباطن، إلا من أهانه الله من عُصاة بني آدم. ومن يُهن الله فماله من مكرم، إن الله يفعل ما يشاء.

(١) أخرج البخاري في (التوحيد باب: وكان عرشه على الماء)، ومسلم في (الإيمان، باب: الزمن الذي لا يقبل فيه الإيمان)، عن أبي ذر قال: دخلت المسجد، ورسول الله ﷺ جالس، فلما غابت الشمس قال: «يا أبا ذر؛ تدري أين تذهب هذه؟»، قال: قلت: الله ورسوله أعلم، قال: فإنها تذهب، وتستأذن في السجود، فيؤذن لها...» الحديث.

ثم بيّن الفصل، الذى يفصل به يوم القيامة بين المؤمنين والكفرة بفرقها الخمس، فقال:

﴿ ۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾ وَهُدُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾ ﴾

قلت : ﴿خصمان﴾: صفة لمحذوف، أى: فريقان خصمان، والمراد: فريق المؤمنين، وفريق الكفرة بأقسامه الخمسة. وقيل: اسم يقع على الواحد والاثنين والجماعة، والمراد هنا: الجماعة، بدليل قوله: (اختصموا)؛ بالجمع.

يقول الحق جل جلاله: ﴿هذان خصمان﴾ أى: مختصمان ﴿اختصموا﴾ أى: فريق المؤمنين والكافرين. وقال ابن عباس رضي الله عنه : (راجع إلى أهل الأديان المذكورة)؛ فالمؤمنون خصمٌ، وسائرُ الخمسة خصمٌ، تخاصموا ﴿في ربهم﴾ أى: فى شأنه تعالى، أو فى دينه، أو فى ذاته وصفاته. والكل من شؤونه تعالى، فكل فريق يصحح اعتقاده، ويُبطل اعتقاد خصمه. وقيل: تخاصمت اليهود والمؤمنون؛ فقالت اليهودُ: نحن أحق بالله وأقدمُ منكم كتاباً، ونبينا قبل نبيكم. وقال المؤمنون: نحن أحقُّ بالله منكم، آمنا بنبينا ونبيكم، وبما أنزل الله من كتاب، وأنتم تعرفون كتابنا ونبينا، ثم كفرتم به؛ حسداً[1] . وكان أبو ذر يُقسِم أنها نزلَتْ فى ستة نفر من قريش، تبارَزوا يوم بَدر؛ حمزةُ وعليٌّ، وعبيدة بن الحارث، مع عتبة، وشيبه ابنى ربيعةَ، والوليدُ[2] . وقال علىّ رضي الله عنه : إنى لأوّلُ من يجثو بين يدَي الله يومَ القيامة؛ للخُصومة[3] . هـ.

---

(١) أخرجه الطبرى فى التفسير (١٧/١٣٢) عن ابن عباس رضي الله عنه .

(٢) أخرجه البخارى فى (المغازى باب قتل أبى جهل)، وفى (تفسير سورة الحج.، باب هذان خصمان اختصموا فى ربهم)، ومسلم فى (التفسير، باب فى قوله تعالى: ﴿هذان خصمان اختصموا فى ربهم﴾).

(٣) أخرجه البخارى فى الموضعين السابق ذكرهما، وفى التفسير، عن قيس بن عبادة، عن سيدنا علىّ. كرم الله وجهه.

ثم بيّن الفصل بينهم، المذكور في قوله: ﴿إن الله يفصل بينهم يوم القيامة﴾، فقال: ﴿فالذين كفروا﴾ بما أنزل على محمد ﷺ، ﴿قُطّعت لهم ثيابٌ من نار﴾ أي: فصّلت وقُدرت على مقادير جثثهم، تشتمل عليهم، كما تقطع الثياب للبوس. وعبّر بالماضي؛ لتحقق وقوعه. ﴿يُصَبُّ من فوق رؤوسهم الحميمُ﴾ أي: الماء الحار. عن ابن عباس رضي الله عنه: «لو سقطت منه نقطة على الجبال الدنيا لأذابتها». ﴿يُصهَرُ﴾: يُذاب ﴿به﴾ أي: بالحميم، ﴿ما في بطونهم﴾ من الأمعاء والأحشاء، ﴿والجلودُ﴾ تُذاب أيضاً، فيُؤثر في الظاهر والباطن، كلما نضجت جلودهم بُدلت. وتقديم ما في الباطن؛ للإيذان بأن تأثيرها في الباطن أقوى من تأثيرها في الظاهر، مع أن ملابستها على العكس.

﴿ولهم مقامعُ من حديد﴾ أي: ولتعذيب الكفرة، أو لأجلهم، مقامع: جمع مِقمعة، وهي آلة القمع، أي: سياط من حديد، يُضربون بها. ﴿كلما أرادوا أن يخرجوا منها﴾ أي: أشرفوا على الخروج من النار، ودنوا منه، حسبما رُوي: أنها تضربهم بلهبها فترفعهم، حتى إذا كانوا بأعلاها ضُربوا بالمقامع، فَهَوَوْا فيها سبعين خريفا. وقوله: ﴿من غمّ﴾: بدل اشتمال من ضمير (منها)؛ بإعادة الجار، والعائد: محذوف، أي: كلما أرادوا أن يخرجوا من غم شديد من غمومها ﴿أُعيدوا فيها﴾ أي: في قعرها، بأن رُدوا من أعاليها إلى أسافلها، من غير أن يخرجوا منها، ﴿و﴾ قيل لهم: ﴿ذُوقوا عذابَ الحريق﴾ أي: الغليظ من النار، العظيم الإحراق.

ثم ذكر جزاء الخصم الآخر، وهم أهل الحق، فقال: ﴿إن الله يُدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار﴾، وغيّر الأسلوب فيه، بإسناد الإدخال إلى الله عز وجل، وتصدير الجملة بحرف التأكيد؛ إيذاناً بكمال مباينة حالهم لحال الكفرة، وإظهاراً لمزيد العناية بحال المؤمنين، ﴿يُحلَّوْن فيها﴾ من التحلية، وهو التزين، أي: تحليهم الملائكة بأمره تعالى ﴿من أساورَ﴾ أي: بعض أساور: جمع سوار، ﴿من ذهب﴾ للبيان، أي: يلبسون أساور مصنوعة من ذهب، ﴿ولؤلؤاً﴾، من جرّه: عطفه على «ذهب»، أو «أساور»، ومَنْ نَصبه: فعلى محل «من أساور»، أي: ويُحلَّوْنَ لؤلؤا، أو بفعل محذوف، أي: ويُؤْتَوْنَ لؤلؤا. ﴿ولباسُهم فيها حريرٌ﴾: أبريسمْ، وغيّر الأسلوب، فلم يقل: ويلبسون حريرا؛ لأن ثبوت اللباس لهم أمر محقق غنيٌّ عن البيان، إذ لا يمكن عراؤهم عنه، وإنما المحتاج للبيان: أيُّ لباس هو، بخلاف الأساور واللؤلؤ، فإنها ليست من اللوازم الضرورية، فجعل بيان حليتهم بها مقصوداً بالذات. انظر أبا السعود.

﴿وهُدُوا إلى الطيب من القول﴾، وهو كلمة التوحيد: لا إله إلا الله أو: الحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، بدليل قوله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾(١). ﴿وهُدُوا إلى صراط الحميد﴾ أي: المحمود، وهو الإسلام. أو:

(١) من الآية ١٠ من سورة فاطر.

ألهمهم اللهُ في الآخرة أن يقولوا: الحمد لله الذي صدقنا وعده، وهداهم فيها إلى طريق الجنة. وقيل: إلى طريق الوصول إلى الله العزيز الحميد، والله تعالى أعلم.

الإشارة : قد اختصم أهل الظاهر مع أهل الباطن في شأن الربوبية، فقال أهل الظاهر: الحق تعالى لا يُرى في دار الدنيا، ولا تُمكن معرفته، إلا من جهة الدليل والبرهان، على طريق الإيمان بالغيب. وقال أهل الباطن من أكابر الصوفية: الحق تعالى يُرى في هذه الدار، كما يرى في تلك الدار، من طريق العرفان، على نعت الشهود والعيان، لكن ذلك بعد موت النفوس وحط الرؤوس لأهل التربية النبوية، فلا يزال يحاذيه ويسير به، حتى يقول: ها أنت وربك، فحينئذ تشرق عليه شموسُ العرفان، فتُغطى عنه وجود حس الأكوان، فلا يرى حينئذ إلا المكون، حتى لو كُلف أن يرى غيره لم يستطع؛ إذ لا غير معه حتى يشهده.

وقال بعضهم: (مُحال أن تشهده، وتشهد معه سواه). وفي مناجاة الحكم العطائية: «إلهي، كيف يُستَدَلُّ عليك بما هو في وجوده مفتقر إليك؟ أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك، حتى يكون هو المظهر لك؟ متى غِبْتَ، حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك؟! ومتى بعدت حتى تكون الآثار هي التي توصل إليك؟!» . وقال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه: (أهل الدليل والبرهان عموم عند أهل الشهود والعيان). وهذه الطريق هي طريق التربية، لا تنقطع أبداً، فمن كفر بها وجحدها قُطعت له ثياب من نار القطيعة، فيبقى مسجوناً بسرادقات محيطاته، محصوراً في هيكل ذاته، لا يرى إلا ظلمة الأكوان، يُصب من فوق رأسه، إلى قلبه، حرُّ التدبير والاختيار، وكلما أراد أن يخرج من سجن الأكوان وغم الحجاب ردته حيْرَةُ الدَّهَشِ، وهيبة الكبرياء والعظمة والإجلال؛ لأن فكرته مسجونة تحت أطباق الكائنات، مقيدة بعلائق العوائد والشواغل والشهوات. ويقال له: ذق عذاب الحريق، وهو حرْمانك من شهود التحقيق.

إن الله يدخل الذين آمنوا بطريق الخصوص، جنات المعارف، تجري من تحتها أنهار العلوم، يُحلون فيها بأنواع المحاسن والفضائل، ويتطهرون من جميع المساوئ والرذائل، وهُدوا إلى الطيب من القول، وهو الذكر الدائم بالقلب الهائم، والمخاطبة اللينة من القلوب الصافية، وهُدوا إلى طريق التربية والترقية، حتى وصلوا إلى شهود الحبيب، الحامد المحمود، القريب المجيب. حققنا الله بمقامهم بمنّه وكرمه.

ثم شرع في المقصود من السورة، وهو أحكام الحج، وبدأ بتعظيم البيت؛ تشويقاً وترغيباً في حجه، فقال:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِي جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾

﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿٢٦﴾ ﴾

قلت : خبر «إن» : محذوف، يدل عليه ما بعده، أى: الذين كفروا نذيقهم من عذاب أليم؛ لأنه إذا كان الملحدُ فى الحرم مُعذَّباً فالجامع بين الكفر والصد أولى. ومن رفع « سواء» جعله خبراً مقدماً. و« العاكف» : مبتدأ. ومن نصبه: جعله مفعولَ «جعل» ، و«العاكف» فاعل به.

يقول الحق جل جلاله : ﴿إن الذين كفروا ويَصُدُّون﴾ الناس ﴿عن سبيل الله﴾ ، أى: واستمروا على الصد، ولذلك حسُن عطفه على الماضى، ﴿و﴾ يصدون أيضا عن ﴿المسجد الحرام﴾ والدخول فيه، كأهل مكة مع المسلمين، ﴿الذي جعلناه للناس﴾ أى: مقامًا ومسكناً للناس، كائنًا من كان، لا فرق فيه بين مكى وآفاقى، وضعيفٍ وقوى، حاضر وباد. فإن أُريد بالمسجد الحرام «مكة»، ففيه دليل على أن دور مكة لا تُباع، وأن الناس فيها سواء، فيجوز للقادم أن ينزل منها حيث شاء، وليس لأحد فيها ملك. وبه قال أبو حنيفة. وقال مالك وغيره: ليست الدور فيها كالمسجد، بل هى مُتَمَلَّكَة. وإن أريد به البيت كان نصاً فى إباحته لجميع المؤمنين. وهو مجمع عليه.

﴿سواءً العاكفُ فيه﴾ أى: مستوٍ المقيم فيه ﴿والباد﴾ ، أى: المسافر من أهل البادية، ﴿ومن يُرِدْ فيه﴾ أى: فى المسجد، إحداث شىء ﴿بإلحاد﴾ أى: بسبب ميل عن القصد، ﴿بظُلم﴾ ، وهما حالان مترادفان، أى: ومن يرد فيه إحداث شىء؛ مائلاً عن الحق، ظالماً فيه، ﴿نذِقْهُ من عذابٍ أليم﴾ فى الآخرة. وكل من ارتكب فيه ذنباً فهو كذلك.

﴿و﴾ اذكر يا محمد ﴿إذْ بوّأنا﴾ : حين هيأنا ﴿لإبراهيم مكانَ البيت﴾ وعيناه له، حتى بناه فى مكانه مسامتاً للبيت المعمور، حيث كان بناه آدم عليه السلام، وقد كان رُفِع إلى السماء الرابعة، أيام الطوفان، وكان من ياقوتة حمراء، فأعلَم اللهُ إبراهيم مكانه، بريح أرسلها، يقال لها: الخَجُوح، فكنست مكان البيت، وقيل: سحابة على قدر البيت، وقيل: كلمته، وقالت له: ابنِ على قَدرى. هـ. فبناه على أساسه القديم[1]، وفى ابن حجر: أنه جعل طوله فى السماء تسعة أذرع، ودوره فى الأرض ثلاثين ذراعاً بذراعه. وأدخل الحِجْر فى البيت، وكان قبل ذلك لغنم

(١) راجع هذه الأقوال فى تفسير الطبرى (١٧/١٤٣)، والبغوى (٥/٣٧٨).

إسماعيل. وبنى الحجارة بعضها على بعض، أي: بلا تراب، ولم يجعل له سقفا، وحفر له بئراً، عند بابه خزانة للبيت، يلقى ما يهدى له. هـ.

رُوى أن الكعبة الشريفة بُنيت خمس مرات، إحداها: بنتها الملائكة، وكانت من ياقوتة حمراء، ثم رُفعت أيام الطوفان. والثانية: بناها إبراهيم عليه السلام، وقيل: إن جُرهم كانت بنتها قبله، ثم هدمت، ويدل عليه: التجاء عادٍ إليها، حين نزل بهم القحط. فأرسل الله عليهم الريح، وكان ذلك قبل إبراهيم عليه السلام، والثالثة: بنتها قريش، وقد حضرها رسول الله ﷺ قبل النبوة. والرابعة: بناها ابن الزبير، والخامسة: الحجاج.

ثم قال تعالى: ﴿ أن لا تُشرك ﴾ أي: وقلنا له: ألا تشرك ﴿ بي شيئًا ﴾، بل خلص عملك في بنائها وغيره، من شوائب حظ النفس، عاجلاً وآجلاً، لا طمَعاً في جزاء، ولا خوفاً من عقوبة، بل محبة وشكراً وعبودية. قال القشيري: أي: لا تلاحظ البيت ولا بنيانك. هـ. وقيل: في الآية طعن على من أشرك من قُطّان البيت، أي: هذا الشرط كان على أبيكم فمَنْ بعده وأنتم، فلم تقبلوه، بل أشركتم وصددتم وألحدتم، فاستحققتم التوبيخ والذم على سلوككم على غير طريق أبيكم.

﴿ وطهِّر بيتي ﴾ من الأصنام والأقذار، ﴿ للطائفين ﴾ به ﴿ والقائمين ﴾ للصلاة فيه، أو المقيمين فيه، ﴿ والركَّع السجود ﴾ أي: المصلين، جمعاً من راكع وساجد. والله تعالى أعلم.

الإشارة: إن الذين كفروا بطريق الخصوصية، ويصدون الناس عن الدخول فيها، ويعوقونهم عن مسجد الحضرة، الذي جعله للناس محلاً تسكن فيه قلوبهم، وتعشش فيه أرواحهم. فكل من قصده وباع نفسه وقلبه لله، وصله ودخله، وهو محل المشاهدة والمكالمة، والمساررة والمناجاة، محل شهود الحبيب والمساررة مع القريب، محل نزهة الأفكار في فضاء الشهود والاستبصار، فمن عاق عنها نُذقه من عذاب أليم. وقوله تعالى: ﴿ سواء العاكفُ فيه و الباد ﴾، قال القشيري: فيه إشارة إلى أن التفاوت إنما يكون في الطريق، وأما بعد الوصول، فلا تفاوت. ثم إذا اجتمعت النفوس، فالموضع الواحد مجمعها، ولكنْ لكلٍّ حالٌ يُعرف به[1] .هـ. قلت: مقام التوحيد الخاص، وهو الفناء، هو محل الاجتماع، وتتفاوت بعد ذلك أذواقهم ومواجيدهم، وازدياد كشوفاتهم وترقياتهم، تفاوتاً بعيداً، على حسب التفرغ والانقطاع، والتأهب والاتباع، حسبما سبقت به القسمة الأزلية.

وقال الورتجبي، على قوله تعالى: (وإذ بوأنا...) الآية: هيأ لخليله وجميع أحبائه بيته، ودلّه إلى ما فيه من الكرامات والآيات، وما ألبسه من أنوار حضرته؛ ليكون وسيلة لعبادته، ومرآة لأنوار آياته. هـ. قلت: الإشارة بالبيت

---

(١) بالمعنى.

إلى القلب؛ لأنه بيت الرب، أي: هيأنا لإبراهيم مكان قلبه؛ لمشاهدة أسرار جبروتنا وأنوار ملكوتنا، ليكون من المُوقنين بشهود ذاتنا، وقلنا له: لا تشركْ بنا شيئاً من السِّوى، ولا ترى معنا غيرنا، وطهِّر بيتي، الذي هو القلب، من الأغيار والأكدار، ليكون محلاً للطائفين به من الواردات والأنوار، والعاكفين فيه من المشاهدات والأسرار، والركع السجود من القلوب التي تواجهك بالتعظيم والانكسار، فإنَّ قلبَ العارف كعبة للواردات والأسرار، ومحل حج قلوب الصالحين والأبرار. وفي بعض الأثر: «ياداود؛ طهر لي بيتاً أسكنه، فقال: يارب.. وأيُّ بيت يسعك؟ فقال: لم يسعني أرضي ولا سمائي، ووسعني قلب عَبدي المؤمن». وفيه عند أهل الحديث كلام. ووسعه للربوبية بالعلم والمعرفة الخاصة. والله تعالى أعلم.

ولمّا فَرَغَ إبراهيم عليه السلام من بناء البيت، أمَرَهُ ربه أن يُؤذن في الناس بالحج، كما قال:

﴿ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۖ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ ... ﴾

قلت: ﴿وعلى كل ضامر﴾: حال معطوفة على حال، أي: يأتوك حال كونهم رجالاً وركبانا. و(يأتين): صفة لكل ضامر؛ لأنه في معنى الجمع. وقرأ عبدالله: «يأتون»، صفة لرجال. و(رجال): جمع راجل؛ كقائم وقيام.

يقول الحق جل جلاله لإبراهيم عليه السلام: ﴿ وأذِّن في الناس بالحج ﴾ أي: نادِ فيهم ليحجوا. رُوِى: أنه عليه السلام صعد أبا قبيس، فقال: يا أيها الناس، حجوا بيت ربكم، فأسمعه الله تعالى الأرواح، فأجاب من قُدِّر له أن يحج من الأصلاب والأرحام بلبيك اللهم لبيك. ﴿ يأتوك ﴾ إن أذنتَ ﴿ رجالاً ﴾ أي: مشاةً ﴿ و ﴾ ركباناً ﴿ على كل ضامر ﴾ أي: بعير مهزول، أتعبه بُعدُ الشُقة، فهزَله، أو زاد هزاله. وقدّم الرجال على الركبان؛ لفضيلة المشاة، كما ورد في الحديث ﴿ يأتين ﴾ تلك الضوامر بركبانها، ﴿ من كل فج ﴾؛ طريق ﴿ عميق ﴾؛ بعيد. قال محمد بن

ياسين: قال لي شيخٌ في الطواف: من أين أنت؟ فقلت: من خُراسان. فقال: كم بينك وبين البيت؟ فقلت: مسيرة شهرين أو ثلاثة. قال: فأنتم جيران البيت. فقلتُ: وأنت من أين سعَيت؟ فقال: من مسيرة خمس سنوات، وخرجت وأنا شاب، فاكتهلت. فقلت: هذه والله هي الطاعة الجميلة، والمحبة الصادقة، فضحك. وقال:

زُرْ من هَوَيْتَ، وإن شطتْ بِكَ الدارُ وحـالَ مـن دُونـه حُجُبٌ وأسـتارُ
لايَمْنَعَنَّكَ بُعْـدٌ عـنْ زِيـارته إنَّ المُحـب لمـنْ يهـواه زوّارُ

﴿ ليشهدوا منافعَ لهم ﴾ أي: يأتوك ليحضروا منافع لهم، دنيوية ودينية، لاتُوجد في غير هذه العبادة؛ كالطواف ونظر الكعبة، وتضعيف أمر الصلاة؛ لأن العبادة شرعت للابتلاء بالنفس كالصلاة والصوم، أو بالمال، وقد اشتمل الحج عليهما، مع ما فيه من تحمل الأثقال وركوب الأهوال، وقطع الأسباب وقطيعة الأصحاب، وهجرة البلاد والأوطان، ومفارقة الأهل والولدان. ولذلك ورد أنه يُكفر الذنوب كلها، كما في الحديث: «مَنْ حَجَّ هَذَا البَيْتَ فَلَمْ يَرْفُثْ، ولَمْ يَفْسُقْ، رَجعَ من ذُنُوبِهِ كيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّـهُ»(١).

﴿ ويذكروا اسمَ الله ﴾ عند ذبح الضحايا والهدايا ﴿ في أيامٍ معلومات ﴾، وهي أيام النحر عند مالك، وعند الشافعي: اليوم الأول والثاني والثالث؛ لأن هذه هي أيام الضحايا عنده. ولم يجز ذبحها بالليل؛ لقوله: ﴿في أيام﴾. وقال أبو حنيفة: الأيام المعلومات: عشر ذي الحجة ويوم النحر، وهو قول ابن عباس رضي الله عنه، وأما الأيام المعدودات، فهي: الثلاثة بعد يوم النحر. فيوم النحر معلوم لا معدود، ورابعه: معدود لا معلوم، واليومان بعده: معلومان ومعدودان. فيذكروا اسم الله ﴿ على ما رزقهم ﴾ أي: على ذبح ما رزقهم ﴿ من بهيمة الأنعام ﴾، وهي الإبل والبقر والغنم، ﴿ فكُلُوا منها ﴾؛ من لحومها، والأمر: للإباحة، ولإزاحة ما كانت عليه الجاهلية من التحرج.

قال ابن جزي: ويُستحب أن يأكل الأقل من الضحايا، ويتصدق بالأكثر. هـ. وقال النسفي: ويجوز الأكل من هَدى التطوع والمتعة والقِران؛ لأنه دم نسك؛ لأنه أشبه الأضحية، ولا يجوز الأكل من بقية الهدايا. هـ. وهو حنفي، وفي مذهب مالك تفصيل يطول ذكره.

﴿ وأطعموا البائسَ ﴾، وهو الذي أصابه البؤس، أي: ضرر الحاجة، وقيل: المتعفف، وقيل: الذي يظهر عليه أثر الجوع، ﴿ الفقير ﴾: المحتاج الذي أضعفه الإعسار.

---

(١) أخرجه البخاري في (الحج، باب فضل الحج المبرور)، ومسلم في (الحج، باب في فضل الحج والعمرة ويوم عرفة)، عن أبي هريرة.

﴿ ثم لْيَقْضُوا تَفَثَهم ﴾ أي: ليزيلوا عنهم أدرانهم، قاله نفطويه. وقيل: قضاء التفث: قصُّ الشارب والأظافر، ونتف الإبط، والاستحداد، وسائر خصال الفطرة. وهذا بعد أن يُحلوا من الحج؛ التحلل الأصغر بالنحر. ﴿ ولْيُوفُوا نذورَهم ﴾ أي: ما ينذرونه من البر في الحج وغيره، وقيل: مواجب حجهم من فعل أركانه، ﴿ ولْيَطَّوفُوا ﴾ طواف الإفاضة، الذي هو ركن لا يُجبر بالدم، وبه يتم الحج، ويكون ﴿ بالبيت العتيق ﴾: القديم؛ لأنه أول بيت وضع للناس، بناه آدم ثم جدَّده إبراهيم، أو الكريم، ومنه: عتاق الخيل لكرائمها، أو: لأنه عتق من الغرق، أو من أيدي الجبابرة، فكم من جبار رام هدمه فمنعه الله منه. وقيل: عتيق لم يملكه أحد قطُّ، وهو مَطاف أهل الغبراء، كما أن البيت المعمور مطاف أهل السماء.

﴿ ذلك ﴾ أي: الأمر ذلك، وهذا من فصل الكلام، كما يقدم الكاتبُ جملة من الكلام، ثم يقول: هذا، وقد كان كذا وكذا، إذا أراد أن يخرج من كلام إلى كلام آخر، وإن كان له تعلق بما قبله. والكلام هنا متصل بتعظيم حرمات البيت، فقال: ﴿ ومن يعظِّم حُرماتِ الله ﴾، جمع حرمة، وهو ما لا يحل هتكه من الشريعة، فيدخل ما يتعلق بالحج دخولاً أولياً، وقيل: حرمات الله: البيت الحرام، والمشعر الحرام، والبلد الحرام، والشهر الحرام. وقيل: المحافظة على الفرائض والسنن واجتناب المعاصي، ﴿ فهو خيرٌ له ﴾ أي: فالتعظيم خير له ثواباً ﴿ عند ربه ﴾، ومعنى التعظيم: العلم بوجوب مراعاتها، والعمل بموجبه، والاهتمام بشأنه، والتأدب معه. والله تعالى أعلم.

الإشارة : قوله تعالى: ﴿ثم ليقضوا تفثهم﴾، قال القشيري: أي: حوائجهم، ويحققوا عهودهم، ويُوفوا نذورهم فيما عقدوه مع الله بقلوبهم، فَمَنْ كان عقدُه التوبةَ؛ فوفاؤه ألاَّ يرجعَ إلى العصيان، ومَنْ كان عَهْدُه اعتناقَ الطاعةِ، فَشَرْطُ وفائه ترك تقصيره، ومن كان عهدُه ألاَّ يرجع إلى طلب مقامٍ وتطلعُ إكرامٍ، فوفاؤه استقامته على الجملة، التي دخل عليها في هذه الطريق، بألا يرجع إلى استعجال نصيبٍ واقتضاءِ حظ. هـ. قلت: ومن كان عقده الوصول إلى حضرة القدس ومحل الأنس، فوفاؤه ألا يرجع عن صحبة من سقاه خمرة المحبة، وحمله إلى درجة المعرفة. ثم قال: ومَنْ عاهد الله بقلبه، ثم لا يفي بذلك، فهو من جملة قول الزور. هـ.وهو أيضا ليس بمُعَظِّم لحرمات الله، حيث طلبها ثم تهاون وتركها. والله تعالى أعلم.

ولمّا كان الإحرام يُحرم لحوم الصيد، فربما يتوهم أن اللحوم كلها تجتنب، رفعَ ذلك الإيهام، فقال:

﴿... وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿وأُحِلتْ لكم الأنعامُ﴾ أى: أكلها، ﴿إلا ما يُتلىَ﴾ أى: سيتلى ﴿عليكم﴾ منها فى آية المائدة(١)، كالميتة والموقوذة وأخواتهما. والمعنى: إن الله قد أحل لكم الأنعام إلاَّ ما بيّن فى كتابه، فحافظوا على حدوده، ولا تُحرّموا شيئاً مما أحلّ لكم، كتحريم البحيرة وما معها، ولا تُحلوا ما حرّم، كإحلال المشركين الميتة والموقوذة وغيرهما.

ثم نهى عن الأوثان التى كانوا يذبحون لها، فقال: ﴿فاجتنبوا الرجس من الأوثان﴾؛ لأن ذلك من تعظيم حرمات الله، و«من» : للبيان، أى: فاجتنبوا الرجس الذى هو الأوثان. والرجس: كل ما يستقذر من الخبث، وسمى الأوثان رجساً على طريقة التشبيه، أى: فكما تنفرون بطباعكم من الرجس، فعليكم أن تنفروا عنها. والمراد: النهى عن عبادتها، أو عن الذبح تقرباً لها. ﴿واجتنبوا قولَ الزُّور﴾، وهو تعميم بعد تخصيص، فإنّ عبادة الأوثان رأس الزور، ويدخل فيه الكذب والبهتان وشهادة الزور. وقيل: المراد شهادة الزور فقط، لِماَ رُوى أنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ قال: «عَدلَتْ شَهَادَةُ الزُّورِ الإشْرَاكَ بِاللهِ تعالى» ثلاثا، وتلى هذه الآية(٢). والزور من الزَّوْر، وهو الانحراف والميل؛ لأن صاحبه ينحرف عن الحق، ولاشك أن الشرك داخل فى الزور؛ لأن المشرك يزعم أن الوثن تحق له العبادة، وهو باطل وزور.

ثم قال تعالى: ﴿حنفاءَ لله﴾ : مائلين عن كل دين زائغ إلى دين الحق، مخلصين لله، ﴿غير مشركين به﴾ شيئاً من الأشياء، ﴿ومن يُشرك بالله﴾، أظهر الاسم الجليل؛ لإظهار كمال قبح الشرك، ﴿فكأنما خرَّ﴾ : سقط

---

(١) الآية الثالثة.
(٢) أخرجه أحمد فى المسند (٣٢١/٤) ، وأبو داود فى (الأقضية: باب فى شهادة الزور)، والترمذى فى (الشهادات، باب ما جاء فى شهادات الزور)، وابن ماجة فى (الأحكام، باب شهادة الزور)، عن خريم بن فاتك.

﴿من السماء﴾ إلى الأرض؛ لأنه يسقط من أوج الإيمان إلى حضيض الكفر. وقيل: هو إشارة إلى ما يكون له حين يصعد بروحه عند الموت، فتطرح من السماء إلى الأرض. قاله ابن البنا. ﴿فتخطفه الطير﴾ أي: تتناوله بسرعة، فالخطف والاختطاف: تناول الشيء بسرعة؛ لأن الأهواء المردية كانت توزع أفكاره، ﴿أو تَهْوِي به الريحُ﴾ أي: تسقطه وتقذفه. والهوى: السقوط. ﴿في مكان سحيق﴾: بعيد؛ لأن الشيطان قد طرحه في الضلال والتحير الكبير. والله تعالى أعلم.

الإشارة: جعل الحقُّ تعالى شكرَ النعم أمْرين: طهارة الباطن من شرك الميل إلى السِّوى، ولسانه من زور الدعوى، وهو الترامى على مراتب الرجال قبل التحقق بها، حنيفاً موحداً، شاكراً لأنعمة يجتبيه ربه، ويهديه إلى صراط مستقيم. ومن يشرك بالله؛ بأن يُحب معه غيره، فقد سقط عن درجة القرب والتحقيق، فتخطفه طيور الحظوظ والشهوات، وتهوى به ريح الهوى، فى مكان سحيق. والعياذ بالله.

ثم حضَّ على الاعتناء بشأن الهدايا، فقال:

﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ ۖ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ذلك﴾ أي: الأمر ذلك، أو امتثلوا ذلك، ﴿ومن يُعَظِّمْ شعائرَ الله﴾ أي: الهدايا، فإنها معالم الدين وشعائره تعالى، كما يُنبىء عنه: ﴿والبدن جعلناها لكم من شعائر الله﴾ وتعظيمها: اعتقاد التقرب بها، وأن يختارها سِمَاناً حساناً غالية الأثمان، رُوى «أنه ﷺ أهْدَى مِائَةَ بَدَنَةٍ، فِيهَا جَمَلٌ لأَبِي جَهْلٍ، فى

أنفه بُرَةٌ مِنْ ذَهَب(١)، وأن عمر رضي الله عنه أهدى نجيبة طُلبت منه بثلاثمائة دينار(٢). وقيل: شعائر الله: مواضع الحج، كعرفة ومنى والمزدلفة. وتعظيمها: إجلالها وتوقيرها، والتقصد إليها. وقيل: الشعائر: أمور الدين على الإطلاق، وتعظيمها: القيام بها ومراعاة آدابها، ﴿ فإنها ﴾ أى: فإن تعظيمها ﴿ من تقوى القلوب ﴾ أى: من أفعال ذوى تقوى القلوب، فحذفت هذه المضافات. أو فإن تعظيمها ناشىء من تقوى القلوب؛ لأنها مراكز التقوى.

﴿ لكم فيها منافع ﴾؛ من الركوب عند الحاجة، ولبنها عند الضرورة، ﴿ إلى أجل مسمى ﴾؛ إلى أن تُنحر. ومن قال: شعائر الله: مواضع الحج، فالمنافع: التجارة فيها والأجر، والأجل المسمى: الرجوع إلى مكة لطواف الإفاضة.

﴿ ثم مَحِلُّها ﴾ منتهية ﴿ إلى البيت العتيق ﴾، قال ابن جزى: من قال: إن الشعائر الهدايا، فمحلها موضع نحرها، وهى مِنى ومكة. وخصّ البيت بالذكر؛ لأنه أشرف الحرم، وهو المقصود بالهدى. و«ثم»، على هذا، ليستْ للترتيب فى الزمان؛ لأن محلها قبل نحرها، وإنما هى لترتيب الجمل. ومن قال: إن الشعائر مواضع الحج، فمحِلها مأخوذ من إحلال المحرم، أى: آخر ذلك كله: الطواف بالبيت، أى: طواف الإفاضة؛ إذ به يحل المحرم.هـ. أى: محل شعائر الحج كلها تنتهى إلى الطواف بالبيت، طواف الإفاضة. ومثله فى الموطأ.

﴿ ولكلِّ أمة ﴾؛ جماعة مؤمنة قبلكم، ﴿ جعلنا منسَكاً ﴾ أى: مُتَعَبَّداً وقرباناً يتقربون به إلى الله ـ عز وجل ـ. والمنسَك ـ بالفتح: مصدر، وبالكسر: اسم موضع النُسك، أى: لكلٍّ جعلنا عبادة يتعبدون بها، أو موضع قربان، يذبحون فيه مناسكهم، ﴿ ليذكروا اسمَ الله ﴾ دون غيره، ﴿ على ما رزقهم من بهيمة الأنعام ﴾ أى: عند نحرها وذبحها، ﴿ فإلهكم إلهٌ واحدٌ ﴾ أى: اذكروا على الذبائح اسم الله وحده؛ فإن إلهكم إله واحد، ﴿ فله أسلِمُوا ﴾ أى: فإذا كان إلهكم إلهاً واحداً؛ فأخلصوا له التقرب، أو الذكر خاصة، واجعلوه له سالماً، لا تشوبوه بإشراك.

﴿ وبشّرِ المخبتين ﴾؛ المطمئنين بذكر الله، أو المتواضعين، أو المخلصين، فإن الإخبات من الوظائف الخاصة بهم. والخَبْتُ: المطمئن من الأرض. وعن ابن عباس رضي الله عنه: هم الذين لا يظلمون، وإذا ظلموا لم ينتصروا. وقيل: تفسيره ما بعده، وهو قوله: ﴿ الذين إذا ذُكرَ اللهُ وجِلَتْ قلوبُهم ﴾: خافت منه؛ هيبة؛ لإشراق أشعة جلاله عليها. ﴿ والصابرين على ما أصابهم ﴾ من مشاق التكاليف ومصائب الزمان والنوائب، ﴿ والمقيمي الصلاة ﴾ فى أوقاتها، ﴿ ومما رزقناهم يُنفقون ﴾ فى وجوه الخيرات.

---

(١) البُرة ـ بضم الموحدة ـ: الحلقة تجعل فى أنف الجمل، وكانوا يتخذونها من نحاس أو غيره، انظر اللسان (برى ١/٢٧٢)، والحديث: أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (باب عدد حجات النبى ﷺ ٥/٤٥٤) عن جابر رضي الله عنه. وفيه: «من فضة»، بدلاً من «ذهب».

(٢) أخرجه أبو دواد فى (المناسك، باب تبديل الهدى) عن سالم عن أبيه.

﴿ والبُدْنَ جعلناها لكم من شعائر الله ﴾ أي: من أعلام دينه، وأضافها إلى نفسه؛ تعظيمًا لها، وهي: جمع بدنة، سميت به؛ لعظم بدنها، ويتناول الإبل والبقر والغنم. ﴿ لكم فيها خيرٌ ﴾ أي: منافع دينية ودنيوية، النفع في الدنيا، والأجر في العقبى. ﴿ فاذكروا اسمَ اللهِ عليها ﴾ بأن تقولوا عند ذبحها: بسم الله، اللهم منك وإليك. حال كونها ﴿ صوافَّ ﴾ أي: قائمات، قد صففن أيديهن وأرجلهن. ﴿ فإذا وَجَبَتْ جُنُوبُها ﴾ : سقطت على الأرض، وسكنت حركتها، من وجب الحائط وجبة: سقط، وهي كناية عن الموت. ﴿ فكُلُوا منها ﴾ إن شئتم ﴿ وأطعِمُوا القانعَ ﴾ : السائل، مِنْ: قنع إليه قنوعًا: إذا خضع، ﴿ والمُعْتَرَّ ﴾ ؛ الذي يُعَرِّضُ ولا يسأل. وقيل: القانع: الراضي بما عنده وبما يُعطى من غير سؤال، والمعترّ: المتعرض للسؤال. ﴿ كذلك سخرناها لكم ﴾ أي: كما أمرناكم بنحرها سخرناها لكم، أي: ذللناها لكم، مع قوتها وعظم أجرامها؛ لتتمكنوا من نحرها، ﴿ لعلكم تشكرون ﴾ أي: لكي تشكروا إنعام الله عليكم.

﴿ لن ينال اللهَ لحومُها ﴾ المُتَصَدَّقُ بها، ﴿ ولادماؤها ﴾ المهراقة بالنحر، أي: لن يصل إلى الله اللحم والدم، ﴿ ولكن ينالُه التقوى منكم ﴾ ؛ فإنه هو الذي طلب منكم، وعليه يحصل الثواب. والمراد: لن تصلوا إلى رضا الله باللحوم ولا بالدماء، وإنما تصلون إليه بالتقوى، أي: الإخلاص لله، وقصد وجه الله، بما تذبحون وتنحرون من الهدايا. فعَبر عن هذا المعنى بلفظ (ينال) ؛ مبالغةً وتأكيدًا، كأنه قال: لن تصل لحومها ولادماؤها إلى الله، وإنما يصل إليه التقوى منكم، وقيل: كان أهل الجاهلية يلطخون الكعبة بدماء قربانهم، فهَم المسلمون أن يفعلوا مثل ذلك، فنزلت الآية.

﴿ كذلك سخرها لكم ﴾ أي: البدن، وهو تكرير للتذكير والتعليل، لقوله: ﴿ لتكبِّروا الله على ماهداكم ﴾ أي: لتعرفوا عظمة الله، باقتداره على ما لايقدر عليه غيره، فتوحدوه بالكبرياء؛ شكرًا على هدايته لكم. وقيل: هو التكبير عند الذبح . ﴿ وبشر المحسنين ﴾ : المخلصين في كل ما يأتون ويذرون في أمور دينهم. وبالله التوفيق.

الإشـارة : أعظم شـعائر الله التي يجب تعظيمها أوليـاء الله، الدالين على الله، ثم الفقراء المتوجهون إلى الله، ثم العلماء المعلمون أحكام الله، ثم الصالحون المنتسبون إلى الله، ثم عامة المؤمنين الذين هم من جملة عباد الله. ويجب تعظيم مَنْ نصبه الله لقيام خطة من الخطط؛ لإصلاح العباد؛ كالسلاطين، ولو لم يعدلوا، والقضاة والقواد، والمقدمين لأمور العامة، فتعظيم هؤلاء كله من تقوى القلوب. ويدخل في ذلك: الأماكن المعظمة؛ كالمساجد والزوايا، وأما الفقير فيُعَظِّمُ كل ما خلق الله حتى الكلاب، ويتأدب مع كل مخلوق.

وقوله تعالى: ﴿ لكم فيها منافع ﴾ أي: لكم في هذه التجليات، إن عظمتموها وعرفتم الله فيها، منافع ، ترعوْن من أنوارها وتشربون من خمرة أسرارها، فتزدادوا معرفة وتكميلاً، إلى أجل مسمى، وهو مقام التمكين، فحينئذ تواجهه أنوار المواجهة، فتكون الأنوار له، لا هو للأنوار، لأنه لله لا لشيء دونه، ﴿ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾(١) . ثم محل هذه الأنوار إلى بيت الحضرة، فحينئذ يستغني بالله عن كل ماسواه . وقوله تعالى: ﴿ولكل أمة جعلنا منسكا﴾ أي: لكل عصر جعلنا تربِية مخصوصة، والوصول واحد؛ ولذلك قال: (فإلهكم إله واحد) . وقال القشيري: الشرائعُ مختلفةٌ فيما كان من المعاملات، متفقة فيما كان من جملة المعارف. ثم قال: ذكّرهم الله بأنه هو الذي أمرهم ويُثيبهم، (فله أسلموا): استَسلموا لحكمِه، من غير استكراهٍ من داخل القلب ولا من اللفظْ.هـ.

وقوله تعالى: (والبدن...) الآية. قال الورتجبي: فيه إشارة إلى ذبح النفس بالمجاهدات، وزمها بالرياضات عن المخالفات، وفناء الوجود للمشاهدات، حتى لا يبقى للعارف في طريقة حظ من حظوظه، ويبقى لله مفرداً من جميع الخلائق. هـ.

وفي قوله تعالى: ﴿فاذكروا اسم الله عليها صواف﴾، إشارة إلى أن النفس لا تموت إلا بصحبة من ماتت نفسه، فلا تموت النفس مع صحبة أهل النفوس الحية أبداً. فإذا ماتت وسقطت جنوبها، وظفرتم بها؛ فكلوا من أنوار أسرارها وعلومها؛ لأن النفس، إذا ماتت، حييت الروح، وفاضت عليها العلوم اللدنية، فكلوا منها، وأطعموا السائل والمتعرض لنفحاتكم. وقوله تعالى: ﴿ لن ينال الله لحومها..﴾ الآية، قال الورتجبي: الإشارة فيه إلى جميع الأعمال الصالحة من العرش إلى الثرى، لا يلحق الحق بحق المراد منه، ولكن يصل إليه قلب جريح من محبته، ذُبح بسيف شوقه، مطروح على باب عشقه. قال سهل في قوله: (ولكن يناله التقوى): هو التبري والإخلاص. هـ.

قال القشيري: لا عِبْرةَ بإظهار الأفعال، سواء كانت بدنيةً أو ماليةً صِرفًا، أو مما يتعلق بالوجهيْن، ولكن العبرة بقرائنها من الإخلاص، فاذا انضافَ إلى الجوارح إخلاص القصود، وتَجَرَّدَتْ عن ملاحظة أصحابِها الأغيار، صلُحَتْ للقبول، وينال صاحبها القرب، بشهود الحق بنعت التفرد. ثم قال: (لتكبروا الله على ماهداكم) وأرشدكم إلى القيام بحقّ العبودية على قضية الشرع، (وبشر المحسنين)، الإحسان، كما في الخبر: «أنْ تعبد الله كأنك تراه» . وأمارةُ صحته: سقوطُ تعب القلب عن صاحِبِه، فلا يستثقلُ شيئاً ولا يتبرم بشيءٍ. هـ. قلت: خواطر الاستثقال والتبرم لا تضر؛ لأنه طبع بشرى، وإنما يضر ما سكن في القلب.

---

(١) من الآية ٩١ من سورة الأنعام.

وقال في الإحياء: ليس المقصود من إراقة دم القربان الدم واللحم، بل ميل القلب عن حب الدنيا، وبذلها؛ إيثاراً لوجه الله تعالى، وهذه الصفة قد حصلت عند جزم النية والهمة، وإن عاق عن العمل عائق. فلن ينال الله لحومها ولا دماؤها، ولكن يناله التقوى منكم، والتقوى هاهنا عمل القلب، من نية القربة، وإرادة الخير، وإخلاص القصد لله، وهو المقصود، وعمل الظاهر مؤكد له، ولذلك كانت نية المؤمن أبلغ من عمله؛ فإنّ الطاعات غذاء القلوب، والمقصود: لذة السعادة بلقاء الله تعالى، والتنعم بها، وذلك فرع محبته والأنس به، ولا يكون إلاّ بذكره، ولا يفرغ إلا بالزهد في الدنيا، وترك شواغلها، والانقطاع عنها. هـ.

ومن كانت هذه صفته كان من المحسنين، الذين يدفع الله عنهم المكارة والعوائق، كما قال تعالى:

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ ٣٨ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ إن الله يُدافع ﴾ يدفع غائلة المشركين ﴿ عن الذين آمنوا ﴾؛ فلا يقدرون أن يعوقوهم عن شيء من عبادة الله، بل ينصرهم ويؤيدهم كما قال تعالى: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا ﴾(١)، وصيغة المفاعلة: إمّا للمبالغة، أو للدلالة على تكرير الدفع، فإنها قد تجرد عن وقوع الفعل المتكرر من الجانبين، فيبقى تكرره من جانب واحد، كما في المحارسة، أي: يبالغ في دفع ضرر المشركين وشوكتهم، التي من جملتها صدهم عن سبيل الله، مبالغة من يغالبُ فيه، أو يدفعها عنهم مرة بعد أخرى، بحسب تجرد قصد الإضرار بالمسلمين، كما في قوله: ﴿ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ ﴾(٢). وقرأ المكي والبصري: «يدفع».

ثم علل ذلك الدفع بقوله: ﴿ إن الله لا يُحب كل خوّانٍ كفور ﴾ أي: لأنّ الله يبغض كل خوان في أمانة الله تعالى، وهي: أوامره ونواهيه، ومن أعظمها: الإيمان بالله ورسوله. أو في جميع الأمانات، كفورٌ لنعم الله. والمعنى: إن الله يدافع عنهم؛ لأنه يبغض أعداءهم، وهم: الخونة الكفرة، الذين يخونون الله والرسول، ويخونون أماناتهم. وصيغة المبالغة فيها؛ لبيان أنهم كذلك فيهما، لا لتقييد البعض بغاية الجناية؛ فإن الخائن ممقوت مطلقا. والله تعالى أعلم.

الإشارة: إن الله يدفع عن أوليائه، والمتوجهين إليه، كل عائق وشاغل، وغائلة كل غائل، الذين حازوا ذروة الإيمان، وقصدوا تحقيق مقام الإحسان. فمن رام صدّهم عن ذلك فهو خائن كفور، (إن الله لا يحب كل خوّانٍ كفور).

(١) من الآية ٥١ من سورة غافر. (٢) من آلآية ٦٤ من سورة المائدة.

ثم أمر بجهاد من صدهم وعاقهم عن سبيل الله، فقال:

﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَـٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾ ﴾

قلت: (إلا أن يقولوا)، قيل: منقطع. وقال الزمخشري: في محل الجر، بدل من حق.هـ. وهو على طريق قول الشاعر:

لاَ عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنَّ سُيُوفَهُمْ		بِهِنَّ فُلُولٌ مِنْ قِرَاعِ الكَتَـائِبِ

يقول الحق جل جلاله: ﴿أُذِنَ﴾ أي: رُخص وشرع، أو أذن الله ﴿للذين يُقاتَلون﴾ أي: يُقاتلهم الكفارُ المشركون، وحذف المأذون فيه؛ لدلالة «يُقاتَلون» عليه، أيْ: في قتالهم، ﴿بأنهم ظُلموا﴾ أي: بسبب كونهم مظلومين، وهم أصحاب رسول الله ﷺ، كان مشركو مكة يؤذونهم أذىً شديدا، وكانوا يأتون رسول الله ﷺ من بين مضروبٍ ومشجوج، فيتظلمون إليه، فيقول لهم رسول الله ﷺ: «اصبروا؛ فإني لم أومر بالقتال» . حتى هاجر، فنزلت هذه الآية(١). وهي أول آية نزلت في الجهاد، بعد ما نهي عنه في نيف وسبعين آية.

﴿ وإنَّ الله على نصرهم لقديرٌ﴾ . وعدٌ لهم بالنصر، وتأكيد لِما مرّ من العِدَة الكريمة بالدفع، وتصريح بأن المراد ليس مجرد تخليصهم من يد المشركين، بل بغلبتهم وإظهارهم عليهم. وتأكيده بكلمة التحقيق. واللام؛ لمزيد تحقيق مضمونه، وزيادة توطين نفوس المؤمنين.

ثم وصف الذين أُذن لهم، أو فسرهم، أو مدحهم بقوله: ﴿الذين أُخرجوا من ديارهم﴾ ، يعني مكة: ﴿بغير حق﴾ ؛ بغير ما يوجب إخراجهم ﴿إلا أن يقولوا ربنا الله﴾ أي: بغير موجب سوى التوحيد، الذي ينبغي أن يكون موجباً للإقرار لا للإخراج. ومثله: ﴿هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ﴾(٢).

﴿ ولولا دفعُ الله الناسَ﴾ : لولا أن يدفع الله الناس ﴿بعضهم ببعض﴾ ؛ بتسليط المؤمنين على الكافرين في كل عصر وزمان، وإقامة الحدود وكف الظالم، ﴿لهُدِّمت﴾ أي: لخربت؛ باستيلاء الكفرة على الملل، ﴿صَوَامِعُ﴾ :

(١) عزاه الواحدي في الأسباب (٣١٨) والبغوي في التفسير (٣٨٨/٥) للمفسرين. (٢) من الآية ٥٩ من سورة المائدة.

جمع صومَعة - بفتح الميم، وهى: متعبد النصارى والصابئين منهم، ويسمى أيضا الدير. وسُمى بها موضع الأذان فى الإسلام: ﴿ وبِيَعٌ ﴾: جمع بيعة - بكسر الباء - : كنائس النصارى، ﴿ وصلوات ﴾ : كنائس اليهود، سميت بما يقع فيها، وأصلها: صلَوتا بالعبرانية، ثم عُربت، ﴿ ومساجد ﴾ للمسلمين، ﴿ يُذْكَرُ فيها اسمُ الله كثيراً ﴾ أى: ذكراً كثيراً، أو وقتاً كثيراً، صفة مادحة للمساجد، خُصت بها؛ دلالةً على فضلها وفضل أهلها. وقيل يرجع للأربع، وفيه نظر؛ فإنّ ذكر الله تعالى فى الصوامع والبيع والكنائس قد انقطع بظهور الإسلام، فَقَصْدُ بيانِه، بعد نسخ شرائعها مما لا يقتضيه المقام، ولا ترتضيه الأفهام. وقدمت الثلاثة على المساجد؛ لتقدمها وجوداً، أو لقربها من التهديم.

﴿ ولينصرنَّ اللهُ من ينصره ﴾ أى: وتالله، لينصرن الله من ينصر دينه ونبيه - عليه الصلاة والسلام - وأولياءه. ومِن نصرِه: إشهاره وإظهاره، وتعليمه لمن لا يعلَمه، وإعزاز حامل لوائه من العلماء والأولياء. وقد أنجز الله وعده، حيث سلط المهاجرين والأنصار على صناديد العرب وأكاسرة العجم وقياصرة الروم، وأورثهم أرضهم وديارهم، ﴿ إن الله لقوي عزيز ﴾ : غالب على كل ما يريد، ومن جملته: نصرهم وإعلاؤهم.

ثم وصف الذين أُخرجوا من ديارهم بقوله: ﴿ الذين إن مكانهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتَوُا الزكاة وأمروا بالمعروف ونَهوْا عن المنكر ﴾ قلت: الصواب ما قاله مكى: أنه بدل من: «مَن ينصره»، فى محل نصب. قيل: المراد بهم: الصحابة - رضى الله عنهم -، وقيل: الأمة كلها. وقيل: الخلفاء الأربعة؛ لأنهم هم الذين مُكّنوا فى الأرض بالخلافة، وفعلوا ما وصفهم الله به. وفيه دليل صحة أمرِ الخلفاء الراشدين؛ لأن الله - عز وجل - أعطاهم التمكين، ونفاذ الأمر مع السيرة العادلة. وعن عثمان ﷺ: (هذا، والله، ثناء قبل بلاء)، يعنى: أن الله تعالى أثنى عليهم قبل ظهور الشر من الهرج والفتن فيهم. ﴿ ولله عاقبةُ الأمور ﴾ ؛ فإنّ مرجعها إلى حكمه وتقديره فقط. وفيه تأكيد للوعد بإظهار أوليائه وإعلاء كلمته.

الإشارة: إذا اتصل الإنسان بشيخ التربية فقد أذن له فى جهاد نفسه، إن أراد الوصول إلى حضرة ربه؛ لأنها ظالمة تحول بينه وبين سعادته الأبدية. وإن الله على نصرهم لقدير؛ لأن هِمّةَ الشيخ تحمله وتنصره بإذن الله. وأما إن لم يتصل بشيخ التربية، فإن مجاهدته لنفسه لا تُصيب مقَاتلها؛ لدخولها تحت الرماية، فلا يُصيبها ضربه، وأما الشيخ؛ فلأنه يريه مساوئها ويعينه على قتلها.

وقوله تعالى: ﴿ الذين أُخرجوا من ديارهم بغير حق ﴾ ؛ هم الذين أُمروا بقتل نفوسهم، فإنهم إذا خرقوا عوائد نفوسهم، وخرجوا عن عوائد الناس، رفضوهم وأنكروهم، وربما أخرجوهم من ديارهم، فقلّ أن تجد وليّاً بقى فى وطنه الأول، ومانقموا منهم وأخرجوهم إلا لقصدهم مولاهم، وقولهم: ربُّنا الله دون شيء سواه، فحيث خرجوا عن

عوائدهم وقصدوا مولاهم، أنكروهم وأخرجوهم من أوطانهم، ولولا دفع الناس بعضهم ببعض؛ بأن شفع خيارهم في شرارهم، لهدمت دعائم الوجود؛ لأنَّ من آذى وليّاً فقد آذن بالحرب.

قال القشيري: (ولولا دفع الله الناس)، أي: يتجاوز عن الأصاغر لِقَدْرِ الأكابر؛ استبقاء لمنازل العبادة، تلك سُنَّة أجراها. ثم قال: (الذين إن مكناهم في الأرض)، أي: لم يشتغلوا في ذلك بحظوظ، ولكن قاموا لأداء حقوقنا. هـ.

ولمّا بشّر نبيّه - عليه الصلاة والسلام - مع المؤمنين، بالدفع والنصر على سائر الملل، سلّاه عن تكذيب قومه بقوله:

﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وإن يُكذبوك ﴾ يا محمد، أي: أهل مكة، فلا تحزن؛ فلست بأول من كُذب، ﴿ فقد كذَّبت قبلهم ﴾ أي: قبل قومك ﴿ قومُ نوحٍ ﴾ نوحاً، ﴿ وعادٌ ﴾ هوداً، ﴿ وثمودُ ﴾ صالحاً، ﴿ وقومُ إبراهيمَ ﴾ إبراهيم، ﴿ وقومُ لوطٍ ﴾ لوطاً، ﴿ وأصحابُ مدينَ ﴾ شعيباً، ﴿ وكُذِّبَ موسى ﴾؛ كذّبه فرعونُ والقبط. ولم يقل: وقوم موسى؛ لأن موسى ما كذبه قومه بنو إسرائيل، وإنما كذبه القبطُ. أو: كأنه لمّا ذكر تكذيب كلِّ قومٍ رسولهم، قال: وكُذِّب موسى، مع وضوح آياته وظهور معجزاته، فماظنك بغيره؟ ﴿ فأمليتُ للكافرين ﴾: أمهلتهم وأخرت عقوبتهم، ﴿ ثم أخذتُهم ﴾: عاقبْتُهم على كفرهم، أي: أخذت كل فريق من فِرَقِ المكذبين، بعد انقضاء مدة إملائه وإمهاله، ﴿ فكيف كان نكير ﴾ أي: إنكاري وتغييري؛ حيث أبدلتهم بالنعم نقماً، وبالحياة هلاكاً، وبالعمارة خراباً، فكان ذلك في غاية ما يكون من الهول والفظاعة.

﴿ فكأيِّن من قريةٍ أهلكناها ﴾ أي: كثيراً من القرى أهلكناها وخربناها بإهلاك أهلها، ﴿ وهي ظالمةٌ ﴾ أي: والحال أنها ظالمة بالكفر والمعاصي، ﴿ فهي خاوية ﴾: ساقطة على ﴿ عروشها ﴾، من خوى النجم: سقط. والمعنى أنها ساقطة على سقوفها، أي: خربت سقوفُها على الأرض، ثم تهدمت حيطانها فسقطت فوق السقوف. ويجوز أن يكون «على عروشها»: خبراً بعد خبر، أي: فهي خالية من السكان، وهي على عروشها، أي: قائمة مشرفة على السقوف الساقطة. ﴿ وبئرٍ مُعطَّلة ﴾ أي: وكم من بئر متروكة مهملة في البوادي والحواضر، لا يستسقى منها؛

لهلاك أهلها مع توفير مائها، ﴿ وقصرٍ مَشيدٍ ﴾ : مرفوع البنيان، من شاد البنيان: إذا رفعه، أو مجصَّص بالشيد، أي: الجص، أي: مبنياً بالشيد والجندل.

وقال الضحاك: كانت هذه البئر المعطلة بحضرموت، في بلدة يقال لها: حاضوراء، وذلك أن أربعة آلاف ممن آمن بصالح، ونجوا من العذاب، أتوا حضرموت، ومعهم صالح، فلما حضروا ذلك الموضع، مات صالح، فسُمي حضرموت؛ لأن صالحاً لما حضره مات، فبنوا حاضوراء، وقعدوا على هذه البئر، فأقاموا دهراً طويلاً، وتناسلوا حتى كثروا، ثم عبدوا الأصنام وكفروا، فأرسل الله إليهم نبياً يقال له: «حنظلة بن صفوان» ، فقتلوه فأهلكهم الله، وعطلت بئرهم وخربت قصورهم[1] .هـ.

وحاصل المعنى: وكم قرية أهلكناها، وكم بئر عطلناها عن سقاتها، وقصر مشيد أخليناه عن ساكنه، أي، أهلكنا البادية والحاضرة جميعاً، فخلت القصور عن أربابها، والآبار عن روادها. فالأظهر أن البئر والقصر على العموم.

الإشارة: ما سلّى به الرسل ـ عليهم السلام ـ تسلى به الأولياء ـ رضوان الله عليهم ـ فتكذيب أهل الخصوصية سُنّة ماضية، غير أن مُكذبي الرسل يُعاجَلون بالعقوبة، ومكذبي الأولياء يعاقبون بالبعد والحجاب. وقال القشيري: (وبئر معطلة) ، الإشارة إلى العيون المفجرة من بواطنهم، (وقصر مشيد) ؛ الإشارة إلى تعطيل أسرارهم عن ساكنيها، من الهيبة والأنس وسائر المواجيد. هـ. قلت: وكأنه فسر القرية بالقلب، وهلاكه: خلاؤه من نور التوحيد، فقلوب الغافلين خاوية على عروش عقولهم، المطموس نورها، وعيون بواطنهم معطلة من الفكرة، وأسرارهم خارية من نور النظرة. والله تعالى أعلم.

ثم أمر بالاعتبار بمن سلف من القرون المهلكة والآبار المعطلة، فقال:

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾ ﴾

---

(١) ذكر البغوي في التفسير (٥/٣٩٠).

قلت: (أفلم): الفاء عطف على مقدر؛ أي أغفلوا فلم يسيروا فيعتبروا، (فإنها): ضمير القصة، أو مبهم يُفسره ما بعده. و(لن يخلف الله وعده): حالية، أي: ينكرون مجيء العذاب الموعود، والحال: أنه تعالى لا يخلف وعده، أو اعتراضية مُبينة لما ذكر، و(إنّ يوماً): استئنافية، إن كانت الأولى حالية، ومعطوفة، إن كانت اعتراضية سيقت لبيان خطأهم.

يقول الحق جل جلاله: ﴿أَفَلَم يسيروا في الأرض﴾ فيروا مصارعَ من أهلكهم اللهُ بكفرهم، ويشاهدوا آثارهم الدارسة وقصورهم الخالية، وديارهم الخربة، فيعتبروا. وهو حث لهم على السفر ليشاهدوا ذلك. ﴿فتكونَ لهم﴾؛ بسبب ما شاهدوه من مظان الاعتبار ومواطن الاستبصار ﴿قلوبٌ يعقلون بها﴾ ما يجب أن يُعقل من التوحيد ونحوه، ﴿أو آذانٌ يسمعون بها﴾ ما يجبُ أن يُسمع من الوحي أو من أخبار الأمم المهلكة ممن يجاورُهم من الناس؛ فإنهم أعرف بحالهم. قال ابن عرفة: لما تضمن الكلام السابق إهلاك الأمم السالفة، وبقيت آثارهم خراباً، عقبه بذم هؤلاء في عدم اتعاظهم بذلك. والسير في الأرض: إمّا حسي، أو معنوي باعتبار سماع أخبارها من الغير، أو قراءتها في الكتب. فقوله: (فتكون لهم قلوب): راجع للسير الحسي، وقوله: (أو آذان) للسير المعنوي. هـ.

﴿فإنها لا تعمى الأبصارُ﴾ الحسية، ﴿ولكن تعمى القلوبُ﴾ عن التفكر والاعتبار، أي: ليس الخلل في مشاعرهم، ولكن الخلل في عقولهم، باتباع الهوى والانهماك في الغفلة. وذكر الصدور؛ للتأكيد، ونفي توهم التجوز؛ لأن قلب الشيء: لبه، فربما يقال: إن القلب يُراد به غير هذا العضو، ولكل إنسان أربع أعين: عينان في رأسه، وعينان في قلبه، وتسمى البصيرة، فإن انفتح ما في القلب، وعمي ما في الرأس؛ فلا يضر، وإن انفتح ما في الرأس وانطمس ما في القلب لم ينفع، والتحق بالبهائم، بل هو أضل.

ثم ذكر علامة عمى القلوب، وهو الاستهزاء بالوعد الحق، فقال: ﴿ويستعجلونك بالعذابِ﴾ المتوعد به؛ استهزاء وإنكاراً وتعجيزاً، ﴿ولن يخلف اللهُ وعده﴾ أي: يستعجلون به، والحال أنه تعالى لا يخلف وعده أبداً، وقد سبق الوعد به، فمن لا يخلف وعده فلابد من مجيئه، ولو بعد حين. ﴿وإن يوماً عند ربك كألفِ سنةٍ مما تعدُّون﴾ أي: كيف يستعجلونك بعذاب مَن يومٌ واحد من أيام عذابه في طول ألف سنة من سنيكم؛ لأن أيام الشدة طُوال. وقيل: تطول حقيقة، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام: «يَدْخُلُ الفُقَرَاءُ الجَنَّةَ قَبْلَ الأَغْنِيَاءِ بِنِصْفِ يَوْمٍ، وذَلِكَ خَمْسمائَةِ سَنَةٍ»(١).

---

(١) أخرجه الترمذي في (الزهد، باب ما جاء أن فقراء المهاجرين يدخلون الجنة قبل أغنيائهم)، وابن ماجة في (الزهد، باب منزلة الفقراء)، من حديث أبي هريرة، وأبي سعيد الخدري رضي الله عنهما. وبنحوه أخرجه أبو داود في (العلم، باب في القصص) من حديث أبي سعيد الخدري.

﴿ وكأيِّن من قريةٍ أمليت لها وهي ظالمةٌ ثم أخذتُها ﴾ أي: كثيراً من أهل قرية كانوا ظالمين مثلكم، قد أمهلتهم حيناً وأمليت لهم، كما أمليت لكم، ثم أخذتهم بالعذاب والنكال بعد طول الإملاء والإمهال. والإملاء هو الإمهال مع إرادة المعاقبة. ﴿ وإليَّ المصيرُ ﴾ أي: المرجع إليَّ، فلا يفوتني شيء من أمر المستعجلين وغيرهم، أو: إلى حكمي مَرجع الكل، لا إلى غيري، لااستقلالاً ولا شركة، فأفعل بهم ما يليق بأعمالهم. والله تعالى أعلم.

الإشارة: عمى القلوب هو انطماس البصيرة، وعلامة انطماسها أمور: إرسال الجوارح في معاصي الله، والانهماك في الغفلة عن الله، والوقيعة في أولياء الله، والاجتهاد في طلب الدنيا مع التقصير فيما طلبه منه الله. وفي الحِكَم: «اجتهادك فيما ضمن لك، وتقصيرك فيما طلب منك، دليل على انطماس البصيرة منك». وعلامة فتحها أمور: المسارعة إلى طاعة الله، واستعمال المجهود في معرفة الله، بصحبة أولياء الله، والإعراض عن الدنيا وأهلها، والأنس بالله، والغيبة عن كل ماسواه. واعلم أن البصر والبصيرة متقابلان في أصل نشأتهما، فالبصر لا يُبصر إلا الأشياء الحسيةَ الحادثة، والبصيرة لا تُبصر إلا المعاني القديمة الأزلية، فإذا انطمست البصيرة كان العبد مفروقاً عن الله، لايرى إلا الأكوان الظلمانية الحادثة. وفي ذلك يقول المجذوب رضي الله عنه:

مَنْ نَظَرَ الكَوْنَ بِالْكَوْنِ؛ غَرَّهُ: في عمى البصيرة. ومن نظر الكون بالمكون: صادق، علاج السريرة

وإذا انفتحت البصيرة بالكلية استولى نورها على نور البصر، فانعكس نور البصر إلى البصيرة، فلا يرى العبدُ إلا أسرارالمعاني الأزلية، المفنية للأواني الحادثة، فيغيب عن رؤية الأكوان بشهود المكون. وعِلاَجُ انفتاحها يكون على يد طبيب ماهر عارف بالله، يقدحها له بمرود التوحيد، فلايزال يعالجها بإثمد توحيد الأفعال، ثم توحيد الصفات، ثم توحيد الذات، حتى تنفتح. فتوحيد الأفعال والصفات يُشهد قُرب الحق من العبد، وتوحيد الذات يُشهد عدمه لوجود الحق، وهو الذي أشار إليه في الحكم بقوله: «شعاع البصيرة يشهدك قرب الحق منك، وعين البصيرة يشهدك عدمك لوجوده، وحق البصيرة يشهدك وجود الحق، لاعدمك ولا وجودك. كان الله ولا شيء معه، وهو الآن على ما عليه كان». فيرى حينئذ من أسرار الذات وأنوار الصفات مالايراه الناظرون، ويشاهد ما لا يشاهده الجاهلون. وفي ذلك يقول الحلاج:

قُلوبُ العَارفِينَ لَهَـا عُيُونٌ ... تَرَى مَا لا يُرَى للنَّاظِرِينَا
وأجْنِحَةٌ تَطِيـرُ بِغَيْرِ رِيشٍ ... إلَى مَلَكُوتِ رَبِّ العَالَمِينـا
وألْسِنَةٌ بأسْرَارٍ تُنَـــاجِي ... تَغِيبُ عن الكِرَامِ الكَاتِبِينـا

وقال الورتجبي: الجهال يرون الأشياء بأبصار الظواهر، وقلوبهم محجوبة عن رؤية حقائق الأشياء، التي هي تلمع منها أنوار الذات والصفات، وأعماهم الله بغشاوة الغفلة وغطاء الشهوة .هـ.

ثم أمر نبيه بالجواب عن استعجالهم العذاب، فقال:

﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْا۟ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا مُعَـٰجِزِينَ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥١﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿قُل﴾ يا محمد: ﴿يا أيها الناس إنما أنا لكم نذيرٌ مبينٌ﴾ أي: أنذركم إنذاراً مبيناً بما أُوحي إليّ من أخبار الأمم المهلَكة، من غير أن يكون لي دخل في الإتيان بما توعَدونه من العذاب الذي تستعجلونه..وإنما لم يقل: نذير وبشير، مع ذكر الفريقين بعده؛ لأن الحديث مسوق إلى المشركين فقط. والمراد بالناس: الذين قيل فيهم: (أفلم يسيروا في الأرض)، ووصفوا بالاستعجال، وإنما ذكر المؤمنين وثوابهم؛ زيادة في غيظهم. ﴿فالذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة﴾ لذنوبهم، ﴿ورزقٌ كريمٌ﴾ أي: حسن، وهي الجنة. والكريم من كل نعيم: ما يجمع فضائله ويحوز كمالاته.

﴿والذين سَعَوا﴾، يقال: سَعَى في أمر فلان: إذا أفسده بسعيه، أي: أفسدوا ﴿في آياتنا﴾ أي: القرآن؛ بسعيهم في إبطاله، ﴿معاجزين﴾ أي: مسابقين. وقرأ المكي والبصري: «معجّزين». بالشد، أي: مثبّطين الناس عن الإيمان. يقال: عاجزه: سابقه؛ لأنّ كل واحد منهما يطلب عجز الآخر، واللحوق به، فإذا غلبه، قيل: أعجزه وعجزه. والمعنى: سعوا في معناها بالفساد؛ من الطعن فيها، حيث سمُّوها سحراً وشعراً وأساطير الأولين، مسابقين في زعمهم وتقديرهم، طامعين أن كيدهم للإسلام يتم لهم. ﴿أولئك أصحابُ الجحيم﴾ أي: ملازمو النار الموقودة. وقيل: هو اسم دركة من دركاتها.

الإشارة: الدعاة إلى الله تعالى إنما شأنهم التحذير والتبشير، ثم ينظرون ما يفعل الله في ملكه وخلقه، من هداية أو إضلال، وليس من شأنهم طلب ظهور المعجزات، أو الكرامات، ولا الحرص على هداية الخلق بالكد والاجتهاد، إنما شأنهم التذكير، ويردون الأمر إلى الملك القدير، فلا يتأسفون على من تخلف عنهم.

وكان عليه الصلاة والسلام ـ يحرص على هداية قومه، فلما نهاه الحق تعالى عن ذلك، رجع وتأدب بكمال العبودية، وبه اقتدى خلفاؤه من بعده، فكان ﷺ في أول أمره يتمنى أن ينزل عليه ما يُقارب بينه وبين قومه، لعلهم يتدبرون فيما ينزل عليه فيُسلموا، فقرأ يوماً سُورَةَ النَّجْمِ، فألقِيَ في مسامعهم ما يدل على مدح آلهتهم، فحزن

ـ عليه الصلاة والسلام ـ حين نسبوا ذلك له، فسلاه الله تعالى بقوله:

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾ ﴾

قال ابن عباس وغيره من المفسرين الأولين ـ رضي الله عنهم ـ: لما رأى النبي ﷺ مباعدة قومه وتوليهم، وشق عليه ذلك تمنى أن يأتيه من الله تعالى ما يُقارب بينه وبين قومه، فجلس يوماً في جمع لهم، فنزلت سورة النجم، فقرأها عليهم، فلما بلغ: ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللاتَ وَالْعُزَّىٰ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَىٰ ﴾(١)، ألقى الشيطان على لسانه(٢): تلك الغرانيق العُلى وإنّ شفاعتهم لترجى هـ. **قلت**: بلى، ألقى ذلك في مسامعهم فقط، ولم ينطق بذلك ـ عليه الصلاة والسلام ـ فلما سمعت ذلك قريش فرحوا، ثم سجد النبي ﷺ في آخر السورة، وسجد المسلمون والمشركون، إلا الوليد بن المغيرة، رفع حفنة من التراب وسجد عليه، فقالت قريش: ذكر محمد آلهتنا بأحسن الذكر، وقالوا: قد عرفنا أن الله يُحيي ويميت، ويخلق ويرزق، ولكن آلهتنا هذه تشفع لنا عنده، فإذا جعل محمد لها نصيباً فنحن معه، فلما أمسى أتاه جبريل. فقال يا محمد؛ ما صنعتَ فقد تلوتَ على الناس مالم آتك به؟ فحزن النبي ﷺ حزناً شديداً، فنزلت الآيةُ؛ تسلية له عليه الصلاة والسلام.

فقال جل جلاله: ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول ﴾، يوحى إليه بشرع، ويؤمر بالتبليغ، ﴿ ولا نبي ﴾ يُوحى إليه، ولم يؤمر بالتبليغ، فالرسول مكلف بغيره، والنبي مقتصر على نفسه، أو الرسول: مَن بُعث بشرع جديد، والنبي: مَنْ قرر شريعة سابقة، ولذلك شبه ﷺ علماء أمته بهم، فالنبي أعم من الرسول، وقد سئل ـ عليه

---

(١) الآيتان : ١٩ ـ ٢٠ من سورة النجم.

(٢) النبي ﷺ معصوم من مثل ماجاء في قصة الغرانيق، ونسبة هذا إلى سيدنا ابن عباس وغيره ـ رضي الله عنهما ـ لا يصح. وقد رد المحققون من المحدثين والمفسرين، القصة أصلاً، وبينوا زيفها، ونقدوها سنداً ومتناً. يقول القاضي عياض في الشفاء (٢/ ٧٥٠): يكفيك في توهين هذا الحديث أنه لم يخرجه أحد من أهل الصحة، ولا رواه ثقة بسند صحيح سليم متصل. وإنما أولع به وبمثله المفسرون.

للمزيد راجع: تفسير القرطبي (١٢/ ٧٩) الألوسي (١٧/ ١٧٥ ـ ١٨٤) وكتاب الشفاء للقاضي عياض (٢/ ٧٥٠) والإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير: ص ٣١٤ وما بعدها.

الصلاة والسلام ـ عن الأنبياء، فقال: «مائةُ ألفٍ وأربعةٌ وعشرونَ ألفًا، قيل: فكم الرُّسُلُ منهم؟ قال: ثلاثمائةٍ وثلاثةَ عشَرَ، جمًّا غفيراً»(١).

﴿ إلاَّ إذا تمنَّى ﴾؛ هيأ في نفسه ما يهواه؛ كهداية قومه ومقاربتهم له، ﴿ ألقى الشيطانُ في أُمنيته ﴾؛ في تشهيه ما يوجب حصول ما تمناه، أو مقاربته، كما ألقى في مسامع قريش ما يُوجب مقاربتهم له ـ عليه الصلاة والسلام ـ ثم ينسخ الله ذلك. أو (إذا تمنى): قرأ، كما قال الشاعر:

تمنَّى كتابَ اللهِ أوَّلَ ليلَةٍ تمنِّيَ داودَ الزَّبُورَ على رِسْلِ

﴿ألقى الشيطان فى أُمنيته﴾: فى قراءته، حين قرأ سورة النجم بعد قوله: (ومناة الثالثة الأخرى)، تلك الغرانيق العلى، كما تقدم.

قال القشيرى: كانت لنبينا ﷺ سكتات، فى خلال قراءته عند قراءة القرآن، عند انقضاء كل آية، فتلفظ الشيطان ببعض الألفاظ، فمن لم يكن له تحصيل توهم أنه من ألفاظ الرسول.هـ. وقال ابن البنا: التمنى هو التلاوة التى يُتمنى فيها، فيتلو النبى وهو يريد أن يفهم عنه معناها، فيلقى الشيطان فى فهوم السامعين غير المعنى المراد، وماقال الزمخشرى: قرأ تلك الغرانيق العلى، على جهة السهو والغلط، فباطل، لقول الله العظيم: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾(٢)، فهو معصوم من السهو والغلط فى تبليغ الوحى هـ.

قلت: فتحصل أنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ لم ينطق بتلك الكلمات قط، لاسهواً ولا عمداً، وإنما أُلقيت فى مسامع الكفار ليحصل ما تمناه ـ عليه الصلاة والسلام ـ من المقاربة. ويدل على هذا أن من حضر من المسلمين لم يسمعوا من ذلك شيئاً، فإذا تقرر هذا علمت أن ماحكاه السلف الصالح من المفسرين وأهل السيَر من أصل القصة فى سبب نزول الآية صحيح، لكنه يحتاج إلى نظر دقيق وتأويل قريب، فلا تَحْسن المبادرة بالإنكار والرد عليهم، وهم عدول، لا سيما حبر هذه الأمة، وإنما يحتاج اللبيب إلى التطبيق بين المنقول والمعقول، فإنْ لم يمكن، قُدِّم المنقول، إن ثبتت صحته، وحكم على العقل بالعجز. هذا مذهب المحققين من الصوفية ـ رضى الله عنهم ـ ونسبة الإلقاء إلى الشيطان أدب وتشريع؛ إذ لافاعل في الحقيقة سواه تعالى.

﴿ فينسخ اللهُ ما يُلقي الشيطانُ ﴾ أى: يَذهب به ويُبطله، أو يُرشد إلى ما يزيحه، ﴿ ثم يُحْكِمُ اللهُ آياته ﴾ أى: يثبتها ويحفظها عن لحوق الزيادة من الشيطان، ﴿ والله عليمٌ حكيم ﴾ أى: عليم بما يوحى إلى نبيه، حكيم فى وحيه، لايدع الباطل يأتيه من بين يديه ولامن خلفه.

---

(١) أخرجه أحمد فى المسند (٥/٢٦٥)، والطبرانى فى الكبير (٨/٢٥٩)، عن أبى أمامة، أن أبا ذر سأل رسول الله ﷺ ... الحديث، وفيه: «وخمسةعشر»، وأخرجه، بلفظ المفسر، ابن حبان فى (العلم، باب السؤال للفائدة، ح ٩٤ موارد)، والبيهقى فى السنن الكبرى (٩/٤) عن أبى ذر.

(٢) الآيتان : ٣ - ٤ فى سورة النجم.

ثم ذكر حكمة ذلك الإلقاء، فقال: ﴿ ليجعل ما يُلقي الشيطانُ فتنةً ﴾ أي: محنة وابتلاء ﴿ للذين في قلوبهم مرضٌ ﴾: شك وشرك، ﴿ والقاسيةِ قلوبهم ﴾؛ البعيدة من الخير، الخارية من النور، واليابسة الصلبة، لارحمة فيها ولاشفقة؛ وهم المشركون المكذبون، فيزدادون به شكاً وظلمة. ﴿ وإنَّ الظالمين ﴾ وهم الكفرة المتقدمة، ووضع الظاهر موضع المضمر؛ تسجيلا عليهم بالظلم، ﴿ لفي شقاقٍ بعيد ﴾ أي: عداوة شديدة ومخالفة تامة بعيدة عن الحق.

﴿ وليعلم الذين أوتوا العلم ﴾ بالله ﴿ أنه ﴾ أي: القرآن ﴿ الحقُّ من ربك ﴾ أي: النازل من عنده ﴿ فيؤمنوا به ﴾ أي: بالقرآن ﴿ فتُخْبتَ ﴾: تطمئن، أو تخشع ﴿ له قلوبُهم ﴾ بالانقياد إليه والإذعان لما فيه، ﴿ وإنَّ الله لهادي الذين آمنوا إلى صراط مستقيم ﴾ بالنظر الموصل إلى الحق الصريح، فيتأولوا ما تشابه فى الدين بالتأويلات الصحيحة، ويطلبوا، لما أشكل منه، المحمل الذى تقتضيه الأصول المحكمة، حتى لا يلحقهم حيرة ولا تعتريهم شبهة. والله تعالى أعلم.

الإشارة: إذا وقع التعبير من جانب الحق فكل واحد من المستمعين يسمع ما يليق بمقامه ويقويه فيه. فأهل الباطل يسمعون ما يليق بباطلهم ويمدهم فيه، وأهل الحق يسمعون ما يليق بحقهم ويرقيهم، فأهل الإيمان يسمعون ما يقوى إيمانهم ويزيدهم يقيناً، وأهل الوصول يسمعون ما يليق بمقامهم ويرقيهم فيه، وهكذا. وتأمل قضية الثلاثة الذين سمعوا قائلا يقول: ياسعترا برى. فسمع أحدهم: اسْعَ تَرَ برى، وسمع الآخر: الساعة ترى برى... وسمع الثالث: ما أوسع برى، فالأول: طالب للوصول، فقال له: اسع تر برى، والثانى: سائر مستشرف على الوصول، فقال له: الساعة ترى برى، والثالث: واصل قد اتسع عليه ميدان النعم، فقال له: ما أوسع برى. وكل من قَدِم على الأولياء فإنما يسمع بحسب ما عنده؛ فمن قَدِمَ عليهم بالميزان لا يسمع إلا ما يبعده، ومن قَدِم بالتصديق والتعظيم لا يسمع ولا يرى إلا ما يقربه من الكمالات والأنوار. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر ضد الذين أوتوا العلم الذين تحققوا بحقية القرآن، فقال:

﴿ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ
عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُو۟لَٰٓئِكَ
لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓا۟ أَوْ مَاتُوا۟
لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٥٨﴾ لَيُدْخِلَنَّهُم
مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ولا يزال الذين كفروا في مرية﴾: شك ﴿منه﴾؛ من القرآن، أو الصراط المستقيم، ﴿حتى تأتيهم الساعةُ بغتةً﴾: فجأة، ﴿أو يأتيهم عذاب يوم عقيم﴾، وهو عذاب يوم القيامة، كأنه قيل: حتى تأتيهم الساعة أو عذابها، فزاد «اليوم العقيم»؛ لمزيد التهويل. واليوم العقيم: الذى لا يوم بعده، كأنَّ كل يوم يلد ما بعده من الأيام، فما لا يوم بعده يكون عقيمًا. وقيل: اليوم العقيم: يوم بدر، فهو عقيم عن أن يكون للكافرين فيه فَرح أو راحة، كالريح العقيم؛ لا تأتى بخير، أو لأنه لا مثل له فى عِظم أمره؛ لقتال الملائكة فيه، ولكن لا يساعده ما بعده، من قوله: ﴿الملكُ يومئذٍ لله﴾ أى: السلطان القاهر، والتصرف التام، يومئذ لله وحده، ولامنازع له فيه، ولا تصرف لأحد معه، لاحقيقة ولامجازًا، ولا صورة ولا معنىً، كما فى الدنيا، فإنَّ للبعض فيه تصرفًا مجازيًا صُوريًا. ﴿يحكم بينهم﴾ أى: بين فريق أهل المرية وأهل الإيمان

ثم بيَّن حكمه فيهم، فقال: ﴿فالذين آمنوا﴾ بالقرآن الكريم ولم يُماروا فيه، ﴿وعملوا الصالحات﴾ امتثالاً لما أمر به فى تضاعيفه ﴿في جنات النعيم﴾، ﴿والذين كفروا﴾ بالقرآن وشكوا فيه، أو بالبعث والجزاء، ﴿وكذَّبوا بآياتنا﴾ الدالة على كمال قدرتنا أو القرآن، ﴿فأولئك لهم عذابٌ مهين﴾، يُهينهم ويُخزيهم.

ثم خص قومًا من الفريق الأول بفضيلة، فقال: ﴿والذين هاجروا في سبيل الله﴾: خرجوا من أوطانهم مجاهدين، ﴿ثم قتلوا﴾ فى الجهاد، ﴿أو ماتوا﴾ حتف أنفهم، ﴿ليَرزقنَّهم الله رزقاً حسناً﴾، وهو ما لا ينقطع من نعيم الجنان. ومراتب الحسن متفاوته، فيجوز تفاوت حال المرزوقين، حسب تفاوت أرزاق الجنة. رُوى أن بعض أصحاب النبى ﷺ قالوا: يا نبى الله؛ هؤلاءِ الَّذين قُتلوا فى سَبِيل اللّهِ قَدْ علِمْنَا ما أعْطَاهُمُ اللهُ مِن الخَيْرِ، ونَحنُ نُجَاهِدُ مَعَكَ كَما جَاهَدُوا، فَمَا لَنَا مَعَكَ؟ فنزلت: (والذين هاجروا...) الآيتين. وقيل: نزلت فى طوائف خرجوا من مكة إلى المدينة، فتبعهم المشركون فقتلوهم.

ثم قال تعالى: ﴿وإن الله لهو خير الرازقين﴾، فإنه يرزق بغير حساب، مع أنَّ ما يرزقه لا يقدر عليه غيره، ﴿ليُدخِلنَّهم مُدْخلاً يرْضَوْنَه﴾، وهو الجنة؛ لأنَّ فيه ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، قيل: لَمَّا ذكر الرزق ذكر المسكن، ﴿وإن الله لعليمٌ حليمٌ﴾، عليم بأحوال من قضى نحبه مجاهدًا، وآمال من مات وهو ينتظره معاهدًا، حليم بإمهال من قاتلهم معاندًا.

الإشارة: من لم يصحب العارفين أهل الرسوخ واليقين، لا يمكن أن تنقطع عنه خواطر الشكوك والأوهام، حتى يلقى الله بقلب سقيم، فيُفضى إلى الهوان المقيم. والذين هاجروا فى طلب محبوبهم لتكميل يقينهم، ثم قتلوا قبل الوصول، أو ماتوا بعد الوصول، ليرزقنهم الله جميعًا رزقًا حسنًا، وهو لذة الشهود والعيان، فى مقعد صدق مع

المقربين، (وإن الله لهو خير الرازقين) . والمدخل الذى يرضونه: هو القرب الدائم، والشهود المتصل. جعلنا الله من خواصهم بمنّه وكرمه.

ولمّا ذكر ثواب من هاجر وقُتل فى سبيل الله، أو مات، أخبر أنه لا يدع نصرتهم فى الدنيا على من بغى عليهم، فقال:

﴿ ۞ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾ ﴾

قلت: (ذلك): خبر، أى: الأمر ذلك. و(من عاقب): شرط سدّ مسد جوابه، أى: من عاقب بمثل ماعُوقب به ينصره الله.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ذلك ﴾ أى: الأمر ذلك، كما أخبرتك فى بيان الفريقين، ثم استأنف فقال: ﴿ ومن عاقب بمثل ما عُوقبَ به ﴾ أى: لم يزد فى القصاص على ما فُعل به، وسمى الابتداء عقاباً؛ للمشاكلة ولملابسته له، من حيث إنه سبب له وهو مسبب عنه. ﴿ ثم بُغِىَ عليه لينصُرَنّه الله ﴾ أى: من جازى بمثل ما فُعل به من الظلم، ثم ظُلم، بعد ذلك، وبُغى عليه بعد ذلك، فحق على الله أن ينصره؛ ﴿ إنّ الله لعفوٌ ﴾ يمحو آثار الذنوب، ﴿ غفورٌ ﴾ يستر أنواع العيوب.

ومناسبة الوصفين لما قبلهما: أن المعاقب مأمور بالعفو من عند الله، بقوله: ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴾(١)، ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴾(٢)، فحين لم يفعل ذلك، وانتصر لنفسه، فكأنه مُذنب، فمعنى العفو فى حقه أنه لا يلزمه على ترك الفضل شيء، وأنه ضامن لنصره فى الكرة الثانية، إذا ترك العفو وانتقم من الباغى عليه، وعرّض، مع ذلك، بما كان أولى به من العفو بذكر هاتين الصفتين .

(١) من الآية ٤٠ من سورة الشورى.
(٢) الآية ٤٣ من سورة الشورى.

ثم ذكر دلائل قدرته على النصر وغيره بقوله: ﴿ذلك بأن الله يُولج الليلَ في النهار ويُولجُ النهارَ في الليل وأنَّ الله سميع بصيرٌ﴾ أي: ذلك النصر للمظلوم بسبب أنه قادر على ما يشاء. ومن آيات قدرته أنه (يُولجُ الليلَ فى النهار ويُولجُ النهارَ فى الليل) أى: يُدخل أحدهما فى الآخر، فيدخل الليلَ فى النهارِ إذا طال النهار، ويُدخل النهارَ في الليل إذا طال الليلُ، فيزيد فى أحدهما ما ينقص من الآخر. أو بسبب أنه خالق الليل والنهار ومصرفهما، بإدخال أحدهما على الآخر، فلا يخفى عليه ما يجرى فيهما على أيدى عباده من الخير والشر، والبغى والإنصاف. ﴿وأن الله سميع﴾ لما يقولون، لا يشغله سمع عن سمع، وإن اختلفت فى النهار الأصوات بفُنون اللغات، ﴿بصير﴾ بما يفعلون، فلا يستتر عنه شيء بشيء فى الليالى، وإن توالت الظلمات.

﴿ذلك بأن الله هو الحقُّ﴾ الواجب لذاته، الثابت فى نفسه، الواحد فى صفاته وأفعاله، فإن وجوب وجوده ووحدته يقتضيان كونه مُبدياً لكل ما يوجد من الموجودات، عالماً بكل المعلومات. وإذا ثبت أنه الحق فدينُه حق، وعبادته حق، ﴿وأن ما تدعون(١) من دونه﴾ إلهًا ﴿هو الباطل﴾ أى: المعدوم فى حد ذاته. أو الباطل ألوهيته، ﴿وأن الله هو العليُّ الكبيرُ﴾ أى: المتعالى عن مدارك العقول، وعن سمات الحدوث، أو المرتفع على كل شيء بقهريته، أو المتعالى عن الأنداد والأشباه، الكبير شأناً وعظمةً وكبرياء؛ إذ كل شيء يصغر دون كبريائه، فلا شيء أعلى منه شأناً وأكبر سلطانا؛ لأن له الوجود المطلق. والله تعالى أعلم.

الإشارة: ومن عاقب نفسه وجاهدها وأدّبها فى أيام اليقظة، بمثل ما عاقبته وجنت عليه وطغت فى أيام الغفلة، ثم صرعته بعد ذلك وغلبته؛ لينصرنه اللهُ عليها، حتى يغلبها ويملكها، فكلما هاجت عليه هجم عليها، حتى يملكها؛ ذلك بأن الله يُولج ليلَ المعصية فى نهار الطاعة، ويولجُ نهارَ الطاعة فى ليلِ المعصية، أى: يدخل أحدهما على الآخر، فلا يزال العبد يعصى ويطيع حتى يمنَّ عليه بالتوبة النصوح. أو يولج ليل المعصية فى نفس الطاعة، فتنقلب الطاعة معصية، إذا صحبها علو واستكبار. ويولج نهار الطاعة فى عين المعصية، فتنقلب طاعة إذا صحبها ذل وافتقار. ذلك بأن الله هو الحق، وأن ما دونه باطل.

---

(١) قرأ أبو عمرو، وحمزة والكسائى وحفص ويعقوب، بالياء، على الغيب. وقرأ الباقون بالتاء، على الخطاب.. انظر الإتحاف (٢٧٩/٢)

ثم ذكر دليلاً آخر على قدرته، فقال:

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾ ﴾

قلت: (فتصبح): عطف على «أنزل»، والعطف بالفاء أغنى عن الضمير، وإيثار صيغة الاستقبال؛ للإشعار بتجدد أثر الإنزال، وهو الاخضرار واستمراره، أو لاستحضار صورة الاخضرار، وإنما لم ينصب جواباً للاستفهام؛ لأنه لو نصب لبطل الغرض؛ لأن معناه في الرفع إثبات الاخضرار، فينقلب في النصب إلى نفيه، كما تقول لصاحبك: ألم تر أني أنعمت عليك فتشكر، إن نصبته نفيت شكره، وشكوت من تفريطه، وإن رفعته أثبت شكره.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ألم ترَ﴾ يا محمد، أو يا من يسمع، ﴿أن الله أنزل من السماء ماءً﴾؛ مطراً ﴿فتصبحُ الأرض مخضرةً﴾ بالنبات، بعدما كانت مسودة يابسة، ﴿إنَّ الله لطيفٌ﴾ بعباده، أو في ذاته لايدرك، ﴿خبيرٌ﴾ بمصالح خلقه ومنافعهم، أو اللطيف المختص بدقائق التدبير، الخبير بكل جليل وحقير، قليل وكثير. ﴿له ما في السموات وما في الأرض﴾؛ مُلكاً ومِلْكاً، قد أحاط بهم؛ قدرةً وعلماً، ﴿وإنَّ الله لهو الغني﴾ عن كل شيء، المفتقر إليه كل شيء، ﴿الحميد﴾: المحمود بنعمته، قبل ثناء من في السموات والأرض عليه، أو المستحق للحمد، أعطى أو لم يعط.

ثم ذكر موجب الحمد من عباده، فقال: ﴿ألم ترَ أن الله سخَّر لكم ما في الأرض﴾ من الأنعام؛ لتأكلوا منها، ومن البهائم؛ لتركبوها في البر، ﴿والفُلكَ تجري في البحر بأمره﴾: بقدرته وإذنه، أي: وسخر لكم المراكب حال كونها جارية في البحر بإذنه، ﴿ويُمسكُ السماءَ أن تقعَ على الأرضِ﴾ أي: يحفظها من السقوط، بأن خلقها على هيئة متداعية إلى الاستمساك، ﴿إلا بإذنه﴾: إلا بمشيئته، وذلك يوم القيامة، وفيه رد لاستمساكها بذاتها؛ فإنها مساوية لسائر الأجسام في الجسمية، فتكون قابلة للميل الهابط قبولَ غيرها. ﴿إنَّ الله بالناس لرؤوفٌ رحيمٌ﴾؛ حيث هيأ لهم هذه الأسباب لقيام معاشهم، وفتح لهم أبواب المنافع، ودفع عنهم أنواع المضار، فأوضح لهم مناهج الاستدلال بالآيات التكوينية والتنزيلية، فله الحمد وله الشكر.

الإشارة : ألم تر أن الله أنزل من سماء المعانى ماء علم الغيوب، وهو علم أسرار الذات وأنوار الصفات، أعنى: التوحيد الخاص، فإذا نزل على أرض النفوس، اهتزت وربت، واخضرت بالعلوم والمعارف، إن الله لطيف خبير، لطيف؛ لسريان معانيه اللطيفة فى كل شيء، خبير ببواطن كل شيء، فمن كوشف بلطيف معانيه وإحاطة علمه فى كل شيء، وبكل شيء، حيى قلبه بمعرفة الله، واخضرت أرض نفسه بأنواع العلوم والمعارف .ألم تر أن الله سخر لكم ما فى الأرض، يكون عند أمركم ونهيكم، وفلك الفكرة تجرى فى بحر التوحيد بأمره، ويُمسك سماء الأرواح أن تقع على أرض الحظوظ إلا بإذنه، بعد الرسوخ فى معرفته، والتمكين من الفهم عنه، إن الله بالناس لرؤوف رحيم؛ حيث فتح لهم باب العلوم، وهيأ لهم أسباب الفهوم، وهى الرياضة والتأديب.

ثم ذكر دليلاً آخر على قدرته، فقال:

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحۡيَاكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَـٰنَ لَكَفُورٞ ﴿٦٦﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿وهو الذي أحياكم﴾ بعد أن كنتم جماداً، عناصر ونطفًا فى الأصلاب والأرحام، حسبما فُصل فى صدر السورة، ﴿ثم يُميتكم﴾ عند مجيء آجالكم، ﴿ثم يُحييكم﴾ عند البعث، لإيصال جزائكم، ﴿إنَّ الإنسان لكفور﴾ : لَجَحُود لِمَا أفاض عليه من ضروب النعم، ودفع عنه من صنوف النقم، أو لا يعرف نعمة الإيجاد المُظهرة للوجود، ولا نعمة الإمداد الممدة بعد الوجود، ولا نعمة الإفناء المقربة إلى الموعود، ولا نعمة الإحياء الموصلة إلى المقصود، وهو التنعم فى جوار الملك الودود، فله الحمد دائماً وله الشكر.

الإشارة : وهو الذى أحياكم باليقظة بعد الغفلة، وبالعلم بعد الجهل، ثم يميتكم عن حظوظ نفوسكم وهواها، ثم يُحييكم بالمعرفة به، حياةً لا موت بعدها، فمن لم يعرف هذا فهو كنود.

ولا يُمكن الوقوف على هذه النعم والقيام بشكرها، إلا بالتمسك بالشرع والوحي الإلهى، الذى أنزل اللهُ على كل أمة، كما أبان ذلك بقوله:

﴿ لِّكُلِّ أُمَّةٖ جَعَلۡنَا مَنسَكًا هُمۡ نَاسِكُوهُۖ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِى ٱلۡأَمۡرِۚ وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ
إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدٗى مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٦٧﴾ وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿٦٨﴾ ٱللَّهُ يَحۡكُمُ
بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِى

ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ﴿٧٠﴾ وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَمَا لَيۡسَ لَهُم بِهِۦ عِلۡمٞۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٖ ﴿٧١﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله : ﴿لكل أمة﴾ من الأمم الخالية والباقية ﴿جعلنا﴾ أي: وضعنا، وعيَّنا ﴿منسكاً﴾: شريعة خاصة يتمسكون بها، أي: عيَّنا كل شريعة لأمة معينة من الأمم، بحيث لا تتخطى أمة منهم شريعتها المعينة لها إلى شريعة أخرى، لا استقلالاً ولا اشتراكاً، فكل جيل لهم شرع مخصوص، ﴿هم ناسكوه﴾: عاملون به، فالأمة التى كانت من مبعث موسى إلى مبعث عيسى ـ عليهما السلام ـ منسكهم التوراة، هم عاملون به لاغيرهم. والتى كانت من مبعث عيسى عليه السلام إلى مبعث النبى ﷺ منسكهم الإنجيل، هم ناسكوه وعاملون به. وأما الأمة الموجودة عند مبعث النبى ـ عليه الصلاة والسلام ـ ومن بعدهم إلى يوم القيامة؛ فهم أمة واحدة، منسكهم القرآن، ليس إلا.

والفاء فى قوله: ﴿فلا ينازعنك في الأمر﴾ لترتيب ما بعدها على ما قبلها؛ فإن تعيين كل أمة بشرع مخصوص، يجب اتباعه، يُوجب اتباع هؤلا الموجودين لرسول الله ﷺ وعدم منازعتهم له فى أمر الدين، أى: فلا يجادلنك فى أمر الدين، بل يجب عليهم الاستسلام والانقياد لكل أمر ونهى. أو: فلا تلتفت إلى قولهم، ولا تمكنهم من أن ينازعوك فى الأمر، أى: أمر الدين أو أمر الذبائح. قيل: نزلت حين قال المشركون للمسلمين: ما لكم تأكلون ما قتلتم، ولا تأكلون ما قتله الله؟ يعنى: الميتة، فأمر الله بالغيبة عنهم، وعدم الالتفات إلى قولهم. ﴿وادع إلى ربك﴾ أى: دم على الدعاء إلى الله، والتمسك بدينه القويم؛ ﴿إنك لعلى هُدىً مستقيم﴾: طريق قويم موصل إلى الحق.

﴿وإن جادلوك﴾ بعد ظهور الحق؛ مراء وتعنتاً، كما يفعله السفهاء، بعد اجتهادك ألاَّ يكون بينك وبينهم تنازع وجدال، ﴿فقل اللهُ أعلمُ بما تعملون﴾ أى: فلا تجادلهم، وادفعهم بهذا القول، والمعنى: إن الله عالم بأعمالكم وماتستحقون عليها من الجزاء، فهو يُجازيكم به. وهذا وعيد وإنذار، ولكن برفق ولين، يُجيب به العاقلُ كلَّ متعنت سفيه. قال تعالى: ﴿اللهُ يحكمُ بينكم يومَ القيامة فيما كنتم فيه تختلفون﴾ من أمر الدين، وهو خطاب من الله تعالى للمؤمنين والكافرين، تسلية لرسول الله ﷺ مما كان يلقى منهم.

﴿ألم تعلمْ أن الله يعلمُ ما في السماء والأرض﴾، الاستفهام للتقرير، أى: قد علمت أن الله يعلم كل ما يحدث فى السماء والأرض، ولا يخفى عليه شيء من الأشياء، ومن جملتها: ما تقوله الكفرة وما يعملونه، ﴿إنَّ ذلك في كتاب﴾؛ فى اللوح المحفوظ، ﴿إنَّ ذلك على الله يسير﴾ أى: علمه بجميع ذلك عليه يسير، فلا يخفى عليه

معلوم، ولا يعسُر عليه مقدور. ﴿ ويعبدونَ من دون الله ﴾ أي: متجاوزين إياه، مع ظهور دلائل عظمته وقدرته وتوحيده، ﴿ مالم يُنزل به سلطاناً ﴾: حجة وبرهاناً، ﴿ وما ليس لهم به علمٌ ﴾ أي: وما ليس لهم بجواز عبادته علم؛ من ضرورة أو استدلال، أي: لم يتمسكوا فى عبادتهم لها ببرهان سماوى من جهة الوحى، ولا حملهم عليها دليل عقلى، بل لمجرد التقليد الردىء، ﴿ وما للظالمين من نصير ﴾ أي: وما للذين ارتكبوا مثل هذا الظلم العظيم من أحد ينصرهم، أو يصوب مذهبَهم، أو يدفع العذاب عنهم، حين يعتريهم بسبب ظلمهم. والله تعالى أعلم

الإشارة: كما اختلفت الشرائع باختلاف الملل، اختلفت التربية باختلاف الأشخاص والأعصار، وقد تقدم عند قوله: ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾(١). وجملتها ترجع إلى الهمة والحال، وبهما كانت التربية فى الصدر الأول، فكانت الملاقاة والصحبة تكفى، ويحصل التهذيب والتصفية وكمال المعرفة. وذلك فى زمان الصحابة والتابعين إلى القرن الثالث؛ لقربهم من النور النبوى. فلما بَعُد الأمر، وأظلمت القلوب، أحدثوا تربية الاصطلاح، وهو التزيى بزى مخصوص، كالمرقعة وحمل السبحة فى العنق، والركوة، وغير ذلك من مسائل التجريد، وترتيب أمور تموت بها النفوس وتعالج بها القلوب، واستعمال أوراد مخصوصة، فكانت التربية حينئذ بالهمة والحال والاصطلاح. وقد تحصل التربية لمن له الهمة والحال بغير اصطلاح، إذا رآه ينجع فيه ذلك، فبقى الأمر كذلك إلى القرن التاسع، فتصدى للتربية بالاصطلاح قوم مُدَّعُون، لا همة لهم ولاحال، فقال الحضرمى حسمًا لهذه الدعوى: قد انقطعت التربية بالاصطلاح، وما بقى إلا الهمة والحال، فعليكم بالكتاب والسنة، أي: بظاهر الكتاب والسنة من غير زيادة ولا نقصان، يعنى طريق الأحوال والاصطلاح. ومراده بذلك: قطع التربية بالاصطلاح من غير همة ولاحال. وأما من له الهمة والحال فلا يقصد الحضرمى قطع تربيته بالاصطلاح. والحاصل: أن الحضرمى ما حكم إلا على وقته؛ لِمَا رأى من الفساد الذى دخل فى التربية. وقد وُجد بعده رجال مُربون بالاصطلاح مع الهمة والحال. والمراد بالهمة: العلم بالله على نعت الشهود والعيان، وبالحال: إنهاض القلوب عند رؤيته لذكر الله؛ لقوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ «خَيْرُكُمْ مَنْ إذا رُؤوا ذُكِر اللّهُ» . ولابد من إذن خاص من الشيخ، أو من يقوم مقامه، وإلا فلا تنجح تربيته، ولا ينهض حاله. والله تعالى أعلم.

فإن تأهلتَ للتربية بإذن خاص، فلا ينازعنك فى الأمر، أى: لا تلفت إلى من ينازعك ويحتج عليك بانقطاع التربية؛ تعنتًا وعناداً. وادع إلى ربك، إنك لعلى هدى مستقيم. قال القشيرى: قوله: (وإن جادلوك...) الخ، أى:

---

(١) من الآية ٤٨ من سورة المائدة.

كلِّهم إلينا، عندما راموا أمر الجدال، ولا تتكل على ما تختاره من الاحتيال، واحذر جنوحَ قلبك إلى الاستغاثة بالأمثال والأشكال؛ فإنهم قوالبُ خاوية. وأشباحٌ من رؤية المعاني خالية. هـ. ويوم القيامة يظهر المحق من المبطل، ويقال في شأن من يعبد هواه: (ويعبدون من دون الله...) الآية.

ثم ذكر وصفاً آخر لأهل الإنكار، فقال:

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾ ﴾

قلت: (وإذا تتلى): عطف على «يعبدون»، وصيغة المضارع؛ للدلالة على الاستمرار التجددي.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وإذا تُتلى عليهم﴾ أي: على المشركين ﴿آياتُنا﴾ القرآنية، حال كونها ﴿بينات﴾ : واضحات الدلالة على العقائد الحقية، والأحكام الصادقة، ﴿تعرفُ في وجوه الذين كفروا المنكرَ﴾ أي: الإنكار بالعبوس والكراهة، فالمُنكَر: مصدر بمعنى الإنكار. ﴿يكادون يسطُون﴾ : يبطشون، والسطو: الوثب والبطش، أي. يثبون على الذين ﴿يتلُون عليهم آياتنا﴾ ؛ من فرط الغيظ والغضب، والتالون هم: النبي ﷺ وأصحابه. ﴿قلْ﴾ لهم: ﴿أفأنبئُكُم بشرٍ من ذلكم﴾ ؛ من غيظكم على التالين وسطوكم عليهم، أو مما أصابكم من الكراهة والضجر، بسبب ما يتلى عليكم، هو ﴿النارُ وَعَدها اللهُ الذين كفروا﴾ مثلكم، ﴿وبئس المصيرُ﴾ النار، التي ترجعون إليها مخلدين.

الإشارة: من شأن أهل العتو والتكبر أنهم إذا وعظهم الفقراء عنفوا واستنكفوا، ويكادون يسطون عليهم من شدة الغضب، فما قيل لكبراء الكفار يجرُ ذيله على من تشبه بهم من المؤمنين.

ولمّا كان دعواهم الشريك لله تعالى جارية في الغرابة والشهرة مجرى الأمثال السائرة، ضرب لها الحق تعالى مثلاً، فقال:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ

﴿ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ يا أيها الناس ضُرب مثلٌ ﴾ أي: بُيِّن لكم حالٌ مستغربة، أو قصة بديعة رائقة حقيقة بأن تسمى مثَلاً، وتنشر في الأمصار والأعصار، ﴿ فاستمعوا له ﴾؛ لضرب هذا المثل؛ استماع تدبر وتفكر، وهو: ﴿ إنّ الذين تدْعُون ﴾، وعن يعقوب: بياء الغيبة، أي: إن الذين تدعونهم آلهة وتعبدونهم ﴿ من دون الله لن يخلقُوا ذُباباً ﴾ أي: لن يقدروا على خلقه أبداً، مع صغره وحقارته. و«لن»: لتأبيد النفي، فتدل على استحالته، ﴿ ولو اجتمعوا له ﴾ أي: الذباب. ومحله: نصب على الحال، كأنه قال: لا يقدرون على خلقه مجتمعين له، متعاونين عليه، فكيف إذا كانوا منفردين؟! وهذا أبلغ ما أُنزل في تجهيل قريش، حيث وَصَفوا بالألوهية ـ التي من شأنها الاقتدار على جميع المقدورات، والإحاطة بكل المعلومات ـ صُوراً وتماثيل، يستحيل منها أن تقدر على أضعف ما خلقه الله تعالى وأذله، ولو اجتمعوا له.

﴿ وإن يسلبْهُمُ الذبابُ شيئاً ﴾ من الطيب وغيره، ﴿ لا يستنقذوه منه ﴾ أي: هذا الخلق الأرذل الأضعف، لو اختطف منهم شيئًا فاجتمعوا على أن يستخلصوه منه، لم يقدروا، وعن ابن عباس رضي الله عنه: أنهم كانوا يطلُونها بالعسل والطيب، ويغلقون عليها الأبواب، فيدخل الذبابُ مِن الكُوى[1] فيأكله، فتعجز الأصنام عن أخذه. ﴿ ضَعُفَ الطالبُ ﴾: الصنمُ بطلب ما سُلب منه، ﴿ والمطلوبُ ﴾: الذبابُ بما سَلَب. وهذا كالتسوية بينهم وبين الذباب في الضعف، ولو حققت لوجدت الطالب أضعفَ وأضعفَ؛ فإنّ الذباب حيوان والصنم جماد.

﴿ ما قَدَروا الله حقَّ قدره ﴾: ما عرفوه حق معرفته، حيث جعلوا هذا الصنم الضعيف شريكًا له، ﴿ إن الله لقويٌ عزيزٌ ﴾ أي: قادر غالب، فكيف يتجه أن يكون العاجز المغلوب شبيهاً له! أو: لقوي ينصر أولياءه، عزيز ينتقم من أعدائه. بَعْدَ أن ذكر تعالى أنهم لم يقدروا له قدراً؛ حيث عبدوا معه من هو منسلخ من صفاته، وسموه باسمه مع عجزه. ختم بصفتين منافيتين لصفات آلهتهم؛ وهي القوة والغلبة. والله تعالى أعلم.

الإشارة: كل من تعلق في حوائجه بغير الله أوركن بالمحبة إلى شيء سواه، فقد أشرك مع الله أضعف شيء وأقله. فماذا يجدي تعلقُ العاجزُ بالعاجز، والضعيف بالضعيف، ضَعف الطالبُ والمطلوب. فما قدر الله حقَ قدره من تعلق في أموره بغيره. قال الورتجبي: بيَّن سبحانه ـ بعد ذكر عجز الخلق والخليقة ـ جلال قدره الذي لا يعرفه غيره، بقوله: (ما قدروا الله حق قدره)، قال: وهذه شكاية عن إشارة الخلق إليه بما هو غير موصوف به، فذكر

---

(١) الكُوى: جمع كوَّة، ويجمع أيضا على كِواء. وهي الخرق في الحائط. انظر: اللسان (كوى ٥/٣٩٦٤). والخبر: ذكره البغوي في تفسيره (٥/٤٠٠).

غيرته؛ إذ أقبلوا إلى غير من هو موصوف بالقوة الأزلية والعزة السرمدية. ألا ترى كيف قال: (إن الله لقوىٌّ عزيزٌ)، ثم بيّن أنه تعالى اصطفى من الملائكة رسلاً، يخبرون عنه ما يتعلق بعجز الخلق عن إدراكه من وصف ذاته وصفاته، بقوله:

﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٧٦﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿الله يصطفي﴾: يختار ﴿من الملائكة رُسلاً﴾ يرسلهم إلى صفوة خلقه، كجبريل وميكائيل وإسرافيل وغيرهم، ﴿ومن الناس﴾، كإبراهيم وموسى وعيسى ونبينا محمد ﷺ، يُعرّفون بجلال الله ومعرفة قدره، حتى يقدروه حق قدره باعتبارهم لاباعتباره؛ فإنّ الله تعالى لا يمكن لأحد أن يقدرهُ حق قدره. قال سيد العارفين: «لا أُحصى ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك». وقيل: نزلت؛ رداً لما أنكروه من أن يكون الرسول من البشر، وبياناً أن رُسل الله على ضربين: ملك وبشر. وقيل: نزلت فى قولهم: ﴿أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا﴾(١). ﴿إن الله سميع بصير﴾ أى: سميع لقولهم، بصير بمن يختاره للرسالة. أو سميع لأقوال الرسل، بصير بأحوال الأمم فى الردّ والقبول. ﴿يعلم ما بين أيديهم﴾: ما مضى، ﴿وما خلفهم﴾: ما يأتى، أو ما عملوا وما سيعملونه، أو أمر الدنيا وأمر الآخرة، ﴿وإلى الله تُرجع الأمور﴾ أى: إليه مرجع الأمور كلها، ليس لأحد أن يعترض عليه فى حكمه وتدبيره واختياره مَن شاء مِن رُسلِه. والله تعالى أعلم.

الإشارة: شرب الخمرة، وهى المحبة الحقيقية والمعرفة الكاملة، لاتكون إلاّ على أيدى الوسائط، والنادر لاحكم له، فالأنبياء وسائطهم الملائكة، والأولياء وسائطهم خلفاء الأنبياء، وهم أهل العلم بالله الذوقى العِيانى. وقال الورتجبى - إثرما تقدم عنه -: فالملائكة وسائط الأنبياء، والأنبياء وسائط العموم، والأولياء للأولياء خاصة. هـ. وتوسيط الأنبياء للعموم فى مطلق المحبة، وتعليم ما يقرب إليها، وأما المحبة الحقيقية فهى خاصة بالأولياء للأولياء، كما قال. وبالله التوفيق.

ثم ذكر سببها، وما يقرب إليها، فقال:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا

(١) من الآية ٨ من سورة ص.

ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾ وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾ ﴾

قلت : (ملة أبيكم) : منصوب بمحذوف، أى: اتبعوا ملة إبراهيم.

يقول الحق جل جلاله : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا ﴾ فى صلاتكم، وكانوا أول ما أسلموا يصلون بلا ركوع وسجود، فأمروا أن تكون صلاتهم بركوع وسجود، وفيه دليل على أن الأعمال ليست من الإيمان، وأن هذه السجدة للصلاة لا للتلاوة، قاله النسفى. ﴿ واعبدوا ربكم ﴾ أى: واقصدوا بعبادتكم وجه الله، وأخلصوا فيها، أو هو عطف عام على خاص؛ فإن العبادة أعم. ﴿ وافعلوا الخير ﴾ كله. قيل: لما كان للذكر مزية على غيره دعا المؤمنين أولاً للصلاة التى هى ذكر خالص؛ لقوله: ﴿ وَأَقِمِ الصَّلاَةَ لِذِكْرِى ﴾(١)، ثم إلى العبادة بغير الصلاة، كالصوم والحج، ثم عم بالحث على سائر الخيرات. وقال ابن عرفه: وافعلوا الخير: راجع للعبادة المتعدية، وما قبله يختص بالقاصرة. قال المحشى: وفيه نظر؛ لشمول العبادة لما هو متعدى النفع، كتعليم العلم، والصدقة، ونحو ذلك، بل أمر أولاً بالصلاة، وهى نوع من العبادة، وثانياً بالعبادة، وهى نوع من فعل الخير، وثالثاً بفعل الخير، وهو أعم من العبادة. فبدأ بخاص ثم عام ثم بأعم. هـ. ﴿ لعلكم تُفلحون ﴾: كى تفوزوا، أى: افعلوا هذا كله، وأنتم راجون للفلاح غير مستيقنين، فلا تتكلوا على أعمالكم.

﴿ وجاهدوا في الله ﴾ أى: فى ذات الله ومن أجله ﴿ حقَّ جهاده ﴾، أمرٌ بالغزو وبمجاهدة النفس والهوى، وهو الجهاد الأكبر، ومنه: كلمة حق عند أمير جائر. قال ـ عليه الصلاة السلام ـ: «أعمال البر كلها، إلى جنب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، كنفثة إلى جنب البحر، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر إلى جنب الجهاد فى سبيل الله عز وجل كنفثة فى بحر، والجهاد فى سبيل الله عز وجل إلى جنب مجاهدة النفس عن هواها فى اجتناب النهى، كنفثة فى جنب بحر لجى» . وهذا على معنى الخبر الذى جاء: «جئتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر»(٢). يعنى: مجاهدة النفس. قاله فى القوت.

(١) من الآية ١٤ من سورة طه.

(٢) أخرجه الديلمى فى مسند الفردوس (تسديد القوس، باب القاف، قدمت من الجهاد الأصغر)، والخطيب البغدادى فى تاريخ بغداد (٥٢٣/١٣) من حديث جابر، بألفاظ مقاربة، وآخره: «وما الجهاد الأكبر؟ قال: مجاهدة العبد هواه». وإسناده ضعيف. راجع الفتح السماوى (٨٥١/٢)، وكشف الخفاء (٥١١/١).

قال القشيري: حق الجهاد ما يوافق الأمر في القَدْر والوقتِ والنوعِ، فإذا حصل في شيء منه مخالفة فليس حقَّ جهاده. هـ. قلت: موافقة القَدْر، في جهاد النفس، أن يكون بغير إفراط ولاتفريط، فالإفراط يُمل، والتفريط يُخل، وموافقة الوقت أن يكون قبل حصول المشاهدة؛ إذ لا تجتمع مجاهدة ومشاهدة في وقت واحد. والنوع أن يجاهدها بما يُباح في الشرع، لا بمحرم ولامكروه. وقال في الحاشية: هو الوفاء بالمشروع مع رفع الحرج، بدليل ما بعده، فهو موافق لقوله تعالى: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾(١)، ومما هو ظاهر في الآية: الذب عن دينه وتغيير المناكر. هـ.

﴿ هو اجتباكم ﴾: اختاركم لدينه بإظهاره والذب عنه ، وهو تأكيد للأمر بالجهاد، أي: وجب عليكم أن تجاهدوا؛ لأنَّ الله اختاركم لإظهار دينه، ﴿ وما جعلَ عليكم في الدين من حَرجٍ ﴾: ضيقٍ، بل وسع عليكم في جميع ما كلفكم به، من الطهارة، والصلاة والصوم والحج، بالتيمم والإيماء، وبالقصر في السفر، والإفطار لعذر، وعدم الاستطاعة في الحج. فاتبعوا ﴿ ملة أبيكم إبراهيم ﴾؛ فإن ما جاءكم به رسولكم موافق لملته في الجملة، لقوله ﷺ: «جئتكم بالحنيفية السمْحة»(٢).

وسماه أباً، وإنْ لم يكن أباً للأمة كلها؛ لأنه أبو رسول الله ﷺ فكان أباً لأمته؛ لأن أمة الرسول في حكم أولاده. قال ﷺ: «إنَّما أنَا لكُمْ مِثْلُ الوالدِ»(٣).

﴿ هو سماكم المسلمين ﴾ أي: الله، بدليل قراءة أُبي: «الله سماكم» أو إبراهيم لقوله: ﴿ ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ﴾(٤) ﴿ من قبلُ ﴾ أي: سماكم من قبل ظهورهم في الكتب السالفة، ﴿ وفي هذا ﴾ أي: القرآن، فقد فضلكم على سائر الأمم، وسماكم بهذا الاسم الأكرم، ﴿ ليكون الرسولُ شهيداً عليكم ﴾ أنه قد بلغكم رسالة ربكم، ﴿ وتكونوا شهداء على الناس ﴾ بتبليغ الرسل رسالات الله إليهم. وإذاخصكم بهذه الكرامة والأثرة ﴿ فأقيموا الصلاة ﴾ بواجباتها، ﴿ وآتوا الزكاة ﴾ لشرائطها، ﴿ واعتصموا بالله ﴾ أي ثقوا به وتوكلوا عليه، لا بالصلاة والزكاة. أو: ثقوا به في جميع أموركم، ولا تطلبوا الإعانة والنصر إلا منه. ﴿ هو مولاكم ﴾: مالككم وناصركم ومتولي أموركم، ﴿ فنعم المولى ﴾؛ حيث لم يمنعكم رزقكم بعصيانكم، ﴿ ونعمَ النصير ﴾ أي: الناصر؛ حيث أعانكم على طاعتكم ومجاهدة نفوسكم وأعدائكم.

(١) من الآية ١٦ من سورة التغابن.
(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند (٥/٢٦٦)، والطبراني في الكبير (٨/٢٥٧ رقم ٧٨٦٨) من حديث أبي أمامة بلفظ: «إني لم أبعث باليهودية ولا النصرانية، ولكني بعثت بالحنيفية السمحة».
(٣) بعض حديث أخرجه أبو داود في (الطهارة، باب كراهية استقبال القبلة عند قضاء الحاجة)، والنسائي في (الطهارة، باب النهى عن الاستطابة بالروث)، وابن ماجة في (الطهارة، باب الاستنجاء بالحجارة)، والدارمي في (الطهارة، باب الاستنجاء بالأحجار) عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.
(٤) من الآية ١٢٨ من سورة البقرة.

الإشارة: يا أيها الذين آمنوا تقربوا إليّ بأنواع الطاعات وبالمسارعة إلى الخيرات، لعلكم تفوزون بمعرفة أسرار الذات وأنوار الصفات، وجاهدوا نفوسكم بأنواع المجاهدات، كي أجتبيكم وأنزهكم في أسرار ذاتي، فإني قد اجتبيتكم قبل كونكم في أزل أزلي. وكأنه يشير إلى قوله: «لايزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أُحبه، فإذا أحببتُه كنت سمعه الذي يسمع به...» الحديث.

والمأمورُ به من التقرب والمجاهدة قدر الاستطاعة، من غير تشديد ولاتعقيد، لقوله: (وما جعل عليكم في الدين من حَرج)؛ لأن مبنى الشرع الكريم على السهولة، فالذي يتوصل إلى رضوانه أو صريح معرفته، لا يشترط أن يستغرق كنه إمكان العبد فيه. «لو كنت لاتصل إليه إلا بعد فناء مساوئك ومحو دعاويك، لم تصل إليه أبداً، ولكن إذا أراد أن يُوصلك إليه غطى وصفك بوصفه، ونَعْتَكَ بنعته، فوصلك بما منه إليك، لا بما منك إليه». كما في الحِكَم.

وقال الورتجبي: (وما جعل..) الآية، أي: إذا شاهدتم مشاهد جمالي سهل عليكم فناؤكم في جلالي، وسهل عليكم بذل مهجكم إليه. ألا ترى كيف قال: (ملةَ أبيكم إبراهيم)، ومن ملته: الاستسلام والانقياد، وبذل الوجوه بنعت السخاء والكرم، يا أسباط خليلي، رأى أبوكم استعداد هذه المراتب الشريفة فيكم، قبل وجودكم بنور النبوة، فسماكم المسلمين، أي: منقادين بين يديّ، عارفين بوحدانيتي. وفيما ذكرنا من أوصافكم، حبيبي شاهد عليكم، يعرف هذه الفضائل منكم، وهو بلغكم نشْر فضائلي عليكم. ثم قال: اطلبوا الاعتصام مني، استعينوا لأقويكم في طاعتي. ثم قال: (فنعم المولى) حيث لا مولى غيره، (ونعم النصير) حيث لا يُخذل من نصره؛ فإن الله عزيز ممتنع من نقائص النقص. قال جعفر في قوله: (حق جهاده): ألاّ تختارَ عليه شيئاً، كما لم يختر عليك؛ لقوله: (هو اجتباكم). هـ.

وقوله تعالى: (وتكونوا شهداء على الناس...) الآية، أي: اجتباكم واختاركم وسماكم مسلمين، لتكونوا مرضيين عدولاً، تشهدون على الأمم، كما يشهد محمد ﷺ عليكم ويزكيكم، فهو كقوله تعالى: ﴿ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ... ﴾(١) إلخ. وإذ قد خصكم بهذه الكرامة والأثرة فاعبدوه وثقوا به، ولاتطلبوا الولاية والنصرة إلا منه، فهو خير ولي وناصر، ومن كان الله تعالى مولاه وناصره فقد أفلح وفاز، ولذلك افتتح السورة التي تليها به. وبالله التوفيق. وهو الهادي إلى سواء الطريق.

❁ ❁ ❁

(١) من الآية ١٤٣ من سورة البقرة.

سُورَةُ المُؤْمِنُونَ

مكية. وهى مائة وثمانى عشرة آية، قيل: مناسبة افتتاح السورة بالفلاح أنه قال فيما قبلها: ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (١)؛ على سبيل الرجاء، وحققه هنا بشرطه فى الجملة، ثم لمَّا ذكر وراثة المتصف بتلك الأوصاف للفردوس، وذلك يتضمن المعاد، ذكر النشأة الأولى؛ دلالة على صحته، أى: المعاد، ثم لمَّا ذكر ابتداء خلق الإنسان وانتهاء أمره ذكَّره بنعمه، فقال: ﴿لقد خلقنا فوقكم سبع طرائق﴾، ﴿وأنزلنا﴾، ﴿فأنشأنا﴾.. الآيات، ولمَّا كانت هذه النعم على الإنسان تقتضى منه الشكر بالطاعة والتوحيد للكريم المنَّان، ثم إن أصنافاً من الكفرة قابلوها بالكفران، فلذلك ذكر قصصهم بعد ذكرها، بقوله: ﴿ولقد أرسلنا نوحا...﴾ إلخ. فهذا ما تضمنته السورة من الترتيب، قال تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢)
وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (٣) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (٤) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ
حَافِظُونَ (٥) إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٦) فَمَنِ
ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٧) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (٨)
وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٩) أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (١٠) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ
هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١١) ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ قد أفلح المؤمنون ﴾ أى: فازوا بكل مطلوب، ونالوا كل مرغوب، فالفلاح: الفوز بالمرام والنجاة من المكاره والآلام، وقيل: البقاء فى الخير على الأبد، وقد تقتضى ثبوت أمر متوقع، فهى هنا لإفادة ثبوت ما كان متوقع الثبوت من قبل، وكان المؤمنون يتوقعون مثل هذه البشارة؛ وهى الإخبار بثبوت الفلاح لهم، فخوطبوا بما دل على ثبات ما توقعوه. والإيمان فى اللغة: التصديق بالقلب، والمؤمن: المصدِّق لِما جاء به الشرع، مع الإذعان بالقلب، وإلا.. فكم من كافر صدَّق بالحق ولم يذعن، تكبُّراً وعناداً، فكل من نطق بالشهادتين،

---

(١) من الآية ٧٧ من سورة الحج.

مواطئا لسانُه قلبَه فهو مؤمن شرعاً، قال عليه الصلاة السلام : «لمَّا خلَقَ اللهُ الجنَّةَ، قَالَ لَهَا: تَكَلَّمِي، فَقَالَتْ: قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤمِنُونَ ـ ثلاثاً ـ أنا حرامٌ على كلِّ بخيل مُرائى»(١)؛ لأنه بالرياء أبطل العبادات الدينية، وليس له أعمال صافية.

ثم وصف أهل الإيمان بست صفات، فقال: ﴿الذين في صلاتهم خاشعون﴾: خاضعون بالقلب ساكنون بالجوارح، وقيل: الخشوع فى الصلاة: جمع الهمة، والإعراض عما سواها، وعلامته: ألا يجاوز بصره مصلاه، وألاّ يلتفت ولا يعبث. وعن أبى الدرداء: (هو إخلاص المقال، وإعظام المقام، واليقين التام، وجمع الاهتمام). وأضيفت الصلاة إلى المصلين؛ لانتفاع المصلِّى بها وحده، وهى عُدَّته وذخيرته، وأما المُصلَّى له فَغَنِىٌّ عنها.

﴿والذين هم عن اللغو مُعرضون﴾، اللغو: كل كلام ساقط، حقه أن يُلغَى، كالكذب والشتم ونحوهما. والحق أن اللغو: كل ما لا يَعنى من الأقوال والأفعال، وصفهم بالحزم والاشتغال بما يعنيهم وما يقربهم إلى مولاهم فى عامة أوقاتهم، كما ينبئ عنه التعبير بالاسم الدال على الثبوت والاستمرار، بعد وصفه لهم بالخشوع؛ ليجمع لهم بين الفعل والترك، الشاقَّين على النفس، الَّذَيْن هما قاعدتا التكليف. ﴿والذين هم للزكاة فاعلون﴾: مؤدون، والمراد بالزكاة: المصدر، الذى هو الإخراج، لا المخرج. ويجوز أن يراد به العين، وهو الشيء المُخْرَج، على حذف مضاف، أى: لأداء الزكاة فاعلون. وصفهم بذلك، بعد وصفهم بالخشوع فى الصلاة؛ للدلالة على أنهم بلغوا الغاية القصوى من القيام بالطاعة البدنية والمالية، والتجنب عن النقائص، وتوسيط الإعراض عن اللغو بينهما؛ لكمال ملابسته بالخشوع فى الصلاة؛ لأن من لزم الصمت والاشتغال بما يعنى عظم خشوعه وأنسه بالله.

﴿والذين هم لفروجهم حافظون﴾: ممسكون لها، ويشمل فرجَ الرجل والمرأة، ﴿إلا علي أزواجهم﴾، الظاهر أن «على» بمعنى «عن» أى: إلا عن أزواجهم، فلا يجب حفظها عنهن، ويمكن أن تبقى على بابها، تقول العرب: احفظ علىّ عنان فرسى، أى: أمسكه، ويجوز أن يكون ما بعد الاستثناء حالا، أى: إلا والين على أزواجهم، من قولك: كان زياد على البصرة، أى: والياً عليها، والمعنى: أنهم لفروجهم حافظون فى كافة الأحوال، إلا فى حالة تزوجهم أو تسريهم. أو يتعلق «على» بمحذوف يدل عليه: (غير ملومين)، كأنه قيل: يلامون إلا على أزواجهم، أى: يلامون على كل مباشرة إلا على ما أبيح لهم، فإنهم غير ملومين عليه، ﴿أو ما ملكت أيمانهم﴾ أى: سراريهم، وعبَّر عنهن بما؛ لأن المملوك يجرى مجرى غير العقلاء، لأنه يباع كما تباع البهائم. وقال فى الكشاف: وإنما قال «ما»، ولم يقل «مَن»؛ لأن الإناث يجرين مجرى غير العقلاء(٢). هـ. يعنى: لكونهن ناقصات عقل، كما فى الحديث. وفيه احتراس من الذكور بالملك، فلا يباح إتيانهم والتمتع بهم للمالك ولا للمالكة، بإجماع.

(١) ذكره بنحوه الهيثمى فى المجمع (١٠/٣٩٧) من حديث ابن عباس ـ رضى الله عنهما، وقال: رواه الطبرانى فى الأوسط والكبير، وأحد إسنادى الطبرانى فى الأوسط جيد.
(٢) فى هذا الكلام نظر.

وقوله تعالى: ﴿ فإنهم غير ملومين ﴾ أى: لا لوم عليهم فى عدم حفظ فروجهم عن نسائهم وإمائهم ﴿ فمن ابتغي وراء ذلك ﴾؛ طلب قضاء شهوته فى غير هذين، ﴿ فأولئك هم العادون ﴾: الكاملون فى العدوان، وفيه دليل على تحريم المتعة والاستمتاع بالكف لإرادة الشهوة؛ لأن نكاح المتعة فاسد، والمعدوم شرعاً كالمعدوم حساً، ويدل على فساده عدم التوارث فيه بالإجماع، وكان فى أول الإسلام ثم نُسخ.

﴿ والذين هم لأماناتهم وعهدهم ﴾ أى: لما يؤتمنون عليه، ويُعَاهَدون عليه من جهة الحق أو الخلق، ﴿ راعون ﴾: حافظون عليها قائمون بها، والراعى: القائم على الشيء بحفظ وإصلاح، كراعى الغنم. ﴿ والذين هم علي صلواتهم ﴾ المفروضة عليهم ﴿ يحافظون ﴾: يداومون عليها فى أوقاتها. وأعاد الصلاة؛ لأنها أهم، ولأن الخشوع فيها زائد على المحافظة عليها، ووُحِّدَت أولاً؛ ليُفَاد أن الخشوع فى جنس الصلاة أيّة صلاة كانت، وجمعت ثانياً؛ ليفاد المحافظة على أنواعها من الفرائض والواجبات والسنن والنوافل. قاله النسفى.

﴿ أولئك ﴾ الجامعون لهذه الأوصاف ﴿ هم الوارثون ﴾ الأحقاء بأن يُسَمَّوا وارثين، دون غيرهم ممن ورث رغائب الأموال والذخائر وكرائمها، وقيل: إنهم يرثون من الكفار منازلهم فى الجنة، حيث فوّتوها على أنفسهم، لأنه تعالى خلق لكل إنسان منزلاً فى الجنة ومنزلاً فى النار، ففى الحديث: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ وَلَهُ مَنْزِلاَنِ: مَنْزِلٌ فِي الْجَنَّةِ وَمَنْزِلٌ فى النَّارِ، فَإِنْ مَاتَ وَدَخَلَ الْجَنَّةَ، وَرِثَ أَهْلُ النَّارِ مَنْزِلَه، وإِنْ مَاتَ وَدَخَلَ النَّارَ، وَرِثَ أَهْلُ الْجَنَّةِ مَنْزِلَهُ»(١).

ثم ترجم الوارثين بقوله: ﴿ الذين يرثون الفردوس ﴾، هو فى لغة الروم والحبشة: البستان الواسع، الجامع لأصناف الثمر، والمراد: أعلى الجنان، استحقوا ذلك بأعمالهم المتقدمة حسبما يقتضيه الوعد الكريم، ﴿ هم فيها خالدون ﴾، أنث الفردوس بتأويل الجنة، أو لأنه طبقة من طبقاتها، وهى العليا. والله تعالى أعلم.

الإشارة: قال القشيرى: الفلاح: الفوزُ بالمطلوب، والظَّفَرُ بالمقصود. والإيمان: انتسامُ الحقِّ فى السريرة، ومخامرة التصديق بخُلاصة القلب، واستكمال التحقيق من تامور الفؤاد(٢). والخشوع فى الصلاة: إطراق السِّرِّ على بساط النَّجوى، باستكمال نَعْتِ الهيبة، والذوبانِ تحت سلطان الكشف، والانمحاءِ عند غلبات التَّجلِّي. هـ.

قلت: كأنه فسر الفلاح والإيمان والخشوع بغايتهن، فأول الفلاح: الدخول فى حوز الإسلام بحصول الإيمان، وغايته: إشراق شمس العرفان، وأول الإيمان: تصديق القلب بوجود الرب، من طرق الاستدلال والبرهان، وغايته:

(١) أخرجه ابن ماجة فى (الزهد، باب: صفة الجنة)، عن أبى هريرة - رضى الله عنه.
(٢) أى: داخل القلب.

إشراق أسرار الذات على السريرة، فيصير الدليل محل العيان، فتبتهج السريرة بمخامرة الذوق والوجدان، وأول الخشوع: تدبر القلب فيما يقول، وحضوره عندما يفعل، وغايته: غيبته عن فعله في شهود معبوده، فينمحى وجود العبد عند تجلي أنوار الرب، فتكون صلاته شكراً لاقهراً، كما قال سيد العارفين ﷺ: «أفلا أكون عبداً شكوراً» .

ولا تتحقق هذه المقامات إلا بالإعراض عن اللغو، وهو كل ما يشغل عن الله، وتزكية النفوس ببذلها فى مرضاة الله، وإمساك الجوارح عن محارم الله، وحفظ الأنفاس والساعات، التى هى أمانات عند العبد من الله.

قال فى القوت: قال بعض العارفين: إن لله - عز وجل - إلى عبده سرَّيْن يُسرهما إليه، يُوجده ذلك بإلهام يُلهمَهُ، أحدهما: إذا وُلدِ وخرج من بطن أمه، يقول له: عبدى، قد أخرجتك إلى الدنيا طاهراً نظيفاً، واستودعتك عُمرك، ائتمنتك عليه، فانظر كيف تحفظ الأمانة، وانظر كيف تلقانى كما أخرجتك، وسرٌ عند خروج روحه، يقول له: عبدى، ماذا صنعت فى أمانتى عندك؟ هل حفظتها حتى تلقانى على العهد والرعاية، فألقاك بالوفاء والجزاء؟ أو أضعتها فألقاك بالمطالبة والعقاب؟ فهذا داخل فى قوله عز وجل: (والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون)، وفى قوله عز وجل: ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِى أُوفِ بِعَهْدِكُمْ ﴾(١)، فعُمْر العبد أمانة عنده، إن حفظه فقد أدى الأمانة، وإنْ ضيّعه فقد خان، ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴾(٢) . هـ.

ثم ذكر ابتداء خلق الإنسان وأطواره وانتهاء أمره، فقال:

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾ ﴾

قلت: «خلق» : إن كان بمعنى اخترع وأحدث؛ تعدى إلى واحد، وإن كان بمعنى صيّر؛ تعدى إلى مفعولين، ومنه: (ثم خلقنا النطفة علقة)، وما بعده.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ولقد خلقنا الإنسانَ ﴾ ؛ جنس الإنسان، أو آدم، ﴿ من سُلالة ﴾ ؛ «من»: للابتداء، والسلالة: الخُلاصة؛ لأنها تُسل من بين الكدر، وهو ما سُلَّ من الشىء واستخرج منه، فإن (فُعالة) اسم لما

(١) من الآية ٤٠ من سورة البقرة.
(٢) من الآية ٥٨ من سورة الأنفال.

يحصل من الفعل، فتارة يكون مقصوداً منه، كالخُلاصة، وتارة غير مقصود، كالقُلامة والكناسة، والسلالة من قبيل الأول؛ فإنها مقصودة بالسَّل، وقيل: إنما سمي التراب الذى خُلق منه آدم سلالة، لأنه سُلّ من كل تربة. وقوله: (من طين)، بيان، متعلقة بمحذوف، صفة للسلالة، أى: خلقناه من سلالة كائنة من طين.

﴿ثم جعلناه﴾ أى: الجنس، باعتبار أفراده المتغايرة لآدم عليه السلام، وجعلنا نسله، على حذف مضاف، إن أُريد بالإنسان آدم، فيكون كقوله تعالى: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِن طِينٍ ، ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾(١) أى: جعلنا نسله ﴿نطفة﴾: ماءً قليلا ﴿فى قرار مكين﴾ أى: فى مستقر - وهو الرحم - (مكين): حصين، أو متمكن فيه، وَصف الرحم بصفة ماأستقر فيه، مثل طريق سائر، أى: مسير فيه.

﴿ثم خلقنا النطفة علقة﴾ أى: دماً جامداً، بأن جعلنا النطفة البيضاء علقة حمراء، (فخلقنا العلقة مُضغة) أى: قطعة لحم لا استبانةَ ولا تمايز فيها، ﴿فخلقنا المضغة﴾ أى: غالبها ومعظمها، أو كلها ﴿عظاماً﴾، بأن صلبناها، وجعلناها عَموداً على هيئةٍ وأوضاعٍ مخصوصة، تقتضيها الحكمة، ﴿فكسونا العظام﴾ المعهودة ﴿لحما﴾ بأن أنبتنا عليها اللحم، فصار لها كاللباس، أو كسونا كل عظم من تلك العظام ما يليق به من اللحم، على مقدار لائق به، وهيئة مناسبة. وقرئ بالإفراد فيهما، اكتفاء بالجنس، وبتوحيد الأول فقط، وبتوحيد الثانى فحسب. ﴿ثم أنشأناه خلقاً آخر﴾ أى: خلقاً مبايناً للخلق الأول، حيث جعله حيواناً، وكان جماداً، وناطقاً وسميعاً وبصيرا، وكان بضد هذه الصفات، ولذلك قال الفقهاء: من غصب بيضة فأفرخت عنده ضمن البيضة، ولم يردّ الفرخ؛ لأنه خلق آخر سوى البيضة.

﴿فتبارك الله أحسن الخالقين﴾ أى: فتعالى أمره فى قدرته الباهرة، وعلمه الشامل. والالتفات إلى الاسم الجليل؛ لتربية المهابة، وإدخال الروعة، والإشعار بأنّ ماذكر من الأفاعيل العجيبة من أحكام الألوهية، وللإيذان بأنّ من حق كل من سمع مافصّل من آثار قدرته تعالى أو لاحظه، أن يسارع إلى التكلم به، إجلالاً وإعظامًا لشؤونه تعالى، وقوله: (أحسن الخالقين): بدل من اسم الجلالة، أو نعت، على أنّ الإضافة محضة؛ ليطابقه فى التعريف، أو خبر، أى: هو أحسن الخالقين خلقاً، أى: أحسن المقدرين تقديراً، فحذف التمييز؛ لدلالة الخالقين عليه.

قيل: إنّ عبدَ الله بنَ أبى سَرْح كان يَكْتُبُ الوحيَ للنبى ﷺ، فلمّا انتهى - عليه الصلاة والسلام - إلى قوله: ﴿خلقا آخَرَ﴾، سَارَعَ عبدُ الله إلى النُّطقِ بذَلِكِ، فَنَطَقَ بذلِك، قبل إملائِه، فقَالَ له رسُولَ الله ﷺ: «اكتُبْ، هكذَا

---

(١) الآيتان ٧ - ٨ من سورة السجدة.

أُنْزِلَتْ» ، فَشَكَّ عبدُ الله، فَقَالَ: إنْ كانَ مُحمدٌ يُوحَى إليْهِ، فأَنَا يُوحَى إليَّ، فارتدَّ ولَحِق بمكَّةَ كافِراً، ثم أَسْلَمَ يَوْمَ الفَتْحِ. وقيل: الحكاية غير صحيحة؛ لأن ارتداده كان بالمدينة، والسورة مكية(١).

ثم قال تعالى: ﴿ ثم إنكم بعد ذلك ﴾ أي: بعد ما ذكر من الأمور العجيبة، حسبما ينبئ عنه ما في اسم الإشارة من البُعد، المشعر بعلوّ مرتبة المشار إليه وبُعد منزلته في الفضل، ﴿ لميتون ﴾: لصائرون إلى الموت لا محالة، كما يُؤذن به صيغة الصفة، وقرئ «لمائتون» ، ﴿ ثم إنكم يوم القيامة ﴾ أي: عند النفخة، ﴿تبعثون﴾ في قبوركم للحساب والمجازاة، فإن قلت: لِمَ أكدَّ الأول بإنَّ واللام، وعبَّر بالاسم دون الثاني، الذي هو البعث، والمتبادر للفهم العكس؛ لأن الموت لم ينكره أحد، والبعث أنكره الكفار والحكماء؟ فالجواب كما قال ابن عرفة: إنه مِن حَمل اللفظ على غير ظاهره، مثل:

جَاءَ شَقِيقٌ عَارِضاً رُمْحَهُ   إنَّ بنى عَمِّك فِيهِمْ رِمَاحُ

فَهُم، لعصيانهم ومخالفتهم، لم يعملوا للموت، فحالهم كحال المنكر لها، ولمّا كانت دلائل البعث ظاهرة صار كالأمر الثابت الذي لايُرتاب فيه. هـ.

الإشارة: اعلم أن الروح لها أطوار كأطوار البشرية، من الضعف والقوة شيئاً فشيئا، باعتبار قوة اليقين والترقي إلى العلم بالله ومشاهدته، فتكون أولاً صغيرة العلم، ضعيفة اليقين، ثم تتربى بقوت القلوب وغذاء الأرواح؛ فقوتُ القلوب : العمل الظاهر، وقوت الأرواح: العمل الباطن، فلا تزال تتقوت بالعمل الظاهر شيئاً فشيئا حتى تقوى على كمالِ غايته ، ثم تنتقل إلى قوت العمل الباطن؛ كالذكر القلبي، والتفكر والاعتبار، وجولان القلب في ميادين الأغيار، ثم دوامِ حضور القلب مع الحق على سبيل الاستهتار، ثم يفتح لها ميادين الغيوب، ويوسع عليها فضاء الشهود، فيكون قُوتها حينئذ رؤية المحبوب، وهو غاية المطلوب، فتبلغ مبلغ الرجال، وتحوز مراتب الكمال، ومن لم يبلغ هذا بقي في مرتبة الأطفال، ولا يمكن حصول هذا إلا بصحبة طبيب ماهر، يعالجها ويربيها، وينقلها من طور إلى طور، وإلاّ بقيت الروح مريضة لا تتقوت إلا بالمحسوسات، وهي لا تُشبع ولاتُغني من جوع. وبالله التوفيق.

ولمّا ذكر ابتداء الإنسان وانتهاءه، ذكّره بنعمه، أو تقول: لما ذكر نعمة الإيجاد ذكر نعمة الإمداد، فقال:

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴿١٧﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ

(١) انظر روح المعاني (١٨ / ١٦).

مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَٰبٖ لَّكُمۡ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٞ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةٗ تَخۡرُجُ مِن طُورِ سَيۡنَآءَ
تَنۢبُتُ بِٱلدُّهۡنِ وَصِبۡغٖ لِّلۡأٓكِلِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِنَّ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةٗۖ نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمۡ فِيهَا
مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٞ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيۡهَا وَعَلَى ٱلۡفُلۡكِ تُحۡمَلُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾

قلت: «سيناء»، مَنْ فتحها: جعل همزتها للتأنيث، فلم يصرفه؛ للتأنيث والوصف، كحمراء، أو لألف التأنيث، لقيامه مقام علتين، ومن كسرها: لم يصرفه؛ للتعريف والعجمة، وهذا البناء ليس من أبنية التأنيث، وإنما ألفهُ ألف الإلحاق، كعلباء وحِرباء. ونبت وأنبت: لغتان بمعنى واحد، وكذلك سقى وأسقى.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق ﴾، وهي السموات السبع، جمع طريقة؛ لأنها طرق الملائكة وتقلباتها، وطرق الكواكب، فيها مسيرها، ﴿ وما كنا عن الخلق غافلين ﴾، أراد بالخلق السموات، كأنه قال: خلقناها وما غفلنا عن حفظها وإمساكها، أو الناس، أي: خلقناها فوقكم؛ لنفتح عليكم منها الأرزاق والبركات، وما كنا غافلين عنكم وعما يصلحكم، أو: خلقناها فوقكم، وما حالت بيننا وبينكم، بل نحن أقرب إليكم من كل شيء، فلا نغفل عن شيء من أمركم، قلّ أو جلّ.

﴿ وأنزلنا من السماء ماءً ﴾ هو المطر، وقيل: الأنهار النازلة من الجنة، وهي خمسة: سَيْحُون نهر الهند، وجَيْحونُ نهر بلخ، ودِجْلَةُ والفُرَاتُ نهرا العراق، والنيل نهر مصر، أنزلها الله تعالى من عين واحدة من عيون الجنة. هـ . وقوله تعالى: ﴿ بقدرٍ ﴾ أي: بتقدير، يَسْلَمون معه من المضرة، ويصلون إلى المنفعة، أو بمقدار ما علمنا بهم من الحاجة، أو: بقدر سابق لا يزيد عليه ولا ينقص، ﴿ فأسكناه في الأرض ﴾ أي: جعلناه ثابتًا قاراً فيها، كقوله: ﴿ فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ ﴾(١)، فماء الأرض كله من السماء، ﴿ وإنا على ذهابٍ به ﴾ أي: إزالته بالإفساد والتغوير، بحيث يتعذر استنباطه، ﴿ لقادرون ﴾ كما كنا قادرين على إنزاله، وفي تنكير «ذهاب»: إيماء إلى كثرة طرقه، ومبالغة في الإيعاد به، ولذلك كان أبلغ من قوله: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ ﴾(٢).

ثم ذكر نتائجه، فقال: ﴿ فأنشأنا لكم به ﴾ أي: بذلك الماء ﴿ جنات من نخيلٍ وأعنابٍ، لكم فيها ﴾ أي: في الجنات، ﴿ فواكهُ كثيرةٌ ﴾ تتفكهون بها سوى النخيل والأعناب، ﴿ ومنها تأكلون ﴾ أي: من الجنات تأكلون

(١) من الآية ٢١ من سورة الزمر. (٢) الآية ٣٠ من سورة الملك.

تغذياً وتفكهاً، أو ترزقون وتحصلون معايشكم، من قولهم: فلان يأكل من حرفته، وهذه الجنة وجوه أرزاقكم منها ترزقون وتتمعشون، ويجوز أن يكون الضميران للنخيل والأعناب، أي: لكم في ثمرتها أنواع من الفواكه، الرطب والعنب، والتمر والزبيب، والعصير والدِّبْسُ،(١) وغير ذلك، وطعاماً تأكلونه،

﴿ و ﴾ أنبتنا به ﴿ شجرةً ﴾ هي الزيتون ﴿ تخرج من طُور سَيْناء ﴾ ، وهو جبل موسى عليه السلام بين مصر وأيلة، وقيل: بفلسطين، ويقال: فيه طور سينين، فإما أن يكون الطور اسم الجبل، وسيناء اسم البقعة أضيف إليها، أو المركب منهما علَمٌ له، كامرىء القيس، وتخصيصها بالخروج منه، مع خروجها من سائر البقع، إما لتعظيمها، أولأنه المنشأ الأصلي لها؛ لأن أصل الزيتون من الشام، وأول ما نبت في الطور، ومنه نُقل إلى سائر البلاد، ﴿ تَنْبُتُ بالدُّهن ﴾ أي: متلبسة بالدهن، أي: ما يدهن به، وهو الزيت، ﴿ وصِبْغٍ للآكلين ﴾ أي: إدام لهم، قال مقاتل: جعل الله في هذه إداماً ودُهنا، فالإدام: الزيتون، والدهن: الزيت. وقيل: هي أول شجرة تنبت بعد الطوفان، وخص هذه الأنواع الثلاثة؛ لأنها أكرم الشجر وأفضلها وأنفعها.

﴿ وإنَّ لكم في الأنعام ﴾ ، جمع نعم، وهي الإبل والبقر والغنم، ﴿ لَعِبْرَةً ﴾ تعتبرون بها، وتستدلون بأحوالها على عظم قدرة الله تعالى، وسابغ نعمته، وتشكرونه عليه، ﴿ نُسقيكم مما في بطونها ﴾ من الألبان سائغة للشاربين، أو مما استقر في بطونها من العلَف؛ فإنَّ اللبن يتكون منه، ﴿ ولكم فيها منافع كثيرةٌ ﴾، سوى الألبان، وهي منافع الأصواف والأوبار والأشعار. ﴿ ومنها تأكلون ﴾ أي: من لحومها، ﴿ وعليها ﴾ أي: على الأنعام في البر، ﴿ وعلى الفُلك ﴾ في البحر ﴿ تُحملون ﴾ في أسفاركم ومتاجركم، والمراد بالأنعام في الحمل الإبل؛ لأنها هي المحمول عليها في البر، فهي سفائن العرب، كما قال ذو الرمة:

سَفِينَةُ بَرٍّ تَحْتَ خَدِّي زِمَامُهَا

يريد ناقته. والله تعالى أعلم.

الإشارة: ولقد خلقنا فوق قلوبكم سبعة حجب، فمن خَرَقَها أفضى إلى فضاء شهود ذاتنا وأنوار صفاتنا، وهي حجاب المعاصي والذنوب، وحجاب النقائص والعيوب، وحجاب الغفلات، وحجاب العوائد والشهوات، وحجاب الوقوف مع حلاوة المعاملات، وحجاب الوقوف مع الكرامات والمقامات، وحجاب حس الكائنات، فمن خرق هذه الحجب بالتوبة والتزكية واليقظة والعفة والرياضة، والأنس بالله والغيبة عما سواه، ارتفعت عنه الحجب، ووصل

---

(١) الدِّبس: عسل التمر وعصارته.. انظر اللسان (دبس ٢/١٣٢٣).

إلى المحبوب. قال الورتجبي: أوضح سبع طرائق لنا إلى أنوار صفاته السبعة. هـ. وقال القشيري: الحق ـ سبحانه ـ لا يستتر من رؤيته مُدْرَكٌ، ولا تخفى عليه من مخلوقاته خافية، وإنما الحُجُبُ على أبصارِ الخَلْق وبصائرهم، والعادةُ جاريةٌ أنه لا يخلق لنا الإدراك لِمَا وراء الحُجُب، ولذلك أدخلَتْ الغفلةُ القلوبَ، واستولى عليها الذهول، سدَّت بصائرها، وغيبت فهومها، ففوقها حجب ظاهرة وباطنة، ففي الظاهر: السموات حجبٌ تحول بيننا وبين المنازل العالية، وعلى القلوب أغشية وأغطية، كالشهوة والأمنية، والإرادات الشاغلة والغفلة المتراكمة.

ثم ذكر أن طرائق المريدين الفَتْرَة، وطرائق الزاهدين ترك عُروق الرغبة. قال: وأما العارفون فربما تظلُّهم في بعض أحيانهم وقفةٌ في تضاعيف سيرهم إلى ساحات الحقائق، فيصيرون موقوفين ريثما يتفضلُ الحقُّ ـ سبحانه ـ عليهم بكفاية ذلك، فيجدون نفاذاً، ويدفع عنهم ماعاقهم من الطرائق، وفي جميع ذلك فالحق ـ سبحانه ـ غير تاركٍ للعبد ولا غافلٍ عن الخلق. هـ.

وقوله: ﴿ وما كنا عن الخلق غافلين ﴾ أي: وما كنا غافلين عن إرسال من يخرجهم من تلك الحجب القهرية، بل بعثنا الرسل، وفي أثرهم العارفين الربانيين، يُخرجون من تعلق بهم من تلك الطرائق، ويوصلونهم إلى بحر الحقائق. وأنزلنا من سماء الغيوب ماء العلم اللدني، فأسكناه في أرض النفوس والقلوب، بقدر ما سبق لكل قلب منيب، وإنا على ذهاب به من القلوب والصدور لقادرون. ولذلك كان العارفون لا يزول اضطرارهم، ولا يكون مع غير الله قرارهم، فأنشأنا بذلك العلم في قلوب العارفين جنات المعارف من نخيل الأذواق والوجدان، وأعناب خمرة العيان، لكم فيها فواكه كثيرة، أي: تمتع كثير بلذة الشهود، ومنها تتقوت أرواحكم وأسراركم، وشجرة المعرفة تخرج من القلوب الصافية، التي هي محل المناجاة، كطور موسى، أي: تنبت فيها ويخرج أغصانها إلى ظاهر الجوارح، تنبت في القلب بدهن الذوق والوجد، وصبغ للآكلين، أي: المريدين الآكلين من تلك الشجرة، فتصبغ قلوبهم بالمعرفة واليقين.

وقوله تعالى: ﴿ وإن لكم في الأنعام لعبرة ﴾، قال القشيري: الإشارة فيه: أنَّ الكدوراتِ الناجمةَ المتراكمةَ لا عِبْرَةَ بها ولا مبالاة، فإنَّ اللبنَ الخالصَ السائغَ يخرجُ من أخلاف الإبل والأنعام، من بين ما ينطوي حواياها عليها من الوحشة، ولكنه صافٍ لم يؤثر فيها بحُكم الجِوار، والصفا يوجد أكثره في عين الكُدروة؛ إذ الحقيقة لا يتعلق بها حقٌّ ولا باطل. ومَنْ أشرفَ على سرِّ التوحيد تحقَّق بأنَّ ظهور جميع الحدثان من التقدير، فتسقُط عنه كلفة التمييز؛ فالأسرارُ عند ذلك تصفو، والوقت لصاحبه لا يجفو، (ولكم فيها منافع) لازمةٌ لكم، ومتعدية منكم إلى كلِّ متصلٍ بكم. انتهى على لحن فيه، فتأمله.

ولما ذكَّرهم بالنعم، ذكر من قابلها بالكفران فهلك، فقال:

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾

فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ
لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟
بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ
بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ
وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ
﴿٢٧﴾ فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾
وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾

قلت : ذكر فى الحاشية وجوهاً من المناسبة، فقال: لمّا استطرد ذكر الفلك ناسب ذكر نوح إثره، لقوله: (اصنع الفلك)، وأيضا: هو أبو البشر الثانى، فذُكِر كما ذكر أولاً آدم، فى ذكر خلق الإنسان، وأيضاً فى ذكر نجاة المؤمنين وفلاحهم، فناسب صدر السورة، وهلاك الكافر وهو ضد المؤمن، كما صرح بذلك فى قوله فى آخرها: (إنه لا يفلح الكافرون)، وفى النجاة فى الفلك مناسبة للنعم المقررة قبل ذكره. هـ. (وإن كنا لمبتلين): «إنْ» : مخففة، واسمها: ضمير الشأن، واللام فارقة.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ولقد أرسلنا﴾: وتالله لقد أرسلنا ﴿نوحاً إلى قومه﴾، وقد مرّ فى الأعراف نسبه وكيفية بعثته[1]، ﴿فقال﴾ لقومه حين أُرسل إليهم، متعطفًا عليهم، ومستميلاً لهم إلى الحق: ﴿يا قوم اعبدوا الله﴾ وحده؛ إذ العبادة مع الإشراك لاعبرة بها، فلذلك لم يقيدها هنا، وقيدها فى هود، بقوله: ﴿أَن لاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ﴾[2] ﴿مالكم من إلهٍ غيرُه﴾ أى: مالكم فى الوجود إله يستحق أن يُعبد غيره، فالرفع على المحل، والجر على اللفظ. ﴿أفلا تتقون﴾؛ أفلا تخافون عقوبة الله، الذى هو ربكم وخالقكم، إذا عبدتم غيره مما ليس من استحقاق العبادة فى شىء، أو: أفلا تخافون عذابه الذى يستوجبه ما أنتم عليه، كما يُفصح عنه قوله تعالى: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[3].

---

(١) راجع تفسير الآية ٥٩ وما بعدها، من سورة الأعراف. (٢) من الآية ٢٦ من سورة هود.
(٣) الآية ٥٩ من سورة الأعراف.

﴿فقال الملأ الذين كفروا من قومه﴾ أي: أشرافهم لعوامهم: ﴿ما هذا إلا بشرٌ مثلكُم﴾ في الجنس والوصف، يأكل ويشرب مثلكم، من غير فرق بينكم وبينه، ﴿يُريد أن يتفضَّل عليكم﴾ أي: يطلب الفضل عليكم، ويتقدمكم بادعاء الرسالة مع كونه مثلكم، والعجب منهم أنهم رضوا بالألوهية والخضوع للحَجَر، ولم يرضوا بنبوة البشر. ثم قالوا: ﴿ولو شاء اللهُ لأنزل ملائكة﴾ أي: لو شاء الله إرسال الرسل لأرسل رسلاً من الملائكة. وإنما قال: لأنزل ولم يقل: لأرسل؛ لأنّ إرسال الملائكة لايكون إلا بطريق الإنزال، فمفعول المشيئة مطلق الإنزال، أي: لو شاء ربنا إنزال شيء من الوحي لأنزل ملائكة يرسلهم إلينا، ﴿ما سمعنا بهذا﴾ أي: بمثل هذا الكلام، الذي هو الأمر بعبادة الله وحده، وترك عبادة ماسواه، أو: ما سمعنا بأنّ البشر يكون رسولا، أو بمثل نوح عليه السلام في دعوى النبوة، ﴿في آبائنا الأولين﴾ أي: الماضين قبل بعثة نوح عليه السلام. وإنما قالوا ذلك؛ إما من فرط عنادهم، أو لأنهم كانوا في فترة متطاولة، وقيل: معناه: ما سمعنا به أنه نبي، ﴿إنْ هو﴾ أي: ما هو ﴿إلا رجل به جِنَّةٌ﴾ أي: جنون، أو جن يخبلونه، ولذلك يقول ما يقول. ﴿فتربصوا به حتى حين﴾ أي: انتظروا واصبروا إلى زمان حتى ينجلي أمره، فإن أفاق من جنونه، وإلا قتلتموه.

﴿قال ربِّ انصرني بما كذَّبونِ﴾، لمّا أيس من إيمانهم دعا الله بالانتقام منهم، فالجملة استئناف نشأ عن سؤال، كأنه قيل: فماذا قال عليه السلام، بعدما سمع هذه الأباطيل؟ فقيل: قال، لما رآهم قد أصروا على الكفر والتكذيب، وتمادوا في الغواية والضلال، حتى أيس من إيمانهم بالكلية، وقد أوحى إليه أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن: ﴿رب انصرني﴾ بإهلاكهم بالمرة، فهو حكاية إجمالية لقوله: ﴿لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الكَافِرِينَ دَيَّاراً﴾(١). ﴿بما كذَّبون﴾؛ بسبب تكذيبهم إياي، أو بدل تكذيبهم، كقولك : هذا بذاك، أي: بدل ذاك، والمعنى: أبدلني من غم تكذيبهم سلْوة النصر عليهم.

﴿فأوحينا إليه﴾؛ أجبنا دعاءه وأوحينا إليه عند ذلك ﴿أنِ اصنع الفُلكَ بأعيننا﴾ أي: ملتبسًا بحفظنا وكلاءتنا، كأنّ معك حُفاظنا يكلؤونك بأعينهم، لئلا يتعرض لك أحد، يفسد عملك، ومنه قولهم: عليه من الله عيون كالئة، ﴿ووَحْينا﴾ أي: أمرنا وتعليمنا إياك صنعتها. رُوي: أنه أوحى إليه أن يصنعها مثل جُؤْجؤ الطائر. وفي القاموس جُؤجؤ- كهُدْهُد-: الصدْر. ﴿فإذا جاء أَمْرُنا﴾ أي: عذابنا بأمرنا، ﴿وفار التنُّور﴾ أي: فار الماء من تنور الخبز، فخرج سبب الغرق من موضع الحرق؛ ليكون أبلغ في الإنذار والاعتبار. رُوي أنه قيل لنوح: إذا رأيت الماء يفور من التنور؛ فاركب أنت وأهلك السفينة، فلما نبع الماء من التنور؛ أخبرته امرأته، فركب، وكان

(١) من الآية ٢٦ من سورة نوح.

التنور تنورَ آدم، فصار إلى نوح، وكان من حجارة. واختلف في مكانه، فقيل: في مسجد الكوفة عن يمين الداخل، وقيل: بالشام، وقيل: بالهند.

فإذا فار ﴿ فاسْلُكْ فيها ﴾: فأدْخِلْ في السفينة ﴿ من كل زوجين اثنين ﴾؛ من كل أمة اثنين مزدوجين، ذكر وأنثى. قال الحسن: لم يحمل نوح في السفينة إلا ما يلد ويبيض، فأما البق والدود والذباب، فلم يحمل منه شيئا، وإنما يخرج من الطير. هـ. ﴿ و ﴾ احمل في السفينة ﴿ أهلَك ﴾؛ نساءك وأولادك، أو من آمن معك، ﴿ إلا من سبق عليه القولُ منهم ﴾ أي: القول من الله بهلاكه، وهو ابنه وإحدى زوجتيه، وإنما جيء بعلى؛ لكون السابق ضاراً، كما جيء باللام في قوله: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ... ﴾(١)، ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴾(٢)؛ لكونه نافعاً، ونحوه: ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ﴾(٣)، ﴿ ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون ﴾ أي: لا تسألني نجاة الذين كفروا، إنهم مقضي عليهم بالإغراق لا محالة؛ لظلمهم بالإشراك والإصرار، ومَنْ هذا شأنه لا يُشفع له، وكأنه عليه السلام ندم على الدعاء عليهم، حين تحقق هلاكهم، فهَمّ بمراجعة الحق فيهم؛ شفقة ورحمة، فنُهي عن ذلك.

ثم قال له: ﴿ فإذا استويتَ أنت ومن معك على الفُلْك ﴾؛ فإذا تمكنتم عليها راكبين ﴿ فقل الحمد لله الذي نجّانا من القوم الظالمين ﴾، أُمر بالحمد على هلاكهم والنجاة منهم على طريق: ﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾(٤). ولم يقل: فقولوا، وإن كان أهله ومن معه قد استووا معه؛ لأنه نبيهم وإمامهم، فكان قوله قولَهم، مع ما فيه من الإشعار بفضل النبوة.

﴿ وقل ربِّ أنزلني ﴾ في السفينة، أو منها ﴿ مُنْزَلاً مباركاً ﴾ أي: إنزالاً مباركاً، أو موضع إنزال يستتبع خيراً كثيراً، ﴿ وأنت خير المُنزِلين ﴾؛ خير من ينزل في كل خير، أمر عليه السلام بأن يشفع دعاءه بما يطابقه من ثنائه عليه تعالى، توسلاً به إلى إجابة دعائه، فالبركة في السفينة: النجاة فيها، وبعد الخروج منها: كثرة النسل وتتابع الخيرات، ﴿ إنَّ في ذلك ﴾ فيما فعل بنوح وقومه ﴿ لآياتٍ ﴾: لعبراً ومواعظ، ﴿ وإن كنا ﴾ أي: وإن الشأن والقصة كنا ﴿ لمبتلين ﴾: مُصيبين قوم نوح ببلاء عظيم وعقاب شديد، أو: مختبرين بهذه الآيات عبادنا، لننظر من يعتبر ويذّكر، كقوله: ﴿ ولقد تركناها آية فهل من مدكر ﴾(٥). والله تعالى أعلم.

---

(١) من الآية ١٠١ من سورة الأنبياء.
(٢) الآية ١٧١ من سورة الصافات.
(٣) من الآية ٢٨٦ من سورة البقرة.
(٤) الآية ٤٥ من سورة الأنعام.
(٥) الآية ١٥ من سورة القمر.

الإشارة: تقدمت إشارة هذه القصة مراراً بتكررها، وفيها تسلية لمن أوذى من الأولياء بقول قبيح أو فعل ذميم. وقال القشيرى فى قوله: ﴿ وقل رب أنزلني منزلا مباركا ﴾: الإنزال المبارك: أن تكون بالله ولله على شهود الله، من غير غفلة عن الله، ولا مخالفة لأمر الله. هـ.

ثم ذكر قصة هود أو صالح، فقال:

﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم
مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ
فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾
وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا
أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا
وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ
ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ
غُثَآءً ۚ فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ثم أنشأنا من بعدهم ﴾؛ من بعد قوم نوح ﴿ قرناً ﴾ أى: قوماً ﴿ آخرين ﴾ هم عادٌ قوم هود، حسبما رُوى عن ابن عباس، ويشهد له قوله تعالى: ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ ﴾(١)، ومجىء قصة هود على إثر قصة نوح فى الأعراف وهود والشعراء، ونقل ابن عطية عن الطبرى: أن المراد بهم ثمود قوم صالح، قال: والترتيب يقتضى قوم عاد، إلاَّ أنهم لم يُهلكوا بالصيحة، بل بالريح. قال فى الحاشية: والظاهر أنهم صالح. كما قاله الطبرى. وحمل الواحدى الصيحة على صيحة العذاب، فيتجه لذلك أنهم عاد قوم هود، وقد تقرر أن ثمود بعد عاد. ثم قال: وفى السيرة: عادٌ بن عوص بن إرَم بن سام بن نوح، وثمود بن عابر بن أرَم بن سام بن نوح. هـ.

---

(١) من الآية ٦٩ من سورة الأعراف

﴿ فأرسلنا فيهم ﴾ ، الإرسال يُعَدّى بإلى، ولم يُعَدّ بها هنا وفي قوله: ﴿ كذلك أرسلناك في أمة ﴾(١)، ﴿ وما أرسلنا في قرية ﴾(٢)؛ لأن الأمة والقرية جعلت موضعاً للإرسال، إيذاناً بأن المرسَل إليهم لم يأتهم من غير مكانهم، بل إنما نشأ بين أظهرهم، كما ينبئ عنه قوله: ﴿ رسولاً منهم ﴾ أي: من جملتهم نسبًا، وهو: هود أو صالح، فإنهما ـ عليهما السلام ـ كانا منهم. قائلاً لهم: ﴿ أنِ اعبدوا الله مالكم من إلهٍ غيرُهُ أفلا تتقون ﴾ عذابه، الذي يقتضيه ما أنتم عليه من الشرك والمعاصي.

﴿ وقال الملأُ من قومه ﴾، ذكر مقال قوم هود، في جوابه، في الأعراف وهود بغير «واو» ؛ لأنه على تقدير سؤال سائل، قال: فما قال قومه؟ فقيل: قالوا: كيت وكيت، وهنا مع الواو؛ لأنه عطفٌ لما قالوه على ماقاله الرسول؛ ومعناه: حكاية قولهم الباطل إثر حكاية قول الرسول الحق، وليس بجواب للنبي متصل بكلامه، وجيء بالفاء في قصة نوح عليه السلام؛ لأنه جواب لقوله، واقعٌ عقِبَه، أي: وقال الأشراف من قومه ﴿ الذين كفروا ﴾، وُصفوا بالكفر؛ ذمّاً لهم، وتنبيهاً على غلُوّهم فيه، ﴿ وكذّبوا بلقاء الآخرة ﴾ أي: بلقاء ما فيها من الحساب والثواب والعقاب وغير ذلك، أو بمعادهم إلى الحياة الثانية، ﴿ وأترفناهم ﴾: نعّمناهم ﴿ في الحياة الدنيا ﴾ بكثرة الأموال والأولاد، أي: قالوا لأتباعهم، مُضلين لهم: ﴿ ماهذا ﴾ النبي ﴿ إلا بشرٌ مثلكم ﴾ في الصفة والأحوال، والاحتياج إلى القِوام، ولم يقولوا: مثلنا؛ تهويناً لأمره عليه السلام.

ثم فسر المثلية بقوله: ﴿ يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون ﴾ أي: منه، فحذف؛ لدلالة ما قبله عليه، ﴿ ولئن أطعتم بشراً مثلكم ﴾ فيما يأمركم به وينهاكم عنه، ﴿ إنكم إذاً لخاسرون ﴾ بالانقياد لمثلكم، ومن حمقهم أنهم أبَوْ اتّباع مثلهم وعبدوا أعجز منهم.

﴿ أيَعِدُكُمْ أنكم إذا مِتُّم ﴾ ـ بالكسر والضم ـ؛ من مات يمَات ويموت، ﴿ وكنتم تراباً وعظاماً ﴾ نخرة، ﴿ أنكم مُخْرَجُون ﴾ ، فأنكم الثانية، توكيد للأولى؛ للفصل بينهما، والتقدير: أيعدكم أنكم مخرجون بالبعث إذا متم وكنتم تراباً وعظاماً؟ ﴿ هيهاتَ هيهاتَ ﴾ ، تكرير؛ لتأكيد البُعد، وهو اسم فعل مبني على الفتح، واقع موقع بَعُد، فاعلها مضمر، أي: بَعُد التصديق أو الوقوع ﴿ لِما تُوعدون ﴾ من العذاب، أو فاعلها «ما توعدون»، واللام زائدة، أي: بَعُد ماتعدون من البعث، وقيل: ماتوعدون من البعث. وقيل: مبتدأ، وهما اسم للبعد، و(لما توعدون): خبر، أي: بُعْدٌ بُعْدٌ لما توعدون، ﴿ إنْ ﴾: ما ﴿ هِيَ إلا حياتنا الدنيا ﴾ ، والضمير لايُعْلَمُ ما يُعْنَى به إلا بما بعده من بيانه، وأصله: إن الحياةُ إلا حياتنا، وأتى بالضمير؛ حذراً من التكرير، أي: لا حياة إلا هذه الحياة التي نحن فيها، ودنت منا، ﴿ نموت ونحيا ﴾ أي: يموت بعضنا ويولد بعضٌ، إلى انقراض العصر، ﴿ وما نحن بمبعوثين ﴾ بعد

(١) من الآية ٣٠ من سورة الرعد. (٢) من الآية ٩٤ من سورة الأعراف.

الموت، ﴿ إن ﴾ ؛ ما ﴿ هو إلا رجل افترى على الله كَذِباً ﴾ فيما يدَّعيه من الإرسال، وفيما يَعدنا من البعث، ﴿ وما نحن له بمؤمنين ﴾ : بمصدِّقين بما يقول.

﴿ قال ﴾ هود، أو صالح ـ عليهما السلام ـ بعدما سلك في دعوتهم كل مسلك، متضرعاً إلى الله ـ عز وجل ـ : ﴿ ربِّ انصرني ﴾ عليهم ، وانتقم منهم ﴿ بما كذَّبونِ ﴾ أي: بسبب تكذيبهم إياي وإصرارهم عليه، ﴿ قال ﴾ تعالى؛ إجابة لدعائه: ﴿ عمَّا قليلٍ ﴾ أي: عن زمان قليل، زيدت «ما» ، بين الجار والمجرور؛ لتأكيد معنى القلة، أونكرة موصوفة، أي: عن شيء قليل ﴿ ليصبحُنَّ نادمين ﴾ عما فعلوا من التكذيب، وذلك عند معاينتهم العذاب.

﴿ فأخذتهم الصيحةُ ﴾ ، لعلهم، حين أصابتهم الريح العقيم، أُصيبوا في تضاعيفها بصيحة هائلة من صوته. أو يراد بها: صرير الريح وصوته. وقد رُوي أن شدّاداً حين أتم بناء إرم، سار إليها بأهله، فلما دنا منها بعث الله عليهم صيحة من السماء، فهلكوا، وقيل: الصيحة: العذاب المصطلم، قال الشاعر:

صَاحَ الزَّمانُ بآلِ فُدَكٍ صيحة ... خرُّوا؛ لشدَّتها، على الأذْقَانِ

وإذا قلنا: هم قوم صالح، فالصيحة صيحة جبريل عليه السلام، صاح عليهم فدمرهم. وقوله: ﴿ بالحق ﴾ أي: بالعدل من الله، يقال: فلان يقضي بالحق، أي: بالعدل، أو: أخذتهم بالحق، أي: بالأمر الثابت الذي لادفاع له، ﴿ فجعلناهم غثاء ﴾ أي: كغثاء السيل، وهو ما يحمله من الورق والحشيش، شبههم في دمارهم بالغثاء، وهو ما يرميه السيل، من حيث إنهم مَرْمِيٌّ بهم في كل جانب وسَهْب. ﴿ فبُعداً ﴾ : فهلاكاً، يقال بَعُدَ بُعْداً، أي: هلك هلاكاً، وهو من المصادر المنصوبة بأفعالها لا تظهر أفعالها، أي: فسحقاً ﴿ للقوم الظالمين ﴾ ، وهو إخبار، أو دعاء، واللام؛ لبيان من دعي عليه بالبعد، كقوله: ﴿ هَيْتَ لَكَ ﴾(١). والله تعالى أعلم.

الإشارة: من عادة الحق ـ سبحانه ـ، إذا أكب الناس على دنياهم، واتخذوا إلههم هواهم، بعث من يذكرهم بالله، فيقول لهم: اعبدو الله، مالكم من إله غيره، أي: أفردوه بالمحبة، واقصدوه بالوجهة، فما عبدَ اللهَ من عبد هواه، فيقول المترفون، وهم المنهمكون في الغفلة، المحجوبون بالنعمة عن المنعم، الذين اتسعت دائرة حسهم: ما هذا الذي يعظكم، ويريد أن يخرجكم عن عوائدكم، إلا بشر مثلكم، يأكل مما تأكلون، ويشرب مما تشربون، وما دروا أنّ وصف البشرية لا ينافي وجود الخصوصية، فإذا تمادوا في غفلتهم، وأيس من هدايتهم، ربما دعا عليهم، فأصبحوا نادمين، حين لا ينفعهم الندم، وذلك عند نزول هواجم الحِمَامِ. وبالله التوفيق.

﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴿٤٢﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾

(١) من الآية ٢٣ من سورة يوسف

قلت: القرن: أهل العصر، سُموا به؛ لقران بعضهم البعض، و(تترا) : حال، فمن قرأه بالألف فهو كسكرى، وهو من الوتر، واحداً بعد واحد ، فالتاء الأولى بدل من الواو، وأصله: وترى، كتراث وتقوى، والألف للتأنيث، باعتبار أن الرسل جماعة، ومن نوَّنه جعله كأرطى ومعزى، فيقال: أرطىً ومعزىً، وقيل: مصدر بمعنى فاعل، أي: متتابعين.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ثم أنشأنا من بعدهم﴾ أي: من بعد قوم هود، ﴿قروناً آخرين﴾؛ قوم صالح ولوط وشعيب وغيرهم، ﴿ما تسبق من أمة﴾، «منْ»: صلة، أي: ما تتقدم أمة من الأمم المهلكة ﴿أجلَها﴾ الذى عُيّن لهلاكها في الأزل، ﴿وما يستأخرون﴾ عنه ساعة. ﴿ثم أرسلنا رسلَنا﴾، عطف على «أنشأنا»، على معنى أن إرسالهم متراخ عن إنشاء القرون المذكورة، وما بينهما اعتراض، والمعنى: ثم أنشأنا من بعدهم قروناً آخرين، قد أرسلنا إلى كل قرن منهم رسولاً خاصاً به، والفصل بين الجملتين بالجملة المتعرضة الناطقة بعدم تقدم الأمم أجلها المضروب لهلاكهم؛ للمسارعة إلى بيان هلاكهم على وجهٍ إجمالي.

وقوله: ﴿تَتْرَى﴾ أي: متواترين واحداً بعد واحد، أو متتابعين يتبع بعضهم بعضا، ﴿كلما جاء أمةً رسولها كذبوه﴾، الرسول يلابس المرسِل والمرسَل إليه، والإضافة تكون بالملابسة، فأضافهم أولاً إلى نون العظمة، وهنا إلى المرسل إليهم؛ للإشعار بكمال شناعتهم وضلالتهم، حيث كذبت كلُّ أمة رسولها المعين لها، وعبَّر عن التبليغ بالمجيء؛ للإيذان بأنهم كذبوه في الملاقاة الأولى، ﴿فأتبعنا بعضَهم بعضاً﴾ في الهلاك، كما تبع بعضهم بعضاً في الكفر والتكذيب، الذى هو سبب الهلاك، ﴿وجعلناهم أحاديث﴾؛ أخبار، يُسمر بها ويتعجب منها، أي: لم يبق منهم إلا حكايات يعتبر بها المعتبرون، والأحاديث يكون اسم جمع للحديث، ومنه: أحاديث النبى ـ عليه الصلاة السلام ـ ويكون جمعاً للأحدوثة، وهي ما يتحدث به الناس؛ تلهياً وتعجبا، وهو المراد هنا، ﴿فبعدا لقوم لا يؤمنون﴾ به وبرسله، اقتصر هنا على عدم إيمانهم، وأما القرون الأولى، فحيث نقل عنهم ما مرّ من العتو وتجاوز الحد في الكفر والعدوان، وصفهم بالظلم. والله تعالى أعلم وأحكم.

الإشارة: كل ما حكى الله تعالى عن القرون الماضية والأمم السابقة، فالمراد ترهيب هذه الأمة المحمدية، وإزعاجٌ لها عن أسباب الهلاك، وإنهاض لها إلى العمل الصالح، لتكون أحاديث حِساناً بين الأمم، فكل إنسان ينبغي له أن يجتهد في تحصيل الكمالات العلمية والعملية، ليكون حديثاً حسناً لمن بعده، كما قال القائل:

مَا الْمَرْءُ إلا حديثٌ من بَعْـدِه ... فَكنْ حَدِيثاً حسَناً لِمَن وَعَـا

وقال آخر:

ومَا الْمَرْءُ إلا كالشِّهَابِ وضَـوْئِهِ ... يَحورُ رَماداً بَعْدَما هو سَاطِـعُ

ومَا الـمَالُ والأَهْلُونَ إلا وديعةٌ ... ولا بُدَّ يوماً(١) أن تُردَّ الْودَائِـعُ

وبالله التوفيق،

(١) فى الأصول: ولابد من يوم.

ثم ذكر رسالة موسى وهارون ـ عليهما السلام ـ فقال:

﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾

قلت: «هارون» : بدل من «أخاه» .

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ثم أرسلنا موسى وأخاه هارون بآياتنا ﴾ التسع؛ من اليد، والعصا، والطوفان، والجراد، والقُمَّل، والضفادع، والدم، ونقص الثمرات، والطاعون. ولا مساغ لعدّ فلق البحر منها؛ إذ المراد الآيات التى كذبُوها واستكبروا عنها، بدليل ما بعدها. ﴿ وسلطانٍ مبين ﴾؛ وحجة واضحة مُلزِمَة للخصم الإقرار بما دُعى إليه، وهى إمّا العصا، وإفرادها بالذكر مع اندراجها فى الآيات؛ لأنها أبهر آياته عليه السلام، وقد تضمنت معجزات شتى؛ من انقلابها ثعباناً، وتلقفها ما أفكته السحرة، كما تقدم. وأما التعرض لانفلاق البحر وانفجار العيون من الحجر؛ بضربها، وحراستها، وصيرورتها شمعة، وشجرة خضراء مثمرة، ودلْواً ورشاء، وغير ذلك مما ظهر منها فى غير مشهد فرعون وقومه، فغير ملائم لمقتضى المقام، وإمّا ما أتى به من الحجج الباهرة، فيشمل ما تقدم وغيره.

﴿ إلى فرعون وملئه ﴾ أى: أشراف قومه، خصهم بالذكر؛ ليرتب عليه ما بعده من قوله: ﴿فاستكبروا﴾ عن الانقياد وتمردوا. تكبراً وترفعًا، ﴿ وكانوا قوما عالين ﴾ : متكبرين، متمردين ، ﴿ فقالوا ﴾ ، فيما بينهم، على طريق المناصحة: ﴿ أنؤمن لبشرَيْن مثلنا ﴾ ، «مثل» و«غير» يوصف بها الاثنان والجمع والمذكر والمؤنث، والبشر يطلق على الواحد، كقوله: ﴿ بَشَرًا سَوِيًّا ﴾(١)، وعلى الجمع، كقوله: ﴿ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا ﴾(٢)، وأراد به هنا الواحد، فثناه، أى: كيف نؤمن لبشرين مثلنا فى العجز والافتقار، ﴿ وقومُهما لنا عابدون ﴾ أى: خادمون منقادون لنا كالعبيد، وكأنهم قصدوا بذلك التعريض بهما ـ عليهما السلام ـ، وحط رتبتهما العلية عن منصب الرسالة من وجه آخر غير البشرية، بناء على زعمهم الفاسد، من قياس الرئاسة الدينية على الرئاسات الدنيوية، الدائرة على التقدم فى نيل الحظوظ الدنيوية، من المال والجاه، كدأب قريش، حيث قالوا: ﴿ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ ﴾(٣). ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾(٤). وعلى جهلهم بأن مناط الاصطفاء

(١) من الآية ١٧ من سورة مريم.
(٢) من الآية ٢٦ من سورة مريم.
(٣) الآية ١١ من سورة الأحقاف.
(٤) الآية ٣١ من سورة الزخرف.

للرسالة هو السبق فى حيازة النعوت العلية، وإحراز الكمالات السنية، جِبِلّةً أو اكتساباً، ﴿ فكذبوهما ﴾ أى: فتمادوا على تكذيبهما، وأصروا، واستكبروا استكباراً، ﴿ فكانوا من المهلَكِين ﴾ بالغرق فى بحر القلزم.

﴿ ولقد آتينا ﴾ بعد إهلاكهم، وإنجاء بنى إسرائيل من مِلكِهم واسترقاقهم، ﴿ موسى الكتابَ ﴾: التوراة، ولمّا نزلت لإرشاد قومه جُعلوا كأنهم أوتوها، فقيل: ﴿ لعلهم يهتدون ﴾ إلى الحق بالعمل بما من الشرائع والأحكام، وقيل: على حذف مضاف، أى: آتينا قوم موسى، كقوله: ﴿ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ﴾(١)، أى: من آل فرعون وملئهم. والله تعالى أعلم

الإشارة: كل من طُرد وأُبعد عن ساحة رحمة الله تعالى والوصول إليه، فإنما سببه التكبر والعلو، وكل من قرب ووصل إلى الله فإنما سببه التواضع والحنو، ولذلك ورد: «لا يَدْخُلُ الجنّةَ مَنْ كان فى قلْبِه مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ»(٢). وحقيقة الكِبر: بَطَرُ الحقِّ وغَمْطُ النَّاسِ، أى: إنكار الحق واحتقار الناس، وفى مدح التواضع والخمول مالا يخفى. فمن تواضع، دون قدره، رفَعَهُ اللهُ فوق قدره، فالتواضع مصيدة الشرف، به يصطاد وينال، ومن أوصاف أهل الجنة: «كل ضعيف مستضعف، لو أقسم على الله لأبره فى قسمه»(٣)، إلى غير ذلك من الأخبار.

وكل من أنكر على أهل الخصوصية فسببه إما الحسد، أو الجهل بأن الخصوصية لا تنافى أوصاف البشرية، أو قياس الرئاسة الباطنية الدينية على الرئاسة الدنيوية، فأسقط من لارئاسة له فى الظاهر ولاجاه، أو لعدم ظهور الكرامة، وهى غير مطلوبة عند المحققين. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر عيسى عليه السلام، فقال:

﴿ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وجعلنا ابنَ مريم وأمه آيةً ﴾ دالة على كمال قدرتنا؛ بولادته منها من غير مسيس بشر، ووحدَها؛ لأن الأعجوبة فيهما واحدة. أو المراد: وجعلنا ابن مريم آية وأمه آية، فحذفت الأولى؛ لدلالة الثانية عليها، أى: وجعلنا ابن مريم وحده، من غير أن يكون له أب، آية، وأمه، من حيث إنها ولَدت من غير ذكَر، آية، وتقديمه عليه السلام؛ لأصالته فيما ذُكر من كونه آية، كما أن تقديم أمه فى قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾(٤)، لأصالتها فيما نسب إليها من الإحصان والنفخ.

---

(١) من الآية ٨٣ من سورة يونس.
(٢) أخرجه مسلم فى (الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه) عن عبدالله بن مسعود. رضى الله عنه.
(٣) أخرجه أحمد فى المسند (١٤٥/٣) من حديث أنس بن مالك. وأخرجه ابن ماجة فى (الزهد، باب من لايؤبه به) من حديث معاذ بن جبل، بلفظ : «ألا أخبركم عن ملوك الجنة؟، قلت: بلى، قال: رجل ضعيف مستضعف، ذو طمرين، لا يؤبه، لو أقسم على الله لأبره».
(٤) الآية ٩١ من سورة الأنبياء.

﴿ وآويناهما ﴾ أي: جعلنا مأويهما ومنزلهما ﴿ إلى ربوة ﴾ أي: أرض مرتفعة، وهو بيت المقدس؛ فإنها كبد الأرض، وأقرب الأرض إلى السماء، بمعنى أنه يزيد علوها على علو الأرض، فينتقص بُعدها عن السماء عن بُعد غيرها منها بثمانية عشر ميلاً، كما جاء، ولعل ذلك سر كونها أرض الحشر، وكون الإسراء وقع منها. قاله المحشى، وقيل: دمشق، وقيل: فلسطين، والرملة. ﴿ ذات قرارٍ ﴾؛ مستقر من الأرض، مستوية، منبسطة، سهلة، أو ذات ثمار، يستقر؛ لأجل ثمارها، ساكنوها فيها، ﴿ ومَعِين ﴾ أي: ماء معين، ظاهر، جارٍ، فقيل: من معن، إذا جرى، أو مدرك بالعين لظهوره، من عانه، إذا أدركه بعينه، أو من الماعون، وهو النفع؛ لأنه نفاع لظهوره وجريه. والله تعالى أعلم.

الإشارة: كان عيسى عليه السلام منقطعاً عن هذا العالم، متبتلاً زاهداً، لم يتخذ فى هذه الدنيا قراراً، ولم يبن فيها مسكناً ولاداراً، فكان آية للعباد والزهاد من الرجال. كما أن أمه كانت آية للنساء العابدات، فى التبتل والانقطاع، فآواهما إلى ربوة التقريب والاصطفاء، ذات قرار وتمكين ومصافاة ووفاء، وجعل، جل جلاله، أولياءه على قدم أنبيائه، فمنهم على قدم نوح عليه السلام فى القوةونفوذ الهمة، مهما دعا على أحد هلك. ومنهم على قدم إبراهيم عليه السلام فى الشفقة والرحمة وعلو الهمة، وتحقيق التوحيد، وإمام أهل التفريد، ومنهم على قدم موسى عليه السلام فى المناجاة والمكالمة والقوة والعزم، ومنهم على قدم عيسى عليه السلام فى الزهد والانقطاع، ومنهم على قدم نبينا محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ؛ وهو الجامع لما افترق فى غيره، وهو قطب الدائرة، نفعنا الله بهم جميعا.

ولمّا كان جلُّ الأنبياء بالشام، التى هى ذات قرار وأنعام، أمرهم بالأكل من تلك النعم، والشكر بالعمل الصالح، فقال:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ (٥١) وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ (٥٢) فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ زُبُرٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ (٥٣) فَذَرۡهُمۡ فِي غَمۡرَتِهِمۡ حَتَّىٰ حِينٍ (٥٤) أَيَحۡسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٖ وَبَنِينَ (٥٥) نُسَارِعُ لَهُمۡ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ بَل لَّا يَشۡعُرُونَ (٥٦) ﴾

قلت: (وإن هذه): مَن كسره استأنف، ومَن فتحه حذف اللام، أي: فاتقون؛ لأنَّ هذه، أو معطوف على ما قبله: (بما تعملون عليم)، وبأن هذه، أو بتقدير: واعلموا أن هذه. و(زُبُرا): حال من: «أمْرهم»، أو من «واو» (تقطعوا)، و(نُسارع): خبر «أن»، و«ما»: موصولة.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ يا أيها الرسل كُلوا من الطيبات ﴾، هذا النداء والخطاب ليسا على ظاهرهما؛ لأنهم أرسلوا متفرقين فى أزمنة مختلفة، وإنما المعنى: الإعلام بأنّ كل رسول فى زمانه نُودى بذلك، ووصى به؛ للإيذان بأن إباحة الطيبات شرعٌ قديم، جرى عليه جميع الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ ووُصّوا به، أي: وقلنا لكل رسول: كُلْ من الطيبات واعمل صالحاً. فعبَّر عن تلك الأوامر المتعددة المتعلقة بالرسل بصيغة الجمع؛ للإيجاز، وفيه من الدلالة على بطلان ما عليه الرهابنة من رفض الطيبات مالا يخفى. قاله أبو السعود. وقيل: خطاب لعيسى عليه السلام؛ لاتصال الآية به، وكان يأكل من غزل أمه، وهو من أطيب الطيبات، وقيل: لنبينا محمد ﷺ؛ لفضله وقيامه مقام الكل، وكان يأكل من الغنائم، وما رزقه الله من غير اختيار على الله، والجمع: للتعظيم فيهما، والطيبات: ما يُستطاب ويُستلذ من مباحات المآكل والفواكه، حسبما يُنبىء عنه سياق النظم الكريم.

﴿ واعملوا ﴾ عملاً ﴿ صالحاً ﴾، فإنه المقصود منكم؛ شكراً لما أُسدى إليكم، ولا تشتغلوا بالنعم عن طاعة المنعم وشهوده، ﴿ إني بما تعملون ﴾ من الأعمال الظاهرة والباطنة، ﴿ عليم ﴾، فأجازيكم عليه، وفيه تهديد للمذكورين، فما بالك بغيرهم ممن ألهته النعم عن شهود المنعم وشكره؟!

﴿ وأن هذه أمتكم ﴾(١) أى: ملتكم وشريعتكم التى أنتم عليها ﴿ أمةً واحدة ﴾ أى: ملة واحدة، متحدة فى أصول الشرائع، التى لاتبدل بتبدل الأعصار، وهو التوحيد وما يتبعه من أصول العقائد. ﴿ وأنا ربكم ﴾ من غير أن يكون لى شريك فى الربوبية، ﴿ فاتقون ﴾: فخافوا عقابى فى مخالفتكم أمرى، أوفى شق العصا، والمخالفة بالإخلال بمواجب ما ذكر من اختصاص الربوبية بى.

والخطاب للرسل والأمم جميعًا، على أن الأمر فى حق الرسل للتهييج، وفى حق الأمم للتحذير. قيل: وجاء هنا: «فاتقون»، الذى هو أبلغ فى التخويف والتحذير من قوله فى الأنبياء: ﴿ فَاعْبُدُونِ ﴾(٢)؛ لأن هذه جاءت عقب إهلاك طوائف كثيرين، وفى الأنبياء، وإن تقدمت أيضاً قصة نوح وما قبلها، فإنه جاء بعدها ما يدل على الإحسان واللطف التام، فى قصة أيوب ويونس وزكريا ومريم، فناسب الأمر بالعبادة لمن هذه صفته.

ثم قال تعالى: ﴿ فتقطَّعوا أمرهم ﴾ أى: فتفرقوا فى أمر دينهم مع اتحاده، وجعلوه قطعًا متفرقة، وأديانا مختلفة، ﴿ بينهم زُبُراً ﴾ أي: قطعًا ـ جمع زَبور، بمعنى الفرقة، ويؤيده قراءة من قرأ: (زُبَرًا) بفتح الباء، جمع زُبْرة؛ كغُرْفة، أى: قطعًا مختلفة، كلٌ ينتحل كتاباً، وقيل: جمع زَبور، بمعنى كتاب، أى: كل فريق يزعم أن له كتاباً يتمسك به. وعن الحسن: قطعوا كتاب الله قطعًا وحرّفوه، والأول أقرب، أى: تفرقوا فى أصل الدين فرقًا،

(١) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ويعقوب «وأن» بفتح الهمزة. وقرأ عاصم وحمزة والكسائى بكسر الهمزة على الاستئناف.. انظر الإتحاف (٢/٢٨٥).

(٢) أي : فى قوله تعالى: «إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون» . الآية ٩٢ من سورة الأنبياء.

وتحزبوا أحزاباً، ﴿ كل حزب ﴾ من أولئك المتحزبين ﴿ بما لديهم ﴾ من الدين الذى اختاروه، أو من الهوى والرأى، ﴿ فَرِحُون ﴾: مُعجبُون، يعتقدون أنه الحق.

﴿ فذَرهم في غمرتهم ﴾؛ فى جهالتهم وغفلتهم، شبَّه ما هم فيه من الجهالة بالماء الذى يغمر القامة؛ لأنهم مغمورون فيها، سابحون فى بحر الجهالة، والخطاب للرسول ﷺ؛ إيذاناً بأنهم مطبوع على قلوبهم، أى: اتركهم على حالهم ﴿ حتى حين ﴾: حتى نأمرك فيهم بما شئتَ من الجهاد أو غيره، أو: إلى أن يُقتلوا أو يموتوا على الكفر، أو: إلى وقت حلول العذاب بهم. فهو تهديد وتسلية لرسول الله ﷺ، ونهى عن استعجال عذابهم، وفى التنكير والإبهام مالا يخفى من التهويل.

﴿ أيحسبون أنما نُمدُّهم به ﴾ أى: نعطيهم إياه ونجعله مدداً لهم، ﴿ من مالٍ وبنين ﴾؛ «من»: بيان، أى: أيظنون أن الذى نمدهم به من الأموال والبنين، ﴿ نُسارعُ لهم ﴾ بذلك ﴿ فى الخيرات، بل لايشعرون ﴾ أنه استدراج، قيل: استدراك لقوله: ﴿أيحسبون﴾ أى: بل هم أشباه البهائم، لا شعور لهم حتى يتأملوا فى ذلك، هل هو استدراج أو مسارعة فى الخيرات؟ وحاصل المعنى: أن هذا الإمداد ليس إلا استدراجًا لهم إلى المعاصى، وهم يحسبونه مسارعة لهم فى الخيرات، ومعاملة لهم بالثواب، جزاء على حسن صنيعهم.

وهذه الآية حجة على المعتزلة فى مسألة الأصلح؛ لأنهم يقولون: إن الله ـ تعالى ـ لا يفعل بأحد من الخلق إلا ما هو أصلح له فى الدين، وقد أخبر أن ذلك لا خير لهم فيه ولا صلاح، والله تعالى أعلم.

الإشارة: تناول الطيبات وما تشتهيه النفس من أنواع الملذوذات، مباح فى الشرع قديماً وحديثا، إن كان من وجه مباح وقارنه الشكر؛ لأن الحق تعالى ما خلق ذلك إلا لعباده؛ ليشكروه ويحمدوه، ويتذكروا بذلك نعيم الجنان، الذى لايفنى ولا يزول، وما هذا النعيم الدنيوى إلا أنموذج من نعيم الآخرة، قال تعالى: ﴿ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ ﴾(١). هذا باعتبار عامة المسلمين، وأما الخاصة؛ من العبَّاد والزهاد والمريدين السائرين، فهم يجتنبون ما تجنح إليه النفس، ويتعلق به القلب؛ خوفاً من الاشتغال بذلك عن العبادة أو السير؛ لأن القلب إذا توجه لأمر أعرض عن الآخر، فإذا توجه إلى طلب الشهوات أعرض عن الله، وتَفتَّر عن السير، وتَكبَّل عن النهوض إلى الحضرة. ولذلك قال فى الحِكَم: «كيف يشرق قلب: صُورُ الأكوان منطبعة فى مرآته؟ أم كيف يرحل إلى الله وهو مُكبَّل بشهواته؟ أم كيف يدخل حضرة الله وهولم يتطهر من جنابة غفلاته؟ أم كيف يرجو أن يفهم دقائق الأسرار وهو لم يتب من هفواته؟». وقال بعضهم: لَدغُ الزنابير على الأجسام المقَرحة، أيسر من لدغ الشهوات على القلوب المتوجهة. هـ.

---

(١) من الآية ٣٨ من سورة التوبة.

وأما خاصة الخاصة؛ وهم العارفون المتمكنون، فهم مع مولاهم، يأخذون من يده ما يعطيهم؛ لأن قلوبهم قد استغرقتها الأنوار، فلم يبق فيها متسع للأغيار، قد تهذبت نفوسهم، واطمأنت بالله قلوبهم، فلا تلتفت إلى غير مولاها. وبالله التوفيق.

وقوله تعالى: ﴿ فتقطعوا أمرهم بينهم.. ﴾ الخ، الاختلاف، إن كان فى التوحيد وما يرجع إليه من أصول العقائد، فهو مذموم ، وهو الذى نعاه الله على الكفرة المتحزبة، وأمّا إن كان فى الفروع فهو مشروع، كاختلاف الشرائع والمذاهب، ولذلك قال ـ عليه الصلاة السلام ـ: «اختلاف أمتى رحمة» ، وقال بعض الصوفية: مازالت الصوفية بخير ما تنافروا، فإن توافقوا فلا خير فيهم. هـ. والمراد بالتنافر ـ فى حقهم ـ التناصح، و إنكار بعضهم على بعض؛ إذا رأى من أحد عيباً، فإن سكتوا عن بعضهم، وتوافقوا على مساوئ بعضهم بعضا، فلا خير فيهم، وأما قلوبهم فهى متوافقة مؤتلفة.

وقوله تعالى: ﴿ كل حزب بما لديهم فرحون ﴾ ، أما أهل الحق فهم فرحون؛ لسلوكهم على المنهاج المستقيم، المُفضى إلى رضوان الله ورحمته، وأما أهل الباطل فزين لهم الشيطان أعمالهم؛ ليتمكنوا من التقرر عليه حتى ينفذ مراد الله فيهم، ولو تحققوا أنهم على باطل لم يمكن قرارهم عليه، فتبطل حكمته وقهريته، وكل من أقامه الحق ـ تعالى ـ فى حرفة أو خُطة، زينها الله ـ تعالى ـ فى قلبه حتى يقوم بها، وكذلك أهل الأسباب من أرباب الدليل والبرهان، مع أهل التجريد من أهل الشهود والعيان، لو علموا بمقام أهل العيان ما أقاموا فى الأسباب، ولتجردوا كلهم، فتبطل الحكمة الإلهية. وكان إبراهيم بن أدهم رضي الله عنه يقول: (لو يعلم الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف) : فسبحان من قرّب قوماً وأبعد قوما، (وهم يحسبون أنهم يُحسنون صُنعا) . والله تعالى أعلم وأحكم.

ثم ذكر أهل القرب، إثر بيان أهل البعد، فقال:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ خَشۡيَةِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٨﴾
وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمۡ لَا يُشۡرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾
أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾ وَلَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۖ وَلَدَيۡنَا كِتَٰبٌ
يَنطِقُ بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾

قال في الحاشية: لمّا ذكر تعالى غفلةَ الكفار ووعيدهم، عقّب ذلك بوصف المؤمنين بضد ذلك ويقينهم بالرُّجْعَى، وإشفاقهم من جلال الحق وقهره. هـ.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون ﴾ أي: من عذابه خائفون حذرون، ﴿ والذين هم بآيات ربهم ﴾ المنصوبة والمُنَزَّلة، (يؤمنون) بتصديق مدلولها، وبكتب الله كلها، لا يُفرقون بين كتبه، كالذين تقطعوا أمرهم بينهم ـ وهم أهل الكتاب وغيرهم، ﴿ والذين هم بربهم لا يشركون ﴾ شركاً جلياً ولا خفياً، بخلاف مشركي العرب والعجم.

﴿ والذين يُوتون ما آتَوْا ﴾ أي: يعطون ما أعطوا من الزكوات والصدقات. وقرئ: (يَأْتُونَ مَا أَتَوا) بالقصر، أي: يفعلون من الطاعات، ﴿ وقلوبهم وَجِلةٌ ﴾: خائفة ألاَّ تُقبل منهم؛ لتقصيرهم؛ بأن لا يقع على الوجه اللائق، فيُؤخذوا به ويُحرموا ثوابه؛ لأنهم ﴿ إلى ربهم راجعون ﴾ فيعاتبهم، أو من مرجعهم إليه، وهو يعلم ما يحيق عليهم، والموصولات الأربعة عبارة عن طائفة واحدة متصفة بما ذكر، في حيِّز صِلاتِها من الأوصاف الأربعة، لا عن طوائف، كل واحدة منها متصفة بواحد من الأوصاف المذكورة، كأنه قيل: إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون، وبآيات ربهم يؤمنون...الخ.

وإنما كرر الموصول؛ إيذاناً باستقلال كل واحد من تلك الصفات بفضيلة باهرة على حِيالها، وتنزيلاً لاستقلالها منزلة استقلال الموصوف بها، وخبر «إنّ»: ﴿ أولئك يسارعون ﴾، أشار إليهم بالجمع باعتبار اتصافهم بتلك النعوت، مع أنَّ الموصول واقع على الجمع.

ومعنى البُعد؛ للإشعار ببُعد رُتبتهم في الفضل، أي: أولئك المنعوتون بتلك النعوت الجليلة يسرعون ﴿ في الخيرات ﴾ أي: يرغبون في الطاعات أشد الرغبة، فيبادرون إليها. أو يسارعون في نيل الخيرات العاجلة والآجلة الموعودة على الأعمال الصالحات؛ كما في قوله، تعالى: ﴿ فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ ﴾(١)، وقوله: ﴿ وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾(٢)، فقد أثبت لهم ما نفى عن أضدادهم، غير أنه غيّر الأسلوب، حيث لم يقل: أولئك نسارع لهم في الخيرات؛ بل أسند المسارعة إليهم؛ إيماءاً إلى كمال استحقاقهم نيل الخيرات لمحاسن الأعمال. وإيثار كلمة «في»، عن كلمة «إلى» ؛ إيذاناً بأنهم مُتقلّبون في فنون الخيرات، لا أنهم خارجون عنها متوجهون إليها، كما في قوله تعالى: ﴿ سَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ الآية(٣).

(١) من الآية ١٤٨ من سورة آل عمران.
(٢) الآية ١٢٢ من سورة النحل.
(٣) الآية ١٣٣ من سورة آل عمران.

﴿ وهم لها ﴾ أى: لأجل نيل تلك الخيرات، ﴿ سابقون ﴾ الناس إلى الطاعات، أو: وهم إياها سابقون، واللام زائدة؛ لتقوية العامل، كقوله: (هم لها عاملون) أى: ينالونها قبل الآخرة، فتُعجل لهم فى الدنيا، وعن ابن عباس: (هم لها سابقون) أي: سبقت لهم من الله السعادة، فلذلك سارعوا فى الخيرات. هـ. فهو إشارة إلى تيسير كلٌ لما خُلق له، وأنه يَسَّرهم القدرُ لما وصفهم به من الخير، كما أن الكفار أُمدوا بما يدعو للغفلة والإعجاب، مما هو استدراج ومكر من حيث لا يشعرون.

قال تعالى: ﴿ ولا نُكلف نفساً إلا وُسْعَها ﴾ أى: طاقتها، فهو تحريض على تحصيل ما وُصف به السابقون من فعل الطاعات المؤدى إلى نيل الخيرات؛ ببيان سهولته، وأنه غير خارج عن حد الوسع والطاقة، أى: عادتنا جارية بأنْ لا نكلف نفساً من النفوس إلا ما فى طاقتها، فإن لم يبلغوا فى فعل الطاعة مراتب السابقين، فلاعليهم، بعد أن يبذلوا طاقتهم ويستفرغوا وسعهم.

﴿ ولدينا كتابٌ ﴾ أى: صحائف الأعمال التى يرونها عند الحساب، حسبما يُعرب عنه قوله: ﴿ ينطق بالحق ﴾، كقوله: ﴿ هَذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾(١) أى: عندنا كتاب أثبت فيه أعمال كل أحد على ما هو عليه، أو أعمال السابقين والمقتصدين جميعاً، وقوله: (بالحق): يتعلق بينطق، أى: يظهر الحق المطابق للواقع على ما هو عليه، أو يظهره للسامع، فيظهر هناك جلائل أعمالهم ودقائقها، ويرتب عليها أجزيتها، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، وقيل: المراد بالكتاب: اللوح المحفوظ، وهو مناسب لتفسير ابن عباس بسبق السعادة، وقوله: ﴿ وهم لا يظلمون ﴾، بيان لفضله تعالى وعدله فى الجزاء، إثر بيان لطفه فى التكليف وكتب الأعمال، أى: لا يظلمون فى الجزاء؛ بنقص الثواب أو بزيادة عذاب، بل يُجزون بقدر أعمالهم التى كُلفوها، ونطقت بها صحائف أعمالهم، أو: لا يُظلمون بتكليف مالا وسع فيه، أو: لا ينقصون مما سبق لهم فى اللوح المحفوظ شيئاً، والله تعالى أعلم.

الإشارة: ذكر فى هذه الآية أربعة أوصاف من أوصاف المقربين، **أولها:** الخوف والإشفاق من الطرد والإبعاد، **والثانى:** الإيمان الذى لا يبقى معه شك ولا وَهْم، بما تضمنته الآيات التنزيلية من الوعد والإيعاد، **والثالث:** التوحيد الذى لا يبقى معه شرك جلي ولا خفي، **والرابع:** السخاء والكرم، مع رؤية التقصير فيما يعطى. فمن جمع هذه الخصال كان من السابقين فى الخيرات، ويسارع لهم فى تعجيل الخيرات، وكل ذلك بقدر ما يطيق العبد، مع بذل المجهود فى فعل الخيرات.

قال فى الحاشية: والمسارعة إلى الخيرات إنما هو بقطع الشرور، وأول الشرور: حب الدنيا؛ لأنها مزرعة الشيطان، فمن طلبها وعمرّها فهو حراثه وعبده، وشر من الشيطان من يُعين الشيطان على عمارة داره، وما ذلك إلا أنه لم يهتم بأمر معاده ومنقلبه، لما جرى عليه فى السابقة من الحكم، ولا كذلك من وصفه بالإشفاق من المؤمنين؛ إجلالاً لربهم، ورجوعاً لحكمه فيهم غيباً، فلا يأمنون مكره بحال، ولا يركنون إلى أعمال، بل عمدتهم

(١) من الآية ٢٩ من سورة الجاثية.

ربهم ورحمته في كل حال. والله أعلم. والحاصل: أنهم مع كونهم يخشون ربهم ويؤمنون بآياته، ولا يشركون به شيئاً، ويودون طاعته، يخافون عدم قبوله لهم عند الرجوع إليه، ولقائهم له؛ لأنه يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، وأحكامه لا تعلل، ومن استغرق فيه لم يقف مع وعده . هـ .

قوله: «ومن استغرق فيه لم يقف مع وعده»، أي: لأنه قد يرتب ذلك على شروط أخفاها عنه، ليدوم خوفه واضطراره، ولذلك كان العارف لا يزول اضطراره، وليس خوف العارف من السابقة ولا من الخاتمة؛ لأنه شغله استغراقه في الحق والغيبة فيه عن الشعور بالسابقة واللاحقة، إنما خوفه من الإبعاد بعد التقريب، أو الافتراق بعد الجمع، وهذا أيضا قبل التمكين، وإلا فالكريم إذا أعطى لا يرجع. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر من اتصف بضد الأوصاف المتقدمة، فقال:

﴿ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ ﴿٦٣﴾ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾ قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾

قلت: «بل»: إضراب عما قبله من أوصاف المؤمنين، وانتقال إلى أضدادهم من الكافرين، والضمير للكفرة، و«حتى»: ابتدائية مختصة بالدخول على الجُمل.

يقول الحق جل جلاله: ﴿بل قلوبُهم﴾ أي: الكفرة المستدرج بهم، وهم لا يشعرون، ﴿في غَمْرَة﴾؛ في غفلة غامرة لها، مما عليه هؤلاء الموصوفون بما تقدم من الخشية وما بعده، أومما بيَّن في القرآن من أن لديه كتاباً ينطق بالحق، ويُظهر لهم أعمالهم السيئة على رؤوس الأشهاد، فيُفضحون بها، كما ينبئ عنه ما بعده من قوله: ﴿قد كانت آياتي تتلى عليكم..﴾. ﴿ولهم أعمال من دون ذلك﴾ أي: ولهم أعمال خبيثة كثيرة، متجاوزة لذلك الذي وصف به المؤمنون، من الأعمال الصالحات، وهي فنون كفرهم ومعاصيهم، ﴿هم لها عاملون﴾، وعليها مقيمون، مستمرون عليها، حتى يأخذهم الله بالعذاب، كما قال: ﴿حتى إذا أخذنا مُترَفِيهم﴾ أي: منعميهم ﴿بالعذاب﴾ أي: عذاب الدنيا، وهو القحط سبع سنين، حين دعا عليهم النبي ﷺ بقوله: «اللهُمَّ اشْدُدْ وطْأَتَكَ عَلَى مُضَرَ، واجعلها عَلَيْهِمَ سِنِينَ كَسِنِيِّ يُوسُفَ»(١)، فقحطوا حتى أكلوا الكلاب والجيف والعظام. أو: القتل يوم

(١) أخرجه البخاري في (الأذان، با ب يهوي بالتكبير حين يسجد)، ومسلم في (المساجد، باب استحباب القنوت في جميع الصلاة)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

بدر. والحق: أنه العذاب الأخروى؛ إذ هو الذى يفاجأون عنده بالجؤار، فيجابون بالرد والإقناط عن النصر، وأما عذاب يوم بدر فلم يوجد لهم عنده جؤار، حسبما ينبئ عنه قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴾(١)، فإنَّ المراد به ما جرى عليهم يوم بدر كما يأتى. وأما الجوع فإن أباسفيان، وإن تضرع إلى رسول الله ﷺ، فلم يرد عليه بالإقناط، بل دعا لهم فكشف عنهم. وقوله تعالى: ﴿ إذا هم يجأرون ﴾ أى: يصرخون؛ استغاثة، والجؤار: الصراخ باستغاثة. فيقال لهم: ﴿ لا تجأروا اليوم ﴾؛ فإن الجؤار غير نافع لكم، ﴿ إنكم منا لا تُنصرون ﴾ أى: لا يلحقكم من جهتنا نصرة تمنعكم مما دهمكم.

﴿ قد كانت آياتى ﴾ القرآنية ﴿ تُتلى عليكم ﴾ فى الدنيا، ﴿ فكنتم على أعقابكم تَنكِصُونَ ﴾ أى: ترجعون القهقرى، وتعرضون عن سماعها أشد الإعراض، فضلاً عن تصديقها والعمل بها، والنكوص: الرجوع القهقرى، وهى أقبح المشية؛ لأنه لا يرى ما وراءه، ﴿ مستكبرين به ﴾، الظاهر أن الضمير للقرآن؛ لتقدم ذكر آياته، والباء بمعنى «عن» أى: متكبرين عن سماعه والإذعان له، أوسببية، أى: فكنتم بسبب سماعه مستكبرين عن قبوله، وعمن جاء به، أو ضَمَّن مستكبرين معنى مُكذبين، وقيل: يعود إلى البيت الحرام، أو الحرم، وأضمر ولم يذكر؛ لأنه يفهم من السياق. والمعنى: أنهم يستكبرون بسبب المسجد الحرام؛ لأنهم أهله وأهل ولايته، وكانوا يقولون: لا يظهر علينا أحد؛ لأنا أهل الحرم، وقيل: تتعلق الباء بقوله: ﴿ سامراً ﴾ أى: تسمرون بذكر القرآن والطعن فيه، وكانوا يجتمعون حول البيت يسمرون، وكان عامة سمرهم ذكر القرآن والطعن فيه، وفى النبى ﷺ الذى جاء به، و« سامراً» : مفرد بمعنى الجمع، وقرئ سُمَّاراً، ﴿ تهجرون ﴾(٢)، إما من الهَجر بالفتح، بمعنى الهذيان، أى: تهذون فى شأن القرآن كما يهذو الحالم أو السكران. أو من الترك، أى: تتركونه وتفرون منه، أو تهجرون النبى ﷺ والمؤمنين ، أو من «الهُجر» بالضم، وهو الفحش، ويؤيده قراءة من قرأ: « تُهجِرون» ، من أهجر فى منطقه: إذا أفحش. والله تعالى أعلم.

الإشارة: من كان قلبه فى غمرة حظوظه وهواه، عاكفًا على جمع دنياه، لا يطمع فى دخول حضرة مولاه، ولو صلى وصام ألف سنة. قال القشيرى: لا يَصلُحُ لهذا الشأن إلا من كان فارغًا من الأعمال كلها، لا شغلَ له فى شأن الدنيا والآخرة، فأمَّا من شُغل بدنياه، وعلى قلبه حديثٌ من عقباه، فليس له نصيبٌ من حديث مولاه. هـ. وفى الحديث: «نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَاس: الصِّحَّةُ والفَرَاغُ»(٣).

---

(١) الآية ٧٦ من سورة المؤمنون.
(٢) قرأ نافع «تهجرون» بضم التاء وكسر الجيم، وقرأ الباقون بفتح التاء وضم الجيم. انظر الإتحاف (٢/٢٨٦).
(٣) أخرجه البخارى فى (الرقاق، باب ما جاء فى الرقاق، وأن لا عيش إلا عيش الآخرة) عن ابن عباس رضي الله عنه.

ثم أمر بالتدبر والنظر، لعله يقع التيقظ، فقال:

﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ
لَهُ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَوِ
اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ
فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾ أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّكَ
لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾

قلت: الهمزة للإنكار، والفاء للعطف على محذوف، أي: أفعلوا ما فعلوا من النكوص والاستكبار فلم يتدبروا القرآن، و«أم»: منقطعة، فيها معنى الإضراب والتوبيخ في الجميع.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ ﴾؛ يتدبروا القرآن ليعرفوا، بما فيه من إعجاز النظم وصحة المدلول، والإخبار عن المغيبات الماضية والمستقبلة، أنه الحق، فيؤمنوا به، ويُذعنوا لمن جاء به، ﴿ أَمْ جَاءَهُم ﴾؛ بل أجاءهم من الكتاب ﴿ مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾، حتى استبعدوه واستبدعوه، فوقعوا فيما وقعوا فيه من الكفر والضلال، ﴿ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ ﴾ أي: بل ألم يعرفوه ـ عليه الصلاة والسلام ـ بالأمانة والصدق، وحسن الأخلاق، وكمال العلم من غير تعلم ولا مدارسة، وغير ذلك مما حازه من الكمالات اللائقة بالأنبياء قبله، بل عرفوه بذلك ﴿ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴾ بغياً وحسداً.

﴿ أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ ﴾؛ جنون، وليس كذلك؛ لأنهم يعلمون أنه أرجحهم عقلاً، وأثقبهم ذهناً، وأتقنهم رأياً، وأوفرهم رزانة، ولقد شهد له بذلك كل من رآه من الأعداء والأحباب، ﴿ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ ﴾ أي: ليس الأمر كما زعموه في حق الرسول ـ عليه الصلاة السلام ـ ، وما جاء به من القرآن، بل جاءهم بالحق الأبلج والصراط المستقيم، وبما خالف أهواءهم، من التوحيد الخالص والدين القيم، ولم يجدوا له مرداً ولا مدفعاً، فلذلك نسبوه إلى الجنون، ﴿ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ ﴾ من حيث هو حق، لا لهذا بعينه، فلذلك أظهر في موضع الإضمار، ﴿ كَارِهُونَ ﴾؛ لِمَا في جبلّتهم من الزيغ والانحراف المناسب للباطل؛ ولذلك كرهوا هذا الحق الأبلج، وزاغوا عن الطريق الأبهج، وفي التعبير بالأكثر دليل على أن أقلهم ما كان كارهاً للحق، بل كان تاركاً للإيمان به، أنفةً واستنكافاً من توبيخ قومه، أو لقلة فطنته وعدم تفكره، كأبي طالب وأضرابه. قال أبو السعود: وأنت خبير بأن التعرض لعدم كراهة بعضهم للحق، مع اتفاق الكل على الكفر به، مما لا يساعده المقام أصلا. هـ. فحمل الأكثر على الكل.

○ ﴿ولو اتبع الحقُّ أهواءهم﴾ بأن كان فى الواقع آلهة شتى؛ ﴿لفسدت السموات والأرضُ ومن فيهن﴾ كما تقدم فى قوله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾(١)، فالاتباع هنا مجاز، أى: لو جاء الوحى على مايشتهون لفسدت السموات، فالحق هنا هو المذكور فى قوله: (بل جاء هم بالحق وأكثرهم للحق كارهون)، والمعنى: لو كان ما كرهوه من الحق، الذى من جملته ما جاء به ﷺ، موافقًا لأهوائهم الباطلة؛ لفسد نظام العالم، وتخصيص العقلاء بالذكر حيث عبَّر بمن؛ لأنَّ غيرهم تبع.

○ ﴿بل أتيناهم بذكْرهم﴾: بشرفهم، وهو القرآن الذى فيه فخرهم وشرفهم، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ ولقومك﴾(٢)؛ لأن الرسول منهم، والقرآن لغتهم، أو بتذكيرهم ووعظهم، أو بالذكر الذى كانوا يتمنونه، ويقولون: (لو أن عندنا ذكراً من الأولين)(٣)، ﴿فهم عن ذكْرهم معرضون﴾ أى: فهم، بما فعلوا من النكوص، عن فخرهم وشرفهم معرضون، وهذا مما جُبلَتْ عليه النفوس الأمّارة؛ الإعراض عما فيه خيرها، والرغبة فيما فيه هلاكها، إلا من عصم الله، وفى إسناد الإتيان إلى نون العظمة، بعد إسناده إلى ضميره عليه الصلاة والسلام، من التنويه بشأن النبى ﷺ ما لا يخفى. انظر أبا السعود.

○ ﴿أم تسألُهم خَرْجاً﴾، هذا انتقال من توبيخهم بما ذكر من قولهم: (أم يقولون به جنَّة)، إلى التوبيخ بوجه آخر، كأنه قال: أم يزعمون أنك تسألهم عن أداء الرسالة ﴿خَرْجا﴾ أى: جعلاً، فيتهمونك، أو يثقل عليهم فلذلك لا يؤمنون، ﴿فخراجُ ربك خيرٌ﴾ أى: رزقه فى الدنيا، وثوابه فى الآخرة، خير لك من ذلك؛ لدوامه وكثرته، أى: لا تسألهم ذلك؛ فإن مارزقك الله فى الدنيا والعقبى خير لك من ذلك، وفى التعرض لعنوان الربوبية، مع الإضافة إلى ضميره ـ عليه الصلاة والسلام ـ، من تعليل الحكم وتشريفه ﷺ مالا يخفى.

والخَرْج والخراج واحد، وهو: الأجر المأخوذ على العمل، ويطلق على الغلة والضريبة، كخراج العبد والأرض، وقال النضر بن شُميل: سألت أبا عمرو بن العلاء عن الفرق بين الخراج والخَرْج، فقال: الخراج مالزمك، والخرج ماتَبَرَّعْتَ به، وقيل: الخرج أخص من الخراج؛ لأنَّ الخراج يطلق على كل ما يستفيده المرء من غلة، أو أجرة، أو زكاة، والخرج خاص بالأجرة، وفى الخراج إشعار بالكثرة، فلذلك عبَّر به فى جانبه ـ تعالى ـ والمعنى: أم تسألهم، على هدايتك لهم، قليلاً من عطاء الخلق، فالكثير من عطاء الخالق خير، ﴿وهو خير الرازقين﴾: أفضل المعطين.

○ ﴿وإنك لتدعوهم إلى صراط مستقيم﴾ تشهد العقول السليمة باستقامته، ليس فيه شائبة اعوجاج، توجب اتهامهم لك بوجه من الوجوه، ولقد ألزمهم الله ـ تعالى ـ الحجة، وأزاح عِللهم فى هذه الآيات، حيث حصر أقسام ما يؤدى إلى الإنكار والاتهام من قوله: ﴿أم لم يعرفوا رسولهم...﴾ إلى هنا، وبيَّن انتفاءها، ولم يبق إلا كراهة الحق

---

(١) من الآية ٢٢ من سورة الأنبياء. (٢) من الآية ٤٤ من سورة الزخرف.
(٣) كما حكى القرآن عنهم في الآية ١٦٨ من سورة الصافات.

وعدم الفطنة أو العناد والمكابرة، ﴿ وإنَّ الذين لا يؤمنون بالآخرة عن الصراط ﴾؛ عن طريق الحق ﴿ لناكبون ﴾ أي: لعادلون عن هذا الصراط المذكور، وهو الصراط المستقيم، وصفهم بعدم الإيمان بالآخرة، تشنيعاً لهم بما هم عليه من الانهماك فى الدنيا، وزعمهم ألاَّ حياة إلاَّ حياة الدنيا، وإشعاراً بعلِّيَة الحُكم؛ فإن الإيمان بالآخرة وخوف ما فيها من الدواهى من أمور الدعاوى إلى طلب الحق وسلوك سبيله. والله تعالى أعلم.

الإشارة: كل من أنكر على أهل الخصوصية، ولم يعرف خصوصيتهم؛ فسببه ثلاثة أمور: إما أنه لم يصحبهم ولم يتدبر ما يقولون، ولا ما يأمرون به وينهون عنه، وإنما يرميهم رجماً بالغيب، وإما أنه حسدهم وخاف على جاهه أن ينتقل لغيره، وإما أنهم أتوا بخرق عوائد النفوس التى لم تكن لآبائهم الأولين، فقالوا: (إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون)، وإنما جاءهم بالحق، وأكثرهم للحق كارهون، وكيف تُخرق للعبد العوائد، وهو لم يخرق من نفسه العوائد؟. (ولو اتبع الحق أهواءهم)، بأن كانت التربية على طريق العوائد، والاستمرار معها، لفسد النظام، ولبقى الكون كله ظلمة لجميع الأنام؛ إذ لا يمكن أن يصير الكون نوراً، بظهور الحق فيه، إلا بخرق عوائد النفوس، وإخراجها عن هواها، فحينئذ تخرق له ظلمة الكَون، فيفضى إلى شهود المكوِّن، (بل أتيناهم بذكرهم) أى: بشرفهم، بمعرفة الحق على نعت العيان، (وهم عن ذكرهم معرضون)؛ حيث انهمكوا فى عوائدهم، ولم يقبلوا من يخرجهم عنها ويعرفهم بالله لله، من غير خراج ولا طمع.

قال تعالى لنبيه ـ عليه الصلاة السلام ـ : (أم تسألهم خرجاً فخراج ربك خير). قال القشيرى: أى: إنَّكَ لا تُطالبهم على تبليغ الرسالة بأجرة، ولا بإعطاءِ عِوضٍ، حتى تكون فى موضع التهمة فيما تأتيهم به من الشريعة، أم لعلك تريد أن يَعْقِدُوا لك الرئاسة، ثم قال: والذى لَكَ من الله ـ سبحانه ـ من جزيل الثواب، وحسن المآب، يُغْنيك عن التصدى لنيلِ ما يكون فى حصوله منهم مطمع. وهذه كانت سُنَّة الأنبياء والمرسلين ـ عليهم السلام ـ؛ عملوا لله فلم يطلبوا عليه أجراً من غير الله، والعلماء ورثة الأنبياء فى التنزه من التَّدنُّس بالأطماع، والأكل بالدين، فإنه ربا مُضرٌ بالإيمان، إن كان العملُ لله فالأجر مُنتظرٌ من الله، وهو موعودٌ من قِبَل الله. هـ.

وراجع ما تقدم فى سورة هود؛ فإنه أوفى من هذا(١).

وقوله تعالى: (وإنك لتدعوهم إلى صراط مستقيم)، هو طريق الوصول إلى شهود الذات الأقدس، من طريق التربية، التى هى مخالفة الهوى والخروج عن العوائد. وقال القشيرى: الصراطُ المستقيمُ: هو شهودُ الحقِّ بنعت الانفراد فى جميع الأشياء، والإيجاف(٢)، والاستسلام لقضايا الإلزام، بمواطأة القلب من غير استكراه الحُكْم. هـ.

وقال الورتجبى عن بعضهم: لولا أن الله ـ تعالى ـ أمر بمخالفة النفوس ومباينتها، لا تَّبع الخلق أهواءهم فى شهوات

---

(١) راجع إشارة الآية ٢٩ من سورة هود.

(٢) فى القشيرى: وفى الإيجاد.

النفوس، ولو فعلوا ذلك لضلوا عن طريق العبودية، وتركوا أوامر الله، وأعرضوا عن طاعته، ولزموا المخالفة، ألا ترى الله يقول: ﴿ولو اتبع الحق أهوائهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن﴾.

ثم بيّن سبحانه أن حبيبه ـ عليه الصلاة والسلام ـ يدعوهم إلى تلك المشاهدة بقوله: (وإنك لتدعوهم إلى صراط مستقيم) أي: مما أوضحه أنوار جماله وشاهدته، وهى طريق معرفته فى قلوب الصدّيقين للأرواح القدسية. وتلك الطريقة منتهاها المحبة، وبدايتها الأسوة والمتابعة؛ لقوله: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّه﴾(١). هـ. قلت: المراد بالمحبة محبة الحق لعبده؛ بدليل الآية التى ذكر. وقال ابن عطاء: إنك لتحملهم على مسالك الوصول، وليس كل أحد يصلح لذلك السلوك، ولا يوفق له إلا أهل الاستقامة، وهم الذين استقاموا مع الله ولم يطلبوا معه سواه، ولم يروا لأنفسهم درجة ولامقاماً. هـ.

قوله تعالى : ﴿وإن الذين لا يؤمنون بالآخرة﴾ أي: لا يؤمنون بالحياة الآخرة، وهى حياة النفوس بالمعرفة العيانية، بعد موتها بالجهل والوقوف مع الحس والعوائد، ممن لا يصدق بهذه الحياة، وأنكر وجود من يوصل إليها عن طريق الحق الموصلة إليه، لناكبون، فهم فى الحيرة والتلف تائهون، عائذاً بالله من ذلك.

ثم ذكر انهماكهم فى الغفلة؛ لسبق القضاء عليهم، فقال:

﴿ وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾ حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ولو رحمناهم وكشفنا ما بهم من ضُرّ﴾، كقحط وجدب، ﴿لَلَجُّوا﴾: لتمادوا ﴿فى طغيانهم﴾: إفراطهم فى الكفر والعتو والاستكبار وعداوة الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ والمؤمنين، ﴿يعمهون﴾: يترددون عامهين عن الهدى. قال ابن عباس: لما أسلم ثُمَامَةُ بن أثال الحنفي، ورجع إلى اليَمَامَة، منع المِيرَةَ عن أهل مكّة، وأخذهم الله تعالى بالسنين حتّى أكلوا العِلْهِز(٢)، جاء أبو سفيان إلى رسول الله ﷺ فقال له: أنْشُدك الله والرّحم، ألستَ تزعمُ أنك بُعثت رحمةً للعالمين؟ قال: بلى، قال: قتلت الآباء بالسّيف، والأبناء بالجوع، فنزلت(٣). قال ابن جزى: وفيه نظر؛ فإن الآية مكية باتفاق، وإنما دعا النبى ﷺ على قريش بعد الهجرة، حسبما ورد فى الحديث. هـ.

---

(١) فالآية ٣١ من سورة آل عمران

(٢) قال فى النهاية: هى شيء يتخذونه فى سنى المجاعة، يخلطون الدم بأوبار الإبل، ثم يشوونه بالنار ويأكلونه. انظر النهاية (٢٩٣/٣). والقاموس المحيط (٩٠/٢).

(٣) أخرجه البيهقى فى الدلائل (باب سرية نجد)، والنسائى فى الكبرى (التفسير، سورة المؤمنون)، وابن جرير فى التفسير (٤٥/١٨).

قلت: والتحقيق: أن القحط نزل بهم مرتين، أحدهما قبل الهجرة، حين دعا عليهم ـ ﷺ ـ بقوله: «اللهم أعِنّى عليهم بسبع كسبع يوسف»، فأخذتهم سَنَةٌ حصدت كل شيء، حتى أكلوا الميتة والعظام، وكانوا يرون كهيئة الدخان من الجوع، فجاء أبو سفيان فقال: يا محمد، جئت تأمر بصلة الرحم، وإن قومك قد هلكوا، فادعُ الله يغيثنا، فدعا لهم.. الحديث. وفيه نزل تعالى: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾[(١)]، الآية، وقوله هنا: ﴿ولو رحمناهم وكشفنا...﴾ الآية. ومرة أخرى بالمدينة؛ حين استغاثوا به ﷺ وهو يخطب، ولعله هو الذى ذكره ابن عباس فى إسلام ثمامة، ولعل قوله: «فنزلت الآية» سهو؛ لأنها نزلت قبل الهجرة، إلا أن تكون الآية مدنية فى السورة المكية، وقول ابن جزى: «دعا عليهم بعد الهجرة»، التحقيق: أنه دعا عليهم قبلُ وبعدُ. والله أعلم.

والمعنى: لو رحمناهم، وكشفنا ما بهم من القحط والهزال؛ برحمتنا إياهم، ووجدوا الخصب، لارتدوا إلى ما كانوا عليه من الكفر والاستكبار، ولذهب عنهم هذا الخلق والتعلق بك، وهذا كقوله تعالى فى الدخان: ﴿إِنَّكُمْ عائدون﴾[(٢)]، قيل: المراد بالضر: العذاب الأخروى، فيكون كقوله: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾[(٣)].

﴿ولقد أخذناهم بالعذاب﴾، وهو ما أصابهم يوم بدر من القتل والأسر، وهو قوله ـ تعالى ـ فى الدخان: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى﴾[(٤)]. ﴿فما استكانُوا لربهم﴾ بذلك، أى: لم يخضعوا ولم يتذللوا. و«استكانوا»: افتعل من السكون، والألف زائدة، أو استفعل من الكون، أى: انتقل من كون إلى كون، كاستحال، إذا انتقل من حالٍ إلى حال؛ لأن الخاضع ينتقل من كون إلى كون. ﴿وما يتضرعونَ﴾ أى: وليس من حالهم التضرع إليه تعالى، وعبَّر بالمضارع، ليدل على الاستمرار، أى: ليس شأنهم التضرع فى هذه الحالة وغيرها، أو: فما استكانوا فيما مضى، وما يتضرعون فيما ينزل بهم فى المستقبل، والمعنى: تالله لقد أخذناهم بالعذاب، وقتلناهم بالسيوف، وما جرى عليهم يوم بدر من قتل صناديدهم، فما وُجدت، بعد ذلك، منهم استكانة ولا تضرع.

﴿حتى إذا فتحنا عليهم باباً ذا عذابٍ شديد﴾، وهو عذاب الآخرة، ﴿إذا هم فيه مبلسون﴾: متحيرون آيسون من كل خير، وهذا هو الصواب من حمل العذاب على عذاب الآخرة، بدليل وصفه بالشدة والإياس. والله تعالى أعلم.

---

(١) الآية ١٠ من سورة الدخان.
(٢) من الآية ١٥ من سورة الدخان.
(٣) من الآية ٢٨ من سورة الأنعام.
(٤) من الآية ١٦ من سورة الدخان

الإشارة: أهل الغفلة والبُعد لا يرجعون إلى الله فى السراء ولا فى الضراء؛ لانهماكهم فى الغفلة والقساوة، وأهل اليقظة يرجعون إلى الله فى السراء والضراء، فى السراء بالحمد والشكر، وفى الضراء بالصبر والرضا والتسليم، مع التضرع والابتهال؛ عبوديةً، والمقتصدون يرجعون إليه ـ تعالى ـ فى الضراء، ويغفلون عن الشكر فى السراء، والأول ظالم لنفسه، والثانى سابق، والثالث مقتصد. وبالله التوفيق.

ثم ذكر دلائل قدرته ـ تعالى ـ وفى ضمنه استدعاؤهم إلى الرجوع إليه تعالى بالشكر، فقال:

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى
ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ أَفَلَا
تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾ بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا
أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله : ﴿وهو الذي أنشأ﴾: خلق ﴿لكم السمع والأبصار﴾؛ لتشاهدوا بها عجائب مصنوعاته ودلائل قدرته، أو لتتوصلوا إلى شهود آياته الكونية والتنزيلية، ﴿والأفئدة﴾؛ لتتفكروا بها فيما تشاهدونه منها وتعتبروا، وخصها بالذكر؛ لأنه يتعلق بها من المنافع مالا يتعلق بغيرها، وقدّم السمع؛ لأنّ أكثر العلوم إنما تُنال به، ﴿قليلاً ما تشكرون﴾ أى: شكراً قليلاً غير معتد به تشكرون تلك النعم الجليلة؛ لأن العمدة فى الشكر: صرف تلك القوى ـ التى هى فى أنفسها نعَم باهرة ـ إلى ما خلقت له، وأنتم تنتحلون بها ضلالاً عظيما. ﴿وهو الذي ذرأكم في الأرض﴾ أى: خلقكم وبثكم فيها بالتناسل، ﴿وإليه تُحشرون﴾ أى: تجمعون يوم القيامة بعد تفرقكم، فيجازيكم على إحسانكم وإساءتكم .

﴿وهو الذى يُحيي ويميت﴾، من غير أن يشاركه فى ذلك أحد ولا شيء من الأشياء، ﴿وله اختلافُ الليل والنهار﴾ أى: المؤثر فى اختلافهما، ﴿أفلا تعقلون﴾ فتعرفون بالنظر والتأمل أن الكل منا، وأن قدرتنا تعم جميع الممكنات، التى من جملتها البعث والحساب، وقُرئ « يعقلون » ؛ بالغيب، على الالتفات؛ لحكاية سوء حال المخاطبين، ﴿بل قالوا﴾ عطف على مضمر يقتضيه المقام، أى: فلم يعقلوا ﴿بل قالوا مثلَ ما قال الأولون﴾ أى: آباؤهم ومن دان دينهم، ﴿قالوا أئذا متْنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون﴾، هو تفسير لما أبهم قبله، أى: قالوا : أنُبعث بعد هذه الحالة، ﴿لقد وُعدنا نحن وآباؤنا هذا﴾ البعث ﴿من قبل﴾: متعلق بالفعل من حيث إسناده إلى آبائهم لا إليهم، أى: وُعِدَ هذا آباؤنا من قبلُ، أو حال من آبائنا، أى: كائنين من قبل، ﴿إنْ هذا﴾ أى:

ما هذا ﴿إلا أساطير الأولين﴾ أى: أكاذيبهم التى سطروها، وهى جمع أسطورة، كأُحدوثة وأُعجوبة، أو جمع أسطار، جمع سطر، فيكون جمع الجمع. والله تعالى أعلم.

الإشارة: ذكر فى الآية خمس نِعَم، يجب على العبد شكر كل واحدة منها، فشُكْر نعمة السمع: أن تسمع به ما ينفع، وتكفه عما لا ينفع، وإذا سمعت خيراً أفشيته، وإذا سمعت شراً دفنته. وشكر نعمة البصر: أن تنظر به فى ملكوت السموات والأرض وما بينهما، فتعرف عظمة الصانع، أو تشاهده وتوحده فيها. وشكر نعمة القلوب: أن تعرف بها علام الغيوب، وتُفرده بالوجود فى كل مرغوب ومرهوب. وشكر نعمة الإيجاد: أن تكون له عبداً فى كل حال. وشكر نعمة الإعادة: أن تتأهب للقائه فى كل لحظة وساعة. (وهو الذى يحيى ويميت)؛ يحيى قلوباً بالمعرفة بعد الجهل، ويميت قلوباً بالغفلة والجهل بعد العلم واليقظة، وذلك بالسلب بعد العطاء، والعياذ بالله. وله اختلاف ليل القبض ونهار البسط على العبد، ثم يُخرجه عنهما؛ ليكون مع الله لامع شيء سواه. وبالله التوفيق.

ثم ذكر دلائل ما أنكروه من البعث، فقال:

﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿قل﴾ يا محمد لمن أنكر البعث: ﴿لمن الأرضُ ومن فيها﴾ من المخلوقات؛ عاقلاً أو غيره، أى: من أوجدها، ودبر أمرها، ﴿إن كنتم تعلمون﴾ شيئاً؟ والجواب محذوف، أى: فأخبرونى؛ فإن ذلك كاف فى الجواب، ﴿سيقولون لله﴾؛ لأنهم مُقرُّون بأنه الخالق، فإن أقروا بذلك ﴿فقل أفلا تذكرون﴾ فتعلمون أنَّ من قدر على خلق السماوات والأرض وما فيهن، كيف لا يقدر على إعادة الخلق بعد عدومها؟ فإن الإعادة أهون من البدء. ﴿قل من ربُّ السموات السبع وربُّ العرش العظيم﴾، أعيد الرب؛ تنويهاً لشأن العرش، ورفعاً لمحله؛ لئلا يكون تبعاً للسماوات والأرض، وجوداً وذكراً، ولقد روعى فى الأمر بالسؤال الترقى من الأدنى إلى الأعلى، فإن سألتهم (سيقولون لله) أى: هى لله، كقولك: مَن رب هذه الدار؟ فتقول: هى لفلان، وقال الشاعر:

إذا قِيل: مَن رَبُّ الْمَزالِفِ والقُرَى ... وربُّ الْجِيادِ الجُرْدِ؟ قِيل: لخَالِدِ

وقال الأخفش: اللام زائدة، أي: هو الله، وبعدمه قرأ أهل البصرة، فيه وفيما بعده، وا تفقوا على إثباته فى الأول، ليطابق السؤال، فإن أجابوا بذلك ﴿ فقل أفلا تتقون ﴾ أى: أتعلمون ذلك، ولا تتقون عذابه فى كفركم وجحودكم قدرته على البعث؟

﴿ قل من بيده ملكوت كل شيء ﴾ أى: التصرف التام فى كل شىء بقهره وسلطانه، فالملكوت، فى أصل اللغة، مبالغة في الملك، زيدت الواو والتاء؛ للمبالغة، كالجبروت؛ مبالغةً فى الجبر، وفى عرف الصوفية، الملكوت: ما بطن من أسرار المعانى القائمة بالأوانى، أو نقول: ما غاب فى عالم الشهادة من أسرار الذات، فحس الأوانى مُلك، ومعانيها ملكوت، والجبروت: ما خرج عن دائرة الأكوان من بحر الأسرار، الفائض بأنوار الملكوت، وهذه أسماء لمسمى واحد، وهو بحر الوحدة.

ثم قال تعالى: ﴿ وهو يُجير ﴾ أى: يغيث، يقال: أجرت فلاناً على فلان: إذا أغثته منه، يعني: وهو يغيث من شاء ممن شاء، ﴿ ولا يُجار عليه ﴾: ولا يغيث أحد عليه، أى: لا يمنع أحدٌ أحداً بالنصر عليه. ﴿ إن كنتم تعلمون ﴾ شيئًا ما، أو تعلمون ذلك، فأجيبوني؟ ﴿ سيقولون لله ﴾ أى: لله ملكوت كل شيء، وهو يُجير ولا يُجار عليه، ﴿ قلْ فأني تُسحرون ﴾ أى: فمن أين تُخدعون وتُصرفون عن الرشد، وعن توحيد الله وطاعته؟ فإنَّ من لا يكون مسحوراً مختل العقل لا يكون كذلك، قال تعالى: ﴿ بل أتيناهم بالحق ﴾ الذى لا محيد عنه؛ من التوحيد والوعد بالبعث، ﴿ وإنهم لكاذبون ﴾ فيما قالوا من الشرك وإنكار البعث. وبالله التوفيق.

الإشارة: قل: لمن أرض النفوس، وما فيها من الأهوية والحظوظ والعلائق؟ سيقولون: هى لله يتصرف فيها كيف يشاء، فتارة يُملّكها لعبده، فتكون تحت قهره وسلطانه، فيكون حراً من رق الأشياء، وتارة يُملكه لها بعدله، فيكون تحت قهرها وسلطانها، تتصرف فيه كيف تشاء، ويكون مملوكاً لها، ينخرط فى سلك من اتخذ إلهه هواه، قل: من رب سماوات الأرواح وعرش الأسرار والأنوار، وهو القلب الذى هو بيت الرب، قل: سيقولون: لله، يظهرها متى شاء، ويوصلها إلى أصلها كيف شاء، قل: من بيده ملكوت كل شيء، فيتصرف فى النفوس والأرواح؛ بالتقريب والتبعيد، وهو يجير من الحظوظ والأهوية مَن يشاء، ويسلطها على مَن يشاء، ولا يُجار عليه، لا يمتنع من قهره أحد، فأنّى تسحرون.

قال القشيرى: أولا قال: (أفلا تذكرون)، ثم قال بعده: (أفلا تتقون)؛ قدّمَ التذكرَ على التقوى؛ لأن بتذكيرهم يَصلُون إلى المعرفة(١)، وبعد أن عرفوه، علموا أنه يجب عليهم اتقاءُ مخالفته، ثم بعد ذلك قال: (فأنى تُسْحَرون)؟ أى: بعد وضوح الحجة، أيُّ شكٍّ بَقِيَ حتى تَنْسُبوه إلى السِّحر؟. هـ.

---

(١) فى القشيرى: المغفرة.

ثم أبطل دعوى الولد والشريك عليه تعالى، فقال:

﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ما اتخذ اللهُ من ولد﴾، خلاف ما يقوله النصارى، والعرب التي قالت: الملائكة بنات الله، تعالى عن قولهم علواً كبيراً، ﴿وما كان معه من إله﴾ يُشاركه في ألوهيته، كما يقول عبدة الأوثان وغيرهم، ﴿إذاً لذهب كل إله بما خلق﴾ أي: لو كان معه آلهة، كما يزعمون، لذهب كل واحد منهم بما خلقه واستبد به؛ ليتميز ملكه من ملك الآخر، ووقع بينهم التغالب والتحارب، كما هو الجاري بين الملوك، ﴿ولعلا بعضهم على بعض﴾: ولغلب بعضهم على بعض، وارتفع عليه، كما ترون حال ملوك الدنيا؛ ممالكهم متمايزة وهم متغالبون، وحين لم تروا أثراً لتمايز الممالك والتغالب؛ فاعلموا أنما هو إله واحد.

قال ابن جُزَيّ: وليس هذا البرهان بدليل التمانع، كما فهم ابن عطية وغيره، بل بدليل آخر. وقال في قوله: (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا): قال كثير من الناس: إنه دليل التمانع الذي أورده المتكلمون، والظاهر من اللفظ أنه استدلال آخر أصح منه. هـ. قال النسفي: ولا يقال: «إذاً» لا تدخل إلا على كلام هو جزاء وجواب، وهو هنا وقع لذهب؛ جزاءً وجوابا، ولم يتقدمه شرط ولا سؤال سائل؛ لأن الشرط هنا محذوف، تقديره: لو كان معه آلهة كما يزعمون لذهب.. الخ، دل عليه: (وما كان معه من إله)، وهو جواب لمن حاجّه من المشركين. هـ.

﴿سبحان الله عما يصفون﴾ من الأنداد والأولاد، ﴿عالِم الغيب والشهادة﴾ أي: السر والعلانية، أو ما ظهر من حس الأكوان، وما غاب فيها وعنها، فمن جرّ «عالم»؛ فبدل من الجلالة، أو صفة له، ومن رفعه؛ فخبر عن مضمر، أي: هو عالم. ﴿فتعالى عمّا يُشركون﴾ من الأصنام وغيرها، والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها؛ فإنّ تفرده تعالى بالألوهية والعلم المحيط، موجب لتعاليه عن أن يكون له شريك. والله تعالى أعلم.

الإشارة: ثلاثة إذا تعددت فسد النظام: الإله، والسلطان، والطبيب؛ فلو تعدد الإله لفسد نظام العالم، ولو تعدد المُلك لفسدت الرعية بالهرج والفتن، ولو تعدد الطبيب لفسد العلاج. والطبيب على قسمين: طبيب الأبدان، وطبيب القلوب، وهو شيخ التربية، فإذا تعدد على مريد واحد فسدت تربيته؛ لانقسام محبته واختلاف علاجه، فالمريد، إذا علق قلبه بغير شيخه، لا ينهض نهوض من جمع همته على شيخه، بل لا يجيء منه شيء. والله تعالى أعلم.

قال القشيري: كل أمر نيط بين اثنين انتفى عنه النظام وصحةُ التربية . هـ. وقال الورتجبي: نزه الحق ـ سبحانه ـ ذاته عن مخايل الزنادقة، وكان منزهاً عن أباطيل إشارة المشبهة، وذاته ممتنعة بكمال أحديته، عن زعم الثنوية، كيف يجوز أن يكون القدم محل الحوادث؛ إذ القديم المنزه، إذا تجلى بنعت القدم للحدثان، صار معدوماً كالعدم، تعالى الله عن كل وهْم وإشارة. هـ.

ولما توعدهم بالعذاب على كفرهم، أمر نبيه ـ عليه الصلاة السلام ـ بالدعاء بالنجاة منه إذا نزل بهم، فقال:

﴿ قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٩٤﴾ وَإِنَّا عَلَىٰ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ ﴿٩٥﴾ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿قل ربِّ إما تُرِيَنِّي﴾ أي: إذا كان لابد من أن تريني ما يوعدون من العذاب المستأصل في الدنيا أو عذاب الآخرة، ﴿ربِّ فلا تجعلني في القوم الظالمين﴾ أي: قريبًا لهم فيما هم فيه من العذاب، وفيه إيذان بفظاعة ما وُعِدوه من العذاب، وأنه يجب أن يستعيذ منه مَن لا يكاد أن يحيق به، وردٌّ لإنكارهم إياه واستعجالهم على طريقة الاستهزاء، وقيل: أمر به ﷺ هضماً لنفسه، وقيل: إن شؤم الكفرة قد يحيق بمن وراءهم؛ كقوله تعالى: ﴿ واتَّقُوا فتْنَة . . . ﴾[1] الخ، ورُوِى عن الحسن (أنه ـ تعالى ـ أخبر نبيه ﷺ بأن في أمته نقمة، ولم يطلعه على وقتها، فأمر بهذا الدعاء) ويجوز أن يسأل النبيُّ المعصوم ربه ما علم أنه يفعله، وأن يستعيذ به مما علم أنه لا يفعله؛ إظهاراً للعبودية وتواضعاً لربه. والفاء: جواب «إما» الشرطية، أي: إن نزلت بهم النقمة فاجعلني خارجًا عنهم، وتكرير النداء، وتصدير كل من الشرط والجزاء به ـ أي: بالدعاء ـ؛ لإبراز كمال الضراعة والابتهال.

قال تعالى: ﴿ وإنا على أن نُرِيَكَ ما نَعِدُهم﴾ من العذاب ﴿لقادرون﴾ ، ولكنا نؤخره؛ لعلمنا بأن بعضهم، أو بعض أعقابهم، سيؤمنون، أو: لأنا لا نعذبهم وأنت فيهم، وقيل: قد أراهم ذلك، وهو ما أصابهم يومَ بدر وفتح مكة،

(١) من الآية ٢٥ من سورة الأنفال.

وهو بعيد؛ لأن المبادر أن يكون ما استحقوه من العذاب الموعود عذاباً هائلاً مستأصلا لا يظهر على يديه ﷺ؛ للحكمة الداعية إليه، وكانوا يضحكون، استهزاءً بهذا الوعد، وإنكاراً له، فقال لنبيه ـ عليه الصلاة السلام ـ: ﴿ ادفع بالتي هي أحسنُ السيئةَ ﴾ أي: ادفع الخصلة السيئة بالخصلة التي هي أحسن، وهو الصفح عنها والإحسان في مقابلتها، لكن بحيث لا يؤدي إلى وَهَنٍ في الدين وإهانةٍ له. وقيل: السيئة: الشرك، والتي هي أحسن: كلمة التوحيد، وقيل: السيئة: المنكر، والتي هي أحسن: النهي عنه، وقيل: هي منسوخة بآية السيف، وقيل: محكمة؛ إذ المداراة مأمور بها. قال ابن عطية: أمر بمكارم الأخلاق، وما كان منها بهذا المعنى، فهو محكم باق في الأمة أبداً، وما كان بمعنى المواعدة فمنسوخ بآية القتال. هـ.

وهذا التركيب أبلغ من «ادفع بالحسنة السيئة»؛ لما فيه من التنصيص على التفضيل، وتقديم الجار والمجرور على المفعول؛ للاهتمام. ﴿ نحن أعلم بما يصفون ﴾ من الشرك والولد، أو بما يصفك به، مما أنت على خلافه، من السحر وغيره، فسنجازيهم عليه، وفيه وعيد لهم، وتسلية لرسوله ﷺ، وإرشاد له إلى تفويض أمره إليه تعالى والاكتفاء بعلمه.

﴿ وقل ربِّ أعوذُ بك من همزاتِ الشياطين ﴾ أي: وساوسهم المغرية على خلاف ما أمرت من المحاسن، التي من جملتها دفع السيئة بالحسنة، وأصل الهمز: النخس، ومنه: مهماز الرائض، شبه حثهم للناس على المعاصي بهمز الرائض الدوابَّ على الإسراع والوثب. وجمع همزات؛ لتنوُّع الوساوس وتعدد المضاف إليه، ﴿ وأعوذ بك ربِّ أن يحضرون ﴾، أمر بالتعوذ من نخساتهم بلفظ المبتهل إلى ربه، والتعوذ من أن يحضروه أصلاً في حال من الأحوال؛ مبالغة في التحذير من ملابستهم، أو أن يحضروه عند التلاوة أو الصلاة، أو عند النزع؛ تشريعاً. وإعادة الفعل، مع تكرير النداء؛ لإظهار كمال الاعتناء بالمأمور به.

ولا تزال الكفرة تصف الحق بما لا يليق به من الشرك، ﴿ حتى إذا جاء أحدَهم الموتُ ﴾ أي: لا يزالون مشركين حتى يموتوا، فحتى، هنا، ابتدائية، دخلت على جملة الشرط، وهي متعلقة بيصفون، وما بينهما اعتراض مؤكد للإغضاء، لكن لا بمعنى أنه العامل فيه؛ لفساد المعنى، بل بمعنى أنه معمول لمحذوف دل عليه ذلك، أي: تنزيهاً له تعالى عما يصفون، ويستمرون على الوصف المذكور، حتى إذا جاء أحداً منهم الموت الذي لا مرد له، وظهرت له أحوال الآخرة، ﴿ قال ﴾؛ تحسراً على ما فَرَّطَ فيه من الإيمان والطاعة: ﴿ ربِّ ارجعون ﴾ أي: ردني إلى الدنيا، والواو؛ لتعظيم المخاطب، كخطاب الملوك، ﴿ لعلي أعملُ صالحا فيما تركت ﴾ أي: في الإيمان الذي تركته، أو في الموضع الذي تركت فيه الإيمان والطاعة؛ وهو الدنيا؛ لأنه ترك الدنيا وصار إلى العقبى.

قال قتاده: ما تمنى أن يرجع إلى أهل ولا عشيرة، ولكن ليتدارك ما فرط. وعنه، ﷺ أنه قال: «إِذَا عَايَنَ المُؤْمِنُ المَلائكةَ قَالُوا له: نُرجِعُكَ إلى الدُّنيا؟ فيَقُولُ: إلىَ دارِ الهُمومِ والأحْزانِ؟ بَلْ قُدوماً إلى اللّهِ تبارك، وتعالى، وأمَّا الكافر فيَقُولُ: ارجعون لعلي أعمل صالحاً..» (١). وقال القرطبي: ليس سؤالُ الرجعة مختصاً بالكافر، فقد يسألها المؤمن، كما في آخرسورة المنافقين(٢)، ودلت الآية على أن أحداً لا يموت حتى يعرف: اهو من أولياء الله أم من أعداء الله، ولولا ذلك لما سأل الرجعة، فيعلم ذلك قبل نزول الموت وذواقه . هـ. قال المحشى الفاسى: ولعل محمل الحديث فى المؤمن الكامل غير المقصِّر، والآية فى غيره. والله أعلم. هـ.

﴿ كَلاَّ ﴾ أى: لا رجوع له أصلاً، وهو ردع عن طلب الرجعة، واستبعاد لها، ﴿ إنها ﴾ أى: قوله: (رب ارجعون)، ﴿ كلمةٌ ﴾، والمراد: طائفة من الكلام، وهو (ربِّ ارجعون...) الخ، ﴿ هو قائلها ﴾، ولا فائدة له فيها، ولا حقيقة لها؛ لعدم حصول مضمونها، أوهو قائلها لا محالة؛ لتسليط الحسرة والندم عليه، فلا يقدر على السكوت عليها، (ومن ورائهم) أى: أمامهم، والضمير للجماعة؛ لأن أحدهم بمعنى كلهم، ﴿ برزخٌ ﴾: حائل بينهم وبين الرجعة، ﴿ إلى يوم يُبعثون ﴾: يوم القيامة، وهو إقناط كلى عن الرجوع إلى الدنيا، لما علِم أنه لا رجعة يوم القيامة إلى الدنيا، وإنما الرجوع فيه إلى الحياة الأخروية. والله تعالى أعلم.

الإشارة: ما قاله ﷺ فى تضرعه إلى الله تعالى ـ كما أمره الحق تعالى ـ يقوله كل عارف ومتيقظ، فيقول: رب إمّا تُرينى ما يُوعدهُ أهل الغفَلة والبطالة من التحسر والندم، عند انقراض الدنيا وإقبال الآخرة، فلا تجعلنى فى القوم الظالمين، أى: لا تسلك بى مسلكهم حتى أتحسر معهم، فإذا أوذى فى الله ـ كما هو شأن أهل الخصوصية ـ يقال له: ادفع بالتى هى أحسنُ السيئةَ، وقابل الإساءة بالإحسان، وإياك والانتصار لنفسك، وتعوذ بالله من همزات الشياطين، إن قامت عليك نفسك وأرادت الانتصار، كما هو شأن أهل الغفلة، فى كونهم منهمكين فى الغفلة، مملوكين فى أيدى أنفسهم، مستمرين على ذلك، حتى إذا حضر أجلهم طلبوا من الله الرجعة، هيهات هيهات، (كلا إنها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ إلى يوم يُبعثون)، وفى الأثر: «ما منكم من أحد إلا وسيندم عند الموت، إن كان محسناً أن لو زاد، وإن كان مسيئاً أن لو تاب» . أو كما قال.

ولأجل هذا المعنى شد أهل اليقظة الحُزُم، وشمروا عن ذراعهم فى طاعة مولاهم، وعمروا أوقاتهم بما يقربهم إلى محبوبهم، وتنافسوا فى ذلك أىَّ تنافس، وفى ذلك يقول القائل:

(١) أخرجه ابن جرير (١٨/٥٢)، من حديث ابن جريج، مرسلاً.
(٢) فى قوله تعالى «وأنفقوا مما رزقناكم من أن قبل أن يأتى أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتنى إلى أجل قريب...) الآية ١٠.

السَّبَاقَ، السَّبَاقَ، قولاً وفِعْلاً حَذَرِ النَّفْس حسْرَةَ المَسْبُوقِ

وكان بعض العباد حفر قبراً فى بيته، فإذا صلى العشاء دخل فيه، وقرأ : (قال ربِّ ارجعون لعلى أعملُ صالحاً....) الآيه، فيقول لنفسه: ستطلبين الرجعة ولا تُمكنين منها، وأنت اليوم متمكنة من الرجوع، قومى إلى خدمة مولاك، قبل أن يحال بينك وبينها، فيبيت قائمًا يُصلى. وهكذا شأن أهل اليقظة؛ يُقدمون الندم والجد قبل فوات إبَّانِه. أعاننا الله على اغتنام طاعته، وما يقربنا إلى حضرته. آمين.

ثم ذكر أهوال ذلك اليوم الموعود، فقال:

﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ۝١٠١ فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝١٠٢ وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ۝١٠٣ تَلۡفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمۡ فِيهَا كَٰلِحُونَ ۝١٠٤ أَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ۝١٠٥ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ فإذا نُفخ فى الصور ﴾ لقيام الساعة، وهى نفخة البعث والنشور، وقيل: فإذا نفخ فى الأجسادِ أرواحها، على أن الصور جمع صورة، ويؤيده القراءة بفتح الواو مع الضم، وبه مع كسر الصاد. ﴿ فلا أنسابَ بينهم يؤمئذ ﴾ تنفعهم، لزوال التراحم والتعاطف بينهم؛ من فرط الحيرة واستيلاء الدهشة، بحيث يفر المرءُ من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه. قال ابن عباس: (لا يفتخرون بالأنساب والأحساب فى الآخرة، كما كانوا يفتخرون فى الدنيا، ﴿ ولا يتساءلون ﴾ لا يسأل بعضهم بعضاً؛ لا شتغال كل منهم بنفسه، ولايناقضه قوله تعالى: ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴾(١)؛ لأن هذا ـ أى: سكوتهم ـ عند ابتداء النفخة الثانية، وذلك بعدها؛ لأن يوم القيامة ألوان، تارة يبهتون ولا يتساءلون، وتارة يفيقون، فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون.

وقال ابن عباس: إنما عنى النفخة الأولى، حين يصعق الناس، (فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون)، ﴿ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾(٢)، ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴾. نقله الثعلبى.

---

(١) الآية ٢٧ من سورة الصافات.

(٢) الآية ٦٨ من سورة الزمر.

﴿فمن ثَقُلَتْ موازينهُ﴾ أي: موزونات حسناته من العقائد الصحيحة والأعمال الصالحة، ﴿فأولئك هم المفلحون﴾ ؛ الفائزون بكل مرغوب، الناجون من كل مرهوب، ﴿ومن خفت موازينُه﴾ أي: ومن لم يكن له من العقائد والأعمال ما يوزن ـ وهم الكفار ـ لقوله: ﴿فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾(١)، وتقدم ما فيه. ﴿فأولئك الذين خسروا أنفسهم﴾: ضيعوها بتضييع زمان استكمالها، وأبطلوا استعدادها لنيل كمالها، ﴿في جهنم خالدون﴾ ، وهو خبر ثان لأولئك، أو بدل من الصلة، وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: (يؤخذ بيد العبدِ أو الأمة يوم القيامة، فينصب على رؤوس الأولين والآخرين، ثم ينادى مناد: هذا فلان بن فلان، من كان له حق فليأت إلى حقه، فتفرح المرأة أن يدور لها الحق على ابنها، أو على زوجها، أو على أبيها، أو على أخيها، ثم قرأ ابن مسعود: ﴿فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتسالون﴾، ثم يقول الرب تعالى: آت هؤلاء حقوقهم، فيقول: ربِّ، فنيت الدنيا؛ فمن أين آتيهم؟ فيقول للملائكة: خذوا من حسناته فأعطوا كل إنسان بقدر طلْبته .....) الخ الحديث(٢)، انظر النسفي.

قال تعالى: ﴿تلفح وجوهَهم النار﴾ ؛ تحرقها، واللفح كالنفخ، إلاّ أنه أشد تأثيراً منه، وتخصيص الوجوه بذلك؛ لأنها أشرف الأعضاء. ﴿وهم فيها كالحون﴾ : عابسون من شدة الإحراق، والكلوح: تقلص الشفتين من الإنسان، قال النبي ﷺ في كالحون: «تَشْوِيه النَّارُ فَتَقَلَّص شَفَتُهُ العُلْيَا حتَّى تبْلُغَ وَسَطَ رأسه، وتَسْتَرخِي السُّفْلَى حتَّى تَبْلُغَ سُرَّتَه» (٣). فيقال لهم ـ تعنيفاً وتذكيراً لما به استحقوا ما ابتلوا به: ﴿ألم تكن آياتى﴾ أى: القرآن ﴿تتلى عليكم﴾ فى الدنيا ﴿فكنتم بها تُكذِّبون﴾ حينئذ، فذوقوا وبال ما كنتم به تكذبون. نسأل الله التوفيق والهداية.

الإشارة: قال الترمذى الحكيم: الأنساب كلها منقطعة إلا من كانت نسبته صحيحة فى عبودية ربه، فإن تلك نسبة لا تنقطع أبدا، وتلك النسبة المفتخر بها، لا نسبة الأجناس من الآباء والأمهات والأولاد.هـ. وقال الورتجبى: عند المعاينة والمشاهدة بوجوده ونشر جوده، نسبهم هناك نسب المعرفة والمحبة الأزلية، واصطفائيته القدسية، لايفتخرون بشيء دونه، من العرش إلى الثرى، ولا يتساءلون؛ شغلاً بما هم فيه. هـ.

ومعنى كلام الشيخين: أن العبد، إذا صحت نسبته إلى مولاه، وانقطع بكليته إليه، ورفض كل ما سواه، اتصلت نسبته، ودامت محبته وأنسه، ومن تعلق بغيره، وتودد إلى ما سواه، انقطع ذلك وانفصل، ومن النسب التى تتصل وتدوم، النسبة إلى أولياء الله، والتحبب إليهم وخدمتهم، وهى فى الحقيقة من نسبة الله تعالى؛ لأنها سبب معرفته

---

(١) من الآية ١٠٥ من سورة الكهف.
(٢) أخرج رواية ابن عباس، وكذلك، ورواية ابن مسعود، الطبرى فى تفسيره.
(٣) أخرجه الإمام أحمد فى المسند (٨٨/٣) لترمذى فى (التفسير ـ تفسير سورة المؤمنون)، وقال: حسن غريب صحيح، والحاكم (٣٩٥/٢) وصححه، ووافقه الذهبى)، عن أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه.

والتحقق بعبوديته، فهى عينها، فمن انتسب إليهم فقد انتسب إلى الله، ومن أحبهم فإنما أحب الله، فمحبتهم، والاجتماع معهم يؤدى إلى محبة الله ورضوانه، وهم الذين يكونون عن يمين الرحمن، يغشى نورُهم الناسَ يوم القيامة، يغبطهم النبيون والشهداء؛ لمنزلتهم عند الله. قال عليه الصلاة والسلام: لما سئل عنهم: «هم رجال من قبائل شتى، يجتمعون على ذكر الله ومحبته» أو كما قال ﷺ كما فى الحديث(١). والله تعالى أعلم.

ثم ذكر جواب أهل النار، فقال:

﴿ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا
فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي
يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰ
أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ
الْفَائِزُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ
الْعَادِّينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ قالوا ﴾ أى: أهل النار: ﴿ ربنا غلبت علينا ﴾ أى: ملكتنا ﴿ شِقْوَتُنَا ﴾: شقاوتنا التى اقترفناها بسوء اختيارنا، كما ينبئ عنه إضافتها إلى أنفسهم، أى: شقينا بأعمالنا السيئة التى عملناها، ولا يصح حمله على الشقاوة الأزلية؛ لأنهم غير مكلفين بصرفها عنهم؛ إذ ليس فى اختيارهم. ﴿ وكنا قوماً ضالّين ﴾ عن الحق، ولذلك فعلنا ما فعلنا من التكذيب، وهذا، كما ترى، اعتراف منهم بأن ما أصابهم إنما أصابهم بسوء صنعهم، وأمَّا ما قيل: من أنه اعتذار منهم بغلبة ما كتب عليهم من الشقاوة الأزلية، فلا يصح؛ لأن الله تعالى ما كتب عليهم الشقاء حتى علم أنهم يفعلونه باختيارهم، بحسب الظاهر فى عالم الحكمة، فيكون اعترافهم إنما هو بما كان فى اختيارهم، لا بما كتب عليهم.

ثم قالوا: ﴿ ربنا أَخْرِجْنَا منها فإن عُدْنَا فإنا ظالمون ﴾ أى: أخرجنا من النار، وردنا إلى الدنيا، فإن عدنا بعد ذلك إلى ما كنا عليه من الكفر والمعاصى ،فإنا متجاوزون الحد فى الظلم، ولو كان اعتقادهم أنهم مجبورن على

(١) عن أبى الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ : «ليبعثن الله أقواماً يوم القيامة، فى وجوههم النور، على منابر اللؤلؤ، يغبطهم الناس، ليسوا بأنبياء ولاشهداء» قال: فجثا أعرابى على ركبتيه فقال: يارسول الله، حلّهم لنا نعرفهم؟ قال: «هم المتحابون فى الله من قبائل شتى، وبلاد شتى، يجتمعون على ذكر الله تعالى، يذكرونه» قال الهيثمى فى مجمع الزوائد (١٠/٧٧) رواه الطبرانى وإسناده حسن.

ما صدر عنهم لما سألوا الرجعة إلى الدنيا، ولما وَعدوا بالطاعة والإيمان. قال القرطبي: طلبوا الرجعة إلى الدنيا كما طلبوها عند الموت.

ثم يجيبهم الحق تعالى، بعد ألف سنة، بقوله: ﴿ قال اخسئوا فيها ﴾ أي: اسكتوا في النار سكوت ذل وهوان، وانزجروا انزجار الكلاب، يقال: خسأت الكلب، إذا زجرته، فخسأ، أي: انزجر. ﴿ ولا تُكلّمونِ ﴾ باستدعاء الإخراج من النار والرجوع إلى الدنيا، أو في رفع العذاب عنكم؛ فإنه لا يرفع ولا يخفف، رُوى أنه آخر كلام يتكلمون به، ثم لا كلام بعد ذلك إلاّ الشهيق والزفير، ويصير لهم عُواء كعُواء الكلاب لا يفهمون ولا يُفهمون(١). قيل: ويرده الخطابات الآتية، وقد يجاب: بأنها قبل هذه الكلمة.

ثم علل استحقاقهم لذلك العذاب بقوله: ﴿ إنه ﴾ أي: الأمر والشأن ﴿ كان فريق من عبادى ﴾ وهم المؤمنون، أو الصحابة، أو أهل الصفة ـ رضوان الله تعالى عليهم أجمعين ـ ﴿ يقولون ﴾ في الدنيا: ﴿ ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين. فاتخذتموهم سخريا ﴾ أي: هزواً، وهو مصدر سخر، زيدت فيه ياء النسب؛ للمبالغة، وفيه الضم والكسر. وقال الكوفيون: المكسور بمعنى الهزء، والمضموم من السخرة، بمعنى الانقياد للخدمة، ولذلك اتفق عليه في الزخرف(٢)، أي: اتخذتموهم؛ مهزوا بهم، وتشاغلتم بهم ﴿ حتى أَنسَوْكم ذكري ﴾، من فرط اشتغالكم بالاستهزاء بهم، ولم تخافوني في أوليائي، ﴿ وكنتم منهم تضحكون ﴾، وذلك غاية الاستهزاء.

قال تعالى: ﴿ إني جَزَيْتُهُم اليوم ﴾ جزاء على صبرهم على أذاكم، ﴿ أنهم همُ الفائزون ﴾ بكل مطلوب دونكم، فأنهم: مفعول « جزيتهم »؛ لأنه يتعدى إلى مفعولين، وقرأ حمزة بالكسر؛ على الاستئناف؛ تعليلاً للجزاء، وبياناً أنه في غاية الحسن، ﴿ قال كم لبثتم ﴾، القائل هو الله تعالى، أو الملك، وقرأ المكى وحمزة: «قل»؛ التى بلفظ الأمر للملك، يسألهم: كم لبثوا، ﴿ في الأرض ﴾ التى دعوا الله أن يردهم إليها، ﴿ عدد سنين ﴾، وهو تمييز، أي: كم لبثتم في الأرض من عدد السنين، ﴿ قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم ﴾، استقصار لمدة لبثهم فيها بالنسبة إلى خلودهم، ولمَا هم فيه من عذابها؛ لأن الممتحن يستطيل أيام محنته، ويستقصر ما مر عليه من أيام الدعة، ﴿ فاسْئل العادِّين ﴾ أي: المتمكنين من العد؛ فإنا بما دُهمنا من العذاب بمعزل من العد، أو الملائكة العادين لأعمار العباد وأعمالهم.

﴿ قال ﴾ الله تعالى، أو الملك، تصديقاً لهم في مقالهم: ﴿ إن لبثتم إلاّ قليلا ﴾: ما لبثتم إلا زماناً قليلا، أو لبثا قليلا بالنسبة لما بعده، ﴿ لو أنكم كنتم تعلمون ﴾ شيئاً، أو: لو كنتم من أهل العلم لعلمتم قلة لبثكم فيها، فالجواب محذوف. والله تعالى أعلم.

(١) ذكره البغوى في تفسيره (٤٣١/٥) عن الحسن.
(٢) في قوله تعالى: ﴿ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً..﴾ الآية ٣٢ من سورة الزخرف.

الإشارة: إذا تميز المتحابون في الله، المجتمعون على ذكر الله ومحبته وطلب معرفته، وعُرفوا بأنوارهم وأسرارهم، وانحازوا إلى ظل العرش، يوم لا ظل إلا ظله، ورآهم البطالون المنكرون عليهم، وهم في حسرة الحساب، يقولون بلسان الحال أو المقال: (ربنا غلبت علينا شقوتنا)؛ حيث لم نصحب هؤلاء الأولياء، وكنا قوما ضالين، ربنا أخرجنا من هذه الحسرة، وردنا إلى الدنيا، فإن عدنا إلى البطالة والإنكار عليهم فإنا ظالمون، فيقال لهم: اخسئوا فيها؛ فقد فات الإبان، إنه كان فريق من عبادي، وهم المنتسبون من أهل التجريد، المتزيون بزي الصوفيه أهل التفريد، يقولون: ربنا آمنا بطريق الخصوصية ودخلنا فيها، فاغفر لنا، أي: غط مساوئنا، وارحمنا رحمة تضمنا إلى حضرتك، وأنت خير الراحمين، فاتخذتموهم سخرياً، وانشغلتم بالوقوع فيهم، حتى أنسوكم ذكري، وكنتم منهم تضحكون، إني جزيتهم اليوم، بما صبروا، أنهم هم الفائزون بشهود ذاتي، والقرب من أحبابي، المتنزهون في كمال جمالي، في درجات المقربين من النبيين والصديقين.

قال القشيري: الحق ينتقم من أعدائه بما يُطيِّبُ به قلوبَ أوليائه، وتلك خَصْمَةُ الحق، فيقول لهم: كان فريقٌ من أوليائي يُفْصِحون بمدحي وإطرائي، فاتخذتموهم سخرياً، فأنا اليوم أُجازيهم، وأنتقم ممن كان يناويهم.هـ.

قوله تعالى: ﴿قال كم لبثتم....﴾ الخ، اعلم أن أيام الدنيا كلها تقصر عند انقضاء عمر العبد، فتعود كيوم واحد، أو بعض يوم، فإن أفضى إلى الراحة بعد الموت نسي أيام التعب، وغاب عنها، فتصير كأضغاث أحلام، وإن أفضى إلى التعب، نسي أيام الراحة، كأنها طيف منام. قال في الحاشية: الأشياء، وإن كانت كثيرة، فقد تنقص وتقل بالإضافة إلى ما يرجّى عليها، كذلك مدة مقامهم تحت الأرض، إن كانوا في الراحة فقد تقل، بالإضافة إلى الراحات التي يلقونها في القيامة، وإن كانت شديدة فقد تتلاشى في جنب رؤية ذلك اليوم؛ لما فيه من أليم تلك العقوبات المتوالية.هـ.

ثم تمم توبيخهم يوم القيامة بقوله:

﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ
ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ
بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ
ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾ ﴾

قلت: (أفحسبتم): المعطوف محذوف، أي: ألم تعلموا شيئاً فحسبتم، و (عبثاً): حال، أو مفعول من أجله.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا ﴾ أي: عابثين، أو للعبث من غير حكمة في خلقكم وإظهاركم حتى أنكرتم البعث، ﴿ وأنكم إلينا لا ترجعون ﴾ للحساب والجزاء، بل خلقناكم للتكليف، ثم للرجوع إلينا، فنُثيب المحسن، ونعاقب المسيء. ﴿ فتعالى الله ﴾ أن يخلق شيئاً عبثاً، وهو استعظام له تعالى ولشئونه التي يُصرِّف عليها عباده؛ من البدء والإعادة، والإثابة والعقاب، بموجب الحكمة، أي: ارتفع بذاته، وتنزه عن مماثلة المخلوقين في ذاته وصفاته وأفعاله، وعن خلو أفعاله عن الحِكَم والمصالح والغايات الحميدة.

﴿ الملك الحق ﴾؛ الذي يحق له الملك على الإطلاق، إيجاداً وإعداماً، وإحياء وإماتة، عذاباً وإثابة، وكل ما سواه مملوك له، مقهور تحت ملكوته، ﴿ لا إله إلا هو ﴾، فإنَّ كل ما عداه عبيده، ﴿ ربُّ العرشِ الكريم ﴾، فكيف بما تحته من الموجودات، كائناً ما كان، ووصفه بالكرم: إمّا لأنه منه ينزل الوحي الذي منه القرآن الكريم، والخير والبركة، أو لنسبته إلى أكرم الأكرمين.

﴿ ومن يدعُ مع الله إلهاً آخر ﴾، يعبده فرداً أو اشتراكاً، من صفته ﴿ لا برهان له به ﴾ على صحة عبادته. وفيه تنبيه على أن التدين بما لا دليل عليه باطل، فكيف بما شهدت بديهة العقول بخلافه؟ ﴿ فإنما حسابُه عند ربه ﴾، فهو مُجازٍ له على قدر ما يستحقه، ﴿ إنه ﴾ أي: الأمر والشأن ﴿ لا يُفلح الكافرون ﴾؛ لا فوز لهم ولا نجاة.

بدئت السورة الكريمة بتقرير فلاح المؤمنين، وختمت بنفي فلاح الكافرين؛ تحريضاً على الإيمان، وعلى ما يوجب بقاءه وتنميته، من التمسك بما جاء به التنزيل، وبما جاء به النبي الجليل، ليقع الفوز بالفلاح الجميل.

ثم علّمنا سؤال المغفرة والرحمة؛ لأن شؤم المعاصي يؤدي إلى سوء الختام، فقال: ﴿ وقل ربِّ اغفرْ وارحمْ وأنت خير الراحمين ﴾، وفيه إيذان بأنهما من أهم الأمور الدينية، حيث أُمر به من قد غُفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فكيف بمن عداه؟ نسأل الله ـ تعالى ـ المغفرة الشاملة، والرحمة الكاملة، لنا ولإخواننا ولجميع المسلمين.. آمين.

روى عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه مرَّ بمصابٍ مبتلى، فقرأ في أذنه: (أفحسبتم أنما...) إلخ السورة، فبرئ من حينه. فقال النبي ﷺ: «ماذا قرأت في أذنه؟» فأخبره، فقال: «والذي نفسي بيده لو أن رجلاً مؤمناً قرأها على جبل لزال»(١).

الإشارة: ما أظهر اللهُ الكائنات إلا ليُعرف بها، ويُظْهِرَ فيها أسرار ذاته وأنوار صفاته، وفي الأثر القدسي: «كنت كنزاً لم أُعرف، فأحببتُ أن أعرف، فخلقت الخلق، فتعرفت لهم، فبي عرفوني». وفي إيجاد المخلوقات حِكَم بليغة وأسرار عجيبة، لا يحصيها إلا من خلقها ودبّرها. فمن المخلوقات من خلقهم ليظهر فيهم أثر رحمته وكرمه وإحسانه،

(١) أخرجه البغوي في تفسيره (٥/٤٣٢)، وأبو نعيم في الحلية (١/٧)، وابن السني في عمل اليوم والليلة (ص٢٩٨) قال الذهبي في ميزان الاعتدال (٢/١٧٥) قال العقيلي: حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل، قال:.... وساق الحديث، فقال أبي: هذا موضوع، هذا حديث الكذابين.

وهم أهل الإيمان والطاعة، ومنهم من خلقهم ليظهر فيهم حلمه وعفوه، وهم أهل العصيان، ومنهم من خلقهم ليظهر فيهم عدله وقهره ونقمته، وهم أهل الكفر والطغيان. وقال الحكيم الترمذي رضي الله عنه: إن الله خلق الخلق عبيداً ليعبدوه، فيثيبهم على العبادة، ويعاقبهم على تركها، فإنْ عبدوه فهم اليوم له عبيد، أحرار كرام من رق الدنيا، ملوك في دار السلام، وإن رفضوا العبودية فهم اليوم عبيد أُبَّاق، سُقاط، لئام، أعداء في السجون بين أطباق النيران. هـ.

وقال بعضهم: إنما أظهر الله الكون لأجل نبينا ﷺ تشريفًا له، فهو من نوره. قال ابن عباس رضي الله عنهما: أوحى الله تعالى إلى عيسى عليه السلام: يا عيسى بن مريم؛ آمن بمحمد، ومر أمتك أن يؤمنوا به، فلولا محمد ما خلقت آدم، ولولا محمد ما خلقت الجنة والنار... الحديث.

قال القشيري: حسابُه على الله في آجله، وعذابُه من الله له في عاجله، وهو ما أودعَ قلبَه حتى رَضِيَ أنْ يَعْبُدَ معه غيره، لقوله: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾(١)، كلامٌ حاصلٌ عن غير دليل عقل، ولا شهادة خبرٍ ونقل، فما هو إلا إفك وبهتان، وقول ليس يساعده برهان.هـ وبالله التوفيق، وهو الهادي إلى سواء الطريق. وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد، وآله وصحبه وسلم تسليما، والحمد لله رب العالمين*.

● ● ●

---

(١) من الآية ٣ من سورة الزمر.

(*) في خاتمة المجلد الثاني من النسخة الأم ما يلي: كَمُلَ السفر الثاني من (البحر المديد في تفسير القرآن المجيد)، ووافق الفراغ من تبيضه عشية يوم الثلاثاء، سابع عشر صفر، عام ثمانية ومائتين وألف، على يد جامعه «أحمد بن محمد بن عجيبة الحسني» لطف الله به في الدارين، بمنه وكرمه. وبسيدنا ومولانا محمد، نبيه وحبيبه ﷺ وعلى آله. وآخر دعوانا: أن الحمد لله رب العالمين. يتلوه الثالث من أول سورة النور. إن شاء الله.

انتهى استخراجه من نسخة من مبيضته بحمد الله ـ تعالى ـ على توفيقه لنا وتسديده، عشية يوم الاثنين، آخر يوم من الشهر المذكور، من العام المذكور، على يد كاتبه لشيخه ومؤلفه المذكور «عبد الغفور بن التهامي البناني»، راجياً رضا مؤلفه، والري من بحره، بمحض الفضل والكرم، والصلاة على النبي الأعظم، والرسول الأفخم، سيدنا محمد، عليه أفضل الصلاة والسلام.

فهرس المجلد الثالث

تفسير سورة الرعد ٥
تفسير سورة إبراهيم ٤١
تفسير سورة الحجْر ٧٧
تفسير سورة النَّحْل ١٠٧
تفسير سورة الإسْراء ١٧٩
تفسير سورة الكهْف ٢٤٥
تفسير سورة مريم ٣١٧
تفسير سورة طه ٣٧١
تفسير سورة الأنبياء ٤٤١
تفسير سورة الحج ٥٠٩
تفسير سورة المؤمنون ٥٦١

* * *

البحر المديد
في تفسير القرآن المجيد

لأبي العباس أحمد بن محمد بن عجيبة
١١٦١ هـ - ١٢٢٤ هـ

تحقيق وتعليق
أحمد عبد الله القرشي رسلان
المدرس المساعد بقسم التفسير
كلية أصول الدين - طنطا - جامعة الأزهر

المجلد الرابع
من أول سورة النور حتى آخر سورة الصافات

طبع على نفقة د. حسن عباس زكي
القاهرة ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م

تفسير ابن عجيبة
«البحر المديد»

بسم الله الرحمن الرحیم

سُورَةُ النُّورِ (*)

مدنية. ووجه المناسبة لِما قبلها: أن إقامة الحدود من أثر الرحمة التى ختم بها ماقبلها؛ لأن بإقامة الحدود يقع الزجر عن المعاصى، فتنزل الرحمة والعافية. قال أبو هريرة رضي الله عنه: (إقامةُ حَدٍّ بأرضٍ خيرٌ لأهلها من مطرِ أربعين ليلة)(١).

وقيل: لمَّا ذكر تعالى فى مشركى قريش: ﴿ وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَلِكَ ﴾؛ أى: أعمال سيئة ﴿ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ ﴾(٢)، ثم استطرد بعد ذلك فى أحوالهم، كان من أعمالهم السيئة: الزنا، وكان لهم جوارٍ بغايا عليهن، ويأكلون من كسبهن من الزنا، فأنزل الله هذه السورة؛ تغليظاً فى أمر الزنا. هـ. وعن عائشة - رضى الله عنها - قال النبى ﷺ: «لا تُنْزِلُوا النساء الغرفَ، ولاتُعَلِّمُوهنَّ الكتابةَ، وعَلِّمُوهُنَّ سورةَ النورِ والغَزْلَ»(٣) أى: أحكام السورة؛ ليزدجرن عن الزنا.

وسميت سورة النور؛ لقوله: ﴿ الله نور السموات والأرض ﴾(٤)، وحقيقة النور: ما تنكشف به حقيقة الأشياء على ما هى عليه، فالنور الظاهر الحسى تنكشف به الأشياء الحسية، والنور الباطن تنكشف به الأشياء الباطنية، كمعرفة الذات الأقدس، وما يقرب إليها من آداب العبودية. ومرجعه إلى ثلاثة: نورُ مَعْرِفَةِ أَحْكَامِ المعاملة، ونور اليقين، ونور المكاشفة. فالأول: نور الإسلام، وهو كنور النجوم، والثانى: نور الإيمان، وهو كنور القمر، والثالث: نور الإحسان، وهو كنور الشمس. ويُسمى الأولان: نور التوجه، والثالث: نور المواجهة. وتتفاوت هذه الأنوار على قدر التوجه والتفرغ من شواغل الحس، فإذا أشرقت شمس العرفان لم يبق لنور النجوم ولا للقمر أثر؛ لمحو وجود الأكوان فى محل العيان، فصار الغيب شهادة، والتصديق معاينة، فانطوى الإيمان فى وجود العيان.

ولمَّا كانت التقوى أساس الطريق لهذا المقام، الذى هو نور الإيمان، تكلم الحق تعالى فى أول السورة على أهم ما يُتقى، وهو الزنا وما يؤدى إليه من النظر والاطلاع على عورات النساء، فقال:

(*) أول المجلد الثالث من النسخة الأم.

(١) أخرجه ابن حبان فى صحيحه (٤٣٨١) وأخرجه بنحوه، ابن ماجه فى (الحدود باب: اقامة الحدود، ٢/٨٤٨، ح ٢٥٣٨)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وأخرجه ابن ماجه فى الموضع نفسه (ح٢٥٣٧) والنسائى (٨/٧٦) من حديث ابن عمر رضي الله عنه.

(٢) من الآية ٦٣ من سورة «المؤمنون».

(٣) أخرجه البغوي فى تفسيره (٦/٦٨)، والحاكم فى المستدرك (٢/٣٩٦) وصححه، وتعقبه الذهبي، فقال: (بل موضوع، وآفته: عبدالوهاب، قال أبو حاتم: كذاب)، وقال الهيثمى فى المجمع (٤/٩٣): رواه الطبرانى فى الأوسط (ح ٥٧١٣)، وفيه محمد بن إبراهيم الشامى. قال الدارقطنى: كذَّاب.

(٤) الآية ٣٥ من السورة.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝١ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ۝٢ ﴾

قلت: «سورة»: خبر، أى: هذه سورة، وأشير لها، مع عدم تقدم ذكره؛ لأنها فى حكم الحاضر المشاهَد. وقرئ بالنصب على الاشتغال، وجملة: (أنزلناها)، وما عطف عليه: صفة لسورة، مؤكد لما أفاده التنكير من الفخامة. و(الزانية): مبتدأ، والخبر: (فاجلدوا)، ودخلت الفاء؛ لتضمن المبتدأ معنى الشرط؛ إذ اللام موصولة، أى: والتى زنت والذى زنى فاجلدوا، هذا مذهب المبرد وغيره، والاختيار عند سيبويه: الرفع على الابتداء، والخبر: محذوف، أى: فيما فرض عليكم، أو: مما يُتلى عليكم: حكم الزانية والزانى، وقدّم الزانية؛ لأنها الأصل فى الفعل، والداعية فيها أوفر، ولولا تمكينها منه لم يقع. وقيل: لمّا كان وجود الزنى فى النساء أكثر، بخلاف السرقة، ففى الرجال أكثر، قدّم الحق تعالى الأكثر فيهما.

يقول الحق جل جلاله: هذه ﴿ سورةٌ ﴾، وهى الجامعة لآيات، بفاتحة لها وخاتمة، مشتقة من سور البلد. من نعت تلك السورة: ﴿ أنزلناها ﴾ عليك، ﴿ وفرضْنَاها ﴾ أى: فرضنا الأحكام التى فيها. وأصل الفرض: القطع، أى: جعلناها مقطوعاً بها قطعَ إيجاب. وقرأ المكى وأبو عمرو: بالتشديد؛ للمبالغة فى الإيجاب وتوكيده، أو: لأن فيها فرائض شتى، أو: لكثرة المفروض عليهم من السلف ومن بعدهم.

﴿ وأنزلنا فيها ﴾ أى: فى تضاعيفها ﴿ آيات بينات ﴾ أى: دلائل واضحات؛ لوضوح دلالتها على أحكامها لا على معانيها؛ فإنها كسائر السور. وتكرير (أنزلنا)، مع أن جميع الآيات عين السورة؛ لاستقلالها بعنوان رائق دَاعٍ إلى تخصيص إنزالها بالذكر؛ إبانة لخطرها، ورفعاً لقدرها، كقوله تعالى: ﴿ وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾(١)، بعد قوله: ﴿ نجينا هوداً والذين آمنوا معه ﴾. ﴿ لعلكم تذكَّرون ﴾ أى: لكى تتعظوا فتعملوا بموجبها عند وقوع الحوادث الداعية إلى إجراء أحكامها. وفيه إيذان بأن حقها أن تكون على بالٍ منهم، بحيث متى مست الحاجة إليها استحضروها.

(١) من الآية ٥٨ من سورة هود.

ثم شرع فى تفصيل أحكامها، فقال: ﴿ الزانيةُ والزانى فاجلدوا كلَّ واحد منهما مائةَ جلدة ﴾ ؛ إذا كانا حُرّيْن، بالغين، غيرَ مُحْصَنَيْن، وألا تكون المرأة مكرهَة. وظاهر الآية: عموم المحصن وغيره، ثم نسخ بالسُّنة المشهورة. وقد رجم – عليه الصلاة والسلام – ماعزاً وغيره. وعن على رضي الله عنه: جلدتهما بكتاب الله، ورجمتهما بسنة رسول الله ﷺ. وقيل: نسخ بآية منسوخة التلاوة، وهى: (الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما ألْبَتَّةَ؛ نكالاً من الله والله عزيز حكيم)، ويأباه ماروِى عن على رضي الله عنه. هـ. قاله أبو السعود.

وشرط الإحصان: العقل، والحرية، والإسلام، والبلوغ، والتزوج بنكاح صحيح، ودخول معتبر. وفى التعبير بالجلد، دون الضرب؛ إشارة إلى أنه لا يبالغ إلى أن يصلَ أثرُ الضرب إلى اللحم، ولكن يخفف حتى يكون حد ألمه الجِلد الظاهر. والخطاب للأئمة؛ لأن إقامة الحدود من الدِّين، وهو على الكل، إلا أنه لا يمكن الاجتماع، فيقوم الإمام مقامهم، وزاد مالك والشافعى مع للجلد: تغريب عام، أخذاً بالحديث الصحيح[(١)]. وقال أبو حنيفة: إنه منسوخ بالآية.

﴿ ولاتأخذكم بهما رأفةٌ ﴾ أى: رحمة ورقة. وفيها لغات: السكونُ، والفتح مع القصر والمد، كالنشأة والنشاءة، وقيل: الرأفة فى دفع المكروه، والرحمة فى إيصال المحبوب. ﴿ في دين الله ﴾ أى: فى طاعته وإقامة حدوده، والمعنى: أن الواجب على المؤمنين أن يتصلبوا فى دين الله، ولا يأخذهم اللين حتى يتركوا حدود الله. ﴿ إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ﴾ ، هو من باب التهييج، وإلهاب الغضب لله، ولدينه، فإن الإيمان يقتضى الجد فى طاعته، والاجتهاد فى إجراء أحكامه. وذكر اليوم الآخر؛ لتذكير ما فيه العقاب فى مقابلة المسامحة. وجواب الشرط: مضمر، أى: إن كنتم تؤمنون بالله فاجلدوا ولا تعطلوا الحد.

قيل لأبى مجلز فى هذه الآية: والله إنا لنرحمهم إن يُجلَدَ الرجل أو تُقطع يده، فقال: إنما ذلك فى السلطان، ليس له أن يدعهم رحمة لهم. وجلّدَ ابن عمر جارية، فقال للجلاد: ظهرَها ورجليها وأسفلها، وخفّفَ، فقيل له: أين قوله: ﴿ولا تأخذكم بهما رأفة﴾..؟ فقال: أأقتلها؟ ، إنَّ الله أمرنى أن أضربها وأأدبها، ولم يأمرنى أن أقتلها. هـ[(٢)]. ويجرد للجلد إلا ما يستر العورة.

﴿ وليشهدْ عذابَهما ﴾ أى: وليحضر موضع حدِّهما ﴿ طائفةٌ من المؤمنين ﴾ ؛ زيادة فى التنكيل، فإن التفضيح قد ينكل أكثر من التعذيب. قال بعض العلماء: ينبغى أن يقام بين يدى الحكام، ولا يقيمه إلا فضلاء الناس وخيارهم؛ لأنه قيام بقاعدة شرعية، وقُربة تعبدية، يجب المحافظة على فعلها، وقدرها، ومحلها، وحالها، بحيث

(١) أخرج البخارى فى (الشهادات، باب شهادة القاذف والسارق والزانى ح٢٦٤٩) عن زيد بن خالدٍ: «أن النبى ﷺ أمر فيمن زنى ولم يحصن بجلد مائة وتغريب عام».

(٢) أخرجه الطبرى (١٨/٦٧).

لايتعذر شيء من شروطها وحرمتها، فإن دم المسلم وحرمته عظيمة، فيجب مراعاته بكل ما أمكن، فلا يقصر عن الحد، ولا يزاد عليه. ويطلب الاعتدال فى السوط، فلا يكون ليناً جداً، ولا يابساً جداً، وكذلك فى الضرب، فلا يرفع يده حت يرى إبطه، ولا يخفف فيه جداً، بل يتوسط بحيث يؤلمه ولا يضره.

وتسمية الحدّ عذاباً دليل على أنه عقوبة وكفارة. و«الطائفة»: فرقة، يمكن أن تكون حافة حول الشيء، من الطوف، وهو الإدارة، وأقلها: ثلاثة، وقيل: أربعة إلى أربعين. وعن الحسن: عشرة، والمراد: جمع يحصل به التشهير. والله تعالى أعلم.

الإشارة: التقوى أساس الطريق، وبها يقع السير إلى عين التحقيق. فمن لا تقوى له لا طريق له، ومن لاطريق له لاسير له، ومن لا سير له لا وصول له. وأعظم ما يَتقى العبدُ شهوةَ الفروج، فهى أعظم الفتن وأقبح المحن، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «ما تَرَكْتُ بَعْدِى أضرّ علَى الرِّجَالِ مِنَ النِّساءِ»(١)، أو كما قال ﷺ. وعن حذيفة رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ: «يا معشر الناس اتقوا الزنا، فإن فيه ستَّ خصال: ثلاثا فى الدنيا، وثلاثا فى الآخرة: فأما اللاتى فى الدنيا؛ فيُذهب البهاء، ويورثُ الفقرَ، وينقُصُ العمرَ، وأما اللاتى فى الآخرة؛ فيوجب السخطةَ وسوءَ الحسابِ والخلودَ فى النار»(٢). والمراد بنقص العمر: قلة بركته، وبالخلود: طول المكث. وفى حديث آخر: «إن أهل النار ليتأذون من نتن فروج الزناة والزوانى»(٣)، وعن أنس رضي الله عنه قال: قال النبى ﷺ: «إن أعمال أمتى تُعرض علىَّ فى كل جمعة مرتين، فاشتد غضب الله على الزناة»(٤). وقال وهب بن منبه: (مكتوب فى التوارة: الزانى لا يموت حتى يفتقر، والقواد لا يموت حتى يعمى).

وفى بعض الأخبار القدسية: «يقول الله عز وجل: أنا الله لا إله إلا أنا، خلقت مكة بيدى، أُغنى الحاج ولو بعد حين، وأُفقر الزانى ولو بعد حين، هذا وباله فى الدنيا والآخرة، وأما فى عالم البرزخ؛ فتُجعل أرواحهم فى تنور من نار، فإذا اشتعلت علَوْا مع النار، وإذا خمدت سقطوا إلى أسفلها، هكذا حتى تقوم الساعة، كما فى حديث

---

(١) أخرجه البخارى فى (النكاح، باب ما يتقى من شؤم المرأة ح) ، ومسلم فى (الذكر، باب أكثر أهل الجنة الفقراء، ٢٠٩٧/٤ ح ٢٧٤٠) عن أسامة بن زيد رضي الله عنه.

(٢) عزاه فى كنز العمال (٣١٩/٥ ح ١٣٠٢٢) للخرائطى فى مساوئ الأخلاق. وأبى نعيم فى الحلية (١١١/٤)، والبيهقى فى شعب الإيمان (ح ٥٤٧٥)، عن حذيفة. والحديث ضعفه البيهقى.

(٣) أخرجه بنحوه البزار (كشف الأستار ح ١٥٤٨) عن بريدة رضي الله عنه، وضعّفه الهيثمى فى المجمع (٢٥٥/٦).

(٤) أخرجه أبو نعيم فى الحلية (١٧٩/٦) عن أنس رضي الله عنه.

البخاري(١). وقال ابن رشد: ليس بعد الشرك أقبح من الزنا؛ لما فيه من هتك الأعراض واختلاط الأنساب، ومن تاب فإن الله يتوب على من تاب. وبالله التوفيق.

وقوله تعالى: ﴿ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله﴾: قال في الإحياء: في الحديث: «خيار أمتي أحِدّاؤها»(٢) يعني: في الدين؛ قال تعالى: ﴿ولا تأخذكم بهما رأفة﴾، فالغيرة على الحُرَم، والغضب لله وعلى النفس، بكفها عن شهوتها وهواها، محمود، وفَقْدُ ذلك: مذمومٌ. هـ. وبالله التوفيق.

ثم نهى عن نكاح الزواني، فقال:

﴿ ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: من شأن ﴿الزاني﴾ الخبيث: أنه لا يرغب إلا في زانية خبيثة من شكله، أو في مشركة، والخبيثة المسافحة لا يرغب فيها إلا من هو من شكلها، من الفسقة أو المشركين. وهذا حُكْمٌ جار على الغالب المعتاد، جيء به؛ لزجر المؤمنين عن نكاح الزواني، بعد زجرهم عن الزنا بهن؛ إذ الزنا عديل الشرك في القبح، كما أن الإيمان قرين العفاف والتحصن، وهو نظير قوله: ﴿ٱلْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ﴾(٣).

رُوي أن المهاجرين لمَّا قدموا المدينة، وكان فيهم من ليس له مال ولا أهل، وبالمدينة نساء بغايا مُسافحَات، يُكرين أنفسهن، وهُنَّ أخْصَبُ أهل المدينة، رغب بعضُ الفقراء في نكاحهن؛ لحسنهن، ولينفقوا عليهم من كَسْبِهِنَّ، فاستأذنوا النبي ﷺ فنزلت(٤)، فنفرهم الله تعالى عنه، وبيَّن أنه من أفعال الزناة وخصائص المشركين، فلا تحوموا حوله؛ لئلا تنتظموا في سلكهم وتَتَسِمُوا بسمتهم.

قيل: كان نكاح الزانية محرماً في أول الإسلام، ثم نسخ بقوله: ﴿وَأَنكِحُوا الأَيَامَىٰ مِنكُم﴾(٥). وقيل: المراد بالنكاح: الوطء، أي: الزاني لا يزني إلا بزانية مثله، وهو بعيد، أو باطل.

(١) أخرجه البخاري، مطولاً في (الجنائز، باب ٩٣ ح١٣٨٦) من حديث سمرة بن جُندب رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط (ح ٣ ٥٧٩) والبيهقي في الشعب (ح ٨٣٠١) من حديث سيدنا عليّ، بسند ضعيف، وزادا: (والذين إذا غضبوا رجعوا)..

(٣) الآية ٢٦ من سورة النور.

(٤) عزاه السيوطي في الدر (٥/٣٨) لابن أبي حاتم، عن مقاتل.

(٥) من الآية ٣٢ من سورة النور.

وسُئل رسولُ الله ﷺ عمن زنا بامرأة ثم تزوجها. فقال: «أوَّلُهُ سِفَاحٌ، وآخره نكاح، والحرام لاُ يحرم الحلال»(١).

ومعنى الجملة الأولى: وصفُ الزانى بكونه غير راغب فى العفائف، ولكن فى الفواجر. ومعنى الثانية: وصف الزانية بكونها غير مرغوب فيها للأعفاء، ولكن الزناة، وهما معنيان مختلفان. وقدّم الزانى هنا، بخلاف ما تقدم فى الجلد؛ لأن تلك الآية سيقت لعقوبتهما على ماجنيا، والمرأة هى المادة التى منها نشأت تلك الجناية، كما تقدم، وأما هنا فمسوقة لذكر النكاح، والرجل أصل فيه.

ثم ذكر الحُكْم، فقال: ﴿وحُرِّمَ ذلك على المؤمنين﴾ أى: نكاح الزوانى بقصد التكسب، أو: للجمال؛ لما فى ذلك من التشبه بالفساق وحضور مواضع التهمة، والتعرض لسوء المقالة والغيبة والطعن فى النسب، وغير ذلك من المفاسد التى لا تكاد تليق بأحد من الأدانى والأراذل، فكيف بالمؤمنين والأفاضل؟، ولذلك عبّر عن التنزيه بالتحريم، مبالغة فى الزجر، وقيل: النفى بمعنى النهى، وقرئ به. والتحريم: إما على حقيقته، ثم نسخ بقوله: ﴿وأَنكِحُوا الأَيَامَىٰ مِنكُم...﴾(٢) الخ، أو: مخصوص بسبب النزول. والله تعالى أعلم.

الإشارة: الصحبة لها تأثير فى الأصل والفرع، فيحصل الشرف أو السقوط بصحبة أهل الشرف أو الأراذل، وفى ذلك يقول القائل:

عَلَيْكَ بِأَرْبَابِ الصُّدُورِ، فَمَنْ غَدَا مُضَافاً لأَرْبَابِ الصُّدُورِ تَصَدَّرَا
وَإِيَّاكَ أَنْ تَرْضَى بِصُحْبَةِ سَاقِطٍ فَتَنحطَ قَدْراً مِنْ عُلاكَ وَتَحْقُرَا

فالمرء على دين خليله، ومن تحقق بحالة لا يخلو حاضروه منها، والحكم للغالب، فإن كان النورُ قوياً غلب الظلمةَ، وإن كانت الظلمة قوية غلبت النور، وصيرته ظلمة، ولذلك نهى الله تعالى عن نكاح الزوانى، فإنه وإن كان

---

(١) هذا حديثان، الأول قوله «أوله: سفاح وآخره نكاح، أخرجه عبدالرزاق فى مصنفه (٢٠٢/٧) وابن أبى شيبة فى مصنفه (٢٤٨/٤) والبيهقى فى الكبرى (١٦٨/٧). موقوفاً على ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
والثانى: قوله: «الحرام لايحرم الحلال» أخرجه ابن ماجه فى (النكاح، باب لايحرم الحرام حلال، ٦٤٩/١ ح ٢٠١٥) والدارقطنى (١٦٩/٧) عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٢) الآية ٣٢ من سورة النور.

نور الزوج غالباً - إذا كان ذا نور - فإن العِرْقَ نَزَّاع، فيسرى ذلك فى الفروع، فلا تكاد تجد أولاد أهل الزنا إلا زناة، ولا أولاد أهل العفة إلا أعِفَّاء، ﴿ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لا يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِدًا ﴾(١).

وفى الحديث: «إياكم وخَضْرَاءَ الدِّمَنِ، قيل: وماخضراء الدمن يارسول الله؟ قال: المرأة الحسناء فى المنبت السوء»(٢). قال ابن السكيت: شبهها بالبقلة الخضراء فى دِمْنَةِ أرض خبيثة؛ لأن الأصل الخبيث يحن إلى أصله، فتجيء أولادها لأصلها فى الغالب. فيجب على اللبيب - إن ساعفته الأقدار - أن يختار لزراعته الأرض الطيبة، وهى الأصل الطيب، لتكون الفروع طيبة. وفى الحديث: «تخيَّروا لنطفكم ولا تضعوها إلاّ فى الأَكْفَاءِ»(٣) هـ. وبالله التوفيق.

ثم ذكر حدّ القذف، فقال:

﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥﴾ ﴾

قلت: «ثمانين»: مفعول مطلق، و«جلْدة»: تمييز. «إلا الذين تابوا»: إما استثناء من ضمير «لهم»، فمحله: الجر، أو: من قوله: «الفاسقون»، فمحله: النصب؛ لأنه بعد موجَبٍ تام.

يقول الحق جل جلاله، فى بيان شأن العفائف، بعد بيان شأن الزوانى: ﴿ والذين يرمُون ﴾ أى: يقذفون بالزنا ﴿ المحصناتِ ﴾؛ الحرائر العفائف المسلمات المكلفات، بأن يقول: يا زانية، أو: يا مُحبة، ولافرق بين التصريح والتعريض، ولا بين النساء والرجال، قاذفاً أو مقذوفاً. والتعبير بالرمى، المنبئ عن صلابة الآلة، وإيلام المرمى، وبعده عن الرامى؛ إيذان بشدة تأثيره فيهن، وكونه رجماً بالغيب. والتعبير بالإحصان يدل على أن رميهن إنما كان بالزنا، لاغير.

(١) من الآية ٥٨ من سورة الأعراف.

(٢) أخرجه الشهاب القضاعى، فى مسنده (٩٥٧)، والديلمى (الفردوس ح ١٥٣٧) عن أبى سعيد الخدرى. قال العجلونى، فى كشف الخفاء (١/٢٧٢): قال ابن عدى: تفرد به الواقدى، وذكره أبو عبيد فى الغريب. ورواه الدارقطنى فى الأفراد، وقال: لايصح من وجه.

(٣) أخرجه بلفظ: «تخيروا لنطفكم وانكحوا الأكفاء»: ابن ماجة فى (النكاح، باب الأكفاء، ١/٦٣٣، ح١٩٦٨)، والبيهقى فى السنن (٧/١٣٣)، والدارقطنى فى السنن (٢/٢٩٨)، من حديث السيدة عائشة رضى الله عنها. وأخرجه بلفظ المفسر: ابن عدى فى الكامل (٢/٦١٤)، والبغدادى فى تاريخ بغداد (١/٢٦٤)، وانظر كشف الخفا (١/٣٠٢).

﴿ثم لم يأتوا بأربعة شهداء﴾ يشهدون عليهن بما رموهن به، وفي كلمة «ثم» إشارة إلى جواز تأخير الإتيان بالشهود، كما أن في كلمة «لم»: تحقق الإتيان بهم. وشروط إحصان القذف: الحرية، والعقل، والبلوغ، والإسلام، والعفة عن الزنا، فإن توفرت الشروط ﴿فاجلدوهم﴾ أي: القاذفين ﴿ثمانينَ جلدة﴾؛ لظهور كذبهم وافترائهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾(١)، وتخصيص رميهن بهذا الحكم، مع أن رمي المحصنين أيضاً كذلك؛ لخصوص الواقعة، وشيوع الرمي فيهن. والحدود كلها تشطر بالرق، فعلى العبد في الزنا خمسون، وفي القذف أربعون.

﴿ولاتقبلوا لهم﴾ بعد ذلك ﴿شهادةً أبداً﴾؛ زجراً لهم؛ لأن رد شهادتهم مؤلم لقلبهم، كما أن الجلد مؤلم لبدنهم. وقد آذى المقذوف بلسانه، فعوقب بإهدار شهادته، جزاء وفاقاً. والمعنى: ولاتقبلوا منهم شهادة من الشهادات، حال كونها حاصلة لهم عند الرمي، أبداً، مدة حياتهم، فالرد من تتمة الحدّ، كأنه قيل: فاجلدوهم وردوا شهادتهم، أي: فاجمعوا لهم بين الجلد والرد. ﴿وأولئك هم الفاسقون﴾، كلام مستأنف غير داخل في جزاء الشرط؛ لأنه حكاية حال الرامي عند الله تعالى بعد انقضاء الجزاء، وما في اسم الإشارة من معنى البُعد؛ للإيذان ببُعد منزلتهم في الشر والفساد، أي: أولئك هم المحكوم عليهم بالفسق، والخروج عن الطاعة، والتجاوز عن الحد، فإنهم المستحقون لإطلاق اسم الفاسق عليهم، دون غيرهم.

﴿إلا الذين تابوا من بعد ذلك﴾ القذف، ﴿وأَصلحوا﴾ أحوالهم، فهو استثناء من الفاسقين، بدليل قوله: ﴿فإن الله غفور رحيم﴾ أي: يغفر ذنوبهم ويرحمهم، ولا ينظمهم في سلك الفاسقين. فعلى هذا لا تُقبل شهادته مطلقاً فيما حدّ فيه وفي غيره؛ لأن رد شهادته وُصلت بالأبد، وأما توبته فإنما تنفعه فيما بينه وبين الله، وبه قال أبو حنيفة وأصحابه، وهو قول ابن عباس وشريح والنخعي. وقيل: الاستثناء راجع لقوله: ﴿ولاتقبلوا لهم شهادة﴾، فإذا تاب وأصلح قبلت شهادته مطلقاً؛ لأنه زال عنه اسم الفسق، والأبد عبارة عن مدة كونه فاسقاً، فينتهي بالتوبة، وبه قال الشافعي وأصحابه، وهو قول الشعبي ومسروق وابن جبير وعطاء وسليمان بن يسار. وفصَّل مالك، فقال: لا تجوز فيما حدّ فيه، ولو تاب، وتجوز فيما سواه، وكأنه جمع بين القولين. والله تعالى أعلم.

الإشارة: الغض عن مساوئ الناس من أفضل القرب، وهو من شيم ذوي الألباب، وبه السلامة من الهلاك والعَطب، والتعرض لمساوئهم من أعظم الذنوب، وأقبح العيوب، ولله در القائل:

---

(١) من الآية ١٣ من سورة النور.

إذا شئتَ أن تحيا ودينك سالم … وحظك موفورٌ وعِرضُك صَيِّنُ
لسانَك، لاتذكُرْ به عورَةَ امرئٍ … فعندك عوراتٌ وللناس ألسُنُ
وإنْ أبصرت عيناكَ عيباً فقل لها: … أيا عينُ لاتنظرى؛ فللناس أعينُ
وعاشِرْ بمعروفٍ وجانِبْ مَن اعتدي … وفارقْ ولكنْ بالتى هى أحسَنُ(١)

فالمتوجه إلى الله لا يشتغل بغير مولاه، ولايرى فى المملكة سواه، يذكر الله على الأشياء، فتنقلب نوراً؛ لحسن ظنه بالله، ويلتمس المعاذر لعباد الله؛ لكمال حسن ظنه بهم. وبالله التوفيق.

ثم تكلم على مَنْ رمى زوجته، وبه يقع اللعانُ، فقال:

﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٨﴾ وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾

قلت: (إلا أنفسهم): بدل من (شهداء)، أو صفة له، على أن (إلا) بمعنى غير. و(فشهادة): مبتدأ، والخبر محذوف، أى: واجبة، أو: تدرأ عنه العذاب، أو: خبر عن محذوف، أى: فالواجب شهادة أحدهم، و(أنّ)، فى الموضعين: مخففة، ومَنْ شدّدَ؛ فعلى الأصل. و(الخامسة): مبتدأ، و(أنْ غضَبَ): خبر، وقرأ حفص بالنصب، أى: ويشهد الشهادة الخامسة.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ والذين يرمون أزواجهم ﴾ أى: يقذفون زوجاتهم بالزنا، ﴿ ولم يكن لهم شهداءُ ﴾ أى: لم يكن لهم على تصديق قولهم من يشهد لهم به ﴿ إلا أنفسُهُم ﴾، جُعلوا من جملة الشهداء؛ إيذاناً بعدم قبول قولهم بالمرة، ﴿ فشهادةُ أحدهم ﴾ أى: فالواجب شهادة أحدهم ﴿ أربعُ شهادات بالله ﴾ يقول: أشهد بالله ﴿ إنه لمن الصادقين ﴾ فيما رماها به من الزنا. ﴿ والخامسةُ أنَّ لعنت الله عليه ﴾ أى: إنه لعنة الله عليه، أى: يقول فيها: لعنة الله عليه ﴿ إن كان من الكاذبين ﴾ فيما رماها به. فإذا حلف دُرِئَ عنه العذاب، أى: دفع عنه الحد، وإنْ نكَل: حُدَّ؛ لقذفها.

(١) الأبيات بنحوها فى ديوان الشافعى ص/٨٤ تعليق محمد عفيف الزعبى.

﴿ ويدرأُ عنها العذابَ ﴾ أى: يدفع عنها الحدَّ ﴿ أن تشهدَ أربعَ شهاداتٍ بالله إنه ﴾ أى: الزوج ﴿ لمن الكاذبين ﴾ فيما رماها به من الزنا، ﴿ والخامسة أنَّ غضب الله عليها إن كان ﴾ الزوج ﴿ من الصادقين ﴾ فيما رماها به من الزنا. وذكر الغضب فى حق النساء؛ تغليظاً؛ لأن النساء؛ يستعملن اللعن كثيراً، كما ورد به الحديث: «يُكْثِرْنَ اللعْنَ»(١)، فربما يجترئن على الإقدام، لكثرة جرى اللعن على ألسنتهن، وسقوط وقعه عن قلوبهن، فذكر الغضب فى جانبهن؛ ليكون ردعاً لهن.

فإذا حلفا معاً فُرق بينهما بمجرد التلاعن، عند مالك والشافعى، على سبيل التأبيد، وقال أبو حنيفة: حتى يحكم القاضى بطلقة بائنة؛ فتحل له بنكاح جديد إذا أكذب نفسه وتاب.

رُوى أن آية القذف المتقدمة لَمّا نزلت؛ قرأها النبى ﷺ على المنبر، فقام عاصم بن عدى الأنصارى، فقال: جعلنى الله فداءك، إن وجد رجل مع امرأته رجلاً، فأخبر بما رأى، جُلِدَ ثمانين، وسماه المسلمون فاسقاً، ولا تقبل شهادته أيضاً، فكيف لنا بالشهداء، ونحن إذا التمسنا الشهداء فرغ الرجل من حاجته، وإن ضربه بالسيف قُتل؟ اللهم افتح، وخرج فاستقبله هلالُ بن أمية - وقيل: عُوَيْمِر(٢) - فقال: ما وراءك؟ فقال: الشر، وجدت على امرأتى خولة - وهى بنت عاصم - شريكَ بن سحماء - فقال عاصم: والله هذا سؤال ما أسرع ما ابتليت به، فرجعا، فأخبرا رسول الله ﷺ، فكلم خولة: فأنكرت، فنزلت هذه الآية، فتلاعنا فى المسجد، وفرَّق بينهما، فقال ﷺ: «ارقبوا الولد، إن جاءت به على نعت كذا وكذا، فما أراه إلا كذب عليها، وإن جاءت به على نعت كذا، فما أراه إلا صدق» فجاءت به على النعت المكروه.

قال تعالى: ﴿ ولولا فضلُ الله عليكم ﴾ أى: تفضله عليكم ﴿ ورحمتُه ﴾؛ ونعمته ﴿ وأنَّ الله تواب حكيم ﴾، وجواب «لولا»: محذوف؛ لتهويله، والإشعار بضيق العبارة عن حصره، كأنه قيل: لولا تفضله تعالى

---

(١) جزء من حديث أخرجه البخارى فى (الحيض، باب ترك الحائض الصوم ح٣٠٤)، ومسلم فى (الإيمان، باب بيان نقص الإيمان، ١/٨٦ - ٨٧، ح ٧٩) من حديث ابن عمر، ولفظه: «يا معشر النساء تصدقن، فإنى أريتكن أكثر أهل النار. فقلن: وبم يا رسول الله ؟قال: تكثرن اللعن وتكفرن العشير...» الحديث

(١) كلاهما جاءت قصته فى الصحيح، وأخرج قصة عويمر البخارى، فى (التفسير، سورة النور، ﴿والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم..﴾ ح ٤٧٤٥) ومسلم فى (أول كتاب اللعان، ٢/١١٢٩ ح١٤٩٢) من حديث سهل بن سعد الساعدى.
وأخرج قصة هلال بن أمية: البخارى أيضا، فى: (التفسير ـ سورة النور، باب: ﴿ويدرأ عنها العذاب أن تشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين﴾ ح ٤٧٤٧). عن ابن عباس. وأخرجها مسلم فى الموضع السابق ذكره (ح ١٤٩٦) عن أنس بن مالك.
وقد جمع العلماء بين هذه الأحاديث: بأن أول من وقع له ذلك هلال، وصادف مجىء عويمر أيضاً، فنزلت فى شأنهما معاً، فى وقت واحد. وقد جنح النووى وابن حجر الى هذا. انظر فتح البارى (٨/٣٠٤ ـ ٣٠٥) وراجع أيضا: تفسير الطبرى (١٨/٨٢ ـ ٨٤) والبغوى (٦/١٢ ـ ١٥).

عليكم ورحمته وأنه تعالى مبالغ فى قبول التوبة، حكيم فى جميع أفعاله وأحكامه، التى من جملتها: ما شرع لكم من حكم اللعان، لكان ما كان، مما لايحيط به نطاق العبارة، من حد الزوج مع الفضيحة، أو قتل المرأة، أو غير ذلك من العقوبة. قال القشيرى: لبقيتم فى هذه المعضلة ولم تهتدوا إلى الخروج من هذه الحالة المشكلة. هـ.

الإشارة: النفس إذا تحقق فناؤها، وكمل تهذيبها، رجعت سراً من أسرار الله، فلا يحل رميها بنقص؛ لأن سر الله تعالى منزه عن النقائص، فإن رماها بشىء فليبادر بالرجوع عنه. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر وبال من رمى أزواج النبى - عليه الصلاة والسلام - فى قضية الإفك، فقال:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾

قلت: (عُصْبَة): خبر «إن»، و(لا تحسبوه): استئناف.

يقول الحق جل جلاله: ﴿إن الذين جاءوا بالإفْكِ﴾، وهو أبلغ ما يكون من الكذب والافتراء، وقيل: هو البهتان لا تشعر به حتى يفاجئك. والمراد: ما أفك على الصديقة عائشة - رضى الله عنها -، وفى لفظ المجىء إشارة إلى أنهم أظهروه من عند أنفسهم من غير أن يكون له أصل.

وذلك أن رسول الله ﷺ كان إذا أراد سفراً أقْرَعَ بين نسائه، فأيتهُنَّ خرجت قُرعتها استصحبها، قالت عائشة - رضى الله عنها -: فأقرع بيننا فى غزوةٍ غزاها - قيل: هى غزوة بنى المصطلق، وتُسمى أيضا: غزوة المريسيع، وفيها أيضا نزل التيمم - فَخَرج سهمى، فخرجتُ معه ﷺ بعد نزول آية الحجاب، فحُملت فى هودج، فسرنا حتى إذا قفلنا ودنونا من المدينة؛ نزلنا منزلاً، ثم نُودى بالرحيل، فقمتُ ومشيتُ حتى جاوزتُ الجيش، فلما قضيتُ شأنى أقبلتُ إلى رَحْلى، فلمستُ صدرى فإذا عِقْدٌ لى مِنْ جَزْعِ أظفارٍ[١] قد انقطعَ، فرجعتُ فالتمسته، فحبسنى التماسه. وأقبل الرّهطُ الذين كانوا يرحلوننى، فاحتملوا هَوْدَجِى فرحلوه على بعيرى، وهم يحسبون أنّى فيه؛ لخفتى، فلم يستنكروا خفة الهودج، وذهبوا بالبعير، ووجدت عقدى بعدما استمر الجيش، فجئت منازلهم وليس فيه داعٍ ولا مجيب، فتيممت منزلى، وظننت أن سيفقدوننى ويعودُون فى طلّبى، فبينما أنا جالسة فى منزلى غلبتنى عينى، فنمت، وكان صَفْوَانُ بن المعطّل قد عرّس[٢] من وراء الجيش، فأدْلَجَ فأصبح عند منزلى، فلما رآنى

(١) الجزْع ـ بالفتح ـ: الخَرَزُ اليمانى .. انظر النهاية (جزع ١/٢٦٩).

(٢) التعريس: نزول المسافر آخر الليل نزلةً للنوم والاستراحة .. انظر النهاية (عرس ٣/٢٠٦).

عرفنى، وكان يرانى قبل الحجاب، فاسترجع، فاستيقظت باسترجاعه، فخَمَّرْتُ وجهى بجلبابى، والله ما تكلمنا بكلمة، ولا سمعتُ منه كلمة، غير استرجاعه، فأناخ راحلته، فوطئ على يدها، فقمت إليها فركبتها، وانطلق يقود بى الراحلة، حتى أتينا الجيش مُوغرين فى نَحْرِ الظهيرة، وهم نزول، وافْتَقَدنى الناسُ حين نَزَلُوا، وماج الناس فى ذِكْرِى، فبينما الناس كذلك إذ هَجَمْتُ عليهم، فخَاضَ الناس فى حديثى، فهلك مَنْ هلك. والحديث بطوله مذكور فى الصحيحين(١) والسِّيَر.

وقوله تعالى: ﴿عُصْبَةٌ منكم﴾ أى: جماعة من جلدتكم، والعصبة: من العشرة إلى الأربعين، وكذا العصابة، يقال: اعصوصَبوا: اجتمعوا. وهم عبدالله بن أُبَى رأس المنافقين، وزيد بن رفاعة، ومسطح بن أثاثة، وحمنة بنت جحش، ومن ساعدهم. واختلف فى حسان بن ثابت، فمن قال: كان منهم، أنشد البيت المروى فى شأنهم ممن جلدوا الحد:

لَقَـــدْ ذاقَ حَـــسَّـــانُ الذي هُو أهْلُهُ   وَحِـمْنَةُ؛ إذ قـالا هجَـيْـراً، ومِـسْطَحُ

ومن برأ حسان من الإفك قال: إنما الرواية فى البيت: (لقد ذاق عبدالله ما كان أهله)، والمشهور أن النبى ﷺ لم يحد عبدالله بن أُبَى، حين حدّ الرامين لعائشة، تألفاً له؛ قال البرماوى فى حاشيته على البخارى فى فوائد حديث الإفك: وفيه ترك الحد لما يخشى من تفريق الكلمة، كما ترك عليه الصلاة والسلام حدّ ابن سلول. هـ. وقد روَى ابن عبد البر أن عائشة برأت حسان من الفرية، وقد أنكر حسانُ أن يكون قال فيها شيئاً فى أبياته، التى من جملتها:

حَـصَــانٌ رَزَانٌ مَـــا تُزَنُّ بِرِيبَـــةٍ   وتُصْـبِحُ غَـرْثَي من لُحُـومِ الْغَـوافِلِ(٢)

إلى أن قال:

فَــإنْ كَـــان مَـــا بُلِّغْتَ عنّي قُلْتُــه   فَــلاَ رَفَــعَتْ سَــوْطِي إلىَّ أنامِلي

(١) أخرجه البخارى فى مواضع كثيرة، منها (المغازى، باب حديث الإفك ح٤١٤١)، و(التفسير- سورة النور، باب ﴿لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا﴾ ح٤٧٥٠)، وأخرجه مسلم فى (التوبة، باب فى حديث الإفك، ٤/٢١٢٩ – ٢١٣٦، ح ٧٧٠).

(٢) الحصان: العفيفة، والرزان: الرزينة الثابتة التى لايستخفها الطيش. وتُزَنُّ: ترمى وتتهم. وغرثى: جائعة، والمعنى: لاتغتاب النساء. والغوافل: جمع غافلة، وهى التى غفلت عن الشر. وانظر: ديوان حسان (١٩٠ – ١٩١) والبحر المحيط (٦/٤٠١).

ويجمع بين قوله هنا ذلك، وبين قولها له عند قوله: وتُصبِحُ غَرْثَى مِن لُحُومِ الغوَافِلِ: «لكنك لستَ كذلك»؛ بأنه لم يقل نصاً وتصريحاً، ولكن عرّض وأومأ، فنُسب ذلك إليه. والله أعلم أىُّ ذلك كان.

ثم قال تعالى: ﴿لا تَحْسَبُوه شرًّا لكم﴾، والخطاب للرسول - عليه الصلاة والسلام -، وأبى بكر، وعائشة، وصفوان؛ تسلية لهم من أول الأمر، ﴿بل هو خيرٌ لكم﴾؛ لاكتسابكم به الثواب العظيم، وظهور كرامتكم على الله عز وجل؛ بإنزال القرآن الذى يُتلى إلى يوم الدين فى نزاهة ساحتكم وتعظيم شأنكم، وتشديد الوعيد فيمن تكلم فيكم، والثناء على من ظن خيراً بكم، مع ما فيه من صدق الرُّجْعَى إلى الله، والافتقار إليه، والإياس مما سواه.

ثم ذكر وبال من وقع فيها بقوله: ﴿لكل امرئٍ منهم﴾ أى: من أولئك العصبة ﴿ما اكتسبَ من الإثم﴾ أى: له من الجزاء بقدر ما خاض فيه، وكان بعضهم ضحك، وبعضهم تكلم، وبعضهم سكت. ﴿والذي تولى كِبْرَهُ﴾ أى: معظمه وجُلّه ﴿منهم﴾ أى: من العصبة، وهو عبدالله بن أُبَيّ ﴿له عذابٌ عظيم﴾ فى الآخرة، إن كان كافراً، كابن أُبَى، وفى الدنيا إن كان مؤمناً، وهو الحد وإبطال شهادتهم وتكذيبهم. وقد رُوى أن مسطحُ كُف بصره، وكذلك حسان، إن ثبت عنه الخوض فيه، والله تعالى أعلم.

الإشارة: كلام الناس فى أهل الخصوصية مقَاذِفُ لسير سفينتهم، ورياح لها، فكلما قوى كلام الناس فى الولى قَوِىَ سَيْرُهُ إلى حضرة ربه، حتى تمنى بعضهم أن يكون غابة والناس فيه حطَّابَةَ. وفى الحِكَم: «إنما أجرى الأذى عليهم كى لا تكون ساكناً إليهم، أراد أن يُزْعِجَكَ عن كل شيء حتى لا يَشْغَلَكَ عنه شيء».

والحق تعالى غيور على قلوب أصفيائه، لا يحب أن تركن إلى غيره، فمهما ركنت إلى شيء شوش ذلك عليه، كقضية سيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام مع ابنه حين أمر بذبحه، وكقضية سيدنا يعقوب عليه السلام مع ابنه حين غيّبه عنه. وكانت عائشة ـ رضى الله عنها ـ قد استولى عليها حبه - عليه الصلاة والسلام ـ، فكادت أن تحجب بالواسطة عن الموسوط، فردها إليه تعالى بما أنزل بها، تمحيصاً وتخليصاً وتخصيصاً، حتى أفردت الحق تعالى بالشهود، فقالت: بحمد الله، لا بحمد أحد. وكذا شأنه تعالى مع أحبائه؛ يردهم إليه بما يوقع بهم من المحن والبلايا، حتى لايكونوا لغيره. وبالله التوفيق(١).

(١) هذه إشارة ممتازة تكتب بماء الرياحين على صفحات القلوب.

ثم وبّخ الخائضين فى حديث الإفك، فقال:

﴿ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ ﴾

قلت: قال ابن هشام: وقد يلى حرف التخصيص اسم معلق بفعل، إما بمضمر، نحو: «فهلاّ بكْراً تُلاعبُها وتُلاعبُك»(١) أى: فهلا تزوجت، أو مؤخراً نحو: (لولا إذ سمعتموه قلتم..) أى: فهلا قلتم إذ سمعتموه. هـ. وإليه أشار فى الخلاصة بقوله:

وَقَـدْ يَلِيـهَـا اسْمٌ بِفِـعْلٍ مُـضْـمَـرِ   عُلِّـقَ أَوْ بِظَـاهِرٍ مُـؤَخَّـرِ

يقول الحق جل جلاله: ﴿لولا إذْ سمعتموه﴾ أى: الإفك ﴿ظنَّ المؤمنون والمؤمناتُ بأنفسهم خيراً﴾ بالذين هم منهم؛ لأن المؤمنين كنفس واحدة، كقوله: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ﴾(٢) أى: هلا ظنوا بإخوانهم خيراً: عفَافا وصلاحاً، وذلك نحو ما يُروى عن عمر رضي الله عنه قال لرسول الله ﷺ: (أنا قاطع بكذب المنافقين؛ لأن الله تعالى عصمك عن وقوع الذباب على جلدك، لئلا يقع على النجاسات فتُلطّخ بها، فإذا عصمك من ذلك فكيف لا يعصمك من صحبة من تكون ملطخة بهذه الفاحشة)!. وقال عثمان رضي الله عنه: (ما أوقع ظلك على الأرض؛ لئلا يضع إنسانٌ قدمه عليه؛ فلمّا لم يُمكّن أحداً من وضع القدم على ظلك، فكيف يمكّن أحداً من تلويث عرض زوجتك!). وكذا قال عليّ رضي الله عنه: إن جبريل أخبرك أنّ على نَعْلك قذراً، وأمرك بإخراج النعل عن رجلك، بسبب ما التصق به من القذر، فكيف لا يأمرك بإخراجها، على تقدير أن تكون متلطخة بشيء من الفواحش)؟ قاله النسفى.

وروى أن أبا أيوب الانصارى قال لامرأته: ألا ترين ما يقال فى عائشة؟ فقالت: لو كُنْتَ بدل صفوان أكُنْتَ تخوّن رسول الله ﷺ؟ فقال: لا، قالت: ولو كنتُ أنا بدل عائشة ماخُنْتُ رسول الله، فعائشة خير منى، وصفوان خير منك. وفى رواية ابن إسحاق: قالت زوجة أبى يوب لأبى أيوب: ألا تسمع ما يقول الناس فى عائشة؟ قال: بلى، وذلك الكذب، أكُنْتِ فاعلة ذلك يا أم أيوب؟ قالت: لا والله، فقال: عائشة خير منك، سبحان الله، هذا بهتان عظيم، فنزل: ﴿لولا إذ سمعتموه ..﴾ الآية(٣).

(١) جاء ذلك فى حديث سيدنا جابر، وأخرجه البخارى فى (النكاح، باب تزويج الثيبات ح٥٠٧٩)، ومسلم فى (الرضاع، باب استحباب نكاح البكر، ٢/١٠٨٧، ح ٥٦ فى الباب) ولفظ البخارى: (هلاّ جارية..).

(٢) من الآية ١١ من سورة الحجرات.

(٣) انظر تفسير ابن جرير (١٨/٩٦)، والبغوى (٦/٢٥)، وأسباب النزول للواحدى، ص (٣٣٣).

وإنما عدل عن الخطاب إلى الغيبة، وعن الضمير إلى الظاهر، ولم يقل: ظننتم بأنفسكم خيراً، وقلتم؛ ليبالغ في التوبيخ بطريق الالتفات، وليدل التصريح بلفظ الإيمان على أن المؤمن لا يسيء الظن بأحد من المؤمنين.

﴿ وقالوا ﴾ عند سماع هذه الفرية: ﴿ هذا إفكٌ مبين ﴾؛ كذب ظاهر لا يليق بمنصب الصدّيقة بنت الصدّيق. ﴿ لولا جاءوا عليه بأربعةِ شهداءِ ﴾؛ هلاّ جاء الخائضون بأربعة شهداء على ما قالوا ﴿ فإذْ لم يأتوا بالشهداء ﴾، ولم يقل: «بهم»؛ لزيادة التقرير، ﴿ فأولئك ﴾ الخائضون ﴿ عند الله ﴾ أي: في حُكمه وشرعه ﴿ هم الكاذبون ﴾؛ الكاملون في الكذب، المستحقون لإطلاق هذا الاسم عليهم دون غيرهم. والله تعالى أعلم.

الإشارة: حُسن الظن بعباد الله من أفضل الخصال عند الله، ولاسيما ما فيه حرمة من حُرَم الله. قال القشيري على الآية: عاتبهم على المبادرة إلى الاعتراض وتَرْكِ الإعراضِ عن حُرمة بيت نبيهم. ثم قال: وسبيلُ المؤمن ألا يستصغر في الوفاق طاعة، ولا في الخلاف زلّة، فإنّ تعظيمَ الأمْرِ بتعظيم الآمرِ، وإن الله لينتقم لأوليائه مالا ينتقم لنفسه، ولا سيما ما تعلق به حق الرسول – عليه الصلاة والسلام – فذلك أعظم عند الله، ولذلك بالغ في التوبيخ على ما أقدموا عليه، مما تأذى به الرسول، وقلوب آل الصدّيق، وقلوب المخلصين من المؤمنين. هـ.

ثم قال تعالى:

﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ
عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ
عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ
عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ
وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ ﴾

قلت: (لولا) هنا: امتناعية بخلاف المتقدمة؛ فإنها تحضيضية، و(إذ سمعتموه): معمول لقُلتم، و(إذْ تلقونه): ظرف لمسّكم.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ولولا فضلُ الله عليكم ﴾ أيها السامعون ﴿ ورحمتُهُ في الدنيا ﴾؛ من فنون النِعَم، التي من جملتها: الإمهال والتوبة، ﴿ و ﴾ في ﴿ الآخرةِ ﴾؛ من ضروب الألآء، التي من جملتها: العفو

والمغفرة، ﴿ لمسَّكم ﴾ عاجلاً ﴿ فيما أفَضْتُم ﴾ أى: بسبب ما خضتم ﴿ فيه ﴾ من حديث الإفك ﴿ عذابٌ عظيمٌ ﴾ يُستحقر دونه التوبيخ والجَلْدُ، يقال أفاض فى الحديث، وفاض، واندفع : إذا خاض فيه.

﴿ إذْ تلقَّوْنه ﴾ أى: لمسكم العذاب العظيم وقت تلقيه إياكم من المخترعين له، يقال: تلقى القول، وتلقنه، وتلقفه، بمعنى واحد، غير أن التلقف: فيه معنى الخطف والأخذ بسرعة، أى: إذ تأخذونه ﴿ بألسنتكم ﴾؛ بأن يقول بعضكم لبعض: هل بلغك حديث عائشة، حتى شاع فيما بينكم وانتشر، فلم يبق بيت ولا نادٍ إلا طار فيه. ﴿ وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علمٌ ﴾ أى: قولاً لا حقيقة له، وقيّده بالأفواه، مع أن الكلام لايكون إلا بالفم؛ لأن الشيء المعلوم يكون فى القلب، ثم يترجم عنه اللسان، وهذا الإفك ليس إلا قولاً يدور فى الأفواه، من غير ترجمة عن علم به فى القلب. ﴿ وتحسبونه هيِّناً ﴾ أى: وتظنون أن خوضكم فى عائشة سَهْلٌ لا تبعة فيه، ﴿ وهو عند الله عظيم ﴾ أى: والحال أنه عند الله كبير، لا يُقادر قدره فى استجلاب العذاب. جزع بعض الصالحين عند الموت، فقيل له فى ذلك، فقال: أخاف ذنبا لم يكن منى على بال، وهو عند الله عظيم.

﴿ ولولا إذْ سَمِعتُموه ﴾ من المخترعين والشائعين له ﴿ قُلتم ما يكونُ لنا ﴾؛ ما يمكننا ﴿ أن نتكلَّمَ بهذا ﴾، وما ينبغى أن يصدر عنا، وتوسيط الظروف بين «لولا» و«قلتم» إشارة إلى أنه كان الواجب أن يُبادروا بإنكار هذا الكلام فى أول وقت سمعوه، فلما تأخر الإنكار وبّخهم عليه، فكان ذكرُ الوقت أهَمّ، فقدّم، والمعنى: هلاّ قُلتم إذ سمعتم الإفك: ما يصح لنا أن نتكلم بهذا، ﴿ سبحانك ﴾؛ تنزيهاً لك، وهو تعجبٌ مِنْ عِظَمِ ما فاهوا به. ومعنى التعجب فى كلمة التسبيح: أن الأصل أن يسبح الله عند رؤية العجيب من صنائعه تعالى، ثم كثر حتى استعمل فى كل متعجب منه. أو: تنزيهاً لك أن يكون فى حرم نبيك فاجرة، ﴿ هذا بهتانٌ عظيم ﴾؛ لعظمة المبهوت عليه، واستحالة صدقه، فإنّ حقارة الذنوب وعظمتها باعتبار متعلقاتها. وقال فيما تقدم: ﴿ هَذَا إِفْكٌ مُبِين ﴾(١). ويجوز أن يكونوا أُمروا بهما معاً، مبالغة فى التبرى.

﴿ يَعِظُكُمُ اللهُ ﴾ أى: ينصحكم ﴿ أن تعودوا لمثله ﴾ أى: كراهة أن تعودوا، أو يزجركم أن تعودوا لمثل هذا الحديث أو القذف أو الاستماع، ﴿ أبداً ﴾؛ مدة حياتكم، ﴿ إن كنتم مؤمنين ﴾؛ فإن الإيمان وازع عنه لا محالة. وفيه تهييج وتقريع وتذكير بما يوجب ترك العود، وهو الإيمان الصادُّ عن كل قبيح.

(١) الآية ١٢ من سورة النور.

﴿ ويُبيِّن الله لكم الآياتِ ﴾ الدالة على الشرائع ومحاسن الأدب، دلالة واضحة؛ لتتعظوا وتتأدبوا، أى: ينزلها كذلك ظاهرة مبينة، ﴿ والله عليمٌ حكيمٌ ﴾؛ عليم بأحوال مخلوقاته، حكيم فى جميع تدابيره وأفعاله، فأنّى يصحُ ما قيل فى حرمة من اصطفاه لرسالته، وبعثه إلى كافة الخلق، ليرشدهم إلى الحق، ويزكيهم ويطهرهم تطهيرا؟ والله تعالى أعلم.

الإشارة: الكلام فى الأولياء سم قاتل؛ لأن الله ينتصر لأوليائه لا محالة، فمنهم من ينتصر لهم فى الدنيا بإنزال البلايا والمحن فى بدنه أو ولده أو ماله، ومنهم من يؤخر عقوبته إلى الآخرة، وهو أقبح. ومنهم من تكون عقوبته دينية قلبية؛ كقساوة القلب وجمود العين، وتعويق عن الطاعة، ووقوع فى ذنب، أو فترة فى همة، أو سلب لذاذة خدمة أو معرفة، وهذه أقبح العقوبة، والعياذ بالله.

ثم أوعد من كان يشيع حديث الأفك، فقال:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ إن الذين يُحبون ﴾؛ يريدون ﴿ أن تشيعَ الفاحشةُ ﴾ أى: تنتشر الخصلة المفرطة في القبح، وهو الرمى بالزنا، أو نفس الزنا، والمراد بشيوعها: شيوع خبرها، أى: يحبون شيوعها ويتصدون مع ذلك لإشاعتها. وإنما لم يصرح به؛ اكتفاء بذكر المحبة؛ فإنها مستلزمة له لا محالة، وهم: عبدالله بن أبيّ وأصحابه ومن تبعهم. ﴿ لهم عذابٌ أليم فى الدنيا ﴾؛ بالحدّ والفضيحة والتكذيب. ولقد ضرب ﷺ الحدّ كل من رمى عائشة. وتقدم الخلاف فى ابن أبى، فقيل: حدّه، وقيل: تركه؛ استئلافا له. ﴿ و ﴾ لهم العذاب فى ﴿ الآخرة ﴾ بالنار وغيرها، إن لم يتوبوا. ﴿ والله يعلم ﴾ جميع الأمور، التى من جملتها: المحبة المذكورة، ﴿ وأنتم لا تعلمون ﴾ ما يعلمه تعالى، بل إنما يعلمون ما ظهر من الأقوال والأفعال المحسوسة، فابنوا أمركم على ما تعلمونه، وعاقبوا فى الدنيا على ماتشاهدونه من الأحوال الظاهرة، والله يتولى السرائر، فيعاقب فى الآخرة على ما تُكنه الصدور.

﴿ ولولا فضلُ الله عليكم ورحمتُه ﴾، التكرير؛ لتعظيم المنّةِ بترك المعاجلة؛ للتنبيه على كمالِ عِظَمِ الجريمة، ﴿ وأنَّ الله رؤوف رحيم ﴾ عطف على (فضل الله)، أى: لولا فضله ورأفته لعاجلكم بالعقوبة، وإظهار اسم الجليل؛ لتربية المهابة، والإشعار باستتباع صفة الألوهية للرأفة والرحمة، وتصديره بحرف التأكيد؛ لأن المراد بيان اتصافه تعالى فى ذاته بالرأفة، التى هى كمال الرحمة، وبالرحيمية التى هى المبالغة فيها على الدوام والاستمرار. والله تعالى أعلم.

الإشارة: من شأن أهل البُعد والإنكار: أنهم إذا سمعوا بحدوث نقص أو عيب فى أهل النِّسْبَةِ وأهل الخصوصية فرحوا، وأحبوا أن تشيع الفاحشة فيهم؛ قصداً لغض مرتبتهم؛ حسداً وعناداً، لهم عذاب أليم فى الدنيا والآخرة، ولولا فضل الله ورحمته لعاجلهم بالعقوبة. والله تعالى أعلم وأحلم.

ولما نزلت براءة عائشة - رضى الله عنها - حلف أبوها لا يُنفق على مسطح شيئاً؛ غضباً لعائشة، وكان يُنفق عليه؛ لقرابته، فأنزل الله تعالى:

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ (٢١) وَلَا يَأۡتَلِ أُوْلُواْ ٱلۡفَضۡلِ مِنكُمۡ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤۡتُوٓاْ أُوْلِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلۡيَعۡفُواْ وَلۡيَصۡفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٌ (٢٢) ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تتبعوا خُطواتِ الشيطان ﴾ أى: لا تسلكوا مسالكه فى كل ما تأتون وتذرون من الأفاعيل، والتى من جملتها: منع الإحسان إلى من أساء إليكم؛ غضباً وحَمِيَّةً، ﴿ ومن يتبع خُطُوات الشيطان ﴾، وضع الظاهر موضع المضمر، حيث لم يقل: ومن يتبعها، أو: ومن يتبع خطواته؛ لزيادة التقرير والمبالغة فى التنفير، ﴿ فإنه ﴾ أى: الشيطان ﴿ يأمرُ بالفحشاء ﴾؛ كالبخل والشح، وكل ما عظُم قُبْحُهُ، ﴿ والمنكر ﴾؛ كالغضب، والحمية، وكل ما ينكره الشرع؛ لأن شأن الشيطان أن يأمر بهما. فمن اتبع خطواته فقد امتثل أمره.

﴿ ولولا فضلُ الله عليكم ورحمتُه ﴾ بالهداية والتوفيق لأسباب التطهير والعصمة والحفظ، ﴿ مازَكَى منكم ﴾ أى: ما طَهُرَ من أدْ ناسِ العيوب ولوث الفواحش ﴿ من أحدٍ أبداً ﴾ ؛ إلى ما لا نهاية له، وإذا كان التطهير والعصمة بيد الله فلا تروا لأنفسكم فضلاً عمن لم يعصمه الله؛ فإنه مقهور تحت مجارى الأقدار، ﴿ ولكنَّ الله يُزَكِّي مَنْ يَشاءُ ﴾ ؛ يطهر من يشاء من عباده؛ بإفاضة آثار فضله ورحمته عليه؛ بالحفظ والرعاية، أو بالتوبة بعد الجناية، ﴿ والله سميعٌ عليم ﴾ ؛ سميع لأقوالكم وإن خفيت، ومن جملتها: الحلف على ترك فعل الخير، عليم بنياتكم وإخلاصكم.

وهذا الكلام مقدمة لقوله: ﴿ ولا يأتَل ﴾، من قولك: أليت: إذا حلفت، أى: لاَ يَحْلِفْ ﴿ أولوا الفضل منكم ﴾ أى: فى الدين، وكفى به دليلاً على فضل الصِّدِّيقِ رضي الله عنه، ﴿والسَّعَةِ﴾. أى: والسعة فى المال ﴿ أن يُؤتوا ﴾ أى: لايحلف على ألا يُعطوا ﴿ أولي القربى والمساكينَ والمهاجرين في سبيلِ الله ﴾ ؛ كمسطح، فإنه كان ابن خالته، وكان من فقراء المهاجرين. وهذه الأوصاف هى لموصوف واحد، جىء بها، بطريق العطف؛ تنبيهاً على أن كلاً منها علة مستقلة لاستحقاقه الإيتاء. وحذف المفعول الثانى؛ لظهوره، أى: على ألا يؤتوهم شيئاً، ﴿ وليعفُوا ﴾ عما فرط منهم ﴿ وليصفحُوا ﴾ بالإغضاء عنه، فالعفو: التستر، والصفح: الإعراض، أى: وليتجاوزوا عن الجفاء، وليُعرضوا عن العقوبة.

﴿ ألا تُحبُّون أن يغفر الله لكم ﴾ ؟ فلتفعلوا ما تحبون أن يُفْعَلَ بكم وبهم، مع كثرة خطاياهم، ﴿ والله غفور رحيم ﴾ ؛ مبالغ فى المغفرة والرحمة، مع كثرة ذنوب العباد، فتأدبوا بآداب الله، واعفوا، وارحموا. ولما قرأها النبى ﷺ على أبى بكر رضي الله عنه قال: بل أُحب أن يغفر الله لى. ورد إلى مسطح نفقته، وقال: والله لا أنزعها منه أبداً(١).
وبالله التوفيق.

الإشارة: كل ما يصد عن مكارم الأخلاق؛ كالحلم، والصبر، والعفو، والكرم، والإغضاء، وغير ذلك من الكمالات، فهو من خطوات الشيطان، تجب مجانبته، فإن الشيطان لا يأمر إلا بالفحشاء والمنكر؛ كالغضب، والانتصار، والحمية، والحقد، والشح، والبخل، وغير ذلك من المساوئ، ولاطريق إلى الدواء من تلك المساوئ إلا بالرجوع إلى الله والاضطرار له، والتعلق بأذيال فضله وكرمه.

(١) أخرجه البخارى فى (تفسير سورة النور، باب ﴿لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا﴾ ح٤٧٥٠) وفى مواضع أخرى. وأخرجه مسلم فى (التوبة، باب فى حديث الإفك ٤/٢١٢٩ - ٢١٣٦، ح٢٧٧٠)، كلاهما فى سياق حديث الإفك الطويل.

ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبدا، فإذا تعلق بالله، واضطر إليه اضطرار الظمآن إلى الماء طهَّره الله وزكاه، إما بلا سبب، أو بأن يلقيه إلى شيخ كامل، يربيه ويهذبه بإذن الله، وهذا هو الكثير، والكل منه وإليه.

قال الورتجبي قوله تعالى: ﴿ ولولا فضل الله عليكم ورحمته .. ﴾ الخ: بيّن أن تطهير العباد من الذنوب لايكون إلا بفضله السابق وعنايته الأزلية، كيف يزكى العِلَلَ ما يكون عللا، فالمعلول لا يُطَهِّرُ، والمعلول أفعال الحدثان على كل صنف، ولطف القديم له استحقاق ذهاب العلل بوصوله. قال السيارى: قال الله: ﴿ ولولا فضل الله عليكم ﴾، ولم يقل: لولا عبادتكم وصلاتكم وجهادكم وحسن قيامكم بأمر الله ما نجا منكم أحد؛ ليعلم أن العبادات، وإن كثرت، فإنها من نتائج الفضل. هـ.

قال في الحاشية: وظهر لي أن الآية مقدمة لما ندب إليه الصدِّيق بقوله: ﴿ولا يأتل أولوا الفضل منكم﴾، ففيه إشارة إلى أن فضله وزكاته فضل من الله عليه، وعناية سابقة، وهي سبب حِفْظِهِ وتحليه بِخِلَعِ كوامل الأوصاف، فليشهدْ ذلك، ولا يأتل على من لم يجد ذلك، حتى وقع فيما وقع من القذف، بل يعذره، ويرى مِنَّةَ اللهِ عليه في كونه نَزَّهَهُ بعنايته من الوقوع في مثل ذلك، مع كون المحل قابلاً، ولكن الله خَصَّصَهُ. هـ.

قال الورتجبي على قوله: ﴿ولا يأتل..﴾ الخ: في الآية بيانُ وتأديبُ الله للشيوخ والأكابر ألاَّ يهجروا صاحب العثرات والزلات، من المريدين، ويتخلقوا بخلق الله، حيث يغفر الذنوب العظام ولايبالي، وأَعْلَمَهُمْ ألاَّ يَكُفُّوا أعطافهم عنهم. ثم قال: فَإِنَّ مَنْ لَهُ اسْتِعْدَادٌ لا يَحْتَجِبُ بِعَوَارِضِ البَشَرِيَّةِ عَنْ أَحْكَامِ الطَّرِيقَةِ أبداً. هـ.

ثم ذكر وبال القاذفين لعائشة – رضي الله عنها – أو لغيرها، فقال:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡغَٰفِلَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٢٣﴾ يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوۡمَئِذٖ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلۡحَقَّ وَيَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ ٱلۡمُبِينُ ﴿٢٥﴾ ﴾

قلت: «يوم تشهد»: ظرف للاستقرار، في «لهم»، أو: معمول لاذكر.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ إن الذين يرمون ﴾؛ يقذفون ﴿ المحصَنَات ﴾؛ العفائف مما رُمين به من الفاحشة، ﴿ الغافلاتِ ﴾ عنها على الإطلاق، بحيث لم يخطر ببالهن شيء منها ولا من مقدماتها، أو السليمات

الصدور، النقيات القلوب، اللاتى ليس فيهن دهاء ولا مكر؛ لأنهن لم يُجربن الأمور، ﴿ المؤمنات ﴾؛ المتصفات بالإيمان بكل ما يجب الإيمان به، إيماناً حقيقياً لا يُخالجه شيء مما يكدره. عن ابن عباس: هنّ أزواج النبى ﷺ، وقيل: جميع المؤمنات؛ إذ العبرة بعموم اللفظ لابخصوص السبب. وقيل: أريدت عائشة وحدها، وإنما جمع؛ لأن من قذف واحدة من أزواج النبى ﷺ فكأنه قذفهنّ.

ثم ذكر الوعيد، فقال: ﴿ لُعنوا في الدنيا والآخرة ﴾، حيث يلعنهم اللاعنون من المؤمنين والملائكة أبدا، ﴿ ولهم ﴾ مع ذلك ﴿ عذابٌ عظيم ﴾، هائل لايُقادَرُ قَدْرُهُ؛ لعظم ما اقترفوه من الجناية، إن لم يتوبوا، فيعذبون.

﴿ يوم تشهدُ عليهم ألسنتُهم وأيديهم وأرجلُهم بماكانوا يعملون ﴾ أى: بما أفكوا وبهتوا ﴿ يومئذٍ يُوفّيهم اللهُ دينَهُم ﴾ أى: يوم تشهد جوارحهم بأعمالهم القبيحة يُوفيهم اللهُ جزاءهم ﴿ الحقَّ ﴾ أى: الثابت الذى يحق أن يثبت لهم لا محالة، أو الذى هم أهله، والحق: صفة لدينهم، أو لله، ونصب على المدح. ﴿ ويَعْلَمُونَ ﴾ عند ذلك ﴿ أن الله هو الحقُّ ﴾ الثابت الواجب الوجود ﴿ المبين ﴾؛ الظاهر البين؛ لارتفاع الشكوك، وحصول العلم الضرورى؛ لارتفاع الغطاء بظهور ما كان وعداً غيباً.

ولم يُغَلِظ الله تعالى فى القرآن فى شيء من المعاصى تَغْلِيظَهُ فى إفك عائشة - رضى الله عنها - فأوجز فى ذلك وأشْبَعَ، وفصّل، وأجمَلَ، وأكّدَ، وكرّرَ، وما ذلك إلا لأمر عظيم.

وعن ابن عباس رضي الله عنه: (من أذنب ذنباً وتاب قُبلت توبته، إلا مَن خاض فى أمر عائشة - رضى الله عنها)[1]، وهذا منه مبالغةٌ وتعظيم لأمر الإفك، وقد برأ الله تعالى أربعة؛ برأ يوسف بشاهدٍ من أهلها، وموسى عليه السلام من قول اليهود فيه: أنه آدر، بالحجر الذى ذهب بثوبه، ومريم بنطق ولدها، وعائشة بهذه الآى العظام فى كتابه المعجز، المتلوّ على وجود الدهر، بهذه المبالغات. فانظر: كم بينها وبين تبرئة أولئك؟! وما ذلك إلا لإظهار علوّ منزلة رسوله، والتنبيه على إنَافَةِ محله[2] ﷺ.

وقد رام بعضُ النصارى الطَّعْنَ على المسلمين بقضية الإفك، فقال: كيف تبقى زوجة نبيكم مع رجل أجنبى؟ فقال له، من كان يناظره من العلماء: قد برأها من برأ أُمّ نبيكم، فبُهت الذى كفر. والله تعالى أعلم.

الإشارة: قد مدح الله تعالى أزواجَ النبى ﷺ بثلاثة أوصاف، هى من أكمل الأوصاف: العفة، والتغافل، وتحقيق الإيمان؛ أما العفة: فهى حفظ القلب من دخول الهوى، والجوارح من معاصى المولى، وأما التغافل: فهو

(١) عزاه الهيثمى فى المجمع (٦/ ٨٠) للطرانى بأسانيد.

(٢) أى: علو مقامه وارتفاعه.

الغيبة عما سوى الله، والتغافل عن مساوئ الناس. وفي الحديث: «المؤمن ثلثاه تغافل». وقال أيضا ﷺ: «المؤمن غِرٌّ كَرِيمٌ، والمنافقُ خَبٌّ لَئِيمٌ»(١) وأما تحقيق الإيمان فيكون بالتفكر والاعتبار، وبصحبة الصالحين الأبرار، ثم يصير الإيمان ضرورياً بصحبة العارفين الكبار.

قال القشيري: قوله تعالى: ﴿ ويعلمون أن الله هو الحق المبين ﴾: تصير المعارف ضروريةً، فيجدون المعافاة في النظر والتذكر، ويستريح القلبُ من وَصْفَي تَرَدُّدِه وتَغَيُّرِه، باستغنائه بِبَصَرِه عن تبصره. ويقال: لا يشهدون هذا إلا بالحق، فهم قائمون بالحق للحق مع الحق، يُبدى لهم أسرارَ التوحيد وحقائقه، فيكون القائمَ فيهم والآخذَ لهم عنهم، من غير أن يردهم عليهم. هـ. وبالله التوفيق.

ثم برهن على نزاهة أهل البيت النبوي بقوله:

﴿ ٱلْخَبِيثَـٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَـٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَـٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَـٰتِ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ الخبيثاتُ ﴾ من النساء ﴿ للخبيثين ﴾ من الرجال، ﴿ والخبيثون ﴾ من الرجال ﴿ للخبيثات ﴾ من النساء. وهذه قاعدة السنة الإلهية، أن الله تعالى يسوق الأهل للأهل، فمن كان خبيثاً فاسقاً يُزوجه الله للخبيثة الفاسقة مثله، ومن كان طيباً عفيفاً رزقه الله طيبة مثله. وهو معنى قوله تعالى: ﴿ والطيباتُ ﴾ من النساء ﴿ للطيبين ﴾ من الرجال ﴿ والطيبون ﴾ من الرجال، ﴿ للطيباتِ ﴾ من النساء، فهذا هو الغالب.

وحيث كان ـ عليه الصلاة والسلام ـ أطيب الأطيبين، وخيرة الأولين والآخرين، تبين كون الصديقة – رضى الله عنها – من أطيب الطيبات، واتضح بطلان ما قيل فيها من الخرافات، حسبما نطق به قوله تعالى: ﴿ أولئك مبرءون مما يقولون ﴾، على أن الإشارة إلى أهل البيت، المنتظمين في سلك الصِّدِّيقِيَّةِ انتظاماً أولياً، وقيل: إلى رسول الله ﷺ والصدِّيقة وصفوان، وما في اسم الإشارة من معنى البُعد، للإيذان بعلو رتبة المشار إليهم، وبُعْدِ منزلتهم في الفضل، أي: أولئك الموصوفون بعلو الشأن: مبرؤون مما يقوله أهله الإفك في حقهم من الأكاذيب الباطلة.

وقيل: (الخبيثات) من القول تقال (للخبيثين) من الرجال والنساء، أي: لائقة بهم، لا ينبغي أن تقال إلا لهم. (والخبيثون) من الفريقين أحِقَّاءُ بأن يُقَالَ في حقهم خبائث القول. (والطيبات) من الكلم (للطيبين) من الفريقين،

---

(١) أخرجه الترمذي في (البر، باب ما جاء في البخيل، ح ١٩٦٥)، وأبو داود في (الأدب، باب في حُسْنِ العشرة ح ٤٧٩٠)، والبيهقي في السنن (١٠/ ٩٥)؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، بلفظ: «الفاجر»، بدل «المنافق».

مختصة بهم، وهم أحقاء بأن يقال فى شأنهم طيبات الكلم. ﴿ أولئك ﴾ الطيبون ﴿ مبرؤون ﴾ مما يقول الخبيثون فى حقهم. فمآله تنزيه الصديقة أيضاً. وقيل: الخبيثات من القول لاتصدر إلا من الخبيثين، والطيبات من الكلمات لاتصدر إلا من الطيبين، وهم مبرؤون مما يقوله أهل الخبث، لايقع ذلك منهم ألبتة. ﴿ لهم مغفرة ﴾ لما لا يخلو عنه البشر من الذنب، ﴿ ورزق كريم ﴾ ؛ هو نعيم الجنان.

دخل ابن عباس رضي الله عنه على عائشة - رضى الله عنها - فى مرضها، وهى خائفة من القدوم على الله عز وجل، فقال: لا تخافى، فإنك لا تقدمين إلا على مغفرة ورزق كريم، وتلى الآية، فغشي عليها: فرحاً بما تلا. وقالت رضى الله عنها - : (قد أُعْطِيتُ تسعاً ما أُعْطِيَتهنَّ امرأة: نزل جبريل بصورتى فى راحته، حين أمر - عليه الصلاة والسلام - أن يتزوجنى، وتزوجنى بكراً، وما تزوج بكراً غيرى، وتوفى - عليه الصلاة والسلام - ورأسه فى حِجْرى، وقبره فى بيتى، وينزل عليه الوحي وأنا فى لحافه، وأنا ابنة خليفته وصديقه، ونزل عذرى من السماء، وخُلقت طيبة عند طيب، ووُعدت مغفرةً ورزقاً كريما)(١).

الإشارة: الأخلاق الخبيثة؛ مثل الكبر، والعجب، والرياء، والسمعة، والحقد، والحسد، وحب الجاه والمال، للخبيثين، والخبيثون للخبيثات، فهم متصفون بها، وهي لازمة لهم، إلا أن يَصْحَبوا أهلَ الصفاء والتطهير، فيتطهرون بإذن الله، والأخلاق الطيبات؛ كالتواضع، والإخلاص، وسلامة الصدور، والزهد، والورع، والسخاء، والكرم، وغير ذلك من الأخلاق الطيبة، للطيبين، والرجال الطيبون للأخلاق الطيبات. أولئك مبرءون مما يقول أهل الإنكار فيهم، لهم مغفرة؛ ستر لعيوبهم، ورزق كريم لأرواحهم؛ من قوت اليقين، وشهود رب العالمين. وبالله التوفيق.

ولمّا كان سبب الإفك هو تهمة الخلوة، أمر بالاستئذان، فقال:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟ ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾ لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَـٰعٌ لَّكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾

(١) هذه المناقب ثابتة بأحاديث صحيحة. انظرها فى جامع الأصول لابن الأثير (١٣٢/٩ ـ ١٤٣) والدر المنثور للسيوطى (٥٨/٥).

يقول الحق جل جلاله: ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم ﴾ أى: بيوتاً لستم تملكونها ولا تسكنونها، ﴿ حتى تستأنسوا ﴾؛ تستأذنوا، وقُرئ به، والاستئناس: الاستعلام والاستكشاف، استفعال، من أنَس الشيء: أبصره، فإن المستأذن مستعلم للحال، مستكشف له، هل يؤذن له أم لا، ويحصل بذكر الله جهراً، كتسبيحة أو تكبيرة. أو تَنَحنُح، ﴿ وتُسلِّموا على أهلها ﴾، بأن يقول: السلام عليكم، أأدخُلُ؟ ثلاث مرات، فإذا أُذن له، وإلا رجع، فإن تلاقيا، قدّم التسليم، وإلا، فالاستئذان. ﴿ ذلكم ﴾ أى: التسليم ﴿ خيرٌ لكم ﴾ من أن تدخلوا بغتة، أو من تحية الجاهلية.

كان الرجل منهم إذا أراد أن يدخل بيتاً غير بيته يقول: حُييتم صباحاً، حييتم مساءاً، فربما أصاب الرجلَ مع امرأته فى لحاف. رُوى أن رجلاً قال للنبى ﷺ: أأستأذنُ على أمي؟ قال : نَعَم، قال: ليس لها خادم غيرى، أأستاذن عليها كلما دخلْتُ؟ قال ﷺ: « أتحبُّ أن تراها عريانة..؟»(١). ﴿ لعلكم تذكَّرون ﴾ أى: أمرتكم به، أو: قيل لكم هذا؛ لكى تتعظوا وتعملوا بموجبه.

﴿ فإن لم تجدوا فيها ﴾؛ فى البيوت ﴿ أحداً ﴾ ممن يستحق الإذن، من الرجال البالغين، وأما النساء والولدان فوجودهم وعدمهم سواء(٢). ﴿ فلا تدخلوها ﴾، على أن مدلول الآية هو النهى عن دخول البيوت الخالية؛ لما فيه من الاطلاع على ما يعتاد الناس إخفاءه، وأما حرمة دخول ما فيه النساء والولدان فمن باب الأولى؛ لما فيه من الاطلاع على الحريم وعورات النساء. فإن لم يُؤذن لكم فلا تدخلوا، واصبروا ﴿ حتى يُؤْذَنَ لكم ﴾ من جهة من يملك الإذن، أو: فإن لم تجدوا فيها أحداً من أهلها، ولكم فيها حاجة فلا تدخلوها إلا بإذن أهلها؛ لأن التصرف فى ملك الغير لابد أن يكون برضاه.

﴿ وإن قيل لكم ارجِعُوا ﴾ أى: إذا كان فيها قوم، وقالوا: ارجعوا ﴿ فارجعوا ﴾ ولاتُلحُّوا فى طلب الإذن، ولاتقِفُوا بالأبواب، ولا تخرقوا الحجاب؛ لأن هذا مما يُوجب الكراهية والعداوة، وإذا نهى عن ذلك؛ لأدائه إلى

---

(١) الحديث أخرجه مالك فى الموطأ (الاستئذان، باب الاستئذان)، وأبو داود فى مراسيله (باب الاستئذان) وابن جرير فى التفسير (١١١/١٨)، عن عطاء بن يسار، مرسلاً، وأخرجه ابن أبى شيبة فى المصنف (النكاح ٣٩٨/٤)، عن زيد بن أسلم؛ مرسلاً، أيضاً.

(٢) هذا الرأى، غير مسلم به، فالنساء، قطعاً، يدخلن تحت مفهوم «أحد»، وكذلك الولدان المميزون، فكيف نقول: وجودهم وعدمهم سواء؟ ثم إنه من الثابت في السنة الصحيحة أنه يجوز الدخول على المغيَّبة [أى: التى زوجها غائب فى سفر أو غزو، أو نحو ذلك.] فيجوز الدخول عليها بشرط وجود رجلين أو ثلاثة فما أكثر، والدخول يحتاج إلى استئناس واستئذان.. الخ. فدَلّ هذا على أن كلام المفسر، هو رأى خاص به، وليس حكماً شرعيا.

الكراهة؛ وجب الانتهاء عن كل ما أدى إليها؛ من قرع الباب بعنف، والتصييح بصاحب الدار، وغير ذلك. وعن أبي عبيد: «ما قرعت باباً على عالم قط». فالرجوع ﴿هو أزكى لكم﴾ أي: أطيب لكم وأطهر؛ لما فيه من سلامة الصدور والبُعد عن الريبة، والوقوفُ على الأبواب من دنس الدناءة والرذالة. ﴿والله بما تعملون عليم﴾؛ فيعلم ماتأتون وما تذرون مما كلفتموه، فيجازيكم عليه. وهو وعيد للمخاطبين.

﴿ليس عليكم جُناحٌ﴾ في ﴿أن تدخلوا بيوتاً غير مسكونةٍ﴾ أي: غير موضوعة لسكنى طائفة مخصوصة، بل يتمتع بها مَنْ يُضطر إليها، من غير أن يتخذها مسكناً؛ كالرُّبُط، والخانات، والحمامات، وحوانيت التجار. ﴿فيها متاعٌ لكم﴾ أي: منفعة؛ كاستكنانٍ من الحر والبرد، وإيواء الرجال والسلع، والشراء والبيع، والاغتسال، وغير ذلك، فلا بأس بدخولها بغير استئذان. روى أن أبا بكر رضي الله عنه قال: يارسول الله، إن الله قد أنزل عليك آية في الاستئذان، وإنا لنختلفُ في تجارتنا إلى هذه الخانات، فلا ندخلها إلا بإذن؟ فنزلت(١). وقيل: هي الخرابات، يُتبرَّز فيها، ويقضون فيها حاجتهم من البول وغيره، والظاهر: أنها من جملة ما ينتظم في البيوت، لا أنها المرادة فقط. ﴿والله يعلم ما تُبدون وما تكتمون﴾، وعيد لمن يدخل مدخلاً من هذه المداخل؛ لفسادٍ أو اطلاعٍ على عورات. والله تعالى أعلم.

الإشارة: التصوف كله آداب، حتى قال بعضهم: اجعل عملك مِلْحاً وأدبك دقيقاً. فيتأدبون بالسنَّة في حركاتهم وسكناتهم، ودخولهم وخروجهم، فهم أولى بالأدب، فيستأذنون كما أمر الله عند دخول منزلهم؛ برفع صوتهم بذكر الله، أو بالتسبيح، أو بالسلام قبل الدخول. وكذا عند دخول منزل غيرهم، أو منزل بعضهم بعضا. وأما مع الشيخ: فالأدب هو الصبر حتى يخرج، تأدباً بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾(٢)، فلا يقرعون بابه، ولا يطلبون خروجه إلا لضرورة فادحة.

ولمَّا كان الاستئذان إنما شُرع من أجل النظر، أمر بغض البصر، فقال:

﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ

---

(١) ذكره الواحدي في أسباب النزول، (ص ٣٣٤)، ونسبه للمفسرين. وعزاه الألوسي في تفسيره (١٣٧/٩) لابن أبي حاتم عن مقاتل.
(٢) الآية ٥ من سورة الحجرات.

زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُواْ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ... ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ قل للمؤمنين ﴾، ويندرج فيهم المستأذنون بعد دخولهم البيوت اندراجاً أوّلياً، أي: قل لهم: ﴿ يغضُّوا مِنْ أبصارهم ﴾، و«من»: للتبعيض، والمراد: غض البصر عما يحرم، والاقتصار على ما يحل. ووجه المرأة وكفاها ليس بعورة، إلا خوف الفتنة، فيحل للرجل الصالح أن يرى وجه الأجنبية بغير شهوة. وفي الموطأ: هل تأكل المرأة مع غير ذي محرم، أو مع غلامها؟ قال مالك: لا بأس بذلك، على وجه مايُعرف للمرأة أن تأكل معه من الرجال، وقد تأكل المرأة مع زوجها ومع غيره ممن يؤاكله. هـ. وقال ابن القطان: فيه إباحة إبداء المرأة وجهها ويديها للأجنبي، إذ لا يتصور الأكل إلا هكذا، وقد أبقاه الباجي على ظاهره، وقال عياض: ليس بواجب أن تستر المرأة وجهها، وإنما ذلك استحباب أو سنَّة لها، وعلى الرجل غض بصره. ثم قال في الإكمال: ولا خلاف أن فرض ستر الوجه مما اختص به أزواج النبي ﷺ. هـ.

﴿ و ﴾ قل لهم أيضا: ﴿ يحفظوا فُرُوجَهُم ﴾، إلا على أزواجهم، أو ما ملكت إيمانهم، وتقييد الغض بمن التبعيضية، دون حفظ الفروج؛ لما في النظر من السَّعَة، فيجوز النظر إلى وجه الأجنبية وكفيها وقدميها، وإلى رأس المحارم والصدور والساقين والعضدين. قاله النسفي. قلت: ومذهب مالك: حرمة نظر الساقين والعضدين من المحرَم، فإن تعذر التحرر منْهُ، كشغل البنات في الدار، باديات الأرجلِ، فليتمسك بقول الحنفي، إن لم يقدر على غض بصره. قاله شيخنا الجنوي.

﴿ ذلك أزْكَى لهم ﴾ أي: أطهر لهم من دَنَسِ الإثم أو الريبة، ﴿ إن الله خبير بما يصنعون ﴾، وفيه ترغيب وترهيب، يعني: أنه خبير بأحوالهم وأفعالهم، فكيف يجيلون أبصارهم، وهو يعلم خائنة الأعين وما تُخفي الصدور؟! فعليهم، إذا عرفوا ذلك، أن يكونوا منه على حذَر.

﴿ وقُلْ للمؤمنات يَغْضُضْنَ من أبصارهن ﴾ ؛ بالتستر والتصون عن الزنا، فلا تنظر إلى ما لا يحل لهن النظر إليه من عورات الرجال والنساء، وهي من الرجل: ماعدا الوجه والأطراف، ومن النساء: ما بين السرة والركبة، فلا يحل للمرأة أن تنظر الى الرجل ما سوى الوجه والأطراف، أو بشهوة . وقيل: إن حصل الأمن من الشهوة جاز، وعليه يحمل نظر عائشة إلى الحبشة.

﴿ ويَحْفَظْنَ فُروجَهُنَّ ﴾ من الزنا والمساحقة. وإنما قدّم غض البصر على حفظ الفروج؛ لأن النظر بريد الزنا، ورائد الفجور، فَبَذْرُ الهوى طُمُوحُ العَيْنِ. ﴿ ولايُبْدِينَ زينَتَهُن ﴾ ؛ كالحُلي، والكحل، والخِضاب، والمراد بالزينة: مَوَاضِعُها، فلا يحل للمرأة أن تظهر مواضع الزينة، كانت مُتَحَلّيَةً بها أم لا، وهي: الرأس، والأُذن، والعنق، والصدر، والعضدان، والذراع، والساق. والزينة هي: الإكليل، والقرط، والقلادة، والوِشاح، والدملج، والسوار، والخلخال. ﴿ إلا ما ظهرَ منها ﴾ ؛ إلا ماجرت العادة بإظهارها، وهو الوجه والكفان، إلا لخوف الفتنة، زاد أبو حنيفة: والقدمين، ففي ستر هذه حرج؛ فإن المرأة لاتجد بُدّاً من مزاولة الأشياء بيديها، ومن الحاجة إلى كشف وجهها، خصوصاً في الشهادة والمحاكمة والنكاح، وتضطر إلى المشي في الطرقات، وظهور قدميها، ولاسيما الفقيرات منهن. قاله النسفي.

﴿ ولْيَضْرِبْنَ بخُمُرِهِنَّ على جُيُوبهِنَّ ﴾ أي: ولْيَضَعْنَ خُمُرَهُنَّ، جمع خمار، وهو ما يستر الرأس، ﴿ على جيوبهن ﴾ ، وهو شَقُّ القميص من ناحية الصدر، وكانت النساء على عادة الجاهلية يَسْدِلْنَ خُمُرَهُنَّ مِنْ خَلْفِهِنَّ، فتبدو نحورُهن وقلائدهُن من جيوبهن، وكانت واسعةً، يبدو منها صدورهن وما حواليها، فأُمِرْنَ بإسدال خُمُرِهن على جيوبهن؛ ستراً لما يبدو منها. وقد ضمّنَ الضَّرْبَ معنى الإلقاء والوضع، فَعُدِّيَ بعلى.

﴿ ولا يُبدين زينتهنَّ ﴾ أي: مواضع الزينة الباطنة؛ كالصدر، والرأس، ونحوهما، كرره: ليستثنى منه مارخص فيه، وهو قوله: ﴿ إلا لِبُعُولَتِهِنَّ ﴾ ؛ لأزواجهن، فإنهم المقصودون بالزينة. ولهم أن ينظروا إلى جميع بدنهن حتى الفرج، ﴿ أو آبائِهنَّ ﴾ ، ويدخل فيهم الأجداد، ﴿ أو آباء بُعُولَتِهنَّ ﴾ ؛ فقد صاروا محارم، ﴿ أو أبنائهن ﴾ ، ويدخل فيهم الأحفاد، ﴿ أو أبناء بُعولتِهِنَّ ﴾ ؛ لأنهم صاروا محارم أيضا، ﴿ أو إخوانهن ﴾ الشقائق،

أو لأب، أو لأم، ﴿أو بني إخوانهن أو بني أخَوَاتِهِنَّ﴾ وإن سفلوا، ويدخل سائر المحارم، كالأعمام، والأخوال، وغيرهم؛ لكثرة المخالطة وقلة توقع الفتنة من قِبَلِهم، فإن تحققت؛ حيل بينهم، وعدم ذكر الأعمام والأخوال، لأن الأحوط أن يُسْتَرْنَ عنهم؛ حذراً من أن يَصِفُوهُنَّ لأبنائهم، ﴿أو نسائهنَّ﴾؛ يعني جميع المؤمنات؛ فكأنه قال: أو صنفهن؛ ويخرج من ذلك نساء الكفار؛ لئلا يَصِفْنَهُنَّ إلى الرجال، ﴿أو ما ملكت أيمانُهنّ﴾، يعني: الإماء المؤمنات أو الكتابيات، وأما العبيد ففيهم ثلاثة أقوال: منع رؤيتهم لسيدتهم، وهو قول الشافعي، والجواز، وهو قول ابن عباس وعائشة، والجواز بشرط أن يكون العبد وَغْداً(١)، وهو قول مالك.

قال البيضاوي: رُوِى أنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ أتى فَاطِمَةَ بعبد، وَهَبَهُ لها، وعليها ثوب إذا قَنَّعَتْ به رأسها لم يبلغ رجليها، وإذا غطّت رجليها لم يبلغ رأسها، فقال - عليه الصلاة والسلام: «إنه ليس عليك بأسٌ، إنما هو أبوكِ وغلامُك». فانـظر من أخرجه(٢). واختلف: هل يجوز أن يراها عبد زوجها، وعبد الأجنبي، أم لا؟ على قولين.

﴿أو التابعين غير أُولي الإرْبة من الرجالِ﴾ أي: الذين يتبعونكم ليصيبوا من فضل طعامكم، أو لخدمة، أو لشيء يُعْطَاهُ، كالوكيل والمتصرف. وقال بعضهم: هو الذي يتبعك وَهَمُّهُ بطْنُهُ، ويشترط ألا تكون له إرِبةٌ، أي: حاجة وشهوة إلى النساء؛ كالخَصِيِّ، والمُخَنَّثِ، والشيخ الهَرِم، والأحمق، فلا تجوز رؤيتهم إلا باجتماع الشرطين: أن يكونوا تابعين، ولا إربة لهم في النساء. ﴿أو الطفل الذين لم يَظْهَرُوا على عَوْراتِ النساءِ﴾، أراد بالطفل: الجنس، ولذلك وصفه بالجمع، ويقال فيه: «طفل» ما لم يراهق الحلُمْ. و(يظهروا) معناه: يطلعون بالوطء على عورات النساء، مِنْ: ظهر على كذا: إذا قوى عليه، فمعناه: الذين لم يطيقوا وطء النساء، أو: لا يدرون ما عورات النساء؟

﴿ولاَيضْرِبنَ بأرجُلهِنَّ ليُعْلَمَ ما يُخفينَ من زِينَتِهِنَّ﴾، كانت المرأة تضرب برجلها الأرض ليسمع قعقعة خلخالها، فيعلم أنها ذات خَلْخال، فنُهين عن ذلك؛ إذ سَمَاعُ صوْتِ الزينة كإظهارها، فيورث ميل الرجال إليهن. ويوهم أن لهن ميلاً إليهم. قال الزجاج: سماع صوت الزينة أشد تحريكاً للشهوة من إبدائها. هـ.

(١) الوغد: الصبي. وخادم القوم، والجمع: أوغاد، ووُغْدان، ووِغدان.. انظر اللسان (وغد).
(٢) أخرجه أبو داود في (اللباس، باب في العبد ينظر إلى شعر مولاته، ح ٤١٠٦)، والبيهقي (٩٥/٧) من حديث أنس رضي الله عنه.

الإشارة: غض البصر عما تُكره رؤيته: من أسباب جمع القلب على الله وتربية الإيمان. وفي الحديث: «من غض بصره عن محارم الله، عوضه الله إيماناً يجد حلاوته في قلبه»(١) . وفي إرسال البصر: مِنْ تشتيت القلب، وتفريق الهم، مالا يخفى، وفي ذلك يقول الشاعر:

وَإِنَّكَ، إِنْ أَرْسَلْتَ طَرْفَكَ رَائِداً ... لِقَلْبِكَ، يَوْماً، أَتْعَبَتْكَ الْمَناظِرُ
تَرَى، مَالاَ كُلُّهُ أَنْتَ قَادِرٌ ... عَلَيْهِ، وَلاَعَنْ بَعْضِهِ أَنْتَ صَابِرُ

فالعباد والزهاد يغضون بصرهم عن بهجة الدنيا، والعارفون يغضون بصرهم عن رؤية السِّوَى، فلا يرون إلا تجليات المولى. قال الشبلي: (قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم) أي: أبصار الرؤوس عن المحارم، وأبصار القلوب عما سِوَى الله. هـ.

وقوله تعالى: ﴿ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها﴾، قال بعضهم: لا يجوز كل ما يستدعي فِتْنَةَ للغير؛ من إظهار حال مع الله، مما هو زينة السريرة، فلا يظهر شيئاً من ذلك إلا لأهله، إلا إذا ظهر عليه شيء من غير إظهار منه، ولا قصدٍ غير صالح. هـ. فلا يجوز إظهار العلوم التي يفتتن بها الناس؛ من حقائق أسرار التوحيد، ولا من الأحوال التي تُنكرها الشريعة، فيُوقِعُ النّاسَ في غيبته. وأما قَضِيَّةُ لِصِّ الحَمّامِ(٢)؛ فحال غالبة لايقتدى بها. والله تعالى أعلم.

ثم أمر بالتوبة؛ لأن النظر لايسلم منه أحد في الغالب، فقال:

﴿... وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿وتوبوا إلى الله جميعا أَيُّهَ المؤمنون﴾؛ إذ لا يكاد يخلو أحدكم من تفريط، ولَاسيما في الكف عن الشهوات، وقيل: توبوا مما كنتم تفعلونه في الجاهلية، فإنه، وإن جُبَّ بالإسلام، لكن يجب الندم عليه، والعزم على الكف عنه، كلما يَتَذَكَّرُ، ويَخْطُرُ بالبال. وفي تكرير الخطاب بقوله: ﴿أيه المؤمنون﴾: تأكيد للإيجاب، وإيذان بأن وصف الإيمان موجب للامتثال، حَتْماً. قيل: أحوج الناس إلى التوبة من توهم أنه ليس

---

(١) ورد «ما من مسلم ينظر إلى محاسن امرأة ثم يغض بصره إلا أحدث الله له عبادة يجد حلاوتها في قلبه» أخرجه أحمد (٥/٢٦٤) عن أبي أمامة رضي الله عنه.

وأخرج الحاكم (٤/٣١٤) عن ابن مسعود مرفوعاً: «النظرة سهم مسموم من سهام إبليس، من تركها من مخافتي أبدلته إيماناً يجد حلاوته في قلبه».

(٢) راجع قصة لص الحمّام عند التعليق على إشارة الآية ٢٦٧ من سورة البقرة. (١/٣٠١)

له حاجة إلى التوبة. وظاهر الآية: أن العصيان لاينافي الإيمان، فبادروا بالتوبة ﴿ لعلكم تُفلحون ﴾؛ تفوزون بسعادة الدارين. وبالله التوفيق.

الإشارة: التوبة أساس الطريق، ومنها السير إلى عين التحقيق، فَمَنْ لاَ تَوْبَةَ لَهُ لا سَيْرَ لَهُ، كمن يبنى على غير أساس. والتوبة يَحْتَاجُ إليها المبتدئ والمتوسط والمنتهى، فتوبة المبتدئ من المعاصى والذنوب، وتوبة السائر: من الغفلة ولوث العيوب، وتوبة المنتهى: من النظر إلى سوى علام الغيوب.

قال ابن جزي: التوبة واجبة على كل مكلف، بدليل الكتاب والسنة وإجماع الأمة. وفرائضها ثلاثة: الندم على الذنب؛ من حيث عُصِيَ به ذو الجلال، لا من حيث أضر ببدن أو مال. والإقلاع عن الذنب فى أول أوقات الإمكان، من غير تأخير ولا توان، والعزم ألا يعود إليها أبدا. ومهما قضى الله عليه بالعود، أحْدَثَ عزْماً مُجدَّداً. وآدابها ثلاث: الاعتراف بالذنب، مقروناً بالانكسار، والإكثار من التضرع والاستغفار، والإكثار من الحسنات لمحو ما تقدم من الأوزار. ومراتبها سبع: فتوبة الكفار من الكفر، وتوبة المُخَلِّطِينَ من الذنوب الكبائر، وتوبة العدول من الصغائر، وتوبة العابدين من الفترات، وتوبة السالكين من عِلَلِ القلوب والآفات، وتوبة أهل الورع من الشبهات، وتوبة أهل المشاهدة من الغفلات. والبواعث على التوبة سبعة: خوف العقاب، ورجاء الثواب، والخجل من الحساب، ومحبة الحبيب، ومراقبة الرقيب، وتعظيم المقام، وشكر الإنعام. هـ.

ثم أمر بالنكاح؛ لأنه أغض للبصر، فقال:

﴿ وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٣٢) وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ... ﴾

قلت: الأيامى: جَمْعُ أَيِّم، وأصله: أيايم، فقلبت الياء؛ لآخر الكلمة، ثم قلبت ألفاً، فصارت أيامى. والأيم: من لازَوْجَ له من الرجال والنساء.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وأنْكِحُوا ﴾ أى: زَوِّجُوا ﴿ الأيامى منكم ﴾ أى: مَنْ لازوج له من الرجال والنساء، بكراً كان أو ثيباً. والمعنى: زوجوا من لازوج له من الأحرار والحرائر. والخطاب للأولياء والحكام، أمرهم بتزويج الأيامى، فاقتضى ذلك النهى عن عضلهن. وفى الآية دليل عدم استقلال المرأة بالنكاح، واشتراط الولى فيه، وهو مذهب مالك والشافعي، خلافاً لأبى حنيفة.

﴿ والصالحين ﴾ أى: الخيرين، أو: مَنْ يصلح للتزوج، ﴿ من عبادكم وإمائكم ﴾ أى: من غلمانكم وجواريكم، والأمر: للندب؛ إذ النكاح مندوب إليه، والمخاطبون: ساداتهم. ومذهب الشافعي: أن السيد يُجبَر على تزويج عبيده، لهذه الآية، خلافاً لمالك، ومذهب مالك: أن السيد يَجْبُر عبده على النكاح، خلافاً للشافعي. واعتبار الصلاح فى الأرقاء؛ لأن مَنْ لاصَلاَحَ له بمعزلٍ من أن يكون خليقاً بأن يَعْتَنِيَ مولاه بشأنه، وأيضاً: فالتزويج يحفظ عليه صَلاَحَهُ الحاصل، وأما عدم اعتبار الصلاح فى الأحرار والحرائر؛ لأن الغالب فيهم الصلاح، على أنهم مستبدون بالتصرف فى أنفسهم وأموالهم، فإذا عزموا النكاح فلابد من مساعدة الأولياء لهم.

وقيل: المراد بالصلاح: صلاحهم للتزوج، والقيام بحقوقهم، فإن ضَعُفُوا؛ لم يُزَوّجُوا. ونفقة العبد على سيده؛ إن زَوّجَه، أو أذن له، وإلا خَيَّر فيه.

ثم قال تعالى: ﴿ إن يكونوا فقراءَ ﴾ من المال ﴿ يُغْنِهِمُ اللهُ من فضله ﴾ بالكفاية والقناعة، أو باجتماع الرزقين. وفى الحديث: «التمسوا الرزق بالنكاح»(١)، وقال ابن عجلان: إن رجلا أتى النبى ﷺ فشكا إليه الحاجة، فقال: «عليك بالباءة»، أى: التزوج. وكذلك قال أبوبكر وعمر وعثمان لمن شكى إليهم العَيْلَةَ، متمسكين بقوله تعالى: ﴿ إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله والله واسع عليم ﴾، فبسط الرزق لمن يشاء ويقدر، حسبما تقتضيه المشيئة والحكمة والمصلحة. فالغِنَى، للمتزوج، مقيد بالمشيئة، فلا يلزم الخلف بوجود من لم يستغن مع التزوج، وقيل: مقيد بحسن القصد، وهو مغيب. والله تعالى أعلم.

الترغيب في النكاح: قال ﷺ: «تناكحوا تكثروا، فإني أباهى بكم الأمم حتى بالسقط»(٢). وقال ﷺ: «من أحب فطرتى فليستن بسنتى، وهى النكاح، فإن الرجل يُرفعُ بدعاء ولده من بعده»(٣). وقال سمرة رضي الله عنه: (نهى النبى ﷺ عن التبتل). وقال - عليه الصلاة والسلام: «من كان له ما يتزوج به، فلم يتزوج، فليس منا»(٤) وقال عليه الصلاة والسلام: «من أدرك له ولد، وعنده ما يزوجه به، فلم يزوجه، فأحدث، فالإثم بينهما». وقال

---

(١) أخرجه الديلمى (الفردوس ح ٢٨٢) من حديث ابن عباس، وعزاه المناوى فى الفتح السماوى (٢/ ٨٧) للثعلبى، بسند فيه لِينٌ. وانظر كشف الخفاء (١/ ١٧٧).

(٢) أخرجه عبدالرزاق فى المصنف (٦/ ١٧٣) عن سعيد بن أبى هلال، مرسلاً، وانظر كشف الخفاء (١/ ٣٨٠).

(٣) أخرجه - دون العبارة الأخيرة - البيهقى فى الكبرى (٧/ ٧٨) وعبدالرزاق فى المصنف (٦/ ١٦٩) وسعيد بن منصور فى السنن (١/ ١٣٨) عن عبيد بن سعد.

(٤) أخرجه البيهقى فى الشعب (٥٤٨١ - ٥٤٨٢)، عن أبى نجيح مرسلاً. بلفظ: «من كان مُوسِراً لأن ينكح، ثم لم ينكح، فليس منى».

أبو هريرة: لو لم يبق من الدنيا إلا يوم واحد للقيت الله بزوجة، سمعت النبى ﷺ يقول: «شراركم عُزَّابُكُم، إذا تزوج أحدكم عجَّ شيطانه: يا ويله عَصَمَ ابنُ آدَمَ ثلثى دِينِهِ» . وقال ﷺ: «مسكين، مسكين، رجل ليست له امرأة، ومسكينة، مسكينة، امرأة ليست لها زوج، قالوا: يا رسول الله! وإن كانت غنية من المال؟ قال: وإن» .

وقال أبو أمامة: (أربعة لعنهم الله من فوق عرشه، وأمَّنت عليهم ملائكته: الذى يحصر نفسه عن النساء، فلا يتزوج ولايتسرى؛ لئلا يولد له، والرجل يتشبه بالنساء، والمرأة تتشبه بالرجال، وقد خلقها الله أنثى، ومُضلل المساكين) . وقال سهل بن عبد الله: لا يصح الزهد فى النساء؛ لأنهن قد حُبِّبن إلى سيد الزاهدين. ووافقه ابن عُيَيْنَةَ، فقال: ليس فى كثرة النساء دنيا؛ لأن أزهد الصحابة كان علىٌّ بن أبى طالب رضي الله عنه، وكان له أربع نسوة وبِضْعَ عشْرَةَ سُرِّيَّةً. هـ. من القوت.

وقال عطية بن بُسْر المازنى: أتى عكافُ بن وَدَاعَةَ الهلالى النَّبِيَّ ﷺ، فقال له: «يا عكاف؛ ألك زوجة؟ قال: لا، يا رسول الله، ولا أمة؟ قال: لا. قال: وأنت صحيح موسر؟ قال: نعم، والحمد لله. قال: فإنك، إذاً، من إخوان الشياطين، إما أن تكون من رهبان النصارى، وإما أن تكون مؤمناً، فاصنع ما بدا لك. فإن من سنتنا النكاح، شراركم عزابكم، وأرذال موتاكم عزابكم، ما للشيطان، فى سلاح، أبلغ من مُحْتَمِلِ العَزَبَةِ، ألا إن المتزوجين هم المطهرون المبرؤون من الخنا»(١) . انظر الثعلبى.

قال تعالى: ﴿ وَلْيَسْتَعْفِفِ الذين لايجدون نكاحاً ﴾ أى: ليجتهد فى العفة عن الزنا وقمع الشهوة من لم يجواد الاستطاعة على النكاح؛ من المهر والنفقة ﴿حتي يُغْنِيَهُمْ الله من فضلهِ ﴾؛ حتى يقدرهم الله على المهر والنفقة، قال عليه الصلاة والسلام: «يا معشر الشباب، من استطاع منكم الباءة فليتزوج؛ فإنه أغضُّ للبصر، وأحصنُ للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم؛ فإنه له وِجَاءٌ»(٢)، فانظر كيف رتَّب الحق تعالى هذه الأمور؟ أمَرَ،

(١) أخرجه مطولاً أحمد فى المسند (٥/١٦٣ - ١٦٤) وعبدالرزاق فى المصنف (٦/١٧٢، ح١٠٣٨٧) والطبرانى فى الكبير (١٨/٨٥ ح ١٨٥).

(٢) أخرجه البخارى فى (النكاح، باب قول النبى ﷺ: من استطاع الباءة فليتزوج ح٥٠٦٥)، ومسلم فى (النكاح، باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه ٢/١٠١٨، ح ١٤٠٠)، عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه.

أولاً، بما يَعْصِمُ من الفتنة، ويُبعد عن مواقعة المعصية، وهو غض البصر، ثم بالنكاح المُحَصِّنِ للدين، المغنى عن الحرام، ثم بعـزف النفس الأمـارة بالسوء عن الطموح إلى الشهوة، عند العجز عن النكاح، إلى أن يقدر عليه. وبالله التوفيق.

الإشارة: الأرواح والقلوب والنفوس لايظهر نِتَاجُها حتى ينعقد النكاح بينها وبين شيخ كامل، فإذا انعقدت الصحبة بينها وبين الشيخ، قذف نطفة المعرفة في الروح أو القلب أو النفس، ثم يربيها فى مشيمة الهِمَّة، ثم فى حَضَانة الحفظ والرعاية، فَيَظْهَرُ منها نتاجُ اليقين والعلوم والأسرار والمعارف، وأما إن بقيت أيَامَى؛ لازوج لها، فلا مطمع فى نِتَاجها، قال تعالى: ﴿وأنكِحوا الأيامى منكم﴾، وهى الأرواح، والصالحين من قلوبكم، ونفوسكم، إن يكونوا فقراء؛ من اليقين، والمعرفة بالله، يغْنهم الله من فضله؛ بمعرفته، والله واسع عليم، وليتعفف، عن المذاكر، الذين لايجدون من يأخذ بيدهم، حتى يغنيهم الله من فضله؛ بالسقوط على شيخ كامل؛ فإنه من فضل الله ومنته، لا يسقط عليه إلا من اضطُرَّ إليه، وصَدَقَ الطلبَ فى الوصول إليه. وبالله التوفيق.

ولما أمر بتزوج العبيد، أمر بمكاتبتهم، فقال:

﴿ ... وَٱلَّذِينَ يَبۡتَغُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ فَكَاتِبُوهُمۡ إِنۡ عَلِمۡتُمۡ فِيهِمۡ خَيۡرٗاۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ ءَاتَىٰكُمۡ ... ﴾

قلت: الكتاب هنا: مصدر، بمعنى الكتابة. وهى: مقاطعة العبد على مال مُنَجَّم، فإذا أداه؛ خرج حراً، وإن عجز، ولو عن نصف درهم، بقى رقيقاً.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ والذين يَبْتَغُون الكتابَ ﴾ أى: والمماليك الذين يطلبون الكتابة ﴿ مما ملكتْ أيمانُكم ﴾؛ من عبيدكم ﴿ فكاتِبُوهُم ﴾، والأمر للندب، عند مالك والجمهور، وقال الظاهرية وغيرهم: على الوجوب، وهو ظاهر قول عمر رضي الله عنه لأنس بن مالك، حين سأله مملوكه سيرين الكتابة، فأبى عليه أنس، فقال له عمر: لتكاتبنه، أَوْ لأُوجِعنَّكَ بالدِّرَّة[1]. وإنما حمله مالك على الندب؛ لأن الكتابة كالبيع، فكما لايجبر على البيع لا يجبر عليها.

(١) أخرجه عبدالرزاق فى المصنف (٨/ ٣٧٢ ح ١٥٥٧٨)، والطبرى (١٨/ ١٢٦).

واختلف: هل يُجْبِرُ السيدُ عَبْدَهُ عليها، أم لا؟ قولان في المذهب. ونزلت الآية بسبب حُوَيْطب بن عبد العُزّى، سأل مولاه أن يكاتبه، فأبى عليه(١). وحكمها عام، فأمر الله سادات العبيد أن يُكاتبوهم إذا طلبوا الكتابة. والكتابة: أن يقول لمملوكه: كاتبتك على كذا، فإن أدى ذلك عتِق، ومعناه: كتبت لك على نفسي أن تُعْتَقَ مني إذا وَفَّيْتَ المال، وكتبتَ لي على نفسك أن تفي بذلك. وتجوز حالّةً، وتسمى: القطاعة، ومُنَجَّمَةً وغَيْرَ مُنَجَّمَةٍ.

وقوله تعالى: ﴿ إنْ علمتمْ فيهم خيراً ﴾، أي: قدرة على الكسب، وأمانة وديانة، والنُدْبِيةُ متعلقة بهذا الشرط، فالخير هنا: القوة على الأداء بأي وجه كان، وقيل: هو المال الذي يؤدي منه كتابته، من غير أن يسأل أموال الناس، وقيل: الصلاح في الدين.

﴿ وآتوهم من مال الله الذى آتاكم ﴾، هذا أمر بإعانةَ المكاتب على كتابته، واختُلف: مَنِ المُخَاطَبُ بذلك؟ فقيل: هو خطاب للناس أجمعين، وقيل: للولاة، والأمر على هذين القولين للندب، وقيل: للسادات المُكَاتِبِينَ، وهو على هذا القول، ندب عند مالك، ووجوب عند الشافعي. فإن كان الأمر للناس، فالمعنى: أن يعطوهم صدقة من أموالهم، وإن كان للولاة: فيعطوهم من الزكوات أو من بيت المال، وإن كان للسادات فَيَحُطُّوا عنهم من كتابتهم، وقيل: يعطوهم من أموالهم، من غير الكتابة، وعلي القول بالحط من الكتابة اختلف في مقدار ما يُحَطُّ، فقيل: الربع، وروي ذلك عن رسول الله ﷺ، وقيل: الثلث، وقال مالك: لا حد في ذلك، بل أقل ما يطلق عليه شيء، إلا أن الشافعي يجبره علي ذلك، ولا يجبره مالك. وزمان الحط عنه في آخر الكتابة عند مالك، وقيل: في أول نَجْمٍ. قاله ابن جزي.

الإشارة: العبيد على أربعة أقسام: عبْدٌ قِنٌ مقتنى للخدمة، وعبد مأذون له فى التجارة، وعبد مُكَاتَبٌ، وعبد آبق. فمثال الأول، وهو العبد القن: أهل الخدمة، وهم العباد والزهاد، أقامهم الحق تعالى لخدمته، وقَوَّاهُمْ على دوام معاملته، أهل الصيام والقيام، وأهل السياحة والهيام. ومثال الثانى، وهو المأذون له: العارفون بالله، يتصرفون فى ملك سيدهم بالله، خلفاء رسول الله ﷺ، يحكمون بحكم الله، ويأخذون من الله ويدفعون إلى الله، يأخذون النصيب من كل شيء، ولا يُؤْخَذُ من نصيبهم شيء، قد سخرّ لهم كل شيء، ولم يُسَخَّرُوا لشيء، سُلِّطُوا على كل شيء، ولم

(١) عزاه السيوطي فى الدر المنثور (٥/٨١) لابن السكن فى معرفة الصحابة، عن عبدالله بن صبيح، عن أبيه.

يُسلّطْ عليهم شيء، يخالطون الناس بجسمهم، ويباينونهم بسرهم، فالدنيا سوق تجارتهم، والمعرفة رأس بضاعتهم، والعدل في الغضب والرضا مِيزانُهم، والقصد في الفقر والغنى عنْوانهم، والعلم بالله مفزعهم ومنجاهم، والقرآن كتاب الإذن من مولاهم، والفهم عن الله مرجعهم ومأواهم.

ومثال الثالث، وهو المُكَاتَب: الصالحون من المؤمنين؛ يعملون على فك رقبتهم من النار، فإذا أدوا ما فرض عليهم؛ حررهم بعد موتهم، وأسكنهم فسيح جناته. ومثال الآبق: هم العصاة والفجار، استمروا على عصيانهم، حتى قدموا على الملك الجبار، فهم تحت حكم المشيئة، إن شاء عفا عنهم، وإن شاء عاقبهم. والله تعالى أعلم.

ولما أمر بتزويج الإماء نهى عن إكراههن على الزنا، فقال:

﴿ ... وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ولاتكرِهُوا فتياتكم﴾ أي: إماءكُمْ، يقال للعبد: فتى، وللأمة: فتاة. والجمع: فتيات، ﴿على البغاء﴾ أي: الزنا، وهو خاص بزنا النساء. كان لابن أُبَيّ ست جوار: مُعاذة، ومُسَيْكة، وأميمة، وعمْرَة، وأرْوَى، وقُتَيْلَة، وكان يكرههن، ويضرب عليهن الضرائب لذلك، فشكت ثِنتان منهن إلى رسول الله ﷺ، فنزلت الآية(١).

وقوله تعالى: ﴿إنْ أرَدْنَ تَحَصُّناً﴾ أي: تعففاً، ليس قيداً في النهي عن الإكراه، بل جرى على سبب النزول، فالإكراه: إنما يُتَصوّرُ مع إرادة التَّحَصُّنِ؛ لأن المطيعة لاتسمى مكرهة، ثم خصوص السبب لا يُوجب تخصيص الحُكم على صورة السبب، فلا يختص النهي عن الاكراه بإرادة التعفف، وكذلك الأمر بالزنا، والإذن فيه لاَيُبَاحُ ولايجوز شيء من ذلك للسيد، وما يقبض من تلك الناحية سُحْتٌ وربا. وفيه توبيخ للموالي؛ لأن الإماء إذا رغبن في التحصن؛ فأنتم أولى بذلك، ثم علل الاكراه بقوله: ﴿لتبتغوا عَرَضَ الحياةِ الدنيا﴾ أي: لتبتغوا بإكراههن على الزنا أجورهن وأولادهن، جيء به؛ تشنيعاً لهم على ما هم عليه من أحمال الوزر الكبير لأجل النزر الحقير، أي: لاتفعلوا ذلك لطلب المتاع السريع الزوال، الوشيك الاضمحلال.

---

(١) عزاه المناوي، في الفتح السماوي (٢/٨٧٤) للثعلبي عن مقاتل، وأخرج مسلم في (التفسير، باب في قول الله تعالى: ﴿ولاتكرهوا فتياتكم على البغاء﴾ ٣٠٢٩) عن جابر، قال: إن جارية لعبدالله بن أبي، يقال لها: «مسيكة»، وأخرى يقال لها: «أميمة»، فكان: يكرههما على الزنا، فشكتا إلى النبي ﷺ، فأنزل الله: ﴿ولاتكرهوا فتياتكم على البغاء﴾).

﴿ ومن يُكْرِههُنَّ ﴾ ؛ على ما ذُكِرَ من البغاء، ﴿ فإن الله من بعد إكراهِهِنَّ غفورٌ ﴾ لهن ﴿ رحيم ﴾ بهن، وفي مصحف ابن مسعود كذلك. وكان الحسن يقول: لهن والله. وقيل: للسيد إذا تاب. واحتياجهن إلى المغفرة المنبئة عن سابقة الإثم: إما باعتبار أنهن - وإن كن مُكْرَهَاتٍ - لايخلون في تضاعيف الزنا من شائبة مطاوعة ما، بحكم الجِبِلَّةِ البشرية، وإما لغاية تهويل أمر الزنا، وحث المكرهات على التثبت في التجافي عنه، والتشديد في تحذير المكرِهِينَ ببيان أنهن حَيْثُ كُنَّ عُرْضَةً للعقوبة، لولا أن تداركهن المغفرة، الرحمة، مع قيام العذر في حقهن، فما بالك بحال من يكرههن في استحقاق العقاب؟

﴿ ولقد أنزلنا إليكم آياتٍ مُبَيِّنَاتٍ ﴾ ؛ مُوَضِّحَات، أو: واضحات المعنى، والمراد: الآيات التي بُينت في هذه السورة، وأوضحت معاني الأحكام والحدود. وهو كلام مستأنف جيء به في تضاعيف ما ورد من الآيات السابقة واللاحقة؛ لبيان جلالة شأنها، المقتضي للإقبال الكلي على العمل بمضمونها. وصُدر بالقَسَمِ الذي تُعرب عنه اللام؛ لإبراز كمال العناية بشأنها. أي: والله، لقد أنزلنا إليكم، في هذه السورة الكريمة، آيات مبينات لكل ما لكم حاجة إلى بيانه؛ من الحدود وسائر الأحكام، وإسناد البيان إليها: مجازي، أو: آيات واضحات تصدقها الكتب القدسية والعقول السليمة، على أن «مُبَيِّنَات» مِنْ بيَّن، بمعنى تبين، كقولهم في المثل: «قد بيّن الصبح لذي عينين»، أي: تبين. ومن قرأها بالبناء للمفعول، فمعناه: قد بيّن الله فيها الأحكام والحدود.

﴿ ومثلاً من الذين خَلَوا مِن قبلكم ﴾ أي: وأنزلنا مثلاً من أمثال مَنْ قَبْلَكُمْ، من القصص العجيبة، والأمثال المضروبة لهم في الكتب السابقة، والكلمات الجارية على ألسنة الأنبياء والحكماء، فتنتظم قصة عائشة - رضي الله عنها - المحاكية لقصة يوسف عليه السلام وقصة مَرْيَمَ، وسائر الأمثال الواردة في السورة الكريمة، انتظاما واضحاً. وتخصيص الآيات البينات بالسوابق، وحمل المثل على قصة عائشة المحاكية لقصة يوسف ومريم، يأباه تعقيب الكلام بما سيأتي من التمثيلات.

﴿ و ﴾ أنزلنا ﴿ موعظةً للمتقين ﴾ يتعظون بها، وينزجرون عما لا ينبغي من المحرمات والمكروهات وسائر ما يُخل بمحاسن الآداب، والمراد: ما وعظ به من الآيات والمثل، مثل قوله: ﴿ولاتأخذكم بهما رأفة في دين الله﴾(١)، و﴿لولا إذ سمعتموه..﴾(٢) الخ، ﴿يعظكم الله أن تعودوا لمثله﴾(٣).

وتخصيص المتقين؛ لأنهم المنتفعون بها، المغتنمون لآثارها، المقتبسون لأنوارها، ومدار العطف هو التَّغَايُرُ العنواني المُنَزَّلُ مَنْزِلَةَ التغايُرِ الذاتي. وقد خصَّت الآيات بما بيّن الأحكامَ والحدودَ، والموعظة بما وعظ به من

(١) الآية: ٢ من سورة النور. (٢) الآية: ١٢ من سورة النور. (٣) الآية: ١٧ من سورة النور.

قوله: (ولاتأخذكم..) إلى آخر ما تقدم. وقيل: المراد بالآيات المبينات والمثل والموعظة: جميع ما في القرآن المجيد من الأمثال والمواعظ. والله تعالى أعلم.

الإشارة: كل من أمر بالمعصية ودلّ عليها، أو رضى فعلها، فهو شريك الفاعل في الوزر، أو أعظم. وكل من أمر بالطاعة ودلّ عليها فهو شريك الفاعل في الثواب، أو أعظم. وفي الأثر: «الدَّالُ علَى الخيْرِ كفَاعِلِه»(١) .

قال القشيري: حامِلُ العاصي على زلّته، والداعي له إلى عثْرته، والمُعِينُ له على مخالفته، تتضاعف عليه العقوبة، وله من الوِزْرِ أكثرُ من غيره، وعكسه لو كان الأمر في الطاعة والإعانة على العبادة. هـ. ومن هذا القبيل: تعليم العلم لمن تحقق أنه يطلب به رئاسةً أو جاهاً، أو توصُّلاً إلى الدنيا المذمومة، أو علِمَ منه قصدا فاسداً، فإن تحقق ذلك وعلَّمَه، فهو مُعين له على المعصية، كمن يعطي سيفاً لمن يقطع به الطريق على المسلمين. والله تعالى أعلم.

ثم إن أنوار الشريعة، وهي أحكام المعاملة الظاهرة، تهدي إلى أنوار الطريقة، وهي أحكام المعاملة الباطنةَ، وأنوارُ الطريقة تهدي إلى أنوار الحقيقة، وأنوارُ الحقيقة تُصيِّرُ الكوْنَ كلَّهُ نوراً، كما قال تعالى:

﴿ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿الله نورُ السمواتِ والأرض﴾ أي: منور أهلهما [بنور الإسلام والإيمان؛ لأهل الإيمان](٢)، وبنور الإحسان؛ لأهل الإحسان، فحقيقة النور: هو الذي تنكشف به الأشياء على ما هي عليه، حسية أو معنوية، والمراد هنا: المعنوية؛ بدليل قوله: ﴿يهدي الله لنُوره من يشاء﴾، فإن انكشف به أحكام العبودية، باعتبار المعاملة الظاهرة، يُسمّى: نُورُ الإسلام، وإن انكشف به أوصاف الذات العلية وكمالاتها، من طريق البرهان، يُسمى: نورُ الإيمان، وإن انكشف به حقيقة الذات وأسرارها، من طريق العيان، يُسمى: نور الإحسان. فالأول: يشبه نور النجوم، والثاني: نور القمر، والثالث: نور الشمس، ولذلك تقول الصوفية: نجوم الإسلام، وقمر الإيمان، وشمس العرفان.

---

(١) أخرجه البزار (كشف الأستار ح ١٥٤) عن ابن مسعود، و(ح ١٩٥١) عن أنس، وأخرجه الطبراني في الأوسط (ح ٣٨٤) من حديث سهل بن سعد. وجاء في صحيح مسلم: «من دلّ على خير فله مثل أجر فاعله». أخرجه مسلم في (الإمارة، باب فضل إعانة الغازي، ٣/١٥٠٦ ح ١٨٩٣) من حديث أبي مسعود البدري.

(٢) أرى أن تكون العبارة هكذا [بنور الإسلام لأهل الإسلام، وبنور الإيمان لأهل الإيمان].

ثم ضرب المثل لذلك النور، حين يقذفه فى قلب المؤمن، فقال: ﴿مَثَلُ نُورِهِ﴾ أى: صفة نوره العجيبة فى قلب المؤمن - كما هى قراءة ابن مسعود - ﴿كمشكاة﴾ أى: كَصِفَةِ مِشْكَاةٍ، وهى الكُوَّةُ فى الجدار غير النافذة؛ لأن المصباح فيها يكون نوره مجموعاً، فيكون أزهر وأنور، ﴿فيها مصباح﴾ أى: سراج ضخم ثاقب، ﴿المصباحُ في زجاجة﴾ أى: فى قنديل من زجاج صافٍ أزهر، ﴿الزجاجةُ﴾ من شدة صفائها ﴿كأنها كوكب دُرِّيٌّ﴾؛ بضم الدال وتشديد الراء، منسوب إلى الدر؛ لفرط ضيائه وصفائه، وبالكسر والهمز: «أبو عمرو»؛ على أنه يدْرأ الظلام بضوئه. وبالضم والهمز: أبو بكر وحمزة، شبهه بأحد الكواكب الدرارى، كالمشترى والزهرة ونحوهما. ﴿تُوقَدُ﴾(1) بالتخفيف والتأنيث، أى: الزجاجة، أو ﴿يُوقَدُ﴾ بالتخفيف والغيب، أو: «تَوَقَّدَ» بالتشديد، أى: المصباح ﴿من شجرةٍ﴾ أى: من زيت شجرة الزيتون، أى: رويت فتيلته من زيت ﴿شجرةٍ مباركةٍ﴾؛ كثيرة المنافع، أو: لأنها تنبت فى الأرض التى بارك فيها للعالمين، وهى الشام، وقيل: بارك فيها سبعون نبياً، منهم إبراهيم عليه السلام.

﴿زيتونةٍ﴾: بدلٌ من «شجرة»، من نعتها ﴿لاشرقيةٍ ولا غربيةٍ﴾ أى: ليست شرقية فقط، لاتُصيبها الشمس إلا فى حالة الشروق، ولاغربية، لاتصيبها إلا فى حال الغروب، بل هى شرقية غربية، تصيبها الشمس بالغداة والعشي، فهو أنْضَرُ لها، وأجود لزيتونها. وقيل: ليست من المشرق ولا من المغرب، بل فى الوسط منه، وهو الشام، وأجودُ الزيتونِ زيتون الشام.

﴿يكادُ زيتُها يُضيءُ ولو لم تمسسه نارٌ﴾؛ هو فى الصفاء والإنارة بحيث يكاد يضيء بنفسه من غير مَسَاسِ نَارٍ أصلا. ﴿نورٌ على نورٍ﴾ أى: نور المصباح متضاعف على نور الزيت الصافى، فهذا مثال النور الذى يقذفه الله فى قلب المؤمن؛ فالمشكاة هو الصدر، والمصباح نور الإيمان أو الإسلام أو الإحسان، على ما تقدم، والزجاجة هو القلب الصافى، ولذلك شبهه بالكوكب الدُّرِّيّ، والزيت هو العِلْمُ النافع الذى يقوى اليقين. ولذلك وصفه بالصفاء والإنارة. يكاد صاحبه تشرق عليه أنوار الحقائق، ولو لم يمسسه علمها. ﴿نورٌ على نورٍ﴾ أى: نور الإيمان مُضَافٌ إلى نور الإسلام، أو نور الإحسان مضاف إلى نور الإيمان والإسلام،

---

(1) قرأ نافع، وابن عامر، وحفص، بياء من تحت مضمومة، مع إسكان الواو، وتخفيف القاف، ورفع الدال، على التذكير، مبنياً للمفعول من «أوقد» أى: المصباح. وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وأبو جعفر، ويعقوب، بتاء من فوق، وفتح الواو والدال، وتشديد القاف، على وزن «تفعل» فعلاً ماضياً، فيه ضمير يعود على المصباح. وقرأ أبو بكر، وحمزة، والكسائى، بالتاء من فوق، مضمومة، وإسكان الواو، وتخفيف القاف، ورفع الدال، على التأنيث، مضارع «أوقد» مبنى على المفعول. ونائب الفاعل ضمير يعود على «زجاجة». انظر الإتحاف (٢/٢٩٨).

﴿يهدي الله لنوره﴾ أي: لهذا النور الباهر ﴿من يشاء﴾ من عباده؛ إما بإلهام أو بواسطة تعليم. وفيه إيذان بأن مناط هذه الهداية إنما هى بمشيئته تعالى، وأن الأسباب لا تأثير لها. ﴿ويضرب اللهُ الأمثالَ للناس﴾؛ تقريباً للفهم، لأنه إبراز للمعقول فى هيئة المحسوس ﴿والله بكل شيءٍ عليمٌ﴾، معقولاً كان أو محسوساً، فيبين الأشياء بما يمكن أن تُعْلَمَ به. والله تعالى أعلم.

الإشارة: اعلم أن الكون كله من عرشه إلى فرشه قطْعةٌ من نور الحق، وسر من أسرار ذاته، مُلْكٌ، وباطنه ملكوت فائض من بحر الجبروت، فالكائنات كلها: الله نُورُها وسرُّها، وهو القائم بها. ولا يفهم هذا إلا أهل الفناء من العارفين بالله، وحسبُ من لم يبلغ مقامهم التسليم لما رمزوا إليه، وتحققوه ذوقاً وكشفا.

ثم ضرب الحقُّ تعالى مثلاً لنوره الفائض من بحر جبروته، فقال: ﴿مثل نوره﴾ الظاهر، الذى تجلى به فى عالم الشهادة، ﴿كمشكاة فيها مصباح﴾ أى: كطاقة انفتحت من بحر اللَّطَافَةِ الكَنْزِيَّةِ، خرج منها نور كثيف كالمصباح، فالكون كله مِصْبَاحُ نورٍ، انفجر من نور النور، ومن ذلك المصباح تفرعت الكائنات، فهى كلها نور فائض من بحر نوره اللطيف، ثم جعل الحق تعالى يصف ذلك المصباح فى توقده وتوهجه بقوله: ﴿المصباح فى زجاجة الزجاجة كأنها كوكب دُرى..﴾..إلخ. فالآية كلها من تتمة التمثيل.

وقوله تعالى: ﴿ولو لم تمسسه نار﴾ قيل: الإشارة فيه إلى استغناء العبد فى تلك الحالة عن الاستمداد إلا من رب العزة، فيستغنى عن الوسائط. وقوله تعالى: ﴿نورٌ على نور﴾ أى: نور ملكوته على نور جبروته، ﴿يهدى الله لنوره﴾ أى: لشهود نوره، أو لمعرفة نوره، ﴿من يشاء﴾ من خواص أحبابه، كأنبيائه وأوليائه، فمن لم يشهد هذا النور، ولم يعرفه، لاخصوصية له؛ يتميز بها عن العوام، فهو من عامة أهل اليمين، ولو كثر علمه وعمله؛ إذ لا عبرة بالعلم والعمل مع الحِجَاب. وفى الحِكَم: «الكائن فى الكون، ولم تفتح له ميادين الغيوب، مسجون بمحيطاته، محصور فى هيكل ذاته». والمحجوب برؤية الأكوان من جملة العوام عند أهل العيان، ينسحب عليه معنى المثال الآتى فى ضد هذا بقوله: (أو كظلمات..) الخ.

وفى الحِكَم. «الكون كله ظلمة، وإنما أناره ظهورُ الحَقّ فيه، فمن رأى الكون ولم يشهده فيه، أو عنده، أو قبله أو بعده، فقد أعوزه وجود الأنوار، وحجبت عنه شموس المعارف بسُحب الآثار»(١). فالكون عند أهل العيان كله نور، وعند أهل الحجاب كله ظلمة، وهو محيط بهم، فالظلمة محيطة بهم، وقد ألف الغزالى فى هذه الآية كتابه:

(١) انظر الحكم بتبويب المتقى الهندى (ص ٣٢ حكمة ١٤).

(مشكاة الأنوار)، وكلامه فيه يدور على أن معنى اسمه تعالى «النور»: يرجع إلى ما ثبتت به الأشياء وظهرت من العدم، ولذلك قال قائلهم:

فَالنُّورُ يُظْهِرُ مَا تَرَى مِنْ صُورَةٍ وَبِهِ ظهور الكَائِنَاتِ بِلاَ امْتِرَاءِ

وفى لطائف المنن: الله نور السموات والأرض؛ نور سموات الأرواح بمشاهدته، ونور أرض النفوس بمطالعته وخدمته، وجعل قلوب أوليائه مَجْلاَةً لذاته ولظهور صفاته، أظهرهم ليظهر فيهم خصوصاً، وهو الظاهر فى كل شيء عموماً، ظهر فيهم بأنواره وأسراره، كما ظهر فيهم، وفيما عداهم بقدرته واقتداره. هـ.

ثم ذكر محل ظهور ذلك المصباح، فقال:

﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾ ﴾

قلت: (فى بيوت): يتعلق بمشكاة، أى: كائنة فى بيوت، أو توقد، أو بيسبح، أى: يسبح له رجال فى بيوت، وفيه تكرير؛ لزيادة التأكيد، نحو: زيد فى الدار جالس فيها، أو بمحذوف، أى: سبّحوا فى بيوت. و(أَذِنَ): نعتٌ له.

يقول الحق جل جلاله: وذلك النور الذى فى المشكاة يكون ﴿في بيوتٍ أَذِنَ الله أن ترفع﴾، وهى المساجد والزوايا المُعَدّة لذكر الله والصلاة وتلاوة القرآن. ورفعها: تعظيمها. أى: التى أمر الله بتعظيمها؛ كتطهيرها من الخبث، وتنقيتها من القذى، وتعليق القناديل ونصب الشموع، ويزاد التعظيم فى شهر رمضان. ومن تعظيمها: غلقها فى غير أوقات الصلاة، وقيل المراد برفعها: بناؤها، كقوله تعالى: ﴿ ..بَنَاهَا رَفَعَ سَمْكَهَا.. ﴾(١)، ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ﴾(٢)، والأول أصح.

﴿و﴾ ﴿أَذِنَ﴾ أيضا أن ﴿يُذْكَرَ فيها اسمُه﴾، وهو عام فى جميع الذِّكْر، مفرداً أو جماعة، ويدخل فيه تلاوة القرآن. ﴿يُسَبِّحُ له فيها بالغُدوّ والآصال﴾ أى: يصلى له فيها بالغداة: صلاة الفجر، والآصال: صلاة الظهر

(١) من الآيتين: ٢٧ ـ ٢٨ من سورة النازعات. (٢) من الآية ١٢٧ من سورة البقرة.

والعصر والعِشاءين. وإنما وَحَّدَ الغدو؛ لأن صلاته صلاة واحدة، وفى الآصال صلوات، وهو جمع أصيل، وفاعل «يُسَبِّحُ»: رجال. ومن قرأ بفتح الباء(١)، فأسنده إلى أحد الظروف الثلاثة، أعنى: (له فيها بالغدو). و«رجال»: مرفوع بمحذوف، دل عليه ﴿يُسبح﴾ أى: يسبحه ﴿رجالٌ لاتُلهيهم﴾: لاتشغلهم ﴿تجارةٌ﴾ فى السفر، ﴿ولابيعٌ﴾ فى الحضر، ﴿عن ذكر الله﴾ باللسان والقلب، وقيل: التجارة: الشراء، أى: لا يشغلهم شراء ولا بيع عن ذكر الله، والجملة: صفة لرجال، مؤكدة لما أفاده التنكير من الفخامة، مفيدة لكمال تَبَتُّلِهِمْ إلى الله تعالى، واستغراقهم فيما حكى عنهم من التسبيح من غير صارف يلويهم ولاعاطف يثنيهم.

وتخصيصُ التِّجَارَةِ بالذكر؛ لكونها أقوى الصوارف عندهم وأشهرها، أى: لا يشغلهم نوع من أنواع التجارة، ولافرد من أفراد البياعات، وإن كان فى غاية الربح. وإفراده بالذكر، مع اندارجه تحت التجارة؛ لإنه ألهى؛ لأن ربحه متيقن ناجز فى الغالب، وما عداه مترقع فى ثانى الحال.

﴿و﴾ لا يشغلهم ذلك أيضاً عن ﴿إقامِ الصلاةِ﴾ أى: إقامتها لمواقيتها من غير تأخير، وأصله: وإقامة، فأسقطت التاء المعوضة عن العين الساقطة بالإعلال، وعوض عنها الإضافة، فأقيمت الإضافة مقام التاء، ﴿وإيتاءِ الزكاة﴾ أى: وعن إيتاء الزكاة، وذكرها، وإن لم يكن مما تفعل فى البيوت، لكونها قرينتها لاتفارق إقامة الصلاة فى عامة المواضع، مع ما فيه من التنبيه على أن محاسنَ أعمالهم غيرُ منْحصرةٍ فيما يقع فى المساجد. والمعنى: لاتجارة لهم حتى تلهيهم، أو يبيعون ويشترون ويذكرون الله مع ذلك، لايشغلهم عن ذكر الله شيء، وإذا حضرت الصلاة قاموا إليها مسرعين. ﴿يخافون يوماً﴾ أى: يوم القيامة ﴿تتقلَّبُ فيه القلوبُ﴾ أى: تضطرب وتتغير من الهول والفزع، وتبلغ إلى الحناجر، ﴿و﴾ تتقلب ﴿الأبصارُ﴾ بالشخوص أو الزرقة. أو تتقلب القلوب إلى الإيمان بعد الكفران، والأبصار إلى العيان بعد النكران، كقوله: ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾(٢).

يفعلون ذلك الاستغراق فى التسبيح والذكر، مع الخوف؛ ﴿ليجزيهم الله أحسنَ ما عَمِلُوا﴾ أى: أحسن جزاء أعمالهم، حسبما وعدهم بمقابلة حسنة بعشر أمثالها إلى سبع مائة ضعف، ﴿ويزيدَهُم من فَضْله﴾ أى: يتفضل عليهم بأشياء وعدهم بها، لم تخطر على بال؛ كالنظر إلى وجهه، وزيادة كشف ذاته، فهو كقوله: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾(٣). ﴿والله يرزق من يشاء بغير حساب﴾ أى: يثيب من يشاء ثواباً لا يدخل تحت حساب الخلق، و«مَنْ»: واقعة على من ذُكِرَتْ أوصافهم الجميلة، كأنه قيل: والله يرزقهم بغير حساب، ووضعه موضع

(١) وبها قراءة ابن عامر وأبو بكر. (٢) من الآية ٢٢ من سورة ق. (٣) من الآية ٢٦ من سورة يونس.

ضميرهم؛ للتنبيه على أن مناط الرزق المذكور مَحْضُ مشيئته تعالى، لا أعمالهم المحكية، ويحتمل أن يريد بالرزق ما يرزقهم فى الدنيا مما يقوم بأمرهم، حين تبتَّلوا إلى العبادة، يرزقهم الله من حيث لا يحتسبون، من غير حَصْرٍ ولاعد. والله تعالى أعلم.

الإشارة: البيوت التى أَذِنَ الله أن تُرفع هى القلوب، التى هى معدن الأسرار ومحل مصابيح الأنوار، ورفعها: صونها من الأغيار، وتطهيرها من لوث الأكدار، وبُعدها من جيفة الدنيا، التى هى مجمع الخبائث والأشرار، ليُذكَرَ فيها اسم الله، كثيراً، على نعت الحضور والاستهتار، وإنما يمكن ذلك من أهل التجريد والانقطاع إلى الله، الذين لا تلهيهم تجارة ولابيع عن ذكر الله، يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب عن حضرة الله، والأبصار عن شهود الله، وذلك بشؤم الغفلة فى الدنيا عن الله، والقيام بحقوق الله، ليجزيهم الله أحسن ما عملوا، فى جنة الزخارف، ويزيدهم من فضله التنَزُّهَ فى جنة المعارف. والله يرزق من العلوم والمعارف من يشاء بغير حساب.

ثم ذكر ضد أهل النور، وهم أهل الظلمة، فقال:

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾ ﴾

قلت: «كسراب»: خبر الثانى، وهو: ما يُرى فى الفلوات من لمعان الشمس وقت الظهيرة، يسرب على وجه الأرض، فيُظَنّ أنه ماء يجرى. و(بقيعة): متعلق بمحذوف، صفة لسراب، أى: كائن بأرض قيعة، أى: منبسطة، و(سحاب ظلمات): مَنْ جرَّها: فبالإضافة(١)، ومن رفعها: فخبر، أى: هى ظلمات.

يقول الحق جل جلاله، فى بيان أعمال الكفرة وظلمة قلوبهم، بعد بيان حَالِ المؤمنين وأنوار قلوبهم: ﴿ والذين كفروا أعمالُهم ﴾ التى هى من أبواب البر، كصلة الرحم، وفك العُنَاة، وسقاية الحاج، وعمارة البيت، وإغاثة الملهوف، وقِرَى الأضياف، ونحوها، مما لَوْ قارنه الإيمان لا ستوجب الثواب، مثاله: ﴿ كسراب ﴾؛

(١) قرأ البزى (سحابُ ظلماتٍ) بالإضافة، وقرأ الجمهور: (سحابٌ ظلماتٌ) بالتنوين والرفع فيهما. انظر الإتحاف (٢/٢٩٩).

كقضاء (بقيعةٍ)؛ بأرض منبسطة، ﴿ يَحْسَبُهُ الظَّمآنُ ﴾؛ يظنه العطشان ﴿ ماءً حتى إذا جاءه لم يجدْه شيئاً ﴾ أى: لم يجده كما ظنه ورجاه، بل خاب مطمعه ومسعاه، ﴿ ووجدَ اللهَ عنده ﴾ أى: وجد جزاء الله، أو حُكمه، عند عمله، أو عند جزائه، ﴿ فوفَّاه حسابَه ﴾ أى: أعطاه جزاءه كله وافياً، وإنما وحّد، بعد تقديم الجمع، حملاً على كل واحد من الكفار.

﴿ والله سريعُ الحساب ﴾؛ يحاسب العباد فى ساعة؛ لأنه لايحتاج إلى عد وعقد، ولايشغله حساب عن حساب، أو قَرِيبٌ حسابُه؛ لأنَّ كل آتٍ قريبٌ. شبه ما يعمله الكفرة من البر، الذى يعتقد أنه ينفعه يوم القيامة وينجيه من عذاب الله، ثم يخيب فى العاقبة أملُهُ، ويلقى خلاف ما قدّر، بسراب يراه الكافر بالساهرة، وقد غلبه عطش يوم القيامة، فيحسبه ماء، فيأتيه، فلا يجد ما رجاه، ويجد زبانية الله، فيأخذونه إلى جهنم، فيسقونه الحميم والغساق. قيل: هم الذين قال الله فيهم: ﴿عاملة ناصبة﴾(١)، و ﴿ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾(٢). قيل: نزلت فى عتبة بن ربيعة بن أمية، كان ترهب فى الجاهلية ولبس المسوح، والتمس الدين، فلما جاء الإسلام كفر. هـ.

ثم ضرب مثلاً لأعمالهم فى الدنيا، فقال: ﴿ أوْ كظلماتٍ ﴾، «أو» للتنويع، ﴿ في بحرٍ لُجِّيٍّ ﴾؛ عميق كثير الماء، منسوب إلى اللج، وهو معظم ماء البحر، ﴿ يغشاه ﴾ أى: يغشى البحر، أو مَن فيه، أى: يعلوه ويغطيه بالكلية، ﴿ موجٌ ﴾ هو ما ارتفع من الماء، ﴿ من فوقه موجٌ ﴾ أى: من فوق الموج موج آخر، ﴿ من فوقه سَحَابٌ ﴾؛ من فوق الموج الأعلى سحاب، ﴿ ظلماتٌ ﴾ أى: هذه ظلمات؛ ظلمة السحاب، وظلمة الأمواج، وظلمة البحر، ﴿ بعضُها فوق بعض ﴾؛ ظلمة الموج على ظلمة البحر، وظلمة الموج على ظلمة الموج الأسفل، وظلمة السحاب على الموج، وهذا أعظمُ للخوف وأقربُ للعطب، لأنه يغطى النجوم التى يهتدى بها ويشتد معه الريح والمطر، وذلك يؤكد التلف، ﴿ إذا أخرج يده ﴾ أى: الواقع فيه، أو مَنْ ابتُلِىَ بها، ﴿ لم يكد يراها ﴾؛ مبالغة فى «لم يرها»، أى: لم يقرب أن يراها، فضلاً عن أن يراها. شبّه أعمالهم، فى ظلمتها وسوادها؛ لكونها باطلة، وخلوها عن نور الحق، بظلماتٍ متراكمة من لج البحر والأمواج والسحاب.

قال ابن جُزَىّ: لما ذكر حال المؤمنين عقَّبَ ذلك بمثالين لأعمال الكفار؛ **الأول**: يقتضى حال أعمالهم فى الآخرة، وأنها لاتنفعهم، بل يضمحل ثوابها كما يضمحل السراب. **والثانى**: يقتضى حال أعمالهم فى الدنيا، وأنها فى غاية الفساد والضلال، كالظلمة التى بعضها فوق بعض. ثم قال: وفى وصف هذه الظلمات مبالغة، كما أن فى

(١) الآية ٣ من سورة الغاشية. (٢) الآية ١٠٤ من سورة الكهف.

وصف النور المذكور قبلها مبالغة. هـ. وقوله: لما ذكر حال المؤمنين، يعنى بقوله: ﴿رجال لاتلهيهم..﴾ الخ، الله بقوله: (يهدى الله لنوره من يشاء)، وقيل: كلا المثالين فى الآخرة، يخيبون من نفعها، ويخوضون فى بحر ظلمتها.

﴿ومن لم يجعل اللهُ له نوراً﴾ فى قلبه، من نور توحيده ومعرفته، ﴿فما له من نورٍ﴾ أى: من لم يشأ الله أن يهديه لنوره: لم يهتد، وفى الحديث: «خلق الله الخلق فى ظلمة، ثم رش عليها من نوره، فمن أصابه ذلك النور اهتدى، ومن أخطأه ضل»، وينبغى للقارىء عند هذه الآية أن يقول: (اللهمَّ اجعلْ فى قلبىٍ نوراً، وفى سمعى نوراً، وفى بصرى نوراً، وعن يمينى نوراً، وعن شمالى نوراً، ومن فوقى نوراً، ومن تحتى نوراً، واجعلنى نوراً، وأعظم لى نوراً)(١)، كما فى الحديث فى غير هذا المحل.

الإشارة: كل من لم يتحقق بمقام الإخلاص كانت أعماله كسرابٍ بقيعة، يحسبه الظمآنُ ماء، حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً، ووجد الله عنده، فوفاه حسابه، أى: يناقشه فيما أراد بعمله، وأهل التوحيد الخاص: الوجود كله، عندهم، كالسراب، يحسبه الناظر إليه شيئاً، حتى إذا جاءه بفكرته لم يجده شيئاً، ووجد الله عنده وحده، وفيه يقول الشاعر:

مَنْ أبْصَرَ الخلْقَ كالسَّرابِ ... فَقَدْ تَرقَّى عَن الحِجَابِ
إلَى وجُودٍ تَرَاهُ رَتْقاً ... بِلاَ ابْتِعَادٍ ولاَاقْتِرابِ
ولَم تُشَاهِد بِه سِواه ... هناك يُهْدَى إلى الصَّوابِ
فلا خِطَاب بِهِ إلَيْه ... ولاَمُشِير إلى الخِطَابِ

ومثال من عكف على دنياه، واتخذ إلهه هواه، كذى ظلمات فى بحر لجى، وهو بحر الهوى، يغشاه موج الجهل والمخالفات، من فوقه موج الحظوظ والشهوات، من فوقه سحاب أثر الكائنات، أو: يغشاه موج الغفلات، من فوقه موج العادات، من فوقه سحاب الكائنات، ظلمات بعضها فوق بعض؛ من حب الدنيا، وحب الجاه، وحب الرئاسة، إذا أخرج يد فكرته لم يكد يراها.

(١) أخرجه البخارى فى (الدعوات، باب الدعاء إذا انتبه من الليل ح ٦٣١٦)، ومسلم فى (صلاة المسافرين، باب الدعاء فى صلاة الليل، ١/٥٢٥ – ٥٢٦، ح ٧٦٣)، من حديث ابن عباس رضي الله عنه.

وقال بعضهم: الدنيا كلها بحر لُجّي، والناس مغروقون فيه، إلا مَنْ عَصَمَ الله، وساحله الموت، فمن لعبت به أمواج الهوى والحظوظ، فليأوى إلى سفينة الزهد والورع، وليتمسك برئيس عارف بأهوال البحر، وهم العارفون بالله، فإنه ينجو من أهوالها، ومن أخطأ هذا غرق فى تيارها، ولعبت به أمواج حظوظها وشهواتها، فكان من الهالكين، نسأل الله الحفظ بمنّه وكرمه.

ثم ذكر علامات وجود ذلك النور المتقدم فى أهل السموات والأرض، فقال:

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ألم ترَ﴾ يا محمد، وخصّه بالخطاب؛ إيذاناً بأنه ﷺ قد أفاض عليه أعلى مرَاتب النور وأجلاها، وبيّن له من أسرار الملكوت أجلَهَا وأخفاها، أى: ألم تنظر بعين بصيرتك، فتعلم علم يقين، ﴿أن الله يُسبّحُ له﴾ أى: ينزهه على الدّوام ﴿من في السموات والأرض﴾؛ من العقلاء وغيرهم، تنزيهاً معنوياً، فإن كلا من الموجودات يدل على وجود صانع واجب الوجود، متصف بصفات الكمال، مقدس عن كل ما لايليق بعلو شأنه. أو: تنزيهاً حسياً بلسان المقال، ولكن لاتفقهون تسبيحهم. وتخصيص التنزيه بالذكر، مع دلالة ما فيهما على اتصافه تعالى بنعوت الكمال أيضاً؛ لأن مساق الكلام تقْبيحُ حَالِ الكفرة فى إخلالهم بالتنزيه؛ بجعلهم الجمادات شركاء له ودعوى اتخاذه الولد.

﴿و﴾ يسبحه ﴿الطيرُ﴾ حال كونها ﴿صافّاتٍ﴾ أى: يصففن أجنحتهن فى الهواء، وتخصيصها بالذكر، مع اندراجها فى جملة ما فى الأرض؛ لعدم استمرار قرارها فيها، ولاختصاصها بصنع بارع، وهو اصطفاف أجنحتها فى الجو، وتمكينها من الحركة كيف تشاء، وإرشادها إلى كيفية استعمالها بالقبض والبسط، ففى ذلك دلالة واضحة على كمال قدرة الصانع المجيد، وغاية حكمة المبدئ المعيد.

﴿كُلٌّ قد علِمَ صلاتَه وتسبيحه﴾ أى: كل واحد من الأشياء المذكورة قد علِمَ الله تعالى صلاتَهُ، أى: دعاءه وخضوعه وتسبيحه. أو: كلٌّ قد علم فى نفسه ما يصدر عنه من صلاَةٍ وتسبيح، فالضمير: ما إليه أو لكلّ. ولا يبعد أن يلهم اللهِ الطيرَ دعاءه وتسبيحه كما ألهمها سائر العلوم الدقيقة، التى لايكاد العقلاء يهتدون إليها. ﴿والله عليم بما يفعلون﴾؛ لا يعزب عن علمه شيء.

﴿ ولله ملكُ السموات والأرض ﴾ لا لغيره؛ لأنه الخالق لهما، ولما فيهما من الذوات، وهو المتصرف فيهما إيجاداً وإعْدَاما، (وإلى الله المصير) أى: إليه، خاصَّةً، رجوع الكل بالفناء والبعث لا إلى غيره، وإظهار اسم الجلالة فى وضع الإضمار، لتربية المهابة، والإشعار بِعِلِّيَّةِ الحُكم. والله تعالى أعلم.

الإشارة: ما استقر فى السموات السبع والأرضين السبع كله من قَبْضَةِ النُّور الأوَّلِيَّة، بين حس ومعنى، حسه خاضع لأحكام الربوبية، ومعناه قاهر بسطوات الألوهية، حسه حِكْمَةٌ، ومعناه قدرة، حسه مُلْكٌ، ومعناه ملكوت، وهذا معنى قوله: ﴿ الله نورُ السموات والأرض ﴾، فافهم.

ثم ذكر جزئيات من تلك النور، فقال:

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٤﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ألم ترَ أن الله يُزْجِي ﴾ أى: يسوق، برفق وسهولة، ﴿ سَحَاباً ﴾: جمع سحابة، ﴿ ثم يُؤلِّف بينه ﴾ أى: يضم بعضه إلى بعض، ﴿ ثم يجعله رُكاماً ﴾؛ متراكماً بعضه فوق بعض، ﴿ فترى الوَدْقَ ﴾: المطر، ﴿ يخرجُ من خِلاله ﴾؛ من فُتُوقِهِ ووسطه، جمع خَلَل، كجبال وجبل، وقيل: مفرد، كحجاب وحجاز.

قال القشيرى: ترتفع بقدرته بُخَارَاتُ البحر، فيتصعد، بتسييره وتقديره، إلى الهواء، وهو السحاب، ثم يديره إلى سَمْتٍ يريد أن ينزل به المطر، ثم ينزل ما فى السحاب من ماء البحر، قطرة قطرة، ويكون الماء، حين حصوله فى بخارات البحر، غير عذب، فيقلبه عذباً، ويَسُحُّهُ السحابُ سَكْباً، فيوصل إلى كلِّ موضع قَدْراً يكون له مُراداً معلوماً، لابالجهدِ مِنَ المخلوقين يُمْسَكُ عن المواضع الذى عليه ينزله، ولا بالحيلة يُسْتَنْزَلُ على المكانِ الذى لايُمْطِره. هـ. قلت: وهذا أحد الأقوال فى حقيقة المطر، والمشهور عند أهل السنة: أن الله تعالى يُنْشِئُ السحاب بقدرته، ويخلق فيه الماء بحكمته، وينزله حيث شاء.

ثم قال تعالى: ﴿ وَيُنزِّلُ من السماء من جبالٍ فيها من بَرَدٍ ﴾، «منْ» الأولى: لابتداء الغاية، والثانية: بدل من الأولى، والثالثة: لبيان الجنس، أي: يُنَزِّل البَرَدَ، وهو الثلج المكور، من السماء، أي: الغمام العلوى، فكل ماعلاك سماء، من جبال فيها كائنة من البَرَدَ، ولا غرابة فى أن الله يخلق فى السماء جبالَ بَرَدٍ كما خلق فى الأرض جبال حجر.

قال ابن جزى: قيل: إن الجبال هنا حقيقة، وإن الله جعل فى السماء جبالاً من بَرَد، وقيل: إنه مجاز، كقولك: عند فلان جبال من مال أو علم، أي: هن فى الكثرة مثل الجبال. هـ. وأصله لابن عطية. وقال الشيخ أبو زيد الثعالبي: حَمْلُ اللفظ على حقيقته أولى، إن لم يمنع من ذلك مانع. هـ. يعنى: ولامانع هنا، فيحمل على ظاهره، وإن الله خلق جبال بَرد فى السماء. وقال الهروى عن ابن عرفة - يعنى اللغوى -: سمعت أحمد بن يحيى يقول: فيه قولان: أحدهما: وينزل من السماء بَرَداً من جبال فى السماء من برد، والآخر: وينزل من السماء أمثال الجبال من البَرَد. ويقال: إنما سمى برداً؛ لأنه يبَرُدُ وجه الأرض أي: يُقشره. هـ.

قال البيضاوى: إن الأبخرة إذا تصاعدت ولم يتخللها حرارة، فبلغت الطبقة الباردة من الهواء، وقوى البرد هناك، اجتمع وصار سحاباً، فإن لم يشتد البرد تقاطر مطراً، وإن اشتد، فإن وصل إلى الأجزاء البخارية قبل اجتماعها، نزل ثلجاً، وإلاّ نزل بَرَداً، وقد يبرد الهواء برداً مفرطاً فينقبض، وينعقد سحاباً، وينزل منه المطر أو الثلج. وكل ذلك لابد وأن يُسْنَدَ إلى إرادة الواجب الحكيم؛ لقيام الدليل على أنها الموجبة لاختصاص الحوادث بمحالّها وأوقاتها، وإليه أشار بقوله: ﴿ فيُصيبُ به من يشاء ويُصْرِفُهُ عمن يشاء ﴾ والضمير للبرَد. هـ. أي: فيصيب بذلك البَرَد من يشاء أن يصيبه به، فيناله ما ناله من ضرره فى بدنه وماله؛ من زرع أو غيره. ﴿ ويَصْرِفُه عمن يشاء ﴾ أن يصرفه عنه، فينجو من غائلته.

﴿ يكاد سنَا برْقه ﴾ أي: ضوء برق السحاب، الموصوف بما مر من الإزجاء والتآلف. وإضافة البرق إليه، قبل الإخبار بوجوده، فيه إيذان بظهور أمره واستغنائه عن التصريح به. وقيل: الضمير للسماء، وهو أقرب، أي: يكاد ضوء برق السماء، ويحتمل أن يعود على «الله» تعالى؛ لتقدم ذكره، أي: يكاد ضوء برقه تعالى ﴿ يذهب بالأبصار ﴾، أي: يخطفها من فرط الإضاءة، وسرعة ورودها، ولو عند إغماضها. ﴿ يُقَلِّبُ اللهُ الليلَ والنهارَ ﴾ أي: يصرفهما بالتعاقب، فيأتى هذا بعد هذا، أو بنقصِ أحدهما وزيادة الآخر، أو بتغيير أحوالهما بالحر والبرد وغيرهما.

﴿ إن في ذلك ﴾، الإشارة إلى ما فصل آنفاً، أي: إن فى إزجاء السحاب، وإنزال الودق، وتقليب الليل والنهار،

﴿لعبرةً﴾؛ لدَلالَةً واضحة على وجود الصانع القديم، القائم بالأشياء، والمدبر لها بقدرته وحكمته، ﴿لأُولي الأبصار﴾؛ لذوي العقول الصافية. وهذا من تعدد الدلائل على ظهور نوره تعالى فى الكائنات، حيث ذكر تسبيح مَنْ فى السموات والأرض وما يطير بينهما وخضوعهم له، وتسخير السحاب وإنزال الأمطار، وتقليب الليل والنهار، إلى غير ذلك من لوامح الأنوار. والله تعالى أعلم وأحكم.

الإشارة: ألم تر أن الله يُزجى سحابَ الوارداتِ الإلهية، تحمل العلوم اللدنية، ثم يؤلف بينه حتى يكون قوياً، يُقتطع به صاحبه عن حسه، ويغيبه عن أمسه ورسمه، فترى أمطار العلوم اللدنية، والأسرار الربانية، والفتوحات العرفانية، تخرج من خلاله، أى: من قلب العارف، وهى نتائج الواردات وثمراتها. وفى الحِكَم: «لاتزكين وارداً لم تعلم ثمرته، فليس المراد من السحابة الأمطار، وإنما المراد منها وجود الأثمار».

وينزل من سماء الأرواح من جبالِ عقولٍ، فيها علم الرسوم الظاهرة، فيصيب به من يشاء، ممن أريد لحمل الشرائع والقيام بها، ويصرفه عمن يشاء، ممن أريد أن يكون من عامة الناس، أو من خاصتهم. إن هبت عليه رياح الحقائق، فأمطرت على قلبه العلوم الغيبية فأغنته عن العلوم الرسمية، يكاد سنا برقه الساطع لقلوب أوليائه، وهو سطوع أنوار الملكوت وأسرار الجبروت، فإنها تكون أولاً كالبرق، تلمع وتخفى، ثم يتصل ورودها وشروقها، فتكون متصلة البروق دائمة الشروق، نهار بلا ليل، واتصال بلا انفصال، ووصال بلا انقطاع. وفى ذلك يقول القائل:

طلعت شـمـسُ مَنْ أُحِبُّ بِلَيْلٍ ... وَاسْتَنَارتْ، فَمَـا تَلاهَا غُـروبُ

إنَّ شَـمْسَ النهـار تَغْـربُ بالليل ... وشَمْسَ القُـلُوبِ لَيْسَ لَهَـا مَغِيبُ

يقلب الله ليل القبض على نهار البسط، ونهار البسط على ليل القبض، حتى يتصل النهار بالخروج عنهما، ليكون لله، لا لشيء دونه. وبالله التوفيق.

ولمَّا ذكر التجليات العلوية ذكر التجليات السفلية، فقال:

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿واللهُ خلقَ كلَّ دابة﴾ أى: خلق كل حيوان يدب على وجه الأرض ﴿من ماء﴾؛ من نوع من الماء مختص بتلك الدابة، وهو جزء مادته عند الأطباء، أو: من ماء مخصوص، وهو النطفة،

ثم خالف بين المخلوقات من تلك النطفة، فمنها أناسي، ومنها بهائم، ومنها هوام وسباع، وهو كقوله: ﴿يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ﴾(١) وهذا دليل على أن لها خالقاً مدبراً، وإلاّ لم تختلف لاتفاق الأصل، وإنما عرّف الماء في قوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾(٢) ونكّره هنا؛ لأن المقصود ثمّة أن أجناس الحيوان مخلوقة من جنس الماء، وأنه هو الأصل، وإن تخللت بينه وبينها وسائط، وأما هنا فالمراد نوع منه.

قالوا: إن أول ما خلق الله الماء، فخلق منه النار والريح والطين، فخلق من النار الجن، ومن الريح الملائكة، ومن الطين آدم ودواب الأرض. قاله النسفي. وعلى الثاني: تكون الآية أغلبية؛ لأن مِن الحيوانات مَنْ يتولد من غير نطفة، كالدود والبَعُوضِ وغيرهما.

ثم فصّل أحوالهم بقوله: ﴿فمنهم من يمشي على بطنه﴾؛ كالحية والحوت، وتسمية حركتها مشياً، مع كونها زحفا، استعارة، كما يقال في الشيء المستمر: قد مشى هذا الأمر على هذا النمط، أو على طريق المشاكلة؛ لذكر الزاحف مع الماشين. ﴿ومنهم من يمشي على رِجْلين﴾ كالإنسان والطير، ﴿ومنهم من يمشي على أربع﴾ كالبهائم والوحش. وعدم التعرض لما يمشي على أكثر من أربع؛ كالعناكب ونحوها من الحشرات؛ لعدم الاعتداد بها، لقلتها. وتذكير الضمير في (منهم)؛ لتغليب العقلاء، وكذلك التعبير بكلمة (مَن). وقدّم ما هو أغرق في القدرة، وهو الماشي بغير آلة، ثم الماشي على رجلين، ثم الماشي على أربع.

﴿يَخْلُقُ الله ما يشاء﴾ مما ذكر ومما لم يذكر، بَسيطاً أو مركباً، على ما يشاء من الصور والأعضاء والهيئات والطبائع والقوى والأفاعيل، مع اتحاد العنصر؛ ﴿إنّ الله على كل شيء قدير﴾ فيفعل ما يشاء كما يشاء. وإظهار الاسم الجليل في الموضعين في موضع الإضمار؛ لتفخيم شأن الخلق المذكور، والإيذان بأنه من أحكام الألوهية. والله تعالى أعلم.

الإشارة: أظهر الحق تعالى الأشياء من الماء، وأظهر الماء من نور القبضة، وأظهر القبضة من بحر سر الذات. أو تقول: أظهر الماء من نور الملكوت، وأبرز نور الملكوت من بحر الجبروت، وبحر الجبروت هو بحر أسرار

(١) من الآية ٤ من سورة الرعد.
(٢) من الآية ٣٠ من سورة الأنبياء.

الذات الأزلية، فالكل منه وإليه، ولاشيء معه، فتنوعت أنوار التجليات، وتعددت أسماؤها بتعدد فروعها، والمتجلي واحد، كما قال صاحب العينية:

تَجلّى حَبِيبى فى مَرَائى جَمَالِهِ ... فَفِي كُلّ مَرْئيٍّ لِلْحَبِيبِ طَلاَئِعُ

فَلَمّا تَبَدّى حُسْنُه مُتَنَوِّعًا ... تَسَمّى بِأَسْمَاءٍ فَهُنّ مَطَالِعُ.

ولايفهم هذا إلا من هداه الله لمعرفته، كما قال:

﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَا ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿لقد أنزلنا آيات مُبَيِّنات﴾ لكل ما يليق بيانه؛ من الأحكام الدينية والأسرار التكوينية. أو: موضحات، أوضحنا بها مايحتاجون إليه من علم الشرائع والأحكام، ﴿والله يهدي من يشاء﴾ توفيقه ﴿إلى صراط مستقيم﴾ أي: دين قيِّم يُوصل إلى رضوان الله ومعرفته.

الإشارة: لقد أنزلنا من بحر الجبروت أنواراً ساطعة لعالم الملكوت، والله يهدي من يشاء إلى طريق شهود هذه الأنوار. فالطريق المستقيم هي التي تُوصل إلى حضرة العيان، على نعت الكشف والوجدان، وهي ثلاثة مدارج: المدرج الأول: إتقان الشريعة الظاهرة، وهي تهذيب الظواهر وتأديبها بالسنّة والمتابعة. والمدرج الثاني: إتقان الطريقة، وهي تهذيب البواطن وتصفيتها من الرذائل، فإذا تطهر الباطن، وكمل تهذيبه، أشرف على المدرج الثالث، وهو كشف الحقائق العرفانية والأسرار الربانية، فيفنى من لم يكن، ويبقى من لم يزل، فيقع العيان عل فقد الأعيان، وتُشرق شمس العرفان فتغطي وجودَ الأكوان. وبالله التوفيق.

ولما ذكر إنزال الآيات ذكر افتراق الناس إلى ثلاث فرق، فرقة آمنت ظاهراً وكفرت باطناً، وهم المنافقون، وفرقة آمنت ظاهراً وباطناً، وهم المخلصون، وفرقة كفرت ظاهرا وباطنا وهم الكافرون، وبدأ بالأولى، فقال:

﴿ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾

---

(١) انظر النادرات العينية / ٦٩.

يقول الحق جل جلاله فى شأن من لم يشأ هدايته إلى صراط مستقيم: ﴿ ويقولون ﴾ أى: المنافقون ﴿ آمنا بالله وبالرسول ﴾؛ بألسنتهم، ﴿ وأطعنا ﴾ الله والرسول فى الأمر والنهى، ﴿ ثم يتولى ﴾ عن قبول حُكْمِهِ ﴿ فريقٌ منهم مِن بعدِ ذلك ﴾ أى: من بعد ماصدر عنهم من ادعاء الإيمان بالله وبالرسول والطاعة لهما.

قال الحسن: نزلت فى المنافقين، الذين كانوا يُظهرون الإيمان ويُسرون الكفر. وقيل: نزلت فى «بِشْر» المنافق، خاصم يهودياً، فدعاه إلى كعب بن الأشْرَف، ودعاه اليهودى إلى النبى ﷺ، فقال بشر: لا، إن محمداً يحيفُ علينا(١) - قبح الله سعيه. وقيل: فى المغيرة بن وائل، خاصم علياً رضي الله عنه فى أرض وماء، فأبى أن يتحاكم إلى رسول الله ﷺ. وأيا ما كان فصيغة الجمع تدل على أن للقائل طائفة يساعدونه ويشايعونه فى تلك المقالة.

ثم حكم عليهم بالكفر، فقال: ﴿ وما أولئك بالمؤمنين ﴾ أى: المخلصين، والإشارة إلى القائلين: آمنا بالله وبالرسول، لا إلى الفريق المتولى منهم فقط، لئلا يلزم نفى الإيمان عنهم فقط، دون مَنْ قبلهم، بخلاف العكس، فإن نفى الإيمان عن القائلين يقتضى نفيه عنهم، على أبلغ وجه وآكده، وما فيه من معنى البعد؛ للإشعار ببُعد منزلتهم فى الكفر والفساد.

﴿ وإذا دُعُوا إلى الله ورسولِه ﴾ أى: إلى رسول الله ﷺ؛ لأن حُكْمَه حكمُ الله، ﴿ ليَحكُمَ بينهم ﴾ أى: ليحكم الرسول بينهم؛ لأنه المباشر للحُكم حقيقة، وإن كان ذلك حكم الله فى الحقيقة؛ لأنه خليفته. وذكر الله تعالى لتفخيم شأنه عليه، والإيذان بجلالة قدره عنده. فإذا دُعُوا إلى التحاكم بينهم ﴿ إذا فريقٌ منهم مُعْرِضون ﴾ أى: فاجأ فريق منهم الإعراض عن المحاكمة إليه ﷺ؛ لكون الحق عليهم، وقد علموا أنه ﷺ يحكم بالحق على من كان.

﴿ وإن يكنْ لهم الحقُّ ﴾ على غيرهم ﴿ يأتوا إليه ﴾؛ إلى الرسول ﴿ مُذْعنين ﴾؛ مسرعين فى الطاعة، طلباً لحقهم، لا رضاً بحُكم رسولهم. قال الزجاج: والإذعان: الإسراع مع الطاعة. والمعنى: أنهم؛ لمعرفتهم أنك لاتحكم إلا بالحق المُر والعدل المحض، يمتنعون من المحاكمة إليك، إذا ركبهم الحق، لئلا تنزعه منهم بقضائك عليهم لخصُومهم، وإن ثبت لهم حق على خصم أسرعوا إليك، ولم يرضوا إلا بحكومتك، لتأخذ لهم ما وجب لهم على خصمهم.

(١) انظر تفسير البغوى (٦/٥٥)، وأسباب النزول للواحدى (ص ٣٣٧).

﴿ أفي قلوبهم مرضٌ ﴾ ؛ كفر ونفاق، ﴿ أم ارْتابُوا ﴾ في نبوته ﷺ، ﴿ أم يخافون أن يَحِيفَ ﴾ ؛ أن يجور ﴿ اللهُ عليهم ورسولهُ ﴾ فيحكم بينهم بغير الحق. قسّم الحق تعالى الأمر في صدور المنافقين عن حكومته - عليه الصلاة والسلام - إذا كان الحق عليهم إلى ثلاث: بأن يكونوا مرضى القلوب منافقين، أو مرتابين في أمر نبوته، أو خائفين الحيف في قضائه، ثم أبطل الكل بقوله: ﴿ بل أولئك هم الظالمون ﴾، أما الأولان؛ فلأنه لو كان شيء منهما لأعرضوا عنه، عند كون الحق لهم؛ لتحقق نفاقهم وارتيابهم، وأما الثالث؛ فلمعرفتهم بأحواله ﷺ في الأمان والثبات على الحق، فهم لايشكون أنه لايحيف؛ بل لأنهم هم الظالمون، يريدون أن يظلِموا من له الحق عليهم، ويتم لهم جحودهم، فيأبَوْن المحاكمة إليه - عليه الصلاة والسلام - لأنه ﷺ يقضي عليهم بالحق الصريح، المؤيد بالوحي الصحيح.

الإشارة: ترى فريقاً من الناس يدّعون الإيمان والطاعة والمحبة، ونفوسهم غالبة عليهم، فإذا دُعُوا إلى من يحكم بينهم وبينها، بأن يأمرهم بمجاهدتها أوقتلها؛ إذا فريق منهم معرضون، وإن يكن لهم الحق، بأن وجدوا من يدلهم على البقاء مع عوائدها وشهواتها، يأتوا إليه مذعنين. أفي قلوبهم شك ووَهْم، أم ارتابوا في وجود الطبيب، أم يخافون أن يحيف الله عليهم؟ بأن يدلهم على من يتعبهم ولايبرئهم، حيث حسّنوا الظن به والتجأوا إليه، فلا يدلهم إلا على من يوصلهم إليه، بل أولئك هم الظالمون لنفوسهم، حيث حرموها الوصول، وتركوها في أودية الشكوك والخواطر تجول. قال الورتجبي: ﴿وإذا دُعُوا إلى الله ورسوله﴾ أي: دُعوا إلى مشاهدة الله بنعت المحبة والمعرفة، وعبوديته بنعت الإخلاص، ودُعُوا إلى رسوله بالمتابعة والموافقة في الشريعة والطريقة. هـ.

ثم ذكر الفريق الثاني، وهم المخلصون، فقال:

﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾ ۞ ﴾

قلت: (قول): خبرَ «كان»؛ مُقَدَّم، و(أن يقولوا): اسمها؛ مؤخر، وقرأ الحسن: بالرفع؛ على الاسمية، والأول: أرجح؛ صناعةً، والثاني: أظهر؛ دلالة، وأكثر إفادة. انظر أبا السعود.

يقول الحق جل جلاله: ﴿إنما كان قَولَ المؤمنين﴾ الصادر عنهم ﴿إذا دُعُوا إلى الله ورسولِه ليحكم﴾ الرسولُ ﷺ ﴿بينهم﴾ وبين خصومهم، سواء كانوا منهم أو من غيرهم، ﴿أن يقولوا سمعنا﴾ قوله، ﴿وأطعنا﴾ أمره، ﴿وأولئك هم المفلحون﴾؛ الفائزون بكل مطلب، الناجون من كل مهرب. والإشارة إلى المؤمنين باعتبار صدور القول المذكور عنهم، وما فيه من البُعد، للإشعار بعلو رتبتهم، وبُعد منزلتهم في الفضل، أي: أولئك المنعوتون بتلك النعوت الجميلة هم الفائزون بكل مطلوب.

﴿ومن يُطع الله ورسولَه﴾، هذا استئناف جيء به لتقرير ما قبله من حسن حال المؤمنين، وترغيب مَن عدَاهم في الانتظام في سلكهم، أي: ومن يُطع الله ورسوله، كائناً من كان، فيما أمَرَا به من الأحكام الشرعية اللازمة والمتعدية، وقيل: من يطع الله في فرائضه، ورسولَهُ في سننه. ﴿ويَخْشَ اللهَ﴾ على ما مضى من ذنوبه، ﴿ويتَّقْهِ﴾ فيما يستقبل من عمره، ﴿فأولئك﴾ الموصوفون بما ذكر من الطاعة والخشية، والاتقاء، ﴿هم الفائزون﴾ بالنعيم المقيم، لاَ مَنْ عدَاهُم.

وعن بعض الملوك: أنه سأل عن آية كافية، فتُليت عليه هذه الآية. وهي جامعة لأسباب الفوز. قال القرطبي: ذكر أسلم: أن عمر بينما هو قائم في مسجده ﷺ فإذا رجل من دهاقين الروم قائم على رأسه، وهو يقول: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله، فقال له عمر: ما شأنك؟ قال: أسلمت، قال: ألهذا سبب؟ قال: نعم؛ إني قرأت التوراة والزبور والإنجيل، وكثيراً من كتب الأنبياء، فسمعت أسيراً يقرأ آية من القرآن، جمع فيها كل ما في الكتب المتقدمة، فعلمت أنه من عند الله، فأسلمت. قال: ما هذه الآية؟ قال قوله تعالى: ﴿ومن يُطع اللهَ﴾ في الفرائض، ﴿ورسولَه﴾ في السنن، ﴿ويَخْشَ اللهَ﴾ فيما مضى من عمره، ﴿ويتَّقه﴾ فيما بقي، ﴿فأولئك هم الفائزون﴾؛ والفائز: من نجا من النار وأُدْخِل الجنة، فقال عمر: قال النبي ﷺ: «أعطيتُ جوامع الكلم(1)». هـ(2). والله تعالى أعلم.

الإشارة: إنما كان قول المؤمنين الكاملين، الطالبين الوصول إلى حضرة رب العالمين، إذا دُعوا إلى حضرة الله ورسوله؛ ليحكم بينهم وبين نفوسهم التي حجبتهم حتى يغيبوا عنها، أن يقولوا: سمعنا وأطعنا، ويدخلوا تحت تربية المشايخ، فإذا أمروهم أو نهوهم، قالوا: سمعنا وأطعنا، وأولئك هم المفلحون الفائزون بالوصول إلى الله تعالى. ومن يطع الله في أمره ونهيه، ورسوله في سنّته، وما رغّب فيه، ويخش الله أن يعاتبه، أو يؤدبه، ويتقه، أي: يجعل

(1) بعض حديث، أخرجه البخاري في (التعبير، باب رؤيا الليل، ح ٦٩٩٨) ومسلم في (المساجد، ١/٣٧١،ح٥٢٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه. ولفظ البخاري: «أعطيت مفاتيح الكلم».
(2) انظر تفسير القرطبي (٥/٤٨١٩).

وقاية بينه وبين ما يحجبه أو يبعده عنه، فأولئك هم الفائزون الظافرون بمعرفة الله على نعت الشهود والعيان. وبالله التوفيق.

ثم رجع إلى تتمة القِسْم الأول، حاكياً بعض جناياتهم، فقال:

﴿ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ ۖ قُل لَّا تُقْسِمُوا۟ ۖ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ ۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٥٤﴾ ﴾

قلت: (جهد): مصدر مؤكد لفعله، الذي هو في حيز النصب على الحال، من فاعل «أقسموا»، ومعنى جَهْدِ اليمين: بلوغ غايتها بطريق الاستعارة، من قولهم: جهد نفسه: إذا بلغ أقصى وسعها وطاقتها. وأصل أقسم جهد اليمين: أقسم بجَهْدِ اليمين جهدا، فحذف الفعل وقدم المصدر، فوضع موضعه مضافاً إلى المفعول، كقوله: ﴿فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾(١) وحكم هذا المنصوب حكم الحال، كأنه قال: أقسموا جاهدين أيمانهم. و(طاعة): مبتدأ حذف خبره، أي: طاعة معروفة أولى من تسويفكم، أو: خبر عن محذوف، أي: الذي يطلب منكم طاعة معروفة.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وأقْسَموا﴾ أي: المنافقون ﴿بالله جَهْدَ أيمانهم﴾ أي: بلغوا فيها غاية وسعهم، بأن حلفوا بالله. وعن ابن عباس رضي الله عنه: (من حلف بالله فقد جهد يمينه)، ﴿لئن أمرتهم ليخرجُنَّ﴾ أي: قالوا: لئن أمرنا محمد بالخروج للغزو، أو من ديارنا وأموالنا، لخرجنا. وحيث كانت مقالتهم هذه كاذبة ويمينهم فاجرة أمر عليه الصلاة والسلام - بردها حيث قيل: ﴿قل لاتُقسِموا﴾ أي: قل؛ رداً عليهم، وزجراً عن التفوه بها: لاتحلفوا وأنتم كاذبون، ﴿طاعةٌ معروفة﴾، تعليل للنهي، أي: لا تُقسموا على ما تدعون من الطاعة؛ لأن طاعتكم طاعة نفاقية، معروفة بالنفاق، واقعة باللسان فقط من غير مواطأة للقلب. وإنما عبَّر عنها بمعروفة؛ للإيذان بأن كونها نفاقية مشهور معروف لكل أحد. وحملها على الطاعة الحقيقية، على حذف المبتدأ أو الخبر، مما لايساعده المقام. أنظر أبا السعود.

قال القشيري: طاعة في الوقت أولى من تسويفٍ في الوعد، ولاتعدوا بما هو معلوم أنكم لا تفوا به. هـ. وقال النسفي: طاعة معروفة أمثل وأولى بكم من هذه الأيمان الفاجرة. أو: الذي يطلب منكم طاعة معروفة معلومة لايُشك فيها ولايُرتاب، كطاعة الخُلص من المؤمنين، لا أيمان تقسمونها بأفواهكم، وقلوبكم على خلافها. هـ.

(١) من الآية ٥ من سورة سيدنا محمد.

﴿إن الله خبير بما تعملون﴾ من الأعمال الظاهرة والباطنة، التي من جملتها ما تظهرونه من الأكاذيب المؤكدة بالأيمان الفاجرة، وما تضمرونه في قلوبكم من الكفر والنفاق، والعزيمة على مخادعة المؤمنين، وغيرها من فنون الفساد.

﴿قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسولَ﴾، أَمر ـ عليه الصلاة والسلام - بتبليغ ما خاطبهم الله به، وصرف الكلام عن الغيبة إلى الخطاب، وهو أبلغ في تبكيتهم، ﴿فإن تولَّوا﴾ ـ بحذف إحدى التاءين؛ بدليل قوله: ﴿وعليكم﴾ أي: فإن تُعرضوا عن الطاعة إثر ما أمرتكم بها ﴿فإنما عليه ما حُمِّلَ﴾ من التبليغ وقد بلَّغَ، ﴿وعليكم ما حُمِّلتم﴾ من التلقي بالقبول والإذعان. والمعنى: فإن تعرضوا عن الإيمان فما ضررتم إلا أنفسكم، فإن الرسول ليس عليه إلا ما حمله الله تعالى من أداء الرسالة، فإذا أدى فقد خرج عن عهدة تكليفه. وأما أنتم فعليكم ما كلفتم، أي: ما أمرتم به من الطاعة والإذعان، فإن لم تفعلوا وتوليتم فقد عرَّضتم نفوسكم لسخط الله وعقوبته. قال القشيري: قل يا محمد: أطيعوا الله، فإن أجابوا، سعدوا في الدارين، وإنما أحسنوا لأنفسهم. وإن تولوا؛ فما أضروا إلا بأنفسهم، ويكون اللوم في المستقبل عليهم، وسوف يلقون سوء عواقبهم. هـ.

﴿وإن تُطيعوه﴾ فيما أمركم به من الهدى ﴿تهتدوا﴾ إلى الحق، الذي هو المقصد الأصلي الموصل إلى كل خير، والمنجي من كل شر، ﴿وما على الرسول إلا البلاغُ المبين﴾؛ الموضح لكل ما يحتاج إلى الإيضاح، أو: البيِّن الوضوح؛ لكونه مقروناً بالآيات والمعجزات المتواترة. والجملة مقررة لما قبلها من أن غائلة التولي وفائدة الإطاعة مقصورتان عليهم. واللام: إما للجنس المنتظم فيه - عليه الصلاة والسلام - انتظاماً أولياً، أو للعهد، أي: ما على جنس الرسول كائناً من كان، أو ما عليه - عليه الصلاة والسلام - إلا التبليغ الواضح. وبالله التوفيق.

الإشارة: ترى بعض الناس يُقسمون بالله جهد أيْمَانهم: لئن ظهر شيخ التربية وأمرهم بالخروج عن أموالهم وأنفسهم ليخرجن، فلما ظهر تولوا وأعرضوا، فيقال لهم: فإن تولوا فإنما عليه ما حُمِّل من الدلالة على الله، والتعريف به، وعليكم ما حُملتم من الدخول تحت تربيته، وإن تُطيعوه تهتدوا إلى معرفة الله بالعيان، وما على الرسول إلا البلاغ المبين.

ثم وعدَ أهل الإخلاص بالنصر والتمكين، فقال:

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ (٥٥) وَأَقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٥٦) ﴾

قلت: (ليستخلفنهم): جواب لقسم مضمر، أو تنزيل وعْده تعالى منزلة القسم، و(كما): الكاف: محلها النصب على المصدر التشبيهي، أي: استخلافاً كائناً كاستخلافه مَنْ قَبْلَهُمْ. و(ما): مصدرية. و(يعبدوننى): حال من الموصول الأول، مقيدة للوعد بالثبات على التوحيد، أو استئنافٌ ببيان مقتضى الاستخلاف، و(لا يشركون): حال من واو (يعبدوننى).

يقول الحق جل جلاله: ﴿وعد الله الذين آمنوا منكم﴾ أي: كل من اتصف بالإيمان بعد الكفر من أى طائفة كان، وفى أى وقت وجد، لا من آمن من المنافقين فقط، ولا من آمن بعد نزول الآية الكريمة، بحسب ظهور الوعد الكريم. و(من): للبيان. وقيل: للتبعيض، ويراد المهاجرون فقط(١). ﴿وعملوا﴾ مع الإيمان الأعمال ﴿الصالحات﴾، وتوسيط المجرور بين المَعْطُوفَيْن؛ لإظهار أصالة الإيمان وعراقته فى استتباع الآثار والأحكام، والإيذان بكونه أول ما يطلب منهم، وأهم ما يجب عليهم.

وأما تأخيره فى قوله: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً﴾(٢)؛ فإن الضمير للذين آمنوا معه ﷺ؛ فلا ريب أنهم جامعون بين الإيمان والأعمال الصالحة، مثابون عليها، فلابد من ورود بيانهم بعد نعوتهم الجليلة بكمالها.

ثم ذكر الموعود به، فقال: ﴿لَيستخلفنَّهم في الأرض﴾ أي: لَيجعلنهم خلفاء متصرفين فيها تصرف الملوك فى مماليكهم، والمراد بالأرض: أرض الكفار كلها، لقوله عليه الصلاة والسلام: «ليدخلن هذا الدين ما دخل الليل والنهار»(٣)،

(١) هذا التخصيص والقصر، لابرهان عليه، صحيح أن المقصود بالآية هم أولاً، المهاجرون والأنصار، ولكن كل من تحققت فيه الآية، فهو متحقق له التمكين ـ بإذن الله .. ﴿ولينصرن الله من ينصره ...﴾

(٢) من الآية ٢٩ من سورة الفتح.

(٣) أخرجه أحمد في المسند (٤/١٠٣) والبيهقى فى الكبرى (٩/١٨١) والحاكم (٤/٤٣٠) وصححه، ووافقه الذهبى، من حديث تميم الدارى، بلفظ: «ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار، ولايترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله هذا الدين، بعز عزيز، أو بذل ذليل، يعز بعز الله فى الإسلام، ويذل به فى الكفر».

﴿ كما استخلف الذين مِن قبلهم ﴾؛ كبني إسرائيل، استخلفهم الله في مصر والشام، بعد إهلاك فرعون والجبابرة، ومَنْ قبلَهم مِنْ الأمم المؤمنة التي استخلفهم الله في أرض من أهلكه الله بكفره. كما قال تعالى: ﴿ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ. وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِم ﴾(١).

﴿ وليُمكِّنَنَّ لهم دينَهُم ﴾: عطف على ﴿ليستخلفنهم﴾، داخل معه في سلك الجواب، وتأخيره عنه مع كونه أصل الرغائب الموعودة وأعظمها؛ لأن النفوس إلى الحظوظ العاجلة أميل، فتَصْدير المواعد بها في الاستمالة أدخل، والمعنى: ليجعل دينهم ثابتاً متمكناً مقرراً لايتبدل ولايتغير، ولاتنسخ أحكامه إلى يوم القيامة. ثم وصفه بقوله: ﴿ الذي ارتضى لهم ﴾، وهو دين الإسلام، وصفه بالارتضاء؛ تأليفاً ومزيدَ ترغيب فيه وفضْلَ تثبيت عليه. ﴿ وليُبدِلَنَّهُمْ ﴾ بالتشديد والتخفيف من الإبدال، ﴿ من بعد خوفهم ﴾ من الأعداء ﴿ أمْناً ﴾.

نزلتْ حيث كان أصحاب رسول ﷺ قبل الهجرة عشر سنين، أو أكثر، خائفين، ولَمَّا هاجروا كانوا بالمدينة يُصْبِحُون في السلاح ويُمْسُون فيه، حتى قال رجل: ما يأتي علينا يوم نأمن فيه، ونضع السلاح، فلما نزلت، قال عليه الصلاة والسلام: «لاتصبرون إلا يسيراً حتى يَجْلِسَ الرجل منكم في الملأ العظيم، مُحْتَبِياً، ليس معه حديدة»(٢)، فأنجز الله وعده، فأمِنوا، وأظهرهم على جزيرة العرب، وفتح لهم بلاد المشرق والمغرب، ومزقوا ملك الأكاسرة، وملكوا خزائنهم، واستولوا على الدنيا بحذافيرها، وفيه من الإخبار بالغيب ما لايخفى. وقيل: الخوف والأمن في الآخرة.

ثم مدحهم بالإخلاص فقال: ﴿ يعبدونني ﴾ وحدي ،﴿ لا يُشركون بي شيئاً ﴾ أي: حال كونهم موحدين غير مشركين بي شيئاً من الأشياء، شركا جلياً ولا خفياً؛ لرسوخ محبتهم، فلا يُحبون معه غيره، ﴿ ومن كفَرَ بعد ذلك ﴾ أي: بعد الوعد الكريم، كفرانَ النعمة، أو الرجوع عن الإيمان، كما فعل أهلُ الردة، ﴿ فأولئك هم الفاسقون ﴾؛ الكاملون في الفسق، حيث كفروا تلك النعمة بعد ظهور عزها وأنوارها، قيل: أول من كفر هذه النعمة قتلةُ عثمان رضي الله عنه؛ فاقتتلوا بعد ما كانوا إخواناً.

والآية أوضح دليل على صحة خلافة الخلفاء الراشدين؛ لأن المستخلَفين الذين آمنوا وعملوا الصالحات على ماينبغي هم الخلفاء ـ رضي الله عنهم ـ .

---

(١) من الآية ١٣ من سورة إبراهيم.

(٢) أخرجه الطبري (١٨/ ١٥٩ ـ ١٦٠). وعزاه في الدر المنثور (٥/ ١٠٠) لعبد بن حميد، وابن أبي حاتم، عن أبي العالية. وانظر أسباب النزول للواحدي (٣٣٨).

ولمّا كان كفر من كفر بعد الوعد إنما كان بمنع الزكاة، قرنَه مع الصلاة فى الأمر به فقال: ﴿ وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاةَ ﴾ ؛ فمن فرّق بينهما فقد كفر، وكان من الفاسقين. ﴿ وأطيعوا الرسولَ ﴾ فيما دعاكم إليه وأمركم به، ومن جملة ما أمر به: طاعة أمرائه وخلفائه؛ لقوله: «عليكم بسنتى، وسنَّة الخلفاء الراشدين من بعدى عَضُّوا عليها بالنواجذ»(١)، فمن امتنع من دفع الزكاة لخليفته ـ كما فعل أهل الردة ـ فقد كفر، ومن أداها إليه كما أمره الله فقد استوجب الرحمة، لقوله: ﴿ لعلكم تُرحمون ﴾ أى: لكى تُرحموا، فإنها من مُستَجْلِبَاتِ الرحمة. والله تعالى أعلم.

الإشارة: سنة الله تعالى فى خواصه: أن يُسلط عليهم فى بدايتهم الخلْقَ، فينزل بهم الذلَ والفقرَ والخوفَ من الرجوع عن الطريق، ثم يُعزهم، ويُمكن لهم دينهم الذى ارتضى لهم، ويبدلهم من بعد خوفهم أمناً، كما قال الشاذلى رضي الله عنه : اللهم إن القوم قد حكمت عليهم بالذل حتى عزوا...الخ كلامه.

قال القشيرى: وفى الآية إشارة إلى أئمة الدين، الذين هم أركان السنَّة(٢) ودعائم الإسلام، الناصحون لعباد الله، الهادون من يسترشد فى الله. ثم قال: فأما حُفاظ الدين؛ فهم الأئمة والعلماء الناصحون لدين الله، وهم أصناف: قومٌ هم حفّاظُ أخبار الرسول ﷺ، وحُفّاظُ القرآن، وهم بمنزلة الخزنة، وقوم هم علماء الأصول، الرادُّون على أهلِ العناد، وأصحاب الابتداع، بواضح الأدلة، وهم بطارقة الإسلام وشجعانُه، وقوم هم الفقهاء المرجوعُ إليهم فى علوم الشريعة وفى العبادات وكيفية المعاملات، وهم من الدين بمنزلة الوكلاء والمتصرفين فى المُلْك، وآخرون هم أهل المعرفة وأصحاب الحقائق، وهم فى الدِّين كخواص الملك وأعيان مجلس السلطان وأرباب الأسرار، الذين لايبرحون فى عالى مجلس السلطان، فالدين معمورٌ بهؤلاء على اختلافهم إلى يوم القيامة. هـ(٣). وتقدم مثله فى قوله: ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ... ﴾ الخ(٤). والله تعالى أعلم.

ثم ذكر الفريق الثالث، وهم الكفرة ظاهراً وباطناً، فقال:

﴿ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾ ﴾

---

(١) أخرجه ـ بطوله ـ أحمد فى المسند(١٢٧/٤) وأبو داود فى (السنة، باب فى لزوم السنة ١٣/٥ ـ ١٤ ح ٤٦٠٧) والترمذى فى (العلم، باب فى الأخذ بالسنة واجتناب البدع ٤٣/٥، ح٢٦٧٦) وابن ماجه فى (المقدمة، باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين، ١٦/١ح ٤٢) من حديث العرباض بن سارية.

قلت: والنواجذ آخر الأضراس، واحدها: ناجذ. وأراد بذلك الجد فى لزوم السنة، فعل من أمسك الشىء بين أضراسه، وعضّ عليها، منعاً له أن ينتزع.

(٢) فى القشيرى: «الملّة». (٣) بتصرف. (٤) الآية ١٢٢ من سورة التوبة.

يقول الحق جل جلاله: ﴿لا تحسبنَّ الذين كفروا مُعْجِزِينَ﴾ أي: فائتين الله عن إدراكهم وإهلاكهم، في قُطْرٍ من أقطار الأرض، بل لابد من أخذهم، عاجلاً أو آجلا، والخطاب للرسول ﷺ أو لكل سامع. و﴿الذين﴾: مفعول أول، و(معجزين): مفعول ثان. وقرأ حمزة والشامي بالغيب، و(الذين): فاعل، والأول: محذوف، أي: لايحسبن الذين كفروا أنفسهم معجزين ﴿في الأرض﴾. و﴿مأواهم النار﴾: معطوف على محذوف، أي: بل هم مُدْرَكُونَ، ﴿ومأواهم النار﴾ أي: مسكنهم ومرجعهم، ﴿ولبئس المصيرُ﴾ أي: والله لبئس المرجع هي. وفي إيراد النار، بعنوان كونها مأوى ومصيراً لهم، إثر نفي قوتهم بالهرب في الأرض كل مهرب، من الجزالة ما لا غاية وراءه. والله تعالى أعلم.

الإشارة: لا تحسبن أهل الانتقاد على أولياء الله أنهم فائتون، بل لابد من غيرة الله عليهم، عاجلاً أو آجلاً، في الظاهر أو الباطن، ومأواهم نار القطيعة ولبئس المصير. وقال القشيري على هذه الآية: الباطل قد تكون له صَوْلَةٌ لكنه يختل، وما لذلك بقاء، ولعل لبثه من عارض الشتاء في القيظ، أي: الحر. هـ(١). والله تعالى أعلم.

ثم تمم الكلام على الاستئذان المتقدم، ووسط بينهما مواعظ تحث على الامتثال، فقال:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَـٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ۚ ثَلَـٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ ۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٨) وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَـٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٩) ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ياأيها الذين آمنوا﴾، ويدخل فيه النساء، ﴿لِيَسْتأذِنكُمُ الذين ملكت أيمانُكُم﴾ من العبيد والإماء، ﴿والذين لم يبلغوا الحُلُمَ منكم﴾ أي: والأطفال الذين لم يحتلموا من الأحرار،

(١) العبارة في لطائف الإشارات المطبوع: [إن الباطل قد تكون له دولة، ولكنها تخييل، ولذلك بقاء، وأقل لُبثا، من عارض ينشأ عن القيظ].

﴿ ثلاثَ مرات ﴾ في اليوم والليلة، وهي ﴿ من قبلِ صلاةِ الفجر ﴾؛ لأنه وقت القيام من المضاجع، وطرح ما ينام فيه من الثياب، ولبس ثياب اليقظة، وربما يجدهم في هذا الوقت نائمين متجردين، ﴿ وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ﴾؛ وهي نصف النهار في القيظ؛ لأنها وقت وضع الثياب للقيلولة، ﴿ ومن بعد صلاةِ العشاء ﴾؛ لأنه وقت التجرد من ثياب اليقظة، والالتحاف بثياب النوم. هي ﴿ ثلاثُ عوراتٍ لكم ﴾، ومن نصبه؛ فبَدلٌ من ﴿ثلاث مرات﴾ أي: أوقاتَ ثلاثِ عوراتٍ، وسمى كل واحد من هذه الأوقات عورة؛ لأن الإنسان يختل تستره فيها(١)، والعورة: الخلل، ومنه سمي الأعور؛ لاختلال عينه.

رُوي أن غلاماً لأسماء بنت أبي مرثد دخل عليها في وقت كَرِهَتْهُ، فنزلت(٢). وقيل: أرسل رسول الله ﷺ مُدْلِجَ بنَ عَمرو الأنصاري، وكان غلاماً، وقت الظهيرة، ليدعو عُمر رضي الله عنه ، فدخل عليه وهو نائم قد انكشف عنه ثوبه، فقال عمر رضي الله عنه : لوددت أن الله تعالى نهى عن الدخول في هذه الساعات إلا بإذن، فانطلق إلى النبي ﷺ، فوجده وقد نزلت عليه هذه الآية(٤). والأمر، قيل: للوجوب، وقيل: للندب.

ثم عذرهم في ترك الاستئذان في غير هذه الأوقات، فقال: ﴿ ليس عليكم ولا عليهم جُناح بعدهنّ ﴾ أي: لا إثم عليكم ولا على المذكورين من المماليك والغلمان في الدخول بغير استئذان بعد كل واحدة من تلك العورات الثلاث، أي: في الأزمنة التي بين هذه العورات الثلاث.

ثم بيّن العلة في ترك الاستئذان في هذه الأوقات بقوله: ﴿ طوّافون ﴾ أي: هم ﴿ طوّافون عليكم ﴾ لحاجة البيت والخدمة، ﴿ بعضُكم على بعضٍ ﴾ أي: بعضكم طائف على بعض، أو يطوف على بعض، والجملة: إما بدل مما قبلها، أو بيان، يعني: أنكم محتاجون إلى المخالطة والمداخلة، يطوفون عليكم للخدمة وتطوفون عليهم للاستخدام، فلو جزم الأمر بالاستئذان في كل وقت لأفضى إلى الحرج، وهو مدفوع بالنص، ﴿ كذلك يبين الله لكم الآيات ﴾ أي: كما بيّن الاستئذان، يبين لكم غيره من الآيات التي تحتاجون إلى بيانها، ﴿ والله عليمٌ ﴾ بمصالح عباده، ﴿ حكيم ﴾ فيما دبّر وحكم به.

﴿ وإذا بلغ الأطفالُ منكم ﴾ أي: الأحرار دون المماليك ﴿ الحُلُمَ ﴾ أي: الاحتلام، وهو البلوغ، وأرادوا الدخول عليكم ﴿ فَلْيَستأذِنوا ﴾ في جميع الأوقات. قال القرطبي: لم يقل: ﴿فليستأذنوكم﴾، وقال في الأولى:

---

(١) في الأصول: «ستره»، والمثبت من تفسير النسفي.

(٢) ذكره ابن كثير في تفسيره (٣/٣٠٣) والواحدي في أسباب النزول (ص ٣٣٩) والبغوي في التفسير (٦/٦٠) عن مقاتل، بدون إسناد.

﴿ليستأذنكم﴾؛ لأن الأطفال غير مخاطبين ولا متعبَدين. هـ. قلت: فالمخاطبون فى الأولى هم الأولياء بتعليمهم الاستئذان وإيصائهم به، وهنا صاروا بالغين، فأمرهم بالاستئذان ﴿كما استأذن الذين مِن قبلهم﴾ أى: الذين بلغوا الحلُم مِن قبلهم، وهم الرجال المذكورون فى قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُم...﴾(١) الآية. والمعنى: أن الأطفال مأذون لهم فى الدخول بغير إذن، إلا فى العورات الثلاث، فإذا اعتاد الأطفال ذلك ثم بلغوا الحلُم وَجَبَ أن يُفطَمُوا عن تلك العادة، ويُحملوا على أن يَسْتَأْذِنوا فى جميع الأوقات، كالرجال الكبار الذين لم يعتادوا الدخول عليكم إلا بإذن.

والناس عن هذه غافلون. عن ابن عباس رضي الله عنهما: ثلاث آيات جحدهن الناس: الإذن كله، وقوله: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾(٢)، وقوله: ﴿وإذا حضر القسمة..﴾(٣). وعن سعيد بن جبير: (يقولون: إنها منسوخة، والله ما هى بمنسوخة)(٤). وعن ابن عباس أيضاً قال: إنما أُمروا بها حين لم يكن للبيوت الستر، فلما وجدوا ذلك استغنوا عن الاستئذان. وعن أبى محمد مكى: هذا الأمر إنما كان من الله للمؤمنين؛ إذ كانت البيوت بغير أبواب. قلت: أما باعتبار الأجانب فالأبواب تكفى، وأما باعتبار المماليك والأطفال الذين يلجون الدار من غير حَجْرٍ؛ فلا تكفى الأبواب فى حقهم، فلابد من الاستئذان كما فى الآية.

﴿كذلك﴾ أى: مثل ذلك البيان العجيب ﴿يبين الله لكم آياته﴾. قال ابنُ عرفة: قال قبل هذه وبعدها: الآيات، وفى هذه: آياته؛ لوجهين، الأول: هذه خاصة بالأطفال، وما قبلها عامة فى العبيد والأطفال، فأطلقت الآية، ولم تقيد بالإضافة، وهذه خاصة، فعبّر عنها بلفظ خاص. الثانى: أن الخطاب بما هنا للبالغين، فأسند فيه الحكم إلى الله تعالى، تخويفاً لهم وتشديداً عليهم. هـ. والمتبادر أنه تفنن. قاله المحشى الفاسى. ﴿والله عليمٌ حكيم﴾ فيما أمر ودبر.

الإشارة: إنما أمر الله بالاستئذان لئلا يُكشف السر إلى غير أهله؛ غَيْرَةً منه تعالى على كشف أسرار عباده، وإذا كان غار على كشف سر عبده، فَغَيْرَتُهُ على كشف أسرار ذاته أولى وأحرى، فيجب كتم أسرار الذات عن غير أهله، وكل من خصه الله بسر وجب كتمه إلا على من هو أهل له، وهو من أعطَى نفسه وماله، وباعهما لله تعالى. وكل من أُطْلِعَ على سر من سرار الله أو قضاء من قضائه، ثم استشرف أن يُعْلِم الناس بذلك فهو كذاب. وفى الحِكَم: «استشرافك أن يعلم الخلق بخصوصيِّتِكَ دليل على عدم صدقك فى عبوديتك». وبالله التوفيق.

---

(١) الآية ٢٧ من سورة النور. (٢) الآية ١٣ من سورة الحجرات.
(٣) الآية ٨ من سورة النساء. والخبر عزاه ابن كثير فى التفسير (٣/٣٠٣) لابن أبى حاتم.
(٤) أخرجه الطبرى (١٨/١٦٣).

ثم رخّص للعجائز في عدم التستر من الرجال، فقال:

﴿ وَٱلْقَوَاعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ ۖ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾ ﴾

قلت: «القواعد»: جمع قاعد، بغير تاء؛ لأنهما من الصفات المختصة بالنساء، كالطالق والحائض، فلا تحتاج إلى تمييز، وهو مبتدأ، و(اللاتى..) الخ: صفة له، (فليس): خبر، وأدخلت الفاء لما فى المبتدأ من معنى الشرط من العموم الذى فى الألف واللام. و(يرْجُون): مبنى لا تصاله بنون النسوة.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ والقواعدُ ﴾ أى: العجائز ﴿ من النساء اللاتي ﴾ قعدن عن الحيض والولادة؛ لِكِبَرِهِنّ. قال ابن قتيبة: سمين بذلك لأنهن بعد الكِبَر يُكثرن القعود. ويقرب منه من فسره بالقعود عن التصرف للكبر، والظاهر أن قوله: ﴿ لايرْجُون نِكاحاً ﴾: نعت مُخَصِّصٌ، إن فُسِّرَ القعود فيها بالقعود عن الحيض والولد؛ لأنه قد يكون فيها مع ذلك رَغْبَةٌ للرجال. وقد يُجْعَلُ كاشفا؛ إذا فسر القعود باستقذار الرجال لهن من عزوف النفس عنهن، فقوله: ﴿لايرجون نكاحا﴾ أى: لايطمعن فى رغبة الرجال فيهن، ﴿ فليس عليهن جناحٌ ﴾ فى ﴿ أن يَضَعْنَ ثيابَهنَّ ﴾ أى: الثياب الظاهرة، كالجِلْبَابِ الذى فوق الخمار ونحوه.

قال ابن عطية: قرأ ابن مسعود وأُبَىّ: «أن يَضَعْنَ مِنْ ثيابهن». والعرب تقول: امرأة واضع، للتى كبرت فوضعت خِمارها، قال فى الحاشية: والآية صادقة بما إذا دخل أجنبى بعد الاستئذان، وبخروجهن أيضاً، ومن التبرج: لبس ما يَصف؛ لكونه رقيقاً، أو: شفافاً. هـ.

ثم قيَّد الرخصة بقوله: ﴿ غيرَ متبرِّجَاتٍ بزينة ﴾ أى: مظهرات زينة، يريد الزينة الخفية، كالشعر والنحر والساق ونحوه، أى: لايقصدن بوضعهن التبرجَ وإظهارَ مَحَاسنها، ولكن التخفيف. وحقيقة التبرج: تكَلُّفُ إظْهَارِ ما يجب إخفاؤه، من قولهم: سفينة بارجة: لاغِطَاءَ عليها، إلا أنه خص بكشف المرأة زينتها أو محل حسنها للرجال. ﴿ وأن يستعففنَ ﴾ أى: يطلبن العفة عن وضع الثياب، فيستترن ﴿ خيرٌ لهن ﴾ من الانكشاف، ﴿ والله سميعٌ عليم ﴾ أى: سميع ما يجرى بينهن وبين الرجال من المقاولة، عليم، فيعلم مقاصدهن وسرائرهن فى قصد التخفيف أو التبرج، وفيه من الترهيب ما لايخفى.

الإشارة: إذا كمل تهذيب الإنسان وإخلاصه، وكمل استغناؤه بربه، فلا بأس أن يظهر من أحواله وعلومه مايقتدى به ويُهتدى، ليعم الانتفاع به. فإن خيفَ منه تهمة فالاستعفاف والاكتفاء بعلم الله خير له. والله سميع عليم.

ثم أَسْقَطَ الحرج عن الأعمى في الاستئذان، واستطرد معه غَيْرَه، ممن اشترك معه في مطلق العذر، وإن اختلف المُرَخَّصُ فيه، فقال:

﴿ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِن بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ ... ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ليس على الأعمى حَرَجٌ﴾ في الدخول من غير استئذان؛ لأنه لايتوقع منه نظر لما يكره. وكذلك لاحرج عليه فيما لاقدرة له عليه من الجهاد وغيره، ثم استطرد من شاركه في مطلق العذر فقال: ﴿ولا على الأعْرج حَرَجٌ﴾ فيما لايقدر عليه من الجهاد وغيره، ﴿ولاعلى المريض حرج﴾ في ذلك. وقال سعيد بن المُسَيِّب: كان المسلمون إذا خرجوا إلى الغزو وضعوا مفاتيح بيوتهم عند الأعمى والأعرج والمريض وعند أقاربهم، ويأذنونهم أن يأكلوا من بيوتهم، فكانوا يتحرجون من ذلك، ويقولون: نخشى أن تكون نفوسهم غير طيبة بذلك، فنزلت الآية، رُخصةً لهم(١). وقيل: كانوا يتحرجون من الأكل معهم؛ لأن الأعمى لايبصر الطيب من الطعام، والأعرج لايستطيع المزاحمة عليه، والمريض لايستطيع استيفاءه(٢). هـ.

﴿ولا على أنفسكم﴾ أي: لاحرج عليكم ﴿أن تأكلوا من بيوتكم﴾ أي: البيت الذي فيه أهل بيتكم؛ أزواجكم وعيالكم، فإذا كان للزوجة أو للولد هناك شيء منسوب إليهما فلا بأس للرجل بأكله؛ لأن الزوجين صارا كنفس واحدة، فصار بيت المرأة بيت الزوج. وقيل: المراد ببيوتكم: بيوت أولادكم، فجعل بيوت أولادهم بيوتهم؛ لأن ولد الرجل من كسبه، وماله كماله، لقوله عليه الصلاة والسلام: «أنت ومالك لأبيك»(٣)، ولذلك لم يذكر الأولاد في الآية؛ لاندراجهم في بيوتكم.

---

(١) أخرجه الواحدي في أسباب النزول(ص٣٤٠) عن سعيد بن المسيب، وعزاه في مجمع الزوائد (٧/٨٣) للبزار، وابن أبي حاتم وابن مردويه، وابن النجار، عن السيدة عائشة ـ رضي الله عنها. وقال الهيثمي: رجال البزار رجال الصحيح.

(٢) أخرجه الطبري (١٨/١٦٨) وذكره الواحدي في أسباب النزول (٣٣٩) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) أخرجه، من حديث جابر، ابن ماجة في (التجارات، باب ما للرجل من مال ولده، ح ٢٢٩١)، وأخرجه من حديث ابن مسعود، الطبراني في الأوسط (١/٢٢ ح ٥٧)، وأخرجه من حديث عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، الإمام أحمد في المسند (٢/٢٠٤)، وأبو داود في (البيوع / ح ٣٥٢٨ ـ ٣٥٢٩)، وابن ماجه في الموضع السابق ذكره (ح/ ٢٢٩٢).

ولاحرج عليكم أيضاً أن تأكلوا من ﴿بيوتِ آبائكم أو بيوتِ أمهاتكم أو بيوتِ إخوانكم﴾ الذكور ﴿أو بيوت أَخَواتكم﴾ النساء، ﴿أو بيوت أعمامكم أو بيوت عمَّاتكم أو بيوتِ أخوالكم أو بيوت خالاتكم﴾؛ لأن الإذن من هؤلاء ثابت؛ دلالة. واختلف العلماء فى إباحة الأكل من هذه البيوت المذكورة، فقيل: إنه منسوخ وإنه لايجوز الأكل من بيت أحد إلا بإذنه، والناسخ: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ﴾(١)، وقوله – عليه الصلاة والسلام –: «لايَحِلُّ مالُ امْرِئٍ مسلم إلا عن طِيبِ نفْسٍ»(٢). وقيل: محكمة، ومعناها: إذا أذنوا فى ذلك، وقيل: ولو بغير إذن، والتحقيق: هو التفصيل: فمن علُم منه طيب نفسه وفرحُه بذلك؛ بقرينةٍ: حلَّ أَكْلُ مالِه، ومَنْ لا؛ فلا.

﴿أو ما ملكتم مَّفَاتِحَه﴾ قال ابن عباس: هو وكيل الرجل وقيِّمه فى ضَيْعَته وماشيته، له أن يأكل من ثمرة ضيعته، ويشرب مِنْ لبن ماشيته. والمراد بملك المفاتح: كَوْنُهَا فى يده وتحت حَوْزِه. وقيّده ابن العربى بما إذا لم تكن له أجرة، وإن كانت له أجرة على فعله حَرُمَ، يعنى: إلا إذا علم طيب نَفْسِ صاحبه؛ فيدخل فى الصديق. وقيل: أريد به بيت عبْدِه؛ لأن العبد وما فى يده لمولاه.

﴿أو صَدِيقِكُمْ﴾ أى: أو بيوت أصدقائكم، والصديق يكون واحداً وجمعا، وهو من يصدقك فى مودته وتصدقه فى مودتك، يُؤلمه ما يؤلمك ويؤلمك ما يؤلمه، ويسرك ما يسره كذلك. وكان الرجل من السلف يدخل دار صديقه وهو غائب، فيسأل جاريته كيسَهُ فيأخذ ما شاء، فإذا حضر مولاها أعتقها سروراً بذلك، فأما الآن فقد غلب الشحّ فلا يأكل إلا بإذن. قاله النسفى(٣).

﴿ليس عليكم جُناحٌ أن تأكلوا جميعاً﴾: مجتمعين ﴿أو أشتاتاً﴾: متفرقين، جمع شَتّ، نزلت فى بنى ليث بن عمرو، كانوا يتحرّجُون أن يأكل الرجل وحده، فربما قعد منتظراً نهاره إلى الليل، فإذا لم يجد من يؤاكله من الضيفان أكَلَ أكْلَ ضرورة. وقيل: فى قوم من الأنصار كانوا إذا نزل بهم ضيف لايأكلون إلا مع ضيفهم، فرخص لهم أن يأكلوا كيف شاءوا. وقيل: فى قوم تحرجوا من الاجتماع على الطعام لاختلاف الناس فى الأكل، وزيادة بعضهم على بعض، فخيّرهم. وقيل: كان الغنى منهم إذا دخل على الفقير من ذوى قرابته وصداقته، ودعاه إلى طعام، فيقول: إنى أتحرج أن آكل معك، وأنا غنى وأنت فقير، فأباح لهم ذلك. والله تعالى أعلم.

---

(١) الآية ١٨٨ من سورة البقرة

(٢) أخرجه أحمد فى المسند (٥/٧٢) فى حديث خطبة الوداع الطويل، والبيهقى فى الكبرى (٦/١٠٠) عن أبى حرة الرقاشى، عن عمه. وأخرجه الديلمى (الفردوس ح ٧٦٣٥) والدارقطنى (٣/٢٦)، من حديث أنس بن مالك ﷺ.

(٣) انظر تفسير النسفى (٢/٥٢٠).

الإشارة: ليس على من عميَتْ بصيرتُه، فلم يرَ إلا الكون حرَج فى أن يقف مع رُخَصِ الشريعة، ويتناول كل ما تشتهيه نفسه، مما أباحته الشريعة، من غير تورع ولاتوقف ولاتبصر. وكذلك المريضَ القلب بالخواطر والأوهام، ومن عرَجت فكرته عن شهود الملكوت، فلا بأس لهؤلاء الضعفاء أن يقفوا مع العوائد والأسباب، ويتناولوا كل ما أباحته ظواهر الشريعة، وأما الأقوياء فلا يأخذون إلا ما تحققوا حلِّيَتَهُ، وفهموا عن الله فى أخذه وتركه، لفتح بصيرتهم وشدة تبصُّرهم.

وقال الورتجبى فى قوله: ﴿ليس على الأعمى حرج﴾: عماه الحقيقى ألا يطيق أن ينظر بطونَ الأزل والغيبَ وغيبَ الغيب. وهذا من قوله - عليه الصلاة والسلام - فى وصف جمال الحق سبحانه: «حجابه النور، لو كشفه لأحرقت سُبُحَاتُ وَجْهِهِ ما انتهى إليه بَصَرُهُ مِنْ خلقِهِ» . فجعله معذوراً ألا يدرك حق الحقيقة وحقيقة الحق؛ إذ يستحيل الحَدَثُ أن يحيط بالقدم أن كان واجباً معرفة الكل من حيث الحقوق لا من حيث التوحيد. هـ. ومراده ببطون الأزل: تجلياته تعالى، البارزة من وسط بحر جبروته الغيبى، وهى المراد بالغيب وغيب الغيب، فالأكوان كلها برزت من بحر الذات الأزلية والكنز الغيبى، لكنها، لما تجلت، كستها رداء الكبرياء، فمن فتحت بصيرته رأى الحق تعالى فيها، أو قبلها، أو معها، ومن عميت بصيرته لم يرَ إلا حس الأكوان الظُّلْمَانيةِ. والله تعالى أعلم.

ومذهب الصوفية فى تناول متاع بعضهم بعضاً هو ما قال القائل: «نَحْنُ: لاَ مَالٌ مَقْسُومٌ، وَلاَ سِرٌ مَكْتُومٌ، فَتَرِكَتُهُمْ لاتُقْسَمُ أبداً. دخل الجنيد بيْتَ بَعْضِ إخوانه، فوجد زوجته، فقال: هل عندك شيء نطعم به الفقراء؟ فأشارت إلى وعاء فيه تمر، لايملك غيره، فأفرغه على رأسه، فأكلوا، وأخذوا ما بقى، فلما جاء زوجها ذكرت له ذلك، فقال: الآن علمت أنه يُحبنى.

ثم أمر بالسلام بعد الاستئذان، فقال:

﴿ ... فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله : ﴿ فإذا دخلتم بيوتاً ﴾ من البيوت المذكورة أو غيرها بعد الإذن، ﴿ فسلِّموا على أنفسكم ﴾ أى: فابدأوا بالسلام على أهلها، الذين هم منكم، الذين هم بمنزلة أنفسكم؛ لما بينكم وبينهم من القرابة

الدينية أو النَّسَبِيَّة. أو بيوتاً فارغة، أو مسجداً، بأن تقولوا: السلام عليكم، أو السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، إن كانت خاوية. ﴿ تحيةً ﴾، مَنْ نَصَبَ فعلى المصدر لِسَلِّمُوا؛ لأنها فى معنى تسليماً، ﴿من عند الله﴾ أى: بأمره مشروعة من لدنه، أو لأنها طلب للسلامة، وهى بيد الله، ﴿ مباركةً ﴾: مستتبعة لزيادة الخير والثواب ودوامهما، ﴿ طيبةً ﴾: تطيب بها نفس المستمع. وعن أنس رضي الله عنه أنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ قال: «من لقيت أحداً من أمتى فسلم عليه، يَطُلْ عُمُرُكَ. وإذا دخلت بيتك فسلم عليهم يَكْثُرْ خَيْرُ بيتِك، وصل صلاة الضحى فإنها صلاة الأبرار الأوابين»(١).

﴿ كذلك يُبين الله لكم الآيات ﴾، تكرير؛ لتأكيد الأحكام المختتمة وتفخيمها، ﴿ لعلكم تعقلون ﴾: لكى تعقلوا ما فى تضاعيفها من الشرائع والأحكام، وتعملوا بموجبها، فتفوزوا بسعادة الدارين. والله تعالى أعلم.

الإشارة: السلام على النفس: هو طلب الأمان لها ومنها، فإذا سَلِمَتْ النفس من موجبات الغضب من الله، سَلِم صاحبها منها، قال القشيرى: السلامُ: الأمانُ، فسبيل المؤمن إذا دخل بيتاً أن يُسلِّمَ مِن الله على نَفْسه، يعنى: بأن يقول السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، وأن يطلب السلامة والأمان من الله تعالى، لِتسلَمَ نَفْسُه من الإقدام على ما لا يرضى الله، إذ لا يحل لمسلم أن يفْتُرَ لحظة عن الاستجارة بالله، بأن لايرفع عنه ظل عصمته بإدامة حِفظه مِن الاتصاف بمكروه الشرع. هـ.

ولَمَّا تكلم على الاستئذان فى الدخول، تكلم على الاستئذان فى الخروج، إذا كان مع كبير القوم، فقال:

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ﴾، إنما ذكر الإيمان بالله ورسوله فى حيز الصلة للموصول الواقع خبراً للمبتدأ، مع تضمنه له؛ تقريراً لِمَا قبله، وتمهيداً لما بعده، وإيذاناً بأن ما بعده حقيق بأن يُجْعَلَ قريناً للإيمان بهما ومنتظماً فى سلكه.

---

(١) أخرجه مطولاً، البيهقى فى شعب الإيمان (ح ٨٧٥٨)، وزاد المناوى عزوه فى الفتح السماوى (٢/٨٧٩) للثعلبى والجرجانى فى تاريخ جرجان، وسنده ضعيف.

﴿ وإذا كانوا معه على أمرٍ جامعٍ ﴾: عَطفٌ على (آمنوا)، دَاخلٌ فى حيز الصلة، أى: إنما الكاملون فى الإيمان: الذين آمنوا بالله ورسوله عن صميم قلوبهم، وأطاعوه فى جميع الأحكام والأحوال المطردة الوقوع، والأحوال الواقعة بحسب الاتفاق، كما إذا كانوا معه - عليه الصلاة والسلام - على أمر مُهم يجب الاجتماع فى شأنه؛ كالجمعة، والأعياد، والجهاد، وتدريب الحروب، وغيرها من الأمور الداعية إلى الاجتماع، ﴿ لم يذهبوا حتى يستأذنوه ﴾، ويأذن لهم، ولو كان الأمر يقوم بدونهم، ليتميز المخلص من المنافق، فإن دَيْدنه التسلل للفرار، ولتعظيم الجرم؛ لما فى الذهاب بغير إذنه ﷺ من الخيانة.

ولَمَّا أراد الحقُّ تعالى أَنْ يُرِيَهُمْ عِظَمَ الجنايةِ فى ذهاب الذاهب عن مجلس رسول الله ﷺ بغير إذنه، إذا كانوا معه على أمر جامع، جعل ترك ذهابهم والصبر معه، حتى يأذن لهم: ثالث الإيمان، وجعل الإيمان برسوله كالسبب له، والبساط لذكره، وذلك مع تصدير الجملة بـ «إنما، ثم عقبه بما يزيده توكيداً وتشديداً؛ حيث أعاده على أسلوب آخر، فقال: ﴿ إن الذين يستأذنوك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله ﴾، فقضَى بأن المستأذنين هم المؤمنون خاصة. وفى «أولئك»: من تفخيم المستأذنين، مالا يخفى، ﴿ فإذا استأذنوك ﴾ فى الانصراف ﴿ لبعض شأنهم ﴾ أى: أمرهم المهم وخطْبهم الملم. ﴿ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ منهم ﴾ لما علمت فى ذلك من مصلحة وحكمة.

وهذا بيان لما هو وظيفته ﷺ فى هذا الباب، إثر بيان ما هو وظيفة المؤمنين، وأن الإذن منه ـ عليه الصلاة والسلام ـ ليس بأمر محتوم، بل هو مفوّض إلى رأيه عليه الصلاة والسلام، وفيه مِنْ رَفْعِ شأنه ﷺ ما لا يخفى. والفاء: لترتيب ما بعدها على ما قبلها، أى: بعدما تحقق أن الكاملين فى الإيمان هم المستأْذِنُون.

﴿ فإذا استأذنوك لبعض شأنهم فَأْذَنْ لمن شئتَ منهم واستغفر لهم الله ﴾، فإن الاستئذان، وإن كان لعذر، فقد لايخلو من شائبة تقديم أمر الدنيا على أمر الآخرة، ففيه دليل على أن الصبر وترك الاستئذان أفضل. ﴿ إن الله غفور رحيم ﴾؛ مبالغ فى غفران فَرَطَاتِ العِبَاد، وفى إفاضة آثار الرحمة عليهم.

وما ذكره الحق تعالى فى شأن الصحابة مع الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ فى شأن الاستئذان ينبغى أن يكون كذلك مع أئمتهم ومقدّميهم فى العلم والدين، لايتفرقون عنهم إلا بإذن. والآية نزلت فى الخندق، كان المنافقون يرجعون إلى منازلهم من غير استئذان، فنزلت[1]. ويبقى حكمها عاماً إلى يوم القيامة. والله تعالى أعلم.

---

(١) عزاه السيوطى فى الدر المنثور (٥/ ١١٠) لابن إسحاق وابن المنذر، والبيهقى فى الدلائل، عن عروة ومحمد بن كعب القرظى.

الإشارة: من آداب الفقراء مع شيخهم ألا يتحركوا لأمر إلا بإذنه، أما أهل البدايات فيستأذنون فى الجليل والحقير، كقضية الفقير الذى وجد بَعْضَ البَاقِلاَّءِ – أى: الفول – فى الطريق، فأتى بها إلى الشيخ، فقال: يا سيدى مانفعل به؟ فقال: اتركه، حتى تفطر عليه، فقال بعض الحاضرين: يستأذنك فى الباقلاء؟ فقال: لو خالفنى فى أمر؛ لم يفلح أبداً. وأما أهل النهايات الذين عرفوا الطريق، واستشرفوا على عين التحقيق، وحصلوا على مقام الفهم عن الله، فلا يستأذنون إلا فى الأمر المهم؛ كالتزوج، والحج، ونحوهما. وَصَبْرُهُ حتى يأمره الشيخ بذلك أولى، فالمريد، بقدر ما يترك تدبيره مع الشيخ، ويتحقق بالتفويض معه قبل الوصول، كذلك يتركه ويتحقق تفويضه مع الله بعد الوصول.

فالأدب مع الشيخ هو الأدب مع الله، لكن لما كان من شأن العبد الجهل بالله وسوء الأدب معه أمره بالتحكيم لغيره من جنسه، فإذا حكم جنسه على نفسه قبل المعرفة حكم الله على نفسه بعد المعرفة. والتحكيم فى غاية الصعوبة على النفس، لايرضاها إلا من سبقت له الهداية، وجذبته جواذب العناية، أعنى الدخول تحت الشيخ وتحكيمَه على نفسه، حتى لايتحرك إلا بإذنه، فهذا سبب الوصول إلى مقام الشهود والعيان، فإذا فعل المريد شيئاً من غير استئذان فليتب وليطلب من الشيخ الاستغفار له. وينبغى للشيخ أن يقبل العذر ويسامح ويستغفر له، لقوله تعالى: ﴿واستغفر لهم الله إن الله غفور رحيم﴾، فالخليفة لرسول الله قائم مقامه، ونائب عنه فى رتبة التربية. والله تعالى أعلم.

ثم نهاهم عن التساهل فى ترك الاستئذان، فقال:

﴿ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٦٤﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ لاتجعلوا دُعاءَ الرسولِ بينكم كدُعَاءِ بعضِكم بعضاً ﴾ أى: إذا احتاج الرسول ﷺ إلى اجتماعكم لأمر جامع، فدعاكم، فلا تتفرقوا عنه إلا بإذنه، ولا تقيسوا دعاءه إياكم على دعاء بعضِكم

بعضا، ورجوعكم عن المجمع بغير إذن الراعى؛ لأن أمره - عليه الصلاة والسلام - وشأنه ليس كشأنكم. أو: لاتجعلوا دعاء الرسول على أحد، كدعاء بعضكم بعضا، فإنّ غضبه عليه ليس كغضبكم؛ لأن غضبه غضب الله، ودعاؤه مستجاب. وهذا يناسب ماقبله من جهه التحذير عن ترك الاستئذان، فإنّ من رجع بغير استئذان معرض لغضبه - عليه الصلاة والسلام - ودعائه عليه. أو: لاتجعلوا نداءه ﷺ كنداء بعضكم بعضاً؛ كندائه باسمه، ورفع الصوت عليه، وندائه من وراء الحُجرات، ولكن بلقَبه المعظم؛ يارسول الله، يانبى الله، مع غاية التوقير والتفخيم والتواضع وخفض الصوت.

قال القشيرى: أى: عظّموه فى الخطاب، واحفظوا حرمته وخدمته بالأدب، وعانقوا طاعته على مراعاة الهيبة والتوقير. هـ. فالإضافة، على الأولَيْن: للفاعل، وعلى الثالث؛ للمفعول، لكنه بعيد من المناسبة لما قبله ولما بعده فى قوله: ﴿ قد يعلم الله الذين يتسللون ﴾ أى: يخرجون قليلاً قليلاً على خِفْيَةٍ منكم، ﴿ لِوَاذًا ﴾ أى: ملاوذين، بأن يستتر بعضهم ببعض حتى يخرج، أو يلوذ بمن يخرج بالإذن؛ إراءة أنه من أتباعه. أو مصدر، أى: يلوذون لواذاً. واللواذ: الملاوذة، وهى التعلق بالغير، وهو أن يلوذ هذا بهذا فى أمر، أى: يتسللون عن الجماعة؛ خفية، على سبيل الملاوذة واستتار بعضهم ببعض.

ثم هددهم على المخالفة بقوله: ﴿ فليحذرِ الذين يخالفون عن أمره ﴾ أى: الذين يصدون عن أمره، يقال: خالفه إلى الأمر: إذا ذهب إليه دونه، ومنه : ﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ ﴾(١)، وخالفه عن الأمر: إذا صد عنه. والضمير: إما لله سبحانه، أو للرسول - عليه الصلاة والسلام -، وهو أنسب؛ لأنه المقصود بالذكر. والمعنى: فليحذر الذين يخالفون عن طاعته ودينه وسنّته، ﴿ أن تُصيبَهم فتنةٌ ﴾؛ محنة فى الدنيا؛ كقتل أو زلازل وأهوال، أو تسليط سلطان جائر، أو عدو، أو قسوة قلب، أو كثرة دنيا؛ استدراجاً وفتنة.

قال القشيرى: سعادة الدارين فى متابعة السُّنّة، وشقاوتهما فى مخالفتها، ومما يصيب من خالفها: سقوط حشمة الدين عن القلب. هـ.

﴿ أو يُصيبهم عذابٌ أليمٌ ﴾ فى الآخرة. والآية تدل على أن الأمر للإيجاب، وكلمة «أو»: لمنع الخلو، دون منع الجمع. وإعادة الفعل صريحاً؛ للاعتناء بالتهديد والتحذير.

---

(١) من الآية ٨٨ من سورة هود.

﴿أَلاَ إِنَّ لِلَّهِ ما في السموات والأرض﴾ من الموجودات، خلقاً وملكاً وتصرفاً، وإيجاداً وإعداماً، بدْءاً وإعادةً، و«ألاَ»: تنبيه على أن لايخالفوا من له ما في السموات والأرض. ﴿قد يعلمُ ما أنتم عليه﴾ أيها المكلّفون، من الأحوال والأوضاع، التى من جملتها الموافقةُ والمخالفةُ، والإخلاصُ والنفاقُ. وأدخل «قد»؛ ليؤكد علمه بما هم عليه، ومرجع توكيد العلم إلى توكيد الوعيد. والمعنى: أن جميع ما استقر فى السموات تحت ملكه وسلطانه وإحاطة علمه، فكيف يخفى عليه أحوال المنافقين، وإن اجتهدوا فى سترها؟! ﴿ويوم يُرجعون إليه﴾ أى: ويعلم يوم يُردون إلى جزائه، وهو يوم القيامة. والخطاب والغيبة فى قوله: ﴿قد يعلم ما أنتم عليه ويوم يرجعون إليه﴾ يجوز أن يكون للمنافقين، على طريق الالتفات، ويجوز أن يكون ﴿ما أنتم عليه﴾ عاماً، و﴿يُرجعون﴾ للمنافقين. ﴿فينبئهم﴾ حينئذ ﴿بما عملوا﴾ من الأعمال السيئة، التى من جملتها: مخالفة الأمر، ليرتب على ذلك الإنباء ما يليق به من التوبيخ والجزاء.

﴿والله بكل شيءٍ عليم﴾، لا يعزب عنه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء. رُوى عن ابن عباس رضي الله عنه: أنه قرأ سورة النور على المنبر فى الموسم، وفسرها على وجه لو سمعته الروم لأسلمت. هـ. وأما ما ورد فى فضل السور فموضوع، وقد غلط من ذكره من المفسرين. وبالله التوفيق.

الإشارة: شيوخ التربية خلفاء الرسول ﷺ فى القيام بالتربية النبوية، فيجب امتثال كل ما أمروا به، واجتناب كل ما نهوا عنه، فُهِمَ معناه أو لم يُفهم. فإذا كانوا مجموعين على أمر جامع لم يذهب أحد حتى يستأذن شيخه، ولا يكفى إِذْنُ بَعْضِ الفقراء، إلا إِنْ وَجَّهَهُ الشيخ لذلك، فلا يكون دعاء الشيخ كدعاء بعضكم بعضا فى التساهل فى مخالفة أمره، أو امتثال أمره. قد يعلم الله الذين يتسللون، فيفرون عنه؛ لِواذاً، فليحذر الذين يُخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة؛ كتسليط الدنيا عليه فتفتنه وتنسخ حلاوة الشهود من قلبه، أو يصيبهم عذاب أليم، وهو السلب بعد العطاء، والعياذ بالله من الزلل ومواقع الضلال. نسأل الله تعالى أن يثبت قدمنا على المنهاج الحق، وأن يميتنا على المحبة والتعظيم، ورسوخ القدم فى معرفة الرحمن الرحيم. آمين. وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد، النبى الكريم، وعلى آله وصحبه، وسلم.

سورة الفرقان

مكية. وهى سبع وسبعون آية. ومناسبتها لما قبلها: ما فى خاتمتها من تعظيم الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ وما افتتحت به من تعظيمه أيضًا؛ لكونه نذيراً للعالمين. وناسب قوله فى هذه: ﴿ الذى له ملك السموات والأرض ﴾، قوله فيما قبلها: ﴿ ألا إن لله ما في السموات والأرض ﴾[1].

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ تبارك ﴾ أى: تكاثر خيره وتزايد، أو: دام واتصل. وهى كلمة تعظيم لم تستعمل إلا لله، والمستعمل منها الماضى فقط، والتفاعل فيها للمبالغة. ومعناها راجع إلى ما يفيض سبحانه على مخلوقاته من فنون الخيرات، التى من جملتها: تنزيل القرآن، المنطوى على جميع الخيرات الدينية والدنيوية، أى: تعاظم ﴿ الذى نَزَّلَ الفرقانَ ﴾ أى: القرآن، مصدر فرق بين اثنين، إذا فصل بينهما. سمى به القرآن؛ لفصله بين الحق والباطل، والحلال والحرام، أو: لأنه لم ينزل جملة، ولكن مفروقاً مفصولاً بين أجزائه شيئاً فشيئاً، ألا ترى إلى قوله: ﴿ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ ﴾[2] ؟

أنزله ﴿ على عبده ﴾ محمد ﷺ ،وإيراده ـ عليه الصلاة والسلام ـ بذلك العنوان؛ لتشريفه، والإيذان بكونه فى أقصى مراتب العبودية، والتنبيه على أن الرسول لا يكون إلا عبداً للمُرسِل؛ رداً على النصارى. أنزله ﴿ ليكون ﴾ العبد المنزل عليه، أو الفرقان ﴿ للعالمين ﴾ من الثقلين، زاد بعضهم: والملائكة، أرسل إليهم ليتأدبوا بأدبه، حيث لم يقف مع مقام ولا حال، ويقتبسوا من أنواره، وهو حكمة الإسراء، وقيل: حتى إلى الحيوانات والجمادات، أُمرت بطاعته فيما يأمرها به، وبتعظيمه ـ عليه الصلاة والسلام ـ. وهذا كله داخل فى العالمين؛ لأن ما سوى الله كله عالم؛ كما تقدم فى الفاتحة. وعموم الرسالة من خصائصه ـ عليه الصلاة والسلام ـ. ﴿ نذيراً ﴾ أى: مخوِّفاً، وعدم التعرض للتبشير؛ لأن الكلام مسوق لأحوال الكفرة، ولا بشارة لهم.

---

(١) الآية الأخيرة من سورة النور. (٢) من الآية ١٠٦ من سورة الإسراء.

﴿ الذى له مُلكُ السموات والأرضِ ﴾ أى: له، خاصةً، دون غيره، لا استقلالاً ولا اشتراكاً. فالقهرية لازمة لهما، المستلزمة للقدرة التامة والتصرف الكلى، إيجاداً وإعداماً، وإحياءً وإماتةً، وأمراً ونهيا ، ﴿ ولم يتخذ ولداً ﴾ كما زعم اليهود والنصارى فى عزير والمسيح ـ عليهما السلام ـ، ﴿ ولم يكن له شريك في المُلْك ﴾ كما زعمت الثنوية القائلون بتعدد الآلهة، والرد فى نحورهم.

﴿ وخَلَقَ كلَّ شيء ﴾ أى: أحدث كل شيء وحده، لا كما تقول المجوس والثنوية من النور والظلمة. أى: أظهر كل شيء ﴿ فقدَّره ﴾ أى: فهيأه لِماَ أراد به من الخصائص والأفعال اللائقة به، ﴿ تقديراً ﴾ بديعاً، لايقادر قدره، ولا يُبلغ كنهه؛ كتهيئة الإنسان للفهم والإدراك، والنظر والتدبير فى أمور المعاش والمعاد، واستنباط الصنائع المتنوعة، والدلائل المختلفة، على وجود الصانع. أو: فقدَّره للبقاء إلى أبد معلوم. وأيًا ما كان، فالجملة تعليل لما قبلها، فإن خلقه تعالى لجميع الأشياء على ذلك الشكل البديع والنظام الرائق، وكل ما سواه تحت قهره وسلطانه، كيف يتوهم أنه ولد لله سبحانه، أو شريكٌ له فى ملكه. تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

الإشارة: عبَّر بالعبودية فى التنزيل والإسراء؛ إشارة إلى أن كل من تحقق بالعبودية الكاملة له حظ من تنزيل الفرقان على قلبه، حتى يفرق بين الحق والباطل، وحظ من الإسراء بروحه إلى عالم الملكوت والجبروت، حتى يعاين عجائب أسرار ربه. وما منع الناس من تنزل العلوم اللدنية على قلوبهم، ومن العروج بروحهم، إلا عدم التحقق بالعبودية الكاملة لربهم، حتى يكونوا مع مراده، لا مع مرادهم، لا يريدون إلا ما أراد، ولا يشتهون إلا ما يقضى، قد تحرروا من رقّ الأشياء، واتحدت عبوديتهم للواحد الأعلى. فإذا كانوا كذلك صاروا خلفاء الأنبياء، يُعرج بأرواحهم، ويُوحى إلى قلوبهم ما يفرقون به بين الحق والباطل، ليكونوا نُذراً لعالمى زمانه؛ قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيهَا نَذِيرٌ﴾(١). وبالله التوفيق.

ثم ردّ على أهل الشرك، فقال:

﴿ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾ ﴾

---

(١) الآية ٢٤ من سورة فاطر.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ واتخذوا ﴾ أى: الكفار المدرجون تحت العالمين المنذَرين، اتخذوا لأنفسهم ﴿ من دونه ﴾ تعالى ﴿ آلهة ﴾؛ أصناماً، يعبدونها ويستعينون بها، وهم ﴿ لا يَخْلُقون شيئاً ﴾ أى: لا يقدرون على خلق شيء من الأشياء، ﴿ وهم يُخْلَقُون ﴾ كسائر المخلوقات. والمعنى: أنهم آثروا على عبادة من هو منفرد بالألوهية والخلق، والملك والتقدير، عباداً عجزة، لا يقدرون على خلق شيء، وهم مخلوقون ومصورون. ﴿ ولا يملكون لأنفسهم ضَراً ولا نفعاً ﴾ أى: لا يستطيعون لأنفسهم دفع ضر عنها، ولا جلب نفع لها. وهذا بيان لغاية عجزهم وضعفهم؛ فإن بعض المخلوقين ربما يملك دفع ضر وجلب نفع فى الجملة، وهؤلاء لا يقدرون على شيء البتة، فكيف يملكون نفع مَنْ عبدَهم، أو ضرر من لم يعبدهم؟!

﴿ ولا يملكون موتاً ﴾ أى: إماتة ﴿ ولاحياةً ﴾ أى: إحياء ﴿ ولا نُشوراً ﴾؛ بعثاً بعد الموت، أى: لا يقدرون على إماتة حى، ولا نفخ الروح فى ميت، ولا بعث للحساب والعقاب. والإله يجب أن يكون قادراً على جميع ذلك. وفيه إيذان بغاية جهلهم، وسخافة عقولهم، كأنهم غير عارفين بانتفاء ما نُفى عن آلهتهم مما ذكر، مفتقرون إلى التصريح لهم بها. والله تعالى أعلم.

الإشارة: كل من ركن إلى غير الله، أو مال بمحبته إلى شيء سواه، فقد اتخذ من دونه إلهاً يعبده من دون الله. وكل من رفع حاجته إلى غير مولاه، فقد خاب مطلبه ومسعاه؛ لأنه تعلق بعاجز ضعيف، لا يقدر على نفع نفسه، فكيف ينفع غيره؟ وفى الحِكَم: «لا ترفعن إلى غيره حاجة هو موردها عليك، فكيف ترفع إلى غيره ما كان هو له واضعاً؟! من لا يستطيع أن يرفع حاجته عن نفسه، فكيف يكون لها عن غيره رافعاً؟».

قال بعض الحكماء: من اعتمد على غير الله فهو فى غرور؛ لأن الغرور ما لا يدوم، ولايدوم شيء سواه، وهو الدائم القديم، لم يزل ولا يزال، وعطاؤه وفضله دائمان، فلا تعتمد إلا على من يدوم عليك منه الفضل والعطاء، فى كل نفس وحين وأوان وزمان. هـ. وقال وهب بن منبه: أوحى الله تعالى إلى داود: يا داود؛ أما وعزتى وجلالى وعظمتى لا ينتصر بى عبد من عبادى دُون خلقى، أعلم ذلك من نيته، فتكيده السموات السبع ومن فيهن، والأرضون السبع ومن فيهن، إلا جعلت له منهن فرجًا ومخرجاً. أما وعزتى وجلالى لا يعتصم عبد من عبادى بمخلوق دونى، أعلم ذلك من نيته، إلا قطعت أسباب السموات من يده، وأسخت الأرض من تحته، ولا أبالى فى أى وادٍ هلك. هـ. وبالله التوفيق.

ولما ذكر شأن الفرقان، ذكر من طعن فيه وفيمن نزل عليه، فقال:

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوٓاْ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ

عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ﴿٥﴾ قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ
إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿٦﴾ وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي
فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ لَوۡلَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَلَكٞ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوۡ يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡهِ
كَنزٌ أَوۡ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٞ يَأۡكُلُ مِنۡهَاۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ
إِلَّا رَجُلٗا مَّسۡحُورًا ﴿٨﴾ ٱنظُرۡ كَيۡفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلۡأَمۡثَٰلَ فَضَلُّواْ فَلَا
يَسۡتَطِيعُونَ سَبِيلٗا ﴿٩﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وقال الذين كفروا ﴾ أي: تمردوا في الكفر والطغيان. قيل: هم النضر ابن الحارث، وعبد الله بن أمية، ونوفل بن خويلد، ومن ضاهاهم. وقيل: النضر فقط، والجمع؛ لمشايعة الباقين له في ذلك. قالوا: ﴿ إنْ هذا ﴾؛ ما هذا القرآن ﴿ إلا إفكٌ ﴾؛ كذب مصروف عن وجهه ﴿ افتراه ﴾؛ اختلقه واخترعه محمد من عند نفسه، ﴿ وأعانه عليه ﴾ أي: على اختلاقه ﴿ قومٌ آخرون ﴾، يعنون: اليهود، بأن يلقوا إليه أخبار الأمم الدارسة، وهو يعبر عنها بعبارته. وقيل: هم عدَّاس، ويسار (١)، وأبو فكيهة الرومي، كان لهم علم بالتوراة والإنجيل. ويحتمل: وأعانه على إظهاره وإشاعته قوم آخرون، ممن أسلم معه ﷺ.

قال تعالى: ﴿ فقد جاءوا ﴾، وأتوا ﴿ ظُلماً ﴾ أو: بظلم، فقد تستعمل (جاء) بمعنى فعل، فتتعدى تعديته، أو بحرف الجر، والتنوين للتفخيم، أي: جاءوا ظلماً هائلاً عظيماً؛ حيث جعلوا الحق البيِّن، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، إفكاً مفترى من قول البشر، وجعلوا العربي الفصيح يتلقى من العجمي الرومي، وهو من جهة نظمه الفائق وطرازه الرائق؛ لو اجتمعت الإنس والجن على مباراته لعجزوا عن مثل آية من آياته. ومن جهة اشتماله على الحكم العجيبة، المستتبعة للسعادات الدينية والدنيوية، والأمور الغيبية، بحيث لا يناله عقول البشر، ولا تفي بفهمه الفهوم، ولو استعملوا غاية القوى والقُدر. ﴿ و ﴾ أتوا أيضاً ﴿ زُوراً ﴾ أي: كذباً كثيراً، لا يبْلُغ غايتَه؛ حيث نسبوا إليه ﷺ ما هو بريء منه.

﴿ وقالوا أساطيرُ الأولين ﴾ أي: هو أحاديث المتقدمين، وما سطروه من خرافاتهم؛ كرُستم وغيره. جمع أسطار، أو: أسطورة، ﴿ اكتتبها ﴾؛ كتبها لنفسه، أو: استكتبها فكُتبت له، ﴿ فهي تُملى عليه ﴾ أي: تُلقى عليه من كتابه ﴿ بكرةً ﴾: أول النهار ﴿ وأصيلاً ﴾؛ آخره، فيحفظ ما يتلى عليه ثم يتلوه علينا. انظر هذه الجرأة العظيمة، قاتلهم الله، أنى يؤفكون؟

(١) في الأصول: سيار.

﴿ قل ﴾ يا محمد: ﴿ أنزله الذى يعلم السرَّ في السموات والأرضِ ﴾ أى: يعلم كل سر خفى فى السماوات والأرض، يعنى: أن القرآن، لما اشتمل على علم الغيوب، التى يستحيل عادة أن يعلمها محمد ﷺ من غير تعلم إلهى، دلَّ على أنه من عند علام الغيوب، أى: ليس ذلك مما يُفْتَرَى ويختلق، بإعانة قوم، وكتابة آخرين؛ من الأحاديث والأساطير المتقدمة، بل هو أمر سماوي، أنزله الذى لا يعزب عن علمه شيء، أودع فيه فنون الحِكَم والأحكام، على وجه بديع، لا تحوم حوله الأفهام، حيث أعجزكم قاطبة بفصاحته وبلاغته، وأخبركم بأمور مغيبات، وأسرار مكنونات، لا يهتدى إليها ولا يوقف عليها إلا بتوقيف العليم الخبير، ثم جعلتموه إفكاً مفترى، واستوجبتم بذلك أن يصبَّ عليكم العذاب صباً، لولا حِلمه ورحمته، ﴿ إنه كان غفوراً رحيماً ﴾؛ فأمهلكم، ولم يعاجلكم بالعقوبة. وهو تعليل لما هو المشاهد من تأخير العقوبة عنهم، أى: كان أزلاً وأبداً مستمراً على المغفرة والرحمة، فلذلك لم يعاجلكم بالعقوبة على ما تقولون فى حقه وفى حق رسوله، مع كمال اقتداره.

ثم ذكر طعنهم فيمن نُزِل عليه، فقال: ﴿ وقالوا مَالِ هذا الرسولِ ﴾ وقعت اللام فى المصحف مفصولة عن الهاء، وخط المصحف سُنّة لا يغير. وتسميتهم إياه بالرسول سخرية منهم، كأنهم قالوا: أى شيء لهذا الزاعم أنه رسول؛ يأكل الطعام كما تأكلون، ويمشى فى الأسواق لابتغاء الأرزاق كما تمشون، أى: إن صح ما يدعيه فما له لم يخالف حالنا؟! ﴿ لولا أُنزل إليه ملَكَ ﴾ على صورته ﴿ فيكونَ معه نذيراً ﴾، وهذا منهم تنزل عن اقتراح كونه ﷺ ملكاً مستغنياً عن المادة الحسية، إلى اقتراح أن يكون معه ملك يُصدقه، ويكون ردءاً له فى الإنذار، ويُعبر عنه، ويفسر ما يقوله للعامة.

﴿ أو يُلْقَى إليه كنزٌ ﴾ من السماء، يستغنى به عن طلب المعاش معنا، ﴿ أو تكونُ له جنةٌ ﴾؛ بستان ﴿ يأكل منها ﴾ كالأغنياء المياسير. والحاصل: أنهم أول مرة ادعوا أن الرسول لا يكون إلا كالملائكة، مستغنياً عن الطعام والشراب، وتعجبوا من كون الرسول بشراً، ثم تنزلوا إلى اقتراح أن يكون إنساناً معه ملك يُصدقه ويعينه على الإنذار، ثم تنزلوا إلى اقتراح أن يكون معه كنز، يستظهر به على نوائبه، ثم تنزلوا إلى اقتراح أن يكون رجلاً له بستان يأكل منه، كالمياسير، أو نأكل نحن منه، على قراءة حمزة والكسائى.

قال تعالى: ﴿ وقال الظالمون ﴾ وهم الكفرة القائلون ما تقدم، غير أنه وضع الظاهر موضع المضمر، تسجيلاً عليهم بالظلم وتجاوز الحد فيه. وهم كفار قريش، أى: قالوا للمؤمنين: ﴿ إن تتبعون ﴾؛ ما تتبعون ﴿ إلا رجلاً مسحوراً ﴾؛ قد سُحر فغلب على عقله، ﴿ انظر كيف ضربوا لك الأمثال ﴾ أى: انظر كيف قالوا فى حقك تلك الأقاويل العجيبة، الخارجة عن العقول، الجارية؛ لغرابتها، مجرى الأمثال، واخترعوا لك تلك الصفات والأحوال الشاذة، البعيدة عن الوقوع؟! ﴿ فضلّوا ﴾ عن طريق الجادة ﴿ فلا يستطيعون سبيلاً ﴾؛ فلا يجدون طريقاً إليه، أو: فلا يجدون سبيلاً إلى القدح فى نبوتك، بأن يجدوا قولاً يستقرون عليه، أو: فضلّوا عن الحق ضلالاً مبيناً، فلا

يجدون طريقاً موصلاً إليه، فإن من اعتاد استعمال هذه الأباطيل لا يكاد يهتدى إلى استعمال المقدمات الموصلة إلى الرشد والصواب. وبالله التوفيق.

الإشارة: تكذيب الصادقين سُنَّة ماضية، فإن سمع أهل الإنكار منهم علوماً وأسراراً قالوا: ليست من فيضه، إنما نقلها عن غيره، وأعانه على إظهارها قومٌ آخرون، قل: أنزلها على قلوبهم الذى يعلم السر فى السماوات والأرض، إنه كان غفوراً رحيماً، حيث ستر وصفهم بوصفه ونعتهم بنعته، فوصلهم بما منه إليهم، لا بما منهم إليه. وقوله تعالى: ﴿مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق﴾، أنكروا وجود الخصوصية مع وصف البشرية، ولا يلزم من وجود الخصوصية عدم وصف البشرية، كما تقدم مراراً. والله تعالى أعلم.

ثم رد الله تعالى عليهم، فقال:

﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِيٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيۡرٗا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَيَجۡعَل لَّكَ قُصُورَۢا ﴿١٠﴾ بَلۡ كَذَّبُواْ بِٱلسَّاعَةِۖ وَأَعۡتَدۡنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَتۡهُم مِّن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظٗا وَزَفِيرٗا ﴿١٢﴾ وَإِذَآ أُلۡقُواْ مِنۡهَا مَكَانٗا ضَيِّقٗا مُّقَرَّنِينَ دَعَوۡاْ هُنَالِكَ ثُبُورٗا ﴿١٣﴾ لَّا تَدۡعُواْ ٱلۡيَوۡمَ ثُبُورٗا وَٰحِدٗا وَٱدۡعُواْ ثُبُورٗا كَثِيرٗا ﴿١٤﴾ قُلۡ أَذَٰلِكَ خَيۡرٌ أَمۡ جَنَّةُ ٱلۡخُلۡدِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۚ كَانَتۡ لَهُمۡ جَزَآءٗ وَمَصِيرٗا ﴿١٥﴾ لَّهُمۡ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعۡدٗا مَّسۡـُٔولٗا ﴿١٦﴾ ﴾

قلت: (جنات): بدل من خيراً، و(يجعل)، من جزمه عطفه على محل جواب الشرط، ومن رفعه فعلى الاستئناف، أى: وهو يجعل لك قصوراً، ويجوز عطفه على الجواب؛ لأن الشرط إذا كان ماضياً جاز فى الجواب الرفع والجزم، كما هو مقرر فى محله.

يقول الحق جل جلاله: ﴿تبارك﴾ أى: تكاثر وتزايد خيره ﴿الذى إن شاء جَعَلَ لك﴾ فى الدنيا ﴿خيراً﴾ لك ﴿من ذلك﴾ الذى اقترحوه؛ من أن يكون لك جنة تأكل منها؛ بأن يجعل لك مثل ما وعدك فى الجنة، ﴿جناتٍ تجرى من تحتها الأنهارُ﴾، فإنه خير من جنة واحدة من غير أنهار، كما اقترحوا، ﴿ويجعلْ لك

قصوراً ﴾؛ وغرفاً في الدنيا، كقصور الآخرة، لكن لم يشأ ذلك؛ لأن الدنيا لا تسع ما يعطيه تعالى لخواص أحبابه في الآخرة؛ لأنها ضيقة الزمان والمكان.

وعدم التعرض لجواب الاقتراحين الأولين، وهو إنزال الملك وإلقاء الكنز؛ لظهور بطلانهما ومنافاتهما للحكمة التشريعية، وإنما الذي له وجه في الجملة هو الاقتراح الأخير؛ فإنه غير مناف للحكمة بالكلية، فإن بعض الأنبياء ـ عليهم السلام ـ قد أُوتوا مع النبوة مُلكاً عظيما، لكنه نادر.

ثم أضرب عن توبيخهم بحكاية جناياتهم السابقة، وانتقل إلى توبيخهم بحكاية جناية أخرى، فقال: ﴿ بل كذَّبوا بالساعة ﴾ أي: بل أتوا بأعجب من ذلك كله، وهو تكذيبهم بالساعة. ويحتمل أن يكون متصلاً بما قبله، كأنه قال: بل كذبوا بالساعة، وكيف يلتفتون إلى هذا الجواب، وكيف يصدقون بتعجيل مثل ما وعدك في الآخرة، وهم لا يؤمنون بها؟ ثم تخلص إلى وبال من كذّب بها، فقال: ﴿ وأعتدنا لمن كَذَّبَ بالساعة سعيراً ﴾ أي: وهيأنا للمكذبين بها ناراً شديدة الإسعار، أي: الاشتعال. ووضع الموصول موضع ضمير «هم»، أو: لكل من كذب بها كائناً من كان، ويدخلون هم في زمرتهم دخولاً أولياً. ووضع الساعة موضع ضميرها؛ للمبالغة في التشنيع.

﴿ إذا رَأَتْهُم ﴾ أي: النار، أي: قابلتهم ﴿ من مكان بعيد ﴾؛ بأن كانت منهم بمرأى للناظرين في البُعد، كقوله ﷺ في شأن المؤمن والكافر: «لا تترآءى نَارَاهُمَا»(١)، أي: لا يتقاربان بحيث تكون إحداهما بمرأى من الأخرى. ﴿ سمعوا لها تغيُّظاً وزفيراً ﴾ أي: سمعوا صوت غليانها. شبه ذلك بصوت المتغيظ والزفير، وهو صوت من جوفه. ولا يبعد أن يخلق الله فيها الإدراك فتتغيظ وتزفر. وقيل: إن ذلك من زبانيتها، نُسب إليها، وهو بعيد.

﴿ وإذا أُلقُوا منها ﴾؛ من النار ﴿ مكانًا ضيِّقًا ﴾ أي: في مكان ضيق؛ لأن الكرب يعظم مع الضيق، كما أن الروح يعظم مع السعة، وهو السر في وصف الجنة بأن عرضها السماوات والأرض. وعن ابن عباس وابن عمر ـ رضي الله عنهما: (تضيق جهنم عليهم، كما يضيق الزجُّ(٢) على الرمح). وسئل النبي ﷺ عن ذلك فقال: «والذي نفسي بيده إنهم ليُستكرهون في النار كما يُستكره الوتد في الحائط» حال كونهم ﴿ مُقَرَّنين ﴾ أي: مسلسلين، أي: مقرونين في السلاسل، قُرنت أيديهم إلى أعناقهم في الأغلال. أو: يقرن مع كل كافر شيطانه في سلسلة، وفي أرجلهم الأصفاد. فإذا أُلقوا في الضيق، على هذا الوصف، ﴿ دَعَوا هنالك ﴾ أي: في ذلك المكان الهائل والحالة الفظيعة، ﴿ ثُبُوراً ﴾ أي: هلاكا، بأن يقولوا: واثبوراه؛ هذا حينُك فتعال، فيتمنون الهلاك ليستريحوا، فيقال لهم: ﴿ لا تدعوا اليوم ثُبوراً واحداً وادعوا ثُبوراً كثيراً ﴾ أي: لا تدعوا بالهلاك على أنفسكم مرة واحدة،

(١) سبق تخريجه عند تفسير الآية ٥٢ من سورة المائدة.
(٢) الزُّجّ: الحديدة التي تركب في أسفل الرمح... اللسان (زجج، ٣/١٨١١).

ودعاءً واحداً، بل ادعوا دعاء متعدداً بأدعية كثيرة، فإن ما أنتم عليه من العذاب، لغاية شدته وطول مدته، مستوجب لتكرر الدعاء فى كل أوان. وهو يدل على فظاعة العذاب وهوله.

وأما ما قيل من أن المعنى: إنكم وقعتم فيما ليس ثبوركم فيه واحداً، وإنما هو ثبور كثير، إما لأن العذاب أنواع وألوان، كل نوع منها ثبور؛ لشدته وفظاعته، أو: لأنهم كلما نضجت جلودهم بُدلوا غيرها، فلا غاية لها، فلا يلائم المقام. انظر أبا السعود. وعن أنس رضي الله عنه قال: قال النبى ﷺ: «أولُ من يُكْسَى حلّةً من النار إبليسُ، فيضعُها على حاجبيه، ويسحبُها من خلفه، وذُريتُه من بعده، وهو يقول: يا ثُبوراه، وهم يجاوبونه: يا ثُبورهم، حتى يقفُوا على النار، فيقال لهم: لا تدعوا ثبوراً واحداً..»(١).

﴿ قلْ ﴾ لهم يا محمد؛ تقريعًا لهم وتهكماً بهم، وتحسراً على ما فاتهم: ﴿ أذلك خيرٌ ﴾، والإشارة إلى السعير، باعتبار اتصافها بما فُصِّل من الأحوال الهائلة، وما فيه من معنى البُعد؛ لكونها فى الغاية القاصية من الهول والفظاعة. أى: قل لهم أذلك الذى ذكر من السعير، التى أعدت لمن كذب بالساعة، وشأنها كيت وكيت؛ خير ﴿ أم جنةُ الخُلد التى وُعِدَ المتقون ﴾ أى: وعدها الله المتقين؟ وإنما قال: «أذلك خير»، ولاخير فى النار؛ تهكماً بهم، كما تقدم، وإضافة الجنة إلى الخلد؛ للمدح، وقيل: للتمييز عن جنات الدنيا. والمراد بالمتقين: المتصفون بمطلق التقوى، لا بغايتها. ﴿ كانت ﴾ تلك الجنة ﴿ لهم ﴾ فى علم الله تعالى، أو فى اللوح، ﴿ جزاءً ﴾ على أعمالهم، ﴿ ومصيراً ﴾ يصيرون إليه بعد الموت.

﴿ لهم فيها ما يشاؤون ﴾ من فنون الملاذ والمشتهيات، وأنواع النعيم والخيرات، كقوله تعالى: ﴿ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ ﴾(٢)، ولعل كل فريق منهم يقنع بما أتيح له من درجات النعيم، ولا تمتد أعناق هممهم إلى ما فوق ذلك من المراتب العالية. فلا يلزم الحرمان، ولا تساوى أهل الجنان. حال كونهم ﴿ خالدين ﴾ لا يفنون، ولا يفنى ماهم فيه، ﴿ كان على ربك وعداً مسئولاً ﴾ أى: موعوداً حقيقاً بأن يُسْأَلَ ويُطلب؛ لكونه مما يتنافس فيه المتنافسون، أو: مسئولا لا يسأله الناس فى دعائهم، بقولهم: ﴿ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ ﴾(٣) أو: تسأله الملائكة بقولهم: ﴿ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُم ﴾(٤)، وما فى «على» من معنى الوجوب، لامتناع الخُلْف فى وعده تعالى، فكأنه أوجبه على نفسه؛ تفضلاً وإحسانا. وفى التعرض لعنوان الربوبية؛ مع الإضافة إلى ضميره ﷺ؛ من تشريفه والإشعار بأنه ﷺ هو أول الفائزين بمغانم هذا الوعد الكريم ما لا يخفى. قاله أبو السعود.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى المسند (٣/١٥٢)، والطبرى (١٨/١٨٨)، والحديث صححه الهيثمى فى المجمع (١٠/٣٩٢).
(٢) من الآية ٧١ من سورة الزخرف. (٣) من الآية ١٩٤ من سورة آل عمران. (٤) من الآية ٨ من سورة غافر.

الإشارة: تبارك الذى إن شاء جعل ذلك خيراً من ذلك، وهى جنة المعارف المعجلة، تجرى من تحتها أنهار العلوم وفيض المواهب، ويجعل لك قصورا تنزل فيها، ثم ترحل عنها، وهى منازل السائرين ومقامات المقربين، إلى أن تسكن فى محل الشهود والعيان، وهو العكوف فى حضرة الإحسان. بل كذَّبوا بالساعة، أى: من تنكب عن هذا الخير الجسيم، إنما سببه أنه فعل فعْل من يُكذب بالساعة؛ من الانهماك فى الدنيا، والاشتغال بها عن زاد الآخرة. وأعتدنا لمن فعل ذلك سعيراً، أى: إحراقاً للقلب بالتعب، والحرص، والجزع، والهلع، والإقبال على الدنيا، إذا قابلتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيُّظاً وزفيرا؛ غيظاً على طلابها، حيث آثروها على ما فيه رضا مولاها، وإذا ألقوا فى أشغالها، وضاق عليهم الزمان فى إدراكها، دعوا بالويل والثبور، وذلك عند معاينة أعلام الموت، والرحيل إلى القبور، ولا ينفعهم ذلك. قل: أذلك خير أم جنةُ الخلد؟، وهى جنة المعارف، التى وُعد المتقون لكل ما سوى الله، كانت لهم جزاء على مجاهدتهم وصبْرهم، ومصيراً يصيرون إليها بأرواحهم وأسرارهم. لهم فيها ما يشاؤون؛ لكونهم حينئذ أمرهم بأمر الله، كان على ربك وعداً مسئولاً، أى: مطلوباً للعارفين والسائرين. وبالله التوفيق.

ثم شرح ما يلقى أهل التكذيب من الهول والفظاعة، فقال:

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ
عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ
أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ
وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا
وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾ ﴾

قلت: «اتخذ» قد يتعدى إلى مفعول واحد، كقوله: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً﴾(١)، وقد يتعدى إلى مفعولين، كقوله: ﴿واتخذ اللهُ إبراهيمَ خليلا﴾(٢)، فقرأ الجمهور: (أن نَتَّخِذَ)؛ بالبناء لفاعل. وقرأ الحسن وأبو جعفر بالبناء للمفعول(٣). فالقراءة الأولى على تعديته لواحد، والثانية على تعديته لاثنين. فالأول: الضمير فى (نتخذ)، والثانى: (من أولياء). و(من): للتبعيض، أى: ما ينبغى لنا أن نتخذ بعضَ أولياءِ من دونك؛ لأن «من» لا تزاد فى المفعول الثانى، بل فى الأول، تقول: ما اتخذت من أحد ولياً، ولا تقول: ما اتخذت أحداً من ولي. وأنكر القراءة أبوعمرو بن العلاء وغيره، وهو محجوج؛ لأن قراءة أبى جعفر من المتواتر.

---

(١) من الآية ٨ من سورة الأنبياء (٢) من الآية ١٢٥ من سورة النساء. (٣) أى: (نُتَّخَذ)؛ بضم النون وفتح الخاء.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ و ﴾ اذكر ﴿ يوم نحشرهم ﴾(١)، أو: يوم يحشرهم الله جميعًا للبعث والحساب، يكون ما لا تفى به العبارة من الأهوال الفظيعة والأحوال الغريبة، فيحشرهم ﴿ وما يعبدون مِن دون الله ﴾؛ من الملائكة والمسيح وعزير. وعن الكلبى: الأصنام؛ يُنطقها الله، وقيل: عام فى الجميع. و(ما): يتناول العقلاء وغيرهم؛ لأنه أريد به الوصف، كأنه قيل: ومعبودهم. ﴿ فيقول ﴾ الحق جل جلاله للمعبودين، إثر حشر الكل؛ تقريعًا للعَبَدة وتبكيتًا: ﴿ أأنتم أَضْلَلْتُمْ عبادِى هؤلاء ﴾، بأن دعوتموهم إلى عبادتكم، ﴿ أم هم ضلُّوا السبيل ﴾ أى: عن السبيل بأنفسهم؛ بإخلالهم بالنظر الصحيح، وإعراضهم عن الرشد.

وتقديم الضميريْن على الفعلين بحيث لم يقل: أضللتم عبادى هؤلاء أم ضلوا السبيل؛ لأن السؤال ليس عن نفس الفعل، وإنما هو عن متوليه والمتصدى له، فلابد من ذكره، وإيلائه حرف الاستفهام.؛ ليعلم أنه المسئول عنه. وفائدة سؤالهم، مع علمه تعالى بالمسئول عنه؛ لأن يجيبوا بما أجابوا به؛ حتى يُبكت عبدتهم بتكذيبهم إياهم، فتزيد حسرتهم.

﴿ قالوا ﴾ فى الجواب: ﴿ سبحانك ﴾؛ تعجبيًا مما قيل، لأنهم إما ملائكة معصومون، أو جمادات لا تنطق ولاقدرة لها على شيء، أو: قصدوا به تنزيهه عن الأنداد، ثم قالوا: ﴿ ما كان ينبغى لنا ﴾ أى: ما صح وما استقام لنا ﴿ أن نتخذ من دونك ﴾ أى: متجاوزين إياك، ﴿ من أولياء ﴾ نعبدهم؛ لِمَا قام بنا من الحالة المنافية له، فأنّى يُتَصَوَّرُ أن نحمل غيرنا على أن يتخذوا غيرك، فضلاً أن يتخذونا أولياء، أو: ما كان يصح لنا أن نتولى أحداً دونك، فكيف يصح لنا أن نحمل غيرنا أن يتولونا دونك حتى يتخذونا أربابًا من دونك، ﴿ ولكن متَّعتهم وآباءهم ﴾ بالأموال والأولاد وطول العمر، فاستغرقوا فى الشهوات، وانهمكوا فيها ﴿ حتى نَسُوا الذكر ﴾ أى: غفلوا عن ذكرك، وعن الإيمان بك، واتباع شرائعك، فجعلوا أسباب الهداية؛ من النعم والعوافى، ذريعة إلى الغواية. ﴿ وكانوا ﴾، فى قضائك وعلمك الأزلى، ﴿ قوماً بُوراً ﴾؛ هالكين، جمع: بائر، كعائذ وعوذ.

ثم يقال للكفار بطريق الالتفات: ﴿ فقد كَذَّبوكم بما تقولون ﴾، وهو احتجاج من الله تعالى على العبدة؛ مبالغة فى تقريعهم وتبكيتهم؛ على تقدير قول مرتب على الجواب، أى: فقال الله جل جلاله عند ذلك للعبدة: فقد كذبكم المعبودون أيها الكفرة، ﴿ بما تقولون ﴾ أى: فى قولكم: هؤلاء أضلونا. والباء بمعنى «فى»، وعن قنبل: بالياء، والمعنى: فقد كذبوكم بقولهم: (سبحانك ما كان ينبغى لنا أن نتخذ من دونك من أولياء)، والباء حينئذ كقولك: كتبت بالقلم.

---

(١) قرأ ابن كثير وأبو جعفر ويعقوب وحفص: «يحشرهم»؛ بالياء، وقرأ الباقون بالنون.. انظر الإتحاف (٢/٣٠٦).

﴿ فما يستطيعون ﴾(١)؛ فما يملكون ﴿ صَرْفاً ﴾؛ دفعاً للعذاب عنكم ﴿ ولا نصراً ﴾ أي: فرداً من أفراد النصر. والمعنى: فما تستطيع آلهتكم أن يصرفوا عنكم العذاب أو ينصروكم. وعن حفص بالتاء، أي: فما تستطيعون أنتم أيها الكفرة صرفاً للعذاب عنكم، ولا نصر أنفسكم.

ثم خاطب المكلّفين على العموم فقال: ﴿ ومن يَظْلِمْ منكم ﴾؛ يشرك، بدليل قوله: ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾(٢)؛ لأن الظلم: وضع الشيء في غير محله، ومن جعل المخلوق شريكاً لخالقه فقد ظلم ظلماً عظيماً. أي: ومن يظلم منكم أيها المكلفون، كدأب هؤلاء الكفرة، حيث ركبوا متن المكابرة والعناد، واستمروا على الملاجة والفساد، ﴿ نُذِقْهُ ﴾ في الآخرة ﴿ عذاباً كبيراً ﴾ لا يقادر قدره، وهو الخلود في النار، والعياذ بالله.

الإشارة: كل من عشق شيئاً وأحبه من دون الله فهو عابد له، فرداً أو متعدداً، فيُحشر معه يوم القيامة، فيقال لهم: أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء، أم هم ضلوا السبيل؟ فيتبرؤون منهم، ويقولون: بل متعتهم بالدنيا، وألهيتهم عن الذكر والتفكر والاعتبار، أو عن الشهود والاستبصار، حتى نسوا ذكر الله، وكانوا قوماً بوراً. وقد ورد: (أن الدنيا تُبعث يوم القيامة على هيئة عجوز شمطاء زرقاء، فتنادي: أين أولادي؟ فيجمعون لها كرهاً، فتقدمهم، فتوردهم النار). وقوله تعالى: ﴿ ومن يظلم منكم ﴾ أي: يخرج عن حد الاستقامة في العبودية، وشهود عظمة الربوبية، نُذقه عذاباً كبيراً، وهو ضرب الحجاب على سبيل الدوام، إلا وقتاً مخصوصاً مع العوام. وبالله التوفيق.

ثم أجاب الحق تعالى عن قول الكفرة: (مَالِ هذا الرسول يأكل الطعام...) إلخ، فقال:

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾ ﴾

قلت: كُسرت (إنّ)؛ لأجل اللام في الخبر. والجملة بعد (إلا): صفة لمحذوف، أي: وما أرسلنا قبلك أحداً من المرسلين إلا آكلين وماشين، وإنما حذف؛ اكتفاء بالجار والمجرور، يعني من المرسلين، وهو كقوله تعالى: ﴿ وَمَا مِنَّا إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ ﴾(٣)، أي: وما منا أحد. وقيل: هي حال، والتقدير: إلا وأنهم ليأكلون.

يقول الحق جل جلاله، في جواب المشركين عن قولهم: ﴿ مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ ﴾(٤)؛ تسلية لنبيه ﷺ: ﴿ وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا ﴾ وَصِفَتُهُمْ ﴿ إنهم ليأكلون ﴾؛ بشر

(١) قرأ حفص (فما تستطيعون) بالتاء من فوق، على خطاب العابدين. وقرأ الباقون بالياء على الغيب، على إسناده إلى المعبودين. انظر الإتحاف (٢/٣٠٧).

(٢) من الآية ١٣ من سورة لقمان. (٣) من الآية ١٦٤ من سورة الصافات. (٤) من الآية ٧ من سورة الفرقان.

يأكلون ﴿ الطعامَ ﴾، مفتقرون إليه فى قيام بنيتهم، ﴿ ويمشون فى الأسواق ﴾ فى طلب حوائجهم، فليس ببدع أن تكون أنت كذلك، ﴿ وجعلنا بعضكم لبعض فتنةً ﴾ أى: محنة، وهو كالتعليل لما قبله، أى: إنما جعلت الرسل مفتقرين للمادة، وفقراء من المال، يمشون فى الأسواق لطلب المعاش؛ ابتلاء، وفتنة، واختباراً لمن تبعهم، من غير طمع، ولم يعرض عنهم لأجل فقرهم، فقد جعلت بعضكم لبعض فتنة. قال ابن عباس: أى: جعلت بعضكم بلاءً لبعض؛ لتصبروا على ما تسمعون منهم، وترون من خلافهم، وتتبعوا الهدى بغير أن أعطيكم عليه الدنيا، ولو شئتُ أن أجعل الدنيا مع رسلى، فلا يخالَفون، لفعلت، ولكن قدرت أن أبتلى العباد بكم وأبتليكم بهم(١). هـ.

فالحكمة فى فقر الرسل من المال: تحقيق الإخلاص لمن تبعهم، وإظهار المزية لهم؛ حيث تبعوهم بلا حرف. قال النسفي: أو جعلناك فتنة لهم؛ لأنك لو كنت صاحب كنوز وجنات لكانت طاعتهم لأجل الدنيا، أو ممزوجة بالدنيا، فإنما بعثناك فقيراً؛ لتكون طاعة من يطيعك خالصة لنا. هـ.

قال فى الحاشية: وقد قيل: إن الدنيا دار بلاء وامتحان، فأراد تعالى أن يجعل بعض العبيد فتنة لبعض، على العموم فى جميع الناس: مؤمن وكافر، بمعنى: أن كل واحد مُختبَرٌ بصاحبه، فالغنى ممتحن بالفقير، عليه أن يواسيه ولايسخر منه. والفقير ممتحن بالغنى، عليه ألا يحسده، ولا يأخذ منه إلا ما أعطاه، وأن يصبر كل واحد منهما على الحق الذى عليه، وتوجه إليه من ذلك؛ لأن الدار دار تكليف بموجبات الصبر، وقد جعل تعالى إمهال الكفار والتوسعة عليهم؛ فتنة للمؤمنين، واختباراً لهم. ولمّا صبروا نزل فيهم: ﴿ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا ﴾(٢). والحاصل: أن الله تعالى دبّر خلقه، وخص كلاً بما شاء، من غِنىً أو فقر، أو علم أو جهل، أو نبوة أو غيرها. وكذا سائر الخصوصيات؛ ليظهر من يسلّم له حُكمه وقسمته، ومن ينازعه فى ذلك، ومن يؤدى حق ما توجه عليه من ذلك؛ فيكون شاكراً صابرا، ومن لا، و هو أعلم بحكمته فى ذلك، ولذلك قال: ﴿ وكان ربك بصيراً ﴾. هـ.

وقال مقاتل: نزلت فى أبى جهل، والوليد بن عتبة، والعاص، حين رأوا أبا ذر وعماراً وصهيباً، وغيرهم من فقراء المسلمين، قالوا: أنسلم؛ فنكون مِثل هؤلاء؟ فنزلت الآية، تخاطب هؤلاء المؤمنين: أتصبرون على هذه الحالة من الشدة والفقر؟ هـ.

قال النسفى: أتصبرون على هذه الفتنة فتؤجروا، أم لا تصبرون فيزداد غمكم؟ حكى أن بعض الصالحين تبرّم بضنك عيشه، فخرج ضجراً، فرأى [خصياً فى](٣) مواكب ومراكب، فخطر بباله شىء، فإذا بقارئ يقرأ هذه الآية، فقال: بل نصبر، ربّنا. هـ.

---

(١) انظر تفسير البغوى ٦/٧٧. (٢) من الآية ١١١ من سورة المؤمنون.

(٣) في الأصول المخطوطة [فى حصباء]، والمثبت هو الذى فى تفسير النسفى.

قال القشيري: هو استفهام بمعنى الأمر، فمن قارنه التوفيقُ صبر وشكر، ومن قارنه الخذلان أبى وكفر. هـ.
وقيل: هو الأمر بالإعراض عما جعل في نظره فتنة، كما قال: ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ ﴾(١)، فينبغي ألا ينظر بعض إلى بعض، إلا لمن دونه، كما ورد في الخبر(٢). هـ.

﴿ وكان ربك بصيراً ﴾؛ عالماً بالحكمة فيما يبتَلِي به، أو: بمن يصبر ويجزع. وقال أبو السعود: هو وعد كريم لرسول الله ﷺ بالأجر الجزيل؛ لصبره الجميل، مع مزيد تشريف له ـ عليه الصلاة والسلام ـ؛ بالالتفات إلى اسم الرب مضافا إلى ضميره ﷺ. هـ.

الإشارة: الطريق الجادة التي درج عليها الأنبياء والأولياء هي سلوك طريق الفقر والتخفيف من الدنيا، إلا قدر الحاجة، بعد التوقف والاضطرار، ابتداءً وانتهاء، حتى تحققوا بالله. ومنهم من أتته الدنيا بعد التمكين فلم تضره. والحالة الشريفة: ماسلكها نبينا ﷺ وهو التخفيف منها وإخراجها من اليد، حتى مات ودرعه مرهونة عند يهودي، في وسق من شعير. وعادته تعالى، فيمن سلك هذا المسلك، أن يُديل الغنى في عقبه، فيكونون أغنياء في الغالب. والله تعالى أعلم.

وما وَصَفَ به الحق تعالى رسله؛ من كونهم يأكلون الطعام، ويمشون في الأسواق، هو وصف للأولياء أيضاً ـ رضي الله عنهم ـ؛ فيمشون في الأسواق؛ للعبرة والاستبصار في تجليات الواحد القهار، فحيث يحصل الزحام يعظم الشهود للملك العلام، وفي ذلك يقول الششترى رضي الله عنه: عين الزحام هو الوصول لِحيِّنا.

وكان شيخ أشياخنا ـ سيدي علي العمراني ـ يقول لأصحابه: من أراد أن يذوق فليمش إلى السوق. هـ. فينبغي للمريد أن يربي فكرته في العزلة والخلطة والخلوة والجلوة، ولا يقتصر على تربيتها في العزلة فقط؛ لئلا يتغير حاله في حال الخلطة؛ فيبقى ضعيفاً. فالعزلة تكون؛ ابتداء، قبل دخول بلاد المعاني، فإذا دخل بلاد المعاني فليختر الخلطة على العزلة، حتى يستوي قلبه في الخلوة والجلوة، فالعزلة عن الناس عزلة الضعفاء؛ والعزلة بين الناس عزلة الأقوياء. فالمشي في الأسواق والأكل فيها من سنة الفقراء، أهل الأحوال؛ مجاهدةً لنفوسهم، وترييضاً لها على إسقاط مراقبة الخلق، والخوف منهم. وقد ورد أن الله تعالى أمر بذلك نبيه ﷺ؛ تشريفاً لأهل الأحوال، كما ذكره صاحب اللباب عند قوله: ﴿مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق..﴾.

---

(١) من الآية ١٣١ من سورة طه.
(٢) قال ﷺ: «إذا نظر أحدكم إلى من فُضِّلَ عليه في المال والخلق، فلينظر إلى من هو أسفل منه ممن فُضِّل عليه». أخرجه البخاري في (الرقاق، باب لينظر إلى من هو أسفل منه، ح ٦٤٩٠)، ومسلم في (الزهد والرقائق، ٤/٢٢٧٥، ح٢٩٦٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ومن آداب الداخل فى السوق: أن يكون ماشيًا على رجليه، لا راكبًا، كما وصف الله تعالى الرسل ـ عليهم السلام. وفى قوله تعالى: ﴿وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون﴾: تسلية لمن يُبْتَلَى من الأولياء، وتهوين له على ما يلقاه من شدائد الزمان، وإذاية الإخوان، وجفوة الناس. وبالله التوفيق.

ثم ذكر مقالة أخرى من أقاويل الكفرة؛ ليبطلها كما أبطل ما قبلها، فقال:

﴿ ۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾ ﴾

قلت: (وقال): عطف على: (وقالوا مال هذا الرسول...) إلخ، ووضع الموصول موضع الضمير؛ للتنبيه بما فى حيز الصلة على أن ما حكى عنهم من الشناعة بحيث لا يصدر ممن يعتقد المصير إلى الله ـ عز وجل ـ.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وقال الذين لا يرجون لقاءنا﴾ أى: لا يتوقعون الرجوع إلينا بالبعث، أو حسابنا المؤدى إلى سوء العذاب، الذى تستوجبه مقالاتهم الشنيعة. والحاصل: أنهم ينكرون البعث بالكلية، فأطلق الرجاء على التوقع. وقيل: لا يخافون لقاءنا؛ لأن الرجاء فى لغة تهامة: الخوف، قالوا: ﴿لولا﴾؛ هلا ﴿أُنزل علينا الملائكةُ﴾ رسلاً دون البشر، أو: يشهدون بنبوة محمد ودعوى رسالته، ﴿أو نرى ربَّنا﴾ جهرة، فيخبرنا برسالته، ويأمرنا باتباعه، وإنما قالوا ذلك؛ عنادًا وعتوًا.

قال تعالى: ﴿لقد استكبروا فى أنفسهم﴾ أى: أضمروا الاستكبار، وهو الكفر والعناد فى قلوبهم، أو: عظموا فى أنفسهم حتى اجترءوا على التفوه بمثل هذه العظيمة الشنعاء، ﴿وعَتَوْا﴾ أى: تجاوزوا الحد فى الظلم والطغيان ﴿عتُوًا كبيرًا﴾؛ بالغًا أقصى غاياته، أى: إنهم لم يجترءوا على هذا القول العظيم؛ إلا لأنهم بلغوا غاية الاستكبار، وأقصى العتو، حتى أمّلوا نيل المشاهدة والمعاينة والمفاوضة التى اختص بها أكابر الرسل وخاصة الأولياء، بعد تطهير النفوس وتصفية القلوب والأرواح. وهذا كقولهم: ﴿وقالوا لن نؤمن لك...﴾ إلى قوله: ﴿أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً﴾(١). ولم يكتفوا بما رأوا من المعجزات القاهرة؛ فذهبوا فى الاقتراح كل مذهب، حتى منّتهم أنفسهم الخبيثة أمالى سُدت دونها مطامع النفوس القدسية. واللام: جواب قسم محذوف، أى: والله لقد استكبروا.. الآية. وفيه من الدلالة على قُبح ما هم عليه، والإشعار بالتعجب من استكبارهم وعتوهم، مالا يخفى.

(١) الآيات: ٩٠ ـ ٩٢ من سورة الإسراء.

﴿يوم يَرَون الملائكةَ﴾ عند الموت أو البعث. و﴿يوم﴾: منصوب باذكر، أو بما دل عليه: ﴿لا بُشرى يومئذٍ للمجرمين﴾؛ فإنه بمعنى: يُمنعون البشرى، أو: لا يبشر المجرمون. انظر البيضاوى. والجملة: استئناف مسوق لبيان ما يلقونه عند مشاهدتهم لما اقترحوه من نزول الملائكة، بعد استعظامه وبيان كونه فى غاية ما يكون من الشناعة. وإنما قيل: يوم يرون، دون أن يقال: يوم تنزل؛ إيذاناً، من أول الأمر، بأن رؤيتهم لهم ليست على طريق الإجابة إلى ما اقترحوه، بل على وجه آخر غير معهود. وتكرير (يومئذ)؛ لتأكيد التهويل، مع ما فيه من الإيذان بأن تقديم الظرف للاهتمام، لا لِقَصْرِ نَفْي البُشرى على ذلك الوقت فقط؛ فإن ذلك مُخل بتفيظع حالهم. و(للمجرمين): تعيين على أنه مظهر، وُضِع موضع الضمير؛ تسجيلاً عليهم بالإجرام، مع ما هم عليه من الكفر والطغيان.

﴿ويقولون حِجْراً محجوراً﴾على ما ذكر من الفعل المنفى، أى: لا يبشرون، ويقولون. وهو ينبئ عن كمال فظاعة ما يحيق بهم من الشر، وغاية هول مطلعه، أى: يقولون، عند مشاهدة ملائكة العذاب: حِجْراً محجوراً، أى: منعاً ممنوعاً منكم، وهى كلمة تقولها العرب عند لقاء عدو هائل، أو هجوم نازلة هائلة، يضعونها موضع الاستعاذة، فكأن المعنى: نسأل الله تعالى أن يمنع ذلك عنّا منعاً، ويحجره عنا حجراً. والمعنى: أنهم يطلبون نزول الملائكة ـ عليهم السلام ـ ويقترحونه، وهم إذا رأوهم كرهوا لقاءهم أشد كراهة، وفزعوا منهم فزعاً شديداً. وقالوا، عند رؤيتهم، ما كانوا يقولون عند نزول خطب شنيع وبأس فظيع.

وقيل: هو قول الملائكة، أى: تقول الملائكة للمجرمين، حين يرونهم: حِجْراً محجوراً، أى: حراماً محرماً عليكم البشرى، أى: جعل الله ذلك حراماً عليكم، إنما البشرى للمؤمنين. و(الحجر): مصدر، يُفتح ويكسر، وقرئ بهما. من حَجَرَه؛ إذا منعه. وهو من المصادر المنصوبة بأفعال متروك إظهارها. ومحجوراً: لتأكيد معنى الحجر، كما قالوا: موت مائت. وانظر ما وُجِّهَ بِهِ وقْفُ الهبطى على «حِجْراً»؛ فلعله الأوجه له.

ثم ذكر مآل أعمالهم، فقال: ﴿وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا﴾ الهباء: شِبْهُ غُبَارٍ يُرى فى شعاع الشمس، يطلع من كُوّة. والقدوم هنا: مجاز. مُثلتْ حال هؤلاء الكفرة وأعمالهم التى عملوها فى كفرهم؛ من صلة رحم، وإغاثة ملهوف، وقِرى ضيف، وعِتقٍ، ونحو ذلك، بحال من خالف سلطانه، فقدم إلى أشيائه، وقصد إلى ما تحت يديه، فأفسدها، ومزقها كل ممزق، ولم يترك لها عيناً ولا أثراً، أى: عمدنا إليها وأبطلناها، أى: أظهرنا بطلانها بالكلية، من غير أن يكون هناك قدوم. والمنثور: المفرّق، وهو استعارة عن جَعْلِهِ لا يقبل الاجتماع ولا يقع به الانتفاع.

ثم ذكر ضدهم، فقال: ﴿ أصحابُ الجنة يومئذٍ خيرٌ مُستقراً ﴾ أى: مكاناً يستقرون فيه، والمستقر: المكان الذى يستقر فيه فى أكثر الأوقات، للتجالس والتحادث، ﴿ وأحسنُ مَقيلاً ﴾: مكاناً يأوون إليه للاسترواح إلى أزواجهم. ولا نوم فى الجنة، ولكنه سمى مكان استرواحهم إلى أزواجهم الحور مقيلاً؛ على طريق التشبيه. وروى أنه يفرغ من الحساب فى نصف ذلك اليوم، فيقيل أهل الجنة فى الجنة، وأهل النار فى النار.

وقال سعيد الصواف: بلغنى أن يوم القيامة يقصر على المؤمنين، حتى يكون ما بين العصر إلى غروب الشمس، إنهم ليقيلون فى رياض الجنة حتى يفرغ من حساب الناس. وقرأ هذه الآية .هـ. وأما الكافر فيطول عليه، كما قال تعالى: ﴿ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾(١).

قال أبو السعود: وفى وصفه بزيادة الحسن، مع حصول الخيرية، رمز إلى أنه مزين بفنون الزين والزخارف. والتفضيل المعتبر فيهما: إما لإرادة الزيادة على الإطلاق، أى: هم في أقصى ما يكون من خيرية المستقر وحسن المقيل، وإما بالإضافة إلى ما للكفرة المتنعمين فى الدنيا، أو إلى مالهم فى الآخرة، بطريق التهكم بهم، كما مرّ فى قوله: ﴿أذلك خير..﴾ الآية. هـ.

الإشارة: هؤلاء طلبوا الرؤية قبل إبَّانها وتحصيل شروطها، وهى الإيمان بالله، والإخلاص، والخضوع لمن يدل على الله، وذل النفس وتصغيرها فى طلب الله. ولذلك قال تعالى فى وصفهم ـ الذى منعهم من شهوده تعالى: ﴿لقد استكبروا فى أنفسهم وعتوا عتواً كبيراً﴾ أى: ولو صغروا فى أنفسهم، وخضعوا خضوعاً كبيراً؛ لحصل لهم ما طلبوا، ولبشروا بما أملوا، وفى ذلك يقول الشاعر:

تَذَلَّلْ لِمنْ تَهْوَى؛ فَلَيْسَ الْهَوى سَهْلُ ... إذَا رَضِيَ المحبوبُ صَحَّ لَكَ الوَصْلُ
تَذَلَّلْ لَهُ؛ تَحْظَى بِرُؤيا جَمَالِهِ ... فَفِي وَجْهِ مَنْ تَهْوَى الْفَرَائِضُ وَالنَّفْلُ

وقيل لأبى يزيد رضي الله عنه، حين قام يصلى بالليل: يا أبا يزيد، خزائننا معمورة بالخدمة، ائتنا من كُوَّة الذل والافتقار. وقال الشيخ عبد القادر الجيلانى رضي الله عنه: أتيت الأبواب كلها فوجدت عليها الزحام، فأتيت باب الذل والفقر فوجدته خاليا، فدخلت وقلت: هلموا إلى ربكم. أو كما قال.

وفى قوله تعالى: ﴿ وقَدِمنا إلى ما عملوا من عمل.. ﴾ إلخ، الترغيب فى الإخلاص الموجب لقبول الأعمال، والترهيب من الرياء والعجب، الموجبان لإحباط الأعمال. وفى حديث معاذ عنه ﷺ: «إن الله خلق سبعة أملاك قبل خلق السموات، ووكل كل مَلَكٍ بباب من أبواب السماء، فتصعد الحَفَظَةُ بعمل العبد إلى السماء الأولى، فيقول المَلَكُ: ردوه، واضربوا به وجهه؛ إنَّ صاحبه كان يغتاب الناس، ثم تصعد الحَفَظَةُ بعمل العبد إلى

(١) من الآية ٤ من سورة المعارج.

السماء الثانية، فيقول الملك: ردوه؛ إنه كان يفتخر على الناس فى مجالسهم، ثم تصعد الحفظة بعمل العبد إلى السماء الثالثة، فيقول الملك: ردوه؛ إنه كان يتكبر على الناس فى مجالسهم، ثم تصعد الحفظة بعمل العبد إلى السماء الخامسة، فيقول الملك: ردوه؛ إنه كان يحسد الناس ويقع فيهم، ثم تصعد الحفظة إلى السماء السادسة، فيقول الملك: ردوه؛ إنه كان لا يرحم إنساناً قط، بل كان يشمت بمن وقع فى بلاء، أنا ملك الرحمة، أمرنى ألا يجاوزنى عمله. ثم تصعد الحفظة إلى السماء السابعة، فيقول الملك: ردوه؛ إنه كان يحب الظهور والرفعة عند الناس، ثم تصعد الحفظة بعمل العبد؛ من صلاة، وذكر، وتفكر، وحسن خلق، فيقفون بين يدى الله، ويشهدون له بالصلاح، فيقول الرب جل جلاله: أنتم الحفظة على عمل عبدى، وأنا الرقيب على قلبه، إنه لم يُردْنِى بهذا العمل، أراد به غيرى، فعليه لعنتى، ثم تلعنه الملائكة والسموات. انتهى باختصار(١)، وخرجه المنذرى. وتكلم فى وضعه. وبالله التوفيق.

ثم ذكر موطناً آخر لرؤية الملائكة، على نمط ما تقدم، فقال:

﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾ ﴾

قلت: (المُلْكُ): مبتدأ، و(الحق): صفته. و(للرحمن): خبر، و(يومئذ): ظرف للاستقرار.

يقول الحق جل جلاله: ﴿و﴾ اذكر ﴿يوم تشَقَّقُ﴾ أي: تتفتح، فمن قرأ بالتخفيف: حذف إحدى التاءين، وأصله: تتشقق. ومن شد: أدغم التاء فى الشين، أى: تنشق ﴿السماءُ بالغمام﴾ أى: عن الغمام، فتنزل ملائكة السموات فى تلك الغمام؛ ليقع الفصل بين الخلائق، وهو المراد بقوله تعالى: ﴿هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظُلل من الغمام، والملائكة﴾(٢). قيل: هو غمام أبيض رقيق مثل الضبابة، ولم يكن إلا لبنى إسرائيل فى تيههم.

---

(١) ذكره مطولاً المنذرى فى الترغيب والترهيب (١/ ٧١ - ٩٣) وقال: (رواه ابن المبارك فى الزهد عن رجل، لم يسمه، عن معاذ، ورواه ابن حبان فى غير الصحيح، والحاكم، وغيرهما، وروى عن علي وغيره. وبالجملة فآثار الوضع ظاهرة عليه فى جميع طرقه وبجميع ألفاظه. والله أعلم) قلت: والحديث ذكره ابن الجوزى فى الموضوعات (١٥٤/٣) بمعناه مطولاً، وعزاه للحاكم فى التاريخ.

(٢) من الآية ٦٥ من سورة البقرة.

﴿ ونُزِّلَ الملائكةُ تنزيلاً ﴾ عجيباً غير معهود. رُوى أن السموات تنشق سماءً سماءً، وتنزل ملائكة كل سماء فى ذلك الغمام، وفى أيديها صحائف أعمال العباد، فيفصل الله بين خلقه، ولذلك قال: ﴿ الملكُ يومئذٍ الحقُّ للرحمن ﴾ أى: السلطنة القاهرة، والاستيلاء العام، الثابت؛ الذى لا زوال له أصلاً، هو للرحمن وحده؛ لأن كل ملك يزول يومئذ، ولا يبقى إلا ملكه.

وفائدة التقييد، مع أن الملك لله فى الدنيا والآخرة؛ لأن فى الدنيا قد تظهر صورة الملك للمخلوق؛ مجازاً، ويكون له تصرف صوري، بخلاف يوم القيامة، ينقطع فيه الدعاوى، ويظهر الملك لله الواحد القهار. ﴿ وكان يوماً على الكافرين عسيراً ﴾ أى: وكان ذلك اليوم، مع كون الملك للمبالغ فى الرحمة، ﴿ عسيراً ﴾ أي: صعباً، شديداً على النفوس بالنسبة للكافرين، وأما على المؤمنين فيكون يسيراً، بفضل الله تعالى. وقد جاء فى الحديث: أنه يهون يوم القيامة على المؤمنين، حتى يكون أخف عليهم من صلاة مكتوبة، صلّوْها فى الدنيا. ففى حديث أبى سعيد الخدرى حيث قال رسول الله ﷺ : «فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة»، قلت: يا رسول الله، ما أطول هذا اليوم؟ فقال ﷺ : «والذى نفسى بيده إِنَّهُ لَيُخَفَّفُ على المؤمنِ حتى يكونَ أخفَّ عليه من صلاةٍ مكتوبة يصليها فى الدنيا»(١) .

﴿ و ﴾ اذكر أيضاً ﴿ يوم يَعَضُّ الظالمُ على يديه ﴾؛ ندماً وتحسراً، فعض اليد والأنامل: كناية عن شدة الغيظ والحسرة؛ لأنها من روادفها، فتذكر المرادفة ويراد بها المردوف، فيرتفع الكلام بذلك فى طبقة الفصاحة، ويجد السامع فى نفسه من الروعة ما لا يجده عند اللفظ المكنى عنه.

والمراد بالظالم: إما عُقبَة بْنُ أبِى مُعيط، وكان خليلاً لأُبَىّ بن خلف، وكان عقبة يكثر مجالسة النبى ﷺ، فقدم من سفر وصنع طعاماً، فدعا إليه أشراف قومه، ودعا النبيَّ ﷺ، فلما قُرِّب الطعام ، قال النبى ﷺ: «ما أنا بآكل من طعام، حتى تشهد أن لا إله إلا الله، وأنى رسول الله» . فقال عُقبة: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله. فأكل النبى ﷺ طعَامه، وكان أُبَىّ بْنُ خلَفٍ غائباً، فلما أُخبر، قال له: صبأْتَ يا عُقبة؟ فقال: لاَ، والله ما صبأْتُ، ولَكِن دخل علىّ رجل فأبَى أن يأكُلَ من طعَامِى إلا أن أشهد له، فاسْتَحْيَيْتُ أَنْ يخرج من بيتى ولم يطعم، فَشَهِدْتُ لَه، فطعم، فقال: ما أنا بالذى أرضى عنك أبداً، حتى تأتيه فَتَبْزُق فى وَجْهِه، وتَطأ عنقه، فَوَجَدَهُ ﷺ سَاجِداً، فَفعَل ذَلِكَ، وأخذ رَحِم دابته فألقاها بين كتفيه، فقال النبى ﷺ : «لا أَلْقَاكَ خَارِجاً من مَكَّةَ إلا علَوْتُ

(١) أخرجه الإمام أحمد فى المسند (٧٥/٣)، وابن حبان (الإحسان، تحقيق الأرنؤوط ٣٢٩/١٦ح ٧٣٣٤)، وأبو يعلى (٥٢٧/٢ح ١٣٩٠)، وحسّنه الهيثمى فى المجمع (٣٣٩/١٠).

رأسكَ بالسَيْف» . فقُتِلَ عقُبةُ يوْمَ بَدْرٍ؛ صبراً. وأما أُبيُّ فقتله النبي ﷺ بيده، يوم أُحُد، في المبارزة، طعنه في عنقه، فمات بمكة(١).

وعن الضحاك: لما بَصق عقبة ـ بأمر أُبيّ ـ في وجه النبي ﷺ، رجع بُصَاقُه في وجهه، وشوى وجهه وشفتيه، حتى أثر في وجهه وأحرق خديه، فلم يزل في وجهه حتى قُتل، وقتله عليٌّ ببدر بأمره ﷺ بقتله. هـ. وقال الشعبي: كان عُقْبَةُ بن أبي معيط خليلاً لأُبَي بن خلف، فأسلم عقبة، فقال أُبَيّ: وجهي من وجهك حرام، أنْ تابعت محمداً ، فارتدَّ؛ لرضا صاحبه، فنزلت الآية(٢). هـ.

وإمّا جنس الظالم، ويدخل عقبة فيه دخولاً أولياً.

﴿ يقول ياليتنى ﴾، الياء لمجرد التنبيه، من غير تعيين المنبَّه، أو: المنبه محذوف، أي: يا هؤلاء ﴿ ليتنى اتخذت ﴾ في الدنيا ﴿ مع الرسول ﴾ محمد ﷺ ﴿ سبيلاً ﴾ أي: طريقًا مُنجياً من هذه الورطات، وهو طريق الإسلام، ولم أكن ضالاً، أو: طريقًا إلى الجنة، ﴿ ياوَيْلَتَى ﴾، بقلب ياء المتكلم ألفًا، كما في صَحَارَى وعذارَى. وقرئ بالياء على الأصل، أي: يا هلَكتِي، تَعَالَيّ؛ هذا أوَانَك، ﴿ ليتنى لم أتخذ فلاناً خليلاً ﴾، فلان: كناية عن الأعلام، فإن أريد بالظالم عقبة، فالمعنى: لم أتخذ أبيًا خليلاً، فكنى عن اسمه، وإن أريد به الجنس، فهو كناية عن علم كل من يضله ، كائناً من كان،، من شياطين الإنس والجن. وقيل: هو كناية عن الشيطان.

ثم قال: ﴿ لقد أضلنى عن الذِكْرِ ﴾؛ عن ذكر الله، أو: القرآن، أو: الإيمان، أو: موعظة الرسول ﷺ، أو: كلمة الشهادة. وتصديره بلام القسم؛ للمبالغة في بيان خطأه، وإظهار ندمه وحسرته، أي: والله لقد أضلني عن الذكر ﴿ بعد إذ جاءنى ﴾ من الله، وتمكنت منه. ﴿ وكان الشيطانُ للإنسان خذولاً ﴾ أي: مبالغًا في الخذلان، حيث يواليه من يؤديه إلى الهلاك، ثم يتركه ولا ينفعه، وهو الحامل له على مخاللة المضل ومخالفة الرسول. وقيل: المراد به خليله أُبيّ، وسماه شيطاناً؛ لأنه أضله كما يضله الشيطان. والله تعالى أعلم.

الإشارة: في الآية تحريض على محبة الرسول ﷺ وشد اليد على التمسك بسنته، والاهتداء بهديه، واتباع ما جاء به، قبل أن تقول: ياليتنى اتخذت مع الرسول سبيلاً. وفيها أيضاً: الترغيب في صحبة الأبرار، والترهيب من صحبة الفجار، وأنشد بعض الحكماء:

تَجَنَّبْ قَرِينَ السُّوءِ وَاصْرِمْ حِبَالَهُ ... فَإن لَمْ تَجِدْ عَنْهُ مَحِيصًا فَدَارِهِ
وَأَحْبِبْ حَبِيبَ الصِّدْقِ وَاحْذَرْ مِرَاءَهُ ... تَنَلْ مِنْهُ صَفْوَ الْوُدِّ مَا لَمْ تُمَارِهِ
وَفِي الشَّيْبِ مَا يَنْهَى الحَلِيمَ عَنِ الصِّبَا ... إِذَا اشْتَعَلَتْ نِيرَانُه في عِذَارِهِ.

---

(١) انظر أسباب النزول للواحدي (٣٤٣ ـ ٣٤٤)، وتفسير البغوي (٦/٨). وانظر الفتح السماوي (٢/٨٨٠).
(٢) ذكر قول الضحاك والشعبي: البغوي في تفسيره (٦/٨١) والواحدي في أسباب النزول (ص/٣٤٤).

وقال آخر:

اصْحَبْ خِيَارَ النَّاسِ حَيْثُ لَقِيتَهُمْ   خَيْرُ الصَّحَابَةِ مَن يَكُونُ عَفِيفَا
وَالنَّاسُ مِثْلُ دَرَاهِمٍ مَيَّزْتَهَا   فَوَجَدْتَ فِيهَا فِضَّةً وَزُيُوفَا

وفى حديث أبى موسى رضي الله عنه ﷺ قال: «مَثَلُ الجَلِيسِ الصَّالِحِ مَثَلُ العَطَّارِ، إِنْ لَمْ يُحْذِكَ مِنْ عِطْرِهِ يَعْلَق بك مِنْ ريحه. ومَثَلُ الجَلِيسِ السُّوءِ مَثَلُ الكِيرِ، إن لم يَحْرِق ثِيابَكَ يَعْلَق بك مِن رِيحِه»(١). وقال فى الحِكَم: «لاتصحب من لا يُنْهِضُكَ حاله، ولا يدُلُّك على الله مَقَالُهُ». فإنهاض الحال هو ذكر الله عند رؤيته، والانحياش إليه بالقلب عند صحبته. ودلالة المقال على الله هو زجه فى الحضرة بلا تعب، بأن يرفع بينه وبين ربه الحُجُبَ، ويقول له: ها أنت وربك. وهذه حال الصوفية العارفين بالله، وقد وصفهم بعض العلماء، فقال: الصوفى من لا يعرف فى الدارين أحداً غير الله، ولا يشهد مع الله سوى الله، قد سخر له كل شىء، ولم يُسخر هو لشىء، يسلط على كل شىء، ولم يسلط عليه شىء، يأخذ النصيب من كل شىء، ولم يأخذ النصيب منه شىء، يصفو به كدر كُلِّ شىء، ولا يكدر صفْوَه شىء، قد أشغله واحد عن كل شىء، وكفاه واحد من كل شىء. هـ.

قال فى التنبيه: وبصحبة أمثال هؤلاء يحصل للمريد من المزيد ما لا يحصل له بغيرها؛ من فنون المجاهدات، وأنواع المكابدات، حتى يبلغ بذلك إلى أمر لا يسعه عقل عاقل، ولا يحيط به عالم ناقل. هـ. وفى شأنهم أيضاً قال صاحب العينية رضي الله عنه:

فَشَمِّرْ وَلُذْ بالأَوْلِيَاءِ؛ فإنهمْ   لَهُمْ مِنْ كِتَابِ الحَقِّ تِلْكَ الوَقَائِعُ
هُمُ الذُّخْرُ لِلْمَلْهُوفِ، والكَنْزُ للرَّجَا،   وَمِنهُمْ يَنَالُ الصَّبُّ مَا هُوَ طَامِعُ
بِهِمْ يَهْتَدِي لِلْعَيْنِ مَنْ ضَلَّ فِي العَمَى   بِهِمْ يُجْذَبُ العُشَّاقُ، والرَّبْعُ شَاسِعُ
هُمُ القَصْدُ، والمطْلُوبُ، والسُّؤْلُ، والمُنَى   واسْمُهُمُ للصَّبِّ، فِى الحُبِّ شَافِعُ
هُمُ النَّاسُ، فَالْزَمْ إِنْ عَرَفْتَ جَنَابَهُمْ   فَفِيهِمْ لِضُرِّ العَالَمِينَ مَنَافِعُ

وقال الجنيد رضي الله عنه: إذا أراد الله بالمريد خيراً ألقاه إلى الصوفية، ومنعه صحبة القراء. وقال سهل رضي الله عنه: احذر صحبة ثلاثة من أصناف الناس: الجبابرة الغافلين، والقراء المداهنين، والمتصوفة الجاهلين. هـ. وقال حمدون

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى المسند (٤/٤٠٤)، وأخرجه، بلفظ مقارب، البخارى فى (الذبائح، باب المسك، ح ٥٥٣٤)، ومسلم فى (البر والصلة، باب استحباب مجالسة الصالحين، ٤/٢٠٢٦، ح ٢٦٢٨).

القصار رضي الله عنه: (اصحب الصوفية؛ فإن للقُبح عندهم وجوهاً من المعاذير، وليس للحُسْنِ عندهم كبير موقع يعظمونك به)؛ إشارة إلى أن العجب بالعمل منفي في صحبتهم. وقال سيدنا على رضي الله عنه: شر الأصدقاء: من أحوجك إلى المداراة، وألجأك إلى الاعتذار. وقال أيضاً: شر الأصدقاء من تُكُلِّف له. هـ. وليوسف بن الحسين الداراني رضي الله عنه:

أُحِبُّ مِنَ الإِخْـوانِ كُـلَّ مُـواتي ... فَـيّـا غَـضِـيض الطَّرف عَن عَـثَـرَاتِي
يوافـقنى فـى كل أمرِ أحبـه ... ويحـفظنى حَيّـا وبَعـد ممـاتى
فـمن لِى بهـذا، ليتنى قـد وَجَدْتُه ... فَقَاسَمْتُهُ مالِى مِنَ الْحَسَنَاتِ

والحاصل من هذا: أن صحبة الصوفية هى التى يحصل بها كمال الانتفاع للصاحب، دون من عداهم من المنسوبين إلى الدين والعلم؛ لأنهم خُصوا من حقائق التوحيد والمعرفة بخصائص، لم يساهمهم فيها أحد سواهم. وسريان ذلك من الصاحب إلى المصحوب هو غاية الأمل والمطلوب، فقد قيل: مَنْ تَحقَّقَ بِحالَةٍ لَمْ يَخْلُ حاضِرُوهُ مِنْهَا. انتهى من التنبيه. وبالله التوفيق.

ولما رأى ﷺ إعراض قومه عنه، شكى إلى ربه، فقال:

﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾ ﴾

قلت: (وقال الرسول): عطف على: (وقال الذين لا يرجون..)، وما بينهما: اعتراض؛ لبيان قبح ما قالوا، وما يحيق بهم فى الآخرة من الأهوال والخطوب.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وقال الرسولُ ﴾؛ محمد ﷺ، وإيراده بعنوان الرسالة؛ للرد فى نحورهم، حيث كان ما حكى عنهم قدحاً فى رسالته ﷺ، أى: قال، إثر ما شاهد منهم من غاية العتو ونهاية الطغيان، شاكياً إلى ربه ـ عز وجل ـ : ﴿ يا ربِّ إن قومى ﴾، يعنى: قريشاً الذى حكى عنهم ما تقدم من الشنائع، ﴿ اتخذوا هذا القرآنَ ﴾، الذى من جملته الآيات الناطقة بما يحيق بهم فى الآخرة من فنون العقاب، ﴿ مهجوراً ﴾ أى: متروكاً بالكلية، فلم يؤمنوا به ويرفعوا إليه رأساً، ولم يتأثروا بوعظه ووعيده، وهو من الهجران، وفيه تلويح بأن حق المؤمن أن يكون كثيرَ التعاهد للقرآن؛ لئلا يندرج تحت ظاهر النظم الكريم. قال أنس: قال النبى ﷺ: «مَنْ تَعَلَّم القرْآنَ

فعلّق مُصحفًا لم يتعاهدْه، ولم ينظرْ فيه، جاء يومَ القِيامةِ متعلقًا بِهِ، يقولُ: يارَبَّ العالمين عبدُك هذا اتَّخذني مهْجُوراً، اقْضِ بينِي وبَيْنَه» (١).

وقيل: هو من هجر؛ إذا هذى، أى: قالوا فيه أقاويل باطلة، كالسحر، ونحوه، أو: بأن هجروا فيه إذا سمعوه، كقولهم: ﴿لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ﴾(٢)؛ أى: مهجوراً فيه.

وفيه من التحذير والتخويف ما لا يخفى، فإن الأنبياء ـ عليهم السلام ـ إذا شكو إلى الله تعالى قومهم عجّل لهم العذاب، ولم يُنظروا.

ثم أقبل عليه؛ مسلياً، وواعداً لنصره عليهم، فقال: ﴿وكذلك جعلنا لكل نبى عدواً من المجرمين﴾؛ فتسلّ بهم، واقْتَدِ بمن قبلك من الأنبياء، فَمنْ هنا سَاروا. أى: كما جعلنا لك أعداء من المشركين، يقولون ما يقولون، ويفعلون مايفعلون من الأباطيل، جعلنا لكل نبى من الأنبياء، الذين هم أصحاب الشرائع والدعوة إليها، عدواً من مجرمى قومهم، فاصبر كما صبروا؛ فإن الله ناصرك كما نصرهم. ﴿وكفى بربك هادياً ونصيراً﴾، وهو وعد كريم بالهداية له إلى مطالبه، والنصر على أعدائه، أى: كفاك مالكُ أمرك ومُبلِّغك إلى غاية الكمال، هادياً إلى ما يوصلك إلى غاية الغايات، التى من جملتها: تبليغ الكتاب، وإجراء أحكامه إلى يوم القيامة. أو: وكفى بربك هادياً لك إلى طريق قهرهم والانتصار منهم، وناصراً لك عليهم. والعدو: يجوز أن يكون واحداً وجمعاً، والباء: زائدة، و﴿هادياً ونصيراً﴾: تمييزان. والله تعالى أعلم.

الإشارة: من السنة التى أجراها الله تعالى فى خواصه: أن يكون جيرانهم وأقاربهم أزهد الناس فيهم، وأقواهم عليهم، وأعدى الناس إليهم. وفى الأثر: «أزهدُ النّاس فى العالِم جِيرانُه». فلا ينتفع بالولى، فى الغالب، إلا أبعدُ الناس منه، وقلّ أن تجد ولياً عمّر سوقَه فى بلده، فالهجرة سنة ماضية، ولن تجد لسنة الله تبديلاً. وكما جعل لكل نبى عدواً جعل لكل ولى عدواً، فلابد للولى أن يبقى له من يحركه إلى ربه بالإذاية والتحريش، إما من جيرانه، أو من نسائه وأولاده؛ ليكون سيره بين جلاله وجماله، وكفى بربك هادياً ونصيراً.

ثم ذكر اقتراحهم الخاص بالقرآن، بعد ذكر اقتراحهم الخاص به ـ عليه الصلاة والسلام ـ فقال:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ

(١) عزاه المناوى فى الفتح السماوى (٢/٨٨١) للثعلبى، من طريق أبى هدبة إبراهيم بن هدبة، عن أنس، قال المناوى: وأبو هدبة كذاب.
(٢) من الآية ٢٦ من سورة فصلت.

تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وقال الذين كفروا ﴾ يعنى: قريشاً، وهم القائلون: ﴿ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ﴾(١)، والتعبير عنهم بعنوان الكفر؛ لذمهم، والإشعار بِعِلِّيَّة الحكم، قالوا: ﴿ لولا نُزِّل عليه القرآنُ ﴾، نُزِّل هنا بمعنى أُنْزِلَ، وإلا كان متدافعاً؛ لأن التنزيل يقتضى التدرج بصيغته، وهم إنما اقترحوا الإنزال جملة، أى: هلاّ أنزل القرآن، حال كونه ﴿ جملةً واحدةً ﴾ أى: دفعة واحدة فى وقت واحد، كما أنزلت الكتب الثلاثة، وماله أنزل مفرقاً فى سنين؟ وبطلان هذه المقالة الحمقاء مما لايكاد يخفى على أحد؛ فإن الكتب المتقدمة لم يكن شاهد صحتها، ودليل كونها من عند الله، إعجازُها، وأما القرآن الكريم، فبينة صحته، ودليل كونه من عند الله، نظمُه المعجز الباقى على مر الدهور، ولا ريب فى أن ما يدور عليه فلك الإعجاز هو المطابقة لما تقتضيه الأحوال، ومن ضرورية تغيرها وتجددها تغيرُ ما يطابقها حتماً، على أن له فوائد أخرى، قد أشير إلى بعض منها بقوله: ﴿ كذلك لنُثبِّتَ به فؤادَك ﴾؛ فإنه استئناف وارد من جهته تعالى؛ لرد مقالتهم الباطلة، وبيان الحكمة فى التنزيل التدريجى. قاله أبو السعود.

أى: أنزلناه كذلك مفرقاً فى عشرين سنة، أو ثلاث وعشرين؛ لنثبت به فؤادك، ونقوى به يقينك، فكلَّما نزل شىء من الوحى قوى القلب، وازداد اليقين، حتى يصير إلى عين اليقين وحق اليقين. قال القشيرى: لأنه لو كان دفعة واحدة لم يتكرر نزول جبريل ـ عليه السلام ـ بالرسالة فى كل وقت وحين. وكثرة نزوله كان أوجبَ؛ لسكون قلبه، وكمال رَوْحه، ودوام أُنْسه، ولأنه كان جبريل يأتيه فى كل وقت بما يقتضيه ذلك الوقتُ من الكوائن والأمور الحادثة، فكان ذلك أبلغ فى كونه معجزة، وكان أبعدَ من التهم من أن يكون من جهة غيره، وبالاستعانة بمن سواه حاصلاً. هـ.

وقال القرطبى بعد كلام: وأيضاً: لو أنزل جملة، بما فيه من الفرائض؛ لثقل عليهم، وأيضاً: فى تفريقه تنبيه لهم، مرة بعد مرة، وهو أنفع لهم، وأيضاً: فيه ناسخ ومنسوخ، ولو نزل ذلك جملة لنزل فيه الأمر بالشىء وبتركه، وهو لا يصح. هـ. وقال النسفى: لنقوى، بتفريقه، فؤادك؛ حتى تعيه وتحفظه؛ لأن المتلقى إنما يقوى قلبه على حفظ العلم شيئاً بعد شىء، وجزءاً عقب جزء، ولو ألقى عليه جملة واحدة لعجز عن حفظه. أو: لنُثبت به فؤادك عن الضجر؛ وذلك بتواتر الوصول وتتابع الرسول؛ لأن قلب المحب يسكن بتواصل كتب المحبوب. هـ.

(١) الآية ٢١ من سورة الفرقان.

﴿ ورتلناه ترتيلاً ﴾ أى: كذلك فرقناه ورتلناه ترتيلاً بديعًا عجيباً، أى: قدرناه آية بعد آية، ووقفة عقب وقفة، وأمرنا بترتيل قراءته، بقولنا: ﴿ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً ﴾(١) أو: فصلناه تفصيلاً، أو: بيَّناه تبييناً فيه ترتيل وتثبت.

﴿ ولا يأتونك بمَثَلٍ ﴾ ؛ بسؤال عجيب من سؤالاتهم الباطلة، واقتراحاتهم الفاسدة الخارجة عن دائرة العقول، الجارية لذلك مجرى الأمثال، ﴿ إلا جئناك بالحقِّ ﴾ ؛ إلا أتيناك بالجواب الحق الذى لا محيد عنه، الذى ينحى عليه بالإبطال ويحسم مادة القيل والقال، كما مر من الأجوبة الحقية، القالعة لعروق أسئلتهم الشنيعة، الدامغة لها بالكلية. وجئناك بأحسنِ ﴿ تفسيراً ﴾ أى: بياناً وتفصيلاً، بمعنى أنه فى غاية ما يكون من الحسن فى حد ذاته، لا أن ما يأتون به حَسَنٌ، وهذا أحسن منه، وإنما المعنى: لا يسألونك عن شىء غريب إلا جئناك بما يبطله وما يكشف معناه، ويفسره غاية التفسير.

ثم ذكر مآل الكفرة المقترحين لهذه الشُّبَه، فقال: ﴿ الذين يُحشرون على وجوههم إلى جهنم ﴾ أى: يُحشرون كائنين على وجوههم، يُسحبون عليها، ويجرون إلى جهنم. وقيل: مقلوبين؛ وجوههم إلى قفاهم، وأرجلهم فوق، ﴿ أولئك شرٌّ مكاناً ﴾ أى: مكانة ومنزلة، أو: مسكناً ومنزلاً، ﴿ وأضلُّ سبيلا ﴾ ؛ وأخطأ طريقاً.

ونزلت الآية لَمَّا قالوا: إن أصحاب محمد شر خلق الله وأضل الناس طريقًا. وقيل: المعنى: إن حاملكم على هذه السؤالات اعتقادُكُمَ أن محمداً ضال، ومكانه حقير، ولو نظرتم إلى ما يؤول إليه أمركم، لعلمتم أنكم شر منه مكاناً، وأضل سبيلاً. والله تعالى أعلم.

الإشارة: تثبيت القلوب على الإيمان، وتربية اليقين، يكون بصحبة الأبرار ورؤية العارفين الكبار، والترقى فى معاريج التوحيد، إلى أن يفضى إلى مقام العيان، يكون بعقد الصحبة مع أهل التربية، وخدمتهم وتعظيمهم، حتى يوصلوه إلى ربه. ومن شأنهم أن الله يدافع عنهم، ويجيب من سألهم تشغيباً، فيلهمهم الجواب، فضلاً منه، فلا يُسألون عن شىء إلا جاءهم بالحق وأحسن تفسيراً، ثم هدد من صغَّرهم وحقَّر شأنهم بقوله: ﴿ الذين يُحشرون . . . ﴾ الآية. والله تعالى أعلم.

ثم ردّ على من طلب إنزال القرآن جملة، بكون كتاب التوارة نزل جملة، ومع ذلك كفروا به، فقال:

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ ﴾

---

(١) من الآية ٤ من سورة المزمل.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب ﴾ ؛ أُنزل عليه جملة، ومع ذلك كفروا وكذبوا به، كما قال تعالى: ﴿ أَوَ لَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ﴾(١)، فكذلك هؤلاء، لو نزل جملة، كما اقترحوا، لكفروا وكّذبوا كما كذّب أولئك. ﴿ وجعلنا معه أخاه هارون وزيراً ﴾، فأخاه: مفعول أول لجعل، و(وزيرا): مفعول ثان، أى: جعلنا معه أخاه مقوياً ومعيناً. والوزير: من يُرجع إليه ويُتحصَّن برأيه، من الوزَر، وهو الملجأ. والوزارة لا تنافى النبوة؛ فقد كان يُبعث فى الزمن الواحد أنبياء، ويُؤمرون أن يوازر بعضهم بعضاً.، أو: يكون وزيراً أول مرة ورسولاً ثانياً.

﴿ فقلنا اذهبا إلى القوم الذين كذّبوا بآياتنا ﴾ أى: فرعون وقومه. والمراد بالآيات: التسع الظاهرة على يد موس عليه السلام، ولم يتصف القوم بالتكذيب عند إرسالها إليهم ضرورة؛ لتأخير تكذيب الآيات عن إظهارها المتأخر عن إرسالها، بل إنما وُصفوا بذلك عند الحكاية لرسول الله ﷺ، بياناً لعلة استحقاقهم، لما حكى بعده من التدمير. أى: فذهبا إليهم فأرياهم آياتنا كلها، فكذبوهما تكذيباً مستمراً، ﴿ فدمَّرناهم ﴾ إثر ذلك ﴿ تدميراً ﴾ عجيباً هائلا، لا يقادر قدره، ولا يدرك كنهه. فاقتصر على حاشيتى القصة؛ اكتفاء بما هو المقصود. انظر أبا السعود.

الإشارة: أعباء الرسالة والولاية لاتحمل ولا تظهر إلا بمعين. قال تعالى: ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ﴾(٢)، ولابد لصاحب الخصوصية من إخوان يستعين بهم على ذكر الله، ويستظهر بهم على إظهار طريقة الله. فإن وُجد ولىّ لا إخوان له، ولا أولاد، فلا يكون إلا غالبًا عليه القبض، مائلاً لجهة الجذب، فيقل الانتفاع به، ولاتحصل التوسعة للولى إلا بكثرة الأصحاب والإخوان، يعالجهم ويصبر على جفاهم، حتى يتسع صدره وتتسع معرفته. وبالله التوفيق.

ثم سلّى نبيه بما جرى على الأمم قبله، فقال:

﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا (٣٧) وَعَادًا وَثَمُودَا وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا (٣٨) وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا (٣٩) وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا (٤٠) ﴾

(١) من الآية ٤٨ من سورة القصص.
(٢) من الآية ٢ من سورة المائدة.

قلت: (وقوم): منصوب بمضمر يدل عليه (دمرناهم)، أي: ودمرنا قوم نوح، و(عاداً وثموداً): عطف على (قوم نوح).

يقول الحق جل جلاله: ﴿ و ﴾ دمرنا أيضاً ﴿ قوم نوحٍ ﴾، وذلك أنهم ﴿ لمَّا كذَّبوا الرسلَ ﴾؛ نوحاً، ومن قبله شيثاً وإدريس، أو: لأن تكذيبهم لواحد تكذيب للجميع؛ لاتِّفاقهمْ على التوحيد والإسلام، ﴿ أغرقناهم ﴾ بالطوفان، ﴿ وجعلناهم ﴾ أي: وجعلنا إغراقهم أو قصتهم ﴿ للناس آيةً ﴾: عبرة يعتبر بها كل من يشاهدها أو يسمعها. ﴿ وأعْتَدنا ﴾؛ هيأنا ﴿ للظالمين ﴾ أي: لهم. وأظهر في موضع الإضمار؛ للإيذان بتجاوزهم الحد في الظلم، أو لكل ظالم ظلم شرك، فيدخل كل من شاركهم، كقريش وغيرهم، أي: هيأنا ﴿ عذاباً أليماً ﴾، أي: النار المؤبدة عليهم.

﴿ و ﴾ دمرنا أيضاً ﴿ عاداً وثموداً ﴾، وقد تقدم في الأعراف(١)، وهو كيفية تدميرهم. ﴿ وأصحابَ الرَّسِّ ﴾، هم قوم شعيب؛ قال ابن عباس: أصحاب الرسّ: أصحاب البئر. قال وهب: كانوا أهل بئر، قعودا عليها، وأصحابَ مواشي، وكانوا يعبدون الأصنام، فأرسل الله إليهم شعيباً، فآذوه، وتمادوا في طغيانهم، فبينما هم حول البئر ـ والبئر في وسط منازلهم ـ انهارت بهم وبديارهم، فهلكوا جميعاً. وقال قتادة: الرسُّ: قرية بفلَج اليمامة، قتلوا نبيّهم فأهلكهم الله. وقيل: هم بقية قوم هود وقوم صالح، وهم أصحاب البئر، التي قال: ﴿ وبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴾(٢).

وقال سعيد بن جبير وغيره: قوم كان لهم نبي، يقال له: حنظلة بن صفوان، وكان بأرضهم جبل، يقال له: فتخ، مَصْعَدُه في السماء ميل، وكانت العنقاء تنتابه، وهي كأعظم ما يكون من الطير، وفيها من كل لون ـ وسموها العنقاء؛ لطول عنقها ـ وكانت تنقض على الطير فتأكلها، فجاعت ذات يوم، فانقضت على صبي فذهبت به، ـ وسميت عنقاء مغرب؛ لأنها تُغَرِّبُ ما تأكله عن أهله، فتأكله ـ ثم انقضت على جارية قد ترعرعت، فأخذتها فطارت بها، فشكوا إلى نبيهم، فقال: اللهم خذها واقطع نسلها، فأصابتها صاعقة، فاحترقت، فلم يُر لها أثر، فصارت مثلاً عند العرب. ثم إنهم قتلوا نبيهم فأهلكهم الله. وقال مقاتل والسدي: هم أصحاب بئر إنطاكية، وتسمى الرس، قتلوا فيها حبيباً النجار، فنسبوا إليها، وهم الذين ذُكروا في (يس). وقيل: هم أصحاب الأُخدود الذين حفروه، والرسُّ في كلام العرب: كل محفور؛ مثل البئر، والقبر، والمعدن، وغير ذلك، وجمعها: رساس. وقال عكرمة: هم قوم رسّوا نبيهم في بئر.

---

(١) راجع تفسير الآيات: ٦٥ ـ ٧٨ من سورة الأعراف.
(٢) من الآية ٤٥ من سورة الحج.

قال النبي ﷺ: «إن أولَ الناس ممَّنْ يدخل الجنة عبد أسود، وذلك أن الله تعالى بعَثَ نبياً إلى قَرْيَةٍ، فلَمْ يؤْمِنْ بِهِ إلا ذلكَ الأَسْوَد، فحفَرَ أَهْلُ القَرْيَة بئرًا وألقوا فيها نبيهم، وأطبقُوا عليْهَا بحَجر ضخْم، فكَانَ العَبْدُ يحتَطب على ظهره، ويبيعه، ويأتيه بطعامه، فيعينه الله تعالى على رفع تلك الصخرة حتى يُدليه إليْه. فبينما هو يحتطبُ ذَاتَ يَوْمٍ إذ نام «فضَرَبَ على أذنه سبْعَ سِنين، ثم جاء بطعَامه إلى البئر فلم يَجِده. وكَانَ قومُه قد بدا لهم فاستَخْرَجُوه وآمَنُوا بِهِ، ومات ذلك النبي، فقال ـ عليه الصلاة والسلام: «إنَّ ذَلكَ الأَسْوَدَ لأَولُ مَنْ يَدْخُلُ الجنَّة»(١)، يعني: من قومه. هـ. وهؤلاء آمنوا فلا يصح حمل الآية عليها، إلا أن يكونوا أحدثوا شيئاً بعد نبيهم، فدمرهم الله.

وقال جعفر بن محمد عن أبيه: أن أصحاب الرسّ: السحّاقات، قال أنس: قال النبي ﷺ: «إنَّ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ أن يستكفي الرجالُ بالرجالِ، والنساءُ بالنساءِ»(٢)، وذلك السحاق، ويقال له أيضًا: المساحقة، وهو حرام بالإجماع. وسبب ظهوره: أن قومًا أحدثوا فاحشة اللواط، حتى استغنوا عن النساء، فبقيت النساء معطلة، فجاءتهن شيطانة في صورة امرأة، وهي الولَهات بنت إبليس، فشهّت إلى النساء ركوب بعضهن بعضًا، وعلمتهن كيف يصنعن ذلك، فسلط عليهم صاعقة من أول الليل، وخسفًا من آخر الليل، وصيحة مع الشمس، فلم يبق منهم بقية. هـ.

﴿ وقُرُونًا ﴾ أي: دمرنا أهل قرون. والقرن: سبعون سنة، وقيل: أقل، وقيل: أكثر، ﴿ بين ذلك ﴾ أي: بين ذلك المذكور من الأمم والطوائف، ﴿ كثيراً ﴾، لا يعلم عددها إلا العليمُ الخبير، ﴿ وكلاًّ ﴾ من الأمم المذكورين قد ﴿ ضربنا له الأمثالَ ﴾ أي: بيّنا له القصص العجيبة، الزاجرة عماهم عليه من الكفر والمعاصي، بواسطة الرسل. وقيل: المراد: تبيين ما وقع لهم، ووصف ما أدى إليه تكذيبهم لأنبيائِهِمْ، من عذاب الله وتدميره إياهم، ليكون عبرة لمن بعدهم، ﴿ وكلاًّ ﴾ أي: وكل واحد منهم ﴿ تبَّرنا تتبيراً ﴾ أي: أهلكنا إهلاكًا عجيباً. والتتبير: التفتيت. قال الزجاج: كل شيء كسرته وفتته فقد تبرته.

ثم بيّن بعض آثار الأمم المُتَبَّرَةِ، فقال: ﴿ ولقد أَتَوْا ﴾ يعني: أهل مكة ﴿ على القرية ﴾، وهي سدوم، وهي أعظم قرى قوم لوط، وكانت خمسًا، أهلك الله أربعًا، وبقيت واحدة، كان أهلها لا يعملون الخبيث، وأما البواقي فأهلكها بالحجارة، وإليه أشار بقوله: ﴿ التي أُمطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ ﴾ أي: أمطر الله عليها الحجارة. والمعنى: والله لقد أتى قريش في متاجرهم إلى الشام على القرية التي أهلكها الله، وبقي آثارها خاربة، ﴿ أَفَلَمْ يكونوا يرونها ﴾

---

(١) أخرجه الطبري في التفسير (١٤/١٩١) عن محمد بن كعب القرظي، وانظر تفسير ابن كثير (٣/٣١٨).

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١٠/٢٨٢ ح ١٠٥٥٦) مطولاً من حديث ابن مسعود رضي الله عنه وفيه: «يا ابن مسعود إن أعلام الساعة وأشراطها..» الحديث. قال في مجمع الزوائد ٧/٣٢٣. رواه الطبراني في الأوسط. وفيه: سيف بن مسكين، وهو ضعيف.

في مرورهم ورجوعهم، فيتفكرون ويؤمنون، ﴿بل كانوا لا يرجون نُشُوراً﴾ أي: بل كانوا قوماً كفرة بالبعث، لايخافون ولا يأملون بعثا، كما يأمله المؤمنون؛ لطمعهم في الوصول إلى ثواب أعمالهم. أو: بل كانوا قومًا كفرة بالبعث، منهمكين في الغفلة، يرون ما نزل بالأمم أمراً اتفاقياً، لا بقدرة الباقي، فطابع الكفر منعهم من التفكر والاعتبار. والله تعالى أعلم.

الإشارة: ينبغي للمؤمن العاقل، المشفق على نفسه، أن ينظر فيمن هلك من الأمم السالفة، ويتأمل في سبب هلاكهم، فيشد يده على الاحتراز مما استوجبوا به الهلاك، وهو مخالفة الرسل وترك الإيمان؛ فيشد يده على متابعة ما جاء به الرسول ﷺ من الأوامر والنواهي، ويرغب فيما رَغّب فيه، ويهتدي بهديه، ويقتدي بسنته، ويربي إيمانه، ويجعل البعث والنشر والحشر بين عينيه، فهذه طريق النجاة. وينبغي للمريد، إذا رأى فقيراً سقط من درجة الإرادة وييبست أشجاره، أن يحترز من تلك الزلاقة التي زلق فيها، فيبحث عن سبب رجوعه، ويجتنبه جهد استطاعته. ومرجعها إلى ثلاث: خروجه من يد شيخه إلى غيره، وسقوط تعظيم شيخه من قلبه؛ بسبب اعتراض أو غيره، واستعمال كثرة الأحوال، حتى يلحقه الملل. نسأل الله الحفظ من الجميع بمنّه وكرمه.

ثم ذكر وبال من لم يعظم الواسطة، فقال:

﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿وإذا رأَوْكَ﴾ أي: مشركو مكة ﴿إن﴾؛ ما ﴿يتخذونك إلا هُزُواً﴾ أي: مهزوءاً بك، أو محل هزؤ، حال كونهم قائلين: ﴿أهذا الذي بعثَ اللهُ رسولاً﴾، ورسولا: حال من العائد المحذوف، أي: هذا الذي بعثه الله رسولا، والإشارة؛ للاستحقار في اعتقادهم وتسليمهم البعث والرسالة، مع كونهم في غاية الإنكار لهما؛ على طريق الاستهزاء، وإلا لقالوا: أبعث الله هذا رسولا.

﴿إن كاد لَيُضلُّنا عن آلهتنا﴾ أي: ليصرفنا عن عبادتها صرفًا كليًا، والعدول إلى الإضلال؛ لغاية ضلالتهم بادعاء أن عبادتها طريق سَوِي. ﴿لولا أن صبرنا عليها﴾ لصرفنَا عنها، وهو دليل على مجاهدة الرسول ﷺ في دعوتهم، وإظهار المعجزات لهم، حتى شارفوا أن يتركوا دينهم إلى دين الإسلام، لولا فرط لجاجهم وتقليدهم. قال تعالى: ﴿وسوف يعلمون حين يَرَوْنَ العذابَ﴾ الذي يستوجبه كفرهم وعنادهم، ﴿من أضلُّ سبيلاً﴾، وأخطأ طريقا. وفيه ما لا يخفى من الوعيد والتنبيه على أنه تعالى يُمهل ولا يهمل.

﴿أرأيتَ من اتخذ إلهَهُ هَواهُ﴾ أي: أطاع هواه فيما يذر ويفعل، فصار معبوده هواه، يقول لرسوله ﷺ: هذا الذي لا يرى معبوده إلا هواه، كيف تستطيع أن تدعوه إلى الهدى وتهديه إليها؟ يُروى أن الواحد من أهل الجاهلية كان يعبد الحجر، فإذا مر بحجر أحسن منه تركه وَعَبَدَ الثاني. وقال الحسن: هو في كل متبع هواه. ﴿أفأنت تكون عليه وكيلاً﴾؛ حفيظًا تحفظه عن متابعة هواه وعبادة ما يهواه. والفاء؛ لترتيب الإنكار على ما قبله، كأنه قيل: أبَعْدَمَا شاهدت من غلوه في طاعة الهوى، وعتوه عن اتباع الهدى، تقهره على الإيمان، شاء أو أبى، وإنما عليك التبليغ فقط.

﴿أم تَحْسَبُ أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون﴾، «أم»: منقطعة، بمعنى بل، أي: بل أتظن أن أكثرهم يسمعون ما تتلو عليهم من الآيات حق السماع، أو يعقلون ما في تضاعيفها من المواعظ والأنكال؟ ﴿إنْ هم إلا كالأنعام﴾ أي: ما هم، في عدم الانتفاع بما يقرع آذانهم من قوارع الآيات، وانتفاء التأثير بما يشاهدونه من الدلائل والمعجزات، إلاّ كالبهائم، التي هي غاية في الغفلة، ومَثَل في الضلالة، ﴿بل هم أضلُّ سبيلاً﴾؛ لأن البهائم تنقاد لصاحبها الذي يعلفها ويتعاهدها، وتعرف من يُحسن إليها ممن يسيء إليها، وتطلب ما ينفعها وتجتنب ما يضرها، وتهتدي لمراعيها ومشاربها، وتأوي إلى معاطنها، وهؤلاء لا ينقادون لخالقهم ورازقهم، ولا يعرفون إحسانه من إساءة الشيطان، الذي هو أعدى عدوهم، ولا يطلبون الثواب الذي هو أعظم المنافع، ولا يتقون العقاب الذي هو أقبح المضار والمعاطب، ولا يهتدون إلى الحق، الذي هو الشرع الهني، والمورد العذب الروي، ولأنها، إن تعتقد حقًا مستتبعًا لاكتساب الخير، لم تعتقد باطلا مستوجبًا لاقتراب الشر، بخلاف هؤلاء؛ حيث مهّدوا قواعد الباطل، وفرعوا أحكام الشرور، ولأن أحكام جهالتها وضلالتها مقصورة عليها، لا تتعدى إلى أحد، وجهالة هؤلاء مؤدية إلى ثوران الفساد، وصد الناس عن سنَن السداد، وهيجان الهرج والمرج فيما بين العباد، ولأنها غيرمتمكنة من طلب الكمال، لعدم القوى العقلية، فلا تقصير من قبلها، ولا ذم، وهؤلاء متمكنون من القوى العقلية مضيعون الفطرة الأصلية، مستحقون بذلك أعظم العقاب، وأشد النكال. هـ. وأصله للبيضاوي.

الإشارة: تعظيم الرسول ﷺ وإجلاله وتوقيره من أعظم ما يُقرب إلى الله، ويوصل إلى رضوان الله، ويدخل العبد على مولاه؛ لأنه باب الله الأعظم، والواسطة الكبرى بين الله وبين عباده، فمن عظَّمه ﷺ وبجّله وخدمه أتم الخدمة، أدخله الحضرة، على التوقير والتعظيم والهيبة والإجلال. ومن حاد عن متابعته فقد أتى البيت من غير بابه؛ كمن دخل حضرة الملك بالتسور، فيستحق القتل والطرد والبُعد. وإدخاله على الله: دلالته على من يعرفه بالله، وقد يوصله بلا واسطة، لكنه نادر. ومن أهمل هذا الجانب واستصغره طرده الله وأبعده، وانسحب عليه قوله: ﴿ وإذا رأوك إن يتخذونك إلا هزوا ﴾ ، وكان ممن اتخذ إلهه هواه، وكان كالبهائم، أو أضل؛ لأن من اتبع الواسطة كان هواه تابعاً لما جاء من عند الله، وقد قال ﷺ: «لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ هَوَاه تَبَعاً لما جِئْتُ بِهِ» . وبالله التوفيق.

ثم ذكر دلائل توحيده، بعد بيان من غفل عنها وضل، فقال:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ألم ترَ﴾ يا محمد ﴿إلى ربِّكَ﴾ أي: ألم تنظر إلى بديع صنع ربك ودلائل قدرته وتوحيده. والتعرض لعنوان الربوبية، مع الإضافة إلى ضميره ـ عليه الصلاة والسلام ـ، لتشريفه وتبجيله، وللإيذان بأن ما يعقبه من آثار قدرته ورحمته، ﴿كيف مَدَّ الظِّلَّ﴾ أي: بسطه حتى عمَّ الأرض، وذلك من حين طلوع الفجر إلى وقت طلوع الشمس، في قول الجمهور؛ لأنه ظل ممدود، لا شمس معه ولا ظلمة، فهو شبيه بظل الجنة. وقيل: مد ظل الأشياء الشاخصة أول النهار؛ من شجر، أو مدر، أو إنسان، ثم قبضها وردها إلى المشرق. ﴿ولو شاء لجعله ساكنًا﴾ أي: دائماً لا يزول ولا تُذهبه الشمس، أو: لا ينتقص بسيرها. ﴿ثم جعلنا الشمسَ

عليه ﴾ أي: على الظل ﴿ دليلاً ﴾، لأنه بالشمس يُعرف الظل، فلولا طلوعها وظهورها ما عرف الظل، ولا ظهر له أثر، فالأشياء تعرف بأضدادها.

﴿ ثم قبضناه ﴾ أي: أخذنا ذلك الظل الممدود ﴿ إلينا ﴾؛ إلى حيث إرادتنا ﴿ قَبْضاً يسيراً ﴾ أي: على مهل قليلاً قليلاً، حسب ارتفاع دليله، على حسب مصالح المخلوقات ومرافقها.

﴿ وهو الذى جعلَ لكم الليلَ لباسًا ﴾ أي: جعل الظلام الساتر كاللباس ﴿ والنوم سباتًا ﴾ أي: راحة لأبدانكم، وقطعًا لأعمالكم. والسبت: القطع، والنائم مسبوت؛ لأنه انقطع عمله وحركته، وقيل السبات: الموت، والميت مسبوت؛ لأنه مقطوع الحياة، كقوله: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ ﴾(١). ويعضده ذكر النشور في مقابلته بقوله: ﴿ وجعل النهار نُشُوراً ﴾ أي: ذا نشور، أي: انبعاث من النوم، كنشور الميت، أو: ينشر فيه الخلق للمعاش.

وهذه الآية، مع دلالتها على قدرته تعالى، فيها إظهار لنعمته تعالى؛ لأن فى الاحتجاب بستر الليل فوائد دينية ودنيوية، وفي النوم واليقظة ـ المشبهين بالموت والبعث ـ عبرة للمعتبرين. قال لقمان لابنه: كما تنام فتوقظ، كذلك تموت فتنشر.

﴿ وهو الذى أرسل الرياحَ ﴾، وعن المكى بالإفراد، ﴿ نشراً ﴾(٢): جمع نشور، أي: أرسلها للسحاب حتى تسوقها إلى حيث أراد تعالى أن تمطر، ﴿ بين يدى رحمته ﴾ أي: أرسلها قدام المطر، لأنه ريح، ثم سحاب، ثم مطر. وقرأ عاصم بالباء، أي: مبشرات بالمطر. ﴿ وأنزلنا من السماء ماءً طَهُوراً ﴾ أي: مطهراً بالغاً فى التطهير، كقوله: ﴿ لِيُطَهِّرَكُم بِهِ ﴾(٣) وهو اسم لما يتطهر به، كالوضوء والوقود، لما يتوضأ به ويوقد به. وقيل: طهور فى نفسه، مبالغة فى الطاهرية، فالطهور فى العربية يكون صفة، كما تقول: ماء طهور، واسمًا، كما فى قوله ﷺ: «التراب طهور، والمؤمن طهور»، وقد يكون مَصْدَراً بمعنى الطهارة، كقولك: تطهرت طهوراً حسناً، ومنه قوله ﷺ: «لا صلاة إلا بطهور»(٤). ووصْفُهُ تعالى الماءَ بذلك؛ ليكون أبلغ فى النعمة، فإن الماء الطهور أنفع وأهنأ مما خالطه ما يزيل طهوريته ،أي: أنزلناه كذلك .

﴿ لنُحيى به ﴾ أي: بالمطر الطهور ﴿ بلدةً ميتاً ﴾ بالجدب والقحط، فحييت بالنبات والعشب. والتذكير؛ لأن البلدة بمعنى البلد، والمراد به: القطعة من الأرض عامرة أو غامرة. ﴿ ونُسْقِيَهُ ﴾ أي: ذلك الماء الطهور، عند

(١) من الآية ٦٠ من سورة الأنعام.
(٢) قرأ عاصم: «بشراً» بالباء، وقرأ الباقون «بالنون».. انظر الإتحاف (٢/٣٠٩).
(٣) من الآية ١١ من سورة الأنفال.
(٤) أخرجه بطوله مسلم فى (الطهارة، باب وجوب الطهارة للصلاة، ١/٢٠٤، ح ٢٢٤) من حديث ابن عمر . رضي الله عنه: (لا تقبل صلاة بغير طهور..) الحديث.

جريانه في الأودية، أو اجتماعه في الآبار والحياض، ﴿ مما خلقنا أنعاماً وأَنَاسِيَّ كثيراً ﴾ أي: نسقى ذلك بهائم وناسًا كثيراً. والأناسى: جمع أُنْسِيّ، ككرسى وكراسى. وقيل: جمع إنسان، وأصله: أناسين، وأبدلت النون ياءً، وأدغمت التى قبلها فيها. وقدّمَ إحياء الأرض على سقى الأنعام والأناسى؛ لأن حياتها سبب لحياتهما. وتخصيص الأنعام من بين سائرالحيوان؛ لأن عامة منافع الإنسان متعلقة بها.

﴿ ولقد صرَّفناه ﴾ أى: هذا القول، الذى هو إنشاء السحاب وإنزال المطر، على الوجه الذى مرّ من الغايات الجميلة، فى القرآن وغيره من الكتب السماوية، أو: صرفنا المطر عامًا بعد عام وفى بلدة دون أخرى. أو: صرفناه بينهم وابلاً، وطلاً، ورذاذاً وديمة. وقيل: التصريف راجع إلى الريح. وقيل : إلى القرآن المتقدم فى قوله: ﴿لولا أنزل عليه القرآن..﴾(١) ويعضده: ﴿وجاهدهم به﴾(٢). وقوله :﴿ بينهم ﴾ أى: بين الناس جميعًا متقدمين ومتأخرين، ﴿ ليذَّكَّرُوا ﴾ ؛ ليتفكروا ويعرفوا قدر النعمة فيه، أو: ليعرفوا بذلك كمال قدرته وسعة رحمته، ﴿ فأبَى أكثرُ الناس ﴾ ممن سلف وخلف ﴿ إلا كفوراً ﴾ أى: جُحُوداً لهذه النعمة وقلة اكتِراثٍ بها، وربما نسبوها إلى غير خالقها، فيقولون: مُطرنا بنَوْء كذا.

وفى البخارى عنه ﷺ يقول الله تعالى: «أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وكَافِرٌ، فَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِفَضْلِ الله ورَحْمَتِه؛ فَذلِكَ مُؤْمِنٌ بِي، كَافِرٌ بالكَوَاكِبِ، وأَمـا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا، فَهو كَافِرٌ بِي، مُؤْمِنٌ بالكَوَاكِبِ»(٣). فمن نسب الأمطار إلى الأنواء، وجَحد أن تكون هى والأنواء من خلق الله، فقد كفر، ومن اعتقد أن الله خالقها، وقد نصب الأنواء أمارات ودلالات عليها، لم يكفر.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبى ﷺ قال: «ليس سَنَةٌ بأمطر من الأخرى، ولكن الله تعالى قسم هذه الأرزاق، فجعلها فى سماء الدنيا، فى هذا القطر، ينزل منه كل سنة بكيل معلوم ووزن معلوم. ولكن إذا عمل قوم بالمعاصى حوّل الله ذلك إلى غيرهم، فإذا عصوا جميعاً صرف الله ذلك إلى الفيافى والبحار»(٤). والله تعالى أعلم.

الإشارة: الكون كله، من جهة حسه الظاهر، ظل آفل، وضباب حائل، لا وجود له من ذاته، وإنما الوجود للمعانى القديمة الأزلية. فنسبة الكائنات، من بحر المعانى الأزلية، كنسبة ظلال الأشجار فى البحار، فظلال

(١) الآية ٣٢ من هذه السورة. (٢) الآية ٥٢.

(٣) أخرجه البخارى فى (الاستسقاء، باب قول الله تعالى: ﴿وتجعلون رزقكم أنكم تكذّبون﴾ ح ١٠٣٨) ومسلم فى (الإيمان، باب كفر من قال: مطرنا بالنوء، ١/٨٣،ح ١٢٥)، عن زيد بن خالد الجهنى.

(٤) ذكره بلفظه البغوى فى تفسيره (٦/٨٩) وعزاه لابن إسحاق، وابن جريج، ومقاتل، وبلغوا به ابن مسعود يرفعه. وأخرج الحاكم فى المستدرك (التفسير ٢/٤٠٣)، عن ابن عباس: «ما من عام، أمطر من عام، ولكن الله قسم ذلك بين عباده على ما يشاء»، وتلا هذه الآية. يعنى: قوله: ﴿ولقد صرفناه بينهم﴾ وصححه الحاكم، ووافقه الذهبى على شرط الشيخين.

الأشجار فى البحار لا تمنع السفن من التسيار، فكذلك ظلال الكائنات لاتمنع سفن الأفكار من الخوض فى بحار المعانى الأزلية الجبروتية، بل تخرقها، وتخوض فى بحار الأحدية الجبروتية، الأولية والآخرية، والظاهرية والباطنية، والعلوية والسفلية، ولا يحجبها عن الله ظل شيء من الكائنات، وإليه الإشارة بقوله: ألم تر، أيها العارف، إلى ربك كيف مد الظل، أي: مد ظل الكائنات؛ ليعرف بها كنز ربوبيته وبطون غيبه، ثم يرفع ذلك الظل عن عين البصيرة، التى أراد فتحها، فتشاهد بطون الأزل وغيب الغيب، وتصير عارفة بالله. ولو شاء لجعله ساكناً، فيقع به الحجاب، فيحجب العبد بسحب الآثار عن شهود الأنوار. ثم جعلنا شمس العرفان عليه أى: على الأثر، دليلاً، فيستدل بالله على غيره، فلا يري غيره، ثم قبضناه، أى: ذلك الظل، عن قلب السائر أو العارف، قبضاً يسيرا، فيغيب عنه شيئاً فشيئاً، حتى يفنى عن حسه وحس غيره من الكائنات، فلا يشهد إلا المكوِّن؛ لأن ذلك إنما يكون بالتدرج والتدريب، فإذا تحقق فناؤه رجع إلى شهود الأثر بالله(١)؛ قياماً برسم الحكمة، وأداءً لحق العبودية.

وهو الذى جعل ليل القبض لباساً، أى: ستراً ورداء من الهفوات؛ لأن القبض يغلب فيه السكون، وجانبه مأمون، والنوم ـ أى: الزوال ـ سُباتاً، أى: راحة من كد التدبير والاختيار، وجعل نهار البسط نشوراً، تنتشر فيه العلوم وتنبسط فيه المعارف، إن قام صاحبه بآدابه، ولا يقوم به إلا القليل؛ لأنه مزلة أقدام، ولذلك قال فى الحكم: «ربما أفادك فى ليل القبض ما لم تستفده فى إشراق نهار البسط، لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعاً».

وهو الذى أرسل رياح الواردات الإلهية نُشْراً بين يدى رحمته، أى: معرفته؛ إذ لا رحمة أعظم منها، وأنزلنا من سماء الغيوب ماءً طهوراً، وهو العلم بالله، الذى تحيا به الأرواح والأسرار، وتطهر به قلوب الأحرار، لنحيي به بلدة ميتاً، أى: روحاً ميتة بالجهل والغفلة، ونُسقيه مما خلقنا أنعاماً وأناسى كثيراً؛ لأن ماء المعانى سارٍ فى كل الأوانى؛ فماء التوحيد سار فى الأشياء كلها، جَهِلَ هذا مَنْ جهله، وعرفه من عرفه. وأكثر الناس جاحدون لهذا. ولذلك قال تعالى: ﴿ولقد صرفناه بينهم﴾؛ فكل شيء فيه سر من حياة هذا الماء، فأبى أكثر الناس إلا كفوراً وجحوداً له، ولم ينتفع به إلا خواص أوليائه. وبالله التوفيق.

ثم إن هذا الماء إنما يسقى على أيدى الوسائط. وكان القياس تعددهم كتعدد سحابات الأمطار بتعدد الأقطار، لكن خُولف ذلك فى حق نبينا ﷺ؛ تشريفاً لقدره، وتعظيماً لأمره، كما أشار إلى ذلك بقوله:

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾﴾

(١) إذن فهو فناء شهود، وليس فناء وجود. فتنبه، أعزك الله.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ولو شئنا لبعثنا في كل قرية نذيراً﴾ أي: رسولاً يُنذر أهلها، ولقسمنا النذر بينهم كما قسمنا المطر، فيخف عليك أعباء النبوة، ولكنا لم نشأ ذلك؛ فحملناك ثقل نذارة جميع القرى، حسبما نطق به قوله تعالى: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً﴾(١)؛ لتستوجب بذلك الدرجة القصوى، وتفضل على سائر الرسل والأنبياء، ﴿فلا تُطع الكافرين﴾ فيما يدعونك إليه من موافقتهم ومداهنتهم. وكما آثرتك على جميع الأنبياء فآثر رضاى على جميع الأهواء، وكأنه نهى للرسول ﷺ عن المداراة معهم، والتقصير في الدعوة؛ لئلا تغلبه الشفقة عن مقابلتهم بصريح الحق.

قال القشيرى: ﴿فلا تُطع الكافرين﴾ أى: كُنْ قائماً بحقّنا، من غير أن يكون منك جنوحٌ إلى غيرنا، أو مبالاةٌ بسوانا، فإنّا نَعْصِمُكَ بكل وجهٍ، ولا نرفع عنكَ ظلَّ عنايتنا بحالٍ.هـ.

﴿وجاهِدْهُمْ به﴾ أى: بالقرآن؛ بأن تقرأ عليهم ما فيه من الزواجر والقوارع والمواعظ، وذكر أحوال الأمم الهالكة، ﴿جهاداً كبيراً﴾؛ عظيماً موقعه عند الله؛ لما يتحمل فيه من المشاق، فإن دعوة كُلِّ العالمين، على الوجه المذكور، جهاد كبير، أو: (جاهدهم به)؛ بالشدة والعنف؛ من غير مداداة ولا ملاينة، فَكِبَرُ الجهادِ هو ملابسته بالشدة والعنف، كقوله: ﴿جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾(٢). والله تعالى أعلم.

الإشارة: الإنذار والوعظ بالمقال مع الهمة والحال عزيز الوجود، فقلَّ أن يجتمع منهم، في العصر الواحد، ثلاثة أو أربعة في الإقليم الكبير؛ لأن الله تعالى لم يشأ ذلك بحكمته، قال تعالى: ﴿ولو شئنا لبعثنا في كل قرية نذيراً﴾، وكلما قَلَّ عددهم، وعظُم الانتفاع بهم، عظُم قدرهم، فينبغى للمذكِّر أن يُذكِّر كلاً بما يليق به، فأهل العصيان ينبغى له أن يشدد في الإنذار، ولا يداريهم ولا يداهنهم. وأهل الطاعة ينبغى له أن يُبشِّرهم ويسهل الأمر عليهم، وقد قال ﷺ: «يَسِّرُوا ولا تُعَسِّرُوا، وبَشِّرُوا ولا تُنَفِّرُوا»(٣)، فيحتاج المذكِّر إلى فطنة وفراسة، حتى يعطى كل واحد ما يليق به، ويخاطب كل واحد بما يطيقه. وبالله التوفيق.

ثم ذكر دليلاً آخر على كمال قدرته، فقال:

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا

(١) من الآية الأولى من سورة الفرقان. (٢) من الآية ٧٣ من سورة التوبة، والآية ٩ من سورة التحريم.

(٣) أخرجه البخارى فى (كتاب العلم، باب: ما كان النبى ﷺ يتخولهم بالموعظة، ح٦٩) ومسلم فى (الجهاد والسير، باب الأمر بالتيسير وترك التنفير، ٣/١٣٠٩، ح ١٧٣٤) من حديث أنس بن مالك ـ رضى الله عنه.

وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾

قلت: أصل المرج: الخلط والإرسال، ومنه قوله تعالى: ﴿فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾(١)، وقوله ﷺ: «كيف بك يا عبدالله [illegible] في حُثَالَةٍ من الناس، قد مرجت عهودهمْ وأماناتهمْ، وصاروا هكذا، وشبَّكَ بين أصابعه»(٢). يقال: مرجت دابته وأمرجتها: إذا أرسلتها في المرعى. ومنه قيل للروضة: مرج.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وهو الذي مَرَجَ البحرين﴾ أي: أرسلهما، وخلَّاهُمَا متجاورَيْن متلاصقَيْن غير متمازجَيْن. ﴿هذا عذبٌ فُرَاتٌ﴾ أي: شديد العذوبة، قامع للعطش؛ لعذوبته، أي: برودته، ﴿وهذا مِلْحٌ أُجاجٌ﴾: بليغ الملوحة، أو: هذا عذب لا ملوحة فيه، وهذا ملح لاعذوبة فيه، مع اتحاد جنسهما، ﴿وجعل بينهما برزخًا﴾؛ حائلاً بقدرته، يفصل بينهما ويمنعهما التمازج؛ لئلا يختلطا، ﴿وحِجْراً محجوراً﴾ أي: وستراً ممنوعاً عن الأعين، كقوله: ﴿حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾(٣)، أي: جعل بينهما حاجزاً خفيًا؛ لئلا يغلب أحدهما الآخر، أو: سداً ممنوعاً يمنعهما فلا يبغيان، ولا يفسد الملحُ العذبَ، ولو خلاَّ الله تعالى البحر الملح، ولم يلجمه بقدرته، لفاض على الدنيا، واختلط مع العذب وأفسده.

ثم ذكر دليلاً آخر، فقال: ﴿وهو الذي خلقَ من الماءِ﴾ أي: النطفة ﴿بشَرًا﴾؛ إنساناً ﴿فجعله نسبًا وصِهْراً﴾. قسم البشر قسمين: ذوي نسب، أي: ذكوراً، ينسب إليهم، فيقال: فلان ابن فلان. وذوات صهر، أي: إناثاً يصاهر بهن، فهو كقوله: ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَىٰ﴾(٤). قال ابن جزي: والنسب: أن يجتمع إنسان مع آخر في أب أو أمّ، قَرُبَ ذلك أو بَعُدَ. والصهر: هو الاختلاط بالتناكح. هـ. وعن علي رضي الله عنه: النسب ما لا يحل نكاحه، والصهر: ما يحل نكاحه. وعن الضحاك ومقاتل: النسب سبعة، والصهر خمسة، ثم قرأ هذه الآية: ﴿حُرِّمَت عليكم أمهاتكم﴾(٥). فالسبعة الأولى: نسب، والباقي: صهر. هـ. والأصح أن التسعة نسب، والباقي صهر.

---

(١) من الآية ٥ من سورة ق.
(٢) أخرجه ابن حبان (الإحسان ٧/٥٧٥ح ٥٩٢٠) عن أبي هريرة، وأخرجه أحمد في المسند (٢/١٦٢)، وأبو داود في (الملاحم، باب الأمر والنهي، ٤/٥١٣، ح ٤٣٤٢) وابن ماجه في (الفتن، باب التثبت في الفتنة، ٢/١٣٠٧ ح٣٩٥٧)، عن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه.
(٣) من الآية ٤٥ من سورة الإسراء. (٤) من الآية ٣٩ من سورة القيامة.
(٥) من الآية ٢٣ من سورة النساء.

﴿ وكان ربك قديراً ﴾ ؛ حيث خلق من النطفة الواحدة بشراً ذا نوعين، ذكراً وأنثى، أو: حيث خلق من مادة واحدة بشراً ذا أعضاء مختلفة وطباع متباعدة، وجعله قسمين متقابلين؛ ذكراً وأنثى.

﴿ ويعبدون من دون الله ﴾ ، بعد هذا البرهان الواضح على توحيده، ﴿ ما لا ينفعهم ﴾ إن عبدوه، ﴿ ولا يضرهم ﴾ إن تركوه، وهم الأصنام، أو كل من عبد من دون الله؛ إذ المخلوق كله عاجز، ﴿ وكان الكافر على ربه ﴾ ، الذى ذكر آثار قدرته ودلائل ربوبيته، ﴿ ظَهِيراً ﴾ ؛مُعيناً، يظاهر الشيطان ويعينه على الكفر والعصيان. والمعنى: أن الكافر؛ بعبادة الصنم، يتابع الشيطان ويُعاونه على معصية الرحمن. وقال ابن عرفة: أى: مظاهراً لأعداء الله على أولياء الله، فتلك إعانته. هـ.

الإشارة: مَرج البحرين؛ بحر الشريعة وبحر الحقيقة، فبحر الشريعة عذب فرات؛ لأنه سهل المدارك، يناله الخاص والعام، وبحر الحقيقة ملح أجاج؛ لأنه لا يناله إلا من ذاق مرارة فطام النفس من هواها، ومجاهدتها فى ترك مُنَاها، حتى تموت ثم تحيا، فحينئذ تتلذذ بمشاهدة مولاها، وتطيب حياتها فى أخراها ودنياها. فبحر الحقيقة صعب المرام، لا يركبه إلا الشجعان، وفى ذلك يقول صاحب العينية رضي الله عنه:

وإيَّاك جزْعاً(١) لا يهولُكَ أمْرُهَا فَمَا نَالَهَا إلاَّ الشُّجَاعُ المُقَارِعُ

والبرزخ الذى جعل بينهما: نور العقل، يميز بين محل الشرائع ومحل الحقائق، فيعطى كل ذى حق حقه، ويوفى كل ذى قسط قسطه.

ثم ذكر شأن الواسطة، التى هى سبب لركوب البحرين، فقال:

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وما أرسلناك ﴾ يا محمد ﴿ إلا مبشراً ﴾ للمؤمنين ﴿ ونذيراً ﴾ للكافرين، ﴿ قل ما أسألكم عليه ﴾ ؛ على تبليغ الرسالة ﴿ من أجْـر ﴾ من جهتكم، فتقولون: إنما يطلب محمد جمع أموالنا، ﴿ إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلاً ﴾ أى: لكن من شاء أن يتخذ إلى ربه طريقاً توصله إليه، بإنفاقه مالَه فى سبيل الله، فليفعل وليعطه لغيره. وقيل: الاستثناء متصل، أى: لا أسألكم عليه أجراً، إلا فعل من يريد أن يتقرب إليه

(١) فى العينية: حزْماً. انظر الديوان (ص٧٨).

تعالى، ويطلب الزلفى عنده بالإيمان والطاعة، حسبما أدعوكم إليهما. فَصوّر ذلك بصورة الأجر؛ من حيث إنه مقصود الإتيان به، واستثناه منه؛ قطعاً لشائبة الطمع، وإظهاراً لغاية الشفقة عليهم، حيث جعل ذلك، مع كون نفعه عائداً إليهم، عائداً إليه ﷺ. والله تعالى أعلم.

الإشارة: العلماء بالله خلفاء الرسل، فما أظهرهم الله في كل زمان إلا ليذكروا الناس ويعظوهم، ويبشروهم ويُنذروهم، من غير عوض ولا طمع، فإن تعلقت همتهم بشيء من عرض الدنيا؛ من أيدي الناس، كسف ذلك نورهم، وانتقص نفعهم، وقَلّ الاهتداء على أيديهم، وقد تقدم هذا مراراً. وبالله التوفيق.

ثم أمر نبيه بالتوكل، ليغيب عن خيرهم وشرهم، وعن طلب الأجر منهم، فقال:

﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩ ﴿٦٠﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وتوكّلْ على الحيّ الذي لا يموت ﴾ في الاستكفاء عن شرورهم، والاغتناء عن أجورهم، أي: ثق به؛ فإنه يكفيك عن الطمع فيمن يموت، فلا تطلب على تبليغك من مخلوق أجراً، فإن الله كافيك. قرأها بعض الصالحين فقال: لا يصح لذي عقل أن يثق بعدها بمخلوق. ﴿ وسبِّحْ ﴾ أي: ونزهه أن يكل إلى غيره مَنْ تَوكّلَ عليه، ﴿ بحمده ﴾ أي: بتوفيقه الذي يوجب الحمد، أو: قل سبحان الله وبحمده، أو: نزهه عن صفات النقصان، مثنياً عليه بنعوت الكمال، طالباً لمزيد الإنعام، ﴿ وكفى به بذنوب عباده خبيراً ﴾ أي: كفى الله خبيراً بذنوب عباده، ما ظهر منها وما بطن، يعني: أنه خبير بأحوالهم، كافٍ في جزاء أعمالهم

﴿ الذي خلق السموات والأرضَ وما بينهما في ستة أيام ﴾ أي: في مدة مقدارها [ستة أيام](١)؛ إذ لم يكن ليل ولا نهار. وعن مجاهد: أولها يوم الأحد، وآخرها يوم الجمعة، وإنما خلقها في هذه المدة، وهو قادر على خلقها في لحظة، تعليماً لخلقه الرفق والتثبت. ﴿ ثم استوى على العرش ﴾ استواء يليق به، ﴿ الرحمنُ ﴾ أي: هو الرحمن، أو: فاعل استوى، أي: استوى الرحمن برحمانيته على العرش وما احتوى عليه. وراجع ما تقدم في الأعراف.(٢) ﴿ فاسألْ

---

(١) زيادة ليست في الأصول.		(٢) راجع: تفسير الآية ٥٤ من سورة الأعراف (٢/٢٢٣ - ٢٢٥).

به خبيراً ﴾ أي: سل عنه رجلاً عارفًا خبيراً به، يُخبرك برحمانيته. وكانوا ينكرون اسم الرحمن، ويقولون: لا نعرف الرحمن إلا الذى باليمامة، يعنون: مسليمة الكذاب، وكان يقال له: رحمن اليمامة، غُلُوّاً فيه، فأمر نبيه أن يسأل من له خبرة وعلم بالكتب المتقدمة عن اسم الرحمن، فإنه مذكور فى الكتب المتقدمة.

قال شيخ شيوخنا سيدى عبد الرحمن العارف: والظاهر: أن الخبير هو الله، أى: اسأل الله الخبير بالأشياء، الأعلم بخفاياها، والتقدير: فسل بسؤالك إياه خبيراً. وإنما استظهرنا هذا القول؛ لأن المأمور بالسؤال الرسول ﷺ، وتَجِلُّ رتبته عن سؤال غير ربه. والمراد: فسل الله الخبير بالرحمن ووصفه. انظر تمام كلامه.

﴿ وإذا قيل لهم ﴾ أى: إذا قال محمد للمشركين: ﴿ اسجدوا للرحمن ﴾؛ صلّوا له، أو: اخضعوا، ﴿ قالوا وما الرحمنُ ﴾ أى: لانعرف الرحمن فنسجد له، قالوا ذلك: إما لأنهم ما كانوا يطلقونه على الله تعالى، أو لأنهم ظنوا أن المراد به غيره تعالى. ﴿ أنسْجُدُ لما تأمرنا ﴾ أي: للذى تأمرنا بالسجود له، أو لأمرك بالسجود له من غير علم منا به. وهو منهم عناد؛ لأن معناه فى اللغة: ذو الرحمة التى لا غاية لها؛ لأن فَعْلاَنَ يدل على المبالغة، وهم من أهل اللغة. ﴿ وزادهم نُفُوراً ﴾ أى: زادهم الأمر بالسجود للرحمن تباعداً عن الإيمان ونفوراً عنه. وبالله التوفيق.

الإشارة: قد تقدم الكلام على التوكل فى مواضع. وللقشيرى هنا كلام، وملخصه باختصار: أن التوكل: تفويضُ الأمر إلى الله سبحانه، وأصله: عِلْمُ العبدِ بأنّ الحادثاتِ كلَّها حاصلةٌ من الله، ولا يقدر أحدٌ على إيجاد شىء أو دفعه، فإذا عَرَفَ العبدُ هذا، وعلم أن مراد الله لا يرتفع ولايدفع، حصل له التوكل. وهذا القدر فرض، وهو من شرائط الإيمان، قال الله تعالى: ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾(١)، وما زاد على هذا القَدْرِ؛ من سكون القلب، وطمأنينته، وزوال الانزعاج والاضطراب، فهو من أحوال التوكل ومقاماته.

فالناس فى الاكتفاء والسكون على أقسام ودرجات، فأول رتبة فيه: أن يكتفى بما فى يده، ولا يطلب الزيادة عليه، ويستريح قلبه من طلب الزيادة. وتسمى هذه الحالة: القناعة، فيقنع بالحاصل، ولا يستزيد ما ليس بحاصل ـ يعنى: مع وجود الأسباب ـ ثم بعد هذا سكون القلب فى حال عَدَمِ الأسباب، وهو مقام التجريد، وهم متباينون فى الرتبة: واحد يكتفى بوعده؛ لأنه صدَّقَه فى ضمانه، فسكن قلبه عند فقد الأسباب؛ ثقةً منه بوعد ربه، وقد قيل: إن التوكل: سكون القلب بضمان الربّ، ويقال: سكون الجأش فى طلب المعاش، ويقال: الاكتفاء بوعده عند عدم نَقْدِه.

(١) من الآية ٢٣ من سورة المائدة.

وألطف من هذا أن يكتفى بِعلْمِ الله، فيشتغل بمولاه، ولا يلتفت إلى إنجاز وعد ولا ضمان، فيكِلُ أمره إلى الله، وهذه حالة التسليم. وفوق هذه: التفويض، وهو أن يَكِلَ أمرَه إليه، ولا يختار حالاً على حال، فيشتغل بمولاه ويغيب عن نفسه وعن كل ما سواه، يعلم أنه مملوكٌ لسيِّده، والسيِّدُ أولى من العبد بنفسه. فإذا ارتقى عن هذه الحالة وَجَدَ الراحة في المنْع، ويستعذب ما يستقبله من الردِّ، فهي رتبة الرضا، ويحصل له في هذه الحالة، من فوائد الرضا ومطالعته، ما لا يحصل لمن دونه من الحلاوة في وجود المقصود.

وبعد هذا: الموافقة؛ وهو ألا يجد الراحة في المنع ولا في العطاء، وإنما يجد حلاوة نسيم القُرب، وزوائد الأنس بنسيان كل أرَبٍ. فكما أن حلاوة الطاعات تتصاغر عند بَرْدِ الرضا ـ ويعدُّون ذلك حجاباً ـ كذلك أهل الأُنْسِ بالله يعدُّون الوقوف مع حلاوة الرضا والاشتغال بلطائفه نقصاناً وحجاباً. ثم بعد هذا استيلاءُ سلطان الحقيقة، بما يأخذ العبد عن جملته بالكلية، فيُعبر عن هذه الحالة بالخمود، والاستهلاك، والوجود، والاصطلام، والفناء ـ وهذا هو عين التوحيد الخاص ـ فعند ذلك لا أنس، ولا هيبة، ولا لذة، ولا راحة، ولا وحشة، ولا آفة . يعني: تغيب المقامات بلذاتها وراحتها، عند تحقق الفناء، ثم قال: هذا بيان ترتيبهم، فأمّا ما دون ذلك؛ فالإخبار عن أحوال المتوكلين، على تباين شرفهم، يختلف على حسب اختلاف حالهم. انتهى بالمعنى.

وقال أيضاً: ويقال: التوكل في الأسباب الدنيوية ينتهي إلى حدّ، وأما التوكل على الله في إصلاح آخرته: فهو أشدُّ غموضًا وأكثرُ خفاء، فالواجب، في الأسباب الدنيوية، أن يكون السكونُ عند طلبها غالبًا، والحركةُ تكون ضرورةً، وأما في أمر الآخرةِ وما يتعلق بالطاعةِ، فالواجبُ البِدار والجدُّ والانكماشُ، والخروجُ عن أوطان الكسل، وترك الجنوحِ إلى الفشل. والذي يوصف بالتواني في العبادات والتباطؤِ في تلافي ما ضيَّعه من إرضاء الخصوم، والقيام بحقِّ الواجبات، ثم يعتقد في نفسه أنه متوكِّلٌ على الله، فهو متمنٍ معلول الحال، ممكورٌ مستدرَج، بل يجب أن يبذل جهده، ويستفرغ وسعه، ثم بعد ذلك لا يعتمد على طاعته، ولا يستند إلى سكونه وحركته، ويتبرأُ من حوْله وقوّته، ثم يُحسن الظنّ بربّه. ومع حسْنِ ظنه بربّه لا ينبغي أن يخلوَ من مخافته، اللهم إلا أن يغْلِبَ على قلبه ما يشغله في الحال؛ من كشوفات الحقائق عن الفكرة في العواقب؛ فإن ذلك ـ إذا حصَلَ ـ فالوقت غالبٌ، وهو أحد ما قيل في قولهم: الوقت سيف. هـ.

ثم ذكر من أوصاف الرحمن، الذي نفر المشركون عن الخضوع له، ما يُبين عظمته وكبرياءه، ونفوذ قدرته المستوجبة للخضوع والانقياد له؛ ردًا على امتناع الكفرة منه، فقال:

﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿تبارك﴾ أى: تعاظم ﴿الذى جعل فى السماء بُروجاً﴾ وهى البروج الإثنا عشر: الحَمَل، والثور، والجوزاء، والسرطان، والأسد، والسنبلة، والميزان، والعقرب، والقوس، والجدى، والدلو، والحوت. وهى منازل الكواكب السبعة السيارة، لكل كوكب بيتان، يقوى حاله فيهما، وللشمس بيت، وللقمر بيت، فالحمل والعقرب بيتا المريخ، والثور والميزان بيتا الزهرة، والجوزاء والسنبلة بيتا عطارد، والسرطان بيت القمر، والأسد بيت الشمس، والقوس والحوت بيتا المشترى، والجدى والدلو بيتا زُحل. وهذه البروج مقسومة على الطبائع الأربع ليصيب كل واحدة منها ثلاثة بروج، فالحمل والأسد والقوس مثلثة نارية، والثور والسنبلة والجدى مثلثة أرضية، والجوزاء والميزان والدلو مثلثة هوائية، والسرطان والعقرب والحوت مثلثة مائية. سميت بالبروج التى هى القصور العالية؛ لأنها، لهذه الكواكب، كالمنازل الرفيعة لسكانها. واعتبر بزيادة البحر عند زيادة القمر ونقصه عند نقصه، فإن بيت القمر ـ وهو السرطان ـ مائى، وذلك من إمداد الأسماء لا بالطبع. وتذكر: «وبالإسم الذى وضعته على الليل فأَظْلَمَ..» الخ. قاله فى الحاشية.

واشتقاق البروج من التبرج، الذى هو الظهور؛ لظهورها، ولذلك قال الحسن وقتادة ومجاهد: البروج: النجوم الكبار؛ لظُهورها.

﴿وجعل فيها سِرَاجًا﴾ أى: الشمس، لقوله تعالى: ﴿وجعل الشمس سراجاً﴾(١). وقرأ الأَخَوَان: «سُرُجاً». ويراد: النجوم الكبار والشمس، ﴿وقمراً منيراً﴾ أي: مضيئاً بالليل.

﴿وهو الذى جعل الليلَ والنهارَ خِلْفةً﴾ أى: ذو خلفة؛ يخلف كل واحد منهما الآخر، بأن يقوم مقامه، فيما ينبغى أن يعمل فيه، فمن فاته عمله فى أحدهما قضاه فى الآخر. قال قتادة: فأروا الله تعالى من أعمالكم خيراً فى هذا الليل والنهار، فإنهما مطيتان تقحمان الناس إلى آجالهم، تقربان كل بعيد، وتبليان كل جديد، وتجيئان بكل موعود. وقال رجل لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: فاتتنى الصلاةُ الليلةَ، فقال: أدرِكْ ما فاتك من ليلتكَ فى نهارك، فإن الله تعالى جعل الليل والنهار خلفة ﴿لمن أراد أن يذَّكَّر﴾. هـ(٢). أى: يتذكر آلاء الله ـ عز وجل ـ، ويتفكر فى بدائع صنعه، [فيعلم](٣) أنه لابد له من صانع حكيم. وقرأ حمزة وخلف: «يذْكُرَ» أى: يذكر الله فى قضاء ما فاته فى أحدهما، ﴿أو أراد شكوراً﴾ أى: شكر نعمة ربه عليه فيهما، فيجتهد فى عمارتهما بالطاعة؛ شكراً. وبالله التوفيق.

الإشارة: تبارك الذى جعل فى سماء القلوب أو الأرواح بروجاً؛ منازل ينزلها السائر، ثم يرحل عنها، وهى مقامات اليقين؛ كالخوف، والرجاء، والورع، والزهد، والصبر، والشكر، والرضا، والتسليم، والمحبة، والمراقبة،

(١) الآية ١٦ من سورة نوح.
(٢) أخرج الطبرى (١٩/٣٠) عن شقيق.
(٣) فى الأصول: [فيهم]. والمثبت: من تفسير البيضاوى وأبى السعود.

والمشاهدة، والمعاينة. وجعل فيها سراجاً، أي: شمس العرفان لأهل الإحسان، وقمراً منيراً، وهو توحيد البرهان لأهل الإيمان. وهو الذى جعل ليل القبض ونهار البسط خِلْفةً، يخلف أحدهما الآخر، لمن أراد أن يذكر فى ليل القبض، ويشكر فى نهار البسط. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر أهل الذِّكرِ والشكر، فقال:

﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ... ﴾

قلت: و(عباد): مبتدأ، و(الذين) وما بعده: خبر. وقيل: (أولئك يجزون). و(هوناً): حال، أو: صفة، أى: يمشون هينين، أو: مشياً هوناً.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وعبادُ الرحمن ﴾ أى: خواصه الذين يسجدون ويخضعون للرحمن، ﴿ الذين يمشون على الأرض هوناً ﴾ أى: بسكينة وتواضع ووقار، قال الحسن: يمشون حُلَمَاء علماء مثل الأنبياء، لا يؤذون الذر، فى سكون وتواضع وخشوع، وهو ضد المختال الفخور المرِح، الذى يختال فى مشيه. وقال ابن الحنفية: أصحاب وقار وعفة، لا يسفهون، وإن سفه عليهم حلموا. والهوْن، فى اللغة: الرفق واللين. ومنه قوله ﷺ: «أحْبِبْ حَبِيبَكَ هَوْناً مَا، عَسَى أَنْ يَكُونَ بَغِيضَكَ يَوْماً مَا. وأبغض بغيضك هوناً ما، عسى أنْ يكون حبيبك يوماً ما»(١).

﴿ وإذا خاطبهم الجاهلون ﴾ أى: السفهاء بما يكرهون، ﴿ قالوا سلاماً ﴾؛ سداداً من القول، يَسلمون فيه من الإيذاء والإثم والخنا. أو: سلمنا منكم سلاماً، أو: سلموا عليهم سلاماً، دليله قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ ﴾(٢)، ثم

(١) أخرجه الترمذى فى (البر والصلة، باب ما جاء فى الاقتصاد فى الحب والبغض ٣١٦/٤، ح ١٩٩٧)، من حديث أبى هريرة، وأخرجه البيهقى فى شعب الإيمان (باب الاقتصاد فى النفقة، ٥/ ٢٦٠، ح/٦٥٩٣) عن سيدنا علىّ، موقوفاً.
(٢) من الآية ٥٥ من سورة القصص.

قالوا: ﴿سلام عليكم﴾. قيل: نسختها آية القتال، وفيه نظر؛ فإن الإغضاء عن السفهاء مستحسن شرعاً ومروءة، فلا ينسخ. وكان الحسن إذا تلى الآيتين قال: هذا وصف نهارهم، ثم قال تعالى: ﴿ والذين يبيتون لربهم سُجَّداً وقياماً ﴾: هذا وصف ليلهم. قال ابن عباس: من صلى لله تعالى ركعتين، أو أكثر، بعد العشاء، فقد بات لله تعالى ساجداً وقائما. وقيل: هما الركعتان بعد المغرب والركعتان بعد العشاء، والظاهر: أنه وصف لهم بإحياء الليل أو أكثره.

﴿ والذين يقولون ربنا اصرفْ عنا عذابَ جهنم إن عذابها كان غَرَاماً ﴾؛ هلاكًا لازمًا. ومنه: الغريم؛ لملازمته غريمه، وصفهم بإحياء الليل ساجدين وقائمين، وعقَّبه بذكر دعوتهم هُنَا؛ إيذاناً بأنهم، مع اجتهادهم، خائفين مبتهلين إلى الله في صرف العذاب عنهم ﴿ إنها ساءت مستقرا ومُقاماً ﴾، أي: إن جهنم قَبُحَت مستقراً ومقاماً لهم. و«ساءت»: في حكم «بئست»، وفيها ضمير مبهم يفسره ﴿مستقرا﴾. والمخصوص بالذم: محذوف، أي: ساءت مستقراً ومقاماً هي. وهذا الضمير هو الذي ربط الجملة باسم «إن».

﴿ والذين إذا أنفقوا لم يُسْرِفُوا ﴾؛ لم يجاوزوا الحد في النفقة. وعن ابن عباس: لم ينفقوا في المعاصي. فالإسراف: مجاوزة حد الأمر، لا مجاوزة القدر. وسمع رجلٌ رجلاً يقول: لا خير في الإسراف، فقال: لا إسراف في الخير. وقال ﷺ: «من منع حقًا فقد قتر، ومن أعطى في غير حق فقد أسرف». ﴿ولم يَقْتُرُوا﴾، القتر والإقتار والتقتير: التضييق. وقرئ بالجميع(١)، ﴿ وكان بين ذلك قواماً ﴾ أي: وكان إنفاقهم بين الإسراف والإقتار قواماً؛ عدلاً بينهما. فالقوام: العدل بين الشيئين. قال أبو عبيدة: لم يزيدوا على المعروف، ولم يخلوا به، لقوله: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ... ﴾(٢) الآية. وقال يزيد بن أبي حبيب في هذه الآية: أولئك أصحاب محمد ﷺ، كانوا لا يأكلون طعاماً للتنعم واللذة، ولا يلبسون ثوباً للجمال والزينة. ولكن كانوا يريدون من الطعام ما يسدُّ عنهم الجوع، ويقويهم على عبادة ربهم، ومن الثياب ما يستر عوراتهم، ويُكِنُّهم من الحرّ والبرد.

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: كفى بالمرء سَرَفًا ألايشتهي شيئاً إلا اشتراه فأكله. ومثله في سنن ابن ماجة؛ مرفوعاً(٣). قال القشيري: الإسراف: أن ينفق في الهوى ونصيب النفْس، ولو فلساً، وأما ما كان لله فليس فيه إسراف، ولو ألفاً. والإقتارُ: ما كان ادخاراً عن الله، فأمّا التضييقُ على النَّفْس؛ منعاً لها عن اتباع الشهوات، ولتتعود الاجتزاء باليسير، فليس بالإقتار المذموم. هـ.

﴿ والذين لا يدعُون مع الله إلهاً آخر ﴾ أي: لا يشركون بالله شيئاً، ﴿ ولا يقتلون النفسَ التى حرَّم الله ﴾ قتلها ﴿إلا بالحق﴾ بقَوَدٍ، أو رَجْمٍ، أو شِرْكٍ، أو سعي في الأرض بالفساد، ﴿ولا يزنون﴾ أي: لايفعلون من

(١) قرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر: (يُقتروا)؛ بضم الياء وكسر التاء؛ من أَقْتَرَ. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب: بفتح الياء وكسر التاء، كيحمل، وقرأ الباقون بفتح الياء، وضم التاء، كيقتل... انظر الإتحاف (٢/٣١١). (٢) من الآية ٢٩ من سورة الإسراء.

(٣) أخرجه ابن ماجة في (الأطعمة، باب من السرف أن تأكل كل ما اشتهيت، ٢/١١١٢ ح ٣٣٥٢) من حديث أنس بن مالك، بلفظ: «إن من السرف أن تأكل كل ما اشتهيت».

هذه العظائم القبيحة التي جمعهن الكفرة شيئاً، حيث كانوا مع إشراكهم به ـ سبحانه ـ مداومين على قتل النفوس المحرمة، التي من جملتها المؤودة، مُنْكَبِّينَ على الزنا، لا يرعوون عنه أصلاً، فنفى هذه الكبائر عن عباده الصالحين؛ تعريضاً بما كان عليه أعداؤهم؛ من قريش وغيره، كأنه قيل: والذين طهرهم الله مما أنتم عليه. وعن ابن مسعود رضي الله عنه: «قُلْتُ: يا رسولَ الله؛ أيُّ الذَّنْبِ أعظَمُ؟ قال: أنْ تجعَلَ لله نداً وهو خلَقَكَ، قلت: ثمَّ أيٌّ؟ قال: أنْ تقتُلَ ولَدكَ خشْيَةَ أنْ يَطْعَمَ معَكَ، قُلْتُ: ثُمَّ أيٌّ؟ قال: أنْ تُزَانِيَ بحلِيلَة جارِكَ». فنزلت الآية تصديقاً لذلك(١).

الإشارة: قد تضمنت الآية أربعة أصناف من الناس على سبيل التدلي؛ الأول: الأولياء العارفون بالله، أهل التربية النبوية، ومن تعلق بهم من أهل التهذيب والتأديب، وإليهم أشار بقوله: ﴿وعباد الرحمن..﴾ الخ، وفيهم قال النبي ﷺ: «رأيت أقواماً من أمتي، ما خُلقوا بعد، وسيكونون فيما بعد اليوم، أُحبهم ويحبونني، ويتناصحون ويتباذلون، يمشون بنور الله في الناس رويداً، في خفية وتقى، يَسلمون من الناس، ويسلم الناسُ منهم بصبرهم وحلمهم، قلوبهم بذكر الله يَرْجِعُون، ومساجدهم بصلاتهم يعمرون، يرحمون ضعيفهم، ويجلون كبيرهم، ويتواسَوْن بينهم، يعود غنيهم على فقيرهم، وقويهم على ضعيفهم، يعودون مرضاهم، ويشهدون جنائزهم، فقال رجل من القوم: يرفقون برقيقهم؟ فالتفت إليه النبي ﷺ فقال: كلا؛ لا رقيق لهم، وهم خدام أنفسهم، هم أكرم على الله تعالى من أن يوسع عليهم؛ لهوان الدنيا عند ربهم. ثم تلى النبي ﷺ: ﴿وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً...﴾ الآية. رواه أبو برزة الأسلمي، عنه ﷺ.

الثاني: العباد والزهاد، أهل الجد والاجتهاد، أهل الصيام والقيام، الذين يبيتون لربهم سجداً وقياماً، أقامهم الحق تعالى لخدمته، كما أقام الأولين لمحبته ومعرفته. الثالث: الصالحون والأبرار، الذين يعبدون الله طمعاً في الجنة وخوفاً من النار، ومن كان منهم له مال أنفقه في سبيل الله، من غير سرف ولا إقتار. الرابع: عامة الموحدين من أهل اليمين، المجتنبون لكبائر الذنوب، المسارعون بالتوبة إلى علام الغيوب. والله تعالى أعلم.

ثم أشار إلى وبال من فعل شيئاً من ذلك ولم يتب، فقال:

﴿... وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾﴾

(١) أخرجه البخاري في (التفسير ـ سورة الفرقان، باب «والذين لايدعون مع الله إلهاً آخر» ح ٤٧٦١)، ومسلم في (الإيمان، باب كون الشرك أقبح الذنوب، ١/ ٩٠ ح ١٤١).

قلت: (يُضاعفْ) و(يخلُدْ): بدل من (يلْقَ)؛ بدل كل من كل، عند الأزهرى؛ لأن لُقِىّ الآثام هى مضاعفة العذاب، وبدل اشتمال، عند المرادى. ومن رفعهما: فعلى الاستئناف.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ومن يفْعلْ ذلك﴾ أى: ما ذكر، كما هو دأب الكفرة المذكورين، ﴿يلْقَ﴾ فى الآخرة ﴿أثاماً﴾؛ وهو جزاء الآثام ،كالوبال والنكال؛ وزناً ومعنى، ﴿يُضاعَفْ له العذابُ يومَ القيامة﴾ أضعافاً كثيرة، كما يضاعف للمؤمنين جزاء أعمالهم كذلك، ﴿ويخلدْ فيه﴾ أى: فى ذلك العذاب المضاعف، ﴿مهاناً﴾؛ ذليلاً حقيراً، جامعاً للعذاب الجسمانى والروحانى.

﴿إلا من تابَ﴾ من الشرك ،﴿وآمن﴾ بمحمد ﷺ، ﴿وعَمِلَ عملاً صالحًا﴾ بعد توبته ﴿فأولئك يُبدِّلُ اللهُ سيئاتهم حسنات﴾ أى: يوفقهم للمحاسن بعد القبائح، فيوفقهم للإيمان بعد الشرك، ولقتل الكافر بعد قتل المؤمن، وللعفة بعد الزنا، أو: يمحوها بالتوبة، ويثبت مكانها الحسنات. ولم يرد أن السيئة بعينها تصير حسنة، ولكن يمحوها ويعوض منها حسنة. وعنه ﷺ أنه قال: «ليَتَمَنَّيَنَّ أقوامٌ أنهم أكثروا من السيئات، قيل: من؟ قال: الذين يُبدل الله سيئاتهم حسنات»(١). ﴿وكان الله غفوراً﴾ للسيئات، ﴿رحيماً﴾ يبدلُها حسنات.

﴿ومن تاب وعمل صالحا فإنه يتوب إلى الله متَابًا﴾ أى: ومن تاب، وحقق التوبة بالعمل الصالح، فإنه بذلك تائب إلى الله متاباً مُرْضِياً مكفراً للخطايا. وسبب نزول الآية: أن ناساً من المشركين قتلوا فأكثروا، وزنوا فأكثروا، ثم أتوا النبى ﷺ فقالوا: إن الذى تدعو إليه لَحسنٌ لو تخبرنا أنّ لِما عمِلْناه كفّارةً. فنزلت: ﴿والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر...﴾ إلى قوله: ﴿إلا من تاب..﴾ إلخ(٢). والظاهر أن توبة قاتل النفس بغير حق مقبولة؛ لعموم قوله: ﴿إلا من تاب﴾، وهو قول الجمهور. وقيل: إن هذه منسوخة بآية النساء، وهو ضعيف. والله تعالى أعلم.

الإشارة: من قنع من نفسه بمجرد الإسلام والإيمان، ولم تنهضه نفسه إلى التشوف لمقام الإحسان، لابد أن يلحقه الندم وضرب من الهوان، ولو دخل فسيح الجنان؛ لتخلفه عن أهل القرب والوصال، وفى ذلك يقول الشاعر:

مَنْ فَاتَهُ مِنْكَ وَصْلٌ حَظُّهُ النَّدَمُ ... وَمَنْ تَكُنْ هَمَّهُ تَسْمُو بِهِ الهِمَمُ

ثم ذكر نوعاً من الأبرار، فقال:

﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ

---

(١) أخرجه الحاكم فى المستدرك (٢٥٢/٤) عن أبى هريرة رضي الله عنه، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبى.

(٢) أخرجه بلفظه مسلم فى (الإيمان، باب: كون الإسلام يهدم ما قبله، ١١٣/١ ح ١٩٣)، وبنحوه أخرجه البخارى فى (تفسير سورة الفرقان) من حديث سيدنا عبدالله بن عباس رضي الله عنهما.

رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا (٧٤)
أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا (٧٥)
خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٧٦) قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ
فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا (٧٧) ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ والذين لا يشهدون الزورَ ﴾ أى: لا يقيمون شهادة الكذب، أو: لا يحضرون محاضر الكذب؛ فإنّ مشاهدة الباطل مشاركة فيه، أى: يبعدون عن محاضر الكذابين ومجالس الخطّائين، فلا يقربونها، تنزُّهاً عن مخالطة الشر وأهله. وفى مواعظ عيسى ـ عليه السلام ـ: إياكم ومجالسَ الخطّائين. ﴿ وإذا مَرُّوا باللغو ﴾ أى: بالفحش وكل ما ينبغى أن يلغى ويُطرح، والمعنى: وإذا مروا بأهل اللغو المشتغلين به ﴿ مَرُّوا كراما ﴾ معرضين عنه، مكرمين أنفسهم عن التلوث به، كقوله: ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ ﴾(١)، وعن الباقر: إذا ذكروا الفروج كفوا عنها، وقال مقاتل: إذا سمعوا من الكفار الشتم والأذى أعرضوا عنه وصفحوا.

﴿ والذين إذا ذُكِروا بآيات ربهم ﴾ أى: قرئ عليهم القرآن، أو: وعظوا بالقرآن، ﴿ لم يَخرُّوا عليها صُمّاً وعُمْياناً ﴾، بل أكبوا عليها سامعين بآذان واعية، مجلّين لها بعيون راعية. وإنما عبّر عنها بنفى الضد؛ تعريضاً بما يفعله الكفرة والمنافقون.

﴿ والذين يقولون ربنا هَبْ لنا من أزواجنا ﴾، «مِن»: للبيان، كأنه قيل: هب لنا قرة أعين، ثم بُينت القرة وفُسرت بقوله: ﴿ من أزواجنا وذرياتنا ﴾ والمعنى: أن يجعلهم الله لهم قرة أعين؛ بأن يروا منهم من الطاعة والإحسان ما تقر به العين. أو: للابتداء، أى: هب لنا من جهتهم ما تقر به العين، من طاعة أو صلاح. ﴿ و ﴾ هب لنا أيضاً من ﴿ ذرياتنا قُرةَ أعين ﴾؛ بتوفيقهم للطاعة، ومبادرتهم للفضائل والكمالات، فإن المؤمن إذا ساعده أهله فى طاعة الله تعالى وشاركوه فيها؛ يسر قلبه، وتقر عينه؛ بما شاهده من مقاربتهم له فى الدين، ويكون ذلك سبباً فى لحوقهم به فى الجنة، حسبما وعد به قوله تعالى: ﴿ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾(٢).

وإنما قال: «أعين»؛ بلفظ القلة، دون عيون؛ لأن المراد أعين المتقين، وهى قليلة بالإضافة إلى أعين غيرهم. والمعنى: أنهم سألوا ربهم أن يرزقهم أزواجًا وأعقاباً، عُمّالاً لله، يسرون بمكانهم، وتقر بهم عيونهم، قيل: ليس شىء أقر لعين المؤمن من أن يرى زوجته وأولاده مطيعين لله. وعن ابن عباس: (هو الولد إذا رآه يكتب الفقه).

(١) من الآية ٥٥ من سورة القصص.   (٢) من الآية ٢١ من سورة الطور.

﴿ واجعلنا للمتقين إماماً ﴾ أي: أئمة يقتدى بنا في الدين، فاكتفى بالواحد؛ لدلالته على الجنس، أو: واجعل كل واحد منا إمامًا؛ أي: من أولادنا إمامًا. والظاهر: أن صدور هذا الدعاء منهم كان بطريق الانفراد؛ إذ يتعذر اجتماعهم في دعاء واحد. وإنما كانت عبارة كل واحد منهم عند الدعاء: واجعلني للمتقين إماماً، غير أنه حكيت عبارة الكل بصيغة المتكلم مع الغير؛ قصداً إلى الإيجاز، كقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾(١). وأبقى إماماً على حاله من الانفراد. قيل: وفي الآية دليل على أن الرئاسة في الدين ينبغي أن تُطلب ويُرغب فيها، إذا كان القصد نفع عباد الله دون حظ نفساني.

﴿ أولئك يُجْزَوْنَ الغرفة ﴾ ، جنس، أي: الغرفات، وهي العلالي في الجنة. ووحده بقصد الجنس.﴿ بما صبروا ﴾ ؛ بصبرهم على مشاق الطاعات، وترك الشهوات، وتحمل المجاهدات، وعلى إذاية أهل الإنكار، وارتكاب الذل والافتقار. ﴿ ويُلَقَّون فيها تحيةً وسلامًا ﴾ أي: تحييهم الملائكة، ويدعون لهم بطول الحياة والسلامة من الآفات. أو: يُحيي بعضُهم بعضاً، ويسلمون عليهم، ﴿ خالدين فيها ﴾ ؛ لا يموتون ولا يخرجون، ﴿ حَسُنَتْ ﴾ أي: الغرفة ﴿ مستقراً ومُقامًا ﴾ ؛ موضعَ قرارٍ وإقامةً، وهي في مقابلة: «ساءت مستقراً ومقاماً».

﴿ قل ﴾ يامحمد : ﴿ ما يعبأ بكم ربي لولا دعاؤكم ﴾ أي: ما يصنع بكم ربِّي، وأي فائدة في خلقكم، لولا دعاؤكم إلى الإسلام والتوحيد، أو: لولا عبادتكم له، أي: إنما خلقكم لعبادته؛ كقوله: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾(٢)؛ فإنما خلق الإنسان لمعرفته وطاعته، وإلا فهو وسائر البهائم سواء. قال المحشي: والظاهر: أنه خطاب لقريش القائلين: ﴿ أنسجد لما تأمرنا ﴾ أي: لا يحفل بكم ربي لولا تضرعكم واستغاثتكم إياه في الشدائد. هـ.

وقيل: ما يعبأ: بمغفرة ذنوبكم، ولا هو عنده عظيم، لولا دعاؤكم معه الآلهة والشركاء، كقوله: ﴿ ما يفعل اللهُ بعذابكم إن شكرتم وآمنتم ﴾(٣)، قاله الضحاك. ثم قال: فظاهره: أن «ما»: استفهامية، ويحتمل كَوْنَهَا نَافِيَةً. انظر بقية كلامه.

وفسّر البخاري الدعاء هنا بالإيمان(٤)، أي: ما يبالي بكم ربي لولا إيمانكم المتوقع من بعضكم، ﴿ فقد كذبتم ﴾ بما جاء به الرسول فتستحقون العقاب، ﴿ فسوفَ يكونُ ﴾ العذاب الذي أَنْتَجَهُ تكذيبكم ﴿ لِزاماً ﴾ ؛ لازماً لكم؛ لاتنفكون عنه، حتى يكبكم في النار. فالفاء في قوله: ﴿ فقد كذَّبتم ﴾ استئناف وتعليل لكونهم لا يُعبأ بهم، وإنما أضمر العذاب من غير تقدم ذكرٍ؛ للإيذان بغاية ظهوره وتهويل أمره، وأنه مما لا تفي العبارة به.

(١) من الآية ٥١ من سورة المؤمنون.
(٢) من الآية ٥٦ من سورة الذاريات.
(٣) من الآية ١٤٧ من سورة النساء.
(٤) انظر فتح الباري (كتاب الإيمان، باب دعاؤكم إيمانكم ١/ ٦٤).

وعن مجاهد: هو القتل يوم بدر، وأنه لُوزِمَ بين القتلى. وفى المشارق: اللزام: الفيصل، وقد كان يوم بدر. هـ. والله تعالى أعلم.

الإشارة: قوله تعالى: ﴿وإذا مروا بأهل اللغو﴾، وهم المتكلمون فى حس الأكوان، مروا كراماً؛ مكرمين أنفسهم عن الالتفات إلى خوضهم. والذين إذا سمعوا الوعظ والتذكير أنصتوا بقلوبهم وأرواحهم، خلاف ما عليه العامة من التصامم والعمى عنه. ﴿والذين يقولون ربنا..﴾ إلخ، قال القشيرى: قرة الروح: حياتها، وإنما تكون كذلك إذا كان بحق الله قائماً. ويقال: قرة العين من كان لطاعة الله معانقاً، ولمخالفة أمره مفارقا.هـ. قلت: قرة العين تكون فى الولد الروحانى، كما تكون فى الولد البشرى؛ فإن الشيخ إذا رأى تلميذه مُجِداً صادقًا فى الطلب، حصل له بذلك غاية السرور والطرب، كما هو معلوم عند أرباب الفن. وبالله التوفيق، وهو الهادى إلى سواء الطريق ، وصلّى الله على سيدنا محمد ﷺ وآله وصحبه وسلّمَ تسليماً.

❁ ❁ ❁

سورة الشعراء

مكية، إلا قوله: ﴿ والشعراءُ يتبعهم الغاوون ﴾ ؛ فإنها مدنية. وهي مائتان وسبع وعشرون آية. وفي الحديث: «أعطيت طه والطواسين والحواميم من ألواح موسى»(1) عليه السلام؛ أي: بدلها، كما في حديث آخر. ومناسبتها لما قبلها: أنه لما ذكر تكذيب قريش وأوعدهم بلزوم العذاب، ذكر تلهف رسوله ﷺ عليهم، حيث لم يؤمنوا حتى استوجبوا ذلك بقوله: ﴿ لعلك باخع نفسك ... ﴾ الآية، ثم سلاه بما ذكر من قصص الأنبياء وتكذيب قومهم وإهلاكهم بأنواع العذاب، ثم افتتح السورة برموز بينه وبين حبيبه، كما هو شأنه حين يريد أن يقص عليه قصص مَنْ قبله، فقال:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴿٤﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ طسٓمٓ ﴾ أي: ياطاهر، ياسيد، يامحمد، أو: أيها الطاهر السيد المجيد. وقال الواحدي: أقسم تعالى بطَوله وسنائه وملكه، والمقسم عليه: ﴿إن نشأ نُنزل...﴾ الخ. ﴿ تلك آيات الكتاب المبين ﴾ أي: ما نسرده عليك في هذه السورة وغيرها من الآيات، هي آيات الكتاب، أي: القرآن المبين، أي: الظاهر إعجازه، وأنه من عند الله، على أنه من أبان، بمعنى بان، أو: المبين للأحكام الشرعية والحِكَم الربانية، أو: الفاصل بين الحق والباطل. وما في الإشارة من معنى البُعد؛ للتنبيه على بُعد منزلة المشار إليه في الفخامة ورفعة القدر.

ثم شرع في تسليته بقوله: ﴿ لعلك باخعٌ نفسَكَ ﴾ أي: قاتل نفسك. قال سَهْلٌ: تهلك نفسك باتباع المراد في هدايتهم وإيمانهم، وقد سَبَق مني الحُكم بإيمان المؤمنين وكفر الكافرين، فلا تبديل ولا تغيير. و«لعل»: للإشفاق،

(1) أخرجه مطولاً، البيهقي في السنن (9/10)، والحاكم في المستدرك (1/568) عن معقل بن يسار. وفيه «عبدالله بن أحمد». قال الذهبي: تركوا حديثه.

أي: أشفق على نفسك أن تقتلها؛ حسرة على ما فاتك من إسلام قومك ﴿ ألاَّ يكونوا مؤمنين ﴾ أي: لعدم إيمانهم بذلك الكتاب المبين، ﴿ إن نشأ نُنزِّل عليهم من السماء آيةً ﴾، هو تعليل لما قبله من النهي عن التحسر؛ ببيان أن إيمانهم ليس مما تعلقت به المشيئة، فلا وجه للطمع فيه والتألم من فواته، والمفعول محذوف، أي: إن نشأ إيمانهم ننزل عليهم من السماء آية ملجئة لهم إلى الإيمان، قاهرة لهم عليه، ﴿ فظلَّتْ أعناقُهم لها خاضعين ﴾؛ منقادين. والأصل: فظلوا لها خاضعين، فأقمحت الأعناق؛ لزيادة التقرير ببيان موضع الخضوع، وترك الخبر على حاله من جمع العقلاء. وقيل: لمَّا وصفت الأعناق بصفة العقلاء أجريت مجراهم، كقوله تعالى: ﴿ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾(١). وقيل: المراد بالأعناق: الرؤساء ومقدمو الجماعة، وقيل: الجماعة، من قولهم: جاءنا عنق من الناس، أي: فوج. وقرئ: خاضعة، على الأصل.

﴿ وما يأتيهم من ذِكْرٍ من الرحمنِ مُحْدَثٍ إلا كانوا عنه معرضين ﴾، هذا بيان لشدة شكيمتهم وعدم ارعوائهم عما كانوا عليه من الكفر والتكذيب؛ لصرف رسوله ﷺ عن الحرص على إسلامهم، وقطع رجائه فيهم على الجملة، قال القشيري: أي: ما نُجَدِّد لهم شَرْعًا، أو نرسل رسولاً إلا أعرضوا عما دلّ برهانه عليه، وقابلوه بالتكذيب، فلو أنهم أنعموا النظرَ في آياتهم، لاتضح لهم صدقهم، ولكن المقسوم من الخذلان في سابق الحكْمِ يمنعهم من الإيمان والتصديق. هـ.

والتعرض لعنوان الرحمة؛ لتغليظ شناعتهم، وتهويل جنايتهم؛ فإن الإعراض عما يأتيهم من جنابه عز وجل على الإطلاق شنيع قبيح، وعما يأتيهم بموجب الرحمة، لمحض منفعتهم، أشنع وأقبح، أي: ما يأتيهم من موعظة من المواعظ القرآنية، أو من طائفة نازلة من القرآن تُذكِّرهم أكمل تذكير، وتنبهُهم من الغفلة أتم تنبيه، بمقتضى رحمته الواسعة، إلا جددوا إعراضاً عنه؛ على وجه التكذيب والاستهزاء؛ إصراراً على ما كانوا عليه من الكفر والضلال.

﴿ فقد كذَّبوا ﴾ بالذكر الذي يأتيهم تكذيباً مقارناً للاستهزاء، ﴿ فسيأتيهم ﴾ أي: فسيعلمون ﴿ أنباءُ ﴾ أي: أخبار ﴿ ما كانوا به يستهزؤون ﴾، وأنباؤه: ما يحيق بهم من العقوبات العاجلة والآجلة، عبّر عنها بالأنباء؛ إما لكونها مما أنبأ بها القرآن الكريم، وإما لأنهم، بمشاهدتها، يقفون على حقيقة القرآن الكريم، كما يقفون على الأحوال الخافية عنهم، باستماع الأنباء. وفيه تهويل؛ لأن الأنباء لا تُطلق إلا على خبر خطير له وقع كبير، أي: فسيأتيهم لا محالة مِصداق ماكانوا يستهزؤون به، إما في الدنيا، كيوم بدر وغيره من مواطن الحتُوف، أو يوم القيامة. والله تعالى أعلم.

---

(١) من الآية ٤ من سورة يوسف.

الإشارة: طسم، الطاء تشير إلى طهارة سره ـ عليه الصلاة والسلام ـ، والسين تُشير إلى سيادة قدره، والميم إلى مَجادة أمره، وهذا بداية الشرف ونهايته. أو: الطاء تشير إلى التنزيه للقلب، من حيث هو، والتطهير. والسين تشير إلى تحليته بالسر الكبير، والميم تشير إلى تصرفه في الملك والملكوت بإذن العلي الكبير. وهذه بداية السير ونهايته، فيكون حينئذ عارفًا بالله، خليفة رسول الله في العودة إلى الله، فإنْ حرص على هداية الخلق فيقال له: ﴿لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين﴾، فلو شاء ربك لهدى الناس جميعاً، ولا يزالون مختلفين، ﴿ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين﴾. وبالله التوفيق.

ثم ذكر دلائل قدرته على ما ذَكر، فقال:

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٩﴾ ﴾

قلت: الهمزة: للإنكار التوبيخي، والواو: للعطف على مقدر يقتضيه المقام، أي: أفعلوا ما فعلوا من الإعراض والتكذيب، ولم ينظروا إلى عجائب الأرض.. إلخ. و (كم): خبرية منصوبة بما بعدها على المفعولية.

يقول الحق جل جلاله: ﴿أوَ لَم يروا﴾ أي: ينظروا ﴿إلى﴾ عجائب ﴿الأرض كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم﴾؛ أي: من كل صنف محمود كثير المنفعة، يأكل منه الناس والأنعام. وتخصيص النبات بالذكر، دون ماعداه من الأصناف؛ لاختصاصه بالدلالة على القدرة والنعمة معًا. ويحتمل أن يراد به جميع أصناف النبات؛ نافعها وضارها، ويكون وصف الكل بالكرم؛ للتنبيه على أنه تعالى ما أنبت شيئًا إلا وفيه فائدة، إما وحده، أو بانضمامه إلى غيره، كما نطق به قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا﴾(١)، فإن الحكيم لا يكاد يفعل فعلاً إلا وفيه حكمة بالغة، وإن غفل عنه الغافلون، ولم يتوصل إلى معرفة كنهه العاقلون. وفائدة الجمع بين كلمتي الكثرة والإحاطة، وهما «كم» و «كلّ»؛ أنّ كلمة «كلّ» تدل على الإحاطة بأزواج النبات؛ على سبيل التفصيل، و «كم» تدل على أنّ هذا المحاط متكاثر، مفرط الكثرة، وبه نبّه على كمال قدرته.

﴿إنَّ في ذلك﴾ الإنبات، أو: كل صنف من تلك الأصناف ﴿لآيةً﴾ عظيمة دالة على كمال قدرته، وسعة علمه وحكمته، ونهاية رحمته الموجبة للإيمان، الوازعة عن الكفر والطغيان. ﴿وما كان أكثرُهم﴾ أي: أكثر قومه ـ عليه الصلاة والسلام ـ ﴿مؤمنين﴾ في علم الله تعالى وقضائه، حيث علِم أنهم سيصرفون عنه، ولا يتدبرون في هذه الآيات العظام. وقال سيبويه: «كان»: صلة، والمعنى: وما أكثرهم مؤمنين، وهو الأنسب بمقام

(١) من الآية ٢٩ من سورة البقرة.

عتوهم وغلوهم فى المكابرة والعناد، مع تعاضد موجبات الإيمان من جهته تعالى. وأما نسبة كفرهم إلى علمه تعالى وقضائه فربما يتوهم أنهم معذرون فيه بحسب الظاهر؛ لأن التفريق بين القدرة والحكمة، اللتين هما محل التحقيق والتشريع، قد خفى على مهرة العلماء، فضلاً عن غيرهم. فالحكم بزيادة «كان» أقرب؛ كأنه قيل: إن فى ذلك لآية باهرة موجبة للإيمان، وما أكثرهم مؤمنين مع ذلك؛ لغاية عتوهم وعنادهم. ونسبة عدم الإيمان إلى أكثرهم؛ لأن منهم من سبق له أنه يؤمن.

﴿ وإنَّ ربك لهو العزيزُ ﴾؛ الغالب على كل مايريد من الأمور، التى من جملتها: الانتقام من هؤلاء، ﴿ الرحيمُ ﴾؛ المبالغ فى الرحمة، ولذلك يمهلهم، ولا يؤاخذهم بغتة بما اجترأوا عليه من العظائم الموجبة لفنون العقوبات. وفى التعرض لوصف الربوبية، مع الإضافة إلى ضميره ـ عليه الصلاة والسلام ـ، من تشريفه والعِدَة الحقيّة(١) بالانتقام من الكفرة مالا يخفى. قاله أبو السعود.

الإشارة: أولَم يروا إلى أرض النفوس الطيبة، كم أنبتنا فيها من كل صنف من أصناف العلوم الغريبة، والحِكَم العجيبة، بعد أن كانت ميتة بالجهل والغفلة، إنَّ فى ذلك لآية ظاهرة على وجود الخصوصية فيها، وعلى كمال من عالجها حتى ظهرت عليها. أو: أولَم يروا إلى أرض العبودية، كم أنبتنا فيها من أصناف الآداب المرضية، والمقامات اليقينية، والمكاشفات الوهبية، إن فى ذلك لآية، وما كان أكثرهم مؤمنين بهذه الخصوصية عند أربابها، وإن ربك لهو العزيز الرحيم، يُعز من يشاء، ويرحم بها من يشاء. وبالله التوفيق.

ثم شرع فى قصص الأنبياء؛ تسلية لرسوله ﷺ، وبدأ بموسى عليه السلام؛ لشدة معالجته لقومه، فقال:

﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَـٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا فَٱذْهَبَا بِـَٔايَـٰتِنَآ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ و ﴾ اذكر يامحمد ﴿ إذ نادى ربُّك موسى ﴾ أى: وقت ندائه إياه، وذَكِّر قومك بما جرى على قوم فرعون بسبب تكذيبهم؛ زجراً لهم، وتحذيراً من أن يحيق بهم مثل ما حاق بإخوانهم المكذبين.

(١) فى تفسير أبى السعود: «الخفية».

أو: واذكر حاله لتتسلى به وبما عالج مع قومه، حيث أرسله وقال له: ﴿أن ائتِ القوم الظالمين﴾، أو: بأن ائتِ القومَ الظالمين بالكفر والمعاصي، أو: باستعباد بني إسرائيل وذبح أبنائهم. ﴿قومَ فرعونَ﴾: عطف بيان، تسجيل عليهم بالظلم، ثم فسرهم، وقل لهم: ﴿ألا يتقون﴾ الله، ويتركون ما هم عليه من العتو والطغيان. وقرئ بتاء الخطاب؛ على طريقة الالتفات، المنبئ عن زيادة الغضب عليهم، كأنّ ظلمهم أدى إلى مشافهتهم بذلك. وليس هذا نفس ما ناداه به، بل ما في سورة طه من قوله: ﴿إني أنا ربك..﴾(١) إلخ، واختصره هنا لمقتضى المقام.

﴿قال﴾ موسى عليه السلام؛ متضرعًا إلى الله عز وجل: ﴿ربِّ إني أخافُ أن يكذّبون﴾ من أول الأمر، ﴿ويضيقُ صدري﴾ بتكذيبهم إياي، ﴿ولا ينطلقُ لساني﴾؛ بأن تغلبني الحمية على ما أرى من المحال، وأسمع من الجدال، أو: تغلبني عقدة لساني، ﴿فأرسلْ إلى هارون﴾ أخي، أي: أرسل جبريلَ إليه، ليكون نبيًا معي، أتقوّى به على تبليغ الرسالة. وكان هارون بمصر حين بُعث موسى بجبل الطور. وليس هذا من التعلل والتوقف في الأمر، وإنما هو استدعاء لما يُعينه على الامتثال، وتمهيد عذره.

ثم قال: ﴿ولهم عليّ ذنبٌ﴾ أي: تبعة ذنب بقتل القبطيّ، فحذف المضاف، أو: سمّى تبعة الذنب ذنبًا، كما يُسمّى جزاء السيئة سيئة. وتسميته ذنبًا بحسب زعمهم. ﴿فأخافُ أن يقتلونِ﴾ به؛ قصاصاً. وليس هذا تعللاً أيضا، بل استدفاع للبلية المتوقعة، وخوف من أن يقتل قبل أداء الرسالة، ولذلك وعده بالكلاءة، والدفع عنه بكلمة الردع، وجمع له الاستجابتين معاً بقوله:

﴿قال كلا فاذهبا﴾؛ لأنه استدفعه بلاءهم، فوعده بالدفع بردعه عن الخوف، والتمس منه رسالة أخيه، فأجابه بقوله: «اذهبا»، أي: جعلته رسولاً معك ﴿فاذهبا بآياتنا﴾ أي: مع آياتنا، وهي اليد والعصا وغير ذلك، فقوله: «فاذهبا»: عطف على مضمر، ينبئ عنه الردع، كأنه قيل: ارتدع ياموسى عما تظن، فاذهب أنت ومن استدعيته مصحوباً بآياتنا، فإنها تدفع ما تخافه.

﴿إنّا معكم مستمعون﴾ أي: سامعون ما يقال لك، وما يجرى بينكما وبينه، فنظهركما عليه. شبّه حاله تعالى بحال ذي شوكة قد حضر مجادلة، فسمع ما يجرى بينهم، فيمد أولياءه وينصرهم على أعدائهم؛ مبالغة في الوعد بالإعانة، فاستعير الاستماع، الذي هو الإصغاء للسمع، الذي هو العلم بالحروف والأصوات، وهو تعليل؛ للردع عن الخوف، ومزيد تسلية لهما، بضمان كمال الحفظ والنصر، كقوله تعالى: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾(٢).

﴿فأتِيَا فرعونَ فقولا إنا رسولُ ربِّ العالمين﴾، ليس هذا مجرد تأكيد للأمر بالذهاب؛ لأن معنى هذا: الوصولُ إلى المرسل إليه، والذهاب: مطلق التوجه، ولم يُثَنِّ الرسول هنا كما ثناه في سورة طه(٣)؛ لأن الرسول

(١) الآية ١٢ من سورة طه. (٢) الآية ٤٦ من سورة طه. (٣) في قوله: ﴿إنا رسولا ربك﴾، الآية ٤٧.

يكون بمعنى المرسل وبمعنى الرسالة، فيكون مصدرا، فَجُعِلَ ثَمَّةَ بمعنى المُرْسَل فثنى، وجعل هنا بمعنى الرسالة، فسوّى في الوصف به الواحد والتثنية والجمع، كما تقول: رجل عدل، ورجلان عدل، ورجال عدل؛ لاتحادهما في شريعة واحدة، كأنهما رسول واحد. قلت: والنكتة في إفراد هذا وتثنية الآخر؛ أن الخطاب في سورة طه توجه أول القصة إليهما معًا بقوله: ﴿ اذهب أنت وأخوك ﴾ فجرى في آخر القصة على ما افتتحت به، وهنا توجه الخطاب في أولها إلى موسى وحده، بقوله : ﴿ وإذ نادى ربك موسى أن ائت القوم الظالمين ﴾ ، فجرى على ما افتتح به القصة من الإفراد. والله تعالى أعلم.

﴿ أنْ أرسل معنا بني إسرائيل ﴾ ، «أن»: مفسرة؛ لتضمن الإرسال المفهوم من الرسول معنى القول، أي: خَلِّ بني إسرائيل تذهب معنا إلى الشام، وكان مسكنهم بفلسطين منه، قبل انتقالهم مع يعقوب عليه السلام إلى مصر، في زمن يوسف عليه السلام. والله تعالى أعلم.

الإشارة: من كان أهلاً للوعظ والتذكير لا ينبغي أن يتأخر عنه خوف التكذيب ولا خوف الإذاية، فإن الله معه بالحفظ والرعاية. نعم؛ إن طلب المُعِينَ فلا بأس، فإن أُبهة الجماعة، في حال الإقبال على من يُعظمهم، أقوى في إدخال الهيبة والروع في قلوبهم، ونور الجماعة أقوى من نور الواحد. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر جواب فرعون ومجادلته، فقال:

﴿ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ
الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ
مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا
عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ
وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ
الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ
مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: لما أتى موسى وهارونُ فرعونَ وبلّغا الرسالة، ﴿ قال ﴾ له: ﴿ ألم نُربّك . . ﴾ إلخ، رُوى أنهما أتيا بابه فلم يُؤذن لهما سنة، حتى قال البواب: إن هنا إنساناً يزعم أنه رسول رب العالمين، فقال: ائذن له، لعلنا نضحك منه، فأَذِن، فدخل، فأدى الرسالة، فعرفه فرعونُ(١)، فقال له: ﴿ ألم نُربّك فينا ﴾؛ في حِجْرنا ومنازلنا، ﴿ وليداً ﴾ أي: طفلاً. عبّر عنه بذلك؛ لقُرب عهده بالولادة. وهذه من فرعون معارضة لقول موسى عليه السلام: ﴿إنا رسول رب العالمين﴾، بنسبته تربيته إليه وليداً. ولذلك تجاهل بقوله: ﴿وما ربُّ العالمين﴾، وصرح بالجهل بعد ذلك بقوله: ﴿لئن اتخذت إلهاً غيري...﴾ إلخ، ﴿ ولبثتَ فينا من عُمُرِكَ سنين ﴾ قيل: لبث فيهم ثلاثين سنة، ثم خرج إلى مدين، وأقام به عشر سنين، ثم عاد يدعوهم إلى الله ـ عز وجل ـ ثلاثين سنة، ثم بقى بعد الغرق خمسين، وقيل: قتل القبطي وهو ابن ثنتى عشرة سنة، وفرّ منهم على إثر ذلك. والله أعلم.

ثم قال له: ﴿ وفعلتَ فَعْلَتك التى فعلتَ ﴾ يعنى: قتل القبطي، بعدما عدد عليه نعمته؛ من تربيته، وتبليغه مبلغ الرجال، وبّخه بما جرى عليه مع خبازه، أي: قتلت صاحبي، ﴿ وأنت من الكافرين ﴾ بنعمتي، حيث عمدت إلى قتل رجل من خواصي، أو: أنت حينئذ ممن تكفر بهم الآن، أي: كنت على ديننا الذى تسميه كفراً، وهذا افتراء منه عليه؛ لأنه معصوم، وكان يعاشرهم بالتقية، وإلا فأين هو عليه السلام من مشاركتهم فى الدين.

﴿ قال فعلتها إذاً ﴾ أي: إذ ذاك ﴿ وأنا من الضالين ﴾ أي: من المخطئين؛ لأنه لم يتعمد قتله، بل أراد تأديبه، أو: الذاهلين عما يؤدى إليه الوكز. أو: من الضالين عن النبوة، ولم يأت عن الله فى ذلك شيء، فليس عليّ توبيخ فى تلك الحالة. والفرض أن المقتول كافر، فالقتل للكافر لم يكن فيه شرع، وهذا كله لا ينافى النبوة، وكذلك التربية لا تنافى النبوة.

﴿ ففررتُ منكم ﴾ إلى ربى، متوجهاً إلى مدين ﴿ لمّا خِفْتُكم ﴾ أن تصيبني بمضرة، أو تؤاخذني بما لا أستحقه. ﴿ فوهب لى ربى حُكماً ﴾ أي: حكمة، أو: نبوة وعلماً، فزال عنى الجهل والضلالة، ﴿ وجعلنى من المرسلين ﴾؛ من جملة رسله، ﴿ وتلك نعمة تَمُنُّها عليّ أن عَبّدتَ بني إسرائيل ﴾ أي: تلك التربية نعمة تمُنّ بها عليّ ظاهراً، وهى فى الحقيقة تعبيدك بنى إسرائيل، وقهرك إياهم، بذبح أبنائهم، فإنه السبب فى وقوعى عندك وحصولى فى تربيتك، ولو تركتهم لربانى أبواى. فكأن فرعون فى الحقيقة امتن على موسى بتعبيد قومه وإخراجه من حجر أبويه. فقال له موسى عليه السلام: أوَ تلك نعمةٌ تَمُنُّها عليّ؛ استعبادك لهم، ليس ذلك بنعمة، ولا لك فيها عليّ منة، وتعبيده: تذليلهم واستخدامهم على الدوام. ووحد الضمير فى «تمنّها» و «عبّدتَ»، وجمعها فى «منكم» و «خفتكم»؛ لأن الفرار والخوف كان منه ومن ملائه المؤتمرين به، وأما الامتنان فمنه وحده.

---

(١) انظر البحر المحيط (٧/ ١٠).

وحين انقطعت حجة فرعون وروغانه عن ذكر رب العالمين، أخذ يستفهم موسى عن الذى ذكر أنه رسول من عنده؛ مكابرة وتجاهلاً وتعامياً، طلبًا للرئاسة، كما قال تعالى: ﴿قال فرعونُ وما ربُّ العالمين﴾ ، أى: أىُّ شىء رب العالمين، الذى ادعيت أنك رسوله، منكرا لأن يكون للعالمين رب غيره، حسبما يعْربُ عنه قوله: ﴿أنا ربكم الأعلى﴾(١) ، وقوله: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾(٢) . أو: فما صفته، أو حقيقته؟ ﴿قال﴾ موسى: هو ﴿ربُّ السمواتِ والأرضِ وما بينهما﴾ أى: ما بين الجنسين، ﴿إن كنتم موقنين﴾ أى: إن كنتم موقنين بالأشياء، محققين لها، علمتم ذلك، أو: إن كنتم موقنين شيئاً من الأشياء، فهذا أولى بالإيقان؛ لظهور دليله وإنارة برهانه.

﴿قال﴾ فرعونُ، عند سماع جوابه عليه السلام، خوفاً من تأثيره فى قلوبهم، ﴿لِمن حولَه﴾ من أشراف قومه، وكانوا خمسمائة مسورة بالأسورة: ﴿ألا تستمعون﴾ ، أنا أسأله عن الماهية، وهو يجيبنى بالخاصية. ولما كانت ماهية الربوبية لا تُدرك ولا تنال حقيقتها ، أجابه بما يمكن إدراكه من خواص الماهية.

ثم ﴿قال﴾ عليه السلام: ﴿ربكم وربُّ آبائكم الأولين﴾ أى: هو خالقكم وخالق آبائكم الأولين، أى: وفرعون من جملة المخلوقين فلا يصلح للربوبية، وإنما قال: ﴿ورب آبائكم﴾؛ لأن فرعون كان يدعى الربوبية على أهل عصره دون من تقدمهم.

﴿قال﴾ فرعونُ: ﴿إنَّ رَسُولَكُمْ الذى أُرْسِلَ إِلَيكُمْ لمجنون﴾؛ حيث يزعم أن فى الوجود إلهًا غيرى، أو: حيث لايطابق جوابه سؤالى؛ لأنى أسأله عن الحقيقة وهو يجيبنى بالخاصية، ﴿قال﴾ موسى عليه السلام: ﴿ربُّ المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون﴾ فتستدلون بما أقول حتى تعرفوا ربكم. وهذا غاية الإرشاد، حيث عمم أولاً بخلق السموات والأرض وما بينهما، ثم خصص من العام أنفسهم وآباءهم؛ لأنّ أقرب المنظور فيه من العاقل نفسه، ومن ولد منه، وما شاهد من أحواله، من وقت ميلاده إلى وفاته، ثم خصَّص المشرق والمغرب؛ لأن طلوع الشمس من أحد الخافقين وغروبها فى الآخر، على تقدير مستقيم وحساب مستوٍ، من أقوى الدلائل على وحدانية الربوبية، ووجوب وجودها. أو: تقول: لما سأله عن ماهية الربوبية؛ جهلاً؛ فأجابه، بالخاصية، ﴿قال ألاتستمعون﴾؟ فعاد موسى إلى مثل قوله، فجنّنه فرعون، زاعمًا أنه حائد عن الجواب، فعاد ثالثا مبيناً أن الواجب الوجود، الفردَ الصمد، لايدرك بالكُنْه، إنما يعرف بالصفات، وما عرفه بالذات إلا خواص الخواص، فالسؤال عن الذات من أمثاله جهل وحمق. ولذلك قال: ﴿إن كنتم تعقلون﴾، أى: إن كان لكم عقل علمتم أنه لا يمكن أن تعرفوه إلا بهذا الطريق.

---

(١) من الآية ٢٤ من سورة النازعات. (٢) من الآية ٣٨ من سورة القصص.

قال ابن جزىّ: إن قيل: كيف قال أولاً: ﴿إن كنتم موقنين﴾، ثم قال آخراً: ﴿إن كنتم تعقلون﴾؟ فالجواب: أنه لاَيَنَ أولاً؛ طمعاً فى إيمانهم، فلما رأى منهم العناد والمغالطة وبخهم بقوله: «إن كنتم تعقلون»، وجعل ذلك فى مقابلة قول فرعون: ﴿إن رسولكم الذى أُرسل إليكم لمجنون﴾.هـ.

ولما تجبر فرعون وبهت ﴿قال لَئِنِ اتَّخَذْتَ إلهاً غيرى لأجعلنَّك من المسجونين﴾، أى: لأجعلنك واحداً ممن عرفت حالهم فى سجونى، وكان من عادته أن يأخذ من يرى سجنه، فيطرحه فى هوّة ذاهبة فى الأرض، بعيدة العمق، فرداً، لا ينظر فيها ولا يسمع، وكان ذلك أشدّ من القتل. ولو قال: لأسجننك، لم يؤد هذا المعنى، وإن كان أخصر. قاله النسفى.

الإشارة: التربية لها حق يراعى ويجب شكرها، ولا فرق بين تربية البشرية والروحانية. قال القشيرى: لم يجحد موسى حقَّ التربية والإحسانَ إليه فى الظاهر، ولكن بيّنَ أنه إذا أمر الله بشيء وَجَبَ اتباعُ أمره، وإذا كانت تربية المخلوقين تُوجب حقاً، فتربية الله أولى بأن يَعظُمَ العبدُ قَدْرَها. هـ. فكل من أحسن إلى بشريتك بشيء وجب عليك شكره؛ بالإحسان إليه، ولو بالدعاء، وكل من أحسن إلى روحانيتك؛ بالعلم أو بالمعرفة، وجب عليك خدمته وتعظيمه، وإنكار ذلك سبب المقت والطرد، والعياذ بالله.

وقول فرعون: ﴿وما رب العالمين﴾: سؤال عن حقيقة الذات، ومعرفة الكنه متعذرة؛ إذ ليس كمثله شيء، وأقرب ما يجاب به قوله تعالى: ﴿هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾(١) فهذه الأسماء الأربعة أحاطت بالذات فى الجملة، ولم تترك منها شيئاً، والإحاطة بالكنه متعذرة، ولو وقعت الإحاطة لم يبق للعارفين تَرَقٍّ، مع أن ترقيهم فى كشوفات الذات لا ينقطع أبداً، فى هذه الدار الفانية، وفى تلك الدار الباقية. وبالله التوفيق.

ثم ذكر معجزة العصا وما يتبعها، فقال:

﴿ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ (٣٠) قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ (٣١) فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ (٣٢) وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ (٣٣) ﴾

قلت: (لو): هنا، ليست امتناعية، بل إغيائية، فلا جواب لها، أى: تفعل بى هذا على كل حال ولو جئتك بشيء مبين.

---

(١) من الآية ٣ من سورة الحديد.

يقول الحق جل جلاله : ﴿ قال ﴾ موسى عليه السلام لفرعون، لَمَّا هدده بالسجن: ﴿ أَوَلَوْ ﴾ ؛ أتفعل ما ذكرت من سجنى ولو ﴿ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُبِينٍ ﴾ ؛ واضح الدلالة على صدقى، وتوحيد رب العالمين. يريد به المعجزة؛ فإنها جامعة بين الدلالة على وجود الصانع وحكمته، وبين الدلالة على صدق دعوى من ظهرت على يده . والتعبيرعنه بالشىء؛ للتهويل. ﴿ قال ﴾ فرعون: ﴿ فَأْتِ به إن كُنتَ من الصادقين ﴾ فيما قلتَ من الإتيان بالشىء الواضح على صدق دعواك، أو: من الصادقين فى دعوى الرسالة.

﴿ فألقى عصاهُ فإذا هى ثعبان مبين ﴾ أى: ظاهر ثعبانيته، لا أنه تخيل بما يشبهه كشأن الشعوذة والسحر. رُوى أنها ارتفعت فى السماء قدر ميل، ثم انحطت مقبلة على فرعون، تقول: ياموسى؛ مرنى بما شئت، فيقول فرعون: أسألك بالذى أرسلك إلا أخذتها، فأخذها، فعادت عصا . ﴿ ونزع يده ﴾ أى: أخرجها من تحت إبطه، ﴿ فإذا هى بيضاءُ للناظرين ﴾ أى: بياضاً خارجاً عن العادة، بحيث يجتمع النظارة على النظر إليه؛ لخروجه عن العادة.

رُوى أن فرعون لما أبصر الآية الأولى قال: هل لك غيرها؟ فأخرج يده، وقال لفرعون: ما هذه ؟ قال: يدك، فأدخلها تحت إبطه، ثم نزعها، ولها شعاع يكاد يُغشى الأبصار ويسدّ الأفق. فسبحان القادر على كل شىء.

الإشارة: النفوس الفرعونية هى التى تتوقف فى الصدق والإيمان على ظهور المعجزة أو الكرامة، وأما النفوس الزكية فلا تحتاج إلى معجزة ولا كرامة، بل يخلق الله فيها الهداية والتصديق بطريقة الخصوصية، من غير توقف على شىء. وبالله التوفيق.

﴿ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ ﴾

قلت: (حوله): ظرف وقع موقع الحال، أى: مستقرين حوله.

يقول الحق جل جلاله : ﴿ قال ﴾ فرعونُ، لَمَّا رأى ما بهته وحيّره، ﴿ للملأ حولَه ﴾، وهم أشراف قومه: ﴿ إنَّ هذا لساحرٌ عليم ﴾ ؛ فائق فى فن السحر. ثم أعدى قومه على موسى بقوله: ﴿ يريد أن يُخرجكم ﴾ بما صنع ﴿ من أرضكم بسحره فماذا تأمرون ﴾ ؛ تُشيرون فى أمره؛ من حبس أو قتل، وهو من المؤامرة، أى: المشاورة، أو: ماذا تأمرون به، من الأمر، لما بهره سلطان المعجزة وحيّره، حط نفسه عن ذروة ادعاء الربوبية إلى حضيض الخضوع لعبيده ـ فى زعمه ـ والامتثال لأمرهم، وجعل نفسه مأمورة، أو: إلى مقام مؤامرتهم ومشاورتهم، بعد ما كان مستقلاً فى الرأى والتدبير.

﴿ قالوا ﴾ له: ﴿ أرْجِهْ وأخاه ﴾ أى: أخِّرْ أمرهما، ولا تعجل بقتلهما؛ خوفاً من الفتنة أو: احبسهما، ﴿ وابعث فى المدائن حاشرين ﴾ أى: شُرَطاً يحشرون السحرة، ﴿ يأتوك ﴾ أى: الحاشرون ﴿ بكل سحَّارٍ عليم ﴾؛ فائق فى فن السحر. وأتوا بصيغة المبالغة؛ ليُسَكِّنوا بعض رَوعته. والله تعالى أعلم.

الإشارة: المشاورة فى الأمور المهمة من شأن أهل السياسة والرأى، وفى الحديث: «ما خَابَ مَن اسْتَخَار، ولا نَدِمَ من اسْتَشَار»(١)، فالمشاورة من الأمر القديم، ومازالت الأكابر من الأولياء والأمراء يتشاورون فى أمورهم؛ اقتداء برسول الله ﷺ. وبالله التوفيق.

ثم ذكر جمع السحرة، فقال:

﴿ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ فجُمِعَ السحرةُ لميقات يوم معلوم ﴾، وهو ما عيّنه موسى عليه السلام بقوله: ﴿ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى ﴾(٢). والميقات: ما وُقت به، أى: حدّ من زمان أو مكان. ومنه: مواقيت الحج. ﴿ وقيلَ للناسِ هل أنتم مُجتَمِعُون ﴾ أى: اجتمعوا. وعبّر بالاستفهام؛ حثًا على الاجتماع. واستبطاء لهم، والمراد: استعجالهم إليه، ﴿ لعلنا نتبعُ السحرةَ ﴾ فى دينهم ﴿ إن كانوا هم الغالبين ﴾ أى: إن غلبوا موسى، ولا نتبعُ موسى فى دينه، وليس غرضهم اتباع السحرة، وإنما الغرض الكلى ألا يتبعوا موسى، فساقوا كلامهم مساق الكناية؛ حملاً لهم على الاهتمام والجد فى المغالبة؛ لأنهم إذا اتبعوا السحرة لم يكونوا متبعين لموسى، وهو مرادهم، ولأن السحرة إذا سمعوا ذلك حملهم التروس على الجد فى المغالبة.

﴿ فلمّا جاءَ السَّحرَةُ قالوا لفرعون أئِنَّ لنا لأجراً ﴾ أى: جزاء وافراً ﴿ إنْ كُنّا نَحْنُ الغَالبينَ ﴾ لموسى؟ ﴿ قال نعم ﴾ لكم ذلك، ﴿ وإنكم ﴾ مع ذلك، ﴿ إذاً لمن المقربين ﴾ عندى فى المرتبة والحال، فتكونون أول من

(١) أخرجه الطبرانى فى الأوسط (٦٦٢٧)، والصغير (٧٨/٢)، والشهاب القضاعى فى مسنده (٧٧٤)، من حديث أنس. وانظر كشف الخفاء (١٨٥/٢).
(٢) الآية ٥٩ من سورة طه.

يدخل عليّ، وآخر من يخرج عني. ولما كان قوله: ﴿أئِنَّ لنا لأجراً﴾، في معنى جزاء الشرط؛ لدلالته عليه، وكان قوله: ﴿وإنكم إذاً﴾: معطوفاً عليه، دخلت «إذاً»؛ قارة في مكانها، الذي تقتضيه من الجواب والجزاء.

﴿ قال لهم موسى ﴾ بعد أن قالوا له: ﴿إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى﴾(١): ﴿ أَلْقُوا ما أنتم مُلْقُونَ ﴾ من السحر، فسوف ترون عاقبته. ولم يُرد به الأمر بالسحر والتمويه، بل الإذن في تقديم ما هم فاعلوه البتة؛ توسلاً به إلى إظهار الحق وإبطال الباطل، ﴿ فَأَلْقَوْا حبالَهم وعِصيَّهم ﴾، وكانوا سبعين ألف حبل وسبعين ألف عصاً. وقيل: كانت الحبال اثنين وسبعين، وكذا العصيّ. ﴿ وقالوا ﴾ بعد الإلقاء، لما رأوها تتحرك وتقبل وتُدبر: ﴿ بعزَّةِ فرعونَ إنا لنحن الغالبون ﴾، قالوا ذلك؛ لفرط اعتقادهم في أنفسهم، وإتيانهم بأقصى ما يمكن أن يؤتى به من السحر، أقسموا بعزته وقوته، وهو من أيمان الجاهلية. والله تعالى أعلم.

الإشارة: السحر على قسمين: سحر القلوب إلى حضرة الحق، وسحر النفوس إلى عالم الخلق، أو: إلى عالم الخيال. فالأول: من شأن العارفين بالله، الداعين إلى الله، فهم يسحرون قلوب من أتى إليهم إلى حضرة القدس، ومحل الأنس، فيقال في شأنهم: فجمع السحرة بقلوبهم، إلى ميقات يوم معلوم، وهو يوم الفتح والتمكين، أو يوم النفحات، عند اتفاق جمعهم في مكان معلوم. وقيل للناس، وهم عوام الناس: هل أنتم مجتمعون لتفيقوا من سكرتكم، وتتيقظوا من نوم غفلتكم، لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين، ولا شك في غلبتهم ونصرهم؛ لقوله تعالى: ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ ﴾(٢).

ثم ذكر إبطال سحرهم، وإسلامَهُمْ، فقال:

﴿ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُواْ لَا ضَيْرَ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾ ﴾

---

(١) الآية ٦٥ من سورة طه. (٢) من الآية ٤٠ من سورة الحج.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ فألقى موسى عصاه ﴾ من يده، ﴿ فإذا هي تلقفُ ﴾ أي: تبتلع بسرعة ﴿ ما يأفكون ﴾ : مايقلبونه عن وجهه وحقيقته بسحرهم، ويزورونه، فيُخيلون في حبالهم وعصيّهم أنها حيات تسعى، ﴿ فألقى السحرةُ ساجدين ﴾ لما شاهدوا ذلك من غير تلعثم ولا تردد، غير متمالكين لأنفسهم؛ لعلمهم بأن ذلك خارج عن حدود السحر، وأنه أمر إلهي، يدل على تصديق موسى عليه السلام. وعبّر عن الخرور بالإلقاء بطريق المشاكله؛ لقوله: ﴿ ألقوا ما أنتم ملقون ﴾، فألقى، فلما خروا سجوداً، ﴿ قالوا آمنا بربِّ العالمين ﴾، قال عكرمة: أصبحوا سحرة وأمسوا شهداء. هـ. ﴿ ربِّ موسى وهارون ﴾ : عطف بيان، أو: بدل من ﴿رب العالمين﴾. فدفع توهم إرادة فرعون؛ لأنه كان يدعي الربوبية، فأرادوا أن يعزلوه منها. وقيل: إن فرعون لما سمع منهم: ﴿آمنا برب العالمين﴾، قال: إياي عنيتم؟ قالوا: ﴿ ربِّ موسى وهارون ﴾.

﴿ قال آمنتم له قبل أنْ آذنَ لكم ﴾ أي: بغير إذن لكم، كما في قوله تعالى: ﴿ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي ﴾(١)، لا أن الإذن منه ممكن أو متوقع، ﴿ إنه لكبيرُكم الذي علّمكم السحرَ ﴾ فتواطأتم على ما فعلتم؛ مكراً وحيلة. أراد بذلك التلبيس على قومه؛ لئلا يعتقدوا أنهم آمنوا على بصيرة وظهور حق. ثم هدّدهم بقوله: ﴿ لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلافٍ ﴾، يداً من جهة ورجلاً من أخرى، أو: من أجل خلافٍ ظهر منكم، ﴿ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ قيل: إنه فعل ذلك، ورُوي عن ابن عباس وغيره، وقيل: إنه لم يقدرعلى ذلك، لقوله تعالى: ﴿ أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ ﴾(٢).

﴿ قالوا ﴾ أي: السحرة: ﴿ لا ضَيْرَ ﴾ أي: لا ضرر علينا في ذلك، فحذف خبر «لا»، ﴿ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا ﴾ الذي عرفناه وواليناه ﴿ منقلبون ﴾ لا إليك، فيُكرم مثوانا ويُكفر خطايانا، أو: لا ضرر علينا فيما توعدتنا به؛ إذ لابد لنا من الانقلاب إلى ربنا بالموت، فلأن يكون في ذاته وسبب دينه أولى، قال الورتجبي: لمّا عاينوا مشاهدة الحق سهُلَ عليهم البلاء، لاسيما أنهم يطمعون أن يصلوا إليه، بنعت الرضا والغفران.هـ. ولذلك قالوا: ﴿ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا ﴾ أي: لأن كنا ﴿ أوَّلَ المؤمنين ﴾ من أهل المشهَد، أو: من أتْبَاعِ فرعون.

الإشارة: من شأن خواص الملك ألا يفعلوا شيئاً إلا بإذنٍ من ملكهم، ولذلك أنكر فرعونُ على السحرة المبادرة إلى الإيمان قبل إذنه، وبه أخذت الصوفية الكبار والفقراء مع أشياخهم، فلا يفعلون فعلاً حتى يستأذنوا فيه الحق تعالى والمشايخ، وللإذن سر كبير، لا يفهمه إلا من ذاق سره. وتقدم بقية الإشارة في سورة الأعراف(٣). والله تعالى أعلم.

(١) من الآية ١٠٩ من سورة الكهف.	(٢) الآية ٣٥ من سورة القصص.
(٣) راجع إشارة الآيات ١١٧ ـ ١٢٦ من سورة الأعراف.

ثم ذكر خروج موسى عليه السلام من مصر وتوجهه إلى البحر، فقال:

﴿ ۞ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِيٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ۝٥٢ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ۝٥٣ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ۝٥٤ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ۝٥٥ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ۝٥٦ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝٥٧ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝٥٨ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝٥٩ ﴾

قلت: أسرى وسرى: لغتان، وقرئ بهما.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ ﴾ بقطع الهمزة ووصلها، أي: سر ﴿ بعبادي ﴾ ليلاً. وسماهم عباده؛ لإيمانهم بنبيهم، وذلك بعد إيمان السحرة بسنين، أقام بين أظهرهم، يدعوهم إلى الحق ويظهر لهم الآيات، ثم أمره بالخروج، وقال: ﴿ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴾ أي: يتبعكم فرعون وجنوده مصبحين، فأسر بمن معك حتى لا يدركوكم قبل الوصول إلى البحر، فيدخلوا مداخلكم، فأطبقه عليهم فأغرقهم. رُوي أنه مات في تلك الليلة في كل بيت من بيوت القبط ولد، فاشتغلوا بموتاهم حتى خرج موسى بقومه. ورُوي أن الله أوحى إلى موسى: أن اجمع بني إسرائيل، كلّ أربعة أبيات في بيت، ثم اذبحوا أولاد الضأن، فاضربوا بدمائها على أبوابكم، فإني سآمر الملائكة فلا تدخل بيتاً فيه دم، وسآمرها فتقتل أبكار القبط، واخبزوا فطيراً؛ فإنه أسرع لكم، ثم أسْرِ بعبادي حتى تنتهي إلى البحر فيأتيك أمري.(١) هـ. وحكمة لطخ الدم ليتميز بيوت بني إسرائيل، فلا تقتل الملائكة فيها أحداً. عاملهم على قدر عقولهم، وإلا فالملك لا يخفى عليه ما أُمر به.

﴿ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ ﴾ حين أُخبر بمسيرهم ﴿ في المدائن حاشرين ﴾؛ جامعين للعساكر ليتبعهم، فلما اجتمعوا قال: ﴿ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ ﴾، يريد بني إسرائيل ﴿ لَشِرْذِمَةٌ ﴾؛ طائفة قليلة ﴿ قليلون ﴾، ذكرهم بالاسم الدالّ على القلة، ثم جعلهم قليلاً بالوصف، ثم جمع القليل، فيدل على أن كل حزب منهم قليل. أو: أراد بالقلة: الذلة، لا قلة العدد، أي: إنهم؛ لذلتهم، لا يُبالى بهم، ولا يتوقع غلبتهم. قال ابن عرفة: شرذمة: تقليل لهم باعتبار الكيفية، وقليلون: باعتبار الكمية، وإنما استقلّ قوم موسى ـ وكانوا ستمائة ألف وسبعين ألفاً ـ؛ لكثرة من معه، فعن الضحاك: كانوا سبعة آلاف ألف، ورُوي أنه أرسل في أثرهم ألفَ ألف وخمسمائة ألف ملك مُسوّر، مع كل ملك ألفٌ، وخرج فرعون في جمع عظيم، وكانت مقدمته سبعمائة ألف رجل على حصان، وعلى رأسه بيضة. وعن ابن عباس رضي الله عنه: أنه خرج فرعون في ألف ألف حصان، من سوى الإناث. هـ(٢) .

(١) انظر تفسير الطبري (١٩/٧٦)، والدر المنثور (٥/١٥٨) والبغوي (٦/١١٣).

(٢) قال الحافظ ابن كثير في تفسيره (٣/٣٣٦) بعد ذكره لبعض الأقوال في تعيين عدد الذين خرجوا مع فرعون: والظاهر أن ذلك من مجازفات بني إسرائيل، والله أعلم. والذي أخبر به القرآن هو النافع، ولم يعين عدتهم؛ إذ لا فائدة تحته، لأنهم خرجوا بأجمعهم.

﴿ وإنهم لنا لغائظون ﴾ أي: فاعلون ما يغيظنا، وتضيق به صدورنا، وهو خروجهم من مصر، وحملهم حُلينا، وقتلهم أبكارنا، ﴿ وإنا لجميع حاذِرُون ﴾ أي: ونحن قوم عادتنا التيقظ والحذر واستعمال الحزم فى الأمور، فإذا خرج علينا خارج سارعنا إلى إطفاء ثائرته وحسم فساده، وهذه معاذير اعتذر بها إلى أهل المدائن؛ لئلا يظن العجز. وقرئ: (حذرون)(١)؛ بالمد والقصر، فالأول دال على تجدد الحذر، والثانى على ثبوته.

قال تعالى: ﴿ فأخرجناهم ﴾ أى: خلقنا فيهم داعية الخروج وحملناهم عليه، ﴿ من جنات ﴾؛ بساتين ﴿ وعيونٍ ﴾؛ وأنهار جارية، ﴿ وكنوز ﴾؛ أموال وافرة من ذهب وفضة، وسماها كنوزاً؛ لأنهم لم يُنفقوا منها فى طاعة الله تعالى شيئاً. ﴿ ومَقَامٍ كريم ﴾ أى: منزل رفيع بَهِيّ، وعن ابن عباس: المنابر.

﴿ كذلك ﴾ أى: الأمر كذلك، أو: أخرجناهم مثل ذلك الإخراج العجيب، فهو خبر، أو: مصدر تشبيهى لأخرجنا. ﴿ وأورثناها بنى إسرائيل ﴾ أى: ملكناها إياهم، على طريقة تمليك مال الموروث للوارث؛ لأنهم ملكوها من حين خروج أربابها عنها قبل أن يقبضوها. وعن الحسن: لما عبروا النهر رجعوا، وأخذوا ديارهم وأموالهم .هـ. قال ابن جزى: لم يذكر فى التواريخ مُلك بنى إسرائيل لمصر، وإنما المعروف أنهم ملكوا الشام، فتأويله على هذا : أورثناهم مثل ذلك بالشام. هـ. قلت: بل التحقيق أنهم ملكوا التصرف فى مصر، ووصلت حكومتهم إليها، ولم يرجعوا إليها. والله تعالى أعلم.

الإشارة: لا ينتصر نبىّ ولا ولىّ إلا بعد أن يهاجر من وطنه؛ سُنّة الله التى قد خلت من قبل، ولن تجد لسُنّة الله تبديلاً، والنصرة مقرونة مع الذلة والقلة؛ ﴿ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة﴾. وبالله التوفيق.

ثم ذكر معجزة فَلْق البحر وغرق فرعون، فقال:

﴿ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾ ﴾

(١) قرأ عاصم، وحمزة، والكسائى (حاذرون) بألف بعد الحاء. وقرأ الباقون بحذفها. انظر الإتحاف (٢/٣١٦).

يقول الحق جل جلاله: ﴿ فأتبعوهم ﴾ أي: فأتبع فرعونُ وقومُه بني إسرائيل، أي: لحقوا بهم، وقرئ بشد التاء، على الأصل، ﴿ مُشْرِقين ﴾؛ داخلين في وقت شروق الشمس، أي: طلوعها، ﴿ فلما تراءى الجمعان ﴾ أي: تقابلا، بحيث يرى كلُّ فريقٍ صاحبَه، أي: بنو إسرئيل والقبط، ﴿ قال أصحابُ موسى إنا لمدْرَكون ﴾ أي: قرب أن يلحقنا عدونا، وأمامنا البحر، ﴿ قال ﴾ موسى عليه السلام؛ ثقة بوعد ربه: ﴿ كلاَّ ﴾ ارتدعوا عن سوء الظن بالله، فلن يُدرككم أبدا، ﴿ إنَّ معيَ ربي سيهدين ﴾ أي: سيهديني طريق النجاة منهم.

رُوي أن موسى عليه السلام لما انتهى إلى البحر هاجت الريح، والبحر يرمي بموج مثل الجبال، فقال يُوشع عليه السلام: يا كليم الله، أين أُمرتَ، فقد غشِيَنَا فرعونُ، والبحرُ أمامنا؟ قال عليه السلام: هاهنا، فخاض يُوشع الماء، وضرب موسى بعصاه البحر، فكان ماكان، وقال الذي كان يكتم إيمانه: يا مكلم الله أين أُمرتَ؟ قال: هاهنا. فكبح فرسَه بلجامه، ثم أقحمه البحر، فرسب في الماء، وذهب القومُ يصنعون مثل ذلك، فلم يقدروا، فجعل موسى لايدري كيف يصنع؟ فأوحى الله إليه: ﴿أن اضرب بعصاك البحر﴾، فضربه، فانفلق، فإذا الرجل واقف على فرسه، لم يبتلَّ لِبْدُه ولاسَرْجه[(1)].

وقال محمد بن حمزة: لما انتهى موسى إلى البحر، دعا، فقال: يا من كان قبل كل شيء، والمكوِّن لكلِّ شيء، والكائن بعد كلِّ شيء، اجعل لنا مخرجاً، فأوحى الله إليه: أن اضرب بعصاك البحر[(2)]، وذلك قوله تعالى: ﴿ فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحرَ ﴾ أي: القلزم، أو النيل، ﴿ فانفلق ﴾ أي: فضرب فانفلق وانشقَّ، فصار اثني عشر فرقاً، على عدد الأسباط. ﴿ فكان كلُّ فِرْقٍ ﴾ أي: جزء من الماء ﴿ كالطَّوْدِ ﴾: كالجبل المنطاد في السماء ﴿ العظيم ﴾، وبين تلك الجبال من الماء مسالك، بأن صار الماء مكفوفاً كالجامد، وما بينها يبَس، فدخل كل سبط في شعْبٍ منها.

﴿ وأزْلَفْنا ﴾ أي: قَرَّبْنَا ﴿ ثمَّ الآخرين ﴾ أي: فرعون وقومه، حتى دخلوا على أثرهم مداخلهم، ﴿ وأنجينا موسى ومَن معه أجمعين ﴾ من الغرق؛ بحفظ البحر على تلك الهيئة، حتى عبروه، ﴿ ثُمَّ أغرقنا الآخرين ﴾؛ بإطباقه عليهم. قال النسفي: وفيه إبطالُ القول بتأثير الكواكب في الآجال وغيرها من الحوادث، فإنهم اجتمعوا في الهلاك، على اختلاف طوالعهم. رُوي أن جبريل عليه السلام كان بين بني إسرائيل وبين آل فرعون، فكان يقول لبني إسرائيل: ليلحق آخركم بأولكم، ويستقبل القبط فيقول: رويدكم، ليلحقَ آخركم[(3)]. هـ.

﴿ إنَّ في ذلك لآيةً ﴾ أي: في جميع ما فصّل؛ مما صدر عن موسى عليه السلام، وما ظهر على يديه من المعجزات القاهرة، وفيما فعل فرعونُ وقومه؛ من الأفعال والأقوال، وما فُعل بهم من العذاب والنكال، لعبرة عظيمة، لا تكاد تُوصف، موجبة لأن يعتبر المعتبرون، ويقيسوا شأن النبي ﷺ بشأن موسى عليه السلام، وحال أنفسهم

(1) أخرجه الطبري (١٩/ ٨٠) عن ابن جريج. وذكره البغوي في تفسيره (٦/ ١١٥).
(2) عزاه ابن كثير في تفسيره (٣/ ٣٣٦) لابن أبي حاتم، عن عبدالله بن سلام.
(3) عزاه في الدر المنثور (٥/ ١٦٣ - ٩٦٤) لابن عبدالحكم وعبد بن حميد، عن مجاهد.

بحال أولئك المهلكين، ويجتنبوا تعاطي ما كانوا يتعاطونه من الكفر والمعاصي ومخالفة الرسول، فيؤمنوا بالله تعالى ويطيعوا رسوله، كي لا يحل بهم ما حلّ بأولئك، أو: إن فيما فُصل من القصة؛ من حيث حكايته عليه السلام إياها على ما هي عليه، من غير أن يسمعها من أحد، لآية عظيمة دالة على أن ذلك بطريق الوحي الصادق، موجبة للإيمان بالله تعالى، وتصديق من جاء بها وطاعته.

﴿ وما كان أكثرُهُم مؤمنين ﴾ أي: وما كان أكثر هؤلاء المكذبين الذين سمعوا قصصهم منه ـ عليه الصلاة والسلام ـ مؤمنين، فلم يقيسوا حاله ﷺ بحال موسى، وحال أنفسهم بحال أولئك المهلكين، ولم يتدبروا في حكايته ﷺ لقصتهم من غير أن يسمعها من أحد ، مع كونه أمياً لا يقرأ، وكل من الطريقين مما يؤدي إلى الإيمان، قطعاً لانهماكهم في الغفلة، فكان؛ على هذا، زائدة، كما هو رأي سيبويه، فيكون كقوله تعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾(١) وهو إخبار منه تعالى بعدم إيمانهم في المستقبل، أو: وماكان أكثر أهل مصر مؤمنين بموسى عليه السلام، قال مقاتل: لم يؤمن من أهل مصر غير رجل وامرأتين؛ حزقيل المؤمن من آل فرعون، وآسية امرأة فرعون، ومريم بنت ياموشي، التي دلّتْ على عظام يوسف. هـ.

﴿ وإن ربك لهو العزيز ﴾ ؛ الغالب على كل ما يريد من الأمور، التي من جملتها: الانتقام من المكذبين، ﴿ الرحيم ﴾؛ البالغ في الرحمة، ولذلك أمهلهم ولم يعاجل عقوبتهم، أو: العزيز بالانتقام من أعدائه، الرحيم بالانتصار لأوليائه. جعلنا الله من خاصتهم بمنّه وكرمه، آمين.

الإشارة: قوله تعالى: ﴿إن معي ربي سيهدين﴾: اعلم أن المعية تختلف باختلاف المقام، فالمعية، باعتبار عامة الخلق، تكون بالإحاطة والقهرية والعلم والاقتدار، وباعتبار الخاصة تكون بالحفظ والرعاية والنصر والمعونة. فمن تحقق أن الله معه بعلمه وحفظه ورعايته اكتفى بعلمه، وفوض الأمر إلى سيده، وكلما قوي التفويض والتسليم دلّ على رفع المقام، ولذلك فضّل ما حكاه الحق تعالى عن حبيبه بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾(٢)، على ما حكى عن كليمه بزيادة قوله: ﴿ سيهدين ﴾ فتأمل. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر قصة إبراهيم عليه السلام؛ لما فيها من الرد على أهل الشرك؛ تقبيحاً لما عليه قريش والعرب، مع كونهم من ذريته، فقال:

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ

(١) من الآية ١٠٣ من سورة يوسف.
(٢) كما جاء في الآية ٤٠ من سورة التوبة.

﴿ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٥﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٦﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٧﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٨﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٧٩﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨١﴾ ﴿٨٢﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ واتلُ عليهم ﴾ أى: على المشركين ﴿ نبأ إبراهيمَ ﴾ أى: خبره العظيم الشأن، ولم يأمر فى قصص هذه السورة بتلاوة قِصَّةٍ إلا فى هـذه؛ تفخيماً لشأنه، وتعظيماً لأمر التوحيد، الذى دلت عليه. ﴿ إذ قال ﴾ أى: وقت قوله ﴿ لأبيه وقومه ما تعبدون ﴾ أى: أىُّ شىء تعبدون؟ وإبراهيم عليه السلام يعلم أنهم عَبَدة الأصنام، لكنه سألهم؛ ليُعلمهم أن ما يعبدونه لايستحق العبادة، ﴿ قالوا نعبد أصناماً ﴾، وجواب «ما تعبدون» هو قولهم: «أصناماً»؛ لأن السؤال وقع عن المعبود لا عن العبادة، فكان حق الجواب أن يقولوا: أصناماً، كقوله تعالى: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ ﴾(١)، وكقوله تعالى: ﴿ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ ﴾(٢). لكنهم أطنبوا فيه بإظهار العامل؛ قصداً إلى إبراز ما فى نفوسهم الخبيثة من الابتهاج والافتخار بعبادتها، ﴿ فنظلُّ لها عاكفين ﴾ أى: فنقيم على عبادتها طول النهار. وإنما قالوا: «فنظل»؛ لأنهم كانوا يعبدونها بالنهار دون الليل. أو: يراد به الدوام.

﴿ قال ﴾ إبراهيمُ عليه السلام: ﴿ هل يسمعونكم إذ تَدْعون ﴾ أى: هل يسمعون دعاءكم حين تدعونهم، على حذف مضاف، ﴿ أو ينفعونكم ﴾ إن عبدتموها، ﴿ أو يَضُرُّونَ ﴾؛ أو يضرونكم إن تركتم عبادتها؛ إذ لابد للعبادة من جلب نفع أو دفع ضر؟ ﴿ قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون ﴾ فاقتدينا بهم. اعترفوا بأن أصنامهم بمعزل عما ذكر؛ من السمع، والمنفعة، والمضرة بالمرة. واضطروا إلى إظهار أنهم لاسند لهم سوى التقليد الردىء.

﴿ قال ﴾ إبراهيم: ﴿ أفرأيتم ما كنتم تعبدون ﴾ أى: أنظرتم وأبصرتم وتأملتم فعلمتم ما كنتم تعبدون ﴿ أنتم وآباؤكم الأقدمون ﴾ حق الإبصار، أو حق العلم، ﴿ فإنهم عدو لى ﴾ أى: فاعلموا أنهم أعداء لى، لا أحبهم ولايحبوننى، أو: لو عبدتموهم لكانوا أعداء لى يوم القيامة، كقوله: ﴿ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾(٣)، وقال الفراء: هو من المقلوب، أى: فإنى عدو لهم، والعدو يجىء بمعنى الواحد والجماعة؛ لأنه فَعُولٌ، كصبور. وفى قوله: «عدو لى»، دون «لكم»؛ زيادةُ نصحٍ، لكونه أدعى لهم إلى القبول، ولو قال: فإنهم عدو لكم، لم يكن بتلك المثابة، ولم يقبلوه، ﴿ إلا ربَّ العالمين ﴾ : استثناء منقطع، أى: لكن رب العالمين ليس كذلك، بل هو

(١) من الآية ٢١٩ من سورة البقرة. (٢) من الآية ٢٣ من سورة سبأ. (٣) من الآية ٨٢ من سورة مريم.

حبيب لى. وأجاز الزَّجَّاجُ أن يكون متصلاً، على أن الضمير لكل معبود، وكان من آبائهم من عَبَدَ الله تعالى، وهم أيضاً كانوا يعبدون الله مع أصنامهم .

ثم وصف الربَّ تعالى بقوله: ﴿ الذى خلقنى ﴾ بالتكوين فى القرار المكين، ﴿ فهـو يهـدين ﴾ وحده إلى كل ما يهمنى ويصلحنى من أمور الدين والدنيا، هداية متصلة بحين الخلق ونفخ الروح، متجددة على الاستمرار، كما ينبئ عنه صيغة المضارع. وعبَّر بالاستقبال، مع سبق الهداية فى الأزل؛ لأن المراد ما ينشأ عنها، وهو الاهتداء لما هو الأهم والأفضل والأتم الأكمل، أو: والذى خلقنى لأسباب خدمته فهو يهدين إلى آداب خلّته. ولما كان الخلق لا يمكن أن يدعيه أحد لم يؤكد فيه بهو، بخلاف الهداية والإطعام والسقى، فإنه يكون على سبيل المجاز من المخلوقين، ولذلك أكده بهو؛ ليخصه به تعالى.

﴿ والذى هو يُطعمنى ﴾ لا غيره، أضاف الإطعام إلى مُولى الإنعام؛ لأن الركون إلى الأسباب عادة الأنعام. ﴿ و ﴾ هو أيضا الذى ﴿ يسقين ﴾ أى: يروينى بمائه. وتكرير الموصول فى المواضع الثلاثة؛ للإيذان بأن كل واحدة من تلك الصلات نعت جليل له تعالى، مستقل فى استيجاب الحكم. ﴿ وإذا مرضتُ فهو يَشْفين ﴾ : عطف على ﴿يطعمني ويسقين﴾، ونظم معهما فى سلك الصلة بموصول واحد؛ لأن الصحة والمرض من متبوعات الأكل والشرب فى العادة، غالباً.

وقال فى الحاشية: ثم ذكر بعد نعمة الخلق والهداية ما تدوم به الحياة وتستمر، وهو الغذاء والشراب، ولمَّا كان ذلك مبنياً على غلبة إحدى الكيفيات على الأخر، بزيادة الغذاء أو نقصانه، فيحدث بعد ذلك مرض، ذكر نعمته بإزالة ما حدث من السقم.هـ. ونسبة المرض إلى نفسه والشفاء إلى الله تعالى، مع أنهما منه تعالى؛ لمراعاة حسن الأدب، كما قال الخضر عليه السلام: ﴿ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا ﴾(١)، ﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا ﴾(٢).

﴿ والذى يُميتنى ثم يُحيينِ ﴾، ولم يقل: وإذا مت؛ لأن الإماتة والإحياء من خصائصه تعالى. وأيضاً: الموت والإحياء من كمال الكمال؛ لأنه الخروج من سجن الدنيا إلى السرور والهناء، أو: الخروج من دار البلاء والفناء إلى دار الهناء والبقاء. ﴿ والذى أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لى ﴾ أى: فى مغفرته لى ﴿ خطيئتى يومَ الدين ﴾، ذكره عليه السلام؛ هضماً لنفسه، وتعليماً للأمة أن يجتنبوا المعاصى، ويكونوا على حذر منها، وطلب مغفرته لما يفرط منهم. وقال أبو عثمان: أخرج سؤاله على حد الأدب، لم يحكم على ربه بالمغفرة، ولكنه طَمِعَ طَمَعَ العبيد فى مواليهم، وإن لم يكونوا يستحقون عليهم شيئاً؛ إذ العبد لا يستحق على مولاه شيئاً، وما يأتيه يأتيه من فضل مولاه. هـ.

---

(١) من الآية ٧٩ من سورة الكهف.		(٢) من الآية ٨٢ من سورة الكهف.

وقيل: أشار إلى قوله: ﴿إنى سقيم﴾(١) ﴿فعله كبيرهم هذا﴾(٢) وقوله فى سارّة: «هى أختى»؛ حذراً من الجبار. وفيه نظر؛ لأنها مع كونها معاريض، لا من قبيل الخطايا المفتقرة إلى الاستغفار، إنما صدرت عنه ﷺ بعد هذه المقالة الجارية بينه وبين قومه فى أول أمره. وتعليق مغفرة الخطيئة بيوم الدين، مع كونها إنما تُغفر فى الدنيا؛ لأن أثرها إنما يظهر يومئذ، ولأن فى ذلك تهويلاً له، وإشارة إلى وقوع الجزاء فيه، إن لم يغفر. والله تعالى أعلم.

الإشارة: ينبغى لك أيها العبد أن تكون إبراهيمياً حنيفياً، فتنبذ جميعَ الأرباب، وتعادى كل من يشغلك عن محبة الحبيب، من العشائر والأصحاب، وتقول لمن عكف على متابعة هواه، ولزم الحرص على جمع دنياه، هو ومن تقدمه: أفرأيتم ما كنتم تعبدون، أنتم وآباؤكم الأقدمون، فإنهم عدو لى إلا رب العالمين، الذى خلقنى لعبوديته، فهو يهدين إلى معرفته، والذى هو يطعمنى طعم الإيمان واليقين والإحسان، ويسقينى من شراب خمرة العيان، وإذا مرضتُ بالذنوب فهو يشفين بالتوبة، أو: وإذا مرضت بشىء من العيوب فهو يشفين بالتطهير منها. أو: إذا مرضت برؤية السِّوى، فهو يشفين بالغيبة عنه، والذى أطمع أن يطهرنى من البقايا، ويجعلنى من المقربين يوم الدين. وقال ذو النون رضي الله عنه: يطعمنى طعام المعرفة، ويسقينى شراب المحبة، ثم قال:

شَرَابُ المَحبَّةِ خيْرُ الشَّرابْ وكُلُّ شرابٍ سواه سَرَابْ

وقال الشيخ أبو يزيد البسطامى رضي الله عنه: إن لله شراباً، يقال له: شراب المحبة، ادخره لأفاضل عباده، فإذا شربوا سكروا، وإذا سكروا طاشوا، وإذا طاشوا طاروا، وإذا طاروا وصلوا، وإذا وصلوا اتصلوا، فهم فى مقعد صدق عند مليك مقتدر. هـ. قلت: شراب المحبة هو خمرة الفناء والغيبة فى الله، بدليل قول ابن الفارض رضي الله عنه:

فلَمْ تهْوَنى مالم تكنْ فِىَّ فانياً ولمَ تَفْنَ مالم تجتل فيك صورتى.

وقال الجنيد رضي الله عنه: يُحشر الناس يوم القيامة عراة، إلا من لبس ثياب التقوى، وجياعاً إلا من أكل طعام المعرفة، وعطاشاً إلا من شرب شراب المحبة. هـ. وقد يستغنى صاحب طعام المعرفة وشراب المحبة عن الطعام والشراب الحسيين، كما قال ﷺ، حين كان يواصل: «إنى أبِيتُ عند ربى يُطعمنى ويسقين»(٣).

قال أبو بكر الوراق فى قوله تعالى: ﴿الذى هو يُطعمني ويسقين﴾ أى: يُطعمنى بلا طعام، ويسقينى بلا شراب. قال: ويدل عليه حديث السَّقَّاء فى عهد النبى ﷺ؛ حيث سمع النبى ﷺ يقرأ ثلاثة أيام: ﴿وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها﴾، فرمى بِقِرْبَتِه، فأتاه آتٍ فى منامه بقدح من شراب الجنة، فسقاه، قال أنس: فعاش بعد ذلك نيفاً وعشرين سنة، لم يأكل ولم يشرب على شهوة. هـ.

(١) من الآية ٨٩ من سورة الصافات. (٢) من الآية ٦٣ من سورة الأنبياء.

(٣) أخرجه البخارى فى (الصوم، باب التنكيل لمن أكثر الوصال، ح١٩٦٥) ومسلم فى (الصيام، باب النهى عن الوصال فى الصوم، ٢/٧٧٤، ح١١٠٣) من حديث أبى هريرة، بدون لفظ «عندربى» وجاء هذا اللفظ فى رواية عند الإمام أحمد فى المسند (٢/٢٥٣).

وكان عبد الرحمن بن أبى نعيم لا يأكل فى الشهر إلا مرة، فأدخله الحجاج بيتاً، وأغلق عليه بابه، ثم فتحه بعد خمسة عشر يوماً، ولم يشك أنه مات، فوجده قائماً يُصلى، فقال: يا فاسق، تصلى بغير وضوء؟ فقال: إنما يحتاج الوضوء من يأكل ويشرب، وأنا على الطهارة التى أدخلتنى عليها. هـ. ومكث سفيان الثورى بمكة دهراً، وكان يَسفُ من السبت إلى السبت كفاً من الرمل.هـ. وهذا من باب الكرامة، فلا يجب طردها، وقد تكون بالرياضة، وطريق المعرفة لا تتوقف على هذا. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر دعاء إبراهيم عليه السلام، فقال:

﴿ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (٨٣) وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ (٨٤) وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ (٨٥) وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ (٨٦) وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ (٨٧) يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٩) ﴾

يقول الحق جل جلاله، حاكياً عن خليله إبراهيم عليه السلام: ﴿ ربِّ هبْ لى حُكمًا ﴾ أى: حكمة، أو حُكمًا بين الناس، أو نبوة؛ لأن النبى ذو حُكم بين عباد الله. ﴿ وألحِقْنى بالصالحين ﴾ أى: الأنبياء، الذين صلحوا لحمل أعباء النبوة والرسالة، وصلحت سرائرهم للحضرة، ولقد أجابه بقوله: ﴿وإنه في الآخرة لمن الصالحين﴾. ﴿ واجعل لى لسانَ صدقٍ فى الآخرين ﴾ أى: ثناءً حسناً، وذكراً جميلاً فى الأمم التى تجيء بعدى، فأُعطى ذلك، فكل أهل دين يتولونه ويثنون عليه، ووضعَ اللسانَ موضعَ القولَ؛ لأن القول يكون به. أو: واجعلنى على طريق قويم، وحال مُرضى، يُقتدى بى فيهما، ويُحمد أثرى بعد موتى، كما قيل:

مَـوْتُ التقِى حيَـاةٌ لافناء لهـا قد مات قومٌ وهم فى الناس أحْيَاءُ.

وقد تحقق له جميع ذلك، وخصوصاً فى هذه الأمة، حتى إنه مذكور ومقرون فى كل صلاة على النبى ﷺ، وقال بعضهم: سأل أن يجعله صالحاً، بحيث إذا أثنى عليه من بعده لم يكن كاذبا. وقيل: سأل الإمامة فى التوحيد والدين، وقد أجيب بقوله: ﴿ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾(١) هـ.

﴿ وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴾ أى: اجعلنى وارثاً من ورثة جنة النعيم، أى: الباقين فيها، ﴿ واغفرْ لأبى ﴾، أى: اجعله أهلاً للمغفرة، بإعطاء الإسلام؛ ﴿ إنه كان من الضالين ﴾: الكافرين، أو: اغفر له على حاله.

---

(١) من الآية ١٢٤ من سورة البقرة.

وكان قبل النهي. ﴿ ولا تُخْزني يوم يُبعثون ﴾ أي: لا تُهنّي يوم يبعثون. الضمير للعباد؛ لأنه معلوم، أو: للضالين، أي: لاتخزني في أبي يوم البعث، وهذا من جملة الاستغفار لأبيه، وكان قبل النهي عنه، أي: لا تُهنّي،﴿ يوم لا ينفعُ مالٌ ولابنونَ ﴾، أي: لاينفع فيه مال، وإن كان مصروفًا في وجوه البر، ولابنون، وإن كانوا صُلحاء متأهلين للشفاعة، ﴿ إلا من أتى الله بقلبٍ سليم ﴾ من الكفر والنفاق؛ فإنه ينفعه ماله المصروف في طاعة الله، ويشفع فيه بنوه، إن تأهلوا للشفاعة، بأن أدّبهم ودرّجهم إلى اكتساب الكمالات والفضائل.

وقال ابنُ المسيَبِ: القلب السليم هو قلب المؤمن؛ فإن قلب الكافر والمنافق مريض؛ قال الله تعالى: ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَض ﴾(١). وقال أبو عثمان: هو القلب الخالي من البدعة، المطمئن على السنة. وقال الحسن بن الفضل: سليم من آفات المال والبنين، والله تعالى أعلم.

الإشارة: قد استعمل إبراهيم ﷺ الأدب، الذي هو عمدة الصوفية، حيث قدّم الثناء قبل الطلب، وهو مأخوذ من ترتيب فاتحة الكتاب. وقوله تعالى: ﴿ ربِّ هبْ حُكماً ﴾: قال القشيري: أي: على نفسي أولاً، فإن من لا حُكْم له على نفسِه لا حُكْمَ له على غيره، ﴿ وألحقني بالصالحين ﴾؛ بالقيام بحقك، دون الرجوع إلى طلب الاستقلال لنفسي دون حقك.هـ.

ومما اصطلحت عليه الصوفيه أن الصالحين: من صلحت ظواهرهم، وتطهرت قلوبهم من الأمراض. وفوقهم الأولياء، وهم من كُشف عنهم الحجاب، وأفضوا إلى الشهود والعيان، وفوقهم درجة النبوة والرسالة، فقول الخليل ﴿ وألحقني بالصالحين ﴾، وكذلك قال الصدّيق، هو تنزل وتواضع؛ ليعرف جلالة قدر الصالحين، فما بالك بمن فوقهم! فهو كقول نبينا ﷺ: «اللهمَّ أحيِني مِسكيناً، وأمِتْني مسكيناً، واحشُرني في زُمْرة المساكين»(٢). أي: اجعل المساكين هم قرابتي، المحدقون بي في المحشر، فقد عرّف ﷺ بفضيلة المساكين، وعظّم جاههم، بطلبه أن يكونوا في كفالته، لا أنه في كفالتهم، وكذلك الخليل والصدّيق، عرّفا بفضيلة الصالحين من أهل الإسلام، لاَ أنهما طلبا اللحوق بهم .

وقوله تعالى: ﴿ واجعل لي لسانَ صدْقٍ في الآخرين ﴾؛ كل من أخلص وجهه لله، وتخلصت سريرته مما سوى الله، وكان إبراهيميا حنيفياً، جعل الله له لسان صدق فيمن يأتي بعده، وحسن الثناء عليه في حياته وبعد مماته، لقوله ﷺ: « إذا أحب الله عبداً نادى جبريل: إن الله يُحب فلاناً فأحِبَّه، فيُحبُّه جبريل، ثم ينادي جبريل

(١) من الآية ١٠ من سورة البقرة.

(٢) أخرجه الترمذي في (الزهد، باب ما جاء أن فقراء المهاجرين يدخلون الجنة قبل أغنيائهم، ٤/٤٩٩، ح٢٣٥٢)، والبيهقي في الكبرى (١٢/٧) من حديث أنس بن مالك، وأخرجه ابن ماجة في (الزهد، باب مجالسة الفقراء، ٢/١٣٨١ - ١٣٨٢، ح ٤١٢٦) والحاكم في المستدرك (٣٢٢/٤)، وصححه، ووافقه الذهبي، من حديث أبي سعيد الخدري.

فى أهل السموات: إن الله يحب فلاناً فأحِبُّوه، فيحبُّه أهل السماء، ثم يُوْضَع له القَبُول فى الأرض»(١). أو كما قال ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿ واغفر لأبى.. ﴾ الخ. قال القشيرى: هذا عند العلماء: إنما قاله قبل يأسه من إيمانه، وعن أهل الإشارة: ذكره فى وقت غَلَبَةِ البَسْط، وتجاوز ذلك عنه، وليس إجابةُ العبد واجبةً عليه فى كل شىء، وأكثر ما فيه: أنه لا يجيبه فى ذلك، ثم لهم أسوة فى ذكر أمثال هذا الخطاب، وهذا لا يهتدى إليه كلُّ أحدٍ. هـ.

قال المحشى: وينظر لما قاله العلماء، وبه الفتوى، قوله: ﴿ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ﴾(٢)، وينظر للسان الإشارة شفاعته له يوم القيامة، وتكلمُه فيه بقوله: (وأىُّ خزىٍ أعظم من كون أبى فى النار..) الحديث، وكذا قوله: ﴿ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾(٣)، وجاء ذلك من استغراقه فى بحر الرحمة، على سعة العلم، ومثله استغفار نبينا ﷺ لابن أُبَىّ، وصلاته عليه، وانظر الطيبى فى آية:﴿ وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا ﴾(٤).هـ.

وقوله تعالى: ﴿ إلا من أتى اللهَ بقلب سليم ﴾، أظهر ما قيل فى القلب السليم: أنه السالم من الشكوك والأوهام، والخواطر الردية، ومن الأمراض القلبية، ولا يتحقق له هذا إلا بصحبة شيخ كامل، يُخرجه من الأوصاف البشرية، إلى الأوصاف الروحانية، ويحققه بالحضرة القدسية، وإلا بقى مريضاً، حتى يلقى الله بقلب سقيم. وفى الإحياء: السعادة منوطة بسلامة القلب من عوارض الدنيا، والجودُ بالمال من عوارض الدنيا، فشرط القلب أن يكون سليمًا بينهما، أى: لا يكون ملتفتاً إلى المال، ولا يكون حريصاً على إمساكه، ولا حريصًا على إنفاقه؛ فإن الحريصَ على الإنفاق مصروفُ القلب إلى الإنفاق، كما أن الحريص على الإمساك مصروف القلب إلى الإمساك. وكان كمالُ القلب أن يصفو من الوصفين جميعاً. وقال الدارانى: القلب السليم هو الذى ليس فيه غير الله تعالى.هـ. وقال الجنيد رضي الله عنه: السليم فى اللغة: اللديغ، فمعناه: كاللديغ من خوف الله تعالى. هـ. وبالله التوفيق.

ثم ذكر هَوْلَ ذلك اليوم، فقال:

﴿ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ (٩٠) وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ (٩١) وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ (٩٢) مِن دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ (٩٣) فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ

(١) أخرجه البخارى فى (الأدب، باب المقة «المحبة» من الله ح ٦٦٤٠) ومسلم فى (البر والصلة، باب إذا أحب الله عبداً حبّبه إلى عباده، ٤/ ٢٠٣٠، ح ٢٦٣٧) من حديث أبى هريرة رضي الله عنه.

(٢) من الآية ١١٤ من سورة التوبة.		(٣) من الآية ٣٦ من سورة إبراهيم.

(٤) من الآية ٧ من سورة غافر.

﴿ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي
ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾
فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾
إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ ﴾

قلت: (وأزلفت): عطف على (ينفع)، وصيغة الماضى فيها وفيما بعدها؛ لتحقق الوقوع.

يقول الحق جل جلاله، فى شأن اليوم الذى لا ينفع فيه مال ولا بنون: ﴿ وأُزلفتِ ﴾ أى: قُربت ﴿ الجنةُ للمتقين ﴾ ، أى: تزلف من موقف السعداء، فينظرون إليها، ﴿ وبُرِّزتِ الجحيمُ ﴾ : أُظهرت، حتى يكاد يأخذهم لهبها، ﴿ للغاوين ﴾ : للكافرين، ﴿ وقِيلَ لهم أينَ ما كنتم تعبدون من دون الله هل ينْصُرونكم ﴾ بدفع العذاب عنكم، ﴿ أو ينتصرون ﴾ بدفعه عن أنفسهم، يوبّخون على إشراكهم، فيقال لهم: أين آلهتكم التى عبدتموها، هل ينفعونكم اليوم بنصرتهم لكم؟ أو: هل ينفعون أنفسهم بانتصارهم لها؟ كلا، بل هم وآلهتهم وقُودُ النار، كما قال تعالى:

﴿ فكُبْكِبُوا فيها ﴾ أى: أُلقوا فى الجحيم على وجوههم، مرة بعد أخرى، إلى أن يستقروا فى قعرها. وفى القاموس: كبّه: قلّبه وصرعه، كأكبه وكبكبه. هـ. أى: صرعوا؛ منكبين فى الجحيم على وجوههم، ﴿ هم ﴾ أى: آلهتهم ﴿ والغاوون ﴾ أى: الذين كانوا يعبدونهم.

وفى تأخير ذكرهم عن ذكر آلهتهم رمز إلى أنهم مُؤَخَّرُونَ عنها فى الكبكبة؛ ليشاهدوا سوء حالها، فيزدادوا غماً على غم، ﴿ وجنودُ إبليسَ ﴾ أى: يكبكبون معهم ﴿ أجمعون ﴾ ، وهم شياطينه الذين كانوا يقوونهم ويوسوسونهم، ويُسَوِّلُونَ لهم ما هم عليه من عبادة الأصنام، وسائر فنون الكفر والمعاصى، أو: متبعوه من عصاة الجن والإنس؛ ليجتمعوا فى العذاب، حسبما كانوا مجتمعين فيما يوجبه.

﴿ قالوا ﴾ أى: العبدة ﴿ وهم فيها يختصمون ﴾ أى: قالوا معترفين بخطأهم فى انهماكهم فى الضلالة؛ متحسرين، والحال: أنهم فى الجحيم بصدد الاختصام مع من معهم من المذكورين، فيجوز أن يُنطق اللهُ الأصنامَ، حتى يصح منها التخاصم والتقاول، ويجوز أن يجرى ذلك بين العصاة والشياطين.

قالوا: ﴿ تالله إنْ كُنَّا لفى ضَلَالٍ مُبِين ﴾ أى: إن الشأن كنا فى ضلال واضح، لاخفاء فيه، ﴿ إذ نسويكم ﴾ ؛ نَعْدِلُكُم ﴿ بربِّ العالمين ﴾ فنعبدُكم معه، أى: تالله لقد كنا فى ضلال فاحش وقت تسْويتنا إياكم أيها الأصنام، فى استحقاق العبادة، برب العالمين، الذى أنتم أدنى مخلوقاته، وأذلهم وأعجزهم، ﴿ وما أضلَّنا إلا المجرمون ﴾ أى:

رؤساؤهم، الذين أضلوهم، وإبليس وجنوده، ومن سنَّ الشرك. وليس المراد قصر الإضلال على المجرمين دون من عداهم، بل قصر ضلالهم على كونه بسبب إضلالهم، من غير أن يستقلوا به، وهذا كقولهم: ﴿ رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلا ﴾(١). وعن السُّدِّى: هم الأولون الذين اقتدوا بهم. وأيًا ما كان ففيه التعريض للذين قالوا: ﴿بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون﴾.

ثم قالوا: ﴿ فما لنا من شافعين ﴾ كما للمؤمنين من الملائكة والأنبياء ـ عليهم السلام ـ وغيرهم ممن أُهِّلَ للشفاعة. ﴿ ولا صديقٍ حميم ﴾ كما لهم أصدقاء ؛ إذ لا يتصادق فى الآخرة إلا المؤمنون، وأما الكفار فبينهم التعادى كما يأتى فى الآية. أو: ما لنا من شافعين، ولا صديق من الذين كنا نعدهم شفعاء وأصدقاء؛ لأنهم كانوا يعتقدون أن أصنامهم تشفع لهم عند الله، وكان لهم أصدقاء من شياطين الإنس، فلم ينفعهم شيء من ذلك. وجمع الشـــفعاء ووحّد الصـــديق؛ لكثرة الشفعاء. وأما الصـــديق، وهو الصادق فى ودادك، الذى يهمه ما أهمك، ويسره ما أسرك، فقليل، وسئل حكيم عن الصديق، فقال: (اسم لا معنى له)، أى: لا وجود له، والبركة لا تنقطع.

قال القشيرى: فى الخبر: يجيء يوم القيامة عبدٌ فيُحاسَب، فتستوى حسناتُه وسيئاته، ويحتاج إلى حسنة واحدة يرْضى عنه خصومه، فيقول الله سبحانه له: عبدى بقيت لك حسنةٌ، إن كانت أدْخَلَتْك الجنةَ، انْظُرْ، وتَطَلَّبْ من الناس لعلّ أحداً يهبها لكَ. فيأتى الصفين، فيطلب من أبيه، ثم من أمه، ثم من أصحابه، فلا يجيبه أحدٌ إلا بقوله: أنا اليومَ فقيرٌ إلى حسنةٍ واحدة، فيرجع إلى مكانه، فيسأله الحقُّ ـ سبحانه: ما جئتَ به؟ فيقول: ياربِّ لم يُعْطِنى أحد حسنةً، فيقول الله تعالى: عبدى.. ألم يكن لك صديق؟ فيتذكر العبدُ، ويقول: فلان كان صديقاً لى فيك، فيأتيه ويدله الحق عليه، فيكلّمه، فيقول: بل لى عباداتٌ كثيرة، فإن قَبِلَها الله منى فقد وهبتُها لك، فيُسَرّ ويجيء إلى موضعه، فيخبر بذلك ربَّه تعالى، فيقول: قد قَبِلتُها منه، ولم أنقص من حقِّه شيئاً، وقد غفرت لك وله ـ فهذا معناه .هـ. ونقل القرطبى عن الحسن قال: ما اجتمع ملأ على ذكر الله، فيهم عبد من أهل الجنة، إلا شفَّعه الله فيهم، وإن أهل الإيمان ليشفع بعضهم فى بعض، وهم عند الله شافعون مشفعون. هـ.

ثم قالوا: ﴿ فلو أن لنا كرةً ﴾ أى: رجعة إلى الدنيا ﴿ فنكون من المؤمنين ﴾، وجواب ﴿لو﴾ التَّمنِّيَة: محذوف، أى: لفعلنا كيت وكيت؛ إذ «لو» فى مثل هذا، للتمنى، أى: فليت لنا كرة فنكون من المؤمنين.

﴿ إن فى ذلك ﴾ أى: فيما ذكر من الأنباء العجيبة؛ كقصة إبراهيم مع قومه، وما ترتب على ذلك من الوعد والوعيد، ﴿ لآيةً ﴾ عظيمة، موجبة للزجر عن عبادة الأصنام، لاسيما لأهل مكة، الذين يدّعون أنهم على ملة

(١) من الآية ٦٧ من سورة الأحزاب.

إبراهيم عليه السلام، أو: إن في ذكر نبأه، وتلاوته عليهم، على ما هو عليه، من غير أن تسمعه من أحد، لآية عظيمة دالة على أن ماتتلوه عليهم وحيٌ صادق، نازل من جهته تعالى، موجبة للإيمان به، ﴿ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ أي: وما أكثر هؤلاء، الذين تتلو عليهم هذه الأنباء، مؤمنين، بل هم مُصِرُّون على ما كانوا عليه من الكفر والضلال. ولا يحسن رجوعه لقوم إبراهيم، على أن ﴿كان﴾ أصلية؛ لأنه لم يؤمن من قومه إلا لوط فقط.

﴿ وإن ربك لهو العزيزُ الرحيمُ ﴾ أي: هو القادر على تعجيل العقوبة لقومك، ولكنه يمهلهم بحلمه ورحمته؛ ليؤمن بعض منهم أو من ذريتهم. وبالله التوفيق.

الإشارة: وأُزلفت جنة المعارف للمتقين السِّوى، وبرزت جحيم القطيعة للغاوين، المتبعين الهوى. وفي الحِكَم: «لا يُخَافُ أن تلتبس الطرقُ عليك، إنما يُخَافُ من غلبة الهوى عليك» وقيل لأهل الهوى: أين ما كنتم تعبدون من دون الله، من الحاملين لكم على البقاء مع الحظوظ والشهوات، هل ينصروكم أو ينتصرون؟ فكُبكبوا في الحضيض الأسفل، هم والغاوون لهم، الذين منعوهم من الدخول في حضرة الأولياء، وجنود إبليس أجمعون. قالوا ـ وهم في غم الحجاب ونار القطيعة يختصمون ـ: تالله إن كنا لفي ضلال مبين، إذ نسويكم برب العالمين في المحبة والميل، وما أضلنا إلا المجرمون، الذين حكموا بقطع التربية على الدوام، وسدوا الباب في وجوه الرجال، فما لنا من شافعين، ولا صديق حميم، يشفع لنا حتى نلتحق بالمقربين. هيهات لا يكون اللحوق بهم إلا بالدخول معهم، في مقام المجاهدة في دار الدنيا، ثم يتمنون الرجوع؛ ليُصدِّقوا بهم، وينخرطوا في سلكهم، فلايجدون له سبيلا. وبالله التوفيق.

ثم ذكر قصة نوح عليه السلام، فقال:

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾
إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ
إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾ ۞ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ
ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى
لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ
تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِى

وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾ ﴾

قلت: اسم الجمع واسم الجنس يُذكر ويؤنث، كقوم، ورهط، وشجر.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ كذبَتْ قومُ نُوحٍ ﴾، وهو نوح بن لامَك. قيل: وُلد في زمن آدم ﷺ، قاله النسفي، وإنما قال: ﴿ المرسلين ﴾، والمراد: نوح فقط؛ لأن من كذّب واحداً من الرسل فقد كذب الجميع، لاتفاقهم في الدعوة إلى الإيمان؛ لأن كل رسول يدعو الناس إلى الإيمان بجميع الرسل. وقد يُراد بالجمع: الواحد؛ كقولك: فلان يركب الخيل، ويلبس البرود، وماله إلا فرس واحد وبُرد واحد.

﴿ إذ قال لهم ﴾: ظرف للتكذيب، أي: كذبوه وقت قوله لهم ﴿ أخوهم نوحٌ ﴾؛ نسبًا، لا دينا، وقيل: أخوة المجانسة، كما في آية: ﴿ بِلِسَانِ قَوْمِهِ ﴾(١): ﴿ ألاَ تتقون ﴾ خالق الأنام، فتتركوا عبادة الأصنام، ﴿ إني لكم رسول أمين ﴾، كان مشهوراً بالأمانة عندهم، كما كان نبينا ﷺ في قريش، ما كانوا يُسمونه إلا محمداً الأمين. ﴿ فاتقوا الله وأطيعونِ ﴾ فيما آمركم به وأدعوكم إليه من الإيمان.

﴿ وما أسألكم عليه ﴾ أي: على ما أنا متصدٍ له من الدعاء والنصح، ﴿ من أجرٍ ﴾ أصلاً ﴿ إنْ أجريَ ﴾ فيما أتولاه ﴿ إلا على ربِّ العالمين ﴾؛ لا أطمع في غيره، ﴿ فاتقوا الله وأطيعون ﴾، الفاء؛ لترتيب ما بعدها على ما قبلها؛ من تنزيهه ﷺ عن الطمع، كما أن نظيرتها السابقة؛ لترتيب ما بعدها على أمانته. والتكرير؛ للتأكيد، والتنبيه على أن كلا منهما مستقل في إيجاب التقوى والطاعة، فكيف إذا اجتمعا؟ كأنه قال: إذا عرفتم رسالتي وأمانتي فاتقوا الله وأطيعون.

﴿ قالوا أَنُؤْمِنُ لك واتبعك ﴾ والحالة أنه قد تبعك ﴿ الأرْذَلونَ ﴾ أي: الأرذلون جاهاً ومالاً، والرذالة: الدناءة والخسة، وإنما استرذلوهم؛ لاتضاع نسبهم، وقلة نصيبهم من الدنيا، وقيل: كانوا من أهل الصناعة الدنيئة، قيل: كانوا حاكة وأساكفة - جمع إسكاف - وهو الخَفَّافُ - أي: الخراز، وقيل: النجار. والصناعة لاتزرى بالديانة، فالغنى غنى القلوب، والنسب نسب التقوى، والعز عز العلم بالله لاغير، ومرادهم بذلك: أنه لامزية لك في اتباعهم؛ إذ

(١) الآية ٤ من سورة إبراهيم.

ليس لهم رزانة عقل، ولا إصابة رأى، وقد كان ذلك منهم فى بادى الرأى. وهذا من كمال سخافة عقولهم، وقصرِ نظرهم على حطام الدنيا حتى اعتقدوا أن الأشرف مَنْ جمَعَهَا، والأرذل مَنْ حُرمها. وقد جهلوا بأنها لاتزن عند الله جناح بعوضة، وأن النعيم هو نعيم الآخرة، والأشرف مَنْ فازَ به، وسكن فى جوار الله، والأرذل من حُرِم ذلك.

قال القشيرى: ذكر مالقِىَ من قومه، وقوله: ﴿واتبعك الأرذلون﴾، وكذلك أتباع الرسل، إنما هم الأضعفون، لكنهم ـ فى حُكم الله ـ هم المقدّمون الأكرمون، قال ﷺ: «نُصِرْتُ بضعفائكم»(١)، إلخ كلامه.

﴿ قال وما علْمِى ﴾ أى: وأىّ شىء علمى ﴿ بما كانوا يعملون ﴾ من الصناعات، إنما أطلب منهم الإيمان. وقيل: إنهم طعنوا فى إيمانهم، وقالوا: لم يؤمنوا عن نظر وبصيرة، وإنما اتبعوك؛ طمعًا فى العدة والمال، أى: وما وظيفتى إلا اعتبار الظواهر، دون التنقير على بواطنهم، والشق عن قلوبهم، ﴿ إنْ حسابهم إلا على ربى ﴾ أي: ما محاسبة أعمالهم والتنقيرُ عن كيفياتها إلا على ربى؛ فإنه المطلع على السرائر، ﴿ لو تشعرون ﴾ بشىء من الأشياء، أو: لو كنتم من أهل الشعور لعلمتم ذلك، ولكنكم كالبهائم أو أضل.

﴿ وما أنا بطَارِدِ المؤمنين ﴾ أى: ليس من شأنى أن أتبع شهواتكم، فأطرد المؤمنين؛ طمعًا فى إيمانكم، وهو جواب عما أوهمه كلامهم من استدعاء طردهم وتعليق إيمانهم بذلك، حيث جعلوا اتباعهم له مانعاً عنه، ﴿ إنْ أنا إلا نذير مبين ﴾ وما علىّ إلا أن أُنذركم إنذاراً بيّناً؛ بالبرهان القاطع، وأنتم أعلم بشأنكم، أى: وما أنا إلا رسول مبعوث لإنذار المكلفين، سواء كانوا أعزاء أو أراذل، فكيف يمكننى طرد الفقراء لاستتباع الأغنياء؟. ﴿ قالوا لئن لم تَنْتهِ يانوحُ ﴾ عما تقول ﴿ لتكونَنَّ من المرجومين ﴾؛ من المقتولين بالحجارة. قالوه فى آخر أمره.

﴿ قال ربِّ إنَّ قومى كذَّبونِ ﴾؛ تمادوا على تكذيبى، وأصروا عليه، بعد ما دعوتهم هذه الأزمنة المتطاولة، فلم يزدهم دعائى إلا فراراً، وليس هذا من قبيل الإخبار؛ لأن الله لا يخفى عليه شىء، وإنما هو تضرع وابتهال، بدليل قوله: ﴿ فافتح بينى وبينهم فتحاً ﴾؛ أى: احكم بينى وبينهم بما يستحقه كل واحد منا، وهذه حكاية إجمالية، قد فصلت فى سورة نوح ﴿ وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ من شرهم، أو من شؤم عملهم.

---

(١) أخرجه البخارى فى (الجهاد، باب من استعان بالضعفاء والصالحين فى الحرب ح٢٨٩٦)، عن مصعب بن سعد بن أبى وقاص، بلفظ: «هل تنصرون إلا بضعفائكم»، وأخرجه أحمد فى المسند (٥/١٩٨)، والترمذى فى (الجهاد، باب الاستفتاح بصعاليك المسلمين، ٤/١٧٩، ح١٧٠٢)، وأبو داود فى (الجهاد، باب في الانتصار برذل الخيل والضعفة ٣/٧٣، ح٢٥٩٤)، من حديث أبى الدرداء، بلفظ: «ابغونى فى الضعفاء، فإنما ترزقون وتنصرون بضعفائكم».
قال المنذرى: ومعناه: أن عبادة الضعفاء ودعاءهم أشد إخلاصاً؛ لخلو قلوبهم من التعلق بزخرف الدنيا، وجعلوا همهم واحداً، فأجيب دعاؤهم، وربحت أعمالهم.

﴿ فأنجيناه ومن معه ﴾ حسب دعائه ﴿ في الفلك المشحون ﴾؛ المملوء بهم وبما لابد لهم منه. ﴿ ثم أغرقنا بَعْدُ ﴾ أي: بعد إنجائهم ﴿ الباقين ﴾ من قومه، ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ. وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ الممتنع القاهر بإهانة من جحد وأصر. والله تعالى أعلم.

الإشارة: قال القشيري: أخبر عن كل واحد من الأنبياء بقوله: ﴿ وما أسألكم عليه من أجر ﴾؛ ليَعْلَمَ الكافةُ أنه من عَمِلَ له فلا ينبغي أن يطلب الأجر من غيره، ففي هذا تنبيهٌ للعلماء - الذين هم ورثة الأنبياء - أن يتأدبوا بآدابهم، وألاَّ يطلبوا من الناس شيئاً في بَثِّ علومهم، ولا يرتفقون منهم بتعليمهم، والتذكير لهم، ومن ارتفق من المستمعين في بث فائدة يذكرها من الدين، يَعِظُ بها المسلمين، فلا بارك اللهُ للمسلمين فيما يَسْمعون منه، ولا للعلماءِ أيضاً بركةٌ فيما منهم يأخذون، فيبيعون دينَهم بعرَضٍ يسيرٍ، ثم لا بَرَضكةَ لهم فيه، إذ لايتقربون به إلى الله، ولا ينتفعون به، ويَحْصُلون على سخط من الله.هـ.

قلت: أما ما يأخذه العالم من الأحباس فلا يدخل في هذا؛ إذ ليس فيه تكلف من أحد، وكذلك ما يأخذه الواعظ على وجه الزيارة والهدية، من غير استشراف نفسٍ ولاطمعٍ ولاتكلفٍ. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر قصة هود عليه السلام، فقال:

﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ (١٢٣) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٢٤) إِنِّي لَكُمْ
رَسُولٌ أَمِينٌ (١٢٥) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٢٦) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ
إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٢٧) أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ
لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (١٢٩) وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ (١٣٠) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٣١)
وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ (١٣٢) أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ (١٣٣) وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٣٤)
إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٣٥) قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ
الْوَاعِظِينَ (١٣٦) إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ (١٣٧) وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (١٣٨) فَكَذَّبُوهُ
فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٣٩) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ
الرَّحِيمُ (١٤٠) ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿كذبتْ عادٌ المرسلين﴾، وهى قبيلة، ولذلك أنَّث الفعل، وفى الأصل: اسم رجل، هو أبو القبيلة. ﴿إذ قال لهم أخوهم﴾؛ نسبًا، ﴿هودٌ ألاَ تتقون، إنى لكم رسول أمين﴾، وقد مر تفسيره، ﴿فاتقوا الله﴾ فى تكذيب الرسول الأمين، ﴿وأطيعونِ﴾ فيما آمركم به وأنهاكم عنه، ﴿وما أسألكم عليه من أجر إن أَجْرِىَ إلا على رَبِّ العالَمِينَ﴾، وتصدير القصص بتكذيب الرسل والأمر بالطاعة؛ للدلالة على أن مبنى البعثة هو الدعاء إلى معرفة الحق، والطاعة فيما يقرب المدعو إلى الثواب، ويُبعده من العقاب، وأنَّ الأنبياء ـ عليهم السلام ـ مُجْمِعون على ذلك، وإن اختلفوا فى فروع الشرائع، المختلفة باختلاف الأزمنة والأعصار، وأنهم منزهون عن المطامع الدنيئة، والأغراض الدنيوية بالكلية.

ثم وبَّخهم بقوله: ﴿أتَبْنُونَ بكل رِيعٍ﴾: مكان مرتفع، ومنه: ريع الأرض؛ لارتفاعها، وفيه لغتان: كسر الراء وفتحها. ﴿آيةً﴾؛علَمًا للمارة، كانوا يصعدونه ويسخرون بمن يمر بهم. وقيل: كانوا يسافرون ولا يهتدون إلا بالنجوم، فبنوا على الطريق أعلاماً ليهتدوا بها؛ عبثاً، وقيل: برج حمام، دليله: ﴿تَعْبَثُونَ﴾ أي: تلعبون ببنائها، أو: بمن يمر بهم على الأول، ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ﴾، مآخذ الماء، أو قصوراً مشيدة، أو حصوناً، وهو جمع مصنع، والمصنع: كل ما صنع وأتقن فى بنيانه، ﴿لعلكم تَخْلُدُونَ﴾ أى: راجين الخلود فى الدنيا، عاملين عمل من يرجو ذلك، أو كأنكم تخلدون.

﴿وإذا بطشتم﴾ بسوط أو سيف، أو أخذتم أحداً لعقوبة ﴿بطشتم جبارين﴾؛ مسلطين، قاسية قلوبكم، بلا رأفة ولا رقة، ولا قصد تأديب، ولا نظراً للعواقب. والجبار الذى يضرب أو يقتل على الغضب. ﴿فاتقوا الله﴾ فى البطش، ﴿وأطيعونِ﴾ فيما أدعوكم إليه؛ فإنه أنفع لكم، ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ﴾ من ألوان النعماء وأصناف الآلاء. ثم فصلّها بقوله: ﴿أمدَّكم بأنعامٍ وبنين﴾؛ فإن التفصيل بعد الإجمال أدخل فى القلب. وقرن البنين بالأنعام؛ لأنهم يعينونهم على حفظها والقيام بها.

﴿وجناتٍ﴾؛ بساتين ﴿وعيونٍ﴾: أنهار خلال الجنات، ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ إن عصيتمونى، أو: إن لم تقوموا بشكرها؛ فإن كفران النعم مستتبع للعذاب، كما أن شكرها مستلزم لزيادتها، قال تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾(١).

---

(١) من الآية ٧ من سورة إبراهيم.

﴿ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ ﴾؛ فإنا لن نرعوى عما نحن عليه، ولا نقبل كلامك ودعوتك، وعظت أو سكت. ولم يقل: أم لم تعظ؛ لرؤوس الآى. ﴿ إِنْ هَذَا إِلاَّ خُلُقُ الأَوَّلِينَ ﴾ بضم اللام(١)، أى: ماهذا الذى نحن عليه؛ من ألاَّ بعث ولاحساب، إلا عادة الأولين وطبيعتهم واعتقادهم، أو: ما هذا الذى نحن عليه من الموت والحياة إلا عادة قديمة، لم يزل الناس عليها، ولا شيء بعدها، أو: ما هذا الذى أنكرت علينا؛ من البنيان والبطش، إلا عادة مَنْ قَبْلَنَا، فنحن نقتدى بهم، وما نُعَذَّبُ على ذلك. وبسكون اللام، أى: ما هذا الذى خوفتنا به ﴿ إلا خَلْقُ الأولين ﴾ أى: اختلاقهم وكذبهم، أو: ما خَلْقُنا هذا إلا كخلْقهم، نحيا كما حيوا، ونموت كما ماتوا، ولا بعث ولا حساب، ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ على ما نحن عليه من الأعمال.

﴿ فَكَذَّبُوهُ ﴾ أى: أصروا على تكذيبه، ﴿ فأهلكناهم ﴾ بسبب ذلك بريح صَرْصَرٍ، تقدم فى الأعراف كيفيته(٢) ، ﴿ إِنَّ فى ذلك لآيةً وما كان أكثرُهُمْ ﴾ أى: قوم هود ﴿ مؤمنين ﴾؛ ما أسلم معه ثلاثمائة ألف... وأهلك باقيهم. قاله المحشى الفاسى. وقيل: وما أَكْثَرُ قَوْمِكَ بمؤمنين بهذا، على أن «كان»: صلة. ﴿ وإن ربك لهو العزيزُ الرَّحِيمُ ﴾؛ العزيز بالانتقام من أعدائه، الرحيم بالانتصار لأوليائه.

الإشارة: أنكر هود عليه السلام على قومه أمرين مذمومين، وهما من صفة أهل البُعد عن الله؛ الأول: التطاول فى البنيان، والزيادة على الحاجة، وهى ما يكن من البرد، ويقى من الحر، من غير تمويه ولا تزويق، والزيادةُ على الحاجة فى البنيان من علامة الرغبة فى الدنيا، وهو من شأن الجهال رعاء الشاه، كما فى الحديث، وفى خبر آخر: «إذا علا العبد البناء فوق ستة أَذْرُعٍ ناداه ملك: إلى أين يا أَفْسَقَ الفاسقِين؟»(٣).

والثانى: التجبر على عباد الله، والعنف معهم، من غير رحمة ولا رقة، وهو من قساوة القلب، والقلب القاسى بعيد من الله، وفى الخبر عن عيسى عليه السلام: (لا تُكثِرُوا الكلام بغير ذكر الله، فتقسو قلوبكم؛ فإن القلبَ القاسِيَ بعيدٌ من الله، ولكن لا تشعرون). وفى الحديث عن نبينا ﷺ: «لا تنظُرُوا إلى عيوب الناس كأنكم أربابٌ، وانظروا إلى عيوبكم كأنكم عَبِيدٌ، فإنما الناس مُبْتَلَىً ومُعَافَى، فارحموا أهل البلاء وسلوا الله العافية»(٤). وبالله التوفيق،

---

(١) قرأ بالضمّ: نافع، وابن عامر، وعاصم، وحمزة، وقرأ «خَلْق»؛ بفتح الخاء وسكون اللام، ابن كثير وأبو جعفر وأبو عمرو، والكسائى. راجع إتحاف فضلاء البشر (٢/٣١٨).

(٢) راجع تفسير الآية ٧٢ من سورة الأعراف.

(٣) ذكره المنذرى فى الترغيب والترهيب (ح٢٨٠٣) بلفظ: «إذا رفع الرجل بناءً فوق سبعة أذرع، نودى يا أفسق الفاسقين إلى أين»؟ وعزاه لابن أبى الدنيا؛ موقوفاً على عمارة بن عامر. وقال المنذرى: ورفعه بعضهم، ولايصح. وانظر فتح البارى (١١/٩٢).

(٤) هذا بقية الخبر السابق عن سيدنا عيسى عليه السلام. وأخرجه مالك فى الموطأ (٢/٩٨٦)؛ بلاغاً. ولم أقف عليه حديثاً عن سيدنا رسول الله ﷺ.

ثم ذكر قصة صالح عليه السلام، فقال:

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾
إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ
إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّٰتٍ
وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا
فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ
فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا
فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ
مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟
نَٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ
﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ كَذَّبَتْ ثمودُ المرسَلين، إذ قال لهم أخوهم ﴾؛ نسباً، ﴿ صالحٌ ألا تتقون ﴾ الله تعالى، فتوحدونه، ﴿ إني لكم رسولٌ أمين ﴾: مشهور فيكم بالأمانة، ﴿ فاتقوا اللهَ وأطيعون، وما أسألكم عليه من أجر إن أجريَ إلا على ربِّ العالمين، أَتُتْرَكون فيما هاهنا آمنين ﴾ أي: أتطمعون أن تتركوا فيما هاهنا من النعمة والتَّرَفُّه، آمنين من عقاب الله وعذابه، وأنتم على كفركم وشرككم، كلا، والله لنختبرنكم ببعث الرسول، فإن كفرتم عاجلتكم بالعقوبة.

ثم فسّر ما هم فيه من النعمة بقوله: ﴿ في جنات وعيون وزروع ونخل ﴾ هو داخل فيما قبله، وخصه بالذكر؛ شرفًا له. أو: في جنات بلا نخل، ﴿ طَلْعُها هَضِيمٌ ﴾، والطلع: عنقود التمر في أول نباته، باقيًا في غلافه. والهضيم: اللطيف اللين؛ للطف الثمر، أو: لأن النخل أنثى وطلع الأنثى ألطف، أو: لنضجه، كأنه: قيل: ونخل قد

أرطب ثمره. قال ابن عباس: إذا أينع فهو هضيم. وقال أيضا: هضيم: طيب، وقال الزجاج: هو الذى رطبه بغير نوى، أو: دانٍ من الأرض، قريب التناول.

﴿ وتَنْحتُون ﴾ أى: تنقبون ﴿ من الجبال بيوتاً فارِهين ﴾؛ حال من الواو، أى: حاذقين، أو: ناشطين، أو: أقوياء، وقيل: أشِرين بَطِرين. قيل: كانوا فى زمن الشتاء يسكنون الجبال، وفى زمن الربيع والصيف ينزلون بمواشيهم إلى الريف ومكان الخصب.﴿ فاتقوا الله وأطيعون ، ولا تُطيعوا أمرَ المسرفين ﴾؛ الكافرين المجاوزين الحد فى الكفر والطغيان، أى: لا تنقادوا لأمرهم، ولا تتبعوا رأيهم، وهم ﴿ الذين يُفسدون في الأرض ﴾ بالإسراف فى الكفر والمعاصى، ﴿ ولا يُصلِحُونَ ﴾ بالإيمان والطاعة. والمعنى: أن فسادهم خالص، لايشوبه شيء من الصلاح، كما تكون حال بعض المفسدين مخلوطة ببعض الصلاح.

﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴾؛ الذين سُحِرُوا، حتى غلَبَ على عقلهم السحرُ، ﴿ ما أنت إلا بشرٌ مثلنا فأتِ بآيةٍ إن كنت من الصادقين ﴾ فى دعوى الرسالة، ﴿ قال هذه ناقةٌ ﴾، قالها بعدما أخرجها الله تعالى من الصخرة بدعائه ﷺ، ﴿ لها شِربٌ ﴾؛ نصيب من الماء، فلا تُزاحموها فيه، ﴿ ولكم شِربُ يومٍ مَعْلوم ﴾ لاتزاحمكم فيه. رُوى أنهم قالوا: نُريد ناقة عُشَراءَ، تخرج من هذه الصخرة، فتلد سَقْباً - والسقب: ولد الناقة - فقعد صالح يتفكر، فقال له جبريل ﷺ: صلِّ ركعتين، وسَلْ ربَّك الناقة، ففعل، فخرجت الناقة، ونتجت سقباً مثلها فى العظم، وصدرها ستون ذراعا - أى: طولها - وإذا كان يوم شربها شربت ماءهم كله، وإذا كان يوم شربهم لا تشرب فيه.

﴿ ولا تَمَسُّوها بِسُوءٍ ﴾؛ بضرب، أو عقر، أو غير ذلك، ﴿ فيأخُذَكم عذابُ يومٍ عظيم ﴾، وصف اليوم بالعظم؛ لعظم ما يحل فيه، وهو أبلغ من تعظيم العذاب، ﴿ فعقروها ﴾ عقَرَها «قدَار»، وأسند العقر إلى جميعهم؛ لأنهم راضون به. رُوى أن عاقرها قال: لا أعقرها حتى ترضوا أجمعين. وكانوا يدخلون على المرأة فى خدرها، فيقولون: أترضين بعقر الناقة؟ فتقول: نعم، وكذلك صبيانهم، ﴿ فأصبحوا نادمين ﴾ على عقرها؛ خوفاً من نزول العذاب بهم، لا ندم توبة؛ لأنهم طلبوا صالحاً ليقتلوه لمَّا أيقنوا بالعذاب، و ندموا حين لا ينفع الندم، وذلك حين مُعَايَنَةِ العذاب.

﴿ فأخذهم العذابُ ﴾ أى: صيحة جبريل، فتقطعت قلوبهم، ﴿ فأصبحوا في ديارهم جاثمين ﴾: ميتين، صغيرهم وكبيرهم، ﴿ إنَّ فى ذلك لآيةً وما كان أكثرهم مؤمنين ﴾. رُوى أنه أسلم منهم ألفان وثلاثمائة رجل وامرأة. وقيل: كانوا أربعة آلاف، وقال كعب: كان قوم صالح اثنى عشر ألفا، من سوى النساء والذرية. ولقد كان قوم عاد مثلهم ست مرات. قاله القرطبى. قيل: فى نفى الإيمان عن أكثرهم إيماءٌ إلى أنه لو آمن أكثرهم أو:

شطرهم لما أُخذوا بالعذاب، وأن قريشاً إنما عُصموا من تعجيل العذاب ببركة من آمن منهم. وعلى أن (كان) زائدةٌ يكون الضمير لقريش، كما تقدم. ﴿وإن ربك لهو العزيز الرحيم﴾.

الإشارة: قوله: ﴿أتتركون فيما هاهنا آمنين﴾؛ أنكر عليهم ركونهم إلى الدنيا وزخارفها الغرارة، واطمئنانهم إليها، وهو غرور وحمق؛ إذ الدنيا كسحابة الصيف، تظل ساعة ثم ترتحل، فالدنيا عرض حائل، وظل آفل، فالكيِّس من أعرض عنها، وتوجه بكليته إلى مولاه، صبر قليلاً وربح كثيراً، والأحمق من وقع في شبكتها، حتى اختطفته منيته، وفي الحديث: «الدُّنْيَا دَارُ مَنْ لا دَارَ لَه، ومالُ من لا مَالَ له، لَهَا يجمعُ من لا عقل له، وعليها يُعادي من لا علم عنده»(١).

ثم ذكر قصة لوط عليه السلام فقال:

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ
﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ
إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٤﴾ أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ
مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ
لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا
يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ
﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم
مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ...﴾ الخ، وهو ظاهر، ثم قال: ﴿أتأتون الذُّكْرَان من العالمين﴾، أراد بالعالمين: الناس، أي: أتطؤون الناس مع كثرة الإناث، أو: أتطؤون أنتم من بين سائر العالمين الذكران، وتختصون بهذه الفاحشة ﴿وتذرون ما خلق لكم ربكم﴾ من الإناث. أو: ما خلق لكم؛ لأجل

(١) تقدم تخريجه عند إشارة الآية ٧ من سورة الكهف.

استمتاعكم من الفروج، ﴿مِن أزواجكم﴾، فمِنْ للبيان، إن أريد بـ «ما»: جنس الإناث، وهو الظاهر، وللتبعيض، إن أريد بها العضو المباح منهن، تعريضًا بأنهم يفعلون ذلك بنسائهم أيضاً، وفيه دليل تحريم أدبار الزوجات والمملوكات، ومن أجاز ذلك قد أخطأ خطأً عظيماً. ﴿بل أنتم قومٌ عادُون﴾ أي: متعدون، والعادي: المتعدى فى ظُلْمِهِ، المتجاوز فيه الحد، أي: أنتم قوم أحقاء بأن توصفوا بالعدوان؛ حيث ارتكبتم مثل هذه العظيمة، التى لم يرتكبها أحد قبلكم، ولو من الحيوانات البهيمية.

﴿قالوا لئن لم تنتهِ يا لوطُ﴾ عن إنكارك علينا وتقبيح أمرنا ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ﴾ من بلدنا، أي: من جملة من أخرجناه من بين أظهرنا، وطردناه من بلدنا. ولعلهم كانوا يُخرجون من أخرجوه على أسوأ حال. ﴿قال إني لِعَمَلِكُم من القَالين﴾؛ من المبغضين غاية البغض، كأنه يقلى الفؤاد والكبد من شدته. والقِلَى: أشَدُّ البغض، وهو أبلغ من أن يقول: لعملكم قالٍ، فقولك: فلان من العلماء، أبلغ من قولك: فلان عالم؛ لأنك تشهد بأنه مساهم لهم فى العلم. وفى الآية دليل على قبح معصية اللواط؛ ولذلك أفتى مالك بقتل فاعلها.

ثم قال: ﴿رَبِّ نَجِّنِي وأهلي مما يعملون﴾؛ من عقوبة عملهم، ﴿فنجَّيناه وأهله أجمعين﴾ يعنى: بناته، ومن آمن معه، ﴿إلا عجوزاً﴾ هى امرأته، وكانت راضية بذلك، والراضى بالمعصية فى حكم العاصى، ولو لم يحضر. واستثناؤها من الأهل؛ لأنها داخلة فيه ـ ولو لم تكن مؤمنة ـ؛ لا شتراكها فى الأهلية بحق الزواج. بقيت ﴿فى الغابرين﴾؛ فى الباقين فى العذاب، وهى صفة لها. والغابر فى اللغة: الباقى، كأنه قيل: إلا عجوزاً غابرة، أي: مُقَدَّراً غبورها؛ إذ الغبور لم يكن صفتها وقت نجاتهم.

﴿ثم دمَّرنا الآخَرين﴾ أي: أهلكناهم أشد إهلاك وأفظعه، ﴿وأمطرنا عليهم مطراً﴾ أي: مطراً غير معهود. وعن قتادة: أمطر الله على شُذَّاذ القوم، أي: الخارجين عن البلد ـ حجارة من السماء فأهلكهم، وقلب المدينة بمن فيها. وقيل: لم يرض بالقلب فقط حتى أتبعهم مطراً من حجارة، ﴿فساءَ مطرُ المنذَرين﴾ أي: قَبُحَ مَطَرُ المنذرين مطرهم، فالمخصوص محذوف. ﴿إن فى ذلك لآيةً وما كان أكثرُهم مؤمنين﴾، بل لم يؤمن به إلا بناته وناس قليلون. أو: ماكان أكثر قريش بمؤمنين بهذا، ﴿وإن ربَّك لهو العزيز﴾ الغالب، ﴿الرحيم﴾؛ حيث لم يُعاجل بالعقوبة لمن استحقها.

الإشارة: من شناعة هذه المعصية حذَّر الصوفية من مخالطة الشبان، وكذلك النساء. وما أُولِعَ فقيرٌ بمخالطتهما فأفلح أبداً، إن سلم من الفاحشة اتُّهِمَ بها، ولا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يقف مواقف التهم. والنظر إلى محاسن النساء والشبان فتنة، وهى كالعقارب، الصغيرة تلدغ، والكبيرة تلدغ، فالسلامة البُعد عن ساحتهن، إلا على وجهٍ أباحته الشريعة، كالتعليم أو التذكير، مع غَضِّ البصر، أو حجابٍ بينه وبينهن، وبالله التوفيق.

ثم ذكر قصة شعيب ـ عليه السلام ـ فقال:

﴿ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾
إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ
إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾ ۞ أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ
ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾
وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾
وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ
ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ
فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً
وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ كَذَّبَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴾ وهي: الغيضة التي تنبت الشجر، والمراد بها: غيضة بقرب مدين، يسكنها طائفة منهم، وكانوا ممن بعث إليهم شعيب ﷺ، وكان أجنبياً منهم، ولذلك قيل: ﴿إذ قال لهم شُعيبٌ﴾ ولم يقل: أخوهم، بخلاف مدين؛ فإنه منهم، ولذلك قال: ﴿أخاهم شعيبا﴾(١)، وقيل: الأيكة: الشجر الملتف، وكان شجرهم المقل، وهو الدوم. قال قتادة: بعث الله شعيباً إلى أمتين؛ أصحاب الأيكة وأصحاب مدين. فأهلك الله أصحابَ الأيكة بالظلة، وأما أهل مدين فصاح بهم جبريل صيحة فهلكوا. وقرئ: «ليكة»(٢)؛ بحذف الهمزة، وإلقاء حركتها على اللام، وإنما كتبت هنا وفي «ص»(٣) باللام؛ اتباعاً للفظ.

(١) كما جاء في الآية ٨٥ من سورة الأعراف، والآية ٨٤ من سورة هود، والآية ٣٦ من سورة العنكبوت.
(٢) قرأ نافع، وابن كثير وابن عامر، وأبو جعفر (ليكة) بلام مفتوحة، بلا ألف وصل قبلها، ولاهمزة بعدها، وفتح تاء التأنيث. وقرأ الباقون بهمزة وصل وسكون اللام وبعدها همزة مفتوحة. انظر الإتحاف (٢/٣١٤).
(٣) في قوله تعالى: ﴿وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة..﴾ الآية ١٣ من سورة «ص».

﴿ إذْ قَالَ لهم شُعيبٌ أَلا تَتَّقُونَ ﴾ الله، فتوحدوه ولا تُطففوا، ﴿ إني لكم رسول أمين، فاتقوا الله وأطيعون وما أسألكم عليه ﴾ أي: التبليغ؛ ﴿ من أجرٍ إنْ أجريَ إلا على رب العالمين، أوْفُوا الكَيْلَ ﴾ أي: أتموه ﴿ ولاتكونوا من المُخْسِرِين ﴾ أي: حقوق الناس بالتطفيف، ﴿ وزنوا ﴾ أشياءكم التي تبيعونها ﴿ بالقِسْطَاسِ المستقيم ﴾ السوي. والقسطاس - بضم القاف وكسرها: الميزان، فإن كان من القسط - وهو العدل، وجعلت العين مكررة - فوزنه: فُعْلاس، وإلا فهو رباعي، ووزنه: فُعْلال. وقيل: عجمي.

﴿ ولا تبخسوا الناس أشياءَهم ﴾أي: لا تنقصوا شيئًا من حقوقهم، أيّ حق كان، يقال: بخسه حقه: إذا انتقصه. وقيل: نهاهم عن نقص الدراهم والدنانير بقطع أطرافها. فالكيل على ثلاثة أقسام: واف، وزائد وناقص. فأمر الحق تعالى بالوافي، ونهى عن الناقص، وسكت عن الزائد، فتَرْكُهُ دَلِيلٌ على أنه إن فعله كان أحسن، وإن تركه فلا عليه. ﴿ ولا تَعْثَوا في الأرض مفسدين ﴾؛ ولا تبالغوا فيها بالإفساد، وذلك نحو قطع الطريق، والغارة، وإهلاك الزروع. وكانوا يفعلون ذلك فنهوا عنه، يقال: عَثِيَ كفرح، وعثا يعثو، كنصر.

﴿ واتقوا الذي خلقكم، و ﴾ خلق ﴿ الجِبلَّة الأولين ﴾ أي: الخلق الماضين، وهم من تقدمهم من الأمم، ﴿ قالوا إنما أنتَ من المسحَّرين، وما أنت إلا بشرٌ مثلنا ﴾، أدخل الواو بين الجملتين هنا؛ لدلالةٍ على أن كلا من التسحير والبشرية مناف للرسالة؛ مبالغة في التكذيب، فتكذيبهم أقبح من ثمود، حيث تركه فدل على معنى واحد، وهو كونه مسحوراً، وقرره بكونه بشراً. ثم قالوا: ﴿ وإنْ نظنك ﴾ «إن»: مخففة، أي: وإنه، أي: الأمر والشأن لنظنك ﴿ لمن الكاذبين ﴾ فيما تدعيه من النبوة.

ثم استعجلوا العذاب بقولهم: ﴿ فأَسْقِطْ علينا كِسَفاً من السماء ﴾ أي: قطعاً، جمع كِسْفة، وقرئ بالسكون. أي جُزْءً منه، والمراد بالسماء: إما السحاب، أو: السماء المظلة، ﴿ إن كنت من الصادقين ﴾ في دعواك الرسالة، ولم يكن طلبهم ذلك إلا لتصميمهم على الجحود والتكذيب، وإلا لما أخطروه ببالهم فضلاً عن أن يطلبوه.

﴿ قال ﴾ شعيب عليه السلام: ﴿ ربي أعلمُ بما تعملون ﴾ من الكفر والمعاصي، وبما تستحقونه من العذاب، فينزله عليكم في وقته المقدر له لا محالة، ﴿ فكذّبوه ﴾ أي: فتمادوا على تكذيبه، وأصروا عليه ﴿ فأخذهم عذابُ يومِ الظُّلَّة ﴾ حسبما اقترحوه. وذلك بأن سلط عليهم الحر سبعة أيام بلياليها، فأخذ بأنفاسهم، فلم ينفعهم ظل ولا ماء ولاشرب، فاضطروا إلى أن خرجوا إلى البرية، فأظلتهم سحابة، وجدوا بها برداً ونسيما، فاجتمعوا تحتها، فأمطرت عليهم ناراً فاحترقوا جميعا(١). وقيل: رفع لهم جبل، فاجتمعوا تحته، فوقع عليهم، وهو الظلة. وقيل: لما ساروا إلى

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١٩/ ١١٠) عن ابن عباس رضي الله عنهما. وانظر تفسير ابن كثير (٣/٣٤٦ - ٣٤٧).

السحابة صيح بهم فهلكوا. ﴿إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يومٍ عظيمٍ﴾ أي: في الشدة والهول، وفظاعة ما وقع فيه من الطامة والداهية التامة.

﴿إن في ذلك لآيةً وما كان أَكْثَرُهُمْ مؤمنين﴾ قيل: آمن بشعيب من القِسْمَيْنِ - مدين والأيكة - تسعمائة إنسان، أو: وما أكثر قريش بمؤمنين بهذا، ﴿وإن ربك لهو العزيز الرحيم﴾.

هذا آخر القصص السبع التي أُوحيت إلى رسول الله ﷺ؛ لصرفه - عليه الصلاة والسلام - عن الحرص على إسلام قومه ودفع تحسر فواته، تحقيقاً لمضمون ما مر في مطلع السورة الكريمة من قوله: ﴿لعلك باخع نفسك..﴾(١)، إلخ، ﴿وما يأتيهم من ذكر من الرحمن مُحْدَثٍ إلا كانوا عنه معرضين فقد كذبوا...﴾(٢) الآية، فإن كل واحدة من هذه القصص ذكر متجدد النزول، قد أتاهم من جهته تعالى، بموجب رحمته الواسعة. ﴿وما كان أكثرهم مؤمنين﴾ بعد ما سمعوها على التفصيل، قِصةً بعد قصةٍ، ليتدبروا فيها، ويعتبروا بما في كل واحدة من الدواعي إلى الإيمان، والزجر عن الكفر والطغيان، وبأن يتأملوا في شأن الآيات الكريمة، الناطقة بتلك القصص، على ما هي عليه، مع علمهم بأنه - عليه الصلاة والسلام - لم يسمع شيئاً من ذلك من أحدٍ أصلاً، فلم يفعلوا شيئاً من ذلك، واستمروا على ما كانوا عليه من الكفر والضلال. وبالله التوفيق.

الإشارة: كما أمر الله تعالى بوفاء المكيال، أمر بالوفاء في الأعمال، ووفاؤها: إتقانها وإخلاصها، وتخليصها من شوائب النقص، في الظاهر والباطن. وكما أمر بالعدل في الميزان الحسي بقوله: ﴿وزنوا بالقسطاس المستقيم﴾، أمر بالعدل في الميزان المعنوي، وهو وزن الخواطر بالقسطاس الشرعي، فكل خاطر يخطر بالقلب يريد أن يفعله أو يتكلم به، لا يُخرجه، حتى يزنه بميزان الشرع، فإن كان فيه نفع أخرجه كما كان، أو غيَّره، وإن كان فيه ضررٌ بادَرَ إلى محوه من قلبه، قبل أن يصير هماً أو عزماً، فيعسر رده. وبالله التوفيق.

ثم ذكر شواهد حقيّة القرآن، فقال:

﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ (١٩٣) عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ (١٩٥) وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ (١٩٦) أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن

(١) الآية ٣ من هذه السورة. (٢) الآيتان ٥ - ٦.

عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾ وَلَوۡ نَزَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ بَعۡضِ ٱلۡأَعۡجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيۡهِم مَّا كَانُواْ
بِهِۦ مُؤۡمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ كَذَٰلِكَ سَلَكۡنَٰهُ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُاْ
ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأۡتِيَهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُواْ هَلۡ نَحۡنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾

قلت: «آية»: خبر «كان»، و«أنْ يعلمه»: اسمها، ومن قرأ «آية»؛ بالرفع؛ فآية اسمها، و﴿ أن...﴾ الخ: خبر. أو: «كان»: تامة، و«آية»: فاعل، و«أن يعلمه»: بدل منه.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وإنه ﴾ أي: القرآن المشتمل على القصص المتقدمة، وكأنه تعالى عاد إلى ما افتتح به السورة من إعراض المشركين عما يأتيهم من الذكر، ليتناسب المفتتح والمختتم، أي: وإن القرآن الكريم ﴿ لتنزيلُ ربِّ العالمين ﴾ أي: منزل من جهته. ووصفه تعالى بربوبية العالمين؛ للإيذان بأن تنزيله من أحكام ربوبيته للعالمين ورأفته للكل.

﴿ نَزَلَ به ﴾ أي: أنزله ﴿ الروحُ الأمين ﴾ أي: جبريل عليه السلام، لأنه أمين على الوحي الذى فيه روح القلوب، ومن قرأ بالتشديد: فالفاعل هو الله، والروح: مفعول به، أي: جعل الله تعالى الروح الأمين نازلاً به. والباء؛ للتعدية، نزل به ﴿ على قلبك ﴾، أي: حفظك وفهمك إياه، وأثبته فى قلبك إثبات ما لا يُنسى، كقوله: ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنسَىٰ ﴾(١).

﴿ لتكون من المُنْذِرين ﴾ بما فيه من العقوبات الهائلة والمواعظ الزاجرة، ﴿ بلسانٍ عربى ﴾؛ بلغة قريش وجُرْهُم، فصيح بليغ، والباء: إما متعلق بمنذرين، أي: لتكون من الذين أَنْذَروا بهذا اللسان؛ وهم هود وصالح وشعيب وإسماعيل - عليهم السلام - أو: بنزل، أي: نزله بلسان عربي؛ لتُنذر به، لأنه لو نزل بلسان أعجمي لتجافوا عنه، ولقالوا: ما نصنع بما لا نفهمه؟ فيتعذر الإنذار به. وهذا أحسن لعمومه؛ أي: لتكون من جملة من أنذر قبلك، كنوح وإبراهيم وموسى، وغيرهم من الرسل، عربيين أو عجميين، وأشد الزواجر تأثيراً فى قلوب المشركين: ما أنذره إبراهيم؛ لانتمائهم إليه، وادعائهم أنهم على ملته.

﴿ وإنه ﴾ أي: القرآن ﴿ لفي زُبُرِ الأوَّلِينَ ﴾ يعنى: أنه مذكور فى سائر الكتب السماوية. وقيل: ثبت فيها معناه، فإن أحكامه التى لا تحتمل النسخ والتبديل، بحسب تبدل الأعصار، من التوحيد وسائر ما يتعلق بالذات

(١) من الآية ٦ من سورة الأعلى.

والصفات مسطورة فيها، وكذا ما فى تضاعيفه من المواعظ والقصص. قال النسفى: وفيه دليل على أن القرآن إذا ترجم عنه بغير العربية بقى قرآناً، ففيه دليل على جواز قراءة القرآن بالفارسية فى الصلاة.هـ. وهو حنفى المذهب، وأما مذهب مالك: فلا.

﴿ أَوَلَمْ يَكن لهم آيةً ﴾ أى: أغفلوا ولم يكن لهم آية دالة على أنه تنزيل رب العالمين حقاً، ﴿ أن يعلمه علماءُ بنى إسرائيل ﴾، كعبد الله بن سلام، وغيره، لوجود ذكره فى التوراة. قال تعالى: ﴿ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴾(١). والمعنى: أَوَلَمْ يكفهم دليلاً على كون القرآن من عند الله عِلْمُ أَحْبَارِ بنى إسرائيل به، ومعرفتهم له، كما يعرفون أبناءهم؛ لموافقته لما عندهم فى كثير من القصص والأخبار، حتى إن سورة يوسف مذكورة فى التوارة بمعنى واحد، وترتيب واحد، وما اختلف مع القرآن فيها إلا فى كلمة واحدة: «وجاءوا على قميصه بدم كذب»، عندهم فى التوراة: وجاءوا على قميصه بدم جدى. وكذا سورة طه: جُلّها فى التوراة. وقد تقدم الحديث: «أوتيت طه والطواسين والحواميم من ألواح موسى»(٢). وقد فسر بعض علماء هذه الأمة القرآن العظيم كله بالكتب المتقدمة، ينقل فى كل آية ما يوافقها من الكتب السماوية.

ثم قال تعالى: ﴿ ولو نزّلناه على بعض الأعْجَمِينَ ﴾ أى: ولو نزلناه كما هو بنظمه الرائق على بعض من لايفهم العربية، ولا يقدر على التكلم بها، ﴿ فقرأه عليهم ﴾ قراءة صحيحة، خارقة للعادة، ﴿ ما كانوا به مؤمنين ﴾ مع انضمام إعجاز القراءة إلى إعجاز المقروء؛ لفرط عنادهم، وشدة شكيمتهم، قال النسفى: والمعنى: إنّا أنزلنا هذا القرآن على رجل عربىّ مبين، ففهموه، وعرفوا فصاحته وأنّه معجز، وانضم إلى ذلك اتفاق علماء أهل الكتاب قبله على البشارة بإنزاله، وصفته فى كتبهم، وقد تضمّنت معانيه وقصصه، وصح بذلك أنها من عند الله، وليست بأساطير كما زعموا، فلم يؤمنوا به، وسمّوه شعراً تارة، وسحراً أخرى. ولو نزلناه على بعض الأعاجم، الذى لا يحسن العربية، فضلاً أن يقدر على نظم مثله، ﴿ فقرأه عليهم ﴾ هكذا معجزاً، لكفروا به، ولتمحلوا لجحودهم عذراً، ولسموه: سحراً.هـ.

والأعجمين: جمع الأعجمى، فإن أفعل، إذا كان للتفضيل، يجمع جمع سلامة إذا لم يكن معناه للتفضيل كأحمر. وأصل الأعجمين: الأعجميين، فحذفت ياؤه، وقيل: جمع أعجم، فلا حذف.

﴿ كذلك سَلَكْنَاه ﴾ أى: أدخلنا التكذيب والكفر، وهو مدلول قوله: ﴿ما كانوا به مؤمنين﴾، ﴿ فى قلوب المجرمين ﴾: الكافرين الذين علمنا منهم اختيار الكفر والإصرار عليه. يعنى: مثل هذا السّلْكِ الغريب سلكناه فى

(١) من الآية ٥٣ من سورة القصص.
(٢) راجع صدر تفسير هذه السورة

قلوبهم وقررناه فيها، فلا سبيل إلى أن يتغيروا عما هم عليه، من التكذيب والإصرار عليه، وهو حجتنا على المعتزلة فى خلق أفعال العباد؛ خيرها وشرها.

وقوله: ﴿ لا يؤمنون ﴾ : توضيح وتقرير لما قبله. ويجوز أن يكون حالا، أى: سلكناه فيها غير مؤمنين به، أو: مثل ذلك السلك البديع سلكناه، أى: أدخلنا القرآن فى قلوب المجرمين، ففهموا معانيه، وعرفوا فصاحته وبلاغته، وأنه خارج عن القوة البشرية، من حيثُ النّظْمُ المعجز والأخبار الغيبية. وقد انضم إليه اتفاق علماء أهل الكتاب على اتفاقه لما فى أيديهم من الكتب السماوية. ومع ذلك ﴿ لا يؤمنون به ﴾ ، ولا يتأثرون بأمثال تلك الأمور الداعية إلى الإيمان، بل يستمرون على ما هم عليه، ﴿ حتى يَرَوُا العذابَ الأليم ﴾ الملجئ إلى الإيمان، حين لا ينفعهم الإيمان، ﴿ فيأتيهم بغتةً ﴾ ؛ فجأة فى الدنيا والآخرة ﴿ وهم لا يشعرون ﴾ بإتيانه، ﴿ فيقولوا هل نحن مُنْظَرُونَ ﴾ ؛ مُؤَخَّرُون ساعة. قالوه تَحَسُّراً على ما فات من الإيمان، وتمنياً للإمهال؛ لتلافى ما فرضوه. والله تعالى أعلم.

الإشارة: إذا تطهر القلب من الأكدار والأغيار، وملئ بالمعارف والأسرار، كان مَهْبِطاً لوحى الإلهام ووحى الإعلام، ومحلاً لتنزل الملائكة الكرام، إذ كل ما أعطى للرسول كان لوارثه الحقيق منه شِرْبٌ ونصيب؛ ليكون من الواعظين بلسان عربى مبين، يُفصح عن جواهر الحقائق، ويواقيت العلوم، وما ينطق به من العلوم يكون موافقاً لما فى زُبُر الأولين، وإن كان أمياً؛ لأن علوم الأذواق لا تختلف. أو لم يكن لهم آية على ولايته أن يعلمه علماء أهل فنه من المحققين.

وقال الورتجبى على هذه الآية: أخبر الله سبحانه أن قلب محمد ﷺ محل نزول كلامه الأزلى؛ لأنه مصفى من جميع الحدثان، بتجلى مشاهدة الرحمن، فكان قلبه - عليه الصلاة والسلام - صَدَفَ لألِئِ خطابِ الحق، يسْبَح فى بحار الكرم، فيتلقف كلام الحق من الحق بلا واسطة، وذلك سر عجيب وعلم غريب؛ لأنه يجمع كلام الحق وما اتصل به، وكلامه لم ينفصل عنه، وكيف تفارق الصفات الذات، لكن أبقى فى قلبه ظاهره وعلمه وسره، فجبريل - عليه السلام - فى البين: واسطة لجهة الحرمة، وذكر ذلك بقوله: ﴿نزل به الروح الأمين على قلبك ...﴾؛ لأن القلب معدن الإلهام والوحى والكلام والرؤية والعرفان، به يحفظ الكلام. وفائدة ذلك: الإعلام بسر وجود الإنسان ، وأنه ليس شىء يليق بالخطاب ونزول الأنباء إلا قلبه، وكل قلب مسدود بعوارض البشرية لا يسمع خطاب الحق، ولا يرى جمال الحق. قال أبو بكر بن طاهر: ما أنزله على جبريل جعله محلاً للإنذار، لا التحقيق، والحقيقة هو ماتلقفه من الحق، فلم يخبر عنه، ولم يشرف عليه خلق من الجن والإنس والملائكة؛ لأنه ما أطاق ذلك أحد سواه. وما أنزله جبريل جعله للخلق، فقال: ﴿لتكون من المنذرين﴾ بما نزل به جبريل على قلبك المتحقق،

فإنك متحقق بما كافحناك به، وخاطبناك على مقامٍ لو شاهدك فيه جبريل لاحترق.هـ. على تصحيف فى النسخة. وبالله التوفيق.

ثم هددهم بنزول العذاب، فقال:

﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ (٢٠٤) أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَـٰهُمْ سِنِينَ (٢٠٥) ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ (٢٠٦) مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ (٢٠٧) وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ (٢٠٨) ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ (٢٠٩) ﴾

يقول الحق جل جلاله؛ توبيخاً لمن اقترح نزول العذاب، كقولهم: ﴿ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾(١): ﴿ أفبعذابنا يستعجلون ﴾ مع كونهم لا يطيقونه إذا نزل بهم؟ وتقديم الجار؛ للإيذان بأن مصب الإنكار والتوبيخ هو كون المُستَعْجَلِ به عذابَه، مع ما فيه من رعاية الفواصل.

﴿ أفرأيتَ ﴾ أي: أخبرني. ولما كانت الرؤية من أقوى أسباب الإخبار بالشيء وأشهرها شاع استعمال «أرأيت» فى معنى أخبرني. والخطاب لكل من يسمع، أي: أخبرني أيها السامع: ﴿ إن متعناهم ﴾؛ إن متعنا هؤلاء الكفرة ﴿ سنينَ ﴾ متطاولة بطول الأعمار وطيب المعاش، ﴿ ثم جاءهم ما كانوا يُوعدون ﴾ من العذاب، ﴿ ما أغنى عنهم ﴾ أي: أيُّ شيء، أو أيُّ إغناء أغنى عنهم ﴿ ماكانوا يُمَتَّعُونَ ﴾ أي: كونهم متمتعين ذلك التمتع المديد، أيُّ شيء أغنى فى دفع العذاب، و(ما) : مصدرية، أو: ما كانوا يتمتعون به من متاع الحياة الدنيا، على أنها موصولة، حذف عائدها، وأيا ما كان فالاستفهام للإنكار والنفي. وقيل: (ما) : نافية، أي: لم يغن عنهم تمتعهم المتطاول فى دفع العذاب. والأول أرجح.

﴿ وما أهلكنا من قرية ﴾ من القرى المهلكة، ﴿ إلا لها مُنْذِرُون ﴾؛ قد أنذروا أهلها لتقوم الحجة عليهم، ﴿ ذِكْرَى ﴾ أي: تذكرة، وهو مصدر منذرون؛ لأن أنذر وذكر متقاربان، كأنه قيل: لها مُذَكِّرون تذكرة. أو مفعول له، أي: ينذرونهم لأجل التذكرة والموعظة، أو خبر، أي: هذه ذكرى، أو يكون ذكرى متعلقة بأهلكنا؛ مفعولاً له، والمعنى: وما أهلكنا من أهل قرية ظالمين إلا بعد ما ألزمناهم الحجة، بإرسال المنذرين إليهم؛ ليكون إهلاكهم تذكرة وعبرة لغيرهم، فلا يعصون مثل عصيانهم، ﴿ وما كنا ظالمين ﴾ فنهلك قوماً غير ظالمين، أو قبل

(١) من الآية ٣٢ من سورة الأنفال.

إنذارهم. والتعبير عن ذلك بنفي الظالمية مع أن إهلاكهم قبل الإنذار ليس بظلم؛ إذ لا يجب عليه تعالى شيء ـ كما تقرر من قاعدة أهل السنة ـ؛ لبيان كمال نزاهته تعالى عن ذلك، وتحقيقاً لكمال عدله. والله تعالى أعلم.

الإشارة: يقول الحق جل جلاله، في جانب أهل البطالة والغفلة: أفرأيت إن متعناهم سنين بالأموال والنساء والبنين، فاشتغلوا بجمع الأموال والدثور، وبناء الغرف وتشييد القصور، ثم جاءهم ما كانوا يوعدون من الموت، والرحيل من الأوطان، ومفارقة الأحباب والعشائر والإخوان، أيُّ شيء أغنى عنهم ما كانوا يتمتعون به، من لذيذ المآكل والمشارب، ومفاخر الملابس والمراكب، هيهات هيهات، قد انقطعت اللذات، وفنيت الشهوات، وما بقي إلا الحسرات، فتأمل أيها العبد فيما مضى من عمرك، فما بقي في يدك منه إلا ما كان في طاعة مولاك، من ذكرٍ، أو تلاوةٍ، أو صلاةٍ، أو صيام، أو علم نافع، أو تعليم، أو فكرة، أو شهود، وما سوى ذلك بطالة وخسران، فالوقت الذي تصرفه في طاعة مولاك ذخائره موجودة، وكنوزه مَذْخُورة، والوقت الذي تصرفه في هوى نفسك ضائع، تجد حسرته يوم القيامة، ففي الحديث: «ليس يتحسر أهل الجنة إلا على ساعة مضت لهم، لم يذكروا الله تعالى فيها»(1) قال يحيى بن معاذ: أشد الناس عذاباً يوم القيامة من اغتر بحياته والتذَّ بمراداته، وسكن إلى مألوفاته، والله تعالى يقول: ﴿أفرأيت إن متعناهم سنين..﴾. الآية. وعن ميمون بن مهران: أنه لقي الحسن في الطواف، وكان يتمنى لقاءه، فقال له: عِظني، فلم يزده على تلاوة هذه الآية، فقال: لقد وَعظت فأبلغت. وعن عمر ابن عبدالعزيز رضي الله عنه: أنه كان يقرؤها عند جلوسه ليحكم بين الناس. هـ. وبالله التوفيق.

ثم تمم قوله: ﴿وإنه لتنزيل ربِّ العالمين﴾، بقوله:

﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وما تنزلتْ به ﴾؛ بالقرآن، ﴿ الشياطينُ ﴾، رداً لما يزعمه الكفرة من أنه من قبيل ما تلقيه الشياطين على الكهنة، بعد تحقيق الحق فيه، ببيان أنه نزل به الروح الأمين. ﴿ وما ينبغي لهم ﴾ أي: وما يصح وما يستقيم لهم ذلك، ﴿ وما يستطيعون ﴾ إنزاله أصلاً، ﴿ إنهم عن السمع ﴾ أي: عن استراقة السمع من الملائكة ﴿ لمعزولونَ ﴾؛ لممنوعون بالشهب، أو: لانتفاء المشاركة بينهم وبين الملائكة في قبول الاستعداد؛ لفيضان أنوار الحق، والانتعاش بأنوار العلوم الربانية والمعارف القدسية؛ لأن نفوس الشياطين خبيثة

---

(1) أخرجه البيهقي في الشعب (٥١٣) عن معاذ بن جبل، وعزاه السيوطي في الجامع الصغير (ح ٧٧٠١) للطبراني والبيهقي عن معاذ، وحسنه.

ظلمانية شريرة، ليست مستعدة إلا لقبول مالا خير فيه، من فنون الشرور، فمن أين لهم أن يحوموا حول القرآن الكريم، المنطوي على الحقائق الرائقة الغيبية، التي لا يمكن تلقيها إلا من الملائكة الكرام ـ عليهم السلام؟.

﴿ فلا تدعُ مع الله إلهاً آخر ﴾؛ كما هو شأن الأنفس الخبيثة الشيطانية، ﴿ فتكونَ من المعذَّبين ﴾، تهديد لغيره على سبيل التعريض، وتحريك له على زيادة الإخلاص، وتنبيه لسائر المكلفين على أن الإشراك بلغ من القبح والسوء، بحيث ينهى عنه من لا يمكن صدوره منه، فكيف بمن عداه. والله تعالى أعلم.

الإشارة: وحي الإلهام الذي يتنزل على القلوب الصافية من الأغيار، كوحي الأحكام، ما تتنزل به الشياطين، وما ينبغي لهم وما يستطيعون؛ لأنهم ممنوعون من قلوب العارفين؛ لِمَا احتفت به من الأنوار، وما صانها من الأسرار، أعني أنوار التوحيد وأسرار التفريد. وقال في لطائف المنن: إذا كان الحق تعالى حرس السماء من الشياطين بالشُهب، فقلوب أوليائه أولى بأن يحرسها من الأغيار. هـ. بالمعنى. فلا تدع مع الله إلهاً آخر، وهو ما سوى الله، فتكون من المعذبين بوساوس الشياطين والخواطر والشكوك؛ لأن القلب إذا مال إلى غير الله سلط الله عليه الشيطان، فيكون ذلك القلب جراباً للشيطان، يحشو فيه ما يشاء. والعياذ بالله.

ثم أمر نبيه بالإنذار والتذكير، فقال:

﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾
فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ
تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وأنذرْ ﴾ يا محمد ﴿ عشيرتَك الأقربين ﴾، إنما خصهم بالذكر؛ لئلا يتكلوا على النسب، فيدعُوا مايجب عليهم، لأن من الواجبات مالايشفع فيها، بقوله في تارك الزكاة وقد استغاث به: «لا أملك لك من الله شيئاً»، وفي الغالّ كذلك. وقيل: إنما خصهم لنفي التهمة؛ إذ الإنسان يساهل قرابته، وليعلموا أنه لا يغني عنهم من الله شيئاً؛ إذ النجاة في اتباعه، لا في قربه منهم.

ولما نزلت صعد النبي ﷺ الصفا، ونادى الأقربَ فالأقرب، وقال: «يابَني عبد المطلب، يا بني هاشم، يا بني عبد مناف، ياعباسُ ـ عم النبي ﷺ ـ يا صفيةُ ـ عمةَ النبي ﷺ؛ لا أملكُ لكم من الله شيئاً»(١). وقال ابن عباس

(١) أخرجه بنحوه البخاري (تفسير سورة الشعراء، باب: وأنذر عشيرتك الأقربين ح ٤٧٧١)، ومسلم في (الإيمان، باب قوله تعالى: ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾، ١/١٩٢، ح ٣٤٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: صَعَدَ النبي ﷺ الصَّفا، ونادى: «ياصباحَاه»: فاجتمع الناس، فقال ﷺ: «يا بنى عبد المطلب، يابنى فهر، إنْ أخبرتُكمْ أن خيْلاً بسفْحِ هذا الجبَل، تريد أن تُغير عليكم، صدقْتُمونى؟ قالوا: نَعَمْ. قال: فإنى نذير لكم بين يَدَىْ عذَابٍ شديدٍ. فقال أبو لهب: تباً لك سائر اليوم، ما جمعتنا إلا لهذا»؟ فنزلت: ﴿تبت يدا أبى لهب﴾(١).

ثم قال: ﴿واخفضْ جناحك﴾ أى: وألنْ جانبك وتواضعْ، وأصله: أن الطائر إذا أراد أن ينحط للوقوع كسر جناحه وخفضه، وإذا أراد أن ينهض للطيران رفع جناحه، فجعل خفض الجناح مثلا فى التواضع ولين الجانب. ويكون ذلك التواضع ﴿لِمَنِ اتبعك من المؤمنين﴾ من قرابتك وغيرهم. ﴿فإن عَصَوْكَ فقل إنى برىءٌ مما تعملون﴾ أى: أنذر قومك؛ فإن اتبعوك وأطاعوك فاخفض لهم جناحك، وإن عصوك ولم يتبعوك فتبرأ منهم، ومن أعمالهم؛ من الشرك وغيره.

﴿وتوكَّلْ على العزيز الرحيم﴾ أى: على الذى يقهر أعداءك بعزته، وينصرك عليهم برحمته، فإنه يكفيك شر من يعاديك. ﴿الذى يراك حين تقومُ﴾ للتهجد، ﴿و﴾ يرى ﴿تقلُّبَكَ فى الساجدين﴾؛ فى المصلين. أتبع كونه رحيمًا برسوله ما هو من أسباب الرحمة، وهو ذكر ما كان يفعله فى جوف الليل، من قيامه للتهجد، وتقلبه فى تصفح أحوال المُتَهَجِّدِينَ، ليطلع عليهم من حيث لا يشعرون. وقيل: معناه: ويراك حين تقوم للصلاة بالناس جماعة، وتقلبك فى الساجدين: تصرفه فيما بينهم، بقيامه وركوعه وسجوده وقعوده إذا أمهم. وعن مقاتل: أنه سأل أبا حنيفة: هل تجد الصلاة بالجماعة فى القرآن؟ فقال: لا يحضرنى، فتلا له هذه الآية. وقيل: تقلبه فى أصلاب الرجال. ورُوى عنه ﷺ فى الآية أنه قال: «من نبى إلى نبى حتى أخرجتك نبيا»(٢).

﴿إنه هو السميعُ﴾ لما تقول، ﴿العليمُ﴾ بما تنويه وتعمله. هوّنَ عليه مشاقّ العبادة، حيث أخبره برؤيته له، إذ لا مشقّة على من يعلَم أنه يعمل بمرأى من مولاه، وهو كقوله فى الحديث القدسى: «بعينى ما يتحمل المتحملون من أجلى». والله تعالى أعلم.

الإشارة: ينبغى لمن أُهِّلَ للوعظ والتذكير أن يبدأ بالأقرب فالأقرب، ولو علم أنه لا ينتفع به إلا النزر القليل. فمن تبعه على مذهبه فَلْيَلِنْ له جانبه وليتواضع له، ومن أعرض عنه واشتغل بهواه فليتبرأ من فعله، ولا ييأس من نصحه، ولذلك قال تعالى: ﴿فإن عصوك فقل إنى برىءٌ مما تعملون﴾، ولم يقل: «منكم». وهذا مذهب الجمهور،

---

(١) أخرجه البخارى فى الموضع السابق ذكره (ح ٤٧٧٠) و(تفسير سورة «تبت يدا أبى لهب وتب»)، ومسلم فى الموضع السابق ذكره (١/ ١٩٣ - ١٩٤ ح٣٥٥).

(٢) انظر تفسير الطبرى (١٩/ ١٢٣ - ١٢٤) وتفسير البغوى (٦/ ١٣٤).

وأن الأخ إذا زلّ إنما يُبغض عمله فقط. وعن بعض الصحابة ـ وقد قيل له في أخيه، فقال: إنما أبغض عمله، وإلا فهو أخي، وذُكر مثل ذلك عن أبي الدرداء. وأن الأخ في الله لا يُبغض لزلته، ولا يترك لشيء من الأشياء، وإنما يبغض عمله، ووافقه على ذلك سلمان، وتابعهما عمر، وخالف في ذلك أبو ذر، فقال: إذا وقعت المخالفة، وانقلب عما كان عليه، فأبْغِضْهُ مِنْ حَيْثُ أحببته.

قال صاحب القوت: وأبو ذر صاحب شدائد وعزائم، وهذا من عزائمه وشدائده. هـ. وهذا في المؤمن بدليل قول أبي الدرداء: الأخ في الله لا يبغض لزلة. وأما الكافر فصريح آياته: ﴿إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾(١)، ونحوها. وحديث ابن عمر وتبرئه من نفاة القدر ـ كما في مسلم ـ موجب للبراءة، وليس لكون حكم الأصول أشد من الفروع. وذكر في الإحياء تأكيد الإعراض عمن يتعدى أذاه لغيره؛ بظلم، أو غصب، أو غيبة، أو نميمة، أو شهادة زور؛ لأن المعصية شديدة فيما يرجع لأذى الخلق. هـ من الحاشية.

قوله تعالى: ﴿فتوكل على العزيز الرحيم﴾، قيل: التوكل: تفويض الرجل أمره إلى من يملك أمره، ويقدر على نفعه وضره، وهو الله وحده، والمتوكل من إذا دهمه أمرٌ لم يحاولْ دفعه عن نفسه بما هو معصية. وقال الجنيد رضي الله عنه: التوكل أن تُقبل بالكلية على ربك، وتُعرض بالكلية عمن دونه؛ فإنَّ حاجتك إنما هي إليه في الدارين. هـ.

قال القشيري: ﴿وتقلبك في الساجدين﴾ من أصحابك، ويقال: تقلبك في أصلاب آبائك من المسلمين، الذين عرفوا الله، فسجدوا له، دون من لم يعرفه. هـ. وفي القوت: قيل: وتقلبك في أصلاب الأنبياء ـ عليهم السلام، يقلبك في صلب نبي بعد نبي، حتى أخرجك من ذرية إسماعيل، وروينا معنى ذلك عن رسول الله ﷺ، والحاصل: أنه من ذرية الأنبياء والمؤمنين الساجدين في الجملة، ولا يقتضي كل فرد من الأفراد. هـ.

ثم كمل قوله: ﴿وما تنزلت به الشياطين﴾، فقال:

﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانتَصَرُوا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾ ﴾

(١) من الآية ٤ من سورة الممتحنة.

قلت: «أىّ منقلب»: مفعول مطلق لينقلبون، والأصل: ينقلبون أىّ انقلاب، وليست «أيا»: مفعول «يعلم»؛ لأن الاستفهام لا يعمل فيه ماقبله. وجملة: «ينقلبون»: مُعَلّقٌ عنها العاملُ، فهى فى محل نصب؛ على قاعدة التعليق، فإنه فى اللفظ دون المحل.

يقول الحق جل جلاله: ﴿هل أُنَبِّئُكم﴾ أى: أخبركم أيها المشركون ﴿على من تَنَزَّلُ الشياطينُ﴾، ودخل حرف الجار على «من» الاستفهامية؛ لأنها ليست للاستفهام بالأصالة. ثم أخبرهم، فقال: ﴿تنزّل على كل أفّاك﴾: كثير الإفك، وهو الكذب، ﴿أثيم﴾؛ كثير الإثم، وهم الكهنة والمتنبئة، كشق وسطيح ومسيلمة. وحيث كانت حالة رسول الله ﷺ منزهة أن يحوم حولها شيء من ذلك، اتضح استحالة تنزلهم عليه ﷺ.

﴿يُلْقُون السمعَ﴾ وهم الشياطين، كانوا، قبل أن يُحجبوا بالرجم، يُلقون أسْماعهم إلى الملأ الأعلى، فيختطفون بعض ما يتكلمون به، مما اطلعوا عليه من الغيوب، ثم يُوحون به إلى أوليائهم. ﴿وأكثرهم كاذبون﴾ فيما يوحون به إليهم؛ لأنهم يسمعونهم مالم يسمعوا. وفى الحديث: «إنهم يخلطون مع ما سمعوا مائة كذبة»(١)، فلذلك يُخطئون ويُصيبون، وقيل: يلقون إلى أوليائهم السمعَ، أى: المسموع من الملائكة. وقيل: الأفاكون يلقون السمع إلى الشياطين، ثم يبلغون ما يسمعون منهم إلى الناس، ﴿وأكثرهُم﴾ أى: الأفاكون ﴿كاذبون﴾: مفترون على الشياطين مالم يوحوا إليهم. والأفّاك: الذى يكثر الإفك، ولا يدلّ على أنهم لا ينطقون إلا بالإفك، فأراد أن هؤلاء الأفاكين قلّ من يصدُق منهم فيما يحكيه عن الجِنّةِ.

ولما ذكر الكهنة ذكر الشعراء وحالهم؛ لينبه على بُعد كلامهم من كلام القرآن، فينتفى كونه كهانة وشعراً، كما قيل فيه، فقال: ﴿والشعراءُ يتّبِعُهم الغاوون﴾: مبتدأ وخبر، أى: لا يتبعهم على باطلهم إلا الغاوون، فإنهم يصغون إلى باطلهم وكذبهم، وتمزيق الأعراض والقدح فى الأنساب، ومدح من لا يستحق المدح، وهجاء من لايستحق الهجو، ولا يستحسن ذلك منهم ﴿إلا الغاوون﴾، أى: السفهاء، أو الضالون عن طريق الرشد، الحائرون فيما يفعلون ويذرون، لايستمرون على وتيرة واحدة فيما يقولون ويفعلون، بخلاف غيرهم من أهل الرشد، المهتدون إلى طريق الحق، الثابتين عليه.

---

(١) أخرجه البخارى فى (الطب، باب الكهانة، ح٥٧٦٢) وفى (التوحيد، باب قراءة الفاجر والمنافق، ح٧٥٦١)، ومسلم فى (السلام، باب تحريم الكهانة، ٤/ ١٧٥٠، ح٢٢٢٨)، عن السيدة عائشة، ولفظه: «.. تلك الكلمة من الحق يخطفها الجنىُّ، فيقرها فى أذن وليّه، فيخلطون معها مائة كذبة».

﴿ ألم ترَ أنهم ﴾ أى: الشعراء ﴿ فى كل وادٍ ﴾ من الكلام ﴿ يَهيمُونَ ﴾، أو: فى كل فن من الإفك يتحدثون، أو: فى كل لغو وباطل يخوضون. والهائم: الذاهب على وجهه لامقصد له، وهو تمثيل لذهابهم فى كل شِعْبٍ من القول، وهو استشهاد على أن الشعراء إنما يتبعهم الغاوون وتقرير له، والخطاب لكل من تتأتى منه الرؤية، للقصد إلى أن حالهم من الجلاء والظهور بحيث لا تختص به رؤية راء دون الآخر، أى: ألم تر أن الشعراء فى كل وادٍ من أودية القيل والقال، وفى كل شِعْبٍ من الوهم والخيال؛ وفى كل مسلك من مسالك الغى والضلال، يهيمون.

﴿ وأنهم يقولون مالايفعلون ﴾ من الأفاعيل، غير مبالين بما يستتبعه من اللوم، فكيف يتوهم أن ينتظم فى سلكهم من تنزهت ساحته عن أن تحوم حوله شائبةُ الاتصافِ بشىء من الأمور المذكورة، واتصف بمحاسن الصفات الجليلة، والأخلاق الحميدة، مستقراً على المنهاج القويم، مستمراً على الصراط المستقيم، ناطقاً بكل أمر رشيد، داعياً إلى صراط العزيز الحميد، مؤيداً بمعجزة قاهرة، وآيات ظاهرة، مشحونة بفنون من الحِكَم الباهرة، وصنوف المعارف الزاخرة، مستقل بنظم رائق، أعجز كل مِنْطِيقٍ ماهر، وبكت كل مُفْلِقٍ ساحر.

هذا وقد قيل فى تنزيهه ﷺ عن أن يكون من الشعراء: أن أتباع الشعراء الغاوون، وأتباع محمد ﷺ ليسوا كذلك، ولا ريب فى أن تعليل عدم كونه ﷺ منهم بكون أتباعه ﷺ غير غاوين مما لا يليق بشأنه العلى. هـ. قاله أبو السعود.

ثم استثنى الشعراء المؤمنين، فقال: ﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾؛ كعبد الله بن رواحة، وحسّان، وكعب بن زهير، وكعب بن مالك. ﴿ وذكروا الله كثيراً ﴾ أى: كان ذكر الله وتلاوة القرآن أغلب عليهم من الشعر، وإذا قالوا الشعر قالوا فى توحيد الله والثناء عليه، والحكمة والموعظة، والزهد والأدب، ومدح الرسول ﷺ والأولياء.

وأحق الخلق بالهجاء من كَذَّبَ رسولَ الله ﷺ وهجاه. وعن كعب بن مالك: أن رسول ﷺ قال: «اُهْجُهُمْ، فَوَالذِى نَفْسِى بِيَدِهِ لَهو أشدُ عليْهِمْ مِن رَشْقِ النَّبْلِ»(١)، وكان يقول لحسّان: «قل، وروح القدس معك»(٢).

(١) أخرجه الإمام أحمد فى المسند (٣/٤٥٦، ٤٦٠)، والبيهقى فى السنن (١٠/٢٣٩)، وعبدالرزاق فى المصنف (كتاب الجامع، باب الشعر والرجز ١١/٢٦٣)، وصححه ابن حبّان (موارد الظمآن/ ٤٩٤) ولفظه: أنه قال للنبى ﷺ: إن الله قد أنزل فى الشعر ما أنزل، فقال ﷺ: «إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه، والذى نفسى بيده لكأن ما ترمونهم به نضح النبل»، وأخرج مسلم فى (فضائل الصحابة، باب فضل حسان بن ثابت، ٤/١٩٣٥، ح ٢٤٩٠)، من حديث السيدة عائشة: «اهجوا قريشاً؛ فإنه أشد عليهم من رشق النبال».

(٢) أخرجه البخارى فى (المغازى، مرجع النبى محمد من الأحزاب، ح ٤١٢٣، ٤١٢٤). ومسلم فى (فضائل الصحابة، باب فضائل حسان ابن ثابت رضي الله عنه، ٤/١٩٣٣، ح٢٤٨٦). من حديث البراء بن عازب. ولفظه: «اهجهم، أو هاجِهم، وجبريل معك».

﴿ وانتصروا من بعد ما ظُلِمُوا ﴾ أى: ردوا على المشركين، الذين هجوا النبى ﷺ والمؤمنين. وروى أنه لما نزلت الآية: جاء حسان، وكعب بن مالك، وعبد الله بن رواحة، يبكون، فقالوا: يا رسول الله: أنزل الله تعالى هذه الآية، وهو يعلم أنا شعراء؟ فقال: «اقرءوا ما بعدها: ﴿إلا الذين آمنوا..﴾ هم أنتم وانتصروا، هم أنتم»».

ومرّ عمر رضي الله عنه وحسان رضي الله عنه ينشد الشعر فى المسجد، فلَحَظَ إليه، فقال: كنتُ أُنشِدُ فيه، وفيه من هو خير منك، ثم التفت إلى أبى هريرة، فقال: أَنْشُدُكَ بالله، أسمعت النبى ﷺ يقول: «أجبْ عنى، اللهم أيِّدْه بروح القدس» قال: اللهم نعم(١).

﴿ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾؛ أى مرجع يرجعون إليه، وهو تهديد شديد، ووعيد أكيد؛ لما فى ﴿سيعلم﴾ من تهويل متَعَلَّقِه، وفى ﴿الذين ظلموا﴾ من الإطلاق والتعميم. وفى ﴿أى منقلب ينقلبون﴾ من الإيهام والتهويل. وتلاها أبو بكر لعمر رضي الله عنه حين عهد إليه، وكان السلف يتواعظون بها. والمعنى: سيعلم أهل الظلم ماتكون عاقبتهم، حين يقدمون علىّ، وأىّ منقلب ينقلبون، حين يفدون إلىّ. اللهم ثبت أقدامنا على المنهاج القويم، حتى نلقاك يا أرحم الراحمين.

الإشارة: هل أنبئكم على قَلْبِ مَنْ تَنَزَّلَتْ الشياطينُ، وسكنت فيه، تنزل على قلب كل أفاك أثيم، خارب من النور، محشو بالوسواس والخواطر، يلقون السمع إلى هرج الدنيا وأخبارها، وهو سبب فتنتها؛ فإن القلب إذا غاب عن أخبار الدنيا وأهلها، سكن فيه النور وتَأَنَّسَ بالله، وإذا سكن إلى أخبار الدنيا وأهلها سكنت فيه الظلمة، وتأنس بالخلق، وغاب عن الحق. ولذلك قيل: ينبغى للمؤمن أن يكون كالفكرون؛ إذا كان وحده انبسط، وإذا رأى أحداً أدخل رأسه معه. وأكثر مايسمع من هرج الدنيا كذب، وإليه الإشارة بقوله: ﴿وأكثرهم كاذبون﴾، ومن جملة ما يفسد القلب: تولهه بالشعر، وفى الحديث: «لأنْ يمتلئَ جوفُ أحدِكم قَيْحاً خيرٌ له من أن يَمْتَلِئَ شِعْراً»(٢). أو كما قال ﷺ، إلا من كان شعره فى توحيد الله، أو فى الطريق، كالزهد فى الدنيا، والترهيب من الركون إليها، والزجر عن الاغترار بزخارفها الغرارة، والافتتان بملاذها الفانية، وغير ذلك، أو فى مدح النبى ﷺ، والمشايخ الموصلين إليه تعالى، بشرط أن يكون الغالب عليه ذكر الله.

---

(١) أخرجه البخارى فى (الصلاة، باب الشعر فى المسجد ح٤٥٣) ومسلم فى (فضائل الصحابة، باب فضائل حسان ٤/١٩٣٢ - ١٩٣٣ ح٢٤٨٥) من حديث أبى هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخارى فى (الأدب، باب ما يكره أن يكون الغالبُ على الإنسان الشعر حتى يَصُدَّه عن ذكر الله، والعلم، والقرآن ح٦١٥٥)، ومسلم فى (كتاب الشعر، ٤/١٧٦٩، ح ٢٢٥٧)، من حديث أبى هريرة.

وقوله تعالى: ﴿ وانتصروا من بعدما ظلموا ﴾ ، أي: جاروا على نفوسهم بعدما جارت عليهم، وقهروها بعد ما قَهَرَتْهُمْ. ﴿ وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون ﴾ قال ابن عطاء: سيعلم المعرض عنا ما فاته منا . هـ. وفي الحكم: «ماذا فقد مَنْ وَجَدَكَ، وما الذي وجد مَنْ فَقَدَكَ؟ لقد خاب من رضي دونك بدلا، ولقد خسر من بغي عنك مُتَحَوَّلاً، كيف يُرْجَى سِوَاك وأنت ماقَطَعْتَ الإحسانَ، أم كيف يطلب من غيرك وأنت مابدلت عادة الامتنان؟»[1] وبالله التوفيق، وهو الهادي إلى سواء الطريق، وصلى الله على سيدنا محمد وآله.

❁ ❁ ❁

(١) انظر الحكم بتبويب المتقي الهندي (المناجاة / ٤٢).

سورة النمل

مكية. وهي ثلاث وتسعون آية. وقيل: أقل. ومناسبتها لما قبلها: قوله: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[1] إلى ما قرره من نفي تنزل الشياطين به، مع ما افتتح به السورة، من الإشارة إليه بقوله: ﴿تلك آيات القرآن﴾. ثم افتتح السورة برموز بينه وبين حبيبه، على عادته، فقال:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ طسٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٥﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿طسٓ﴾ أي: يا طاهر يا سيد. قال ابن عباس: هو اسم من أسماء الله تعالى،[2]، أقسم به أن هذه السورة آياتها القرآن وكتاب مبين. قلت: ولعلها مختصرة من اسمه «اللطيف والسميع». وقيل: إشارة إلى طهارة سر حبيبه. ﴿تلك آياتُ القرآن﴾، الإشارة إلى نفس السورة، وما في معنى الإشارة من معنى البُعد، مع قرب العهد بالمشار إليه، للإيذان ببُعد منزلته في الفضل والشرف، أي: تلك السورة الكريمة التي نتلوها عليك هي آيات القرآن، المعروف بعلو الشأن. ﴿و﴾ آيات ﴿كتاب﴾ عظيم الشأن ﴿مُبين﴾؛ مظهر بما في تضاعيفه من الحِكَم، والأحكام، وأحوال الآخرة، أو: مبين: مُفرق بين الرشد والغي، والحلال والحرام، أو: ظاهر الإعجاز، على أنه من: أبان، بمعنى بان، وعطفه على القرآن كعطف إحدى الصفتين على الأخرى، نحو: هذا فعل السخي والجواد.

ونكّر الكتاب ليكون أفخم له. وقيل: إنما نكّر الكتاب وعرّفه في الحِجْر[3]، وعرّف القرآن ونكره في الحِجْر؛ لأن القرآن والكتاب اسمان علمان على المنزّل على محمد ﷺ، ووصفان له؛ لأنه يُقرأ ويكتب، فحيث جاء بلفظ التعريف فهو العلم، وحيث جاء بلفظ التنكير فهو الوصف. قاله النسفي.

---

(١) الآية ١٩٢ من سورة الشعراء. (٢) ذكره البغوي في تفسيره (٦/١٤٣).

(٣) في قوله تعالى: ﴿الَر تلك آيات الكتاب وقرآن مبين﴾ الآية الأولى.

وما قيل من أن الكتاب هو اللوح المحفوظ، وإبانته أنه خُطَّ فيه ما هو كائن، لا يساعده إضافة الآيات إليه. والوصف بالهداية والبشارة في قوله: ﴿ هُدىً وبُشرى للمؤمنين ﴾ أي: حال كون تلك الآيات هادية ومبشرة للمؤمنين، فهما منصوبان على الحال، من الآيات، على أنهما مصدران بمعنى الفاعل؛ للمبالغة، كأنهما نفس الهداية والبشارة، والعامل فيها ما في «تلك» من معنى الإشارة، أو: خبر، أي: هي هدى وبشرى للمؤمنين خاصة؛ إذ لاهداية لغيرهم بها.

﴿ الذين يقيمون الصلاة ﴾؛ يُديمون على إقامة فرائضها وسننها، ويحافظون على خشوعها وإتقانها، ﴿ ويُؤتون الزكاة ﴾ أي: يؤدون زكاة أموالهم، ﴿ وهم بالآخرة هم يُوقنون ﴾ حق الإيقان. إما من جملة الموصول، وإما استئناف، كأنه قيل: هؤلاء الذين يؤمنون ويعملون الصالحات هم الموقنون بالآخرة حق الإيقان، لا من عداهم؛ لأن من تحمل مشاق العبادات، إنما يكون لخوف العقاب، ورجاء الثواب، أولاً، ثم عبودية آخراً، لمن كمل إخلاصه.

ثم ذكر ضدهم، فقال: ﴿ إنَّ الذين لا يؤمنون بالآخرة ﴾ أي: لا يُصدِّقون بها، وبما فيها من الثواب والعقاب، ﴿ زيَّنَّا لهم أعمالهم ﴾ الخبيثة، حيث جعلناها مشتهية للطبع، محبوبة للنفس، حتى رأوها حسنة، كقوله: ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا ﴾(١)، ﴿ فهم يَعْمَهُونَ ﴾؛ يترددون في ضلالتهم. كما يكون حال الضال عن الطريق. ﴿ أولئك الذين لهم سوءُ العذابِ ﴾ في الدنيا بالقتل والأسر يوم بدر، ﴿ وهم في الآخرة هم الأخسرون ﴾؛ أشدّ الناس خسراناً؛ لأنهم لو آمنوا لكانوا من أكرم الناس، شهداء على جميع الأمم يوم القيامة، فخسروا ذلك مع خسران ثواب الله والنظر إليه. عائذاً بالله من جميع ذلك.

الإشارة: طسَ: طهر سرك أيها الإنسان، لتكون من أهل العيان، طهر سرك من الأغيار لتشاهد سر الأسرار، وحينئذ تذوق أسرار القرآن والكتاب المبين، وتصير هداية وبشارة للمؤمنين. فإنَّ من قرأ القرآن وعمل به فقد أدرج النبوة بين كتفيه، كما في الخبر(٢). ثم ذكر من امتلأ قلبه بالأكدار فقال: ﴿إن الذين لا يؤمنون بالآخرة...﴾ إلخ، قال القشيري: أغشيناهم فهم لا يُبصرون، وعمَّيْنَا عليهم المسالك، فهم عن الطريقة المُثْلَى يَصدون. أولئك الذين في ضلالتهم يعمهون، وفي حيرتهم يترددون. ﴿أولئك الذين لهم سوء العذاب﴾ هو أن يجد الألم ولا يجد شهود المُبْتَلِي(٣)، ولو وجدوه تحمل عنهم ثِقَله، بخلاف المؤمنين.هـ.

(١) من الآية ٨ من سورة فاطر.

(٢) جاء ذلك فيما أخرجه الحاكم، وصححه، ووافقه الذهبي (١/٥٥٢) عن عبد الله بن عمرو ـ رضي الله عنهما ـ أن رسول الله ﷺ قال: «من قرأ القرآن فقد استدرج النبوة بين جنبيه، غير أنه لا يوحى إليه..» الحديث.

(٣) في القشيري: يجد الآلام ولا يجد التسلّي.

ثم ذكر الحق تعالى كيفية نزول القرآن، الذى تقدم ذكره، فقال:

﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾ ﴾

قلت: (تُلقّى): مبنى للمفعول. والفاعل هو الله؛ لدلالة ما تقدم عليه، من قوله: ﴿وإنه لتنزيل رب العالمين﴾. و(لقى): يتعدى إلى واحد، وبالتضعيف إلى اثنين. وكأنه كان غائباً فلقيه، فالمفعول الأول صار نائباً. و«القرآن»: مفعول ثان، أى: وإنك ليلقيك الله القرآن.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وإنك﴾ يا محمد ﴿لَتُلَقَّى القرآنَ﴾ أى: لتؤتاه بطريق التلقية والتلقين ﴿من لَدُنْ حكيمٍ عليمٍ﴾ أى: من عند أىّ حكيم وأىّ عليم، فالتنكير للتفخيم. وفى تفخيمه تفخيم لشأن القرآن. وتنصيص على علو طبقته ـ عليه الصلاة والسلام ـ فى معرفته، والإحاطة بما فيه من العلوم والحِكَم والأسرار، فإن من تلقى العلوم والحِكَم من الحكيم العليم يكون علَماً فى إتقان العلوم والحِكَم. والجمع بينهما مع دخول العلم فى الحكمة؛ لعموم العلم، ودلالة الحكمة على إتقان الفعل، والإشعار بأن ما فى القرآن من العلوم، منها ماهو حكمة، كالعقائد والشرائع، ومنها ماليس كذلك، كالقصص والأخبار الغيبية. قاله أبو السعود.

قال ابن عطية: فى الآية رد على كفار قريش فى قولهم: القرآن من تلقاء محمد. وقال القرطبى: الآية تمهيد لما يريد أن يسوق من الأقاصيص، وما فى ذلك من لطائف حكمته ودقائق علمه، ومن آثار ذلك: قصة موسى ﴿إذ قال لأهله...﴾ الخ.هـ.

الإشارة: قال أبو بكر بن طاهر: وإنك لتَلَقَّى القرآن من الحق حقيقية، وإن كنت تأخذه فى الظاهر عن واسطة جبريل عليه السلام. قال تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾(١) هـ. قلت: العارفون بالله لا يسمعون القرآن إلا من لَدُنْ حكيم عليم، بلا واسطة، الواسطة محذوفة فى نظرهم، فهم يسمعون من الله إلى الله، ويقرأون بالله على الله، كما قال القائل: أنا بالله أنطق، ومن الله أسمع. ومما يحقق لك حذف الواسطة: قوله تعالى: ﴿فإذا قرأناه فاتبع قرآنه﴾(٢) وسمعت شيخى البوزيدى رضي الله عنه، يقول: لا يكون الإنسان من الراسخين فى العلم حتى يقرأ كله وهو مجموع فيه، أى: يقرأ بالله ويسمعه من الله. والله تعالى أعلم.

(١) الآيتان: ١ ـ ٢ من سورة الرحمن. (٢) الآية ٢٨ من سورة القيامة.

ثم شرع فى قصص الأنبياء، تسلية لرسوله ﷺ، فقال:

﴿ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨﴾ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَـٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: واذكر ﴿إذْ قال موسى لأهله﴾؛ زوجته ومن معه، عند مسيره من مدْين إلى مصر: ﴿إنى آنستُ﴾ أى: أبصرتُ ﴿ناراً، سآتيكم منها بخبرٍ﴾ عن حال الطريق التى ضل عنها. والسين للدلالة على نوع بُعد فى المسافة، وتأكيد الوعد. ﴿أو آتيكم بشهابِ[1] قبَسٍ﴾ أى: شعلة نار مقبوسة، أى: مأخوذة. ومن نوّن فبدل، أو صفة، وعلى القراءتين فالمراد: تعيين المقصود الذى هو القبس، الجامع لمنفعتى الضياء والاصطلاء؛ لأن من النار ما ليس بقبس، كالجمرة. وكلتا العِدتين منه عليه السلام بطريق الظن، كما يفصح عن ذلك ما فى سورة طه، من صيغتى الترجى والترديد[2]؛ لأن الراجى إذا قوى رجاؤه يقول: سأفعل كذا، وسيكون كذا، مع تجويزه التخلف. وأتى بأو؛ لأنه بنى الرجاء على أنه إن لم يظفر بحاجتيه معاً لم يعدم واحدة منهما، إما هداية الطريق، وإما اقتباس النار، ولم يدر أنه ظافر بحاجته الكبرى، وهى عزّ الدنيا والآخرة.

واختلاف الألفاظ فى هاتين السورتين، والقصة واحدة، دليل على نقل الحديث بالمعنى، وجواز النكاح بغير لفظ النكاح والتزويج. قاله النسفى.

﴿لعلكم تَصْطَلُون﴾؛ تستدفئون بالنار من البرد إذا أصابكم.

﴿فلما جاءها﴾ أى: النار التى أبصرها ﴿نُودِىَ﴾ من جانب الطور ﴿أن بُورِكَ﴾، على أنّ «أنْ» مفسرة؛ لما فى النداء من معنى القول. أو: بأن بورك، على أنها مصدرية، وقيل: مخففة، ولا ضرر فى فُقدان الفصل بـ «لا»،

(١) قرأ عاصم، وحمزة، والكسائى، ويعقوب، وخلف (بشهابٍ) بالتنوين، على القطع عن الإضافة، و«قبس» بدل منه، أو: صفة له، بمعنى مقتبس، أو مقبوس. وقرأ الباقون بغير تنوين، لبيان النوع. أى من قبس، كخاتم فضة. انظر الإتحاف (٢/٣٢٣).

(٢) فى قوله تعالى: ﴿.. لعلى آتيكم منها بقبسٍ أو أجد على النار هدى﴾ الآية ١٠ من سورة طه.

أو قد، أو السين، أو سوف؛ لأن الدعاء يخالف غيره في كثير من الأحكام، أي: أنه، أي: الأمر والشأن ﴿ بُورِكَ ﴾ أي: قدّس، أو: جعل فيه البركة والخير، ﴿ مَن فِي النار ومَنْ حولها ﴾ أي: من في مكان النار، وهم الملائكة، ﴿ومَنْ حولها﴾ أي: موسى عليه السلام، بإنزال الوحي عليه، الذي فيه خير الدنيا والآخرة.

وقال ابن عباس والحسن: (بورك من في النار أي: قُدِّس من في النار، وهو الله تعالى)(١) أي: نوره وسره، الذي قامت به الأشياء، من باب قيام المعاني بالأواني، أو: من قيام أسرار الذات بالأشياء، بمعنى أنه نادى موسى منها وسمع كلامه من جهتها، ثم نزّه ـ سبحانه ـ ذاته المقدسة عن الحلول والاتحاد، فقال: ﴿ وسبحانَ اللهِ ﴾ أي: تنزيهاً له عن الحلول في شيء، وهو ﴿ ربِّ العالمين ﴾.

ثم فسر نداءه، فقال: ﴿ يا موسى إنه ﴾ أي: الأمر والشأن ﴿ أنا الله العزيزُ الحكيم ﴾ أو: إنه، أي: مكلمك، الله العزيز الحكيم، وهو تمهيد لما أراد أن يظهر على يديه من المعجزات. ﴿ وألقِ عصاك ﴾ لتعلم معجزتها، فتأنس بها، وهو عطف على (بُورك) أي: نودي أن بورك وأنْ ألق عصاك. والمعنى: قيل له: بورك من في النار، وقيل له: ألقِ عصاك، ﴿ فلما رآها تهتزُّ ﴾؛ تتحرك يميناً وشمالاً، ﴿ كأنها جانٌّ ﴾؛ حية صغيرة ﴿ ولّى ﴾ موسى ﴿ مُدْبِراً ﴾ أي: أدبر عنها، وجعلها تلي ظهره، خوفاً من وثوب الحية عليه، ﴿ ولم يُعقّبْ ﴾؛ لم يرجع على عقبيه، من: عقّب المقاتل: إذا كرّ بعد الفر. والخوف من الشيء المكروه أمر طبيعي، لا يتخلف، وليس في طوق البشر.

قال له تعالى: ﴿ يا موسى لا تخفْ ﴾ من غيري، ثقة بي، أو: لا تخف مطلقاً ﴿ إني لا يخاف لَدَيَّ المرسلون ﴾ أي: لا يخاف المرسلون عند خطابي إياهم، فإنهم مستغرقون في شهود الحق، لا يخطر ببالهم خوف ولا غيره. وأما في غير أحوال الوحي؛ فهم أشد الناس خوفاً منه سبحانه، أو: لا يخافون من غيري، لأنهم لديَّ في حفظي ورعايتي. ﴿ إلا من ظَلَمَ ﴾ أي: لكن من ظلم مِن غيرهم؛ لأن الأنبياء لا يَظلمون قط، فهو استثناء منقطع، استدرك به ما عسى يختلج في العقل، من نفي الخوف عن كلهم، مع أن منهم من فرطت منه صغيرة مما يجوز صدوره عن الأنبياء ـ عليهم السلام ـ كما فرط من آدم، وموسى، وداود، وسليمان ـ عليهم السلام ـ فحسنات الأبرار سيئات المقربين. وقد قصد به التعريض بما وقع من موسى ـ عليه السلام ـ من وكزه القبطيّ. وسماها ظلماً، كقوله عليه السلام في سورة القصص:﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ ﴾(٢).

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١٩/١٣٣).
(٢) من الآية ١٦ من سورة القصص.

قال في الحاشية الفاسية: والظاهر في الاستثناء كونه متصلاً، وأطلق الظلم باعتبار منصب النبوة، واشفاقهم مما لا يشفق منه غيرهم، كما اتفق لموسى في مدافعة القبطي عن الإسرائيلي ، مع أن إغاثة المظلوم مشروعة عموماً، ولكن لمّا لم يُؤذَن له خصوصاً عُد ذلك ظلمًا وذنباً. وأما ما سرى من القتل فلم يقصده، وإنما اتفق من غير قصد.هـ.

قوله: ﴿ثم بدّلَ حُسْنًا بعدَ سُوءٍ﴾ أي: أتبع زلته حسنة محلها، كالتوبة وشبهها، ﴿فإني غفور رحيمٌ﴾ أقبل توبته، وأغفر حوبته، وأرحمه، فأحقق أمنيّته. والله تعالى أعلم.

الإشارة: تقدم بعض إشارة الآية في سورة طه(1). وقوله تعالى: ﴿أن بورك من في النار....﴾ تقدم قول ابن عباس وغيره: أن المراد بمن في النار: نور الحق تعالى. قال بعض العلماء: كانت النار نوره تعالى، وإنما ذكره بلفظ النار؛ لأن موسى حسبه ناراً، والعرب تضع أحدهما موضع الآخر.هـ. ومنه حديث: «حجابُه النار، لو كشفه لأحرقت سُبُحاتُ وجهه كلَّ شيء أدركه بصره»(2)، أي: حجابه النور الذي تجلى به في مظاهر خلقه، فالأواني حجب للمعاني، والمعاني هي أنوار الملكوت، الساترة لأسرار الجبروت، السارية في الأشياء.

وقال سعيد بن جبير: (هي النار بعينها)(3)، وهي إحدى حجب الله تعالى. ثم استدل بالحديث: «حجابه النار» ومعنى كلامه: أن الله تعالى احتجت في مظاهر تجلياته، وهي كثيرة، ومن جملتها النار، فهي إحدى الحجب التي احتجب الحق تعالى بها، وإليه أشار ابن وفا بقوله:

هــو النـــورُ المحـــيط بـــكل كَـــون

ولا يفهم هذا إلا أهل الفناء في الذات، العارفون بالله، وحسب من لم يبلغ مقامهم التسليم لِما رمزوا إليه، وإلا وقع الإنكار على أولياء الله بالجهل، والعياذ بالله.

(1) راجع المجلد الثالث، ص/٣٧٩ ـ ٣٨٠.
(2) بعض حديث رواه أبو موسى الأشعري ﵁ وأخرجه مسلم في (الإيمان، باب في قوله ﷺ: «إن الله لاينام»، ١/١٦١، ح ١٧٩)، وأحمد في المسند (٤/٤٠١) بلفظ «حجابه النار» وجاء في رواية عند مسلم، في الموضع السابق، وأحمد في المسند (٤/٤٠٥) وابن ماجه في (المقدمة، باب في ما أنكرت الجهمية ١/٧٠ ـ ٧١ ح ١٩٥ ـ ١٩٦) بلفظ «حجابه النور» (انظر شرح الحديث في مسلم بشرح النووي ٣/١٤ ـ ١٦)
(3) ذكره البغوي في تفسيره (٦/١٤٥).

ثم ذكر معجزة اليد، فقال:

﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (١٢) فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ (١٣) وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (١٤) ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وأَدْخِلْ يدَكَ ﴾ ياموسى ﴿ في جَيْبكَ ﴾؛ فى جيب قميصك. والجيب: الفتح فى الثوب لرأس الإنسان. قال الثعلبى: إنما أمره بذلك؛ لأنه كان عليه مدرعة صوف، لا كُم لها. ﴿ تخرجْ بيضاءَ من غير سُوءٍ ﴾؛ من غير آفة، كبَرَصٍ ونحوه، ﴿ فى تسع آياتٍ ﴾ أى: هاتان الآيتان فى جملة تسع آيات، وهى الفلق، والطوفان، والجراد، والقُمل، والضفادع، والدم، والطمس، والجدب فى براديهم، والنقصان فى مزارعهم. ومن عدّ اليد والعصا من التسع عدّ الأخيرين واحداً، ولم يعد الفلق؛ لأنه لم يبعث به إلى فرعون. وقوله: ﴿ إلى فرعون ﴾ متعلق بمحذوف، أى: مرسلاً، أو: ذاهبًا إلى فرعون ﴿ وقومِه، إنهم كانوا قوماً فاسقينَ ﴾؛ خارجين عن أمر الله، كافرين به.

﴿ فلما جاءتهم آياتُنا ﴾؛ معجزاتنا، وظهرت على يد موسى، حال كونها ﴿ مُبصرةً ﴾؛ بيّنة واضحة، وهى اسم فاعل، أُطلق على المفعول، إشعاراً بأنها لفرط ظهورها كأنها تبصر نفسها؛ مبالغة فى وضوحها، وإلا فهى مبصرة لمن ينظر ويتفكر فيها. أو: ذات تبصر؛ لأنها تهدى من يتبصر بها. فلما جاءتهم ﴿ قالوا هذا سحر مبين ﴾ واضح سحريته.

﴿ وجَحَدوا بها ﴾ أى: كذبوا بها ﴿ و ﴾ قد ﴿ اسْتيقنتها أنفُسُهُم ﴾ أى: علمتها علماً يقيناً، فالاستيقان: أبلغ من الإيقان. يعنى: أنهم جحدوا بألسنتهم واستيقنوها فى قلوبهم. ﴿ ظلماً ﴾: حال من ضمير (جحدوا) أى: ظالمين فى ذلك، ولا ظلم أفحش ممن تيقن أنها آيات من عند الله، وسماها سحراً بيّناً، ﴿ وعُلُوّاً ﴾؛ تكبراً وترفعًا عن الإيمان بموسى عليه السلام، وهو أيضا حال، أو: علة، ﴿ فانظر كيف كان عاقبةُ المفسدين ﴾ وهو الإغراق فى الدنيا، والإحراق فى الآخرة. نسأل الله العافية.

الإشارة: وأَدْخِل يد فكرتك فى جيب قلبك، تخرج بيضاء شعشعانية، يستولى شعاعها على وجود بشريتك، فتنخنس البشرية تحت أنوار المعانى، ثم يستولى على الوجود بأسره، فيصير كله نوراً ملكوتياً جبروتياً، متصلاً

بالنور الأعظم، والبحر الطام، بعد قطع مقامات التوبة، والتقوى، والاستقامة، والإخلاص، والصدق، والطمأنينة، والمراقبة والمحبة، والمشاهدة، فيكون حينئذ آية مبصرة واضحة، من آيات الله، يدلّ على الله، ويدعو إليه على بصيرة منه. فمن جحدها انخرط في سلك من قال تعالى في حقه: ﴿وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلُوا...﴾ الآية.

ثم ذكر قصة داود وسليمان ـ عليهما السلام ـ فقال:

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ولقد آتينا داودَ وسليمانَ عِلماً﴾ أي: أعطينا كل واحد منهما طائفة خاصة به من علم الشرائع والأحكام، وغير ذلك مما يختص به كل واحد منهما، كصنعة الدروع، ومنطق الطير. أو: علماً لدُنيا. ﴿وقالا﴾ أي: كل واحد منهما، شكراً لما أُوتيه من العلم: ﴿الحمدُ لله الذي فضَّلنا﴾ بما آتانا من العلم ﴿على كثيرٍ من عباده المؤمنين﴾. قال النسفي: وهنا محذوف، ليصلح عطف الواو عليه، ولولا تقدير المحذوف لكان الوجه: الفاء، كقولك: أعطيته فشكر، وتقديره: آتيناهما علماً، فعملا به، وعرفا حق النعمة فيه، وقالا: ﴿الحمد لله الذي فضَّلنا على كثير﴾. والكثير المفضَّل عليه: من لم يؤت علماً، أو: من لم يؤت مثل علمهما. وفيه: أنهما فُضّلا على كثير، وفُضل عليهما كثير.

وفي الآية دليلٌ على شرف العلم، وتقدم حملته وأهله، وأن نعمة العلم من أجلّ النعم، وأن من أوتيه فقد أوتي فضلاً على كثير من عباده، وما سماهم رسول الله ﷺ ورثة الأنبياء إلا لمداناتهم في الشرف والمنزلة؛ لأنهم القوّام بما بُعثوا من أجله. وفيها: أنه يلزمهم لهذه النعمة الفاضلة أن يحمدوا الله تعالى على ما أوتوه، وأن يعتقدَ العالم أنه إذا فُضّل على كثير فقد فُضّل عليه مثلهم. وما أحسن قول عمر رضي الله عنه : (كلّ الناس أفقه من عمر). هـ.

والعلماء على قسمين: علماء بالله وعلماء بأحكام الله. فالعلماء بالله هم العارفون به، أهل الشهود والعيان. وهم أهل علم الباطن، أعني: علم القلوب، والعلماء بأحكام الله هم علماء الشرائع والنوازل. وحيث انتهت درجة العلماء بأحكام الله ابتدئت درجة العلماء بالله. فنهاية علماء الظاهر بداية علماء الباطن؛ لأن علم أهل الظاهر جله ظني،

وعلم أهل الباطن عياني، ذوقي، وليس الخبر كالعيان، مع ما فاقوهم به من المجاهدة، والمكابدة، ومقاساة مخالفة النفوس، وقطع المقامات، حتى ماتوا موتات، ثم حييت أرواحهم، فشاهدوا من الأنوار والأسرار ما تعجز عنه العقول، وتكلّ عنه النقول.

ثم قال تعالى: ﴿ وورِثَ سليمانُ داودَ ﴾، ورِث منه النبوة والملك دون سائر بنيه، وكانوا تسعة عشر. ووراثته للنبوة: انتقالها إليه بعد أبيه، وإلا فالنبوة لا تورث. ﴿ وقال يا أيها الناس عُلِّمنا منطقَ الطير ﴾ تشهيراً لنعمة الله، واعترافاً بمكانها، ودعاء للناس إلى تصديقه بذكر المعجزة التي هي علم منطق الطير.

والمنطق: كل ما يصوَّت به من المفرد والمؤلف، والمفيد وغير المفيد. وكان سليمان عليه السلام يفهم عنها كما يفهم بعضها بعضا. يُحكى أنه مرَّ على بلبل على شجرة، يحرك رأسه، ويميل ذنبه، فقال لأصحابه: أتدرون ما يقول؟ قالوا: الله ونبيه أعلم، قال يقول: إذا أكلت نصف تمرة فعلى الدنيا العفاء. وصاحت فاختة[1]، فأخبر أنها تقول: ليت ذا الخلق لم يُخلقوا، وصاح طاووس، فقال: يقول: كما تدين تدان، وصاح هُدهد، فقال: يقول: من لا يرحم لا يُرحم، وصاح صُرَدَ[2] - وهو طائر ضخم الرأس - فقال: يقول: استغفروا الله يا مذنبين، وصاح طيطوى[3]، فقال: يقول: كل حي ميت، وكل جديد بال. وصاح خُطَّاف[4]، فقال: يقول: قَدِّموا خيراً تجدوه. وصاح قُمْرِيٌ[5]، فأخبر أنه يقول: سبحان ربي الأعلى. وصاحت رخمة[6]، فقال: إنها تقول سبحان ربي الأعلى ملء أرضه وسمائه.

وفي رواية: هدرت حمامة، فقال: إنها تقول: سبحان ربي الأعلى - مثل الرخمة - وقال: الغراب يدعو على العشّار. والحدأة تقول: كل شيء هالك إلا وجهه. والقطاة[7] تقول: من سكت سَلِمَ، والببغاء تقول: ويل لمن الدنيا همه، والديك يقول: اذكروا الله يا غافلين، والنسر يقول: ياابن آدم؛ عش ما شئت، آخرك الموت. والعُقاب[8] يقول:

---

(١) الفاختة: نوع من الحمام المُطوّق، إذا مشى توسع في مشيه، وباعد بين جناحيه وإبطيه، وتمايل. انظر اللسان (٥/ ٣٣٦٠، مادة/ فخت).

(٢) الصُّرَدَ: طائر أبقع، نصفه أبيض، ونصفه أسود، ضخم الرأس والمنقار، له مخلب يصطاد به العصافير. انظر النهاية (٣/ ٢١ مادة صرد).

(٣) الطيْطَوَى: ضرب القطا، وقيل: هو طائر لا يفارق الآجام وكثرة المياه.

(٤) الخطاف: العصفور، وهو الذي تدعوه العامة: عصفور الجنة. وجمعه: خطاطيف. انظر اللسان (٢/ ١٢٠١).

(٥) القُمْرِيَ: نوع من الحمام، مطوّق، حسن الصوت.

(٦) الرَّخمة: طائر غزير الريش، أبيض اللون، مبقَّع بسواد، له منقار طويل. موصوف بالغدر، والجمع: رَخَمٌ ورُخُمٌ. انظر اللسان (٣/ ١٦١٧، مادة رخم).

(٧) القطاة: نوع من اليمام، يؤثر الحياة في الصحراء.

(٨) العُقَاب: طائر من الجوارح، تسميها العرب بالكاسر، وقيل: العقاب: سيد الطيور، والنسر عريفها، ويُكنى الذكر: أبا الهيثم. والأنثى: أم الحوار، وهي حادة البصر.

فى البُعد من الناس أُنس. والضفدع تقول: سبحان ربى القدوس. والبازى[١] يقول: سبحان ربى وبحمده، المذكور فى كل مكان. والدراج[٢] يقول: الرحمن على العرش استوى. والقنب[٣] يقول: إلهى؛ العن مبغض آل محمد، عليه الصلاة والسلام[٤].

وقيل: إن سليمان كان يفهم صوت الحيوانات كلها، وإنما خصّ الطير؛ لأنه معظم جنده.

ثم قال: ﴿وأُوتينا من كل شيء﴾ أى: ما نحتاج إليه. والمراد به كثرة ما أُوتى، كما تقول: فلان يقصده كل أحد، ويعلم كل شيء، كناية عن كثرة علمه. ﴿إنَّ هذا لهو الفضلُ﴾ والإحسان من الله تعالى ﴿المبين﴾ أى: الواضح، الذى لا يخفى على أحد، أو: إن هذا الفضل الذى أوتيته هو الفضل المبين. على أنه عليه السلام قاله على سبيل الشكر والمحمدة. كما قال رسول الله ﷺ «أَنَا سيِّدُ وَلَدِ آدَمَ وَلاَ فَخْرَ» أى: أقول هذا القول شكراً، لا فخراً، والنون فى (علّمنا) و(أُوتينا) نون الواحد المطاع، وكان حينئذ ملكاً، فكلم أهل طاعته على الحالة التى كان عليها، وليس فيه تكبر ولا فخر؛ لعصمة الأنبياء من ذلك. والله تعالى أعلم.

الإشارة: أشرف العلوم وأعظمها وأعزها العلم بالله، على سبيل الذوق والكشف والوجدان، ولا يكون إلا من طريق التربية على يد شيخ كامل؛ لأنه إذا حصل هذا العلم أغنى عن العلوم كلها، وصغرت فى جانبه، حتى إن صاحب العلم بالله يعد الاشتغال بطلب علم الرسوم بطالة وانحطاطا، ومثَله كمن عنده قناطير من الفضة، ثم وجد جبلاً من الإكسير، فهل يلتفت صاحبُ الإكسير إلى الفضة أو الفلوس؟ لأن من كانت أوقاته كلها مشاهدة ونظراً لوجه الملك، كيف يلتفت إلى شيء سواه، ولذلك قال الجنيد رضي الله عنه: لو نعلم تحت أديم السماء أشرف من هذا العلم، الذى نتكلم فيه مع أصحابنا، لسعيت إليه.هـ. وقال شيخ شيوخنا، سيدى عبد الرحمن العارف: كنت أعرف أربعة عشر علماً، فلما أدركت علم الحقيقة، سرطت ذلك كله، ولم يبق إلا التفسير والحديث، نتكلم فيه مع أصحابنا. أو قريباً من هذا الكلام. وقال شيخ شيوخنا، سيدى عبد الرحمن المجذوب رضي الله عنه:

أقَـارئينَ علِمَ التَّـوحِـيـد   هُنا البُـحُـورُ إلىّ تنبى

هَذا مَـقَـامُ أهْلِ الـتَّجـريدِ   الواقِـفِـينَ مَـع ربـى

وهذا أمر بيِّن عند أهل هذا الفن، وقال الورتجبى: العلم علمان: علم البيان وعلم العيان. علم البيان ما يكون بالوسائط الشرعية، وعلم العيان مستفاد من الكشوفات الغيبية. ثم قال: فالعلم البيانى معروف بين العموم، والعلم

(١) البازى: ضرب من الصقور، وهو أشد الجوارح تكبراً، وأضيقها خلقاً، ويؤخذ للصيد.

(٢) الدرّاج: طائر جميل المنظر ملون الريش.

(٣) القُنّبر: ضرب من الطير. انظر اللسان (٥/٣٥١٠، مادة: قبر).

(٤) ذكر نحوه البغوى فى تفسيره (٦/١٤٨) عن كعب. وقال محققه، فى الحاشية: وهذه التفصيلات فى كلام الطير متلقاة من أهل الكتاب، كرواية كعب هذه، ولايتوقف فهم الآية عليها، وليس فيها نص صحيح، مرفوع إلى النبى ﷺ.

العيانى مشهور بين الخصوص، لم يطلع عليه إلا نبى أو ولىّ، لأنه صدر من الحق لأهل شهوده، من المحبين العارفين، والموحدين والصديقين، والأنبياء والمرسلين. انظر بقية كلامه.

وقال أيضاً فى قوله: ﴿علّمنا منطقَ الطير﴾: أفهَم أن أصوات الطيور والوحوش وحركات الأكوان جميعاً هى خطابات من الله عز وجل للأنبياء والمرسلين، والعارفين والصديقين، يفهمونها من حيث أحوالهم ومقاماتهم. فللأنبياء والمرسلين علم بمناطقها قطعياً. ويمكن أن يقع ذلك بوحى، ولكن أكثر فهوم الأنبياء[1] أنهم يفهمون من أصواتها ما يتعلق بحالهم، بما يقع فى قلوبهم من إلهام الله، لا بأنهم يعرفون لغاتهم بعينها.هـ. قلت: وكذلك الأولياء يفهمون عنها مايليق بمقاماتهم، من ألفاظ، أو أنس، أو إعلام، أو غير ذلك. والله تعالى أعلم.

ولما أراد سليمان الغزو، جمَعَ جنوده، كما قال تعالى:

﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾ ﴾

قلت: ﴿قالت نملة﴾: التاء للوحدة، لا للتأنيث. قال الرضى: تكون التاء للفرق بين المذكر والمؤنث، وتكون لآحاد الجنس، كنحلة ونحل، وثمرة وثمر، وبطة وبط، ونملة ونمل، فيجوز أن تكون النملة مذكراً، والتاء للوحدة، وأنث الفعل باعتبار تأنيث اللفظ.هـ. مختصرا. و(لايحطمنكم): يحتمل أن يكون جواباً للأمر، أو: نهيًا بدلاً من الأمر؛ لتقارب المعنى؛ لأن الأمر بالشيء نهى عن ضده. والضد ينشأ عنه الحطْم، فلا: ناهية، ومثله الحديث: «فليمسك بِنِصالها، لا يعقر مسلما»[2]. هـ.

---

(١) عبارة الورتجبى، كما فى عرائس البيان: (ويمكن أن يقع ذلك لولى، ولكن أكثر فهوم الأولياء بها...).

(٢) أخرجه بنحوه البخارى فى (الفتن، باب قول النبى ﷺ «من حمل علينا السلاح فليس منا، ح ٧٠٧٤) ومسلم فى (البر والصلة، باب أمر من مرّ بسلاح، فى مسجد أو سوق أو غيرهما من المواضع الجامعة للناس أن يمسك بنصالها ٤/٢٠١٨ ـ ٢٠١٩، ح ٢٦١٤ـ٢٦١٥) من حديث سيدنا جابر رضي الله عنه.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وحُشِرَ لسليمانَ ﴾ أى: جُمع له ﴿ جنودُهُ من الجنِ والإنسِ والطيرِ ﴾ بمباشرة مخاطبيه، فإنهم رؤساء مملكته، وعظماء دولته، من الثقلين وغيرهم. وتقديم الجن على الإنس للإيذان بكمال قوه ملكه وعزة سلطانه؛ لأن الجن طائفة عاتية، وقبيلة طاغية، ماردة، بعيدة من الحشر والتسخير، ﴿ فهم يُوزَعون ﴾ أى: يحبس أوائلهم على أواخرهم، أى: يوقف سلاف العسكر[1] حتى يلحقهم الثوانى، فيكونوا مجتمعين، لا يختلف منهم أحد، وذلك لكثرة العظمة والقهرية.

قال قتادة: فكان لكل صنف منهم وزعة[2]. أو: لترتيب الصفوف، كما هو المعتاد فى العساكر. والوزع: المنع، ومنه قول الحسن البصرى، حين ولى القضاء: (لابد للحاكم من وزعة) أى: شُرط يمنعون الناس من الظلم. وتخصيص حبس أوائلهم بالذكر، دون سوق أواخرهم، مع أن التلاحق يحصل بذلك أيضا؛ لأن أواخرهم غير قادرين على ما يقدر عليه أوائلهم من السير السريع، وهذا إن لم يكن سيرهم بتسيير الريح فى الجو. قال محمد بن كعب: كان عسكر سليمان مائة فرسخ، خمسة وعشرون للجن، وخمسة وعشرون للإنس، وخمسة وعشرون للطير، وخمسة وعشرون للوحش. وكان له ألف بيت من قوارير على الخشب، فيها ثلاثمائة منكوحة، وسبعمائة سرية. وقد نسجت له الجن بساطاً من ذهب وإبريسم، فرسخاً فى فرسخ، وكان يوضع منبره فى وسطه، وهو من ذهب، فيقعد عليه، وحوله ستمائة ألف كرسى من ذهب وفضة، فتقعد الأنبياء ـ عليهم السلام ـ على كراسى الذهب، والعلماء على كراسى الفضة، وحولهم الناس، وحول الناس الجن والشياطين، وتظله الطير بأجنحتها، حتى لا تقع عليه الشمس، وترفع ريح الصبا البساط، فتسير به مسيرة شهر، من الصباح إلى الرواح.

ورُوِى أنه كان يأمر الريح العاصف تحمله، ويأمر الرخاء تُسيِّره، فأوحى الله تعالى إليه، وهو يسير بين السماء والأرض: إنى زدت فى ملكك أنه لا يتكلم أحد بشىء إلا ألقته الريح فى سمعك. قال وهب: حدثنى أبى: أن سليمان مرّ بحرّاثٍ، فقال: لقد أُوتى آلَ داود مُلكاً عظيماً، فالتفت ونزل إلى الحرّاث، فقال: إنى سمعت قولك، وإنما مشيت إليك لئلا تتمنى ما لا تقدر عليه، لتسبيحة واحدة يقبلها الله منك خير لك مما أوتى آلُ داود. هـ.

﴿ حتى إذا أتوا على وادِ النمل ﴾ أى: فساروا حتى بلغوا وادى النمل، وهو وادٍ بالشام، كثير النمل، قاله مقاتل. أو: بالطائف، قاله كعب. وقيل: هو واد يسكنه الجن، والنمل مراكبهم[3]. وعدى الفعل بـ«على»؛ لأن إتيانهم كان من فوق، فأتى بحرف الاستعلاء. ولعلهم أرادوا أن ينزلوا بأعلى الوادى؛ إذ حينئذ يخافهم من فى

---

(١) سلاف العسكر: متقدموهم.
(٢) ذكره البغوى فى التفسير (٦/١٤٩).
(٣) انظر التعليق التالى.

الأرض، لا عند سيرهم في الهواء. وجواب (إذ) قوله: ﴿ قالت نملة ﴾، وكأنها لما رأتهم متوجهين إلى الوادى فرّت منهم، فصاحت صيحة، فنبهت بها ما بحضرتها من النمل.

قال كعب: مرّ سليمان ﷺ بوادى السدير، من أودية الطائف، فأتى على واد النمل، فقالت نملة، وهي تمشي، وكانت عرجاء تتكاوس، مثل الذئب في العظَم. قال الضحاك: كان اسم تلك النملة طاحية، وقيل: منذرة، وقيل: جرمى. وقال نوف الحميرى: كان نمل وادى سليمان أمثال الذباب(١). وعن قتادة : أنه دخل الكوفة، فالتف عليه الناس، فقال: سلوني عما شئتم، فسأله أبو حنيفة، وهو شاب، عن نملة سليمان، أكان ذكراً أو أنثى؟ فأفحم، فقال أبو حنيفة: كانت أنثى، فقيل له: بم عرفت؟ فقال: قوله تعالى: ﴿قالت نملة﴾ ولو كان ذكراً لقال: قال نملة.هـ. قلت: وهو غير صحيح لِماَ تقدم عن الرضى(٢).

﴿ قالت نملةٌ يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم ﴾ لم يقل: ادخلن؛ لأنه لمّا جعلها قائلة، والنمل مقولاً لهم، كما يكون من العقلاء، أجرى خطابهن مجرى ذوى العقل، ﴿ لا يَحْطِمَنَّكُمْ ﴾؛ لا يكسرنكم. والحطم: الكسر، وهو في الظاهر نهى لسليمان عن الحطم، وفي الحقيقة نهي لهم عن البروز والوقوف على طريقه، نحو: لا أرينك هاهنا، أي: لا تتعرضوا فيكسرنكم ﴿ سليمانُ وجنودُه ﴾، وقيل: أراد: لا يحطمنكم جنود سليمان، فجاء بما هو أبلغ. ﴿ وهم لا يشعرون ﴾ لا يعلمون بمكانكم، أي: لو شعروا ما فعلوا. قالت ذلك على وجه العذر، واصفةً سليمان وجنوده بالعدل، فحمل الريح قولها إلى سليمان على ثلاثة أميال.

رُوى أن سليمان قال لها: لِمَ حذرت النمل، أخفت ظلمى؟ أما علِمتِ أنى نبى عدل، فلِمَ قُلتِ: ﴿لا يحطمنكم سليمان وجنوده﴾؟ فقالت: أما سمعتَ قولى: ﴿وهم لا يشعرون﴾، مع أنى لم أُرد حَطْم النفوس، وإنما أردت حطم القلوب، خشيتُ أن يتمنينّ ما أُعطيتَ، ويشغلن بالنظر إليك عن التسبيح، فقال لها سليمان: عظيني، فقالت: هل علمتَ لِمَ سُمى أبوك داود؟ قال: لا، قالت: لأنه داوى جرحَه. هل تدرى لِمَ سميت سليمان؟ قال: لا، قالت: لأنك سليم، ما ركنت إلى ما أوتيت، لسلامة صدرك، وأنىَ لك أن تلحق أباك. ثم قالت: أتدرى لِمَ سخر الله لك الريح؟ قال: لا، قالت: أخبرك الله أن الدنيا كلها ريح. قال ابن عباس: ومن هنا «نهى النبى ﷺ عن قتل أربعة من الدواب: الهدهد، والصُّرد، والنحلة، والنملة(٣)».

---

(١) قال الحافظ ابن كثير في تفسيره (٣٥٩/٣): من قال من المفسرين: إن هذا الوادى كان بأرض الشام، أو بغيره، وإن هذه النملة كانت ذات جناحين، كالذباب، أو غير ذلك من الأقاويل، فلا حاصل لها. ثم قال: والغرض: أن سليمان ﷺ فهم قولها، وتبسم ضاحكاً من ذلك، وهذا أمر عظيم جداً.

(٢) راجع الصفحة قبل السابقة.

(٣) أخرجه أحمد في المسند (٣٣٢/١) وأبو داود في (الأدب، باب في قتل الذر، ٤١٨/٥ ح ٥٢٦٧) وابن ماجه في (الصيد، باب ماينهى عن قتله ١٠٧٤/٢ ح ٣٢٢٤) والدارمى في (الأضاحى، باب النهى عن قتل الضفادع والنحلة ١٢١/٢، ح ١٩٩٩) من حديث سيدنا عبدالله بن عباس ﷺ.

﴿ فتبسَّم ضاحكًا ﴾، معجبًا ﴿ من قولها ﴾ ومِن حَذَرِها، واهتدائها لمصالحها، ونُصحها للنمل، وفرحًا بظهور عدله. والتبسم: ابتداء الضحك، وأكثر ضحك الأنبياء التبسّم، أي: فتبسم ابتداء، ضاحكًا انتهاء. ﴿ وقال ربِّ أوزعنى ﴾، الإيزاع في الأصل: الكف، أي: كُفَّني عن كل شيء إلا عن شكر نعمتك، ويطلق على الإلهام، أي: ألهمني ﴿ أنْ أشكرَ نعمتَك التي نعمتَ عليَّ ﴾ من النبوة والمُلك والعلم، ﴿ وعلى والديَّ ﴾؛ لأن الإنعام على الوالدين إنعام على الولد، ﴿ و ﴾ ألهمنى ﴿ أن أعمل صالحاً ترضاه ﴾ فى بقية عمرى، ﴿ وأدخِلْنى برحمتك ﴾ أى: وأدخلنى الجنة برحمتك، لا بصالح عملى؛ إذ لا يدخل الجنة إلا برحمتك، كما فى الحديث. ﴿ فى عبادك الصالحين ﴾ أى: فى جملة أنبيائك المرسلين، الذين صلحوا لحضرتك. أو: مع عبادك الصالحين. رُوى أن النملة أحست بصوت الجنود، ولم تعلم أنهم فى الهواء، فأمر سليمان عليه السلام الريح، فوقفت؛ لئلا يذعرن، حتى دخلن مساكنهن، ثم دعا بالدعوة. قاله النسفى.

الإشارة: من أقبل بكليته على مولاه، وأطاعه فى كل شيء، سخرت له الأكوان، وأطاعته فى كل شيء. ومن أعرض عن مولاه أعرض عنه كلُّ شيء، وصعب عليه كلُّ شيء. «أنت مع الأكون مالم تشهد المكون، فإذا شهدته كانت الأكوانُ معك». فإذا سخرت له الأشياء، وزهد فيها، وأعرض عنها، واختار مقام العبودية، ارتفع قدره، ولم ينقص منه شيئاً، كحال نبينا ـ عليه الصلاة والسلام ـ. ومن سخرت له الأشياء، ونظر إليها، انتقص قدره، وإن كان كريماً على الله، ولذلك ورد فى الخبر أن سليمان عليه السلام: هو آخر من يدخل الجنة من الأنبياء. ذكره فى القوت.

وذكر فيه أيضا: أن سليمان عليه السلام لَبِس ذات يوم ثياباً رفيعة، ثم ركب على سريره، فحملته الريح، وسارت به، فنظر إلى عطفيه نظرة، فأنزلته إلى الأرض، فقال لها: لِمَ أنزلتنى ولَمْ آمرك؟ فقالت له: نطيعك إذا أطعت الله، ونعصيك إذا عصيته. فاستغفر وتاب، فحملته. وهذا مما يعتب على المقربين؛ لِكِبَر مقامهم، فكل نعيم فى الدنيا ينقص فى الآخرة. والله تعالى أعلم.

ثم قال تعالى:

﴿ وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَا۟ذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ

غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإِۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿وتفقَّدَ﴾ سليمانُ ﴿الطيرَ﴾ أي: تعرف أحوال الطير تعرفَ الملك لمملكته، حسبما تقتضيه عناية الملك بمملكته، والاهتمام بكل جزء منها، أو: تفقده لمعرفته بالماء، أو: لغير ذلك على ماياتى. فلما تفقـده لم ير الهدهد فيما بينها. والتفقد: طلب ماغاب عنك. ﴿فقال مالىَ لا أرى الهـدهد﴾ أساتر ستره؟ ﴿أم كان من الغائبين﴾، و«أم»: بمعنى «بل»، كأنه قال: مالى لا أراه؟ ثم بدا له أنه غائب، فأضرب عنه، وقال: بل هو من الغائبين.

﴿لأعذبَنّه عذاباً شديداً﴾، قيل: كان عذابه للطير: نتفه ريشه وتشميسه، أو: يجعله مع أضداده فى قفص، أو: بالتفريق بينه وبين إلفه. وعن بعضهم: أضيق السجون معاشرة الأضداد، ومفارقة الأحباب. أو: نتفه، وطرحه بين يدى النحل تلدغه، أو: النمل تأكله. وحلّ له تعذيب الهدهد لينزجر غيره، ولِما سخرت له الحيوانات ـ ولا يتم التسخير إلا بالتأديب ـ حلّ له التأديب.

﴿أو لأذبحنَّه﴾؛ ليعتبر به أبناء جنسه، ﴿أو ليَأتِيَنّى بسلطانٍ مبين﴾؛ بحُجة تبين عذره، والحلف فى الحقيقة على أحد الأمرين، على تقدير عدم الثالث. قال بعضهم: وسبب طلبته للهدهد، لإخلاله بالنوبة التى كان يدوبها. وقيل: كانت الطير تظله، فأصابته لمعة من الشمس، فنظر، فرأى موضع الهدهد خالياً، فتفقده، وقيل: احتاج إلى الماء، وكان عِلْم ذلك إلى الهدهد، فتفقده، فلم يجده، فتوعده.

والسبب فيـه: أن سليمان عليه السلام لمّا فرغ من بناء بيت المقدس، عزم على الخروج إلى أرض الحرم، للحج، فتجهز للمسير، وخرج بجنوده ـ كما تقدم ـ فبلغ الحرم، وأقام به، وكان ينحر كل يوم بمكة خمسة آلاف ناقة، ويذبح خمسة آلاف ثور، وعشرين ألف شاة، قرباناً. وقال: إن هذا مكان يخرج منه نبى عزيزٌ، صفته كذا وكذا، يُعطَى النصر على جميع من ناوأه، وتبلغ هيبته مسيرة شهر، القريب والبعيد فى الحق عنده سواء، لا تأخذه فى الله

لومة لائم، دينه دين الحنيفية، فطوبى لمن أدركه وآمن به، وبيننا وبين خروجه زهاء ألف عام. ثم قضى نسكه، وخرج نحو اليمن صباحاً، يؤم سهيلاً، فوافى صنعاء وقت الزوال، وذلك مسيرة شهر، فرأى أرضاً حسناء، تزهو خضرتها، فأحب النزول بها؛ ليصلى، ويتغذى، فطلبوا الماء فلم يجدوه، وكان الهدهد دليله على الماء، كان يرى الماء من تحت الأرض، كما نرى الماء فى الزجاجة، فينقر الأرض فتجيء الشياطين يستخرجونه. وبحث فيه القشيرى بأن الهدهد متعدد فى عسكره، إذا فقدوا واحداً بقى آخر، قال: اللهم إلا أن يكون ذلك الواحد مخصوصاً بمعرفة ذلك، والله أعلم.هـ.

قال سعيد بن جبير: لما ذكر ابن عباس هذا الحديث: قال له نافع بن الأزرق: كيف ينظر الماء تحت الأرض، ولا يبصر الفخ حتى يقع فيه؟ قال ابن عباس: ويحك إذا جاء القدر حال دون البصر.هـ. قلت: ونافع هذا هو رأس الخوارج والمعتزلة.

فلما نزل سليمانُ، قال الهدهد: إن سليمان قد اشتغل بالنزول، فارتفع نحو السماء، ونظر طول الدنيا وعرضها، ونظر يميناً وشمالاً، فرأى بستاناً لبلقيس فيه هدهد. وكان اسم هدهد سليمان «يعفور» واسم هدهد اليمن «عنفير». فقال هدهد اليمن لهدهد سليمان: من أين أقبلتَ وأين تريد؟ قال: أقبلتُ من الشام، مع صاحبى سليمان بن داود، قال: ومَن سليمان؟ قال: ملك الجن والإنس والشياطين والطير والوحوش والرياح، فمن أين أنت؟ قال من هذه البلد، ملكها امرأة، يقال لها «بلقيس» تحت يديها اثناعشر ألف قائد، تحت يد كل قائد مائة ألف مقاتل. فانطلق معه، ونظر إلى بلقيس ومُلكها، ورجع إلى سليمان وقت العصر. وكان سليمان قد فقده وقت الصلاة، فلم يجده، وكان على غير ماء.

قال ابن عباس: فدعا عريف الطير ـ وهو النسر ـ فسأله؟، فقال: ما أدرى أين هو، فغضب سليمان وقال: (لأُعذبنه...) الخ، ثم دعا بالعقاب، سيد الطير، فقال: علىّ بالهدهد الساعة، فرفع العقاب نفسه نحو السماء، حتى التزق بالهواء، فنظر إلى الدنيا كالقصعة بين يدى أحدكم، فإذا هو بالهدهد مُقبلاً من نحو اليمن، فانقضّ نحوه، فقال له الهدهد: بحق الحق الذى قوّاك إلا مارحمتنى، فقال: ويلك، إن نبى الله حلف أن يعذبك ويذبحك. ثم تلقته النسور والطير فى العسكر، وقالوا له: لقد توعدك نبىُّ الله. قال: أوَ ما استثنى؟ قالت: بلى، قال: ﴿أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بسلطان مبين﴾. ثم دخل على سليمان، فرفع رأسه، وأرخَى ذنبه وجناحيه يجرهما على الأرض، تواضعاً لله ولسليمان، فقال سليمان: أين كنت؟ لأعذبنك... فلما دنا منه أخذ سليمان برأسه، فمده إليه، فقال له الهدهد: يانبى الله؛ اذكر وقوفك بين يدى الله تعالى، بمنزلة وقوفى بين يديك، فارتعد سليمان وعفا عنه(١). وقال عكرمة: إنما صُرف سليمان عن ذبح الهدهد لبره بوالديه، كان يلتقط الطعام ثم يزقه لهما.

(١) هذه الأخبار ذكرها البغوى فى تفسيره (١٥٤/٦) وغيره من المفسرين. وهى من الأخبار التى لا سند لها.

قال تعالى: ﴿ فمكَثَ غيرَ بعيدٍ ﴾ أى: تفقد مكث سليمان حين تفقد الهدهد، وأرسل من ورائه غير زمان بعيد، وهو من الظهر إلى العصر ـ كما تقدم ـ أو: فمكث الهدهد فى غيبته غير بعيد، خوفاً من سليمان، فالضمير إما لسليمان، أو: للهُدهد، وهو الظاهر، ويرجحه قراءة: (فتمكث). وفى «مكث» لغتان: الضم والفتح.

ولما قَدِمَ من غيبتـه، أحضر بين يديه، على الهيئـة المتقـدمة، ثم سأله عن غيبتـه، ﴿ فقال أَحطتُ بما لم تُحطْ به ﴾ أى: أدركت علماً لم تُحط به أنت، ألهم الله الهدهدَ فكافح(١) سليمانَ بهذا الكلام، مع ما أوتى من فضل النبوة والعلوم الجمة، ابتلاء له عليه السلام فى علمه، وتنبيهاً على أن فى أدنى خلقه وأضعفهم من أحاطه الله علماً بما لم يُحط به؛ لتتصاغر إليه نفسه، ويصغر فى عينه علمه، فى جانب علم الله، رحمة به ولُطفاً فى ترك الإعجاب، الذى هو فتنة العلماء.

ثم قال: ﴿ وجئتُكَ من سبأ ﴾ ـ بالصرف ـ اسماً للحيّ، أو: للأب الأكبر، وبعدمه اسماً للقبيلة. ﴿ بنبأٍ يقين ﴾، والنبأ: الخبر الذى له شأن. وقوله: ﴿ من سبأ بنبأ ﴾ من محاسن الكلام، ويسمى البديع. وقد حسن وبرع لفظاً ومعنىً، حيث فسر إبهامه بأبدع تفسير، وأراه أنه كان بصدد إقامة خدمة مهمة. وعبّر عما جاء به بالنبأ، الذى هو الخبر الخطير والشأن الكبير، ووصفه بما وصفه به. ﴿ إنى وجدتُ امرأةً تملكُهُم ﴾؛ هو استئناف لبيان ما جاء به من النبأ، وتفسير له إثر الإجمال. وهى بلقيس بنت شراحيل بن مالك بن ريان. وكان أبوها ملك أرض اليمن كلها، ورث الملك من أربعين أبًا. وقيل: كان أبوها ـ اسمه الهدهاد ـ ملكاً عظيم الشأن، ملك أرض اليمن كلها، وأبى أن يتزوج منهم، فزوجوه امرأة من الجن، يقال لها «ريحانة» فولدت له بلقيس، ولم يكن له ولد غيرها.

قال أبو هريرة: قال النبى ﷺ «كان أحد أبوى بلقيس جنيا»(٢) فمات أبوها، فاختلف قومه فرقتين، وملكوا أمرهم رجلا قائماً بسيرته، حتى فجَر بحرم رعيته، فأدركت بلقيس الغيرة، فعرضت عليه نفسها، فتزوجته، فسقته الخمر، فسكر، فجزت رأسه، ونصبته على باب دارها فملكوها(٣).

﴿ وأُوتيَتْ من كل شىءٍ ﴾ تحتاج إليه الملوك، من العدة والآلة، ﴿ ولها عرشٌ عظيم ﴾: كبير، قيل: كان ثلاثين ذراعاً فى ثلاثين عرضا، وقيل: كان ثمانين ذراعاً فى ثمانين، وطوله فى الهواء: ثمانون. وكان من ذهب وفضة، مرصعاً بأنواع الجواهر، وقوائمه من ياقوت أحمر وأخضر، ودرّ، وزبرجد، وعليه سبعة أبيات، فى كل بيت

---

(١) كافحه مكافحةً وكفاحاً: واجهه. انظر اللسان (مادة كفح ٥/٣٨٩٧)

(٢) أخرجه الطبرى فى التفسير (١٦٩/١٩) وزاد السيوطى عزوه فى الدر (١٩٨/٥) لأبى الشيخ فى العظمة، وابن عساكر، وقال ابن كثير فى البداية والنهاية (٢١/٢٠): هذا حيث غريب، وفى سنده ضعف.

(٣) ذكره البغوى فى تفسيره (١٥٦/٦).

باب مغلق. واستصغر الهدهد حالها إلى حال سليمان، فلذلك عظّم عرشها. وقد أخفى الله تعالى ذلك على سليمان؛ لحكمة، كما أخفى مكان يوسف على يعقوب، ليتحقق ضعف العبودية فى جانب علم الربوبية.

وكانت بلقيس مجوسية، فلذلك قال: ﴿ وجدتُها وقومَها يسجدون للشمس من دون الله ﴾ أى: يعبدونها متجاوزين عبادة الله. ﴿ وزيَّن لهم الشيطانُ أعمالهم ﴾ التى هى عبادة الشمس، ونظائرها من أصناف الكفر والمعاصى، ﴿ فصدَّهم عن السبيل ﴾؛ عن سبيل الرشد والصواب، وهو التوحيد ﴿ فهم لا يهتدون ﴾ إليه. ولا يَبْعد من الهدهد التهدّى إلى معرفة الله، ووجوب السجود له، وحرمة السجود للشمس، إلهاماً من الله له، كما ألهمه وغيره من الطيور وسائر الحيوانات المعارف اللطيفة، التى لا يكاد العقلاء، الراجحة العقول، يهتدون إليها. وهذا من أسرار الربوبية، التى سرت فى الأشياء، فوحّدَت الله تعالى، ولهجت بحمده.

﴿ ألاَّ يسجدوا ﴾ بالتشديد، أى: فصدّهم عن السبيل لئلا، فحذف الجار، أى: لأجل ألا يسجدوا لله. ويجوز أن تكون «لا» مزيدة، أى: فهم لا يهتدون إلى أن يسجدوا. وقرئ: هلا يسجدون. ومن قرأ بالتخفيف(١). فالتقدير عنده: ألا يا هؤلاء؛ اسجدوا، فألاَ للتنبيه، والمنادى محذوف، فمن شدّد لم يقف على «يهتدون»، ومن خفف وقف ثم استأنف: ألا ياهؤلاء اسجدوا ﴿ لله الذى يُخْرِجُ الخَبْءَ ﴾؛ الشيء المخبوء المستور ﴿ فى السموات والأرض ﴾، قال قتادة: خبء السموات: المطر، وخبء الأرض: النبات. واللفظ أعم من ذلك. ﴿ ويعلم ما يُخفون ومايُعلنون ﴾(٢) عطف على «يخرج»، إشارة إلى أنه تعالى يُخرج ما فى العالم الإنسانى من الخفايا، كما يُخرج ما فى العالم الكبير من الخبايا.

﴿ اللهُ لا اله إلا هو ربُّ العرش العظيم ﴾ الذى هو أول الأجرام وأعظمهما. ووصفُ الهدهد عرشَ الله بالعظم تعظيم له بالنسبة إلى سائر ما خلق من السموات والأرض. وفى الخبر: «إن السموات والأرض فى جانب العرش كحلقة فى فلاة» ووصفه عرش بلقيس تعظيم له بالنسبة إلى عروش أبناء جنسها من الملوك. هذا آخر كلام الهدهد. ثم دلهم على الماء فحفروا وشربوا، وملأوا الركايا، والله تعالى أعلم.

الإشارة: هُدهد كل إنسان نفسه، فإذا تفقدها فوجدها غائبة عن الله، فى أودية الغفلة، هددها بالعذاب الشديد، ويذبحها بأنواع المخالفة، حتى تأتيه بحجة واضحة، تعذر بها، فإن لم تأت بحجة عذّبها وذبحها، بإدخالها فى كل ما تكره ويثقل عليها، فتمكث غير بعيد، فتأتيه بالعلوم اللدنية، والأسرار الربانية، التى لم يحط بها علماً قبل ذلك، وتجيئه بالخبر اليقين، فى العلم بالله، من عين اليقين، أو حق اليقين، فتخبره عن أحوال عامة أهل الحجاب،

(١) قرأ أبو جعفر، والكسائى: (ألا يسجدوا) بالتخفيف. وقرأ الباقون (ألاّ) بالتشديد.

(٣) قرأ حفص، والكسائي: (ماتخفون وماتعلنون) بالتاء على الخطاب، وقرأ الآخرون بالياء. انظر الإتحاف (٢/٣٢٦).

فتقول: إني وجدت امرأة تملكهم، وهى نفسهم الأمارة، وأوتيَتْ من كل شيء تشتهيه وتهواه، من غير وازع ولا قامع، ولها عرش عظيم، وهو سرير الغفلة والانهماك فى حب الدنيا والشهوات. أو: لها تسلط كبير على من ملكته، وجدتها وقومها يسجدون للسِّوى، ويخضعون للهوى من دون الله، وزيّن لهم الشيطانُ ذلك، فصدهم عن طريق الوصول، فهم لا يهتدون إلى الوصول إلى الحضرة أبداً ماداموا كذلك؛ لأن حضرة ملك الملوك محرمة على من هو لنفسه مملوك. ألا يسجدوا بقلوبهم لله وحده، فإنه مطلع على خبايا القلوب والأسرار، وعلى ما يُسرون من الإخلاص، وما يُعلنون من الأعمال، التى توجب الاختصاص. وبالله التوفيق.

ولما سمع سليمان كلامَ الهدهد أرسله بكتابه إلى بلقيس، كما قال تعالى:

﴿ ۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿قال﴾ سليمانُ للهدهد: ﴿سننظرُ﴾ أى: نتأمل فيما أخبرتَ، فنعلمُ ﴿أَصدَقْتَ أم كنتَ من الكاذبين﴾، وهو أبلغُ من: أكَذَبْتَ؛ لأنه إذا كان معروفًا بالانخراط فى سلك الكاذبين كان كاذباً، لا محالة، وإذا كان كاذباً اتُّهم فيما أخبر به، فلا يُوثق به، ثم كتب: من عبد الله، سليمان بن داود، إلى بلقيس ملكة سبأ؛ بسم الله الرحمن الرحيم، السلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فلا تعلوا علىّ وأتونى مسلمين. قال منصور: كان سليمان أبلغ الناس فى كتابه، وأقلهم كلاماً فيه. ثم قرأ: ﴿إنه من سليمان...﴾ الخ، والأنبياء كلهم كذلك، كانت تكتب جُملاً، لا يُطيلون ولا يُكثرون. وقال ابن جريج: لم يزد سليمان على ما قال الله تعالى: ﴿إنه من سليمان...﴾ الخ. ثم طيّبه بالمسك، وختمه بخاتمه(1)، وقال للهدهد: ﴿اذهب بكتابى هذا فألقه إليهم﴾

(١) ذكره البغوى فى التفسير (٦/١٥٨).

أى: إلى بلقيس وقومها؛ لأنه ذكرهم معهـا فى قوله: ﴿وجدتها وقومهـا﴾، وبنى الخطاب على لفظ الجمع لذلك. ﴿ثم تولَّ عنهم﴾ أى: تنح عنهم إلى مكان قريب، بحيث تراهم ولا يرونك، ليكون ما يقولون بمسمع منك، ﴿فانظرْ ماذا يرجعون﴾ أى: ما الذى يردُّونه من الجواب، أو: ماذا يرجع بعضهم إلى بعض من القول.

فأخذ الهدهدُ الكتابَ بمنقاره، ودخل عليها من كوَّة، فطرح الكتاب على نحرها، وهى راقدة، وتوارى فى الكوة. وقيل: نقرها، فانتبهت فزعة، أو: أتاها والجنود حولها، فوقف ساعة يرفرف فوق رؤوسهم، ثم طرح الكتاب فى حجرها، وكانت قارئة، فلما رأت الخاتم ﴿قالت﴾ لأشراف قومها وهى خائفة: ﴿ياأيها الملأ إنى أُلقى إلىَّ كتابٌ كريمٌ﴾، وصفتْه بالكرم لكرم مضمونه؛ إذ هو حق، أو: لأنه من ملك كريم، أو: لكونه مختوماً. قال - عليه الصلاة والسلام -: «كَرَمُ الكتابِ خَتْمُهُ»(١) أو: لكونه مصدراً بالتسمية، أو: لغرابة شأنه، ووصوله إليها على وجه خرق العادة.

ومضمونه والمكتوب فيه: ﴿إنه من سليمانَ وإنه بسم الله الرحمن الرحيم﴾، وهذا تبيين لما أُلقى إليها، كأنها لما قالت: ﴿أُلقى إلىَّ كتاب كريم﴾ قيل لها: ممن هو وما هو؟ فقالت: ﴿إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم ألا تعلُوا علىَّ﴾، «إن» : مفسرة، أى: لا تترفعوا علىَّ ولا تتكبروا، كما يفعل جبابرة الملوك، ﴿وأْتونى مسلمين﴾: مؤمنين، أو: منقادين، وليس فيه الأمر بالإسلام. وقيل: إقامة الحجة على رسالته؛ لأن إلقاء الكتاب على تلك الصفة معجزة باهرة.

﴿قالت يا أيها الملأُ﴾، كررت حكاية قولها إيذاناً بغاية اعتنائها بما فى حيزه: ﴿أَفْتُونى فى أمرى﴾ أى: أجيبونى فى أمرى، الذى حزبنى وذكرتُه لكم، وعبَّرت عن الجواب بالفتوى، الذى هو الجواب عن الحوادث المشكلة غالباً؛ تهويلاً للأمر، ورفعًا لمحلهم، بالإشعار بأنهم قادرون على حل المشكلات الملمة. ثم قالت: ﴿ماكنتُ قاطعةً أمراً﴾من الأمور المتعلقة بالمملكة ﴿حتى تَشهدُونِ﴾ بكسر النون، ولا يصح الفتح؛ لأنه يُحذف للناصب. وأصله: تشهدوننى، فحذفت الأولى للناصب وبقى نون الوقاية، أى: تحضرونى، وتشهدوا أنه على صواب، أى: لا أقطع أمراً إلا بمحضركم. وقيل: كان أهل مشورتها ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلا، كل واحد على عشرة آلاف.

﴿قالوا﴾ فى جوابها: ﴿نحنُ أولوا قوةٍ وأولوا بأس شديد﴾ أى: نجدة وشجاعة، فأرادوا بالقوة: قوة الأجساد والآلات؛ وبالبأس: النجدة والبلاء فى الحرب. ﴿والأمرُ إليك﴾ أى: هو موكل إليك ﴿فانظرى ماذا تأمرين﴾،

(١) رواه الطبرانى فى الأوسط (ح ٣٨٧٢) والشهاب القضاعى فى مسنده (ح ٣٩) عن ابن عباس رضي الله عنه. وفى سنده السدى الصغير، متروك. انظر مجمع الزوائد (٨/٩٩).

فنحن مطيعون إليك، فمُرينا بأمرك، نمتثل أمرك، ولا نخالفك. كأنهم أشاروا عليها بالقتال، أو أرادوا: نحن من أبناء الحرب، لا من أبناء الرأى والمشورة، وأنت ذات الرأى والتدبير، فانظرى ماذا تأمرين نتبع رأيك.

فلما أحست منهم الميلَ إلى المحاربة مالتْ إلى المصالحة، فزيفت رأيهم، حيث ﴿ قالت إنَّ الملوك إذا دخلوا قريةً ﴾ على منهاج المقاتلة والحرب، أو عنوة وقهراً ﴿ أفسدوها ﴾ بتخريب عمارتها، وإتلاف ما فيها من الأموال، ﴿ وجعلوا أعزَّةَ أهلهَا أذلةً ﴾ بالقتل والأسر والإجلاء، وغير ذلك من فنون الإهانة؛ ليستقيم لهم مُلْكُهم وحدهم. ثم قالت: ﴿ وكذلك يفعلون ﴾ أى: وهذه عادتهم المستمرة التى لا تتغير، لأنها كانت فى بيت المملكة قديماً، أباً عن أب، فجربت الأمور، أو: يكون من قول الله تعالى، تصديقاً لقولها، أى: قال الله تعالى: وكذلك شأن الملوك إذا غلبوا وقهروا أفسدوا. وأنشدوا فى هذا المعنى:

إنَّ المُلُوكَ بَلاَءٌ حَيثُمَا حلّوا ... فَلاَ يَكُن بكَ فِى أكْنَافِهِمْ ظِلُّ
مَاذَا يؤمّل مِن قَوْمٍ إذَا غَضِبُوا ... جَارُوا عليْكَ وَإن أرْضَيْتَهم مَلوا
وَإن صَدَقْتَهُم خَالُوكَ تَخْدَعهم ... وَاستَثقلوكَ كَمَا يُسْتَثْقَل الكَلُّ
فَاسْتَغْنِ بِالله عن أبْوَابِهِمْ أبداً ... إنَّ الوُقُوفَ عَلَى أبْوَابِهِمْ ذُلُّ

ففى صحبة الملوك خطر كبير، وتعب عظيم، فمن قوى نوره، حتى يغلب على ظلمتهم، بحيث يتصرف فيهم، ولا يتصرفون فيه، فلا بأس بمعرفتهم، إن كان فيه نفع للناس بالشفاعة والنصيحة، وقد أقيم فى هذا المقام الشيخ أبو الحسن الشاذلى، وشيخ شيخنا مولاى العربى الدرقاوى ـ رضى الله عنهما ـ وكان تلميذاهما الشيخ أبو العباس المرسى، وشيخنا سيدى محمد البوزيدى الحسنى ـ رضى الله عنهما ـ يفران من صحبتهم، أشد الفرار، وهو أسلم. والله تعالى أعلم.

الإشارة: قال صاحب الخصوصية لنفسه: سننظر أصدقتِ فى الخصوصية أم أنتِ من الكاذبين، اذهب بما معك من العلم، وذكّر به عباد الله، وألقه إليهم، ثم تولّ عنهم، وانظر ماذا يرجعون، فإن تأثروا بوعظك، وانتقش فيهم قولك، فأنتِ صادقة فى ثبوت الخصوصية لديك؛ لأن أهل العلم بالله إذا تكلموا وقع كلامهم فى قلوب العباد، فحييت به قلوبهم وأرواحهم. ومن لا خصوصية له صدت كلامه الآذان. قالت حين أرادت التذكير: يا أيها الملأ إنى أُلقى إلىّ فى قلبى كتابٌ كريمٌ، وعلمٌ عظيم، فلا تعلو علىّ وأتونى مسلمين، منقادين لما آمركم به، وقالت ـ لمَّا تطهرت من الأكدار، وتحررت من الأغيار، وأحدقت بها جنود الأنوار: ياأيها الملأ ـ تعنى جنود الأنوار ـ أفتونى فى

أمرى الذى أريد أن أفعله، ما كنت قاطعة أمراً من الأمور، التى تتجلى فى القلب، حتى تشهدون، وتشهدوا أنه رشد وحق، قالوا: نحن أولوا قوة وأولوا بأس شديد، والأمر إليك، حيث تطهرت، فانظرى ماذا تأمرين؛ لأن النفس إذا تزكت وتخلصت وجب تصديقها فيما تهتم به، قالت: إن الملوك ـ أى: الواردات الإلهية التى تأتى من حضرة القهار، إذا دخلوا قرية ، أى: قلب نفس، أفسدوا ظاهرها بالتخريب والتعذيب، وجعلوا أعزةَ أهلها أذلة، أى: أبدلوا عزها ذُلا، وجاهها خمولا، وغناها من الدنيا فقرا، وكذلك يفعلون.

وفى الحِكَم العطائية: «متى وردت الواردات الإلهية عليك هدمت العوائد لديك، إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها، وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون» . فكل وارد نزل بالإنسان ولم يغير عليه عوائده فهو كاذب، قال فى الحِكَم: «لا تزكين وارداً لم تعلم ثمرته، فليس المراد من السحابة الأمطار، وإنما المراد منها وجود الأثمار». وبالله التوفيق.

ثم أشارت عليهم بإرسال الهدية لسليمان، كما قال تعالى:

﴿ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله فى حكاية بلقيس ـ وكانت سيسة، قد سيست وساست، فقالت لقومها: ﴿ وإنى مُرْسِلَةٌ إليهم ﴾؛ سليمان وقومه، ﴿ بهدية ﴾ أصانعه بذلك عن ملكى، وأختبره، أملك هو أم نبى؟ ﴿ فناظرة ﴾؛ فمنتظرة ﴿ بِمَ يرجعُ المرسلون ﴾؛ بأى شيء يرجعون، بقبولها أم بردها؛ لأنها عرفت عادة الملوك، وحسن موقع الهدايا عندهم، فإن كان ملِكاً قَبِلها وانصرف. وإن كان نبيًا ردها، ولم يقبل منا إلا أن نتبعه على دينه، فبعثت خمسمائة غلام، عليهم ثياب الجوارى وحليهن، راكبين خيلاً، مغشاة بالديباج، محلاَّة اللجم والسروج بالذهب المرصع بالجوهر، وخمسمائة جارية على رِماك(١) فى زى الغلمان، وألف لبنة من ذهب وفضة، وتاجًا مكللاً بالدر والياقوت، وحقاً فيه دُره عذراء، وخرزة جزعية مثقوبة، معوجَّة الثقب، وأرسلت رسلاً، وأمّرت عليهم المنذر ابن عمرو، وكتبت كتاباً فيه نسخة الهدية. وقالت فيه: إذ كنتَ نبياً فميِّز بين الوصفاء والوصائف، وأخْبِر بما فى

(١) الرماك: جمع رمكة، وهى أنثى البغال. راجع اللسان (رمك ٣/١٧٣٣).

الحقّ، واثقب الدرّة ثقبًا مستويًا، واسلك في الخرزة خيطًا. ثم قالت للمنذر: إن نظر إليك نظر غضب فهو ملك، فلا يهولنك منظره، وإن رأيته لينًا لطيفًا فهو نبيّ (١).

فأقبل الهدهد، فأخبر سليمان الخبر كله، فأمر سليمانُ الجن فضربوا لبِنَات الذهب والفضة، وفرشوها في الميدان بين يديه، طوله سبعة فراسخ، وجعلوا حول الميدان حائطًا، شرفه من الذهب والفضة، وأمر بأحسن الدواب في البر والبحر، فربطوها عن يمين الميدان ويساره، على اللبنات. وأمر بأولاد الجن - وهم خلقٌ كثير - فأُقيموا عن اليمين واليسار، ثم قعد على سريره، والكراسي من جانبيه، واصطفت الشياطين صفوفًا فراسخ، والإنس صفوفاً فراسخ، والوحش والسباع والطيور والهوام كذلك، فلما دنا القوم، ونظروا، بُهتوا، ورأوا الدواب تروث على اللبن، فتقاصرت إليهم أنفسهم، ورموا بما معهم من الهدايا.

ولما وقفوا بين يديه، نظر إليهم سليمان بوجهٍ طلْقٍ، فأعطوه كتاب الملكة، فنظر فيه، فقال: أين الحُق؟ فأُتي به، فحركه، وأخبره جبريل عليه السلام بما فيه. فقال لهم: إن فيه كذا وكذا. ثم أمر بالأَرَضَة فأخذت شعرة، ونفذت في الدرّة، فجعل رزقها في الشجر. وأخذت دودة بيضاء الخيط بفيها، ونفذت في ثقب الجزعة، فجعل رزقها في الفواكه. ودعا بالماء، وأمرهم أن يغسلوا وجوههم وأيديهم، فكانت الجارية تأخذ الماء بيدها فتجعله في الأخرى، ثم تضرب به وجهها، والغلام كما يأخذ الماء يضرب به وجهه فميزهم بذلك. ثم ردّ الهدية.

ذلك قوله تعالى: ﴿ فلما جاء سليمانَ ﴾ أي: جاء رسولها المنذرُ بن عمرو إليه ﴿ قال أتمدُّونَنِ بمالٍ ﴾، توبيخ وإنكار لإمدادهم إياه بالمال، مع علو شأنه وسعة سلطانه. والتنكير للتحقير، والخطاب للرسول ومن معه، أو للرسول والمرسل تغليب للحاضر. ﴿ فما آتانيَ اللهُ ﴾ من النبوة والمُلك الذي لا غاية وراءه ﴿ خير مما آتاكم ﴾ أي: من المال الذي من جملته ما جئتم به، فلا حاجة لي إلى هديتكم، ولا وقْعَ لها عندي، ولعله عليه السلام إنما قال لهم هذه المقالة...الخ بعد ما جرى بينه وبينهم ما حكي من قصة الحُقّ وغيرها، لا أنه عليه السلام خاطبهم بها أول ماجاءوه.

ثم قال لهم: ﴿ بل أنتم بهديتكم تفرحون ﴾. الهدية: اسم للمُهدَى، كما أن العطية اسم للمُعطَى، فتضاف إلى المُهْدِي والمهدَى له. والمعنى: أن ما عندي خير مما عندكم، وذلك أن الله تعالى آتاني الدين والمعرفة به، التي هي الغنى الأكبر، والحظ الأوفر، وآتاني من الدنيا ما لا يستزاد عليه، فكيف يرضى مثلي بأن يُمد بمال من قبلكم؟ بل أنتم قوم لا تعلمون إلا ظاهراً من الحياة الدنيا، فلذلك تفرحون بما تزدادون ويُهدى إليكم؛ لأنّ ذلك مبلغ همتكم، وحالي خلاف ذلكم، فلا أرضى منكم بشيء، ولا أفرح إلا بالإيمان منكم، وترك ما أنتم عليه من المجوسية. والإضراب راجع إلى معنى ما تقدم، كأنه قيل: أنا لا أفرح بما تمدونني به بل أنتم.

---

(١) قال العلامة ابن كثير، بعد ذكره لهذه الروايات: والله أعلم أكان ذلك أم لا، وأكثره مأخوذ من الإسرائيليات. انظر تفسير ابن كثير (٣/٣٦٣).

ثم قال للرسول: ﴿ ارجعْ إليهم ﴾ ؛ إلى بلقيس وقومها، وقل لهم: ﴿ فلنأتينَّهم بجنودٍ لا قِبَلَ ﴾ : لا طاقة ﴿ لهم بها ﴾ . وحقيقة القِبَل: المقابلة والمقاومة، أى: لا يقدرون أن يقابلوهم، ﴿ ولنُخرجنّهم منها ﴾ أى: من سبأ ﴿ أذلةً وهم صاغرون ﴾ : أسارى مهانون. فالذل: أن يذهب عنهم ما كانوا فيه من العز والملك، والصغار: أن يبقوا فى أسر واستعباد. فلما رجع إليها رسولها بالهدايا، وقصّ عليها القصة، قالت: هو نبى، ومالنا به طاقة. ثم تجهزت للقائه، على ما يأتى إن شاء الله.

الإشارة: إذا توجه المريد إلى مولاه، توجهت إليه نفسه بأجنادها، وهى الدنيا، والجاه، والرئاسة، والحظوظ، والشهوات، فتُمده أولاً بمالٍ وجاه، تختبره، فإن علت همته، وقويت عزيمته، أعرض عن ذلك وأنكره، وقال: أتمدوننى بمال حقير، وجاهٍ صغير، فما آتانى الله من معرفته والغنى به خير مما آتاكم. ثم يقول للوارد بذلك: ارجع إليهم ـ أى: للنفس وجنودها ـ فلنأتينهم بجنود من الأنوار لا قِبَلَ لهم بها، ولنخرجنهم منها ـ أى: قرية القلب ـ أذلة وهم صاغرون. والله تعالى أعلم بأسرار كتابه.

ثم ذكر إتيان عرشها قبل إتيانها، فقال:

﴿ قَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ
مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ
عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَـٰذَا
مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى
غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا
جَآءَتْ قِيلَ أَهَـٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ ۚ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا
مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَـٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ
حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى
ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَـٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾

ولما أرادت بلقيس الخروج إلى سليمان، جعلت عرشها في آخر سبعة أبيات، وغلّقت الأبواب، وجعلت عليه حُراسًا يحفظونه، وبعثت إلى سليمان: إنى قادمة إليك؛ لأنظر ما الذى تدعو إليه، وشَخَصَتْ إليه فى اثنى عشر ألف قَيْلٍ(١)، تحت كل قَيْلٍ ألوفٌ، فلما بلغت على رأس فرسخ من سليمان، ﴿ قال يا أيها الملأُ أيُّكم يأتينى بعرشها قبل أن يأتونى مسلمين ﴾، أراد أن يريها بذلك بعض ما خصه الله تعالى به، من إجراء العجائب على يده، مع إطلاعها على عظيم قدرة الله تعالى، وعلى ما يشهد لنبوة سليمان. أو: أراد أن يأخذه قبل أن تتحصن بالإسلام، فلا يحل له، والأول أليق بمنصب النبوة، أو: أراد أن يختبرها فى عقلها، بتغييره، هل تعرفه أو تُنكره.

﴿ قال عِفْريتٌ من الجن ﴾، وهو المارد الخبيث، واسمه «ذكوان»، أو: «صَخْر»: ﴿ أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك ﴾ أى: من مجلسك إلى الحكومة، وكان يجلس إلى تُسع النهار، وقيل: إلى نصفه. ﴿ وإنى عليه ﴾؛ على حمله ﴿ لقوىٌّ أمين ﴾، آتى به على ما هو عليه، لا أُغيّر منه شيئا ولا أُبدله. فقال سليمان عليه السلام، أريد أعجل من هذا، ﴿ قال الذى عنده علم من الكتاب ﴾. قيل هو: آصف بن برخيا ـ وزير سليمان عليه السلام، كان عنده اسمُ الله الأعظم، الذى إذا سئل به أجاب. قيل هو: يا حىّ يا قيوم، أو: ياذا الجلال والإكرام، أو: ياإلهنا وإله كل شىء، إلهًا واحدا، لا إله إلا أنت. وليس الشأن معرفة الإسم، إنما الشأن أن يكون عين الإسم، أى: عين مسمى الإسم، حتى يكون أمره بأمر الله. وقيل: هو الخضر، أو: جبريل، أو: ملك بيده كتاب المقادير، أرسله تعالى عند قول العفريت. والأول أشهر(٢). قال: ﴿ أنا آتيك به قبل أن يرتدَّ إليك طرْفُك ﴾ أى: ترسل طرفك إلى شىء، فقبل أن ترده تُبصر العرش بين يديك.

رُوى: أنِ آصف قال لسليمان: مُدّ عينيك حتى ينتهى طرفك، فمدّ عينيه، فنظر نحو اليمن، فدعا آصف، فغار العرش فى مكانه، ثم نبع عند مجلس سليمان، بقدرة الله تعالى، قبل أن يرجع إليه طرفه. ﴿ فلما رآه ﴾ أى: العرش ﴿ مستقراً عنده ﴾؛ ثابتاً لديه غير مضطرب، ﴿ قال هذا ﴾ أى: حصول مرادى، وهو حضور العرش فى مدة قليلة، ﴿ من فضل ربى ﴾ علىّ، وإحسانه إلىّ، بلا استحقاق منى، بل هو فضل خالٍ من العوض، ﴿ ليبلُونى ﴾: ليختبرنى ﴿ أأشكرُ ﴾ نعمه ﴿ أم أكفُر، ومن شكَر فإنما يشكر لنفسه ﴾؛ لأنه يقيد به محصولها، ويستجلب به مفقودها، ويحط عن ذمته عناء الواجب، ويتخلص من وصمة الكفران. ﴿ ومن كفَرَ فإن ربي غنىٌّ كريم ﴾ أى: ومن كفر بترك الشكر، فإن ربى غنى عن شكره، كريم بترك تعجيل العقوبة إليه. وفى الخبر: «من شكر النعم فقد قيّدها بعقالها، ومن لم يشكر فقد تعرض لزوالها».

---

(١) القَيْل: الملك من ملوك اليمن فى الجاهلية، دون الملك الأعظم. وجمعه: أقيال وقيول. انظر اللسان (٥/٣٧٩٨، مادة قيل).
(٢) انظر هذه الأقوال فى تفسير الطبرى (١٩/١٦٢ ـ ١٦٣) وتفسير البغوى (٦/١٦٤).

وقال الواسطي: ما كان منّا من الشكر فهو لنا، وما كان منه من النعمة فهو إلينا، وله المنة والفضل علينا.هـ.

﴿ قال ﴾ سليمانُ عليه السلام لأصحابه: ﴿ نكّروا لها عرشها ﴾ أي: غيّروا هيئته بوجه من الوجوه، ﴿ ننظرْ أتهْتَدِي ﴾ لمعرفته، أو: للجواب الصواب إذا سئلت عنه، ﴿ أم تكون من الذين لا يهتدون ﴾ إلى معرفة عرشها. أو إلى الجواب الصواب.

﴿ فلما جاءتْ ﴾ بلقيسُ سليمانَ عليه السلام، وقد كان العرش بين يديه، ﴿ قيل ﴾ من جهة سليمان، أو بواسطة: ﴿ أهكذا عرشُكِ ﴾؟ ولم يقل: أهذا عرشك؛ لئلا يكون تلقيناً، فيفوت ما هو المقصود من اختبار عقلها، وقد قيل لسليمان ـ لما أراد تزوجها ـ: إن في عقلها شيئاً، فاختبرها بذلك. ﴿ قالت ﴾ ـ لما رأته ـ: ﴿ كأنه هو ﴾ فأجابت أحسن جواب، فلم تقل: هو هو، ولا: ليس به، وذلك من رجاحة عقلها، حيث لم تقل: هو هو، مع علمها بحقيقة الحال، ولما شبّهوا عليها بقولهم: أهكذا عرشك شبهت عليهم بقولها: ﴿ كأنه هو ﴾ مع أنها علمت بعرشها حقيقة، تلويحاً بما اعتراه بالتنكير من نوع مغايرة في الصفات مع اتحاد الذات، ومراعاة لحسن الأدب في محاورته عليه السلام. ولو قالوا: أهذا عرشك؟ لقالت: هو.

ثم قالت: ﴿ وأُوتينا العلم ﴾ بقدرة الله تعالى، وبصحة نبوتك ﴿ مِن قَبْلِها ﴾؛ من قَبل هذا الأمر، أي: من قبل هذه المعجزة التي شاهدنا الآن، من أمر الهدهد، وبما سمعناه من المنذر من الآيات الدالة على ذلك، ﴿ وكُنا مسلمين ﴾؛ منقادين لك من ذلك الوقت، وكأنها ظنت أنه أراد عليه السلام اختبار عقلها، وإظهار المعجزة، لتؤمن به، فأظهرت أنها آمنت به قبل وصولها إليه. أو قال سليمان: ﴿وأُوتينا العلم﴾ بالله تعالى وبكمال قدرته من قبل هذه الآية، ﴿وكنا مسلمين﴾؛ موحدين، أو: ﴿وأُوتينا العلم﴾ بإسلامها ومجيئها طائعةً ﴿من قبل﴾ مجيئها، ﴿وكنا مسلمين﴾ موحّدين.

﴿ وصدّها ما كانت تعبدُ من دون الله ﴾، هو من كلام سليمان، أي: وصدها عن العلم بما علمناه ـ أو: عن التقدم إلى الإسلام ـ عبادةُ الشمس وإقامتها بين ظهرانيْ الكفرة، أو: من كلام تعالى، بياناً لما كان يمنعها من إظهار ما ادعته من الإسلام الآن، أي: صدّها عن ذلك عبادتُها القديمة للشمس، ﴿ إنها كانت من قوم كافرين ﴾ أي: كانت من قوم راسخين في الكفر، ولذلك لم تكن قادرة على إظهار إسلامها، وهي بين ظهرانيهم، حتى دخلت تحت مَلكة سليمان عليه السلام، أو: وصدها الله تعالى، أو: سليمان، عما كانت تعبد من دون الله، فحذف الجار وأوصل الفعل.

﴿ قيل لها ادْخلي الصَّرْحَ ﴾ أي: القصر، أو: صحن الدار، ﴿ فلما رأته حسبَتْهُ لُجَّةً ﴾: ماء عظيماً، ﴿ وكشفتْ عن ساقيها ﴾. رُوي أن سليمان عليه السلام أمر قبل قدومها، فبُني له على طريقها قصر من زجاج

أبيض، وأجرى من تحته الماء، وألقى فيه السمك وغيره، ووضع سريره في صدره، فجلس عليه، وعكف عليه الطير والجن والإنس. وإنما فعل ليزيدها استعظامًا لأمره، وتحقيقًا لنبوته. وقيل: إن الجن كرهوا أن يتزوجها، فتفضي إليه بأسرارهم؛ لأنها كانت بنت جنّية. وقيل: خافوا أن يولد له منها ولد، فيجتمع له فطنة الجن والإنس، فيخرجون من مُلْكِ سليمان إلى مُلْكٍ أشدَّ منه، فقالوا له: إن في عقلها شيئاً، وهي شَعْراء الساقين، ورِجْلها كحافر الحمار، فاختبر عقلها بتنكير العرش، واتخذ الصرح ليتعرف ساقيها ورِجلها[1] فكشفت عنهما، فإذا هي أحسن الناس ساقاً وقدماً، إلا أنها شعراء، وصرف بصره. ثم ﴿قال﴾ لها: ﴿إنه صرح مُمَرَّد﴾؛ مملس مستو. ومنه: الأمرد، للذي لا شعر في وجهه، ﴿من قواريرَ﴾؛ من الزجاج، وأراد سليمان تزوجها، فكره شعرها، فعملت له الشياطين النورة، فنكحها سليمان، وأحبها، وأقرها على مُلكها، وكان يزورُها في الشهر مرة، فيقيم عندها ثلاثة أيام، وولدت له، وانقضى ملكها بانقضاء ملك سليمان عليه السلام، فسبحان من لا انقضاء لملكه.

رُوِي أنه مَلَك وهو ابن ثلاث عشرة سنة، ومات وهو ابن ثلاث وخمسين سنة.هـ.

ثم ذكر إسلامها، فقال: ﴿قالت ربِّ إني ظلمتُ نفسي﴾ بعبادة الشمس، ﴿وأسلمتُ مع سليمانَ﴾ تابعة له، مقتدية به، ﴿لله ربِّ العالمين﴾. وفيه الالتفات إلى الاسم الجليل، ووصفه بربوبيته للعالمين؛ لإظهار معرفتها بألوهيته تعالى، وتفرده باستحقاق العبادة، وربوبيته لجميع الموجودين، التي من جملتها: ما كانت تعبد قبل ذلك من الشمس. والله تعالى أعلم.

الإشارة: عرش النفس الذي تستقر عليه هو الدنيا، فمن أحب الدنيا وركن إلى أهلها، فقد أجلس نفسه على عرشها، وصيَّرها مالكة له، متصرفة فيه بما تُحب، ومن أبغض الدنيا وزهد في أهلها، فقد هدم لها عرشها، وصارت خادمة مملوكة له، يتصرف فيها كيف يشاء. فيقول الداعي إلى الله - وهو من أهّله الله للتربية - للمريدين: أيكم يأتيني بعرشها، ويَخرج عنها لله في أول بدايته؟ فمنهم من يأتي بها بعد مدة، ومنهم من يأتي بها أسرع من طرفة، على قدر القوة والعزم والصدق في الطلب، ومن أتى بعرش نفسه، وخرج عنها لله، فهو الذي آتاه الله علماً

---

(١) الواضح أن سليمان، عليه السلام أراد ببناء الصرح: أن يريها عظمة ملكه وسلطانه، وأن الله أعطاه من الملك ما لم يعطها، فضلاً عن النبوة، التي هي فوق الملك، وحاشا لسليمان ــ وهو الذي سأل الله أن يعطيه حكماً، يوافق حكمه، فأوتيه، أن يحتال لينظر إلى ساقيها، وهي أجنبية. وما نقل من روايات إنما هو من الإسرائيليات المكذوبة، لايصح القول بها.

قال الحافظ ابن كثير في تفسيره: (٣/٣٦٦) معقباً على رواية لابن أبي شيبة، في هذا الشأن: والأقرب في مثل هذه السياقات أنها متلقاة عن أهل الكتاب، مما وجد في صحفهم - كروايات كعب ووهب - سامحهما الله تعالى، فيما نقلاه إلي هذه الأمة، من أخبار بني إسرائيل، من الأوابد، والغرائب، والعجائب، مما كان، ومما لم يكن، ومما حرِّف، وبدل، ونسخ، وقد أغنانا الله سبحانه عن ذلك، بما هو أصح منه وأنفع وأوضح، ولله الحمد والمنة.

من الكتاب، وعرف مدلوله ومقصوده، لكن من السياسة أن يتدرج المريدُ في تركها شيئاً فشيئا، حتى يخرج عنها، أو يغيب عن شغلها بالكلية، وإن كانت بيده. فلما خرجوا عن عرش نفوسهم لله، وتوجهوا إليه، ورأى ذلك منهم، قال: هذا من فضل ربي، حيث وقعت الهداية على يدي، ليبلوني، أشكر أم أكفر.. الآية. قال نكّروا لها عرشها، أي: اعرضوا عليها الدنيا، وأرُوها عرشها التي كانت عليه، متغيراً عن حاله الأولى ـ لأنه كان معشوقًا لها، والآن صار ممقوتاً؛ لغناها بالله ـ ننظر أتهتدي إليه، وترجع إلى محبته، فيكون علامة على عدم وصولها، أم تكون من الذين لا يهتدون إليه أبداً، فتكون قد تمكنت من الأنس بالله، فلما جاءت وأظهر لها عرشها اختباراً، قيل: أهكذا عرشك؟ قالت: كأنه هو، وأوتينا العلم بالله من قبل هذه الساعة، وكنا منقادين لمراده، فلن نرجع إلى ماخرجنا عنه لله أبدا. وصدّها عن الحضرة ما كانت تعبد من الهوى، من دون محبة الله، إنها كانت من قوم كافرين، منكرين للحضرة، غير عارفين بها. قيل لها حين رحلت عن عرشها: ادخلي دارالحضرة، فلما رأت بحر الوحدة، يتموج بتيار الصفات، دهشت، وحسبته لُجةً، يغرق صاحبه في بحر الزندقة، قال لها رئيس البحرية ـ وهو شيخ التربية: إنه بحر منزه متصل، لا أول له، ولا آخر له. ليس مثله شيء، ولا معه شيء، محيط بكل شيء، وماحٍ لكل شيء. ثم اعترفت أنها ظالمة لنفسها، مشغولة بهواها، قبل أن تعرف هواه، فلما عرفته غابت عن غيره، واستسلمت وانقادت له. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر قصة صالح عليه السلام فقال:

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾

قلت: (ولقد أرسلنا): عطف على (ولقد آتينا داود...)الخ.

يقول الحق جل جلاله: ﴿و﴾ الله ﴿لقد أرسلنا إلى ثمودَ أخاهم﴾ نسباً ﴿صالحًا، أن اعبدوا الله﴾ أي: بأن اعبدوه وحده، ﴿فإذا هم فريقان يختصمون﴾ أي: ففاجئوا التفرق والاختصام، ففريق مؤمن به،

وفريق كافر، أو: يختصمون فيه، فكل فريق يقول: الحق معي. وقد فسر هذا الاختصام قوله تعالى في الأعراف: ﴿ قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ، قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴾(١). ﴿ قال ﴾ عليه السلام للفريق الكافر، بعد ما شاهد منهم ما شاهد؛ من نهاية العتو والعناد، حتى استعجلوا العذاب: ﴿ ياقوم لِمَ تستعجلون بالسيئة ﴾؛ بالعقوبة السيئة ﴿ قبلَ الحسنة ﴾ أي: التوبة الصالحة، فتؤخرونها إلى حين نزولها، حيث كانوا - من جهلهم وغوايتهم يقولون: إن وقع العذاب تُبنا حينئذ، وإلا فنحن على ما كنا عليه. أو: لِمَ تستعجلون بالعذاب قبل الرحمة، أو: بالمعصية قبل الطاعة، ﴿ لولا تستغفرون الله ﴾: هلا تطلبون المغفرة من كفركم بالتوبة والإيمان قبل نزوله، ﴿ لعلكم تُرحمون ﴾ بالإجابة قبل النزول، إذ لا قبول بعده، ﴿ قالوا اطَّيَّرنا بك ﴾؛ تشاءمنا بك ﴿ وبمن معك ﴾ من المؤمنين؛ لأنهم قُحِطوا عند مبعثه؛ لكفرهم، فنسبوه إلى مجيئه. والأصل: تطيرنا. وقرئ به، فأدغمت التاء في الطاء، وزيدت ألف وصل، للسكون.

﴿ قال ﴾ صالح عليه السلام: ﴿ طائرُكُم عند الله ﴾ أي: سببكم الذي به ينالكم ما ينالكم من الخير والشر عند الله، وهو قدره وقضاؤه، أو: عملكم مكتوب عند الله، فمنه نزل بكم ما نزل، عقوبة لكم وفتنة. ومنه: ﴿ وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ ﴾(٢) أي: ألزمناه جزاء عمله، أو: ما قدر له في عنقه، وأصله: أن المسافر كان إذا مرّ بطائر يزجره، فإن مر إلى جهة اليمين تيمن، وإن مر إلى ناحية الشمال تشاءم، فلما نسبوا الخير والشر إلى الطائر استعير لما كان سببهما من قدر الله وقسمته، أو: من عمل العبد الذي هو السبب في الرحمة والنقمة، ﴿ بل أنتم قوم تُفتنون ﴾: تختبرون بتعاقب السراء والضراء، أو: تعذبون، أو: يفتنكم الشيطان بوسوسته إليكم الطيرة. قال - عليه الصلاة والسلام -: «لا عدوى ولا طِيَرة»(٣) وقال أيضا: «إذا تطيرت فلا ترجع»(٤). والله تعالى أعلم.

الإشارة: سِيَر أهل التربية مع أهل زمانهم كسير الأنبياء مع أممهم، إذا بعثهم الله إلى أهل زمانهم اختصموا فيهم، ففريق يصدق وفريق يكذب، فيطلبون الكرامة والبرهان، ويتطيرون بهم وبمن تبعهم، إن ظهرت بهم قهرية من عند الله، كما رأينا ذلك كله. وبالله التوفيق.

---

(١) الآيتان: ٧٥ - ٧٦ من سورة الأعراف. (٢) من الآية ١٣ من سورة الإسراء.

(٣) أخرجه البخاري في (الطب، باب الطيرة، ح ٥٧٥٣) ومسلم في (السلام، باب الطيرة والفأل ٤/١٧٤٧، ح ٢٢٢٥) من حديث عبدالله بن عمر رضي الله عنهما.

(٤) قال ابن حجر في الفتح (١٠/٢٢٤): أخرج عبدالرزاق عن معمر عن إسماعيل بن أمية عن النبي ﷺ: «ثلاثة لا يسلم منهن أحد: الطيرة، والظن، والحسد، فإذا تطيرت فلا ترجع، وإذا حسدت فلا تبغ، وإذا ظننت فلا تحقق» وهذا مرسل أو معضل، لكن له شاهد من حديث أبي هريرة، أخرجه البيهقي في الشعب. هـ.

ثم ذكر اهتمامهم بقتل صالح وهلاكهم، فقال:

﴿ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وكان في المدينة ﴾؛ مدينة ثمود، وهي الحجر، ﴿ تسعةُ رَهْطٍ ﴾ أي: أشخاص، وهو جمع لا واحد له، فلذا جاز تمييز التسعة به، فكأنه قيل: تسعة أنفس، وهو من الثلاثة إلى العشرة، وكان رئيسهم «قدار بن سالف» وهم الذين سعوا في عقر الناقة، وكانوا أبناء أشرافهم ومن عتاتهم، ﴿ يفسدون في الأرض ﴾ أي: في المدينة، إفساداً لا يخالطه شيء من الصلاح أصلا، ﴿ ولا يُصلِحُون ﴾ يعني: إن شأنهم الإفساد المحض، الذي لا صلاح معه. وعن الحسن: يظلمون الناس، ولا يمنعون الظالمين عن الظلم. وعن ابن عطاء: يتبعون معايب الناس، ولا يسترون عوراتهم.

﴿ قالوا تقاسموا بالله ﴾: استئناف لبيان بعض فسادهم. و (تقاسموا): إما أمر مقول لقالوا، أي: تحالفوا أمر بعضهم بعضا بالقسم على قتله. وإما خبر حال، أي: قالوا متقاسمين. ﴿ لنُبَيِّتَنَّهُ ﴾: لنقتلنه بياتاً، أي: ليلاً، ﴿ وأهلَه ﴾: ولده ونساءه، ﴿ ثم لنقولن لوليِّه ﴾ أي: لوليّ دمه: ﴿ ماشهِدْنا مهْلِكَ أهله ﴾ أي: ما حضرنا هلاكهم، أو: وقت هلاكهم. أو: مكانه فضلاً أن نتولى إهلاكهم، ﴿ وإنا لصادقون ﴾ فيما ذكرناه. وهو إما من تمام المقول، أو: حال، أي: نقول ما نقول والحال أنا صادقون في ذلك؛ لأن الشاهد للشيء غير المباشر له عرفا. ولأنا ما شهدنا مهلك أهله وحده، بل مهلكه ومهلككم جميعاً، كقولك: ما رأيت ثمّ رجلاً، أي: بل رجلين. ولعل تحرجهم من الكذب في الأيْمان مع كفرهم؛ لِما تعودوا من تعجيل العقوبة للكاذب في القسامة، كما كان أهل الشرك مع البيت الحرام في الجاهلية. وكان تقاسمهم بعد أن أنذرهم بالعذاب، وبعد قوله: ﴿ تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ﴾(١).

(١) من الآية ٦٥ من سورة هود.

قال تعالى: ﴿ ومكروا مكراً ﴾ بهذه المواضع، ﴿ ومكرنا مكراً ﴾؛ أهلكناهم إهلاكاً غير معهود، ﴿ وهم لا يشعرون ﴾ أى: من حيث لا يحتسبون، فمكرهم: هو ما أخفوه من تدبير الفتك بصالح عليه السلام وأهله. ومكر الله: إهلاكهم من حيث لا يشعرون. ﴿ فانظر كيف كان عاقبةُ مكرهم ﴾ أى: فتفكر فى أنه كيف كان عاقبة مكرهم. فسره بقوله: ﴿ أنَّا دمرناهم ﴾ : أهلكناهم بالصيحة ﴿ وقومَهم ﴾ الذين لم يكونوا معهم فى التبييت ﴿ أجمعين ﴾. رُوى أنه كان لصالح مسجد فى شِعْبٍ يُصلّى فيه. فقالوا: زعم صالح يفرع منا إلى ثلاث، وقد رأى علامة ذلك، فنحن نفرغ منه ومن أهله قبل الثلاث، فخرجوا إلى الشعب، وقالوا: إذا جاء يصلى قتلناه، ثم رجعنا إلى أهله فقتلناهم، فبعث الله تعالى صخرة من الهَضب التى حِيالهم(١)، فبادروا، فأطبقت الصخرة عليهم فم الشعب، فلم يدر قومهم أين هم، ولم يدروا ما فُعِل بقومهم، وعذّب الله كلاً فى مكانه ونجى صالحاً ومن معه.

وقال ابن عباس: أرسل الله الملائكة ليلاً، فامتلأت بهم دار صالح، فأتى التسعة إلى دار صالح، شاهرين السيوف، فقتلتهم الملائكة بالحجارة يرون الحجارة، ولا يرون رامياً(٢) ..هـ. ويمكن الجمع بأن بعضهم مات تحت الصخرة، وبعضهم أتى إلى دار صالح فقتل.

قال تعالى: ﴿ فتلك بُيوتُهمْ خاويةً ﴾؛ ساقطة متهدمة، من: خوى النجم: إذا سقط. أو: خالية من السكان، ﴿ بما ظلموا ﴾؛ بسبب ظلمهم. ﴿ إن فى ذلك ﴾ أى: فيما ذكر من التدمير العجيب ﴿ لآيةً لقوم يعلمون ﴾ قدرتنا، فيتعظون.

﴿ وأنجينا الذين آمنوا ﴾ أى: صالحاً ومن معه من المؤمنين، ﴿ وكانوا يتقون ﴾ الكفر والمعاصى، اتقاء مستمراً، ولذلك نجوا مع صالح. قال مقاتل: لما وقت لهم صالح العذاب إلى ثلاث، خرج أول يوم على أبدانهم مثل الحمّص أحمر، ثم اصفر من الغد، ثم اسود من اليوم الثالث. ثم تفقأت، وصاح جبريل فى خلال ذلك، فخمدوا، وكانت القرية المؤمنة الناجية أربعة آلاف، خرج بهم صالح إلى حضرموت، فلما دخلها مات صالح، فسميت حضرموت.هـ. والله تعالى أعلم.

الإشارة: وكان فى مدينة القلب تسعَ علل، يُفسدون فيها ولا يُصلحون، وهى حب الدنيا، وحب الرئاسة، والحسد. والكبر، والحقد، والعجب، والرياء، والمداهنة، والبخل، هم أفسدوا قلوب الناس، وتقاسموا على هلاكها، ومكروا بهم حتى زيّنوا لهم سوءَ عملهم، ومكر الله بهم، فدفعهم ودمّرهم عن قلوب الصالحين، فتلك بيوتهم خاوية منها، أخرجهم منها، بسبب ظلمهم لها.

---

(١) حياله: إزاءه.		(٢) انظر تفسير البغوى (٦/ ١٧٠).

وقال القشيري على قوله: ﴿ ومكروا مكراً... ﴾ الآية: مَكْرُ الله: جزاؤهم على مَكْرِهم، بإخفاء ما أراد منهم من العقوبة، ثم إحلالها بهم بغتةً.هـ. وقال الورتجبي: حقيقة المكر: امتناع سر الأزلية عن مطالعة الخليقة، فإذا كان كذلك من ينجو من مَكْره، والحدث لا يطلع على سوابق علمه في القِدم، فمَكْره وقهره صفتان من صفاته، لا تفارقان ذاته، وذاته أبدية، انظر تمامه. قلت: ومعنى كلامه: أن مكر الله في الجملة: هو إخفاء السر الأزلي - وهو القضاء والقدر - عن مطالعة الخلق، فلا يدرى أحد ما سبق له في العلم القديم، وإذا كان كذلك فلا ينجوا أحد من مكره؛ إذ الحدث لا يطلع على سوابق العلم القديم، إلا من اطلع عليه بوحي، كالأنبياء، أو بنص صريح منهم، كالمبشرين بالجنة، ومع ذلك: العارف لا يقف مع وعد ولا وعيد؛ إذ قد يتوقف على شرط وأسباب خفية، ولذلك قيل: العـــارف لا يسكن إلى الله. قـاله في لطائف المنن، أيّ: لا يسكُن إلى وعد الله ولا وعـيده، فـلا يزول اضـطراره، ولا يكون مع غير الله قراره.

وقال القشيري - على قوله: ﴿ فتلك بيوتهم خاوية.. ﴾، في الخبر: «لو كان الظلم بيتاً في الجنة لسلط الله عليه الخراب».هـ. قلت: فكل من اشتغل بظلم العباد، فعن قريب ترى دياره بلاقع(١)، كما هو مجرب. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر قصة لوط - عليه السلام - فقال:

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ ۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾

قلت: (ولوطا): عطف على (صالحا) داخل معه في القسم، أي: ولقد أرسلنا صالحا ولوطا. و(إذ قال): ظرف للإرسال، أو: منصوب باذكر، و(إذ قال): بدل من (لوط).

(١) البلقع: الأرض القفر، التي لا شيء فيها، والخالي من البرية. انظر اللسان (١/٣٤٨، مادة: بلقع)

يقول الحق جل جلاله: ﴿ و ﴾ لقد أرسلنا ﴿ لوطًا ﴾، أو: واذكر لوطا ﴿ إِذْ قال لقومه ﴾ أى: وقت قوله لهم: ﴿ أتأتونَ الفاحشةَ ﴾ أى: الفعلة المتناهية فى الفُحش والسماجة، ﴿ وأنتم تُبصرون ﴾ أى: والحالة أنكم تعلمون علماً يقينيا أنها فاحشة، لم تُسبَقوا إليها. والجملة الحالية تفيد تأكيد الإنكار، فإنّ تعاطىَ القبيح من العالِم بقُبحه أقبح وأشنع، ولذلك ورد فى الخبر: «أشدُّ الناس عذاباً يوم القيامةِ عالِمٌ لم ينفَعْهُ الله بعلْمه»(١). وقال الفخر: لا تصدر المعصية من العالم قط وهو عالم، وحين صدورها منه هو جاهل؛ لأنه رجح المرجوح، وترجيح المرجوح جهل، ولذلك قال: ﴿بل أنتم قوم تجهلون﴾.هـ. وفى الحديث: «لا يَزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن»(٢). إذ لو صدّق باطلاع الحق عليه ما قدر على الزنى، لكنه جهل ذلك. و﴿تُبصرون﴾، من: بصر القلب. وقيل: يُبصر بعضُكم بعضا؛ لأنهم كانوا يرتكبونها فى ناديهم، معلنين بها، لا يستتر بعضهم من بعض، مَجانةً وانهماكًا فى المعصية، أو: تُبصرون آثار العصاة قبلكم، ومانزل بهم.

﴿ أئنكم لتأتون الرجالَ شهوةً ﴾ أى: للشهوة ﴿ من دون النساء ﴾ أى: إن الله تعالى إنما خلق الأنثى للذكر، ولم يخلق الذكر للذكر، ولا الأنثى للأنثى، فهى مضادة لله تعالى فى حكمته، فلذلك كانت أشنع المعاصى، ﴿ بل أنتم قوم تجهلون ﴾؛ تفعلون فعل الجاهلين بقُبحها، أو: تجهلون العاقبة. أو: بمعنى السفاهة والمجون، أى: بل أنتم سُفهاء ماجنون. والتاء فيه ـ مع كونه صفة لقوم؛ لكونهم فى حيز الخطاب. وكذا قوله: ﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴾(٣)، غلّب الخطاب على الغيبة. قال ابن عرفة: «بل»: للانتقال، والانتقال فى باب الذم إنما يكون عن أمر خفيف إلى ما هو أشد منه، وتقرير الأشدّية هنا: أن المضروب عنه راجع للقوة الحسية العملية، وهى منقطعة تنقضى بانقضاء ذلك الفعل، والثانى راجع للقوة العلمية، وهى دائمة؛ لأن العلم بالشىء دائم، والعمل به منقطع غير دائم.هـ.

﴿ فما كان جوابَ قومه ﴾ حين نهاهم عن تلك الفاحشة ودعاهم إلى الله، ﴿ إلا أن قالوا أَخرِجوا آلَ لوط ﴾ أى: لوطاً ومتبعيه ﴿ من قريتكم، إنهم أُناس يتطهرون ﴾؛ يتنزهون عن أفعالنا، أو: عن القاذورات، ويعدون فعلنا قذرا. وعن ابن عباس: إنه استهزاء، كقوله: ﴿ إِنَّكَ لأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴾(٤).

---

(١) رواه الطبرانى فى المعجم الصغير (١/١٨٢ ـ ١٨٣) والبيهقى فى الشعب (ح ٧٧٧٨)، من حديث أبى هريرة ـ رضي الله عنه. والحديث ضعّفه السيوطى فى الجامع الصغير (ح ١٠٥٣).

(٢) جزء من حديث أخرجه البخارى فى (المظالم، باب النُّهبى بغير إذن صاحبها، ح ٢٤٧٥) ومسلم فى (الإيمان، باب بيان نقصان الإيمان بالمعاصى ١/٧٦ ح ١٠٠) من حديث أبى هريرة رضي الله عنه.

(٣) من الآية ٤٧ من سورة النمل. (٤) الآية ٨٧ من سورة هود.

﴿ فأنجيناه ﴾: فخلّصناه من العذاب الواقع بالقوم، ﴿ وأهلَه إلا امرأتَه قدرناها ﴾ بالتشديد والتخفيف، أى: قدرنا أنها ﴿ من الغابرين ﴾ ؛ الباقين فى العذاب. ﴿ وأمطرنا عليهم مطراً ﴾ غير معهود؛ حجارة مكتوب عليها اسم صاحبها، ﴿ فساءَ ﴾ : قَبُحَ ﴿ مطرُ المنذَرِين ﴾ الذين لم يقبلوا الإنذار. وقد مرّ كيفية ما جرى بهم غير مرة. والله تعالى أعلم.

الإشارة : ما أنكر لوط على قومه إلا غلبة الشهوة على قلوبهم، والانهماك فى غفلتهم، فرجعت إلى معصية القلوب، وهى أشد من معصية الجوارح؛ لأن معصية الجوارح إذا صحبتها التوبة والانكسار، عادت طاعة، بخلاف معصية القلوب؛ فإنها تنطمس بها أنوار الغيوب، فلا يزيد صاحبها إلا البُعد والطرد، والعياذ بالله.

ثم أمر رسوله محمداً ﷺ بالتحميد، ثم بالسلام على عباده المرسلين؛ توطئة لما يتلوه من الدلالة على وحدانيته تعالى، وقدرته على كل شيء، وهو تعليم لكل متكلم فى كل أمر ذى بال، بأن يبتدئ فى خطبته بحمد الله، والثناء على رسله، فقال:

﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله لنبيه ـ عليه الصلاة والسلام ـ: ﴿ قل الحمدُ لله ﴾ على ما أنعم به عليك من فنون النعمِ، ومن جملتها: اطلاعك على أسرار علم غيوبه، ﴿ وسلامٌ على عباده الذين اصطفى ﴾ لرسالته. وقال ابن عباس وسفيان: هم أصحاب محمد ﷺ، اصطفاهم بصحبته ـ عليه الصلاة والسلام ـ وقال الكلبى: هم أمة محمد ﷺ، اصطفاهم الله لمعرفته وطاعته. ثم قل لهم إلزاماً للحجة: ﴿ آللهُ خيرٌ أمَّا تُشركون ﴾(١) أى: آلله الذى ذكرت شئونه العظيمة خير، أم ما تشركونه معه تعالى من الأصنام؟ ومرجع الترديد إلى التعرض بتبكيت الكفرة، وتسفيه آرائهم الركيكة، والتهكم بهم؛ إذ من البيِّن أن ليس فيما أشركوه به تعالى شائبة خير، حتى يمكن أن يوازن بينه وبين من لا خير إلا خيره، ولا إله غيره.

وكان عليه الصلاة والسلام إذا قرأها قال: «بلِ الله خيرٌ، وأبْقَى، وأجلُّ، وأكْرَمُ»(٢).

(١) قرأ عاصم، وأبو عمرو، ويعقوب: «يشركون» بالياء. وقرأ الباقون: «تُشركون» بالخطاب... انظر الإتحاف (٢/٣٣٢).
(٢) قال الحافظ ابن حجر: كذا ذكره الثعلبى بغير إسناد. انظر الكافى الشاف على هامش الكشاف (٣/٣٧٥).

ثم عدَّد سبحانه الخيرات والمنافع، الدالة على انفراده بالخيرية، فقال: ﴿ أمَّن خلَق السموات والأرض ﴾، «أم» هنا: منقطعة، بخلاف ﴿ أمَّا تشركون ﴾ أى: بل أمَّن خلق العالم العلوى والسفلى، وأفاض من كل واحد ما يليق به من الخيرات، خير، أم جماد لا يقدر على شيء؟ فمن: مبتدأ، وخبرها: محذوف مع «أم» المعادلة للهمزة، كما قررنا.

﴿ وأنزل لكم من السماء ماءً ﴾ ـ مطراً ﴿ فأنبتنا ﴾، التفت من الغيبة إلى التكلم؛ تأكيداً لمعنى اختصاص الفعل به تعالى، وإيذاناً بأن إنبات الحدائق المختلفة الأصناف والألوان، والطعوم والأشكال، مع بهجتها، بماء واحد، لا يقدر عليه غيره، أى: فأخرجنا ﴿ به حدائقَ ﴾: بساتين، فالحديقة: بستان عليه حائط، من: الإحداق، وهو الإحاطة، ﴿ ذاتَ بهجة ﴾ أى: ذات حُسن ورونق، تبتهج به النظار، ولم يقل: ذوات؛ لأن المعنى: جماعة حدائق، كما تقول: النساء ذهبت. ﴿ ما كان لكم ﴾؛ ما صح وما أمكن لكم ﴿ أن تُنبتوا شجرها ﴾ فضلاً عن ثمارها وسائر صفاتها البديعة المبهجة، ﴿ أإلهٌ مع الله ﴾؟ أى: أإله كائن مع الله، الذى ذكرت أفعاله، التى لا يقدر عليها غيره، حتى يُتوهم جعله شريكاً له تعالى فى العبادة؟ أو: أإله مع الله يفعل ذلك؟ ﴿ بل هم قوم يَعْدِلون ﴾: بل هم قوم عادتهم العدول عن طريق الحق بالكلية، والانحراف عن الاستقامة فى كل أمر من الأمور، فلذلك يفعلون ما يفعلون من الإشراك والجرائم، أو: يعدلون به غيره فيُشركونه معه. والله تعالى أعلم.

الإشارة: قل الحمد لله، الذى كشف الحجب عن قلوب أوليائه، وسلام على عباده الذين اصطفاهم لحضرته، آلله خير، أى: أشهود الله وحده فى الوجود خير، أم شهود الغير معه؟، فتشركون فى توحيدكم. أمن خلق سموات أرواحكم، وهيأها لشهود الربوبية، وخلق أرض نفوسكم، وهيأها لآداب العبودية، وأنزل لكم من سماء الغيوب ماء الواردات الإلهية، فأنبتنا به فى قلوب العارفين بساتين المعرفة، ذات بهجة ونزهة؟ ما كان لكم، وفى طوقكم، أن تُنبتوا فى قلوبكم شجر المعرفة، ولا ثمار المحبة، أإله مع الله يمنّ عليكم بذلك؟، بل هم قوم يعدلون عن طريق الوصول إلى هذه البساتين البهية؛ لأنها محفوفة بالمكاره النفسية، لا يقدر على سلوكها إلا الشجعان، أهل الهمم العلية. وبالله التوفيق.

ثم ذكر نوعاً آخر من دلائل توحيده، فقال:

﴿ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿أمَّن جعلَ الأرضَ قرارًا﴾ أي: قارة ثابتة، ليستقر عليها الإنسان والدواب، بإظهار بعضها من الماء، ودحوها وتسويتها، حسبما يدور عليه منافعهم. ﴿وجعل خِلالها﴾؛ أواسطها ﴿أنهارًا﴾ جارية ينتفعون بها، ﴿وجعل لها رواسيَ﴾ أي: جبالاً ثوابت، تمنعها أن تميد بأهلها، ولتتكون فيها المعادن، وينبع من حضيضها المنابع. ﴿وجعل بين البحرين﴾ أي: العذب والمالح، أو: خليجي فارس والروم ﴿حاجزًا﴾؛ برزخًا مانعاً من الممازجة والمخالطة، ﴿أإله مع الله﴾ في الوجود، أو: في إبداع هذه البدائع؟ ﴿بل أكثرهم لايعلمون﴾ شيئاً من الأشياء، ولذلك لا يفهمون بطلان ما هم عليه من الشرك مع كمال ظهوره.

الإشارة: أم من جعل أرض النفوس قراراً، لتستقر عليها أحكام العبودية، وتتصرف فيها أقدار الربوبية، وجعل خلالها أنهاراً من علوم الشرائع، وما يتعلق بعالم الحكمة من الحِكَم والأحكام، وجعل لها جبالاً من العقل لتعرف صانعها ومدبرها، وجعل بين بحر الحقيقة والشريعة حاجزاً وبرزخا، وهو نور العقل؟ فما دام العقل صاحياً ميّز بين الحقيقة والشريعة، فيلزمه التكليف، ويعطي كل ذي حق حقه. فإذا سكر وغاب نوره سقط التكليف. وقد تُشرق على نور قمر العقل شمسُ العرفان، فتغطيه مع وجود صحوه، فيميز بين الحقائق والشرائع، وتكون عباداته أدباً وشكرا. وبالله التوفيق.

ثم ذكر نوعاً آخر، فقال:

﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾

قلت: الاضطرار: الافتعال من الضرورة، وهي الحاجة المحوجة إلى اللجأ، يقال: اضطره إلى كذا، واسم الفاعل والمفعول: مضطر، ويختلف التقدير.

يقول الحق جل جلاله: ﴿أمَّن يُجيبُ المُضطَّر إذا دعاه﴾، وهو من نزلت به شدة من شدائد الزمان، ألجأته إلى الدعاء والتضرع، كمرض، أو فقر، أو نازلة من نوازل الدهر ونوائبه، أو: المذنب إذا استغفر مبتهلاً، أو: المظلوم إذا دعا، أو: من رفع يديه، ولم ير لنفسه حسنة يرجو بها القبول غير التوحيد، وهو منه على خطر، فهذه أنواع المضطر. وإجابة دعوته مقيدة بالحديث: «الدّاعِي علّى ثَلاث مراتب، إما أن يُعجل له ما طلب، وإما أن

يدخر له أفضل منه، وإما أن يدفع عنه من السوء مثله»(١). وأيضا: إذا حصل الاضطرار الحقيقى حصلت الإجابة قطعاً، إما بعين المطلوب، أو بما هو أتم منه، وهو الرضا والتأييد. ﴿ ويكشفُ السُّوءَ ﴾ وهو الذى يعترى الإنسان مما يسوؤه، كضرر أو جور، ﴿ ويجعَلُكم خُلفاءَ الأرض ﴾ أى: خلفاء فيها، تتصرفون فيها كيف شئتم، بالسكنى وغيره، وراثة عمن كان قبلكم من الأمم، قرناً بعد قرن. أو: أراد بالخلافة: الملك والتسلط. ﴿ أإله مع الله ﴾ الذى يفيض على الخلق هذه النعم الجسام، يمكن أن يعطيكم مثلها ؟ ﴿ قليلا ما تذكَّرون ﴾(٢) أى: تذكرا قليلا، أو: زماناً قليلاً تتذكرون فيه. و«ما» : مزيدة، لتأكيد معنى القلة، التى أريد بها العدم، أو: ما يجرى مجراه فى الحقارة وعدم الجدوى. وتذييل الكلام بنفى عدم التذكر منهم إيذان بأن وجود التذكر مركوز فى ذهن كل ذكى، وأنه من الوضوح بحيث لا يتوقف إلا على التوجه إليه وتذكره. والله تعالى أعلم.

الإشارة: الاضطرار الحقيقى الذى لا تتخلف الإجابة عنه فى الغالب: هو أن يكون العبد فى حال شدته كالغريق فى البحر وحده، لا يرى لغياثه غير سيده. وقال ذو النون: هو الذى قطع العلائق عما دون الله. وقال سهل بن عبد الله: هو الذى رفع يديه إلى الله تعالى داعياً، ولم تكن له وسيلة من طاعة قدّمها.هـ. بل يقدم إساءته بين يديه، ليكون دعاؤه بلا شىء يستحق عليه الإجابة، إلا من محض الكرم.

قال القشيرى: يقال للجناية: سراية، فمَن كان فى الجناية مختاراً، فليس يسلم له دعوى الاضطرار عند سراية جرمه الذى سلف، وهو فى فى ذلك مختار، فأكثر الناس أنهم مضطرون، وذلك الاضطرار سراية ما بَرَزَ منهم فى حال اختيارهم، ومادام العبد يتوهم من نفسه شيئاً من الحَوْلِ والحِيل، ويرى لنفسه شيئاً من الأسباب يعتمد عليه، ويستند إليه، فليس بمضطر، إلا أن يرى نفسه كالغريق فى البحر، والضَّالّ فى المتاهة. والمضطر يرى غِيَاثَه بيد سيِّدِه، وزِمَامَه فى قبضته، كالميت فى يد غاسلِه، ولا يرى لنفسه استحقاقاً فى أن يجاب، بل اعتقاده فى نفسه أنه من أهل السخط، ولا يقرأ اسمه فى ديوان السعادة، ولا ينبغى للمضطر أن يستعين بأحدٍ فى أن يدعو له؛ لأن الله وَعَدَ الإجابة له؛ لا من يدعو له.هـ. وبحث معه المحشى الفاسى فى بعض ألفاظه، فانظره.

قوله تعالى: ﴿ويكشف السُّوء﴾. أى: ما يسوء القلب ويحجبه عن مولاه، من أكدار وأغيار، وقوله: (ويجعلكم خلفاء الأرض) أى: تتصرفون فى الوجود بأسره، بهمتكم، إن زال غم الحجاب عنكم، وشاهدتم ربكم بعين

---

(١) جاء بلفظ: «ما من مسلم يدعو بدعوة ليس فيها إثم، ولا قطيعة رحمٍ، إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاثٍ؛ إما أن يُعجل له دعوته، وإما أن يدخرها له فى الآخرة، وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها..» الحديث، أخرجه أحمد فى المسند (١٨/٣) والحاكم (٤٩٣/١) وصححه، ووافقه الذهبى، والبزار (كشف الأستار، ح٣١٤٣، ٣١٤٤) من حديث أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه.
(٢) قرأ حفص، وحمزة، والكسائى «تذكرون» بتخفيف الذال. انظر الإتحاف (٣٣٢/٢).

بصيرتكم وبصركم؛ لأن نور البصيرة إذا استولى على البصر، بعد فتح البصيرة، غطى نوره، فلا يرى البصر إلا ما تراه البصيرة؛ من أسرار الذات الأزلية القديمة. فمن بلغ هذا المقام كان خليفة الله فى أرضه، يُملكه الوجود بأسره، وما ذلك على الله بعزيز.

ثم ذكر نوعاً آخر من دلائل توحيده، فقال:

﴿ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ أمَّن يهديكم فى ظلمات البرّ والبحر ﴾ ليلاً، وبعلامات فى الأرض نهاراً؟. أو: أمَّن يهديكم إلى سلوك الطريق التى تُوصلكم إلى مقصدكم، وأنتم فى ظلمات الليل، سواء كنتم فى البر أو البحر؟ فلا هادى إلى ذلك إلا الله تعالى. ﴿ ومن يُرسل الرياح ﴾، أو بالإفراد. ﴿ نُشرا ﴾(١) بالنون - أى: تنشر السحاب إلى الموضع الذى أمر الله بإنزال المطر فيه، أو ﴿ بشرا ﴾ - بالباء - أى: مبشرة بالمطر، ﴿ بين يدي رحمته ﴾؛ قدَّام المطر، علامة عليه، ﴿ أإله مع الله ﴾ يفعل ذلك؟ ﴿ تعالى الله عما يُشركون ﴾. وإظهار الاسم الجليل فى موضع الإضمار للإشعار بعلِّية الحُكم، أى: تعالى الله وتنزّه بذاته المنفردة بالألوهية، المقتضية لكون كل المخلوقات مقهوراً تحت قدرته، عن وجود ما يشركونه به تعالى.

الإشارة: أمَّن يهديكم إلى حل ما أشكل عليكم، وأظلمت منه قلوبكم، من علم بَر الشرائع. وبحر الحقائق، فيهديكم فى الأول إلى كشف الحق والصواب، وفى الثانى إلى كشف الغطاء ورفع الحجاب، أو: فى الأول إلى علم البيان، وفى الثانى إلى عين العيان بالذوق والوجدان. أو: فى الأول إلى علم اليقين، وفى الثانى إلى عين اليقين وحق اليقين. ومَن يُرسل رياح الواردات الإلهية، بشارة بين يدى رحمته بالوصول إلى حضرته، وهو التوحيد الخاص. ولذلك ختمه بقوله: ﴿تعالى الله عما يُشركون﴾ من رؤية وجود السِّوى.

---

(١) قرأ عاصم «الرياح» بالجمع و«بُشرا» بالباء المضمومة مع إسكان الشين، وقرأ نافع، وأبو عمرو، وأبو جعفر، ويعقوب، بالجمع، و«نشرا» بضم النون والشين. وقرأ ابن كثير بإفراد الريح، وضم النون والشين من «نشرا». راجع الإتحاف (٢/٣٣٢).

ثم ذكر نوعاً آخر، فقال:

﴿ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾

قلت: «من»: إما فاعل بيعلم، و«الغيب»: بدل منه، و«الله»: مفعول، و«إلا الله»: بدل، على لغة تميم، أي: إبدال المنقطع، وإما مفعول بيعلم، و«الغيب» بدل منه و(الله): فاعل، والاستثناء: مفرغ.

يقول الحق جل جلاله: ﴿أمَّن يبدأُ الخلقَ﴾ أي: ينشيء الخلق ﴿ثم يُعيده﴾ بعد الموت بالبعث. وإنما قيل لهم: ﴿ثم يُعيده﴾ وهم منكرون للإعادة؛ لأنهم أزيحتْ شبهتهم بالتمكن من المعرفة، والإقرار، فلم يبقَ لهم عذرٌ في الإنكار. ﴿ومن يرزقكم من السماء﴾ بالمطر ﴿والأرض﴾ أي: ومن الأرض بالنبات، أي: يرزقكم بأسباب سماوية وأرضية، قد رتبها على ترتيب بديع، تقتضيه الحكمة التى عليها بنى أمر التكوين، ﴿أإله مع الله﴾ يفعل ذلك؟ ﴿قل هاتُوا بُرهانَكم﴾ أي: حجتكم، عقلية أو نقلية، على إشراككم، ﴿إن كنتم صادقين﴾ في دعواكم أن مع الله إلهاً آخر.

﴿قل لا يعلم مَنْ في السموات والأرضِ الغيبَ إلا اللهُ﴾، بعد ما حقق سبحانه انفراده بالألوهية، ببيان اختصاصه بالقدرة الكاملة والرحمة الشاملة، عقَّب بذكر ما هو من لوازمه، وهو اختصاصه بعلم الغيب، تكميلاً لما قبله، وتمهيداً لما بعده من أمر البعث. قالت عائشة ـ رضى الله عنها ـ: (منْ زَعَمَ أنَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى غَدٍ، فَقَدْ أعْظَمَ علَى اللهِ الفِرْيَةَ، والله تعالى يقول: ﴿قل لا يعلم من فى السموات والأرض الغيبَ إلا الله﴾).

دخل على الحجاج مُنجِّم، فأخذ الحجاج حصياتٍ، قد عدَّها، فقال للمنَجِّم: كم في يدى؟ فحسب، فأصاب، ثم اغتفله الحجاجُ، فأخذ حصيات لم يعدها، فقال للمنجم: كم في يدى؟ فحسب، فأخطأ، فقال: أيها الأمير أظنك لاتعرف عددها في يدك، فقال: ما الفرق بينهما؟ فقال: إن ذلك أحصيتَه فخرج من حَد الغيب، فحسبتُ فأصبتُ، وإن هذا لم تعرف عدته، فصار غيباً، ولا يعلم الغيب إلا الله تعالى.

ومن جملة الغيب: قيام الساعة، ولذلك قال: ﴿وما يشعرون أيّان يُبعثون﴾ أي: متى ينتشرون من القبور، مع كونه مما لابد لهم منه، ومن أهم الأمور عندهم. والله تعالى أعلم.

الإشارة: الرزق ثلاثة: رزق الأشباح، ورزق القلوب، ورزق الأرواح، فرزق الأشباح معلوم، ورزق القلوب: اليقين والطمأنينة، ورزق الأرواح: المشاهدة والمكالمة. قُل من يرزق قلوبكم وأرواحكم من سماء غيب القدرة وأرض الحكمة؟ فلا رازق سواه، ولا برهان على وجود ما سواه، ولا يعلم الغيب إلا الله. أو: من كان وجوده بالله قد غاب فى نور الله، فشهِدَ الغيب بالله. والله تعالى أعلم.

ولمّا نَفَى عنهم علم الغيب، والشعور بمآلهم، أضرب عنه، وبيّن أن ما تناهى فيه أسباب العلم به، وهو مجىء القيامة، لم يحصل لهم به يقين، فضلاً عن غيره، فقال:

﴿ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلۡمُهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّنۡهَاۖ بَلۡ هُم مِّنۡهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾
وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبٗا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخۡرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدۡ وُعِدۡنَا هَٰذَا نَحۡنُ
وَءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾

قلت: قرأ الجمهور: «ادّارَكَ» بالمد، وأصله: تدارك، فأدغمت التاء فى الدال، ودخلت همزة وصل. وقرأ عاصم فى رواية أبى بكر: «ادّرك»، وأصله: افتعل، بمعنى تفاعل. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو: «أدرك» أفعل.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ بل ادّارك ﴾ أى: تدارك وتتاهى وتتابع أسباب ﴿ عِلْمُهم فى الآخرة ﴾ أى: بالآخرة، أو: فى شأنها، بما ذكرنا لهم من البراهين القطعية، والحجج العقلية، على كمال قدرتنا. ومع ذلك لم يحصل لهم بها يقين، ﴿ بل هم فى شكٍ منها ﴾، والمعنى: أن أسباب استحكام العلم وتكامله بأن القيامة لا ريب فيها قد حصلت لهم، ومكنوا من معرفته، بما تتابع لهم من الدلائل. ومع ذلك لم يحصل لهم شىء من علمها، بل شكّوا. أو: أدرك علمهم، بمعنى: يدركهم فى الآخرة حين يرون الأمر عياناً، ولا ينفعهم ذلك. قاله ابن عباس وغيره. ﴿ بل هم ﴾ اليوم ﴿ فى شكٍ منها بل هم منها عَمُونَ ﴾ لا يُبصرون دلائلها، ولا يلتفتون إلى العمل لها. والإضرابات الثلاثة تنزيل لأحوالهم، وتأكيد لجهلهم. وصفهم أولاً بأنهم لا يشعرون بوقت البعث، ثم بأنهم لا يعلمون أن القيامة كائنة مع تتابع أسباب علمها، ثم بأنهم يخبطون فى شك ومرية، ثم بما هو أسوأ حالاً، وهو العمى، وجعل الآخرة مبدأ عماهم ومنشأه، فلذا عداه بـ«من» دون «عن»؛ لأن الكفر بالعاقبة والجزاء هو الذى منعهم عن التفكر والتدبر.

ووجه اتصال مضمون هذه الآية ـ وهو وصف المشركين ـ بإنكارهم البعث مع استحكام أسباب العلم والتمكن من المعرفة بما قبله، وهو اختصاصه تعالى بعلم الغيب، وأن العباد لا علم لهم بشىء بذلك: هو أنه لما ذكر أن

العباد لا يعلمون الغيب، وكان هذا بياناً لعجزهم، ووصفاً لقصور علمهم، وصل به أن عندهم عجزاً أبلغ منه، وهو أنهم يقولون للكائن الذى لابد من كونه ـ وهو وقت بعثهم، ومجازاتهم على أعمالهم: لا يكون، مع أن عندهم أسباب معرفة كونه، لا محالة.هـ. قاله النسفى.

﴿ وقال الذين كفروا أئذا كنا تراباً وآباؤنا أئنا لمخرَجُونَ ﴾ أى: أنُخرج من القبور أحياء إذا صرنا تراباً وآباؤنا. وتكرير الاستفهام فى «أئذا» و«أئنا» فى قراءة عاصم، وحمزة؛ وخلف، إنكار بعد انكار، وجحود بعد جحود، ودليل على كفر مؤكد مبالغ فيه. والعامل فى (إذا): ما دلّ عليه ﴿ لمخرجون ﴾ وهو : نُخرج، لا مخرجون، لموانع كثيرة. والضمير فى «أئنا» لهم ولآبائهم.

﴿ لقد وُعِدْنَا هذا ﴾ البعث ﴿ نحن وآباؤنا من قبلُ ﴾؛ من قبل محمد ﷺ، قدّم هنا «هذا» على «نحن» وفى المؤمنون[1] قدّم «نحن» ؛ ليدل هنا أن المقصود بالذكر هو البعث وثَمّ المبعوث؛ لأن هنا تكررت أدلة البعث قبل هذا القول كثيراً، فاعتنى به، بخلاف «ثم» . ثم قالوا: ﴿ إنْ هذا إلا أساطيرُ الأولينَ ﴾ : ما هذا إلا أحاديثهم وأكاذيبهم. وقد كذبوا، ورب الكعبة.

الإشارة: العلم بالآخرة يَقْوى بقوة العلم بالله، فكلما قوى اليقين فى جانب الله قوى اليقين فى جانب ما وعد الله به؛ من الأمور الغيبية، فأهل العلم بالله الحقيقى أمور الآخرة عندهم نُصب أعينهم، واقعة فى نظرهم؛ لقوة يقينهم. وانظر إلى قول حارثة رضي الله عنه حين قال له النبى ﷺ: «ما حقيقة إيمانك؟» فقال: يارسول الله؛ عزَفَتْ الدنيا من قلبى، فاستوى عندى ذهبها ومدرها. ثم قال: وكأنى أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها، وأهل النار يتعاوون فيها، فقال له ﷺ: «قد عرفتَ فالزمْ، عبدٌ نوّر الله قلبَه» . اللهم نوّر قلوبنا بأنوار معرفتك الكاملة، حتى نلقاك على عين اليقين وحق اليقين. آمين.

ثم أمَرَهُمْ بالاعتبار بمن قبلهم، فقال:

﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ

(١) فى قوله تعالى، حكايةً لقول الذين لا يؤمنون بالآخرة: ﴿لقد وُعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل..﴾ الآية ٨٣.

﴿٧١﴾ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ قُلْ ﴾ لهم: ﴿ سيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبةُ المجرمين ﴾ بسبب تكذيبهم للرسل ـ عليهم السلام ـ فيما دعوهم إليه من الإيمان بالله ـ عز وجل ـ وحده، واليوم الآخر، الذى ينكرونه، فإن فى مشاهدة عاقبتهم ما فيه كفاية لأولى البصائر. وفى التعبير عن المكذبين بالمجرمين، لطف بالمسلمين، بترك الجرائم، وحث لهم على الفرار منها، كقوله: ﴿ فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنْبِهِمْ ﴾(١) و﴿ مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا ﴾(٢).

ثم قال لنبيه ﷺ: ﴿ ولا تحزنْ عليهم ﴾ أى: لأجل أنهم لم يتبعوك، ولم يُسْلِموا فَيَسْلَمُوا. ﴿ ولا تكن في ضَيْقٍ ﴾؛ فى حرج صدر ﴿ مما يمكرون ﴾؛ من مكرهم وكيدهم، أى: فإن الله يعصمك من الناس. يقال: ضاق ضيقاً ـ بالفتح والكسر.

﴿ ويقولون متى هذا الوعدُ ﴾ أى: وعد العذاب التى تعدنا، إن كنت من الصادقين فى إخبارك بإتيانه على من كذّب. والجملة باعتبار شركة المؤمنين فى الإخبار بذلك. ﴿ قل عسى أن يكون رَدِفَ لكم بعضُ الذى تستعجلون ﴾ أى: تبعكم ولحقكم. استعجلوا العذاب، فقيل لهم: عسى أن يكون رَدِفَ، أى: قرب لكم بعضه. وهو عذاب يوم بدر، واللام زائدة للتأكيد. أو: ضمّن الفعل معنى يتعدّى باللام، نحو: دنا لكم، أو: أزف لكم. وعسى ولعل وسوف، فى وعد الملوك ووعديهم، يدل على صدق الأمر، وجدّه، وعلى ذلك جرى وعد الله، ووعيده.

﴿ وإن ربك لذُو فضلٍ على الناس ﴾ أى: إفضال وإنعام على كافة الناس. ومن جملة إنعامه: تأخير العقوبة عن هؤلاء، بعد استعجالهم لها، ﴿ ولكنّ أكثرهم لا يشكرون ﴾ أى: أكثرهم لا يعرفون حق النعمة، ولا يشكرونها، فيستعجلون بجهلهم وقوع العذاب، كدأب هؤلاء. والله تعالى أعلم.

الإشارة: التفكر والاعتبار من أفضل عبادة الأبرار، ساعة منه أفضل من عبادة سبعين سنة. ومن أجلّ ما يتفكر فيه الإنسان: ما جرى على أهل الغفلة والبطالة والعصيان، من تجرع كأس الحِمام، قبل النزوع والإقلاع عن الإجرام، فندموا حيث لم ينفع الندم، وقد زلّت بهم القدم، فلا ما كانوا أمّلوا أدركوا، ولا إلى ما فاتهم من الأعمال الصالحات رجعوا. فليعتبر الإنسان بحالتهم، لئلا يجرى عليه ما جرى عليهم، وليبادر بالتوبة إلى ربه، وليشد يده على أوقات عمره، قبل أن تنقضى فى البطالة والتقصير، فيمضى عمره سبهللا. ولله در القائل:

---

(١) من الآية ١٤ من سورة الشمس. (٢) من الآية ٢٥ من سورة نوح.

السَّبَاقَ السَّبَاقَ قَوْلاً وَفِعْلاً   حذّرِ النّفْسَ حَسْرَةَ المسْبُوقِ

قال أبو على الدقاق رضي الله عنه: رؤى بعضهم مجتهداً، فقيل له فى ذلك، فقال: ومن أولى منى بالجهد، وأنا أطمع أن ألحق الأبرار الكبار من السلف. هـ. ويقال للواعظ أو للعارف، إذا رأى إدبار الناس عن الله، وإقبالهم على الهوى: ﴿ولا تحزن عليهم..﴾الآية.

ثم ذكر سعة علمه وحلمه، فقال:

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿وإن ربك لَيَعْلَمُ ما تُكِنُّ﴾ أى: تخفى ﴿صُدورُهُم وما يُعلنون﴾ أى: يُظهرون من القول. وليس تأخير العذاب عنهم لخفَاء حالِهم عليه، ولكن له وقت مقدر، فيمهلهم إليه. أو: إن ربك ليعلم مايخفون وما يُعلنون من عداوتك ومكايدهم لك، وهو معاقبهم على ذلك بما يستحقونه، وَقرئ بفتح [التاء](1)، من: كننت الشيء: سترته.

﴿وما من غائبةٍ فى السماء والأرض﴾ أى: من خافية فيهما ﴿إلا فى كتاب مبين﴾ فى اللوح المحفوظ. يُسمى الشيء الذى يخفى ويغيب غائبة وخافية. والتاء فيهما كالتاء فى العاقبة والعافية. ونظائرهما، وهى أسماء غير صفات. ويجوز أن يكونا صفتين، وتاؤهما للمبالغة، كالرواية. كأنه قال: وما من شيء شديد الغيوبة إلا وقد علمه الله، وأحاط به، وأثبته فى اللوح المحفوظ. ومن جملة ذلك: تعجيل عقوبتهم، ولكن لكل شيء أجل معلوم، لايتأخر عنه ولا يتقدم. ولولا ذلك لعجّل لهم ما استعجلوه. والمُبين: الظاهر البين لمن ينظر فيه من الملائكة. أو: مبين لما فيه من تفاصيل المقدورات. والله تعالى أعلم.

الإشارة: فى الآية حث على مراقبة العبد لمولاه، فى سره وعلانيته، فلا يفعل ما يخل بالأدب مع العليم الخبير، ولا يجول بقلبه فيما يستحيى أن يظهره لغيره، إلا أن يكون خاطراً ماراً، لا ثبات له، فلا قدرة للعبد على دفعه. وبالله التوفيق.

---

(1) فى الأصول [الكاف]. قلت: قرأ الجمهور (ما تُكن) بضم التاء من: أكن الشيء: أخفاه. وقرأ ابن محيصن وحميد: بفتح التاء وضم الكاف، من: كن الشيء: ستره. انظر الإتحاف (٢/٣٣٤) والبحر المحيط (٧/٩٠).

ثم مدح كتابه المشتمل على جُلّ العلوم الغيبية، فقال:

﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ إنَّ هذا القرآن يَقُصُّ على بني إسرائيل ﴾؛ يُبين لهم ﴿ أكثرَ الذى هم فيه يختلفون ﴾ من أمر الدين الذى اشتبه عليهم. ومن جملة ما اختلفوا فيه: المسيح، وتحزّبوا فيه أحزاباً، وركبوا متن العند والغلو فى الإفراط والتفريط، ووقع بينهم المناكرة فى أشياء، حتى لعن بعضُهم بعضا. وقد نزل القرآن ببيان ما اختلفوا فيه، لو أنصفوا وأخذوا به، وأسلموا. يريد اليهود والنصارى، وإن كانت الآية خاصة باليهود. ﴿ وإنه ﴾ - أى: القرآن ﴿ لهُدىً ورحمةٌ للمؤمنين ﴾ على الإطلاق، فيدخل فيهم من آمن من بنى إسرائيل دخولاً أوليا.

﴿ إنَّ ربك يقضي بينهم ﴾ أى: بين بنى إسرائيل، أو: بين من آمن بالقرآن ومن كفر به، ﴿ بحُكْمِه ﴾ أى: بعدله؛ لأنه لايحكم إلا بالعدل، فسمى المحكوم به حكماً. أو: بحكمته، ويدل عليه قراءة من قرأ «بِحِكَمه»: جمع: حِكمة(١)؛ لأن أحكامه تعالى كلها حِكَم بديعة. ﴿ وهو العزيزُ ﴾، فلا يُردّ حُكْمه وقضاؤه، ﴿ العليمُ ﴾ بجميع الأشياء، ومن جملتها: من يقضي له ومن يقضي عليه. أو: العزيز فى انتقامه من المبطلين، العليم بالفصل بين المختلفين.

﴿ فتوكلْ على اللهِ ﴾، الفاء لترتيب ما قبله من ذكر شئونه - عز وجل - فإنها موجبة للتوكل عليه، داعية إلى الأمر به، أى: فتوكل على الله الذى هذا شأنه. وهذه أوصافه، فإنه موجب لكل أحد أن يتوكل عليه، ويفوض جميع أموره إليه. أو: فتوكل على الله ولا تُبالى بأعداء الدين. ﴿ إنك على الحق المبين ﴾، تعليل للأمر بالتوكل بأنه الحق الأبلج، وهو الدين الواضح الذى لا يتطرقه شك ولا ريب.

---

(١) وهى قراءة جناح بن حبيش، كما ذكر صاحب البحر المحيط (٧/ ٩١).

وفيه تنبيه على أن صاحب الحق حقيق بالوثوق بالله في نصرته. وقد تضمنت الآية من أولها ثناء على القرآن، بنفي ما رموه من كونه أساطير الأولين. ثم وصفه بكونه هدى ورحمة للمؤمنين. ثم توعد الرامين له بحُكمه عليهم بما يستحقونه، ثم أمره بالتوكل عليه في كفايته أمرهم ومكرهم.

ثم بيّن سبب طعنهم في القرآن، بأنهم ليس فيهم قابلية الإدراك؛ لكونهم موتى صماً، لا حياة لهم ولا سمعَ استبصار، قال تعالى: ﴿إنك لا تُسْمِع الموتى﴾، شُبِّهوا بالموتى لعدم تأثرهم بما يُتلى عليهم من القوارع والزواجر، ﴿ولا تُسمِع الصمَّ الدعاءَ﴾ أي: الدعوة إلى أمر من الأمور ﴿إذا ولّوا مدبرين﴾ عنك. وتقييد النفي بالإدبار؛ لتكميل التنبيه وتأكيد النفي، فإنهم مع صممهم عن الدعاء إلى الحق معرضون عن الداعي، مولون على أدبارهم. ولا ريب أن الأصم لا يسمع الدعاء، مع كون الداعي بمقابلة صماخه، قريباً منه، فكيف إذا كان خلفه بعيداً منه؟.

﴿وما أنت بهادي العُمْي عن ضلالتهم﴾ هدايةً موصلةً إلى المطلوب، كما في قوله تعالى: ﴿إنَّكَ لاتَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾(١)؛ فإن الاهتداء منوط بالبصر في الحس، وبالبصيرة في المعنى. ومَن فقدهما لا يتصور منه اهتداء، و«عن» متعلق بهادي؛ باعتبار تضمنه معنى الصرف، وإيراد الجملة الإسمية للمبالغة في نفي الهداية. ﴿إن تُسْمِعُ﴾ أي: ما تُسمع سماعاً يجدي السامع وينفعه ﴿إلا من يؤمن بآياتنا﴾ أي: من علِمَ اللهُ أنهم يؤمنون بآياته. ﴿فهم مسلمون﴾؛ مخلصون، من قوله: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾(٢) أي: جعله سالماً لله خالصاً. جعلنا الله ممن أسلم بكليته إليه . آمين.

الإشارة: إذا وقع الاختلاف في الأحكام الظاهرة، وهي ما يتعلق بالجوارح الظاهرة، رُجع فيه إلى الكتاب العزيز، أو السُنّة المحمدية، أو الإجماع، أو القياس، وإن وقع الاختلاف في الأمور القلبية، وهي ما يتعلق بالعقائد التوحيدية، من طريق الأذواق أو العلوم، يُرجع فيه إلى أرباب القلوب الصافية، فإنه لا يتجلى فيها إلا ما هو حق وصواب. فلا يمكن قلع عروق الشكوك والأوهام، والوساوس من القلوب المسوسة، إلا بالرجوع إليهم وصحبتهم، ومن جمع بين الظاهر والباطن، رجع إليه في الأمرين معاً.

ذكر ابن الصباغ أن الشيخ أبا الحسن الشاذلي رضي الله عنه كان يُناظر جماعة من المعتزلة، ليردهم إلى الحق، فدخل عليه رجل من القراء، يُقال له: أبو مروان، فسلّم عليه، فقال له الشيخ: اقرأ علينا آية من كتاب الله، فأجرى الله على

---

(١) من الآية ٥٦ من سورة القصص. (٢) من الآية ١١٢ من سورة البقرة.

لسانه، من غير قصد، قوله تعالى: ﴿فتوكل على الله إنك على الحق المبين﴾ إلى قوله: ﴿ووقع القول عليهم بما ظلموا فهم لا ينطقون﴾ فتهلل وجه الشيخ، وقال: ما بعد بيان الله من بيان، فتابوا واهتدوا إلى الحق، ورجعوا عن مذهبهم، وشفا الله قلوبهم من مرض الاعتزال. فهذا شأن العارفين بالله، جعلهم الله شفاء من كل داء، لكن الأعمى والأصم لا يُبصر الداعى، ولا يَسمع المنادى. ولذلك قال تعالى: ﴿فإنك لا تُسمع الموتى..﴾ الخ: قال الورتجبى: الميت: من ليس له استعداد لقبول المعرفة الحقيقية بغير الدلائل، والأصم: من كان أذن قلبه مسدودة بغواشى القهر، ومن كان بهذه الصفة لا يقبل إلا ما يليق بطبعه وشهواته.هـ.

ثم ذكر بعض مقدمات الساعة، التى كانوا يستعجلونها، فقال:

﴿ ۞ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿وإذا وقع القولُ عليهم﴾ أى: وقع مصداق القول الناطق بمجىء الساعة، بأن قَرُب إتيانها، وظهرت أشراطها، فأراد بالوقوع: دنوه واقترابه، كقوله: ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ ..﴾(١) رُوى أن ذلك حين ينقطع الخير، ولا يؤمر بمعروف ولا يُنهى عن منكر، ولا يبقى منيب ولا تائب. و«وقع»: عبارة عن الثبوت واللزوم، وهذا بمنزلة: ﴿حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ﴾(٢) أى: وإذا انتجز وعد عذابهم الذى تضمنه القول الأزلى، وأراد أن ينفذ فى الكافرين سابق علمه لهم من العذاب، أخرج لهم دابة من الأرض. وفى الحديث: «إن الدابة، وطلوع الشمس من المغرب، من أول الأشراط»(٣).

فلا ينبغى لهؤلاء الكفرة ترك الإيمان حيث ينفعهم، ويتطلبون وقوع الساعة الموعود بها، التى لا ينفع الإيمان لمن لم يكن آمن، مع ظهور مقدماتها، فضلاً عنها. فإذا وقع الوعد وَسَمَت الدابة مَن لم يؤمن بِسمة الكفر، وكان ذلك طبعاً وختماً، فلا يقبل منه إيمان، ويقال له: أيها الكافر لم تؤمن بالآيات غيباً، فلا يقبل منك بعد رؤيتها عيناً.

---

(١) الآية الأولى من سورة النحل. (٢) من الآية ١٩ من سورة الزمر.

(٣) أخرج مسلم فى (الفتن، باب خروج الدجال، ٤/ ٢٢٦٠، ح ٢٩٤١) عن عبد الله بن عمرو، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أول الآيات خروجاً: طلوع الشمس من مغربها، وخروج الدابة على الناس ضحىً، وأيهما كانت قبل صاحبتها فالأخرى على إثرها قريباً».

وهذا معنى قوله: ﴿أخرجنا لهم دابةً من الأرض﴾، وهى الجساسة، طولها ستون ذراعاً، لا يدركها طالبٌ، ولا يفوتها هاربٌ، لها أربع قوائم، وزغب، وريش، وجناحان(١). وقيل: لها رأس ثور، وعين خنزير، وأذن فيل، وقرن أيّل، وعنق نعامة، وصدر أسد، ولون نمر، وخاصرة هرّة، وذنب كبش، وخف بعير، وما بين المفصلين اثنا عشر ذراعاً، تخرج من الصفا فتكلّمهم بالعربية، فتقول: ﴿أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون﴾ أى: بخروجى؛ لأن خروجها من الآيات، وتقول: ألا لعنة الله على الظالمين.

وفى حديث حذيفة رضي الله عنه: «تأتى الدابة المؤمن، فتُسلم عليه، وتأتى الكافر فتخطه - أى تسمه - فى وجهه». وعن أبى هريرة رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال: « تَخْرُجُ الدَّابَّةُ مَعَها خاتَمُ سُليمانَ، وعَصَا مُوسى، فتَجْلُوا وَجْهَ المؤْمِنِ، وتَخْتُمُ أنْفَ الكافِرِ بالخاتَمِ، حتَّى أنَّ أهْلَ الحِواءِ(٢) مجتَمِعُونَ، فيقول: هاها يا مُؤْمن، ويقول: هاها يا كافِرُ»(٣). وهى بعد نزول عيسى وطلوع الشمس من مغربها. والله تعالى أعلم.

الإشارة: وإذا وقع القول على قوم بإسدال الحجاب، وإدامة غلق الباب، أخرج لهم جاهل بالله، يكلمهم بادعاء التربية، فيأخذون عنه، ويقتدون به. قال فى المباحث:

واعلم بأن عُصبة الجُهال		بهائم فى صُور الرجال

فالجاهل بالله دابة فى الأرض: أنَّ الناس كانوا بآياتنا الدالة علينا - وهم العلماء بالله، أهل الشهود والعيان - لايُوقنون بوجودهم، ولا يعرفون وجود الخصوصية عندهم. فإذا أراد الله تعب عبد، وإبقاءه فى غم الحجاب، ألقاه إلى شيخ جاهل بالله، أو: إلى ميت يتخذه شيخاً، ويفنى فى محبته، فلا يرجى فلاحه فى طريق الخصوصية، مادام مقيداً به، فإن تركه واقتدى بالعارف الحى، فقد هيأه لرفع الحجاب. وبالله التوفيق.

ثم ذكر قيام الساعة، بعد ذكر بعض أشراطها، فقال:

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَـٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾

(١) عزاه المناوى فى الفتح السماوى (٢/ ٨٩١) للثعلبى، من حديث حذيفة.
(٢) الحواء: جماعة بيوت الناس إذا تدانت، والجمع: أحوية. انظر اللسان (٢/ ١٠٦٣، مادة: حوا).
(٣) أخرجه الإمام أحمد فى المسند (٢/ ٢٩٥) والترمذى وحسّنه فى (التفسير، سورة النمل، ٥/ ٣١٨، ح ٣١٨٧) بلفظ [الخِوان] بدل [الحِوَاء]. وأخرجه ابن ماجة فى (الفتن، باب دابة الأرض ٢/ ١٣٥١ ح ٤٠٦٦). من حديث أبى هريرة رضي الله عنه.

﴿ وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾

قلت: «ماذا» تأتي على أوجه؛ أحدُها: أن تكون «ما» : استفهاماً، و«ذا» : إشارة، نحو: ماذا التوانى. الثانى: أن تكون «ما» : استفهاما، و«ذا» : موصولة، كقول لبيد:

ألا تسْألانِ المرْءَ ماذا يحاولُ؟ أنَحبٌ فيُقضَى، أمْ ضلالٌ وباطلُ؟

الثالث: «ماذا» كله: استفهام على التركيب، كقولك: لماذا جئت؟. الرابع: أن تكون «ماذا» كله: اسم جنس بمعنى شيء، أو: بمعنى «الذى» كقوله: دعنى ماذا علمتِ؟، وتكون «ذا» زائدة. انظر القاموس.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ و ﴾ اذكر ﴿ يوم نحشُرُ من كل أمةٍ فوجًا ﴾ ، الفوج: الجماعة الكثيرة. و«مِنْ» : للتبعيض، أي: واذكر يوم نجمع من كل أمة من أمم الأنبياء جماعة كثيرة ﴿ ممن يُكذِّبُ بآياتنا ﴾ ، «مِن» : لبيان الفوج، أي: فوجاً مكذبين بآياتنا، المنزلة على أنبيائنا، ﴿ فهم يُوزَعُون ﴾ : يُحبس أولهم على آخرهم، حتى يجتمعوا، حين يُساقون إلى موضع الحساب. وهذه عبارة عن كثرة العدد، وتباعد أطرافهم، والمراد بهذا الحشر: الحشر للعذاب، والتوبيخ والمناقشة، بعد الحشر الكلى، الشامل لكافة الخلق. وعن ابن عباس: (المراد بهذا الفوج: أبوجهل، والوليد بن المغيرة، وشيبة بن ربيعة، يُساقون بين يدى أهل مكة) وهكذا يُحشر قادة سائر الأمم بين أيديهم إلى النار.

﴿ حتى إذا جاءو ﴾ إلى موقف السؤال والجواب، والمناقشة والحساب، ﴿ قال ﴾ أي: الله عز وجل، موبخاً لهم على التكذيب: ﴿ أكذَّبتم بآياتى ﴾ المنزلة على رسلى، الناطقة بلقاء يومكم، ﴿ و ﴾ الحال أنكم ﴿ لم تُحيطوا بها علمًا ﴾ أى: أكذبتم بها فى بادئ الرأى، من غير فكر، ولا نظر، يؤدى إلى إحاطة العلم بكنهها، وأنها حقيقة بالتصديق حتما. وهذا نص فى أن المراد بالآيات فى الموضعين هى الآيات القرآنية. وقيل: هو عطف على «كذبتم»، أى: أجمعتم بين التكذيب وعدم التدبر فيها. ﴿ أم ماذا كنتم تعملون ﴾ ؟ حيث لم تتفكروا فيها، فإنكم لم تُخلقوا عبثاً. أو: أىُّ شىء كنتم تعملون، استفهام، على معنى استبعاد الحجج، أى: إن كانت لكم حجة وعمل فهاتوا ذلك. وخطابهم بهذا تبكيت لهم. ثم يُكبون فى النار، وذلك قوله تعالى: ﴿ ووقع القولُ عليهم ﴾ أى: حلَّ بهم العذاب، الذى هو مدلول القول الناطق بحلوله ونزوله، ﴿ بما ظَلموا ﴾ : بسبب ظلمهم، الذى هو تكذيبهم بآيات

الله ﴿ فهم لا ينطقون ﴾؛ لانقطاعهم عن الجواب بالكلية، وابتلائهم بشغل شاغل من العذاب الأليم، يشغلهم العذاب عن النطق والاعتذار.

ثم ذكر دلائل قدرته على البعث، وما ينشأ بعد ذلك، بقوله: ﴿ ألم يروا أنَّا جعلنا الليلَ ليَسكُنوا فيه ﴾، الرؤية هنا قلبية، أي: ألم يعلموا أنا جعلنا الليل بما فيه من الإظلام ليستريحوا فيه بالنوم والقرار. ﴿ والنهارَ مبصرًا ﴾ أي: يبصروا، بما فيه من الإضاءة، طرق التقلب فى أمور المعاش. وبولغ فيه، حيث جعل الإبصار الذى هو حال الناس، حالاً له، ووصفًا من أوصافه، بحيث لا ينفك عنها، ولم يسلك فى الليل هذا المسلك؛ لأن تأثير ظلام الليل فى السكون ليس بمثابة تأثير النهار فى الإبصار. قاله أبو السعود.. قلت: وقد جعله كذلك فى قوله: ﴿ وَجَعَلَ اللَّيلَ سَكَنًا ﴾(١) فانظره.

﴿ إنَّ فى ذلك لآيات ﴾ كثيرة ﴿ لقوم يؤمنون ﴾؛ يُصدِّقون، فيعتبرون، فإنّ من تأمل فى تعاقب الليل والنهار، واختلافهما على وجوه بديعة، مبنية على حِكَم رائقة، تحار فى فهمها العقول، وشاهد فى الآفاق تبدل ظلمة الليل، المحاكية للموت، بضياء النهار، المضاهى للحياة، وعاين فى نفسه غلبة النوم، الذى هو يضاهى الموت، وانتباهه منه، الذى هو يضاهى البعث، قضى بأن الساعة آتيه لا ريب فيها، وأن الله يبعث من فى القبور.

قال لقمان لابنه: يابُنى إن كنت تشك فى الموت فلا تنم، فكما أنك تنام قهرًا؛ كذلك تموت، وإن كنت تشك فى البعث فلا تنتبه، فكما أنك تنتبه بعد نومك؛ كذلك تُبعث بعد موتك هـ. وبالله التوفيق.

الإشارة: يوم نَحشر من كل أمة فوجًا يُنكر على أهل الخصوصية، ممن يكذب بآياتنا، وهم العارفون بنا، الدالون علينا، المعرِّفون بنا، فهم يُوزعون: يُجمعون للعتاب، حتى إذا جاءوا إلينا بقلب سقيم، قال: أكذَّبتم بأوليائى، الدالين على حضرتى، بعد التطهير والتهذيب، ولم تُحيطوا بهم علمًا، منعكم من ذلك حب الرئاسة والجاه، أم ماذا كنتم تعملون؟. ووقع القول عليهم بالبقاء مع عامة أهل الحجاب، فهم لا ينطقون، ولا يجدون اعتذارًا يُقبل منهم. ألم يعلموا أنهم يموتون على ما عاشوا عليه، ويُبعثون على ماماتوا عليه، فهلاّ صحبوا أهل اليقين الكبير، ـ وهو عين اليقين أو حق اليقين، المستفاد من شهود الذات الأقدس ـ فيكتسبوا منهم اليقين، حتى يموتوا على اليقين ويُبعثوا على اليقين. وبالله التوفيق.

(١) من الآية ٩٦ من سورة الأنعام. وقد سار المفسر على قراءة «جاعل».

ثم ذكر النفخ فى الصور، ومايكون بعده من الأهوال، فقال:

﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ (٨٧) وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ (٨٨) مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ (٨٩) وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٠) ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ و ﴾ اذكر ﴿ يومَ يُنفخُ في الصُّور ﴾، وهو القرن الذى ينفخ فيه إسرافيل ـ عليه السلام ـ عن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لما فرغ الله تعالى من خلق السموات والأرض، خلق الصور، فأعطاه إسرافيل، فهو واضعه على فيه، شاخص بصره إلى العرش، حتى يؤمر، قال: قلت: كيف هو؟ قال: عظيم، والذى نفسى بيده إن عظم دارة فيه كعرض السموات والأرض» وفى حديث آخر: «فيه ثقب بعدد كل روح مخلوقة، فيؤمر بالنفخ فيه، فينفخ نفخة، لا يبقى عندها فى الحياة أحد، غير من شاء الله تعالى؛ وذلك قوله تعالى: ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ ﴾(١)، ثم يؤمر بأخرى، فينفخ نفخة لا يبقى معها ميت إلا بعث». وفى رواية: «فينفخ نفخة البعث، فتخرج الأرواح، كأنها النحل، فتملأ ما بين السماء والأرض، وتأتى كل روح إلى جسدها، كما تأتى النحل إلى وكرها. وذلك قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾(٢).

قال أبو السعود: والذى يستدعيه النظم الكريم أن المراد بالنفخ هاهنا: النفخة الثانية، وفى الفزع فى قوله تعالى: ﴿ فَفَزِعَ من في السموات ومن في الأرض ﴾ ما يعترى الكل عند البعث والنشور، بمشاهدة الأمور الهائلة، الخارقة للعادات فى الأنفس والآفاق، من الرعب والتهيب، الضروريين، الجبليين فى كل نفس. وإيراد صيغة الماضى مع كون المعطوف عليه مضارعاً؛ للدلالة على تحقق وقوعه.هـ. وظاهره أن النفخ مرتان فقط، واعتمده القرطبى وغيره، وصحح ابن عطية أنها ثلاث، ورُوى ذلك عن أبى هريرة: نفخة الفزع؛ وهى فزع حياة الدنيا، وليس بالفزع الأكبر، ونفخة الصعق، ونفخة القيام من القبور.

---

(١)، (٢) من الآية ٦٨ من سورة الزمر.

وقوله: ﴿إلا من شاء الله﴾ أي: ألاَّ يفزع، وهو من ثبّت الله قلبه، فإن قلنا: المراد بها النفخة الثانية، فالمستثنى: هم من سبقت لهم الحسنى، بدليل قوله: ﴿لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الأَكْبَرُ﴾(١) وإن قلنا: هي نفخة الصعق، فالمستثنى: قيل: هم جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، وعزرائيل، لكن يموتون بعد صعق الخلق. وقيل: الحور وحَمَلة العرش، وإن قلنا: المراد نفخة الفزع في الدنيا، فالمستثنى: أرواح الأنبياء والأولياء والشهداء والملائكة.

ثم قال تعالى: ﴿وكلٌّ أَتَوْهُ﴾(٢) بصيغة الماضي، أي: وكل واحد من المبعوثين عند النفخة حضروه في موقف الحساب، بين يدي الله جل جلاله، والسؤال والجواب. أو: وكل حاضروه، على قراءة اسم الفاعل، وأصله: آتيوه، حال كونهم ﴿داخرين﴾: صاغرين أذلاء.

﴿وترى الجبالَ﴾ حال الدنيا ﴿تحسبُها جامدةً﴾؛ واقفة ممسكة عن الحركة، من: جمد في مكانه: إذا لم يبرح. ﴿وهي تمرُّ مرَّ السحابِ﴾ أي: مراً مثل مر السحاب، التي تسيرها الرياح، سيراً حثيثاً، والمعنى: أنك إذا رأيت الجبال وقت النفخة ظننتها ثابتة في مكان واحد؛ لعظمها، وهي تسير سيراً سريعاً، كالسحاب إذا ضربته الرياح، وهكذا الأجرام العظام، إذا تحركت لا تكاد تتبين حركتها. ومثال ذلك: الشمس؛ لعظم جرمها وبُعدها لا تتبين حركتها، مع كونها أسرع من الريح.

والذي في حديث أبي هريرة: أنَّ تسيير الجبال يكون بعد نفخة الفزع وقبل الصعق. ونص الحديث ـ بعد كلام تقدم: «فيأمر إسرافيل بالنفخة الأولى، فيقول: انفخ نفخة الفزع، فيفزع أهل السموات والأرض، إلامن شاء الله، فيأمره فيمدها ـ أي: النفخة ـ ويطيلها، فيسير الله الجبال، فتمر مر السحاب، فتكون سراباً، وترْتج الأرض بأهلها رجّا، فتكون كالسفينة تضربها الأمواج، وتقلبها الرياح، وهو قوله: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ﴾(٣) الآية، فتميد الأرض بالناس على ظهرها فتذهل المراضع، وتضع الحوامل، وتشيب الولدان، وتطير الشياطين، هاربة من الفزع، حتى تأتي الأقطار هاربة، فتلقاها الملائكة تضرب وجهها وأدبارها، فترجع، ويولي الناس مدبرين، ينادي بعضهم بعضاً، وهو قوله: ﴿يَوْمَ التَّنَادِ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ..﴾ الآية(٤) فبينما هم كذلك؛ إذ تصدعت الأرض، من قطر إلى قطر، فرأوا أمراً عظيماً، لم يروا مثله. ثم قال: قال النبي ﷺ: «والأموات يومئذ لا يعلمون بشيء من ذلك». قال أبو هريرة: قلت: يارسول الله فمن استثنى الله من الفزع؟ قال: «أولئك الشهداء».

(١) من الآية ١٠٣ من سورة الأنبياء.
(٢) قرأ حفص، وحمزة، وخلف: «أتوه» بقصر الهمزة، وفتح التاء، فعلاً ماضياً، وقرأ الباقون بالمد وضم التاء «آتوه» اسم فاعل، مضافاً للضمير.. انظر الإتحاف (٢/٣٣٥).
(٣) الآية السادسة من سورة النازعات.
(٤) من الآية ٣٣ من سورة غافر.

قلت: ومثلهم الأنبياء والأولياء؛ إذ هم أعظم منهم، وأحياء مثلهم. ثم قال عليه الصلاة والسلام: «وإنما يصل الفزع إلى الأحياء، وهم أحياء عند ربهم يُرزقون، وقاهم الله فزع ذلك اليوم، وهو عذاب يبعثه الله على شرار خلقه». وهو قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾(١) فيمكثون طويلا، ثم يأمر الله تعالى إسرافيل، فينفخ نفخة الصعق، فيصعق من فى السموات، ومن فى الأرض، إلا من شاء الله، فإذا اجتمعوا فى البرزخ، جاء ملك الموت إلى الجبار، فيقول: قد مات أهلُ السموات والأرض، إلا من شئتَ، فيقول الله تعالى، وهو أعلم: مَن بقى؟ فيقول: بقيتَ أنتَ الحي القيوم، الذى لا تموت، وبقيت حملة العرش، وبقى جبريل وميكائيل، وإسرافيل، وبقيتُ أنا، فيقول تعالى: فليمتْ جبريل وميكائيل، فينطق الله العرش، فيقول: أىّ رب يموت جبريل، وميكائيل! فيقول: اسكت، إنى كتبت الموت على كل من تحت عرشى، فيموتان. ثم يأتى ملك الموتُ الجبارَ، فيقول: أى رب قد مات جبريل وميكائيل، فيقول ـ وهو أعلم: من بقى؟ بقيتَ أنت الحى الذى لا تموت، وبقيت حملة العرش، وبقى إسرافيل، وبقيتُ أنا. فيقول: ليمتْ حملة العرش، فيموتون، فيأمر الله العرش فيقبض الصور من إسرافيل، ثم يقول: ليمت إسرافيل، فيموت، ثم يأتى ملك الموت فيقول: يارب؛ قد مات حملة عرشك، فيقول، وهو أعلم: من بقى؟ فيقول: بقيتَ أنت الحى الذى لا تموت، وبقيت أنا، فيقول: أنت خلق من خلقى، خلقتك لِما رأيتَ، فمتْ، فيموت. فإذا لم يبق إلا الله الواحد الأحد الصمد، الذى لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوا أحد، فكان آخراً، كما كان أولاً، طوى السماء طى السجل للكتاب، فيقول: أنا الجبار، ﴿لِمن الملك اليوم﴾؟ فلا يجيبه أحد، ثم يقول تعالى: ﴿لله الواحد القهار﴾ ثم تُبدل الأرض غير الأرض، والسموات يبسطها بسطاً، ثم يمدها مدّ الأديم العكاظى، لا ترى فيها عوَجاً ولا أمتا.

ثم قال: ثم ينزل ماء من تحت العرش، كمنى الرجل، ثم يأمر الله السحاب أن تمطر أربعين يوماً، حتى يكون فوقهم اثنى عشر ذراعاً، ويأمر الله تعالى الأجساد أن تنبت كنبات البقل، حتى إذا تكاملت أجسادهم، كما كانت، قال الله تعالى: ليحيَى حملة العرش، فيحيون، ثم يقول الله تعالى: ليحيى جبريل وميكائيل وإسرافيل، فيحيون، ثم يأمر الله تعالى إسرافيل، فيأخذ الصور فيضعه على فيه، ثم يدعو الله تعالى الأرواح، فيؤتى بها تتوهج أرواح المؤمنين نوراً، والأخرى ظلمة، فيقبضها، ثم يلقيها فى الصور، ثم يأمر الله تعالى إسرافيل أن ينفخ نفخة البعث، فتخرج الأرواح، كأنها النحل، وقد ملأت ما بين السماء والأرض، فيقول تعالى: لترجعن كل روح إلى جسدها، فتدخل الأرواح الخياشيم، ثم تمشى فى الأجساد، مشى السم فى اللديغ، ثم تنشق الأرض عنهم سراعاً، فأنا أول من

(١) الآيتان: ١ ـ ٢ من سورة الحج

تنشق عنه، فتخرجون منها إلى ربكم تنسلون، عراةً، حفاةً، غُرلاً، مهطعين إلى الداعي، فيقول الكافر: هذا يوم عسير. نقله الثعلبي(١).

ثم قال تعالى: ﴿ صُنْعَ اللهِ ﴾، هو مصدر مؤكد لمضمون ما قبله، أي: صَنَع الله ذلك صُنعاً، على أنه عبارة عما ذكر من النفخ في الصور، وما ترتب عليه جميعًا. قصد به التنبيه على عِظَم شأن تلك الأفاعيل، وتهويل أمرها، والإيذان بأنها ليست بطريق الإخلال بنظم العالم، وإفساد أحوال الكائنات، من غير أن تدعو إليه داعية، بل هي من بدائع صنع الله تعالى، المبنية على أساس الحكمة، المستتبعة للغايات الجليلة، التي لأجلها رتبت مقدمات الخلق ومبادىء الإبداع، على الوجه المتين، والنهج الرصين، كما يعرب عنه قوله: ﴿ الذي أتقنَ كلَّ شيء ﴾ أي: أحكم خلقه وسوّاه، على ما تقتضيه الحكمة.

وقوله تعالى: ﴿ إنه خبير بما تفعلون ﴾: تعليل لكون ماذكر صنعاً محكماً له تعالى؛ لبيان أن علمه بظواهر أفعال المكلفين وبواطنها، مما يدعو إلى إظهارها وبيان كيفياتها، على ما هي عليه من الحسن والسوء، وترتيب أجزيتها عليها بعد بعثهم وحشرهم.

وقوله تعالى: ﴿ من جاء بالحسنةِ فله خير منها ﴾: بيان لما أشير إليه بإحاطة علمه تعالى بأفعالهم من ترتيب أجزيتها عليها، أي: من جاء من أولئك الذين أوتوه بالحسنة فله خير منها، باعتبار أنه أضعفها بعشر، أو: باعتبار دوامه وانقضائها، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: «الحسنة: كلمة الشهادة»(٢) ﴿ وهم ﴾ أي: الذين جاءوا بالحسنات ﴿من فَزَعٍ يومئذٍ﴾ أي: من فزع هائل، وهو الفزع الحاصل من مشاهدة العذاب، بعد تمام المحاسبة، وظهور الحسنات والسيئات. وهو المراد في قوله تعالى: ﴿ لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الأَكْبَرُ ﴾(٣).

وقال ابن جريج: حين يُذبح الموت وينادي: يا أهل الجنة؛ خلود لا موت، ويا أهل النار؛ خلود لا موت. فيكون هؤلاء ﴿ من فزع يومئذ ﴾، أي: يوم إذ ينفخ في الصور وما بعده ﴿آمنون﴾ لا يعتريهم ذلك الفزع الهائل، ولا يلحقهم ضرره أصلا. وأما الفزع الذي يعتري كل من السموات ومن في الأرض، غير ما استثناه الله تعالى، فإنما هو التهيب والرعب الحاصل في ابتداء النفخة، من معاينة فنون الدواهي والأهوال، ولا يكاد يخلو منه أحد بحكم الجبلة، وإن كان آمناً من لحوق الضرر. قال جميعه أبو السعود.

(١) انظر تفسير البغوي (٦/١٨٢).
(٢) انظر تفسير الطبري (٢٠/٢٢).
(٣) من الآية ١٠٣ من سورة الأنبياء.

﴿ ومن جاء بالسيئة ﴾ قيل: هو الشرك. ﴿ فكُبَّتْ وجُوهُهُم فى النار ﴾، أى: كُبوا فيها على وجوههم منكوسين. ويقال لهم: ﴿ هل تُجزَون إلا ما كنتم تعملون ﴾ فى الدنيا من الشرك والمعاصى. والله تعالى أعلم.

الإشارة: من أراد أن يكون ممن استثنى الله من الفزع والهول، فليكن قلبه معموراً بالله، ليس فيه غير مولاه، ولا مقصود له فى الدارين إلا الله، وظاهره معموراً بطاعة الله، متمسكاً بسنة رسول الله، هواه تابع لما جاء به من عند الله، لا شهوة له إلا ما يقضى عليه مولاه، فبهذا ينخرط فى سلك أولياء الله، الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، والذين سبقت لهم الحسنى، لا يحزنهم الفزع الأكبر، وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون. جعلنا الله من خواصهم، بمنّه وكرمه، آمين.

وقوله تعالى: ﴿ وترى الجبالَ تحسبها جامدةً ... ﴾ الآية. كذلك قلوب الراسخين فى العلم بالله، لا تؤثر فيهم هواجم الأحوال والواردات الإلهية، بل تهزهم فى الباطن، وظواهرهم ساكنة، كالجبال الراسية، قيل للجنيد: قد كنت تتواجدُ عند السماع، والآن لا يتحرك فيك شيء؟ فتلى: ﴿وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب﴾.

وقوله تعالى: ﴿من جاء بالحسنة﴾ أى: بالخصلة الحسنة، وهى المعرفة ﴿فله خير منها﴾ وهو دوام النظرة والحبرة، فى مقعد صدق عند مليك مقتدر، ﴿ومن جاء بالسيئة﴾ هى الجهل بالله، فينكس وجهه عن مواجهة المقربين. والعياذ بالله.

ولما بلّغ الرسول ﷺ ما أمره الله من بيان عواقب الأمور، تبرأ منهم، فقال:

﴿ إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىۡءٍۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنۡ أَتۡلُوَاْ ٱلۡقُرۡءَانَۖ فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِى لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعۡرِفُونَهَاۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: قل لكفار قريش، بعد تبيين أحوال البعث، وشرح أحوال القيامة، بما لا مزيد عليه: ﴿ إنما أُمرتُ أن أعبدَ ربَّ هذه البلدة ﴾ أى: مكة، أى: إنما أمرنى ربى أن أعبده، واستغرق أوقاتى فى مراقبته ومشاهدته، غير مبالٍ بكم، ضللتم أم رشدتم، وما علىّ إلا البلاغ، وقد بلغتكم وأنذرتكم. وتخصيص مكة

بالإضافة لتفخيم شأنها وإجلال مكانها، ﴿ الذي حرَّمها ﴾ أي: جعلها حرماً آمناً، يأمن الملتجأ إليها، ولا يختلى خلاها، ولا يعضد شوكها، ولا ينفّر صيدها. والتعرض لبيان تحريمه إياها تشريف لها بعد تشريف، وتعظيم إثر تعظيم، مع ما فيه من الإشعار بعلة الأمر بعبادة ربها، وأنهم مُكلفون بذلك، كما فى قوله تعالى: ﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ، الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴾(١). ومن الإشارة إلى غاية شناعة ما فعلوا فيها، ألا يُرى أنهم مع كونها محرمة من أن تنتهك حرمتها، ويلحد فيها بإثم، قد استمروا فيها على تعاطى أفجر الفجور، وأشنع الإلحاد، حيث تركوا عبادة ربها، ونصبوا الأوثان، وعكفوا على عبادتها، قاتلهم الله أنّى يؤفكون. قاله أبو السعود.

ثم قال تعالى: ﴿ وله كلُّ شيء ﴾ خلقاً وملكاً وتصرفا، من غير أن يشاركه أحد فى شيء من ذلك، تحقيقاً للحق، وتنبيهاً على أن إفراد مكة بالإضافة لما ذكر من التفخيم والتشريف، مع عموم الربوبية لجميع الموجودات. ﴿ وأُمرتُ أن أكون من المسلمين ﴾ المنقادين له، الثابتين على ما كنا عليه، من ملة الإسلام والتوحيد. الذين أسلموا وجوههم له تعالى، وانقادوا إليه بالكلية.

﴿ وأن أتلوَ القرآن ﴾ أى: أُواظب على تلاوته، لتنكشف حقائقه الرائقة، المخزونة فى تضاعيفه، شيئاً فشيئا. أو: على تلاوته على الناس؛ بطريق تكرير الدعوة، وتثنية الإرشاد، فيكون ذلك تنبيهاً على كفايته فى الهداية والإرشاد، من غير حاجة إلى إظهار معجزة أخرى.

﴿ فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ﴾ أى: فمن اهتدى بالإيمان به، والعمل بما فيه من الشرائع والأحكام، فإنما منافع هدايته عائدة إليه، لا إلى غيره. ﴿ ومن ضلّ ﴾ بالكفر به، والإعراض عن العمل بما فيه ﴿ فقلْ ﴾ فى حقه: ﴿ إنما أنا من المنذِرينَ ﴾ وقد خرجتُ من عهدة الإنذار، فليس علىّ من وبال ضلالته شيء. قال الصفاقسى: جواب «من» : محذوف، يدل عليه ما قبله، أى: فوبال ضلاله عليه، أو: يكون الجواب: «فقل»، ويقدر ضمير عائد من الجواب إلى الشرط؛ لأنه اسم غير ظرف، أى: من المنذرين له.هـ.

﴿ وقل الحمدُ لله ﴾ على ما أفاض علىّ من نعمائه، التى أجلّها نعمة النبوة، المستتبعة لفنون النعم الدينية والدنيوية، ووفقنى لتحمل أعبائها، وتبليغ أحكامها إلى كافة الورى، بالآيات البينة والبراهين النيرة، ﴿ سيُريكُم آياته ﴾ قطعاً فى الدنيا، التى وعدكم بها، كخروج الدابة وسائر الأشراط، ﴿ فتعرفونها ﴾ أى: فتعرفون أنها آيات

---

(١) الآيتان: ٣ ـ ٤ من سورة قريش.

الله، حين لا تنفعكم المعرفة، أو: سيضطركم إلى معرفة آياته، والإقرار بأنها آيات الله حين ظهورها، ﴿وما ربك بغافل عما تعملون﴾، بل محيط بعمل المهتدى والضال، غير غافل، فيجازى كلاً بما يستحقه.

وتخصيص الخطاب أولاً به ـ عليه الصلاة والسلام ـ وتعميمه ثانياً للكفرة تغليباً، أى: وما ربك بغافل عما تعمل أنت من الحسنات وما تعملون أنتم ـ أيها الكفرة ـ من السيئات، فيجازى كلاً بعمله. ومن قرأ بالغيب[1] فهو وعيد محض، أى: وما ربك بغافل عن أعمالهم، فسيعذبهم ألبتة، فلا يحسبوا أن تأخير عذابهم لغفلته تعالى عن أعمالهم، بل يمهل ولا يهمل. والله تعالى أعلم.

الإشارة: إذا فرغ الواعظ من وعظه وتذكيره، أو: العالم من تدريسه وتعليمه، أقبل على عبادة ربه، إما عبادة الجوارح الظاهرة، من صلاة وذكر وتلاوة، أو عبادة القلوب، كتفكر واعتبار، أو استخراج علوم وحِكم ودُرر. وإما عبادة الأرواح، كنظرة وفكرة وشهود واستبصار. وهذه عبادة الفحول من الرجال، فمن اهتدى إليها فلنفسه، ومن ضل عنها فقل إنما أنا من المنذرين. والحمد لله رب العالمين ـ وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما.

***

(١) قرأ حفص، ونافع، وابن عامر، وأبو جعفر، ويعقوب (تعملون) بتاء الخطاب. وقرأ الباقون بالغيب. انظر الإتحاف (٢/٣٣٧).

سورة القصص

مكية؛ إلا قوله: ﴿إن الذى فرض عليك القرآن..﴾ الآية[1]. وهى ثمان وثمانون آية. ومناسبتها لما قبلها: قوله: ﴿وأن أتلو القرآن﴾[2]، مع قوله: ﴿تلك آيات الكتاب المبين﴾؛ فإنه عين القرآن المتلو. وقيل: وجه المناسبة: قوله: ﴿سيريكم آياته﴾[3]، مع قوله: ﴿تلك آيات الكتاب﴾؛ فإن تنزيل الكتاب من أعظم الآيات. وافتتح بالرموز التى يستعملها بينه وبين حبيبه، فقال:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ طسٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٣ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿طسٓمٓ﴾، إما مختصرة من أسماء الله تعالى، أقسم علىٰ حقّية كتابه، وما يتلى فيه، كأنها مختصرة من طهارته - أى: تنزيهه - وسيادته، ومجده، أو: من أسماء رسوله - وهو الأظهر- أى: أيها الطاهر السيد المجيد ﴿تلك آياتُ الكتاب المبين﴾، إما من بان، أو: أبان، أى: بيِّن خيره وبركته، أو: مُبين للحلال والحرام، والوعد والوعيد، والإخلاص والتوحيد، ﴿نتلوا عليك من نبأ موسى وفرعونَ﴾ أى: بعض خبرهما العجيب. قال القشيرى: كرَّر الحقُّ قصةَ موسى؛ تعجيباً بشأنه، وتعظيماً لأمره، ثم زياده فى البيان لبلاغة القرآن، ثم أفاد زوائد من الذكر فى كل موضعٍ يُكرره. هـ.

هذا مع الإشارة إلى نصر المستضعفين، والامتنان عليهم بالظفر والتمكين، ففيه تسلية لنبينا محمد ﷺ، ووعد جميل له ولأمته. وقوله: ﴿بالحق﴾: حال من فاعل ﴿نتلوا﴾، أو: من مفعوله، أو: صفة لمصدر محذوف، أى: ملتبسين، أو: ملتبساً بالحق، أو: تلاوة ملتبسة بالحق. ﴿لقومٍ يؤمنون﴾؛ لمن سبق فى علمنا أنه يُؤمن؛ لأن التلاوة إنما تنفع هؤلاء دون غيرهم، فهو متعلق بنتلوا. والله تعالى أعلم.

الإشارة: تقديم هذه الرموز، قبل سرد القصص، إشارة إلى أنه لا ينتفع بها كل الانتفاع حتى يتطهر سره، ويُلْقِيَ سمْعَهُ، وهو شهيد، فحينئذ يكون طاهراً سيداً مجيداً، ينتفع بكل شيء، ويزيد إلى الله بكل شيء. ولذلك خص تلاوة قصص موسى بأهل الإيمان الحقيقى؛ لأنهم هم أهل الاعتبار والاستبصار. والله تعالى أعلم.

---

(1) الآية ٨ ونزلت بالجُحفة بين مكة والمدينة. انظر تفسير ابن كثير (٣/٤٠٢ - ٤٠٣).

(2) الآية ٩٢ من سورة النمل.

(3) من الآية الأخيرة من سورة النمل.

ثم شرع في بيان شأنهما، فقال:

﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿إنَّ فرعونَ علا في الأرض﴾ ، وهو استئناف بياني، وكأن قائلاً قال: وكيف كان نبأهما؟ فقال: إنه علا في الأرض، أي: تجبّر وطغى في أرض مصر، وجاوز الحد في الظلم والعدوان. أو: علا عن عبادة ربه، وافتخر بنفسه، ونسي العبودية. وفي التعبير بالأرض تبكيت عليه، أي: علا في محل التذلل والانخفاض، ﴿وجعل أهلَها شيَعاً﴾ أي: فرقًا وأصنافاً في الخدمة والتسخير، كلُّ قوم من بني إسرائيل في شغل مفرد. وقيل: ملّك القبط واستعبد بني إسرائيل. أو: فرقًا مختلفة، يُكرم طائفة ويهين أخرى، فأكرم القبط، وأهان بني إسرائيل. ﴿يستضعفُ طائفةً منهم﴾ وهم بنو إسرائيل، وهو يرشد إلى كون المراد بقوله: ﴿وجعل أهلها﴾ لا يَخُصُّ ببني إسرائيل. ﴿يُذبِّحُ أبناءهم﴾ الذكور، ﴿ويستحيي نساءهم﴾ أي: البنات، يتركهم لخدمته.

وسبب ذبحه للأبناء أن كاهناً قال له: يولد مولود في بني إسرائيل، يذهب ملكك على يده، وفيه دليل على حمق فرعون؛ فإنه إن صدق الكاهن لم ينفعه القتل؛ إذ لا ينفع حذر من قدر، وإن كذب فلا معنى للقتل. وجملة: ﴿يستضعف﴾: حال من الضمير في ﴿جعل﴾، أو صفة لشيع، أو استئناف. ﴿إنه كان من المفسدين﴾ ، أي: الراسخين في الإفساد، ولذلك اجترأ على تلك العزيمة العظيمة، من قتل المعصومين من أولاد الأنبياء - عليهم السلام.

﴿ونريد أن نَمُنَّ﴾ أي: نتفضل ﴿على الذين استُضعفوا في الأرض﴾ على الوجه المذكور بالقتل والتسخير. وهذه الجملة معطوفة على: ﴿إن فرعون﴾، أو: حال من ﴿يستضعف﴾، أي: يستضعفهم فرعون ونحن نُريد أن نمنّ عليهم، وإرادة الله تعالى كائنة لا محالة، فَجُعلتْ كالمقارنة لاستضعافهم، ﴿ونجعلهم أئمةً﴾ أي: قادة يُقتدى بهم في الخير، أو: دعاة إلى الخير، أو: ولاةً وملوكاً، ﴿ونجعلهم الوارثين﴾ أي: يرثون فرعون وقومه، مُلكَهم وكل ما كان لهم.

﴿ونُمكِّنَ لهم في الأرض﴾ ؛ أرض مصر والشام، يتصرفون فيها كيف شاءوا، وتكون تحت مُلكهم وسلطانهم. وأصل التمكن: أن يجعل له مكاناً يقعد عليه، ثم استعير للتسليط والتصرف في الأمر. ﴿ونُرِيَ فرعونَ

وهامان وجنودهما منهم ﴾؛ من بنى إسرائيل، ﴿ ما كانوا يحذرون ﴾؛ يخافون من ذهاب ملكهم، وهلاكهم على يد مولود منهم. والحذر: التوقى من الضرر. ومن قرأ (يرى)؛ بالياء[1]، ففرعون وما بعده فاعل. وبالله التوفيق.

الإشارة: العلو فى الأرض يورث الذل والهوان. والتواضع والاستضعاف يورث العز والسلطان، والعيش فى العافية والأمان؛ من تواضع رفعه الله، ومن تكبر قصمه الله. وهذه عادة الله فى خلقه، بقدر ما يذل فى جانب الله يعزه الله، وبقدر ما يفتقر يغنيه الله، وبقدر ما يفقد يجد الله. قال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه: اللهم إن القوم قد حكمت عليهم بالذل حتى عزوا، وحكمت عليهم بالفقد حتى وجدوا. وبالله التوفيق.

ثم ذكر أول نشأة موسى عليه السلام وما جرى فى تربيته، فقال:

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وأوحينا إلى أمِّ موسى ﴾؛ بالإلهام، أو بالرؤيا، أو بإخبار ملك كما كان لمريم، وليس هذا وحى رسالة، فلا يلزم أن تكون رسولاً، واسمها: يوحانة، وقيل: يوخابذ بنت يصهر بن لاوى بن يعقوب. وقيل: يارخا. ذكره فى الإتقان. وقلنا: ﴿ أنْ أرضعيه ﴾؛ «أن» :مفسرة، أى: أرضعيه، أو: مصدرية، بأن أرضعيه ما أمكنك إخفاؤه، ﴿ فإذا خفت عليه ﴾ من القتل ﴿ فألقيه فى اليمِّ ﴾. البحر، وهو نيل مصر، ﴿ ولا تخافى ﴾ عليه من الغرق والضياع، ﴿ ولا تحزنى ﴾ لفراقه، ﴿ إنا رادوه إليك ﴾ بوجه لطيف؛ لتربيه، ﴿ وجاعلوه من المرسلين ﴾. وفى هذه الآية: أمران، ونهيان، وخبران، وبشارتان.

والفرق بين الخوف والحزن؛ أن الخوف: غم يلحق الإنسان لتوقُّع مكروه، والحزن: غم يلحق الإنسان لواقع أو ماضى، وهو الآن فراقه والإخطار به. فنهيت عنهما، وبشرت برده وجعله من المرسلين. رُوى أنه ذبح، فى طلب موسى، تسعون ألف وليدٍ. ورُوى أنها حين ضربها الطلق ـ وكانت بعض القوابل من الموكلات بحبالى بنى إسرائيل مصافية لها، فعالجتها، فلما وقع إلى الأرض هالها نور بين عينيه، ودخل حبّه قلبها، فقالت: ما جئت إلا لأقتل ولدك وأُخبر فرعون، ولكن وجدت لابنك حباً ما وجدت مثله، فاحفظيه، فلما خرجت القابلة، جاءت عيون فرعون

(١) قرأ حمزة والكسائى (يرى) بياء مفتوحة، و «فرعون» بالرفع فاعله، و «هامان وجنودهما» بالرفع عطفاً عليه، وقرأ الباقون «نُرى» بالنون مضمومة، و«فرعون» بالنصب مفعوله. انظر الإتحاف (٢/ ٣٤٠).

فلفّته في خرقة، ووضعته في تنور مسجور، ولم تعلم ما تصنع؛ لما طاش من عقلها، فطلبوا فلم يجدوا شيئاً، فخرجوا، وهي لا تدرى مكانه، فسمعت بكاءه من التنور، فانطلقت إليه، وقد جعل الله النار عليه برداً وسلاماً. فلما ألح فرعون في طلب الولدان، أوحى الله إليها بإلقائه في اليمِّ، فألقته في اليم بعد أن أرضعته ثلاثة أشهر.

رُوى أنها لفته في ثيابه، وجعلت له تابوتاً من خشب، وقيل: من بردى، وسدت عليه بقفل، وأسلمته؛ ثقة بالله وانتظاراً لوعده سبحانه. قال ابن مخلص: ألقته في البحر بالغداة، فرده إليها قبل الظهر. حُكى أن فرعون كانت له بنتٌ برصاء، أعيت الأطباء، فقال الأطباء والسحرة: لا تبرأ إلا من قِبل البحر، يؤخذ منه شبه الإنسان، فيؤخذ من ريقه وتلطخ به برصها، فتبرأ، فقعد فرعون على شفير النيل، ومعه آسية امرأته، فإذا بالتابوت يلعب به الموج، فأُخِذ له، ففتحوه، فلم يطيقوا، فدنت آسية، فرأت في وجه التابوت نوراً لم يره غيرُها، للذى أراد الله أن يكرمها، ففتحه، فإذا الصبى بين عينيه نور، وقد جعل الله رزقه في إبهامه، يمصه لبناً، فأحبته آسية وفرعون، فلطخت بنت فرعون برصها فبرئت، فقبَّلته وضمته إلى صدرها. فقال بعض القواد من قوم فرعون: نظن هذا المولود الذى نحذر منه، فهمّ فرعون بقتله ـ والله غالب على أمره ـ فقالت آسية: ﴿ قُرة عين لى ولك .. ﴾ الآية(١).

وهذا معنى قوله: ﴿ فالتقطه آلُ فرعون ﴾؛ أخذه. قال الزجّاج: وكان فرعون من أهل فارس، من إِصْطَخْر. والالتقاط: وجدان الشيء من غير طلب ولا إرادة، ومنه: اللُّقَطَة، لما وجد ضالاً. وقوله: ﴿ ليكونَ لهم عَدُواً وحَزَناً ﴾ أى: ليصير الأمر إلى ذلك، لا أنهم أخذوه لهذا، فاللام للصيرورة؛ كقولهم: لدوا للموت وابنوا للخراب. وقال صاحب الكشاف: هى لام «كى» التى معناها التعليل، كقولك: جئت لتكرمني. ولكن معنى التعليل فيها وارد على طريق المجاز؛ لأن ذلك لما كان نتيجة التقاطهم له، شبه بالداعى الذى يفعل الفاعل الفعلَ لأجله. هـ. وتسمى بالاستعارة التبعية.

وفى «الحَزَن» لغتان؛ الفتح والضم، كالعدم والعدم.

﴿ إنَّ فرعونَ وهامانَ وجنودَهما كانوا خاطئين ﴾، أى: مذنبين، فعاقبهم الله تعالى بأن ربَّى عدوهم، ومن هو سبب هلاكهم على يديهم. أو: كانوا خاطئين فى كل شىء، فليس خطؤهم فى تربية عدوهم ببدع منهم.

﴿ وقالت إمرأةُ فرعون ﴾، لمّا هم فرعون بقتله ـ لقول القواد: هو الذى نحذر: هو﴿ قرةُ عين لى ولك ﴾، فقال فرعون: لكِ، لا لى. قال ﷺ: «لو قال مثل ما قالت لهداه الله مثل ما هداها»(٢)، وهذا على سبيل الفرض، أى: لو كان غير مطبوع عليه الكفر لقال مثل قولها. ثم قالت: ﴿ لا تقتلوه ﴾، خاطبته خطاب الملوك، أو خاطبت

(١) انظر تفسير الطبرى (٢٠/٣٢) والبغوى (٦/١٩٢).
(٢) عزاه المناوى فى الفتح السماوى (٢/٨٩٧) للنسائى ـ فى الكبرى فى التفسير ـ من حديث ابن عباس ـ رضى الله عنه.

الفُؤاد. ﴿ عسى أن ينفعنا ﴾ ؛ فإن فيه مخايلَ اليُمنِ ودلائلَ النفعِ، وذلك لِمَا عايَنَتْ من النور وبرءِ البرصاء. ﴿ أو نتخذه ولداً ﴾ ؛ أو: نتبناه؛ فإنه أهل لأن يكون ولد الملوك. قال تعالى: ﴿ وهم لا يشعرون ﴾ ما يكون من أمره وأمرهم، أو: لا يشعرون أن هلاكهم على يديه، أو: لا يشعرون أنهم على خطأ عظيم فى التقاطه ورجاء النفع منه. والله تعالى أعلم.

الإشارة : يقال لمن يعالج تربية مريد: أرضعه من لبن علم الغيوب، فإذا خفت عليه الوقوف مع الشرائع(١) ، فألقه فى اليم؛ فى بحر الحقائق، ولا تخف ولا تحزن، إنا رادوه إلى بر الشرائع، ليكون من الكاملين، لأن من غرق فى بحر الحقيقة، على يد شيخ كامل، لابد أن يخرجه إلى بر الشريعة، ويسمى البقاء، وهو القيام برسم الشرائع، فالبقاء يطلب الفناء، فمن تحقق بمقام الفناء؛ فلابد أن يخرج إلى البقاء، كما يخرج من فصل الشتاء إلى الربيع. والله تعالى أعلم.

وقوله تعالى: ﴿ ليكون لهم عدواً وحزنًا ﴾ ، ما كان التقاط فرعون لموسى إلا للمحبة والفرح، فخرج له عكسه. ومن هذا كان العارفون لا يسكنون إلى شىء، ولا يعتمدون على شىء؛ لأن العبد قد يخرج له الضرر من حيث النفع، وقد يخرج له النفع من حيث يعتقد الضرر، وقد ينتفع على أيدى الأعداء، ويُضَرُّ على أيدى الأحِبَّاءِ، فليكن العبد سلْماً بين يدى سيده، ينظر ما يفعل به. ﴿ والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾ .

ثم قال تعالى:

﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله : ﴿ وأصبح ﴾ أى: صار ﴿ فؤادُ أُمِّ موسى فارِغًا ﴾ من كل شىء إلا مِن ذكر موسى وهمه، أو: فارغاً : خالياً من العقل؛ لِمَا دهمها من الجزَع والحيرة، حين سمعت بوقوعه فى يد فرعون، ويؤيده قراءة ابن محيصن: «فزعاً»؛ بالزاى بلا ألف، أو: فارغاً من الوحى الذى أوحى إليها أن تلقيه فى اليم، ناسياً

(١) أى: الوقوف الظاهرى، الشكلانى، دون تحقق القلب والنفس بحقائق الإيمان ولوازمه. فهذا هو الذى يخاف منه، مثل وقوف الخوارج، الذين وصفهم الرسول ﷺ بأن إيمانهم لايجاوز حناجرهم، وأن قراءتهم لاتجاوز تراقيهم، وأن صلاتهم لاتجاوز تراقيهم، أى: أن تعبدهم وتدينهم هو تدين برانى، شكلانى، لاينبثق من الأعماق، من الكيان الجوانى للإنسان.

للعهد أن يرده إليها، لما دَهَمَهمَا من الوجد، وقال لها الشيطان: يا أم موسى كرهتِ أن يقتل فرعون موسى وأغرقته أنتِ. وبلغها أنه وقع في يد فرعون، فعظم البلاء، ﴿ إن كادتْ لتُبدِي به ﴾: لتبوح به وتظهر شأنه وأنه ولَدها.

قيل: لما رأت الأمواج تلعب بالتابوت؛ كادت تصيح وتقول: يا ابناه، وقيل: لما سمعت أن فرعون أخذ التابوت لم تشك أنه يقتله، فكادت تقول: يا ابناه؛ شفقة عليه. و«أن» مخففة، أي: إنها كادت لتظهره ﴿ لولا أن ربطنا على قلبها ﴾. والربط: تقويته؛ بإلهام الصبر والتثبيت، ﴿ لتكون من المؤمنين ﴾: من المصدقين بوعدنا، وهو: ﴿إنا رادوه إليك﴾. وجواب «لولا»: محذوف، أي: لأبْدته، أو: فارغاً من الهم، حين سمعت أن فرعون تبناه، إن كادت لتُبدي بأنه ولدها؛ لأنها لم تملك نفسها؛ فرحاً وسروراً مما سمعت، لولا أنا ربطنا على قلبها وثبتناه؛ لتكون من المؤمنين الواثقين بعهد الله، لا بتبنى فرعون. قال يوسف بن الحسن: أُمرتْ أم موسى بشيئين، ونُهيت عن شيئين، وبُشرت ببشارتين، فلم ينفعها الكل، حتى تولى الله حياطتها، فربط على قلبها.

﴿ وقال لأخته ﴾ مريم: ﴿ قُصِّيه ﴾: اتبعي أثره؛ لتعلمي خبره، ﴿ فبَصُرَتْ به ﴾ أي: أبصرته ﴿ عن جُنُب ﴾؛ عن بُعدٍ. قال قتادة: جعلت تنظر إليه كأنها لا تريده، ﴿ وهم لا يشعرون ﴾ أنها أخته، وأنها تقصه. والله تعالى أعلم.

الإشارة: ينبغي للعبد، الطالب لمولاه، أن يصبح فارغاً من كل ما سواه، ليس في قلبه سوى حبيبه، فحينئذ يرفع عنه الحجاب، ويُدخله مع الأحباب، فعلامة المحبة: جمع الهموم في هَم واحد، وهو حب الحبيب، ومشاهدة القريب المجيب، كما قال الشاعر:

كَانَتْ لِقَلْبِي أَهْوَاءٌ مُفَرَّقَةٌ ... فَاسْتَجْمَعَتْ، مُذْ رَأَتْكَ الْعَيْنُ، أَهْوَائِي
فَصَارَ يَحْسُدُنِي مَنْ كُنْتُ أَحْسُدُهُ ... وَصِرْتُ مَوْلَى الورى مُذْ صِرْتَ مَوْلائِي
تَرَكْتُ لِلنَّاسِ دنياهم ودِينَهُمُ ... شُغْلاً بِذِكْرِكَ يا دِيِنِي ودُنْيَائِي

فَرِّغْ قلبك من الأغيار تملأه بالمعارف والأسرار. والأغيار: جمع غَيْرٍ، وهو ما سوى الله، فإن تلاشى الغير عن عين العبد؛ شاهد مولاه في غيب ملكوته، وأسرار جبروته، وفي ذلك يقول القائل:

إِنْ تَلاَشَى الكَوْنُ عَنْ عَيْنِ قَلْبِي ... شَاهَدَ السِّرُّ غَيْبَهُ في بيَانِ
فَاطْرَحِ الكَوْنَ عَنْ عِيَانِكَ، وَامْحُ ... نُقْطَةَ الْغَيْنِ إِنْ أَرَدْتَ تَرَانِي

فمن شاهد حبيبه كاد أن يبدى به، ويبوح بسره؛ فرحًا واغتباطاً به، لولا أن الله يربط على قلبه، ليكون من الثابتين الراسخين في العلم به، وإن أبدى سر الحبيب سلط عليه سيف الشريعة، وبالله التوفيق.

ثم ذكر رجوع موسى إلى أمه، فقال:

﴿ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ ﴾

قلت: المراضع: جمع مُرضِع، وهى المرأة التى ترضع، أو: مَرْضَع - بالفتح - : موضع الرضاع، وهو الثدى. و(لا تحزن): معطوف على (تقرَ).

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وحرّمنا عليه المراضِعَ ﴾ أى: تحريم منع، لا تحريم شرع، أى: منعناه أن يرضع ثَدْياً غيْرَ ثدي أمه. وكان لا يقبل ثدى مرضع حتى أهمهم ذلك. ﴿ من قبلُ ﴾ أى: من قبل قَصَصِها أثره، أو: من قبل أن نرده إلى أمه. ﴿ فقالت ﴾ أخته، وقد دخلت داره بين المراضع، ورأته لا يقبل ثدياً: ﴿ هل أدُلكم ﴾، أرشدكم ﴿ على أهل بيتٍ يكفلونه ﴾؛ يحفظون موسى ﴿ لكم، وهم له ناصحون ﴾؛ لا يقصرون في إرضاعه وتربيته. والنصح: إخلاص العمل من شائبة الفساد. رُوى أنها لما قالت: ﴿وهم له ناصحون﴾؛ قال هامان: إنها لتعرفه وتعرف أهله، فخذوها حتى تخبر بقصة هذا الغلام، فهو الذى نحذر، فقالت: إنما أردتُ: وهُمْ للملك ناصحون.

فانطلقت إلى أمها بأمرهم، فجاءت بها، والصبى على يد فرعون يُعلله؛ شفقة عليه، وهو يبكى يطلب الرضاع، فحين وجد ريحها استأنس والتقم ثديها، فقال لها فرعون: ومن أنتِ منه، فقد أبى كل ثدى إلا ثديك؟ فقالت: إنى امرأة طيبة الريح، لا أُوتَى بصبى إلا قَبِلَنى. فدفعه إليها، وأجرى عليها مؤنة الرضاع. قيل: ديناراً فى اليوم، وذهبت به إلى بيتها، وأنجز الله لها وعده فى الرد، فعندها ثبت واستقر فى علمها أنه سيكون نبياً. وذلك قوله تعالى: ﴿ فرددناه إلى أمه كى تقرَّ عينُها ﴾ بولدها، ﴿ ولا تحزنَ ﴾ لفراقه، ﴿ ولِتَعْلَم أن وعْدَ الله حقٌّ ﴾، أى: وليثبت علمها؛ مشاهدة، كما ثبت؛ علماً.

وأما جزعها وحيرتها؛ فذلك من الطبع البشرى الجِبِلّيّ، اللازم لضعف البشرية، لا ينجو منه إلا خواص الخواص، وإنما حل لها ما تأخذه من الدينار في اليوم، كما قال السدى: لأنه مال حربى، لا أنه أجرة إرضاع ولدها.

﴿ ولكن أكثرهم ﴾ أى: القبط، أو الناس جملة، ﴿ لا يعلمون ﴾ أن ما وعد الله لابد من إنجازه، ولو بعد حين، وهو داخل تحت علمها، أى: لتعلم أن وعد الله حق، ولتعلم أن أكثر الناس لا يعلمون فيرتابون فيه. وفيه التعريض بما فرط منها؛ حين سمعت بوقوع موسى في يد فرعون، فجزعت، وهذا من الطبع البشرى كما تقدم. وأيضاً يجوز أن يكون الوعد منوطاً بشروط وأسباب، قد لا تعرفها، فلذلك لم ينفك خوفها. والله تعالى أعلم.

الإشارة: وحرمنا على الإنسان المراضع، من لبان الخمرة الأزلية، من قبل أن نلقيه بأهلها، فقالت له العناية السابقة: هل أدلك على أهل بيت الحضرة يكفلونك من رعونات البشرية، والهفوات القلبية، وهى الإصرار على المساوئ والذنوب، ويرضعونك من لبن الخمرة الأزلية. وهم لك ناصحون، يدلونك على الله ولا يدلونك على غيره.؛ فإن من دلَّك على الله فقد نصحك، ومن دلَّك على العمل فقد أتعبك، ومن دلك على الدنيا فقد غشك. فرددناه إلى أمه، وهى الحضرة القدسية، التى خرج منها، بمتابعة شهوته وغفلته، كى تقر عين روحه بمشاهدة حبيبها، ولا تحزن على فوات شيء، إذ لم تفقد شيئاً، حيث وجدت الله تعالى؛ «ماذا فَقَدَ مَنْ وَجَدَك؟ وما الذى وَجَدَ من فَقَدَك؟»(١) ولتعلم أن وعد الله بالفتح على من توجه إليه بالواسطة حق، ولكن أكثر أهل الغفلة لا يعلمون.

ثم ذكر سبب خروج موسى من مصر، فقال:

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ ﴾

قلت: ﴿على حين غفْلَةٍ﴾: حال، أى: دخل مخفياً.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ولما بَلَغَ ﴾ موسى ﴿ أَشُدَّهُ ﴾ أى: نهاية القوة وتمام العقل، جمع شِدَّة؛ كنعمة وأنعم. وأول ما قيل فى الأشد: بلوغ النكاح، وذلك أوله، وأقصاه: أربع وثلاثون سنة. ﴿ واستوى ﴾ أى: اعتدل

(١) من مناجاة سيدى ابن عطاء الله السكندرى. انظر الحكم بتبويب المتقى الهندى/ ص٤٢.

عقله وقوته، وهو أربعون سنة، ويُروى أنه لم يبعث نبي إلا على رأس أربعين سنة.﴿آتيناه حُكْمًا﴾: نبوة، أو: حكمة ﴿وعلمًا﴾: فقهًا في الدين، أو: علمًا بمصالح الدارين. والحاصل: لما تكامل عقله وبصيرته آتيناه حُكمًا على عبادنا وعلمًا بنا. ﴿وكذلك نجزى المحسنين﴾ أى: كما فعلنا بموسى وأمه؛ لمّا استسلمت لأمر الله، وألقت ولدها في البحر، وصدقت بوعد الله، فرددنا لها ولدها، ووهبنا له الحكمة والنبوة، فكذلك نجزى المحسنين فى كل أوان وحين.

قال الزجاج: جعل الله تعالى إيتاء العلم والحكمة مجازاة على الإحسان؛ لأنهما يؤديان إلى الجنة، التى هى جزاء المحسنين، والعالِم الحكيم من يعمل بعلمه؛ لأنه تعالى قال: ﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾(١)، فجعلهم جهالاً، إذ لم يعملوا بالعلم. هـ.

﴿ودخل المدينةَ﴾ أى: مصر، آتيًا من قصر، فرعون، وكان خارجًا، وقال السُّدى: مدينة منف من أرض مصر، وقال مقاتل: قرية «حابين»، على فرسخين من مصر. ﴿على حين غفلةٍ من أهلها﴾، وهو ما بين العشاءين، أو: وقت القائلة، يعنى: انتصاف النهار. قال السدى: لما كبر موسى؛ ركب مراكب فرعون، ولبس ملابسَه، فكان يدعى موسى بن فرعون، فركب فرعون يومًا وركب موسى خلفه، فأدركه المقيل بقرب مدينة منف، فدخلها نصف النهار، وقد غلقت أسواقها، وليس فى طرقها أحد، فوجد موسى رجلين.. إلخ.

قال ابن إسحاق: كان يجتمع إلى موسى طائفة من بنى إسرائيل ويقتدون به، فرأى مفارقة فرعون، وتكلم فى ذلك حتى ظهر أمره، فأخافوه، فكان لا يدخل قرية إلا مستخفيًا، فدخلها على حين غفلة. وقيل: إن موسى لما شبّ علا فرعون بالعصى، فقال: هذا عدو لى، فأخرجه من مصر، ولم يدخل عليهم إلى أن كبر وبلغ أشده، فدخل المدينة على حين غفلة من أهلها بخبر موسى، أى: من بعد نسيانهم خبره(٢)، ﴿فوجد فيها رجلين يقتتلان﴾؛ يتضاربان، ﴿هذا من شيعته﴾؛ ممن على دينه من بنى إسرائيل، وقيل: هو السامرى. وشيعة الرجل: أتباعه وأنصاره، ﴿وهذا من عدوه﴾؛ من مخالفيه من القبط، وهو طباخ فرعون. واسمه: «فليثور»، وقيل فيهما: «هذا وهذا»، وإن كانا غائبين؛ على جهة الحكاية، أى: إذا نظر إليهما الناظر قال: هذا وهذا.

وقال ابن عباس: لما بلغ موسى أشده كان يحمى بنى إسرائيل من الظلم والسخرة، فبينما هو يمشى نظر رجلين يقتتلان، أحدهما من القبط والآخر من بنى إسرائيل.

(١) من الآية ١٠٢ من سورة البقرة.
(٢) أخرج هذه الأقوال الطبرى فى تفسيره (٢٠/٤٣ ـ ٤٤).

﴿ فاستغاثه ﴾؛ فاستنصره ﴿ الذى من شيعته على الذى من عدوه ﴾ أى: فسأله أن يغيثه الإعانة. ضمّن استغاث أعان، فعداه بـ «على». رُوى أنه لما استغاث به، غضب موسى، وقال للفرعونى: خله عنك؟ فقال: إنما آخذه ليحمل الحطب إلى مطبخ أبيك، ثم قال الفرعونى لموسى: لقد هممت أن أحمله عليك، ﴿ فوكزه موسى ﴾؛ ضربه بِجُمْعِ كفه، أو: بأطراف أصابعه. قال الفراء الوَكز: الدفع بأطراف الأصابع. ﴿ فقَضَى عليه ﴾ أى: قتله، ولم يتعمد قتله، وكان موسى عليه السلام ذا قوة وبطش، وإنما فعل ذلك الوكز؛ لأن إغاثة المظلوم والدفع عنه دِين فى الملل كلها، وفرض فى جميع الشرائع. وإنما عدَّه ذنباً؛ لأن الأنبياء لا يكفى فى حقهم الإذن العام، فلذلك ﴿ قال هذا من عمل الشيطان ﴾ أى: القتل الحاصل، بغير قصد، من عمل الشيطان، واستغفر، وإنما جعل قتل الكافر من عمل الشيطان، وسماه ظلماً لنفسه، واستغفر منه؛ لأنه كان مستأمناً فيهم، أو: لأنه قتله قبل أن يُؤذن له فى القتل. وعن ابن جريج: ليس لنبى أن يقتل ما لم يؤمر، ولأن الخصوص يُعظمون محقرات ما فرط منهم. ﴿ إنه ﴾ أى: الشيطان ﴿ عدو مُضل مبين ﴾؛ ظاهر العدواة.

﴿ قال ربِّ ﴾ أى: يارب ﴿ إنى ظلمتُ نفسى ﴾ بفعل صار قتلاً ﴿ فاغفرْ لى ﴾ زلتى، ﴿ فغَفَرَ له ﴾ زلته، ﴿ إنه هو الغفور ﴾ بإقالة الزلل، ﴿ الرحيم ﴾ بإزالة الخجل، ﴿ قال ربِّ بما أنعمتَ علىَّ ﴾ أى: بحق إنعامك علىّ بالمغفرة ولم تعاقبنى ﴿ فلن أكون ظهيراً للمجرمين ﴾ أى: لا تجعلنى أُعين على خطيئة، توَسل للعصمة بإنعامه عليه. وقيل: إنه قسم حُذف جوابه، أى: أُقسِمُ بإنعامك علىَّ بالمغفرة، إن عصمتنى، فلن أكون ظهيراً للمجرمين، وأراد بمظاهرة المجرمين صُحْبَةَ فرعون، وانتظامَهُ فى جملته، وتكثير سواده، حيث كان يركب معه كالولد مع الوالد.

قال ابن عطية: واحتج أهل الفضل والعلم بهذه الآية فى منع خدمة أهل الجور، ومَعُونتهم فى شىء من أمورهم، ورأوا أنها تتناول ذلك. هـ. قال الْوصَافى لعطاء بن أبى رباح: إن لى أخًا يأخذ بقلمه، وإنما يكتب ما يدخل ويخرج، وله عيال، ولو ترك لاحتاج وأدَانَ. فقال: مَن الرأس؟ فقال: خالد بن عبد الله، قال: أما تقرأ قول العبد الصالح: ﴿ ربّ بما أنعمتَ علىَّ فلن أكون ظهيراً للمجرمين ﴾، فإن الله عز وجل سيعينه. هـ.

الإشارة: خصوصية الولاية كخصوصية النبوة، لا تُعطَى، غالبًا، إلا بعد بلوغ الأشد وكمال قوة العقل، وحصول الاستواء، وهو أن يستوى عنده المدح والذم، والعز والذل، والمنع والعطاء، والفقر والغنى، وتستوى حالُه فى القبض والبسط، والغضب والرضا، فإذا استوى فى هذه الأمور آتاه الله حكمًا وعلمًا، وجزاه جزاء المحسنين، وكتب شيخ شيخنا إلى بعض تلامذته: أمّا بعد، فإن تورعت فى أقوالك وأفعالك، وتوسعت فى أخلاقك، حتى

يستوى عندك من يمدحك ويذمك، ويعطيك ويمنعك، ومن يؤذيك وينفعك، ومن يشدد عليك ويوسع، فلا أشك فى كمالك.هـ.

فإن قلت: لمَ ذكر الحق، جلّ جلاله، الاستواء فى حق سيدنا موسى، ولم يذكره فى حق نبيه يوسف ـ عليهما السلام ؟ فالجواب: أن سيدنا يوسف عليه السلام تربى فى السجن وفى نار الجلال، وكل محنة تزيد تهذيبًا وتدريبًا، فما بلغ الأشد حتى وقع له كمال الاستواء، بخلاف سيدنا موسى عليه السلام فإنه تربى فى العز والجمال، فاحتاج إلى تربية وتهذيب، بعد كمال الأشد، فلم يحصل له كمال الأدب إلا بعد الاستواء الذى يليق به، فلذلك ذكره فى حقه. والله تعالى أعلم.

ثم قال تعالى:

﴿ فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ ﴾

قلت: جملة (يسعى): حال من (رجل)؛ لأنه وُصِفَ بالجار.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ فأصبح ﴾ موسى ﴿ فى المدينة ﴾ أى: مصر ﴿ خائفًا ﴾ على نفسه من قتله؛ قَوَدًا بالقبطى، وهذا الخوف أمر طبيعى لا ينافى الخصوصية، ﴿ يترقبُ ﴾: ينتظر الأخبار عنه، أو ما يقال فيه، أو يترصد الاستفادة منه. وقال ابن عطاء: خائفاً على نفسه، يترقب نصرة ربه، ﴿ فإذا الذى استنصره بالأمس يستصرخه ﴾: يستغيثه، مشتق من الصراخ؛ لأنه يقع فى الغالب عند الاستغاثة. والمعنى: أن الإسرائيلى الذى خلصه موسى استغاث به ثانيًا من قبطى آخر، ﴿ قال له موسى ﴾ أى: للإسرائيلى: ﴿ إنك لغوىٌّ مبين ﴾ أى: خال عن الرشد، ظاهر الغى، فقد قاتلتَ بالأمس رجلاً فقتلتُه بسببك. قال ابن عباس: أُتِى فرعون، فقيل له: إن بنى إسرائيل قد قتلوا منا رجلاً، فالقصاص، فقال: ابغُونى القاتل والشهود، فبينما هم يطلبون إذ مر موسى من الغد،

فرأى ذلك الإسرائيلى يقاتل فرعونياً آخر، يريد أن يسخره، فاستغاث به الإسرائيلى على الفرعونى، فوافق موسى نادماً على القتل، فقال للإسرائيلى: إنك لغوى مبين(١).

﴿فلما أن أرادَ﴾ موسى ﴿أن يبطش بالذى﴾؛ بالقبطى الذى ﴿هو عدو لهما﴾؛ لموسى وللإسرائيلى؛ لأنه ليس على دينهما، أو: لأن القبط كانوا أعداء بنى إسرائيل، أى: فلما مدّ موسى يده؛ ليبطش بالفرعونى، خشى الإسرائيلى أن يريده، حين قال: ﴿إنك لغوي مبين﴾، فقال: ﴿يا موسى أتريدُ أن تقتلنى كما قتلتَ نفساً بالأمس﴾، يعنى: القبطى، ﴿إنْ﴾؛ ما ﴿تريدُ إلا أن تكون جباراً﴾؛ قتالاً بالغضب، ﴿فى الأرض﴾؛ أرض مصر، ﴿وما تريدُ أن تكون من المصلحين﴾ فى كظم الغيظ.

وقيل: القائل: ﴿يا موسي أتريد..﴾، إلخ، هو القبطى، ولم يعلم أن موسى هو الذى قتل الرجل بالأمس، ولكن لما قصد أن يمنعه من الإسرائيلى استدل على أن الذى قتل صاحب هذا الرجل بالأمس هو موسى، فلما ذكر ذلك شاع فى أفواه الناس أن موسى هو الذى قتل القبطى بالأمس، فأمسك موسى عنه، ثم أخبر فرعون بذلك؛ فأمر بقتل موسى.

﴿وجاء رجلٌ من أقصى المدينة﴾؛ من آخرها، واسمه: «حزقيل بن حبورا»، مؤمن آل فرعون، وكان ابن عم فرعون، ﴿يسعى﴾: يُسرع فى مشيه، أو: يمشى على رجله، ﴿قال ياموسى إن الملأ يأتمرون بك﴾، أى: يتشاورون فى قتلك، ويأمر بعضهم بعضاً بذلك. والائتمار: التشاور، ﴿فاخْرجْ﴾ من المدينة، ﴿إنى لك من الناصحين﴾، فاللام فى(لك): للبيان، وليس بصلة؛ لأن الصلة لا تتقدم على الموصول، إلا أن يُتَسَامَحَ فى المجرور، ﴿فخرج منها﴾؛ من مصر ﴿خائفاً يترقَّبُ﴾: ينتظر الطلب ويتوقعه، ﴿قال ربِّ نجنى من القوم الظالمين﴾؛ قوم فرعون. والله تعالى أعلم.

الإشارة: فى الآية دليل على أن الخوف عند الدواهى الكبار لا ينافى الخصوصية؛ لأنه أمر جِبِلِّى، لكنه يخف ويهون أمره، وفيها دليل على جواز الفرار من مواطن الهلاك، يفرّ من الله إلى الله، ولا ينافى التوكل، وقد اختفى ﷺ من الكفار بغار ثور، واختفى الحسن البصرى من الحَجَّاج، عند تلميذه حبيب العجمى. وفيها أيضاً دليل على أن المعصية قد تكون سبباً فى نيل الخصوصية، كأكل آدم من الشجرة، كان سبباً فى نيل الخلافة، وعُمْرَةِ الأرض، وما نشأ من صُلبه من الأنبياء والأولياء وجهابذة العلماء، وكقتل موسى عليه السلام نفساً لم يؤمر بقتلها، كان سبباً فى خروجه للتربية عند شعيب عليه السلام، وتهيئته للنبوة والرسالة والاصطفائية، فكل ما يُوجب التواضع والانكسار يورث التقريب عند الملك الغفار، والحاصل: أن من سبقت له العناية، ونال فى الأزل مقام المحبوبية؛

(١) ذكره البغوى فى تفسيره (٦/ ١٩٨).

صارت مساوئه محاسن، ومن سبق له العكس صارت محاسنه مساوئ. اللهم اجعل سيئاتنا سيئات من أحببت، ولاتجعل حسناتنا حسنات من أبغضت. وفى الحديث: «إذا أحب الله عبداً لم يضره ذنب»(١).

قال فى القوت: واعلم أن مسامحة، الله عز وجل لأوليائه ـ يعنى: فى هفواتهم ـ فى ثلاث مقامات: أن يقيمه مَقَامَ حَبِيبٍ صِدِّيق، لِماَ سبق من قدم صدق، فلا تنقصه الذنوب؛ لأنه حبيب. المقام الثانى: أن يقيمه مقام الحياء منه، بإجلال وتعظيم، فيسمح له، وتصغر ذنوبه؛ للإجلال والمنزلة، ولا يمكن كشف هذا المقام، إلا أنَّا روينا عن رسول الله ﷺ: أنه ذكر طائفة فقال: «يدفع عنهم مساوئ أعمالهم بمحاسن أعمالهم». المقام الثالث: أن يقيمه مقام الحزن والانكسار، والاعتراف بالذنب والإكثار، فإذا نظر حزنه وهمه، ورأى اعترافه وغمه،غفر له؛ حياء منه ورحمة. هـ. وبالله التوفيق.

ثم ذكر توجه موسى إلى مدين، واتصاله بشعيب ـ عليهما السلام ـ فقال:

﴿ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَاۖ قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ولما توجَّه﴾ موسى ﴿تلقاءَ مَدْيَنَ﴾؛ نحوها وجهتها. ومدين: قرية شعيب، سُميت بمدين بن إبراهيم، كما سميت المدائن باسم أخيه مدائن، ويقال له أيضاً: «مدان بن إبراهيم»، ولم تكن مدين فى سلطان فرعون، وبينها وبين مصر مسيرة ثمانية أيام، ولعله إنما لم يتسلط عليها؛ لِماَ وصله من خبر إهلاك أهلها لما طغوا على أنبيائهم، فخاف على نفسه. قال ابن عباس: خرج موسى، ولم يكن له علم بالطريق إلا حسن الظن بربه.

﴿قال عسى ربى أن يهدينى سواءَ السبيل﴾ أى: وسطه ونهجه. فلما خرج، عَرَض له ثَلاَثُ طرق، فأخذ فى أوسطها، وجاء الطلاب عَقِبَهُ، فأخَذُوا فى الآخَرَيْنِ. رُوى أن ملَكاً جاءه على فرس بيده عَنَزَة، فانطلق به إلى

(١) أخرجه الديلمى (مسند الفردوس ٢/٧٧ ح ٤٢٣٢) من حديث أنس. ولفظه: «التائب من الذنب كمن لا ذنب له، وإذا أحب الله عبداً لم يضره ذنب»، وزاد الزبيدى عزوه فى إتحاف السادة المتقين (٩/٦٠٩) لابن النجار فى تاريخه.

مدين. ورُوي أنه خرج بلا زاد ولا درهم، ولا ظهر، ولا حِذاء - أي: نعل -، ولم يكن له طعام إلا ورق الشجر، فما بلغ مدين حتى وقع خُفُّ قَدَمِهِ، وخضرة البقل ترى على بطنه(١).

﴿ولما وَرَدَ﴾؛ وصل ﴿ماء مدين﴾؛ بئراً لهم، ﴿وجد عليه﴾؛ على جانب البئر ﴿أُمَّةً﴾؛ جماعة كثيرة ﴿من الناس﴾؛ من أناس مختلفين ﴿يسقون﴾ مواشيهم، ﴿ووجد من دونِهِمُ﴾؛ في مكان أسفل من مكانهم ﴿امرأتين تَذُودَان﴾: تطردان غَنَمَهُمَا عن الماء، حتى تَصْدُرَ مواشي الناس ثم تسقيان؛ لأن على الماء من هو أقوى منهما، فلا يتمكنان من السقي. أو: لئلا تختلط أغنامهما بأغنامهم. والذود: الطرد والدفع.

﴿قال﴾ لهما موسى: ﴿ما خطبُكما﴾: ما شأنكما لا تسقيان؟ والأصل: ما مخطوبكما، أي: مطلوبكما، فسمي المطلوب خَطْباً، ﴿قالتا لا نسقي﴾ غنمنا ﴿حتى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ﴾، أي: يصرفوا مواشيهم، يقال: أصدر عن الماء وصدر، والمضارع: يَصْدُر ويَصْدِر، والرعاء: جمع راع، كقائم وقيام، والمعنى: لا نستطيع مزاحمة الرجال، فإذا صدروا سقينا مواشينا، ﴿وأبونا شيخ كبير﴾ السن، لا يمكنه سقي الأغنام، وهو شعيب بن نويب بن مدين بن إبراهيم - عليهما السلام - وقيل: هو «يثرون» بن أخي شعيب(٢)، وكان شعيب قد مات بعدما كُفَّ بَصَرُهُ، ودفن بين المقام وزمزم. والأول أصح وأشهر.

﴿فسقى لهما﴾ أي: فسقى غنمهما لأجلهما؛ رغبة في المعروف وإغاثة الملهوف، رُوي أنه نحى القوم عن رأس البئر، وسألهم دلواً، فأعطوه دلوهم، وقالوا: استق به، وكانت لا ينزعها إلا أربعون، فاستقى بها، وصبها في الحوض، ودعا بالبركة. وقيل: كانت آبارهم مغطاة بحجارة كبار، فعمد إلى بئر، وكان حجرها لا يرفعه إلا جماعة، فرفعه وسقى للمرأتين. ووجه مطابقة جوابهما سؤاله: أنه سألهما عن سبب الذود، فقالتا: السبب في ذلك أنا امرأتان مستورتان ضعيفتان، لا نقدر على مزاحمة الرجال، ونستحي من الاختلاط بهم، فلابد لنا من تأخير السقي إلى أن يفرغوا. وإنما رضي شعيب عليه السلام لابنتيه بسقي الماشية؛ لأن الأمر في نفسه مباح مع حصول الأمن، وأما المروءة فعادات الناس فيها متباينة، وأحوال العرب فيها خلاف أحوال العجم، ومذهب أهل البدو فيه غير مذهب أهل الحضر، خصوصاً إذا كانت الضرورة. قاله النسفي. قلت: وقد كنت أعترض على أهل الجبل رَعْيَ النِّسَاءِ المواشي حتى تذكرت قضية ابنتي شعيب، لكن السلامة في زماننا هذا حبس النساء في الديار؛ لكثرة أهل الفساد.

---

(١) انظر تفسير ابن كثير (٣/٣٨٣ - ٣٨٤).

(٢) ذكره في تفسيره (٦/٢٠٠) عن وهب بن منبه.

﴿ ثم ﴾ لما سقى لهما ﴿ تولى إلى الظل ﴾؛ ظل شجرة. عن عمرو بن ميمون، عن عبدالله؛ قال: أحييت ليلتين على جمل لى، حتى صبّحت مدين، فسألت عن الشجرة التى أوى إليها موسى، فإذا هى شجرة خضراء، فأخذ جملى يأكل منها ثم لفظها. هـ(١). وفى الآية دليل على جواز الاستراحة والاستظلال فى الدنيا، بخلاف ما يقوله بعض المتقشفة، وسيأتى فى الإشارة تمامه إن شاء الله.

ثم بث شكواه لمولاه ﴿ فقال ربِّ إنى لِمَا أنزلتَ إلىّ من خيرٍ ﴾ قليل أو كثير ﴿ فقير ﴾؛ محتاج. قال ابن عباس: لقد قال ذلك وإن خضراء البقل لتتراءى فى بطنه، من الهزال. قيل: لم يذق طعاماً منذ سبعة أيام، وقد لصق بظهره بَطْنُهُ، وما سأل الله تعالى الأكلة. وفى هذا تنبيه على هوان الدنيا على الله تعالى. وقال ابن عطاء: نظر من العبودية إلى الربوبية، وتكلم بلسان الافتقار، لما ورد على سره من الأنوار. هـ.

الإشارة: ولما توجه القلبُ تلقاء مَدْيَنِ المآرب، ومنتهى الرغائب - وهى الحضرة القدسية - قال: عسى ربى أن يهدينى سواء السبيل، أى: وسط الطريق التى توصل إليها، وهو شيخ التربية. ولمّا ورد مناهله، ومحلَّ شربه؛ وجد عليه أمة من الناس يسقون قلوبهم من شراب تلك الخمرة، ويطلبون مثل ما يطلب، فإن كان قوياً فى حاله؛ وصل من كان ضعيفًا وسقى له، ثم نزل إلى ظل المعرفة، فى نسيم برد الرضا والتسليم، قائلاً، بلسان التضرع، سائلاً من الله المزيد: ربِّ إنى لما أنزلت إلىّ من خير الدارين، وغنى الأبد، فقير محتاج إلى مزيد الفضل والكرم.

وقال فى لطائف المنن: ﴿ثم تولى إلى الظل﴾؛ قصداً لشكر الله تعالى على ما ناله من النعمة - يعنى: نعمة الظل الحسى - وجعله أصلاً فى استعمال الطيبات، وتناولها بقصد الشكر، ومثله فى التنوير. وفى سنن أبى داود عن عائشة - رضى الله عنها - قالت: «كان ﷺ يُستعذب له الماء من بيوت السُّقْيا»(٢)، قال ابن قتيبة: هى عَيْنٌ، بينها وبين المدينة يومان. هـ. وكان الشيخ ابن مشيش يقول لأبى الحسن رضي الله عنه: (يا أبا الحسن، بَرِّدْ الماء؛ فإن النفس إذا شربت الماء البارد؛ حمدت الله بجميع الجوارح، وإذا شربت الماء السخن؛ حمدت الله بكزازة).

ثم ذكر اتصاله بشعيب، فقال:

﴿ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾

---

(١) أخرجه ابن جرير (٢٠/ ٥٨) وذكره ابن كثير (٣/ ٣٨٤).

(٢) أخرجه أبو داود فى (الأشربة، باب فى إيكاء الآنية، ح ٣٧٣٥، ٤/ ١١٩) والحاكم (٤/ ١٣٨) وبنحوه، أحمد فى المسند (٦/ ١٠٠). والسقيا: منزل بين مكة والمدينة، على يومين من المدينة. انظر: النهاية فى غريب الحديث (سقا، ٢/ ٣٨٢).

قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ (٢٧) قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (٢٨) ﴾

قلت: (تمشى): حال من (إحداهما)، و(على استحياء): حال من ضمير (تمشى)، أى: تمشى مستحيية. و(القصص): مصدر، سُمِّيَ به المقصوص.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ فجاءته إحداهما ﴾؛ وهى التى تزوجها، وذلك أنه لما سقى لهما رجعا إلى أبيهما بغنمهما بِطاناً حُفَّلاً، فقال لهما: ما أعجلكما؟ فقالتا له: وجدنا رجلاً صالحاً رحمنا؛ فسقى لنا أغنامنا، فقال لإحداهما: أدعيه، فجاءته ﴿ تمشى على استحياء ﴾ قد سترت وجهها بكفها، واستترت بكُمِّ درعها. وهذا دليل على كمال إيمانها وشرف عنصرها؛ لأنها كانت تدعوه إلى ضيافتها، ولم تعلم أيجيبها أم لا؟ فقالت: ﴿ إن أبى يدعوك ليجزيَك أجرَ ما سَقيتَ لنا ﴾، «ما» مصدرية، أى: أجر سُقْياكَ لنا، فتبعها موسى، فألزقت الريح ثوبها بجسدها، فوصفته، فقال لها: امشى خلفى، وانعتى الطريق؛ فإننا بنى(١) يعقوب، لا ننظر إلى أعجاز النساء.

﴿ فلما جاءه وقصَّ عليه القَصص ﴾، أى: قصته وأحواله مع فرعون، وكيف أراد قَتْلَهُ، ﴿ قال ﴾ له: ﴿ لاتخفْ نجوتَ من القوم الظالمين ﴾؛ فرعون وقومه؛ إذ لا سلطان له على أرضنا ـ مدين ـ، أو: قَبِلَ الله دعاءك فى قولك: ﴿رب نجنى من القوم الظالمين﴾. وفيه دليل على العمل بخبر الواحد، ولو أنثى، والمشى مع أجنبية على ذلك الاحتياط والتورع. قاله النسفى. وفيه نظر؛ لعصمة الأنبياء ـ عليهم السلام ـ، وأما أخذ الأجر على البر والمعروف؛ فقيل: لا بأس به عند الحاجة، كما كان لموسى عليه السلام، على أنه رُوى أنه لمّا قالت له: ﴿ ليجزيك ﴾؛ كره ذلك. وإنما أجابها لئلا يخيب قصدها؛ لأن للقاصد حرمة.

ولما وضع شعيبُ الطعام بين يديه؛ امتنع، فقال شعيب: ألست جائعاً؟ فقال: بلى، ولكن أخاف أن يكون عوضاً مما سَقَيْتُ لهما، وإنا أهل بيت لا نبيع ديننا بالدنيا، ولا نأخذ على المعروف شيئاً، فقال شعيب: هذه عادتنا مع كل من ينزل بنا، فأكل(٢).

(١) فى الأصول [بنو].

(٢) عزاه السيوطى فى الدر (٥/٢٣٨) لابن عساكر، عن أبى حازم.

﴿ قالت إحداهما يا أبتِ استأجرهُ ﴾ ، أي: اتخذه أجيراً لرعي الغنم. رُوي أن كبراهما كانت تسمى: «صفراء»، والصغرى: «صفيراء»، وقيل: «صابورة»، و«ليا». وصفراء هي التي ذهبت به، وطلبت إلى أبيها أن يستأجره، وهي التي تزوجها. قاله وهب بن منبه وغيره، فانظره مع ما في الحديث، قال ﷺ: «تزوج صغراهما، وقضى أوفاهما»(١). ويمكن الجمع بأن يكون زوّجه إحداهما ثم نقله إلى الأخرى.

ثم قالت التي طلبت استئجاره: ﴿ إن خيرَ من استأجرتَ القويُّ الأمين ﴾ ، فقال: ما أعلَمَكِ بقوته وأمانته؟ فذكرت نزع الدلو، أو رفع الحجر عن البئر، وأمْرَها بالمشي خلفه. وفي رواية عند الثعلبي: أما قوته: فإنه عمد إلى صخرة لا يرفعها إلا أربعون رجلاً، فرفعها عن فم البئر. ثم ذكرتْ أمر الطريق. وقولها: ﴿ إنَّ خيرَ من استأجرت . . ﴾ إلخ: كلام جامع؛ لأنه إذا اجتمعت هاتان الخصلتان؛ الكفاية والأمانة، في القائم بأمرك، فقد فرغ بالك وتم مرادك. وقيل: القوي في دينه، الأمين في جوارحه. وقد استغنت بهذا الكلام، الجاري مجرى المثل، عن أن تقول: استأجره لقوته وأمانته.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه: أفرس الناس ثلاثة: بنت شعيب، وصاحب يوسف في قوله: ﴿ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا ﴾(٢)، وأبو بكر في استخلافه عمر.

﴿ قال ﴾ شعيب لموسى ـ عليهما السلام ـ : ﴿ إني أُريد أن أُنكِحَكَ ﴾ : أُزوجك ﴿ إحدى ابنتَيّ هاتين ﴾ ، وقوله: ﴿ هاتين ﴾ يدل على أن له غيرهما. وهذه مواعدة منه، لا عقد، وإلا لقال: أنكحتك. ﴿ على أن تأجُرَني ﴾ أي: تكون أجيراً لي، من أجرته: إذا كنت له أجيراً ﴿ ثمانيَ حِجَجٍ ﴾ ؛ سنين، والحجة: السنة. والتزوج على رعي الغنم جائز في شرعنا، على خلاف في مذهبنا. ﴿ فإن أتممتَ عشراً ﴾ أي: عشر حجج ﴿ فمن عندك ﴾ أي: فذلك تفضلٌ منك، ليس بواجب عليك، أو: فإتمامه من عندك، ولا أحتمه عليك. ﴿ وما أريد أن أشق عليك ﴾ بإلزام أتم الأجلين. من المشقة، ﴿ ستجدني إن شاء الله من الصالحين ﴾ في حسن المعاملة، والوفاء بالعهد، أو مطلقاً. وعلق بالمشيئة، مراعاة لحسن الأدب مع الربوبية.

﴿ قال ﴾ موسى عليه السلام: ﴿ ذلك ﴾ العهد وعقد الأجرة ﴿ بيني وبينك ﴾ أي: ذلك الذي قُلْتَهُ، وشارطتني عليه، قائم بيننا جميعًا، لا يخرج واحد منا عنه. ثم قال: ﴿ أيَّمَا الأجلين قضيتُ ﴾ أي: أيَّ الأجلين؛ قضيت من

---

(١) أي: تزوج صغرى البنتين، وقضى أوفى الأجلين، وهو عشر سنوات. وأما الحديث فقد أخرجه الخطيب في تاريخ بغداد (٢/١٢٨) عن أبي ذر. والجزء الثاني من الحديث أخرجه البخاري بلفظ: «قضى أكثرهما وأطيبهما». وانظر تخريجه في الصفحة بعد التالية.
(٢) كما في الآية ٢١ من سورة يوسف.

الأجلين: العشر أو الثماني، ﴿فلا عدوان عَلَيَّ﴾ أي: لا يتعدى عليّ في طلب الزيادة عليه، قال المبرد: قد علم أنه لا عدوان عليه في إتمامهما، ولكن جمعهما ليجعل الأقل كالأتم في الوفاء، وكما أن طلب الزيادة على الأتم عدوان فكذلك طلب الزيادة على الأقل. ﴿والله على ما نقول وكيل﴾ أي: رقيب وشهيد.

واختلف العلماء في وجوب الإشهاد في النكاح على قولين، أحدهما: أنه لا ينعقد إلا بشاهدين، وبه قال أبو حنيفة والشافعي، وقال مالك: ينعقد بدون شهود؛ لأنه عَقْدُ معاوضة، فلا يشترط فيه الإشهاد، وإنما يشترط فيه الإعلان، والإظهار بالدف والدخان؛ ليتميز من السفاح، ويجب عند الدخول.

رُوِي أن شعيباً كانت عنده عصِيّ الأنبياء ـ عليهم السلام ـ، فقال لموسى بالليل: أدخل ذلك البيت فخذ عصاً من تلك العصي، فأخذ عصا هبط بها آدم من الجنة، ولم يزل الأنبياء ـ عليهم السلام ـ يتوارثونها، حتى وقعت إلى شعيب، فلما أخذها، قال له شعيب: ردها وخذ غيرها، فما وقع في يده إلا هي سبع مرات. ـ وفي رواية السدي: أمر ابنته أن تأتيه بعصا فجاءته بها، فلما رآها الشيخ قال: آتيه بغيرها، فألقتها لتأخذ غيرها، فلا تصير في يدها إلا هي، مراراً، فرفعتها إليه، فعلم أن له شأناً. ولما أصبح قال له شعيب: إذا بلغتَ مفرق الطريق فلا تأخذ على يمينك، فإن الكلأ، وإن كان بها أكثر، إلا أن فيها تنيناً، أخشاه عليك وعلى الغنم، فأخذت الغنم ذات اليمين ولم يقدر على كفها، فمشى على أثرها، فإذا عشب وريف لم ير مثله، فنام، فإذا التنين قد أقبل، فحاربته العصا حتى قتلته، وعادت إلى جنب موسى دامي، فلما أبصرها دامية، والتنينَ مقتولاً؛ ارتاح لذلك. ولما رجع إلى شعيب بالغنم فوجدها ملأى البطون غزيرة اللبن، وأخبره موسى، فرح، وعلم أن لموسى شأناً، وقال له: إني وهبت لك من نتاج غنمي، هذا العام، كُلَّ أَدْرَعَ ودَرْعَاءَ ـ أي: كل جدي أبلق، وأنثى بلقاء ـ فأوحى الله تعالى إلى موسى في المنام: أن اضرب بعصاك الماء الذي تسقى منه الغنم، فضرب، ثم سقى الأغنام، فوضعت كلها بلقاء، فسلمها شعيب إليه.

وذكر الإمام اللجائي في كتابه (قطب العارفين): أن موسى عليه السلام انتهىْ، ذات يوم، بأغنامه إلى واد كثير الذئاب، وكان قد بلغ به التعب، فبقي متحيراً، إن اشتغل بحفظ الغنم عجز عن ذلك؛ لغلبة النوم عليه والتعب، وإن هو طلب الراحة، وَثَبَتْ الذئابُ على الغنم، فرمى السماء بطرفه، وقال: إلهي إنه أحاط علمك، ونفذت إرادتك، وسبق تقديرك، ثم وضع رأسه ونام. فلما استيقظ؛ وجد ذئباً واضعاً عصاه على عاتقه، وهو يرعى الغنم، فتعجب موسى من ذلك، فأوحى الله إليه: يا موسى؛ كن لي كما أريد، أكن لك كما تريد. قال: فهذه إشارة تدل على أن: مَنْ هَرَبَ مِن الله إلى الله؛ كفاه الله، عز وجل، مَنْ دُونَهُ. هـ. والله تعالى أعلم.

الإشارة: فجاءته - أي: القلب - إحدى الخصلتين؛ الفناء والبقاء، تمشي على مهل وقدر؛ فإن الوصول إلى المقامات إنما يكون بتدريج، على حسب القَدَرِ السابق. قالت إحدى الخصلتين: إن ربي يدعوك إلى حضرته؛ ليجزيك أجر ما سقيت، واستعملت في جانب الوصول إلينا. فلما جاءه، أي: وصل إليه، وتمكن منه، وقص عليه القصص، وهو ما جرى له مع نفسه وجنودها من المجاهدات والمكابدات، قال: لاتخف اليوم، حين وصلت إلينا، نجوت من القوم الظالمين، قالت إحداهما: يا رب استأجره في العبودية؛ شكراً، إن خير من استأجرت القوى الأمين؛ لأن عمله بالله، محفوفًا برعاية الله، قال: إني أُريد أن أُعطيك إحدى الخصلتين، إما الإقامة في الفناء المستغرِق، أو الرجوع إلى البقاء المستفيق، لتقوم بالأدب، على أن تخدم ثماني حجج، فإن أتممت عشراً، لزيادة التمكين، فمن عندك، فأقل خدمة المريد للشيخ ثماني سنين، ونهايتها نهاية التمكين. قال الورتجبي: لأن شعيباً، عليه السلام رأى بنور النبوة أن موسى عليه السلام يبلغ درجة الكمال في ثماني حجج، ولا يحتاج إلى التربية بعد ذلك، ورأى أن كمال الكمال في عشر حجج؛ لأنه رأى أن بعد العشرة لا يبقى مقام الإرادة، ويكون بعد ذلك حراً، ولذلك قال: وما أُريد أن أشق عليك. هـ.

ثم ذكر رجوع موسى إلى مصر، فقال:

﴿ ۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴿٣١﴾ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ۖ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ فلما قضى موسى الأجلَ ﴾، قال ﷺ: «قضى أبعدهما وأطيبهما»(١). وفي رواية: «أبرهما وأوفاهما». ﴿ وسار بأهله ﴾ أي: امرأته، نحو مصر، قال مجاهد: ثم استأذن موسى أن يزور

(١) أخرجه البخاري في (الشهادات، باب من أمر بإنجاز الوعد ح ٢٦٨٤)، عن ابن عباس، موقوفاً. وأخرجه البزّار (كشف الأستار ٣/٦٣)، والحاكم في (التفسير ٢/٤٠٧)، والطبري (٢٠/٦٨)؛ عن عكرمة، عن ابن عباس؛ مرفوعاً. وانظر: الفتح السماوي (٢/٨٩٣ - ٨٩٤).

أهله بمصر، فأذن له، فسار بأهله في البرِّيَّة، فأوى إلى جانب الطور الغربي الأيمن، في ليلة مظلمة شديدة البرد، وكان أخذ على غير طريق، يخاف ملوك الشام - قلت: ولعلهم كانوا من تحت يد فرعون - فأخذ امْرَأَتَهُ الطَّلْقُ، فقدح زنده، فلم يور، فآنس من جانب الطور ناراً. هـ.

وقال ابن عطاء: لما تم أجل المحنة، [ودنت](١) أيام الزلفة، وظهرت أنوار النبوة، سار بأهله؛ ليشتركوا معه في لطائف صنع ربه. هـ. ﴿آنس﴾ أي: أبصر ﴿من جانب الطُور﴾ أي: من الجهة التي تلو الطورِ ﴿ناراً، قال لأهله امكثوا إني آنستُ ناراً لعلي آتيكم منها بخبر﴾ عن الطريق؛ لأنه كان ضل عنها، ﴿أو جذوة من النار﴾ أي: قطعة وشُعلة منها، والجُذوة - مثلثة الجيم: العُود الذي احترق بعضه، وجمعه: «جِذَى». ﴿لعلكم تصطلون﴾؛ تستدفئون بها. والاصطلاء على النار سُنَّة المتواضعين. وفي بعض الأخبار: «اصطلوا؛ فإن الجبابرة لا يصطلون».

﴿فلما أتاها نُودي من شاطئ الوادِ الأيمنِ﴾ بالنسبة إلى موسى، أي: عن يمين موسى، ﴿في البقعة المباركةِ﴾ بتكليم الله تعالى فيها، ﴿من الشجرة﴾؛ بدل من «شاطئ»؛ بَدَلَ اشتمالٍ، أي: من ناحية الشجرة، وهي العنَّاب، أو العوسج(٢)، أو: سمرة(٣). وقال وهب: عليقاً(٤). ﴿أن يا موسى﴾ أي: يا موسى، أو: إنه ياموسى﴿إني أنا الله ربُّ العالمين﴾، قال البيضاوي: هذا، وإن خالف ما في «طه»، و«النمل»؛ لفظاً، فهو طبْقُهُ في المقصود. هـ.

قال جعفر الصادق: أبصر ناراً، دلته على الأنوار؛ لأنه رأى النور على هيئة النار، فلما دنا منها؛ شملته أنوار القدس، وأحاطت به جلابيب الأنس، فخاطبه الله بألطف خطاب، واستدعى منه أحسن جواب، فصار بذلك مُكَلَّماً شريفاً، أُعْطِيَ ما سأل، وأمن ممن خاف. هـ.

قال القشيري: فكان موسى عند الشجرة، والنداء من الله لا منها، وقد حصل الإجماع أن موسى، تلك الليلة، سمع كلام الله، ولو كان النداء من الشجرة؛ لكانت المتكلمة هي، فلأجل الإجماع قلنا: لم يكن النداء منها، وإلا فنحن نجوز أن يخلق الله نداء في الشجرة. هـ. قلت: وسيأتي في الإشارة ما لأهل التوحيد الخاص، وما قاله - هو مذهب أهل الظاهر.

---

(١) في الأصول [ودنا]. (٢) شجر من فصيلة الباذنجيات، شائك الأغصان واحدته: عوْسجة. انظر اللسان (٤/٢٩٣٧. مادة عسج).
(٣) السمرة: شجرة من العضاه، وهي من جيد الخشب، والجمع سمر وسمرات. انظر اللسان (٣/٢٠٩٢. مادة سمر).
(٤) العليق. شجر من شجر الشوك لايعْظم. وإذا نشب فيه شئ لم يكن يتخلص منه من كثرة شوكه. ولذلك سمي عليقاً. انظر اللسان (٤/٣٠٧٤. مادة علق).

ثم قال تعالى: ﴿ وأن ألقِ عصاكَ ﴾ ، أى: نودى: أن ألق عصاك، فألقاها، فقلبها الله ثعباناً، ﴿ فلما رآها تهتزُّ ﴾ ؛ تتحرك ﴿ كأنها جانٌّ ﴾ ؛ حية رقيقة. فإن قيل: كيف قال فى موضع: (كأنها جان)، وفى أخرى: ﴿فإذا هى ثعبان مبين﴾(١)؟ قلت: هى فى أول أمرها جان، وفى آخر أمرها ثعبان؛ لأنها كانت تصير حية على قدر العصا، ثم لا تزال تنتفخ حتى تصير كالثعبان، أو: يُريد فى سرعة الجان وخفته، وفى قوة الثعبان. فلما رآها كذلك ﴿ ولَّى مُدْبِراً ولم يُعقِّبْ ﴾ ؛ ولم يرجع عقبه. فقيل له: ﴿ يا موسى أقبلْ ولا تخفْ إنك من الآمنين ﴾ ، أى: أمنت من أن ينالك مكروه من الحية.

و﴿ اسلكْ ﴾: أَدْخِلْ ﴿ يدكَ فى جَيْبِكَ ﴾ ؛ جيب قميصك ﴿ تخرج بيضاءَ ﴾ لها شعاع كشعاع الشمس ﴿ من غير سُوءٍ ﴾ ؛ برص. ﴿ واضمم إليك جناحكَ من الرَّهْبِ ﴾ ، أى: الخوف، فيه لغات: «الرَّهَبُ»، بفتحتين، وبالفتح والسكون، وبالضم معه، وبضمتين. والمعنى: واضمم يدك إلى صدرك؛ يذهب ما لحقك من الخوف لأجل الحية، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: (كل خائف، إذا وضع يده على صدره، ذهب خوفه)(٢). وقيل: المراد بضم يده إلى جناحه تجلده، وضبطه نفسه عند انقلاب العصا حية، حتى لا يضطرب ولا يرهب، استعارة من فعل الطائر؛ لأنه إذا خاف؛ نشر جناحيه وأرخاهما.

﴿ فذانِك ﴾ أى: اليد والعصا، ومن شدد؛ فإحدى النونين عوض من المحذوف، ﴿ بُرهانان ﴾ أى: حجتان نيرتان. وسميت الحجة برهاناً؛ لإنارتها، من قولهم: بره الشىء: إذا ابيض، والمرأة برهاء وبَرَهْرَهَةٌ: أى: بيضاء. ﴿ من ربك إلى فرعون وملئه ﴾ أى: أرسلناك إلى فرعون وقومه بهاتين الحجتين، ﴿ إنهم كانوا قوماً فاسقين ﴾ : خارجين عن الحق، كافرين بالله ورسوله.

الإشارة: قد تقدم فى سورة «طه»(٣) بعض إشارتها. ويؤخذ من الآية أن تزوج المريد، بعد كمال تربيته، كمال، وأما قبل كماله: فإن كان بإذن شيخه؛ فلا يضره. وربما يتربى له اليقين أكثر من غيره. قوله تعالى: ﴿وسار بأهله﴾؛ قال الورتجبى: افهمَ أن مواقيت الأنبياء والأولياء وقت سير الأسرار من بدء الإرادة إلى عالم الأنوار.هـ. وقوله تعالى: ﴿آنس ناراً﴾؛ قال الورتجبى: الحكمة فى ذلك: أن طبع الإنسانية يميل إلى الأشياء المعهودة، لذلك تجلى النور فى النار؛ لاستئناسه بلباس [الاستئناس](٤)، ولا تخلو النار من الاستئناس، خاصة فى الشتاء، وكان شتاءً، فتجلى الحق بالنور فى لباس النار؛ لأنه كان فى طلب النار، فأخذ الحق مراده، وتجلى مِنْ حَيْثُ إِرَادَتُهُ، وهو سنة الله تعالى.هـ.

---

(١) من الآية ١٤٣ من سورة الأعراف.
(٢) ذكره البغوى فى تفسيره (٦/٢٠٧).
(٣) راجع المجلد الثالث، ص: ٣٨٢ - ٣٨٣.
(٤) فى الورتجبى: «الالتباس».

وقوله تعالي: ﴿من الشجرة﴾؛ أي: نودي منها حقيقة؛ إذ ليس في الوجود إلا تجليات الحق ومظاهره، فيكلم عباده من حيث شاء منها. قال في العوارف: الصوفي؛ لتجرده، يشهد التالي كشجرة موسى، حيث أسمعه الله خطابه منها، بأني أنا الله لا إله إلا أنا. هـ. فأهل التوحيد الخاص لا يسمعون إلا من الله، بلا واسطة، قد سقطت الوسائط في حقهم، حين غرقوا في بحر شهود الذات، فافهم. وقال في القوت: كانت الشجرة وجهة موسى عليه السلام، كلمه الله عز وجل منها، كما قال بعضهم: إن قوله تعالى: ﴿ فلما تجلى ربه للجبل ﴾(١)، أي: بالجبل، كان الجبل من جهة الحس حجاباً لموسى، كشفه الله عنه، فتجلى به، كما قال: ﴿من الشجرة﴾؛ فكانت الشجرة وجهة له عليه السلام هـ. بإيضاح. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر اعتذار موسى، وطلبه الإعانة بأخيه، فقال:

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿قال﴾ موسى ـ لما كُلف بالرسالة إلى فرعون: ﴿ ربِّ إني قتلتُ منهم نفساً فأخاف أن يقتلونِ ﴾ بها، ﴿ وأخي هارونُ هو أفصح مني لساناً فأرسِلْه معي رِدْءاً ﴾ ؛ أي: عوناً. يقال: ردأته: أعنته. وقرأ نافع: بالتخفيف، ﴿ يُصدِّقني ﴾ : جواب الأمر، ومن رفعه؛ جعله صفة لردء، أي: ردءاً مصدقاً لي. ومعنى تصديقه: إعانته بزيادة البيان، في مظان الجدال، إن احتاج إليه؛ ليثبت دعواه، لا أن يقول له: صدقت، ففضل اللسان إنما يحتاج إليه لتقرير البرهان، وأما قوله: صدقت؛ فسَحْبَانُ وبَاقِلٌ فيه مستويان. ﴿ إني أخاف أن يُكذبون ﴾ في دعوى الرسالة.

﴿ قال سَنَشُدُّ عَضُدَك بأخيك ﴾ أي: سنقويك به؛ إذ اليد تشد بشدة العضد؛ لأنه قوام اليد، فشد العضد كناية عن التقوية؛ لأن العضد، إذا اشتد، قَوِيَ على محاولة الأمور، أي: سنعينك بأخيك، ﴿ ونجعلُ لكما سلطاناً ﴾ ؛ غلبة وتسلطاً وهيبة في قلوب الأعداء، ﴿ فلا يَصِلُون إليكما ، بآياتنا ﴾ ؛ بسبب آياتنا، القاهرة لهم عن التسلط

(٤) من الآية ١٠٧ من سورة الأعراف، ومن الآية ٣٢ من سورة الشعراء.

عليكم، فالباء تتعلق بيصلون، أو: بنجعل لكما سلطاناً، أى: تسلطاً بآياتنا، أو: بمحذوف، أى: اذهبا بآياتنا، أو: هو بيان لغالبون، أى: ﴿ أنتما ومن اتبعكما الغالبون ﴾، أى: المنصورون.

الإشارة: إذا اجتمع فى زمانٍ نبيان، أو: وليان، لا تجدهما إلا متخالفين فى القوة والليونة، أو فى السكر والصحو، فكان موسَى فى غاية القوة، وأخوه في غاية الليونة، وكان موسى عليه السلام فى أول الرسالة غالبًا عليه الجذب، وأخوه غالبًا عليه الصحو، فلذلك استعان به. قال الورتجبى: افهمْ أن مقام الفصاحة هو مقام الصحو والتمكين، الذى يقدر صاحبه أن يخبر عن الحق [وأسراره، بعبارة لا تكون بشيعة](١) فى موزاين العلم. وهذا حال نبينا محمد ﷺ، حيث قال: «أنا أفصح العرب»(٢)، و«بُعثتُ بجوامع الكلم»(٣). وهذه قدرة قادرية اتصف بها العارف المتمكن، الذى بلغ مشاهدة الخاص، ومخاطبة الخاص، وكان موسى عليه السلام فى محل السكر فى ذلك الوقت، ولم يطق أن يعبر عن حاله كما كان؛ لأن كلامه، لو خرج على وزان حاله، يكون على نعوت الشطح، عظيماً فى آذان الخلق، وكلام السكران ربما يفتتن به الخلق، لذلك سأل مقام الصحو والتمكين بقوله: ﴿واحلل عقدة من لساني﴾؛ لأن كلامه من بحر المكافحة والمواجهة الخاصة، التى كان مخصوصاً بها عن أخيه. هـ.

ثم ذكر عناد فرعون وتجبره، قال:

﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّفۡتَرٗى وَمَا سَمِعۡنَا
بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ مِنۡ عِندِهِۦ
وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ
مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي فَأَوۡقِدۡ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجۡعَل لِّي صَرۡحٗا
لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَٱسۡتَكۡبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ
فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ إِلَيۡنَا لَا يُرۡجَعُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ فلما جاء موسى بآياتنا ﴾؛ معجزاتنا التسع ﴿ بينات ﴾؛ واضحات ﴿ قالوا ماهذا إلاّ سِحرٌ مُفْتَرى ﴾؛ سحر تعمله أنت، ثم تفتريه على الله، أو: سحر موصوف بالافتراء، كسائر أنواع

(١) عبارة الورتجبى [وأسراره بعباده لايكون شفيعة].
(٢) قال فى اللآلى: معناه صحيح، ولكن لا أصل له. انظر: كشف الخفاء (١/٢٣٢، ح ٦٠٩)
(٣) بعض حديث أخرجه البخارى فى (الجهاد، باب قول النبى ﷺ: نصرت بالرعب مسيرة شهر، ح ٢٩٧٧).

السحر، وليس بمعجزة من عند الله، ﴿ وما سمعنا بهذا ﴾ ، يعنى: السحر، أو: ادعاء النبوة، ﴿ في آبائنا الأولين ﴾ ، الجار: حال منصوبة بهذا، أى: ما سمعنا بهذا كائناً فى آبائنا، أى: ما حُدِّثْنَا بكونه فيهم، ولا موجوداً فى آبائهم.

﴿ وقال موسى ربى أعلمُ بمن جاء بالهُدَى من عنده ﴾ ، فيعلم أنى محق، وأنتم مبطلون. وقرأ ابن كثير: «قال» بغير واو؛ جواباً لمقالتهم. ﴿ ومَن تكونُ له عاقبةُ الدار ﴾ أى: العاقبة المحمودة، فإن المراد بالدار: الدنيا، وعاقبتها الأصلية هى الجنة؛ لأن الدنيا خلقت معْبَراً ومجازاً إلى الآخرة، والمقصود منها، بالذات، هو المجازاة على الأعمال فيها من الثواب الدائم، أو العقاب الأليم، ﴿ إنه لا يُفلحُ الظالمون ﴾ ؛ لا يفوزون بالهدى فى الدنيا، وحسن العاقبة فى العقبى.

قال النسفى: قل ربى أعلم منكم بحال مَنْ أَهَّلَهُ الله للفلاح الأعظم؛ حيث جعله نبياً، وبعثه بالهدى، ووعده حُسْنَ العُقْبَى، يعنى نفسه، ولو كان كما تزعمون، ساحراً، مفترياً، لما أَهَّلَهُ لذلك؛ لأنه غنى حكيم، لا يرسل الكاذبين، ولا يُنَبِّئُ الساحرين، ولا يفلح عنده الظالمون، وعاقبة الدار هى العاقبة المحمودة؛ لقوله تعالى: ﴿ أولئك لهم عقبى الدار جنات عدن ﴾(١) . والمراد بالدار: الدنيا، وعاقبتها: أن تختم للعبد بالرحمة والرضوان، ويلقى الملائكة بالبشرى والغفران.هـ.

﴿ وقال فرعونُ يا أيها الملأُ ما علمتُ لكم من إلهٍ غيرى ﴾ ، قصد بنفى علمه بإله غيره نَفْيَ وُجُودِه، أى: مالكم إله غيرى. قاله؛ تجبراً ومكابرة، وإلا فهو مقر بالربوبية؛ لقوله تعالى؛ حاكياً عن موسى عليه السلام : ﴿ قَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلاءِ إِلاَّ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَائِرَ ﴾(٢) ، ورُوى أنه كان إذا جن الليل، لبس المسوح وتمرغ فى الرماد، وقال: يارب إنى كذاب فلا تفضحنى(٣) .

ثم أَمَرَ ببنيان الصرح زيادة فى الطغيان، بقوله: ﴿ فأوقِدْ لى يا هامانُ على الطين ﴾ أى: اطبخ لى الآجر واتخذه. وإنما لم يقل مكان الطين: آجرّ؛ لأنه أول من عمله، فهو معلمه الصنعة بهذه العبارة، ﴿ فاجعل لى صرحًا ﴾ أى: قصراً عالياً، ﴿ لعلِّى أَطّلِعُ ﴾ أى: أصعد. فالطلوع والاطلاع: الصعود، ﴿ إلى إلهِ موسى ﴾ ، حسب

---

(١) من الآية ٢٢ من سورة الرعد.

(٢) من الآية ١٠٢ من سورة الإسراء.

(٣) هذا رواية باطلة، فأولاً: لا سند لها، فهى لاتصح، وثانياً: لأنها تُناقض سلوك فرعون ﴿إنه كان عالياً من المسرفين﴾ و﴿من المفسدين﴾ و﴿طبع الله على قلبه﴾ وانظر إلى السطر التالى من كلام الشيخ ابن عجيبة رحمه الله.

الجاهل أنه في مكان مخصوص، كما كان هو في مكان، ﴿وإني لأظنه﴾ أي: موسى ﴿من الكاذبين﴾ في دعواه أن له إلهاً، وأنه أرسله إلينا رسولاً.

وهذا تناقض من المخذول، فإنه قال أولاً: ﴿ما علمتُ لكم من إله غيري﴾، ثم أظهر حاجته إلى هامان، وأثبت لموسى إلهاً، وأخبر أنه غير متيقن بكذبه، وهذا كله تهافت. وكأنه تحصن من عصا موسى فلبّس وقال: ﴿لعلّي أطلعُ إلى إله موسى﴾. رُوي أنه لما أمر وزيره هامان ببناء الصرح، جمع هامانُ العمال، خمسين ألف بنّاء، سوى الأتباع والأُجراء ـ فبنوا، ورفعوه بحيث لم يبلغه بنيان قط، منذ خلق الله السموات والأرض. أراد الله أن يفتنهم فيه، فصعده فرعون وقومه، ورموا بنُشّابة نحو السماء، فرجعت مُلَطَّخَةً بالدم، فقال: قد قتلنا إله السماء، فضرب جبريل الصرح بجناحه، فقطعه ثلاث قطع، وقعت قطعة على عسكر فرعون، فقتلت ألفَ ألفِ رجل، وقطعة على البحر، وقطعة في الغرب، ولم يبق أحد من عماله إلا هلك(١). هـ.

﴿واستكبر هو وجنودُه﴾؛ تعاظم ﴿في الأرض﴾؛ أرض موسى ﴿بغير الحق﴾؛ بغير استحقاق، بل بالباطل، فالاستكبار بالحق هو لله تعالى، وهو المتكبر المتعالي، المبالغ في كبرياء الشأن، كما في الحديث القدسي: «الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري، فمن نازعني واحداً منهما قصمته»(٢). أو: ألقيته في النار، وكل مستكبر سواه فاستكباره بغير الحق. ﴿وظنوا أنهم إلينا لا يُرجَعُون﴾ بالبعث والنشور. وقرأ نافع وحمزة والكسائي: بالبناء للفاعل. والباقي: للمفعول. والله تعالى أعلم.

الإشارة: الأرواح كلها برزت من عالم العز والكبرياء، وهو عالم الجبروت، فلما هبطت إلى عالم الأشباح، وكلفت بالعبودية، وبالخضوع لقهرية الربوبية، شق عليها، ونفرت من التواضع والذل، وبطشت إلى أصلها؛ لأنها من عالم العز، فبعث الله الرسل ومشايخ التربية يدلونها على ما فيه سعادتها، من الذل والتواضع والخضوع للحق، حتى تصل إلى الحق، فمن سبق له الشقاء؛ أنف، وقال: ما هذا إلا سحر مفترى، وما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين، واستكبر وطغى، فغرق في بحر الردى. ومن سبقت له السعادة؛ تواضع، وذل لعظمة مولاه، فوصله إلى العز الدائم، في حضرة جماله وسناه. ولذلك قيل: للنفس خاصية ما ظهرت إلا على فرعون، حيث قال: أنا ربكم الأعلى. وهذه الخاصية هي أصل نشأتها وبروزها، حيث برزت من عالم الجبروت؛ قال تعالى: (ونفخت فيه من روحي)، ولكن لم يفتح لها الباب إلا من جهة العبودية والذل والافتقار، كما قال الشاعر:

---

(١) ذكره البغوي في تفسيره (٦/٢٠٨-٢٠٩). وقال القرطبي (٦/٥١٤٩): والله أعلم بصحة ذلك.

(٢) أخرجه أبو داود في (اللباس، باب ما جاء في الكبر، ٤/٣٥٠، ح ٤٠٩٠) وابن ماجه في (الزهد، باب البراءة من الكبر، ٢/١٣٩٧، ح ٤١٧٤) من حديث أبي هريرة ﷺ، بلفظ: «ألقيته في النار»، وأخرجه مسلم ـ من حديث أبي سعيد الخدري، وأبي هريرة في (البر والصلة، باب تحريم الكبر، ٤/٢٠٢٣، ح ٢٦٢٠) بلفظ: «العز إزاره، والكبرياء رداؤه ـ فمن ينازعني عذبته».

تذلّلْ لِمَنْ تَهوى؛ لتكْسِبَ عِــزّةً فكَمْ عِزَّةٍ قَدْ نالهــا المَرْءُ بالـذُّلّ
إذا كانَ مَنْ تَهْوى عزيزاً، ولَم تكُنْ ذَليلاً لَه، فاقْرِ السَّلامَ على الوَصْلِ

ولا يرضى المحبوب من المحب إلا الأدب، وهو التذلل والخضوع، كما قال القائل:

أدبُ الْعَـبْـــــدِ تذلّـلٌ والْعَـبْـــدُ لا يَدَعُ الأدبْ
فــإذَا تَــكَامَـلَ ذُلّـــهُ، نَالَ الْمَـودّةَ، واقْــتَــربْ.

ثم ذكر وبال من تكبر على الله، فقال:

﴿ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿فأخذناه﴾؛ فأخذنا فرعون ﴿وجنوده فنبذناهم﴾؛ طرحناهم ﴿فى اليمّ﴾؛ فى بحر القلزم، كما بيّناه غير مرة. وفى الكلام فخامة تدل على عظمة شأن الأخذ، شبههم؛ استحقاراً لحالهم، واستقلالاً لعددهم، وإن كانوا الجم الغفير؛ بحصيات أخذهن آخذ بكفه، فطرحهن فى البحر. ﴿فانظر﴾ يا محمد ﴿كيف كان عاقبةُ الظالمين﴾، وحذّر قومك أن يصيبهم مثل ما أصابهم، فإنهم ظالمون، حيث كفروا وأشركوا، وتَحَقَّقْ أنك منصور عليهم، كما نُصِرَ موسى على فرعون.

﴿وجعلناهم أئمةً﴾؛ قادة ﴿يدعون إلى النارِ﴾، أي: إلى عمل أهل النار؛ من الكفر، والمعاصى، قال ابن عطاء: نزع عن أسرارهم التوفيق، وأنوار التحقيق، فهم فى ظلمات أنفسهم، لا يدلون على سبيل الرشاد. وفيه دلالة على خلق أفعال العباد.هـ. ﴿ويومَ القيامة لا يُنصرون﴾ بدفع العذاب عنهم، كما يتناصرون اليوم، فى دفع الظلم عنهم، ﴿وأتْبعناهم فى هذه الدنيا لعنةً﴾؛ ألزمناهم طرداً وإبعاداً عن الرحمة. وقيل: هو ما يلحقهم من لعن الناس إياهم بَعْدَهُمْ. ﴿وَيومَ القيامة هم من المقبُوحين﴾؛ المطرودين المعذبين، أو المهلَكِين المشوهين؛ بسواد الوجوه وزرقة العيون. و﴿يوم﴾: ظرف للمقبوحين. والله تعالى أعلم.

الإشارة: عَاقِبَةُ مَنْ تكبر فى دار العبودية: الذل والهوان، وعاقبة من تواضع، وذَل فيها: العز والأمان، وعاقبة من كان إماماً فى المساوئ والعيوب: البُعد والحجاب، ومن كان إماماً فى محاسن الخلال وكشف الغيوب:

العزُّ والاقتراب. قال القشيري على قوله: ﴿وجعلناهم أئمة﴾ إلخ: كانوا في الدنيا مُبْعَدِين عن معرفته، وفي الآخرة مبعدين عن مغفرته، فانقلبوا من طَرْدٍ إلى طَرْدٍ، ومن هجرٍ إلى بُعْدٍ، ومن فراقٍ إلى احتراق.هـ.

ولما أغرقَ أهل الظلم والعناد، أنزل الهداية على أهل العناية والوداد، كما قال تعالى:

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ولقد آتينا موسى الكتابَ ﴾: التوراة ﴿ من بعدما أهلكنا القرونَ الأُولى ﴾؛ قوم نوح وهود وصالح ولوط ـ عليهم السلام ـ، حال كون الكتاب ﴿ بصائرَ للناس ﴾؛ أنواراً لقلوبهم، يتبصرون الحقائق، ويُميزون بين الحق والباطل. فالبصيرة: عين القلب، الذي يبصر بها الحق، ويهتدي بها إلى الرشد والسعادة. كما أن البصر عين الرأس التي يُبصر بها الحسيات، أي: آتيناه التوراة، أنواراً للقلوب التي كانت عمياً لا تستبصر ولا تعرف حقّاً من باطل، ﴿ و هدىً ﴾؛ وإرشاداً إلى الشرائع؛ لأنهم كانوا يخبطون في الضلال. ﴿ ورحمةً ﴾ لمن اتبعها؛ لأنهم، إذا عملوا بها، وصلوا إلى نيل الرحمة، ﴿ لعلهم يتذكرون ﴾، أي: ليكونوا على حال يُرجَى منهم التذكر والاتعاظ. وبالله التوفيق.

الإشارة: إنما تطيب المنازل؛ إذا خلت من الأجانب والأراذل. وأطيب عيش الأحباب؛ إذا غابت عنهم الرقباء وأهل العتاب، فلما أهلك الله فرعونَ وجنودَه، وأورث بني إسرائيل ديارهم، ومحى عن جميعها آثارهم، طاب عيشهم، وظهرت سعادتهم، وتمكنوا من إقامة الدين. وكذلك أهل التوجه إلى يوم الدين.

ثم ذكر دلائل نبوته ﷺ، بعد ذكر قصة موسى؛ لاشتراكهما في شدة المعالجة، فقال:

﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَـٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا وَلَـٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَـٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وما كنتَ ﴾ يا محمد ﴿ بجانب ﴾ المكان ﴿ الغربي ﴾ من الطور، وهو الذي كلم الله فيه موسى، وهو الجانب الأيمن. قال السهيلي: إذا استقبلت القبلة، وأنت بالشام، كان الجبل يميناً منك،

غربياً، غير أنه قال في قصة موسى: ﴿جَانِبِ الطُّورِ الأَيْمَن﴾(١)، وصفه بالصفة المشتقة من اليُمن والبركة، لتكليمه إياه فيه، وحين نفى عن محمد ﷺ أن يكون بذلك الجانب، قال: ﴿ وما كنت بجانب الغربي ﴾، والغربي هو الأيمن. والعدول عنه، في حالة النفي؛ للاحتراس من توهم نفي اليمن عنه ﷺ، وكيف، وهو ﷺ لم يزل بصفة اليُمن وآدم بين الماء والطين! فحسنُ اللفظِ أصل في البلاغة، ومجانبة الاشتراك الموهم: من فصيحِ بديعِ الفصاحة. هـ.

أي: وما كنت حاضراً بذلك الموضع، ﴿ إذْ قَضَينا إلى موسى الأمرَ ﴾، أي: كلمناه، وقربناه نجياً، وأوحينا إليه بالرسالة إلى فرعون، ﴿ وما كنتَ من الشاهدِين ﴾، أي: من جملة الشاهدين فتخبر بذلك، ولكن أعلمناك من طريق الوحي، بعد أن لم يكن لك بذلك شعور، والمراد: الدلالة على أن إخباره بذلك من قِبَلِ الإخبار بالمغيبات التي لا تُعرف إلا بالوحي، ولذلك استدرك عنه بقوله:

﴿ ولكنَّا أنشأنا ﴾ بعد موسى ﴿ قروناً فتطاولَ عليهم العُمُرُ ﴾، أي: طالت أعمارهم، وفترت النبوة، وانقطعت الأخبار، واندرست العلوم، ووقع التحريف في كثير منها، فأرسلناك؛ مُجَدِّداً لتلك الأخبار، مبيناً ما وقع فيها من التحريف، وأعطيناك العلم بقصص الأنبياء، وأوقفناك على قصة موسى بتمامها، فكأنه قال: وما كنت شاهداً لموسى وما جرى عليه، ولكنا أوحيناه إليك، فأخبرت به، بعد اندراسه.

﴿ وَما كنتَ ثاوياً ﴾؛ مقيماً ﴿ في أهل مدين ﴾، وهم شعيب والمؤمنون به، ﴿ تتلوا عليهم آياتنا ﴾؛ تقرؤها عليهم، تعلماً منهم، أو: رسولاً إليهم تتلوها عليهم بوحينا، كما تلوتها على هؤلاء، يريد: الآيات التي فيها قصة شعيب وقومه، ﴿ ولكنَّا كنَّا مُرسِلِين ﴾ لك، فأخبرناك بها، وعلَّمْناك إياها، فأخبرت هؤلاء بها، ﴿ وما كنت بجانب الطور إذ نادينا ﴾ موسى، أن خذ الكتاب بقوة، أو ناجيناه في أيام الميقات، ﴿ ولكن ﴾ علمناك وأرسلناك ﴿ رحمةً ﴾ أي: للرحمة ﴿ من ربك ، لتنُذر قوماً ﴾ جاهلية ﴿ ماأتاهم من نذير من قبلك ﴾ في زمان الفترة التي بينك وبين عيسى، وهي خمسمائة وخمسون سنة، أو: بينك وبين إسماعيل، على أن دعوة موسى وعيسى كانت مختصة ببني إسرائيل وما حواليهم، ﴿ لعلهم يتذكرون ﴾؛ لعل من أُرْسِلْتَ إليه يتعظ ويتذكر ما هو فيه من الضلال، فَينزعَ ويرجع. وبالله التوفيق.

الإشارة: المراد من هذه الآيات: تحقيق نبوته ﷺ ومعرفته الخاصة، وهي سلّم، ومعراج إلى معرفة الله تعالى؛ لأنه الواسطة العظمى، فمهما عرفته المعرفة الخاصة عرفت الله تعالى، فمنه ﷺ استمدت العلوم كلها؛ علم

(١) من الآية ٥٢ من سورة مريم، والآية ٨٠ من سورة طه.

الربوبية، من طريق البرهان، وعلمها من طريق العيان، وعلم المعاملة الموصلة إلى الرضا والرضوان، ومعرفة نبوته ﷺ ضرورية لا تحتاج إلى برهان، ويرحم الله القائل:

لَوْ لَمْ تَكُنْ فيه آيات مُبيِّنَـــةٌ(١)   لَكَانَ مَنْظَرُهُ يُنْبِيكَ بِالْخَبَرِ.

وقد تقدم في الأعراف(٢) التنويه به، وذكر شرفه، وشرف أمته، قبل ظهوره، وإليه الإشـارة هنا بقوله: ﴿ وما كنت بجانب الطور إذ نادينا ﴾ ، أي: إذ نادينا بأمرك، وأخبرنا بنبوتك، رُوِي عن أبي هريرة؛ أنه نُودي يومئذ من السماء: يا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ، استجبتُ لكُم قَبْلَ أَنْ تَدْعُوني، وَغَفَرْتُ لكُم قَبْلَ أَنْ تَسْألوني، فحينئذ قال موسى - عليه السلام: اللهم اجعلني من أمة محمد.هـ(٣).

وقال القشيري: أي: لم تكن حاضراً تتعلم ذلك؛ مشاهدةً، فليس إلا تعريفنا إياك، وإطلاعنا لكَ على ذلك. ويقال: إذ نادينا موسى، وخاطبناه، وكلمناه في بابك وباب أُمَّتِكَ، وما طلب موسى لأمته جعلناه لأمتك، فكوْني لكم: خيرٌ لكم من كونِكم لكم، فلم تقدح فيكم غيْبَتكُم في الحال، كما أنشدوا:

كُنْ لِي؛ كَمَـــا كُنْتَ   لي في حين لم أكُنِ. هـ.

ويقال: لما خاطب موسى وكلمه، سأله موسى، إنه رأى في التوراة أمة صفتهم كذا وكذا، من هم؟ فقال: هم أمة محمد. وذكر لموسى أوصافًا كثيرة، فاشتاق إلى لقائهم، فقال له: ليس اليوم وقت حضورهم، فإن شئت أسمعناك كلامهم ، فأراد ذلك، فنادى: يا أُمة محمد؛ فأجاب الكل من أصلاب آبائهم، فسمع موسى كلامهم، ثم لم يتركهم كذلك، بل زادهم من الفضائل؛ لأن الغني؛ إذا دعا فقيراً فأجابه؛ لم يرض أن يذكره من غير إحسانه. هـ. وقال الطبري: معنى قوله: ﴿ إذ نادينا ﴾ أي: بقوله: ﴿ سأكتبها للذين يتقون . . . ﴾ الآية.هـ. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر حكمة إرساله. فقال:

﴿ وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ

(١) في الأصول [لو لم تكن له آية مبينة].   (٢) عند تفسير الآيتين: ١٥٦ ـ ١٥٧.
(٣) أخرجه ابن جرير في التفسير (٢٠/٨١).

أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾ ﴾

قلت: (لولا) الأولى: امتناعية، وجوابها محذوف، أي: ولولا أنهم قائلون؛ إذا عوقبوا على ما قدّموا من الشرك، محتجين علينا: (هلا أرسلت إلينا رسولاً..) إلخ؛ لَمَا أرسلناك.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ولولا أن تصيبهم مصيبة ﴾، أي: عقوبة في الدنيا والآخرة، ﴿ بما ﴾؛ بسبب ما ﴿ قدمت أيديهم ﴾ من الكفر والظلم، ولمّا كانت أكثر الأعمال إنما تتاول بالأيدى، نسب الأعمال إلى الأيدى، وإن كانت من أعمال القلوب؛ تغليبًا للأكثر على الأقل، ﴿ فيقولوا ﴾ عند نزول العذاب: ﴿ ربنا لولا ﴾؛ هلا ﴿ أرسلت إلينا رسولاً ﴾ يُنذرنا ﴿ فنتَّبع آياتك ونكونَ من المؤمنين ﴾، فلولا احتجاجهم بذلك علينا لَمَا أرسلناك، فسبب الإرسال هو قولهم: هلا أرسلت.. إلخ.

ولما كانت العقوبة سببًا للقول جعلت العقوبة كأنها سبب الإرسال، فدخلت «لولا» الامتناعية عليها، فرجع المعنى إلى قولك: ولولا قولهم هذا، إذا أصابتهم مصيبة، لما أرسلناك.

﴿ فَلَمَّا جاءهم الحق من عندنا ﴾؛ القرآن المعجز، أو الرسول ﷺ، ﴿ قالوا ﴾ أي: كفار مكة؛ اقتراحاً وتعنتاً: ﴿ لولا ﴾: هلا ﴿ أُوتى ﴾ من المعجزات ﴿ مثلَ ما أُوتى ﴾؛ أُعطى ﴿ موسى ﴾ من اليد والعصا، ومن الكتاب المنزل جملة. قال تعالى: ﴿ أوَ لَمْ يكفروا ﴾ أي: أبناء جنسهم، ومَنْ مَذهبهم على مذهبهم، وعنادهم مثل عنادهم، وهم الكفرة في زمن موسى عليه السلام، قد كفروا ﴿ بما أُوتى موسى من قبلُ ﴾؛ من قبل القرآن، ﴿ قالوا ﴾ في موسى وهارون: ﴿ ساحران(١) تظاهرا ﴾: تعاونا، أو: في موسى ومحمد - عليهما السلام - بإظهار تلك الخوارق، أو بتوافق الكتابين. وقرأ الكوفيون: «سِحْرَان»؛ بتقدير مضاف، أي: ذوَا سحر، أو: جعلوهما سحريْن؛ مبالغة في وصفهما بالسحر. ﴿ وقالوا ﴾ أي: كفرة موسى وكفرة محمد ﷺ: ﴿ إنا بكلٍّ ﴾؛ بكل واحد منهما ﴿ كافرون ﴾.

وقيل: إن أهل مكة، لمّا كفروا بمحمد ﷺ وبالقرآن؛ فقد كفروا بموسى وبالتوراة، وقالوا في محمد ﷺ وموسى: ساحران تظاهرا، أو في التوراة والقرآن: سحران تظاهرا، أو: ذلك حين بعثوا الرهط إلى رؤساء اليهود

(١) قرأ عاصم وحمزة والكسائي: «سحران»؛ بكسر السين وسكون الحاء، بلا ألف، وقرأ الباقون: «ساحران»؛ بفتح السين وألف بعدها وكسر الحاء... انظر: الإتحاف (٢/٣٤٤).

يسألونهم عن محمد، فأخبروهم أنه في كتابهم، فرجع الرهط إلى قريش، فأخبروهم بقول اليهود، فقالوا عند ذلك:(١) ﴿ساحران تظاهرا إنا بكلٍّ كافرون﴾.

﴿قلْ﴾ لهم: ﴿فأتوا بكتابٍ من عند الله هو أهدى منهما﴾؛ مما أنزل على موسى، ومما أنزل عليَّ، ﴿أتَّبِعْه﴾: جواب: فأتوا، ﴿إن كنتم صادقين﴾ في أنهما ساحران، ﴿فإن لم يستجيبوا لك﴾ دعاءك إلى الإتيان بالكتاب الأهدى، ﴿فاعلم أنما يتبعون أهواءهم﴾ الزائغة، ولم تبق لهم حجة إلا اتباع الهوى، ﴿ومَنْ أضلُّ ممن اتبع هواه بغير هُدىً من الله﴾ أي: لا أحد أضل ممن اتبع في الدين هواه بغير هدى، أي: بغير اتباع شريعة من عند الله. و﴿بغير هدى﴾: حال، أي: مخذولاً، مُخَلاً بينه وبين هواه، ﴿إن الله لا يهدى القوم الظالمين﴾؛ الذين ظلموا أنفسهم بالانهماك في اتباع الهوى والتقليد. وبالله التوفيق.

الإشارة: لولا احتجاج الناس على الله يوم القيامة، حين تصيبهم نقائص عيوبهم، ما بعث الله في كل زمان نذيراً طبيباً، فإذا ظهر وتوجه لتربية الناس، قالوا: لولا أُوتي مثل ما أُوتي فلان وفلان من كرامات المتقدمين، فيقال لهم: قد كان مَنْ قبلكم من الأولياء لهم كرامات، فكذَّبوهم، وأنكروا عليهم، ورموهم بالسحر والتبدع وغير ذلك، وبقوا مع هوى أنفسهم. ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله، أي: بغير تمسك بمن يهديه إلى حضرة الله، إن الله لا يهدى القوم الظالمين إلى معرفته الخاصة.

ثم ذكر حكمة تفريق القرآن، رداً على من قال: ﴿لولا أُوتي مثل ما أُوتي موسى﴾؛ من إنزاله جملة، فقال:

﴿ ۞ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ ﴾

قلت: يقال: وصلت الشيء: جعلته موصولاً بعضه ببعض، ويقال: وصلت إليه الكتاب: أبلغته.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ولقد وصَّلْنَا لهم﴾ أي: لقريش ولغيرهم، ﴿القولَ﴾؛ القرآن، أي: تابعناه موصولاً بعضه ببعض في المواعظ والزواجر، والدعاء إلى الإسلام. قاله ابن عطية. وقال ابن عرفة اللُّغوِي: أي: أنزلناه شيئاً بعد شيء، ليصل بعضه ببعض، ليكونوا له أوعى.هـ. وتنزيلُه كذلك؛ ليكون أبلغ في التذكير؛ ولذلك قال: ﴿لعلهم يتذكرون﴾، يعني: أن القرآن أتاهم متتابعاً متواصلاً؛ وعداً، ووعيداً، وقصصاً، وعبراً، ومواعظ؛ ليتذكروا فيفلحوا. وقيل: معنى وصلنا: أبلغنا. وهو أقرب؛ لتبادر الفهم، وفي البخاري: أي: «بيَّنا وأتممنا»(٢). وهو عن ابن عباس. وقال مجاهد: فصلنا. وقال ابن زيد: وَصَّلْنَا خير الدنيا بخير الآخرة، حتى كأنهم عاينوا الآخرة في الدنيا.

---

(١) ذكره البغوي في تفسيره (٦/٢١٢). (٢) ذكره البخاري في (التفسير ـ سورة القصص، ٨/٣٦٥ فتح).

الإشارة: تفريق المواعظ في الأيام، شيئًا فشيئًا، أبلغ وأنفع من سردها كلها في يوم واحد. وفي الحديث: «كان ﷺ يَتَخَوَّلُنا بالموعظة، مَخَافَةَ السآمة علينا»(١)، والتخول: التعاهد شيئا فشيئا. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر من آمن به وعرف قدره، فقال:

﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾

قلت: (الذين): مبتدأ، (وهم به): خبر.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ الذين آتيناهم الكتاب من قبله ﴾؛ من قبل القرآن ﴿ هُم به ﴾ أي: القرآن ﴿ يؤمنون ﴾، وهم مؤمنو أهلِ الكتاب، أو: النجاشي وقومه، أو: نصارى نجران، الذين قدموا على رسول الله ﷺ بمكة، وهم عشرون رجلاً، فآمنوا به. قال ابن عطية: ذكر هؤلاء مُبَاهياً بهم قريشًا.هـ. أي: فهم الذين يُقدرون قدر هذا الكتاب المنزل؛ لِمَا معهم من العلم الذي ميزوا به الحق، ولذلك قال: ﴿ وإذا يُتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا ﴾؛ لِمَا عرفوا في كتابهم من نعت النبي ﷺ وكتابه، ﴿ إنَّا كنا من قبله ﴾؛ من قبل القرآن، أو: من قبل محمد ﷺ، ﴿ مسلمين ﴾؛ كائنين على دين الإسلام، مؤمنين بمحمد ﷺ. فقوله: ﴿ إنه ﴾: تعليل للإيمان به؛ لأن كونَهُ حقًا من عند الله حقيق بأن يُؤْمَنَ به. وقوله: ﴿ إنا ﴾: بيان لقوله: ﴿ آمنا ﴾؛ لأنه يحتمل أن يكون إيماناً قريب العهد أو بعيده، فأخبروه بأن إيمانهم به متقادم.

﴿ أولئك يُؤْتَون أجرَهم مرتين بما صبروا ﴾؛ بصبرهم على الإيمان بالتوراة، والإيمان بالقرآن، أو: بصبرهم على الإيمان بالقرآن، قبل نزوله وبعده، أو: بصبرهم على أذى المشركين وأهل الكتاب. وفي الحديث: «ثلاثةٌ

---

(١) أخرجه البخاري في (العلم، باب ما كان النبي ﷺ يتخولهم بالموعظة.. ح٦٨)، ومسلم في (صفات المنافقين، باب الاقتصاد في الموعظة، ٤/٢١٧٢، ح ٢٨٢١) من حديث سيدنا عبدالله بن مسعود رضي الله عنه.

يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مرتين: رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه، ثم آمن بمحمد ﷺ، ورجل مملوك أدى حق الله وحق مواليه، ورجل كانت عنده أَمَةٌ فأعتقها وتزوجها»(١).

﴿ ويدرؤون بالحسنة السيئةَ ﴾؛ يدفعون الخصلة القبيحة بالخصلة الحسنة، يدفعون الأذى بالسِلم، والمعصية بالطاعة. ﴿ ومما رزقناهم ينفقون ﴾؛ يتصدقون، أو يزكون، ﴿ وإذا سمعوا اللغوَ ﴾؛ الباطل، أو الشتم من المشركين، ﴿ أَعْرَضوا عنه وقالوا ﴾ للاغين: ﴿ لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلامٌ عليكم ﴾؛ أمان منا عليكم، لا نقابل لغوكم بمثله، ﴿ لا نبتغي الجاهلين ﴾؛ لانريد مخالطتهم وصحبتهم، أو: لا نبتغي دين الجاهلين، أو محاورة الجاهلين وجدالهم، أو: لا نريد أن نكون جهالاً.

وفي السِير: أن أصحاب النجاشي لمَّا كلمهم جعفر رضي الله عنه في مجمع النجاشي، بَكَوْا، ووقر الإسلام في قلوبهم، فقدموا على رسول الله ﷺ بمكة، فقرأ عليهم القرآن، فأسلموا، وقالوا: ﴿ آمنا به إنه الحق من ربنا .. ﴾ الآية. فلما خرجوا من عنده ﷺ؛ استقبلتهم قريش فسبوهم، وقالوا: ما رأينا قومًا أحمق منكم، تركتم دينكم لمجلس ساعة مع هذا الرجل، فقالوا لهم: ﴿سلام عليكم..﴾ إلخ(٢).

الإشارة: مَنْ تَحَمَّلَ من العلماء مشقة تَحَمُّلِ العلم الظاهر، ثم ركب أهوال النفس ومحاربتَها في تحصيل العلم الباطن، فهو ممن يُؤتى أجره مرتين، وينال عز الدارين ضعفين؛ بسبب صبره على العلْمَيْن، وارتكاب الذل مرتين، إذا اتصف بما اتصف به أولئك، بحيث يدرأ بالحسنة السيئة، وينفق مما رزقه الله من الحس والمعنى، كالعلوم والمواهب، ويعرض عن اللغو ـ وهو كل ما يشغل عن شهود الله ـ ويحلم عن الجاهل، ويرفق بالسائل. وبالله التوفيق.

ولما حرص ﷺ على إسلام عمه، نزل:

﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾

(١) أخرجه البخارى فى (العلم، باب تعليم الرجل أمته وأهله ح٩٧)، ومسلم فى (الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة محمد ﷺ إلى جميع الناس، ١/١٣٤، ح ٢٤١) من حديث أبى موسى الأشعرى رضي الله عنه.

(٢) عزاه ابن كثير فى تفسيره (٣/٣٩٤) لمحمد بن إسحاق فى السيرة.

يقول الحق جل جلاله: ﴿إنك﴾ يا محمد ﴿لا تهدى من أحببتَ﴾، أى: لا تقدر أن تُدخل فى الإسلام كل من أحببت أن يدخل من قومك وغيرهم، يعنى: أن خاصية الهداية خاصة بالربوبية، وخاصية الربوبية لا تكون لمخلوق، ولو كان أكمل الخلق. ﴿ولكنَّ الله يهدى من يشاء﴾؛ يخلق الهداية فى قلب من يشاء، ﴿وهو أعلم بالمهتدين﴾؛ بمن يختار هدايته ويقبلها.

قال الزجاج: أجمع المفسرون أنها نزلت فى أبى طالب، وذلك أنه قال عند موته: يا معشر بنى هاشم صدقوا محمداً تُفلحوا، فقال ﷺ: «يا عمّ تأمُرُهُم بالنَّصِيحة لأنفُسهم، وتَدَعُهَا لنفسك!» فقال: ما تريد يا ابن أخى؟ فقال: «أُريدُ منك أن تقُولَ: لا إله إلا الله، أَشْهدُ لك بها عِنْدَ الله». فقال: يا ابن أخى؛ أنا قد علمت أنك صادق، ولكن أكره أن يقال جزع عند الموت.هـ. وفى رواية قال: (لولا أن تُعيرنى نساء قريش، ويقلن: إنه حملنى على ذلك الجزع، لأقررتُ بها عينك)(١). وفى لفظ آخر عند البخارى: قال له: «يا عم، قُل: لا إله إلا الله، أُحاجُّ لك بها عند الله». فقال أبو جهل وعبد الله بن أمية: يأبا طالب، أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فقال: بل على ملّة عبد المطلب، فنزلت الآية(٢).

وفيها دليل على المعتزلة؛ لأنهم يقولون: الهدى هو البيان، وقد هدى الله الناس أجمع، ولكنهم لم يهتدوا بسوء اختيارهم، فدلت الآية على أن وراء البيان ما يسمى هداية؛ وهو خلق الاهتداء، وإعطاء التوفيق والقدرة على الاهتداء. وبالله التوفيق.

الإشارة: الآية ليست خاصة بالنبى ﷺ، بل هى عامة لكل من يريد الهداية لأحد من خاصته، كتب شيخ أشياخنا، سيدى «أحمد بن عبد الله» إلى شيخه، سيدى «أحمد بن سعيد الهبرى»؛ يشكو له ابنه؛ حيث لم ير منه ما تقر به عينه، فكتب إليه: أخبرنى: ما الذى بَنَيْتَ فيه؟ دع الدار لبانيها، إن شاء هدمها وإن شاء بناها. هـ. وفى اللباب - بعد كلام -: قد رضى الله على أقوام فى الأزل، فاستعملهم فى أسباب الرضا من غير سبب، وسَخطَ على أقوام فى الأزل «فاستعملهم فى أسباب السُّخطِ بلا سبب. ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ﴾(٣)الآية.

---

(١) أخرجه مسلم فى (الإيمان، باب الدليل على صحة إسلام من حضَرَه الموت، ١/٥٥، ح ٤٢) من حديث أبى هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخارى فى (التفسير- سورة القصص، ح٤٧٧٢)، ومسلم فى الموضع السابق ذكره (١، ٥٤، ح ٣٩)، من حديث سعيد ابن المسيب رضي الله عنه.

(٣) الآية ١٢٥ من سورة الأنعام.

وهذه الآية تخاطب رسول الله ﷺ بقولها: ﴿إنك لا تَهْدى من أحببت﴾، والحكم عام في كل أحد، وقد خص رسول الله ﷺ بأتم الفضائل وأعلى الوسائل، حتى لم يُسْبَقْ لفضيلة، ولم يَحْتَجْ لوسيلة، وليس له في ذلك نظر، بل سابقة السعادة أيدته، والخصوصية قرّبته، ولو كان له في التقدير نظر ما مُنِع من الشفاعة في عمه أبي طالب، ومن الاستغفار لأبيه. ولو كانت الهداية بيد آدم لهدى قابيل، ولو كانت بيد نوح لهدى ولده كنعان، أو بيد إبراهيم لهدى أباه آزر، أو بيد محمد ﷺ لأنقذ عمه أبا طالب، جذبت العنايةُ سلمان من فارس، وصاحت على بلال من الحبشة، وأبو طالب على الباب ممنوع من الدخول. سبحان من أعطى ومنع، وضر ونفع.هـ.

ولما دعى ﷺ قومه إلى الإسلام، تعللوا بعلل واهية، كما قال تعالى:

﴿ وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾

قلت: (رزقًا): حال من (الثمرات)؛ لتخصيصه بالإضافة، أو مصدر لتجبى؛ لأن معناه: نرزق، أو: مفعول له.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وقالوا ﴾ أي: كفار قريش ﴿ إن نتبع الهُدى ﴾ وندخل ﴿ معك ﴾ في هذا الدين؛ ﴿ نُتَخَطَّفْ من أرضنا ﴾ أي: تخطفنا العرب وتُخرجنا من أرضنا. نزلت في الحارث بن عثمان بن نوفل، أتى النبي ﷺ فقال: نحن نعلم أنك على الحق، ولكنا نخاف، إن اتبعناك وخالفنا العرب، وإنما نحن أكَلَةُ رأس، أنْ يتخطفونا من أرضنا، فردّ الله عليهم بقوله: ﴿ أَو لَمْ نُمكّنْ لهم حَرَمًا آمنًا ﴾؛ أو لَمْ نجعل مكانهم حرماً ذا أمن بحرمة البيت، يأمن فيه قُطانه، ومَن التجأ إليه من غيرهم؟ فأنّى يستقيم أن نعرضهم للتخطف، ونسلبهم الأمن، إذا ضموا إلى حرمة البيت حرمة الإسلام؟

﴿ تُجْبَى(١) إليه ﴾، أي: تُجمع وتُجلب إليه من كل أوْب، ﴿ ثمراتُ كل شيء ﴾ أي: كل صنف ونوع. ومعنى الكلّيةِ: الكثرة؛ كقوله: ﴿ وأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ ﴾(٢)، ﴿ رزقًا من لدُنَّا ﴾، ونعمة من عندنا، وإذا كان هذا حالهم، وهم عبدة الأصنام، فكيف إذا أووا إلى كهف الإسلام، وتدرعوا بلباس التوحيد؟

(١) قرأ نافع وأبو جعفر: «تُجبى»؛ بالتاء من فوق، وقرأ الباقون: «يُجبى». بالياء من تحت. انظر الإتحاف (٢/٣٤٥).
(٢) من الآية ٢٣ من سورة النمل.

﴿ ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ أي: جهلة، لا يتفطنون ولا يتفكرون حتى يعلموا أنه لا يهملهم من حفظه ورعايته، إن أسلموا. وقيل: يتعلق بقوله: ﴿ من لدنَّا ﴾، أي: قليل منهم يتدبرون، فيعلمون أن ذلك رزق من عند الله، وأكثرهم جهلة لا يعلمون ذلك، ولو علموا أنه من عند الله؛ لعلموا أن الخوف والأمن من عند الله، ولَمَا خافوا التخطف إذا آمنوا به . والله تعالى أعلم.

الإشارة: ترى كثيراً من الناس، ممن أراد الله حرمانه من الخصوصية، يتعلل بهذه العلل الواهية، يقول: إن دخلنا في طريق القوم؛ رفضَنا الناس، وأنكر علينا أقاربنا، ونخاف الضيعة على أولادنا. يقول تعالى لهم: أو لم أُمَكِّنْ لأوليائي، المتوجهين إلى حَضْرَةِ القدس، حرماً آمناً تُجبى لأهلها الأرزاق من كل جانب، بلا حرص ولا طمع ولا سبب، ولكن أكثر الناس؛ جهالاً بهذا، وقفوا مع العوائد، فحُرموا الفوائد، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ثم خوَّفهم بقوله:

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾

قلت: «كم»: منصوب بأهلكنا. والبطر: الطغيان عند النعمة. قال في القاموس: البَطَر ــ محركة: النشاط، والأشر، وقلة احتمال النعمة، والدهش، والحيرة، والطغيان بالنعمة، وكراهة الشيء من غير أن يستحق الكراهية، فعلى الكل: كفرح. هـ. و(معيشتها): نصب بحذف الجار واتصال الفعل، أي: في معيشتها. وجملة (لم تسكن): حال، والعامل فيها: الإشارة.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وكم أهلكنا منْ قرية ﴾، أي: كثيراً أهلكنا من أهل قرية، كانت حالهم كحالهم في الأمن والدعة، وخصب العيش، مِنْ وصفها ﴿ بَطِرَتْ ﴾ في ﴿ مَعِيشَتَها ﴾، أي: طغت وتجبرت ولم تشكر، بل قابلتها بالبطر والطغيان. قال القشيري: لم يعرفوا قدْر نعمتهم، ولم يشكروا سلامة أموالهم، وانتظام أمورهم، فهاموا في أودية الكفران على وجوههم، وخرّوا في وَهدة الطغيان على أذقانهم، فدمر الله عليهم وخرب ديارهم.

﴿ فتلك مساكنهم ﴾ خاوية، أو: فتلك منازلهم باقية الآثار، يشاهدونها في الأسفار؛ كبلاد ثمود، وقرى لوط، وقوم شعيب، وغيرهم، ﴿ لم تُسكن من بعدهم إلا قليلاً ﴾ من السكنى، أي: لم يسكنها إلا المسافر، أو مار

بالطريق؛ يوماً أو ساعة، ﴿ وكنا نحن الوارثين ﴾ لتلك المساكن من سكانها، أى: لا يملك التصرف فيها غيرنا. وفيه إشارة لوعد النصر لمتبع الهدى، وأن الوراثة له، لا أنه يتخطف كما قد قيل، بل يقع الهلاك على من لم يشكر نعمة الله، ويتبع هواه، فكيف يخاف من تكون عاقبته الظفر ممن يكون عاقبته الدمار والتبار؟ والحاصل: إنما يلحق الخوف من لم يتبع الهدى، فإنه الذى جرت سنة الله فيه بالهلاك، وأما متبع الهدى؛ فهو آمن والعاقبة له.

﴿ وما كان ربك ﴾؛ وما كانت عادته ﴿ مُهلك القرى ﴾ بذنب ﴿ حتى يبعث فى أُمِّها ﴾، أى: القرية التى هى أصلها ومعظمها؛ لأن أهلها يكونون أفطن وأقبل. ﴿ رسولاً ﴾؛ لإلزام الحجة وقطع المعذرة، أو: ما كان فى حكم الله وسابق قضائه أن يهلك القرى فى الأرض حتى يبعث فى أمها، وهى مكة؛ لأن الأرض دحيت من تحتها. ﴿ رسولا ﴾ يعنى: محمداً ﷺ، ﴿ يتلوا عليهم آياتنا ﴾؛ القرآن، ﴿ وما كنا مهلكى القرى إلا وأهلُها ظالمون ﴾، أى: وما أهلكناهم للانتقام، إلا وأهلها مستحقون العذاب بظلمهم، وهو إصرارهم على الكفروالمعاصى، والعناد، بعد الإعذار إليهم. والله تعالى أعلم.

الإشارة: وكم خرّبْنا من قلوب وأخليناها من النور، حيث طغت وتجبرت فى معيشتها، وانشغلت بحظوظها وشهواتها، فتلك أماكنها خاوية من النور، لم تُسكن بالنور إلا قليلاً، وكنا نحن الوارثين لها، فأعطينا ذلك النور غيرها، وما فعلنا ذلك حتى بعثنا من يُذكرها وينذرها، وما كنا مهلكى قلوبٍ ومُتلفيها إلا وأهلها ظالمون، بإيثار الغفلة والشهوة على اليقظة والعفة. والله تعالى أعلم.

وسبب الهلاك هو حب الدنيا، ولذلك حقّر الله تعالى شأنها، حيث قال:

﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾

قلت: «ما»: شرطية، وجملة: (فمتاع..) إلخ: جوابه.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وما أُوتيتم من شىء ﴾ من زهرة الدنيا ﴿ فمتاعُ الحياة الدنيا وزينتُها ﴾ أى: أىُّ شىء أحببتموه من أسباب الدنيا وملاذها فما هو إلا تمتع وزينة، أياماً قلائل، وهى مدة الحياة الفانية، ﴿ وما عند الله ﴾من النعيم الدائم فى الدار الباقية؛ ثواباً لأعمالكم ﴿ خير ﴾ من ذلك؛ لأنه لذة خالصة فى بهجة كاملة.

﴿ وأبقى ﴾؛ لأنه دائم لا يفنى، ﴿ أفلا تعلقون ﴾ أن الباقي خير من الفانى، فتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير؟.

وعن ابن عباس رضي الله عنه: (إن الله خلق الدنيا، وجعل أهلها ثلاثة أصناف؛ المؤمن والمنافق والكافر، فالمؤمن يتزود، والمنافق يتزين، والكافر يتمتع. ثم قرأ هذه الآية). وفى الحديث عنه ﷺ: «لو كانتِ الدنيا تَزِنُ عند الله جناحَ بعوضة لما سَقَى الكافرَ منها شَرْبَةَ ماءٍ»(١). رواه الترمذى.

ثم قرر ذلك بقوله: ﴿ أفمن وعدناه وعداً حسناً ﴾، وهو الجنة؛ إذ لا شيء أحسن منها، حيث اشتملت على النظر لوجه الله العظيم، ولأنها دائمة، ولذا سميت الحسنى، ﴿ فهو ﴾ أى: الوعد الحسن ﴿ لاقيه ﴾ ومدركه، لا محالة، لامتناع الخلف فى وعده تعالى، ﴿ كمن متعناه متاع الحياة الدنيا ﴾ الذى هو مشوب بالكدر والمتاعب، مستعقَب بالفناء والانقطاع، ﴿ ثم هو يوم القيامة من المحضَرين ﴾ للحساب والعقاب، أو: من الذين أحضروا النار.

والآية نزلت فى المؤمن والكافر، أو: فى رسول ﷺ وأبى جهل(٢) ـ لعنه الله ـ، ومعنى الفاء الأولى: أنه لمَّا ذكر التفاوت بين متاع الحياة الدنيا وما عند الله عقَّبه بقوله: ﴿ أفمن وعدناه ﴾ أى: أبعد هذا التفاوت الجلى نُسَوى بين أبناء الدنيا وأبناء الآخرة ؟والفاء الثانية للتسبيب؛ لأن لقاء الموعود مسبب عن الوعد. و«ثم»: لتراخى حال الإحضار عن حال التمتع. ومن قرأ: «ثم هْو» بالسكون، شبَّه المنفصل بالمتصل، كما قيل فى عَضُد ـ بسكون الضاد ـ.

﴿ و ﴾ اذكر ﴿ يوم يُناديهم ﴾؛ يوم ينادى الله الكفارَ، نداء توبيخ، ﴿ فيقولُ أين شركائيَ ﴾؛ فى زعمهم ﴿ الذين كنتم تزعمون ﴾ أنهم شركائى، فحذف المفعول؛ لدلالة الكلام عليه. والله تعالى أعلم.

الإشارة: فى الآية تحقير لشأن الدنيا الفانية، وتعظيم لشأن الآخرة الباقية. وقد اتفق على هذا جميع الأنبياء والرسل والحكماء، قديماً وحديثاً، وقد تقدم آنفاً أنها لا تَزِن عند الله جناحَ بعوضة، وفى حديث آخر: «ما الدنيا فى جانب الآخرة، إلا كما يُدخل أحَدُكُمْ يده فى البحر ثم يُخرجه، فانظر ماذا يعلق به»(٣). بالمعنى. فنعيم الدنيا كله، بالنسبة إلى نعيم الجنان، كبلل الأصبع، الذى دخل فى الماء ثم خرج. مع أن نعيمها مكدر، ممزوج بالأهوال

(١) أخرجه الترمذى فى (الزهد، باب ما جاء فى هوان الدنيا على الله، ٤/٤٨٥ ح ٢٣٢٠)، وابن ماجه فى (الزهد، باب مثل الدنيا، ٢/١٣٧٦، ح ٤١١٠) من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الطبرى (٢٠/٩٧) عن مجاهد.

(٣) أخرجه مسلم بنحوه فى (الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب فناء الدنيا، وبيان الحشر يوم القيامة، ٤/٢١٩٣، ح ٢٨٥٨) من حديث المستَورِد أخى بن فهر رضي الله عنه.

والأحزان والمتاعب. وقد كتب على بن أبى طالب إلى سلمان - رضى الله عنهما -: «إنما مثل الدنيا كمثل الحية، لينّ مسها، قاتل سمها، فأعرض عنها، وعما يعجبك منها، لقلة ما يصحبك منها، ودع عنك همومها؛ لما تيقنت من فراقها، وكن أسرّ ما تكون منها، أحذر ما تكون منها، فإن صاحبها، كلما اطمأن فيها إلى سرور، أشخص منها إلى مكروه».

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن هذه الدار دار الثوى، لا دار استواء، ومنزل ترح، لا منزل فرح، فمن عرفها لم يفرح لرخائها، ولم يحزن لشقائها - أى: لأنهما لا يدومان - ألا وإن الله خلق الدنيا دار بلوى، والآخرة دار عقبى، فجعل بلوى الدنيا لثواب الآخرة سببا، وثواب الآخرة من بلوى الدنيا عوضاً، فيأخذ ليعطى، ويبتلى ليجزى، وإنها سريعة الثوى - أى: الهلاك - وشيكة الانقلاب، فاحذروا حلاوة رضاعها، لمرارة فطامها، واهجروا لذيذ عاجلها؛ لكريه آجلها، ولا تسعوا فى عمران دار قد قضى الله خرابها، ولاتواصلوها وقد أراد الله منكم اجتنابها، فتكونوا لسخطه متعرضين، ولعقوبته مستحقين. هـ. ذكره ابن وداعة الموصلى.

وذكر أيضاً عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما سكن حب الدنيا قلب عبد إلا التاط منها بثلاث: شغل لا ينفد عناؤه، وفقر لايدرك غناه، وأمل لا ينال منتهاه، إن الدنيا والآخرة طالبتان ومطلوبتان، فطالب الآخرة تطلبه الدنيا، حتى يستكمل رزقه، وطالب الدنيا تطلبه الآخرة حتى يأخذ الموت بعنقه، ألا وإن السعيد من اختار باقية يدوم نعيمها، على فانية لا ينفك عذابها، وقدّم لما يُقْدِمُ عليه مما هو الآن فى يده، قبل أن يُخلفه لمن يسعد بإنفاقه، وقد شقى هو بجمعه واحتكاره».

ثم ذكر مآل من اغتر فيها، قال:

﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغۡوَيۡنَآ أَغۡوَيۡنَٰهُمۡ كَمَا غَوَيۡنَاۖ تَبَرَّأۡنَآ إِلَيۡكَۖ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعۡبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ فَدَعَوۡهُمۡ فَلَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُمۡ وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَۚ لَوۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ يَهۡتَدُونَ ﴿٦٤﴾ وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبۡتُمُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَنۢبَآءُ يَوۡمَئِذٖ فَهُمۡ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلۡمُفۡلِحِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾

قلت: «هؤلاء»: مبتدأ. و«الذين»: صفته، والعائد: محذوف، و«أغويناهم»: خبر. والكاف في «كما»: صفة لمصدر محذوف، أي: أغويناهم غياً مثل ما غوينا، و«لو أنهم»: جوابه محذوف، أي: لما رأوا العذاب.

يقول الحق جل جلاله: ﴿قال الذين حقَّ عليهم القولُ﴾ بالعذاب، وثبت مقتضاه، وهو قوله تعالى: ﴿لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾(١)، وهم الشياطين، أو: أئمة الكفر: ورؤساء الكفرة: ﴿ربنا هؤلاء﴾ الكفرة ﴿الذين أغوينا أغويناهم﴾ أي: دعوناهم إلى الشرك وسوّلناه لهم، قد غَوَوا غياً ﴿كما﴾ مثل ما ﴿غوينّا﴾ يقولون: إنا لم نغو إلا باختيارنا، فهؤلاء كذلك غووا باختيارهم؛ لأن إغواءنا لم يكن إلا وسوسة وتسويلاً، فلا فرق إذن بين غينا وغيهم، وإن كان تسويلنا داعياً لهم إلى الكفر فقد كان في مقابلته دعاء الله لهم إلى الإيمان، بما وضع فيهم من أدلة العقل، وما بعث إليهم من الرسل، وأنزل إليهم من الكتب، وهذا كقوله: ﴿وقال الشيطان لمَّا قُضي الأمرُ إنَّ الله وعدكم وَعْدَ الحق...﴾ إلى قوله: ﴿ولُومُوا أنفسَكُم...﴾(٢).

ثم قالوا: ﴿تبرأنا إليك﴾ منهم فيما اختاروه من الكفر، ﴿ما كانوا إيانا يعبدون﴾، بل كانوا يعبدون أهواءهم، ويطيعون شهواتهم. فتَحَصَّلَ من كلام هؤلاء الرؤساء أنهم اعترفوا أنهم غرُّوا الضعفاء، وتبرءوا من أن يكونوا آلهتهم، فلا تناقض. انظر ابن جزي. وإخلاء الجملتين من العاطف؛ لكونهما مقررتين للجملة الأولى.

﴿وقيل﴾ للمشركين: ﴿ادعوا شركاءكم﴾ أي: الأصنام(٣)؛ لتخلصكم من العذاب، ﴿فَدَعَوْهُمْ فلم يستجيبوا لهم﴾، فلم يجيبوهم؛ لعجزهم عن الإجابة والنصرة. ﴿ورأَوُا العذابَ لو أنهم كانوا يهتدون﴾ لمَّا رأوا ذلك العذاب، وقيل: «لو»؛ للتمني، أي: تمنوا أنهم كانوا يهتدون.

﴿و﴾ اذكر ﴿يوم يُناديهم فيقولُ ماذا أَجبتُمُ المرسلين﴾ الذي أُرسلوا إليكم؟ أي: بماذا أجبتموهم؟ وهو أعلم بهم. حكى، أولاً، ما يوبخهم به؛ من اتخاذهم له شركاء، ثم ما تقوله الشياطين، أو: أئمة الكفر عند توبيخهم؛ لأنهم إذا وبخوا بعبادة الآلهة اعتذروا بأن الشياطين، أو الرؤساء، استغووهم، ثم ما يشبه الشماتة بهم؛ لاستغاثتهم بآلهتهم وعجزهم عن نصرتهم.، ثم ما يُبَكَّتُونَ به من الاحتجاج عليهم بإرسال الرسل وإزاحة العلل. قال تعالى: ﴿فعَمِيَتْ عليهم الأنباءُ يومئذ﴾؛ خفيت عليهم الحجج أو الأخبار. وقيل: خفي عليهم الجواب، فلم يدروا بماذا يجيبون؛ إذ لم يكن عندهم جواب.

---

(١) الآية ١١٩ من سورة هود. (٢) من الآية ٢٢ من سورة إبراهيم.

(٣) وكذلك كل ما أُشرك مع الله.

قال البيضاوي: وأصله: فعموا عن الأنباء، لكنه عكس؛ مبالغة ودلالة على أن ما يحضر الذهن إنما يفيض ويرد عليه من خارج، فإن أخطأه لم يكن له حيلة إلى استحضاره، والمراد بالأنباء: ما أجابوا به الرسل، أو: ما يعمها وغيرَها، فإذا كانت الرسل يتلعثمون في الجواب عن مثل ذلك من الهول، ويفوضون إلى علم الله تعالى؛ فما ظنك بالضلال من البُهم؟.هـ.

﴿ فهم لا يتساءلون ﴾ ؛ لا يسأل بعضهم بعضاً عن الجواب؛ لفرط الدهشة، أو: عن العذر والحجة، عسى أن يكون عندهم عذر أو حجة. ﴿ فأما من تابَ ﴾ من الشرك ﴿ وآمَنَ ﴾ بربه وبمن جاء من عنده، ﴿ وعَمِلَ صالحًا ﴾ أي: جمع بين الإيمان والعمل ،﴿ فعسى أن يكون من المفلحين ﴾ ؛ من الفائزين عند الله بالنعيم المقيم. و«عسى» ، من الكرام، تحقيق. وفيه بشارة للمسلمين على الإسلام، وترغيب للكافرين في الإيمان. وبالله التوفيق.

الإشارة: قال الذين حق عليهم القول؛ بالانحطاط عن درجة المقربين، والبقاء مع عامة أهل اليمين، وهم الصادُّون الناسَ عن الدخول في طريق القوم: ربنا هؤلاء الذين أغوينا؛ زينّا لهم البقاء مع الأسباب، والوقوف مع العوائد، أغويناهم كما غوينا، فحيث لم نَقْوَ على مقام أهل التجريد، قوينا سوادنا بهم، تبرأنا إليك؛ لأنا لم نقهرهم، ولكن وسوسنا لهم ذلك، ما كانوا إيانا يعبدون، ولكن عبدوا هوى أنفسهم. ثم يقال لهم: ادعوا ما كنتم تعبدونه من حظوظ الدنيا وشهواتها، فدعوهم؛ فلم يستجيبوا لهم، ورأوا عذاب القطيعة، لو أنهم كانوا يهتدون إلى اتباع أهل التربية؛ ما وقعوا في ذلك. ويوم يناديهم فيقول: ماذا أجبتم الداعين، الذين أرسلتهم في كل زمان، يدعون إلى الله، ويرفعون الحجاب بينهم وبين ربهم، فعميت عليهم الأنباء يومئذ، فهم لا يتساءلون عن أحوال المقربين، لغيبتهم عنهم. والله تعالى أعلم.

ثم بيَّن الله تعالى بعض صفاته الحسنى، فقال:

﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وربك يخلقُ ما يشاءُ ﴾ ، لا موجب عليه، ولا مانع له، وفيه دلالة على خلق الأفعال. ﴿ ويختارُ ﴾ ما يشاء، لا اختيار لأحد مع اختياره. قال البيضاوي: وظاهره: نفي الاختيار عنهم رأساً،

والأمر كذلك عند التحقيق؛ فإنّ اختيار العبد مخلوق لله، منوط بدواعٍ لا اختيار لهم فيها، وقيل: المراد أنه ليس لأحد أن يختار عليه، فلذلك خلا عن العاطف، يعني قوله: ﴿ما كان..﴾ الخ، ويؤيده: ما روى أنه نزل في قولهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾(١) هـ. ﴿ما كان لهم الخِيَرةُ﴾ أي: ليس لهم أن يختاروا مع الله شيئاً ما، وله الخيرة عليهم. والخيرة: من التخير، تستعمل مصدراً بمعنى التخير، وبمعنى المتخيّر، ومنه: محمد خيرة الله من خلقه، ولم يدخل العاطف في ﴿ماكان لهم الخيرة﴾؛ لأنه مقرر لِما قبله، وقيل: «ما»: موصولة، مفعول بيختار، والراجع إليه: محذوف، أي: ويختار الذى كان لهم منه الخيرة والصلاح. هـ. وبحث فيه النسفي بأن فيه ميلاً إلى الاعتزال، ويجاب: بأن المعتزلة يقولون ذلك على سبيل الإيجاب، ونحن نقوله على سبيل التفضل والإحسان.

﴿سبحان الله﴾، أي: تنزيهاً له عن أن ينازعه أحد، أو يزاحم اختيارَهُ اختيارٌ. ﴿وتعالى عما يشركون﴾، أي: تعاظم عن إشراكهم، أو: عن مشاركة ما يُشركون به.

﴿وربك يعلم ما تُكِنُّ﴾: تُضمر ﴿صدورُهم﴾ من عداوة الرسول - عليه الصلاة والسلام - وحسده، ﴿وما يُعلنون﴾ من مطاعنهم فيه، وقولهم: هلاّ اختير عليه غيْرُه في النبوة. ﴿وهو الله﴾ المستأثر بالألوهية المختص بها، ﴿لا إله إلا هو﴾، تقرير له، كقولك: الكعبة قبلة، لاقبلة إلا هي. ﴿له الحمد في الأولى﴾ أي: في الدنيا، ﴿والآخرة﴾؛ لأنه المُولي للنعم كلها، عاجلها وآجلها، يحمده المؤمنون في الدنيا، ويحمدونه في الآخرة بقولهم: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ﴾(٢)، ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ﴾(٣)، ﴿وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(٤)، والتحميد تم على وجه التلذذ لا الكلفة. ﴿وله الحُكم﴾؛ القضاء بين عباده، ﴿وإليه تُرجعون﴾ بالبعث والنشور. وبالله التوفيق.

الإشارة: في الآية تحضيض على ترك التدبير والاختيار، مع تدبير الواحد القهار، وهو أصل كبير عند أهل التصوف، أُفرد بالتأليف، وفي الحِكَم: «أرح نفسك من التدبير، فما قام به غيرك عنك؛ لاتقم به أنت عن نفسك». وقال سهل رضي الله عنه: ذروا التدبير والاختيار، فإنهما يكدران على الناس عيشهم. وقال الشيخ أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه: ذروا التدبير، وإن كان ولابد من التدبير، فدبروا ألا تدبروا. هـ.

والتدبير المذموم: هو ما فيه للنفس حظ، كتدبير أسباب الدنيا، وماتحصل بها من شهواتها، إذا صحبه عزم أو تكرير، وأمّا ما كان فيما يقرب إلى الله تعالى فهو النية الصالحة، أو لم يصحبه تصميم؛ بأن كان عزْمه محلولا،

(١) الآية ٣١ من سورة الزخرف، وانظر تفسير البغوى (٢١٨/٦)
(٢) من الآية ٣٤ من سورة فاطر.
(٣) من الآية ٧٤ من سورة الزمر.
(٤) الآية ٧٥ من سورة الزمر.

أو علقه بمشيئة الله، أو كان خاطراً غير ساكن، فلا بأس به. قال القشيرى ـ بعد كلام فى وجه اختصاص التدبير بالحق تعالى: لأنه لو لم تنفذ مشيئته واختياره لم يكن بوصف العِزّ؛ لأن من نفى عن مراده لايكون إلا ذليلاً، والاختيارُ للحق نعتُ عز، والاختيار للخلق صِفةُ نقصٍ، ونعتُ ملام وقصور، فاختيارُ العَبْدِ عليه غيرُ مُبَارَكٍ له؛ لأنه صفةٌ غيرُ مستحقٍ لها، ومن اتصف بما لايليق به افتضح، قال قائلهم:

ومَعَانٍ إذا ادّعاها سواهم(١) لَزِمَتْـه جِنَـــايةُ السُّرّاقِ

والطينةُ إذا ادَّعَت صفة للحقّ أظهرت رعونتها، فما للمختار(٢) والاختيار؟! ومااللملوكِ والمِلْك؟! وما للعبيدِ فى دَسْتِ الملوك؟! قال تعالى: ﴿ما كان لهم الخيرة﴾. هـ. وقال آخر فى هذا المعنى:

العبدُ ذو ضَـجَرٍ، والـربُّ ذو قَـدَرٍ والدهـرُ ذو دُوَلٍ، والـرزقُ مقســومُ
والخيرُ أجمعُ: فيمـا اختـار خالقُنـا وفى اختيـارِ سـواه: اللـومُ والشُّـومُ.

فإذا علمت، أيها العبد، أن الحق تعالى هو الذى يخلق مايشاء ويختار، لم يبق لك مع الله اختيار، فالحالة التى أقامك فيها هى التى تليق بك، ولذلك قيل: العارف لا يعارض ما حلّ به، فقراً كان أو غنى(٣). قال اللجائى فى

---

(١) فى القشيرى: ومعانٍ إذا ادعاها سواه.... (٢) أى: الذى اختاره الله..

(٣) قلت: هذه منزلة، وهناك منزلة أعلى وأحلى، نفهمها إذا قررنا أصلا، وهو: أن حكم الله واختياره، ثلاثة أنواع:

الأول: حكم الله الديني، الشرعي، واختياره، ومراده الديني.. وهذا موقفنا منه الخضوع والتسليم، والرضا والقبول، والعمل.

الثاني: حكم الله الكوني، القدري، الذى لا اختيار لنا فيه، كمصيبة الموت، وجائحة في مال، وإذاية ظالم لانقدر عليه، وما أشبه ذلك، وهذا موقفنا منه التسليم، والصبر،، وفوقه: الرضا بهذا القضاء، الذى لااختيار لنا فيه.

الثالث: حكم الله الكوني القدري، واختياره الكوني القدري ـ الذى لنا فيه قدرة واختيار، كمرض يمكن دفعه بالدواء، وفقر يمكن دفعه بالتكسب وطلب الغنى، وهزيمة يمكن دفعها بالجهاد والكفاح.. الخ، وهذا موقفنا منه: هو المنازِعة، والمغالبة، والمدافعة،

وانتبه معى لقول سيدنا عبدالقادر الجيلاني ـ الشيخ القدوة، العارف، قال ما ملخصه: (الناس إذا ذُكر القدر أمسكوا، إلا أنا، فقد انفتحت لي فيه روزَنة [طاقة ـ نافذة] فنازعت أقدار الحق، بالحق، للحق). فهذا فى النوع الثالث من حكم الله واختياره، ننازعه، بالحق، للحق، والشيخ القدوة، لم يبتدع ذلك، وحاشاه، رحمه الله وقدس روحه ـ بل هو انتزعه من حديث نبوى شريف، أخرجه أحمد فى المسند (٢/٤٢١) والترمذى في (الطب، باب ٢١، ٤/٣٤٩، ح٢٠٦٥) وابن ماجه فى (الطب، باب ١، ٢/١١٣٧، ح ٣٤٣٧) من حديث أبي خِزَامة قال: سئل النبى ﷺ: أرأيت [يعني: أخبرنا عن] ـ رقىً نسترقيها، وأدوية نتداوى بها: أترد من قدر الله؟ قال: «هي من قدَر الله» الله أكبر: فقدر المرض، ننازعه بقدر العلاج والدواء، وقدر الفقر المالي ننازعه بقدر الكسب وإصلاح المال، وقدر الهزيمة ننازعه بقدر الجهاد والاستعداد، وقدر التخلف الحضارى ننازعه بقدر الفعالية الحضارية، وقدر انتشار الوباء كالطاعون، والكوليرا ـ ننازعه بقدر الاحتماء، والتطعيم العام.. الخ، كما فعل سيدنا عمر: مع طاعون الشام، فلم يدخل الشام ـ عندما سمع بانتشار الطاعون فيها، وكان ذاهباً إليها، فقيل له: أتفر من قدر الله؟! قال: (نعم، نفر من قدر الله إلى قدر الله) فالمؤمن العارف يصول بالحق للحق.

كتاب قطب العارفين: الراضى شبه ميت، لا نفس له، يختار لها، فالفقر والغنى حكمان من حكيم واحد، وهو أعلم سبحانه بعبيده، وما يصلحون به، فمنهم من يصلح للفقر ولايصلح للغنى، ومنهم من يصلح للغنى ولايصلح للفقر، ومنهم من يصلح بالمنع ولايصلح بالعطاء، ومنهم من يصلح بالعطاء ولايصلح بالمنع، ومنهم من يصلح بالبلاء ولايصلح بالصحة، ومنهم من يصلح بالصحة ولايصلح بالبلاء، ومنهم من يصلح بالوجهين جميعاً، وهى أعلى رُتبة يشار إليها فى غاية هذا الشأن، ﴿وربك يخلق ما يشاء ويختار..﴾ الآية، ففى هذه الآية كفاية وتعزية لكل سالك راض عن الله تعالى، لكن لايعْقلها ولا يتلذذ بها إلا مشايخ العارفين. هـ. وبالله التوفيق.

ثم برهن على انفراده بالخلق والاختيار، فقال:

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓاْ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾

قلت: (سرمدا): مفعول ثان لجعل، وهو من السرد، أى: التتابع، ومنه قولهم فى الأشهر الحرم: ثلاثة سرد وواحد فرد، والميم زائدة، فوزنه: فعْمَل.

يقول الحق جل جلاله: ﴿قل أرأيتم﴾؛ أخبرونى ﴿إن جعل اللهُ عليكم الليلَ سرمداً﴾؛ دائماً؛ بإسكان الشمس تحت الأرض، أو: بتحريكها حول الأفق الخارج عن كورة الأرض، أو بإخفاء نورها، ﴿مَنْ إلهٌ غير الله يأتيكم بضياء﴾، وحقه: هل إله غير الله، وعبّر بـ «مَن» على زعمهم أن غيره آلهة، أى: هل يقدر أحد على هذا؟ ﴿أفلا تسمعون﴾ سماع تدبر واستبصار؟

﴿قل أرأيتم إن جعل اللهُ عليكم النهارَ سرمداً إلى يوم القيامة﴾ بإسكانها فى وسط السماء، أو: بتحريكها فوق الأفق فقط، ﴿مَنْ إلهٌ غير الله يأتيكم بليلٍ تسكنون فيه﴾؛ استراحة من متاعب الأشغال؟ ولم يقل: بنهار

تتصرفون فيه، كما قال: ﴿بليل تسكنون فيه﴾، بل ذكر الضياء، وهو ضوء الشمس؛ لأن المنافع التي تتعلق به متكاثرة، وليس هو التصرف في المعاش وحده، والظلام ليس هو بتلك المنزلة، ومن ثم قرن بالضياء. ﴿أفلا تسمعون﴾؛ لأن السمع يدرك ما لايدركه البصر، من ذكر منافعه، ووصف فوائده، وقرن بالليل ﴿أفلا تُبصرون﴾؛ لأن غيرك يُبصر من منفعة الظلام ما تبصره أنت من السكون ونحوه.

﴿ومن رحمته﴾ تعالى ﴿جَعَلَ لكم الليلَ والنهارَ لتسكُنُوا فيه﴾؛ في الليل ﴿ولِتَبْتَغوا من فضله﴾ بالنهار بأنواع المكاسب. وهو من باب اللف والنشر. وقال الزجاج: يجوز أن يكون معناه: لتسكنوا فيهما ولتبتغوا من الله فيهما، ويكون المعنى: جعل لكم الزمان ليلاً ونهاراً؛ لتسكنوا فيه، ولتبتغوا من فضله، ﴿ولعلكم تشكرون﴾ أي: ولكي تعرفوا نعمة الله في ذلك فتشكروه عليها.

ثم قَرَّعهم على الإشراك، بعد هذا البيان التام، بقوله: ﴿ويومَ يناديهم فيقول أين شركائي الذين كنتم تزعمون﴾، وكرر التوبيخ على الشرك؛ ليؤذن ألاّ شيء أجلبُ لغضب الله تعالى من الإشراك به، كما لا شيء أدخل في مرضاته من توحيده. وقال القرطبي: أعاد هذا؛ لاختلاف الحالين، ينادون مرة، فيدعون الأصنام فلا تستجيب لهم، فيظهر كذبهم. ثم ينادون مرة أخرى فيسكتون، وهو توبيخ وزيادة خزي. ثم طرق كون المناداة من الله، أو ممن يأمره بذلك، لقوله: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ﴾(١)، ويحتمل: ولايكلمهم بعد قوله: ﴿اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾(٢) أو: ولايكلمهم كلام رضا.هـ(٣).

﴿ونزعنا﴾؛ وأخرجنا ﴿من كل أمة شهيداً﴾، وهو نبيهم، يشهد عليهم بما كانوا عليه؛ لأن الأنبياء شهداء على أممهم، ﴿فقلنا﴾ للأمم: ﴿هاتوا برهانكم﴾ على صحة ما كنتم عليه من الشرك ومخالفة الرسول، ﴿فعلموا﴾ حينئذ ﴿أن الحق لله﴾ في الألوهية، لا يشاركه فيها غيره، ﴿وضلّ عنهم﴾؛ غاب غيبة الشيء الضائع ﴿ما كانوا يفترون﴾ من ألوهية غير الله وشفاعة أصنامهم. والله تعالى أعلم.

الإشارة: دوام ليل القبض يَمْحَقُ البشرية، ودوام نهر البسط يُطْغي النفس، وتخالفهما على المريد رحمة، وإخراجه عنهما عناية، وفي الحكم: «بسطك كي لايتركك مع القبض، وقبضك كي لايتركك مع البسط، وأخرجك عنهما كي لا تكون لشيء دونه». وقال فارس رضي الله عنه: القبض أولاً، ثم البسط، ثم لاقبض ولابسط؛ لأن القبض والبسط يقعان في الوجود، وأما مع الفناء والبقاء فلا. هـ.

(١) من الآية ١٧٤ من سورة البقرة. (٢) من الآية ١٠٨ من سورة المؤمنون. (٣) بتصرف.

ولما قال تعالى: ﴿ وما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا ﴾ ؛ذكر من متّعه بها وغرته، فقال:

﴿ ۞ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوأُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾

قلت : «قارون»: غير مصروف؛ للعجمة والتعريف، ولو كان «فاعولا»؛ من قرنت الشيء، لانصرف لخروجه عن العجمة. ﴿إذ قال﴾: ظرف لبَغَى، أي: طغى حين وُعِظ، ولم يقبل ما وُعظ به، أو: يتعلق بمقدر، أي: أظهر التفاخر بالمال حين قال له قومه: لا تفرح. و«ما»: موصولة، و«إنّ مفاتحه»: صلته، ولذلك كسرت.

يقول الحق جل جلاله : ﴿ إنّ قارون كان من قوم موسى ﴾ ؛ كان إسرائيلياً، ابن عم لموسى وابن خالته، فهو قارون بن يصهر بن قاهَث بن لاوى بن يعقوب، وموسى بن عمران بن قاهَث. وكان يسمى «المنور»؛ لحُسن صورته(١)، وكان آمن بموسى، وكان أحفظ الناس للتوارة، ولكنه نافق كما نافق السامرى. ﴿ فبَغَى عليهم ﴾ ، من البغى، أى: الظلم: قيل: ملّكه فرعون على بنى إسرائيل فظلمهم. أو: من البغى، أى: الكبر، أى: تكبر عليهم بكثرة ماله وولده، وزاد عليهم فى الثياب شبراً، فطلب الفضل عليهم وأن يكونوا تحت يده.

﴿ وآتيناه من الكنوز ما ﴾ الذى ﴿ إنّ مفاتِحَه ﴾ ؛ جمع مِفتح، بمعنى المقلَد، أى: إن مقاليده ﴿ لَتَنُوءُ ﴾ أى: تثقل ﴿ بالعُصْبَة ﴾ ، الباء للتعدية، يقال: ناء به الحمل: أثقله حتى أماله. والعصبة: الجماعة الكثيرة، وكانت مفاتح خزائنه وقرَ ستين بغلاً، لكل خزانة مفتاح، ولايزيد المفتاح على إصبع. وكانت من جلود، أى: مغاليقها. وقيل: معنى تنوء: تنهض بتكَلُّفٍ، ويكون حينئذ فى الكلام قلب؛ إذ العصبة هى التى تنوء بالمفاتح، لا العكس، قيل: وسميت أمواله كنوزاً؛ لأنه كان لا يؤدى زكاتها، وبسبب ذلك عادى موسى أول عداوته.

﴿ إذ قال له قومه لاتفرح ﴾ ؛ لاتبطر بكثرة المال؛ فرَح إعجاب؛ لأنه يقود إلى الطغيان. أو: لاتفرح بالدنيا؛ إذ لايفرح بها إلا من لا عقل له، ﴿ إن الله لايُحب الفَرِحين ﴾ : البطرين المفتخرين بالمال، أو: الفرحين بزخارف الدنيا، من حيث حصول حظوظهم وشهواتهم فيها. قال البيضاوى: الفرح بالدنيا مذموم مطلقاً؛ لأنه نتيجة حبها

(١) انظر تفسير ابن كثير (٣/٣٩٨ - ٣٩٩).

والرضا بها، والذهول عن ذهابها، فإن العلم بأن ما فيهـا من اللذة مفارق لامحالة، يوجب التوخى[1] لا محالة، كما قيل:

أَشَدُّ الغَمِّ عِنْدِي فِي سُرُورٍ ... تَيَقَّن عَنْهُ صَاحِبُـهُ انْتِقَـالاَ

﴿ وابتغِ فيـما آتاك اللهُ ﴾ من المال والثروة ﴿ الدارَ الآخرة ﴾؛ بأن تتصدق على الفقراء وتصل الرحم، وتصرفه فى أنواع الخير، ﴿ ولا تنس نصيبَكَ من الدنيا ﴾، وهو أن تأخذ ما يكفيك ويصلحك. وقيـل: معناه: واطلب بدنياك آخرتك؛ فإن ذلك حظ المؤمن منها؛ لأنها مزرعة الآخرة، فيهـا تكتسب الحسنات وترفع الدرجات، أى: لا تنس نصيبك منها أن تقدمه للآخرة، ﴿ وأحسنْ ﴾ إلى عباد الله ﴿ كما أحسنَ اللهُ إليك ﴾ فيما أنعم به عليك، أو: أحسن بشكرك وطاعتك لخالق الأنام، كما أحسن إليك بسوابغ الإنعام. ﴿ ولاتبغِ الفسادَ فى الأرض ﴾ بالظلم والبغى وإنفاق المال فى المعاصى؛ ﴿ إن الله لايحب المفسدين ﴾؛ لايرضى فعلهم. والله تعالى أعلم.

الإشارة: فى الآية زجر عن الفرح بالدنيا والافتخار بها، بل الفرح بكل ما يفْنى: كُلُّه مذموم. قال فى الإحياء: الفرح بالدنيا والتنعم بها سُمٌّ قاتل، يسرى فى العروق، فيُخْرِجُ من القلب الخوفَ والحزنَ، وذكرَ الموت وأهوالَ يوم القيامة، وهذا هو موت القلب، والعياذ بالله، فأولو العزم من أرباب القلوب حزنوا لِمُوَاتَاة الدنيا، وعلِموا أن النجاة فى الحزن الدائم، والتباعدِ من أسباب الفرح والبطر، فقطعوا النفس عن ملاذها، وعودوا الصبر عن شهواتها، حلالها وحرامها، وعلموا أن حلالها حساب، وهو نوع عذاب، ومن نوقش الحساب عُذِّب، فخلَّصوا أنفسَهم من عذابها، وتوصلوا إلى الحرية والملك فى الدنيا والآخرة، بالخلاص من أسر الشهوات ورقها، والأنس بذكر الله تعالى والاشتغال بطاعته. هـ.

وقال يُمْن بن رزق: اعلم أنى لم أجد شيئاً أبلغ فى الزهد فى الدنيا من ثبات حزن الآخرة فى القلب، وعلامة ثبات حزن الآخرة فى القلب: أُنْسُ القلب بالوحدة. هـ. قلت: وهذا مذهب العباد والزهاد، وأما العارفون فقد دخلوا جنة المعارف، فلا خوف عليهم ولاهم يحزنون، جعلنا الله من خواصهم، بمنّه وكرمه.

ثم ذكر جواب قارون، فقال:

﴿ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًاۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾

(١) فى البيضاوى: [الترح] وهو أنسب بالسياق.، ولعل ما فى أعلى تصحيفاً عن: التوقى، أى: الحذر والتحوط.

يقول الحق جل جلاله: ﴿قال﴾ قارون: ﴿إنما أُوتيتهُ﴾ أي: المال ﴿على علم عندى﴾ أي: على استحقاق منى، لِمَا فِيَّ من العلم الذى فَضلت به الناس، وهو علم التوراة، وكان أعلم الناس به بعد، موسى وهارون، وكان من العباد، ثم كفر بعد ذلك. وذكر القشيرى أنه كان منقطعاً فى صومعة للعبادة، فصحبه إبليسُ على العبادة، واستمر معه على ذلك، وهو لايشعر، إلى أن ألقى إليه: إن ما هما عليه، من الانقطاع عن التكسب، وكون أمرهما على أيدى الناس، ليس بشيء، فرده إلى الكسب بتدريج، إلى أن استحكم فيه حب الدنيا والجمع والمنع، ثم تركه .هـ. وقيل: المراد به علم الكيمياء، وكان يأخذ الرصاص والنحاس فيجعلهما ذهبا. أو: العلم بوجوه المكاسب من التجارة والزراعة، أو: العلم بكنوز يوسف(١).

قال تعالى: ﴿أوَلَمْ يعلم أن الله قد أهلكَ مِنْ قبله من القرون مَنْ هو أشدُّ منه قوةً وأكثرُ جَمْعاً﴾، أى: أو لم يكن فى علمه، من جملة العلم الذى عنده، أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه وأقوى وأغنى، وأكثر جمعاً للمال، أو أكثر جماعة وعددا، وهو توبيخ على اغتراره بقوته وكثرة ماله، مع علمه بذلك؛ لأنه قرأه فى التوارة، وسمعه من حفاظ التواريخ. أو: نفيٌّ لعلمه بذلك؛ لأنه لمَّا قال: ﴿أُوتيته على علم عندي﴾؛ قيل له: أعنده مثل ذلك العلم الذى ادعاه، ورأى نفسه به مستوجبة لكل نعمة، ولم يعلم هذا العلم النافع، الذى هو الاعتبار بمن هلك قبله، حتى يَقِيَ نفسه مصارع الهالكين.

﴿ولايُسْئلِ عن ذنوبهم المجرمون﴾، لعلمه تعالى بعملهم، بل يُدخلهم النار بغتة. أو: يعترفون بها بغير سؤال، أو: يُعرفون بسيماهم فلا يُسألون، أو: لا يُسألون سؤال توبيخ، أو لا يُسْأَلُ المجرمون من هذه الأمة عن ذنوب الماضين. قال محمد بن كعب: هو كلام متصل بما قبله، والضمير فى (ذنوبهم)؛ عائد على من أهلك من القرون، أى: أهلكوا، ولم يُسْأَلْ غيرهم بعدهم عن ذنوبهم، بل كل أحد إنما يُعاتب على ما يخصه. هـ. وإذا قلنا هو؛ فى القيامة فقد ورد فى آيات أخر أنهم يُسألون، ويومُ القيامة مواطن وطوائف. والله تعالى أعلم.

الإشارة: إذا خص الله عبداً بخصوصية فلا ينسبها لنفسه، أو لحوله وقوته، أو لكسبه ومجاهدته، بل يشهدها مِنَّةً من الله عليه، وسابق عناية منه إليه، قال سهل رضي الله عنه: ما نظر أحد إلى نفسه فأفلح، والسعيد من صرف بصره عن أفعاله وأقواله، وفتح له سبيل رؤية مِنَّة الله عليه، فى جميع الأفعال والأقوال. والشقى مَنْ زَيَّنَ له فى عينه أفعالَه وأقوالَه وأحوالَه، ولأفتحَ له سبيلَ رؤيةِ مِنَّةِ الله عليه، فافتخر بها وادعاها لنفسه، فشؤمه أن يهلكه كما خسف بقارون، لمَّا أدعى لنفسه فضلا .هـ.

(١) انظر تفسير ابن كثير (٣/٣٩٩ - ٤٠٠) وتفسير البغوى (٦/٢٢٢).

ثم قال تعالى :

﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾

قلت: (فى زينته): حال، (ويكأنه): مذهب الخليل وسيبويه: أن «وى»: حرف تنبيه منفصلة عن كأنَ، لكن أضيفت لكثرة الاستعمال. وقال أبو حاتم وجماعة: «ويك» هى «ويلك»؛ حذفت اللام منها؛ لكثرة الاستعمال. وقالت فرقة: «ويكأن»؛ بجملتها: كلمة. قاله الثعلبى، وقال البيضاوى: ويكأن، عند البصريين، مركب من: «وى»؛ للتعجب، و«كأن»، للتشبيه .هـ. وقال سيبويه: «وى»: كلمة تنبيه على الخطأ وتندم، يستعملها النادم لإظهار ندامته.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ فخرج ﴾ قارون ﴿ على قومه فى زينته ﴾، قال جابر: كانت زينته القرمز، وهو صبغ أحمر معروف. قيل: إنه خرج فى الحمرة والصفرة، وقيل: خرج يوم السبت على بغلة شهباء، عليها الأرْجوان، وعليها سرج من ذهب، ومعه أربعة آلاف على زيه، وقيل: عليهم وعلى خيولهم الديباج الأحمر، وعن يمينه ثلاثمائة غلام، وعن يساره ثلاثمائة جارية بيض، عليهن الحلىّ والديباج.

﴿ قال الذين يُريدون الحياة الدنيا ﴾، قيل: كانوا مسلمين، وإنما تمنوا، على سبيل الرغبة فى اليسار، كعادة البشر، وقيل: كانوا كفاراً، ويرده قوله: ﴿لولا أن منّ الله علينا..﴾ إلخ. ﴿ ياليت لنا مثل ما أُوتى قارونُ ﴾ من المال والجاه، قالوه؛ غبْطَةً. والغابط هو الذى يتمنى مثل نعمة صاحبه، من غير أن تزول عنه، والحاسد هو الذى يتمنى أن تكون نعمة صاحبه له، دونه. وهو كقوله تعالى: ﴿ ولاتتمنوا ما فضّل الله به بعضكم على بعض ﴾(١)، وقيل لرسول الله ﷺ: هل تضر الغبطة؟ فقال: «لا..» الحديث(٢). ﴿ إنه لذو حظ عظيم ﴾ من الدنيا، والحظ: الجدّ، وهو البخت والدولة.

---

(١) من الآية ٣٢ من سورة النساء.
(٢) لفظ الحديث: سأل ﷺ: هل يضر الغبط؟ قال: «لا، إلا كما يضر العضاةَ الخَبَطُ». قال ابن حجر فى الكافى: ذكره ثابت السرقسطى فى الغريب، هكذا بغير إسناد. انظر الكافى الشاف على هامش الكشاف (٣/٤٣٢).

﴿ وقال الذين أُوتوا العلمَ ﴾ بالثواب والعقاب وفناء الدنيا، أو: أوتوا العلم بالله، فيؤخذ منه: أن متمنى الدنيا جاهل ولو كان أعلم الناس؛ إذ لايتمناها إلا المحب لها، وهى رأس الفتنة. فأىّ علم يبقى مع فتنة الدنيا؟! قالوا فى وعظهم لغابطى قارون: ﴿ وَيْلَكُمْ ﴾ ؛ هلاكاً لكم، فأصل ويلك: الدعاء بالهلاك، ثم استعمل فى الزجر والردع على ترك ما لايرضى. وقال فى التبيان فى إعراب القرآن: هومفعول بفعل محذوف، أى: ألزمتكم الله ويلكم، ﴿ ثواب ُالله ﴾ فى الآخرة، ﴿ خيـر لمن آمن وعَـمِلَ صـالحاً ﴾ مما أوتى قـارون، بل من الدنيا ومـا فيـهـا، ﴿ ولايُلقَّاها ﴾ أى: لايلقى هذه الكلمة التى تكلم بها العلماء، وهى ثواب الله خير، ﴿ إلا الصابرون ﴾ . أو: لايلقى هذه القوة والعزيمة فى الدين إلا الصابرون على الطاعات وعن الشهوات وزينة الدنيا.

وفى حديث الترمذى: أن رسول الله ﷺ قال: «من ترك اللباس ـ أى: الفاخر ـ؛ تواضعاً لله تعالى، وهو يقْدِرُ عليه، دعاهُ الله على رؤوس الخلائق، حتى يُخيِّره من أى حُلل الإيمانِ شاء يلْبَسُهَا»(١). وفيه أيضا عنه عليه الصلاة والسلام: «لَيْسَ لابن آدَمَ حقٌ فى سوى هذِهِ الخِصـَالِ؛ بيتٌ يسكُنُهُ، وثوبٌ يُوارِى عَوْرَتَه، وجِلَفُ الخُبْزِ وَالْمَاءِ»(٢). أى: ليس معه إدام.

قال تعالى: ﴿ فخسفنا به ﴾ ؛ بقارون ﴿ وبداره الأرض ﴾ ، كان قارون يؤذى موسى عليه السلام كل وقت، وهو يداريه؛ للقرابة التى بينهما، حتى نزلت الزكاة، فصالحه: على كل ألف دينار دينارٌ، وعلى كل ألف درهم درهمٌ، فحاسبه فاستكثره، فشحت به نفسه، فجمع بنى إسرائيل، وقال له: قد أطعتم موسى فى كل شىء، وهو الآن يريد أن يأخذ أموالكم، فقالوا: أنت كبيرنا فَمُرنا بما شئت، قال: نجعل لفلانة البغى جُعْلاً حتى تقذف موسى بنفسها، فيرفضه بنو إسرائيل، فجعل لها ألف دينار، أو: طستاً من ذهب، فلما كان يوم عيد قام موسى خطيباً، فقال: من سرق قطعنا يده، ومن افترى جلدناه ثمانين، ومن زنى وليس له امرأة جلدناه مائة، ومن زنى وله امرأة رجمناه، فقال قارون: وإن كنتَ أنتَ؟ قال: وإن كنتُ أنا، قال: فإن بنى إسرائيل يزعمون أنك فجرت بفلانة، فأحضرت، فناشدها بالذى خلق البحر وأنزل التوارة أن تصدق، فقالت: جعل لى قارون جُعلا على أن أقذفك بنفسى، فخرَّ موسى ساجداً يبكى، وقال: اللهم إن كنتُ رسولَك فاغضبْ لى، فأوحى الله تعالى إليه: مُر الأرض بما شئت فيه، فإنها مطيعة لك، فقال: يابنى اسرائيل: إن الله بعثنى إلى قارون كما بعثنى إلى فرعون، فمن كان معه فليلزم

(١) أخرجه الترمذى فى (صفة القيامة، باب ٣٩، ٤/٥٦١ ح ٢٤٨١)، والحاكم فى المستدرك (١/٦١) وصححه، ووافقه الذهبى، من حديث معاذ بن أنس.

(٢) أخرجه أحمد فى المسند (١/٦٢)، والترمذى وصححه فى (الزهد، باب ٣٠، ٤/٤٩٤، ح ٢٣٤١) من حديث سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه وقوله ﷺ: «وجلف الخبز» أى: ليس معه إدام. انظر: النهاية فى غريب الحديث (١/٨٧).

مكانه، ومن كان معي فليعتزل، فاعتزلوا جميعاً غير رَجُلَيْن. ثم قال: يا أرض خذيهم، فأخذتهم إلى الأوساط، ثم قال: خذيهم، فأخذتهم إلى الأعناق، وقارونُ وأصحابه يتضرعون إلى موسى، ويناشدونه بالله وبالرحم، وموسى لايلتفت إليهم؛ لشدة غضبه، ثم قال: خذيهم، فانطبقت عليهم. فقال الله تعالى: ياموسى؛ استغاث بك مراراً فلم ترحمه، فوعزتى لو استرحمنى مرة لرحمته(١).

رُوى أنه يخسف كل يوم قامة، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة، فقال بعض بنى إسرائيل: إنما أهلكه ليرث داره وكنوزه، فدعى الله تعالى فخسف بداره وكنوزه، وأوحى الله تعالى إلى موسى: إنى لا أُعَبِّدُ الأرض أحداً بعدك أبداً، أى: لا آمرها تطيع أحدا بعدك.

﴿ فما كان له من فئة ﴾؛ جماعة ﴿ ينصرونه من دون الله ﴾؛ يمنعونه من عذاب الله، ﴿ وما كان من المنتصرين ﴾من عذاب الله، أو: من المنتقمين من موسى.

﴿ وأصبح ﴾ أى: وصار ﴿ الذين تمنَّوا مكانَه ﴾ أى: منزلته من الدنيا ﴿ بالأمس ﴾: متعلق بتمنوا. ولم يُرد به اليوم الذى قبل يومك، ولكن الوقت القريب، استعارة. ﴿ يقولون ويكأنَّ اللهَ يبسط الرزقَ لمن يشاء من عباده ويقدرُ ﴾ أى: اعجب مما صنع بقارون، لأن الله يبسط الرزق لمن يشاء، وهو عنده ممقوت، ﴿ ويقدر ﴾ أى: يضيقه على من يشاء، وهو عنده محبوب. ﴿ لولا أن مَنّ اللهُ علينا ﴾؛ بصرف ماكنا نتمناه بالأمس، ﴿ لخسف بنا ﴾ معه، كما فعل بالرجلين، ﴿ ويكأنه لايُفلح الكافرون ﴾ أى: اعجب لعدم فلاح الكافرين. قال الرضى: كأن المخاطب كان يدعى أنهم يفلحون، فقال له: عجباً منك، فسئل: لم تتعجب منه؟ فقال: إنه لايفلح الكافرون، فحذف حرف الجار. وقال ابن عزيز: ويكأن الله معناه: ألم تر أن الله. واقتصر عليه البخارى(٢). والله. تعالى أعلم.

الإشارة: فى الآية ترهيب من التعمق فى زينة الدنيا، والتكاثر بها. ومن تمنى ما لأربابها من غرور زخرفها، وترغيب فى الزهد فيها، وإيثار الفقر على الغنى، والتبذل والتخشن على ملاذ ملابسها ومطاعمها. قال الشيخ العارف؛ سيدى عبدالرحمن بن يوسف اللجائى فى كتابه: اعلم أن الدنيا إذا عظمت وجلّت فى قلب عبد، فإن ذلك العبد يعظم قدر من أقبلت عليه الدنيا، ويتمنى أن ينال منها ما نال، فإن كل انسان يُعظم ما اشتهت نفسه.

---

(١) ذكره البغوى فى تفسيره (٦/٢٢٤) وانظر تفسير ابن كثير (٣/٤٠١).

قلت: وهذ الرواية تجعل سبب الخسف بقارون هو غضب سيدنا موسى لنفسه، لكن القرآن الكريم، والأحاديث الصحيحة تبرهن على أن سبب الخسف به هو التكبر على الله تعالى، والتكبر على الناس.

(٢) انظر فتح البارى (كتاب التفسير، سورة القصص، باب. ﴿إنك لاتهدى من أحببت﴾ ٨/٣٦٩).

وهذه صفة عبيد الدنيا، وعبيد أهوائهم. وهى صفة من أسكرته الغفلة، وخرجت عظمة الله عز وجل من قلبه، وإلى هذه الإشارة بقوله تعالى: ﴿قال الذين يريدون الحياة الدنيا..﴾ الآية. فكل محب للدنيا، مستغرق فى حبها، فهو لاحق بالذين تمنوا زينة قارون. واعلم أن الدنيا إذا رسخت فى القلب، واستوطنت، ظهر ذلك على جوارح العبد، بتكالبه عليها، وشدة رغبته فيها، فيسلبه الله تعالى لذة القناعة، ويمنعه سياسة الزاهدين، ويبعده عن روح العارفين؛ فإن القلب إذا لم يقنع - لو ملك الدنيا بحذافيرها - لم يشبع. وقال بعض الحكماء: القناعة هى الغنى الأكبر، ولن تخفى صفة القانعين.هـ. ومآل الراغبين فى الدنيا هومآل قارون، من الفناء والذهاب تحت التراب، وأنشدوا:

إنْ كُنْتَ تَسْمُو إلَى الدُّنيا وَزِينَتِهَا ... فَانْظُرْ إلى مَالِكِ الأَمْلاَكِ قَارُونِ
رَمَّ الأُمُورَ فَأَعْطَتْهُ مَقَادتهَا ... وَسَخَّرَ النَّاسَ؛ بِالتَّشْدِيدِ وَاللِّينِ
حَتَّى إذَا ظَنَّ ألاَّ شَيْءَ غَالِبُهُ ... وَمَكَّنَتْ قَدَمَاهُ أيَّ تَمْكِينِ
رَاحَتْ عَلَيْهِ الْمَنَايَا رَوْحَةً تَرَكَتْ ... ذَا الْمُلْكِ وَالْعِزِّ تَحْتَ الْمَاءِ وَالطِّينِ

ثم ذكر عاقبة المتواضعين، فقال:

﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ
(٨٣) مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا
مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ (٨٤) ﴾

قلت: (تلك): مبتدأ، و(نجعلها): خبر.

يقول الحق جل جلاله: ﴿تلك الدارُ الآخرة﴾ أى: تلك الدار التى سمعْت بذكرها، وبلغك خبرها. ومعنى البُعد فى الإشارة، لبُعد منزلتها وعلو قدرها، ﴿نجعلها للذين لايُريدون علواً فى الأرض﴾ أى: تكبراً وقهراً كحال فرعون، ﴿ولافساداً﴾؛ عملاً بالمعاصى، أو: ظلماً على الناس، كحال قارون، أو: قتل النفس، أو: دعاء إلى عبادة غير الله، ولم يعلق الوعد بترك العلو والفساد، ولكن بترك إرادتهما وميل القلب إليهما، أدرك ذلك

بالفعل أم لا. وعن على رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : إن الرجل ليعجبه أن يكون شراك نعله أجود من شراك نعل صاحبه، فيدخل تحتها. وعن الفضيل: أنه قرأها، ثم قال: ذهبت الأمانى ها هنا. وعن عمر بن عبدالعزيز رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه كان يرددها حتى قُبض. ﴿ والعاقبة ﴾ المحمودة ﴿ للمتقين ﴾ ما لايرضاه الله؛ من العلو والفساد وغير ذلك.

﴿ من جاء بالحسنة فله خيرٌ منها ﴾؛ ذاتاً وقدراً ووصفاً، ﴿ ومن جاء بالسيئة ﴾؛ ما لايرضاه الله تعالى، ﴿ فلا يُجزى الذين عملوا السيئات ﴾، أصله: فلا يجزون، وضع الظاهر موضع المضمر؛ لِمَا فى إسناد السيئات إليهم من تقبيح رأيهم وتسفيه أحلامهم، وزيادة تبغيض السيئات إلى قلوب السامعين، ﴿ إلا ما كانوا يعملون ﴾؛ إلا جزاء عملهم فقط، ومن فضله العظيم ألا يجزى السيئة إلا مثلها، ويجزى الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة.

الإشارة: جعل الله الدار الآخرة للمتواضعين، أهل الذل والانكسار، والعاقبة المحمودة ـ وهى الوصول إلى الحضرة ـ للمتقين الشهرة والاستبكار، وفى الحكم: «ادفن نفسك فى أرض الخمول؛ فَمَا نَبَتَ مِمَّا لَمْ يُدْفَنْ؛ لاَيَتِمّ نِتَاجُهُ». قال فى التنبيه: لاشىء أضر على المريد من الشهرة وانتشار الصيت؛ لأن ذلك من أعظم حظوظه، التى هو مأمور بتركها، ومجاهدة النفس فيها، وقد تسمح نفس المريد بترك ما سوى هذا من الحظوظ.هـ.

وكان شيخ شيخنا يقول: نحب المريد أن يكون قدمه أعظم من صيته، ولايكون صيته أعظم من قدمه.هـ. وقال إبراهيم بن أدهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : ما صدق الله من أحب الشهرة. وقال بعضهم: طريقتنا هذه لاتصلح إلا بأقوام كنست بأرواحهم المزابل. وقال أيوب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : ما صدق عبد إلا سرّه ألا يشعر بمكانه. وقال فى القوت: ومتى ذل العبد نفسه، واتضع عندها، فلم يجد لذلته طعماً، ولا لضعته حسماً، فقد صار الذل والتواضع كونَه، فهذا لايكره الذم من الخلق؛ لوجود النقص فى نفسه، ولايحب المدح منهم؛ لفقد القدر والمنزلة فى نفسه. فصارت الذلة والضعة صفة لاتفارقه، لازمة لزوم الزبالة للزبال، والكساحة للكساح، هما صنعتان له كسائر الصنائع. وربما فخروا بهما لعدم النظر إلى نقصهما. فهذه ولاية عظيمة له من ربه، قد ولاّه على نفسه، وملّكه عليها، فقهرها بعزه، وهذا مقام محبوب، وبعده المكاشفات بسرائر الغيوب. ثم قال: ومن كان حاله مع الله تعالى الذل طلبه واستحلاه، كما يطلب المتكبر العز، ويستحليه إذا وجده، فإن فارق ذلك الذل ساعة تغير قلبه لفراق حاله، كما أن المتعزز إن فارق العز ساعة تكدر عليه عيشه؛ لأن ذلك عيش نفسه. هـ.

قلت: وهذا مقام من المقامات، والعارف الكامل لايتغير قلبه على فقد شىء؛ إذ لم يفقد شيئا بعد أن وجد الله، (مَاذَا فَقَدَ مَنْ وَجَدَك). والذى ذكره فى القوت هو حال السائرين الصادقين. وبالله التوفيق.

(١) من مناجاة سيدى ابن عطاء الله السكندرى، انظر الحكم بترتيب المتقى الهندى/٤٢.

ثم ذكر عاقبة سيد المتقين، فقال:

﴿ إِنَّ الَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْءَانَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ الْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾

قلت: (ولايصدنك): مجزوم بحذف النون، وحذفت الواو لالتقاء الساكنين، حين دخلت نون التوكيد.

يقول الحق جل جلاله، لرسوله ﷺ: ﴿ إن الذى فَرَضَ عليك القرآنَ ﴾ أى: أوجب عليك تلاوته وتبليغه، والعمل بما فيه، ﴿ لرادُّك إلى معاد ﴾ عظيم، وهو المعاد الجسمانى؛ لتقوم المقام المحمود، الذى لايقوم فيه أحد غيرك، مع حضور الأكابر من الرسل وغيرهم. أو: لرادك إلى معادك الأول، وهو مكة، وكان عليه الصلاة والسلام اشتاق إليها؛ لأنها مولده ومولد آبائه، وقد ردّه إليها يوم الفتح، وإنما نكّره؛ لأنه كان فى ذلك اليوم معاد له شأن، ومرجع له اعتداد؛ لغلبته – عليه الصلاة والسلام – ونصره، وقهره لأعدائه، ولظهور عز الإسلام وأهله، وذل الشرك وحزبه.

والسورة مكية، ولكن هذه الآية نزلت بالجُحْفَة، لابمكة ولا بالمدينة(١)، وفى الآية وعد بالنصر، وأن العاقبة الحسنة والخير الجسيم للنبى ﷺ لا يختص بالآخرة، بل يكون فى الدنيا له ولمتّبعيه، ولكن بعد الابتلاء والامتحان، كما فى صدر السورة الآتية بعدها، وبهذا يقع التناسب بينهما، فإنها كالتعليل لِمَا قبلها.

ولما وعده بالنصر قال له: ﴿ قل ربى أعلم من جاء بالهُدَى ﴾ أى: يعلم مَنْ جاء بالحق، يعنى: نَفْسَهُ ﷺ مع ما يستحقه من النصر والثواب، فى معاده، ﴿ ومن هو فى ضلال مبين ﴾؛ وهم المشركون، مع ما يستحقونه من العقاب فى معادهم.

﴿ وماكنتَ ترجو أن يُلقى ﴾؛ يوحى ﴿ إليك الكتابُ ﴾ أى: القرآن، فكما ألقى إليك الكتاب، وماكنت ترجوه؛ كذلك يردك إلى معادك الأول، من غير أن تَرْجُوَهُ، ﴿ إلا رحمةً من ربك ﴾، لكن ألقاه إليك؛ رحمة منه

(١) انظر تفسير ابن كثير (٣/٤٠٢ – ٤٠٣).

إليك، ويجوز أن يكون استثناء محمولاً على المعنى، كأنه قال: وما أُلقِيَ إليك الكتاب إلا رحمة من ربك، ﴿ فلا تكونن ظهيراً ﴾؛ معينا ﴿ للكافرين ﴾ على دينهم؛ بمُداراتهم والتحمل عنهم، والإجابة إلى طلبتهم.

﴿ ولايَصُدُّنَّك عن آياتِ الله ﴾ أي: لا يمنعك هؤلاء عن العمل بآيات الله وتبليغها وإظهارها، ﴿ بعد إذ أُنزلت إليك ﴾ أي: بعد وقت إنزالها، و﴿إذ﴾: مضاف إليه أسماء الزمان، كقولك: حينئذ ويومَئذٍ. ﴿ وادعُ إلى ربك ﴾؛ إلى توحيده وعبادته، ﴿ ولا تكونن من المشركين ﴾، نهاه؛ تنفيراً لغيره من الشرك.

﴿ ولاتَدْعُ مع الله إلهًا آخر ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنه: الخطاب للنبي ﷺ، والمراد به أهْلُ دينه. قال البيضاوي: وهذا وما قبله تهييج، وقطع أطماع المشركين عن مساعدته لهم، ﴿ لا إله إلا هو ﴾: استئناف، مقرر لمَا قبله، ﴿ كلُّ شيءٍ هالكٌ إلا وَجْهَهُ ﴾ أي: ذاته، فالوجه يُعَبَّرُ به عن الذات، أي: كل شيء فانٍ مستهلك معدوم، إلا ذاته المقدسة، فإنها موجودة باقية. وقال أبو العالية: إلا ما أريد به وجه الله، مِنْ عِلْمٍ وعمل، فإنه لايفنى. قال عبادة بن الصامت رضي الله عنه: يجاء بالدنيا يوم القيامة، فيقال: ميزوا ما كان لله تعالى منها، فيميز، ثم يؤمر بسائرها فيلقى في النار.هـ. وقال الضحاك: كل شيء هالك إلا الله والجنة والنار والعرش.

﴿ له الحُكْمُ ﴾؛ القضاء النافذ في خلقه، ﴿ وإليه تُرجعون ﴾؛ للجزاء والفصل. والله تعالى أعلم.

الإشارة: أهل الاشتياق يُرَوِّحون أرواحهم بهذه الآية، فيقولون لها: إن الذي فرض عليك القرآن، أن تعمل به في الدنيا، لرادك إلى معاد جسماني روحاني، فتتصل نضرتك ونظرتك إلى وجه الحبيب، من غير عذول ولا رقيب، على سبيل الاتصال، من غير تكدر ولا انفصال، فإن وقع الإنكار على أهل الخصوصية؛ فيقولون: ﴿ ربي أعلم ﴾ الآية.. وما كنت ترجو أن تُلْقَى إليك الخصوصية إلا رحمة من ربك، فلا تكونن ظهيراً للكافرين المنكرين لها، معيناً لهم على إذاية من انتسب إليها، ولايصدنك عن معرفة آيات الله الدالة عليه، بعد إذ أُنزلت إليك، أي: لايمنعك الناس عن صحبة أولياء الله، الدالين عليه، وادع إلى ربك، أي: إلى معرفة ذاته ووحدانيته، ولاتكونن من المشركين بشهود شيء من السِّوى، فإن كل شيء هالك، أي: معدم في الماضي والحال والاستقبال، إلا وجهه: إلا ذاته، فلا موجود معها، وفي ذلك يقول الشاعر:

اللهَ قُلْ، وذَرِ الْوُجُودَ ومَا حَوَى ... إنْ كُنْتَ مُرْتَاداً بُلُوغَ كَمَالِ
فَالْكُلُّ، دون الله، إنْ حَقَّقْتَهُ، ... عَدَمٌ عَلَى التَّفْصِيلِ وَالإِجْمَالِ
واعْلَمْ بأنَّكَ، والعَوالِمَ كُلَّهَا، ... لَوْلاَهُ، فِي مَحْوٍ وَفِي اضْمِحْلاَلِ

مَنْ لاَ وُجُودَ لِذَاتِهِ مِنْ ذَاتِهِ فَوُجُودُهُ، لولاه، عَيْنُ مُحَالِ
فَالْعَارِفُونَ فَنَوْا، وَلَمْ يَشْهَدُوا شَيْئاً سِوَى الْمُتَكَبِّرِ الْمُتَعَالِ
وَرَأَوْا سِوَاهُ عَلَى الحَقِيقَةِ هَالِكاً فِي الْحَالِ وَالْمَاضِي وَالاسْتِقْبَال.

وبالله التوفيق، ولا حول ولاقوة إلا بالله العلي العظيم، وَصَلَّى اللهُ على سيدنا محمد وآله وصحبه، وسلَّمَ.

❁ ❁ ❁

سورة العنكبوت

مكية، إلا صدرها؛ العشر الآيات، فإنها نزلت بالمدينة فى شأن مَنْ كانَ من المسلمين بمكة، وإلا قوله: ﴿ ومِنَ الناس من يقول آمنّا ﴾ إلى: ﴿ المنافقينَ ﴾(١)؛ فإنها نزلت فى المتخلفين عن الهجرة. وهى كالتعليل لخاتمة ما قبلها؛ من البشارة بالنصر؛ لأنه لا يكون فى الغالب إلا بعد الامتحان، كما قال تعالى:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾ ﴾

قلت: الحسبان: قوة أحد النقيضين على الآخر، كالظن، بخلاف الشك، فهو الوقوف بينهما. والعلم: هو القطع بأحدهما، ولا يصح تعلقهما بمعانى المفردات، ولكن بمضامين الجمل، فلا أقول: حَسِبْتُ زيداً، وظننت الفرس، بل حسبت زيداً قائماً، والفرس جوادا. والكلام الدال على المضمون، الذى يقتضيه الحسبان هنا أن يتركوا مع قوله: ﴿وهم لا يفتنون﴾ أى: أحسبوا تركهم غير مفتونين لأن يقولوا: آمنا.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ الٓمٓ ﴾ الألف: لوحدة أسرار الجبروت، واللام: لفيضان أنوار الملكوت، والميم: لاتصال المادة بعالم الملك. فكأنه تعالى أقسم بوحدة جبروته وأنوار ملكوته واتصال مادته بملكه وخليقته، أنه لا يدع دعوة مدع إلا ويختبره؛ ليظهر صدقه أو كذبه، وهذا معنى قوله: ﴿ أحَسِبَ الناسُ ﴾ أى: أظن الناس ﴿ أن يُتركوا ﴾ غير مفتونين ومختبَرين، ﴿ أن يقولوا آمنّا وهم لا يُفتنون ﴾؛ أظنوا أن يدّعوا الإيمان ولا يُختبرون عليه؛ ليظهر الصادق من الكاذب، بل يمتحنهم الله بمشاق التكليف؛ من مفارقة الأوطان، ومجاهدة الأعداء، ورفض الشهوات، ووظائف الطاعات، وبالفقر، والقحط، وأنواع المصائب فى الأموال والأنفس، وإذاية الخلق؛ ليتميز المخلص من المنافق، والثابت فى الدين من المضطرب فيه، ولينالوا بالصبر على ذلك عوالى الدرجات، فإن مجرد الإيمان، وإن كان عن خلوص قلب، لا يقتضى غير الخلاص من الخلود فى العذاب، وما

---

(١) الآيات: ٩ ـ ١١.

ينال العبدَ من المكاره يسمو به إلى أعلى الدرجات وأعظم المقامات، مع ما فى ذلك من تصفية النفس وتهذيبها، لتتهيأ لإشراق أنوار مقام الإحسان.

رُوى أنها نزلت فى ناس من أصحاب رسول الله ﷺ، قد جزعوا من أذى المشركين، وضاقت صدورهم من ذلك، وربما استنكر بعضهم أن يُمكِّن اللهُ الكفرةَ من المؤمنين. فنزلت مُسلِّية ومعلِّمة أن هذه هى سيرة الله فى عباده؛ اختباراً لهم.

قال تعالى: ﴿ولقد فتنَّا الذين مِنْ قبلهم﴾ بأنواع المحن؛ فمنهم من كان يُوضع المنشار على رأسه، فيُفْرَقُ فرقتين، وما يصرفه ذلك عن دينه، ومنهم من كان يمشط بأمشاط الحديد، ومنهم من كان يُطرح فى النار، وما يصده ذلك عن دينه. ﴿فليعلَمَنَّ اللهُ﴾ بذلك الامتحان ﴿الذين صدقُوا﴾ فى الإيمان بالثبات، ﴿وليعلمنَّ الكاذبين﴾ بالرجوع عنه. ومعنى علمه تعالى به، أى: علم ظهور وتمييز. والمعنى: وليُميِّزنَّ الصادق منهم من الكاذب، فى الدنيا والآخرة. قال ابن عطاء: يتبيَّن صدق العبد من كذبه فى أوقات الرخاء والبلاء، فمن شكر فى أيام الرخاء، وصبر فى أيام البلاء، فهو من الصادقين، ومن بطر فى أيام الدنيا، وجزع فى أيام البلاء، فهو من الكاذبين. هـ.

الإشارة: سُنَّة الله تعالى فى أوليائه: أن يمتحنهم فى البدايات، فإذا تمكنوا من معرفة الله، وكمل تهذيبهم، أعزهم ونصرهم، وأظهرهم لعباده. ومنهم من يتركهم تحت أستار الخمول، حتى يلقوه على ذلك؛ وهم عرائس الملكوت، ضنَّ بهم أن يظهرهم لخلقه. والامتحان يكون على قدر المقام، وفى الحديث: «أشدُّ الناسِ بلاءً: الأنبياء، ثم الأمثَلُ فالأمثل، يُبتَلَى الرجلُ على قدر دينه، فإن كان فى دينه صُلْباً، اشتد بلاؤُهُ، وإن كان فى دينه رقَّةٌ، ابتلى على قَدرِ دينه، فما يبرحُ البلاءُ بالعبدِ حتى يتْرُكَهُ يَمْشِى على الأرْضِ وما عليه مِنْ خطيئة»(١).

وقال ﷺ: «أشدُّ الناسِ بلاءً فى الدنيا: نبى أو صفى». وقال ﷺ: «أشدُّ الناس بلاءً: الأنبياءُ، ثم الصالحون. لقد كان أحدهم يُبْتَلى بالفقر، حتى ما يَجِدَ إلا العباءَةَ يُحَوِّيها فيلبسها، ويُبْتَلَى بالقَمْلِ حتى يَقْتُلَهُ، ولأَحدُهُمْ كان أشدَّ فرحاً بالبلاء من أحَدِكُم بالعطاء»(٢). من الجامع. والله تعالى أعلم.

(١) أخرجه الترمذى فى (الزهد، باب ما جاء فى الصبر على البلاء، ٤/ ٥٢٠، ح ٣٩٨.)، وابن ماجه فى (الفتن، باب الصبر على البلاء، ٢/ ١٣٣٤، ح ٤٠٢٣)، والإمام أحمد فى المسند (١/ ١٧٤) من حديث مصعب بن سعد، بن أبى وقاص رضي الله عنه.

(٢) أخرجه بنحوه ابن ماجه فى الموضع السابق ذكره. (٤/ ١٣٣٥، ح ٤٠٢٤) وابن أبى الدنيا فى (المرض والكفارات / ١)، والحاكم (٤/ ٣٠٧) وصححه، من حديث أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه. وقوله ﷺ: «يحوِّيها» فى النهاية: التحوية: أن يدير كساء حول سنام البعير، ثم يركبه، والإسم: الحويّة. انظر النهاية (حوا ١/ ٤٦٥).

ثم ذكر المؤذين لهم، فقال:

﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾ مَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٥﴾ وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ أمْ حَسبَ الذين يعملون السيئات ﴾ أى: الشرك والمعاصى وإذاية المسلمين، ﴿ أن يسبقونا ﴾ أى: يفوتونا، بل يلحقهم الجزاء لا محالة. و«أم»: منقطعة، ومعنى الإضراب فيها: أن هذا الحسبان أَبْطَلُ من الحسبان الأول؛ لأن ذلك يظن أنه لا يُمْتَحَنُ لإيمانه، وهذا يظن أنه لا يُجَازَى بمساوئه، وشبهته أضعف، ولذلك عقّبه بقوله: ﴿ ساءَ ما يحكمون ﴾ ، أى: بئس ما يحكمون به حكمهم فى صفات الله أنه مسبوق، وهو القادر على كل شيء، فالمخصوص محذوف.

ثم ذكر الحامل على الصبر عند الامتحان، وهو رجاء لقاء الحبيب، فقال: ﴿ من كان يرجو لقاءَ الله ﴾ أى: يأمل ثوابه، أو يخاف حسابه، أو ينتظر رؤيته، ﴿ فإنَّ أجلَ الله ﴾ المضروب للغاية ﴿ لآتٍ ﴾ لامحالة. وفيه تبشير بأن اللقاء حاصل؛ لأنه لأجل آت، وكل آت قريب. وكل غاية لها انقضاء، فليبادر للعمل الصالح الذى يصدق رجاءه ويحقق أمله. ﴿ وهو السميعُ ﴾ لما يقوله عباده، ﴿ العليمُ ﴾ بما يفعلونه، فلا يفوته شيء.

﴿ ومن جاهَدَ ﴾ نفسه، بالصبر على مشاق الطاعات، ورفض الشهوات، وإذاية المخلوقات، وحَبَسَ النفس على مراقبة الحق فى الأنفاس واللحظات، ﴿ فإنما يُجاهدُ لنفسه ﴾ ؛ لأن منفعة ذلك لها، ﴿ إن الله لغنيٌ عن العالمين ﴾ وعن طاعتهم ومجاهدتهم. وإنما أمر ونهى؛ رحمة لهم، ومراعاة لصلاحهم.

﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنكفّرنَّ عنهم سيئاتهم ﴾ أى: الشرك والمعاصى؛ بالإيمان والتوبة، ﴿ ولنجزينهم ﴾ مع غنانا عنهم، ﴿ أحسنَ الذي كانوا يعملون ﴾ أى: أحسن جزاء أعمالهم؛ بالفضل والكرم. والله تعالى أعلم.

الإشارة: أم حسب الذين يُنكرون على أوليائى، المنتسبين إلىّ، أن يسبقونا؟ بل لابد أن نعاقبهم فى الدنيا والآخرة، إما فى الظاهر؛ بمصيبة تنزل بهم، أو فى الباطن، وهو أقبح، كقساوة فى قلوبهم، أو: كسل فى بدنهم، أو: شك فى يقينهم، أو: بُعد من ربهم، فإن من عادى لى ولياً فقد آذنته بالحرب. ثم بشّر المتوجهين الذين يؤذون فى جانبه، بأن لقاءه حاصل لهم إن صبروا، وهو الوصول إلى حضرته، والتنعم بقربه ومشاهدته، جزاء على صبرهم ومجاهدتهم، وهو الغَنِي بالإطلاق.

ثم حذّر من طاعة من يرد عن التوحيد والإخلاص، فقال:

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٩﴾ ﴾

قلت: «وصى»: حُكمه حُكْمُ «أَمَرَ»، يقال: وصيت زيداً بأن يفعل خيراً، كما تقول: أمرته بأن يفعل خيراً، ومنه: ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ ﴾(١)، أى: أمرهم بكلمة التوحيد ووصاهم عليها.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ووصينا الإنسانَ بوالديه ﴾؛ أمرناه بإيتاء والديه ﴿ حُسْناً ﴾ أى: فعلاً ذا حُسْن، أو: ما هو فى ذاته حُسن؛ لفرط حسنه، كقوله: ﴿ وقولوا للناس حُسنا ﴾(٢) أو: وصينا الإنسان بتعاهد والديه، وقلنا له: أحسن بهما حسناً، أو: أَوْلِهِما حُسْناً. ﴿ وإن جاهداك ﴾ أى: حملاك بالمجاهدة والجد ﴿ لتُشرك بي ما ليس لك به علم ﴾ أى: لا علم لك بالإلهية، والمراد نَفْيُ العلم نَفْيُ المعلوم، وكأنه قيل: لتشرك بى شيئاً لا يصح أن يكون إلهاً، وقيل: ما ليس لك به حُجة؛ لأنها طريق العلم، فهو قوله: ﴿ لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ ﴾(٣)، بل هو باطل عقلاً ونقلاً، ﴿ فلا تُطعهما ﴾ فى ذلك؛ إذ لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق.

﴿ إليّ مرجعكُم ﴾، من آمن منكم ومن أشرك، ﴿ فأُنبئكُم بما كنتم تعملون ﴾؛ فأُجازيكم حق جزائكم. وفى ذكر المرجع والوعيد تحذير من متابعتهما على الشرك، وحث على الثبات والاستقامة فى الدين. رُوى أن سعد بن أبى وقاص لما أسلم، نذرت أمه ألا تأكل ولا تشرب حتى يرتد، فشكى إلى رسول الله ﷺ، فنزلت هذه الآية والتى فى لقمان(٤).

﴿ والذين آمنوا ﴾؛ ثبتوا على الإيمان ﴿ وعملوا الصالحات لنُدْخلنّهم في الصالحين ﴾ أى: فى جملتهم، والصلاح من أبلغ صفة المؤمنين، وهو متمنى الأنبياء، فقال سليمان عليه السلام: ﴿ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴾(٥). وقال يوسف عليه السلام: ﴿ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾(٦) أو: فى مدخل الصالحين، وهو الجنة.

---

(١) من الآية ١٣٢من سورة البقرة. (٢) من الآية ٨٣ من سورة البقرة. (٣) من الآية ١١٧ من سورة المؤمنون.

(٤) أى: قوله تعالى: ﴿وإن جاهداك على أن تشرك بى ماليس لك به علم فلا تطعهما﴾ الآية ١٥، ونزول الآية فى شأن سعد بن أبى وقاص رضي الله عنه، أخرجه مسلم فى (فضائل الصحابة، باب فى فضل سعد بن أبى وقاص، ٤/١٨٧٧ ح ١٧٤٨) وانظر أسباب النزول للواحدى (ص ٣٥٠ ـ ٣٥١).

(٥) من الآية ١٩من سورة النمل. (٦) من الآية ١٠١من سورة يوسف.

الإشارة: قد وصى الله تعالى بطاعة الوالدين في كل شيء، إلا في شأن التوحيد والتخلص من الشرك الجلي والخفي، فإن ظهر شيخ التربية ومنع الوالدان ولدهما من صحبته، ليتطهر من شركه، فلا يُطعهما، وسيأتي في لقمان دليل ذلك، إن شاء الله. وبالله التوفيق.

ثم ذكر شأن من امتُحِنَ فافتُضِحَ، فقال:

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ۚ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ ﴿١١﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ومن الناس من يقول آمنا بالله﴾، فيدخل في جملة المسلمين، ﴿فإذا أُوذي في الله﴾ أي: مسّه أذىً من الكفرة؛ بأن عذبوه على الإيمان، ﴿جعل فتنةَ الناسِ كعذابِ الله﴾ أي: جزع من ذلك كما يجزع من عذاب الله، فيُصْرَف عن الإيمان. ﴿ولئن جاء نصرٌ من ربك﴾؛ فتح أو غنيمة، ﴿ليقولن إنا كنا معكم﴾ أي: متابعين لكم في دينكم، ثابتين عليه بثباتكم، فأعطونا نصيباً من المغنم. والمراد بهم: المنافقون، أو: قوم ضعف إيمانهم فارتدوا. قال تعالى: ﴿أوليس اللهُ بأعلمَ بما في صدور العالمين﴾ أي: هو أعلم بما في صدور العالمين. ومن ذلك ما في صدور هؤلاء من النفاق، وما في صدور المؤمنين من الإخلاص.

الإشارة: منافق أهل الإيمان هو الذي يظهر الإيمان في الرخاء ويرجع عنه في الشدة، ومنافق الصوفية هو الذي يظهر الانتساب في السعة والجمال، فإذا وقع البلاء والاختبار بأهل النسبة خرج عنهم، فإذا أُوذي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله بالقطيعة والحجاب، ولئن جاء لأهل النسبة نصر وعز، ليقولن: إنا كنا معكم. وقد رأينا كثيراً من هذا النوع، دخلوا في طريق القوم، فلما قابلتهم نيران التعرف والامتحان؛ رجعوا القهقرى، فعند الامتحان يعز المرء أو يهان، وعند الحمْلَة يتميز الجبان من الشجاع.

قال القشيري: المحن تُظهِرُ جواهرَ الرجال، وتَدُلُّ على قيمتهم وأقدارهم. ثم من كانت محنته من فوات الدنيا، أو نقص نصيبه فيها، أو بموت قريب أو فَقْد حبيب، فحقيرٌ قدره، وكثيرٌ في الناس مثله. ومن كانت محنته في الله ولله، فعظيم قدره، وقليل مثله، في العدد قليل، ولكن في القدر والخطر جليل. هـ. قلت: معنى كلامه: أن

العامة يمتحنهم الله ويختبرهم بذهاب حظوظهم وأحبابهم، فإن جزعوا فقدرهم حقير، وإن صبروا فأجرهم كبير، وأما الخاصة فيمتحنهم الله بسبب نسبتهم إلى الله، وإقبالهم عليه، أو الأمر بمعروف أو نهى عن منكر، فيُؤذَوْن فى جانب الله، فمنهم من يُسجن، ومنهم من يُضرب، ومنهم من يُجلى من بلده، فهؤلاء قدرهم عند الله كبير. ثم قال: والمؤمن مَنْ يكفُّ الأذى، والولى من يتحمل من الناس الأذى، من غير شكوى، ولا إظهار دعوى. هـ.

ولما وقعت الإذاية من الكفار للمسلمين طمعوا فيهم، كما قال تعالى:

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَـٰيَـٰكُمْ وَمَا هُم بِحَـٰمِلِينَ مِنْ خَطَـٰيَـٰهُم مِّن شَىْءٍ ۖ إِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ۖ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وقال الذين كفروا ﴾ من صناديد قريش، ﴿ للذين آمنوا اتَّبعُوا سبيلَنَا ﴾ الذى نسلكه، وهو الدخول فى ديننا، ﴿ وَلْنَحْمِلْ خطاياكم ﴾ إن كان ذلك خطيئة فى زعمكم. أمروهم باتباع سبيلهم، وهى طريقتهم التى كانوا عليها، وأمروا أنفسهم بحمل خطاياهم، فعطف الأمر على الأمر، وأرادوا ليجتمع هذان الأمران فى الحصول. والمعنى: تعليق الحمل بالاتباع، أى: إن تتبعوا سبيلنا حملنا خطاياكم. وهذا قول صناديد قريش، كانوا يقولون لمن آمن منهم: لا نُبعث نحن ولا أنتم، فإن كان ذلك فإنا نحمل عنكم الإثم.

قال تعالى: ﴿ وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء ﴾ أى: ما هم حاملين شيئاً من أوزارهم، ﴿ إنهم لكاذبون ﴾ فيما ادعوا؛ لأنهم قالوا ذلك وقلوبهم على خلافه، كالكاذبين الذين يَعِدُون الشيء وفى قلوبهم نية الخُلْف. ﴿ وليَحْمِلُنَّ أثقالهم ﴾ أى: أثقال أنفسهم بسبب كفرهم، ﴿ وأثقالاً مع أثقالهم ﴾ أى: أثقالاً أُخر غير التى ضمنوا للمؤمنين حملَها، وهى أثقال الذين كانوا سبباً فى ضلالهم، كقولهم: ﴿ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾(١)، ﴿ وَلَيُسأَلُنَّ يوم القيامة عما كانوا يفترون ﴾ من الأكاذيب والأباطيل التى أضلوا بها.

الإشارة: كل من عاق الناس عن الدخول فى طريق التصفية والتخليص: تَصْدُقُ عليه هذه الآية، فيتقلد بحمل نقائصهم ومساوئهم التى بقيت فيهم، فيحاسب عليها وعلى مساوئ نفسه. والله تعالى أعلم.

(١) الآية ٢٥ من سورة النحل.

ثم سلّى رسولَه ـ عليه الصلاة والسلام ـ ومن أُوذى معه، بما جرى للأنبياء قبله، فقال:

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ و ﴾ الله ﴿ لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فلَبِث فيهم ألفَ سنة إلا خمسين عاماً ﴾ يدعوهم إلى الله، وهم يؤذونه بالشتم والضرب حتى نُصر، فاصبر كما صبر، فإن العاقبة للمتقين.

رُوى أنه عاش ألفاً وخمسين سنة، وقيل: إنه ولد فى حياة آدم، وآدم يومئذ ابن ألف سنة إلا ستين عاما. وقيل: إلا أربعين. ذكره الفاسى فى الحاشية. والمشهور: أن بينه وبين آدم نحو العشرة آباء. وروى أنه بُعث على رأس أربعين، ولبث فى قومه تسعمائة وخمسين. وعاش بعد الطوفان ستين(١). وعن وَهْب: أنه عاش فى عمره ألفاً وأربعمائة، وقيل: وستمائة، فقال له ملك الموت: يا أطول الأنبياء عمراً؛ كيف وجدت الدنيا؟ قال: كدَارٍ لها بابان، دخلت من أحدهما وخرجت من الآخر. ولم يقل: تسعمائة وخمسين سنة؛ لأنه، لو قيل ذلك، لجاز أن يتوهم إطلاق هذا العدد على أكثره، وهذا التوهم زائل هنا، وكأنه قيل: تسعمائة وخمسين كاملة وافية العدد. مع أن ما ذكره الحق أسلس وأعذب لفظاً، ولأن القصة سيقت لذكر ما ابتلى به نوح عليه السلام من أمته، وماكابده من طول المصابرة؛ تسليةً لنبينا ـ عليه الصلاة والسلام ـ فكان ذكر الألف أفخم وأوصل إلى الغرض. وجِيء، أولاً: بالسَّنة ثم بالعام؛ لأن تكرار لفظ واحد فى كلام واحد حقيق بالاجتناب فى البلاغة.

﴿ فأخذهم الطوفانُ ﴾؛ طوفان الماء، وهو ما طاف وأحاط، بكثرة وغلبة، من سيلٍ، أو ظلامِ ليلٍ، أو نحوها، ﴿ وهم ظالمون ﴾ أنفسهم بالكفر والشرك، ﴿ فأنجيناه وأصحابَ السفينة ﴾، وكانوا ثمانية وسبعين نفساً، نصفهم ذكور، ونصفهم إناث، أولاد نوح: سام، وحام، ويافث، ونساؤهم، ومَنْ آمَنَ مِنْ غَيْرِهِمْ، ﴿ وجعلناها ﴾ أى: السفينة، أو الحادثة، أو القصة، ﴿ آيةً ﴾؛ عبرة وعظة ﴿ للعالَمين ﴾ يتعظون بها.

الإشارة: كل ما سُلّى به الأنبياء يُسلّى بِهِ الأولياء، فكل من أُوذى فى الله، أو لحقته شدة من شدائد الزمان، فليعتبر بمن سلف قبله من الأكابر، ويتسلى بهم، ولينظر إلى لطف الله وبره وإحسانه، فإن لطفه لا ينفعك عن قدره. قال الشيخ أبو الحسن الشاذلى رضي الله عنه: العارف هو الذى يغرق(٢) إساءته فى إحسان الله إليه، ويغرق(٣) شدائد الزمان فى الألطاف الجارية من الله عليه؛ فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون.

(١) انظر تفسير ابن كثير (٣/٤٠٧). (٢، ٣) فى نسخة (يعرف) والمثبت من النسخة الأم.

ثم ذكر قصة إبراهيم، فقال:

﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾ ﴾

قلت: (إبراهيم): عطف على (نوح)، أو متعلق باذكر، و(وإذ قال): ظرف زمان لأرسلنا، أو: بدل اشتمال من (إبراهيم)؛ إنْ نُصِبَ باذكر؛ لأن الأحيان تشتمل على ما فيها.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وإبراهيم ﴾ أي: وأرسلنا إبراهيم ﴿ إذ قال لقومه ﴾ أي: أرسلناه حين كمل عقله وتم نظره، وبلغ من السن والعلم مبلغاً صلَحَ فيه لأن يعظ قَوْمَهُ، ويأمُرَهُمْ بالعبادة والتقوى. وقرأ النخعي وأبوحنيفة: بالرفع. أي: ومن المرسلين إبراهيم، قال في وعظه: ﴿ اعبدوا الله واتقوه، ذلكم خير لكم ﴾ مما أنتم عليه من الكفر، ﴿ إن كنتم تعلمون ﴾؛ إن كان فيكم علم بما هو خير لكم مما هو شر لكم.

﴿ إنما تعبدون من دون الله أوثاناً ﴾؛ أصناماً ﴿ وتخلقون ﴾: تختلقون وتكذبون، أو تصنعون أصناماً بأيديكم تسمونها آلهة. وقرأ أبو حنيفة والسُّلَمي: «وتَخَلَّقُونَ» بالكسر والشد. من خلَّقَ؛ للمبالغة. ﴿ إفكاً ﴾: وقرئ «أَفِكا» بفتح الهمزة(١)، وهو مصدر، نحو كذب ولعب. واختلاقهم الإفك: تسميتهم الأوثان آلهة وشركاء لله.

﴿ إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقاً ﴾: لا يستطيعون أن يرزقوكم شيئاً من الرزق، ﴿ فابتغوا عند الله الرزقَ ﴾ كلَّه؛ فإنه هو الرزاق وحده، لا يرزق غَيْرُهُ. ﴿ واعبدوه واشكروا له ﴾ أي: متوسلين إلى مطالبكم بعبادته، مقيدين لما خصكم به من النعم بشكره، ﴿ إليه تُرجعون ﴾، فاستعدوا للقائه بعبادته والشكر له على أنعمه، ﴿ وإن تُكذِّبوا ﴾ أي: تكذبوني ﴿ فقد كَذَّبَ أُمَمٌ من قبلكم ﴾ رُسُلَهم، ﴿ وما على الرسول إلا البلاغُ المبين ﴾ الذي يزول معه الشك. والمعنى: وإن تكذبوني فلا تضرونني بتكذيبكم؛ فإن الرسل قبلي قد كذبتهم أممهم، وما ضروهم، وإنما ضروا أنفسهم، حيث حلّ بهم العذابُ. وأما الرسول فقد أدى ما

(١) في الأصول [بفتح الفاء]. وانظر: البحر المحيط (٧/١٤١). فقد قال أبو حيان: «قرأ ابن الزبير وفضيل بن زرقان. (أَفِكا) بفتح الهمزة وكسر الفاء، وهو مصدر مثل الكذب».

عليه حين بلغ البلاغَ المبين، الذى لم يبق معه شك، حيث اقترن بآيات الله ومعجزاته. أو: وإن كنت مُكَذَّباً فيما بينكم، فلى فى سائر الأنبياء أسـوة، حيث كُذِّبوا، وعلى الرسـول أنْ يُبَلِّغَ، وماعليه أن يصدِّق ولا يكذِّب.

وهذه الآية من قوله: ﴿ وإن تكذبوا ﴾ إلى قوله: ﴿ فما كان جواب قومه ﴾: يحتمل أن تكون من جملة قول إبراهيم عليه السلام لقومه، والمراد بالأمم قبله: قوم شيث وإدريس ونوح وغيرهم، وأن تكون من كلام الله فى شأن رسول الله ﷺ، وشأن قريش، مُعْتَرِضَةً بين أول قصة إبراهيم وآخرها. فإن قلت: الجمل الاعتراضية لابد لها من اتصال بما وقعت؛ معترضة فيه، فلا تقول: مكة، وزيد قائم، خير بلاد الله؟ قلت: قد وقع الاتصال، وبيانه: أن إيراد قصة إبراهيم عليه السلام إنما هو تسلية لرسول الله ﷺ بأن أباه إبراهيم كان مبتلى بنحو ما ابتلى به؛ من شرك قومه، وعبادتهم الأوثان، فاعترض بقوله: ﴿ وإن تكذبوا ﴾ يا معشر قريش محمداً، فقد كذب إبراهيمَ قومُه، وكل أمة كذبت نبيها؛ لأن قوله: ﴿ فقد كذّب أمم من قبلكم ﴾ لابد من تناوله لأمة إبراهيم، وهو كما ترى اعتراض متصل، ثم سائر الآيات بعدها من توابعها؛ لكونها ناطقة بالتوحيد ودلائله، وهدم الشرك، وتوهين قواعده، وصفة قدرة الله وسلطانه، ووضوح صحته وبرهانه. قاله النسفى.

قال ابن جزى: ﴿وإن تُكذِّبوا﴾ يحتمل أن يكون وعيداً للكفار وتهديداً لهم، أو يراد به تسلية النبى عن تكذيب قومه، بالتأسى بغيره من الأنبياء الذين كذّبهم قومهم . هـ .

الإشارة: قوله تعالى: ﴿فابتغوا عند الله الرزق﴾: قال سهل رضي الله عنه: معناه: اطلبوا الرزق فى التوكل، لا فى الكسب،؛ فإن طلبه بالكسب سبيل العوام. وقال ابن عطاء الله: اطلبوا الرزق فى الطاعة والإقبال على العبادة. وقال القشيرى: وقدّم ابتغاء الرزق؛ لتوقف القيام بالعبادة عليه، ثم أمر بالشكر على الكفاية.هـ.

ثم أمرهم بالاعتبار، فقال:

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (١٩)
قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى
كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٠) يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ (٢١) وَمَا أَنْتُمْ
بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (٢٢)
وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ
أَلِيمٌ (٢٣) ﴾

قلت : يقال: بدأ الله الخلق، وأبداه: بمعنى واحد، وقد جاءت اللغتان فى هذه السورة. وقوله: (يُعيده): عطف على الجملة، لا على (يبدئ)؛ لأن رؤية البداءة بالمشاهدة بخلاف الإعادة، فإنها تُعْلَمُ بالنظر والاستدلال، وهم لايقرونها؛ لعدم النظر. وقد قيل: إنه يريد إعادة النبات وإبداءه، وعلى هذا تكون (ثم يعيده) : عطفاً على (يبدئ).

يقول الحق جل جلاله : ﴿ أوَ لَم يروا ﴾ أى: كفار قريش ﴿ كيف يُبدئُ اللهُ الخلقَ ﴾ أى: يظهره من العدم، أى: قد رأوا ذلك وعلموه، ﴿ ثم يُعيده ﴾ بالبعث؛ للجزاء بالعذاب والثواب.

قال القشيرى: الذى دَاخَلَهم فيه الشكُّ هو بعث الخَلق، فاحتجَّ عليهم بما أراهم من فصول السنة بعد نقضها، وإعادتها على الوجه الذى كان فى العام الماضى. وكما أن ذلك سائغٌ فى قدرته، كذلك بعثُ الخلق.هـ. ونحوه لابن عطية وغيره. كما هو مشهود فى الثمار، من كونها تبدأ، فتجنى، ثم تفنى، ثم تعيدها مرة أخرى. وكذلك يبدئ خلق الإنسان، ثم يهلكه بعد أن خلق منه ولداً، وخلق من الولد ولداً آخر، وكذا سائر الحيوان. وهذا يرشح صحة عطف «يعيد» على «يبدئ». ﴿ إن ذلك على الله يسيرٌ ﴾ أى: الإعادة بعد الإفناء يسيرة على قدرة الله تعالى.

﴿ قُلْ سيروا في الأرض ﴾ أى: قل يامحمد، وإن كان من كلام إبراهيم فتقديره: وأوحينا إليه أن قل: سيروا فى الأرض، ﴿ فانظروا كيف بدأ الخلقَ ﴾ على كثرتهم، واختلاف أحوالهم وألسنتهم وألوانهم وطبائعهم، وتفاوت هيئاتهم، لتعرفوا عجائب قدرة الله بالمشاهدة، ويقوى إيمانكم بالبعث، وهو قوله: ﴿ ثم الله يُنشئُ النشأةَ الآخرةَ ﴾ أى: البعث، وهذا دليل على أنهما نشأتان: نشأة الاختراع ونشأة الإعادة، غير أن الآخرة إنشاء بعد إنشاء، والأولى ليست كذلك. والقياس أن يقال: كيف بدأ الله الخلق ثم ينشئ النشأة الآخرة، وإنما عدل عنه؛ لأن الكلام معهم وقع فى الإعادة، فلما قررهم فى الإبداء، بإنه من الله، احتج بأن الإعادة إنشاء مثل الإبداء، فإذا لم يعجزه الإبداء وجب ألا يعجزه الإعادة، فكأنه قال: ثم ذلك الذى أنشأ النشأة الأولى هو الذى يُنشئ النشأة الآخرة، فللتنبيه على هذا أبرز اسمه وأوقعه مبتدأ. قاله النسفى.

﴿ إن الله على كل شيءٍ قديرٌ ﴾؛ فلا يعجزه شيء. ﴿ يُعذِّب من يشاء ﴾ بعدله، ﴿ ويرحمُ من يشاء ﴾ بفضله، أو: يُعذب من يشاء بالخذلان، ويرحم بالهداية للإيمان، أو: يُعذب من يشاء بالحرص، ويرحم من يشاء بالقناعة، أو: يُعذب بالتدبير والاختيار، ويرحم بالرضا والتسليم لمجارى الأقدار، أو: يُعذب بالإعراض عنه، ويرحم

بالإقبال عليه، أو: بالاستتار والتجلي، أو: بالقبض والبسط، أو: بالمجاهدة والمشاهدة، إلى غير ذلك. ﴿ وإليه تُقلبون ﴾ ؛ تُردون للحساب والعقاب.

﴿ وما أنتم بمعجزين ﴾ أي: بفائتين ربكم إن هربتم من حكمه وقضائه، ﴿ في الأرض ﴾ الفسيحة، ﴿ ولا في السماء ﴾ التي هي أفسح منها وأبسط، لو كنتم فيها. ﴿ ومالكم من دون الله من وليٍّ ﴾ يتولى أموركم، ﴿ ولا نصيرٍ ﴾ ؛ ولا ناصر يمنعكم من عذابه. ﴿ والذين كفروا بآيات الله ﴾ ؛ بدلائله على وحدانيته، أو كتبه، أو معجزاته، ﴿ ولقائه ﴾ ؛ وكفروا بلقائه، ﴿ أولئك يئسوا من رحمتي ﴾ ؛ جنتي، ﴿ وأولئك لهم عذابٌ أليم ﴾ موجع. وبالله التوفيق.

الإشارة: أوَ لَمْ ير أهل فكرة الاستبصار كيف يظهر الحقُّ تجلياته من عالم الغيب إلى عالم الشهادة، ثم يبطنها، فيردها لأصلها من اللطافة، ثم ينشئها النشأة الثانية، تكون معانيها أظهر من حسها، وقدرتُها أظهر من حكمتها، فليس عند أهل التوحيد الخاص شيء يفنى، وإنما يُبطن ما ظهر، ويُظهر ما بطن، ولا زائد على أسرار الذات وأنوار الصفات. وهذا أمر لايدركه إلا أفراد الرجال بصحبة أكابر الرجال، وهو لُب العلم، وخالصة طريقة ذكر الله، والتفرغ عن كل ما يشغل عن الله، بعد قتل النفوس وحط الرؤوس وبذل الفلوس. وبالله التوفيق.

ثم ذكر جواب قوم إبراهيم، فقال:

﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَـٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾

قلت: ﴿مودَّةَ بينكم﴾: مَنْ نَصبَهَا: فله وجهان؛ أحدهما: على التعليل، أي: لتوادوا بينكم، والمفعول الثاني محذوف، أي: اتخذتم أوثاناً آلهة. والثاني: على المفعول الثاني لاتخذتم، كقوله: ﴿ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ ﴾[1]. و(ما): كافة، أي: اتخذتم الأوثان سَبَبَ المودّة، على حَذْفِ مضاف، أو: اتخذتموها مَوْدُودةً بينكم. و(بينكم): نصب على

(١) من الآية ٤٣ من سورة الفرقان.

الظرفية؛ نعت لمودة، أي: حاصلة بينكم. ومن رفع: فله وجهان؛ إما خبر إن، و(ما) موصولة، أو: عن مبتدأ محذوف، أي: هي مودة بينكم، و(بينكم): مضاف إليه ما قبله.

يقول الحق جل جلاله: ﴿فما كان جوابَ قومه﴾؛ قوم إبراهيم حين دعاهم إلى الله ﴿إلا أن قالوا اقتلوه أو حرِّقوه﴾، قاله بعضهم لبعض، أو: قاله واحد منهم، وكان الباقون راضين، فكانوا جميعاً في حكم القائلين. فاتفقوا على تحريقه، ﴿فأنجاه الله من النار﴾ حين قذفوه فيها؛ بأن جعلها برداً وسلاماً. وتقدم في الأنبياء تمام القصة.

﴿إن في ذلك﴾؛ فيما فعلوه به وفعلناه ﴿لآيات﴾ دالةً على عظم قدرته ﴿لقوم يؤمنون﴾؛ لأنهم المنتفعون بالفحص عنها والتأمل فيها. رُوي أنه لم ينتفع بها في تلك الأيام أحد لذهاب حرها؛ لأن كل نار سمعت الخطاب فامتثلت.

﴿وقال﴾ إبراهيمُ لقومه: ﴿إنما اتخذتم من دون الله أوثاناً﴾؛ أصناماً آلهة ﴿مودَّةَ بينكم في الحياة الدنيا﴾ أي: لتوادوا بينكم في الحياة الدنيا، وتواصلوا؛ لاجتماعكم على عبادتها، واتفاقكم عليها، كما تتفق الناس على مذهب أو طريق، فيكون ذلك سبب تحابهم. أو: إنما اتخذتم الأوثان سبب المودة، أو اتخذتموها مودودة ومحبوبة بينكم، أو: إن التي اتخذتموها أوثاناً تعبدونها هي مودة بينكم في الدنيا، ﴿ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض﴾ أي: تتبرأ الأصنام من عابديها؛ كقوله: ﴿يَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾(١)، أو: ينكر بعضكم بعضاً، ويقع بينكم التباغض؛ كقوله: ﴿الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾(٢). ﴿ويلعن بعضكم بعضاً﴾، فتلعن الأتباعُ الرؤساء؛ ﴿ومأواكم النار﴾ أي: مأوى العابد والمعبود والتابع والمتبوع. ﴿ومالكم من ناصرين﴾ يحصنونكم منها.

الإشارة: الإنكار على أهل الخصوصية سنَّة الله في خلقه، فلا يأنف منها إلا جاهل، والاجتماع على التودد على غير ذكر الله ومحبته وما يقرب إليه، كله يؤدي إلى التباغض والتلاعن يوم القيامة؛ ﴿الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين﴾، وهم المتحابون في الله، المجتمعون على ذكر الله والعلم به. والله تعالى أعلم.

﴿ ۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾

(١) من الآية ٨٢ من سورة مريم.
(٢) الآية ٦٧ من سورة الزخرف.

يقول الحق جل جلاله : ﴿ فآمن ﴾ لإبراهيم، أى: انقاد ﴿ له لوطٌ ﴾ ، وكان ابنَ أخيه، وأول من آمن به حين رأى النار لم تحرقه. ﴿ وقال ﴾ إبراهيم: ﴿ إني مهاجرٌ إلى ربي ﴾ ؛ إلى حيث أمرنى ربى بالهجرة، وهو الشام، فخرج من «كوثى»، وهى من سواد الكوفة، إلى حرّان، ثم منها إلى فلسطين(١)، وهى من برية الشام، ونزل لوط بسدوم، ومِنْ ثَمَّ قالوا : لكل نبى هجرة، ولإبراهيم هجرتان. وكان معه، فى هجرته، لوط وسارة زوجته.

وقيل: القائل: ﴿ إني مهاجرٌ إلى ربي ﴾ هو لوط، فأول من هاجر من الأنبياء إبراهيم ولوط. وذكر البيهقى: أن أول من هاجر منا فى الإسلام بأهله: عثمان. ورفع الحديث إلى رسول الله ﷺ، وأنه قال: إن عثمان لأول من هاجر بأهله بعد لوط.هـ. يعنى: الهجرة إلى الحبشة. وكانت ـ فيما ذكر الواقدى ـ سنة خمس من البعثة، وأما الهجرة إلى المدينة؛ ففى البخارى عن البراء: أولُ من قَدِمَ المدينة من الصحابة؛ مهاجراً، مُصعبُ بن عُمير، وابن أم مكتومٍ، ثم جاء عمّارُ، وبلال، وسعد، ثم جاء عمر بن الخطاب فى عشرين، ثم جاء النبى ﷺ(٢)».

﴿ إنه هو العزيزُ ﴾ الذى يمنعنى من أعدائى، ﴿ الحكيمُ ﴾ الذى لا يأمرنى إلا بما هو خير لى.

﴿ ووهبنا له إسحاقَ ﴾ ولداً، ﴿ ويعقوبَ ﴾ ولَدَ ولَدٍ، ولم يذكر إسماعيل؛ لشهرته، أو: لأن إسحاق ولد بعد اليأس من عجوز عاقر، فَعَظُمَتْ المِنّة به. ﴿ وجعلنا في ذريته النبوةَ ﴾ أى: فى ذرية إبراهيم، فإنه شجرة الأنبياء، ﴿ والكتابَ ﴾ يريد به الجنسَ؛ ليتناول التوراة والإنجيل والزبور والفرقان. ﴿ وآتيناه أجْرَه في الدنيا ﴾ أى: الثناء الحسن، والصلاة عليه آخر الدهر، ومحبة أهل الملل له، أو: هو بقاء ضيافته عند قبره، وليس ذلك لغيره، أو: المال الحلال، واللفظ عام. وفيه دليل على أن الله تعالى قد يعجل لأوليائه بعض الأجر فى الدنيا، ولا يخل بعلو منصبهم. ﴿ وإنه في الآخرة لمن الصالحين ﴾ لحضرتنا، والسكنى فى جوارنا. أسكننا الله معهم فى فسيح الجنان. آمين.

الإشارة: الهجرة سُنّة الخواص، وهى على قسمين: هجرة حسية، وهجرة معنوية، فالحسية هى هجرة العبد من وطن تكثر فيه الغفلة والعوائق عن الله، أو الإذاية والإنكار، إلى وطن يجد فيه اليقظة وقلة العوائق. والهجرة المعنوية: هى هجرة القلب من وطن المعصية إلى وطن التوبة، ومن وطن الغفلة إلى وطن اليقظة، ومن وطن الحرص إلى وطن الزهد والقناعة، ومن وطن الحظوظ والشهوات إلى وطن العفة والحرية، ومن وطن الشواغل إلى وطن التفرغ، ومن وطن رؤية الحس إلى رؤية المعانى، وهذه نهاية الهجرة.

---

(١) انظر تفسير البغوى (٦/٢٣٨).
(٢) أخرجه البخارى فى (مناقب الأنصار، باب مقدم النبى ﷺ وأصحابه المدينة، ح٣٩٢٥) من حديث البراء بن عازب ـ رضي الله عنه.

قال القشيري: لا تَصحُّ الهجرةُ إلى الله إلا بالتبرِّي بالقلب عن غير الله، والهجرةُ بالنفس يسيرةٌ بالنسبة إلى الهجرة بالقلب، وهي هجرة الخواص، وهي الهجرة عن أوطان التفرقة إلى ساحة الجمع، والجمعُ بين التعريج في أوطان التفرقة والكونِ في مشاهدة الجمع متنافٍ.هـ. وقال في قوله تعالى: ﴿وإنه في الآخرة لمن الصالحين﴾ أي: للدنوّ والقربة والتخصيص بالزلفة.هـ.

ثم ذكر قصة لوط، فقال:

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَـٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓا۟ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَـٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿و﴾ اذكر ﴿لوطاً إذْ قال لقومه إنكم لتأتون الفاحشةَ﴾ أي: الفعلة البالغة في القُبح، وهي اللواطة، ﴿ما سبَقكم بها من أحدٍ من العالمين﴾: جملة مستأنفة مقررة لفحش تلك الفعلة، كأن قائلا قال: لِمَ كانت فاحشة؟ فقال: لأن أحداً ممن قبلهم لم يقدم عليها، قالوا: لم ينْزُ ذكر على ذكر قبل قوم لوط. ﴿أئنكم لتأتون الرجالَ وتقطعون السبيلَ﴾ أي: تتعرضون للسابلة بالقتل وأخذ المال، كما هو شأن قُطاع الطريق، وقيل: اعتراضهم السابلة لقصد الفاحشة، ﴿وتأتون في ناديكم﴾؛ في مجالسكم الغاصة بأهلها، ولا يقال

للمجلس: ناد، إلا مادام فيه أهله، ﴿المنكرَ﴾؛ فعلهم الفاحشة بالرجال، أو: المضارطة، أو: السباب والفحش في المزاح، أو: الحذف بالحصى، أو: مضغ العلك، أو الفرقعة.

وعن أم هانئ - رضي الله عنها - أنها سألت النبي ﷺ عن قوله: ﴿وتأتون في ناديكم المنكر﴾؟ فقال: «كانوا يحذفون من يمرّ بهم الطريق، ويسخرون منهم»(١). وقال معاوية: قال النبي ﷺ: «إن قوم لوط كانوا يجلسون في مجالسهم، وعند كل رجل قصعة من الحصى، فإذا مر بهم عابر قذفوه، فأيهم أصابه؛ كان أَوْلَى به»(٢).

﴿فما كان جوابَ قومه إلا أن قالوا ائتنا بعذابِ الله إن كنت من الصادقين﴾ فيما تعدنا من نزول العذاب، أو في دعوى النبوة، المفهومة من التوبيخ، ﴿قال ربِّ انصرني﴾ بإنزال العذاب ﴿على القوم المفسدين﴾ بابتداع الفاحشة وحمل الناس عليها، وسنّها لِمَنْ بعدهم. وصفهم بذلك؛ مبالغة في استنزال العذاب، وإشعاراً بأنهم أحِقاء بأن يعجل لهم العذاب.

﴿ولما جاءت رسلُنا إبراهيمَ بالبشرى﴾، جاءت الملائكة بالبشارة لإبراهيم؛ بالولد، والنافلة إسحاق، ويعقوب، أي: مروا عليه، حين كانوا قاصدين قوم لوط، ﴿قالوا إنا مهلكوا أَهْلِ هذه القرية﴾؛ سدوم، والإشارة بهذه القرية تشعر بأنها قريبة من موضع إبراهيم عليه السلام، قالوا: إنها كانت على مسيرة يوم وليلة من موضع إبراهيم، قاله النسفي. ﴿إن أهلها كانوا ظالمين﴾، تعليل للإهلاك، أي: إن الظلم قد استمر منهم في الأيام السالفة، وهم عليه مُصِرُّونَ، وهو كفرهم وأنواع معاصيهم. ﴿قال﴾ إبراهيم: ﴿إن فيها لوطاً﴾ أي: أتهلكونهم وفيهم من هو بريء من الظلم، أو: وفيهم نبي بين أظهرهم؟ ﴿قالوا﴾ أي: الملائكة: ﴿نحن أعلمُ﴾ منك ﴿بمن فيها، لننجينَّه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين﴾؛ الباقين في العذاب.

ثم أخبر عن مسير الملائكة إلى لوط بعد مفارقتهم إبراهيم، فقال: ﴿ولما أن جاءتْ رُسُلُنَا لوطاً سِيءَ بهم﴾ أي: ساءه مجيئُهم وغمه، مخافة أن يقصدهم قومه بسوء. و«أن»: صلة؛ لتأكيد الفعلين، وترتيب أحدهما على الآخر، كأنهما وُجِدَا في جزء واحد من الزمان، كأنه قيل: لمَّا أحس بمجيئهم فاجأته المساءة من غير ترتيب. ﴿وضاق بهم ذَرْعاً﴾ أي: ضاق بشأنهم وتدبير أمرهم ذرعُه وطاقته، وقد جعلوا ضيقَ الذرعِ والذراع عبارةً عن

(١) أخرجه أحمد في المسند (٦/٣٤١)، والترمذي وحَسَّنَه في (التفسير، سورة العنكبوت، ٥/٣١٩، ح ٣١٩٠)، وصححه الحاكم (٢/٤٠٩)، ووافقه الذهبي. وأخرجه الطبري (٢٠/١٤٥)، والبغوي في التفسير (٦/٢٣٩).
(٢) انظر تفسير البغوي (٦/٢٤٠).

فقد الطاقة، كما قالوا: رحْب الذراع، إذا كان مُطيقاً للأمور، والأصل فيه: أن الرجل إذا طالت ذراعه نال ما لا يناله القصير، فاستعير للطاقة والقوة وعدمها.

﴿ وقالوا ﴾، لمّا رأوا فيه أثر الضجر والخوف: ﴿ لا تخفْ ولا تحزنْ ﴾ على تمكنهم منا، ﴿ إنا منجُوكَ وأهلَكَ ﴾ أي: وننجي أهلك، فالكاف في محل الجر، و«أهلك»: نصب بفعل محذوف، ﴿ إلا امرأتكَ كانت من الغابرين ﴾. في الكلام حذف يدل عليه ما في هود(١)، أي: لاتخف ولا تحزن من أجلنا، إنهم لن يصلوا إليك ونحن عندك، بل يهلكون جميعاً، وأما أنت؛ فإنا منجوك..إلخ؛ لأن خوفه إنما كان عليهم لا على نفسه. أو يقدر: إنا منجوك وأهلك بعد هلاكهم. ثم قالوا: ﴿ إنا منزلون على أهلِ هذه القرية رِجْزاً ﴾؛ عذاباً ﴿ من السماء بما كانوا يَفْسُقُون ﴾؛ بسبب فسقهم.

﴿ ولقد تركنا منها ﴾؛ من القرية ﴿ آية بينةً ﴾، هي حكايتها الشائعة، أو آثار منازلهم الخربة، وقيل: الماء الأسود على وجه الأرض، حيث بقيت أنهارهم مسودة، وقيل: الحجارة المسطورة، فإنها بقيت بعدهم آية ﴿ لقومٍ يعقلون ﴾؛ يستعملون عقولهم في الاعتبار والاستبصار. والله تعالى أعلم.

الإشارة: قوله تعالى: ﴿ وتأتون في ناديكم المنكر ﴾ قال القشيري: من جملة المنكر: تخلية الفُسّاق مع فسقهم، وترك القبض على أيديهم، ومن ذلك: ترك الاحتشام للشيوخ والأكابر.هـ. وقال في قوله تعالى: ﴿ إن فيها لوطاً ﴾، لما أخبروه بمقصدهم من إهلاك قوم لوط، تكلم في شأن لوط، إلى أن قالوا: ﴿لننجينه..﴾ الخ، فدلّ ذلك على أن الله تعالى لو أراد إهلاك لوط، ولو كان بريئاً، لم يكن ظلماً، لو كان ذلك قبيحاً لما كان إبراهيم ـ مع وفْر علمه ـ يُشكل عليه، حتى كان يجادل عنه، بل لله أن يعذِّبُ مَنْ يعذِّب ويعافي، من يعافي بلا حَجر هـ.

قال شيخ شيوخنا الفاسي في حاشيته: وما ذكره واضح من حيث العقيدة، وإن كانت الآية، وقولُ إبراهيم يحتمل أن يكون من نوع قوله تعالى: ﴿ وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم ﴾(٢). والمعنى الأول معلوم من قوله تعالى: ﴿ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ ﴾(٣) الآية.هـ. **قلت:** ظاهر قوله تعالى: ﴿ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴾(٤)؛ أن مجادلته كانت عن قومه فقط؛ لغلبة الشفقة عليه، كما هو شأنه، ولذلك

---

(١) في قوله تعالى: ﴿قالوا يا لوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك..﴾ الآية ٨١.
(٢) من الآية ٣٣ من سورة الأنفال. (٣) الآية ١٧ من سورة المائدة. (٤) من الآية ٧٤ من سورة هود

قال تعالى: ﴿ إن إبراهيم لحليم أواه منيب ﴾ ... حتى قال له تعالى: ﴿ يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا ﴾(١) لمَّا تحتَّم عليهم العذاب، فتأمله.

ثم ذكر قصة شعيب، فقال

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ و ﴾ أرسلنا ﴿ إلى مدينَ أخاهم شعيباً، فقال يا قوم اعبدوا الله ﴾ وحده، ﴿ وارجو اليومَ الآخر ﴾ أي: خافوه، واعملوا ما ترجون به الثواب فيه، ﴿ ولا تعثوا في الأرض مفسدين ﴾؛ قاصدين الفساد، ﴿ فكذّبوه فأخذتهم الرجفةُ ﴾؛ الزلزلة الشديدة، أو: الصيحة من جبريل عليه السلام؛ لأن القلوب رجفت بها، ﴿ فأصبحوا في دارهم ﴾؛ بلدهم وأرضهم، ﴿ جاثمين ﴾؛ باركين على الرُّكب؛ ميتين.

الإشارة: العبادة مع الغفلة عن العواقب الغيبية المستقبلة، لا جدوى لها، كأنها عادة، وخوف العواقب، من غير استعداد لها، خذلان، والاجتهاد في العمل، مع ارتقاب العواقب الغيبية، فلاح، من شأن أهل البصائر، كما قال تعالى في حق من مدحهم من أكابر الرسل: ﴿ أُوْلِي الأَيْدِي وَالأَبْصَارِ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ﴾(٢).

ثم ذكر قوم هود وصالح وموسى - عليهم السلام - فقال:

﴿ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَٰتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ

(١) الآيتان: ٧٥ - ٧٦ من سورة هود. (٢) الآيتان: ٤٥ - ٤٦ من سورة «ص».

﴿وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٠)﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿وعاداً وثموداً﴾ أي: اذكر عاداً وثموداً، أو أهلكنا عاداً، وثموداً، يدل عليه ﴿فأخذتهم الرجفة﴾؛ لأنه في معنى الإهلاك، ﴿وقد تبيَّنَ لكم﴾ ما وصفنا من إهلاكهم ﴿من مساكنهم﴾ الدارسة. أو تبين لكم بعض مساكنهم الخربة إذا مررتم بها خالية. ﴿وزيَّنَ لهم الشيطانُ أعمالهم﴾ من الكفر والمعاصي، ﴿فصدَّهم عن السبيل﴾؛ عن الطريق الذي أُمروا بسلوكه، وهو الإيمان بالله ورسوله. ﴿وكانوا مستبصرين﴾؛ متمكنين من النظر والاستبصار وتمييز الحق من الباطل، ولكنهم لم يفعلوا. أو عارفين الحق من الباطل؛ بظهور دلائله، لكنهم عاندوا، حسداً. يقال: استبصر: إذا عرف الشيء على حقيقته. أو: متيقنين أن العذاب لاحق بهم؛ بإخبار الرسول، لكنهم لجّوا. أو: مستبصرين في ضلالتهم معجبين بها.

وقال الفراء: عقلاء ذوو بصائر، يعني: علماء في أمور الدنيا، كقوله: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا...﴾(١) الآية. وقال مجاهد: حسبوا أنهم على الحق، وهم على الباطل. هـ.

﴿وقارونَ وفرعونَ وهامان﴾، أي: أهلكناهم، ﴿ولقد جاءهم موسى بالبينات فاستكبروا في الأرض وما كانوا سابقين﴾؛ فائتين، بل أدركهم أمر الله فلم يفوتوه. يقال: سبق طالبه: فاته، ﴿فكُلاًّ أخذنا﴾؛ عاقبناه ﴿بذنبه﴾، فيه رد على من يُجوز العقوبة بغير ذنب. قاله النسفي، وهو جائز عقلاً في حقه تعالى، لكنه لم يقع؛ لإظهار عدله. ﴿فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً﴾ أي: ريحاً عاصفة فيها حصباء أو: ملَكاً رماهم بها.

قال ابن جزي: فيحتمل عندي أنه أراد به المعنيين؛ لأن قوم لوط هلكوا بالحجارة، وعاداً هلكوا بالريح. وإن حملناه على المعنى الواحد؛ نقض ذكر الآخر، وقد أجاز كثير من الناس استعمال اللفظ الواحد؛ في معنيين، ويقوى ذلك أن المقصود عموم أصناف الكفار. هـ.

﴿ومنهم من أخذته الصيحةُ﴾؛ كمدين وثمود، ﴿ومنهم من خسفنا به الأرضَ﴾ كقارون، ﴿ومنهم من أغرقنا﴾؛ كقوم نوح، وفرعون وقومه، ﴿وما كان الله ليظلمهم﴾ فيعاقبهم بغير ذنب؛ إذ ليس ذلك من عادته ـ عز وجل ـ، وإن جاز في حقه، ﴿ولكن كانوا أنفسَهم يَظْلِمُون﴾؛ بالتعرض للعذاب بالكفر والطغيان، وبالله التوفيق.

---

(١) الآية ٧ من سورة الروم.

الإشارة: الاستبصار فى أمور الدنيا، والتحديق فى تدبير شؤونها، حمق وبطالة(١)، وقد وسم به الحق تعالى الكفرة بقوله: ﴿ وكانوا مستبصرين ﴾، والاستبصار فى أمور الله تعالى وما يقرب إليه وما يبعد عنه، والفحص عن ذلك، والتفكر فى عواقب الأمور؛ من شأن العقلاء الأكياس، قال ﷺ «ألا وإن من علامات العقل: التجافى عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود، والتزود لسكنى القبور، والتأهب ليوم النشور»، وقال أيضا ﷺ: «الكَيِّسُ من دانَ نَفْسَه وعَمِلَ لِما بعدَ الموت، والأحمق من أتْبَعَ نفسه هواها، وتمنّى على اللهِ الأمانى»(٢)، وقيل للجنيد رضي الله عنه: متى يكون الرجل موصوفا بالعقل؟ فقال: إذا كان للأمور متميزاً، ولها متصفحاً، وعما يوجبه عليه العقل باحثًا، فيتخيرُ بذلك طلب الذى هو أولى؛ ليعمل به، ويُؤْثِرَه على ما سواه. ثم قال: فمن كانت هذه صفته ترك العمل بما يفنى وينقضى، وذلك صفة كل ما حوت عليه الدنيا، وكذلك لا يرضى أن يشغل نفسه بقليل زائل، ويسير حائل، يصده التشاغلُ به، والعملُ له، عن أمور الآخرة، التى يدوم نعيمها ونفعها، ويتأبد سرورها، ويتصل بقاؤها.. الخ كلامه.

وقد ضرب الله مثلاً لمن ركن إلى غير الله، فقال:

﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًاۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِۖ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾

---

(١) الاستبصار فى أمور الدنيا فرض لازم للأمة.. ينبغى أن تتعاون الأمة لإقامته فى كل أمر من أمور الدنيا، وشأن من شئونها، وعلى العاقل ـ ما لم يكن مغلوباً على عقله ـ أن يكون بصيراً بزمانه، مقبلاً على شأنه.

(٢) أخرجه بنحوه الترمذى وحسّنه فى (صفة القيامة والرقائق، باب ٢٥ ح٢/١٤٢٣ ح٤٢٦٠)، وابن ماجة فى (الزهد، باب ذكر الموت والاستعداد له، ٢/١٤٢٣ ح٤٢٦٠) من حديث شداد بن أوس.

يقول الحق جل جلاله: ﴿مَثَلُ الذين اتخذوا من دون الله أولياءَ﴾؛ أصناماً يعبدونها، أي: مَثَلُ من أشرك بالله الأوثان؛ في الضعف، وسوء الاختيار، ﴿كَمَثَل العنكبوتِ اتخذت بيتاً﴾، أي: كمثل العنكبوت فيما تتخذه لنفسها من بيت؛ فإنه لا يدفع الحر والبرد، ولا يقي ما تقي البيوت، فكذلك الأوثان، لا تنفعهم في الدنيا والآخرة، بل هي أوْهَى وأضعف، فإن لبيت العنكبوت حقيقةً وانتفاعاً عاماً، وأما الأوثان فتضر ولا تنفع، ﴿وإنَّ أوْهَنَ البيوتِ﴾ أي: أضعفها ﴿لبيتُ العنكبوت﴾؛ لا بَيْتَ أوهن من بيته؛ إذْ أضعف شيء يسقطها. عن عليّ رضي الله عنه: «طهروا بيوتكم من نسج العنكبوت، فإن تركه يُورث الفقر».

والعنكبوت يقع على الواحد والجمع، والمذكر والمؤنث، ويجمع على عناكيب وعناكب وعِكاب وعِكَبَة وأعكُب. ﴿لو كانوا يعلمون﴾ لعلموا أن هذا مثلُهم، وأنَّ ما تمسكوا به من الدين أرق من بيت العنكبوت. وقال الزجاج: تقدير الآية: مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء، لو كانوا يعلمون، كمثل العنكبوت. وقيل: معنى الآية: مَثَلُ المشركِ يعبد الوثن، بالقياس إلى المؤمن الذي يعبد الله، مثل عنكبوت تتخذ بيتاً بالإضافة إلى رجل بنى بيتاً بآجُرٍّ وجص، أو جص وصخور، فكما أن أوهن البيوت، إذا استقرأتَهَا بيتاً بيتاً، بيت العنكبوت، كذلك أضعف الأديان، إذا تتبعتها ديناً ديناً، عبادةُ الأوثان.

وقال الضحاك: ضرب مثلاً لضعف آلهتهم ووهنها، فلو علموا أن عبادة الأوثان، في عدم الغنى، كما ذكرنا في المثل، لَمَا عبدوها، ولكنهم لا يعلمون، بل الله يعلم ضَعفَ ما تعبدون من دونه وعجزه، ولذلك قال: ﴿إن الله يعلم ماتدعون(١) من دونه من شيء﴾، أي: يعلم حاله، وصفته، وحقيقته، وعدم صلاحيته لِمَا تؤملونه منه، فما: موصولة، مفعول «يعلم»، وهي تامة، أي: يتعلق علمه بجميع ما يعبدونه من دونه، أيّ شيء كان. أو ناقصة، والثاني محذوف، أي: يعلمه وهياً وباطلا. وقيل: استفهامية معلقة، وأما كونها نافية فضعيف، و«من»، الثانية؛ للبيان، ومن قرأ بالخطاب؛ فعلى حذف القول، أي: ويقال للكفرة: إن الله يعلم ما تعبدونه من دونه من جميع الأشياء، أو: أيّ شيء كان.

﴿وهو العزيزُ﴾ الغالب الذي لا شريك له، ﴿الحكيمُ﴾ في ترك المعاجلة بالعقوبة، وفيه تجهيل لهم، حيث عبدوا جماداً لا علم له ولا قدرة، وتركوا عبادة القادر القاهر على كل شيء، الحكيم الذي لا يفعل إلا لحكمة وتدبير.

﴿وتلك الأمثالُ﴾ الغريبة، أي: هذا المثل ونظائره ﴿نضربها للناس﴾؛ نُبيّنُهَا لهم؛ تقريباً لما بَعُدَ عن أفهامهم. كان سفهاء قريش وجهلتُهم يقولون: إن رب محمد يضرب المثل بالذباب والعنكبوت، ويضحكون من

(١) قرأ أبو عمرو وعاصم ويعقوب: «يدعون» بياء الغيب. وقرأ الباقون بالخطاب. انظر: الإتحاف ٢/ ٣٥١.

ذلك، فلذلك قال تعالى: ﴿ وما يعقلها إلا العالِمون ﴾، أي: بالله وصفاته وأسمائه، وبمواقع كلامه وحِكَمه، أي: لايعقل صحتها وحُسنها، ولا يفهم حكمتها، إلا هم؛ لأن الأمثال والتشبيهات إنما هى طرق إلى المعانى المستورة، حتى يبرزها ويصورها للأفهام، كما صور هذا التشبيه الذى بيّن فيه حال المشرك وحال المؤمن. وعن النبى ﷺ أنه تلا هذه الآية، وقال: «العالِم: مَنْ عقل عن الله، فعمل بطاعته، واجتنب سخطه»(١)، ودَلَّتْ هذه الآية على فضل العلم وأهله.

﴿ خلقَ اللهُ السمواتِ والأرضَ بالحق ﴾ أى: محقاً، لم يخلقها عبثاً، كما لم يضرب الأمثال عبثاً، بل خلقها لحكمة، وهى أن تكون مساكن عباده، وعبرة للمعتبرين منهم، ودلائل على عظم قدرته، بدليل قوله: ﴿ إن في ذلك لآيةً للمؤمنين ﴾؛ لأنهم هم المنتفعون بها. وقيل: بالحق: العدل، وقيل: بكلامه وقدرته، وذلك هو الحق الذى خلق به الأشياء. وخص السموات والأرض؛ لأنها المشهودات. والله تعالى أعلم.

الإشارة: من اعتمد على غير الله، أو مال بالمحبة إلى شىء سواه، كان كمن اعتمد على خيط العنكبوت، فعن قريب يذهب ويفوت، يامن تعلق بمن يموت؛ قد تَمَسَّكْتَ بأضعف من خيط العنكبوت.

تنبيه: الأشياء الحسية جعل الله فيها القوى والضعيف، والعزيز والذليل، والفقير والغنى؛ لحِكمة، وأما أسرار المعانى القائمة بها؛ فكلها قوية عزيزة غنية، فالأشياء، بهذا الاعتبار ـ أعنى: النظر لحسها ومعناها ـ كلها قوية فى ضعفها، عزيزة فى ذلها، غنية فى فقرها. ولذلك تجد الحق تعالى يدفع بأضعف شىء أقوى شىء، وينصر بأذل شىء على أقوى شىء. رُوى أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿وإن أوهَن البيوت لبيتُ العنكبوت﴾؛ شكى العنكبوتُ إلى الله تعالى، وقال: ربِّ خلقتنى ضعيفاً، ووصفتنى بالإهانة والضعف، فأوحى الله تعالى إليه: انكسر قلبك من قولنا، ونحن عند المنكسرة قلوبهم من أجلنا، وقد صددنا بنسجك الضعيف صناديد قريش، وأغنينا محمداً عن كل ركن كثيف، فقال: يارب حسبى أن خلقت فى ذلى عزتى، وفى إهانتى قوتى. هـ. ذكره فى اللباب.

ثم أمره بالاشتغال بالتلاوة والصلاة؛ تسليةً وغيبة عمن آذاه، فقال:

﴿ ٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَصۡنَعُونَ ٤٥ ﴾

---

(١) قال المناوى فى الفتح السماوى (٢/٨٩٦): «رواه داود بن المحبر فى كتاب العقل، ومن طريقه الحارث بن أبى أسامة فى مسنده، والثعلبى، والواحدى، والبغوى ـ فى التفسير (٦/٢٤٣) ـ من حديث جابر. وأورده ابن الجوزى فى الموضوعات، وكتاب العقل، لداود، كله موضوع، وانظر أيضاً: تنزيه الشريعة، لابن عراق (١/٢١٤).

يقول الحق جل جلاله: ﴿اتْلُ ما أُوحي إليك من الكتابِ﴾؛ تَنَعُّماً بشهود أسرار معانيه، وبشهود المتكلم به، فتغيب عن كل ما سواه، واستكشافاً لحقائقه، فإن القارئ المتأمل قد ينكشف له بالتكرار مالم ينكشف له أول ما قرع سمعه. وقد كان من السلف من يبقى في السورة يكررها أياماً، وفي الآية يرددها ليلة وأكثر، كلما رددها ظهر له معان أُخر.

﴿وأَقِمِ الصلاةَ﴾ أي: دم على إقامتها، بإتقانها؛ فعلاً وحضوراً وخشوعاً، ﴿إن الصلاةَ تنهى عن الفحشاء﴾؛ الفعلة القبيحة؛ كالزنى، والشرب، ونحوهما، ﴿والمنكرِ﴾، وهو ما يُنكره الشرع والعقل. ولا شك أن الصلاة، إذا صحبها الخشوع والهيبة في الباطن، والإتقان في الظاهر، نهت صاحبها عن المنكر، لا محالة، وإلا فلا.

رُوي أن فتىً من الأنصار كان يُصلي مع رسول الله الصلوات، ولا يدع شيئاً من الفواحش إلا ركبه، فَوُصِفَ حَالُهُ له ﷺ فقال: «إن صلاته تنهاه». فلم يلبث أن تاب. هـ(١).

وأما من كان يصليها فلم تنهه؛ فهو دليل عدم قبولها، ففي الحديث: «من لَمْ تَنْهَهُ صَلاَتُهُ عن الفحشاء والمنكر لم يَزْدَدْ من الله إلا بُعْداً»(٢) رواه الطبراني. وقال الحسن: من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر فليست بصلاة، وهي وبال عليه. وقال ابن عوف: إن الصلاة تنهى؛ إذا كنت فيها فأنت في معروف وطاعة، وقد حجزتك عن الفحشاء والمنكر. هـ. فخص النهي بكونه مادام فيها، وعليه حمله المحلِّي.

قال المحشي: يعني: أن مِنْ شأنها ذلك، وإن لم يحصل ذلك فلا تخرج عن كونها صلاة، كما أن من شأن الإيمان التوكل، وإن قدر أن أحداً من المؤمنين لا يتوكل؛ فلا يخرج ذلك عن الإيمان. وقيل: الصلاة الحقيقية: ما تكون لصاحبها ناهيةً عن ذلك، وإن لم ينته فالصلاةُ ناهيةٌ على معنى: ورود الزواجر على قلبه، ولكنه أصر ولم يطع. [ويقال: بل الصلاة الحقيقية ما تنهى صاحبها عن الفحشاء والمنكر، فإن كان](٣)، وإلا فصورة الصلاة، لا حقيقتها. انظر القشيري.

---

(١) قال الحافظ ابن حجر في الكافي الشاف (ص ١٢٨): «لم أجده»، وأخرج الإمام أحمد في المسند (٢/٤٤٧)، والبزار (كشف الأستار ١/٣٤٦) عن أبي هريرة: (جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: إن فلاناً يصلي بالليل، فإذا أصبح سرق، فقال: «إن صلاته ستنهاه».

(١) أخرجه الطبري في التفسير (٢٠/١٥٥) عن ابن عباس وابن مسعود موقوفاً، وعزاه في الدر المنثور (٥/٢٧٩) للطبراني، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس مرفوعاً. وانظر: الكافي الشاف (ص ١٢٧).

(٢) المثبت بين المعكوفتين من لطائف الإشارات للقشيري (٣/٩٩). وهو ضروري.

وقال ابن عطية: إذا وَقَعَتْ على ما ينبغي؛ من الخشوع، والإخبات لذكر عظمة الله، والوقوف بين يديه، انتهى عن الفحشاء والمنكر، وأما مَنْ كانت صلاته لا ذكر فيها ولا خشوع، فتلك تترك صاحبها بمنزلته حيث كان .هـ.

فائدة: ذكر في اللباب أن أول من صلى الصبح آدم عليه السلام، لأنه لم يكن رأى ظلمة قط، فلما نزل، وجنّه الليل خرّ مغشياً، فلما أصبح ورأى النور صلى ركعتين، شكراً. وأول من صلى الظهر إبراهيم، لما فدى ولده، وقد كان نزل به أربعة أهوال، هم الذبح، وهم الولد، وهم والدته، وهم مرضاة الرب، فصلى أربع ركعات؛ شكراً لله تعالى. وأول من صلى العصر سليمان عليه السلام، لما رد الله عليه ملكه. وأول من صلى المغرب عيسى عليه السلام، كفارة عما اعتقد فيه من أنه ثالث ثلاثة. وأول من صلى العشاء يونس عليه السلام، ولعله هذا الوقت الذي نُبذ فيه بالعراء. وأول من توضأ آدم؛ كفارة لأكله .هـ. مختصراً بزيادة بيان. وجمعها الحق تعالى لهذه الأمة المحمدية؛ لتحوز فضائل تلك الشرائع؛ لأنه ﷺ جَامِعٌ لِمَا افْتَرَقَ في غيره.

ثم قال تعالى: ﴿ ولذكرُ الله أكبرُ ﴾، أي: ولذكر الله، على الدوام، أكبر، في النهي عن الفحشاء والمنكر، من الصلاة؛ لأنها في بعض الأوقات. فالجزء الذي في الصلاة ينهى عن الفحشاء الظاهرة، والباقي ينهى عن الفحشاء الباطنة، وهو أعظم، ولأن الانتهاء لا يكون إلا من ذاكرٍ لله، مراقبٍ له، وثواب ذلك الذكر أن يذكره الله تعالى؛ لقوله: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾(١). ومَنْ ذَكَرَهُ حَفِظَهُ ورعاه. أو: لذكر الله أكبر؛ أجراً، من الصلاة، ومن سائر الطاعات، كما في الحديث: «ألا أنبئكم بخيرِ أعمالكمْ، وأزكَاها عند مليككم، وأرفَعِهَا في درجاتكم، وخيرٍ لكم من إنفاقِ الذهب والورِق، وخيرٍ لكم من أن تلْقَوْا عدوكم فتضربُوا أعناقهم ويضربوا أعناقكُمْ؟ قالوا: وما ذلك يارسول الله؟ قال: ذِكْرُ الله»(٢). وسئل: أيّ الأعمال أفضل؟ قال: «أن تموتَ ولسانُكَ رَطْبٌ من ذكر الله»(٣).

قيل: المراد بذكر الله هو الصلاة نفسها، أي: وَللصلواتُ أكبر من سائر الطاعات، وإنما عبّر عنها بذكر الله؛ ليشعر بالتعليل، كأنه قال: والصلاة أكبر؛ لأنها ذكر الله. وعن ابن عباس: ولذكر الله لكم إياكم، برحمته، أكبر من ذكركم إياه بطاعته. وقال ابن عطاء: ذكر الله لكم أكبر من ذكركم له؛ لأن ذكره بلا علة، وذكركم مشوب بالعلل والأماني، ولأن ذكره لا يفنى، وذكركم يفنى. أو: لذكر الله أكبر من أن تفهمه أفهامكم وعقولكم. أو: ذكر الله أكبر

(١) الآية ١٥٢ من سورة البقرة.

(٢) أخرجه الترمذي في (الدعوات، باب ٦، ٥/٤٢٨، ح٣٣٧٧)، وابن ماجة في (الأدب، باب فضل الذك، ٢/١٢٤٥، ح ٣٧٩٠)، والبيهقي في الشعب (٥١٩)، والحاكم وصححه في المستدرك (١/٤٩٦)، وصححه ووافقه الذهبي، من حديث أبي الدرداء.

(٣) رواه ابن حبان في صحيحه (٨١٥)، والبزار (كشف الأستار ح ٣٠٥٩)، من حديث معاذ بن جبل، وقال الهيثمي في المجمع: (١٠/٧٤): وإسناده حسن.

من أن تبقى معه معصية. ﴿ والله يعلم ما تصنعون ﴾ من الخير والطاعة، فيثيبكم أحسن الثواب. والله تعالى أعلم.

الإشارة: الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر المتعلّقَيْنِ بالجوارح الظاهرة، والذكر ينهى عن الفحشاء والمنكر المتعلقين بالعوالم الباطنة، وهى المساوئ التى تحجب العبد عن حضرة الغيوب، فإذا أكثر العبد من ذكر الله، على نعت الحضور والتفرغ من الشواغل، تنور قلبه، وتطهر سره ولُبه، فاتصف بأوصاف الكمال، وزالت عنه جميع العلل، ولذلك جعلته الصوفية مُعْتَمَدَ أعمالِهِمْ، والتزموه مع مرور أوقاتهم وأنفاسهم، ولم يقتنعوا منه بقليل ولا كثير، بل قاموا فيه بالجد والتشمير، فيذكرون أولاً بلسانهم وقلوبهم، ثم بقلوبهم فقط، ثم بأرواحهم وأسرارهم، فيغيبون حينئذ فى شهود المذكور عن وجودهم وعن ذكرهم، وفى هذا المقام ينقطع ذكر اللسان، ويصير العبد محواً فى وجود العيان، فتكون عبادتهم كلها فكرة وعبرة، وشهوداً ونظرة، وهو مقام العيان فى منزل الإحسان، فيكون ذكر اللسان عندهم بطالة(١)، وفى ذلك يقول الشاعر:

مَـا إنْ ذَكَـرْتُـكَ إلاَّ هَـمَّ يَلْعَنُنِـي   سِرِّى وَقَلْبِي وروحِـي، عند ذِكْـرَاكَ
حَتَّى كَـأَنَّ رَقِـيبـاً مِنْكَ يهْتِفُ بِـي: إيَّـاكَ، وَيْحَـكَ، والتَّـذْكَارَ، إيَّـاكَ
أَمَـا تَرى الْحَقَّ قَـدْ لاَحَتْ شَوَاهِدُهُ؟   وَوَاصَلَ الْكُلَّ، مِنْ مَعْنَـاهُ، مَعْنَـاكَ؟!

قال القشيرى: ويقال: ذكر الله أكبر من أن يبقى معه ذكر مخلوق أو معلوم للعبد، فضلاً أن يبقى معه للفحشاء والمنكر سلطان .هـ. وقال فى القوت على هذه الآية: الذكر عند الذاكرين: المشاهدة، فمشاهدة المذكور فى الصلاة أكبر من الصلاة. هذا أحد الوجهين فى الآية. ثم قال: ورُوى فى معنى الآية؛ عن رسول الله ﷺ أنه قال: إنما فُرضت الصلاة، وأمر بالحج والطواف، وأشعرت المناسك، لإقامة ذكر الله ـ عز وجل ـ» ؛ قال تعالى: ﴿ وَأَقِمِ الصَّلاَةَ لِذِكْرِي ﴾(٢)، أي: لتذكرنى فيها. ثم قال: فإذا لم يكن فى قلبك للمذكور، الذى هو المقصود والمُبْتَغَى، عظمة ولا هيبة، ولا إجلالُ مقام، ولا حلاوة فهْم، فما قيمة ذكرك فإنما صلاتك كعمل من أعمال دنياك. وقد جعل الرسول ﷺ الصلاة قسماً من أقسام الدنيا، إذا كان المصلى على مقام من الهوى، فقال: «حُبب إلىَّ من

(١) لايكون ذكر اللسان بطالة. والنبى ﷺ وقال: «لايزال لسانك رطباً بذكر الله..» والله عز وجل يقول: «أنا مع عبدى المؤمن ما ذكرنى وتحركت بى شفتاه» فكيف يكون هذا بطالة!! مع تحقق السر بالذكر؟.

(١) من الآية ١٤ من سورة طه.

دنياكم..»(١) ذكر منها الصلاة، فهى دنيا لمن كان همه الدنيا، وهى آخرة لأبناء الآخرة، وهى صلة ومواصلة لأهل الله ـ عز وجل ـ، وإنما سميت الصلاة؛ لأنها صلة بين الله وعبده، ولا تكون المواصلة إلا لتقى، ولا يكون التقى إلا خاشعاً، فعند هذا لا يعظم عليه طول القيام، ولا يكبر عليه الانتهاء عن المنكر، كما قال الله: ﴿إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر﴾. هـ.

ثم ذكر ما ينتج عن الصلاة الكاملة والذكر الدائم، وهو الخُلق الجميل، فوصّى به، حيث قال:

﴿ ۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ولا تُجادلوا أهلَ الكتاب إلا بالتي هي أحسن﴾؛ إلا بالخصلة التى هى أحسن، أى: ألطف وأرفق، وهى مقابلة الخشونة باللين، والغضب بالكظم، والمشاغبة بالنصح، بأن تدعوه إلى الله تعالى برفق ولين، وتبين له الحجج والآيات، من غير مغالبة ولا قهر. وأصل المجادلة: فتلُ الخصم عن مذهبه بطريق الحجج، وأصله: شدة الفتل، ومنه قيل للصقر: أجدل؛ لشدة فتل بدنه وقوة خلقه. والآية؛ قيل: منسوخة بآية السيف(٢)، وقيل: نزلت فى أهل الذمة.

﴿إلا الذين ظلموا منهم﴾، فأفرطوا في الاعتداء والعناد، ولم يقبلوا النصح، ولم ينفع فيهم الرفق، فاستعمِلوا معهم الغلظة. وقيل: إلا الذين آذوا رسول الله ﷺ، أو: إلا الذين أثبتوا الولد والشريك، وقالوا: يد الله مغلولة. أو معناه: ولا تُجادلوا الذين دخلوا فى الذمة، المؤدين للجزية، إلا بالتى هى أحسن، إلا الذين ظلموا: فنبذوا الذمة، ومنعوا الجزية، فمجادلتهم بالسيف. والآية تدل على جواز مناظرة الكفرة فى الدين، وعلى جواز تعلم علم الكلام،

---

(٣) أخرج أحمد في المسند (١٢٨/٣، ٢٨٥) والنسائى فى سننه (كتاب عشرة النساء ١٦١/٧) والحاكم فى المستدرك (النكاح ١٦٠/٢) وصححه على شرط مسلم، وأقره الذهبى، وكذلك أخرج أبو يعلى فى مسنده (١٩٩/٦ ـ ٢٠٠ ح ٣٤٨٢) كلهم من حديث أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ «حبب إلىّ من الدنيا: الطيب والنساء، وجعلت قرة عينى فى الصلاة»

قال الحافظ ابن حجر: وليس فى شىء من طرقه: لفظ «ثلاث». انظر الفتح السماوى ٣٧٨/١ وعليه فالرسول لم يجعل الصلاة من أقسام الدنيا بل هى قرة عينه ﷺ وهذه درجة رفيعة فوق الشيئين اللذين حببا إليه من الدنيا، وهما الطيب والنساء، فهذا الشيئان ليس قرة عين له ﷺ، لأنهما من الدنيا

(١) قلت: كل ما هو من مكارم الأخلاق، لايجرى عليه النسخ، فتمسك بهذا الأصل، فحتى لو قاتلنا أهل الكتاب فى جهاد شرعى صحيح، بشروطه. فنحن مأمورون بالعمل بهذه الآية حين نجادلهم، إلا من ظلم.. فنعامله بما يستحق حتى يزول ظلمه، فإنْ جادلناهم فبالتى هى أحسن أيضاً.

الذى به تتحقق المجادلة. قاله النسفى. ﴿ وقولوا آمنا بالذي أُنزل إلينا وأُنزل إليكم وإلهُنا وإلهكم واحد ﴾؛ هذا من حسن المجادلة. قال ﷺ: «إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم، وقولوا: آمنا بالله وكتبه ورسله، فإن كان باطلاً؛ لم تصدقوهم، وإن كان حقاً؛ لم تكذبوهم»(١). ﴿ ونحن له مسلمون ﴾؛ مطيعون له خاصة، وفيه تعريض باتخاذهم أحبارَهُمْ ورهبانَهم أرباباً من دون الله.

الإشارة: المناظرة بين العلماء، والمذاكرة بين الفقراء، ينبغى أن تكون برفق ولين عن قلب سليم، بقصد إظهار الحق وتبيين الصواب، أو تنبيه عن الغفلة، أو ترقية فى المنزلة، من غير ملاحجة، أو مخاصمة، ولا قصد مغالبة؛ لأن العلم النافع، وذكر الله الحقيقى، يُهذب الطبع، ويحسن الأخلاق.

قال فى الحاشية: ثم تذكَّر حسن رده ﷺ للقائلين له: السام عليكم، ورفقَه، وقوله لعائشة: «متى عهدْتِنِى فاحشا» ؟ يتبين لك مناسبة الوصية بحسن المجادلة فى الآية مع ما قبلها، وأن ذلك حال المقيمين للصلاة، الذاكرين الله حقيقة، وأنهم على خُلق جميل وحلم وسمت، لا يستفزهم شيء من العوارض؛ لِمَا رسخ فى قلوبهم من نور القُرب الذى محى الطبع وفُحْشه. والله تعالى أعلم. هـ.

ثم ذكر برهان حقيَّة القرآن الذى أنزل إلينا، فقال:

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وكذلك ﴾ أى: ومثل ذلك الإنزال البديع ﴿ أنزلنا إليك الكتاب ﴾ مصدقاً لسائر الكتب السماوية وشاهداً عليها، ﴿ فالذين آتيناهم الكتاب ﴾؛ التوراة والإنجيل، ﴿ يؤمنون به ﴾، وهم عبد الله بن سلام ومن آمن معه، وأصحاب النجاشي، أو: من تقدم عهد الرسول ﷺ من أهل الكتاب، ﴿ ومن هؤلاء ﴾؛ من أهل مكة، ﴿ من يؤمن به ﴾، أو: فالذين آتيناهم الكتب قبلك يؤمنون به قبل ظهوره، ومن هؤلاء

(٢) أخرجه بنحوه الإمام أحمد فى المسند (١٣٦/٤)، وأبو داود في (العلم، باب رواية حديث أهل الكتاب ٥٩/٤ – ٦٠ ح٣٦٤٤)، وابن حبان فى صحيحه (موارد ح ١١٠ ص ٥٨)، والطبرانى فى الكبير (٣٤٩/٢٢)، والبيهقى فى الكبرى (١٠/٢)، عن أبى نملة الأنصارى. وأصل الحديث في صحيح البخاري، فى (كتاب الاعتصام، باب قول النبي: لاتسألوا أهل الكتاب عن شيء ح٧٣٦١). من حديث أبى هريرة رضي الله عنه.

الذين أدركوا زمانك من يؤمن به. وإذا قلنا: إنّ السورة كلها مكية، يكون إخباراً بغيب تحقق وقوعه، ﴿ وما يجحد بآياتنا ﴾، مع ظهورها وزوال الشبهة عنها، ﴿ إلا الكافرون ﴾؛ إلا المتوغلون فى الكفر، المصممون عليه، ككعب بن الأشرف وأضرابه، أو كفار قريش، إذا قلنا: الآية مكية.

﴿ وما كنت تَتْلوا من قبله ﴾؛ من قبل القرآن ﴿ من كتاب ولا تَخُطُّه بيمينك ﴾، بل كنت أمياً، لم تقرأ ولم تكتب، فظهور هذا الكتاب، الجامع لأنواع العلوم الشريفة والأخبار السالفة، على يد أُمى؛ لم يُعْرَفْ بالقراءة والتعلم، خرق عادة، قاطعة لبغيته. وذكر اليمين؛ لأن الكتابة، غالباً، تكون به، أى: ما كنت قارئاً كتاباً من الكتب، ولا كاتِباً ﴿ إذاً لارتابَ المبطلون ﴾ أى: لو كنت ممن يخط ويقرأ لقالوا: تعلمه، والتقطه من كتب الأقدمين، وكتبه بيده. أو: يقول أهل الكتاب: الذى نجده فى كتابنا أُمى لا يكتب ولا يقرأ، وليس به. وسماهم مبطلين، لإنكارهم النبوة، أو: لارتيابهم فيها، مع تواتر حججها ودلائلها.

هذا، وكونه ﷺ أُمياً كَمَالٌ فى حقه ﷺ، مع كونه أُمياً أحاط بعلوم الأولين والآخرين، وأخبر بقصص القرون الخالية والأمم الماضية، من غير مدارسة ولا مطالعة، وهو، مع ذلك، يُخبر بما مضى، وبما يأتى إلى قيام الساعة ، وسرد علم الأولين والآخرين مما لا يعلم القصة الواحدة منها إلا الفذ من أحبارهم، الذى يقطع عمره فى مدارسته وتعلمه، وهذا كله فى جاهلية جهلاء، بعد فيها العهد بالأنبياء، وبدّل الناس، وغيّروا فى كتب الله تعالى؛ بالزيادة والنقصان، ففضحهم ﷺ وقرر الشرائع الماضية، فهذا كله كاف فى صحة نبوته، فكانت أميته ﷺ وَصْفَ كمال فى حقه، ومعجزَةً دالة على نبوته؛ لأنه ﷺ، مع كونه أُمياً، ظهر عليه من العلوم اللدنية، والأسرار الربانية، مايعجز عنه العقول، ولا تحيط به النقول، مع إحكامه لسياسة الخلق، ومعالجتهم؛ مع تنوعهم، وتدبير أمر الحروب، وإمامته فى كل علم وحكمة.

وأيضا: المقصود من القراءة والكتابة: ما ينتج عنهما من العلم؛ لأنهما آلة، فإذا حصلت الثمرة استغنى عنهما. والمشهور أنه ﷺ لم يكتب قط. وقال الباجى وغيره: إنه كتب، لظاهر حديث الحديبية. وقال مجاهد والشعبى: مامات النبى ﷺ حتى كتب وقرأ. وهذا كله ضعيف.

قال تعالى: ﴿ بل هو ﴾ أى: القرآن ﴿ آيات بيناتٌ في صدور الذين أُوتوا العلم ﴾ أى: فى صدور العلماء وحفّاظه، وهما من خصائص القرآن؛ كونُ آياته بيناتِ الإعجاز، وكونه محفوظاً فى الصدور، بخلاف سائر الكتب، فإنها لم تكن معجزات، ولم تكن تُقرأ إلا بالمصاحف. قال ابن عباس: ﴿ بل هو ﴾ أى: محمد، والعلم بأنه أُمى، ﴿ آيات بينات ﴾؛ فى صدور أهل العلم من أهل الكتاب، يجدونه فى كتبهم. هـ(١). و(بل): للإضراب عن

(١) ذكر الطبرى القولين (٢١/٥ - ٦) ورجح القول الثانى لأن قوله تعالى: ﴿بل هو آيات بينات﴾ بين خبرين من إخبار الله عن رسول الله سيدنا محمد ﷺ. فهو بأن يكون خبراً عنه أولى من أن يكون خبراً عن الكتاب.

محذوف، ينساق إليه الكلام، أى: ليس الأمر مما يمكن الارتياب فيه، بل هو آيات واضحات. و(فى صدور): متعلق ببينات، أو: خبر ثان لهو. ﴿ وما يجحدُ بآياتنا ﴾ الواضحة ﴿ إلا الظالمون ﴾؛ المتوغلون فى الظلم. قال ابن عطية: الظالمون والمبطلون هم كل مُكذب للنبى ﷺ، ولكن عُظم الإشارة بهما إلى قريش لأنهم الأهم. قاله مجاهد. هـ.

الإشارة: كم من ولىّ يكون أُمياً، وتجد عنده من العلوم والحِكَم والتوحيد ما لا يوجد عند نحارير العلماء. ما اتخذ الله ولياً جاهلاً إلا علّمه. ولقد سمعت من شيخنا البوزيدى رضي الله عنه علوماً وأسراراً، ما رأيتها فى كتاب، وكان يتكلم فى تفسير آيات من كتاب الله على طريق أهل الإشارة، قلّ أن تجدها عند غيره، وسمعته يقول: والله ما جلست بين يدى عالم قط، ولا قرأت شيئاً من العلم الظاهر. قال القشيرى: قلوبُ الخواص من العلماء بالله خزائنُ الغيب، فيها أودع براهين حقه، وبينات سرّه، ودلائل توحيده، وشواهد ربوبيته، فقانون الحقائق فى قلوبهم، وكلُّ شىء يُطلب من موطنه ومحله، فالدر يُطلب من الصدف؛ لأنه مسكنه، كذلك المعرفة، ووصف الحق يُطلَب من قلوب خواصه[1]؛ لأن ذلك قانون معرفته، ومنها ترفع نسخةُ توحيده. هـ.

ثم رد اقتراحهم للآيات، فقال:

﴿ وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُواْ بِٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾

(١) إنما يرجع إلى وصف الله فى قلوب خواصه، لأنهم عرفوا الله بالرجوع إلى وحيه، (الكتاب والسنة) فلا طريق لمعرفة الله، إلا ما أوحاه الله، ابتداء، وانتهاء.
ثم اعلم رحمك الله: أن معرفة القراءة والكتابة ليست شرطاً فى الولاية، وحفظ كلام الله تعالى، ومعرفة أسرار التوحيد والإيمان، ، والإسلام.. وهاك مثلا واحداً: وهو سيدنا حماد بن مسلم الدباس، أستاذ الشيخ القدوة، عارف زمانه، الإمام عبد القادر الجيلانى، وهو حماد بن مسلم بن ددَوه، الشيخ القدم، علم السالكين، أبو عبد الله الدباس، الرحبي ـ نسبة إلى رحبة مالك بن طوق، ونشأ ببغداد، وكان من أولياء الله، أولي الكرامات، انتفع بصحبته خلق، وكان يتكلم على الأحوال، وكتبوا من كلامه نحواً من مئة جزء، وكان أمياً، وكان يتكلم على آفات الأعمال، والإخلاص، والورع، قد جاهد نفسه بأنواع المجاهدات، وزوال أكثر المهنَ والصنائع، فى طلب الحِلال، وكان مكاشفاً. فعنه قال: إذا أحب الله عبداً أكثر همه فيما فرط، وإذا أبغض عبداً أكثر همه فيما قسمه له. وقال: العلم محجة، فإذا طلبته لغير الله، صار حجة.. مات سنة ٥٢٥هـ. وكان الشيخ عبدالقادر من تلامذته: «انظر: شمس الدين الذهبى: سير أعلام النبلاء: (١٩/٥٩٤ ـ ٥٩٦) تحقيق وتعليق: شعيب الأرنؤوط، ط ١١، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٧هـ، ١٩٩٦م. وراجع أيضاً فى هذه القضية: الفتوحات الإلهية للشيخ المفسر/ ٢٠١ – ٢٠٤.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وقالوا﴾ أى: كفار قريش: ﴿لولا أُنزل عليه آية(١) من ربه﴾ تدل على صدقه، مثل ناقة صالح، وعصا موسى، ومائدة عيسى، ونحو ذلك. وقرأ نافع وابن عامر وحفص: بالجمع؛ «آيات»، كثيرة، ﴿قل إنما الآيات عند الله﴾، يُنزل منها ماشاء متى شاء، ولست أملك منها شيئاً، ﴿وإنما أنا نذير مبين﴾؛ إنما كلفت بالإنذار وإبانته بما أعطيت من الآيات، وليس من شأنى أن أقول: أنزل على آية كذا دون آية كذا، مع علمى أن المراد من الآيات ثبوت الدلالة على نبوتى، والآيات كلها فى حُكم آية واحدة فى ذلك.

﴿أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يُتلى عليهم﴾، أى: أوَلَمْ يكفهم إنزال آية مغنية عن سائر الآيات، إن كانوا طالبين للحق، غيْرَ متعنتين، وهو هذا القرآن الذى تدوم تلاوته عليهم فى كل زمان ومكان، فلا يزال معهم آية ثابتة، لا تزول ولاتنقطع، كما انقطع غيره من الآيات، وفى ذلك يقول البوصيرى:

دامَتْ لَدَيْنا؛ فَفاقَتْ كلَّ مُعْجِزَةٍ مِنَ النَّبِيِّينَ؛ إِذْ جــاءَتْ ولَمْ تَدُمِ

﴿إن في ذلك﴾ أى: فى هذه الآية الموجودة فى كل زمان إلى آخر الدهر، ﴿لرحْمة﴾؛ لنعمة عظيمة، ﴿وذكرى﴾؛ وتذكرة ﴿لقوم يؤمنون﴾ دون المتعنتين. قال يحيى بن جعدة: إن ناساً من المسلمين أتوا النبى ﷺ بكتب قد كتبوها، فيها بعض ما يقول اليهود، فألقاها، وقال: كفى بها حماقة، أو ضلالة قوم، أن يرغبوا عما جاء به نبيهم، فنزل: ﴿أولم يكفهم...﴾ إلخ(٢).

﴿قل كفى بالله بيني وبينكم شهيداً﴾ أى: شاهداً بصدق ما أدعيه من الرسالة وإنزال القرآن علىّ، وتكذيبكم، ﴿يعلم ما في السموات والأرض﴾، فهو مطلع على أمرى وأمركم، وعالم بحقى وباطلكم، فلا يخفى عليه شىء. ﴿والذين آمنوا بالباطل﴾، وهو ما يُعبد من دون الله، ﴿وكفروا بالله﴾ وبآياته منكم ﴿أولئك هم الخاسرون﴾؛ المغبونون فى صفقتهم، حيث اشتروا الكفر المؤدى إلى النيران، بالإيمان المؤدى إلى الخلود فى الجنان. رُوى أن كعب بن الأشرف وأصحابه من اليهود قالوا: من يشهد لك بأنك رسول الله؟ فنزل: ﴿قل كفى...﴾ الخ.

الإشارة: اقتراح الآيات والكرامات كله جهل وحمق؛ إذ ليس بيد النبى أو الولى شىء من ذلك، وإنما هو مأمور بالوعظ والدلالة على الله، والدعاء إليه، والكرامة لاتدلّ على كمال صاحبها، «ربما رُزق الكرامة من لم تَكْمُلْ له

---

(١) قرأ ابن كثير، وأبو بكر، وحمزة، والكسائى «آية» بالتوحيد على إرادة الجنس، وقرأ الباقون بالجمع. انظر الإتحاف (٢/ ٣٥١).
(٢) أخرجه الدارمى فى (المقدمة، باب من لم ير كتابة الحديث ١/ ١٣٤، ح٤٧٨)، وأبو داود فى المراسيل (باب ما جاء فى العلم)، وابن جرير فى التفسير (٢١/ ٧) من حديث يحيى بن جعدة، مرسلاً.

الاستقامة،(١)، ليس كل من ثبت تخصيصه كَمُلَ تخليصه(٢). وقد تظهر الكرامات فى البدايات وتخفى فى النهايات، والكرامة العظمى هى الاستقامة وكشف الحجاب بين الله وعبده حتى يشاهده عياناً، ويذهب عنه الأوهام والشكوك، وأما غير هذا فقد يكون استدراجاً لمن يقف معه. والله تعالى أعلم.

ولمّا لم تظهر آية كما اقترحوا، استعجلوا العذاب، استهزاء، كما قال تعالى:

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٥٣) يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ (٥٤) يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٥٥) ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ويستعجلونك بالعذاب ﴾، كقولهم: أمطر علينا حجارة من السماء، ﴿ ولولا أجلٌ مسمىً ﴾ المضروب لعذاب كل قوم، أو: القيامة، أو: يوم بدر، أو: وقت فنائهم بأجلهم. والمعنى: ولولا أجل قد سمّاه الله وعيّنه في اللوح المحفوظ، ﴿ لجاءهم العذاب ﴾ عاجلا. والحكمة تقتضى تأخيره إلى ذلك الأجل المسمى، ﴿ وليأتينهم ﴾ العذاب فى الأجل المسمى ﴿ بغتةً ﴾: فجأة ﴿ وهم لا يشعرون ﴾ بإتيانه.

﴿ يستعجلونك بالعذاب وإنَّ جهنم لمحيطة بالكافرين ﴾ أى: لتحيط بهم، أو: هى كالمحيطة بهم، لإحاطة أسبابها بهم من الكفر والمعاصى. واللام للعهد، على وضع الظاهر موضع المضمر؛ للدلالة على موجب الإحاطة، وهو الكفر، أو الجنس، فيدخل المخاطبون دخولاً أولياً. وتكرير استعجالهم؛ لاختلاف ما يترتب على كل واحد، فرتب على الأول حكمة تأخيره، وعلى الثانى تهديدهم وزجرهم عنه.

ثم قال تعالى: ﴿ يوم يغشاهم العذابُ من فوقهم ومن تحت أرجلهم ﴾، هذا وقت إحاطتها بهم، أى: تحيط من جميع جوانبهم، كقوله: ﴿ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ ﴾(٣). ﴿ ويقول ذُوقوا ما كنتم تعملون ﴾ أى: باشروا جزاء أعمالكم.

الإشارة: ما قيل فى حق من استعجل العذاب من الأنبياء، يقال فى حق من استعجله من الأولياء، بحيث يؤذيهم ويقول: ليُظهروا ما عندهم، فهذا حمق كبير، ولابد أن يلحقه وبال ذلك، عاجلاً، أو آجلاً، إما ظاهراً

---

(١) حكمة عطائية. انظر الحكم بتبويب المتقى الهندى (ص٢٧، حكمة ١٧٨).

(٢) انظر الحكم (ص ٢٦ حكمة ١١١). (٣) من الآية ١٦من سورة الزمر.

أوباطنًا، وقد لا يشعر، وقد يسرى ذلك إلى عقبه؛ فيصيبه ذلك الوبال، كما أصاب أباه، والعياذ بالله من التعرض لأوليائه.

ثم أمر بالهجرة من الأرض التى تكثر فيها الإذاية فى الدين، فقال:

﴿ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرْضِي وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰيَ فَٱعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۖ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ياعبادي الذين آمنوا إن أرضي واسعةٌ ﴾، فإذا لم يتيسر لكم إقامةُ دينِكُمْ فى بلد، فاخرجوا منها إلى أرض يتهيأ لكم فيها استقامة دينكم، والبقاع تتفاوت فى ذلك تفاوتاً كبيراً، والناس مختلفون، فأهل الشرائع يطلبون البقاع التى يتيسر لهم فيها استقامة ظواهرهم، كالمدن والقرى الكبار، التى يكثر فيها العلم وأهله. وأهل الحقائق من الصوفية يطلبون البقاع التى تسلم فيها قلوبهم من العلائق والشواغل، أينما وجدوها عمروها، إن تهيأ لهم الاجتماع على ربهم. وعن سهل رضي الله عنه: إذا ظهرت المعاصى والبدع فى أرض، فاخرجوا منها إلى أرض المطيعين. وعن رسول الله ﷺ: «من فرّ بدينه من أرض، إلى أرض، وإن كان شبراً، استوجب الجنة، وكان رفيق إبراهيم ومحمد عليهما السلام»(١).

﴿ فإياى فاعبدون ﴾ أى: فخصونى بالعبادة. وإياى: مفعول لمحذوف، ومفعول «اعبدونى»: الياء المحذوفة، أى: فاعبدوا إياى، فاعبدونى. والفاء: جواب الشرط، محذوف، إذ المعنى: إن أرضى واسعة، فإن لم تخلصوا العبادة لى فى أرض، فاخلصوا لى فى غيرها.

ثم شجّع المهاجرين بقوله: ﴿ كلُّ نفسٍ ذائقةُ الموت ﴾، أى: واجدة مرارته وكربه؛ لأنها إذا تيقنت بالموت؛ سهل عليها مفارقة وطنها. ﴿ ثم إلينا تُرجعون ﴾ بالموت، فتجازون على ما أسلفتم. ومن علِمَ أن هذا عاقبته؛ ينبغى أن يجتهد فى الاستعداد له، فإن لم يتهيأ فى أرض فليهاجر منها.

﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنبوئنهم ﴾؛ لنُنزلنهم ﴿ من الجنة غُرَفًا ﴾؛ علالى، عالية، وقرأ حمزة والكسائى: ﴿ لنثوينهم ﴾؛ لنقيمنهم، من الثَّوَى، وهو الإقامة، وثوى: غيرُ متعد، فإذا تعدى؛ بزيادة الهمزة، لم

(١) قال الحافظ ابن حجر فى الكافى الشاف: أخرجه الثعلبى من مرسل الحسن. انظر الكافى الشاف (٣/٤٦١).

يجاوز مفعولاً واحداً. والوجه في تعديته إلى ضمير المؤمنين وإلى الغرف: إما إجراؤه مجرى «لننزلنهم»، أو: بحذف الجار، وإيصال الفعل، أو: شبه الظرف المؤقت، بالمبهم، أي: لنقيمنهم في غرف ﴿ تجري من تحتها الأنهارُ خالدين فيها نِعْمَ أجرِ العاملين ﴾ أجرهم هذا. وهم ﴿ الذين صبروا ﴾ على مفارقة الأوطان وأذى المشركين، وعلى المحن والمصائب، ومشاق الطاعات، وترك المحرمات، ﴿ وعلى ربهم يتوكلون ﴾ ، أي: لم يتوكلوا في جميع ذلك إلا على الله، فكفاهم شأنهم. وبالله التوفيق.

الإشارة: كل من لم يتأتَّ له جمْعُ قلْبِه في بلده؛ فليهاجر منها إلى غيره، وليسمع قول سيده: ﴿ياعبادى الذين آمنوا إن أرضى واسعة﴾، فإن شق عليه مفارقة الأوطان، فليذكر مفارقته للدنيا في أقرب زمان. وكان الصدِّيق رضي الله عنه لمَّا هاجر إلى المدينة، وأصابته الحمى، يتسلى بذكر الموت، وينشد:

كُلُّ امْـرِىءٍ مُصَـبَّحٌ فى أهْـلِهِ والمَـوْتُ أدْنَى مِنْ شِرَاكِ نَعْـلِهِ

وقد أكثر الناس فى الوعظ بالموت وهجومه، نظماً ونثراً، فمن ذلك قول الشاعر:

المَوْتُ كأسٌ، وكلُّ النّاسِ شارِبُه والقَبْرُ بابٌ، وكلُّ النـاسِ داخِلُهُ

وقال آخر:

اعْـلَمْ بأَنَّ سِـهَامَ المَـوْتِ قاطِعَـةٌ بِـكُلِّ مُـدْرِعٍ فيهَـا ومُتَّـرِسِ
ركوبُك النعش يُنْسِيكَ الرُّكُوبَ إلى ماكنْتَ تَركَبُ مِنْ نَعْلٍ ومِنْ فَرَسِ
تَرْجُو النَّجاةَ، ولَمْ تَسْلُكْ طَرِيقَتَهـا إنَّ السَّفِينَةَ لا تَجْرِى عَلَى يَبَسِ

إلى غير ذلك مما يطول.

ولما أمر بالهجرة؛ خافوا العيلة، فأنزل الله تعالى:

﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾ وَلَئِن
سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ
يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ
مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ
لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله : ﴿ وكأيِّن من دابةٍ ﴾ أى: وكم من دابة من دواب الأرض، عاقلة وغير عاقلة، ﴿ لا تحملُ رِزْقَها ﴾ ؛ لا تطيق أن تحمله؛ لضعفها عن حمله، ﴿ اللهُ يرزقها وإياكم ﴾ أى: لا يرزق تلك الدواب الضعاف إلا الله، ولا يرزقكم أنتم أيها الأقوياء إلا الله، وإن كنتم مطيقين لحمل أرزاقكم وكسبها؛ لأنه لو لم يخلق فيكم قدرة على كسبها؛ لكنتم أعجز من الدواب. وعن الحسن: «لا تحمل رزقها»: لا تدخره، إنما تصبح خِمَاصاً(١)، فيرزقها الله. وقيل: لا يدخر من الحيوان قوتاً إلا ابن آدم والفأرة والنملة(٢). ﴿ وهو السميع ﴾ لقولكم: نخشى الفقر والعَيْلة إن هاجرنا، ﴿ العليم ﴾ بما فى ضمائركم من خوف فوات الرزق.

ثم ذكر دلائل قدرته على الرزق وغيره فقال: ﴿ ولئن سألتهم ﴾ أى: المشركين وغيرهم ﴿ مَنْ خَلَقَ السموات والأرض ﴾ على كبرهما وسعتهما، ﴿ وسخَّرَ الشمسَ والقمرَ ﴾ يجريان فى فلكهما، ﴿ ليقولُنَّ اللهُ ﴾ ؛ لا يجدون جواباً إلا هذا، لإقرارهم بوجود الصانع، ﴿ فأنى يؤفكون ﴾ ؛ فكيف يُصرفون عن توحيد الله؟ مع إقرارهم بهذا كله، إذ لو تعدد الإله لفسد نظام العالم.

﴿ الله يَبسُطُ الرزقَ لمن يشاءُ من عباده ﴾ هاجر أو أقام فى بلده، ﴿ ويقدرُ له ﴾ ؛ ويضيق عليه، أقام أو هاجر، فالضمير فى «له» لمن يشاء؛ لأنه مبهم غير معين، ﴿ إن الله بكل شيء عليم ﴾ ؛ يعلم ما يصلح العباد وما يفسدهم، فمنهم من يصلحه الفقر، ومنهم من يُفسده، ففى الحديث القدسى: «إن من عبادى من لا يُصلح إيمانه إلا الغنى، ولو أفقرته لأفسده ذلك، وإن من عبادى من لا يصلح إيمانه إلا الفقر، ولو أغنيته لأفسده ذلك»(٣). ذكره النسفى.

﴿ ولئن سألتهم من نزَّل من السماءِ ماءً فأحيا به الأرضَ من بعد موتها ليقولن اللهُ ﴾ ؛ معترفين بأنه الموجد للكائنات بأسرها، أصولها وفروعها، ثم إنهم يُشركون به بعض مخلوقاته الذى هو أضعف الأشياء. ﴿ قل الحمد لله ﴾ على إظهار قدرته، حتى ظهرت لجميع الخلق، حتى أقرت بها الجاهلية الجهلاء. أو: على ما عصمك مما هم عليه، أو: على تصديقك وإظهار حجتك، أو: على إنزاله الماء لإحياء الأرض، ﴿ بل أكثرُهُم لا يعقلون ﴾ ؛ لاعقول لهم، فلا يتدبرون فيما يُريهم من الآيات ويقيم عليهم من الدلالات. والله تعالى أعلم.

---

(١) «خماصاً» جياعاً، جمع خميص.
(٢) قاله سفيان فيما ذكره البغوى فى تفسيره (٦/٥٣).
(٣) أخرجه الديلمى (مسند الفردوس ح ٨٠٩٨، ٨١٠٠) من حديث عمر، وأنس ـ رضى الله عنهما.

الإشارة: الرزق مضمون بيد من أَمْرُه بين الكاف والنون، لا يزيد بحرص قوى، ولا ينقص بعجز ضعيف، بل قد ينعكس الأمر، كما قال الشاعر:

كَمْ قَـوِيٌّ قَـوِيٌّ فـى تقلبـه ... [تـرى عَنْهُ أَمْـرَ الرِّزْقِ يَنْحَرِفُ](١)

وكم ضعيفٍ ضعيفٍ فى تصرفه ... كـأنـه من خليجِ البحـرِ يَغْتَرِفُ

وقد يبسطه الله لأهل الغفلة والبُعد، ويقدره لأهل الولاية والقُرب، كما قال القائل:

اللهُ يرزُقُ قَـومـاً لا خَـلاقَ لَهُـمْ ... مِثْلَ الْبَهَـائِمِ فى خَلْقِ التَّصَـاوِيرِ

لَـوْ كَانَ عَنْ قُـوةٍ أوْعَنْ مُغَالَبَـةٍ ... طَـارَ الْبُزَاةُ بِأرْزَاقِ الْعَصَـافِيرِ

وقال عليه الصلاة والسلام ـ فى بعض خطبه ـ : «أيها الناس، إن الرزق مقسوم، لن يعدو امْرُؤٌ ما كُتِبَ له، فاتقوا الله، وأَجْمِلُوا فى الطَّلَبِ. وإن الأمر محدود، لن يجاوز أحد ما قُدر له، فبادروا قبل نفود الأجل، وإن الأعمال محصاة، لن يُهْمَلَ منها صغيرةٌ ولا كبيرةٌ، فأكثروا من صالح الأعمال...» الحديث. وقال ﷺ: «لو توكلتمْ على الله حقَّ توكلِهِ؛ لرزقتم كما تُرزق الطير؛ تغدو خِماصاً وتروح بِطَانا»(٢).

ثم حقَّر الدنيا وعظَّم الآخرة، فقال:

﴿ وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وما هذه الحياة الدنيا إلا لهوٌ ولعب ﴾ أى: وما هى؛ لسرعة زوالها عن أهلها وموتهم عنها، إلا كما يلعب الصبيان ساعة، ثم يتفرقون متعبين بلا فائدة. وفيه ازدراء بالدنيا وتحقير لشأنها، وكيف لا يحقرها وهى لا تزن عنده جناح بعوضة؟ واللهو: ما يتلذذ به الإنسان، فيلهيه ساعة، ثم ينقضى. ﴿ وإنَّ الدار الآخرة لهي الحيوان ﴾، أى: الحياة الحقيقية؛ لأنها دائمة. والحيوان: مصدر، وقياسه: حييَان، فقُلِبَ الياءَ

(١) فى الأصول الخطية [ترى أمر الرزق عنه ينحرف].

(٢) أخرجه أحمد فى المسند (١/٣٠ ـ ٥٢) والترمذى فى (الزهد، باب ما جاء فى التوكل على الله، ٤/٤٩٥، ح٢٣٤٤) وقال: حديث حسن صحيح وابن ماجه فى (الزهد، باب التوكل واليقين، ٢/١٣٩٤، ح ٤١٦٤) والحاكم وصححه (٤/٣١٨) من حديث سيدنا عمر رضي الله عنه.

الثانية واواً. ولم يقل: لهي الحياة؛ لِمَا في بناء فَعَلاَن من معنى الحركة والاضطراب. وفي المصباح: الحيوان: مبالغة في الحياة، كما قيل: للموت الكثير: مَوَتَان. هـ. ﴿ لو كانوا يعلمون ﴾ حقيقة الدارين؛ لَمَا اختاروا اللهو الفاني على الحيوان الباقي.

﴿ فإذا رَكِبُوا في الفلك ﴾، هو مرتب على محذوف، دل عليه ما وصفهم به قَبْلُ، والتقدير: هم على ما هم عليه من الشرك والعناد، وإذا ركبوا في الفلك ﴿ دَعَوُا اللهَ مخلصين له الدين ﴾، أي: كائنين في صورة من يخلص الدين لله من المؤمنين، حيث لا يذكرون إلا الله، ولا يدعون معه إلهاً آخر، ﴿ فلما نجاهم إلى البر ﴾، وأمنوا من الغرق، ﴿ إذا هم يُشركون ﴾، أي: عادوا إلى حال الشرك، ﴿ ليكفروا بما آتيناهم ﴾ من النعمة، ﴿ وَلِيَتَمَتَّعوا ﴾ باجتماعهم على عبادة الأصنام وتوادهم عليها. واللام فيهما: إما لاَمُ كي، أي: يعودون إلى شركهم؛ ليكونوا به كافرين بنعمة النجاة، قاصدين التمتع بها والتلذذ، لا غير، على خلاف عادة المؤمنين المخلصين، فإنهم يشكرون نعمة الله إذا أنجاهم، ويجعلون نعمة النجاة ذريعة إلى توحيده وطاعته، لا إلى التلذذ والتمتع. أو: لام الأمر، على وجه التهديد، كقوله: ﴿ مَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾(١)، ويقويه: قراءةُ مَنْ سَكَّنَ الثانية(٢)، أي: ليكفروا وليتمتعوا ﴿ فسوف يعلمون ﴾ تدبيرهم عند تدميرهم.

الإشارة: الدنيا عند أهل الجد والاجتهاد جد، يتوصلون فيها إلى معرفة الحق، ويترقون منها إلى أسرار ومعارف لا يحصرها عقل؛ ولا يحيط بها نقل، لأن في هذه الدار: عرفه من عرفه، وجَهِلَه من جهله. والترقي عند العارفين فيها أكثر؛ لأنه يسير بين جلاله وجماله، وهناك ليس إلا الجمال، والترقي بين الضدين أعظم، فإذا مات بقي يترقى في أنوار الجمال على قدر ما أدرك هنا. والله أعلم.

فتحصل أن الدنيا في حق أهل الغفلة لعب ولهو؛ لأنها شغلتهم وغرتهم بزخارفها عن معرفة الله والوصول إليه، ولذلك حذّر منها ﷺ، فقد قال في بعض خطبه: «أيها الناس، لا تكونوا ممن خَدَعَتْهُ العاجلة، وغرته الأمنية، واستهوته الخدعة، فركن إلى دار سريعة الزوال، وشيكة الانتقال؛ إذ لن يبقى من دنياكم هذه في جنب ما مضى إلا كإناخة راكب، أو درّ حالب، فعلام تعرجون؟ وما تنتظرون؟ فكأنكم، والله، بما قد أصبحتم فيه من الدنيا، كأن لم يكن، وما تصيرون إليه من الآخرة، لم يزل، فخذوا في الأُهْبة لأزوف النقلة، وأعدوا الزاد لقرب الرحلة، واعلموا أن كل امرئ على ما قَدَّمَ قادمٌ، وعلى ما خلَّفَ نادمٌ» . وفي حق أهل الجد جدٌ وحق؛ لأنها مزرعة للآخرة، ومتجر من أسواق الله، فيها ربحهم وغنيمتهم. وبالله التوفيق.

---

(١) من الآية ٢٩ من سورة الكهف.

(٢) قرأ قالون وابن كثير وحمزة والكسائي (ولْيتمتعوا) بسكون اللام، على أنها للأمر، وقرأ الباقون بكسرها، إما للأمر، أو لام كي، والأصل في كل الكسر. انظر الإتحاف (٢/٣٥٣) والبحر المحيط (٧/١٥٥).

ثم ذكّرهم بما أنعم عليهم، ليشكروا، فقال:

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوا﴾ أى: أهل مكة ﴿أنا جعلنا﴾ بلدهم ﴿حَرَماً﴾ أى: ممنوعاً مصوناً من الهيب، ﴿آمناً﴾؛ يأمن كل من دخله، أو آمناً أهله من القتل والسبى، ﴿ويُتَخطَّفُ الناس من حولهم﴾ أى: يخطف بعضهم بعضاً، قتلاً وسبياً، إذ كانت العرب حوله فى تغاور وتناهب، ﴿أفبالباطل يؤمنون﴾؛ أبعد هذه النعمة العظمى يُؤمنون بالأصنام ويعبدونها، أو: الشيطان، ﴿وبنعمة الله يكفرون﴾؛ حيث أشركوا به غَيْرَهُ، أو بمحمد ﷺ؛ إذ هو النعمة المهداة، أو: الإسلام. وتقديم المعمولين؛ للاهتمام، أو للاختصاص.

﴿ ومَنْ أظلمُ﴾ أى: لا أحد أظلم ﴿ممن افترى على الله كذباً﴾؛ بأن جعل له شريكاً، ﴿أو كذّب بالحق﴾؛ الرسول ﷺ، أو: الكتاب، ﴿لمَّا جاءه﴾ أى: لم يتلعثموا فى تكذيبه لمّا سمعوه، وفى «لمّا»، المقتضية للاتصال، تسفيه لرأيهم، حيث لم يتوقفوا ولم يتأملوا قط حين جاءهم، بل سارعوا إلى التكذيب أول ما سمعوه. ﴿أليس في جهنم مَثْوىً﴾؛ مقاماً ﴿للكافرين﴾، وهو تقرير لمثواهم فى جهنم، لأن همزة الإنكار، إذا دخلت على النفى، صار إثباتا، كقوله:

أَلَسْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ المطايا(١)

أى: أنتم خير من ركب المطايا، والتقدير: ألا يستوجبون الثوى فيها؟ وقد افتروا مثل هذه العظيمة، كذبوا على الله وكذّبوا بالحق الذى جاء من عنده، أو: ألم يصح عندهم أن فى جهنم مثوى للكافرين؟ حين اجترأوا مثل هذه الجرأة، بل لهم فيها مثوى وإقامة. وهذه الآية فى مقابلة قوله: ﴿لنبوئنَّهم من الجنة غُرفاً﴾(٢). لا سيما فى قراءة الثاء. والله تعالى أعلم.

---

(١) هذا شطر بيت.. وبقيته: وأَنْدَى العالمين بُطُون رَاحِ؟

(٢) من الآية ٥٨ من سورة العنكبوت.

الإشارة: الحرم الآمن، فى هذه الدار، هو التبتل والانقطاع عن الدنيا وأبنائها، والتجريد من أسبابها، فمن دخله أَمِنَ ظاهراً وباطناً، ومن هجرها، وترك الناس حوله يتخطفون ويتهارجون عليها، وهو يتفرج عليهم، فالدنيا جيفة والناس كلابها، فإن خالطتهم ناهشوك، وإن تركت لهم جيفتهم سلِمتَ منهم، فمن كذَّب بهذا فقد كذَّب بالحق وآمن بالباطل، فلا أحد أظلم منه. وبالله التوفيق.

ثم ذكر مآل أهل الجد والاجتهاد ممن تبتل وانقطع إلى الله فقال:

﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ والذين جاهدوا فينا ﴾، أطلق المجاهدة ولم يُقيدها بمفعول؛ ليتناول من تجب مجاهدته من النفس والشيطان وأعداء الدين، أى: جاهدوا نفوسَهم فى طلبنا، أو فى حقنا، ومن أجلنا، ولوجهنا، خالصاً، ﴿ لنهدينهم سُبلنا ﴾ أى: طُرق السير إلينا، والوصول إلى حضرتنا، أو لنسهلنهم فعل الخير حتى يصلوا إلى جنابنا.

وعن الداراني: والذين جاهدوا بأن عملوا بما علموا، لنهدينهم إلى علم مالم يعلموا. وقال الفضيل: والذين جاهدوا فى طلب العلم، أى: لله، لنهدينهم سبل العمل. وقال سهل: والذين جاهدوا فى إقامة السُّنَّة، لنهدينهم سبل الجنة. وقال ابن عطاء: جاهدوا فى إرضائنا؛ لنهدينهم سبل الوصول إلى محل الرضوان. وقال ابن عباس: جاهدوا فى طاعتنا لنهدينهم سُبل ثوابنا.

وقال الجنيد: جاهدوا فى التوبة، لنهدينهم سُبل الإخلاص، أو: جاهدوا فى خدمتنا؛ لنمنحنهم سبل المناجاة معنا والأنس بنا، ﴿ وإن الله لمع المحسنين ﴾ بالنصر والمعونة فى الدنيا، وبالثواب والمغفرة فى العُقبى. والله تعالى أعلم.

الإشارة: المجاهدة، على قدرها تكون المشاهدة، فمن لا مجاهدة له لا مشاهدة له. وبالمجاهدة تميزت الخصوص من العموم، وبها تحقق سير السائرين، فالعموم وقفوا مع موافقة حظوظهم؛ من الجاه والغنى وغيره، والخصوص خالفوا نفوسهم، ورفضوا حظوظهم، وخرقوا عوائدهم، فَخُرِقَتْ لهم العوائد، وانكشفت عنهم الحجب، وشاهدوا المحبوب. فجاهدوا أولاً فى ترك الدنيا، وتحملوا مرارة الفقر، حتى تحققوا بمقام التوكل، ثم جاهدوا فى ترك الجاه والرئاسة، فتحققوا بالخمول، وهو أساس الإخلاص، ثم جاهدوا فى مخالفة النفس، فَحمَّلوها كل ما يثقل

عليها، وأخرجوها من كل ما تهواه ويخف عليها، وارتكبوا في ذلك أهوالاً وأحوالاً صِعَاباً، حتى ماتت نفوسهم مَوْتَاتٍ، فتحقق بذلك حياة أرواحهم، وأشرفت على البحر الزاخر، بحر التوحيد الخاص، فغابت ظلال الأكوان حين أشرقت شمس العيان، ففنى من لم يكن، وبقى من لم يزل، فدخلوا جنة المعارف، ولم يشتاقوا قط إلى جنة الزخارف؛ لأنها منطوية فيها. ولابد من صحبة شيخ كامل، قد سلك هذه المسالك، يلقيه زمام نفسه، حتى يوصله إلى ربه، وإلا أتعب نفسه بلا فائدة.

وقوله تعالى: ﴿وإن الله لمع المحسنين﴾؛ تهوينٌ وتسهيلٌ على السائرين أَمْرَ نفوسِهِمْ ومجاهدَتَهَا، إذا علموا أن الله معهم، هان عليهم كل صعب، وقَرُبَ كل بعيد. وبالله التوفيق. ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم. وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

❁ ❁ ❁

سُورَةُ الرُّومِ

مكية؛ اتفاقاً، وقيل: إلى قوله: ﴿فسبحان الله..﴾[1] الخ. وهى تسع وخمسون، أو ستون، آية. ومناسبتها لما قبلها: أن نتيجة المعية التى ذكرها بقوله: ﴿وإن الله لمع المحسنين﴾ هى النصر والعز الذى بشر به المؤمنين فى صدر السورة بقوله: ﴿ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله..﴾ الخ. قال تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ
﴿٣﴾ فِى بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ
﴿٤﴾ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ
وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ
هُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: بعد التسمية: ﴿الٓمٓ﴾ أى: أيها المصطفى، أو: المرسل، ﴿غُلبت الرومُ﴾ أى: غلبت فارسُ الرومَ ﴿في أدنَى الأرضِ﴾ أى: فى أقرب أرض العرب؛ لأن الأرض المعهودة عند العرب أرضهم، أى: غلبوا فى أدنى أرض العرب منهم، وهى أطراف الشام. أو: أراد أرضهم، على إنابة اللام مناب المضاف إليه، أى: فى أدنى أرضهم إلى عدوِّهم. قال ابن عطية: قرأ الجمهور: «غُلبت»؛ بضم الغين. وقالوا: معنى الآية: أنه بلغ أهل مكة أن الملك كسرى هزمَ جيشَ الروم بأذرعات، وهى أدنى أرض الروم إلى مكة، فسُر لذلك كفارُ قريش، فبشر المؤمنين بأن الروم سيغلبون. هـ. وهذا معنى قوله: ﴿وهم﴾ أى: الروم ﴿من بعد غَلَبِهم﴾، وقرئ: بسكون اللام؛ كالحلَب والحلْب، وهو من إضافة المصدر إلى المفعول، أى: وهم من بعد غلبة فارس إياهم ﴿سيَغلِبون﴾ فارس، وتكون الدولة لهم.

(١) الآية ١٧ من السورة.

وذلك ﴿ في بِضْعِ سنين ﴾ ، وهو ما بين الثلاث إلى العشر. قال النسفى: قيل: احتربت الروم [وفارس](١)، بين أذرعاتٍ وبُصرى، فغلبت فارسُ الروم، والمَلِكُ بفارس، يومئذ، كسرى «أبرويز»، فبلغ الخبر مكة، فشقّ ذلك على رسول الله ﷺ والمؤمنين؛ لأنّ فارسَ مجوسٌ؛ لا كتاب لهم، والروم أهل كتاب، وفرح المشركون [وشمتوا](٢)، وقالوا: أنتم والنصارى أهل الكتاب، ونحن وفارس أُمّيّون، وقد ظهر إخواننا على إخوانكم، ولنظهرنّ نحن عليكم، فنزلت الآية. فقال أبوبكر: والله ليَظْهَرَنّ الروم على فارس بعد بضع سنين، فقال له أُبَيُّ بنُ خلف: كذبت، فناحبه - أي: قامره - على عشر قلائص من كل واحد منهما، وجعل ثلاث سنين، فأخبر أبو بكر رسولَ الله ﷺ، فقال - عليه الصلاة والسلام ـ : «زِدْ في الخطر وأبعد في الأجل». فجعلاها مائة قلوص إلى تسع سنين، ومات أبيّ من جرح رسول الله ﷺ يوم أُحد، وظهرت الروم على فارس يوم الحديبية، أو: يوم بدر، فأخذ أبو بكر الخطر من ذرية أُبَيّ، فقال عليه الصلاة والسلام ـ : «تصدّقْ به»(٣).

وهذه آية بينة على صحة نبوته، وأن القرآن من عند الله؛ لأنها إنباء عن علم الغيب. وكان ذلك قبل تحريم القمار، [عن](٤) قتادة. ومذهب أبي حنيفة ومحمد - رضى الله عنهما -: أن العقود الفاسدة؛ كعقد الربا وغيره، جائز في دار الحرب بين المسلمين والكفار، واحتجا بهذ القصة. هـ. زاد البيضاوى: وأجيب بأنه كان قبل تحريم القمار. هـ. وقرئ: «غلبت» بالفتح، و«سيُغلبون» بالضم، ومعناه: أن الروم غلبوا على ريف الشام، وسيغلبهم المسلمون، وقد غزاهم المسلمون في السنة التاسعة من نزولها، وفتحوا بعض بلادهم، وعلى هذا يكون إضافة الغلَب إلى الفاعل.

﴿ لله الأمرُ من قبلُ ومن بعد ﴾ أي: من قبل كل شيء، ومن بعد كل شيء. أو: من قبل الغلبة وبعدها، كأنه قيل: من قبل كونهم غالبين ـ وقبله: هو وقت كونهم مغلوبين ـ ومن بعد كونهم مغلوبين ـ وهو وقت كونهم غالبين، يعنى: أن كونهم مغلوبين أولاً، وغالبين آخراً، ليس إلا بأمر الله وقضائه. ﴿ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ﴾(٥). ﴿ ويومئذٍ ﴾ أي: ويوم تغلب الرومُ فارسَ، ويحل ما وعده الله من غلبتهم، ﴿ يفرح المؤمنون بنصر الله ﴾ ، وتغلب من له كتاب على مَن لاكتاب له، وغيظ من شمت بهم من أهل مكة.

---

(١) ما بين المعقوفتين ليس فى الأصول، وأثبته من تفسير النسفى. (٢) فى الأصول: [شتموا].

(٣) أخرجه بنحوه ابن جرير (٢١/١٧ ـ ١٨) عن عكرمة، وجاءت القصة بسياقات وروايات متعددة. أخرجها أحمد (١/٢٧٦ ـ ٣٠٤)، والترمذى فى (تفسير سورة الروم، ٥/٣٢١ ح ٣١٩٣ ـ ٣١٩٤)، وابن جرير (٢١/١٦ ـ ١٨)، والطبرانى فى الكبير (١٢/٢٩ ح ١٢٣٧٧) والحاكم (٢/٤١٠)، وانظر الدر المنثور (٥/٢٨٩ـ٢٩٢).

(٤) فى الأصول [قال]، والمثبت من تفسير النسفى.

(٥) من الآية ١٤٠ من سورة آل عمران.

وقيل: نصر الله: هو إظهار صدق المؤمنين، بما أخبروا به المشركين من غلبة الروم. ﴿ ينصرُ من يشاء ﴾ فينصر هؤلاء تارة وهؤلاء أخرى، ﴿ وهو العزيزُ ﴾: الغالب على أعدائه ﴿ الرحيمُ ﴾: العاطف على أوليائه.

﴿ وَعْدَ الله ﴾ أى: وعد ذلك وعداً، فسينجزه لامحالة، فهو مصدر مؤكِّد لِمَا قبله؛ لأن قوله: ﴿سيغلبون﴾ وعد، ﴿ لايُخْلِفُ الله وعْدَهُ ﴾؛ لامتناع الكذب عليه تعالى، فلابد من نصر الروم على فارس. ﴿ ولكنَّ أكثرَ الناسِ لايعلمون ﴾ صحة وعده، وأنه لايُخلف، أو: لايعلمون أن الأمور كلها بيد الله؛ لجهلهم وعدم تفكرهم. وإنما ﴿ يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا ﴾؛ مايشاهدونه منها ومن التمتع بزخارفها. وفيه دليل أن للدنيا ظاهراً وباطناً، فظاهرها: ما يعرفه الجهّال من التمتع بزخارفها. قال بعض الحكماء: إن كنت من أهل الاستبصار فألق ناظرك عن زخارف هذه الدار، فإنها مجمع الأكدار، ومنبع المضار، وسجن الإبرار، ومجلس الأشرار، الدنيا كالحية، تجمع سموم نوائبها، وتفرغه فى صميم قلوب أبنائها. هـ. وباطنها: أنها مجاز إلى الآخرة، يتزودون منها إليها بالأعمال الصالحة وتحقيق المعرفة. وتنكير (ظاهرا): مُفيدٌ أنهم لايعلمون إلا ظاهراً واحداً من جملة ظواهرها.﴿ وهم عن الآخرة هم غافلون ﴾؛ لا تخطر ببالهم، ولا يتفكرون فى أهوالها ونوائبها. فهم، الثانية: مبتدأ، و(غافلون): خبره، والجملة: خبر الأولى، وفيه تنبيه أنهم معدن الغفلة ومقرّها. والله تعالى أعلم.

الإشارة: كما تقع الدولة بين الأشباح، تقع بين النفوس والأرواح. فتارة تغلب النفوس بظلماتها على الأرواح، فتحجبها عن الله، وتارة تغلب الأرواح بأنوارها على النفوس، فتستر ظلمة حظوظها، ويرتفع الحجاب بين الله وعبده. آلم، غُلبت أنوار الأرواح بظلمة كثائف النفوس، فى أدنى أرض العبودية، وهم من بعد غلبهم سيغلبون، فتغلب أنوار الأرواح المطهرة، على ظلمة النفوس الظلمانية، وذلك فى بضع سنين، مدة المجاهدة، والبِضع: من ثلاث إلى عَشر، على قدر الجد والاجتهاد، وعلى قدر تفاوت النفوس والطبع، فمنهم من يظفر بنفسه فى مدة يسيره، ومنهم من يظفر بعد مدة طويلة. لله الأمر من قبلُ ومن بعدُ، ويومئذ يفرح المؤمنون السائرون بنصر الله، حيث نصرهم على نفوسهم، فظفروا بها. ينصر من شاء حيث يشاء، وهو العزيز الرحيم. قال بعضهم: أنتهى سير السائرين إلى الظفر بنفوسهم، فإن ظفروا بها وصلوا. هـ.

وقال الورتجبى: قوله: ﴿غُلبت الروم..﴾ الآية، إشارة إلى أن الأرواح، وإن كانت مغلوبة من النفوس الأمارة، والشياطين الكافرة؛ امتحاناً من الله، وتربيةً لها بمباشرة القهريات، فإنها تغلب على النفوس، من حين تخرج من مقام الاختيار. انظر تمامه. وقال القشيرى: قوله تعالى: ﴿يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا﴾: استغراقُهم فى الاشتغال بالدنيا، وانهماكهم بما منعهم عن العلم بالآخرة. وقيمة كل امرىءٍ عِلْمُه؛ كما فى الأثر عن علىّ رضي الله عنه. قال:

وَقِيمَةُ كُلِّ امْرِىءٍ مَا كَانَ يُتْقِنُهُ   والجاهلون لأهلِ العِلْمِ أعداءُ

فأهل الدنيا فى غفلة عن الآخرة، والمشتغلون بعلم الآخرة، هم بوجودها، فى غفلة عن الله. هـ. قلت: وأهل المعرفة بالله لم يشغلهم عنه دنيا ولا آخرة. والله تعالى أعلم

ثم أمر بالتفكر، فقال:

﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴿٨﴾ ﴾

قلت: «في أنفسهم»: يحتمل أن يكون ظرفاً، أى: أَوَ لَمْ يحدثوا التفكر فيها، وأن تكون صلة للتفكر، نحو: تفكر فى الأمر: أجال فيه فكره. والأول أظهر.

يقول الحق جل جلاله: ﴿أَوَ لَمْ يَتَفكَّروا فى أنفسهم﴾ أى: أَوَ لَمْ يثبتوا التفكر فى أنفسهم، أى: فى قلوبهم الفارغة، فيتفكروا بها فى مصنوعات الله، حتى يعلموا أنها ما خُلِقَتْ عبثاً، والتفكر لا يكون إلا فى القلوب، ولكن زيادة تصوير لحال المتفكرين، كقوله: اعتقده فى قلبك. أو: أَوَ لَمْ يتفكروا فى أنفسهم، التى هى أقرب إليهم من غيرها، وهم أعلم بأحوالها، فيتدبروا ما أودعها الله تعالى، ظاهراً وباطناً، من غرائب الحكمة الدالة على التدبير من الحكيم القديم، وأنه لابد لها من الانتهاء إلى وقت تجازى فيه، على الإحسان إحسانا، وعلى الإساءة مثلها، حتى يعلموا، عند ذلك، أن سائر الخلائق مثلها ،وأنه لابُدَّ لهم من الانتهاء إلى ذلك الوقت، فيعلموا أن ﴿ما خَلَقَ اللهُ السمواتِ والأرض وما بينهما إلا بالحقِ وأَجَلٍ مُّسَمّىً﴾ أى: ماخلقها باطلاً وعبثاً من غير حكمة، ولا لتبقى خالدة، وإنما خلقها مقرونة بالحق، مصحوبة بالحكمة البالغة، وتنتهى إلى أجل مسمى، وهو قيامُ الساعة، ووقت الحساب، بالثواب والعقاب، فيخرب هذا العالم، ويقوم عالم آخر، لا انتهاء لوجوده.

قال فى الحاشية الفاسية: وبالجملة: فخلقُ السموات والأرض؛ للدلالة على التوحيد بوجودهما، وعلى الآخرة بفنائهما، وانقضاء أجلهما. ثم قال: والحاصل أن خلقه بمقتضى الحكمة يقتضى جزاء أوليائه، وتعذيب أعدائه. وقد نصب تعالى القلب شاهداً ومُنزلاً منزلة الآخرة، والقالب منزلة الدنيا، وكما أن عمل القالب يعود نفعه، إذا فعل الطاعة، على القلب؛ بالتنوير والتقريب لحضرة الربوبية، ويعود ضرره عليه، إذا فعل ضد ذلك، كما يعرفه أهل القلوب، وأنه مزرعة للقلب، ولابقاء له، وإنما خلق لقضاء ذلك، فكذلك الدنيا مزرعة للآخرة، وإنما خلقت لذلك، كما يعرفه أهل القلوب والبصائر الصافية السالمة، فاعتبر ذلك. هـ.

﴿ وإن كثيراً من الناس بلقاء ربهم ﴾؛ بالبعث والجزاء ﴿ لكافرون ﴾: لجاحدون.

الإشارة: قد تقدم الكلام على فضل التفكر في آل عمران(١). وقوله تعالى: ﴿إلا بالحق﴾ أى: ما خلق الكائنات إلا بالحق، من الحق إلى الحق، فهى من تجليات الحق، ثابتة بإثباته، ممحوة بأحدية ذاته، فالحق عبارة عن عين الذات عند أهل الحق، فافهم.

ثم قال؛ زيادة فى الأمر بالاعتبار، أو: تقول: لمّا ذكر علمهم بظاهر الحياة الدنيا، ذكر أن مَن قبلهم كانوا أعلم بها، ولم ينفعهم مع التكذيب، فقال:

﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ۖ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٩) ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَىٰ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ (١٠) ﴾

قلت: من رفع «عاقبة الذين أساءوا»؛ فالسوأى: منصوب خبر كان، ومن نصب «عاقبة»؛ فالسُّوأى: مرفوع اسمها، أو: مصدر لأساءوا. انظر البيضاوى. والسُّوأى: تأنيث أسوأ. و(أن كذبوا): مفعول من أجله، أو: بدل، على أن معنى (أساءوا): كفروا.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ أو لَمْ يسيروا ﴾ أى: أعَمُوا ولم يسيروا ﴿ فى الأرض ﴾، ثم قرره بقوله: ﴿ فينظروا كيف كان عاقبةُ الذين مِن قبلهم ﴾ أى: فينظروا إلى آثار الذين من قبلهم؛ كيف دمرهم الله، وأخلا بلادهم، وبقيت دارسة بعدهم، كعاد وثمود، وغيرهم من الأمم العاتية، والجبابرة الطاغية، ﴿ كانوا أشدَّ منهم قوةً ﴾ حتى كان منهم من يفتل الحديد بيده، ﴿ وأثاروا الأرض ﴾؛ قلبوا وجهها بالحراثة، واستنباط المياه، واستخراج المعادن، وغير ذلك. ﴿ وعمَروها ﴾ أى: عمرَ المدمَّرون الأرض ﴿ أكثرَ مما عَمَروها ﴾ أى: أهل مكة. فأكثر: صفة لمصدر محذوف. و(ما): مصدرية، أى: عمارة هؤلاء، فإنهم أهل واد غير ذى زرع، ولاتَبَسُّطَ لهم فى غيرها. وفيه تهكم بهم؛ من حيث إنهم عمروا الأرض، مغترون بالدنيا، مفتخرون بها، وهم أضعف حالاً فيها؛

(١) راجع تفسير الآيات: ١٩١-١٩٤ من سورة آل عمران، ص ٤٥١ - ٤٥٢ من المجلد الأول.

إذ مدار أمرها على التبسّط فى البلاد، والتسلط على العباد، والتصرف فى أقطار الأرض بأنواع العمرة، وهم ضعفاء مُلْجأون إلى واد لانفع فيه. قال البيضاوى.

﴿ وجاءتهم رسلُهم بالبينات ﴾؛ بالمعجزات الواضحات، فلم يؤمنوا؛ فأُهلكوا، ﴿ فما كان الله ليظلمهم ﴾؛ بأن دمرهم بلا سبب، أو: من غير إعذار، ﴿ ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾؛ حيث ارتكبوا ما أدى إلى تدميرهم.

﴿ ثم كان عاقبةُ الذين أساءوا ﴾ بالكفر والمعاصى ﴿ السُّوأى ﴾ أى: العقوبة السوأى، والأصل: ثم كان عاقبتهم، فوضع الظاهر موضع المضمر؛ للدلالة على ما اقتضى أن تكون تلك عاقبتهم، وهو إساءتهم. والمعنى: أنهم عوقبوا فى الدنيا بالدمار، ثم كان عاقبتهم فى الآخرة العقوبة التى هى أسوأ العقوبات، وهى النار التى أُعدت للكافرين. لأجل ﴿ أن كذَّبوا ﴾ أو: بأن كذّبوا ﴿ بآيات الله ﴾ الدالة على صدق رسله، أو: على وحدانيته. ﴿ وكانوا بها يستهزؤون ﴾؛ حيث قابلوها بالتكذيب، أو: غفلوا عن التفكر فيها. أو: ثم كان عاقبة الذين اقترفوا الخطيئة السُّوأى أن طبع الله على قلوبهم، حتى كذّبوا بالآيات، واستهزءوا بها. أو: ثم كان عاقبة الذين فعلوا الفعلة السوأى، وهو أن كذّبوا واستهزءوا، أن يلحقهم ما تعجز عنه نطاق العبارة، فخبر كان، على هذا: محذوف؛ للتهويل. و(أن كذبوا): بيان، أو: بدل من السوأى. والله تعالى أعلم.

الإشارة: السير إلى الله على أقسام: سَيْرُ النفوس: بإقامة عبادة الجوارح؛ لطلب الأجور، وسَيْرُ القلوب: بجَوَلاَنها فى ميادين الأغيار، للتبصر والاعتبار؛ طلباً للحضور، وسير الأرواح: بجولان الفكرة فى ميادين الأنوار؛ طلباً لرفع الستور ودوام الحضور، وسير الأسرار: الترقى فى أسرار الجبروت، بعد التمكن من شهود أنوار الملكوت على سبيل الدوام. قال القشيرى: سَيْرُ النفوس فى أوطان الأرض ومناكبها لأداء العبادات، وسَيْرُ القلوب بجَوَلاَنِ الفكْرِ فى جميع المخلوقات، وغايته: الظَّفَرُ بحقائق العلوم التى توجبُ ثَلج الصدور – ثم تلك العلوم على درجات. وسَيْرُ الأرواح فى ميادين الغيب: بنَعْتِ خَرْقِ سُرَادِقَاتِ الملكوت. وقُصَاراه: الوصولُ إلى ساحل الشهود، واستيلاء سلطان الحقيقة. وسَيْرُ الأسرار: بالترقى – أي: الغيبة – عن الحِدْثان بأَسْرِها، والتحقق، أولاً، بالصفات، ثم بالخمود، بالكلية، عمّا سوى الحق. هـ.

وقال فى قوله: ﴿ثم كان عاقبة الذين أساءوا السُّوأى﴾: من زَرَعَ الشوكَ لم يحصُد الوَرْدَ، ومَنْ أستنبت الحشيش لم يقطف البهار، ومَنْ سلكَ سبيل الغيّ لم يَحُلَّ بساحة الرشد. هـ.

ثم ذكر شأن البعث الذى هو عاقبة المسيء والمحسن، فقال:

﴿ ٱللَّهُ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَٰٓؤُاْ وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمْ

كَـٰفِرِينَ ﴿١٣﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟
بِـَٔايَـٰتِنَا وَلِقَآئِ ٱلْـَٔاخِرَةِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ الله يَبدأ الخلقَ ﴾؛ ينشئهم، ﴿ ثم يُعيده ﴾؛ يحييهم بعد الموت، ﴿ ثم إليه تُرْجَعون ﴾؛ للجزاء؛ بالثواب والعقاب. والالتفات إلى الخطاب؛ للمبالغة فى إثباته. وقرأ أبو عمرو وسهل وروح: بالغيب ،على الأصل. ﴿ ويوم تقوم الساعة يُبْلِسُ ﴾: ييأس ويتحير ﴿ المجرمون ﴾؛ المشركون؛ يُقال: ناظرته فأبلس، أى: أُفْحِمَ وأَيِسَ من الحجة، أو: يسكتون متحيرين، ﴿ ولم يكنْ لهم من شركائهم ﴾ التى عبدوها من دون الله ﴿ شفعاء ﴾ يشفعون لهم ويجيرونهم من النار، ﴿ وكانوا بشركائهم كافرين ﴾؛ جاحدين لها، متبرئين من عبادتها، حين أيسوا من نفعها. أو: كانوا فى الدنيا كافرين بسبب عبادتها.

﴿ ويوم تقوم الساعةُ يومئذٍ يتفرقون ﴾ أى: المسلمون والكافرون، بدليل قوله: ﴿ فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم في روضة ﴾، أى: بستان ذى أزهار وأنهار، وهى الجنة. والتنكير؛ لإبهام أمرها وتفخيمه، ﴿ يُحْبَرون ﴾: يُسرّون، يقال: حبره، إذا سرّه سروراً تهلّل به وجهه، وظهر فيه أثره.

ووجوه المسار كثيرة، فقيل: يُكرمون، وقيل: يُحلّون. وقيل: هو السماع فى الجنة. قاله غير واحد. قال أبو الدرداء: كان عليه الصلاة والسلام يذكّر الناس بنعيم الجنان؛ فقيل: يارسول الله؛ هل فى الجنة من سماع؟ قال: «نعم، إنّ في الجنة لنهراً حَافتاهُ الأبكار مِنْ كُل بَيْضَاءَ خَمْصانة، يتغنَّيْنَ بأصواتٍ لَمْ تَسْمَعِ الخلائقُ بمثْلها قطُّ، فَذَلك أفْضَلُ نعيم أهلِ الجنّة.» قال الراوى: فسألت أبا الدرداء: بم يتغنين؟ قال: بالتسبيح إن شاء الله(١). والخمصانة: المرهفة الأعلى، الضخمة الأسفل. هـ. انظر الثعلبى. وذكر غيره أن هذا السماع يكون فى نُزْهَةٍ تكون لأهل الجنة على شاطئ هذا النهر، وقد ذكرناها فى شرحنا الكبير على الفاتحة.

﴿ وأما الذين كفروا وكذّبوا بآياتنا ولقاءِ الآخرة ﴾؛ بالبعث ﴿ فأولئك في العذاب مُحضرون ﴾: مقيمون، لايغيبون عنه. عائذاً بالله من غضبه.

(١) ذكره القرطبى فى التفسير (٦/٥٢٤٣)، وعزاه للثعلبى، من حديث أبى الدرداء، وأخرجه، بنحوه، البيهقى فى البعث والنشور (٤٢٥) من حديث أبى هريرة موقوفاً.

الإشارة: من اعتمد على غير الله، أو ركن إلى شيء سواه، فهو مجرم عند الخصوص، وذلك الشيء الذي ركن إليه صنم في حقه، يتبرأ منه يوم القيامة، وييأس من نفعه، ﴿ويوم تقوم الساعة يُبلس المجرمون﴾: الآية. ﴿ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون﴾؛ فريقٌ هم أهل الوصلة، وفريق هم أهل القطعة، فريق في المنة، وفريق في المحنة، فريق في السرور، وفريق في الثبور، فريقٌ في الثواب، وفريق في العقاب، فريق في الفراق، وفريق في التلاق. قاله القشيري. وإذا كان الأمر هكذا، فَجِدَّ، أيها المؤمن، في طاعة مولاك، وأكثِرْ من ذكره، صباحاً ومساءً، وليلاً ونهاراً؛ لتنال ذلك الوعد، وتَنْجو من الوعيد، كما أبان ذلك بقوله:

﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾ ﴾

قلت: «فسبحان»: مصدر لمحذوف، أي: سبحوا سبحان. و(حين): متعلق بذلك المحذوف، وجملة: (وله الحمد): معترضة بين معطوفات الظروف. و(في السموات): حال من الحمد، أي: وله، على عباده، الحمد؛ كائناً في السموات.. الخ.

يقول الحق جل جلاله: ﴿فسبحانَ الله﴾ أي: فسبِّحوا الله ونزّهوه تنزيهاً يليق به في هذه الأوقات التي تظهر فيها قدرته، وتجدد فيها نعمه، وهي ﴿حين تُمسون﴾؛ تدخلون في المساء، ﴿وحين تُصبحون﴾؛ تدخلون في الصباح. ﴿وله الحمدُ في السموات والأرض﴾ أي: وله، على المميِّزين كلهم، من أهل السموات والأرض، أن يحمدوه، ﴿وعشياً﴾ أي: وسبحوه عشياً؛ آخر النهار، ﴿وحين تُظْهِرُون﴾؛ تدخلون في وقت الظهيرة.

قال البيضاوي: وتخصيص التسبيح بالمساء والصباح؛ لأن آثار العظمة والقدرة فيهما أظهر، وتخصيص الحمد بالعشي ـ الذي هو آخر النهار، من عشي العين؛ إذا نقص نورها ـ والظهيرة ـ التي هي وسطه؛ لأن تجدد النعم فيها أكثر. ويجوز أن يكون ﴿عَشِيّاً﴾ معطوفاً على ﴿حين تُمسون﴾، وقوله: ﴿وله الحمد..﴾ الخ ـ اعتراضاً. وعن ابن عباس: الآيةُ جامعة للصلوات الخمس، (تُمسون): صلاتا المغرب والعشاء، (تصبحون): صلاة الفجر، (وعشياً): صلاة العصر، (وتُظهرون): صلاة الظهر[١]. ولذلك زعم الحسن أنها مَدَنيَّةٌ؛ لأنه كان يقول:

(١) أخرجه ابن جرير في التفسير (٢١/٢٩)، والطبراني في الكبير (١٠/٣٠٤ ح ١٠٥٩٦)، والحاكم في المستدرك (٢/٤٠١)، وصححه، ووافقه الذهبي.

كان الواجب عليه بمكة ركعتين، في أي وقت اتفقت، وإنما فرضت الخمس بالمدينة. والأكثر على أنها فرضت بمكة. هـ.

ثم ذكر وجه استحقاقه للحمد والتنزيه بقوله: ﴿ يُخرج الحيَّ من الميت ﴾، الطائر من البيضة، والإنسان من النطفة، أو: المؤمن من الكافر، والعالم من الجاهل. ﴿ ويُخرج الميتَ من الحيِّ ﴾، البيضة من الطائر، والنطفة من الإنسان، أو: الكافر من المؤمن، والجاهل من العالم. ﴿ ويحيي الأرضَ ﴾ بالنبات ﴿ بعد موتها ﴾ بيبسها، ﴿ وكذلك تخرجون ﴾، والمعنى: أن الإبداء والإعادة متساويان في قدرة مَن هو قادر على إخراج الحي من الميت، وعكسه.

رُوي عن ابن عباس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من قرأ ﴿ فسبحان الله حين تمسون ﴾.. إلى الثلاث آيات، وآخر سورة الصافات: ﴿ سبحان ربك رب العزة.. ﴾ الخ.. دُبُرَ كُلِّ صلاة، كتب له من الحسنات عدد نجوم السماء، وقطر الأمطار، وورق الأشجار، وتراب الأرض. فإذا مات؛ أجرى له بكل لفظ عشر حسنات في قبره»(١) نقله الثعلبي والنسفي. وعنه - عليه الصلاة والسلام: «مَن قَالَ حِينَ يُصْبِحُ: ﴿فسُبْحانَ اللهِ حِينَ تُمْسُونَ﴾.. إلى قوله: ﴿وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾؛ أدْرَكَ ما فَاتَهُ في يومِهِ، ومن قاله حين يُمْسِي؛ أدْرَكَ مَا فَاتَهُ في لَيْلَتِهِ»(٢). رواه أبو داود.

وقال الضحاك: من قال: ﴿فسبحان الله حين تمسون..﴾ الخ؛ كان له كعدل مائتي رقبة من ولد إسماعيل. هـ. زاد كعب: ولم يفته خيرٌ كان في يومه، ولايدركه شر كان فيه. وإن قالها في المساء؛ فكذلك. وكان إبراهيم الخليل عليه السلام يقرأها ست مرات في كل يوم وليلة. هـ.

الإشارة: أما وجه الأمر بالتنزيه حين المساء والصباح؛ فلأنَّ المجوس كانوا يسجدون للشمس في هذين الوقتين؛ تسليماً وتوديعاً، فأمر الحق تعالى المؤمنين أن ينزهوه عمن يستحق العبادة معه، وأما العشي؛ فلأنه وقت غفلة الناس في جمع حوائجهم، وأما وقت الظهيرة؛ فلأن جهنم تشتعل فيه؛ كما في الحديث، وأمر بحمده والثناء عليه في كل وقت؛ لما غمرهم من النعَم الظاهرة والباطنة.

قال القشيري: فمن كان صباحُه بالله؛ بُورِكَ له في يومه، ومن كان مساؤه بالله؛ بورك له في ليلته، وأنشدوا:

وإنَّ صباحاً نلتقي في مسائه صَبَاحٌ على قلب الغريب حبيبُ(٣)

---

(١) انظر: تفسير النسفي (٢/٦٩٥).
(٢) أخرجه أبو داود في (الأدب، باب ما يقول إذا أصبح، ٥/٣١٦، ح ٥٠٧٦)، والطبراني في الكبير (١٢/٢٣٩ ح ١٢٩٩١)، وابن السُّني في عمل اليوم والليلة (ح ٥٥) من حديث ابن عباس رضي الله عنه. قال الحافظ ابن كثير في تفسيره (٣/٤٢٨): إسناده جيد.
(٣) البيت: لإبراهيم بن المهدي، يذكر ابنه. انظر الكامل للمبرد (٢/٣١٤)، وفيه: صباح إلى قلبي، الغداة، حبيب.

شتَّان بين عبد: صباحُه مُفتَتَحٌ بعبادته، ومساؤه مُخْتَتَمٌ بطاعته، وبين عبدٍ: صباحه مُفتتح بمشاهدته، ورواحه مختتم بعزيز رؤيته. قلت: الأول من عامة الأبرار، والثانى من خاصة العارفين الكبار، وبقى مقام الغافلين، وهو: من كان صباحه مفتتح بهم نفسه، ومساؤه مختتم برؤية حسه، ثم ذكر احتمال الصلوات الخمس فى الآية، كما تقدم – ثم قال: وأراد الحق من أوليائه أن يجددوا العبودية فى اليوم والليلة خمس مرات، فيقف على بساط المناجاة، ويستدرك مافاته بين الصلاتين من صوارف الزلات. هـ.

وقوله تعالى: ﴿يُخرج الحى من الميت﴾ يُخرج الذاكر من الغافل، والغافل من الذاكر، والعارف من الجاهل، والجاهل من العارف، ويُحيى أرض النفوس باليقظة والمعرفة، بعد موتها بالغفلة والجهل، وكذلك تُخرجون من قبوركم على مامتم عليه، من معرفة أو جهل، من يقظة أو غفلة، يموت المرء على ما عاش عليه، ويبعث على ما مات عليه. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر دلائل البعث والخروج، فقال:

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ومن آياته﴾ الدالة على قدرته، الشاملة للبعث وغيره، أو: ومن علامات ربوبيته: ﴿أن خلقكم﴾ أى: أباكم ﴿من تراب﴾؛ لأن أصل الإنشاء منه، ﴿ثم إذا أنتم بشر تنتشرون﴾ أى: ثم فاجأتم وقت كونكم بشراً منتشرين فى الأرض، آدم وذريته. ﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها﴾؛ لأن حواء خُلقت من ضلع آدم، والنساء بعدها خُلقن من أصلاب الرجال. أو: من شكل أنفسكم وجنسها، لا مِنْ جنس آخر، وذلك لما بين الاثنين – إذْ كانَا من جنس واحد – من الألفة والمودة والسكون، وما بين الجنسين المختلفين من التنافر. ويقال سكن إليه: إذا مال إليه. ﴿وجعل بينكم مودة ورحمة﴾ أى: جعل بينكم التوادد والتراحم بسبب الزواج.

وعن الحسن: المودة كناية عن الجماع، والرحمة هى الولد. وقيل: المودّة للشابة الجميلة، والرحمة للعجوز، وقيل: المودة والرحمة من الله، والفَرْك من الشيطان – أى: البغض من الجانبين. ﴿إن فى ذلك لآياتٍ لقوم يتفكرون﴾؛ فيعلمون ما فى ذلك من الحِكم، وأن قوام الدنيا بوجود التناسل.

الإشارة: أصل نشأة البشرية من الطين، وأصل الروح من نور رب العالمين. فإذا غلبت الطينة على الروح جذبتها إلى عالم الطين، فكان همها الطين، وهوت إلى أسفل سافلين، فلا تجد فكرتها وحديثها، فى الغالب، إلا فى عالم الحس، ويكون عملها كله عَمَلَ الجوارح، يفنى بفنائها. وإذا غلبت الروحُ على الطينة؛ وذلك بدخول مقام الفناء، حتى تستولى المعانى على الحسيات. وتنخنس البشرية تحت سلطان أنوار الحقيقة، جذبتها إلى عالم الأنوار والأسرار، فلا تجد فكرتها إلا فى أنوار التوحيد وأسرار التفريد، وعملها كله قلبى وسرى، بين فكرة وإعتبار، وشهود واستبصار، يبقى مع الروح ببقائها، يجرى عليها بعد موت البشرية، ويبعث معها، كما تقدم فى الحديث: (يموت المرء...) الخ.

قال القشيرى: يقال: الأصل تُربة، ولكن العبرَة بالتربية لا بالتربة. هـ. قلت: إذ بالتربية تغلب الروح على البشرية، ثم قال: اصطفى الكعبة، فهى خير من الجنة، مع أن الجنة جواهر ويواقيت، والكعبة حجر ومدر، أى: كذلك المؤمن الكامل، وإن كان أصله من الطين، فهو أفضل من كثير من العوالم اللطيفة. ثم قال فى قوله تعالى: ﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً..﴾ الآية: ردَّ المِثْلَ إلى المِثْل، وربط الشكلَ بالشكل، وجعل سكونَ البعض إلى البعضِ، وذلك للأشباح والصُّورَ، والأرواح صحبت الأشباح؛ كرهاً لاطوعاً، وأما الأسرار فمُعْتَقَةٌ، لاتساكن الأطلال، ولاتتدنس بالأغيار. هـ.

قلت: وكأنه يشير إلى أن المودة التى انعقدت بين الزوجين إنما هى نفسية، لاروحانية، ولاسرية؛ إذ الروح والسر لايتصور منهما ميل إلى غير أسرار الذات العلية؛ إذ محبة الحق جذبتها عن الميل إلى شيء من السّوى. واختلف الصوفية: هل تُخِلُّ هذه المودة التى بين الزوجين بمحبة الحق، أم لا؟ فقال سهل رضي الله عنه: لاتضر الروح؛ لقوله ﷺ: «حُبب إلىَّ من دنياكم ثلاث..»(١) فذكر النساء، إذا كان على وجه الشفقة والرحمة، لا على غلبة الشهوة. وعلامة محبة الشفقة: أنه لايتغير عند فقْدها، ولايحزن بفواتها. وهذا هو الصحيح. والله تعالى أعلم.

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ

(١) لفظ «ثلاث» لم يرد ـ مطلقاً فى روايات الحديث الصحيحة. قال الحافظ ابن حجر: وليس فى شيء من طرقه «لفظ ثلاث»، وراجع تخريج هذا الحديث الشريف عند إشارة الآية ٤٥ من سورة العنكبوت.
(٢) انظر: مجمع الأمثال للميدانى ١/١٢٩.

خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾

قلت: (يُريكم البرق): فيه وجهان، أحدهما: إضمار «أن»؛ كما في حرف ابن مسعود، والثاني: تنزيل الفعل منزلة المصدر، كما قيل في قولهم، في المثل: «تَسْمَعَ بالمُعَيْديّ خَيْرٌ من أن تراه»(٢). أي: إن تسمع، أو: سماعك. و(خوفاً وطمعا): مفعولان له؛ على حذف مضاف، أي: إرادة خوف، وإرادة طمع، أو: على الحال، أي: خائفين وطامعين. و(إذا دعاكم): شرطية، و(إذا)، الثانية؛ فجائية، نابت عن الفاء. و(من الأرض): يتعلق بدعاكم.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ومن آياته﴾ الدالة على باهر قدرته ﴿خلقُ السموات والأرض﴾. قال القشيري: السموات في علوِّها، والأرض في دنوِّها، هذه بنجومها وكواكبها، وهذه بأقطارها ومناكبها، هذه بشمسها وقمرها، وهذه بمائها ومدرها، واختلاف لغات أهلها في الأرض، واختلاف تسبيح الملائكة ـ عليهم السلام ـ الذين هم سكان السماء. هـ. ﴿واختلافُ ألسنتكم﴾ باختلاف اللغات، وبأجناس النطق وأشكاله، ﴿وألوانكم﴾، كالسواد والبياض وغيرهما، حتى لاتكاد تجد شخصين متوافقين؛ إلا وبينهما نوع تخالف في اللسان واللون، وباختلاف ذلك وقع التعارفُ والتمايز، فلو توافقت وتشاكلت لوقع التجاهل والالتباس، ولتعطلت المصالح. وفي ذلك آية بينة، حيث وُلدوا من أب واحد، وهم على كثرتهم متفاوتون. ﴿إن في ذلك لآياتٍ للعالمين﴾؛ بفتح اللام وكسره(١). ويشهد للكسر قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ﴾(٢).

قال القشيري: واختصاص كلِّ شيء من هذه ببعض جائزات حكمها؛ شاهدُ عَدْلٍ، ودليلُ صِدْقٍ، يُناجي أفكار المستيقظين، وتنادي على أنفسها: أنها، بأجمعها، بتقدير العزيز العليم. هـ.

﴿ومن آياته منامكُم بالليل والنهار وابتغاؤُكم من فضله﴾، أي: منامكم بالليل، وابتغاؤكم من فضله بالنهار، أو: منامكم في الزمانين، وابتغاؤكم من فضله فيهما، وهوحسن؛ لأنه إذا طال النهار يقع النوم فيه، وإذا طال الليل يقع الابتغاء فيه. ﴿إن في ذلك لآياتٍ لقوم يسمعون﴾؛ سماع تدبر، بآذان واعية. قال القشيري: غَلَبةُ النوم لصاحبه من غير اختيار، وانتباهُه بلا اكتساب، يدلُّ على موته ثم بَعْثِه، ثم في حال منامه يرى ما يسرُّه وما يضرُّه يدل على حاله في قبره. الله أعلمُ كيف حاله، في أمره، فيما يلقاه من خيره وشره. هـ.(٣)

(١) قرأ حفص: بكسر اللام قبل الميم، جمع «عالِم»، ضد الجاهل، وقرأ الباقون: بفتح اللام؛ جمع «عالَم». انظر الإتحاف (٢/٣٥٦).
(٢) من الآية ٤٣ من سورة العنكبوت. (٣) بالمعنى.

﴿ ومن آياته يُريكُمُ البرقَ خوفاً وطمعاً ﴾، أي: خوفاً من الصواعق، وطمعاً في الغيث، أو: خوفاً للمسافر وطمعاً للحاضر، ﴿ ويُنزّل من السماء ماءً ﴾؛ مطراً ﴿ فيحيي به الأرض بعد موتها ، إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾: يتفكرون بعقولهم.

﴿ ومن آياته أن تقومَ السماءُ ﴾ بغير عمد ﴿ والأرضُ ﴾ على ماء جماد ﴿ بأمره ﴾ أي: بإقامته، أو: تدبيره وقدرته. ﴿ ثم إذا دعاكم ﴾ للبعث ﴿ دعوةً من الأرض إذا أنتم تخرجون ﴾ من قبوركم. وسبك الآية: ومن آياته قيام السماوات والأرض، واستمساكها بغير عمد، ثم إذا دعاكم دعوة واحدة، يأهل القبور، خرجتم بسرعة. وإنما عطف هذا بثم؛ بياناً لعظَم ما يكون من ذلك الأمر، وإظهار اقتداره على مثله، وهو أن يقول: ياأهل القبور، قوموا، فلا تبقى نسمة من الأولين والآخرين إلاقامت تنظر، كقوله: ﴿ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾(١).

تنبيه: عبّر عن مودة الزوجين بيتفكرون؛ لأن المودة قلبية، لاتُدْرَكُ إلابتفكر القلب، وعبّر عن خلق السموات والأرض واختلاف الألسن والألوان بالعالِمين؛ لأن أمر ذلك يدركه كل أحد، ممن له عقل أو علم، وعبّر عن النوم واليقظة بيسمعون؛ لأن من كان في الغفلة لايسمع أمثال هذه المواعظ، وإنما يسمعها مَنْ كان متيقظاً، وعبّر عن إظهار البرق، وإنزال المطر، وإحياء الأرض، بيعقلون؛ لأن أمر البرق وما معه يبصره كل من له مسكةٌ من عقل سليم، ويعلم أنه من الله بلا واسطة. والله تعالى علم.

الإشارة: ما نُصِبَتْ هذه الكائنات لتراها، بل لترى فيها مولاها، فما هذه الأكوان الحسية إلا تجليات من تجليات الحق، ومظاهر من مظاهره، وأنوار من أنوارملكوته، متدفقة من بحر جبروته. كان الله ولا شيء معه، وهو الآن على ما عليه كان. لكن لايعرف هذا إلا العارفون بالله، وأما غيرهم فحسبهم أن يستدلوا على عظمة خالقها، وباهر قدرته وحكمته، فيقوى إيمانهم ويشتد إيقانهم.

قال في الإحياء: وبحر المعرفة لا ساحل له، والإحاطة بكُنه جلال الله محال، وكلما كثرت المعرفة بالله سبحانه، وبأفعال مملكته، وأسرار مملكته، وقويت، كثر النعيم في الآخرة وعَظُم، كما أنه كلما كثر البذر وحَسُن؛ كثر الزرع وحَسُن. وقال أيضا، في كتاب شرح عجائب القلب: ويكون سعة ملك العبد في الجنة بحسب سعة معرفته بالله، وبحسب ما يتجلى له من عظمة الله سبحانه، ومن صفاته وأفعاله. هـ.

ومن آياته خلق سماوت أرواحكم، وأرض نفوسكم، لتقوم الأرواح بشهود عظمة الربوبية، والنفوس بآداب العبودية، واختلاف ألسنتكم؛ فبعضها لا تتكلم إلا في الفَرْق، وبعضها إلا في الجمع. وألوانكم؛ بعضها ظهر فيها

(١) من الآية ٦٨ من سورة الزمر.

سيما العارفين، وبهجة المحبين، وبعضها لم يظهر عليها شيء من ذلك. ومن آياته منامكم في ليل الغفلة والبطالة، وَقْتَ غفلتِكُمْ، وابتغاؤكم من فضله؛ بزيادة معرفته، وقْتَ يقظتِكُمْ. ومن آياته يُريكم البرق، أى: يلْمع عليكم أسرارَ المعانى، ثم تخفى عند الاستشراف على بحر الحقيقة، خوفاً من الاصطلام والرجوع، وطمعاً فى الوصول والتمكين. ومن آياته أن تقوم الأشياء به وبأسرار ذاته، ثم إذا دعاكم دعوة من أرض القطيعة إذا أنتم تخرجون، فتعرجون بأرواحكم إلى سماء وصْلته وتمكن معرفته. والله تعالى أعلم.

ثم برهن على كمال ملكه وعظمته، فقال:

﴿ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وله من في السموات والأرض ﴾؛ مِلكاً ومُلكاً، ﴿ كل له قانتون ﴾ أى: مطيعون، كلٌّ لما أراد، لايستطيع التغيرَ عن ذلك. أو: مُقرُّون بالعبودية، أو: قائمون بالشهادة على وحدانيته. ﴿ وهو الذي يبدأ الخلق ثم يُعيده ﴾ أى: يُنشئهم ثم يعيدهم للبعث، ﴿وهو﴾ أى: البعث ﴿ أهونُ ﴾؛ أيسر ﴿ عليه ﴾ عندكم؛ لأن الإعادة عندكم أسهل من الإنشاء، فلِمَ أنكرتم الإعادة، مع إقراركم بأن الإنشاء منه تعالى؟ وقال الزجاج وغيره: أهون بمعنى «هيِّن»؛ كقوله: ﴿ وكان ذلك على الله يسيراً ﴾(١) ، كما قالوا: أكبر، بمعنى كبير. والإعادة فى نفسها عظيمة، ولكنها هُوِّنت بالقياس إلى الإنشاء؛ إذ هو أهون عند الخلق من الإنشاء؛ لأن قيامهم بصيحة واحدة أسهل من كونهم نُطفاً، ثم عُلقاً، ثم مضغاً، إلى تكميل خلقهم. قاله النسفى.

﴿ وله المَثَلُ الأعلى في السماوات والأرض ﴾ أى: الوصف الأعلى، الذى ليس لغيره، وقد عُرف به، ووُصف فى السموات والأرض، على ألسنة الخلائق وألسنة الدلائل، وهو أنه القادر الذى لايعجز عن شيء من إنشاءٍ وإعادة، وغيرهما من المقدورات، ﴿ وهو العزيزُ ﴾ أى: القاهر لكل مقدور، ﴿ الحكيم ﴾ الذى يجرى كل فعل على قضايا حكمته وعلمه. وعن ابن عباس: المثل الأعلى هو: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾(٢). وعن مجاهد: هو قول: «لا إله إلا الله». ومعناه: وله الوصف الأرفع، وهو اختصاصه بالألوهية فى العالم العلوى والسفلى، ويعضده: ما بعده مِنْ ضرب المثل. والله تعالى أعلم.

---

(١) من الآية ٣٠ من سورة النساء. (٢) من الآية ١١ من سورة الشورى.

الإشارة: الأشياء كلها، من عرشها إلى فرشها، حيها وجامدها، قانتة وساجدة لله تعالى، من حيثُ حِسُّها الذى هو مَقَر العبودية، وغنية عن السجود من حيث معناها؛ لأنها من أسرار الربوبية. فالعبد، من حيثُ فرقه، عبد خاضع، ومن حيث جمعه: حُر مُطاع.

قال القشيرى: قوله: ﴿وهو أهون عليه﴾ أى: فى ظنّكم وتقديركم. وفى الحقيقة السهولة والوعورة على الحق لاتجوز. ﴿وله المثل الأعلى﴾ والصفات العلى فى الوجود بحقِّ القِدَم، وفى وجوده - أى: للأشياء - بنعت الكرم، وفى القدرة بوصف الشمول، وفى النظرة بوصف الكمال، وفى العلم بعموم التعلق، وفى الحكْم بوجود التحقق، وفى المشيئة بوصف البلوغ، وفى القضية بحكم النفوذ، وفى الجبروت بعين العز والجلال، وفى الملكوت بنعت الجد والكمال. هـ. قلت: والحاصل أن المثل الأعلى يرجع إلى كمال ذاته، تعالى، وصفاته وأفعاله.

ثم ضرب مثلاً لقُبح الشرك، بعد بيان علو شأنه، فقال:

﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ضَرَبَ لكم مثلاً ﴾ لقُبح الشرك وبشاعته، منتزعاً ﴿ من أنفسكم ﴾ التى هى أقرب شيء إليكم، وهو: ﴿ هل لكم ﴾، معاشرِ الأحرارِ، ﴿ مما ملكت أيمانكم ﴾ أى: من عبيدكم ﴿ من شركاء فيما رزقناكم ﴾ من الأموال وغيرها. فَمِنْ، الأولى: للابتداء، والثانية: للتبعيض، والثالثة: مزيدة؛ لتأكيد الاستفهام الجارى مجرى النفى. والمعنى: هل لكم «من بعض عبيدكم، شرك فيما رزقناكم، أى: هل ترضون أن يكون عبيدكم شركاء لكم فيما رزقناكم؟ ﴿ فأنتم فيه سواء ﴾؛ فتكونون أنتم وهم، فيما رزقناكم من الأموال، سواء؛ يتصرفون فيه كتصرفكم، ويحكمون فيه كحكمكم، مع أنهم بشرٌ مثلكم، حال كونكم ﴿ تخافونهم ﴾ أن يستبدوا بالتصرف فيه، ﴿ كخيفَتِكُم أنفُسكُم ﴾ أى: كما يخاف الأحرار بعضهم من بعض - فيما هو مشترك بينهم - أن يستبد فيه بالتصرف دونه. أو: تخافونهم أن يقاسموكم تلك الأموال، أو: يرثونها بعدكم، كما تخافون ذلك من بعضكم، فإذا لم ترْضَوْا ذلك لأنفسكم، فكيف ترضونه لرب الأرباب ومالك الأحرار والعبيد، أن تجعلوا بعض عبيده له شركاء فى استحقاق العبادة؟!

﴿ كذلك ﴾ ، أى: مثل هذا التفصيل البديع، ﴿ نُفَصِّلُ الآياتِ ﴾ ؛ نبينها؛ لأن التمثيل مما يكشف المعانى ويوضحها ﴿ لقوم يعقلون ﴾ ؛ يتدبرون فى ضرب الأمثال، ويعرفون حكمها وأسرارها، فلما لم ينزجروا أضرب عنهم، فقال: ﴿ بل اتَّبعَ الذين ظلموا ﴾ أنفسهم بالشرك ﴿ أهواءَهم بغير علم ﴾ ، أى: تبعوا أهواءهم، جاهلين، ولو كان لهم علْم؛ لَرُجِي أن يزجرهم، ﴿ فمن يهدي من أضل الله ﴾ ؟ أى: لا هادى له قط، ﴿ ومالهم من ناصرين ﴾ يمنعونهم من العذاب، أو: يَحْفَظونهم من الضلالة، أو: من الإقامة فيها.

الإشارة: ما قيل فى الشرك الجلى يجرى مثله فى الشرك الخفى؛ فإن الحق تعالى غيور، لا يُحب العمل المشترك، ولا القلب المشترك. العمل المشترك لايقبله، والقلب المشترك لايُقبل عليه، وأنْشدوا(١):

لِي مَحْبُوبٌ إنما هُوَ غَيُورْ
يُطِلُّ فى الْقَلْبِ كَطَيْرٍ حَذُورْ
ذَا رأى شَيْئاً امْتَنَعْ أنْ يَزُورْ

فكما أنك لاترضى من عبدك أن يُحب غيرك، ويخضع له، كذلك الحق تعالى؛ لايرضى منكَ أن تميل لغيره. قال القشيرى: قوله: ﴿ بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم ﴾ : أشدُّ الظلم متابعةُ الهوى؛ لأنه قريب من الشِّرْك. قال الله تعالى: ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ ﴾(٢)، ومن اتَّبع هواه؛ خالف رضا مولاه، فهو، بوضع الشيء فى غير موضعه، صار ظالماً، كما أن العاصى، بوضع المعصية فى موضع الطاعة، صار ظالماً، كذلك بمتابعة هواه، بدَلاً عن موافقة ومتابعة رضا مولاه، صار فى الظلم متمادياً. هـ.

ثم أمر بالتوحيد الخالص، المقصود من ضرب المثل، فقال:

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٠) ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ (٣١) مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (٣٢) ﴾

---

(١) وهو الششترى، كما ذكر الشيخ المفسر فى إيقاظ الهمم / ٤٣٧. (٢) من الآية ٢٣ من سورة الجاثية.

قلت: (حنيفا): حال من (الدين)، أو: من المأمور، وهو ضمير (أقم)، و(فطرة): منصوب على الإغراء.

يقول الحق جل جلاله، لنبيه ﷺ، أو: لكل سامع: ﴿ فأقِمْ وَجْهَكَ للدين ﴾ أى: قوّم وجهك له، غيرَ مُلتفتٍ عنه؛ يميناً ولاشمالاً. وهو تمثيلٌ لإقباله على الدين بكُلِّيته، واستقامته عليه، واهتمامه بأسبابه؛ فإنَّ من اهتم بالشيء توجه إليه بوجهه، وسدّد إليه نظره، ﴿ حَنِيفاً ﴾؛ أى: مائلاً عن كل ما سواه من الأديان، ﴿ فِطْرَتَ الله ﴾؛ أى: الزموا فطرة الله. والفطرة: الخلقة: ألاَ ترى إلى قوله: ﴿ لاتبديلَ لخلقِ الله ﴾؟ فالأرواح، حين تركيبها فى الأشباح، كانت قابلة للتوحيد، مُهَيَّأةً له، بل عالمة به؛ بدليل إقرارها به فى عالم الذر، حتى لو تُركوا لَمَا اختَارُوا عليه ديناً آخر، ومَن غوى فإنما غوى منهم بإغواء شياطين الإنس والجن. وفى حديث قدسى: «كلُّ عِبَادى خَلَقْتُ حنيفاً، فاجْتَالَتهُمْ الشّيَاطِينُ عنْ دينِهمْ، وأمَرُوهُمْ أنْ يُشْرِكُوا بى غيرى»(١)، وفى الصحيح: «كلُّ مولود يُولَدُ علَى الفِطرَةِ، فَأبَوَاه يُهَوِّدَانِه أوْ يُنصِّرانِهِ أو يُمجِّسَانِهِ»(٢)

قال الزجّاج: معناه: أن الله تعالى فطر الخلق على الإيمان به، على ما جاء فى الحديث: «إن الله عز وجل أخرج من صلب آدم ذريته كالذرّ، وأشهدهم على أنفسهم بأنه خالقهم، فقالوا: بلى»(٣)، وكل مولود فهو من تلك الذرية التى شهدت بأن الله تعالى ربُّها وخالقها. هـ. قال ابن عطية: الذى يعتمد عليه فى تفسير هذه اللفظة: أنها الخِلقة والهيئة فى نفس الطفل، التى هى مهيئة لمعرفة الله والإيمان به، الذى على الإعداد له فطرَ البشر، لكن تعرض لهم العوارض؛ على حسب ما جرى به القدر، ولا يلزم من الإعداد وجعله على حالة قابلة للتوحيد ألا يساعده القدر، كما فى قوله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾(٤)، أى: خلقهم معدِّين لذلك، فأمر من ساعده القدر، وصرف عن ذلك من لم يُوَفَّقْ لما خلق له. هـ.

فقوله فى الحديث: «كلُّ مولودٍ يُولَدُ علَى الفِطْرَةِ» أى: على القابلية والصلاحية للتوحيد، ثم منهم من يتمحض لذلك، كما سبق فى القدر، ومنهم من لم يوفق لذلك، بل يخذل ويُصرف عنه؛ لما سبق عليه من الشقاء. وقال فى المشارق: أى: يخلق سالماً من الكفر، متهيئاً لقبول الصلاح والهدى، ثم أبواه يحملانه، بَعْدُ، على ما سَبق له فى الكتاب. هـ. قال ابن عطية: وذكرُ الأبوين إنما هو مثال للعوارض التى هى كثيرة. ثم قال: وقد فطر الله

(١) أخرجه بنحوه، مطولاً، مسلم فى (الجنة وصفة نعيمها، باب الصفات التى يعرف بها، فى الدنيا، أهل الجنة وأهل النار ٢١٩٧/٤، ح ٢٨٦٥) من حديث عياض المجاشعى. ولفظه: «إنى خلقت عبادى حنفاء كلَّهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم. الحديث.
(٢) أخرجه البخارى فى (القدر، بابِ الله أعلم بما كانوا عاملين ح٦٥٩٩)، ومسلم فى (القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة، ٢٠٤٧/٤، ح ٢٦٥٨) بزيادة فى آخره، من حديث أبى هريرة ـ رضى الله عنه.
(٣) أخرجه أحمد فى المسند (٢٧٢/١) وقال فى مجمع الزوائد (٢٥/٧): رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح.
(٤) الآية ٥٦ من سورة الذاريات.

الخلق على الاعتراف بربوبيته، ومن لازم ذلك توحيده، وإن لم يُوَفَّقُوا لذلك كُلُّهم، بل وَحَّدَه بعضُهم، وأشرك بعضهم، مع اتفاق الكل على ربوبيته؛ ضَرُورَةَ أن الكلَّ يشعر بقاهر له مدبر. قال فى الحاشية: والحاصل: أنه تعالى فطر الكل فى ابتداء النشأة، على الاعتراف بربوبيته، ولكن كتب منهم السعداء موحدين، وكتب الأشقياء مشركين، مع اعتراف الجميع بربوبيته، ولم يوفق الأشقياء لكون الربوبية تستلزم الوحدانية، فأشركوا، فناقضوا لازم قولهم. هـ.

وهذا معنى قوله تعالى: ﴿ التى فَطَرَ الناسَ عليها ﴾ ، أى: خلقهم فى أصل نشأتهم عليها، ﴿ لاتبديل لخلق الله ﴾ أى: ما ينبغى أن تبدل تلك الفطرة أو تُغير. وقال الزجاج: معناه: لاتبديل لدين الله، ويدل عليه قوله: ﴿ذلك الدينِ القيم﴾ أى: المستقيم، ﴿ ولكن أكثر الناسِ لايعلمون ﴾ حقيقة ذلك. حال كونكم.

﴿ مُنيبين إليه ﴾ أى: راجعين إليه، فهو حال من ضمير: الزموا. وقوله: ﴿ واتقوه وأقيموا الصلاة ﴾: عطف على الزموا. أو: على (فأقم)؛ لأن الأمر له ـ عليه الصلاة والسلام ـ أمرٌ لأمته، فكأنه قال: فأقيموا وجوهكم، منيبين إليه، ﴿ واتقوه ﴾ أى: خافوا عقوبته، ﴿ وأقيموا الصلاة ﴾ أى: أَتْقِنُوها وأدّوها فى وقتها، ﴿ ولاتكونوا من المشركين ﴾؛ ممن يشرك به غيره فى العبادة.

﴿ من الذين فرَّقُوا دينهم ﴾ : بدل من «المشركين»، بإعادة الجار، أى: لاتكونوا من الذين جعلوا دينهم أدياناً مختلفة باختلاف ما يعبدونه؛ لاختلاف أهوائهم. وقرأ الأَخَوَان: (فارقوا) أى: تركوا دين الإسلام الذى أُمروا به، ﴿ وكانوا شِيَعاً ﴾ أى: فرقاً، كل فرقة تشايع إمامها الذى أضلها، أى: تشيعه، وتقوى سواده، ﴿ كل حزب منهم ﴾ ﴿ بما لديهم فرحون ﴾؛ مسرورون، ظناً بأنه الحق، ثُم يبدو لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون. والعياذ بالله.

الإشارة: الفطرة التى فَطَرَ الله الأرواحَ عليها هى معرفة العيان؛ لأنها كلها كانت عارفة بالله؛ لصفائها ولطافتها، فما عاقها عن تلك المعرفة إلا كَثَافَةُ الأبدان، والاشتغالُ بحظوظها وهواها، حتى نسيت تلك المعرفة. وفى ذلك يقول ابن البنا فى مباحثه(١):

وَلَمْ تَزَلْ كُلُّ نُفُوسِ الأَحْيَا ... لأُمَّـةً دَرَّاكَـةً لِلأَشْـيَا
وإِنَّمَا تَعُوقُهَا الأَبْدَانُ ... وَالأَنْفُسُ النُّزَّعُ وَالشَّيْطَانُ
فَكُلُّ مَنْ أذاقَهُم جِهَادَهْ ... أَظْهَرَ لِلْقَاعِدِ خَرْقَ الْعَادَةْ

(١) انظر الفتوحات الإلهية فى شرح المباحث الأصلية ص١١١.

قال بعضهم: إنما حجب الله عنها تلك العلوم؛ غيرة أن تكشف سر الربوبية؛ فيظهر لغير أهله، قال القشيري: ﴿ فأَقِمْ وجْهَكَ ﴾ أي: أخْلِصْ قَصْدَكَ إلى الله، واحفَظْ عهدك معه، وأَفْرِدْ عملك، في سكناتك وحركاتك وجميع تصرفاتِك، له. ﴿ حنيفاً ﴾ أي: مستقيماً في دينه، مائلاً عن غيره، مُعْرِضاً عن سواه. والزَمْ (فطرةَ الله التى فطر الناسَ عليها)، ثم ذكر ما تقدم لنا. ثم قال: ﴿ منيبين إليه ﴾؛ راجعين إلى الله بالكلية، من غير أن تبقى بقية، متصفين بوفائه، منحرفين بكل وجهٍ عن خلافه، مُتَّقِينِ صغير الإثم وكبيره، وقليله وكثيره، مقيمين الصلاة بأركانها وسننها وآدابها؛ جهراً، متحققين بمرعاة فضلها؛ سِراً.

وقال في قوله تعالى: ﴿ من الذين فرَّقوا دينهم ﴾ : أقاموا في دنياهم في دار الغفلة، وعناد الجهل والفترة، فركنوا إلى ظنونهم، واستوطنوا مركب أوهامهم، وثمِلُوا بسُكْرِ غيِّهِمْ، وظنوا أنهم على شيء، فإذا انكشف ضبابُ وقتهم، وانقشع سحابُ هجرهم، انقلب فرحُهم ترحاً، واستيقنوا أنهم كانوا في ضلالة، ولم يعرِّجوا إلا في أوطان الجهالة. هـ.

ثم ذكر حال أهل الغفلة، فقال:

﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (٣٣) لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣٤) أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُواْ بِهِۦ يُشْرِكُونَ (٣٥) وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُواْ بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ (٣٦) ﴾

قلت: (إذَا هُمْ): جواب (إن). و(إذا)؛ الفجائية، تَخْلُفُ الفاء، لتآخيهما في التعقيب.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وإذا مَسَّ الناسَ ضُرٌّ ﴾؛ كمرض، وفقر، وشدة، أو غير ذلك، ﴿ دَعَوا ربهم منيبين ﴾؛ راجعين ﴿ إليه ﴾ من دعاء غيره. ﴿ ثم إذا أذاقهم منه رحمةً ﴾؛ خلاصاً من الشدة ﴿ إذا فريق منهم بربهم يُشركون ﴾ شركاً جليا أو خفيا، أي: فاجأ بعضهم الإشراك بربهم الذى عافاهم، ﴿ ليكفروا ﴾؛ إما: لام كي، أو: لام الأمر؛ للوعيد والتهديد، أي: أشركوا كي يكفروا ﴿ بما آتيناهم ﴾ من النعم، التى من جملتها: نجاتهم وخلاصهم من كل شدة، ﴿ فتمتعوا ﴾ بكفركم قليلاً؛ أمر تهديد، ﴿ فسوف تعلمون ﴾ وبال تمتعكم.

﴿ أم أنزلنا عليهم سلطاناً ﴾ ؛ حجّة على عبادة أصنامهم، ﴿ فهو يتكلمُ ﴾ ، وتكلمه مجاز، كما تقول: كتابه ناطق بكذا، وهذا مما نطق به القرآن، ومعناه: الشهادة، كأنه قال: يشهد بصحة ما ﴿ كانوا به يشركون ﴾ ، فما: مصدرية، أى: بصحة كونهم بالله يشركون، أو: موصولة، أى: بالأمر الذى بسببه يشركون.

﴿ وإذا أذقنا الناسَ رحمةً ﴾ أى: نعمة؛ من مطر، أو: سعة رزق، أو: صحة، ﴿ فَرِحُوا بها ﴾ فرح بطَر وافتخار وغفلة. ﴿ وإن تُصبهم سيئة ﴾ ؛ بلاء؛ من جدب، أو ضيق، أو مرض، ﴿ بما ﴾ ؛ بسبب ما ﴿ قدمتْ أيديهم ﴾ من المعاصى، أى: بشؤمها، ﴿ إذا هم يَقْنَطُون ﴾ ؛ ييأسون من رحمة الله، وفرجه بعد عسره. يقال: قَنِطَ يَقْنَطُ، كفرح يفرح، وكعلم.

الإشارة: الواجب على المؤمنين أن يتخلقوا بضد ما تخلق به الكافرون؛ فإذا مسهم ضر أو شدة، توجهوا إلى الله، إما بالتضرع والابتهال؛ عبودية، منتظرين ما يفعل الله، وإما بالصبر، والرضا، والسكون تحت مجارى الاقدار. فإذا جاء الفرج والنعمة؛ شكروا الله وحمدوه، ونسبوا الفرج إليه وحده، فإن كان وقع منهم سبب شرعى؛ لم يلتفتوا إليه قط؛ إذ لاتأثير له أصلا، وإنما الفرج عنده لا به، فلا يقولوا: فلان ولا فلانة، وإنما الفاعل هو الله الواحد القهار.

وهذا الشرك الخفى مما ابتلى به كثير من الناس، علماء وصالحين، وخصوصاً منهم من يتعاطى كتب الفلسفة، كالأطباء وغيرهم، إذا أصابهم شيء فزعوا، فإذا فَرَّجَ عنهم؛ قالوا: فلان داوانا، وفلان فرّج عنا، والدواء الفلانى هو شفانى، فتعالى الله عما يشركون. فليشدّ العبدُ يده على التوحيد، ولايرى فى الوجود إلا الفرد الصمد، الفعّال لما يريد.

ومن أوصاف أهل الغفلة: أنهم، إذا أصابتهم نعمة، فرحوا وافتخروا بها، وإذا أصابتهم شدة قنطوا وأيسوا من روح الله، والواجب: ألا يفرح بما هو عارض فانٍ، ولا ييأس من روح الله عند الشدة، بل ينتظر من الله الفرج، فإنّ مع العسر يسراً، إن مع العسر يسرا. قال تعالى: ﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ، لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُم.. ﴾(١) الآية. وبالله التوفيق.

ثم برهن على توالى النعم والمحن على العبد، مادام فى دار الدنيا، فقال:

---

(١) الآيتان: ٢٢ ـ ٢٣ من سورة الحديد.

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾
فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ
هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم
مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿أوَ لَمْ يروا أن الله يبسط الرزقَ لمن يشاءُ ويقدرُ﴾ أي: يضيق على من يشاء، فينبغي للعبد أن يكونَ راجياً ما عند الله، غير آيس من روح الله؛ إذ دَوَامُ حَالٍ من قضايا المحال، ﴿إن في ذلك لآياتٍ لقوم يؤمنون﴾؛ فيستدلون بها على كمال قدرته وحكمته، ولا يقفون مع شيء دونه. قال النسفي: أنكر عليهم بأنهم قد علموا أنه القابض الباسط، فما لهم يقنطون من رحمته؟ وما لهم لايرجعون إليه، تائبين من معاصيهم، التي عوقبوا بالشدّة من أجلها، حتى يعيد عليهم رحمته؟

ولما ذكر أنّ السيئة أصابتهم بما قدمت أيديهم، أتبعه ذكر ما يجب أن يفعل وما يجب أن يترك، يعني: عند البسط؛ فقال: ﴿فآتِ ذا القربي﴾؛ أعطِ قريبك ﴿حقَّه﴾ من البر والصلة مما بسط عليك. ﴿و﴾ أعط ﴿المسكينَ وابنَ السبيل﴾ حقهما؛ من الصدقة الواجبة أو التطوعية، حسبما تقتضيه مكارم الأخلاق. والخطاب لمن بسط عليه، أو: للنبي - عليه الصلاة والسلام، وغيره تبع. ﴿ذلك﴾ أي: إيتاء حقوقهم الواجبة، والتطوعية، ﴿خيرٌ للذين يُريدون وَجْهَ الله﴾ أي: ذاته المقدسة، أي: يقصدون، بمعروفهم، إياه، خالصاً. ﴿وأولئك هم المفلحون﴾؛ الفائزون بكل خير، قد حصّلوا، بما بسط لهم، النعيم المقيم.

﴿وما آتيتم من رباً ليربو في أموالِ الناس﴾ أي: وما أعطيتم من مال؛ لتأخذوا من أموال الناس أكثر منه، كَيْفِيَّةً أَوْ كَمِّيَّةً، ﴿فلا يربو عند الله﴾؛ ولا يبارك فيه، بل يُسحته ويمحقه، ولو بعد حين. وهذه صورة الربا المحرمة؛ إجماعاً، وقيل: وما أعطيتم من هدية؛ لتأخذوا أكثر منها، فلا يربو عند الله، لأنكم لم تقصدوا به وجه الله. وهذه؛ هدية الثواب، جائـزة، إلا في حقه - عليه الصلاة والسلام؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾(١). وقرأ ابن كثير: «أتيتم»؛ بالقصر، بمعنى ما جئتم به من إعطاء ربا. وقرأ نافع(٣): «لتُربُوا» بالخطاب، أي: لتصيروا [ذَوِي](٢) ربا، فتزيدوا في أموالكم.

---

(١) الآية ٦ من سورة المدثر. (٢) في الأصول [ذا].
(٣) وكذا قرأ أبو جعفر ويعقوب. وقرأ الباقون بياء الغيب وفتحها. انظر الإتحاف (٢/٣٥٧).

﴿ وما آتيتم من زكاة ﴾؛ صدقة ،﴿ تُريدون وجه الله ﴾؛ تبتغون به وجهه؛ خالصاً، لاتطلبون به زيادة، ولا مكافأة، ولاسمعة، ﴿ فأولئك هم المضْعِفُونَ ﴾ أى: ذوو الأضْعَافِ من الحسنات، من سبعمائة فأكثر. ونظير المُضْعِف: المقوى، والموسر، لذى القوة واليسار. والالتفات إلى الخطاب فى (أولئك...) الخ فى غاية الحسن؛ لما فيه من التعظيم، كأنه خاطب الملائكة وخواص الخلق؛ تعريفاً بحالهم، وتنويها بقدرهم، ولأنه يفيد التعميم، كأنه قيل: مَنْ فَعَلَ هذا فسبيله سبيل المخاطبين المقبول عليهم. ولابد من ضمير يعود إلى «ما» الموصولة، أى: المضعفون به. أو: فَمُؤْتوه أولئك هم المضعفون. وقال الزجاج: أى: فأهلها هم المضعفون، أى: يضاعف لهم الثواب، من عشر إلى سبعمائة. والله تعالى أعلم.

الإشارة: البسط والقبض يتعاقبان على العبد تَعَاقُبَ الليل والنهار. فالواجب على العبد: الرجوعُ إلى الله فى السراء والضراء، فالبسط يشهد فيه المنّة من الله، ومقتضى الحق منك الحمدُ والشكر. والقبض يشهده من الله؛ امتحاناً وتصفية، ومقتضى الحق منك الصبرُ والرضا، وانتظار الفرج من الله؛ فإن انتظار الفرج، مع الصبر، عبادة. قال القشيرى: الإشارة إلى ألا يُعلّق العبدُ قلبَه إلا بالله؛ لأنّ ما يسوءهم ليس زواله إلا من الله، وما يسرهم ليس وجودُه إلا من الله. فالبسطُ، الذى يسرهم ويؤنسهم منه، وجوده، والقبض، الذى يسوءهم ويوحشهم منه، حصولُه. فالواجب: لزوم [عهوده بالإسرار](١)، وقطعُ الأفكار عن الأغيار. هـ.

وقال فى قوله: ﴿ فآتِ ذا القربى حَقّه ﴾: القرابة على قسمين؛ قرابةُ النسب وقرابةُ الدين، وهى أمسُّ، وبالمواساة أحقُّ. وإذا كان الرجلُ مشتغلاً بالعبادة، غيرَ متفرغ لطلب المعيشة، فالذى له إيمان بحاله، وإشرافٌ على وقته، يجب عليه أن يقوم بشأنه، بقدر ما يمكنه، مما يكون له عونٌ على طاعته، مما يشوش قلبه، من حديث عياله، فإن كان اشتغال الرجل بشىء من مراعاة القلب فحقُّه آكد، وتفقُّده أوْجَب، «ذلك خير للذين يريدون وجه الله»، والمريدُ هو الذى يُؤثِرُ حقَّ الله على حظِّ نفْسِه. فإيثارُ الإخوان، لمن يريد وجه الله، أتمُّ من مراعاة حال نفسه، فهمّه بالإحسان لذوى القربى والمساكين يتقدم على نظره لنفسه وعيلّته، وما يهمه من نصيبه. هـ.

وقال فى قوله: ﴿ يُريدون وجه الله ﴾: لاتستخدم الفقير بما تريده به من رفق، بل أفضل الصدقة على ذى رَحمٍ كاشح، أى: قاطع؛ حتى يكون إعطاؤه لله مجرداً عن كل نصيبٍ لَكَ. فهؤلاء هم الذين يتضاعفُ أجرُهم بمجاهدتهم [لنفوسهم](٢)، حيث يخالفونها، وفوزهم بالعِوضِ من قِبَلِ الله. ثم الزكاة هى التطهير، فتطهيرُ المال

(١) فى القشيرى [عقْوة الأسرار].
(٢) فى الأصول [لنفسهم].

معلومٌ ببيان الشريعة، وزكاة البدَنِ وزكاةُ القلبِ، وزكاةُ السرِّ كلُّ ذلك يجب القيام به. هـ. قلت: فزكاة البدن: إتعابه في القيام بوظائف العبودية الظاهرة، وزكاة القلب: تطهيره من الرذائل وتحليته بالفضائل، وزكاة السر: صيانته من الميل إلى شيء من السِّوى. والله تعالى أعلم.

ثم برهن على وحدانيته، فقال:

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾

قلت: (الله): مبتدأ، و(الذي خلقكم): خبر.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ الله الذي خلقكم ﴾؛ أظهركم ﴿ ثم رزقكم ﴾ ماتقوم به أبدانكم، ﴿ ثم يُميتكم ﴾ عند انقضاء آجالكم، ﴿ ثم يُحييكم ﴾؛ عند بعثكم؛ ليجازيكم على فعلكم، أي: هو المختص بالخلق، والرزق، والإماتة، والإحياء. ﴿ هل من شركائكم ﴾؛ أصنامكم ﴿ من يفعل من ذلكم من شيء ﴾ أي: من الخلق، والرزق، والإماتة، والإحياء، ﴿ من شيء ﴾ أي: شيئاً من تلك الأفعال؟ فلم يجيبوا، عجزاً، فقال؛ استبعاداً وتنزيهاً: ﴿ سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾. و«من»؛ الأولى، والثانية، والثالثة: زوائد؛ لتأكيد عجز شركائهم، وتجهيل عبدَتِهِم.

الإشارة: ذكر الحق تعالى أربعة أشياء متناسقة أنه هو فاعلها، فأقر الناس بثلاثة، وشكُّوا في الرزق، وقالوا: لايكون إلا بالسبب، والسبب إنما هو ستر لسر الربوبية. فإذا تحقق وجوده في حق العامة ارتفع في حق الخاصة، فيرزقهم بلا سبب، لقوله تعالى: ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً، وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾(١).

قال القشيري: حين قذفك في بطْنِ أُمك قد كنت غنياً عن الأكل والشراب بقدرته، أو مفتقراً إليه، فأجرى رزقه عليك مع الطمث، على ماقالوا، وإذا أخرجك من بطن أمك رزقك على الوجه المعهود في الوقت المعلوم، فيسر لك أسباب الشُّرْب والأكل من لبن الأم، ثم من فنون الطعام، ثم أرزاق القلوب والسرائر؛ من الإيمان والعرفان، وأرزاق التوفيق؛ من الطاعات والعبادات، وأرزاق اللسان؛ من الأذكار، وغير ذلك مما جرى ذكره. «ثم

(١) الآيتان: ٢ ـ ٣ من سورة الطلاق.

يُميتكم﴾ بسقوط شهواتكم، ويُميتكم عن شواهدكم، ﴿ثم يحييكم﴾ بحياة قلوبكم، ثم بأن يحييكم بربكم. ويقال: من الأرزاق ما هو وجود الأرفاق، ومنها ما هو شهود الرزاق. ويقال: لامُكْنَةَ لك فى تبديل خلقك، فكذلك لا قدرة لك على تغيير رزقك. فالمُوَسَّع عليه: رزقه بفضل ربه، لا [بمناقب](١) نفسه. والمُقَتَّر عليه رزقُه بحكم ربه،لا بمعايب نفسه . هـ وبعضه بالمعنى.

وقد يضيق رزقه على العباد؛ لما يظهر فيهم من الفساد، كما قال تعالى:

﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ظهر الفسادُ في البر والبحر﴾ ، أما الفساد فى البر؛ فكالقحط، وقلة الأمطار، وعدم الريع فى الزراعات والربح فى التجارات، ووقوع الموتان فى الناس والدوابّ، ومحق البركات من كل شيء. وأما فى البحر؛ فبكثرة الغرق، وانقطاع صيده. ﴿بما﴾ ؛ وذلك بسبب ما ﴿كسبتْ أيدي الناس﴾ من الكفر والمعاصى، ولو استقاموا على الطاعة لدفع الله عنهم هذه الآفات. أظهر فيهم ذلك ﴿ليذيقهم بعض الذي عملوا﴾ أى: ليذيقهم وبال بعض أعمالهم فى الدنيا، قبل أن يعاقبهم بجميعها فى الآخرة، عن «قُنْبل ويعقوب»: بنون التكلم. ﴿لعلهم يرجعون﴾ عما هم عليه من المعاصى.

﴿قُلْ﴾ لكفار قومك: ﴿سيروا فى الأرضِ فانظروا كيف كان عاقبةُ الذين من قَبلُ﴾ ؛ لتُعاينوا ما فعلنا بهم بسبب كفرهم ومعاصيهم؛ لأنه ﴿كان أكثرُهم مشركين﴾ ؛ فدمرناهم، وخربنا ديارهم، فانظروا: كيف كان عاقبتهم، لعلكم ترجعون عن غيكم.

الإشارة: قال القشيرى: الإشارة فى البَرِ إلى النَّفْسِ، وفى البحر إلى القلب، وفسادُ البرّ بأَكْلِ الحرام وارتكاب المحظورات، وفسادُ البحر من الغفلة والأوصاف الذميمة، مثل سوء العزم، والحسد والحقد، وإرادة الفسوق، وغير ذلك. وعقْدُ الإصرار على المخالفاتَ من أعظمِ فساد القلب، كما أنّ العزْمَ على الخيرات، قبل فِعْلها، من أعظم الخيرات. ومن جملة الفساد: التأويلاتُ بغير حقٍّ، والانحطاطُ إلى الرُّخَصِ من غير قيام بحقٍ، والإغراق فى الدعاوى من غير استحياء. هـ.

(١) فى الأصول [بمثاقبة] والمثبت من القشيرى

قال الورتجبي: إن الله غلب الإنسانية على الكون؛ طاعةً ومعصية، فإذا رزق الإنسان الطاعة صلح الأكوان ببركتها، وإذا رزق المعصية فسد الحدثان بشؤم معصيته؛ لأن طاعته ومعصيته من تواثير(١) لطفه وقهره، علاَ بنعت الاستيلاء على الوجود، فإذا فسادها يؤثر في برّ النفوس وبحار القلوب، ففساد برّ النفوس: فترتُها عن العبودية، وفساد بحر القلب: احتجابهُ عن مشاهدة أنوار الربوبية. هـ.

قلت: وقد يقال: ظهر الفساد في بر الشريعة؛ بذهاب حملتها، ومن يحفظها، ويذب عنها، وفي بحر الحقيقة؛ بقلة صدق من يطلبها، وغربة أهلها، واختفائها حتى اندرست أعلامها، وخفي آثارها، والبركة لاتنقطع. وذلك بسبب ماكسبت أيدي الناس؛ من إيثار الدنيا على الله؛ ليذيقهم وبال القطيعة؛ لعلهم يرجعون إليه، إما بملاطفة الإحسان، أو بسلاسل الامتحان.

قال في لطائف المنن: سأل بعضُ العارفين عن أولياء العدد، هل ينقصون؟ فقال: لو نقص منهم واحد؛ ما أرسلت السماء قَطْرَهَا، ولا أنبتت الأرض نباتها، وفساد الوقت لا يكون بذهاب أعدادهم، ولابنقص أمداداهم، ولكن إذا فسد الوقت كان مراد الله وقوع اختفائهم، مع وجود بقائهم. فإذا كان أهل الزمان مُعْرضين عن الله، مؤثرين لما سوى الله؛ لا تنجح فيهم الموعظة، ولاتميلهم التذكرة، لم يكونوا أهلاً لظهور أولياء الله تعالى فيهم، ولذلك قالوا: أولياء الله عرائس، ولايرى العرائسَ المجرمون .هـ.

قال القشيري:(قل سيروا)؛ بالاعتبار، واطلبوا الحقّ بنعت الافتكار، وانظروا: كيف كان حال من تقدمكم من الأشكال والأمثال؟ وقيسوا عليها حُكْمَكم في جميع الأحوال، (كان أكثرهم مشركين): كان أكثرهم عدداً، ولكن أقل في التحقيق؛ وزناً وقدْراً. هـ.

ثم أمر بالتأهب ليوم المعاد، وبه يندفع عن الخلق الفساد، فقال:

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۖ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ
﴿٤٣﴾ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾

(١) هكذا في الأصول، وكذا في الورتجبي. ولعلها: تآثير، جمع تأثير.

يقول الحق جل جلاله: ﴿فأقمْ وجهكَ﴾ أي: قوِّمه ووَجِّهه ﴿للدين القيمّ﴾؛ البليغ فى الاستقامة، الذى لايتأتى فيه عوج ولاخلل. وفيه، من البديع، جناس الاشتقاق. والخطاب للنبى ﷺ، وأمته تبع، أو: لكل سامع. ﴿من قبل أن يأتي يومٌ﴾؛ وهو البعث، ﴿لامَرَدَّ له﴾ أى: لايقدر أحد على رده، و﴿من الله﴾: متعلق بيأتى، أى: من قبل أن يأتى من الله يوم لايردّه أحد، أو بمرد؛ لأنه مصدر، أى: لامرد له من جهة الله، بعد أن يجىء؛ لتعلق الإرادة به حينئذ. ﴿يومئذ يَصَّدَّعُونَ﴾؛ يتصدّعون، فأدغم التاء فى الصاد. وفى الصحاح: الصدع: الشق، يقال صدعته فانصدع، أى: انشق. وتصدّع القوم: تفرقوا. هـ. أى: يتفرقون؛ فريق فى الجنة وفريق فى السعير.

ثم أشار إلى غنَاهُ عنهم، فقال: ﴿من كَفَرَ فعليه كفرهُ﴾؛ وبال كفره، لا يحمله عنه غيره. ﴿ومن عمل صالحاً فلأنفسهم يَمْهَدُون﴾ أى: يسوون لأنفسهم فى قبورهم، أو: فى الجنة ما يسوى لنفسه الذى يمهد فراشه ويُوطئه؛ لئلا يصيبه فى مَضْجَعِهِ ما ينغص عليه مَضْجَعَهُ. وتقديم الظرف فى الموضعين؛ للاختصاص، أى: فلا يجاوز عمل أحد لغيره.

ثم علل ما أمر به من التأهب، فقال: ﴿ليجزيَ الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾، أظهر فى موضع الإضمار، أى: ليجزيهم؛ ليدل على أنه لاينال هذا الجزاء الجميل إلا المؤمن؛ لصلاح عمله. أثابه ذلك ﴿من فضله﴾ أى: بمَحْضِ تفضله؛ إذ لا يجب عليه شىء، ﴿إنه لايُحب الكافرين﴾، بل يبغضهم ويمقتهم، وفيه إيماء إلى أنه يحب المؤمنين، وهو كذلك، ولاسيما المتوجهين.

الإشارة: أمر الحق تعالى بالتوجه إليه، والتمسك بالطريق التى تُوصل إليه، قبل قيام الساعة؛ لأن هذه الدار هى مزرعة لتلك الدار، فمن سار إليه هنا وعرفه؛ عرفه فى الآخرة، ومن قعد هنا مع هواه، حتى مات جاهلاً به؛ بُعثَ كذلك، كما هو معلوم. ولا يمكن التوجه والظفر بالطريق الموصلة إليه تعالى إلا بشيخ كامل، سلك الطريق وعرفها. ومن رام الوصول بنفسه، أو بعلمه، أو بعقله؛ انقطع لامحالة. قال القشيرى: ﴿فأقم وجهك للدين القيم﴾: أخلِص قصدَك، وصدِّق عزْمكَ، بالموافقة للدين القيِّم، بالاتباع دون الاستبداد بالأمر على وجه الابتداع. ومَنْ لم يتأدب [بمَنْ](١) هو إمامُ وقته، ولم يتلقف الأذكار ممن هو لسان وقته؛ كان خُسرانُه أتمّ من ربحه، ونقصانُه أعمّ من نفعه. هـ.

---

(١) فى الأصول الخطية [ممن].

ثم ذكر دلائل القدرة على البعث وغيره، فقال:

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾

قلت: (وليذيقكم): عطف على (مبشرات)؛ على المعنى، كأنه قيل: لتبشركم وليذيقكم، أو: على محذوف، أي: ليغيثكم وليذيقكم.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ومن آياته ﴾ الدالة على كمال قدرته: ﴿ أن يُرسلَ الرياحَ ﴾، وهى الجنُوبُ، والصَّبَا، والشمال، والدَّبُورُ، فالثلاث: رياح الرحمة، والدبور: ريحُ العذاب، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام: «اللهم اجعلها رياحاً، ولاتجعلها ريحا»(١). وقال: «نُصرْتُ بالصَّبَا، وأُهلكَتْ عادٌ بالدَّبُور»(٢)، وهى الريح العقيم. وقرأ ابن كثير والأَخَوان: بالإفراد، على إرادة الجنس.

ثم ذكر فوائد إرسالها بقوله: ﴿ مبشرات ﴾ أى: أرسلها بالبشارة بالغيب ﴿ وليُذيقكُم من رحمته ﴾؛ ولإذاقة الرحمة، وهى نزول المطر، وحصول الخصب الذى يتبعه، والرَّوْح الذى مع هبوب الريح، وزكاء الأرض، أى: ربوها وزيادتها بالنبات، وغير ذلك من منافع الرياح والأمطار. قال الحسن: لو أمسك الله عن أهل الأرض الريح ساعة لَمَاتوا؛ غمّاً.

﴿ ولتجرىَ الفلكُ ﴾ فى البحر عند هبوبها ﴿ بأمره ﴾؛ بتدبيره، أو بتكوينه، لقوله ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا... ﴾(٣) الآية. قيل: إنما زاد بأمره؛ لأنها قد تهب غير مُوَاتِيَةٍ، فتَغرق، وهى عند أمره أيضا، فهى على حسب أمره، ولأن الإسناد وقع للفلك؛ مجازاً، فأخبر أنه بأمره، ﴿ ولتبتغوا من فضله ﴾، يريد به تجارة البحر، ﴿ ولعلكم تشكرون ﴾ هذه النعم؛ فيزيدكم من فضله.

الإشارة: ومن آيات فَتْحِهِ على أوليائه: أن يرسل رياح الهداية أولاً، ثم رياح التأييد، ثم رياح الواردات، تحمل هدايا التَّعَرُّفَاتِ، مبشرات بالفتح الكبير، والتمكين فى شهود العلى الكبير، وليذيقكم من رحمته، وهى حلاوة معرفته، ولتجريَ سفن الأفكار فى ميادين بحار توحيده، ولتبتغوا من فضله؛ هو الترقى فى الكشوفات والعلوم والأسرار، أبداً سرمدا، ولعلكم تشكرون؛ بالقيام برسوم الشريعة وآداب العبودية.

---

(١) أخرجه الشافعى فى مسنده (ح ٥٠٢)، وأبو يعلى فى مسنده (٤/٣٤١)، والطبرانى فى الكبير (١١/٢١٣-٢١٤ ح ١١٥٣٢)، وابن عدى فى الكامل (٢/٧٦٣) من حديث ابن عباس. وانظر: مجمع الزوائد (١٠/١٣٥ ـ ١٣٦).

(٢) أخرجه البخارى فى (الاستسقاء، باب: قول النبى ﷺ «نصرت بالصبا»، ح ١٠٣٥) ومسلم فى (الاستسقاء باب فى ريح الصبا والدبور، ٢/٦١٧، ح ٩٠٠) من حديث ابن عباس رضى الله عنه. والصبا: ريح، ومهبها المستوى أن تهب من مطلع الشمس إذا استوى الليل والنهار. والدبور: الريح التى تقابل الصبا، وقال النووى: هى الريح الغربية.

(٣) الآية ٨٢ من سورة يس.

قال القشيري: يرسل رياحَ الرجاءِ على قلوب العُبّاد، فتكنس قلوبهم من غبار الحسد وغُثَاء النفس، ثم يرسل عليها أمطار التوفيق، فتحملهم إلى بساط الجُهْدِ، وتكرمهم بقوى النشاط. ويرسل رياحَ البَسْطِ على أرواح الأولياء فتطهرها من وَحْشَةِ القبض، وتنشر فيه لذاذات الوصال، ويرسل رياحَ التوحيد فتهب على أسرار الأصفياء، فتطهرها من آثار الأغيار، وتبشرها بدوام الوصال. فذلك ارتياحٌ به، ولكن بعد اجتناحِ عنك. هـ. أي: بعد ذهابٍ عنك وزوال. والله تعالى أعلم.

ثم سلّى نبيه بمن قبله، فقال:

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ (٤٧) ﴾

قلت: (حقا): خبر «كان»، و(نصر): اسمها. أو: (حقا): خبر «كان»، واسمها: ضمير الانتقام، فيوقف عليه، و(علينا نصر): مبتدأ وخبر.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ولقد أرسلنا من قبلك رسلاً إلى قومهم فجاءوهم بالبينات﴾؛ بالمعجزات البينات الواضحات، فكذبوهم؛ ﴿فانتقمنا من الذين أجرموا﴾ بالتدمير، ﴿وكان حقاً علينا نصرُ المؤمنين﴾ أي: وكان نصر المؤمنين، بإنجائهم من العذاب، حقاً واجباً علينا بإنجاز وعدنا؛ إحساناً. أو: وكان الانتقام من المجرمين حقاً لاشك فيه، ثم علينا، من جهة الإحسان، نصر المؤمنين. قال البيضاوي: فيه إشعار بأن الانتقام لهم – أي:من عدوهم – إظهار لكرامتهم، حيث جعلهم مستحقين على الله أن ينصرهم. وعنه ﷺ: «مَا مِنْ امْرِىءٍ مُسْلِمٍ يردّ عن عِرْضِ أخِيه، إلا كان حقاً على الله أن يردّ عنْه نارَ جهنم»، ثم تلا الآية(١). أي: ﴿وكان حقا علينا..﴾ الخ.

الإشارة: هكذا جرت سُنّة الله تعالى، مع خواصه، أن ينتقم ممن آذاهم، ولو بعد حين. وقد يكون الانتقام باطناً؛ بنقص الإيمان وقساوة القلب، وهو أقبح. قال القشيري: فانتقمنا من الذين أجرموا، وأخذناهم من حيث لم يحتسبوا، وشوّشنا عليهم ما أمّلوا، ونقصنا عليهم ما استطابوا وتنعّموا. ﴿وكان حقاً علينا نصرُ المؤمنين﴾، وطلبهم

(١) أخرجه البغوي في تفسيره (٦/ ٢٧٦) وأخرجه بنحوه أحمد في المسند (٦/ ٤٥٠)، والترمذي في (البر والصلة، باب ما جاء في الذب عن عرض المسلم، ٤/ ٢٨٨ ح ١٩٣١)، وحسنه من حديث أبي الدرداء ﷺ. وأخرجه الطبراني في الكبير (٢٤/ ١٧٥ – ١٧٦، ح ٤٤٢) من حديث أسماء بنت يزيد الأنصارية. وانظر الفتح السماوي (٢/ ٩٠٥ ـ ٩٠٨).

أعداؤهم بأعقابهم، فلم يلبثوا إلا يسيراً حتى رقّيناهم فوق رقابهم، وخرّبنا أوطانهم، وهدّمنا بنيانهم، وأخمدنا نيرانهم، وعطّلنا عليهم ديارهم، ومحونا، بقهر التدمير، آثارهم، فظلت شموسهم كاسفة، ومكيدة قهرنا لهم، بأجمعهم، خاسئة. هـ.

ثم برهن على ذلك، فقال:

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ اللهُ الذي يُرسل الرياحَ ﴾ الأربع. وقرأ المكي: بالإفراد. ﴿ فتُثير ﴾ أي: تزعج ﴿ سحاباً فيبسُطُه في السماء ﴾ أي: يجعله منبسطاً، متصلاً بعضه ببعض في سَمت السماء، كقوله: ﴿ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴾(١)، أي: جهته. فيبسطها في الجو ﴿ كيف يشاء ﴾؛ سائراً أو واقفاً، مطبقاً وغير مطبق، من ناحية الشمال، أو الجنوب، أو الدّبور، أو الصّبا. ﴿ ويجعله كِسفاً ﴾ أي: قطعاً متفرقة. والحاصل: أنه تارة يبسطه متصلاً مطبقاً، وتارة يجعله قطعاً متفرقة، على مشيئته وحكمته. ﴿ فترى الوَدْقَ ﴾؛ المطر ﴿ يَخرُج من خِلاله ﴾؛ وسطه.

﴿ فإذا أصاب به ﴾؛ بالودق ﴿ من يشاء من عباده ﴾، يريد إصابةَ بلادهم وأراضيهم، ﴿ إذا هم يستبشرون ﴾؛ يفرحون بالخصب، ﴿ وإن كانوا من قبل أن يُنَزَّل عليهم ﴾ المطر ﴿ من قبله لمُبلسينَ ﴾؛ آيسين، وكرر «من قبله»؛ للتوكيد، وفائدته: الإعلام بسرعة تقلب قلوب الناس من القنوط إلى الاستبشار، أو: على أن عهدهم بالمطر قد تطاول؛ فاستحكم يأسُهم، فكان الاستبشار على قدر اغتمامهم بذلك.

﴿ فانظرْ إلى آثار رحمةِ الله ﴾ أي: المطر ﴿ كيف يُحي الأرضَ ﴾ بالنبات وأنواع الثمار ﴿ بعد موتها ﴾؛ يبسها، ﴿ إن ذلك ﴾ أي: القادر عليه ﴿ لمحيي الموتى ﴾؛ فكما أحيا الأرض بعد يبسها، يحيي الأجساد بعد رميمها، ﴿ وهو على كل شيءٍ قدير ﴾، وهذا من جملة مقدوراته تعالى.

(١) من الآية ٢٤ من سورة إبراهيم.

الإشارة: الله الذى يرسل رياح الواردات الإلهية، فتنزعج سحاب الآثار عن عين الذات العلية، فتبقى شمس العرفان، ليس دونها سحاب، فيبسطه فى سماء القلوب كيف يشاء، فيقع الاحتجاب لبعضها، ويصرفه عمن يشاء فيقع التجلى والظهور، ويجعله كسفاً لأهل الاستشراف، فتارة ينجلى عنهم سحب الآثار، فيشاهدون الأنوار، وتارة تغطيهم سُحب الآثار، فيشاهدون الأغيار، فترى مطرَ خمْرَة الفناءِ تخرج من خلاله، فإذا أصاب به من يشاء من عباده، إذا هم يستبشرون بأنوار معرفته وأسرار ذاته. وقد كانوا قبل ذلك مبلسين، آيسين؛ حين كانت نفوسهم غالبةً عليهم. فانظر كيف أحيا أرض قلوبهم بعد موتها بالجهل والغفلة. وهذا مثال من كان منهمكاً ثم سقط على شيخ ذى خمرة أزلية، فسقاه حتى حَيِيَ بمعرفة الله.

قال القشيرى: الله الذى يرسل رياح عَطْفه وجُوده، مبشراتٍ بجوده ووَصْله، ثم يُمْطِر جودَ غيثه على أسرارهم، ويطوى بساطَ الحشمة عن مناجاة قُرْبِه، ويضرب قبابَ الهيبة بمشاهد كشْفِه، وينشر عليهم أزهارَ أُنْسِه، ثم يتجلَّى لهم بحقائق قُدْسه، ويسقيهم بيده شراب حبِّه. وبعد مامحاهم عن أوصافهم؛ أصحاهم، لا بهم، ولكنْ بِنَفْسه. والعبارات عن ذلك خُرْسٌ، والإشارات، دونه، طُمْسٌ.

وقال فى قوله تعالى: ﴿فانظر إلى آثار رحمة الله..﴾ الآية: يحيى الأرض بأزهارها وأنوارها عند مجىء أمطارها، ليُخرجَ زرْعَها وثمارَها، ويحيى النفوس بعد تَفْريقها، ويوفقها للخيراتِ بعد فترتها، فتعمر أوطانُ الوفاق بصدق إقدامهم، وتندفع البلايا عن الأنام ببركات أيامهم، وتحيى القلوبُ، بعد غفلتها، بأنواع المحاضرات، فتعود إلى استدامة الذكر بحُسْنِ المراعاة، ويهتدى بأنوار أهلها أهلُ العصر من أهل الإرادات، ويحيى الأرواح بعد حَجْبَتها بأنوار المشاهدات، فتطلع شموسُها من بُرْجِ السعادة، ويتصل، بمشامِّ أسرار الكافة نسيمُ ما يُفيض عليهم من الزيادات، فلا يبقى صاحبُ نَفَسٍ إلا حَظِى منه بنصيب، ويُحْيِى الأسرارَ بأنوار المواجهات. وما كان لها إلا وَقْفَةٌ فى بعض الحالات، فتنتفى، بالكلية، آثارُ الغَيْرِيَّة، ولايَبْقَى فى الديار ديَّار، ولا من سكانها آثار، وسَطَوَاتُ الحقائق لا تثبت لها ذَرَّةٌ من صفات الخلائق؛ هنالك الولاية لله الحق.. انتهى المراد منه، مع زيادة بيان.

ثم ذكر الجوائح، وما ينشأ من أهل الغفلة عند ظهورها، فقال:

﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ
ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَـٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَـٰلَتِهِمْ ۖ إِن
تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾﴾

قلت: اجتمع القسم والشرط، فذكر جواب القسم وأغنى عن جواب الشرط. والضمير في (رأوه): يعود على النبات المفهوم مما تقدم من إحياء الأرض، أو: على السحاب.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ و ﴾ الله ﴿ لئن أرسلنا رِيحاً ﴾ عاصفة على ما نبت في الأرض من الزروع وسائر الأشجار، الذي هو أثر رحمة الله، ﴿ فرَأَوْه ﴾ أي: ما نبت في الأرض، ﴿ مُصْفَرّاً ﴾ يابساً ﴿ لظَلُّوا ﴾ أي: ليظلون ﴿ من بعده ﴾ أي: من بعد اصفراره ﴿ يكفرون ﴾، ويقولون: ما رأينا خيراً قط، فينسون النعم السابقة بالنقم اللاحقة. وهذه صفة أهل الغفلة، وأما أهل اليقظة؛ فيشكرون في أوقات النعم، ويصبرون ويرضون في أوقات النقم، وينتظرون الفرج بعد الشدة، واليسر بعد العسر، غير [قَانِطِينَ](١) ولا ضَجِرين. أو: ولئن أرسلنا ريحاً؛ لتعذيبهم، فرأوا سحابة صفراء، لأنَّ اصفراره علامة على أنه لامطر فيه، لظلوا، أي: للجوا من بعد ذلك على كفرهم وطغيانهم؛ لانهماكم.

قال البيضاوي: وهذه الآية ناعية على الكفار، لقلة تثبتهم، وعدم تدبرهم، وسرعة تزلزلهم؛ لعدم تفكرهم، وسوء رأيهم، فإن النظر السوي يقتضي أن يتوكلوا على الله، ويلتجئوا إليه؛ بالاستغفار، إذا احتبس القطر عنهم، ولاييأسوا من رحمته، وأن يبادروا إلى الشكر واستدامة الطاعة، إذا أصابهم برحمته، ولم يبطروا بالاستبشار، وأن يصبروا على بلائه؛ إذا ضرب زروعهم بالاصفرار، ولم يكفروا نعمه. هـ.

قال النسفي: ذمّهم الله تعالى بأنهم، إذا حبس عنهم المطر، قنطوا من رحمته، وضربوا أذقانهم على صدورهم، مبلسين، فإذا أصابهم برحمته، ورزقهم المطر، استبشروا، فإذا أرسل الله ريحاً فضرب زروعهم بالصفار ضجّوا، وكفروا بنعمه، وهم في جميع هذه الأحوال على صفة مذمومة، وكان عليهم أن يتوكلوا على الله، فقنطوا، وأن يشكروا نعمته ويحمدوه عليها، ففرحوا وبطروا، وأن يصبروا على بلائه، فكفروا. هـ.

وهذه حال من مات قلبه، قال تعالى: ﴿ فإنك لا تُسمع الموتي ﴾ أي: موتى القلوب، وهؤلاء في حكم الموتى؛ فلا تطمع أن يقبلوا منك، ﴿ ولاتُسمع الصمَّ الدعاءَ ﴾ أي: لا تقدر أن تُسْمِعَ من كان كالأصم دعاءك إلى الله، أو: لا يقدرون أن يسمعوا منك، ﴿ إذا ولوا مدبرين ﴾، فإن قلت: الأصم لايسمع؛ مقبلاً أو مدبراً، فما فائدة التخصيص؟ قلت: هو إذا كان مُقبلاً يفهم بالرمز والإشارة، فإذا ولّى فلا يفهم، ولا يسمع، فيتعذر إسماعه بالكلية. قاله النسفي.

---

(١) في الأصول المخطوطة [قانتين] والمناسب ما أثبته.

﴿ وما أنت بهادِ العُمي ﴾ أى: عُمْي القلوب. وقرأ حمزة: «وما أنت تهدى العمى»، ﴿ عن ضلالتهم ﴾ أى: لاتقدر أن تهدى الأعمى عن طريقه إذا ضلّ عنه، بالإشارة إليه، ﴿ إنْ ﴾ ؛ ما ﴿ تُسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون ﴾ ؛ منقادون لأوامر الله ونواهيه.

الإشارة: من أصول طريقة التصوف: الرجوع إلى الله فى السراء والضراء، فالرجوع فى السراء: بالحمد والشكر، وفى الضراء: بالرضا والصبر. قال القشيرى: ﴿ فإنك لاتُسمع الموتى.. ﴾ الخ: مَنْ فَقَدَ الحياةَ الأصلية؛ لم يَعِشْ بالرُّقَى والتمائم، وإذا كان فى السريرة طَرَشٌ عن سماء الحقائق، فَسَمْعُ الظواهر لايفيد إلا تأكيد الحجّة، وكما لم يُسمع الصمّ الدعاء، فكذلك لايمكنه أن يهدى العُمْيَ عن ضلالتهم. هـ.

ولما ذكر شيئاً من دلائل الأكوان، ذكر شيئاً من دلائل الأنفس، فقال:

﴿ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾ ﴾

قلت: «الله»: مبتدأ، والموصول: خبره.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ الله ﴾ الذي يستحق أن يعبد وحده هو ﴿ الذي خلقكم من ضَعْف ﴾ أى: ابتدأكم ضُعفاء، وجعل الضعف أساس أمركم، أو: خلقكم من أصل ضعيف، وهو النطفة؛ كقوله: ﴿ ألم نخلقكم من ماء مهين ﴾(١)، ﴿ ثم جعل من بعد ضعفٍ قوةً ﴾، يعنى: حال الشباب إلى بلوغ الأشد، ﴿ ثم جعل من بعد قوةٍ ضَعْفاً وشَيْبَةً ﴾، يعنى: حال الشيخوخة والهرم.

وقد ورد فى الشيب مايسلى عن روعة هجومه، فمِن ذلك قوله ﷺ: «من شاب شيبة فى الإسلام؛ كانت له نوراً يوم القيامة»(٢)، ولما رأى إبراهيم عليه السلام الشيب فى لحيته قال: يارب، ما هذا؟ قال: هذا وقار. وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: «ياداود، إنى لأنظر الشيخ الكبير، مساء وصباحاً، فأقول له: عبدى، كَبِرَ سِنُّك، ورق جلدك، ووهن عظمك، وحان قدومك عليّ، فاستحي منى، فإنى أستحيى أن أعذب شَيْبَةً بالنار». ومن المُسْتَمْلَحات،

---

(١) الآية ٢٠ من سورة المرسلات.
(٢) أخرجه الترمذى فى (فضائل الجهاد، باب ما جاء فى فضل من شاب شيبة فى سبيل الله، ح ١٦٣٥) وأخرجه، مطولاً، النسائى فى (الجهاد، باب من رمى بسهم فى سبيل الله عز وجل ٦/٢٦) من حديث عمرو بن عبسة.

ممايسلي عن روع الشيب، ما أنشد القائل:

لايَرُوعكَ الشَّيبُ يَابنتَ عَبْدَالله، فالـشَّيبُ حُـلّة ووقَارُ
إنّما تَحسُن الرِّيَاضُ إذَا مَـ ـا ضَحِكَتْ فِي خِلالِهَا الأزْهَارُ

ثم قال تعالى: ﴿يخلق ما يشاء﴾؛ من ضعف، وقوة، وشباب، وشيبة، ﴿وهو العليم﴾ بأحوالهم، ﴿القدير﴾ على تدبيرهم؛ فيصيرهم إلى ذلك. والترديد في الأحوال أبين دليل على وجود الصانع العليم القدير. وفي «الضعف»: لغتان؛ الفتح والضم(١). وهو أقوى سنداً في القراءة، كما روى ابن عمر. قال: قرأتها على رسول الله ﷺ: «من ضَعف»، فأقرأني: «من ضُعْف»(٢).

الإشارة: إذا كثُف الحجاب على الروح، وكثرت همومها، أسرع لها الضعف والهرم، وإذا رقّ حجابها، وقلّت همومها؛ قويت ونشطت بعْد هرمها، ولاشك أن توالي الهموم والأحزان يهرم، وتوالي البسط والفرح ينشط، ويرد الشباب في غير إبّانه، والعارفون: فرحهم بالله دائم، وبسطهم لازم؛ إذ لاتنزل بساحتهم الهموم والأحزان، وإنما تنزل بمن فقد الشهود والعيان؛ كما قال في الحكم.

قال القشيري(٣): ﴿خلقكم من ضعف﴾، أي: ضعف عن حال الخاصة، ثم جعل من بعد ضعف قوة؛ بالوصول إلى شهود الوجود القديم، ثم من بعد قوة ضعفاً؛ بالرجوع إلى المسكنة، أي: في حال البقاء، قال ﷺ: «اللهم أحيني مسكيناً، وأمتني مسكيناً، واحشرني في زمرة المساكين»(٤) هـ(٥).

ثم ذكر أهوال البعث، فقال:

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ فَهَٰذَا يَوْمُ

(١) قرأ حفص: بالفتح، عن عاصم. وقرأ الباقون: بضمها، وهو الذي اختاره حفص، لحديث ابن عمر. وعن حفص أنه قال: (ما خالفت عاصماً إلا في هذا الحرف). وقد صح عنه الفتح والضم. وقال في النشر: وبالوجهين قرأت له، وبهما آخذ. انظر الإتحاف (٣٥٩/٢).

(٢) أخرجه أحمد (٥٨/٢ ـ ٥٩)، وأبو داود في كتاب (الحروف والقراءات، باب ١، ٢٨٣/٤، ح ٣٩٧٨)، والترمذي في (القراءات ـ سورة الروم، ١٧٤/٥، ح ٢٩٣٦) وحسنّه من حديث ابن عمر رضي الله عنه.

(٣) النقل بالمعنى.

(٤) سبق تخريجه.

(٥) المسكين هو المتواضع لله باطناً وظاهراً، والخاضع له، الساكن لأمره، المطمئن بربه، وهو المخبت الخاشع لله، وهذا حال قوة الإيمان، فاللهم اجعلنا مساكين لك، أعزة على عدوك.

﴿ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝٥٦ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ۝٥٧﴾

قلت: «لبثوا»: جواب القسم؛ على المعنى، وإلا لقيل: ما لبثنا.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ويوم تقوم الساعةُ﴾، أى: القيامة. وسميت بذلك؛ لأنها تقوم آخر ساعة من ساعات الدنيا، ولأنها تقوم فى ساعة واحدة، وصارت علَماً لها بالغلبة، كالنجم للثريا، فإذا قامت ﴿يُقسم المجرمون﴾؛ يحلف الكافرون: ﴿ما لبثوا﴾ فى قبورهم، أو: فى الدنيا، ﴿غيرَ ساعة﴾، استقلّوا مدّة لبثهم فى القبور، أو: الدنيا، لشدة هول المطلع، أو: لطول مقامهم فى أهوالها، أو: ينسون ما لبثوا، أو: يكذبون. ﴿كذلك كانوا يُؤفكون﴾، أى: مثل ذلك الصرف كانوا يصرفون فى الدنيا عن الصدق والتصديق، أو: عن الحق حتى يروا الأشياء على غير ما هى عليه، ويقولون: ما هى إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين.

﴿وقال الذين أُوتوا العلم والإيمان﴾، أى: حَصّلوا العلم بالله والإيمان بالبَعْث، وهم الملائكة والأنبياء، والمؤمنون: ﴿لقد لبثتمْ في كتابِ الله﴾؛ فى علم الله المثبت فى اللوح، أو: فى حكم الله وقضائه، أو: القرآن، وهو قوله تعالى: «ومن ورائهم برزخ..» إلخ، أى: لقد مكثتم مُدّةَ البرزخ ﴿إلى يوم البعث﴾، ردّوا عليهم ما قالوه، وحلّفوهم عليه، وأطلعوهم على حقيقة الأمر، ثم وبَّخوهمْ على إنكار البعث بقولهم: ﴿فهذا يومُ البعث﴾ الذى كنتم تنكرونه، ﴿ولكنكم كنتم لاتعلمون﴾ فى الدنيا أنه حق؛ لتفريطكم فى طلب الحق، واتباعه. والفاء جواب شرط(١) مقدر، ينساق إليه الكلام، أى: إن كنتم منكرين للبعث؛ فهذا يومه.

﴿فيؤمئذ لاتنفع(٢) الذين ظلموا﴾ كفروا، ﴿مَعْذِرَتُهُم﴾: اعتذارهم، والمعذرة: تأنيثها مجازى، فيجوز التذكير والتأنيث، ﴿ولاهم يُسْتَعْتَبُونَ﴾ أى: لايقال لهم: أَرْضُوا ربَّكُمْ بالتوبة، ولايُدْعَوْنَ إلى استرضائه، يقال: استَعْتَبَنِي فلان فأعْتَبْتُهُ، أى: استرضانى فأرضيته.

الإشارة: كل من قصر فى هذه الدار، وصرف أيام عمره فى البطالة، يقصر عليه الزمان عند موته، ويرجع عنده كأنه يوم واحد، فحينئذ يستعتب؛ فلا يُعتب، ويطلب الرجعى؛ فلا يُجاب، فلا تسأل عن حسرته وخسارته، والعياذ بالله، وهذا كله مبين فى القرآن، كما قال تعالى:

---

(١) الفاء، بذاتها، ليست جواب شرط مقدر، وإنما هى واقعة فى جواب شرط مقدر.

(٢) قرأ عاصم وحمزة والكسائى: «ينفع»؛ بالياء. والباقون: بالتاء.. انظر: الإتحاف (٢/٣٠٦)

﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مَثَلٍ﴾ أي: بيَّنا لهم فيه من كل مثل، ينبؤهم عن التوحيد والمعاد، وصدق الرسل، وغير ذلك، مما يحتاجون إلى بيانه، ﴿ولئن جئْتهم بآية﴾ من الآيات الدالة على صدقك، أو: القرآن. ﴿ليقُولَنَّ الذين كفروا إن أنتم إلا مبطلون﴾؛ مزورون. وإسناد الإبطال إلى الجميع، مع أن المجيء بالحق واحد؛ مراعاة لمن شايعه معه من المؤمنين، أو: ولقد وصفنا كلّ صفة، كأنها مثل؛ فى غرابتها، وقصصنا عليهم كل قصة عجيبة الشأن، كقصة المبعوثين يوم القيامة، وما يقولون، وما يُقال لهم، وما لاينفع من اعتذارهم، ولا يُسمع من استعتابهم، ولكنهم؛ لقسوة قلوبهم، إذا جئْتَهُمْ بآية من آيات القرآن، قالوا :جئتنا بزور باطل. ﴿كذلك يطبع الله على قلوب الذين لايعلمون﴾ ، أى: مثل ذلك الطبع - وهو الختم- يطبع الله على قلوب الجهلة؛ الذين علِمَ اللهُ منهم اختيارَ الضلال، حتى سمّوا المحققين مبطلين، وهم أغرقُ خلق الله فى تلك الصفة.

﴿فاصبرْ﴾ على أذاهم وعداوتهم، ﴿إن وعْدَ الله﴾ بنصرتك، وإظهار دين الإسلام على كل دين ﴿حقٌّ﴾ لابد من إنجازه والوفاء به، ﴿ولايستخفَّنَّك الذين لايُوقنون﴾؛ لايحملنّك هؤلاء الذين لايوقنون بالآخرة على الخفّة والعجلة فى الرد عليهم، أو: لايحملنّك على الخفة والقلق؛ فزعاً مما يقولون؛ فإنهم ضُلاّل، شاكّون، لايستغرب منهم ذلك. وقرأ يعقوب: بسكون النون؛ على أنه نون التوكيد الخفيفة.

الإشارة: قد بيّن الله فى القرآن ما يحتاج السائرون إليه، من علم الشريعة والطريقة والحقيقة، لمن خاض بحر معانيه وأسراره. ولئن جئتهم بآية، من غوامض أسراره؛ ليقول أهل الجمود: هذا إلْحاد وباطل. فاصبر؛ إن وعد الله بالنصر لأوليائه حق، ولايحملنك على العجلة من لايقين عنده. وبالله التوفيق، ولاحول ولاقوة إلا بالله العلى العظيم. وصلّى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه، وسلّم.

❁ ❁ ❁

سورة لقمان

مكية، وقيل: إلا قوله: ﴿ يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ﴾؛ لأن الزكاة فرضت بالمدينة، وهو ضعيف؛ لأن الحق تعالى يُخبر بالشيء قبل وقوعه كما تحقق وقوعه. وآياها: أربع وثلاثون، أو ثلاث وثلاثون. ومناسبتها لما قبلها قوله: ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ .. ﴾(١) مع قوله: ﴿ تلك آيات الكتاب ﴾؛ إذ هو القرآن العظيم. ﴿ولئن جئتهم بآية﴾(٢) وهنا: ﴿وإذا تُتلى عليهم آياتنا﴾(٣). قيل: وسبب نزولها أن قريشاً سألت عن قصة لقمان مع ابنه، وعن بر والديه، فنزلت. قال تعالى:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ۝٣ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٥ ﴾

قلت: ﴿هُدىً ورحمةً﴾: حالان من الآيات، والعامل: معنى الإشارة. ورفعهما حمزة على الخبر لتلك بعد خبر، أو: خبر عن محذوف، أي: هو، أو: هي هُدى. والموصول: نعت للمحسنين؛ تفسير لإحسانهم، و(هم): مبتدأ، و(يُوقنون): خبر. وتكرير الضمير؛ للتوكيد، ولِمَا حيل بينه وبين خبره.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ الٓم ﴾؛ أيها المصطفى المقرب، ﴿ تلك ﴾ الآيات التي تتلوها هي ﴿ آياتُ الكتابِ الحكيم ﴾ أي: ذي الحكمة البالغة، أو: الذي أُحكمت آياته وأُتقنت، أو: المحكَم الذي لاينسخه كتاب. أو: المصون من التغيير والتبديل. حال كونه ﴿ هُدىً ورحمةً ﴾؛ هادياً لظواهرهم بتبيين الشرائع، ورحمة لقلوبهم بتبيين حقائق الإيمان، ولأرواحهم بإظهار حقائق الإحسان. وقد تقدم هذا البيان في قوله: ﴿ إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا ﴾(٤) الآية. ولذلك خصه بقوله: ﴿ للمحسنين ﴾، فإنما يكون هدى ورحمة لأهل الإحسان؛ لأنهم هم الذي

(١) من الآية ٥٨ من سورة الروم.
(٢) من الآية ٥٨ من سورة الروم.
(٣) من الآية السابعة من سورة لقمان.
(٤) من الآية ٩٣ من سورة المائدة.

يغوصون على أسراره ومعانيه. وهم ﴿ الذين يقيمون الصلاة ﴾؛ يتقنونها، ﴿ ويؤتون الزكاة ﴾ على الوجه المشروع، ويدفعونها لمن يستحقها، لاجزاءً ولا شكورا، ولا لجلب نفع أو دفع شر، ﴿ وهم بالآخرة هم يوقنون ﴾، كأنها نُصْبَ أعينهم. وخص بالذكر هذه الثلاثة؛ لفضلها؛ فإن الصلاة عماد الدين، والزكاة قرينتها؛ لأن الأولى عبادة بدنية، والثانية مالية، والآخرة هى دار الجزاء، فلولا وقوعها لكان وجود هذا الخلق عبثاً،وتعالى الله عنه علواً كبيرا.

ثم مدح المتصف بتلك الخصال فقال: ﴿ أولئك على هُدىً من ربهم ﴾ أي: راكبون على متن الهداية، متمكنون منها، ﴿ وأولئك هم المفلحون ﴾، الفائزون بكل مطلوب.

الإشارة: قال القشيرى: ﴿ الٓم ﴾، الألف إشارة إلى آلائه، واللام إلى لطفه، والميم إلى مجده وسنائه، فبآلائه دفع الجَحْدَ عن قلوب أوليائه، وبلطف عطائه أثبت المحبةَ فى أسرار أصفيائه، وبمجده وسنائه هو مستغنٍ عن جميع خلْقِهِ بوصف كبريائه. هـ.

ثم وصف كتابه بأنه هاد للسائرين، رحمة للواصلين؛ إذ لاتكمل الرحمة إلا بشهود الحبيب، يكلمك ويناجيك، وهذه حالة أهل مقام الإحسان. قال القشيرى: وشَرْطُ المحْسِنِ أن يكون محسناً إلى عباد الله: دانيهم وقاصيهم، مطيعِهم وعاصيهم. ثم قال: ﴿ الذين يُقيمون الصلاة ﴾؛ يأتون بشرائطها فى الظاهر – ثم ذكرها –، وفى الباطن يأتون بشروطها؛ من طهارة السرِّ عن العلائق، وستْرِ عورة الباطن، بتنقيته من العيوب؛ لأن ما كان فيه فالله يراه. فإذا أردْتَ ألا يرى الله عيوبك فاحذَرْها حتى لاتكون. والوقوف على مكان طاهر: هو وقوف القلب على الحدِّ الذى أُذن فيه، مما لا يكون فيه دعوى بلا تحقيق؛ بل رَحِمَ الله مَن وقف عند حدّه بالمعرفة بالوقت، فيعلم وقت التذلل والاستكانة، ويميز بينه وبين وقت السرور والبسط، ويستقبل القبلة بنَفْسِه، ويحقق قلبه بالله، من غير تخصيص بقطْرٍ أو مكان ﴿ أولئك على هدى من ربهم ﴾؛ وهم الذين اهتدوا فى الدنيا، وسلِموا ونَجواْ فى العُقْبى. هـ.

ثم شفع بضدهم، فقال:

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ٦ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسۡتَكۡبِرٗا كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَا كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيۡهِ وَقۡرٗاۖ فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٧ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ومن الناس من يشترى لَهْوَ الحديث﴾ أى: ما يلهى به عما يقرب إلى الله؛ كالأحاديث التى لا أصل لها، والخرافات التى لاحقيقة لها، والمضاحك، وفضول الكلام. قيل: نزلت فى النَّضر بن الحارث، كان يخرج إلى فارس للتجارة، فيشترى أخبار الأعاجم، ثم يُحدث قريشاً بها، ويقول: إن محمداً يُحدثكم بأخبار عاد وثمود، وأنا أحدثكم بحديث رُسْتُم، وأخبار الأكاسرة، فيستملِحُون حديثه ولا يسمعون القرآن(١). وقيل: كان يشترى القيان، ويحملهن على معاشرة من أراد الإسلام؛ ليصده عنه.

والاشتراء من الشراء، كما تقدم عن النضر، ومن البدل، كقوله: ﴿اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ﴾(٢). استبدلوه واختاروه، أى: يختار حديث الباطل على حديث الحق. وإضافة اللهو إلى الحديث؛ للتبيين بمعنى «من»؛ لأن اللهو يكون من الحديث ومن غيره، فيبين بالحديث، والمراد بالحديث: الحديث المكروه، كما جاء فى الحديث: «الحديث فى المسجد يأكل الحسنات، كما تأكل البهيمة الحشيش»(٣). أو: للتبعيض، كأنه قيل: ومن الناس من يشترى بعض الحديث الذى فيه اللهو. وقال مجاهد: يعنى: شراء المغنيات والمغنين، أى: يشترى ذات لهو، أو: ذا لهو الحديث. وقال أبو أمامة: قال عليه الصلاة والسلام: «لا يحل تعليم المغنيات، ولابيعهن، وأثمانُهنّ حرام». وفى مثل هذا نزلت هذه الآية، ثم قال: «وما من رجل يرفع صوته بالغناء إلا بعث الله عليه شيطانين: أحدهما على هذا المنكب، والآخر على هذا المنكب، فلا يزالان يضربان بأرجلهما حتى يسكت»(٤).

قلت: هذا مقيد بِشِعْرِ الهوى لأهل الهوى، وأما أهل الحق الذين يسمعون من الحق، فلا يتوجه الحديث لهم، وسيأتى فى الإشارة تحقيقه إن شاء الله. ثم قال أبو أمامة رضي الله عنه عنه ﷺ: «إن الله تعالى بعثنى هدى ورحمة للعالمين، وأمرنى ربى بمحو المعازف والمزامير والأوثان، والصلب وأمر الجاهلية، وحلف ربى بعزته لا يشرب عبد من عبيدى جرعة خمر متعمداً إلا سقيته مثلها من الصديد يوم القيامة، مغفوراً له أو معذباً، ولاسقاها غيره إلا فعلت به مثل ذلك، ولا يتركها عبد من مخافتى إلا سقيته من حياض القدس يوم القيامة». انظر الثعلبى.

ثم قال تعالى: ﴿ليضل(٥) عن سبيل الله﴾ أى: فعل ذلك لِيَضل هو عن طريق الله ودينه، أو لِيُضل غيره عنه، أو عن القرآن، ﴿بغير علم﴾ أى: جهلاً منه بما عليه من الوزر. ﴿ويتخذها﴾ أى: السبيل ﴿هُزُواً﴾ وسخرية. فمن رفع: استأنف، ومن نصب، عطفها على (ليضل)(٦). ﴿أولئك لهم عذاب مهين﴾ يُهينهم ويخزيهم، و«مَنْ»، لإبهامه، يقع على الواحد والجمع، والمراد: النضر ومن تبعه.

(١) ذكره الواحدى فى أسباب النزول (٢ ٣٥٦)، والبغوى فى التفسير (٦/٢٨٣) عن الكلبى ومقاتل.
(٢) من الآية ١٧٧ من سورة آل عمران. (٣) قال العراقى فى المغنى عن حمل الأسفار (١/١٨): لم أقف له على أصل.
(٤) أخرجه الإمام أحمد فى المسند (٥/٢٥٢)، والطبرى فى التفسير (٢١/٦٠)، والطبرانى فى الكبير (٨/٢١٢، ٢٥١)، والبيهقى فى السنن (٦/١٥)، والبغوى فى التفسير (٦/٢٨٤)، والواحدى فى أسباب النزول (ص ٣٥٧) وذكره ابن الجوزى فى العلل المتناهية (٢/١٩٨) وأخرجه مختصراً الترمذى وضعفه فى (التفسير - سورة لقمان ٥/٣٢٢، ح ٣١٩٥).
(٥) قرأ ابن كثير وأبو عمرو (ليضل) بفتح الياء. والباقون بالضم. انظر الإتحاف (٢/٣٦١).
(٦) قرأ حفص وحمزة والكسائى: «ويتخذها» بالنصب. وقرأ الباقون: «ويتخذها» بالرفع. انظر الإتحاف (٢/٣٦٢).

﴿ وإذا تُتلى عليه آياتنا ولّى مُستكبراً ﴾ ؛ أعرض عن تدبرها متكبراً رافعاً نفسه عن الإصغاء إلى القرآن، ﴿ كأن لم يَسْمَعْهَا ﴾ ؛ كأنه لم يسمعها، ولاذُكرت على سمعه. شبّه حاله بحال من لم يسمعها قط، ﴿ كأنّ فى أذنيه وقراً ﴾ ؛ ثِقَلاً وصمماً، ﴿ فبشره بعذابٍ أليم ﴾ ؛ أخْبِرْه بأن العذاب يُوجعه لامحالة. وذكر البشارة على سبيل التهكم. وهذا فى مقابلة مدح المحسنين المقيمين المزكين. فكما قال فى المحسنين: ﴿أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون﴾، قال فى هؤلاء: ﴿أولئك لهم عذاب مهين﴾، بعد أن وصفهم بالضلال والإضلال، فى مقابلة المحسنين بالهدايه والفلاح. والله تعالى أعلم.

الإشارة: لهو الحديث هو كل مايشغل عن الله، ويصد عن حضرة الله، كائناً ما كان، سواء كان غناء أو غيره، وإذا كان الغناء يهيج لذكر الله، ويحرك الروح إلى حضرة الله، كان حقاً، وإذاكان يحرك إلى الهوى النفسانى كان باطلاً. والحاصل: أن السماع عند الصوفية ركن من أركان الطريقة، بشروطه الثلاثة: الزمان والمكان والإخوان. وقد ألف الغزالى تأليفاً فى تكفير من أطلق تحريم السماع. وقال فى الإحياء، فى جملة من احتج به المُحَرِّمُ للسماع: احتج بقوله تعالى: ﴿ ومن الناس من يشتري لَهْوَ الحديث ﴾ ، وقد قال ابن مسعود والنخَعي والحسن: إنه الغناء. وأجاب ما حاصله: أنه إنما يحرم إذا كان استبدالا بالدين، وليس كل غناء بدلاً عن الدين، مُشْتَرىً به، ومضلاً عن سبيل الله، ولو قرأ القرآن ليضل عن سبيل الله كان حراماً. كما حكى عن بعض المنافقين؛ أنه كان يؤم الناس ولايقرأ إلا بسورة عبس، لِمَا فيها من العتاب مع رسول الله ﷺ، فهمّ عمرُ بقتله. فالإضلال بالشعر والغناء أولى بالتحريم. هـ. وأما إن لم يكن شيء من ذلك، فلا يحرم.

وقال فى القوت، فى كتاب المحبة: ولم يزل الحجازيون، عندنا بمكة، يسمعون السماع فى أفضل أيام السنة، وهى الأيام المعدودات، التى أمر الله عز وجل عبادَه فيها بذكره، أيام التشريق، من وقت عطاء بن أبى رباح، إلى وقتنا هذا، ما أنكره عالم، وكان لعطاء جاريتان تُلَحِّنانِ، فكان إخوانه يستمعون إليهما، ولم يزل أهل المدينة مواظبين لأهل مكة على السماع إلى زماننا هذا. وأدركنا أبا مروان القاضى، له جوار يسمعن التلحين، قد أعدهن للطوافين. فكان يجمعهن لهم، ويأمرهن بالإنشاد، وكان فاضلاً. وسئل شيخنا أبو الحسن بن سالم، فقيل له: إنك تنكر السماع، وقد كان الجنيد وسرى السقطى وذو النون يسمعون؟ فقال: كيف أنكر السماع وقد أجازه وسمعه من هو خير منى. هـ.

وقال ابن ليون التجيبى فى الإنالة: رُوى عن مصعب بن الزبير، قال: حضرت مجلس مالك، فسأله أبو مصعب عن السماع، فقال: ما أدرى، إلا أن أهل العلم ببلدنا لاينكرون ذلك، ولايقعدون عنه، ولاينكره إلا غبى

جاهل، أو ناسك عراقي غليظ الطبع. قال التجيبي: وعن أنس؛ كنا عند النبي ﷺ، إذ نزل عليه جبريل، فقال: يارسول الله فقراء أمتك يدخلون الجنة قبل الأغنياء بخمسمائةعام، وهو نصف يوم، ففرح فقال: أفيكم من ينشدنا؟ فقال بدوي: نعم، يا رسول الله، فقال: هات، هات، فأنشد البدوي يقول:

قَدْ لَسَعَتْ حَيَّةُ الهوى كَبِدي ... فَلاَ طَبِيبٌ لَهُ ولاَرَاقِي

إلاَّ الحَبِيبُ الَّذِي شُغِفْتُ بِهِ ... فَعِنْدَهُ رُقْيَتِي وتِرْيَاقِي

فتواجد عليه السلام، وتواجد أصحابه معه، حتى سقط رداؤه عن مَنْكِبَيْه، فلما خرجوا، أوى كل واحد إلى مكانه، فقال معاوية: ما أحسن لَعِبَكُمْ يا رسول الله! فقال: مَهْ، مَهْ، يا معاوية، ليس بكريم من لم يهتز عند ذكر الحبيب، ثم اقتسم رداءه من حضرهم بأربعمائة قطعة. وذكره المقدسي هكذا، والسهروردي في عوارفه، وتكلم الناس في هذا الحديث(١).

وقد تخلف الحسن البصري ذات يوم عن أصحابه، وسئل عن تخلفه، فقال: كان في جيراننا سماع. وقال الشبلي: السماع ظاهرة فتنة، وباطنة عبرة. فمن عرف الإشارة حلَّ له سماع العبرة، وإلا فقد استدعى الفتنة(٢). هـ. والله تعالى أعلم.

قوله تعالى: ﴿ وإذا تُتلى عليه .. ﴾ إلخ، هذا مثال لمن لم يَقبل الوعظ؛ لقسوة قلبه، وحُكم المشيئة يُبعده، فلا يزيده كثرة الوعظ إلانفوراً، فسماعه كلا سماع، ومعالجته عَنَىٌ وضياع، كما قال القائل:

إذا أنا عَاتَبْتُ المَلُولَ؛ فَإنَّمَا ... أَخُط بأقلك عَلَى الماء أَحرُفَا

ثم بيَّن فلاح المحسنين، فقال:

---

(١) هذا الكلام كذب صريح، وإفك قبيح. قال العلامة الألوسي: لا أصل له بإجماع محدثي أهل السنة، وما أراه إلا من وضع الزنادقة. راجع تفسير الألوسي (١١/٧٢)؛ ففيه ما يكفي للرد على هذا الافتراء. وقال السيوطي في الحاوي (١/٣٣٦) ما معناه: إن الحديث باطل، موضوع، باتفاق أهل الحديث.

(٢) اختلفت الآراء حول السماع، فأباحه البعض، وكرهه البعض، وحرّمه البعض. راجع في هذه المسألة: الاعتصام للإمام الشاطبي (١/٢٢٠) اللمع للسُّراج الطوسي (٣٣٨ – ٣٧٤) ـ حقائق عن التصوف، للشيخ عبدالقادر عيسى ١٩٧ ـ ٢٠٩.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جناتُ النعيم﴾، قيل: معكوس، أى: لهم نعيم الجنات، أو: لهم بساتين، أو: ديار النعيم. ﴿خالدين فيها﴾: حال من ضمير «لهم». والعامل: الاستقرار. ﴿وَعْدَ الله حقاً﴾ أى: وعدهم ذلك وعداً، وثبت لهم حقاً مُهماً، مصدران مؤكدان، الأول لنفسه، والثانى لغيره، إذ قوله: «لهم جنات النعيم»؛ فى معنى: وعدهم الله جنات النعيم. «وحقا»: يدل على معنى الثبات المفهوم من انجاز الوعد. ﴿وهو العزيزُ﴾ الغالب، الذى لايُعارَض فى حكمه، فينفذ وعده لامحالة. ﴿الحكيمُ﴾ الذى لا يفعل إلاما استدعته حكمته.

الإشارة: إن الذين آمنوا فى البواطن، وحققوا ذلك بالعمل الصالح فى الظواهر، لهم جنات المعارف معجلة، وجنات الزخارف مؤجلة، وعداً حقاً وقولاً صدقا، فما كَمُن فى السرائر ظهر فى شهادة الظواهر، وإلا كان دعوى ونفاقاً، والعياذ بالله.

ثم ذكر شواهد قدرته على إنجاز وعده، فقال:

﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾ ﴾

قلت: «بغير عمد»: يتعلق بحال محذوفه، أى: مُمْسَكَةً أو مرفوعة بغير عمد، و(عمد): اسم جمع على المشهور، وقيل: جمع عماد أو عامد. وجملة (ترونها): إما استئنافية، لامحل لها، أو صفة لعمد.

يقول الحق جل جلاله: ﴿خلق السمواتِ﴾ ورفعها ﴿بغير عَمَدٍ ترونها﴾، الضمير: إما للسموات، أى: خلقها، ظاهرة، ترونها، أو لعمد، أى: بغير عمد مرئية، بل بعمد خفية، وهى إمساكها بقدرته تعالى. ﴿وألقى فى الأرض رواسي﴾ أى: جبالاً ثوابت، كراهة ﴿أن تميدَ بكم﴾ أى: لئلا تضطرب بكم، ﴿وبثَّ﴾: نشر ﴿فيها من كل دابةُ، وأنزلنا من السماء ماءً فأنبتنا فيها من كل زوجٍ كريمٍ﴾؛ صنف من أصناف النبات،

﴿ كريم ﴾: حسن بهيج، أو كثير المنفعة. وكأنه استدل بذلك على عزته، التي هي كمال القدرة، وحكمته التي هي كمال العلم، فهي مقررة لقوله: (العزيز الحكيم)

ثم أمر بالتفكر في هذه المصنوعات؛ استدلالاً على توحيده بقوله: ﴿ هذا خلقُ الله ﴾ أي: هذا الذي تُعاينونه من جملة مخلوقاته، ﴿ فأَرُوني ماذا خلقَ الذين من دونه ﴾، يعني: آلهتهم. بكّتهم بأن هذه الأشياء العظيمة مما خلق الله، فأروني ماذا خلق آلهتكم حتى استوجبوا عندكم العبادة؟ ﴿ بل الظالمونَ في ضلال مبين ﴾، أضرب عن تبكيتهم؛ إلى التسجيل عليهم بالظلم والتورط في ضلال ليس بعده ضلال.

الإشارة: خلق سموات الأرواح – وهو عالم الملكوت – مرفوعاً غنياً عن الاحتياج إلى شيء، وألقى في أرض النفوس – وهو عالم الأشباح – من العقول الراسخة، لئلا تميل إلى جهة الانحراف، إما إلى الحقيقة المحضة، أو الشريعة. ونشر في أرض النفوس دواب الخواطر والوساوس، وأنبتنا فيها من علوم الحكمة والقدرة، من كل صنف بهيج. قال القشيري: ﴿وألقى في الأرض رواسي﴾؛ في الظاهر: الجبال، وفي الحقيقة: الأبدال، الذين هم أوتاد، بهم يقيهم، وبهم يَصرِف عن قريبهم وقاصيهم، ﴿وأنزلنا من السماء ماء..﴾؛ المطر من سماء الظاهر في رياض الخُضرَة، ومن سماء الباطن في رياض أهل الدنوّ والحضرة. هذا خلق الله العزيز في كبريائه، فأروني ماذا خلَقَ الذين عبدتُم من دونه في أرضه وسمائه؟. هـ.

ثم ذكر قصة لقمان، الذي وقع السؤال عنه فنزلت السورة، فقال:

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ ﴾

قلت: (يابُني)؛ فيه ثلاث قراءات؛ كسر الياء، وفتحها؛ مُشَدّدة، وإسكانها[1]. وقد تتبعنا توجيهاتها في كتابنا «الدرر الناثرة في توجيه القراءات المتواترة».

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ولقد آتينا لقمانَ الحكمةَ ﴾، وهو لقمان بن باعوراء بن أخت أيوب، أو ابن خالته، وقيل: كان من أولاد آزر، وقيل: أخو شداد بن عاد، أُعطي شداد القوة، وأُعطي لقمان الحكمة، وعاش ألف

(١) قرأ حفص: بفتح الياء.

سنة، وقيل: أكثر، وسيأتي. وأدرك داود ﷺ، وأخذ منه العلم. وكان يُفتى قبل مبعث داود، فلما بُعث قطع الفتوى، فقيل له فى ذلك؟ فقال: ألا أكتفى إذا كُفيت. وقيل: كان خياطاً، وقيل: نجاراً، وقيل: راعياً. وقيل: كان قاضياً فى بنى إسرائيل. وقال عكرمة والشعبى: كان نبياً، والجمهور على أنه كان حكيماً فقط. وقد خُير بين النبوة والحكمة فاختار الحكمة، وهى الإصابة فى القول والعمل. وقيل: تتلمذ لألف نبى وتتلمذ له ألف نبى. قاله النسفى.

قال ابن عمر: سمعت النبى ﷺ يقول: «لم يكن لقمان نبياً، ولكن كان عبداً كثير التفكر، حسن اليقين، أحب الله فأحبه، فمنّ عليه بالحكمة. كان قائماً فجاءه نداء: يالقمان، هل لك أن يجعلك الله خليفة فى الأرض، تحكم بين الناس بالحق؟ فأجاب الصوت، فقال: إن خيرنى ربى قبلت العافية، وإن عزم علىّ فسمعاً وطاعة، فإنى أعلم إن فعل ذلك بى عصمنى وأعاننى. قالت الملائكة بصوت ولايراهم: لِمَ يالقمان؟ فقال: لأن الحاكم بأشد المنازل وأكدرها، يغشاه الظلم من كل مكان، إن يُعَن، فالبحرى أن ينجو، وإن أخطأ؛ أخطأ طريق الجنة، ومن يكن فى الدنيا ذليلاً، خير من أن يكون شريفاً، ومن يختر الدنيا على الآخرة؛ تفُته الدنيا، ولايصيب الآخرة. فعجبت الملائكة من حسن منطقه، فنام نومة فأُعطى الحكمة، فانتبه وتكلم بها»(١). هـ.

قال مجاهد: كان لقمان عبداً أسود، عظيم الشفتين، مُشقّق القدمين(٢). زاد فى اللباب: وكانت زوجته من أجمل أهل زمانها. قيل: لم يزل لقمان، من زمن داود، مظهراً للحكمة والزهد، إلى أيام يونس بن متى. وكان قد عمّرَ عُمر سبعة أنسر، فكان آخر نسوره «لبذ». رُوى أنه أخذ نسراً صغيراً فربّاه، وكان يصرفه فى حوائجه، فعاش ذلك النسر ألف سنة ومات، ثم أخذ نسراً آخر، فعاش خمسمائة سنة، ثم أخذ آخر، فعاش مثل ذلك، إلى السابع، عاش خمسمائة سنة، وإسمه لبذ، فقال له لقمان يوماً: يالبذ انهض إلى كذا، فأراد النهوض فلم يستطع، وإذا بوتر لقمان قد اختلج، وكان لم يألم قط، فنادى بأهله وعشيرته، وعلم أن أجله قد قرب، وقال: إن أجلى قد حضر بموت هذا النسر، كما أعلمنى ربى، فإذا مت فلا تدفنونى فى الكهوف والمقابر، كما [تدفنون](٣) الجبابرة، ولكن ادفنونى فى ضريح الأرض، فدفنوه كما أوصاهم، فقال ابن ثعلبة:

رَأَيْتُ الْفَتَى يَنْسَى مِنَ الْمَوْتِ حَتْفَهُ حَــذُوراً لِرَيْبِ الدَّهْرِ، والدَّهْرُ آكِـلُهْ

فَلَوْ عَاشَ مَاعَـاشَت بِلُقْمَــانَ أَنْسُرٌ لَصَـرفُ الْمَـنَايَا، بعـد ذلك، حَـافِلُهْ

(١) عزاه السيوطى فى الدر (٥/٣١١) للحكيم الترمذى فى نوادر الأصول، عن أبى مسلم الخولانى؛ مرفوعاً.

(٢) أخرجه الطبرى (٢١/٦٧). (٣) فى الأصول (تدفنوا).

قال البيضاوى: والحكمة، فى عرف العلماء: استكمال النفس الإنسانية؛ باقتباس العلوم النظرية، واكتساب المَلَكَة التامة على الأفعال الفاضلة على قدر طاقتها. ومن حكمته أنه صحب داود شهوراً، وكان يسرد الدرع، فلم يسأله عنها، فلما أتمها لبسها، فقال: نِعْمَ لبوسُ الحرب أنت، فقال: الصمت حكمة وقليل فاعله، وأن داود قال له يوماً: كيف أصبحت؟ فقال: أصبحت فى يَدَىْ غيرى. وأنه أمر لقمان بأن يذبح شاة ويأتيه بأطيب مُضْغَتين منها، فأتى باللسان والقلب، ثم بعد أيام أمر بأن يأتى بأخبث مضغتين منها، فأتى بهما أيضاً، فسأله عن ذلك، فقال: هما أطيب شىء؛ إذا طابا، وأخبث شىء؛ إذا خبثا. والذى عند الثعلبى: أن الآمر له بإتيان المضغتين سيدهُ، لا داود عليه السلام قيل له: بِمَ نلتَ هذه الحكم، وقد كنت راعيا؟ فقال: بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وترك مالايعنينى(١). هـ.

قال ﷺ: «أول ما رؤى من حكمة لقمان: أن مولاه أطال الجلوس فى المخرج، فناداه لقمان: إن الجلوس على الحاجة ينخلع منه الكبد، ويورث الباسور، ويُصعد الحرارة إلى الرأس، فاجلس هويناً، وقم هوينا.»(٢) وروى أنه قَدِمَ من سفر، فقيل له: مات أبوك، فقال: الحمد لله، ملكتُ أمرى، فقيل له: ماتت امرأتك، فقال: الحمد لله؛ جُدِّدَ فراشى، فقيل له: ماتت أختك، فقال: سُترت عورتى، فقيل له: مات أخوك، فقال: انقطع ظهرى.(٣) هـ.

و«أنْ» ـ فى قوله: ﴿أن أشكر﴾: مفسرة؛ لأنّ إيتاء الحكمة فى معنى القول، أى: وقلنا له: اشكر لله على ما أعطاك من الحكمة، وفيه تنبيه على أن الحكمة الأصلية والعلم الحقيقى هو العمل بهما، وعبادةُ الله والشكر له، حيث فسر الحكمة بالحث على الشكر. وقيل: لا يكون الرجل حكيماً حتى يكون حليماً فى قوله وفعله ومعاشرته وصُحبته.

وقال الجنيد: الشكر: ألا يُعْصَى الله بنعمه. وقال أيضاً: ألا ترى مع الله شريكاً فى نعمه. وقيل: هو الإقرار بالعجزعن الشكر. والحاصل: أن شكر القلب: المعرفة، وشكر اللسان: الحمد، وشكر الأركان: الطاعة. ورؤية العجز فى الكل دليل القبول. ﴿ومن يشكرْ فإنما يشكرُ لنفسه﴾؛ لأن منفعته تعود عليه، لأنه بريد المزيد، ﴿ومن كفرَ فإنّ الله غنىٌّ﴾؛ غيرمحتاج إلى شكر أحد، ﴿حميد﴾؛ حقيق بأن يُحمد ،وإن لم يَحْمَدْهُ أحد. ﴿و﴾ اذكر ﴿إذ قال لقمان لابنه﴾، واسمه: أنعم، أو أشكم، أو ناران، ﴿وهو يَعِظُهُ يابُنَى﴾، تصغير ابن، لاتُشرك بالله؛ ﴿إن الشرك لظلم عظيم﴾؛ لأنه تسوية بين مَنْ لانِعْمَةَ إلا منه، ومن لانعمة منه أصلاً. وبالله التوفيق.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى الزهد (ص ٤٩)، والطبرى فى التفسير (٢١/٦٧)، وابن أبى شيبة (١٣/٢١٤).

(٢) عزاه السيوطى فى الدر (٥/٣١١) لابن المنذر، عن عكرمة، بدون رفع إلى النبى ﷺ.

(٣) عزاه فى الدر (٥/٣١٧) لعبدالله فى زوائده ، عن عبدالله بن دينار.

الإشارة: قال القشيري: الحكمة: الإصابة فى [الفعل](١) والعقد والنطق. ويقال: الحكمة: متابعة الطريق، من حيثُ توفيق الحق، لا من حيث همة النفس. ويقال: الحكمة: ألا يكون تحت سلطان الهوى. ويقال: هى معرفةُ قدْر نَفسك حتى لاتمدّ رجليك خارجاً عن كسائك. ويقال: ألا تستعصى علَى منْ تعلم أنك لاتقاومه. وحقيقة الشكر: انفتاح عين القلب لشهود ملاطفات الحق. ويقال: الشكرُ: تحقُّقك بعجزك عن شكره. ويقال: ما به يَحْصُلُ كَمَالُ استلذاذِ النعمة. ويقال: هو فضلةٌ تظهر على اللسان من امتلاء القلب من السرور، فينطق بمدح المشكور. ويقال: الشكر: نعتُ كُلِّ غنيٍّ، كما أن الكفران وصف كلّ لئيم. ويقال: الشكر: قرعُ باب الزيادة. هـ. قلت: والأحسن: أنه فرح القلب بإقبال المنعم، فيسرى ذلك فى الجوارح.

ثم قال فى قوله: ﴿ لاتُشرك بالله ﴾: الشركُ على ضربين: جلَىّ وخفىّ، فالجلىُّ: عبادة الأصنام، والخفىّ: حسبان شيء من الحدثان من الأنام – أى: أن تظن شيئاً مما يحدث فى الوجود أنه من الأنام – ويقال: الشرك: إثبـات غَيْنٍ مع شهـود العين، ويقال: الشرك ظلمٌ علَى القلب، والمعاصى ظلمٌ على النفس، فظلم النفس مُعَرَّضٌ للغفران، وظلم القلب لا سبيل للغفران إليه. هـ.

ثم أمر ببر الوالدين، الذى تقدم السؤال عنه فى سبب نزول السورة، فقال:

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ﴾

قلت: الجملتان معترضتان بين أجزاء توصية لقمان لابنه. و(وَهْناً): حال من (أمه)، أى: حملته حال كونها ذاتَ وَهْنٍ، أو من الضمير المنصوب، أى: حملته نُطْفَةً، ثم علقة.. الخ، أو مصدر، أى: تهن وهناً.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ووصينا الإنسانَ بوالديه﴾؛ أن يبرّهُمَا ويُطيعهُمَا، ثم ذكر الحامل على البر فقال: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّه وَهْناً على وَهْنٍ﴾ أى: تضعف ضعفاً فوق ضعف، أى: يتزايد ضعفها ويتضاعف؛ لأن الحمل، كلما ازداد وعظم، ازدادت ثِقلاً. ﴿وفِصَاله في عامين﴾ أى: فطامه لتمام عامين. وهذا أيضاً مما يهيج

(١) فى القشيرى [العقل].

الولد على بر والديه، فيتذكر مَرْقده فى بطن أمه، وتعبها معه فى مدة حَمْلِهِ، ثم ما قاست من وجع الطلق عند خروجه، ثم ما عالجته فى أيام رضاعه؛ من تربيته، وغسل ثيابه، وسهر الليل فى بكائه، إلى غير ذلك.

﴿أن اشكر لي ولوالديك﴾، هو تفسير لِوَصَّيْنَا، أو على حذف الجار، أى: وصيناه بشكرنا وبشكر والديه. وقوله: ﴿حملته أمه..﴾ الخ: اعتراض بين المفسِّر والمفسَّر؛ لأنه، لمَّا وصى بالوالدين، ذكر ما تُكابده وتُعاينه من المشاق فى حمله وفصاله، هذه المدة الطويلة؛ تذكيراً لحقها، مفردا.

وعن ابن عُيَيْنَةَ: من صلى الصلوات الخمس فقد شكر الله، ومن دعا للوالدين، فى أدبار الصلوات الخمس، فقد شكرهما. هـ. وقال القشيرى: والإجماع على أن شكر الوالدين بدوام طاعتهما. ثم قال: فشكرُ الحقِّ بالتعظيم والتكبير، وشكرُ الوالدين بالإشفاق والتوقير. هـ.

ثم قال تعالى: ﴿إليَّ المصيرُ﴾ فأحاسبك على شكرك، أو كفرك. ﴿وإن جاهداك على أن تُشرك بي ما ليس لك به عِلْمٌ﴾، أراد بنفى العلم به نفيَه من أصله، أى: أن تشرك بى ما ليس بشىء، أو: ماليس لك به علم باستحقاقه الإشراك مع الله، بل تقليداً لهما، ﴿فلا تُطعهُما﴾ فى ذلك الشرك. ﴿وَصَاحِبْهُمَا في الدنيا معروفاً﴾ أى: صِحَاباً معروفاً يرتضيه الشرع ويقتضيه الكرم، وهو الخُلُقُ الجميل، بِحِلْمٍ، واحتمالٍ، وبر، وصلة. وقدتقدم تفسيره فى الإسراء(١).

﴿واتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ أى: اتبع طريق مَنْ رجع إلىَّ بالتوحيد والإخلاص، وهو الرسول ﷺ والمؤمنون، ولاتتبع سبيلهما، وإن كنت مأموراً بحسن مصاحبتهما فى الدنيا. وقال ابن عطاء: اتبع سبيل من ترى عليه أنوار خدمتى. هـ. ﴿ثم إليَّ مرجِعُكُم﴾ أى: مرجعك ومرجعهما، ﴿فأُنَبِئُكم بما كنتم تعملون﴾؛ فأجازيك على إيمانك وبِرِّكَ، وأجازيهما على كفرهما. واعْتَرَضَ بهاتين الآيتين، على سبيل الاستطراد؛ تأكيداً لِمَا فى وصية لقمان من النهى عن الشرك، يعنى: إنما وصيناه بوالديه، وأمرناه ألا يطيعَهُمَا فى الشرك، وإن جاهدا كل الجهد؛ لقبح الشرك.

وتقدم أن الآية نزلت فى سعد بن أبى وقاص، وأنه مضت لأمه ثلاث ليال لم تَطْعَمْ فيها شيئاً، فشكى لرسول الله ﷺ، فنزلت(٢)، وقيل: من أناب: أبو بكر؛ لأن سعداً أسلم بدعوته(٣). والله تعالى أعلم.

الإشارة: بر الوالدين واجب، لاسيما فى حق الخصوص، فيطيعهما فى كل شىء، إلا إذا منعاه من صحبة شيخ التربية، الذى يُطهر من الشرك الخفى، الذى لاينجو منه أحد، فإن الآية تشمله بطريق العموم والإشارة، أى: وإن جاهداك على أن تشرك بي متابعة هواك وحظوظك ومحبتهن، فلا تُطعهما، وصاحبهما فى الدنيا معروفاً،

(١) راجع تفسير الآيتين: ٢٣ ـ ٢٤ من سورة الإسراء. (٢) راجع تفسير الآية (٨) من سورة العنكبوت مع حاشية التحقيق.

(٣) انظر سيرة ابن هشام (١/ ٢٥٠ - ٢٥٢) وأسباب النزول للواحدى (ص ٣٥٨). وتفسير البغوى (٦/ ٢٨٨).

واتبع سبيل من أناب إلىّ، هو شيخ التربية فى علم الإشارة. وقد تقدم قول الجنيد: أمرنى أبى بشىء، وأمرنى السَّرى بشىء، فقدمت أمر السَّرى، فرأيت سراً كبيراً. وكان شيخ شيوخنا الولى الشهير، سيدى يوسف الفاسى، يأتيه شاب من أولاد كبراء فاس، وكان أبوه ينهاه ويزجره عن صحبته، وربما بلغ لمجلس الشيخ فيؤذيه، فكان الشيخ يقول للشاب: أطع أباك فى كل شىء إلا فى الإتيان إلينا. هـ. وكان بعض المشايخ يقول: ائتونى ولو بسخط الوالدين؛ إذ لايضره ذلك، حيث قصد إصلاح نفسه ودواءها.

وقال الشيخ السنوسى، فى شرح عقائد الجزائرى، ما نصه: وحاصل الأمر فى النفس: أنها شبيهة، فى حالها، بحال الكافر الحَرْبِىّ، الذى يريد أن تكون كلمة الكفر هى العليا، وكلمة التوحيد السفلى، وكذلك النفس؛ تريد أن تكون كلمة باطلها من الدعاوى للحظوظ العاجلة، المُشْغلة عن إخلاص العبودية لمولانا جل وعلا، وعن القيام بوظائف تكاليفه، على الوجه الذى أمر به، هى العليا، النافذ أمرها ونهيها فى مُدُنِ الأُجسام وما تعلق بها، بعد أن نزلت ساحة الأبدان، واتصلت اتصالاً عظيماً لا انفكاك له إلا بالموت، فوجب، لذلك، على كل مؤمن يعظِّم حرمات الله تعالى أن ينهض كل النهوض، بغاية قواه العلمية والعملية، لجهادها وقتالها. وفى مثل هذا القتال الذى نزل العدو فيه بساحة الأبدان، وهو فرض عين على كل مؤمن، يسقط فيه استئذان الأبوين وغيرهما. هـ. فأنت ترى كيف جعل قيام النفس على العبد، وحجابها له عن ربه، كعدو يجب جهاده ولو خالف الوالدين، وهو كذلك؛ إذ طاعة الوالدين لاتكون فى ترك فرض، ولا فى ارتكاب معصية، ومن جملة المعاصى، عند الخواص، رؤية النفس والوقوف معها، وفى ذلك يقول الشاعر:

فقلتُ: وما ذنبى؟ فقَالَت؛ مُجِيبَةَ : وُجُودُكَ ذَنْبٌ لايُقاس بِهِ ذَنْبُ

وتطهير النفس فرض عين، ولاطاعة للوالدين فى فرض العين. وقوله تعالى: (وصاحبهما فى الدنيا معروفاً) قال الورتجبى: المعروف، هاهنا، أن تعرِّفهما مكان الخطأ والغلط فى الدين عند جهالتهما بالله. ﴿واتبع سبيل من أناب إلىّ﴾، نهاه عن متابعة المخلِّطين، وحثه على متابعة المنيبين. هـ. وبالله التوفيق.

ثم قال لقمان فى وصيته:

﴿ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ﴿١٦﴾ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرۡ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٖ ﴿١٨﴾ وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ ﴿١٩﴾ ﴾

قلت: الضمير فى (إنها): للقصة، ومن قرأ «مثقال»: بالرفع؛ ففاعلُ كَانَ التامة، ومن قرأ بالنصب؛ فخبرها، والضمير: للخطيئة أو الهيئة. وأنث «المثقال»؛ لإضافته إلى الحبة.

يقول الحق جل جلاله: وقال لقمان لابنه، حين قال له: يا أبت: إن عَمِلْتُ بالخطيئة، حين لايرانى أحد، كيف يعلمها الله؟ فقال: ﴿ يابُنىَّ إنها ﴾، أى: القصة أو الخطيئة ﴿ إن تكُ مثقال(١) حبةٍ من خَرْدَلٍ ﴾ أى: إن تك المعصية؛ فى الصغر والحقارة، مثقالَ حبّةٍ من خردل، أو: إن تقع مثالُ حبّهٍ من المعاصى ﴿ فتكن فى صخرةٍ ﴾، أى: فتكن، مع صغرها؛ فى أخفى مكان، أو فى جبل. وقال ابن عباس: هى صخرة تحت الأَرَضين السبع، وهى التى يكتب فيها أعمال الفجار، وخضرة الماء منها. هـ. قال السدى: خلق الله تعالى الأرض على حوت، والحوت فى الماء، والماء على ظهر صَفَاةٍ ـ أى: صخرة ـ والصفاة على ظهر ملَك، والملك على صَخْرَة. وهى الصخرة التى ذكر لقمان. ليست فى السماء ولا فى الأرض، والصخرة على الريح(٢). هـ.

أى: إن تقع المعصية فى أخفى مكان ﴿ يأتِ بها اللهُ ﴾ يوم القيامة؛ فيحاسب عليها عاملها. ﴿ إن الله لطيفٌ ﴾: يتوصل علمه إلى كل خفى، ﴿ خبير ﴾: عالم بكنهه، أو: لطيف باستخراجها خبير بمستقرها.

﴿ يابُنى أقم الصلاةَ ﴾: أتقنها، وحافظ عليها؛ تكميلاً لنفسك، ﴿ وأْمُر بالمعروف وانْهَ عن المنكر ﴾؛ تكميلاً لغيرك، ﴿ واصبرْ على ما أصابك ﴾ فى ذات الله تعالى، إذا أمرت بالمعروف، ونهيت عن المنكر؛ فإن من فعل ذلك تعرض للأذى، أو: على ما أصابك من الشدائد والمحن؛ فإنها تورث المنح والمنن. ﴿ إن ذلك ﴾؛ الذى وصيتك به، ﴿ من عزم الأمور ﴾ أى: مما عزمه الله من الأمور، أى: قَطَعَه قطع إيجاب وإلزام، أى: أمر به أمراً حتماً. وهو مصدر بمعنى المفعول، أى: من معزومات الأمور، أى: مقطوعاتها ومفروضاتها. وفيه دليل على أن هذه الطاعات كانت مأموراً بها فى سائر الأمم.

﴿ ولاتُصعِّرْ خَدكَ للناس ﴾ أى: تُمله عنهم، ولاتولهم صفحة خدك، كما يفعله المتكبرون. والتصعير: داء يصيب البعير، فيلوى عُنُقَهُ منه. والمعنى: أَقْبِل على الناس بوجهك؛ تواضعاً، ولا تُولهم شق وجهك وصفحته؛ تكبراً.

---

(١) قرأ نافع: «مثقال»؛ بالرفع، على أن «تك» تامة. وقرأ الباقون: بالنصب؛ على أن «تك» ناقصة، واسمها ضمير يُفْهَمُ من سياق الكلام، وتقديره: «هى». انظر: البحر المحيط (١٨٢/٧).

(٢) انظر: تفسير البغوى (٢٨٨/٦ ـ ٢٨٩)، والبحر المحيط (١٨٧/٧). قلت: كل هذه أقوال لا علاقة لها بالآية، ولايصح تفسير الآية بها. وعلم الفلك الحديث، وعلم الفضاء، وجميع حقائقه القطعية تبرهن على أن الأرض جرم، وكوكب يسبح فى الفضاء، وليس عل حوت ولا على صخرة. والذى نرجحه: أن هذه الأوهام غير صحيحة السند إلى هؤلاء السادة العلماء.

﴿ ولاتمش في الأرض مرحاً ﴾؛ خُيَلاَءَ؛ متبختراً، فهو مصدر في موضع الحال، أي: مَرِحاً، أو: تمرح مرحاً، أو: لأجل المرح، ﴿ إن الله لايحب كل مختالٍ فخورٍ ﴾، علة النهي. والمختال هو المرِحُ الذي يمشي خيلاء، والفخور هو المُصَعِّرُ خَدَّهُ؛ تكبراً. وتأخير الفخور، مع تقدمه؛ لرؤوس الآي.

﴿ واقصِدْ في مشيك ﴾؛ توسط فيه بين الدبيب والإسراع، فلا تدب دبيب المتماوتين، ولاتثب وثوب الشطارين، قال عليه الصلاة والسلام: «إنَّ سُرْعَةَ المَشى تُذْهِبُ بهَاءِ المؤْمِنِ»(١). وأما قول عائشة ـ رضى الله عنها: (كان إذا مَشَى أسْرَع)؛ فإنما أرادت السرعة المرتفعة عن دبيب التماوت. وعن ابن مسعود رضي الله عنه: كانوا ينهون عن خَبَبِ(٢) اليهود ودبيب النصارى، ولكن مشيًا بين ذلك. وقيل: ﴿واقصد في مشيك﴾: انظر موضع قدميك، أو: اقصد: تَوَسَّطْ بين العلو والتقصير.

﴿ واغضض من صوتك ﴾؛ وانقص منه، أي: اخفض صوتك. كانت العرب تفخر بمجاهرة الصوت، فنهى الله عن خُلُق الجاهلية، فذكره لوصية لقمان، وأنه لو كان شيء يُهَابُ، لرفع صوته لكان الحمار، فجعلهم في المثل سواء. وهوقوله: ﴿ إن أنكَرَ الأصواتِ ﴾؛ أوحشها وأقبحها ﴿ لصوتُ الحمير ﴾؛ لأن أوله زفير، وآخره شهيق، كصوت أهل النار. وعن الثورى: صياح كل شيء تسبيح إلا الحمار، فإنه يصيح لرؤية الشيطان، وقد سماه الله منكراً، وفي تشبيه الرافعين أصواتهم بالحمير؛ تنبيه على أن رفع الصوت في غاية البشاعة، ويؤيده: ما رُوِىَ أنه: عليه الصلاة والسلام ـ كان يعجبه أن يكون الرجل خفيض الصوت، ويكره أن يكون مجهور الصوت.

وقال بعضهم: رفع الصوت محمود في مواطن؛ منها: الأذان والتلبية. وقال في الحاشية الفاسية: بل ينبغي الاقتصاد في ذلك، كما قال عمر بن عبدالعزيز: أَذِّن أذاناً سَمْحًا، وإلا اعتزلنا. هـ. وقال عليه الصلاة والسلام: «ارْبَعُوا على أنفسكم، فإنكم لاتَدْعُون أصمَّ ولاغائباً»(٣). وإنما وحّد صوت الحمير ولم يجمع؛ لأنه لم يرد أن يذكر صوت كل واحد من هذا الجنس حتى يجمع، بل المراد أن كل جنس من الحيوان له صوت، وأنكر أصوات هذه الأجناس صوت هذا الجنس، فوجب توحيده.

الإشارة: قد اشتملت وصية لقمان على خصال صوفية، تدل على كمال صاحبها، منها: استحضار مراقبة الحق ومشاهدته، في السر والعلانية، في الجلاء والخفاء. وهو قوله: ﴿يابنى إنها إن تك مثقال حبة..﴾ الخ. ومنها: القيام بوظائف العبودية، بدنية ولسانية، وهو قوله: ﴿يابنى أقم الصلاة..﴾ إلخ، ويقاس على الأمر بالمعروف والنهى

(١) أخرجه ابن عدى في الكامل (٨/٥)، وأبو نعيم في الحلية (١٠/ ٢٩٠)، من حديث أبي هريرة. وانظر: الفتح السماوى (٢/٩١٣ـ٩١٥).

(٢) الخَبَبُ: ضَرْبٌ من العَدْوِ. وقيل: الخبب: السرعة. انظر: «اللسان: (خبب ٢/١٠٨٥).

(٣) بعض حديث أخرجه البخارى في (الدعوات، باب الدعاء إذا علا عقبة، ح٦٣٨٤)، ومسلم في (الذكر والدعاء، باب استحباب خفض الصوت بالذكر ٤/٢٠٧٦ ح٢٠٧٤) من حديث أبي موسى الأشعرى رضي الله عنه. وقوله «اربعوا» أي: ارفقوا بأنفسكم واخفضوا أصواتكم.

عن المنكر سائر عبادات اللسان، ومنها: الصبر على النوائب، سواء كانت من جهة الخلق، أو من قهرية الحق، وهو ركن في الطريق. وتقدم تفصيله في آخر النحل(١). ومنها: التواضع والليونة، وهما مصيدة الشرف، ومن شأن أهل السياسة. ومن تواضع دون قدره رفعه الله فوق قدره. وهو قوله: ﴿ ولاتُصعر خدَّك للناس ولاتمش في الأرض مرحا ﴾. ومنها: السكينة والوقار والرزانة، وهي نتيجة عمارة القلب بالهيبة والإجلال. وهو قوله: ﴿ واقصد في مشيك ﴾. ومنها: خفض الصوت في سائر الكلام، وهو من علامة وجدان هيبة الحضرة، والقرب من الحق، قال تعالى: ﴿ وَخَشَعَتِ الأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلا تَسْمَعُ إِلاَّ هَمْساً ﴾(٢)، وهو من آكد الآداب مع الأشياخ والفقراء.

قال القشيري: قوله تعالى: ﴿ وأمُر بالمعروف .. ﴾، الأمر بالمعروف يكون بالقول، وأبلغُهُ: أن تمنع نفسك عما تنهى عنه، واشتغالك، واتصاف نفسك، بما تأمر به غيرك، ومنْ لاحُكْم له على نفسه؛ لا حُكْم له على غيره. والمعروف الذى يجب الأمر به: ما يُوَصِّلُ العبدَ إلى مولاه، والمنكر الذى يجب النهى عنه: ما يشغل العبد عن الله. ثم قال: وقوله تعالى: ﴿واصبر على ما أصابك﴾: تنبيه على أنّ مَنْ قام لله بحقٍّ امتُحِنَ فى الله، فسبيله أن يصبرَ فى الله، فإنّ من صبر لله لم يخسر على الله.

ثم قال: قوله تعالى: ﴿ولاتُصعِّر خدَّك للناس﴾؛ لاتتكبرْ عليهم، وطالِعْهم مِنْ حَيْثُ النسبة، وتحقق بأنكَ بمشهدٍ من مولاك. ومن علِمَ أن مولاه ينظر إليه؛ لايتكبر ولايتطاول، بل يتخاضع ويتضاءل. قوله تعالى: ﴿واقصد فى مشيك..﴾ الآية، أى: كُنْ فانياً عن شواهدك، مُصْطَلَماً عن صَوْلتك، مأخوذاً عن حوْلك وقوتك، مُتَشيَّئًا بما استولى عليك من كشوفات سرِّك. وانظر مَنِ الذى يسمع صوتك حتى تستفيق من خُمَارِ غفلتك، ﴿إن أنكر الأصوات لصوت الحمير﴾: فى الإشارة: أنه الذى يتكلم بلسان المعرفة بغير إذنٍ من الحق. وقالوا: هو الصوفى يتكلم قبل أوانه. هـ. أى: يتكلم على الناس، قبل أن يأذن له شيخه فى التذكير. وبالله التوفيق.

ثم ذكّر بالنعم، فقال:

﴿ أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾ ﴾

(١) راجع إشارة الآيات: ١٢٦ - ١٢٨ من سورة النحل.
(٢) الآية ١٠٨ من سورة طه.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ أَلَمْ تَرَوْا أن الله سخر لكم ما في السموات ﴾، يعني: الشمس، والقمر، والنجوم، والسحاب، والمطر، وغير ذلك، ﴿ وما في الأرض ﴾، يعني: البحار، والأنهار، والأشجار، والثمار، والدواب، والمعادن، وغير ذلك، ﴿ وأسْبَغَ ﴾: أتم ﴿ عليكم نِعَمَه ﴾، بالجمع، والإفراد لإرادة الجنس. والنعمة: ما يسر به الإنسان ويتلذذ به، حال كونها ﴿ ظاهرةً ﴾؛ ما تدرك بالحس، ﴿ وباطنة ﴾؛ ما تدرك بالعلم والوجدان. فقيل: الظاهرة: السمع، والبصر، واللسان، وسائر الجوارح الظاهرة، والباطنة: القلب، والعقل، والفهم، وما أشبه ذلك. أو: الظاهرة: الصحة، والعافية، والكفاية؛ والباطنة: الإيمان واليقين، والعلم، والمعرفة بالله، وسيأتى فى الإشارة بقيتها.

رُوِى أن موسى عليه السلام قال: دُلَّنى على أخفى نعمتك على عبادك، فقال: أخفى نعمتى عليهم: النَّفَسُ. هـ. قلت: إذ بمجاهدتها تحصل السعادة العظمى، ولا وصول إليه إلا بمجاهدتها والغيبة عنها. وفى هذا المعنى كان شيخ شيخنا يقول: جزاها الله عنا خيراً؛ ماربحنا إلا منها. هـ. وقيل: الظاهرة: تحسين الخلْق، والباطنة: حُسْنُ الخلُق. وقال ابن عباس: الظاهرة: ما سوّى من خلقك، والباطنة: ما ستر من عيوبك.

﴿ ومن الناس من يُجادل في الله ﴾ بعد هذه النعم المتواترة، أى: فى توحيده وصفاته ودينه، ﴿ بغير علم ﴾ مستفاد من دليل ولا برهان، ﴿ ولا هُدىً ﴾ أى: هداية رسول، ﴿ ولا كتاب منير ﴾ أنزله الله، بل بمجرد التقليد الردي. نزلت فى النضر بن الحارث. وقد تقدمت فى الحج(١).

﴿ وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله ﴾ على رسوله؛ من التوحيد، والشرائع، ﴿ قالوا بل نتبعُ ما وجدنا عليه آباءنا ﴾ من عبادة الأصنام. وهو دليل منع التقليد فى الأصول. قاله البيضاوى قلت: والمشهور أن إيمان المقلِّد صحيح. وأما من قلّد الرسول عليه الصلاة والسلام، ولم ينظر، فهو مؤمن، اتفاقاً. قال تعالى: ﴿ أَوَ لَو ﴾؛ أيتبعونهم، ولو ﴿ كان الشيطانُ يدعوهم إلى عذاب السعير ﴾، يحتمل أن يكون الضمير لهم، أى: أيقلدونهم، ولو كان يدعوهم بذلك التقليد إلى العذاب، أو: لآبائهم، أى: أيتبعون آباءهم، ولو كان الشيطان فى زمانهم يدعوهم إلى عذاب السعير.

الإشارة: الأكوان كلها خُلِقَتْ لك أيها الإنسان، وأنت خُلِقْتَ للحضرة، فاعرف قَدْرَكَ، ولاتتعدَّ طَوْرَكَ، واشكر النعم التي أسبغ عليك؛ ظاهرة وباطنة. الظاهرة: استقامة الظواهر فى عمل الشرائع، والباطنة: تصفية البواطن؛ لتتهيأ لأنوار الحقائق، أو: الظاهرة: المنن، والباطنة: المحن. قال القشيرى: قد تكلموا فى الظاهرة والباطنة وأكثروا.

(١) راجع تفسير الآية ٨ من سورة الحج (٣/٥١٥).

فالظاهرةُ: وجودُ النعمة، والباطنةُ: شهودُ المنعم، أو: الظاهرةُ: الدنيويةُ، والباطنة: الدينية. أو: الخَلْق والخُلق، أو: نَفْس بلا زَلّة، وقلبٌ بلا غفلة، أو: عطاء ورضى. أو: الظاهرة: في الأموال ونمائها، والباطنة: في الأحوال وصفائها، أو: الظاهرة: النعمةُ، والباطنة: العصمةُ، أو: الظاهرةُ: توفيقُ الطاعات، والباطنة: قبولُها، أو: الظاهرة: صحبة العارفين، والباطنةُ: حِفْظُ حُرْمَتِهم وتعظيمهم. أو: الظاهرة: الزهدُ في الدنيا، والباطنة: الاكتفاءُ بالله من الدنيا والعُقبى. أو: الظاهرة: الزهد، والباطنة: الوَجْدُ. أو: الظاهرة: توفيق المجاهدة، والباطنة: تحقيقُ المشاهدة، أو: الظاهرة: وظائف النَّفْس، والباطنة: لطائف القلب، أو: الظاهرة: اشتغالُك بنفسك عن الخلق، والباطنة: اشتغالك بربِّك عن نفسك، أو: الظاهرة: طَلَبُه، والباطنة: وجودُه، أو: الظاهرةُ: أنْ تَصِلَ إليه، والباطنة: أن تبقى معه. هـ. بيعض المعنى.

ثم قال القشيري: ﴿ وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله.. ﴾ الآية: لم يتخطوا أمثالَهم، ولم يهتدوا إلى تحوّل أحوالهم هـ. يعني: قلدوا أسلافهم في الإقامة مع الرسوم والأشكال، والانهماك في الحظوظ، فعاقهم ذلك عن السير والوصول. ولاحول ولا قوة إلا بالله.

وأما من خالف أمثاله وأشكاله، وانقاد بكليته إلى مولاه، فقد استمسك بالعروة الوثقى، كما قال تعالى:

﴿ ۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾ ﴾

قلت: قال في الحاشية: لمَّا ذكر حال الكافر المجادل ذكر حال المسلم، وعدّاه هنا بإلى، وفي قوله: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ ﴾(١) ، باللام؛ لأنه لمَّا كان المجادل غير مُعين، ولم يخص له واحداً بعينه، عقّبه بحال من حصل منه مطلق الاستسلام، ومَدْحُهُ يتناول مَدْحَ مَنِ اتصف بأخص الاستسلام. أو: في الآية الأُخرى أتى به خاصاً، لما رتب عليه من الثواب الجزيل بقوله: ﴿فله أجره ...﴾ الخ، الذي لم يذكر هنا إلا بعضه، فإن اللام تقتضي الاختصاص والقصد إلى الشيء. وإلى: لاتقتضي ذلك. انظر ابن عرفة.

وقال النسفي: عدّاه هنا بإلى وهناك باللام؛ لأن معناه، مع اللام: أنه جعل وجهه ـ وهو ذاته ونفسه ـ سالماً لله، أي: خالصاً له، ومعناه، مع «إلى»: أنه سلّم نفسه كما يُسلم المتاع إلى الرجل، إذا دفع إليه. والمراد: التوكل عليه والتفويض إليه. هـ. أي: فهو أبلغ من اللام، ومثله البيضاوي.

(١) الآية ١١٢ من سورة البقرة.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ومن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إلى الله ﴾ أى: ينقد إليه بكليته، وينقطع إليه بجميع شراشره، بأن فوض أمره إليه، وأقبل بكُلِّيَّتِهِ عليه، ﴿ وهو محسن ﴾ فى أعماله. قال القشيرى: من أَسْلَمَ نَفْسَه، وأخلص فى الله قَصْدَهُ، فقد استمسك بالعروة الوثقى. هـ. فالاستسلام قد يكون بغير إخلاص، فلذلك قال: ﴿وهو محسن﴾. قاله المحشى. وقلت: وفيه نظر؛ فإن الحق تعالى إنما عبّر بالإسلام لا بالاستسلام، وإنما المعنى: أسلم وجهه فى الباطن، وهو محسن بالعمل فى الظاهر، ﴿ فقد استمسك بالعُرْوَةِ الوُثْقَى ﴾، أى: تعلق بأوثق ما يتعلق به؛ فالعروة: مايستمسك به. والوثقى: تأنيث الأوثق. مثّلَ حال المسلم المتوكل بحال من أراد أن يَتَدَلَّى من شاهق جبل، فاحتاط لنفسه، بأن استمسك بأوثق عروة من حبل متين، مأمونٍ انقطاعُهُ. قال الهروى: أى: تمسك بالعقد الوثيق. وقال الأزهرى: أصله: من عروة الكلأ، وهو: ماله أصل ثابت فى الأرض، من الشيح وغيره من الشجر المستأصل فى الأرض. ضُرِبَتْ مثلاً لكل ما يُعْتَصَمُ به، ويُلْجأ اليه. هـ.

وهو إشارة لكون التوحيد سبباً وأصلاً، والآخذُ به، مُتصلاً بالله، لا يخشى انقطاعاً ولا هلاكاً، بخلاف الشرك، فإنه على الضد، كما يرشد إليه قوله تعالى: ﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ .. ﴾(١) الآية. وقوله تعالى: ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ... ﴾ الآية(٢).

﴿ وإلى الله عاقبةُ الأمور ﴾ أى: صائرة إليه، فيجازى عليها.

﴿ ومن كَفَرَ ﴾؛ ولم يسلم وجهه لله ﴿ فلا يَحْزُنكَ كُفْرُه ﴾؛ فلا يهمك شأنه، فَسَيَقْدَمُ علينا ونجازيه، ﴿ إلينا مرجعُهم فننبئهم بما عملوا ﴾، أى: فنعاقبهم على أعمالهم، ﴿ إن الله عليم بذات الصدور ﴾، أى: عالم بحقائق الصدور، وما فيها، فيجازى على حسبها، فضلاً عما فى الظواهر، ﴿ نُمتعهم قليلاً ﴾، أى: نمتعهم زماناً قليلاً بدنياهم، ﴿ ثم نضطرهم ﴾؛ نلجئهم ﴿ إلى عذابٍ غليظٍ ﴾ شديد. شبّه إلزامهم التعذيب، وإرهاقهم إليه، باضطرار المضطر إلى الشيء. والغلظ: مستعار من الأجرام الغليظة، والمراد: الشدة والثِّقَلُ على المُعَذَّبِ. عائذاً بالله من موجبات غضبه.

الإشارة: ومن يَنْقَدْ بكليته إلى مولاه، وغاب عن كل ما سواه، وهو من أهل مقام الإحسان، بأن أشرقت عليه شمس العيان، فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها أبدا. ومن أمارات الانقياد: ترك التدبير والاختيار، والرضا والتسليم لكل ما يبرز من عنصر الاقتدار، وترك الشكوى بأحكام الواحد القهار. ﴿وإلى الله عاقبة الأمور﴾؛ فيوصل من يشاء برحمته، ويقطع من يشاء بعدله. ومن يجحد طريق الخصوص من أهل زمانه؛ فلا يحزنك، أيها العارف،

(١) الآية ٢٦ من سورة إبراهيم.
(٢) الآية ٣١ من سورة الحج.

فعله، إلينا إيابهم، وعلينا حسابهم، فَسَتُمَتِّعُهم بحظوظهم، والوقوف مع عوائدهم، زماناً قليلاً، ثم نضطرهم إلى غم الحجاب وسوء الحساب. والعياذ بالله.

ثم برهن على توحيد من يجب الاستسلام له، فقال:

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ ۚ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولُنَّ الله ﴾، لوضوح الدليل المانع من إسناد الخلق إلى غيره، فيضطرون إلى الإقرار بذلك، ﴿ قل الحمدُ لله ﴾ على إلزامهم وإلجائهم إلى الاعتراف بما يوجب بطلان معتقدهم من شرك الأصنام، ﴿ بل أكثرهم لايعلمون ﴾ أن ذلك يلزمهم إذا نبهوا عليه، ولم ينتبهوا، فالإضراب عن كلام محذوف، أى: فيجب عليهم أن يعبدوا الله وحده، لمّا اعترفوا، ولكنهم لا يعلمون، ﴿ لله ما في السموات والأرض ﴾ ملكاً وعبيداً، ﴿ إنَّ الله هو الغنيُّ الحميدُ ﴾، أى: الغنى عن حمد الحامدين، المستحق للحمد وإن لم يحمدوه.

الإشارة: قد اتفقت الملل على وجود الصانع. ثم وقفت العقول في مقام الحيرة والاستدلال، وامتدت الأرواح والأسرار بأعناقها إلى معرفة الذات وشهودها، فمن وجدَتْ عارفاً كاملاً سلك بها الطريق، حتى أوقعها على عين التحقيق، فأشرفت على البحر الزاخر، فغرقت في بحر الذات وتيار الصفات، ثم رجعت إلى بر الشريعة لتدل غيرها على الوصول. وقل الحمد لله أنْ وَجَدْتَ من يعرفك بالله، وأكثر الخلق حائدون عن العلم بالله.

ثم إن العلم بالله وبصفاته وأسمائه لانهاية له، كما قال تعالى:

﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ۗ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾ ﴾

قلت: (ولو أنما في الأرض): مذهب الكوفيين وجماعة: أن ما بعد «لو»: فاعل بفعل محذوف، أى: ولو ثبت كون ما في الأرض.. الخ. ومذهب سيبويه: أنه مبتدأ، أى: ولو كون ما في الأرض واقع، و(البحر): مبتدأ، و(يمده): خبره، أى: يمد ما ذكر من الأقلام. و(من بعده سبعةُ أبحر): مبتدأ وخبر. وحذف التمييز، أى: (مداداً)،

يدل عليه (يمده)، أو (سبعة): فاعل (يمده)، أي: يصب فيه سبعةُ أبحر، والجملة: حال، أى: ولو أن الأشجار أقلام، فى حال كون البحر ممدوداً، ما نفدت.. الخ. وجملة (يمده): خبر (البحر). ومن قرأ بالنصب فعطف على اسم «إن»، وهو (ما).

يقول الحق جل جلاله: ﴿ولو أنّ مافي الأرض من شجرة﴾ من الأشجار ﴿أقلام﴾، والبحر يمد تلك الأقلام، يصب فى ذلك البحر ﴿سبعةُ أبحر﴾، وتلك الأقلام كلها تكتب كلمات الله الدالة على عظمته وكمالاته، ﴿مانفدَتْ﴾ كلماته، ونفدت الأقلام، وجفت تلك الأبحر، وهذا كقوله: ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي﴾[1] مع زيادة المبالغة بذكر السبعة أبحر، يقال: مد الدواة وأمدها: جعل فيها مداداً، فجعل البحر الأعظم بمنزلة الدواة، والأبحر السبعة مدادها، وفروع الأشجار كلها أقلام تكتب كلماته تعالى، فلو قدر ذلك لتكسرت الأقلام وجفت الأبحر، قبل أن تنفد كلماته تعالى؛ لأنها تابعة لعلمه، وعلمه لا نهاية له.

وإنما وحَّد الشجرة؛ لأن المراد تفصيل الشجر وتقصيها؛ شجرة شجرة، حتى ما يبقى من جنس الشجر، ولاواحدة إلا وقد بُريت أقلاماً. وأوثر الكلمات، وهى من حيز جمع القلة، على الكَلِم، الذى هو جمع الكثرة؛ لأن المعنى: أن كلماته لا يفى بها الأقلام؛ فكيف بكلامه الكثير؟

﴿إن الله عزيزٌ﴾ لا يُعجزه شىء، ﴿حكيم﴾ لا يخرج عن علمه وحكمته شىء، فلا تنفد كلماته وحكمته. والآية جواب اليهود، سألوا رسول الله ﷺ، إن قلنا: الآية مدنية، أو: أمروا وَفد قريش أن يسألوه عن قوله: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾[2]، فقالوا: هل عنيتنا أم قومك؟ فقال ﷺ: «كُلاً قد عنيت»، فقالوا: أليس فيما قد أوتيت أنَّا قد أُوتينا التوراة، فيها علم كل شىء؟ فقال ﷺ: «هى فى علم الله قليل». فأنزل الله: ﴿ولو أنما...﴾ الخ[3].

ولما ذكر شأن كلامه وعلمه؛ ذكر شأن قدرته، فقال: ﴿ما خَلْقُكُمْ ولا بعْثُكم إلا كنَفْسٍ واحدة﴾، أى: إلا كخلق نفس واحدة، وبعث نفس واحدة. فحُذف، للعلم به، أى: القليل والكثير فى قدرة الله تعالى سواء، فلا يشغله شأن عن شأن، وقدرته عامة التعلق، تَنْفُذُ أسرع من لمح البصر. قال الغزالى فى الإحياء: ومن غريب حكم الآخرة أن الرجل يُدعى به إلى الله تعالى، فيُحاسب ويُوبخ، وتُوزن له حسناته وسيئاته، وهو فى ذلك كله يظن أن الله لم

(١) الآية ١٠٩ من سورة الكهف.
(٢) الآية ٨٥ من سورة الإسراء.
(٣) أخرجه الطبرى فى التفسير (٨١/٢١) عن ابن عباس. وذكره الواحدى فى أسباب النزول (ص ٣٥٨) بدون إسناد.

يحاسب إلا هو، ولعل آلاف آلاف ألف مثله في لحظة واحدة. وكل منهم يظُنّ ظنه، لايرى بعضهم بعضاً، ولا يسمعه، وهو قوله تعالى: ﴿ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة﴾. هـ.

﴿إن الله سميع﴾ لقول من يُنكر البعث من المشركين، ﴿بصيرٌ﴾ بأعمالهم، فيجازيهم.

الإشارة: أوصاف البارى سبحانه كلها كاملة، غير محصورة ولامتناهية؛ من علم، وقدرة، وإرادة، وكلام، وغيرها. وأوصاف العبد كلها قصيرة متناهية، وقد يمد الحقُّ عبدَه بصفة من صفاته التى لاتتناهى(١)، فإذا أمده بصفة الكلام تكلم بكلام تعجز عنه العقول، لا يقدر على إمساكه، فلو بقى يتكلم عمرَه كله ما نفد كلامه، حتى يُسكته الحق تعالى. وقد كان بعض السادات يقول لأصحابه، حين يتكلم عليهم: إنى لأستفيد من نفسى كما تستفيدون أنتم منى، وذلك حين الفيض الإلهى. وإذا أمده بصفة القدرة، قدر على كل شيء، وإذا أمده بصفة السمع؛ سمع كل شيء، وإذا أمده بصفة البصر، أبصر كل موجود.. وهكذا. وهذه الأوصاف كامنة فى العبد من حيث معناه، احتجبت بظهور أضدادها؛ صوناً لسرّ الربوبية. والله تعالى أعلم.

ثم برهن على كمال أوصافه، فقال:

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٩) ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ (٣٠) أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٣١) وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ (٣٢) ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ألم ترَ أن الله يُولج الليلَ في النهارِ﴾؛ يُدخل ظلمة الليل فى ضوء النهار، إذا أقبل الليل، ﴿ويُولج النهارَ في الليل﴾؛ يُدخل ضوء النهار فى ظلمة الليل، إذا أقبل النهار. أو: بإدخال جزء

(١) أى: يمد الله عبدَه المخلص ببعض أنوار صفة من صفاته، فقد يمده بنور من صفة العلم، أو بنور من صفة القدرة، أو بنور من صفة العزة، أو بنور من صفة الكلام.. الخ. أما أن يمده بصفة لامتناهية من صفاته اللامتناهية.. فهو أمر غير متصور، فالرب رب، والعبد عبد، والله ليس كمثله شيء.

أحدهما فى الآخر؛ بزيادة الليل أو النهار. ﴿ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ﴾ لمنافع العباد، ﴿ كُلٌّ ﴾، أى: كل واحد من الشمس والقمر ﴿ يجرى ﴾ فى فلكه، ويقطعه، ﴿ إلى أجل مُسَمًّى ﴾ ؛ إلى يوم القيامة، أو: إلى وقت معلوم للشمس، وهو تمام السنة، والقمر إلى آخر الشهر. ﴿ وأن الله بما تعملون خبير ﴾ ؛ عالم بكنهه، لايخفى عليه شيء. فدل، بتعاقب الليل والنهار، أو بزيادتهما ونقصانهما، وجَرْي النيرين فى فلكهما، على تقدير وحساب معلوم، وبإحاطته بجميع أعمال الخلق، على عظيم قدرته، وكمال علمه وحكمته.

﴿ ذلك ﴾ شاهد ﴿ بأنَّ الله هو الحقُّ ﴾، وما سواه باطل، ﴿ وأن ما تدعون(١) من دونه الباطل ﴾ ؛ المعدوم فى حد ذاته، لا حقيقة لوجوده. أو: ذلك الذى وصف بما وصف به، من عجائب قدرته وباهر حكمته، التى يعجز عنها الأحياء القادرون العالمون، فكيف بالجماد الذى يدعونه من دون الله؟ إنما هو بسبب أنه الحق الثابت الإلهية، وأن مَن دونه باطل ألوهيته، ﴿ وأن الله هو العلي الكبير ﴾، أى: العلى الشأن، الكبير السلطان.

﴿ ألم تَرَ أن الفلكَ ﴾ ؛ السفن ﴿ تجري في البحر بنعمة الله ﴾ ؛ بإحسانه ورحمته، أو: بالريح، لأن الريح من نعم الله. أو: ما تحمله السفن من الطعام والأرزاق والمتاع، فالباء، حينئذ، للأرزاق، وهو استشهاد آخر على باهر قدرته، وكمال حكمته، وشمول إنعامه. ﴿ ليُرِيكم من آياته ﴾ ؛ من عجائب قدرته فى البحر إذا ركبتموه، ﴿ إنَّ في ذلك لآياتٍ ﴾ دالة على وحدانيته وكمال صفاته؛ ﴿ لكل صبَّارٍ ﴾ فى بلائه، ﴿ شكورٍ ﴾ لنعمائه. وهما من صفة المؤمن. فالإيمان نصفان؛ نصف شكر ونصف صبر، فلا يَعْتَبِر بعجائب قدرته إلا من كان هكذا.

﴿ وإذا غَشِيَهُم ﴾، أى: الكفار، أى: علاهم وغطاهم ﴿ موجٌ كالظُّلَلِ ﴾، أى: كشيء يظل؛ من جبل، أو سحاب، أو غيرهما، فالموج الكبير يرتفع فيعود كالظلل؛ جمع ظُلَّة، وهو ما أظلك من جبل أو سقف. فإذا غشيهم ذلك؛ ﴿ دَعَوُا اللهَ مخلصين له الدينَ ﴾، لايدعون معه غيره، لزوال ما ينازع الفطرة بالقهرية. ﴿ فلما نجاهم إلى البر فمنهم مقتصدٌ ﴾ ؛ مقيم على الطريق القصد، باقٍ على الإيمان، الذى هو التوحيد، الذى كان منه فى حال الشدة، لم يعد إلى الكفر، أو: متوسط فى الظلم والكفر، انزجر بعض الانزجار.، ولم يَغْلُ فى الكفر والعدوان. أو: مُقْتَصِدٌ فى الإخلاص الذى كان عليه فى البحر، يعنى: أن ذلك الإخلاص الحادث عند الخوف لايبقى لأحد قط، إلا النادر، ﴿ وما يجحد بآياتنا ﴾ أى: بحقيقتها ﴿ إلا كل ختَّارٍ ﴾ ؛ غدار. والختْر: أقبح الغدر، ﴿ كفورٍ ﴾ لنعم ربه. وهذه الكلمات متقابلة؛ لفظاً ومعنى، فَخَتَّارٌ: مقابل صبَّار، وكفور: مقابل شكور؛ لأن من غدر لم يصبر، ومن كفر لم يشكر. والله تعالى أعلم.

---

(١) قرأ أبو عمرو وحفص والكسائى ويعقوب: «مايدعون»؛ بالغيب.. انظر: الإتحاف (٢/ ٣٦٤).

الإشارة: ألم تر أن الله يُولج ليل القبض فى نهار البسط، ونهار البسط فى ليل القبض، فهما يتعاقبان على العبد تعاقب الليل والنهار، فإذا تأدب مع كل واحد منهما؛ زاد بهما معاً، وإلا نقص بهما، أو بأحدهما. فآداب القبض: الصبر، والرضا، والسكون تحت مجارى الأقدار. وآداب البسط: الحمد، والشكر، والإمساك عن الفضول فى كل شيء. وسخَّر شمس العيان وقمر الإيمان، كلٌ يجرى إلى أجل مسمى؛ فقمر الإيمان يجرى إلى طلوع شمس العرفان، وشمس العرفان إلى ما لا نهاية له من الأزمان. ذلك بأن الله هو الحق، وما سواه باطل. فإذا جاء الحق، بطلوع شمس العيان، زهق الباطل، إن الباطل كان زهوقاً. وإنما أثبته الوهم والجهل. ألم تر أن سفن الأفكار تجرى فى بحار التوحيد، لترى عجائب الأنوار وغرائب الأسرار، من أنوار الملكوت وأسرار الجبروت؟ إن فى ذلك لآياتٍ لكل صبَّار على مجاهدة النفس، شكور على نعمة الظَّفَرِ بحضرة القُدُّوسِ.

وإذا غشيهم، فى حال استشرافهم على بحر الحقيقة، موج من أنوار ملكوته، فكادت تدهشهم، تضرعوا والتجأوا إلى سفينة الشريعة، حتى يتمكنوا، فلما نجاهم إلى بر الشريعة، فمنهم مقتصد؛ معتدل بين جذب وسلوك، بين حقيقة وشريعة، ومنهم: غالبٌ عليه السكر والجذب، ومنهم: غالب عليه الصحو والسلوك. وكلهم أولياء الله، ما ينكرهم ويجحدهم إلا كل ختَّار جاحد. قال القشيرى:﴿وإذا غشيهم موج كالظلل﴾؛ إذا تلاطمت عليهم أمواجُ بحار التقدير؛ تمنوا أن تلفظهم تلك البحارُ إلى سواحل السلامة، فإذا جاء الحقُّ بتحقيق مُناهم عادوا إلى رأس خطاياهم.

فَكَمْ قَدْ جَهِلْتُمْ، ثم عُدْنا بِحِلْمِنا، أَحِبَّاءَنا: كَمْ تَجْهَلُونَ وَنَحْلُمُ!

ثم ختم بالوعظ والتذكير، فقال:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔاۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْأَرْحَامِۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًاۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌۢ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾ ﴾

قلت: (بأى أرض)؛ قال فى المصباح: الأفصح: استعمال «أى» فى الشرط والاستفهام بلفظ واحد، للمذكر والمؤنث، وعليه قوله تعالى: ﴿ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنكِرُونَ ﴾(١)، وقد تطابق فى التذكير والتأنيث، نحو: أىُّ رَجُلٍ، وأى وأية امرأة. وفى الشاذ: بأية أرض تموت. هـ.

(١) من الآية ٨١ من سورة غافر.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ يأيها الناس اتقوا ربكم ﴾ ؛ اجعلوا بينكم وبين غضبه وقاية، بطاعته وترك معصيته. ﴿ واخشوا يوماً لا يجزي والدٌ عن ولده ﴾ شيئاً، لايقضى عنه شيئاً، ولايدفع عنه شيئاً. والأصل: لايجزى فيه، فحذف. ﴿ ولا مولودٌ هو جازٍ عن والده شيئاً ﴾، وتغيير النظم فى حق الولد، بأن أكده بالجملة الاسمية، وبزيادة لفظ (هو)، وبالتعبير بالمولود؛ للدلالة على حَسْمِ أطماعهم فى أن ينفعوا آباءهم الذين ماتوا على الكفر؛ بالشفاعة فى الآخرة. ومعنى التأكيد فى لفظ المولود: أن الواحد منهم لو شفع للأب الأدنى الذى ولد منه لم تقبل منه، فضلاً عن أن يشفع لأجداده؛ لأن الولد يقع على الولد وولد الولد، بخلاف المولود؛ لإنه لِمَا وُلِدَ منك. كذا فى الكشاف. قلت: وهذا فى حق الكفار ،وأما المؤمنون؛ فينفع الولد والده، والوالد ولده بالشفاعة، كما ورد فى قارئ القرآن والعالِم، وكل مَن له جاه عند الله، كما تقدم فى سورة مريم(١).

ثم قال تعالى: ﴿ إنَّ وعدَ الله ﴾ بالبعث والحساب والجزاء، ﴿ حقٌّ ﴾ لايمكن خلفه، ﴿ فلا تغرنكم الحياةُ الدنيا ﴾ ؛ بزخارفها الغرارة؛ فإنَّ نعمها دانية، ولذاتها فانية، فلا تشغلكم عن التأهب للقاء، بالزهد فيها، والتفرغ لِمَا يرضى الله، من توحيده وطاعته، ﴿ ولايغُرَّنَّكم بالله ﴾، أى: لايعرضنكم لخطر الغرة بالله وبحلمه، أو: لا يوقعنكم فى الجهل بالله والغرة به، ﴿ الغرور ﴾ أى: الشيطان، أو: الدنيا، أو: الأمل. وفى الحديث: «الكيِّس من دَانَ نَفْسَهُ وعَمِلَ لمَا بَعْدَ المَوْت، والأحمقُ من أتبَع نَفْسَهُ هوَاهاَ ، وتمنَّى علَى الله الأمَانِى»(٢). وفى الحديث أيضا: «كفَى بخشية الله علما، وبالاغترار به جهلا».

﴿ إن الله عنده علمُ الساعة ﴾ أى: وقت قيامها، فلا يعلمه غيره، فتأهبوا لها، قبل أن تأتيكم بغتة. ﴿ ويُنزل الغيثَ ﴾ : عطف على ما يقتضيه الظرف من الفعل، أى: إن الله يُثبت عنده علم الساعة، ويُنزل الغيث فى وقته، من غير تقديم ولاتأخير، وفى محله، على ما سبق فى التقدير، ويعلم كم قطرة ينزلها، وفى أى بقعة يمطرها. ﴿ ويعلم ما في الأرحام ﴾ ؛ أذكر أم أنثى، أتام أم ناقص، وشقى أو سعيد، وحسن أو قبيح. ﴿ وما تدري نفس ماذا تكْسبُ غداً ﴾ من خير أو شر، ووفاق وشقاق، فربما كانت عازمة على الخير فعملت شراً، أو على شر فعملت خيراً. ﴿ وما تدري نفس بأي أرض تموتُ ﴾ أى: أين تموت، فربما أقامت بأرض، وضربت أوتادها، وقالت: لا أبرحُها، فترمى بها مرامى القدر حتى تموت بمكان لم يخطر ببالها.

رُوى أن ملك الموت مرّ على سليمان عليه السلام فجعل ينظر إلى رجل من جلسائه، فقال الرجل: مَن هذا؟ فقال: ملك الموت، فقال: كأنه يُريدنى، فسأل سليمانَ أن يحمله الريح ويلقيه ببلاد الهند، ففعل، ثم قال ملك الموت لسليمان: كان دوام نظرى إليه تعجباً منه، لأنى أُمرت أن أقبض روحه بالهند، وهو عندك. هـ.

---

(١) راجع إشارة الآية ٨٧ من سورة مريم.
(٢) سبق تخريج الحديث عند إشارة الآيات: ٣٨ ـ ٤٠ من سورة العنكبوت.

وجعل العلم لله والدرايةَ للعبد، لِمَا في الدراية من معنى التكسب والحيلة، فهذه الأمور الخمسة قد اختص الله بعلمها. وأما المنجم الذي يُخبر بوقت الغيث والموت؛ فإنه يقول بالقياس والنظر في المطالع، ومايُدرَك بالدليل لايكون غيباً، على أنه مجرد الظن، والظن غير العلم. وعن ابن عباس: من ادعى علم هذه الخمسة فقد كذب. وجاءه يهودي منجم، فقال: إن شئت أنبأتك أنه يحم ابنك ويموت بعد عشرة أيام، وأنت لا تموت حتى تعمى، وأنا لايحول عليَّ الحول حتى أموت. قال له: أين موتك؟ قال: لا أدري، فقال ابن عباس: صدق الله: ﴿ما تدري نفس بأي أرض تموت﴾. ورأى المنصورُ في منامه ملك الموت، وسأله عن مدة عمره، فأشار بأصابعه الخمس، فعبرها المعبرون بخمس سنين، وبخمسة أشهر، وبخمسة أيام. فقال أبو حنيفة رضي الله عنه: هو إشارة إلى هذه الآية، فإن هذه العلوم الخمسة لا يعلمها إلا الله. هـ.

وقال شيخ شيوخنا، سيدي عبدالرحمن الفاسي في حاشيته: قيل: إن الله تعالى يعلم الأشياء بالوَسم والرسم، والرسم يتغير، والوسم لا يتغير، فقدأخفى الله تعالى الساعة، ولم يخف أمارتها، كما جاء عن صاحب الشرع. وكذا قد يطلع أولياءه على بعض غيبه، ولكن لا من كل وجوهه، فقد يعلم نزول المطر من غير تعين وقته واللحظة التي ينزل فيها ومقداره، وبالجملة فعلمُ ما يكون من الخواص، جُملة لا تفصيلي، وجزئي لا كُلي، ومقَيد لامطلق، وعرضي لا ذاتي، بخلاف علمه تعالى. هـ.

قال المحلى: روى البخاري؛ عن ابن عمر حديث مفاتح الغيب خمس: ﴿إن الله عند علم الساعة..﴾(١) إلى آخر السورة.. ونقل ابن حجر عن ابن أبي جمرة، بعد كلام، ما نصه: والحكمة في جعلها خمسة: الإشارة إلى حصر العوالم فيها، ففي قوله: ﴿ما تغيض الأرحام﴾: الإشارة إلى ما يزيد في الإنسان وما ينقص. وخص الرحم بالذكر، لكون الأكثر يعرفونها بالعادة، ومع ذلك فنفى أن يعرفها أحد بحقيقتها، فغيرها بطريق الأولى. وفي قوله: لا يعلم متى يأتي المطر: إشارة إلى أمور العالم العلوي، وخص المطر مع أن له أسباباً قد تدل بجري العادة على وقوعه، لكنه من غير تحقيق. وفي قوله: «لاتدري نفس بأي أرض تموت»: إشارة إلى أمور العالم السفلي، مع أن عادة أكثر الناس أن يموت ببلده، ولكن ليس ذلك حقيقة، وإن مات ببلده لايعلم بأي بقعة يُدفن فيها، ولو كان هناك مقبرة لأسلافه، بل قبر أعده هو له.

وفي قوله: «ولا يعلم ما في غد إلا الله»: إشارة إلى أنواع الزمان، وما فيها من الحوادث، وعبَّر بلفظ (غدٍ)؛ لكون حقيقته أقربَ الأزمنة إليه، وإذا كان مع قربه لا يعلم حقيقة ما يقع فيه، مع إمكان الأمارة والعلامة، فما بعد

(١) أخرج حديث مفاتيح الغيب، البخاري في (الاستسقاء، باب لايدري متى يجيء المطر إلا الله ح ١٠٣٩).

عنه أولى. وفى قوله: «متى تقوم الساعة إلا الله» إشارة إلى علوم الآخرة، فإن يوم القيامة أولها، وإذا نفى علم الأقرب انتفى علم ما بعدُ، فجمعت الآية أنواع الغيوب، وأزالت جميع الدعاوى الفاسدة. وقد بيّن فى قوله تعالى، فى الآية الأخرى، وهى قوله: ﴿فَلا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا إِلاَّ مَنِ ارْتَضَىٰ..﴾(١) الآية، أن الاطلاع على شىء من هذه الأمور لايكون إلا بتوقيف. هـ ملخصا.

والحاصل: أن العوالم التى اختص الله بها خمسة: عالم القيامة وما يقع فيه، والعالم العلوى وما ينشأ منه، وعالم الأرض وما يقع فيه، وعالم الإنسان وما يجرى عليه، وعالم الزمان وما يقع فيه. ﴿إن الله عليم خبير﴾ عليم بالغيوب، خبير بما كان وبما يكون. وعن الزهرى: أَكْثِروا من قراءة سورة لقمان؛ فإن فيها أعاجيب هـ.

الإشارة: يا أيها الناس المتوجهون إلى الله، إنّ وَعْدَ الله بالفتح، لمن أنهض همته إليه، حق، فلا تغرنكم الحياة الدنيا؛ بأشغالها، عن النهوض إليها، ولا يغرنكم بكرم الله الشيطانُ الغرور، فيغركم بكرم الله، ويصرفكم عن المجاهدة والمكابدة؛ إذ لا طريق إلى الوصول إلا منهما، إن الله عنده علم الساعة التى يفتح على العبد فيها، وينزل غيث المواهب والواردات، ويعلم ما فى أرحام الإرادة، من تربية المعرفة واليقين، وما تدرى نفس ماذا تكسب غداً من زيادة الإيمان ونقصانه، وما تلقاه من المقادير الغيبية، فيجب عليها التفويض والاستسلام، وانتظار ما يفعل الله بها فى كل غد، وما تدرى نفس بأى أرض من العبودية تموت فيها، إن الله عليم خبير.

قال القشيرى: فى قوله: ﴿ياأيها الناس اتقوا ربكم﴾: خوّفهم، تارةً، بأفعاله، فيقول: ﴿اتَّقُوا يَوْمًا﴾(٢)، وتارة بصفاته، فيقول: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ﴾(٣)، وتارة بذاته، فيقول: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾(٤). هـ وبالله التوفيق، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم، وصلى الله على سيدنا محمد وآله.

❁ ❁ ❁

(١) الآيتان ٢٦ ـ ٢٧ من سورة الجن.

(٢) جاء فى آيات كثيرة، منها الآية ٤٨ من سورة البقرة.

(٣) من الآية ١٤ من سورة العلق.

(٤) من الآية ٢٨ من سورة آل عمران.

سُورَةُ السَّجْدَة

مكية، وقيل: إلا قوله: ﴿أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقاً﴾(١)، نزلت بالمدينة، وهي ثلاثون آية، أو: تسع وعشرون. ومناسبتها لما قبلها: قوله: ﴿الله الذي خلق السموات...﴾ إلى آخر الآيات، فإنها كالاستدلال على قيام الساعة، التي خوَّف بها في ختم السورة بعد تقرير الرسالة. وقيل: المناسبة: هي ما بعد هذه من تبيين الرسالة، التي هي مستند ما ذكر قبلها من المعاد ودلائل التوحيد. وعن جابر؛ أنه ﷺ كان لا ينام حتى يقرأ: ﴿الّم﴾ السجدة. و﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾، ويقول: «هما مفضلتان على كل سورة من القرآن بسبعين حسنة، ومن قرأهما كُتبت له سبعون حسنة، ومُحي عنه سبعون سيئة».

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۚ بَلۡ هُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٖ مِّن قَبۡلِكَ لَعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ ﴿٣﴾ ﴾

قلت: (تنزيل): إما خبر عن (آلم)، إن جُعِل اسماً للسورة، أو: خبر عن محذوف، أي: هذا تنزيل. أو: مبتدأ، خبره: (لا ريب فيه). وعلى الأول (لا ريب): خبر بعد خبر، و(من رب العالمين): خبر ثالث. أو: خبر عن «تنزيل»، و(لا ريب فيه): معترض. والضمير في (فيه): راجع إلى مضمون الجملة، كأنه قيل: لا ريب في ذلك، أي: كونه منزلاً من رب العالمين، و«أم»: منقطعة بمعنى: «بل».

يقول الحق جل جلاله: ﴿آلم﴾؛ أيها المصطفى المقرب، هذا الذي تتلوه هو ﴿تنزيلُ الكتاب لا ريبَ فيه﴾، لأنه معجز للبشر، ومثله أبعد شيء عن الريب، وهو ﴿من ربِّ العالمين﴾ لا محالة. ﴿أم يقولون افتراه﴾، أي: اختلقه محمد من عنده، وهو إنكار لقولهم، وتعجيب منه؛ لظهور أمره في عجزهم عن الإتيان بسورة منه. قال تعالى: ﴿بل هو الحقُّ﴾ الثابت ﴿من ربك﴾، ولم تفتره، كما زعموا؛ تعنتاً وجهلاً، أنزله عليك ﴿لتُنذر قوماً﴾ أي: العرب، ﴿ما أتاهم من نذيرٍ من قَبلك﴾، بل طالت عليهم الفترة من زمن إسماعيل وعيسى - عليهما السلام -. ﴿لعلهم يهتدون﴾ إلى الصواب من الدين. والترجي مصروفٌ إلى رسول الله ﷺ، كما كان ﴿لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ﴾(٢) مصروفاً إلى موسى وهارون.

(١) الآية ١٨. (٢) من الآية ٤٤ من سورة طه.

الإشارة : (آلم) الألف: ألِفَ المحبون قُربى، فلا يصبرون عنى. اللام: لمع نورى لقلوب السائرين، فزاد شوقهم إلىّ. الميم: ملَّك الواصلون ملكى وملكوتى، فلا يغيبون عنى. تنزيل الكتاب، إذا طال أمد لقاء الأحباب، فأعزّ شيء على المحبين كتاب الأحباب. أنزلت على أحبابى كتابى، وحمّلتْ إليهم بالرسل خطابى، ولا عليهم إن قرع أسماعهم عتابى، فإنهم منى فى أمان من عذابى. ﴿أم يقولون افتراه﴾، إنكار الأعداء على المحبين سُنَّة لازمة. فإن ألبسَ الحق على الأعداء فلا يضركم، ولا عليكم، فلِنَّ [صحبة](1) الحبيب للحبيب ألذّ ما تكون عند فقد الرقيب. قاله القشيري.

ثم ذكر المقصود بالذات، وهو الاستدلال على البعث، فقال:

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله : ﴿اللهُ الذي خلق السموات والأرضَ وما بينهما في﴾ مقدار ﴿ستة أيام، ثم استوى على العرش﴾ أى: استولى بقهرية ذاته. وسئل مالك عنه، فقال: الاستواء معلوم، والكيفية مجهولة، والسؤال عن هذا بدعة. هـ. ولم تتكلم الصحابة على الاستواء، بل أمسكوا عنه، ولذلك قال مالك: السؤال عنه بدعة. وسيأتى شيء فى الإشارة. ﴿مالكم من دونه﴾؛ من دون الله ﴿من وليٍّ ولا شفيع﴾ أى: إذا جاوزتم رضاه لم تجدوا لأنفسكم ولياً، أى: ناصراً ينصركم، ولا شفيعاً يشفع لكم، ﴿أفلا تتذكرون﴾؛ تتعظون بمواعظ الله.

﴿يُدبّرُ الأمرَ﴾ أى: أمر الدنيا. وما يكون من شؤونه تعالى فى ملكه، فهو كقوله: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾(2)، أى: يُبديه لا يبتديه. وهو إشارة إلى القضاء التفصيلى، الجزئى، لا الكلى، فإنه كان دفعة. يكون ذلك التدبير ﴿من السماء إلى الأرض﴾، فيدبر أمر الدنيا بأسباب سماوية، نازلة آثارها إلى الأرض. ﴿في يوم كان مقداره ألفَ سنة مما تعدُّون﴾ من أيام الدنيا.

---

(1) فى الأصول: محبة، والمثبت هو الذى فى القشيرى، وهو المناسب للسياق.
(2) من الآية ٢٩ من سورة الرحمن.

قال الأقليشي: جاء في حديث: «إن بُعد ما بين السماء والأرض، وما بين سماء إلى سماء، مسيرة خمسمائة سنة» . وفي حديث آخر: «إن بين ذلك نيِّفاً وسبعين سنة»، وإنما وقع الاختلاف في ذلك بالنسبة إلى سير الملائكة. وان سرعة بعضها أكثر من سرعة بعض. كما يقول القائل: من موضع كذا إلى كذا مسيرة شهر للفارس وشهرين للراجل. وعليه يخرج قوله تعالى: ﴿ يُدبر الأمرَ من السماءِ إلى الأرضِ ثم يَعْرُجُ إليه في يوم كان مقداره ألفَ سنة ﴾ . وقال في آية أخرى: ﴿ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾(١). وهكذا الوجود منْ علوه إلى سفله، منْ الملائكة من يقطعه في مدةٍ ما، ويقطعه غيره في أكثر منها أو أقل. هـ. وقيل: المعنى: أنه يدبر أمر الدنيا إلى أن تقوم الساعة، ثم يعرج إليه ذلك الأمر، فيحكم فيه في يوم كان مقداره ألف سنة، أو خمسين ألف سنة. فقد قيل: إن مواقف يوم القيامة خمسون موقفًا، كل موقف ألف سنة. وقد حكى هذا ابن عطية، فقال: يُدبر الأمر في مدة الدنيا، ثم يعرج إليه يوم القيامة. ويوم القيامة: مقداره ألف سنة؛ من عدّنا. وهو على الكفار قدر خمسين ألف سنة؛ لِهوله، حسبما في سورة المعارج. هـ.

قلت : والتحقيق، في الفرق بين الآيتين، أن الحق تعالى، حيث لم يختص بمكان دون مكان، وكانت الأمكنة في حقه تعالى كلها واحدة، وهو موجود معها وفيها بعلمه وأسرار ذاته، كان العروج إنما هو إليه على كل حال، بعدت المسافة أو قربت. لكن لما علقَ العروج بتدبير الأمور وتنفيذها، قَرَّب المسافة؛ ليعلم العبد أن القضاء نافذ فيه بسرعة. ولمَّا علَّقَ عروج الملائكة والروح إلى مطلق الذات المقدسة بعَّدَ المسافة؛ زيادة في علو شأنه ورفعة قدره. وكل هذا العروج في دار الدنيا. على قول من علَّقَ (في يوم) بتعْرج في سورة المعارج. فتأمله.

﴿ ذلك عالمُ الغيب والشهادة ﴾ ، أي: ذلك الموصوف بتلك الصفات العظام هو عالم ما غاب عن الأبصار من عجائب أسرار عالم الملكوت، وما شوهد في عالم الحس من عجائب عالم الملك. ﴿ العزيزُ ﴾ ؛ الغالب أمره وتدبيره، ﴿ الرحيم ﴾ ؛ البالغ لطفُه وتيسيره.

الإشارة: اعلم أن الحق تعالى تجلى بهذه الكائنات، قطعة من نور ذاته، على ترتيب وتمهيل. فتجلى بالعرش، ثم بالماء، فكان عرشه على الماء، ثم بالكرسي، ثم بالأرض، ثم بالسموات، ولما أكمل أمر مملكته تجلى بنور صمداني رحماني من بحر جبروته، استوى به على عرشه؛ لتدبير ملكه، ثم تجلى بآدم على صورة ذلك التجلي. ولذلك قال ﷺ: «إن الله خلق آدم على صورته». وفي رواية: «على صورة الرحمن». وبذلك التجلي يتجلى يوم القيامة لفصل عباده، ولرؤيته ـ باعتبار العامة ـ، وهذا التجلي كله، من جهة معناه، متصل بسائر التجليات،

(١) الآية ٤ من سورة المعارج.

جزئى من جهة تشكيله للمعنى الكلى، والفرق بينه وبين التجليات الظاهرة للحس: أن التجلى المستولى غَيْرُ مُرْتَدٍ برداء الحس؛ إذ لا عبودية فيه، ولا قهرية تلحقه. ولأنه لم يظهر للعيان حتى يحتاج إلى رداء، لأن كنزه ما زال مدفوناً، حيث ارتفع فوق تجليات الأكوان. فتأمل، وَسَلِّمْ، إن لم تفهم، ولا تبادر بالإنكار حتى تصحب الرجال، فيخوضون بك بحر الأحدية الحقيقية، فتفهم أسرار التوحيد. وبالله التوفيق.

ثم كمل ما بقى من أوصافه، فقال:

﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَـٰنِ مِن طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٨ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ۝٩ وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ ۚ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَـٰفِرُونَ ۝١٠ ﴾

قلت: (الذى): صفة للعزيز، أو: خبر عن مضمر. ومن قرأ «خَلَقَهُ» بالفتح(١)؛ فصفة لكل، ومن سَكَّنَه؛ فبدل منه، أى: أَحْسَنَ خَلْقَ كل شَيْءٍ.

يقول الحق جل جلاله فى وصف ذاته: ﴿ الذي أحسن كل شيءٍ خلقه ﴾ أى: أبدع خلق كل شىء، أتقنه على وفق حكمته. أو: أتقن كل شىء من مخلوقاته، فجعلهم فى أحسن صورة. ثم ﴿ بدأ خَلْقَ الإنسان ﴾؛ آدم ﴿ من طين، ثم جعل نسله ﴾؛ ذريته ﴿ من سلالةٍ ﴾ أى: نطفة مسلولة من سائر البدن، ﴿ من ماءٍ ﴾ أى: مَنِيٍّ، وهو بدل من سلالة، ﴿ مَّهِينٍ ﴾؛ ضعيف حقير. ﴿ ثم سوّاه ﴾ أى: سوّى صورته فى أحسن تقويم، ﴿ ونفخ فيه من روحه ﴾، أضافه إلى نفسه، تشريفاً، إشارة إلى أنه خلق عجيب، وأن له شأناً ومناسبة إلى حضرة الربوبية، ولذلك قيل: من عرف نفسه عرف ربه. وقد تقدم فى سورة الإسراء، فى الكلام على الروح، وجه المعرفة منه(٢). ﴿ وجعل لكم السمعَ والأبْصارَ والأفئدة ﴾ لتسمعوا كلامه، وتُبصروا آثار قدرته وعجائب حكمته، وتعقلوا، فتعرفوا صانعكم ومُدبرَ أمرِكم. ﴿ قليلاً ما تشكرون ﴾ أى: تشكرون شكراً قليلاً على هذه النعم؛ لقلة التدبر فيها.

---

(١) قرأ نافع وعاصم وحمزة والكسائى: «خلَقَهُ»، بفتح اللام، فعلاً ماضياً، وقرأ الباقون: بسكونها؛ بدل من «كل»، بَدَلَ اشتمال. انظر: الإتحاف (٢/٣٦٦).

(٢) راجع إشارة الآية ٨٥ من سورة الإسراء. (٣/٢٢٨ - ٢٣٠).

﴿ وقالوا ﴾؛ منكرين للبعث: ﴿ أئذا ضللنا في الأرض ﴾، أي: صِرْنَا ترابًا، وذهبنا مختلطين بتراب الأرض، لا نتميز منه، كما يضل الماء فى اللبن. أو: غبنا فى الأرض بالدفن فيها، يقال: ضَلَّ؛ كضرب، وضلِل؛ كفرح. وانتصب الظرف فى (أإذا) بقوله: ﴿ أئنا لفى خلق جديد ﴾. أى: أنُبعث، ونُجدد، إذا ضللنا فى الأرض؟. والقائل لهذه المقالة أُبَيّ بن خلف، وأسند إليهم؛ لرضاهم بذلك، ﴿ بل هم بلقاء ربهم كافرون ﴾؛ جاحدون. لمَّا ذكر كفرهم بالبعث؛ أضرب عنه إلى ما هو أبلغ، وهو أنهم كافرون بجميع ما يكون فى العاقبة، لا بالبعث وحده. وقال المحشى: أى: ليس لهم جحود قدرته تعالى على الإعادة؛ لأنهم يعترفون بقدرته، ولكنهم اعتقدوا ألاَّ حساب عليهم، وأنهم لا يلْقَوْنَ الله تعالى، ولا يصيرون إلى جزائه. هـ. والله تعالى أعلم.

الإشارة: كل ما أظهر الحق تعالى: من تجلياته الكونية؛ فهى فى غاية الإبداع والاتفاق فى أصل نشأتها، كما قال صاحب العينية:

وَكُلُّ قَبِيحٍ، إنْ نَسَبْتَ لِحُسْنِهِ أَتَتْكَ مَعَانِى الحُسْنِ فِيهِ تُسَارِعُ
يُكَمِّلُ نُقْصَانَ القَبِيحِ جَمَالُهُ فَمَا ثَمَّ نُقْصَانٌ، وَلاَ ثَمَّ بَاشِعُ(١)

وأكملُها وأعظمُها: خلقةُ الإنسان، الذى خُلِقَ على صورة الرحمن، حيث جعل فيه أوصافه؛ من قدرة، وإرادة، وعلم، وحياة، وسمع، وبصر، وكلام، وهيأه لحضرة القدس ومحل الأنس، وسخّر له جميع الكائنات، وهيأه لحمل الأمانة، إلى غير ذلك مما خص به عبده المؤمن. وأما الكافر فهو فى أسفل سافلين. قال الورتجبى: ذكر حسن الأشياء، ولم يذكر هنا حسن الإنسان؛ غيرةً؛ لأنه موضع محبته، واختياره الأزلى، كقول القائل:

وكم أبصرتُ مِن حُسْنٍ، ولكن عليك، من الورى، وقع اختيارى

قال الواسطى: الجسم يستحسن المستحسنات، والروح واحدية فردانيةٌ، لا تستحسن شيئاً. وقال ابن عطاء فى قوله: ﴿ثم سواه ...﴾: قوّمه بفنون الآداب، ونفخ فيه من روحه الخاص، الذى، به، فَضّلَه على سائر الأرواح، لما كان له عنده من محل التمكين، وما كان فيه من تدبير الخلافة، ومشافهة الخطاب ـ بعد أن قال الورتجبى ـ: أخص الخصائص هو ما سقط من حُسْنِ تَجَلّى ذاته فى صورته، كما ذكر بقوله: ﴿ونفخ فيه من روحه﴾. هـ.

ثم ذكر أمر اللقاء الذى أنكروه، فقال:

﴿ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا

(١) انظر النادرات العينية (٧٦ – ٧٧).

إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ
مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ
وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا
خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿قل يتوفاكم مَلَكُ الموتِ الذي وُكِّل بكم﴾؛ بقبض أرواحكم فتموتون، ﴿ثم إلى ربكم تُرجعون﴾؛ بالبعث للحساب والعقاب. وهذا معنى لقاء الله الذى أنكروه. والتوفي: استيفاء الروح، أي: أخذها، من قولك: توفيت حقى من فلان، إذا أخَذْتُه وافياً من غير نقصان. وعن مجاهد: زُويت الأرض لملك الموت، وجُعلت مثل الطست، يتناول منها حيث يشاء(1). وعن مقاتل والكلبى: بلغنا أن اسم ملك الموت «عزرائيل»، وله أربعة أجنحة: جناح بالمشرق وجناح بالمغرب، والخلق بين رجليه، ورأسه وجسده كما بين السماء والأرض، وله الدنيا مثل راحة اليد، فهو يقبض أنفس الخلائق بمشارق الأرض ومغاربها، وله أعوان من ملائكة الرحمة وملائكة العذاب. وعن معاذ بن جبل: أن لملك الموت حربة، تبلغ ما بين المشرق والمغرب، وهو يتصفح وجوه الموتى، فما من أهل بيت إلا وهو يتصفحهم كل يوم مرتين - وفى حديث آخر، خمس مرات - فإذا رأى إنساناً قد انقضى أجله؛ ضربه بتلك الحربة. وقال: الآن يُزار بك عسكر الأموات(2).

فإن قيل: ما الجمع بين قوله: ﴿ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا ﴾(3) و﴿توفاهم الملائكة﴾(4) و﴿قل يتوفاكم ملك الموتِ﴾ وقوله: ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُس ﴾(5)؟ فالجواب: أن توفى الملائكة: القبضُ والنزعُ، وتوفى ملك الموت الدعاء والأمر، يدعو الأرواح فتجيبه، ثم يأمر أعوانه بقبضها، ثم يذهبون بها إلى عليين. وقبض الحق تعالى: خَلْقُ الموتِ فيه. والحاصل: أنّ قبض الملك: المباشرة، وقبض الحق: الإخراج؛ حقيقةً.

قال الورتجبي: قال الحسن: ملك الموت هو الموكل بأرواح بنى آدم، وملك الفناء موكل بأرواح البهائم. فانظر فيه. وأما حديث ملكي الموت والحياة، فقال العراقي: لم أجد له أصلاً. ويعني بملك الحياة: كون الأرواحِ أنفاسَ ملك الحياة؛ كما فى الإحياء. ومذهب أهل السنَّة قاطبة: أن ملك الموت هو الذى يقبض جميع الأرواح، من بنى آدم

(1) أخرجه الطبرى (٢١/٩٨).
(2) ذكره البغوى فى تفسيره (٦/٣٠٢).
(3) من الآية ٦١ من سورة الأنعام.
(4) من الآية ٩٧ من سورة النساء.
(5) من الآية ٤٢ من سورة الزمر.

والبهائم وسائر الحيوانات. وبه قال مالك وأشهب. وذهب قوم إلى أن أرواح البهائم وسائر الحيوانات إنما تَقبض أرواحَهَا أعوانُ ملك الموت. وذهب قوم إلى أن الموت فى حق غير بنى آدم، إنما هو عَدَمٌ مَحْضٌ، كيبس الشجر وجفاف الثياب، فلا قبض لأرواحها، وهو أعم من كونها تُبعث، أو: لا؛ بأن تعاد عن عدم، بخلاف المكلف، فإن روحه لا تعدم، خلافاً للملاحدة، فإنهم جعلوا الموت كله عدماً محضاً، كجفاف العود الأخضر، وهو كفر.

هذا وقد اختلف فى كون الموت ضد الحياة، فيكون معنىً وجودياً، أو هو عدم الحياة، فيكون عدماً، وعلى كلا القولين فالأرواح باقية بعد مفارقة الأبدان، منعّمة أو معذبة.

﴿ ولو ترى ﴾ يا محمد ﴿ إذِ المجرمون ﴾ وهم الذين قالوا: ﴿أئذا ضللنا فى الأرض...﴾ إلخ، و«لو» و«إذ» للماضى، وإنما جاز هنا؛ لأن المُتَرَقَّبَ محقق الوقوع. و(ترى) ، هنا، تامة، لا مفعول لها، أى: لو وقعت منك رؤيةٌ ﴿ إذ المجرمون ناكسو رؤوسِهم ﴾ أى: وقت كون المجرمين ناكسى رؤوسهم من الذل والحياء والندم، ﴿ عند ربهم ﴾ ؛ عند حساب ربهم، قائلين: ﴿ ربنا أبصَرْنا وسَمِعْنا ﴾ أى: صدَّقنا الآن وعدك ووعيدك، وأبصرنا ما حدثَتَنَا به الرسلُ، وسمعنا منك تصديق رسلك، ﴿ فارجعنا ﴾ إلى الدنيا ﴿ نعملْ صالحاً ﴾ من الإيمان والطاعة، ﴿ إنا موقنون ﴾ بالبعث والحساب الآن. وجواب «لو»: محذوف، أى: لرأيت أمراً فظيعاً.

﴿ ولو شئنا لآتينَا كلَّ نفسٍ هُداها ﴾ أى: ما تهتدى به إلى الإيمان والطاعة، أى: لو شئنا لأعطيناه فى الدنيا، كل نفس ما عندنا من اللُّطف الذى، لو كان منهم اختيارُ ذلك، لاهتدوا. لكن لم نعطهم ذلك اللطف؛ لِمَا علمنا منهم اختيار الكفر وإيثاره. وهو حجة على المعتزلة؛ فإن عندهم: قد شاء الله أن يعطى كل نفس ما به اهتدت، وقد أعطاها، لكنها لم تهتد، وأوّلوا الآية بمشيئة الجبر، وهو فاسد. قال تعالى: ﴿ ولكن حقَّ القولُ منى لأملأنّ جهنمَ من الجِنّة والناس أجمعين ﴾ ، أى: ولكن وجب القول منى لأعمرنّ جهنم من الجِنّة والناس، الذين علمت منهم أنهم يختارون الكفر والتكذيب. وفى تخصيص الجن والإنس: إشارة إلى أنه عصم الملائكة من عملٍ يستوجبون به جهنم. وفى الآية ما يقتضى تخصيص أهل النار بالجن والإنس، فيرد ما يُذكر أنه كان قبل آدم أُمم كفروا، ولا يصح ذلك، إلا أن يكونوا من الجن.

﴿ فذُوقُوا بما نسيتم لقاءَ يومكم هذا ﴾ أى: باشروا وبال ترككم العمل للقاء يومكم هذا، وهو الإيمان به. ﴿ إنا نَسيناكم ﴾ : تركناكم فى العذاب، ﴿ وذوقوا عذابَ الخُلْد ﴾ أى: العذاب الدائم الذى لا انقطاع له ﴿ بما كنتم تعملون ﴾ من الكفر والمعاصى.

ثم ذكر ضدهم بقوله: ﴿ إنما يؤمن بآياتنا ﴾، القرآن ﴿ الذين إذا ذُكّروا بها خَرّوا سُجَّداً ﴾، سجدوا لله؛ تواضعاً وخشوعاً، وشكروا على ما رزقهم من الإسلام، ﴿ وسبَّحوا بحمد ربهم ﴾ أى: نزّهوا الله عما لا يليق به، وأثنوا عليه؛ حامدين له، ﴿ وهم لا يستكبرون ﴾ عن الإيمان والسجود له. جلعنا الله منهم بمنّه، آمين.

الإشارة: أهل الفَرْقِ من أهل الحجاب، يتوفاهم ملك الموت، وأهل الجمع مع الله من أهل العيان؛ يتولى قبض أرواحهم ذو الجلال الإكرام؛ كما قيل فى الأخفياء من الأولياء؛ الذين اختص الله تعالى بعلمهم ـ أنه يتولى قبض أرواحهم بيده، فتطيب أجسادهم به، فلا يعدوا عليها الثرى، حتى يُبعثوا بها، مُشْرِقَةً بنور البقاء المجعول فيهم، بالرجوع إليه من الفناء، فيكون بقلوبهم بَقَاءُ الأبد مع الباقى الأحد عز وجل. وقد ورد فى الخبر: «من واظب على قراءة آية الكرسى، دُبر كل صلاة، كان الذى يتولى قبض روحه ذو الجلال الإكرام». يعنى: من تدبر معناها. والمراد بذلك خطفتها بالتجلى، واستغراقها فى الشهود، وغيبتها عن الغير فى ذلك الوقت الهائل، فيغيب عن الواسطة فى شهود الموسوط، مع وجود الواسطة؛ لعموم الآية. والله تعالى أعلم.

قال القشيرى: لولا غفلةُ القلوب لما أحال قبض أرواحهم على مَلَكِ الموت؛ لأَنّ مَلَكَ الموتِ لا أَثَرَ منه فى أحدٍ، وما يحصل فى التوفّى فمن خصائص قدرة الحق، ولكنهم غفلوا عن شهود حقائق الربِّ، فخاطبهم على قدر أفهامهم، وعلّقَ بالأغيار قلوبهم. وكلٌّ يُخاطبه بما يحتمل على قدر قوته وضعفه. هـ. وقال فى قوله: ﴿ولو ترى إذ المجرمون..﴾ الآية: ملكتهم الدهشة وغلبتهم الحجة، فاعترفوا، حينَ لا عُذْرَ، واعترفوا، حينَ لا اعتراف. هـ.

قوله تعالى: ﴿ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها..﴾. قال القشيرى: لو شاء سهّل سبيلَ الاستدلال، وأدام التوفيق لكلِّ أحدٍ، ولكن تَعلّقتْ المشيئةُ بإغواء قوم، وأردنا أن يكون للدار قُطان، كما يكون للجنة سُكان، لما علمنا يوم خلقناهما أنه ينزلهما قومٌ وقومٌ. فَمِنَ المحال أن نريد ارتفاعَ معلومنا، إذ لو لم يقع، ولم يحصل؛ لم يكن علماً. فإذاً لا أكون إلهاً. ومن المحال أن أريد ذلك. ويقال: من يتسلّطُ عليه من يحبه؛ لم يجد فى مُلْكه ما يكرهه. يا مسكين أفنيت عُمْرَك فى النكد والعناء، وأمضيت أيامك فى الجهد والرجاء، غيّرت صفتك، وأكثرتَ مجاهدتك ، فما تفعل فيما مضى، كيف تبدله؟ وما تصنع فى مشيئتى، وبأى وسع تردُّها؟ وأنشدوا:

شكا إليكَ ما وَجَدْ مَن خانَهُ فيكَ الجَلَدْ
حيرانُ، لو شئتَ، اهتدى ظمآنُ، لو شئتَ، وَرَدْ.[1]. هـ.

(٢) البيتان لأبى هبة الله بن المنجم، كما فى يتيمة الدهر (٣/٣٨٩).

قوله تعالى: ﴿ إنما يؤمن .... ﴾ الآية، خروا سُجداً بظواهرهم فى التراب، وبسرائرهم؛ بالخضوع لهيبة الكريم الوهاب، فسجود الجبهة وسيلة لسجود القلب، فإذا سجدت الجبهة وتكبر القلب على عباد الله، كانت وسيلة بلا غاية. وبالله التوفيق.

ثم وصف أهل الخضوع، وما أكرمهم به، فقال:

﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ تتجافى ﴾ أى: ترتفع وتتنحى ﴿ جُنُوبُهم عن المضاجع ﴾؛ عن الفُرش ومواضع النوم للصلاة والذكر. قال سهل: وَهَبَ لقوم هِبَةً، وهو أن أذن لهم فى مناجاته، وجعلهم من أهل وسيلته، ثم مدحهم عليه فقال: (تتجافى جنوبهم عن المضاجع)، ﴿ يَدْعُون ﴾ أى: داعين ﴿ ربَّهم خوفاً ﴾، أى: لأجل خوفهم من سخطه، ﴿ وطمعاً ﴾ فى رحمته، وهم المجتهدون أو المتفكرون فى الليل. وسيأتى فى الإشارة. وعن النبى ﷺ فى تفسيرها: «هو قيامُ العبد من الليل»(١). وعن ابن عطاء: أبت جنوبهم أن تسكن على بساط الغفلة، وطلبت بساط القربة، وعن أنس: كان أناس من أصحاب رسول الله ﷺ يُصلون من صلاة المغرب إلى صلاة العشاء الأخيرة، فنزلت فيهم(٢). وقال ابن عمر رضي الله عنه: قال ﷺ: «من عقّب ـ أى: أحيا ـ ما بين المغرب والعشاء؛ بُنى له فى الجنة قصران مسيرة عام، وفيهما من الشجر ما لو نزلهما أهل المشرق والمغرب لأوسعهم فاكهة. وهى صلاة الأوابين، وغفلة الغافلين. وإن من الدعاء المستجاب الذى لا يُرد: الدعاء ما بين المغرب والعشاء»(٣). هـ. وقيل: هم الذين يَصلُّونَ العَتَمَةَ، ولا ينامون عنها.

﴿ ومما رزقناهم ينفقون ﴾ فى طاعة الله، يعنى: أنهم جمعوا بين قيام الليل وسخاوة النفس. ﴿ فلا تعلم نفس ما أُخْفِيَ لهم من قُرة أعين ﴾ أى: لا يعلم أحد ما أعد الله لهم من الكرامة، مما تقرّ به العينُ من نعيم الأشباح ونعيم الأرواح. وقرأ حمزة ويعقوب: «أخْفى»؛ على المضارع. ﴿ جزاء بما كانوا يعملون ﴾، وعن الحسن: أخفى القوم أعمالهم فى الدنيا؛ فأخفى الله لهم ما لا عين رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر. وفيه دليل على أن المرادَ الصلاةُ فى جوف الليل؛ ليكون الجزاء وفاقاً. قاله النسفى.

---

(١) أخرجه أحمد فى المسند (٣٤٨/٥)، والحاكم فى المستدرك (٤١٢/٢)، والطبرى فى تفسيره (١٠٣/٢١)، من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الطبرى (١٠٠/٢١).

(٣) عزاه فى كنز العمال (ح ١٩٤٥٠) لابن مردويه، عن ابن عمر.

وفى حديث أسماء، عنه ﷺ أنه قال: «إذا جمع الله الأولين والآخرين، يوم القيامة، جاء منادٍ ينادى بصوت يسمعه الخلائق كلهم: سيعلم أهل الجمع، اليوم، مَنْ أولى بالكرم، ثم يرجع فينادى: ليقم الذين كانت لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله، فيقومون، وهم قليل. ثم يرجع فينادى: ليقم الذين كانوا يحمدون الله فى السراء والضراء، فيقومون، وهم قليل، يسرحون جميعاً إلى الجنة. ثم يحاسب سائر الناس»(١). وفى البخارى عن أبى هريرة رضي الله عنه قال ﷺ: «يقول الله ـ عز وجل ـ: أعددتُ لعبادى الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، قال أبو هريرة: واقرأوا، إن شئتم: ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين﴾»(٢).

وقال فى «البدور السافرة»: أخرج الترمذى، عن أبى سعيد الخدرى؛ عن النبى ﷺ قال: «إنّ فى الجنّة مائة درجة، لو أنّ العالمين اجتمعوا في إحداهنّ لوسعتهم».(٣) هـ. وقال ابن وهب: أخبرنى عبد الرحمن بن زياد أنه سمع عُتبة بن عُبيد، الضبى، يذكر عمن حدّثه عن النبى ﷺ قال:« إن فى الجنة مائة درجة، بين كل درجتين ما بين السماء والأرض، أول درجة منها دورها وبيوتها وأبوابها وسررها ومغاليقها، من فضة، والدرجة الثانية: دورها وبيوتها وسررها ومغاليقها من ذهب، والدرجة الثالثة: دورها وبيوتها وأبوابها وسررها ومغاليقها من ياقوت ولؤلؤ وزبرجد. وسبع وتسعون درجة، لا يعلم ما هى إلا الله تعالى»(٤). هـ.

وقيل: المراد بقرة الأعين: النظر إلى وجه الله العظيم. قلت: قرة عين كل واحد: ما كان بغيته وهمته فى الدنيا، فمن كانت همته القصور والحور، أعطاه ما تقر به عينه من ذلك، ومن كانت بغيته وهمته النظرة، أعطاه ما تقر به عينه من ذلك، على الدوام. قال أبو سليمان: شتان بين مَنْ همُّه القصور والحور، ومن همه الحضور ورفعُ الستور. جعلنا الله من خواصهم. آمين.

الإشارة: قوم تتجافى جنوبهم عن المضاجع الحسية إلى العبادة الحسية، وهم العُبّاد والزهاد من الصالحين، فلا تعلم نفس ما أُخفى لهم؛ من نعيم القصور، والحور، والولدان، وغير ذلك. وقوم تتجافى قلوبهم عن مضاجع نوم الغفلة إلى حال الانتباه واليقظة، وعن مضاجع الرغبة إلى حال العفة والحرية، ثم عن مضاجع الفَرْقِ، إلى حال

(١) أخرجه البيهقى فى شعب الإيمان (١٦٩/٣ح٣٢٤٤).
(٢) أخرجه البخارى فى (بدء الخلق، باب ما جاء فى صفة الجنة ح ٣٢٤٤)، ومسلم فى (الجنة وصفة نعيمها، ٢١٧٤/٤،ح٢٨٢٤).
(٣) أخرجه الترمذى فى (صفة الجنة، باب فى صفة درجات الجنة، ٥٨٣/٤،ح٢٥٣٢).
(٤) أخرج الطبرى نحوه فى التفسير (١٠٥/٢١) عن أبى اليمان الهذلى، والجزء الأول من الحديث أخرجه البخارى فى (الجهاد، باب درجات المجاهدين فى سبيل الله ح٢٧٩٠) من حديث أبى هريرة رضي الله عنه بلفظ: «إن فى الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهد فى سبيل الله، مابين الدرجتين كما بين السماء والأرض...»الحديث.

الجمع، ثم من الجمع إلى جمع الجمع. فهولاء على صلاتهم دائمون، وفى حال نومهم عابدون، وعلى كل حال إلى ربهم سائرون، وفى معاريج بحر عرفانهم سائحون، فلا تعلم نفس ما أُخفى لهؤلاء من دوام النظرة، والعكوف فى الحضرة، واتصال الحبرة. فعبادة هؤلاء قلبية، سرية؛ خفية عن الكرام الكاتبين، بين فكرة وشهود، وعبرة واستبصار، الذرة منها تعدل أمثال الجبال من أعمال الجوارح، وقد ورد: (تفكر ساعة أفضل من عبَادَةِ سَبْعين سَنَة). هذا تفكر الاعتبار، وأما تفكر الشهود والاستبصار، فكل ساعة، أفضل من ألف سنة، كما قال الشاعر:

كُـلُ وَقْـتٍ مِـنْ حَبِيبِـى قَـدْرُهُ كَـأَلْفِ حَـجـَّـه

أى: سنة، ومع هذا لايُخلون أوقاتهم من العباده الحسية، شكراً، وقياماً بآداب العبودية، وهى فى حقهم كمال، كما قال الجنيد: عبادة العارفين تاج على الرؤوس. هـ. وفى مثل هولاء ورد الخبر: «إن أهل الجنة بينما هم فى نعيمهم، إذ سطع عليهم نور من فوق، أضاءت منه منازلهم، كما تضىء الشمس لأهل الدنيا، فنظروا إلى رجالٍ مِنْ فوقهم، أهل عليين يرونهم كما يُرى الكوكب الدرى فى أفق السماء، وقد فُضلُوا عليهم فى الأنوار والنعم، كما فضل القمر على سائر النجم، فينظرون إليهم، يطيرون على نجب، تسرح بهم فى الهواء، يزورون ذا الجلال الإكرام، فينادون هؤلاء: يا أخواننا، ما أنصفتمونا، كنا نُصلى كما تُصلون، ونصوم كما تصومون، فما هذا الذى فضلتمونا به؟ فإذا النداء من قِبل الله تعالى: كانوا يجوعون حين تشبعون، ويعطشون حين ترون، ويعرون حين تكسون، ويذكرون حين تسكتون، ويبكون حين تضحكون، ويقومون حين تنامون، ويخافون حين تأمنون، فلذلك فُضلُوا عليكم اليوم. فذلك قوله تعالى: «فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون». هـ.

قال القشيرى: (تتجافى جنوبهم عن المضاجع)، فى الظاهر، عن الفراش، قياماً بحقّ العبادة والجهد والتهجد، وفى الباطن: بِتبَاعُدِ قلوبهم عن مضاجعات الأحوال، ورؤية قَدرِ النفس، وتوهم المقام؛ لأن ذلك بجملته، حجابٌ عن الحقيقة، وهو للعبد سمٌّ قاتل، فلا يساكنون أعمالهم، ولا يلاحظون أحوالهم، ويفارقون مألَفهم، ويهجُرون معارفهم. والليل زمان الأحباب، قال الله تعالى: ﴿ لِتَسْكُنُوا فِيهِ ﴾(١) يعنى: عن كلّ شُغل وحديث سوى حديث معبودكم ومحبوبكم، والنهارُ زمان أهل الدنيا. قال الله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴾(٢).. انظر بقية كلامه.

---

(١) من الآية (٧٣) من سورة القصص.
(٢) من الآية (١١) من سورة النبأ.

ثم بيّن أن من كان في نور الطاعة والإحسان، ليس كمن كان في ظلمة الكفر والعصيان، فقال.

﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ ﴿١٨﴾ أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿أفمن كان مؤمناً﴾ بالله ورسله ﴿كمن كان فاسقاً﴾؛ خارجاً عن الإيمان، ﴿لا يستوون﴾ أبداً عند الله تعالى. وأفرد، أولاً؛ مراعاةً للفظ «من»، وجمع ثانياً مراعاة لمعناها. ثم فصّل حالهم بقوله: ﴿أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم جناتُ المأوى﴾ أي: المسكن الحقيقي، وأما الدنيا، فإنها منزل انتقال وارتحال، لا محالة، وقيل: المأوى: جنة من الجنان. قال ابن عطية: سميت جنة المأوى لأن أرواح المؤمنين تأوي إليها. هـ. أي: في الدنيا؛ لأنها في حواصل طير خضر، كما ورد في الشهداء، وأما الصدّيقون فإنها تشكل على صور أجسادها، تسرح حيث شاءت. ﴿نُزُلاً بما كانوا يعملون﴾ أي: عطاء معجلاً بأعمالهم. والنُزُل: ما يقدم للنازل، ثم صار عاما.

﴿وأما الذين فسقوا فمأواهم النارُ﴾ أي: هي ملجأهم ومنزلُهم، ﴿كلما أرادوا أن يخرجوا منها أُعيدوا فيها﴾، فلا خروج منها، ولا موت، ﴿وقيل﴾ لهم: ﴿ذُوقوا عذابَ النار الذي كنتم به تُكذّبون﴾، هذا دليل على أن المراد بالفاسق: الكافر؛ إذ التكذيب يقابل الإيمان. قال ابن جزي: فإن قيل: لِمَ وصف، هنا، العذاب، وأعاد عليه الضمير، ووصف، في سبأ، النار وأعاد عليها الضمير، فقال: ﴿عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾(١)؟ فالجواب من ثلاثة أوجه: **الأول:** أنه خص العذاب في السجدة بالوصف؛ اعتناء به؛ لمَّا تكرر ذكره في قوله: ﴿لنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر..﴾، **الثاني:** أنه تقدم في السجدة ذكر النار، فكان الأصل أن يذكرها بعد ذلك بلفظ المضمر، لكنه جعل الظاهر مكان المضمر، فكما لا يوصف المضمر؛ لم يوصف ما قام مقامه، وهو النار، فوصف العذاب، ولم يصف النار. **الثالث** ـ وهو الأقوى: أنه امتنع في السجدة وصف النار، فوصف

(١) من الآية ٤٢ من سوة سبأ.

العذاب، وإنما امتنع وصفها؛ لتقدم ذكرها، فإنك إذا ذكرت شيئاً ثم كررت ذكره لم يجز وصفه، كقولك: رأيت رجلا فأكرمت الرجل. فلا يجوز وصفه لما يوهم أنه غيره. هـ.

الإشارة: أفمن كان مصدقاً بطريق الخصوص، داخلاً فيها، شارباً من خمرتها، كمن كان فاسقاً خارجاً عنها، مشتغلاً بنفسه، غريقاً في هواه، لايستوون أبداً. أما الذين آمنوا بها، وصدقوا أهلها، ودخلوا في تربيتهم، فلهم جنات المعارف، هي مأواهم ومعشش قلوبهم، إليها يأوون، وفيها يسكنون، وأما الذين فسقوا وخرجوا عن تربيتهم، فمأواهم نار القطيعة، وعذاب الحرص، وغم الحجاب، كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها؛ إذ لا خروج منها إلا بصحبة أهلها. وقيل لهم: ذوقوا وبال الإنكار، وحرمان الخصوصية، التي كنتم بها تكذبون.

قال القشيري: هذا ما يلقون يوم القيامة، ثم ذكر ما يعجل لهم في الدنيا، فقال:

﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ولنذيقنَّهم من العذاب الأدنى ﴾ أي: عذاب الدنيا؛ من القتل، والأسر في بدر، أو ما مُحِنوا به من السَّنَةِ، سَبْعَ سنين. ﴿ دون العذاب الأكبر ﴾ أي: قبل عذاب الآخرة، الذي هو أكبر، وهو الخلود في النار. وعن الداراني: العذاب الأدنى: الخذلان، والعذاب الأكبر: الخلود في النيران. وقيل: الأدنى: عذاب القبر، والأكبر: النار. ﴿ لعلهم يرجعون ﴾؛ يتوبون عن الكفر.

﴿ ومن أظلم ﴾ أي: لا أحد أظلم ﴿ ممن ذُكِّر ﴾ أي: وُعظ ﴿ بآياتِ ربه ﴾؛ القرآن، ﴿ ثم أعرض عنها ﴾ أي: تولى عنها، ولم يتدبر في معناها. و«ثم»؛ للاستبعاد؛ فإن الإعراض عن مثل هذه في ظهورها، وإنارتها، وإرشادها إلى سواء السبيل، والفوز بالسعادة العظمى، بعد التذكر بها، مُسْتَبْعَدٌ في العقل، كما تقول لصاحبك: وجدت تلك الفرصة ثم لم تنتهزْها -؛ استبعاداً لتركه الانتهاز. ﴿ إنا من المجرمين منتقمون ﴾، ولم يقل: «منه»، تسجيلاً عليه بإعراضه بالإجرام، ولأنه إذا جعله أظلم مِنْ كل ظالم، ثم توعد المجرمين، عامة، بالانتقام، دلّ على إصابة الأظلم أوفرَ نصيب من الانتقام، ولو قال بالضمير؛ لم يفد هذه الفائدة.

الإشارة: ولنذيقن أهل الغفلة والحجاب، من العذاب الأدنى، وهو الحرص والطمع والجزع والهلع، قبل العذاب الأكبر، وهو غم الحجاب وسوء الحساب. قال القشيري: قومٌ: الأدنى لهم: مِحَنُ الدُنيا، والأكبر: عقوبة العُقبى.

وقومٌ: الأدنى لهم: فترةٌ تُداخلهم في عبادتهم، والأكبر: قسوةٌ تُصيبهم في قلوبهم. وقوم: الأدنى لهم: وقفة مع سلوكهم تمسهم، والأكبرُ: حَجْبَةٌ عن مشاهدتهم بسرهم - قلت: الأول في حق العوام، والثاني: في حق الخواص، وهم العباد والزهاد. والثالث: في حق أهل التربية من الواصلين - ثم قال: ويقال: الأدنى: الخذلان في الزلة، والأكبر: الهجران في الوصلة. ويقال: الأدنى: تكدُّرُ مشَارِبِهم، بعد صفوها، والأكبر: تَطَاوُلُ أيامِ الحَجْب، من غير تبيين آخرها. وأنشدوا:

تطـــاولَ بعْدُنَا، يا قومُ، حتى		لقـد نَسَجتْ عليه العنكبوتُ(١)

هـ. ببعض المعنى.

أذقناهم ذلك؛ لعلهم يرجعون إلى الله، في الدنيا؛ بالتوبة واليقظة. فإن جاء من يُذكِّرهم بالله؛ من الداعين إلى الله، ثم أعرضوا عنه، فلا أحد أظلم منهم، ولا أعظم جُرماً. إنا من المجرمين منتقمون.

ولمّا قرر الأصول الثلاثة؛ الرسالة، وبدء الخلق، والمعاد، عادَ إلى الأصل الذي بدأ به، وهو الرسالة، فقال:

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ۖ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ولقد آتينا موسى الكتابَ﴾؛ التوراة ﴿فلا تكن في مِرْيةٍ﴾؛ شك ﴿من لقائه﴾؛ من لقاء موسى الكتاب، أو: من لقائك موسى ليلة المعراج، أو: يوم القيامة، أو: من لقاء موسى ربَّه في الآخرة، كذا عن النبي ﷺ. ﴿وجعلناه هدىً لبني إسرائيل﴾؛ وجعلنا الكتاب المنزَّل على موسى عليه السلام هُدىً لقومه، ﴿وجعلنا منهم أئمةً يَهْدُون﴾ الناس، ويدعون إلى الله وإلى ما في التوراة من دين الله وشرائعه، ﴿بأمرنا﴾ إياهم بذلك، أو بتوفيقنا وهدايتنا لمن أردنا هدايته على أيديهم، ﴿لمّا صبروا﴾ على مشاق تعليم العلم والعمل به. أو: على طاعة الله وترك معصيته. وقرأ الأَخَوَان: بكسر اللام، أي: لصبرهم عن الدنيا والزهد فيها. وفيه دليل على أن الصبر؛ ثمرته إمامة الناس والتقدم في الخير. ﴿وكانوا بآياتنا﴾؛ التوراة ﴿يُوقنون﴾؛

(١) في القشيري: تطاول نأيُنا يانور حتى		كأن نسجتْ عليه العنكبوتُ

يعلمون علمًا لا يخالجه شك ولا وَهْم؛ لإمْعَانِهم النظر فيها، أوْ: هِبَةٌ من الله تعالى. ﴿ إن ربك هو يَفْصِلُ ﴾؛ يقضي ﴿ بينهم يوم القيامة ﴾ أي: بين الأنبياء وأممهم، أو: بين المؤمنين والمشركين ، ﴿ فيما كانوا فيه يختلفون ﴾ من الدين، فيظه المُحِقُّ من المبطل.

الإشارة: أئمة الهدى على قسمين: أئمة يهدون إلى شرائع الدين، وأئمة يهدون إلى التعرف بذات رب العالمين، أئمة يهدون إلى معرفة البرهان، وأئمة يهدون إلى معرفة العيان. الأولون: من عامة أهل اليمين، والآخرون: من خاصة المقربين. الأولون صبروا على حبس النفس على ذل التعلم، والآخرون صبروا على حبس النفس على الحضور مع الحق على الدوام. صبروا على مجاهدة النفوس، حتى وردوا حضرة القُدُّوس. قال القشيري، في شأن القسم الثاني: لمَّا صبروا على طلبنا؛ سَعِدوا بوجودنا، وتعدّى ما نالوا من أفضالنا إلى مُتَّبِعِيهم، وانبسط شعاعُ شموسهم على جميع أهِليهم، فهم للخلق هُداةٌ، وفي الدين عيون، وللمسترشدين نجوم. هـ.

وفي الإحياء: للإيمان ركنان: أحدهما: اليقين، والآخر: الصبر. والمراد باليقين: المعارف القطعية، الحاصلة بهداية اللهِ عَبْدَهُ إلى أصول الدين، والمراد بالصبر، العمل بمقتضى اليقين؛ إذ النفس تعرف أن المعصية ضارة والطاعة نافعة. ولايمكن ترك المعصية والمواظبة على الطاعة إلا بالصبر. فيكون الصبر نصف الإيمان لهذا الاعتبار. هـ. وقوله تعالى: ﴿إن ربك هو يفصل بينهم..﴾، قال القشيري: يحكم بينهم، فيُبين المقبول من المردود، والمهجور من الموصول، والرِّضِي من الغَوِيّ، والعدو من الوليّ. فكم من بَهجةٍ دامت هناك! وكم من مهجةٍ ذابت كذلك. هـ.

ثم ذكّرهم بمن سلف قبلهم، فقال:

﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ (٢٦) ﴾

قلت: فاعل «يهد»: هو الله، بدليل قراءة زيد عن يعقوب «نهد» بالنون، ولا يجوز أن يكون الفاعل «كم»؛ لأن الاستفهام له صدر الكلام، فلا يَعْمَلُ فيه ما قبْلَه.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ أوَلَمْ يَهْدِ لهم ﴾ أي: يُبين لهم الله تعالى ما يعتبرون به، فينظروا ﴿ كم أهلكنا مِن قبلهم من القرون ﴾؛ كعاد، وثمود، وقوم لوط، ﴿ يمشون ﴾ يعني: قريشاً، ﴿ في مساكنهم ﴾ حين

يمرون على ديارهم، ومنازلُهُمْ خاوية، في متاجرهم إلى الشام، ﴿إن في ذلك لآيات﴾ دالة على قدرتنا، وقهريتنا ﴿أفلا يسمعون﴾ المواعظ، فيتعظون بها؟.

الإشارة: قال القشيري: لم يعتبروا بمنازلِ أقوامٍ كانوا في حَبْرَةٍ، فصاروا في عَبْرَةٍ، كانوا في سرورٍ، فآلوا إلى ثبور، فجميع ديارهم وتُراثهم صارت لأغيارهم، وصُنوفُ أموالهم عادت إلى أشكالهم، سكنوا في ظِلالهم، ولم يعتبروا بمن مضى من أمثالهم، وفي مثلهم قيل:

نِعَمٌ، كانت على قو ... مٍ زمانا، ثم فاتت،

هكذا النعمةُ والإحـ ... سانُ قد كانت وكانت. هـ.(١)

ثم ذكّرهم بآثار قدرته، فقال:

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ (٢٧) وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٨) قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ (٢٩) فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ (٣٠) ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوا أنَّا نسوقُ الماءَ﴾: المطر ﴿إلى الأرض الجُرُزِ﴾ أي: التي جُرِزَ نباتها، أي: قُطِعَ، ولم يَبْقَ منه شيء؛ إما لعدم الماء، أو لأنه رُعِيَ. يقال: جرزت الجراد الزرع؛ إذا استأصلته، وفي القاموس: وأرض جرز: لاتنبت، أو أكل نباتها، أو لم يصبها مطر. ثم قال: وأرض جارزة: يابسة غليظة، وفيه أربع لغات: جُرْز وجُرُز وجَرَز وجَرْز. ولا يقال للتي لاتنبت؛ كالسباخ :جرز، بدليل قوله: ﴿فنُخرج به﴾ أي: بالماء، ﴿زرعاً تأكل منه﴾ أي: الزرع، ﴿أنعامُهم﴾؛ كالتبن والورق، ﴿وأنفسُهم﴾؛ كالحب والتمر، والمراد بالزرع: كل ما يُزرع ويُستنبت، ﴿أفلا يُبصرون﴾، فيستدلون به على قدرته على إحياء الموتى؟.

---

(١) ورد البيتان: نِعَمٌ، كانت على قو ... مٍ زمانا، ثم بانت،
هكذا النعمة والإنسـ ... ـان مذ كان وكانت.
وانظر: محاضرات الأدباء ص ٢٥٩.

﴿ ويقولون متى هذا الفتحُ ﴾ أى: النصر، أو الفصل بالحكومة؛ من قوله: ﴿ رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا ﴾(١). وكان المسلمون يقولون: إن الله سيفتح لنا على المشركين، أو يفتح بيننا وبينهم، فإذا سمع المشركون، قالوا: متى هذا الفتح؟ أى: فى أى وقت يكون ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ فى أنه كائن؟.

﴿ قل يومَ الفتح ﴾ أى: يوم القيامة هو يوم الفصل بين المؤمنين وأعدائهم. أو: يوم نصرهم عليهم. أو: يوم بدر، أو يوم فتح مكة، ﴿ لاينفعُ الذين كفروا إيمانُهم ﴾؛ لفوات محله، الذى هو الإيمان بالغيب، ﴿ ولاهم يُنْظَرون ﴾؛ يُمْهلون، وهذا الكلام لم ينطبق؛ جواباً عن سؤالهم؛ ظاهراً، ولكن لمّا كان غرضهم فى السؤال عن وقت الفتح استعجالاً منهم، على وجه التكذيب والاستهزاء، أُجيبوا على حسب ما عُرف من غرضهم من سؤالهم، فقيل لهم: لا تستعجلوا به ولاتستهزئوا، فكأنى بكم وقد حصلتم فى ذلك اليوم وآمنتم، فلم ينفعكم الإيمان، واستنظرتم عند درك العذاب فلم تُمهلوا. ومن فسره بيوم بدر أو بيوم الفتح، فهو يريد المقتولين منهم؛ فإنهم لاينفعهم إيمانهم فى حال القتل، كما لم ينفع فرعون إيمانه عند دَرَك الغرق. ﴿ فأَعْرِضْ عنهم وانتظرْ ﴾ النصر وهلاكهم، ﴿ إنهم مُنتظِرون ﴾ الغلبة عليكم وهلاككم.

قال عليه الصلاة والسلام: «من قرأ ﴿ آلم تنزيلُ ﴾ فى بيته، لم يدخل الشيطان به ثلاثة أيام»(٢).

الإشارة: أوَلَمْ يروا أنا نسوق الماء الذى تحيا به القلوب على يد المشايخ، إلى القلوب الميتة بالجهل والغفلة، فنُخرج به ثمار الهداية إلى الجوارح، تأكل منه، من لذة حلاوته، جوارحُهم وقلوبُهم، أفلا يبصرون؟. ويقول أهل الإنكار لوجود هذا الماء: متى هذا الفتح، إن كنتم صادقين فى أنه موجود؟ قل: يوم الفتح الكبير - وهو يَوْمَ يَرْفَعُ اللهُ أولياءه فى أعلى عليين - لا ينفع الذين كفروا بالخصوصية، فى دار الدنيا، إيمانُهم فى الالتحاق بهم، ولا هم يُمهلون حتى يعملوا مثل عملهم، فأعرض عنهم اليوم، واشتغل بالله، وانتظر هذا اليوم، إنهم منتظرون لذلك.

قال القشيرى: «أو لم يروا..» الآية. الإشارة فيه: نَسْقى حدائقَ [وصلهم](٣)، بعد جفاف عُودها، فيعود عُودُها مورِقًا بعد ذبوله، حاكيًا حالُه حالَ حصوله، (ويقولون متى هذا الفتح..) استبعدوا يومَ التلاق، وجحدوه، فأخبرهم

(١) من الآية ٨٩ من سورة الأعراف.

(٢) قال ابن حجر فى الكافى الشاف (ح ١٩٦): «لم أجده». وانظر: الفتح السماوى (٢/٩٢٦).

(٣) فى الأصول المخطوطة (وصفهم) والمثبت هو الذى فى لطائف الإشارات.

أنه ليس لهم إلا الحسرة والمحنة إذا شهدوه. قوله تعالى: ﴿فأعرض عنهم..﴾ أي: باشتغالك بنا، وإقبالك علينا، وانقطاعك إلينا، وانتظر زوائد وَصلِنا وعوائدَ لطفنا، إنهم منتظرون هواجمَ مقتنا وخفايا مكرنا. وعن قريب وَجَدَ كلٌّ مُنْتَظَرَهُ مُختصرًا هـ. وبالله التوفيق، وصلى الله على سيدنا محمد، عين الوصول إلى التحقيق، وعلى آله المبينين سواء الطريق، وسلم.

❁ ❁ ❁

سورة الأحزاب

مدنية . وهى ثلاث وسبعون ـ بتقديم السين ـ آية . وعن أُبيّ؛ أنه قال: كم تعدون سورة الأحزاب؟ قالوا: ثلاثاً وسبعين، قال: فوالذى يحلف به أُبيّ إن كانت لَتَعْدِلُ سورة البقرة، أو أطول، ولقد قرأنا منها آية الرجم: الشيخ والشيخة، إذا زنيا، فارجموهما ألْبَتّةَ؛ نكالاً من الله، والله عزيز حكيم(١). أراد أُبيّ أن ذلك من جملة ما نسخ من القرآن. انظر النسفى. ومناسبتها لما قبلها: أن الفتح إنما يكون مع التقوى، فأمره بها، بعد أَمْرِهِ بانتظار نَصْرِه، كأنه قيل: يا أيها النبى اتق الله؛ تر الفتح طوع يدك.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ يا أيها النبي ﴾ أي: المشرَّف، حالاً، المفخم؛ قدراً، العلى؛ رتبة؛ لأن النبوة مشتقة من النَّبْوَةِ، وهو الارتفاع. أو: يا أيها المخبرُ عنا، المأمون علىِ وحينا، المبلغ خطابنا إلى أحبابنا. وإنما لم يقل: يامحمد، كما قال: «يا آدم، يا موسى»؛ تشريفاً وتنويهاً بفضله، وتصريحُه باسمه فى قوله: ﴿ مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ ﴾(٢)، ونحوه، ليعلم الناس بأنه رسول الله. ﴿ اتقِ الله ﴾ أى: اثبت على تقوى الله، ﴿ ولا تُطع الكافرين والمنافقين ﴾؛ لا تساعدهم على شيء، واحترس منهم؛ فإنهم أعداء لله وللمؤمنين.

رُوى أن أبا سُفيان بن حرب، وعكرمة بن أبى جهل، وأبا الأعور السُّلمى، نزلوا المدينة على ابن أُبيّ، رأس المنافقين، بعد أُحد، وقد أعطاهم النبيُّ ﷺ الأمان على أن يكلموه، فقام معهم عبدالله بن أبى سَرْح، وطُعْمَة بن

---

(١) أخرجه الحاكم وصححه ووافقه الذهبى (٢/٤١٥) وأخرجه الطبرانى فى الأوسط (ح ٤٣٥٢)، وعزاه السيوطى فى الدر المنثور (٥/٣٤٥) لعبد الرزاق فى المصنف، والطيالسى، وسعيد بن منصور، وعبدالله بن أحمد فى زوائد المسند، وابن منيع، والنسائى، وابن المنذر، وابن الأنبارى فى المصاحف، والدارقطنى فى الأفراد، وابن مردويه، عن زر، عن أُبيّ.

(٢) كما جاء فى الآية ٢٩ من سورة الفتح.

أُبَيْرق، فقالوا للنبى ﷺ، وعنده عمر بن الخطاب: ارفض ذكر آلهتنا؛ اللات، والعزى، ومناة، وقل: إن لها شفاعة ومنفعة لِمن عَبَدَهَا، وندعك وَرَبَّك. فشق على النبى ﷺ قولهم، فقال عمر: ائذن لنا، يارسول الله، فى قتلهم، فقال ﷺ: «إنى قد أعطيتهم الأمان». فقال عمر: اخرُجوا فى لعنة الله وغضبه، فخرجوا من المدينة، فنزلت(١).

أى: اتق الله فى نقض العهد، ولا تُطع الكافرين من أهل مكة، كأبى سفيان وأصحابه، والمنافقين من أهل المدينة، فيما طلبوا، ﴿إن الله كان عليماً﴾ بخبث أعمالهم، ﴿حكيماً﴾ بتأخير الأمر بقتالهم.

﴿واتبع ما يُوحى إليك من ربك﴾ فى الثبات على التقوى، وترك طاعة الكافرين والمنافقين. أو: كل ما يوحى إليك من ربك، ﴿إن الله كان بما تعملون خبيراً﴾ أى: لم يزل عالماً بأعمالهم وأعمالكم. وقيل: إنما جمع؛ لأن المراد بقوله: «اتبع»: هو وأصحابه، وقرأ بالغيب: أبو عمرو، أى: بما يعمل الكافرون والمنافقون، من كيدهم لكم ومكرهم. ﴿وتوكل على الله﴾؛ أَسْنِدْ أمرك إليه، وكِلْهُ إلى تدبيره. ﴿وكفى بالله وكيلاً﴾؛ حافظاً موكولاً إليه كل أمر. وقال الزجاج: لفظه، وإن كان لفظ الخبر؛ فالمعنى: اكتف بالله وكيلا.

الإشارة: أُمر بتقوى الله، وبالغيبة عما يشغل عن الله، وبالتوكل على الله، فالتقوى أساس الطريق، والغيبة عن الشاغل: سبب الوصول إلى عين التحقيق، والتوكل زاد رفيق. قال القشيرى بعد كلام: يا أيها المُرقَّى إلى أعلى المراتب، المُتلقَّى بأسنى القُرَب والمناقب؛ اتق الله أن تلاحظ غيْراً معنا، أو تُساكِن شيئاً دوننا، أو تُثبت شيئاً سوانا، ﴿ولا تطع الكافرين﴾؛ إشفاقاً منك عليهم، وطمعاً فى إيمانهم، بموافقتهم فى شيء مما أرادوه منك. والتقوى رقيب على الأولياء، تمنعهم، فى أنفاسهم وسكناتهم وحركاتهم، أن ينظروا إلى غيره، أو يُثْبِتُوا معه سواه، إلا منصوباً بقدرته، مصرَّفًا بمشيئته، نافذاً فيه حُكْمُ قضيته.

التقوى لجامٌ يمنعك عمَّا لا يجوز، زمامٌ يقودك إلى ما تُحب، سوطٌ يسوقك إلى ما أمر به، حرزٌ يعصمك من تَوَصُّلِ عقابه إليك، عوذَةٌ تشفيك من داء الخطايا. التقوى وسيلةٌ إلى ساحة كرمه، ذريعةٌ يُتَوَصَّلُ بها إلى عفوه وجوده. ﴿واتبع ما يوحى إليك...﴾؛ لا تبتدع، واقتدِ بما نأمرك، ولا تقتد، باختيارك، غيْرَ ما نختار لك، ولا تَعرَّج - أى: تقم - فى أوطان الكسل، ولاتجنحْ إلى ناحية التوانى، وكن لنا لا لك، وقم بنا لا بِكَ. «وتوكل»؛ انسلخْ عن إهابك لنا، واصدق فى إيابك إلينا، وتشاغلك عن حُسْبَانِكَ معنا، واحذَر ذهابَكَ عنا، ولا تُقصِّرْ فى خطابك معنا. ويقال: التوكل: تَخلُّقٌ، ثم تَحقُّقٌ، ثم تَوثُّقٌ، ثم تَملُّقٌ؛ تحققٌ فى العقيدة، وتخلقٌ بإقامة الشريعة، وتَوثُّق بالمقسوم من القضية، وتملقٌ بين يديه بحُسْن العبودية. ويقال: التوكل: استواءُ القلب فى العدم والوجود.هـ.

(١) ذكره الواحدى فى أسباب النزول (ص٣٦٤)، والبغوى فى تفسيره (٦/٣١٥)، بدون إسناد.

والتقوى محلها القلب، ولا يحصل منتهاها إلا بانفراد القلب إلى مولاه، كما أبان ذلك بقوله:

﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ما جعل اللهُ لرجلٍ من قلبين في جوفه ﴾؛ فيؤمن بأحدهما ويكفر بالآخر، أو: يتقى بأحدهما ويعصى بالآخر، أو: يُقبل على الله بأحدهما ويُقبل على الدنيا بالآخر، بل ما للعبد إلا قلب واحد، إن أقبل به على الله؛ أدبر عمن سواه، وإن أقبل به على الدنيا؛ أدبر عن الله. قيل: الآية مثل للمنافقين، أى: إنه لا يجتمع الكفر والإيمان، وقيل: لا تستقر التقوى ونقض العهد فى قلب واحد. وقال ابن عطية: يظهر من الآية، بجملتها، أنها نفى لأشياء كانت العرب تعتقدها فى ذلك الوقت، وإعلام بحقيقة الأمر فيها، فمنها: أن العرب كانت تقول: الإنسان له قلب يأمره وقلب ينهاه، وكان تضادُّ الخواطر يحملها على ذلك.. إلخ كلامه.

قال النسفى: والمعنى: أنه تعالى لم يجعل للإنسان قلبين؛ لأنه لا يخلو: إما أن يفعل بأحدهما مثل ما يفعل بالآخر من أفعال القلوب، فأحدهما فضْلَةٌ؛ غير مُحتَاجٍ إليه، وإما أن يفعل بهذا غير ما يفعل بذلك، فيؤدى إلى اتصاف الجملة بكونه مريداً كارهاً، عالماً ظاناً، موقناً شاكاً، فى حالة واحدة.هـ.

وكانت العرب تعتقد أيضاً أن المرأة المظاهَرَ منها: أُمّاً، فردّ ذلك بقوله: ﴿ وما جعل أزواجَكم اللائي تُظاهِرون منهن أمهاتِكم ﴾ أى: ما جمع الزوجية والأمومة فى امرأة واحدة؛ لتضاد أحكامهما؛ لأن الأم مخدومة، والمرأة خادمة.

وكانت تعتقد أن الدّعى ابن، فرّد عليهم بقوله: ﴿ وما جعل أدعياءَكم أبناءَكم ﴾ أى: لم يجعل المُتبَنّى من أولاد الناس ابناً لمن تبناه؛ لأن البنوة أصالة فى النسب، والدعوة إلصاق عارض بالتسمية، لا غير، ولا يجتمع فى شىء واحد أن يكون أصيلاً [و](1) غير أصيل.

(١) زيادة، ليست فى الأصول.

ونزل هذا في «زيد بن حارثة»، وهو رجل من كلب، سُبي صغيراً، فاشتراه حكيم بن حزام، لعمته خديجة، فلما تزوجها رسول الله ﷺ وهبته له، فطلبه أبوه وعمه، وجاءا بفدائه، فخُيِّر، فاختار رسولَ الله ﷺ، فأعتقه وتبناه. وكانوا يقولون: زيد بن محمد، فلما تزوج النبيُّ ﷺ زينب؛ وكانت تحت زيد - على ما يأتي - قال المنافقون: تزوج محمدٌ امرأة ابنه وهو ينهى عنه، فأنزل الله هذه الآية.

وقيل: كان المنافقون يقولون: لمحمد قلبان، قلب معكم، وقلب مع أصحابه(١). وقيل: كان «أبو مَعْمَر» أحفظ العرب، فقيل له: ذو القلبين(٢)، فأكذب اللهُ قولَهم. والتنكير في رجل، وإدخال «مِن» الاستغراقية على (قلبين)، وذكر الجوف؛ للتأكيد. و(اللائي): جمع «التي». وفيها أربع قراءات: «اللاء»؛ بالهمزة مع المد والقصر، وبالتسهيل، وبالياء، بدلاً من الهمز. وأصل ﴿تظاهرون﴾: تتظاهرون، فأدغم. وقرأ عاصم بالتخفيف؛ منْ: ظَاهَرَ. ومعنى الظهار: أن يقول للزوجة: أنت عليّ كظهر أمي. مأخوذ من الظهر، وتعديته بمن؛ لتضمنه معنى التجنب؛ لأنه كان طلاقاً في الجاهلية. وهو في الإسلام يقتضي الحرمة حتى يُكفِّر، كما يأتي في المجادلة. والأدعياء: جمع دعي، فقيل: بمعنى مفعول، وهو الذي يُدعى ولدا، وجمعه على أَفْعِلاَء: شاذ؛ لأن بابه ما كان منه بمعنى فاعل؛ كتقي وأتقياء، وشقي وأشقياء. ولا يكون في ذلك في نحو رَمِيٍّ وسَمِيٍّ، على الشذوذ. وكأنه شبهه بفعيل بمعنى فاعل، فَجُمِعَ جَمْعَهُ.

﴿ ذلكم قولُكُم بأفواهكم ﴾؛ إذ أن قولكم للزوجة: أُمّا، والدعيّ: هو ابن، قول تقولونه بألسنتكم لا حقيقة له؛ إذ الابن يكون بالولادة، وكذا الأم. ﴿ والله يقولُ الحقَّ ﴾؛ ما له حقيقة عينية، مطابقة له ظاهراً وباطناً. ﴿ وهو يهدي السبيلَ ﴾؛ سبيل الحق.

ثم بيّن ذلك الحقّ، وهدى إلى سبيله، فقال: ﴿ أدعوهم لآبائهم ﴾؛ انسبوهم إليهم. ﴿ هو ﴾، أي: الدعاء، ﴿ أَقْسَطُ ﴾؛ أعدل ﴿ عند الله ﴾. بيّن أن دعاءهم لآبائهم هو أدخل الأمرين في العدل. وقيل: كان الرجل في الجاهلية إذا أعجبه ولد الرجل؛ ضمّه إليه، وجعل له مثل نصيب الذكر من أولاده، من ميراثه. وكان ينسب إليه، فيقال: فلان بن فلان. ﴿ فإن لم تعلموا آباءهم ﴾ أي: فإن لم تعلموا لهم آباء تنسبونهم إليهم، ﴿ فإخوانُكُم في

---

(١) هذا معنى ما أخرجه الإمام أحمد (٢٦٨/١) والترمذي، وحسّنه، في (التفسير، باب: ومن سورة الأحزاب، ٣٢٤/٥ - ٣٢٥، ح ٣١٩٩) والطبري (١١٨/٢١) والحاكم (٤١٥/٢) عن ابن عباس رضي الله عنه. وصححه الحاكم، وفيه «قابوس بن أبي ظبيان، قال الذهبي: قابوس، ضعيف.

(٢) ذكره الواحدي في أسباب النزول /٣٦٥. بدون إسناد.

الدين ومواليكم﴾ أي: فهم إخوانكم في الدين، وأولياؤكم فيه. فقولوا: هذا أخي، وهذا مولاي، ويا أخي، ويامولاي، يريد الأخوة في الدين والولاية فيه، ﴿وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به﴾ أي: لا إثم عليكم فيما فعلتموه من ذلك، مخطئين جاهلين، قبل ورود النهي، أو بعده، نسياناً. ﴿ولكن ما تعمَّدَتْ قلوبُكم﴾ أي: ولكن الإثم فيما تعمَّدتموه بعد النهي. أو: لا إثم عليكم إذا قلتم لولد غيركم: يابنيّ، على سبيل الخطأ، أو: الشفقة؛ ولكن إذا قلتموه متعمدين على وجه الانتساب. ﴿وكان الله غفوراً رحيماً﴾؛ لا يؤاخذكم بالخطأ، ويقبل التوبة من المتعمِّد.

الإشارة: العبد إنما له قلب واحد، إذا أقبل به على مولاه؛ أدبر عن ما سواه، وملأه الله تعالى بأنواع المعارف والأسرار، وأشرقت عليه الأنوار، ودخل حضرة الحليم الغفار، وإذا أقبل به على الدنيا؛ أدبر عن الله، وحُشي بالأغيار والأكدار، وأظلمت عليه الأسرار، وطبع فيه صور الكائنات، فَحُجِبَ عن الْمُكَوِّنِ، وكان مأوى للخواطر والوساوس، فلم يسْوَ عند الله جناح بعوضة. قال القشيري: القلب إذا اشتغل بشيء؛ اشتغل عما سواه، فالمشتغلُ بما مِنَ العَدَمِ؛ منفصلٌ عمن له القِدَمُ، والمتصل بقلبه بِمَنْ نَعْتُهُ القِدَمُ؛ مشتغلٌ عمَّا من العدم، والليل والنهار لا يجتمعان، والغيبُ والغيرُ لا يلتقيان.هـ.

وقوله تعالى: ﴿وما جعل أزواجكم...﴾ الآية، يمكن أن تكون الإشارة فيها إلى أنَّ مَنْ ظَاهَرَ الدنيا، وتباعد عنها؛ لا يحل له أن يرجع، ويتخذَها أماً؛ في المحبة والخدمة. وقوله تعالى: ﴿وما جعل أدعياءكم أبناءكم..﴾: تشير إلى أنه لا يحل أن يدَّعِيَ الفقيرُ حالاً، أو مقاماً، مالم يتحقق به، وليس هو له، أو: يَنْسِبَ حِكْمَةً أَوْ عِلْماً رفيعاً لنفسه، وهو لغيره، ﴿ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله﴾. وقوله: ﴿فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم في الدين..﴾: إخوان الدين أَوْلَى، وإخوان الطريق أحب وأصفى. قال القشيري: وقرابةُ الدين، في الشكلية، أولى من قرابة النَّسَب، وأنشدوا:

وَقَالُـوا: قَـرِيبٌ مِنْ أَبٍ وَعُمُـومَةٍ فَقُلْتُ: وَإِخْـوَانُ الصَّـفَاءِ الأَقَارِبُ
مُنَاسِـبُهُمْ شَـكْلاً وَعِلْمـاً وأُلفـةً وَإِنْ بَاعَـدَتْنَا فِي الأُصُولِ التَّنَاسُبُ(١).

(١) في القشيري: (وإن باعدتهم في الأصول المناسب) والبيتان لأبي تمام، يرثي غالب بن السعدي. انظر ديوانه (٤١/٤) ونهاية الأرب (٢٠٢/٥).

ثم ذكر أبوة النبي ﷺ، وأمومة أزواجه لجميع أمته، فقال:

﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا (٦) ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ النبيُّ أولى بالمؤمنين ﴾ أي: أحق بهم في كل شيء من أمور الدين والدنيا، وحكمه أنفذ عليهم ﴿ من أنفسهم ﴾، فإنه لا يأمرهم، ولا يرضى منهم إلا بما فيه صلاحهم ونجاحهم، فيجب عليهم أن يبذلوها دونه. ويجعلوها فداء منه. وقال ابن عباس وعطاء: يعني: (إذا دعاهم النبي ﷺ إلى شيء، ودعتهم أنفسهم إلى شيء، كانت طاعةُ النبي ﷺ أولى)(١). أو: هو أولى بهم، أي: أرأف، وأعطف عليهم، وأنفع لهم، كقوله: ﴿ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾(٢) وفي الصحيح عنه عليه الصلاة والسلام: «ما من مؤمن إلا وأنا أولَى الناس به في الدنيا والآخرة، اقرءوا إن شئتم: ﴿النبيُّ أولَى بالمؤمنين من أنفُسِهِمْ﴾، فأيُّما مُؤْمِن هلَكَ، وترَكَ مالاً؛ فلورثَته ما كانوا، ومن ترَكَ دَيْناً أو ضيَاعاً فليأتني، فإني أنا مولاه» .(٣).

وفي قراءة ابن مسعود «النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وهو أب لهم». وقال مجاهد: كل نبي أبو أمته، ولذلك صار المؤمنون إخوة؛ لأن النبي ﷺ أبوهم في الدين، وأزواجه أمهاتهم، في تحريم نكاحهن ووجوب تعظيمهن، وهن فيما وراء ذلك - كالإرث وغيره - كالأجنبيات، ولهذا لم يتعد التحريم إلى بناتهن.

﴿ وأولوا الأرحام ﴾ أي: ذوو القرابات ﴿ بعضهم أَوْلَى ببعض ﴾ في المواريث. وكان المسلمون في صدر الإسلام يتوارثون بالولاية في الدين وبالهجرة، لا بالقرابة، ثم نسخ، وجعل التوارث بالقرابة. وذلك ﴿ في كتاب الله ﴾ أي: في حُكْم الله وقضائه، أو: في اللوح المحفوظ، أو: فيما فرض الله، فهم أولى بالميراث، ﴿ من المؤمنين ﴾ بحق الولاية في الدين، ﴿ و ﴾ من ﴿ المهاجرين ﴾ بحق الهجرة. وهذا هو الناسخ. قال قتادة: كان المسلمون

---

(١) انظر تفسير البغوي (٦/٣١٨).
(٢) الآية ١٢٨ من سورة التوبة.
(٣) أخرجه البخاري في (الاستقراض، باب الصلاة على ترك دَيْناً، ح ٢٣٩٩)، ومسلم في (الفرائض، باب من ترك مالاً فلورثته، ٣/١٢٣٨، ح ١٦١٩)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

يتوارثون بالهجرة، ولا يرث الأعرابى المسلم من المهاجر شيئاً، فنزلت. وقال الكلبى: آخى النبيُّ ﷺ بين الناس، فكان يواخي بين الرجلين، فإذا مات أحدهما ورثه الآخر، دون عصبته، حتى نزلت: ﴿وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله﴾[1]؛ فى حكمه، ﴿من المؤمنين والمهاجرين﴾. ويجوز أن يكون ﴿من المؤمنين﴾: بياناً لأولى الأرحام، أى: وأولو الأرحام، من هؤلاء، بعضهم أولى بأن يرث بعضاً من الأجانب، ﴿إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفاً﴾ أى: لكن فعلكم إلى أوليائكم معروفاً، وهو أن تُوصوا لمن أحببتم من هؤلاء بشيء، فيكون له ذلك بالوصية، لا بالميراث؛ فالاستثناء منقطع. وعدّى (تفعلوا) بإلى؛ لأنه فى معنى تُسْدُوا، والمراد بالأولياء: المؤمنون، والمهاجرون: المتقدمون الذين نسخ ميراثهم. ﴿كان ذلك﴾ أى: التوارث بالأرحام ﴿في الكتاب مسطوراً﴾ أى: اللوح المحفوظ، أو: القرآن. وقيل: فى التوراة.

الإشارة: متابعته ـ عليه الصلاة والسلام، والاقتباس من أنواره، والاهتداء بهديه، وإيثار محبته، وأمره على غيره؛ لا ينقطع عن المريد أبداً، بدايةً ونهايةً؛ إذ هو الواسطة العظمى، وهو أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأرواحهم وأسرارهم. فكل مدد واصل إلى العبد فهو منه ﷺ، وعلى يده، وكل ما تأمر به الأشياخ من فعل وترك فى تربية المريدين، فهو جزء من الذى جاء به. وهم فى ذلك بحسب النيابة عن النبى ﷺ؛ لأنهم خلفاء عنه. وكل كرامة تظهر فهى معجزة له ﷺ، وكل كشف ومشاهدة فمن نوره ﷺ، قال ابن العربى الحاتمى رضي الله عنه: اعلم أن كل ولىّ لله تعالى إنما يأخذ ما يأخذ بواسطة رُوحانيّةِ النبى ﷺ، فمنهم من يعرف ذلك، ومنهم من لا يعرفه، ويقول: قال لى الله، وليس إلا تلك الروحانية. هـ. وهو موافق لما أشار إليه الشيخ أبو العباس المرسى رضي الله عنه، حيث قال: الولىّ إنما يكاشف بالمثال، كما يرى مثلاً البدر فى الماء بواسطته، وكذلك الحقائق الغيبية، والأمور الإشهادية مجلوة وظاهرة فى بصيرة النبى ﷺ، وله عياناً لا مثالاً. والولىّ لقربه منه ومناسبته له؛ لهديه بهديه، ومتابعته له يُكاشف بمثال ذلك فيه، فظهر الفرق وثبتت مزية النبى ﷺ، وانتفى اللبس بين النبوة والولاية. قاله شيخ شيوخنا سيدى «عبدالرحمن العارف».

قال القشيرى: ﴿النبى أَوْلَى بالمؤمنين من أنفسهم﴾ الإشارة: تقديم سُنّته على هواك، والوقوف عند إشارته دون ما يتعلق به مُناك، وإيثار مَن تتوسل به نسباً وسبباً على أعِزّتكَ ومن والاك، ﴿وأولوا الأرحام..﴾ الآية. ليكنْ

(١) انظر تفسير ابن كثير (٣/٤٦٨).

الأجانبُ منك على جانب، ولتكن صلتك للأقارب وصلةُ الرحم ليس لمقاربة الدار وتعاقب المزار، وليكن بموافقة القلوب، والمساعدة فى حالتى المكروه والمحبوب.

أَرْوَاحُنَا فى مكانٍ واحد، وإن كانت أَشْـبَاحُنَا بِشَـآمٍ أَوْ خُرَاسَانِ(١) .هـ.

ولَمَّا كان كل نبى أباً لأمته، أخذ عليهم العهد فى إرشادهم، ونصحهم، كما ينصح الأب ابنه، فقال:

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ۝٧ لِّيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ۝٨ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ و ﴾ اذكر ﴿ إذ أخذنا ﴾ ؛ حين أخذنا ﴿ من النبيين ميثاقهم ﴾ بتبليغ الرسالة، والدعاء إلى الدين القيم، وإرشاد العباد ونصحهم. قيل: أخذه عليهم فى عالم الذر. قال أُبيّ بن كعب: لما أخرج الله الذرية، كانت الأنبياء فيهم مثل السُرُجِ، عليهم النور، فخُصوا بميثاقٍ وأخذ الرسالة والنبوة. وقال القشيرى: أخذ الميثاق الأول وقت استخراج الذرية من صلب آدم، وعند بعثة كل رسول، ونُبُوَّة كل نبيٍّ، أخذ ميثاقه، وذلك على لسان جبريل عليه السلام، ومن اختصه بإسماعه كَلاَمَهُ بلا واسطة ملك ـ كنبينا ليلة المعراج، وموسى ـ عليهما السلام ـ فأخذ الميثاق منهم بلا واسطة، وكان لنبينا ـ عليه الصلاة السلام ـ زيادة حال؛ بأن كان مع سماع الخطاب كشف الرؤية. ثم أخذ المواثيق من العباد بقلوبهم وأسرارهم .هـ.

قال فى الحاشية: والذى يظهر: أن أخذ الميثاق منهم مباشرة لا بوحى، وذلك فى الغيب، ولذلك قدّم نبينا محمد ﷺ؛ لأنه النور الأول قبل آدم، ثم انتقل إلى ظهره، وحينئذ، فأخذ الميثاق هنا غيبى، ولذلك قدّمه. وفى قوله: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ ... ﴾(٢)؛ فى عالم الظهور، فلذلك قدّم نوحاً، وثنّى بنبينا؛ لأن نوحاً أول أُولى العزم، ونبينا خاتمهم. والله أعلم .هـ. والحاصل: أن أخذ الميثاق كان مرتين؛ فى عالم الغيب وفى عالم الشهادة. وهل المراد به هنا الأول أوالثانى؟ قولان.

---

(١) البيت لأبى تمام، يمدح سليمان بن وهب. انظر ديوان أبى تمام (٣/٣٣٥)، وتاريخ بغداد (١٠/٩٧) وفيهما:
أرواحنا فى مكانٍ واحـــد، وغـــدت ... الخ.

(٢) الآية ١٣ من سورة الشورى.

﴿ ومنك ومن نوحٍ وإبراهيمَ وموسى وعيسى ابنِ مريمَ ﴾، قال النسفى: وقدّم رسول الله ﷺ على نوح ومَن بعده؛ لأن هذا العطف لبيان فضيلة هؤلاء؛ لأنهم أولو العزم، وأصحاب الشرائع، فلمّا كان نبينا محمد ﷺ أفضل هؤلاء قُدّم عليهم، ولولا ذلك لقدّم من قدّمه زمانه. هـ. ﴿ وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً ﴾؛ وثيقاً. وأعاد ذكر الميثاق؛ لانضمام الوصف إليه.

وإنما فعلنا ذلك ﴿ ليَسْأَلَ ﴾ اللهُ ﴿ الصادقين ﴾ أى: الأنبياء ﴿ عن صِدْقِهم ﴾؛ عما قالوه لقومهم، وهل بلغوا ما كلفهم به. وفيه تبكيت للكفار، كقوله: ﴿ فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ﴾(١)، أو: ليسأل المصدّقين للأنبياء عن تصديقهم: هل كان بإخلاص أم لا؟؛ لأن من قال للصادق: صدقت؛ كان صادقاً فى قوله. أو: ليسأل الأنبياء: ما الذى أجابتهم أممهم؟ وهو كقوله: ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ ﴾(٢)، ﴿ وأَعَدَّ للكافرين ﴾ بالرسل ﴿ عذاباً أليماً ﴾، وهو عطف على «أخذنا»؛ لأن المعنى: أن الله تعالى أخذ على الأنبياء العهد بالدعوة إلى دينه؛ لأجل إثابة المؤمنين، وأعدّ للكافرين عذاباً أليماً. أو: على ما دلّ عليه: ﴿ليسأل الصادقين﴾، كأنه قال: فأثاب المؤمنين، وأعدّ للكافرين عذاباً أليما.

الإشارة: كما أخذ الله الميثاق على الأنبياء والرسل؛ أخذ الميثاق على العلماء والأولياء. أما العلماء؛ فعلى تبيين الشرائع وتغيير المناكر، وألا تأخذهم فى الله لومة لائم، وأما أخذه على الأولياء؛ فعلى تذكير العباد وإرشادهم إلى معرفة الله، وتربية من تعلق بهم، وسياسة الخلق، ودلالتهم على الحق، فمن قصر من الفريقين استحق العتاب. قال القشيرى: فلكلٍّ من الأولياء والأكابر حال، على ما يؤهلهم له؛ قال ﷺ: «لقد كان فى الأمم مُحَدَّثون، وإن يكُن فى أمتى فَعُمر»(٣). وغير عُمَر مشارك لعُمر فى خواص كثيرة، وذلك سر بينهم وبين ربِّهم.

ثم قال: قوله تعالى: ﴿ لِيَسْأَلَ الصادقين عن صدقهم ﴾؛ سؤال تشريف لا تعنيف، وإيجاب لا عتاب. والصدقُ: ألا يكون فى أحوالك شَوْبٌ، ولا فى اعتقادك ريب، ولا فى عملك عَيْبٌ، ويقال: من أمارات الصدق فى المعاملة: وجودُ الإخلاص من غير ملاحظة، وفى الأحوال: تصفيتُها [من غير مداخلة الحجاب](٤)، وفى القول: سلامته من المعاريض، [فيما بينك وبين نفسك](٥). وفيما بينك وبين الناس: تباعدٌ من التلبيس والتدليس، وفيما

---

(١) الآية ٦ من سورة الأعراف.

(٢) متفق عليه، أخرجه البخارى فى (فضائل الصحابة، باب: مناقب عمر، ح ٣٦٨٩) ومسلم فى (فضائل الصحابة، باب: من فضائل عمر ٤/١٨٦٤، ح ٢٣٩٨).

(٤) فى القشيرى [من غير مداخلة إعجاب].

(٥) ما بين المعقوفتين ليس فى الأصول، وأثبته من القشيرى، وهو ضرورى يقتضيه السياق.

بينك وبين الله: إدامة التبرِّى من الحوْل والقوة، ومواصلة الاستقامة، وحفظ العهود معه على الدوام. وفى التوكل: عدمُ الانزعاج عند الفَقْد، وزوالِ البِشْر [بالوجد](١)، وفى الأمر بالمعروف: التحرُّز من تخلل المداهنة، قليلها وكثيرها، وألاّ يترك ذلك لِفزَعٍ ولا طَمَعٍ، ولكن تَشْرَبُ مما تَسْقى، وتتصف بما تأمر، وتنتهى عما تَزْجُر. ويقال: الصدق: أن يهتدى إليك كلُ أحد، ويكون عليك، فيما تقول وتضمر، اعتماد. ويقال: الصدق: ألا تجنح إلى التأويلات. انتهى كلام القشيرى.

ثم شرع فى غزوة الأحزاب، التى هى المقصودة من السورة، فقال:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمةَ الله عليكم ﴾، أى: ما أنعم الله به عليكم يوم الأحزاب، وهو يوم الخندق، وكان بعد حرب أحد بِسنةٍ. ﴿ إذ جاءتكم جنودٌ ﴾ أي: الأحزاب، وهم: قريش، وغطفان، ويهود قريظة والنضير، وهم السبب فى إتيانهم، ﴿ فأرسلنا عليهمْ ريحاً ﴾ أى: الصَّبَا، قال عليه الصلاة والسلام: «نُصرت بالصَّبَا، وأُهلكَتْ عاد بالدَّبُور»(٢). قيل: كانت هذه الريح معجزة؛ لأن النبى ﷺ والمسلمين كانوا قريباً منها، ولم يكن بينهم وبينها إلا عُرض الخندق، وكانوا فى عافية منها. ﴿ و ﴾ لا شعور لهم بها. وأرسلنا عليهم ﴿ جنوداً لم تروها ﴾ وهم الملائكة، وكانوا ألفا، فقلعت الأوتاد، وقطعت الأطناب، وأطفأت النيران، وأكفأت القدور.

وكان سبب غزوة الأحزاب: أن نفراً من اليهود، منهم ابن أَبى الحقيق، وحُيَى بن أخطب، فى نفر من بنى النضير، لمَّا أجلاهم النبىُّ ﷺ من بلدهم، قَدِموا مكة فحرّضوا قريشاً على حرب رسول الله ﷺ، ثم خرجوا إلى غطفان، وأشجع، وفزارة، وقبائلَ مِنَ العرب، يحرّضونهم على ذلك، على أن يعطوهم نصف تمر خَيْبَرَ كل

(١) فى القشيرى [بالوجود].
(٢) سبق تخريج الحديث عن تفسير الآية ٤٦ من سورة الروم. فراجعه إن شئت، أكرمك الله.

سنة. فخرجت قريش، وقائدها أبو سفيان، وخرجت غطفان، وقائدها عيينة بن حِصن، والحارث بن عوف في مُرة، وسعد بن رخيلة(١) في أشجع، وعامر بن الطفيل في هوازن.

فلما سمع النبي ﷺ بهم، ضرب الخندق على المدينة، برأي سلمان. وكان أول مشهد شهده مع رسول الله ﷺ، وهو يومئذ حُر. وقال: يارسول الله: إنا كنّا بفارس؛ إذا حُوصرنا: خَنْدَقْنَا علينا، فحفر الخندق، وباشر الحفر معهم بيده ﷺ. فنزلت قريش بمجتمع الأسيال من الجُرُفِ والغابة، في عشرة آلاف من أحابيشهم. ونزلت غطفان وأهل نجد بذنب نَقَمَى، إلى جانب أُحد. فخرج النبي ﷺ والمسلمون حتى جعلوا ظهورهم إلى سلْع، في ثلاثة آلاف من المسلمين، فضرب هناك عسكره، والخندق بينه وبين القوم، وأمر بالذراري والنساء فرفعوا في الآطام(٢).

واشتد الخوف، فأقام النبي ﷺ، وأقام المشركون، بِضعاً وعشرين ليلة، ولم يكن حرب غير الرمي بالنبل والحصى. فلما اشتد البلاء بعث النبي ﷺ إلى عُيينة بن حصن، والحارث بن عوف، وأعطاهما ثلث ثمار المدينة، على أن يرجعا بمن معهما، وكتبوا الكتاب ولم يقع الإشهاد، فاستشار النبي ﷺ سعد بن معاذ، وسعد بن عبادة، فقال سعد بن معاذ: أشيء أمرك الله به، لابدّ لنا من العمل به، أم شيء تُحبه فنصنعه، أم شيء تصنعه لنا؟ قال: «لا، بل شيء أصنعه لكم، أردتُ أن أكْسِر عنكم شوكتهم». فقال سعد: يارسول الله؛ لقد كنا مع القوم على شرك وعبادة الأوثان، لا نعبد الله ولا نعرفه، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها تمرة، إلا قِرىً، أو شراءً، أفحين أكرمنا الله بالإسلام، وأعزّنا بك، نعطيهم أموالنا! لا نعطيهم إلا السيف. فقال ـ عليه الصلاة والسلام: «فأنت وذاك»، فمحا سعدُ ما في الكتاب، وقال: ليجهدوا علينا(٣).

ثم إن الله تعالى بعث عليهم ريحًا باردة، في ليلة شاتية، فأحصرتهم، وأحثت الترابَ في وجوههم، وأمر الملائكة فقلعت الأوتاد، وقطعت الأطناب، وأكفأت القدور، وأطفأت النيران، وجالت الخيل بعضها في بعض. وأرسل الله تعالى عليهم الرُعب، وكثر تكبير الملائكة في جوانب عسكرهم، حتى كان سيد كل خباء يقول: يَابَنِي فلان، هلُمُّوا، فإذا اجتمعوا إليه قال: النَّجَا، النَّجَا، أُوتيتم. فانهزموا من غير قتال.

﴿ وكان الله بما تعملون بصيراً ﴾، أي: بصيراً بعملكم، من حَفر الخندق، ومعاونة النبي ﷺ، والثبات معه، فيجازيكم عليه. وقرأ أبوعمرو: بالغيب، أي: بما يعمل الكفار؛ من البغي، والسعي في إطفاء نور الله. ﴿ إذ

(١) في تفسير البغوي [مسعود بن رخيلة].
(٢) الآطام: الحصون. جمع أُطُم. انظر اللسان (أطم ١/ ٩٣).
(٣) انظر: السيرة لابن هشام (٣/ ٢٢٥).

جاءوكم﴾ هو بدل من: (إذ جاءتكم)، ﴿من فوقكم﴾ ؛ من أعلى الوادى، من قِبَل المشرق. وهم بنو غطفان. ﴿ومن أسفل منكم﴾ ؛ من أسفل الوادى من قِبَل المغرب، وهم قريش.﴿ وإذْ زاغتِ الأبصارُ﴾ ؛ مالت عن مستوى نظرها؛ حَيْرَةً وشخوصاً. أو: مالت إلى عدوها؛ لشدة الخوف، ﴿ وبلغت القلوبُ الحناجرَ﴾ ؛ رُعباً. والحنجرة: رأس الغَلْصَمَة، وهى منتهى الحلقوم، الذى هو مدخل الطعام والشراب. قالوا: إذا انتفخت الرئة، من شدة الفزع والغضب، ربَتْ، وارتفع القلب بارتفاعها إلى رأس الحنجرة. وقيل: هو مَثَل فى اضطراب القلوب، وإن لم تبلغ الحناجر حقيقة.

رُوى أن المسلمين قالوا لرسول الله ﷺ: هل من شيء نقوله، فقد بلغت القلوب الحناجر؟ قال: «نعم، قولوا: اللهم استر عوراتنا، وآمن روعاتنا»(١) .

﴿ وتظنون بالله الظُنونا﴾ ؛ الأنواع من الظن. والمؤمنون أصناف؛ منهم الأقوياء، ومنهم الضعفاء، ومنهم المنافقون. فظن الأقوياء، المخلصون، الثُبْتُ القلوب؛ أن ينجز الله وعده فى إعلاء دينه، ويمتحنهم، فخافوا الزلل وضعفَ الاحتمال، وأما الآخرون؛ فظنوا ما حكى عنهم، وهم الذين زاغت أبصارهم، وبلغت قلوبهم الحناجر، دون الأقوياء رضى الله عنهم، وقرأ أبو عمرو وحمزة: ﴿ الظنون﴾ ؛ بغير ألف، وهو القياس. وبالألف فيهما: نافع، والشامى، وشعبة؛ إجراء للوصل مجرى الوقف. والمكىّ، وعلىّ، وحفص: بالألف فى الوقف. ومثله: ﴿الرسولا﴾(٢) و﴿السبيلا﴾(٣)، زادوها فى الفاصلة، كما زادوها فى القافية، كقوله:

«أقِلِّى اللَّوْمَ، عاذِلَ؛ والعتابا»(٤)

وهو فى الإمام: بالألف.

﴿ هنالك ابْتُلِى المؤمنون﴾ أى: اختبروا، فظهر المخلص من المنافق، والثابت من المزلزل، ﴿ وزُلزلوا زلزالاً شديداً﴾ ؛ وحُرِّكوا، بالخوف، تحريكاً شديداً.

الإشارة: يا أيها الذين آمنوا إيمان الخصوص؛ اذكروا نعمة الله عليكم بالتأييد والنصر، فحين توجّهتم إلىّ، ودخلتم فى طريق ولايتى، رفضتكم الناس، ونكرتكم، ورمتكم عن قوس واحدة، فجاءتكم جنود الخواطر والوساوس

---

(١) أخرجه أحمد (٣/٣) عن أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه.
(٢) من الآية ٦٦ من سورة الأحزاب.
(٣) من الآية ٦٧ من سورة الأحزاب. وانظر الحجة لأبى على الفارسى (٥/٤٦٨ - ٤٦٩).
(٤) صدر بيت لجرير، وعجزه: وقولى - إن أصبت - لقد أصابا. انظر: معانى القرآن للزجاج (٤/٢١٨).

من كل جانب، حتى هممتم بالرجوع أو الوقوف. وإذ زاغت الأبصار: مالت عن قصدها؛ بالاهتمام بالرجوع، وبلغت القلوبُ الحناجرَ، ممن كان ضعيف الإرادة واليقين، وتظنون بالله الظنونا، فمنهم من يظن الامتكان بعد الامتحان، فيفرحون بالبلاء، ومنهم من يظن أنه عقوبة... إلى غير ذلك، هنالك ابتلى المؤمنون المتوجهون؛ ليظهر الصادق، في الطلب، من الكاذب فيه، فعند الامتحان يعز المرء أو يُهان، ويظهر الخَوّافون من الشجعان، وزُلزلوا زلزالاً شديداً؛ ليتخلصوا ويتمحصوا، كما يتخلص الذهب والفضة من النحاس، ومن عرف ما قصد؛ هان عليه ما ترك.

قال القشيري: ﴿يأيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم..﴾ يعني: بمقابلتها بالشكر، وتَذَكُّر ما سَلَفَ من الذي دفع عنك، يهون عليك مقاساة البلاءِ في الحال. ويذكرك لما أولاك في الماضي؛ يقرب من الثقة بوصول ما تؤمِّلُه في الاستقبال. فمن جملة ما ذكّرهم قوله: ﴿إذ جاءتكم جنود...﴾ الآية: كم بلاء صَرَفَه عن العبد وهو لا يشعر، وكم شغل كنت بصدده، فصده عنك ولم تعلم، وكم أمر صرفه، والعبد يضج، وهو ـ سبحانه ـ يعلم أن في تيسيره هلاكَه، فيمنعه منه؛ رحمة عليه، والعبد يتهمه ويضيق به صَدْرُه. اهـ.

ثم ذكر سبحانه نتيجة الابتلاء، فقال:

﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَءَاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿و﴾ اذكر ﴿إذ يقولُ المنافقون والذين في قلوبهم مرض﴾: عطف تفسير؛ إذ هو وصف المنافقين، كقول الشاعر:

إلى المَلِكِ القَرْمِ، وابنِ الهُمَامِ		ولَيْثِ الكتيبـةِ فـى المُزْدَحَمْ

فابن الهمام هو القَرْمُ، والقرم ـ بالراء ـ: السيد. وقيل: ﴿الذين في قلوبهم مرض﴾، هم الذين لا بصيرة بهم في الدين من المسلمين، كان المنافقون يستميلونهم بإدخال الشُّبه عليهم، قالوا، عند شدة الخوف: ﴿ما وَعَدَنَا اللهُ ورسولهُ إلا غُروراً﴾.

رُوى أن مُعَتّبَ بن قُشَيْرٍ المنافق، حين رأى الأحزاب قال: إن محمداً يَعِدُنا فتح فارس والروم، وأحدُنا لا يقدر أن يتبرز، خوفاً، ما هذا إلا وعد غرور.هـ.

﴿ وإذ قالت طائفةٌ منهم ﴾؛ من المنافقين، وهم عبد الله بن أُبيّ وأصحابه: ﴿ يا أهلَ يثربَ ﴾، وهم أهل المدينة، ﴿ لا مقَامَ لكم ﴾(١) أى: لا قرار لكم هنا، ولا مكان تقيمون فيه ـ وقرأ حفص: بضم الميم ـ اسم مكان، أو مصدر، ﴿ فارجعوا ﴾ من عسكر رسول الله ﷺ إلى المدينة؛ هاربين، أو: إلى الكفر، فيمكنكم المقام بها، أو: لامقام لكم على دين محمد، فارجعوا إلى الشرك وأظهروا الإسلام لتسلموا، ﴿ ويستأذن فريقٌ منهم النبيَّ ﴾ أى: بنو حارثة ، ﴿ يقولون إن بيوتنا عورةٌ ﴾: ذات عورة، أى: خالية غير حصينة، وهى مما يلى العدو. وأصلها: الخلل. وقرأ ابن عباس؛ بكسر الواو: (عوِرَة)، يعنى: قصيرة الجدران، فيها خلل. تقول العرب: دار فلان عوِرة؛ إذا لم تكن حصينة، وعوِرَ المكان: إذا بدا فيه خلل يُخاف منه العدو والسارق، ويجوز أن يكون عوْرَة: تخفيفَ عوِرة.

اعتذروا أن بيوتهم عُرضة للعدو والسارق؛ لأنها غير محصنة، فاستأذنوا ليحصنوها ثم يرجعوا إليه، فأكذبهم الله تعالى بقوله: ﴿ وما هي بعوْرةٍ ﴾، بل هى حصينة، ﴿ إن يريدون إلا فِراراً ﴾ من القتل.

﴿ ولو دُخلَت عليهم ﴾ مدينتهم، أو: بيوتهم. من قولك: دخلت على فلان داره. ﴿ من أقْطارها ﴾؛ من جوانبها، أى: ولو دَخلت هذه العساكر المتحزبة ـ التى يفرون؛ خوفاً منها ـ مدينتهم، أو بيوتهم، من نواحيها كلها؛ ناهبين سارقين، ﴿ ثم سُئِلوا ﴾؛ عند ذلك الفزع، ﴿ الفتنة ﴾ أى: الردة والرجعة إلى الكفر ومقاتلة المسلمين، أو: القتال فى العصبية، وهو أحسن؛ لأنهم مسلمون، ﴿ لأتوها ﴾(٢)؛ لجاءوها وفعلوا. ومن قرأ بالمد فمعناه: لأعطوها من أنفسهم، ﴿ وما تلبثوا بها ﴾؛ بإجابتها وإعطائها، أى: ما احتبسوا عنها ﴿ إلا يسيراً ﴾، أو: ما لبثوا بالمدينة، بعد ارتدادهم، إلا زماناً يسيراً، ثم يهلكهم الله؛ لأن المدينة كالكير؛ تنفى خبثها، وينصع طيبها، والمعنى أنهم يتعللون بإعوار بيوتهم؛ ليفرّوا عن نصرة رسول الله ﷺ والمؤمنين، وعن مصافة الأحزاب الذين ملأوهم رُعباً، وهؤلاء الأحزاب كما هم؛ لو سألوهم أن يقاتلوا؛ فتنة وعصبية؛ لأجابوهم، وما تعللوا بشيء، وما ذلك إلا لضعف إيمانهم، والعياذ بالله.

الإشارة: وإذ قالت طائفة من شيوخ التربية لأهل الفناء: لامقام تقفون معه؛ إذ قد قطعتم المقامات، حين تحققتم بمقام الفناء، فارجعوا إلى البقاء؛ لتقوموا بآداب العبودية، وتنزلون فى المقامات ثم ترحلون عنها، كما

---

(١) أثبت المفسر ـ رحمة الله ـ قراءة (مَقَام) بفتح الميم، وهى قراءة الجمهور. وقرأ حفص (مُقام) بضم الميم. انظر: الحجة للفارسى (٥/٤٧١).

(٢) قرأ نافع وابن كثير: (لأتوها) بالقصر، وقرأ الباقون: بالمد.. انظر: الإتحاف (٢/٣٧٢).

تنزل الشمس في بروجها، فكل وقت يبرز فيه ما يقتضى النزول إلى مقامه. فتارة يبرز ما يقتضى التوبة، وتارة ما يقتضى الخوف والهيبة، أي: خوف القطيعة، وتارة ما يقتضى الرجاء والبسط، وتارة ما يقتضى الشكر، وتارة الصبر، وتارة ما يقتضى الرضا والتسليم، وتارة ما يهيج المحبة أو المراقبة أو المشاهدة. وهكذا ينزل فى المقامات ويرحل عنها، ولا يقيم فى شىء منها. ويستأذن بعض المريدين فى الرجوع إلى مقامات الإيمان أو الإسلام، أو شىء من أمور البدايات، يقولون: إن بيوت تلك المقامات لم نُتقنها، بل فيها عورة وخلل، وما هى بعورة، ما يريدون إلا فراراً من ثقل أعباء الحضرة. ولو دُخلت بيوت قلوبهم من أقطارها، ثم سئلوا الرجوع إلى الدنيا لأتوها؛ لأنها قريبةُ عهْدٍ بتركها، وما تلبثوا بها إلا زماناً يسيراً، بل يبغتهم الموت، ويندمون، قل متاع الدنيا قليل، والآخرة خير لمن اتقى.

وقد كانوا عاهدوا الله ألاّ يرجعوا إليها، كما قال تعالى:

﴿ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ولقد كانوا عاهدوا اللهَ من قَبلُ﴾ أى: قبل غزوة الخندق، وهو يوم أُحد. والضمير في «كانوا»: لبنى حارثة، عاهدوا رسولَ الله ﷺ يوم أُحد، حين فشلوا، ثم تابوا ألا يعودوا لمثله، وقالوا: ﴿لا يُولّونَ الأدبارَ﴾؛ منهزمين أبداً، ﴿وكان عهدُ الله مسئولاً﴾ عن الوفاء به، مُجازىً عليه، أو: مطلوباً مقتضى حتى يوفى به. ﴿قل لن ينفعكُم الفرارُ إن فَررتُم من الموت أو القتل﴾، فإنه لابد لكل شخص من حتْفِ أنفه، أو: قتل فى وقت معين سبق القضاء وجرى به القلم، ﴿وإذاً لا تُمتَّعُون إلا قليلاً﴾ أى: إن حضر أجلكم لم ينفعكم الفرار، وإن لم يحضر، وفررتم، لن تُمتعوا فى الدنيا إلا زماناً قليلا، وهو مدة أعماركم، وهو قليل بالنسبة إلى ما بعد الموت الذى لا انقضاء له.

﴿قل من ذَا الذي يَعْصِمُكُم من الله﴾ أى: يمنعكم مما أراد الله إنزاله بكم؛ ﴿إن أراد بكم سوءاً﴾ فى أنفسكم؛ من قتل أو غيره، ﴿أو أراد بكم رحمةً﴾ أى: أراد بكم إطالة عمر فى عافية وسلامة. أو: من يمنع الله

من أن يرحمكم، إن أراد بكم رحمة، فَحُذِفَ؛ بعدا واختصاراً، لما فى العصمة من معنى المنع، أو: من ذا الذى يعصمكم؛ إن أراد بكم سوءا، أو يصيبكم بسُوء، إن أراد بكم رحمة، فاختصر الكلام. ﴿ولا يجدون لهم من دون الله ولياً﴾ ينفعهم، ﴿ولا نصيراً﴾ يدفع العذاب عنهم.

الإشارة: ولقد كان عاهدَ الله؛ مَنْ دخل فى طريق القوم، ألاَّ يولى الأدبارَ، ويرجع إلى الدنيا والاشتغال بها حتى يتفتر عن السير، وكان عهد الله مسئولاً، فيسأله الحق تعالى عن سبب رجوعه عن الإرادة، ولماذا حَرَمَ نَفْسَهُ من لذيذ المشاهدة؟ قل - لمن رجع، ولم يقدر على مجاهدة نفسه: لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت لنفوسكم، أو القتل؛ بمجاهدتها وتجميلها بعكس مرادها، وتحميلها ما يثقل عليها، وإذاً لا تُمتعون إلا قليلاً، ثم ترحلون إلى الله، فى غم الحجاب وسوء الحساب. قل: من ذا الذى يعصمكم من الله، إن أراد بكم سوءاً؟، وهو البُعد والطرد، أو: من يمنعكم من رحمته، إن أراد بكم رحمة؟، وهى التقريب إلى حضرته، فلا أحد يعصمكم من إبعاده، ولا أحد يمنعكم من إحسانه؛ إذ لا وليَّ ولا ناصر سواه. اللهم انصرنا بنصرك المبين، وارحمنا برحمتك الخاصة، حتى تُقَرِّبَنَا إلى حضرتك، بفضل منك وجودك، يا أرحم الراحمين.

ثم ذكر نعوت أهل البُعد، فقال:

﴿ ۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿قد يعلم اللهُ المعوِّقين منكم﴾ أى: يعلم مَنْ يُعَوِّقُ عن نصرة رسول الله ﷺ ويَمْنَعُ، وهم المنافقون والمثبطون للناس عن الخروج إلى الغزو، ﴿والقائلين لإخوانهم﴾ فى الظاهر؛ من ساكنى المدينة من المسلمين: ﴿هَلُمَّ إلينا﴾؛ تعالوا إلينا، ودعُوا محمداً. ولغة أهل الحجاز فى «هلم»: أنهم يُسوون فيه بين الواحد والجماعة. وأما بنو تميم فيقولون: هلم يارجل، وهلموا يارجال.. وهكذا. ﴿ولا يأتون البأسَ﴾؛ الحرب

﴿ إلا قليلاً ﴾؛ إلا إتياناً قليلاً، أو يحضرون ساعةً؛ رياءً، ويقفون قليلاً، مقدار ما يرى شهودهم ثم ينصرفون. ﴿ أشحَّةً عليكم ﴾؛ جمع شحيح، وهو البخيل، نُصب على الحال من ضمير ﴿يأتون﴾ أي: لا يأتون الحرب؛ بُخلاً عليكم بالمعاونة أو بالنفقة في سبيل الله، أو: في الظفر والغنيمة، أي: عند الظفر وقَسْمِ الغنيمة. ﴿ فإذا جاء الخوفُ ﴾ من قِبَل العدو، أو: منه ﷺ، ﴿ رأيتَهم ينظرون إليك ﴾؛ في تلك الحالة، ﴿ تدور أعينُهم ﴾ يميناً وشمالاً ﴿ كالذي يُغْشى عليه من الموت ﴾؛ كما ينظر المغشى عليه من معالجة سكرات الموت؛ حذراً وخوفاً ولِواذاً بك.

﴿ فإذا ذهب الخوفُ ﴾ أي: زال ذلك الخوف وأمِنوا، وحيزت الغنائم ﴿ سلقوكم بألسنةٍ حِدَادٍ ﴾؛ خاطبوكم مخاطبة شديدة، وآذوكم بالكلام، يقال: خطيب سِلق: فصيح، ورجل مِسلق وسلّاق: مبالغ في الكلام. يعني: بسطوا ألسنتهم فيكم، وقت قسم الغنيمة، ويقولون: أعطنا، أعطنا؛ فإنا قد شهدنا معكم، وبمكاننا غلَبتم عدوكم. ﴿ أشحَّةً على الخير ﴾ أي: خاطبوكم؛ أشحة على المال والغنيمة. فهو حال من فاعل سلقوكم، فهم أشح القوم عند القسم، وأجبنهم عند الحرب، ﴿ أولئك لم يؤمنوا ﴾ في الحقيقة، بل بالألسنة فقط، ﴿ فأحبط اللهُ أعمالهم ﴾؛ أبطلها، بإضمار الكفر مع ما أظهروا من الأعمال الخبيثة، ﴿ وكان ذلك ﴾ الإحباط ﴿ على الله يسيراً ﴾؛ هيناً.

الإشارة: هذه صفة منافقي الصوفية، يدخلون معهم على تذبذب، فإذا رأوا قوماً توجهوا لخرق عوائدهم وتخريب ظواهرهم، أو: أرادوا الخروج عن دنياهم؛ عوَّقُوهُمْ عن ذلك، وثبطوهم، وكذلك إذا توجهوا في سفر لشُقة بعيدة؛ عوقوهم؛ ليستتروا بهم، وقالوا لإخوانهم في الطريق: هلم إلينا، ولا يأتون مكان حرب أنفسهم إلا قليلاً. أشحةً بأنفسهم عليكم، فإذا جاء الخوف، وتجلى لهم الحق تعالى باسمه الجليل؛ بأن نزلت بالفقراء محنة، رأيْتَهُمْ ينظرون إليك، تدور أعينهم، نظر المغشى عليه من الموت، فإذا ذهب الخوف، وجاء النصر والعز؛ سلقوكم بألسنة حداد، وقالوا: إنا كنا معكم، أولئك لا نصيب لهم مما للقوم من الخصوصية. والله تعالى أعلم.

ثم تمم وصفهم، فقال:

﴿ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَـٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ يَحْسَبُون ﴾ أى: هؤلاء المنافقون ﴿ الأحزابَ ﴾، يعنى: قريشاً وغطفان، الذين تحزبوا على رسول الله ﷺ، أى: اجتمعوا، أنهم ﴿ لم يذهبوا ﴾ ولم ينصرفوا؛ لشدة جُبنهم، مع أنهم انصرفوا. ﴿ وإن يأت الأحزابُ ﴾ كرة ثانية؛ ﴿ يودُّوا لو أنهم بادون في الأعراب ﴾، والبادون: جمع باد، أى: يتمنى المنافقون ـ لجُبنهم ـ أنهم خارجون من المدينة إلى البادية، حاصلون بين الأعراب؛ ليأمنوا على أنفسهم، ويعتزلوا مما فيه الخوف من الحرب، ﴿ يسألون ﴾ كل قادم منهم من جانب المدينة. وقرئ ﴿ يَسَّاءلون ﴾(١)، بالشد. أى: يتساءلون، بعضهم بعضا ﴿ عن أنبائكم ﴾؛ عن أخباركم وعما جرى عليكم، ﴿ ولو كانوا ﴾ أى: هؤلاء المنافقون ﴿ فيكم ﴾ أى: حاضرون فى عسكركم، وحَضَرَ قِتَالٌ، ﴿ ما قاتلوا إلا قليلا ﴾؛ رياء وسمعة، ولو كان لله؛ لكان كثيراً؛ إذ لا يقل عملٌ لله.

الإشارة: الجبان يخاف والناس آمنون، والشجاع يأمن والناس خائفون، ولا ينال من طريق القوم شيئاً جبانٌ ولا مستحى ولا متكبر. فمن أوصاف الضعفاء: أنهم، إذا نزلت بالقوم شدة أو محنة ـ كما امْتُحِنَ الجنيد وأصحابه ـ يتمنون أنهم خارجون عنهم، وربما خرجوا بالفعل، وإن ذهبت شوكتهم؛ يحسبون أنهم لم يذهبوا؛ لشدة جزعهم. ومن أوصافهم: أنهم يكثر سؤالهم عن أخبار القوم، والبحث عما جرى بهم؛ خوفاً وجزعاً؛ ولو مضوا معهم لم يغنوا شيئاً. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر ضدهم من أهل القوة، فقال:

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأَخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾ ﴾

---

(١) وهى قراءة رويس، ورُويت عن زيد بن على، وقتادة، وغيرهما. انظر الإتحاف (٢/ ٣٧٣).

يقول الحق جل جلاله: ﴿لقد كان لكم في رسول الله﴾؛ محمد ﷺ ﴿أسْوَةٌ(١) حسَنَة﴾؛ خَصْلَةٌ حسنة، من حقها أن يُؤتسى بها؛ كالثبات فى الحرب، ومقاساة الشدائد، ومباشرة القتال. أو: فى نفسه قدوة يحسن التأسى به. كما تقول: فى البيضة عشرون رطلاً من حديد، أى: هى فى نفسها عشرون. وفيه لغتان: الضم والكسر، كالعِدوة والعُدوة، والرِشوة والرُشوة. وهى ﴿لمن كان يرجو اللهَ واليومَ الآخر﴾ أى: يخاف الله ويخاف اليوم الآخر، أو: لأجل ثواب الله ونعيم اليوم الآخر. و«لمن»: قيل: بدل من ضمير «لكم»، وفيه ضعف؛ إذ لا يبدل من ضمير المخاطب إلا ما دل على الإحاطة. وقيل: يتعلق بحسنة، أى: أسوة حسنة كائنة لمن آمن، ﴿وذكر الله كثيراً﴾ أى: فى الخوف والرجاء، والشدة والرخاء، فإن المؤتسِى بالرسول يكون كذلك.

﴿ولمَّا رأى المؤمنون الأحزابَ﴾ قد أقبلوا عليهم؛ ليستأصلوهم، وقد وعدهم الله أن يسلط عليهم المحن، ويُزَلْزَلُوا حتى يستغيثوا ويستنصروا بقوله: ﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم..﴾ إلى قوله: ﴿نصرَ الله قريب﴾(٢)، فلما جاء الأحزاب واضطربوا؛ ﴿قالوا هذا ما وعدنا اللهُ ورسولُه وصدق اللهُ ورسولُه﴾، وعلِموا أن الجنة والنصرة قد وجبت لهم. وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبى ﷺ قال لأصحابه: «إنَّ الأحزابَ سائِرُون إليكمْ؛ فى آخر تِسْعِ ليال، أو عشر»، فلما رأوهم قد أقبلوا للميعاد، قالوا ذلك(٣). و﴿هذا﴾: إشارة إلى الخطب والبلاء، أى: هذا الخطب الذى وعدنا الله ورسوله، وصدق الله ورسوله، ﴿وما زادهم﴾، ما رأوا من اجتماع الأحزاب ومجيئهم، ﴿إلا إيمانًا﴾ بالله وبمواعيده، ﴿وتسليمًا﴾ لقضائه وأقداره.

﴿من المؤمنين رجال صَدَقوا ما عاهدوا اللهَ عليه﴾ أى: صدقوا فيما عاهدوه، فحذف الجار، وأوصل المفعول إلى «ما»؛ وذلك أن رجالاً من الصحابة نَذَرُوا أنهم إذا لقوا حرباً مع رسول الله ﷺ ثبتوا، وقاتلوا حتى يُسْتَشْهَدُوا، وهم: عثمان بن عفان، وطلحة، وسعيد بن زيد، وحمزة، ومصعب، وأنس بن النضر، وغيرهم. ﴿فمنهم من قضى نَحْبَهُ﴾؛ نذره؛ بأن قاتل حتى استشهد؛ كحمزة، ومصعب، وأنس بن النضر. والنَّحْبُ: النذر، واستعير للموت؛ لأن كل حى من المحدثات لابد له أن يموت، فكأنه نذرٌ لازم فى رقبته، فإذا مات؛ فقد قضى نحبه، أى: نذره. وقال فى الصحاح: النحب: النذر، ثم قال: والنَّحْبُ: المدة والوقت. يقال: قضى فلان نَحْبَهَ؛ إذا مات.هـ. فهو

---

(١) قرأ عاصم (أُسوة) بضم الهمزة، حيث كان، وهى لغة قيس وتميم، وقرأ الباقون بكسرها حيث وقعت. وهى لغة الحجاز. انظر الإتحاف (٢/٣٧٣).

(٢) الآية ٢١٤ من سورة البقرة.

(٣) قال الحافظ ابن حجر، فى الكافى الشاف (ص١٣٣، رقم ٢٠٨): لم أجده.

لفظ مشترك بين النذر والموت. وصحح ابنُ عطية أن النحب الذى فى الآية ليس من شرطه الموت. بل معناه: قَضَى نذره الذى عاهد الله عليه من نصرة الدين، سواء قُتل أو بقى حياً. بدليل قوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ فى طلحة: «هذا ممن قَضَى نَحْبَه»(١) هـ.

﴿ ومنهم من ينتظرُ ﴾ أى: الموت على الشهادة؛ كعثمان وطلحة، ﴿ وما بدّلوا ﴾؛ العهد ﴿ تبديلاً ﴾؛ ولاغيّروه، لا المُستَشْهَد، ولا من ينتظر الشهادة. وفيه تعريض بمن بدّل من أهل النفاق، كقوله تعالى فيما مر: ﴿ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لايولون الأدبار...﴾(٢). ﴿ ليجزي اللهُ الصادقين بصدقهم ﴾؛ بوفائهم بالعهد، ﴿ ويُعذّب المنافقين إن شاء ﴾ إذا لم يتوبوا، ﴿ أو يتوبَ عليهم ﴾ إن تابوا ﴿ إنَّ الله كان غفوراً ﴾ بقبول التوبة، ﴿ رحيماً ﴾ بعفو الحوبة.

الإشارة: قد تقدم ما يتعلق بالاقتداء بالرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ والاهتداء بهديه، وأنه منهاج الأكابر. وقوله تعالى: ﴿ولمّا رأى المؤمنون الأحزاب...﴾ الآية. كذلك الأقوياء من هذه الطائفة، إذا رأوا ما يهولهم ويروعهم زادهم ذلك إيماناً وتسليماً، ويقيناً وطمأنينة، وتحققوا بصحة الطريق؛ إذ هو منهاج السائرين والأولياء الصادقين، وسنة الأنبياء والمرسلين. قال تعالى: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُون﴾(٣) الآية. وتقدم فى إشاراتها ما يتعلق بهذا المعنى.

قال بعضهم: نحن كالنجوم، كلما اشتدت الظلمة قَوِيَ نورُنَا. وقال القشيرى: كما أن المنافقين اضطربت عقائدُهم عند رؤية الأعداء، فالمؤمنون وأهلُ اليقين زادوا ثقةً، وعلى الأعداء جرأةً، ولحكم الله استسلاماً، وفى الله قوة. ثم قال: قوله تعالى: ﴿ من المؤمنين رجال صدقوا.... ﴾ الآية، شَكَرَ صنيعَهم فى المرَاسِ، ومدح يقينَهم عند شهود الناس، وسماهم رجالاً؛ إثباتاً لهم بالخصوصية فى الرتبة، وتمييزاً لهم من بين أشكالهم بعلوِّ الحالة، فمنهم مَنْ خرج من دنياه على صدْقه، ومنهم مَنْ ينتظر حكم الله فى الحياة والممات، وحقيقة الصدق: حفْظُ العهد وترك مجاوزة الحدِّ. ويقال: استواءُ السرِّ والجهر. ويقال: هو الثبات عندما يكون الأمرُ جدًا.

---

(١) أخرجه الترمذى فى (المناقب، مناقب طلحة بن عبيد الله ٥/٦٠٢، ح ٣٧٤٠) وابن ماجة فى (المقدمة: باب فى فضائل أصحاب رسول الله ﷺ ١/٤٦، ح ١٢٦). من حديث معاوية رضي الله عنه.
(٢) الآية ١٥ من سورة الأحزاب.
(٣) الآية الثانية من سورة العنكبوت.

قوله تعالى: ﴿ .. ليجزى الله الصادقين بصدقهم .. ﴾ فى الدنيا بالتمكين، والنصرة على العدو، وإعلاء الرتبة، وفى الآخرة بجزيل الثواب، وجميل المآب، والخلودِ فى النعيم المقيم، والتقدمِ على الأشكال بالتكريم والتعظيم. وقوله: ﴿ ويُعذب المنافقين إن شاء ﴾ يقال: إذا لم يجزم بعقوبة المنافق، وتعلّق القول فيه على الرجاء، فبالحريّ ألا يُخيِّبَ المؤمنَ فى رجائه. انتهى كلام القشيرى.

ثم ذكر رجوع الأحزاب، فقال:

﴿ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وردَّ اللهُ الذين كفروا ﴾ أى: الأحزاب ﴿ بغيْظِهم ﴾؛ ملتبسين بغيظهم، فهو حال كقوله: ﴿ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ ﴾(١) أى: ردهم غائظين ﴿ لم ينالوا خيراً ﴾؛ ظفراً، أى: لم يظفروا بالمسلمين. وسمّاه «خيراً» بزعمهم، وهو أيضا حال، أى: غير ظافرين، ﴿ وكفى اللهُ المؤمنين القتال ﴾ بالريح، والملائكة، ﴿ وكان اللهُ قوياً عزيزاً ﴾؛ قادراً غالباً، فقهرهم بقدرته وغلبهم بقهريته. ﴿ وأنزل الذين ظاهروهم ﴾: عاونوا الأحزاب وجاءوا بهم ﴿ من أهلِ الكتاب ﴾، يعنى بنى قريظة، أنزلهم ﴿ من صياصِيهم ﴾؛ من حصونهم. والصيصة: ما يتحصن به قال الهروى: وكل ما يتحصن به فهو صيصة، ويقال لقرون البقر والظبى: صيَاصى؛ لأنها تتحصن بها، وفى وصف أصحاب الدجال: «شواربهم كالصياصى»، لطولها، وفتلها، فصارت كالقرون.هـ.

رُوِى أن جبريل عليه السلام أتى النبى ﷺ صبيحة الليلة التى انهزم فيها الأحزاب، ورجع المسلمون إلى المدينة ـ على فَرَسه الحيزُوم، والغُبار على وجه الفَرسِ والسَّرْج، فقال: ماهذا ياجبريلُ؟ فقال: من مُتَابعة قُريش. ثم قال: إن الله يأمرك بالمسير إلى بنى قريظة، وأنا عائدٌ إليهم، فإن الله داقُهُمْ دَقَّ البيض على الصَّفا، وهم لكم طُعْمةٌ.

---

(١) من الآية ٢٠ من سورة المؤمنون.

وفى رواية: لمَّا رجع ـ عليه الصلاة والسلام ـ ودخل مغتسله، جاءه جبريل بعمامة من استبرق، على بغلة، عليها قطيفة من ديباج، فقال: قد وضعتَ السِّلاح، والله ما وضعتْ الملائكةُ السلاحَ، وما رجعت إلا من طلب القوم، وإن الله يأمرك بالمسير إلى بنى قريظة. فأذّن رسول الله ﷺ فى الناس: أنَّ من كان سامعاً مُطيعاً فلا يُصلِّين العصرَ إلا فى بنى قُريظة. فخرج إليهم، فحاصرهمُ خمساً وعشرين ليلةً. فقال رسول الله ﷺ: تنزلُون على حُكْمى؟ فأبَوْا، فقال: تنزلون على حكم سَعد بن مُعاذ؟ فرضوا به. فقال سَعد: نحكم فيهمْ: أن تُقتل مقاتِلَتهم، وتُسبى ذَرارِيهمْ ونساؤُهُم. فكبَّر النبُى ﷺ وقال: «لقد حكم فيهم بحكم الله من فوق سبع أرقعة»(١).

ثم اسْتَنْزلهم، وخَنْدَق فى سوق المدينة خندقاً، وقدَّمَهُم، فضرب أعناقَهُم. وهم من ثمانمائة إلى تسعمائة. وقيل: كانوا ستمائة مقاتل، وسبعمائة أسير، فقتل المقاتلة، وقسم الأسارى، وهم الذرارى والنساء. وكان علىّ والزبير ـ رضى الله عنهما ـ يضربان أعناق بنى قريظة. والنبى ﷺ جالس هناك. والقصة مطولة فى كتب السير(٢).

﴿ وقَذَفَ في قلوبهم الرعبَ ﴾؛ الخوف. وفيه السكون والضم، ﴿ فريقًا تقتلون ﴾، وهم الرجال ﴿ وتأسرون فريقاً ﴾ وهم النساء والذرارى. قالت عائشة رضى الله عنها: لم يقتل ﷺ من نساء بنى قريظة إمرأة إلا واحدة، قتلها بخلاد بن سويد، كانت شدخت رأسه بحَجر من فوق الحصن(٣).

﴿ وأورثكم أرضَهم وديارَهم وأموالهم ﴾ كالمواشى والنقود والأمتعة. رُوى أن رسول الله ﷺ جعل عقارهم للمهاجرين دون الأنصار، وقال لهم: «إنكم فى منازلكم». ﴿ و ﴾ أورثكم ﴿ أرضاً لم تطؤها ﴾ بعدُ، قيل: خيبر، ولم يكونوا نالوها، أو: مكة، أو: فارس والروم، أو: كل أرض لم تُفتح إلى يوم القيامة، فمكّنهم الله من ذلك كله، وفتح عليهم مشارق الأرض ومغاربها. ﴿ وكان الله على كل شيءٍ قديراً ﴾، فيقدر على جميع ذلك.

الإشارة: هذه عادة الله مع خواصه، أن يُخوفهم ثم يُؤمنهم، ويذلهم ثم يعزهم، ويفقرهم ثم يغنيهم، ويجعل دائرة السوء على من ناوأهم، ويكفيهم أمرهم من غير محاربة ولا قتال، ﴿وكفى الله المؤمنين القتال...﴾ الآية. ثم يكون لهم التصرف فى الوجود بأسره، أمرهم بأمر الله، وحكمهم بحكمه، والله غالب على أمره.

---

(١) أخرجه الطبرى فى التفسير (٢١/١٥٣). وأخرجه البخارى ومسلم بلفظ: «لقد حكمتَ فيهم بحكم الملك»، انظر صحيح البخارى (المغازى، باب مرجع النبى ﷺ من الأحزاب. ح ٤١١١٧، ٤١١٩) ومسلم (الجهاد، باب جواز قتال من نقض العهد، ٣/١٣٨٨ ـ١٣٨٩، ح ٦٤ ـ ٦٥ ـ ٦٦).

وقوله ﷺ: «أرقعة» يعنى سبع سموات. وكل سماء يقال لها: (رقيع). انظر النهاية (رقع). ولسان العرب (٣/١٧٠٥).

(٢) راجع السيرة لابن هشام (٣/٣٣٣ ـ ٣٤٣).

(٣) أخرجه الطبرى (٢١/١٥٣ـ١٥٤).

ولمّا نصر الله رسولَه، وفرّق عنه الأحزاب، وفتح عليه قريظة والنضير، ظن أزواجه أنه اختص بنفائس أموال اليهود وذخائرهم، فقعدن حوله: وقلن: يارسول الله؛ بنات كسرى وقيصر فى الحلى والحلل والإماء والخول(١) ونحن على ما تراه من الفاقة والضيق، وآلمن قلبه - عليه الصلاة والسلام - لمطالبتهن له بتوسعة الحال، وأن يعاملهن به بما يعامل به الملوكُ والأكابرُ أزواجَهم، فأنزل الله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيۡنَ أُمَتِّعۡكُنَّ وَأُسَرِّحۡكُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡمُحۡسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿٢٩﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ يا أيها النبي قلْ لأزواجك ﴾، وكن تسعاً؛ خمساً من قريش: عائشة بنت الصدّيق، وحفصة بنت الفاروق، وأم حبيبة بنت سفيان، وسوْدة بنت زمعة، وأم سلمة بنت أبى أمية، وصفية بنت حيى الخيبرية، من بنى إسرائيل، من ذرية هارون عليه السلام، وميمونة بنت الحارث الهلالية، وزينب بنت جحش الأسدية، وجويرية بنت الحارث المصطلقيّة. أى: فقل لهن ﴿ إن كُنتنّ تُردنَ الحياةَ الدنيا وزينتَها ﴾ أى: التوسعة فى الدنيا وكثرة الأموال والحُلل، ﴿ فتعالَينَ ﴾ أى: أقبلن بإرادتكن واختياركن. وأصل «تعال» أن يقوله مَن فى المكان المرتفع لمن فى المكان الأدنى، ثم كثر استعماله فى كل أمر مطلوب. ﴿ أُمتّعكُنّ ﴾ أى: أعطكن متعة الطلاق. وتستحب المتعة لكل مطلقة إلا المفوّضة قبل الوطء مع أخواتها، كما فى كتب الفقة. ﴿ وأُسرّحكُنّ ﴾؛ أطلقكن ﴿ سَراحًا جميلاً ﴾ لا ضرر فيه.

وقيل: سبب نزولها: أنهن سألنه زيادة النفقة، وقيل: آذينه بغيرة بعضهن من بعض، فاغتم - عليه الصلاة والسلام - لذلك. وقيل: هجرهن شهراً، فنزلت. وهى آية التخيير. فبدأ بعائشة - رضى الله عنها - وكانت أحبهن إليه، فخيّرها، وقرأ عليها القرآن، فاختارت اللهَ ورسولَه والدارَ الآخرة، فرؤى الفرحُ فى وجهه ﷺ، ثم اختارت جميعُهنّ اختيارها. وروى أنه قال لعائشة: «إنّي ذاكرٌ لكِ أمْراً، ولا عليْك ألاتعْجلي فيه حتّى تستأمِري أبويْك»، ثُمّ قرأ عليْها الآية، فقَالتْ: أفِي هذا استأمِرُ أبويّ؟ فإنّي أُريدُ الله ورسُولهُ والدّار الآخرةَ(٢).

(١) خوَلُ الرّجُل: حشمه وأتباعه، واحدهم: خائل، وقد يكون واحداً. وهو مأخوذ من التخويل، أى: التمليك، وقيل: من الرعاية. انظر النهاية (٢/٨٨) واللسان (خول ٢/١٢٩٣).

(٢) أخرجه البخارى فى (التفسير، سورة الأحزاب، ح ٤٧٨٥) ومسلم فى (الطلاق، باب بيان أن تخيير امرأته لا يكون طلاقًا إلا بالنية ٢/١١٠٣، ح ١٤٧٥) من حديث سيدنا جابر بن عبدالله رضي الله عنه.

وحكم التخيير في الطلاق: أنه إذا قال لها: اختاري، فقالت: اخترتُ نفسي، أن تقع تطليقة واحدة بائنة، وإذا اختارت زوجها؛ لم يقع شيء. قاله النسفي. وقال ابن جزي: وإذا اختارت المرأة الطلاق؛ فمذهب مالك: أنه ثلاث، وقيل: طلقة بائنة. وقيل: رجعية. ووصف السراح بالجميل؛ يحتمل أن يريد أنه دون الثلاث، أو: يريد الثلاث، وجماله: حسن المرعى، والثناء، وحفظ العهد.هـ.

﴿وإن كنتنّ تُردنَ اللهَ ورسوله والدارَ الآخرةَ فإن الله أعدَّ للمحسنات منكنَّ﴾، «من»: للبيان، ﴿أجراً عظيماً﴾، فاخترن - رضى الله عنهن - ما هو مناسب لحاله - عليه الصلاة والسلام -، حين خُيِّر بيْن أن يكون نبياً عبداً، أو نبياً مَلِكاً، فاختار أن يكون نبياً عبداً، لا مَلِكاً. فاخترن العبودية، التى اختارها - عليه الصلاة والسلام.

الإشارة: ينبغي لمن قلّده الله نساء متعددة أن يُخيِّرهن، اقتداء برسول الله ﷺ؛ إذ لا يخلو من حال الغيرة، فإذا خيَّرهن فينبغي أن يغيب عن تشغيبهن، ولم يصغ بأُذُنه إلى حديثهن، ولا ينبغي أن يغتم من أجل الغيرة، فإنها طبع لازم للبشر، وليُقدِّر في نفسه: أنه إذا تزوجت زوجته غيره، وهي في عصمته، هل يقدر على ذلك أم لا، فالأمر واحد. والله أعلم.

قال القشيري: لم يُرِد أن يكون قلبُ واحد من المؤمنين والمؤمنات منه في شُغل، أو يعود إلى واحد منهم أذى، أو تعب من الدنيا، فَخيَّرَ ﷺ بأمر ربه نساءَه، ووفق اللهُ عائشةَ، حتى أخبرتْ عن صدق قلبها، وكمال دينها ويقينها، وما هو المنتظر من أصلها ونيتها. والباقيات جرَيْن على منهاجها، ونَسَجْن على منوالها.هـ.

ثم هددهن وبشّرهن، فقال:

﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا ٣٠ ۞ وَمَن يَقۡنُتۡ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا نُّؤۡتِهَآ أَجۡرَهَا مَرَّتَيۡنِ وَأَعۡتَدۡنَا لَهَا رِزۡقٗا كَرِيمٗا ٣١ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿يانساءَ النبيّ من يأتِ منكن بفاحشة﴾؛ بسيئة بليغة في القُبح ﴿مُبيِّنة﴾؛ ظاهرٌ فُحشها، من: بيّن، بمعنى: تبيّن. وقرأ المكي وشعبة بفتح الياء، وهي عصيانهنّ رسولَ الله ﷺ، ونشوزهن. قال في المقدمات: كل فاحشة نُعتت في القرآن بالبينة فهي بالنطق، والتي لم تُنعت بها زنى.هـ. ﴿يُضاعَفْ لها العذابُ ضِعفين﴾ أي: ضِعفي عذاب غيرهنّ من النساء؛ لأن الذنب منهن أقبح؛ فإنّ قُبح الذنب يتبع زيادة فضل

المذنب والنعمة عليه، ولذلك قيل: ليست المعصية في القُرب كالمعصية في البُعد. وليس لأحد من النساء مثل فضل النساء النبي ﷺ، ولذا كان الذم للعاصي العالم أشدّ منه للعاصي الجاهل؛ لأن المعصية من العالِم أقبح، وفي الحديث: «أشدُّ الناس عذاباً يومَ القيامة عالمٌ لم ينفعه الله بعلمه»(١)؛ لقوة الجرأة في العالم دون غيره. ولهذا أيضاً فضل حدّ الأحرار على العبيد، ولم يرجح الكافر. ﴿ وكان ذلك ﴾ أي: تضعيف العذاب عليهن ﴿ على الله يسيراً ﴾؛ هيناً.

﴿ ومن يَقْنُتْ منكن ﴾ أي: يدم على الطاعة ﴿ لله ورسوله، وتعمل صالحًا نُؤْتِها أجْرَها مرتين ﴾ أي: مثل ثوابي غيرها، مرة على الطاعة، ومرة على طلبهن رضا النبي ﷺ، بالقناعة، وحسن المعاشرة. وقرأ حمزة والكسائي بالغيب(٢) على لفظ «من»، ﴿ وأعتدنا لها رِزقًا كريمًا ﴾؛ جليل القدر، وهو الجنة.

الإشارة: من شأن الملك أن يُعاتب الوزراء بما لا يعاتب غيرهم، ويهددهم بما لا يهدد به غيرهم، ويعطيهم من التقريب والكرامة ما لا يُعطى غيرهم، فإن هفوا وزلُّوا عاتبهم، ثم يردهم إلى مقامهم، وربما سمح وأغضى. والغالب: أن الحق تعالى يعجل عتاب خواصه، في الدنيا قبل الآخرة، بمصائب وأهوال، تصفيةً وتطهيراً، ولا يُبعدهم من حضرته بما اقترفوا. قال القشيري: زيادةُ العقوبة على الجُرْمِ من أمارات الفضيلة، كحدّ الحر والعبد، وتقليل ذلك من أمارات النقص، ولمَّا كانت منزلتُهن في الشرف تزيد وتربو على منزلة جميع النساء، تضاعفت عقوبتهن على أجْرامهن، وتضاعف ثوابهن على طاعتِهن، فقال: ﴿ومن يقنت منكن لله...﴾ وقال: ﴿لستن كأحد من النساء...﴾ الآية هـ. والله تعالى أعلم.

ثم وصَّاهن بما يليق بجنابهن المعظم، فقال:

﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّۚ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ٣٢ وَقَرۡنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجۡنَ تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰۖ وَأَقِمۡنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ

(١) رواه الطبراني في الصغير (١/١٨٢) والبيهقي في الشعب (ح ١٧٧٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وقال الهيثمي في المجمع (١/١٨٥): رواه الطبراني في الصغير، وفيه عثمان البرسي، ضعّفه أحمد، والنسائي، والدارقطني.

(٢) قرأ حمزة والكسائي «يعمل» و«يؤتها» بالياء، وقرأ الباقون «تعمل» و«نؤتها». انظر الحجة للفارسي (٥/٤٧٤).

﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ يانساءَ النبي لستُنَّ كأحدٍ من النساء ﴾ أي: لستن كجماعة من جماعات النساء، أي: إذا تقصيت أمة النساء، جماعةً جماعةً، لم توجد منهن جماعة واحدة تُساويكن في الفضل، فكما أنه - عليه الصلاة والسلام - ليس كأحد من الرجال، كما قال: «إني لستُ كأحَدِكُمْ...»(١). كذلك زوجاته التي شُرفن به. وأصل «أحد»: وَحَدٍ، بمعنى: واحد، فوضع في النفي العامّ، مستوياً فيه المذكر والمؤنث، والواحد وما وراءه، أي: لستن في الشرف كأحد من النساء، ﴿ إنِ اتقيْتنَّ ﴾ مخالفة الله ورضا رسوله، ﴿ فلا تَخْضَعْنَ بالقولِ ﴾ أي: إذا كلمتن الرجال من وراء الحجاب، فلا تجئنَ بقولكنَّ خاضعاً، أي: ليناً خنثاً مثل قول المُريبات، ﴿ فيَطْمَع الذي في قلبه مرضٌ ﴾؛ ريبة، وفجور، وهو جواب النهي، ﴿ وقُلْنَ قولاً معروفاً ﴾؛ حسناً مع كونه خشيناً.

﴿ وقرْنَ في بيُوتكُنَّ ﴾ أي: استقِرن فيه، والزَمن بيوتكن من غير خروج. وقرأ نافع وعاصم بالفتح، وهو من: قَرِرَ يقْرَرُ، لغة في قرّ بالمكان، وأصله: اقررن، فحذفت الراء، تخفيفاً، وألقيت فتحتها على ما قبلها. وقيل: من: قار يقار: إذا اجتمع. والباقون بالكسر، من: قرّ بالمكان يِقرّ - بالكسر، وأصله: اقْرِرْنَ، فنقلت كسرة الراء إلى القاف، وحذفت الراء. وقيل: من: وَقَر يقِر وقاراً.

﴿ ولا تبرَّجْنَ تبرجَ الجاهليةِ الأُولى ﴾ أي: لا تتبخترن في المشي تبختر أهل الجاهلية، فالتبرج: التبختر في المشي وإظهار الزينة، أي: ولا تبرجن تبرجاً مثل ﴿ تبرج الجاهلية الأولى ﴾ أي: القديمة، وهو الزمان الذي وُلد فيه إبراهيم عليه السلام، فكانت المرأة تتخذ فيه الدرع من اللؤلؤ، وتعرض نفسها على الرجال، زمان نمرود الجبار، والناس كلهم كفار. أو: ما بين آدم ونوح - عليهما السلام - ثمانمائة سنة. وكان نساؤهم أقبح ما يكون، ورجالهم حِسان، فتريده المرأة على نفسها. أو: زمن داود وسليمان - عليهما السلام -، وكان للمرأة قميص من الدّر، غير

---

(١) بعض حديث شريف، لفظه كاملاً: «إني لستُ كهيئتكم، إني أُطعم وأُسقى». أخرجه مسلم في (الصيام، باب النهي عن الوصال في الصوم، ٢/٧٧٤، ح ١١٠٢) من حديث سيدنا عبدالله ابن عمر رضي الله عنه.

مخيط الجانبين، فتظهر صورتها فيه. والجاهلية الأخرى: ما بين عيسى ومحمد ـ عليهما السلام ـ أو: الجاهلية الأولى: جاهلية الكفر قبل الإسلام، والجاهلية الأخرى: جاهلية الفسوق والفجور في الإسلام.

﴿ وأقِمْنَ الصلاةَ وآتينَ الزكاةَ ﴾، خصهما بالذكر؛ تفضيلاً لهما؛ لأن من واظب عليهما جرتاه إلى غيرهما. ﴿ وأطِعْنَ اللهَ ورسولَه ﴾ في سائر ما أمركن به، ونهاكن عنه.

﴿ إنما يُريد اللهُ ليُذهِبَ عنكم الرجسَ أهلَ البيت ﴾ أي: يا أهل البيت، أو: أخص أهل البيت. وفيه دليل على أن نساءه من أهل بيته. قال البيضاوي: وتخصيص أهل البيت بفاطمة وعلي وابنيهما، لما رُوي أنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ خرج ذات غدوة عليه مِرْطٌ مُرَحَّل[1] من شعر أسود، فجاءت فاطمة، فأدخلها، ثم جاء عليّ، فأدخله فيه، ثم جاء الحسن والحسين، فأدخلهما فيه، فقال: «إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهلَ البيت...»[2] والاحتجاج بذلك على عصمتهم، وكون اجتماعهم حجة، ضعيف؛ لأن التخصيص بهم لا يناسب ما قبل الآية وما بعدها، والحديث يقتضي أنهم من أهل البيت، لا أنه ليس غيرهم.هـ. وإنما قال: «عنكم»؛ لأنه أُريد الرجال والنساء. والرجس: كل ما يدنس، من ذنب، أو عيب، أو غير ذلك، وقيل: الشيطان.

﴿ ويُطهركم تطهيراً ﴾ من نجاسات الآثام والعيوب، وهو كالتعليل لِمَا قبله، فإنما أمَرَهن، ونهاهن، ووعظهن؛ لئلا يقارف أهل البيت ما يدنس، من المآثم، وليتصونوا عنها بالتقوى. واستعار للذنب الرجس، وللتقوى الطُهر؛ لأن عِرض المقترف للمستقبحات يتلوث بها كما يتلوث بدنه بالأرجاس وأما من تحصَّن منها فعرضه مصون، نقي كالثوب الطاهر. وفيه تنفير لأُولي الألباب عن كل ما يدنس القلوب من الأكدار، وترغيب لهم في كل ما يطهر القلوب والأسرار، من الطاعات والأذكار.

﴿ واذكُرْنَ ما يُتلى في بيوتِكُنَّ من آياتِ الله ﴾؛ القرآن ﴿ والحكمةِ ﴾؛ السُنّة، أو: بيان معاني القرآن، أو: ما يُتلى عليكن من الكتاب الجامع بين الأمرين. ﴿ إن الله كان لطيفاً ﴾؛ عالماً بغوامض الأشياء، ﴿ خبيراً ﴾؛ عالماً بحقائقها، أو: هو عالم بأقوالكن وأفعالكن، فاحذرن مخالفة أمره ونهيه، ومعصية رسوله ﷺ.

الإشارة: علّق الحق تعالى شرف نساء النبي ﷺ وتفضيلهن على سبعة أمور، ويقاس عليهن غيرهن من سائر النساء، فمن فعل هذه الأمور حاز شرف الدنيا والآخرة. الأول: تقوى الله في السر والعلانية، وهي أساس

---

(١) المِرْط: الكساء، جمعه: «مُرُوط». انظر: النهاية (مرط ٤/٣١٩). والمُرَحَّل: الذي نقش فيه تصاوير رحال الإبل. انظر: النهاية (رحل ٢/٢١٠).

(٢) أخرجه مسلم في (فضائل الصحابة، باب فضل أهل البيت ٤/١٨٨٣، ح ٢٤٢٤) من حديث السيدة عائشة ـ رضي الله عنها ـ.

الشرف. الثاني: التحصن مما يُوجب مَيْل الرجال إليهن؛ من التخنث فى الكلام وغيره. الثالث: لزوم البيوت والقرار بهـا. وقد مدح الله نسـاء الجنة بذلك فقـال: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ﴾(١). الرابع: عدم التبرج، وهو إظهار الزينة حيث يحضر الرجال. الخامس: إقامة الصلاة وإتقانها وإيتاء الصدقة. السادس: طاعة الله ورسوله، ويدخل فيه طاعة الزوج. السابع: لزوم ذكر الله، وتلاوة كتابه لمن تُحسن ذلك فى بيتها. فمن فعلت من النساء هذه الأمور؛ أذهب الله عنها دنس المعاصى والعيوب، وطهرها تطهيراً، وأبدلها بمحاسن الأخلاق والشيم الكريمة. والله تعالى أعلم.

ولما نزل فى نساء النبى ﷺ ما نزل، قال نساء المؤمنين: فما نزل فينا؟ فأنزل الله تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ إن المسلمينَ والمسلماتِ ﴾ أى: الداخلين فى الإسلام، المنقادين لأحكام الله قولاً وفعلاً، فالمسلم: هو الداخل فى السلم بعد الحرب، المنقاد الذى لا يُعاند، أو: المفوِّض أمره إلى الله، المتوكل عليه، من: أسلم وجهه إلى الله، ﴿ والمؤمنين والمؤمنات ﴾؛ المصدِّقين بالله ورسوله، وبما يجب أن يصدّق به، ﴿ والقانتين والقانتات ﴾؛ المداومين على الطاعة، ﴿ والصادقين والصادقات ﴾ فى النيات، والأقوال، والأفعال، ﴿ والصابرين والصابرات ﴾ على الطاعات وترك السيئات، ﴿ والخاشعين والخاشعات ﴾؛ المتواضعين لله بالقلوب والجوارح، أو: الخائفين، ﴿ والمتصدِّقين والمتصدِّقات ﴾ فرضاً ونفلاً، ﴿ والصائمين والصائمات ﴾ فرضاً ونفلاً. وقيل: من تصدق فى أسبوع بدرهم فهو من المتصدقين، ومن صام البيض من كل شهر، فهو من

(١) الآية ٧٢ من سورة الرحمن.

الصائمين، ﴿والحافظين فروجهم والحافظات﴾ عما لا يحلّ، ﴿والذاكرين الله كثيراً والذاكرات﴾ بقلوبهم وألسنتهم، بالتسبيح، والتهليل، والتكبير، وتلاوة القرآن، وغير ذلك من الأذكار، والاشتغال بالعلم لله، ومطالعة الكتب من الذكر. وحذف «كثيراً» في حق الذاكرات لدلالة ما تقدم عليه.

وقال عطاء: من فوض أمره إلى الله فهو داخل فى قوله: ﴿إن المسلمين والمسلمات﴾، ومن أقرّ بأن الله ربه، وأن محمداً رسوله، ولم يخالف قلبُه لسانَه، فهو من المؤمنين والمؤمنات، ومن أطاع الله فى الفرض، والرسول فى السُّنَّة، فهو داخل فى قوله: ﴿والصادقين والصادقات﴾، ومن صلى فلم يعرف مَنْ عن يمينه وعن شماله، فهو داخل فى قوله: ﴿والخاشعين والخاشعات﴾، ومن صبر على الطاعة وعن المعصية، وعلى الذرية، فهو من ﴿الصابرين والصابرات﴾، ومن تصدّق فى كل أسبوع بدرهم؛ فهو من المتصدقين والمتصدقات، ومن صام فى كل شهر أيام البيض، الثالث عشر وما بعده، فهو من الصائمين والصائمات، ومن حفظ فرجه عما لا يحل؛ فهو من الحافظين فروجهم والحافظات، ومن صلى الصلوات الخمس بحقوقها؛ فهو من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات(١).

قال ابن عباس: (جاء إسرافيل عليه السلام إلى النبى ﷺ فقال يا محمد: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله، عدد ما علم، وزنة ما علم، وملء ما علم. من قالهن كُتبت له ست خصال؛ كتب من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات، وكان أفضل ممن ذكره فى الليل والنهار، وكان له عرش فى الجنة، وتحاتت عنه ذنوبه، كما تحات ورق الشجر اليابس، وينظر الله إليه، ومن نظر اليه لم يعذبه). وقال مجاهد: لا يكون العبد من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات حتى يذكر الله قائماً وقاعداً ومضجعاً. هـ. من الثعلبى.

وسُئل ابنُ الصلاح عن القَدْر الذى يصير به العبد من الذاكرين الله كثيراً؟ فقال: إذا واظب على الأذكار المأثورة صباحاً ومساءً، وفى الأوقات والأحوال المختلفة، ليلاً ونهاراً، كان من الذاكرين كثيراً. هـ. قلت: وقد تتبعت ذلك فى تأليف مختصر سميته: «الأنوار السنية في الأذكار النبوية».

هذا وعطف الإناث على الذكور لاختلاف الجنسين. وهو ضروى كقوله: ﴿ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا ﴾(٢). وعطف الزوجين على الزوجين لتغاير الوصفين، وليس بضرورى، ولو قال: «إن المسلمين والمسلمات المؤمنين والمؤمنات» بغير واو لجاز، كقوله: ﴿ مسلمات مؤمنات قانتات ...﴾ إلخ. وهو مِن عطف الصفة، ومعناه: إن الجامعين والجامعات

---

(١) ذكره البغوى فى تفسيره (٦/٣٥٢).
(٢) من الآية ٥ من سورة التحريم.

لهذه الصفات. ﴿أعدَّ اللهُ لهم مغفرةً﴾ لِما اقترفوا من السيئات، ﴿وأجراً عظيماً﴾ على طاعتهم. قال البيضاوي: والآية وعد لهن، ولأمثالهن، على الطاعة والتدرُّع بهذه الخصال. رُوي أن أزواج النبي ﷺ قلن: ذكر الرجال في القرآن بخير فما فينا خير، فنزلت(١). هـ.

الإشارة: اعلم أن اصطلاح الصوفية أن ما يتعلق بعمل الجوارح الظاهرة يُسمى إسلاماً، وما يتعلق بعمل القلوب الباطنية يُسمى إيماناً، وما يتعلق بعمل الأرواح والأسرار يُسمى إحساناً. قال في البغية: فالإسلام يشتمل على وظائف الظاهر، وهي الغالبة عليه، وذلك من عالم الشهادة، والإيمان يشتمل على وظائف الباطن، وهي الغالبة عليه، وذلك من عالم الغيب، وهي الأعمال الغيبية، ولمّا انفتح لها باب من الأعمال الظاهرة للعبادة، وأشرقت عليها من ذلك أنوار، وتعلقت همتها بعالم الغيب، مالت إلى الوفاء بالأعمال الباطنة، ثم لمّا تمكنت في الأعمال الباطنة، واطلعت على عالَمها، وأشرفت على طهارتها، وتعلقت همتها بعالم الملكوت، مالت إلى الوفاء بالأسرار الإحسانية، ومن هناك تدرك غاية طهارتها وتصفيتها، والاطلاع على معارف الحقائق الإلهية. ثم قال: فإذا تبين هذا، فالإسلام له معنى يخصه، وهو انقياد الظاهر بما تكلف به من وظائف الدين، مع ما لابد منه من التصديق. والإيمان له معنى يخصه، وهو تصديق القلب بجميع ما تضمنه الدين من الأخبار الغيبية، مع ما لابد منه من شُعبه. والإحسان له معنى يخصه، وهو تحسين جميع وظائف الدين الإسلامية والإيمانية، بالإتيان بها على أكمل شروطها، وأتم وظائفها، خالصة من جميع شوائب عِللها، سالمة من طوارق آفاتها. هـ.

قلت: ولا يكفي في مقام الإحسان تحسين الوظائف فقط، بل لابد فيه من كشف حجاب الكائنات، حتى يُفضي إلى شهود المكوِّن، فيعبد الله على العيان. كما في الحديث: «أن تعبد الله كأنك تراه». فإذا تقرر هذا؛ فالآية مشتملة على تدريج السلوك؛ فأول مقامات المريد: الإسلام، ثم الإيمان، كما في الآية، ثم يكون من القانتين المداومين على الطاعة، ثم يكون من الصادقين في أقواله، وأفعاله، وأحواله، صادقاً في طلب مولاه، غائباً عن كل ما سواه، ثم من الصابرين على مجاهدة النفس، ومقاساة الأحوال، وقطع المقامات والمفاوز. وقال القشيري: من الصابرين على الخصال الحميدة وعن الخصال الذميمة، وعند جريان مفاجآت القضية. هـ. ثم من الخاشعين الخاضعين لهيبة الجلال، مشاهداً لكمال أنوار الجمال. قال القشيري: الخشوعُ: إطراق السريرة عند بواده الحقيقة. هـ.

---

(١) أخرجه، بنحوه، أحمد في المسند (٦/٣٠١) والحاكم، وصححه ووافقه الذهبي (٢/٤١٦)، والطبراني في الكبير (٢٣/٢٦٣ح٥٥٤) و(٢٣/٢٩٤ح ٦٥٠) من حديث أم سلمة ـ رضي الله عنها ـ وأخرجه ابن جرير في التفسير (٢٢/١٠) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما وأم سلمة ـ رضي الله عنها.

ثم يتحقق بأوصاف الكمال؛ كالسخاء والكرم، فيبذل ما عنده في مرضات ربه، فيكون من المتصدقين بأموالهم وأنفسهم، حتى لا يكون لأحد معهم خصومة فيما أخذوا منهم وقالوا فيهم، ثم يصوم عن شهود السِّوى، ثم يحفظ فرجه عن وِقاع الشهوة والهوى، فلا ينزل إلى سماء الحقوق، أو أرض الحظوظ، إلا بالإذن والتمكين، والرسوخ في اليقين. ثم يكون من المُسْتَهْتَرين بذكر الله، أعني ذكر الروح والسر، وهو مقام الإحسان، الذي هو محل العيان، فيكون ذاكراً بالله، مذكوراً في حضرة الله، مشهوراً في ملكوت الله. جعلنا الله منهم بمنّه وكرمه.

ثم ذكر قضية تزويجه - عليه الصلاة والسلام - زينب، مناسباً للحافظين فروجهم، فقال:

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ... ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿وما كان لمؤمنٍ ولا مؤمنة﴾ أي: ما صح لرجل مؤمن، ولا امرأة مؤمنة، ﴿إذا قضى اللهُ ورسولهُ أمراً﴾ من الأمور ﴿أن يكون(١) لهم الخِيَرةُ من أمرهم﴾ أي: أن يختاروا من أحدهم شيئاً، بل الواجب عليهم أن يجعلوا رأيهم تبعاً لرأيه، واختيارهم تلواً لاختياره.

نزلت في زينب بنت جحش، وأخيها؛ عبد الله بن جحش. وكانت زينب بنت أميمةَ بنت عبد المطلب، عمة النبي ﷺ، فخطبها - عليه الصلاة والسلام - لمولاه زيد بن حارثة، فلما خطبها، ظنت أنه يخطبها لنفسه، فرضيت، فلما علمت أنه خطبها لزيد كرهت وأبت، وقالت: أنا أم نساء قريش، وابنة عمتك، فلم أكن أرضه لنفسي، وكذلك قال أخوها. وكانت بيضاء جميلة، وكان فيها بذاذة، فأنزل الله الآية(٢)، فأعلمهم أنه لا اختيار لهم على ما قضى اللهُ ورسولُه. فلما نزلت الآية إلى قوله: ﴿مبينا﴾ قالت: رضيتُ يارسول الله، وجعلت أمرها بيد النبي ﷺ

---

(١) قرأ عاصم، وحمزة، والكسائي: (يكون) بالياء من تحت. وقرأ الباقون بالتاء وقد أثبت المفسر - رحمه الله - قراءة التاء. انظر الإتحاف (٢/٣٧٦).

(٢) أخرجه ابن جرير في التفسير (٢٢/١١).

وكذلك أخوها، فأنكحها ﷺ زيداً، فدخل بها، وساق إليها النبي ﷺ عشرة دنانير، وستين درهماً، وملحفة، ودرعاً، وإزاراً، وخمسين مدّاً من طعام، وثلاثين صاعاً من تمر[١]. وقيل نزلت في أم كلثوم بنت عقبة بن أبي مُعَيط، وكانت من أول من هاجر من النساء، فوهبت نفسها للنبي ﷺ فقبلها، وقال: زوجتها من زيد، فسخطت هي وأخوها، وقالا: إنما أردنا النبيَّ ﷺ، فنزلت[٢]. والأول أصح.

وإنما جمع الضمير في «لهم»، وكان من حقه أن يُوحَّد؛ لأن المذكورَيْن وقعا نكرة في سياق النفي، فعمَّا كل مؤمن ومؤمنة، فرجع الضمير إلى المعنى، لا إلى اللفظ. والخيرة: ما يُتخير، وفيه لغتان: سكون الياء، وفتحها، وتؤنث وتذكر باعتبار الفعل؛ لمجاز تأنيثها.

﴿ ومن يَعْصِ الله ورسولَه ﴾ فيما اختار وقضى ﴿ فقد ضلَّ ضلالاً مبيناً ﴾؛ بيِّن الانحراف عن الصواب. فإن كان العصيانُ عصيانَ رد وامتناع عن القبول فهو ضلال كفر، وإن كان عصيانَ فعلٍ، مع قبول الأمر، واعتقاد الوجوب، فهو ضلال فسق.

ثم إن زينب مكثتْ عند زيد زماناً، فأتى عليه الصلاة والسلام ذات مرة دار زيد، لحاجة، فأبصرها في درع وخمار، فوقعت في نفسه، وذلك لِمَا سبق في علم الله من كونها له. فقال: «سبحان مقلب القلوب»[٣]، وكانت نفسه قبل ذلك تنفر منها، لا تُريدها، فانصرف، وسمعت زينب بالتسبيحة، فذكرتها لزيد، ففطِنَ، وأُلقي في نفسه كراهيتُهَا والرغبة عنها في الوقت، وقال: يارسول الله؛ إني أُريد فراق صاحبتي؟ فقال: «مالك، أرَابَكَ منها شيء؟»

---

(١) انظر تفسير البغوي (٦/٣٥٣).

(٢) أخرجه ابن جرير في التفسير (٢٢/١٢) وعزاه السيوطي في الدر (٥/٣٨١) لابن أبي حاتم. عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم. والحديث معضل.

(٣) قال الحافظ ابن حجر في الكافي (ص ١٣٤ رقم ٢٢٤): (ذكره الثعلبي بغير سند، وأخرج الطبري ٢٢/١٣، معناه من رواية عبدالرحمن بن زيد بن أسلم)

قلت: هذه الرواية، وإن ساقها عدد من المفسرين، إلا أن العلماء المحققين ردوها؛ فالروايات كلها جاءت من طُرق ضعيفة، ولايوجد شيء منها في كتب الحديث المعتمدة، والذي جاء في الصحيح يخالف ذلك. ولايجوز أن يستند إلى روايات ضعيفة في إثبات خبر فيه نيل من عصمة المعصوم ﷺ. قال الحافظ ابن كثير في تفسيره: (٣/٤٩٠): (ذكر ابن جرير، وابن أبي حاتم، هاهنا، آثاراً عن بعض السلف، أحببنا أن نضرب عنها صفحاً؛ لعدم صحتها، فلا نوردها).

ثم إن السيدة «زينب بن جحش» - رضي الله عنها - ابنه عمته، ويعرفها مذ كانت طفلة حتى كبرت، وهو الذي زوّجها لمولاه زيد، وكان بإمكانه أن يتزوجها قبل أن يزوجها زيداً. فغير معقول - والحال كما ذكر - أن يزوجها لغيره ثم يرغب فيها.

والحق في المسألة ما سيذكره الشيخ ابن عجيبة بعد، نقلاً عن الشيخ عبدالرحمن الفاسي من أن المعنى: وتخفي في نفسك ماأطلعت عليه من مفارقة زيد لها، وتزوجك إياها بعده ... الخ كلامه.

للمزيد راجع: الشفاء للقاضي عياض (٢/٨٧٨ - ٨٨٠) روح المعاني للألوسي، (٢٢/ ٢٤ - ٢٥) الإسرائيليات والموضوعات للدكتور محمد أبي شهبة (٣٢٣ - ٣٢٨).

فقال: لا والله، ما رأيت منها إلا خيراً، إلا أنها تتعظم عليّ، لشرفها، وتؤذينى بلسانها، فقال النبى ﷺ: «أمسك عليك زوجك واتق الله».

وهذا معنى قوله: ﴿ وإذ تقول للذي أنْعَمَ اللهُ عليه ﴾ بالإسلام الذى هو من أجلّ النعم ﴿ وأنْعَمْتَ عليه ﴾ بالإعتاق والتبنى، فهو متقلب فى نعمة الله ونعمة رسوله ﷺ، وهو زيد بن حارثة: ﴿ أمسِكْ عليك زوجك ﴾ ؛ زينب، ﴿ واتقِ اللهَ ﴾ فلا تطلقها، وهو نهى تنزيه، أو: اتق الله، فلا تذمها بالنسبة إلى الكِبْر وأذى الزوج، ﴿ وتُخفي في نفسك ما الله مُبْدِيه ﴾ أى: تُخفى فى نفسك نكاحها إن طلقها زيد، وقد أبداه الله وأظهره، وقيل: الذى أخفاه فى نفسه: تعلق قلبه بها، ومودة مفارقة زيد إياها.

قال شيخ شيوخنا سيدى عبد الرحمن الفاسى: والصواب أن المعنى: وتُخفى فى نفسك ما اطلعت عليه؛ من مفارقة زيد لها، وتزوجك إياها بعده، فإن هذا هو الذى أبداه سبحانه وأظهره بعد ذلك. وأما قوله: ﴿ وتخشى الناسَ واللهُ أحقُّ أن تخشاه ﴾، فإنما يعنى به الحياء من الناس فى أن يقابلهم بما يسوءهم، وهو إخبار زيد بما أطلعه الله عليه من صيرورة زوجته زينب له، بعد مفارقة زيد لها، لأنه لم يؤمر بإفشاء ذلك، وإلا لبلّغ من غير رَوِية ولا حشمة، سالكاً فى ذلك سُنّة من خلا قبله من الأنبياء، الذين لا يخشون فى التبليغ أحداً إلا الله.

وقال القشيرى: أى: تخشى عليهم أن يقعوا فى الفتنة فى قصة زيد [والفتنة التى يقعون فيها هى ظنهم أنه عليه الصلاة والسلام عشقها، وأمره بطلاقها]وكانت تلك الخشية إشفاقاً منه عليهم، ورحمة لهم ألا يُطيقوا سماع هذه الحالة، بأن يخطر ببالهم ماليس فى وسعهم. وأما قوله: ﴿أمسك عليك....﴾ الآية ـ مع علمه بما يؤول إليه الأمر فى العاقبة، بما أطلعه الله عليه من فراقه لها ـ فإقامة للشريعة.هـ. ملخصا.

وفى الوجيز: ﴿وتخشى الناس﴾ أى: تكره مقالة الناس لو قلت طلّقْهاَ، فيقال: أمر رجلاً فطلق امرأته ثم تزوجها. وقد نقل فى نوادر الأصول عن علىّ بن الحسين: أن الله أعلم نبيه أنها تكون من أزواجه، فأخفى ذلك. فلما جاء زيد يشكوها؛ قال له: اتق الله، وأمسك عليك زوجك(١)، قال: فعلىُّ بن حسين جاء بها من خزانة العلم، جوهراً من الجواهر، ودراً من الدرر، وأنه إنما عتب الله عليه فى أنه قد أعلمه، ثم قال بعد ذلك لزيد: أمسك..

(١) أخرجه الطبرى (٢٢/١٣).

رعاية لِما يقال، وتركاً لتدبير الله، مع كونه أحق بالرعاية، وكيف، وفي ذلك تشريع لئلا يكون على المؤمنين حرج وضيق فيما فرض الله له فيما أعلمه. ثم قال: والحاصل أنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ لم يلمَ بخطيئة، بدليل أنه لم يؤمر بتوبة ولا استغفار، وإنما أخبره بما أضمر في نفسك، خشية افتتان الغير، والله أحق أن يخشى، بأن يبتهل إليه؛ ليزيل عنهم ما يخشى فيهم.

قال ابن عرفة: الصواب: أن ما أخفاه في نفسه هو: أن الله أخبره أن سيتزوجها. وما قاله ابن عطية لا يحل أن يقال، لأنه تنقيص لم يرد في حديث صحيح. وإنما ذكره المفسرون.هـ. قلت: إنما يكون تنقيصاً إذا كان ذلك الواقع في القلب ثابتاً، وأما إن كان خاطراً ماراً فلا نقص؛ إذ ليس في طوق البشر؛ لأنه من أوصاف العبودية، بل الكمال في دفعه ورده بعد هجومه.

ثم قال ابن عرفة، على قوله: ﴿ وتخشى الناس ﴾ : هو تمهيد لعذره، وإن كان لمجرد أمر الله له بذلك، ولا ينبغي حمله على أنه خاف الناس فقط. بل المراد: عتابه على خلط خوفه من الله بخوفه من الناس، وأَمْرُهُ ألا يخاف إلا من الله فقط، خوفاً غير مشوب بشيء.هـ. قلت: إذا فسرنا الخشية بالحياء لا يحتاج إلى هذا التعسف، مع أن الخوف من الخلْق مذموم، وحده أو مع خوف الله، والنبي ﷺ منزه عن ذلك، أي: تستحي من الناس أن يقولوا: نكح امرأة ابنه، وكان ـ عليه الصلاة والسلام ـ أشد الناس حياء من العذراء في خدرها. والحياء ممدوح عند الخاص والعام. وأما قوله تعالى: ﴿ والله أحقُّ أن تخشاه ﴾ فتنبيه على أن الحياء في بعض المواضع تركه أَولى، فهو ترقية له، وتربية لوقت آخر. أو: وتخشى أن يفتتن الناس بذلك، والله أرحم بهم من غيره، فالله أحق أن تَخشى، فتبتهل إليه في زوال ذلك عنهم. والله تعالى أعلم.

الإشارة: في الآية الأولى حث على التفويض وترك الاختيار، مع ما أمر به الواحد القهار. وفي الحِكَم: «ماترك من الجهل شيئاً من أراد أن يظهر في الوقت غير ما أظهر الله»(١) . فالواجب على العبد أن يكون في الباطن مستسلماً لقهره، وفي الظاهر متمثلاً لأمره، تابعاً لسنَّة نبيه ﷺ، ولِماَ يُوجب رضاه ومحبته. وفي الآية الثانية تنبيه على أن خواص الخواص يُعاتبون على ما لا يُعاتب عليه الخواص. والخواص، يُعاتبون على ما لا يعاتب عليه العوام، فكلما علا المقام، واشتد القرب، اشتدت المطالبة بالأدب، ووقع العتاب على أدنى ما يخل بشيء من الأدب، على عادة الوزراء مع الملك. وذلك أمر معلوم، مذوق عند أهل القلوب. وبالله التوفيق.

(١) انظر الحِكَم بتبويب المتقي الهندي (ص ٢٠، حكمة: ١٧)

ثم ذكر تزوجه ـ عليه الصلاة والسلام ـ لزينب بعد مفارقة زيد، فقال:

﴿... فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ مَّا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ ۖ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿فلما قضى زيدٌ منها وَطَراً﴾؛ حاجة، بحيث ملّها ولم تبق له فيها حاجة. والوطر: الحاجة، فإذا بلغ البالغ حاجته من شيء له فيه همّة، يقال: قضى منه وطراً، أي: فلما قضى حاجته منها، وطلقها، وانقضت عدّتها، ﴿زوجناكها﴾. رُوي أنها لما اعتدت قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ لزيد: «ما أجدُ أحداً أوثقُ في نفسي منك، ايت زينبَ فاخطبها لي، قال زيدٌ: فأتيتها وولّيتُها ظهري، إعظاما لأمر النبي ﷺ، وقلت: يازينبُ إنّ النبي ﷺ يخطبُك، ففرحَتْ، وقالت: ما أنا بصانعةٍ شيئاً حتى أؤامِرَ ربّي، فقامت إلى مسجدها، فنَزَلَ القرآنُ: ﴿فلما قضى زيد...﴾ الآية، فتزوجها عليه الصلاة والسلام، ودخل بها حينئذ، وما أوْلَمَ على امرأةٍ ما أوْلَمَ عليها، ذبح شاةً، وأطعمَ الناسَ الخبزَ واللحمَ حتى امتد النهارُ»(١).

وقيل: زوجّه الله تعالى إياها بلا واسطة عقد، ويؤيده: أنها كانت تقول لسائر أزواج النبي ﷺ: إن الله زوجني من فوق سبع سموات، وأنتن زوّجَكُنّ أولياؤكُنّ(٢). وكانت تقول للنبي ﷺ: إني لأُدلّ عليك بثلاث، ما من نسائك إمرأة تدل عليك بهنّ: جدّي وجدّك واحد، وإياي أنكحك الله من السماء، وإن السفير لي جبريل(٣).

ثم علل تزويجه إياها، فقال: ﴿لكيلا يكون على المؤمنين حرجٌ في أزواج أدعيائهم﴾ الذين يتبنونهم ﴿إذا قَضَوْا منهنّ وَطَراً﴾، قال الحسن: ظنت العرب أن حُرمة المتبنى مشتبكة كاشتباك الرحم، فبيّن الله تعالى الفرق بينهما، وأن حلائل الأدعياء غير محرمة. وليست كحلائل أبناء الصلب. قال البيضاوي: وفيه دليل على أن حكمه

(١) أخرجه، بنحوه، مسلم في (النكاح، باب: زواج زينب بنت جحش، ونزول الحجاب، ٢/١٠٤٨ ـ ١٠٤٩ ح: ١٤٢٨) من حديث أنس رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في (التوحيد، باب وكان عرشه على الماء ح ٧٤٢٠) من حديث أنس رضي الله عنه.

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٢/١٤) من مرسل الشعبي.

وحكم الأمة واحد، إلا ما خصه الدليل.هـ. ﴿ وكان أمرُ الله ﴾ الذى يريد أن يكونه ﴿ مفعولاً ﴾؛ مكوناً لا محالة، كما كان تزويج زينب.

﴿ ما كان على النبيّ من حرجٍ فيما فَرَضَ اللهُ له ﴾ أى: حلّ له، أو: قسم له، من قولهم: فرض له فى الديوان كذا، وفروض العساكر، لأرزاقهم. أى: لا حرج على النبى فيما حلّ له وأمر به، كتزويج زينب، أو: قسم له من عدد النساء بلا حدّ، ﴿ سُنَّة الله ﴾: مصدر مؤكد لما قبله من قوله: ﴿ما كان على النبى من حرج﴾ أى: سَنَّ ذلك سُنَّة فى الأنبياء الماضين، وهو: ألا حرج عليهم فى الإقدام على ما أحلّ لهم ووسع عليهم فى باب النكاح وغيره. وكانت تحتهم المهائر(١) والسرارى، وكانت لداود عليه السلام مائة إمرأة، وثلاثمائة سُرِّية. ﴿ في الذين خَلَوْا مِن قبلُ ﴾ أى: فى الأنبياء الذين مضوا من قبله، ﴿ وكان أمرُ الله قَدَراً مقدوراً ﴾ أى: قضاء مقضياً، وحكماً مثبوتاً مبرماً، لا مرد له.

﴿ الذين يُبلِّغون رسالاتِ الله ﴾، هو صفة لـ «الذين خلوا من قبل»، أو: بدل منه، أو: مدح لهم منصوب، أو: مرفوع، أى: هم الذين، أو: أعنى الذين يبلغون رسالات الله، ﴿ ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا اللهَ ﴾، ونبينا ﷺ مِن جملتهم ومِن أشرفهم، ﴿ وكفى بالله حسيباً ﴾ للمخاوف، أو: محاسباً، فينبغى ألا يُخشى إلا منه تعالى.

الإشارة: إذا تمكن العبدُ مع مولاه وتحققت محبته فيه، كانت حوائجه مقضية، وهمته كلها نافذة، إذا اهتم بشيء، أو خطر على قلبه شيء، مكّنه الله منه، وسارع فى قضائه، كما فعل مع حبيبه، حين خطر بباله تزوج زينب، أعلمه أنه زوجه إياها. وأهل مقام الفناء جُلهم فى هذا المقام، إذا اهتموا بشيء كان، إذا ساعدتهم المقادير، وإلا فسوابقُ الهمم لا تخرق أسوارَ الأقدار، ولذلك قال هنا: ﴿وكان أمر الله مفعولاً﴾، ﴿وكان أمر الله قدراً مقدُوراً﴾. وصفة أهل الهمم القاطعة: أنهم لا يخافون إلا الله، ولا يخشون أحداً سواه، لا يخافون فى الله لومة لائم، ذكْرُهم لله دائم، وقلبهم فى الحضرة هائم. وبالله التوفيق.

ثم ردّ على من قال: إنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ تزوج امرأة ابنه، فقال:

﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ ﴾

(١) المَهائر: جمع المَهِيْرة، وهى الحُرة، والمهائر: الحرائر، ضد السّرارى. انظر اللسان (مهر ٦/٤٢٨٧).

يقول الحق جل جلاله: ﴿ما كان محمدٌ أبَا أحدٍ مِن رجالكم﴾ أي: لم يكن أبا رجل منكم حقيقة، حتى يثبت بينه وبينه ما يثبت بين الأب وولده؛ من حرمة الصهر والنكاح، والمراد: من رجالكم البالغين، وأما أولاده؛ القاسم، والطيب، والطاهر، فماتوا قبل أن يكونوا رجالاً، وأما الحسن والحسين، فأحفاد، لا أولاد. ﴿ولكن﴾ كان ﴿رسولَ الله﴾، وكل رسول أبو أمته، فيما يرجع إلى وجوب التوقير والتعظيم له عليهم، ووجوب الشفقة والنصيحة لهم عليه، لا في سائر الأحكام الثابتة بين الآباء والأبناء. وزيد واحد من رجالكم، الذين ليسوا بأولاد حقيقة، فكان حكمُه حكمهم. والتبني من باب الاختصاص والتقريب، لا غير. ﴿و﴾ كان أيضا ﷺ ﴿خاتمَ النبيين﴾ أي: آخرهم الذي ختمهم، أو: ختموا به على قراءة عاصم. بفتح التاء، بمعنى: الطابع، كأنه طبع وختم على مقامات النبوة، كما يختم على الكتاب لئلا يلحقه شيء. فلا نبي بعده. وعيسى ممّن نُبأ قبله، وحين ينزل ينزل عاملاً على شريعته ﷺ، كأنه بعض أمته. ومن قرأ بكسر التاء، فمعناه: فاعل الختم، كما قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «أنا خاتم النبيين فلا نبي بعدي»(١). ويصح أن يكون بمعنى الطابع أيضاً؛ إذ فيه لغات؛ خاتِم ـ بالفتح والكسر ـ، وخاتام، وخيْتام. ﴿وكان الله بكل شيءٍ عليماً﴾، فيعلم من يليق بأن يختم به النبوة، وكيف ينبغي شأنه.

الإشارة: كان ﷺ أبا الأرواح حقيقة؛ إذ الوجود كله ممتد من نوره، وأبا الأشباح باعتبار أنه السابق نوره. فأول ما ظهر نوره ـ عليه الصلاة والسلام ـ، ومنه امتدت الكائنات، فهو بذرة الوجود. وسيأتي في قوله: ﴿فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾(٢) تتميم ذلك إن شاء الله. ولم يكن أباً باعتبار تولد الصلب، وهو الذي نفاه الله تعالى عنه.

ثم حضّ على الذكر؛ إذ هو سبب التهذيب والتأديب، فيزجر صاحبه عن الخوض فيما لا يعني، فقال:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾ ﴾

---

(١) أخرجه مطولاً أحمد في المسند (٥/٢٧٨)، وعزاه السيوطي في الدر (٥/٣٨٦) لابن مردويه، عن ثوبان. وجاء الجزء الأول «أنا خاتم النبيين» في حديث «مثلي ومثل الأنبياء من قبلي..» الحديث، أخرج البخاري في (المناقب، باب خاتم النبيين، ح ٣٥٣٥) ومسلم في (الفضائل، باب ذكر كونه ﷺ خاتم النبيين ٤/١٧٩١) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) الآية ٨١ من سورة الزخرف.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ يأيها الذين آمنوا اذكروا اللهَ ذكراً كثيراً ﴾ قياماً، وقعوداً، وعلى جنوبكم، قال ابن عباس: (لم يُعذَر أحد فى ترك ذكر الله ـ عز وجل ـ إلا من غلب على عقله)(١). وقال: الذكر الكثير: ألاَّ تنساه أبدا. وروى أبو سعيد عن النبى ﷺ أنه قال: «أكثِرُوا ذِكرَ اللهِ حتى يقولوا مَجنونٌ»(٢).

والذكر أنواع: تهليل، وتحميد، وتقديس، واستغفار، وتلاوة، وصلاة على النبى ﷺ. وقيل: المراد: ذكر القلوب، فإن الذكر الذى يمكن استدامته، هو ذكر القلب، وهو استدامة الإيمان والتوحيد. وأمّا ذكرُ اللسان فإن إدامته كالمتعذَر. قاله القشيرى. ﴿ وسبِّحوه ﴾ أى: نزِّهوه، أو: قولوا: سبحان الله وبحمده، ﴿ بكرةً ﴾ ؛ أول النهار ﴿ وأصيلاً ﴾ ؛ آخر النهار. وخُصّا بالذكر لأن ملائكة الليل وملائكة النهار يجتمعون فيهما. وعن قتادة: (قولوا: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله). أو: الفعلان ـ أى: (اذكروا) و (سبِّحوه) ـ موجهان إلى البُكرة والأصيل، كقولك: صم وصل يوم الجمعة. والتسبيح من جملة الذكر، وإنما اختص من بين أنواعه إبانةً لفضله؛ لأن معناه: تنزيه ذاته عما لا يجوز عليه من الصفات. ويجوز أن يراد بالذكر وإكثاره: تكثير الطاعات والعبادات، فإنها من جملة الذكر، ثم خصّ من الذكر التسبيح بكرة، وهى صلاة الفجر، وأصيلا، وهى صلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء، أو: صلاة الفجر والعشاءين.

﴿ هو الذي يُصلي عليكم وملائكتُه ﴾ ، لمّا كان من شأن المصلى أن ينعطف فى ركوعه وسجوده استعير لمن ينعطف على غيره، حنُواً عليه، كحنو المرأة على ولدها. ثم كثر، حتى استعمل فى الرحمة والترؤف، ومنه قولهم: صلى الله عليك، أى: ترحم عليك وترأف. فإن قلت: صلاة الله غير صلاة الملائكة، فكيف اشتركا فى العطف؟ قلت: لاشتراكهما فى قدر مشترك، وهو إرادة وصول الخير إليهم، إلا أنه منه تعالى برحمته، ومن الملائكة بالدعاء والاستغفار.

وذكر السدي: أن بنى إسرائيل قالت لموسى عليه السلام: أيُصلى ربنا؟ فكبُر هذا الكلام على موسى عليه السلام، فأوحى الله إليه: أن قل لهم: إنى أُصلى، وإنّ صلاتى رحمتى، وقد وَسِعتْ كل شىء(٣). وفى حديث المعراج: «قلت: إلهى؛ لمَّا لحقنى استيحاش قبل قدومى عليك، سمعتَ منادياً يُنادى بلغة، تُشبه لغةَ أبى بكر، فقال: قف، إن ربك

(١) أخرجه الطبرى (٢٢/١٧).
(٢) أخرجه أحمد فى المسند (٣/٦٨، ٧١) والحاكم (١/٤٩٩) وصححه، من حديث سيدنا أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه.
(٣) عزاه فى الدر المنثور (٥/٣٨٩) لعبدالرزاق، وابن المنذر، وابن أبى حاتم، عن الحسن.

يصلي، فعجبت من هاتين، هل سبقني أبو بكر إلى هذا المقام، وإن ربي لَغنيّ عن أن يصلّي؟ فقال تعالى: أنا الغني عن أن أصلّي لأحد، وإنما أقول: سبحاني، سبقت رحمتي غضبي. اقرأ يامحمد: ﴿هو الذي يُصلِّي عليكم...﴾ الآية، فصلاتي رحمة لك ولأمتك. ثم قال. وأما أمر صاحبك، فخلقت خلقاً على صورته، يُناديك بلغته، ليزول عنك الاستيحاش، لئلا يلحقك من عظيم الهيبة ما يقطعك عن فهم ما يراد منك».

والمراد بصلاة الملائكة: قولهم: اللهم صلّ على المؤمنين. جُعلوا ـ لكون دعائهم بالرحمة مستجاباً ـ كأنهم فاعلون الرحمة. والمعنى: هو الذي يترحم عليكم ويترأف، حيث يدعوكم إلى الخير، ويأمركم بإكثار ذكره، ويأمر ملائكته يترحمون عليكم، ويستغفرون لكم، ليقربكم، ويخصكم بخصائص ليست لغيركم. بدليل: ﴿ لِيُخرجكم من الظلمات إلى النور ﴾؛ من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان، ثم من ظلمات المعاصي إلى نور الطاعة، ثم من ظلمات الغفلة إلى نور اليقظة، ثم من ظلمات الحجاب إلى نور العيان. وقيل: يُصلّي عليكم: يشيع لكم الذكر الجميل في عباده.

﴿ وكان ﴾ الله ﴿ بالمؤمنين رحيماً ﴾، قد اعتنى بصلاح أمرهم، وإثابة أجرهم، واستعمل في خدمتهم ملائكته المقربين، وهو دليل على أن المراد بالصلاة: الرحمة، حيث صرح بكونه رحيماً بهم. قال أنس: لمّا نزل قوله تعالى: ﴿إن الله وملائكته يصلون على النبي﴾ قال أبو بكر: يارسول الله ما خصك الله بشريف إلا وقد اشتركنا فيه، فأنزل قوله: ﴿هو الذي يُصلي عليكم...﴾ الخ(١).

﴿ تحيتُهم ﴾ أي: تحية الله لهم، فهو من إضافة المصدر إلى مفعوله، ﴿ يوم يَلْقونه ﴾ عند الموت. قال ابن مسعود: إذا جاء ملك الموت لقبض روح المؤمن، قال: ربك يُقرئك السلام(٢). أو: يوم الخروج من القبور، تُسلِّم عليهم الملائكة وتُبشرهم. أو: يوم يرونه في الجنة، ﴿ سلامٌ ﴾، يقول الله تبارك وتعالى: «السلام عليكم ياعبادي، هل رضيتم؟ فيقولون: ومالنا لا نرضى ياربنا وقد أعطيت مالم تُعط أحداً من العالمين. فيقول لهم: أُعطيكم أفضل من ذلك، أُحل عليكم رضواني، فلا أسخط عليكم أبداً» كما في البخاري(٣). وفي رواية غيره: يقول تعالى:

---

(١) عزاه السيوطي في الدر المنثور (٥/٣٨٩) لعبد بن حميد، وابن المنذر، عن مجاهد. وذكره البغوي في التفسير (٦/٣٦٠) عن أنس رضي الله عنه.
(٢) عزاه السيوطي في الدر (٥/ ٣٩٠) للمروزي في الجنائز، وابن أبي الدنيا، وأبي الشيخ.
(٣) سبق تخريج الحديث.

«السلام عليكم، مرحباً بعبادى الذين أرضونى باتباع أمرى» هو إشارة إلى قوله: ﴿ سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ ﴾(١).

﴿ وأعدَّ لهم أجراً كريما ﴾، يعنى الجنة وما فيها.

الإشارة: قال القشيرى: قوله تعالى: ﴿اذكروا الله ذكراً كثيراً﴾. الإشارة فيه: أَحِبُّوا الله لقوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ «مَنْ أحبَّ شيئاً أكثَرَ من ذكره»(٢) فيُحب أن يقول: الله، ولا ينسَ اللهَ بعد ذكر الله.هـ. قلت: لأن ذكر الله عنوان محبته، ومنار وصلته، وهو الباب الأعظم فى الدخول إلى حضرته، ولله در القائل:

الذكرُ عمدة لكل سالك ... تنورت بنوره المسالك
هو المطية التى لا تنتكب ... ما بعدها فى سرعة الخُطا نُجُب
به القلوب تطمئن فى اليقين ... ما بعده على الوصالِ من معين
به بلوغ السالكين للمُنى ... به بقاء المرء مِن بعد الفنا
به إليك كل صعب يسهل ... به البعيد عن قريب يحصل
فهو أقوى سبب لديكَ ... وكلُّهُ إليك، لا عليك
فكل طاعة أتى الفتى بها ... هو أساسها، كذاك سَقفها
ووحدَه يفوق كل طاعه ... كما أتى عن صاحب الشفاعهْ
كَفى بفضله لذا البيان ... ذهابه بالسهو والنسيان
إذا ذكرتَ من له الغنى العظيم ... لديك يصغرُ الفقير يا نديم
عليه دُمْ حتى إذا تجوهرا ... بسره الفؤاد كلّ ما ترى
ترى به المذكور دون ستر ... وقد علا الإدراك درك الفكر
به الحبيب فى الورى تجلى ... به السِّوى عن الحجا تولى
به تمكن المريد فى الفنا ... حتى يصيرَ قائلاً أنا أنا
به رجوعه إلى العبادهْ ... به التصرف الذى فى العادهْ
تالله لو جئتُ بكل قول ... ما جئتكم بما لَهُ من فضل.هـ.

---

(١) من الآية ٧٣ من سورة الزمر.

(٢) عزاه السيوطى فى الجامع الصغير (ح ٨٣١٢) للديلمي، فى الفردوس، وضعّفه، من حديث السيدة عائشة ـ رضى الله عنها.

وقال رسول الله ﷺ: «سبق المُفَرِّدُونَ، قيل: من المفرِّدون يارسول الله؟ قال: المُسْتَهْتَرُون بِذِكْرِ الله، يَضَعُ الذِّكْرُ عنهم أثقالَهُمْ، فيَرِدُون يَوْمَ القيامةِ خِفَافاً»(١) وسئل ﷺ: أيّ المجاهدين أعظمُ أجراً؟ قال: «أكثرهم لله تبارك وتعالى ذِكْراً . قيل: فأى الصالحين أعظم أجراً؟ قال: أكثرهم لله تبارك وتعالى ذِكْراً. ثم ذَكَرَ الصلاة والزكاة والحج والصدقة، كل ذلك ورسول الله ﷺ يقول: «أكثرهم لله تبارك وتعالى ذكراً» . فقال أبو بكر لعمرَ: يأبا حفصٍ؛ ذهب الذاكرون بكل خيرٍ، فقال رسول الله ﷺ: «أجل»(٢) رواه أحمد والطبراني.

وقوله تعالى: ﴿هو الذى يُصلى عليكم....﴾ الآية. قال الورتجبى: صلوات الله: اختياره العبدَ فى الأزل لمعرفته ومحبته، فإذا خصّه بذلك جعل زلاته مغفورة، وجعل خواص ملائكته مستغفرين له، لئلا يحتاج إلى الاستغفار بنفسه عن اشتغاله بالله ومحبته، وبتلك الصلاة يُخرجهم من ظلمات الطبع إلى نور المشاهدة، وهذا متولد من اصطفائيته الأزلية ورحمته الكافية القدسية. ألا ترى إلى قوله: ﴿وكان بالمؤمنين رحيما﴾ أى: قبل وجودهم، حيث أوجدهم، وهداهم إلى نفسه، بلا سبب ولا علة. ثم قال عن ابن عطاء: أعظم عطية للمؤمن فى الجنة: سلام الله عليهم من غير واسطة.هـ.

وقوله تعالى: ﴿تحيتهم يوم يلقونه سلام﴾ قال القشيرى: التحيةُ إذا قُرِنَتْ بالرؤية، واللقاءُ إذا قُرِن بالتحية، لا يكون إلا بمعنى رؤية البصر، والتحية: خطاب يُفاتح بها الملوك، أخبر عن علوِّ شأنهم، فهذا السلام يدلّ على علو رتبتهم.هـ.

ولمّا أمر بذكره وتنزيهه، ذكر شهادته لرسوله، ليدلّ على اقترانها فى صحة الإيمان وكمال الذكر، فقال:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾ ﴾

---

(١) أخرجه بلفظه الترمذى فى: (الدعوات، باب: فى العفو والعافية ٥/٥٣٩، ح: ٣٥٩٦)، وبنحوه أخرجه مسلم فى (الذكر والدعاء، باب الحث على ذكر الله تعالى ٤/٢٠٦٢، ح ٢٦٧٦) من حديث أبى هريرة رضي الله عنه.
والمستهترون بذكر الله: المولعون بالذكر: المداومون عليه، لا يبالون ما قيل فيهم، ولا ما فُعل بهم.

(٢) أخرجه أحمد (٣/٤٣٨)، وقال الهيثمى فى مجمع الزوائد (١٠/٧٤): رواه أحمد والطبراني، وفيه: زبان بن فائد، وهو ضعيف، وقد وثّق، وكذلك ابن لهيعة، وبقية رجال أحمد ثقات.

قلت: «شاهداً»: حال مقدرة، كمررت برجل معه صقر صائداً به غداً.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ يأيها النبيُّ إنَّا أرسلناك شاهداً ﴾ على من بُعثتَ إليهم، على تصديقهم وتكذيبهم، أي: مقبولاً قولك عند الله، لهم وعليهم، كما يُقبل قول الشاهد العدل في الحكْم، ﴿ ومبشراً ﴾ للمؤمنين بالنعيم المقيم، ﴿ ونذيراً ﴾ للكافرين بالعذاب الأليم، ﴿ وداعياً إلى الله ﴾ ؛ إلى الإقرار بربوبيته، وتوحيده، وما يجب الإيمان به، من صفاته، ووعده، ووعيده، ﴿ بإذْنه ﴾ ؛ بأمره، أو: بتيسيره. وقيّد به الدعوى إيذاناً بأنه أمر صعب، لا يتأتى إلا بمعونةٍ من جناب قدسه، ﴿ وسِراجاً منيرا ﴾ يُستضاء به في ظلمة الجهالة، وتُقتبس من نوره أنوار الهداية، قد جلى به الله ظلمات الشرك، واهتدى به الضالون، كما يجلى ظلام الليل بالسراج المنير، ويهتدى به. وقيل: المراد به القرآن، فيكون التقدير: وذا سراج. ووُصف بالإنارة؛ لأن من السُرج من لا يضيء جداً إذا قلّ سَلِيطُه ـ أي: زيته ـ ورقّت فتيلته. أو: شاهداً بوحدانيتنا، ومبشراً برحمتنا، ونذيراً بنقمتنا، وداعياً الى عبادتنا، وسراجاً تُنير الطريقَ إلى حضرتنا.

﴿ وبَشِّرِ المؤمنينَ بأن لهم من اللهِ فضلاً كبيراً ﴾ ؛ ثواباً عظيماً، يربو على ثواب سائر الأمم. وفي الحديث: «مَثَلُكُم ومَثَلُ اليهود والنصارى كمن استأجر عُمالاً إلى آخر اليوم، فعملت اليهودُ إلى الظهر، ثم عجزوا، ثم عملت النصارى إلى العصر، فعجزوا، ثم عملتم إلى آخر النهار، فاستحققتم أجر الفريقين، فغضبت اليهود والنصارى، وقالوا: نحن أكثر عملاً، وأقلّ أجراً، فقال لهم الله تعالى: هل ظلمتكم من حقكم شيئاً؟ قالوا: لا، قال: فذلك فضلي أُوتيه من أشاء»(١) وفي رواية: «أنهم عملوا إلى الظهر، أو العصر، وقالوا: لا حاجة لنا بأجرك، فبطل أجر الفريقين». وهذا في حق من أدرك الإسلام منهم ولم يؤمن. والحديث في الصحيح. نقلته بالمعنى.

قال البيضاوي: ولعله معطوف على محذوف، أي: فراقب أمتك وبشّرهم هـ.

﴿ ولا تُطعِ الكافرين والمنافقين ﴾ أي: دُم على مخالفتهم، وهو تهييج وتنفير عن حالهم، ﴿ ودَعْ أذاهم ﴾ أي: لا تلتفت إليه، ولا تحتفل بشأنه. وهو من إضافة المصدر إلى الفاعل، أي: اجعل إيذائهم إياك في جانب، وأنت في جانب، ولا تُبال بهم، ولا تخفْ من إيذائهم. أو: إلى المفعول، أي: دع إيذاءك إياهم مجازاةً ومؤاخذة على كفرهم. ولذلك قيل: إنه منسوخ. ﴿ وتوكلْ على اللهِ ﴾ فإنه يكفيكم، ﴿ وكفى بالله وكيلاً ﴾ ؛ موكولاً عليه،

---

(١) أخرجه البخاري في (الإجارة، باب الإجارة إلى نصف النهار، ح ٢٢٦٨) من حديث سيدنا عبدالله بن عمر رضي الله عنه.

ومفوضاً إليه الأمر فى الأحوال كلها، ولعله تعالى لمَا وصفه بخمسة أوصاف، قابل كُلاً منها بخطاب مناسب له، فقابل الشاهد بقوله: ﴿وبَشّر المؤمنين﴾؛ لأنه يكون شاهداً على أمته، وهم يكونون شهداء على سائر الأمم، وهو الفضل الكبير، وقابل المبشّر بالإعراض عن الكافرين والمنافقين؛ لأنه إذا أعرض عنهم أقبل بكليته على المؤمنين، وهو مناسب للبشارة، وقابل النذير بدَعْ أذاهم؛ لأنه إذا ترك أذاهم فى العاجل، والأذى له، لابد له من عقاب عاجل أو آجل، كانوا منذرين به فى المستقبل. وقابل الداعى إلى الله بأمره بالتوكل عليه؛ لأن من توكل على الله يسّر عليه كل عسير، فتسهل الدعوة، ويتيسر أمرها، وقابل السراج المنير بالاكتفاء به وكيلاً؛ لأن من أناره الله وجعله بُرهاناً على جميع خلقه كان حقيقاً بأن يكتفى به عن جميع خلقه. والله تعالى أعلم.

الإشارة: قال الورتجبى: إنا أرسلناك بالحقيقة شاهداً، أنت شاهِدُنا، شاهدناك وشهدت علينا، فألبستك أنوار ربوبيتى، فمن شهدك بالحقيقة فقد شهِدَنا. قُلتُ: لأن نوره ﷺ أول نور ظهر من نور الحق، فمن شَهِدَه شَهِدَ الحق. ثم قال: ومن نظر إليك فقد نظر إلينا. قال ﷺ: «من عرفنى فقد عرف الحق، ومن رآنى فقد رأى الحق». ثم قال: ﴿وسراجاً منيرا﴾، أسرجت نورك من نورى، فتنور بنورى عيون عبادى المؤمنين، فيأتون إلىّ بنورك. ثم أمره بأن يُبشر المؤمنين بأنهم يصلون إلى مشاهدته، بلا حجاب ولا عتاب.هـ.

قال القشيرى: يأيها المُشَرّفُ مِنْ قِبَلِنَا، إنا أرسلناك شاهداً بوحدانيتنا، ومبشراً، تُبشر عبادنا بنا، وتحذّرُهم مخالفة أمْرِنا، وتُعلمهم مواضع الخوف منا، وداعياً الخلق إلينا بنا، وسراجاً منيراً يستضيئون بك، وشمساً ينبسط شعاعك على جميع من صدّقَك وآمَنَ بك، ولا يصل إلينا إلا من اتَّبعكَ وخَدَمَك وقَدّمك، ﴿وبَشّر المؤمنين﴾ بفضلنا عليهم، ونيْلِهم طوْلَنا عليهم، وإحساننا إليهم. ومن لم تُؤثِر فيهم بركة إيمانهم بك؛ فلا قَدْرَ لهم عندنا. ولا تُطع من أعرضنا عنه وأضللناه، من أهل الكفر والنفاق، وأهل البدع والشقاق، وتوكل على الله؛ بدوام الانقطاع إليه، وكفى بالله وكيلاً.هـ.

ثم ذكر حُكم المطلقة قبل الدخول، وأنه لا عِدّة عليها. مناسب لقوله: ﴿فلما قضى زيد...﴾ الخ، فقال:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحۡتُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمۡ عَلَيۡهِنَّ مِنۡ عِدَّةٖ تَعۡتَدُّونَهَاۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ﴿٤٩﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا نكحتُم المؤمناتِ﴾ أى: تزوجتموهن. والنكاح فى الأصل: الوطء، من: تناكحت الأشجار: إذا التصق بعضها ببعض. وتسمية العقد نكاحاً مجاز؛ لملابسته له، من حيث إنه طريق إليه، كتسمية الخمر إثماً؛ لأنها سببه، ولم يَرِد لفظ النكاح فى كتاب الله إلا فى معنى العقد؛ لأنه لو استعمل فى الوطء لكان تصريحاً به، ومن آداب القرآن الكناية عنه بلفظ الملامسة، والمماسة، والقربان، والتغشى، والإتيان، تعليمًا للأدب والحياء. وفى تخصيص المؤمنات، مع أن الكتابيات تُساوى المؤمنات فى هذا الحُكْم، إشارة إلى أن الأَوْلَى للمؤمن أن ينكح المؤمنة، تخييراً للنطفة. والمعنى: إذا تزوجتم النساء ﴿ثم طلقتموهن مِن قَبْلِ أن تمسوهن﴾؛ تجامعوهن. والخلوة الصحيحة كالمسّ، ﴿فما لكم عليهن من عِدَّةٍ تعتدُّونها﴾ أى: تستوفون عددها، وتَعُدونها عليهن، من: عددته الدراهم فاعتدها، كقوله: كِلته الطعام فاكتاله. والإسناد إلى الرجال للدلالة على أن العِدَّة تجب على النساء لحق الأزواج، كما يشعر به، «فمالكم». والإتيان بـ «ثم» إزاحة ما عسى أن يتوهم أن تراخى الطلاق [ربما يمكن الإصابة فتجب العدة](١).

﴿فمتِّعوهُنّ﴾ بشيء من المال، وهذا فى المفوض لها قبل الفرض، وأما المفروض لها، أوالمسمى صداقها، فتأخذ نصف مهرها، ولا متعة لها على المشهور. ﴿وسَرِّحوهن سَراحاً جميلاً﴾ أى: لا تمسكوهنّ ضراراً، وأخرجوهن من بيوتكم؛ إذ لا عدة لكم عليهن. قال القشيرى: (سراحاً جميلا) لا تذكروهن بعد الفراق إلا بخير، ولا تستردوا منهن شيئاً، ولا تجمعوا عليهن سوء الحال والإضرار من جهة المال.هـ.

الإشـــارة: أيها المريـدون؛ إذا طلقتم نفوسـكم، وغبتم عنها بخمرةٍ قوية، من قَبل أن تمسوهن بمجاهدة ولا مخالفة، فمتعوها بالشـهود، وسرحوا فكرتها فى ذات المعبـود، سَراحاً جميـلاً، لا حجر فيه ولا حصر، فمن رزقُه الله الغيبة عن نفسه، حتى غاب عن حظوظها وهواها، فـقد كفاه الله قتالها، فيدخل الحضرة بلا مشقة ولا تعب، لكنه نادر، وعلى تقدير وجوده يكون ناقص التربية؛ لأنه يكون كمن طُويت له الطُرق للحج، فلا يعرفها كما يعرفها مَن سافر فيها، وكابد مشقتها، وعرف منازلها ومياهها، ووعرها وسهلها، ومخوفها ومأمونها، وكلهم أولياء لله تعالى، لكن طريق التربية أن يكون المريد سلك الطريقة، وقاس شدائد نفسه، وعالجها ليُعالج غيره بما يُعالج نفسه، على يد شيخ عارف بالطريق. وبالله التوفيق.

---

(١) العبارة كما فى البيضاوى: [وفائدة «ثم» إزاحة ما عسى أن يتوهم تراخى الطلاق ريثما تمكن الإصابة، كما يؤثر فى النسب يؤثر فى العدة].

ثم وسّع على نبيه في باب النكاح، فقال تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِيٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٠﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ يا أيُّها النبيُّ إنَّا أحْلَلْنا لكَ أزْواجَكَ اللاتي آتيْتَ أجُورَهُنَّ ﴾؛ مهورهن؛ إذ المهر أجر البضع، ولذا قال الكرخي ـ من الحنفية ـ: إن النكاح بلفظ الإجارة جائز، والجواب: أن التأبيد من شرط النكاح، والتأقيت من شرط الإجارة، وبينهما منافاة، وإيتاؤها: إعطاؤها عاجلاً، أو فرضها في المفوض، وتسميته في المسمى. والمراد بالأزواج المحلّلة له ـ عليه الصلاة والسلام ـ: نساؤه اللاتي في عصمته حينئذ، كعائشة وغيرها، وكان قد أعطاهن مهورهن، أو: جميع النساء اللاتي يريدُ أن يتزوجهن، فأباح له جميع النساء. وهذا أوسع.

﴿ و ﴾ أحللنا لك ﴿ ما ملكتْ يمينُك ﴾ من السّرارى ﴿ مما أفاءَ الله عليك ﴾ من الغنائم، وهى صفية، أعتقها وتزوجها، ﴿ وبناتِ عمك، وبناتِ عماتِك، وبناتِ خَالك، وبناتِ خَالاتك ﴾، يعنى قرابتك، التى من جهة أبيك، ومن جهة أمك. وكان له ـ عليه الصلاة والسلام ـ أعمام وعمات، أخوة لأبيه، ولم يكن لأمه ﷺ أخ ولا أخت، فإنما يعنى بخاله وخالته: عشيرة أمه، وهم بنو زهرة، ولذلك كانوا يقولون: نحن أخوال رسول الله ﷺ. فإذا قلنا: المراد بقوله: ﴿أحللنا لك أزواجك﴾ مَن كان في عصمته، فهذا عطف عليهن، وإباحة لأن يتزوج قرابته، زيادة على من كان فى عصمته، وإذا قلنا: المراد: جميع النساء، فهذا تحديد لهن، على وجه التشريف، بعد دخولهن فى العموم. وقوله: ﴿ اللاتي هاجَرْنَ معك ﴾، قيد فى حلّية قرابته ـ عليه الصلاة والسلام ـ. قالت أم

هانئ: خطبني رسولُ الله ﷺ، فاعتذرتُ إليه، فعذَرَني، فأنزل الله هذه الآية، فلم أحِلّ له؛ لأني لم أُهاجر معه، كنت من الطلَقاء(١).

و«مع» هنا: ليست للاقتران، بل لوجود الهجرة فقط، كقوله: ﴿ وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ ﴾(٢).

﴿ و ﴾ أحللنا لك ﴿ امرأةً مؤمنةً إن وهبت نفسَها للنبي ﴾ من غير مَهر ولا عقد، فهو منصوب بفعل يُفسره ما قبله، أو: عطف على ما سبقه، ولا يدفعه أن «التي» للاستقبال؛ لأن المعنى بالإحلال: الإعلام بالحِلّ، أي: أعلمناك حِلّ امرأة مؤمنة وهبت لك نفسها، ولا تطلب مهراً إن اتفق، ولذلك نكّرها. واختلف في اتفاق ذلك، والقائل به ذكر أربعا: ميمونة بنت الحارث، حين جاءها الخاطب، قالت: البعير وما عليه لرسول الله ﷺ، فتزوجها. وزينب بنت خزيمة الأنصارية، أم المساكين، وتوفيت في حياته ﷺ. وأم شريك بنت جابر الأسدية، وقيل: أم شريك العامرية، قيل: إن رسول الله ﷺ تزوجها، ولم يثبت ذلك. ذكره ابن عبد البر. وخولة بنت حكيم السلَمية. ذكر البخاري عن عائشة أنها قالت: كانت خولة بنت حكيم من اللائي وهبن أنفسهن. قال أبو نعيم: تزوجها رسول الله ﷺ ولم يدخل بها. قال السهيلي: فدلّ أنهن كن غير واحدة. والله أعلم.هـ. وقال ابن عباس: هو بيان حكم في المستقبل، ولم يكن عنده أحد منهن بالهبة، فانظره(٣).

وقرأ الحسن بفتح «أن»، على حذف لام التعليل. وقرأ ابن مسعود رضي الله عنه بغير «إن» أي: وأحللنا لك امرأة مؤمنة وهبت نفسها للنبي إن أراد النبي أن يستنكحها، أي: طلب نكاحها والرغبة فيها. وقيل: نكح واستنكح بمعنى واحد. والشرط الثاني تقييد للأول، كأنه قال: أحللنا لك امرأة إن وهبت نفسها، وأنت تريد أن تستنكحها، وإرادته هي: قبول [الهبة](٤).

جعلنا ذلك ﴿ خالصةً لك من دونِ المؤمنين ﴾، بل يجب عليهم المهر، تسمية أو فرضاً. وفيه إيذان بأنه مما خص به ـ عليه الصلاة والسلام ـ لشرف نبوته، وتقرير لاستحقاقه الكرامة. قال ابن جزي: وانظر كيف رجع من الغيبة إلى الخطاب؛ ليخص المخاطب وحده. وقيل: إن «خالصة» يرجع إلى كل ما تقدم من النساء المباحات له

(١) أخرجه الترمذي في (التفسير ـ سورة الأحزاب ٥/٣٣١، ح ٣٢١٤)، والحاكم وصححه ووافقه الذهبي (٢/٤٢٠)، والبيهقي في السنن (٧/٥٤) وابن جرير في التفسير (٢٢/٢٠) والطبراني في الكبير (٢٤/٤٠٥ح ٩٨٥) وقال الترمذي: حسن صحيح.

(٢) من الآية ٤٤ من سورة النمل.

(٣) انظر: تفسير القرطبي (٦/٥٤٤٣) والبحر المحيط (٧/٢٣٣).

(٤) في الأصول: الهدية.

ﷺ؛ لأن سائر المؤمنين قصِرُوا على أربع نسوة، وأبيح له ـ عليه الصلاة والسلام ـ أكثر من ذلك. ومذهب مالك: أن النكاح بلفظ الهبة لا ينعقد، خلافاً لأبي حنيفة.هـ. قلت: إن قرنه ذكر الصداق جاز، كما في المختصر.

و(خالصة): مصدر مؤكد، أي: خلُص إحلالها، أو: إحلال ما أحللنا لك على القيود المذكورة خلوصاً لك. أو: حال من الضمير في (وهبت)، أو: صفة لمصدر محذوف، أي: هبة خالصة لك.

﴿ قد عَلِمْنَا ما فرضنا عليهم في أزواجهم ﴾ أي: ما أوجبنا من المهور على أمتك في زوجاتهم، أو: ما أوجبنا عليهم في أزواجهم من الحقوق، كالنفقة وحسن المعاشرة، أو: ما فرضنا عليهم من الاقتصار على الأربع، أو: ما أوجبنا عليهم من الإشهاد والولي، ﴿ وما ملكت أيمانُهم ﴾ بالشراء وغيره من وجوه الملك، فقد علمنا ما فرضنا عليهم من الإنفاق والرفق، وألا يكلفوهن ما لا طاقة لهن به، مع حليّة الوطء، ولو تعددن. وإنما وسّعنا عليك في أمر النساء ﴿ لِكَيْلا يكونَ عليك حرجٌ ﴾ ؛ ضيق، وهو راجع لقوله: ﴿خالصة لك من دون المؤمنين﴾. والجملة من قوله: ﴿قد علمنا ما فرضنا..﴾ إلخ: اعتراضية؛ للدلالة على أن الفرق بينه وبين المؤمنين في نحو ذلك ليس لمجرد التوسيع عليه، بل لمعان تقتضي التوسيع عليه والتضييق عليهم تارة، والعكس أخرى، كنكاح الكتابية والأمة، فتحرمان عليه ﷺ دون أمته. ﴿ وكان الله غفوراً رحيماً ﴾ بالتوسعة على عباده، أو: غفوراً لما يعسر التجرد عنه، رحيماً بالتوسعة في مظان الحرج.

الإشارة: قد وسّع الله على خواصه في باب النكاح، وأمدهم في ذلك بالقوة، وأعطاهم من الباءة مالم يُعط غيرهم، تشريفاً وترغيباً في هذا الأمر؛ لإبقاء النسل الطيب، ولِما فيه من التوسعة في المعرفة، وحسن الخلق، وتعلم السياسة، فدلّ ذلك أن كثرة النساء لا يُنافي الزهد، ولا يقدح في كمال المعرفة، بل يزيد فيها. قال الإمام ابن منصور المقدسي، في شرح منازل السائرين ـ في باب الزهد ـ: ومتعلق الزهد ستة أشياء، لا يستحق العبد اسم الزهد حتى يزهد فيها، وهي: المال، والرئاسة، والناس، والنفس، وكل ما دون الله. وليس المراد رفضها عن المِلك، فقد كان داود وسليمان ـ عليهما السلام ـ من أزهد أهل زمانهما، ولهما من المُلك والنساء والمِلك مالهما. وكان نبينا ﷺ أزهد البشر على الإطلاق، وله تسع نسوة، وكان عليّ بن أبي طالب ـ كرم الله وجهه، وعبد الرحمن بن عوف، والزبير، وعثمان ـ رضوان الله عليهم ـ من الزهاد، مع مالهم من الأموال ـ أي: والنساء ـ فكان لعليّ رضي الله عنه أربع حرائر، وسبعة عشر سرية، ولعبد الرحمن بن عوف والزبير أربع أربع، ولعثمان كذلك. وتزوج المغيرة بن شعبة تسعاً وتسعين امرأة. ثم قال: وكان الحسن بن عليّ ـ رضي الله عنهما ـ من الزهاد، مع أنه كان من أكثر الأمة محبة للنساء ونكاحهن. ثم قال: ومن أحسن ما قيل في الزهد كلام الحسن وغيره، قال: ليس الزهد في الدنيا

بتحريم الحلال، ولا بإضاعة المال، وإنما الزهد أن تكون بما فى يد الله أوثق منك بما فى يدك، وأن تكون فى ثواب المصيبة إذا أُصبت بها أرغب منك فيها لو لم تُصبك. انتهى المقصود منه.

ثم وسَّع على نبيه فى القسمة، فقال:

﴿ تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله لرسوله ﷺ: ﴿ تُرجى من تشاء منهن ﴾ أى: تؤخرها فى القسمة، ﴿ وتُؤوى إليك من تشاء ﴾ أى: تضمها إليك، والمعنى: تترك مضاجعة من تشاء منهن وتضاجع من تشاء، فقد خيّره الله فى القسمة وعدمها. قال أبو رزين: لما نزلت آية التخيير أشفقن أن يُطلّقن، فقلن: يانبىَّ الله؛ اجعل لنا من مالك ونفسك ما شئت، ودعْنا على حالنا(١) ، فكان ممن أرجى منهن: سودة، وجويرية، وصفية، وميمونة، وأم حبيبة، فكان يقيم لهن مايشاء، وكان ممن آوى إليه عائشة، وحفصة، وأم سلمة، وزينب، فكان يقسم لهن بالسوية(٢)، لايفضل بعضهن على بعض. فآوى أربعاً وأرجى خمساً. وقيل: إنه كان ﷺ يسوى بين الجميع فى القسم، إلا سودة، فإنها وهبت ليلتها لعائشة، حين هم بطلاقها، وقالت: لا تطلقنى حتى أُحشَر فى زمرتك وفى نسائك. والجمهور على أنه ﷺ كان يعدل فى القسمة بين نسائه، أخذاً منه بأفضل الأخلاق، مع أن الله خيّره. وقيل: (تُرجى من تشاء) أى: تطلق من تشاء منهن، وتُمسك من تشاء. وقيل: تترك تزوج من شئت من أمتك، وتتزوج من شئت.

﴿ ومن ابتغيتَ ممَّنْ عزلتَ فلا جُناحَ عليك ﴾ أى: ومَن دعوت إلى فراشك، وطلبت صحبتها، ممن عزلت عن نفسك بالإرجاء، فلا ضيق عليك فى ذلك، أى: ليس إذا عزلتها من القسمة، أو من العصمة، لم يجز لك ردّها إلى نفسك، بل افعل ما شئت، فلا حرج عليك. ﴿ ذلك ﴾ التفويض إلى مشيئتك ﴿ أَدْنَىٰ أن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ ولا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتيْتَهُنَّ كُلُّهُن ﴾ أى: هو أقرب إلى قرة أعينهن، وقلة حزنهن، ورضاهن جميعاً؛ لأنه إذا علمن أنّ هذا الحكم من عند الله اطمأنت نفوسهنّ، وذهب التغاير، وحصل الرضا، وقرّت العيون.

(١) أخرجه بمعناه الطبرى (٢٢/٢٦) عن أبى رُزين. وانظر أسباب النزول للواحدى (ص: ٣٧١).

(٢) عزاه الحافظ ابن حجر فى الكافى (ص ١٣٥ ح ٢٣٢) لابن أبى شيبة، وعبدالرزّاق، عن أبى رزين، وهذا مرسل.

قلت: والذى يظهر أن من أرجاه ﷺ من النساء إنما كان بوحي، ومن ضمه كذلك؛ إذ لا يتصرف إلا بإذن من الله، فإذا علِمَ النساءُ أن الإرجاء والإيواء كان بوحي من الله؛ رضين بذلك، وقرت أعينهن، وزال تغايرهن، وأما مطلق التفويض إليه فقط، فلا يقطع الغيرة فى العادة، فالإشارة تعود إلى حكم الإرجاء والإيواء فتأمله. «كلهن»: تأكيد ضمير «يَرْضَيْنَ».

﴿ والله يُعلم ما في قلوبكم ﴾ من أمر النساء، والميل إلى بعضهن، أو: يعلم ما فى قلوبكم من الرضا بحُكم الله والتفويض إليه، ففيه تهديد لمن لم يرض منهن بما دبرَّ الله، وفوّض إلى رسوله، ﴿ وكان الله عليماً ﴾ بذات الصدور، ﴿ حليماً ﴾ لا يُعاجل بالعقوبة، فهو حقيق بأن يُتقى ويُحذر.

الإشـارة: إذا تحقق فناء العبـد وزواله، وتكملت ولايته، كان مفوضـاً إليه فى الأمور، يفعل ما يشـاء، ويترك ما يشاء، لم يبق عليه تحجير، ولم يتوجه إليه عتاب؛ لأن العبد المملوك إذا تحققت محبة سيده له، كتب له عقد التحرير. وشاهده حديث: «إذَا أحَبَّ الله عبْدَاً لمْ يضُره ذنْبٌ»(١)، وحديث البخارى: «لعلَّ اللهَ اطَّلَعَ على أهلِ بدْرٍ فقال: اعملوا ما شئتم، فقد غفَرتُ لكمْ»(٢)، وسببه معلوم.

وفى القوت عن زيد بن أرقم: إن الله عز وجل ليُحب العبد، حتى يبلغ من حبه أن يقول له: اصنع ما شئت، فقد غفرت لك. وقال الشيخ أبو الحسن الشاذلى رضي الله عنه: يبلغ الولى مبلغاً يُقال له: أصـحبناك السلامة، وأسقطنا عنك الملامة، فاصنع ما شئت. ومصداقه من كتاب الله: قوله تعالى فى حق سليمان عليه السلام: ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾(٣). وهذا وإن كان للنبى من أجل العصمة، فلَمِنْ كان من الأولياء فى مقام الإمامة قسط منه،

(١) ذكره الغزالى فى الإحياء (كتاب المحبة ٣٤٥/٤) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه. وقال العراقى فى المغنى: ذكره صاحب الفردوس ـ الديلمى ـ ولم يخرجه ولده فى مسنده. هـ. والحديث أخرجه ـ مطولاً ـ القشيرى فى الرسالة (باب التوبة /٧٦) عن شيخه «ابن فورك» بسنده عن أنس. وزاد الزبيدى فى إتحاف السادة المتقين (٦٠٩/٩) عزو الحديث لابن أبى الدنيا، وابن النجار فى تاريخه.
قلت: معناه: أنه إذا أحب الله العبد تاب عليه قبل الموت، فلم تضره الذنوب الماضية، ولو كثرت، كما لايضر الكفر الماضى قبل الإسلام.

(٢) جزء من حديث، أخرجه بطوله البخارى فى (الجهاد، باب الجاسوس، ح ٣٠٠٧) ومسلم فى (فضائل الصحابة، باب من فضائل أهل بدر ـ رضى الله عنهم ١٩٤١/٤ ـ ١٩٤٢، ح ٢٤٩٤) عن سيدنا علىّ بن أبى طالب رضي الله عنه.
وسبب الحديث: أن حاطب بن أبى بلتعة، أرسل رسالة مع امرأة إلى قريش، يخبرهم فيه ببعض أمر رسول ﷺ، فلما أُتى بالرسالة إلى النبى ﷺ، قال: «يا حاطب! ما هذا؟» قال: لاتعجل على يارسول الله! إنى كنت امرءاً ملصقاً فى قريش، وكان ممن كان معك من المهاجرين، لهم قرابات بمكة يحمون بها أهليهم، فأحببت إذا فاتنى ذلك من النسب فيهم، أن أتخذ فيهم يداً، يحمون بها قرابتى، ولم أفعل كفراً ولاارتداداً عن دينى، ولارضاً بالكفر بعد الإسلام. فقال النبى ﷺ: «صدق» فقال عمر: دعنى، يارسول الله أضرب عنق هذا المنافق فقال: «إنه قد شهد بدراً..» الحديث.

(٣) الآية ٣٩ من سورة «ص».

من أجل الحفظة. وقال أيضا ﷺ في بعض أدعيته: وأدرج أسمائي تحت أسمائك، وصفاتي تحت صفاتك، وأفعالي تحت أفعالك، درج السلامة، وإسقاط الملامة، وتنزل الكرامة، وظهور الإمامة. هـ.

فإذا اندرجت أسماء العبد وصفاته وأفعاله تحت أسماء الرب، وصفاته، وأفعاله، لم يبق للعبد وجود أصلا، وكان الفعل كله بالله، ومن الله، وإلى الله. وهذا مقام عزيز، لا يناله إلا الأفراد من أهل الفناء في الله، والبقاء بالله، وقد غطى وصفهم بوصفه، ونعتهم بنعته، فغيّبهم عن اسمهم ورسمهم، فهم بالله فيما يفعلون ويذرون. والله تعالى أعلم.

ثم قال تعالى:

﴿ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا ﴿٥٢﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿لا يَحلُّ لك النساءُ من بعدُ﴾ أي: من بعد التسع، اللاتي خيرتهن فاخترنك؛ لأن التسع نِصابُ رسول الله ﷺ، كما أن الأربع نِصاب أمته. لمّا اخترن الله ورسولَه والدارَ الآخرة قصره الله عليهن، وقيل: هي منسوخة كما يأتي. أو: لا يحلّ لك نساء الأجانب، وإنما لك نساء قرابتك، كبناتِ عمك، وبنات عماتك، وبنات خالك، وبنات خالاتك، فيحل لك منهن ما شئت، ولو ثلاثمائة، أو أكثر. أو: لا يحل لك النساء من غير المسلمات، كالكتابيات والمشركات. ﴿ولا أن تبدَّل بهنَّ من أزواج﴾ بالطلاق. والمعنى: ولا أن تستبدل بهؤلاء التسع أزواجاً، بكلهن أو بعضهن، كرامةً لهن، وجزاء على ما اخترن ورضين. فقصر رسولَه ﷺ على التسع اللاتي مات عنهن. وقال أبو هريرة وابن زيد: كانت العرب في الجاهلية يتبادلون بالأزواج، يعطي امرأة هذا أياماً ويأخذ امرأته، فأنزل الله: ﴿ولا أن تبدَّل بهن من أزواج﴾ بأن تُعطي بعض أزواجك وتأخذ بعض أزواجهم، ﴿إلا ما ملكتْ يمينُك﴾، فلا بأس أن تبادل بجاريتك. و«من»: لتأكيد النفي؛ ليفيد استغراق جنس الأزواج بالتحريم. ﴿ولو أعْجَبَكَ حُسْنُهن﴾ أي: حُسْن الأزواج المتبدلة. وقيل: هي أسماء بنت عُميْس، امرأة جعفر بن أبي طالب، فإنها ممن أعجبه حسنهنّ.

وعن عائشة وأم سلمة، (ما مات رسول الله ﷺ. حتى أحلّ الله له أن يتزوج من النساء ما شاء)(١)، يعني أن الآية نُسخت إما بالسُّنَّة، أو: بقوله: ﴿إنا أحللنا لك أزواجك﴾. وترتيب النزول ليس على ترتيب

(١) أخرجه، عن السيدة عائشة، رضي الله عنها، أحمد في المسند (٤١/٤) والترمذي في (التفسير ـ سورة الأحزاب ٣٣٢/٥، ح ٣٢١٦) وقال: حديث حسن صحيح. والنسائي في (النكاح، باب ما افترض الله عز وجل على رسوله ﷺ وحرمه على خلقه، ٥٦/٦) والدارمي في (النكاح، باب قول الله تعالى: ﴿لا يحل لك النساء من بعد﴾ ٢٠٥/٢، ح ٢٢٤١) وصححه الحاكم (٤٣٧/٢) ووافقه الذهبي.

المصحف. ﴿ إلا ما ملكت يمينك ﴾؛ استثناء من النساء؛ لأنه يتناول الأزواج، وقيل: منقطع، أي: لكن ما ملكت يمينك، فيحل لك ما شئت، ﴿ وكان الله على كل شيء رقيباً ﴾؛ حافظاً ومُطلعاً، وهو تحذير عن مجاوزة حدوده. والله تعالى أعلم.

الإشارة: من نكح أبكار الحقائق العرفانية ودخل بأسرار العلوم اللدنية، لا يحل له أن ينكح ثيبات نساء العلوم الرسمية، ولا أن يتبدل بما عنده من المواهب الربانية، بغيرها من العلوم اللسانية، ولو أعجبك حُسنها ورونقها ـ على الفرض والتقدير ـ؛ إذ التنزل إليها بطالة عند المحققين، إلا ما كنت تملكه قبل علم الحقيقة، فلا بأس أن تنزل إلى تعليمه وإفادته، إن توسعت في علم الباطن، وصرت من الأغنياء الكبار، تُنفق كيف تشاء، فلا يضرك حينئذ التنزل إلى علم الظاهر. وقد كان شيخ شيوخنا سيدي يوسف الفاسي رضي الله عنه عنده مجلسان؛ مجلس لأهل الظاهر، ومجلس لأهل الباطن. فإن كان في مجلس الظاهر، وجاء إليه أحد من الفقراء، يقول: اذهب حتى نأتي إلى مجلسكم، وإن كان في مجلس أهل الباطن، وجاء إليه أحد من أهل الظاهر، قال: اذهب حتى نأتي إليكم. وكان له هذا بعد الرسوخ في علم الحقيقة. وبالله التوفيق.

ولمّا أولَمَ ـ عليه الصلاة والسلام ـ على زينب، جلس قوم في بيته يتحدثون، فأنزل الله تعالى في شأنهم:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ فَٱدۡخُلُواْ فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسۡتَـٔۡنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسۡتَحۡيِۦ مِنكُمۡۖ وَٱللَّهُ لَا يَسۡتَحۡيِۦ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ وَإِذَا سَأَلۡتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسۡـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍۚ ذَٰلِكُمۡ أَطۡهَرُ لِقُلُوبِكُمۡ وَقُلُوبِهِنَّ ... ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتَ النبي ﴾ وكانت تسعاً، ﴿ إلا أن يُؤذَنَ لكم إلى طعام ﴾ أي: إلا وقت أن يؤذن لكم، أو: إلا مأذوناً لكم، فمحلة: (إلا أن يؤذن): في موضع الحال، أو الظرف. و(غير ناظرين): حال من (لا تدخلوا)، وقع الاستثناء على الوقت والحال، كأنه قيل: لا تدخلوا بيوت

النبى إلا وقت الإذن، ولا تدخلوها إلا ﴿غير ناظرين﴾ أى: منتظرين ﴿إنَاهُ﴾ أى: إدراكه ونضجه. قال ابن عزيز: إِناهُ: بلوغ وقته، يقال: أنى يأنى، وآن يئين: إذا شهى، بمنزلة: حان يحين. هـ. وقال الهروى: أى: غير ناظرين نضجه وبلوغ وقته، مكسور الهمزة مقصور، فإذا فتحت مددت، فقلت: الإناء، أى غير ناظرين وقت الطعام وساعة أكله.

رُوى أن النبى ﷺ أوْلَمَ على زينب بتمر وسويق، وذبح شاةً، وأمر أنساً أن يدعوا الناس، فترادفوا أفواجاً، يأكل كل فوج، فيخرج، ثم يدخل فوج، إلى أن قال: يارسول الله دعوتُ حتى ما أجد أحداً أدعوه. فقال: «ارفعوا طعامكم» وتفرق الناس، وبقى ثلاثة نفر يتحدثون، فأطالوا، فقام رسول الله ﷺ ليخرجوا، فطاف بالحجرات، وسلم عليهن، ودعون له، ورجع، فإذا الثلاثة جلوس يتحدثون. وكان ﷺ شديد الحياء، فتولى، فلما رأوه متولياً خرجوا، فنزلت الآية، وهى آية الحجاب. قال أنس: فضرب بينى وبينه الحجاب(١).

قال تعالى: ﴿ولكن إذا دُعيتم فادخلوا، فإذا طَعِمْتُم فانتشروا﴾: تفرقوا، ﴿ولا مستأنسين لحديث﴾ أى: ولا تدخلوها حال كونكم مستأنسين لحديث، أو: غير ناظرين ولا مستأنسين، فهو منصوب، أو مجرور، عطف على «ناظرين»، نُهوا أن يُطيلوا الجلوس فى بيته ﷺ مستأنسين بعضهم ببعض، لأجل حديث يتحدثون به، ﴿إن ذلكم كان يُؤذي النبيَّ فيستَحْي منكم﴾؛ من إخراجكم؛ ﴿والله لا يستحي من الحق﴾، يعنى أن إخراجكم حق، ما ينبغى أن يُستحى منه، ولا يُترك بيانه، حياءً، أو: لا يأمر بالحياء فى الحق، ولا يَشرع ذلك.

﴿وإذا سألتموهنَّ﴾ أى: نساء النبى ﷺ، بدلالة البيوت عليهن؛ لأن فيها نساءه، ﴿متاعاً﴾؛ عارية أو حاجة، ﴿فاسألوهنَّ من وراءِ حجاب﴾؛ ستر، ﴿ذلكمْ أطهرُ لقلوبكم وقلوبهنَّ﴾ من خواطر الشيطان وعوارض الفتن. وكانت النساء قبل هذه الآية يبرزن للرجال، وكان عمر رضي الله عنه يُحب ضَرْبَ الحجاب عليهن، ويودّ أن ينزلَ فيه، وقال: يارسول الله: يدخل عليك البرّ والفاجر، فلو أمرتَ أمهاتَ المؤمنين بالحجاب؟ فنزلت(٢). وقيل: إنه عليه الصلاة والسلام، كان يَطْعَم ومعه بعض أصحابه، فأصابت يدُ رجلٍ يدَ عائشة، فكرِهَ النبىُّ ﷺ ذلك فنزلت الآية(٣). والله تعالى أعلم.

---

(١) أخرجه البخارى فى (التفسير، سورة الأحزاب، ح ٤٧٩٣) وفى (الاستئذان)، ومسلم فى (النكاح، باب زواج زينب بنت جحش ٢/١٠٥٢، ح ٩٥ من كتاب النكاح) من حديث سيدنا أنس رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخارى فى (التفسير، باب: واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى، ح ٤٤٨٣). عن أنس رضي الله عنه.

(٣) أخرجه الطبرى فى التفسير (٢٢/٣٩) والواحدى فى أسباب النزول (ص ٣٧٤) عن مجاهد، مرسلاً.

الإشارة: العلماء ومشايخ التربية ورثة الأنبياء، فإذا دُعوا إلى طعام فلا يدخل أحد حتى يُؤذن له، فإذا طعموا فلينتشروا، وإذا سأل أحدٌ حاجته من أهل دار الشيخ؛ فليسأل من وراء الباب، وليتنح عن مقابلة الباب؛ لئلا يتكشف على عِرض شيخه، فيسيء الأدب معه، وهو سبب الخسران.

ثم نهى عن تزوج نساء النبي ﷺ، فقال:

﴿... وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ إِن تُبْدُوا شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿وما كان لكم أن تُؤذوا رسولَ الله﴾ أي: ما صحَّ لكم إيذاء رسول الله ﷺ، وهو كفر، ﴿ولا أن تَنكِحُوا أزواجَه من بعده أبداً﴾؛ تعظيماً لحرمته ﷺ، ولبقاء عصمته عليهن، ولذلك وجبت نفقتهن بعده، لقوله: «ما بقي بعد نفقة أهلي صدقة». وكذا السكنى كما قد علم، وبه قال ابن العربي. وعَطفُ (ولا أن تنكحوا) على (أن تُؤذوا) من عطف الخاص على العام؛ إذ تزوج نسائه من أعظم الإيذاء. ﴿إنَّ ذلكم﴾ أي: الإيذاء أو التزوج ﴿كان عند الله﴾ ذنباً ﴿عظيماً﴾.

﴿إن تُبدوا شيئاً﴾ من أذى رسول الله ﷺ، أو نكاح أزواجه، ﴿أو تُخفوه﴾ في أنفسكم، ﴿فإنَّ الله كان بكل شيءٍ عليماً﴾، فيُعاقبكم عليه. رُوي أن رجلاً من الصحابة قال: لئن قُبض النبي ﷺ لأنكحنَّ عائشة، فنزلت، فحرّمن(1). وفيه نزلت: ﴿إن تبدوا شيئاً﴾ أي: من نكاح عائشة، ﴿أو تخفوه ...﴾ إلخ. وكان - عليه الصلاة والسلام - ملَك قتيبة بنت الأشعث بن قيس، ولم يبن بها، فتزوجها عكرمة بن أبي جهل، بعد ذلك، فهمَّ به أبو بكر، وشقّ عليه، حتى قال له عمر: ياخليفة رسول الله، ليست من نسائه، ولم يُخيرها، ولم يحجبها، وقد برأها الله منه بالردة، حين ارتدت مع قومها، فسكن أبو بكر: وقال الزهري: إن العالية بنت ظبيان، التي طلق النبيُّ ﷺ تزوجت رجلاً وولدت له قبل أن يحرم أزواج النبي ﷺ(2).

---

(1) ذكره الواحدي في أسباب النزول (ص ٣٧٤) بدون سند. وعزاه السيوطي في الدر المنثور (٥/٤٠٤) لابن مردويه، عن ابن عباس رضي الله عنه.

(2) أخرجه البيهقي في الكبرى (٧/٧٣) عن يونس، عن ابن شهاب، بلاغاً.

الإشارة: مذهب الصوفية تشديد الأدب مع الأشياخ، فإذا مات الشيخ، أو طلَّق امرأة بعد الدخول، فلا يتزوجها أحد من تلامذته أبداً، تعظيماً وأدباً مع الشيخ. وأما تزوج بنت الشيخ فلا بأس، إن قدر على القيام بالأدب معها، والصبر على أذاها، وإلا فالبعد أحسن وأسلم، والله تعالى أعلم.

قال القشيرى: قوله تعالى ﴿إن تبدوا شيئا....﴾ الآية: حِفْظُ القلبِ مع الله تعالى، ومراعاةُ الأمر بينه وبين الله على الصِّحةِ في دوام الأوقاتِ لا يقوى عليه إلا الخواصُّ، من أهل الحضور. هـ.

ثم رخَّص للأقارب أن يدخلوا على أزواج النبى ﷺ، فقال:

﴿ لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ ۗ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿لا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلا أَبْنَائِهِنَّ وَلا إِخْوَانِهِنَّ وَلا أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ وَلا أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ﴾ أن يدخلوا عليهن بلا حجاب. قال ابن عباس: لما نزلت آية الحجاب قال الآباء والأبناء والأقارب: ونحن أيضا نكلمهن من وراء حجاب، فنزلت: ﴿لا جناح...﴾ إلخ، أى: لا إثم عليهن فى أن لا يحتجبن من هؤلاء. ولم يذكر العم والخال؛ لأنهما يجريان مجرى الوالدين. وقد جاء تسمية العم أباً فى قوله تعالى: ﴿نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ..﴾(١) وإسماعيل عم يعقوب، فسمّاه أباً. وذكر القاضى إسماعيل، عن الحسن والحسين: أنهما كانا لا يريان أمهات المؤمنين. وقال ابن عباس: إن رؤيتهما لهن تحل، أى: لأنهما ولدا البعل. قال القاضى: وأحسبُ أن الحسن والحسين ذهبا فى ذلك إلى أن أبناء البعولة لم يُذكروا فى الآية. وقال فى سورة النور: ﴿ولا يبدين زينتهن﴾ إلى قوله: ﴿... أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ﴾(٢)، فذهب ابن عباس إلى ما فى سورة النور، وذهب الحسن والحسين إلى ما فى هذه السورة .هـ.

(١) الآية ١٣٣ من سورة البقرة.
(٢) الآية ٣١ من سورة النور.

﴿ ولا نسائِهن ﴾ أى: نساء المؤمنات، فلا حجاب عليهن، ﴿ ولا ما ملكتْ أيمانُهنّ ﴾ من العبيد والإماء. وقيل: من الإماء خاصة، وأما العبيد فهم كالأجانب. وهو المشهور، ﴿ واتقينَ الله ﴾ فيما أُمِرتُن به من الحجاب، وما نزل فيه الوحى من الاستتار، واحتطن فى ذلك. ونقل الكلام فيه من الغيبة إلى الخطاب لشدة التهديد، ولذا قال: ﴿ ان الله كان على كل شيءٍ شهيداً ﴾ ؛ عالماً؛ يعلم خطرات القلوب وهواجسها، فيعاتب عليها.

الإشارة: ما قيل فى أزواج النبى ﷺ يُقال فى نساء المشايخ والعلماء، فتحتجبن من جميع الخلق، إلا من محارمهن، ولا يمنعهن من إدخال محارمهن عليهن إلا جامد أو جاهل، ولا ينبغى لأحد أن يمنع زوجه من لقاء محرمها والدخول عليها إلا لفساد بيّن. وبالله التوفيق.

ثم أمر بالصلاة على رسوله ﷺ وحضّ عليها، بعد أن أمر بتعظيمه واحترامه، فقال:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ٥٦ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ إن اللهَ وملائكتَه يُصلُّون على النبي ﴾ ؛ يعتنون بإظهار شرفه وتعظيم شأنه. وقال صاحب المُغني: الصواب عندى: أن الصلاة لغة بمعنى واحد، وهو العطف، ثم العطف بالنسبة إلى الله تعالى: الرحمة، وإلى الملائكة: الاستغفار، وإلى الآدميين: دعاء. واختاره السُهيلى قبله. والمراد بالرحمة منه تعالى غايتها، وهو إفاضة الخير والإحسان، لا رقة القلب، الذى هو معنى الرحمة حقيقة. ﴿ ياأيها الذين آمنوا صلّوا عليه ﴾ أى: قولوا: اللهم صلِّ على محمد ـ أو: صلى الله على محمد. ﴿ وسلّموا تسليماً ﴾ أى: قولوا: اللهم سلّم على محمد، أو: صلِّ وسلّم على محمد، أو: انقادوا لأمره وحكمه، انقياداً كلياً.

وعن كعب بن عُجْرَة: قلنا: يارسول الله، أما السلام عليك، فقد عرفناه، فكيف الصلاة عليك؟ قال: « قولوا اللهم صلِّ على مُحمدٍ وعلى آل محمد، كما صلّيْت على ابراهيم، إنك حميدٌ مجيدٌ، اللهمَّ بارِكْ على محمدٍ وعلى آل محمدٍ، كما بارَكْت على إبراهيمَ، إنك حميد مجيد»(١). ومعرفتهم السلام من التشهد. والصلاة على غير الأنبياء

---

(١) أخرجه البخارى فى (التفسير ـ سورة الأحزاب، باب: ﴿إن الله وملائكته يُصلون على النبى﴾ ح ٤٧٩٧).

بالتبع جائزة. وأما بالاستقلال فمكروه، وهو من شعار الروافض .هـ. قال الكواشي: رُوِي أنه قيل يارسول الله: أرأيت قول الله تعالى:﴿إن الله وملائكته يُصلُّون على النبى..﴾ الآية؟ فقال: هذا من العلم المكنون، ولولا أنكم سألتمونى عنه ما أخبرتكم، إن الله وكَل بى ملكين، فلا أُذكر عند عبدٍ مسلمٍ، فيُصلى علىّ، إلا قال ذانك الملكان: غفر الله لك، وقال الله وملائكته جواباً لذينك الملكين: آمين. ولا أُذكر عند عبد مسلم، فلا يُصلى علىّ إلا قال ذانك الملكان: لا غفر الله لك. وقال الله جوابا لذينك الملكين: آمين(١) .هـ.

والصلاة على النبى ﷺ واجبة. فمنهم من أوجبها عند ذكره كلما ذكر، وعليه الجمهور، وهو الاحتياط للحديث المتقدم. ولقوله ﷺ: «مَن ذُكرتُ عنده فلم يُصلِّ علىَّ دَخَلَ النار». ومنهم من أوجبها فى كل مجلس مرة، وإن تكرر ذكره، كتشميت العاطس وآية السجدة. ومنهم من أوجبها مرة فى العمر. قالوا: وكذلك الخلاف فى إظهار الشهادتين، وأما ذكرها فى الصلاة فليست شرطاً عند أبى حنيفة ومالك، خلافاً للشافعى، والاحتياط: الإكثار منها بغير حصر، ولا يغفل عنها إلا من لا خير فيه. واختلف هل كانت الأمم الماضية متعبدة بالصلاة على أنبيائهم. قال القسطلاني: إنه لم ينقل إلينا ذلك، ولا يلزم من عدم النقل عدم الوقوع.هـ.

الإشارة: اعلم أن الصلاة عليه ﷺ سُلم ومعراج الوصول إلى الله؛ لأن تكثير الصلاة عليه ﷺ تُوجب محبته، ومحبتهُ ـ عليه الصلاة والسلام ـ توجب محبة الله تعالى، ومحبته تعالى للعبد تجذبه إلى حضرته، بواسطة وبغيرها. وأيضاً: الرسول ﷺ وزير مقرب، ومن رام دخول حضرة الملوك يخدم الوزير، ويتقرب إليه، حتى يُدخله على الملِك. فهو ﷺ حجاب الله الأعظم، وبابه الأكرم، فمن رام الدخول من غير بابه طُرد وأُبعد، وفى ذلك يقول ابن وفا:

وأنت بابُ الله، أىّ أمرئ وفاه من غيرك لا يدخل.

وقال الشيخ الجزولى رضي الله عنه فى دلائل الخيرات: وهى من أهم المهمات لمن يريد القرب من رب الأرباب. وقال شارحه: ووجه أهميتها من وجوه، منها: ما فيها من التوسل إلى الله سبحانه بحبيبه ومصطفاه. وقد قال تعالى: ﴿ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ ﴾(٢)، ولا وسيلة إليه أقرب، ولا أعظم ،من رسوله الأكرم ﷺ.

---

(١) قال الهيثمى فى المجمع (٩٣/٧): رواه الطبرانى، وفيه الحكم بن عبدالله بن خطاف، وهو كذّاب.
(٢) من الآية ٣٥ من سورة المائدة.

ومنها : أن الله تعالى أمر بها، وحضَّنا عليها، تشريفاً له وتكريماً، وتفضيلاً لجلاله، ووعد من استعملها حُسن المآب، وجزيل الثواب، فهي من أنجح الأعمال، وأرجح الأقوال، وأزكى الأحوال، وأحظى القربات، وأعم البركات. وبها يتوصل إلى رضا الرحمن، وتنال السعادة والرضوان، وتجاب الدعوات، ويرتقي إلى أرفع الدرجات. وأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام: ياموسى أتُريد أن أكون أقرب إليك من كلامك إلى لسانك، ومن وسواس قلبك إلى قلبك، ومن روحك إلى بدنك، ومن نور بصرك إلى عينيك؟ قال: نعم يارب، قال: فأكثر من الصلاة على محمد ﷺ.

ومنها : أنه ﷺ محبوب لله عز وجل، عظيم القدر عنده، وقد صلَّى عليه هو وملائكتُه، فوجبت محبة المحبوب، والتقرب إلى الله تعالى بمحبته، وتعظيمه، والاشتغال بحقه، والصلاة عليه، والاقتداء بصلاته، وصلاة ملائكته عليه. قلت: وهذا التشريف أتم وأعظم من تشريف آدم عليه السلام، بأمر الملائكة بالسجود له؛ لأنه لا يجوز أن يكون الله مع الملائكة في ذلك التشريف. فتشريف يصدر عنه مع ملائكته أبلغ من تشريف تختص به الملائكة.

ومنها : ما ورد في فضلها، ووعدَ عليها من جزيل الأجر وعظيم القدر، وفوز مستعملها برضا الله، وقضاء حوائج آخرته ودنياه.

ومنها : ما فيها مِن شُكر الواسطة في نعم الله علينا المأمور بشكره، وما من نعمة لله علينا، سابقة ولا لاحقة؛ من نعمة الإيجاد والإمداد، في الدنيا والآخرة، إلا وهو السبب في وصولها إلينا، وإجرائها علينا، فوجب حقه علينا، ووجب علينا في شكر نعمته ألا نفتر عن الصلاة عليه، مع دخول كل نفس وخروجه.

ومنها : ما فيها من القيام برسم العبودية، بالرجوع لِما يقتضي الأصلُ نفيه، فهو أبلغ في الامتثال، ومن أجل ذلك كانت فضيلة الصلاة على النبي ﷺ على كل عمل. والذي يقتضي الأصل نفيه، هو كون العبد يتقرب إلى الله بالاشتغال بحق غيره؛ لأن قولنا: «اللهم صلِّ على محمد» هو الاشتغال بحق محمد ﷺ، وأصل التعبدات: ألا يتقرب إلى الله تعالى إلا بالاشتغال بحقه. ولكن لمَّا كان الاشتغال بالصلاة على محمد بإذن من الله تعالى، كان الاشتغال بها أبلغ في امتثال الأمر، فهي بمثابة أمر الله تعالى للملائكة بالسجود لآدم، فكان شرفهم في امتثال أمر الله، وإهانة إبليس في مخالفة أمره سبحانه.

ومنها : ما جُرب من تأثيرها، والنفع بها في التنوير ورفع الهمة، حتى قيل: إنها تكفي عن الشيخ في الطريق، وتقوم مقامه، حسبما نقله الشيخ السنوسي، والشيخ زروق، وغيرهما.

ومنها: ما فيها من سير الاعتدال، الجامع لكمال العبد وتكميله، ففي الصلاة على رسول الله ﷺ ذكر الله ورسوله، ولا كذلك عكسه، فلذلك كانت المثابرة على الأذكار والدوام عليها يحصل به الانحراف، وتُكسب نورانية تحرق الأوصاف، وتثير وهجًا وحرارة في الطباع، والصلاة على رسول الله ﷺ تُذهب وهَج الطِّباع، وتقوى النفوس؛ لأنها كالماء البارد، فكانت تقوم مقام شيخ التربية. انتهى كلامه.

قلت: والحق الذي لا غُبار عليه: أن الصلاة عليه ﷺ، والإكثار منها، تدلّ صاحبها على من يأخذ بيده، وتُوصله إلى شيخ التربية، الذي هو خليفة رسول الله ﷺ، إن كان صادق الطلب، وأما كونها تقوم مقام الشيخ في دخول مقام الفناء والبقاء، حتى تعتدل حقيقته وشريعته فلا؛ إذ لا تنقطع رعونات النفوس إلا بآمر وناه من غيره، يكون عالماً بدسائس النفوس وخدعها، وغاية ما توصل إليه الصلاة على رسول الله ﷺ - إن لم يظفر بالشيخ - الفناء في الصفات، وينال مقام الصلاح الأكبر، ويظهر له كرامات وخوارق، ويكون من أرباب الأحوال، وإن وصل إلى مقام الفناء تكون شريعته أكبر من حقيقته.

هذا ما ذقناه، وشهدناه، وسمعناه من أشياخنا، والطريق التي أدركناهم يستعملونها، وأخذناها منهم، أنهم يأمرون المريد إن رأوه أهلاً للتربية أن يلتزم الإسم المفرد، ويفنى فيه، حتى تنهدم به عوالمه، فإذا تحقق فناؤه وغاب عن نفسه ورسمه، ردوه إلى مقام البقاء، وحينئذ يأمرونه بالصلاة على رسول الله ﷺ، لتكون صلاته عليه كاملة، يُصلي على روحه وسره بلا حجاب، ويشاهده في كل ساعة كما يشاهدونه. وبالله التوفيق.

ثم ذكر أهل الغفلة والبُعد، فقال:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿إن الذين يُؤذون اللهَ ورسولَه﴾ بارتكابهم ما يكرهانه من الكفر والمعاصي والبدع. وقال ابن عباس: هم اليهود والنصارى والمشركون. فقالت اليهود: ﴿يد الله مغلولة﴾(١)، ﴿إن الله فقير﴾(٢)

---

(١) كما ذكرت الآية ٦٤ من سورة المائدة. (٢) كما ذكرت الآية ١٨١ من سورة آل عمران

وقالت النصارى: ﴿المسيح ابن الله﴾(١)، ﴿إن الله ثالث ثلاثة﴾(٢). وقال المشركون: الملائكة بنات الله، والأصنام شركاؤه. وقيل: يؤذونه: يلحدون فى أسمائه وصفاته. ويؤذون رسول الله، حين شُج وجهه، وكُسرت رباعيتُه، وقيل له: هو ساحر وشاعر ومجنون. أو: بترك سُنَّته ومخالفة شريعته. ويحتمل أن يكون المراد يؤذون رسولَ الله فقط بالتنقيص، أو بالتعرض لنسائه. وذكرُ اسم الله للتشريف. ﴿لعنَهم اللهُ في الدنيا والآخرة﴾ أى: أبعدهم من رحمته فى الدارين ﴿وأعدَّ لهم عذابًا مهينًا﴾ يُهينهم ويُخزيهم فى النار.

﴿والذين يُؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا﴾؛ بغير جناية يستحقون بها الإيذاء، ﴿فقد احتملوا بُهتاناً﴾؛ كذباً ﴿وإثماً مُبيناً﴾؛ ظاهراً، وإنما أطلق فى إيذاء الله ورسوله، وقيّد إيذاء المؤمنين والمؤمنات؛ لأن إيذاء الله ورسوله لا يكون إلا بغير حق، وأما إيذاء المؤمنين فمنه ما يكون بحق، كالحدّ والتعزير، ومنه باطل. وقيل: نزلت فى ناس من المنافقين، كانوا يؤذون علياً رضي الله عنه، ويُسْمِعُونه، وقيل: فى زُناة المدينة، كانوا يمشون فى طرق المدينة، ويتبعون النساء إذا تبرزن بالليل لقضاء حوائجهن، فيغمزون المرأة، فإن سكتتْ اتبعوها، وإن زجرتهم انتهوا(٣). وعن الفضيل: لا يحلّ أن تؤذى كلباً أو خنزيراً بغير حق، فكيف بالمؤمنين؟ هـ.

الإشارة: إذاية الله ورسوله هى إذاية أوليائه، ونقله الثعلبى عن أهل المعانى، فقال: فأراد الله تعالى المبالغة فى النهى عن أذى أوليائه، فجعل أذاهم أذاه. هـ. ويؤيده الحديث القدسى: «من آذى لى ولياً فقد بارزنى بالمحاربة»(٤)، أو كما سبحانه. وإذاية المؤمنين كثيرة، تكون باللسان وبغيره، وقد قالوا: البَر لا يؤذى الذر. ومن أركان التصوف: كف الأذى، وحمل الجفا، وشهود الصفا، ورمى الدنيا بالقفا. وبالله التوفيق.

ثم أمر بتمييز الحرائر من الإماء فى اللباس، فقال:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ فَلَا يُؤۡذَيۡنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿٥٩﴾ ﴾

---

(١) كما ذكرت الآية ٣٠ من سورة التوبة. (٢) كما ذكرت الآية ٧٣ من سورة المائدة.

(٣) ذكره الواحدى فى أسباب النزول (ص٣٧٧) والبغوى فى التفسير (٦/٣٧٦) عن الضحاك، والسدى، والكلبى.

(٤) أخرجه البخارى فى (الرقاق، باب: التواضع، ح ٦٥٠٢). من حديث أبى هريرة بلفظ: «من عادى لى ولياً فقد آذنته بالحرب..» الحديث وأخرجه الإمام أحمد فى المسند (٦/٢٥٦) من حديث السيدة عائشة ـ رضى الله عنها ـ بلفظ: «من أذل لى ولياً فقد استحل محاربتى...» الحديث.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ يأيها النبي قُل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يُدنين عليهن من جلابيبهن ﴾ أي: يرخين علي وجوههنّ من جلابيبهن فيغطين بها وجوههن. والجلباب: كل ما يستر الكل، مثل الملحفة، والمعنى: قل للحرائر يرخين أرديتهن وملاحفهن ويُغطين بها وجوههن ورؤوسهن، ليعلم أنهن حرائر فلا يؤذين. و﴿ ذلك أدنى ﴾ أي: أقرب وأجدر، ﴿ أن يُعرفن ﴾ من الإماء ﴿ فلا يُؤذَين ﴾، وذلك أن النساء فى أول الإسلام كن على زيهنّ فى الجاهلية متبذّلات، تبرز المرأةُ فى درج وخمار، لا فَصلُ بين الحُرَّة والأَمَة. وكان الفتيان يتعرّضون للإماء، إذا خرجن بالليل لقضاء حاجتهنّ فى النخيل والغيْضات(١)، وكن يخرجن مختلطات مع الحرائر، فربما تعرضوا للحُرّة، يحسبونها أَمَة، فأُمِرن أن يخالفن بزيهنّ عن زى الإماء بلباس الجلابيب، وستر الرؤوس والوجوه، فلا يطمع فيهنّ طامع.

قال ابن عباس رضي الله عنه: أمر الله تعالى نساء المؤمنين أن يغطين رؤوسهن ووجوههن بالجلابيب، ويُبدين عيناً واحدة. قلت: وقد مرّ فى سورة النور(٢) أن الوجه والكفين ليس بعورة، إلا لخوف الفتنة، وأما الإماء فلا تستترن شيئاً إلا ما بين السرة والركبة، كالرجل. قال أنس: مرتْ جارية متقنعة بعمر بن الخطاب فعلاها بالدرة، وقال: يالكاع أنت تشبهين بالحرائر، فألق القناع. ﴿ وكان الله غفوراً ﴾ لِما سلف منهن من التفريط، ﴿ رحيماً ﴾ بتعليمهن آداب المكارم.

الإشارة: ينبغى لنساء الخواص أن يتميزن من نساء العامة؛ بزيادة الصّوْن والتحفظ، وقلة الخروج، فإذا لزمهنّ الخروج، فليخرجن فى لباس خشين، بحيث لا يُعرفن، أو يَخرجن ليلاً. وثبت أن زوجة الشيخ أبى الحسن الشاذلى رضي الله عنه لم تخرج من دارها إلا خرجتن؛ خرْجة حين زُفت إلى زوجها، وخرجة إلى المقابر. نفعنا الله ببركاتهم. آمين.

ثم هدد المنافقين، حيث كانوا [يؤذوان](٣) رسول الله ﷺ والمؤمنين، فقال:

﴿ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا (٦٠) مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا (٦١) سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا (٦٢) ﴾

---

(١) الغَيْضَة: هى الشجر الملتف، وجمعه: غياض وغيضات. انظر اللسان (غيض ٥/٣٣٢٧).
(٢) راجع تفسير الآية ٣١ من سورة النور.
(٣) فى الأصول الخطية [يؤذوا]..

قلت: (لنغرينك): جواب القسم المغني عن جواب الشرط. و(ثم لا يُجاورنك): عطف عليه؛ لأنه يصح أن يُجاب به القسم؛ لصحة قولك: لئن لم ينتهوا لا يُجاورنك، ولَمَّا كان الجلاء عن الوطن أعظم من جميع ما أُصيبوا به عطف بثم، لبُعد حاله عن حال المعطوف عليه. و(ملعونين): نصب على الشتم أو الحال، والاستثناء دخل على الظرف والحال معاً، أى: لا يُجاورنك إلا قليلاً فى اللعنة والبُعد، ولا يصح نصبه بأُخذوا؛ لأن ما بعد حرف الشرط لا يعمل فيما قبله.

يقول الحق جل جلاله: ﴿لئن لم ينته المنافقون﴾ عن نفاقهم وإيذائهم، ﴿والذين في قلوبهم مرض﴾؛ فجور، وهم الزناة من قوله: «فيطمع الذى فى قلبه مرض». ﴿والمُرجِفُون في المدينة﴾، وهم أُناس كانوا يُرجفون بأخبار السوء فى المدينة، من سرايا رسول الله ﷺ، فيقولون: هُزموا وقُتلوا، وجرى عليهم كيت وكيت، فيكسرون بذلك قلوبَ المؤمنين. يقال: رجف بكذا: إذا أخبر به على غير حقيقته؛ لكونه خبراً مزلزلاً غير ثابت، من: الرجفة، وهى الزلزلة، ﴿لَنُغرينَّك بهم﴾: لنأمرنك بقتالهم وإجلائهم، أو ما يضطرهم إلى طلب الجلاء، أو: لنُسلطنك عليهم، ﴿ثم لا يُجاورونك فيها﴾؛ فى المدينة ﴿إلا﴾ زمناً ﴿قليلا﴾.

والمعنى: لئن لم ينته المنافقون عن عداوتهم وكيدهم، والفسقة عن فجورهم، والمرجفون عما يُلقون من أخبار السوء، لنأمرنك بأن تفعل بهم الأفاعيل التى تسوءهم، بأن تضطرهم إلى طلب الجلاء من المدينة، وألاَّ يُساكنوك فيها إلاَّ زمناً قليلا، ريثما يرتحلون. فسمّى ذلك إغراء، وهو التحريش، على سبيل المجاز. حال كونهم ﴿ملعونين﴾ أى: لا يجاورونك إلا ملعونين، مُبعدين عن الرحمة ﴿أينما ثُقِفُوا﴾؛ وُجدوا، ﴿أُخذوا وقُتِلوا تقتيلاً﴾، والتشديد للتكثير.

﴿سُنَّةَ الله﴾ أى: سَنَّ الله ذلك سُنَّة ﴿في الذين خَلَوا من قبلُ﴾ فى المنافقين الذين كانوا يُنافقون الأنبياء من قبل، ويسعون فى وهنهم بالإرجاف ونحوه أن يقتلوا أينما وُجدوا، ﴿ولن تجد لسُنَّة الله تبديلاً﴾ أى: لا يُبدل الله سُنَّته ولا يقدر أحد أن يبدلها، بل يُجريها مجرىً واحداً فى الأمم كلهم.

قال ابن جزى: تضمنت الآية وعيد هؤلاء الأصناف إن لم ينتهوا، ولم ينفُذ الوعيد فيهم. ففى ذلك دليل على بطلان القول بوجوب إنفاذ الوعيد فى الآخرة. وقيل: إنهم انتهوا وستروا أمرهم؛ فكف عنهم إنفاء الوعيد.هـ.

الإشارة: منافقو الصوفية هم الذين ينتسبون إلى الصوفية، ويدّعون محبة القوم، وهم يعترضون على الفقراء، ويرفعون الميزان عليهم، وهم الذين فى قلوبهم مرض، أى: حيرة وضيق من غم الحجاب؛ إذ لو ارتفع عنهم

الحجاب لم يعترضوا على أحد، وهم المرجفون بأهل النسبة، إذا سمعوا شيئاً يسوؤهم أفشوه، وأظهروا الفرح. لئن لم ينتهوا عن ذلك ليُسلطن الله عليهم من يُخرجهم من النسبة بالكلية، ثم لا يبقون فيها إلا قليلاً، ممقوتين عند أهل التحقيق، أينما وُجدوا، أُخذوا بالفعل أو بالقول فيهم. وقد ألّف بعض الفقهاء تأليفاً في الرد على الفقراء، فسلط الله عليه من أهانه، ووَسَمه بالبلادة والجمود، ولازال مُهاناً أينما ذُكر، والعياذ بالله.

ولما ذكر حال المنافقين، ذكر حال المشركين، لاشتراكهم في الكفر، فقال:

﴿ يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَـٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ يسألكَ الناسُ عن الساعة ﴾، كان المشركون يسألون رسول الله ﷺ عن وقت الساعة، استعجالاً واستهزاءً، واليهود يسألون امتحاناً؛ لأن الله تعالى أخفى وقتها في التوراة وفي كل كتاب، فأمر رسولَه ﷺ أن يجيبهم بأنه علمٌ قد استأثر الله به، ثم بيّن لرسوله عليه الصلاة والسلام - أنها قريبة الوقوع، تهديداً للمستعجلين، وإسكاتاً للممتحنين فقال: **﴿ قُلْ إنما عِلمُها عند الله ﴾**، لم يُطلع عليها ملكاً ولا نبياً. **﴿ وما يُدريكَ لعل الساعة تكونُ قريباً ﴾** أي: شيئاً قريباً، أو: في زمان قريب، فتنتصب على الظرفية، ويجوز أن يكون التذكير؛ لأن الساعة في معنى اليوم أو الزمان.

﴿ إنَّ الله لعنَ الكافرين ﴾؛ أبعدهم عن رحمته، **﴿ وأعدَّ لهم سعيراً ﴾**؛ ناراً شديدة التسعير، أي: الإيقاد، **﴿ خالدين فيها أبداً ﴾**، وهذا يرد مذهب الجهمية في زعمهم أن النار تفنى، و(خالدين): حال مقدرة من ضمير «لهم». **﴿ لا يجدون وليّاً ﴾** يحفظهم، **﴿ ولا نصيراً ﴾** يمنعهم ويدفع العذاب عنهم، وذلك **﴿ يوم تُقلَّبُ ﴾** أو: واذكر **﴿ يومَ تُقلَّبُ وجوهُهم في النار ﴾**؛ تطوف من جهة إلى جهة، كما ترى البضعة(١) من اللحم تدور

(١) البضعة: القطعة. انظر اللسان (بضع، ١/٢٩٦).

فى القِدْرِ إذا غلت. وخصّت الوجوه؛ لأنها أكرم موضع على الإنسان من جسده. أو: يكون الوجه كناية عن الجملة. حال كونهم ﴿ يقولون ياليتنا أطعنا اللهَ وأطعنا الرسولاَ ﴾ فى الدنيا، فنتخلص من هـذا العذاب، فندّموا حيث لم ينفع الندم.

﴿ وقالوا ربنا إنا أطعنـا سادتَنا وكبراءَنا ﴾، والمراد: رؤساء الكُفر، الذين لقنوهم الكفر، وزيّنوه لهم. وقرأ ابن عامر ويعقوب «ساداتنا» بالجمع، جمع: سادة، وسادة: جمع سيد، فهو جمع الجمع، ﴿ فأضلونا السبيلا ﴾ أى: أتلفونا عن طريق الرشد. يقـال: ضلّ السـبيلَ وأضله إياه، وزيادة الألف للإطلاق. ﴿ ربنا آتهم ضعـفين من العذاب ﴾ أى: مثلى ما آتيتنا منه للضلال والإضلال، ﴿ والعنهُم لعناً كثيـراً ﴾(١) كثير العدد، تكثيراً لأعداد اللاعنين، أو: العنهم المرة بعد المرة. وقرأ عـاصم بالبـاء، أى: لعناً هو أشد اللعن وأعظمـه. وهو يدلّ على تعدد الأجزاء والأفراد.

الإشارة: مذهب العباد والزهاد والصالحين: جعل الساعة نُصب أعينهم، لا يغيبون عنها، فهم يجتهدون فى التأهب لها ليلاً ونهاراً. ومذهب العارفين الموحّدين: الغيبة عنها، بالاستغراق فى شهود الحق، فلا يشغلهم الحق، دنيا ولا آخرة، ولا جنة ولا نار؛ لما دخلوا جنة المعارف، غابوا عن كل شىء، فانخلعوا عن الكونين بشهود المكوِّن، وجعلوا الوجـود وجوداً واحداً؛ إذ المتجلى هنا وثَم واحـد. وإذا كان كُبراء الضلال يُضاعَف عذابهم، وكان كبراء الهداية يُضاعف ثوابهم، يأخذون ثواب الاهتداء والإرشاد، فمن دلّ على هُدىً كان له أجره وأجر من اتبعه إلى يوم القيامـة، ومن اهـتدى على يديـه أحد جـرى عليه أجره، وكان فى ميزانه كل من تبعه كذلك، وفى ذلك يقول القائل:

والمرءُ فى مِيـزانه اتباعُهُ فاقدِرْ إذنْ قدر النبّى مُحَمد(٢)

ثم رجع إلى النهى عن إذاية الرسول، فقال:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْ ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ ﴾

(١) قرأ عاصم «كبيرا» بالباء، وقرأ الباقون «كثيرا» بالثاء، من الكثرة. انظر الإتحاف (٢/٣٧٨).
(٢) انظر ديوان البوصيرى (ص ١٢٢)، وفيه:

والمرء فى ميزانه أتباعه فاقدر إذن فضل النبى محمد

يقول الحق جل جلاله: ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذَوْا موسى ﴾ من بنى إسرائيل ﴿ فبرأه الله مما قالوا ﴾. وذلك أن بنى إسرائيل كانوا يغتسلون عرايا، ينظر بعضهم إلى بعض، وكان موسى عليه السلام يستتر لشدة حيائه، فقالوا: ما يمنع موسى من الاغتسال معنا إلا أنه آدر - والأُدْرَة: انتفاخ الأنثيين - أو: به عيب من برص أو غيره، فذهب يغتسل وحده، فوضع ثوبه على حجر، ففرّ الحجر بثوبه، فلجَّ فى أثره يقول: ثَوْبى حَجَر، ثوبى حجر! حتى نظروا إلى سوأته، فقالوا: والله ما بموسى من بأس، فقام الحجر من بعد ما نظروا إليه، وأخذ ثوبه، فطفق بالحجر ضرباً، ثلاثاً أو أربعاً(١).

وقيل: كان أذاهم: ادعاءهم عليه قتل أخيه. قال عليّ رضي الله عنه: صعد موسى وهارون الجبل، فمات هارون، فقالت بنو إسرائيل: أنت قتلته. وكان أشدّ لنا حبا، وألين منك، فآذوه بذلك، فأمر تعالى الملائكة فحملته، حتى مرت به على بنى إسرائيل، وتكلمت الملائكة بمماته، حتى تحققت بنو إسرائيل أنه قد مات، فبرّأ الله موسى من ذلك، ثم دفنوه. فلم يطلع على قبره إلا الرَّخَم(٢) من الطير، وإن الله جعله أصم أبكم(٣)، وقيل: إنه على سرير فى كهف الجبل. وقيل: إن قارون استأجر امرأة مومسة، لتقذف موسى بنفسها على رأس الملأ، فعصمها الله، وبرأ موسى، وأهلك قارون(٤). وقد تقدم.

﴿ وكان عند الله وجيهاً ﴾؛ ذا جاه ومنزلة رفيعة، مستجاب الدعوة. وقرأ ابن مسعود والأعمش «وكان عبداً لله وجيهاً».

﴿ يأيها الذين امنوا اتقوا الله ﴾ فى ارتكاب ما يكرهه، فضلاً عما يؤذى رسوله، ﴿ وقولوا قولاً سديداً ﴾؛ صدقاً وصواباً، أو: قاصداً إلى الحق. والسدادُ: القصدُ إلى الحق والقول بالعدل. والمراد: نهيهم عما خاضوا فيه من حديث زينب من غير قصد وعدل فى القول. والحثُ على أن يُسددوا قولهم فى كل باب؛ لأن حفظ اللسان، وسداد القول رأس كل خير، ولذلك قال: ﴿ يُصلحْ لكم أعمالكم ﴾ أى: يوفقكم لصالح الأعمال، أو: يقبل طاعتكم، ويثيبكم عليها، ﴿ ويغفرْ لكم ذنوبكم ﴾ أى: يمحها.

(١) أخرجه البخارى فى (الأنبياء - باب ٢٨ ح ٣٤٠٤) من حديث أبى هريرة رضي الله عنه.
(٢) الرَّخَم: نوع من الطير معروف، واحدته: «رخمة»، وهو موصوف بالغدر، وقيل بالقذر. انظر النهاية (٢/٢١٢).
(٣) أخرجه ابن جرير (٢٢/٥٢) والحاكم وصححه ( )، وانظر الدر المنثور (٥/٤١٩).
(٤) ذكره البغوى فى التفسير (٦/٣٧٩) عن أبى العالية.

والمعنى: راقبوا الله فى حفظ ألسنتكم، وتسديد قولكم، فإنكم إن فعلتم ذلك أعطاكم ماهو غايةُ الطَّلِبة؛ من تقبل حسنَاتكم، ومن مغفرة سيئاتكم. وهذه الآية مقررة للتى قبلها، فدلت تلك على النهى عما يؤذى رسول الله ﷺ، وهذه على الأمر باتقاء الله فى حفظ اللسان، ليترادف عليها النهى والأمر، مع اتباع النهى ما يتضمن الوعيد من قصة موسى عليه السلام، واتباع الأمر الوعد البليغ بتقوى الله الصارف عن الأذى والداعى إلى تركه.

ثم وعدهم بالفوز العظيم بقوله: ﴿ ومن يُطع اللهَ ورسولَه ﴾ فى الأوامر والنواهى ﴿ فقد فاز فوزاً عظيماً ﴾، يعيش فى الدنيا حميداً، وفى الآخرة سعيداً. جعلنا الله منهم، آمين.

الإشارة: فى الآية تسلية لمن أوذى من الأولياء بالتأسى بالأنبياء. رُوى أن موسى عليه السلام قال: يارب احبس علىَّ ألسنة الناس، فقال له: هذا شيء لم أصنعه لنفسى، فكيف أفعله بك. وأوحى تبارك وتعالى إلى عزير: إن لم تطِبْ نفساً بأن أجعلك علكاً فى أفواه الماضغين، لم أثبتك عندى من المتواضعين.هـ.

واعلم أن تعظيم الرسول ﷺ هو سبب السعادة والفوز الكبير، وتعظيم أولياء الله وخدمتهم هو سبب الوصول إلى الله العلى الكبير، وتقوى الله أساس الطريق، وحفظ اللسان وتحرى القول السديد هو سبب الوصول إلى عين التحقيق. قال الشيخ زروق رضي الله عنه فى بعض وصاياه - بعد كلام -: ولكن قد تصعب التقوى على النفس؛ لاتساع أمرها، فتوجّهْ لترك العظائم والقواعد المقدور عليها، تُعَنْ على ما بعدها، وأعظم ذلك معصية: الغيبة قولاً وسماعاً، فإنها خفيفة على النفوس؛ لإلْفها، مستسْهلة؛ لاعتيادها، مع أنها صاعقة الدين، وآفة المذنبين، مَن اتقاها أفلح فى بقية أمره، ومَن وقع فيها خسر فيما وراءها. قال الله تعالى: ﴿ ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً يُصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم... ﴾ الآية، فجعل صلاحَ العمل متوقفاً على سداد القول، وكذلك ورد: أن الجوارح تُصبح تشتكى اللسان، وتقول: اتق الله فينا، فإنك إن استقمت استقمنا، وإن اعوججت اعوججنا. فلا تهمل يا أخى لسانك، وخصوصاً فى هذه الخصلة، فتورع فيها أكثر ما تورعُ فى مأكلك ومشربك، فإذا فعلت طابت حياتك، وكفيت الشواغب، ظاهراً وباطنا.هـ.

فإذا تحققت بالتقوى، وحصنّت لسانك بالقول السديد، كنت أهلاً لحمل الأمانة، كما قال تعالى:

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا
وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ

﴿وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَـٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿إنا عرضنا الأمانةَ على السماواتِ والأرضِ والجبالِ﴾، الأمانة هنا هى التوحيد فى الباطن، والقيام بوظائف الدين فى الظاهر، من الأوامر والنواهى، فالإيمان أمانة الباطن، والشريعة بأنواعها كلها أمانة الظاهر، فمَن قام بهاتين الخصلتين كان أميناً، وإلا كان خائناً. والمعنى: إنا عرضنا هذه الأمانة على هذه الأجرام العظام، ولها الثواب العظيم، إن أحسنت القيام بها، والعقاب الأليم إن خانت، فأبتْ وأشفقتْ واستعفتْ منها، مخافةَ ألاَّ تقدر عليها، فطلبتْ السلامة، ولا ثواب ولا عقاب. وهذا معنى قوله: ﴿فأبَيْنَ أن يحْمِلنَها وأشفقنَ منها﴾. فيحتمل أن يكون الإباء بإدراكٍ، خلقه الله فيها، وقيل: أحياها وأعقلها، كقوله: ﴿ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾(١). ويحتمل أن يكون هذا العرض على أهلها من الملائكة والجن.

وقال شيخ شيوخنا سيدى عبد الرحمن الفاسي: وقد يقال: الأمانة هى ما أخذ عليهم من عهد التوحيد فى الغيب بعد الإشهاد لربوبيته، وينظر لذلك قوله: «لن يسعنى أرضى ولا سمائى ووسعنى قلب عبدى المؤمن». وأما حملها على التكاليف فلا يختص بالآدمى؛ لأن الجن أيضا مكلف، ومناسبة الآية لِمَا قبلها: أن الوفاء بها من جملة التقوى المأمور بها.هـ.

وقيل: لم يقع عَرض حقيقةً، وإنما المقصود: تعظيم شأن الطاعة، وسماها أمانة من حيث إنها واجبة الأداء. والمعنى: أنها لعظمة شأنها لو عُرضت على هذه الأجرام العظام، وكانت ذا شعور وإدراك، لأبيْن أن يحملْنها، وأشفقن منها، وحملها الإنسان، مع ضعف بنيته، ورخاوة قوته، لا جرم، فإن الراعى لها، والقائم بحقوقها، بخير الدارين.هـ. قاله البيضاوى. والمراد بالإباية: الاستعفاء، لا الاستكبار، أى: أشفقن منها فعفا عنهن وأعفاهن.

﴿وحَمَلَها الإنسانُ﴾ أى: آدم. قيل: فما تم له يوم من تحملها حتى وقع فى أمر الشجرة، وقيل: جنس الإنسان، وهذا يناسب حملَ الأمانة على العهد الذى أخذ على الأرواح فى عالم الغيب. ﴿إنه كان ظلوماً جهولاً﴾ حيث تعرض لهذا الخطر الكبير، ثم إن قام بها ورعاها حق رعايتها خرج من الظلم والجهل، وكان صالحاً أميناً

(١) الآية ١١ من سورة فصلت.

عدولاً، وإن خانها ولم يقم بها، كان ظلوماً جهولاً، كلٌ على قدر خيانته وظُلمه، فالكفار خانوا أصل الأمانة، وهى الإيمان فكفروا، ومن دونهم خانوا بارتكاب المناهي أو ترك الطاعة، فبعضهم أشد، وبعضهم أهون، وكل واحد عقوبته على قدر خيانته.

ثم علل عرضها، وهو: لتقوم الحجة على عباده، فقال: ﴿ لِيُعذبَ اللهُ المنافقين والمنافقاتِ والمشركينَ والمشركاتِ ﴾؛ حيث لم يقوموا بها، وخانوا فيها، فتقوم الحجة عليهم، ولا يظلم ربك أحدا. وقال أبو حيان: اللام للصيرورة والعاقبة. وقال أبو البقاء: اللام متعلق بحمَلَها، وحينئذ تكون للعاقبة قطعاً. ﴿ ويتوبَ اللهُ على المؤمنين والمؤمنات ﴾، حيث حملوا الأمانة، إلا أن العبد لا يخلو من تفريط، قال تعالى: ﴿ كلا لَمَّا يقْض ما أَمَرَه ﴾(١) وقال: ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾(٢) ولذلك قال: ﴿ وكان الله غفوراً رحيماً ﴾، فالغفران لمن لَحِقه تفريط وتقصير، والرحمة لمن اجتهد قدر طاقته، كالأولياء وكبار الصالحين.

والحاصل: أن العذاب لمن تحملها أولاً، ولم يقم بحقها ثانياً. والغفران لمن تحملها وقام بحقها، والرحمة لمن تحملها ورعاها حق رعايتها. والله تعالى أعلم.

الإشارة: الأمانة التى عرضها الله على السموات والأرض والجبال هى شهود أسرار الربوبية فى الباطن، والقيام بآداب العبودية فى الظاهر، أو تقول: هى إشراق أسرار الحقائق فى الباطن، والقيام بالشرائع فى الظاهر، مع الاعتدال، بحيث لا تغلب الحقائق على الشرائع، ولا الشرائع على الحقائق، فلا يغلب السُكْرُ على الصحو، ولا الصحو على السُكْر. وهذا السر خاص بالآدمي؛ لأنه اجتمع فيه الضدان؛ اللطافة والكثافة، النور والظلمة، المعنى والحس، القدرة والحكمة، فهو سماوى أرضي، رُوحاني بشري، معنوي وحسي. ولذلك خصه الله تعالى من بين سائر الأكوان بقوله: ﴿ خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾(٣) أي: بيد القدرة والحكمة، فكان جامعاً للضدين، ملكياً ملكوتياً، حسه حكمة، ومعناه قدرة. وليست هذه المزية لغيره من الكائنات، فالملائكة والجن معناهم غالب على حسهم، فإذا أشرقت عليهم أنوار الحقائق غلب عليهم السكر والهيَمان، والحيوانات والجمادات حسهم غالب على معناهم، فلا يظهر عليهم شيء من الأنوار والأسرار.

---

(١) الآية ٢٣ من سورة عبس. (٢) الآية ٦٧ من سورة الزمر.
(٣) من الآية ٧٥ من سورة (ص).

وهذا السر الذى خُص به الآدمى هو كامن فيه، من حيث هو، كان كافراً أو مؤمنا، كما كَمَن الزبد فى اللبن، فلا يظهر إلا بعد الترييب والضرب والمخض، وإلا بقى فيه كامناً، وكذلك الإنسان، السر فيه كامن، وهو نور الولاية الكبرى، فإذا آمن ووحد الله تعالى، واهتز بذكر الله، وضرب قلبه باسم الجلالة، ظهر سره، إن وجد شيخاً يُخرجه من سجن نفسه وأسر هواه.

وله مثال آخر، وهو أن كمون السر فيه ككمون الحَب فى الغصون قبل ظهوره، فإذا نزل المطر، وضربت الرياح أغصان الأشجار، أزهرت الأغصان وأثمرت، وإليه أشار فى المباحث الأصلية، حيث قال:

وهى من النفوس فى كُمُون ... كما يكون الحب فى الغصون
حتى إذا أرعدت الرعود ... وانسكب الماء ولان العود
وجال فى أغصانها الرياح ... فعندها يرتقب اللقاح

ثم قال:

فهذه فواكه المعارف ... لم تشر بالتالِد أو بالطارف(١)
ما نالها ذو العين والفلوس ... وإنما تُباع بالنفوس

فلا يظهر هذا السر الكامن فى الإنسان إلا بعد إرعاد الرعود فيه، وهى المجاهدة والمكابدة، وقتل النفوس، بخرق عوائدها، وبعد نزول أمطار النفحات الإلهية، والخمرة الأزلية، على يد الأشياخ، الذين أهّلهم الله لسقى هذا الماء، وتجول فى أغصان عوالمه رياح الواردات، وينحط مع أهل الفن، حتى يسرى فيه أنوارهم، ويتأدب بآدابهم، فحينئذ ينتظر لقاح السر فيه، ويجنى ثمار معارفه، وإلا بقى السر أبداً كامناً فيه. وبالله التوفيق، وهو الهادى إلى سواء الطريق. وصلى الله على سيدنا محمد وآله.

❁ ❁ ❁

(١) التالد: المال القديم الأصلى، الذى ولد عندك، وطال فى ملكك. انظر اللسان (تلد، ١/٤٣٩) والطارف والطريف: الحادث من المال، أى: الذى تجدد ملكه، وهو ضد التالد. انظر (طرف، ٤/٢٦٥٧) وانظر شرح الأبيات فى الفتوحات الإلهية (١١٧ ـ ١٢٦).

سورة سبأ

مكية، إلا قوله: ﴿ويرى الذين أُوتوا العلم..﴾ الآية[1]، فاختلف فيه، مكي أو مدني؟ وهي خمس وخمسون آية. ومناسبتها لما قبلها: قوله: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾[2] مع قوله: ﴿الحمد لله الذي له ما في السموات وما في الأرض﴾، وكأنه يشير إلى أنه تعالى غني عمن حمل الأمانة، ومن لم يحملها، فمن حملها فلنفسه، ومن تركها فعليها، وإن الله لغني عن العالمين، ولذلك افتتح بالثناء عليه، فقال:

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١﴾ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿الحمدُ لله﴾، إن أجرى على المعهود فهو بما حمد به نفسه محمود، وإن أجرى على الاستغراق فله لكل المحامد الاستحقاق. واللام في (لله) للتمليك؛ لأنه خالقُ ناطقِ الحمد أصلاً، فكان بملكه مالك للحمد، وللتحميد أهلا، ﴿الذي له ما في السماوات وما في الأرض﴾ خلقاً، ومِلكاً، وقهراً، فكان حقيقاً بأن يُحمد سراً وجهراً، ﴿وله الحمدُ في الآخرة﴾ كما له الحمد في الدنيا؛ إذ النعم في الدارين هو مُوليها والمُنعم بها. غير أن الحمد هنا واجب؛ لأن الدنيا دار التكليف. وثمّ لا؛ لأن الدار دار التعريف، لادار التكليف. وإنما يحمد أهل الجنة سرواً بالنعيم، وتلذذاً بما نالوا من الفوز العظيم، كقوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ..﴾[3] و﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ..﴾[4] فأشار إلى استحقاقه الحمد في الدنيا بقوله: ﴿الحمد لله الذي له ما في السموات وما في الأرض﴾ وأشار إلى استحقاقه في الآخرة بقوله: ﴿وله الحمدُ في الآخرة وهو الحكيمُ﴾ بتدبير ما في السموات والأرض، ﴿الخبيرُ﴾ بضمير من يحمده ليوم الجزاء والعرْض.

﴿يعلمُ ما يَلِجُ﴾: ما يدخل ﴿في الأرض﴾ من الأموات والدفائن، ﴿وما يخرج منها﴾ من النبات وجواهر المعادن، ﴿وما ينزلُ من السماء﴾ من الأمطار وأنواع البركات، ﴿وما يعرجُ﴾؛ يصعد ﴿فيها﴾ من الملائكة والدعوات، ﴿وهو الرحيمُ﴾ بإنزال ما يحتاجون إليه، ﴿الغفورُ﴾ بما يجترئون عليه. قاله النسفي.

---

(1) الآية ٦ من السورة.
(2) الآية ٧٢ من سورة الأحزاب.
(3) من الآية ٧٤ من سورة الزمر.
(4) من الآية ٣٤ من سورة فاطر.

الإشارة: المستحق للحمد هو الذي بيده ما في سماوات الأرواح؛ من الكشوفات وأنواع الترقيات، إلى ما لا نهاية له، من عظمة الذات، وبيده ما في أرض النفوس؛ من القيام بالطاعات وآداب العبودية وتحسين الحالات، وما يلحق ذلك من المجاهدات والمكابدات، وبيده ما يتحفهم به في الآخرة، من التعريفات الجمالية، والفتوحات الربانية، والترقي في الكشوفات السرمدية. فله الحمد في هذه العوالم الثلاثة؛ إذ كلها بيده، يخص بها من يشاء من عباده، مع غناه عن الكل، وإحاطته بالكل، ورحمته للكل. يعلم ما يلج في أرض النفوس من الهواجس والخواطر، وما يخرج منها من الصغائر والكبائر، أو من الطاعة والإحسان من ذوي البصائر، وما ينزل من سماء الملكوت من العلوم والأسرار، وما يعرج فيها من الطاعات والأذكار، وهو الرحيم بالتقريب والإقبال، الغفور لمساوئ الضمائر والأفعال.

ثم ردّ على من أنكر الآخرة، التي تقدم ذكرها، فقال:

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ ﴾

قلت: (ولا أصغر) و(لا أكبر): عطف على (مثقال)، أو: مبتدأ، وخبره: ما بعد الاستثناء. و(ليجزي): متعلق بقوله: (لتأتينكم)، وتجويز ابن جزي تعلقه بيعزب بعيد؛ لأن الإحاطة بعلمه تعالى ذاتية، والذاتي لا يُعلل، وإنما تعلل الأفعال؛ لجوازها، ويصح تعلقه بما تعلق به (في كتاب) أي: أحصى في كتاب مبين للجزاء.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وقال الذين كفروا ﴾ أي: منكرو البعث. والناطق بهذه المقالة أبو سفيان بن حرب، ووافق عليها غيره، وقد أسلم هو. قالوا: ﴿ لا تأتينا الساعةُ ﴾، وإنما هي أرحام تدفع، وأرض تبلع. قبّح الله رأيهم، وأخلى الأرض منهم. ﴿ قلْ ﴾ لهم: ﴿ بلى ﴾، أبطل مقالتهم الفاسدة ببلى، التي للإضراب، وأوجب ما بعدها، أي: ليس الأمر إلا إتيانها، ثم أعيد إيجابه، مؤكداً بما هو الغاية في التوكيد والتشديد، وهو التوكيد باليمين بالله عز وجل، فقال: ﴿ وربي لَتأتينكم ﴾.

ولمّا كان قيام الساعة من الغيوب المستقبلية الحقية أتبعه بقوله: ﴿ عالمِ الغيبِ ﴾، وقرأ حمزة والكسائى: «علاّم الغيب»، بالمبالغة، يعلم ما غاب فى عالم ملكه وملكوته، ﴿ لا يَعْزُبُ عنه ﴾: لا يغيب عن علمه ﴿ مثقالُ ذرة ﴾: مقدار أصغر نملة ﴿ في السماواتِ ولا في الأرض، ولا أصغرُ من ذلك ﴾ أى: من مثقال ذرة ﴿ ولا أكبرُ إلا في كتاب مبين ﴾؛ فى اللوح المحفوظ، أو فى علمه القديم، وكنّى عنه بالكتاب؛ لأن الكتاب يحصى ما فيه.

قال الغزالى، فى عقيدة أهل السنة: وأنه تعالى عالم بجميع المعلومات، محيط بما يجرى من تخوم الأرض إلى أعلى السماوات، لايعزب عن علمه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء، يعلم دبيب النملة السوداء، على الصخرة الصماء، فى الليلة الظلماء، ويُدرك حركة الذر فى جو السماء، ويعلم السر وأخفى، ويطّلع على هواجس الضمائر، وحركات الخواطر، وخفيات السرائر، بعلم قديم أزلى، لم يزل موصوفاً به فى أزل الأزل. هـ.

ثم علل إتيان الساعة بقوله: ﴿ ليجزيَ الذين آمنوا وعملوا الصالحات، أولئك لهم مغفرةٌ ﴾ لِما اقترفوا من العصيان، وما قصروا فيه من مدراج الإيمان، ﴿ ورزقٌ كريم ﴾ لِما صبروا عليه من مناهج الإحسان. ﴿ والذين سَعَوْ في آياتنا مُعَاجِزين ﴾ بالإبطال وتعويق الناس عنها، ﴿ أولئك لهم عذابٌ من رِجْزٍ أليم ﴾ أى: لهم عذاب من أقبح العذاب مؤلم. ورفع «أليم» مكى وحفص ويعقوب، نعت لعذاب، وغيرهم بالجر نعت لرجز. قال قتادة: الرجز: سوء العذاب(١).

الإشارة: بقدر ما يربو الإيمان فى القلب يعظم الإيمان بالبعث وما بعده، حتى يكون نُصب عين المؤمن، لايغيب عنه ساعة، فإذا دخل مقام العيان، استغرق فى شهود الذات، فغاب عن الدارين، ولم يبق له إلا وجود واحد، يتلون بهيئة الدنيا والآخرة. وفى الحقيقة ما ثَمّ إلا واحد أحد، الأكوان ثابتة بإثباته، ممحوة بأحدية ذاته. كان الله ولاشيء معه، وهو الآن كما كان، ويكون فى المآل كما هو الآن. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر ضدهم، فقال:

﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٦﴾ ﴾

(١) أخرجه الطبرى (٢٢/٦١).

قلت: (ويرى): مرفوع، استئناف، أو منصوب، عطف على (ليجزي). و(الحق): مفعول ثان ليرى العلمية. والمفعول الأول: (الذي أُنزل) وهو ضمير فصل.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وَيَرَى الذين أُوتوا العلم ﴾ من الصحابة، وممن شايعهم من علماء الأمة ومن ضاهاهم، أو علماء أهل الكتاب الذين أسلموا، كعبد الله بن سلام، وكعب الأحبار، أي: يعلمون ﴿ الذي أُنزل إليك من ربك ﴾؛ يعني القرآن ﴿هو الحق﴾، لايرتابون في حقيّته؛ لما انطوى عليه من الإعجاز، وبموافقته للكتب السالفة، على يد من تحققت أميته. أو: ليجزي المؤمنين، وليعلم أولو العلم عند مجيء الساعة أنه الحق، علماً لايزاد عليه في الإيقان، لكونه محل العيان، كما علموه في الدنيا من طريق البرهان. ﴿ ويهدي إلى صراط العزيز الحميد ﴾، وهو دينُ الله، من التوحيد، وما يتبعه من الاستقامة.

الإشارة: أول ما يرتفع الحجاب عن العبد بينه وبين كلام سيده، فيسمع كلامه منه، لكن من وراء رداء الكبرياء، وهو رداء الحس والوهم، فيجد حلاوة الكلام ويتمتع بتلاوته، فيلزمه الخشوع والبكاء والرقة عد تلاوته. قال جعفر الصادق: «لقد تجلى الحق تعالى في كلامه ولكن لاتشعرون». ثم يرتفع الحجاب بينه وبين الحق تعالى، فيسمع كلامه بلا واسطة ولاحجاب، فتغيب حلاوة الكلام في حلاوة شهود المتكلم، فينقلب البكاء سروراً، والقبض بسطاً. وعن هذا المعنى عبّر الصدِّيق عند رؤيته قوماً يبكون عند التلاوة، فقال: «كذلك كنا ولكن قست القلوب»(١) فعبّر عن حال التمكن والتصلب بالقسوة؛ لأن القلب قبل تمكن صاحبه يكون سريع التأثر للواردات، فإذا تمكن واشتد لم يتأثر بشيء. وصراط العزيز الحميد هو طريق السلوك إلى حضرة ملك الملوك. وبالله التوفيق.

ثم ذكر مقالة أخرى للكفرة، فقال:

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي
خَلْقٍ جَدِيدٍ (٧) أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي
الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ (٨) أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ
وَالْأَرْضِ إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي
ذَلِكَ لَآيَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ (٩) ﴾

(١) راجع التعليق على إشارة الآية ٥٨ من سورة مريم.

قلت: (إذا): العامل فيه محذوف، دلّ عيه: ﴿لفى خلق جديد﴾. و(مُمَزَّقٍ): مصدر، أي: تجددون إذا مزقتم كل تمزيق، و(جديد): فعيل بمعنى فاعل، عند البصريين. تقول: جدّ الثوب فهو جديد، أو بمعنى مفعول، كقتيل، من جد النساج الثوب: قطعه. ولا يجوز فتح (إنكم) للاّم في خبره. و(أفْترى): الهمزة للاستفهام، وحذفت همزة الوصل للاستغناء عنها.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وقال الذين كفروا﴾ من منكرى البعث: ﴿هل نَدلُّكم على رجلٍ﴾، يعنون محمداً ﷺ، وإنما نكّروه ـ مع أنه كان مشهوراً علَماً في قريش، وكان إنباؤه بالبعث شائعاً عندهم ـ تجاهلاً به وبأمره. وباب التجاهل في البلاغة معلوم، دال على سحْرها، ﴿يُنَبِّئُكم إذا مُزِّقتمْ كلَّ مُمزَّقٍ إنكم لفي خلقٍ جديدٍ﴾ أي: يحدثكم بأعجوبة من الأعاجيب، إنكم تُبعثون وتنشئون خلقاً جديداً، بعد أن تكونوا رفاتاً وتراباً، وتمزقَ أجسادكم بالبلي، كل تمزيق، وتفرقون كل تفريق، ﴿أفْترَى على الله كذباً﴾ أي: أهو مفترٍ على الله كذباً فيما ينسب إليه من ذلك؟ ﴿أم به جِنَّة﴾: جنون توهمه ذلك، وتلقيه على لسانه. واستدلت المعتزلة بالآية على أن بين الصدق والكذب واسطة، وهو كل خبر لايكون عن بصيرة بالمخبر عنه، وأجيب: بأن الافتراء أخص من الكذب، لاختصاص الافتراء بالتعمد، والكذب أعم. وكأنه قيل: أتعمد الكذب أو لم يتعمد بل به جنون.

قال تعالى: ﴿بل الذي لا يؤمنون بالآخرة في العذاب والضلالِ البعيدِ﴾ أي: ليس محمد من الافتراء والجنون فى شيء، وهو منزه عنهما، بل هؤلاء الكفرة، المنكرون للبعث، واقعون فى عذاب النار، وفيما يؤديهم إليه من الضلال البعيد عن الحق، بحيث لا يرجي لهم الخلاص منه، وهم لا يشعرون بذلك، وذلك أحق بالجنون. جُعل وقوعهم فى العذاب رسيلاً لوقوعهم في الضلال، مبالغة فى استحقاقهم له، كأنهما كائنان فى وقتٍ واحد؛ لأن الضلال، لمّا كان العذاب من لوازمه، جُعلا كأنهما مقترنان. ووَصْف الضلال بالبعيد من الإسناد المجازي؛ لأنّ البعيد فى صفة الضالّ إذا بَعُدَ عن الجادة.

﴿أفلم يَروا إلى مابين أيديهم وما خلفَهُم من السماءِ والأرض، إن نشأ نَخْسِفْ بهم الأرضَ أو نُسْقِطْ عليهم كِسَفاً من السماء﴾ أي: أعموا فلم ينظروا إلى السماء والأرض، وأنهما أينما كانوا، وحيثما ساروا، وجدوهما أمامهم وخلفهم، محيطتان بهم، لايقدرون أن ينفذوا من أقطارهما، وأن يخرجوا عما هم فيه، من ملكوت الله، ولم يخافوا أن يخسفَ الله بهم فى الأرض، أو يسقط عليهم ﴿كِسفاً﴾؛ قطعة، أو قطعاً من السماء بتكذيبهم الآيات، وكفرهم بما جاء به الرسول، كما فعل بقارون وأصحاب الأيكة.

وقرأ حمزة والكسائي «يخسف»، و«يسقط» بالياء(١)؛ لعود الضمير على (الله) فى قوله: ﴿أفترى على الله﴾، وقرأ حفص: «كسَفَا» بالتحريك، جمعاً. ﴿ان في ذلك لآيةً﴾؛ إن فى النظر إلى السماء والأرض والتفكر فيهما،

(١) وكذا قوله: (يشأ). وقرأ الباقون بنون العظمة فى الثلاثة. انظر الإتحاف (٢/٣٨٢).

وما يدلان عليه من كمال قدرته تعالى لدلالةً ظاهرة على البعث والإنشاء من بعد التفريق، ﴿لكل عبدٍ مُنيب﴾؛ راجع بقلبه إلى ربه، مطيع له تعالى، إذ المنيب لايخلو من النظر فى آيات الله، فيعتبر، ويعلم أن من قدر على إنشاء هذه الأجرام العظام، قادر على إحياء الأموات وبعثها، وحسابها وعقابها.

الإشارة: يقول شيوخ التربية: بقدر ما يمزق الظاهر بالتخريب والإهمال؛ يحيى الباطن ويعمر بنور الله، وبقدر ما يعمر الظاهر يخرب الباطن، فيقع الإنكار عليهم، ويقول الجهلة: هل ندلكم على رجل يُنبئكم إذا مُزقتم فى الظاهر كل مُمزَقٍ، يُجدد الايمان والإحسان فى بواطنكم، أفترى على الله كذباً أم به جِنة؟ بل الذى لايؤمنون بالنشأة الآخرة - وهى حياة الروح بمعرفة الله - فى عذاب الحجاب والضلال، عن معرفة العيان بعيد، ماداموا على ذلك الاعتقاد، ثم يهددون بما يُهدد به منكرو البعث. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر تعالى نعمته على داود وسليمان، احتجاجاً على ما منح محمد - عليه الصلاة والسلام - من الرسالة والوحى، رداً لقولهم: ﴿أفترى على الله كذباً﴾، ودلالة على قدرته تعالى على البعث وغيره، فقال:

﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾
أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾

قلت: (ياجبال): بدل من (فضلا)، أو يقدر: وقلنا . و(الطير): عطف على محل الجبال، ومَن رفعه فعلى لفظه.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ولقد آتينا داودَ منا فضلاً﴾ أى: مزية خُصّ بها على سائر الأنبياء، وهو ماجمع له من النبوة، والمُلك، والصوت الحسن، وإلانة الحديد، وتعلم صنعة الزرد، وغير ذلك مما خُص به، أو: فضلاً على سائر الناس بما ذكر، وقلنا: ﴿يا جبالُ أوّبي معه﴾؛ رَجّعى معه التسبيح. ومعنى تسبيح الجبال معه: أن الله تعالى يخلق فيها تسبيحاً، فيسمع منها كما يسمع من المسبّح، معجزة لداود عليه السلام، فكان إذا تخلل الجبال وسبح؛ جاوبته الجبال بالتسبيح، نحو ما سبّح به. وهو من التأويب، أى: الترجيع، وقيل: من الإياب بمعنى الرجوع، أى: ارجعى معه بالتسبيح. ﴿والطيرَ﴾ أى: أوبى معه، أو: وسخرنا له الطير تؤب معه. قال وهب: فكان داود إذا نادى بالنياحة على نفسه، من أجل زلته، أجابته الجبال بصداها ، وعكفت الطير عليه من فوقه، فصدى الجبال الذى يسمعه الناس منها هو من ذلك اليوم(١).

(١) انظر تفسير البغوى (٦/٣٨٨).

قال القشيري: يقال أوحى الله إلى داود عليه السلام: كانت تلك الزلة مباركة عليك، فقال: يارب؛ وكيف تكون الزلة مباركة؟ فقال: كُنتَ تجيء بأقدار المطيعين، والآن تجيء بانكسار المذنبين، ياداود أنين المذنبين أحب إليّ من صراخ العابدين. هـ. مختصراً. وفي هذا اللفظ من قوله: ﴿ياجبال أوبي معه﴾ من الفخامة مالايخفى، حيث جعلت الجبال بمنزلة العقلاء؛ الذين إذا أمرهم بالطاعة أطاعوا، وإذا دعاهم أجابوا، إشعاراً بأنه ما من حيوان وجماد إلا وهو منقادٌ لقدرة الله تعالى ومشيئته. ولو قال: آتينا داود منا فضلاً تأويب الجبال معه والطير؛ لم يكن فيه هذه الفخامة.

﴿ وألنّا له الحديد ﴾ أي: جعلناه له ليناً، كالطين المعجون، يصرفه بيده كيف يشاء، من غير نار ولاضرب بمطرقة، قيل: سبب لينه له: أنه لما ملَك بني إسرائيل، وكان من عادته أن يخرج متنكراً، ويسأل كل من لقيه: ما يقول الناس في داود؟ فيثنون خيراً، فلقي ملكاً في صورة آدمي، فسأله، فقال: نِعْمَ الرجل، لولا خصلة فيه: يأكل ويطعم عياله من بيت المال، فتنبه، وسأل الله تعالى أن يسبب له سبباً يُغنيه عن بيت المال، فألان له الحديد مثل الشمع، وعلمه صنعة الدروع، وهو أول من اتخذها. وكانت قبل ذلك صفائح(١).

ويقال: كان يبيع كل درع منها بأربعة آلاف، فيأكل ويُطعم عياله، ويتصدق على الفقراء والمساكين. وقيل: كان يلين له ولمن اشتغل معه له، قُلت: ذكر ابن حجر في شرح الهمزية أن نبينا ﷺ كان إذا وطئ على صخرة أثر فيها قدمه، وهذا أبلغ من إلانة الحديد؛ لأن لين الحجارة لايعرف بنار، ولابغيرها، بخلاف الحديد. هـ. وفيه: لأن لين الحديد في يد داود عليه السلام لِما أُولي من شدة القوة.

وأمرناه ﴿ أنِ اعمل سَابِغات ﴾ أي: دروعاً واسعة تامة، من: السبوغ، بمعنى الإطالة، ﴿ وقدِّر في السَّردِ ﴾؛ لا تجعل المسامير دقاقاً فيقلق، ولاغلاظاً فتنكسر الحلَق، أو تؤذي لابسها. والتقدير: التوسط في الشيء، والسرد: صنعة الدروع، ومنه قيل لصانعه: السراد والزراد. ﴿ واعملوا صالحاً ﴾ شكراً لما أسدى إليكم. والضمير لداود وأهله. والعمل الصالح: ما يصلح للقبول؛ لإخلاصه وإتقانه، ﴿ إني بما تعملون بصير ﴾ فأجازيكم عليه.

الإشارة: الفضل الذي أُوتيه داود عليه السلام هو كشف الحجاب بينه وبين الكون، فلما شهد المكون، كانت الأكوان معه. «أنت مع الأكوان ما لم تشهد المكون، فإذا شهدت المكون كانت الأكوان معك». ولايلزم من كونها معه في المعنى، بحيث تتعشق له وتهواه، أي: تنقاد كلها له في الحس، بل ينقاد إليه منها ما يحتاج إليه، حسبما تقتضيه الحكمة، وتسبق به المشيئة، فسوابق الهمم لاتخرق أسوار الأقدار. وقوله تعالى: ﴿وألنّا له الحديد﴾ في الظاهر: الحديد

---

(١) ذكر البغوي (٦/٣٨٨) وابن كثير (٣/٥٢٧).

الحسي، وفي الباطن: القلوب الصلبة كالحديد، فتلين لوعظه بالإيمان والمعرفة. وكذا في حق كل عارف تلين لوعظه القلوب، وتقشعر من كلامه الجلود. وهو أعظم نفعاً من لين الحديد الحسي. ويقال له: أن اعمل سابغات، أي: دروعاً تامة، يتحصن بها من الشيطان والهوى، وهو ذكر الله، يستعمله ويأمر به، ذكراً متوسطا، من غير إفراط ممل، ولا تفريط مخل. فإذا انتعش الناس على يده كبُر قدره عند ربه، فيؤمر بالشكر، وهو قوله: ﴿ واعملوا صالحاً إني بما تعملون بصير ﴾. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر سليمان عليه السلام، فقال:

﴿ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ ﴾

قلت: «الريح»: مفعول بمحذوف، أي: وسخرنا له الريح، ومن رفعه؛ فمبتدأ تقدم خبره.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ و ﴾ سخرنا ﴿ لسليمانَ الريحَ ﴾، وهي الصبا، ﴿ غُدُوُّها شهرٌ ورَوَاحُها شهرٌ ﴾ أي: جريها بالغد مسيرة شهر، إلى نصف النهار، وجريها بالعشي كذلك. فتسير في يوم واحد مسيرة شهرين. وكان يغدو من دمشق، مكان داره، فيقيل باصطخر فارس، وبينهما مسيرة شهر، ويروح من اصطخر فيبيت بكابُل، وبيهما مسيرة شهر للراكب المسرع. وقيل: كان يتغدَّى بالريِّ، ويتعشى بسمرقند. وعن الحس: لمَّا عقر سليمان الخيل، غضباً لله تعالى، أبدله الله خيراً منها الريح، تجري بأمره حيث شاء، غدوها شهر ورواحها شهر. هـ(١).

قال ابن زيد: كان لسليمان مركب من خشب، وكان فيه ألف ركن، في كل ركن ألف بيت معه، فيه الجن والإنس، تحت كل ركن ألف شيطان، يرفعون ذلك المركب، فإذا ارتفع أتت الريح الرخاء فتسير به وبهم. قُلت: وقد تقدم أن العاصفة هي التي ترفعه، والرخاء تسير به، وهو أصح. ثم قال: فتقيل عند قوم، وتُمسي عند قوم، وبينهما شهر، فلا يدري القوم إلا وقد أظلهم، معه الجيوش.

(١) عزاه في الدر المنثور (٥/٤٢٧) لعبدالرزاق، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن الحسن.

ويُروى أن سليمان سار من أرض العراق، فقال بمدينة مرو، وصلى العصر بمدينة بلخ، تحمله الريح، وتظله الطير، ثم سار من بلخ متخللاً بلاد الترك، ثم سار به إلى أرض الصين، ثم عطف يُمنة على مطلع الشمس، على ساحل البحر، حتى أتى أرض فارس، فنزلها أياماً، وغدا منها فقال بكسكر، ثم راح إلى اليمن، وكان مستقره بها بمدينة تدمُر، وقد كان أمر الشياطين قبل شخوصه من الشام إلى العراق، فبنوها له بالصفاح، والعُمد، والرخام الأبيض والأصفر. هـ.

قلت: وذكر أبو السعود في سورة «ص» أنه غزا بلاد المغرب الأندلسي وطنجة وغيرهما، والله تعالى أعلم. ووُجدت هذه الأبيات منقورة في صخرة بأرض كسكر، أنشأها بعض أصحاب سليمان عليه السلام:

وَنَحْنُ ولاحَـولٌ سِـوَي حَـوْلِ رَبّنا نَرُوحُ إلى الأَوْطَانِ من أرضِ كسكَرَ
إذ نَحْنُ رُحْنا كـان رَيْثُ رَوَاحنا مـسِـيرة شـهـرٍ والغـدُو لآخـرِ
أُناسٌ أعـزَّ اللهُ طوعـاً نفـوسَـهُم بنصـرِ ابن داودَ النبيِّ المطَهَّـرِ
لَهُمْ فى مَعَالي الدِّين فَضْلٌ ورفعةٌ وإن نُسِبُوا يوماً فَمِنْ خَيْرِ مَعْشَرِ
متى يركب الريحَ المُطيعةَ أسْرَعَتْ مُبَادِرةً عن شهرِهَا لم تُقَصِّرِ
تُظِلُّهُمْ طيـرٌ صُـفُـوفٌ عليْـهِم متى رَفْرَفَتْ مِن فوقِهِمْ لم تُنَفِّرِ(١)

قال القشيري: وفى القصة أنه لاحظ يوماً مُلْكَه، فمال الريحُ، فقال له: استوِ، فقال له مادمت أنت مستوياً بقلبك كنتُ مستوياً لك، فحيث مِلْتَ مِلتُ. هـ.

ثم قال: ﴿ وأسَلْنَا له عينَ القِطْرِ ﴾ أى: معدن النحاس. والقطر: النحاس، وهو الصُفر، ولكنه أذابه له، وكان يسيل فى الشهر ثلاثة أيام، كما يسيل الماء. وكان قبل سليمان لايذوب. قال ابن عباس: كانت تسيل له باليمن عين من نحاس، يصنع منها ما أحب. وقيل: القطر: النحاس والحديد، وما جرى مجرى ذلك، كان يسيل له منه عيون. وقيل: ألانه له كما ألان الحديد لأبيه، وإنما ينتفع الناسُ اليوم بما أجرى الله تعالى لسليمان، كما قيل.

﴿ و ﴾ سخرنا له ﴿ من الجنّ من يعملُ بين يديه ﴾ ما يشاء ﴿ بإذنِ ربه ﴾ أى: بأمر ربه، ﴿ ومن يزغْ منهم عن أمرنا ﴾ أى: ومن يعدل منهم عن أمرنا الذى أمرنا به من طاعة سليمان ﴿ نُذقه من عذاب السعير ﴾: عذاب الآخرة. وقيل: كان معه ملك بيده سوط من نار، فمن زاغ عن طاعة سليمان ضربه بذلك ضربة أحرقته.

(١) انظر الأبيات فى: تفسير القرطبى (٦/٥٥٠٤ ـ ٥٥٠٥) والبحر المحيط (٧/٢٥٤).

﴿ يعملون له ما يشاءُ من محَاريبَ ﴾ أي: مساجد، أو مساكن وقصور، والمحراب: مقدم كل مسجد ومجلس وبيت. ﴿ وتماثيلَ ﴾؛ صور الملائكة والأنبياء، على ما اعتادوا من العبادات، ليراها الناس، فيعبدوا نحو عبادتهم. صنعوا له ذلك في المساجد، ليجتهد الناس في العبادة. أو: صور السباع والطيور، رُوي أنهم عملوا له أسدين في أسفل كُرسيه، ونسْرين فوقه، فإذا أراد أن يصعد بسَط الأسدان له ذراعيهما، وإذا قعد أظله النسران بأجنحتهما. وكان التصوير مباحاً. ﴿ وجِفانٍ ﴾؛ وصحاف، جمع: جفنة، وهي القصعة، ﴿ كالجَوَابِ ﴾؛ جمع جابية، وهي الحياض الكبار. قيل: كان يقعد على الجفنة ألف رجل، يأكلون بين يديه، ﴿ وقدور راسياتٍ ﴾؛ ثابتات على الأثافي، لاتنزل؛ لِعظمها، ولاتعطل؛ لدوام طبخها. وقيل: كان قوائمها من الجبال، يصعد إليها بالسلالم، وقيل: باقية باليمن.

وقلنا: ﴿ اعملوا آلَ داودَ شكراً ﴾ أي: اعملوا بطاعة الله، واجهدوا أنفسكم في عبادته، شكراً لِما أولاكم من نعمه. قال ثابت: كان داود جزأ ساعات الليل والنهار على أهله، فلم تكن تأتي ساعة من ساعات الليل والنهار إلا وإنسان من آل داود قائم يُصلي. هـ(١).

وقال سعيد بن المسيب: لما فرغ سليمان من بيت المقدس انغلقت أبوابه، فعالجها، فلم تنفتح، حتى قال: بصلوات آل داود إلا فُتحت الأبواب، ففتحت، ففرَّغ له سليمان عشرة آلاف من قراء بني إسرائيل؛ خمسة آلاف بالليل، وخمسة آلاف بالنهار، فلا تأتي ساعة من ليل ولا نهار إلا والله عز وجل يُعبد فيها. هـ. وعن الفضيل: (اعملوا آل داود) أي: ارحموا أهل البلاء، وسلوا ربكم العافية.

و(شكراً): مفعول له، أو حال، أي: شاكرين، أو مصدر، أي: اشكروا شكراً؛ لأن «اعملوا» فيه معنى اشكروا، من حيث إن العمل للنعم شكرٌ، أو: مفعول به، أي: إنَّا سخرنا لكم الجن يعملون لكم ما شئتم، فاعملوا أنتم شكراً.

﴿ وقليل من عباديَ الشكورُ ﴾، يحتمل أن يكون من تمام الخطاب لداود عليه السلام، أو خطاب لنبينا ﷺ. والشكور: القائم بحق الشكر، الباذل وسعه فيه، قد شُغل به بقلبه ولسانه وجوارحه في أكثر أوقاته، اعتقاداً واعترافاً وكدحاً. وعن ابن عباس: هو من يشكر على أحواله كلها. وقيل: من شكر على الشكر، ومن يرى عجزه عن الشكر. قال البيضاوي: لأن توفيقه للشكر نعمة، فتقتضي شكراً آخر، لا إلى نهاية، ولذلك قيل: الشكور من يرى عجزه عن الشكر. هـ.

الإشارة: وسخرنا لسليمان ريح الهداية، تهب بين يديه، يُهتدى به مسيرة شهر وأكثر، وأسلنا لوعظه وتذكيره العيون الجامدة، فقطرت بالدموع خُشوعاً وخضوعاً. وكل من أقبل على الله بكليته سخرت له الكائنات، جنها وإنسها، يتصرف بهمته فيها. فحينئذ يقال له ما قيل لآل داود: اعملوا آل داود شكراً. قال الجنيد: الشكر: بذل المجهود بين يدي المعبود. وقال أيضا: الشكر ألا يُعصى الله بنعمه.

---

(١) عزاه السيوطي في الدر (٥/ ٤٣٠) لابن أبي شيبة، وأحمد، في الزهد، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الشُعب، عن ثابت البناني.

والشكر على ثلاثة أوجه: شكر بالقلب، وشكر باللسان، وشكر بسائر الأركان. فشكر القلب: أن يعتقد أن النعم كلها من الله، وشكر اللسان: الثناء على الله وكثرة المدح له، وشكر الجوارح: أن يعمل العمل الصالح. وسئل أبو حازم: ما شكر العينين؟ قال: إذا رأيت بهما خيراً أعلنته، وإذا رأيت بهما شراً سترته، قيل: فما شكر الأذنين؟ قال: إذا سمعت بهما خيراً وعيته، وإذا سمعت بهما شراً دفنته، قيل: فما شكر اليدين؟ قال: ألا تأخذ بهما ماليس لك، ولا تمنع حقاً هو لله فيهما، قيل: فما شكر البطن؟ قال: أن يكون أسفله صبراً، وأعلاه علماً، قيل: فما شكر الفرج؟ قال: كما قال الله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴾ الآية(١)، قيل: فما شكر الرجلين؟ قال: إن رأيت شيئاً غبطته استعملتهما، وإن رأيت شيئاً مقته كففتهما. هـ.

والناس في الشكر درجات: عوام، وخواص، وخواص الخواص. فدرجة العوام: الشكر على النِّعم، ودرجة الخواص: الشكر على النِّعم والنقم، وعلى كل حال، ودرجة خواص الخواص: أن يغيب عن النِعم بمشاهدة المُنعم. قال رجل لإبراهيم بن أدهم: إن الفقراء إذا أُعطوا شكروا، وإذا مُنعوا صبروا، فقال: هذه أخلاق الكلاب عندنا، ولكن الفقراء إذا مُنعوا شكروا، وإذا أُعطوا آثروا. هـ.

وهذان الآخران يصدق عليهما قوله تعالى: «﴿وقليل من عبادي الشكور﴾»، وخصه القشيري بالقسم الثالث، فقال: فكان الشاكر يشكر على البَذْلِ، والشكور على المنع، فكيف بالبذل؟ ثم قال: ويقال في ﴿قليل من عبادي الشكور﴾: قليل من يأخذ النعمة مني، فلا يحملها على الأسباب، فيشكر الوسائط ولايشكرني. وفي الحِكَم: «من لم يشكر النعم فقد تعرض لزوالها، ومن شكرها فقد قيدها بعقالها». فالشكر قيد الموجود، وصيد المفقود. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر موت سليمان عليه السلام، فقال:

﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ فلما قَضَيْنَا عليه ﴾؛ على سليمان ﴿ الموتَ مادلّهم ﴾ أي: الجن وآل داود ﴿ على موته إلا دابةُ الأرض ﴾ أي: الأرضة، وهي دويبة تأكل الخشب، ويقال: لها، سُرْفَةَ والقادح. والأرض هنا مصدر: أَرِضَتِ الخشبة، بالبناء للمفعول، أرضًا: أكلتها الأرضة. فأضيفت إلى فعلها وهو الأرض، أي: الأكل.

(١) الآية ٥ من سورة المؤمنون.

٥

﴿ تأكل منسأته ﴾، أى: عصاه، سميت منسأة؛ لأنها تنسى، أى: تطرح ويُرْمى بها. وفيها لغتان؛ الهمز وعدمه، فقرأ نافع وأبو عمرو بترك الهمز، وعليه قول الشاعر:

إذَا دَبَبْتَ على المِنْسَاةِ مِن كِبَرٍ فقَدْ تَبَاعَدَ عنكَ اللهْوُ والغَزَلَ

وقرأ غيرهما بالهمز، وهو أشهر.

﴿ فلما خرّ ﴾؛ سقط سليمانُ ﴿ تَبينتِ الجنُّ ﴾ أى: تحققت وعلمت علماً يقيناً، بعد التباس الأمر على عامتهم وضعفتهم، ﴿ أن لو كانوا يعلمون الغيبَ ما لبثوا ﴾ بعد موت سليمان ﴿ في العذاب المهين ﴾؛ فى العمل الشاق له، لظنهم حياته، فلو كانوا يعلمون الغيب كما زعموا لعلموا موته.

وذلك أن داود عليه السلام أسس بيت المقدس، فى موضع فسطاط موسى عليه السلام، فمات قبل أن يتمه، فوصّى به إلى سليمان، فأمر الشياطين بإتمامه. فلما بقى من عمره سنه، سأل الله تعالى أن يعمّى عليهم موته حتى يفرغوا، ولتبطل دعواهم علم الغيب. وكان عمر سليمان ثلاثاً وخمسين سنة. وملك وهو ابن ثلاث عشرة سنة. فبقى فى ملكه أربعين سنة، وابتدأ بناء بيت المقدس لأربع مضين من ملكه. قال الثعلبى: فبنى سليمان المسجد بالرخام الأبيض والأصفر والأخضر، وعمّره بأساطين المها الصافى، وسقفه بأنواع الجواهر، وفضض سقوفه وحيطانه باللآلئ، وسائر أنواع الجواهر، وبسط أرضه بألواح الفيروزج، فلم يكن فى الأرض أبهى ولا أنور من ذلك المسجد. كان يضيء فى الظلمة كالقمر ليلة البدر(١). ومن أعاجيب ما اتخذ فى بيت القدس، أن بنى بيتاً وطيّن حائطه بالخضرة، وصقله، فإذا دخله الوَرِعُ البار استبان فيه خياله أبيض، وإذا دخله الفاجر استبان فيه خياله أسود، فارتدع كثير من الناس عن الفجور.

قال ﷺ: «لما فرغ سليمانُ من بناء بيت المقدس سأل ربه ثلاثاً، فأعطاه اثنتين، وأن أرجو أنى يكون قد أعطاه الثالثة، سأله حُكماً يُصادفُ حُكْمَهُ، فأعطاه إياه، وسأله مُلكاً لاينبغى لأحد من بعده، فأعطاه إياه، وسأله ألا يأتى أحد هذا البيت يُصلى فيه ركعتين إلا خرج من ذنـوبه كيوم ولدته أمه، وأنا أرجو أن يكون قد أعطاه ذلك»(٢) هـ.

فلم يزل بيت المقدس على ما بناه سليمان عليه السلام حتى خرّبه بخت نصر، وأخذ ما كان فيه من الذهب والفضة واليواقيت، وحمله إلى دار مملكته من العراق.

ثم قال(٣): قال المفسرون: كان سليمان ينفرد فى بيت المقدس السنة والسنتين، والشهر والشهرين، يدخل فيه طعامه وشرابه، فدخله فى المرة التى مات فيها. وكان بدء ذلك أنه لم يكن يوم يصبح فيه إلا نبتت فى بيت

(١) انظر تفسير البغوى (٥/ ٣٩٠).
(٢) أخرجه ابن ماجه فى (الإقامة، باب ما جاء فى الصلاة فى مسجد المقدس ١/ ٤٥٢، ح ١٤٠٨) من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه.
(٣) أى الثعلبى.

المقدس شجرة، فيسألها: ما اسمك؟ فتقول الشجرة: اسمي كذا، فيأمر بها فتقطع، فإن كانت لغرس غرسها، وإن كانت لدواء كُتبت. فبينما هو يصلى ذات يوم إذ رأى شجرة بين يديه، فقال لها: ما اسمك؟ قالت: الخروبة، قال لها: ولأى شيءٍ نَبَتِّ؟ قالت: لخراب هذا المسجد، فقال: ما كان الله ليخربه وأنا حيّ، أنت التى على وجهك هلاكى، وهلاك بيت المقدس، فنزعها وغرسها فى حائط، ثم قال: اللهم أعم عن الجن موتى، حتى يعلم الإنسُ أن الجن لايعلمون الغيب. وكانت الجن تُخبر الإنس أنهم يعلمون أشياء من علم الغيب، ثم دخل المحراب، وقام يصلى على عصاه، فمات(١).

وقيل: إن سليمان قال لأصحابه ذات يوم: قد آتانى الله ما ترون، وما مرّ علىّ يوم فى ملكى بحيث صفا لى من الكدر، وقد أحببتُ أن يكون لى يوم واحد يصفو لى من الكدر، فدخل قصره من الغد، وأمر بغلق أبوابه، ومنع الناس من الدخول عليه، ورفْعِ الأخبار إليه. ثم اتكأ على عصاه ينظر فى ممالكه، إذ نظر إلى شاب حسن الوجه، عليه ثياب بيض، قد خرج عليه من جوانب قصره، فقال: السلام عليك يا سليمان، فقال: عليك السلام، كيف دخلت قصرى؟ فقال: أنا الذى لايحجبنى حاجب، ولا يدفعنى بواب، ولا أهاب الملوك، ولا أقبل الرشا، وما كنتُ لأدخل هذا القصر من غير إذن. فقال سليمان: فمن أذِنَ لك فى دخوله؟ قال: ربه، فارتعد سليمان، وعلِمَ أنه ملك الموت، فقال: يا ملك الموت هذا اليوم الذى أردتُ أن يصفو لى، قال: يا سليمان ذلك اليوم لم يخلق فى أيام الدنيا، فقبض روحه وهو متكىء على عصاه. هـ.

وفى رواية: أنه دعا الشياطين، فبنوا له صرحاً من قوارير، ليس له باب، فقام يُصلى، واتكأ على عصاه، فدخل عليه ملك الموت فقبض روحه(٢). والله تعالى أعلم أىّ ذلك كان. وبقى سليمان ميتاً، وهو قائم على عصاه سنة، حتى أكلت الأَرَضَةَ عصاه. ولم يعلموا منذ كم مات، فوضعوا الأرضة على العصا، فأكلت منها يوماً وليلة، ثم حسبوا على ذلك النحو، فوجدوه قد مات منذ سنة. سبحان الحى الذى لايموت، ولاينقضى ملكه.

الإشارة: كل دولة فى الدنيا تحول، وكل عز فيها عن قريب يزول، فالعاقل من صرف دولته فى طاعته مولاه، وبذل جهده فى محبته ورضاه، فإن كانت قسمته فى الأغنياء كان من الشاكرين، وإن كانت فى الفقراء كان من الصابرين، والفقير الصابر أحظى من الغنى الشاكر، ولذلك ورد أن سليمان عليه السلام آخر من يدخل الجنة من

(١) انظر: تفسير الطبرى (٢٢/٧٥) وتفسير ابن كثير (٣/٥٢٩).
(٢) أخرجه الطبرى (٢٢/٧٥ ـ ٧٦) عن ابن زيد.

الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ، وعبدالرحمن بن عوف آخر من يدخلها من الصحابة ـ رضوان الله عليهم أجمعين. والغنى الشاكر هو الذى يُعطى ولا يُبالى، ويتواضع للكبير والصغير، والوجيه والحقير، والفقير الصابر هو الذى يغتبط بفقره، ويكتمه عن غيره. وبالله التوفيق.

ثم ذكر حال من لم يشكر النعم، فقال:

﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴿١٧﴾ ﴾

قلت: (لسبأ) فيه الصرف، بتأويل الحى، وعدمه، بتأويل القبيلة. و(مسكنهم)، من قرأ بالإفراد وفتح الكاف على القياس فى الإسم والمصدر، كمدخَل، ومن كسره فلغة، والسماع فى المصدر كمسجِد. و(جنتان): بدل من (آية) أو: خبر عن مضمر، أى: هى جنتان. و(أُكل خمْط)[1]، فمن أضافه فإضافة الشىء إلى جنسه، كثوب خز، ومن نوّنه قطعه عن الإضافة، وجعله عطف بيان. أو صفة، بتأويل خمطٍ ببشيع.

يقول الحق جل جلاله: ﴿لقد كان لسبأ﴾، سُئل ﷺ أرجلا كان أو امرأة، أو أرضاً أو جبلاً أو واديا، فقال ﷺ: «هو رجل من العرب، ولد عشرة من الولد، فتيامن ستةٌ، وتشاءم أربعةٌ: فالذين تيامنوا كِنْدة، فكندة، والأشعريون، والأزْد، ومذحج، وأنمارٌ، وحميرٌ، فقال رجل: مَنْ أنمار يا رسول الله؟ قال: منهم خَثْعَمُ وبَجِيلَةُ. والذى تشاءموا: عاملة، وجذام، ولخم، وغسان»[2].

قلت: وسبأ هو ابن يشخب بن يعرب بن قحطان. واختلف فى قحطان، فقيل: هو ابن عابر بن شالح بن أرفخشد بن سام بن نوح. وقيل: هو أخو هود عليه السلام. وقيل: هو هود، بنفسه، وإن هوداً هو ابن عبدالله بن رياح، لا ابن عابر، على الأصح. فهو على هذا القول ابن أرم بن سام. وقيل: قحطان من ولد إسماعيل، فهو ابن أيمن بن

---

(١) قرأ نافع، وابن كثير: «أكل» بسكون الكاف، وبالتنوين، وقرأ ابن عامر، وعاصم، وحمزة، والكسائى، وأبو جعفر: بضم الكاف مع التنوين . وقرأ أبو عمرو: ويعقوب بضم الكاف من غير تنوين. انظر الإتحاف (٢/٣٨٥).

(٢) أخرجه أبو داود فى (الحروف والقراءات ٤/٢٨٨ ح ٣٩٨٨) مختصراً، والترمذي فى (التفسير، باب ومن سورة سبأ ٥/٣٣٦ـ ٣٣٧، ح ٣٢٢٢)، وقال: «حديث حسن غريب»، والحاكم (٢/٢٢٤) عن فروة بن مسيك المرادى.

قيذر بن إسماعيل. وقيل: هو ابنُ الهميْسع ابن أيمن. وبأيمن سميت اليمن، وقيل: لأنها عن يمين الكعبة. هذا والعربُ كلها يجمعها أصلان: عدنان وقحطان، فلا عربى فى الأرض إلا وهو ينتهى إلى أحدهما، فيقال: عدنانى أو قحطانى.

ومن جعل العرب كلها من ولد إسماعيل مرّ على أن قحطان من ذرية إسماعيل، كما تقدم، واختلف فى خزاعة، فقيل: قحطانية، وقيل: عدنانية، وأن جدهم عمرو بن لحى، وأما الأوس والخزرج فهما من ذرية سبأ، نزلت يثرب، بعد سيل العرم، كما يأتى.

قال تعالى: ﴿ لقد كان لسبأٍ في مسكنهم ﴾(١) أى: فى بلدهم، أو أرضهم، التى كانوا مقيمين فيها باليمن، ﴿ آيةٌ ﴾ دالة على وحدانيته تعالى، وباهر قدرته، وإحسانه، ووجوب شكر نعمه، وهى: ﴿ جنتانِ ﴾ أى: جماعة من البساتين، ﴿ عن يمينٍ ﴾ واديهم، ﴿ وشِمَالٍ ﴾؛ وعن شماله. وكل واحدة من الجماعتين فى تقاربها وتصافها كأنها جنة واحدة، كما يكون بساتين البلاد العامرة. قيل: كان الناس يتعاطون ذلك على جنْبتى الوادى، مسيرة أربعين يوماً، وكلها تُسقى من ذلك الوادى؛ لارتفاع سده. أو: أراد بستانين، لكل رجل بستان عن يمين داره، وبستان عن شماله. ومعنى كونهما آية: أن أهلها لمَّا أعرضوا عن شكر النعم سلبهم الله النعمة، ليعتبروا ويتعظوا، فلا يعودوا لِمَا كانوا عليه من الكفر وغمط النعم، فلما أثمرت البساتين؛ قلنا لهم ـ على لسان الرسل المبعوثين إليهم، أو بلسان الحال، أو هم أحقاء بأن يقال لهم ذلك: ﴿ كُلُوا من رزق ربكم واشكرُوا له ﴾ بالإيمان والعمل الصالح، ﴿ بلدةٌ طيبةٌ ﴾ أى: هذه البلدة التى فيها رزقكم بلدة طيبة، ﴿ وربٌ غفورٌ ﴾ أى: وربكم الذى رزقكم وطلب شكركم ربٌ غفور لمن شكره.

قال ابن عباس: كانت سبأ على ثلاثة فراسخ من صنعاء، وكانت أخصب البلاد، فتخرج المرأة على رأسها المكتل، وتسير بين تلك الشجر، فيمتلئ المِكْتَل مما يتساقط فيه من الشجر(٢) ولقد كان الرجل يخرج لزيارة أقاربه، وعلى رأسه مكتل، أو قُفة، أو طبق فارغ، فلا يصل إلى حيث يريد إلا والطبق قد امتلأ فاكهة، مما تسقطه الرياح، دون أن يمد يده إلى شيء من ثمرها. ومن طيبها: أنها لم تُر فى بلدهم بعوضة قط، ولاذباب، ولابرغوث، ولاعقرب، ولاحية. وإذا جاءهم الركب فى ثيابهم القمل والدواب؛ ماتت الدواب والقمل؛ لطيب هواها.

(١) قرأ حمزة، وحفص: (مسكنهم) بسكون السين وفتح الكاف، بلا ألف على الإفراد. وقرأ الكسائى بالتوحيد وكسر الكاف. وقرأ الباقون «مساكنهم» بفتح السين وألف وكسر الكاف على الجمع. وقد سار الشيخ المفسر على قراءة الجمع. انظر الإتحاف (٢/٣٨٤).

(٢) أخرجه الطبرى (٢٢/٧٧) عن قتادة.

﴿ فأَعْرَضوا ﴾ عن الشكر، بتكذيب أنبيائهم، وكفر نعمة الله عليهم. وقالوا: ما نعرف لله علينا من نعمة، عائذاً بالله. قال وهب: بعث الله إلى سبأ ثلاثة عشر نبياً، يدعونهم إلى الله تعالى، فكذَّبوهم(١)، ﴿ فأرسلنا عليهم سيلَ العَرِم ﴾ أي: سيل الأمر العرم، أي: الصعب. من: عَرِم الرجل فهو عارم، وعَرِم: إذا شَرِسَ خُلقه وصعب، أي: أرسلنا عليهم سيلاً شديداً، مزّق سدهم، وغرق بساتينهم. قيل: جمع عرِمة، وهي السد الذي يمسك الماء إلى وقت حاجته.

قال ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: كان هذا السد يسقي جنتها، وبنته بلقيس؛ لأنها لمّا ملكت جعل قومها يقتتلون على ماء مواشيهم، فنهتهم، فأبَوا، فنزلت عن ملكها، فلما كثر الشرُّ بينهم أرادوها أن ترجع إلى مُلكها، فأبت، فقالوا: لترجعي أو لَنقتلنك، فجاءت، وأمرت بواديهم فسُد أعلاه بالعرم، وهو المُسنّاة ـ بلغة حِمْير ـ فسدت ما بين الجبلين بالصخر والنار، وجعلت له أبواباً ثلاثة، بعضها فوق بعض، وبنت من دونه بركة عظيمة، وجعلت فيها اثنى عشر مخرجاً، على عدة أنهارهم. فلما جاء المطر اجتمع ماء الصخر وأودية اليمن، فاحتبس السيل من وراء السدّ، ففتحت الباب الأعلى، وجرى ماؤه في البركة، وألقت البقر فيها، فخرج بعض البقر أسرع من بعض، فلم تزل تضيق تلك الأنهار، وترسل البقر في الماء، حتى خرجت جميعاً معاً، فكانت تقسمه بينهم على ذلك، حتى كان من شأنها وشأن سليمان ماكان. فكانوا يسقُون من الباب الأعلى، ثم من الثاني، ثم من الأسفل، فلا ينفد حتى يثوب الماء من السنة المقبلة. فلما كفروا وطغوا، سلط الله عليهم جرذا، يُسمى الخلد ـ وهو الفأر ـ فنقبه من أسفله، فغرّق الماء جنتهم، وخرّب أرضهم. هـ(٢).

قال وهب: وكانوا يزعمون أنهم يجدون في عِلْمِهم وكهانتهم أنه يُخرب سدهم فأرة، فلم يتركوا فرجة بين صخرتين إلا ربطوا عندها هِراً، فلما حان ما أراد الله بهم، أقبلت فأرة حمراء، إلى بعض تلك الهِرر، فساورتها - أي: حاربتها، حتى استأخرت عنها ـ أي: عن تلك الفرجة - الهرة، فدخلت في الفرجة التي كات عندها، ونقبت السد، حتى أوهنته للسيل، وهم لايدرون، فلما جاء السيل دخل في تلك الخلل، حتى بلغ السد، فخربه، وفاض على أموالهم، فغرقتها، ودفن بيوتهم، ومُزقوا، حتى صاروا مثلاً عند العرب، فقالوا: تفرقوا أيادَي سبأ. هـ(٣).

﴿ وبدلناهم بجنتيهم ﴾ المذكورتين ﴿ جنتين ﴾ أخريَيْن. وتسمية المبدلتين جنتين للمشاكلة وازدواج الكلام، كقوله: ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾(٤). ﴿ ذواتي أُكُلٍ خَمْطٍ ﴾ الأُكل: الثمر المأكول، يخفف ويثقل. والخمط، قال ابن عباس: شجر الأراك(٥)، وقال أبو عبيد: كل شجر مؤذ مشوك. وقال الزجاج: كل شجر مُر. هـ. وفي القاموس:

(١) أخرجه الطبري (٢٢/٧٨).
(٢) ذكره الطبري (٢٢/٧٩) والبغوي (٦/٣٩٤).
(٣) أخرجه الطبري (٢٢/٨٠) بنحوه، عن وهب.
(٤) الآية ٤٠ من سورة الشورى.
(٥) أخرجه الطبري (٢٢/٨١).

الخمط: الحامض المر من كل شيء، وكل نبت أخذ طعماً من مرارة وحموضة، وشجر كالسدرِ، وشجر قاتل، أو كل شجر لاشوك له. هـ. وقرأ البصريان بالإضافة، من إضافة الشيء إلى جنسه، كثوب خز؛ لأن المراد بالأكل المأكول، أي: ذواتي ثمر شجر بشيع. والباقون: بالتنوين، عطف بيان، أو صفة، بتأويل خمط ببشيع، أي: مأكول بشيع. ﴿ وأَثْلٍ ﴾؛ هو شجر يشبه الطرفاء، أعظم منه، وأجود عودا. ﴿ وشيءٍ من سِدْرٍ قليل ﴾. والحاصل أن الله تعالى أهلك أشجارهم المثمرة، وأنبت مكانها الطرفاء والسدر. وإنما قال: السدر، لأنه أكرمُ ما بُدلوا به؛ لأنه يكون في الجنان.

﴿ ذلك جزيناهم بما كفروا ﴾ أي: جزيناهم ذلك بكفرهم، فذلك مفعول مطلق بجزينا، ﴿ وهل يُجازى ﴾(١) هذا الجزاء الكلي ﴿ إلا الكفورُ ﴾ أي: لايجازى بمثل هذا الجزاء إلا من كفر النعمة ولم يشكرها، أو: كفر بالله، أو هل يعاقب؛ لأن الجزاء وإن كان عاماً يستعمل في معنى المعاقبة، [وفي معنى الإثابة](٢)لكن المراد الخاص، وهو المعاقبة. قال الواحدي: وذلك لأن المؤمن يكفر عنه سيئاته، والكافر يجازى بكل سوء عمله. قلت: بل الظاهر المجازاة الدنيوية بسلب النعم، ولا تسلب إلا للكفور، دون الشكور. قاله في الحاشية.

وعن الضحاك: كانوا في الفترة التي بين عيسى ومحمد ـ عليهما السلام. هـ. قلت: ولعلهم استمروا من زمن سليمان إلى أن جاوزوا زمن عيسى عليه السلام.

الإشارة: لكل مريد وعارف جنتان عن يمين وشمال، يقطف من ثمارهما ما يشاء؛ جنة العبودية، وجنة الربوبية، جنة العبودية للقيام بآداب الشريعة، وجنة الربوبية للقيام بشهود الحقيقة، فيتفنن في جنة العبودية بعلوم الحكمة، ويتفنن في جنة الربوبية بعلوم القدرة، وهي أسرار الذات وأنوار الصفات. كُلوا من رزق ربكم حلاوةَ المعاملة في جنة العبودية، وحلاوةَ المشاهدة في جنة الربوبية؛ بلدة طيبة هي جنة الربوبية؛ إذ لا أطيب من شهود الحبيب، ورب غفور لتقصير القيام بآداب العبودية؛ إذ لايقدر أحد أن يحصيها، ولا جزءاً منها. فأعرض أهل الغفلة عن القيام بحقهما، ولم يعرفوهما، فأرسلنا على قلوبهم سيل العرم، وهو سيل الخواطر والوساوس، وخوض القلب في حِس الأكوان، فبدلناهم بجنتيهم جنتين؛ مرارة الحرص والتعب، والهم والشغب. ذلك جزيناهم بكفرهم بطريق الخصوص من أهل التربية، وهل يُجازى إلا الكفور.

---

(١) قرأ حمزة، والكسائي، وحفص، ويعقوب (وهل نجازي) بنون العظمة وكسر الزاي، ونصب «الكفور». وقرأ الباقون (يجازى) بالياء المضمومة، وفتح الزاي، ورفع الكفور. انظر الإتحاف (٢/ ٣٨٥).

(٢) ما بين المعقوفتين زيادة ليست في الأصول. وأثبته لاقتضاء السياق له.

قال القشيرى: ﴿وبدلناهم بجنتيهم جنتين..﴾ الآية، كذلك من الناس من يكون فى رَغَدٍ من الحال، واتصالٍ من التوفيق، وطيب من القلب، ومساعدة من الوقت، فيرتكبُ زَلّةً، أو يتبع شهوةً، ولايعرف قَدْرَ ما يفوته فيفتر عليه الحالُ، فلا وقتَ ولاحالَ، ولاقُربَ ولاوصالَ، يُظْلِمُ عليه النهارُ، بعد أن كانت لياليه مضيئة. وأنشدوا:

مــازلتُ أخـتـال فى زَمـانـىِ حـتـى أَمِنْتُ الزمـان مَكْرَه

طال علينا الصـدودُ حـتـى لم يبق مما شَـهِـدْت ذَرّه(١)

﴿ذلك جزيناهم بما كفروا..﴾ الآية: ما عوقبوا إلا بما استوجبوا، وماسُقُوا إلاَّ ما أفيضوا، ولاوقعوا إلاَّ فى الوَهْدَةِ التى حَفَرُوا، وما قُتِلوا إلا بالسيف الذى صَنَعُوا. هـ.

ثم ذكر سبب تمزيقهم، فقال:

﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وجعلنا بينهم ﴾ أى: بين سبأ ﴿ وبين القرى التي باركنا فيها ﴾ بالتوسعة على أهلها بالنعم والمياه، وهى قرى الشام، ﴿ قُرىً ظاهرةً ﴾؛ متواصلة يُرى بعضها من بعض؛ لتقاربها، فهى ظاهرة لأعين الناظرين، أو: ظاهرة للسابلة، لم تبعد عن مسالكهم حتى تخفى عليهم، وهى أربعة آلاف وسبعمائة قرية متصلة، من سبأ إلى الشام، ﴿ وقدَّرْنا فيها السيْرَ ﴾ أى: جعلنا هذه القرى على مقدار معلوم، يقيل المسافر فى قرية، ويروح إلى أخرى، إلى أن يبلغ الشام. وقلنا لهم: ﴿ سِيرُوا فيها ﴾، ولاقول هناك، ولكنهم لمَّا تمكنوا من السير، ويُسِّرت لهم أسبابه، فكأنهم أُمروا بذلك، فقيل لهم: سيروا فى تلك القرى ﴿ ليالىَ وأياماً آمنينَ ﴾ أى: سيروا فيها إن شئتم بالليل، وإن شئتم بالنهار، فإن الأمن فيها لايختلف باختلاف الأوقات، أو: سيروا فيها آمنين لاتخافوا عدواً، ولاجوعاً، ولاعطشاً، وإن تطاولت مدة سيركم، وامتدت أياماً وليالى. فبطروا النعمة، وسئموا العافية، وطلبوا الكدر والتعب.

---

(١) الأبيات بنحوها فى لطائف الإشارات (١٨١/٣)، وجاءت فى شرح أسماء الله الحسنى/ ١٧٣ مسبوقة ببيت، هو:

يا سائلى كيف كنت بعده؟ لقيت ما ساءنى وسره

﴿ فقالوا ربَّنا باعِدْ بين أسفارِنَا ﴾ قالوا: ياليتها كانت بعيدة، نسير على نجائبنا، ونتخذ الزاد، ونختص بالربح فى تجاراتنا، أرادوا أن يتطاولوا على الفقراء بالركوب على الرواحل، ويختصوا بالأرباح. وقرأ يعقوب «ربُّنا» بالرفع «باعَدَ» بفتح العين، فربنا: مبتدأ، والجملة: خبر، على أنه شكوى منهم ببُعد سفرهم، إفراطاً فى الترفيه وعدم الاعتداد بالنعمة. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وهشام بشد العين، من «بعِّد» المضعف. والباقون بالألف والتخفيف، من: باعد، بمعنى «بعد» المشددة. ﴿ وظلموا أنفسَهم ﴾ بماقالوا، وما طلبوا، ففرّق الله شملهم، كما قال تعالى: ﴿ فجعلناهم أحاديثَ ﴾ يتحدث الناس بهم، ويتعجبون من أحوالهم، ويضرب بهم الأمثال، يقال: تفرقوا أيادى سبأ، وأيدى سبأ، يقال بالوجهين. وفى الصحاح: ذهبوا أيادى سبأ، أى: متفرقين، فهو من المركّب تركيب مزج.

﴿ ومزَّقناهم كل مُمزّقٍ ﴾ أى: فرقناهم كل تفريق، فتيامن منهم ست قبائل، وتشاءمت أربعة، حسبما تقدم فى الحديث. قال الشعبى: أما غسان فلحقوا بالشام، وأما أنمار فلحقوا بيثرب، وأما خزاعة فلحقوا بتهامة، والأزد بنعمان. هـ. قلت: وفيه مخالفة لظاهر الحديث، فإن أنمار جد خثعم وبجيلة، ولم يكونوا فى المدينة.

والذى هو المشهور أن الأوس والخزرج هما اللذان قدِما المدينة، فوجدوا فيها طائفة من بنى إسرائيل، بعد قتلهم للعماليق. وسبب نزولهم بها: أن حَبْرين منهم مرّا بيثرب مع تُبع، فقالا له: نجد فى علمنا أن هذه المدينة مهاجَر نبى، يخرج فى آخر الزمان، يكون سنه كذا وكذا، فاستوطناها، يترصدان خروجه ﷺ، فمن نسلهما بقيت اليهود فى المدينة، والأوس والخزرج هما ابنا حارثة بن ثعلبة بن عمرو بن حارثة بن امرىء القيس بن ثعلبة بن مازن بن الأسد بن الغوث بن بنت مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ. وولد مازن بن الأسد هم غسان، سموا بماء اليمن، شربوا منه. ويقال: غسان: ماء بالشمال شربوا منه، نُسبوا إليه. قال حسان:

أما سألت فإنا معشرٌ نجبٌ الأسْدُ نسبتُنا والماء غسان

﴿ إنَّ في ذلك لآياتٍ لكل صبَّارٍ ﴾ عن المعاصى ﴿ شكورٍ ﴾ للنعم، أو: لكل مؤمن؛ لأن الإيمان نصفان؛ نصفه صبر، ونصفه شكر.

الإشارة: وجعلنا بين السائرين وبين منازل الحضرة المقدسة منازلَ ظاهرة، ينزلوها، ويرحلون عنها، آمنين من الرجوع، إن صدَقوا فى الطلب، وهى منازل كثيرة، وأهمها اثنا عشر مقاماً: التوبة، والخوف، والرجاء، والزهد، والصبر، والشكر، والتوكل، والرضا، والتسليم، والمراقبة، والمشاهدة. ومنازل الحضرة هى الفناء، والبقاء، وبقاء البقاء، والترقي فى معاريج الأسرار والكشوفات، أبداً سرمدا. يقال للسائرين: سيروا فيها، وأقيموا فى كل منزل منها، ليالي وأياماً، حتى يتحقق به نازله، ثم يرحل عنه إلى ما بعده. ثم إن قوماً سئموا من السير وادعوا القوة، فقالوا:

ربنا باعد بين أسفارنا حتى يظهر عزمنا وقوتنا، وظلموا أنفسهم بذلك، ففرقناهم عنا كل تفريق، وعوّقناهم عن السير كل تعويق، ليكون ذلك آية وعبرة لمن بعدهم، فلا يخرجون عن مقام الاستضعاف والمسكنة، والانكسار والذلة، «أنا عند المنكسرة قلوبهم من أجلي».

وسبب الحرمان هو إبليس، كما قال تعالى:

﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وقد صدق[1] عليهم إبليس ظنَّه ﴾، الضمير في «عليهم» لكفار سبأ وغيرهم. وكأن إبليس أضمر في نفسه حين أقسم: ﴿ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾[2] أنه يسلط عليهم، وظن أنه يتمكن منهم، فلما أغواهم وكفروا صدق ظنه فيهم. فمن قرأ بالتخفيف فـ «ظنه»: ظرف، أي: صدق في ظنه. ومن قرأ بالتشديد فظنه مفعول به، أي: وجد ظنه صادقاً عليهم حين كفروا ﴿ فاتَّبعوه ﴾ أي: أهل سبأ ومن دان دينهم، ﴿ إلا فريقاً من المؤمنين ﴾، قللهم بالإضافة إلى الكفار، قال تعالى: ﴿ ولا تَجِدُ أكثرهم شاكرين ﴾[3] وفي الحديث: «ما أنتم في أهل الشرك إلا كشعرة بيضاء في جلد ثور أسود»[4].

﴿ وما كان له عليهم من سلطان ﴾ أي: ما كان لإبليس على من صدق ظنه عليهم من تسلط واستيلاء بالوسوسة، ﴿ إلا لِنَعْلَم ﴾ موجوداً ما علمناه معدوماً ﴿ من يؤمنُ بالآخرةِ ممن هو منها في شك ﴾ أي: إلا ليتعلق علمنا بذلك تعلقًا تنجيزيًا، يترتب عليه الجزاء، أو: ليتميز المؤمن من الشاك، أو: ليؤمن مَن قُدِّر إيمانُه، ويشك من قُدر ضلالُه. ﴿ وربك على كل شيءٍ حفيظٌ ﴾؛ محافظ رقيب، وفعيل ومفاعل أخوان.

الإشارة: كل من لم يصل إلى حضرة العيان صدق عليه بعض ظن الشيطان؛ لأنه لما رأى بشرية آدم مجوفة، ظن أنه يجري معه مجرى الدم، فكل من لم يسد مجاريه بذكر الله، حتى يستولى الذكر على بشريته، فيصير قطعة من نور، فلابد أن يدخل معه بعض وساوسه، ولايزال يتسلط على قلب ابن آدم، حتى يدخل حضرة

(١) قرأ عاصم، وحمزة، والكسائي «صدّق» بتشديد الدال. وقرأ الباقون بالتخفيف. انظر الإتحاف (٢/٣٨٦).
(٢) من الآية ٨٢ من سورة ص. (٣) من الآية ١٧ من سورة الأعراف.
(٤) أخرجه مطولاً البخاري في (الرقاق، باب الحشر، ح ٦٥٢٨) ومسلم في (الإيمان، باب كون هذه الأمة نصف أهل الجنة ١/٢٠٠، ح ٢٢١) من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه.

القدس، فحينئذ يحرس منه، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾(١). وعباده الحقيقيون هم الذين تحرروا مما سواه، فلم يبق لهم فى هذا العالم علقة، وهم المرادون بقوله تعالى: ﴿إلا فريقاً من المؤمنين﴾، وما سلّطه علهم إلا ليتميز الخواص من العوام، فلولا ميادين النفوس، ومجاهدة إبليس، ماتحقق سير السائرين، أى: وما كان له عليهم من تسلط إلا لنعلم علم ظهور من يؤمن بالخصلة الآخرة، وهى الشهود، ممن هو منها فى شك، ﴿وربك على كل شىء حفيظ﴾ يحفظ قلوب أوليائه من استيلاء غيره عليها. وبالله التوفيق.

ولمّا كان تسلط إبليس جله من الشرك، الذى زينّه لهم، رده بقوله :

﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ (٢٢) وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (٢٣) ﴾

قلت: حذف مفعولى زعم، أى: زعمتموهم آلهة تعبدونهم من دون الله، بدلالة السياق عليهما.

يقول الحق جل جلاله: ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿ادعوا الذين زعمتم من دون الله﴾ أى: زعمتموهم آلهة، فعبدتموهم من دون الله، من الأصنام والملائكة، وسميتموهم باسمه، فالتجئوا إليهم فيما يعروكم، كما تلتجئون إليه فى اقتحام الشدائد الكبرى. وانتظروا استجابتهم لدعائكم كما تنتظرون استجابته. وهذا تعجيز وإقامة حجة على بطلان عبادتها. ويُروى أنها نزلت عند الجوع الذى أصاب قريشاً. ثم ذكر عجزهم فقال: ﴿لا يملكون مثقالَ ذرة﴾ من خير أوشر، ونفع أو ضر ﴿في السموات ولا في الأرض، وما لهم فيهما من شِرْكٍ﴾ أى: وما لهم فى هذين العالَمين؛ العلوى والسفلى، من شرك فى الخلق، ولا فى المُلك، ﴿وماله﴾ تعالى ﴿منهم﴾؛ من آلهتهم ﴿من ظهيرٍ﴾؛ معين يعنيه على تدبير خلقه. يريد أنه على هذه الصفة من العجز، فيكف يصحُ أن يُدْعَوا كما يدعى تعالى، أو يُرْجَوا كما يُرجى سبحانه؟

ثم أبطل قولهم :﴿هؤلاء شفعاؤنا عند الله﴾(٢) بقوله: ﴿ولاتنفعُ الشفاعةُ عنده إلا لمن أَذنَ له﴾ تعالى فى الشفاعة، ممن له جاه عنده، كالأنبياء، والملائكة، والأولياء، والعلماء الأتقياء، وغيرهم ممن له مزية عند الله. وقرأ

(١) الآية ٤٢ من سورة الحجر. (٢) من الآية ١٨ من سورة يونس.

أبو عمرو[١] والأخوان بالبناء للمفعول، أى: إلا من وقع الإذن للشفيع لأجله. ثم ردّ على من زعم من الكفار أن الملائكة تشفع، قطعاً لمكانها من الله، فقال: ﴿حتى إذا فُزِّع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق﴾، فحتى: غاية لمحذوف، أى: وكيف تشفع قبل الإذن، وهى فى غاية الخوف والهيبة من الله، إذا سمعوا الوحى صعقوا، ﴿حتى إذا فُزِّع عن قلوبهم﴾ أى: كشف الفزع عن قلوبهم ﴿قالوا ماذا قال ربكم﴾ من الوحى؟ ﴿قالوا الحقَّ﴾، فمن كان هذا وصفه لا يجترىء على الشفاعة إلا بإذن خاص. قال الكواشى: إنه يفزع عن قلوبهم حين سمعوا كلام الله لجبريل بالوحى، قال ﷺ: (إذا أراد الله تعالى أن يوحى بالأمر لأهل السماء أخذت السموات منه رَجْفَةٌ ـ أو قال: رعْدَةٌ شديدةٌ ـ خوفاً من ذلك، فإذا سمع أهل السموات صَعِقُوا، وخَرّوا سُجداً، فيكون أول من يرفع رأسه جبريل، فيُكلمه من وَحْيِه بما أراد، ثم يَمُرُّ على سماءٍ سماء، إلى أن ينزل بالوحى، فإذا مرّ على الملائكة سألوه، ثم قالوا: ماذا قال ربكم؟ فيقول جبريل: قال الحقّ[٢]. نصب المفعول بقالوا، وجمع الضمير تعظيماً لله تعالى.

ثم قال: وفى الحديث: «إذا تكلم الله بالوحى سمع أهل السماء صلصلة، كجر السلسلة على الصفا، فيصعقون، حتىٰ يأتيهم جبريل، فيفزغ عن قلوبهم، ـ أى: يكشف ـ ويخبرهم الخبر، ثم قال[٣]: وقيل المعنى: أنه لايشفع أحد إلا بعد الإذن، ولا يشعر به إلا المقربون؛ لما غشى عليهم من هول ذلك اليوم، فإذا ذهب الفزع عن قلوبهم، قالوا: ماذا قال ربكم فى الشفاعة؟ قالوا الحق، أى: أذن فيها. هـ. ومثل هذا لابن عطية، وتبعه ابن جزى، قال: الضمير فى «قلوبهم»، وفى «قالوا» للملائكة. فإن قيل: كيف ذلك، ولم يتقدم لهم ذكر؟ فالجواب: أنه قد وقعت إليهم إشارة بقوله: ﴿ولاتنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له﴾؛ لأن بعض العرب كانوا يعبدون الملائكة، ويقولون: هؤلاء شفعاؤنا عند الله، فذكر الشفاعة يقتضى ذكر الشافعين، فعاد الضمير على الشفعاء، الذين دلّ عليهم ذكر الشفاعة. هـ.

وقرأ يعقوب وابن عامر «فَزَع» بفتح الفاء بالبناء للفاعل. والتضعيف للسلب والإزالة، أى: سلب الفزع وأزاله عن قلوبهم، مثل: قردت البعير: إذا أزلت قراده، ومن بناه للمفعول فالجار نائب. ﴿وهو العليُّ الكبيرُ﴾ أى: المتعالى عن سمة الحدوث، وإدراك العقول، الكبير الشأن، فلا يقدر أحد على شفاعة بلا إذنه.

(١) فى الأصول [ابن عمرو].

(٢) أخرجه الطبرى (٢٢/٩١) والبغوى فى التفسير (٦/٣٩٨) والبيهقى فى الأسماء والصفات (١/٣٢٦) وابن أبى عاصم فى السنّة (١/٢٢٧) من حديث النواس بن سمعان.

(٣) أى: الكواشى.

الإشارة: كل من آثر شيئاً أو أحبه سوى الله، أو خافه، يقال له: ادعوا الذين زعمتم أنهم ينفعونكم أويضرونكم، من دون الله، ﴿لايملكون مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض...﴾ الآية. وأما محبة الأنبياء والأولياء والعلماء الأتقياء فهى محبة الله، لأنهم يُوصلون إليه، فلم يحبهم أحد إلا لأجل الله، فتنفع شفاعتهم بإذن الله. وقوله: ﴿حتى إذا فُزِّع عن قلوبهم..﴾ الخ، قال الورتجبى: وصف سبحانه أهل الوجد، من الملائكة المقربين، وذلك من صولة الخطاب، فإذا سمعوا كلام الحق، من نفس العظمة، وقعوا فى بحار هيبته وإجلاله، حتى فنوا تحت سلطان كبريائه، ولم يعرفوا معنى الخطاب فى أول وارد السلطنة. فإذا فاقوا سألوا معنى الخطاب من جبريل عليه السلام، فهو من أهل الصحو والتمكين فى المعرفة. هـ.

ثم تمم قوله: ﴿لايملكون مثقالَ ذرةٍ﴾ أى: لا من رزق ولا غيره، فقال:

﴿ ۞ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ قُلْ أَرُونِىَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ ۖ كَلَّا ۚ بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿قلْ﴾ لهم: ﴿من يرزقكم من السماوات والأرض﴾ أى: بأسباب سماوية وأرضية؟ ﴿قل اللهُ﴾ وحده. أمره أن يقرّرهم، ثم أمره بأن يتولى الإجابة والإقرار عنهم، أى: يرزقكم الله لاغيره، وذلك للإشعار بأنهم مقرّون به بقلوبهم، إلا أنهم ربما أبوا أن يتكلموا به، لأنهم إن تفوّهوا بأن الله رازقهم لزمهم أن يقال لهم: فما لكم لاتعبدون من يرزقكم، وتؤثرون عليه من لايقدر على شيء؟

ثم أمره أن يقول لهم بعد الإلزام والإحجاج: ﴿وإنّا أو إياكم لعلى هُدىً أو في ضلالٍ مبين﴾ أى: ما نحن وأنتم على حالة واحدة، بل على حالين متضادين، وأحدنا مهتد، وهو من اتضحت حجته، والآخر ضال، وهو من قامت عليه الحجة. ومعناه: أن أحد الفريقين من الموحدين ومن المشركين لعلى أحد الأمرين من الهدى والضلال. وهذا من كلام المنصف، الذى كل من سمعه، من موالٍ ومعاند، قال لمن خوطب به: قد أنصفك صاحبك. وفى ذكره بعد تقديم ما قدّم من التقرير: دلالة واضحة على مَن هو من الفريقين على الهدى، ومَن هو فى الضلال المبين، ولكن التعريض أوصل بالمجادل إلى الغرض، ونحوه قولك لمن تحقق كذبه: إن أحدنا لكاذب، ويحتمل أن يكون من تجاهل العارف.

قال الكواشي: وهذا من المعاريض، وقد ثبت أن من اتبع محمداً على الهدى، ومن لم يتبعه على الضلال. هـ ويحتمل أن يكون من اللف والنشر المرتب. وفيه ضعف. وخولف بين حرفي الجار، الداخلين على الهدى والضلال؛ لأن صاحب الهدى كأنه مستعل على فرس جواد، يركضُه حيث شاء، والضال كأنه منغمس في ظلام، لايدرى أين يتوجّه.

﴿ قل لاتُسألون عمّا أجرمنا ولانُسأل عما تعملون ﴾ أى: ليس القصد بدعائي إياكم خوفاً من ضرر كفركم، وإنما القصد بما أدعوكم إليه الخير لكم، فلا يُسأل أحد عن عمل الآخر، وإنما يُسأل كل واحد عن عمله. وهذا أيضا أدخل فى الإنصاف، حيث أسند الإجرام إلى أنفسهم، وهو محظورٌ، والعمل إلى المخاطَبين، وهو مأمورٌ به مشكورٌ. ﴿ قل يجمع بيننا ربنا ﴾ يوم القيامة، ﴿ ثم يَفتحُ ﴾ أى: يحكم ﴿ بيننا بالحق ﴾ بلا جور ولاميل، فيدخل المحقّين الجنة، والمبطلين النار، ﴿ وهو الفتاحُ ﴾ ؛ الحاكم ﴿ العليمُ ﴾ بما ينبغى أن يحكم به.

﴿ قل أرونىَ الذى ألحقتم ﴾ أى: ألحقتموهم ﴿ به شركاءَ ﴾ فى العبادة معه، بأى صفة ألحقتموهم به شركاء فى استحقاق العبادة، وهم أعجز شيء. قال القشيرى: كانوا يقولون فى تلبيتهم: لبيك لاشريك لك، إلا شريكاً هو لك، تملكه وماملك؛ لانهماكهم فى ضلالهم، مع تحققهم بأنها جمادات لاتفقه ولاتعقل، ولاتسمع ولاتبصر، ولاشبهة لهم غير تقليد أسلافهم. هـ. ومعنى قوله: (أرونى) مع كونه يراهم: أن يريهم الخطأ العظيم فى إلحاق الشركاء بالله، وأن يطلعهم على [حالة](1) الإشراك به، ولذلك زجرهم بقوله: ﴿ كلا ﴾ أى: ارتدعوا عن هذه المقالة الشنعاء، وتنبهوا عن ضلالكم. ﴿ بل هو الله العزيزُ ﴾ أى: الغالب القاهر، فلا يشاركه أحد، وهو: ضمير الشأن، ﴿ الحكيمُ ﴾ فى تدبيره وصنعه. والمعنى: بل الوحدانية لله وحده ؛ لأن الكلام إنما وقع فى الشركة، ولا نزاع فى إثبات الله ووجوده، وإنما النزاع فى وحدانيته. أى: بل هو الله وحده العزيز الحكيم.

الإشارة: أرزاق الأرواح والأشباح بيد الله، فأهل القلوب من أهل التجريد اشتغلوا بطلب أرزاق الأرواح، وغابوا عن طلب أرزاق الأشباح، مع كونهم مفتقرين إليه، أى: غابوا عن أسبابه. وأهل الظاهر اشتغلوا بطلب أرزاق الأشباح، وغابوا عن التوجه إلى أرزاق الأرواح، مع كونهم أحوج الناس إليه. وكل فريق يرجح ما هو فيه، فأهل الأسباب يعترضون على أهل التجريد، ويرجحون تعاطى الأسباب، وأهل التجريد يرجحون مقام التجريد، فيقولون لهم: وإنا أو أياكم لعلى هُدىً أو فى ضلال مبين. قل: لا تُسألون عما أجرمنا، بزعمكم، من ترك الأسباب، ولانُسأل

(1) فى الأصول [إحالة] والمثبت هو الذى فى تفسير النسفى.

عما تعملون. وسيجمع الله بيننا، ويحكم بما هو الحق، فإن كنتم تعتمدون على الأسباب، وتركنون إليها، فهو شرك، أرونى الذين ألحقتم به شركاء، كلا، بل هو الله العزيز الحكيم، يُعز أولياءه، المتوجهين إليه، الحكيم فى إسقاط من أعرض عنه إلى غيره.

قال القشيرى: ﴿قل يجمع بيننا ربنا﴾، أخبر سبحانه أنه يجمع بين عباده، ثم يعاملهم فى حال اجتماعهم، بغير ما يعاملهم فى حال افتراقهم، وللاجتماع أثرٌ كبيرٌ فى الشريعة، وللصلاة فى الجماعة أثر مخصوص. ثم قال: وللشيوخ فى الاجتماع زوائد، ويستروحون إلى هذه الآية: ﴿قل يجمع بيننا ربنا ثم يفتح..﴾. هـ.

ولمّا ذكر ما منّ به على داود وسليمان، وذكر وبال من لم يشكر النعم، ذكر ما منّ به على نبينا محمد ﷺ من عموم الرسالة والدعوة، فقال:

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوۡمٖ لَّا تَسۡتَـٔۡخِرُونَ عَنۡهُ سَاعَةٗ وَلَا تَسۡتَقۡدِمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾

قلت: «كافة»: حال من «الناس»، على قول الفارسي وابن جنى وابن كيسان، واختاره ابن مالك. وقال الأكثر: إنه حال من الكاف، والتاء للمبالغة، وما قاله ابن مالك أحسن. انظر الأزهرى.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وما أرسلناك إلا كافةً للناس﴾ أى: جميعاً، إنسهم وجنّهم، عَربيهم وعجميهم، أحمرهم وأسودهم. وقدّم الحال للاهتمام. قال ﷺ: «أعطيتُ خمساً لم يُعطهنّ أحدٌ قبلى؛ بعثتُ إلى الأحمر والأسود، وجُعلتْ لى الأرضُ مسجداً وطهوراً، وأُحلت لى الغنائمُ، ولم تُحل لأحدٍ قبلى، ونُصِرْتُ بالرُّعبِ مسيرة شهر، وأُعطِتُ الشفاعة، فادخرتها لأمتى يوم القيامة، وهى إن شاء الله نائلة من لا يشرك بالله شيئا»(١).

أو: وما أرسلناك إلا رسالة عامة لهم، محيطة بهم؛ لأنها إذا عمتهم فقد [كفتهم](٢) أن يخرج منها أحد. وقال الزجاج: معنى الكافة فى اللغة: الإحاطة، والمعنى: أرسلناك جامعاً للناس فى الإنذار والإبلاغ، على أنه حال

(١) أخرجه البخارى فى (التيمم، باب ١ ح ٣٣٥) ومسلم فى (فاتحة كتاب المساجد ومواضع الصلاة ١/ ٣٧٠، ح ٥٢١) من حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنه.

(٢) فى الأصول [كفهم] والمثبت من تفسير أبى السعود.

من الكاف، والتاء للمبالغة، كالراوية والعلامة. حال كونك ﴿ بشيراً ﴾ بالفضل العظيم لمن أقر، ﴿ ونذيراً ﴾ بالعذاب لمن أصرّ، ﴿ ولكنَّ أكثرَ الناس ﴾ أى: الكفرة، ﴿ لايعلمون ﴾ ذلك، فيحملهم جهلهم على مخالفتك.

﴿ ويقولون ﴾ من فرط جلهم: ﴿ متى هذا الوعدُ ﴾ أى: القيامة، المشار إليها بقوله: ﴿قل يجمع بيننا ربنا﴾(١)، أو: الوعد بالعذاب الذى أنذرتَ به. وأطلق الوعد على الموعود به؛ لأنه من متعلقاته، ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ فى إتيانه؟ ﴿ قل لكم ميعادُ يومٍ ﴾، «الميعاد»: ظرف الوعد، من مكان، أو زمان. وهو ـ هنا ـ الزمان، بدليل من قرأ «ميعادٌ يومٌ» «فأبدل منه «اليوم». وأما الإضافة فإضافة تبيين، كما تقول: بعير سائبة، أى: قد وقت لعذابكم يوماً ﴿ لا تستأخرون عنه ساعةً ولاتستقدمون ﴾ أى: لا يمكنكم التأخر عنه بالإمهال، ولا التقدم عليه بالاستعجال. ووجه انطباق هذا الجواب على سؤالهم: أنهم سألوا عن ذلك، وهم منكرون به، تعنتاً لا استرشاداً، فجاء الجوابُ على طريق التهديد مطابقًا للسؤال، على وجه الإنكار والتعنت، وأنهم مُرْصَدون له، يفاجئهم، فلا يستطيعون تأخراً، ولا تقدماً عليه.

الإشارة: الداعون إلى الله على فرقتين: فرقة تدعو إلى معرفة أحكام الله، وهم العلماء، وفرقة تدعو إلى معرفة ذات الله بالعيان، وهم الأولياء العارفون بالله، فالأولون دعوتهم خاصة بمن فى مذهبهم، والآخرون دعوتهم عامة؛ إذ معرفة الله تعالى الذوقية لم يقع فيها اختلاف مذاهب، فأهل المشرق والمغرب كلهم متفقون عليها، فشيخ واحد يربى جميع أهل المذاهب، إن خضعوا له، وفى ذلك يقول صاحب المباحث:

مذاهبُ الناس على اختلاف ومذهب القوم على ائتلاف

وقال الشاعر:

عباراتنا شتى وحُسنُكَ واحد وكلٌّ إلى ذاك الجَمَال يُشير

ويقول من استبعد الفتح: متى هذا الوعد إن كنتم صادقين؟ قل: لكم ميعاد يوم عيَّنه للفتح، لايتقدم ولايتأخر. فالأدب: الخدمة وعدم الاستعجال.

---

(١) الآية ٢٦ من السورة.

ثم ذكر ما يلقون في ذلك الميعاد على كفرهم، فقال:

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ
تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّـٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ
يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ (٣١) قَالَ
ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَـٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم
بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ (٣٢) وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ
وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟
ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَـٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ (٣٣) ﴾

قلت: أتى بالعاطف في قوله: (وقال) الأخيرة، وترك في الأولى؛ لأن قول الرؤساء جواب لقول المستضعفين، فحسن ترك العاطف، ثم جيء بكلام آخر للمستضعفين، فعطفه على كلامهم الأول. و(مكر الليل): الإضافة على معنى «في»، وإضافة المكر إلى الليل على الاتساع، بإجراء الثاني مجرى المفعول به، وإضافة المكر إليه، أو: جعل الليل والنهار ماكرين بهم مجازاً.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وقال الذين كفروا﴾، كأبي جهل وأضرابه: ﴿لن نُؤمن بهذا القرآن ولابالذي بين يديه﴾ أي: ما نزل قبل القرآن، من كُتب الله تعالى، الدالة على البعث. وقيل: إن كفار قريش سألوا أهل الكتب عن الرسول ﷺ، فأخبروهم أنهم يجدون نعته في كتبهم، فغضبوا، وقالوا ذلك. وقيل: (الذين بين يديه): القيامة والجنة والنار، فكأنهم جحدوا أن يكون القرآنُ من عند الله، وأن يكون مادلّ عليه من الإعادة للجزاء حقيقة.

﴿ ولوترى ﴾ يا محمد، أو من تصح منه الرؤية، ﴿ إذِ الظالمون موقوفُون ﴾؛ محبوسون ﴿ عند ربهم ﴾ في موقف الحساب ﴿ يَرْجِعُ ﴾؛ يردّ ﴿ بعضُهم إلى بعضٍ القولَ ﴾ في الجدال والمحاورة. أخبر عن عاقبتهم ومآلهم في الآخرة، فقال لرسوله ﷺ، أو للمخاطب: ولو ترى في الآخرة موقفهم، وهم يتجاذبون أطراف المحاورة، ويتراجعونها بينهم، لرأيت أمراً فظيعاً، فحذف الجواب؛ لأن العبارة لاتفي به. ثم بيّن بعض محاورتهم بقوله:

﴿ يقول الذين استُضعِفوا ﴾ أي : الأتباع السفلة ﴿ للذين استكبروا ﴾ أي: الرؤساء المقدّمين: ﴿ لولا أنتم لكنا مؤمنين ﴾ ؛ لولا دعاؤكم إيّانا إلى الكفر لكنا مؤمنين بالله ورسوله.

﴿ قال الذين استكبروا للذين استُضْعِفوا أنحنُ صَدَدْناكم ﴾: رددناكم ﴿ عن الهُدى بعد إذ جاءكم بل كنتم مجرمين ﴾ أي: بل أنتم صددتم باختياركم، ولم نقهركم على الكفر. أنكروا أنهم كانوا صادّين لهم عن الإيمان، وأثبتوا أنهم هم الذين صدّوا أنفسهم، حيث أعرضوا عن الهدى، وآثروا التقليد عليه. وإنما وقعت «إذ» مضافاً إليها، وإن كانت «إذ» و«إذا» من الظروف اللازمة للظرفية؛ لأنه قد اتّسع في الزمان ما لم يتّسع في غيره.

﴿ وقال الذين استُضعفوا للذين استكبروا بل مكرُ الليلِ والنهارِ ﴾ أي: بل مكركم بنا بالليل والنهار هو الذي صدنا عن الهدى. أو: مكرَ بنا الليل والنهار، وطولُ السلامة، حتى ظننا أنكم على حق فقلدناكم. ﴿ إذ تأمروننا أن نكفرَ بالله ونَجْعَلَ له أنداداً ﴾: أشباهاً، نعبدها معه. والحاصل: أن المستكبرين لمّا أنكروا أن يكونوا هم السبب في كفر المستضعفين، وأثبتوا أن ذلك بسبب اختيارهم، كرّ عليهم المستضعفون بقولهم: ﴿بل مكرالليل والنهار﴾، فأبطلوا إضرابهم بإضرابهم، كأنهم قالوا: ما كان الإجرام من جهتنا، بل من جهة مكركم بنا دائماً، ليلاً ونهاراً، وحملكُم إيّانا على الشرك واتخاذ الأنداد.

ثم حصل الندم حيث لم ينفع، كما قال تعالى: ﴿ وأسَرُّوا الندامةَ لمّا رأوُا العذابَ ﴾ أي: أضمرَ الندم كِلاَ الفريقين، وأخفاه عن رفيقه، مخافة التعيير، لمّا رأوا العذاب، وتحققوا لحوقه بهم، فندم المستكبرون على إضلالهم وضلالهم، والمستضعفون على ضلالهم واتباعهم. وقيل: معنى أسروا: أظهروا، فهو من الأضداد. ﴿ وجعلنا الأغلالَ في أعناق الذين كفروا ﴾ أي: في أعناقهم. فأظهر في محل الإضمار؛ للدلالة على ما استوجبوا به الأغلال، وهو كفرهم. ﴿ هل يُجزون إلا ما كانوا يعملون ﴾ أي: لا يفعل بهم إلا ما استوجبته أعمالُهم الخبيثة في الدنيا.

الإشارة: كل من له رئاسة وجاه، عالماً كان أو جاهلاً، وصدّ الناس عن طريق التربية على يد المشايخ، يقع له هذا الخصام، مع من صدّهم من ضعفاء الناس، حيث يرتفع المقربون، ويسقط الغافلون من تلك المراتب، فيقع الندم والتحسر، ويتبرأ الرؤساء من المرءوسين من عامة أهل اليمين. قال القشيري: وهكذا أصحابُ الزلات، الأخلاء في الفساد - أي: يتبرأ بعضهم من بعض - وكذلك الجوارحُ والأعضاء، يشهد بعضها على بعض، اليدُ تقول للجملة: أخذت، العين تقول: أبْصرت، والاختلاف في الجملة عقوبة. ومَنْ عمل بالمعاصي أخرج الله عليه من كان أطوع له، ولكنهم لايعلمون ذلك. ولو علموا لاعتذروا، ولو اعتذروا لتابوا وتوقفوا، ولكن ليقضي الله أمراً كان مفعولاً. هـ.

ثم سلّى رسولَه، فقال:

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿وما أرسلنا في قريةٍ من نذيرٍ﴾؛ رسول ﴿إلا قال مُترَفُوها﴾: متنعّموها، ورؤساؤها: ﴿إنا بما أُرسلتم به كافرون﴾، فهذه تسليةٌ لرسول ﷺ مما لقى من رؤساء قومه من التكذيب، والكفر بما جاء به، وأنه لم يرسل قطّ إلى أهل قرية من نذير إلا قالوا له مثل ما قال لرسول الله ﷺ أهلُ مكة. وتخصيص المتنعمين بالتكذيب؛ لأن الداعي إلى التكبر، وعدم الخضوع للغير؛ هو الانهماك في الشهوات، والاستهانة بمن لم يحظ بها، جهلاً، ولذلك افتخروا بالأموال الفانية، كما قال تعالى:

﴿وقالوا نحن أكثرُ أموالاً وأولاداً وما نحن بمعذَّبين﴾، رأوا ـ من فرط جهلهم ـ أنهم أكرم على الله من أن يعذّبهم. نظروا إلى أحوالهم في الدنيا، وظنوا أنهم لو لم يُكرموا على الله لَمَا رزقهم ذلك. ولولا أن المؤمنين هانوا عليه لما حرمهم ذلك، فأبطل الله رأيهم الفاسد بقوله: ﴿قل إن ربي يَبْسُطُ الرزقَ لمن يشاءُ ويقدرُ﴾ أي: يُضيقه على من يشاء، فإن الرزق بيد الله، يقسمه كيف يشاء. فربما وسّع على العاصي، استدراجاً، وضيَّق على المطيع، تمحيصاً وتطهيراً، فيوسع على المطيع، ويضيق على العاصي، وربما وسّع عليهما على حسب مشيئته، فلا يُقاسُ عليهما أمر الثواب، ولو كان ذلك لكرامة وهوان يُوجبانه لم يكن بمشيئته. ﴿ولكن أكثرَ الناس لايعملون﴾ فيظنون أن كثرة الأموال والأولاد للشرف والكرامة عند الله. وقد تكون للاستدراج، وصاحبها لايشعر.

الإشارة: ما حاز الخصوصية وتبع أهلها إلا ضعفاء المال والجاه، الذين هم أتباع الرسل، فهم الذين حطّوا رؤوسهم، وباعوا نفوسهم وأموالهم لله، وبذلوها لمن يُعرّفهم به، فعوّضهم جنة المعارف، يتبوءون منها حيث شاءوا، وأما من له جاه أو مال فقلّ من يحط رأسه منهم، إلا من سبقت له العناية الكبرى. قال القشيري: بعد كلام: ولكنها أقسام سبقت، وأحكامٌ حقت، ثم الله غالبٌ على أمره. ﴿وقالوا نحن أكثر أموالاً وأولاداً﴾، وليس هذا بكثرة الأموال والأولاد، وإنما هي ببصائر مفتوحة لقوم، ومسدودة لقوم هـ.

ثم قال تعالى:

﴿ وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا زُلۡفَىٰٓ إِلَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَزَآءُ ٱلضِّعۡفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمۡ فِي ٱلۡغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يَسۡعَوۡنَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾

قلت: جمع التكسير يُذكّر ويؤنث للعقلاء وغيرهم، ولذلك قال: «بالتى». و(زلفى): مفعول مطلق، أى: وما جماعة أموالكم ولا جماعة أولادكم، و(إلا من آمن): مستثنى من الكاف فى «تُقربكم»، متصل، وقيل: منقطع. و(من): شرط، جوابه: (فأولئك). وعلى الاتصال فـ «مَن» منصوبة بتُقرب.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وما أموالُكم ولا أولادُكم بالتي تُقربكم عندنا زلفى ﴾ أى: قُربة، ﴿ إلا مَن آمن وعمل صالحاً ﴾، يعنى أن الأموال لا تُقرب أحداً إلا المؤمن الصالح، الذى يُنفقها فى سبيل الله. والأولاد لا تُقرب أحداً من الله إلا مَن علّمهم الخير، وفقّهم فى الدين، وأرشدهم للصلاح والطاعة، فإنَّ عملهم يجرى عليه بعد موته لقوله ﷺ: «إذا مات ابن آدم انقطع عملُه إلا من ثلاثٍ: صدقة جارية، وعلمٍ بثه فى صدور الرجال، وولدٍ صالح يدعو له بعد موته»(١).

﴿ فأولئك لهم جزاءُ الضِعْفِ ﴾ أى: تضاعف لهم حسناتهم، الواحدة عشراً إلى سبعمائة، على قدر النية والإخلاص. وهو من إضافة المصدر إلى المفعول. والأصل: يُجازون الضعفَ، ثم جزاءٌ الضعفَ، ثم أضيف. وقرأ يعقوب بالنصب على التمييز، أى: فأولئك لهم الضعف لأعمالهم جزاءُ ﴿ بما عَمِلُوا ﴾ أى: بأعمالهم ﴿ وهم في الغرفاتِ آمنون ﴾ أى: فى غرفات الجنان آمنون من كل هائل وشاغل. وقرأ حمزة: «فى الغرفة» إرادة الجنس.

﴿ والذين يَسْعَون في آياتنا ﴾؛ فى إبطالها، بالرد والطعن ﴿ مُعَاجِزين ﴾: مغالبين لأنبيائنا، أو: سابقين، ظانين أنهم يفوتوننا، ﴿ أولئك في العذاب مُحْضَرُون ﴾؛ يحضرونه فيحيط بهم

الإشارة: الأموال والأولاد لا تُقرب العبد ولاتُبعده، إنما يُقربه سابق العناية، ويبدعه سابق الشقاء، فمن سبقته العناية قربته أمواله، بإنفاق المال فى سبيل الله، وإرشاد الأولاد إلى طاعة الله، ومن سبق له الشقاء صرف أمواله

(١) أخرجه، بنحوه، مسلم فى (الوصية، باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته، ٣ /١٢٥٥ ح ١٦٣١) من حديث أبى هريرة رضي الله عنه.

فى الهوى، وأولادَه فى جمع الدنيا. قال القشيرى: لا تستحقّ الزّلفى عند الله بالمال، ولا بالأولاد، ولكن بالأعمال الصالحة الخالصة، والأحوال الصافية، والأنفس الزاكية، بلْ بالعناية السابقة، والهداية اللاحقة، والرعاية الصادقة. هـ. وقال فى قوله: ﴿والذين يسعون فى آياتنا معاجزين﴾: هم الذين لا يحترمون الأولياء، ولا يراعون حقّ الله فى السّر، فهم فى عذاب الاعتراض على أولياء الله، وعذاب الوقوع بشؤم ذلك فى ارتكاب محارم الله، ثم فى عذاب السقوط من عين الله تعالى. هـ.

ثم حضّ على الصدقة، فقال:

﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٣٩) ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿قل إن ربي يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له﴾، إنما كرره تزهيداً فى المال، وحضاً على إنفاقه فى سبيل الله. ولذلك عقبه بقوله: ﴿وما أنفقتم من شيءٍ فهو يُخلفه﴾، إما عاجلاً فى الدنيا إذا شاء، أو آجلا فى الآخرة، ما لم يكن إسرافاً، كنزهة لهو، أو فى بنيان، أو معصية. وذكر الكواشى هنا أحاديث منها: «كلُّ معروفٍ صدقةٌ، وكل ما أنفق الرجلُ على نفسه وأهله صدقةٌ، وما وَقَى به الرجلُ عِرْضَهُ كُتبت له بها صدقةٌ ـ وهو ما أعطى لشاعر، أو لذى اللسان المتّقى ـ وما أنفق المومنُ صدقة فعلى الله خلفها ضامناً، إلا ما كان من نفقةٍ فى بُنيانٍ أو معصيةٍ»(١). قلتُ: يُقيد النفقة فى البنيان بما زاد على الحاجة والضرورة، وإلا فهو مأمور به، فيؤجر عليه. والله تعالى أعلم.

﴿وهو خيرُ الرازقين﴾؛ المطعمين؛ لأن كل من رزق غيره من سلطان، أو سيّد، أو زوج، أو غيره، فهو من رزق الله، أجراه على يد هؤلاء، وهو خالقُ الرزق، والأسباب التى بها ينتفع المرزوق بالرزق. وعن بعضهم؛ قال: الحمد لله الذى أوجده، وجعلنى ممن يشتهى، فكم من مشتهٍ لا يجد، وواجد لايشتهى!.

الإشارة: فى الآية إشارة إلى منقبة السخاء، وإطلاق اليد بالعطاء، وهو من علامة اليقين، وخروج الدنيا من القلب. وذكر الترمذى الحكيم حديثاً طويلاً عن الزبير رضي الله عنه رأيت أن أذكره لكثرة فوائده مع مناسبته لهذا المعنى. قال: جئتُ حتى جلستُ بين يدى رسول الله ﷺ فأخذ بطرف عمامتى من ورائى، ثم قال:يازبير إنى رسول الله إليك خاصة، وإلى الناس عامة. أتدرون ما قال ربكم؟ قلت: الله ورسوله أعلم . قال. قال ربكم حين استوى على

(١) رواه الدارقطنى فى سننه (٣/٢٨) والحاكم فى المستدرك (٢/٥٠) من حديث جابر رضي الله عنه. وصححه الحاكم، وتعقبه الذهبى.

عرشه ونظر إلى خلقه: عبادى أنتم خلقى وأنا ربكم، أرزاقكم بيدى، فلا تتعبوا فيما تكفلتُ لكم به، فاطلبوا منى أرزاقكم، وإلىّ فارفعوا حوائجكم، انصُبوا إلىّ أنفسكم أصُبُّ عليكم أرزاقكم. أتدرون ما قال ربكم؟ قال الله تبارك وتعالى: يا ابن آدم؛ أنفق أُنفق عليك، وأوسع أُوسع عليك، ولاتضيق فأضيق عليك، ولاتصرّ فأصرِ عليك، ولاتخزنْ فأخزنِ عليك، إن باب الرزق مفتوح من فوق سبع سموات، متواصل إلى العرش، لايغلق ليلاً ولانهاراً، ينزل الله منه الرزق، على كل إمرى بقدر نيته، وعطيته، وصدقته، ونفقته، مَنْ أكثر أكثر عليه، ومَنْ أقل أقل عليه، ومَنْ أمسك أمسك عليه. يازبير فكُل وأطعم، ولاتوك فيوك عليك(١)، ولاتحصِ فيُحصَ عليك، ولاتقتّر فيقتر عليك، ولاتسر فيعسرْ عليك. يازبير، إن الله يحب الإنفاق، ويبغض الإقتار، وإن السخاء من اليقين، والبخل من الشك، فلا يدخل النار من أيقن، ولا يدخل الجنة من شك. يازبير؛ إن الله يُحب السخاوة، ولو بفلق تمرة، والشجاعة، ولو بقتل عقرب أو حية. يازبير؛ إن الله يُحب الصبر عند زلزلة الزلازل، واليقين النافذ عند مجيء الشهوات، والعقل الكامل عند نزول الشبهات. والورع الصادق عند الحرام والخبيثات. يازبير؛ عظِّم الإخوان، وأجلّ الأبرار، ووقر الأخيار، وصل الجار، ولا تماش الفجار، تدخل الجنة بلاحساب ولاعقاب، هذه وصية الله إلىّ، ووصيتى إليك.

ثم ذكر توبيخه على الشرك، فقال:

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿و﴾ اذكر ﴿يوم نحشرهم(٢) جميعاً﴾، العابدين والمعبودين، ﴿ثم نقول للملائكة أهولاء إياكم كانوا يعبدون﴾؟ هو خطاب للملائكة، وتقريع للكفرة، وارد على المثل السائر من قول العامة: الخطاب للسارية وافهمى ياجارية. ونحوه قوله: ..﴿أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي..﴾ الآية(٣). وتخصيص

(١) أى: لا تدخر وتشد ما عندك، وتمنع ما فى يديك، فتنقطع مادة الرزق عنك. والوكاء: الخيط الذى تشد به الصرّة والكيس وغيرهما. انظر النهاية فى غريب الحديث (وكاء، ٥/٢٢٢ - ٢٢٣).

(٢) قرأ حفص، ويعقوب: «يحشرهم» بالياء، وقرأ الباقون «نحشرهم، ونقول» بالنون. وقد أثبت المفسر قراءة النون. انظر إتحاف فضلاء البشر (٢/٣٨٨).

(٣) من الآية ١١٦ من سورة المائدة.

الملائكة؛ لأنهم أشرف شركائهم، والصالحون للخطاب منهم. ﴿ قالوا سبحانك ﴾؛ تنزيهاً لك أن يعبد معك غيرك. ﴿ أنت وليُّنا من دونهم ﴾؛ أنت الذى نُواليه من دونهم، لا موالاة بيننا وبينهم. والموالاة خلاف المعاداة، وهى مفاعلة من الولْى، وهو القرب. والوليّ يقع على المُوالِي والمُوالَى جميعاً. فبينوا بإثبات موالاةِ الله تعالى ومعاداة الكفار: براءتهم من الرضا بعبادتهم لهم؛ فإنَّ مَن كان على هذه الصفة، كانت حالُه منافية لذلك.

ثم قالوا: ﴿ بل كانوا يعبدون الجنَّ ﴾ أى: الشياطين، حيث أطاعوهم فى عبادة غير الله، أو: كانوا يدخلون فى أجواف الأصنام، إذا عُبِدَت، فيُعْبَدون بعبادتها، أو: صَوَّرت لهم الشياطين صور قوم من الجن، وقالوا: هذه صور الملائكة فاعبدوها. ﴿ أكثرُهُم بهم مؤمنون ﴾ أى: أكثر الإنس، أو: الكفار، ﴿ بهم ﴾؛ بالجن ﴿ مؤمنون ﴾؛ مصدقون لهم فيما يأمرونهم به. والأكثر هنا بمعنى الكل.

قال تعالى: ﴿ فاليومَ لا يملكُ بعضُكم لبعضٍ نفعاً ولاضَرّاً ﴾؛ لأن الأمر فى ذلك اليوم إليه وحده، لا يملك أحد فيه منفعة ولا مضرة لأحد؛ لأن الدار دار ثواب وعقاب، والمثيب والمعاقبُ هو الله، فكانت حالها خلاف حال الدنيا، التى هى دار تكليف، والناس فيها مخلىً بينهم، يتضارون، ويتنافعون، وأما يوم القيامة فلا فعل لأحد قط. ثم ذكر معاقبة الظالمين بقوله: ﴿ ونقول للذين ظلموا ﴾ بوضع العبادة فى غير موضعها: ﴿ ذُوقوا عذابَ النار التي كنتم بها تكذِّبون ﴾ فى الدنيا.

الإشارة: ما أحببت شيئاً إلا وكنت له عبداً، ولا يُحب أن تكون لغيره عبداً، فإذا تحققت الحقائق، التحق كل عابد بمعبوده، وكل حبيب بمحبوبه، فيرتفع الحق بأهله، ويهوى الباطلُ بأهله. وكل ماسوى الله باطل، فارفع همتك أيها العبد عن هذه الدار وما فيها، وتعلق بالباقى، دون الفانى، ولاتتعلق بشيء سوى المتكبر المتعالى.

قال القشيرى: قوله تعالى: ﴿فاليوم لايملك بعضكم..﴾ الخ، الإشارة فى هذا: أنّ مَن علَّقَ قلبه بالأغيار، وظنّ صلاحَ حاله في الاختيار، والاستعانة بالأمثال والأشكال، نزع اللهُ الرحمة من قلوبهم، وتركهم، وتشوش أحوالهم، فلا لهم من الأشكال والأمثال معونة، ولا لهم فى عقولهم استبصار، ولا إلى الله رجوع، فإنْ رجعوا لايرحمهم ولايجيبهم، ويقول: ذوقوا وبالَ ما به استوجبتم هذه العقوبة. هـ. قلت: قوله: «فإن رجعوا لايرحمهم» يعنى أنهم فزعوا أولاً إلى المخلوق، فلما لم ينجح مسعاهم، رجعوا إلى الله، فلم ينفعهم، ولو تابوا فى المستقبل لقبل توبتهم. وقال أيضا: ومن تشديد العقوبة الافتضاح فى السؤال. وفى بعض الأخبار: أن عبيداً يسألهم الحق غداً، فيقع عليهم من الخجل ما يقولون: ياربنا لو عذبتنا بما شئت من ألوان العقوبة، ولا تعذبنا بهذا السؤال. هـ. وبالله التوفيق.

ثم ذكر حال أهل الغفلة، فقال:

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ
ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ
إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾ وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن
نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى ۖ فَكَيْفَ
كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وإذا تُتلى عليهم آياتنا ﴾ أي: إذا قُرئت عليهم آيات القرآن، ﴿ بيناتٍ ﴾: واضحات، ﴿ قالوا ﴾ أي: المشركون: ﴿ ما هذا ﴾ ؟ يعنون محمداً ﷺ ﴿ إلا رَجُل يُريد أن يَصُدَّكُم ﴾: يصرفكم ﴿ عما كان يعبد آباؤُكم ﴾ من الأصنام. ﴿ وقالوا ما هذا ﴾ أي: القرآن ﴿ إلا إفكٌ ﴾: كذب ﴿ مُفترىً ﴾ بإضافته إلى الله تعالى. ﴿ وقال الذين كفروا ﴾ أي: وقالوا، والعدول عنه دليلٌ على إنكار عظيم، وغضب شديد، حيث سجّل عليهم بالكفر والجحد، ﴿ للحقِ لَمَّا جاءهم ﴾ أي: للقرآن، أو لأمر النبوة كله، لما عجزوا عن معارضته، قالوا: ﴿ إن هذا إلا سحر مبين ﴾ أي: ما هذا إلا سحر ظاهر سِحريتُه. وإنكارهم أولاً باعتبار معناه، وثانياً باعتبار لفظه وإعجازه، ولذلك سموه سحراً.

قال تعالى: ﴿ وما آتيناهم من كُتُبٍ يَدْرُسُونها ﴾ أي: ما أعطينا مشركي مكة كُتباً يدرسونها، فيها برهان على صحة الشرك. ﴿ وما أرسلنا إليهم قبلك من نذيرٍ ﴾ أي: ولا أرسلنا إليهم نذيراً يُنذرهم بالعقاب إن لم يشركوا، ويدعوهم إليه، إذ لا وجه له، فمن أين وقع لهم هذه الشبهة؟ وهذا في غاية التجهيل لهم، والتسفيه لرأيهم.

ثم هددهم بقوله: ﴿ وكذّب الذين من قبلهم ﴾ أي: وكذّب الذين تقدموا من الأمم الماضية، والقرون الخالية، الرسل، كما كذّب هؤلاء. ﴿ وما بَلَغُوا مِعْشَارَ ما آتيناهم ﴾ أي: وما بلغ أهل مكة عُشر ما أُوتي الأولون، من طول الأعمار، وقوة الأجرام، وكثرة الأموال والأولاد، وتوالي النعم، والظهور في البلاد. والمِعشار: مِفعال، من: العشر، ولم يأت هذا البناء إلا في العشرة والأربعة. قالوا: معشار ومرباع. وقال في القوت: المعشار: عشر العشر. ﴿ فكذّبوا رسلي ﴾ أي: فكذبت تلك الأمم رسلي، ﴿ فكيف كان نكيرِ ﴾ أي: فانظر كيف كان إنكاري عليهم

بالهلاك والتدمير. فالنكير: مصدر، كالإنكار معنى، وكالنذير وزناً. و(كيف) للتعظيم، لا لمجرد الاستفهام، أى: فحين كذبوا رسلى جاءهم إنكارى بالتدمير والاستئصال، ولم تغن عنهم تلك الأموال والأولاد، وما كانوا مستظهرين به من الرئاسة والجاه، فليحذر هؤلاء أن يحل بهم مثل [ما حل](١) بأولئك؛ لمشاركتهم لهم فى الكفر والعدوان.

الإشارة: تكذيب الصادقين سُنَّة ماضية، وكل من ظهر بخصوصية يجذب الناس إلى الله، ويخرجهم من عوائدهم، قالوا: ما هذا إلا سحر مفترى، وما سمعنا بهذا فى آبائنا الأولين، فحين كذَّبوا أولياء زمانهم حُرموا بركتهم، فبقوا فى عذاب الحرص والتعب، والهلع والنصب. قال القشيرى: إن الحكماء والأولياء - الذين هم الأئمة فى هذه الطريقة - إذا دلوا الناسَ علَى الله، قال إخوانهم من إخوان السوء - وربما كان من الأقارب وأبناء الدنيا: من ذا الذى يطيق هذا؟ ولابدَّ من الدنيا مادمت تعيش! .. وأمثال هذا كثير، حتى يميل ذلك المسكين من قِبل النصح، فيهلك ويضل. هـ. باختصار. وقال فى قوله تعالى: ﴿وما آتيناهم من كُتُبٍ يدرسونها..﴾ ما حاصله: إن أرباب القلوب إذا تكلموا بالحقائق، على سبيل الإلهام والفيض، لا يطلب منهم البرهان على ما نطقوا به، فإذا طالبهم أهل القبلة بذلك، فسبيلهم السكوت عنهم، حتى يجيب عنهم الحق تعالى. هـ. وبالله التوفيق.

ثم أمر بالتفكر والاعتبار، فقال:

﴿ ۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾ ﴾

قلت: «أن تقوموا»: بدل من «واحدة»، أو خبر عن مضمر.

يقول الحق جل جلاله: ﴿قلْ﴾ لهم: ﴿إنما أَعِظُكُم بواحدة﴾؛ بخصلة واحدة، وهى: ﴿أن تقوموا لله﴾ أى: لوجه الله خالصاً، لا لحمية، ولا عصبية، بل لطلب الحق والاسترشاد. فالقيام على هذا معنوى، وهو القصد والتوجه بالقلب، وقيل: حسي، وهو قيامهم وتفرَقهم عن مجلس رسول الله ﷺ، فيقوم كل واحد منفرداً بنفسه، يتفكر، أو مع صاحبه. وهذا معنى قوله: ﴿مَثْنَى وفُرَادَى﴾ أى: اثنين اثنين، أو فردا فرداً. والمعنى: أعظكم بواحدة أن تعملوا ما أصبتم الحق، وتخلصتم من الجهل. وهى أن تقوموا وتنهضوا لله، معرضين عن المراء

---

(١) فى النسخة الأم [ما حق].

والتقليد، متفرقين اثنين اثنين، أو واحداً واحداً، فإنّ الازدحام يُشوّش الخاطر، ويخلط القول، ويمنع من الروّية، ويقلّ فيه الإنصاف، ويكثر الاعتساف.

﴿ثم تتفكروا﴾ في أمر محمد ﷺ، وما جاء به، حتى تعلموا أنه حق، أما الاثنان فيتفكران ويعرض كل واحد منهما محصول فكره على صاحبه، وينظران فيه نظر الصدق والإنصاف، حتى يؤديهما النظرُ الصحيح إلى الحق، وكذلك المفرد، يتفكر في نفسه ويعرض فكره على عقله. فإذا تفكرتم بالانصاف عرفتم أن ﴿ما بصَاحِبِكم﴾ يعني محمداً ﷺ ﴿من جِنَّةٍ﴾؛ من جنون، وهذا كقوله: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ﴾(١). ومنهم من يقف على «تتفكروا» ثم يستأنف النفي. قال القشيري: يقول: إذا سوّلَتْ لكم أنفسكم تكذيبَ الرسل، فأمعنوا النظرَ، هل تَرَوْنَ فيهم آثار مارميتموهم به - هذا محمد ﷺ قُلْتم ساحر، فأين آثار السحر في أحواله وأفعاله وأقواله؟ قلتم: فأيّ قسم من أقسام الشعر كلامه؟ قُلْتم مجنون، فأيُ جنون ظهر منه؟ وإذا عجزتم فهلاّ اعترفتم به أنه صادق؟!. هـ.

﴿إن هو إلا نذير لكم بين يَدَيْ عذابٍ شديدٍ﴾ أي: قُدّام عذاب شديد، وهو عذاب الآخرة، وهو كقوله ﷺ: «بُعثتُ بين يدَيِ الساعة»(٢).

الإشارة: فكرة الاعتبار تشد عروة الإيمان، وفكرة الاستبصار تشد عروة الإحسان، فأول ما يتفكر فيه الإنسان في أمره ﷺ، وما جاء به من العلوم اللدنية، والأسرار الربانية، مع ما أخبر به من قصص القرون الماضية، والشرائع المتباينة، مع كونه أُمياً، لم يقرأ، ولم يطالع كتاباً قط، وما أخبر به من أمر الغيب، فوقع كما أخبر، وما ظهر على يديه من المعجزات، وما اتصف به عليه الصلاة والسلام؛ من الأخلاق الحسنة، والشيم الزكية، وما كان عليه من سياسة الخلق، مع مشاهدة الحق. وهذا لايطاق إلا بأمر رباني، وتأييد إلهي. فإذا أشرقت على قلبه أنوار النبوة، ترقى بها إلى أنوار الربوبية، فيتفكر في عجائب السموات والأرض، فيعرف عظمة صانعها، فإذا سقط على شيخ عارف بالله أدخله فكرة العيان، فيغيب عن نظرة الأكوان، ويبقى المُكَوّن وحده. كان الله ولاشيء معه، وهو الآن على ما عليه كان.

---

(١) من الآية ١٨٤ من سورة الأعراف.

(٣) بعض حديث، أخرجه أحمد في المسند (٢/ ٥٠) وابن أبي شيبة في مصنفه، من حديث سيدنا عبدالله بن عمر رضي الله عنه (٥/ ٣١٣)، وانظر: مجمع الزوائد (٥/ ٢٦٧)، وجاء معنى الجملة عند البخاري ومسلم بلفظ: «بعثت أنا والساعة كهاتين» أخرجه البخاري في (الرقاق، باب: قول النبي ﷺ: «بعثت أنا والساعة كهاتين» ح ٦٥٠٤) ومسلم في (الفتن، باب قرب الساعة، ٤/ ٢٢٦٨، ح ٢٩٥١) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

ثم بيّن أنه لايطلب أجراً على الإنذار؛ إزاحةً للتهمة عنه، فقال:

﴿ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿قل ما سألتكم عليه﴾ أى: على إنذارى وتبليغ الرسالة ﴿من أجْرٍ﴾، إذ لو كنتُ كذلك لاتهمتمونى أنى أطمع فى أموالكم. وما طلبتُ من ذلك ﴿فهو لكم﴾، ومعناه: نفى سؤاله الأجر رأسًا. نحو: ما لى فى هذا فهو لك، وما تعطنى تصدق به على نفسك. ﴿إنْ أجْرىَ﴾ فى ذلك ﴿إلا على الله، وهو على كل شيءٍ شهيدٌ﴾ فيعلم أنى لا أطلب الأجر فى نصيحتكم، ودعائكم إليه، إلا منه تعالى.

الإشارة: تقدم مراراً أن الدعاة إلى الله ينبغي لهم أن يتنزّهوا عن الطمع فى الناس جهدهم، ولو اضطروا إلى ذلك؛ إذ لا يقع النفع العام على أيديهم إلا بعد الزهد التام، والتعفف التام عما فى أيدى الناس، فإذا تحققوا بهذا الأمر جعلهم الله حُجةً، يدمغ بهم على الباطل، كما قال تعالى:

﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿قل إنَّ ربي يَقْذِفُ بالحق﴾ أى: بالوحى، فيرمى به على الباطل، من الكفر وشبهه، فيدمغه، أو: يرمى به إلى أقطار الآفاق، فيكون وعداً بإظهار الإسلام، أو: يلقيه وينزله إلى أنبيائه. والقذف: رمى السهم ونحوه بدفع واعتماد، ويستعار لمطلق الإلقاء، ومنه: ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾(١). ثم وصف الرب بقوله: ﴿علامُ الغيوب﴾ أى: هو علام الغيوب.

﴿قل جاء الحقُّ﴾ أى: الإسلام، أو: القرآن، ﴿وما يُبْدِئُ الباطلُ وما يُعيدُ﴾ أى: زال الباطل وهلك، لأن الإبداء والإعادة من صفات الحى، فعدمهما عين الهلاك، والمعنى: جاء الحق وهلك الباطل، كقوله: ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ﴾(٢) قال الكواشي: المعنى: ذهب الباطل لمجيء الحق، فلم يبق له بقية حتى يبدئ شيئاً أو يعيده. ثم

(١) من الآية ٢٦ من سورة الأحزاب.

(٢) الآية ٨١ من سورة الإسراء.

قال: وهذا مثلٌ، يقال: فلان لايبدئ ولايعيد، إذا كان لايلتفت إليه ولايعتمد عليه. وقال الهروى: الباطل: إبليس، ما يبدىء ولايعيد: لايخلق ولايبعث، والله تعالى هو المبدىء المعيد، ومعناهما: الخالق الباعث. وقال فى الصحاح: وفلان ما يبدئ وما يعيد، أى: ما يتكلم ببادية ولاعائدة، ومثله فى القاموس.

والحاصل: أنه عبارة عن زهوق الباطل، حتى لايبقى له ظهور. وعن ابن مسعود رضي الله عنه دخل النبىُّ ﷺ مكةَ يوم الفتح، وحول الكعبة أصنام، فجعل يطعنُها بعودٍ، فتنقطع لقفاها، ويقول: «جاء الحقُّ وزهقَ الباطلُ، إن الباطل كان زهوقاً. قل جاء الحق وما يُبدئُ الباطلُ وما يُعيد» (١).

ولما قالوا له ﷺ: قد ضللت بترك دين آبائك قال الله تعالى: ﴿ قل إن ضللتُ ﴾ عن الحق ﴿ فإنما أضلُ على نفسى ﴾؛ فإن وبال ضلالى عليها، ﴿ وإن اهتديتُ فبما يُوحي إلىّ ربي ﴾ أى: فبتسديده بالوحي إلىّ. وكان قياس المقابلة أن يقال: وإن اهتديتُ فإنما أهتدى لها، كقوله: ﴿فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾(٢)، ولكن هما متقابلان معنىً؛ لأنّ النفس كلّ ما يضرها فهو بسببها، وما لها مما ينفعها، فهو بهداية ربها وتوفيقه، وهذا حكم عمل لكل مكلّف. وإنما أمر رسولَه أن ينسبه إلى نفسه؛ تشريعًا لغيره؛ لأنه إذا كان هذا له مع جلالة قدره فما باله بغيره؟. ﴿ إنه سميع ﴾ لما أقوله لكم، ﴿ قريبٌ ﴾ منى ومنكم، فيجازينى ويجازيكم على ما أخفيتم وما أعلنتم.

الإشارة: الحق هو العلم بالله، والباطل الجهل بالله، أو: ما سوى الله، فإذا حصل للعبد العلم بالله غاب عنه كل ما سواه، وما بقى فى الوجود إلا الله، وفى ذلك يقول الشاعر:

فلم يبق إلا الله لم يبـق كائن فما ثم موصول ولاثم بائن

بذا جاء برهان العيان فما أرى بعينى إلاعينـه إذ أعايـن

وفى القوت فى تفسير الآية: أى: لما جاء الحق أبطل الباطل وأعاده، فأظهر حقيقة الأمر بدءاً وعوداً، أى: كشف ما يبدىء الباطل للابتداء، وما يعيد على العبد من الأحكام، يعنى: أن نور الحق يكشف حقيقةَ الباطل وضررَ عاقبته، وقُبحه فى ذاته. والله أعلم. هـ. ومن رُمى بباطل أو بدعة، وهو محقق بالحق، متمسك بالسنة النبوية، فليقل لمن رماه: (إن ضللتُ فإنما أضل على نفسى..) الآية.

---

(١) أخرجه البخارى فى (المظلم، باب: هل تُكسر الدنان التى فيها خمر، ح ٢٤٧٨) ومسلم فى (الجهاد والسير، باب إزالة الأصنام من حول الكعبة ١٤٠٨/٣ ـ ح ١٧٨١) من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه.

(٢) الآية ٤١ من سورة الزمر.

ثم ذكر حسرة من فاته الإيمان في إبّانه، فقال:

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُواْ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُواْ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ وَقَدْ كَفَرُواْ بِهِۦ مِن قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُواْ فِي شَكٍّ مُّرِيبٍۭ ﴿٥٤﴾ ﴾

قلت: «مُرِيب»: اسم فاعل، من: أراب، أي: أتى بريبة، وأربته: أوقعته في الريبة. ونسبة الإرابة إلى الشك مجاز. والمراد: وصفه بالشدة والإظلام، بحيث إنه يوقع في شك آخر.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ولو ترى﴾ يا محمد، أو: يا من تصح منه الرؤية، الكفرةَ ﴿إذ فَزِعُوا﴾؛ حين فزعوا عند صيحة البعث، لرأيت أمراً فظيعاً هائلاً، ﴿فلا فَوْتَ﴾ أي: لا مهرب لهم، أو: فلا يفوتون الله ولا يسبقونه. ﴿وأُخذوا﴾ إلى النار ﴿من مكان قريب﴾؛ من المحشر إلى قعر جهنم. أو: ولو ترى إذ فزعوا عند الموت فلا فوت منه، وأُخذوا من ظهر الأرض إلى بطنها، أو: إذ فزعوا يوم بدر، وأُخذوا من صحراء بدر إلى القليب.

﴿وقالوا﴾ حين عاينوا العذاب: ﴿آمنَّا به﴾ أي: بمحمد ﷺ؛ لمرور ذكره في قوله: ﴿ما بصاحبكم من جِنَّة﴾(١) أو: بالله، أو: بالقرآن المذكور في قوله: ﴿فبما يُوحى إليّ ربي﴾ ﴿وأنَّى لهم التناوشُ﴾ أي: التناول. من قرأه بالواو(٢) فوجهه: أنه مصدر: ناش، ينوش، نوشاً، أي: تناول، وهي لغة حجازية، ومنه: تناوش القوم في الحرب: إذا تدانوا، وتناول بعضهم بعضاً، أي: ومن أين لهم تناول التوبة وقد بَعدت عنهم، يعني أن التوبة كانت منهم قريبة، تُقبل منهم في الدنيا، وقد ذهبت الدنيا وبَعُدت عن الآخرة. وقيل: هو تمثيل لطلبهم ما لايكون، وهو أن ينفعهم إيمانهم في ذلك الوقت، كما نفع المؤمنين إيمانهم في الدنيا، فمُثِّلت حالهم بحال من يريد أن يتناول

---

(١) الآية ٤٦ من السورة.

(٢) قرأ أبو عمرو، وأبو بكر، وحمزة، والكسائي (التناؤش) بالهمزة، وقرأ الباقون (التناوش) بالواو من غير همز.

الشيء من غلْوة كما يتناوله الآخر من ألف ذراع. ووجه من قرأه بالهمز: أنه مصدر: تناءش، بمعنى أبطأ، أو: بعُد، يقال: تناءشت الشيء: أخذته من بُعْدٍ. والنئيش: الشيء البطيء، كما قال الشاعر:

وجئْتَ نئيشاً بَعْدَ ما فَاتَكَ الخير(١).

أي: جئت بطيئاً. وقيل: الهمز بدل الواو، كالصائم، والقائم، وأقتت. والمعنى: ومن أين لهم حصول الإيمان المتعذر بعد حصول البعد عن وقته.

﴿ وقد كفروا به من قبل ﴾ حصول العذاب، أو: قبل الموت في الدنيا، ﴿ ويُقْذَفُون بالغيب من مكان بعيد ﴾، هو عطف على «كفروا» على حكاية الحال الماضية، أي: وقد كفروا في الدنيا، ورَمَوا بظنونهم في الأمور المغيبة، فقالوا: لابعث ولاحساب، ولاجنة ولا نار. ﴿من مكان بعيد﴾ عن الحق والصواب، أو: هو قولهم في رسول الله ﷺ، شاعر، ساحر، كذاب، وهو رجم بالغيب؛ إذ لم يشاهدوا منه سحراً ولاشعراً ولاكذباً. وقد أتوا بهذا الأمر من جهة بعيدة من حاله ﷺ؛ إذ لم يعرفوه إلا بالصدق، والأمانة، ورجاحة العقل.

﴿ وحِيلَ بينهم وبين ما يشتهون ﴾ من نفع الإيمان يومئذ، والنجاة به من النيران، والفوز بنعيم الجنان، أو بين الرد إلى الدنيا، كما حُكِيَ عنهم بقوله: ﴿فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا﴾(٢) ﴿ كما فُعِل بأشياعهم من قبلُ ﴾ أي: بأشباههم من الكفرة الدارجة مِن قبلهم، فإنه قد حيل بينهم وبين ما يشتهون من الإيمان والعمل الصالح بالموت، وهذه الأفعال كلها تقع في المستقبل، عبَّر عنها بالماضي لتحقق وقوعها. ﴿ إنهم كانوا في شكٍ ﴾ في أمر الرسول والبعث، ﴿ مُريب ﴾: موقع للريبة، أو: ذي ريبة، نعت به للمبالغة. وفيه رد على من زعم أن الله لا يُعذِّب على الشك، قاله النسفي.

الإشارة: قوم غفلوا عن تحقيق الإيمان، وتربيته، بصحبه أهل الإيقان، حتى إذا كُشف – بعد الموت – عن مقامهم القصير، ومكانهم البعيد، قالوا: آمنا وتيقنا، وأنى لهم التناوش من مكان بعيد. وقوم اشتغلوا بالبطالة والتقصير، وصرفوا في الشهوات والحظوظ عمرهم القصير، وتوغلوا في أشغال الدنيا وزخارفها، فذهلوا عن الجد والتشمير، فإذا انقضت عنهم أيام الدنيا حيل بينهم وبين ما يشتهون، من اغتنام الأوقات، وتعمير الساعات، لنيل المراتب والدرجات، وهنالك يقع الندم حين لم ينفع، ويُطلب الرجوع فلا يُسْمَع.

---

(١) عجز بيت، وهو كما في القرطبي (٦/٥٥٥٣):

قعدت زماناً عن طلابك للعلاَ وجئت نئيشاً بعد ما فاتك الخَيْرُ

(٢) من الآية ١٢ من سورة السجدة.

قال القشيرى: إذا تابوا ـ وقد أُغلِقَتْ الأبواب، وندمُوا - وقد تقطعت بهم الأسباب، فليس إلا الحسرات مع الندم، ولات حين ندامة! كذلك من استهان بتفاصيل فترته، ولم يَسْتَفِقْ من غفْلته فتجاوز حده، ويُعْفَى عنه كرَّه. فإذا استمكن فى القسوة، وتجاوز فى سوء الأدب حدَّ القلة، وزاد على مقدار الكثرة، فيحصل لهم من الحق رَدّ، ويستقبلهم حجاب البُعد. فعند ذلك لايُسمع لهم دعاء، ولايُرْحَمُ لهم بكاء، كما قيل، وأنشد:

فَخَلِّ سبيلَ العينِ بعدك للبُكَا		فليس لأيام الصفاءِ رجوعُ. هـ

وقوم شمروا عن سابق الجد والتشمير، ولم يقنعوا من مولاهم بقليل ولاكثير، قد انتهزوا فرصة الأعمار، ولم يشغلهم عن الله ربع ولاديار، عمّروا أوقاتهم بالذكر والتذكار، وفكرة الاعتبار والاستبصار، حتى وردوا دار القرار، أولئك المصطفون الأخيار، يدفع الله تعالى بهم عن أهل الدنيا الأنكاد والأغيار، ويكشف عن قلوبهم الحُجب والأستار. وقوم حققوا مقام الإيمان، واشتغلوا بتربيته، بصحبة أهل الإيقان، حتى أفضوا إلى مقام العيان، فلا تعلم نفس ما أُخفى لهم من قرة أعين. جعلنا الله من خواصهم بمنّه وكرمه، وبمحمد نبيه وحبه ﷺ وعلى آله وصحبه.

❁❁❁

سورة فاطر

مكية. وآيها ستّ ـ أو خمس ـ وأربعون. ومناسبتها لما قبلها: أن صدرها استدلال على عِظم ذاته، وباهر قدرته، وتحقيق رسالة نبيه، بجعل الملائكة رُسلاً إليه، ففيها إزاحة للشك، وقلعٌ للريب، الواقع في قلوب الكفرة، الذى خُتمت به السورة، فكأنه تعالى حمد نفسه على إظهار شأنه، وإن لم يحمده عُتاة خلقه.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ﴾

قلت: (أُولِى): اسم جمع، كذُو، وهو بدل من «رسلاً»، أو نعت له، و﴿مثْنَى وثُلاثَ ورُباع﴾: نعوت لأجنحة، وهو غير منصرف؛ لأنه معدول عن اثنين اثنين، وثلاثة ثلاثة، وهو باعتبار الأشخاص، أي: منهم من له اثنان، ومنهم من له ثلاثة، هذا ظاهر الكشاف.

يقول الحق جل جلاله: ﴿الحمدُ لله﴾، حمد نفسه؛ تعليماً وتعظيماً، ﴿فاطرِ السموات والأرض﴾ مبديهما ومبدعهما. قال ابن عباس رضي الله عنه: «ما كنت أدرى معنى فاطر حتى اختصم إليّ أعرابيان فى بئر، فقال أحدهما: أنا فطرتها، أي: ابتدأتها». قال البيضاوي: من الفطر، بمعنى الشق، كأنه شق العدم بإخراجهما منه. قلت: وكأنه شق النور الكثيف من النور اللطيف، فنور السموات والأرض من نوره الأزلي، وسره الخفي. ﴿جاعلِ الملائكةِ رسلاً﴾ إلى عباده، أي: وسائط بين الله وبين أنبيائه والصالحين من عباده، فيُبلغون إليهم رسالاته بالوحي، والإلهام، والرؤيا الصادقة. ﴿أُولِي أجنحة﴾ متعددة ﴿مَّثْنَىٰ وثُلاثَ ورُبَاع﴾ أي: منهم ملائكة لهم اثنان؛ لكل واحد جناحان، ومنهم من له ثلاثة، ومنهم من له أربعة، بتفاوت ما لهم من المراتب، ينزلون بها، ويعرجون، أو: يُسرعون نحو ما وكلهم الله عليه، يتصرفون فيه على ما أمرهم به، ولعله تعالى لم يرد الحصر ونفي مازاد عليها، لِمَا رُوى أنه ﷺ رأى جبريل ليلة المعراج، وله ستمائة جناح(1). ورُوِىَ أنه طلب منه أن يريه

(1) أخرجه البخارى فى (بدء الخلق، باب إذا قال أحدكم «آمين»، ح ٣٢٣٢) ومسلم فى (الإيمان، باب ذكر سدرة المنتهى ١/١٥٨، ح ١٧٤) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، لكنه ليس فيه «ليلة المعراج».

صورته التى خلقه اللهُ عليها، فلما رآه كذلك خرّ مغشياً عليه. وقال: ما كنت أرى شيئاً من الخلق هكذا. فقال له: لو رأيت إسرافيل، إنّ له لاثنى عشر جناحا بالمشرق، واثنى عشرجناحًا بالمغرب، وإنّ العرش لعلى كاهله، وإنه ليتضاءل لعظمة الله تعالى(١) هـ.

﴿ يَزِيدُ فِي الخَلقِ مايشاء ﴾ أى: يزيد فى خلْق الأجنحة وغيره مايريد. وقيل: هو الوجه الحسن، والشَعْر الحسن، والصوت الحسن، والحظّ الحسن، والملاحة فى العينين. والآية مطلقة تتناول كلّ زيادة فى الخلق، من طول قامة، واعتدال صورة، وتمام فى الأعضاء، وقوة فى البطش، وحصافة العقل، وجزالة فى الرأى، وفصاحة فى اللسان، وحُسن خلق فى المعاشرة، ومحبة فى قلوب المؤمنين وغير ذلك. ﴿ إن الله على كل شيءٍ قدير ﴾ فيقدر على مايشاء، من زيادةٍ فى الخلق، ونقصان فيها، على حسب المشيئة السابقة.

الإشارة: الحمدُ فى القرآن وقع على أربعة أقسام: حمد مطلق، وهو الواقع على عظمة ذاته، من غير أن يكون فى مقابلة شيء، وهو قوله: ﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى ﴾(٢)، ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُون ﴾(٣)، وحمدٌ وقع فى مقابلة تنزيه ذاته عن النقائص، وهو قوله: ﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا . . . ﴾(٤) الآية. وحمدٌ وقع فى مقابلة نعمة الإيجاد، وهو قوله: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ . . ﴾(٥)، وحمدٌ وقع فى مقابلة نعمة الإمداد الحسى، كقوله: ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾، ﴿ فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾(٦)، فإن التربية تقتضى وصول ما يحتاج إليه المربّى، أو الإمداد المعنوى، وهو إمداد القلوب والأرواح بالهداية، وهو قوله: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ ﴾(٧) ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا . . ﴾(٨) فهذه أربعة: حمد مطلق، أو مقيد بشأن التنزيه، أو بنعمة الإيجاد، أو الإمداد، وما وقع هنا فى إظهار تجلياته، من أرضه وسماواته، ولطائف ملائكته، فإن ذلك كله من نور جبروته.

وقوله تعالى: ﴿ يَزِيدُ فِي الخلق ما يشاء ﴾ قال القشيرى: يقال: هو الفهم عن الله، أو السخاء والجود، أو: الرضا بالتقدير، أو: علو الهمة، أو: التواضع فى الشرف، أو: العفة فى الفقر، أو: الظرَفُ ـ أى: الظرافة ـ فى الشمائل، أو: أن يكون مُحَبباً فى القلوب، أو: خفة الروح، أو: تحرُّر القلب عن رِقّ الحرمان ـ أى: بالوقوف مع الأكوان ـ أو: ألا يطلُب لنفسه منزلةً فى الدارين ـ أى: بأن يكون عبد الله حقيقة ـ .هـ. ملخصا.

---

(١) ذكره القرطبى (٦/٥٥٥٨) عن الزهرى.
(٢) من الآية ٥٩ من سورة النمل.
(٣) من الآية ٧٥ من سورة النحل.
(٤) الآية ١١١ من سورة الإسراء.
(٥) من الآية الأولى من سورة الأنعام.
(٦) الآية ٣٦ من سورة الجاثية.
(٧) الآية الأولى من سورة الكهف.
(٨) من الآية ٤٣ من سورة الأعراف.

والصواب أن الزيادة تشمل ذلك كله، وكل من خصه بشيء؛ فإنما ذلك رحمة منه تعالى، كما قال تعالى:

﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ما يَفْتَحِ اللهُ للناسِ من رحمة﴾ أى: ما يطلق ويرسل من رحمة، كنعمة، ومطر، وأمن، وعافية، ورزق، وعلم، ومعرفة، ونبوة، وغيرها، ﴿فلا مُمسِكَ لها﴾؛ فلا أحد يقدر على إمساكها وردها، واستعير الفتح للإطلاق؛ لأنه مسبب عنه. ونكّر الرحمة للإشاعة والإبهام، كأنه قال: من أىّ رحمة كانت، فتشمل نعمة الدفع والجلب، كدفع المحن وجلب المنن. والاعترافُ بالمنعم من تمام النعمة، والأمران مدرجان فى الفتح والإمساك، ﴿وما يُمْسِكْ﴾ أى: يمنع ويحبس من ذلك ﴿فلا مُرسل له﴾؛ فلا مُطلق له ﴿من بعده﴾؛ من بعد إمساكه. وأنث الضمير الراجع إلى الإسم المتضمّن معنى الشرط على معنى الرحمة، وذكّره؛ حملاً على لفظ المرجوع إليه؛ إذ لا تأنيث فيه؛ لأن الأول فسرّ بالرحمة، فحسن إتباع الضمير التفسير، ولم يفسر الثانى فترك على أصل التذكير.

وعن معاذ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعاً: «لاتزال يدُ الله مبسوطة على هذه الأمة مالم يرفُقْ خيارُهم بشرارهم، ويُعظِّمْ برُّهم فاجرَهم، وتعِنْ قراؤهم أمراءهم على معصية الله. فإذا فعلوا ذلك نزع الله يده عنهم»(١) قال ابن عرفه: يؤخذ من قوله تعالى: ﴿وما يُمسك..﴾ أن العدم السابق الإضافى متعلق للقدرة، وجعله بعض الأصوليين متعلقاً للإرادة أيضاً، وذلك لأن المصحح للتعلق الإمكان.هـ. قال الأُبى: لا دليل فى الآية؛ لاحتمال أن يكون التقدير: وما يريد إمساكه، فيكون من متعلقات الإرادة، ويحتمل: وما يُمسك عن الإرسال بعد وجوده، كإمساك الماء عن النزول بعد خلقه فى السحاب .هـ. ﴿وهو العزيزُ﴾ الغالب، القادر على الإرسال والإمساك. ﴿الحكيمُ﴾ الذى يُرسل ويُمسك، بما تقتضى الحكمة إرساله، أو إمساكه.

الإشارة: ما يفتح الله لقلوب عباده من نفحات، وواردات، وإلهامات، وعلوم لدنية، وحِكَم ربانية، وتعرفات جمالية وجلالية، فلا ممسك لها، بل الله يفتح على من يشاء، ويسدُّ الباب فى وجه من شاء. وسدُّ الباب فى وجه العبد عن معرفته الخاصة، علامته: عدم إيصاله إلى أوليائه. فكل من وصله إليهم، وصَحِبهم، وعظّمهم، وخدمهم،

---

(١) ذكر نحوه العراقى فى المغنى (٢/١٦٤) وعزاه لأبى عمرو الدانى، فى كتاب الفتن، من رواية الحسن، مرسلاً، بلفظ: (لاتزال هذه الأمة تحت يد الله وكنفه ما لم يمالىء قراؤها أمراءها) وقال العراقى. ورواه الديلمى فى مسند الفردوس، من حديث علىّ، وابن عمر، بلفظ: «ما لم يعظم أبرارها فجارها، ويداهن خيارها شرارها»، وإسنادهما ضعيف.

فقد فتح الله له الباب فى وصوله إليه، وكل من نكبه عنهم، ولم يصحبهم، كما ذكر، فقد سُد الباب فى وجهه عن معرفته العيانية. وفى الحكم: «سبحان من لم يجعل الدليل على أوليائه إلا من حيث الدليل عليه، ولم يوصل إليهم إلا من أراد أن يوصله إليه» (١). وما يُمسك من ذلك فلا مرسل له من بعده، ولو صلى وصام ألف عام. قال القشيرى: ما يلوح لقلوب العارفين من أنوار التحقيق لا سحابَ يستره، ولا ضباب يقهره. ويقال: ما يلزم قلوبَ أوليائه وأحوالهم من التيسير فلا ممسك له، والذى يمنع من أعدائه ـ بسبب ما يُلقيهم فيه من انغلاق الأمور واستصعابها ـ فلا مُيَسِّرَ له من دونه. هـ. وبالله التوفيق.

ثم ذكّرهم بالنعم؛ لأن تذكر النعم سبب الفتح، فقال:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ٣ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ٤ ﴾

قلت: «غيرُ الله»: من رفعه فنعت للمحل، أى: هل خالق غير الله، ومن جره: فنعت للفظ. و«يرزقكم»: إما استئناف، أو: صفة ثانية لخالق، و«لا إله إلا هو»: مستأنفة، لا محل لها.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ يا أيها الناس اذكروا نعمةَ اللهِ عليكم ﴾ باللسان والقلب، وهى التى تقدمت، من بسط الأرض كالمهاد، ورفع السماء بلا عماد، وإرسال الرسل للهداية والإرشاد، والزيادة فى الخلق، وفتح أبواب الرزق. ثم نبّه على أصل النعم، وهو توحيد المُنْعِم، فقال: ﴿ هل من خالق غيرُ اللهِ يرزقكم من السماء ﴾ بالمطر ﴿ والأرض ﴾ بالنبات، بل لا خالق يرزق غيره، ﴿ لا إله إلا هو فأنى تُؤفكون ﴾. فمن أىّ وجه تُصرفون عن التوحيد إلى الشرك.

ثم سلّى نبيه عن صدف قومه عن شكر المُنعم بقوله: ﴿ وإن يُكذِّبوك فقد كُذِّبتْ رسلٌ مِن قبلك ﴾، فلك فيهم أُسوة، فاصبر كما صبروا. وتنكير «رسل» للتعظيم، المقتضى لزيادة التسلية، والحث على المصابرة، أى: فقد

(١) انظر الحكم بتبويب المتقى الهندى (ص/١٣، حكمة/١٥٦).

كُذِّبت رسل عظام، ذوو عدد كثير، وأولو آيات عديدة، وأهل أعمار طوال، وأصحاب صبر وعزم. وتقدير الكلام: وإن يكذبوك فتأسَّ بتكذيب الرسل قبلك؛ لأن الجزاء يعقب الشرط، ولو أجرى على الظاهر، لكان الجزاء مقدماً على الشرط؛ لأن تكذيب الرسل سابق، فوضَع ﴿فقد كُذّبت رسل من قبلك﴾ موضع فتأسَّ، استغناءً بالسبب عن المسبب. ﴿وإلى الله تُرجع الأمورُ﴾، وهو كلامٌ مشتمل على الوعد والوعيد، من رجوع الأمور إلى حكمه، ومجازاة المكذِّب والمكذَّب بكل ما يستحقه فى الدنيا والآخرة، فى الدنيا بالنصر والعز لأهل الحق، وبالذل والإهانة لأهل التكذيب، وفى الآخرة معلوم، فالإطلاق أحسن من التقييد بالآخرة. والله تعالى أعلم.

الإشارة: ذكر النعمة هو أن ينظر العبد، ويتفكر فى نفسه، فيجد نفسه مغروقة فى النعم الظاهرة والباطنة. وقد تقدم تعدادها فى لقمان(١). وليتفكر فى حالته الماضية، فقد كان جاهلاً، فعلّمه الله، ضالاً، فهداه الله، غافلاً، فأيقظه الله، عاصياً، فوفقه الله، إلى غير ذلك من الأحوال السنية. ولينظر أيضاً إلى مَن تحته مِن العباد، فيجد كثيراً مَن هو أسوأ منه حالاً ومقاماً، فيحمد الله ويشكره. قال ﷺ: «انظروا إلى من هو تحتكم ولا تنظروا إلى من فوقكم فهو أجْدَرُ ألا تَزْدَرُوا نعمةَ الله عليكم»(٢). وحمله المحققون على العموم فى الدين والدنيا. ذكره ابن عباد فى الرسائل وغيره.

وقال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: تذاكروا النعم؛ فإن ذكرها شكر. هـ. وقال القشيرى: مَنْ ذَكَرَ نعمتَه فصاحبُ عبادةٍ، ونائلُ زيادة، ومن ذَكَرَ المُنْعِمَ فصاحبُ إرادة، ونائل زيادة، ولكنْ فرقٌ بين زيادة وزيادةٍ، هذا زيادته فى الدارين عطاؤه، وهذا زيادته لقاؤه، اليومَ سِراً بسِرٍ، من حيث المشاهدة، وغداً جَهْراً بجهْرٍ، من حيث المعاينة.هـ.

قلت: من تحقق بغاية الشهود لم يبق له فرق بين شهود الدارين؛ إذ المتجلى واحد. ثم قال: والنعمة على قسمين: ما دَفَعَ من المحَن، وما وضع من المِنَن، فَذِكْرُه لما دَفَعَ عنه يوجب دوامَ العصمة، وذكره لما نَفَعَه به يوجب تمام النعمة، ﴿هل من خالق غير الله..﴾؟ فائدة هذا التعريف بوحدانيته، فإذا عرَفَ أنه لا رازق غيره؛ لم يُعلّق قلبه بأحدٍ فى طلب شيءٍ. وتوَهم شيء من أمثاله وأشكاله، ويستريح لشهود تقديره، ولا محالة يُخْلِصُ فى توكله وتفويضه.هـ.

---

(١) راجع تفسير الآية ٢٠ من سورة لقمان.
(٢) أخرجه مسلم فى (الزهد والرقائق ٤/٢٢٧٥، ح ٢٩٦٣) من حديث أبى هريرة رضي الله عنه.

ثم قال في قوله: ﴿ وإن يكذبوك . . . ﴾ الآية: وفي هذا إشارة للحكماء، وأرباب القلوب، مع العوامِّ والأجانب عن هذه الطريقة، فإنهم لا يقبلون منهم إلا القليل، وأهل الحقائق منهم أبداً في مقاساة الأذية، إلا بستْر حالهم عنهم، والعوام أقرب إلى هذه الطريقة من القُرّاءِ المتعمقين، والعلماء المتجمدين، الذين هم لهذه الأصول منكرون.هـ.

ثم حذّر من الدنيا؛ لأنها تُنسى النِّعم والشُكر، فقال:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ٥ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ٦ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٌ ٧ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ يا أيها الناسُ إن وعدَ الله ﴾ بالبعث والجزاء ﴿ حق ﴾، أي: كائن لا محالة، فاستعدوا للقائه، ﴿ فلا تَغُرنّكم الحياةُ الدنيا ﴾؛ لا تخدعنكم زخارف الدنيا الغرارة، ولا يُذهلنكم التمتع بها، والتلذذ بملاذها، والاشتغال بجمعها واحتكارها، عن التأهب للقاء الله، وطلب ما عنده. وفي الحديث: «فلا تخدعنكم زخارف دنيا دنية، عن مراتب جنات علية، فكأنْ قد كشف القناع، وارتفع الارتياب، ولاقى كل امرئ مستقره، وعرف مثواه ومنقلبه». ﴿ ولا يغرنكم بالله الغرورُ ﴾ أي: الشيطان، فإنه يُمنّيكم الأماني الكاذبة، ويقول: إن الله غني عن عبادتك وعن تكذيبك. أو: إن الله غفور لمن عصاه.

﴿ إنَّ الشيطانَ لكم عدوٌّ ﴾؛ ظاهر العداوة، فعل بأبيكم ما فعل، وأنتم تعاملونه معاملة الحبيب الناصح، ﴿ فاتخِذوه عدواً ﴾؛ فلا تقبلوا غروره في عقائدكم وأفعالكم، وكُونوا على حذر منه في جميع أحوالكم؛ إذ لا يوجد منه إلا ما يدل على عداوته في سركم وجهركم.

قال الورتجبي: إنه عدو؛ لأنه من عالم القهر خُلق، ونحن من عالم اللطف خُلقنا. والطبعان متخالفان أبداً، لأن القهر واللطف تسابقا في الأزل، فسبق اللطفُ القهر، فعداوته من جهة الطبع الأول، والجهل بالعصمة، وأنوار التأييد والنصرة، ومن لا يعرفه بما وصفنا، كيف يتخذه عدواً؟ وهو لا يعرف مكائده، ولا يعرف مكائده إلا وليّ أو صدِّيق.هـ.

ثم خطّأ من اتبعه؛ بأن غرضه أن يورد شيعته موارد الهلاك، بقوله: ﴿إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير﴾، فهو تقرير لعداوته، وبيان لغرضه فى دعوى شيعته إلى اتباع الهوى، والركون إلى الدنيا، أى: إنما يدعوهم إلى الهوى، ليكونوا من أهل النار.

ثم بيّن مآل من اتبعه ومن عاداه، فقال: ﴿الذين كفروا لهم عذاب شديد﴾ أى: فمن أجابه إلى ما دعى فله عذاب شديد؛ لأنه صار من حزبه وأتباعه، ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ ولم يجيبوه، ولم يصيروا من حزبه، بل عادوه، ﴿لهم مغفرةٌ وأجر كبير﴾؛ لكبر جهاده ودوامه.

الإشارة: وَعْد الله هنا عام، وكله حق، واجب الوقوع، لا يتخلف، فيصدق بوعد الرزق، وكفاية من انقطع إليه عن الخلق، لقوله: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾(١) وتولى من أصلح حاله لقوله: ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾(٢)، ويصدق بإثابة المطيع، وعتاب العاصي، أو: حلمه عنه، وغير ذلك من المواعد كلها، فيجب على العبد كفه عن الاهتمام بالرزق، وخوف الخلق، والتشمير فى الطاعة، والفرار من المعصية، إنْ كان له ثقة بوعد ربه، وإلا فالخلل فى إيمانه.

وقوله تعالى: ﴿إن الشيطان لكم عدو...﴾ الخ، قوم فهموا من الخطاب أنهم أُمروا بعداوة الشيطان، فاشتغلوا بعداوته ومحاربته، فشغلهم ذلك عن محبة الحبيب، وقوم فهموا من سر الخطاب: إن الشيطان لكم عدو، وأنا لكم حبيب، فاشْتَغَلوا بمحبة الحبيب، فكفاهم عداوة العدو. قيل لبعضهم: كيف صُنعك مع الشيطان؟ فقال: نحن قوم صرفنا هممنا إلى الله، فكفانا مَن دونه. فالشيطان كالكلب إن اشتغلت بدفعه مزّق الثياب، أو قطع الإهاب، وإن رفعته إلى مولاه كفاك شره. وكذلك النفس إن اشتغلت بتصفيتها ومجاهدتها على الدوام شغلتك عن ذكر الله، والفناء فيه، ولكن الدواء هو الغيبة عنها، والاشتغال بالله دائماً، فإذا أظهرتْ رأسها بقيام شهوتها، دُقَّه، بعكس مرادها، وغِبْ عنها فى ذكر الله. ومن حِكم شيخنا البوزيدى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أنس نفسك بالله، واعتمد على فضل الله، وامتثل شيئاً ما، ويتوب الله».(٣) وفى الحكم العطائية: «إذا علمت أن الشيطان لا يغفل عنك، فلا تغفل أنت عمن ناصيتك بيده». وقال أيضا: «وحرّك عليك النفس ليدوم إقبالك عليه». وقال: «لو كنت لا تصل إليه إلا بعد فناء مساوئك، ومحو دعاويك، لم تصل إليه أبداً. ولكن إذا أراد أن يُوصلك إليه، غطى وصفك بوصفه، ونعتك بنعته، فوصلك بما منه إليك، لا بما منك إليك»(٤).

---

(١) من الآية ٣ من سورة الطلاق. (٢) من الآية ١٩٦ من سورة الأعراف.

(٣) انظر الحكم بتبويب المتقى الهندى (ص/٢٣، حكمة/٢٣٦). (٤) (ص/٣١، حكمة ١٣٠).

ومن جُملة عداوته؛ تزيين القبائح، كما قال تعالى:

﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًاۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ﴿٨﴾ ﴾

قلت: «أفمن»: مبتدأ حُذف خبره، أي: كمن هداه الله، أو ذهبت نفسك عليه حسرات. و«حسرات»: مفعول له. وجَمعها لتضاعف اغتمامه، أو تعدد مساوئهم. و«عليهم»: صلة لتذهب، كما تقول: هلك عليه حُباً، ومات عليه حُزنا. ولا يتعلق بحسرات؛ لأن المصدر لا يتقدَّم عليه صلته، إلا أن يتسامح فى الجار والمجرور.

يقول الحق جل جلاله: ﴿أفمن زُيِّن له سُوءُ عمله﴾ بأنْ غلَب هواه على عقله، وجهله على علمه، حتى انعكس رأيه، ﴿فرآه حَسَناً﴾؛ فرأى الباطل حقاً، والقبيح حسناً، كمن هداه الله واستبصر، فرأى الحق حقاً، والباطل باطلاً، فتبع الحق، وأعرض عن الباطل، ليس الأمر كذلك، ﴿فإن الله يُضِلُّ من يشاء ويهدي من يشاء﴾، فمن أضله رأى الباطل حقًا، فتبعه، ومن هداه رأى الباطل باطلاً، فاجتنبه، والحق حقًا فاتبعه. ﴿فلا تَذْهَبْ نفسُك عليهم حسرات﴾ أي: فلا تهلك نفسك عليهم للحسرات على غيهم وإصرارهم على التكذيب، فإن أمرهم بيدى، وأنا أرحم بهم منك، فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب. ﴿إن الله عليم بما يصنعون﴾ فيجازيهم عليه، وهو وعيد لهم بالعقاب على سوء صنيعهم.

الإشارة: إذا أراد الله إبعاد قوم؛ غطى نور بصيرتهم بظلمة الهوى، فيُزيَّن فى عينهم القبيح، ويستقبح المليح، فيرون القبيح حسناً، والحسن قبيحا، كما قال الشاعر:

يُعمى على المرء فى أيام مِحنته حتى يرى حسناً ما ليس بالحسن

قال القشيرى: ومعنى التزيين؛ كالكافر يتوهَّمُ أنَّ فعله حَسَنٌ، وهو عند الله من أقبح القبيح، ثم الراغب فى الدنيا يجمع حلالها وحرامها، ويحوِّش حُطَامها[1]، لا يتفكر فى زوالها، ولا فى ارتحاله عنها من قبل كمالها، ولقد زُيِّن له سوء عمله، والذى يتبع الشهوات يبيع مؤبد راحته فى الجنة، بمتابعة شهوة ساعة، فلقد زُين له سُوءُ عمله، والذى يُؤثِر على ربِّه شيئاً من المخلوقات، فهو من جملتهم، والذى يتوهَّمُ أنه إذا وَجَدَ النجاة والدرجات فى الجنة

(١) أى: يجمعه ويدخره.

فقد اكتفى، فقد زُيّن له سوءُ عمله، حيث تغافل عن حلاوة مناجاته. والذى هو فى صحبة حظوظه، دون إيثار حقوق الله، فقد زُين له سوء عمله فرآه حسنا.هـ.

قلت: وكذلك من وقف مع الكرامات والمقامات، وحلاوة الطاعات، دون درجة المشاهدة، فقد زُين له سوء عمله. والحاصل: كل من وقف مع شىء، دون تحقيق الفناء فى الذات، فهو مُزّين له سوء عمله. وكل من لم يصحب الرجال فهو غالط، يظن أنه واصل، وهو منقطع فى أول البدايات. وبالله التوفيق. وقوله تعالى: ﴿فلا تَذهب نفسك عليهم حسرات﴾، كذلك يقال للواعظ، إذا رأى إدبار الخلق، وعدم تأثير الوعظ فيهم، فليكتف بعلم الله فيهم، ولا يتأسف على أحد، فإن التوفيق بيد الله.

وربما يُحييهم بعد حين، كما يُحيى الأرض بعد موتها، كما أشار إلى ذلك بقوله:

﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴿٩﴾ ﴾

قلت: «كذلك»: خبر مقدم، و«النشور»: مبتدأ.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ والله الذي أرسلَ الرياح ﴾، وفى قراءة بالإفراد، للجنس(١)، ﴿ فتُثير سحاباً ﴾ أى: تزعجه، وعبّر بالمضارع على حكاية الحال الماضية استحضاراً لتلك الصورة البديعة، التى تقع فيها إثارة الرياح السحاب، الدالة على كمال القدرة وباهر الحكمة. ﴿ فسُقناه إلى بلدٍ ميت ﴾؛ لا نبات فيه، ﴿ فأحيينا به ﴾ أى: بالمطر النازل منه ﴿ الأرضَ بعد موتها ﴾؛ بعد يبسها. وعدل من الغيبة الى التكلم؛ لأنه أدخل فى الاختصاص؛ لِمَا فيه من مزيد بديع الصنع، ﴿ كذلك النشورُ ﴾ أى: مثل إحياء الموات نشور الأموات. وقيل: يحيى الله الخلق بماء يرسله من تحت العرش، كمنيّ الرجال، فتنبت به الأجسادُ فى قبورها، ثم يرسل الأرواح فتدخل فى أشباحها(٢). قال أبو رزين: قلت: يارسول الله كيف يحيى الله الموتى؟ وما آية ذلك فى خلقه؟ فقال: «هل مررت بواد أهلك مَحْلاً؟ - أى: جدباً - قلت: نعم، قال: فكذلك يُحيى الله الموتى، وتلك آية الله فى خلقه»(٣).

---

(١) قرأ ابن كثير، وحمزة، والكسائى (الريح) بالتوحيد، وقرأ الباقون (الرياح) بالجمع. انظر الإتحاف (٣٩٢/٢).

(٢) ذكره الطبرى (١١٩/٢٢).

(٣) أخرجه أحمد فى المسند (١١/٤) والطبرانى فى الكبير (٢٠٨/١٩ ح ٤٧٠) والطيالسى (ص ١٤٧ ح ١٠٨٩) عن أبى رزين العقيلى. قال الهيثمى فى المجمع (٨٥/١): رجاله ثقات.

الإشارة: والله الذى أرسل رياح الهداية، فتزعج سحاب الغين عن قلوب أهل الهداية، فسقناه - أى: ريح الهداية - إلى قلب ميت بالغفلة والجهل بالله، فأحيينا بالوارد الناشئ عن ريح الهداية أرضَ النفوس، بالنشاط إلى العبادة، والذكر، والمعرفة، بعد موتها بالغفلة والقسوة، كذلك النشور. وذلك عزها، كما قال تعالى:

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿من كان يريدُ العزَّةَ﴾ أى: الشرف والمنعة على الدوام، فى الدنيا والآخرة، ﴿فلله العزةُ جميعًا﴾؛ فليطلبها من عنده، بالتقوى، والعلم، والعمل الصالح، كالزهد فى الدنيا، والتبتل إلى الله، أى: فالعزة كلها مختصة بالله، عز الدنيا وعز الآخرة. وكان الكفار يتعززون بالأصنام، كما قال تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾(١)، والمنافقون كانوا يتعززون بالمشركين، كما قال تعالى: ﴿الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعًا..﴾(٢)، فبيّن أن العزة إنما هى لله بقوله: «فإن العزة لله، فليطلبها من أرادها من عنده. فوضع قوله: ﴿فلله العزةُ﴾ موضعه، استغناء به عنه؛ لدلالته؛ لأن الشيءَ لا يُطلب إلا من عند صاحبه ومالكه. ونظيره قولك: منْ أراد النصيحة؛ فهى عند الأبرار، أى: فليطلبها من عندهم. وفى الحديث: «إن ربكم يقول كل يوم: أنا العزيز، فمن أراد عزّ الدارين فليُطِعِ العزيز»(٣).

ثم ذكر ما يطلب به العز، وهو العمل المقبول، بقوله: ﴿إليه يَصْعَدُ الكَلِمُ الطيبُ﴾؛ كلمة التوحيد: لا إله إلا الله، وما يلحقها من الأذكار، والدعاء، والقراءة. وعنه ﷺ: «هو سُبحان الله والحمدُ لله، ولا إله إلا الله، والله أكبرُ. إذا قالها العبدُ عَرَجَ بها الملكُ إلى السماء، فحيَّا بها وَجْهَ الرحمن(٤). وكان القياس: الطيبة، ولكن كل جمع ليس بينه وبين واحده إلا التاء يُذكّر ويؤنّث. ومعنى الصعود: القبول والرضا، وكل ما اتصف بالقبول وُصف بالرفعة والصعود.

---

(١) الآية ٨١ من سورة مريم. (٢) الآية ١٣٩ من سورة النساء.

(٣) ذكره ابن الجوزى فى الموضوعات (١/ ١٢٠) عن أنس ﷺ. وقال ابن الجوزى: وهذا من تلصيص سعيد بن هبيرة العامرى، قال ابن عدى: كان يحدث الموضوعات.

(٤) أخرجه بنحوه الطبرى (٢٢/ ١٢٠) والحاكم - وصححه ووافقه الذهبى (٢/ ٤٢٥) - وأخرجه البيهقى فى الأسماء والصفات (٢/ ٣٤) والبغوى فى التفسير (٦/ ٤١٤ - ٤١٥) من حديث ابن مسعود، موقوفًا.

﴿ والعملُ الصالحُ ﴾ كالعبادة الخالصة ﴿ يرفعه ﴾ الله تعالى، أى: يقبله. أو: الكلم الطيب، فالرافع على هذا الكلم الطيب، والمرفوع العمل الصالح، أى: والعمل الصالح يرفعه الكلم الطيب؛ لأن العمل متوقف على التوحيد، المأخوذ من الكلم الطيب؛ وفيه إشارة إلى أن العمل يتوقف على الرفع، والكلِم الطيب يصعد بنفسه، ففيه ترجيح الذكر على سائر العمل. وقيل: بالعكس، أى: والعمل الصالح يرفع الكلم الطيب، فإذا لم يكن عمل صالح فلا يقبل منه الكلم الطيب. وقيل: والعمل الصالح يرفعُ العامل ويشرفه، أى: من أراد العزّة والرفعة فليعمل العمل الصالح؛ فإنه هو الذى يرفع العبد.

ثم ذكر سبب الذل فى الدارين، فقال: ﴿ والذين يمكرون ﴾ المكرات ﴿ السيئاتِ ﴾، فالسيئات: صفة لمصدر محذوف؛ لأن «مكر» لا يتعدى بنفسه. والمراد: مكر قريش برسول الله ﷺ حين اجتمعوا فى دار الندوة؛ كما قال تعالى: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا... ﴾(١) الآية. ﴿ لهم عذاب شديد ﴾ فى الآخرة، ﴿ ومكْرُ أولئك هو يبورُ ﴾ أى: يفسد ويبطل، دون مكر الله بهم، فالضمير يفيد الاختصاص.

الإشارة: العز على قسمين: عز الظاهر، وعز الباطن، فعز الظاهر هو تعظيم الجاه وبُعد الصيت، واحترام الناس لصاحبه، ولمن تعلق به، وسببه: التقوى، والعلم، والعمل، ومكارم الأخلاق؛ كالسخاء، والتواضع، وحسن الخلق، والإحسان إلى عباد الله. وعز الباطن: هو الغنى بالله، وبمعرفته، والتحرر من رق الطمع، والتحلى بحلية الورع. وسببه الذل لله، يُظهر ذلك بين أقرانه، كما قال الشاعر:

تذلّلْ لمن تَهْوى لِتَكْسِبَ عِزةً		فكم عزةٍ قد نالها المرء بالذُّلّ
إذا كان من تَهْوى عزيزاً ولم تكنْ		ذليلاً له فاقْرِ السلامَ على الوَصْلِ

وغايته: الوصول إلى معرفة الشهود والعيان. فإذا تعزز القلب بالله لم يلتفت إلى شىء، ولم يفتقر إلى شىء، وكان حراً من كل شىء، عبداً لله فى كل شىء. وقد يجتمع للعبد العزان معاً، إذا كان عارفاً بالله عاملاً، وقد ينفرد عز الظاهر فى أهل الظاهر، وينفرد عز الباطن فى بعض أهل الباطن، يتركهم تحت أستار الخمول، حتى يلقوه وهم

(١) من الآية ٣٠ من سورة الأنفال.

عرائس الأولياء، ضنّ بهم الحق تعالى عن خلقه، فلم يُظهرهم لأحد، حتى قدموا عليه، وهم الأولياء الأخفياء الأتقياء، كما ورد مدحهم في الحديث(١). وكلا العزين لله، وبيد الله، فلا يُطلب واحد منهما إلا منه سبحانه.

قال القشيري: وقال في آية أخرى: ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾(٢) فأثبت العزة لغيره، والجمع بينهما: أن عِزّة الربوبية لله وَصْفًا، وعزّة الرسول والمؤمنين لله فضْلاً، ومنه لطفاً، فإذاً العزة لله جميعاً. والكلم الطيب هو الذي يصدر عن عقيدة طيبة، وقلب طيب، لا كدر فيه ولا أغيار، وقيل: ماليس فيه حظ للعبد، وقيل: ما يستخرج من العبد، وهو فيه مفقود، وقيل: ماليس فيه حاجة، ولا يطلب عليه عوض، وقيل: ما يشهد بصحته الإذن والتوقيف. انظر القشيري.

ويؤخذ من قوله: ﴿ والعملُ الصالحُ يرفعه ﴾ أن العمل إذا بقي بين عين العبد يلحظه، وينظر إليه، فهو علامة على عدم قبوله، إذ لو قُبل لرفع عن نظره، فلا عمل أرجى للقلوب من عمل يغيب عنك شهوده، ويختفي لديك وجوده. والذين يمكرون بالأولياء، المكرات السيئات، لهم عذاب شديد، وهو البُعد من الله، ومكر أولئك هو يبور. وأما الأولياء فهم في حجاب مستور، من كل مكر وخداع وغرور.

ثم ذكر أصل نشأتهم؛ ليتحققوا ضعفهم ووهنهم، فقال:

﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ والله خَلَقَكم ﴾ أي: أباكم ﴿ من تراب، ثم ﴾ أنشأكم ﴿ من نُطفة، ثم جعلكم أزواجاً ﴾؛ أصنافاً، أو: ذكراناً وإناثاً، ﴿ وما تحمل من أنثى ولا تضعُ إلا بعلمه ﴾؛ إلا معلومة له، وقتاً وكيفية، ﴿ وما يُعَمَّرُ من مُعَمَّرٍ ﴾ أي: وما يمد في عمر أحد فيكون طويلاً. وإنما سمّاه معمّراً لما هو صائر

(١) يشير الشيخ المفسر ـ رحمه الله ـ إلى حديث: «إن لله ضنائن من خلقه، يغذوهم في رحمته، يُحييهم في عافية، ويميتهم في عافية، وإذا توفاهم توفاهم إلى جنته، أولئك الذي تمر عليهم الفتن كقطع الليل المظلم وهم بها في عافية»، عزاه السيوطي في الجامع الصغير (ح ٢٣٧٢) للطبراني، وأبي نعيم في الحلية، عن ابن عمر رضي الله عنه.

(٢) من الآية ٨ من سورة المنافقون.

إليه، ﴿ولا يُنْقَصُ من عُمُرِهِ﴾ أى: يكون عمره قصيراً ﴿إلا في كتاب﴾ أى: اللوح المحفوظ، أو: صحيفة الإنسان. وقال ابن جبير: «مكتوب فى أول الكتاب: عمره كذا وكذا، ثم يكتب أسفل ذلك: ذهب يوم، ذهب يومان، ذهب ثلاثة، حتى ينقطع عمره»(١). ففسر النقص بالذهاب، ولا يذهب شيء من عمره إلا فى كتاب. ويمكن أن يُجرى على ظاهره، باعتبار المحو والإثبات فى غير أُم الكتاب، كما ورد فى صلة الرحم وقطعها. وانظر عند قوله: ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ ...﴾(٢) إلخ. ﴿إنَّ ذلك على الله يسيرٌ﴾ أى: إحصاء الأعمار، أو زيادتها ونقصانها، سهل على علم الله وقدرته.

الإشارة: أصل نشأة الأشباح من الصلصال، وأصل نشأة الأرواح من نور الكبير المتعال، فمن غلبت طينته على روحانيته، وهواه على عقله، التحق بالبهائم، ومن غلبت روحانيته على بشريته، وعقله على هواه، التحق بالملائكة الكرام.

وقوله تعالى: ﴿وما يُعَمَّرُ من معمر ..﴾ الآية، طول العمر وقصره عند الحكماء، ليس هو بكثرة آماده، وإنما هو بكثرة أمداده. وفى الحكم: «ربَّ عمر اتسعت آماده، وقلَّت أمداده، وربَّ عمر قليلة آماده، كثيرة أمداده». والأمداد: ما يجد القلب من معارف الله، وعلومه، وأنواره، وأسراره. فرُبَّ قلب استمد فى زمان قليل، من العلوم والمعارف والأسرار، مالم يستمده غيره فى أزمنة متطاولة. وقال أيضا: «من بورك له فى عمره، أدرك فى يسير من الزمان من منن الله تعالى، ما لا يدخل تحت دوائر العبارة، ولا تلحقه الإشارة»(٣). والغالب أن هذه الأمداد إنما تُنال بصحبة الرجال العارفين بالله، فإن المدد الذي يحصل له معهم فى ساعة واحدة؛ لا يحصل فى أزمنة طويلة مع غيرهم، ولو كثرت صلاتهم وصيامهم.

وقال فى القوت: فإن البركة فى العمر أن تدرك فى عمرك القصير، بيقظتك، ما فات غيرك فى عمره الطويل بعْد، فيرتفع لك فى السنة ما لا يرتفع لغيرك فى عشرين سنة. وللخصوص من المقربين فى مقامات القرب عند التجلى بصفات الرب إلحاق برفع الدرجات، وتدارُكٌ بما فات عند أذكارهم، وأعمال قلوبهم، اليسيرة، فى هذه الأوقات. فكل ذرة من تسبيح، أو تهليل، أو حمد، أو تدبر، أو تبصرة، أو تفكر وتذكرة، لمشاهدة قرب، ووجد برب، ونظرة إلى حبيب، ودنو من قريب، أفضل من أمثال الجبال من أعمال الغافلين، الذين هم لنفوسهم واجدون، وللخلق مشاهدون. ومثال العارفين، فيما ذكرناه؛ من قيامهم بشهادتهم ورعايتهم لأماناتهم وعهدهم، فى وقت

(١) عزاه السيوطى فى الدر المنثور (٥/٤٦٤) لعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبى حاتم، وأبى الشيخ فى العظمة.
(٢) الآية ٤٠ من سورة الرعد.
(٣) انظر الحكم بتبويب المتقى الهندى (ص ٢٨، حكمة ٢٥٩، ٢٦٠).

قربهم وحضورهم؛ مثلُ العامل فى ليلة القدر، العمل فيها، لمن وافقها، خير من ألف شهر. وقد قال بعض العلماء: كل ليلة للعارف بمنزلة ليلة القدر. هـ. منه.

ثم ذكر دلائل قدرته؛ تتميماً لقوله: ﴿إن ذلك على الله يسير﴾، فقال:

﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢) ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿وما يستوي البحران﴾ فى العذوبة والملوحة، بل هما مختلفان، والماء واحد، ﴿هذا عذب فُرات﴾ أى: شديد العذوبة. وقيل: هو الذى يكْسر العطش؛ لشدة برودته، ﴿سائغ شرابُهُ﴾ أى: سهل الانحدار، مَرِىء، لعذوبته، ﴿وهذا ملحٌ أُجاج﴾؛ شديد الملوحة، وقيل: الذى تُحرق ملوحته. ﴿ومن كُلٍّ﴾ أى: من كل واحد منهما ﴿تأكلون لحماً طرياً﴾، وهو السمك، ﴿وتستخرجون حليةً﴾ وهى اللؤلؤ والمرجان. قيل: من الملح فقط. وقيل: منهما. قال بعضهم: نسب استخراج الحلية إليهما؛ لأنه تكون فى البحر عيون عذبة، تمتزج بماء الملح، فيكون اللؤلؤ من ذلك هـ. ﴿تلبسونها﴾ أى: نساؤكم؛ لأن القصد بالتزين هو الرجال.

﴿وترى الفلكَ﴾؛ السفن، ﴿فيه مواخِرَ﴾؛ شواقّ للماء بجريها، يقال: مخرت السفينة الماء: شقّته، وهى جمع ماخرة، ﴿لتبتغوا من فضله﴾؛ من فضل الله، ولم يتقدم له ذكر فى الآية؛ ولكن فيما قبلها، ولو لم يجر له ذكر، لم يشكل لدلالة المعنى عليه. ﴿ولعلكم تشكرون﴾ الله على ما أولاكم من فضله.

وقيل: هو ضرب مثل للكافر والمؤمن، فالمؤمن يجرى عذب فُرات، والكافر ملحٌ أُجاج. ثم ذكر ـ على سبيل الاستطراد ـ ما يتعلق بالبحرين من نعم الله وعطائه. ويحتملُ أن يكون على غير الاستطراد، وهو أن يشبّه الجنسيْن، ثم يفضّل البحر الأجاج على الكافر، وهو ما خص به من المنافع، كاستخراج اللؤلؤ، والمرجان، والسمك، وجرى الفلك فيه، وغير ذلك. والكافر خلوٌ من المنافع بالكلية، فهو على طريقة قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ ثم قال: ﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ..﴾(١).

(١) الآية ٧٤ من سورة البقرة.

الإشارة: بحر الشريعة عذب فُرات، سائغ شرابه، وبحر الحقيقة ملح أُجاج؛ لأنه مُرّ على النفس، يحتاج ركوبه إلى بذل المُهج والنفوس، وحط الرؤوس، وبذل الأموال، ورفض الأوطان والدنيا وأهلها. بخلاف الشريعة، فلا تحتاج إلى هذا كله، وإن كانت متوقفة على مشاق التعلم والتدريس، ولكن تُنال مع بقاء عز النفس والمال والجاه، وغير ذلك. ومن كلٍّ تأكلون لحماً طرياً، فبحر الشريعة يُنال منه حلاوة المعاملة الظاهرة، وبحر الحقيقة يُأكل منه حلاوة الشهود والمعرفة. وترى سُفن الأفكار في بحار الأحدية، مواخر، تجول في عظمة بحر الجبروت والملكوت، ولِتبتغوا من فضله تمامَ معرفته، ولتكونوا من الشاكرين، أي: ممن يعبد شُكراً، لا قهراً.

قال القشيري: وما يستوي الوقتان، هذا بسط، وصاحبه في رَوْح، وهذا قبضٌ، وصاحبه في نَوْح. هذا خوفٌ وصاحبه في اجتياح، وهذا رجاءٌ وصاحبه في ارتياح. قلت: الرجاء عذب، والخوف ملح، خلاف ما يقتضي كلامه. ثم قال: هذا فرق، وصاحبه بوصف العبودية، وهذا جمع، وصاحبه بشهود الربوبية.

ثم ذكر دليلاً آخر، فقال:

﴿ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ كُلٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۚ وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ ١٣ إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثۡلُ خَبِيرٖ ١٤ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿يُولج الليلَ في النهار، ويُولج النهارَ في الليل﴾ أي: يُدخل من ساعات أحدهما في الآخر، حتى يصير الزائدُ منهما خمس عشرة ساعة، والناقص تسعاً. ﴿وسخَّر الشمسَ والقمرَ﴾؛ ذللها لِما يُراد منهما، ﴿كلٌّ يجري لأجلٍ مسمى﴾ أي: يوم القيامة، فينقطع جريهما، ﴿ذلكم اللهُ ربكمُ﴾، الإشارة إلى فاعل هذه الأشياء، وهي: مبتدأ، والله، وما بعده: أخبار، ﴿له الملكُ﴾؛ له التصرف التام. ﴿والذين تَدْعُون من دونه﴾؛ من الأصنام، أي: تعبدونهم، ﴿ما يملكون من قِطْمير﴾؛ وهي القشرة الرقيقة الملتفة على النواة، كما أن النقير: النقطة في ظهره. وهما كنايتان عن حقارة الشيء وتصغيره.

﴿إن تدعُوهُم﴾ أي: الأصنام ﴿لا يسمعوا دعاءَكم﴾؛ لأنهم جماد، ﴿ولو سَمِعُوا﴾ على سبيل الفرض ﴿ماستجابوا لكم﴾؛ لأنهم لا يدّعون ما تدّعون لهم من الإلهية، بل يتبرؤون منها. ﴿ويومَ القيامة يكفرون بشِركِكم﴾؛ بإشراككم لهم، وعبادتكم إياهم. ويقولون: ﴿مَا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾(١). ﴿ولا يُنبئك مِثْلُ خبيرٍ﴾ أي: ولا يخبرك بالأمر على حقيقته مخبر مثل خبير به، وهو الله تعالى؛ فإنه خبير به على الحقيقة، دون سائر المخبرين. والمراد: تحقيق ما أخبر به من حال آلهتهم، ونفي ما يدعون لها. أو: ولا يخبرك أيها المفتون بأسباب الغرور، كما ينبئك الله الخبير بخبايا الأمور وتحقيقها، أي: لا يخبرك بالأمور مخبر هو خبير عالم به، يريد أنّ الخبير بالأمور وحده هو الذي يُخبرك بالحقيقة، دون سائر المخبرين. والمعنى: أنّ هذا الذي أخبرتكم به من حال الأوثان هو الحق؛ لأنه خبيرٌ بما أخبرتُ به. والله تعالى أعلم.

الإشارة: قال الشيخ أبو العباس المرسي رضي الله عنه: يُولج الليل في النهار، ويولج النهارَ في الليل. يُولج المعصية في الطاعة، ويُولج الطاعة في المعصية. يعمل العبد الطاعة فيُعجب بها، ويعتمد عليها، ويستصغر مَن لم يفعلها، ويطلب من الله العوض عليها، فهذه حسنات أحاطت بها سيئات. ويُذنب العبدُ الذنبَ، فيلتجأ إلى الله فيه، ويعتذر منه، ويستصغر نفسه، ويُعظم من لم يفعله، فهذه سيئة أحاطت بها حسنات، فأيتهما الطاعة، وأيتهما المعصية؟هـ. أو: يولج ليلَ القبض في نهار البسط، وبالعكس، أو: يولج ليلَ الحجبة في نهار الكشف، ونهارَ الكشف في ليل القطيعة، يتواردان إلى حال طلوع شمس العرفان، فلا غروب لها، كما قال الشاعر:

طلعتْ شمسُ من أُحب بليلٍ ... واستنارت فما تلاها غروب
إنّ شمسَ النهارِ تَغْربُ بالليـ ... ـل وشمس القلوبِ ليستْ تغيبُ(٢).

قال القشيري: يُولج الليل في النهار، تغلب النّفسُ مرةً على القلب، وبالعكس، وكذلك القبضُ والبسط، فقد يستويان، وقد يغلب أحدُهما، وكذلك الصحو والسُكْرُ، والفناء والبقاء، وآثار شموس التوحيد، وأقمار المعرفة على ما يريد من إظهارها على القلوب.هـ. فهذه كلها يولج أحدها في الآخر. ولا يعرف هذا إلا من تحقق بفقره إلى الله تعالى، كما قال:

﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾﴾

(١) من الآية ٢٨ من سورة يونس.
(٢) البيت من الخفيف، وهو للحلاج. انظر ديوانه ص ٢٣، وصلة تاريخ الطبري ١١/٨٧.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ يا أيها الناس أنتم الفقراءُ إلى الله ﴾ فى دقائق الأمور وجليلها، فى كل لحظة لا يستغنى أحد عنه طرفة عين، ولا أقل من ذلك؛ إذ لا قيام للعبد إلا به، فهو مفتقر إلى الله، إيجاداً وإمداداً. قال البيضاوى: وتعريف الفقراء؛ للمبالغة فى فقرهم، كأنهم لشدة افتقارهم، وكثرة احتياجهم، هم الفقراء دون غيرهم، وأن افتقار سائر الخلق بالإضافة إلى فقرهم غير مُعتد به، ولذلك قال: ﴿ وخُلق الإنسانُ ضعيفاً ﴾(١) قلت: ويمكن أن يكون الحصر باعتبار الحق تعالى، أى: أنتم فقراء دون خالقكم، بدليل وصله بقوله: ﴿ والله هو الغنىُّ الحميدُ ﴾.

وقال ذون النون رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: الخلقُ محتاجون إليه فى كل نَفَسٍ، وطرفة، ولحظة، وكيف لا، ووجودهم به، وبقاؤهم به؟، ﴿ والله هو الغنيُّ ﴾ عن الأشياء كلها، ﴿ الحميدُ ﴾ أى: المجمود بكل لسان. ولم يَسِمْهم بالفقر للتحقير، بل للتعظيم؛ لأن العبد إذا أظهر فقره لسيده الغنى؛ أغناه عن أشكاله وأمثاله. وذكر «الحميد» ليدل به على أنه الغنى النافع بغناه خَلْقَه، والجواد المنعم عليهم؛ إذ ليس كلّ غنيّ نافعًا بغناه، إلا إذا كان الغنيُّ جواداً منعمًا، وإذا جاد وأنعم، حمده المُنعَم عليهم.

ولمّا ذكر افتقارهم إلى نعمة الإيجاد، ذكر افتقارهم إلى نعمة الإمداد، بقوله: ﴿ إن يشأ يُذهبكم ﴾ أى: إن يشأ يُفنيكم كلكم، ويردكم إلى العدم؛ فإنَّ غناه بذاته، لا بكم، ﴿ ويأت بخلقٍ جديدٍ ﴾ يكون أطوع منكم، أو بعالَم آخر غير ما تعرفون. ﴿ وما ذلك ﴾ أى: الإفناء والإنشاء ﴿ على الله بعزيز ﴾؛ بممتنع. وعن ابن عباس: يخلق بعدكم من يعبده، لا يشرك به شيئا. قال القشيرى: فقر الخِلْقَة عامٌّ لكلِّ أحدٍ، فى أول حال وجوده؛ ليُبديه ويُنْشيه، وفى ثانى حال بقائه؛ ليُديمَه ويُبقيَه.هـ. قلت: وإليه أشار فى الحِكَم بقوله: «نعمتان ما خلا موجود عنهما، ولابد لكل موجود منهما: نعمة الإيجاد، ونعمة الإمداد، أنعم أولاً بالإيجاد، وثانياً بتوالى الإمداد».

الإشارة: الفقر على أربعة أقسام: فقر من الدين، وفقر من اليقين، وفقر من المال، وفقر مما سوى الله. فالأولان مذمومان، وصاحبهما موسوم بالإفلاس والهلع، ومنهما وقع التعوذ في الحديث. والثالث: إن صحبه الرضا فممدوح، وفيه وردت الأحاديث النبوية، وإلاّ فمذموم، ويشمله التعوذ فى الحديث. الرابع: هو مطلب القاصدين والعارفين، وهو الغيبة عما سوى الله، والغنى بالله، كما قال الشيخ أبو الحسن: «أسألك الفقر عما سواك، والغنى بك، حتى لا نشهد إلا إياك» وهو ينشأ عن التحقق بالفقر ظاهراً وباطناً؛ لأن الفقر من وصف العبد، والغنى

---

(١) الآية ٢٨ من سورة النساء.

من وصف الرب، فمن تحقق بوصفه أمده الله بوصفه، «تحقق بوصفك يُمدك بوصفه، تحقق بفقرك يمدك بغناه، تحقق بذلك يمدك بعزه»(١).

وقال القشيري ـ بعد كلام ـ: والفقراءُ على أقسام؛ فقير إلى الله، وفقير إلى شيء هو من الله؛ معلوم ومرسوم. ومن افتقر إلى شيءٍ استغنى بوجود ذلك الشيء، فالفقير إلى الله هو الغني بالله، فالافتقار إلى الله لا يخلو من الاستغناء بالله. فالفقير إليه مُسْتَغْنٍ به، والمستغني به فقيرٌ إليه. ومن شرف الفقر اقترانه بالتواضع والخشوع، ومن آفات الغنى امتزاجُه بالتكبُّر. وشَرَفُ العبد وعزه في فقره، وذُلُّه وصغاره في توهمه الغنى، وأنشدوا.

وإذا تذلَّلت الرقــاب [تَقَرُّبـاً](٢)   منَّا إليــكَ فعزُّهـا في ذُلِّهـا

ومن شرط الفقير: ألا يملك شيئاً، ولا يملكه شيء. ومن آداب الفقير الصادق: إظهارُ التكثر عند وجود التقتر، والشكر على البلوى، والبُعد عن الشكوى. ويقال: الفقر المحمود: العيش مع الله براحة الفراغ على سَرْمَدِ الوقت، من غير استكراه شيء منه بكلِّ وجْهٍ. هـ. ملخصا.

قال الورتجبي: فطرة الإنسانية وقعت من الغيب مضطربة متحركة إلى الأزل، بنعت الافتقار إليه، كانجذاب الحديد إلى المغناطيس؛ لأنها وقعت بنعت العشق، والعاشق مفتقر إلى معشوقه، انفعالاً، فمن عرفه بالأزلية والأبدية يفتقر إليه افتقاراً قطعيا؛ لأن بقاءه لا يكون إلا به. وإذا كان كذلك صار غنياً بالله، متصفاً بغناه، غنياً به عن غيره، مفتقراً إليه. فإذا كان في محل الصحو يكون مفتقراً إليه، وإذا كان في محل السكر بقي في رؤية غناه عنه، فصار محجوباً عنه، ولا يدري.هـ.

وقال سهل رضي الله عنه: لمَّا خلق الله الخلقَ حَكَمَ لنفسه بالغِنى، ولهم بالفقر، فمن ادَّعى الغِنى، حُجب عن الله، ومن أظهر فقره أوصله فقْرُه إليه. فينبغي للعبد أن يكون مفتقراً بالسرّ إليه، ومنقطعاً عن الغير إليه، حتى يكون عبوديّته لله محضة، فالعبودية هي الذل والخضوع.هـ.

وقال الواسطي: مَن استغنى بالله لا يفتقر، ومن يتعزز بالله لا يذَل. وقال يحيى بن معاذ: الفقرُ خير للعبدّ من الغِنى؛ لأن الذلة في الفقر، والكبر في الغِنى، والرجوع إلى الله بالتواضع والذلّة خير من الرجوع إليه بكثرة الأعمال. وقيل: صفة الأولياء ثلاثة: الثقة بالله في كل شيء، والفقر إليه في كل شيءٍ، والرجوع إليه من كل شيء.

---

(١) في الأصول [بقربها].

(٢) انظر الحكم (ص ٣١، حكمة/ ١٧٨).

وكيف يفتقر العبد إلى العبد وهو لا يُغنى عنه شيئا؟! قال تعالى:

﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ ﴾

قلت: «وازرة»: صفة لمحذوف، أى: نفس آثمة. و«إن تدع»: شرط، و«لا يُحمل»: جواب، و«لا» النافية لا تمنع الجواب من الجزم.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ولا تَزِرُ وازرة وِزْرَ أُخرى﴾ أى: ولا تحمل نفس آثمة إثم نَفْسٍ أخرى، والوزر والوِقر أخوان، ووزَر الشىء: حمله. والمعنى: أن كل نفس يوم القيامة لا تحمل إلا وزرها الذى اقترفته، فلا تؤخذ نفس بذنب نفس أخرى، كما تأخذ جبابرةُ الدنيا الظلمةُ الجارَ بجريمة الجار، والقريبَ بالقريب، فذلك ظلم محض. وأما قوله تعالى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾[(١)] ففى الضالِّين المضلِّين، فإنهم يحملون أثقال إضلالهم وأثقال ضلالهم، وكل ذلك أوزارهم، ليس فيها شىء من أوزار غيرهم. ألا ترى كيف كذّبهم الله تعالى فى قوله: ﴿اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُم بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾[(٢)].

قال ابن عطية: من تطرق من الحكام إلى أخذ قريب بقريبه فى جريمة ـ كفعل [زياد ونحوه][(٣)]، فإن ذلك، لأن المأخوذ ربما أعان المجرم بمؤازرة، أو مواصلة، أو اطلاع على حاله، أو تقرير له، فهذا قد أُخذ من الجُرم بنصيب. وهذا هو المعنى بقوله تعالى: ﴿وليحملن أثقالهم...﴾ الآية؛ لأنهم أغروهم، وهو معنى قوله ﷺ: «من سنّ سُنّة حسنة..»[(٤)] الحديث، فراجعه. قلت: لا يجوز الإقدام على ظلم أحد بمجرد الظن، فالصواب حسم هذا الباب، والتصريح بتحريمه؛ لكثرة جور الحُكّام.

ثم قال تعالى: ﴿وإن تَدْعُ﴾ نفس ﴿مثقلةٌ﴾ بالذنب أحداً ﴿إلى حِمْلِها﴾ أى: إلى حمل ثِقل ذنوبها، ليتحمل عنها بعض ذلك، ﴿لا يُحْمَل منه شىءٌ ولو كان﴾ المدعو، المفهوم من قوله: ﴿وإن تدع﴾، ﴿ذا

---

(١) الآية ١٣ من سورة العنكبوت. (٢) الآية ١٢ من سورة العنكبوت.

(٣) فى الأصول [كفعل زاد] والمثبت هو الذى فى تفسير ابن عطية. قلت: قال أبو حيّان فى البحر المحيط، تعقيباً على كلام ابن عطية: «وكأن ابن عطية تأوّل أفعال زياد، وما فعل فى الإسلام، وكانت سيرته قريبة من سيرة الحجّاج»

(٤) الحديث أخرجه كاملاً مسلم فى (الزكاة، باب الحث على الصدقة، ٢/٧٠٥، ح ١٠١٧) من حديث جرير بن عبدالله.

قُربى﴾؛ ذا قرابة قريبة، كأب، وولد، وأخ. والفرق بين معنى قوله: ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾ وبين قوله: ﴿إن تدع مثقلة إلى حِملها لا يُحمل منه شيء﴾ أنّ الأول دالّ على عدل الله فى حكمه، وأنه لا يؤاخذ نفساً بغير ذنبها، والثانى: فى بيان أنه لا غياث يومئذ لمن استغاث، فمن أثقلته ذنوبه ثم استغاث بأحد لم يُغثه، وهذا غاية الإنذار.

ثم بيّن من ينتفع به بقوله: ﴿إنما تُنذرُ الذين يخشون ربهم﴾ أى: إنما ينتفع بإنذارك من خشى ربه ﴿بالغيب﴾ أى: يخشون ربهم غائبين عنه، أو: يخشون عذابه غائباً عنهم، فهو حال، إما من الفاعل أو المفعول المحذوف. أو: يخشون ربهم فى حال الغيب، حيث لا اطلاع للغير عليهم، فيتقون الله فى السر، كما يتقون فى العلانية. ﴿وأقاموا الصلاةَ﴾؛ أتقنوها فى مواقيتها، ﴿ومن تزكَّى﴾ أى: تطهر بفعل الطاعات، وترك المنهيات، ﴿فإنما يتزكَّى لنفسه﴾؛ إذ نفعه يعود لها، وهو اعتراض مؤكد لخشيتهم، وإقامتهم الصلاة؛ لأنها من جملة التزكى. ﴿وإلى الله المصيرُ﴾؛ المرجع، فيجازيهم على تزكيتهم، وهو وعد للمتزكّين بالثواب.

الإشارة: وبال الوزر خاص بصاحبه، إلا إذا كان مقتدى به، فإنّ عيبه أو نقصه يسرى فى أصحابه، حتى يطهر منه؛ لأن الصحبة صيرت الجسدين واحداً. وراجع ما تقدم عند قوله: : ﴿واتقوا فتنة...﴾[1] الآية. قال القشيرى: ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾: كلٌّ مُطَالَبٌ بعمله، ومحاسبٌ عن ديوانه. ولكلٍّ معه شأن، وله مع كلّ أحدٍ شأن، ومن العبادات ما تجرى فيها النيابة، ولكن فى المعارف لا تجرى النيابة؛ ولو أن عبداً عاصياً منهمكاً فى غوايته فاتته صلاةٌ مفروضةٌ، فلو قضى عنه ألفُ ولىٍّ، وألفُ صفىٍّ، تلك الصلاة الواحدة، عن كل ركعة ألف ركعةٍ لم تُقْبَلْ. هـ. وقال فى قوله تعالى: ﴿إنما تنذر...﴾ الخ: الإنذار هو الإعلام بموضع المخافة. والخشيةُ هى المخافة، فمعنى الآية: لا ينتفع بالتخويف إلا صاحِبُ الخوف. طيرُ السماء على إلافها تقع. هـ.

ثم ضرب المثل لمن تزكى، ومن لم يتزك، فقال:

﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا
ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى
ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا
فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ ﴾

(١) الآية ٢٥ من سورة الأنفال.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وما يستوي الأعمى والبصيرُ﴾ أي: لا يستوى الكافر والمؤمن، أو الجاهل والعالم. وقيل: هما مثلان للصنم ولله تعالى. ﴿ولا الظلماتُ﴾ كالكفر والجهل، ﴿ولا النورُ﴾ كالإيمان والمعرفة، ﴿ولا الظلُّ﴾ كنعيم الجنان، ﴿ولا الحَرورُ﴾ كأليم النيران. والحَرور: الريح الحارّ كالسموم، إلا أن السموم يكون بالنهار، والحرور يكون بالليل والنهار. قاله الفرّاء.

﴿وما يستوي الأحياءُ ولا الأمواتُ﴾، تمثيل آخر للمؤمنين والكافرين، أبلغ من الأول، ولذلك كرر الفعل، وقيل: للعلماء والجهال. وزيادة «لا» فى الجميع للتأكيد، وهذه الواوات بعضها ضمت شفعاً إلى شفع، وبعضها وتراً إلى وتر. ﴿إن الله يُسْمِعُ من يشاء﴾ بهدايته وتوفيقه لفهم آياته والاتعاظ بها. ﴿وما أنت بمُسْمِعٍ مَن فى القبور﴾، شبّه الكفار بالموتى، حيث لا ينتفعون بمسموعهم، مبالغة فى تصاممهم، يعنى أنه تعالى علِمَ من يدخل فى الإسلام ممن لا يدخل، فيهدى من يشاء هدايته، وأما أنت فخفى عليك أمرهم، فلذلك تحرص على إسلام قوم مخذولين، فإنذارهم كإنذار مَن فى القبور مِن الموتى.

قال ابن عطية: الآية تمثيل بما يحسّه البشر، ويعهده جميعنا من أنّ الميت الذى فى القبر لا يسمع، وأما الأرواح؛ فلا نقول: إنها فى القبر، بل تتضمن الأحاديث أن أرواح المؤمنين فى شجر عند العرش، وفى قناديل وغير ذلك[1]، وأن أرواح الكفرة فى سجّين، ويجوز فى بعض الأحيان أن تكون الأرواح عند القبور، فربما سمعت، وكذلك أهل قليب بدر، إنما سمعت أرواحهم، فلا تعارض بين الآية وحديث القليب.هـ[2].

ثم قال تعالى: ﴿إن أنت إلا نذيرٌ﴾ أى: ما عليك إلا التبليغ والإنذار، فإن كان المنذر ممن يسمع الإنذار نفعه، وإن كان من المصريين فلا عليك.

﴿إنَّا أرسلناك بالحق﴾ أى: محقاً، أو: محقين، أو: إرسالاً مصحوباً بالحق، فهو حال من الفاعل، أو المفعول، أو صفة لمصدر محذوف، ﴿بشيراً﴾ لمن آمن ﴿ونذيراً﴾ لمن كفر، ﴿وإن من أُمّةٍ إلا خلا فيها نذيرٌ﴾ أى: ما من أمة من الأمم الماضية، قبل أمتك، إلا فيها نذير؛ نبيّ، أو عالم، يخوفهم. ويقال لأهل كل عصر: أمة. والمراد هنا: أهل العصر. قال ابن عطية: معناه: أن دعوة الله تعالى قد عمّت جميع الخلق، وإن كان فيهم من لم تباشره النِّذارة، فهو ممن بلَغَته الدعوة، لأن آدم بُعث إلى بنيه، ثم لم تنقطع النذارة إلى وقت محمد ﷺ. والآية

(١) من هذه الأحاديث ما أخرجه الدارمى فى (الجهاد، باب أرواح الشهداء) عن مسروق، قال: سألنا عبدالله فى أرواح الشهداء ولولا عبدالله لم يحدثنا أحد. قال: أرواح الشهداء عند الله يوم القيامة فى حواصل طير خضر، لها قناديل معلقة بالعرش، تسرح فى أيّ الجنة حيث شاءت ، ثم ترجع إلى قناديلها، فيشرف عليهم ربهم، فيقول: ألكم حاجة؟ تريدون شيئاً؟ فيقولون: لا، إلا أن نرجع إلى الدنيا فنقتل مرة أخرى.

(٢) النقل باختصار.

تتضمن أن قريشاً لم يأتهم نذيرٌ، ومعناه: نذيرٌ مباشر، وماذكر المتكلمون من فرض أصحاب الفترات ونحوهم، فإنما ذلك بالفرض، لا أنه توجد أُمةٌ لم تعلم أن فى الأرض دعوة إلى عبادة الله.هـ.

وذكر فى الإحياء، فى باب التوبة: أنه يشبه أن يكون من لم تبلغهم الدعوة فى أطراف البلاد، وعاشوا [على البله](١) وعدم المعرفة، فلم تكن لهم معرفة، ولا جحود، ولا طاعة، ولا معصية، هم أهل الأعراف؛ لأنه لا وسيلة تقربهم، ولا جناية تُبعدهم، فما هم من أهل الجنة، ولا من أهل النار، ويُتركون فى منزلة بين المنزلتين، ومقام بين المقامين.هـ. وقال ابن مرزوق فى شرح حديث [هرقْل](٢): الدين الحق هو الإسلام، وماسواه باطل، عقلاً ونقلاً، فلا عذر لمنتحيله بالإجماع، كان متأولاً مجتهداً، أو مقلداً جاهلاً؛ لأن أدلة الإسلام واضحة قطعية، ومخالف مقتضاها مخطئ قطعاً.هـ.

وقال ابن عطية أيضا، ما نصه: آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ فمن بعده، دعا إلى توحيد الله تعالى دعاء عاماً، واستمر ذلك على العالم، فواجب على الآدمى أن يبحث عن الشرع، الآمر بتوحيد الله تعالى، وينظر فى الأدلة المنصوبة على ذلك، بحسب إيجاب الشرع النظر فيها، ويؤمن، ولا يعبد غير الله، فمن فرضناه لم يجد سبيلاً إلى العلم، فأولئك أهل الفترات، الذين أطلق عليهم أهل العلم أنهم فى الجنة، وهم بمنزلة الأطفال والمجانين، ومن قصر فى النظر والبحث، فعبَدَ صنماً أو غيره، وكفر، فهذا ترك الواجب عليه، مستوجب للعقاب بالنار. هـ. وقال أيضا: إنما صاحب الفترة بفرض أنه آدمى، لم يصل إليه: أن الله بعث رسولاً، ولا دعا إلى دين. وهذا قليل الوجود. إلا أن شذ فى أطراف الأرض، والمواضع المنقطعة عن العمران. هـ.

والحاصل: أن من بلغه خبر الشرائع السابقة، والدعاء إلى توحيد الله، لا عذر له، وإنما بُعثت الرسل بعد ذلك تجديداً، ومبالغة فى إزاحة العذر، وإكمال البيان. قاله المحشى.

الإشارة: وما يستوى الأعمى، الذى لا يرى إلا حس الكائنات، والبصير، الذى فتحت بصيرته، فشاهد المكوِّن، ولم يقف مع حس الكون، ولا الظلمات: المعاصى والغفلة ودائرة الحس، ونور اليقظة والعفة والمعرفة، ولا ظل بَرْد الرضا والتسليم، وحرور التدبير والاختيار، وما يستوى الأحياء، وهم العارفون بالله، الذاكرون الله، والأموات الجاهلون، أو الغافلون. قال القشيرى: ﴿وما يستوي الأعمى والبصير..﴾ الآية، كذلك لا يستوى الموصول بنا والمشغول عنَّا، والمجذوبُ إلينا والمحجوبُ عنَّا، ومن أشهدناه حقَّنا، ومن أغفلنا قلبه عن ذِكرِنا. هـ.

(١) الكلمة مشتبهة فى الأصول، وأثبتها من إحياء علوم الدين ٤/ ٣٢.

(٢) ما بين المعقوفتين أثبته من النسخة التيمورية، وهو مطموس فى النسخ الأخرى. قلت: وحديث هرقل أخرجه البخارى فى (بدء الوحى، باب ٦، ح ٧) ومسلم فى (الجهاد، باب كتاب النبى ﷺ إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام ٣/ ١٣٩٣ – ١٣٩٧، ح ١٧٧٣) عن سيدنا عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

وقوله تعالى: ﴿ وإن من أمة إلا خلا فيها نذير ﴾ . النذير على قسمين: نذير من وبال الذنوب، ونذير من وبال العيوب. فوبال الذنوب: العذاب، ووبال العيوب: الحجاب، فمن تطهّر من الذنوب استوجب نعيم الجنان، ومن تطهر من العيوب استوجب لذيذ الشهود والعيان. فالنذير الأول عالم بأحكام الله، والثاني عارف بالله، الأول مقتصد، والثاني سابق، ولا يخلو الدهر منهما، حتى يأتي أمر الله، فالشريعة باقية قائمة بقيام العلماء، والطريقة والحقيقة قائمتان بقيام الأولياء العارفين بالله، أهل التربية النبوية، بالاصطلاح، والهمة، والحال. ومن قال خلاف هذا فقد قال بالمحال.

ثم سلّى نبيه؛ لأنه لمّا أنذر قومه قابلوه بالتكذيب، فقال:

﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وإن يكذبوك ﴾ أي: قومك ﴿ فقد كذّب الذين من قبلهم ﴾ رسلهم، حال كونهم قد ﴿ جاءتهم رسلهم بالبينات ﴾ ؛ بالمعجزات الواضحة، ﴿ وبالزُّبر ﴾ ؛ وبالصحف ﴿ وبالكتاب المنير ﴾ أي: التوراة، والإنجيل، والزبور. ولمّا كانت هذه الأشياء من جنسهم، أسند المجئ بها إليهم إسناداً مطلقاً، وإن كان بعضها في جميعهم، وهي البينات، وبعضها في بعضهم، وهي الزُّبُر والكتاب. ويجوز أن يراد بالزُّبر والكتاب واحد، والعطف لتغاير الوصفين، فكونها زُبُر باعتبار ما فيها من المواعظ التي تزبر القلوب، وكونها كتباً منيرة؛ لِمَا فيها من الأحكام والبراهين النيرة. ﴿ ثم أخذتُ الذين كفروا ﴾ أي: ثم عاقبتُ الكفرة بأنواع العقاب، ﴿ فكيف كان نكير ﴾ ؛ إنكاري عليهم، وتعذيبي لهم؟ والاستفهام للتهويل.

الإشارة: تكذيب الصادقين سُنّة ماضية. فأولياء كل زمان يتسلون بمن سلف قبلهم، فقد قُتل بعضهم، وسُجن بعضهم، وأُجلي بعضهم، إلى غير ذلك؛ زيادة في مقامهم وترقية بأسرارهم. والله عليم حكيم.

ثم ذكر دلائل قدرته على إهلاك من خالف أمره، فقال:

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ .. ﴾

قلت: «مختلفاً»: نعت «ثمرات». و «مختلف ألوانه»: صفة لمحذوف، أي: صنف مختلف.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ألم تَرَ أن الله أنزلَ من السماء ماءً فأخرجنا به﴾؛ بالماء ﴿ثمراتٍ مختلفاً ألوانُها﴾ أي: أجناسها، كالرمان، والتفاح، والتين، والعنب، وغيرها مما لا يُحصى، أو: ألوانها: هيئاتها من الحُمرة والصفرة ونحوهما. ﴿ومن الجبال جُدَد﴾؛ طُرق مختلفة اللون. جمع: جُدَّة، كمُدَّةٍ ومُدَدٍ. والجُدة: الطريقة والخطة، تكون في الجبل، تخالف لون ما يليها. وكل طريقة من سواد أو بياض فهي جُدة. قاله الهروي. وهي مبتدأ وخبر، أي: وطرق ﴿بِيض وحُمْرٌ﴾ كائنة من الجبال.

﴿وغرابيبُ سود﴾ أي: ومنها غرابيب سود، أي: ومن الطرق سود غرابيب؛ جمع: غربيب، وهي الذى أبعد في السواد وأغرب، ومنه: الغراب. قال الهروى: هي الجواد ذوات الصخور السود، والغربيب: شديدة السواد.هـ. وفي الصحاح: تقول هذا أسود غربيب، أي: شديد السواد، وإذا قلت: غرابيب سود؛ تجعل السود بدلاً من غرابيب؛ لأن توكيد الألوان لا يتقدم.هـ. تقول: أصفر فاقع، وأسود حالك، ولا يتقدم الوصف، ونقل الكواشي عن أبي عبيد: أن في الآية تقديماً وتأخيراً، تقديره: وسود غرابيب. وفائدته: أن يكون المؤكد مضمراً، والمظهر تفسيراً له، فيدل على الاعتناء به، لكونهما معاً يدلان على معنىً واحد هـ. ولابد من تقدير حذف مضاف في قوله: ﴿ومن الجبال جُدَد﴾ أي: من الجبال ذو جدد بيض، وحمر، وسود غرابيب؛ حتى يؤول إلى قولك: ومن الجبال مختلف ألوانه، كما قال: «ثمرات مختلفا ألوانها».

﴿ومن الناس والدوابِّ والأنعامِ مختلفٌ ألوانه﴾، أي: ومنهم صنفٌ مختلف ألوانه بالحمرة والصفرة والبياض والسواد. ﴿كذلك﴾ أي: كاختلاف الثمرات والجبال. قال القشيري: تخصيص الفعل بهيئته وألوانه من أدلة قصد الفاعل وبرهانه. فإتقان الفعل وإحكامه شواهد الصنع وإعلامه. وكذلك أيضاً الناس والدواب والأنعام، بل جميع المخلوقات، متجانس الأعيان، مختلف الصفات، وهو دليل ثبوت منشئها بنعت الجلال هـ.

الإشارة: ألم تر أن الله أنزل من سماء الغيوب ماء الواردات الإلهية، فأخرجنا به ثمرات، وهي العلوم والأذواق والوجدان، مختلف ألوانها، فمنها علوم الشرائع، وتحقيق مسائلها، ومنها علم العقائد، وتشييد أدلتها وبراهينها، ومنها علوم اللسان بإتقان قواعدها، ومنها علم القلوب وتصفيتها من العيوب، وهو علم الطريقة، ومنها علم الأسرار، وهي أسرار الذات والصفات، وهو علم الحقيقة. ومن جبال العقل طُرق بيض، وحمر، وسود، فالبيض: طرق الكشف والبيان، وحلاوة الذوق والوجدان، والحُمر: طُرق الدليل والبرهان؛ لأنها قد تظهر وتخفى، والسود الغرابيب: عقول

الفلاسفة والطبائعيين، أهل الحدس والتخمين، إذا لم يقتدوا بالكتاب المبين، وشرع النبى الأمين. أولئك هم الضالون المضلّون.

ولمّا كان النظر فى هذه المصنوعات إنما يكون بالعلم، ذكر أهله، فقال:

﴿.. إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿إنما يخشى اللهَ﴾ أى: يخافه ﴿من عباده العلماءُ﴾؛ لأنهم هم الذين يتفكرون فى عجائب مصنوعاته، ودلائل قدرته، فيعرفون عظمته وكبرياءه، وجلاله وجماله، ويتفكرون فيما أعد الله لمن عصاه من العذاب ومناقشة الحساب، وفيما أعد لمن خافه وأطاعه من الثواب، وحسن المآب، فيزدادون خشية، ورهبة، ومحبة، ورغبة فى طاعته، وموجب رضوانه، دون من عداهم من الجهال. وفى الحديث عنه ﷺ: «أعلمكم بالله أشدكم له خشية»(١) وقال ﷺ: «رأس الحكمة مخافة الله»(٢).

وقال الربيع بن أنس: من لم يخش الله فليس بعالم، وقال ابن عباس فى تفسير الآية: كفى بالزهد علماً، وقال ابن مسعود: كفى بخشية الله علماً، وبالاعتذار جهلا. وفى الحِكَم: «خيرُ علمٍ ما كانت الخشية معه». وقال فى التنوير: اعلم أن العلم حيثما تكرر فى الكتاب والسنَّة؛ فإنما المراد به العلم النافع، الذى تُقارنه الخشية، وتكتنفه المخافة. قال تعالى: ﴿إنما يخشى اللهَ من عباده العلماءُ﴾. بيّن سبحانه أن الخشية تلازم العلم، وفهم من هذا أن العلماء إنما هم أهل الخشية. هـ.

وقال الشيخ ابن عباد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: واعلم أن العلم النافع، المتفق عليه فيما سلف وخلف، إنما هو العلم الذى يؤدى بصاحبه إلى الخوف والخشية، وملازمة التواضع والذلة، والتخلق بأخلاق الإيمان، إلى ما يتبع ذلك من بغض الدنيا والزهادة فيها، وإيثار الآخرة عليها، ولزوم الأدب بين يدى الله تعالى، إلى غير ذلك من الصفات العلية، والمناحى السنية. هـ.

---

(١) قال الحافظ ابن حجر: لم أجده هكذا، وفى الصحيح: «أنا أعلمكم بالله وأشدكم له خشية». حاشية الكشاف (٣/٦١١).

(٢) أخرجه البيهقى فى الشعب (١/٤٧١/ح ٧٤٣، ٧٤٤) عن ابن مسعود، موقوفاً ومرفوعاً. قال العراقى فى المغنى: رواه أبو بكر بن لآل الفقيه فى مكارم الأخلاق، والبيهقى فى الشعب، وضعّفه من حديث ابن مسعود، ورواه فى دلائل النبوة، من حديث عقبة بن عامر، ولا يصح أيضاً.

وقال فى لطائف المنن: شاهد العلم، الذى هو مطلب الله تعالى: الخشية، وشاهد الخشية: موافقة الأمر، فأما علم تكون معه الرغبة فى الدنيا، والتملق لأربابها، وصرف الهمة لاكتسابها، والجمع، والادخار، والمباهاة، والاستكثار، وطول الأمل، ونسيان الآخرة، فما أبعد مَنْ هذا نعته مِنْ أن يكون من ورثة الأنبياء! وهل ينتقل الشيء الموروث إلى الوارث إلا بالصفة التى كان بها عند الموروث عنه. ومثل مَنْ هذه الأوصاف أوصافه من العلماء كالشمعة، تُضيء على غيرها، وهى تحرق نفسها. جعل الله العلم ـ الذى علمه من هذا وصفه ـ حجة عليه، وسبباً فى تكثير العقوبة لديه .هـ.

وتقديم اسم الله تعالى، وتأخير العلماء، يُؤذِن أن معناه: إن الذين يخشون الله من عباده العلماء دون غيرهم. ولو عكس، بأن قال: إنما يخشى العلماءُ اللهَ، لكان المعنى: أنهم لا يخشون إلا الله.

وقرأ أبو حنيفة وعمر بن عبد العزيز: بنصب «العلماء» ورفع «الله». والخشية فى هذه القراءة بمعنى التعظيم. والمعنى: إنما يعظم اللهُ من عباده العلماءَ. وعنه ﷺ: «يقولُ الله للعلماء يوم القيامة ـ إذا قَعَدَ على كُرسيِّه، يفصل قضاء عباده: إني لم أجعلْ عِلْمي وحِلْمي فيكُمْ؛ إلا وأنا أُريدُ أن أغفرَ لكم، على ما كان فيكم، ولا أبالى»(١)، قال المنذرى: انظر إلى قوله: «علمي وحلمي» يتضح لك بإضافته إليه أنه لم يرد به علم أكثر أهل الزمان المجرّد عن العمل به والإخلاص. وفى رواية: «لم أجعل حكمتى فيكم إلا لخير أريده بكم، ادخلوا الجنة بما فيكم». وقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «يُوزن يوم القيامة مداد العلماء ودماء الشهداء، فيرجح مداد العلماء على دماء الشهداء»(٢).

﴿إن الله عزيزٌ غفور﴾، هو تعليل لوجوب الخشية؛ لدلالته على عقوبة العصاة؛ لعزته وغلبته، وإثابة أهل الطاعة، والعفو عنهم؛ لعظيم غفرانه، والمعاقب والمثيب حقه أن يُخشى.

الإشارة: العلماء على قسمين؛ علماء بأحكام الله، وعلماء بالله، العلماء بالأحكام يخشون غضبه وعقابه، والعلماء بالله يخشون إبعاده واحتجابه، العلماء بالأحكام يتقون مواطن الآثام، والعلماء بالله يتقون سوء الأدب فى حضرة الملك العلام. فخشية العلماء بالله أرق وأشد. العلماء بالله أخذوا علمهم من الله، والعلماء بالأحكام أخذوا علمهم عن الأموات. قال الشيخ أبو يزيد رضي الله عنه: فى علماء أهل الرواية: مساكين أخذوا علمهم ميت عن ميت، وأخذنا علمنا عن الحى الذى لا يموت.هـ.

---

(١) أخرجه للطبرانى فى الكبير (١٣٨١) من حديث ثعلبة بن الحكم الصحابى. قال الهيثمى فى مجمع الزوائد (١/١٢٦): ورجاله موثقون.

(٢) عزاه السيوطى فى الجامع الصغير (ح/١٠٠٢٦) للمرهبى، عن عمران بن حصين، وابن عبد البر، فى العلم، عن أبي الدرداء، وابن الجوزى فى العلل، عن النعمان بن بشير، وضعّفه.

والفرق بين الخوف والرهبة والخشية: أن الخوف من العقاب، والرهبة من العتاب، والخشية من الإبعاد. قال القشيرى: والفرق بين الخشية والرهبة: أنّ الرهبة؛ خوفٌ يُوجِبُ هَرَبَ صاحبه، فيجرى فى تفرقته. والخشية إذا حصلت كَبَحَت صاحبها، فيبقى مع الله. فقدمت الخشية على الرهبة فى الجملة، والخوف قضية الإيمان، قال تعالى: ﴿وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾(١)· والخشية قضية العلم والهيبة.هـ. ثم قال: العالم يخاف تقصيره فى حقّ ربه، والعارف يخشى من سوء أدبه وترك احترام، وانبساط فى غير وقت، بإطلاق لَفْظٍ، أو تَرَخيص بتَرْكِ الأَوْلى.هـ.

قال الورتجبى: الخوف عموم، والخشية خصوص. وقد قرن سبحانه الخشية بالعلم، أى: العلم بالله وجلاله وقدره وربوبيته وعبوديته له. وحقيقة الخشية: وقوع إجلال الحق فى قلوب العارفين، ممزوجاً بسنا التعظيم، ورؤية الكبرياء والعظمة، ولا يحصل ذلك إلا لمن شاهد القِّدم، والأزل، والبقاء، والأبد، فمن زاد علمه بالله زاد خشية، لقوله ﷺ: «أنا أعرفكم بالله وأخشاكم منه» .هـ. وفى الحديث: قيل يارسول الله: أى الأعمال أفضل؟ قال: «العلم» قيل: أىُّ العلم؟ قال: «العلم بالله سبحانه»(٢). وقال ﷺ: «ما بال أقوام يتنزهون عن الشيء أصنعه؟ والله إنى لأعلمكُم بالله، وأشدُّكم له خشيةً»(٣)·

ثم قال(٤): عن جعفر الصادق: العلم أمْرُ تركِ الحرمة فى العبادات، وترك الحرمة فى الحياء من الحق، وترك الحرمة فى متابعة الرسول، وترك الحرمة فى خدمة الأولياء الصدِّيقين.هـ. ومعى كلامه: أن العلم الحقيقى هو الذى يأمن صاحبُه من انتهاك حرمة العبادات، ومن هتْك حرمة الاحتشام من الله ورسوله وأوليائه. ومَن أراد من العلماء السلامة من الاغترار بالعلم فليطالع شرح ابن عباد، فى قول الحِكَم: «العلم إن قارنته الخشية فلك، وإلا، فعليك». وبالله التوفيق.

---

(١) من الآية ١٧٥ من سورة آل عمران.

(٢) ذكره ابن عراق فى تنزيه الشريعة (كتاب العلم، ١/٢٧٨، القسم الثالث) وعزاه لابن حبان، والديلمى عن أنس، عن طريق عباد ابن عبدالصمد. قال فى تنزيه الشريعة (١/٧٠): «عباد بن عبدالصمد عن أنس، بنسخة، أكثرها موضوع. قاله ابن حبان».
قلت: معنى الحديث صحيح.

(٣) أخرجه البخارى فى (الاعتصام، باب ما يكره من التعمق والتنازع والغلو فى الدين والبدع، ح ٧٣٠١)، ومسلم فى (الفضائل، باب علمه ﷺ بالله وشدة خشيته، ٤/١٨٢٩، ح ٢٣٥٦) من حديث السيدة عائشة بلفظ: «...لأنا أعلمهم بالله، وأشدهم له خشية».

(٤) أى: الورتجبى.

ولمّا ذكر العلماء، ذكر حملة القرآن، فقال:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾ وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿إن الذين يتلون كتاب الله﴾ أى: يُداومون على تلاوة القرآن ﴿وأقاموا الصلاة﴾؛ أتقنوها فى أوقاتها، ﴿وأنفقوا مما رزقناهم﴾ فرضاً ونفلاً ﴿سراً وعلانية﴾؛ مسرّين النفل، ومعلنين الفرض، ولم يقنعوا بتلاوته عن العمل به. وخبر «إن»: قوله: ﴿يرجون تجارة لن تبور﴾؛ لن تكسد، وهو ثواب أعمالهم، يعنى: يطلبون تجارة ينتفى عنها الكسد، وتنفق عند الله.

﴿ليُوفّيهم﴾ متعلق بـ: «تبور»، أى: ليوفيهم بإنفاقها عند الله ﴿أجُورهم﴾؛ ثواب أعمالهم ﴿ويَزيدَهُم من فضله﴾ بتفسيح القبور، أو: تشفيعهم فى أهلهم، ومَنْ أحسن إليهم، أو: تضعيف حسناتهم، أو: بتحقيق وعد لقائه.

أخرج ابن أبى شيبة عن بريدة، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن القرآن يلقى صاحبه يوم القيامة، حين ينشق عنه القبر، كالرجل الشاحب، يقول له: هل تعرفنى؟ فيقول: ما أعرفك، فيقول: أنا صاحبك الذى أظمأتك فى الهواجر، وأسهرت ليلتك، فإنّ كل تاجر وراء تجارته. قال: فيُعطى المُلك بيمينه، والخُلد بشماله، ويوضع على رأسه تاج الوقار، ويُكسى والداه حلّتين، لا تُقوّم لهما الدنيا، فيقولان: بم كُسِينا هذا؟ فيقال لهما: بأخْذِ ولَدِكُما القرآنَ. ثم يقال له: اقرأ، واصعد فى درج الجنة وغرفها، فهو فى صعود مادام يقرأ»(١).

وذُكر فى بعض الأخبار: أن حملة القرآن يُحشرون يوم القيامة على كثبان المسك، وأنوارُ وجوههم تغشى النظار، فإذا أتوا إلى الصراط تلقتهم الملائكة؛ الذين وُكلوا بحملة القرآن، فتأخذ بأيديهم، وتُوضع التيجان على

(١) أخرجه أحمد فى المسند (٥/٣٤٨)، وأخرجه، مختصراً، ابن ماجه فى (الأدب، باب ثواب القرآن ٢/١٢٤٢ ح ٣٧٨١) والدارمى فى (فضائل القرآن، باب فى فضل سورة البقرة وآل عمران، ٢/٥٤٣ ح ٣٣٩١) والحاكم (١/٥٦٨) وصححه على شرط مسلم، ووافقه الذهبى.

رؤوسهم، والحُلل على أجسادهم، وتُقرب إليهم خيل من نور الجنة، عليها سُرُج المسك الأذفر، ألجمتُها من اللؤلؤ والياقوت، فيركبونها، وتطير بهم على الصراط، ويجوز في شفاعة كل واحد منهم مائة ألف ممن استوجب النار، وينادي منادٍ: هؤلاء أحباء الله، الذين قرأوا كتاب الله، وعمِلوا به، لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.هـ.

﴿ إنه غفور شكور ﴾، غفور لهفواتهم، شكور لأعمالهم، يُعطى الجزيل، على العمل القليل.

﴿ والذي أوحينا اليك مِن الكتاب ﴾ أي: القرآن، و«من»: للتبيين، ﴿ هو الحقُّ ﴾ لا مرية فيه، ﴿ مصدِّقًا لما بين يديه ﴾؛ لما تقدمه من الكتب، ﴿ إن الله بعباده لخبير بصير ﴾؛ عالم بالظواهر والبواطن، فعلِمك وأبصر أحوالك، ورآك أهلاً لأن يُوحى إليك هذا الكتاب المعجز، الذي هو عِيار على سائر الكتب.

الإشارة: كل ما ورد في فضل أهل القرآن، فالمراد به في حق من عَمِلَ به، وأخلص في قراءته، وحافظ على حدوده، ورعاه حق رعايته. وقد ورد فيمن لم يعمل به، أو قرأه لغير الله، وعيد كبير، وورد أنهم أول من يدخل جهنم. قال شيخ شيوخنا، سيدي عبدالرحمن الفاسي، بعد ذكر الحديثين في فضل حامل القرآن: وهذا مقيد بالعمل، أي: فإنَّ منزلتك عند آخر آية مما عملتَ، لا مما تلوتَ بلسانك وخالفتَ بعملك؛ لأنه لو كان كذلك لانخرقت أصول الدين، ويؤدي إلى أن من حفظ سرد القرآن اليوم، يكون أفضل من كثير من الصحابة الأخيار، والصالحين الأبرار؛ فإن كثيراً من خيارهم مات قبل حفظ جميعه.هـ.

ثم فصّل أحوالهم، فقال:

﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ثم أورثنا الكتابَ﴾ أى: أوحينا إليك القرآن، وأورثناه مَنْ بعدَك، أى: حكمنا بتوريثه ﴿الذين اصطفينا من عبادنا﴾، وهم أمة محمد ﷺ من الصحابة والتابعين، وتابعيهم، ومَن بعدهم إلى يوم الدين؛ لأنّ الله اصطفاهم على سائر الأمم، وجعلهم أمة وسطاً؛ ليكونوا شهداء على الناس، واختصهم بالانتساب إلى أكرم رسله. قال ابن عطية: الكتاب هنا يراد به معانى القرآن وأحكامه وعقائده، فكأن الله تعالى أعطى أمة محمد القرآن، وهو قد تضمن معانى الكتب المنزلة قبله، فكأنه ورَّث أمة محمد الكتاب الذى كان فى الأمم قبلها.هـ.

ثم رتَّبهم مراتب، فقال: ﴿فمنهم ظالم لنفسه﴾ بالتقصير فى العمل به، وهو المرجأ لأمر الله، ﴿ومنهم مقتصدٌ﴾ وهو الذى خلط عملاً صالحاً وآخر سيئا، ﴿ومنهم سابق بالخيرات﴾، بأن جمع بين علمه والعمل به، وإرشاد العباد إلى اتباعه. وهذا أوفق بالحديث، فقد رُوى عن عمر رضي الله عنه أنه قال على المنبر ـ بعد قراءة هذه الآية: قال رسول الله ﷺ: «سابقنا سابق، ومقتصدنا ناج، وظالمنا مغفور له»(١) وعنه ﷺ أنه قال: «السابق يدخل الجنة بغير حساب، والمقتصد يحاسب حساباً يسيراً ثم يدخل الجنة، والظالم يُحبس، حتى يظن أنه لن ينجو، ثم تناله الرحمة، فيدخل الجنة» رواه [أبو الدرداء](٢). وقال ابن عباس رضي الله عنه: السابق، المخلص، والمقتصد: المرائى، والظالم: الكافر النعمة غير الجاحد له، لأنه حَكَمَ للثلاثة بدخول الجنة. وقال الربيع بن أنس: الظالم: صاحب الكبائر، والمقتصد: صاحب الصغائر، والسابق: المجتنب لهما. وقال الحسن: الظالم: من رجحت سيئاته، والسابق: من رجحت حسناته، والمقتصد: من استوت حسناته وسيئاته. وسئل أبو يوسف عن هذه الآية فقال: كلهم مؤمنون. وأما صفة الكفار فبعد هذا، وهو قوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ﴾(٣). وأما الطبقات الثلاث فهم من الذين اصطفى من عباده؛ لأنه قال: فمنهم، ومنهم، ومنهم، والكل راجع إلى قوله: ﴿الذين اصطفينا من عبادنا﴾ فهم أهلُ الإيمان، وعليه الجمهور.

وإنما قدَّم الظالم للإيذان بكثرتهم، وأنَّ المقتصد: قليلٌ بالإضافة إليهم، والسابقون أقل من القليل. وقال ابن عطاء: إنما قدم الظالم لئلا ييأس من فضله. وقيل: إنما قدّمه ليعرِّفه أن ذنبه لا يبعده من ربِّه. وقيل: لأن أول

---

(١) عزاه السيوطى فى الدر المنثور (٥/٤٧٣) لسعيد بن منصور، وابن أبى شيبة، وابن المنذر، والبيهقى فى البعث، موقوفاً على سيدنا عمر. وأخرجه البغوى فى تفسيره (٦/٤٢١) مرفوعاً. وعزى السيوطى المرفوع للعقيلى فى الضعفاء (٣/٤٤٣) وبن لال، وابن مردويه، والبيهقى.

(٢) فى الأصول: [أبو داود] والصواب ما أثبت، قلت: والحديث أخرجه أحمد فى المسند (٥/١٩٤، ١٩٨ و٦/٤٤٤)، قال الهيثمى فى المجمع (٧/٩٦): «رواه أحمد بأسانيد، رجال أحدها رجال الصحيح». وأخرجه الحاكم (٢/٤٢٦) والطبرى (٢٢/١٣٧) والبغوى فى التفسير (٦/٤٢١) كلهم من حديث أبى الدرداء رضي الله عنه.

(٣) الآية ٣٦ من سورة فاطر.

الأحوال معصية، ثم توبة، ثم استقامة. وقال سهل: السابق: العالم، والمقتصد: المتعلم، والظالم: الجاهل. وقال أيضاً: السابق: الذى اشتغل بمعاده، والمقتصد: الذى اشتغل بمعاشه ومعاده، والظالم: الذى اشتغل بمعاشه عن معاده. وقيل: الظالم: الذى يعبده على الغفلة والعادة، والمقتصد: الذى يعبده على الرغبة والرهبة، والسابق: الذى يعبده على الهيبة والاستحقاق. وقيل: الظالم: مَن أخذ الدنيا حلالاً وحراماً، والمقتصد: المجتهد ألا يأخذها إلا من حلال، والسابق: مَن أعرض عنها جملة.

وقيل: الظالم: طالب الدنيا، والمقتصد: طالب الآخرة، والسابق: طالب الحق لا يبغى به بدلاً. جعلنا الله منهم بمنّه وكرمه. وقال عكرمة والحسن وقتادة: الأقسام الثلاثة فى جميع العباد؛ فالظالم لنفسه: الكافر، والمقتصد: المؤمن العاصى، والسابق: التقى على الإطلاق. وقالوا هذه الآية نظير قوله تعالى: ﴿ وكُنتم أزواجًا ثلاثة ﴾[(١)] والتحقيق ما تقدم.

وقوله: ﴿ بإذْنِ الله ﴾ أى: بأمره، أو: بتوفيقه وهدايته ﴿ ذلك ﴾ أى: إيراث الكتاب والاصطفائية. أو السبق إلى الخيرات ﴿ هو الفضلُ الكبيرُ ﴾ الذى لا أكبر منه، وهو ﴿ جناتُ عَدْنٍ يدخلونها ﴾ أى: الفرق الثلاث؛ لأنها ميراث، والعاق والبار فى الميراث سواء، إذا كانوا مقرين فى النسب. وقرأ أبو عمرو بالبناء للمفعول. ﴿ يُحلَّون فيها من أساورَ ﴾؛ جمع أسورة، جمع سوار، ﴿ من ذهبٍ ولؤلؤًا ﴾ أى: من ذهب مرصّع باللؤلؤ. وقرأ نافع بالنصب[(٢)]، عطف على محل أساور، أى: يحلون أساور ولؤلؤا. ﴿ ولباسُهُم فيها حريرٌ ﴾؛ لِمَا فيه من اللذة والليونة والزينة.

﴿ وقالوا ﴾ بعد دخولهم الجنة: ﴿ الحمدُ لله الذي أذْهَبَ عنا الحزَنَ ﴾؛ خوف النار، أو: خوف الموت، أو: الخاتمة، أو: هَم الرزق. والتحقيق: أنه يعم جميع الأحزان والهموم، دنيوية أو أخروية، وعن ابن عمر: قال النبى ﷺ: «ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة، فى قبورهم، ولا فى محشرهم، وكأنى بأهل لا إله إلا الله يخرجون من قبورهم، وهم ينفضون التراب عن وجوههم، فيقولون: الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن»[(٣)]. ﴿ إنَّ ربنا لغفور شكور ﴾، يغفر الجنايات، وإن كثرت، ويقبل الطاعات، ويشكر عاملها، وإن قلّت. ﴿ الذي أحلنا دارَ المُقَامة ﴾

(١) الآية ٧ من سورة الواقعة.
(٢) وهى أيضاً قراءة عاصم. وقرأ الباقون بالجر عطفاً على «ذهب». انظر الإتحاف (٢/٣٩٣).
(٣) أخرجه البغوى فى تفسيره (٦/٤٢٤) وعزاه الحافظ ابن حجر، فى الكافى الشاف (ص ١٣٩) لأبى يعلى، وابن أبى حاتم، والبيهقى فى أول الشعب، والطبرانى فى الأوسط.

أى: دار الإقامة لا نبرح عنها ولا نفارقها. يقال: أقمت إقامة ومقاماً ومقامة ،﴿ من فضله ﴾ أى: من عطائه وإفضاله، لا باستحقاق أعمالنا، ﴿ لا يمسنا فيها نصبٌ ﴾؛ تعب ومشقة ﴿ ولا يمسنا فيها لغوبٌ ﴾؛ إعياء وكلَل من التعب، وفترة؛ إذ لا تكليف فيها ولا كد. نفى عنهم أولاً التعب والمشقة، وثانياً ما يتبعه من الإعياء والملل.

وأخرج البيهقى: أن رجلاً قال يارسول الله: إن النوم مما يقرُّ الله به أعيننا، فهل فى الجنة من نوم؟ فقال: «إن النوم شريك الموت ـ أو أخو الموت ـ وإن أهل الجنة لا ينامون ـ أو: ليس فى الجنة موت» . وفى رواية أخرى، قال: فما راحتهم؟ قال: «ليس فيها لغوب، كل أمرهم راحة»(١)، فالنوم ينشأ من نصب الأبدان، ومن ثقل الطعام، وكلاهما منتفيان فى الجنة.

قال الضحاك: إذا دخل أهل الجنة الجنة، استقبلهم الولدان والخدم، كأنهم اللؤلؤ المكنون، فيبعث الله ملَكاً من الملائكة، معه هدية من رب العالمين، وكسوة من كسوة الجنة، فيلبسه، فيريد أن يدخل الجنة فيقول الملك: كما أنت، فيقف، ومعه عشرة خواتم، فيضعها فى أصابعه، مكتوب: طبتم فادخلوها خالدين، وفى الثانية: ادخلوها بسلام، ذلك يوم الخلود، وفى الثالثة: رُفعت عنكم الأحزان والهموم، وفى الرابعة: وزوجناهم بحور عين، وفى الخامسة: ادخلوها بسلام آمنين، وفى السادسة: إنى جزيتهم اليوم بما صبروا، وفى السابعة: أنهم هم الفائزون. وفى الثامنة: صرتم آمنين لا تخافون أبداً، وفى التاسعة: رفقتم النبيين والصديقين والشهداء، وفى العاشرة: سكنتم فى جوار من لا يؤذى الجيران. فلما دخلوا قالوا: ﴿الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن..﴾ إلى: ﴿لغوب﴾.هـ.

الإشارة: قال الورتجبى: الاصطفائية تقدمت الوراثة؛ لمحبته ومشاهدته، ثم خاطبهم بما له عندهم وما لهم عنده. وهذا الميراث الذى أورثهم من جهة نسب معرفتهم به، واصطفائيته إياهم، وهو محل القرب والانبساط، لذلك قال: ﴿ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا﴾، ثم قسمهم على ثلاثة أقسام: ظالم، ومقتصد، وسابق. والحمد لله الذى جعل الظالم من أهل الاصطفائية. ثم قال: فالظالم عندى ـ والله أعلم ـ الذى وازى القدم بشرط إرادة حمل وارد جميع الذات والصفات، وطلب كنه الأزلية بنعت إدراكه، فأى ظالم أعظم منه؟ إذ طلب شيئاً مستحيلاً، ألا ترى كيف وصف سبحانه آدم بهذا الظلم بقوله: ﴿ وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً ﴾(٢)، وهذا من كمال شوقه إلى حقيقة الحق، وكمال عشقه، ومحبة جلاله.هـ.

---

(١) عزاه السيوطى فى الدر (٥/٤٧٦) لابن أبى حاتم، وابن مردويه، والبيهقى فى البعث، عن عبد الله بن أبى أوفى رضي الله عنه.
(٢) الآية ٧٢ من سورة الأحزاب.

قلت: وهذا النوع من المتوجهين غلب عليه سُكْر المحبة، ودهش العشق، فادعى قوة الربوبية، وطلب إدراك الألوهية، ونسي ضعف عبوديته، فكان ظالماً لنفسه، من هذا المعنى؛ إذ العبودية لا تطيق إدراك كنه الربوبية. ولو أنه طلب الوصول إليه من جهة فقره، وضعفه، لكان مقتصداً، ولو أنه طلب الوصول إلى الله بالله لكان سابقاً. فالأقسام الثلاثة تجرى فى المتوجهين؛ فالظالم لنفسه: من غلب سُكْره على صحوه فى بدايته، والمقتصد من غلب صحوه على سكره فى بداية سيره، والسابق من اعتدل سكره مع صحوه فى نهايته أو سيره.

أو الظالم: السالك المحض، والمقتصد: المجذوب المحض، والسابق: الجامع بينهما؛ إذ هو الذى يصلح للتربية. أو الظالم: الذى ظاهره خيرٌ من باطنه، والمقتصد: الذى استوى ظاهره وباطنه، والسابق: هو الذى باطنه خير من ظاهره.

وعن عليّ ـ كرم الله وجهه ـ: الظالم: الآخذ بأقوال النبى ﷺ، والمقتصد: الآخذ بأقواله وأفعاله، والسابق: الآخذ بأقواله وأفعاله وأخلاقه. وقال القشيرى: ويقال: الظالم: من غلبت زلاّتُه، والمقتصد: من استوت حالاته، والسابقُ: من زادت حسناته. أو: الظالمُ: مَنْ زهد فى دنياه، والمقتصدُ: من رغب فى عقباه، والسابق: من آثر على الدارين مولاه. أو: الظالم: من نَجَمَ كوكبُ عقله، والمقتصد: من طلع بدرُ علمه، والسابق: من ذَرَّتَ شمسُ معرفته. أو: الظالم: من طلبه، والمقتصد: من وجده، والسابق: من بقى معه. أو: الظالم: من ترك الزلة، والمقتصد: من ترك الغفلة، والسابق: من ترك العلاقة. أو: الظالم: من جاد بنفسه، والمقتصد: من لم يبخل بقلبه، والسابق: من جاد بروحه. أو: الظالم: من له علم اليقين، والمقتصد: من له عين اليقين، والسابق: من له حق اليقين. أو: الظالم: بترك الحرام، والمقتصد: بترك الشُّبهة، والسابق: بترك الفضل فى الجملة.

أو: الظالم: صاحب سخاء، والمقتصد: صاحب جود، والسابق: صاحب إيثار. أو: الظالم: صاحب رجاء، والمقتصد: صاحب بسط، والسابق: صاحب أُنس. أو: الظالم: صاحب خوف، والمقتصد: صاحب خشية، والسابق: صاحب هيبة. أو: الظالم له المغفرة، والمقتصد: له الرحمة، والسابق: له القُربة، أو: الظالم: طالب النجاة، والمقتصد: طالب الدرجات، والسابق: طالب المناجاة. أو: الظالم: أمن من العقوبة، والمقتصد: طالب المثوبة، والسابق: متحقق بالقربة. أو: الظالم: صاحب التوكل، والمقتصد: صاحب التسليم، والسابق: صاحب التفويض، أو: الظالم: صاحب تواجد، والمقتصد: صاحب وجد، والسابق: صاحب وجود ـ غير محجوب عنه البتة ـ. أو: الظالم: مجذوب إلى فعله، والمقصد مكاشفٌ بوصفه، والسابق: مستهلك فى حقه، الذى هو وُجُودُه. أو: الظالم: صاحب

المحاضرة، والمقتصد: صاحب المكاشفة، والسابق: صاحب المشاهدة. وبعضهم قال: يراه الظالم فى الآخرة فى كل جمعة، والمقتصد: فى كل يوم مرة، والسابق: غير محجوبٍ عنه ألبتة.هـ باختصار.

والتحقيق: أن الأقسام الثلاثة تجرى فى كل من العارفين، والسائرين، والعلماء، والعُبّاد، والزهاد، والصالحين؛ إذ كل فن له بداية ووسط ونهاية. ذلك السبق إلى الله هو الفضل الكبير، جنات المعارف يدخلونها، يُحلّون فيها فيها من أساور من ذهب، وهى الأحوال، ولُؤلؤاً، وهى المقامات، ولباسهم فيها حرير، وهى خالص أعمال الشريعة ولُبها. وقالوا: الحمد لله الذى أذهب عنا الحزَن؛ إذ لا حزن مع العيان، ولا أغيار مع الأنوار، ولا أكدار مع الأسرار، ما تجده القلوب من الأحزان فلِماَ مُنعت من العيان. ولابن الفارض رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فى وصف الخمرة:

وإن خطَرتْ يوماً على خاطرِ امرىءٍ أقامتْ بهــا الأفراحُ وارْتحـلَ الهمّ

وقال أيضا:

فما سَـكَنَتْ والهمّ يـوماً بموضِــعٍ، كذلك لم يسـكُنْ مع النغَم الغـمُ(١)

إنّ ربنا لغفور بتغطية العيوب، شكور بكشف الغيوب، الذى أحلنا دار المُقامة، هى التمكين فى الحضرة، بفضله، لا بحول منا ولا قوة، لا يمسنا فيها نصب. قال القشيرى: إذا أرادوا أن يَرَوْا مولاهم لا يحتاجون إلى قطْعِ مسافةٍ، بل هم فى غُرَفِهم يشاهدون مولاهم، ويلقون فيها تحيةً وسلاماً، وإذا رأوه لا يحتاجون إلى تحديق مُقلةٍ من جهةٍ، كما هم يرَوْنه بلا كيفية هـ.

ثم ذكر أضدادهم، فقال:

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ
عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ (٣٦) وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ
صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ
النَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ (٣٧) ﴾

(١) فى الأصول الخطية: [كذلك لايسكن مع النعم الغم].

قلت : «فيموتوا» : جواب النفى.

يقول الحق جل جلاله : ﴿ والذين كفروا لهم نارُ جهنَّمَ ﴾، يُخلدون فيها، ﴿ لا يُقْضَى عليهم فيموتوا ﴾ أى: لا يحكم بموت ثان فيستريحوا، ﴿ ولا يُخفف عنهم من عذابها ﴾ ساعة، بل كلما خبت زِيد إسعارها، وهذا مثل قوله: ﴿ لا يُفَتَّرُ عَنْهُم ﴾(١)، وذكر عياض انعقاد الإجماع على أن الكفار لا تنفعهم أعمالهم، ولايُثابون عليها. ولا تخفيف عذاب. وقد ورد فى الصحيح سؤال عائشة عن ابن جدعان، وأنه كان يصل الرحم، ويطعم المساكين، فهل ذلك نافعُه، فقال ﷺ: «لا، فإنه لم يقل يوماً: رب اغفر لى خطيئتى يوم الدين» . ثم قال عياض: ولكن بعضهم يكون أشد عذاباً، بحسب جرائمهم.

وذكر أبو بكر البيهقى: أنه يجوز أن يراد بما ورد فى الآيات والأخبار من بطلان خيرات الكفار: أنهم لايتخلصون بها من النار، ولكن يُخفف عنهم ما يستوجبونه بجناية سوى الكفر، ودافعه المازرى. قال شارح الصغانى بعد هذا النقل: وعلى ما قاله عياض، فما ورد فى أبى طالب من النفع بشفاعته ﷺ، بسبب ذبِّه عنه ونصرته له، مختص به. هـ. ويرد عليه ماورد من التخفيف فى حاتم بكرمه، فالظاهر ما قاله البيهقى. والله أعلم. ومثل ما قاله فى أبى طالب، قيل فى انتفاع أبى لهب بعتق ثويبة، كما فى الصحيح(٢).

والحاصل: أن التخفيف يقع فى بعض الكفار، لبره فى الدنيا، تفضلاً منه تعالى، لا فى مقابلة عملهم؛ لعدم شرط قبوله. انظر الحاشية.

﴿ كذلك ﴾ أى: مثل ذلك الجزاء الفظيع، ﴿ نجزى كلَّ كفور ﴾؛ مبالغ فى الكفران ﴿ وهم يصطرخون فيها ﴾: يستغيثون، فهو يفتعلون، من: الصراخ، وهو الصياح بجهد ومشقة. فاستعمل فى الاستغاثة لجهر صوت المستغيث. يقولون: ﴿ ربَّنا أخْرِجنا ﴾ منها، ورُدنا إلى الدنيا ﴿ نعملْ صالحًا غير الذي كنا نعملُ ﴾، فنؤمن بعد

---

(١) من الآية ٧٥ من سورة الزخرف.

(٢) كانت السيدة (ثويبة) مولاة لأبى لهب، عم الرسول ﷺ، فأعتقها حين بشرته بمولد النبى ﷺ ـ على أصح الأقوال ـ حين قالت لأبى لهب: أشعرت أن آمنة قد ولدت غلاماً لأخيك عبدالله، فقال لها: اذهبى فأنت حرة. ويؤكد ذلك ما أخرجه الإمام البخارى فى (النكاح، باب ﴿وأمهاتكم اللاتى أرضعنكم﴾ ح ٥١٠١) عن عروة بن الزبير «أن ثويبة مولاة أبى لهب، وكان أبو لهب أعتقها، فأرضعت النبى ﷺ، فلما مات أبو لهب، أُرِيه بعض أهله بشر حيبةٍ. قال له: ماذا لقيت؟ قال أبو لهب: لم ألق بعدكم [راحة ـ رخاء] غير أنى سقيت فى هذه بعتقى ثويبة، وأشار إلى النقيرة التى بين الإبهام والتى تليها من الأصابع.

وقد نظم شمس الدين محمد بن ناصر فى هذا المعنى شعراً، قال فيه:

إذا كان هذا كافراً جاء ذمــــه　　　وتبت يداه فى الجحيم مخلداً
أتى أنه فى يوم الاثنـــين دائما　　　يخفف عنه للسرور بأحمدا
فما الظن بالعبد الذى كان عمره　　　بأحمد مسروراً ومات موحداً

انظر: شرح المواهب(١/١٣٨ ـ ١٣٩) وأيضاً: الطبقات الكبرى لابن سعد (١/١٠٨) وكتاب «أعظم المرسلين» لشيخنا البركة الدكتور «جودة المهدى» (١٧٧ ـ ٧٩).

الكفر، ونُطيع بعد المعصية. فيُجابون بعد قدر عمر الدنيا: ﴿ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم ما يتذكَّرُ فيه من تَذَكَّرَ ﴾ أي: أولم نعمركم تعميراً يتذكر فيه المتذكر. وهو متناول لكل عمر يتمكن منه المكلّف من إصلاح شأنه، والتدبر في آياته، وإن قصر، إلا أن التوبيخ في المتطاول أعظم. وقيل: هو ثماني عشرة سنة. وقيل: ما بين العشرين إلى الستين، وقيل: أربعون. وروى أن العبد إذا بلغ أربعين سنة ولم يتب، مسح الشيطان على وجهه. وقال: وجه لا يُفلح أبداً، وقيل: ستون. وعنه ﷺ: «العمر الذي أعذر الله فيه ابن آدم ستون سنة»(١)، وفي البخاري عنه عَلَيْهِ السَّلَامُ: «أعذر الله المرء آخر أجله حتى بلغ ستين سنة»(٢).

﴿ وجاء كم النذيرُ ﴾ أي: الرسول عَلَيْهِ السَّلَامُ، أو: الكتاب، وقيل: الشيخوخة، وزوال السن، وقيل: الشيب. قال ابن عزيز: وليس هذا شيء؛ لأن الحجة تلحق كل بالغ وإن لم يشب. وإن كانت العرب تسمي الشيب النذير. هـ. ولقوله تعالى بعدُ: ﴿فلما جاءهم نذير﴾، فإنه يتعين كونه الرسول، وهو عطف على معنى: ﴿أولم نعمركم﴾؛ لأن لفظه استخبار، كأنه قيل: قد عمرناكم وجاءكم النذير. قال قتادة: احتج عليهم بطول العمر، وبالرسول، فانقطعت حجتهم. قال تعالى: ﴿ فذُوقوا ﴾ العذاب ﴿ فما للظالمين من نصير ﴾ يدفع العذاب عنهم.

الإشارة: الذين كفروا بطريق الخصوصية، وأنكروا وجود التربية بالاصطلاح، فبقوا مع نفوسهم، لهم نار القطيعة ولو دخلوا الجنة الحسية، لا يُقضى عليهم فيموتوا، ويرجعوا إلى الاستعداد بدخول الحضرة، ولا يُخفف عنهم من عذاب حجاب الغفلة، بل يزيد الحجاب بتراكم الحظوظ، ونسج الأكنة على القلوب، كذلك نجزي كل كفور وجَحود لطريق التربية. وهم يصطرخون فيها، بلسان حالهم، قائلين: ربنا أخرجنا، ورُدّنا إلى دار الفناء، نعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل، حتى ندخل، كما دخلها أهل العزم واليقظة؟ فيقال لهم: أَوَلم نُعمركم ما يتذكر فيه من تذكر، وجاءكم النذير، من ينذركم وبال القطيعة، ويُعرفكم بطريق الحضرة، فأنكرتموه، فذُوقوا وبال القطيعة، فما للظالمين من نصير.

ولمّا كان الكفر والإيمان من أعمال القلوب، قد يخفى على الناس، أخبر أن الله هو مطلع على مافيها، فقال:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيۡبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٣٨﴾ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيۡهِ كُفۡرُهُۥۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ كُفۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ إِلَّا مَقۡتٗاۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ كُفۡرُهُمۡ إِلَّا خَسَارٗا ﴿٣٩﴾ ﴾

(١) عزاه المناوي في الفتح السماوي (٩٤٧/٣) للبزار، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وأصله عند البخاري.
(٢) أخرجه البخاري في (الرقاق، باب من بلغ ستين سنة فقد أعذر الله إليه في العمر، ح ٦٤١٩) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

يقول الحق جل جلاله: ﴿إن الله عالمُ غيبِ السموات والأرضِ﴾ أي: ما غاب فيهما عنكم، ﴿إنه عليم بذاتِ الصدور﴾، تعليل لِمَا قبله؛ لأنه إذا علِمَ ما في الصدور، وهي أخفى ما يكون، فقد علِمَ كل غيب في العالم. وذات الصدور: مضمراتها ووساوسها. وهي تأنيث «ذو»، بمعنى: صاحب الوساوس والخطرات، تصحب الصدور وتلازمها في الغالب، أي: عليم بما في القلوب، أو بحقائقها، على أن «ذات» بمعنى الحقيقة.

﴿هو الذي جعلكم خلائفَ في الأرض﴾ أي: جعلكم خلفاء عنه في التصرف في الأرض، قد ملككم مقاليد التصرف فيها، وسلطكم على ما فيها، وأباح لكم منافعها؛ لتشكروه بالتوحيد والطاعة. ﴿فمَن كفر﴾ منكم، وغمط مثل هذه النعمة السنيّة، ﴿فعليه كُفْرُه﴾؛ فوبالُ كفره راجعٌ عليه، وهو مقتُ الله، وخسران الآخرة، كما قال تعالى: ﴿ولا يزيدُ الكافرين كفرُهُم عند ربهم إلا مَقْتاً﴾، وهو أشد البغض، ﴿ولا يزيد الكافرين كفرُهُم إلا خساراً﴾: هلاكاً وخسرانا.

الإشارة: إن الله عالم بما غاب في سموات الأرواح، من أسرار العلوم والمكاشفات، والاطلاع على أسرار الذات، وأنوار الصفات، وما غاب في أرض النفوس من الموافقات أو المخالفات، إنه عليم بحقائق القلوب، من صفائها وكدرها، وما فيها من اليقين والمعرفة، وضدهما.

قال القشيري: ﴿إنَّ الله عالمُ غيبِ السموات والأرضِ﴾، بإخلاص المخلصين، وصدق الصادقين، ونفاق المنافقين، وجحد الكافرين، ومن يريد بالناس شراً، ومن يُحْسِنُ بالله ظناً. هـ.

وقال في قوله تعالى: ﴿هو الذي جعلكم خلائف﴾: أهلُ كلِّ عصرٍ خليفة عصر تقدمهم، فَمِنْ قومٍ هم أنفسهم جمَال، ومن قوم أراذل وأنذال، والأفاضلُ زمانهم لهم محنة، والأراذل هم لزمانهم محنة. وحاصل كلامه: أن قوماً عرفوا حق الخلافة، فقاموا بحقها، وشكروا الله عليها، بالقيام بطاعته، فكانوا في زمانهم جمالاً لأنفسهم، ولأهل عصرهم، لكنهم لَمَّا تحملوا مشاق الطاعات، وترادف الأزمات، كان زمانهم لهم محنة. وقوماً لم يعرفوا حق الخلافة، فاشتغلوا بالعصيان، فانتحس الزمان بهم، فكانوا محنة لزمانهم.

ثم ردَّ على من كفر بالشرك، فقال:

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾﴾

قلت: «أرأيتم»: بمعنى: أخبروني، وهي تطلب مفعولين: أحدهما منصوب، والآخرُ مُشتمل على استفهام، كقولك: أرأيت زيداً ما فعل، فالأول: (شركاءكم) والثاني: (ماذا خلقوا). و(أروني): اعتراض، فيها تأكيد للكلام وتشديد. ويحتمل أن يكون من باب التنازع؛ لأنه توارد على (ماذا خلقوا): (أرأيتم) و(أروني)، ويكون قد أعمل الثاني على المختار عند البصريين. قاله أبو حيان. ولابن عطية وابن عرفة غير هذا، فانظره. و«بعضهم»: بدل من «الظالمين».

يقول الحق جل جلاله: ﴿ قل لهم أرأيتُمْ شركاءَكم ﴾ أي: أخبروني عن آلهتكم التي أشركتموها في العبادة مع الله، ﴿ الذين تدْعُون ﴾ أي: تعبدونهم ﴿ من دون الله ﴾، ما سندكم في عبادتهم؟ ﴿ أروني ماذا خَلقوا من الأرض ﴾ أي: جزء من الأرض، استبدّوا بخلقه حتى استحقوا العبادة بسبب ذلك، ﴿ أم لهم شِرْكٌ في السموات ﴾ أي: أم لهم مع الله شركة في خلْق السموات حتى استحقوا أن يُعبدوا؟ بل لا شيء من ذلك، فيبطل استحقاقها للعبادة. ﴿ أم آتيناهم كتاباً ﴾؛ أم معهم كتاب من عند الله ينطق بأنهم شركاؤه، ﴿ فهم على بينةٍ منه ﴾؛ فهم على حجة وبرهان من ذلك الكتاب؟ قال ابن عرفة: هذا إشارة إلى الدليل السمعي، والأول إشارة إلى الدليل العقلي، فهم لم يستندوا في عبادتهم الأصنام إلى دليل عقلي ولا سمعي، ﴿ بل إن يَعِدُ الظالمون ﴾ أي: مايَعِد الظالمون، وهم الرؤساء ﴿ بعضُهُم بعضاً إلا غُروراً ﴾؛ باطلاً وتمويهاً، وهو قولهم: ﴿ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ ﴾(١). لمَّا نفى أنواع الحجج العقلية والسمعية، أضرب عنه بذكر ما حملهم عليه، وهو تقرير الأسلاف الأخلاف، والرؤساء الأتباع؛ بأنهم شفعاء عند الله تُقربهم إليه. هذا هو التقليد الرديئ، والعياذ بالله.

الإشارة: كل من ركن إلى مخلوق، أو اعتمد عليه، يُتلى عليه: ﴿أرأيتم شركاءكم..﴾ الآية. وفي الحِكَم: «كما لا يقبل العمل المشترك، لا يُحب القلب المشترك. العمل المشترك لا يقبله، والقلب المشترك لا يُقبل عليه».

ثم ذكر من يستحق العبادة وحده، فقال:

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ﴿٤١﴾ ﴾

(١) من الآية ١٨ من سورة يونس.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ إن الله يُمسك السموات والأرضَ أن تزولاَ ﴾ أي: يمنعهما من أن تزولا؛ لأن إمساكهما منع. والمشهور عند المنجمين: أن السموات هي الأفلاك التي تدور دورة بين الليل والنهار. وإنكار ابن يهود على كعب، كما في الثعلبي، تحامل؛ إذ لا يلزم من دورانها عدم إمساكها بالقدرة، وانظر عند قوله: ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا .. ﴾(١) قال القشيري: أمسكهما بقدرته، وأتقنهما بحكمته، وزينهما بمشيئته، وخلق أهلهما على موجب قضيته، فلا شبيه في إبقائهما وإمساكهما يُساهِمُه، ولا شريك في إيجادهما وإعدامهما يقاسمه. هـ.

﴿ ولَئِن زَالَتَا ﴾، على سبيل الفرض، ﴿ إنْ أمْسَكَهُما من أحدٍ من بعده ﴾، من بعد إمساكه. و«من» الأولى: مزيدة، لتأكيد النفي، والثانية: ابتدائية، ﴿ إنه كان حليماً غفوراً ﴾، غير معاجل بالعقوبة، حيث أمسكهما على من يشرك به ويعصيه، وكانتا جديرتين بأن تهدّ هدًا، كما قال: ﴿ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ .. ﴾(٢) الآية.

الإشارة: الوجود قائم بين سماء القدرة وأرض الحكمة، بين سماء الأرواح وأرض الأشباح، بين سماء المعانيَ وأرض الحس، فلو زال أحدهما لاختل نظام الوجود، وبطلت حكمة الحكيم العليم. الأول: عالم التعريف، والثاني: عالم التكليف. الأول: محل التنزيه، والثاني: محل التشبيه، الأول: محل أسرار الذات، والثاني: محل أنوار الصفات، مع اتحاد المظهر؛ إذ الصفات لا تفارق الموصوف، فافهم. وفي بعض الأثر: «إن العبد إذا عصى الله استأذنت السماء أن تسقط عليه من فوقه، والأرض أن تخسف من تحته، فيمسكهما الله تعالى بحلمه وعفوه، ثم تلى الآية: ﴿إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا﴾ إلى قوله: ﴿كان حليما غفورا﴾، هـ. بالمعنى.

ثم ذكر عناد قريش وعتوهم، تتميماً لقوله: ﴿والذي كفروا لهم نار جهنم..﴾ الخ، فقال:

﴿ وَأَقْسَمُواْ بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا (٤٢) ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا (٤٣) أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا (٤٤) ﴾

(١) الآية ٣٨ من سورة يس. (٢) الآية ٩٠ من سورة مريم.

قلت : «جهد»: نصب على المصدر، أو على الحال. و«استكبار» و «مكر»: مفعول من أجله أو حال.

يقول الحق جل جلاله : ﴿ وأقسموا بالله جَهْدَ أيمانهم ﴾ أي: إقساماً وثيقا، أو: جاهدين في أيمانهم: ﴿ لئن جاءهم نذير ﴾؛ رسول ﴿ ليكُونُنَّ أهْدَى من إحدى الأُمم ﴾ المهتدية، بدليل قوله: (أهدى) وقوله في سورة الأنعام: ﴿لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ﴾(١) وذلك أن قريشاً قالو قبل مبعث النبي ﷺ لمّا بلغهم أن أهل الكتاب كذّبوا رسلهم: لعن الله اليهود والنصارى، أتتهم الرسل فكذبوهم، فوالله لئن أتانا رسول لنكونن أهدى من إحدى الأمم(٢)، أي: من الأمة التي يقال فيها: هي أهدى الأمم، تفضيلاً لها على غيرها في الهُدى والاستقامة. كما يقال للداهية العظيمة: هي أهدى الدواهي. فلما بُعث رسول الله ﷺ، ﴿ مازادهم إلا نُفوراً ﴾ أي: ما زادهم مجيء الرسول ﷺ إلا تباعداً عن الحق، وهو إسنادٌ مجازيّ؛ إذ لا فاعل غيره.

﴿ استكباراً في الأرض ومكرَ السيئ ﴾ أي: ما زادهم إلا تهوراً للاستكبار ومكر السيىء. أو: مستكبرين وماكرين برسول الله ﷺ والمؤمنين، المكر القبيح، وهو إجماعهم على قتله. عليه الصلاة والسلام، وإذاية من تبعه. وأصل قوله: (ومكر السيئ): وأن مكروا المكر السيىء، فحذف الموصوف استغناء بوصفه، ثم أبدل «أن» مع الفعل بالمصدر، ثم أضيف إلى صفته اتساعاً، كصلاة الأولى، ومسجد الجامع. ﴿ ولا يحيق المكرُ السيئ إلا بأهله ﴾ أي: لا يحيط وينزل المكر السيىء إلا بمن مكره، وقد حاق بهم يوم بدر. وفي المثل: من حفر حفرة وقع فيها.

﴿ فهل يَنظُرون إلا سُنَّة الأولين ﴾: ما ينتظرون إلا أن ينزل بهم ما نزل بالمكذبين الأولين، من العذاب المستأصل، كما هي سُنّة الله فيمن كذّب الرسل. ﴿ فلن تجد لسُنة الله تبديلاً، ولن تجد لسُنة الله تحويلا ﴾، بيّن أن سُنّته ـ التي هي الانتقام من مكذّبي الرسل ـ سنّة ماضية، لايبدلها في ذاتها، ولايحوّلها عن وقتها، وأنّ ذلك مفعول لامحالة.

﴿ أوَلَمْ يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبةُ الذين من قبلهم ﴾ ممن كذّبوا رسلهم، كيف أهلكهم الله ودمرهم، كعاد، وثمود، وقرى قوم لوط. استشهد عليهم بما كانوا يُشاهدونه في مسايرهم إلى الشام واليمن والعراق، من آثار الماضين، وعلامات هلاكهم ودمارهم. ﴿ و ﴾ قد ﴿ كانوا أشدَّ منهم قوةً ﴾ واقتداراً، فلم يتمكنوا من الفرار، ﴿ وما كان الله ليُعْجِزَه ﴾؛ ليسبقه ويفوته ﴿ من شيءٍ ﴾ أيّ شيء كان ﴿ في السموات ولا في الأرض إنه كان عليماً ﴾ بأحوالهم ﴿ قديراً ﴾ على أخذهم. وبالله التوفيق.

---

(١) من الآية ١٥٧ من سورة الأنعام. (٢) قاله الضحاك، فيما ذكره ابن كثير في تفسيره (٣/٥٦٢).

الإشارة: ترى بعض الناس يقول: لئن ظهر شيخ التربية لنكونن أول من يدخل معه، فلما ظهر، عاند واستكبر، وربما أنكر ومكر. نعوذ بالله من سابق الخذلان. قال القشيرى: ليس لقولهم تحقيق، ولا لضمانهم توثيق، وما يَعدُون من أنفسهم فصريحُ زورٍ، وما يُوهمون من وِفاقهم فَصِرْفُ غرور. وكذلك المريد فى أول نشاطه، تُمنِّيه نَفْسُه ما لايقدر عليه، فربما يعاهد الله، ويؤكد فيه عقداً مع الله، فإذا عضَتْه شهوتُه، وأراد الشيطانُ أن يكذبه، صَرَعَه بكيده، وأركسه فى كُوةِ غيِّه، وفتنةِ نفسه؛ فيسودُّ وجْهُه، ويذهب ماء وجهه.

ثم قال فى قوله: ﴿ أو لم يسيروا . . ﴾ الخ: ما خاب له ولىٌّ، وما ربح له عدو، ولاتنال الحقيقةُ بمن انعكس قَصْدُه، وارتد عليه كيدُه، دمرَّ على أعدائه تدميراً، وأوسع لأوليائه فضلاً كبيراً.هـ.

ثم تمم قوله: ﴿إنه كان حليما غفورا﴾ بقوله:

﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًا ﴿٤٥﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ولو يُؤاخِذُ اللهُ الناسَ بما كسبوا ﴾؛ بما اقترفوا من المعاصى ﴿ ما ترك على ظهرها ﴾؛ على ظهر الأرض؛ لأنه جرى ذكرها فى قوله: ﴿وما كان الله ليعجزه من شيء فى السموات ولا فى الأرض﴾(١)، ﴿ من دابة ﴾؛ من نسمة تدبُّ عليها. قيل: أهل المعاصى فقط من الناس، وقيل: من الجن والإنس. والمشهور: أنه عام فى كل ما يدب؛ لأن الكل خلق للآدمي. وعن ابن مسعود: (إن الجُعل(٢) ليُعذب فى جحره بذنب ابن آدم)(٣)، يعنى ما يصيبه من القحط، بشؤم معاصيه. وقال أبو هريرة: إن الحبارى(٤) لتموت هزالاً فى وكرها بظلم الظالم.هـ.

---

(١) الآية ٤٤ من السورة.
(٢) الجعل: حيوان معروف كالخنفساء. انظر النهاية فى غريب الحديث (جعل ١/٢٧٧).
(٣) عزاه السيوطى فى الدر (٥/٤٨٠) للفريابى، وابن المنذر، والطبرانى، والحاكم، وصححه.
(٤) الحبارى: طائر معروف، وهو على شكل الأوزة، برأسه وبطنه غبرة، ولون ظهره وجناحيه كلون السمانى غالباً. والجمع حبابير، وحباريات. انظر اللسان (حبر) مع تعليق محققه.
وقال: ابن الأثير فى النهاية (١/٣٢٨):
وإنما خصها بالذكر لأنها أبعد الطير نجعة، فربما تذبح بالبصرة، ويوجد فى حوصلتها الحبة الخضراء، وبين البصرة وبين منابتها مسيرة أيام.

قال القشيري: لو عَجّل لَهم ما يستوجبونه من الثواب والعقاب، لم تَفِ أعمارُهم القليلةُ، وما اتسعت أفهامُهم القصيرة له، فأخّرَ ذلك ليوم الحشْرِ، فإنّه طويل، والله على كل شيء قدير، بأمور عباده بصير، وإليه المصير هـ. وهذا معنى قوله: ﴿ولكن يُؤخرهم إلى أجَلٍ مسمىً﴾ هو يوم القيامة، ﴿فإذا جاء أجَلُهُم﴾؛ أجل جمعهم، ﴿فإن الله كان بعباده بصيرا﴾ أي: لن يخفى عليه حقيقة أمرهم، وحكمة حكمهم، فيجازيهم على قدر أعمالهم.

الإشارة: تعجيل العقوبة في دار الدنيا للمؤمن إحسان، وتأخيرها لدار الدوام استدراج وخذلان. فكل من له عناية سابقة؛ عاتبه الله في الدنيا، بمصيبة في بدنه، أو ماله، أو في أهله، ومن لا عناية له أُخرت عقوباته كلها لدار الجزاء. نسأل الله العصمة بمنّه وكرمه، وبسيدنا محمد نبيه - صلى الله عليه، وعلى آله وصحبه.

✿ ✿ ✿

سورة يس

مكية، وقيل: إلا قوله: ﴿ ونكتب ما قدَّموا وآثارَهم ﴾[1]، نزلت في بني سلمة، حين أرادوا الانتقال إلى جوار النبي ﷺ[2]. وآيها: ثلاث وثمانون آية. ومناسبتها لما قبلها: قوله: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ﴾[3] مع قوله: ﴿ إنك لمن المرسلين ﴾ فقد حقق هنا نذارته ورسالته بالقسم. وعنه ﷺ: «يس تدعى المعمة، تَعُم صاحبها بخير الدارين، والدافعة والقاضية ـ تدفعُ عنه كل شر، وتقضى له كل حاجة»[4]. وفي خبر آخر: «يس لما قرئ له»، وفي حديث آخر: «ما قرأها خائف إلا أمن، ولا جائع إلا شبع، ولا عطشان إلا روى، ولا عُريان إلا كسى، ولا مسجون إلا سرح، ولا عازب إلا تزوج، ولا مسافر إلا أُعين، ولا ذو ضالة إلا وجدها». وقال ﷺ: «من قرأ يس عند الموت، أو قرئ عليه، أنزل الله بعدد كل حرف منها عشرة من الملائكة، يقفون بين يديه، ويصلون عليه، ويستغفرون له، ويشهدون جنازته».

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٤ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ يس ﴾؛ أيها السيد المفخم، والمجيد المعظم، ﴿ و ﴾ حق ﴿ القرآن الحكيم ﴾؛ المحكم ﴿ إنك لمن المرْسلين ﴾. وفي الحديث: «إن الله تعالى سمَّاني في القرآن بسبعة أسماء: محمد، وأحمد، وطه، ويس، والمزمِّل، والمدثِّر، وعبد الله»، قيل: ولا تصح الاسمية في يس؛ لإجماع القراء السبعة على قراءتها ساكنة، على أنها حروف هجاء محكية، ولو سمى بها لأعربت غير مصروفة، كهابيل وقابيل، ومثلها «طسٓ» و«حمٓ»، كما قال الشاعر:

لما سمى بها السورة ... فهلا تلى حميمَ قبل التكلم.

---

(1) الآية ١٢.

(2) أخرجه الترمذي في (التفسير، باب: ومن سورة يس، ٥/٣٣٩، ح ٣٢٢٦) والحاكم، وصححه، وأقره الذهبي (٢/٤٢٨)، والواحدي في أسباب النزول (ص ٣٧٨ ـ ٣٧٩) عن أبي سعيد الخدري. وقال الترمذي: «حديث حسن غريب» وقال الحافظ ابن كثير في التفسير (٣/٥٦٦) معلقاً على حديث نحوه، رواه البزار: فيه غرابة.

(3) من الآية ٤٢ من سورة فاطر.

(4) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٢/٤٨١، ح ٢٤٦٥) وضعّفه، من حديث أبي بكر الصدّيق ﷺ. وذكره بنحوه، مطولاً، القرطبي في تفسيره (٦/٥٦٠٢) وعزاه للثعلبي، من حديث السيدة عائشة رضي الله عنها.

فدلّ على أنها حروف حال التلاوة. نعم قد قُرئ «يسُ» بضم النون، ونصبها، خارج السبعة، وعلى ذلك تخرج بأن اللفظ اسم للسورة، كأنه قال: أتل يس، على النصب، وعلى أنها اسم من أسمائه ﷺ، وتوجه في قراءة الضم على النداء.هـ. قلت: والظاهر أنها حروف مختصرة من السيد، على طريق الرمز بين الأحباء، إخفاء عن الرقباء.

ثم أقسم على رسالته، رداً على من أنكره بقوله: ﴿ والقرآنِ الحكيم ﴾ أي: ذي الحكمة البالغة، أو: المحكم الذي لا ينسخه كتاب، أو: ذي كلام حكيم، فوصف بصفة المتكلم به، ﴿ إنك لَمِنَ المرسلين ﴾؛ مِن أعظمهم وأجلِهم. وهو ردٌ على من قال من الكفار: ﴿لَسْتَ مُرْسَلاً﴾(١). ﴿ على صراطٍ مستقيم ﴾ أي: كائناً على طريق مستقيم، يوصل من سلكه إلى جوار الكريم، فهو حال من المستكن في الجار والمجرور. وفائدته: وصف الشرع بالاستقامة صريحاً، وإن دلّ عليه: ﴿إنك لمن المرسلين﴾ التزاماً. أو: خبر ثان لإن. والله تعالى أعلم.

الإشارة: قال القشيري: يس، معناه: ياسيد ـ رقّاه أشرفَ المنازل، وإن لم يسم إليه بطرق التأميل، سُنَّة منه سبحانه أنه لا يضع أسراره إلا عند من تقاصرت الأوهام عن استحقاقه، ولذلك قَضوا بالعَجَب في استحقاقه، وقالوا: كيف آثر يتيم أبي طالب من بين البرية، ولقد كان ـ صلوات الله عليه ـ في سابق اختياره تعالى مُقدَّماً على الكافة من أشكاله وأضرابه، وفي معناه قيل:

هذا وإن أصبح في أطمار ... وكان في فقر من اليسار

آثرُ عندي من أخي وجاري ... وصاحب الدرهم والدينار

وصاحب الأمر مع الإكثار(٢). هـ.

---

(١) من الآية ٤٣ من سورة الرعد.

(٢) وردت الأبيات ـ كاملة ـ في قصة، ذكرها ابن كثير في البداية والنهاية (٨/٨٩ ـ ٩٠)، وملخصها:
كان معاوية بن أبي سفيان على السماط، فمثل بين يديه شاب من بني عذرة، فأنشده شعراً، مضمونه: التشوق إلى زوجته سعاد.
وقال: يا أمير المؤمنين: إني كنت متزوجاً بابنة عم لي، وكان لي إبل وغنم، وأنفقت ذلك عليها، فلما قلّ ما بيدي رغب عني أبوها، وشكاني إلى عاملك بالكوفة (ابن أم الحكم) وبلغه جمالها، فحبسني، وحملني على أن أطلقها، فلما انقضت عدتها أعطاها عاملك عشرة آلاف درهم، فزوّجه إياها، فهل من فرج؟
فكتب معاوية إلى ابن أم الحكم يؤنبه، وأمره بطلاقها، فطلقها، وسيّرها إلى معاوية، وخيّرها معاوية بين زوجها وابن أم الحكم، فاختارت زوجها الأول، وأنشدت الأبيات:

هذا وإن أصبح في أطمار ... وكان في نقص من اليسار
أكبر عندي من أبي وجاري ... وصاحب الدرهم والدينار
أخشى إذا غدرت حر النار ... خلي سبيلي ما به عار
لعلنا نرجع للديار ... وأن عسى نظفر بالأوطار

راجع أيضاً: تزيين الأسواق (١/٢٤٩)، ونهاية الأرب (٢/١٥٩)، ولطائف الإشارات (١/٤٢ ـ ٤٣).

قال الورتجبي: قيل: الياء تُشير إلى يوم الميثاق، والسين تُشير إلى سره مع الأحباب، فقال: بحق يوم الميثاق، وسري مع الأحباب، وبالقرآن الحكيم، إنك لَمن المرسلين يا محمد هـ..

وجاء: «إن قلب القرآن يس، وقلبه: ﴿سلام قولاً من رب رحيم﴾»[1]. قلت: وهو إشارة إلى سر القرية، الداعي إليه القرآن، وعليه مداره، وحاصله: تسليم الله على عباده كِفاحاً، لحياتهم به، وأنسهم بحديثه وسره. وقيل: لأن فيه تقرير أصول الدين. قاله في الحاشية الفاسية.

ثم فسَّر القرآن، المقسَم به، فقال:

﴿ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٥ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ۝٦ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٧ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ۝٨ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝٩ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝١٠ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ۝١١ ﴾

قلت: «تنزيل»: خبر، أي: هو تنزيل. ومن نصبه فمصدر، أي: نُزِّل تنزيل، أو: اقرأ تنزيل، وقرئ بالجر، بدل من القرآن. «وما أُنذر»: نعت لقوم. «وما»: نفي، عند الجمهور، أو: موصولة مفعولاً ثانياً لتُنذِر، أي: العذاب الذي أُنذِرَه آباؤهم، أو: مصدرية، أي: لتنذر قوماً إنذاراً مثل إنذار آبائهم.

يقول الحق جل جلاله: هذا، أو هو ﴿تنزيل[2] العزيز﴾ أي: الغالب القاهر بفصاحة نظم كتابه أوهامَ ذوي العناد، ﴿الرحيم﴾؛ الجاذب بلطافة معنى خطابه أفهامَ ذوي الرشاد. أنزلناه ﴿لتُنذر﴾ به ﴿قوماً﴾، أو:

(١) وردت الجملة الأولى في حديث أخرجه الترمذي في (فضائل القرآن، باب: ما جاء في فضل «يس» ٥/ ١٥٠، ح ٢٨٨٧) والدرامي في (فضائل القرآن، باب فضل يس، ٢/٥٤٨، ح ٣٤١٦) وأحمد في المسند (٥/٢٦) عن أنس. بلفظ «إن لكل شيء قلباً، وقلب القرآن يس..» الحديث، قال الترمذي: هذا حديث غريب. وهارون أبو محمد شيخ مجهول.

(٢) قرأ ابن عامر، وحفص، وحمزة، والكسائي، بنصب اللام على المصدر. وقرأ الحسن بالجر، وقرأ الباقون بالرفع، خبر لمقدر. وقد سار المفسر على قراءة الرفع. انظر الإتحاف (٢/٣٩٧).

أرسلناك لتنذر قوماً غافلين، ﴿ ما أُنذر آباؤهم ﴾ أي: غير منذر آباؤهم، كقوله: ﴿ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ ﴾(١) وقوله: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴾(٢) أو: لتخوف قوماً العذاب الذى أُنذر به آباؤهم، لقوله: ﴿ إنا أنذرناكم عذاباً قريباً ﴾(٣). أو: لتنذر قوماً إنذار آبائهم، وهو ضعيف؛ إذ لم يتقدم لهم إنذار. ﴿ فهم غافلون ﴾، إن جعلت «ما» نافية فهو متعلق بالنفى، أى: لم ينذروا فهم غافلون، وإلا فهو متعلق بقوله: ﴿إنك لمن المرسلين﴾ لتنذر قوماً، كقولك: أرسلته إلى فلان لينذره فهو غافل.

﴿ لقد حقَّ القولُ على أكثرهم فهم لا يؤمنون ﴾، يعنى قوله: ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾(٤) أى: تعلق بهم هذا القول، وثبت عليهم ووجب؛ لأنه علِمَ أنهم يموتون على الكفر. قال ابن عرفة: إنذارهم مع إخباره بأنهم لا يؤمنون ليس من تكليف ما لا يطاق عقلاً وعادة، وما لا يطاق من جهة السمع يصح التكليف به، اعتباراً بظاهر الأمر، وإلا لزم أن تكون التكاليف كلها لا تطاق، ولا فائدة فيها؛ لأنَّ المكلفين قسمان: فمن علِمَ تعالى أنه لا يؤمن فلا فائدة فى أمره بالايمان؛ إذ لا يطيقه، ومن علِمَ أنه يؤمن فلا فائدة فى إنذاره وأمره بالإيمان؛ إذ لا يطيق عدمه.هـ. قلت: الحكمة تقتضى تكليفهم؛ لتقوم الحجة عليهم أو لهم، والقدرة تقتضى عذرهم. والنظر فى هذه الدار - التى هى دار التكليف - للحكمة لا للقدرة.

ثم مثّل تصميمهم على الكفر، وأنه لا سبيل إلى ارعوائهم، بأن جعلهم كالمغلولين المقمحين فى أنهم لايلتفتون إلى الحق، ولا يعطفون أعناقهم نحوه، وكالحاصلين بين سدّين، لا ينظرون ما قدّامهم ولا ما خلفهم، بقوله: ﴿ إنا جعلنا فى أعناقهم أغلالاً فهى إلى الأذقان ﴾، معناه: فالأغلال واصلة إلى الأذقان ملزوزة إليها، ﴿ فهم مُقْمَحُون ﴾؛ مرفرعة رؤوسهم إلى فوق، يقال: قمح البعيرُ فهو قامح؛ إذا روى فرفع رأسه، وهذا لأنّ طوق الغلّ الذى فى عنق المغلول، يكون فى ملتقى طرفيه، تحت الذقن، حلقة، فلا [تخليه](٥) يطأطئ رأسه، فلا يزال مقمحاً. والغل: ما أحاط بالعنق على معنى التثقيف والتعذيب. والأذقان والذقن: مجتمع اللحيين. وقيل: «فهى» أى: الأيدى. وذلك أن الغل إنما يكون فى العنق مع اليدين. وفى مصحف أبى: «إنا جعلنا فى أيمانهم أغلالا» وفى بعضها: «فى أيديهم فهى إلى الأذقان فهم مقمحون».

﴿ وجعلنا من بين أيديهم سَداً ومن خلفهم سَداً ﴾، بفتح السين وضمها - قيل: ما كان من عمل الناس فبالفتح، وما كان من خلق الله، كالجبل ونحوه، فالبضمّ، أى: جعلنا الموانع والعوائق محيطة بهم، فهم محبوسون

(١) الآية ٣ من سورة السجدة. (٢) الآية ٤٤ من سورة سبأ.
(٣) الآية ٤٣٠ من سورة النبأ. (٤) الآية ١٣ من سورة السجدة.
(٥) ما بين المعقوفتين مطموس فى النسخة الأم، وغير موجود فى غيرها من النسخ المعتمدة فى التحقيق.

فى مطمورة الجهالة، ممنوعون عن النظر فى الآيات والدلائل، ﴿ فأغشيناهم ﴾ أى: فأغشينا أبصارهم، أى: غطيناها وجعلنا عليها غشاوة، ﴿ فهم لا يُبصرون ﴾ الحق والرشاد.

وقيل: نزلت فى بنى مخزوم، وذلك أن أبا جهل حلف: لئن رأى محمداً يصلّي ليرضخَنّ رأسه، فأتاه وهو يصلّي، ومعه حجر، فلما رفع يده انثنت إلى عنقه، ولزق الحجرُ بيده، حتى فكّوه عنها بجَهد، فرجع إلى قومه، فأخبرهم، فقال مخزوميّ: أنا أقتله بهذا الحجر، فذهب، فأعمى الله بصره، فلم يرَ النبيَّ ﷺ، وسمع قوله، فرجع إلى أصحابه، ولم يرهم حتى نادوه(١). وقيل: هى ذكر حالهم فى الآخرة، وحين يدخلون النار، فتكون حقيقة. فالأغلال فى أعناقهم، والنار محيطة بهم. والأول أرجح وأنسب؛ لقوله: ﴿ وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ﴾، أى: الإنذار وتركه فى حقهم سواء؛ إذ لا هادى لمن أضله الله.

رُوى أن عمر بن عبد العزيز قرأ الآية فى غيلان القدريّ، فقال غيلان: كأنى لم أقرأها قط، أُشهدك أنى تائب عن قولى فى القدر. فقال عمر: اللهم إنْ صَدَق فتُبْ عليه، وإن كذب فسلّطْ عليه مَن لا يرحمه، فأخذه هشام بن عبد الملك من غده، فقطع يديه ورجليه، وصلبه على باب دمشق(٢).

ثم ذكر من ينفعه الإنذار، فقال: ﴿ إنما تُنذِر من اتّبع الذِّكْر ﴾ أى: إنما ينتفع بإنذارك من تبع القرآن ﴿ وخَشِيَ الرحمنَ بالغيب ﴾؛ وخاف عقاب الله قبل أن يراه، أو: تقول: نُزّل وجود الإنذار لمن لم ينتفع به منزلة العدم، فمن لم يؤمن كأنه لم ينذر، وإنما الإنذار لمن انتفع به. ﴿ فَبشِّرْهُ بمغفرةٍ ﴾، وهو العفو عن ذنوبه، ﴿ وأجرٍ كريمٍ ﴾؛ الجنة وما فيها.

الإشارة: كل من تصدى لوعظ الناس، وإنذارهم، على فترة من الأولياء، يقال له: لتُنذر قوماً ما أُنذر آباؤهم فهم غافلون. ويقال فى حق من سبق له الإبعاد عن طريق أهل الرشاد: لقد حقّ القولُ على أكثرهم، فهم لايؤمنون. إنا جعلنا فى أعناقهم أغلالاً تمنعهم من حط رؤوسهم لأولياء زمانهم، وجعلنا من بين أيديهم سداً: موانع تمنعهم من النهوض إلى الله، ومن خلفهم سداً: علائق تردهم عن حضرة الله، فأغشيناهم: غطّينا أعين بصيرتهم، فلا يرون خصوصية أحد ممن يدلّ على الله، فهم لا يُبصرون داعياً، ولا يلبون منادياً، فالإنذار وعدمه فى حقهم سواء، ومعالجة دائهم عناء. قال الورتجبى: سد ما خلفهم سد قهر الأزل، وسد ما بين أيديهم شقاوة الأبد، فبنفسه منعهم من نفسه. لا

---

(١) أخرجه الطبرى مختصراً (٢٢/١٥٢) عن عكرمة. وعزاه الحافظ ابن حجر فى الكافى الشاف (١٣٩) لابن إسحاق فى السيرة، وأبى نعيم فى الدلائل، عن عكرمة، عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما.
(٢) انظر تفسير النسفى (٣/٩٧).

جرم أنهم فى غشاوة القسوة، لا يبصرونه أبدا.هـ. إنما ينتفع بتذكير الداعين إلى الله مَن خشع قلبه بذكر الله، واشتاقت روحه إلى لقاء الله، فبشّره بمغفرة لذنوبه، وتغطية لعيوبه، وأجر كريم، وهو النظر إلى وجه الله العظيم.

ثم ردّ على من أنكر البعث، ممن سبق له الشقاء، فقال:

﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَـٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ إنَّا نحنُ نحيي الموتَى ﴾ أى: نبعثهم بعد مماتهم، أو: نُخرجهم من الشرك إلى الإيمان. قال شيخ شيوخنا سيدى عبدالرحمن الفاسى: لمَّا أمر بالتبشير بالمغفرة، والأجر الكريم، لمن انتفع بالإنذار، أعلم بحكم من لم يؤمن، ولم ينتفع بالإنذار، وأنه يبعثهم، وإليه حكمهم، كما قال: ﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ﴾(1)هـ.

﴿ ونكتُبُ ما قدّموا ﴾؛ ما أسلفوا من الأعمال الصالحات وغيرها، ﴿ وآثارَهُمْ ﴾؛ ما تركوه بعدهم من آثار حسنة، كعِلْم علّموه، أو كتاب صنّفوه، أو حبس حبسوه، أو رباط أو مسجد صنعوه. أو آثار سيئة، كبدعة ابتدعوها فى الإسلام. ونحوه قوله تعالى: ﴿ يُنَبَّأُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴾(2) أى: قدّم من عمله وأخّر من آثاره. وفى الحديث: «من سنّ فى الإسلام سُنَّةً حسنةً، فعمل بها من بعده، كان له أجرُها ومثل أجر من عمل بها إلى يوم القيامة، من غير أن ينْقُص من أجورِهِمْ شيء. ومن سَنَّ فى الإسلام سُنَّة سيئةً فعليه وزرها، ووزرُ من عمل بها، من غير أن ينْقُص من أوزارهم شيء»(3) وفى خبر آخر: «سبع تجرى على العبد بعد موته: من غرس غرساً، أو حفر بئراً، أو أجرى نهراً، أو علّمَ علماً، أو بنى مسجداً، أو ورّث مصحفاً، أو ولداً صالحاً»(4). انظر المنذرى. وهذا كله داخل فى قوله تعالى: ﴿ وآثارهم ﴾ قيل: آثارهم: خطاهم إلى المساجد، للجمعة وغيرها.

﴿ وكل شيءٍ أحصيناه ﴾؛ حفظناه، أو عددناه وبيّناه ﴿ فى إمامٍ ﴾؛ كتاب ﴿ مبين ﴾؛ اللوح المحفوظ؛ لأنه أصل الكتب وإمامها، وقيل: صحف الأعمال. والمراد: تهديد العباد بإحصاء ما صنعوه من خير أو شر، لينزجروا عن معاصى الله، وينهضوا إلى طاعة الله.

---

(1) الآية ٣٦ من سورة الأنعام. (2) الآية ١٣ من سورة القيامة.

(3) أخرجه مسلم، فى (الزكاة، باب: الحث على الصدقة ولو بشق تمرة، ٢/٧٠٤ ـ ٧٠٥، ح ١٠١٧) من حديث جرير.

(4) أخرجه بنحوه البزار (كشف الأستار ـ ١٤٩) والبيهقى فى الشعب (ح ٣٤٤٩) من حديث أنس بن مالك. وأخرجه ابن ماجه، بلفظ مقارب، فى (المقدمة/ ح ٢٤٢) من حديث أبى هريرة رضي الله عنه.

الإشارة: إنَّا نحن نُحيي القلوب الميتة بالغفلة والجهل، فنحييها بالعلم والمعرفة، ونكتب ما قدّموا من العلوم، والأسرار والمعارف، وآثارهم، أي: الأنوار المتعدية إلى الغير، ممن اقتبس منهم وأخذ عنهم. قال القشيري: نُحيي قلوباً ماتت بالقسوة، بما نُمطر عليها من صنوف الإقبال والزلفة، ونكتب ما قدموا ﴿وآثارهم﴾؛ خطاهم إلى المساجد، ووقوفهم على بساط المناجاة معنا، وما ترقرقَ من دموعهم على عَرَصات خدودهم، وتَصَاعُدَ أنفاسهم. هـ.

ثم ضرب مثلاً لقريش في تكذيبهم، وفيه تسلية للنبي ﷺ، فقال:

﴿ وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلًا أَصۡحَٰبَ ٱلۡقَرۡيَةِ إِذۡ جَآءَهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمُ
ٱثۡنَيۡنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزۡنَا بِثَالِثٖ فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيۡكُم مُّرۡسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُواْ مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ
مِّثۡلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَكۡذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُواْ رَبُّنَا يَعۡلَمُ إِنَّآ إِلَيۡكُمۡ
لَمُرۡسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيۡنَآ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ لَئِن
لَّمۡ تَنتَهُواْ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١٨﴾ قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡ أَئِن ذُكِّرۡتُمۚ
بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ ﴿١٩﴾ ﴾

قلت: «اضرب»: يكون بمعنى: اجعل، فيتعدى إلى مفعولين، و«مَثَلاً»: مفعول أول، و﴿أصحاب﴾: مفعول ثان، أو: بمعنى «مثل»، من قولهم: عندي من هذا الضرب كذا، أي: من هذا المثال. و«أصحاب»: بدل من «مَثَلاً»، و«إذ»: بدل من «أصحاب». و«أئن ذُكِّرتم»: شرط، حُذف جوابه.

يقول الحق جل جلاله: ﴿واضرِبْ لهم﴾ أي: لقريش ﴿مثلاً أصحابَ القرية﴾ أي: واضرب لهم مثل أصحاب القرية «أنطاكية»، أي: اذكر لهم قصة عجيبة؛ قصة أصحاب القرية، ﴿إذ جاءها﴾ أي: حين جاءها ﴿المرسلون﴾؛ رُسل عيسى عليه السلام(١)، بعثهم دعاةً إلى الحق، إلى أهل أنطاكية. وكانوا عبدة أوثان.

﴿إذ أرسلنا﴾: بدل من «إذ» الأولى، أي: إذ بعثنا ﴿إليهم اثنين﴾، بعثهما عيسى عليه السلام، وهما يوحنا وبولس، أو: صادقاً وصدوقاً، أو غيرهما. فلما قربا إلى المدينة، رأيا شيخاً يرعى غنيمات له، وهو حبيب النجار، فسأل عن حالهما، فقالا: نحن رسولا عيسى، ندعوكم من عبادة الأوثان إلى عبادة الرحمن؟ فقال: أمعكما آيةٌ؟

(١) هذا قول قتادة، أخرجه الطبري (٢٢/١٥٥) والظاهر من (أرسلنا) أنهم أنبياء، أرسلهم الله، ويدلّ عليه: قول المرسل إليهم: ﴿ما أنتم إلا بشر مثلنا﴾ وهذه المحاورة لاتكون إلا مع من أرسله الله، ولو كان هؤلاء من الحواريين لقالوا عبارة تناسب أنهم من عند المسيح ـ عليه السلام. راجع تفسير ابن كثير (٣/٥٦٩) والبحر المحيط (٧/٣١٣).

فقالا: نشفي المريض، ونُبرىء الأكمه والأبرص، وكان له ابن مريض منذ سنين، فمسحاه، فقام، فآمن حبيب، وفشا الخبر، فَشُفِي على أيديهما خلق كثير، فدعاهما الملك، وقال: ألنا إلهٌ سوى آلهتنا؟ فقالا: نعم، مَن أوجدك وآلهتك، فقال: قُوما حتى أنظر في أمركما، فحبسهما.

ثم بعث عيسى عليه السلام شمعونَ، فدخل متنكراً، وعاشر حاشية الملك، حتى استأنسوا به، ورفعوا خبره إلى الملك، فاستأنس به. فقال له ذات يوم: بلغني أنك حبستَ رجلين، فهل سمعتَ قولهما؟ قال: لا، فدعاهما. فقال شمعون: مَن أرسلكما؟ فقالا: الله الذي خلَق كل شيء، ورَزَقَ كل حيّ، وليس له شريك. فقال: صِفاه وأوجزا، فقالا: يفعل مايشاء، ويحكم ما يريد، قال: وما آيتكما؟ قالا: ما يتمنّى الملك، فدعا بغلام أكمه، فدعَوا الله، فأبصر الغلامُ، فقال شمعون للملك: أرأيت لو سألت إلهك حتى يصنع مثل هذا، فيكون لك وله الشرف؟ فقال: ليس لي عنك سرٌ، إن إلهنا لا يُبصر ولا يَسمع، ولا يضر، ولا ينفع. فقال: إنْ قدر إلهاكما على إحياء ميّت آمنا، فدعَوا بغلام مات منذ سبعة أيام، فقام، فقال: إني دخلت في سبعة أودية من النار لِمَا متّ عليه من الشرك، وأنا أُحذّركم ما أنتم عليه! فآمنوا. قال: وفُتحت أبواب السماء، فرأيت شاباً حسن الوجه، يشفع لهؤلاء الثلاثة، قال الملك: من هم؟ قال: شمعون وهذان، فتعجّب الملك. فلمّا رأى شمعون أن قوله أثّر فيه، نصحه وآمن، وآمن قوم، ومن لم يؤمن صاح عليهم جبريل، فهلكوا(١). كما سيذكره بقوله: ﴿إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم خامدون﴾.

وهذا معنى قوله هنا: ﴿ فكذَّبُوهُما ﴾ أي: فكذّب أصحابُ القرية المرسلين، ﴿ فعَزَّزْنَا ﴾: قويناهما. وقرأ شعبة بالتخفيف، من: عزّه: غلبه، أي: فغلبنا وقهرنا ﴿ بثالثٍ ﴾، وهو شمعون، وترك ذكر المفعول به؛ لأنّ المراد ذكر المعزّز به، وهو شمعون، وما لطف به من التدبير حتى عزّ الحق، وذلّ الباطل. وإذا كان الكلامُ مُنصبّاً إلى غرض من الأغراض جُعل سياقه له وتوجّهه إليه كأنما سواه مرفوض. ﴿ فقالوا ﴾ أي: الثلاثة لأهلِ القرية: ﴿ إنا إليكم مُرْسَلُونَ ﴾ من عند عيسى، الذي هو من عند الله. وقيل: كانوا أنبياء من عند الله ـ عز وجل ـ أرسلهم إلى قرية، ويرجحه قول الكفرة: ﴿ ما أنتم إلا بشرٌ مثلُنا ﴾، إذ هذه محاورة إنما تقال لمن ادعى الرسالة، أي: ما أنتم إلا بشر، ولا مزية لكم علينا، ﴿ وما أنزلَ الرحمنُ من شيء ﴾ أي: وحياً، ﴿ إن أنتم إلا تكْذِبون ﴾ فيما تدعون من الرسالة. ﴿ قالوا ربُّنا يعلمُ إنا إليكم لمرسَلُون ﴾، أكّد الثاني باللام دون الأول؛ لأن الأول مجرد إخبار،

(١) انظر تفسير البغوي (٧/١١ ـ ١٢).

والثاني جواب عن إنكار، فيحتاج إلى زيادة تأكيد. و﴿ربنا يعلم﴾ جارٍ مجرى القسم في التأكيد، وكذلك قولهم: شَهِدَ الله، وعَلِمَ الله. ﴿ وما علينا إلا البلاغُ المبينُ ﴾ أي: التبليغ الظاهر، المكشوف بالآيات الظاهرة الشاهدة بصحته.

﴿ قالوا إنا تَطَيَّرْنا بكم ﴾؛ تشاءمنا بكم. وذلك أنهم كرهوا دينهم، ونفرت منه نفوسهم. وعادة الجهال أن يتيمّنوا بكل شيء مالوا إليه، وقَبِلَتْهُ طباعهم، ويتشاءموا بما نفروا عنه، وكرهوه، فإن أصابهم بلاء، أو نعمة، قالوا: بشؤم هذا، وبركة ذلك. وقيل: حبس عنهم المطر، فقالوا ذلك. وقيل: ظهر فيهم الجذام، وقيل: اختلفت كلماتهم. ثم قالوا لهم: ﴿ لئن لم تَنْتَهوا ﴾ عن مقالتكم هذه ﴿ لَنَرْجُمَنَّكُم ﴾؛ لنقتلنكم بالحجارة، أو: لنطردنكم، أو: لنشتمنكم، ﴿ ولَيَمَسَّنَّكم منا عذابٌ أليم ﴾؛ وليصيبنكم منا عذاب الحريق، وهو أشد العذاب.

﴿ قالوا ﴾ أي: الرسل ﴿ طائِرُكُم ﴾؛ سبب شؤمكم ﴿ معكم ﴾ وهو الكفر، ﴿ أئِن ذُكِّرْتُم ﴾ أي: وُعظتم، ودُعيتم إلى الإسلام تطيرتم، وقلتم ما قلتم، ﴿ بل أنتم قوم مُسرِفُون ﴾؛ مجاوزون الحد في العصيان، فمن ثَمَّ أتاكم الشؤم، لا من قِبَلِ الرسل. أو: بل أنتم قوم مسرفون في ضلالكم وغيكم، حيث تتشاءمون بمن يجب التبرّك به من رسل الله ـ عليهم الصلاة والسلام.

الإشارة: إذا أرسل الله إلى قلب وليٍّ وارداً أولاً، ثم شك فيه، ودفعه، ثم أرسل ثانياً ودفعه، ثم عززه بثالث، وجب تصديقه والعمل بما يقول، وإلا وقع في العنت وسوء الأدب؛ لأن القلب إذا صفي من الأكدار لا يتجلى فيه إلا الحق، وإلا وجب اتهامه، حتى يتبين وجهه. وباقي الآية فيه تسلية لمن قُوبل بالتكذيب من الأولياء والصالحين. وبالله التوفيق.

ثم تمم القصة، فقال:

﴿ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾
ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ
تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ
شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ
﴿٢٥﴾ قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ
ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿وجاء من أقصى المدينةِ رجل يسعىٰ﴾، وهو حبيب النجار(١)، وكان في غارٍ من الجبل يعبد الله، فلما بلغه خبر الرسل أتاهم، وأظهر دينه. قال القشيري: في القصة أنه جاء من قرية فسمَّاها مدينة، وقال: من أقصاها، ولم يكن بينهما تفاوت كثير، وكذلك أجرى سُنَّته في استكثار القليل من فِعْلِ عبْدِه، إذا كان يرضاه، ويستنزِرُ الكثيرَ من فضله إذا بذَلَه وأعطاه. هـ.

ولما قَدِم سألهم: أتطلبون على ما تقولون أجراً؟ فقالوا: لا، ﴿قال ياقوم اتبعوا المرسلين، اتبعوا مَن لايسألُكُم أجراً﴾ على تبليغ الرسالة ﴿وهم مهتدون﴾ على جادة الهداية والنصح وتبليغ الرسالة. فقالوا: وأنت على دين هؤلاء؟ فقال: ﴿ومالي لا أعبدُ الذي فطرني﴾: خلقني ﴿وإليه تُرجعون﴾، وفيه التفات من التكلم إلى الخطاب، ومقتضى الظاهر: وإليه أرجع. والتحقيق: أن المراد: مالكم لا تعبدون، لكن لمَّا عبَّر عنهم بطريق التكلم؛ تلطف في الإرشاد، بإيراده في معرض المناصحة لنفسه، وإمحاض النصح، حيث أراد لهم ما أراد لها، جرى على ذلك في قوله: ﴿وإليه ترجعون﴾، والمراد: تقريعهم على ترك عبادة خالقهم إلى عبادة غيره.

ثم قال: ﴿أأتخذُ من دونه آلهةً﴾ يعني الأصنام، ﴿إن يُرِدْنِ الرحمنُ بضُرٍ﴾، وهو شرطٌ جوابه: ﴿لا تُغْنِ عني شفاعَتُهم شيئاً ولا يُنقذُون﴾ من مكروه بالنصر والمظاهرة، ﴿إني إذاً﴾ أي: إذا اتخذت إلهاً غيره ﴿لفي ضلالٍ مبين﴾؛ لفي خطأ بيّن، لا يخفى على عاقل، ﴿إني آمنتُ بربكم فاسمَعُون﴾ أي: اسمعوا إيماني، لتشهدوا به لي يوم القيامة، فقتله قومُه(٢).

ولمَّا مات ﴿قيل﴾ له: ﴿ادخُلِ الجنةَ﴾، فدُفن في أنطاكية، وقبره بها. ولم يقل: قيل له؛ لأن الكلام مسوق لبيان القول، لا لبيان المقول له؛ لكونه معلوماً. وفيه دلالة على أن الجنة مخلوقة الآن. وقال الحسن: لمَّا أراد القوم أن يقتلوه رفعه الله، فهو في الجنة(٣)، ولا يموت إلا بفناء السماوات والأرض، فلما دخل الجنة ورأى نِعَمَهَا، وما أعد الله لأهل الإيمان، ﴿قال ياليت قومي يعلمون بما غفرَ لي ربي﴾ أي: بالسبب الذي غفر لي ربي به، ﴿وجعلني من المكرمين﴾ بالجنة، وهو الإيمان بالله ورسله، أو: بمغفرة ربي وإكرامي، فـ «ما»: موصولة، حُذف عائدها المجرور، لكونه جرَّ بما جُرَّ به الموصول، أو: مصدرية، وقيل: استفهامية. ورُدَّ بعدم حذف ألفها.

---

(١) أخرجه ابن جرير (١٥٩/٢٢)، وعزاه السيوطي في الدر (٤٩١/٥) لعبد بن حميد، وعبدالرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن قتادة.

(٢) عزاه ابن كثير في تفسيره (٥٦٨/٤) لابن إسحاق، فيما بلغه عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما، وكعب، ووهب.

(٣) ذكره البغوي في تفسيره (١٥/٧).

قال الكواشي: تمنى أن يعلم قومُه أنَّ الله قد غفر له، وأكرمه، ليرغب قومُه في اتباع الرسل، فيُسلموا، فنصح قومَه حياً وميتاً. وكذلك ينبغي أن يكون كل داعٍ إلى الله تعالى، في المجاهدة والنصيحة لعباد الله، وألاّ يحقد عليهم إن آذوه، وأن يكظم كل غيظ يناله بسببهم. وعن رسول الله ﷺ: «سُبَّاق الأمم ثلاثة: علي بن أبي طالب، وصاحب يس، ومؤمن آل فرعون»(١).هـ

قال القشيري: قد أبْلَغَ ـ حبيب الوَعْظَ، وصَدَقَ النُّصْحِ، ولكن كما قالوا وأنشدوا:

وكم سُقْتُ في آثارِكم من نصيحةٍ وقد يستفيد البغضةَ المتنصِّحُ(٢)

فلمَّا صَدَقَ في حاله، وصَبَرَ على ما لَقِيَ من قومه، ورجع إلى ربه، تلقَّاه بحسن إقباله، وآواه إلى كنف إفضاله، ووجد ما وعده به من لُطْفِ نواله، فتمنَّى أنْ يعلم قومُه حاله، فحقَّقَ مُنَاه، وأخبر عن حاله، وأنزل فيه خطابه، وعرَّفَ قومَه هـ.

الإشارة: أحبُّ الخلق إلى الله أنفعهم لعياله وأنصحهم لهم. وفي الحديث: «لئن يهدي الله بك رَجُلاً واحداً خيرٌ لك من حُمْرِ النَّعَمِ»(٣) فينبغي لمن أراد الظفر بمحبة الحبيب، وينال منه الحظوة والتقريب، أن يتحمل المشاق في إرشاد عباد الله، ويستعمل الأسفار في ذلك، لينال عنده الجاه الكبير، والقُرب العظيم. حققنا الله بذلك بمنِّه وكرمه.

ثم ذكر هلاك قومه، فقال:

﴿ ۞ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿وما أنزلناه على قومه من بعده﴾ أي: من بعد قتله، أو رفعه ﴿من جُندٍ من السماء﴾ فيهلكهم، ﴿وما كنا مُنزِلين﴾؛ وما كان يصحّ في حكمنا في إهلاك قوم أن نُنزل عليهم جنداً من

(١) عزاه السيوطي في الدر المنثور (٥/٤٩٢) بنحوه، للطبراني، وابن مردويه، بسند ضعيف، عن ابن عباس رضي الله عنه.
(٢) البيت للعباس بن الفرج الرياشي. انظر: الكامل للمبرد (٢/٣٩٢).
(٣) جزء من حديث شريف، أخرجه البخاري في (فضائل الصحابة، باب: مناقب سيدنا عل بن أبي طالب، ح ٣٧٠١) ومسلم في (فضائل الصحابة باب: من فضائل سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ٤/١٨٧٢، ح ٢٤٠٦) من حديث سهل بن سعد، رضي الله عنه.

السماء، كما فعلنا معك يوم بدر والخندق؛ لحظوتك عندنا. وفيه تحقير لإهلاكهم، وتعظيم لشأن الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ قال فى الكشاف: فإن قلت: لِمَ أنزل الجنود من السماء يوم بدر والخندق، مع أنه كان يكفى ملك واحد، فقد أهلكت مدائن قوم لوط بريشة من جناح جبريل، وبلاد ثمود وقوم صالح بصيحة واحدة؟ قلتُ: لأن الله فضَّل محمداً ﷺ بكل شيء، على كبار الأنبياء وأولى العزم، فضلاً عن حبيب النجار.هـ. ملخصاً. ﴿ إن كانت ﴾ العقوبة ﴿ إلا صيحةً واحدةً ﴾، صاح عليهم جبريل عليه السلام ﴿ فإذا هم خامدُون ﴾؛ ميتون.

الإشارة: كل وعيد ورد فى مُكذِّبى الرسل يجر ذيله على مُكذِّبى الأولياء؛ لأنهم خلفاء الأنبياء، إلا أن عقوبة مؤذى الأولياء، تارة تكون ظاهرة، فى الأبدان والأموال، وتارة باطنة، فى قسوة القلوب والتعويق عن صالح الأعمال، وكسْف نور الإيمان والإسلام، والبُعد وسوء الختام، وهى الحسرة العظمى، كما قال تعالى:

﴿ يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ٣٠ أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ أَنَّهُمۡ إِلَيۡهِمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ٣١ وَإِن كُلّٞ لَّمَّا جَمِيعٞ لَّدَيۡنَا مُحۡضَرُونَ ٣٢ ﴾

قلت : ﴿كم أهلكنا﴾: معلقة ليَروْا عن المفعولين. و﴿أنهم﴾: بدل من ﴿كم﴾، والتقدير: ألم يروا كثرة إهلاكنا قبلهم من القرون كونهم غير راجعين إليهم. و﴿وإن كُلٌّ لمَّا جميع﴾: من قرأ «لما» بالتخفيف(١)، فإن: مخففة، واللام: فارقة، و«ما» مزيدة، أى: وإنه، أى: الأمر والشأن لَجميعُ محضرون عندنا. ومن قرأها بالتشديد؛ فإنْ: نافية، و«لمَّا»: بمعنى إلا، أى: ما كلهم إلا مجموعون ومُحضرون للحساب.

يقول الحق جل جلاله : ﴿ ياحسرةً على العبادِ ﴾ تعالى، فهذا أوان حضورك. ثم بيَّن لأى شىء كانت الحسرة عليهم، فقال: ﴿ ما يأتيهم من رسولٍ ﴾ من عند الله ﴿ إلا كانوا به يستهزؤون ﴾، فإن المستهزئين بالناصحين المخلصين، المنوط بنصحهم خير الدارين ، أحقّاء بأن يتحسَّروا، ويتحسَّر عليهم المتحسِّرون، ويتلهَّف المتلهِّفون. أو: هم مُتَحسَّر عليهم من جهة الملائكة والمؤمنين من الثقلين.

﴿ ألم يرَوا كم أهلكنا قَبْلَهم من القُرونِ ﴾ أى: ألم يعلموا كثرة إهلاكنا قبلهم من القرون الماضية، ﴿ أنهم إليهم لا يَرجعُونَ ﴾ أى: كونهم غير راجعين إليهم أبداً حتى يلحقوا بهم، ففيهم عبرة وموعظة لمن يتعظ. ﴿ وإن

(١) قرأ، ابن عامر، وعاصم، وحمزة «لمَّا» بتشديد الميم. وقرأ الباقون بالتخفيف. انظر الإتحاف (٢/ ٤٠٠).

كلٌ لما جميعٌ لدينا مُحْضَرُون﴾ أى: وإن كلهم مجموعون محضرون للحساب، أو معذَّبون. وإنما أخبر عن «كل» بجميع؛ لأن «كل» تفيد معنى الإحاطة. والجميع: فعيل، بمعنى مفعول، ومعناه: الاجتماع، والمعنى: أن المحشر يجمعهم، فكلهم مجموعون مُحضرون للحساب.

الإشارة: يا حسرةً على العباد، ما يأتيهم من داع يدعو إلى الله، على طريق التربية الكاملة، إلا كانوا به يستهزؤون. ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون، ماتوا على الغفلة والحجاب، وكلهم محضرون للعتاب والحساب، ماتوا محجوبين، ويبعثون محجوبين؛ لإنكارهم فى الدنيا من يَرفع عنهم الحجاب، ويفتح لهم الباب، وهم شيوخ التربية، الموجودون فى كل زمان. أو: ياحسرةً على المتوجهين، ما يأتيهم من وارد على قلوبهم إلا كانوا به يستهزؤون، ولو فهموا عن الله لعملوا بما يرد على قلوبهم الصافية.

ثم ذكر دلائل قدرته على البعث والإحضار، فقال:

﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾

قلت: «وآية لهم»: مبتدأ، وجملة «الأرضُ الميتة»: خبر.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وآية لهم الأرضُ الميتةُ أحييناها﴾ أى: وعلامة لهم تدلُّ على أن اللهَ يبعثُ الموتى، ويُحضرهم للحساب، إحياءُ الأرض اليابسة بالمطر، فاهتزت وربت بالنبات. ﴿وأخرجنا منها حَبّاً﴾؛ جنس الحب، ﴿فمنه يأكلون﴾، هم وأنعامهم. وقدّم الظرف ليدل على أن الحبّ هو الشيء الذى يتعلق به معظمُ العيش، ويقوم، بالارتفاق به، صلاحُ الإنسان، إذا قلّ جاء القحط، ووقع الضرّ، وإذا فُقد حضر الهلاك، ونزل البلاء. ﴿وجعلنا فيها﴾؛ فى الأرض ﴿جنات﴾؛ بساتين ﴿من نخيلٍ وأعنابٍ، وفجَّرنا فيها من العُيُون﴾، «من»: زائدة عند الأخفش، وعند غيره: المفعول: محذوف، أى: ما تتمتعون به من العيون.

﴿ ليأكلوا من ثَمره ﴾ أي: من ثمر الله، أي: ليأكلوا مما خلق الله تعالى من الثمر، أو: من ثَمَرة، يخلقها الله من ذلك، على قراءة الأخوين(١). ﴿ وما عملته أيديهم ﴾ أي: ومما عملته أيديهم من الغرس، والسقي، والتلقيح، وغير ذلك، مما تتوقف عليه في عالم الحكمة، إلى أن يبلغ الثمر منتهاه. يعني: أن الثمر في نفسه فعل الله، وفيه آثارٌ من عمل ابن آدم، حكمةً، وتغطيةً لأسرار الربوبية. وأصله: من ثمرنا، كما قال: ﴿ وجعلنا ﴾ ﴿ وفجّرنا ﴾، فالتفت إلى الغيبة. ويجوز أن يرجع الضميرُ إلى النخيل، ويترك الأعناب غير مرجوع إليها؛ لأنه علم أنها في حكم النخيل. وقيل: «ما» نافية، على أن الثمرة خلق الله، ولم تعمله أيدي الناس، ولا يقدرون عليه. ﴿ أفلا يشكرون ﴾ الله على هذه النعم الجسيمة، وهو حثّ على الشكر.

﴿ سبحانَ الذي خلق الأزواجَ ﴾؛ الأصناف ﴿ كُلَّها مما تُنبتُ الأرضُ ﴾ من النخيل، والشجر، والزرع، والثمار، كيف جعلها مختلفة في الطعوم، والروائح، والشكل، والهيئة، واختلاف أوراق الأشجار، وفنون أغصانها، وأصناف نورها وأزهارها، واختلاف أشكال ثمارها، في تفردها واجتماعها، مع ما بسط فيها من الطبائع الأربع؛ من الحرورة، والبرودة، والرطوبة، واليبوسة، وما فيها من المنافع المتنوعة. ﴿ ومن أنفسِهم ﴾؛ الأولاد، ذكوراً وإناثاً، ﴿ ومما لا يعلمون ﴾ من أصنافٍ لم يُطلعهم الله عليها، ولم يتوصلوا إلى معرفتها، ففي البحار عجائب لا يعلمها الناس. قال تعالى: ﴿ وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾(٢). وفائدة التنزيه: نفي تشبيه الذات بشيء من هذه الأزواج. والله تعالى أعلم.

قال القشيري: والعَجَبُ مِمّن يُنكر أصول الدين، ويقول: ليس في الكتاب عليه دليل، وأكثر ما في القرآن من الآيات تدل على سبيل الاستدلال، ولكن يَهْدِي لنوره من يشاء، ولو أنهم أنصفوا واشتغلوا بأهم شيءٍ لهم ماضيّعوا أصول الدين، ورضوا فيها بالتقليد، وادَّعوا في الفروع رتبة الإمامة والتصدير، وفي معناها قيل:

يا مَنْ تصـدَّرَ في دَسْتِ(٣) الإمامة من مسـائل الفقـه إملاءً وتدْريسـا

غفَـلْتَ عن حجـجِ التوحـيد تُحكِمُها شـيَّدتَ فرعاً وما مهَّدتَ تأسيساً.ه

قلت: وحاصله: مدح علم الأصول وترك علم أصل الأصل، وهو علم التوحيد الخاص، أعني الشهود والعيان. وقد قلتُ في ذلك، تذليلاً:

---

(١) قرأ حمزة والكسائي (من ثُمُر) بضم المثلثة والميم. وهي إما جمع «ثمرة» مثل: خشبة وخُشُب. وإما جمع ثِمار، وثمار جمع ثمرة، فيكون جمع الجمع. انظر: شرح الهداية للمهدوي (٢/٢٨٥)، وإتحاف فضلاء البشر (٢/٢٥).

(٢) من الآية ٨ من سورة النحل. (٣) الدست: صدر البيت.

يا مَنْ تصـدّى لعلم الأصـل يُحكمه		قـد فاتك الذوق بالوجـدان مستأنسا.

الإشارة: وآية لهم النفس الميتة بالجهل أحييناها بالعلم، وأخرجنا منها علماً لَدُنّيا، فمنه تتقوت القلوب والأرواح، وجعلنا فيها جناتِ المعارف، من نخيل الحقائق، وأعناب الشرائع، وفجّرنا فيها من عيون الحِكَم، ليأكلوا من ثمره، ومما عملته أيديهم، من المجاهدات والمكابدات، فإنها تُثمر المشاهدات. سبحان الذى خلق الأزواج كلها من الأحوال، والمقامات، والعلوم، والمعارف، مما يُستخرج من النفوس والأرواح، ومما لا يعلمه إلا الله.

ثم ذكر برهاناً آخر، فقال:

﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿وآيةٌ لهم الليلُ نَسْلخُ منه النهار﴾؛ نخرج منه النهار، إخراجاً لا يبقى معه شيء من ضوء النهار. مستعار من: سلخ الجلد عن الشاة، أو: ننزع عنه الضوءَ نزع القميص الأبيض، فيعرى نفس الزمان، كشخص أسود، نزع عنه قميص أبيض؛ لأن أصل ما بين السماء والأرض من الهواء: الظلمة، فاكتسى بعضه ضوء الشمس، كبيت مظلم أُسرج فيه، فإذا غاب السراج أظلم. ﴿فإذا هم مُظْلِمُونَ﴾؛ داخلون فى الظلام.

﴿و﴾ آية لهم أيضا ﴿الشمسُ تجري لمسْتَقَرٍ لها﴾؛ لحدّ لها مؤقت، تنتهى إليه من فَلَكِها فى آخر السنة. شبهت بمستقرّ المسافر إذا انتهى سفره، أو: لحدّ لها مِن مسيرها كلَّ يوم فى مرائى عيون الناس، وهو المغرب. وفى الحديث الصحيح ـ من طريق أبى ذرـ :«إنها تسجد كل يوم تحت العرش، فتستأذن، فيُؤذن لها، ويوشك أن تستأذن فلا يُؤذن لها، فتَطلُعُ من مغربها»، ذرَّ قال ﷺ: «وذلك قوله: ﴿والشمس تجرى لمستقر لها﴾»(١).

(١) أخرجه البخارى فى (بدء الخلق، باب صفة الشمس والقمر، ح ٣١٩٩) ومسلم فى (الإيمان، باب بيان الزمن الذى لايقبل فيه الإيمان، ١/ ١٣٩ ح ٢٥١) من حديث أبى ذرﷺ.

وعن ابن عباس: أن الشمس بمنزلة السانية، تجرى بالنهار فى السماء فى فلكها، فإذا غربت؛ جرت فى الليل تحت الأرض فى فلكها، حتى تطلع من مشرقها، وكذلك القمر. كذا نقل الكواشى عنه. ولعله لا يناقض ما جاء فى الحديث، من أنها تسجد تحت العرش، لإحاطة العرش بالجميع، فهى حيث ما انتهت تحته. ونقل الأقليشى من حديث عكرمة، عن ابن عباس: (ما طلعت شمس حتى ينخسها سبعون ألف ملك، فيقولون لها: اطلعى، فتقول: لا أطلع على قوم يعبدوننى من دون الله، فيأتيها ملك من الله، فيأمرها بالطلوع، فتستقل بضياء بنى آدم، فيأتيها شيطان يريد أن يصدها عن الطلوع، فتطلع بين قرنيه، فيحرقه الله تعالى تحتها، وما غربت شمس قط إلا خرّت لله ساجدة، فيأتيها شيطان، يُريد أن يصدها عن السجود، فتغرب بين قرنيه، فيحرقه الله تعالى، وذلك قوله ﷺ: «ما طلعت شمس إلا بين قرنى الشيطان، ولا غربت إلا بين قرنى الشيطان»(١). هـ. على نقل شيخ شيوخنا الفاسى.

وقرأ ابن عباس وابن مسعود: «تجرى لا مستقر لها»، ومعناها: إنها جارية أبداً، لا تثبت فى مكان. وقراءة الجماعة أوفق بالحديث. ﴿ ذلك تقديرُ العزيزِ الحكيم ﴾ أى: ذلك الجرى على ذلك التقدير البديع، والحساب الدقيق، تقدير الغالب بقدرته على كل مقدور، العليم بكل معلوم.

﴿ والقمرَ قدَّرناه ﴾، من نصبه؛ فبِفعل مضمر، ومن رفعه؛ فمبتدأ، والخبر: ﴿ قدَّرناه منازلَ ﴾، وهى ثمانية وعشرون منزلاً: فرع الدلو المقدم، فرع الدلو المؤخر، بطن الحوت، النَّطح، البُطَين، الثُّريَّا، الدَّبَران، الهَقْعَة، الهَنْعَة، الذِّراع، النَّثْرة، الصَّرْفَة، الجبْهَة، الطَّرْفة، الزُبرة، العوَّاء، السِّمَاك، الغفْر، الزُّبَانى، الإكليل، القَلْب، الشَّوْلة، النعائِم، البلْدة، سَعْدُ الذَّابح، سعد السُّعُود، سَعْد الأخبية(٢)، ينزل القمر كل ليلة فى واحد منها لا يتخطاها، ولا يتقاصر عنها. على تقدير مستو، يسيرُ فيها من ليلة المستهلّ إلى الثامنة والعشرين، ثم يستترُ ليلتين، أو ليلة إذا نقص الشهر. ولابد فى ﴿ قدّرناه منازلَ ﴾ من تقدير مضاف؛ أى: قدرّنا سيره، أو نوره، فيزيد وينقص، إذ لا معنى لتقدير القمر منازل، فيكون «منازل» ظرفاً.

فإذا كان فى آخر منازله، دق وتقوس، ﴿ حتى عادَ كالعُرْجُون ﴾ أى: كالشمراخ، وهو عنقود التمر إذا يبس واعوج. ووزنه فعلون، من الانعطاف، وهو الانعراج، ﴿ القديم ﴾؛ العتيق المُحْول(٣)، وإذا قدم دقّ، وانحنى، واصفر، فشبه القمر به من ثلاثة أوجه.

(١) أخرجه ابن عساكر (تهذيب تاريخ دمشق ٣/١٢٤).
(٢) انظر البحر المحيط (٧/٣٢٢) وتفسير القرطبى (٦/٥٦٣٢ - ٥٦٣٣).
(٣) أى: مرّ عليه حول (عام) فصاعداً.

﴿ لا الشمسُ ينبغي لها ﴾؛ يصحّ ويستقيم لها ﴿ أن تُدرِكَ القمَرَ ﴾؛ فتجتمع معه فى وقتٍ واحد، وتداخله فى سلطانه، فتطمس نوره قبل تمام وقته؛ لأن لكلّ واحد من النيّرين سلطاناً عل حياله، فسلطان الشمس بالنهار، وسلطان القمر بالليل. ﴿ ولا الليلُ سابقُ النهارِ ﴾؛ ولا يسبق الليل النهار، أى: آيةَ الليل لا تسبق آيةَ النهار، وهى النيّران. ولا يزال الأمرُ على هذا الترتيب إلى أن تقوم الساعة، فيجمع الله بين الشمس والقمر، ويُكوران ويُرميان فى النار، ﴿ وكلٌّ في فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ أى: وكلهم فى فلك يسبحون؛ يسيرون؛ فالتنوين للعوض؛ والضمير للشمس والقمر؛ فإنّ اختلاف الأحوال يُوجب تعدداً ما فى الذات، أو: للكواكب؛ فإن ذكر النيرين مشعر بها ﴿وكل فى فلك يسبحون﴾ يقرأ مقلوباً ومرتباً، ففيه نوع من البديع.

الإشارة: وآيةٌ لهم ليلُ الغفلة نسلخ منه نهارَ اليقظة، ونهارُ اليقظة، نسلخ منه ليلَ الغفلة، فلا يزال العبد بين غفلة ويقظة، حتى تُشرق عليه شمس العرفان، وتستقر فى قلبه، فلا غروب لها، وإليه الإشارة بقوله: ﴿والشمس تجرى لمستقر لها﴾، ومستقرها: قلوب العارفين. وقمر الإيمان قدّرناه منازل، ينقص ويزيد، بزيادة التفرغ والتوجه ونقصانه، حتى تطلع عليه شمس العرفان، فينسخ نوره، فلا زيادة ولا نقصان. قال القشيرى: فشبيهُ الشمس عارفٌ أبداً فى ضياء معرفته، صاحبُ تمكينٍ، غيرُ متلوّنٍ، شرُفَ فى بروج سعادته قائماً، لا يأخذه كسوفٌ، ولا يستره سحابٌ. وشبيهُ القمر عبدٌ تلون أحوالُه فى التنقل، صاحب تلوين، له من البسط ما يُرقيه إلى حدّ الوصال، ثم يُردُّ إلى الفترة، ويقع فى القبض مما كان فيه من صفاء الحال، فيتناقص، ويرجع إلى نقص أمره، إلى أن يدفع قلبه عن وقته، ويجود عليه الحقُّ سبحانه، فيُوَفّقه لرجوعه عن فترته، وإفاقته من سكرته، فلا يزال تصفو أحواله، إلى أن يَقْرُبَ من الوصال، ويُرزقَ صفة الكمال، ثم بعد ذلك يأخذ فى النقص والزوال، كذلك حاله إلى أن يُحقّ له بالمقسوم ارتحاله، وأنشدوا:

كُـلَّ يـومٍ تتلَـوّنْ		غيرُ هذا بكَ أجمـل.(١) هـ.

ثم ذكر دليلاً آخر، فقال:

﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾ ﴾

(١) غنته جارية فى قصة. انظرها فى الرسالة القشيرية /١٥٦. وورد فى الكبريت الأحمر (١٤٧/٢): [غير هذا بك أحسن].

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وآية لهم أنَّا حَمَلْنا ذُريتَهُم ﴾؛ أولادهم، الذين يبعثونهم إلى تجاراتهم، أو صبيانهم ونسائهم الذين يستصحبونهم؛ فإن الذرِّية تقع عليهن؛ لأنهن مزارعها. وتخصيصهم؛ لأن استقرارهم في السفن أشق، وتماسكهم فيها أعجب، أو خصهم؛ لضعفهم عن السفر، فالنعمة فيهم أظهر. فحملناهم ﴿ في الفلك المشحون ﴾: المملوء، والظاهر: أن الضمير في «ذريتهم» للجنس. كأنه قال: ذُريات جنسهم ونوعهم. قال ابن عباس وجماعة: يريد بالذُّرِيَّات المحمولين: أصحابَ نوح في السفينة، ويريد بقوله: ﴿ وخلقنا لهم من مثله ما يركبون ﴾: السفن الموجودة في جنس بني آدم إلى يوم القيامة، وإياها عنى بقوله: ﴿وإن نشأ نُغرقهم..﴾ إلخ. وأما إطلاق الذرية على الآباء، فقال ابن عطية: لا يُعرف لغة، وإنما المراد بالذرية الجنس، أو حقيقة ما تقدم. وعليه يكون قوله: ﴿وخلقنا لهم من مثله ما يركبون﴾ يراد به الإبل؛ فإنها سفن العرب.

﴿ وإن نشأ نُغْرِقْهم ﴾ إذا ركبوا سفن البحر، ﴿ فلا صَرِيخَ لهم ﴾؛ فلا مغيث، أو: لا مستغيث لهم، وهو أبلغ، أي: لم تبق لهم قدرة على الاستغاثة. ﴿ ولاهم يُنْقَذُونَ ﴾؛ ينجون من الموت، ﴿ إلا رحمةً منا ومتاعاً إلى حين ﴾ أي: لا ينقذون إلا لرحمة منا، ولتمتيع بالحياة إلى انقضاء الأجل. فهما مفعولان له. وقال بعضهم: الاستثناء راجع لثلاث جمل: «نغرقهم»، «فلا صريخ لهم»، «ولا هم ينقذون».

الإشارة: إذا عامت أفكار العارفين، في بحار التوحيد، وأسرار التفريد، تلاطمت عليها أمواج الدهش من كبرياء الله، فإن سبق لها سابق عناية الاعتدال؛ أوت إلى سفينة الشريعة، بعد ركوبها في فلك الحقيقة، وإليه الإشارة في قوله: ﴿حملنا ذريتهم في الفلك المشحون، وخلقنا لهم من مثله ما يركبون﴾. وإن لم تسبق له عناية، غَرِقَ في بحر الزندقة والإلحاد، كما قال تعالى: ﴿وإن نشأ نُغرقهم فلا صريخ لهم﴾ من شيخ كامل، ولا هم يُنقذون إلا رحمة منا ومتاعاً إلى حين الكمال، فيعتدل. قال القشيري: الآية إشارة إلى حَمْلِ الخلْقِ في سفينة السلامة، في بحار التقدير، عند تلاطم أمواجها، بفنونٍ من التغيير والتأثير، وكم من عبدٍ غرق في أشغاله، في ليله ونهاره، لا يستريح لحظةً في كدِّ أفعاله، ومقاساة التعب من أعماله، وجَمْعِ ماله، بنسيان عاقبته ومآله. ثم قال في قوله تعالى: ﴿ وإن نشأ نُغرقهم ﴾: لولا صفة جُودُه وفَضْلُه؛ لَحَلَّ بهم من البلاء ما حَلَّ بأمثالهم، لكنه لحُسْنِ إفضاله، حفظهم في جميع أحوالهم. هـ.

ثم ذكر كفرهم لهذه النِعم، فقال:

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُوا۟ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾ ﴾

قلت: جواب «إذا» محذوف، أي: أعرضوا، فدل عليه قوله: «معرضين».

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وإذا قيل لهم ﴾ أي: كفار قريش: ﴿ اتقوا ما بين أيديكُم وما خلفكُم ﴾ أي: ما تقدّم من ذنوبكم، وما تأخّر مما أنتم تعملونه بعدُ، أو: ما بين أيديكم: ما سلف من مثل الوقائع التي حلّت بالأمم المكذبة قبلكم، وما خلفكم من أمر الساعة، أو: ما بين أيديكم من فتنة الدنيا، وما خلفكم من عذاب الآخرة. ﴿ لعلكم تُرحمون ﴾؛ لتكونوا في رجاء رحمة الله، فإذا قيل لهم ذلك أعرضوا.

قال تعالى: ﴿ وما تأتيهم من آيةٍ من آيات ربهم ﴾ الدالة على وحدانيته تعالى، وصدق رسوله، ﴿ إلا كانوا عنها معرضين ﴾ لا يلتفتون إليها، ولا يرفعون لها رأساً، فـ «من» الأولى لتأكيد النفي، والثانية للتبعيض، أي: دأبهم الإعراض عن كل آية وموعظة.

﴿ وإذا قيل لهم أَنفقوا مما رزقكم اللهُ ﴾ أي: تصدّقوا على الفقراء، ﴿ قال الذين كفروا ﴾ من مشركي مكة ﴿ للذين آمنوا أنُطْعِمُ من لو يشاء اللهُ أطْعَمَهُ ﴾. عن ابن عباس رضي الله عنهما: كان بمكة زنادقة، فإذا أُمروا بالصدقة على المساكين، قالوا: لا والله، أيُفقره الله ونُطعمه نحن؟!(١). قيل: سبب الآية: أن قريشاً لمّا أسلم ضعفاؤهم، قطعوا عنهم صِلاتهم، فندبهم بعض المؤمنين إلى ذلك، فقالوا تلك المقالة.

وقيل: إن قريشاً شَحّتْ ـ بسبب أزمة نزلت بهم ـ على المساكين، مؤمنهم وكافرهم، فندبهم النبي ﷺ إلى النفقة على المساكين، فقالوا على سبيل الجهل: أنُطعم قوماً أراد الله فقرهم وتعذيبهم. ومن أمثالهم: كن مع الله على المدبر، حتى كان الرجل يرعى إبله، فيجعل السِمان في الخصب، والمهازيل في الجدب، فإذا قيل له في ذلك، قال:

---

(١) انظر: البحر المحيط (٧/٣٢٥) وتفسير القرطبي (٦/٥٦٤١).

أُكرم ما أكرم الله، وأُهين ما أهان الله. ويحتمل أن يكون قولهم ذلك استهزاءً، فكأنهم قالوا: لِمَ لا يرزقهم إلهك الذي تزعم.

قال الكواشي: قد يتمسك بهذه الآية بعضُ البخلاء، فيقول: لا أُعطي من حرمه الله. وليس هذا بصحيح؛ لأن الله تعالى أغنى وأفقر، وجعل للفقير جزءاً من مال الغنى كما يشاء. وفي الإحياء: أن المراد بالصدقة وشرعها: التخلص من رذيلة البخل، وذلك نفع يعود على المتصدق، بإخراجه عن حب الدنيا، وتعلق قلبه بها، الصادّ عن الله، وهؤلاء لم يفهموا حكمة الله، فقالوا ما قالوا .هـ. ثم قال: ﴿إن أنتم إلا في ضلال مبين﴾ في أمركم لنا بالنفقة، أو في غير ذلك من دينكم، أو: يكون من قول الله تعالى للكفرة.

الإشارة: وإذا قيل للعامة: اتقوا ما بين أيديكم، من شدائد الدنيا، وما خلفكم، من أهوال الآخرة، لعلكم تُرحمون فيهما؛ فإن التقوى الكاملة تحفظ الرجل في حياته وبعد مماته، وربما يسري الحفظ إلى عقبه، كما هو مشاهد في عقب أولياء الله. أو: إذا قيل لهم: اتقوا خواطر التدبير فيما بين أيديكم؛ إذ ليس أمره بيدكم، فجُل ما تبنيه من التدبير تهدمه رياح التقدير، وخواطر التدبير، فيما سلف قبلكم، إذ فيه تحصيل الحاصل، وتعطيل الوقت بلا فائدة. ﴿لعلكم تُرحمون﴾ بمقام الرضا، وسكون القلب وراحته تحت مجاري القضاء، أعرضوا وانهمكوا في أودية الغفلة والخواطر. وما تأتيهم من آية دالة على وحدانيته تعالى، وانفراده بالخلق والتدبير، إلا كانوا عنها معرضين.

قال القشيري: هذه صفة من سيَّبهم في أودية الخذلان، ووسَمهم بسِمة الحرمان، وأصمَّهم عن سماع الرُّشْد، وصدَّهم بالخذلان عن سلوك القصد، فلا تأتيهم آيةٌ في الزَّجْر إلا قابلوها بإعراضهم، وتجافوا عن الاعتبار بها، على دوام انقباضهم، وإذا أُمِروا بالإنفاق والإطعام عارضوا بأنّ الله رازقُ الأنام، وإذا شاء نظَر إليهم بالإنعام .هـ.

ثم ذكر استعجالهم البعث، فقال:

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً
تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾
وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا
مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً
وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ
إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ويقولون ﴾ - استهزاء -: ﴿ متى هذا الوعْدُ ﴾ أى: وعد البعث والقيامة ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ فيما تقولون. خطاب للنبى ﷺ، وأصحابه. قال تعالى: ﴿ ما ينظرون ﴾ ؛ ينتظرون ﴿ إلا صيحةً واحدةً ﴾ هى: النفخة الأولى، ﴿ تأخذُهُم وهم يَخِصّمُون ﴾ ؛ يختصمون، يخصم بعضهم بعضاً فى المعاملات، لا يخطر ببالهم أمرها، فتأتيهم بغتة. وقرأ حمزة - بسكون الخاء - من: خصمه: إذا غلبه فى الخصومة. وفتح الباقون، مع الاختلاس والنقل وعدمهما. ﴿ فلا يستطيعُونَ توصيةً ﴾ ؛ فلا يستطيعون أن يوصوا فى أمورهم بشيء، ﴿ ولا إلى أهلِهِم يرجعُون ﴾ ؛ ولا يقدرون على الرجوع إلى منازلهم، بل يموتون حيث يسمعون الصيحة.

﴿ ونُفِخَ في الصُّور ﴾ النفخة الثانية، بعد خُلو الأرض أربعين سنة. والصور: القرن، أو: جمع صورة. ﴿ فإذا هم من الأجْدَاثِ ﴾ ؛ القبور ﴿ إلى ربهم ينْسِلُون ﴾ ؛ يُسرعون فى المشى إلى المحشر.

﴿ قالوا ياويلنا مَن بَعَثَنَا ﴾ ؛ مَن أنشرنا ﴿ من مَرْقَدِنا ﴾ ؛ مضجعنا؟. قال مجاهد وأُبىّ بن كعب: للكفار هجعة يجدون فيها طعم النوم، فإذا صيح بأهل القبور، قالوا ياويلنا من بعثنا؟ وأنكره ابن عطية، وقال: إنما هو استعارة، كما تقول فى قتيل: هذا مرقده إلى يوم القيامة. فتقول الملائكة فى جوابهم: ﴿ هذا ما وَعَدَ الرحمنُ وصَدَقَ المرسلون ﴾، أو يقوله المؤمنون، أو: الكفار، يتذكرون ما سمعوه من الرسل، فيُجيبون به أنفسهم، أو بعضهم بعضاً. و«ما»: مصدرية، أى: هذا وَعْدُ الرحمن وصدق المرسلين، على تسمية الموعود والمصدوق فيه بالوعد والصدْق. أو: موصولة، أى: هذا الذى وعده الرحمن والذى صَدَقَه المرسلون، أى: والذى صدق فيه المرسلون.

﴿ إن كانت ﴾ النفخة الأخيرة ﴿ إلا صيحةً واحدةً فإذا هم جميع لدينا مُحضَرُون ﴾ للحساب، ثم يقال لهم فى ذلك اليوم: ﴿ فاليوم لا تُظلمُ نفسٌ شيئاً ولا تُجْزَونَ إلا ما كنتم تعملون ﴾ من خير أو شر.

الإشارة: إذا كبر يقين العبد صارت عنده الأمور المستقبلة واقعة، والآجلة عاجلة، فيستعد لها قبل هجومها، ويتأهب للقائها قبل وقوعها، أولئك الأكياس، الذين نظروا إلى باطن الدنيا، حين نظر الناس إلى ظاهرها، واهتموا بآجالها، حين اغتر الناس بعاجلها، كما فى الحديث فى صفة أولياء الله.

ثم بيّن الحق تعالى مآلهم، فقال:

﴿ إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾ وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾

قلت: «سلام»: بدل من «ما»، أو: خبر عن مضمر، أو: مبتدأ حُذف خبره، أى: من ذلك سلام، وهو أظهر؛ ليكون عاماً، أى: ولهم كل ما يتمنون، كقوله: ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴾(١) ومن جملة ذلك: ﴿ سلام قولاً من رب رحيم ﴾ فيوقف على «ما يدّعون». و «قولاً»: منصوب على المصدر المحذوف، أى: يقال لهم «قولاً»، وقيل: على الاختصاص.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ إِنَّ أصحابَ الجنة اليومَ في شغُل ﴾ - بضم الغين وسكونها(٢) - أى: فى شغل لا يوصف؛ لِعظم بهجته وجماله. فالتنكير للتعظيم، وهو افتضاض الأبكار، على شط الأنهار، تحت الأشجار، أو سماع الأوتار فى ضيافة الجبار. وعن أبى هريرة وابن عباس - رضى الله عنهما - قيل: يارسول الله أَنُفْضِى إلى نسائنا فى الجنة، كما نُفضى إليهن فى الدنيا؟. قال: «نعم، والذى نفس محمد بيده إن الرجل ليُفضى فى الغداة الواحدة إلى مائة عذراء»(٣) وعن أبى أمامة: سئل رسول الله ﷺ: هل يتناكح أهل الجنة؟ فقال: «نعم، بِذَكَرٍ لا يملُّ، وشهوة لا تنقطع، دحْماً دحْماً»(٤). قال فى القاموس: دحمه - كمنعه: دفعهُ شديدا. وعن أبى سعيد الخدرى قال رسول الله ﷺ: «أهل الجنة إذا جامعوا نساءهم عادوا أبكاراً»(٥)، وفى رواية أبى الدرداء: «ليس فى الجنة منّى»، وفى رواية: «بول أهل الجنة عرق يسيل تحت أقدامهم مسكاً»(٦) وعن إبراهيم النخعى: جماع ماشئت، ولا ولد. هـ. فإذا اشتهى الولد كان بلا وجع، فقد روى الحاكم والبيهقى عنه - عليه الصلاة والسلام -: «إن الرجل من أهل الجنة ليولد له الولد، كما يشتهى، فيكون حمله وفصاله وشبابه فى ساعة واحدة». انظر البدور السافرة.

(١) من الآية ٣١ من سورة فُصلت.

(٢) قرأ ابن عامر، وعاصم، وحمزة، والكسائى، وأبو جعفر (شُغل) بضم الغين، وقرأ الباقون بالسكون. انظر الإتحاف (٢/١٠٢).

(٣) أخرج حديث أبى هريرة: البزار (كشف الأستار ح ٣٥٢٥). قال الهيثمى فى المجمع (١٠/٤١٦): (رواه البزار والطبرانى، ورجال هذه الرواية رجال الصحيح، غير محمد بن ثواب، وهو ثقة). وحديث ابن عباس عزاه فى المجمع لأبى يعلى.

(٤) عزاه فى المجمع (١٠/٤١٦) للطبرانى.

(٥) أخرجه البزار (كشف الأستار ح ٣٥٢٧). وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/٤١٧): رواه البزار، والطبرانى فى الصغير، وفيه معلى ابن عبدالرحمن، وهو كذاب.

(٦) عزاه فى المجمع (١٠/٤١٦) للطبرانى فى الأوسط وفى الكبير، بنحوه، عن زيد بن أرقم.

قلت: والتحقيق أن شغل أهل الجنة مختلف، فمنهم من هو مشتغل بنعيم الأشباح، من حور، وولدان، وأطعمة، وأشربة، على ما يشتهي، ومنهم من هو مشتغل بنعيم الأرواح، كالنظر لوجه الله العظيم، ومشاهدة الحبيب، ومناجاة ومكالمات، ومكاشفات، وترقيات في معاريج الأسرار كل ساعة. ومنهم من يُجمع له بين النعيمين، وسيأتي في الإشارة. وقوله تعالى: ﴿ فاكِهُون ﴾ أي: متلذذون في النعمة، والفاكه والفكه: المتنعم، ومنه: الفكاهة؛ لأنه مما يتلذّذ به، وكذا الفاكهة.

ثم قال تعالى: ﴿ هُمْ وأزواجُهم في ظِلالٍ ﴾؛ جمع ظِل، وهو: الموضع الذي لا تقع عليه الشمس. وفي قراءة «ظُلَل» بالضم، جمع ظُلة، كبُرمة وبرام، وهو ما يسترك عن الشمس، وظل أهل الجنة لا تنسخه شمس، قال تعالى: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾(١) ﴿ على الأرائك ﴾: جمع أريكة، وهي السرير في الحَجَلَة. فالأرائك: السرر المفروشة، بشرط أن تكون عليها الحَجلة، وإلا فليست بأريكة، والحَجَلة: ما يستر السرير من ثوب الحرير. وهم ﴿ متكئون ﴾ عليها كالملوك على الأسرة. ﴿ لهم فيها فاكهة ﴾ كثيرة مما يشتهون. ﴿ ولهم مايَدَّعُون ﴾ أي: كل ما يدّعونه يأتيهم فوراً، فوزنه: يفتعلون، من الدعاء، أو: ما يتمنون من نعيم الأشباح والأرواح، من قولهم: ادَّع عليّ ما شئت، أي: تمنّه. وقال الفراء: هو من الدعوى، ولا يدّعون إلا ما يستحقون.

﴿ سلام قولاً من ربٍّ رحيمٍ ﴾ أي: من أهم ما يدعون: سلام يقال لهم قولاً من رب رحيم، بلا واسطة؛ مبالغة في تعظيمهم، وذلك غاية متمناهم، مضافاً لرؤيته، ومن مقتضى الرحمة: الإبقاء عليهم مع ذلك. قال القشيري: يسمعون كلامه وسلامَه بلا واسطة، وأكّد بقوله: ﴿قولا﴾. وبقوله: ﴿من ربٍّ رحيم﴾ ليُعلم أنه ليس على لسان سفير، والرحمة في تلك الحالة أن يرزقهم الرؤية في حال التسليم عليهم، ليكمل لهم النعمة هـ. وفي الحديث عنه ﷺ: «بينا أهل الجنة في نعيمهم، إذْ سطع لهم نورٌ، فرفعوا رؤوسهم، فإذا الربُّ قد أشرف عليهم من فوقهم، فيقول: السلام عليكم يا أهل الجنة، فينظر إليهم، وينظرون إليه»(٢).

ثم ذكر أهل البُعد والحجاب، فقال: ﴿ وامتازوا اليومَ أيها المجرمون ﴾ أي: انفردوا عن المؤمنين وكونوا على حِدة، وذلك حين يُحشر المؤمنون، ويُساق بهم إلى الجنة. وقال قتادة: عزلوا عن كل خير. وعن الضحاك: لكل كافر بيت من النار، يكون فيه، لا يَرى ولا يُرى أبدا.هـ.

(١) الآية ٣٠ من سورة الواقعة.

(٢) أخرجه ابن ماجه في (المقدمة، باب فيما أنكرت الجهمية ١/٦٦، ح ١٨٤) وزاد السيوطي في الدر المنثور (٥/٥٠١) عزوه لابن أبي الدنيا، في صفة الجنة، والبزار، وابن أبي حاتم، والآجري في الرؤية، وابن مردويه، عن سيدنا جابر رضي الله عنه.

الإشارة: إنّ أصحاب الجنة المعجَّلة لأوليائه، اليوم، فى شُغُل كبير، لا تجدهم إلا مشتغلين بالله، بين شهود واستبصار، وتفكر واعتبار، فى محل المشاهدة والمكالمة، والمناجاة والمساررة، أوقاتهم محفوظة، وحركاتهم وسكناتهم بالإخلاص ملحوظة، فهم فى شغل شاغل عن الدنيا وأهلها، هم ومن تعلق بهم فى ظلال الرضا، وبرد التسليم يرتادون، وفى مشاهدة وجه الحبيب يتنعمون. قال القشيرى: إن أصحاب الجنة اليوم، أى: طلابها، والساعون لها، والعاملون لنيلها، ولمثل ذلك فليعمل العاملون، فهم فى الدنيا فى طلب الجنة عن المنعِم بها، كما جاء في الحديث: «أكثر أهل الجنة البُلْه»(١)، ومن كان فى الدنيا عن الدنيا حُرّاً، فلا يبعد أن يكون فى الجنة عن الجنة حرا، ﴿يختص برحمته من يشاء﴾ ـ قلت: فالبله هم أهل الحجاب، الذين يعبدون الله لطلب الجزاء، ويقنعون بالنعيم الحسى ـ ثم قال: ويقال: الحقُّ تعالى لا يتعلّق به حقٌّ ولا باطل، فلا تنَافِىَ بين اشتغالهم بلذاتهم مع أهليهم، وبين شهودهم مولاهم، كما أنهم اليوم مستديمون لمعرفته، بأى حالةٍ كانت. ولا يَقْدَحُ اشتغالهم باستيفاء حُظُوظِهم، فى معارفهم. هـ. مختصرا.

قلت: وما فى سورة الواقعة، من ذكر نعيم السابقين، يدلّ على أنهم يجتمع لهم نعيم الحُور والولدان، مع نعيم العيان والرضوان؛ لأنهم فى الدنيا جمعوا بين القيام بوظائف الشريعة، ومعاينة أسرار الحقيقة. والله تعالى أعلم.

قوله تعالى: ﴿سلام قولاً من ربٍّ رحيم﴾ قال ابن عطاء: السلام جليل عظيم الخطر، وأجلّه خطراً ما كان وقت المشاهدة والمصافحة، حين يقول: سلام قولاً من رب رحيم. قال القشيرى: الرحمة فى ذلك الوقت أن يُبقيهم فى حال سماع السلام، أو حال اللقاء، لئلا تصحبهم دهشة، ولا تلحقهم حيرة. هـ. وقال الورتجبى: سلام الله أزلى الأبد، غير منقطع عن عباده الصالحين، فى الدنيا والآخرة، لكن فى الجنة تُرفع عن آذانهم جميع الحجب، فسمِعُوا كلامه، ونظروا إلى وجهه كفاحًا .هـ. قلت: وقد يُرفع فى دار الدنيا، فيسمع سلام الله على عباده، كما وقع لبعض الأولياء ـ. قيل: وفى قوله: ﴿رحيم﴾ إشارة إلى عدم حجبهم عن جماله أبداً، مع الإبقاء عليهم فى حال السلام واللقاء، فلا تصحبهم دهشة، كما تقدم. وقيل: الإشارة فى الرحيمية: أن ذلك الوصول ليس باستحقاق ولا سبب من فعل العبد، وإنما هو بالرحمة، فيكون للعاصى فيه نَفَسٌ ومساغ للرجاء. قاله المحشى.

---

(١) أخرجه البيهقى فى شعب الإيمان (٢/ ١٢٠ ـ ١٢٦، ح ١٣٦٦) من حديث جابر ﷺ قال البيهقى معقباً: هذا الحديث بهذا الإسناد منكر.

كما أخرجه البيهقى فى الموضع نفسه (ح ١٣٦٧) والديلمى (الفردوس ح ١٤٦٣)، وعزاه فى الكنز (ح ٣٩٢٨٣) للبزار، من حديث أنس بن مالك. وقال العراقى فى المغنى (٣/ ٢٠): أخرجه البزار، من حديث أنس وضعّفه، وصححه القرطبى فى التذكرة، وليس كذلك، فقد قال ابن عدى: إنه منكر. راجع الكامل لابن عدى (٣/ ١١٦٠) والعلل المتناهية (٢/ ٩٣٤).

قلت: قال فى النهاية فى غريب الحديث (١/ ١٥٥): «البلْه» هو جمع الأبله. وهو الغافل عن الشر، المطبوع على الخير، وقيل: هم الذين غلبت عليهم سلامة الصدور وحسن الظن بالناس؛ لأنهم أغفلوا أمر دنياهم، فجهلوا حذْق التصرف فيها، وأقبلوا على آخرتهم، فشغلوا أنفسهم بها، فاستحقوا أن يكونوا أكثر أهل الجنة. فأما الأبله، وهو الذى لاعقل لهَ، فغير مراد فى الحديث.

وقوله: ﴿وامتازوا اليوم﴾ إشارة إلى أن غيبة الرقيب من أتم النعمة، وإبعادَ العدوِّ من أجلِّ العوارف، فالأولياءُ فى إيجاب القربة، والأعداء فى العذاب والحجبة. انظر القشيرى.

ثم ذكر توبيخ أعدائه يوم القيامة، فقال:

﴿ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾
وَأَنِ ٱعْبُدُونِى هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا۟
تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾
ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله، فى توبيخ الكفرة يوم القيامة: ﴿ألمْ أعهدْ إليكم يابني آدمَ ألا تعبدوا الشيطانَ إنه لكم عدو مبين﴾، يقال: عهِد إليه: إذا وصّاه. وهذا العهد إما على ألسنة الرسل، أو: يوم: «ألست بربكم»، أو: ما نصبه لهم من الحُجج العقلية، والدلائل السمعية، الآمرة بعبادته، الزاجرة عن عبادة غيره. وعبادة الشيطان: طاعته فيما يُوسوس به إليهم، ويُزيِّنه لهم. ﴿وأن اعبدونى﴾: عطف على «ألاّ تعبدوا»، أى: عهدنا إليكم ألاّ تُطيعوا الشيطان ووحّدونى، وأطيعونى، ﴿هذا صراطٌ مستقيم﴾ إشارة إلى ما عهد إليهم فيه من معصية الشيطان، وطاعة الرحمن، أى: هذا طريق بليغ فى الاستقامة، لا طريق أقوم منه. وفيه إشارة إلى جنايتهم على أنفسهم بعد النصح التام، فلا حجة بعد الإعذار، ولا ظلم بعد التذكير والإنذار.

﴿ولقد أَضلَّ منكم جِبِلاًّ﴾ أى: خلقاً ﴿كثيراً﴾ - وفيه لغات مذكورة فى كتب القراءات - أى: ولقد أتلف الشيطان عن طريقى المستقيم خلقاً كثيراً، بأن أشركوا معى غيرى، ﴿أفلم تكونوا تعقلون﴾، قرّعهم على تركهم الانتفاع بالعقل، الذى ركّبه فيهم، حيث استعملوه فيما يضرهم، من تدبير حظوظهم وهواهم. ﴿هذه جهنم التي كنتم تُوعدون﴾ بها، ﴿اصلَوْها اليومَ بما كنتم تكفرون﴾ أى: ادخلوا واحترقوا فيها، بكفركم وإنكاركم لها.

﴿اليوم نَختِمُ على أفواهِهم﴾ أى: نمنعهم من الكلام، ﴿وتُكلِّمُنا أيديهم وتشهدُ أرجلُهم بما كانوا يكسِبُون﴾. يُروى: أنهم يجحدون، ويُخاصمون، فتشهد عليهم جيرانهم، وأهاليهم، وعشائرهم، فيحلفون: ماكانوا

مشركين، فحينئذ يُختم على أفواههم، وتتكلم أيديهم وأرجلهم. وفي الحديث: «يقول العبد يوم القيامة: إنى لا أُجيزُ علىّ إلا شاهداً من نفسى، فيُختم على فيه، ويُقال لأركانه: انطِقى، فتنطِقُ بأعماله، ثم يُخلّى بينه وبين الكلام، فيقول: بُعداً لكُنّ، وسُحقاً، فعنكُنّ كنت أُناضِل»(١).

الإشارة: كل من آثر حظوظه ومُناه، ولم يقدر على مجاهدة هواه، حتى مات محجوباً عن الله، يلحقه شيء من هذا التقريع. والصراط المستقيم: هو طريق التربية، التى توصل إلى الحضرة، التى قام ببيانها الأولياء العارفون بالله. ولقد أضلّ الشيطانُ عنها خلقاً كثيراً، حملهم على طلب الدنيا والرئاسة والجاه، فلم يقدروا على التفرغ لذكر الله، ولم يحطوا رؤوسهم لمن يُعَرِّفهم بالله، فيُقال لهم: هذه نار القطيعة التى كنتم تُوعدون، إن بقيتم مع حظوظهم ورئاستكم، اصلوها اليوم بكفركم بطريق التربية، اليوم نختم على أفواههم، فلا مناجاة بينهم وبين حبيبهم، وتكلمنا أيديهم، وتشهد أرجلهم - بلسان الحال أو المقال - بما كانوا يكسبون من التقصير.

قال القشيرى: قوله: ﴿ وتُكلمنا أيديهم.... ﴾ الخ، فأمّا الكفار فشهادةُ أعضائهم عليهم مؤبدة، وأما العُصاةَ من المؤمنين فقد تشهد عليهم أعضاؤهم بالعصيان، ولكن تشهد عليهم بعض أعضائهم بالإحسان، وأنشدوا:

بينى وبينك يا ظلومُ الموقِفُ والحاكمُ العدلُ، الجوادُ المُنْصِفُ.

وفى بعض الأخبار المروية: أن عبْداً شهدت أعضاؤه عليه بالزّلّة، فتطير شَعرة من جفن عينه، فتشهد له بالشهادة. فيقول الحق تعالى: ياشعرة جفْنِ عبدى احتَجِّى عن عبدى، فتشهد له بالبكاء من خوفه، فيغفر له، وينادى منادٍ: هذا عتيقُ الله بشَعْرَة.هـ.

ثم هددهم فى دار الدنيا، فقال:

﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾

(١) أخرجه مسلم فى (الزهد، ٤/ ٢٢٨٠، ح ٢٩٦٩) من حديث سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ولو نشاءُ لطمَسْنَا على أعيُنِهِم﴾ اليوم، أى: أعميناهم وأذهبنا أبصارهم. والطمس: سد شق العين حتى تعود ممسوحة. ﴿فاستَبَقُوا الصِّراطَ﴾، على حذف الجار، وإيصال الفعل، أى: فاستبقوا إلى الطريق الذى اعتادوا سلوكه، وبادَروا إليه؛ لِما يلحقهم من الخوف، ﴿فأنَّى يُبصرون﴾؛ فكيف يُبصرون حينئذ من جهة سلوكهم، فيضلون فى طريقهم عن بلوغ أملهم.

﴿ولو نشاء لَمَسَخْنَاهم﴾ قردة، وخنازير، أو حجارة، ﴿على مكانتهم﴾: على منازلهم، وفى ديارهم، حيث يأمنون من المكاره. والمكانة والمكان واحد، كالمقامة والمقام. ﴿فما استطاعوا مُضيّاً ولا يرجِعُون﴾؛ فلم يقدروا على ذهاب ومَجىء، أو: مُضِياً أمامهم، ولا يرجعون خلفهم. والمعنى: أنهم لكفرهم ونقضهم ما عهد إليهم أحقاء بأن نفعل بهم ذلك، لكنا لم نفعل؛ لشمول الرحمة لهم، واقتضاء الحكمة إمهالهم.

﴿ومن نُعَمِّرْهُ﴾؛ نُطِل عمره ﴿نُنَكِّسْهُ(١) فى الخلق﴾؛ نقلبه فيه. وقرأ عاصم وحمزة بالتشديد. والنكس والتنكيس: جعل الشىء أعلاه أسفله. والمعنى: من أطلنا عمره نكسنا خلقه، وهو نوع من المسخ، فصار بدل القوة ضعفاً، وبدل الشباب هرماً، وذلك أنا خلقناه على ضعف فى جسده، وخلو من عقل وعلم، ثم جعلناه يتزايدُ إلى أن يبلغ أشده، ويستكمل قوته، ويعْقل، ويعلم ما له وعليه، فإذا انتهى نكسناه فى الخلق، فجعلناه يتناقصُ حتى يرجع إلى حال شبيهة بحال الصبىّ، فى ضعف جسده، وقلّة عقله، وخلوّه من العلم، كما ينكس السهم، فيجعل أعلاه أسفله. قال تعالى: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾(٢). قال ابن عباس: «من قرأ القرآن - أى وعمل به - لم يرد إلى أرذل العمر». ﴿أفلا يعقلون﴾ أنّ مَن قدر أن ينقلهم من الشباب إلى الهرم، ومن القوة إلى الضعف، ومن رجاحة العقل إلى الخرف وقلة التمييز، قادرٌ على أن يطمسَ على أعينهم، ويمسخهم على مكانتهم، ويبعثهم بعد الموت.

الإشارة: ولو نشاء لطمسنا على أعينهم، فلا يهتدون إلى طريق السلوك، ولا يسلكونها، فيبقوا فى الحجاب على الدوام. ولو نشاء لمسخنا قلوبهم على مكانتهم، من رجاحة العقل والفهم، فلا يتدبرون إلا فى الأمور الحسية،

---

(١) قرأ عاصم وحمزة «ننكسه» بضم الأول، وفتح الثانى، وتشديد الثالث وكسره، مضارع: (نكّس)، للتكثير، وقرأ الباقون بفتح الأول، وإسكان الثانى، وضم الثالث، وتخفيفه. مضارع «نَكَسَه» كنصره. انظر الإتحاف (٢٠/٤٠٤).

(٢) الآية ٧٠ من سورة النحل.

فلا يستطيعون مُضياً فى بلاد المعانى، ولا رجوعاً عن الحسيات. ومن نُعمِّره من هؤلاء نُنكّسْهُ فى الخلق، فيلحقه الخرف والضعف، وأما من اهتدى إلى طريق السير، وسلك بلاد المعانى، فلا يزيده طول العمر إلا رجاحةً فى العقل، وقوةً فى العلم، وتمكيناً فى المعانى والمعرفة.

قال القشيرى: ومن نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْه فى الخلق: نرده إلى العكس، فكما كان يزداد فى القوة، يأخذ فى النقصان، إلى أن يبلغ أرذلَ العُمر، فيصير إلى مثل حال الطفولية من الضعف، ثم لا يبقى بعد النقصان شيء، كما أنشدوا:

طوى العصران ما نشراه منى ... فأبلى جدتى نَشْرٌ وطى

أرانى كلَّ يومٍ فى انتقاصٍ ... ولا يبقى مع النقصان شىُ(١)

وهذا فى الجثة والمبانى، دون الأحوال والمعانى، فإن الأحوال ـ فى حق الجثة ـ فى الزيادة إلى بلوغ حَدِ الخَرَفِ، فيَخْتَلُّ رأيهُ وعقْلُه. وأصحاب الحقائق تشيب ذوائبُهم، ولكنْ مَحابُّهم ومعانيهم فى عنفوان شبابها، وطراوة جدّتها. هـ.

ثم أنكر على من رمى القرآن بكونه شعراً، فقال:

﴿ وَمَا عَلَّمْنَـٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وما علَّمناه الشِّعْرَ ﴾ أى: وما علّمنا نبينا محمداً الشعر، حتى يقدر أن يقول شعراً، فيُتهم على القرآن، أو: وما علّمناه بتعلم القرآن الشعر، على معنى: أن القرآن ليس بشعر، فإنه غير مقفّى ولا موزون، وليس معناه ما يتوقاه الشعراء من التخييلات المرغبة والمنفرة ونحوها. فأين الوزن فيه؟ وأين التقفية؟ فلا مناسبة بينه وبين كلام الشعراء، ﴿ وما ينبغى له ﴾ أى: وما يليق بحاله، ولا يتأتى له لو طلبه، أى: جعلناه بحيث لو أراد قَرْضَ الشعر لم يتأتَ له، ولم يسهل، كما جعلناه أُمّياً لم يهتد إلى الخط؛ لتكون الحجة أثبت، والشبهة أدحض.

(١) نُسب البيتان إلى محمد بن يعقوب بن إسماعيل، كما فى كتاب الوافى بالوفيات (٢٢٢/٥). ونسبا إلى أبى بكر بن أبى الدنيا، كما فى تاريخ بغداد (٣١١/١٤).

وأما قوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «أَنَا النَّبِيُّ لاَ كَذِبْ، أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبْ»(١)، وقوله: «هَلْ أَنْتِ إِلاَّ إِصبعٌ دَمِيتِ، وفِي سَبِيلِ الله ما لَقِيتِ»(٢)، فهو مما اتفق وزنه من غير قصد، كما يتفق فى خطاب الناس ورسائلهم ومحاوراتهم، ولا يسمى شعراً إلا ما قصد وزنه.

ولَمّا نفى القرآن أن يكون من جنس الشعر، قال: ﴿ إن هو إلا ذِكْرٌ ﴾ أى: ما الذى يُعلِّم ويقوله إلا ذكر من الله، يُوعظ به الإنس والجن، ﴿ وقرآنٌ ﴾ أى: كتاب سماوى، يُقرأ فى المحاريب، ويُتلى فى المتعبّدات، ويُنال بتلاوته والعملِ به أعلا الدرجات. فكم بينه وبين الشعر، الذى هو من همزات الشيطان؟!.

أنزلناه إليك ﴿ لتُنذر به ﴾(٣) يامحمد، أو: لينذر القرآن ﴿ من كان حَيّاً ﴾ بالإيمان، أو عاقلاً متأملاً؛ فإن الغافل كالميت، أو: من سبق فى علم الله أنه يحيي؛ فإن الحياة الأبدية بالإيمان، وتخصيص الإنذار به؛ لأنه المنتفع به، ﴿ ويَحِقَّ القولُ ﴾ أى: تجب كلمة العذاب ﴿ على الكافرين ﴾ المُصرِّين على الكفر، وجعلهم فى مقابلة من كان حياً إشعار بأنهم بكفرهم فى حكم الأموات، كقوله: ﴿ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ﴾(٤).

الإشارة: أما النبى ـ عليه الصلاة والسلام ـ فنفى الله عنه صنعة الشِّعر، والقوة عليه، لئلا يُتهم فيما يقوله، وأما الأولياء فكثير منهم تكون له القوة عليه، ويصرف ذلك فى أمداح الخمرة الأزلية، والحضرة القدسية، أو فى الحضرة النبوية، وينالون بذلك تقريباً، ورتبة كبيرة، وأما قوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «لأنْ يمتلئ جوفُ أحدِكم قَيْحاً يَرِيهُ خيرٌ من أنْ يمتلئ شعرًا»(٥) فالمراد به شعر الهوى، الذى يشغل عن ذكر الله، أو يصرف القلب عن حضرة الله. قيل لعائشة ـ رضى الله عنها ـ أكان رسول الله ﷺ يتمثل بشيء من الشعر؟ فقالت: لم يتمثل بشيء من الشعر إلا بيت طرفة، أخى بنى قيس:

سَتُبْدِي لَكَ الأَيَّامُ ما كُنتَ جاهلاً … وَيَأتِيكَ بالأَخْبَارِ مَنْ لَمْ تُزَوِّدْ

وربما عكسه فقال: «ويأتيك من لم تزود بالأخبار»(٦). وبالله التوفيق.

---

(١) أخرجه البخارى فى (الجهاد، باب من قاد دابة غيره فى الحرب، ح ٢٨٦٤) ومسلم فى (الجهاد، باب فى غزوة حنين، ٣/١٤٠٠، ح ١٧٧٦) من حديث البراء بن عازب.

(٢) أخرجه البخارى فى (الجهاد، باب من ينكب فى سبيل الله، ح ٢٨٠٢) وفى (الأدب، باب ما يجوز من الشعر والرجز) ومسلم فى (الجهاد، باب لقى النبى ﷺ من أذى المشركين والمنافقين، ٣/١٤٢١، ح ١٧٩٦) من حديث جندب بن سفيان.

(٣) قرأ نافع، وابن عامر، وأبو جعفر، ويعقوب «لتنذر» بالخطاب. وقرأ الباقون «لينذر» بالغيب. انظر الإتحاف (٢/٤٠٤).

(٤) من الآية ٢٢ من سورة فاطر.

(٥) أخرجه البخارى فى (الأدب، باب ما يكره أن يكون الغالب على الإنسان الشعر حتى يصدّه عن ذكر الله، ح ٦١٥٥) ومسلم فى (كتاب الشعر، ٤/١٧٦٩ ح ٢٢٥٧).

(٦) أخرجه بنحوه، وبدون ذكر بيت الشعر، الطبرى فى تفسيره (٢٣/٢٧) وعزاه السيوطى فى الدر (٥/٥٠٥) لعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبى حاتم. وانظر: تفسير البغوى (٧/٢٧) وتفسير ابن كثير (٣/٥٧٩).

ثم ذكّرهم بالنعم، علهم ينقادوا بملاطفة الإحسان فقال:

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ أولَم يَرَوا ﴾ أى: أعموا ولم يعلموا ﴿ أنَّا خلقْنا لهم مما عَمِلَتْ أيدينا ﴾ أى: أظهرته قدرتنا، ولم يقدر على إحداثه غيرُنا. وذكرُ الأيدى، وإسناد العمل إليها، استعارة، تُفيد مبالغة فى الاختصاص والتفرد بالإيجاد، ﴿ أنعاماً ﴾، خصّها بالذكر؛ لِماَ فيها من بدائع الحكمة والمنافع الجمة. ﴿ فهم لها مالكون ﴾ أى: خلقناها لأجلهم، فملكناها إياهم، فهم يتصرفون فيها تصرّف المالك، مختصُّون بالانتفاع بها. أو: فهم لها حافظون قاهرون.

﴿ وذلّلناها لهم ﴾؛ وصيّرناها منقادة لهم. وإلاّ فمن كان يقدر عليها لولا تذليلُه وتسخيرُه لها. وبهذا أمر الراكب أن يشكر هذه النعمة، ويسبح بقوله: ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴾(١) ﴿ فمنها رَكوبهم ﴾ أى: مركوبهم، وهو ما يُركب منها، وقرئ بضم الراء، أى: ذو ركوبهم. أو: فمن منافعها ركوبهم. ﴿ ومنها يأكلون ﴾؛ ما يأكلون لحمه، أى: سخرناها لهم ليركبوا ظهرها ويأكلوا لحمها. ﴿ ولهم فيها منافعُ ﴾ من الجلود، والأوبار، والأصواف، وغير ذلك، ﴿ ومشَارِبُ ﴾ من اللبن، على تلونه من المضروب وغيره، وهو جمع: مشرب، بمعنى: موضع الشرب. أو: المصدر، أى: الشرب. ﴿ أفلا يشكرون ﴾ نِعَمَ الله فى ذلك؟ إذ لولا إيجاده إيها لها ماأمكن الانتفاع بها.

الإشارة: قوم نظروا إلى ما منّ الله إليهم من المبرة والإكرام، فانقادوا إليه بملاطفة الإحسان، فعرفوا المنعِّم، وشكروا الواحد المنان، فسخّر لهم الكون وما فيه، وقوم لم ينجع فيهم سوابغ النعم، فسلّط عليهم المصائب والنقم، فانقادوا إليه قهراً بسلاسل الامتحان، «عَجِبَ ربك من قوم يُساقون إلى الجنة بالسلاسل»(٢)، وكل هؤلاء سبقت لهم

(١) الآية ١٣ من سورة الزخرف.
(٢) لفظ حديث، أخرجه البخارى فى (الجهاد، باب الأسارى فى السلاسل، ح ٣٠١٠) من حديث سيدنا أبى هريرة رضي الله عنه.

من الله العناية. وقوم لم ينجح فيهم نِعَمٌ ولا نِقَم، قد سبق لهم الخذلان، فأصروا على العصيان، ولم يشكروا الله على ما أسدى من سوابغ الإحسان، وإلى هؤلاء توجه الخطاب بقوله:

﴿ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ واتخذوا من دون الله آلهةً ﴾، أشركوها معه في العبادة، بعد ما رأوا منه تلك القدرة الباهرة، والنعم المتظاهرة، وتحققوا أنه المنفرد بها، فعبدوا الأصنام، ﴿ لعلهم يُنصَرُون ﴾ بها إذا حزبهم أمرٌ. والأمر بالعكس، ﴿ لا يستطيعون نَصْرَهم ﴾ أبداً، ﴿ وهم لهم ﴾ أي: الكفار للأصنام ﴿ جُندٌ ﴾ أي: أعوان وشيعة ﴿ مُحْضَرُونَ ﴾ يخدمونهم، ويذبّون عنهم، ويعكفون على عبادتهم. أو: اتخذوهم لينصروهم عند الله، ويشفعوا لهم، والأمر على خلاف ما توهموا، فهم يوم القيامة جند معدّون لهم، محضرون لعذابهم؛ لأنهم يجعلون وقوداً للنار، التي يحترقون بها.

ثم سلّى نبيه مما يسمع بقوله: ﴿ فلا يَحْزُنك قولُهم ﴾، فلا يُهمنَّك تكذيبهم، وأذاهم، وما تسمع منهم من الإشراك والإلحاد. ﴿ إنا نعلم ما يُسِرُّون ﴾ من عداوتهم وكفرهم، ﴿ وما يُعلِنُون ﴾، فيجازيهم عليه، فحقّ مثلك أن يتسلّى بهذا الوعيد، ويستحضر في نفسه صورة حاله وحالهم في الآخرة، حتى ينقشع عنهم الهمّ، ولا يرهقه حزن. وهو تعليل للنهي على طريق الاستئناف، ولذلك لو قُرئ «أنا» بالفتح، على حذف لام التعليل، لجاز، خلافاً لمن أنكره وأبطل صلاة من قرأ به. انظر النسفي.

الإشارة: كل من ركن إلى شيء دون الله، فهو في حقه صنم، كائناً ما كان، علماً، أو عملاً، أو حالاً، أو غير ذلك. ولذلك قال القطب ابن مشيش لأبي حسن الشاذلي ـ رضي الله عنهما ـ لمَا قال: بِمَ تلقى الله يا أبا الحسن؟ فقال له: بفقري، قال: إذاً تلقاه بالصنم الأعظم، أي: وإنما يلقى الله بالله، ويغيب عما سواه. وقوله تعالى: ﴿ فلا يحزنك قولهم ﴾ فيه تسلية لمن أُوذي في جانب الله. قال القشيري: إذا علِمَ العبدُ أنه بمرأىً من الحق، هان عليه ما يقاسيه، لا سيما إذا كان في الله هـ.

ثم أبطل دعوى من أنكر البعث، وهو من جملة قولهم، الذى أمر نبيه بالتسلى عنه، فقال:

﴿ أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الإنسانُ أنَّا خلقناه من نُطفة﴾ مذِرة، خارجة من الإحليل، الذى هو قناة النجاسة، ﴿فإذا هو خَصِيم مبين﴾؛ بيّن الخصومة، أى: فهو على مهانة أصله، ودناءة أوله، يتصدّى لمخاصمة ربه، ويُنكر قدرته على إحياء الميت بعد مارمّت عظامه. وهى تسلية ثانية له ﷺ، وتهوين ما يقولونه فى جانب الحشر، وهو توبيخ بليغ؛ حيث عجّب منه، وجعله إفراطاً فى الخصومة بيّناً فيها.

رُوى أن أُبيّ بن خلف أتى النبى ﷺ بعظم بالٍ، ففتّه بيده، وقال: يامحمد؛ أتُرى الله يحيى هذا بعد ما رمّ؟ فقال ﷺ: «نعم ويبعثك ويدخلك جهنم»(١) فنزلت الآية.

﴿وضَرَبَ لنا مثلاً﴾، أمراً عجيباً، بأن جعلنا مثل الخلق العاجزين، فنعجز عما عجزوا عنه؛ من إحياء الموتى، ﴿ونَسِيَ خَلْقَه﴾ من المنيّ المهين، فهو أغرب من إحياء العظم الرميم. و«خلقه»: مصدر مضاف للمفعول، أى: خلقنا إياه، ﴿قال من يُحيي العظامَ وهي رَمِيمٌ﴾؛ بالٍ مفتت، وهو اسم لما بَلِيَ من العظام، لا صفة، ولذلك لم يؤنّث. وقد وقع خبراً لمؤنث، وقيل: صفة بمعنى مفعول، من: رممته، فيكون كقتيل وجريح. وفيه

(١) أخرجه الطبرى (٢٣/٣٠) والواحدى فى أسباب النزول (ص ٣٧٩) عن قتادة. وعزاه السيوطى فى الدر (٥/٥٠٨) لسعيد بن منصور، وابن المنذر، والبيهقى فى البعث، عن أبى مالك. وأخرج الحاكم (٢/٤٢٩) وصححه ووافقه الذهبى عن ابن عباس: أن الآية نزلت فى العاص بن وائل. والآية عامة، والألف واللام فى قوله تعالى: ﴿أولم ير الإنسان﴾ للجنس، يعم كل منكر للبعث.

دليل على أن العظم تحله الحياة، فإذا مات صار نجساً، وهو مذهب مالك والشافعي، وقال أبو حنيفة: لا تحلّه الحياة، فهو طاهر كالشعر والعصب.

﴿ قل يُحْييها الذي أنشأها ﴾ ؛ خلقها ﴿ أولَ مرة ﴾ أي: ابتداء، ﴿ وهو بكل خَلْقٍ ﴾ ؛ مخلوق ﴿ عليمٌ ﴾ لا يخفى عليه أجزاؤه، وإن تفرقت في البر أو البحر، فيجمعه، ويُعيده كما كان.

ثم ذكر برهان إحيائه الموتى بقوله: ﴿ الذي جعل لكم من الشَّجَرِ الأخضر ﴾ ، كالمَرْخ والعفَار، ﴿ ناراً، فإذا أنتم منه تُوقِدُون ﴾ ؛ تقدحون، ولا تشكون أنها نار خرجت منه، فمن قدر على إحداث النار من الشجر الأخضر، مع ما فيه من المائية، المضادة للنار، كان أقدر على إيجاد الحياة والغضاضة فيما غضا وييس، وهي الزناد عند العرب، وأكثرها من المَرْخ والعفَـار، وفي أمثالهم: «في كلّ شجر نار، واستمجد المرخُ والعفار، أي: استكثر في هذين الصنفين. وكان الرجل يقطع منهما غصنين مثل السواكين، وهما خضراوان، يقطر منهما الماء، فيسحق المرخ ـ وهو ذكر ـ على العفار ـ وهي أنثى، فينقدح النار بإذن الله تعالى. وعن ابن عباس رضي الله عنه: ليس من الشجر شجرة إلا وفيها نار، إلا العناب؛ لمصلحة الدقّ للثياب.

والمرخُ ـ ككتف: شجر سريع الورى. قاله في الصحاح، وهو المسمى عندنا بالكُلخ. وفي القاموس: عفَار كسحاب: شجر يتخذ منه الزناد. قال ابن عطية: النار موجودة في كل عود، غير أنها في المتحلحَل، المفتوح المسام، أوجد، وكذلك هو المَرْخ والعفَار. هـ.

﴿ أوَليس الذي خلق السماواتِ والأرضَ ﴾ مع كبر جرمهما، وعظم شأنهما ﴿ بقادرٍ على أن يَخْلُقَ مِثْلَهم ﴾ ؛ مثل أجسامهم في الصِّغر والحقارة، بالإضافة إلى السموات والأرض، أو: أن يعيدهم مثل ما كانوا عليه في الذات والصفات؛ لأن المعاد مثل المبْدأ، بل أسهل، ﴿ بلى ﴾ أي: قُل: بلَى هو قادر على ذلك، ﴿ وهو الخلاّقُ ﴾ ؛ كثير الخلق والاختراع، ﴿ العليمُ ﴾ بأحوال خلقه، أو: كثير المخلوقات والمعلومات.

﴿ إنما أمْرُهُ ﴾ ؛ شأنه ﴿ إذا أراد شيئاً ﴾ يكونه ﴿ أن يقولَ له كُن فيكون ﴾ فيحدث، أي: فهو كائن موجود، لا محالة. وهو تمثيل لتأثير قدرته في الأشياء، بأمر المطاع للمطيع في حصول المأمور، من غير امتناع وتوقف، من غير أن يحتاج إلى كاف ولا نون، وإنما هو بيان لسرعة الإيجاد، كأنه يقول: كما لا يثقل عليكم قول «كن»، فكذلك لا يصعب على الله إنشاؤكم وإعادتكم. قال الكواشي: ثم أومأ إلى كيفية خلقه الأشياء المختلفة في الزمان المتحد، وذلك ممتنع على غيره، فقال: ﴿ إنما أمره . . . ﴾ الآية، فيحدث من غير توقف، فمن رفع «فيكونُ»،

فلأنه جملة من مبتدأ وخبر، أي: فهو يكون. ومن نصب فللعطف على «يقول». والمعنى: أنه ليس ممن يلحقه نصب ولا مشقة، ولا يتعاظمه أمر، بل إيجاد المعدومات، وإعدام الموجودات، عليه أسرع من لمح البصر هـ.

﴿ فسبحان ﴾؛ تنزيهاً له مما وصفه به المشركون، وتعجيب مما قالوا، ﴿ الذي بيده ملكوتُ ﴾ أي: ملك ﴿ كُلِّ شيءٍ ﴾ والتصرف فيه على الإطلاق. وزيادة الواو والتاء؛ للمبالغة، أي: مالك كلّ شيء، ﴿ وإليه تُرجَعُون ﴾ بالبعث للجزاء والحساب.

الإشارة: أوَلَمْ يرِ الإنسانُ أنَّا خلقناه من نطفة مهينة، فإذا هو خصيم لنا في تدبيرنا واختيارنا، ويُنازعنا في مُرادنا من خلقنا، ومرادنا منهم: ما هم عليه. فاستحي أيها الإنسان أن تُخاصم الله في حكمه، أو تنازعه في تقديره وتدبيره، وسلِّم الأمور لمن بيده الخلق والأمر. بكى بعضُ الصالحين أربعين سنة على ذنب أذنبه. قيل له: وما هو؟ قال: (قلت لشيء كان: ليته لم يكن). فارْضَ بما يختاره الحق لك، جلالياً كان أو جمالياً ولا تختر من أمرك شيئاً، والله يعلم وأنتم لا تعلمون. وكل من اهتم بأمر نفسه، واشتغل بتدبير شئونها، فقد ضرب لله مثلاً، بأن أشرك نفسه معه، ونَسِي خلقه، ولو فكر في ضعف أصله، وحاله، لاستحيا أن يُدبِّر لنفسه مع ربه، وفي الإشارات عن الله تعالى: أيها العبد لو أذِنْتُ لك أن تدبر لنفسك لكنت تستحيي مني أن تدبر لها، فكيف وقد نهيتك عن التدبير!.

وكما قَدَرَ على إحياء العظام الرميمة، يَقْدِر على إحياء القلوب الميتة، ومن قَدَرَ على استخراج النار من محل الماء، يقدر على استخراج العلم من الجهل، واليقظة من الغفلة، ومن كان أمره بين الكاف والنون، بل أسرع من لحظ العيون، ينبغي أن يُرجع إليه في جميع الشئون. قال القشيري: فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء، فلا يحدث شيء - قلّ أو كثر - إلا بإبداعه وإنشائه، ولا يبقى منها شيء إلا بإبقائه، فمنه ظهر ما يحدث، وإليه يصير ما يخلق.هـ.

قال النسفي: قال ﷺ: «من قرأ يس يريد بها وجه الله غفر الله له، وأُعطي من الأجر كمن قرأ القرآن اثنتين وعشرين مرة» وبالله التوفيق، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد، وآله وصحبه، وسلم.

❁ ❁ ❁

سورة الصافات

مكية. وهى مائة وإحدى، أوا ثنتان، وثمانون آية. ومناسبتها لِمَا قبلها: أنها رد على المشركين فى عبادة الأصنام، وانكارهم البعث، المختتم بهما السورة قبلها، فقال فى صدر هذه: ﴿إن إلهاكم لواحد﴾، ثم قال: ﴿وَقَالُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ أَئِذَا مِتْنَا ...﴾[1] الخ. قال تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَٱلصَّـٰٓفَّـٰتِ صَفًّا ﴿١﴾ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا ﴿٢﴾ فَٱلتَّـٰلِيَـٰتِ ذِكْرًا ﴿٣﴾ إِنَّ إِلَـٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ﴿٤﴾
رَّبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَـٰرِقِ ﴿٥﴾ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ
﴿٦﴾ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾
دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿والصافاتِ صفاً، فالزاجراتِ زجراً، فالتاليات ذكراً﴾، أقسم بطوائف الملائكة، الصافين أقدامهم فى مراتب العبادة، كل على ما أمر به، فالزجرات السحاب سوقاً إلى ما أراد الله، أو: عن المعاصى بإلهام الخير. أو: الشياطين عن التعرض لهم. (فالتاليات ذكراً) لكلام الله تعالى من الكتب المنزلة وغيرها، قاله ابن عباس وابن مسعود وغيرهما. وفيه رد على ابن الصلاح، حيث قال فى فتاويه: إن الملائكة لا تقرأ القرآن، وإنما قراءته كرامة أكرم الله بها البشر. قال: فقد ورد أن الملائكة لم تُعط ذلك، فهى حريصة لذلك على استماعه من الإنس، كما نقله عنه فى الإتقان، فانظره.

أو: بنفوس العلماء والعمال، الصافات أقدامها فى التهجد وسائر الصلوات، فالزاجرات بالمواعظ والنصائح، فالتاليات آيات الله، والدراسات شرائعه. أو: بنفوس الغزاة فى سبيل الله، التى تصف الصفوف، وتزجر الخيل للجهاد، وتتلو الذكر مع ذلك، لا يشغلهم عنه مبارزة العدو. و (صفاً): مصدر مؤكد، وكذلك (زجراً)، والفاء تدلُّ على الترتيب، فتفيد فضل المتقدم على المتأخر، فتفيد الفضل للصف، ثم للزجر، ثم للتلاوة، أو بالعكس.

---

(١) الآية ١٥ من سورة الصافات.

وجواب القسم: ﴿إنَّ إلهاكم لواحدٌ﴾ لا شريك معه يستحق أن يُعبد، ﴿ربُّ السموات والأرضِ﴾، وهو خبر بعد خبر، أو: خبر عن مضمر، أي: هو ﴿ربُّ السموات والأرض وما بينهما وربُّ المشارق﴾ أي: مطالع الشمس، وهي ثلاث مائة وستون مشرقًا، وكذلك المغارب. تُشرق الشمس كلَّ يوم في مشرق منها، وتغرب في مغرب، ولاتطلع ولا تغرب في واحد يومين. وأما: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾(١) فإنه أريد مشرقي الصيف والشتاء ومغربيهما. وأما: ﴿رَّبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾(٢) فإنه أريد به الجهة، فالمشرق جهة، والمغرب جهة. قال الكواشي: لم يذكر المغارب؛ لأن المشارق تدل عليها.

﴿إنا زيَّنا السماءَ الدنيا﴾؛ القُربى منكم، تأنيث الأدنى، ﴿بزينة الكواكب﴾ بالإضافة، أي: بأن زينتُها الكواكب ومن قرأ بالتنوين والخفض(٣) فبدل، أي: هي الكواكب، ومن قرأ بالنصب فعلى إضمار «أعني»، أو: بدل من محل «بزينة»، أي: زيَّنا الكواكب، أو: على إعمال المصدر منونًا في المفعول، أي: بتزين الكواكب. قال البيضاوي: وركوز الثوابت في الكُرة الثامنة، وما عدا القمر من السيارات في الست المتوسطة بينهما وبين سماء الدنيا إن تحقق لم يقدح في ذلك، فإن أهل الأرض يرونها بأسرها كجواهر مشرقة، متلألئة على سطحها الأزرق. هـ.

﴿وحِفظًا﴾ من الشياطين، كما قال: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ﴾(٤) أو: بإضمار فعله، أي: حفظناها حفظًا ﴿من كل شيطانٍ ماردٍ﴾؛ خارج عن الطاعة، فيُرمى بالشهب. ﴿لا يسَّمَّعون(٥) إلى الملأ الأعلى﴾: استئناف؛ لبيان حالهم، بعد بيان حفظ السماء منهم، ولا يجوز وصفه لكل شيطان؛ لأنه يقتضي أن يكون الحفظ من شياطين لا يسمعون. والضمير لكلٍّ باعتبار المعنى؛ لأنه في معنى شياطين، وتعدية (يسمعون) بإلى لتضمنه معنى الإصغاء؛ مبالغة في نفيه، وتهويلاً لما يمنعهم عنه. ومن قرأ بالتشديد فأصله: «يتسمَّعون» فأدغم. والتسمّع: طلب السماع. يقال: تسمّع فسمع أو لم يسمع إذا منعه مانع. والملأ الأعلى هم: الملائكة؛ لأنهم في السموات العُلى، والإنس والجن هم الملأ الأسفل؛ لأنهم سكان الأرض، ﴿ويُقذَفون﴾؛ يُرمون بالشُهب، ﴿مِن كل جانبٍ﴾؛ من جميع جوانب السماء، من أيّ جهة صعدوا للاستراق.

---

(١) الآية ١٧ من سورة الرحمن.
(٢) الآية ٩ من سورة المزمل.
(٣) قرأ حفص، وحمزة، بتنوين (زينة)وجر (الكواكب). وقرأ أبو بكر بتنوين (زينة) ونصب (الكواكب). والباقون بحذف التنوين، على إضافة «زينة» للكواكب. انظر الإتحاف (٢/٤٠٨).
(٤) الآية ٥ من سورة الملك.
(٥) قرأ حفص، وحمزة، والكسائي، بتشديد السين والميم، والأصل «يتسمعون» فأدغمت التاء. وقرأ الباقون بالتخفيف. انظر الإتحاف (٢/٤٠٨).

﴿ دُحُورًا ﴾؛ مفعول له، أى: ويُقذفون للدحور، وهو الطرد، أو: مدحورين، على الحال، أو: لأن القذف والطرد متقاربان فى المعنى، فيكون مصدراً له، فكأنه قيل: ويُقذفون قذفاً، ﴿ ولهم عذابٌ ﴾ آخر ﴿ واصبٌ ﴾؛ دائم، أو: شديد، وهو عذاب الآخرة، أو: عذاب الدنيا؛ لأنه دائم الوجوب؛ لأنهم فى الدنيا مرجمون بالشهب دائماً، ﴿ إلا مَنْ خطِفَ الخَطْفَةَ ﴾، «منْ»: بدل من ضمير «يسمعون»، أى: لا يتسمع الشياطين إلا الشيطان الذى خَطِفَ الخطفةَ، أى: اختلس شيئاً من كلام الملائكة بسرعة، ﴿ فأَتْبَعه شِهَابٌ ثاقبٌ ﴾ أى: نجم مضىء يثقبه، أو يحرقه، أو يخبله، ومنه تكون الغيلان. والله تعالى أعلم.

الإشارة: أقسم الحق تعالى بصفوف الذاكرين، الزاجرين للخواطر عن قلوبهم، فى طلب الحضور، التالين لذكر ربهم لرفع الستور، إنه منفرد فى ألوهيته، متوحد فى ربوبيته؛ إذ هو ربُّ كل شىء، ربُّ سموات الأرواح، وربُّ أرض النفوس والأشباح، وربُّ مشارق أنوار العرفان، وهى قلوب أهل العيان، ولم يذكر المغارب؛ لأن شمس القلوب إذا طلعت ليس لها مغيب.

قوله تعالى: ﴿ إنا زيَّنا السماءَ الدنيا .. ﴾ الخ، قال القشيرى: زيَّن السماء بالنجوم، وزيَّن قلوب أوليائه بنجوم المعارف والأحوال. هـ. وقوله تعالى: ﴿ وحِفظاً من كل شيطان مارد ﴾، قال القشيرى: كذلك حفظ القلوب بأنوار التوحيد، فإذا قَرُبَ منها الشيطان رَجَمَهَا بنجوم معارفهم، إلا من خَطِفَ الخطفة، كذلك إذا اغتنم الشيطان من الأولياء أن يُلقِىَ شيئاً من وساوسه؛ تَذَكَّروا، فإذا هم مُبْصِرون .هـ.

وقال فى لطائف المنن: إن الله تعالى إذ تولى وليّاً صان قلبه من الأغيار، وحرسه بدوام الأنوار، حتى لقد قال بعض العارفين: إذا كان سبحانه قد حرس السماء بالكواكب والشُهب؛ كى لايسترق السمع منها، فقلبُ المؤمن أولى بذلك، لقول الله سبحانه، فيما يحكيه عنه رسول الله ﷺ: «لم تسعنى أرضى ولا سمائى، ووسعنى قلب عبدى المؤمن» .هـ. والمراد: المؤمن الكامل، الذى تولى الله حفظه، وهو الولى العارف.

ثم ردّ على من أنكر البعث بعد هذه الدلائل الباهرة، فقال:

﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴿١١﴾ بَلْ
عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ذُكِّرُوا۟ لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا رَأَوْا۟ ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾ وَقَالُوٓا۟
إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾

﴿ قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَاخِرُونَ ﴿١٨﴾ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ فاستفتهم ﴾ أى: فاستخبر كفار مكة ﴿ أهم أشد خلقًا ﴾ أى: أقوى خلقًا وأعظم، أو: أصعب خلقًا وأشقه. ﴿ أم من خلقنا ﴾ يعنى ماذكر من السماء والأرض وما بينهما، وما يعمرهما من الملائكة والكواكب، والشهب الثواقب؟. وجيء بـ«من» تغليباً للعقلاء. ويدلّ عليه قراءة من قرأ: (أم من عددنا) بالتشديد والتخفيف. والقصد: الرد على منكرى البعث، فإنّ من قدر على خلق هذه العوالم، على عظمها، كان على بعثهم أقدر.

ثم ذكر ضعف أصلهم بقوله: ﴿ إنا خلقناهم من طين لازب ﴾؛ لاصق باليد، أو: لازم. وقرئ به، أى: يلزم من جاوره ويلصق به. وهذا شاهد عليهم بالضعف؛ لأن ما يصنع من الطين غير موصوف بالصلابة والقوة. أو: احتجاج عليهم بأن الطين اللازب الذى خُلقوا منه إنما هو تراب، فمن أين استنكروا أن نخلق من تراب مثله خلقًا آخر؟ حيث قالوا: ﴿ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا ﴾(١) الخ، وهذا المعنى يعضده ما يتلوه بعدُ؛ من ذكر إنكارهم البعث.

﴿ بل عجبتَ ﴾ من تكذيبهم إيَّاك، وإنكارهم البعث، ﴿ ويسخرون ﴾ هم منك، ومن تعجبك، أو: من أمر البعث، قال الكواشي: ولمَّا لم تؤثر فيهم البراهين، أمر نبيَّه ـ عليه الصلاة والسلام ـ بالإضراب عنهم، والإعجاب منهم، حيث لم يؤمنوا به وبالبعث، والمعنى: إنك تعجبت من تكذيبهم، وهم يسخرون منك ومن تعجبك. هـ. قال قتادة: لمَّا نزل القرآن عجب منه النبى ﷺ، واعتقد أنه لا يسمعه أحد إلا آمن به، فلما سمعه المشركون، ولم يؤمنوا، وسخروا، تعجَّب من ذلك(٢). هـ. وذكر ابن عطية وغيره: أن الآية نزلت فى رُكانة، الذى صرعه ﷺ(٣)، وذكر ابن عبد البر: أنه أسلم يوم الفتح.هـ.

وقرأ الأخوان «عجبتُ» بضم التاء، أي: استعظمت. والعَجبُ: روعة تعترى الإنسان عند استعظام الشيء؛ لخفاء سببه، وهو فى حقه تعالى مُحال، ومعناه: التعجب لغيره، أى: كل من يرى حالهم يقول: عجبت، ونحوه: قوله ﷺ: «عجب الله من شاب ليست له صبوة»(٤). وهو عبارة عما يُظهره الله فى جانب المتعجب منه، من التعظيم أو التحقير، أو: قل يا محمد: عجبتُ ويسخرون.

(١) الآية ٥ من سورة الرعد.
(٢) أخرجه الطبرى (٢٣/ ٤٤).
(٣) حديث صرع النبى ﷺ للركانة، أخرجه الترمذى فى (اللباس، باب العمائم على القلانس ٤/ ٢١٧ ح ١٧٨٤) وأبو داود فى (اللباس، باب فى العمائم ٤/ ٣٤١ ح ٤٠٧٨) عن أبى ركانة.
(٤) أخرجه أحمد (٤/ ١٥١) والطبرانى فى الكبير (١٧/ ٣٠٩) من حديث عقبة بن عامر. قال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ٢٧٠): وإسناده حسن.

﴿ وإذا ذُكِّروا لا يذْكُرون ﴾ أي: ودأبهم أنهم إذا وُعظوا بشيء لايتعظون به. ﴿ وإذا رأَوْا آيةً ﴾؛ معجزة، كانشقاق القمر، ونحوه، ﴿ يَسْتَسْخِرُونَ ﴾؛ يُبالغون في السخرية، ويقولون: إنه سحر، ويستدعى بعضهم بعضاً أن يسخر منها، ﴿ وقالوا إن هذا ﴾؛ ما هذا ﴿ إلا سحر مبينٌ ﴾؛ ظاهر سحريته، ﴿ أإذا متنا وكنا تُرابًا وعظامًا أئنا لمبعُوثون ﴾ أي: أنُبعث إذا كنا تُراباً وعظامًا؟ ﴿ أو آباؤنا الأولون ﴾، فمن فتح الواو عطف على محلّ «إنّ» واسمها، والهمزة للإنكار، أي: أوَ يُبعث أيضاً آباؤنا الأولون الأقدمون، على زيادة الاستبعاد، يعنون أنهم أقدم، فبعثهم أبْعد وأبطل. ومن سكّن(١) فَمِنْ عطفِ أحد الشيئين، أي: أيُبعث واحد منا، على المبالغة في الإنكار. ﴿ قُلْ نَعَم ﴾ تبعثون ﴿ وأنتم داخرون ﴾؛ صاغرون.

﴿ فإنما هي زَجْرَةٌ واحدة ﴾ أي: صيحة واحدة، وهي النفخة الثانية، والفاء: جواب شرط مقدر، أي: إذا كان كذلك فماهي إلا صيحة واحدة، وهي مبهمة، يُفسرها خبرها. أو: فإنما البعثة زجرة واحدة. والزجرة: الصيحة، من قولك: زجر الراعي الإبل والغنم: إذا صاح عليها، ﴿ فإذا هم ﴾ أحياء ﴿ ينظرون ﴾ إلى سوء أعمالهم، أو: ينظرون ما يحلُّ بهم.

﴿ وقالوا يا ويلنا ﴾، الويل: كلمة يقولها القائل وقت الهلكة، ﴿ هذا يومُ الدينِ ﴾؛ اليوم الذي يُدانُ فيه العباد، ويُجازون بأعمالهم. ﴿ هذا يومُ الفصلِ ﴾ أي: يوم القضاء والفرق بين فرق الهدى والضلالة، ﴿ الذي كنتم به تُكذِّبون ﴾، يحتمل أن يكون قوله: ﴿هذا يوم الدين﴾ من كلام الكفرة، بعضهم مع بعض، وأن يكون من كلام الملائكة لهم، وأن يكون ﴿يا ويلنا هذا يوم الدين﴾ من كلام الكفرة، وما بعده كلام الملائكة، جواباً لهم. والله تعالى أعلم.

الإشارة: الإنسان فيه عالَمان، عالَم في غاية الضعف والخِسة، وهي بشريته الطينية، أصلها من ماء مهين. وعالَم في غاية القوة والكمال، وهي روحانيته السماوية النورانية، فإذا حييت الروح بالعلم بالله، واستولت على البشرية، استيلاء النار على الفحمة، أكسبتها القوة والشرف، وإذا ماتت الروح بالغفلة والجهل، واستولت عليه البشرية أكسبتها الضعف والذل، والعارف الكامل هو الذى ينزل كل شيء في محله، فينزل الضعف في ظاهره، والقوة في باطنه، فظاهره يمتد من الوجود بأسره، وباطنه يمدُّ الوجود بأسره. فمن نظر إلى أصل ظاهره تواضع وعرف قدره، ولذلك قال سيدنا علي كرم الله وجهه: ما لابن آدم والفخر، وأوله نطفة مذرة، وآخره جيفة قذرة، وفيما بينهما يحمل العذرة. هـ.

---

(١) قرأ قالون، وابن عامر، وأبو جعفر، بإسكان الواو، وقرأ الباقون بالفتح. انظر الإتحاف (٢/ ٤١٠).

ومن نظر إلى باطنه تاه على الوجود بأسره، لكن من آداب العبد: ألا يُظهر بين يدى سيده إلا ما يناسب العبودية، من الضعف، والذل، والفقر، فإذا تحقق بوصفه مدّه الله بوصفه. وبالله التوفيق.

ثم ذكر مثال أهل الكفر، فقال:

﴿ ۞ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ
إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ
مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٨﴾
قَالُوا۟ بَل لَّمْ تَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ ۖ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ﴿٣٠﴾
فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ ۖ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ﴿٣٢﴾ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِى ٱلْعَذَابِ
مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله للملائكة يوم القيامة: ﴿ **احْشُرُوا الذين ظلموا** ﴾ أى: اجمعوا الذين كفروا ﴿ **وأزواجَهم** ﴾؛ وأشباههم، فيُحشر عابد الصنم مع عبدة الأصنام، وعابد الكواكب مع عبدتها. أو: نساءهم الكافرات، أو: قرناءهم من الشياطين. «والواو» بمعنى «مع»، أو: عاطفة. ﴿ **وما كانوا يعبدون، من دون الله** ﴾ أي: الأصنام، اجمعوها معهم، ﴿ **فاهْدُوهم إلى صراطِ الجحيم** ﴾ أى: دُلّوهم على طريقها، وعرّفوهم بها. وعن الأصمعى: يقال: هديته فى الدين هُدى، وهديته الطريق هداية.

﴿ **وقِفُوهُم** ﴾: احبسوهم ﴿ **إنهم مسؤولون** ﴾ عن أقوالهم وأفعالهم وعقائدهم، ﴿ **مالكم لا تَنَاصَرُون** ﴾؛ لا ينصر بعضكم بعضاً. وهذا توبيخ لهم بالعجز عن التناصر، بعد ما كانوا يتناصرون فى الدنيا، أو: استهزاء بهم. وقيل: هو جواب لأبى جهل، حيث قال يوم بدر: ﴿ نحن جميع منتصر ﴾[1]، وجملة النفى: حال، أى: ما لكم غير متناصرين، ﴿ **بل هم اليوم مستَسْلِمون** ﴾؛ منقادون لِما يُراد بهم؛ لعجزهم، وانْسِدَادِ أبواب الحيل عليهم، أو: قد أسلم بعضهم بعضاً وخذله.

﴿ **وأقْبَل بعضُهم على بعضٍ** ﴾ أى: التابع على المتبوع ﴿ **يتساءلون** ﴾؛ يتخاصمون، ويسأل بعضهم بعضاً سؤال توبيخ وتسخط، ﴿ **قالوا** ﴾ أى: الأتباع للمتبوعين: ﴿ **إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين** ﴾ أى: تصدوننا عن

(١) كما حكت الآية ٤٤ من سورة القمر.

الحق والإيمان، قاله الحسن. وبيانه: أن العرب كانت تتيمن بالسانح(١) عن اليمين من الطير، ويناسبه ما ذكره ابن عطية في جملة التأويلات بقوله: ومنها: أن يريد باليمين اليمْن، أي: تأتوننا من جهة النصائح، والعمل الذى يتيمن به. هـ. قلت: والأحسن: أن يقدر معلق الجار، أي: تأتوننا وتصرفوننا عن طريق أهل اليمين.

﴿ قالوا ﴾ أي: الرؤساء: ﴿ بل لم تكونوا مؤمنين ﴾ أي: بل أنتم أبيتم الإيمان، وأعرضتم عنه مع تمكّنكم منه، مختارين للكفر، غير ملجئين إليه، أو: بل أنتم سبقت منكم الضلالة على إغوائنا، وإنما نشأ عن إغوائنا دوام كُفركم لا استئنافه. ﴿ وما لنا كان عليكم من سلطانٍ ﴾ وقهر، نسلبكم به تمكّنكم واختياركم، ﴿ بل كنتم قوماً طاغين ﴾ أي: بل كنتم قوماً مختارين للطغيان، ﴿ فحقَّ علينا ﴾ أي: لزمنا جميعاً ﴿ قولُ ربِّنا إنا لذائقون ﴾، يعني: حقت علينا كلمتُه بأنا ذائقون لعذابه. ولو حكى الوعيد على ما هو لقال: إنكم لذائقون، لكنه عدل به إلى لفظ المتكلم؛ لأنهم يتكلّمون بذلك عن أنفسهم. ثم قالوا لضعفائهم: ﴿ فأغويناكم ﴾؛ فدعوناكم إلى الغي ﴿ إنا كنا غاوِينَ ﴾؛ فأردنا إغواءكم لتكونوا مثلنا، ﴿ فإنهم ﴾ أي: الأتباع والمتبوعين جميعاً، ﴿ في العذاب يومئذٍ مشترِكون ﴾ كما كانوا مشتركين في الغواية. ﴿ إنا كذلك نفعل بالمجرمين ﴾؛ المشركين، أي: مثل ذلك الفعل نفعل بكل مجرم.

الإشارة: ويقال على طريق العكس: احشُروا الذين أحسنوا واتقوا ربهم، وأزواجهم، ومن انتسب إليهم، فاهدوهم إلى طريق الجنان، وقِفوهم يشفعوا فيمن تعلّق بهم، إنهم مسؤولون عن أصحابهم وعشائرهم، حتى يخلصوهم من ورطة الحساب. مالكم لا تناصرون، فينصر بعضكم بعضاً في هذا الموطن الهائل، بل هم اليوم منقادون لأمر الله، حتى يأذن لهم في الشفاعة. وفي الحديث: «اتّخِذُوا يداً عند الفقراءِ، فإن لهم دوْلَةً يومَ القيامةِ»(٢) ودولتهم: الشفاعة فيمن أحبهم وأحسن إليهم. والفقراء هم المتوجهون إلى الله تعالى، حتى وصلوا إلى حضرته. ومن صدّ الناسَ عن طريقه وصحبتهم، يتعلق به المخذول عنهم، فيقول له: (إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين...) الآية.

ثم ذكر سبب ورودهم العذاب، فقال:

﴿ إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّكُمْ لَذَآئِقُواْ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾

(١) السانحُ: ما أتاك عن يمينك من ظبي أو طائر، أو غير ذلك، والبارح: ما أتاك من ذلك عن يسارك. انظر اللسان (سنح ٣/٢١١٢).
(٢) عزاه السيوطي في الجامع الصغير (ح١٠٤) لأبي نعيم في الحلية، عن الحسين بن علي رضي الله عنهما. والحديث ضعفه السيوطي.

يقول الحق جل جلاله: ﴿إنهم﴾ أى: المشركين ﴿كانوا إذا قيلَ لهم لا إله إلا الله﴾، هو أعم من إذا قيل لهم: قولوها، أو: ذكرت بمحضرهم، ﴿يستكبرون﴾ أى: يتعاظمون عن قولها، أى: كانوا فى الدنيا إذا سمعوا كلمة التوحيد استكبروا عنها، وأَبَوا إلا الشرك، ﴿ويقولون أئنَّا لتَارِكوا آلهتنا لشاعرٍ مجنونٍ﴾، يعنون نبينا محمداً ﷺ، ﴿بل جاء بالحق وصَدَّقَ المرسلين﴾؛ لكونه مصدقًا لما بين يديه من الرسل. وهو ردٌّ عليهم بأن ما جاء به الحق من التوحيد قد قام عليه البرهان، وتطابق عليه المرسلون. فقوله تعالى: ﴿بل جاء بالحق﴾ مقابل لقولهم: «شاعر»؛ لأن الشاعر فى الغالب كَذُوبٌ، وتصديق المرسلين فى مقابلة مجنون؛ لأنه لا يكون إلا من العاقل. قال تعالى لهم: ﴿إنكم لَذائقوا العذابِ الأليمِ﴾ بالإشراك وتكذيب الرسول ﴿وما تُجْزَون إلا ما كنتم تعملون﴾؛ إلا مثل ما عملتم بلا زيادة ولا نقصان، فعذبتم، على الكفر والتكذيب، وخلدتم، على نيتكم الدوام عليه.

الإشارة: ينبغى للمؤمن إذا سمع كلمة التوحيد، وهى «لا إله إلا الله» أن يخشع قلبه، وتهتز جوارحه، فرحاً بها، ويخضع لمن جاء بها، ودلَّ عليها، حتى يُدخله فى بحار معانيها، وهو التوحيد الخاص، أعنى: توحيد أهل العيان، وهم خلفاء الرسول ﷺ فى التربية النبوية. قال القشيرى: ﴿.. كانوا إذا قيل لا إله إلا الله يستكبرون..﴾ إلخ. احتجابهم بقلوبهم أوقعهمْ فى وَهدة عذابهم، وذلك أنهم استكبروا عن الإقرار بربوبيته، ولو عرفوا لافتخروا بعبوديته؛ قال تعالى: ﴿إنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِه..﴾(١) وقال: ﴿لن يستنكف المسيحُ أن يكون عبداً لله..﴾(٢)، فمن عرف الله فلا لذة له إلا فى طاعته وعبوديته، قال قائلهم:

ويظهرُ فى الورى عزُّ الموالى فيلزمنى لـه ذُلُّ العبيـد

ولمَّا لم يحتشموا من وصفه ـ سبحانه ـ بما لا يليق بجلاله، لم يُبالوا بها أطلقوا من المثالب فى جانب أنبيائه.هـ.

ثم استثنى المخلصين، فقال:

﴿ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾

(١) من الآية ٢٠٦ من سورة الأعراف. (٢) من الآية ١٧٣ من سورة النساء.

يقول الحق جل جلاله: ﴿إلا عبادَ الله المخلصين﴾ - بفتح اللام، وكسرها(١) - أي: لكن عباد الله المخلصين فى أعمالهم، أو: الذين أخلصهم الله ونجاهم من الشرك، فليسوا مع أولئك المعذَّبين، بل ﴿أولئك﴾ المخلصون ﴿لهم رزق معلومٌ﴾، يأتيهم بكرة وعشيا، كحال المياسير فى الدنيا، فهو معلوم الوقت؛ لأن النفس إليه أسكن. قال القشيرى: قد كان فى وقت الرسول ﷺ من له رزقٌ معلومٌ، فهو من جملة المياسير، وهذه صفة أهل الجنة، لهم فى الآخرة رزقٌ معلوم لأبشارهم وأسرارهم، فالأغنياء - اليوم - لهم رزق معلوم لأبشارهم، والفقراء لهم رزق معلوم لقلوبهم وأسرارهم.هـ.

ثم فسَّره بقوله: ﴿فواكهُ﴾: جمع فاكهة، وهى كل ما يتلذذ به، فليس قوتهم لحفظ الصحة، بل رزقهم كله فواكه؛ لأنهم مستغنون عن حفظ الصحة بالأقوات؛ لأن أجسامهم نورانية مخلوقة للأبد، فما يأكلونه إنما هو للتلذذ. أو: معلوم، أى: منعوت بخصائص خلق عليها من طيب طعم، ورائحة، ولذة، وحسن منظر، ﴿وهم مكرَمُون﴾: معظَّمون. قال القشيرى: من ذلك: ورود الرسُل عليهم من قِبَلِ الله - عز وجل - فى كل وقت، وكذلك اليومَ الخطابُ وارد على قلوب الخواص فى كل وقتٍ بكلِّ أمر.هـ.

وقوله: ﴿في جنات النعيم﴾، إما ظرف لمكرمون، أو: حال، أو: خبر، أى: فى جنةٍ ليس فيها إلا النعيم المقيم. وكذا ﴿على سُرُرٍ متقابلينَ﴾: يُقابل بعضها بعضاً، إن استوت درجتهم، فالتقابل أتم للسرور، وأنس.

﴿يُطاف عليهم بكأسٍ﴾؛ إناء من زجاج فيه شراب، ولا يكون كأساً حتى يكون فيه شراب، وإلا فهو إناء. وقد تسمَّى الخمر كأساً. قال الأخفش: كل كأس فى القرآن فهو خمر. ومثل لابن عباس. ﴿من مَّعِينٍ﴾؛ من خمر معين، أى: جارية فى أنهار ظاهرة للعيون، وصف بما وصف به الماء؛ لأنه يجرى فى الجنة أنهاراً، كما يجرى الماء، قال تعالى: ﴿وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ﴾(٢). وقوله: ﴿بيضاءَ﴾؛ صفة للكأس، أى: صافية فى نهاية اللطافة. ﴿لذةٍ للشاربين﴾ أى: لذيذة للشاربين، وصفت باللذة، كأنها نفس اللذة وعينُها. أو: ذات لذة. ﴿لا فيها غَوْلٌ﴾ أى: لا تغتال عقولَهم فتذهب بها، كخمر الدنيا، وهو من: غاله يغوله: إذا أهلكه وأفسده. أو: لا فيها غول: إثم، أو وجع بطن أو صداع، وهو وجع الرأس، أى: لا ينشأ عنها شيء مما ذكر. ﴿ولا هم عنها يُنزَفُون﴾ يسكرون، من: نُزِف الشارب: إذا ذهب عقله. ويقال للسكران: نزيف، ومنزوف. ومن قرأ بكسر الزاى(٣) فمعناه: لا يَنْفَد شرابهم، يقال: أنزف الرجل فهو منزِف: إذا فنيت خمرته.

---

(١) قرأ نافع، وعاصم، وحمزة، والكسائى، وأبو جعفر، «المخلَصين» بفتح اللام.

(٢) من الآية ١٥ من سورة سيدنا محمد.

(٣) قرأ بذلك حمزة، والكسائى. وقرأ الباقون بفتح الزاى.. انظر الإتحاف (٢/٤١١).

﴿ وعندهم قَاصِرَاتُ الطرْفِ ﴾ أي: حور قصرت أبصارهنّ على أزواجهن، لا يمددن طرفاً إلى غيرهم ﴿ عِينٌ ﴾: جمع عيناء، أي: نجلاء، واسعة العين. يقال: رجل أعين، وامرأة عيناء، ورجال ونساءٌ عِينٌ. ﴿ كأنهنَّ بَيْضٌ مكنونٌ ﴾؛ مصون مستور. شبههنّ ببيض النعام المكنون من الريح والغبار، في الصفاء والبياض.

﴿ فأقبل بعضُهم على بعضٍ يتساءلون ﴾ في الجنة، تساؤل راحة وتنعم. والمعنى: أنهم يشربون ويتحادثون على الشرب، كعادة الشَّرْب(١). قال الشاعر:

وماَ بَقِيتْ مـن اللَّـذَّاتِ إلاّ أحاديثُ الكِرامِ علَى المُدَامِ

أو: أقبل بعضهم على بعص يتساءلون عما جرى عليهم في الدنيا. وجيء به ماضياً على ما عرف في أخباره المحققة الوقوع.

الإشـارة: المخلَصين ـ بالفـتح ـ أبلغ من المخلِصين ـ بالكسـر ـ المخلَصين: أخلصـهم الله واصطفـاهم، والمخلِصين: طالبين الإخلاص، مـجتهـدين فيـه، الأولون مـجذوبون، والآخرون سالكون، الأولون مـحبـوبون، والآخرون مُـحبـون، الأولون واصلون، والآخـرون سائرون. قـال القشيري: والإخـلاص: إفرادُ الحقّ ـ سبحـانه ـ بالعبودية، فالذي يشوبُ عمله برياء ليس بمـخلص. ويقـال: الإخـلاص: تصفية العمل، لا توفيقه، وفي الخبر: «يا معاذ: أخلص العملَ، يكفك القليل منه»(٢). ويقال: الإخلاص: فقد رؤية الأشخاص. هـ.

﴿ أولئك لهم رزق معلوم ﴾ للمخلَصين ـ بالفتح ـ رزق أرواحهم وأسرارهم، من النظر إلى وجه الحبيب في كل ساعة. وللمخلِصين، رزق أشباحهم مما يشتهون. وقد يجتمع لهما، ويغلب لكل واحد ما كان الغالب عل همته في الدنيا. وهم مكرمون بالتقريب والمشاهدة، على قدر سعيهم هنا، ويشربون كأس المحبة والاصطفاء على قدر شربهم هنا خمرة المعاني، وشرب خمرة المعاني على قدر الغيبة عن حس الأواني والزهد في بهجتها.

وقوله تعالى: ﴿ فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون ﴾، كان من تمام نعميهم في الشرب: التحادث عليها بما يُناسب حالها، ومدحها، كما قال الشاعر:

وإذا جلست إلى المُدام وشُربه فاجعل حديثك كله في الكاس

---

(١) الشَّرْبُ: القوم يشربون، ويجتمعون على الشراب، جمع شارب، كركْبٍ ورَجْلٍ. انظر اللسان (شرب ٤/٢٢٢).
(٢) عزاه السيوطي في الجامع الصغير (ح ٢٩٨) لابن أبي الدنيا في الإخلاص، والحاكم، عن معاذ.

كذلك العارف إذا جلس مجلس الفكرة، وغاب في الشهود والنظرة، لا يجول إلا في عظمة الذات، وأسرارها، وبهائها، وجمالها، لا يخطر على باله غيرها، فحديث روحه وسره كله في الخمرة الأزلية. هذه هي الفكرة الصافية، والنظرة الشافية، متعنا الله بها على الدوام. آمين.

ثم ذكر حال من يعوق عن شرب هذه الخمرة، فقال:

﴿ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا
وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ
ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾
أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾
لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴿٦١﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿قال قائلٌ منهم﴾ أي: من أهل الجنة ﴿إني كان لي قرينٌ﴾ في الدنيا، قيل: كان شيطاناً، وقيل: من الإنس، ففيه التحفظ من قرناء السوء، وقيل: كانا شريكين بثمانية آلاف دينار، أحدهما: قطروس، وهو الكافر، والآخر: يهوذا، المؤمن، فكان أحدهما مشغولاً بعبادة الله، وكان الآخر مُقبلاً على ماله، فحلّ الشركة مع المؤمن، وبقي وحده؛ لتقصير المؤمن في التجارة، وجعل الكافر كلما اشترى شيئاً من دار، أو جارية، أو بستان، عرضه على المؤمن، وفخر عليه، فيمضي المؤمن، ويتصدق بنحو ذلك، ليشتري به من الله تعالى في الجنة. فكان من أمرهما في الجنة ما قصّه الله تعالى في هذه الآية(١). قال السهيلي: هما المذكوران في سورة الكهف بقوله: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ..﴾(٢) الخ.

﴿يقول﴾ أي: قرين السوء، لقرينه المؤمن في الدنيا: ﴿أئنك لمن المُصدِّقين﴾ بالبعث؟ ﴿أئذا مِتْنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمدينون﴾؛ لمحاسبون ومجزيون بأعمالنا؟ من: الدين، وهو الجزاء.

---

(١) ذكر السيوطي القصة بطولها في الدر (٥/٥١٨ ـ ٥١٩) وعزاها لعبد الرزاق، وابن المنذر، عن عطاء الخراساني، وأخرجها الطبري (٢٣/٥٦) عن فرات بن ثعلبة البهراني. وقد ذكر الشيخ ابن عجيبة ـ رحمه الله تعالى ـ القصة كاملة عند تفسير الآية ٣٢ من سورة الكهف.

(٢) الآية ٣٢ وما بعدها من سورة الكهف.

﴿ قال ﴾ ذلك القائل لمن معه فى الجنة: ﴿ هل أنتم مُطَّلِعُون ﴾ معى إلى النار، لأريكم حال ذلك القرين. قيل: إن فى الجنة كُوىً ينظر أهلُها منها إلى أهل النار. قلت: حال الجنة كله خوارق، فيُكشف لهم عن حال أهل النار كيف شاء. وقيل: القائل: هو الله، أو: بعض الملائكة. يقول لهم: هل تُحبون أن تطلعوا على أهل النار، لأريكم ذلك القرين، أو: لتعلموا منزلتكم من منزلتهم. قال الكواشي: أو: إن المؤمن يقول لإخوانه من أهل الجنة: هل أنتم ناظرون أخى فى النار؟، فيقولون له: أنت أعرف به منا، فانظر إليه. ﴿ فاطَّلَع ﴾ على أهل النار ﴿ فرآه ﴾ أى: قرينه ﴿ في سواءِ الجحيم ﴾؛ فى وسطها.

﴿ قال تالله إنْ كِدتَّ لتُردِينِ ﴾؛ لتُهلكنى بإغوائك. و«إن» مخففة، واللام: فارقة، أى: إنه قربت لتهلكنى، ﴿ ولولا نعمةُ ربي ﴾ علىَّ بالهداية، والعصمة، والتوفيق للتمسك بعروة الإسلام، ﴿ لكنتُ من المُحْضَرين ﴾ معك، أو: من الذين أُحضروا العذاب، كما أُحضِرْتَه أنت وأمثالك.

﴿ أفما نحن بميتين، إلا مَوْتَتنا الأولى وما نحن بمعذَّبين ﴾، الفاء للعطف على محذوف، أى: أنحن مخلَّدون فما نحن بميتين ولا معذَّبين. وعلى هذا يكون الخطاب لرفقائه فى الجنة، لما رأى ما نزل بقرينه، ونظر إلى حاله وحال رفقائه فى الجنة، تحدُّثاً بنعمة الله. أو: قاله بمرأىً من قرينه ومسمع؛ ليكون توبيخًا له، وزيادة تعذيب، ويحتمل أن يكون الخطاب لقرينه، كأنه يقول: أين الذى كنت تقول فى الدنيا من أنَّا نموت، وليس بعد الموت عقاب ولا عذاب؟ كقوله: ﴿ إنْ هِيَ إلاَّ مَوْتَتُنَا الأُولَى ﴾(١) والتقدير: أكما كنت تزعم هو ما نحن بميتين إلا موتتنا الأولى، وما نحن بمعذَّبين، بل الأمر وقع خلافَه، وكان يقال له: نحن نموت ونُسـأل فى القبر، ثم نموت ونحيا، فيقول: ما نحن بميتين إلا موتتنا الأولى وما نحن بمعذَّبين.

وقوله تعالى: ﴿ إنَّ هذا لهو الفوزُ العظيمُ.. ﴾ الخ، يحتمل أن يكون من خطاب المؤمن لقرينه، وأن يكون من خطاب الله تعالى لنبيه ـ عليه الصلاة والسلام، أى: إن هذا النعيم الذى نحن فيه لهو الفوز العظيم. ثم قال الله ـ عز وجل: ﴿ لِمثْلِ هذا فليعملِ العاملون ﴾ أى: لنيل مثل هذا يجب أن يعمل العاملون، لا للحظوظ الدنيوية، المشوبة بالآلام، السريعة الانصرام. أو: لمثل هذا فليجتهد المجتهدون، مادام يُمكنهم الاجتهاد، فإنَّ الدنيا دار عمل، والآخرة دار جزاء، فبقدر ما يزرع هنا يحصد ثَمَّ، وسيندم المفرط إذا حان وقت الحصاد.

---

(١) الآية ٣٥ من سورة الدخان.

الإشارة: تنسحب الآية من طريق الإشارة على من رام النهوض إلى الله، بصحبة الرجال في طريق التجريد، فينهاه رفقاؤه، فيخالفهم، وينهض إلى الله، فإذا كان يوم القيامة رُفع مع المقربين، فيقول لهم: إني كان قرين يُنكر طريقَ الخصوص، وينهاني عن صحبتهم، فيطلع عليه، فيراه في أسفل الجنة، مع عامة أهل اليمين، فيحمد الله على مخالفته، ويقول: لولا نعمةُ ربي لكنتُ من المحضَرين معك. قال القشيري: فيقول الوليُّ له: إن كدتَ لتُردين، لولا نعمةُ ربي. نطقوا بالحق، ولكنهم لم يُصرِّحوا بعين التوحيد؛ إذ جعلوا الفضلَ واسطة، والأَولى أن يقول: ولولا ربي لكنتُ من المحضَرين. ثم يقول: لمثل هذا فليعمل العاملون. ثم قال: فإذا بدت شظيةٌ، من الحقائق، أو ذَرةٌ من نسيم القربة، فبالحرىّ أن يقول القائل: لِمثل هذا الحال تُبذَلُ الأرواحُ، وأنشدوا:

على مِثْلِ ليــــلى يَقْتُلُ المرءُ نَفْسَــــه وإن بات من ليلى على اليأس طاويا[1]. هـ.

ثم قال تعالى:

﴿ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿أذلك خيرٌ نُزلاً أم شجرةُ الزقوم﴾ أي: أنعيم الجنة وما فيها من اللذات، والطعام، والشراب، خيرٌ نُزُلاً أم شجرة الزقوم؟ النُزل: ما يُقدم للنازل من الرزق. و«نزلاً»: تمييز، وفي ذكره: تنبيه على أن ما ذكر من النعيم لأهل الجنة بمنزلة ما يُقدم للنازل، ولهم من وراء ذلك ما تقصر عنه الأفهام، وكذلك الزقوم لأهل النار. قال ابن عطية: في البلاد الجدبة المجاورة للصحارى شجرةٌ، مُرّةٌ، مسمومة، لها لبنٌ، إن مس جسم أحد تورَّم ومات منه، في غالب الأمر، تُسَمَّى شجرة الزقوم. والتزقم: البلعُ على شدة وجهد. هـ. وفي

(١) البيت لمجنون ليلى. انظر: ديوانه: /٢٩٦ وتزيين الأسواق/١٢٨. وجاء في لطائف الإشارات: (سلمى) بدل (ليلى).

الحديث: «لو أن قطرةً من الزقوم قُطِرَتْ في بحار الدنيا لأفسدتْ على أهل الأرض معايشهم. فكيف بمن يكون الزقومُ طعامُه!»(١). وقال ابن عرفه: هذه الشجرة يحتمل أن تكون واحدة بالنوع، فيكون كل جهة من جهات جهنم فيها شجرة، أو: تكون واحدة بالشخص.هـ.

﴿إنا جعلناها فتنةً للظالمين﴾؛ محنةً وعذاباً لهم في الآخرة، وابتلاء لهم في الدنيا. وذلك أنهم قالوا: كيف تكون في النار شجرة، والنار تحرق الشجر؟ ولم يعلموا أنْ مَن قدر على خلق حيوان يعيش في النار ويتلذذ بها - وهو السمندل -(٢) كيف لا يقدر على خلق شجر في النار، وحفظه من الإحراق؟ ﴿إنها شجرةٌ تخرجُ في أصل الجحيم﴾، قيل: منبتها في قعر جهنم، وأغصانها ترتفع إلى دركاتها، وهذا يؤيد أنها واحدة بالشخص.

﴿طَلْعُها﴾ أي: حملها ﴿كأنه رؤوسُ الشياطين﴾، الطلع للنخلة، فاستعير لما يطلع من شجرة الزقوم من حملها، وشبه برؤوس الشياطين للدلالة على تناهيه في الكراهة، وقُبح المنظر؛ لأن الشيطان مكروه مستقبح في طباع الناس؛ لاعتقادهم أنه شرّ محض. وقيل: الشياطين: حيّات هائلة، قبيحة المنظر، لها أعراف يقال لها شياطين. وقيل: شبه بما استقر في النفوس من كراهة رؤوس الشياطين وقُبحها، وإن كانت لاترى، كما شبهوا سنان الرماح بأنياب أغوال، كما قال امرؤ القيس:

أيَقْتُلُنى والمشْرَفِىُّ مُضَاجِعِى ومَسْنُونَةٌ زُرْقٌ كأنيابِ أغْوَالِ(٣)

﴿فإنهم لآكلونَ منها﴾ أي: من طلع تلك الشجرة، ﴿فمالِئُون منها البطونَ﴾ مما يبلغهم من الجوع الشديد، فيملؤون بطونهم منها مع تناهي بشاعتها، ﴿ثم إنَّ لهم عليها﴾؛ على أكلها، أي: بعد ما شَبِعوا منها، وغلبهم العطش، وطال استقاؤهم، ﴿لشَوْباً من حميم﴾ أي: لشراباً من غساق، أو: حديد، مشوباً بماء حار، يشوي وجوههم، ويقطع أمعاءهم، في مقابلة ما قال في شراب أهل الجنة: ﴿وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيم﴾(٤) وأتى بـ«ثم»؛ لما في شرابهم من مزيد البشاعة والكراهة؛ فإنّ الزقوم حار محرق، وشرابهم أشد حراً وإحراقا.

(١) أخرجه الترمذي وصححه في (صفة جهنم، باب ما جاء في صفة شراب أهل النار، ٦٠٩/٤، ح ٢٥٨٥)، وابن ماجة في (الزهد، باب صفة النار، ١٤٤٦/٢، ح٤٣٢٥) وابن حبان (ح٧٤٧٠) والحاكم (٢٩٤/٢) وصححه، من حديث ابن عباس - رضي الله عنهما.

(٢) السمندل: طائر إذا انقطع نسله، وهَرِمَ، ألقى نفسه في الجمر، فيعود إلى شبابه. وقيل: هو دابة يدخل النار فلا تحرقه. انظر اللسان (سمندل، ٢١٠٥/٣).

(٣) انظر: ديوان امرئ القيس (ص٣٣). والكامل (٩٦/٣)..

(٤) الآية ٢٧ من سورة المطففين.

﴿ ثم إن مرجعَهُم لإلى الجحيم ﴾ أى: إنهم يُخرجون من مقارهم فى الجحيم - وهو الدركات التى أُسكِنُوها - إلى شجرة الزقوم، فيأكلون منها إلى أن يتملَّوا. ويشربون بعد ذلك، ثم يرجعون إلى دركاتهم، كما تورد الإبل، ثم ترد إلى وطنها. ومعنى التراخى فى ذلك ظاهر.

ثم ذكر سبب عذابهم، فقال: ﴿ إنه ألْفَوا آباءَهُم ضالِّين، فهم على آثارهم يُهْرَعُون ﴾، علّل استحقاقهم للوقوع فى تلك الشدائد بتقليد آبائهم فى الضلال، وترك اتباع الدليل. والإهراع: الإسراع الشديد. كأنهم يزعجون ويُحثّون حثّاً. وفيه إشعار بأنهم بادروا إلى اتباعهم من غير توقف ولا نظر. ﴿ ولقد ضلَّ قبلهم ﴾؛ قبل قومك قريش ﴿ أكثرُ الأولين ﴾، يعنى الأمم الماضية، بالتقليد وترك النظر. ﴿ ولقد أرسلنا فيهم مُنذِرين ﴾؛ أنبياء، حذّروهم العواقب. ﴿ فانظر كيف كان عاقبةُ المنذَرين ﴾ الذين أنذروا، وحذّروا، فقد أُهلكوا جميعاً، ﴿ إلا عبادَ الله المخلصين ﴾ أى: إلا الذين آمنوا، وأخلصوا دينهم لله، أو: أخلصهم الله لدينه، على القراءتين[1].

الإشارة: إذا قامت القيامة انحاز الجمال كله إلى أهل الإيمان والإحسان، وانحاز الجلال كله إلى أهل الكفر والعصيان، فيرى المؤمنُ من جماله تعالى وبره وإحسانه ما لا تفى به العبارة، ويرى الكافر من جلاله تعالى وقهره ما لا يكيف. وأما فى دار الدنيا فالجمال والجلال يجريان على كل أحد، مؤمناً أو كافراً، كان من الخاصة أو العامة، غير أن الخاصة يزيدون إلى الله تعالى فى الجلال والجمال؛ لمعرفتهم فى الحالتين. وأما العامة فلا يزيدون إلا بالجمال؛ لإنكارهم فى الجلال. والمراد بالجلال: كل ما يقهر النفس ويذلها. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر أول المنذِرين من أُولى العزم، فقال:

﴿ وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ولقد نادانا ﴾ أى: دعانا ﴿ نوحٌ ﴾، حين أيس من قومه بقوله: ﴿ أنى مغلوب فانتصر ﴾[2] أو: دعانا؛ لِننجيه من الغرق، ﴿ فَلَنِعْمَ المجيبون ﴾ أى: فأجبناه أحسن الإجابة، ونصرناه على أعدائه،

(١) فى «المخلصين»، وقد قرأ بفتح اللام: نافع وعاصم، وحمزة، والكسائى، وأبو جعفر. وقرأ الباقون بالكسر.
(٢) الآية ١٠ من سورة القمر.

وانتقمنا منهم بأبلغ ما يكون، فوالله لَنِعْمَ المجيبون نحنُ، فحذف القسم؛ لدلالة اللام عليه. وحذف المخصوص، والجمع؛ دليل العظمة والكبرياء. ﴿ ونجيناه وأهله ﴾ ومن آمن به وأولاده المؤمنين ﴿ من الكَرْبِ العظيم ﴾، وهو غمّ الغرق، أو: إذاية قومه، ﴿ وجعلنا ذريته هم الباقين ﴾، وقد فنى غيرهم. قال قتاده: الناسُ كلهم من ذرية نوح، وكان لنوح عليه السلام ثلاثة أولاد: سام - وهو أبو العرب وفارس والروم، وحام - وهو أبو السودان، من المشرق إلى المغرب - ويافث - وهو أبو الترك ويأجوج وماجوج(١) . وقد نظمه بعضهم، فقال:

العـرب والروم وفـارس اعلمن ... أولاد سام فـيـهم الخـيـر كَـمَـن
من نسل حـام نشـا السـودان ... شـرقـا وغـربـاً، ذا لـه برهـان
يأجـوج مـأجـوج مع الصقـالبـه ... ليافث، لاخـيـر فـيـهم قـاطبـه

﴿ وتركنا عليه في الآخِرين ﴾ أى: وأبقينا عليه الثناء الحسن فى الأمم الآخِرين، الذين يأتون بعده من الأنبياء والأمم إلى يوم القيامة، ﴿ سلامٌ على نوح ﴾ : مبتدأ وخبر، استئناف، ﴿ في العالمين ﴾، يعنى: أنهم يُسلّمون عليه تسليماً، ويدعون له، أى: ثبتت هذه التحية فيهم، ولا يخلو أحد منهم منها، كأنّ الله أثبت التسليم على نوح وأدامه فى الملائكة والثقلين، يسلّمون عليه عن آخرهم. ﴿ إنا كذلك نجزى المحسنين ﴾، فنُكرمهم ونُحييهم، وهو تعليل لما فعل بنوح من التكرمة السنية، بأنه مجازاة له على إحسانه، ﴿ إنه من عبادنا المؤمنين ﴾ علّل كونه محسناً بأنه كان عبداً مؤمناً؛ ليريك جلالة محلّ الإيمان. ﴿ ثم أغرقنا الآخَرين ﴾ أى: الكافرين.

ذكر فى كتاب حياة الحيوان، عن القشيرى: أن العقرب والحية أتيا نوحا عليه السلام فقالتا: احملنا معك، ونحن نعاهدك ألا نضر أحداً ذكرك، فحملهما. فمن قرأ ، حين يخاف مضرتهما، حين يمسى وحين يصبح: سلام على نوح فى العالمين، ومحمد فى المرسلين، إنا كذلك نجزى المحسنين، إنه من عبادنا المؤمنين، ماضرتاه. هـ. وقال نبينا - عليه الصلاة والسلام: «من قال حين يُمسى وحين يُصبح: أعوذ بكلمات الله التامات من شرِّ ما خلَقَ، لم يضره شيء»(٢).

الإشارة: إذا تحقق الإيمان والإحسان فى عبد أُعطى ثلاث خصال: نفوذ الدعوة، والثناء الحسن بعده، والبركة فى الذرية، كل ذلك مقتبس من قضية نوح عليه السلام.

(١) قاله سعيد بن المسيب، كما فى تفسير ابن كثير (٤/١٣).
(٢) أخرجه، بنحوه، مسلم فى: (الذكر والدعاء، باب فى التعوذ من سوء القضاء، ٤/٢٠٨٠، ح٢٧٠٨، ٢٧٠٩) من حديث سعد بن أبى وقاص، وأبى هريرة - رضى الله عنهما.

ثم ذكر خليله إبراهيم عليه السلام، فقال:

﴿ ۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبۡرَٰهِيمَ ۝٨٣ إِذۡ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلۡبٖ سَلِيمٍ ۝٨٤ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَاذَا تَعۡبُدُونَ ۝٨٥ أَئِفۡكًا ءَالِهَةٗ دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ۝٨٦ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٨٧ ﴾

قلت: (أئفكا): مفعول له، و(آلهة): مفعول «تُريدون»، أي: أتريدون آلهة من دون الله إفكًا وزُوراً. وإنما قدّم المفعول به على الفعل للعناية له، وقدّم المفعول له على المفعول به؛ لأنه كان الأهم عنده أن يكافحهم بأنهم على إفك وباطل في شركهم. ويجوز أن يكون «إفكا» مفعولاً به، أي: أتريدون إفكاً. ثم فسّر الإفك بقوله: ﴿آلهة دون الله﴾ على أنها إفك في نفسها، أو: حالاً، أي: أتريدون آلهة من دون الله آفكين.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وإنَّ من شيعته ﴾ أي: نوح ﴿ لإبراهيمَ ﴾، أي: ممن شايعه على أصول الدين، وإن اختلفا في الفروع، أو: شايعه على التصلب في دين الله، ومصابرة المكذّبين. وكان بين نوح وإبراهيم ألفان وستمائة وأربعون سنة، وما كان بينهما إلا نبيّان؛ هود، وصالح. ﴿ إذ جاء ربَّه ﴾: متعلق بما في الشيعة من معنى المشايعة، أي: وممن شايعه على دينه إبراهيم، حين جاء ربه ﴿ بقلبٍ سليم ﴾ من الشرك، أو: من آفات القلوب، ومعنى المجيء بقلبه ربه: أنه أخلص لله قلبه، وعلم ذلك منه.

﴿ إذْ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون ﴾، «إذ»: بدل من الأولى، أو: ظرف لجاء، أو: لسليم، ﴿ أئفكاً آلهةً دون الله تريدون ﴾؛ أتريدون آلهة تعبدونها من دون الله إفكاً وزوراً وباطلاً. ﴿ فما ظنُّكُم بربِّ العالمين ﴾ يفعل بكم إذا لقيتموه، وقد عبدتم غيره، فما تقولون، وكيف بكم في مقام الخجل الذي بين أيديكم، وإن كنتم اليوم غائبين عنه؟. أو: أيَّ شيء ظنكم بمن هو حقيق بالعبادة؛ لكونه رب العالمين، حتى تركتم عبادته، وأشركتم معه غيره، أوَ أمنتم عذابه؟.

الإشارة: لا يكون العبد إبراهيمياً حنيفياً حتى يقدس قلبه مما سوى الله، ويرفض كلّ ما عبده الناسُ من دون الله، كحب الدنيا، والرئاسة، والجاه، فيجئ إلى الله بقلب سليم، أي: مقدس من شوائب الطبيعة، فهو سالم مما دون الله؛ لاتصاله بالله. قال القشيري: «بقلب سليم» لا آفة فيه. ويقال: لديغ مِنَ محبة الأغيار، أو: من الحظوظ، أو: من الاختيار والمنازعة. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر كسره الأصنام، وما ترتب عليه، فقال:

﴿ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْاْ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ
ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوٓاْ
إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُواْ ٱبْنُواْ لَهُۥ
بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِي ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿فَنَظَرَ﴾ إبراهيم ﴿نظرةً في النجوم﴾، وذلك أن قومه كانوا يتعاطون علم النجوم، فعاملهم بما يعلمون؛ لئلا ينكروا عليه تخلّفه. وكانو يقولون: إذا طلع سهيل مقابل الزهرة سَقِمَ من نظر إليه، فاعتلّ عليهم؛ لأنه نظر إليه ليتركوه. وذلك أنه كان لهم من الغد عيد ومجمع، وكانوا يدخلون على أصنامهم، فيقربون إليها القرابين، ويضعون بين أيديها الطعام، قبل خروجهم إلى عيدهم، لتبارك عليه، فإذا قَدِمُوا أكلوه. فلما نظر إلى النجوم، قال: ﴿إني سقيمٌ﴾ ؛ إنى مشارف للسقم ـ وهو الطاعون، وكان أغلب الأسقام عليهم، وكانوا يخافون العدوى ـ ليتفرقوا عنه، فهربوا منه إلى عيدهم، وتركوه فى بيت الأصنام، ليس معه أحد، ففعل بالأصنام ما فعل. قيل: إن علم النجوم كان حقاً ثم نُسخ الاشتغال به.

والكذب حرام إلا إذا عرّض. والذى قاله إبراهيم عليه السلام مِعْراض من الكلام، أى: سأسقم، أو: مَنْ فى عنقه الموت سقيم، أو: سقيم مما أرى من مخالفتكم وعبادتكم الأصنام. وعلى كل حال لم يلم إبراهيمُ بشيء من الكذب، وإنما عرّض. وأيضاً: إنما كان لمصلحة، وقد أُبيح لها، كالجهاد ونحوه. وفى الحديث: «ما كذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات، ما منها واحدة إلا وهو يناضل عن دينه؛ قوله: ﴿إني سقيم﴾، وقوله: ﴿ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ ﴾(1)، وقوله لسارة: هى أختى»(2).

قال السدى: خرج معهم إلى بعض الطريق، فوقع فى نفسه كيده آلهتهم، فقال: إنى سقيم أشتكى رجلى. ﴿فتولوا عنه مدبرين﴾ ؛ أعرضوا عنه مولين الأدبار، ﴿فراغَ إلى آلهتهم﴾ ؛ فمال إليها سراً، وكانت اثنين وسبعين صنماً من خشب، وحديد، ورصاص، ونحاس، وفضة، وذهب، وكان كبيرهم من ذهب، فى عنقه

(١) من الآية ٦٣ من سورة الأنبياء.
(٢) أخرجه بنحوه البخارى فى (أحاديث الأنبياء، باب: قول الله تعالى: ﴿واتخذ الله إبراهيم خليلا﴾، ح ٣٣٥٨) ومسلم فى (الفضائل، باب من فضائل إبراهيم الخليل عليه السلام ١٨٤٠/٤ ح/٢٣٧١) من حديث أبى هريرة رضي الله عنه.

ياقوتتان، ﴿ فقال ﴾ لها، استهزاء: ﴿ ألا تأكلون ﴾ من الطعام الذى وُضع عندكم، ﴿ مالكم لا تنطقون ﴾ ؟. والجمع بالواو والنون؛ لأنه خاطبها خطاب من يعقل. ﴿ فَرَاغَ عليهم ﴾ ؛ فمال إليهم سراً، فضربهم ﴿ ضرباً باليمين ﴾ أى: ضرباً شديداً بالقوة؛ لأن اليمين أقوى الجارحتين وأشدّهما، أو: بالقوة والمتانة، أو: بسبب الحلف الذى سبق منه بقوله: ﴿ وَتَاللَّهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم ﴾(١).

﴿ فأقبلوا إليه ﴾ ؛ إلى إبراهيم ﴿ يَزِفُّونَ ﴾ : يسرعون، من: الزفيف، وهو الإسراع. وكان قد رآه بعضهم يكسرها. فأخبرهم، فلما جاء من لم يره قال لمن رآه: ﴿ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا ﴾(٢) فأجابوه على سبيل التعريض: ﴿ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴾(٣)، ثم قالوا بأجمعهم: نحن نعبدها وأنت تكسرها؟، فأجابهم بقوله:

﴿ قال أتعبدون ما تنحتون ﴾ : ما تنجرونه بأيدكم من الأصنام؟ ﴿ والله خلقكم وما تعملون ﴾ أى: وخلق ما تعملونه من الأصنام. أو: «ما» مصدرية، أى: وخلق أعمالكم. وهو دليلنا فى خلق الأفعال لله تعالى، أى: الله خالقكم وخالق أعمالكم، فلِمَ تعبدون غيره ؟!.

﴿ قالوا ابنوا له ﴾ أى: لأجله ﴿ بنياناً ﴾ من الحجر، طوله ثلاثون ذراعاً، وعرضه عشرون ذراعاً،﴿ فألقوه في الجحيم ﴾ ؛ فى النار الشديدة: وقيل: كل نار بعضها فوق بعض فهو جحيم . فبنوه وملؤوه حطباً، وأضرموه ناراً، ﴿ فأرادوا به كيداً ﴾ بإلقائه فى النار، ﴿ فجعلناهم الأسفلين ﴾ ؛ المقهورين عند إلقائه، حين خرج من النار سالماً، فعلاهم بالحُجة والنصرة. قيل: ذكر أسفل، هنا؛ لمناسبة ذكر البناء، بخلاف سورة الأنبياء(٤).

الإشارة: كلُّ عبدٍ مأمور بكسر صنمه، وهو: ما تَرْكَنُ إليه نفسُه من حظٍ، أو هوىً، أو علم، أو عمل، أو حال، أو مقام. وفى الإشارات عن الله تعالى: لا تركنن لشىء دوننا، فإنه وبال عليك، وقاتلٌ لك، فإن ركنتَ إلى العلم تتبعناه عليك، وإن أويتَ إلى العمل رددناه إليك، وإن وثقت بالحال وقفناك معه، وإن أنست بالوجد استدرجناك فيه، وإن لحظت إلى الخلق وكلناك إليهم، وإن اعتززت بالمعرفة نكرناها عليك، فأىّ حيلة لك، وأىّ قوة معك؟ فارضَنا لك رباً حتى نرضاك لنا عبداً.هـ. ولا بأس أن يتحيل لنفسه، ويحتال عليه بحيل، كما تحيل الخليل للقعود لكسر الأصنام، لعلها تُوافقه على ترك ما تهواه وتركن إليه، كما قال القائل(٥):

فاحتلْ على النفس فرُبَّ حيلة أنفع فى النصرة من قبيلة.

---

(١) الآية ٥٧ من سورة الأنبياء. (٢)الآية ٥٩ من سورة الأنبياء. (٣) الآية ٦٠ من سورة الأنبياء.

(٤) فى قوله تعالى : ﴿وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين﴾ الآية ٧٠.

(٥) وهو ابن البنا السرقسطى، فى المباحث الأصلية (ص ٥٠٥).

ثم ذكر هجرة إبراهيم، وما امتحن به، فقال:

﴿ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٩٩) رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ (١٠٠) فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ
حَلِيمٍ (١٠١) فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا
تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (١٠٢) فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ
لِلْجَبِينِ (١٠٣) وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٠٥)
إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ (١٠٦) وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (١٠٧) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (١٠٨)
سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (١٠٩) كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١١٠) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١١١) ﴾

قلت: «معه»: يتعلق بمحذوف، أي: بلغ السعي يسعى معه، ولا يتعلق ببلغ؛ لأنه يقتضي الاشتراك في البلوغ، ولا بالسعي؛ لأن المصدر لا يتقدم عليه معموله، إلا أن يُقال: يتسع في الظروف ما لا يتسع في غيرها.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وقال﴾ إبراهيم: ﴿إني ذاهبٌ إلى ربي﴾؛ إلى موضع أمرني ربي بالذهاب إليه، وهو الشام، أو: إلى مرضاة ربي، بامتثال أمره بالهجرة، أو: إلى المكان الذي أتجرد فيه إلى عبادة ربي، ﴿سيهدينِ﴾ أي: سيرشدني إلى ما فيه صلاح ديني، أو: إلى مقصدي، وإنما بتّ القول لسبق وعده؛ لأن الله وعده بالهداية، أو: لفرط توكله، أو: للبناء على عادته معه. ولم يكن كذلك حال موسى عليه السلام حيث عبّر بما يقتضي الرجاء(١).

ثم قال: ﴿ربِّ هَبْ لي من الصالحين﴾؛ بعض الصالحين، يُعينني على الدعوة والطاعة، ويُونسني في الغربة. يريد الولد؛ لأن لفظ الهبة غلب على الولد. ﴿فبشَّرناه بغلامٍ حليمٍ﴾، انطوت البشارة على ثلاث: على أنّ الولد ذكر، وأنه يبلغ أوانَ الحُلم؛ لأن الصبيّ لا يُوصف بالحلم، وأنه يكون حليماً، وأيّ حليم أعظم من حلمه، حيث عرض عليه أبوه الذبح وهو مراهق، فقال: ﴿ستجدُني إن شاءَ اللهُ منَ الصَّابِرين﴾(٢)، ثم استسلم. وقيل: ما نعت الله نبياً بالحلم إلا إبراهيم وابنه؛ لمعَزّةِ وجوده.

(١) حيث قال: ﴿عسى ربي أن يهديني سواء السبيل﴾ الآية ٢٢ من سورة القصص.
(٢) الآية ١٠٢ من سورة الصافات.

﴿فلما بلغ معه السعيَ﴾ أي: فلما وُجدَ وبلغ أن يسعى مع أبيه في أشغاله وحوائجه، أي: الحدّ الذي يقدر على السعي مع ابنه، وكان إذ ذاك ابن ثلاث عشرة سنة. وقيل: سبع سنين. ﴿قال يا بُني إني أرى في المنام أني أذبحُك﴾ أي: قيل له في المنام: اذبح ابنك، ورؤيا الأنبياء وحي، كاليقظة. قال الكواشي: لم ير أنه يذبحه في النوم، ولكنه أُمر في النوم بذبحه، بدليل قوله: ﴿افعل ما تؤمر﴾. وقيل: رأى أنه يُعالج ذبحه، ولم ير إراقة الدم. وقال قتادة: رؤيا الأنبياء حق، إذا رأوا شيئاً فعلوه[1]. وفي رؤيا ذلك في النوم وتحققه إياه حتى عمل بما رأى، إيذان بأن الأنبياء قد تجوهرت نفوسهم، فلا مجال للكذب فيما يُوحى إليهم، وفيما يصدر عنهم، فهم صادقون مصدَّقون، فليس للشيطان عليهم سبيل، وإيذان بأن من كان في منامه صادقاً كان يقظته أولى بالصدق.هـ.

وإنما لم يقل: «رأيت»؛ لأنه رأى مرة بعد أخرى، فقد قيل: رأى ليلة التروية كأنّ قائلاً يقول له: إن الله يأمرك بذبح ابنك هذا، فلما أصبح روّى في ذلك من الصباح إلى الرواح؛ ليعلم أمِنَ اللهِ هذا الحلم، أم لا، فسُمِّي يوم التروية، فلما أمسى رأى مثل ذلك، فعرف أنه من الله، فسُمِّي يوم عرفة، ثم رأى مثله في الليلة الثالثة، فهمَّ بنحره، فسُمِّي يوم النحر[2].

واختُلِفَ مَن المخاطب المأمور بذبحه، فقال أهل الكتابين: هو إسحاق، وبه قال عمر، وعليّ، وابن مسعود، والعباس، وابنه عبد الله، وكعب الأحبار، وسعيد بن جبير، وقتادة، ومسروق، وعكرمة، والقاسم بن أبي بزّة، وعطاء، ومقاتل، والزهري، والسدي. قال سعيد بن جبير: أُرِيَ إبراهيم ذبح إسحاق في المنام، فسار به على البراق مسيرة شهر في غداة واحدة، حتى أتى المنحر بمِنى، فلما صرفَ عنه الذبح، وأمره أن يذبح الكبش، وذبحه، سار به مسيرة شهر في روحة واحدة، طُويت له الأودية والجبال.هـ.

واحتج أهل هذا القول بأنه ليس في القرآن أن إبراهيم بُشّر بولد إلا بإسحاق، وقال هنا: ﴿فبشرناه بغلام﴾ فتعيَّن أنه إسحاق؛ إذ هو المبَشَّر به في غير هذه الآية، وبأن الذي كان يسعى معه في حوائجه وأشغاله إنما هو إسحاق، وأما إسماعيل فإنما كان بمكة غائباً عنه، ولم يثبت في الصحيح أن إبراهيم قَدِمَ مكة إلا ثلاث مرات وإسماعيل متزوج. وبما رُوي أن موسى عليه السلام قال: يا رب؛ الناس يقولون: إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب، فبم ذلك؟ فقال: إن إبراهيم لم يعدل بي شيئاً قط إلا اختارني، وإن إسحاق جاد لي بالذبح، وهو لي بغير ذلك أجود، وإن يعقوب كلما زدته بلاء زاد لي حسن ظن[3]. وقال يوسف للملك: أترغب أن تأكل معي، وأنا - والله - يوسف بن

(١) عزاه السيوطي في الدر (٥/٥٢٨) لعبد بن حميد.
(٢) انظر تفسير البغوي (٧/٤٨).
(٣) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٣/٨٢) وعزاه السيوطي في الدر (٥/٥٣٠) لابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، والبيهقي في الشعب، عن عبد الله بن عمير.

يعقوب، نبي الله، ابن اسحاق، ذبيح الله، ابن إبراهيم، خليل الله(١). وبما رُوي أن نبينا ـ عليه الصلاة والسلام ـ سُئل: أي النسب أشرف؟ فقال: «يوسف صدِّيق الله، ابن يعقوب إسرائيل الله، ابن إسحاق ذبيح الله، ابن إبراهيم خليل الله»(٢). وفي الجامع الصغير: «الذبيح إسحاق» رواه الدارقطني عن ابن مسعود، والبزار وابن مردويه عن العباس، وأبي هريرة(٣).

وقال آخرون: هو إسماعيل، وبه قال عُمر، وأبو الطفيل عامر بن واثلة، وسعيد من المسيب، والشعبي، ويوسف ابن مهران، ومجاهد، وابن عباس أيضًا، وغيرهم. واحتجوا بأن البشارة بإسحاق متأخرة عن قصة الذبح. وبقوله عليه السلام: «أنا ابن الذبيحين»(٤) فأحدهما: جده إسماعيل، والآخر: أبوه، فإن عبد المطلب نذر أن يذبح ولداً إن سَهُل له حفر زمزم، أو بلغ بنوه عشراً، فلما سَهُل، أقرع بينهم، فخرج السهم على عبد الله، فَفَدَاه بمائة من الإبل، ولذلك سنت الدية مائة. وبأن ذلك كان بمكة، وكان قرنا الكبش معلّقين بالكعبة حتى احترقا معها في أيام ابن الزبير، ولم يكن إسحاق ثمة. هـ.

وقد يُجاب بأن البشارة أولاً كانت بولادته، والثانية بنبوته، أو: بسلامته. وبأن الثانية تفسير للأولى، كأنه قال بعدما فرغ من ذكر المبشر به: وكانت تلك البشارة بإسحاق. قاله الفاسي في حاشيته. وعن الحديث بأن العم يُطلق عليه أباً، كقوله تعالى: ﴿نعبد إلهك وإله آبائك ابراهيم وإسماعيل وإسحاق﴾(٥) وكان عمّاً له، وتقدم عن ابن جبير أن إبراهيم سار بابنه على البراق إلى مكة وحيث كان الذبح بها بقي القربان فيها. والله تعالى أعلم بغيبه(٦).

---

(١) أخرجه الطبري (٨٣/٢٣) عن أبي ميسرة.

(٢) عزاه السيوطي في الدر (٥٣١/٥) للطبراني، وابن مردويه، عن ابن مسعود ﷺ.

(٣) حديث رقم (٤٣٤٩) وعبارة السيوطي: «(قط) في الإفراد، عن ابن مسعود، والبزار وابن مردويه، عن العباس بن عبد المطلب، وابن مردويه عن أبي هريرة»، والحديث ضعّفه السيوطي.

(٤) أخرج ابن جرير (٨٥/٢٣) والحاكم في المستدرك (٥٥٤/٢) عن الصّنابحي، قال: كنا عند معاوية بن أبي سفيان، فذكروا الذبيح، إسماعيل أو إسحاق، فقال: على الخبير سقطتم، كنا عند رسول الله ﷺ، فجاءه رجل، فقال: يارسول الله عُدْ عليّ مما أفاء الله عليك يابن الذبيحين، فضحك عليه الصلاة والسلام، فقال له: ياأمير المؤمنين، وما الذبيحان؟ فقال: إن عبدالمطلب لما أمر بحفر زمزم.... إلخ. والحديث ضعفه السيوطي في الدر المنثور (٥٢٩/٥).

(٥) من الآية ١٣٣ من سورة البقرة.

(٦) الصواب في هذه المسألة: أن الذبيح هو سيدنا إسماعيل ﷺ، وهذا هو المروي عن جمهرة الصحابة والتابعين ـ كسيدنا عليّ، وابن عمر، وسعيد بن المسيب، والربيع بن أنس، والشعبي، وأحمد بن حنبل، وغيرهم، واستدلوا على ذلك بأدلة كثيرة، منها:
* أن الله تعالى لمّا ذكر قصة إبراهيم وابنه الذبيح في هذه السورة (الصافات، الآيات ١٠٠ ـ ١١١) عطف على ذلك فقال: ﴿وبشرناه بإسحاق نبياً من الصالحين﴾ فهذه بشارة من الله تعالى، شكراً له على صبره على ما أُمر به. وهذا ظاهر جداً في أن المبشر به غير الأُول، بل هو كالنص فيه، وغير معقول أن يبشر بإسحاق بعد قصة يكون فيها هو الذبيح. ـ

ولمّا قال له: ﴿إني أرى في المنام أني أذبحك، فانظر ماذا ترى قال يا أبت افعل ما تؤمر﴾ به ﴿ستجدني إن شاء الله من الصابرين﴾ على الذبح. رُوى أن إبراهيم قال لابنه: انطلق بنا نُقرب قرباناً لله تعالى، فأخذ سكيناً وحبلاً، ثم انطلق معه، حتى إذا ذهب بين الجبال، قال له الغلام: يا أبت أين قربانك؟ فقال: ﴿يابُنى إنى أرى فى المنام...﴾ الآية، فقال: يا أبت خذ بناصيتى، واجلس بين كتفى، حتى لا أؤذيك إذا أصابتنى الشفرة، ولا تذبحنى وأنت تنظر لوجهي؛ لئلا ترحمنى، واجعل وجهى إلى الأرض. وفى رواية. واذبحنى وأنا ساجد، واقرأ على أمى السلام، وإن رأيت أن تردّ قميصى إلى أمى فافعل، عسى أن يسليها عنى. قال إبراهيم: نِعْمَ العون أنت على أمر الله تعالى. فربطه إبراهيم ﷺ ثم جعل يُقبله، وهو يبكى، والإبن يبكى، حتى استنقعت الدموع تحت خده.

﴿فلما أسْلَمَا﴾ أى: انقادا لأمر الله وخضعا. وعن قتادة: أسلم هذا ابنه، وهذا نفسه. ﴿وتَلَّه للجبين﴾؛ صرعه على جنبه، ووضع السكين على حلقه، فلم تعمل، ثم وضع السكين على قفاه فانقلب السكين، ونودى:

= فإن قيل: فالبشارة الثانية وقعت على نبوته، أى: لمّا صبر الأب على ما أمر به، وأسلم الولد لأمر الله، جازاه الله على ذلك بأن أعطاه النبوة.

قيل: البشارة وقعت على المجموع؛ على ذاته ووجوده، وأن يكون نبياً، ولهذا نصب «نبياً» على الحال المقدر، أى: مقدراً نبوته، فلا يمكن إخراج البشارة أن تقع على الأصل، ثم تخص بالحال التابعة الجارية مجرى الفضلة، هذا محال من الكلام، بل إذا وقعت البشارة على نبوته، فوقوعها على وجوده أولى وأحرى.

* أن البشارة بإسحاق وقعت مقرونة بولادة يعقوب، على ما هو الظاهر من قوله: ﴿فبشرناه بإسحاق، ومن وراء إسحاق يعقوب﴾ سورة هود/ ٧١، ولايتصور أن يبشر بالولد وولد الولد دفعة، ثم يؤمر بذبح الولد قبل ولادة ولده.

* وأيضاً: فلا ريب أن الذبيح كان بمكة، ولذلك جعلت القرابين يوم النحر بها، كما جعل السعى بين الصفا والمروة، ورمى الجمار، تذكيراً لشأن إسماعيل وأمه، وإقامة لذكر الله، ومعلوم أن إسماعيل وأمه هما اللذان كانا بمكة، دون إسحاق وأمه. وكان النحر بمكة من تمام حج البيت، ولو كان الذبح بالشام ـ كا يزعم أهل الكتاب ـ لكانت القرابين والنحر بالشام، لا بمكة.

وفى هذا الشأن نقل عن الأصمعى أنه قال: سألت أبا عمرو بن العلاء عن الذبيح، فقال: يا أصمعى أين عقلك، ومتى كان إسحاق بمكة؟ وإنما كان إسماعيل بمكة، وهو الذى بنى البيت مع أبيه، والمنحر بمكة.

* أما من نقل من أخبار من أن الذبيح هو إسحاق فهو منقول عن أهل الكتاب، وحال أهل الكتاب لايخفى عل ذوى الألباب، ونقل ابن القيم فى زاد المعاد (٧١/١) عن الشيخ ابن تيمية ـ رحمهما الله ـ قوله: هذا القول إنما هو متلقى عن أهل الكتاب، مع أنه باطل بنص كتابهم، فإن فيه: إن الله أمر إبراهيم أن يذبح ابنه بِكْره، وفى لفظ: «وحيده»، ولايشك أهل الكتاب مع المسلمين أن إسماعيل هو بكر أولاده، والذى غرّ أصحاب هذا القول أن فى التوارة، التى بأيديهم: اذبح ابنك إسحاق. وقال: وهذه الزيادة من تحريفهم وكذبهم، لأنها تناقض قوله: (اذبح بكرك ووحيدك)، ولكن اليهود حسدت بنى إسماعيل على هذا الشرف، وأحبوا أن يكون لهم، وأن يسوقوه إليهم، ويختاروه لأنفسهم دون العرب، ويأبى الله إلا أن يجعل فضله لأهله.

للمزيد فى هذه المسألة انظر: مفاتيح الغيب (٢٤٧/٣) ـ تفسير ابن كثير (١٧/٤ ـ ١٩) زاد المعاد لابن القيم (٧١/١ ـ ٧٥) القول الفصيح، للسيوطى، ضمن كتاب الحاوى (٣١٨/١ ـ ٣٢٢) ـ الإسرائيليات والموضوعات، للدكتور أبى شهبة (٢٥٢ ـ ٢٦٠).

يا إبراهيم قد صدّقتَ الرؤيا. رُوي أنّ ذلك المكان عند الصخرة التي بمِنى. وجواب «لما» محذوف، أي: فلما أسلما رُحما وسُعدا. وقال بعض الكوفيين: الجواب: (وتله)، والواو: زائدة. وقال الكسائي: الجواب: (وناديناه). والواو زائدة. وقال الخليل وسيبويه: الجواب محذوف، أي: فلما أسلما سَلِما. وقدّر الراضي: فلما أسلما كان من لطف الله مالا يوصف. هـ.

﴿ وناديناه أن يا إبراهيمُ قد صَدَّقْتَ الرؤيا ﴾ أي: حققت ما أمرناك به في المنام، من تسليم الولد للذبح، وبالعزم والإتيان بالمقدمات، ﴿ إنا كذلك نجزي المحسنين ﴾؛ تعليل لما خوّلهما من الفرج بعد الشدة. والحاصل: أن الجزاء هو الوقاية من الذبح، مع إمرار السكين، ولم تقطع، جزاء على إحسانهما، وقد ظهرت الحكمة بصدقهما، فإن المقصود إخلاء السر من عادة الطبيعة، لا تحصيل الذبح، رُوي أنه لما أمرّ السكين فلم تقطع، تعجّب، فنُودي: يا إبراهيمُ كان المقصود من هذا استسلامكما، لا ذبح ولدك.

﴿ إنّ هذا لَهُو البلاءُ المبينُ ﴾؛ الاختبار البيّن، الذي يتميز فيه المخلصون من غيرهم. أو: المحنة البيّنة الصعبة، فإنه لا محنة أصعب منها. ﴿ وفديناه بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾: ضخم الجثة سمين. قال ابن عباس: هو الكبشُ الذي قرّبه هابيل فقُبل منه، وكان يرعى في الجنة حتى فُدي به ولد إبراهيم. وعنه: لو تمت تلك الذبيحة لصارت سنّة، وذَبَحَ الناسُ أولادهم. رُوي أن الكبش هرب من إبراهيم عند الجمرة، فرماه؛ سبع حصيات، حتى أخذه، فبقيت سنّة في الرمي. قلت: والجمهور: أن الشيطان تعرض له عند ذهابه لذبح ولده، ثلاث مرات، فرماه سبع حصيات عند كل مرة، فبقيت سنّة في الرمي. ورُوي أنه لما ذبحه، قال جبريل: الله أكبر، فقال الذبيح: لا إله إلا الله، والله أكبر، فقال إبراهيم: الله أكبر ولله الحمد، فبقيت سنّة صبيحة العيد.

قال البيضاوي: واحتج به من جوز النسخ قبل الفعل، فإنه عليه السلام كان مأموراً بالذبح، لقوله: ﴿افعل ما تؤمر﴾ ولم يحصل.هـ. قال سيدي عبد الرحمن الفاسي في الحاشية: ولَمّا بذل إبراهيم وسعه، وفعل ما يفعله الذابح من ضجعه على شقه، وإمرار الشفرة على حلقه، لم يكن هذا من النسخ قبل الفعل، وإن كان ورود النسخ قبل الفعل جائز، لكن هذه الآية ليست منه في شيء؛ لأنه عليه السلام باشر الفعل بقدر الإمكان وبذل المجهود، ولم يكن منه تقصير، ولو لم يمنع مانع القدرة الإلهية لتم الذبح المأمور به، لهذا قال تعالى: ﴿ صَدَّقْتَ الرؤيا ﴾. وإنما احتيج إلى الفداء لتحصيل حقيقة الذبح فيه نيابة عن المفدى شرعاً، وعلامة على غاية القبول والرضا عنهما، وعوض عن ذلك ما هو كرامة لهما، ولمن بعدهما إلى غابر الدهر.هـ.

وقيل: إن هذه الآية نُسخ بها الأمر بالذبح قبل التمكين من الفعل، بناءً على أن إبراهيم لم يمر الآلة. وعزاه المحلي في جمع الجوامع لمذهب أهل السنة. وعليه ينزل الفداء، ثم قال: والحق: أن الآية من المنسخ قبل تمام الفعل وكماله، لا قبل الأخذ فيه ومعالجته. ثم اعترض كلام ابن عطية، وقال: فيه تدافع، فانظره.

﴿ وتركنا عليه في الآخرين ﴾ أي: الثناء الحسن في الأمم الآخرين، ﴿ سلامٌ على إبراهيمَ ﴾، سبق بيانه في نوح[١] ﴿ كذلك نجزي المحسنين ﴾، لم يقل: إنا كذلك، هنا، كما في غيره؛ لأنه قد سبق في القصة، فاكتفى هنا عن ذكره. ﴿ إنه من عبادنا المؤمنين ﴾، فيه تنويه بشأن الإيمان؛ لأنه أساس لكل ما يُبنى عليه من معرفةٍ وإحسان.

الإشارة: قال إني ذاهب إلى ربي بالتوجه والعزم، سيهدين إلى صريح معرفته، ومكافحة رؤيته، ودوام شهوده. فالذهاب إليه يُفضي إلى الذهاب فيه، وهو غيبة العبد عن شهود نفسه، بشهود محبوبه، وهذه الحالة متبوعة للامتحان؛ إذ امتحان كل عبد على قدر مقامه، فكلما علا المقام عَظُمَ الامتحان. فامتحن الخليل بأربع محن: تسليم بدنه للنيران، وولده للقربان، ورمى آخر عند البيت في يد الرحمن،[٢] وذهاب زوجه للجبّار، فوقع اللطف في الجميع، واصطفى خليلاً للرحمن. وأيضاً: الحق غيور، لا يُحب أن يَرى في قلب خليله أو وليّه شيئاً سواه، فأمر بذبح ولده؛ لإخراجه من قلبه، كما فرّق بين يوسف ووالده، وامتحن حبيبه ﷺ في عائشة صدّيقته، وهذه عادة الله مع أصفيائه.

قال القشيري: يُقال في القصة: أنه رآه راكباً على فرس أشهب، فاستحسنه، ونظر إليه بقلبه، فأُمر بذبحه، فلما أخرجه من قلبه، واستسلم لذبحه، ظَهَرَ الفداء. وقيل له: كان المقصود من هذا فراغ قلبك منه، لا ذبحه. ويقال في القصة: أنه أمرَ أباه أن يَشُدَّ يديه ورِجْلَيه؛ لئلا يضطربَ إذا مَسّهُ ألمُ الذبح، فيُعاتَب، ثم لمّا همّ بذبحه قال: افتحْ القيدَ عني، فإني لا أتحرك، فإني أخشى أن أُعاتب، فيقول: أمشدودَ اليد جئتني؟ وأنشدوا:

ولو بيدِ الحبيبِ سُقِيتُ سُمّاً لكان السُّمُّ من يدِه يطيب

قيل: إن الولد كان أشدَّ بلاء، لأنه وَجَدَ الذبح من يد أبيه، ولم يتعوّد منه إلا التربية بالجميل، فكان البلاء منها[٣] أشد؛ إذ لم يتوقعه منها. وقيل: بل إبراهيم أشد بلاء؛ لأنه كان يحتاج أن يذبح ابنه بيده، ويعيش بعده، ولم يأت الولد بالدعوى، بل قال: إن شاء الله، فتأدب بلفظ الاستثناء. ثم قال: ويقال: إنّ الله ستر عليهما ما عَلِمَ أنه أريد منهما في حال البلاء، وإنما كشف لهما بعد مُضيِّ وقت المحنة، لئلا يَبْطُلَ معنى الابتلاء، وهو توجع القلب

(١) راجع تفسير الآية ٧٩ من هذه السورة.
(٢) هذا على أن الذبيح هو إسحاق، وقد مر آنفاً أن الصحيح أنه سيدنا إسماعيل عليه السلام.
(٣) أي: من اليد.

بالقهرية، وكذلك لما ألقى فى النار أخفى عنه المراد منه، وهو السلامة منها ليحصل معنى الابتلاء. وهكذا يكون الحال فى حال البلاء، [ينسد عيون التهدى إلى الحال](١). وكذلك كان حال نبينا ﷺ فى الإفك، وأيوب عليه السلام، وإنما تبين الأمر بعد ظهور أجر المحنة وزوالها، وإلاَّ لم تكن حينئذ محنة، ولكن مع استعجام الحال وانبهامه؛ إذ لو كشف الأمر عن صاحبه لم يكن حينئذ بلاء.هـ. ملخصاً.

ثم قال تعالى:

﴿ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾ ﴾

قلت: «نبيا»: حال مقدرة من «إسحاق»، ولابد من تقدير مضاف محذوف، أى: وبشرناه بوجود إسحاق نبياً، أى: بأن يُوجد مقدراً نبوته، فالعامل فى الحال: الوجود، لا فعل البشارة، قاله الكواشي وغيره.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وبشَّرناه ﴾ أى: إبراهيم ﴿ بإسحاقَ ﴾ بعد امتحانه، ﴿ نبياً ﴾ أى: يكون نبياً. قال قتادة: بشَّره بنبوة إسحاق بعدما امتحنه بذبحه. قالوا: ولا يجوز أن يُبشَّر بنبوته وذبحه معاً؛ لأن الامتحان لايصح مع كونه عالماً بأن سيكون نبياً. هـ. قلت: لا يبعد أن يُبشَّر بهما معًا قبل المحنة؛ لأن العارف لا يقف مع وعد ولا وعيد؛ لاتساع علمه، فإن الوعد قد يكون متوقفاً على شروط، قد لا يُلم العبد بها، وراجع ما تقدم عند قوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا﴾(٢) بالتخفيف، وعند قوله: ﴿وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً﴾(٣). ثم قال قتادة: وهذه حجة لمن يقول: إن الذبيح كان إسحاق. ومن قال: كان إسماعيل الذبيح، قال: بشَّر إبراهيم بولد يكون نبيًا بعد القصة؛ لطاعته. هـ. وذكر ابن عطية عن مالك أنه نزع بهذه الآية لكون الذبيح إسماعيل، انظر بقية كلامه. وتقدم الجواب عنه، فإنَّ الأُولى بولادته، وهذه بنبوته. انظر الحاشية.

وقوله: ﴿ من الصالحين ﴾: حال ثانية، وورودها على سبيل الثناء؛ لأن كل نبيّ لابد أن يكون من الصالحين. قال ابن عرفه: الصلاح مقول بالتشكيك، فصلاح النبى أعظم من صلاح الولى. هـ. ﴿ وباركنا عليه وعلى إسحاقَ ﴾ أى: أفضنا عليهم بركات الدين والدنيا. وقيل: باركنا على إبراهيم فى أولاده، وعلى إسحاق بأن أخرجنا

(١) عبارة القشيرى: (تنسد الوجوه فى الحال).

(٢) الآية ١١٠ من سورة يوسف.

(٣) الآية ١١ من سورة الأحزاب.

من صلبه ألف نبى، أولهم يعقوب، وآخرهم عيسى عليه السلام. ﴿ ومن ذُريتهما ﴾ أى: إبراهيم وإسحاق، وليس لإسماعيل هنا ذكر، استغناء بذكر ترجمته فى مريم(١)، ﴿ محسنٌ ﴾؛ مؤمن ﴿ وظالمٌ لنفسه ﴾ بالكفر ﴿ مبينٌ ﴾ ظاهر كفره. أو: محسن إلى الناس، وظالم لنفسه بتعديه عن حدود الشرع.

وفيه تنبيهٌ على أن الخبيث والطيب لا يجرى أمرهما على العِرق والعنصر، فقد يلد البرُّ الفاجرَ، والفاجرُ البرَّ. وهذا مما يهدم الطبائع والعناصر، وتنبيه على أن الظلم فى أعقابهما لم يعدّ عليهما بعيب، وأن المرء إنما يعاب بسوء فعله، ويُعاقب بما كسبتْ يداه، لا على ما وجد من أصله وفرعه. قاله النسفى. قلت: قاعدة «العرق نزاع» أغلبية، لا كلية. وقيل: هو حديث، فيكون أغلبيًا، فالشجرة الطيبة لا تنبت فى الغالب إلا الطيب، إلا لعارض، والشجرة الخبيثة لا تجد فروعها إلا مثلها، إلا لسبب. والله تعالى أعلم.

الإشارة: البشارة الكبيرة، والبركة العظيمة، إنما تقع فى الغالب بعد الامتحان الكبير، فبقدر الامتحان يكون الامتكان، وبقدر الجلال يعظم الجمال، فإنَّ مع العسر يُسرا. فبقدر الفقر يعقب الغنى، وبقدر الذل يعقب العز، إن كان فى جانب الله. وقس على هذا.. ويسرى ذلك فى العقب، كما هو مشاهد فى عقب الصالحين والعلماء والأولياء. وبالله التوفيق.

ثم ذكر موسى وهارون، فقال:

﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ولقد مننَّا ﴾؛ أنعمنا ﴿ على موسى وهارونَ ﴾ بالنبوة وغيرها من المنافع الدينية والدنيوية، ﴿ ونجَّيناهما وقومَهُما ﴾؛ بنى إسرائيل، ﴿ من الكربِ العظيم ﴾؛ من الغرق والدهش الذى

---

(١) فى قوله تعالى: ﴿واذكر فى الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد وكان رسولاً نبياً، وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربه مرضيا﴾ الآيتان: ٥٤ _ ٥٥.

أصابهم، حين طلعت خيل فرعون عليهم، أو: من سلطان فرعون وقومه وعنتهم. ﴿ ونصرناهمْ ﴾ أى: موسى وهارون وقومهما، ﴿ فكانوا هم الغالبين ﴾ على فرعون وقومه. ﴿ وآتيناهما الكتابَ المستبينَ ﴾؛ البليغ فى بيانه، وهو التوراة، ﴿ وهديناهما الصراطَ المستقيمَ ﴾؛ صراط أهل الإسلام، وهو الطريق الذى يُوصل إلى الحق، ﴿ وتركنا عليهما ﴾ الثناء الحسن ﴿ فى الآخِرين ﴾ الآتين بعدهما، ﴿ سلامٌ على موسى وهارونَ، إنا كذلك نجزي المحسنين، إنهما من عبادنا المؤمنين ﴾ الكاملين فى الإيمان.

الإشارة: منّ عليهما أولاً بالخصوصية، ثم امتحنهما عليها بالكرب العظيم، كما هى عادته فى أهل الخصوصية، ثم منّ عليهم بالفرج والنصر والعز، ثم هداهما إلى طريق السير إليه، فى الظاهر والباطن، بإنزال الكتاب، وبيان طريق الرشد والصواب، فالطريق المستقيم هى طريق الوصول إلى الحضرة، وشهود عين التوحيد الخاص، ثم بنشر الصيت والذكر الحسن فى الحياة والممات. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر إلياس، فقال:

﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴿١٢٥﴾ اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وإنَّ إلياس لَمِنَ المرسلين ﴾، وهو إلياس بن ياسين بن العيزار، من سبط هارون عليه السلام. قال ابن إسحاق: لمَّا قبض الله حزقيل النبى، عظمت الأحداث فى بنى إسرائيل، ونسوا عهد الله، وعبدوا الأوثان، فبعث الله إلياس[1]، وبنو إسرائيل حينئذ متفرقون فى أرض الشام، وفيهم ملوك كثيرة. وذلك أن يوشع لمَّا فتح الشام بعد موسى عليه السلام وملكها، بوأها بنى إسرائيل، وقسمها بينهم، وأحلّ سبطاً منهم ببعلبك ونواحيها. ومنهم السبط الذى نشأ منهم إلياس. انظر الثعلبى. وقيل: إلياس هو إدريس. وقرأ ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ: «وإن إدريس» موضع إلياس. والمشهور ما تقدم.

---

(١) أخرجه الطبرى (٢٣/٩٢) عن ابن إسحاق، عن وهب بن منبه.

﴿إذ قال لقومه ألا تتقون﴾ ؛ ألا تخافون الله، ﴿أتدْعُون بَعْلاً﴾ ، هو علَم لصنم، كان من ذهب، وكان طوله عشرين ذراعا، وكان له أربعة أوجه، فافتتنوا به وعظّموه، حتى أخدموه أربعمائة سادن، وجعلوهم أنبياءه. وكان الشيطان يُوسوس إليهم شريعة من الضلالة، وكان موضعهم يُسمى «بك» فركب معه وصار «بعلبكّ»، وهو من بلاد الشام، قلت: ويسمونه اليوم عكا، وفيه قبر صالح ﷺ، وقيل: إن إلياس والخضر حيان، يلتقيان كل سنة بالموسم(١)، فيأخذ كل واحد من شعر صاحبه. قيل: إن إلياس وُكّلَ بالفيافي، والخضر وُكّلَ بالبحار. وقيل: إن الله قطع عنه لذة المطعم والمشرب، وألبسَ الريش، وطار مع الملائكة، فصار إنسياً ملكياً، أرضياً سماوياً. فهو مازال حياً. فالله أعلم.

ثم قال: ﴿وتَذَرُونَ أحسنَ الخالقين﴾ أى: تعبدون صنماً جامداً، وتتركون عبادة الله الذى هو أحسن الخالقين. ﴿اللهَ ربَّكم وربَّ آبائِكم الأولين﴾(٢). من نصب الثلاثة فبدل، ومن رفعها فمبتدأ وخبر. ﴿فكذَّبوه﴾ فسلط الله عليهم، بعد رفعه، أو موته، عدواً، فقتل ملكهم وكثيراً منهم، ﴿فإنهم لَمُحْضَرونَ﴾ فى النار، وإنما أطلقه اكتفاء بالقرينة، أو: لأن الإحضار المطلق مخصوص بالشر. ﴿إلا عبادَ الله المخلَصين﴾ من قومه، فإنهم ناجون من حضور العذاب، ﴿وتركنا عليه﴾ الثناء الحسن ﴿في الآخرين﴾. ﴿سلامٌ على آل ياسين﴾(٣)، وهو إلياس وأهله؛ لأن «ياسين» اسم أبيه. وقرأ أكثر القراء: إلياسين، بكسر الهمزة ووصل اللام، أى: إلياس وقومه المؤمنين، كقولهم: الخُبَيْبون والمهلَّبون، يعنون عبد الله بن الزبير وقومه. والمهلَّب وأتباعه. ﴿إنا كذلك نجزي المحسنين. إنه من عبادنا المؤمنين﴾ وقيل: آل ياسين هو نبينا محمد ﷺ وأهله، والسياق يأباه.

الإشارة: يُؤخذ من قوله تعالى: ﴿ألا تتقون، أتدعون بعلا..﴾ الخ، أن مدار التقوى هو توحيد الله، والانحياش إليه، والبُعد عن كل ماسواه، والرجوع إلى الله فى كل شيء، والاعتماد عليه فى كل حال. ويؤخذ من قوله: ﴿سلام على آل ياسين﴾ فى قراءة المد، أن الرجل الصالح ينتفع به أهله وأقاربه، وهو كذلك؛ فإن عَظُمَ صلاحه تعدت منفعته إلى جيرانه وقبيلته، فإذا كبر جاهه شفع فى الوجود بأسره.

---

(١) عزاه فى الدر المنثور (٥/٥٣٧) لابن عساكر، عن ابن شوذب، والحسن.
(٢) قرأ حفص، وحمزة، والكسائى بنصب الأسماء الثلاثة، وقرأ الباقون بالرفع. انظر الحجة للفارسى (٦/٦٣).
(٣) قرأ نافع، وابن عامر، ويعقوب: (آل ياسين) بفتح الهمزة، مشبعة، وكسر اللام، مفصولة عما بعدها، والمراد: ولد ياسين وأصحابه، قرأ الباقون «على إلْياسين» بكسر الهمزة، وسكون اللام، موصولة بما بعدها، كلمة واحدة، جمع «إلياس». انظر الإتحاف (٢/٤١٦).

ثم ذكر لوطاً عليه السلام، فقال:

﴿ وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وإنَّ لوطاً لَمِنَ المرسلين، إذ نجيناه ﴾ أي: واذكر إذ نجيناه ﴿ وأهلَه أجمعين، إلا عجوزاً في الغابرين ﴾؛ في الباقين؛ لأنها شاركتهم في عصيناهم، فحقّ عليهم العذاب مثل ما حق عليهم، ﴿ ثم دمرنا ﴾: أهلكنا ﴿ الآخَرِين، وإنكم لتَمُرُّونَ عليهم مُصبحينَ ﴾؛ داخلين في الصباح، ﴿ وبالليلِ ﴾ أي: ومساء، أو: نهاراً وليلاً. ولعل مدينتهم الخالية كانت قريب منزل ينزل به المسافر، فيغدوا منه ذهاباً، ويروح إليه إياباً، فكانت قريش تنزل به وتروح عنه في متاجرهم إلى الشام، فتشاهد آثارهم الدارسة، وديارهم الخالية. ﴿ أفلا تعقِلون ﴾؛ أفما فيكم عقول تعتبرون بها؟ وإنما لم يختم قصة لوط ويونس بالسلام، كما ختم قصص مَن قبلهما؛ لأن الله تعالى قد سلّمَ على جميع المرسلين في آخر السورة، أو: تفرقة بينهما وبين أرباب الشرائع، من أولي العزم.

الإشارة: ينبغي لمن له عقل إذا مرَّ بآثار مَن سلف قبله أن يعتبر، وينظر كيف كان حالهم، وإلى ما صار إليه مآلهم، وأنه عن قريب لاحق بهم، فيتأهب للسفر، ويتزود للمسير. وبالله التوفيق.

ثم ذكر قصة يونس، فقال:

﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ ۞ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وإن يُونُسَ ﴾ بن متى، اسم أبيه، ﴿ لَمِنَ المرسلينَ ﴾ إلى أهل نينَوى، فكذَّبوه، فوعدهم بالعذاب، فلما رأى أمارات العذاب هرب عنهم، وهي معنى قوله: ﴿ إذْ أبَقَ ﴾ ؛ هرب. والإباق: الهرب إلى حيث لا يهتدى إليه الطلب، فسمى هربه من قومه ـ بغير إذن ربه ـ إباقًا، مجازًا. رُوى أنه لمَّا فرَّ عنهم، وقف فى مكان ينتظر نزول العذاب بهم، وكان يُحب ذلك؛ لتكذيبهم إياه، فلما رأوا مخايل العذاب تابوا وخرجوا إلى الصحراء، يجأرون إلى الله تعالى، فكشف عنهم، فلما رأى يونس العذابَ انكشف عنهم، كره أن يرجع إليهم، فركب البحر، فأوى ﴿ إلى الفُلْكِ المشحونِ ﴾: المملوء بالناس والمتاع، فلما ركب معهم وقفت السفينة، فقالوا: هاهنا عبد آبق من سيده. وفيما يزعم أهل البحر: أن السفينة إذا كان فيها آبق لم تجر، فاقترعوا، فخرجت القرعةُ على يونس، فقال: أنا الآبق، وزجّ بنفسه فى البحر، فذلك قوله: ﴿ فَسَاهَمَ ﴾ : فقارعهم مرة ـ أو ثلاثاً ـ بالسهام، ﴿ فكان من المدْحَضِين ﴾ ؛ المغلوبين بالقرعة. ﴿ فالتقمه الحوتُ ﴾ ؛ فابتلعه ﴿ وهو مُليمٌ ﴾ ؛ داخلٌ فى الملامة، أو: آتٍ بما يُلام عليه، ولم يُـلَم فإذا ليم كان مألوما.

﴿ فلولا أنه كان من المسبِّحينَ ﴾ ؛ من الذاكرين كثيراً بالتسبيح، أو: من القائلين: ﴿ لاَّ إلَهَ إلاَّ أنتَ سُبْحَانَكَ إنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾(١) أو: من المصلين قبل ذلك؛ قال ابن عباس رضي الله عنه: كل تسبيح فى القرآن فهو صلاة. قال الحسن: ماكان له صلاة فى بطن الحوت، ولكنه قدّم عملاً صالحاً فنجاه، وإنّ العمل الصالح يرفع صاحبه، إذا عثَرَ وَجد متكأ .هـ(٢) . أى: فلولا طاعته قبل ذلك ﴿ لَلَبِثَ في بطنه إلى يوم يُبعثون ﴾ قيل: للبث حياً إلى يوم البعث. وعن قتادة: لكان بطن الحوت قبراً له إلى يوم القيامة. وقد لبث فى بطنه ثلاثة أيام ، أو: سبعة أو: أربعين يوما. وعن الشعبى: التقمه ضحوة، ولَفَظَه عشية. قيل: أوحى الله تعالى إل الحوت: إنى جعلت بطنك ليونس سجناً ـ وفى رواية: مسجداً ـ ولم أجعله لك طعاما(٣). هـ.

﴿ فنبـذْناه ﴾ أى: أخرجناه ﴿ بالعراءِ ﴾ ؛ بالمكان الخالى، لا شجر فيه ولا نبات. أو: بالفضاء، ﴿ وهو سقيم ﴾ ؛ عليل مطبوخ، مما ناله من بطن الحوت. قيل: إنه عاد بدنه كبدن الصبى حين يُولد. ﴿ وأنبتنا عليه شجرةً ﴾ أى: أنبتناها فوقه، مُظلة له، كما يطنّب البيتَ على الإنسان، ﴿ من يَقْطِينٍ ﴾، الجمهور على أنه القرع،

(١) الآية ٨٧ من سورة الأنبياء.
(٢) انظر: تفسير البغوى (٧/ ٦٠).
(٣) قال الحافظ ابن حجر: «لم أجده». وذكره الزيلعى فى تخريج أحاديث الكشاف (٥٣٥) وعزاه لابن مردويه، عن ابن مسعود، فى قصة يونس. وانظر الفتح السماوى (٣/٩٥٧).

وفائدته: أن الذباب لا تجتمع عنده، وأنه أسرع الأشجار نباتاً، وامتداداً، وارتفاعاً، وأن ورقه باطنها رطبة. وقيل لرسول الله ﷺ: إنك لتُحب القرع، فقال: «أجل، هي شجرة أخي يونس»(١)، قلت: ولعلها النوع الذي يُسمى اليوم «السلاوى»؛ لأنه هو الذي ورقه لينة، وفيه منافع.

رُوى أن ظبية كانت تختلف إليه، فيشرب من لبنها بكرة وعشية، حتى نبت لحمه، وأرسل الله تعالى على اليقطين دابة تقرض ورقها، فتساقطت حتى أذته الشمس، فشكاها إلى الله تعالى. وفي رواية: فحزن عليها، فقيل له: أنت الذي لم تخلُق، ولم تسقِ، ولم تُنبت، تحزن عليها وأنا الذي خلقت مائة ألف من الناس أو يزيدون تُريد مني أن أستأصِلَهم في ساعة واحدة، وقد تابوا، وتُبت عليهم، فأين رحمتي يا يونس، أنا أرحم الراحمين(٢) .هـ.

﴿وأرسلناه إلى مائةِ ألف﴾، المراد به القوم الذين بُعث إليهم قبل الالتقام، فتكون «قد» مضمرة، ﴿أو يزيدون﴾ في مرأى الناظر، أي: إذا رآها الرائي قال: هي مائة ألف أو أكثر. وقال الزجّاج: «أو» بمعنى «بل». وقيل: بمعنى الواو. قال ابن عباس: زادوا على مائة ألف عشرين ألفا. وقال الحسن: بضعاً وثلاثين ألفا. وقال ابن جبير: سبعين ألفا. وقيل: وأرسلناه بعد الالتقام إلى مائة ألف. وقيل: قوماً آخرين. ﴿فآمنوا﴾ به، وبما أُرسل به، ﴿فمتعناهم﴾ بالحياة ﴿إلى حين﴾ منتهى أجلهم، ولم يُعاجَلوا، حيث تابوا وآمنوا.

الإشارة: في قصة يونس نكتة صوفية، ينبغي الاعتناء بها، وهو أن العبد إذا زلّت قدمُه، وانحط عن منهاج الاستقامة، لا ييأس ولا يضعُف عن التوجه، بل يلزم قَرعَ الباب، ويتذكر ما سلف له من صالح الأعمال، فإن الله تعالى يرعى ذمام عبده، كما يرعى العبد ذمام سيده، وفي حال البُعد والغضب يظهر المحب الصادق من الكذّاب، وفي ذلك يقول ابن وفا رضي الله عنه:

ونحن على العهد نرعى الذمام وعهـــد المحبين لا ينقضـــى
صـــددت فكنت مليح الصـــدود وأعرضـتَ أفديك من معرض
وفى حالة السخط لا فى الرضا بيـــان المحـــب من المُبغض.

(١) عزاه السيوطي في الدر المنثور (٥/٥٤٤) لعبد بن حميد، وابن جرير، عن شهر بن حوشب.
(٢) عزاه السيوطي في الدر (٥/٥٤٤ ـ ٥٤٦) لعبد الرزاق، وأحمد في الزهد، وعبد بن حميد، عن وهب.

وفيها أيضا: الحث على الشفقة على عباد الله، وإن كانوا عصاة. قال القشيري: وفي القصة: أن الله تعالى أوحى إلى يونس بعد نجاته: قُلْ لفلانٍ الفخّار: يكْسِرَ من الجرات ما عمله في هذه السنة كلّها، فقال يونس: يا ربٍّ، إنه تعنيّ مدةً في إنجاز ذلك، فكيف آمُره أن يكسرها كلّها؟ فقال له: يا يونس، يَرِقُّ قلبك لخزاف يُتْلِفُ عملَ سنةٍ، وأردتَ أن أُهْلِكَ مائةَ ألفٍ من عبادي؟ لم تخلقهم، ولو خلقتَهم لرحمتهم.هـ.

ثم وبّخ قريشاً على قولهم: الملائكة بنات الله ـ بعد ذكر هلاك من كفر من الأمم قبلهم، تهديداً، فقال:

﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ (١٤٩) أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ (١٥٠) أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ (١٥١) وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ (١٥٢) أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ (١٥٣) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (١٥٤) أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (١٥٥) أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ (١٥٦) فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (١٥٧) وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (١٥٨) سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٥٩) إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ (١٦٠) ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿فاستَفتهم أَلِربّكَ البناتُ ولهم البنونَ﴾، أَمَرَ رسولَه أولاً في أول السورة باستفتاء قريش على وجه إنكار البعث، بقوله: ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا﴾(١)، ثم أمره هنا باستفتائهم [عن](٢) وجه القسمة الضِّيزى التي قسموها، بأن جعلوا لله الإناث، ولهم الذكور في قولهم: الملائكة بنات الله، مع كراهتهم لهن، واستنكافهم من ذكرهن، وليس من باب العطف النحوي، خلافاً للزمخشري.

﴿أمْ خلقنا الملائكةَ إناثاً وهم شاهدون﴾؛ حاضرون حتى تحققوا أنهم إناث. وتخصيص علمهم بالمشاهدة استهزاء بهم، وتجهيل لهم، لأنهم كما لم يعلموا ذلك مشاهدةً، لم يعلموه بخلق الله علمه في قلوبهم، ولا بإخبار صادق، ولا بطريق استدلال ونظر، بل بمجرد ظن وتخمين، وإلقاء الشيطان إليهم. أو: معناه: أنهم يقولون ذلك عن طمأنينة نفس؛ لإفراط جهلهم، كأنهم شاهدوا خلقهم.

---

(١) الآية ١١ من سورة الصافات.

(٢) في الأصول [على].

﴿ ألاَ إنهم من إفكِهِمْ لَيقولون وَلَدَ اللهُ، وإنهم لكاذبون ﴾ فى قولهم. ﴿ أصْطَفَى البناتِ على البنين ﴾، الهمزة للاستفهام الإنكارى، وحذفت همزة الوصل استغناء عنها بهمزة الاستفهام، والاصطفاء: أخذ صفوة الشيء، ﴿ مالكم كيف تحكمون ﴾ هذا الحكم الفاسد، الذى لا يرتضيه عقل ولا نقل، ﴿ أفلا تَذَكَّرُون ﴾ فتعرفوا أنه منزّه عن ذلك؟ ﴿ أم لكم سلطان مبين ﴾؛ حجة واضحة نزلت عليكم من السماء بأن الملائكة بنات الله؟ ﴿ فأتوا بكتابكم ﴾ الذى أنزل عليكم، ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ فى دعواكم.

﴿ وجعلوا بينه ﴾؛ بين الله ﴿ وبين الجِنَّةِ ﴾؛ الملائكة ـ لاستتارهم، ﴿ نَسَبًا ﴾ وهو زعمهم أنهم بنات الله. أو: قالوا: إن الله صاهر الجن، تزوج سَرَوَاتِهم فولدت له الملائكة(١)، تعالى الله عن قولهم علوًا كبيرًا. ﴿ ولقد عَلِمَتِ الجِنَّةُ إنهم لَمُحْضَرُونَ ﴾ أى: ولقد علمت الملائكة إن الذين قالوا هذا القول لمحضرون فى النار. أو: لقد علمت الملائكة إنهم سيحضرون للحساب من جملة العباد، فكيف تكون بنات الله؟. ﴿ سبحان الله عما يصفون ﴾، نزّه نفسه عما يصفه الكفرة من الولد والصاحبة، ﴿ إلا عبادَ الله المخلَصين ﴾، استثناء منقطع من «المحضرين»، أي: لكن المخلصون ناجون من النار. و«سبحان الله»: اعتراض بين الاستثناء وبين ما وقع منه، ويجوز أن يقع الاستثناءُ من واو «يصفون»، أى: عما يصفه هؤلاء الكفرة لكن المخلصون برءاء من أن يصفوه بذلك.

الإشارة: الحق تعالى فى عالم القدرة منزه عن الولد والصاحبة، وتصور الاثنينية، وإنما سر الازدواج والتولد خاص بعالم الحكمة فى حضرة الأشباح، فليكن للعارف عينان عين تنظر لعالم القدرة فى حضرة أسرار الذات، فتوحّد الله، وتنزهه عن الاثنينية، وعين تنظر لعالم الحكمة، فتثبت سر الازدواج والتولد فى حضرة الأشباح، والمظهر واحد، ولا يفهم هذا إلا الأفراد من البحرية، الذين خاضوا بحر أحدية الذات وتيار الصفات، فحطَّ رأسك لهم، إن أردت أن تذوق هذه الأسرار. وإلا فسلم تسلم.

ثم بيّن أنّ الأمور كلها بيد الله، هدايةً وإضلالاً، فقال:

﴿ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾ ﴾

---

(١) انظر تفسير الطبرى (٢٣/١٠٨).

يقول الحق جل جلاله: ﴿فإنكم﴾ أيها المشركون ﴿وما تعبدون﴾ أى: ومعبوديكم، ﴿ما أنتم﴾ وهم جميعاً ﴿عليه﴾، على الله ﴿بفاتِنين﴾، بمضلّين، ﴿إلا من هو صَالِ الجحيم﴾ أى: إلا من سبق فى علمه أنه من أهل النار. والمعنى: إنكم لستم تضلّون أحداً إلا أصحاب النار، الذين سبق فى علمه أنهم يستوجبون بأعمالهم النار، يقال: فتن فلانٌ على فلانٍ امرأته: أفسدها عليه. وقال الحسن: فإنكم أيها القائلون لهذا القول والذى تعبدونه من الأصنام، ما أنتم على عبادة الأصنام بمضلّين أحداً، إلا من أوجبتُ عليه الضلال فى السابقة. هـ. وفيها دليل للقدر، بل هى صريحة فيه. و«ما» فى «أنتم»: نافية، و«مَن»: فى موضع النصب بفاتنين، على الاستثناء المفرغ، أى: لا تفتنون إلا الذى هو صالى الجحيم. وحذفت الياء فى الرسم اكتفاء بالكسرة، وقرأ الحسن: «صالُ الجحيم» بضم اللام ـ ووجهه: أنه جمْع، فحذفت النون للإضافة. والواو لالتقاء الساكنين، و «مَن» مفرد فى اللفظ، جمع فى المعنى، فحمل «هو» على اللفظ، و «الصالون» على المعنى.

الإشارة: ويقال لمن يُرغّب الناس فى الدنيا، ويدلهم على جمعها، والاعتناء بها، بمقاله، أو بحاله، ويزهّد فى طريق التجريد والانقطاع إلى الله: ما أنتم بفاتنين أحداً عن طريق الله، إلا من سبق أنه يصلى نار القطيعة والبُعد، وأما من سبقت له سابقة الوصال، فلا يصده عن الله فاتن ولا ضال. ولاشك أن من يدلّ الناس على الدنيا فقد غشهم. قال القطب ابن مشيش رضي الله عنه: من دلّك على الدنيا فقد غشك، ومن دلّك على العمل فقد أتبعك، ومن دلك على الله فقد نصحك. هـ . فالدلالة على الدنيا من شأن المغرورين، ورين الفاتنين، والدلالة على العمل من شأن الصالحين، الواقفين مع ظاهر الشريعة وعملها، والدلالة على الله من شأن العارفين أهل التربية، يدلون على الله، بسقى الكؤوس، ونسيان النفوس، ودخول حضرة القدوس، من باب الكرم والجود. وبالله التوفيق.

ثم رجع إلى الكلام على الملائكة، فقال:

﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾﴾

يقول الحق جل جلاله حاكياً عن الملائكة: ﴿وما منّا إلا له مَقامٌ معلومٌ﴾ فى العبادة، أو: فى السموات، نعبد الله فيه، أو: فى القُرب والمشاهدة لا نتعداه، ولا نترقى عنه إلى غيره، ففيه تنبيه واعتراف بافتقارهم لمخصصهم، القاضى بحدوثهم. وفى اعترافهم بذلك ردٌ على زعم الكفار أنهم بنات الله، أو شركاء له، وتنزيه له تعالى عن ذلك؛ لتنافى العبودية والطاعة التى اعترفوا بها، والبنوة المدّعاة من الكفار، تعالى الله عن قولهم. وهذا

يجرى أيضا فى القول الذى يقول: إنهم قسم ثالث، مجردات، ليسوا بجوهر ولا عرض، كالأرواح، فإنها على تقدير كونها كذلك، جائزة؛ لقبولها التفاوت فى العلوم والمعارف وغير ذلك. وذلك قاضٍ بالافتقار، والتخصيص لِمَا هى عليه، المستلزم للحدوث. قاله فى الحاشية.

قلت: القول بأن الملائكة مجردات عن المادة، هو قول الفلاسفة، ونحى إليه الغزالى. وهو مناقض للقرآن والحديث؛ لأن كونهم صفوفاً قائمين، أو ساجدين، أو سائرين، يقتضى تشكيلَهم وتحييزَهم، فيستلزم المادة؛ إلا أنها نورانية لطيفة، وكذلك الأرواح، على ما فى الأحاديث، فإنها متحيزة على أشكال لطيفة. والله أعلم.

﴿ **وإنا لنحن الصافُّون** ﴾؛ نصفّ أقدامنا فى الصلاة، أو: نصفّ حول العرش داعين للمؤمنين، ﴿ **وإنا لنحنُ المسبِّحُون** ﴾؛ المنزّهون الله تعالى عما نسبته إليه الكفرة، من الولد، وغير ذلك من الأباطيل المذكورة. أو: المشتغلون بالتسبيح على الدوام، أو: المصلّون. ويحتمل أن يكون هذا وما قبله؛ من قوله: ﴿سبحان الله....﴾ إلخ، من كلام الملائكة، حتى يتصل بذكرهم(١)، كأنه قيل: ولقد علِمَ الملائكةُ أن المشركين محضرون للعذاب على افترائهم على الله فيما نسبوا إليه، وقالوا: سبحان الله، ونزّهوه عن ذلك، واستثنوا عباد الله المخلصين، وبرّؤوهم من ذلك، وقالوا للكفرة: وإذا صح ذلك؛ فإنكم وآلهتكم لا تقدرون أن تفتنوا على الله أحداً من خلقه، وتضلّوه، إلاَّ من كان من أهل النار، وكيف نكون مناسِبين لرب العزة! وما نحن إلا عبيد أذلاء بين يديه، لكلّ منا مقامٌ من الطاعة معلومٌ، لا يستطيع أن يزلّ عنه، ونحن نصفّ أقدامنا لعبادته، مسبِّحين بحمده، كما يجب على العباد. ولعل قولهم: ﴿ **وما منا إلا له مقام معلوم** ﴾ إشارة إلى تفاوتهم فى درجات القُرب ومقامات اليقين. وقولهم: ﴿ **وإنا لنحن الصافُّون** ﴾ إشارة إلى تفاوتهم فى الطاعات والعبادات، وهم طبقات؛ منهم هائمون مستغرقون فى الشهود، ومنهم مستغرقون فى مقام الهيبة والمراقبة، ومنهم مستغرقون فى الخدمة والعبادة. والله تعالى أعلم.

الإشارة: مادة الآدمى أكمل من مادة الملائكة، فإذا اتصل العبد بشيخ كامل، واعتنى بتصفية روحه وسره، طوَى نوره الوجودَ بأسره، ولا يزال يترقى فى معاريج أسرار التوحيد والتفريد، وتتوارد عليه الكشوفات، والعلوم، والأسرار، فى هذه الدار الفانية، وفى تلك الدار الباقية، أبداً سرمداً، بخلاف الملائكة، فإنّ لكل واحد مقاماً معلوماً لايتعداه، كما أخبر تعالى.

وسرُّ ذلك: أن الآدمى فيه بشرية وروحانية، فكلما جاهد نفسه، وغاب عن حس بشريته؛ ترقى فى معارج التوحيد، والمجاهدة لا تنقطع عنه فى هذا الدار؛ لأنها دار أكدار، فلا ينقطع عنه الترقى فى المشاهدة، وأما فى تلك

(١) فى قوله: ﴿ولقد علمت الجِنَّة﴾.

الدار؛ فالترقي فيها من باب الكرم والإثابة على ما هنا. وأيضا: البشرية للآدمى بمنزلة الطلاء للمرآة، فالمرآة بلا طلاء لا ترى فيها صور الأشياء، كذلك الملائكة لابشرية لهم، فلا تنكشف لهم الحقائق كما تنكشف للآدمى، ولو كشف لهم ما أنكشف له لذابوا. والله أعلم.

قال فى القوت: لَعمرى إن سائر الملائكة لا ينتقلون فى المقامات كترقى المؤمنين، إنما لكلٍّ مقام معلوم، لا ينتقل إلى غيره، إلا أنهم يُمدّون من ذلك بمدد لانهاية له إلى يوم القيامة، بأكثر مايزاد جملة البشر هـ. قلت: ومعنى كلامه: أن الملائكة يُمدون فى مقامهم بقوة لا يستطيعها البشر، فمن كان فى مقام الهيبة دام فيها، وقَوِى عليها، ومن كان فى مقام الخدمة، دام عليها، وقوى عليها، قوةً لا يطيقها البشر، ولا يترقى عنها، بخلاف الآدمى، فليست فيه هذه القوة، لكنه يترقى من مقام إلى مقام، ويترقى فى المعارف على الدوام.

ثم بسط صاحب القوت فى ذلك الكلام فى فضائل الصلاة، وأنها جامعة لما فُرق على الملائكة من الأعمال والأذكار. قال: وبذلك فضل المؤمنون الملائكة، وكذلك فضل الموقن أيضا فى مقامات اليقين من أعمال القلوب، على الأملاك بالتنقيل بأن جُمعت فيه، ورُفع فيها مقامات، والملائكة لا يُنقلون، بل كل ملك موقوف فى مقام معلوم، لا ينقل منه إلى غيره، وإنما له المزيد من المقام الواحد على قدر قواه، وجمع ذلك كله فى قلب المؤمن، ونقل فيه مقامات. وكان له من كل مقام مشاهدات. هـ.

قال المحشى الفاسى: وفيه نظر، مع تلقيهم ضروب الوحى الجامع للمقامات، فكيف لايُمكّنهم تحققاً بها على اختلافها؟، ولو كان كما قال؛ لكان كل ملَكٍ إنما يتلقى من الوحى ما يناسبه، ويختص بمقامه، وليس الأمر كذلك ضرورة. هـ. قلت: وفى نظره نظر؛ إذ لا يلزم من تلقيهم للوحى على أنواعه أن يترقوا به؛ إذ ليس الترقى هو مجرد العلم، بل الترقى إنما هو أذواق ووجدان، وكشوفات بعد حصول العلم. وقد يتحقق العلم بالمقام، ولا ينتقل عنه إلى غيره، بل قد يعلمه ولا يذوقه، كما هو محقق عند أهل الفن، ثم قال: والحق مانبّه عليه البيضاوى. وكلام القوت ينظر لقول الحكماء، ومثله كلام الإحياء. هـ.

ونص البيضاوى فى قوله تعالى: ﴿ قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ ﴾(١) الآية: إنّ علوم الملائكة وكمالاتهم تقبل الزيادة، والحكماء منَعوا ذلك فى الطبقات العليا منهم، وحملوا عليه قوله تعالى: ﴿ وما منا إلا له مقام معلوم ﴾. هـ. قلت: ترقى الآدمى هو انتقاله من مقام إلى مقام، حتى يُكاشف بأسرار الذات وأنوار الصفات، ثم لايزال يترقى

(١) الآية ٣٣من سورة البقرة.

فى الأذواق والكشوفات، يتجدد له فى كل يوم وساعة، حلاوة وكشف لم تكن عنده قبلُ، بخلاف الملائكة، فإنما يترقى كل واحد فى كشف أسرار مقامه، ويجد حلاوة فى ذلك المقام لم تكن له قبلُ، ولا ينتقل عنه، فمن كان من أهل الخدمة زاده الله حلاوتها. ومن كان من أهل المراقبة فكذلك. ومن كان من أهل المشاهدة غلب عليه السكر وال ... ، ولايزيد على ذلك. وهم الطبقة العليا، فلا منافاة بين كلام القوت وكلام البيضاوى؛ لأن الترقى إنما هو ى الأذواق، والكشوفات، لا فى العلوم الغيبية، ولا فى الكمالات النفسية. فتأمله.

وقال القشيرى: الملائكة لا يتخطون مقامهم، ولا يتعدّون حدّهم، والأولياء مقامهم مستورٌ بينهم وبين الله، لا يطلع عليه أحد، والأنبياء ـ عليهم السلام ـ لهم مقام مشهورٌ، مُؤيّدٌ بالمعجزات الظاهرة؛ لأنهم للخلْق قدوة، فأمْرُهُمْ على الشهرة، وأمْرُ الأولياء على السّترِ. هـ. وقال الورتجبى: أهل البدايات فى مقام الطاعات، والأوْساط فى المقامات، مثل التوكل والرضا، والتسليم، والمُحبُّون فى مقامات الحالات والمواجيد، وأهل المعرفة فى مقام العارف، ينقلون فى المشاهدة من مقام إلى مقام، ولا يبقى المقام للموحدين، فإنهم مستغرقون فى بحار الذات والصفات، فليس لهم مقام معلوم؛ لأن هناك لم يكن لهم وقوف، حيث أفناهم قهرُ الجلال، والجمال، والعظمة، والكبرياء، عن كل ما وجدوا من الحق، فيبقوا فى الفناء إلى الأبد. هـ. قلت: ماذكر من الطبقات الثلاث هم العباد، والزهاد، وأرباب الأحوال، وحالهم كحال الملائكة، يُمَدُّون فى مقامهم، ولا ينتقلون منه، فلكل واحدة قوة فى مقامه، لا يطيقها العارف، لكنه فاتهم بالترقى عنهم إلى مشاهدة الذات، والترقى فيها أبدا..

ثم قال الورتجبى فى قوله تعالى: ﴿وإنا لنحن الصافُّون﴾: لمّا كانوا من أهل المقامات المعلومات افتخروا بمقاماتهم فى العبودية، من الصلاة والتسبيح، ولو كانوا من أهل الحقائق فى المعرفة لفنوا عن ملاحظة طاعتهم، من استيلاء أنوار مشاهدة الحق عليهم، والاستغراق فى بحارٍ من الألوهية. قال بعضهم: لذلك قطعت بهم مقاماتُهم عن ملاحظة المنّةَ، حتى قالوا بالتفخيم: ﴿إنا لنحن﴾، فلما أظهروا سرائرهم عارضوا إظهار أفعال الربوبية بالمعارضة، حتى قالوا: ﴿أتجعل بها من يُفسد فيها﴾. هـ. وكلامنا كله مع عامة الملائكة، وأما المقربون؛ فالأدب الإمساك عنهم ـ صلوات الله وسلامه عليهم.

ثم رجع إلى الكلام مع قريش، فقال:

﴿ وَإِن كَانُواْ لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾
فَكَفَرُواْ بِهِۦ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾

وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وإن كانوا ﴾ أي: مشركو قريش ﴿ لَيَقُولون ﴾ قبل مبعثه ﷺ: ﴿ لو أنَّ عندنا ذِكْرًا من الأولين ﴾ أي: كتاباً من كتب الأولين، الذين نزل عليهم التوراة والإنجيل، ﴿ لكُنَّا عبادَ الله المخلصين ﴾ أي: لأخلصنا لله، وما كذّبنا كما كذّبوا، ولَمَا خالفنا كما خالفوا، فلما جاءهم الذكر الذي هو سيد الأذكار، والكتاب الذي هو مهيمن على الكتب، فكفروا به، ﴿ فسوف يعلمون ﴾ عاقبة تكذيبهم، وما يحلّ بهم من الانتقام. و «إن» مخففة، واللام فارقة. وفي ذلك أنهم كانوا يقولون، مؤكِّدين للقول، جادِّين فيه، ثم نقضوا بأشنع نقض، فكم بين أول الأمر وآخره!.

ثم بشّر رسولَه بالنصر والعز، فقال: ﴿ ولقد سبقتْ كلمتُنا لعبادنا المرسَلين ﴾ أي: وعدناهم بالنصر والغلبة. والكلمةُ هي قوله: ﴿ إنهم لَهُمُ المنصورون ﴾ دون غيرهم، ﴿ وإنَّ جُندَنا لهم الغالبون ﴾، وإنما سمّاها كلمةً، وهي كلمات؛ لأنها لمّا انتظمت في معنى واحد كانت في حكم كلمة مفردة، والمراد: الوعد بعلوّهم على عدوهم في مقام الاحتجاج وملاحم القتال في الدنيا، وعلوهم عليهم في الآخرة. وعن الحسن: ما غُلب نبيّ في حرب قط. وعن ابن عباس رضي الله عنه: إن لم ينتصروا في الدنيا نُصروا في العُقبى. والحاصل: أن قاعدة أمرهم، وأساسَه، والغالب منه: الظفَر والنصر، وإن وقع في تضاعيف ذلك شوب من الابتلاء والمحنة فنادر، والعبرة بالغالب.

﴿ فتولَّ عنهم حتى حينٍ ﴾؛ إلى مدة يسيرة. وهي المدة التي أُملهوا فيها، أو: إلى بدر، أو: إلى فتح مكة، ﴿ وأبْصِرْهُم ﴾ أي: أبصر ما ينالهم، والمراد بالأمر: الدلالة على أن ذلك كائن قريب، ﴿ فسوف يُبْصِرُون ﴾ ما قضينا لك من النصر والتأييد، والثواب الجزيل في الآخرة. و «سوف» للوعيد، لا للتبعيد.

ولَمّا نزل: ﴿فسوف يُبْصِرُون﴾ قالوا: متى هو؟ فنزل: ﴿ أفبعذابنا يستعجلون ﴾ قبل وقته؟ ﴿ فإذا نَزَلَ ﴾ العذاب ﴿ بساحتهم فساءَ صباحُ المنذَرين ﴾ صباحهم. واللام للجنس؛ لأن «ساء» و «ليس» يقتضيان ذلك. قيل: هو

نزول رسول الله ﷺ يوم الفتح بمكة. وقيل: نزول العذاب بهم يوم القيامة. شبهه بجيش هجم فأناخ بفنائهم بغتة. والصباح: مستعار من : صباح الجيش المبيت، استعير لوقت نزول العذاب. ولمّا كثرت الغارة فى الصباح سموا الغارة صباحاً، وإن وقعت فى غيره.

﴿ وتولَّ عنهم حتى حينٍ، وأبْصِر فسوف يُبصرون ﴾، كُرر ليكون تسلية بعد تسلية، وتأكيداً لوقوع الوعد إلى تأكيد، وفيه فائدة، وهو إطلاق الفعلين معاً عن التقييد بالمفعول، بعد التقييد له، إيذان بأنه يُبْصِر من صنوف المسرة ويُبصرون من أنواع المساءة ما لا يفي به نطاقُ العبارة. وقيل: أريد بأحدهما: عذاب الدنيا، وبالآخر: عذاب الآخرة.

﴿ سبحانَ ربك ربِّ العزة ﴾، أضيف الربّ إلى العزة لاختصاصه بها، أو: يريد: أن ما من عزّة لأحد إلا وهو ربها ومالكها، لقوله: ﴿ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ ﴾(١) أى: تنزيهاً له عما يصفون من الولد والصاحبة والشريك. ﴿ وسلامٌ على المرسلين ﴾، عمم الرسل بالسلام بعدما خصص البعض فى السورة؛ لأن فى تخصيص كلٍّ بالذكر تطويلا. ﴿ والحمدُ لله ربِّ العالمين ﴾ على هلاك الأعداء، ونصرة الأنبياء.

قيل: فى ختم السورة بالتسبيح بعد ما تضمنته السورة من تخليط المشركين وأكاذيبهم، ونسبتهم إلى جلاله الأقدس ما لا يليق بجنابه الأرفع، تعليم للمؤمنين ما يختمون به مجالسهم؛ لأنهم لا يخلو إذا جلسوا مجلساً من فلتة أو هفوة، وكلمات فيها رضى الله وسخطه، فالواجب على المؤمن إذا قام من مجلسه أن يتلو هذه الآية؛ لتكون مكفرة لتلك السقطات، ويحمد لِما وفق من الطيبات، ومن ثمّ قال ﷺ: «كلمات لا يتكلمُ بهن أحد فى مجلسه عند قيامه ثلاث مرات؛ إلا كُفِّرَ بهن عنه، ولايقولهن فى مجلس خيرٍ، ومجلس ذكرٍ، إلا ختم الله بهن، كما يُخْتَم بخاتم على الصحيفة؛ سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد ألا إله إلا أنت، استغفرك وأتوب إليك»(٢). والمراد هو ختم المجلس أو الكلام بالتنزيه. وعن علىّ - كرم الله وجهه: من أراد أن يكتال بالمكيال الأوفى من الأجر يوم القيامة، فليكن آخر كلامه: ﴿سبحان ربك رب العزة عما يصفون﴾(٣) .. الخ.

---

(١) من الآية ٢٦ من سورة آل عمران.

(٢) أخرجه، بلفظه، أبو داود فى (الأدب، باب فى كفارة المجلس ٥/ ١٨١، ح٤٨٥٧) وابن حبان فى صحيحه (٥٩٢) عن عبد الله ابن عمرو بن العاص، موقوفاً. وأخرجه أبو داود فى الموضع نفسه (ح٤٨٥٨) عن أبى هريرة مرفوعاً. ولم يذكر أبو داود نص الرواية، بل قال- بعد ذكره لرواية عبد الله بن عمرو: (عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ مثله)، وأخرجه بنحوه الترمذى فى (الدعوات باب: ما يقول إذا أقام من المجلس ٥/ ٤٦٠ - ٤٦١، ح ٣٤٣٣) من حديث أبى هريرة، مرفوعاً

(٣) أخرجه البغوى فى تفسيره (٧/ ٦٦) وعبد الرزاق فى المصنف (٢/ ٢٣٧)، عن سيدنا علىّ، موقوفاً، وعزاه السيوطى فى الدر المنثور (٥/ ٥٥٤) لابن أبى حاتم، من رواية الشعبى، عن النبى ﷺ، مرسلاً.

وعنه ﷺ أنه قال: «إذا سلمتم عليّ فسلّموا على المرسلين، فإنما أنا أحدهم»(١).

الإشارة: ترى بعض الناس يقول: لو ظهر شيخ التربية لكُنَّا من المخلصين، بصحبته وخدمته، فلما ظهر كل الظهور جحد وكفر، وأَنِفَ واستكبر، وقنع بما عنده من العلم، فإذا رأى ما ينزل بأهل النسبة من أصحابه، من الامتحان فى أول البادية، قال: ليس هذه طريق الولاية، فيقال له: ولقد سبقتْ كلمتُنا لعبادنا المرسلين، ولِمن كان على قدمهم، إنهم لَهُمُ المنصورون، وإنّ جندنا لهم الغالبون، فتولّ عن مثل هذا حتى حين، وهو وقت هجوم الموت عليه، وأبصر ما يحلّ به من غم الحجاب، وسوء الحساب، فسوف يُبصرون مايناله أهل النسبة من الاصطفاء والتقريب، فإذا طلب الكرامة بالانتصار ممن ظلمهم، فيقال له: ﴿أفبعذابنا يستعجلون....﴾ الآية. والغالب عليهم الرحمة. فإذا أُوذوا قابلوا بالإحسان، إذ لم يروا الفعل إلا من الرحمن، فينزهونه بقولهم: ﴿ سبحان ربك رب العزة عما يصفون، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين ﴾(*).

❁ ❁ ❁

---

(١) أخرجه الطبرى (١١٦/٢٣) وزاد السيوطى فى الدر (٥٥٣/٥) عزوه لعبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبى حاتم، عن قتادة، بنحوه. كما عزاه السيوطى لابن مردويه، وابن سعد، عن قتادة، عن أنس.

(*) إلى هنا ينتهى المجلد الرابع بتجزئة المحقق، ويتلوه ـ إن شاء الله ـ المجلد الخامس، وأوله تفسير سورة «ص». ـ أسأل الله العلى القدير ـ أن يتقبله بأحسن قبول، وأن يبلّغ من طالعه كل مأمول. والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً. وكان الفراغ من نسخ هذا المجلد وتحقيقه ومراجعته فى الثانى عشر من ربيع الأول، سنة عشرين وأربعمائة وألف، على يد/ أحمد عبدالله القرشى، عفا الله عنه، آمين.

فهرس المجلد الرابع

تفسير سورة النور ٥
تفسير سورة الفرقان ٧٥
تفسير سورة الشعراء ١٢٣
تفسير سورة النمل ١٧٣
تفسير سورة القصص ٢٢٩
تفسير سورة العنكبوت ٢٨٥
تفسير سورة الروم ٣٢٣
تفسير سورة لقمان ٣٥٩
تفسير سورة السجدة ٣٨٥
تفسير سورة الأحزاب ٤٠٣
تفسير سورة سبأ ٤٧١
تفسير سورة فاطر ٥١٣
تفسير سورة يس ٥٥٥
تفسير سورة الصافات ٥٨٩

* * *

البحر المديد

في تفسير القرآن المجيد

لأبى العباس أحمد بن محمد بن عجيبة
١١٦١ هـ - ١٢٢٤ هـ

تحقيق وتعليق
أحمد عبد الله القرشي رسلان
مدرس مساعد بقسم التفسير - كلية أصول الدين - طنطا

المجلد الخامس

من أول سورة ص حتى آخر سورة القمر

طبع على نفقة د. حسن عباس زكى
القاهرة ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠ م

تفسير ابن عجيبة
«البحر المديد»

بسم الله الرحمن الرحيم

سُورَةُ صٓ

مكية، أو: سورة داود. وآيها: ست أو ثمان وثمانون آية. ومناسبتها لما قبلها: قوله تعالى: ﴿لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ الْأَوَّلِينَ﴾(1) مع قوله: ﴿والقرآن ذي الذكر﴾، فأخبر عنهم أولاً أنهم لو نزل عليهم الذكر لأخلصوا في الإيمان، فلما نزل كفروا به، وتعززوا عنه، قال تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ صٓ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ﴿١﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴿٢﴾ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴿٣﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿صٓ﴾ أي: أيها الصادق المصدوق. وقال القشيري: معناه: مفتاحُ اسمه الصادق، والصبور، والصمد. أقسم بهذه الأسماء، وبالقرآن ﴿ذي الذكر﴾ أي: ذي الشرف التام، الباقي، المخلد لمن تمسك به، أو: ذي الوعظ البليغ لمن اتعظ به، أو: ذي الذكر للأمم والقصص والغيوب. أو: يراد به الجميع. وجواب القسم: محذوف، أي: إنه لكلام معجز، أو: إنه لَمن عند الله، أو: إن محمداً لصادق، أو: ما الأمر كما يزعمون، أو: ﴿إنك لمن المرسلين﴾ وقيل: ﴿إنْ كُلٌّ إلا كذَّب الرسل﴾ أو: ﴿إن ذلك لحق تخاصم أهل النار﴾، وهو بعيد.

﴿بل الذين كفروا﴾ من قريش ﴿في عزَّةٍ﴾؛ تكبّر عن الإذعان لذلك، والاعتراف بالحق، ﴿وشِقَاقٍ﴾؛ خلاف لله ولرسوله. والإضراب عن كلام محذوف يدل عليه جواب القسم، أي: إن كفرهم ليس عليه برهان، بل هو بسبب العزة، والعداوة، والشقاق، وقصد المخالفة. والتنكير في «عزة وشقاق» للدلالة على شدتهما وتفاقمهما. وقرئ «في غِرَّةٍ»(2) أي: في غفلة عما يجب عليهم من النظر واتباع الحق.

ثم هددهم بقوله: ﴿كم أهلكنا مِن قبلهم﴾؛ مِن قبل قومك ﴿من قَرْنٍ﴾؛ من أُمّة أو جيل، ﴿فَنَادَوا﴾ أي: فدعوا واستغاثوا حين رأوا العذاب: ﴿ولاتَ حين مَنَاصٍ﴾ أي: وليس الوقت وقت خلاص ونجاة وفرار،

(1) الآية ١٦٨ من سورة الصافات. (2) هي قراءة حماد بن الزبرقان. انظر مختصر ابن خالويه صـ١٣٠.

والمعنى: أنهم استغاثوا حين لم ينفعهم ذلك. ﴿ولات﴾ هي «لا» المشبّهة بـ«ليس»، زيدت عليها تاء التأنيث، كما زيدت على «ربّ»، و«ثمّ» للتوكيد، وتغيّر بذلك حكمها، حيث لم تدخل إلا على الأحيان، ولم يبرز إلا أحد معموليها، إما الإسم أو الخبر، وامتنع بروزهما بنفى الأحيان، وهذا مذهبُ الخليل وسيبويه، وعند الأخفش أنها النافية للجنس، زيدت عليها الهاء، وخصّت بنفى الأحيان. وقال أبو محمد مكى: الوقف عليها عند سيبويه، والفراء، وأبى إسحاق، وابن كيسان، بالتاء، وعليه جماعة القراء، وبه أتى خط المصحف. وعند المبرد والكسائى بالهاء، بمنزلة «رب» . هـ.

الإشارة: افتتح الحق جل جلاله هذه السورة، التى ذكر فيها أكابر أصفيائه، بحرف الصاد، إشارة إلى مادة الصبر، والصدق، والصمدانية، والصفاء؛ إذ بهذه المقامات ارتفع من ارتفع، وبالإخلال بها سقط من سقط. فبالصبر على المجاهدات تتحقق الإمامة والقدوة، وبالصدق فى الطلب يقع الظفر بكل مطلب، وبالصمدانية تقع الحرية من رقّ الأشياء، وبالصفاء تحصل المشاهدة والمكالمة، فكأن الحق تعالى أقسم بهذه الأشياء وبكتابه العزيز؛ إن المتكبرين على أهل الخصوصية ما أنكروا إلا جُحوداً وعناداً، وتعززاً واستكباراً، لا لخلل فيهم، ثم أوعدهم بالهلاك، كما أهلك مَن قبلهم، فاستغاثوا حين لم ينفعهم الغياث.

ثم ذكر تعجبهم من كون المنذِر منهم، فقال:

﴿ وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡۖ وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ ﴿٥﴾ وَٱنطَلَقَ ٱلۡمَلَأُ مِنۡهُمۡ أَنِ ٱمۡشُواْ وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٞ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِي ٱلۡمِلَّةِ ٱلۡأٓخِرَةِ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا ٱخۡتِلَٰقٌ ﴿٧﴾ أَءُنزِلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ مِنۢ بَيۡنِنَاۚ ... ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿وعَجِبوا﴾ أى: كفار قريش من ﴿أن جاءهم مُنذر منهم﴾؛ رسول من أنفسهم، استبعدوا أن يكون الرسول من البشر. قال القشيرى: وعَجِبوا أن جاءهم مُنذر منهم، ولم يعجبوا أن يكون المنحوت إلهاً لهم، وهذه مناقضة ظاهرة.هـ. يعنى: لأن المستحق للإعجاب إلهية المنحوت من الحجر، لا وجود منذر من البشر، وهم عكسوا القضية. ﴿وقال الكافرون هذا ساحر كذَّابٌ﴾ أى: ساحر فيما يُظهر من المعجزات، كذّاب فيما يدعيه من الرسالة. وضع الظاهر موضع المضمر تسجيلاً عليهم بالكفر، وغضباً عليهم، وإشعاراً بأن كفرهم هو الذى جسرهم على هذه المقالة الشنعاء.

ثم قالوا: ﴿ أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلهاً واحداً ﴾ بأن نفى الألوهية التى كانت لآلهتهم وقصرها على واحد، ﴿ إِنَّ هذا لشيءٌ عُجَابٌ ﴾؛ بليغ فى العجب، وذلك لأنه خلاف ما ألفوا عليه آباءهم، الذين أطبقوا على عبادة آلهتهم، كابراً عن كابر، فإنَّ مدار كل ما يأتون ويذرون، من أمور دينهم، هو التقليد والاعتياد، فيعُدون ما يخالف ما اعتادوه عجباً من العجاب، بل محالاً، وأما جعل مدار تعجبهم عدم وفاء علم الواحد، وقدرته بالأشياء الكثيرة، فلا وجه له؛ لأنهم لا يدّعون أن لآلهتهم علماً وقدرة ومدخلاً فى حدوق شيءٍ من الأشياء، حتى يلزم من ألوهيتهم بقاء الأثر بلا مؤثر، قاله أبو السعود منتقداً على البيضاوى.

قال القشيرى: لم تباشر خلاصةُ التوحيد قلوبَهم، وبعُدوا عن ذلك تجويزاً، فضلاً عن أن يكون إثباتاً وحكماً، فلاعرَفُوا أولاً معنى الإلهية؛ فإن الإلهية هى القدرة على الاختراع. وتقديرُ قادِرَيْن على ذلك غيرُ صحيح؛ لِمَا يجب من وجود التمانع بينهما وجوازه، وذلك يمنع من كمالها، ولو لم يكونا كامِلَى الوصفِ لم يكونا إِلَهَيْن، وكلُّ من جرّ ثبوته لسقوطه فهو مُطرح باطل. هـ.

رُوى أنه لما أسلم عمر رضي الله عنه فرح به المؤمنون، وشقّ على قريش، فاجتمع خمسة وعشرون نفسًا من صناديدهم، ومشوا إلى أبى طالب، وقالوا: أنت كبيرنا، وقد علمت ما فعل هؤلاء السفهاء ـ أى: الذين دخلوا فى الاسلام ـ وجئناك لتقضى بيننا وبين ابن أخيك، فاستحضر أبو طالب رسول الله ﷺ، فقال: ياابن أخى؛ هؤلاء قومك يسألونك السواء، فلا تَمِلْ كل الميل على قومك، فقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ «ماذا يسألوننى»؟ فقالوا: ارفضنا وارفض ذكر آلهتنا، وندعك وإلهك، فقال ـ عليه الصلاة والسلام: «اعطونى كلمة واحدة تملكون بها العرب، وتدين لكم العجم»، فقالوا: نعم، وعشراً(١). قال: «قولوا: لا إله إلا الله» فقاموا، وقالوا: ﴿أجعل الآلهة إلها واحداً، إن هذا لشيء عُجاب﴾(٢). قيل: العجب: ما له مِثل، والعجاب: لا مثل له.

﴿ وانطلق الملأُ منهم ﴾ أى: وانطلق الأشراف من قريش عن مجلس أبى طالب، بعد ما بكّتهم رسولُ الله ﷺ بالجواب، وشاهدوا تصلبه ـ عليه الصلاة والسلام ـ فى الدين، وعزيمته على إظهاره، ويئسوا مما كانوا يرجونه، بتوسط أبى طالب، من المصالحة على الوجه المذكور، قائلين ﴿ أنِ امْشُوا ﴾ و«أنْ»: تفسيرية؛ لأن المنطلقين عن

---

(١) أى: تعطيكها وعشر كلمات معها.

(٢) أخرجه بنحوه أحمد فى المسند (١/٢٢٧، ٣٦٢) والترمذى وحسّنه فى (التفسير ـ سورة ص، ح٣٢٣٢) والنسائى فى الكبرى (التفسير ٤٥٦/٤) وابن حبان (الموارد ح ١٧٥٧) والطبرى فى التفسير (١٢٥/٢٣) والبيهقى فى السنن (١٨٨/٩). والواحدى فى الأسباب (ص٣٨٠) وصححه الحاكم (٤٣٢/٢) ووافقه الذهبى. عن ابن عباس رضي الله عنه.

مجلس التقاول لابد لهم من أن يتكلموا، أو يتفاوضوا فيما جرى لهم، فكان انطلاقهم مضمناً معنى القول، وقيل: ليس المراد بالانطلاق المشي، بل انطلاق ألسنتهم بهذا الكلام، كما أنه ليس المراد بالمشي المتعارف، بل الاستمرار على المشي، يعني أنه على هذا القول: عبارة عن تفرقهم في طُرق مكة، وإشاعتهم للكفر. هـ. أي: امشوا ﴿ واصبروا على آلهتكم ﴾ أي: اثبتوا على عبادتها، متحملين لِما تسمعون في حقها من القدح.

قال القشيري: إذا [تواصى](١) الكفارُ فيما بينهم بالصبر على آلهتهم، فالمؤمنون أَوْلى بالصبر على عبادة معبودهم، والاستقامة في دينهم.هـ.

﴿ إنَّ هذا لشيءٌ يُراد ﴾ أي: هذا الذي شاهدناه من محمد ﷺ من أمر التوحيد، وإبطال أمر آلهتنا، لشيء يراد إمضاؤه وتنفيذه، من جهته ـ عليه الصلاة والسلام ـ لا محالة، من غير صارف يلويه، ولا عاطف يثنيه، لا قول يُقال من طرف اللسان، وأمر تُرجي فيه المسامحة بشفاعة أو امتنان، فاقطعوا أطماعكم عن استنزاله عن رأيه، بواسطة أبي طالب وشفاعته، وحسبكم ألا تُمنعوا من عباده آلهتكم بالكلية، فاصبروا عليها، وتحملوا ما تسمعون في حقها من القدح وسوء المقالة، أو: إنَّ هذا الأمر لشيء يريده الله تعالى، ويحكم بإمضائه، فلا مرد له، ولا ينفع فيه إلا الصبر، أو: إنَّ هذا الأمر لشيء من نوائب الدهر، يُراد بنا، فلا انفكاكَ لنا منه، أو: إن دينكم لشيء يُراد، أي: يُطلَبُ ليؤخذ منكم وتُغلبوا عليه، أو: إن هذا الذي يدعيه من التوحيد، ويقصده من الرئاسة، والترفع على العرب والعجم، لشيء يُتمنى، ويُريده كلُّ أحد. فتأمل هذه الأقاويل، واختر منها ما يساعده النظم الجليل.

﴿ ما سَمِعْنَا بهذا ﴾ الذي يقوله من أمر التوحيد ﴿ في الملة الآخرة ﴾ أي: في ملة عيسى، التي هي آخر الملل؛ لأن النصارى مثلثة غير موحدة، أو: في ملة قريش التي أدركنا عليها آباءنا، ويجوز أن يكون الجار والمجرور حالاً من «هذا»، أي: ما سمعنا بهذا من أهل الكتاب ولا الكهان كائناً في الملة المترقبة. ولقد كذبوا في ذلك أقبح كذب؛ فإن حديث البعثة والتوحيد، وإبطال عبادة الأصنام، كان أشهر الأمور قبل الظهور. ﴿ إنَّ هذا ﴾ أي: ما هذا ﴿ إلا اختلاقٌ ﴾ أي: كذب، اختلقه من تلقاء نفسه.

﴿ أأُنزل عليه الذكرُ ﴾ أي: القرآن ﴿ من بيننا ﴾ ونحن رؤساء الناس وأشرافهم. أنكروا أن يُختص بالشرف من بين أشرافهم، وينزل عليه الكتاب من بينهم، حسداً من عند أنفسهم، كقولهم: ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾(٢). وأمثال هذه المقالات الباطلة دليل على أن مناط تكذيبهم ليس إلا الحسد، وقصر النظر على الحطام الدنيوية، والعياذ بالله.

(١) في الأصول [توصوا].

(٢) الآية ٣١ من سورة الزخرف.

قال الورتجبي: كانوا منطمسة العيون عما ألبسه الحق من أنوار ربوبيته، وسنا جلاله وجماله، لم يروا إلا الصورة الإنسانية، التي هي ميراث آدم من ظاهر الخلقة. وهذا كقوله: ﴿وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لاَيُبْصِرُونَ﴾(١)، استبعدوا اصطفائيته بالوحي، ولم يعرفوا أنه أثرُ الله في العالم، ومشكاةُ تجليه، حتى قالوا مثل ما قالوا: ﴿وعَجبوا أن جاءهم مُنذر منهم﴾، رأوا أنفسهم خالية عن مشاهدة الغيوب، وإدراك نور صفات الحق، فقاسوا نفس محمد ﷺ بأنفسهم، ولم يعلموا أنه كان نفسَ النفوس، وروحَ الأرواح، وأصل الخليقة، وباكورةَ من بساتين الربوبية. ياليتهم لو رأوه في مشاهدة الملكوت، ومناصب الجبروت، إذ خاطبه الحق بلولاك ما خلقتُ الأفلاك.هـ.

الإشارة: هذه عادة الله تعالى في خلقه، كل من يأمر الناس بالتجريد، وخرق العوائد، وصريح التوحيد، وترك ما عليه الناس من جمع الدنيا، وحب الرئاسة، والجاه، أنكروه، وسفّهوا رأيه، وقالوا فيه: ساحر كذّاب. ويقول بعضهم لبعض: امشوا واصبروا على ما أنتم عليه، من جمع الدنيا، والخدمة على العيال، وعلى ما وجدتم عليه أسلافكم، من الوقوف مع العوائد، ما سمعنا بهذا الذي يدلّ عليه هذا الرجل من ترك الأسباب والانقطاع إلى الله في هذا الزمان، إن هذا الا اختلاق، أأنزلت عليه الخصوصية من بيننا، ولم يعلموا أن الله يختص برحمته من يشاء، ويبعث في كل زمان من يُجدد الدين بتربية مخصوصة. والله تعالى أعلم.

ثم ردّ عليهم بقوله:

﴿ ... بَل هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ ﴿٨﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ ﴿٩﴾ أَمْ لَهُم مُّلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ ﴿١٠﴾ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الْأَحْزَابِ ﴿١١﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿بل هم﴾ أي: كفار قريش ﴿في شكٍ من ذكرى﴾؛ من القرآن، أو الوحي، لميلهم إلى التقليد، وإعراضهم عن النظر في الأدلة المؤدية إلى علم حقيقته، ﴿بل لمّا يذوقوا عذابِ﴾ أي: بل لم يذوقوا عذابي الموعود في القرآن، ولذلك شكّوا فيه، فإذا ذاقوه زال ما بهم من الشك والحسد حينئذ، أي: إنهم لا يُصدّقون به إلا أن يمسّهم العذاب، فحينئذ يُصدّقون، ولات حين تصديق.

---

(١) الآية ١٩٨ من سورة الأعراف.

﴿أم عندهم خزائنُ رحمةِ ربك العزيزِ الوهّاب﴾ أى: ما هم بمالكى خزائن الرحمة حتى يُصيبوا بها من شاءوا، ويصرفوها عمن شاءوا، ويختاروا للنبوة بعض صناديدهم، ويترفّعوا بها عن محمد ﷺ، وإنما يملك الرحمة وخزائنها العزيزُ القاهر على خلقه، الوهّاب الكثير المواهب، المصيب بها من يشاء. والمعنى: أن النبوة عطية من الله تعالى، يتفضل بها على من يشاء من عباده المصطفين، لا مانع له، فإنه الغالب، الذى له أن يهب كل ما يشاء لكل من يشاء.

وفى إضافة اسم الرب المنبئ عن التربية والتبليغ إلى الكمال إلى ضميره ـ عليه الصلاة والسلام ـ من تشريفه واللطف به ما لا يخفى.

﴿أم لهم مُلكُ السموات والأرض وما بينهما﴾ أى: بل ألهم ملك هذه العوالم العلوية والسفلية حتى يتكلموا فى الأمور الربانية، ويتحكموا فى التدابير الإلهية، التى اختصّ بها رب العزّة والكبرياء؟ ثم تهكّم بهم غاية التهكم فقال: ﴿فليرتقوا في الأسباب﴾، وهو جواب عن شرط مقدر، أى: إن كان لهم ماذكر من الملك، ويملكون التصرف فى قسمة الرحمة، فليصعَدوا فى المعارج والطُرق التى يتوصّل بها إلى السماء، حتى يُدبروا أمر العالم وملكوت الله، فيُنزلون الوحى إلى من يختارون ويستصوبون. والسبب، فى الأصل: ما يتوصل به إلى المطلوب.

ثم وعد نبيه ـ عليه الصلاة والسلام ـ بالنصر عليهم بقوله: ﴿جندٌ مَّا هنالك مهزومٌ من الأحزاب﴾ أى: هم جند ما من الكفار المتحزبين على الرسل ﴿مهزومٌ﴾؛ مكسور عما قريب، فلا تُبال بما يقولون، ولا تكترث بما يَهْذُون. و«جُند»: خبر، أو: مبتدأ، و«مهزوم»: خبره و«مَا»: صلة مقوّية للنكرة. أو: للتقليل والتحقير. و«من الأحزاب»: متعلق بجند، أو: بمهزوم، و«هنالك»: إشارة إلى بدر ومصارعهم، أو: إلى حيث وضعوا فيه أنفسهم من الانتداب لمثل ذلك القول العظيم، من قولهم لمن ينتدب لأمر وليس من أهله: لست هنالك

الإشارة: يُقال فى جانب أهل الغفلة: بل فى شك من حلاوة ذكرى ومعرفتى، حيث لم يذوقوا. قال إبراهيم ابن أدهم رضي الله عنه: (خرج الناس من الدنيا ولم يذوقوا شيئاً، قيل: ومافاتهم؟ قال: حلاوة المعرفة). بل لمّا يذوقوا عذابى، هو وبال القطيعة والبُعد، والانحطاط عن درجات المقربين، وسيذوقونه إذا تحققت الحقائق، حيث لا ينفع مال ولا بنون، إلا من أتى الله بقلب سليم. ويقال فى جانب من حسد أهل الخصوصية: ﴿أم عندهم خزائنُ رحمة ربك العزيزِ الوهاب...﴾ الآية.

ثم هدد كفار قريش بقوله:

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لْئَيْكَةِ أُولَٰئِكَ الْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾ وَمَا يَنظُرُ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴿١٥﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿كذَّبت قبلهم﴾ أي: قبل أهل مكة ﴿قوم نوح﴾ نوحاً، ﴿وعادٌ﴾ هوداً ﴿وفرعونُ﴾ موسى، ﴿ذو الأوتاد﴾، قيل: كانت له أربعة أوتاد وحبال يلعب بها أو عليها بين يديه، وقيل: كان يوتّد من يعذب بأربعة أوتاد في يديه ورجليه، ويتركه حتى يموت. وقيل: كان يرسل عليه عقارب وحيات. وقيل: معناه: ذو المُلك الثابت، من: ثبات البيت المُطنّب(١) بأوتاده، فاستعير لرسوخ السلطنة، واستقامة الأمر، كقول الشاعر:

ولقــد غنَوا فيها بأنْعَمِ عيشــةٍ … في ظِــلِّ مُلْكٍ ثابِتِ الأَوْتادِ(٢)

﴿وثمودُ﴾ وهم قوم صالح، ﴿وقومُ لوط﴾ كذّبوا لوطاً، ﴿وأصحابُ الأيكة﴾؛ أصحاب [الغيضة](٣) كذّبوا شعيباً عليه السلام. ﴿أولئك الأحزابُ﴾: بدلٌ من الطوائف المذكورة. وفيه فضل تأكيد وتمهيد لما يعقبه، وأراد بهذه الإشارة الإعلام بأن الأحزاب الذين جعل الجند المهزوم منهم هم هؤلاء الطوائف، وأنهم الذين وجد منهم التكذيب، ولذلك قال:

﴿إن كلٌّ إلا كذَّب الرسلَ﴾ أي: ما كل أحد من آحاد أولئك الأحزاب، أو: ما كل حزب منهم إلا كذّب الرسل؛ لأن تكذيب واحد منهم تكذيب لجميعهم؛ لاتفاق الكل على الحق، أو: ما كل حزب إلا كذّب رسوله، على نهج مقابل الجمع بالجمع. وأيًّا ما كان فالاستثناء مفرغ من أعم [العلل] في خبر المبتدأ، أي: ما كل أحد منهم محكوم عليه بحكم إلا أنه كذب الرسل، ﴿فحقَّ عقابَ﴾ أي: فوجب لذلك أن أُعاقبهم حق العقاب، التي كانت توجبه جناياتهم من أصناف العقوبات.

---

(١) خباء مطنب، أي: مشدود بالأطناب، والأطناب: ما يُشد به البيتَ من الحبال بين الأرض والطرائق، وقيل: هي الأوتاد، واحدتها: طُنُب. انظر اللسان (٤/٢٧٠٨).

(٢) البيت للأسود بن يعفر. انظر غريب القرآن لابن قتيبة (٢/١٠٠) ومعاني القرآن للنحاس (٦/٨٥).

(٣) في الأصول الخطية [الغيظة].

﴿ وما ينظر هؤلاء ﴾ أى: وما ينتظر أهل مكة. وفى الإشارة إليهم بهؤلاء؛ تحقير لشأنهم، وتهوين لأمرهم، أى: وما ينتظر هؤلاء الكفرة الذين هم أمثال أولئك الطوائف المهلكة فى الكفر والتكذيب، ﴿ إلا صيحةً واحدة ﴾ وهى النفخة الثانية؛ لما فيها من الشدة والهول، فإنها داهية، يعم هولها جميع الأمم، برّها وفاجرها. والمعنى: أنه ليس بينهم وبين حلول ما أعد الله لهم من العقاب إلا نفخة البعث، أُخرت عقوبتهم إلى الآخرة؛ لأن حلولها بهم فى الدنيا يوجب الاستئصال، وقد قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴾(١)، فأخرت ليوم القيامة. وأما ما قيل من أنها النفخة الأولى فمما لا وجه له؛ لأنه لا يشاهد هولها، ولا يصعق بها إلا من كان حيًا عند وقوعها. قاله أبو السعود.

﴿ ما لها من فَوَاق ﴾ أى: من توقُّف مقدار فواق، هو ما بين حلبتى الحالب، أى: إذا جاء وقتها لم تستأخر هذا القدر من الزمان. وعن ابن عباس: ما لها من رجوع وترداد، من أفاق المريض: إذا رجع إلى الصحّة، وفواق الناقة: ساعة يرجع الدرّ إلى ضرعها. يريد: أنها نفخة واحدة، لا تثنى، ولا تردد. والفواق بمعنى التأخر، فيه لغتان: الفتح والضم، وأما ما بين حلبتى الناقة، فبالضم فقط.

الإشارة: ما جرى على مكذبى الرسل يجرى فى مكذبى الأولياء، إلاَّ أن عذابهم البُعد والطرد، وحرمان معرفة العيان. وبالله التوفيق.

ثم ذكر استعجالهم العذاب، فقال:

﴿ وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿١٦﴾ ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وقالوا ﴾ أى: كفار مكة لمَّا سمعوا بتأخير عقابهم إلى الآخرة: ﴿ ربنا عَجّل لنا قِطّنا ﴾ أى: حظّنا من العذاب الذى وعدتنا به، ﴿ قبل يوم الحساب ﴾ ولا تؤخره إلى الصيحة المذكورة. وفى القاموس: القِط ـ بالكسر: النصيب، والصك، وكتاب المحاسبة.هـ. أو: عَجِّل لنا صحيفة أعمالنا لننظر فيها، أو:

(١) من الآية ٣٣ من سورة الأنفال.

حظنا من الجنة؛ لأنه ﷺ ذكر وعد الله المؤمنين بالجنة، فقالوا على سبيل الهزء: عَجِّل لنا نصيبنا منها[١]. وتصدير دعائهم بالنداء للإمعان فى الاستهزاء، كأنهم يدعون ذلك بكمال الرغبة.

﴿ اصْبِرْ على ما يقولون ﴾ من أمثال هذه المقالات الباطلة. ثم سلاه بما يقص عليه من خبر الأنبياء ـ عليهم السلام ـ الذين كانت بدايتهم أيام المحن، ثم جاءتهم أيام المنن، وبدأ بنبيه داود عليه السلام، فقال: ﴿ واذكر عبدنا داود ﴾، فإنه كان فى أول أمره ضعيفاً، يرعى الغنم، ثم صار نبياً ملكاً، ذا الأيادى العظام. وقوله: ﴿ ذَا الأيد ﴾ أى: ذا القوة فى الدين، والملكَ، والنبوة. يقال: فلان ذو يد وأيد وأياد، بمعنى القوة، وأياد كل شيء: مايتقوى به. ﴿ إنه أوّابٌ ﴾: رجّاع إلى الله فى كل شيء، أو: إلى مرضاة الله تعالى. وهو تعليلٌ لكونه ذا الأيد، ودليل على القوة فى الدين؛ فإنه كان عليه السلام يصوم يومًا ويُفطر يوما، وهو أشدُّ الصوم، ويقومُ نصفَ الليل[٢]، مع مكابدة سياسة النبوة والمُلك والشهود، فقد أعطى القوة فى الجهتين.

﴿ إنا سخَّرنا الجبالَ معه ﴾ أى: ذللناها له، تسير معه حيث يريد. ولم يقل «له»؛ لأن تسخير الجبال له عليه السلام لم يكن بطريق التفويض الكلى، كتسخير الرياح وغيرها لابنه، بل بطريق التبعية، والاقتداء به فى عبادة الله تعالى. وقيل: «معه» متعلق بـ﴿ يُسَبِّحْنَ ﴾، أى: سخرناها تُسبِّح معه، إما بلسان المقال، يخلق الله لها صوتاً، أو: بلسان الحال، أى: يقدس الله تعالى ويُنزهه عما لا يليق به. والجملة: حال، أى: مسبِّحات، واختيار الفعل ليدل على حدوث التسبيح من الجبال، وتجدده شيئًا بعد شيء، وحالاً بعد حال، ﴿ بالعَشِيِّ ﴾ فى طرفى النهار، والعشىَّ: وقت العصر إلى الليل ﴿ والإشراقِ ﴾، وهو حين تُشرق الشمس، أى: تضيء، وهو وقت الضحى، وأما شروقها ـ الثلاثى؛ فطلوعها، تقول: شرقت الشمس ولمّا تُشرق، أى: طلعت ولم تضئ. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: ما عرفت صلاة الضحى إلا بهذه الآية[٣]. وعنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ أنه صلى عند أم هانيء صلاة الضحى، وقال: «هذه صلاة الإشراق»[٤].

---

(١) انظر تفسير البغوى (٧/٧٥).
(٢) أخرج البخارى في (التهجد، باب من نام عند السحر، ح ١١٣١) ومسلم فى (الصيام، باب النهى عن صوم الدهر ٢/٨١٦، ح ١٨٩) عن عبد الله بن عمرو بن العاص، قال: قال رسول الله ﷺ: «أحبُّ الصلاة إلى الله صلاة داود عليه السلام وأحبُّ الصيام إلى الله صيام داود، كان ينام نصف الليل، ويقوم ثلثه، وينام سدسه، وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً».
(٣) عزاه السيوطي في الدر المنثور (٥/٥٦٢) لسعيد بن منصور، بلفظ: طلبت صلاة الضحى فى القرآن، فوجدتها ﴿بالعشى والإشراق﴾. وانظر روايات أخرى تفيد هذا المعنى ذكرها السيوطى فى الدر.
(٤) أخرجه البغوى فى التفسير (٧/٧٦) عن ابن عباس بلفظ: قال ـ أى ابن عباس ـ : كنت أمُرّ بهذه الآية لا أدرى ما هى حتى حدثتنى أم هانى بنت أبى طالب: أن رسول الله ﷺ دخل عليها فدعا بوضوء فتوضأ، ثم صلى الضحى، فقال: «يا أم هانىء هذه صلاة الإشراق».

﴿ والطيرَ محشورةً ﴾ أى: وسخّرنا الطير مجموعة من كل ناحية. عن ابن عباس رضي الله عنه: كان إذا سبّح، جاوبته الجبال بالتسبيح، واجتمعت إليه الطير، فسبّحت، فذلك حشرها. ﴿ كلٌّ له أواب ﴾ أى: كل واحد من الجبال والطير لأجل تسبيح داود. ووضع الأوّاب موضع المسبّح؛ لأن الأوّاب: الكثير الرجوع إلى الله تعالى، من عادته أن يكثر ذكر الله، ويدير تسبيحه وتقديسه على لسانه. وقيل: الضمير لله، أى: كل من داود والجبال والطير أواب، أى: مسبّح لله تعالى ومرجّع للتسبيح، وقيل: لداود، أى: يرجع لأمره.

﴿ وشَدَدْنا مُلْكه ﴾ أي: قوّيناه بالهيبة والنصرة وكثرة الجنود. قيل: كان بيت المقدس حول محرابه ثلاثة وثلاثون ألف رجل. قال القشيرى: ويقال: وشددنا ملكه بالعدل فى القضية، وحسن السيرة فى الرعية، أو: بدعاء المستضعفين، أو: بقوم مناصحين، كانوا يدُلّونه على ما فيه صلاح ملكه، أو: بقبوله الحق من كل أحد، أو: برجوعه إلينا فى عموم الأوقات. هـ. وقال ابن عباس: أن رجلاً من بنى إسرائيل استعدى على رجل من عظمائهم إلى داود، فقال المستعدى: إن هذا غصبنى بقرتى، فجحد الآخر، ولم تكن له بينة، فقال داود: قُوما حتى أنظر فى أمركما، فأوحى الله تعالى إلى داود فى منامه: أن اقْتُل الرجل الذى استعدِىَ عليه، فتثبت داود حتى أوحى الله إليه ثلاثاً أن يقتله، أو تأتيه العقوبة من الله، فأرسل داود إلى الرجل: أن الله قد أوحى إلىَّ أن أقتلك، فقال: تقتلنى بغير بينة؟ فقال: نعم، والله لأُنفذنّ أمرَ الله فيك، فلما عرف الرجلُ أنه قاتله، فقال: لا تعجل علىَّ حتى أخبرك أن الله تعالى لم يأخذنى بهذا الذنب، الذى هو السرقة، ولكنى كنتُ قتلتُ أبا هذا غِيلة، وأخذتُ البقرة، فقتله داود، فقال الناس: إذا أذنب أحد ذنباً أظهره الله عليه؛ فقتله، فهابوه، وعظمت هيبته فى القلوب هـ.(١).

﴿ وآتيناه الحكمةَ ﴾؛ النبوة، وكمال العلم، وإتقان العمل، والإصابة فى الأمور، أو: الزبور وعلم الشرائع. وكل كلام وافق الحق فهو حكمة. ﴿ وَفَصْلَ الخطاب ﴾؛ علم القضاء وقطع الخصام، فكان لا يتتعتع فى القضاء بين الناس، أو: الفصل بين الحق والباطل. والفصل: هو [التمييز](٢) بين الشيئين، وقيل: الكلام البيِّن، بحيث يفهمه المخاطب بلا التباس، فصلٌ بمعنى مفصول، أو: الكلام البيِّن الذى يبين المراد بسرعة، فيكون بمعنى فاصل، والمراد: ما أعطاه الله من فصاحة الكلام، الذى كان يفصل به بين الحق والباطل، والصحيح والفاسد، فى قضاياه

---

(١) أخرجه الطبرى (٢٣/١٣٨ ـ ١٣٩) والبغوى فى التفسير (٧/٧٧). وعزاه فى الدر المنثور (٥/٥٦٣) لعبد بن حميد، وابن أبى حاتم، عن ابن عباس رضي الله عنه.
(٢) فى الأصول [التحيز].

وحكوماته، وتدابير الملك، والمشورات. وعن عليّ رضي الله عنه: «هو البَيِّنَةُ على المُدَّعِي، والْيَمِينُ علَى مَنْ أَنْكَرَ» وعن الشعبي: «هو: أما بعد»(١) فهو أول من تكلم بها، فإنَّ من تكلم فى الذى له شأن يفتتح بذكر الله وتحميده، فإذا أراد أن يخرج إلى الغرض المسوق له الكلام، فصل بينه وبين ذكر الله بقوله: أما بعد.

الإشارة: فاصبر أيها الفقير على ما يقولون فيك، وتسلَّ بمن قبلك من أهل الخصوصية الكبرى والصغرى، ففيهم أُسوة حسنة لمن كان يرجو الوصول إلى الله تعالى. وقوله تعالى: ﴿إنا سخَّرنا الجبالَ معه...﴾ الخ. قال القشيري: كل من تحقق بحالة ساعده كل شيء. هـ. قلت: وفى الحِكَم: «أنت مع الأكوان مالم تشهد المكوِّن، فإذا شهدت المكوِّن كانت الأكوان معك» وبالله التوفيق.

ثم ذكر امتحان داود عليه السلام، فقال:

﴿ ۞ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُواْ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُواْ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُواْ لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿وهل أتاك نبأ الخصم﴾؛ استفهام، معناه التعجب والتشويق إلى استماع ما فى حيزه؛ لأنه من الأنباء البديعة، والأخبار العجيبة. والخصم ـ فى الأصل: مصدر، ولذلك يطلق على الواحد والجمع، كالضيف والزوْر. وأريد هنا اثنان، وإنما جمع الضمير بناء على أن أقل الجمع اثنان. ﴿إذ تسوَّروا المحراب﴾ أى: تصعَّدوا سوره ونزلوا إليه. والسور: الحائط المرتفع، ونظيره: تسنمه: إذا علا سنمه. والمحراب:

(١) انظر هذه الأقوال فى تفسير الطبرى (٣/ ١٤٠) والبغوى (٧/ ٧٧ ـ ٧٨) والدر المنثور (٥/ ٥٦٤).

الغرفة، أو: المسجد، سمى محراباً لتحارب الشيطان فيه والخواطر الردية. و﴿إذ﴾: متعلق بمحذوف، أى: نبأ تحاكم الخصمين، أو: بالخصم؛ لما فيه من معنى الخصومة، ﴿إذ دخلوا على داودَ﴾: بدل مما قبله، أو: ظرف لتسوروا، ﴿ففزِعَ منهم﴾: تروع منهم.

رُوِىَ أن الله تعالى بعث إليه ملكين فى صورة إنسانين، قيل: جبريل وميكائيل، فطلبا أن يدخلا عليه، فوجداه فى عبادته، فمنعهما الحرس، فتسوّروا عليه المحراب، فلم يشعر إلا وهما بين يديه، جالسان، ففزع منهم؛ لأنهم دخلوا عليه فى غير يوم القضاء، ولأنهم نزلوا من فوق، وفى يوم الاحتجاب، والحرس حوله لا يتركون من يدخل عليه. قال الحسن: جزأ داود عليه السلام الدهر أربعة أجزاء؛ يوماً لنسائه، ويوماً للعبادة، ويوماً للقضاء، ويوماً للمذاكرة مع بنى إسرائيل. فدخلوا عليه يوم عبادته.

فلما فزع ﴿قالوا لا تَخفْ﴾، نحن ﴿خصمانِ بَغَى بعضُنا على بعض﴾ أى: ظلم وتطاول عليه، ﴿فاحكمْ بيننا بالحق ولا تُشْطِطْ﴾؛ لا تجُـرْ، من: الشطط، وهو مجاوزة الحدّ وتخطى الحق، ﴿واهدنا إلى سواء الصراط﴾؛ وأرشدنا إلى وسط الطريق ومحجته، والمراد: عين الحق وصريحه.

رُوِى: أن أهل زمان داود عليه السلام كان يسألُ بعضهم بعضاً أن ينزل له عن امرأته، فيتزوجها إذا أعجبته، وكان لهم عادة فى المواساة بذلك. وكان فى أول الإسلام شىء من ذلك بين المهاجرين والأنصار، فاتفق أنّ عيْنَ داودَ عليه السلام وقعت عل امرأة أوريا، وكانت جميلة، فأحبَّها، فسأله النزولَ له عنها، فاستحيا أن يردّه، ففعل، فتزوجها، وهى أم سليمان؛ فعُوتب فى ذلك، وقيل له: إنك مع عظيم منزلتك، وكثرة نسائك، لم يكن ينبغى لك أن تسأل رجلاً ليس له إلا امرأة واحدة، كان الواجب عليك مغالبةُ هواك، وقهر نفسك، والصبر على ما امتحنتَ به. وقيل: خطبها أوريا، وخطبها داود، فآثره أهلها، فكانت زلته أن خطب على خطبة أخيه المؤمن مع كثرة نسائه(١) .هـ. ولعلم لم يكن محرماً فى شرعهم، وإنما كان خلاف الأَولى.

وقال شيخ شيوخنا فى حاشيته: لا يصح هذا فى حق الأنبياء، وما يُحكى أنه بعث أوريا إلى الغزو مرة بعد مرة، وأحب أن يقتل ليتزوجها، فلا يليق من المتسمين بالصلاح من أبناء الناس، فضلاً عن بعض أعلام الأنبياء. وقال علىّ ـ كرم الله وجهه ـ: من حدثكم بحديث داود عليه السلام على ما يرويه القصّاص جلدتُه مائةً وستين(٢)، وهو

(١) قال القاضى عياض فى الشفاء (٨٢٧/٢): لا تلتفت إلى ما سطره الإخباريون من أهل الكتاب، الذين بدّلوا وغيّروا، ونقله المفسرون، ولم ينص الله تعالى على شىء من ذلك فى كتابه، ولا ورد فى حديث صحيح، والذى نصّ الله عليه فى قصة داود: قوله: ﴿وظن داود أنما فتناه﴾ وليس فى قصة داود وأوريا خبر ثابت.

وقال الحافظ ابن كثير فى تفسيره (٣١/٤): قد ذكر المفسرون ها هنا قصة أكثرها مأخوذ من الإسرائيليات، ولم يثبت فيها عن المعصوم حديث يجب إتباعه.... فالأولى أن يقتصر على مجرد تلاوة هذه القصة، وأن يرد علمها إلى الله عز وجل، فإن القرآن حق، وما تضمن فهو حق أيضا. وانظر: الإسرائيليات والموضوعات لأبى شهبة (٢٦٤ ـ ٢٧٠).

(٢) قال الحافظ ابن حجر، فى الكافى الشاف: (رقم ٣٠٦): لم أجده.

حدّ الفرية على الأنبياء ـ يعني الحدّ مرتين ـ. وَرُوِيَ: أن رجلاً حدّث بها عند عُمر بن عبد العزيز، وعنده رجلٌ من أهل الحق، فكذّب المحدِّث، وقال: إن كانت القصة على ما في كتاب الله، فما ينبغي أن يُلتمس خلافُها، ولا أن يُقال غير ذلك، وإن كانت على ما ذكرتَ، وقد سترها الله على نبيه، فما ينبغي إظهارُها عليه، فقال عمر: لَسَمَاعي لهذا الكلام أحبّ إليّ مما طلعت عليه الشمس(١).

والذي يدلُّ عليه المثل الذي ضربه الله لقصته عليه السلام ليس إلا أنه طلب من زوج المرأة أن ينزل عنها فحسب، فتزوجها، وإنما جاءت على طريق التمثيل والتعريض، دون التصريح؛ لكونها أبلغ في التوبيخ، من قِبَل أنّ المتأمل إذا أدّاه إلى الشعور بالمعرَّض به كان أوقع في نفسه، وأشدَّ تمكّناً من قلبه، وأعظم أثراً فيه، مع مراعاة حسن الأدب، بترك المجاهرة بالعتاب. قاله النسفي.

ثم ذكر التعريض بقوله: ﴿إن هذا أخي﴾ في الدين، أو: في الصداقة، أو: الشركة. والتعبير به لبيان كمال قُبح ما فعل به صاحبه، ﴿له تِسعٌ وتسعونَ نَعْجَةً﴾؛ النعجة: الأنثى من الضأن، وقد يُكنى بها عن المرأة، والكناية والتعريض أبلغ من التصريح (٢). ﴿ولِيَ نَعْجةٌ واحدة﴾ لا أملك غيرها، ﴿فقال أكْفِلنيها﴾ أي: ملّكنيها، واجعلني أكفلها كما أكفل ما تحت يدي، ﴿وعَزَّني﴾؛ غلبني ﴿في الخطاب﴾؛ في الخصومة، أي: كان أقدر مني على الاحتجاج والمجادلة، أو: غلبني في الخِطبة، حيث خطبتُ وخطبَ، فأخذها، وهذا منهما تعريض وتمثيل، كأنهما قالا: نحن كخصمين هذه حالهما، فمثّلت قصة أوريا مع داود بقصة رجل له نعجة واحدة، وخليطه له تسع وتسعون، فأراد صاحبه تتمة المائة، فطمع في نعجة خليطه، وحاجّه في أخذها، محاججة حريص على بلوغ مراده. وإنما كان ذلك على وجه التحاكم إليه، ليحكم بما حكم به من قوله:

﴿قال لقد ظَلَمَكَ بسؤال نعجتِكَ إلى نِعَاجه﴾، حتى يكون محجوجًا بحكمه. وهو جوابُ عن قسم محذوف، قصد به عليه السلام المبالغة في إنكار فعل صاحبه به، وتهجين طمعه في نعجة مَن ليس له غيرها، مع أنّ له قطيعاً منها. ولعله عليه السلام قال ذلك بعد اعتراف صاحبه بما ادعاه عليه، أو: بناه على تقدير صدق المدعي، أي: إن كنت صدقت فقد ظلمك، والسؤال: مصدر مضاف إلى المفعول، وتعديته إلى مفعول آخر لتضمينه معنى الضم.

---

(١) ذكره النسفي في تفسيره (٣/ ١٥٠).

(٢) الظاهر: إبقاء لفظ النعجة على الحقيقة، من كونها أنثى الضأن، ولايكنى بها عن المرأة، ولا ضرورة تدعو إلى ذلك. انظر البحر المحيط (٧ / ٣٧٦).

﴿ وإنَّ كثيراً من الخُلطاءِ ﴾؛ الشركاء الذين خلطوا أموالهم، ﴿ لَيبغي بعضُهم على بعضٍ ﴾؛ غير مراع لحق الصحبة والشركة، ﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ منهم، فإنهم يتحاموْن عن البغي والعدوان، ﴿ وقليلٌ ماهم ﴾ أي: وهم قليل. و«ما»: مزيدة للإبهام، والتعجب من قِلتهم. والجملة: اعتراض. ﴿ وظنَّ داودُ أنما فتناه ﴾، الظن مستعار للعلم الاستدلالي؛ لما بينهما من المشابهة الظاهرة، أي: علم بما جرى في مجلس الحكومة؛ وقيل: لمّا قضى بينهما نظر أحدُهما إلى الآخر، فضحك، ثم صعدا إلى السماء فعلم عليه السلام أنه تعالى ابتلاه. والقصر مُنصّب على الفتنة، أي: علم أنما فعلناه به فتنة وامتحان.

واختلف في سبب امتحانه، قيل: لأنه تمنى منزلة آبائه إبراهيم وإسحاق ويعقوب، وقال: يارب أرى الخير كله ذهب به آبائي، فأوحي إليه: إني ابتليتهم، فصبروا، فابتلى إبراهيم بنمروذ وبذبح ولده، وإسحاق بالذبح(١). ويعقوب بالحزن على يوسف وذهاب بصره، وأنت لم تُبتل بشيءٍ، فقال: يارب ابتلني بمثل ما ابتليتهم به، فابتلى بالمرأة(٢). وقيل: إنه ادعى القوة، وقال: إنه لا يخاف من نفسه قط، فامتُحن. ﴿ فاستغفر ربَّه ﴾ إثر ما علم أن ما صدر منه ذنب؛ ﴿ وخَرَّ راكعًا ﴾ أي: ساجداً، على تسمية السجود ركوعاً، أو: خرَّ راكعًا مصلياً صلاة التوبة، ﴿ وأنابَ ﴾ أي: رجع إلى الله بالتوبة، رُوي: أنه بقي ساجداً أربعين يوماً يبكي، حتى نبت البقل من دموعه، ولم يشرب ماءً إلا وثلثاه دموع، واشتغل بذلك عن المُلك، حتى وثب ابن له، يقال له: «إيشا» على ملكه ودعا إلى نفسه، واجتمع إليه أهل الزيغ من بني إسرائيل، فلما غفر له حاربه فهزمه. هـ.

وهذا الموضع فيه سجدة عند مالك، خلافاً للشافعي، إلا أنه اختلف في مذهب مالك؛ هل سجد عند قوله: ﴿ وأناب ﴾ أو عند قوله: ﴿ وحُسنَ مآبٍ ﴾. وروى الترمذي عن أبي سعيد الخدري: أنه رأى في المنام شجرة تقرأ سورة «ص»، فلما بلغت: «وأناب» سجدت، وقالت: اللهم اكتب لي بها أجراً، وحط عني بها وزراً، وارزقني بها شكراً، وتقبلها مني كما تقبلتها من عبدك داود، فقال له ـ عليه الصلاة والسلام ـ «وسجدتَ أنت يا أبا سعيد؟» قلت: لا. قال: «كنتَ أحق بالسجود من الشجرة»، ثم تلى نبي الله الآيات، حتى بلغ: ﴿وأناب﴾ فسجد، وقال كما قالت الشجرة(٣).

---

(١) تقدم أن الذبيح هو إسماعيل عليه السلام، راجع التعليق على تفسير الآيات: ٩٩ ـ ١١١ من سورة الصافات.

(٢) انظر تفسير الطبري (٢٣/١٤٦) والبغوي (٧/٧٨).

(٣) أخرجه، عن ابن عباس، الترمذي في (أبواب السفر، باب ما يقول في سجود القرآن ٣/٤٧٢ ـ ٤٧٣ ـ ح ٥٧٩)، وابن ماجه في (إقامة الصلاة والسنة، باب: سجود القرآن ١/٣٣٤، ح ١٠٥٣) والحاكم وصححه ووافقه الذهبي، (١/٢١٩ ـ ٢٢٠) والبغوي في تفسيره (٧/٨٦) قال ـ أي: ابن عباس ـ : جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إني رأيتني الليله وأنا نائم كأني أصلي خلف شجرة، فسجدتُ، فسجدتِ الشجرة لسجودي.. الخ الحديث.. قال الترمذي: (وفي الباب عن أبي سعيد) قلت: حديث أبي سعيد الخدري عزاه السيوطي في الدر المنثور (٥/٥٧٢) لأبي يعلى.

﴿ فغفرنا له ذلك ﴾ أى: ما استغفر منه. قال القشيرى: ولمّا أوحى الله بالمغفرة، قال: يارب كيف بحديث الخصم؟ ـ أى: الرجل الذى ظلمته ـ فقال: قد استوهبتك منه. هـ. وفى رواية: إنى أعطيه يوم القيامة مالم تر عيناه، فاستوهبك منه فيهبك لى، قال: يارب الآن قد عرفتُ أنك غفرت لى[١]. هـ. قال تعالى ﴿ وإن له عندنا لزُلْفَى ﴾؛ لقُربى وكرامة بعد المغفرة، ﴿ وحُسْنَ مآبٍ ﴾؛ مرجع فى الجنة.

الإشارة: إنما عُوتب داود عليه السلام لأنه التفت إلى الجمال الحسى الفرقى، دون الجمال المعنوى الجمعى، ولو سبته المعانى بجمالها ما التفت إلى الجمال الفرقى، فلما نبّهه الحق تعالى استغفر ورجع إلى الجمال المعنوى، الذى هو جمال الحضرة القدسية، وعبارة شيخ شيوخنا سيدى عبدالرحمن الفاسى رضي الله عنه: عدّ عليه التفاته عن الجمال المطلق عن الأشكال والصُور إلى المقيد بهما، وهى مقام تفرقة، لا مقام جمع، فاستغفر ورجع إلى شهود الفاعل جمعاً، عن شهود فعله فرقاً، فخلع عليه خلعة الخلافة والله أعلم. هـ. قال القشيرى: قال داود عليه السلام: يارب إنى أجد فى التوراة أنك أعطيت الأنبياء الرتب العالية، فأعطينها؟ فقال: إنهم صبروا لمّا ابتليتهم، فوعد من نفسه الصبر إذا ابتلاه، طمعاً فى مثل تلك الرتب، فأخبر أنه يبتليه يوم كذا، فلما جاء ذلك اليوم دخل خلوته، وأغلق أبوابه، ولم يُمكنه غلق باب السماء. وقد قال الحكماء: الهارب مما هو كائن فى كف الطالب يتقلب. ثم إنه كان فى البيت كوة، يدخل منها النور، فدخل منها طير صغير، كأنه من ذهب، وكان لداود ولد صغير، فهمّ أن يقبضه لابنه، فمازال يحاوله ويتبعه حتى وقع بصره على المرأة، فامتحن بها، فلم يدع به الاهتمام بولده حتى فعل ما فعل، وفى ذلك لأولى الأبصار عبرة. هـ.

وقال عند قوله: ﴿ فغفرنا له ذلك ﴾ : التجأ داود عليه السلام فى أوائل البلاء إلى التوبة، والبكاء، والتضرع، والاستكانة، فوجد المغفرةَ والتجاوز. وهكذا من رَجع فى أوائل الشدائد إلى الله، فالله يكفيه ويتوب عليه، و[كذلك][٢] من صبَرَ إلى حينِ طالت عليه المحنة. ويقال: إن زلة قدّرها عليك، توصلك إليه بندمك، أحرى بك من طاعة، إعجابك بها يُقصيك عن ربك. هـ. وفى الحِكَم: «معصية أورثت ذُلاً وافتقاراً، خير من طاعة أورثت عزاً واستكباراً» وقال الشيخ أبو العباس المرسى رضي الله عنه: كل سوء أدب يُثمر لك حُسن أدب؛ فهو أدب. هـ.

---

(١) انظر تفسير البغوى (٧/ ٨٤).

(٢) ما بين المعقوفتين مستدرك من لطائف الإشارات.

ولمّا تحققتْ إنابته، جعله اللهُ خليفةً، كما قال:

﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ياداودُ إنا جعلناك خليفةً في الأرض ﴾ أي: استخلفناك على المُلك فيها، والحُكم فيما بين أهلها، أو: جعلناك خليفة عمّن كان قبلك من الأنبياء القائمين بالحق، وفيه دليل على أن حاله عليه السلام بعد التوبة، كما كان قبلها، لم يتغير قط، خلاف ما نقله الثعلبي من تغير حاله وصوته، ومنع الطيور من إجابته، فانظره.

﴿ فاحكمْ بين الناس بالحق ﴾؛ بحكم الله تعالى، إذ كنت خليفته، أو: بالعدل، ﴿ ولا تتبع الهوى ﴾ أي: هوى النفس في الحكومات، وغيرها من أمور الدين والدنيا، بل قفْ عند ما حدّ لك. وفيه تنبيه على أن أقبح جنايات العبد متابعةُ هواه، ﴿ فيُضلك عن سبيل الله ﴾ أي: فيكون الهوى، أو اتباعه، سبباً لضلالك عن دلائله اللاتي نصبها على الحق، تكويناً وتشريعاً. و«يُضلك»: منصوب في جواب النهي، أو: مجزوم، فُتح؛ لالتقاء الساكنين. ﴿ إن الذين يَضِلُّون عن سبيل الله ﴾؛ عن طريقه الموصلة إليه. وأظهر «سبيلَ الله» في موضع الإضمار للإيذان بكمال شناعة الضلال عنه، ﴿ لهم عذاب شديد بما نَسُوا ﴾؛ بسبب نسيانهم ﴿ يومَ الحساب ﴾؛ فإنّ تذكره وترداده على القلب يقتضي ملازمة الحق ومباعدة الهوى.

﴿ وما خلقنا السماءَ والأرضَ وما بينهما ﴾ من المخلوقات على هذا النظام البديع ﴿ باطلاً ﴾ أي: خلقاً باطلاً، عارياً عن الحكمة، أو: مبطلين عابثين، بل لحِكَم بالغة، وأسرارٍ باهرة، حيث خلقنا من بينها نفوساً، أودعناها العقل؛ لتميز بين الحق والباطل، والنافع والضار، ومكنّاها من التصرفات العلمية والعملية، في استجلاب

منافعها، واستدفاع مضارها، ونصبنا لها للحق دلائل آفاقية، ونفسية، ومنحناها القدرة على الاستشهاد بها، ثم لم نقتصر على ذلك المقدار من الألطاف، بل أرسلنا إليها رسلاً، وأنزلنا عليها كتباً، بيّنا فيها كيفية الأدب معنا، وهيئة السير إلى حضرة قدسنا، وقيّضنا لها جهابذة، غاصوا على جواهر معانيها، فاستخرجوا منها كيفية المعاملة معنا، ظاهراً وباطناً، وأوعدنا فيها بالعقاب لمن أعرض عنها، ووعدنا بالثواب الجزيل لمن تمسك بها، ولم نخلق شيئاً باطلاً.

﴿ ذلك ظنُّ الذين كفروا ﴾، الإشارة إلى خلق العبث، والظن بمعنى المظنون، أي: خلْقُها عبثًا هو مظنون الذين كفروا، وإنما جُعلوا ظانين أنه خلقها للعبث، وإن لم يصرحوا بذلك؛ لأنه لمّا كان إنكارهم للبعث، والثواب، والحساب، والعقاب، التى عليها يدور فلك تكوين العالم، مؤدياً إلى خلقها عبثًا، جُعلوا كأنهم يظنون ذلك ويقولونه؛ لأن الجزاء هو الذى سيقت إليه الحكمة فى خلق العالم، فمن جحده فقد جحد الحكمة فى خلْق العالَم.

﴿ فويل للذين كفروا من النار ﴾، الفاء سببية؛ لإفادة ثبوت الويل لهم على ظنهم الباطل، وأظهر فى موضع الإضمار للإشعار بأن الكفر علة ثبوت الويل لهم، و«من النار»: تعليلية، كما فى قوله: ﴿ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾(١) أي: فويل لهم بسبب النار المترتبة على ظنهم وكفرهم.

﴿ أم نجعلُ الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض ﴾، «أم»: منقطعة، والاستفهام فيها للإنكار، والمراد أنه لو بطل الجزاء ـ كما تقول الكفرة ـ لاستوت أحوال أتقياء المؤمنين وأشقياء الكفرة، ومن سوّى بينهما كان سفيهاً، ولم يكن حكيماً، أي: بل أنجعل المؤمنين المصلحين كالكفرة المفسدين فى أقطار الأرض، كما يقتضيه عدم البعث وما يترتب عليه من الجزاء؛ لاستواء الفريقين فى التمتع فى الحياة الدنيا، بل الكفرة أوفر حظاً فيها من المؤمنين، مع صبر المؤمنين، وتعبهم فى مشاق الطاعات، لكن ذلك الجعل محال، فتعين البعث والجزاء؛ لرفع الأولين إلى أعلى عليين، وخفض الآخرين إلى أسفل سافلين.

﴿ أم نجعلُ المتقين كالفجارِ ﴾؛ إنكار للتسوية بين الفريقين المذكورين، وحمل الفجار على فجرة المؤمنين مما لا يُساعده المقام، ويجوز أن يراد بهذين الفريقين عين الأولين، ويكون التكرير باعتبار وصفين آخرين، هما أدخل فى إنكار التسوية من الوصفين الأولين. وقيل: قالت قريش للمؤمنين: إنا نُعْطَى من الخير يوم القيامة مثل ما تُعْطَوْنَ، فنزلت(٢).

(١) من الآية ٧٩ من سورة البقرة.
(٢) ذكره البغوى فى تفسيره (٧/ ٨٧).

الإشارة: قال الورتجبى: ولمَّا خرج داودُ من امتحان الحق وبلائه، كساه خلعة الربوبية، وألبسه لباسَ العزة والسلطنة، كآدم خرج من البلاء، وجلس فى الأرض على بساط فلك الخلافة، وذلك بعد كونهما متخلقين بخلق الرحمن، مصوَّرين بصورة الروح الأعظم، فإذا تمكن داود فى العشق، والمحبة، والنبوة، والرسالة، والتخلق، صار أمرُه أمرَ الحقَ، ونهيُه نهيَ الحق. هـ. وقال ابن عطية: لا يُطلق خليفة الله إلا لنبى، وإطلاقه فى غير الأنبياء تجوّزٌ وغلوٌّ. هـ. قلت: يُطلق عند الأولياء على من تحققت حريته، ورسخت ولايته، وظهر تصرفه فى الوجود بالهمة، حتى يكون أمره بأمر الله، غالباً، وهو مقام القطبانية، فالمراتب ثلاث: صلاح، وولاية، وخلافة، فالصلاح لِمن صلح ظاهره بالتقوى، والولاية لِمن تحقق شهوده، مع بقية من نفسه، بحيث تقل عثراته جداً، والخلافة لِمن تحققت حريته، وظهرت عصمته، بجذب العناية. والله تعالى أعلم.

وقوله تعالى: ﴿ ولا تتبع الهوى ﴾، الهوى: ما تهواه النفس، وتميل إليه، من الحظوظ الفانية، قلبية كانت، كحب الجاه، والمال، وكالميل فى الحُكم عن صريح الحق، أو: نفسانية، كالتأنق فى المآكل، والمشارب، والمناكح. واتباعُ الهوى: طلبُه، والسعى فى تحصيله، فإن كان حراماً قدح فى الإيمان، وإن كان مباحاً قدح فى نور مقام الإحسان، فإن تَيسَّرَ من غير طلب وتشوف، وكان موافقاً للسان الشرع، جاز تناول الكفاية منه، مع الشكر وشهود المنَّة. قال عمر بن عبدالعزيز: إذا وافق الحقُّ الهوى، كان كالزبد بالبرسام، أى: السكر. وفى الحِكَم: «لا يخاف أن تلتبس الطرق عليك، إنما يخاف من غلبة الهوى عليك»(١) وغلبة الهوى: قهره وسلطنته، بحيث لا يملك نفسه عند هيجان شهوتها.

وقوله تعالى: ﴿ وما خلقنا السماءَ والأرضَ وما بينهما باطلاً ﴾ أى: بل خلقناهما لنُعرف بهما، فما نُصبت الكائنات لتراها، بل لترى فيها مولاها. وقد تقدم هذا مراراً.

ولا ينال هذا المقام إلا بعبادة التفكر والتدبر، كما أشار إلى ذلك بقوله:

﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٢٩ ﴾

قلت: «كتابٌ»: خبر عن مضمر، أى: هذا، و«أنزلناه»: صفة له، و«مبارك»: خبر ثان، أو: صفة الكتاب، و«ليدبروا»: متعلق بأنزلناه.

(١) حكمة رقم ١٠٧، انظر الحكم بتبويب المتقى الهندى ص ١٧.

قيل: لمَّا نفى التسوية بين الصالح المتقىّ، والمفسد الفاجر، بيّن ما تحصل به لمتبعيه السعادة الأبدية، ويحصل به الصلاح التام، والتقوى الكاملة. وهو كتاب الله فقال جل جلاله: هذا ﴿ كتابٌ ﴾؛ وهو القرآن ﴿ أنزلناه إليك مباركٌ ﴾؛ كثير المنافع الدينية والدنيوية، أنزلناه ﴿ ليدَّبَّروا آياته ﴾ أى: ليتفكروا فى آياته، التى من جملتها هذه الآيات المعربة عن أسرار التكوين والتشريع، فيعرفوا ما فى ظاهرها من المعانى الفائقة، والتأويلات اللائقة. وقرىء: «لتدبروا» على الخطاب(١)، أى: أنت وعلماء أمتك، بحذف إحدى التاءين. ﴿ وليتذكَّر أولوا الألباب ﴾ أى: وليتّعظ به ذوو العقول الصافية، السليمة من الهوى، فيقفوا على ما فيه، ويعملوا به، فإنّ الكتب الإلهية ما نزلت إلا ليُتدبر ما فيها، ويُعمَل به. وعن الحسن: قد قرأ هذا القرآن عبيدٌ وصبيان، لا علم لهم بتأويله، حفظوا حروفه وضيّعوا حدوده. هـ.

الإشارة: كتاب الله العزيز بطاقة من عند الملك، والمراد من البطاقة فَهْمُ ما فيها، والعمل به، لا قراءة حروفها ورسومها فقط، فمن فعل ذلك فهو مقصّر.

وذكر فى الإحياء أن آداب القراءة عشرة، أى: الآداب الباطنية:

الأول: فَهْمُ عظمة الكلام وعلُوّه، وفضل الله سبحانه بخلقه، فى نزوله عن عرش جلاله، إلى درجة أفهام خلقه، فلولا استتار كُنْه جلال كلام الله تعالى، بكسوة الحروف، لما ثبت لكلام الله عرش ولا ثرى، ولتلاشى ما بينهما من عظمة سلطانه، ولولا تثبيت الله موسى عليه السلام ما أطاق سماع كلامه، كما لم يطق الجبل مبادر نوره.

الثانى: تعظيم المتكلم به، وهو الله سبحانه، فيخطر فى قلبه عظمة المتكلم، ويعلم أن ما يقرأه ليس من كلام البشر، وأن فى تلاوة كتابه غاية الخطر، ولهذا كان عكرمة إذا نشر المصحف غشى عليه.

الثالث: حضور القلب، وترك حديث النفس، فإذا قرأ آية غافلاً أعادها.

الرابع: التدبر، وهو وراء الحضور، فإنه قد لا يتفكر في غير القرآن، ولكنه مقتصر على سماع القرآن من نفسه وهو لا يتدبره. قال علىّ رضي الله عنه: لا خير فى عبادة لا فقه فيها، ولا خير فى قراءة لا تدبّر فيها.

الخامس: التفهم(٢)، وهو أن يستوضح كل آية ما يليق بها؛ إذ القرآن مشتمل على ذكر صفات الله تعالى، وذكر أفعاله، وذكر أحوال أنبيائه ـ عليهم السلام ـ، وذكر أحوال المكذّبين، وكيف أُهلكوا، وذكر أوامره وزواجره، وذكر الجنة والنار، قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «من أراد علم الأولين والآخرين فليثوّر القرآن» أى: فإنه مشتمل على فعل الله، وصفاته، وكشف أسرار ذاته، لمن تأمله حق تأمله.

(١) وبذلك قرأ أبو جعفر.. انظر إتحاف فضلاء البشر (٢/٤٢١).

(٢) فى الأصول [التفهيم] والمثبت هو الذى فى الإحياء.

السادس: التخلي عن موانع الفهم، ومعظمها أربعة: **أولها:** صرف الهمة إلى إخراج الحروف من مخارجها، وهذا تولى حفظه شيطان وُكل بالقراء. وكذلك الاشتغال بضبط رواياته، فأنى تنكشف لهذا أسرار المعاني. **ثانيها:** أن يكون مقيداً بمذهب، أخذه بالتقليد، وجمد عليه، فهذا شخص قيَّده معتقدُه، فلا يمكن أن يخْطر بباله غير معتقده، فلا يتبحر في معاني القرآن؛ لأنه مقيد بما جمد عليه. **ثالثها:** أن يكون مصراً على ذنب، أو متصفاً بكبر، أو: مبتلى بهوى في الدنيا، وبهذا ابتلى كثير من الناس، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ ﴾(١) أي: عن فهم آياتي. **رابعها:** أن يكون قد قرأ تفسيراً ظاهراً، واعتقد أنه لا معنى لكلمات القرآن إلا ما يتناوله النقل عن ابن عباس وغيره، وأمَّا ما وراء ذلك تفسير بالرأي، فهذا أيضاً من أعظم الحُجب؛ فإن القرآن العظيم له ظاهر وباطن، وحدّ ومُطّلع، فالفهم فيه لا ينقطع إلى الأبد، فهو بحر مبذول، يغرف منه كل واحد على قدر وسعه، إلى يوم القيامة.

السابع: التخصيص، وهو أن يعتقد أنه المقصود بكل خطاب في القرآن، فإن سمع أمراً أو نهياً، قدر أنه المأمور والمنهي، وكذلك إن سمع وعداً ووعيداً، وإن سمع قصص الأولين علم أن المقصود به الاعتبار، ليأخذ من تضاعيفه ما يحتاج إليه، ويتقوى إيمانه، قال تعالى: ﴿ وَكُلاً نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾(٢) فالقرآن لم ينزل خاصاً برسول الله ﷺ، بل هو شفاء ورحمة ونور للعالمين، فيثبت فؤاد كل من يسمعه.

الثامن: التأثير، وهو أن يتأثر قلبه بآثار مختلفة، بحسب اختلاف الآيات، فيكون له بحسب كل فهم حال ووجد، يتصف به قلبه؛ من الخوف، والرجاء، والقبض، والبسط، وغير ذلك.

التاسع: الترقي وهو أن يترقى إلى أن يسمع الكلام من الله سبحانه، لا من نفسه، ولا من غيره. فدرجات القرآن ثلاث: **أدناها:** أن يُقدر العبد كأنه يقرأ على الله تعالى، واقفاً بين يديه، فيكون حاله السؤال والتملق. **ثانيها:** أن يشهد بقلبه كأن الله تعالى يُخاطبه بألفاظه، ويُناجيه بإنعامه وإحسانه، فمقامه الحياء والتعظيم. **الثالثة:** أن يرى في الكلام المتكلّم، فلا ينظر إلى نفسه، ولا إلى قراءته، بل يكون مقصور الهم على المتكلم، مستغرقاً في شهوده، وهذه درجة المقربين، وما قبلها درجة أصحاب اليمين، وما خرج عن هذا فهو درجة الغافلين. وعن الدرجة العليا أخبر جعفر الصادق رضي الله عنه بقوله: والله لقد تجلى الله لخلقه في كلامه ولكن لا يُبصرون.هـ. وقال

(١) من الآية ١٤٦ من سورة الأعراف.
(٢) الآية ١٢٠ من سورة هود.

بعض الحكماء: كنتُ أقرأ القرآن ولا أجد حلاوة، حتى تلوته كأنه أسمعه من رسول الله ﷺ يتلوه على أصحابه، ثم رُفعت إلى مقام، كأنى أسمعه من جبريل، يلقيه على رسول الله ﷺ، ثم جاء الله بمنزلة أخرى، فأنا الآن أسمعه من المتكلّم به، فعندها وجدت له لذة ونعيماً لا أصبر عنه.

العاشر: التبرى، وهو أن يتبرأ من حوله، وقوته، والالتفات إلى نفسه بعين الرضا. انظر بقية كلامه فقد اختصرناه غاية.

ثم ذكر سليمان عليه السلام، فقال:

﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَٰنَ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِيِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَىَّ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ووهبنا لداودَ سليمانَ نِعْمَ العبدُ﴾ أى: سليمان، فهو المخصوص، ﴿إنه أوابٌ﴾ أى: رجّاع إلى الله تعالى فى السراء والضراء، وفى كل أموره، ﴿إذ عُرِضَ عليه﴾ أى: واذكر ما صدر عنه حين عُرض عليه ﴿بالعشيّ﴾؛ وهو ما بين الظهر إلى آخر النهار، ﴿الصافناتُ الجياد﴾ أى: الخيل الصافنات، وهى التى تقوم على طرف سنبك يدٍ أو رِجل. وهى من الصفات المحمودة، لا تكاد توجد إلا فى الخيل العِراب، الخُلّص. وقيل: هو الذى يجمع يديه ويستبق بهما، والجياد: جمع جواد، أو: جود، وهو الذى يسرع فى جريه، أو: الذى يجود عند الركض، وقيل: وصفت بالصفون والجودة؛ لبيان جمعها بين الوصفين المحمودين، واقفة وجارية، أى: إذا وقفت كانت ساكنة، وإذا جرت كانت سِراعاً خفافاً فى جريها.

رُوى أنه عليه السلام غزا أهل دمشق ونصيبين، وأصاب ألف فرس، وقيل: أصابها أبوه من العمالقة، وورثها منه، وفيه نظر؛ فإن الأنبياء لا يورثون، إلا أن يكون تركها حبسًا، فورث النظر فيها. ويكون عقرها بنية إبدالها. وقيل: خرجت من البحر لها أجنحة، فقعد يوماً بعد ما صلّى الظهر على كرسيه، فاستعرضها، فلم تزل تُعرض عليه حتى غربت الشمس، وغفل عن العصر، أو: عن الوِرد، كان له من الذكْر وقتئذ، وهو أليق بالعصمة، فاغتم لِما فاته، فاستردها، فعقرها، تقرباً إلى الله تعالى، وبقى مائة، فما فى أيدى الناس اليوم مِن الجياد فمِن نسلها(١).

(١) انظر تفسير البغوى (٧/٨٨).

وقيل: لمّا عقرها أبدل الله تعالى له خيراً منها، وهى الريح تجرى بأمره، ﴿ فقال إني أحببتُ حُبَّ الخيرِ عن ذكر ربي ﴾، قاله ﷺ عند غروب الشمس، اعترافاً بما صدر عنه من الاشتغال بها عن الصلاة أو الذكر، وغايته حينئذ: أن الأَوْلى استغراق الأوقات في ذكر الله من الاشتغال بالدنيا، فترَكَ الأَوْلى، وتحسر لذلك، وأمر بالقطع. وأما حمله على الصلاة والاشتغال بها حتى يفوت الوقت، فذنب عظيم، تأباه العصمة. قاله شيخ شيوخنا الفاسى. وقد يُجاب بأنّ تركه كان نسياناً وذهولاً، لا عمداً، فلا معصية.

وعدّى «أحببتُ» بـ«عن» دون «على»؛ لتضمنه معنى النيابة، أى: أَنَبْتُ حبَ الخير(١)، وهو المال الكثير، والمراد: الخيل التى شغلته عن ذكر ربه، ﴿حتى توارتْ﴾ أى: استترت ﴿ بالحجابِ ﴾ أى: غربت واحتجبت عن العيون، و«عن»: متعلق بأحببت، باعتبار استمرار المحبة ودوامها. حسب استمرار العَرض، أى: أنبتُ حب الخير عن ذكر ربى، واستمر ذلك حتى غربت الشمس. وإضمارها من غير تقدم ذكر لدلالة «العَشى» عليها.

﴿ رُدُّوها عليَّ ﴾، هو من مقالة سليمان، ﴿ فطَفِقَ مَسْحًا ﴾، الفاء فصيحة، مفصحة عن جملة حُذفت، لدلالة الكلام عليها، إيذاناً بسرعة الامتثال، أى: فَردُّوها عليه، فأخذ يمسح السيف مسحاً ﴿ بالسُّوقِ والأعناقِ ﴾ أى: بسوقها وأعناقها يقطعها، من قولهم: مسح عنقه بالسيف، وقيل: جعل يمسح بيده أعناقها وسوقها، حبًّا لها، وإعجاباً بها، وهو يُنافى سياق الكلام(٢).

الإشارة: لم يذكر الحق تعالى لسليمان ترجمة مخصوصة، كما ذكر لغيره بقوله: ﴿ واذكر عبدنا داود ﴾، ﴿ واذكر عبدنا أيوب ﴾، بل خرطه فى سلك ترجمة أبيه، وجعله هبة له؛ تنبيهًا على أن مقام أهل الجمال الدنيوى، لا يبلغ مقام أهل الجلال؛ ففيه تنبيه على أن الفقير الصابر أعظم من الغنى الشاكر. قاله فى القوت.

وقوله تعالى: ﴿ فطَفِقَ مَسْحًا بالسُّوق ﴾، فيه: أن من ترك شيئاً عوّضه الله خيراً منه، فمن كان فى الله تلفه، كان على الله خلفه. وفيه حجة للصوفية على إتلاف كل ما شغل القلب عن الله، كما فعل الشبلى من تمزيق الثياب الرفيعة(٣). والله تعالى أعلم.

---

(١) أى: أَنَبْتُ حُبَّ الخير عن ذكر ربى ووضعته موضعه.

(٢) وقيل معناه: أنه حبسها فى سبيل الله، وكوى سوقها وأعناقها بكيِّ الصدقة. وهذا هو الذى رجحه أبو حيان، لأنه يناسب مناصب الأنبياء، لا القول الأول؛ فإن فيه ما لا يليق ذكره بالنسبة للأنبياء. انظر البحر المحيط (٧/ ٣٨٠).

(٣) قال القرطبى فى تفسير (٦/ ٥٨٠٦): وقد استدل الشبلى وغيره من الصوفية فى تقطيع ثيابهم وتخريقها بفعل سليمان هذا، وهو استدلال فاسد، لأنه لايجوز أن ينسب إلى نبى معصوم أنه فعل الفساد. والمفسرون اختلفوا فى معنى الآية... وأما إفساد ثوب صحيح لا لغرض صحيح، فإنه لايجوز.. انظر بقية كلامه.

ثم ذكر امتحانه، فقال:

﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ولقد فتنَّا سليمانَ﴾ أي: ابتليناه، ﴿وألقينا على كرسيه﴾؛ سرير ملكه، ﴿جسداً﴾؛ شق ولد، أو جنياً، ﴿ثم أناب﴾؛ رجع إلى الله تعالى، وأظهر ما قيل في فتنته عليه السلام ما رُوي مرفوعاً: أنه قال: لأطُوفَنَّ الليلةَ على سبعين ـ أو تسع وتسعين ـ امرأةً، تأتي كل واحدة منهن بفارس، يُجاهد في سبيل الله، ولم يقل «إن شاء الله» فطاف عليهنَّ، فلم تحمل إلا امرأة واحدة، جاءت بشقّ رجل. قال نبينا عليه الصلاة والسلام: «والذي نفسي بيده لو قال: إن شاء الله، لجاهدوا في سبيل الله فُرساناً أجمعون»(١) فالفتنة على هذا: كونه لم يقل: «إن شاء الله» والجسد هو شق الإنسان الذي وُلد له. وقيل: إنه ولد له ابن، فأجْمعَت الشياطين على قتله، وقالوا: إن عاش له ولد لم ننفك من خدمته، فلمّا علِم ذلك، حمله في السحاب، فما شعر حتى ألقي على كرسيه جسداً ميتاً، فتنبه لخطأه، حيث لم يتوكل على الله.

وقيل: إنه غزا صيدون من الجزائر، فقتل ملِكها، وأخذ بنتاً له تُسمى جرادة، من أحسن الناس، فاصطفاها لنفسه، وأسلمت على جفاء، وأحبها، وكان لايرقأ دمْعها، جزعاً على أبيها، فأمر الشياطين فمثّلوا لها صورته، فكانت تغدوا عليها وتروح مع ولائدها، فيسجدْنَ لها، كعادتهن في ملكه، فأخبره صاحبه آصف بذلك، فكسر الصورة، وعاقب المرأة، ثم خرج إلى فلاة، وفُرش له الرماد، وجلس عليه تائباً إلى الله متضرعاً. وكانت له أم ولد، يقال لها: «أمينة» إذا دخل للطهارة، أو لإصابة امرأة، يعطيها خاتمه، وكان فيها مُلكه، فأعطاها يوماً، فتمثل لها بصورته شيطان، اسمه «صخر» وأخذ الخاتم، فتختم به، وجلس على كرسيه، فاجتمع عليه الخلق، ونفذ حكمه في كل شيء، إلا في نسائه، على المشهور، وغُيرَ سليمان عن هيئته، فأتى «أمينة» لطلب الخاتم، فأنكرته وطردته، فعلم

---

(١) أخرجه البخاري في (أحاديث الأنبياء، باب ﴿ووهبنا لداود سليمان﴾ ح ٣٤٢٤) ومسلم في (الأيمان، باب الاستثناء ٣/١٢٧٥ ح١٦٥٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

أن الخطيئة قد أدركته، فكان يطوف على البيوت يتكفف، وإذا قال: أنا سليمان، حثوا التراب عليه، وسبّوه، ثم عمد إلى السمّاكين ينقل لهم السمك، فيُعطونه كل يوم سمكتين، فمكث على ذلك أربعين صباحاً، عدد ما عبد الوثن في بيته، فأنكر آصف وعظماء بني إسرائيل حُكمَ الشيطان، حتى دخلوا على نسائه، فقالوا: قد أنكرنا حُكمه، فذهبوا حتى جلسوا بين يديه، فنشروا التوراة، فقرؤوها، فطار من بين أيديهم، والخاتم معه، ثم قذفه في البحر، فابتلعته سمكة، فوقعت في يد سليمان، فبقّر بطنها، فإذا هو بالخاتم، فتختم به، وخرّ ساجداً لله، وعاد إليه مُلكه، وقبض الجني «صخر» فجعله في وسط صخرة، وشد عليه بأخرى، ثم أوثقهما بالحديد والرصاص، وقذفه في البحر، فهو باق فيه. فالجسد على هذا عبارة عن «صخر» سمي به، وهو جسم لاروح فيه؛ لأنه تمثيل بما لم يكن كذلك، والخطيئة: تغافلّه عليه السلام عن حال أهله؛ لأن اتخاذ التماثيل لم يكن محظوراً حينئذ، والسجود للصورة بغير علم منه لايضره. وأنكر بعض المحققين هذه القصة. وقال: لايصح ما نقله الإخباريون وأهل التفسير في هذا الموضع، من تشبه الشيطان بنبيه، وتسلطه على ملكه، وتصرفه في أمته والجور في حكمه(١).

قال القاضي عياض: الشياطين لايتسلطون على مثل هذا، وقد عصم الله الأنبياء عن مثله. ومثله لابن العربي أيضاً. وحكى إنكاره عن السمرقندي. وقال الطيبي: أشبه الأقاويل في إلقاء الجسد هو شق الولد، كما تقدم. وخالفه ابن حجر، فقال: قال غير واحد من المفسرين: أن المراد بالجسد المذكور شيطان، وهو المعتمد، فالله أعلم، غير أن التنزيه أسلم.

قال شيخُ شيوخنا الفاسي في حاشيته: وليس هذه كقصة أيوب، فيما يذكر أنه تسلط الشيطان على إتلاف ماله وولده، وضرره في جسده؛ لأن ذلك إنما فيه تسلط على محض ضرر دنيوي لا ديني. وقد قال عليه الصلاة والسلام: «تفلت عليَّ البارحة عفريتٌ...» الحديث(٢). وكذا سُحر، وسُمَّ، وشُجَّ. والتسلط المذكور في حق سليمان، فيه تلبيس في الدين فلا يصح، إلا أن يقال: أنه لم يقر، بل رُفع اللبس بعد ذلك، كما في آية: ﴿ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ﴾(٣)، والله أعلم هـ.

---

(١) قال النسفي ـ رحمه الله ـ في تفسيره (٣/١٥٦): وأما ما يُروى من حديث الخاتم، والشيطان، وعبادة الوثن في بيت سليمان عليه السلام، فمن أباطيل اليهود. وقال في البحر المحيط (٧/٣٨١): نقل المفسرون في هذه الفتنة وإلقاء الجسد أقوالاً، يجب براءة الأنبياء منها، يوقف عليها في كتبهم، وهي مما لايحل نقلها، وإما هي من أوضاع اليهود والزنادقة. للمزيد انظر تفسير ابن كثير (٤/٣٦) والإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير (٢٧٠ ـ ٢٧٥).

(٢) ولفظه كاملاً: «إن عفريتاً من الجن تفلت عليَّ البارحة، ليقطع عليَّ الصلاة، فأمكنني الله منه، فأخذته، فأردت أن أربطه على سارية من سواري المسجد، تنظروا إليه كلكم. فذكرت دعوة أخي سليمان: ﴿رب اغفر لي وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي﴾ فرددته خاسئاً».

أخرجه البخاري في (الأنبياء، باب قوله تعالى: ﴿ووهبنا لداود سليمان نعم العبد إنه أواب﴾ ح ٣٤٢٣) ومسلم في (المساجد، باب جواز لعن الشيطان في أثناء الصلاة والتعوذ منه. ١/٣٨٤ ح ٥٤١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) من الآية ٥٢ من سورة الحج.

﴿ قال ربِّ اغفر لى ﴾ ، هو بدل من «أناب»، أى: اغفر لى ما صدر عنى من الزلة، ﴿ وهب لى ملكًا لا ينبغى لأحد من بعدى ﴾، ليكون معجزةً لى، مناسبة لحالى، فإنه عليه السلام لمّا نشأ فى بيت الملك والنبوة، وورثهما معًا، استدعى من ربه معجزة جامعة لحكمهما. أو: لا ينبغى لأحد يسلبه منى بعد هذه السلبة، أو: لا يصح لأحد من بعدى؛ لعظمته وشدته.

قال القشيرى: ويُقال: لاينبغى لأحد من بعدى أن يسأل المُلْك، بل يجب أن يَكِلَ أمرَه إلى الله - ومثله للجنيد، وزاد : فإن المُلْكَ شُغل عن المالك ـ أو: يقال: لاينبغى لأحدٍ من بعدى من الملوك، لا من الأنبياء، وإنما سأل المُلْكَ لسياسة الناس، وإنصافِ بعضهم من بعض، والقيامِ بحقِّ الله، ولم يسأله لأجل ميْلِه إلى الدنيا. وهو كما قال يوسف عليه السلام: ﴿ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الأَرْضِ... ﴾(١). ثم قال: علِمَ أن نبينا عليه الصلاة والسلام لايلاحِظ الدنيا، ولايملكها، تحقيراً لها فقال: ﴿ لاينبغي لأحد من بعدي ﴾ لا لأنه بَخِلَ به عليه، ولكن لعِلْمِه أنه لاينظر إلى ذلك. هـ. هذا، وقد يُقال: أن قوله: ﴿ وَهب لى مُلْكاً ﴾ قد جرى على لسانه، كما هو حال النطق بالله من أهل الله، ولذلك كان الأمر كذلك، ولم يزاحمه أحد، كقول الخليل: ﴿ وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً ﴾(٢)، لما جرىٓ به القضاء أنطقه الله بما سيكون. وتقديم الاستغفار على الاستيهاب؛ لمزيد اهتمامه بأمر الدين، جرياً على سَنَن الأنبياء والصالحين، وكون ذلك أدخل فى الإجابة.

﴿ إنك انت الوهابُ ﴾ ؛ تعليل للدعاء بالهبة والمغفرة معاً، فإن المغفرة من أحكام وصف الوهّابية قطعاً، ﴿ فسخَّرنا له الريحَ ﴾ ؛ فذللناها لطاعته، إجابة لدعوته، فعاد أمره عليه السلام إلى ما كان عليه قبل الفتنة، قيل: فدن سليمان بعدما ملك عشرين، وملك بعد الفتنة عشرين، فسخرت له الريح ﴿ تجرى بأمره ﴾؛ بيان لتسخيرها، ﴿ رُخَاءً ﴾ أى: لينة، من الرخاوة، أو: طيبة لا تزعج، وهذا بعد أن تُقِلّ السرير من الأرض الإعصارُ، فإذا صار فى الهواء حملته الرخاء الطيبة، ﴿ حيث أصابَ ﴾ أى: قصد وشاء، بلغة حمير. تقول العرب: أصاب الصواب فأخطاء الجواب، أى: أراد الصواب فأخطأ. قال الشاعر:

أَصَابَ الْكَلاَمَ فَلَمْ يَسْتَطِعْ فَأَخْطَأَ الجوابَ لَدَى المِفْصَلِ

﴿ و ﴾ سخرنا له ﴿ الشياطينَ كلَّ بناءٍ وغوّاصٍ ﴾ : بدل من «الشياطين». فكانوا يبنون له ما يشاء، ويغوصون له فى البحر؛ لاستخراج اللآلئ، وهو أول من استخرج اللؤلؤ من البحر، أى: وسخّرنا له كلَّ بناء

---

(١) من الآية ٥٥ من سورة يوسف.
(٢) من الآية ١٢٩ من سورة البقرة.

وغواص من الشياطين، ﴿ وآخرين مقرَّنِينَ في الأصفاد ﴾؛ فكان يقرن مردة الشياطين، بعضهم مع بعض، في القيود والسلاسل، للتأديب والكف عن العباد.

والصفد: القيد، وقد يسمى العطاء بالصفد؛ لأنه ارتباط للمنعَم عليه في يد المنعِم. ومنه قول عليّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: (من برَّك فقد أسرك، ومن جفاك فقد أطلقك)، ومن هذا كانت الصوفية يهربون من خير الناس، أكثر مما يهربون من شرهم. قال الشيخ عبدالسلام بن مشيش لأبي الحسن الشاذلي - رضي الله عنهما: يا أبا الحسن اهرب من خير الناس، أكثر مما تهرب من شرهم، فإنَّ خيرهم يُصيبك في قلبك، وشرهم يُصيبك في بدنك، ولئن تُصاب في بدنك خير من أن تصاب في قلبك، ولعدو تصل به إلى ربك خير من حبيب يقطعك عن ربك. هـ.

﴿ هذا عطاؤنا ﴾، هو حكاية لما خُوطب به سليمان من قِبَل الحق تعالى، أي: وقلنا له هذا الذي أعطيناك من المُلك العظيم، والسلطنة، والتسلط على مالم يُسلط عليه غيرُك، هو عطاؤنا الخاص بك، ﴿ فامْنُنْ أو أمْسِكْ ﴾ أي: أعط من شئت، وامنع من شئت، ﴿ بغير حساب ﴾ أي: غير محاسَب على منِّه ومنعه لتفويض التصرف فيه إليك، فكان إذا أعطى أُجر، وإذا منع لم يأثم، بخلاف غيره. قال الحسن: إن الله لم يعط أحداً عطية إلا جعل فيها حساباً، إلا سليمان، فإن الله أعطاه عطاء هيناً. وهذا مما خُص به سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ، وأما غيره، فيؤجر على بذله، ويُعاقب على منعه من حقه، و﴿ بغير حساب ﴾: قيل: متعلق بعطاؤنا، وقيل: حال من المستكن في الأمر، أي: هذا عطاؤنا جمًا كثيراً، لا يكاد يقدر على حصره، أو: هذا التسخير عطاؤنا فامنن على من شئت من الشياطين بالإطلاق، أو: أمسك من شئت منهم في الوثاق، لاحساب عليك في ذلك.

﴿ وإنَّ له عندنا لزُلفى ﴾؛ لقُربى في الآخرة، مع ماله في الدنيا من الملك العظيم، ﴿ وحُسنَ مآب ﴾؛ مرجع، وهي الجنة. وزُلفى: اسم إن، و«له»: خبر، و«عند»: متعلق بالاستقرار.

رُوي أن سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ لما ورث مُلك أبيه، سار من الشام إلى العراق، فبلغ خبره كسرى، فهرب إلى خراسان، فلم يلبث حتى هلك. ثم سار سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى مرو، ثم إلى بلاد الترك، فأوغل فيها، ثم جاز بلاد الصين، ثم عطف إلى أن وافى بلد فارس، فنزلها أياماً، ثم عاد إلى الشام، فأمر ببناء بيت المقدس، فلما فرغ منه سار إلى تهامة، ثم إلى صنعاء، وكان من حديثه مع صاحبتها ما ذكر الله، وغزا بلاد المغرب؛ الأندلس وطنجة وغيرهما. انظر أبا السعود(١). والله تعالى أعلم.

(١) إرشاد العقل السليم (٧/٢٢٨).

الإشارة: ما أعطى اللهُ عبداً مُكنةً إلا بعد محنة، ولارفع مقاماً إلا بعد ابتلاء، إما فى البدن والمال، وإما فى الدين، إنْ صَحِبه رجوع وانكسار. كأنّ الله تعالى إذا أراد أن يرفع عبداً أهبطه إلى أرض قهرية العبودية، ثم يرفعه إلى مشاهدة عظمة الربوبية، ثم يملكه الوجود بأسره، يتصرف فيه بهمته كيف شاء. ولذلك قيل فى معصية آدم: نعمت المعصية أورثت الخلافة. وشاهده حديث: «أنا عند المنكسرة قلوبهم من أجلي»(١). ومن كان الله عنده، ماذا يفوته؟.

وقوله تعالى: ﴿ وهَبْ لي مُلكاً . . ﴾ الخ، قال القشيري: لم يطلب المُلكَ الظاهر، وإنما أراد به أن يَمْلك نَفْسَه، فإن المَلِكَ ـ على الحقيقة ـ من ملَك نفسَه، فمن ملَكها لم يتّبِعْ هواه، ـ أي: فيكون حراً، فيملكه الله التصرف فى الوجود. ثم قال: ويُقال أراد به كمالَ حاله في شهود ربه، حتى لايَرى معه غيرَه، ويقال: سأل القناعةَ التى لايبقى معها اختيار.هـ.

وقوله تعالى: ﴿ هذا عطاؤنا فامنُنْ أوْ أمسك بغير حساب ﴾، هو عند الأولياء ليس خاصاً بسليمان، فكل من تمكّن مع الله التمكن الكبير يُفوض إليه الأمر، ويقال: افعل ماشئت، وشاهده: حديث أهل بدر. وقال الشيخ أبو الحسن الشاذلي: رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يبلغ الوليّ مبلغاً يُقال له: أصحبناك السلامة، وأسقطنا عنك الملامة، فاصنع ماشئت. ثم استشهد بالآية فى حق سليمان، هذا، وإن كان للنبى من أجل العصمة، فلِمن كان من الأولياء فى مقام الإمامة قسط منه، من أجل الحفظة.

ثم ذكر أيوب عَلَيْهِ السَّلَامُ، فقال:

﴿ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾ ﴾

(١) سبق تخريج الحديث.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ واذكر عبدنا أيوب ﴾، وهو ابن عيصو ابن إسحاق عليه السلام، أى: من ذريته؛ لأنه بعد يوسف، وامرأته: رحمة بنت إفرائيم بن يوسف. ﴿ إذ نادى ربَّه ﴾، وهو بدل اشتمال من «عبدنا». و«أيوب»: عطف له، ﴿ أَنِّي ﴾ أى: بأنى ﴿ مسني الشيطان بنُصْبٍ ﴾(١) أى: تعب، وفيه قراءات بفتحتين، وبضمتين، وبضم وسكون، وبنصب وسكون. ﴿ وعذابٍ ﴾ أى: ألم، يريد ماكان يقاسيه من فنون الشدائد، وهو الضر فى قوله: ﴿ مَسَّنِيَ الضُّر ﴾(٢)، وهو حكاية لكلامه الذى ناداه به، وإلا لقيل: إنه مسه. وإسناده إلى الشيطان على طريق الأدب فى إسناد ما كان فيه كمال إلى الله تعالى، وما كان فيه نقص إلى الشيطان أو غيره، كقول الخليل: ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ ﴾(٣)ولم يقل: أمرضنى. وكقول يوشع عليه السلام: ﴿ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلاَّ الشَّيْطَانُ ﴾(٤). وفى الحقيقة: كلٌّ من عند الله. وقيل: أراد ماكان يوسوس به إليه فى مرضه، من تعظيم مانزل به من البلاء، ويغريه على الكراهة والجزع، فالتجأ إلى الله فى أن يكفيه ذلك، بكشف البلاء، أو بدفعه ورده بالصبر الجميل.

ورُوى: أنه كان يعوده ثلاثة من المؤمنين، فارتد أحدهم، فسأل عنه، فقيل: ألقى إليه الشيطان: أن الله لايبتلى الأنبياء والصالحين، فشكا ذلك إلى ربه. وذكر فى سبب بلائه؛ أنه ذبح شاة فأكلها، وجاره جائع، أو: رأى منكراً فسكت عنه، أو: استغاثه مظلوم فلم يغثه، أو: كانت مواشيه فى ناحية ملك كافر، فداهنه، فلم يغزه، أو: سؤاله امتحاناً لصبره، أى: هل يصبر أم لا، أو: ابتلاه لرفع درجاته بلا سبب، وهو أولى(٥).

﴿ اركُضْ برِجْلِكَ ﴾، حكاية ما أجيب به أيوب عليه السلام، أى: أرسلنا له جبريل عليه السلام بعد انتهاء مدة مرضه، فقال له: اركض، أى: اضرب برجلك الأرض، وهى أرض موضع بالجابية(٦)، فضربها، فنبعت عين، فقيل: ﴿ هذا مُغتَسَل باردٌ وشَرابٌ ﴾ أى: هذا ما تغتسل منه، وتشرب منه، فيبرأ ظاهرك وباطنك، وقيل: نبعت له عينان؛ حارة للاغتسال، وباردة للشرب، فاغتسل من إحداهما، فبرئ ما فى ظاهره، وشرب من الأخرى، فبرئ ما فى باطنه، بإذن الله تعالى. ومدة مرضه قيل: ثمان عشرة سنة، وقيل: أربعين، وقيل: سبع سنين، وسبعة أشهر، وسبعة أيام، وسبع ساعات(٧).

---

(١) قرأ أبو جعفر «بنُصُب» بضم النون والصاد، وقرأ يعقوب بفتحهما، وقرأ الباقون بضم النون وسكون الصاد. انظر الإتحاف (٢/٤٢١)

(٢) من الآية ٨٣ من سورة الأنبياء.

(٣) من الآية ٨٠ من سورة الشعراء.

(٤) من الآية ٦٣ من سورة الكهف.

(٥) انظر تفسير النسفى (٣/١٥٧).

(٦) الجابية: موضع بالشام.

(٧) راجع (٣/٤٨٧) من هذا الكتاب.

﴿ ووهبنا له أهلَه ومثلَهم معهم ﴾، قيل: أحياهم الله بأعيانهم، وزاد مثلهم، وقيل: جمعهم بعد تفرقهم، وقيل: أعطاه أمثالهم وزاده ضِعفهم. قال القشيري: وكان له سبع بنات، وثلاثة بنين، في مكتب واحد، فحرك الشيطانُ الاسطوانةَ، فانهدم البيت عليهم.هـ. ولم يذكر كم كان له من الزوجات، فقد سلمت [منهن][(1)] ،رحمة، وهلك الباقي.

أعطيناه ذلك ﴿ رحمةً منا ﴾ أي: رحمة عظيمة عليه من قِبلنا. ﴿ وذِكْرى لأُولي الألباب ﴾ أي: ولنذكرهم بذلك ليصبروا على الشدائد، ويلتجئوا إلى الله فيما ينزل بهم؛ لأنهم إذا سمعوا بما أنعمنا به عليه، لِصبره، رغّبهم في الصبر على البلاء.

ولمّا حلف: لَيَضْرِبنَّ امرأته مائةَ ضربة، حيث أبطأت عليه في حاجتها. وقيل: باعت ذوائبها واشترت به رغيفين، وكانت متعلق أيوب. وقيل: طمع الشيطان فيها أن يسجد زوجُها له فيشفيه، أمره الله تعالى ببر يمينه، فقال: ﴿ وخُذْ بيدك ضِغْثًا ﴾، حُزمة صغيرة من حشيش أو ريحان، وعن ابن عباس رضي الله عنه: قبضة من الشجر، ﴿ فاضربْ به ولاتَحْنَثْ ﴾، وهذه الرخصة باقية عند الشافعي وأبي حنيفة، خلافاً لمالك؛ لأن الأيْمَان عنده مبنية على الأعراف. قال تعالى: ﴿ إنَّا وجدناه ﴾؛ علمناه ﴿ صابرًا ﴾ على البلاء، وأما شكواه فليست جزعًا، بل رجوعاً إلى مولاه، على أنه عليه السلام إنما طلب الشفاء خيفة على قومه، حيث كان الشيطانُ يوسوس إليهم: لو كان نبياً لما ابتلي بمثل ما ابتلي به، وإرادة القوة على الطاعة، فقد بلغ أمره إلى أن لم يبق منه إلا القلب واللسان. قلت: طلب الشفاء لاينافي الرضا؛ لأن العبد ضعيف، لا قوة له على قهرية الحق. ثم قال تعالى: ﴿ نِعْمَ العبدُ إنه أوّابٌ ﴾؛ رجّاع إلى الله تعالى. قال القشيري: لم يشغله البلاء عن المبْلِي. وهو تعليل لمرضه.

الإشارة: كثير من الصوفية اختاروا البلاء على العافية، وبعضهم اختار العافية، قال عليٌّ رضي الله عنه: لأنْ أُعطى فأشكر أحبُّ إليّ من أن أُبتلى فأصبر، أي: لأنه طريق السلامة، وبه وردت الأحاديث، والأولى للعبد ألا يختار مع سيده شيئاً، بل يكون مفوضاً مستسلماً، يتلقى ما يرد عليه بالترحيب، أيّ شيء كان. وبالله التوفيق.

ثم ذكر إبراهيم وبنيه، فقال:

﴿ وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ﴿٤٥﴾ إِنَّا
أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ ﴾

(1) في الأصول [منهم].

يقول الحق جل جلاله: ﴿واذكر عبادنا﴾، وقرأ المكي[1]: «عبدنا»، إما على إرادة الخبر، وإما أن يريد «إبراهيم» وحده لشرفه، ثم عطف عليه من بعده، ثم بيَّنهم بقوله: ﴿إبراهيمَ وإسحاقَ ويعقوبَ أُوْلِي الأيدي والأبصارِ﴾ أي: أولى القوة فى الطاعة والبصيرة فى الدين، أو: أُولى الأعمال الجليلة، والعلوم الشريفة. فعبَّر بالأيدى عن الأعمال؛ لأن أكثرها تُباشر بها، وبالأبصار عن المعارف؛ لأنها أقوى مبادئها. وفيه تعريض بالجهلة الباطلين، كأنهم كالزَّمنى والعماة، وتوبيخ على ترك المجاهدة والفكرة مع تمكنهم منهما.

﴿إنا أخلصناهم بخالصةٍ﴾ أى: جعلناهم خالصين لنا بخصلة عظيمة الشأن، لاشوب فيها، هى ﴿ذِكْرَى الدَّارِ﴾ أى: تذكر للدار الآخرة على الدوام، فإنَّ خلوصهم فى الطاعة بسبب تذكرهم لها، وذلك لأن مطمح أنظارهم، ومسرح أفكارهم، فى كل ما يأتون ومايذرون، جوار الله عز وجل، والفوز بلقائه، ولايتأتى ذلك على الدوام إلا فى الآخرة، فمطلبهم إنما هو الجوار والرؤية، لا مجرد الحضور فى تلك الدار، كما قال ابن الفارض ـ رضي الله عنه:

لَيسَ سُؤْلى مِن الجِنَانَ نَعيمًا　　　　غَيرَ أَنِّى أُرِيدُها لأَراكَ

قال ابن عطية: يحتمل أن يكون معنى الآية: ﴿إنا أخلصناهم﴾ بأن خلص لهم التذكير بالدار الآخرة، ودعاء الناس إليها، أى: وتزهيدهم فى الدنيا، كما هو دَيدن الأنبياء والرسل. وهذا قول قتادة، أو: إنا أخلصناهم بأن خلص لهم ذكرهم للدار الآخرة وخوفهم والعمل بحسب ذلك. وهذا قول مجاهد. هـ. قلت: مرتبة الرسل تنافى العمل لحرف، فإنَّ أولياء هذه الأمة تحرروا من العمل للحرف، بل عبدوا الله شكراً ومحبة وعبودية، لاطمعاً فى شىء، فكيف بأكابر الرسل. وإطلاق الدار للإشعار بأنها الدار فى الحقيقة، وإنما الدنيا معبر إليها.

ومن قرأ بالإضافة[2]، فمن إضافة الشىء إلى ما بيَّنَهُ؛ لأن الخالصة تكون ذكرى وغير ذكرى، و«ذكرى»: مصدر مضاف إلى المفعول، أى: بإخلاصهم ذكرى الدار. وقيل: خالصة بمعنى خلوص، وهى مضافة إلى الفاعل، أى: بأن خلصت لهم ذكرى الدار، على أنهم لا يشوبون ذكرى الدار بشىء آخر، إنما همّهم ذكرى الدار الآخرة لجوار الحبيب.

---

(١) وهو ابن كثير الدارى، أحد القراء السبعة.
(٢) أى: «خالصةِ» بغير تنوين، مضافاً للبيان، كما فى «بشهابِ قبس». وبها قرأ نافع وأبو جعفر. انظر الإتحاف (٢/٤٢٢).

﴿وإنهم عندنا لمن المصْطَفَيْنَ﴾ المختارين من بين أبناء جنسهم ﴿الأخْيارِ﴾ : جمع خيِّر، أو: خيْر، على التخفيف، كأموات جمع ميِّت، أو: ميْت.

الإشارة: أولياء هذه الأمة ـ أى: العارفون بالله ـ يزاحمون الأنبياء والرسل فى جلّ المراتب، قال ﷺ: «علماء أمتى كأنبياء بنى إسرائيل»،(١) أى: العلماء بالله؛ فإنهم لم يقفوا مع دنيا ولا مع آخرة، بل حطوا هممهم على الله، ولم يقصدوا شيئاً سواه، خلعوا النعلين عن الكونين، وركضوا إلى المكوِّن، وكانت لهم اليد الطولى فى عمل الطاعات عبوديةً، والبصيرة النافذة فى مشاهدة الربوبية، هذه طريقهم، وهذا مذهبهم، ومن حاد منهم عن هذا لم يعدّوه منهم. جعلنا الله ممن خرط فى سلكهم.

ثم ذكر بقية بنيه، فقال:

﴿ وَٱذۡكُرۡ إِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ وَكُلٞ مِّنَ ٱلۡأَخۡيَارِ ﴿٤٨﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿واذكر إسماعيلَ﴾، فصل ترجمته عن أبيه وأخيه؛ للإشعار بعلو شأنه، واستقلاله بالشرف والذكر، ولعراقته فى الصبر، الذى هو المقصود بالتذكير، وهو أكبر بنيه. ﴿و﴾ اذكر ﴿الْيسعَ﴾ بن خطوب(٢) بن العجوز، استعمله إلياس على بنى إسرائيل، ثم استنبئ. و«ال» فيه، قيل: للتعريف، وأصله: يسع، وقيل: زائدة؛ لأنه عجمى علَم، وقيل: هو يوشع، ﴿وذا الكفلِ﴾ وهو ابن عم اليسع، أو: بشر بن أيوب. واختلف فى نبوته وسبب لقبه، فقيل: فرّ إليه مائة نبى من بنى إسرائيل، خوفًا من القتل، فآواهم وكفلهم، وقيل: تكفل بعبادة رجل صالح كان فى وقته. ﴿وكلٌّ﴾ أى: وكلهم ﴿مِّنَ الأخْيارِ﴾ المشهورين بالخيرة.

الإشارة: إنما كان هؤلاء مصطفين أخياراً بالوفاء بالعهود، والوقوف مع الحدود، والصبر على طاعة الملك المعبود، وتحمل ما يقرب إلى حضرة الشهود. فكل من اتصف بهذه الخصال كان من المُصْطَفَيْن الأخيار.

ثم ذكر عامة المؤمنين، أو: ما أعد لمن ذُكر آجلاً، بعد ذكرهم الجميل عاجلاً، فقال:

﴿ هَٰذَا ذِكۡرٞۚ وَإِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ لَحُسۡنَ مَـَٔابٖ ﴿٤٩﴾ جَنَّٰتِ عَدۡنٖ مُّفَتَّحَةٗ لَّهُمُ ٱلۡأَبۡوَٰبُ ﴿٥٠﴾

(١) قال فى كشف الخفاء (٢/٨٣، ح ١٧٤٤): «قال السيوطى فى الدرر: لا أصل له. وقال فى المقاصد: قال شيخنا ـ يعنى ابن حجر ـ ومن قبله الدميرى والزركشى: إنه لا أصل له. زاد بعضهم: ولايعرف فى كتاب معتبر». وانظر أيضا العلل المتناهية (ح٧٠٢).

(٢) فى نسخة [قطوب].

مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَـٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ ۞ وَعِندَهُمْ قَـٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾ هَـٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَـٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾ ﴾

قلت: (جناتِ): عطف بيان لحُسن مآب، أو: بدل. و(مفتّحة): حال من (جنات عدن). والعامل فيها: الاستقرار في (للمتقين). و(الأبواب): نائب الفاعل لمُفتّحة. والرابط بين الحال وصاحبها: إما ضمير مقدّر، كما هو رأى البصريين، أى: الأبواب منها، أو: الألف واللام القائم مقامه، كما هو رأى الكوفيين، أى: أبوابها. و(متكئين): حال من ضمير (لهم)، والعامل فيه: (مفتحة). و(يدْعُون): إما استئناف، أو: حال مما ذكر، أو: من ضمير (متكئين).

يقول الحق جل جلاله: ﴿ هذا ﴾ أى: هذا الذى ذكر من الآيات الناطقة بمحاسن الأنبياء والرسل، ﴿ ذِكْرٌ ﴾ أى: شَرَفٌ لهم، وذِكْر جميل يُذكرون به أبداً، أو: نوع من الذكر، أى: القرآن. وآىٌ منه مشتمل على أنباء الأنبياء، أو: تذكير ووعظ؛ لأنه يذكر أحوال الأكابر ليقتدى بهم، أو: ذكر من مضى الأنبياء، أو: شرف لك؛ لأنه معجزة لك يدلّ على صدقك، ﴿ وإنّ للمتقين ﴾ أى: جنس المتقين، أو: مَن ذكر من الرسل، عبّر عنهم بالمتقين مدحاً لهم بالتقوى؛ إذ هى غاية الكمال. ﴿ لحُسْنَ مآب ﴾؛ مرجع.

ثم بيّنه بقوله: ﴿ جناتِ عدنٍ ﴾؛ إقامة ﴿ مفتحةً لهم الأبوابُ ﴾ فإذا جاءوها لايلحقهم ذلّ الحجاب، ولا كلفة الاستئذان، تستقبلهم الملائكة بالتبجيل والترحيب، ﴿ متكئين فيها ﴾ على أرائكهم فى حِجالهم، ﴿ يَدْعُون فيها بفاكهةٍ كثيرة ﴾ مما يشتهون ﴿ وشراب ﴾ كثير كذلك، حذف اكتفاء بالأول، والاقتصار على دُعاء الفاكهة للإيذان بأن مطاعمهم لمحض [التفكه](1) والتلذذ، دون التغذى والحاجة، فإنه لاتَحلُّ فى الأبدان ولاحاجة.

﴿ وعندهم ﴾ حور ﴿ قاصِراتُ الطَّرْفِ ﴾ على أزواجهن، لاينظرن إلى غيرهم، ﴿ أترابٌ ﴾؛ لِدَاتٌ، أسنانُهنّ كأسنانهم. قيل: ثلاث وثلاثون سنة لكل واحد، أو: مستويات فى الحُسن والجمال والشكل؛ لأن التحابّ بين الأقران أبلغ وأثبت، وقيل: أتراب بعضهن لبعض، لاعجوز فيهن ولا صبية. واشتقاقه من التراب، فإنه [يمسّهن](2) فى وقت واحد.

(١) فى الأصول [الفاكهة].
(٢) فى الأصول الخطية [يمسهم].

﴿ هذا ما تُوعدون ليوم الحساب ﴾، قال ابن عرفة: اللام للتوقيت، أي: عنده، أو: للتعليل، فإن الحساب علّة للوصول إلى الجزاء. وقرأ المكي والبصري بياء الغيب، ليُوافق ماقبله، والالتفات أليق بمقام الامتنان والتكريم. ﴿ إنَّ هذا ﴾ الذي ذكر من ألوان النعيم والكرامات ﴿ لَرِزْقُنا ﴾ أعطيناكموه، ﴿ ماله من نفاد ﴾؛ من انقطاع وتمام أبدا.

الإشارة: كل من توجه إلى الله بكليته، واتصف بمحاسن الأخلاق، كان له ذكر وشرف في الدنيا، وكرامة في العُقبى، بما لاعين رأت، ولا أُذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

ثم ذكر أضدادهم بقوله:

﴿ هَٰذَا وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾ هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ ﴿٦١﴾ وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾ ﴾

قلت: (هذا): خبر، أي: الأمر هذا، أو: مبتدأ؛ أي: هذا كما ذكر، وهو من الاقتضاب[1] الذي يقرب من التخلص[2]، كقوله بعد الحمد: أما بعد. قال السعد: هو من فصل الخطاب، الذي هو أحسن موقعاً من التخلص. قال: وقد يكون الخبر مذكوراً كقوله: ﴿ هذا ذكر وإن للمتقين.. ﴾ الآية. هـ. قال الطيبي: هو من فصل الخطاب، على التقدير الأول، لا الثاني. هـ. أي: إذا كان خبراً عن مضمر، لا ما إذا ذكر الخبر.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ هذا ﴾ أي: الأمر هذا، ﴿ وإنَّ للطاغين لشرَّ مآب ﴾؛ مرجع ﴿ جهنَّمَ يصلونها ﴾؛ يدخلونها، حال من جهنم، ﴿ فبئس المِهادُ ﴾: الفراش، شبّه ماتحتهم من النار بالمهاد الذي يفرش للنائم، والمخصوص محذوف، أي: جهنم.

---

(١) الاقتضاب عند البلغاء: الانتقال مما افتتح به الكلام إلى المقصود من غير مناسبة، كقولك بعد حمد الله: أما بعد فقد فعلت كذا وكذا. انظر محيط المحيط (ص ٧٤٢).

(٢) التخلص عند البلغاء: الانتقال مما افتتح به الكلام إلى المقصود مع رعاية المناسبة. انظر محيط المحيط (ص ٢٤٨).

﴿ هذا فليذوقوه ﴾ أى: ليذوقوا هذا فليذوقوه، كقوله تعالى: ﴿ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴾(١) أو: العذاب هذا فليذوقوه، وهو ﴿ حميمٌ وغسّاق ﴾.. الخ، أو: (هـذا) : مبتدأ، و(حميم وغساق) : خبر، وما بينهما اعتراض، والغساق: ما يَغسِق، أى: يسيل من صديد أهل النار، يقال: غسَقَت العين؛ إذا سال دمعها. وقيل: الحميم يحرق بحرّه، والغساق يحرق ببرده. قيل: «لو قطرت منه قطرة بالمشرق لأنتنت أهل المغرب، ولو قطرت بالمغرب لأنتنت أهل المشرق». وقيل: الغساق: عذاب لا يعلمه إلا الله. وهو بالتخفيف والتشديد، قرىء بهما (٢).

﴿ وآخَرُ ﴾ أى: وعذاب آخر، أو: مذوق آخر، ﴿ من شَكْلِه ﴾؛ من مثل العذاب المذكور. وقرأ البصرى: «أُخَرُ» بالجمع، أى: ومذوقات أُخَرُ من شكل هذا العذاب فى الشدّة والفظاعة، ﴿ أزواجٌ ﴾ أى: أصناف، وهو خبر لآخر، أو: صفة له، أو: للثلاثة.

﴿ هـذا فوج مُقتَحِمٌ معكم ﴾، حكاية لِمَا يقوله الخزنة للطاغين إذا دخلوا النار، واقتحمها معهم فوج كانوا يتبعونهم فى الكفر والضلالة. والاقتحام: الدخول فى الشىء بشدة، أو: من كلام الطاغين بعضهم من بعض. ﴿ لا مرحباً بهم ﴾، هو من تمام كلام الخزنة، على الأول، أو: من كلام الطاغين، دعاء منهم على أتباعهم. يُقال لمن يدعو له أو يفرح به: مرحباً، أى: وجدت مكاناً رحْباً، لا ضيقاً، ثم تدخل عليه النفى فى دعاء السوء، فتقول: لامرحباً. و«بهم»: بيان للمدعو عليهم، ﴿ إنهم صالُوا النارِ ﴾ أى: داخلوها. وهو تعليل لاستحقاقهم الدعاء عليهم. وقيل: (هذا فوج...) إلخ، من كلام الخزنة لرؤساء الكفرة. و(لامرحباً بهم...) الخ، من كلام الرؤساء.

﴿ قالوا ﴾ أى: الأتباع: ﴿ بل أنتم لا مرحباً بكم ﴾ أى: الدعاء الذى دعوتم به علينا أنتم أحقّ به، وعلّلوا ذلك بقوله: ﴿ أنتم قدمتموه لنا ﴾ أى: إنكم دعوتمونا للكفر، فتبعناكم، فقدمتمونا به للعذاب، ﴿ فبئس القرارُ ﴾ أى: بئس المقر جهنم، قصدوا بذمها تغليظ جناية الرؤساء عليهم. ﴿ قالوا ﴾ أى: الأتباع، معرضين عن خصومتهم، متوجهين إلى الله: ﴿ ربّنا من قدّم لنا هذا فزِدْهُ عذاباً ضعفاً ﴾ أى: مضاعفاً. ﴿ في النار ﴾ أو: ذا ضعف، ومثله قوله: ﴿ رَبَّنَا هَؤُلاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا ﴾(٣)، وهو أن يزيد على عذابه مثله.

---

(١) من الآية ٤٠ من سورة البقرة.
(٢) قرأ حمزة والكسائى وحفص بالتشديد. وخففها الآخرون. انظر الإتحاف (٢/٤٢٣).
(٣) من الآية ٣٨ من سورة الأعراف.

﴿ وقالوا ﴾ أى: الرؤساء: ﴿ ما لنا لا نرى رجالاً ﴾، يعنون: فقراء المسلمين، ﴿ كنا نَعُدُّهم ﴾ فى الدنيا ﴿ من الأشرار ﴾؛ من الأرذال الذين لاخير فيهم ولاجدوى، حيث كانوا يسترذلونهم ويسخرون منهم، ﴿ أتَّخذناهم سِخْرِياً ﴾، بهمزة الاستفهام، سقطت لأجلها همزة الوصل. والجملة: استئنافية، ومن قرأ بالوصل[1] فقط فالجملة: صفة ثانية لرجال، ﴿ أم زاغتْ ﴾؛ مالت ﴿ عنهم الأبصارُ ﴾، والمعنى على الاستفهام: أتخذناهم سخرياً وليسوا كذلك، فلم يدخلوا معنا النار فهم فى الجنة، أم دخلوها معنا، ولكن مالت عنهم أبصارنا، فلا نراهم معنا؟ وعلى الاستخبار: مالنا لانرى رجالاً معنا فى النار، كانوا عندنا أشراراً، قد اتخذناهم سخريا نسخر بهم، ثم أضربوا وقالوا: بل زاغت عنهم الأبصار، فلا نراهم فيها، وإن كانوا معنا، أو: زاغت أبصارنا، وكلّت أفهامنا عنهم، حتى خفي علينا مقامهم، وأنهم على الحق ونحن على الباطل، وما تبعناهم. ومن قرأ «سُخريا» بالضم[2]؛ فمن: التسخير والاستخدام. ومن قرأ بالكسر، فمن: السخر، الذى هو الهزء. وجوّز فى القاموس الضم والكسر فيهما معاً، فراجعه.

﴿ إنَّ ذلك ﴾ الذى حكى من أحوالهم ﴿ لَحَقٌّ ﴾ لابد من وقوعه ألبتة، وهو ﴿ تخاصمُ أهلِ النار ﴾ فيها على ما تقدم.

ولمّا شبّه تفاوضهم، وما يجرى بينهم من السؤال والجواب، بما يجرى بين المتخاصمين، سمّاه تخاصماً، وبأنّ قول الرؤساء: ﴿لا مرحباً﴾ وقول الاتباع: ﴿بل أنتم لا مرحباً بكم﴾ من باب الخصومة لامحالة، فسمى التقاول كله تخاصماً؛ لا شتماله على ذلك.

الإشارة: كل من تعدى وطغى، ولم يتب، من المؤمنين، يرى شيئاً من أهوال الكفرة، فلا يدخل الجنة حتى يتخلص، وكل من سخر بالفقراء يسقط فى الحضيض الأسفل، ويكون سكناه فى أسفل الجنة، فيقول: مالنا لا نرى معنا رجالاً كنا نَعُدُّهم من المبتدعة الأشرار، اتخذناهم سخرياً، وهم كُبراء عند الله، رُفعوا عنا، أم هم معنا ولكن زاغت عنهم الأبصار؟ فيُجابون: بأنهم رُفعوا مع المقربين، كانوا مشتغلين بنا، وكنتم منهم تضحكون. إنى جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم هم الفائزون بالقُرب ومشاهدة طلعتنا، فى كل حين، وبالله التوفيق.

---

(١) قرأ أبو عمرو، وحمزة، والكسائى، ويعقوب «اتخذناهم» بوصل الهمزة بما قبلها، وبكسر الألف عند الابتداء. وقرأ الباقون بقطع الألف وفتحها، على الاستفهام. انظر الإتحاف (٢/٤٢٣).

(٢) قرأ بضم السين نافع، وحمزة، والكسائى، وأبو جعفر. وقرأ الباقون بكسرها.

ثم قرر تحقيق الرسالة والوحدانية، فقال:

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴿٦٦﴾ قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله : ﴿ قُلْ ﴾ يامحمد للمشركين: ﴿ إنما أنا مُنذر ﴾ من جهته تعالى، أُنذركم عذابه، ﴿ وما من إله ﴾ في الوجود ﴿ إلا اللهُ الواحدُ ﴾ الذي لايقبل الشركة أصلاً، ﴿ القهّارُ ﴾ لكل شيء سواه، ﴿ ربُّ السموات والأرض وما بينهما ﴾ من المخلوقات، فكيف يتوهم أن يكون له شريك منها، ﴿ العزيزُ ﴾؛ الذي لا يغلب ﴿ الغفارُ ﴾؛ المبالغ في المغفرة لمن يشاء. وفي هذه النعوت من تقرير التوحيد، والوعد للموحِّدين، والوعيد للمشركين، ما لايخفى. وتثنية ما يُشعر بالوعيد من وصف القهر والعزة وتقديمهما على وصف المغفرة؛ لتقوية الإنذار.

﴿ قل هو ﴾ أي: ماأنبأتكم به من كوني رسولاً، وأنّ الله واحد لا شريك له، ﴿ نبأٌ عظيمٌ ﴾؛ وارد من جهته تعالى، لايُعرض عن مثله إلا غافل منهمك. ﴿ أنتم عنه معرضون ﴾؛ غافلون، وعن ابن عباس: النبأ العظيم: القرآن. وعن الحسن: يوم القيامة. وتكرير الأمر للإيذان بأن المقول أمرٌ جليل، له شأن خطير، لابد من الاعتناء به، أمراً وائتماراً.

﴿ ما كان ليَ من علْم بالملإِ الأعلى إذْ يختصمون ﴾، احتجاج على صحة نبوته، بأن ماينبئ به عن الملأ الأعلى، واختصامهم، أمر غيبي، لم يكن له به علم قطّ، ثم علمه وأخبر به، ولم يسلك الطريق الذي سلكه الناس في علم مالم يعلموا، وهو الأخذ عن أهل العلم، ودراسة الكتب، فتحقق أن ذلك لم يحصل له إلا بالوحي من الله تعالى. والملأ الأعلى هم الملائكة، وآدم، وإبليس؛ لأنهم كانوا في السماء، وكان اختصامهم: التقاول بينهم، كقولهم: ﴿ أَتجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا ... ﴾(١) الخ، وكقول إبليس: ﴿ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ ... ﴾(٢) الخ، ويدل عليه ما يأتي من الآيات. وقيل: اختصامهم في الكفارات وغفران الذنوب، فإن العبد إذا فعل حسنة اختلفت الملائكة في قدر ثوابه، حتى يقضي الله ما شاء.

---

(١) الآية ٣٠ من سورة البقرة.

(٢) من الآية ١٢ من سورة الأعراف، والآية ٧٦ من سورة «ص».

ورُوى فى هذا حديث، وهو أنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ قال له ربه ـ عز وجل ـ فى النوم: «أتدرى فيما يختصم الملأ الأعلى؟ قلت: لا، قال: اختصموا فى الكفارات والدرجات، فأما الكفارات فإسباغ الوضوء على المكاره، ونقل الأقدام إلى الجماعات، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، وأما الدرجات؛ فإفشاء السلام، وإطعام الطعام، والصلاة بالليل والناس نيام»(١) . رواه الترمذى.

و«إذ يختصمون»: متعلق بمحذوف يقتضيه المقام؛ إذ المراد نفى علمه ـ عليه الصلاة والسلام ـ بحالهم لا بذواتهم، والتقدير: ما كان لِيَ فيما سبق علم بما يوحيه فى شأن الملأ الأعلى وقت اختصامهم. وانظر أبا السعود.

﴿إن يُوحىَ إِلىَ إِلاَّ أَنَّمَا أنا نذير مبينٌ﴾ أى: ما يُوحى إلىّ ما يوحى من الأمور الغيبية، التى من جملتها حال الملأ الأعلى، إلا لأنما أنا نذير مبين من جهته تعالى، فحذف اللام وانتصب بإيصال الفعل إليه، ويجوز أن يرتفع بالنيابة عن الفاعل، أى: ما يُوحى إلىّ إلا هذا، وهو أن أُنذر وأُبلغ، ولا أُفرط فى ذلك، أى: ما أُومرَ إلا بهذا الأمر وحده، وليس إلىّ غير ذلك. وقرىء بكسر «إنما»(٢) على الحكاية، أى: إلا هذا القول، وهو: أن أقول لكم: إنما أنا نذير مبين، ولا أدّعى شيئاً آخر.

الإشارة: تربية اليقين تُطلب فى ثلاثة أمور؛ فى توحيد الألوهية، بالتبرى من الشرك الجلّى والخفى. وهو مفاد قوله: ﴿وما من إله إلا الله . . .﴾ إلخ. وفى تصديق الواسطة، وهو النذير المبين، بتعظيمه واتباع سُنّته ومنهاجه القويم، وفى التصديق بما جاء به، وهو النبأ العظيم، على أىّ تفسير كان، إما القرآن، باتباعه، والتدبر فى معانيه، أو: يوم القيامة، بالتأهب له، وجعله نُصب العين. وبالله التوفيق.

ثم فسّر الاختصام المتقدم، فقال:

﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ

(١) أخرجه الترمذى فى (التفسير ـ سورة «ص»، ح ٣٢٣٤ و٣٢٣٥) من حديث ابن عباس، ومعاذ بن جبل ـ رضى الله عنهما.
وقال عن حديث ابن عباس: حسن غريب. وعن حديث معاذ: حسن صحيح.
(٢) وهى قراءة أبى جعفر المدنى. انظر الإتحاف (٢/٤٢٤).

اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ
أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَاخْرُجْ
مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾
قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ
أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ
جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾

قلت: (إذ قال): متعلق بيختصمون، أو: بدل من (إذ) قبله، أو: باذكر. و«الحق»: فمن نصبه، فعلى حذف فعل القسم، كقولك: الله لأفعلن، أي: أقسم بالحق، فحذفت الباء ووصل الفعل به، ومن رفعه؛ فمبتدأ، أي: الحقُّ منى، أو: خبر، أي: أنا الحق. والحق الثانى: مفعول «أقول»، والجملة: معترضة بين القسم وجوابه، وهو: (لأملأن).

يقول الحق جل جلاله فى تفسير الاختصام المذكور: ﴿ إذ قال ربُّكَ للملائكة ﴾ حين أراد خلق آدم، ﴿ إني خالق بشراً من طينٍ ﴾، وقال: ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا ﴾[1] . والتعرض لعنوان الربوبية، مع الإضافة إلى ضميره ـ عليه الصلاة والسلام ـ لتشريفه ﷺ، والإيذان بأنّ وحى هذا النبأ إليه تربية وتأييد له. والكاف وارد باعتبار حال الآمر، لكونه أدلّ على كونه وحياً منزلاً من عنده تعالى، كما فى قوله تعالى: ﴿ ... يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا... ﴾[2] إلخ، دون حال المأمور، وإلاّ لقال: ربى؛ لأنه داخل فى حيز الأمر. ﴿ فإذا سوَّيْتُه ﴾ أى: صوّرْتُه بالصورة الإنسانية، والخلقة البشرية، أو: سويت أجزاء بدنه، بتعديل أعضائه، ﴿ ونَفَخْتُ فيه من روحي ﴾ الذى خلقته قبلُ، وأضافه إليه تخصيصاً، كبيت الله، وناقة الله. والروح سر من أسرار الله، لطيفة ربانية، سارية فى كثيفة ظلمانية، فإذا سرت فيه حيى بإذن الله، أى: فإذا أحييته ﴿ فَقَعُوا ﴾ أى: اسقطوا ﴿ له ﴾، وهو أمر، مِن وقع، ﴿ ساجدين ﴾ قيل: كان انحناء يدلّ على التواضع، وقيل: كان سجوداً لله، أو سجود تحية لآدم وتكريماً له.

(١) من الآية ٣٠ من سورة البقرة.

(٢) من الآية ٥٤ من سورة الزمر.

﴿ فسجد الملائكةُ كلُّهم أجمعون ﴾، «كلّ» للإحاطة، و«أجمعون» للاجتماع، فأفاد أنهم سجدوا عن آخرهم جميعاً، في وقت واحد، غير متفرقين في أوقات. وظاهر هذه الآية وما في سورة الحِجْر[1]: أن الأمر بالسجود كان تعليقياً، لا تنجيزياً، فأمرهم بالسجود قبل أن يخلقه، بل حين أعلمهم بخلقه، فلما خلقه سجدوا ممتثلين للأمر الأول، وظاهر ما في البقرة والأعراف والإسراء والكهف: أن الأمر كان تنجيزياً بعد خلقه، والجمع بينهما: أنه وقع قبل وبعد، أو: اكتفى بالتعليقي، كما يقتضيه الحديث، حيث قال له بعد نفخ الروح فيه: «اذهب فسلِّم على أولئك الملائكة، فسلّم عليهم، فردوا عليه وسجدوا له». والله تعالى أعلم بغيبه.

﴿ إلا إبليسَ استكْبَرَ ﴾ أي: تعاظم عن السجود، والاستثناء متصل إن قلنا: كان منهم، حيث عبد عبادتهم، واتصف بصفاتهم، مع كونه جنياً، أو: منقطع، أي: لكن إبليس استكبر، ﴿ وكان من الكافرين ﴾ أي: صار منهم بمخالفته للأمر، واستكباره عن الطاعة، أو: كان منهم في علم الله.

﴿ قال يا إبليسُ مامنعك أن تسجدَ ﴾ أي: عن السجود ﴿ لما خلقتُ بيديَّ ﴾، بلا واسطة أب ولا أم، امتثالاً لأمري، وإعظاماً لخطابي، ولمَّا كانت الأعمال تُباشر في الغالب باليد، أطلقت على القدرة. والتثنية لإبراز كمال الاعتناء بخلقه عليه السلام، المستدعي لإجلاله وإعظامه، قصداً إلى تأكيد الإنكار، وتشديد التوبيخ. وسيأتي في الإشارة بقية الكلام في سر التثنية. قال له تعالى: ﴿ أَسْتَكْبَرْتَ ﴾، بهمزة الاستفهام، وطرح همزة الوصل، أي: أتكبرت من غير استحقاق، ﴿ أم كنت من العالين ﴾ المستحقين للتفوق، أو: أستكبرت عن السجود ولم تكن قبل ذلك من المتكبرين، أم كنت قبل ذلك من المتكبرين على ربك؟.

﴿ قال أنا خير منه ﴾، ولا يليق أن يسجد الفاضل للمفضول، كقوله: ﴿ لَمْ أَكُن لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾[2]، وبيّن فضيلته في زعمه بقوله: ﴿ خلقتني من نارٍ وخلقته من طينٍ ﴾، يعني لو كان مخلوقاً من نار لَمَا سجدتُ له؛ لأنه مخلوق مثلي، فكيف أسجد لمن هو دوني؛ لأنه طين، والنار تغلب الطين وتأكله، ولقد أخطأ اللعين، حين خَصَّ الفضل بما من جهة المادة والعنصر، وغاب عنه مامن جهة الفاعل، كما أنبأ عنه قوله تعالى: ﴿ لما خلقتُ بيدي ﴾، وما من جهة الصورة كما نبّه عليه قوله تعالى: ﴿ ونفخت فيه من روحي ﴾، وما من جهة الغاية، وهو ما خصّه به من علوم الحكمة، التي ظهرت بها مزيته على الملائكة، حتى أُمروا بالسجود، لما ظهر أنه أعلم منهم بما تدور عليه أمر الخلافة في الأرض، وأن له خواص ليست لغيره.

---

(١) في قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ، فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴾ الآيتان ٢٩ ـ ٣٠.
(٢) الآية ٣٠ من سورة الحِجْر.

﴿ قال فاخرجْ منها ﴾ ؛ من الجنة، أو: من زمرة الملائكة، وهو المراد بالأمر بالهبوط، أو: من السموات، أو: من الخِلقة التي أنت فيها، وانسلخ منها، فإنه كان يفتخر بخلقته، فغيّر الله خلقته، فاسودّ بعدما كان أبيض، وقبح بعد ما كان حسناً، وأظلم بعد ما كان نورانياً. ﴿ فإنك رجيم ﴾ أي: مرجوم، مطرود، من كل خير وكرامة. أو: شيطان يُرجم بالشُهب.

﴿ وإن عليك لعنتي ﴾ ؛ إبعادي من الرحمة. وتقييدها هنا، وإطلاقها في قوله: ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ ﴾(١) ؛ لأن لعنة اللاعنين من الثقلين والملائكة أيضاً من جهته تعالى، وأنهم يدعون عليه بلعنة الله وإبعاده من الرحمة، ﴿ إلى يوم الدين ﴾ ؛ إلى يوم الجزاء والعقوبة، ولا يُظَن أن لعنته غايتها يوم الدين، ثم تنقطع، بل في الدنيا اللعنة وحدها، ويوم القيامة يقترن بها العذاب، فيلقى يومئذ من ألوان العذاب، وأفانين العقاب، ماينسى به اللعنة، وتصير عنده كالزائد. أو: لَمّا كان عليه اللعنة في أوان الرحمة، فأولى أن يكون عليه اللعنة في غير أوانها، وكيف ينقطع، وقد قال تعالى: ﴿ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾(٢) وهو إمامُهم؟.

﴿ قال ﴾ إبليسُ: ﴿ ربّ فأنظِرْني ﴾ ؛ أمهلني وأخِّرني، أي: إذا جعلتني رجيماً فأمهلني ولاتمتني، ﴿ إلى يوم يبعثون ﴾ أي: آدم وذريته للجزاء بعد فنائهم. وأراد بذلك فسحته لإغوائهم، وليأخذ منهم ثأره، وينجو من الموت بالكلية؛ إذ لاموت بعد البعث، ﴿ قال ﴾ تعالى: ﴿ فإنك من المنظرين إلى يوم الوقتِ المعلوم ﴾ ، وهو وقت النفخة الأولى، ومعنى «معلوم» أنه معلوم عند الله، لا يتقدم ولا يتأخر. وورود الجواب بالجملة الاسمية مع التعرّض لشمول ما سأله لآخرين، على وجهٍ يُشعر بكون السائل تبعاً لهم في ذلك، دليل واضح على أنه إخبار بالإنظار المقدر لهم أزلاً، لا إنشاء لإنظار خاص به، قد وقع إجابة لدعائه، أي: إنك من جملة الذين أخرت آجالهم أزلاً، حسبما تقتضيه حكمة التكوين.

﴿ قال فبعزّتك لأُغْوِينَّهم أجمعين ﴾ ، أقسم بعزة الله، وهو سلطانه وقهره على إغواء بني آدم، بتزيين المعاصي والكفر، ﴿ إلا عبادَكَ منهم المخلَصِين ﴾ ، وهم الذين أخلصهم الله للإيمان به وطاعته، وعصمهم من الغواية، أو: الذين أخلصوا قلوبهم وأعمالهم لله في قراءة الكسر(٣) .

---

(١) من الآية ٣٥ من سورة الحجر.

(٢) من الآية ٤٤ من سورة الأعراف.

(٣) قرأ بكسر اللام في «المخلصين» ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر. اسم فاعل. وقرأ الباقون بفتحها، اسم مفعول. انظر السبعة، ٣٤٨ والإتحاف (٢/٣٢٤).

﴿قال﴾ تعالى: ﴿فالحقَّ والحقَّ أقولُ﴾ أي: أقسم بالحق ولا أقول إلا الحق، أو: الحق قسمي(١) وأقول الحق: ﴿لأملأنَّ جهنمَ منك﴾؛ من جنسك، وهم الشياطين، ﴿وممن تَبِعَكَ منهم﴾؛ من ذرية آدم ﴿أجمعين﴾ أي: لأعمرنّ جهنم من المتبوعين والتابعين أجمعين، لا أترك منهم أحدا.

الإشارة: التجلي بهذا الهيكل الآدمي فاق جميع التجليات، وصورته البديعة فاقت جميع الصور، ولذلك لم يقل الحق تعالى في شيء أنه خلقه في أحسن تقويم إلا الآدمي، وذلك لأنه اجتمع فيه الضدان، واعتدل فيه الأمران؛ الظلمة والنور، الحس والمعنى، الروحانية والبشرية، القدرة والحكمة. ولذلك قال تعالى فيه: ﴿لِما خلقت بيدى﴾، ولم يقله في غيره، أي: خلقته بيد القدرة ويد الحكمة. فالقدرة كناية عما في باطنه من أسرار المعاني الإلهية، والحكمة عبارة عما في قالَبه من عجائب التصوير، وغرائب التركيب، ولذلك كانت معرفته أتم، وترقيه لا ينقطع، إن كان من أهله، وراجع ما تقدم في قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾(٢).

وقال القشيري بعد كلام: فسبحان الله! خلق أعزّ خلقه من أذلّ شيءٍ وأخسّه. ثم قال: ما أودع عند آدم لم يوجد عند غيره، فيه ظهرت الخصوصية. هـ.

ثم نزّه نبيه عن الطمع في الأجر على التبليغ والتكلف، فقال:

﴿ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿قل ما أسألكم﴾ على تبليغ الوحي أو على القرآن ﴿من أجْر﴾ دنيوي، حتى يثقل عليكم، ﴿وما أنا من المتكلّفين﴾ أي: المتصنعين بما ليسوا من أهله، وما عرفتموني قط متصنعاً حتى أنتحل النبوة، أو أتقول القرآن، وعنه ﷺ: «للمتكلف ثلاث علامات: ينازع من فوقه، ويتعاطى ما لاينال، ويقول ما لايعلم»(٣).

---

(١) هذا المعنى على قراءة «فالحقُّ» بالرفع، وهي قراءة عاصم وحمزة. والمعنى الأول على قراءة «فالحقَّ» بالنصب، على أنه مقسم به حذف منه حرف القسم، فانتصب. و«لأملأن» جواب القسم، وهي قراءة نافع، وابن كثير، وأبي عمرو، وابن عامر، والكسائي. انظر الإتحاف (٢/٤٢٥).

(٢) الآية ٧٠ من سورة الإسراء. (٣/٢١٦ ـ ٢١٨).

(٣) عزاه الحافظ ابن حجر في الكافي الشاف (رقم ٣١٤) للثعلبي، عن سلمة بن نفيل، مرفوعاً.

﴿إن هو﴾: ما هو ﴿إلا ذِكْرٌ﴾: وعظ من الله عز وجل ﴿للعالَمين﴾؛ الثقلين كافة، ﴿ولتعلمُنَّ نبأَهُ﴾؛ نبأ القرآن، وصحة خبره، وما فيه من الوعد والوعيد، وذكر البعث والنشور، ﴿بعد حين﴾؛ بعد الموت، أو: يوم بدر، أو: القيامة، أو: بعد ظهور الإسلام وفشوه. وفيه من التهديد مالايخفى. ختم السورة بالذكر كما أفتتحها بالذكر.

الإشارة: تقدم مراراً التحذير من طلب الأجر على التعليم، أو الوعظ والتذكير، اقتداء بالرسل عليهم السلام. وفي الآية أيضاً: النهي عن التكلف والتصنع، وهو نوع من النفاق، وضرب من الرياء. وعن الزبير بن العوام رضي الله عنه نادى منادى النبي ﷺ: «اللهم اغفر للذين لايدعون، ولايتكلفون، ألا إني بريء من التكلف، وصالحو أمتي»(١). وقال سلمان(٢): «أمرنا رسول الله ﷺ ألاّ نتكلف للضيف ماليس عندنا»(٣). وكان الصحابة رضي الله عنهم يُقَدِّمون ماحضر من الكسر اليابسة، والحشف البالي - أي: الرديء من التمر - ويقولون: لا ندري أيهما أعظم وزراً، الذي يحتقر ما قدم إليه، أو: الذي يحتقر ما عنده فلا يقدمه. هـ. وبالله التوفيق، ولاحول ولاقوة إلا بالله، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه.

---

(١) ذكره السيوطي في الدر (٥/٦٠٠) بلفظ: «إني لا آلي من التكلف وصالحو أمتي»، وعزاه للديلمي وابن عساكر، عن الزبير رضي الله عنه.
(٢) في الأصول (أبو سليمان).
(٣) أخرجه البيهقي في الشعب (الباب السابع والستون، ح ٩٦٠١) من حديث سلمان الفارسي - رضي الله عنه.

سورة الزمر

مكية، إلا قوله: ﴿قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم﴾ .. إلى قوله: ﴿وأنتم لاتشعرون﴾(1) فإنها نزلت فى وحشيٍّ، قاتل حمزة(2). وهى خمس وسبعون آية فى مصحف البصرة، واثنان وسبعون فى مصحف الكوفة. ومناسبتها لِما قبلها قوله: ﴿إنْ هُوَ إلاَّ ذِكْرٌ لِّلعَالَمِينَ﴾(3)، فإنه عين التنزيل الذى صدّر به، حيث قال:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ... ﴾

قلت: ﴿تنزيل﴾: خبر، أى: هذا تنزيل، و«من الله»: صلة لتنزيل، أو: خبر ثان، أو: حال من التنزيل، عاملها: معنى الإشارة.

يقول الحق جل جلاله: هذا الذى تتلوه هو ﴿تنزيلُ الكتاب﴾، نزل ﴿من﴾ عند ﴿الله العزيزِ﴾ فى سلطانه. ﴿الحكيم﴾ فى تدبيره. وإيثار الوصفين للإيذان بجريان أثريهما فى الكتاب، بجريان أحكامه ونفوذ أوامره ونواهيه. ﴿إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق﴾: ليس بتكرر؛ لأن الأول كالعنوان للكتاب، والثانى لبيان ما فى الكتاب. قال أبو السعود: والمراد بالكتاب: القرآن، وإظهاره على تقدير كونه هو المراد بالأول؛ لتعظيمه ومزيد الاعتناء بشأنه. والباء إما متعلقة بالإنزال، أى: بسبب الحق وإظهاره، أو: بداعيته واقتضائه، وإما بمحذوف هو حال من نون العظمة، أو: من الكتاب، أى: أنزلناه إليه محقين فى ذلك، أو: ملتبساً بالحق والصواب، أى: ما فيه حق لاريب فيه موجب العمل به حتماً. قال القشيرى: بالحق، أى: بالدين الحق والشرع الحق، وأنا مُحِقٌّ فى إنزاله.

---

(1) الآيات: ٥٣ ـ ٥٥.

(2) عزاه السيوطى فى الدر (٥/ ٦٠٢) لابن النحاس فى تاريخه، عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما.

(3) الآية: ٨٧ من سورة (ص).

﴿فاعْبُدِ اللهَ مُخْلِصاً له الدينَ﴾ أي: فاعبده تعالى مخلصاً دينه من شوائب الشرك والرياء، حسبما بُيِّن فى تضاعيف ما أنزل إليه. ﴿ألاَ للهِ الدينُ الخالِصُ﴾ أي: هو الذى وجب اختصاصه بأن تخلص له الطاعة من كل شائبة؛ لأنه المنفرد بصفات الألوهية، التى من جملتها: الاطلاع على السرائر والضمائر.

الإشارة: قال القشيرى: كتابٌ عزيزٌ، نزل من ربٍّ عزيز، على عبدٍ عزيز، بلسان ملَكٍ عزيز، فى شأنِ أمةٍ عزيزة، بأمرٍ عزيز. وأنشدوا:

وردَ الرسولُ من الحبيب الأولِ بعد البلاء، وبعد طُول الأمل[1]

تنزيل تنزهت قلوب الأحباب بعد ذُبولِ غصن سرورها، فى كتاب الأحباب، عند قراءة فصولها. والعجب منها كيف لاتزهو سروراً بوصولها، وارتياحاً بحصولها، وكتابُ موسى فى الألواح، ومنها كان يقرأ موسى، وكتابُ نبينا ﷺ نَزَلَ به الروح، الأمين، على قلبك، وفَصْلٌ بين من يكون خطابُ ربه مكتوباً فى ألواحه، وبين من يكون خطاب ربه محفوظاً فى قلبه، وكذلك أمته، ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾[2] هـ.

وقوله تعالى: ﴿فاعْبُدِ اللهَ مخلصاً له الدينَ﴾، قال القشيرى: العبادة: معانقة الطاعات على نعت الخضوع، وتكون بالنفس وبالقلب وبالروح، فالتى بالنفس ـ أى: بالجوارح ـ الإخلاص فيها: التباعد عن الانتقاص، والتى بالقلب، أى: كالفكرة والنظرة، الإخلاص فيها: التباعد عن رؤية الأشخاص ـ أى: الحس من حيث هو ـ والتى بالروح، الإخلاص فيها: التنقِّى عن رؤية طلب الاختصاص[3].

قوله تعالى: ﴿ألا لله الدينُ الخالِصُ﴾ هو ما يكون جملته لله، وما للعبد فيه نصيب فهو عن الإخلاص بعيد، اللهم إلا أن يكون بأمره، فإنه إذا أمَرَ العبدَ أن يحتسب الأجرَ على طاعته، فأطاعه، لايخرج عن الإخلاص بامتثاله ما أمره به، ولولا هذا مَا صحَّ أن يكون فى العالَم مُخْلِصٌ، يعنى: أن جُل الناس إنما يطيعون لاحتساب الأجر، إلا الفرد النادر، فمن زال عنه الحجاب فإنه يعبد الله بالله، شكراً، وإظهاراً للأدب، فإن قصد الاحتساب، ثم طرأ عليه خواطر بعد تحقق الإخلاص، فلايضر، يدل عليه قوله ﷺ: «من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله»[4] وهذا فى أصل القصد، والعوارض غير مضرة، كما هو صريح حديث آخر. والله تعالى أعلم.

(١) البيت غير موجود فى لطائف الإشارات المطبوع. (٢) الآية ٤٩ من سورة العنكبوت. (٣) بتصرف

(٤) بعض حديث، أخرجه البخارى فى (الجهاد، باب من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا، ح ٨١٠) ومسلم فى (الإمارة، باب من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا، ٣/٢/١٥٠، ح ١٩٠٤) من حديث أبى موسى الأشعرى ﷺ. وأول الحديث: (أن أعرابياً أتى النبى ﷺ، فقال: يا رسول الله! الرجل يقاتل للمغنم، والرجل يقاتل ليذكر، والرجل يقاتل ليرى مكانه، فمن فى سبيل الله؟...) الحديث.

ثم رد على المشركين، فقال:

﴿ ... وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ۝٣ لَّوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ۝٤ ﴾

قلت: «والذين»: مبتدأ، و﴿ما نعبدهم﴾: محكى بقول محذوف، حال من واو «اتخذوا» وجملة «إن الله»: خبر، والاستثناء مفرغ من أعم العلل، و«زلفى»: مصدر.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ والذين اتخذوا من دونه أولياء ﴾ أي: لم يخلصوا فى عبادتهم، بل شاوبُوها بعبادة غيره، كالأصنام، والملائكة، وعيسى، قائلين: ﴿ ما نعبدهم ﴾ لشيء من الأشياء ﴿ إلا لِيُقربُونا إلى الله زُلفى ﴾ أى: تقريبًا، ﴿ إن الله يحكم بينهم ﴾ وبين خصمائهم، الذين هم المخلصون للدين، وقد حذف لدلالة الحال عليه، كقوله: ﴿ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ ﴾[(١)] على أحد الوجهين، أى: بين أحد منهم وبين غيره. قيل: كان المسلمون إذا قالوا للمشركين: من خلق السماوات والأرض؟ قالوا: الله، فإذا قالوا لهم: فمالكم تعبدون الأصنام؟ قالوا: ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى[(٢)].

﴿ إن الله يحكُم ﴾ يوم القيامة بين المتنازعين من المسلمين والمشركين ﴿ فيما هم فيه يَختلفُون ﴾ من التوحيد والإشراك، وادعاء كل واحد صحة ما انتحله. وحكمُه تعالى هو إدخال الموحدين الجنة والمشركين النار. وقيل: الموصول واقع على الأصنام، والعائد محذوف، أى: والذين اتخذوهم من دونه أولياء، قائلين : ما نعبدهم... إلخ، إن الله يحكم بينهم، أى: بين العبدة والمعبودين فيما هم فيه يختلفون، حيث يرجون منها شفاعتها وهى تلعنهم، وهذا بعيد.

﴿ إن الله لايهدى ﴾: لايُوفّق للاهتداء ﴿ من هو كاذب كفّار ﴾ أى: راسخ فى الكذب، مبالغ فى الكفر، كما يُعرب عنه قراءة من قرأ: «كذاب» أو: «كذوب»[(٣)]، أى: لايهديهما اليوم لدينه؛ لسابق الشقاء، ولا فى الآخرة

(١) من الآية ٢٨٥ من سورة البقرة (٢) ذكره البغوى فى تفسيره (١٠٨/٧) عن قتادة.

(٣) قرأ أنس بن مالك، والحسن، والأعرج، وابن يعمر: «كذّاب»، وقرأ زيد بن علىّ: «كذوب».. انظر البحر المحيط (٣٩٩/٧).

لثوابه؛ لأنهما اليوم فاقدان للبصيرة، غير قابلين للاهتداء؛ لتغييرهما الفطرة الأصلية بالتمرُّن فى الضلالة والتمادى فى الغى.

﴿ لو أرادَ اللهُ أن يتخذ ولداً ﴾ كما يزعم من يقول: الملائكة بنات الله، والمسيح وعزير ابن الله، تعالى الله عن قولهم علُواً كبيراً، ﴿ لاصْطَفَى مما يَخْلُقُ ما يشاء ﴾ أى: لاختار من خلقه ما يشاء، ممن له مناسبة صمدانية، كالملائكة، فإنهم منزهون عن نقائض البشرية، كالأكل والشرب والنكاح، لكن لم يُرد ذلك؛ لاستحالته فى حقه تعالى.

قال القشيرى: خاطبَهم على قَدْرِ عقولهم وعقائدهم، فقال: لو أراد الله أن يتخذ ولداً بالتبنِّى والكرامة لاختار من الملائكة، الذين هم مبرءون من الأكل والشرب وأوصافِ الخلق، ثم أخبر عن تَقَدُّسه عن ذلك، فقال: ﴿ سبحانه ﴾ أى: تنزيهاً له عن اتخاذ الولد على الحقيقة؛ لاستحالة معناه فى نَعْتِه، ولا بالتبنى، لتقدُّسه عن الجنسية، والمحالات تدل على وجه الإبعاد. هـ.

والحاصل: أن الولد فى حقه تعالى؛ إن كان عن طريق التولد فهو محال، عقلاً ونقلاً، وإن كان عن طريق التبنى والكرامة فمُحال سمعاً، وقيل: وعقلاً. قال شيخ شيوخنا سيدى عبدالرحمن الفاسى رضي الله عنه: قوله، أى: القشيرى: لتقدسه عن الجنسية، يعنى لوحدته وقهره، كما رمز إلى ذلك بذكر الاسمين، أى: الواحد القهار، وهما عاملان فى كل مخلوق، ومحال تعطيلهما بالتبنى المقتضى للجنسية، المباينة للوحدانية والقهر، فلا يمكن إلا العبودية، عقلاً، ونقلاً، وحقيقة، وهذا أشد من كلام ابن عطية، فإنه جوّز اتخاذه على جهة التشريف والتبنى عقلاً، وإن امتنع شرعًا، لعموم آية: ﴿ وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴾(١)؛ لاتخاذ النسل المستحيل عقلاً ونقلاً، ولاتخاذ الاصطفاء الممتنع شرعاً. وهو أيضا أشدُّ من كلام الزمخشرى، حيث قال: معنى الآية: لو أراد الله اتخاذ الولد لامتنع ذلك، ولكنه يصطفى من يشاء من عباده، على وجه الاختصاص والتقريب، لا على وجه اتخاذه ولداً. هـ. فأجمل فى الامتناع، وإن كان المتبادر منه شمول القسمين، وكذا قرر جواب «لو»، أى: لامتنع، وجعل قوله: ﴿لاصطفى﴾ الذى هو ظاهر فى كونه جواباً غير جواب «بل» على معنى الاستئناف، وهو خلاف المطروق والمفهوم من جرى الكلام. والله أعلم.

وما ذكره الزمخشرى أيضًا من الامتناع مع الإرادة هو فرض لتعلق الإرادة بالممتنع، وهى إنما تتعلق بالجائز، ويحتمل بناؤه على مذهبه الفاسد فى إرادة بعض ما لم يقع، وهو شنيع مذهبه، بل ويلزمه عود القهر

(١) الآية ٩٢ من سورة مريم.

عليه ـ تعالى عن ذلك، وهو الله الواحد القهار، فكيف يريد ويمتنع ما يريده؟! وهل ذلك إلا عين القهر؟ تعالى عن ذلك علواً كبيراً . هـ.

قال تعالى: ﴿ سبحانه ﴾ أي: تنزّه بالذات عن اتخاذ الولد، تنزهه الخاص به، على أن «سبحان» مصدر، من: سبّح: إذا بعّد. ﴿هو اللهُ الواحدُ القهارُ﴾ : استئناف مبينٌ لتنزهه بحسب الصفات، إثر بيان تنزهه عنه بحسب الذات، فإن صفة الألوهية المستتبعة لسائر صفات الكمال، النافية لسمات النقصان، والوحدة الذاتية، الموجبة لامتناع المماثلة والمشاركة بينه تعالى وبين غيره على الإطلاق، مما يقتضي تنزهه تعالى عما قالوه، قضاء متيقناً، وكذا وصف [القهارية][(1)]؛ لأن اتخاذ الولد شأنٌ من يكون تحت ملكوت الغير، عرضة للفناء، ليقوم الولد مقامه عند فنائه، ومن هو مستحيل الفناء، قهار لكل الكائنات، كيف يتصور أن يتخذ من الأسماء الفانية من يقوم مقامه؟ قاله أبو السعود.

الإشارة: الحق سبحانه غيور، لايرضى لغيره أن يعبد معه غيره، كان على وجه الواسطة والتقريب، أو: على وجه الاستقلال. لذلك حَرُم السجود لغير الله، وأما الخضوع للأولياء، العارفين بالله، على غير وجه العبادة، فهو عين الخضوع لله؛ لأن الله تعالى أمر بالخضوع للرسل، الدالين على الله، وهم ورثتهم في الدلالة، لكن لايكون ذلك على هيئة السجود، وإنما يكون على وجه تقبيل القدم أو الأرض بين أيديهم، كما قال الشاعر:

يا من يلوم خمرة المحبه	فخذوا على هي حلال
ومن يرد يسقى منها عبهْ	خَدّ يضع لأقدام الرجال
رأسي حططت بكل شيبه	هم الموالي سقوني زلال

وجعل القشيري مناطَ الرد على الكفرة حيث فعلوا ذلك، وقالوا: ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله، بغير إذن الله، وإنما حكموا بذلك من ذات أنفسهم. فردَّ الله عليهم. قال: وفي هذا إشارة إلى ما يفعله العبد من القُرَب، بنشاط نَفْسِه، من غير أن يقتضيه حُكْمُ الوقت، وما يعقد بينه وبين الله تعالى من عقودٍ لايفي بها، وكان ذلك اتباعَ هوىً. قال الله تعالى: ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾[(2)] . قلت: ولأجل هذا وجب على من أراد الوصول إلى الله أن يتخذ شيخاً عارفاً بأحكام الوقت، ذا بصيرة بدسائس النفس، فيأمره في كل وقت، وفي كل زمان، بما يناسبه؛ ليُخرجه من هوى نفسه، وأسر طبعه، وإلا بقي في العنت والبُعد عن الله، يعبد الله على حرف، كلما زاد عبادة وقرباً ـ في

(١) في الأصول: القاهرية. (٢) من الآية ٢٧ من سور الحديد

زعمه ـ زاد بُعداً من ربه، وهو لايشعر، فالنفس إن لم تتصل بمن يرفع عنها الحجاب، كانت كدود القزّ، تنسج الحجاب على نفسها بنفسها، حتى تموت في وسطه. وفي ذلك يقول الششترى في نونيته رضي الله عنه :

ونحن كدُودِ القــزِّ يحصرُنا الــذى صنعنا لدفع الحصر سجناً لنا مِنَّا(١)

وبالله التوفيق.

ثم ذكر دلائل توحيده تعالى، فقال:

﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٥﴾ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿خلق السمواتِ والأرضَ﴾ أى: وما بينهما من الموجودات، ملتبسة ﴿بالحق﴾؛ مشتملة على الحكم والمصالح الدينية والدنيوية ﴿يُكوِّر الليلَ على النهار، ويُكوِّر النهارَ على الليل﴾، التكوير: اللف واللىّ، يقال: كار العمامة على رأسه وكوّرها. والمعنى: أن كل واحد منهما يغيِّب الآخر إذا طرأ عليه، ويلفه لف اللباس باللابس، أو: يغيّبه كما يغيب الملفوف باللفافة، أو: يجعله كاراً عليه كروراً متتابعاً، تتابع أكوار العمامة، وهذا بيان لكيفية تصرفه تعالى فى السموات والأرض بعد بيان خلقهما، وعبّر بالمضارع للدلالة على التجرد.

﴿وسخَّر الشمسَ والقمرَ﴾: جعلهما منقادين لأمره. ﴿كلٌّ يجرى لأجلٍ مُسمىً﴾، وهو يوم القيامة، أو: كل منهما يجرى لمنتهى دورته، ﴿ألاَ هو العزيزُ﴾؛ الغالب القادر على كل شىء، ومن جملتها: عقاب العصاة، ﴿الغفارُ﴾: المبالغ فى المغفرة، ولذلك لايُعاجل بالعقوبة، ولا يمنع ما فى هذه الصنائع البديعة من آثار رحمته. وتصدير الجملة بحرف التنبيه، لإظهار كمال الاعتناء بمضمونها.

(١) انظر ديوان الششترى (ص٧٤)

﴿ خَلَقَكُم من نفسٍ واحدة ﴾، لمَّا ذكر ما يتعلق بالعالم العلوى، ذكر ما يتعلق بالعالم السفلى، وترك العاطف للإيذان باستقلاله فى الدلالة على الوحدانية، وبدأ بالإنسان؛ لأنه المقصود الأهم من هذا العالم، ولعَرَاقته فى الدلالة على توحيد الحق وباهر قدرته؛ لما فيه من تعاجيب آثار القدرة، وأسرار الحكمة، وأصالته فى المعرفة؛ فإن الإنسان بحال نفسه أعرف، والمراد بالنفس: نفس آدم ـ عليه السلام.

﴿ ثم جعل منها زوجَهَا ﴾: عطف على محذوف، صفة لنفس، أى: من نفسٍ خلقها ثم جعل منها زوجها، أو: على معنى: واحدة، أى: نفس وُجدت ثم جعل منها زوجها حواء، وعطفت بثم دلالة على مباينتها له فضلاً ومزية، فهو من التراخى فى الحال والمنزلة، مع التراخى فى الزمان. وقيل: أخرج ذرية آدم من ظهره كالذَّر، ثم أخرج منه حوّاء، ففيه ثلاث آيات؛ خلق آدم من غير أب ولا أم، وخلق حواء من قصيراه(١)، ثم تشعيب الخلق الفائت للحصر منهما.

﴿ وأنزل لكم من الأنعام ﴾ أى: قضى وجعل، أو: خلقها فى الجنة مع آدم عليه السلام، ثم أنزلها، أو: أحدث لكم بأسباب نازلة من السماء، كالأمطار، وأشعة الكواكب، كما تقول الفلاسفة. ﴿ ثمانيةَ أزواج ﴾ ذكراً وأنثى، وهى: الإبل، والبقر، والضأن، والمعز. فالزوج اسم لواحد معه آخر، فإذا انفرد فهو فرد، ووتر.

﴿ يخلقُكم في بطونِ أمهاتكم ﴾: استئناف؛ لبيان كيفية خلقهم، وأطوارهم المختلفة، الدالة على القدرة القاهرة. وصيغة المضارع للدلالة على التجدد. ﴿ خلقًا من بعد خلق ﴾: مصدر مؤكد، أى: يخلقكم فيها خلقاً كائناً من بعد خلق، أى: خلقاً مُدرَّجًا، حيواناً سوياً، من بعد عظام مكسوة لحماً، من بعد عظام عارية، من بعد مضغة مخلّقة، من بعد مضغة غير مخلّقة، من بعد علقة، من بعد نطفة، ﴿ فى ظلماتٍ ثلاث ﴾: ظلمة البطن، وظلمة الرحم، وظلمة المشيمة، أو: ظلمة الصلب، والبطن، والرحم.

﴿ ذلكم ﴾: إشارة إلى الحق تعالى، باعتبار أفعاله المذكورة، وهو مبتدأ، وما فيه من معنى البُعد؛ للإيذان ببُعد منزلته فى العظمة والكبرياء، أى: ذلكم العظيم الشأن، الذى عددت أفعاله هو ﴿ اللهُ ربكُم ﴾ أى: مربيكم بنعمة الإيجاد على الأطوار المتقدمة، وبنعمة الإمداد بعد نفخ الروح فيه. ﴿ له الملكُ ﴾: التصرف التام على الإطلاق فى الدارين. ﴿ لا إله إلا هو ﴾: لا متصرف غيره. ﴿ فأنى تُصْرَفُون ﴾: فكيف تصرفون عن عادته تعالى، مع وفور دواعيها، وانتفاء الصارف عنها بالكلية، إلى عبادة غيره، من غير داع إليها، مع كثرة الصوارف عنها؟ والله تعالى أعلم.

(١) «قصيراه»: مُثنى القُصَيْرَى، والقُصيران: ضلعان تليان الترقوتين والقُصَيْرَى: أسفل الأضلاع. وقيل: هى آخر الجنب. انظر اللسان (٣٦٤٩/٥ مادة قصر).

الإشارة: خلق سماوات الأرواح، وأرض النفوس، بالحق، أي: لسبب معرفته، وعبادته، فالمعرفة للأرواح، والعبادة للنفوس، يُكوّر نهار البسط على ليل القبض، وبالعكس، وسخّر شمس العيان، وقمر البرهان، كلٌّ يجرى إلى أجَل مسمى، إلا أن قمر البرهان ينتهى بطلوع شمس العيان، وشمس العيان لا انتهاء لها. ﴿ لا إله إلا هو العزيز﴾ فيمنع بعزته من الوصول إليه من أراد احتجابه، ﴿ الغفار﴾ فيغطى بفضله مساوئ من أراد وصلته. ﴿ خلقكم من نفس واحدة﴾؛ من روح واحدة، هى الروح الأعظم، ثم تفرعت منها الأشياء كلها. وأنزل لكم من الأنعام ما تتصرفون فيه، وتتقربون به إلى ربكم، ثم ذكّرهم بنعمة الإيجاد، ونعمة الإمداد، بقوله: ﴿ يخلقكم فى بطون أمهاتكم...﴾ الخ، فنعمة الإيجاد ظاهرة، ونعمة الإمداد: ما يتغذى به الجنين فى بطن أمه من دم الحيض.

ثم أمرهم بالشكر عليها، فقال:

﴿ إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿إن تكفروا﴾ به تعالى، بعد مشاهدة هذه النعم الجسيمة، وشئونه العظيمة، الموجبة للإيمان والشكر، ﴿فإن الله غَنِيٌّ عنكم﴾ أي: فاعلموا أنه تعالى غَنِيٌّ عن إيمانكم وشكركم، ﴿ ولايرضى لعباده الكُفْرَ﴾؛ لأن الكفر ليس برضا الله، وإن كان بإرادته ، وعدمُ رضاه تعالى بالكفر لأجل منفعتهم، ودفع مضرتهم، رحمة بهم، لا لتضرره تعالى به. ﴿ وإن تشكروا﴾ وتؤمنوا ﴿يرضَهُ لكم﴾ أي: يرضى الشكر لأجلكم ومنفعتكم؛ لأنه سبب الفوز بسعادة الدارين.

وإنما قال: ﴿لعباده﴾ ولم يقل «لكم»، لتعميم الحكم، وتعليله بكونهم عباده تعالى، والحاصل : أن وقوع الطاعة والإيمان هو بقدرته تعالى، وإرادته ورضاه، وأما الكفر والمعاصي فهو بقضائه وإرادته، ولم يرضها من عبده شرعاً، وإن رضيها تكويناً؛ لتقوم الحجة على العبد، ويظهر صورة العدل، ولايظلم ربك أحداً، وإن كان الكل منه وإليه.

﴿ ولاتزر وازرةٌ وِزْرَ أُخرى﴾ : بيان لعدم سريان كفر الكافر إلى غيره، أي: ولاتحمل نفس حاملة لوزرها حمل نفس أخرى، ﴿ثم إلى ربكم مرجِعكُم﴾ بالبعث بعد الموت، ﴿فَيُنبئكُم﴾؛ يُخبركم ﴿ بما كنتم تعملون﴾

فى الدنيا من الإيمان والكفر، فيجازيكم بها ثواباً وعقاباً. ﴿إنه عليم بذاتِ الصدور﴾: أى بمضمرات القلوب، فكيف بالأعمال الظاهرة، وهو تعليل لـ «ينبئكم».

الإشارة: قد تقدم الكلام على الشكر فى سورة سبأ [(1)] قال القشيرى: قوله تعالى: ﴿وإن تشكروا يرضه لكم﴾ إن أطعتنى شكرتُك، وإن ذكرتنى ذكرتُك، وإن خطوت لأجلى خطوةً ملأتُ السموات والأرض من شكرك، وأنشدوا:

لـو علِمْنا أن الزيـارةَ حـقٌ لفَرَشْنَا الخـدودَ أرضاً لِتَرضَى

ثم بيَّن حال من يشكر، فقال:

﴿ ۞ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلنَّارِ ﴿٨﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿وإذا مَسَّ الإنسانَ﴾ أى: جنس الإنسان ﴿ضُرٌّ﴾ من مرض وغيره ﴿دَعَا ربَّه مُنيباً﴾ إليه، راجعاً إليه مما كان يدعوه فى حالة الرخاء؛ لعلمه بأنه بمعزل عن القدرة على كشف ضره، وهذا وصف للجنس ببعض أفراده، كقوله تعالى: ﴿إنَّ الإنسانَ لَظَلُومٌ كفَّارٌ﴾ [(2)] وقيل: المراد أبو جهل، أو: كل كافر. ﴿ثم إذا خَوَّلَهُ نعمةً منه﴾ أى: أعطاه نعمة عظيمة من جنابه، من التخول، وهو التعهد، يقال: فلان خائل مال، إذا كان متعهّداً إليه حسن القيام به. وفى الصحاح: خوّله اللهُ الشىء: ملّكه إياه. وفى القاموس: وخوّله اللهُ المالَ: أعطاه إياه.

قال ابن عطية: خوَّله، أى: ملَّكه، وحكمه فيها ابتداءً من الله، لامجازاة، ولايقال فى الجزاء: خوّل. هـ. أو: من الخوَل، وهو الافتخار، أى: جعله يخول، أى: يختال ويفتخر بنعمه. ﴿نَسِيَ ما كان يدعو إليه من قَبْلُ﴾ أى: نسيَ الضرَ الذى كان يدعو الله تعالى كشفه من قبل التخويل، أو: نسى ربه الذى كان يدعو ويتضرع إليه، على أن

(١) راجع إشارة الآية ١٣ من سورة سبأ

(٢) من الآية ٣٤ من سورة إبراهيم.

﴿ما﴾ بمعنى ﴿من﴾، كقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنثَىٰ﴾(١)، أو: إيذاناً بأن نسيانه بلغ به إلى حيث لايعرف ما يدعوه، وهو كقوله تعالى: ﴿عَمَّا أَرْضَعَتْ﴾(٢).

﴿وجعل لله أنداداً﴾: شركاء في العبادة؛ ﴿ليُضل﴾(٣) بذلك ﴿عن سبيله﴾ الذي هو التوحيد.. ى: ليُضل غيره، أو: ليزداد ضلالاً، أو: يثبت عليه، على القراءتين، وإلا؛ فأصل الضلال غير متأخر عن الجعل المذكور. واللام للعاقبة، كما في قوله: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾(٤) غير أن هذا أقرب للحقيقة؛ لأن الجاعل هنا قاصد بجعله المذكور حقيقة الإضلال والضلال، وإن لم يعرف؛ لجهله أنهما إضلال وضلال، وأما آل فرعون فهم غير قاصدين بالتقاطهم العداوة أصلاً. قاله أبو السعود.

﴿قُلْ تمتعْ بكفرك قليلاً﴾ أي: تمتعاً قليلاً، أو: زماناً قليلاً في الدنيا، وهو تهديد لذلك الضال المضل، وبيان لحاله ومآله. ﴿إنك من أصحاب النار﴾ أي: من ملازميها، والمعذّبين فيها على الدوام، وهو تعليل لقلة التمتع. وفيه من الإقناط من النجاة مالا يخفى، كأنه قيل: إذا أبيتَ قبول ما أمرت به من الإيمان والطاعة، فمن حقك أن تؤمَر بتركه لتذوق عقوبته.

الإشارة: الصفة الممدوحة في الإنسان: أن يكون إذا مسَّه الضر التجأ إلى سيده، مع الرضا والتسليم، فإذا كشف عنه شكر الله وحمده، ودام على شكره، ونسب التأثير إلى الأسباب والعلل، وهو صريح الآية. وبالله التوفيق.

ثم ذكر حال من شكر، فقال:

﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْأَخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿أمنْ(٥) هو قانتٌ﴾ أي: مطيع، قائم بواجب الطاعات، دائم على أداء وظائف العبادات، ﴿آناءَ الليلِ﴾ أي: في ساعات الليل، حالتي السراء والضراء، كمن ليس كذلك، بل إنما يفزع إلى الله

---

(١) الآية ٣ من سورة الليل. (٢) من الآية ٢ من سورة الحج.
(٣) قرأ الجمهور: «ليضل» بضم الياء، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو: بفتحها. انظر الإتحاف (٢/٤٢٧) والبحر المحيط (٧/٤٠١).
(٤) الآية ٨ من سورة القصص.
(٥) قرأ نافع، وابن كثير، وحمزة: بتخفيف الميم، على أنها موصولة، دخلت عليها همزة الاستفهام التقريري، ومقابله محذوف؛ لفهم المعنى، والتقدير: أمن هو قانت. الخ كمن جعل لله أنداداً. وقرأ الباقون بالتشديد. والتوجيه ذكره الشيخ المفسر ـ رحمه الله. انظر: إتحاف فضلاء البشر (٢/٤٢٨).

في الضراء فقط، فإذا كشف عنه نسي ما كان يدعو إليه من قبلُ، وحذفه لدلالة ما قبله عليه. ومن قرأ بالتشديد، فـ «أم» إما متصلة، حُذف مقابلها، أي: أنت خير حالاً ومآلاً أم من هو قائم بوظائف العبادات، أو: منقطعة، والإضراب للانتقال من التهديد إلى التبكيت بالجواب الملجئ إلى الاعتراف بما بينهما، كأنه قيل: أم من هو قانت أفضل، أم من هو كافر مثلك؟.

حال كون القانت ﴿ ساجداً وقائماً ﴾ أي: جامعاً بين الوصفين المحمودين. وتقديم السجود على القيام؛ لكونه أدخل في معنى العبادة. ﴿ يحْذَرُ الآخرةَ ﴾ أي: عذاب الآخرة، حال أخرى، أو: استئناف، جواب عما نشأ من حكاية حاله من القنوت والسجود، كأنه قيل: فما باله يفعل ذلك؟ فقيل: يحذر الآخرة، ﴿ ويرجو رحمةَ ربه ﴾ أي: الجنة، فينجو بذلك مما يحذره، ويفوز بما يرجوه، كما ينبئ عنه التعرض لعنوان الربوبية، المنبئة عن التبليغ إلى الكمال، مع الإضافة إلى ضمير الراجي.

ودلت الآية على أن المؤمن يجب أن يكون بين الخوف والرجاء، يرجو رحمته، لا عمله، ويحذر عقابه؛ لتقصيره في عمله، ثم الرجاء إذا جاوز حدّه يكون أمناً. والخوف إذا جاوز حدّه يكون إياساً، وقد قال تعالى: ﴿ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴾(١) ، و﴿ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾(٢) فيجب ألا يجاوز أحدهما حدّه؛ بل يكون كالطائر بين جناحيه، إلا في حالة المرض، فيغلب الرجاء، ليحسن ظنه بالله. ومذهب محققي الصوفية: تغليب الرجاء مطلقاً، لهم ولعباد الله؛ لغلبة حسن ظنهم بربهم .

والآية، قيل: نزلت في عثمان رضي الله عنه كان يحيي الليل، وقيل: في عمار وأبي حذيفة(٣)، وهي عامة لمن سواهم.

﴿ قُلْ هل يستوي الذين يعلمون ﴾ حقائق الأحوال، فيعملون بموجب علمهم، كالقانت المذكور، ﴿ والذين لايعلمون ﴾ شيئًا؛ فيعملون بمقتضى جهلهم، كدأب الكافر المتقدم. والاستفهام للتنبيه على أن كون الأولين في أعلى معارج الخير، وكون الآخرين في أقصى مدارج الشر من الظهور، بحيث لايكاد يخفى على أحد.

قال النسفي: أي: يعلمون ويعملون به، كأنه جعل من لايعمل غير عالم، وفيه ازدراءٌ عظيمٌ بالذين يقْتَنون - أي: يدخرون - العلوم، ثم لايَقْنُتون، ويتَفننون فيها، ثم يُفتنون بالدنيا، فهم عند الله جهلة، حيث جعل القانتين هم العلماء. أو: يريد به التشبيه، أي: كما لايستوي العالم والجاهل، كذلك لا يستوي المطيع والعاصي. هـ.

(١) من الآية ٩٩ من سورة الأعراف.		(٢) من الآية ٨٧ من سورة يوسف.
(٣) انظر الدر المنثور (٥/٦٠٥) وتفسير البغوي (٧/١١) وأسباب النزول للواحدي (ص ٣٨٢).

الإشارة: القنوت هو القيام بآداب الخدمة، ظاهراً وباطناً، من غير فتور ولاتقصير، قاله القشيرى. وهو على قسمين، قنوت العارفين، وهى عبادة القلوب، كالفكرة والنظرة، ساعة منها أفضل من عبادة سبعين سنة، وثمرتها: التمكن من شهود الذات الأقدس، عاجلاً وآجلاً، وقنوت الصالحين، وهى عبادة الجوارح، كالركوع والسجود والتلاوة، وغيرها من أعمال الجوارح، وثمرتها نعيم الجنان بالحور والولدان، مع الرضا والرضوان، ورؤية وجه الرحمن.

رُوى عن قبيصة بن سفيان، قال: رأيت سفيان الثورى فى المنام بعد موته، فقلت له: ما فعل الله بك؟ فأنشأ يقول:

نظرتُ إلىَ ربِّى عِياناً فقال لى … هنيئًا رضائى عنك يا ابنَ سعيدِ
لقد كنتَ قوّاماً إذا الليلُ قد دَجا … بِعَبْرة محزونٍ وقلب عميدِ
فدونك فاختر أىَّ قصر تريدُه … وزرنى فإنى منك غيرُ بعيدِ

وكان شعبةُ ومِسْعَر رجلين صالحين، وكانا من ثقة المحدِّثين، فماتا، قال أبو أحمد اليزيدى: فرأيتهما فى المنام، وكنتُ إلى شعبة أميل منى إلى مسعر، فقلت لشعبة: يا أبا بسطام؛ ما فعل الله بك؟ فقال: يا بنى احفظ ماأقول لك:

حَبانى إلهى فى الجِنان بقُبة … لها ألفُ باب من لُجَيْنٍ(١) وجوهرا
وقال لى الجبارُ: يا شعبة الذى … تبحَّر فى جمع العلوم وأكثرا
تمتعْ بقربى، إننى عنك ذو رضا … وعن عبدىَ القوَّام فى الليل مِسعرا
كفى مسعراً عزاً بأنْ سيزورُنى … وأكشفُ عن وجهى ويدنو لينظرا
وهذا فَعالى بالذين تنسكوا … ولم يألفوا فى سالف الدهر منكرا.

وقوله تعالى: ﴿ قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لايعلمون ﴾ أى: لايستوى العالم بالله مع الجاهل به، العالم يعبده على العيان، والجاهل به فى مقام الاستدلال والبرهان. العالم بالله يستدل بالله على غيره، والجاهل به يستدل بالأشياء على الله، وشتان بين من يستدل به أو يستدل عليه، المستدل به عرف الحق لأهله، وأثبت الأمر

(١) اللُّجَيْن: الفضة. انظر اللسان (٥/٤٠٠٢، مادة لجن).

من وجود أصله، والاستدلال عليه من عدم الوصول إليه، كما فى الحِكَم(١). العالم بالله من السابقين المقربين، والجاهل به من عامة أهل اليمين، ولو تبحّر فى العلوم الرسمية غاية التبحر. قال الورتجبى: وصف تعالى أحوال أهل الوجود والكشوفات، المستأنسين به، وبلذائذ خطابه ومناجاته، وتحملوا من لطائف خطابه مكنونَ أسرار غيبه، من العلوم الغريبة، والأنباء العجيبة، لذلك وصفهم بالعلم الإلهى، الذى استفادوا مِن قُربه ووصاله، وكشف جماله بقوله: ﴿ هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون ﴾ كيف يستوى الشاهد والغائب، والشاهد يرى مالايرى الغائب؟. هـ.

قال القشيرى: العلم المخلوق على ضربين: علم مجلوبٌ بكسب العبد، وموهوبٌ من قِبَلِ الربّ.. انظر تمامه.

ثم أمر بالتقوى، التى هى أصل القنوت، فقال:

﴿ قُلْ يَـٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّـٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾ ﴾

قلت: ﴿ فى هذه ﴾: متعلق بأحسنوا، أو: بحسنة، على أنه بيان لمكانها، أو: حال من ضميرها فى الظرف.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ قل يا عبادِ الذين آمنوا اتقوا ربكم ﴾ بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، أمر رسوله ﷺ بأن يحثهم على التقوى ويُذكّرهم بها، بعد تخصيص التذكير بأولى الألباب، إيذاناً بأن أُولى الألباب هم أهل التقوى، وفى إضافتهم إلى ضمير الجلالة بقوله: ﴿ يا عبادى ﴾ تشريف لهم، ومزيد اعتناء بشأن المأمور به، وهو التقوى.

ثم حرّض على الامتثال بقوله: ﴿ للذين أحسنوا ﴾ أى: اتقوا الله وأطاعوه ﴿ في هذه الدنيا ﴾ الفانية، التى هى مزرعة الآخرة. ﴿ حسنة ﴾ أى: حسنةٌ عظيمة، لايُكتنه كُنهها، وهى الجنة ونعيمها، أو: للذين أحسنوا بالطاعة والإخلاص حسنة معجلة فى الدنيا، وهى الصحة والعافية، والحياة الطيبة، أو: للذين أحسنوا، أى: حصلوا مقام الإحسان ـ الذى عبّر عنه عليه الصلاة والسلام بقوله: «أن تعبد الله كأنك تراه» ـ حسنة كبيرة، وهى لذة الشهود، والأنس بالملك الودود فى الدارين.

---

(١) انظر الحِكَم بتبويب المتقى الهندى / ٢٧ حكمة ٢٩.

ولما كان هذا المقام لايتأتى تحصيله إلا فى بعض البلاد الخالية من الشواغل والموانع، أمر بالهجرة من الأرض التى لايتأتى فيها التفرغ، فقال: ﴿ وأرضُ الله واسعةٌ ﴾، فمن تعسر عليه التفرغ للتقوى، والإحسان وعمل القلوب، في وطنه، فليهاجر إلى بلد يتمكن فيه ذلك، كما هى سُنَّة الأنبياء والأولياء ، فإنه لا عذر له فى التفريط والبطالة أصلاً.

ولمّا كان الخروج من الوطن صعباً على النفوس، يحتاج إلى صبر كبير؛ رغَّب فى الصبر بقوله: ﴿ إنما يُوفى الصابرون ﴾ على مفارقة الأوطان، وتحمل مشاق الطاعات، وتحقيق الإحسان، ﴿ أجْرَهم ﴾ فى مقابلة ما كابدوه من الصبر، ﴿ بغير حساب ﴾ بحيث لايحصى ولايحصر؛ بل يصب عليهم الأجر صباً، فلهم مالا عين رأت، ولاأذن سمعت، ولاخطر على قلب بشر.

وعن ابن عباس رضي الله عنه: (لايهدى إليه حساب الحسّاب، ولايُعرف)، وفى الحديث: «أنه يُنصب الموازين يوم القيامة لأهل الصلاة والصيام والحج، فيوفّون بها أجورهم، ولاتنصب لأهل البلاء؛ بل يُصب عليهم الأجر صباً، حتى يتمنى أهل العافية فى الدنيا أن أجسادهم تقرض بالمقاريض، مما يذهب به أهل البلاء من الفضل»(١). وكل ما يشق على النفس ويتعبها فهو بلاء، والله تعالى أعلم

الإشارة: بالتقوى الكاملة يصير العبد من أولى الألباب، فبقدر ما تعظم التقوى يعظم إشراق النور فى القلب، ويتصفى من الرذائل، وقد تقدم الكلام عليها مستوفياً عند قوله تعالى: ﴿ ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله ﴾(٢) فمن أحسن فى تقواه أحسن الله عاقبته ومثواه، وحفظه فى دنياه وأخراه.

فمن تعذرت عليه التقوى فى وطنه، فليهاجر منه إلى غيره، والهجرة سُنَّة نبوية، وليتجرع الصبر على مفارقة الأوطان، ومهاجرة العشائر والإخوان، لينخرط فى سلك أهل الإحسان، قال تعالى : ﴿ وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ (٣) الآية .

قال القشيرى: الصبر: حَبْسُ النفس على ما تكره، ويقال: تجرُّعُ كاسات التقدير، من غير استكراهٍ ولاتعبيس، ويقال: التهدُّف(٤) لسهام البلاء. هـ.

(١) عزاه السيوطى فى الدر المنثور (٥/ ٦٠٦) لابن مردويه، من حديث أنس، وأخرجه الطبرانى فى الكبير (١٢/ ١٨٤ ح ١٢٨٢٩) من حديث ابن عباس رضي الله عنه مختصراً

(٢) الآية ١٠٠ من سورة النساء.

(٣) الآية ١٠٠ من سورة التوبة.

(٤) التهدف: الدنو والاستقبال.

ثم أمر بالإخلاص، الذي هو شرط في الجميع، فقال:

﴿ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخَـٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ يَـٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ قُل ﴾ لهم: ﴿ إني أُمرتُ أن أعبدَ الله ﴾ حال كوني ﴿ مخلصًا له الدينَ ﴾ من كل ما ينافيه من الشرك والرياء، وما أمر به ﷺ يُؤمر به أمته؛ بل هم المقصودون. ثم قال: ﴿ وأُمرتُ لأن أكون أول المسلمين ﴾ أي: وأمرت بذلك لأجل أن أكون مقدمهم في الدنيا والآخرة؛ لأن إحراز قصَبِ السبق في الدين بالإخلاص فيه، فالإسلام الحقيقي هو المنعوت بالإخلاص، والتقدير: أمرت بالعبادة والإخلاص فيها، وأمرت بذلك لأن أكون أول المخلصين.

أو: تكون اللام زائدة، وهو أظهر، كقوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ﴾(١) أي: من قومي، أو: من أهل زماني، أو: أكون أول من دعا غيره إلى ما دعا إليه نفسه، وهو الإسلام، وحاصله: أُمرت بإخلاص الدين، وأُمرت أن أكون من السابقين في ذلك زمانًا ورتبة؛ لأنه داع إلى الإسلام، والداعي إلى الشيء ينبغي أن يكون متحليًا به، كما هي سُنَّة الأنبياء والأولياء، لا الملوك والمتجبرين.

﴿ قل إني أخافُ إن عَصَيْتُ ربي ﴾ بترك الإخلاص، والميل إلى ما أنتم عليه من الشرك ﴿ عذابَ يومٍ عظيم ﴾ هو يوم القيامة. وُصف بالعظمة؛ لعظمة ما فيه من الدواهي والأهوال.

﴿ قُلِ اللهَ أعبدُ ﴾ لاغيره، لا استقلالاً ولا اشتراكاً. وليس بتكرار؛ لأن الأول إخبار عن كونه مأمورًا بالإخلاص في الدين، وبالسبق إليه، وهذا إخبار بأنه امتثل الأمر، وفعل ما أُمر به. وقدَّم المفعول لأنه جواب لقول الكفرة: اعْبُدْ

(١) الآية ١٤ من سورة الأنعام

ما نعبد، لتعبدُ ما تعبد، فهو كقوله : ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾(١) أي: لا أعبد إلا الله ﴿ مخلصاً له ديني ﴾ من كل ما يشوبه من العلل، فأمر ﷺ أولاً ببيان كونه مأموراً بعبادة الله وإخلاص الدين له، ثم بالإخبار بخوفه من العذاب على تقدير العصيان، ثم بالإخبار بامتثاله لِمَا أُمر به على أبلغ وجه؛ إظهاراً لتصلبه في الدين، وحسمًا لمادة أطماعهم الفارغة، وتمهيداً لتهديدهم بقوله: ﴿ فاعبدوا ما شئتم ﴾ أن تعبدوه ﴿ من دونه ﴾ تعالى. وفيه من الدلالة على شدة الغضب عليهم مالا يخفى، كأنهم لَمَّا لَمْ ينتهوا عما نُهوا عنه أُمِرُوا به، كي يحيق بهم العذاب.

﴿ قلْ إن الخاسرين ﴾؛ الكاملين في الخسران، الذي هو عبارة عن: إضاعة ما يهمه، وإتلاف مالابد منه، هم ﴿ الذين خسروا أنفُسَهم ﴾ بتعريضها للعطب، ﴿ وأهليهم ﴾ بتعريضهم للتفرق عنهم، فرقًا لاجمع بعده؛ إما في عذاب الأبد، إن ماتوا على الكفر معهم، أو: في الجنة، إن آمنوا، فلا يرونهم أبداً. وقيل: خسروا أهلهم؛ لأنهم لم يدخلوا مدخل الذين لهم أهل في الجنة، أو: خسروا أهلهم الذين كانوا يتمتعون بهم، لو آمنوا. ﴿ ألا ذلك هو الخسرانُ المبينُ ﴾ الذي لاخسران أظهر منه. وتصدير الجملة بحرف التنبيه، والإشارة بذلك إلى بُعد منزلة المشار إليه في الشر. وتوسيط ضمير الفصل، وتعريف الخسران، ووصفه بالمبين؛ من الدلالة على كمال هوله وفظاعته، وأنه لاخسران وراءه، مالا يخفى.

﴿ لهم من فوقهم ظُلَلٌ من النار ﴾ أي: لهم ظلل كثيرة متراكمة بعضها فوق بعض، كائنة من النار، ﴿ ومِن تحتهم ﴾ أيضاً ﴿ ظُلَلٌ ﴾ أي: أطباق كثيرة، بعضها تحت بعض، هي ظلل لآخرين. ﴿ ذلك ﴾ العذاب الفظيع هو الذي ﴿ يُخوِّفُ اللهُ به عبادَه ﴾ ويُحذِّرهم إياه؛ ليجتنبوا ما يوقعهم فيه. ﴿ يا عبادِ فاتقون ﴾ ولاتتعرضوا لِما يُوجب سخطي. وهذه موعظة من الله بالغة، منطوية على غاية اللطف والرحمة، جعلنا الله من أهلها بمنّه وكرمه.

الإشارة: الإخلاص سر بين الله وبين عبده، لايطلع عليه ملك فيكتبه، ولاشيطان فيُفسده، وهو الغيبة عما سوى الله، فلا يرى في الدارين إلا الله، ولايعتمد إلا عليه، ولايخاف إلا منه ، ولايرجو إلا إياه. والإسلام هو: الانقياد بالجوارح في الظاهر للأحكام التكليفية، والاستسلام في الباطن للأحكام القهرية التعريفية، فالإسلام صورة، والاستسلام روحها، فالإسلام بلا استسلام جسد بلا روح.

وقوله تعالى: ﴿ فاعبدوا ما شئتم ﴾ هو تهديد لمن عبَد نفسه وهواه، وهو الخسران المبين. ويقال: الخاسر: مَن خسر أيام عمره بالبطالة والتقصير، وخسر آخرته بعدم التأهب والتشمير، وخسر مولاه بعدم الوصول إلى

(١) الآية ٦ من سورة الكافرون.

مشاهدة حضرة العلي الكبير، وهي حضرة الذات، فمن خسر هذا الخسران، فقد أحاطت به نار القطيعة والحجاب من كل مكان. ﴿ ذلك يُخوِّف اللهُ به عباده ﴾ قال القشيرى: إن خفتَ اليوم كُفيت خوف ذلك اليوم، وإلا فبين يديك عقبة كؤود.

ثم ذكر ضد أهل الخسران، فقال:

﴿ وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ (١٧) الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ (١٨) ﴾

قلت : ﴿ أن يعبدوها ﴾: بدل اشتمال من «الطاغوت»، والطاغوت: فعلوت، من الطغيان، بتقديم اللام على العين، وأصله : طغيوت، ثم طيغوت، ثم طاغوت.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ والذين اجتنبوا الطاغوتَ ﴾ أي: البالغ [أقصى][1] غاية الطغيان، وهو الشيطان ﴿ أن يعبدُوها ﴾ أي: اجتنبوا عبادة الطاغوت، الذي هو الشيطان، أو: كل ما عُبد من دون الله، وكل من عَبَد غيرَ الله فإنما عَبَدَ الشيطان؛ لأنه هو المزيّن لها، والحامل عليها. ﴿ وأنابوا إلى الله ﴾ أي: وأقبلوا إليه، معرضين عما سواه، إقبالاً كليا، ﴿ لهم البُشرى ﴾ بالنعيم المقيم، على ألسنة الرسل والملائكة، عند حضور الموت، وحين يُحشرون، وبعد ذلك.

﴿ فبشِّرْ عبادِ، الذين يستمعون القولَ ﴾ أي: ما نزل من الوحي ﴿ فيتبعون أحسَنَه ﴾؛ أرجحه وأكثره ثواباً، أو: أبيّنه، الذي هو ضد المتشابه. وهؤلاء هم الموصوفون باجتناب الطاغوت، والإنابة إلى ربهم، لكن وضع موضع ضميرهم الظاهر؛ تشريفاً لهم بالإضافة، ودلالةً على أن مدار اتصافهم بالوصفين الجليلين كونهم نُقاداً في الدين، يُميِّزون الحق من الباطل، ويؤثرون الأفضل.

﴿ أولئك ﴾ المنعوتون بتلك المحاسن الجميلة؛ هم ﴿ الذين هداهُمُ الله ﴾ لدينه، والإشارة إليهم باعتبار اتصافهم بما ذكر من النعوت الجليلة ، وما فيه من معنى البُعد؛ للإيذان بعلو رتبهم، وبُعد منزلتهم في الفضل.

---

(١) في الأصول [في أقصى].

﴿ وأولئك هم أولوا الألباب ﴾ أى: هم أصحاب العقول الصافية، السليمة من معارضة الوهم ومنازعة الهوى، المستحقون للهداية، لا غيرهم.

وفيه دليل على أن الهداية تحصل بفضل الله تعالى، لقوله: ﴿هداهم الله﴾، وقبول النفس لها؛ لقوله: ﴿هم أولوا الألباب﴾

الإشارة: مذهب الصوفية: الأخذ بالعزائم، والأرجح من كل شيء، عقداً، وقولاً، وعملاً، فأخذوا من العقائد مقام العيان، ولم يقنعوا بالدليل والبرهان، وأخذوا من الأقوال ألينها وأطيبها، ويجمع ذلك: حسن الخلق مع كل مخلوق، فآثروا العفو على القصاص، والصفح على العتاب، وغير ذلك من عزائم الشريعة على رخصها، ومن الأذكار: أرجحها وأجمعها، وهو الاسم المفرد، الذى هو سلطان الأسماء، ومن الأعمال: أعظمها وأرجحها، وهو عمل القلوب، الذى هو الذرة منه تعدل أمثال الجبال من أعمال الجوارح، كعبادة الفكرة والنظرة، وفى الحديث: «تفكر ساعة أفضل من عبادة سبعين سنة»(١)، فأوقاتهم كلها ليلة القدر، وكالتخلق بمكارم الأخلاق، كالرضا، والتسليم، والحلم، والسخاء، والكرم، وغير ذلك من محاسن الخلق، الذى هو من عمل القلوب، فهم الذين تحققت فيهم البشارة بقوله: ﴿ فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ﴾.

وقال الورتجبى - بعد كلام : ويتبع الكلام الأزلى - الذى هو الخطاب - بالفهم العجيب، والعلم الغريب، والإدراك الصافى، وانفراد الحق عن المخلوق، فى المحبة، والشوق، والمعرفة، والتوحيد، والإخلاص، والعبودية، والربوبية، والحرية، فهذا أفضل ورد بالبديهة، من حيث ظهور الأنباء العجيبة، والروح القدسية، والإلهامات الربانية.. انظر بقية كلامه. وقال القشيرى: الاستماع يكون لكل شيء، والاتباع يكون للأحسن . ثم قال: من عرف الله لا يسمع إلا بالله.هـ. ﴿أولئك الذين هداهم الله﴾ إلى صريح معرفته العيانية. ﴿وأولئك هم أولوا الألباب﴾، ولب الشيء: قلبه وخالصه، فقلوبهم خالصة لمولاهم، وأرواحهم متنعمة بشهود حبيبها، وأسرارهم متنزهة فى رياض ملكوت سيدها. وبالله التوفيق.

ثم ذكر ضدهم، فقال:

﴿ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي النَّارِ ﴿١٩﴾ ﴾

---

(١) أخرجه أبو الشيخ فى كتاب العظمة (١/ ٣٠٠، ح ٤٣) عن أبى هريرة بلفظ: «فكرة ساعة خير من عبادة ستين سنة»، وأخرجه الديلمى فى الفردوس (٢/ ٧٠ ح ٢٣٩٧) من حديث أنس بلفظ «ثمانين سنة»، وانظر الموضوعات لابن الجوزى (٣/ ١٤٤).

قلت: ﴿مَن﴾ : شرطية، دخل عليها همزة الإنكار، والفاء عاطفة على جملة محذوفة؛ ليتعلق الإنكار والنفى بمضمونهما معاً، أى: أنت مالك أمر الناس، فمَنْ حَقّ عليه كلمة العذاب أفأنت تُنقذه، ثم كررت الهمزة فى الجزاء؛ لتأكيد الإنكار، وتكريره، لَمَّا طال الكلام، ثم وضع موضع الضمير «مَن فى النار»؛ لمزيد تشديد الإنكار والاستبعاد، والتنبيه على أن المحكوم عليه بالعذاب بمنزلة الواقع فى النار، ويجوز أن يكون الجزاء محذوفاً، دلّ عليه: ﴿أفأنت تُنقذ﴾... إلخ، أى: أفمن حقّ عليه العذاب تنقذه أنت.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ أفمن حقّ عليه كلمةُ العذابِ ﴾، وهم عبدة الطاغوت ومتبعو خطواتها، كما يُلوح إليه التعبير عنهم بـ«مَن حق عليه كلمة العذاب»، فإن المراد بها قوله تعالى لإبليس: ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (١)، وقوله تعالى: ﴿ لَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (٢) أى: أفمن حقت عليه كلمة الشقاء، تقدر أن تهديه وتُنقذه من الكفر، الذى هو سبب النار؟ أو: تقول: المحكوم عليه بالنار بمنزلة الداخل فيها، فاجتهاده ﷺ فى دعائهم إلى الإيمان سعى فى إنقاذهم من النار بعد الدخول فيها، وهو لايفيد. فالمراد: تسكينه ﷺ وتفريغه من الحرص عليهم.

الإشارة: مَن سبق له الإبعاد لايفيده الكد والاجتهاد، ومن أسدل بينه وبينه الحجاب، لايفيده إلا الوقوف بالباب، حتى يحَن الكريمُ الوهاب، فإنّ العواقب فى هذه الدار مبهمة، والأعمال بالخواتم. قال القشيرى: والذين حقت عليهم كلمةُ العذاب، فإنهم اليوم اليوم لايخرجون من حجاب قلوبهم. هـ. وبالله التوفيق.

ولمّا كان المراد بقوله: ﴿ أفأنت تُنقذ من في النار ﴾ هم الذين قيل فى حقهم: ﴿ لهم من فوقهم ظُلل من النار ومن تحتهم ظُلل ﴾(٣) استدرك عنهم أهل التقى، فقال:

﴿ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾ ﴾

(١) الآية ٨٥ من سورة «ص».
(٢) الآية ١٨ من سورة الأعراف.
(٣) الآية ١٦ من السورة.

يقول الحق جل جلاله: ﴿لكنِ الذين اتقوا ربَّهم﴾، وهم الذين وصفوا بقوله تعالى: ﴿يا عباد فاتقون﴾(١)، ووُصفوا بالاجتناب والإنابة، وحصل لهم البُشرى، حيث استمعوا وتبعوا أحسن القول، وهم المخاطبون أيضاً بقوله: ﴿يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾(٢)... الآية.

فبيَّن هنا أن لهم درجات عالية فى جنات النعيم، فى مقابلة ما للكفرة من دركات سافلة فى الجحيم، فهى فى مقابلة قوله لهم: ﴿من فوقهم ظُلَل من النار ومن تحتهم ظُلَل﴾ فى حق الكفار، أى: لكن أهل التقى لهم عَلالِى، بعضها فوق بعض ﴿مبنيةٌ﴾ بناء المنازل المؤسسة على الأرض فى الرصانة والإحكام. ﴿تجري من تحتها﴾ أى: من تحت تلك الغرف ﴿الأنهارُ﴾ من غير تفاوت بين العلو والسفل. ﴿وَعْدَ الله﴾ أى: وعد الله ذلك وعداً، فهو مصدر مؤكد لقوله: ﴿لهم غُرف﴾ فإنه فى قوة الوعد. ﴿لا يُخلف الله الميعاد﴾ لاستحالته عليه سبحانه.

الإشارة: من اتقى الله فيما أمر ونهى، كانت له درجات حسية، مبنية من الذهب والفضة، يترقى فيها على قدر عمله وتقواه. ومن اتقى ما يشغل عن الله من جنس الكائنات، كانت له درجات ومقامات معنوية، قُربية اصطفائية، يرتقى فيها بقدر تقواه وسعيه إلى مولاه، وعد الله لا يُخلف الله الميعاد. قال القشيرى: وَعَدَ المطيعين الجنة - ولامحالة - لا يُخلفه، ووَعَدَ المذنبين المغفرة، ولا محالة - يغفر لهم، ووَعَدَ المريدين القاصدين بالوصول، فإذا لم تقع لهم فترة؛ فلا محالة يَصدقُ وَعْده. هـ.

ثم برهن على ما أوعد ووعد مما يكون بعد البعث من آثار قدرته، فقال:

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (٢١) ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ألم ترَ﴾ أيها السامع ﴿أن الله أنزلَ من السماء ماءً﴾ هو المطر، وقيل: كل ماء فى الأرض فهو من السماء، ينزل منها إلى الصخرة، فيقسمه الله تعالى بين البقاع. ﴿فسلَكَهُ﴾: أدخله ونظمه ﴿ينابيعَ في الأرض﴾ أى: عيوناً ومجارى فى الأرض، كجرى الدماء فى العروق فى الأجساد، أو: مياهاً

---

(١) من الآية ١٦ من السورة. (٢) من الآية ١٠ من سورة الزمر.

نابعة في ظهرها، فإن الينبوع يطلق على المنبع والنابع. فنصب «ينابيع» على الحال، على القول الثاني، وعلى نزع الخافض، على الأول.

﴿ ثم يُخرجُ به زرعًا مختلفًا ألوانه ﴾: أصنافه، من بُر وشعير وغيرهما، أو: كيفياته من الألوان، كالصفرة والخضرة والحمرة، والطعوم وغيرهما. و﴿ ثم ﴾: للتراخي في الرتبة والزمان، وصيغة المضارع: لاستحضار الصورة البديعة ،﴿ ثم يهيجُ ﴾ أي: يتم جفافه، ويشرف على أن يثور من منابته، ويستقل على وجه الأرض، ساتراً لها، ﴿ فتراه مُصفراً ﴾ من بعد خضرته ونَضرته، ﴿ ثم يجعله حطاماً ﴾؛ فُتاتاً متكسرة، كأن لم يغن بالأمس، فمن قدر على هذا قدر على إنشاء الخلق بعد فنائهم ومجازاتهم.

وقيل: المراد من الآية: تمثيل الحياة الدنيا، في سرعة الزوال، وقُرب الاضمحلال، بما ذكر من أحوال الزرع، ترغيباً عن زخارفها وزينتها، وتحذيراً من الاغترار بمن سُرّ بها، كما في قوله تعالى: ﴿ إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء ﴾[1] ... الآية، وقيل: للاستشهاد على تحقق الموعود من الأنهار الجارية من تحت الغُرف، بما يشاهد من إنزال المياه من السماء، وما يترتب عليه من آثار قدرته تعالى، وإحكام حكمته ورحمته.

﴿ إن في ذلك ﴾ أي: ما ذكر تفصيلاً من إنزال الماء وما نشأ عنه. ﴿ لذِكرى ﴾: لتذكيراً عظيماً ﴿ لأُولى الألبابِ ﴾: لأصحاب العقول الخالصة من شوائب الهوى، فيتذكرون بذلك أن الحياة الدنيا في سرعة التقضي والانصرام، كما يشاهدونه من حال الحكام كل عام، فلا يغترون ببهجتها، ولايُفتنون بفتنتها، أو: يجزمون بأن من قدر على إنزال الماء من السماء، وإجرائه في ينابيع الأرض، قادر على إجراء الأنهار من تحت الغُرف. وأما ما قيل: من أنه استدلال على وجود الصانع؛ فلا يليق؛ لأن هذه الأفعال الجليلة ذُكرت مسندة إلى الله تعالى؛ وإنما يليق الاستدلال بها على وجود الصانع لو ذُكرت غير مسندة إلى مؤثر، فتعَيَّن أن يكون متعلق التذكير والتنبيه شئونه تعالى وشئون آثاره، كما بيّن، لا وجوده تعالى. قاله أبو السعود.

الإشارة: قال القشيري: والإشارة في هذا أن الإنسان يكون طفلاً، ثم شاباً، ثم كهلاً، ثم شيخاً، ثم يصير إلى أرذل العمر، ثم إلى آخره يُخترم، ويقال: إن الزرع مالم يأخذ في الجفاف لايُؤخذ منه الحَبُ، الذي هو المقصود منه، كذلك الإنسان مالم [يخل][2] من نفسه وحَوْلِه لايكون له قَدْرٌ ولا قيمةٌ. قلت: يعني أنه مالم يمحص نفسه، وينهكها في التقرب إلى مولاه، لا قيمة له.

(١) الآية ٢٤ من سورة يونس. (٢) في القشيري: [يحصل].

ثم قال: ويقال: إن المؤمن بقوة عقله يوجبُ [استقلاله بعمله](١) إلا أن يبرُز منه كمالٌ يُمكّنه من وفارة بصيرته، ثم إذا بدت لائحةٌ من سلطان المعارف تصير تلك [الأبواب](٢) مغمورة، فإذا بَدَتْ أنوارُ التوحيد استهلكت تلك الجملة كذلك، وأنشدوا:

فلمّا استبان الصبحُ أدرج ضوءَه بأنواره أنوارَ ضوء الكواكبِ(٣). هـ.

قلت: استقلال العبد بعمله هو مثل بروز الزرع من منبته، ووفُورِ بصيرته هو إخراج حبه فى سنبله، وبدو لائحة من سلطان المعارف هو اصفراره، وظهور أنوار التوحيد التى تفنى وجوده وتغمره فى وجود الحق هو صيرورتها حطاماً، فتأمل. وهذا كله نتيجة شرح الصدر الذى أشار إليه بقوله:

﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ ﴾

قلت: الهمزة للإنكار، و﴿ من﴾: مبتدأ، والخبر محذوف، أى: كمن ليس كذلك.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ أفمَنْ شرحَ الله صدْرَه ﴾ أى: وسّعه وهيأه ﴿ للإسلام ﴾ حتى قَبِله وفرح به، واستضاء بنوره، ﴿ فهو على نورٍ ﴾ عظيم ﴿ من ربه ﴾، وبصيرة فى دينه، وهذا النور: هو اللطف الإلهى الفائض عليه عند مشاهدة الآيات التكوينية والتنزيلية، والتوفيق للاهتداء بها، أو: بمحض الإلهام من الجود والكرم، فيقذف فى قلبه نور اليقين، بلا سبب، أو: بصحبه أهل النور، هل يكون هذا كمن قسا قلبه، وحرج صدره، واستولى عليه ظلمة الغي والضلالة، فأعرض عن تلك الآيات بالكلية؟!

ولما نزلت هذه الآية سئل ﷺ عن الشرح المذكور، فقال: «نور يقذفه الله فى القلب، فإذا دخل النور القلب انشرح وانفسح» قيل: وهل لذلك علامة؟ قال: «نعم التجافى عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود، والاستعداد للموت قبل نزوله»(٤).

---

(١) فى القشيرى: [استفادةً له بعلمه] (٢) فى القشيرى (الأنوار).

(٣) أنشده أبو العباس السهارى. كما فى طبقات الأولياء (٣٦٧). وجاء فى طبقات الصوفية للسلمى (٤٤٧): أنشده أبو العباس السيارى، واسمه: القاسم بن القاسم بن مهدى.

(٤) أخرجه البغوى فى تفسيره (٧/١١٤) والحكيم الترمذى فى نوادر الأصول، فى (الأصل السادس والثمانين) والحاكم فى المستدرك (٤/٤١١) وسكت عنه. والبيهقى فى الشعب (ح ١٠٥٥٢) من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه.

﴿ فويلٌ للقاسيةِ قلوبهم ﴾: أي الصلبة اليابسة ﴿ مِن ذكر الله ﴾ أي: من أجل ذكره، الذي من حقه أن ينشرح له الصدر، وتلين له النفس، ويطمئن به القلب، وهؤلاء إذا ذكر الله عندهم اشمأزوا من أجله، وازدادت قلوبهم قساوة.

قال الفخر: اعلم أن ذكر الله سبب لحصول النور والهداية، وزيادة الاطمئنان في النفوس الطاهرة الروحانية، وقد يوجب القسوة والبُعد عن الحق في النفوس الخبيثة الشيطانية، فإذا عرفتَ هذا، فنقول: رأس الأدوية التي تفيد الصحة الروحانية ورتبتها: هو ذكر الله، فإذا اتفق لبعض النفوس أن صار ذكر الله سبباً لازدياد مرضها، كان مرض تلك النفوس مرضاً لايرجى زواله، ولايُتوقع علاجه، وكانت في نهاية الشر والرداءة، فلهذا المعنى قال تعالى: ﴿ فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله أولئك في ضلال مبين﴾ وهذا كلام محقق. هـ. وهو كما قيل في الجُعَل(١) أنها تتضرر برياح الورد، أي: وتنتعش بالشين. فكل من يفر من ذكر الله، ويثقل عليه، فقلبه جُعَل. ذكره في الحاشية.

﴿ أولئك في ضلال مبين ﴾ أي: أولئك؛ البُعَداء الموصوفون بما ذكر من قساوة القلوب في ضلال بعيد من الحق، ظاهر ضلاله لكل أحد. قيل: نزلت الآية في حمزة وعلي ـ رضي الله عنهما ـ وأبي لهب وولده(٢)، وقيل: في عمّار وأبي جهل. والحق: أنها عامة.

الإشارة: من أراد الله به السعادة شرّح صدرَه للإسلام، فقبِله وعمل عمله، ومن أراد به جذب العناية وتحقيق الولاية، شرح صدره لطريق أهل مقام الإحسان، فدخل في طريقهم، وهيأ نفسه لصُحبتهم وخدمتهم، فما زال يقطعون به مهامه النفوس حتى يقولون له: ها أنت وربك، فتلوح له الأنوار، وتُشرق عليه شموس المعارف والأسرار، حتى يفنى ويبقى بالله.

قال القشيري: والنورُ الذي من قِبَله تعالى نورُ اللوائح بتحقق العلم، ثم نورُ اللوامع بثبات الفهم، ثم نورُ المحاضرة بزوائد اليقين، ثم نور المكاشفة بتجلي الصفات، ثم نور المشاهدة بظهور الذات، ثم أنوار الصمدية بحقائق التوحيد، وعند ذلك فلا [وجد ولافقد](٣)، ولابُعد ولاقُرب، كلا، بل هو الله الواحد القهار. هـ. فمن لم يبلغ هذا لايخلو قلبه من قساوة، فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله، أولئك في ضلال مبين.

---

(١) الجُعَل: دابة سوداء من دواب الأرض، كالخنفساء. انظر اللسان (جعل ١/٦٣٨).
(٢) ذكره الواحدي في أسباب النزول (ص ٣٨٣) بدون إسناد.
(٣) في الأصول [فلا وجه ولاقصة] والمثبت من القشيري.

ثم ذكر سبب لين القلوب، وهو كتاب الله العزيز، فقال:

﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ (٢٣) ﴾

قلت: «كتاباً»: بدل من «أحسن»، أو: حال، لوصفه بقوله: ﴿ متشابهاً ﴾. و«مثاني»: صفة أخرى لكتاب، أو: حال أخرى منه، أو: تمييز من «متشابهاً»، كما تقول: رأيت رجلاً حسناً شمائلَ، أى: شمائله، والمعنى: متشابهة مثانيه. و﴿ تقشعر ﴾: الأظهر أنه استئناف، وقيل: صفة لكتاب، أو: حال منه.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ اللهُ نزَّل أحسنَ الحديثِ ﴾ وهو القرآن؛ إذ لا حديث أحسن منه، لاتمله القلوب، وتسأمه الأسماع؛ بل ترداده يزيده تجملاً وطراوة وتكثير حلاوة. رُوى أن أصحاب رسول الله ﷺ، ملّوا ملةً، فقالوا لرسول الله ﷺ: حدثنا حديثاً، فنزلت(1). والمعنى: أن فيه مندوحة عن سائر الأحاديث.

وفى إيقاع اسم الجلالة مبتدأ، وبناءِ «نزّل» عليه، من تفخيم أحسن الحديث، ورفع محله، والاستشهاد على حسنه، وتأكيد إسناده إليه تعالى، وأنه من عنده، لايمكن صدوره من غيره، والتنبيه على أنه وحى معجز، مالا يخفى.

حال كونه ﴿ كتاباً مُتشابهاً ﴾ أى: يُشبه بعضُه بعضاً فى الإعجاز والبلاغة، أو: تشابهت معانيه بالصحة، والإحكام، والابتناء على الحق والصدق، واستتباع منافع الخلق فى المعاد والمعاش، وتناسب ألفاظه وجُملِه فى الفصاحة والبلاغة، وتجاوب نظمه فى الإعجاز. ﴿ مَّثَانِيَ ﴾: جمع مثنىً؛ أى: مكرر، ومردد، لما ثنى من قصصه، وأنبائه، وأحكامه، وأوامره ونواهيه، ووعده ووعيده، ووعظه. وقيل: لأنه يثنّى فى التلاوة، ويُكرر مرة بعد أخرى. قال القشيرى: ويشتمل على نوعى الثناء عليه، بذكر سلطانه وإحسانه، وصفة الجنه والنار، والوعد والوعيد. هـ.

(1) أخرجه بنحوه ابن جرير (٢٣/ ٢١١) عن ابن عباس رضي الله عنه، والواحدى فى الأسباب (ص ٣٨٣) عن سعد، رضي الله عنه.

﴿ تَقْشَعِرُّ منه جُلودُ الذين يخشون ربهم ﴾ أي: ترتعد وتنقبض، والاقشعرار: التقبض، يقال: اقشعرّ الجلد: إذا انقبض، ويقال: اقشعر جلده ووقف شعره: إذا عرض له خوف شديد، من منكر هائل دهمه بغتة. والمعنى: أنهم إذا سمعوا القرآن وقوارعه وزواجره، أصابتهم هيبة وخشية تقشعر منه جلودهم، وإذا ذكروا رحمة الله تعالى تبدلت خشيتهم رجاءً، ورهبتهم رغبةً، وذلك قوله تعالى: ﴿ ثم تَلِينُ جُلودُهم وقلوبُهم إلى ذكرِ الله ﴾ أي: ساكنة مطمئنة إلى ذكر الله.

﴿ ذلك ﴾ أي: الكتاب الذى شُرِح أحواله ﴿ هُدَى اللهِ، يهدي به من يشاءُ ﴾ أن يهديه، بصرف مجهوده إلى سبب الاهتداء به، أو بتأمله فيما فى تضاعيفه من شواهد الحقيقة، ودلائل كونه من عند الله. ﴿ ومن يُضلِلِ اللهُ ﴾ أي: يخلق فيه الضلالة، بصرف قدرته إلى مبادئها، وإعراضه عما يرشد إلى الحق بالكلية، وعدم تأثره بوعده ووعيده، أو: من يخذله ﴿ فما له من هَادٍ ﴾ يُخلصه من ورطة الضلال. أو: ذلك الذى ذكر من الخشية والرجاء هو أثر هدى الله، يهدى لذلك الأثر من يشاء من عباده، ﴿ ومن يُضلل ﴾ أي: ومن لم يؤثر فيه لطفه وهدايته؛ لقسوة قلبه، وإصراره على فجوره ﴿ فماله من هادٍ ﴾: من مؤثر فيه بشيء قط.

الإشارة: أول ما يظهر الفتح على قلب العبد فى فهمِ كتاب الله، والتمتع بحلاوة تلاوته، ثم ينتقل إلى الاستغراق فى ذكره باللسان، ثم بالقلب، ثم إلى الفكرة، ثم العكوف فى الحضرة، إن وجد من يربيه وينقله عن هذه المقامات، وإلا بقى فى مقامه الأول.

وقال الطيبى: من أراد الله أن يهديه بالقرآن، أوقع فى قلبه الخشية، كقوله: ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾(١) ثم يتأثر منه ظاهراً، بأن تأخذه فى بدء الحال قشعريرة؛ لضعفه، وقوة سطوة الوارد، فإذا أدمن على سماعه، وألِفَ أنواره، يطمئن ويلين ويسكن. هـ. قلت: وعن هذا عبّر الصدّيق بقوله حين رأى قوماً يبكون عند سماعه: (كذلك كنا ثم قست القلوب)(٢) أي: صليت وقويت على حمل الواردات.

وقال الورتجبى: سماع المريدين بإظهار الحال عليهم، وسماع العارفين بالطمأنينة والسكون. هـ. وقال على قوله: ﴿ متشابهاً﴾: إنه أخبر عن كلية الذات و الصفات، التى منبعهما أصل القدم، وصفاته كذاته، وذاته كصفاته،

(١) من الآية ٢ من سورة البقرة.

(٢) نقله الحافظ أبو نعيم فى الحلية ١/ ٣٣ ــ ٣٤، وراجع البحر المديد ٣/ ٣٤٦.

وكل صفة كصفة أخرى، من حيث التنزيه والقدس والتقديس، والكلام بنفسه متشابه المعانى. هـ. يعنى : إنما كان القرآن متشابهاً؛ لأنه أخبر عن كلية الذات والصفات القديمين، والذات لها شبه بالصفات من حيث اللطافة، والصفات تشبه بعضها بعضاً فى الدلالة على التنزيه والكمال، أى: كتاباً دالاً على كلية الذات المشابهة للصفات. وهذا حملٌ بعيد.

ثم ذكر مثال المهتدى والضال، فقال:

﴿ أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾

قلت : ﴿وقيل﴾: عطف على «يتقى»، أو: حال من ضمير «يتقى»، بإضمار «قد».

يقول الحق جل جلاله : ﴿ أفمَنْ يتقي بوجهِهِ ﴾ الذى هو أشرف أعضائه ﴿ سوءَ العذاب ﴾ أى: العذاب السيىء الشديد ﴿ يومَ القيامة ﴾ كمن ليس كذلك، بل هو آمن، لايعتريه مكروه، ولايحتاج إلى اتقاء، بوجه من الوجوه، وإنما كان يتقى النار بوجهه؛ لكون يده التى كان يتقى بها المكاره والمخاوف مغلولة إلى عنقه. قال القشيرى: قيل: إن الكافر يُلقى فى النار، فيلقاها أولاً بوجهه؛ لأنه يُرمَى فيها منكوساً(١)؛ فأما المؤمن المُوقَّى ذلك؛ فهو المُلقَّى بالكرامة، فوجهُهُ ضاحكٌ مُستبشرٌ(٢). هـ.

﴿ وقيل للظالمين ﴾ : يقال لهم من جهة خزنه النار. وصيغة الماضى للدلالة على التحقق. ووضع المظهر فى مقام المضمر للتسجيل عليهم بالظلم، والإشعار بعلة الأمر فى قوله: ﴿ ذُوقوا ما كنتم تكسبون ﴾ أى: وبال ما كنتم تكسبونه فى الدنيا، من الظلم بالكفر والمعاصى.

---

(١) أخرج ابن جرير عن ابن عباس رضى الله عنهما، قال: «ينطلق به إلى النار مكتوفاً ثم يرمى فيها، فأول ما تمس وجهه النار».
(٢) النقل فيه تصرف: انظر لطائف الإشارات.

﴿ كذَّبَ الذين مِن قبلهم ﴾ من الأمم السالفة، ﴿ فأتَاهمُ العذابُ ﴾ المقرر لكل أمة ﴿ من حيث لايشعرون ﴾ : من الجهة التى لايحتسبون، ولايخطر ببالهم إتيان الشر منها. ﴿ فأذاقهم اللهُ الخزىَ ﴾ أى: الذل والصغار ﴿ في الحياة الدنيا ﴾، كالمسخ، والخسف، والقتل، والأسر، والإجلاء، وغير ذلك من فنون النكال، ﴿ ولعذابُ الآخرة ﴾ المعد لهم ﴿ أكبرُ ﴾؛ لشدته ودوامه ﴿ لو كانوا يعلمون ﴾ أى: لو كان من شأنهم أن يعلموا شيئاً لعلموا ذلك واعتبروا به.

والآية، يحتمل أن تكون تهديداً لقريش، فالضمير فى ﴿قَبْلِهم﴾ يعود إليهم؛ لأن قوله: ﴿ومن يُضلل الله﴾.. الخ تعرض بمن أعرض عن كتابه من كفار قريش. وقال أبو السعود: هو استئناف، مسوق لبيان ما أصاب بعض الكفرة من العذاب، إثر بيان ما يصيب الكل من العذاب الأخروى. هـ.

الإشارة: الوجه هو أشرفُ الأعضاء وإمَامُها، فإن كانت فى الباطن بهجة المحبة، أو سيما المعرفة، ظهرت عليه، فيتنورُ ويبتهج، وإن كانت ظلمة المعاصى، أو كآبة الحجاب، ظهرت عليه، وإن كانت غيبة فى الحق أو سكرة، كان هو أول ما يغيب من الإنسان ويغرق، ثم تغيب البشرية فى البحر المحيط، وهو بحر الأحدية. وقوله تعالى: ﴿فأتاهم العذاب من حيث لايشعرون﴾، قال القشيرى: أشدُّ العذاب ما يكون بغتةً، كما أن أتمَّ السرور ما يكون فلتةً. وفى الهجران والفراق و الشدة ما يكون بغتةً غير متوقعة، وهو أنكى للفؤاد، وأشدُّ فى التأثير، وأوجعه للقلوب، وفى معناه أنشدوا(١):

فَبِتَ(٢) بخيرٍ والدُّنى مطمئنةٌ فأصبحتَ يومًا والزمانُ تَقَلَّبَا

وأتمُّ السرورِ وأعظمه تأثيراً ما يكون فجأة، حتى قال بعضهم: أشد السرور غفلة على غفلة، وأنشدوا:

بينما خاطرُ المُنى بالتلاقى سابحٌ(٣) فى فؤاده وفؤادى

جمعَ اللهُ بيننا فالتقينا هكذا بغتةً(٤) بلا ميعاد. هـ(٥)

(١) فى القشيرى: وفى معناه قلنا. (٢) فى الأصول: فبتنا..
(٣) فى الأصول: سانح. (٤) فى القشيرى: صدفةً.
(٥) انظر لطائف الإشارات ٣/ ٢٧٩.

ولمَّا بيَّن وبال من أعرض عن أحسن الحديث، بيَّن فضله وشرفه، فقال:

﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾

قلت: قرآناً: حال مؤكدة من «هذا»، على أن مدار التأكيد هو الوصف، كقولك: جاءني زيد رجلاً صالحاً.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ولقد ضَرَبْنَا ﴾ أي: وضحنا ﴿ للناس في هذا القرآنِ من كل مَثَل ﴾: يحتاج إليه الناظر في أمر دينه، ﴿ لعلهم يتذكرون ﴾ أي: كي يتذكروا به ويتعظوا، حال كونه ﴿ قرآناً عربياً ﴾؛ لتفهموا معانيه بسرعة، ﴿ غيرَ ذي عوجٍ ﴾: لا اختلاف فيه بوجه من الوجوه، فهو أبلغ من المستقيم، وأخص بالمعاني. وقيل: المراد بالعوج: الشك. ﴿ لعلهم يتقون ﴾ مايضرهم في معادهم ومعاشهم.

الإشارة: قد بيَّن الله في القرآن ما يحتاج إليه المريد في سلوكه وجذبه، وسيره ووصوله، من بيان الشرائع وإظهار الطرائق، وتبيين الحقائق. قال تعالى: ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ﴾[1] لكن لايغوص على هذا إلا الجهابذة من البحرية الذين غاصوا بأسرارهم في بحر الأحدية، وتغلغلوا في العلوم اللدنية، ومن لم يبلغ هذا المقام يصحب من يبلغه، حتى يوصله إلى ربه، ولايكون الوصول إلا بقلب مفردٍ، غير مشترك، كما بيَّن ذلك بقوله تعالى:

﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾ ﴾

قلت: ﴿ مثلاً ﴾: مفعول ثان لضرب، و﴿ رجلا ﴾: مفعول أول، وأُخِّرَ للتشويق إليه، وليصل بما وصف به، وقيل: بدل من «مثلاً»، و﴿ فيه ﴾: خبر، و«شركاء»: مبتدأ، والجملة: صفة لرجل، و«مثلاً»: تمييز.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ضَرَبَ اللهُ مثلاً ﴾ للمشرك والموحد، ﴿ رجلاً فيه شركاءُ مُتَشَاكِسُون ﴾: مختلفون متخاصمون عسيرون، وهو المشرك، ﴿ ورجلاً سلماً ﴾ أي: خالصاً ﴿ لرجل ﴾ فرد، ليس لغيره عليه

(١) من الآية ٣٨ من سورة الأنعام.

سبيل. والمعنى: جعل الله مثلاً للمشرك حسبما يقوده إليه مذهبه، من ادعاء كل من معبوديه عبوديتَه، عبداً يتشارك فيه جماعة، يتجاذبونه في مهماته المتباينة في تحيره وتعبه، ومثلاً آخر للموحِّد، وهو عبد خالص لرجل واحد؛ فإنه يكون عند سيده أحظى، وبه أرفق.

﴿ هل يستويان مثلاً ﴾: إنكار واستبعاد لاستوائهما ، وإيذان بأن ذلك من الجلاء والظهور، بحيث لايقدر أحد أن يتفوه باستوائهما ؛ ضرورة أن أحدهما في أعلى عليين، والآخر في أسفل سافلين.

وقرأ نافع وابن عامر والكوفيون ﴿ سَلَمًا﴾ بفتحتين، وهو مصدر، من: سلِم له كذا: إذا خلَص، نُعت به للمبالغة، فالقراءتان(١) متفقتان معنى. والمراد من المثَل: تصوير استراحة الموحد واجتماعه على معبوده، وتعب المشرك وتشتيت باله، وخصوصاً مع فرض التعاكس من الشركاء، فيصير متحيراً، وفي عنت كبير من الجمع بين أغراضهم، بل ربما يتعذر ذلك ويستحيل؛ للتضاد في الأغراض والتناقض، مع فرض التخالف والتنازع بينهم، واعتبر ذلك بحال الوالدين، إذا اختلفا على الولد، فإنه يعسر إرضاؤهما إلا بمشقة واحتيال، وكذلك عابد الأوثان؛ فإنه معذّب الفكر بها، وبحراسة حاله منها، ومتى توهم أنه أرضى واحداً في زعمه تفكر فيما يصنع مع الآخر، فهو أبداً في تعب وضلال، وكذلك هو المصانع للناس، الممتحن بخدمة الملوك. قاله ابن عطية.

والحاصل: أن إرضاء الواحد أسهل وأيسر من إرضاء الجماعة

﴿ الحمد لله ﴾ على عدم استوائهما . [قال](٢) الطيبي: ثم إذا لزمتهم الحجة قل: الحمد لله، شكراً على ما أولاك من النصرة، وقهر الأعداء بالحجج الساطعة. وفيه تنبيه للموحدين على أن ما لهم من المزية، وعلو الرتبة، بتوفيق الله تعالى، وأنه مِنّة جليلة، موجبة عليهم أن يداوموا على حمده وعبادته، أو: حيث ضرب لهم المثل الأعلى، وللمشركين المثال السوء، فهذا صنع جميل، ولُطف تام، مستوجب لحمده وشكره؛ ﴿ بل أكثرُهُم ﴾ أي: المشركون ﴿ لايعلمون ﴾ ذلك، مع كمال ظهوره، فيقعون في ورطة الشرك والضلال، وهو انتقال من بيان الاستواء على الوجه المذكور، إلى بيان عدم علمهم ذلك، مع غاية ظهوره.

---

(١) قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، ويعقوب: (سالماً) بالألف وكسر اللام، اسم فاعل من سلِم، أي: خالصاً من الشركة. وقرأ الباقون: (سلَما) بفتح السين واللام، بلا ألف، مصدر وصف به، مبالغة في الخلوص من الشركة. انظر الإتحاف (٢/٤٢٩) والبحر المحيط (٧/٤٠٧).

(٢) زيادة ليست في الأصول.

ثم ذكر المحل الذى يظهر فيه عدم استوائهما عياناً، وهو ما بعد الموت، فقال: ﴿ إنك ميِّت وإنهم ميتون ﴾، فتجتمعون عندنا، فنحكم بينكم. وقيل: كانوا يتربصون برسول الله ﷺ موته، أى: إنكم جميعاً بصدد الموت، ﴿ ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تَخْتصمون ﴾، فتحتجَ عليهم بأنك بلّغت الرسالة، واجتهدت فى الدعوة، فتلزمهم الحجة؛ لأنهم قد لجوا فى العناد، فإذا اعتذروا بتقليد آبائهم لم يُقبل عذرهم. وقيل: المراد: الاختصام فيما دار بينهم فى الدنيا. والأول أنسب.

الإشارة: لايستوى القلب المشترك مع القلب المفرد الخالص لله، القلب المشترك تفرقت همومه، وتشتت أنواره، بتشتيت شواغله وعلائقه، وتفرقت محبته، بتفرق أهوائه وحظوظه، والقلب المفرد اجتمعت محبته، وتوفرت أنواره وأسراره بقدر تفرغه من شواغله وعلائقه. وفى الحِكَم: «كما لا يحب العمل المشترك، لايحب القلب المشترك، العمل المشترك لايقبله، والقلب المشرك لايُقبل عليه». وقال أيضا: «فرِّغ قلبك من الأغيار تملؤه بالمعارف والأسرار».

وقيل للجنيد: كيف السبيل إلى الوصول؟ فقال: بتوبة تزيل الإصرار، وخوف يقطع التسويف، ورجاء يبعث على مسالك العمل، وإهانة النفس، بقربها من الأجل، وبُعدها من الأمل. قيل له: وبم يتوصل إلى هذا؟ فقال: بقلب مفرد، فيه توحيد مجرد. هـ.

وفى الحديث عن رسول الله ﷺ: «من جعل الهموم همّاً واحداً ـ أى: وهو الله ـ كفاه اللهُ همّ دنياه، ومن تشعبت به الهمومُ لم يُبالِ اللهُ به فى أىّ أوديةِ الدنيا هلَكَ»(١) وقال ﷺ: «من كانت الدنيا همَّهُ فرّق الله عليه أمره، وجعل فقرَه بين عينيه، ولم يأته من الدنيا إلا ما قُسم له، ومن كانت الآخرة نيته، جمع الله عليه أمره، وجعل غناه فى قلبه، وأتته الدنيا وهى صاغرة»(٢). ومن كان الله همه بفنائه فيه؛ جمع الله عليه سره، وأغناه به عما سواه، وخدمه الوجود بأسره، «أنت مع الأكوان مالم تشهد المكون، فإذا شَهِدت المكون كانت الأكوانُ معك»(٣). والله تعالى أعلم.

(١) رواه الحاكم (٢/٤٤٣) «وصححه، ووافقه الذهبى». والبيهقى فى الشُعب (١٠٣٤٠) من حديث ابن عمر رضي الله عنه. وأخرجه ابن ماجة بسند ضعيف، فى (المقدمة، ١/٩٥ ح٢٥٧) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أحمد فى المسند (٥/١٨٣) وابن ماجة فى (الزهد، باب الهم بالدنيا، ٢/١٣٧٥، ح ٤١٠٥) من حديث زيد بن ثابت رضي الله عنه، وأخرجه، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، الترمذى فى (صفة القيامة والرقائق، ٤/٥٥٤، ح ٢٤٦٥).

(٣) حكمة عطائية، انظر الحكم بتبويب المتقى الهندى / ص٣٣ حكمة ٢٤٨.

ثم بيّن فريقى الاختصام، فقال:

﴿ ۞ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ فمن أظلمُ ممن كَذَبَ على الله ﴾ بأن أضاف إليه الشريك والولد، فإنه لا أحد أظلم منه؛ إذ هو أظلم من كل ظالم. ﴿ وكذَّب بالصِّدق ﴾ أى: الأمر الذى هو نفس الصدق وعين الحق، وهو ما جاء به النبى ﷺ من عند الله ﴿ إذْ جاءه ﴾ أى: كذّب فى أول مجيئه، من غير تأمل فيه ولاتدبر، ﴿ أليس في جهنم مَثْوىً للكافرين ﴾؟ أى: لهؤلاء الذين افتروا على الله، وسارعوا إلى التكذيب بالصدق، فأظهر موضع الإضمار تسجيلاً وإيذاناً بعلة الحكم الذى استحقوا به جهنم، والجمع باعتبار معنى «مَن»، كما أن الإفراد فى الضمائر السابقة باعتبار لفظها، أو: لجنس الكفرة، وهم داخلون فى الكفر دخولاً أولياً.

﴿ والذي جاء بالصدقِ ﴾ وهو محمد ﷺ ﴿ وصدَّق به ﴾: وهم المؤمنون، أى: والفوج، أو: الفريق الذى جاء بالصدق، والفريق الذى صدّق به. ﴿ أولئك هم المتقون ﴾: المنعوتون بالتقى، [التى](١) هى أجلّ الرغائب.

وقرىء «صَدَقَ» بالتخفيف(٢)، أى: صدق به الناس، فأدّاه إليهم كما أنزل عليه، من غير تغيير، وقيل: صار صادقاً بسببه؛ لأن ما جاء به من القرآن معجزة دالة على صدقه ﷺ.

﴿ لهم ما يشاؤون عند ربهم ﴾: هو بيان لِما لهم فى الآخرة من حسن المآب، بعد بيان مالهم فى الدنيا من محاسن الأعمال، أى: لهم ما يشاءونه من جلب المنافع ودفع المضار، وتوالى المسار فى الآخرة، لا فى الجنة فقط؛

---

(١) فى الأصول [الذى].
(٢) وبه قرأ أبو صالح، وعكرمة بن سليمان، ومحمد بن حجازة. انظر: مختصر ابن خالويه (ص ١٣٢)، والمحتسب (٢/ ٢٣٧).

لأن بعض ما يشاؤون يقع قبل دخول الجنة، من تكفير السيئات، والأمن من الفزع الأكبر، وسائر أهوال القيامة. ﴿ذلك﴾ الذي ذكر من حصول كل ما يشاءونه ﴿جزاءُ المحسنين﴾ أي: الذين أحسنوا أعمالهم في الدنيا.

﴿ليكفِّرَ الله عنهم أَسْوَأَ الذي عَمِلُوا﴾، اللام متعلق بقوله: ﴿لهم ما يشاؤون﴾؛ لأنه في معنى الوعد، كأنه قيل: وعد الله لهم جميع ما يشاءونه من دفع المضار وحصول المسار؛ ليكفر عنهم بموجب ذلك الوعد أسوأ الذي عملوا، أي: أقبحه وأعظمه، وأولى أصغره. وقيل: يتعلق بمحذوف، أي: يسر لهم الصدق والتصديق ليكفر.. إلخ. ﴿ويجْزِيَهم أجْرَهُم بأحسنِ الذي كانوا يعملون﴾ فإذا كان في عملهم حسن وأحسنُ منه، جزاهم بجزاء الأحسن على الجميع، تكرماً منه وإحساناً.

والحاصل: أنه سبحانه لكرمه يُكفر السيىء والأسوأ بالأحروية، ويجزي على الحسن بجزاء الأحسن منه والأرجح، كمن أهدى لملك هديتين؛ صغيرة وكبيرة، فكافأه على الصغيرة بقدر ما كافأه على الكبيرة. قال القشيري: وأحسن أعمال المؤمن: الإيمان والمعرفة، فيكون على أحسن الأعمال أحسن الثواب، وهو الرؤية. هـ.

وإظهار اسم الجليل في موضع الإضمار، لإبراز كمال الاعتناء بمضمون الكلام، والجمع بين الماضي والمستقبل في صلة الموصول الثاني ـ أي: الذي كانوا يعملون ـ دون الأول؛ للإيذان باستمرارهم على الأعمال الصالحة، بخلاف السيئة.

الإشارة: كل من ادعى حالاً مع الله، وليست متحققة فيه، فقد كذب على الله، وكل من أنكر على أولياء زمانه فقد كذّب بالصدق إذ جاءه. ﴿والذي جاء بالصدق﴾، وهو من أذِن له في التذكير أو التربية. ﴿وصدّق به﴾، وهو من سمع وتبع، أولئك هم المتقون، دون غيرهم، لهم ما يتمنون عند ربهم في الدنيا والآخرة، ذلك جزاء أهل مقام الإحسان، الذين يعبدونه على العيان، يُغطي وصفهم بوصفه، ونعتهم بنعته، فيوصلهم بما منه إليهم، لا بما منهم إليه، ثم يكفيهم جميع الشرور، كما قال تعالى:

﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ (٣٦) وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ (٣٧) ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿أليس اللهُ بكافٍ عَبْدَه﴾ أى: نبيه ﷺ. نزلت تقوية لقلبه ـ عليه السلام، وإزالة للخوف الذى كان الكفار يخوفونه، أو: جنس العبد، فيشمل الأنبياء كلهم والمؤمنين، وينتظم فيه النبى ﷺ انتظامًا أوليًا، ويُؤيده قراءة الأخوين(١) بالجمع. وهو إنكار ونفى لعدم كفايته تعالى على أبلغ وجه وآكده، كأنَّ الكفاية بلغت من الظهور مالا يقدر أحد على أن يتفوه بعدمها، أو يتلعثم فى الجواب بوجودها، وإذا علم العبدُ أن الحق تعالى قائم بكفايته، سكن قلبه واطمأن، وأسقط الأحمال والكُلَف عن ظهره، فلا جرم أن الله يكفيه ما أهمه، ويؤمّنه مما يخافه، كما قال تعالى لنبيه ﷺ:

﴿ويُخوفونك بالذين من دُونه﴾ أى: الأوثان التى اتخذوها آلهة دونه تعالى، وهى جوامد، لاتضر ولاتنفع، وهذا تسلية لرسول الله ﷺ عما قالت قريش: إنا نخاف أن تخبلك آلهتنا، وتُصيبك معرّتها لعيبك إياها. وفى رواية: قالوا: لتكفنّ عن آلهتنا، أو ليصيبنك منهم خبل أو جنون(٢)، كما قال قوم هود: ﴿إن نَّقُولُ إلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾(٣). وجملة: «ويخوفونك»: استئناف، أو: حال. ﴿ومن يُضْلِلِ اللهُ﴾ حتى غفل عن كفايته وعصمته ﷺ، أو: اعتقد أن الأصنام تضر وتنفع؛ ﴿فماله من هادٍ﴾ يهديه إلى ما يرشده.

﴿ومن يهدِ اللهُ﴾ إلى توحيده وطاعته ﴿فماله من مُضلٍّ﴾ يصرفه عن رشده، أو يصيبه سوء يخل بسلوكه؛ إذ لا راد لفعله، ولامعارض لقضائه، كما ينطق به قوله تعالى: ﴿أليس اللهُ بعزيزٍ﴾: غالب لايغالَب، منيع لايمانَع ولا ينازَع، ﴿ذي انتقامٍ﴾ من أعدائه لأوليائه، بإعزاز أوليائه وإذلال أعدائه. وإظهار الاسم الجليل فى موضع الإضمار لتحقيق مضمون الكلام، وتربية المهابة. والله تعالى أعلم.

الإشارة: إذا علِمَ العبدُ أن الله كاف جميع عباده، وثق بضمانه، فاستراح من تعبه، وأزال الهموم والأكدار عن قلبه، فيدخل جنة الرضا والتسليم، ويهب عليه من روح الوصال وريحان الجمال نسيم، فيكتفى بالله، ويقنع بعلم الله، ويثق بضمانه.

قال فى لطائف المنن: مبنى الولىّ على الاكتفاء بالله، والقناعة بعلمه، والاغتناء بشهوده. قال تعالى: ﴿أليس الله بكافٍ عبده﴾ وقال تعالى: ﴿أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾(٤). هـ. وقال الشيخ

---

(١) قرأ حمزة والكسائى: (عباده) بألف، على الجمع. وقرأ الباقون: (عبده) بغير ألف. انظر الإتحاف (٢/٤٢٩).

(٢) ذكر هذه الرواية السيوطى فى الدر (٥/٦١٥ ـ ٦١٦) وعزاها لعبد الرزاق وابن المنذر عن قتادة. وانظر تفسير البغوى (٧/١٢٠).

(٣) من الآية ٥٤ من سورة هود.

(٤) من الآية ٥٣ من سورة فصلت.

أبو الحسن ﷺ : يقول الله ـ عز وجل: عبدى اجعلنى مكان همك أكفك همك، عبدى؛ ما كنت بك فأنت فى محل البُعد، وما كنت بى فأنت فى محل القُرب، فاختر لنفسك. هـ. أى: ما دمت مهموماً بنفسك فأنت فى محل البُعد، وإذا خرجت عنها، وطرحتها بين يدى خالقها، أو غبت عن وجودها بالكلية، فأنت فى محل القُرب، الأول: قُرب مراقبة، والثانى: قُرب مشاهدة.

وقوله تعالى: ﴿ ويُخوفونك بالذين من دونه﴾: هو عام فى كل ما يُخاف منه، فالعارف لايخاف من شىء؛ لعلمه بأن الله ليس معه شىء، ولايقع فى الوجود إلا قدره وقضاؤه، ومن يعتقد غير هذا فهو ضال، ومن يُضلل الله فلا هادى له. وبالله التوفيق.

ثم قرر هذا الأمر وحقيقته بقوله:

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ولئن سألتَهم ﴾ أى: مَن يخوفونك ممن سوى الله، وقلت لهم: ﴿ من خَلَقَ السماوات والأرض لَيقولُنَّ اللهُ ﴾؛ لوضوح الدلائل على انفراده بالاختراع. ﴿ قُلْ ﴾ تبكيتاً لهم: ﴿ أفرأيتم ما تدعون من دون الله ﴾ من الأصنام، ﴿ إن أرادنىَ اللهُ بضرٍ هل هن كاشفاتُ ضُره ﴾ أى: إذا تحققتم أن خالق العالم العلوى والسفلى هو الله وحده، فأخبرونى عن آلهتكم، إن أرادنى اللهُ بضُر هل يقدر أحد منهم على كشف ذلك الضر عنى؟ ﴿ أو أرادنِى برحمةٍ ﴾ أى: بنفع ﴿هل هن مُمسكاتُ رحمته ﴾ وصارفتها عنى؟!

وقرأ البصرى: «كاشفاتٌ» و«ممسكاتٌ» بالتنوين، ونصب «ضره» و«رحمته» على المفعول. وتعليق إرادة الضر والرحمة بنفسه ﷺ ، للرد فى نحورهم؛ حيث كانوا يُخوفونه من معرّة الأوثان، ولما فيه من الإيذان بإمحاض النصيحة. وإنما قال: «كاشفات» و«ممسكات» على التأنيث، بعد قوله: ﴿ويُخوفونك بالذين من دونه﴾؛ لأنهن إناث، وهن اللات، والعزّى، ومناة، وفيه تهكّم بهم، وبمعبودهم؛ حيث جعلهم يعبدون الإناث.

﴿ قُل حَسْبِيَ اللهُ ﴾ أي: كافيني في جميع أموري من إصابة الخير ودفع الشر. رُوِي أنه ﷺ لما سألهم سكتوا، فنزلت(١): ﴿ قل حسبي الله عليه يتوكلُ المتوكلون ﴾، لاعلى غيره أصلاً؛ لعلمهم بأن كل ما سواه تحت قهر ملكوته.

الإشارة: الناس على قسمين: أعداء وأحباب، فإن نظرت إلى الأعداء وجدتهم لايقدرون أن ينفعوك بشيء إلا ما قدّر اللهُ لك، وإن نظرت إلى الأعداء وجدتهم لايقدرون أن يضروك بشيء إلا ما قدّر الله عليك، فارفض الجميع، وتعلق بالله يغنك عن غيره، ويوصل إليك ما قسم لك بالعز والهناء.

ثم توعدهم بالعذاب، فقال:

﴿ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَٰمِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ قُلْ يا قوم اعملوا على مكانَتِكُمْ ﴾ أي: على حالتكم التي أنتم عليها، وجهتكم من العداوة التي تمكنتم فيها، فالمكانة بمعنى المكان، فاستعيرت من العين للمعنى، وهي الحال، كما تستعار «هنا» و«حيث» للزمان، وإنما وضعا للمكان. وقرأ أبو بكر وحمّادٍ: «مكانات» بالجمع. ﴿ إني عامل ﴾ على مكانتي، فحذف للاختصار، والمبالغةِ في الوعيد، والإشعار بأن حاله لاتزال تزداد قوة بنصر الله تعالى له، وتأييده، ولذلك توعدهم بقوله: ﴿ فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يُخْزِيه ﴾؛ فإنّ خزي أعدائه دليل غلبته ﷺ ونصره في الدنيا والآخرة. وقد أخزاهم وعذّبهم يوم بدر، ﴿ و ﴾ سوف تعلمون أيضا من ﴿ يَحِلُّ عليه عذاب مقيمٌ ﴾ في الآخرة؛ لأنه مقيم على الدوام.

ثم ذكر الفاصل بين أهل العذاب المقيم، والنعيم الدائم، فقال: ﴿ إنا أنزلنا عليك الكتابَ للناسِ ﴾ أي: لأجلهم، فمن أعرض عنه فقد استحق العذاب الأليم، ومن تمسك به استوجب النعيم المقيم، حال كونه ملتبساً

(١) انظر تفسير القرطبي (٦/ ٥٨٧١) والبغوي (٧/ ١٢١).

﴿ بالحق ﴾ ناطقاً به، أو: أنزلناه مُحِقين في إنزاله. ﴿ فمن اهتدى فلنفسه ﴾، إنما ينفع به نفسه ﴿ ومن ضلَّ ﴾: بأن أعرض عنه، أو عن العمل به. ﴿ فإنما يَضِلُّ عليها ﴾؛ لأن وبال إضلاله مقصور عليها. ﴿ وما أنت عليهم بوكيل ﴾ حتى تجبرهم على الهدى، وما وظيفتك إلا التبليغ، وقد بلغت أيّ بلاغ.

الإشارة: من ذَكّر قوماً فأعرضوا عنه، ولم يرفعوا له رأساً، يقول لهم: يا قوم اعملوا على مكانتكم.. إلخ، وأيّ عذاب أشد من الحجاب، والبُعد عن حضرة الحبيب؟.

ثم ذكر دلائل البعث الذي يحلُّ فيه العذاب على أهل الإعراض، فقال:

﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ الله يتوفّى الأنفسَ ﴾ أي: الأرواح ﴿ حين موتِها ﴾ فيقبضها إليه قبضاً، ﴿ و ﴾ يتوفى الأنفس ﴿ التي لم تمت في منامها ﴾ فيقبضها ويترك شعاعها في البدن، فالتي قضى عليها الموت يتوفاها ظاهراً وباطناً، والتي لم يقض موتها يتوفاها ظاهراً فقط عند النوم، ﴿ فيُمسك التي قَضَى عليها الموتَ ﴾، لايردها إلى البدن، ﴿ ويُرْسِلُ الأخرى ﴾ أي: النائمة إلى بدنها عند التيقظ ﴿ إلى أجلٍ مُسمًّى ﴾: هو الوقت المضروب لموتها، فشبه النائمين بالموتى، حيث لايميزون ولايتصرفون، كما أن الموتى كذلك.

قال الإمام(١): النفس الإنسانية عبارة عن جوهر مشرق روحاني، إذا تعلق بالبدن حصل ضوؤه في جميع الأعضاء، وهي الحياة، ثم إنه في وقت النوم ينقطع تعلقه عن ظاهر البدن، دون باطنه، وفي وقت الموت ينقطع تعلقه عن ظاهر البدن وباطنه، فالموت والنوم من جنس واحد بهذا الاعتبار، لكن الموت انقطاع كامل، والنوم انقطاع ناقص، فظهر أن القادر الحكيم دبّر [تعلق جوهر](٢) النفس بالبدن على ثلاثة أوجه، أحدها: أنه دبّر أمرها، بحيث يقع ضوء [الروح](٣) على جميع أجزاء البدن، ظاهره وباطنه، وذلك هو اليقظة.

(١) هو الإمام الرازي، وانظر كلامه في مفاتيح الغيب (١٣/٤٤٨). والنقل بتصرف.
(٢) زيارة ليست في الأصول الخطية. وأثبتها من تفسير الفخر الرازي.
(٣) في تفسير الرازي: النفس.

وثانيهاَ: بحيث يقطع عن الظاهر والباطن، وهو الموت. وثالثها: بحيث يقطع عن ظاهر البدن دون الباطن، وهو النوم، فثبت أن النوم والموت يشتركان فى كل واحد منهما بتوفى النفس، ثم يمتاز أحدهما بخواص معينة. ومثل هذا التقدير العجيب لايمكن صدوره إلا عن القادر العليم الحكيم. هـ.

وقال سهل: إن الله إذا توفى الأنفس أخرج الروح النورى من لطيف نفس الطبيعى الكثيفى، فالذى يتوفى فى النوم من لطيف نفس الطبع، لا لطيف نفس الروح. فالنائم يتنفس تنفساً لطيفاً، وهو نَفَس الروح، الذى إذا زال لم يكن للعبد حركة، وكان ميتاً. وقال: حياة النفس الطبيعى بنور لطيف، وحياة لطيف نفس الروح بذكر الله. وقال أيضا: الروح تقوم بلطيفة فى ذاتها بغير نفس الطبع، ألا ترى أن الله تعالى خاطب الكل فى الذر بنفس، وروح، وفهم ، وعقل، وعلم لطيف، بلا حضور طبع كثيف.هـ. قلت: وبهذا الاعتبار يقع لها العذاب فى البرزخ أو النعيم، وتذهب وتجيء فى عالم البرزخ.

وقال فى القصد: النفس مع الروح كالجسد مع الظل، والظل يميل، والأصل لا يميل، والروح سره، والسر بريه، وهو شعاع الحقيقة الصغرى، والسر نور السر الأعلى، وكل هذا مخلوق، بقدرة الله موثوق، فلا يستفزك غير هذا فتشقى، وفى جهنم من نور البُعد تلقى. هـ. قلت: السر الأعلى هو معانى أسرار الذات القائمة بالأشياء، وهو قديم غير مخلوق.

وذكر الثعلبى عن ابن عباس أنه قال: فى ابن آدم نفس وروح، بينهما مثل شعاع الشمس، فالنفسُ هى التى بها العقل والتمييز، والروح التى بها التحرك والنَّفَس؛ فإذا نام العبد قبض الله نفسه ولم يقبض روحه. هـ. هذا، وفى الصحيح: إن الله قبض أرواحنا حيث شاء، وردها حيث شاء. فأطلق القبض على الأرواح. والصواب: أن النفس والروح فى هذا واحد؛ بدليل قوله: ﴿ اللهُ يتوفى الأنفس حين موتها والتى لم تمت ﴾ والحاصل: أن الموت: توفٍ كامل، بإخراج الروح مع شعاعها من البدن، فتذهب الحياة، والنوم: توفٍ ناقص، بإخراج الروح مع بقاء شعاعها فى البدن، به الحياة والتنفّس.

وعن ابن عباس رضي الله عنه أيضاً أنه قال: إن أرواح الأحياء والأموات تلتقى فى المنام، ويتعارف ما شاء الله منها، فإذا أراد الله رجوعها إلى الأجسام، يُمسك الله عنده أرواح الأموات، ويرسل أرواح الأحياء إلى أجسادها، فذلك قوله عز وجل: ﴿ الله يتوفى فى الأنفس ﴾.. الآية [١].

(١) انظر تفسير النسفى (٢/١٨٣).

وعبارة «عز الدين بن عبدالسلام»: فى كل جسد روحان؛ إحداهما: روح اليقظة، التى أجرى الله العادة أنها إذا كانت فى الجسد كان الإنسان متيقظاً، فإذا خرجت من الجسد نام الإنسان، ورأت تلك الروح المنامات، والأخرى: روح الحياة، التى أجرى الله العادة أنها إذا كانت فى الجسد كان حياً؛ فإذا فارقته مات، فإذا رجعت إليه حَيِيَ، وهاتان الروحان فى بطن الإنسان، لايعلم مقرَّهما إلا من أطلعه الله عليهما، فهما كجنينين فى بطن امرأة. هـ.

والآية منبهة على كمال قدرته، وفيها دلالة على البعث، وأنه كاليقظة سواء، وهذا معنى قوله: ﴿إن في ذلك لآياتٍ يتفكرون﴾ فى عجائب قدرته، فيعلمون أن من قدر على إمساك الأرواح فى النوم، وردها، قادر على إماتتها وإحيائها. وفى التوراة: كما تنام تموت، وكما تستيقظ تُبعث.

الإشارة: الله يتوفى الأنفس المطهرة إلى حضرة قدسه، حين موتها من الهوى، ويقبض الأنفس التى لم تمت من حظوظها فى سجن الأكوان، وهيكل ذاتها، فى حال منام غفلتها، فيمسك التى قضى عليها الموت فى حضرة قدسه، فلا يردها إلى شهود حضرة الأشباح، ويرسل الأخرى تجول فى حضرة الأشباح وأودية الدنيا، إلى أجل مسمىً، إما موتها الحسي أو المعنوى، إن سبقت لها سابقة عناية.

ثم تمم الرد على من اعتقد أن الأصنام تنفع أو تضر، فقال:

﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿أمِ اتخذوا﴾ أى: قريش ﴿من دون الله شفعاء﴾، فيزعمون أن أصنامهم تشفع لهم عند الله، أى: إنهم اتخذوا ـ على زعمهم ـ من دون الله شفعاءَ بحكمهم، لابتعريف من قبل الله وإخبار، فإن الله لا يقبل الشفاعة من أحد إلا بإذن منه، وإن الذين يقولون ذلك افتراء على الله. ﴿قُل أَوَلَو كانوا لايملكون شيئًا ولايعقلون﴾، الهمزة لإنكار الواقع واستقباحه، والتوبيخ عليه، أى: قل: أتتخذونهم شفعاء ولو كانوا لايملكون شيئاً من الأشياء ولايعقلون شيئاً، فضلاً عن أن يملكوا الشفاعة عند الله تعالى.

﴿ قُل ﴾ تبكيتاً وتجهيلاً لهم: ﴿ للهِ الشفاعةُ جميعًا ﴾ أى: هو مالكها، ولايقدر أحد أن يتصدى لها، إلا أن يكون المشفوع له مرتضىً، والشفيع مأذونًا، وكلاهما مفقود فى أصنامهم ، ثم قرر اختصاصه بالشفاعة بقوله: ﴿ له ملكُ السماوات والأرض ﴾ أى: له التصرف فيهما، وفيما فيهما من المخلوقات، لايملك أحد أن يتكلم فى أمر من أموره بدون إذنه ورضاه، ﴿ ثم إليه تُرجعون ﴾ يوم القيامة، لا إلى أحد سواه، فيفعل يومئذ ما يريد.

قال النسفى: ﴿ له ملك السماوات والأرض ﴾ اليوم ﴿ ثم إليه تُرجعون ﴾ يوم القيامة، فلا يكون المُلك فى ذلك اليوم إلاّ له، فله المُلك فى الدنيا والآخرة. هـ.

الإشارة: الشفاعة إنما تكون لأهل الجاه عند الله، والجاه يعظم بحسب التوجه، والتوجه يعظم على قدر المحبة، والمحبة على حسب العناية السابقة، ﴿يُحبهم ويُحبونه﴾ فبقدر أنوار التوجه تعظم أنوار المواجهة، وبقدر أنوار المواجهة تتسع المعرفة، وبحسب المعرفة يكون الجاه ، وبقدر الجاه تتسع الشفاعة، حتى إن الواحد من الأولياء يشفع فى وجود بأسره من أهل زمانه، إما عند موته، أو عند الحساب. والله تعالى أعلم .

ثم ذكر علامة أهل الشرك، فقال:

﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾ قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾

قلت: «وحده»: منصوب عند سيبويه، على المصدر، وعند الفراء: على الحال، والظاهر: أنه أطلق المصدر على اسمه.

يقول الحق جل جلاله : ﴿ وإذا ذُكِرَ اللهُ وَحْدَهُ ﴾ أى: إذا أُفرد الله بالذكر، ولم تُذكر معه آلهتهم، فمدار المعنى على قوله: ﴿ وحده ﴾، ﴿ اشْمَأَزَّتْ قلوبُ الذين لايؤمنون بالآخرة ﴾ أى: انقبضت ونفرت، كقوله: ﴿ ..وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا ﴾[1]، ﴿ وإذا ذُكر الذين من دونه ﴾ يعنى: آلهتهم، ذُكر الله معهم، أو لم يُذكر، ﴿ إذا هم يستبشرون ﴾؛ لفرط افتتانهم بها، ونسيانهم ذكر الله، أو: وإذا قيل لهم: لا إله إلا الله وحده لاشريك له، نفروا؛ لأن فيه نفياً لآلهتهم.

(١) من الآية ٤٦ من سورة الإسراء.

وقال الورتجبي: صورة الآية وقعت على الجاحدين والمتكبرين، الذين ليس في محبتهم إلا متابعة الأشكال والأمثال، من حيث التشبيه والخيال؛ لأن قلوبهم خلقت على مشاكلة الأضداد والأنداد، ولم يكن في قلوبهم سجية أهل المعرفة بالله، فإذا سَمِعُوا ذِكْر من لا يدخل في الخيال والمثال انقبضت قلوبهم وصدورهم، ونفرت، وإذا سمعوا ذكر غير الله من الصور والأشباح، سكنت نفوسهم إليها من غاية غباوتهم، وكمال جهالتهم، فهم مثل الصبيان، إذ هم يفرحون بالأفراس الطينية والأسد الخشبية، ولايطيقون أن ينظروا إلى عَدْوِ العاديات، وإلى الضراغم الباديات.. هـ. مختصراً

ولقد بالغ في بيان حالتيهم المتقابلتين؛ حيث ذكر الغاية فيهما، فإن الاستبشار: هو أن يمتلىء القلب سروراً، حتى تنبسط له بشرة الوجه وتتهلل، والاشمئزاز: أن يمتلىء القلب غيظاً وغماً، حتى ينقبض منه أديم الوجه، فتظهر عليه الكآبة والحزن. والعامل في ﴿إذا﴾ الأولى: «اشمأزت»، وفي الثانية: ما هو العامل في «إذا» الفجائية، والتقدير: وقت ذكر الذين من دونه فاجأوا وقت الاستبشار.

ثم أمر نبيه بالالتجاء إليه حين إدبارهم، فقال: ﴿قُلِ اللهمَّ فاطِرَ السماواتِ والأرضِ﴾ أي: يا فاطر، وليس بوصف، خلافاً للفراء والمبرِّد، أي: اللهم يا مظهر السماوات الأرض، ﴿عالِمَ الغيبِ والشهادةِ﴾ أي: ما غاب من أسرار ذاتك وما ظهر، أو: السر والعلانية، أي: التجئ إليه تعالى إذ اغتممت من شدة شكيمتهم في المكابرة والعناد؛ فإنه القادر على الأشياء بجملتها، والعالم بالأحوال برمتها. ﴿أنت تَحْكُمُ بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون﴾ أي: حُكماً يُسلمه كل مكابر ومعاند، ويخضع له كلُّ عاتٍ ومارد، فاحكم بيني وبين معاندي، بالنصر عليهم في الدنيا والآخرة.

وعن ابن المسيَّب(١): «ما أعرفُ آية قرئت فدعي عندها إلا أجيب سوى هذه». يعني أنه ﷺ دعا الله أن يحكم بينه وبين عدوه بالاستئصال، فأمهل؛ لأنه رحمة. وعن الربيع بن خثيم ـ وكان قليل الكلام ـ: أنه أُخبر بقتل الحسين رضي الله عنه، وقالوا: الآن يتكلم، فما زاد على أن قال: أوَ قد فعلوا؟، وقرأ: ﴿اللهم فاطر السماوات والأرض﴾... الآية، ثم قال على إثرها: قُتِل من كان رسول ﷺ يُجلسه في حجره، ويُقبل فاه(٢). هـ.

الإشارة: ينبغي للمؤمن أن يكون متعاكساً مع المشرك، إذا سمع كلمة التوحيد «لا إله إلا الله» فرح وانبسط، وإذا ذكر اللغو واللعب اشمأز وانقبض، والعابد أو الزاهد إذا سَمِعَ ما يدل على الطاعة والاستعداد للآخرة فرح ونشط،

(١) في النسفي: للربيع بن المسيب.

(٢) انظر: تفسير النسفي (٢/١٨٥).

وإذا سمع ما يدلّ على الدنيا والبطالة اشمأز وانقبض، والمريد السائر، إذا سمع ما يقرب إلى الله فرح وانبسط، وإذا سمع ما يُبعد عنه من ذكره السِّوى اشمأز وانقبض، وأما الواصل الكامل فلا ينقبض من شيء؛ لزيادته إلى الله بكل شيء؛ لأنه عرف الله في كل شيء، وسمع منه في كل شيء، فلا يحجبه عن الله شيء، قد فنيت دائرة حسه، واتسعت دائرة معرفته، يأخذ النصيب من كل شيء، ولايأخذ النصيبَ منه شيء.

قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه: في بعض كتب الله المنزلة على أنبيائه، يقول الله تعالى: من أطاعني في كل شيء، بهجرانه لكل شيء، أطعته في كل شيء، بأن أتجلى له دون كل شيء، حتى يراني أقرب إليه من كل شيء. هذه طريق أولى، وهي طريق السالكين. وطريق أخرى كبرى: من أطاعني في كل شيء، بإقباله على كل شيء، لحسن إرادة مولاه في كل شيء، أطعته في كل شيء، بأن أتجلى له في كل شيء، حتى يراني كأني كل شيء.هـ.

ثم ذكر وبال الشرك، فقال:

﴿ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ولو أنَّ للذين ظلموا ﴾ بالشرك، ﴿ ما في الأرض جميعاً ﴾: من الأموال والذخائر، ﴿ ومِثْلَهُ معه ﴾ زائد عليه، ﴿ لافتَدوا به من سوءِ العذاب ﴾ أي: شدته، ﴿ يومَ القيامةِ ﴾ أي: لو أن لهم جميع ما في الدنيا لجعلوا ذلك فدية لأنفسهم من العذاب الشديد، وهيهات هيهات، ولات حين مناص. وهذا كما ترى وعيد شديد لأهل الشرك، وإقناط كلي لهم. ﴿ وبَدَا لهم من الله مالم يكونوا يحتسبون ﴾ أي: ظهر لهم من فنون العقوبات مالم يكن في ظنهم وحسبانهم، ولم يُحدِّثوا به نفوسهم. وهذا غاية من الوعيد، لاغاية وراءها، ونظيره في الوعد: قوله تعالى: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾[1].

---

(١) من الآية ١٧ من سورة السجدة.

﴿ وبدا لهم سيئاتُ ماكسبوا ﴾ أى: ظهر لهم سيئات أعمالهم التى كسبوها، أو: سيئات كسبهم حين تُعرض عليهم صحائفُهم، وكانت خافية عليهم، أو: عقاب ذلك. ﴿ وحاقَ بهم ﴾ أى: نزل بهم وأحاط، ﴿ ما كانوا به يستهزؤون ﴾ أى: جزاء هزئهم بالإسلام، ومن جاء به، ومن تبعه.

الإشارة: الآية تجرّ ذيلها على كل ظالم لم يتب، فيتمنى الفداء بجميع ما فى الأرض، فلا يُمكّن منه. وقوله تعالى: ﴿وبدا لهم من الله مالم يكونوا يحتسبون﴾، هذه الآية عامة، لا يُفلت منها إلا الفرد النادر، الذى وصل إلى غاية المعرفة العيانية، ومن لم يصل إلى هذا المقام فهو مقصر، يظن أنه فى عليين، وهو فى أسفل سافلين، ولذلك عظم خوف السلف منها، فقد جزع محمد بن المنكدر عند الموت، فقيل له فى ذلك، فقال: أخشى آيةً من كتاب الله: ﴿ وبدالهم من الله مالم يكونوا يحتسبون ﴾ فأنا أخشى أن يبدو لى من الله ما لم أحتسب(١) . وعن سفيان أنه قرأها، فقال: ويلٌ لأهل الرياء، ويلٌ لأهل الرياء. هـ.

وفى الإحياء: من اعتقد فى ذات الله وصفاته وأفعاله خلاف الحق، وخلاف ما هو عليه؛ إما برأيه أو معقوله ونظره، الذى به يجادل، وعليه يعول، وبه يغتر، وإما بالتقليد، فمن هذا حاله ربما ينكشف له حال الموت بطلان ما اعتقده جهلاً، فيتطرق له أن كل ما اعتقده لا أصل له، فيكون ذلك سبباً فى شكه عند خروج روحه، فيختم له بسوء الخاتمة، وهذا هو المراد بقوله تعالى: ﴿ وبدا لهم من الله مالم يكونوا يحتسبون ﴾ وبقوله: ﴿ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً ﴾(٢) .. الآية. انظر عبارته فى كتاب الخوف، وقريباً منه فى القوت، عصمنا الله من سوء القضاء، وختم لنا بالسعادة التامة بمنّه وكرمه.

ثم ذكر حالة أخرى من قبائح أهل الشرك، فقال:

﴿ فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَـٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ هَـٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ ﴾

---

(١) انظر تفسير البغوى (٧/١٢٤). (٢) الآية ١٠٣ من سورة الكهف.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ فإذا مَسَّ الإنسانَ ﴾ أي: جنسه ﴿ ضُرٌّ ﴾: فقر أوغيره ﴿ دعانا ﴾ معرضاً عما سوانا. والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها، من ذكر حالتي أهل الشرك القبيحتين، وما بينهما اعتراض مؤكد للإنكار عليهم، أي: إنهم يشمئزّون عن ذكر الله وحده، ويستبشرون بذكر الآلهة، فإذا مسهم الضر دعوا من اشمأزوا عن ذكره، دون من استبشروا بذكره، فناقضوا فعلهم.

فإن قلت: حق الاعتراض أن يؤكّد المعترَض بينه وبينه؟ قلت: مافي الاعتراض من دعاء الرسول ﷺ ربه، بأمر من الله، وقوله: ﴿ أنت تحكم بين عبادك ﴾، ثم ما عقّبه من الوعد العظيم، تأكيد لإنكار اشمئزازهم، واستبشارهم ، ورجوعهم إلى الله في الشدائد، دون آلهتهم، كأنه قيل: قل: ياربّ لايحكم بيني وبين هؤلاء، الذين يجترئون عليك مثل هذه الجراءة، إلا أنت، ثم هدهم بقوله: ولو أن لهؤلاء الظلمة ما في الأرض جميعاً لافتدوا به. انظر النسفي.

﴿ ثم إذا خوّلناه نعمةً منا ﴾: أعطيناه إياها، تفضلاً؛ فإن التخويل مختص به ، لايطلق على ما أعطى جزاء، فإذا أعطيناه ذلك ﴿ قال إنما أُوتيته ﴾ أي: ذلك التخويل أو الإنعام ﴿ على عِلْم ﴾ مني بوجوه كسبه، كما قال قارون: ﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي ﴾ (١) أو: على علم مني بأني سأُعطاه، لما فيّ من فضل واستحقاق، أو: على علم من الله تعالى باستحقاقي لذلك المال، فتذكير الضمير إما لعوده على التخويل المأخوذ من ﴿خوّلناه﴾ ، أو : بتأويل النعمة بمعنى الإنعام، أو: المراد بشيء من النعمة، أو: يعود على «ما»إذا قلنا: موصولة، لا كافة، أي: إن الذي أوتيته على علم مني.

قال تعالى: ﴿ بل هي فتنةٌ ﴾ أي: ليس ما خوّلناه نعمة؛ بل هي محنة وابتلاء له؛ ليظهر كفره أو شكره. ولما كان الخبر مؤنثاً ساغ تأنيث المبتدأ لأجله، وقرئ: «بل هو فتنة». ﴿ ولكنَّ أكثَرهُم لايعلمون ﴾ أنَّ الأمر كذلك، وأنّ التخويل إنما كان فتنة، وفيه دلالة على أن المراد بالإنسان الجنس.

﴿ قد قالها الذين مِن قبلهم ﴾ أي: قد قال هذه المقالة، وهي: ﴿ إنما أوتيته على علم ﴾ من قبلهم، كقارون وقومه، قال قارون: ﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي ﴾(٢) وقومه راضون بمقالته، فكأنهم قالوها معه. ويجوز أن يكون في الأمم الخالية آخرون قائلون مثلها. ﴿ فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون ﴾ من متاع الدنيا، وما جمعوا منها شيئًا حين ينزل بهم العذاب، ﴿ فأصابهم سيئاتُ ما كَسَبُوا ﴾ أي: جزاء سيئات ما كسبوا، وهو العذاب في الدنيا والآخرة، أو: سمّى جزاء السيئة سيئة؛ للازدواج، كقوله: ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾(٣) أي: فأصابهم وبال

(١) (٢) من الآية ٧٨ من سورة القصص. (٣) من الآية ٤٠ من سورة الشورى.

ما كسبوا، ﴿ والذين ظلموا من هؤلاء ﴾: المشركين، يعني قريشا، ﴿ سيُصيبهُم سيئاتُ ما كسبوا ﴾ من الكفر والمعاصي، كما أصاب أولئك. والسين للتأكيد. وقد أصابهم ذلك، حيث قحطوا سبع سنين، وقتل صناديدهم يوم بدر. ﴿ وما هم بمُعْجزين ﴾: بفائتين من عذاب الله

الإشارة: هذه الخصال الذميمة توجد في كثير من هذه الأمة، إذا أصابت العبد شدة أو قهرية رجع إلى الله، فإذا فرج عنه بسبب عادي، كما هو دأب عالم الحكمة، أسند الفرج إلى ذلك السبب، فيقول: فلان فرج عني، أو الدواء الفلاني شفاني، وهو شرك، كاد أن يكون جلياً. والواجب: النظر إلى فعل الله وقدرته، وإسقاط الوسائط من نظره، ولو وجدت حكمةً، فالكمال فعلها وجوداً، والغيبة عنها شهوداً . وبالله التوفيق.

ثم ذكر ما جرت به عادته في خلقه، من تعاقب العسر واليسر، والقبض والبسط، فقال:

﴿ أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ أوَلَمْ يعلموا ﴾ أي: أقالوا ذلك ولم يعلموا، أو: أغفلوا ولم يعلموا ﴿ أنَّ الله يبسُطُ الرزقَ ﴾ أي: يوسعه ﴿ لمن يشاءُ ويقدرُ ﴾ أي: يضيق لمن يشاء بلا سبب ولا علة، أو: يجعله على قدر القوت من غير زيادة ولا نقصان، وهو من إتمام النعمة. وفي الحِكَم : «من تمام النعمة عليك أن يعطيك ما يكفيك، ويمنعك ما يطغيك»(١) . ﴿ إن في ذلك ﴾: البسط والقبض ﴿ لآياتٍ ﴾ دالة على أن الحوادث كلها من الله بلا واسطة، ﴿ لقوم يؤمنون ﴾ ، إذ هم المستدلون بها على أن القابض والباسط هو الله، دون غيره .

الإشارة: قد يبسط الله الرزق لمن لاخلاق له عنده، ويقبضه عن أحب الخلق إليه، وهو الغالب، فرزق المتقين كفاف، ورزق المترفين جُزاف.

ولما وبَّخ المشركين، وأطنب الكلام فيه، وأبرقَ وأرعد، رغَّب في التوبة للكافة، استعطافًا وترغيبًا بعد الترهيب، فقال:

(١) انظر الحِكَم، بتبويب المتقي الهندي / ص ٣٧ حكمة ٢٢٥ .

﴿ ۞ قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿قُل﴾ يا محمد ﴿يا عباديَ الذين أسرفوا على أنفسهم﴾ أي: أفرطوا فى الجناية عليها، بالإسراف فى المعاصى، والغلو فيها، ﴿لاتقنطوا من رحمة الله﴾: لاتيأسوا من مغفرته أولاً، وتفضله بالرحمة ثانياً، ﴿إن الله يغفرُ الذنوبَ جميعاً﴾، بالعفو عنها، إلا الشرك. وفى قراءة النبى ﷺ: «يغفر الذنوب جميعاً ولا يُبالى»،[1] لكنها لم تتواتر عنه.

والمغفرة تصدق بعد التعذيب وقبله، وتقييده بالتوبة خلاف الظاهر، كيف، وقوله تعالى: ﴿إن الله لايغفر أن يُشرك به ويغفرُ ما دون ذلك لمن يشاء﴾[2] ظاهر فى الإطلاق مما عدا الشرك؟ ولِمَا يدل عليه التعليل بقوله: ﴿إنه هو الغفور الرحيم﴾ على المبالغة، وإفادة الحصر، والوعد بالرحمة بعد المغفرة. وما فى ﴿عبادى﴾ من الدلالة على الذلة والاختصاص، المقتضيين للترحم. ﴿إنه هو الغفور﴾، يستر عظام الذنوب ﴿الرحيمُ﴾ يكشف فظائع الكروب. والآية، وإن نزلت فى «وحشى»، قاتل «حمزة»، أو فى غيره، لاتقتضى التخصيص بهم، فإن أسباب النزول لاتخصص. وعن النبى ﷺ: «ما أحب أن لى الدنيا وما فيها بهذه الآية»[3].

ولما نزلت فى شأن وحشى، وأسلم، قال المسلمون: هذه له خاصة، أو للمسلمين عامة؟ فقال النبى ﷺ: «بل هى للمسلمين عامة»[4]. وقال قتادة: إن ناساً أصابوا ذنوباً عظاماً، فلما جاء الإسلام أشفقوا ألا يُتاب عليهم، فدعاهم الله تعالى بهذه الآية[5]. وقال ابن عمر: نزلت هذه الآيات فى عياش بن أبى ربيعة، والوليد بن الوليد،

---

(١) أخرجها الترمذى فى (التفسير ـ باب ومن سورة الزمر، ح ٣٢٣٧) والبغوى فى شرح السنة (١٤/ ٣٨٤) وفى التفسير (٧/ ١٢٦) من حديث أسماء بنت يزيد، قال الترمذى: حديث حسن غريب.

(٢) الآية ٤٨، ١١٦ من سورة النساء.

(٣) أخرجه أحمد (٥/ ٢٧٥) وابن جرير (٢٤/ ١٦) والبيهقى فى شعب الإيمان (باب ٤٧ ح ٧١٣٧) من حديث ثوبان رضي الله عنه.

(٤) عزاه السيوطى فى الدر (٥/ ٦٢٠) للطبرانى، وابن مردويه، والبيهقى فى الشعب، بسند لين. عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٥) أخرج البخارى فى (التفسير ـ تفسير سورة الزمر ـ باب ﴿يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم﴾ ح ٤٨١٠) عن سعيد جبير، عن ابن عباس: أن ناساً من أهل الشرك كانوا قتلوا وأكثروا، وزنوا وأكثروا، فأتوا النبى ﷺ، وقالوا: إن الذى تدعو إليه لحسن لو تخبرنا أن لِمَا عملنا كفارة. فنزلت هذه الآية.

ونفر كانوا قد أسلموا ثم فُتنوا، فكنا نقول: لايقبل الله منهم صرفًا ولا عدلاً، فنزلت الآية، وكان عمر بن الخطاب كاتبًا، فكتبها بيده، ثم بعث بها إلى عياش بن أبى ربيعة والوليد، وإلى أولئك النفر، فأسلموا، وهاجروا(١).

قال علىّ رضي الله عنه: «ما في القرآن آية أوسع من هذه الآية»(٢). فما يُقنط الناس ويشدد عليهم بعد هذه الآية إلا جهول، أو جامد، قال زيد بن أسلم: إنّ رجلاً كان فى الأمم الماضية مجتهداً فى العبادة، فيشدد على نفسه، ويقنط الناس من رحمة الله، فمات، فقال: أىّ ربِّ؛ مالى عندك ؟ فقال: النار. فقال: يا رب؛ أين عبادتى؟ فقال: إنك كنت تُقنط الناس من رحمتى فى الدنيا، فاليوم أقنطك من رحمتى. وعن علىّ ـ كرم الله وجهه ـ قال: الفقيه كل الفقيه الذى لايقنط الناس من رحمة الله، ولا يؤمنهم من عذاب الله، ولايرخص لهم فى معاصى الله. هـ.

ثم حضّ على التوبة لتتحقق المغفرة، فقال: ﴿وأنيبوا إلى ربكم﴾ أى: ارجعوا إليه بالتوبة والإخلاص. فالإنابة أخص من التوبة؛ لأن التوبة: مطلق الندم على الزلة، والإنابة: تحقيق التوبة والنهوض إلى الله بإخلاص التوجه. قال ﷺ: «من السعادة أن يطول عمر الرجل ويرزقه الله الإنابة»(٣). قال القشيرى: وقيل الفرق بين الإنابة والتوبة: أن التائب يرجع خوفاً من العقوبة، والمنيب يرجع حياءً منه تعالى. هـ.

والأمر بالتوبة لايدل على تقييد المغفرة فى الآية بها، كما تقدم؛ إذ ليس المدعَىَ: أن الآية تدل على حصول المغفرة لكل أحد من غير توبة وسبْق تعذيب، حتى يغنى عن الأمر بها، وإنما المراد: الإخبار بسعة غفرانه، سواء كان مع التوبة أم لا. قال ابن عرفة: واعلم أن التوبة من الكفر مقطوع بها، ومن المعاصى، قيل: مظنونة، وقيل: مقطوع بها، هذا فى الجملة، وأما فى التعيين، كتوبة زيد بن عَمْرو، فلا خلاف أنها مظنونة. هـ. قلت: قد اقترن بتوبة زيد من الأخبار ما يقطع بصحتها.

ثم قال: وأما العاصى إذا لم يتب فهو فى المشيئة، مع تغليب جانب الخوف والعقوبة، واعتقاد أن العذاب أرجح، وأما العصيان بالقتل، ففيه خلاف بين أهل السُّنة، فقيل: يخلد فى النار، وقيل: فى المشيئة. هـ. وقال أبو الحجاج الضرير ـ رحمه الله:

وتوبةُ الكافرِ تمحُو إثْمَه لا خلافَ فيه بين الأُمَّهْ

وتوبةُ العاصى على الإرجاءِ وقيلَ كالأول بالسواءِ

إذ لايكونُ دونه فى الحالِ وهوَ عندى أحسنُ الأقوالِ

دليلُه: تتابعُ الظواهرْ شاملةً مسلّم وكافرْ. هـ

---

(١) أخرجه الطبرى (١٥/٢٤) وانظر: أسباب النزول للواحدى (ص/٣٨٤).
(٢) أخرجه الطبرى (١٦/٢٤).
(٣) رواه الحاكم (٢٤٠/٤) وصححه، ووافقه الذهبى، من حديث جابر رضي الله عنه.

﴿ وأَسْلِمُوا له ﴾ أى: اخضعوا له، وانقادوا لأمره. قال القشيرى: أى: أخلصوا فى طاعتكم، والإسلامُ ـ الذى هو الإخلاص بعد الإنابة ـ: هو أن يعلم نجاته بفضله، لا بإنابته؛ فبفضله يصل إلى إنابته، لا بإنابته يصل إلى فضله. هـ. ﴿ من قبل أن يأتيكم العذابُ ﴾ فى الدنيا، أو فى الآخرة، إن لم تتوبوا قبل نزول العقاب. قال القشيرى: العذاب هنا، قيل: الفراق، وقيل: هو أن يفوتَه وقتُ الرجوعِ بسوء الإياس. هـ. ﴿ ثم لاتُنصرون ﴾: لا تُمنعون منه أبداً.

الإشارة: لا يعظم عندك الذنب عظمة تصدك عن حسن الظن بالله، فإن من استحضر عظمة ربه صغر فى عينه كل شيء. وتذكر قضية الرجل الذى قتل تسعاً وتسعين نفساً، ثم سأل راهباً: هل له توبة؟ فقال: لا، فكمل به المائة، ثم سأل عارفاً، فقال له: ومن يحول بينك وبينها؟ لكن اخرج من القرية التى كنت تعصى فيها، واذهب إلى قوم يعبدون الله فى مكان، فذهب، فأدركه الموت فى الطريق، فلما أحس بالموت انحاز بصدره إلى القرية التى قصدها، ثم مات، فاختصمت فيه ملائكة العذاب وملائكة الرحمة، فقال لهم الحق تعالى(١): قيسوا من القرية التى خرج منها، إلى القرية التى قصدها، فإلى أيهما هو أقرب هو منها؟ فوجدوه أقرب إلى القرية التى قصدها بشبر، فأخذته ملائكة الرحمة(٢). إلى غير ذلك من الحكايات التى لاتحصى فى هذا المعنى.

وتأمل قضية الشاب الذى أتى النبى ﷺ يبكى، فقال: ما يبكيك؟ قال: ذنوبى. فقال له ﷺ: إن الله يغفر ذنوبك، ولو كانت مثل السماوات السبع، والأرضين السبع، والجبال الرواسى، فقال: يا رسول الله، ذنب من ذنوبى أعظم من السماوات السبع والأرضين السبع، فقال له: ذنوبك أعظم أو العرش؟ قال: ذنوبى، فقال له: ذنوبك أعظم أو الكرسى؟ قال: ذنوبى، فقال: ذنوبك أعظم أو إلهك؟ فقال: الله أعظم، فقال: فأخبرنى عن ذنبك. قال: إنى أستحيى، فقال: فأخبرنى، فقال: إنى كنت نباشاً أنبش القبور منذ سبع سنين، حتى ماتت جارية من بنات الأنصار، فنبشتها، وأخرجتها من كفنها، فمضيت، ثم غلبنى الشيطان، فرجعت، فجامعتها، فقامت الجارية، وقالت: الويل لك ياشاب من ديّان يوم الدين، يوم يضع كرسيه للقضاء، يأخذ من الظالم للمظلوم، تركتنى عريانة فى عساكر الموتى، وأوقفتنى جُنباً بين يدى الله، فقام النبى ﷺ وهو يضرب فى قفاه، وهو يقول: يا فاسق، اخرج، ما أقربك من النار، فخرج الشاب تائباً إلى الله تعالى، حتى أتى عليه ما شاء الله، ثم قال: يا إله محمد وآدم وحواء، إن كنت

(١) بوحى، كما تفيده رواية البخارى. وفى رواية مسلم: «فأتاهم ملك فى صورة آدمى فجعلوه بينهم، فقال: قيسوا..» الحديث.
(٢) أخرج القصة البخارى فى (أحاديث الأنبياء، باب حديث الغار، ح ٣٤٧٠) ومسلم فى (التوبة، باب قبول توبة القاتل وإن كثر قتله، ٤/٢١١٨، ح ٢٧٦٦) من حديث أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه.

غفرت لى فأعلم محمداً وأصحابه، وإلا فأرسل علىَّ ناراً من السماء فاحرقنى بها، ونجنى من عذاب الآخرة، فجاء جبريل، فقال: السلام يقرئك السلام، فقال: هو السلام وإليه يعود السلام، قال: يقول: أأنت خلقت خلقى؟ قال: بل هو الذى خلقهم. قال: يقول: ترزقهم؟ قال: بل هو الذى يرزقهم، قال: يقول: أأنت تتوب عليهم؟ قال: بل هو الذى يتوب عليهم. قال: فتب على عبدى، فإنى تبتُ عليه، فدعا النبى ﷺ الشاب، وتاب عليه، وقال: إن الله هو التواب الرحيم. هـ.ذكره السمرقندى والثعلبى(١).

ثم أمر باتباع القرآن بعد الإنابة، فقال:

﴿ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ بَغۡتَةٗ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفۡسٞ يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوۡ تَقُولَ لَوۡ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوۡ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلۡعَذَابَ لَوۡ أَنَّ لِي كَرَّةٗ فَأَكُونَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَتۡكَ ءَايَٰتِي فَكَذَّبۡتَ بِهَا وَٱسۡتَكۡبَرۡتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ واتَّبعوا أحسنَ ما أُنزل إليكم من ربكم ﴾ أى: القرآن، فإنه أحسن الحديث، ولا أحسن منه لفظاً ومعنى، أو: المأمور به دون المنهى، أو: العزائم دون الرُخص، كقوله: ﴿ ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓ ﴾(٢)، أو: الناسخ دون المنسوخ، ولعله ما هو أعم، فيصدق بكل ما يقرب إلى الله، كالإنابة، والطاعة، ونحوهما، ﴿ من قبل أن يأتيكم العذابُ بغتةً ﴾: فجأة، ﴿ وأنتم لا تشعرون ﴾ بمجيئه؛ لتداركوا وتتأهبوا.

أمرتكم بذلك كراهة ﴿ أن تقول نفس ﴾، والتنكير للتكثير، كما فى قوله: ﴿ عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّآ أَحۡضَرَتۡ ﴾(٣)، أو: يراد به بعض الأنفس، وهى نفس الكافر، أو: يُراد نفس متميزة إما بلجاج فى الكفر شديد أو بعقال عظيم:

(١) غفر الله لشيخنا ابن عجيبة، لقد كان فى غنى عن ذكر هذه الرواية الغريبة.
(٢) من الآية ١٨ من سورة الزمر.
(٣) من الآية ١٤ من سورة التكوير.

﴿ ياحسرتا ﴾، بألف بدل من ياء الإضافة؛ لأن العرب تقلب ياء المتكلم ألفاً في الاستغاثة، فيقولون: ياويلتا، ياندامتا، فيخرجون ذلك على لفظ الدعاء، وربما ألحقوا بها الهاء، فيقال: يا رباه، يا مولاه، وربما ألحقوا ياء المتكلم، جمعاً بين العوض والمعوض، وبذلك قرأ أبو جعفر: «ياحسرتاى» أى: ياندامتاه وياحزناه. ﴿ على ما فرَّطتُ ﴾؛ قصّرت. و «ما»: مصدرية، أى: على تقصيرى وتفريطى ﴿ في جنبِ الله ﴾ أى: جانبه وحقه وطاعته، أو: فى ذاته، أى: معرفة ذاته، أو فى قربه، من قوله: ﴿ والصاحب بالجنب ﴾(١)، أو: فى سبيل الله ودينه، والعرب تسمى السبب الموصل إلى الشيء جنباً، تقول: تجرعت فى جنبك غُصَصاً، أى: لأجلك، أو: فى الجانب الذى يؤدى إلى رضوانه، وهو توحيده والإقرار بنبوة نبيه محمد ﷺ. وقرىء «فى ذكر الله». ﴿ وإن كُنتُ لمن الساخرين ﴾ أى: المستهزئين بدين الله. قال قتادة: لم يكفه أن ضيّع طاعة الله حتى سخر بأهلها. و«إن»: مخففة، والجملة: حالية، أى: فرطت وأنا ساخر.

﴿ أوْ تقولَ لو أنَّ الله هداني ﴾: أعطانى الهداية، ﴿ لكنتُ من المتقين ﴾: من الذين يتقون الشرك. قال الإمام [أبو منصور](٢): هذا الكافر أعرفُ بهداية الله من المعتزلة. وكذلك أولئك الكفرة، الذين قالوا لأتباعهم: ﴿ لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ ﴾(٣) يقولون: لو وفقنا الله للهداية، وأعطانا الهدى لدعوناكم إليه، ولكن علِمَ منا اختيار الضلالة والغواية فخذلنا ولم يوفقنا. والمعتزلة يقولون: بل هداهم وأعطاهم التوفيق؛ لكنهم لم يهتدوا. انظر النسفى.

﴿ أو تقولَ حين ترى العذابَ لو أن لى كرةً ﴾ أى: رجعة للدنيا، ﴿ فأكونَ من المحسنين ﴾: الموحِّدين الطائعين. و «أو» للدلالة على أنها لا تخلو من هذه الأقوال، تحيّراً وتحسراً، وتعليلاً بما لا طائل تحته.

فردَّ الله عليهم بقوله: ﴿ بلى قد جاءتك آياتي فكذَّبتَ بها واستكبرتَ وكنتَ من الكافرين ﴾ أى: قد جاءتك آياتى، وبيَّنت لك الهدايةَ من الغواية، وسبيلَ الحق من الباطل، فتركت ذلك، وضيعت، واستكبرت عن قبوله، وآثرت الضلالة على الهدى، واشتغلت بضد ما أمرت به، وإنما جاء التضييع من قِبلك، فلا عذر لك.

و«بلى»: جواب لنفى مقدر، وهو نتيجة القياس الاستثنائى، أى: لو أن الله هدانى لاهتديتُ وكنت متقياً، لكنه لم يهدنى، وإنما أخّره؛ لأنه لابد من حكاية أقوال النفس على ترتيبها، ثم يذكر الجواب فى الجملة. والله تعالى أعلم.

---

(١) من الآية ٣٦ من سورة النساء.

(٢) فى الأصول [ابن منصور] والمثبت هو الذى فى النسفى.

(٣) كما جاء فى الآية ٢١ من سورة إبراهيم.

الإشارة: واتبعوا أحسن ما أُنزل إليكم، أي: خذوا في الجد والاجتهاد في اتباع الأحسن والأرجح، في الأفعال، والأقوال، والعقائد، من قبل أن ينزل بكم العذاب. ولا عذاب أشد من الحجاب، والتخلف عن مقامات الأحباب، في وقت لا ينفع التأسف ولا التحسر. قال القشيري: هذا في أقوام يرَوْن أمثالَهم وأشكالهم، تقدّموا عليهم في أحوالهم، فشكروا ما سلَفَ من تقصيرهم، ويَرَوْن ما وُفّقَ أولئك إليه من أعالي الرتب، فيعضون بنواجذ الحسرة على أنامل الخيبة.هـ. وفي ذلك قيل وأنشد:

السِّباق السِّباقَ قَوْلاً وفِعلاً حَذِرِ النفسَ حَسْرَةَ المسْبُوقِ

وهو معنى قوله: ﴿أن تقول نفس﴾ كانت مُقصِّرة في الدنيا: ﴿يا حسرتا على مافرطتُ في جنب الله﴾ أي: في السير إلى معرفة ذاته، ﴿وإن كنت لمن الساخرين﴾ ممن يتعاطى ذلك، ويخرب ظاهره لتعمير باطنه، فكنت أسخر منه وأضحك عليه، أو تحتج بالقدر، فتقول: لو أن الله هداني لسلوك طريقه لكنت من المتقين الكاملين في التقوى. ولا ينفع الاحتجاج بالقدر في دار التكليف مع بيان الطريق. أو تقول حين ترى العذاب، وهو فراق الأحباب والتخلف عنهم: لو أن لي كرة إلى الدنيا، فأجهد نفسي حتى أكون من أهل الإحسان، الذين يعبدون الله على العيان، بلى قد جاءتك آياتي، وهم الدعاة إليّ في كل زمان ﴿ما ننسخ من آية أوننسها بخير منها أو مثلها﴾، فكذَّبتَ بها، واستكبرتَ عن الخضوع لهم، وكنت من الجاحدين لطريق التربية.

ثم ذكر مآل أهل التكذيب والصدق، فقال:

﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ويومَ القيامة ترى الذين كَذَبوا على الله﴾، بأن وصفوه بما لا يليق بشأنه، كاتخاذ الولد والشريك ونفي الصفات عنه، ﴿وجُوهُهُم مسودةٌ﴾ بما ينالهم من الشدة والكآبة. والجملة: حال، على أن الرؤية بصرية، أو: مفعول ثان لها، إن كانت علمية. ﴿أليس في جهنم مَثْوىً﴾ أي: مقام ﴿للمتكبرين﴾ عن الإيمان والطاعة، وهو إشارة إلى قوله: ﴿واستكبرت﴾، ولا ينافي إشعاره بأن تكبرهم علة لاستحقاقهم النار أن يكون دخولهم فيها؛ لأجل أن كلمة العذاب حقّتْ عليهم؛ لأن كبرهم مسبب عنها.

﴿ وينَجِّي اللهُ الذين اتَّقَوا ﴾ الشرك والمعاصى، أى: من جهنم. ﴿ بمفازتهم ﴾: بفوزهم، مصدر ميمى، يقال: فاز بالمطلوب: ظفر به، والباء متعلقة بمحذوف، حال من الموصول، مفيدة لمقارنة نجاتهم من العذاب بنيل الثواب، أى: ينجيهم الله من مثوى المتكبرين ملتبسين بفوزهم بمطلوبهم، أو: بسبب فوزهم بالإيمان والأعمال الحسنة فى الدنيا، ولذا قرأ ابن عباس رضي الله عنهما: «بمفازتهم بالأعمال الحسنة». قال القشيرى: كما وَقَاهم اليومَ من المخالفات، وحماهم، فكذلك غداً عن العقوبة وقاهم، فالمتقون فازوا بسعادة الدارين، اليومَ عصمة، وغداً نعمة، واليومَ عناية، وغداً كفاية. هـ.

﴿ لا يمسُّهم السوءُ ولا هم يحزنون ﴾: إما حال أخرى من الموصول، أو: من مفازتهم وقيل: تفسير للمفازة، كأنه قيل: وما مفازتهم؟ فقيل: لا يمسهم السوء، أى: ينجيهم بنفى السوء والحُزن عنهم، فلا يمس أبدانَهم سوء، ولاقلوبَهم حزن.

الإشارة: ويوم القيامة ترى الذين كذَبوا على الله، بالدعاوى الباطلة، من القلوب الخاوية، فكل من ادعى حالاً ليست فيه، أو: مرتبة لم يتحققها، فالآية تجر ذيلها عليه، واسوداد وجوهم بافتضاحهم.

قال القشيرى: هؤلاء الذين ادَّعو أحوالاً، ولم يَصدُقوا فيها، وأظهروا المحبةَ لله، ولم يتحققوا بها، وكفى بهم ذلك افتضاحاً، وأنشدوا:

ولما ادَّعَيْتُ الحبَّ قالت: كَذَبْتَني   فما لى أرى الأعضاءَ منك كواسيا؟

فما الحُبُّ حتى تنزفَ العينُ بالبكا   وتخرسَ حتى لا تجيب المناديا(١).

وينجى الله الذين اتقوا شهود السِّوى من كل مكروه، بسبب مفازتهم بمعرفة الله فى الدنيا، لا يمسهم السوء، أى: غم الحجاب، لرفعه عنهم على الدوام، ولا هم يحزنون على فوات شىء؛ إذ لم يفتهم شىء؛ حيث فازوا بالله، «ماذا فَقَدَ من وجدك»؟(٢).

---

(١) انظر: ديوان قيس بن الملوح (مجنون ليلى) ص ٢١٣. وقال فى اللمع (٣٢١): كان أبو الحسن سَرِيّ السَّقَطى ـ رحمه الله ـ كثيراً. ينشد هذه الأبيات:

ولما أدعيت الحب قالت: كذبتنى   فما لى أرى الأعضاء منك كواسيا
فما الحِب حتى يلصق الجلد بالحشا   وتذبل حتى لاتجيب المناديا
وتنحل حتى لايبقى لك الهوى   سوى مقلة تبكى بها أو تناجيا

(٢) جزء من مناجاة الشيخ أحمد بن عطاء الله السكندرى: انظر الحكم بتويب المتقى الهندى ص /٤٢.

قال الورتجبى: بمفازتهم: ما كان لهم فى الله فى أزل أزله، من محبتهم، وقبولهم بمعرفته، وحسن وصاله، ودوام شهود كماله. لايمسهم السوء: لا يلحقهم، فلا يلحق بهم فى منازل الامتحان، تفرقة عن مقام الوصلة، وحجاب عن جمال المشاهدة، انظر تمامه. وحاصله: فازوا بإدراك السعادة الأزلية. وعن جعفر الصادق: بمفازتهم: بسعادتهم القديمة، يعنى لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ﴾(١) ... الآية. قاله المحشى الفاسى.

ثم برهن على البعث الموعود به قبلُ، فقال:

﴿ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَّهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٦٣﴾ قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿اللهُ خالقُ كُلِّ شيءٍ﴾: جامد أو حى، خير أو شر، إيمان أو كفر، لا بالجبر، بل بمباشرة الكاسب فى عالَم الحكمة، وفيه إثبات القدرة والعلم، وهما مصححان للبعث والجزاء بالخير والشر، لمحسن أو مسىء. قال القشيرى: ويدخل تحت قوله: ﴿كل شيء﴾ كسبُ العباد، ولايدخل كلامُه؛ لأن المخاطِبَ لايدخل تحت خطابه ولاصفاته. هـ. والمراد بالكلام: المعانى القديمة، وأما الألفاظ والحروف فهى مخلوقة، كما هو مقرر فى محله. ﴿وهو على كل شيءٍ وكيل﴾ أى: حافظ يتولى التصرف فيه كيف يشاء.

﴿له مقاليدُ السماواتِ والأرضِ﴾ أى: مفاتح خزائنها، واحدها «مِقْليد»، أو: إقليد(٢)، أو: لا واحد لها، وأصلها فارسية، والمراد: أنه مالكها وحافظها، وهو من باب الكناية؛ لأن حافظ الخزائن ومدّبر أمرها هو الذى يملك مقاليدها، ومنه قولهم: فلان ألقيتْ إليه مقاليد الملك، أى: مفاتح التصرف قد سُلِّمت إليه، وفيه مزيد دلالة على الاستقلال والاستبداد؛ لأن الخزائن لايدخلها ولايتصرف فيها إلا من بيده مفاتحها.

(١) الآية ١٠١ من سورة الأنبياء.

(٢) انظر لسان العرب (٥/٣٧١٨، مادة قلد).

وعن عثمان: أنه سأل النبي ﷺ عن المقاليد، فقال ﷺ: «هي لا إله إلا الله، والله أكبر، وسبحان الله وبحمده، أستغفر الله، ولا حول ولاقوة إلا بالله العلي العظيم، هو الأول والآخر، والظاهر والباطن، بيده الخير، يُحيي ويميت وهو على كل شيء قدير»(١). ومعناه: أن لله هذه الكلمات، يُوحَّد بها ويُمجَّد، وهي مفاتحُ خير السماوات والأرض، ومن تكلّم بها أدرك ذلك في الدنيا أو في الآخرة، ومرجعها إلى التحقق بالعبودية في الظاهر، ومعرفة الذات في الباطن، وهما السبب في كل خير، وبهما يدرك العبد التصرف في الوجود بأسره، فتأمله.

﴿ والذين كفروا بآيات الله ﴾ أي: كفروا به بعد كونه خالق كل شيء، ومتصرفاً في ملكه كيف يشاء، بيده مقاليد العالم العلوي والسفلي، فكفروا بعد هذا بآياته التكوينية، المنصوبة في الآفاق وفي الأنفس، والتنزيلية، التي من جملتها هذه الآيات الناطقة بذلك، ﴿ أولئك هم الخاسرون ﴾ خسراناً لا خسرَ وراءه، وقيل: هو متصل بقوله: ﴿ويُنجي الله الذين اتقوا﴾، وما بينهما اعتراض.

﴿ قُلْ أفغير الله تأمروني أعبدُ أيها الجاهلون ﴾ به، وكانوا يقولون له: أسلِم لبعض آلهتنا نؤمن بإلهك؛ لفرط جهالتهم. ﴿ وغير﴾: منصوب بـ«أعبد»، و﴿تأمروني﴾: اعتراض، أي: أتأمروني أعبد غير الله بعد هذا البيان التام؟ وحذفُ نون الوقاية وإثباتها مدغمة وغير مدغمة، كلٌّ قُرِىء به.

﴿ ولقد أُوحيَ إليك وإلى الذين من قبلكَ ﴾: من الأنبياء ـ عليهم السلام: ﴿ لئن أشركتَ ليَحْبَطنَّ عَمَلُكَ ولَتكُونَنَّ من الخاسرين ﴾، كلام وارد على طريق الفرض، لتهييج الرسل، وإقناط الكفرة، والإيذان بغاية بشاعة الإشراك وقُبحه، وكونه بحيث يُنهى عنه من لايكاد يمكن أن يباشره بمن عداه أو: الخطاب له، والمراد غيره. وإفراد الخطاب مع كون الموحَى إليهم جماعة، باعتبار خطاب كل واحد في عصره، واللام موطئة لقسم محذوف، والثانية لام الجواب، وهو سادّ مسدّ جواب الشرط، وإطلاق الإحباط لاحتمال أن يكون من خصائصهم؛ لأن الإشراك منهم أشد، وأن يكون مقيداً بالموت، كما صرح به في آية البقرة(٢)، وهو مذهب الشافعي، وذهب مالك إلى أن الشرك يُحبط العمل قبل الردة، مات عليها، أو رجع إلى الإسلام، فينتقض وضوؤه وصومه. وما قاله الشافعي أظهر.

---

(١) أخرجه البيهقي في الأسماء والصفات (باب ذكر الأسماء التي تتبع إثبات الباري ص ١٣) وابن السني في عمل اليوم والليلة (ح٧٢) والعقيلي في الضعفاء (ترجمة مخلد أبي هذيل ٤/٢٣١) من حديث ابن عمر. وعزاه المناوي في الفتح السماوي لأبي يعلى في مسنده. وذكره ابن الجوزي في الموضوعات (١/١٤٤) وقال: «هذا حديث لايصح». وانظر الفتح السماوي (٣/٩٦٨ ـ ٩٧٠) مع حاشية المحقق.

(٢) في قوله تعالى: ﴿... ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة..﴾ الآية ٢١٧.

﴿ بل اللهَ فاعبُدْ ﴾، رد لما أمروه به من عبادة آلهتهم، كأنه قال: لاتعبد ما أمروك بعبادته؛ بل إذا عبدت فاعبد الله، فَحذف الشرط، وأقيم تقديم المفعول مقامه. ﴿ وكن من الشاكرين ﴾ على ما أنعم به عليك؛ حيث جعلك رأس الموحدين وسيد المرسلين.

الإشارة: الله مُظهر كل شيء؛ حيث تجلى بها، وهو قائم بكل شيء. له مفاتيح غيوب السماوات والأرض، لايطلعَ عليها إلا من خضع لأوليائه، الذين هم آيات من آياته. والذين كفروا بآيات الله، الدالة على الله، وهم أولياء الله، أولئك هم الخاسرون، فلا خسران أعظم من خيبة الوصول؛ إذ لايخلو المفروق عن الله من الشرك الخفى، فإذا أُمر المريد بإظهار شيء من سره، أو مداهنة غيره، قال: ﴿ أفغير الله تأمرونى أعبدُ أيها الجاهلون﴾. ﴿ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت﴾ بأن طالعت غيرى فى سرك، أو تشوفت أن يعلم الناس بخصوصيتك ﴿ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين، بل الله فاعبد﴾ واكتف به، واقنع بعلمه، واغتن بشهوده، ﴿وكن من الشاكرين﴾ على ما أولاك من سر خصوصيته.

ثم ردّ على أهل الشرك، فقال:

﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وما قَدرُوا اللهَ حقَّ قَدْرِه ﴾ أى: ما عظَّموه حق تعظيمه؛ حيث جعلوا له شريكاً، أو وصفوه بما لا يليق بشئونه الجليلة، أو: حيث دعوك إلى عبادة غيره تعالى، أو: ما عرفوه حق معرفته، حيث لم يؤمنوا بقدرة الله تعالى. قال ابن عباس: فمن آمن أن الله على كل شيء قدير، فقد قدر الله حق قدره. يقال: قدرت الشيء: إذا حزرته لتعرف مبلغه، والقدر: المقدار. والضمير، إما لقريش، المحدث عنهم، وقيل: لليهود، حيث تكلموا فى صفات الله تعالى، فألحدوا وجسّموا.

ثم بينّ لهم شيئاً من عظمته تعالى، فقال: ﴿ والأرضُ جميعًا قبضَتُه يومَ القيامة والسماواتُ مطويات بيمينه ﴾: فـ«جميعًا»: حال من الأرض؛ لأنه بمعنى الأرضين، أى: والأرضون جميعًا مقبوضة له بقدرته يوم القيامة. ﴿والسماوات مطويات بيمينه ﴾ أى: بقدرته. والقبضة: المرة من القبض، والقُبْضة: المقدار المقبوض بالكف، والمراد من الكلام: تصوير عظمته تعالى، والتوقيف على كنه جلاله، وأن تخريب هذا العالم هو عليه شيء هين، على طريقة التمثيل والتخييل، من غير اعتبار القبضة واليمين حقيقة، ولا مجازاً، هكذا قال جمهور المفسرين.

قلت: لايبعد أن تحمل الآية على ظاهرها، فإن الله تعالى يُبدل الأرض ويجمعها بأجمعها، فتكون كخبزة النقى، ويطوى السماء كطى الكتاب، حتى يبرز العرش، كما فى الحديث، ففى حديث البخارى، عن أبى سعيد الخدرى، قال النبى ﷺ: «تكون الأرضُ يومَ القيامة خبزةً واحدةً، يتكفؤها الجبارُ بيده، كما يتكفؤ أحدُكم خُبْزَتَه فى السفر، نُزُلاً لأهل الجنة»(١). وفى حديث أبى هريرة: «إن الله يقبض الأرض، ويطوى السماء بيمينه، ثم يقول: أنا الملك، أين ملوك الأرض»(٢)

وقال ابن عمر رأيت النبى ﷺ قائماً على المنبر، وهو يحكى عن ربه تعالى، فقال: «إن الله تعالى إذا كان يوم القيامة، جمع السماوات والأرضين السبع فى قبضته، ثم قال هكذا، وشد قبضته، ثم بسطها، ثم يقول: أنا الله، أنا الرحمن..» الحديث. وفى لفظ آخر: «يطوى الله السماوات يوم القيامة، ثم يأخذهن بيده اليمنى، ثم يقول: أنا الملك، أين الجبارون أين المتكبرون؟»(٣). وقال ابن عباس فى تفسير هذه الآية: «كل ذلك فى يمينه، وليس فى يده الأخرى شيء، وإنما يستعين بشماله المشغولُ بيمينه، وما السماوات السبع، والأرضون السبع، فى يد الله تعالى، إلا كخردلة فى يد أحدكم، ولهذا قال: ﴿مطويات بيمينه﴾: يعنى السماوات والأرضين كلها بيمينه»(٤)
قلت: من كَحل عين بصيرته بإثمد التوحيد الخاص، لاتصعب عليه هذه الأمور؛ إذ تجليات الحق لاتنحصر، فيمكن أن يتجلى من نور جبروته بنور يشاكل الآدمى فى الأعضاء كلها، فيكون له ذات لها يدان وقدمان، وبه ورد أن الله يضع قدمه على النار، فتقول: قط قط، ويكشف عن ساقه لأهل الموقف، ويتقدمهم للجنة، إلى غير ذلك مما ورد فى الحديث. ولايلزم من ذلك حصر ولاتجسيم، إنما هى تجليات للذات الكلية المطلقة، ولايفهم هذا إلا أهل الفناء والبقاء من العارفين، فسلم تسلم.

﴿سبحانه وتعالى عما يشركون﴾ أى: تنزيهاً عظيماً لمن هذه قدرته وشأنه عما يضاف إليه من الشركاء، أى: ما أبعد من هذا شأنه عن إشراكهم!

---

(١) أخرجه البخارى فى (الرقاق، باب يقبض الله الأرض يوم القيامة، ح ٦٥١٩) ومسلم فى (صفات المنافقين وأحكامهم، باب فى نزل أهل الجنة، ٢١٥١/٤، ح ٢٧٩٢).
وقوله ﷺ (يتكفؤها بيده) أى: يميلها من يد إلى يد حتى تجتمع وتستوى؛ لأنها ليست منبسطة كالرقاقة ونحوها. ومعنى هذا الحديث: أن الله يجعل الأرض كالرغيف العظيم.
(٢) أخرجه البخارى فى (تفسير سورة الزمر، باب ﴿وما قدروا الله حق قدره﴾ ٥٥١/٥) ومسلم فى (صفات المنافقين، باب صفة القيامة والجنة والنار، ٢١٤٨/٤، ح ٢٧٨٧).
(٣) أخرجه بنحوه مسلم فى (صفات المنافقين وأحكامهم، باب: صفة القيامة والجنة والنار، ٢١٤٨/٤، ح ٢٧٨٨) من حديث سيدنا عبدالله بن عمر رضي الله عنهما.
(٤) ذكره السيوطى فى الدر (٦٢٩/٥) مختصراً، وعزاه لعبد بن حميد، وابن أبى حاتم، وأبى الشيخ.

الإشارة: ما عرف لله حق معرفته من أثبت الكائنات معه، وهي ممحوة بأحدية ذاته، لا وجود لها معه على التحقيق، فالأرض قبضة أسرار ذاته، والسماوات محيطاتُ أفلاك أنواره، وبحر الذات مطبق على الجميع، ماحٍ للكل، وأنشدوا:

فالكلُّ دونَ اللهِ إنْ حققتَه عدمٌ على التفصيل والإجمالِ
واعلمْ بأنك والعوالِمَ كلَّها لولاه في محوٍ وفي اضمحلالِ
من لا وجودَ لذاتِه من ذاتِه فوجودُه لولاه عينُ مُحالِ

وقال آخر:

من أبْصَرَ الخلقَ كالسَّراب فقد ترَقّى عن الحِجَابِ
إلى وُجودٍ تراه رَتْقاً بلا ابتعادٍ ولااقترابِ

ثم تمم أحوال القيامة، فقال:

﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ونُفخ في الصُّورِ﴾ النفخة الأولى ﴿فصَعِقَ مَنْ في السماوات ومن في الأرض﴾ أي: خرّ ميتاً، أو مغشياً عليه، ﴿إلا من شاء اللهُ﴾ قيل: جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت، ثم يُميتهم الله بعد ذلك، وقيل: حملة العرش، وقيل: خزنة النار والجنة(١).

﴿ثم نُفخ فيه أُخرى﴾ هي النفخة الثانية. و«أخرى»: في محل الرفع صفة لمحذوف، أي: نفخ نفخة أخرى، ﴿فإذا هم قيام﴾ من قبورهم، حال كونهم إذا فاجأهم خطب ﴿ينظرون﴾؛ يُقلبون أبصارهم في الجوانب

(١) راجع تفسير الآية ٨٧ من سورة النمل.

الأربعة، كالمبهوتين، أو: ينظرون ما يفعل بهم، ودلت الآية على أن النفخة اثنتان؛ للموت، والبعث، وقيل: ثلاث؛ للفزع، والموت، والبعث.

﴿ وأشرقت الأرضُ ﴾؛ أضاءت ﴿ بنور ربها ﴾ حين يتجلى لفصل عباده، فتشرق الأرض ـ أى: عرصات القيامة ـ بنور وجهه، ويقال: إن الله يخلق فى القيامة نوراً يلبسه وجهَ الأرض، فتشرق به. قال فى الحاشية الفاسية: وهذا القول هو الذى اختاره محيى السنة، وانتصر له الطيبى، بما ورد من الأحاديث المقتضية لرؤيته فى عرصات القيامة، قال: وما تعسف الزمخشرى، من حمل النور على العدل، إلا فراراً من ذلك . هـ. قال القشيرى: هو نور يخلقه فى القيامة، عند تكوير الشمس، وانكدار النجوم، ويستضيىء به قومٌ دون قوم، والكفارُ يبقَوْن فى الظلمة، والمؤمنون: ﴿ يَسْعَىٰ نُورُهُم ﴾... الآية[1]. ويقال: غداً إشراق الأرض ، واليوم إشراق القلب، غداً أنوار التولى، واليوم أنوار التجلى. هـ.

وقال السدى: بعدله، على الاستعارة، يقال للملك العادل: أشرقت الأرض بعدله، كما استعيرت الظلمة للظُلم. وفى الحديث: «الظلم ظلمات يوم القيامة»[2].

﴿ ووُضِع الكتابُ ﴾ أى: صحائف الأعمال، اكتفى باسم الجنس، أو: كتاب المحاسبة والجزاء. ﴿ وجىءَ بالنبيين ﴾ ليسألهم ربهم عما أجابتهم به أممهم، ﴿ والشهداءِ ﴾ أى: الحفظة، ليشهدوا على كل إنسان بما عمل، والذين يشهدون للرسل بتبليغ الرسالة إذا جحدتهم أممهم، أو: الذين استُشهدوا فى سبيل الله. ﴿ وقُضِىَ بينهم ﴾: بين العباد ﴿ بالحق وهم لا يُظلَمُون ﴾ بنقص ثواب، أو زيادة عقاب. قال ابن عطية: الضمير فى ﴿ بينهم ﴾ عائد على العالم بأجمعه. هـ. فيقتضى دخول الملائكة، ويتصور القضاء فى حقهم، من حيث جعلوا حفظة على العباد، وأمناء على الوحى والتبليغ، وغير ذلك من ترتيبهم فى مقاماتهم، وترقيهم فى علومهم، وتفاوتهم فى ذلك. وفى وجوه تخصيصاتهم وتصديقهم فى التبليغ، ورد ما استندوا فيه لظواهر الأمور، مع علمه تعالى خلافه، مما لا اطلاعَ لهم عليه. قاله فى الحاشية.

﴿ ووُفيت كلُّ نفسٍ ﴾ جزاء ﴿ ما عملَتْ ﴾، وهو أعلم بما يفعلون ﴾ فلا يفوته شىء من أفعالهم. ومضمون الآية: تصوير التعرض للقضاء بين العباد على ما هو شأن الملك، من إحضار الشهود وخواص حضرته، حين يبرز لذلك، ويشهده الظالم والمظلوم ، وإن كان كنه معرفته موكولاً إليه، ثم من لوازم ذلك العدل. والله تعالى أعلم.

---

(١) الآية ١٢ من سورة الحديد.

(٢) أخرجه البخارى فى (المظالم، باب الظلم ظلمات يوم القيامة ح ٢٤٤٧) ومسلم فى (البر، باب تحريم الظلم، ٤/١٩٩٦، ح٢٥٧٩) من حديث سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

الإشارة: فى الآية إشارة للفناء والبقاء، فيصعق العبد عن رؤية وجوده، ثم يبقى بربه، فتشرق أرض البشرية بنور وجود الحق، ثم يشرق العالم كله. قال الورتجبى: نفخة الصعق قهرية جلالية، ونفخة البعث ظهور أنوار جماله فى أنوار جلاله، وبذلك ينتظر وقوع نور الكشف بقوله: ﴿وأشرقت الأرضُ بنور ربها﴾ فيتجلى للخواص، ثم تستضىء بأنوارهم أرض المحشر، للعموم والخصوص، تعالت صفاته عن أن تقع على الأماكن، أو أن يكون محلاً للحدثان، يا عاقل، لاتكون ذرة من العرش إلى الثرى إلا وهى مستغرقة فى أنوار إشراق آزاله وآباده. ثم قال عن بعضهم: (إلا من شاء الله) هم أهل التمكين، مكّن الله أسرارهم من تحمل الواردات.

ثم ذكر نتيجة الفصل بين العباد، فقال:

﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وسيق الذين كفروا إلى جهنم زُمراً ﴾ أى: تسوقهم الزبانية بالعنف والإهانة، كما تساق الأسارى والخارجين على السلطان، إذا سيقوا للقتل أو السجن، فتسوقهم الزبانية إلى جهنم أفواجاً متفرقة، بعضها إثر بعض، حسب ترتب طبقاتهم فى الضلالة والشرارة، والزمر: جمع زمرة، أى: الجماعة، واشتقاقها من الزمر، أى: الصوت. والجماعة لاتخلو عنه.

﴿ حتى إذا جاءوها فُتِحَتْ أبوابها ﴾ ليدخلوها، وهى سبعة(١)، ﴿ وقال لهم خزنتُها ﴾ تقريعاً وتوبيخاً: ﴿ ألم يأتكم رسلٌ منكم ﴾؛ من جنسكم. وقرىء: «نُذُر منكم»، ﴿ يتلون عليكم آيات ربكم ويُنذرونكم لقاءَ يومكم هذا ﴾ أى: وقتكم هذا، وهو وقت دخولهم النار. وفيه دليل على أنه لاتكليف قبل الشرع، من حيث إنهم عللوا توبيخهم بإتيان الرسل وتبليغ الكتب. ﴿ قالوا بلى ﴾ قد أتونا وأنذرونا، ﴿ ولكن حقتْ كلمةُ العذابِ على الكافرين ﴾ أى: ولكن وجبت علينا كلمة الله: ﴿ لأملأن جهنم ﴾(٢) بسوء أعمالنا حيث كذّبنا، وقلنا: ما نّزل الله

(١) كما ذكر فى سورة الحجر، فى قوله تعالى: ﴿لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم﴾ الآية ٤٤.
(٢) من الآية ١١٩ من سورة هود.

من شيء، إن أنتم إلا تكذبون. ﴿ قيل ادخلوا أبوابَ جهنمَ خالدين فيها ﴾ أي: مقدرين الخلود، ﴿ فبئس مثوى المتكبرين ﴾، اللام للجنس، والمخصوص محذوف، أي: بئس مثوى المتكبرين جهنم، وتكبرهم مسبب عن استحقاق كلمة العذاب عليهم. والله تعالى أعلم.

الإشارة: كل من تكبّر عن أولياء زمانه ـ أهل التربية ـ حتى مات محجوباً عن شهود الحق، يلحقه التوبيخ بلسان الحال، فيقال له: ألم يأتكم رسل من أولياء زمانكم، يعرفون بنا في كل زمان؟ فيقولون: بلى، ولكن حقت علينا كلمة الحجاب، فيخلدون في القطيعة والحجاب، إلا في وقت مخصوص. وبالله التوفيق.

ثم ذكر أهل الخير، فقال:

﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾ وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وسيقَ الذين اتقوا ربهم ﴾ مساق إعزاز وتشريف، بلا إسراع ولاتكليف، إلى دار الكرامة والتعريف. قيل: يُساقون راكبين مبجلين، كما يجئ الوافدون إلى دار الملوك، يساقون ﴿ إلى الجنة زُمراً ﴾؛ جماعة متفاوتين، بحسب تفاوت مراتبهم في الفضل، وعلو الطبقة، ﴿ حتى إذا جاءوها وفُتِحتْ أبوابها ﴾ الثمانية. وقرئ بالتخفيف والتشديد(1). وجواب «إذا» محذوف؛ للإيذان بأن لهم من فنون الكرامة ما لا تُحيط به العبارة، كأنه قيل: حتى إذا جاءوها، وقد فتحت أبوابها، كان من الأمر والخبر ما يقصر عنه البيان. ﴿ وقال لهم خزنتُها سلامٌ عليكم طبتم ﴾؛ ظفرتم، وتقدستم في دار التقديس من كل دنس، وطبتم نفساً، بما أتيح لكم من النعيم والأمن، ﴿ فادْخُلوها خالدين ﴾، وحذف الواو في وصف أهل النار؛ لأن أبواب جهنم لاتفتح

---

(1) قرأ عاصم وحمزة الكسائي (فُتحت)، بتخفيف التاء، وقرأ الباقون بالتشديد، على التكثير. انظر الإتحاف (٢/٤٣٢).

لهم حتى يصلوا إليها، وفى وقوفهم قبل فتحها مذلة لهم، كما هى حال السجون، بخلاف أهل الجنة، فإنهم يجدونها مفتوحة، قال تعالى: ﴿مُفَتَّحَةً لَّهُمُ الْأَبْوَابُ﴾(١)، كما هى حال منازل الأفراح والسرور.

﴿وقالوا الحمدُ لله الذي صَدَقَنا وَعْدَهُ﴾ أى: أنجزنا ما وعدنا فى الدنيا من نعيم العقبى. ﴿وأورثنا الأرضَ﴾؛ أرض الجنة، أى: المكان الذى استقروا فيه، وقد أُورثوها وملكوها. وأطلق تصرفهم فيها كما يشاؤون [تشبيهاً](٢) بحال الوارث وتصرفه فيما يرثه، واتساعه فيها، ﴿نتبوأُ من الجنة حيث نشاءُ﴾ أى: يتخذ كل واحد منا جنة لاتوصف، سعة وزيادة على الحاجة، فيتبوأ أىَّ مكان أراده من جنته الواسعة، ﴿فَنِعمَ أجرُ العاملين﴾ فى الدنيا الجنة.

﴿وترى الملائكةَ﴾ حال كونهم ﴿حافِّينَ من حولِ العرش﴾ أى: محدقين به. و«من» لابتداء الغاية، أى: ابتداء حفوفهم من حول العرش إلى حيث شاء الله، أو: زائدة، ﴿يُسبِّحون بحمدِ ربهم﴾ أى: يقولون سبحان الله، والحمد لله، سُبوح قُدوس، رب الملائكة والروح. أو: ينزهونه تعالى عما لايليق به، ملتبسين بحمده. والمعنى: ذاكرين الله تعالى بوصفي جلاله وإكرامه، تلذذاً، وفيه إشعار بأن أقصى درجات العليين فى لذائذهم هو الاستغراق فى شهوده عز وجل.

﴿وقيل الحمدُ لله رب العالمين﴾ يقوله أهل الجنة شكراً لله حين دخلوها، وتَم وعد الله لهم: ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ كما قال: ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(٣).

الإشارة: وسيق الذين اتقوا ربهم حق تقاته إلى جنة المعارف، زُمراً، متفاوتين فى السير، على قدر تفاوتهم فى القريحة، والاعتناء، والتفرغ من الشواغل والعلائق. حتى إذا جاءوها وفُتحت أبوابها، بذهاب حجاب الكائنات، حتى بقى المكوّن وحده، كما كان وحده، وجدوا من الأسرار والأنوار مالا يدخل تحت دوائر العبارة، ولاتحيط به الإشارة. وقال لهم خزنتها، وهم شيوخ التربية، العارفون الله: سلام عليكم طبتم، أى: تقدستم من العيوب والأكدار، فادخلوها خالدين؛ لأن من وصل لايرجع أبداً، وما رجع من رجع إلا من الطريق. وقالوا: الحمد لله الذى صدقنا وعده، بأن أنجز لنا ما وعدنا من الوصول، على ألسنة المشايخ. قال فى الحِكَم: «سبحان من لم يجعل الدليل على أوليائه إلا من حيث الدليل عليه، ولم يوصل إليهم إلا من أراد أن يوصله إليه».

---

(١) من الآية ٥٠ من سورة ص.

(٢) ما بين المعقوفتين، ليس فى الأصول، وأثبته لاقتضاء السياق له.

(٣) من الآية ١٠ من سورة يونس.

وأَوَرَثنا أرضَ الوجود بأسره، نتبوأ من جنة المعارف، فى أقطار الوجود، بفكرتنا وهمتنا، حيث نشاء، فنِعم أجر العاملين. وترى الملائكة حافين من حول العرش، أى: قلب العارف؛ لأنه بيت الرب، ومحل قرار نوره، فيحفونه بالحفظ والرعاية من دخول الأغيار، وينُزهون الله عن الحلول والاستقرار . وقُضى بينهم بالحق، فعزلت الشياطين عن قلوب الذاكرين، وتسلطت على قلوب الغافلين، والحمد لله رب العالمين، حيث لم يظلم أحداً من العالمين.

❁ ❁ ❁

سورة غافر (*)

مكية[1]. وآيها: خمس ـ أو ثمان ـ وثمانون آية[2]، ومناسبتها لما قبلها قوله: ﴿غافر الذنب...﴾ الخ، فإنها فذلكة لما تقدم من أحوال المحشر؛ لأن منهم من غُفرت ذنوبه، وقُبلت توبته، فسيق إلى الجنة، وتطاولت عليه النّعم، ومنهم من شُدِدَ عقابه، ورُدت عليه محاسنه، فسيق إلى النار، قال تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَـٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝٢ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ۝٣ مَا يُجَـٰدِلُ فِىٓ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ۝٤ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿حمٓ﴾ أي: يا محمد. فاقتصر على بعض الحروف، ستراً عن الوشاة، كعادة العُشاق في ذكر محبوبهم، يرموزن إليه ببعض حروفه. وقال ابن عطية: سأل أعرابي النبيَّ ﷺ عن «حم» ماهو؟ فقال: «بدء أسماء وفواتح سور»[3] وفي حديث: «إذا بُيِّتم فقولوا: حم لاينصرون» قال أبو عبيد: كأن المعنى: اللهم لاينصرون. قلت: لايبعد أن يكون توسل بحبيب الله على هزم الأعداء. وعن ابن عباس: (أنه اسم الله الأعظم). هـ. وكأنه مختصر من «حي قيوم».

﴿تنزيلُ الكتاب﴾ أي: هذا تنزيل القرآن ﴿من الله العزيزِ العليم﴾ أي: العزيز بلسطانه، الغالب على أمره، العليم بمن صدّق به وكذّب. وهو تهديد للمشركين، وبشارة للمؤمنين. والتعرض لوصفي العزة والعلم للإيذان بظهور أثريهما في الكتاب؛ لظهوره عزه وعز من تمسك به، ولاشتماله على علوم الأولين والآخرين.

(*) في الأصول: [سورة المؤمن].

(1) قال السيوطي في الدر المنثور (٥/٦٤٣): أخرج ابن الضريس، والنحاس والبيهقي في الدلائل، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما، قال: «أنزلت الحواميم السبع بمكة».

(2) قال الداني في «البيان في عد آي القرآن» ص ٢١٨: «وهي ثمانون وثنتان في البصري، وأربع في المدنيين والمكي، وخمس في الكوفي، وست في الشامي». هذا ولم أقف على من قال أنها ثمان وثمانون آية.

(3) ذكره في المحرر الوجيز (٤/٥٤٥) والبحر المحيط (٧/٤٢٩).

﴿ غافرِ الذنبِ ﴾ أى: ساتر ذنب المؤمنين ؛﴿ وقابلِ التَّوْبِ ﴾ وقابل توبة الراجعين ﴿ شديدِ العقاب ﴾ للمخالفين، ﴿ ذي الطَّوْلِ ﴾ على العارفين، أى: الفضل التام على العارفين، أو: ذى الغنى عن الكل. وعن ابن عباس: (غافر الذنب، وقابل التوب، لمن قال: «لا إله إلا الله، شديد العقاب لمن لم يقل لا إله إلا الله)(١).

والتَّوب: مصدر، كالتوبة. ويقال: تاب وثاب وآب، أى: رجع، فإن قلتَ: كيف اختلفت هذه الصفات تعريفًا وتنكيراً، والموصوف معرفة، وهو الله؟ قلتُ: أما ﴿غافر الذنب وقابل التَّوب﴾ فمعرفتان؛ لأنه لم يُرِدْ بهما حدوث الفعلَين حتَى يكون فى تقدير الانفصال، فتكون إضافتهما غير حقيقية، وإنما أُريد ثبوت ذلك ودوامه. وأما ﴿شديد العقاب﴾ فهو فى تقدير: شديد عقابُه، فيكون نكرة، فقيل: هو بدل، وقيل: كلّها أبدال غير أوصاف. وإدخال الواو فى ﴿قابل التوب﴾ لنكتة، وهى: إفادة الجمع للمذنب التائب بين رحمتين: بين قبول توبته، فتُكتب له طاعة، وبين جعلها ماحية للذنوب، كأن لم يُذنب، كأنه قال: جامع المغفرة والقبول. وفى توحيد صفة العذاب مغمورة بصفات النعمة دليل سبقها ورجحانها، «إن رحمتى سبقت غضبى»(٢).

قال القشيرى: سُنّةُ الله تعالى: إذا خوَّف العبادَ باسْمٍ، أو لفظٍ، تدارَك قلوبَهم بأن يُبشِّرهم باسْمَين أو وَصْفَيْن .هـ. رُوى: أن عمر رضي الله عنه افتقد رجلاً ذا بأسٍ شديد، من أهل الشام، فقيل له: تابَع هذا الشراب، فقال لكاتبه: اكتب: من عمر إلى فلان، سلام الله عليك، وأنا أحمد إليك الله، الذى لا إله إلا هو، بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ حم... ﴾ إلى قوله: ﴿ إليه المصير ﴾ وختم الكتاب، وقال لرسوله: لاتدفعه إليه حتى تجده صاحياً، ثم أمر من عنده بالدعاء له بالتوبة، فلما أتته الصحيفة، جعل يقرؤها، ويقول: قد وعدنى الله أن يغفر لى، وحذَّرنى من عقابه، فلم يبرح يردّدها حتى بكى. ثمّ نزع، فأحسن النزوع، وحسنت توبته. فلما بلغ عمر رضي الله عنه أمرُه، قال: «هكذا فاصنعوا، إذا رأيتم أخاكم قد زلَّ فسدِّدوه، وادعو له الله أن يتوب عليه، ولا تكونوا أعواناً للشيطان عليه»(٣) أى: بالدعاء عليه هـ.

﴿ لا إله إلا هو ﴾ أى: فيجب الإقبال الكلى عليه، وهو: إما استئناف، أو: صفة لذى الطَّوْل، ﴿ إليه المصيرُ ﴾ أى: المرجع، فيُجازى كُلاًّ من العاصى والمطيع. قال القشيرى: إذا كان إلى الله المصير فقد طاب المسير.

﴿ مايُجادل في آيات الله ﴾ أى: ما يُخاصم فيها بالطعن فيها، واستعمال المقدمات الباطلة؛ لإدحاض الحق المشتملة عليه، ﴿ إلا الذين كفروا ﴾، وأما الذين آمنوا فلا يخطر ببالهم شائبة شُبهة منها، فضلاً عن الطعن فيها،

---

(١) ذكره البغوى فى التفسير (١٣٨/٧).

(٢) جزء من حديث صحيح، أخرجه البخارى فى (التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿بل هو قرآن مجيد﴾ ح ٧٥٥٤) ومسلم فى (التوبة، باب في سعة رحمة الله تعالى، رقم ٤٧٥١، ح١٥) من حديث أبى هريرة رضي الله عنه.

(٣) رواه أبو نعيم فى الحلية (٩٧/٤).

وأما الجدال فيها لحل مشكلاتها، وكشف حقائقها، وتوضيح مناهج الحق منها، وردّ مذاهب أهل الزيغ بها، فمِن أعظم الجهاد في سبيل الله.

قال الطيبي: وأما اتصال قوله: ﴿ما يُجادل في آيات الله...﴾ الآية بما قبله، فهو أنه لمّا قال تعالى: ﴿حم تنزيل الكتاب﴾ من الإله المعبود، الموصوف بصفات العلم الكامل، والعز الغالب، الجامع بين غفران الذنب وقبول التوبة، المتفرد بالعقاب، الذي لايقدّر كنهه، وبالإفضال الذي لايبلغ قدره، قال: ﴿ما يُجادل في آيات الله﴾ أي: ما يجادل في مثل هذا الكتاب، المشتمل على الآيات البينات، المنزل من مثل ذلك الموصوف بنعوت الكمال، إلا أمثال هؤلاء الكفرة المغرورين، ﴿فلا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهم في البلاد﴾ فإنه استدراج، فلا يَغْرُر مثلك في منصب الرسالة تَقَلُّبُ أولئك تقلبَ الأنعام، المنعَّمين في هذا الحطم. وآيات الله: مُظْهَر أُقيم مقام المُضمر؛ للتعظيم والتفخيم. هـ.

والفاء لترتيب النهي عن الاغترار على ما قبله من التسجيل عليهم بالكفر، الذي لاشيء أمقت منه عند الله، ولا أجلب لخسران الدنيا والآخرة، فإنّ من تحقق ذلك لايكاد يغتر بما لهم من الحظوظ الفانية، والزخارف الدنيوية، فإنهم مأخوذون عما قليل، كما أُخذ من قبلهم. ولذلك ذكرهم بقوله: ﴿كذبت...﴾ الخ.

الإشارة: «حم» أي: بحلمي ومجدي تجليت في كلامي، المنزل على حبي، وهو تنزيل الكتاب من الله العزيز، المُعز لأوليائه، العليم بما كان وما يكون منهم، فلا يمنعه عِلْمه عما سلف من قضائه. غافرُ الذنب لمن أصرّ واجترم، وقابلُ التوب لمن تاب واحتشم، شديد العقاب لمن جحد وكفر، ذي الطول لمن توجه ووصل، ويقال: غافر الذنب للغافلين، وقابل التّوب للمتوجهين، شديد العقاب للمنكرين، ذي الطول للعارفين الواصلين. لا إله إلا هو، فلا موجود معه، إليه المصير بالسير في ميادين النفوس، حتى يحصل الوصول إلى حضرة القدوس. ما يُجادل في آيات الله، وهم أولياء الله، الدالون على الله، إلا أهلُ الكفر بوجود الخصوصية. قال القشيري: إذا ظهر البرهانُ، واتّضح البيانُ استسلمتْ الألبابُ الصاحيةُ للاستجابة والإيمان. وأمّا أهلُ الكفر فلهم على الجحود إصرارٌ، وشُؤْمُ شِرْكهم يحولُ بينهم وبين الإنصاف، وكذلك من لايحترم أولياء الله، يُصَرُّون على إنكارهم تخصيصَ الله عباده بالآيات، ويعترضون عليهم بقلوبهم، فيُجادلون في جَحْد الكرامات، وسيفتضحون، ولكنهم لايُميزون بين رجحانهم ونقصانهم. هـ.

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ

عِقَابِ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٦﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ كذبتْ قبلهم قومُ نوحٍ ﴾ نوحاً، ﴿ والأحزابُ ﴾ أي: الذين تحزّبوا على الرسل، وناصبوهم العداوة، ﴿ مِن بعدِهم ﴾ أي: من بعد قوم نوح، كعاد، وثمود، وقوم لوط، وأضرابهم، ﴿ وهمَّتْ كلُ أمّةٍ ﴾ من تلك الأمم الماضية ﴿ برسولهم ليأخذوه ﴾؛ ليتمكنوا منه، فيُصيبوا ما أرادوا من تعذيب أو قتل. والأخذ: الأسر. ﴿ وجادلوا بالباطل ﴾ الذي لا أصل له، ولا حقيقة لوجوده، ﴿ ليُدْحِضُوا به الحقَّ ﴾؛ ليُبطلوا به الحق الذي جاءت به من الإيمان وغيره، ﴿ فأخَذتهُم ﴾ بسبب ذلك أخذاً وبيلاً، ﴿ فكيف كان عقابِ ﴾ الذي عاقبتهم به، فإنَّ آثار ديارهم عرضه للناظرين، وسآخذ هؤلاء أيضاً؛ لاتحادهم في السيرة، واشتراكهم في الجريرة، كما ينبئ عنه قوله:

﴿ وكذلك حقَّتْ كلمتُ ربك ﴾ أي: كما وجب حُكم الله تعالى وقضاؤه بالتعذيب على أولئك الأمم المكذِّبة، المجترئة على رسلهم، المجادلة بالباطل لإدحاض الحق، وجب أيضاً ﴿ على الذين كفروا ﴾ بك، وتحزّبوا عليك، وهَمُّوا بما لم ينالوا، كما يُنبئ عنه إضافة إسم الرب إلى ضميره ﷺ؛ فإن ذلك للإشعار بأنَّ وجوب كلمة العذاب من أحكام التربية، التي من جملتها: نصرته ﷺ، وتعذيب أعدائه، وذلك إنما يتحقق بكون الموصول عبارة عن كفار قومه، لا عن الأمم المهلكة.

وقوله تعالى: ﴿ أنهم أصحاب النار ﴾ في حيز النصب، بحذف لام التعليل، أي: لأنهم مستحقو أشد العقوبات وأفظعها، الذي هو عذاب النار، وملازمتها أبداً، لكونهم كفاراً معاندين، متحزّبين على الرسول ﷺ، كدأب مَن قبلهم مِن الأمم المهلَكة، وقيل: إنه في محل رفع، على أنه بدل من «كلمة ربك»، والمعنى: ومثل ذلك الوجوب وجب على الكفرة المهلكة كونهم من أصحاب النار، أي: كما وجب إهلاكهم في الدنيا بعذاب الاستئصال؛ وجب تعذيبهم في الآخرة بعذاب النار، ومحل الكاف من (كذلك) على التقديرين: النصب، على أنه نعت لمصدر محذوف.

الإشارة: الأولياء على قَدم الرسل، فكل ما لحق الرسل من الإيذاء يلحق الأولياء، فقد كُذّبت، وتحزّب عليهم أهلُ عصرهم، وهمّوا بأخذهم، وجادلوا بالباطل ليُدحضوا نورَ الله بأفواههم، والله مُتمُ نوره، فأخذهم الله بالخذلان والبُعد، والخلود في نار القطيعة والحجاب، والعياذ بالله.

ثم ذكر شرف الإيمان وأهله، فقال:

﴿ ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْۖ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٩﴾ ﴾

قلت: (الذين): مبتدأ، و(يُسبّحون): خبره، والجملة: استئناف مسوق لتسلية الرسول ﷺ ببيان أن «أشراف»[1] الملائكة ـ عليهم السلام ـ مثابرون على ولاية من معه من المؤمنين، ونصرتهم، واستدعاء ما يُسعدهم فى الدارين.

يقول الحق جل جلاله: ﴿الذين يحملون العرش﴾ على عواتقهم – وهم محمولون أيضاً بلطائف القدرة، ﴿ومَن حَوْله﴾ أى: الحافين حوله، وهم الكروبيون، سادات الملائكة، وأعلى طبقاتهم. قال ابن عباس: حملة العرش ما بين كعب أحدهم إلى أسفل قدميه مسيرة خمسمائة عام[2]، وقيل: أرجلهم فى الأرض السفلى، ورؤوسهم خرقت العرش، وهم خشوعٌ، لا يرفعون طرفهم، وهم أشد خوفاً من سائر الملائكة[3].

وقال أيضا: لمّا خلق الله حملة العرش، قال لهم: احملوا عرشى؛ فلم يطيقوا، فخلق الله مع كل ملك من أعوانهم مثل جنود مَن فى السموات ومَن فى الأرض من الخلق، فقال لهم: احملوا عرشى، فلم يطيقوا، فخلق مع كل واحد منهم مثل جنود سبع سموات وسبع أرضين، وما فى الأرض من عدد الحصى والثرى، فقال: احملوا عرشى، فلم يطيقوا، فقال: قولوا: لاحول ولاقوة إلا بالله العلى العظيم، فقالوها، فاستقلوا عرش ربنا، أى: لمّا حملوه بالله أطاقوه،

---

(١) فى الأصول الخطية [أشرف] والمثبت من تفسير أبى السعود.

(٢) عزاه فى الدر المنثور (٥/٦٤٨) لعبد ابن حميد، وابن مردويه، والبيهقى فى الأسماء والصفات.

(٣) عزاه فى الدر المنثور (٥/٦٤٨) لعبد بن حميد، عن ميسرة.

فلم يحمل عرشه إلا قدرته، وفى الحديث: «إن الله أمر جميع الملائكة أن يَغدُوا، ويَرُوحوا بالسلام على حملة العرش، تفضيلاً لهم على سائر الملائكة» .(١)

وقال وهب بن منبه: حول العرش سبعون ألف صف من الملائكة، صف خلف صف، يدورون حول العرش، يطوفون به، يُقبل هؤلاء، ويُدبر هؤلاء، فإذا استقبل بعضهم بعضاً، هلّل هؤلاء، وكبّر هؤلاء، ومِن ورائهم سبعون ألف صف قيام، أيديهم إلى أعناقهم، قد وضعوها على عواتقهم، فإذا سمعوا تكبير هؤلاء وتهليلهم، رفعوا أصواتهم، فقالوا: سبحانك وبحمدك ما أعظمك وأجلّك، أنت الله لا إله غيرك، أنت الأكبر، الخلقُ كلهم راجون رحمتك، ومِن وراء هؤلاء مائة ألف صف من الملائكة، قد وضعوا اليمنى على اليسرى، ليس منهم أحد إلا يُسبح الله - تعالى - بتسبيح لايُسبحه الآخر، ما بين جناحي أحدهم مسيرة ثلاثمائة عام، واحتجب الله عز وجل ـ بينه وبين الملائكة الذين هم حول العرش - بسبعين حجاباً من ظُلمة، وسبعين حجاباً من نور، وسبعين حجاباً من دُرٍّ أبيض، وسبعين حجاباً من ياقوتٍ أحمر، وسبعين حجاباً من زمُردٍ أخضر، وسبعين حجاباً من ثلجٍ، وسبعين حجاباً من ماءٍ، إلى ما لا يعلمه إلا الله تعالى هـ(٢).

قلت: لمّا أظهر الله العرشَ تجلى بنورٍ جبروتي رحموتي، استوى به على العرش، كما يتجلى يوم القيامة لفصل القضاء، ثم ضرب الحُجب بين هذا التجلي الخاص وبين الملائكة الحافين، ولايلزم عليه حصر ولاتجسيم؛ إذ تجليات الذات العالية لاتنحصر، وليست هذه الحُجُب بين الذات الكلية وبين الخلق؛ إذ لا حجاب بينها وبين سائر المخلوقات إلا حجاب القهر والوهم.

واختُلف فى هيئة العرش، فقيل: إنه مستدير، والكون كله فى جوفه كخردلة فى الهواء، حتى قيل: هو الفلك التاسع، وقيل: هو منبسط كهيئة السرير، وله سوارى وأعمدة، وهو ظاهر الأخبار النبوية. رَوى جعفرُ الصادق عن أبيه عن جده، أنه قال: إن بين القائمة من قوائم العرش والقائمة الثانية من خفقان الطير المسرعة قياس ألف عام، وإن ملَكاً يقال له: حزقائيل، له ثمانية عشر ألف جناح، ما بين الجناح والجناح خمسمائة عام، فأوحى الله إليه: أن طِرْ، فطار مقدار عشرين ألف سنة، فلم ينل رأسُه قائمةً من قوائم العرش، ثم طار مقدار ثلاثين ألف سنة فلم ينلها، فأوحى الله إليه: لو طرت إلى نفخ الصور لم تبلغ ساق عرشي. هـ. مختصرا.

وفى حديث آخر: «إن بين القائمة والقائمة من قوائم العرش ستين ألف صحراء، فى كل صحراء ستون ألف عالم، فى كل عالم قدر الثقلين» . ومع هذا كله يسعه قلب العارف حتى يكون فى زاوية منه؛ لأنه محدود، وعظمة

---

(١) قال الحافظ ابن حجر: لم أجده. انظر الكافى الشاف (ص ١٤٤، ح ٣٣٧).

(٢) انظر تفسير البغوى (٧/ ١٤٠ ـ ١٤١) وزاد المسير (٧/ ٢٠٨).

الحق غير محدودة، وقلب العارف قد تجلت فيه عظمة الحق، فوسعها، بدليل الحديث: «لن تسعنى أرضى ولاسمائى، ووسعنى قلب عبدى المؤمن»(١)، أى: الكامل.

ثم أخبر تعالى عن حمَلة العرش ومَن حوله بقوله: ﴿ يُسَبِّحُونَ بحمد ربهم ﴾ أى: ينزهونه تعالى عما لا يليق بشأنه الجليل، ملتبسين بحمده على نعمائه التى لاتتناهى، ﴿ ويؤمنون به ﴾ إيماناً يناسب حالهم. وفائدة ذكره مع علمنا بأن حملة العرش ومَنْ حوله الذين يُسبّحون بحمد ربهم مؤمنون؛ إظهار لشرف الإيمان وفضيلته، وإبراز لشرف أهله، والترغيب فيه، كما وصف الأنبياء فى بعض المواضع بالصلاح. وفيه تنبيه على أن الملائكة لم يحصل لهم العيان، وإنما وُصفوا بالإيمان بالغيب، وهم طبقات: منهم العارفون أهل العيان، ومنهم أهل الإيمان.

ثم قال تعالى: ﴿ ويستغفرون للذين آمنوا ﴾ أى: ويستغفرون لمن شاركهم فى حالهم من الإيمان، وفيه دليل على أن الإشراك يجب أن يكون أدعى شيء إلى النصيحة والشفقة، وإن تباعدت الأماكن، وفى نظم استغفارهم لهم فى سلك وظائفهم المفروضة عليهم، من تسبيحهم، وتحميدهم، وإيمانهم، إيذان بكمال اعتنائهم به، وإشعار بوقوعه عند الله - تعالى - موقع القبول.

﴿ ربَّنا ﴾ أى: يقولون: ربنا، إمّا بيان لاستغفارهم، أو حال، ﴿ وَسِعْتَ كلَّ شيء رحمةً وعلماً ﴾ أى: وسعت رحمتُك وعلمك كلَّ شيء، فأزيل الكلام عن أصله، بأن أسند الفعل إلى صاحب الرحمة والعلم، ونُصبا على التميز، مبالغةً فى وصفه - تعالى - بالرحمة والعلم، وفى عمومهما، وتقديم الرحمة؛ لأنها السابقة والمقصودة هنا، ﴿ فاغفرْ للذين تابوا ﴾ أى: للذين علمتَ منهم التوبة، ليُناسب ذكر الرحمة، ﴿ واتَّبعُوا سبيلَك ﴾ أى: طريق الهُدى التى دعوت إليها. والفاء لترتيب الدعاء على ما قبلها من سعة الرحمة والعلم، ﴿ وقِهِم عذابَ الجحيم ﴾ أى: احفظهم منه، وهو تصريح بعد إشعار؛ للتأكيد.

﴿ ربنا وأَدْخِلهم جنات عدنٍ التي وعدتَّهم ﴾ إياها، ﴿ ومَن صَلَحَ من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم ﴾ أى: صلاحاً مصححاً لدخول الجنة فى الجملة، وإن كانوا دون صلاح أصولهم، و(مَن): عُطف على ضمير (وعدتهم)، أى: وأَدْخل معهم هؤلاء؛ ليتم سرورهم، ويتضاعف ابتهاجهم. قال سعيد بن جبير: (يدخل الرجل الجنة، فيقول: أين أبى؟ أين أمى؟ أين ولدى؟ أين زوجتى؟ فيقال له: لم يعملوا مثل عملك، فيقول: كنتُ أعمل لى ولهم، فيقال: أدخلوهم الجنة)(٢). وسبق الوعد بالإدخال والإلحاق لا يستدعى حصول الموعود بلا توسط شفاعة واستغفار، وعليه بنى قول من قال: فائدة الاستغفار للمنيب الكرامة والثواب. انظر أبا السعود.

(١) ذكره الغزالى فى الإحياء (١٦/٣)، قال العراقى فى المغنى: «ليس له أصل» وقال القارى فى الأسرار المرفوعة (ص ٣١٠): «ليس له إسناد معروف عن النبى ﷺ». والحديث وجدته بنحوه عند الديلمى فى الفردوس (١٧٤/٣ ح ٤٤٦٦) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه لفظه: «لايسعنى شيء ووسعنى قلب عبدى المؤمن اللين الوادع إذا ألبسته لبسة أحبائى...» الحديث.
(٢) أخرجه ابن جرير (٤٥/٢٤).

﴿إنك أنت العزيزُ الحكيم﴾ أى: الغالب الذى لايمتنع عليه مقدور، وأنت مع مُلكك وعزتك لاتفعل شيئاً خالياً عن حكمة، وموجب حكمتك أن تفي بوعدك.

﴿وقِهِمُ السيئاتِ﴾ أى: جزاء السيئات، وهو العذاب، أو: المعاصى فى الدنيا، ﴿ومن تَقِ السيئاتِ يومئذ فقد رَحِمْتَه﴾ أى: ومن تقه عقاب السيئات يومئذ فقد رحمته، أو: ومن تقه المعاصى فى الدنيا فقد رحمته فى الآخرة، وكأنهم طلبوا لهم السبب بعد ما طلبوا المسبّب، ﴿وذلك هو الفوزُ العظيم﴾؛ الإشارة إلى الرحمة المفهومة من رحمته، أو: إليها وإلى الوقاية، أى: ذلك التوقى هو الفوز العظيم الذى لا مطمع وراءه لطامع.

الإشارة: العرش وحملته، والحافّون به محمولون بلطائف القدرة؛ لا حاملون فى الحقيقة، بل لا وجود لهم مع الحق، وإنما هم شعاع من أنوار الذات الأقدس وتجلٍّ من تجلياتها.

وقوله تعالى: ﴿يسبحون بحمد ربهم﴾، قال الورتجبى: يُسبّحون الله بما يجدونه من القدس والتنزيه، حمداً لأفضاله، وبأنه منزه عن النظير والشبيه، ويؤمنون به فى كل لحظة، بما يرون منه من كشوف صفات الأوليات، وأنوار حقائق الذات، التى تطمس فى كل لمحة مسالك رسوم العقليات، وهم يقُرون كل لحظة بجهلهم عن كنه معرفة وجوده، ثم بيّن أنهم أهل الرأفة، والرحمة، والشفقة على أوليائه، لأنهم إخوانهم فى نسب المعرفة والمحبة. انظر تمامه.

والحاصل: أنهم مع تجلى أنوار ذاته، قاصرون عن كنهه، وحقيقة ذاته، وغايتهم الإيمان به. قاله فى الحاشية. قلت: والتحقيق أن المقربين منهم تحصل لهم المعرفة العيانية، والرؤية للذات فى مظاهر التجليات، كما تحصل لخواص الأولياء فى الدنيا، ولكن معرفة الآدمى أكمل؛ لاعتدال حقيقته وشريعته، لمّا اعتدل فيه الضدان، وأما معرفة الملائكة فتكون مائلة لجهة الشكر والهيمان؛ للطافة أجسامهم، فمثلهم كالمرآة بلا طلاء خلفها، وأمّا ما ورد فى بعض الأخبار: أن جبريل لم ير الله قط قبل يوم القيامة، فلا يصح؛ إلا أن يُحمل على أنه لم يره من غير مظهر، وهذا لايمكن له ولا لغيره، وأما رؤيتهم الله يوم القيامة فهم كسائر المؤمنين، يرونه على قدر تفاوتهم فى المراتب والقُرب.

قال إمام أهل السنة، أبو الحسن الأشعرى رضي الله عنه، فى كتاب «الإبانة فى أصول الديانة»: أفضل اللذات لأهل الجنة رؤية الله تعالى، ثم رؤية نبيه ﷺ، فلذلك لم يحرم الله أنبياءه المرسلين، وملائكته المقربين، وجماعة المؤمنين، والصدّيقين النظرَ إلى وجهه تعالى. هـ. وفى الآية حث على الدعاء للمؤمنين بظهر الغيب، والاستغفار لهم، وهو من شأن الأبدال، أهل الرحمة لعباد الله، اقتداءً بالملأ الأعلى.

ثم شفع بضد أهل الإيمان، فقال:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ ۚ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾ ﴾

يقول الحق جلا جلاله: ﴿ إن الذين كفروا يُنادَوْنَ ﴾ يوم القيامة، من قِبل الخزنة - وهم فى النار: ﴿ لَمقْتُ الله ﴾ إياكم اليوم، وإهانته لكم، ﴿ أكْبرُ من مقتكم أنفسكُم ﴾ فى الدنيا، حيث حرمتموها الإيمان وعرضتموها للهوان، ﴿ إذْ تُدْعَون إلى الإيمان ﴾ من قِبَل الرسل ﴿ فتكفرون ﴾، والحاصل: أنهم مقتوا أنفسهم فى الدنيا، وأهانوها، حيث لم يؤمنوا، فإذا دخلوا النار حصل لهم من المقت والغضب من الله أشد وأعظم من ذلك، فـ «إذا»: ظرف للمقت الثانى، لا الأول، على المشهور.

﴿ قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين ﴾ أى: إماتتين وإحياءتين، أو: موتتين وحياتين. قال ابن عباس: كانوا أمواتاً فى الأصلاب، ثم أحياهم، ثم أماتهم الموتة التى لابُد منها، ثم أحياهم للبعث يوم القيامة، وهذا كقوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُم...﴾ الآية[1]. قال السدى: أُميتوا فى الدنيا، ثم أُحْيُوا فى قبورهم للسؤال، ثم أُميتوا فى قبورهم، ثم أُحيوا فى الآخرة.

والحاصل: أنهم أجابوا: بأن الأنبياء دعوهم إلى الإيمان بالله واليوم الآخر، وكانوا يعتقدون ما يعتقده الدهرية: ألاّ حياة بعد الموت، فلم يلتفتوا إلى دعوتهم، وداموا على الإنكار، فلمّا رأوا الأمر عياناً، اعترفوا. ووجه مطابقة قوله: ﴿قالوا ربنا...﴾ إلخ لِما قبله: الإقرار بما كانوا منكرين له من البعث، الذى أوجب لهم المقت والعذاب؛ طمعاً فى الإرضاء له بذلك؛ ليتخلصوا من العذاب، ولذلك قالوا: ﴿ فاعترفنا بذنوبنا ﴾، لمّا رأوا الإماتة والإحياء قد تكرر عليهم، علِموا أن الله قادر على الإعادة، كما هو قادر على الإنشاء، فاعترفوا بذنوبهم التى اقترفوها من إنكار

(١) من الآية ٢٨ من سورة البقرة. وانظر تفسير البغوى (٧/١٤٢).

البعث وما يتبعه من جرائمهم. ومقصدهم بهذا الإقرار: التوسل بذلك إلى ما علّقوا به أطماعهم الفارغة من الرجوع إلى الدنيا، كما صرحوا به فى قولهم: ﴿فهل إلى خُروج﴾ أى: نوع من الخروج، سريع أو بطىء، ﴿من سبيل﴾ أو: لاسبيل إليه قط. وهذا كلامُ مَن غلب عليه اليأس، وإنما يقولون ذلك تحيّراً، مع نوع استبعاد واستشعار يأس منه، ولذلك أُجيبوا بقوله:

﴿ذلكُم﴾ أى: ذلكم الذى أنتم فيه من العذاب، وألاّ سبيل إلى الخروج، ﴿بأنه﴾ أى: بسبب أن الشأن ﴿إذا دُعِىَ الله﴾ فى الدنيا، أى: عُبد ﴿وَحْدَه﴾ منفرداً ﴿كفرتم﴾ بتوحيده، ﴿وإن يُشْرَكْ به تؤمنوا﴾ بالإشراك وتُسارعوا فيه، أى: كنتم فى الدنيا تكفرون بالإيمان، وتُسارعون إلى الشرك. قيل: والتعبير بالاستقبال، إشارة إلى أنهم لو رُدوا لعادوا، وحيث كان حالكم كذلك، ﴿فالحُكم لله﴾ الذى لايحكم إلا بالحق، ولا يقضى إلا بما تقتضيه حكمته، ﴿العَلِىّ﴾ شأنه، فلا يُردّ قضاؤه، أو: فالحكم بعذابكم وتخليدكم فى النار لله؛ لا لتلك الأصنام التى عبدتموها معه، ﴿الكبيرِ﴾: العظيم سلطانه، فلا يُحدّ جزاؤه. وقيل: إنّ الحرورية[1] أخذوا قولهم: لا حكم إلا لله، من هذه الآية. قال علىّ رضي الله عنه لمّا سمع مقالتهم: كلمة حق أُريد بها باطل. هـ.

الإشارة: إنّ الذى كفروا بطريق الخصوص، وأنكروا وجود التربية، حتى ماتوا محجوبين عن الله، وبُعثوا كذلك، يُنادون يوم القيامة بلسان الحال: لمقتُ الله لكم اليوم - حيث سقطتم عن درجات المقربين - أكبرُ من مقتكم أنفسكم، حيث حرمتموها معرفة العيان ومقام الإحسان، حين كنتم تُدْعون إلى تربية الإيمان، وتحقيق الإيقان، على ألسنة شيوخ التربية، فتكفرون وتقولون: انقطعت التربية منذ زمان، ثم يطلبون الخروج من عالم الآخرة إلى عالم الدنيا، ليحصلوا المعرفة التى فاتتهم، فيقال لهم: هيهات، قد فات الإبّان[2]، «الصيفَ ضيعتِ اللبن»[3]. فامكثوا فى حجابكم، ذلكم بأنه إذا دُعى الله وحده، وأن لا موجود سواه، كفرتم بإنكاركم سبيله، وهى طريق التجريد والتربية، وإن يُشرك به بالتعمق فى الأسباب، والمكث فيها، تؤمنوا. والحاصل: أنهم كانوا يُنكرون طريق التجريد، ويؤمنون بطريق الأسباب، فالحُكم لله العلى الكبير، فيرفع من يشاء، ويضع من يشاء بعلوه وكبير شأنه.

---

(١) الحرورية: طائفة من الخوارج، تنسب إلى «حرور»، اسم قرية بالكوفة. انظر اللسان (حرر ٢/٨٣١).

(٢) إبّان كل شىء: وقته وحينه الذى يكون فيه. انظر اللسان (ابن ١/١٢).

(٣) هذا مثل. والتاء من «ضيعت» مكسورة فى كل حال، إذا خوطب به المذكر والمؤنث والاثنان والجمع، لأن المثل فى الأصل خوطبت به امرأة، وهى دختنوس بنت لقيط بن زرارة، كانت تحت عمرو بن عمرو بن عدس، وكان شيخاً كبيراً، ففركته (كرهته) فطلقها، ثم تزوجها فتى جميل الوجه، وأجدبت، فبعثت إلى عمرو تطلب منه حلوبة، فقال عمرو: «فى الصيف ضيعت اللبن»، فلما رجع الرسول، وقال لها ما قال عمرو، ضربت يدها على منكب زوجها، وقالت: «هذا ومذقه خير»، تعنى أن هذا الزوج مع عدم اللبن خير من عمرو، فذهبت كلماتهما مثلاً. انظر مجمع الأمثال للميدانى (٢/٤٣٤).

ثم برهن على علو شأنه بقوله:

﴿ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ (١٣) فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (١٤) رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ (١٥) يَوْمَ هُم بَارِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ ۚ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦) الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (١٧) ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿هو الذى يُريكم آياته﴾ الدالة على كبريائه، وكمال قدرته، من الرياح، والسحاب، والرعد، والبرق، والصواعق، وغير ذلك، لتستدلوا على ذلك، وتعملوا بموجبها، فتُوحدوه تعالى، وتخصوه بالعبادة، ﴿ويُنزّل لكم من السماء رزقاً﴾؛ مطراً؛ لأنه سبب الرزق. وأفرده بالذكر مع كونه من جملة الآيات؛ لتفرده بكونه من آثار رحمته، وجلائل نِعَمه الموجبة للشكر؛ إذ به قوام الحيوانات بأسرها. وصيغة المضارع فى الفعلين؛ للدلالة على تجدد الإراءة والتنزيل، واستمرارهما. ﴿وما يتذكَّرُ إلا من يُنيب﴾ أى: وما يتعظ ويعتبر بهذه الآيات الباهرة، ويعمل بمقتضاها إلا مَن يتوب ويرجع عن غيه إلى الله تعالى، فيتفكر فيما أودعه فى تضاعيف مصنوعاته من شواهد قدرته الكاملة، ونِعَمه الشاملة. وأما المعاند فلا يتعظ ولا يعتبر؛ لسفح الران على قلبه.

وإذا كان الأمر كما ذكرنا، من اختصاص التذكير بمن ينيب، ﴿فادْعُوا الله﴾، أو: تقول: لمَّا ذكر أحوال المشركين، وأراد أن يشفع بأضدادهم، جعل قوله: ﴿هو الذى يُريكم آياته..﴾ الخ، توطئة لقوله: ﴿فادعوا الله﴾ أى: اعبدوه ﴿مخلِصين له الدينَ﴾ من الشرك الجلى والخفى، بموجب إنابتكم إليه تعالى وإيمانكم، ﴿ولو كَرِهَ الكافرون﴾؛ وإن غاظ ذلك أعداءكم، ممن لم يتب مثلكم، فإن الله يُكرم مثواكم، ويرفع درجاتكم، فإنه ﴿رفيعُ الدرجات﴾ أى: رافع درجات أوليائه المؤمنين، الداعين إليه، المخلصين فى الدنيا والآخرة، فى الدنيا بالعز والنصر، وفى الآخرة بالقُرب والاختصاص، أو: رفيع السموات التى هى مصاعد الملائكة، ومهابطها، للسفارة بين

المرسِل والمرسَل إليه، وهو كالمقدمة لقوله: ﴿يُلقى الروح...﴾ الخ. هذا على أنه اسم فاعل، مبالغة، وقيل: هو صفة مشبهة أُضيفت إلى فاعلها، أى: رفيعٌ درجاتُه بالعلو والقهرية.

﴿ذو العرش﴾ أى: مالكه، وهما خبران آخران عن ﴿هو الذى...﴾ الخ، إيذاناً بعلو شأنه، وعظم سلطانه، الموجبين لتخصيص العبادة به، وإخلاص الدين له بطريق الاستشهاد بهما عليهما؛ فإنّ ارتفاع الدرجات والاستيلاء على العرش - مع كون العرش محيطاً بأكناف العالم العلوى والسفلى، وهو تحت ملكوته وقبضة قهره مما يقضى بكون علو شأنه وعظيم سلطانه - فى غاية لا غاية ورائها. قاله أبو السعود.

ثم ذكر سبب رفع الدرجات بقوله: ﴿يُلقي الروحَ﴾ أى: ينزل الوحى، الجارى من القلوب بمنزلة الروح من الأجسام، وكأنه لمّا ذكر رزق الأجسام أتبعه برزق الأرواح، الذى هو العلم بالله، وطريقُه الوحى. والتعبير بالمضارع، قال الطيبى: يفيد استمرارالوحى من لدن آدم إلى زمن سيدنا محمد ﷺ، ثم اتصاله إلى قيام يوم التنادى، بإقامة من يقوم بالدعوة، على ما روى أبو داود، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ أنه قال: «إنّ اللهَ سَيَبْعَثُ لِهذه الأمة على رأسِ كلِّ مائةِ سنةٍ مَن يُجَدِّدُ لها دِينَها»(١) ومعنى التجديد: إحياء ما اندرس من العمل بالكتاب والسُّنّة، والأمر بمقتضاهما. هـ.

قلت: وقد زرتُ شيخنا البوزيدى رضي الله عنه مرة، فلما وقع بصره علىّ، قال: والله، حتى يُحْيِى الله بك الدين المحمدى. وكتب لى شيخ الجماعة، وقطب دائرة التربية، مولاى العربى الدرقاوى رضي الله عنه، فقال فى آخر كتابه: وأرجو من الله ألا تموت حتى تكون داعياً إلى الله، تُذكَر أهل المشرق والمغرب. أو ما هذا معناه، وقد وقع ذلك، والحمد لله.

وقوله: ﴿مِنْ أَمْرِه﴾ أى: من قضائه، أو: بأمره، فيجوز أن يكون حالاً من الروح، أو متعلقاً بـ (يُلقِى) أى: يُلقِى الروح حال كونه ناشئاً، أو: مبتدئاً من أمره، أو: يُلقى الوحى بسبب أمره ﴿على من يشاءُ من عباده﴾ وهو الذى اصطفاه لرسالته، وتبليغ أحكامه إلى عباده، ﴿لِيُنذِر﴾ أى: الله، أو: الملْقَى عليه، وهو النبى عليه السلام، ويؤيده قراءة يعقوب بالخطاب، أى: لتخوف ﴿يومَ التلاقِ﴾؛ يوم القيامة؛ لأنه يتلاقى فيه أهل السموات وأهل الأرض، والأولون والآخرون، و(يوم): ظرف للمفعول الثانى، أى: ليُنذر الناسَ العذابَ يومِ التلاق، أو: مفعول ثان لِيُنذر، فإنه من شدة هوله وفظاعته حقيق بالإنذار.

---

(١) أخرجه أبو داود فى (الملاحم، باب ما يذكر فى قرن المائة ٤/٤٨٠، ح ٤٢٩١) والحاكم فى المستدرك (الفتن والملاحم، ٤/٥٢٢) والبيهقى فى المعرفة (١/١٢٤) من حديث أبى هريرة رضي الله عنه، ورمز له السيوطى فى الجامع الصغير (ح١٨٤٥) بالصحة.

﴿ يومَ هم بارزون ﴾: بدل من «يوم التلاق» أي: خارجون من قبورهم، أو: ظاهرون، لا يستترون بشيء من جبل أو أكمة أو بناء؛ لكون الأرض يومئذ قاعاً صفصفاً، ولا عليهم ثياب، إنما هم حفاةٌ عراةٌ، كما فى الحديث. أو: بارزة نفوسهم لا يحجبها غواش الأبدان، أو: بارزة أعمالهم وسرائرهم، ﴿ لايخفى على الله منهم شيءٌ ﴾ من أعمالهم وأحوالهم، الجلية والخفية، السابقة واللاحقة، وهو استئناف لبيان بروزهم، وإزاحة لما كان يتوهمه المتوهمون فى الدنيا من الاستتار توهماً باطلا، فإذا برزوا وحُشروا، نادى الحق - جل جلاله: ﴿ لمن الملكُ اليومَ ﴾؟ فلا يجيبه أحد، ثم يعود ثلاثاً، فيجيب نفسه بنفسه بقوله : ﴿ لله الواحدِ القهارِ ﴾ أى: الذى قهر العباد بالموت.

رُوى أن الله تعالى يجمع الخلائق فى صعيد واحد، فى أرض بيضاء، كأنها سبيكة فضة، لم يُعص الله عليها قط، فأول ما يُتكلم به أن يُنادى مناد: لمن المُلكُ اليوم؟ فيجيب نفسه : «لله الواحد القهار». وقيل: المجيب أهلُ المحشر، ورُوى أيضاً: أن هذا القول يقوله الحق تعالى عند فناء الخلق وقبل البعث، ولعله يقال مرتين.

قال تعالى: ﴿ اليوم تُجزَى كلُّ نَفْس ﴾ من النفوس البرة والفاجرة، ﴿ بما كسبتْ ﴾ من خير أو شر، وهذا من تتمة الجواب، أو: حكاية لما سيقوله تعالى يومئذ عقب السؤال والجواب، ﴿ لا ظُلْمَ اليومَ ﴾ بنقص ثواب أو زيادة عذاب، ﴿ إن الله سريعُ الحساب ﴾؛ لأنه لايشغله شأن عن شأن، فكما أنه يرزقهم دفعة، يُحاسبهم دفعة، فيحاسب الخلق قاطبة فى أقرب زمان، كما نُقل عن ابن عباس: أنه تعالى إذا أخذ فى حسابهم لم يقلْ(١) أهلُ الجنة إلا فيها، وأهل النار إلا فيها. هـ.

قلت: المراد بالحساب: إظهار ما يستحق كل واحد من النعيم أو العذاب، وأما ما ورد من طول المكث فى المحشر على الكفار والفجار؛ فإنما ذلك تعذيب بعد فراغ المحاسبة. والله تعالى أعلم.

الإشارة: هو الذى يُريكم آياته الدالة على توحيده، ويُنزل لكم من سماء الغيوب علماً، تتقوت به قلوبكم وأرواحكم، فتغيبون فى مشاهدة المدلول عن الدليل، وما يتذكّر بهذا ويهتد إليه إلا من يُنيب، ويصحب أهل الإنابة. فادعوا الله، أى: اعبدوه وادعوا إلى عبادته وإخلاص العمل، ولو كره الجاحدون، فإنّ الله رفيع درجاتِ الداعين إليه مع المقربين، فى مقعد صدق عند ذى العرش المجيد. قال القشيرى: يرفع درجات المطيعين بظواهرهم فى الجنة، ودرجات العارفين بقلوبهم فى الدنيا، فيرفع درجتهم عن النظر إلى الكونين، والمساكنة إليهما، وأما المحبون فيرفع درجتهم عن أن يطلبوا فى الدنيا والعقبى شيئاً غير رضا محبوبهم. هـ.

(١) من القيلولة.

يُلْقِى الروح من أمره على من يشاء من عباده، هو وحى أحكام للأنبياء، ووحى إلهام للأولياء، فيحيى الله بهم الدين فى كل زمان، وقال القشيرى: بعد كلام: ويقال: روح النبوة، وروح الرسالة، وروح الولاية، وروح المعرفة. هـ. والمراد بالروح: مطلق الوحى، ليُنذر الداعى يومَ التلاقى، فيحصل اللقاء السرمدى مع الحبيب للمقربين، ويحصل الافتراق والبُعد للغافلين، حين تبرز الخلائق بين يدى الله، لادعوى لأحد يومئذ، فيقول الحق تعالى: ﴿لمن الملك اليوم، لله الواحد القهار﴾.

قال القشيرى: لا يتقيد مُلْكُه بيومٍ، ولا يختصُّ بوقتٍ، ولكن دعاوىَ الخلقِ ـ اليومِ ـ لا أصلَ لها، ترتفع غداً، وتنقطع تلك الأوهام. هـ. ومثله فى الإحياء، وأنه إذا كشف الغطاء شهد الأمر كذلك، كما كان كل يوم، لا فى خصوص ذلك اليوم. فإذا حصل للعبد مقام الفناء، لم ير فى الدارين إلا الله، فيقول: لمن المُلْكُ اليوم؟ فيجيب: لله الواحد القهار. اليوم تُجزَى كُلُّ نفس بما كسبت من التقريب أو الإبعاد. قال القشيرى: يجازيهم على أعمالهم الجنانَ، وعلى أحوالهم الرضوان، وعلى أنفاسهم ـ أى: على حفظ أنفاسهم ـ القُرب، وعلى محبتهم الرؤية، ويجازى المذنبين على توبتهم الغفران، وعلى بكائهم الضياء والشفاء. هـ. لا ظُلم اليوم، بل كل واحد يرتفع على قدر سعيه اليوم.

وقوله تعالى: ﴿إن الله سريعُ الحساب﴾ قال القشيرى: وسريعُ الحساب مع أوليائه فى الحال، يُطالبهم بالنقير والقطمير. هـ. قلت: يدقق عليهم الحساب فى الحال، ويرفع مقدارهم فى المآل. وبالله التوفيق.

ثم حذَّر من هول ذلك اليوم، فقال:

﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَـٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ (١٨) يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ (١٩) وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ (٢٠) ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿وأنذِرْهُم يومَ الآزفة﴾ أى: القيامة، سُميت بها لأزوفها، أى: قُربها. فالأُزوف والازدلاف هو القرب، غير أن فيه إشعاراً بضيق الوقت، أو الخطة الأزفة، وهى مشارفة أهل النار لدخولها، ثم أبدل من يوم الآزفة قولَه: ﴿إذِ القلوبُ لدى الحناجر﴾ أى: التراقى، يعنى: ترتفع قلوبُهم عن مقارِّها، فتلتصق

بحناجرهم من الرعب، فلا هي تخرج فيموتوا فيستريحوا، ولا ترجع إلى مقارها فيتروّحوا. حال كونهم ﴿ كاظمين ﴾؛ ممسكين الغيظ بحناجرهم، أو: ممسكين قلوبهم بحناجرهم، يرومون ردها لئلا تخرج، فهو حال من القلوب، وجمعت جمع السلامة لوصفها بالكظم، وهو من أوصاف العقلاء، أو: من أصحاب القلوب؛ إذ الأصل: قلوبهم، أو: من ضميرها في الظرف، ﴿ ما للظالمين من حميم ﴾ أي: قريب مشفق ﴿ ولا شفيعٍ يُطاع ﴾ أي: ولا شفيع تُقبل شفاعته، فالمراد: نفي الشفاعة والطاعة، كقول الشاعر:

وَلاَ تَرَى الضَّبُّ فِيهَا يَنْجَحِرْ(١)

يريد به: نفي الضب وانجحاره. وكقول الآخر:

عَلَى لاحِبٍ لايُهْتَدَى بِمَنَارِهِ(٢)

وإن احتمل اللفظ نفي الطاعة دون الشفاعة. فعن الحسن البصري: «والله ما يكون لهم شفيع ألبتة». ووضع «الظالمين» موضع الضمير؛ للتسجيل عليهم بالظلم وتعليل الحكم به.

﴿ يعلم خائنةَ الأعين ﴾ أي: النظرة الخائنة، كاستراق النظر إلى ما لايحلّ. قيل: فيه تقديم وتأخير، أي: الأعين الخائنة، وقيل: مصدر، كالعافية، أي: خيانة الأعين. قال ابن عباس رضي الله عنه: هو الرجل يكون جالساً مع القوم، فتمر المرأة، فيسارقهم النظر إليها(٣). هـ. وقال ابن عطية: متصل بقوله: ﴿سريع الحساب﴾، فيحاسب على خيانة الأعين، وقالت فرقة: متصل بقوله: ﴿لا يَخفى على الله منهم شيء﴾، وهذا حسن، يُقويه تناسب المعنيَيْن، ويُبعده بعدُ الآية من الآية، وكثرة الحائل. والحاصل: أنه متصل بما تقدم من ذكر الله ووصفه، واعترض في أثناء ذلك بوصف القيامة لما استطرد إليه من قوله: ﴿ليُنذر يوم التلاق﴾ الآية. قاله المحشى. ﴿ و ﴾ يعلم ﴿ ما تُخفى الصدورُ ﴾ أي: ما تُكنّه من خيانة وأمانة. وقيل: هو أن ينظر إلى أجنبية بشهوةٍ مسارقة، ثم يتفكر بقلبه في جمالها، ولا يعلم بنظرته وفكرته مَن حضَره، والله يعلم ذلك كله.

﴿ والله يقضي بالحق ﴾ أي: ومَن هذه صفاتُه لا يقضي إلا بالعدل، فيُجازي كُلاً بما يستحقه؛ إذ لايخفى عليه خفيٌ ولا جليّ، ﴿ والذين يَدْعُون ﴾؛ يعبدونهم ﴿ من دونه ﴾ من الآلهة ﴿ لا يقضون بشيء ﴾، وهذا

---

(١) عجز بيت، صدره: لاتفزع الأرنبَ أهوالها.

(٢) هذا صدر بيت عجزه: [إذا سافه الَنُباطيُّ جَرْجَرا]. وهو من قصيدة لامرئ القيس في ديوانه (٦٦). وصدر البيت في لسان العرب (لحف ٥/٤٠٠٩). واللحب: الطريق الواسع، من لحبه: إذا وطئه ومرّ فيه، والمنار: ما يعلم به الطريق.
والشاهد في البيت: نفي الاهتداء بالمنار، والمقصود: نفي المنار، فلا منار ولا هداية.

(٣) عزاه السيوطي في الدر (٥/٦٥٣) لسعيد بن منصور، وابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم.

تهكّم بهم؛ لأن الجماد الذى لايعقل لا يقال فيه: يقضى ولايقضى، وقرأ نافع بالخطاب؛ أو: على إضمار «قل»، ﴿إنَّ اللهَ هو السميعُ البصير﴾؛ تقرير لقوله: ﴿يعلم خائنة الأعين وما تُخفى الصدور﴾ ووعيد لهم؛ لأنه يسمع ما يقولون، ويُبصر ما يعملون، وأنه يعاقبهم عليه، وتعريض بما يدعون من دون الله، بأنها لا تسمع ولا تُبصر.

الإشارة: قال القشيرى: قيامةُ الكل مؤجلة، وقيامةُ المحبين مُعَجّلة، فى كلِّ نَفَسٍ من العتاب والعذاب، والبعاد والاقتراب، ما لم يكن فى حساب، وشهادة الأعضاء بالدمع تشهد، وخَفَقَانُ القلب ينطق، والنحولُ يُخبِرُ، واللونُ يفضح، والعبد يستر، ولكن البلاء يُظهر، قال:

يَا مَن تَغَيَّرُ صُورَتِي لَمَّا بَدَا لِجَمِيعِ مَاظَنُّوا بِنَا تَحْقِيقُ هـ.[(١)]

وقوله تعالى: ﴿إذ القلوبُ لدى الحناجر كاظمين﴾، هو فى حق من فاته التأهب والترقى فى هذه الدار، فتحسَّر حين يُعاين مقامات الرجال، وليس له شفيع يُرقيه، ولا حميم يُصافيه. وقوله تعالى: ﴿يعلم خائنة الأعين﴾ هو فى حق العارفين: النظر إلى السِّوى بعين الاستحسان. قال القشيرى: خائنة الأعين هى من المحبين استحسانهم شيئاً – أى: من السِّوى – وأنشدوا:

يَاقُرَّةَ العَين: سَلْ عَيْنِى هَلْ اكْتَحَلَتْ بِمَنْظَرٍ حَسَنٍ مُذْ غِبْتَ عَنْ عَيْنِى؟

وأنشد أيضا:

وَعينِي إِذا استَحْسَنَتْ غيرَكمْ أَمَـرتُ الدَّمْـعَ بِتَأْدِيبِـها[(٢)]

قلت: ومثله قول الشاعر:

وناظرٌ فى سِوى مَعْنَاكَ حَقُّ لَهُ يَقتَصُ مِنْ جَفْنِه بالدَّمْعِ وهْوَ دَمُ

والسَمْعُ إِنْ حَالَ فِيه ما يُحدِّثُه سَوَى حَدِيثِكِ، أَمْسَى وَقْرُه الصَمَمُ

ثم قال: ومن خائنة الأعين: أن تأخذهم السِّنَةُ والسِّنات[(٣)] فى أوقات المناجاة، وفى قصص داود عليه السلام: «كَذَبَ من ادَّعى محبتى، فإذا جَنَّهُ الليل نام عنى، ومن خائنة أعين العارفين: أن يكون لهم خير، أى: استحسان يقع لقلوبهم مما تقع عليه أعينهم، ينظرون ولكن لا يُبصرون ـ أى: ينظرون إلى المستحسنات، ولكن لا يقفون

(١) فى لطائف الإشارات: [لجميع ما ظنوا بنا تصديقا].

(٢) فى القشيرى: [أمرت السهاد بتعذيبها]. والبيت منسوب إلى سلم الخاسر، كما فى نهاية الأرب (٢/٥٦) وفيه:

تقول وفى قولها حشمة أتبكى بعين تراني بها
فقلت إذ استحسنت غيركم أمرت الدموع بتأديبها بأديبها

(٣) فى القشيرى: والسبات.

معها ـ ومن خائنة أعين الموحِّدين - أى: السائرين للتوحيد ـ أن يخرج منها قطرة دمعٍ، تأسفاً على مخلوق يفوت من الدنيا والآخرة، ومن خائنة الأعين: النظرُ إلى غير المحبوب بأى وجهٍ كان، ففى الخبر: «حُبُّكَ الشيءَ يُعْمِي ويُصِمُّ»(١)، أى: يُغيبك عن غيره، فلا ترى إلا محاسن الحبيب، وجماله فى مظاهر تجلياته، وإليه يشير قول ابن الفارض رضي الله عنه:

عيْني لِغيْرِ جمَالِكُمْ لاتَنْظر ... وَسِواكُم فى خَاطِرى لاَ يَخْطُر

وقوله تعالى: ﴿ والله يقضي بالحق ﴾ قال القشيرى: يقضى للأجانب بالبعاد، ولأهل الوداد بالوصال، ويقضى يومَ القدوم بعدل(٢) عُمال الصدود. هـ. أى: يعدل فى أهل الصدود عن حضرته، فيجازيهم بنعيم الأشباح فقط. ثم قال: وإذا ذبح الموت غدا بين الجنة والنار على صورة كبش أملح، فلا غرو أن يذبح الفراق على رأس سكة الأحباب، فى صورة شخص، ويُصلب على جذوع الغيرة، لينظر إليه أهل الحضرة. هـ.

ثم أمر بالتفكر - الذى هو طريق النجاة من كل ضرر - فقال:

﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ (٢١) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢٢) ﴾

قلت: (هم أشد): ضمير فصل، وحقه أن يقع بين معرفتين، إلا أنَّ (أشد) لمَّا ضارع المعرفة فى كونه لايدخله الألف واللام أجرى مجراها.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ أَوَ لَمْ يسيروا في ﴾ أقطار ﴿ الأرض، فينظروا كيفَ كان عاقبةُ الذين كانوا من قبلهم ﴾ أى: مآل مَن قبلهم من الأمم المكذِّبة لرسلهم، كعاد، وثمود، وأضرابهم، ﴿ كانوا هم أشدَّ منهم قوةً ﴾ أى: قدرة وتمكُّناً من التصرف، ﴿ وآثاراً فى الأرض ﴾؛ وأشد تأثيراً فى الأرض، ببناء القلاع الحصينة،

(١) أخرجه أحمد فى المسند (٥/ ١٩٤) وأبو داود فى (الأدب، باب فى الهوى ٥/ ٣٤٦ ح ٥١٣٠) والخطيب فى تاريخ بغداد (٣/ ١١٧) من حديث أبى الدرداء رضي الله عنه.

(٢) فى القشيرى: [بعزل]، وهو أنسب.

والمدائن المتينة. وقيل: المعنى: وأكثر آثاراً، أى: ترك آثار فى الأرض، كالحصون وغيرها. ﴿ فأخذهم الله بذنوبهم ﴾ أخذاً وبيلاً، ﴿ وما كان لهم من الله من واقٍ ﴾ أى: لم يكن لهم شيء يقيهم من عذاب الله.

﴿ ذلك ﴾ الأخذ ﴿ بأنهم ﴾؛ بسبب أنهم ﴿ كانت تأتيهم رُسُلُهم بالبينات ﴾؛ بالمعجزات الدالة على صدقهم، أو: بالأحكام الظاهرة الجلية، ﴿ فكفروا فأخذهم الله إنه قوىٌّ ﴾، متمكن مما يريد غاية التمكن، قادر على كل شيء، ﴿ شديدُ العقاب ﴾ لا يُؤبه عند عقابه بعقاب.

الإشارة: قال القشيرى: أوَ لَمْ يسيروا بنفوسهم فى أقطار الأرض، ويطوفوا مشارقَها ومغاربَها، فيعتبروا بها، فيزهدوا فيها؟ ويسيروا بقلوبهم فى الملكوت بجولاَن الفكر، فيشهدوا أنوار التجلى، فيستبصروا بها؟ ويسيروا بأسرارهم فى ساحات الصمدية، فيُستهلكوا فى سلطان الحقائق، ويتخلّصوا من جميع المخلوقات؛ قاصيها ودانيها؟ ثم قال: قوله تعالى: «ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات»، إنْ بغى من أهل السلوك، قاصدٌ لهم يصل إلى مقصوده، فلْيَعلم أنّ موجِبَ حجبته اعتراضٌ خامَرَ قلبَه على بعض شيوخه، فى بعض أوقاته، فإنّ الشيوخَ بمحلّ السفير للمريدين. وفى الخبر: «الشيخ فى أهله كالنبىِّ فى أمته»[1]. هـ.

ثم سلّى نبيه بقصة موسى عليه السلام، فقال:

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ
وَهَـٰمَـٰنَ وَقَـٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ
عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ
ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ
أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ
إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾ ﴾

---

(١) عزاه السيوطى فى الجامع الصغير (ح ٤٩٦٩ ــ ٤٩٧٠) للخليلى فى مشيخته، وابن النجار، عن أبى رافع. وابن حبان فى الضعفاء، والشيرازى فى الألقاب، عن ابن عمر. والحديث ضعيف. وقال الشوكانى فى الفوائد (٢٨٦): جزم ابن حجر وغيره بأنه موضوع. وانظر: تنزيه الشريعة (١/٢٠٧) الشذرة فى الأحاديث المشتهرة للصالحى (١/٣٥٢).

يقول الحق جل جلاله: ﴿ولقد أرسلنا موسى بآياتنا﴾؛ معجزاته التسع ﴿وسلطانٍ مبين﴾ أى: حجة قاهرة، وهي: إما عين الآيات، والعطف لتغاير العنوانين، فكونها آيات من جهة خرق العادة، وكونها حجة من حيث الدلالة على صدق صاحبها، وإما أن يريد بالسلطان بعض مشاهيرها، كالعصا، أُفردت بالذكر مع اندراجها تحت الآيات؛ لِعظمها. وقال ابن عرفة: الآيات:: المعجزات، والسلطان المبين، راجع إلى التحدى بها، فهو من قبيل الإدعاج(١)، أو: يكون السلطان راجعاً إلى ظهورها؛ إذ ليس من شرطها الظهور، أو: يرجع إلى نتيجتها، وهو الغلبة والنصر. هـ.

أرسل ﴿إلى فرعونَ وهامانَ وقارونَ، فقالوا﴾ فيما أظهره، أو: فيما ادّعاه من الرسالة: هو ﴿ساحرٌ كذّابٌ. فلمّا جاءهم بالحق من عندنا﴾ وهو الوحى والرسالة، ﴿قالوا اقتلوا أبناءَ الذين آمنوا معه﴾ أى: صبيانهم الذكور، ﴿واستحيُوا نساءَهم﴾ للخدمة، أى: أعيدوا عليهم القتل الذى كنتم تفعلونه أولاً، وكان فرعون قد كفَّ عن قتل الولدان؛ لئلا تعطل خدمته، فلما بُعث عليه السلام، وأحسَّ بأنه قد وقع ما توقع، أعاده عليهم غيظاً، وحُمقاً، وزعماً منه أنه يصدهم بذلك عن مظاهرته. ﴿وما كيدُ الكافرين إلا فى ضلالٍ﴾؛ فى ضياع وبطلان، فإنهم باشروا قتلهم أولاً، فما أغنى عنهم، ونفذ قضاء الله بإظهار من خافوه، فما يغنى عنهم هذا القتل الثانى، فلم يعلم أن كيده ضائع فى الكرّتين، واللام: إما للعهد المتقدم، والإظهار فى موضع الإضمار؛ لذمهم بالكفر، والإشعار بعلة الحكم، أو: للجنس، وهم داخلون فيه دخولاً أولياً. والجملة: اعتراض جيء بها فى تضاعيف ما حكى عنهم من الأباطيل؛ للمسارعة إلى بيان بطلان ما أظهروه من الإبراق والإرعاد الذى لا طائل تحته.

﴿وقال فرعونُ﴾ لملئه: ﴿ذروني أقتلْ موسى﴾، وكان ملؤه إذا همَّ بقتله كفّوه، وقالوا: ليس بالذى تخافه، وهو أقل من ذلك، وما هو إلا ساحر، وإذا قتلته أدخلتَ شبهة على الناس، واعتقدوا أنك عجزت عن معارضته بالحجة، والظاهر من دهاء اللعين ونكارته أنه قد استيقن أنه نبيّ، وأن ما جاء به آيات باهرة، وما هو بسحر، ولكن كان يخاف إن همّ بقتله أن يعاجَل بالهلاك، وكان قوله تمويهاً على قومه، وإيهاماً أنهم هم الكافون عن قتله، ولولاهم لقتله، وما كان يكفه إلا ما فى نفسه من الفزع الهائل. وقوله: ﴿وليَدْعُ ربَّه﴾ تجلد منه وإظهار لعدم المبالاة بدعائه، ولكنه أخوف ما يخافه.

---

(١) هكـذا.

ثم قال: ﴿إني أخافُ﴾ إن لم أقتله ﴿أن يُبدِّلَ دينكُم﴾ أى: يغير ما أنتم عليه من الدين، وهو عبادتهم له وللأصنام؛ لتقربهم إليه، ﴿أو أن يُظْهِر في الأرض الفسادَ﴾ أى: ما يفسد دنياكم من التحارب والتهارج إن لم يقدر على تبديل دينكم بالكلية. والحاصل: أنه قال: أخاف أن يُفسد عليكم دينكم، بدعوته إلى دينه، أو: يفسد عليكم دنياكم بما يظهر من التقاتل والتهارج، الذى يذهب معه الأمن، وتتعطل المزارع والمكاسب والمعايش.

﴿وقال موسى﴾ لمَّا سَمِعَ ما أجراه من الحديث فى قتله لقومه: ﴿إني عُذْتُ بربي وربكُم من كل متكبرٍ لا يؤمن بيوم الحساب﴾، صدّر عليه السلام كلامَه بإنّ؛ تأكيداً له، وإظهاراً لمزية الاعتناء بمضمونه، وفرط الرغبة. وخص اسم الرب المنبئ عن الحفظ والتربية؛ إذ بهما يقع الحفظ.

وفى قوله: ﴿وربكم﴾ حث لهم على أن يقتدوا به، فيعوذوا بالله عياذتَه، ويعتصموا بالتوكل اعتصامَه، ولم يُسمِّ فرعون، بل ذكره بوصف يعمه وغيره من الجبابرة؛ لتعميم الاستعاذة، والإشعار بعلة القساوة والجرأة على الله تعالى، وهو التكبر. قال ابن عرفة: أشار إلى أن كفره لم يكن لأجل أن موسى لم يأت بدليل ولامعجزة، ولم يكن أيضاً لخفاء تلك المعجزة، وعدم ظهورها، بل كان لجحود التعنت والتكبر، والإباية عن الانحطاط من سلطنة الملك إلى رتبة الاتّباع. هـ. وقال: ﴿لا يؤمن بيوم الحساب﴾؛ لأنه إذا اجتمع فى الرجل التجبر والتكذيب بالجزاء، وقلة المبالاة بالعاقبة، فقد استكمل أسباب القوة والجرأة على الله وعباده، والعياذ بالله.

الإشارة: قال القشيرى: كان موسى عليه السلام أكرم خلْقِهِ فى وقته، وكان فرعون أخَسّ خلْقِه فى وقته؛ إذ لم يقل أحد: ما علمتُ لكم من إله غيرى، فأرسل أخصَّ عباده إلى أخسّ عباده. ثم إن فرعون سعى فى قتل موسى، واستعان على ذلك بخيْله ورَجْله، ولكن كما قال تعالى: ﴿وما كيد الكافرين إلا فى ضلال﴾، وإذا حَفَرَ أحدٌ لولِيِّ الله حُفرةً، ما وقع فيها غيرُ حافِرها، كذلك أجرى الحقُّ سُنّتَه. هـ.

ثم ذكر موعظة مؤمن آل فرعون لقومه، فقال:

﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ

كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَٰقَوۡمِ لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ ظَٰهِرِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَاۚ قَالَ فِرۡعَوۡنُ مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿وقال رجلٌ مؤمن﴾، قيل: كان قبطياً، ابن عم لفرعون، آمن بموسى سرّاً، وقيل: كان إسرائيلياً موحّداً، وهو المراد بقوله: ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى﴾(١)، قال ابن عباس: اسمه حزقيل. وقال ابن إسحاق: جبرل، وقيل: سمعان. وقيل: حبيب(٢). و﴿من آلِ فرعونَ﴾: صفة ثانية لرجل، أو: صلة ليكتم، أي: ﴿يكتم إيمانه﴾ من فرعون وملائه: ﴿أتقتلون رجلاً﴾ أي: أتقصدون قتله كراهةَ ﴿أن يقولَ ربي الله﴾ وحده، من غير روية ولاتأمل في أمره؟ وهذا إنكار منه عليهم، كأنه قال: أترتكبون هذه الفعلة الشنعاء ـ وهي قتل نفس محرمة - من غير حجة، غير قوله الحق، وإقراره بالتوحيد؟ ﴿وقد جاءكم بالبينات﴾ أي: والحال أنه جاءكم بالمعجزات الظاهرة، التي شاهدتموها وعاهدتموها من ربكم، يعني أنه لم يكتف ببينة واحدة، بل جاء ببينات كثيرة ﴿من﴾ عند ﴿ربكم﴾، أضافه إليهم، استنزالاً لهم عن رتبة المكابرة، واستدراجاً للاعتراف.

ثم أخذهم بالاحتجاج فقال: ﴿وإن يَكُ كاذباً فعليه كَذِبه﴾، لا يتخطى وبال كذبه إلى غيره، فيحتاج في دفعه إلى قتله، ﴿وإن يك صادقاً يُصبكم بعضُ الذي يَعِدُكم﴾ من العذاب، احتج عليهم بطريق التقسيم؛ لأنه لا يخلو، إما أن يكون كاذباً أو صادقاً، فإن كان كاذباً فوبال كذبه عليه، وإن كان صادقاً يُصبكم قطعاً بعضُ ما يعدكم من العذاب، ولم يقل: كل الذي يعدكم، مع أنه وعد من نبيٍّ صادق، مداراة لهم وسلوكاً لطريق الإنصاف، فجاء بما هو أقرب إلى تسليمهم له، فكأنه قال: إن لم يصبكم الجميع يُصبكم البعض، وليس فيه نفي لإصابة الكل، فكأنه قال: أقلّ ما فيه أن يصيبكم بعض ما يعدكم، وهو العذاب العاجل، وفي ذلك هلاككم، وكان وعدَهم عذاب الدنيا والآخرة. وتفسير البضع بالكلّ مزيّف. ﴿إن الله لا يهدي مَن هو مُسْرِفٌ كذّاب﴾، هذا احتجاج آخر ذو وجهين؛ أحدهما: أنه لو كان مُسرفاً كذاباً لَمَا هداه الله إلى النبوة، ولما عضده بتلك البينات، وثانيهما: إن كان كذلك خذله الله وأهلكه، فلا حاجة إلى قتله. وقيل: أوهم أنه يريد بالمُسرف موسى، وهو يعني به فرعون، ويحتمل أن يكون من كلام الله - تعالى - اعتراضاً بين أجزاء وعظه، إخباراً بما سبق لهم من الشقاء، فلا ينفع فيهم الوعظ.

(١) من الآية ٢٠ من سورة يس.
(٢) انظر هذه الأقوال في تفسير القرطبي (٥٩٢١/٧) والبغوي (١٤٦/٧).

ثم قال: ﴿يا قوم لكم الملكُ اليومَ﴾ حال كونكم ﴿ظاهرين﴾؛ غالبين عالين على بنى إسرائيل ﴿في الأرض﴾؛ أرض مصر، لا يقاومكم أحد فى هذا الوقت، ﴿فمن ينصُرنا من بأس الله إن جاءنا﴾ يعنى: إن لكم اليوم مُلك مصر، وقد علوتم الناس، وقهرتموهم، فلا تُسرفوا على أنفسكم، ولا تتعرضوا لبأس الله، أى: عذابه؛ فإنه لا طاقة لكم به إن جاءكم، ولا يمنعكم منه أحد. وإنما نسب ما يُسرهم من المُلك والظهور فى الأرض إليهم خاصة، ونظم نفسه فيما يسوؤهم، من مجئ بأس الله تعالى، إمحاضاً للنصح، وإيذاناً بأن الذى ينصحهم به هو مساهم لهم فيه.

﴿قال فرعونُ﴾ بعدما سمع نصحه لقومه: ﴿ما أُرِيكُم﴾ أى: ما أُشير عليكم ﴿إلا ما أرى﴾ وأستصوبه من قتل موسى ، يعنى: لا أستصوب إلا قتله، وهذا الذى تقولونه غير صواب، ﴿وما أهديكم﴾ بهذا الرأى ﴿إلا سبيلَ الرشادِ﴾ أى: الصواب، ولا أعلنكم إلا ما أعلم، ولا أُسرُّ عنكم شيئاً خلاف ما أُظهِر، يعنى: أن لسانه وقلبه متواطئان على ما يقول، وقد كذب اللعين، فقد كان مضمراً للخوف الشديد من جهة موسى عليه السلام، ولكنه كان يتجلّد، ولولا استشعاره للخوف لم يستشر أحداً فى قتله، وقد كان سفّاكاً جباراً، فما منعه إلا خوف الهلاك إن مدّ يده إليه. والله تعالى أعلم.

الإشارة: قال القشيرى: قد نصح وأبلغ مؤمن آل فرعون، واحتجّ عليهم، فلم ينجعْ فيهم قوله، وأعاد عليهم نصحه فلم يسمعوا، وكان كما قيل:

وكَمْ سُقْتُ فى آثارِكُم مِن نَصيحةٍ وقَدْ يَستفيدُ البغضةَ المُستنْصِحُ(١)

ثم قال تعالى:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾﴾

---

(١) البيت للعباس بن الفرج الرياشى. انظر الكامل للمبرد (٢/٣٩٢) وفيه: وكم صغت فى آثاركم...

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وقال الذي آمن ﴾ مخاطباً قومه: ﴿ يا قومِ إني أخافُ عليكم ﴾ فى تكذيب موسى، والتعرض له بسوء، ﴿ مثلَ يومِ الأحزاب ﴾ أى: مثل أيام الأمم الماضية المتحزبة على رسلها، يعنى وقائعهم. وجمْعُ الأحزاب مع التفسير أغنى عن جمع اليوم، أى: بالإضافة، وفسره بقوله:

﴿ مثلَ دأبِ قومِ نوحٍ وعادٍ وثمودَ والذين من بعدهم ﴾؛ كقوم لوط وشعيب، لم يُلْبِسْ أنَ كلَ حزب منهم كان له يوم دَمَار، فاقتصر على الواحد من الجمع. ودأب هؤلاء: دؤوبهم فى عملهم من الكفر، والتكذيب، وسائر المعاصى، حتى دمَّرهم الله. ولا بد من حذف مضاف، أى: مثل جزاء دأبهم - وهو الهلاك. و(مثل) الثانى: عطف بيان لمثل الأولى. ﴿ وما الله يريد ظلماً للعباد ﴾؛ فلا يُعاقبهم بغير ذنب، أو: يزيد على ما يستحقونه من العذاب، يعنى أن تدميرهم كان عدلاً؛ لأنهم استحقوه بأعمالهم، وهو أبلغ من قوله: ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾(١)؛ حيث جعل المنفى إرادة الظلم مُنَكَّراً، وإذا بعُد عن إرادة ظُلمٍ مَّا لعباده؛ كان عن الظلم أبعد وأبعد. وتفسير المعتزلة: بأنه لا يريدُ لهم أن يظلموا، بعيد؛ لأن أهل اللغة قالوا: إذا قال الرجل لآخر: لا أريد ظلماً لك، معناه: لا أريد أن أظلمك، وهذا تخويفٌ بعذاب الدنيا. ثم خوَّفهم من عذاب الآخرة بقوله:

﴿ وياقوم إنى أخاف عليكم يوم التَّناد ﴾ أى: يوم القيامة؛ لأنه ينادى فيه بعضهم بعضاً للاستغاثة، ويتصايحون بالويل والثبور، وينادى أصحابُ النار أصحابَ الجنة، وأصحاب الأعراف رجالاً يعرفونهم، وعن الضحاك: إذا سمعوا زفير النار نَدُّوا هرباً، فلا يأتون قُطراً من الأقطار، إلا وجدوا ملائكة صفوفاً، فيرجعون إلى مكانهم، فبينما هم يموج بعضهم فى بعض، إذ سمعوا منادياً: أقبلوا إلى الحساب. أو: ينادى مناد عند الميزان: ألاَ إن فلاناً بن فلان سعد سعادة لا يشقى بعدها أبدا، ألاَ إن فلان بن فلان شقى شقاوة لايسعد بعدها أبدا. قال ابن عطية: المراد التذكير بكل نداء فى القيامة فيه مشقة على الكفار والعصاة، وذلك كثير. هـ.

ثم أبدل من يوم التناد: قوله: ﴿ يوم تُولُّون مدْبرين ﴾ أى: منصرفين عن القوم إلى النار، أو: فارِّين منها غير معاجزين، ﴿ مالكم من الله من عاصم ﴾ يعصمكم من عذابه، ولمَّا أيس من قبولهم قال: ﴿ ومن يُضلل الله فما له من هادٍ ﴾ يهديه إلى طريق النجاة.

الإشارة: ينبغى للواعظ والمُذكِّر إذا ذكَّر العصاة أن يُخوفهم بعذاب الدنيا وعذاب الآخرة، كما فعل مؤمن آل فرعون، أما عذاب الدنيا فما يلحق العاصى من الذُل والهوان عند الله، وعند عباده، وما يحلقه إن طال عمره من المسخ وأرذل العمر، فإنَّ المعاصى فى زمن الشباب تجر الوبال إلى زمن الهرم، كما أن الطاعة فى حال الشباب

(١) من الآية ٤٦ من سورة فصلت.

تجر الحفظ والرعاية إلى حال الكِبَر، وأما عذاب الآخرة فمعلوم، ثم يحضّ على التوبة والإقلاع، فإنّ التائب الناصح مُلحَق بالطائع، فلا يلحقه شيء من ذلك. وبالله التوفيق.

ثم وبّخهم بما تعودوا من تكذيب الرسل، فقال:

﴿ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾ ﴾

قلت: (الذين يُجادلون): بدل من (مَن هو)، وإنما جمع؛ لأنه لم يرد مسرفاً واحداً، بل كل مسرف.

يقول الحق جل جلاله، حاكياً لقول المؤمن: ﴿ولقد جاءكم يوسفُ﴾، هو ابن يعقوب، وقيل: يوسف بن إفرائيم بن يوسف بن يعقوب، أقام فيهم نبياً عشرين سنة(١)، وقال وهب: فرعون موسى هو فرعون يوسف، عمِّر إلى زمنه، وقيل: هو فرعون آخر؛ لأن كل من ملك مصر يُقال له فرعون، وهذا أظهر. وقول الجلال المحلي: هو يوسف بن يعقوب في قولٍ، عمِّر إلى زمنه، سهو. وإنما قيل ذلك في فرعون لا في يوسف.

قلت: والتحقيق: أنه وبّخهم بما فعل أسلافهم؛ لأنهم على منوالهم، راضون بما فعلوا، فالمراد بيوسف، هو الصدِّيق، فما زالوا مترددين في رسالته حتى مات، واستمر خلفهم على ذلك إلى زمن موسى، وقوله تعالى: ﴿من قبلُ﴾ أي: من قبل موسى، أي: جاءكم يوسف ﴿بالبينات﴾؛ بالمعجزات الواضحة، كتعبير الرؤيا، ودلائل التوحيد، كقوله: ﴿أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ...﴾(٢) الآية، وملكه أموالهم ورقابهم في زمن المسغبة، وغير ذلك مما دلّ على رسالته. ﴿فما زلتم في شكٍ مما جاءَكم به﴾ من الدين ﴿حتى إذا هَلَكَ﴾ بالموت ﴿قُلْتم لن يبعثَ الله من بعده رسولاً﴾، حكماً، من عند أنفسكم ،من غير برهان، أي: أقمتم على كفركم، وظننتم أن لا يجدِّد عليكم إيجاب الحجة.

---

(١) ذكره القرطبي (٥٩٢٨/٧) عن ابن عباس رضي الله عنه. وجاء في البحر المحيط (٤٤٥/٧) والنسفي (٢١٠/٣) «ابراهيم» بدلاً من «إفرائيم».
(٢) من الآية ٣٩ من سورة يوسف.

قال القشيري: يقال: إن تكذيبهم وتكذيب سلفهم للأنبياء ـ عليهم السلام ـ كان قديماً حتى أهلكهم، كذلك يفعل بهؤلاء[1]. هـ.

﴿ كذلك يُضِلُّ الله من هو مُسْرِفٌ مرتابٌ ﴾ أي: مثل ذلك الإضلال الفظيع يُضل الله من هو مسرف في عصيانه، شاكٌ في دينه، لم يتفكر فيما شهدت البينات بصحته؛ لغلبة الوهم، والانهماك في التقليد.

ثم فسّره فقال: ﴿ الذين يُجادِلون في آيات الله ﴾ بالرد والإبطال ﴿ بغير سلطان ﴾؛ بغير حجة واضحة، تصلح للتمسك بها في الجملة، ﴿ أتاهم ﴾: صفة لسلطان، أي: بغير برهان جاءهم بصحة ذلك، ﴿ كَبُرَ مقتاً ﴾ أي: عَظُمَ بُغضاً ﴿ عند الله وعند الذين آمنوا ﴾، وفيه ضرب من التعجب والاستعظام. وفي «كبُر» ضمير يعود على «مَنْ»، وتذكيره باعتبار اللفظ. ﴿ كذلك ﴾ أي: مثل ذلك الطبع الفظيع ﴿ يَطْبَعُ الله على كل قلب متكبر جبَّار ﴾ فيصدر منه أمثال ما ذكر من الإسراف، والارتياب، والمجادلة بالباطل. ومن قرأ بالتنوين[2] فوصف لقلب، وإنما وصف بالتكبّر والتجبّر؛ لأنه منبعهما، كما تقول: سَمِعت الأذنُ، كقوله: ﴿ فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُه ﴾[3] وإن كان الإثم للجملة. والله تعالى أعلم.

الإشارة: يقال لأهل كل عصر: ولقد جاءكم فلان ـ لوليٌ تقدم قبلهم ـ بالآيات الدالة على صحة ولايته، فما زلتم، أي: مازال أسلافكم من أهل عصره ـ في شك منه، حتى إذا مات ظهرت ولايته، وأقررتم بها، وقلتم: لن يبعث الله من بعده ولياً، وهذه عادة العامة، يُقرون الأموات من الأولياء، ويُنكرون الأحياء. وهي نزعة أهل الكفر والضلال، كذلك يُضل الله من هو مسرف مرتاب، كالذين يُخاصمون في ثبوت الخصوصية عند أربابها، من غير برهان، وهو شأن المنكرين، كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار.

ثم ذكر عتو فرعون وطغيانه، فقال:

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾ ﴾

(١) بالمعنى.
(٢) قرأ أبو عمر (قلب) بالتنوين في الباء على قطع «قلب» عن الإضافة، وجعل التكبر والجبروت صفته، وقرأ الباقون بغير تنوين بإضافة «قلب» إلى ما بعده. واختلف عن ابن عامر. انظر الإتحاف (٢/٤٣٧).
(٣) من الآية ٢٨٣ من سورة البقرة.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وقال فرعونُ ﴾، تمويهاً على قومه، وجهلاً منه: ﴿ ياهامانُ ﴾ وزيره ﴿ ابنِ لي صَرْحاً ﴾ أي: قصراً عالياً، وقيل: الصرح: البناء الظاهر الذى لايخفى على الناظر وإن بَعُد منه. يقال: صَرِح الشىءُ: إذا ظهر. ﴿ لعلّي أبلُغُ الأسبابَ ﴾ أي: الطرق. ثم أبدل منها تفخيماً لشأنها، وإظهاراً أنه يقصد أمراً عظيماً:

﴿ أسبابَ السموات ﴾ أي: طرُقها وأبوابها، وما يؤدّى إليها، وكل ما أدّاك إلى الشىء فهو سبب إليه، ﴿ فَأَطَّلِعَ إلى إله موسى ﴾ أي: فأنظر إليه وأتحقق وجوده، قرأه حفص بالنصب، جواب التمنى، والباقى بالرفع، عطفاً على «أبلغ». قال البيضاوى: ولعله أراد أن يبنى له صرحاً فى موضع عال، يرصد منه أحوال الكواكب، التى هى أسباب سماوية، تدلّ على الحوادث الأرضية، فيرى هل فيها ما يدلّ على إرسال الله تعالى إياه، أو أن يرى فساد قوله عليه السلام؛ فإنّ إخباره عن إله السماء يتوقف على اطلاعه ووصوله إليه، وذلك لايتأتى إلا بالصعود للسماء، وهو مما لا يقوى عليه الإنسان، وما ذلك إلا لجهله بالله وكيفية استنبائه. هـ.

قلت: والظاهر أنه كان مجسّماً، يعتقد أن الله فى السماء، وأن اطلاعه إليه إنما كان ليرى هل ثَم إله، وإن قوله: ﴿ وإنى لأظنه كاذبًا ﴾ أي: فى ادّعاء إله غيرى، بدليل قوله: ﴿ ما علمت لكم من إله غيرى ﴾(١) مع أنّ هذا كله إنما هو تمويه منه على قومه، وجرأة على الله، لا حقيقة له.

قال تعالى: ﴿ وكذلك ﴾ أي: ومثل ذلك التزيين المفرط، والصدّ البليغ، ﴿ زُيِّنَ لفرعونَ سوءُ عملِه ﴾ فانهمك فيه انهماكاً لايرعوى عنه بحال، ﴿ وصدَّ(٢) عن السبيل ﴾ أي: سبيل الرشاد، وقرأ الكوفيون ويعقوب «وصُدّ» بالبناء للمفعول، فالفاعل فى الحقيقة فيهما هو الله، بتوسط الشيطان فى عالم الحكمة، ومن قرأ «صدّ» بالبناء للفاعل، فالفاعل: فرعون، إما صدّ الناس عن طريق الحق بأمثال هذه التمويهات، أو: اتصف بالصدّ. ﴿ وما كيدُ فرعونَ إلا فى تَبابٍ ﴾ أي: خسران وهلاك.

الإشارة: ما ظهر على فرعون هو من طغيان النفس وعتوها، فإنّ النفس إذا اتصلت بها العوافى، وساعدتها أقدار الجمال فى الظاهر، ادّعت الربوبية، فإنّ فرعون قيل: إنه عاش أربعمائة سنة، لم يتوجع فيها قط، فادعى الربوبية، ولذا قال بعض الصوفية: فى النفس خاصية ما ظهرت إلا على فرعون، حين قال: أنا ربكم الأعلى، فكان

(١) من الآية ٣٨ من سورة القصص.

(٢) قرأ عاصم، وحمزة، والكسائى: (وصُد) بضم الصاد. وقرأ الباقون بالفتح. انظر الحجة للفارسى (٦/١١٢).

نزول الأقدار القهرية والبلايا على العبد، رحمة عظيمة، تتحقق بها العبودية، التي هي شرف العبد ورفعته. وبالله التوفيق.

ثم ذكر بقية وعظ المؤمن، فقال:

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾
يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ
عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ
وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿وقال الذى آمنَ﴾ أى: مؤمن آل فرعون: ﴿يا قوم اتبعونِ﴾ فيما دللتكم عليه، ﴿أهدِكُم سبيلَ الرشادِ﴾ أى: طريقاً يُوصل صاحبَه إلى المقصود. والرشاد: ضد الغيّ، وفيه تعريضٌ بأن مايسلكه فرعون وقومه سبيل الغيّ والضلال.

﴿يا قوم إنما هذه الحياةُ الدنيا متاعٌ﴾ أى: تمتع يسير؛ لسرعة زوالها، فالإخلاد إليها أصل الشر، ومنبع الفتن، ومنه يتشعب فنون ما يؤدى إلى سخط الله. أَجْمل له أولاً، ثم فسَّر، فاستفتح بذم الدنيا، وتصغير شأنها، ثم ثنّى بتعظيم الآخرة، وبيَّن أنها هى الموطن والمستقر بقوله: ﴿وإنَّ الآخرةَ هى دارُ القرارِ﴾؛ لخلودها، ودوامها، ودوام ما فيها. قال ابن عرفه: التمتع بالدنيا مانع من الزهد، وكون الآخرة دار مستقر يقتضى وجود الحرص على أسباب الحصول فيها. هـ.

ثم ذكر الأعمال التى تُبعد عنها أو تُقرب إليها، فقال: ﴿من عَمِلَ سيئةً﴾ فى الدنيا ﴿فلا يُجزَى﴾ فى الآخرة ﴿إلا مثلَها﴾ عدلاً من الله تعالى. قال القشيرى: له مثلها فى المقدار، لا فى الصفة؛ لأن الأولى سيئة، والمكافأةُ حسنة ليست بسيئة. هـ. وقال ابن عرفة: فى توفيه مماثلة العذاب الأبدى على كفر ساعة تتصور المماثلة، إما باعتبار نيته الكفر دواماً، وإما بأن يقال: ليس المراد المماثلة عقلاً، بل المماثلة شرعاً. وفى الإحياء: قال الحسن: إنما خُلِّد أهل الجنة فى الجنة، وأهل النار، فى النار، بالنية، وهو ـ والله أعلم ـ مقتبس من قوله تعالى: ﴿أَوَ لَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾(١) هـ. قاله المحشى.

(١) من الآية ٤٤ من سورة إبراهيم.

﴿ ومن عَمِلَ صالحاً من ذكرٍ أو أنثى وهو مؤمن فأولئك ﴾ الذين عملوا ذلك ﴿ يدخلون الجنةَ يُرزقون فيها بغير حسابٍ ﴾ أي: بغير تقدير، وموازنة بالعمل، بل بأضعافٍ مضاعفة، فضلاً من الله ـ عز وجل ـ ورحمة. قال القشيري: أي: مؤبداً مخلداً، لا يخرجون من الجنة، ولا مما هم عليه من الحال. هـ. وجعل العمل عمدة، والإيمان حالاً؛ للإيذان بأنه لا عبرة بالعمل بدونه، وأنّ ثوابه أعلى من ذلك.

الإشارة: قال الورتجبي: سبيل الرشاد: طريق المعرفة، ومعرفة الله تعالى: موافقته ومتابعة أنبيائه وأوليائه، ولا تحصل الموافقة إلا بترك مراد النفس، ولذلك قال: ﴿يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع﴾. قال محمد بن علي الترمذي: لم تزل الدنيا مذمومة في الأمم السابقة، عند العقلاء منهم، وطالبوها مهانين عند الحكماء الماضية، وما قام داع في أمة إلا حذَّر متابعةَ الدنيا وجمعها والحب لها، ألا ترى مؤمن آل فرعون كيف قال: ﴿ اتبعون أهدكم سبيلَ الرشاد ﴾، كأنهم قالوا: وما سبيل الرشاد؟ قال: ﴿ إنما هذه الحياة الدنيا متاع ﴾ أي: لن تصل إلى سبيل الرشاد وفي قلبك محبة الدنيا وطلب لها. هـ.

﴿ ۞ وَيَٰقَوۡمِ مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشۡرِكَ بِهِۦ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ لَيۡسَ لَهُۥ دَعۡوَةٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَلَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذۡكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمۡۚ وَأُفَوِّضُ أَمۡرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۖ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ﴿٤٦﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله، حاكياً عن المؤمن: ﴿ وياقوم مالي أدعوكم إلى النجاة ﴾؛ إلى السلامة من النار، ﴿ وتدعونني إلى النار ﴾ بسلوك أسبابها. كرر نداءهم؛ إيقاظاً لهم عن سِنة الغفلة، واعتناءً بالمنادى به، ومبالغة في توبيخهم، وفيه أنهم قومه، وأنه من آل فرعون، وجيء بالواو في النداء الثالث، دون الثاني؛ لأن الثاني

داخل في كلام هو بيان للمجمل وتفسير له، بخلاف الثالث. ومدار التعجب الذي يلوح به الاستفهام هو دعوتهم إياه إلى النار، لا دعوته إياهم إلى النجاة، كأنه قيل: أخبروني كيف هذا الحال؛ أدعوكم إلى الخير وتدعونني إلى الشر؟

﴿تدعونني لأكفرَ بالله﴾ هو بدل من (تدعونني) الأول، وفيه تعليل، والدعاء يتعدّى باللام وبإلى، كالهداية، ﴿وأُشركَ به﴾؛ وتدعونني لأشرك به ﴿ما ليسَ لي به علمٌ﴾ أي: بربوبيته، والمراد بنفي العلم: نفي المعلوم، كأنه قال: وأشرك به شيئاً ليس بإله، وما ليس بإله كيف يصحّ أن يعلم إلهاً؟ ﴿وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار﴾ أي: إلى الله الجامع لصفات الألوهية، من كمال القدرة والغلبة، وما يتوقف عليه من العلم والإرادة؛ إذ بالقدرة يتمكن من المجازاة بالتعذيب، أو الإحسان بالغفران.

﴿لاجَرَمَ﴾؛ لاشك، أو: حقاً، وقال البصريون: «لا»: نفي رد لما دعوه إليه، «وجرم»: فعل، بمعنى: حقّ، «وأن» مع «ما» في حيزه؛ فاعل، أي: حق ووجب ﴿أنّما تدعونني إليه ليس له دعوةٌ في الدنيا ولا في الآخرة﴾ أي: وجب عدم دعوة آلهتكم إلى عبادتها، والظاهر: أن «جَرَمَ» من الجرم، وأراد به هنا الكذب، أي: لا كذب في أن ما تدعونني إليه ليس له دعوة.. الخ، فقد يضمن الفعل معنى المصدر، وتدخل «لا» النافية للجنس عليه، والمعنى: أن ما تدعونني إليه ليس له دعوة إلى نفسه قط، ومن حق المعبود بالحق أن يدعوَ العباد إلى طاعته، وما تدعونني إليه لايدعو هو إلى عبادته، ولا يدّعي الربوبية، أو: معناه: ليس له استجابة دعوة في الدنيا والآخرة، أو: دعوة مستجابة. جعلت الدعوة التي لااستجابة لها، ولامنفعة، كلا دعوة. ﴿وأنَّ مردَّنا إلى الله﴾ أي: رجوعنا إليه بالموت، ﴿وأنَّ المسرفين﴾ في الضلال والطغيان، كالإشراك وسفك الدماء، ﴿هم أصحابُ النار﴾ أي: ملازموها.

﴿فستذكُرون ما أقولُ لكم﴾ من النصائح عند نزول العذاب، ﴿وأُفَوِضُ﴾؛ أُسلِّم ﴿أمري إلى الله﴾، قاله لمّا توعدوه. ﴿إنَّ الله بصير بالعبادِ﴾ فيَحْرُسُ من يلوذ به من المكاره.

﴿فوقاه اللهُ سيئاتِ ما مكروا﴾؛ شدائد مكرهم، وما همُّوا به من إلحاق أنواع العذاب لِمَن خالفه، وقيل: إنه خرج من عندهم هارباً إلى جبل، فبعث قريباً من ألفٍ في طلبه، فمنهم من أكلته السباع، ومَنْ رجع منهم صلّبه فرعونُ. وقيل: لمَّا وصلوا إليه ليأخذوه، وجدوه يُصلّي، والوحوش حوله، فرجعوا رُعباً، فقتلهم. وقال مقاتل: لمّا قال المؤمن هذه الكلمات، قصدوا قتله، فوقاه الله من مكرهم، أي: بعد تفويض أمره إلى الله، فقيل: إنه نجا مع موسى في البحر. هـ. ﴿وحاقَ﴾؛ نزل ﴿بآلِ فرعونَ﴾ أي: بفرعون وقومه. وعدم التصريح به، للاستغناء بذكرهم عن ذكره، ضرورة أنه أولى منهم بذلك، و﴿سوءُ العذاب﴾؛ الغرق والقتل والنار.

وقوله تعالى: ﴿ النارُ يُعرضون عليها غُدواً وعَشياً ﴾: جملة مستأنفة، مسوقة لبيان سوء العذاب، والنار: خبر عن محذوف، كأن قائلا قال: ما سوء العذاب؟ فقيل: هو النار، أو: بدل من «سوء»، و«النار»: مبتدأ، و«يُعرضون»: خبر، وعَرْضهم عليها: إحراقهم، يقال: عرض الإمَام الأسارى على السيف: إذا قتلهم به. وذلك لأرواحهم، كما روَى ابنُ مسعود: أن أرواحهم في أجواف طير سُود، تُعرض على النار ـ أي: تحرق بها ـ بكرة وعشياً، إلى يوم القيامة(١) . وتخصيص الوقتين إما لأنهم يُعذبون في غيرهما بجنس آخر، أو: يخفف عنهم، أو: يكون غدواً وعشياً عبارة عن الدوام.

هذا في الدنيا في عالم البرزخ، ﴿ ويومَ تقومُ الساعةُ ﴾ يقال للخزنة: ﴿ أَدْخِلوا آلَ فرعونَ ﴾، من الإدخال الرباعي، ومن قرأ: ادخُلوا(٢)، ثلاثياً، فعلى حذف النداء، أي: ادخلوا يا آل فرعون ﴿ أشدَّ العذاب ﴾ أي: عذاب جهنم، فإنه أشدّ مما كانوا فيه. أو: أشد عذاب النار؛ فإن َعذابها ألوان، بعضه أشد من بعض، وهذه الآية دليل على عذاب القبر في البرزخ، وهو ثابت في الأحاديث الصحاح.

الإشارة: النجاة التي دعاهم إليها :هي الزهد في الدنيا، وفي التمتع بها مع الاشتغال بالله. والنار التي دعوه إليها: هي الاشتغال بمتعة الدنيا مع الغفلة عن الله. لاجَرَمَ أنَّ ما دعوه إليه لا منفعة له في الدارين، بل ضرره أقرب من نفعه. وقوله تعالى: ﴿وأنَّ مرَدّنا إلى الله﴾ قال الورتجبي: [مرد المحبين](٣) إلى مشاهدته، ومرد العارفين إلى الوصلة، ومرد الكل إلى قضيات الأزلية.

قال حمدون القصّار: لا أعلم في القرآن أرجى من قوله: ﴿ وأنَّ مَردَّنا إلي الله ﴾، فقد حكى عن بعض السلف أنه قال: الكريمُ إذا قدر عفا، وإنما يكون مرد العبد إلى ربه إذا أتاه على أمد الإفلاس والفقر، لا أن يرى لنفسه مقاماً في إحدى الدارين، وهو أن يكون في الدنيا خاشعاً لمن يذله، ولا يلتفت إليه، هارباً ممن يكرمه ويبره، ويكون في الآخرة طالباً لفضل الله، مشفقاً من حسناته أكثر من إشفاق الكفار من كفرهم. هـ. قلت: هذا مقام العباد والزهاد، وأما العارفون فلا يرون إلا الله، فيلقون الله بالله، غائبون عن إحسانهم وإساءتهم.

وقوله تعالى: ﴿ فستذكرون ما أقولُ لكم ﴾ هكذا يقول الواعظ إن لم ينفع وعظه، ويُفوض أمره وأمرهم إلى الله؛ فإنَّ الله بصيرٌ بهم. وقال بعضهم: وأُفوضُ أمرى في الدنيا والآخرة إلى الله، فهو بصير بعجزى وضعفى عن

---

(١) عزه السيوطي في الدر (٥/٦٥٩) لعبد الرزاق وابن أبي حاتم.

(٢) قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر، وأبو بكر (ادخلوا) بهمزة وصل، وضم الخاء، وقرأ الباقون بقطع الهمزة المفتوحة، وكسر الخاء، أمر للخزنة. انظر الإتحاف (٢/٤٣٨).

(٣) مابين المعقوفتين غير موجود في الأصول، وأثبته من عرائس البيان للشيرازي.

رد القضاء والقدر، والتفويض: ألا يرى لنفسه، ولا للخلق جميعاً، قدرةً على النفع والضر، فيرى الله بإيجاد الموجود في جميع الأنفاس، بنعت المشاهدة والحال، لا بنعت العلم والعقل. وقال بعضهم: التفويض: قبل نزول القضاء، والتسليم: بعد نزول القضاء. وقال ذو النون حين سُئل عنه: متى يكون العبد مفوضاً؟ قال: إذا أيس من فعله ونفسه، والتجأ إلى الله في جميع أحواله، ولم تكن له علاقة سوى ربه. هـ. أي: لم يكن له تعلق إلا بالله. فالمقامات ثلاث: التفويض قبل النزول، والرضا بعده بالمجاهدة، والتسليم بلامجاهدة.

وقوله تعالى: ﴿ فوقاه الله سيئاتِ مامكروا ﴾ هذه نتيجة التفويض، فكُلّ مَن فوّض أمره إلى الله فيما ينزل به، وقاه الله جميع المكاره، وكُلَّ ما يخشى؛ إن قطع عن قلبه التعلق بغير الله، كما هو حقيقة التفويض. قال القشيري: أشدُّ العذاب على الكفار: يأسُهم عن الخروج، وأما العصاة من المؤمنين فأشدُّ عذابهم: إذا علموا أن هذا يومُ لقاءِ المؤمنين. هـ. أي: وهم قد حُرموا ذلك.

ثم ذكر احتجاج الكفار في النار، فقال:

﴿ وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَـٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۚ قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟ ۗ وَمَا دُعَـٰٓؤُا۟ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وإذ يتحاجُّونَ في النار ﴾ أي: واذكر لقومك وقت تخاصم الكفار في النار، ﴿ فيقول الضعفاءُ ﴾ منهم ﴿ للذين استكبروا ﴾ وهم رؤساؤهم: ﴿ إنا كنا لكم تَبعاً ﴾، وهو جمع تابع، كخادم وخدَم، أو: ذوي تبَع، على أنه مصدر، أو: وصف به للمبالغة، ﴿ فهل أنتم مُغنونَ عنا نصيباً من النار ﴾ أي: فهل أنتم دافعون، أو: حاملون عنا جزءاً من النار؟ ﴿ قال الذين استكبروا إنَّا كلٌّ فيها ﴾، التنوين عوض عن المضاف، أي: كلنا فيها، لا يُغني أحد عن أحد. وقرئ (كُلاً) بالنصب[1] على التأكيد، وهو ضعيف لخلوه من

(١) قرأ بذلك ابن السميفع وعيسى بن عمر. انظر القرطبي (٥٩٣٧/٧) والبحر المحيط (٤٤٨/٧).

الضمير. ﴿إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾؛ قضى بينهم، بأن أدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، لا مرد له، ولا مُعقب لحُكمه، فلا يُغنى أحد عن أحد شيئاً.

قال ابن عرفة: فى الآية لف ونشر، فقوله تعالى: ﴿إنَّا كلٌّ فيها﴾ راجع لقوله: ﴿إنا كنا لكم تبعاً﴾ أى: إنا قد حصلنا جميعاً فى النار، فَجُوزِى كلٌّ على قَدْر عمله، أنتم على ضلالكم، ونحن على إضلالنا إياكم. وقوله : ﴿إن الله قد حكم بين العباد﴾ راجع لقوله: ﴿فهل أنتم مُغنون عنا﴾ وبهذا المعنى يتقرر الجواب. هـ.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ﴾؛ للقُوَّام بتعذيب أهلها، وإنما لم يقل: لخزنتها؛ لأن فى ذكر جهنم تهويلاً وتفظيعاً، ويحتمل أنّ جهنم هى أبعدُ النار قعراً، من قوله: بئر جِهَنَّام، أى: بعيدة القعر، وفيها أعتى الكفرة وأطغاهم، أو: لكون الملائكة الموكلين بعذاب أهلها أقدر على الشفاعة؛ لمزيد قربهم من الله، فلهذا تعمدوهم بطلب الدعوة، فقالوا لهم: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا﴾ أى: مقدارَ يوم من الدنيا ﴿مِنَ الْعَذَابِ﴾، واقتصارهم فى الاستدعاء على ما ذكر فى تخفيف قدر يسير من العذاب فى مقدار قصير من الزمان، دون رفعه رأساً، أو: تخفيف منه فى زمان مديد؛ لأن ذلك عندهم ليس فى حيز الإمكان، أو لايكاد يدخل تحت أمانيهم.

﴿قَالُوا﴾ أى: الخزنة، توبيخاً لهم، بعد مدة طويلة: ﴿أَوَلَمْ تَكُ﴾ أى: القصة ﴿تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾؛ بالمعجزات، يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا؟ أرادوا بذلك إلزامهم الحجة، وتوبيخهم على إضاعة أوقات الدعاء، وتعطيل أسباب الإجابة، ﴿قَالُوا﴾ أى: الكفار: ﴿بَلَى﴾ أتونا بها، فكذبناهم وقلنا: ما نزّل الله من شيء. ﴿قَالُوا﴾ أى: الخزنة تهكماً بهم: ﴿فَادْعُوا﴾ أى: إذا كان الأمر كذلك فادعوا أنتم، فإنّ الدعاء لمن يفعل ذلك مما يستحيل صدوره منا. زاد البيضاوى: إذ لم يؤذن لنا فى الدعاء لأمثالكم، وبحث معه أبو السعود بأنه يُوهم أن المانع هو عدم الإذن، وأنّ الإذن فى حيز الإمكان، ولا تجوز الشفاعة فى كافر. انظره. قال تعالى: ﴿وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾؛ فى ضياع وبطلان، لا يُجابون فيه؛ لأنهم دعوا فى غير وقته، ويحتمل أن يكون من كلام الخزنة. والله تعالى أعلم.

الإشارة: الآية تجر ذيلها على كلِّ من له جاه، فدعا إلى سوء، بمقاله أو حاله، فتبعه العامة على ذلك، فيتحاجون يوم القيامة، فيقول المستضعفون: إنا كنا لكم تبعاً. فكل من أمر بسوء، وفُعِل، عُوقب الآمر والمأمور، وكل من فعل فعلاً خارجاً عن السُّنَّة، كالرغبة فى الدنيا، والتكاثر منها، فتبعه العامة على ذلك، عُوتب الجميع، وبالله التوفيق.

ثم وعد أهل الحق بالنصر، فقال:

﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَـٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّـٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ الدَّارِ ﴿٥٢﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿إِنَّا لَنَنصرُ رُسُلَنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا﴾ بالحجّة والظفر، والانتقام لهم من الكفرة، بالاستئصال، والقتل، والسبى، وغير ذلك من العقوبات. ولا يقدح فى ذلك ما يتفق لهم من صورة الغلبة، امتحاناً؛ إذ الحكم للغالب، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا..﴾(١) الآية، وقوله: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾(٢). والنصر فى الدنيا إما بالسيف، فى حق من أمر بالجهاد، أو: بالحجة والإهلاك فيمن لم يؤمر به، وبذلك يندفع قول من زعم تخصيص الآية أو تعميمها، وإخراج زكريا ويحيى من الرسالة، وإنْ ثبت لهما النبوة لقتلهما، وأن الآية، إنما تضمنت نصر الرسل دون الأنبياء، فإنه خلاف لما صرّح به الجمهور من ثبوت الرسالة ليحيى، ففى كلام ابن جزى هنا نظر. قاله المحشى.

﴿ويومَ يقومُ الأشهادُ﴾ أى: وننصرهم يوم القيامة، عبَّر عنه بذلك للإشعار بكيفية النصرة، وأنها تكون حين يجتمع الأولون والآخرون، ويحضره الأشهاد من الملائكة وغيرهم، فيشهدون للأنبياء بالتبليغ، وعلى الكفرة بالتكذيب. قال النسفى: الأشهاد جمع شاهد، كصاحب وأصحاب، يريد: الأنبياء والحفظة، فالأنبياء يشهدون عند رب العزة على الكفرة بالتكذيب، والحفظة يشهدون على بنى آدم. هـ.

﴿يوم لا ينفعُ الظالمين معذرتُهم﴾: هو بدل من ﴿يوم يقوم﴾ أى: لا يقبل عذرهم، ومن قرأ بالتأنيث(٣) فباعتبار لفظ المعذرة، ﴿ولهم اللعنةُ﴾ أى: البُعد من الرحمة، ﴿ولهم سوءُ الدار﴾ أى: سوء دار الآخرة، وهو عذابها.

الإشارة: كما نُصرت الرسل بعد الامتحان، نُصرت الأولياء بعد الامتحان والامتكان. قال الشاذلى رضي الله عنه: اللهم إنّ القوم قد حكمت عليهم بالذّلّ حتى عزوا.. الخ. وهم داخلون فى قوله: ﴿والذين آمنوا فى الحياة الدنيا﴾،

(١) من الآية ١٧١ من سورة الصفات.

(٢) من الآية ٢١ من سورة المجادلة.

(٣) قرأ ﴿يوم لاينفع﴾ بالتذكير نافع، وعاصم، وحمزة، والكسائى، وقرأ الباقون ﴿يوم لاتنفع﴾ بالتاء. انظر الحجة للفارسى (٦/١١٥).

ونصرتهم تكون أولاً بالظفر بنفوسهم، ثم بالغيبة عن حس الكائنات، باتساع دائرة المعانى، ثم بالتصرف فى الوجود بأسره بهمته. قال القشيرى: ويقال: ينصرهم على أعدائهم بلطف خفىّ، وكيد غير مرئىّ، من حيث يحتسب أو لا يحتسب، كما ينصرهم فى الدنيا على تحقيق المعرفة، واليقين بأنّ الكائنات من الله. ثم قال: غاية النصرة أن يَقتُلَ الناصرُ عدوَّ مَنْ ينصره، [فإذا رآه حقق له](١) أنه لاعدُو له فى الحقيقة، وأنّ الخلق أشباحٌ، وتجرى عليهم أحكام القدرة، فالولىُّ لا عدوّ له ولا صديق، ليس له إلا الله. قال الله تعالى: ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾(٢) هـ. والنصر فى الحقيقة هو التأييد عند التعرفات، فإذا ابتلى الرسول أو الولىّ أيّده الله باليقين، ونصره بالمعرفة، فيلقى ما ينزل عليه بالرضا والتسليم، وتذكّر مالقى به الشاذلى حين دعا بالسلامة مما ابتلى به الرسل، متعللاً بأنهم أقوى، فقيل له: قل: وما أردتَ من شيء فأيِّدنا كما أيدتهم. هـ.

ثم وعد نبيه بالنصر، كما نصر موسى وغيره، فقال:

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٥٤﴾ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴿٥٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ ۙ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ ۚ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ۖ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ولقد آتينا موسى الهدى ﴾؛ ما يهتدى به من المعجزات، أو الشرائع والصُحف. ﴿ وأورثنا بني إسرائيل الكتابَ ﴾ أى: تركنا فيهم التوارة، يرثه بعضهم من بعض، أو: جنس الكتاب، فيصدق بالتوارة والإنجيل والزبور؛ لأنّ المنزّل عليه منهم. قال الطيبى: فيه إشارة إلى أن ميراث الأنبياء ليس إلا العلم والكتاب الهادى، الناطق بالحكمة والموعظة. هـ. حال كون الكتاب ﴿ هُدىً وذكرى ﴾ أى: هادياً ومُذكّراً، أو: إرشاداً وتذكرة ﴿ لأولي الألبابِ ﴾؛ لأولى العقول الصافية، العالمين بما فيه، العاملين به.

---

(١) عبارة القشيرى: [فإذا أراد حتفه تحقق].

(٢) من الآية ٢٥٧ من سورة البقرة.

﴿ فاصبرْ إنَّ وَعْدَ اللهِ حقٌّ ﴾ أي: فاصبر على ما يُجرّعك قومك من الغُصَص ﴿ إنَّ وعد الله ﴾ بنصرك وإعلاء دينك، على مانطق به قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ، إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ، وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾(١)، ﴿ حقٌّ ﴾ لا يحتمل الاختلاف بحال. قال الطيبي: الآية تشير إلى نصره على أعدائه، كموسى، وأنه يظهر دينه على الدين كله، ويورث كتابه؛ ليعتصموا به، فيكون لهم هُدىً وذكرى، وعزاً وشرفاً. هـ. أي: ولذلك قدّم ذكر موسى على بشارته بالنصر؛ ليتم التشبيه.

﴿ واستغفر لذنبك ﴾، تشريعاً لأمتك؛ فإنَّ الاستغفار يمحو الذنوب التي تعوق عن النصر، أو: تداركاً لِمَا فرط منك من ترك الأَوْلَى في بعض الأحايين، فإنَّ حسنات الأبرار سيئات المقربين. والحاصل: أن كل مقام له ذنب يليق به، وهو التقصير في القيام به على ما يليق به، فالنبي ﷺ كُلف بدوام الشهود ولو في حال التعليم، فإذا غاب عن الحق لحظة بشغل البال بالتعليم، كان في حقه نقصاً يُوجب الاستغفار. ثم قال: ﴿ وسبّحْ بحمد ربك بالعشيِّ والإبكار ﴾ أي: دُمْ على التسبيح ملتبساً بحمده، أي: قل: سبحان الله وبحمده، أو: صلِّ في هذين الوقتين، إذ كان الواجب بمكة ركعتين بكرة وعشيا، وقيل: هما صلاة العصر والفجر، خصصهما لشرفهما.

﴿ إنَّ الذين يُجادلون في آياتِ الله ﴾ ويجحدونها ﴿ بغير سُلطانٍ ﴾؛ برهان ﴿ أتاهُم ﴾ من جهته تعالى، بل عناداً وحسداً. وتعليق المجادلة بذلك، مع استحالة إتيانه؛ للإيذان بأن التكلم في أمر الدين لابد من استناده إلى برهان، وهذا عام لكل مجادل، محق أو مبطل، وإن نزل في مشركي مكة. وقوله: ﴿ إن في صُدورِهم إلا كِبْرٌ ﴾: خبر «إنّ»، أي: ما في قلوبهم إلا تكبر عن الحق، وتعاظم عنه، وهو إرادةُ التقدم والرئاسة، وألا يكون أحدٌ فوقهم، فلذلك عادوك، ودفعوا آياتك، خيفة أن تتقدمهم، ويكونوا تحت قهرك؛ لأن النبوة تحتها كُل ملك ورئاسة، أو: إرادة أن تكون لهم النبوة دونك، حسداً وبغياً، كقولهم: ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾(٢)، ﴿ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ ﴾(٣).

ثم وصف كِبْرَهم بقوله: ﴿ ماهم ببالغيه ﴾ أي: ما هم ببالغي موجب ذلك الكبر ومقتضاه، وهو ما أرادوه من التقدم والرئاسة، وقيل: نزلت في اليهود، وهم المجادلون، كانوا يقولون: لست صاحبنا المذكور في التوارة، بل هو المسيح بن داود، يعنون الدجال، يخرج في آخر الزمان، فيبلغ سلطانه البر والبحر، وتسير معه الأنهار، وهو آية من

(١) الآيات: ١٧١ ـ ١٧٣ من سورة الصافات.
(٢) الآية ٣١ من سورة الزخرف. (٣) من الآية ١١ من سورة الأحقاف.

آيات الله، فيرجع إلينا المُلك(١) فسمى الله تمنيهم بذلك كِبْراً، ونفى أن يبلغوا متمناهم. ﴿فاستعذ بالله﴾؛ فالتجئ إليه من كيد من يحسدك، ويبغى عليك، ﴿إنه هو السميعُ﴾ لِمَا تقول ويقولون، ﴿البصير﴾ بما تعمل ويعملون، فهو ناصرك عليهم، وعاصمك من شرهم.

الإشارة: فاصبر أيها المتوجه إلى الله، إنَّ وعد الله بالفتح حق إن صبرت، وكابدت ولم تملّ، واستغفر لذنبك، وتطهرْ من عيبك، لتدخل حضرة ربك. قال الورتجبى: «واستغفر لذنبك» أى: لما جرى على قلبك من الأحكام البشرية، وأيضاً: استغفر لرؤية وجودك فى وجود الحق، فإنَّ كون الحادث فى وجود القديم ذنب فى إفراد القدم من الحدوث. انظر تمامه.

وقوله تعالى: ﴿وسبِّح..﴾ الخ، فيه الحث على التوجه إلى الله فى هذين الوقتين، فإن العبرة بالافتتاح والاختتام، فمن فتح يومه بخير، وختمه بخير، حكم على بينهما. وقال فى أهل الإنكار: ﴿إن الذين يجادلون فى آيات الله...﴾ الآية، فاستعذ بالله منهم، وغِبْ عنهم بإقبالك على مولاك. وبالله التوفيق.

ولمَّا كانت مجادلة الكفرة فى آيات الله مشتملة على إنكار البعث، احتج عليهم بقوله:

﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ ۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿لَخلقُ السموات والأرض أكبرُ من خلقِ الناسِ﴾، فمن قدر على اختراع هذه الأجرام مع عظمها كان على اختراع الإنسان بعد موته؛ وبعثه مع مهانته؛ أقدر، ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ ذلك؛ لأنهم لا يتفكرون؛ لغلبة الغفلة عليهم، وعمى بصيرتهم.

﴿وما يستوى الأعمى والبصيرُ﴾ أى: الغافل والمستبصر، ﴿ولا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسيءُ﴾؛ ولايستوى المحسن والمسىء، فلابد أن تكون لهم حال أخرى، يظهر فيها ما بين الفريقين من التفاوت، وهى فيما بعد البعث، فيرتفع المستبصر المحسن فى أعلى عليين، ويسقط الغافل المسىء فى أسفل سافلين. وزيادة

(١) ذكره القرطبى (٥٩٤١/٧) وقيل فى المراد بالذين يجادلون فى آيات الله: هو كل من كفر بالنبى ﷺ وهذا حسن لأنه يعم.

«لا» في المسيء؛ لتأكيد النفي؛ لطول الكلام بالصلة. ﴿ قليلاً ما يتذكرون ﴾(١) أي: تذكراً قليلاً يتذكرون. وقرىء بالغيبة، والخطاب، على الالتفات. ﴿ إنَّ الساعة لآتيةٌ لاريبَ فيها ﴾؛ لاشك في مجيئها؛ لوضوح دلائلها، وإجماع الرسل على الوعد بوقوعها، ﴿ ولكنَّ أكثرَ الناسِ لا يؤمنون ﴾؛ لا يُصدقون بوقوعها؛ لقصور نظرهم على ظواهر ما يحسون.

الإشارة: التفكر في العوالم العلوية والسُفلية، يُوجب في القلب عظمة الحق جل جلاله، وباهر قدرته وحكمته، وإتيان البعث لا محالة؛ لنفوذ القدرة في الجميع. وكونُ خلق السموات والأرض أكبر من خلق الإنسان، إنما هو باعتبار الجرم الحسي، وأما باعتبار المعنى؛ فالإنسان أعظم؛ لاشتماله على العوالم كلها، كما قال في المباحث:

اعقِلْ فأَنْتَ نُسخةُ الوُجُـود   لِلَه ما أَعْلاكَ مِن موجُود

أليس فِيكَ العرْشُ والكرسِيُّ   والعَالَمُ العلويُّ والسُّفـليُّ؟

ثم أمر بعبادته، أو دعائه، بعد بيان عظمة قدرته، ليكون الداعي مُوقناً بالإجابة، فقال:

﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ (٦٠) ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وقال ربُكُم ادعوني ﴾ أي: اعبدوني ﴿ أستجبْ لكم ﴾ أي: أثبكم، ويدل على هذا قوله: ﴿ إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنّم داخرين ﴾؛ صاغرين أذلاء، أو: اسألوني أعطكم، على ما أريد، في الوقت الذي أريد. قال القشيري: والحكمة في أنه أمر بالسؤال قبل الإجابة، وبالاستغفار قبل المغفرة، أنه حكم في اللوح أن يعطيك ذلك الشيء الذي تسأله وإن لم تسأل، ولكن أمر بالسؤال، حتى إذا وجدته تظن أنك وجده بدعائك، فتفرح به. **قلت:** السؤال سبب، والأسباب غطى بها سر قدرته تعالى. ثم قال: ويقال: إذا ثبت أن هذا الخطاب للمؤمنين فما مِن مؤمن يدعو الله، ويسأله شيئاً، إلا أعطاه إياه، إما في الدنيا، وإما في الآخرة. حيث يقال له: هذا ما طلَبتَه في الدنيا، وقد ادْخرتُه لك إلى هذا اليوم، حتى يتَمنى العبدُ أنه لم يُعطَ شيئاً في الدنيا. هـ.

---

(١) قرأ عاصم، وحمزة، والكسائي «تتذكرون» بتائين من فوق، على الخطاب، وقرأ الباقون بالياء والتاء على الغيب.. انظر الإتحاف (٢/٤٣٩).

قلت: فالدعاء كله إذاً مستجاب، بوعد القرآن، لكن منه ما يُعجّل، ومنه مايؤجّل، ومنه مايصرف عنه به البلاء، كما في الأثر، وإذا فسر الدعاء بالسؤال كان الاستكبار عنه منزلاً منزلة الاستكبار عن العبادة؛ للمبالغة في الحث عليه. قال ﷺ: «الدعاء هو العبادة» وقرأ الآية(١)، وفي رواية: «مخ العبادة»(٢)، وعن ابن عباس: «وحّدوني أغفر لكم»، فسّر الدعاء بالعبادة، والعبادة بالتوحيد.

الإشارة: اختلف الصوفية أيّ الحالين أفضل؟ هل الدعاء والابتهال، أو السكوت والرضا؟ والمختار أن ينظر العبد ما يتجلى في قلبه، فإن انشرح للدعاء فهو في حقه أفضل، وإن انقبض عنه، فالسكوت أولى، والغالب على أهل التحقيق من العارفين، الغنى بالله، والاكتفاء بعلمه، كحال الخليل عليه السلام، فإنهم إبراهيميون.

قال الورتجبي: أي: ادعوني في زمن الدعاء الذي جعلته خاصاً لإجابة الدعوة، فادعوني في تلك الأوقات، استجب لكم؛ فإنّ وقوع الإجابة فيها حقيقة بلا شك، ومن لم يعرف أوقات الدعاء، فدعاؤه ترك أدب؛ فإن الدعاء في وقت الاستغفار من قلة معرفة المقامات، فإن السلطان إذا كان غضبان لايُسأل منه، وإذا كان مستبشراً فيكون زمانه زمن العطاء والكرم. ـ **قلت:** هذا في حق الخصوص، الفاهمين عن الله، وأما العموم، فما يناسبهم إلا دوام الدعاء في الرخاء والشدة، قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا﴾(٣) ثم قال عن الوراق: ادعوني على حد الاضطرار والالتجاء، حيث لا يكون لكم مرجع إلى [سواي](٤)، استجب لكم. هـ.

ثم برهن على توحيده، وأنه لايصح الرجوع إلا إليه، فقال:

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ

---

(١) أخرجه أبو داود في (الصلاة، باب الدعاء ٢/١٦١، ح ١٤٧٩) والترمذي في (الدعوات، باب ما جا في فضل الدعاء ٥/٤٢٦، ح ٣٣٧٢) وقال «حسن صحيح» وابن ماجه في (الدعاء، باب فضل الدعاء ٢/١٢٥٨، ح ٣٨٢٨) والحاكم (١/٤٩٠) وصححه، ووافقه الذهبي، من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.

(٢) أخرج هذه الرواية الترمذي في (الموضع السابق حديث ٣٣٧١) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٣) من الآية ٤٣ من سورة الأنعام.

(٤) في الأصول [سواه] والمثبت هو الذي في عرائس البيان.

قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ۗ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٥﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ الله الذي جعلَ لكم الليلَ لتسكنوا فيه ﴾ بأن خلقه مظلماً بارداً، تقلّ فيه الحركات فتستريح فيه الجوارح، ﴿ و ﴾ جعل ﴿ النهار مُبصراً ﴾ أي: مبصَراً فيه. فأسند الإبصار إلى النهار، مجازاً، والأصل في الحقيقة لأهل النهار. وقرن الليل بالمفعول له، والنهار بالحال، ولم يكونا حالين أو مفعولا لهما؛ رعايةً لحق المقابلة، لأنهما متقابلان معنىً؛ لأن الليل مقابل النهار، فلما تقابلا معنىً تقابلا لفظاً، مع أن كل واحد منهما يؤدي مؤدى الآخر، ولأنه لو قيل: لتُبصروا فيه؛ فاتت الفصاحة التي في الإسناد مجازي، ولو قيل: «ساكناً» لم تتميز الحقيقة من المجاز، إذ الليل يوصف بالسكون على الحقيقة، ألا ترى إلى قولهم: ليل ساج، أي: ساكن لا ريح فيه.

﴿ إنَّ الله لذو فضلٍ ﴾ عظيم ﴿ على الناس ﴾، حيث تفضّل عليهم بهذه النعم الجسيمة، وإنما لم يقل: المتفضل؛ لأن المراد تكثير الفضل، وأنه فضله لايوازيه فضل، فالتنكير للتعظيم. ﴿ ولكنَّ أكثرَ الناس لايشكرون ﴾؛ لجهلهم بالمنْعِم، وإغفالهم مواضع النعم. وتكرير الناس، ولم يقل: أكثرهم؛ لتخصيص الكفران بهم، وأنهم هم الذين من شأنهم الكفران، كقوله: ﴿ إنَّ الإنسان لكفور ﴾(١).

﴿ ذلكمُ الله ﴾ أي: ذلكم المنفرد بالأفعال المقتضية للألوهية، من خلق الليل والنهار؛ هو الله ﴿ ربكم ﴾ لا رباً غيره، ﴿ خالقُ كل شيء لا إله إلا هو ﴾ أخبار مترادفة، أي: الجامع لهذه الأوصاف من الإلهية والربوبية، وإيجاد الأشياء، والوحدانية، ﴿ فأنَّى تُؤفكون ﴾ أي: فكيف، ومن أيّ وجه تُصرفون عن عبادته إلى عبادة الأوثان؟! ﴿ كذلك يُؤفك الذين كانوا بآيات الله يجحدون ﴾ أي: مثل ذلك الإفك العجيب، الذي لا وجه له، ولا مصحح له أصلاً، يُؤفك كلُّ من جحد بآياته تعالى من غير تروٍّ ولا تأمل.

ثم ذكر فضله المتعلق بالمكان، بعد بيان فضله المتعلق بالزمان، فقال: ﴿ الله الذي جعل لكم الأرضَ قراراً ﴾؛ مستقراً تستقرون عليها بأقدامكم ومساكنكم، ﴿ والسماءَ بناءً ﴾؛ سقفاً فوقكم، كالدنيا بيت سقفه السماء،

(١) من الآية ٦٦ من سورة الحج.

مُزّيناً بالمصابيح، وبساطه الأرض، مشتملة على مايحتاج إليه أهل البيت. ﴿ وصوّركم فأحسن صُوركم ﴾، هذا بيان لفضله المتعلق بالأجسام، أى: صوّركم أحسن تصوير، حيث جعلكم مُنتصبَ القامة، بادى البشرة، متناسب الأعضاء والتخطيطات، متهيئاً لمناولة الصنائع واكتساب الكمالات. قيل: لمْ يخلق الله حيواناً أحسن صورة من الإنسان. ﴿ ورزقكم من الطيبات ﴾ أى: اللذائذ، ﴿ ذلكم الله ربكم ﴾ أى: ذلكم المنعوت بتلك النعوت الجليلة، هو المستحق للربوبية، ﴿ فتبارك الله ﴾ أى: تعالى بذاته وصفاته ﴿ ربُّ العالمين ﴾ أى: مالكهم ومربيهم، والكل تحت قدرته مفتقر إليه فى إيجاده وإمداده؛ إذ لو انقطع إمداده لا نْهدّ الوجود.

﴿ هو الحيُّ ﴾؛ المنفرد بالحياة الذاتية الحقيقية، ﴿ لا إله إلا هو ﴾؛ إذ لا موجود يدانيه فى ذاته وصفاته وأفعاله، ﴿ فادعوه ﴾؛ فاعبدوه ﴿ مخلصين له الدينَ ﴾ أى: الطاعة من الشرك والرياء، وقولوا: ﴿ الحمد لله ربّ العالمين ﴾. عن ابن عباس رضي الله عنهما: من قال «لا إله إلا الله»، فليقل على إثرها: الحمد لله رب العالمين(١).

الإشارة: الله هو الذى جعل ليل القبض لتسكُنوا فيه عند الله، ونهار البسط لتُبصروا نعم الله، فتشكروا لتبتغوا زيادة فضله، وجعل أرض النفوس قراراً لقيام وظائف العبودية، وسماء الأرواح مرقى لشهود عظمة الربوبية. قال القشيرى: سكونُ الناس بالليل ـ أى: الحسى ـ على أقسام: فأهل الغفلة يسكنون مع غفلتهم، وأهل المحبة يسكنون بحكم وصلتهم، فشتان بين سكون غفلةٍ، وسكونِ وصلة، وقومٌ يسكنون إلى أمثالهم وأشكالهم، وقومٌ إلى حلاوة أعمالهم، [وبسطهم، واستقبالهم](٢)، وقومٌ يعدِمون القرار فى ليلهم ونهارهم ـ أى: لايسكنون إلى شىء ـ أولئك أصحابُ الاشتياق، أبداً فى الإحراق هـ.

وقوله تعالى: ﴿وصَوَّرَكُمْ﴾ أى: صوّر أشباحكم، فأحسن صورتها، حيث بهجها بأنوار معرفته. قال الورتجبى: فأحْسن صُوَرَكم بأن ألبستكم أنوار جلالى وجمالى، واتخاذكم بنفسى، ونفخت من روحى فيكم، الذى أحسن الهياكل مِن حسنه، ومِن عكْس جماله، فإنه مرآة نورى الجلى للأشباح. هـ. قال القشيرى: خلقَ العرشَ والكرسى والسموات والأرض، وجميع المخلوقات، ولم يقل فى شىء منها: فأحسن صورها، بل قاله لمّا خلق هذا الإنسان، وليس الحَسَنَ ما يستحسنه الناسُ، ولكن الحسنُ ما يستحسنه الحبيبُ، وأنشدوا:

مَاحَطَّكَ الْوَاشُونَ عَنْ رُتْبةٍ عندى، وَلاضَـــرَّكَ مُغْتَابُ

كأنَّهـــم أثنَوْا ولَمْ يَعْلَمُوا عَلَيْكَ عِنْدِى بِالَّذِى عَابُوا(٣)

---

(١) أخرجه الطبرى (٨١/٢٤) والحاكم وصححه (٤٣٨/٢)، والبيهقى فى الأسماء والصفات (١٧٩/١) عن ابن عباس رضي الله عنهما موقوفاً.

(٢) فى القشيرى: [لبسطهم واستقلالهم].

(٣) البيتان لأبى نواس. انظر ديوانه (١٠٩/١) ونهاية الأرب (٢٤١/٢) وينسبان أيضاً إلى العباس بن الأحنف، كما جاء فى ديوانه (ص ٦١).

لم يقلْ للشمس فى علاها، ولا للأقمار فى ضيائها: (فأحسن صُوَرَكم) ولما انتهى إلينا قال: ﴿ لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم ﴾(١). ثم قال: وكما أحسن صُوركم محى من ديوانكم الزلات، وأثبت الحسنات، قال الله تعالى: ﴿ يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ ﴾(٢). هـ.

قوله تعالى: ﴿ورزقكم من الطيبات﴾ لذيذ المشاهدة، وأنس الوصلة. وقوله تعالى: ﴿هو الحى﴾ الحياة عند المتكلمين لاتتعلق بشيء، وعند الصوفية تتعلق بالأشياء؛ إذ لاقيام لها إلا بأسرار معانى ذاته، ومن تحققت حياته من الأولياء بحياة الله، بحيث كان له نور يمشى به فى الناس، كان كل من لقيه حييت روحه بمعرفة الله، ولذلك يضم الشيخ المريدَ إليه، إن رآه لم ينهض حاله، ليسرى حاله فيه، يأخذون ذلك من ضم جبريل للنبى ـ عليهما السلام. وبالله التوفيق.

ولمَّا كان ﷺ بين أظهر المشركين؛ نُهى عن أن يتصف بصفاتهم، فقال:

﴿ ۞ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٦﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ قُل إني نُهيتُ أن أعبدَ الذين تدعونَ ﴾ أي: تعبدون ﴿ من دون الله ﴾ ولم يكن عَبَدَها قط، ﴿ لمَّا جاءنيَ البيناتُ من ربي ﴾ ؛ من الحُجَج العقلية، والآيات التنزيلية.

قال الطيبى: معرفة الله تعالى ووحدانيته معلومتان بالعقل، وقد ترد الأدلة العقلية فى مضمون السمعية، أما وجوب عبادة الله، وتحريم عبادة الأصنام، فحُكْمٌ شرعى؛ لقوله: ﴿قل إنى نُهيت﴾ أى: حرّم علىّ، وهذا إنما يتحقق بعد البعثة، خلافاً للمعتزلة فى الإيجاب قبل الشرع، للتحسين والتقبيح، والمعنى: أن قضية التقليد تُوجب ما أنتم

(١) الآية ٤ من سورة التين.
(٢) من الآية ٣٩ من سورة الرعد.

عليه، ولكنى خُصصت بأمر دونكم، كما قال إبراهيم: ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ...﴾(١) الخ كلامه، ﴿وأُمرت أن أُسْلِمَ﴾؛ أن أنقاد وأُخلص دينى ﴿لربِّ العالمين﴾.

﴿هو الذي خلقكم من تراب﴾ أى: أصلكم، وأنتم فى ضمنه، ﴿ثم من نطفة﴾ أى: ثم خلقكم خلقاً تفصيليا من نطفة تُمنى، ﴿ثم من علقةٍ، ثم يُخرجكم طفلاً﴾ أى: أطفالاً، واقتصر على الواحدة؛ لأن المرادَ الجنس، ﴿ثم لتبلغوا أشُدَّكم﴾: متعلق بمحذوف، أى: ثم يُبقيكم لتبلغوا أشدَّكم، وكذلك ﴿ثم لتكونوا شُيوخاً﴾، وقيل: عطف على محذوف، عِلة ليُخرجكم، فـ «يخرجكم» من عطف علة على أخرى، كأنه قيل: ثم يخرجكم طفلاً لتَكبروا شيئاً فشيئا، ثم لتبلغوا كمالكم فى القوة والعقل، ثم لتكونوا شيوخا، بكسر الشين وضمها(٢) جمع شيخ، وقرىء «شيخاً» كقوله: «طفلا».

﴿ومنكم من يُتوفى من قبلُ﴾ عبارة تجرى فى الأدراج المذكورة، فمِن الناس من يموت قبل أن يُخرج طفلاً، وآخرون قبل الأشدّ، وآخرون قبل الشيخوخة. ﴿ولِتبلغوا أجلاً مسمى﴾ أى: وفعل ذلك لتبلغوا أجلاً مُسمى، أى: ليبلغ كل واحد منكم أجلاً مسمى لا يتعداه، وهو أجل موته، ﴿ولعلكم تعقلون﴾؛ ولكى تعقلوا ما فى ذلك من العِبَر، والحجج، وفنون الحِكَم؛ فإنّ ذلك التدريج البديع يقضى بالقدر السابق، ونفوذ القدرة القاهرة؛ لبُعد ذلك التفاوت، والاختلاف العظيم، عن الطبيعة والعلة، وإنما موجب ذلك سبق الاختيار والمشيئة الأزلية، ولذلك عقّبه بقوله:

﴿هو الذي يُحيي ويُميتُ﴾ دفعاً لما قد يُتوهم ـ من كونه لم يذكر الفاعل فى قوله: ﴿ومنكم من يُتوفى من قبل﴾ ـ أن ذلك من فساد مزاجه، أو قتل غيره قبل أجله، فرفع ذلك الإبهام بقوله: ﴿هو الذى يُحيي ويُميت﴾ لا غيره، أى: يحيى الأموات، ويميت الأحياء، أو: يفعل الإحياء والإماتة، ﴿فإذا قَضَى أمراً﴾ أى: أراد أمراً من الأمور، ﴿فإنما يقولُ له كن فيكون﴾ من غير توقف على شىء من الأشياء أصلاً، وهو تمثيل لتأثير قدرته تعالى فى الأشياء عند تعلق إرادته بها، وتصوير سرعة ترتب المكونات على تكوينه، من غير أن يكون هناك أمر ولا مأمور.

الإشارة: إذا دخل المريد مقامَ التجريد، طالباً لأسرار التوحيد والتفريد، وطلبه العامة بالرجوع للأسباب قبل التمكين، يقول: (إنى نُهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله...) الآية. والبينات التى جاءته من ربه، هو اليقين

(١) الآية ٤٣ من سورة مريم.
(٢) ضم شين «شيوخا» نافع، وأبو عمرو، وهشام، وحفص، وأبو جعفر، وقرأ الباقون بكسر الشين. انظر الإتحاف (٢/ ٤٣٩).

الكبير بأن الله يرزق أهلَ التقوى بغير أسباب، لقوله تعالى: ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ، وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِب ﴾(١) . وفي هذا المعنى قال الغزالي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ :

تَرَكْتُ لِلنَّاسِ دِينَهُم ودُنْيَاهُــم شُغْلاً بِذِكْرِكَ يَادِينِــي وَدُنْيَــاى

قال القشيرى: قل يا محمد: إنى نُهيت وأُمرتُ بالتبرِّى مما عبَدتم، والإعراضِ عما به اشتغلتم، والاستسلام للذى خلَقنى، وبالنبوة خصّنى. هـ. وكما تتربى النطفة الإنسانية فى الرحم، تتربى نطفة الإرادة ـ وهى المعرفة العيانية ـ فى القلب، فإذا عقد المريد نكاح الصُحبة مع الشيخ، قذف فى قلبه نطفة الإرادة، فما زال يربيها له حتى يخرج عن حس دائرة الأكوان، فهى ولادته طفلا، ثم لايزال يحاذيه بهمته حتى يبلغ أشده، وهو كماله، ثم يكون شيخاً مربياً؛ إن أَذِنَ له. والله تعالى أعلم.

وفيما ذكر الحق تعالى من أطوار البشر، شواهد ظاهرة، دالة على إثبات البعث، وإنكارُ ذلك والجدال فيه، جهالة، كما قال تعالى:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَـٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟
بِٱلْكِتَـٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ ٱلْأَغْلَـٰلُ فِىٓ
أَعْنَـٰقِهِمْ وَٱلسَّلَـٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾
ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا بَل لَّمْ
نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ
فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۖ
فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾ ﴾

(١) من الآيتين: ٢ ـ ٣ من سورة الطلاق.

قلت: (الذين يُجادلون): بدل من الموصول قبله المجرور، أو: رفع، أو: نصب على الذم.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ أَلَمْ تَرَ إلى الذين يُجادلون في آيات الله ﴾، كرر الحق تعالى الجدال فى هذه السورة ثلاث مرات، فإما أن يكون فى ثلاث طوائف: الأول فى قوم فرعون، والثانى فى اليهود، والثالث فى المشركين، وإما للتأكيد، أى: انظر إلى هؤلاء المكابرين المجادلين فى آيات الله الواضحة، الموجبة للإيمان بها، الزاجرة عن الجدال فيها، ﴿ أَنَّىٰ يُصْرَفون ﴾ أى: كيف يُصرفون عنها، مع تعاضد الدواعى إلى الإقبال عليها، وانتفاء الصوارف عنها بالكلية.

وهذا تعجيب من أحوالهم الركيكة، وتمهيد لما يعقبه من بيان تكذيبهم بكل القرآن، أو بسائر الكتب والشرائع، كما أبانه بقوله: ﴿ الذين كذَّبوا بالكتاب ﴾ أى: بالقرآن، أو: بجنس الكتب السماوية، ﴿ وبما أرسلنا به رسلنا ﴾ من سائر الكتب، أو: لوحى، أو: الشرائع، ﴿ فسوف يعلمون ﴾ عاقبة مافعلوا من الجدال والتكذيب، عند مشاهدتهم لأنواع العقوبات.

﴿ إذِ الأغلالُ فى أعناقهم ﴾ أى: سوف يعلمون حين تكون الأغلال فى أعناقهم. و«إذ»: ظرف للماضى، والمراد به هنا: الاستقبال؛ لأن الأمور المستقبلة لما كانت محققة الوقوع، مقطوعاً بها، عبَّر بما كان ووُجد. ﴿ و ﴾ فى أعناقهم أيضا ﴿ السلاسلُ ﴾. وفى تفسير ابن عرفة: ولا يجوز مثل ذلك فى العقوبات الدنيوية، وقياسه على العقوبات الأخروية خطأ، وفاعله مخطىء غاية الخطأ، ولم يذكر الأئمة فى اعتقال المحبوس للقتل؛ إلا أنه يجعل القيد من الحديد فى رِجْلِه، خيفة أن يهرب، وأما عنقه فلا يُجعل فيه شىء. هـ. ﴿ يُسْحَبون فى الحميم ﴾ أى: يُجرّون فى الماء الحارّ، وهو استئناف بيانى، كأن قائلاً قال: فماذا يكون حالهم بعد ذلك؟ فقال: يُسحبون فى الحميم، ﴿ ثم في النار يُسْجَرُون ﴾ ويُحرقون، من: سَجَر التنّور: إذا ملأه بالوقود، والمراد: أنهم يُعذبون بأنواع العذاب، ويُنقلون من لون إلى لون.

﴿ ثم قيلَ لهم أين ماكنتم تُشركون من دون الله قالوا ضَلُّوا عنا ﴾ أى: غابوا، وهذا قبل أن يُقرن بهم آلهتهم، أو: ضاعوا عنا فلم نجد ما كنا نتوقع منهم، ﴿ بل لم نكن ندعوا من قبلُ شيئاً ﴾ أى: تبيّن لنا أنهم لم يكونوا شيئاً. أو: يكون إنكاراً منهم، كقولهم: ﴿ وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾(١). وهذا كله مستقبل عبّر عنه بالماضى

(١) من الآية ٢٣ من سورة الأنعام.

لتحققه. ﴿ كذلك ﴾ أى: مثل ذلك الضلال الفظيع ﴿ يُضل الله الكافرين ﴾ حيث لا يهتدون إلى شيء ينفعهم فى الآخرة، أو: كما ضلّ عنهم آلهتهم يُضلهم الله عن آلهتهم، حتى لو تطالبوا لم يتصادفوا.

﴿ ذلكم ﴾ الإضلال ﴿ بما كنتم تفرحون في الأرض ﴾ أى: تبطرون وتتكبرون ﴿ بغير الحق ﴾، بل بالشرك والطغيان، ﴿ وبما كنت تمرحون ﴾؛ تفخرون وتختالون، أو: تتكبرون وتعجبون. والالتفات إلى الخطاب؛ للمبالغة فى التوبيخ. فيقال لهم: ﴿ ادْخُلوا أبوابَ جهنَّم ﴾ أى: أبوابها السبعة المقسومة عليكم ﴿ خالدين فيها ﴾ مقدّراً خلودكم فيها، ﴿ فبئسَ مثوى المتكبرين ﴾ عن الحق، والمخصوص محذوف، أى: جهنَّم.

الإشارة: الأولياء العارفون أهل التربية الكاملة، آية من آيات الله فى كل زمان، فيقال فى حق من يُخاصم فى وجودهم، ويتنكب عن صحبتهم: الذين يُجادلون فى آيات الله أنّى يُصرفون؟ وهم الذين كذّبوا بأسرار الكتاب، وعلوم باطنه، وبما أرسل به خلفاء الرسل، ممن يغوص على تلك الأسرار، فسوف يعلمون حين تخاطبهم أغلال الوساوس والخواطر، وسلاسل العلائق والشواغل، فيقبضهم عن النهوض إلى فضاء الشهود والعيان، وجولان الفكرة فى أنوار الملكوت وأسرار الجبروت، يُسحبون فى حرّ التدبير والاختيار، ثم فى نار القطيعة يُسْجَرون، ثم قيل لهم إذا ماتوا: أين ماكنتم تُشركون فى المحبة والميل من دون الله؟ قالوا: ضلوا عنا، وغاب عنهم كل ماتمتعوا به من الحظوظ والشهوات، فيقال لهم: ذلكم بما كنتم تنبسطون فى الدنيا فى أنواع المآكل، والمشارب، والملابس، والمناكح، وبما كنتم تفتخرون على الناس، فيخلدون فى الحجاب، إلا فى وقت مخصوص. وبالله التوفيق.

ثم أمر بالصبر وانتظار الفتح، فقال:

﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ
فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (٧٧) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ
وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ
فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ (٧٨) ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿فاصبرْ﴾ يا محمد على أذى قومك، وانتظر ما يلاقوا مما أُعِد لهم. ﴿إنَّ وعدَ الله﴾ بإهلاكم وتعذيبهم ﴿حقٌّ﴾؛ كائن لا محالة، ﴿فإما نُرينَّكَ بعضَ الذي نَعِدُهُم﴾ من الهلاك، كالقتل والأسر في حياتك، ﴿أوْ نتوفينّك﴾ قبل هلاكهم بعدك، ﴿فإلينا يُرجعون﴾ لامحالة، فـ «ما»: صلة بعد «إنْ»، لتأكيد الشرطية، والجواب: محذوف، أي: فإن نُرينك بعض ما نعدهم فذاك، أو نتوفينك قبل ذلك فإلينا يُرجعون يوم القيامة، فننتقم منهم أشد الانتقام.

ثم سلاّه بمَن قَبله، فقال: ﴿ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك﴾ فأُوذوا وصبروا حتى جاءهم نصرنا، ﴿منهم من قَصصْنا عليك﴾ في القرآن، ﴿ومنهم من لم نقصصْ عليك﴾، قيل: عدد الأنبياء ـ عليهم السلام ـ مائة ألف وأربعمائة وعشرون ألفا، والمذكور قصصهم في القرآن أفراد معدودة. قال الطيبي: والصحيح ما روينا عن أحمد بن حنبل، عن أبي ذر، قلت: يا رسول الله، كم عدد الأنبياء؟ قال: «مائة ألف وأربعة وعشرون ألفا، الرسل من ذلك ثلاثمائة وخمسة عشر جماً غفيراً»(١). هـ. وقد تكلم في الحديث بالضعف والصحة والوضع، وقيل: عدتهم ثمانية آلاف، أربعة آلاف نبيّ من بني إسرائيل، وأربعة آلاف من سائر الناس. وعن عليّ ـ كرم الله وجهه: «إن الله تعالى بعث نبياً أسود، فهو ممن لم تُذكر قصته في القرآن»(٢). فقوله تعالى: ﴿ومنهم لم نقصص عليك﴾ أي: في القرآن، فلا ينافي إخباره بمطلق العدد على ما في حديث أبي ذر.

﴿وماكان﴾ أي: ماصحّ، ولما استقام ﴿لرسولٍ﴾ منهم ﴿أن يأتيَ بآيةٍ﴾ مما اقترح عليه قومه، ﴿إلا بإذن الله﴾. فإنّ المعجزات على تشعب فنونها، عطايا من الله تعالى، قسمها بينهم على حسب المشيئة، المبنية على الحِكَم البالغة، وهذا جواب اقتراح قريش على رسول الله الآيات؛ عناداً، يعني: إنّا قد أرسلنا كثيراً من الرسل، وما استقام لأحد منهم أن يأتي بآية ﴿إلا بإذن الله﴾ ومشيئته، فمن لي بأن آتي بآية مما تقترحونه إلاّ أن يشاء الله، ويأذن في الإتيان بها؟ ﴿فإذا جاء أمرُ الله﴾ بهلاكهم، أو: بقيام الساعة، ﴿قُضي بالحقِ﴾ أي: بإنجاء المُحق وإثابته، وإهلاك المبطل وتعذيبه، ﴿وخَسِرَ هنالك المبطلون﴾ أي: المعاندون المقترحون للآيات، أو: المتمسكون بالباطل، فيدخل المقترحون المعاندون دخولاً أولياً.

---

(١) أخرجه مطولاً، أحمد في المسند (٥/٢٦٦) وابن حبان (موارد، كتاب العلم، باب السؤال للفائدة ح ٩٤).
(٢) أخرجه الطبري (٢٤/٨٧) والطبراني في الأسط (ح/ ٩٣١٩)، زاد ابن حجر في الكافي (رقم ٣٤٤) عزوه لابن مردويه.

الإشارة: فاصبر أيها المتوجه إلى الله على الأذى وحمل الجفاء، فإما أن ترى ما وُعد أهلُ الإنكار على الأولياء، من التدمير، وقطع الدابر، فى حياتك، أو يلحقهم بعد موتك. ولقد أُوذى من قبلك، منهم من عرفت ومنهم من لم تعرف، وما صحّ لأحد منهم أن يُظهر كرامةً إلا بإذن الله، فإذا جاء أمر الله وقامت القيامة، قُضي بالحق، فيرتفع أهل الصبر من المقربين، فى أعلى عليين، وينخفض أهل الإذاية فى أسفل سافلين.

ثم ذكّرهم بالنعم الحسية، فقال:

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ الله الذي جعل ﴾ ؛ خلق ﴿ لكم الأنعامَ ﴾ ؛ الإبل ﴿ لتركبوا منها ، ومنها تأكلون ﴾ أى: لتركبوا بعضها، وتأكلوا بعضها، وليس المراد: أن الركوب والأكل مختص ببعض معين منها، بحيث لا يجوز تعلقه بالآخر، بل على أن بعضاً منها صالح لكل منهما. ﴿ ولكم فيها منافعُ ﴾ أُخر غير الركوب، كألبانها وأوبارها وجلودها، ﴿ ولتبلُغوا عليها حاجةً ﴾ أى: ماتحتاجون إليه من حمل أثقالكم من بلد إلى بلد، ﴿ في صُدورِكمْ ﴾ ؛ فى قلوبكم، ﴿ وعليها وعلى الفلك تُحملون ﴾ أى: وعليها فى البر، وعلى الفلك فى البحر تُحملون، ولعل المراد به: حمل النساء والولدان عليها بالهودج، وهو السر فى فصله عن الركوب. والجمع بينها وبين الفلك فى الحمل؛ لِمَا بينهما من المناسبة، حتى سُميت الإبل: سفائن البر.

وقيل: المراد بالأنعام: الأزواج الثمانية، على أن المعنى: لتركبوا بعضها، وهى الإبل، وتأكلوا بعضها، وهى الغنم والبقر، فذكر ما هُوَ الأهم من كلٍّ، والمنافع تعم الكل، وبلوغ الحاجة تعم الإبل والبقر. وقال الثعلبى: التقدير: لتركبوا منها بعضا، ومنها تأكلون، فحذف «بعضاً» للعلم به.

﴿ ويُريكم آياته ﴾ ؛ دلائله الدالة على قدرته ووفور رحمته، ﴿ فأيَّ آياتِ الله ﴾ أى: فأىَّ آية من تلك الآيات الباهرة ﴿ تُنكرون ﴾ ؟ فإن كُلاً منها من الظهور بحيث لايكاد يجترىء على إنكارها من له عقل فى الجملة. وإضافة آية إلى الاسم الجليل؛ لتربية المهابة، وتهويل إنكارها، و«آيات» نصب بتنكرون، وتذكير «أيّ» مع

تأنيث المضاف إليه، هو الشائع المستفيض، والتأنيث قليل؛ لأن التفرقة بين المذكر والمؤنث في الأسماء غير الصفات، نحو: حمار وحمارة غريب، وهي في «أيّ» أغرب؛ لإبهامه.

الإشارة: ما أعظم قدرك أيها الإنسان إن اتقيت الله، وعرفت نعمه، فقد سلطك على ما في الكون بأسره، الحيوانات تخدمك، وتنتفع بها، أكلاً، وركوباً، وملبساً، وحملاً، والبحر يحملك، والأرض تُقلك، والسماء تُظللك، وما قنع لك بالدنيا حتى ادخر لك الآخرة، التي هي دار الدوام، فإن شكرت هذه النعم فأنت أعز ما في الوجود، وإن كفرتها فأنت أهون مافي الوجود. وبالله التوفيق.

ولاتعرف حقائق النعم إلا بالتفكر، ولذلك أمر به إثر ذكرها، فقال:

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ
كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ
﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم
مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا
بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ
خَلَتْ فِي عِبَادِهِ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿أَفَلَمْ يسيروا﴾ أي: أقعدوا فلم يسيروا ﴿في الأرض﴾ ﴿فينظروا كيف كان عاقبةُ الذين من قبلهم﴾ من الأمم المهلَكة، ﴿كانوا أكثرَ منهم﴾ عدداً ﴿وأشدَّ قوةً﴾ في الأبدان والأموال، ﴿و﴾ أشد ﴿آثاراً في الأرض﴾ أي: تركوا آثاراً كثيرة بعدهم، من الأبنية، والقبور، والمصانع، فكانوا أشدّ منهم، وقيل: هي آثار أقدامهم في الأرض؛ لِعظم أجرامهم، ﴿فما أَغنى عنهم ما كانوا يكْسِبون﴾ أي: لم يغن عنهم ذلك شيئاً حين نزل بهم العذاب، أو: أي شيء أغنى عنهم مكسوبهم أو كسبهم؟ على أنَّ «ما» استفهام.

﴿فلما جاءتهم رُسلهم بالبينات﴾؛ بالمعجزات الواضحة، ﴿فرحوا بما عندهم من العلم﴾ يريد علمهم بأمور الدنيا، ومعرفتهم بتدبيرها، كما قال: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾(١)،

(١) الآية ٧ من سورة الروم.

فلما جاءتهم الرسل بعلوم الديانة، والتأهب ليوم القيامة، وهي أبعد شيء من علمهم؛ لبعثها على رفض الدنيا، والتباعد عن تتبع ملاذها، لم يلتفتوا إليها، وصغّروها، واستهزؤوا بها، واعتقدوا أنه لا علم أنفع وأجلب للفؤاد من علمهم، ففرحوا به. أو: علم التنجيم والفلسفة، والدهريّين؛ فإنهم كانوا إذا سمعوا بالوحي دفعوه، وصغّروا علم الأنبياء إلى علمهم، واعتقدوا عندهم علماً يستغنون به عن علم الأنبياء ـ عليهم السلام ـ ولما سمع بقراط بموسى عليه السلام قيل له: لو هاجرت إليه! فقال: نحن قوم مهذّبون، فلا حاجة إلى من يهذّبنا.

ورأى بعضُ الصالحين النبيَّ ﷺ فسأله عن ابن سيرين، فقال له: «إنه أراد أن يصل إلى الله بلا واسطة، فانقطع عن الله، وعلى فرض وقوفهم بالتجريد والرياضة على انكشاف حضرة القدس، فلا يظفرون بالعبودية، ولا بالفناء في توحيد الربوبية، والتخلص من لَوْث وجودهم، والشأن أن تكون عين الاسم، لا أن تعرف الاسم والعين، إنما تقتبس من مشكاة مهبط الوحي، وانصباب أنوار الغيب إنما تفيض بواسطة دُرة الوجود، نبينا ﷺ، ومظهر سر العيان الأحدي الأحمدي، فافهم. قاله شيخ شيوخنا، سيدي عبدالرحمن الفاسي.

قال تعالى: ﴿ وحاقَ بهم ما كانوا به يستهزءون ﴾ أي: نزل بهم عقوبة استخفافهم بالحق، وتعظيمهم واغتباطهم بالباطل. ﴿ فلما رأوا بأسَنا ﴾؛ شدة عذابنا، ومنه: ﴿ بعذاب بئيس ﴾(١)، ﴿ قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين ﴾ يعنون الأصنام.

﴿ فلم يَكُ ينفعهم إيمانُهم لمّا رأوْا بأسَنَا ﴾ أي: فلم يستقم، ولم يصح أن ينفعهم إيمانهم عند مجيء العذاب؛ لأن النافع هو الإيمان الاختياري، لا الاضطراري، ﴿ سُنّتَ الله التي قد خلتْ في عباده ﴾ أي: سَنّ الله ذلك سُنّة ماضية في عباده، ألاّ يُقبل الإيمان إلا قبل نزول العذاب. وهو من المصادر المؤكدة، نحو: وعد الله، ونحوه. ﴿ وخَسِرَ هُنالك الكافرون ﴾ أي: وقت رؤيتهم البأس. فهنالك: مكان استعير للزمان، والكافرون خاسرون في كل أوان، ولكن يتبيّن خسرانهم إذا عاينوا العذاب.

وفائدة ترادف الفاءات في هذه الآيات: أن ﴿فما أغنى عنهم﴾ نتيجة قوله: ﴿كانوا أكثر منهم﴾ و﴿فلما جاءتهم رسلهم﴾ كالبيان والتفسير لقوله: ﴿فما أغنى عنهم﴾، كقولك: رُزِق زيد المال، فمنَع المعروف، فلم يحسن إلى الفقراء. و﴿فلما رأوا بأسنا﴾ تابع لقوله: ﴿فلما جاءتهم﴾، كأنه قال: فكفروا فلما رأوا بأسنا آمنوا. وكذلك: ﴿فلم يك ينفعهم إيمانهم﴾ [تابع لإيمانهم](٢) لمّا رأوا بأس الله، والله تعالى أعلم.

---

(١) من الآية ١٦٥ من سورة الأعراف.

(٢) ما بين المعقوفتين ليس في الأصول، وأثبته من تفسير النسفي.

الإشارة: قد تقدم مراراً الحث على عبادة التفكر. وقوله تعالى: ﴿فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم...﴾ الآية، كذلك من يَظهر بعلم التجريد، ويتكلم في أسرار التوحيد، سَخِرَ منه أهل زمانه، ويقنعون بما عندهم من علم الرسوم الظاهرة، وهو علم لا يُغني ولا يُفني؛ لأن جله يتعلق بمنافع الناس، لا بمنافع القلب، فلا يُغني القلب، ولا يُفني الحِس، إنما ينفع لطالب الأجور، لا لطالب الحضور ورفع الستور، وما مثال من ظفر بعلم القلوب ـ وهو أسرار التوحيد الخاص ـ إلا كمن عنده كنز من الفلوس، ثم ظفر بالذهب الإبريز، أو الإكسير، فكيف يمكن أن يلتفت إلى الفلوس مَن ظفر بالإكسير؟! ولا يظهر هذا لأهل الظاهر إلا بعد موتهم، فيؤمنوا به حيث لا ينفعهم.

وبالله التوفيق، وهو الهادي إلى سواء الطريق، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

❁❁❁

سُورَةُ فُصِّلَتْ (1)

وهى ثلاث وخمسون آية. ومناسبتها لما قبلها: قوله: ﴿ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾(2) مع قوله: ﴿ تنزيل من الرحمن الرحيم ﴾، فكانت قريش من جملة المستهزئين بالقرآن، وتقول: ﴿ والغوا فيه لعلكم تغلبون ﴾(3) فبيّن أنه مُنزل من الرحمن الرحيم، كما قال تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا
عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾
وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ
فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴿٥﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ
فَاسْتَقِيمُوٓا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ
وَهُم بِالْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ
أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾ ﴾

قلت: (تنزيل) : خبر عن مضمر، أي: هذا تنزيل. و(كتاب) : بدل من «تنزيل»، أو: خبر بعد خبر، و(تنزيل) : مبتدأ. و(من الرحمن) : صفة، و(كتاب) : خبره، و(قرآنا) : منصوب على الاختصاص والمدح، أو: حال، أي: فُصِّلت آياته في حال كونه قرآناً. و(لقوم) : متعلق بفصِّلت، أو: صفة، مثل ماقبله ومابعده، أي: قرآناً عربياً كائناً لقوم يعلمون. و(بشيراً ونذيراً) : صفتان لـ «قرآناً».

---

(1) في الأصول: [سورة حم السجدة] وهي سورة مكية.
(2) الآية ٨٣ من سورة غافر.
(3) كما جاء في الآية ٢٦ من سورة فصلت.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ حمٓ ﴾؛ يامحمد هذا ﴿ تنزيلٌ ﴾، قال القشيري: أي: بحقي وحياتي ومجدي في ذاتي وصفاتي، هذا تنزيلٌ ﴿ من الرحمن الرحيم ﴾. ونسبة التنزيل إلى الرحمن الرحيم للإيذان بأنه نزل للمصالح الدينية والدنيوية، واقع بمقتضى الرحمة الربانية، حسبما ينبئ عنه قوله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾(١)، ﴿ كتاب فُصِّلت آياته ﴾؛ مُيزت وجُعلت تفاصيل في أساليب مختلفة، ومعانٍ متغايرة؛ من أحكام، وتوحيد، وقصص، ومواعظ، ووعد، ووعيد وغير ذلك، ﴿ قرآناً عربياً ﴾ أي: أعني قرآناً بلسان العرب كائناً ﴿ لقوم يعلمون ﴾ معانيه، ويتدبرون في آياته؛ لكونه على لسانهم، أو: لأهل العلم والنظر؛ لأنهم المنتفعون به.

﴿ بشيراً ونذيراً ﴾؛ بشيراً لأهل الطاعة، ونذيراً لأهل المعصية، ﴿ فأعْرَض أكثرُهم ﴾ عن الإيمان به والتدبر في معانيه، مع كونه على لغتهم، ﴿ فهم لايسمعون ﴾ سماع تفكر وتأمل، حتى يفهموا جلالة قدره؛ فيؤمنوا به.

﴿ وقالوا ﴾ للرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ عند دعوته إياهم إلى الإيمان والعمل بما في القرآن: ﴿ قلوبنا في أَكنَّة ﴾ أي: أغطية متكاثفة، ﴿ وفي آذاننا وَقْر ﴾؛ صمم وثِقَل يمنعنا من استماع قولك، ﴿ ومن بيننا وبينك حجاب ﴾ غليظ، وستر مانع يمنعنا من التواصل إليك. و(من) للدلالة على أن الحجاب مبتدئ منهم ومنه بحيث استوعب مابينهما من المسافة المتوسطة، ولم يبق ثَمَّ فراغ أصلاً. وهذه تمثيلات لنبو قلوبهم عن إدراك الحق وقبوله، ومج أسماعهم له، كأنّ بها صمماً وثِقلاً منعهم من موافقتهم لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم قالوا: ﴿ فاعمل ﴾ على دينك وإبطال ديننا، ﴿ إننا عاملون ﴾ على ديننا، لانفارقه أبداً.

﴿ قُلْ إنما أنا بشر مثلُكم يُوحَى إليَّ أنَّما إلهكُم إله واحد ﴾، هذا تلقين للجواب عنه، أي: لستُ من جنسٍ مباينٍ لكم حتى يكون بيني وبينكم حجاب، وتباين مصحح لتباين الأعمال والأديان، كما ينبئ عنه قوله: ﴿فاعمل إننا عاملون﴾، بل إنما أنا بشر مثلكم، مأمور بما أُمرتم به من التوحيد، حيث أخبرنا جميعاً بأن إلهنا واحد، فالخطاب في «إلهكم» محكي منتظم للكل، لا أنه خطاب منه ـ عليه الصلاة والسلام ـ للكفرة. وقيل: لمّا دعاهم إلى الإيمان، قالوا: إنا نراك مثلنا، تأكل وتشرب، فلو كنتَ رسولاً لاستغنيت عن ذلك، فأنزل: ﴿قل إنما أنا بشر...﴾ الآية

﴿ فاستقيموا إليه ﴾ بالتوحيد وإخلاص العبادة، غير ذاهبين يميناً وشمالاً، ولاملتفتين إلى مايُسوّل لكم الشيطانُ من عبادة الأصنام.. قال تعالى: ﴿ واستغفروه ﴾ مما كنتم عليه من سوء العقيدة. والفاء لترتيب ماقبلها من إيحاء التوحيد على مابعدها من الاستقامة، ﴿ وويل للمشركين ﴾، وهو ترهيب وتنفير لهم عن الشرك إثر ترغيبهم في التوحيد.

---

(١) الآية ١٠٧ من سورة الأنبياء.

ووصفهم بقوله ﴿ الذين لايؤتون الزكاة ﴾ أى: لايؤمنون بوجوب الزكاة ولايُعطونها، وهو إخبار بما سيقع، إذ لم تكن الزكاة حينئذ مفروضة، أو: لايفعلون ما يكونون به أزكياء، وهو الإيمان. وفيه تحذير من منع الزكاة، حيث جعله من أوصاف المشركين. ﴿ وهم بالآخرة هم كافرون ﴾ أى: وهم بالبعث والثواب والعقاب كافرون. والجملة: عطف على (يؤتون) داخل فى الصلة. وإنما جعل منع الزكاة مقروناً بالكفر بالآخرة لأن أحب شيء إلى الإنسان ماله، وهو شقيق روحه، فإذا بذله فى سبيل الله فذلك أقوى دليل على استقامته، وصدق نيته، وخلوص طويته، وماارتدت العرب إلا بمنعها.

﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجرٌ غيرُ ممنون ﴾ ؛ غير مقطوع، من: مننت الحبل: قطعته، أو: غير ممنون به عليهم. وقيل: نزلت فى المرضى والهَرْمَى، إذا عجزوا عن الطاعة كتب لهم الأجر كأصح ماكانوا يعملون(١).

الإشارة: كان الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ يدعو إلى الإيمان بالقرآن والعمل به، وخلفاؤه من مشايخ التربية يدعون إلى تصفية البواطن، لتتهيأ لفهمه والغوص عن أسراره، وحضور القلب عند تلاوته، فأعرض أكثرُ الناس عن صُحبتهم، ﴿وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه..﴾ إلى تمام الآية. فبقيت قلوبهم مغلقة بسبب الهوى، ألسنتهم تتلوا وقلوبهم تجول فى أودية الدنيا، فلا حضور ولاتدبر، فلا حول ولاقوة إلا بالله، فإذا طلبوا من المشايخ ـ الذين هم أطبة القلوب ـ الكرامة، يقولون ماقالت الرسل: إنما نحن بشر يوحى إلينا وحى إلهام بوحدانية الحق، وانفراده بالوجود، فاستقيموا إليه بتصفية بواطنكم، واستغفروه من سالف زلاتكم، فإن بقيتم على ماأنتم عليه من الشرك ورؤية السِّوى، فويل للمشركين الذين لايُزكُّون أنفسهم، وهم بالآخرة ـ حيث لم يتأهبوا لها كلَّ التأهب ـ هم الكافرون. إن الذين آمنوا إيمان الخصوص، بصحبة الخصوص، لهم أجر غير ممنون، وهو شهود الحق على الدوام. والله تعالى أعلم.

ثم وبّخهم على الكفر بعد بيان بطلانه، فقال:

﴿ ۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا

(١) قاله السدى فيما ذكره القرطبى (٧/٥٩٦١).

طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١) فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (١٢) ﴾

قلت: (وتجعلون): عطف على (تكفرون). و(جَعَلَ): عطف على (خَلَقَ) داخل فى حيز الصلة، و(سواء): مَن نَصَبَه فمصدر، أى: استوت سواء. ومَن جرّه فصفة لأيام، ومَن رفعه فخبر هى سواء. و(للسائلين): متعلق بقدّر، أو: بمحذوف، أى: هذا الحصر للسائلين عن مدة خلق الأرض.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ قل أئنكُم لتكفرون بالذي خلقَ الأرضَ في يومين ﴾ وهما الأحد والاثنين، تعليماً للتأني، ولو أراد أن يخلقها في لحظة لفعل. ﴿ وتجعلون له أنداداً ﴾؛ شركاء وأشباهاً. والحال أنه لايمكن أن يكون له ند واحد، فضلاً عن التعدد، وكيف يكون الحادث المعدوم نداً للقديم؟! ﴿ ذلك ﴾ الذى خلق ماسبق. ومافى الإشارة من معنى البُعد مع قرب العهد بالمشار إليه لبُعد منزلته فى العظمة، أى: ذلك العظيم الشأن هو ﴿ ربُّ العالمين ﴾ أى: خالق جمع الموجودات ومربّيها، فكيف يتصور أن يكون أخس الخلق نداً له؟!

﴿ وجعل فيها رواسي ﴾؛ جبالاً ثوابت كائنة ﴿ مِن فوقها ﴾، وإنما اختار إرساءها من فوق الأرض لتكون منافع الجبال مُعرضة لأهلها، ويظهر للناظرين مافيها من مراصد الاعتبار، ومطارح الأفكار، فإن الأرض والجبال أثقال على أثقال، كلها ممسكة بقدرة الله عز وجل. ﴿ وباركَ فيها ﴾ أى: قدّر بأن يكثر خيرها بما يخلق فيها من منافع، ويجعل فيها من المصالح، ومايَنبت فيها من الطيبات والأطعمة وأصناف النعم. ﴿ وقدّر فيها أقواتَها ﴾ أى: حكم أن يوجد فيها لأهلها مايحتاجون إليه من الأقوات المختلفة المناسبة لهم على مقدار مُعين، تقتضيه الحكمة والمشيئة، ومايصلح بمعايشهم من الثمار والأنهار والأشجار، وجعل الأقوات مختلفة فى الطعم والصورة والمقدار، وقيل: خصابها التى قسمها فى البلاد. جعل ذلك ﴿ في أربعةِ أيام ﴾ أى: تتمة أربعة أيام، يومين للخلق، ويومين لتقدير الأقوات، كما تقول: سِرت إلى البصرة فى عشرة، وإلى الكوفة فى خمسة عشر، أى: فى تتمة خمسة عشر، ولو أجرى الكلام على ظاهرة لكانت ثمانية أيام؛ يومين للخلق، وأربعة للتقدير، ويومين لخلق السماء، وهو مناقض لقوله: ﴿ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾(١).

---

(١) كما جاء فى آيات، منها: الآية ٥٤ من سورة الأعراف.

وقوله: ﴿ سواء ﴾ راجع للأربعة، أي: في أربعة أيام مستويات تامات، أو: استوت سواء ﴿ للسائلين ﴾ أي: قدّر فيها الأقوات للطالبين لها والمحتاجين إليها، لأن كلا يطلب القوت ويسأله، أو هذا الحصر في هذه الأيام لأجل من سأل: في كم خلقت الأرض ومافيها؟.

﴿ ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طَوعاً أو كَرهاً قالتا أتينا طائعِين ﴾، الاستواء مجاز عن إيجاد الله تعالى السماء على ماأراد، تقول العرب: فعل فلان كذا ثم استوى إلى عمل كذا، يريدون أنه أكمل الأول وابتدأ الثاني، أو قصد وانتهى. فالاستواء إذا عدى بـ «إلى» فهو بمعنى الانتهاء إليه بالذات أو بالتدبير، وإذا عدّي بـ «على» فبمعنى الاستعلاء، ويفهم منه أن خلق السماء بعد الأرض، وهو كذلك، وأما دحو الأرض وتقدير أقواتها فمؤخر عن السماء، كما صرح في قوله: ﴿ وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴾(١)، والترتيب في الخارج: أنه خلق الأرض، ثم خلق السماء، ثم دحا الأرض في يومين. فـ «ثم» للتفاوت بين الخلقين لا للترتيب، أو: للتفاوت في المرتبة، ترقياً من الأدنى إلى الأعلى، كقول القائل:

إنَّ مَنْ سَاد ثم ساد أبوه		ثم ساد بعد ذلك جدُّه

وفي بعض الأحاديث: «إن الله خلق الأرض يوم الأحد والاثنين، وخلق الجبال يوم الثلاثاء، وخلق يوم الأربعاء الشجر والماء والعُمران والخراب، فتلك أربعة أيام، وخلق يوم الخميس السماء، وخلق يوم الجمعة النجوم والشمس والقمر والملائكة، وخلق آدم عليه السلام في آخر ساعة من يوم الجمعة،(٢) وهي الساعة التي تقوم فيها الساعة. قاله النسفي، وفي حديث مسلم مايخالفه(٣).

قال ابن عباس رضي الله عنه: أول ماخلق الله ـ أي: بعد العرش ـ جوهرة طُولها وعرضها ألف سنة، فنظر إليها بالهيبة، فذابت وصارت ماء، فكان العرش على الماء، فاضطرب الماء، فثار منه دخان، فارتفع إلى الجو، واجتمع زبد، فقام فوق الماء، فجعل الزبد أرضاً، ثم فتقها سبعاً، والدخان سماء، فسواهن سبع سموات(٤).

ومعنى أمر السماء والأرض بالإتيان طوعاً أو كرهاً وامتثالهما؛ أنه أراد أن يُكوّنهما، فلم يمتنعا عليه، ووجدتا كما أراد، وكانتا في ذلك كالمأمور والمطيع، وإنما ذكر الأرض مع السماء في الأمر بالإتيان، مع أن الأرض

---

(١) الآية ٣٠ من سورة النازعات.

(٢) أخرجه مطولاً والطبري (٢٤/٩٤) والحاكم وصححه وتعقبه الذهبي (٢/٥٤٣) من حديث ابن عباس رضي الله عنه.

(٣) أخرج مسلم في صحيحه (كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب ابتداء الخلق، ٣/٢١٤٩، ح ٢٧٨٩) عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: أخذ رسول الله ﷺ بيدي، فقال: «خلق الله عز وجل التربة يوم السبت، وخلق فيها الجبال يوم الأحد، وخلق الشجر يوم الاثنين، وخلق المكروه يوم الثلاثاء، وخلق النور يوم الأربعاء، وبث فيها الدواب يوم الخميس، وخلق آدم عليه السلام بعد العصر من يوم الجمعة، في آخر الخلق، في آخر ساعةٍ من ساعات الجمعة، فيما بين العصر إلى الليل».

(٤) ذكره النسفي في تفسيره (٣/٢٢٨).

مخلوقة قبل السماء بيومين؛ لأن المعنى: ائتيا على ماينبغى أن تأتيا عليه من الشكل والوصف، أى: ائتى ياأرض مدحوة قراراً ومهاداً لأهلك، وائتى ياسماء [مبنية](١) سقفاً لهم، ومعنى الإتيان: الحصول والوقوع.

وقوله: ﴿طوعاً أو كَرهاً﴾ لبيان تأثير قدرته فيهما، وأن امتناعهما عن قدرته مُحال، كما تقول لمن تحت يدك: لتفعلن هذا شئت أو أبيت، طوعاً أو كرهاً. وقال ابن عطية: الأمر بالإتيان بعد اختراعهما، قال: وهنا حذف، أى: ثم استوى إلى السماء فأوجدها، وأتقنها، وأكمل أمرها، وحينئذ قال لها وللأرض: ائتيا لأمرى وإرادتى فيكما، والمراد: تنجيزهما لما أراده منهما، وما قدر من أعمالهما. هـ. حُكى أن بعض الأنبياء(٢) قال: يارب لو أن السماوات والأرض حين قلت لهما: ائتيا طوعاً أو كرهاً عصتاك، ماكنت صانعاً بهما؟ قال: كنتُ آمر دابة من دوابى فتبتلعهما، قال: وأين تلك الدابة؟ قال: فى مرج من مروجى، قال: وأين ذلك المرج؟ قال: فى علم من علومى.

وانتصاب ﴿طوعاً أو كرهاً﴾ على الحال، أى: طائعين أو مكرهين. ولم يقل «طائعتين»؛ لأن المراد الجنس، أى: السموات والأرضين، وجمع جمع العقلاء لوصفهما بالطوع والكره، اللذين من وصف العقلاء، وقال: طائعين فى موضع طائعات؛ تغليباً للتذكير؛ لشرفه، كقوله: ﴿سَاجِدِين﴾(٣).

﴿فقضاهنّ سبعَ سموات﴾ أى: فأحكم خلقهن، وأتقن أمرهن سبعاً، حسبما تقتضيه الحكمة، فالضمير راجع إلى السماء، لأنه جنس، يجوز أن يكون الضمير مبهماً مفسراً بقوله: «سبع سموات»، فينتصب سبع على الأول حالاً، وعلى الثانى تمييزاً. حصل ذلك القضاء ﴿في يومين﴾؛ الخميس والجمعة، أى: فى وقتين قدر يومين، فكان المجموع ستة أيام، ﴿وأوحى في كلِّ سماءٍ أمرها﴾ أى: أوحى إلى ساكنها وعُمّارها من الملائكة فى كل سماء ماشاء الله من الأمور، التى تليق بهم، كالخدمة وأنواع العبادة، وإلى السماء فى نفسها ماشاء الله من الأمور التى بها قوامها وصلاحها.

﴿وزيّنا السماءَ الدنيا بمصابيح﴾؛ كالشمس والقمر والنجوم، وهى زينة السماء الدنيا، سواء كانت فيها أو فيما فوقها؛ لأنها تُرى متلألأة عليها كأنها فيها، والالتفات إلى نون العظمة لإبراز مزيد العناية بأمرها، ﴿وحفظاً﴾ أى: حفظناها حفظاً من المسترقة، أو من الآفات، فهو مصدر لمحذوف، وقيل: مفعول لأجله على المعنى، أى: وجعلنا المصابيح للزينة والحفظ. ﴿ذلك تقديرُ العزيزِ العليم﴾ أى: ذلك الذى ذكر تفصيله تقدير البالغ فى القدرة والعلم، أو: الغالب العليم بمواقع الأمور.

(١) فى النسفى (مقبية).
(٣)هو سيدنا موسى، كما ذكره القرطبى فى تفسيره (٧/ ٥٩٦٤).
(٢) من الآية ٤ من سورة يوسف.

الإشارة: خلق الحق ـ تعالى ـ أرض النفوس محلاً للعبودية، وأرساها بجبال العقل، لئلا تميل إلى بحر الهوى، وبارك فيها، بأن جعل فيها صالحين وأبراراً، وعباداً وزهاداً، وعلماء أتقياء، وقدر لها أقواتها الحسية والمعنوية، فجعل الحسية سواء للسائلين، أي: مستوية لايزيد بالطلب ولابالتعب، ولاينقص، ففيه تأديب لمن لم يرض بقسمته، والأرزاق المعنوية: أرزاق القلوب من اليقين والمعرفة، يزيد بالطلب والتعب، وينقص بنقصانه، حكمة من الحكيم العليم، ثم استوى إلى سماء الأرواح، أي: قصدها بالدعاء إليه، وهي لطائف، فقال لها ولأرض النفوس: ائتيا إلى حضرتي، طوعاً أو كرهاً، قالتا: أتينا طائعين، فقضاهن سبع طبقات، وهي دوائر الأولياء، دائرة الغوث، ثم دائرة الأقطاب، ثم الأوتاد، ثم النقباء، ثم النجباء، ثم الأبرار، ثم الصالحين. وأوحى في كل سماء، أي: في كل دائرة مايليق بها من العبادة، فمنهم مَن عبادته الشهود والعيان، ومنهم مَن عبادته الفكرة، ومنهم الركوع والسجود، ومنهم التلاوة والذكر... إلى غير ذلك من أنواع الأعمال.

قال القشيري: وجعل نفوسَ العابدين، أرضاً لطاعته وعبادته، وجعل قلوبهم فلكاً لنجوم علمه، وشموس معرفته، فأوتاد النفوس الخوفُ والرجاءُ، والرغبةُ والرهبة، وفي القلوب ضياءُ العرفان، وشموس التوحيد، ونجوم العلوم والعقول، والنفوس والقلوب، بيده يُصرِّفُها على مأراد من أحكامه. وقال في قوله: ﴿ وجعل فيها رواسي من فوقها ﴾: الجبالُ أوتادُ الأرض، في الصورة، والأولياء رواسي الأرض في الحقيقة، بهم تنزل البركة والأمطار، وبهم يُدفع البلاء. ثم قال: قوله تعالى: ﴿ وزينا السماء الدنيا بمصابيح ﴾ وزيّن وجه الأرض بمصابيح، وهي قلوب الأحباب، فأهلُ السماء إذا نظروا إلى قلوب أولياء الله بالليل، فذلك متنزهُهم، كما أن أهل الأرض إذا نظروا إلى السماء تأنسوا برؤية الكواكب. هـ.

ثم هدد أهل الكفر، فقال:

﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ

﴿عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾﴾

قلت: (وأما ثمود)، قراءة الجماعة بالرفع، غير مصروف، إرادة القبيلة، وقراءة الأعمش ويحيى بن وثاب مصروفاً، إرادة الحي، وقراءة ابن أبى إسحاق: بالنصب، من باب الاشتغال، وأصل الكلام: مهما يكن من شيء فثمود هديناهم، فحُذف الملزوم الذى هو الشرط، وأُقيم مقامه لازمه، وهو الجزاء، وأبقيت الفاء المؤذنة بأن مابعدها لازم لما قبلها، وإلا فليس هذا موضع الفاء؛ لأن موضعه صدر الجزاء. انظر المُطَوّل.

يقول الحق جل جلاله : ﴿فإن أعرضُوا﴾ عن الإيمان بعد هذا البيان؛ ﴿فقلْ﴾ لهم: ﴿أنذرتُكمْ﴾؛ خوَّفتكم. وعبّر بالماضى للدلالة على تحقق الإنذار المنبئ عن تحقق الوقوع، ﴿صاعقةً﴾ أى: عذاباً شديداً لو وقع كان كأنه صاعقة، وأصلها: رعد معه نار تحرق. تكون ﴿مثل صاعقة عادٍ وثمودَ﴾ وقد تقدم عذابهما(١).

﴿إذ جاءتْهُمُ﴾: ظرف لمحذوف، أى: أنزلناها بهم حين جاءتهم ﴿الرسلُ من بين أيديهم ومن خلفِهِم﴾ أى: أتوهم من كل جانب، وعملوا فيهم كل حيلة، فلم يروا منهم إلا الإعراض، أو: جاءتهم الرسل قبلهم لأبائهم، وبعدَهم لِمَن خلفهم، أى: تواردت عليهم الرسل قديماً وحديثاً، والمعهود إنما هو هود وصالح ـ عليها السلام. وعن الحسن: أنذروهم من وقائع الله بمَنْ قبلهم من الأمم وعذاب الآخرة، ﴿ألاَّ تعبدوا إلا اللهَ﴾ أى: بأن لاتعبدوا إلا الله، على أنها مصدرية، أو: لاتعبدوا، على أنها مفسرة، وقيل: مخففة، أى: أنه لاتعبدوا إلا الله. ﴿قالوا لو شاء ربُّنا لأنزل ملائكةً﴾ أى: لو شاء إرسال الرسل لأرسل ملائكة، ولمَّا كان إرسالهم بطريق الإنزال عبَّر به، ﴿فإنا بما أُرسلتُم به كافرون﴾ أى: فحيث كنتم بشراً مثلنا، ولم تكونوا ملائكة، ولم يكن لكم فضل علينا، فإنا لانؤمن بكم، ولابما جئتم به، وقولهم: ﴿أُرسلتم به﴾ ليس بإقرار بالإرسال، وإنما هو على كلام الرسل، وفيه تهكم، كما قاله فرعون: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾(٢) وقولهم: ﴿بما أرسلتم به كافرون﴾ خطاب منهم لهود وصالح ولسائر الأنبياء، الذين دعوا للإيمان.

(١) راجع تفسير الآيات ٦٥ - ٧٩ من سورة الأعراف (٢/ ٢٣٠ - ٢٣٤).
(٢) الآية ٢٧ من سورة الشعراء.

رُوى أن أبا جهل قال فى ملإ من قريش: قد التبس علينا أمر محمد، فلو التمستم لنا رجلاً عالماً بالشعر والكهانة، فكلَّمه، ثم أتانا بالبيان من أمره، فقال عُتبة بن ربيعة: والله لقد سمعتُ الشعر والكهانة والسحر، وعلمتُ من ذلك علماً مايخفى عليَّ، فأتاه، فقال: أنت يامحمد خير أم هاشم؟ أنت يامحمد خير أم عبد المطلب؟ أنت خير أم عبد الله؟، فبم تشتم آلهتنا وتضللنا؟ فإن كنت تريد الرياسة عقدنا لك اللواء، فكنت رئيسنا مابقيت، وإن كان بك الباءة زوجناك عشر نسوةٍ من أيّ بنات قريش شئتَ، وإن كان بك المال، جمعنا لك ما تستغنى به أنت وعقبك. والنبى ﷺ ساكت، فلما فرغ عتبةُ، قال ﷺ: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم * حم تنزيل من الرحمن الرحيم..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿مثل صاعقة عاد وثمود﴾، فأمسك عتبة على فِيه النبيّ ﷺ وناشده بالرحم، فرجع عتبةُ إلى أهله، ولم يخرج إلى قريش، فلما احتبس عنهم، قالوا: ما نرى عتبة إلا صبأ، فانطلقوا، وقالوا: يا عتبة؛ ما حبسك عنا إلا أنك صبأت إلى محمد، أم أنك أعجبك طعامه؟ فغضب، ثم قال لهم: لقد كلمته فأجابنى بشيء، والله ما هو شعر، ولا كهانة، ولا سحر، ثم تلى عليهم ما سمع منه إلى قوله: ﴿مثل صاعقة عاد وثمود﴾ فأمسكتُ بفيه، وناشدته بالرحم أن يكف، وقد علمتم أن محمداً إذا قال شيئاً لم يكذب، فخفتُ أن ينزل بكم العذاب. هـ(١).

ثم بيَّن ما ذكره من صاعقة عاد وثمود، فقال: ﴿فأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق﴾ أى: تعاظموا فيها على أهلها بما لا يستحقون به التعظيم، وهو القوة، وعظم الأجرام، واستولوا على الأرض بغير استحقاق للولاية، ﴿وقالوا مَن أشدُّ منا قوةً﴾، كانوا ذوى أجسام طوال، وخلْق عظيم، بلغ من قوتهم أن الرجل كان يقلع الصخرة من الجبل بيده، ويلوى الحديد بيده، ﴿أوَ لم يرَوا﴾ أى: أوَ لم يعلموا علم عيان ﴿أن الله الذي خلقهم هو أشَدُّ منهم قوةً﴾؟ أوسعُ منهم قدرة؛ لأنه قادر على كل شيء، وهم قادرون على بعض الأشياء بإقداره، ﴿وكانوا بآياتنا﴾ المنزلة على رسلهم ﴿يجحدون﴾ أى: ينكرونها وهم يعرفون حقيتها، كما يجحد المودَعُ الوديعة. و(هم): عطف على (فاستكبروا)، وما بينها اعتراض، للرد على كلمتهم الشنعاء.

﴿فأرسلنا عليهم ريحاً صَرْصَراً﴾ أى: بارداً تهلك وتُحرق؛ لشدة بردها، من: الصر، وهو البرد، الذى يجمع ويقبض، أو: عاصفة تصوِّت فى هبوبها، من الصرير، فضوعف، كما يقال: نهنهت وكفكفت. ﴿في أيام نَحِسات﴾؛ مشؤومات عليهم، من: نَحِس نحساً، نقيض: سعد سعداً، وكانت من الأربعاء آخر شوال إلى الأربعاء،

---

(١) أخرجه البغوى فى تفسيره (١٦٧/٧) وعزاه السيوطى فى الدر المنثور (٦٧٣/٥ ـ ٦٧٤) للبيهقى فى الدلائل وابن عساكر. عن جابر بن عبدالله رضي الله عنه.

وما عُذب قوم إلا فى الأربعاء. قيل: أمسك الله عنهم المطر ثلاث سنين، ودامت الرياح عليهم من غير مطر. قيل، إذا أراد الله بقوم خيراً، أرسل عليهم المطر، وحبس عنهم كثرة الرياح، وإذا أراد الله بقوم شراً، حبس عنهم المطر، وأرسل عليهم كثرة الرياح. هـ.

﴿ لِنُذِيقَهُمْ عذابَ الخزي في الحياة الدنيا ﴾، أضاف العذاب إلى الخزى، وهو الذل، على أنه وصف للعذاب، كأنه قال: عذاب خزى، ويدل عليه قوله: ﴿ ولعذابُ الآخرة أخزى ﴾ أى: أذل لصاحبه، وهو فى الحقيقة وصف للمعذِّب، وُصف به العذاب للمبالغة، كقولك: له شعر شاعر. ﴿ وهم لا يُنصَرُون ﴾ برفع العذاب عنهم بوجه من الوجوه.

﴿ وأما ثمودُ فهديناهمْ ﴾؛ دللناهم على الرشد، بنصب الآيات التكوينية، وإرسال الرسل، وإنزال الآيات التشريعية، ﴿ فاستحبوا العَمَى على الهُدى ﴾ أى: اختاروا الضلالة على الهداية، ﴿ فأخذتهم صاعقةُ العذابِ الهُونِ ﴾ أى: داهية العذاب الذى يهين صاحبه ويخزيه، وهى الصيحة والرجفة، والهُون: الهوان، وصف به للمبالغة، ﴿ بما كانوا يكسبون ﴾ أى: بكسبهم الخبيث من الشرك والمعاصى.

قال الشيخ: أبو منصور: يحتمل قوله: ﴿ فهديناهم ﴾ : بيَّنا لهم، كما تقدم، ويحتمل: خلق الهداية فى قلوبهم، فصاروا مهتدين، ثم كفروا بعد ذلك، وعقروا الناقة، لأن الهدى المضاف إلى الخالق يكون بمعنى البيان، ويكون بخلق فعل الاهتداء، وأما الهدى المضاف إلى الخلق فيكون بمعنى البيان، لا غير. هـ.

وقال الطيبى: قوله تعالى: ﴿ فهديناهم ﴾ هو كقوله تعالى: ﴿ إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ ﴾(١). وقوله: ﴿ فاستحبوا العمى على الهدى ﴾ هو كقوله: ﴿ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا... ﴾ الآية(٢). وكذا فى قوله: ﴿ فأما عاد فاستكبروا فى الأرض ﴾، فإن الفاء فى «فاستكبروا» فصيحة، تُفصح عن محذوف، أى: فهديناهم فاستكبروا بدلالة ما قيل فى ثمود. هـ.

﴿ ونجينا الذين آمنوا ﴾ أى: اختاروا الهدى على العمى، من تلك الصاعقة، ﴿ وكانوا يتقون ﴾ الضلالة والتقليد.

---

(١) من الآية ١٤ من سورة فصلت.
(٢) من الآية ١٤ من سورة فصلت

الإشارة: كل من أعرض عن الوعظ والتذكار، ونأى عن صُحبة الأبرار؛ فالصعقة لاحقة به، إما فى الدنيا أو فى الآخرة. وقوله تعالى: ﴿فأما عاد فاستكبروا...﴾ الآية: أوصاف العبودية أربعة: الضعف، والذل، والفقر، والعجز، فمن خرج عن واحد منها، فقد تعدى طوره، واستحق الهلاك والهوان، ورمته رياح الأقدار فى مهاوى النيران.

وقوله: ﴿وأما ثمود فهديناهم﴾ أى: بيَّنا لهم طريق السير إلينا، على ألسنة الوسائط، فحادُوا عنها، واستحبوا العمى على الهدى؛ حيث لم يسبق لهم الهداية فى الأزل، فالسوابق تُؤثر فى العواقب، والعواقب لاتؤثر فى السوابق، فكأن جبلة القوم الضلالة، فمالوا إلى ما جبلوا عليه من قبول الضلالة.

وقوله تعالى: ﴿ونجينا الذين آمنوا﴾ أى: فى الدنيا من الصاعقة، وفى الآخرة من السقوط فى الهاوية. قال القشيرى: منهم من نجَّاهم من غير أن رأوا النار، عبَّروا القنطرة ولم يعلموا، وقومٌ كالبرق الخاطف، وهم أعلاهم ـ قلت: بل أعلاهم كالطرف ـ ثم قال: وقوم كالرواكض، وهم أيضا الأكابر، وقوم على الصراط يسقطون وتردُّهم الملائكة على الصراط، فيَعْدوا. ثم قال: وقومٌ بعد ما دخلوا النار، فمنهم من تأخذه إلى كعبيه، ثم إلى ركبتيه، ثم إلى حَقْوَيه(١)، فإذا بلغ القلب قال الحقُّ للنار: لا تحرقى قلبه، فإنه محترقٌ بى. وقوم يخرجون من النار بعد ما امْتُحِشُوا(٢) فصاروا حُمَماً(٣). هـ منه.

ثم ذكر وعيد أهل الشرك، فقال:

﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ

(١) الحقو: الخصر.
(٢) امتحش الحر أو النار جلده، أى: أحرقه وقشره عن اللحم.
(٣) الحمم: الفحم وكل ما احترق من النار.

﴿ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿و﴾ اذكر ﴿يوم نَحْشُرُ أعداءَ الله﴾(١) من كفار المتقدمين والمتأخرين ﴿إلى النارِ فهم يُوزَعون﴾؛ يُضمون ويُساقون إلى النار، ويُحبس أولهم على آخرهم، فيستوقف سوابقهم حتى تلحق بهم تواليهم، وهي عبارةٌ عن كثرة أهل النار، وأصله: من وزَعته، أي: كففته. ﴿حتى إذا ما جاؤوها﴾ أي: حضروها، و«حتى»: غاية للحشر، أو: ليوزعون، و «ما»: مزيدة؛ لتأكيد اتصال الشهادة بالحضور، فبمجرد حضورهم ﴿شَهِدَ عليهم سمعُهُم وأبصارُهم وجلودُهم﴾ أي: بشَراتهم ﴿بما كانوا يعملون﴾ في الدنيا، من فنون الكفر والمعاصي، بأن ينطقها الله تعالى، ويظهر عليها آثار ما اقترفوا بها. وعن ابن عباس رضي الله عنه: أن المراد بشهادة الجلود: شهادة الفروج، كقول الشاعر:

أَوَ سالمٌ مَنْ قد تثـ ... ـنَّى جِلْدُه وابيَضَّ رأسُه(٢)

فكنَّى بجلده عن فرجه، وهو الأنسب؛ لتخصيص السؤال بها في قوله تعالى: ﴿وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا﴾، فإن ما تشهد به من الزنا أعظم جناية وقُبحاً، وأجلب للحزن والعقوبة، مما تشهد به السمع والأبصار من الجنايات المكتسبة بتوسطها. روي: أن العبد يقول يوم القيامة: يارب، أليس قد وعدتني ألا تظلمني؟ فيقول تعالى: فإن لك ذلك، قال: فإني لا أقبل عليَّ شاهداً إلا من نفسي، قال تعالى: أوَ ليس كفى بي شهيداً، وبالملائكة الكرام الكاتبين؟ قال: فيُختم على فيه، وتتكلم أركانه بما كان يعمل، فيقول لهن: بُعْداً لكُنَّ وسُحْقاً، عنكُنَّ كنتُ أُجادل»(٣).

﴿قالوا﴾ في جوابهم: ﴿أنطقَنا اللهُ الذي أنطق كلَّ شيء﴾ من الحيوانات، وأقدرنا على بيان الواقع، فشهدنا عليكم بما عملتم من القبائح، وما كتمناها. أو: ما نطقنا باختيارنا، بل انتقنا الله الذي أنطق كل شيء. وقيل: سألوها سؤال تعجب، فالمعنى حينئذ: وليس نطقنا بعجب من قدرة الله - تعالى - الذي أنطق كل شيء، ﴿وهو خلقكم أولَ مرةٍ وإليه تُرجعون﴾؛ فإنّ من قدر على خلقكم أول مرة، وعلى إعادتكم ورجعكم إلى جزائه،

(١) قرأ نافع ويعقوب «نحشر» بنون العظمة. و«أعداء» بالنصب، مفعول به. وقرأ الباقون بياء الغيب مضمومة، و«أعداء» بالرفع على النيابة. انظر الإتحاف (٢/ ٤٤٣).

(٢) جاء البيت في تفسير القرطبي (٧/ ٥٩٧٠) مسبوقاً ببيت آخر هو:

المرء يسعى للسلا ... مة والسلامةُ حسْبُه

وعزاه القرطبي لعامر بن جؤية.

(٢) أخرجه مسلم في (الزهد والرقائق، ٤/ ٢٢٨١، ح ٢٩٦٩) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

لايتعجب من إنطاقه جوارحكم. ولعل صيغة المضارع، مع أن هذه المحاورة بعد البعث والرجع، كما أن المراد بالرجوع ليس مجرد الرد إلى الحياة بالبعث، بل ما يعمه، وما يترتب عليه من العذاب الخالد المترقب عند التخاطب، على تغليب المتوقع على الواقع، مع ما فيه من مراعاة الفواصل، فهذا على أنه من تتمة كلام الجلود، وقيل: هو من كلام الحق ـ تعالى ـ لهم، فيوقف على «شيء» وهو ضعيف. وكذا قوله:

﴿ وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ﴾، يحتمل أن يكون من كلام الجلود، أو: من كلام الله ـ عز وجل ـ وهو الظاهر، أي: وما كنتم تستترون في الدنيا عند مباشرتكم الفواحش مخافة أن تشهد عليكم جوارحكم، ولو خفتم من ذلك ما استترتم بها، ﴿ ولكن ظننتم أنَّ الله لا يعلمُ كثيراً مما تعملون ﴾ من القبائح الخفية، فلا يظهرها في الآخرة.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه : كنت مستتراً بأستار الكعبة، فدخل ثلاثة نفر؛ ثقفيان وقرشي، أو: قرشيان وثقفي، فقال أحدهم: أترون أن الله يسمع ما نقول؟ قال الآخر: سمع جهرنا ولا يسمع ما أخفينا، فذكر ذلك للنبي ﷺ، فأنزل الله تعالى: ﴿وما كنتم تستترون...﴾ الآية(١)، فالحُكم المحكي حينئذ يكون خاصاً بمن كان على ذلك الاعتقاد من الكفرة. انظر أبا السعود.

﴿ وذلكم ظنُّكم الذي ظننتم بربكم أرداكم ﴾، أهلككم، فـ «ذلك»: مبتدأ، و«ظنكم»: خبر، و«الذي ظننتم بربكم»: صفة، و«أرداكم»: خبر ثان، أو: ظنكم: بدل من «ذلك»، و«أرداكم»: خبر، ﴿ فأصبحتم ﴾ بسبب الظن السوء ﴿ من الخاسرين ﴾ إذ صار ما منحوا لسعادة الدارين سبباً لشقاء النشأتين.

﴿ فإن يصبروا فالنارُ مثوىً ﴾، مقام ﴿ لهم ﴾ أي: فإن يصبروا لم ينفعهم الصبر، ولم ينفكوا به من الثوى في النار، ﴿ وإن يستعتبوا ﴾ أي: يسألوا العتبى؛ وهو الاسترضاء ﴿ فما هم من المُعتَبين ﴾؛ المجابين إليها، أي: وإن يطلبوا الاسترضاء من الله ـ تعالى ـ ليرضى عنهم، فما هم من المرضين؛ لما تحتم عليهم واستوجبوه من السخط. قال الجوهري: أعتبني فلان: إذا عاد إلى مسرتي، راجعاً عن الإساءة، والاسم منه: العتبى، يقال: استعتبته فأعتبني، أي: استرضيته فأرضاني. وقال الهروي: إن يستقيلوا ربهم لم يقلهم، أي: لم يردهم إلى الدنيا، أو: إن أقالهم وردهم لم يعملوا بطاعته، كقوله: ﴿ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ ﴾(٢).

---

(١) أخرجه البخاري في (التفسير، سورة حم السجدة، باب :﴿وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم..﴾ ح٤٨١٦) ومسلم في (صفات المنافقين وأحكامهم، ٤/٢١٤١ ح ٢٧٧٥).

(٢) من الآية ٢٨ من سورة الأنعام.

الإشارة: أعداء الله هم الجاحدون لوحدانيته ولرسالة رسله، وهم الذين تشهد عليهم جوارحهم، وأما المؤمن فلا، نعم إن مات عاصياً شهدت عليه البقع أو الحفظة، فإن تاب أنسى الله حفظته ومعالمه في الأرض ذنوبه. قال في التذكرة: إن العبد إذا صدق في توبته أنسى اللهُ ذنوبه لحافظيه، وأوحى إلى بقع الأرض وإلى جميع جوارحه: أن اكتموا مساوئ عبدي، ولا تظهروها، فإنه تاب إليَّ توبة صادقة، بنية مخلصة، فقبلته وتبتُ عليه، وأنا التواب الرحيم.

وفي الآية حث على حسن الظن بالله، وفي الحديث: «لا يموتن أحدكم إلا وهو يُحسن الظن بالله عز وجل»[(١)] وقال أيضا: «يقول الله ـ عز وجل: أنا عندَ ظنِّ عبدي بي...» الحديث[(٢)] فمن ظن خيراً لقي خيراً، ومن ظن شراً لقي شراً. وبالله التوفيق.

ثم إن سبب الغواية أو الهداية هي الصحبة، كما قال تعالى:

﴿ ۞ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله : ﴿ وقيَّضنا ﴾ أي: سيَّرنا، أو: قدّرنا، ﴿ لهم ﴾ أي: كفار مكة في الدنيا ﴿ قُرَناء ﴾ سوء من الجن والإنس، أو: سلطنا عليهم نظراء لهم من الشياطين يستولون عليهم، كقوله: ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴾[(٣)]، ﴿ فزيَّنوا لهم ما بين أيديهم ﴾ من أمور الدنيا، واتباع الشهوات، والتقليد لأسلافهم، حتى حادوا عن الحق، ﴿ وما خَلْفَهم ﴾ من أمور الآخرة، حيث ألقوا إليهم: ألا بعث ولا حساب. أو: ما تقدم من أعمالهم وما هم عازمون عليها، ﴿ وحقّ عليهم القولُ ﴾ أي: ثبت وتقرر عليهم كلمة العذاب، أو: تحقق موجبها ومصداقها، وهي قوله تعالى لإبليس: ﴿ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾[(٤)]، حال كونهم ﴿ في ﴾ جملة ﴿ أمم قد خلت مِن قبلهم ﴾ أي: قبل أهل مكة ﴿ من الجن والإنس ﴾

(١) أخرجه مسلم في (كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب الأمر بحسن الظن بالله، ٤/٢٢٠٥، ح ٢٨٧٧) عن جابر رضي الله عنه.
(٢) جزء من حديث أخرجه البخاري في (كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿ويحذركم الله نفسه﴾ ، ح٧٤٠٥) ومسلم في (كتاب الذكر والدعاء، باب الحث على ذكر الله تعالى، ٤/٢٠٦١ ح ٢٦٧٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٣) الآية ٣٦ من سورة الزخرف.
(٤) من الآية ٨٥ من سورة «ص».

كانوا مُصرِّيين على الكفر العصيان، ﴿إنهم كانوا خاسرين﴾ حيث آثروا الباطل على الحق، وهو تعليل لاستحقاقهم العذاب. والضمير لهم وللأمم.

الإشارة: قال القشيري: إذا أراد الله بعبده سوء، قيّض له إخوان سوء وقرناءَ شر، هم الأضداد له فيما راموا، وإذا أراد الله بعبد خيراً قيّض له قرناءَ خير، يُعينونه على الطاعة، ويحَمِلونه عليها، ويدعونه إليها، وإذا كانوا إخوانَ سوءِ يحملونه على المخالفات، ويدعونه إليها، ومن ذلك الشيطانُ. ثم قال: وشرُّ قرين للمرء نفسُه، ثم الشيطان، ثم شياطين الإنسِ، فزيّنوا لهم ما بين أيديهم من طول الأمل، وما خلفهم من نسيان الزَّللِ، والتسويف في التوبة، والتقصير في الطاعة. هـ.

قلت: والله ما رأينا الفلاح والخسران إلا من الخلطة. قال بعضهم: والله ما أفلح من أُفلح إلا بصحبة من أفلح، ولا سيما صحبة العارفين؛ فساعة معهم تعدل عبادة سنين بالصيام والقيام وأنواع المجاهدة، ولله در الجيلاني(١) رضي الله عنه حيث قال:

فَشَمِّرْ ولذْ بالأولياءِ فإنَّهم		لَهُمْ مِنْ كِتَابِ الله تلكَ الوَقَائِعُ
هُمُ الذُّخْرُ للملهوفِ والكنزُ للرَّجا		ومنهم يَنَالُ الصَّبُّ ما هوِ طامِعُ
بهم يُهتدى للعَيْنِ مَنْ ضلَّ في العَمَى		بهمْ يُجْذَب العُشَّاقُ والرَّبْعُ شَاسِعُ
هُمُ النَاسُ فالزَمْ إنْ عَرفتَ جنابَهم		ففيهم لِضُرِّ العالمين مَنَافِعُ(٢)

ثم ذكر بعض ما زيَّنوا لهم، فقال:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾
فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾
ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾﴾

(١) هو الشيخ عبدالكريم الجيلي.
(٢) البيت الأخير جاء في ديوان الجيلي ص ٨٩ مسبوقاً ببيت هو:
هم القصد والمطلوب السؤل والمنى		واسمهم للصب في الحب شافعُ

يقول الحق جل جلاله: ﴿وقال الذين كفروا﴾ من رؤساء المشركين لأتباعهم، أو: بعضهم لبعض: ﴿لا تسمعوا لهذا القرآن﴾ إذا قُرِىء، أي: لا تنصتوا له؛ لأنه يقلب القلوب، ويسبي العقول، وكل من استمع إليه صبا إليه، ﴿والْغَوْا فيه لعلكم تَغْلِبون﴾ أي: عارضوه بكلام غير مفهوم، أو: بالخرافات؛ من الرّجَز والشعر والتصدية، وارفعوا أصواتكم بها ﴿لعلكم تغلبون﴾ أي: تغلبونه على قراءته، وشوّشوا عليه فيقع في الغلط، أو: لا يسمعه منه أحد. واللغو: الساقط من الكلام الذي لا طائلَ تحته.

﴿فلنذيقنَّ الذين كفروا﴾ أي فوالله لنذيقن هؤلاء اللاغين والقائلين، أو: جميع الكفار، وهم داخلون فيهم دخولاً أوليا. ﴿عذاباً شديداً﴾ لا يُقادر قدره، ﴿ولنجزينهم أسوأ الذي كانوا يعملون﴾ أي: أعظم عقوبة على أسوأ أعمالهم، وهو الكفر، وقيل: إنه لا يجازيهم بمحاسن أعمالهم، كإغاثة الملهوفين، وصلة الأرحام، وقِرى الضيق؛ لأنها محبطة بالكفر، وإنما يجازيهم على أسوئها. وعن ابن عباس: ﴿عذاباً شديداً﴾: يوم بدر، و﴿أسوأ الذي كانوا يعملون﴾: ما يُجزون في الآخرة.

﴿ذلك جزاءُ أعداءِ الله النارُ﴾ أي: ذلك الأسوأ من الجزاء هو جزاء أعداء الله، وهو النار. فالنار: خبر عن مضمر، أو: عطف بيان للجزاء، والنار: مبتدأ. و﴿لهم فيها دارُ الخلد﴾: خبر، أي: النار في نفسها دار الخلد، كما تقول: لك في هذه الدار السرور، وأنت تعني الدار بعينها، ويسمى في علم البلاغة: التجريد، وهو أن ينتزع من ذي صفة أمراً آخر مثله، مبالغةً، لكمالٍ فيه. تقول: لقيت من زيد أسداً. وقيل: هي على معناها، والمراد: أن لهم في النار المشتملة على الدركات دار مخصوصة، هم فيها خالدون، ﴿جزاء بما كانوا بآياتنا يجحدون﴾ أي: جُوزوا بذلك جزاء بسبب ما كانوا يجحدون بآياتنا ويلغون فيها.

الإشارة: الآية تنسحب على من يرفع صوته بمحضر مجلس الوعظ والذكر، أو العلم النافع، أو صفوف الصلاة، فهذه المجالس يجب صونها من اللغو والصخب، ويجب الاستماع لها، والإنصات، والتوقير، والتعظيم، لأنها موروثة عن الرسول ﷺ قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ﴾(١)، ومن فعل شيئاً من ذلك فالوعيد بقوله تعالى: ﴿فلنذيقن الذين كفروا...﴾ الآية ـ منه بالمرصاد. والله تعالى أعلم.

---

(١) الآية ٣ من سورة الحجرات.

ثم ذكر مقالتهم بعد دخول النار، فقال:

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿وقال الذين كفروا﴾ وهم متقلبون فيما ذكر من العذاب: ﴿ربنا أرِنَا اللذَيْنِ أضلَّانا من الجن والإنس﴾، يعنون الفريقين الحاملين على الضلال، من شياطين الجن والإنس، بالتسويل والتزيين، وقيل: هما إبليس وقابيل، فإنهما سَنَّا الكفر والقتل، وقرىء بسكون الراء تخفيفًا[1]، كفَخِذ وفخْذ، وبالاختلاس[2]، أي: أبصرناهما، ﴿نَجْعَلْهُما تحت أقدامنا﴾ أي: ندسهما تحت أرجلنا، انتقاماً منهما، أو: نجعلهما في الدرك الأسفل ﴿ليكونا من الأسفلين﴾ ذلاً ومهانةً، أو: مكاناً، جزاء إضلالهم إيانا.

الإشارة: كل من سقط عن درجة المقربين العارفين، وتعوّق عن صحبتهم، بسبب تعويق أحد، تمنى يوم القيامة أن يكون تحت قدمه، ليكون أسفل منه، غيظاً وندماً، ولا ينفع التمني والندم في ذلك اليوم. وبالله التوفيق.

ثم ذكر أهل القُرب والعناية، بعد ذكر أهل البُعد والغواية، فقال:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿إن الذين قالوا ربُّنا الله﴾ أي: نطقوا بالتوحيد واعتقدوا، ﴿ثم استقاموا﴾ أي: ثبتوا على الإقرار ومقتضياته من حسن الأعمال، وعن الصدّيق رضي الله عنه: استقاموا فعلاً، كما استقاموا قولاً. وعنه: أنه تلاها ثم قال: ما تقولون فيها؟ قالوا: لم يذنبوا، قال: حملتم الأمر على أشده، قالوا: فما تقول؟ قال: لم يرجعوا إلى عبادة الأوثان. وعن عمر رضي الله عنه: لم يروغوا روَغان الثعالب، أي: لم ينافقوا. وعن عثمان رضي الله عنه: أحكموا العمل،

(١) وبها قرأ ابن كثير، وأبو عمرو بخلفه، وأبو بكر، ويعقوب، وقرأ الباقون بالكسر. انظر الإتحاف (٢/٤٤٣).
(٢) وهي الوجه الثاني لأبي عمرو.

وعن عليّ ﷺ: أدّوا الفرائض. وعن الفُضيل: زهدوا فى الفانية، ورغبوا فى الباقية(١). قلت: ويجمعها الإقرار بالربوبية، والقيام بوصائف العبودية.

﴿تتنزّلُ عليهم الملائكةُ﴾ عند الموت، وفى القبر، وعند البعث، أو: فى الدنيا بإلهام الخير وشرح الصدر، وإعانتهم على الأمور الدينية، كما أن الكفرة تقويهم ما قُيض لهم فى قرناء السوء. والأظهر: العموم. ﴿ألاَّ تخافوا ولا تحزنوا﴾ فـ «أن» مخففة، أو: تفسيرية، أى: لا تخافوا ما تُقدمون عليه، ولا تحزنوا على ما خلفتم، فالخوف: غم يلحق لتوقع مكروه، والحزن: غم يلحق لفوات نافع، أو حضور ضارٍ. والمعنى: أن الله تعالى كتب لكم الأمنَ من كل غم، فلن تذوقوه أبداً. ﴿وأبشِروا بالجنة التى كنتم تُوعدون﴾ فى الدنيا على ألسنة الرسل. وقال محمد بن على الترمذى: تتنزل عليهم ملائكة الرحمة، عند مفارقة الأرواح الأبدان، ألا تخافوا سلب الإيمان، ولا تحزنوا على ما كان من العصيان، وأبشروا بدخول الجنان، التى تُوعدون فى سالف الأزمان.

﴿نحن أولياؤُكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة﴾، كما أن الشياطين قرناء العصاة وإخوانهم، فكذلك الملائكة أولياء المتقين وأحباؤهم فى الدارين. ﴿ولكم فيها ما تشتهي أنفسُكم﴾ من فنون الطيبات، ﴿ولكم فيها ما تَدَّعون﴾؛ ماتتمنون، افتعال من الدعاء، بمعنى الطلب، ﴿نُزُلاً﴾: حال من مفعول «تدّعون» المحذوف، أو: من «ما»، والنُّزُل: ما يقدم للنزيل، وفيه تنبيه على أن ما يتمنونه بالنسبة إلى ما يعطون من عظائم النعيم كالنُّزُل للضيف. والله تعالى أعلم.

الإشارة: إن الذين أقروا بقهرية الربوبية، وقاموا بوظائف العبودية، تتنزل عليهم الملائكة بالبشارة الأبدية. قال القشيرى: فأما الاستقامة فهى الثباتُ على شرائط الإيمان بجملتها، من غير إخلالٍ بشىء من أقسامها.

ثم قال: من كان له أصل الاستقامة، وهى التوحيد، أَمِنَ من الخلود فى النار، ومن كان له كمال الاستقامة أَمِنَ من الوعيد، من غير أن يلحقه سوء بحالٍ. ويقال: استقاموا على دوام الشهود، وانفراد القلب بالمعبود، أو: استقاموا فى تصفية العقد، ثم فى توفية العهد، ثم فى صحة القصد، بدوام الوجد، أو: استقاموا بأقوالهم، ثم بأعمالهم، ثم بصفاء أحوالهم، فى وقتهم وفى مآلهم، أو: داموا على طاعته، واستقاموا فى معرفته، وهاموا فى محبته، وقاموا بشرائط خدمته. واستقامة العابد: ألا يعود إلى الفترة واتباع الشهوة، ولا يدخله رياء ولا تصنع، واستقامةُ العارف: ألا يشوب معرفته حظ فى الدارين، فيحجب به عن مولاه، واستقامةُ المحبين: ألا يكون لهم أرب من غير محبوبهم؛ يكتفون من عطائه ببقائه، ومن مقتضى جوده بدوام عِزِّه ووجوده. هـ.

---

(١) انظر فى هذه الأقوال تفسير الطبرى (٢٤/١١٥) والبغوى (٧/١٧٢) والبحر المحيط (٧/٤٧٥).

وقوله تعالى: ﴿ تتنزل عليهم الملائكة ﴾ أي: تمدهم بالاهتداء والأنوار، وتلهمهم العلوم والأسرار، في مقابلة تقييض الغافل بالقرناء الأشرار، فكما أن الغافل يخذل بتسليط الغواة في الدارين، كذلك العارف يُمد ويُنصر من قِبل الملائكة في الدارين.

وقوله تعالى: ﴿ ألاَّ تخافوا ولا تحزنوا ﴾ أي: حيث وجدتم الله لا تخافوا من شيء، ولا تحزنوا على فوات شيء، إذ لم يفتكم شيء، وماذا فقد من وجده؟.

قال القشيري: لا تخاوفوا من عزلة الولاية، ولا تحزنوا على ما أسلفتم من الجناية، وأبشروا بحسن العناية، أو: لا تخافوا مما أسلفتم، ولا تحزنوا على ما خلّفتم، وأبشروا بالجنة التي وعدتم. أو: لا تخافوا المذَلة، ولا تحزنوا على ماأسلفتم من الزلّة، وأبشروا بدوام الوصلة . هـ .

ثم قال في قوله تعالى: ﴿ نحن أولياؤكم ﴾: الولاية من الله ـ تعالى ـ بمعنى المحبة، وتكون بمعنى النصرة، وهذا الخطاب بقوله: ﴿نحن أولياؤكم﴾، يحتمل أن يكون من قِبَل الملائكة، الذين يتنزلون عليهم، ويحتمل أن يكون ابتداء خطابٍ من الله ـ تعالى ـ والنصرة تصدر من المحبة، ولو لم تكن المحبة الأزلية لم تكن تحصل النصرة في الحال. هـ. وكونه من الملائكة أظهر، كما تقدم. والله تعالى أعلم.

ولمَّا ذكر حال أهل الاستقامة، ذكر حال من دعا إليها، أو: تقول: لمَّا ذكر حال أهل الكمال فقط، ذكر أهل الكمال والتكميل، فقال:

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ومن أحسنُ قولاً ممن دعا إلى الله ﴾ أي: إلى الإقرار بربوبيته، والاستقامة على عبوديته، وهو الرسول ﷺ وخلفاؤه من أمته، الدعاة إلى الله في كل عصر، أي: لا أحد أحسن قولاً ممن دعا إلى

معرفة الله، ﴿ وعَمِل صالحاً ﴾ فيما بينه وبين ربه، بأن عمل أولاً بما دعا إليه، ﴿ وقال إننى من المسلمين ﴾ تفاخراً بالإسلام، وابتهاجاً بأنه منهم، واتخاذ الإسلام ديناً، من قولهم: هذا قول فلان، أى: مذهبه؛ لأنه يتكلم بذلك، أو: يقوله تواضعاً، أى: من جملة عامة المسلمين

﴿ ولا تستوي الحسنةُ ولا السيئةُ ﴾، هذا بيان محاسن الأعمال الجارية بين العباد، إثر بيان محاسن الأعمال الجارية بين العبد وبين الرب ـ عز وجل ـ ترغيباً للدعاة إلى الله فى الصبر على إذاية الخلق، لأن كل من يأمر بالحق يُؤذَى، فأُمروا بمقابلة الإساءة بالإحسان، أى: لا تستوى الخصلة الحسنة والخصلة السيئة، و(لا): مزيدة، لتأكيد النفى. ﴿ ادفع بالتي هي أحسنُ ﴾ أى: ادفع السيئة التى اعترضتك من بعض أعدائك بالتى هى أحسن منها، وهى: أن تُحسن إليه فى مقابلة إساءته، فالحسنة والسيئة متفاوتتان فى أنفسهما، فخذ بالحسنة التى هى أحسن من أختها، وادفع بها السيئة، كما لو أساء إليك رجل، فالحسنة: أن تعفو عنه، والتى هى أحسن: أن تُحسن إليه مكان إساءته، مثل أن يذمك فتمدحه، ويحرمك فتعطيه، ويقطعك فتصله. وعن ابن عباس رضي الله عنه : التى هى أحسن: الصبر عند الغضب ، والحلم عند الجهل، والعفو عن الإساءة.(١) هـ.

﴿ فإذا الذي بينك وبينه عداوةٌ كأنه ولىٌّ حميم ﴾ أى: فإنك إن فعلت ذلك انقلب عدوك المشاقق مثل وليك الحميم الشفيق، مصافاة لك، وهذا صعب على النفوس، ولذلك قال:

﴿ وما يُلقاها إلا الذين صبروا ﴾ أى: ما يلقى هذه الخصلة التى فى مقابلة الإساءة بالإحسان إلا أهل الصبر، ﴿ وما يُلقاها إلا ذو حظٍ عظيم ﴾ من الله ـ تعالى ـ وسبق عنايته بكمال النفس وتهذيبها. وعن ابن عباس رضي الله عنه : الحظ العظيم: الثواب، وعن الحسن: والله ما عظم حظ دون الجنة. وقيل: نزلت فى أبى سفيان بن حرب، كان عدواً مؤذياً للنبى ﷺ فصار ولياً مصافياً له(٢)، وبقيت عامة.

﴿ وإما ينزغَنَّك من الشيطان نزغٌ ﴾، النزغ: شبه النخْس، والشيطان ينزغ الإنسان، كأنه ينخسه، ببعثه على ما لا ينبغى، وجعل النزغ نازغاً مجاز، كجدّ جدّه، والمعنى: وإن طرقك الشيطان على ترك ما وُصِّيْتَ به من الدفع بالتى هى أحسن، ﴿ فاستعِذْ بالله ﴾ من شرّه، وامض على [حلمك](٣) ولا تُطعه، ﴿ إنه هو السميعُ ﴾

(١) ذكره البغوى فى تفسيره (٧/١٧٤) وابن كثير (٤/١٠١).
(٢) قاله مقاتل بن حيان، فيما ذكره البغوى فى تفسيره. (٧/١٧٤).
(٣) فى الأصول (حكمه) والمثبت من النسفى.

لاستعاذتك، ﴿العليمُ﴾ بنيتك وتعلقك به، أو: بنزغ الشيطان ووسوسته. وهو تعليم لأمته ﷺ إذ كان شيطانه أسلم على يده.

الإشارة: قال القشيرى: قيل: الداعى إلى الله هو الذى يدعو الناس إلى الاكتفاء بالله، وتَرْكِ طلب العوَض من الله، بل يَكِلُ أمره إلى الله، ويرضى من الله بقسمة الله. ثم قال: ﴿وعَمِلَ صالحاً﴾ كما يدعو الخلق إلى الله يأتى بما يدعوهم إليه، ويقال: هم الذين عرفوا طريقَ الله، ثم دعوا ـ بعد ما عرفوا الطريقَ إلى الله ـ الخلقَ إلى الله، ﴿وقال إننى من المسلمين﴾ لحكمه، الراضين بقضائه وتدبيره. هـ.

وقال الشاذلى ﷺ: عليك برفض الناس جملة، إلا من يدلك على الله، بإشارةٍ صادقة، وأعمال ثابتة، لاينقضها كتاب ولا سُنَّة. هـ. وشروط الداعى إلى الله على طريق المشيخة أربعة: علم صحيح، وذوق صريح، وهمة عالية، وحالة مرضية، كما قال زروق ﷺ. وقال الشريشى(١) فى رائيته:

وللشيخِ آياتٌ إذا لَن تَكُنَّ له فما هُوَ إلا فى ليالى الهَوَى يَسْرِى
إذا لَمْ يكن علْم لَدَيه بِظَاهِرٍ ولاَ باطنٍ فاضْرِبْ بِهِ لُجَجَ الْبَحْرِ

أما العلم الظاهر فإنما يشترط منه ما يحتاج إليه فى خاصة نفسه، ويحتاج إليه المريد فى حال سفره إلى ربه، وهو القَدْر الذى لابُد منه، من أحكام الطهارة والصلاة ونحو ذلك، ولا يشترط التبحر فى علم الشريعة. قال الشيخ أبو يزيد، ﷺ: صحبت أبا على المسدى، فكنت أُلقنه ما يُقيم به فرضه، وكان يعلمنى التوحيد والحقائق صِرفاً. هـ. ومن المعلوم أن الشيخ ابن عباد لم يُفتح عليه إلا على يد رجل عامي، وقد تحققت تربية كثير من الأولياء، كانوا أميين فى علم الظاهر(٢). وأما علم الباطن فالمطلوب فيه التبحر التام؛ إذ المقصود بالذات فى الشيخ المصطلح عليه عند القوم هو هذا العلم؛ لأن المريد أنما يطلب الشيخَ ليسلكه ويعلمه علم الطريقة والحقيقة؛ فيكون عنده علم تام بالله وصفاته وأسمائه، ذوقاً وكشفاً، وعلم بآفات الطريق، ومكائد النفس، والشيطان، وطرق المواجيد، وتحقيق المقامات، كما هو مقرر فى فنه، وهذا الداعى لا تخلو الأرض منه على الكمال، خلافاً لمن حكم بانقطاعه. والله تعالى أعلم.

---

(١) هو أحمد بن محمد بن أحمد بن خلف، القرشى، تاج الدين، الشريشى، المالكى، الصوفى. ولد فى سلا ـ بجوار الرباط سنة ٥٨١هـ، ونشأ بمراكش، وبرع فى علم الكلام وأصول الفقه. وتصوف على يد أبى حفص السهروردى عمر بن محمد، واستقر بالفيوم بمصر، وتوفى بها سنة ٦٤١هـ، اشتهر بقصيدته الرائية المسماة «أنوار السرائر وسرائر الأنوار». انظر الأعلام للزركلى (١/ ٢١٩).

(٢) انظر الفتوحات الإلهية للإمام المفسر (٢٠٢ ـ ٢٠٤) وراجع التعليق على إشارة الآيات: ٤٧ ـ ٤٩ من سورة العنكبوت.

وفى الإحياء: المقتدى به هو الذى استقام فى نفسه، واستنار قلبه فانتشر نوره إلى غيره، لا من يُظهر خلاف ما هو عليه ليُقتدى به، فإنه مُلَبِّس، لم ينصح لنفسه، فكيف بغيره؟. هـ.

قال الورتجبى: ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله، أى: ممن عرف الله بعد أن رآه وأحبه واشتاق إليه، ودعا الخلق إليه، من حيث هو فيه وصَدقه فى حاله، يدعو الخلق إلى الله بلسان الأفعال، وصدق المقال، وحلاوة الأحوال، ويذكر لهم شمائل القِدَم وحق الربوبية، ويُعرفهم صفات الحق وجلال ذاته، ويُحبب اللهَ فى قلوبهم، وهذا عمله الصالح، ثم يقول بعد كماله وتمكنه: إننى واحد من المسلمين، مِن تواضعه ولطفِ حاله خلقاً وظرافةً، وإن كان إسلامه من قُصارى ـ أى: غاية ـ أحوال المستقيمين. قال سهل: أى: ممن دلّ على الله، وعلى عبادة الله وسنّة رسوله، واجتناب المناهى، وإدامة الاستقامة مع الله، ثم قال: ﴿ولا تستوى الحسنة ولا السيئة﴾ بيّن اللهُ هنا أن الخُلق الحسن ليس كالخُلق السيىء، وأمر بتبديل الأخلاق المذمومة بالأخلاق المحمودة، وأحسن الأخلاق: الحلم؛ إذ يكون به العدو صديقاً، والبعيد قريباً، حين دفع غضبه بحلمه، وظلمَه بعفوه، وسوءَ جانبه بكرمه، وفى مظنة الخطاب: أن من كان متخلقاً بخلقه، متصفاً بصفاته، مستقيماً فى خدمته، صادقاً فى محبته، عارفاً بذاته وصفاته، ليس كالمدعى الذى ليس فى دعواه معنى.

ثم قال: ﴿ وما يُلقاها إلا الذين صبروا ﴾، بين الله سبحانه ألا يبلغ أحد درجة الخلق الحسن، وحسنات الأعمال وسُنِّيات الأفعال، إلا من تصبّر فى بلاء الله، وامتحانه، بالوسائط وغير الوسائط، ولا يتحمل هذه البليات إلا ذو حظ عظيم من مشاهدته، وذو نصيب من قربه ووصاله، صاحب معرفة كاملة، ومحبة شاملة. وكمال هذا الصبر الاتصاف بصبر الله، ثم الصبر فى مشاهدة الأزل، فبالصبر الاتصافى ومشاهدة الأبدى، والحظ الجمالى، يوازى طوارق صدمات الألوهية، وغلبات القهّارية. ثم قال: عن الجنيد: ما يوفق لهذا المقام إلا ذو حظ عظيم من عناية الحق فيه. هـ.

ثم بيّن دلائل توحيده، فقال:

﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾

﴿فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ ۩ ﴿٣٨﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ومن آياته﴾ الدالة على وحدانيته: ﴿الليلُ والنهارُ﴾ في تعاقبهما على حدٍّ معلوم، وتناوبهما على قدرٍ مقسوم، ﴿والشمسُ والقمرُ﴾ في اختصاصهما بسير مقدّر، ونورٍ مقرّر؛ إذ لا يصدر ذلك إلا من واحد قهار. ﴿لا تسجدوا للشمسِ ولا للقمر﴾؛ فإنها مخلوقان مثلكم، وإن كثرت منافعهما، ﴿واسجُدُوا لله الذي خلقهنَّ﴾ أي: الليل والنهار والشمس والقمر. وحكم جماعة ما لا يعقل حكم الأنثى أو الإناث في الضمير، تقول: الأقلام بريتها وبريتهنّ. ولعلّ ناساً من المشركين كانوا يسجدون للشمس والقمر، تبعاً للصّابئين من المجوس في عبادتهم الكواكب، ويزعمون أنهم يقصدون بالسجود لها السجود لله - تعالى - فنُهوا عن هذه الواسطة، وأُمِرُوا أن يقصدوا بسجودهم وَجْهَ الله وحده، إن كانوا موحدين، ولذلك قال: ﴿إن كنتم إياه تعبدون﴾ فإن السجود أقصى مراتب العبادة، فلابد من تخصيصه به سبحانه، وهذا موضع السجدة عند مالك والشافعي، وعند أبي حنيفة: (لايسأمون).

﴿فإن استكبروا﴾ عن الامتثال، ﴿فالذين عند ربك﴾ من الملائكة ﴿يُسبّحون له بالليل والنهار﴾ أي: دائماً، ﴿وهم لا يسأمون﴾؛ لا يملّون ولا يفتُرون، والمعنى: فإن استكبر هؤلاء وأبوا إلا الواسطة، فدعْهم وشأنَهم، فإن الله غني عنهم، وقد عمّر سماواته بمن يعبده، وينزهه بالليل والنهار عن الأنداد. والعندية عبارة عن الزلفى والكرامة.

﴿ومن آياته﴾ أيضاً ﴿أنك ترى الأرضَ خاشعةً﴾؛ يابسةً مغبرة. والخشوع: التذلل، فاستعير للأرض إذا كانت قحطة لا نبات فيها، ﴿فإذا أنزلنا عليها الماءَ﴾؛ المطر ﴿اهتزتْ﴾ أي: تحركت ﴿وربَتْ﴾؛ انتفخت؛ لأن النبات إذا دنا أن يظهر ارتفعت به وانتفخت، ثم تصدعت عن النبات، وقيل: تزخرفت وارتفعت بارتفاع نباتها، ﴿إنّ الذي أحياها لمحيي الموتى﴾ بالبعث، ﴿إنه على كل شيءٍ قديرٌ﴾، ومن جملة الأشياء: البعث والحساب.

الإشارة: الليل والنهار والشمس والقمر خلَقَهن من أجلك، فعارٌ عليك أن تخضع لِمَا خُلق لك، وتترك المنعِم بها عليك. قال القشيرى: الحق ـ سبحانه ـ يأمرك بصيانة وجهك عن الشمس والقمر مع علوهما، وأنت لأجلِ حظٍّ خسيسٍ تنقل قَدَمك إلى كلّ أحدٍ، وتذل وجهك لكل أحد. هـ. وأما الخضوع لمن أمر الله بالخضوع له من الدعاة إلى الله فهو من الخضوع لله، كأمر الملائكة بالسجود لآدم، وكأمره بالخضوع للأنبياء والأولياء، فكان مآل من سجد وخضع التقريب، ومآل من استكبر وأنف الطرد والبُعد، والله تعالى غنى عن الكل، ولذلك قال: ﴿فإن استكبروا...﴾ الآية.

قوله تعالى: ﴿ومن آياته أنك ترى الأرضَ خاشعةً...﴾ الآية، وكذلك أرض النفوس تراها يابسة بالغفلة والقسوة والجهل، فإذا أنزل عليها ماء الحياة، وهى خمرة المحبة، هاجت وارتفعت، وحييت بذكر الله ومعرفته، إن الذى أحيا الأرض الحسية قادر على إحياء النفوس الميتة بالغفلة، وانظرالقشيرى(١).

ثم ذكر حال من أعرض عن الآيات، فقال:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿إن الذين يُلحدون في آياتنا﴾ أى: يميلون عن الحق فى أدلتنا التكوينية، الدالة على وحدانيتنا، فلا ينظرون فيها، أو: يُلحدون فى آياتنا التنزيلية، بالطعن فيها، وتحريفها، بحملها على المحامل الباطلة، ﴿لا يَخْفَونَ علينا﴾، بل نجازيهم على ذلك. يقال: ألحد الكافر ولحَد: إذا مال عن الاستقامة عن الحق.

ثم ذكر جزاءهم فقال: ﴿أفمن يُلقى فى النار خيرٌ أم من يأتى آمناً يومَ القيامة﴾. قيل: نزلت فى أبى جهل وعثمان(٢)، وهى عامة، ﴿اعملوا ما شئتم﴾ من الأعمال المؤدية إلى ما ذكر من الإبقاء فى النار، والإتيان آمناً، وفيه تهديد وتنديد. ﴿إنه بما تعملون بصيرٌ﴾ فيجازيكم بحسب أعمالكم.

---

(١) راجع لطائف الإشارات (٣/٣٣٤).
(٢) قاله مقاتل، فيما ذكره أبو حيان، فى البحر المحيط (٧/٤٧٨). وانظر تفسير القرطبى (٧/٥٩٨٧).

﴿إن الذين كفروا بالذِكْرِ﴾؛ القرآن ﴿لمَّا﴾ حين ﴿جاءهم﴾ مخلدون فى النار، أو: هالكون، أو: معاندون، فخبر «إن» محذوف، دلَّ عليه ما قبله. وقيل: بدل من قوله: ﴿إن الذين يُلحدون فى آياتنا﴾ فخبر «إن» هو الخبر السابق، وقال عمرو بن العلاء: الخبر: ﴿أولئك يُنادون﴾(١)، ورُدّ بكثرة الفصل.

ثم فسَّر الذكر المذكور بقوله: ﴿وإنه لكتابٌ عزيز﴾، منيع، محمىٌ بحماية الله، لا تتأتى معارضته بحال، أو: كثير المنافع، عديم النظير، ﴿لا يأتيه الباطلُ مِن بين يديه ولا مِن خلفه﴾ أى: لايتطرقه الباطل من جهة من الجهات، أو: لا يأتيه التبديل والتحريف، أو: التناقض بوجه من الوجوه، وأما النسخ فليس بمبطل للمنسوخ، بل هو: انتهاء حكم إلى مدة وابتداء حكم آخر، خلافاً لمن احتج بالآية على عدم النسخ فى القرآن، انظر ابن عرفه. ﴿تنزيلٌ من حكيمٍ حميدٍ﴾ أى: تنزيل من حكيم محمود، فـ «تنزيل»: خبر عن مضمر، أو: صفة أخرى لكتاب، مفيدة لفخامته الإضافية، كما أن الصلتين السابقتين، مفيدتان لفخامته الذاتية، كل ذلك لتأكيد بطلان الكفر به وبشاعة قُبحه.

الإشارة: إن الذين يُلحدون فى آياتنا، فيطعنون فى أوليائنا، الدالين علينا، لا يخفون علينا، وسيُلقون فى نار القطيعة والبُعد مع عموم الخوف من هول المَطلّع، أفمن يُلقى فى النار خير أم من يأتى آمناً يوم القيامة؟ اعملوا ما شئتم من التسليم أو الانتقاد، وكل من لا يصحب الرجال لا يخلو خاطره من شك أو وَهْم فى مواعيد القرآن، كالرزق وغيره، ينسحب عليه قوله: ﴿إن الذين كفروا بالذكر..﴾ الآية، من طريق الإشارة. والله تعالى أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وإنه لكتابٌ عزيز﴾ قال الشيخ عبدالرحمن اللجاى فى كتاب «قطب العارفين»: الكتاب عزيز، وعلم الكتاب أعز، والعلم عزيز، والعمل به أعز، والعمل عزيز، والذوق أعز، والذوق عزيز، والمشاهدة فى الذوق أعز، والمشاهدة عزيزة، والموافقة فى المشاهدة أعز، والموافقة عزيزة، والأنس فى الموافقة أعز، والأنس عزيز، وآداب الأنس أعز. ثم قال: لكن لا يستنشق رائحةَ هذه المقامات مَن غلب جهلُه على علمه، وهواه على عقله، وسفهُه على حلمه. هـ.

ثم سلَّى نبيه من تكذيب قومه، فقال:

﴿ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ

(١) من الآية ٤٤ من سورة فصلت.

أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُواْ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ما يُقال لك﴾ أى: ما يقول لك كفار قومك ﴿إلا ما قدْ قيلَ للرسل مِن قبلك﴾؛ إلا مثل ما قال للرسل كفارُ قومهم، من الكلمات المؤذية، والمطاعن فى الكتب المنزلة، فاصبر كما صبروا، ﴿إنَّ ربك لذو مغفرةٍ﴾ ورحمة لأنبيائه ﴿وذو عقابٍ أليمٍ﴾ لأعدائهم، وقد نصر مَن قبلك مِن الرسل، وانتقم مِن أعدائهم، وسيفعل مثل ذلك بك وبأعدائك، أو: (ما يُقال لك) من الوحي وتخاطب به من جهته تعالى، (إلا ما قد قيل للرسل) وأوحى إليهم، فلست ببدع منهم (إن ربك لذو مغفرة) لمن صدق وحيه، (وذو عقاب أليم) لمن كذب.

﴿ولو جعلناه﴾ أى: الذكر ﴿قرآناً أعجمياً لقالوا لولا فُصلتْ آياتهُ﴾ أى: هلاَّ بُيِّنت بلسان العرب حتى نفهمها، كانوا يقولون؛ لتعنُتهم: هلاَّ نزل القرآن بلغة العجم! فقيل لهم: لو كان كما تقترحون لقلتم: هلاَّ بُيِّنت آياته بلغتنا لنفهمه، ﴿أأعجميٌّ وعربيٌّ﴾، بهمزتين(١)، الأولى للإنكار، يعنى: لو نزل بلغة العجم لأنكروا وقالوا: أقرآن أعجمي ورسولٌ عربي؟ والأعجمي: الذى لا يفصح ولا يُفهم كلامه، سواء كان من العجم أو من العرب، والعجمى: منسوب إلى أمة العجم، فصيحاً كان أو غير فصيح، ومن قرأ بهمزة واحدة، فالمعنى: هلاَّ فُصلت آياته فيجعل بعضها أعجمياً لإفهام العجم، وبعضها عربياً لإفهام العرب، فيكون معنى «فُصلت»: نُوِّعت.

وقُرئ «أعجمي» بفتح العين(٢)، ويتجه على كونهم طعنوا فيه من أجل ما فيه من الكلمة العجمية، كـ ﴿سجين﴾(٣) و﴿استبرق﴾(٤)، فقالوا: فيه أعجمي وعربي، مخلط من كلام العرب وكلام العجم، وأيًّا ما كان فالمقصود: أن آيات الله ـ عز وجل ـ على أىِّ طريق جاءتهم وجدوا متعنتاً يتعللون به؛ لأنهم غير طالبين للحقِّ، وإنما يتبعون أهواءهم. ﴿قل هو للذين آمنوا هُدىً﴾ يهديهم إلى الحق، ﴿وشفاءٌ﴾ لما فى الصدور من شك وشبهة؛ إذ الشك مرض.

---

(١) قرأ حمزة والكسائى وخلف وأبو بكر (أأعجمى) بهمزتين. وقرأ حفص عن عاصم (آعجمى) ممدودة. وقرأ هشام بهمزة واحدة من غير مد. راجع الغاية فى القراءات العشر (٣٨٦) والإتحاف (٢/ ٤٤٤).

(٢) وهى قراءة عمرو بن ميمون. وهى قراءة شاذة، ذكرها فى البحر المحيط (٧/ ٤٨٠).

(٣) كما جاء فى الآية السابعة والثامنة من سورة المطففين.

(٤) كما جاء فى الآية ٣١ من سورة الكهف.

﴿ والذين لا يؤمنون ﴾ به ﴿ في آذانهم وَقْرٌ ﴾ أي: صمم، فالموصول: مبتدأ، والجار: خبره، وقيل: في موضع الجر، بدل من (الذين آمنوا) أي: هو للذين آمنوا هُدىً وللذين لا يؤمنون في آذانهم وقر، إلا أن فيه عطفاً على عاملين ، وهو جائز عند الأخفش. ﴿ وهو ﴾ أي: القرآن ﴿ عليهم عَمىً ﴾ ظلمة وشبهة، ﴿ أولئك ﴾ البعداء الموصوفون بما ذكر من التعامي عن الحق الذي يسمعونه، والتعامي عن الآيات الظاهرة التي يشاهدونها، ﴿ يُنادَوْنَ من مكان بعيدٍ ﴾ يعني: أنهم لعدم قبولهم وانتفاعهم، كأنهم يُنادون إلى الإيمان بالقرآن من حيث لا يسمعون، لبُعد المسافة، وهو تمثيل لحالهم بحال من يُنادى من مسافة بعيدة، لا يكاد يسمع من مسافتها الأصوات، وقيل: ينادون في القيامة من مكان بعيد بأقبح الأسماء.

الإشارة: ما يُقال لك أيها المتوجه أو الوليّ، إلا ما قد قيل لمن قبلك من المنتسبين، فقد أُوذي مَن قبلك من أهل النسبة بأنواع الإذايات؛ من ضربٍ وقتلٍ وسجنٍ، وغير ذلك، ففيهم أُسوة لمن بَعدهم، (إن ربك لذو مغفرة وذو عقاب أليم) . ومما جرت عادة الله في خلقة ألا يُسلِّموا لأحياءِ عصرهم ما نطقوا به من حِكَمٍ، وأتَوا به من علوم، ولو بلغت من البلاغة ما بلغت، كما وقع مِن طعن الكفرة في القرآن، على أيِّ وجه جاء، وهي نزعة جاهلية.

وقوله تعالى: ﴿قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء﴾، قال الورتجبي: هُدىً لقلوب العارفين إلى معدنه، وهو الذات القديم، وشفاء لقلوب العاشقين، وأرواح مرضى المحبة وسقمى الصبابة، فلأنه خطاب حبيبهم، وكتاب مشوقهم، يستلذونه من حيث العبارات، ويعرفونه من حيث الإشارات. هـ. وقوله تعالى: ﴿في آذانهم وقر﴾ قال ذو النون: من وُقِرَ سمعُه وأصم عن نداء الحق في الأزل، لا يسمع نداءه عند الإيجاد، وإن سمعه كان ذلك عليه عمىً، ويكون عن دقائقه بعيداً، وذلك أنهم نُودوا عن بُعد، ولم يكونوا بالقرب . هـ. فكل من قرأه ذاهلاً عن تدبره بوساوس نفسه، فهو ممن نُودي في الأزل عن بُعد. وبالله التوفيق.

ولما ذكر بيان القرآن؛ أتبعه بذكر التوراة، تسليةً أيضاً، فقال:

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن
رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ
وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ولقد آتينا موسى الكتابَ﴾؛ التوراة ﴿فاختُلف فيه﴾ فقال بعضهم: حق، وقال بعضهم: كتبه بيده في الجبل، كما اختلف قومك في كتابك القرآن، فمن مؤمن به وكافر، ﴿ولولا كلمةٌ سبقتْ من ربك﴾ في حق أمتك بتأخير العذاب، ﴿لقُضيَ بينهم﴾؛ لأهلكهم إهلاك استئصال. وقيل: الكلمة السابقة هو العِدة بالقيامة لقوله: ﴿بل الساعةُ موعدهم﴾(١)، وأن الخصومات تُفصل في ذلك اليوم، ولولا ذلك لقُضي بينهم في الدنيا. ﴿وإنهم﴾ أي: كفار قومك ﴿لفي شكٍ منه﴾ من أجل القرآن ﴿مُريبٍ﴾؛ موقع للريبة، وقيل: الضمير في (بينهم) و (إنهم) لليهود، وفي (منه) لموسى، أو: لكتابه، وهو ضعيف.

﴿من عَمِلَ صالحاً﴾ بأن آمن بالكُتب وعمل بوحيها، ﴿فلنفسه﴾ نفع، لا غيره، ﴿ومن أساء فعليها﴾ ضرره، لا على غيره، ﴿وما ربك بظلاَّمٍ للعبيد﴾، فيعذب غير المسيىء، أو ينقُص من إحسان المحسن.

الإشارة: الاختلاف على أهل الخصوصية سُنَّة ماضية، (ولن تجد لسنة الله تبديلا)، فمن رام الاتفاق على خصوصيته، فهو كاذب في دعوى الخصوصية، وفي الحِكم: «استشرافك أن يعلم الخلق بخصوصيتك دليل على عدم صدقك في عبوديتك»(٢).

ثم ذكر بيان الساعة الموعودة بها في قوله: ﴿ولولا كلمة سبقت من ربك﴾؛ لأنها محل القضاء بين العباد، فكأن قائلاً قال: متى ذلك؟ فقال:

﴿۞ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَظَنُّوا۟ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿إليه يُرَدُّ علْمُ الساعة﴾ أي: إذا سُئل عنها يجب أن يقال: الله أعلم بوقت مجيئها، أو: لا يعلمها إلا الله، ﴿وما تَخرُجُ من ثمراتٍ من أكمامها﴾؛ من أوعيتها، جمع «كِمّ» بكسر الكاف؛ وهو وعاء الثمرة قبل أن تنشق، أي: لا يعلم كيفية خروجها ومآلها إلا الله. ﴿وما تحمل من أُنثى﴾ أي: تعلقُ النطفة في رحمها، وما ينشأ عنها من ذكورة وأنوثة وأوصاف الخلقة؛ تامة أو ناقصة، ﴿ولا تضع﴾ حَمْلها ﴿إلا

(١) الآية ٤٦ من سرة القمر.
(٢) (حكمة ١٦١) انظر الحكم بتبويب المتقي الهندي (ص ١١).

بعلمه﴾؛ استثناء مفرغ من أعم الأحوال، أي: ما يحدث شيء من خروج ثمرة، ولا حمل حامل، ولا وضع واضع، ملابساً بشيء من الأشياء، إلا ملابساً بعلمه المحيط.

﴿و﴾ اذكر ﴿يوم يُناديهم﴾ فيقولُ: ﴿أين شركائي﴾ بزعمكم، أضافهم إليه على زعمهم، وفيه تهكم بهم وتقريع، ﴿قالوا آذنّاك ما منّا من شهيد﴾ أي: من أحد يشهد لهم بالشركة، إذ تبرأنا منهم، لما عاينا حقيقة الحال، وتفسير «آذن» هنا بالإخبار، أحسن من تفسيره بالإعلام؛ لأن الله ـ تعالى ـ كان عالماً بذلك، وإعلام العالم محال؛ أما الإخبار للعالم بالشيء ليتحقق بما علم به فجائز، إلا أن يكون المعنى: إنك علمت من قلوبنا الآن: أنَّا لا نشهد تلك الشهادة الباطلة؛ لأنه إذا علمه من نفوسهم، فكأنهم أعلموه، أي: أخبرناك بأنَّا ما منا أحد اليوم يشهد بأنَّ لك شريكاً، وما منا إلا من هو مُوَحِّد. أو: (ما منا من) أحد يشاهدهم، لأنهم ضلوا عنهم في ساعة التوبيخ، وقيل: هو من كلام الشركاء، أي: ما منا شهيد يشهد بما أضافوا لنا من الشركة.

﴿وضلّ عنهم ما كانوا يَدْعُون﴾؛ يعبدون ﴿من قَبْلُ﴾ في الدنيا ﴿وظنوا﴾؛ وأيقنوا ﴿ما لهم من محيص﴾؛ من مهرب، والظن معلق عنهم بحرف النفي عن المفعولين.

الإشارة: إليه تعالى يُرَدُّ علمُ الساعة، التي يقع الفتح فيها على المتوجه، بكشف الحجاب بينه وبين حبيبه، وما تخرج من ثمرات العلوم والحِكَم من أكمام قلبه، وما تحمل نفس من اليقين والمعرفة، إلا بعلمه. ثم ذمّ من مال إلى غيره بالركون والمحبة، وذكر أنه يتبرأ منه في حال ضيقه، فلا ينبغي التعلق إلا به، ولا ميل القصد والمحبة إلا له ـ سبحانه ـ وبالله التوفيق.

ثم ذكر ما جبل عليه طبع الإنسان من الجزع والهلع، فقال:

﴿ لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾
وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَـٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ
قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟
وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ
وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿لا يسأم الإنسانُ﴾ أي: جنسه، أو: الكافر، بدليل قوله: ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾(١)، أي: لا يملّ ﴿من دعاءِ الخيرِ﴾؛ من طلب السعة في المال والنعمة، ولا يملّ عن إرادة النفع والسلامة، والتقدير: من دعائه الخير، فحذف الفاعل وأضيف إلى المفعول، ﴿وإن مسَّه الشرُّ﴾؛ الفقر والضيق، ﴿فَيَؤُوسٌ﴾ من الخير ﴿قنوطٌ﴾ من الرحمة، أي: لا يرجو زواله؛ لعدم علمه بربه، وانسداد الطريق على قلبه في الرجوع إلى ربه، بُولغ فيه من طريقين: من طريق بناء فَعول، ومن طريق التكرير؛ لأن اليأس هو القنط، والقنوط: أن يظهر أثر اليأس فيتضاءل وينكسر، ويظهرَ الجزع، وهذا صفة الكافر لقوله: ﴿إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾(٢). وقال الإمام الفخر: اليأس على أمر الدنيا من صفة القلب، والقنوط: إظهار آثاره على الظاهر. هـ.

﴿ولئن أذقناه رحمةً من بعد ضراءَ مَسَّتْهُ ليقولَنَّ هذا لِي﴾ أي: وإذا فرجنا عنه بصحّة بعد مرض، أو: سعه بعد ضيق، قال: ﴿هذا لي﴾ أي: هذا قد وصل إليّ لأني استوجبته بما عندي من خير، وفضل، وأعمال برّ، أو: هذا لي لا يزول على أبدا، ﴿وما أظنُّ الساعةَ قائمةً﴾ أي: ما أظنها تقوم فيما سيأتي، ﴿ولئن رُجِعْتُ إلى ربي﴾ كما يقول المسلمون، ﴿إنَّ لي عنده لَلْحُسْنَى﴾ أي: الحالة الحسنى من الكرامة والنعمة، أو: الجنة. قاس أمر الآخرة على أمر الدنيا؛ لأن ما أصابه من نعمِ الدنيا، زعم أنه لاستحقاقه إياها، وأن نعمِ الآخرة كذلك. وهذا غرور وحمق، الرجاء ما قارنه عمل، وإلا فهو أمنية، «الجاهلُ من أتبعَ نفْسه هواها، وتمنى على الله، والكيِّسُ من دانَ نفسه، وعمِلَ لما بعد الموتِ»(٣).

﴿فلننبئَنَّ الذين كفروا بما عَمِلُوا﴾ أي: فلنخبرنهم بحقيقة ما عملوا من الأعمال الموجبة للعذاب، ﴿ولَنُذِيقنَّهم من عذابٍ غليظٍ﴾؛ شديد، لا يفتر عنهم.

﴿وإذا أنعمنا على الإنسانِ أعْرَضَ﴾، هذا ضرب آخر من طغيان الإنسان؛ إذا أصابه الله بنعمته؛ أبطرته النعمة، وأعجب بنفسه، فنسي المنعِم، وأعرض عن شكره، ﴿ونأى بجانبِهِ﴾؛ وتباعد عن ذكر الله ودعائه

---

(١) من الآية ٣٦ من سورة الكهف.

(٢) من الآية ٨٧ من سورة يوسف.

(٣) هذا حديث نبوي شريف. أخرجه ابن ماجه في (الزهد، باب ذكر الموت والاستعداد له، ٢/١٤٢٣، ح ٤٢٦٠) والترمذي في (صفة القيامة، باب ٢٥، ٤/٥٥٠ ح ٢٤٥٩) والحاكم (٤/٢٥١) عن شداد بن أوس ﷺ. بلفظ: «الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله» قال الترمذي: حديث حسن.

وطاعته، أو: ذهب بنفسه وتكبر وتعاظم، والتحقيق: أن المراد بالجانب النفس، فكأنه قال: وتباعد بنفسه عن شكر ربه، ﴿وإذا مسَّهُ الشَّرُّ﴾؛ الفقر والضر، ﴿فذو دعاءٍ عريضٍ﴾ أى: تضرع كثير، أى: أقبل على دوام الدعاء والابتهال. ولا منافاة بين قوله: ﴿فيؤوس قنوط﴾ وبين قوله: ﴿فذو دعاء عريض﴾؛ لأن الأول فى قوم، والثانى فى قوم، أو: قَنوط فى البَر، وذو دعاء عريض فى البحر، أو: قَنوط بالقلب، وذو دعاء باللسان، أو: قَنوط من الصنم، وذو دعاء لله تعالى.

الإشارة: اللائق بالأدب أن يكون العبد عند الشدة داعياً بلسانه، راضياً بقلبه، إن أجابه شكر، وإن منعه انتظر وصبر، ولا ييأس ولا يقنط، فإنه ضَمِنَ الإجابة فيما يريد، لا فيما تريد، وفى الوقت الذى يريد، لا فى الوقت الذى تريد، وإن فرّج عنك نسبتَ النعمةَ إليه، دون شيء من الوسائط العادية، هذا ما يُفهم من الآية، وتقدم الكلام عليها فى سورة هود(١). والله التوفيق.

ثم وبّخ من أعرض عن النظر، فقال:

﴿ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كَانَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرۡتُم بِهِۦ مَنۡ أَضَلُّ مِمَّنۡ هُوَ فِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ﴿٥٢﴾ سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ أَوَلَمۡ يَكۡفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَآ إِنَّهُمۡ فِي مِرۡيَةٖ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمۡۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطُۢ ﴿٥٤﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿قل أرأيتم﴾؛ أخبرونى ﴿إن كان﴾ القرآن ﴿من عندِ الله ثم كفرتُم به﴾؛ جحدتم أنه من عند الله، مع تعاضد موجبات الإيمان به، ﴿مَنْ أضلُّ﴾ منكم؟ فوضع قوله: ﴿ممن هو في شقاق بعيد﴾ موضعه، شرحاً لحالهم، وتعليلاً لمزيد ضلالهم.

﴿سَنُريهمْ آياتنا﴾ الدالة على حقيِّته وكونه من عند الله، ﴿فى الآفاق﴾ من فتح البلاد، وما أخبر به النبى ﷺ من الحوادث الآتية، وآثار النوازل الماضية، وما يسّر الله تعالى له ولخلفائه من الفتوحات، والظهور على آفاق الدنيا، والاستيلاء على بلاد المشارق والمغارب، على وجه خرق العادة، ﴿و﴾ نريهم ﴿فى أنفسهم﴾؛ ما ظهر من فتح مكة وما حلّ بهم.

(١) راجع تفسير الآيات: ٩ ـ ١١ من سورة هود. (٢/ ٥١٤ ـ ٥١٥).

وقال ابن عباس: في الآفاق: منازل الأمم الخالية وآثارهم، وفى أنفسهم: يوم بدر. وقال مجاهد وغيره: فى الآفاق: ما يفتح الله من القرى على نبيه ﷺ والمسلمين، وفى أنفسهم: فتح مكة. وقيل: الآفاق: فى أقطار السموات والأرض، من الشمس، والقمر، والنجوم، وما يترتب عليها من الليل، والنهار، والأضواء، والظلال، والظلمات، ومن النبات، والأشجار، والأنهار، ﴿وفى أنفسهم﴾: من لطيف الصنعة وبديع الحكمة، من تكوين النطفة فى ظلمات الأرحام، وحدوث الأعضاء العجيبة، والتركيبات الغريبة، كقوله تعالى: ﴿وفي أنفسكم...﴾(١).

وعبّر بالسين مع أن إراءة تلك الآيات قد حصلت قبل ذلك، بمعنى أن الله - تعالى - سيُطلعهم على تلك الآيات زماناً فزماناً، ويزيدهم وقوفاً على حقائقها يوماً فيوماً، ﴿حتى يتبين لهم﴾ بذلك ﴿أنه الحقُّ﴾ أى: القرآن، أو: الإسلام، أو: التوحيد، ﴿أَوَلَمْ يكف بربك أنه على كل شيءٍ شهيدٌ﴾، توبيخ على ترددهم فى شأن القرآن، وعنادهم المحوج إلى إراءة الآيات، وعدم اكتفائهم بإخباره تعالى. والهمزة للإنكار، والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام، أى: أَلَمْ يُغن ولم يكف ربك. والباء: مزيدة للتأكيد، ولا تكاد تزاد إلا مع «كفى».

و(أنه...) الخ: بدل منه، أى: ألم يُغنهم عن إراءة الآيات المبنية لحقيّة القرآن ولم يكفهم فى ذلك أنه تعالى - شهيد على كل شىء، وقد أخبر أنه من عنده. وقيل: معناه: إن هذا الموعود من إظهار آيات الله فى الآفاق وفى أنفسهم سيرونه ويشاهدونه فيتيقنون عند ذلك أن القرآن تنزيل من عالم الغيب؛ الذى هو على كل شىء شهيد.

﴿ألا إنهم في مِرية﴾؛ شك عظيم ﴿من لقاءِ ربهم﴾ فلذلك أنكروا القرآن، ﴿ألا إنه بكل شيءٍ محيط﴾؛ عالم بجميع الأشياء وتفاصيلها، وظواهرها، وبواطنها، فلا يخفى عليه خافية منهم، وهو مجازيهم على كفرهم وشكهم، لا محالة.

الإشارة: قد اشتملت الآية على مقام الاستدلال فى مقام الإيمان، وعلى مقام العيان فى مقام الإحسان، أى: سنُريهم آياتنا الدالة على وجودنا فى الآفاق، وفى أنفسهم، أى: فى العوالم المنفصلة والمتصلة، حتى يتبين لهم أنه الحق، أى: وجوده حق، لأن الصنعة قطعاً تحتاج إلى صانع، ثم رقَّاهم إلى مقام المراقبة بقوله: ﴿أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد﴾، ثم زاد إلى المشاهدة بقوله: ﴿ألا إنهم﴾ أى: أهل الجهل بالله، ﴿فى مرية من لقاء ربهم﴾ فى الدنيا، بحصول الفناء، فيفنى وجود العبد فى وجود الحق، ألا إنه بكل شيء محيط، فبحر العظمة أحاط بكل شيء، وأفنى كل شيء، ولم يبق مع وجوده شيء.

(٢) من الآية ٢١ من سورة الذاريات. وانظر تفسير البغوى (٧/١٧٩) وابن كثير (٤/١٠٥).

وفى الحِكَم: «ما حجبك عن الله وجود موجود معه؛ إذ لا شيء معه، وإنما حجبك توهم موجود معه»،(١) وقال أيضاً: «الأكوان ثابتة بإثباته، ممحوة بأحدية ذاته» فأحدية الذات محت وجودَ الأشياء كلها، ولم يبق إلا القديم الأزلى.

وقال القطب ابن مشيش لأبى الحسن ﷺ: يا أبا الحسن، حدد بصر الإيمان تجد الله فى كل شيء، وعند كل شيء، ومع كل شيء، وقبل كل شيء، وبعد كل شيء، وفوق كل شيء، وتحت كل شيء، وقريباً من كل شيء، ومحيطاً بكل شيء، بقُربٍ هو وصفه، وبحيطة هى نعته، وعَد عن الظرفية والحدود، وعن الأماكن والجهات، وعن الصحبة والقرب فى المسافات، وعن الدور بالمخلوقات، وأمحق الكل بوصفه الأول والآخر والظاهر والباطن، وهو هو هو، كان الله ولا شيء معه، وهو الآن على ما عليه كان. هـ.

وقوله: وعد عن الجهات: جاوز عن اعتقادها؛ إذ لا ظرف، ولا حد، ولا مكان، ولا جهة، إذ الكل عظمة ذاته، وأنوار وصفاته، والحد إنما يتصور فى المحدود، ولا حد لعظمة ذاته ولا نهاية، ولا يحصرها مكان، ولا جهة؛ إذ الكل منه وإليه. وبالله التوفيق، وهوالهادى إلى سواء الطريق، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد، عين بحر التحقيق، وعلى آله وصحبه، وسلم تسليما*.

(١) (حكمة ١٣٧) انظر الحكم بترتيب المتقى الهندى (ص ٣٤).

(*) فى آخر المجلد الثالث فى المخطوطة الأم، والمحفوظة بمكتبة السيد الفريق حسن التهامى مايلى:
كَمُلَ الجزء الثالث بحول الله وقوته، ووافق الفراغ من تبييضه يوم الأربعاء، تاسع رمضان، عام تسعة عشر ومائتين وألف، والحمد لله رب العالمين. انتهى استخراجه من مبيضته بحمد الله وتوفيقه عشية الأربعاء، السادس عشر من رمضان المعظم، موافقاً لتاريخ التبييض من هاك العام، وعلى نبينا محمد أزكى الصلاة والسلام.

سورة الشورى (*)

مكية. وهى خمس وثلاثون آية، ومناسبتها لما قبلها قوله: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾(1) أى: إن القرآن حق، أى: وحى من الله، مع قوله: ﴿كذلك يُوحى إليك﴾، فهى كالتتمة لما قبلها. قال تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿حمٓ ﴿١﴾ عٓسٓقٓ ﴿٢﴾ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٣﴾ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٤﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِن فَوۡقِهِنَّۚ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿حمٓ . عٓسٓقٓ﴾ يُشير ـ والله أعلم ـ بكل حرف إلى وصف يدلّ على تعظيم قدر حبيبه ﷺ، فالحاء: أحَبْبناك، أو: حبيْناك، أى: أعطيناك الملك والملكوت، والميم: ملّكناك، والعين: علّمناك مالم تكن تعلم، أو: عيّناك للرسالة، والسين: سيّدناك، والقاف: قرّبناك. ﴿كذلك يُوحِي إليك﴾ أى: كما خصصناك بهذه الخصائص العظام أوحينا إليك ﴿وإلى الذين من قبلك﴾، فقد خصصناهم ببعض ذلك، وأوحينا إليهم، وفى ابن عطية: عن ابن عباس: أن هذه الحروف بأعيانها نزلت فى كل كتب الله، المنزلة على كل نبىّ أُنزل عليه كتاب، ولذلك قال تعالى: ﴿كذلك يُوحى إليك وإلى الذين من قبلك﴾(2). وقال القشيرى: الحاء: مفتاح اسمه حكيم وحفيظ، والميم: مفتاح اسمه مالك وماجد ومؤمن ومهيمن، والعين: مفتاح اسمه عليم وعلىّ، والسين: مفتاح اسمه سيد وسميع وسريع الحساب، والقاف: مفتاح اسمه قادر وقاهر وقريب وقدوس، أقسم الله تعالى بهذه الحروف أنه كذلك يُوحى إليك يامحمد. هـ.

(*) أول المجلد الرابع فى النسخة الأم.

(1) من الآية 53 من سورة فصلت.

(2) ذكره ابن عطية (5/25) وعزاه للثعلبى، وانظر: تفسير البغوى (7/184).

وقال ابن عطية: وإنما فصلت «حم عسق»، ولم يفعل ذلك بـ «كهيعص»؛ لتجرى هذه مجرى الحواميم أخواتها. هـ. زاد النسفي: وأيضاً: هذه آيتان، و«كهيعص» آية واحدة. هـ. فانظره .

﴿ اللهُ ﴾ أي: يوحى الله ﴿ العزيزُ الحكيمُ ﴾: فاعل «يوحِي»، وقرأ ابن كثير بالبناء للمفعول(١). و«الله»: فاعل بمحذوف، كأن قائلاً قال: من المُوحِي؟ فقال: ﴿الله العزيز الحكيم﴾ أي: الغالب بقهره، الحكيم في صنعه وتدبيره.

﴿ له ما في السموات وما في الأرض ﴾ مُلكا ومِلكاً، ﴿ وهو العليُّ ﴾ شأنه ﴿ العظيمُ ﴾ سلطانه وبرهانه.

ثم بيّن عظمته، فقال: ﴿ يكادُ(٢) السمواتُ يتفطَّرْنَ من فوقهن ﴾؛ تتشقق من عظمة الله تعالى وعلو شأنه، يدلّ عليه مجيئه بعد قوله: ﴿وهو العلى العظيم﴾. وقيل: من دعائهم له ولداً، كقوله: ﴿ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُ الأَرْضُ ﴾(٣) إلخ، ويؤيده: مجيء قوله: ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ﴾(٤). وقرأ البصرىّ وشعبة: «ينفطرن»، والأول أبلغ. ومعنى: ﴿من فوقهن﴾ أي: يبتدين بالانفطار مِن جهتهنّ الفوقانية. وتخصيصها على التفسير الأول؛ لأن أعظم الآيات وأدلها على العظمة والجلال من تلك الجهة، وأيضاً: استقرار الملائكة إنما هو من فوق، فكادت تنشق من كثرة الثِقل، كما في الحديث: «أطَّت السماء، وحُقّ لها أن تَئط، ما فيها موضع قدم إلا وفيها ملك راكع أو ساجد»(٥).

وعلى الثاني للدلالة على التفطر من تحتهن بالطريق الأولى؛ لأن تلك الكلمة الشنعاء، الواقعة في الأرض حين أثرت في جهة الفوق فلأن تؤثر في جهة التحت أولى. وقيل: «من فوقهن»: من فوق الأرض، فالكناية راجعة إلى الأرض، من قوله: ﴿له ما في السموات وما في الأرض﴾ لأنه بمعنى الأرضين.

﴿ والملائكةُ يُسبِّحون بحمدِ ربهم ﴾ خضوعاً؛ لِمَا يرون من عظمته، ﴿ ويستغفرون لمن في الأرض ﴾ أي: للمؤمنين منهم، خوفًا عليهم من سطواته، ويُوحدون اللهَ وينزهونه عما لا يليق به من الصفات، حامدين له على ما أولاهم من ألطافه، متعجبين لما رأوا من تعرض الكفرة لسخط الله تعالى. ويستغفرون لمؤمني أهل الأرض،

---

(١) قرأ ابن كثير ـ وحده: «يُوحَى» بفتح الحاء. والنائب إما «إليك»، وإما ضمير يعود إلى «ذلك»، أي: مثل ذلك الإيحاء يوحى إليك. انظر الإتحاف (٢/٤٤٨).

(٢) أثبت المفسر ـ رحمه الله ـ قراءة «يكاد» بالياء، وهي قراءة نافع والكسائي، وقرأ الباقون «تكاد» بتاء التأنيث. انظر: الإتحاف ٢/٤٤٨.

(٣) من الآية ٩٠ من سورة مريم. (٤) من الآية ٦ من السورة نفسها.

(٥) أخرجه بنحوه أحمد في المسند (٥/١٧٣) والترمذي في (الزهد، باب في قول النبي ﷺ: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً، ٤/٤٨١، ح٢٣١٢) وابن ماجة في (الزهد، باب الحزن والبكاء ٢/١٤٠٢ ح٤١٩٠)، وصححه الحاكم (٢/٥١٠) وأقره الذهبي، من حديث أبي ذر، رضي الله عنه. وقوله (أطت): الأطيط: صوت الأقتاب، وأطيط الإبل: أصواتها وحنينها، أي: إن كثرة ما فيها من الملائكة قد أثقلها حتى أطت، وهذا مثل وإيذان بكثرة الملائكة، وإن لم يكن ثم أطيط، وإنما هو كلام تقريب، أريد به تقرير عظمة الله تعالى. انظر النهاية (أطط، ١/٥٤).

الذين تبرءوا من تلك الكلمات، ﴿ألا إنَّ اللهَ هو الغفورُ الرحيمُ﴾ حيث لا يعاجلهم بالعقوبة على ما وصفوه به مما لا يجوز عليه.

الإشارة: حمٓ عسق، الحاء تُشير إلى حمده لأوليائه، وتنويهه بقدرهم، والميم إلى تمليكهم التصرف في حس المُلك، وأسرار الملكوت، والعين إلى علو رتبتهم، أو إلى علومهم اللدنية، والسين إلى سيادتهم وسنَا نورهم وسرهم، والقاف إلى قُربهم وتقريبهم حتى يمتحق وجودهم في وجود محبوبهم، فيمتحى القرب من شدة القرب، وبذلك صاروا مقربين. والوحي ينقسم إلى أربعة أقسام؛ وحي أحكام، ووحي منام، ووحي إلهام، ووحي إعلام، فاختصت الأنبياء بالأول، وشاركتهم الأولياء في الثلاثة. ووحي إعلام هو إطْلاعهم على بعض المغيبات.

وقوله تعالى: ﴿يكاد[1] السموات يَتَفطَّرن﴾ أي: يتشققن من هيبته تعالى وكبريائه. وذلك لما لطُف حسها أدركت هيبة معاني أسرار الذات، وكذلك الأرواح؛ إذا لطفت ورقّ حس بشريتها أدركت عظمة الحق وجلاله وجماله، وإذا كثفت بشريتها، بمباشرة الحس واتباع الهوى، غلظ حجابها، فبعدت عن حضرة الحق في حال قربها. وقوله تعالى: ﴿ويستغفرون لمن في الأرض﴾، انظر جلالة قدر هذا الآدمي، حتى سخّر الله له الملائكة الكرام يستغفرون له، ويسعون في مصالحه، فاستحِ من الله أيها العبد، إن كان لك عقل وتمييز.

ثم ردّ على أهل الشرك، فقال:

﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم
بِوَكِيلٍ ﴿٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ
ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴿٧﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً
وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن
دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾ ﴾

قلت: ﴿وكذلك﴾: الكاف في محل النصب على المصدر، و﴿قرآناً﴾: مفعول «أوحيناه».

(١) راجع الهامش رقم ٢ في الصفحة السابقة.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ والذين اتخذوا من دونه أولياءَ ﴾؛ شركاء، يُوالونهم بالعبادة والمحبة ﴿ اللهُ حفيظ عليهم ﴾: رقيب على أحوالهم وأعمالهم، فيجازيهم بها، ﴿ وما أنت عليهم بوكيل ﴾؛ بموكّل عليهم، تجبرهم على الإيمان، ثم نسخ بالجهاد. أو: ما أنت بموكول إليك أمرهم، وإنما وظيفتك الإنذار بما أوحينا إليك.

﴿ وكذلك أوحينا إليك قرآناً عربياً ﴾ أي: ومثل ذلك الإيحاء البديع الواضح أوحينا إليك قرآناً عربياً، لا لبس فيه عليك ولا على قومك، ﴿ لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ ﴾ أي: أهلها، وهي مكة؛ لأن الأرض دحيت من تحتها، أو: لأنها أشرف البقع، ﴿ و ﴾ تُنذر ﴿ مَنْ حولها ﴾ من العرب أو من سائر البلاد. قال القشيرى: وجميعُ العالَم مُحْدِقٌ بالكعبة؛ لأنها سُرَّةُ الأرضِ. هـ.

﴿ وتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ ﴾؛ يوم القيامة؛ لأنه تجمع فيه الخلائق، وفيه تجمع الأرواح والأشباح. وحذف المفعول الثانى من «تُنذر» الأول للتهويل، أي: لتنذر الناس أمراً فظيعاً تضيق عنه العبارة، ﴿ لا ريبَ فيه ﴾؛ لا شك فى وقوع ذلك اليوم، ﴿ فريقٌ في الجنة وفريقٌ في السعير ﴾ أى: بعد جمعهم فى الموقف يفترقون، فريق يُصرف إلى الجنة، وفريق إلى السعير بعد الحساب، والتقدير: فريق منهم فى الجنة. والجملة: حال، أى: وتنذر يوم الجمع متفرقين.

﴿ ولو شاء اللهُ لجعلهم ﴾ فى الدنيا ﴿ أمةً واحدةً ﴾ إما مهتدين كلهم، أو ضالين، ﴿ ولكن يُدْخِلُ من يشاء في رحمته ﴾ أي: ويُدخل من يشاء فى عذابه، يدلّ عليه ما بعده، ومن ضرورة اختلاف الرحمة والعذاب: اختلاف الداخلين فيهما، فلم يشأ جعل الكل أمة واحـدة، بل جعلهم فريقين، فيسِّر كلاً لمن خُلق له. ﴿ والظالمون ما لهم من وَليٍّ ولا نصير ﴾؛ والكافرون ما لهم من شافع ولا دافع.

قال أبو السعود: والذى يقتضيه سياق النظم أن يُراد بقوله: «أمة واحدة» الاتحاد فى الكفر، كما فى قوله تعالى: ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً... ﴾ الآية(١)، على أحد الوجهين، بأن يُراد بهم الذين هم فى فترة إدريس، أو فترة نوح. ولو شاء لجعلهم أمة واحـدة متفقة على الكفر، بأن لا يُرسل إليهم رسولاً لِيُنذرهم ما ذكر من يوم الجمع، وما فيه من ألوان الأهوال، فيبقوا على ما هم عليه من الكفر، ولكن يُدخل من يشاء فى رحمته إن شاء ذلك، فيُرسل إلى الكل من ينذرهم، فيتأثر بعضهم بالإنذار؛ فيعرفون الحق؛ فيوفقهم الله تعالى للإيمان والطاعة،

(١) الآية ٢١٣ من سورة البقرة.

ويُدخلهم في رحمته، ولا يتأثر به الآخرون، ويتمادون في غيهم، وهم الظالمون، فيبقون في الدنيا على ما هم عليه، ويصيرون في الآخرة إلى السعير، من غير وليّ يلي أمرهم، ولا نصيرٍ يُخلصهم من العذاب. هـ.

﴿أم اتخذوا من دونه أولياءَ﴾، هذه جملة مقررة لِما قبلها، من انتفاء أن يكون للظالمين وَلِيّ ولا نصير. و«أم»: منقطعة، وما فيها من الإضراب للانتقال من بيان ما قبلها إلى بيان ما بعدها. والهمزة لإنكار الوقوع ونفيه على أبلغ وجه، أي: ليس المتخَذون أولياء، ولا ينبغي اتخاذ وليّ سواه. وقوله: ﴿فالله هو الوليُّ﴾: جواب عن شرط مقدر، كأنه قيل بعد إبطال ما اتخذوه أولياء من الأصنام: إن أرادوا ولياً في الحقيقة فالله هو الوليّ، لا وليّ سواه. ﴿وهو يُحيي الموتى﴾ أي: ومن شأنه إحياء الأموات، ﴿وهو على كل شيءٍ قديرٌ﴾ فهو الحقيق بأن يُتخذ ولياً، فليخصُّوه بالاتخاذ، دون مَن لا يقدر على شيء. وبالله التوفيق.

الإشارة: قال القشيري: كلُّ من تبع هواه، وترك لله حداً، أو نقض له عهداً؛ فهو ممن اتخذ الشيطانَ ولياً، فالله يَعلمه، لا يخفى عليه أمره، وعلى الله حسابه، ثم إن شاء عذّبه، وإن شاء غفرَ له. هـ. فيقال للواعظ أو الداعي إلى الله: لا تأسَ عليهم إن أدبروا، الله حفيظ عليهم، وما أنت عليهم بوكيل. وكان الرسول ﷺ داعيًا إلى الله، يُنذر الناس بالقرآن، فمن تبعه كان من أهل الجنة، ومن خالفه كان من أهل السعير، وبقي خلفاؤه من بعده، العلماء بالله، الذين يُذكّرون الناس، ويدلونهم على الله، فمن صَحِبَهم وتبعهم كان من أهل الجنة؛ جنة المعارف، أو الزخارف، أو هما، ومن انحرف عنهم كان من أهل االسعير، نار القطيعة أو الهاوية.

قال القشيري: كما أنهم اليومَ فريقان؛ فريق في [درجات][1] الطاعات وحلاوة العبادات [أو المشاهدات][2]، وفريق في ظلمات الشِّركِ وعقوبات الجحد، فكذلك غداً، فريقٌ هم أهل اللقاء، وفريق هم أهل الشقاء. ﴿ولو شاء الله﴾ أي: أراد أن يجمعهم كلهم على الرشاد لم يكن مانع. هـ.

وقوله تعالى: ﴿فالله هو الوليُّ﴾ تحريش إلى التوجه إلى الله، ورفض كل ما سواه، كما قال بعضهم: اتخذ الله صاحباً، ودع الناس جانباً، فكل من والى غيرَ الله تعالى خذله، ومن حبه أبعده.

(١) في القشيري [راحة].
(٢) ما بين المعقوفتين من تَدَخّل المفسر في النقل عن القشيري.

ثم أمر بالرجوع إليه عند الاختلاف، فقال:

﴿ وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾ فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ أَزۡوَٰجٗا يَذۡرَؤُكُمۡ فِيهِۚ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴿١١﴾ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿١٢﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿وما اختلفتمْ فيه من شيء فحُكمه إلى الله﴾، حكاية لقول رسول الله ﷺ للمؤمنين، بدليل قوله: ﴿ذلكم اللهُ ربي﴾ أي: ما خالفكم الكفار فيه من أهل الكتاب والمشركين، من أمور الدين، واختلفتم أنتم وهم، فحُكم ذلك المختلف [فيه][(1)] راجع إلى الله، ومفوض إليه، وهو إثابةُ المحقِّين فيه، ومعاقبة المبطلين. والمختار العموم، أي: وما اختلفتم فيه أيها الناس من أمور الدين، سواء رجع ذلك الاختلاف إلى الأصول أو الفروع، فحُكم ذلك إلى الله، وقد قال في آية أخرى: ﴿فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول﴾[(2)].

فكل ما اختلف فيه يُردَ إلى كتاب الله، ثم إلى سنة رسول الله، ثم إلى الإجماع، ثم القياس، فهذه هى قواعد الشريعة، وعليها بُنيت الأحكام، فمن خرج عنها فهو مبطل، ففي كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ من علم الأصول والفروع ما فيه غُنية، فإن لم يوجد نص فالإجماع أو القياس.

وقيل: وما اختلفتم فيه من العلوم، التى لا تتصل بتكليفكم، ولا طريق لكم إلى علمه، فقولوا: الله أعلم.

ثم قال: ﴿ذلكم اللهُ ربي﴾ أي: ذلكم العظيم الشأن؛ الله مالكى ومدبر أمرى، ﴿عليه توكلتُ﴾في جميع أمورى، لا على غيره، ﴿وإليه أُنيبُ﴾؛ أرجع فى كل ما يعرض لى، لا إلى أحد سواه. وحيث كان التوكل أمراً واحداً مستمراً، والإنابة متعددة، متجددة بحسب تجدد مؤداها، أُوثر فى الأول صيغة الماضى، والثانى صيغة المضارع.

(١) زيادة ليست فى الأصول. (٢) من الآية ٥٩ من سورة النساء.

﴿ فاطِرُ السموات والأرضِ ﴾؛ خالقهما ومظهرهما، وهو خبر ثان لذلكم، أو عن مضمر، ﴿ جعل لكم من أنفسكم ﴾؛ من جنسكم ﴿ أزواجًا ﴾؛ نساء ﴿ ومن الأنعام أزواجًا ﴾ أي: وجعل للأنعام من جنسها أزواجا، أو: خلق لكم من الأنعام أصنافاً؛ ذكوراً وإناثاً، ﴿ يذرؤكم فيه ﴾ أى: يكثّركم فيما ذكر من التدبير البديع، من: الذرء، وهو البث، فجعل الناس والأنعام أزواجًا، حتى كان بين ذكورهم وإناثهم التوالد والتناسل، واختير لفظ «فيه» على «به»؛ لأنه جعَل هذا التدبير كالمنبع والمعدن للبث والتكثير. والضمير في «يذرؤكم» يرجع إلى المخاطَبين والأنعام، مغلباً فيه المخاطبون العقلاء على غيرهم.

وقال الهروى: ﴿يذرؤكم فيه﴾ أي: يكثّركم بالتزويج، كأنه قال: يذرؤكم به. هـ. وقال ابن عطية: لفظة «ذرأ» تزيد على لفظة «خلق» معنى آخر، ليس في خلق، وهو توالى طبقاته على مرّ الزمان، وقوله: «فيه» الضمير عائد على الجعل. وقال القتبى: الضمير للتزويج. هـ.

﴿ ليس كمثله شيءٌ ﴾ أي: ليس مثله شيء[في شأن](١) من الشئون، التي من جملتها هذا التدبير البديع. قيل: إن كلمة التشبيه كررت لتأكيد نفي التماثل؛ لأن زيادة الحرف بمنزلة إعادة الجملة. قال ابن عطية: الكاف مؤكدة للتشبيه، فنفي التشبيه أوكد ما يكون، وذلك أنك تقول: زيد كعمرو، وزيد مثل عمرو، فإذا أردت المبالغة التامة قلت: زيد كمثل عمرو، وجرت الآية في هذا الموضع على عرف كلام العرب، وعل هذا المعنى شواهد كثيرة. هـ.

قال النسفي: وقيل: المثل زائد، والتقدير: ليس كهو شيء، كقوله تعالى: ﴿ فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ ﴾(٢)، وهذا لأن المراد نفي المثليّة، وإذا لم نجعل الكاف أو المثل زيادة كان إثبات المثل. هـ. والجواب ما تقدم لابن عطية.

وقيل: الآية جرت على طريق الكناية، كقولهم: مثلك لا يبخل، وغيرك لا يجود، أي: أنت لا تبخل؛ لأنه إذا نفي البخل عمن هو مثله كان نفيه عنه أولى.

ثم قال تعالى: ﴿ وهو السميعُ البصيرُ ﴾؛ سميع لجميع المسموعات بلا آذان، بصير بجميع المبصرات بلا أجفان. وذكرهما لئلا يتوهم أنه لا صفة له، كما لا مثل له، وقدّم تنزيهه عن المماثلة على وصفه بالسمع والبصر ليعلمنا أن سمعه وبصره ليس كسمعنا وبصرنا.

---

(١) ما بين المعقوفتين ليس في الأصول الخطية، وأثبته من تفسير أبي السعود ـ رحمه الله.
(٢) الآية ١٣٧ من سورة البقرة.

﴿له مقاليدُ السموات والأرضِ﴾ مفاتيح خزائنها، ﴿يبسطُ الرزقَ لمن يشاءُ﴾ أى: يوسعه ﴿ويَقْدِرُ﴾ أى: يُضيق على ما تقتضيه المناسبة المبنية على الحِكَم البالغة. ﴿إنه بكل شيءٍ عليمٌ﴾ لا يخفى عليه شيء، فيفعل كل ما يفعل على ما ينبغي أن يفعل، على ما تقتضيه مشيئته وحكمته البالغة.

قال ابن عرفة: تضمنت هذه الآية وصفه تعالى بجميع صفات الكمال. فالقدرة فى قوله: ﴿فاطر السموات والأرض﴾ والوحدانية فى قوله: ﴿ليس كمثله شيء﴾ والإرادة فى قوله: ﴿يبسط الرزق لمن يشاء﴾؛ لأن تخصيص البعض بالبسط إنما هو بالإرادة. والعلم فى قوله: ﴿إنه بكل شيء عليم﴾، والكلام فى قوله: ﴿شرع لكم من الدين﴾؛ لأن المراد به الحكم الشرعى، وهو خطاب الله تعالى المعلق بأفعال المكلفين، وخطابه كلامه. هـ. زاد فى الحاشية الفاسية: يعنى وكل وصف من هذه الأوصاف يستلزم الحياة، مع أنه قال: ﴿يُحيى الموتى﴾ والإحياء إنما يكون من الحى. هـ.

الإشارة: قوله تعالى: ﴿وما اختلفتم فيه من شيء﴾ قال القشيرى: ويُقال إذا لم تهتدوا إلى شيء وتعرضت منهم الخواطر؛ فَدَعُوا تدبيركم والتجئوا إلى ظلّ شهود تقديره، [وانتظروا][1] ما الذى ينبغى لكم أن تفعلوا بحُكم تيسيره. ويقال: إذا اشتغلت قلوبكم بحديث أنفسكم، فلا تدرون أبالسعادة جرَى حُكْمُكم، أو بالشقاوة جرى اسمُكم، فَكِلوا الأمرَ فيه إلى الله، واشتغلوا فى الوقت بأمر الله، دون التفكّر فيما ليس له سبيل إلى عِلْمِه من عواقبكم. هـ.

وقوله: ﴿فاطرُ السموات والأرض﴾ أى: شققهما من أسرار الغيب، ومتجلٌ بهما وسائر الكائنات. جعل لكم فى عالم الحكمة من أنفسكم أزواجاً ليقع التناسل، بعضكم من بعض، ومن الأنعام أزواجاً ليقع التناسل فيها؛ وأما بحر الجبروت فليس كمثله شيء. وقال بعض العارفين: ليت شعرى هل معه شيء حتى يشبهه أو لا يشبهه، كان الله ولا شيء معه، وهو الآن على ما عليه كان. فقوله تعالى: ﴿ليس كمثله شيء﴾ أى: ليس معه شيء حتى يشبهه.

وقال الورتجبى عن الواسطى: [أمور][2] التوحيد كلها خرجت من هذه الآية؛ لأنه ما عبر عن الحقيقة بشيء إلا والعلة مصحوبة، والعبارة منقوضة؛ لأن الحق لا يُنعت على أقداره؛ لأن كل ناعت مُشرف على المنعوت، وجلّ أن يشرف عليه مخلوق. وقال الشبلى: كل ما ميزتموه بأوهامكم، وأدركتموه بعقولكم فى أتم معانيكم، فهو مصروف إليكم، ومردود عليكم، محدث مصنوع مثلكم؛ لأن حقيقته عالية عن أن تلحقها عبارة، أو يدركها وهم،

(١) مابين المعقوفتين أثبته من القشيرى. (٢) فى عرائس البيان: (رموز).

أو يحيط بها علم، كلا، كيف يحيط به علم، وقد اتفق فيه الأضداد، بقوله: ﴿هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾(١)؟، أىّ عبارة تخبر عن حقيقة هذه الألفاظ؟، كلا، قصرت عنه العبارة، وخرست الألسن لقوله: ﴿ليس كمثله شيء﴾. هـ.

ولما عرَّف بذاته وصفاته، ذكر شرائعه لعباده، فقال:

﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿شَرَعَ﴾ أى: بيّن وأظهر ﴿لكم من الدين ما وَصَّى به نوحاً﴾ ومَن بعده من أرباب الشرائع، وأولى العزم من مشاهير الأنبياء ـ عليهم السلام ـ وأَمَرَهم به أمراً مؤكداً. وفى بيان نسبته إلى المذكورين تنبيه على كونه ديناً قديماً، أجمع عليه الرسل، على أن تخصيصهم بالذكر لِمَا ذكر من علو شأنهم، ولاستمالة قلوب الكفرة إليه؛ لاتفاق الكل على نبوة جُلهم. قيل: خص نوحاً وإبراهيم بالوصية، ونبينا محمداً ﷺ بالوحى؛ لأن متعلق الوصية غير الموصى، بل الموصى [إليه](٢) به، ومتعلق الوحى: الموحى إليه بذاته، ولمّا كان ـ ﷺ ـ آخر الأنبياء جعل المُلقى إليه وحياً، ولمّا كان ما قبله من الأنبياء متبعين له، ومنذِرين بشريعته، أنه سيظهر آخر الزمان نبى اسمه «محمد»، كان ذلك وصية منهم لقومهم على الإيمان به. انظر ابن عرفة.

---

(١) من الآية ٣ من سورة الحديد.

(٢) مابين المعقوفتين غير موجود فى النسخة الأم.

قلت: والظاهر أنه تفنن[١] ، وفرار من تكرار لفظ الوحى؛ إذ الموحى به هو قوله: ﴿ أنْ أقيموا الدِّين ﴾ وهو الذى أوحي إلى نبينا ـ عليه الصلاة والسلام. وقال أبو السعود: والتعبير عن ذلك عند نسبته ﷺ بـ«الذى» لتفخيم شأنه من تلك الحيثية، وإيثار الإيحاء على ما قبله وما بعده من التوصية لمراعاة ما وقع [فى][٢] الآيات المذكورة ـ يعنى فى صدر السورة، من قوله: ﴿كذلك يُوحي إليك...﴾ وفى آخرها من قوله: ﴿وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا﴾، ولِما فى الإيحاء من التصريح برسالته ـ ﷺ ـ القامع لإنكار الكفرة. والالتفات إلى نون العظمة إظهاراً لكمال الاعتناء بإيحائه، وهو السر فى تقديمه [على ما قبله][٣] مع تقدمه عليه زماناً. وتقديم وصية نوح ـ عليه السلام ـ للمسارعة إلى بيان كون المشروع لهم ديناً قديماً ـ أى: فلا ينبغى إنكاره ـ وتوجيه الخطاب إليه ـ عليه الصلاة والسلام ـ بطريق التلوين؛ للتشريف، والتنبيه على أنه تعالى شرع لهم على لسانه عليه الصلاة والسلام .هـ.

ثم فسَّر ما وصاهم به فقال: ﴿ أنْ أقيموا الدينَ ﴾ أى: دين الإسلام، الذى هو توحيد الله تعالى، وطاعته، والإيمان بكتبه ورسله، وبيوم الجزاء، وسائر أركان الإيمان. والمراد بإقامته: تعديل أركانه، وحفظه من أن يقع فيه زيغ، والمواظبة عليه، والتشمير فى القيام به. وموضع «أن أقيموا» إما: نصب، بدل من مفعول «شرع»، أو: رفع، خبر جواب عن سؤال مقدر، كأن قائلاً قال: وما ذاك؟ فقال: هو إقامة الدين. ﴿ ولا تتفرقوا فيه ﴾؛ ولا تختلفوا فى الدين، فالجماعة رحمة، والفرقة عذاب، والمراد: الاختلاف فى الأصول، دون الفروع المختلفة حسب اختلاف الأمم باختلاف الأعصار، كما ينطق به قوله تعالى: ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً ﴾[٤].

﴿ كَبُرَ على المشركين ﴾ أى: عظم وشقّ عليهم ﴿ ما تدعوهم إليه ﴾ من التوحيد، ورفض عبادة الأصنام، الذى هو إقامة الدين، ﴿ الله يُجتبي ﴾ أى: يجلب ويجمع ﴿ إليه من يشاء ﴾ بالتوفيق والتسديد، ﴿ ويهدي إليه من يُنيبُ ﴾؛ يقبل على طاعته. فالاجتباء يرجع إلى تصديق القلب، والإنابة إلى توفيق الطاعة فى الظاهر.

---

(١) كتب على هامش النسخة الأم مايلى: لا يا أستاذ ماهو بتفنن، بل هو مقصود لحكمة، ولو كان للتفنن لما كرر الوصية مرتين، وخص لفظ الوحى بسيد البشر ﷺ، ولا بدل «وصينا» الثانية بلفظ الأمر، كأمرنا وأوجبنا وفرضنا ونحو ذلك. فالحق أنه عبّر فى حق الأنبياء بالوصية دون الوحى؛ للإشارة إلى أنهم مجرد نواب عنه ﷺ. هـ.

(٢) فى الأصول [من].

(٣) فى تفسير أبى السعود [على مابعده].

(٤) فى الآية ٤٨ من سورة المائدة.

﴿ وما تفرقوا ﴾ أى: أهل الكتاب من بعد أنبيائهم ﴿ إلا مِن بعد ما جاءهم العلمُ ﴾ ؛ إلا بعد أن علموا أن الفُرقة ضلال، وأمر متوعَد عليه على ألسنة الرسل، ﴿ بغياً بينهم ﴾ حسداً، وطلباً للرئاسة، والاستطالة بغير حق، أو: ما تفرقوا فى الدين الذى دُعوا إليه، وهو الإسلام، ولم يؤمنوا كما آمن بعضهم إلا مِن بعد ما جاءهم العلم بحقيقته؛ لما يشهدونه فى رسول الله ﷺ والقرآن من دلائل الحقيَة، حسبما وجدوه فى كتبهم، أو: العلم بمبعثه ﷺ.

﴿ ولولا كلمةٌ سبقتْ من ربك ﴾ ، وهى العِدَة بتأخير العقوبة ﴿ إلى أجلٍ مسمىً ﴾ هو يوم القيامة ﴿ لقُضِىَ بينهم ﴾ أى: لوقع القضاء بينهم، وأهلكوا حين افترقوا لعظم ما اقترفوا. ﴿ وإن الذين أُورثوا الكتابَ مِن بعدهم ﴾ وهم المشركون ﴿ لفي شك منه ﴾ أى: القرآن ﴿ مُريبٍ ﴾ ؛ مُوقع فى الريبة. وهو بيان لكيفية كفر المشركين، بعد بيان كيفية كفر أهل الكتاب، أى: وإن المشركين الذين أُوتوا القرآن من بعدهم، أى: من بعدما أورث أهل الكتاب كتابهم، لفى شك من القرآن مريب. والظاهر: أن التفرق المذكور هنا إنما هو فى شأن الرسول ﷺ؛ لأن سياق النظم إنما هو لبيان أحوال هذه الأمة، وإنما ذكر من ذكر من الأنبياء ـ عليهم السلام ـ لتحقيق أن ما شرع لهؤلاء دين قديم، أجمع عليه أولئك الأعلام ـ عليهم الصلاة والسلام ـ تأكيداً لوجوب إقامته، وتشديداً للزجر عن التفرق والاختلاف. فالتعرض لبيان تفرق أممهم عنه ربما يُوهم الإخلال بذلك المرام. قاله أبو السعود.

الإشارة: الذى شرع الله من الدين لأقوياء عباده، ووصَّى به خواص أنبيائه: أن يشاهدوه وحده فى الباطن، ويقوموا برسم العبودية فى الظاهر، وهذا هو إقامة الدين، الذى يجب الاتفاق عليه، لكن لا ينال هذا إلا بعد موت النفوس، وحط الرؤوس، وبذل الفلوس. ولذلك كَبُرَ على أهل الفَرْق، قال تعالى: ﴿كبر على المشركين ما تدعوهم إليه﴾، فإذا وفق العبد لفعل ما تقدم، وسلك طريقه؛ اجتباه ربه لحضرته، بعد أن هداه لسلوك طريقته. قال تعالى: ﴿الله يجتبى إليه من يشاء، ويهدى إليه من ينيب﴾ فالاجتباء جذب، والإنابة سلوك، الاجتباء للحقيقة، والإنابة للشريعة والطريقة. وقدّم الاجتباء على الاهتداء اهتماماً بأمره؛ لأن الجذب عناية يختص به أهل الولاية، والإنابة هداية ينالها كل من تمسك بالشريعة. وحقيقة الجذب: شهود الخلق بلا خلق، وحقيقة السلوك المحض: شهود الخلق بلا حق، وحقيقة الجذب فى السلوك: شهود الحق فى قوالب الخلق، أو: شهود الخلق فى مظهر الحق.

فالناس ثلاثة: مجذوبون فقط، سالكون فقط، مجذبون سالكون، فالأولان لا يصلحان للتربية، والثالث هو الذى يصلح للتربية، وهو الذى يتقدمه السلوك، ثم يختطف إلى الحضرة فى مقام الفناء، ثم يرجع إلى السلوك فى مقام البقاء. وما وقع من التفرق والاختلاف فى جانب النبوة، يقع فى جانب الولاية، سنّه ماضية، فيجب على الداعى إلى الله أن يجهد نفسه فى الدعاء إليه، ولا يبالى باختلافهم، كما قال تعالى:

﴿ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿فلذلك فادْعُ﴾ أي: فلأجل ذلك التفرّق، ولما حدث بسببه من تشعّب الكفر شعبًا، فادع إلى الاتفاق والائتلاف على الملة الحنيفيّة القيمة، ﴿واستقِمْ﴾ عليها، وعلى الدعوة إليها ﴿كما أُمرتَ﴾؛ كما أمرك الله. أو: لأجل ما شرع لكم من الدين القويم القديم، الحقيق بأن يتنافس فيه المتنافسون، فادع الناس كافة إلى إقامته، والعمل بموجبه؛ فإن كلاً من تفرقهم وشكهم، سبب للدعوة إليه والأمر بها، أو: فإلى ذلك الدين المشروع فادع، واستقم عليه، وعلى الدعوة إليه، كما أمرت وأوحى إليك.

﴿ولا تتبع أهواءَهم﴾ الباطلة، وعقائدهم الزائغة، ﴿وقل آمنتُ بما أنزلَ اللهُ من كتاب﴾ أيّ كتاب كان من الكتب المنزلة، لا كالذين آمنوا ببعض وكفروا ببعض، وهم أهل الكتاب، ﴿أولئك هم الكافرون حقًا﴾(١)، وفيه تحقيق للحق، وبيان لاتفاق الكتب في الأصول، وتأليف لقلوب أهل الكتابين، وتعريض بهم. ﴿وأُمرتُ لأعْدلَ بينكم﴾ في الحكم إذا تخاصمتم فتحاكمتم إليّ، أو: في تبليغ الشرائع والأحكام، لا أخص بعضًا دون بعض، أو: لأُسوي بيني وبينكم، ولا آمركم بما لا أعملُ به، ولا أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه. أو: لا أفرق بين أكابركم وأصاغركم. واللام: إما على حقيقتها، أي: أمرت بذلك لأعدل، أو: زائدة، أي: أمرت أن أعدل بينكم.

﴿الله ربُّنا وربُّكم﴾ خالقنا جميعًا، ومتولي أمورنا، كلنا عبيده، ﴿لنا أعمالنا﴾ لا يتخطانا ثوابها أو عقابها، ﴿ولكم أعمالكم﴾ لا يجاوزكم وبالها إلى غيركم، أو: لنا ديننا التوحيد، ولكم دينكم الشرك. ﴿لا حُجةَ بيننا وبينكم﴾ أي: لا خصومة؛ لأن الحق قد وضح، ولم يبق للمحاجّاة حاجة، ولا للفصاحة محل، سوى المكابرة.

---

(١) من الآية ١٥١ من سورة النساء.

﴿ اللهُ يجمع بيننا ﴾ يوم القيامة ﴿ وإليه المصيرُ ﴾؛ المرجع، فيظهر هناك حالنا وحالكم. وهذه محاجة، لا متاركة، فلا نسخ فيها.

﴿ والذين يُحاجُّون في الله ﴾؛ يُخاصمون في دينه ﴿ من بعد ما استُجيب له ﴾؛ من بعد ما استجاب له الناس، ودخلوا فيه، ليردّوهم إلى دين الجاهلية، كقوله: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا... ﴾[1]، والتعبير عن ذلك بالاستجابة؛ باعتبار دعوتهم إليه، أو: من بعد ما استجاب الله لرسوله ﷺ وأيده بنصره، كيوم بدر، أو: من بعد ما استجاب له أهل الكتاب، بأن أقروا بنعوته ﷺ، واستفتحوا به قبل مبعثه. وذلك أن اليهود والنصارى كانوا يقولون للمؤمنين: كتابنا قبل كتابكم، ونبينا قبل نبيكم، فنحن خيرٌ منكم، فنزلت: ﴿والذين يُحاجون...﴾ الآية.[2] ﴿ حُجتُهم داحضةٌ ﴾؛ باطلة، ﴿ عند ربهم ﴾، وإذا كانت داحضة من حيث كونه رباً رءوفاً فأحرى من حيث كونه قاهراً منتقماً. وسمّاها حُجة، وإن كانت شُبهة؛ لزعمهم أنها حُجة. ﴿ وعليهم غضبٌ ﴾ عظيم، لمكابرتهم الحق بعد ظهوره ﴿ ولهم عذابٌ شديدٌ ﴾ لا يُقادر قدره.

الإشارة: إذا استولت الغفلة على الناس، وتفرقت القلوب، يجب على أهل البصيرة النافذة أن يتحركوا لوعظ الناس وتذكيرهم، ولا يلتفتون إلى أهوائهم، وما هو مشغوفون به من حظوظهم. قال تعالى: ﴿فلذلك فادع، واستقم كما أُمرت، ولا تتبع أهواءهم﴾ فتدعون الناس إلى التوحيد، وإقامة الشرائع، بامتثال الأوامر، واجتناب المناكر، ثم يدسونهم إلى حضرة الحق، إن رأوا منهم مَن هو أهله، فمن فعل هذا كان قدره عند الله عظيماً، وجاهه كبيراً. وفي الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «والذي نفس محمد بيده؛ إن شئتم لأُقسمنَّ لكم: إنّ أحب عبادِ الله إلى الله الذين يُحببون الله إلى عباده، ويُحببون عباد الله إلى الله، ويمشون في الأرض بالنصيحة».

ومن وظيفته أن يقول: آمنتُ بما أنزل الله من كتاب، وما بعث من نبي ووليّ، وأُمرتُ لأَعدل بينكم في الوعظ، والنصيحة، وإمداد المدد، لكن يأخذ كل واحد على قدر صدقه وتعظيمه، ثم يقول: (الله ربنا وربكم)، يخص برحمته من يشاء، لنا أعمالنا: ما يليق بنا من عبادة القلوب، ولكم أعمالكم: ما تطيقونه من عبادة الجوارح، لا خصومة بيننا وبينكم؛ لأن قلوبنا سالمة لكم. الله يجمعُ بيننا وبينكم في الدنيا بجمع متصل، وإليه مصير الكل بالموت والفناء. والذين يُحاجون في الله، أي: يخاصمون في طريق الله، ويقولون: انقطعت التربية، حُجتهم داحضة، وعليهم غضب البُعد، ولهم عذاب الكدّ والتعب.

---

(١) الآية ١٠٩ من سورة البقرة. (٢) انظر: تفسير البغوي (١٨٨/٧).

ثم حضّ على التمسك بكتابه؛ لأنه جامع لما أنزل الله من كتاب، فقال

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾ ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿١٩﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ **اللهُ الذي أنزل الكتابَ** ﴾؛ القرآن، أو: جنس الكتاب، ﴿ **بالحق** ﴾؛ ملتبسًا بالحق في أحكامه وأخباره، أو: بما يحق إنزاله من العقائد والأحكام، ﴿ **والميزانَ** ﴾؛ وأنزل العدل والتسوية بين الناس، أي: أنزله في كتبه المنزلة، وأمر به، أو: الشرع الذي يُوزن به الحقوق، ويساوي بين الناس. وقيل: هو عين الميزان، أي: الآلة، أنزله في زمن نوح عليه السلام. ﴿ **وما يُدريكَ** ﴾ أيُّ شيء يجعلك عالماً ﴿ **لعلَّ الساعةَ** ﴾ التي أخبر بها الكتاب الناطق بالحق ﴿ **قريبٌ** ﴾ مجيئها. وضمّن الساعة معنى البعث فذكر الخبر، وقيل: وجه المناسبة في ذكر الساعة مع إنزال الكتاب: أن الساعة يقع فيها الحساب ووضع الموازين بالقسط، فكأنه قيل: أمركم الله بالعدل والتسوية، والعمل بالشرائع، فاعملوا بالكتاب والعدل قبل أن يفاجئكم يوم حسابكم، ووزن أعمالكم.

﴿ **يستعجلُ بها الذين لا يؤمنون بها** ﴾ استعجال إنكار واستهزاء، ﴿ **والذين آمنوا مُشْفِقُون** ﴾؛ خائفون ﴿ **منها** ﴾ وجلون؛ لهولها، ﴿ **ويعلمون أنها الحقُّ** ﴾ الكائن لا محالة، ﴿ **ألا إنَّ الذين يُمارون في الساعة** ﴾؛ يجادلون فيها، من: المرية، أو: المماراة والملاحاة، أو: من: مريت الناقة: إذا مسحت ضرعها بشدة للحلب؛ لأن كُلاًّ من المتجادلين يُخرج ما عند صاحبه بكلام فيه شدة. ﴿ **لفي ضلالٍ بعيد** ﴾ عن الحق؛ لأن قيام الساعة أظهر من كل ظاهر، وقد تواترت الشرائع على وقوعها، والعقول تشهد أنه لابد من دار الجزاء، وإلا كان وجود هذا العالم عبثاً.

﴿ **اللهُ لطيف بعباده** ﴾ أي: برٌّ بهم في إيصال المنافع ودفع المضار، أوصل لهم من فنون الألطاف ما لا تكاد تناله أيدي الأفكار والظنون. وقيل: هو مَن لطُف بالغوامض علمه، وعظُم عن الجرائم حلمه، أو: مَن ينشر المناقب

ويستر المثالب[١]، أو: يعفو عمّن يهفو، أو: مَن يعطى العبد فوق الكفاية، ويكلّفه من الطاعة دون الطاقة. وقال شيخ شيوخنا، سيدى عبد الرحمن الفاسى رضي الله عنه: الظاهر حمل العباد على من اصطفاه، بدليل الإضافة المفيدة للتشريف، وأنه تعالى لطيف بهم رفيق، ومن ذلك: حمايتهم من الدنيا، ومما يطغى من الرزق، وعليه ينزل قوله: ﴿ يرزق من يشاء ﴾. هـ. أى: يرزق على حسب مشيئته، المبنية على الحِكَم البالغة. وفي الحديث: «إن من عبادى من لا يُصْلِحُ إيمانه إلا الغنى، ولو أفقرته لأفسده ذلك، وإنّ من عبادى المؤمنين من لا يُصْلِحُ إيمانه إلا الفقر، ولو أغنيته لأفسده ذلك»[٢].

وأما قوله تعالى: ﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ﴾[٣] فهو وعد لجميع الخلق، وهو مبنى على المشيئة المذكورة هنا، فلا منافاة بينهما، خلافًا لابن جزى[٤]؛ لأن المشيئة قاضية على ظاهر الوعد، ولا يقضى ظاهر الوعد عليها[٥]. انظر الحاشية.

﴿ وهو القويُّ ﴾؛ الباهر القدرة، الغالب على كل شيء، ﴿ العزيزُ ﴾ المنيع؛ الذى لا يُغْلَب.

الإشارة: الميزان هو العقل؛ إذ به تعرف الأشياء ومقاديرها، نافعها وضارها. فالعقول متفاوتة كالموازين، فبعض الموازين لرقته لا يُوزن فيها إلا الشيء الرفيع، كالذهب، والإكسير، والفضة، والطيب الرفيع، وبعضها يصلح لوزن الأشياء اللطيفة، دون الخشينة، كميزان العطار وشبهه، وبعضها يصلح للأشياء الخشينة المتوسطة، كميزان الغزالين والحاكة، وبعضها لا يصلح إلا للخشين، كالفحم وشبه، وبعضها لا يصلح إلا للخشين الكثير، كالذى يُوزن به القناطير من الشيء الخشين، فالأول عقول العارفين، لا يوزن فيها إلا أنوار التوحيد وأسرار التفريد، لا يصلح لغيرها، والثانى للعباد، والزهاد، والعلماء الصالحين، والثالث للمتجمدين من العلماء، والرابع لعامة المؤمنين، والخامس للفجار والكفار، وفيهم نزل: ﴿يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها...﴾ الآية، وما قبله هو قوله: ﴿والذين آمنوا مشفقون منها﴾.

---

(١) في الأصول [المناقب] والمثبت من تفسير النسفي ـ رحمه الله تعالى ـ.
(٢) أخرجه الديلمي (الفردوس ٥/ ٢٥٠ح٨١٠٠) والبيهقى فى الأسماء والصفات (ص١٢١)، وأخرجه مطولا البغوى فى التفسير (٧/ ١٩٤ ـ ١٩٥). وعزاه السيوطى فى الدر (٥/ ٧٠٤ – ٧٠٥) لابن أبى الدنيا فى كتاب الأولياء، والحكيم الترمذى فى نوادر الأصول، وابن مردويه، وأبي نعيم في الحلية (٨/ ٣١٨)، وابن عساكر في تاريخه، عن أنس بن مالك، رضي الله عنه. وانظر كشف الخفاء (١٧٣٧).
(٣) من الآية ٦ من سورة هود.
(٤) قال ابن جزى ـ رحمه الله تعالى: ﴿يرزق من يشاء﴾ يعنى الرزق الزائد على المضمون لكل حيوان فى قوله: ﴿وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها﴾ أى: ما تقوم به الحياة، فإن هذا على العموم لكل حيوان طول عمره، والزائد خاص بمن شاء الله.
(٥) وجدت على هامش النسخة الأساسية مايلي: «الحق ماقاله ابن جزى، وأن المشيئة متعلقة بالتوسعة المسماة فى العرف رزقًا أيضًا، لا بأصل الرزق، ويدل على ذلك قوله تعالى عقب هذا مباشرة: ﴿من كان يريد حرث الآخرة...﴾ الآية، ولامجملة فهى بمعنى قوله تعالى: ﴿الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له...﴾ ... فهذا قوله تعالى: ﴿وهوعلى جمعهم إذا يشاء قدير﴾ فالجمع لابد منه، والمشيئة متعلقة بوقت الجمع. انتهى.

وقوله تعالى: ﴿ اللهُ لطيف بعباده ﴾ ، اعلم أن لطفه سبحانه بعباده لا ينحصر ولا ينفك عنه مخلوق، مَن ظن انفكاك لطف الله عن قدره فذلك لقصور نظره، فمن لطفه سبحانه بخلقه: أنه أعطاهم فوق الكفاية، وكلّفهم دون الطاقة. ومن لطفه سبحانه: تسهيله الأرزاق، وتيسير الارتفاق، فلو تفكر الإنسان في اللقمة التي توضع بين يديه، ماذا عمل فيها من العوالم العلوية والسفلية؛ لتحقق بغاية عجزه، وتيقن بوجود لطفه، وكذا ما يحتاج إليه من مشروب، وملبوس، ومطعوم. ومن لطفه سبحانه: توفيق الطاعات، وتسهيل العبادات، وتيسير الموافقات. ومن لطفه سبحانه: حفظ التوحيد في القلوب، واطلاعها على مكاشفة الغيوب، وصيانة العقائد عن الارتياب، وسلامة القلوب عن الاضطراب. ومن لطفه سبحانه: إبهام العاقبة؛ لئلا يتكلوا أو ييأسوا. ومن لطفه سبحانه بالعبد: إخفاء أجله عليه؛ لئلا يستوحش إن كان قد دنا أجله. ومن لطفه سبحانه بخواصه: ستر عيوبهم، ومحو ذنوبهم، حتى وصلهم بما منه إليهم، لا بما منهم إليه، فكشف لهم عن أسرار ذاته، وأنوار صفاته، فشاهدوه جهراً، وعبدوه شكراً.

وقوله تعالى: ﴿ يرزق من يشاء ﴾ إما رزق الأرواح، أو رزق الأشباح، وإلى هذا القسمين أشار قوله:

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ من كان يريد حرثَ الآخرِة ﴾ ، سُمّي ما يعمله العامل مما يبتغي به الفائدة المستقبلة حرثاً، مجازاً؛ لأن الحرث: إلقاء البذر في الأرض لننظر نتاجه، فأطلقه على العمل، لجامع حصول النتاج، أي: من كان يريد بأعماله ثواب الآخرة ﴿ نَزِدْ له في حَرْثه ﴾ ؛ نضاعف له ثوابه، الواحدة بعشر إلى سبعمائة فما فوقها، أو: نَزِدْ له في توفيقه وإعانته، وتسهيل سبيل الخيرات والطاعات عليه. ﴿ ومن كان يريد ﴾ بأعماله ﴿ حَرْثَ الدنيا ﴾ وهو متاعها وطيباتها ﴿ نُؤْتِهِ منها ﴾ أي: شيئاً منها، حسبما قسمناه له، لا ما يريده ويبتغيه، ﴿ وما لهُ في الآخرة من نصيب ﴾ إذا كانت همته مقصورة على الدنيا. ولم يذكر في عامل الآخرة أن رزقه المقسوم يصل إليه، للاستهانة بذلك إلى جنب ما هو بصدده، من زكاء أعماله، وفوزه في المآب؛ لأن ما يُعطى في الآخرة يستحقَر أن يُذكر معه غيره من الدنيا.

الإشارة: قد مرّ مراراً ذم الدنيا وصرف الهمة إليها، وفي الحديث عن أبي سعيد الخدري: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول في بعض خطبه: «أيها الناس، أقبلوا على ما كلفتموه من صالح آخرتكم، وأعرِضوا عما ضُمِنَ لكم من أمر

دنياكم، ولاتشغلوا(١) جوارحكم جوارح غذيت بنعمته في التعرض لخطأ بمعصيته، واجعلوا شغلكم بالتماس معرفته، واصرفوا هممكم إلى التقرب بطاعته، إنه من بدأ بنصيبه من الدنيا فاته نصيبه من الآخرة، ولم يدرك منها ما يريد، ومن بدأ بنصيبه من الآخرة وصل إليه نصيبه من الدنيا، وأدرك من الآخرة ما يريد»(٢).

قال الورتجبي: حرث الآخرة: مشاهدته ووصاله وقربه، وهذا للعارفين، وحرث الدنيا: كرامات الظاهر، ومن شغلته الكرامات احتجب بها عن الحق. ثم قال: عن بعضهم: مَن عَمِلَ لله محبة له، لا طلبًا للجزاء، صغر عنده كل شيء دون الله، فلا يطلب حرث الدنيا، ولا حرث الآخرة، بل يطلب الله من الدنيا والآخرة. ثم قال: حرث الدنيا: قضاء الوطر منها، والجمع منها، والافتخار بها، ومن كان بهذه الصفة فما له في الآخرة من نصيب. هـ.

وقال بعض الشعراء في هذا المعنى:

يا مؤثرَ الدنيا على دينه ومشترٍ دنياه بالآخره

بعتَ الذي يبقى بما ينقضي تبًا لها من صفقة خاسره.

ثم ذكر مقابل قوله: ﴿شرع لكم من الدين﴾، كأنه تعالى لمّا ذكر أنه شرع ما وصى به، أخذ يُنكر ما شرع غيره، فقال:

﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾ ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۗ ... ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿أم لهم شركاءُ شرعوا لهم من الدين﴾، «أم»: منقطعة، أي: بل ألهم شركاء، أو: معادلة لمحذوف، تقديره: أقبلوا ماشرعت لهم من الدين، أم لهم آلهة شرعوا من الدين ﴿مالم يأذن به اللهُ﴾ أي: لم يأمر به، ﴿ولولا كلمةُ الفصل﴾ أي: القضاء السابق بتأخير الجزاء، أي: ولولا العِدة بأن الفصل يكون يوم

(١) هكذا في جميع الأصول.
(٢) لم أقف عليه، رغم كثرة البحث.

القيامة ﴿ لقُضِيَ بينهم ﴾ ؛ بين الكفار والمؤمنين. أو: لعجلت لهم العقوبة. ﴿ وإنَّ الظالمين لهم عذابٌ أليمٌ ﴾ ؛ وإن المشركين لهم عذاب أليم فى الآخرة، وإن أخّر عنهم فى دار الدنيا.

﴿ ترى الظالمينَ ﴾ ؛ المشركين فى الآخرة ﴿ مُشفقينَ ﴾ ؛ خائفين ﴿ مما كسبوا ﴾ ؛ من جزاء كفرهم، ﴿ وهو واقع ﴾ ؛ نازل ﴿ بهم ﴾ لا محالة، أشفقوا أم لم يُشفقوا. ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات في روضاتِ الجناتِ ﴾ كأنّ روضة جنة المؤمن أطيب بقعة فيها وأنزهها، فالروضات: المواضع المونقة النضرة، فهم مستقرون فى أطيب بقعها وأنزهها. ﴿ لهم مايشاءون عند ربهم ﴾ أى: مايشتهون من فنون المستلذات حاصل لهم عند ربهم، ﴿ ذلك هو الفضلُ الكبير ﴾ الذى لا يُقادر قدره، ولا يبلغ غايته على العمل القليل، فضلاً من الكبير الجليل.

﴿ ذلك الذي يُبَشِّرُ اللهُ ﴾ تعالى، ﴿ عبادَه ﴾ فحذف عائد الموصول. ويقال: بشّر وبشر، بالتشديد والتخفيف، وقرئ بهما[(١)]. ثم وصف المبشرين بقوله: ﴿ الذين آمنوا وعلموا الصالحات ﴾ دون غيرهم.

الإشارة: كل من ابتدع عملاً خارجاً عن الكتاب والسنة فقد شرع من الدين مالم يأذن به الله، فينسحب عليه الوعيد، لقوله ﷺ: «من سنّ سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة»[(٢)].

وقوله تعالى: ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات في روضاتِ الجنات ﴾ قال القشيرى: فى الدنيا جنة الوصلة، ولذاذة الطاعة والعبادة، وطيب الأُنْسِ فى أوقات الخلوة، وفى الآخرة فى روضات الجنات، إن أرادوا دوامَ اللطفِ دامَ لهم، وإن أرادوا تمامَ الكشف كان لهم.هـ.

ولمّا كان من شأن المبشر بالخير أن يلتمس الأجر، نزّه نبيه عن ذلك، فقال:

﴿ ... قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ وَمَن يَقۡتَرِفۡ حَسَنَةً نَّزِدۡ لَهُۥ فِيهَا حُسۡنًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ٢٣ ﴾

(١) قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وحمزة، والكسائى: «يبْشر» بفتح الياء، وسكون الموحدة، وضم الشين مخففة، من «بشر» الثلاثى. وقرأ الباقون بضم الياء وفتح الباء وكسر السين مشددة للتكثير. انظر الإتحاف (٢/٤٤٩).

(٢) أخرجه بتمامه مسلم، فى (الزكاة، باب الحث على الصدقة، ٢/٧٠٥، ح١٠١٧) من حديث جرير بن عبد الله ﷺ.

يقول الحق جل جلاله: ﴿قل﴾ يامحمد ﴿لا أسألكم عليه﴾؛ على التبليغ ﴿أجراً﴾. رُوى أنه اجتمع المشركون فى مجمع لهم، فقال بعضهم لبعض: أترون أن محمداً يسأل على ما يتعاطاه أجراً؟ فنزلت. أى: لا أسألكم على التبليغ والبشارة أجراً، أى: نفعاً ﴿إلا المودةَ في القُربي﴾؛ إلا أن تودوا أهل قرابتى، ويجوز أن يكون الاستثناء منقطعاً، أى: لا أسألكم أجراً قط، ولكن أسألكم أن تودُّوا قرابتى الذى هم قرابتكم، ولا تؤذوهم. ولم يقل: إلا مودّة القربى، أو: المودة للقربى؛ لأنهم جُعلوا مكاناً للمودة، ومقراً لها، مبالغة، كقولك: لى فى مال فلان مودة، ولى فيهم حبٌ شديد، تريد: أحبهم، وهم مكان حبى ومحله. وليست «فى» بصلة للمودة كاللام، إذا قلت: إلا المودة للقربى، وإنما هى متعلقة بمحذوف، تعلق الظرف. به والتقدير: إلا المودة ثابتة فى القربى، ومتمكنة فيها. والقربى: مصدر، كالزلفى والبشرى، بمعنى القرابة. والمراد: فى أهل القربى.

رُوى أنه لما نزلت قيل: يارسول الله! من أهل قرابتك هؤلاء، الذين وجبت علينا مودتهم؟ قال: «علىٌ وفاطمة وابناهما»(١). وقيل: معناه: إلا أن تودّونى لقرابتى فيكم، ولا تؤذونى، إذ لم يكن بطن من بطون قريش إلا وبين رسول الله ﷺ وبينهم قرابة. وقيل: القربى: التقرب إلى الله تعالى، أى: إلا أن تحبوا الله ورسوله فى تقربكم إليه بالطاعة والعمل الصالح.

﴿ومن يقترفْ﴾ أى: يكتسب ﴿حسنةً﴾ أىّ حسنة كانت، فيتناول مودة ذى القربى تناولاً أولياً. وعن السدى: أنها المرادة، قيل: نزلت فى الصديّق رضي الله عنه ومودته فيهم، والظاهر: العموم، ﴿نزدْ له فيها حُسْناً﴾ أى: نضاعفها له فى الجنة. ﴿إن الله غفور﴾ لمن أذنب [بِطَوْلِه](٢) ﴿شكورٌ﴾ لمن أطاع بفضله، بتوفية الثواب والزيادة، أو: غفور: قابل التوبة، شكور: حامل عليها.

الإشارة: محبة أهل البيت واجبة على البشر، حرمةً وتعظيماً لسيد البشر، وقد قال: «من أحبهم فبحبي أُحبهم، ومن أبغضهم فببغضى أبغضهم»(٣) فمحبة الرسول ﷺ ركن من أركان الإيمان، وعقد من عقوده، لا يتم الإيمان إلا بها، وكذلك محبة أهل بيته. وفى الحديث ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يحبنى، ولا يحبنى حتى يحب ذوى قرابتى، أنا حرْب لمن حاربهم. وسلْم لمن سالمهم، وعدوٌ لمن عاداهم، ألا من آذى قرابتى فقد آذانى، ومن آذانى

---

(١) أخرجه الطبرانى فى الكبير (١١/٤٤٤، ح١٢٢٥٩) وعزاه السيوطى فى الدر (٥/٧٠١) لابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى وابن مردويه ، بسند ضعيف، من طريق سعيد بن جبير، عن ابن عباس رضي الله عنه.

(٢) فى الأصول: [بعدله] والمناسب ما أثبته، وهو الذى فى تفسير النسفى. والطَّوْل: الفضل والغنى والسعة. انظر اللسان (طول ٤/٢٧٢٨).

(٣) ورد «من أحب هؤلاء، فقد أحبنى، ومن أبغضهم فقد أبغضنى، يعنى الحسن والحسين وفاطمة وعلياً. رضى الله عنهم أجمعين. والحديث ذكره فى كنز العمال ح (١٠٣) وعزاه لابن عساكر عن زيد بن أرقم.
والأحاديث فى محبة أهل البيت كثيرة. اللهم صلى على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

فقد آذى الله تعالى»(١). وقال أيضاً ـ عليه الصلاة والسلام: «إنى تاركٌ فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا، كتابُ الله تعالى وعترتى»(٢)، فانظر كيف قرنهم بالقرآن فى كون التمسك بهم يمنع الضلال.

وقال ﷺ: «من مات على حب آل محمد مات شهيداً، ألا ومن مات على حب آل محمد بدل الله له زوار قبره ملائكة الرحمة، ألا ومن مات على حب آل محمد مات على السنة والجماعة، ألا ومن مات على بغض آل محمد جاء يوم القيامة مكتوب(٣) بين عينيه: آيس من رحمة الله»(٤). انظر الثعلبى. زاد بعضهم: ولو عصوا وغيّروا فى المذهب؛ فنكره فعلَهم ونحب ذاتهم. قال الشيخ زروق فى نصيحته: وما ينزل بنا من ناحيتهم نعدّه من القضاء النازل.هـ.

وفى همزية البوصيرى ـ رحمه الله:

آلَ بيتِ النبــيّ إنّ فــؤادِى ... ليسَ يُسْلِيـه عنـكم التّأسَـاء(٥).

وقال آخر:

آلَ بيتِ رســولِ الله حُبّـكُمُ ... فَــرضٌ من الله فى القـرآنِ أنْـزَلَهُ

يَكْفيكُمُ من عظيمِ المجــدِ أنّكُم ... مَنْ لم يُصَلِّ عليكم لا صَلاَةَ لَهُ(٦).

وقوله تعالى:﴿ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسناً﴾، الزيادة فى الدنيا بالهداية والتوفيق، وفى الآخرة بتضعيف الثواب وحسن الرفيق. قال القشيرى: إذا أتانا بالمجاهدة زدناه بفضلنا تحقيق المشاهدة. ويقال: من يقترفُ حسنةَ الوظائف نَزِدْ له حُسْنَ اللطائف. ويقال: الزيادة ما لا يصل إليه العبد بوسيلة، مما لا يدخل تحت طَوْقِ البشر.هـ.

ثم ردّ على من طعن فى الوحى، الذى نفى الأجر على تبليغه، فقال:

﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ

(١) أخرج أحمد فى المسند (ح ٩٦٥٩) وابن حبان (موارد ح ٢٢٤٤) وابن أبى شيبة (٢/٩٦) والطبرانى فى الكبير (٣/٣١) عن أبى هريرة، قال: نظر النبى ﷺ إلى على والحسن والحسين وفاطمة فقال: «أنا حرب لمن حاربكم وسلم لمن سالمكم». وأخرجه الترمذى فى المناقب، باب فضل فاطمة، ح ٣٨٧٥) عن زيد بن أرقم، بلفظ «أنا حرب لمن حاربتم، وسلم لمن سالمتم».

(٢) أخرجه الترمذى وحسّنه فى (المناقب، باب مناقب أهل بيت النبى ﷺ ٥/٦٢١، ح ٣٧٨٦) من حديث جابر بن عبد الله، و(ح٣٧٨٨) من حديث أبى سعيد وزيد بن أرقم ـ رضى الله عنهما.

(٣) هكذا فى الأصول.

(٤) ذكره بنحوه القرطبى (٧/٦٠٢٢)، وذكره الزمخشرى فى تفسيره (٤/٢٢٠) بأطول من هذا، وعزاه الحافظ ابن حجر فى الكافى للثعلبى، وقال: «وآثار الوضع عليه لائحة». .

(٥) انظر ديوان البوصيرى/ ٧٠.

(٦) الأبيات للإمام الشافعى. انظر ديوانه /٧٢، وفيه: [يكفيكم من عظيم الفخر أنكم].

ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۚ وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿أم يقولون﴾ أى: بل أيقولون ﴿افترى﴾ محمد ﴿على الله كذبًا﴾ فى دعوة النبوة، أو القرآن؟. والهمزة للإنكار التوبيخى، كأنه قيل: أيمكن أن ينسبوا مثله ـ عليه الصلاة والسلام ـ للافتراء، لا سيما لعظم الافتراء، وهو الافتراء على الله، فإن الافتراء إنما يُسام به أبعد خلق الله، ومن هو عرضة للختم والطبع، فالعجب ممن يفوه به فى جانب أكرم الخلق على الله.

﴿فإن يشأِ اللهُ يختمْ على قلبك﴾، هذا استبعاد للافتراء على مثله؛ لأنه إنما يجترئ على الله من كان مختوماً على قلبه، جاهلاً بربه، أمَّا من كان على بصيرة ومعرفة بربه، فلا. وكأنه قال: إن يشأ الله خذلانك يختم على قلبك لتجترئ بالافتراء عليه، لكنه لم يفعل فلم تفتر. أو: فإن يشأ الله عدم صدور القرآن عنك يختم على قلبك، فلم تقدر أن تنطق بحرف واحد منه، وحيث لم يكن كذلك، بل تواتر الوحى عليك حيناً فحيناً؛ تبين أنه من عند الله تعالى. وهذا أظهر.

وقال مجاهد: إن يشأ يربط على قلبك بالصبر على أذاهم، وعلى قولهم: افترى على الله كذباً؛ لئلا تدخله مشقة بتكذيبهم.هـ.

﴿ويَمْحُ اللهُ الباطلَ ويُحِقُّ الحقَّ بكلماته﴾، استئناف مقرر لنفى الافتراء، غير معطوف على «يختم» كما ينبئ عنه إظهار الاسم الجليل، وإنما سقطت الواو ـ كما فى بعض المصاحف ـ لا تباع اللفظ، كقوله تعالى: ﴿وَيَدْعُ الإِنسَانُ بِالشَّرِّ...﴾[1] مع أنها ثابتة فى مصحف نافع. قاله النسفى. أى: ومن شأنه تعالى أنه يمحق الباطل، ويثبت الحق بوحيه، أو بقضائه، كقوله تعالى: ﴿بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه﴾[2]، فلو كان افتراء كما زعموا لمحقه ودمغه. أو: يكون عِدةً لرسول الله ﷺ بأنه تعالى يمحو الباطل الذى هم عليه، ويثبت الحق الذى هو عليه ﷺ بالقرآن، أو بقضائه الذى لا مرد له بنصره عليهم، وقد فعل ذلك، فمحا باطلهم، وأظهر

(١) من الآية ١١ من سورة الإسراء.
(٢) من الآية ١٨ من سورة الأنبياء.

الإسلام. ﴿ إنه عليم بذاتِ الصدور ﴾ أى: عليم بما فى صدرك وصدورهم، فيجرى الأمر على حسب ذلك من المحو والإثبات.

﴿ وهو الذي يقبل التوبةَ عن عباده ﴾. يقال: قبلت الشيء منه: إذا أخذته منه، وجعلته مبدأ قبولك، وقبلتَه عنه، أى: عزلته وأبنته عنه. والتوبة: الرجوع عن القبيح بالندم، والعزم ألا يعود، ورد المظالم واجب غير شرط.

قال ابن عباس: لما نزل. ﴿قل لا أسألكم عليه أجراً..... الآية. قال قوم فى نفوسهم: مايريد إلا أن يحثنا على أقاربه مِن بعده، فأخبر جبريلُ النبىَّ ﷺ أنهم قد اتهموه، وأنزل: ﴿أم يقولون افترى على الله كذبا..﴾ الآية، فقال القوم؛ يارسول الله؛ فإنا نشهد أنك صادق. فنزل: ﴿وهو الذي يقبل التوبة...﴾.هـ.

قال أبو هريرة، قال النبى ﷺ: «الله أفرح بتوبة عبده المؤمن من الضال الواجد، ومن العقيم الوالد، ومن الظمآن الوارد، فمن تاب إلى الله توبة نصوحاً أنسى الله حافظيه، ولو كانت بقاعُ الأرض خطاياه وذنوبه»(١).

واختلف العلماء فى حقيقة التوبة وشرائطها، فقال جابر بن عبد الله: دخل أعرابى مسجد النبى ﷺ، فقال: اللهم إنى أستعيذك وأتوب إليك، سريعاً، وكبّر، فلما فرغ من صلاته، قال له علىّ: ما هذا؟ إن سرعة الاستغفار باللسان توبة الكذابين، وتوبتك تحتاج إلى توبة، فقال: يا أمير المؤمنين، وما التوبة؟قال: اسم يقع على ستة معانٍ: على الماضى من الذنوب الندامة، ولتضييع الفرائض الإعادة، ورد المظالم، وإذابة النفس فى الطاعة، كما أذبتها فى المعصية، وإذاقة النفس مرارة الطاعة، كما أذقتها حلاوة المعصية، والبكاء بدل كل ضحك ضحكته.

وعن السدى: هى صدقُ العزيمة على ترك الذنوب، والإنابة بالقلب إلى علاّم الغيوب. وعن سهل: هى الانتقالُ من الأحوال المذمومة إلى الأحوال المحمودة. وعن الجنيد: هى الإعراض عما سوى الله.

قال الله تعالى: ﴿ ويعفو عن السيئاتِ ﴾ وهو ما دون الشرك ، يعفو لمن يشاء بلا توبة، ﴿ ويعلم ماتفعلون ﴾ كائناً ما كان، من خير أو شر، حسبما تقتضيه مشيئته.

﴿ ويستجيبُ الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ أى: يستجيب لهم فحذف اللام كما فى قوله: ﴿ وَإِذَا كَالُوهُمْ ﴾(٢) أى: يجيب دعوتهم، ويثيبهم على طاعتهم، أو: يستجيبون له بالطاعة إذا دعاهم إليها. قيل لإبراهيم

(١) لم أقف عليه بهذا اللفظ، وفى الصحيح: «الله أفرح بتوبة العبد من رجل نزل منزلاً وبه مهلكة، ومعه راحلته، عليها طعامه وشرابه، فوضع رأسه فنام نومة، فاستيقظ وقد ذهبت راحلته، حتى اشتد عليه الحر والعطش أو ما شاء الله، قال: أرجع إلى مكانى، فرجع فنام نومة، ثم رفع رأسه، فإذا راحلته عنده» أخرجه البخارى فى (الدعوات، باب التوبة، ح ٦٣٠٨) ومسلم فى (التوبة، باب فى الحض على التوبة، ح ٢٧٤٤) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.
(٢) من الآية ٣ من سورة المطففين.

ابن أدهم: مالنا ندعو فلا نُجاب؟ قال: «لأنه دعاكم فلم تُجيبوا». ﴿ ويَزِيدُهُمْ من فضله ﴾ على ماسألوه، واستحقوه بموجب الوعد. ﴿ والكافرون لهم عذابٌ شديد ﴾ بدل ما للمؤمنين من الفضل العظيم والمزيد.

الإشارة: قال الورتجبي: ﴿أم يقولون افترى على الله كذبا﴾ فيه تقديس كلامه، وطهارة نبيه ﷺ عن الافتراء، وكيف يفترى وهو مصون من طريان الشك والريب والوساوس والهواجس على قلبه؟. وقال أيضاً: عن الواسطي: إن يشأ الله يختم على قلبك [لكن ما يشاء][(1)]، ويمح الله الباطل بنفسه ونعته، حتى يعلم أنه لا حاجة له إلى أحد من خلقه، ثم يحقق الحق في قلوب أنشأها للحقيقة.

قلت: في الآية تهديد لأهل الدعوى؛ لأنهم إن داموا على دعواهم الخصوصية بلا خصوصية؛ ختم الله على قلوبهم بالنفاق، ثم يمحو الله الباطل بأهل الحق والتحقيق، فتُشرق حقائقهم على ما يقابلها من البال فتدمغه بإذن الله وقضائه وكلماته.

وقوله تعالى: ﴿ وهو الذى يقبل التوبة عن عباده... ﴾ الخ، لكل مقام توبة، ولكل رجال سيئات، فتَوبة العوام من الذنوب، وتوبة الخواص من العيوب، وتوبه خواص الخواص من الغيبة عن شهود علام الغيوب. وقوله تعالى: ﴿ ويعلم ماتفعلون ﴾ يشير إلى الحلم بعد العلم.

وقوله تعالى: ﴿ ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ أي: في كل ما يتمنون، ﴿ ويزيدهم من فضله ﴾ النظر إلى وجهه، ويتفاوتون فيه على قدر توجههم، ومعرفتهم في الدنيا. وذكر في القوت حديثاً عن رسول الله ﷺ في تفسير قوله تعالى: ﴿ويزيدهم من فضله﴾ قال: «يُشفعهم في إخوانهم، فيدخلهم الجنة»[(2)]. هـ. قال القشيرى: ويقال: لمَّا ذكر أن التائبين يقبل توبتهم، ومَنْ لم يتُبْ يعفو عن زلّته، والمطيع يدخله الجنة، فلعله خطر ببال أحد: فهذه النار لمن هي؟ فقال﴿والكافرون لهم عذاب شديد﴾، ولعله يخطر بالبال أن العصاة لاعذاب لهم، فقال: (شديد) بدليل الخطاب أنه ليس بشديد[(3)] هـ.

ولمَّا ذكر أن أهل الإيمان يستجيب لهم، ويزيدهم من فضله، يعني في الآخرة، وأما في الدنيا فإنما يعطيهم الكفاف، ذكر حكمة ذلك، فقال:

---

(١) في الورتجبي [بما يشاء].
(٢) أخرجه ابن جرير، من طريق قتادة عن أبي إبراهيم اللخمي، موقوفاً.
(٣) اختصر المفسر عبارة القشيرى، وهذا نصها حتى يتضح المراد: فالعصاة من المؤمنين لهم عذاب، أما الكافرون فلهم عذاب شديد، لأن دليل الخطاب يقتضي هذا، وذاك يقتضي أن المؤمنين لهم عذاب، ولكن ليس بشديد، وأما عذاب الكافرين فشديد. هـ.

﴿ ۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ولو بَسَطَ اللهُ الرزقَ لعباده﴾ أى: لو أغناهم جميعاً ﴿لبَغَوا في الأرض﴾ أى: لتكبروا وأفسدوا فيها، بطراً، ولعلا بعضُهم على بعض بالاستعلاء والاستيلاء، لأن الغنى مبطرة مفسدة، وكفى بحال قارون وفرعون عبرة. وأصل البغي: تجاوز الاقتصاد [عما يجزى][1] من حيث الكمية أو الكيفية. ﴿ولكن يُنَزِّل بقَدرٍ﴾ أى: بتقدير ﴿ما يشاء﴾ أن ينزله، مما تقضيه مشيئته. يقال: قدره وقدّره قدراً وتقديراً ﴿إنه بعباده خبير بصير﴾؛ محيط بخفايا أمورهم وجلاياها، فيقدر لكل واحد منهم ما يليق بشأنه، فيُفقر ويُغنى، ويُعطى ويَمنع، ويقبض ويبسط، حسبما تقتضيه الحكمة الربانية، ولو أغناهم جميعاً لبَغوا فى الأرض، ولو أفقرهم لهلكوا، وما ترى من البسط على مَن يبغى، ومَن البغى بدون البسط، فهو قليل، ولكن البغى مع الفقر أقلّ، ومع البسط أكثر وأغلب، فالحكمة لاتنافى بغى البعض بدفعه بالبعض الآخر، بخلاف بغى الجميع. ﴿وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ...﴾[2] الآية.

وقال شقيق بن إبراهيم: ﴿لو بسط الله الرزق لعباده﴾ أى: لو رزق الله العباد من غير كسب ﴿لبغوا﴾؛ طغوا وسَعَوا فى الأرض بالفساد، ولكن شغلهم بالكسب والمعاش، رحمة منه.هـ. أى: لئلا يتفرغوا للفساد، ومثله فى التنوير. وقال شيخ شيوخنا الفاسى العارف: والظاهر حمل العباد على الخصوص المصْطَفين من المؤمنين، فإنهم يحمون من الطغيان وبسط الرزق؛ لئلا يبغوا. هـ.

وقال قتادة: كان يقال: خير الرزق: مالايطغيك، ولايلهيك، فذكر لنا أن النبى ﷺ قال: «أخوف ما أخاف على أمتى زهرة الدنيا وكثرتها»[3]. هـ.

---

(١) هكذا فى الأصول، وفى تفسير أبى السعود[فيما يتجرى].

(٢) من الآية: ٤٠ من سورة الحج.

(٣) أخرجه الطبرى (١٩/٢٥).

رُوى: أن أهل الصُفّة تمنوا الغنى، فنزلت[1]. وقيل: نزلت فى العرب، كانوا إذا أخصبوا تحاربوا، وإذا جدبوا انتجعوا.هـ.

﴿وهو الذى يُنَزِّل الغيث﴾ أى: المطر الذى يُغيثهم من الجدب، ولذا خص بالنافع منه، فلا يقال للمطر الكثير: غيث، ﴿من بعد ما قنطوا﴾: يئسوا منه. وتقييد تنزيله بذلك، مع نزوله بدونه أيضا؛ لمزيد تذكر كمال النعمة. ﴿ويَنشُرُ رحمتَه﴾ أى: بركات الغيث ومنافعه، وما يحصل به من الخصب فى كل مكان، من السهل، والجبل، والنبات، والحيوان. أو: رحمته الواسعة المنتظمة لما ذكر وغيره. ﴿وهو الولىُّ﴾ الذى يتولى عباده بالإحسان ونشر الرحمة، ﴿الحميدُ﴾؛ المستحق للحمد على ذلك، لاغيره.

الإشارة: عادته تعالى مع أوليائه أن يعطيهم ما يكفيهم بعد الاضطرار، ويمنعهم منه فوق الكفاية؛ لئلا يشغلهم بذلك عن حضرته، وفى الحديث: «إن الله يحمى عبده المؤمن ـ أى: مما يضره الدنيا وغيرها ـ كما يحمى الراعى الشفيق غنمه من مراتع الهلكة»[2] وفى حديث آخر: «إذا أحب الله عبداً حماه الدنيا كما يحمى أحدكم سقيمه الماء»[3]. وروى ابن المبارك، عن سعيد بن المسيب قال: جاء رجل رسول الله ﷺ فقال: أخبرنى يا رسول الله بجلساء الله يوم القيامة؟ فقال: «هم الخائفون، الخاضعون، المتواضعون، الذاكرون كثيراً» ، فقال: يا رسول الله؛ فهم أول الناس يدخلون الجنة ؟ قال: «لا» قال: فمن أول الناس دخولاً الجنة؟ قال «الفقراء يسبقون الناس إلى الجنة، فيخرج إليهم ملائكة، فيقولون: ارجعوا إلى الحساب، فيقولون : علام نحاسب؟ والله ما أفيضت علينا الأموال فنفيض فيها، وما كنا أمراء نعدل ونجور، ولكنا جاءنا أمره فعبدنا حتى أتانا اليقين». هـ

قوله: ﴿وهو الذى يُنزل الغيث...﴾ الآية، كما ينزل غيث المطر على الأرض الميتة، ينزل أمطار الواردات الإلهية على القلوب الميتة، فتحيا بالذكر والمعرفة، بعد أن أيست من الخصوصية.

قال القشيرى، بعد كلام: وكذلك العبد إذا ذَبُلَ غُصنُ وقته، وتكدّرَ صفْو ودِّه؛ وكسفت شمس أُنسِه، ويَعُدَ عن الحضرةِ وساحاتِ القرب عَهْدُه، فربما ينظر إليه الحقُّ نظر رحمة، فينزل على سِرِّه أمطارَ الرحمة، ويعود عودُه طرياً، ويُنْبِتُ فى مشاهد أُنْسِه ورداً جنَياً، وأنشدوا فى المعنى:

---

(١) أخرجه الواحدى فى أسباب النزول (ص٣٩٠) عن عمرو بن حُرَيث، وذكره الهيثمى فى المجمع (١٠٤/٧) وعزاه للطبرانى، ورجاله رجال الصحيح.

(٢) أخرجه البيهقى فى شعب الإيمان (ح ١٠٤٥١) من حديث حذيفة رضي الله عنه، والحديث ضعّفه السيوطى فى الجامع الصغير (ح١٩٠١).

(٣) أخرجه الترمذى فى (الطب، باب ما جاء فى الحمية، ح ٢٠٣٦) والبيهقى فى الشعب (ح ١٤٥٠) من حديث قتادة بن النعمان رضي الله عنه.

إنْ راعنى منك الصُدود فلعلّ أيامى تعود

ولعل عهدك باللّوى يحيا فقد تحيا العهود

والغصن ييبس تارةً وتراه مُخضراً يميد .

وقوله تعالى: ﴿وهو الولىّ﴾ قال القشيرى فى شرح الأسماء: الولى هو المتولى لأحوال عباده، وقيل معناه: الناصر، فأولياء الله أنصار دينه، وأشياع طاعته، والولىّ فى صفة العبد: هو من يواظب على طاعة ربه. ومن علامات من يكون الحق سبحانه وليَّه: أن يصونه ويكفيه فى جميع الأحوال، ويؤمنه، فيغار على قلبه أن يتعلق بمخلوق فى دفع شر أو جلب نفع، بل يكون سبحانه هو القائم على قلبه فى كل نَفَس، فيحقق آماله عند إشارته، ويجعل مآربه عند خطراته. ومن آمارات ولايته لعبده: أن يديم توفيقه، حتى لو أراد سوءاً، أو قصد محظوراً، عصمه من ارتكابه. ثم قال: ومن أمارات ولايته: أن يرزقه مودة فى قلوب أوليائه. هـ. قلت: «جعل مآربه عند خطراته» ليس شرطاً؛ لأن هذا من باب الكرامة، ولا يشترط ظهورها عند المحققين. وروى أنس عن النبى ﷺ عن جبريل، عن ربه ـ عز وجل ـ قال: «من أهان لى وليّا فقد بارزنى بالمحاربة، وإنى لأسرع شىء إلى نصرة أوليائى، وإنى لأغضب لهم، كما يغضب الليث الحَرِد»(١) انظر بقية الحديث فى الثعلبى.

ثم ذكر شواهد قدرته، فقال:

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ومن آياته﴾ الدالة على باهر قدرته ووحدانيته ﴿خلقُ السمواتِ والأرض﴾ على ما هما عليه من تعاجيب الصنعة، فإنها بذاتها وصفاتها تدل على شؤونه العظيمة، ﴿وما بثُّ﴾ أى: فرّق ﴿فيهما من دابة﴾؛ من حى على الإطلاق، فأطلق الدابة على مطلق الحيوان، ليدخل الملائكة. أو: ما يدب على الأرض،

(١) أخرجه مطولاً، البغوى فى التفسير (٧/١٩٤ ـ ١٩٥) وعزاه السيوطى فى الدر المنثور (٥/٧٠٤) لابن أبى الدنيا فى كتاب الأولياء، والحكيم الترمذى فى نوادر الأصول، وابن مردويه، وأبى نعيم فى الحلية (٨/٣١٥)، وابن عساكر فى تاريخه. وقوله: «الحرد» الحَرَدُ: الغيظ والغضب. وحرِد الرجل فهو حرِد. انظر اللسان (مادة حرد ٢/٨٢٤ ـ ٨٢٥).

فإن ما يختص أحد الشيئين المجاورين يصح نسبته إليهما، كقوله تعالى: ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ﴾(١) وإنما يخرج المرجان من الملح، ولايبعدُ أن يخلق الله فى السموات حيواناً يمشون مشى الأناسىّ على الأرض، أو: يكون للملائكة مشى مع الطيران، فوصفوا بالدّبيب لذلك. ﴿وهو على جَمْعِهم﴾ أى: حشرهم بعد البعث للحساب ﴿إذا يشاء﴾ أى: فى الوقت الذى يشاء ﴿قديرٌ﴾ لايعجزه شىء

الإشارة: مِن تعرفاته: إظهار السموات والأرض، وهذه رسوم المعانى، وما بثّ فيهما من دابة، وهذه أشكال توضح أسرار المعانى، فإذا قبضت المعانى محيت الرسوم والأشكال. وقوله تعالى: ﴿وهو على جمعهم إذا يشاء قدير﴾، قال القشيرى: الإشارة فى هذا: أنّ الحقّ تعالى يغار على أوليائه أن يَسْكُنَ بعضُهم بقلبه إلى بعض، فأبداً يُبَدِّدُ شملهم، ولايكاد تتفق الجماعة من أهل القلوب إلا نادراً، وذلك أيضا مدة يسيرة، كما أنشدوا:

رمى الدهرُ بالفتيان حتى كأنّهم		بأكناف أطرافِ السـماء نجومُ(٢)

وقد يتفضّل تعالى باجتماعهم فى الظاهر، وذلك وقت نظر الحقّ بفضله إلى العالَم، وفى بركات اجتماعهم حياةُ العالَم، وإذ كان قادراً فهو على جمعهم إذا يشاء قدير. (٣)هـ.

قلت: مما جرت به عادة الله تعالى فى أوليائه: أنه لايجتمع فى موضع واحد منهم اثنان فأكثر إلا قام أحدهما بالآخر، ويفقد نظامهما، فلاتكاد تجد أهل النور القوى إلا متباعدى الأوطان، لئلا يطفى نور أحداهما نورَ الآخر، وقد يجتمعون نادراً فى وقت مخصوص، وذلك وقت النفحات. كما تقدم للقشيرى.

ثم ذكر سبب نزول المصائب بعباده، فقال:

﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾ ﴾

(١) الآية ٢٢ من سورة الرحمن.
(٢) البيت منسوب للقشيرى كما فى تبيين كذب المفترى للدمشقى / ٣٥٦.
(٣) بتصرف.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وما أصابكم من مصيبةٍ ﴾ غمّ، أو ألم، أو مكروه ﴿ بما(١) كسبتْ أيديكم ﴾ أى: بجنايةٍ كسبتموها، عقوبةً لكم. ومن قرأ بالفاء؛ فـ «ما» شرطية. ومن قرأ بغيرها فموصلة. وتَعلّق بهذه الآية من يقول بالتناسخ، ومعناه عندهم: أن أرواح المتقدمين حين تموت أشباحها تنتقل إلى أشباح أُخر، فإن كانت صالحة انتقلت إلى جسم صالح؛ وإن كانت خبيثة انتقلت إلى جسم خبيث، وهو باطل وكفر. ووجه التعلق: أنه لو لم يكن للأطفال حالة كانوا عليها قبل هذه الحالة لما تألموا. ويجاب: بأن تألم الأطفال إما زيارة فى درجات آبائهم إن عاشوا ، أو فى درجاتهم إن ماتوا؛ لأنهم يلحقون بآبائهم فى الدرجة، ولا عمل لهم إلا هذا التألم. والله أعلم

والآية مخصوصة بالمكلّفين بدليل السياق، وهو قوله: ﴿ ويعفوا عن كثير ﴾ أى: من الذنوب فلا يُعاقب عليها، أو: عن كثير من الناس، فلا يعاجلُهم بالعقوبة. وفى الحديث عنه ﷺ : «واللهُ أكرم من أن يُثَنّى عليكم العقوبة فى الآخرة، وما عفا عنه فالله أحلم من أن يعود فيه بعد عفوه»(٢) وقال ابن عطاء: من لم يعلم أنّ ما وصل إليه من الفتن والمصائب باكتسابه، وأن ما عفا عنه مولاه أكثر ، كان قليل النظر فى إحسان ربه إليه. وقال محمد بن حامد: العبدُ ملازِمٌ للجنايات فى كلّ أوان، وجناياته فى طاعته أكثر من جناياته فى معاصيه؛ لأن جناية المعصية من وجه، وجناية الطاعة من وجوه، والله يُطهِّر العبد من جناياته بأنواع من المصائب ليخفّف عنه أثقاله فى القيامة، ولولا عفوه ورحمته لهلك فى أول خطوة.

وعن علىّ ـ كرم الله وجهه ـ : هذه أرجى آيةٍ للمؤمنين فى القرآن؛ لأنّ الكريمَ إذا عاقب مرةً لايُعاقِب ثانياً، وإذا عفا لايعود . هـ. وقد تقدم حديثاً. قال فى الحاشية الفاسية: قلت: وإنما يعفو فى الدنيا عما يشاء ، ويؤخر عقوبةَ من شاء إلى الآخرة، فلا يلزم إبطال وعيد الآخرة. ثم الآية إما خاصة بالحدود ، أو بالمجرم المذنب، وأما من لاذنب له فما يُصيبه من البلاء اجتباء، وتخصيص، لاتمحيص . هـ.

قلت: لكل مقام ذنب، حسنات الأبرار سيئات المقربين، فالتمحيص جار فى كل مقام، وراجع ما تقدم عند قوله: ﴿ لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ . . . ﴾(٣) وسيأتى عند قوله: ﴿ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ . . ﴾(٤) ما يبين هذا. والله أعلم

(١) قرأ نافع، وابن عامر، وأبو جعفر (بما) بغير فاء، على جعل (ما) فى ﴿ما أصابكم﴾ موصولة، مبتدأ، و(بما كسبت) خبر، وعلى جعلها شرطية، تكون الفاء محذوفة، نحو قوله تعالى: ﴿وإن أطعتموهم إنكم...﴾ـ الآية ١٢١ من سورة الأنعام. وقرأ الباقون (فبما كسبت) . فـ(ما) شرطية، أى: فهى بما كسبت، أو موصولة، والفاء تدخل فى حيز الموصول إذا أجرى مجرى الشرط. انظر: الحجة للفارسى، (١٢٩/٦) والإتحاف (٤٥٠/٢) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى المسند (٨٥/١) والحاكم (٣٨٨/٤) وزاد السيوطى عزوه فى الدر المنثور (٧٠٥/٥) لابن راهويه، وابن منيع، وعبد بن حميد، والحكيم الترمذى، وأبى يعلى، وابن المنذر، وابن أبى حاتم، وابن مردويه، عن سيدنا علىّ ـ كرم الله وجهه ـ.

(٣) من الآية ١١٧ من سورة التوبة. (٤) من الآية ١٩ من سورة سيدنا محمد.

﴿ وما أنتم بمعجزين في الأرض ﴾ أي: ما أنتم بفائتين ما قُضى عليكم من المصائب، وإن هجرتم فى أقطارها كل مهرب، ﴿ وما لكم من دون الله من ولىّ ﴾ متولٍ يحميكم منها ﴿ ولا نصير ﴾ يدفعها عنكم، أو يدفع عذابه إن حلّ.

الإشارة: إذا كان العبد عند الله فى عين العناية أدّبه فى الدنيا، ويبقى فى حال قربه، وإذا كان عنده فى عين الإهمال؛ أمهل عقوبته إلى دار البقاء، وربما استدرجه بالنعم فى حال إساءته، والعياذ بالله من مكره. وإذا علم العبد أن ما يصيبه فى هذه الدار من الأكدار كلها تخليص وتمحيص؛ لم يستوحش منها، بل يفرح بها؛ إذ هى علامة العناية، وإذا كانت على أيدى الناس، لم يقابلهم بالانتصار، بل يعفو ويصفح؛ لعلمه أن ذلك زيارة وترقية. وقوله تعالى: ﴿ ويعفو عن كثير ﴾ هذا ـ والله أعلم ـ فى حق العامة، وأما الخاصة؛ فيشدد عليهم المحاسبة والتأديب؛ ليرفع مقامهم، ويُكرم مثواهم.

ثم ذكر برهاناً آخر على قدرته تعالى، فقال:

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ومن آياته ﴾ للدلالة على قدرته ووحدانيته ﴿ الجوارى ﴾(١) السفن الجارية ﴿ فى البحر كالأعلام ﴾؛ كالجبال ﴿ إن يشاء يسكن الرياح ﴾(٢) التى تجريها. وقرئ بالإفراد. ﴿ فيظللن رواكدَ على ظهره ﴾؛ فيبقين ثوابت على ظهر البحر، أى: غير جاريات لاغير متحركات أصلاً، ﴿ إن في ذلك لآيات ﴾ عظيمة فى أنفسها، كثيرة فى العدد، دلالة على باهر قدرته ﴿ لكل صبَّارٍ شكور ﴾؛ لكل من حبس نفسه عن الهوى، وصرف همته إلى النظر فى آلائه، أو: لكل صبّار على بلائه، شكور لنعمائه، أى: لكل مؤمن كامل؛ فإن الإيمان نصفان: نصف شكر، ونصف صبر؛ لأن الإنسان لايخلو من ضر يمسه، أو نفع يناله، فآداب

(١) هكذا فى الأصول، وقد أثبت الياء فى (الجوار) وصلاً، نافع، وأبو عمرو، وأبو جعفر، وفى الحالين ابن كثير ويعقوب. وقرأ الباقون بغيرياء. انظر الإتحاف (٢/ ٤٥٠)

(٢) قرأ نافع وأبو جعفر «الرياح» بالجمع. وقرأ الجمهور (الريح) إفراداً.

الضر: الصبر، وآداب النفع: الشكر، وأيضاً : راكب السفن ملزوم، إما للمشقة أو السلامة، فالصبر والشكر لازمان له. ولم يعطف إحدى الصفتين على الأخرى؛ لأنهما لموصوف واحد.

﴿ أو يُوبِقْهُنَّ ﴾ أى: يهلكهن، عطف على قوله: ﴿يُسكن﴾ أى: إن يشأ يُسكن الريح فيركدن، أو يعصفها فيغرقن [بعصفها](١) ﴿ بما كسبوا ﴾ من الذنوب. وإيقاع الإيباق عليهن مع أنه حال [أهلهن](٢)؛ للمبالغة والتهويل، ﴿ ويعفُ عن كثير﴾ منها، فلا يُجازى عليها، وإنما أدخل العفو فى حكم الإيباق، حيث جُزم جزمَه؛ لأن المعنى: أو إن يشأ يُهلك ناساً ويُنج ناساً، على طريق العفو عنهم. وقرئ: «ويعفو»(٣) على الاستئناف. ﴿ ويَعْلَمَ الذين يجادلون في آياتنا ﴾ أى: فى إبطالها وردها ﴿ما لهم من محيص﴾؛ من مهرب من العذاب. والجملة معلقة بالنفى، ومن نصب «يعلم»عطفه على علة محذوفة، أى: لينتقم منهم وليعلم، كما فى قوله: ﴿ ولِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ ﴾(٤). وقيل غير ذلك. ومن رفعه(٥) فعلى الاستئناف. وقرىء بالجزم، عطفاً على: «يعف»، فيكون المعنى: أو إن يشأ يجمع بين إهلاك قوم وإنجاء آخرين وتحذير قوم.

الإشارة: ومن آياته الأفكار الجارية فى بحر التوحيد، كالأعلام ، أى: أصحابها كالجبال الرواسى، لايهزهم شىء من الواردات ولا غيرها، إن يشأ يُسكن رياح الواردات عن أسرارهم، فيبقين رواكد على ظهر بحر الأُحدية، مستغرقين فى شهود الذات العلية، أو يُوبقهن بما كسبوا من سوء الأدب، فيغرقن فى الزندقة أو الحلول والاتحاد، ويعف عن كثير، ويعلم الذين يطعنون فى آياتنا الدالة علينا ما لهم من مهرب.

ثم زهّد فى الدنيا؛ لأنها العائقة للأفكار، عن الجرى فى بحار الأسرار، فقال:

﴿ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَٰٓؤُا سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ

(١) فى الأصول [بعضها] والمناسب ما أثبته، وهو الذى فى تفسير النسفى وأبى السعود.
(٢) فى الأصول [أهلها].
(٣) قرأ بها الأعمش، انظر البحر المحيط ٧/٤٩٧.
(٤) من الآية ٢١ من سورة مريم.
(٥) وهى قراءة نافع وابن عامر، وأبى جعفر. وقرأ الجمهور (ويعلَمَ) بالنصب. انظر الإتحاف (٢/ ٤٥٠).

عَلَى ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾
إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ
أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ فما أُوتيتم من شيء ﴾ مما ترجون وتتنافسون فيه ﴿ فمتاعُ الحياة الدنيا ﴾ أي: فهو متاعها، تتمتعون به مدة حياتكم، ثم يفنى، ﴿ وما عند الله ﴾ من ثواب الآخرة ﴿ خيرٌ ﴾ ذاتاً؛ لخلوص نفعه، ﴿ وأبقى ﴾ زماناً؛ لدوام بقائه. ﴿ للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ﴾، و«ما» الأولى ضمّنت معنى الشرط، فدخلت في جوابها الفاء، بخلاف الثانية. وعن عليّ رضي الله عنه: أن أبا بكر ـ رضي الله عنه ـ تصدّق بماله كله، فلامه الناس، فنزلت الآية.

ثم قال تعالى: ﴿ والذين يجتنبون كبائر الإثم ﴾ أي: الكبائر من هذا الجنس. وقرأ الأخوان: (كبير الإثم). قال ابن عباس: هو الشرك، ﴿ و ﴾ يجتنبون ﴿ الفواحِشَ ﴾ وهي ما عظم قُبحها، كالزنى ونحوه، ﴿ وإذا ما غَضِبوا ﴾ من أمر دنياهم ﴿ هم يغفرون ﴾ أي: هم الأخصاء بالغفران في حال الغضب، فيحلمون، ويتجاوزون. وفي الحديث: «من كظم غيظه في الدنيا ردّ الله عنه غضبَه يوم القيامة»(١).

﴿ والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة ﴾؛ أتقنوا الصلوات الخمس، ﴿ وأمرُهُم شُورى بينهم ﴾ أي: ذو شورى، يعني: لا ينفردون برأيهم حتى يجتمعون عليه. وعن الحسن: ما تشاور قوم إلا هُدوا لأرشد أمورهم. والشورى: مصدر، كالفتيا، بمعنى التشاور. ﴿ ومما رزقناهم يُنفقون ﴾؛ يتصدقون.

﴿ والذين إذا أصابهم البغيُ ﴾؛ الظلم ﴿ هم ينتصرون ﴾؛ ينتقمون ممن ظلمهم، أي: يقتصرون في الانتصار على ما حُدّ لهم، ولايعتدون، وكانوا يكرهون أن يذلّوا أنفسهم فيجترئ عليهم الفسّاق، فإذا قدروا عفوا، وإنما حُمدوا على الانتصار؛ لأن من انتصر، وأخذ حقه، ولم يجاوز في ذلك حدّ الله، فلم يسرف في القتل، إن كان وليّ دم، فهو مطيع لله. وقال ابن العربي: قوله: ﴿والذين إذا أصابهم البغي...﴾ الآية، ذكر الانتصار في معرض

(١) أخرج الطبراني في الأوسط (ح ١٣٢٠) عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من دفع غضبه دفع الله عنه عذابه»، قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/ ٧٠): فيه عبد السلام بن هلال، وهو ضعيف.
وأخرج أبو داود في (الأدب، باب في كظم الغيظ ح ٤٧٧٧) والترمذي وحسّنه في (البر والصلة، باب في كظم الغيظ، ح ٢٠٢١) وابن ماجه في (الزهد، باب الحلم، ح ٤١٨٦) عن معاذ بن أنس الجهني رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «من كظم غيظا هو قادر على أن ينفذه، دعاه الله على رؤوس الخلائق يم القيامة، حتى يخيره في أيّ الحور شاء».

المدح، ثم ذكر العفو فى معرض المدح، فاحتمل أن يكونَ أحدهُما رافعًا للآخر، واحتمل أن يكون ذلك راجعًا إلى حالين، أحَدُهُما: أن يكون الباغى مُعلناً بالفجور وقحاً فى الجمهور، ومؤذياً للصغير والكبير، فيكون الانتقامُ منه أفضل، وفى مثله قال إبراهيم النخعى: يُكره للمؤمنين أن يُذِلُّوا أنفسهم، فيجترئ عليهم الفُسّاق. وإما أن تكون الفلتة، أو يقع ذلك ممن يعترف بالزلة، ويسأل المغفرة، فالعفو هاهنا أفضل، وفى مثله نزل: ﴿ وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾(١) ، ﴿ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا ﴾ الآية(٢) .هـ.

ثم بيّن حدّ الانتصار، فقال: ﴿ وجزاءُ سيئةٍ سيئةٌ مثلها ﴾ ، فالأولى سيئة حقيقة، والثانية مجازاً للمشاكلة، وفى تسميتها سيئة نكتة، وهى الإشارة إلى أن العفو أولى، والأخذ بالقصاص سيئة بالنسبة إلى العفو، ولذلك عقبه بقوله: ﴿ فمن عفَا وأصلحَ ﴾ بينه وبين خصمه بالتجاوز والإغضاء ﴿ فأجره على الله ﴾ ، وهى عِدَةٌ مبهمة لايقادر قدرها، ﴿ إنه لايحب الظالمين ﴾ الذين يبدءون بالظلم، أو: يتجاوزون حدّ الانتصار. وفى الحديث: «ينادى منادٍ يوم القيامة: من كان له أجر على الله فليقم، فلا يقوم إلا من عفا»(٣) .

﴿ ولَمَن انتصرَ بعد ظلمه ﴾ أى: أخذ حقه بعد ما ظُلم ـ على إضافة المصدر إلى المفعول ـ ﴿ فأولئك ﴾ جمع الإشارة مراعاة لمعنى «مَن»، ﴿ ما عليهم من سبيلٍ ﴾ للمعاقب ولا للمعاتب ﴿ إنما السبيل الذين يظلمون الناسَ ﴾ ؛ يبتدئونهم بالظلم، ﴿ ويبغون فى الأرض ﴾ ؛ يتكبرون فيها، ويعلون، ويفسدون ﴿ بغير الحق أولئك لهم عذابٌ أليمٌ ﴾ بسبب بغيهم وظلمهم. وفسّر السبيل بالتبعة والحجة.

﴿ ولَمن صَبَرَ ﴾ على الظلم والأذى، ﴿ وغفَرَ ﴾ ولم ينتصر، أو: ولَمَنْ صبر على البلاء من غير شكوى، وغفر بالتجاوز عن الخصم، ولايُبقى لنفسه عليه دعوى، بل يُبرى خصمه من جهته من كل دعوى فى الدنيا والعقبى، ﴿ إنَّ ذلك لَمِنْ عزمِ الأمور ﴾ أى: إن ذلك الصبر والغفران منه لَمِنْ عزم الأمور، أى: من الأمور التى ندب إليها، وعزم على فعلها، أو: مما ينبغى للعاقل أن يوجبه على نفسه، ولايترخّص فى تركه. وحذف الراجع ـ أى: منه ـ كما حذف فى قولهم: السمن منَوَانِ بدرهم. وقال أبو سعيد القرشي: الصبر على المكاره من علامات الانتباه، فمن صبر على مكروه أصابه، ولم يجزع، أورثه الله تعالى حال الرضا، وهو أصل الأحوال؛ ومن جزع من المصيبات، وشكَى، وكلّه إلى نفسه، ثم لم تنفعه شكواه . هـ. وانظر تحصيل الآية فى الإشارة، إن شاء الله.

قال ابن جزى: ويظهر لى أن هذه الآية إشارة إلى ذكر الخلفاء الراشدين ـ رضى الله عنهم ـ لأنه بدأ أولاً بصفات أبى بكر الصدّيق، ثم صفات عُمَر، ثم صفات عثمان ، ثم صفات علىّ بن أبى طالب، فأما صفات

(١) من الآية ٢٧٧ من سورة البقرة. (٢) من الآية ٢٢ من سورة النور.
(٣) عزاه فى اتحاف السادة المتقين ٧/ ٥٦١ لابن عساكر فى التاريخ، من حديث علىّ رضي الله عنه.

أبى بكر، فقوله: ﴿الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون﴾ وإنما جعلنا هذه صفات أبى بكر، وإن كان جميعهم متصفاً بها، لأن أبا بكر كانت له مزية فيها لم تكن لغيره، قال رسول الله ﷺ: «لو وُزن إيمان أبى بكر بإيمان الأمة لرجح»[1] وقال رسول الله ﷺ: «أنا مدينة الإيمان، وأبو بكر بابها». وقال أبو بكر: «لو كُشف الغطاء ما ازددت يقيناً». والتوكل إنما يقوى بقوة الإيمان.

وأما صفات عمر: فقوله ﴿والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش﴾؛ لأن ذلك هو التقوى، وقد قال رسول الله ﷺ: «أنا مدينة التقوى وعُمَر بابها»، وقوله :﴿وإذا ما غَضبوا هم يغفرون﴾، وقوله: ﴿ قل للذين آمنوا يغفروا للذين لايرجون أيام الله﴾ نزلت فى عمر. وأما صفات عثمان؛ فقوله: ﴿والذين استجابوا لربهم﴾؛ لأن عثمان لمَّا دعاه رسولُ الله ﷺ إلى الإسلام بادر إليه، وقوله: ﴿وأقاموا الصلاة﴾؛ لأن عثمان كان كثير الصلاة بالليل، وفيه نزلت: ﴿أمَّن هو قانت آناء الليل...﴾ الآية.[2] ورُوى أنه كان يُحيى الليلَ بركعة، يقرأ فيها القرآن كله. وقوله: ﴿وأمرهم شورى بينهم﴾؛ لأن عثمان وَلِىَ الخلافة بالشورى ، وقوله: ﴿ومما رزقناهم يُنفقون﴾؛ لأن عثمان كان كثير النفقة فى سبيل الله، ويكفيك أنه جهز جيش العسرة.

وأما صفات علىّ؛ فقوله: ﴿والذين إذا أصابهم البغى هم ينتصرون﴾؛ لأنه لمَّا قاتلته الفئة الباغية قاتلها، انتصاراً للحق، وانظر كيف سمى رسولُ الله ﷺ المقاتلين لعلىِّ الفئةَ الباغيةَ، حسبما ورد فى الحديث الصحيح، أنه قال لعمَّار: «وَيْحَ عمَّارٍ، تقتله الفئةُ الباغيةُ»[3] وذلك هو البغى الذى أصابه. وقوله: ﴿فمن عفا وأصلح فأجره على الله﴾ إشارة إلى فعل الحسن بن علىّ، حين بايع معاوية، وأسقط حق نفسه، ليصلح أحوال المسلمين، ويحقن دماءهم. قال رسول الله ﷺ فى الحسن: «إنّ ابنى هذا سَيِّدٌ، وسَيُصلِحُ اللهُ به بين فئتينِ عظيمتين من المسلمين»[4]. وقوله: ﴿ولَمَنِ انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل﴾ إشارة إلى انتصار الحسين بعد موت

---

(١) أخرجه البيهقى فى الشعب (ح ٣٦) وابن أبى شيبة فى الإيمان (١٠٨) عن سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه موقوفاً.
وقال فى كشف الخفاء (٢/٢٣٤): (أخرجه ابن عدى والديلمى، كلاهما عن ابن عمر، مرفوعاً، بلفظ: «لو وضع إيمان أبى بكر على إيمان هذه الأمة لرجح بها». وفى سنده «عيسى بن عبد الله» ضعيف، لكن يقويه ما أخرجه ابن عدى أيضاً من طريق أخرى بلفظ: «لوزن إيمان أبى بكر بإيمان أهل الأرض لرجحهم»، وله شاهد أيضاً فى السنن عن أبى بكرة، مرفوعاً: أن رجلاً قال: رأيت يارسول الله! كأنّ ميزاناً نزل من السماء فوزِنْت أنت وأبو بكر، فرجحت أنت، ثم وزِن أبو بكر بمن بقى فرجح..» الحديث.
قلت: حديث أبى بكرة، أخرجه أبو داود فى (السنة، باب فى الخلفاء، ح ٤٦٣٤) والترمذى فى (الرؤيا، باب ماجاء فى رؤيا النبى ﷺ الميزان والدلو، ح ٢٢٨٧) وقال: «حسن صحيح»، وعندهما: «ووزن عمر وأبو بكر، فرجح أبو بكر...».
(٢) الآية ٩ من سورة الزمر.
(٣) أخرج البخارى فى (الصلاة، باب التعاون فى بناء المسجد، ح ٤٤٧) عن أبى سعيد، قال ـ وهو يُحدث عن بناء المسجد ـ: كنا نحمل لبنةً لبنةً، وعمار لبنتين لبنتين، فرآه النبى ﷺ، فينفض التراب عنه، ويقول: «ويح عمار، تقتله الفئة الباغية، يدعوهم إلى الجنة، ويدعونه إلى النار» قال: يقول عمار: أعوذ بالله من الفتن.
(٤) أخرجه البخارى فى (الصلح، باب قول النبى ﷺ للحسن بن علىّ رضى الله عنهما: إن هذا سيد، ح ٢٧٠٤) من حديث أبى بكرة رضي الله عنه.

أخيه، وطلبه للخلافة، وانتصاره من بنى أمية. وقوله: ﴿إنما السبيل على الذين يظلمون الناس﴾ إشارة إلى بنى أمية، فإنهم استطالوا على الناس، كما فى الحديث: «إنهم جعلوا عباد الله خَوَلًا، ومال الله دُولاً، فيكفيك من ظلمهم أنهم كانوا يلعنون عليّ بن أبى طالب على منابرهم. وقوله: ﴿ولمن صبر وغفر﴾ إشارة إلى صبر أهل بيت النبى ﷺ على ما نالهم من الضر والذل، طول مدة بنىأمية.(١) هـ.

الإشارة: قوله تعالى: ﴿فما أُوتيتم من شيءٍ فمتاع الحياة الدنيا﴾ أى: وينقصُ من درجاتكم فى الآخرة بقدر ماتمتعتم به، كما فى الخبر، ولذلك زهّد فيه بقوله: ﴿وما عند الله خير وأبقى..﴾ الآية، أى: وما عند الله من الثواب الموعود خير من هذا القليل الموجود. ﴿والذين يجتنبون كبائر الإثم﴾ هى أمراض القلوب، كالحسد والكبر والرياء وغيرها، ﴿والفواحش﴾ هى معاصى الجوارح كالزنا وغيره. وقوله تعالى: ﴿وإذا ما غَضِبُوا هم يغفرون﴾ لم يقل الحق تعالى: والذين لم يغضبوا؛ لأن الغضب وصف بشرى، لاينفك عنه مخلوق، فالمطلوب المجاهدة فى دفعه، وردّ ما ينشأ عنه، لا زواله من أصله، فعدم وجوده فى البشر أصلاً نقص، ولذلك قال الشافعى رضي الله عنه: «من استُغضِب ولم يغضب فهو حمار، فالشرف هو كظمه بعد ظهوره، لازواله بالكلية.

وقوله تعالى: ﴿والذين استجابوا لربهم﴾ قال القشيرى: المستجيب لربه هو الذى لايبقى له نَفَسٌ إلا على موافقة رضاه، ولايبقى لهم منه بقية، ﴿وأمرهم شورى بينهم﴾ أى: لايستبدُّ [أحدهم](٢) برأى، ويتّهِمُ رأيَه وأمرَه، ثم إذا أراد القطعَ توكل على الله. هـ.

وحاصل ما اشتملت عليه الآية في رد الغضب: أربع مقامات؛ **الأول** : قوم مِن شأنهم الغفران مطلقًا، قدروا أو عجزوا، لايتحركون فى الانتصار قط، وهو قوله تعالى: ﴿وإذا ماغَضِبُوا هم يغفرون﴾ **والثانى**: قوم قادرون على إنفاذ الغضب، فتحركوا فى الانتصار، ثم عفوا بعد الاقتدار، وهذا قوله: ﴿والذين إذا أصابهم البغى هم ينتصرون﴾، ثم قال: ﴿فمن عفا وأصلح فأجره على الله﴾. **والثالث**: قوم قدروا وانتصروا، وأخذوا حقهم، لكن وقفوا عند ما حدّ لهم، وهو قوله: ﴿ولمن انتصر بعد ظلمه..﴾ الآية. **والرابع**: قوم ظُلِموا، فعفوا، وزادوا الإحسان إلى من أساء إليهم، والدعاء له بالمغفرة، حتى يصير مرحومًا بهم، وهى رتبة الصدّيقية، أن ينتفع بهم أعداؤهم، وهو قوله تعالى: ﴿ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور﴾، ولذلك جعل الله هذا القسم من عزم الأمور.

---

(١) على هامش النسخة الأم مايلى: قلت: هذا التفسير الذى نقله عن ابن جزى باطل، يجل كلام الله تعالى عنه، والأحاديث التى ذكرها كلها موضوعة، ماعدا: «لو وزن إيمان أبي بكر..» وماعدا حديث: أنا مدينة العلم، وعليّ بابها».

(٢) ما بين المعقوفتين مستدرك من لطائف الإشارات.

وعند الصوفية: ثلاث طبقات: العامة ينتصرون، والخاصة لاينتصرون، لكن يرفعون أمرهم إلى الله فى أخذ حقهم من ظالمهم، وخاصة الخاصة يُحسنون لمن أساء إليهم، كما تقدم. وقال القشيرى: ﴿والذين إذا أصابهم البغى﴾ وهو الظلم، ينتصرون؛ لعلمهم أن الظلم أصابهم من قِبَل أنفسهم، فينتصرون من الظالم، وهو النفس، ويكبحون عنانها من الركض في ميدان المخالفة. ثم قال: قوله: ﴿ولمن انتصر..﴾ الآية، علم اللهُ أنّ من عباده مَن لايجد الحرية مِن أحكام النَّفْس، ولايستمكن من محاسن الخُلق، فرخَّص لهم فى المكافأة على سبيل العدل والقسط، وإن كان الأَوْلى بهم الصفح والعفو. هـ.

ثم ذكر وبال الظلم وعقوبته، فقال:

﴿ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِىٍّ ۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ومن يُضلل اللهُ فما له من وليٍ من بعده﴾ أى: فما له من أحد يلى هدايته من بعد إضلال الله إياه، ويمنعه من عذابه. ﴿وترى الظالمين﴾ يوم القيامة، وهم الذين أضلهم الله، ﴿لَمَّا رأَوا العذاب﴾؛ حين يرون العذاب، وأتى بصيغة الماضى للدلالة على تحقيق الوقوع، ﴿يقولون هل إلى مرَد﴾؛ رجعة إلى الدنيا ﴿من سبيل﴾ حتى نُؤمن ونعمل صالحاً.

﴿ وتراهم يُعرضون عليها ﴾ ؛ على النار، يدلّ عليها ذكر العذاب. والخطاب لكل من يتأتى منه الرؤية ﴿ خاشعين من الذل ﴾ ؛ متذللين متضائلين مما دهاهم، فالخشوع: خفض البصر وإظهار الذل، ﴿ ينظرون ﴾ إلى النار﴿ من طَرْفٍ خَفيٍ ﴾ ضعيف بمسارقة، كما ترى المصْبُور ينظر إلى السيف عند إرادة قتله. ﴿ وقال الذين آمنوا إن الخاسرين الذين خسروا أنفسَهم وأهليهم ﴾ بالتعرض للعذاب الخالد ﴿ يومَ القيامة ﴾ ، و«يوم»: متعلق بخسروا . وقول المؤمنين واقع في الدنيا. ويقال، أي: يقولونه يوم القيامة، إذا رأوهم على تلك الصفة: ﴿ ألا أن الظالمين في عذابٍ مقيمٍ ﴾ ؛ دائم، ﴿ وما كان لهم من أولياءَ ينصرونهم ﴾ برفع العذاب عنهم ﴿ من دون الله ﴾ حسبما كانوا يرجون ذلك في الدنيا، ﴿ ومن يُضلل اللهُ فما له من سبيلٍ ﴾ إلى النجاة.

﴿ استجيبوا لربكم ﴾ إلى ما دعاكم إليه على لسان نبيه، ﴿ من قبل أن يأتيَ يومٌ ﴾ أي : يوم القيامة ﴿ لامردَّ له من اللهِ ﴾ أي: لايرده الله بعد ما حكم بمجيئه، فـ «من» متعلق بـ «لامرد»، أو: بـ «يأتي» أي: من قبل أن يأتي من الله يوم لايقدر أحد على رده، ﴿ مالكم من ملجأ يومئذٍ ﴾ أي: مفر تلتجئون إليه، ﴿ ومالكم من نكيرٍ ﴾ أي: وليس لكم إنكار لما اقترفتموه؛ لأنه مدون في صحائف أعمالكم، وتشهد عليكم جوارحكم.

﴿ فإنْ أعرضوا ﴾ عن الإيمان ﴿ فما أرسلناك عليهم حفيظًا ﴾ ؛ رقيبًا، تحفظ أعمالهم، وتحاسبهم، ﴿ إنْ عليك إلا البلاغُ ﴾ ؛ ما عليك إلا تبليغ الرسالة، وقد بلغت، وليس المانع لهم من الإيمان عدم التبليغ، وإنما المانع: الطغيان وبطر النعمة، كما قال تعالى: ﴿ وإنّا إذا أذقنا الإنسانَ منا رحمةً ﴾ أي: نعمة من الصحة، والغنى، والأمن، ﴿ فرح بها ﴾ وقابلها بالبطر، وتوصل بها إلى المخالفة والعصيان. وأريد بالإنسان الجنس، لقوله تعالى: ﴿ وإن تُصبهم سيئة ﴾ ، بلاء، من مرض، وفقر، وخوف، ﴿ بما قدمتْ أيديهمْ فإنَّ الإنسانَ كفورٌ ﴾ ؛ بليغ الكفر، ينسى النعمة رأساً، ويذكر البلية، ويستعظمها، بل يزعم أنها أصابته من غير استحقاق.

وأفرد الضمير في (فرح) مراعاة للفظ، وجمعه في «تُصبهم » مراعاة للمعنى. وإسناد هذه الخصلة إلى الجنس مع كونها من خواص الجنس، لغلبتها فيهم. وتصدير الشرطية الأُولى بإذا، مع إسناد الإذاقة إلى نون العظمة؛ للتنبيه على أن إيصال الرحمة محقق الوجود، كثير الوقوع، وأنه مراد بالذات، كما أن تصدير الثانية بأن، وإسناد الإصابة إلى السيئة، وتعليلها بأعمالهم؛ للإيذان بندرة وقوعها، وأنها غير مرادة بالذات، «إن رحمتي سبقت غضبي». ووضع الظاهر موضع الضمير للتسجيل على أن هذا الجنس موسوم بكفران النعم. قاله أبو السعود.

الإشارة: من تنكبتْه العناية السابقة، وأدركته الغواية اللاحقة، لم ينفع فيه وعظ ولاتذكير، وليس له من عذاب الله وليَ ولانصير، فإذا تحققت الحقائق، وطلب الرجوع، لم يجد له سبيلا، وبقِي في الهوانِ خاشعاً ذليلاً، فيُعيرهم

من سبقتْ لهم العناية، من أهل الجد والتشمير، ويقولون: هؤلاء الذين خسروا أنفسهم، حيث لم يُتعبوها في مرضاة الله، وأهليهم، حيث لم يذكّروهم الله.

قال القشيري: قوله تعالى: ﴿ استجيبوا لربكم﴾ بالوفاء بعهده، والقيام بحقّه، والرجوع من مخالفته إلى موافقته، والاستسلام في كل وقت لحُكمه والطريقُ اليوم إلى الاستجابة مفتوحٌ، وعن قريبٍ سيُغْلَقُ البابُ على القلب بغتة، ويُؤخذ فلتةً. هـ. ويقال لكل واعظ وداع: ﴿فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظًا . . .﴾ الآية.

ثم بيّن وجه ما تقدم، من أن الأمور كلها بيده، هداية وإضلالاً، وإنعاماً وابتلاء، فقال:

﴿ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿لله ملك السموات والأرض﴾ أي: يملك التصرف فيهما، وفي كل ما فيهما، كيف يشاء، ومن جملته: أن يقسم النعمة والبلية، حسبما يريده. ﴿يخلق ما يشاء﴾ مما يعلمه الخلقُ ومما لايعلمونه، ﴿يهبُ لمن يشاء إناثًا﴾ من الأولاد ﴿ويهبُ لمن يشاء الذكورَ﴾ منهم، من غير أن يكون لأحد في ذلك مدخل، ﴿أو يُزوجهم﴾ أي: يقرن بين الصنفين، ويهبهما جميعاً ﴿ذكرانًا وإناثًا﴾، بأن تلد غلاماً ثم جارية، أو تلدهما معاً. ﴿ويجعلُ من يشاءُ عقيماً﴾ لا نسل له. والعقيم: الذي لايُولد له، رجل أو امرأة.

وقدّم الإناثَ أولاً على الذكور؛ لأن سياقَ الكلام أنه فاعل ما يشاء، لا ما يشاؤه الإنسان، فكان ذِكر الإناث اللاتي من جملة ما لا يشاؤه الإنسان أهمّ، أو: لأن الكلام في البلاء، والعرب تعدهن عظيم البلايا، أو: تطييب قلوب آبائهن، ولمّا أخّر الذكور ـ وهم أحقاء بالتقديم ـ تدارك ذلك بتعريفهم؛ لأن التعريف تنويه وتشريف، ثم أعطى بعد ذلك كلا الجنسين ما يستحقه من التقديم والتأخير، فقال: ﴿ذكراناً وإناثاً﴾. وقيل المراد: أحوال الأنبياء ـ عليهم السلام ـ حيث وهب لشعيب ولوط إناثاً، ولإبراهيم ذكوراً، وللنبي ﷺ ذكوراً وإناثاً، وجعل يحيى وعيسى عقيمين.

﴿إنه عليم قدير﴾ مبالغ في العلم والقدرة، فيفعل ما فيه حكمة ومصلحة.

الإشارة: يهب لمن يشاء إناثاً، علوماً وحسنات، ويهب لمن يشاء الذكور، أذواقًا وواردات، ويجعل من يشاء عقيماً، لاعلم ولاذوق، وانظر لطائف المنن[1]. أو تقول: يهب لمن يشاء إناثاً؛ مَن ورّث علم الرسوم الظاهر،

(١) للشيخ أحمد بن عطاء السكندري. باب تبيان معنى آيات كتاب الله تعالى ص١٦٦.

وأقيمت بعده، ويهب لمن يشاء الذكور؛ من ورّث علم الأذواق والوجدان، وعمّر رجالاً، أو يزوجهم؛ من ورثهما، ويجعل من يشاء عقيماً لم يترك وارثاً، لا من الظاهر، ولا من الباطن، وقد يكون كاملاً وهو عقيم، وقد يكون غير كامل وله أولاد كثيرة، لكن الغالب على من له أولاد أن يتسع بهم، بخلاف العقيم. والله تعالى أعلم.

ثم قرر عظمة مُلكه، فقال:

﴿ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿وماكان لبشر﴾ أي: ما صح لأحد من البشر ﴿أن يُكلمه اللهُ﴾ بوجه من الوجوه ﴿إلا وَحْياً﴾؛ إلهاماً، كقوله عليه الصلاة والسلام: «ألقى فى رُوعى»[(١)] أو: رؤيا فى المنام لقوله ﷺ: «رؤيا الأنبياء وحى»[(٢)] كأمر إبراهيم عليه السلام بذبح الولد، وكما أوحى إلى أم موسى، رُوى عن مجاهد: «أوحى اللهُ الزبورَ إلى داود عليه السلام- فى صدره». ﴿أو من وراءِ حجاب﴾ بأن يسمع كلاماً من الله، من غير رؤية السامع من يكلمه، كما سمع موسى عليه السلام من الشجرة، ومن الفضاء فى جبل الطور، وليس المراد به حجاب الله تعالى على عبده حساً؛ إذ لاحجاب بينه وبين خلقه حساً، وإنما المراد: المنع من رؤية الذات بلا واسطة.

﴿أو يُرسلَ رسولاً﴾ أو: بأن يرسل ملَكاً ﴿فيُوحىَ﴾ الملَكُ ﴿بإذنه﴾؛ بإذن الله تعالى وتيسيره ﴿ما يشاءُ﴾ من الوحى. وهذا هو الذى يجرى بينه تعالى وبين أنبيائه فى عامة الأوقات. روى: أن اليهود قالت للنبى ﷺ: ألا تكلم الله، وتنظر إليه إن كنت نبيّاً، كما كلمه موسى، ونظر إليه؟ فقال ﷺ: «لم ينظر موسى إلى الله تعالى» فنزلت[(٣)].

---

(١) ورد: «إن روح القدس نفث فى رُوعى أنّ نفساً لن تموت حتى تستكمل أجلها، وتستوعب رزقها...» الحديث. أخرجه أبو نعيم فى الحلية (١٠/٢٧) من حديث أبى أمامة رضي الله عنه. وجاءت كلمة «ألقى فى روعي» بنصها عن أبى سعيد الخدرى فى حديث الرقية بالفاتحة، ذلك عندما قال الرسول ﷺ: «ومايدريك أنها رقية»؟ فقال أبو سعيد: ألقى فى رُوعى». الحديث أخرجه أحمد (٣/٥٠).

(٢) أخرجه البخارى فى (الوضوء، باب التخفيف فى الوضوء، ١٣٨) عن عبيد بن عمير (تابعى) موقوفاً، وقال الحافظ ابن حجر فى فتح البارى (١/٢٨٩): «رواه مسلم مرفوعاً».

(٣) قال الحافظ ابن حجر فى الكافى الشاف (ص ١٤٦): «لم أجده».

والذى عليه جمهور المحققين أن نبينا عليه الصلاة والسلام رأى ربه ليلة المعراج، وكلّمه مشافهة، وعليه حمل البيضاوى قوله تعالى: ﴿إلا وحيًا﴾؛ لأن الوحى هو: الكلام الخفى، المدرك بسرعة، أعم من أن يكون مشافهة أوغيرها.

قال الطيبى: وإذا حمل الوحى على ما قاله البيضاوى، وأنه المشافهة، المعنى بقوله: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾(١) اتجه ترتيب الآية، وأنه ذكر أولاً الكلام بلا واسطة، بل مشافهة، وهو حال نبينا ﷺ، ثم ذكر ما كان بغير واسطة، ولكن لا بمشافهة، بل من وراء الغيب، ثم ذكر الكلام بواسطة الإرسال(٢) . هـ. بالمعنى.

﴿إنه عَلِيٌّ﴾؛ متعال عن صفات المخلوقين، لايتأتى جريان المفاوضة بينه تعالى وبينهم إلا بأحد الوجوه المذكورة، ولاتكون المكافحة إلا بالغيبة عن حس البشرية، ﴿حكيمٌ﴾ يُجرى أفعاله على سنن الحكمة، فيكلم تارة بواسطة، وأخرى بدونها، مكافحة، أو غيرها.

﴿وكذلك﴾ أى: ومثل ذلك الإيحاء البديع ـ كما وصفنا ﴿ أوحينا إليك روحاً من أمرنا﴾ وهو القرآن، الذى هو للقلوب بمنزلة الروح للأبدان، فحييت الحياة الأبدية. ﴿ماكنت تدري﴾ قبل الوحى ﴿ما الكتابُ﴾ أىّ شيء هو، ﴿ولا الإيمانُ﴾ بما فى تضاعيف الكتاب من الأمور التى لاتهتدى إليها العقول، لا الإيمان بما يستقل به العقل والنظر، فإنّ درايتَه ﷺ مما لاريب فيه قطعًا. قال القشيرى: ماكنت تدرى قبل هذا ما القرآن ولا الإيمان بتفصيل هذه الشرائع. وقال الشيخ البكرى: أى الإيمان على الوجه الأخص، المرتب على تنزلات الآيات، وتلاوة البينات، واستكشاف وجه الحق بأنوار العلم المنزل على قلبه من حضرة ربه .هـ.

وقال ابن المنير: الإيمان برسالة نفسه، وهو المنفى عنه قبل الوحى؛ لأن حقيقة الإيمان : التصديق بالله وبرسوله .هـ.

﴿ولكن جعلناه﴾ أى: الروح الذى أوحيناه إليك ﴿نوراً نهدي به من نشاء﴾ هدايته ﴿من عبادنا﴾، وهو الذى يصرف اختياره نحو الاهتداء به. ﴿وإنك لتهدي﴾ بذلك النور من نشاء هدايته، أو: وإنك لتدعو ﴿إلى

(١) الآية: ١٠ من سورة النجم.
(٢) على هامش النسخة الأساسية مايلى:
وعلى كلام البيضاوى يختل نظام القرآن المعجز ببلاغته، إذ معناه: وماكان لبشر أن يكلمه الله إلا كلاماً مواجهة أو من وراء حجاب.. إلخ، وهذا غير معقول صدوره من بلغاء البشر، فضلاً عن كلام الله، فأعجب للطيبى وللمؤلف، ولكل من أمره على هذا المعنى المختل. هـ.

صراط مستقيم﴾ هو الإسلام وسائر الشرائع والأحكام، ﴿صراطِ الله﴾؛ بدل من الأول، وإضافته إلى الاسم الجليل، ثم وصفه بقوله تعالى: ﴿الذي له ما في السموات وما في الأرض﴾ لتفخيم شأنه، وتقرير استقامته، وتأكيد وجوب سلوكه؛ فإن كون جميع ما فيهما من الموجودات له تعالى، خلقاً، وملكاً، وتصرفاً، مما يُوجب ذلك أتم الإيجاب. ﴿ألا إلى الله تصير الأمورُ﴾ أي: الأمور قاطبة راجعة إليه، لا إلى غيره، فيتصرف فيها على وِفق حكمته ومشيئته.

الإشارة: قد تحصل للأولياء المكالمة مع الحق تعالى بواسطة تجلياته، فيسمعون خطابه تعالى من البشر والحجر، أو بلا واسطة، بحيث يسمعون الكلام من الفضاء، وإليه أشار الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه بقوله: «وهب لنا مشاهدةً تصحبها مكالمة»، ولا تكون هذه الحالة إلا للأكابر من أهل الفناء والبقاء. وأما مكالمة الحق من النور الأقدس، بلا واسطة، فهو خاص نبينا ﷺ ليلة الإسراء. قال شيخ شيوخنا، سيدى عبدالرحمن الفاسى رضي الله عنه: والذى عندى أن التكلم على المكافحة والمشافهة إنما يكون بالانخلاع عن البشرية، ومحوها، والبقاء بصفات الربوبية، وذلك إشارة إلى أنه ـ عليه السلام ـ إنما شُوفِهَ وكلِّم بعد العروج عن أرض الطبيعة إلى سماء الحقيقة، وكان بالأرض يُكلم بالواسطة، وموسى كُلِّم بغير واسطة، ولكن بغير مشافهة، ولذلك كان كلامه بالأرض، ولم يعط الرؤية؛ لأنها لاتكون فى الأرض، أى: فى أرض البشرية، بل لابد من الغيبة عنها. وذهب الورتجبى إلى أن الحصرْ فيما ذكر فى الآية إنما هو لمن كان فى حجاب البشرية، فأما من خرج عنها إلى الغيب، وألبس نور القرب وكحل عينه بنوره تعالى، ومدّ سمعه بقوة الربوبية ، فإنه يُخاطب كفاحاً وعياناً. ونقل مثل ذلك عن الواسطى، فراجع بسطه فيه. والفرق بينه وبين ماذكرنا: أن خطاب المكافحة عنده خارجة من الثلاثة المذكورة فى الآية، وعندنا داخلة فى قوله: ﴿إلا وحياً﴾؛ لأنه أعم من المشافهة، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وإنك لتَهدى إلى صراط مستقيم﴾ أى: طريق الوصول والترقى أبداً، فيؤخذ منه: أن وساطته ﷺ لاتنقطع عن المريد أبداً؛ لأن الترقى يكون باستعمال أدب العبودية، وهى مأخوذه عنه ﷺ، وكما أن الترقى لاينقطع؛ فالأدب ـ الذى هو سلوك طريقته ﷺ لاينقطع. والله تعالى أعلم، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم.

❁ ❁ ❁

سورة الزخرف

مكية. وهي تسع وثمانون آية. ومناسبتها لما قبلها قوله: ﴿ما كنت تدري ما الكتاب...﴾(١) إلخ، مع قوله: ﴿والكتاب المبين إنا جعلناه قرآناً عربياً﴾، فإنه تتميم له.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ حمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ۝٣ وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ۝٤ أَفَنَضۡرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكۡرَ صَفۡحًا أَن كُنتُمۡ قَوۡمٗا مُّسۡرِفِينَ ۝٥ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿حمٓ﴾؛ يا محمد، ﴿و﴾ حق ﴿الكتاب المبين﴾ أى: المبين لما أنزل عليهم، لكونه بلغتهم، وعلى أساليبهم، أو: الموضّح لطريق الهدى من الضلالة، أو: المبيّن لكل ماتحتاج إليه الأمة فى أبواب الديانة. وجواب القسم: ﴿إنا جعلناه قرآناً عربياً﴾ بلغتكم ﴿لعلكم تعقلون﴾ أى: جعلنا ذلك الكتاب قرآناً عربياً لكي تفهموه، وتُحيطوا بما فيه من النظم الرائق، والمعنى الفائق، وتقفوا على ماتضمنه من الشواهد القاطعة بخروجه عن طوق البشر، وتعرفوا حق النعمة فى ذلك، فتنقطع أعذاركم بالكلية.

﴿وإنه فى أمّ الكتاب لدينا﴾ أى: وإن القرآن العظيم مثبت عند الله فى اللوح المحفوظ، دليله قوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾(٢). وسُمّى أمّ الكتاب؛ لأنه أصل الكتب السماوية، منه تُنقل وتُنسخ. وقوله تعالى: ﴿لَعَلِيٌّ﴾ خبر «إن» أى: إنه رفيع القدر بين الكتب، شريف المنزلة؛ لكونه معجزاً من بينها. أو: فى أعلى طبقات البلاغة. ﴿حكيمٌ﴾؛ ذو حكمة بالغة،. أو: محكم، لا ينسخه كتاب.

وبعدما بيّن علو شأنه، وبيّن أنه أنزله بلغتهم؛ ليعلموه، ويؤمنوا به، ويعملوا بما فيه، عقّبَ ذلك بإنكار أن يكون الأمر بخلافه، فقال: ﴿أَفَنضرِبُ عنكم الذِكرَ﴾ أى: ننحيه ونُبعده. والضرب: مجاز، من قولهم: ضرب الغرائب

(١) الآية ٥٢ من سورة الشورى.

(٢) الآيتان: ٢١ ـ ٢٢ من سورة البروج.

عن الحوض(١) . وفيه إشعار باقتضاء الحكمة توجيه الذكر إليهم، وملازمته لهم، كأنه يتهافت عليهم ثم يضربه عنهم. والفاء: للعطف على محذوف، أي: أنهملكم فنضرب عنكم الذكر ﴿ صَفْحاً ﴾ أي: إعراضاً، مصدر، من: صَفح عنه: إذا أعرض، منصوب على أنه مفعول له، على معنى: أفنعزل عنكم إنزال القرآن، وإلزام الحجة به إعراضاً عنكم. ويجوز أن يكون مصدراً مؤكداً لما دلّ عليه «نضرب»؛ لأنه في معنى الصفح، كأنه قيل: أفنصفح صفحاً ﴿أن كنتم قوماً مسرفين﴾، أي: لأن كنتم منهمكين في الإسراف، مصرّين عليه؛ لأن حالكم اقتضى تخليتكم وشأنكم، حتى تموتوا على الكفر والضلالة، فتبقوا في العذاب الخالد، لكن بسعة رحمتنا لا نفعل ذلك، بل نهديكم إلى الحق، بإرسال الرسول الأمين، وإنزال الكتاب المبين.

ومن قرأ بالكسر(٢) فشرط حُذف جوابه؛ لدلالة ما قبله عليه، وهو من الشرط الذي يصدُر عن الجازم بصحة الأمر، كما يقول الأجير: إن كنتُ عملتُ لك فوفّني حقي، وهو عالم بذلك. وعبّر بـ «أن»؛ إخراجاً للمحقق مخرج المشكوك؛ لاستجهالهم(٣)، كأن الإسراف من حقه ألا يقع.

الإشارة : (حم) أي: حببناك، ومجدناك، وملكناك، وحق الكتاب المبين. ثم استأنف فقال: (إنا جعلناه) أي: ماشرفناك به أنت وقومك (قرآناً عربياً) يفهمه من يسمعه (لعلكم تعقلون) عن الله، فتشكروا نعمه. (وإنه في أُمّ الكتاب) أي: وإن الذي شرفناكم به في أُمّ الكتاب. قال الورتجبي: أي: إنه صفتي، كان في ذاته(٤) منزهاً عن النقائص والافتراق ـ أي: منزهاً عن الحروف والأصوات، التي من شأنها التغير، وعن التقديم والتأخير، وهو افتراق كلماته ـ إذ هما من صفات الحدث. وأُم الكتاب عبارة عن [ذاته القديم، لأنها](٥) أصل جميع الصفات، (لَدَيْنَا) معناه: ماذكرنا أنه في أُمّ الكتاب عندنا (لعليّ) علا عن أن يدركه أحدٌ بالحقيقة، ممتنع من انتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين، (حكيم) محكم مبين. وقال جعفر: عليّ عن درك العباد وتوهمهم، حكيم فيما دبّر وأنشأ وقدّر.هـ. فانظره، فإنّ هذه من صفات الحق، والكلام في أوصاف القرآن.

وقوله تعالى: ﴿ أَفَنَضْرِبُ عنكم الذِكْرَ صفحاً . . . ﴾ الآية، قال القشيري: وفي هذه إشارة لطيفة، وهو: ألا يُقطع الكلامُ عمّن تمادى في عصيانه، وأسرف في أكثر شأنه، [فأحرى](٦) أن مَنْ لم يُقصّرْ في إيمانه، أو تلطّخ

(١) الغرائب: جمع غريبة، وهي الإبل الغريبة عن إبل صاحب الحوض.

(٢) قرأ نافع، وحمزة، والكسائي، وأبو جعفر «إن كنتم» بكسر الهمزة، على أنها شرطية. وقرأ الباقون بالفتح على العلة. انظر الإتحاف (٤٥٣/٢).

(٣) في الأصول (لاستهجانهم) والمثبت من تفسير أبي السعود.

(٤) في الورتجبي [ذاتي].

(٥) في الورتجبي: [ذات القدم لأنه].

(٦) في الأصول [أرجو].

بعصيانه، ولم يدخل خللٌ فى عرفانه، فإنه لايَمْنَعَ عنه رؤية لطائف غفرانه.هـ. يعنى: أن الحق جل جلاله لم يقطع كلامه عمن تمادى فى ضلاله، فكيف يقطع إحسانه عمن تمسك بإيمانه، ولو أكثر من عصيانه. وكذلك أهل النسبة الصوفية، إذا اعوجّ أخوهم، لا يقطعون عنه كلامهم وإحسانهم، بل يلاطفونه، حتى يرجع، وهذا مذهب الجمهور.

ثم سلّى نبيه بمن قبله، فقال:

﴿ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٧﴾ فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿وكم أرسلنا﴾ أى: كثيراً أرسلنا قبلك ﴿من نبيٍّ فى الأولين﴾؛ فى الأمم الماضية، فكذّبوهم واستهزءوا بهم. ﴿ومايأتيهم من نبيٍّ إلا كانوا به يستهزءون﴾، فاصبر كما صبروا. ويحتمل أن يكون تقريراً لمَا قبله؛ لبيان أن إسراف الأمم السابقة لم يمنعه تعالى من إرسال الرسل إليهم، وكونها تسلية للرسول ﷺ أظهر. ﴿فأهلكنا أشدَّ منهم بَطْشاً﴾ أى: فأهلكنا من الأمم السالفة مَن كان أكثر منهم طغياناً وإسرافاً، ﴿ومضى مَثَلُ الأولين﴾ أى: سلف فى القرآن غير مرة ذكر قصة الأولين، وهى عِدةٌ له ﷺ، ووعيد لقومه، بطريق الأولوية. فمثل ما جرى على الأولين يجرى على هؤلاء؛ لاشتراكهم فى الوصف. وظاهر الآية: أن النبى والرسول واحد، والمشهور: أن النبى أعم، فكل رسول نبى، ولا عكس، فالنبى مقصور فى الحُكم على نفسه، والرسول نبيّ مكلف بالتبليغ.

الإشارة: ماسليت به الأنبياءُ والرسل يُسلّى به الأولياء؛ لأنهم خلفاؤهم، فكل من أُوذى واستهزئ به يتذكر ما جرى على من كان أفضل منه من الأنبياء وأكابر الأولياء، فيخف عليه الأذى. وبالله التوفيق.

ثم ذكر إقرارهم بوجود الصانع، فقال:

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ

تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ وَالَّذِى خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾
لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِى سَخَّرَ
لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ولئن سألتهم ﴾ أى: المشركين ﴿ مَنْ خلق السموات والأرض ليقولُنَّ خلقهن العزيزُ العليمُ ﴾ أى: ينسبون خلقها إلى مَن هذا وصفه فى نفس الأمر؛ لا أنهم يُعبِّرون عنه بهذا العنوان. واختار هذين الوصفين للإيذان بانفراده بالإبداع والاختراع والتدبير؛ لأن العزة تُؤذن بالغلبة والاقتدار، والعلم يؤذن بالتدبر والاختيار، وليُرتب عليه ما يناسبه من الأوصاف، وهو قوله: ﴿ الذى جعل لكم الأرض مهاداً ﴾(١) أى: موضع قرار كالمهد المعلق فى الهواء، ﴿ وجعل لكم فيها سُبُلاً ﴾ تسلكونها فى أسفاركم ﴿ لعلكم تهتدون ﴾ أى: لكى تهتدوا بسلوكها إلى مقاصدكم، أو: بالتدبر فيها إلى توحيد ربكم، الذى هو المقصد الأصلى.

﴿ والذى نَزَّلَ من السماء ماء بِقَدَرٍ ﴾؛ بمقدار يسلم معه العباد، وتحتاج إليه البلاد، على ما تقتضيه مشيئته المبنية على الحِكَمِ والمصالح، ﴿ فأنشرنا به ﴾ أى: أحيينا بذلك الماء ﴿ بلدةً ميْتاً ﴾ خالياً عنه الماء والنبات. وقُرئ: «ميِّتا» بالتشديد(٢). وتذكيره؛ لأن البلدة بمعنى البلد. والالتفات إلى نون العظمة؛ لإظهار كمال العناية بأمر الإحياء والإشعار بعظيم خطره، ﴿ كذلك تُخرجون ﴾ أى: مثل ذلك الإحياء، الذى هو فى الحقيقة: إخراج النبات من الأرض، تُخرجون من قبوركم أحياء. وفى التعبير عن إخراج النبات بالإنشاء، الذى هو إحياء الموتى، وعن إحيائهم بالإخراج؛ تفخيم لشأن الإنبات، وتهوين لأمر البعث، لتقويم سَنَنِ الاستدلال، وتوضيح منهاج القياس.

وهذه الجُمل، من قوله ﴿ الذى جعل... ﴾: استئناف منه تعالى، وليست من مقول الكفار؛ لأنهم يُنكرون الإخراج من القبور، بل الآية حجة عليهم فى إنكار البعث، وكذا قوله: ﴿ والذى خلق الأزواجَ كلها ﴾، أى: أصناف المخلوقات بحذافيرها، على اختلاف أنواعها وألوانها. وقيل: الأزواج: ماكان مزدوجاً، كالذكر والأنثى، والفوق والتحت، والأبيض والأسود، والحلو والحامض، وقيل: كل ما ظهر من الغيب فهو مزدوج. والفرد هو الله.

---

(١) أثبت المفسر قراءة: «مهاداً» بكسر الميم وفتح الهاء، وألف بعدها، وهى قراءة نافع وابن كثير وأبى عمرو، وابن عامر. وقرأ عاصم، وحمزة، والكسائى: «مهداً» بفتح الميم وسكون الهاء، مع القصر.

(٢) وبذلك قرأ أبو جعفر.. انظر الإتحاف (٢/ ٤٥٤).

﴿ وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون ﴾ أي: ما تركبونه، يقال: ركبوا في الفلك، وركبوا الأنعام، فَغَلّبَ المتعدّى بغير واسطة؛ لقوته [على][1] المتعدى بواسطة، فقيل: تركبونه.

﴿ لتستووا على ظهوره ﴾: ولتستعلوا على ظهور ما تركبونه من الفُلك والأنعام، ﴿ ثم تذكروا نعمةَ ربكم إذا استويتم عليه ﴾؛ تذكروها بقلوبكم، معترفين بها بألسنتكم، مستعظمين لها، ثم تحمدوا عليها بألسنتكم، ﴿ وتقولوا سبحان َالذى سَخَّرَ لنا هذا ﴾ أي: ذلّل لنا هذا المركوب، متعجبين من ذلك ﴿ وما كُنا له مُقْرِنينَ ﴾؛ مطيقين. يقال: أقرن الشيء: إذا أطاقه، وأصله: وجده قرينه؛ لأن الصعب لا يكون قريناً للضعيف إلا إذا ذلله الله وسهّله، ﴿ وإناً إلى ربنا لمنقلبون ﴾ أي: راجعون. وفيه إيذان بأن حق الراكب أن يذكر عند ركوبه مركب الدنيا، آخر مركبه منها، وهو: الجنازة؛ فيبنى أموره في مسيره على تلك الملاحظة، حتى لا يخطر بباله شيء من زينة الدنيا، وملاهيها وأشغالها.

وعن النبي ﷺ «أنه كان إذا وضع رجله في الركاب، قال: «بسم الله» فإذا استوى على الدابة قال: «الحمد لله الذى سخر لنا هذا...» إلى: «منقلبون»، ثم كبّر «ثلاثاً»، وهلل ثلاثاً، ثم قال: «اللهم اغفر لى..»[2]، وحُكى أن قومًا ركبوا، وقالوا: «سبحان الذى سخّر لنا هذا...» الآية، وفيهم رجل على ناقة لا تتحرك هُزالاً، فقال: إنى مقرن لهذه ـ أى مطيق ـ فسقط منها لوثبتها، واندقت عنقه[3]. وينبغى ألا يكون ركوبُ العاقل للشهرة والتلذذ، بل للاعتبار، فيحمد الله ويشكره على ما أولاه من نعمه، وسخّر له من أنعامه.

الإشارة: قد اتفقت الملل كلها على وجود الصانع، إلا من لا عِبْرة به من الفلاسفة، وإنما كفر من كفر بالإشراك، أو: بوصف الحق على غير ما هو عليه، أو: بجحد الرسول. وقد تواطأت الأدلة العقلية والسمعية على وجود الحق وظهوره، بظهور آثار قدرته، والصفة لا تُفارق الموصوف، فدلّ بوجود آثاره على وجود أسمائه، وبوجود أسمائه، على وجود أوصافه، وبثبوت أوصافه على وجود ذاته. فأهل السلوك يكشف لهم أولاً عن وجود آثاره، ثم عن أسمائه، ثم عن صفاته، ثم عن شهود ذاته. وأهل الجذب يكشف لهم أولاً عن ذاته، ثم عن أوصافه، ثم عن أسمائه، ثم عن آثاره، فربما التقيا في الطريق، هذا في ترقيه، وهذا في تدليه، كما في الحِكَم.

(١) في الأصول (في) والمثبت من تفسير النسفي.

(٢) أخرجه، مطولاً، أبو داود في (الجهاد، باب ما يقول الرجل إذا ركب ٣ / ٧٧، ح ٢٦٠٢) والترمذي في (الدعوات، باب ما يقول إذا ركب دابة ٥ / ٤٦٧ ح ٣٤٤٦). وقال: [حديث حسن صحيح]. وابن حبان (الأذكار، باب ما يقول إذا ركب الدابة ح ٢٣٧٠ ـ ٢٣٨١. ص ٥٩١ موارد) والحاكم (٢/ ٩١) وصححه على شرط مسلم. من حديث سيدنا علي ﷺ وكرم وجهه.

(٣) عزاه السيوطي في الدر المنثور (٥/ ٧١٧) لعبد بن حميد، وابن المنذر، عن سليمان بن يسار.

وقوله تعالى: ﴿الذي جعل لكم الأرض مِهاداً . . .﴾(١) الخ، قال القشيري: كما جعلها قراراً لأشباحهم، جَعَلَ الأشباحَ قراراً لأرواحهم؛ فهي سُكّانُ النفوس، كما أن الخلْق سُكّانُ الأرضِ، فإذا انتهت مدةُ كوْنِ النفوسِ، حكَمَ اللهُ بخرابها.. كذلك إذا فارقت الأرواحُ الأشباحَ بالكلِّيَّة، قضى الله بخرابها.

ثم قال في قوله: ﴿فأنشرنا به بلدة ميتاً﴾: وكما يُحْيي الأرضَ بالمطر يُحْيي القلوبَ بحُسن النَّظَر. والذي خلق من الأزواج أصنافَ الخلْق، كذلك حبس عليكم الأحوالَ كلها، فمِنْ رغبةٍ في الخيرات، وخوفٍ يحملكم على تَرْكِ الزلات، ورجاءٍ يبعثكم على فعل الطاعات، طمعاً في المثوبات، وغير ذلك من فنون الصِّفات، وكما سخَّرَ الأنعام، وأعظم المنَّة بذلك، سخَّرَ للمؤمنين مركب التوفيق، يحْملهم عليه إلى بساط الطاعة، وسهَّل للمريدين مركبَ الإرادة، وحمَلَهم عليه إلى عرَصات الجود، وفضاء الشهود، وسهَّل للعارفين مركبَ الهمّة، فأناخوا بالحضرة القدسية، وعند ذلك محَطُّ الكافة؛ ثم لا تخرق سرادقاتِ العزةِ همَّةُ مخلوقٍ، سواء كان ملَكاً مقَرَّباً، أو نبيّاً مرْسلاً، أو وليّاً مُكَرَّماً. فعند سطواتِ العزِّ يتلاشى كلُّ مخلوقٍ، ويقف وراءها كل مُحْدَثٍ مسبوق.هـ. ببعض المعنى. وسرادقات العز: حجاب الكبرياء، فلا تحصل الإحاطة بكنه الربوبية لأحدٍ من الخلق. ولهذا يبقى الترقي أبداً للعارفين، في هذه الدار، وفي تلك الدار، ولا يحصل على غاية أسرار الربوبية أحد، ولو بقي يترقى أبداً سرمداً. والله تعالى أعلم.

ثم أبطل مذهب أهل الشرك، فقال:

﴿وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿وجعلوا﴾ أي: المشركين ﴿له من عباده جُزْءاً﴾ حيث قالوا: الملائكة بنات الله، فجعلوهم جزءاً له، وبعضاً منه، كما يكون الولد لوالده جزءاً. وهذا متصل بقوله ﴿ولئن سألتهم...﴾ الخ، أي:

---

(١) راجع التعليق على هذه القراءة في موضعها أثناء التفسير.

ولئن سألتهم عن خالق السموات والأرض ليَعترفن به، وقد جعلوا له سبحانه بألسنتهم، واعتقادهم مع ذلك الاعتراف، من عباده جُزءاً. وعبَّر بالجزء لمزيد استحالته في حق الواحد الأحد، من جميع الجهات. وقرأ أبو بكر وحماد بضمتين. ﴿ إنَّ الإنسانَ لكفور مبين ﴾ ؛ لَجَحود للنعمة، ظاهر الكفران، مبالغ فيه؛ لأن نسبة الولد إليه أشنع الكفر. والكفر أصل الكفران كله.

ثم ردّ عليهم بقوله: ﴿ أمِ اتخذَ مما يخلُقُ بنات وأصْفَاكم بالبنينَ ﴾ ، الهمزة للإنكار، تجهيلاً [وتعجيبا](١) من شأنهم، حيث ادّعوا أنه اختار لنفسه أخس الأشياء، ولهم الأعلى، أي: بل أتخذ لنفسه أخس الصنفين، واختار لكم أفضلهما؟ على معنى: هبُوا أنكم اجترأتم إضافة جنس الولد إليه سبحانه، مع استحالته وامتناعه، أمَا كان لكم شيء من العقل، ونبذة من الحياء، حتى اجترأتم على التفوّه بهذه العظيمة، الخارقة للمعقول، من ادعاء أنه تعالى آثركم على نفسه بخير الصنفين وأعلاهما، وترك له شرهما وأدناهما؟. وتنكير «بنات»، وتعريف «البنين» لما اعتبر فيهما من الحقارة والفخامة.

وجملة: «وأصفاكم»: إما عطف على «اتخذ»، داخل في حكم [التعجيب](٢) والإنكار، أو: حال من فاعله، بإضمار قد، أو: بدونه، على الخلاف. والالتفات إلى الخطاب لتأكيد الإجرام وتشديد التوبيخ.

ثم قرره بقوله: ﴿ وإذا بُشِّر أحدُهُم بما ضَرَبَ للرحمن مَثَلاً ﴾ أي: وإذا أُخبِر أحدُهم بولادة ما جُعل مثلاً له سبحانه، وهي الأنثى، لأنهم جعلوا الملائكة بنات الله، وجزءاً منه؛ إذ الولد لابد أن يُجانس الوالد ويشابهه. ﴿ ظَلَّ وجهُهُ مُسوداً وهو كظيمٌ ﴾ يعني: أنهم نسبوا إليه هذا الجنس، ومِن حالهم: أن أحدهم إذا قيل له: قد وُلدت لك بنت، اغتم، واربدّ وجهه غيظاً وتأسفاً، وهو مملوءٌ من الكرب. والظلول: بمعنى الصيرورة، أي: صار أسود في الغاية من سوء ما بُشر به.

﴿ أوَ مَن يَنْشَأُ(٣) في الحلْيةِ وهو في الخصامِ غيرُ مُبِينٍ ﴾ أي: أوَ يَجْعَلُ للرحمن من الولد مَن هذه الصفة المذمومة صفته، وهو أنه ينشأ في الحلية، أي: يتربّى في الزينة والتخنث، وإذا احتاج إلى مجاثاة الخصوم، ومجاراة الرجال، كان غير مبين، ليس عنده بيان، ولا يأتي ببرهان؛ لضعف عقولهن. قال مقاتل: لا تتكلم المرأة إلا وتأتي بالحجة عليها ـ أي: في الغالب ـ وفيه: أنه جعل النشأ في الزينة من المعايب. فعلى الرجل أن يجتنبَ ذلك، له ولأولاده، ويتزين بلباس التقوى. و«مَنْ» منصوب المحل، أي: أوَ جعلوا من يربى في الحلية ـ يعني البنات ـ لله ـ عز وجل. وقرأ الأخوان وحفص؛ «يُنشَّأ»، أي: يُربّى.

---

(١) في الأصول [وتعجبا]. (٢) في الأصول [التعجب].

(٣) قرأ حفص وحمزة والكسائي: «ينشأ» بضم الياء، وفتح النون، وتشديد الشين، مضارع «نشأ» معدّى بالتضعيف، مبنياً للمفعول. وقرأ الباقون: بفتح الياء، وسكون النون: وتخفيف الشين من «نشأ» لازم، مبني للفاعل. انظر الإتحاف (٢/٤٥٤).

﴿ وجعلوا الملائكةَ الذين هم عند(١) الرحمن إناثاً ﴾ أى: اعتقدوا الملائكة وسموهم إناثاً. وهو بيان لتضمن كفرهم كفراً آخر، وتقريع لهم بذلك؛ وهو جعلهم أكمل العباد وأكرمهم على الله ـ عز وجل ـ أنقصهم رأياً. والعندية عندية منزلة ومكانة، لا مكان. ومن قرأ «عباد» فجمع «عبد»، وهو ألزم فى الاحتجاج مع أهل العناد لتضاد العبودية والولادة. ﴿ أَشَهِدوا خلْقَهم ﴾ أى: أحضروا خلقهم، فشاهدوا الله حين خلقهم إناثاً حتى يحكموا بأنوثتهم، فإنّ ذلك لا يُعلم إلا بالمشاهدة، وهو تجهيل لهم، وتهكم بهم. وقرأ نافع بهمزتين، أى: أُأحْضِرُوا خلقهم. ﴿ ستُكتب شهادتُهم ﴾ التى شهدوا بها على الملائكة من أنهم إناث، فى ديوان أعمالهم. ﴿ ويُسئلون ﴾ عنها يوم القيامة، وقرئ: شهاداتهم وهى قولهم: إن لله جزءاً من خلقه، وإن لله بنات، وأنها الملائكة.

الإشارة: وجعلوا له من عباده جزءاً، أشركوا فى المحبة معه غيره، والمطلوب: إفراد المحبة للمحبوب، فلا يُحب معه شيئا. إن الإنسان لكفور مبين، حيث علم أن الحبيب الذى أنعم عليه واحد، وأنه غيور، لا يرضى لعبده أن يُحب معه غيره.

قال القشيرى: جعلوا الملائكة جزءاً على التخصيص من جملة مخلوقاته.هـ. أى: جعلوا له جزءاً من عين الفرق، ولو نظروا بعين الجمع لرأَوا الأشياءَ كلها متدفقة من بحر الجبروت. وفى الآية تحذير من كراهية البنات، حيث جعله من نعت أهل الكفر.

ثم أبطل شبهتهم، فقال:

﴿ وَقَالُواْ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ
إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوٓاْ
إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ
فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾
۞ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ۖ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾
فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾

---

(١) أثبت المفسر قراءة «عند» بالنون الساكنة وفتح الدال بلا ألف، ظرفاً، وتصديقه «إن الذين عند ربك....» الأعراف /٢٠٦. وهى قراءة ابن كثير ونافع، وقرأ أبو عمرو، وعاصم، وحمزة، والكسائى «عباد» بالألف. انظر الإتحاف (٢/ ٤٥٤ ـ ٤٥٥).

يقول الحق جل جلاله: ﴿وقالوا لو شاءَ الرحمنُ﴾ عدم عبادتنا للملائكة ﴿ماعبدناهم﴾، أرادوا بذلك بيان أن ما فعلوه مَرْضِي عنده تعالى، ولولا ذلك ما خلَّى بينهم وبينها، ويُجاب: بأنه تعالى قد يخلى بين العبد ومعصيته، لينفذ فيه ما سبق من درك الوعيد. وتعلقت المعتزلة بظاهر الآية فى أن الله تعالى لم يشأ الكفر من الكافر، وإنما شاء الإيمان، فإنَّ الكفار ادّعوا أن الله شاء منهم الكفر، وما شاء منهم ترك عبادة الأصنام، حيث قالوا: ﴿لوشاء الرحمن ماعبدناهم﴾ أى: لو شاء بنا أن نترك عبادة الأصنام لمَنَعَنَا عن عبادتها، لكنه لم يشأ ذلك. والله تعالى ردّ عليهم قولهم، واعتقادهم، بقوله: ﴿ما لهم بذلك﴾ القول ﴿من علمٍ، إن هم إلا يَخْرُصُون﴾: يكذبون، ومعنى الآية عندنا: أنهم أرادوا بالمشيئة: الرضا، وقالوا: لو لم يرض بذلك لعجّل عقوبتنا، ولَمنعنا من عبادتها مع قهر واضطرار، وإذ لم يفعل ذلك فقد رضى بذلك، فردّ الله عليهم بقوله: ﴿ما لهم بذلك من علم...﴾ الآية. أو: قالوا هذا القول استهزاء، لا جداً واعتقادا، فأكذبهم وجهّلهم حيث لم يقولوه اعتقاداً، كما قالوا ﴿أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ﴾(١). وهذا كلام حق أرادوا به باطلاً. انظر النسفى.

قلت: ما تمسكوا به من قوله: ﴿لو شاء الرحمن ماعبدناهم﴾ من الاحتجاج بالقدر، وهو لا ينفع فى هذه الدار، لأنه من التمسك بالحقيقة الخالية عن الشريعة، وهى بطالة وزندقة، ولذلك ردّهم الله تعالى إلى التمسك بالشريعة بقوله: ﴿أم آتيناهم كتاباً من قبله﴾؛ من قبل القرآن، أو: من قبل ادعائهم ذلك، ينطق بصحة مايدّعونه، ﴿فهم به مُسْتَمْسِكون﴾؛ آخذون.

﴿بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أُمَة﴾؛ على دين وقلدناهم. والأُمّة فى الأصل: الطريقة التى تؤمّ وتُقصد ﴿وإنا على آثارهم مُقتدون﴾ أى: لم يأتوا بحجة نقلية ولا عقلية، ولا سند لهم سوى تقليد آبائهم الجهلة مثلهم. والظرف: صلة لمهتدون، أو: هما خبران.

﴿وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير﴾؛ من نبيّ ﴿إلا قال مُترفوها﴾ أى: منعّموها، وهم الذين أترفتهم النعمة، أى: أبطرتهم، فلا يُحبون إلا الشهوات والملاهى، ويعافون مشاقّ الدين وتكاليفه، قالوا: ﴿إنا وجدنا آباءنا على أُمةٍ وإنا على آثارهم مقتدون﴾، وفيه تسلية للنبي ﷺ، وبيان أن التقليد فيهم ضلالٌ قديم. وتخصيص المترفين بتلك المقالة؛ للإيذان بأن التنعم بالشهوات، وحب البطالة، هو الذى صرفهم عن النظر إلى التقليد.

﴿قُلْ﴾(٢)، هو حكاية لما جرى بين المنذرين وبين أممهم، عند تعللهم بتقليد آبائهم، أى: قيل لكل نذير وأوحى إليه: أن قُلْ، وليس خطاباً لنبينا ـ عليه الصلاة والسلام ـ بدليل ما بعده من قوله: ﴿قالوا..﴾ الخ. وقيل:

(١) من الآية ٤٧ من سورة يس.
(٢) قرأ ابن عامر، وحفص «قال» على الخبر، والباقون «قل» بغير ألف على الأمر. انظر الإتحاف (٢/٤٥٥).

خطاب له عليه الصلاة والسلام، فتكون الجملة معترضة بين قصة المتقدمين؛ لأن قوله: «قالوا» راجع للمتقدمين. وقرأ الشامي وحفص: ﴿قال﴾ أى: النذير: ﴿أولَوْ جئتكُم﴾ أى: أتقتدون بآبائكم ولو جئتكم ﴿بأهدى﴾؛ بدين أهدى ﴿مما وجدتم عليه آباءكم﴾ من الضلالة التى ليست من الهداية فى شيء؟ ﴿قالوا إنا بما أُرسلتم به كافرون﴾ أى: قالت كل أمة لنذيرها: إنا ثابتون على ديننا، وإن جئتمونا بما هو أهدى وأهدى. وقد أجمل عند الحكاية؛ للإيجاز، كقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾(١).

﴿فانتقمنا منهم﴾؛ فعاقبناهم بما استحقوه على إصرارهم، ﴿فانظر كيف كان عاقبةُ المكذِّبين﴾ من الأمم المذكورين، فلا تكترث بتكذيب قومك. والله تعالى أعلم.

الإشارة: وقالوا: لو شاء الرحمن ما عبدناهم، تمسكوا بالحقيقة الظلمانية، الخالية عن التشريع، وهو كفر وزندقة، ولذلك ردّ الله عليهم بقوله: ﴿أم آتيناهم كتاباً...﴾ الخ، وترى كثيراً ممن خذله الله يقول: لو أراد الله هدايتى لهدانى، ولا ينفع ذلك فى هذه الدار، التى هى التكليف، بل يجب عليه النهوض، والقصد إلى ما أمر الله به، من حقوق العبودية، فإن منعته الأقدار فلينظر إلى الواحد القهار، وإلا فالشقاء لازم له. وقد قالوا: من تحقق ولم يتشرع فقد تزندق، ومن تشرع ولم يتحقق فقد تفسق، ومن جمع بينهما فقد تحقق. فالواجب: النظر إلى تصريف الحقيقة فى الباطن، والتمسك بالشريعة فى الظاهر. وبالله التوفيق.

وقوله تعالى: ﴿بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أُمة...﴾ الآية، فيه توبيخ لمن تجمّد على تقليد أسلافه، وقد ظهر مَن هو أهدى منهم، ففيه نزعة جاهلية، وحمية من حميتهم.

ثم برهن على بطلان التقليد الرديء، فقال:

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾

(١) من الآية ٥١ من سورة المؤمنون.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وإذ قال إبراهيمُ ﴾ أي: واذكر وقت قوله عليه السلام ﴿ لأبيه وقومه ﴾ المُكبّين على التقليد، كيف تبرأ مما هم فيه بقوله: ﴿ إننى براء ﴾ أي: برىء ﴿ مما تعبدون ﴾ ، وتمسك بالبرهان. وذكر قصته ليسلكوا مسلكه في الاستدلال، أو: ليقلدوه، إن لم يكن لهم بُد من التقليد؛ فإنه أشرف آبائهم. «وبَراء»: مصدر، يستوى فيه الواحد والاثنان والجمع، والمذكر والمؤنث، كرجل عدل، وامرأة عدل، وقوم عدل. «وما»: إما مصدرية، أو: موصولة، أي: برىء من عبادتكم ومن معبودكم ﴿ إلا الذى فطَرَنى ﴾ ؛ استثناء متصل، أو: منقطع، على أن «ما» تعم أُولى العلم وغيرهم، وأنهم كانوا يعبدون الله تعالى والأصنام، أو: صفة، على أن «ما» موصوفة، أي: إننى براء من آلهة تعبدونها غير الذى ﴿ فطرنى ﴾ ؛ خلقنى ﴿ فإنه سيَهدين ﴾ ؛ يثبتنى على الهداية، أو: سيهدين إلى ما وراء الذى هدانى إليه الآن. والأوجه: أن السين للتأكيد دون التسويف، وصيغة المضارع للدلالة على الاستمرار.

﴿ وجعلها ﴾ أي: وجعل إبراهيم عليه السلام كلمة التوحيد التى تكلَم بها، وهى قوله: ﴿ إننى براء مما تعبدون إلا الذى فطرنى ﴾ ، ﴿ كلمة باقيةً فى عَقِبه ﴾ أي: فى ذريته، حيث وصّاهم بها، كما نطق به قوله تعالى: ﴿ ووَصَّى بِهَا إبْرَاهِيمُ بَنِيه... ﴾(١) ، فلا يزال فيهم من يوحّد الله تعالى، ويدعوهم إلى توحيده. ﴿ لعلهم يرجعون ﴾ أي: جعلها باقية فى ذريته رجاء أن يرجع إليها من أشرك منهم بدعاء الموحِّد.

﴿ بل متعتُ هؤلاء ﴾ ، إضراب عن محذوف، ينساق إليه الكلام، كأنه قيل: جعلها كلمة باقية فى عقبه رجاء أن يرجع إليها من أشرك منهم، فلم يحصل ما رجاه، بل متعتُ هؤلاء المعاصرين من أهل مكة. ﴿ وآباءهم ﴾ بالمد فى العمر، والنعمة، والمهلة، فاغترّوا بالمهلة، وانهمكوا فى الشهوات، وشُغلوا بها عن كلمة التوحيد، ﴿ حتى جاءَهم الحقُّ ﴾ ؛ القرآن ﴿ ورسولٌ مبينٌ ﴾ ؛ ظاهر الرسالة، واضحها بالمعجزات الباهرة، أو: مبين التوحيد بالآيات والحجج القاطعة.

وفى الآية توبيخ لهم؛ فإن التمتع بزيادة النعم يُوجب أن يجعلوه سبباً لزيادة الشكر، والثبات على التوحيد والإيمان، فجعلوه سبباً لزيادة أقصى مراتب الكفر والضلال.

وحاصل معنى الآية: أنه تعالى جعل كلمة التوحيد باقية فى عقب إبراهيم عليه السلام ليدعو الموحِّد المشرك، نسلاً بعد نسل، فيرجع المشرك عن شركه، فلم يرجعوا، بل اغتروا بما مُتّعوا به، فاستمروا على الشرك حتى جاءهم

---

(١) من الآية ١٣٢ من سورة البقرة.

الحق، فكفروا وأصروا، ﴿ولما جاءهم الحقُّ﴾ أي: القرآن يُنبههم على ما هم عليه من الغفلة، ويُرشدهم إلى التوحيد، ازدادوا كفراً وعتواً، وضموا إلى كفرهم السابق معاندة الحق والاستهانة به، حيث ﴿قالوا هذا سحر وإنا به كافرون﴾ فسمّوا القرآنَ سحراً، وجحدوه ومن جاء به. والله تعالى أعلم.

الإشارة: كان إبراهيم عليه السلام إمام أهل التوحيد، لقوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾(١)، وجعل الدعوة إليه فى عقبه إلى يوم القيامة، وهو على قسمين؛ توحيد البرهان، وتوحيد العيان. وقد جاءت بعده الرسل بالأمرين معاً، وقام بها خلفاؤهم بعدهم، فقام بالأول العلماء، وقام بالثانى خواص الأولياء، أهل التربية الحقيقية، ولا ينال من توحيد العيان شيئاً من علق قلبه بالشهوات الجسمانية، والحظوظ الفانية، كما قال الششترى رضي الله عنه:

تركْنا حُظوظاً من حضيض لُحُوظنا ... مع المقصد الأقصى إلى المطلب الأسنى

وكل من تمتع بذلك، وانهمك فيه حُرِمَ بركة صحبة العارفين؛ إذ يمنعه ذلك من حط رأسه، ودفع فلسه، فينخرط فى سلك قوله تعالى: ﴿بل متعتُ هؤلاء وآباءهم...﴾ الآية. وكل زمان له رسول، خليفةٌ عن الرسول ﷺ يدعو إلى الحق ومعرفته. وبالله التوفيق.

ثم ذكر تحكمهم على الله، واستحقارهم لرسوله ﷺ، فقال:

﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (٣٢)﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿وقالوا لولا نُزِّل هذا القرآنُ على رَجُلٍ من القريتين عظيم﴾ أي: من إحدى القريتين؛ مكة والطائف، على نهج قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾(٢) وعنوا بعظيم مكة: الوليد بن المغيرة، وبعظيم الطائف: عروة بن مسعود الثقفى. وعن مجاهد: عظيم مكة: [عتبة](٣) بن ربيعة، وعظيم الطائف: ابن عبد ياليل(٤). ولم يتفوهوا بهذه العظيمة حسداً، بل استدلالاً على عدم نزوله، بمعنى: لو كان قرآناً

---

(١) من الآية ١٢٤ من سورة البقرة.

(٢) الآية ٢٢ من سورة الرحمن.

(٣) فى الأصول [عقبة].

(٤) انظر تفسير الطبرى (٢٥/٦٥). والدر المنثور للسيوطى (٥/٧٢١).

لأنزل على أحد هؤلاء، بناء على مازعموا من أن الرسالة منصب جليل، لا يليق له إلا من له جلالة من جهة المال والجاه، ولم يدْروا أنها رتبة روحانية، لا يترقى إليها إلا همم الخواص، المختصين بالنفوس الزكية، المؤيّدين بالقوة القدسية، المتحلين بالفضائل الإنسية، وأما المتزخرفون بالزخارف الدنيوية، المتمتعون بالحظوظ الدنية، فهم من استحقاق تلك الرتبة بألف معزل.

قال ابن عطية: وإنما قصدوا إلى من عظم ذكره بالسن، وإلا فرسول الله ﷺ كان أعظم هؤلاء؛ إذ كان المسمى عندهم الأمين.هـ. ومرادهم: الشرف الدنيوي، بحيث يتعرض للأمور؛ ليُذكَر ويُشار إليه، ورسول الله ﷺ كان منزهاً عن ذلك من أول النشأة، كما هو حال أهل الآخرة، والنفوس في مهماتها إليهم أميلُ، وعليهم تعول، ولذلك كان أميناً عندهم، ولا ترضى جل النفوس أهل الفضول؛ لأماناتها، ولا تسكن إليها وتطمئن بها، وإنما تعظمها ظاهراً، لا حقيقة. وهذا كافٍ في الرد عليهم في أنهم لا يرضونهم لأماناتهم، فكيف يُرضون لأمانات الوحي. ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾(١). قاله في الحاشية.

وقوله تعالى: ﴿ أهم يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ ربك ﴾، إنكار عليهم، وفيه تجهيل لهم وتعجيب من تحكمهم في اختيار من يصلح للنبوة. والمراد بالرحمة: النبوة.

﴿ نَحنُ قَسَمْنَا بينهم معيشتَهم ﴾؛ ما يعيشون به، وهو أرزاقهم الحسية ﴿ في الحياة الدنيا ﴾ أي: لم نجعل قسمة الأدون إليهم، وهو رزق الأشباح، فكيف بالنبوة، والعلم، الذي هو رزق الأرواح؟ ﴿ ورفعنا بعضهم فوق بعضٍ درجات ﴾ أي: جعلنا البعض أقوياء وأغنياء وموالي، والبعض ضعفاء وفقراء وخدماء، ﴿ ليتخذ بعضُهُم بعضاً سُخْرِياً ﴾ أي: ليصرف بعضهم بعضاً في حوائجهم، ويستخدموهم في مهماتهم، ويُسخروهم في أشغالهم، حتى يتعايشوا، ويصلوا إلى أعمالهم، هذا بماله، وهذا ببدنه، ولو استووا في الغنى والفقر لبطل جُل المصالح، فسبحان المدبر الحكيم.

قال القشيري: لو كانت المقاديرُ متساويةً لتَعَطَّلت المعايشُ، ولبَقي كلٌّ عند حاله، فجعل بعضَهُم مخصوصاً بالترفُّه والمال، وآخرين بالفقر ورقة الحال، حتى احتاج الفقيرُ في حين حاجته أن يعمل للغنيِّ؛ ليترفق من جهته بأجرته، فيصلُح بذلك أمر الفقير والغنيِّ معاً.هـ. ولو فوضنا ذلك إلى تدبيرهم لهلكوا. وإذا كانوا في تدبير خويصة أمرهم، وما يصلحهم من متاع الدنيا الدنية، في غاية العجز، فما ظنهم في تدبير أمر الدين والنبوة؟!.

(١) من الآية ١٢٤ من سورة الأنعام.

وقيل: «سخريا» أي: يسخر بعضهم من بعض.

﴿ ورحمتُ ربك ﴾ أي: النبوة، أو: الدين ومايتبعه من الفوز في المآب، ﴿ خيرٌ مما يجمعون ﴾ أي: مما يجمعُ هؤلاء من حُطام الدنيا الدنية الفانية.

الإشارة: مما جرى في طبع الناس أنهم لا يُقرون الولاية إلا فيمن عَظُمَ جاهُه، وكثر طعامه، أو كثرت صلاته، أو كان مجذوباً مصطلماً، أو: سبقت في أسلافه، وهذا خطأ، فإن الولاية سر من أسرار الله، أودعها قلوب أصفيائه، لا تظهر على جوارحهم، ولا تكون في الغالب إلا في أهل التجريد، وأهل الخمول، أخفاها الله في عباده، فمن ادعاها من غير تجريد ولا تخريب، فهو مدعٍ، ولذلك قال أبو المواهب رضي الله عنه: من ادعى شهود الجمال، قبل تأدبه بالجلال، فارفضه فإنه دجال.

ويقال لمن أنكر على أهلها من أهل التجريد: ﴿أهُم يقسمون رحمت ربك...﴾ الآية، ورحمة ربك ـ هي سر الخصوصية ـ خير مما يجمعون.

وقال القشيري على قوله تعالى: ﴿نحن قسمنا بينهم معيشتهم...﴾ الخ، بعد كلام: ثم إنه تعالى قَسَمَ [لبعض لعباده](١) النعمةَ والغنى، ولقوم الفقر والقلة، وجعل لكلّ واحدٍ منهم مسكناً يسكنون إليه، ويستقلون به، فللأغنياء وجود الإنعام، وجزيل الأقسام، فشكروا واستبشروا، وللفقراء شهود القسَّام، فحمدوا وافتخروا، فالأغنياء وجدوا النعمة فاستغنوا وانشغلوا، والفقراء سمعوا قوله: «نحن» فاشتغلوا، وفي الخبر: أنه ﷺ قال للأنصار: «أما ترضَون أن يرجع الناس بالشاه والبعير، وترجعوا برسول الله إلى أهليكم؟ والله ماتنقلبون به خير مما ينقلبون» (٢)هـ.

قوله تعالى: ﴿نحن قسمنا بينهم...﴾ الخ، قد سبقت أقسام الرزق قبل ظهور الخلق، فالواجب انتظار القسمة، والرضا بما قسم، كما قال الشاعر:

اقنعْ بما قسم الرزّاق مـن قِسَـم ... وسـلِّم الأمـرَ فالـرزاق مختـارُ
لا تجـزعن ولا تبطَر علـى مِحَنٍ ... أو مِنَـح، فإنما هي أحكام وأقـدارُ
واقنع بكل الذي يجري الزمانُ به ... ولا يـكن منك للمغـرور انـكسارُ.

---

(١) في الأُصول [لعباده] والمثبت من القشيري، وهو الأنسب.
(٢) أخرجه مسلم في (الزكاة، باب إعطاء المؤلفة قلوبهم... ٢ / ٧٣٤، ح ١٠٥٩) وبنحوه البخاري في (مناقب الأنصار باب مناقب الأنصار ح ٣٧٧٨) من حديث أنس رضي الله عنه.

ثم ذكر إهانة الدنيا، وخساستها عنده، فقال:

﴿ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ولولا أن يكون الناسُ أمةً واحدةً﴾ أي: ولولا كراهة أن يجتمع الناس على الكفر، ويُطبقوا عليه، ﴿لجعلنا﴾ لأجل حقارة الدنيا عندنا ﴿لمَن يكفُر بالرحمن لبيوتهم﴾: بدل «مَن»، ﴿سُقُفاً من فضةٍ﴾ أي: متخذة منها، ﴿ومعارجَ﴾ أي: ولجعلنا لهم مصاعد، أي: سلالم من فضة أيضاً، يصعدون عليها إلى السطوح، ﴿عليها يظهرون﴾ أي: يعلون السطوح والعلالى عليها. ﴿ولبيوتهم﴾ أي: وجعلنا لبيوتهم ﴿أبواباً وسُرُراً﴾ من فضة أيضاً، ﴿عليها﴾ أي: السرر ﴿يتكئون﴾، ولعل تكرير «بيوتهم» لزيادة التقرير. ﴿وزُخرفاً﴾ أي: وجعلنا لهم زخرفاً، أي: زينةً من كل شيء. والزخرف: الذهب والزينة. ويجوز أن يكونَ الأصلُ: سقفاً من فضة وزخرف، أي: بعضها من فضة، وبعضها مِن ذهب، فنُصب عطفاً على محل «من فضة».

﴿وإن كُلُّ ذلك لَمَّا متاعُ الحياةِ الدنيا﴾ أي: وما كل ما ذكر من البيوت الموصوفة بما ذكر من الزخارف الغرارة، إلا شيء يتمتع به في الحياة الدنيا، ثم يفنى وتبقى تبعته. ﴿والآخرةُ﴾ أي: ونعيم الآخرة الذي يقصر عنه البيان، خير ﴿عند ربك للمتقين﴾ الكفر والمعاصي. وبهذا يتبين أن العظيم إنما هو العظيم في الآخرة، لا في الدنيا، ولذلك لم يجعل للمؤمنين فيها حظاً وافراً؛ لأنه تمتع قليل بالنسبة إلى ما لهم في الآخرة، ولأنه ربما يشغلهم عن ذكر الرحمن، كما أشار إليه بقوله: ﴿ومن يَعْشُ...﴾ الخ.

الإشارة: في الآية ذم للدنيا ولمن اشتغل بها. وفي الحديث: «لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء»(١). وعن علقمة عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: اضطجع رسول الله ﷺ على حصيرٍ، فأثَّر الحصير في جَنْبه، فلما استيقظ، جعلتُ أمسح عنه، وأقول: يارسول الله؛ ألا آذنتنى قبل أن تنام على هذه الحصير، فأبسط لك عليه شيئاً، فقال رسول الله ﷺ: «مالي وللدنيا، وماللدنيا ومالي، ما أنا والدنيا إلا كراكبٍ استظلَّ في فيء، أو ظل

---

(١) أخرجه الترمذي في (الزهد، باب ما جاء في هوان الدنيا على الله، ح ٢٣٢٠) وقال: «حديث صحيح غريب»، وابن ماجه في (الزهد، باب مثل الدنيا، ح ٤١١٠) من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه.

شجرةٍ، ثم راح وتركها»(١). وروُى أن عيسى عليه السلام أخذ لبنة من طوب، فجعلها تحت رأسه، فجاءه جبريل عليه السلام، فوكز الطوبة من تحت رأسه، ونزعها، وقال: «اترك هذه مع ماتركتَ». وأنشدوا في هذا المعنى:

رضيتُ من الدنيا بقُوتٍ وخرقةٍ وأشربُ من كوزٍ حوافيه تُكْسَرُ

فقل لبني الدنيا: اعزلوا من أردتمُ وولوا، وخلوني على البعد أنظرُ

وقال ﷺ: «الدنيا خراب، وأخرب منها قلب مشتغل بها»(٢). ومن اشتغل بها غَفَلَ عن ذكر الرحمن، وسُلط عليه الشيطان، كما قال تعالى:

﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾

قلت: «من يعش»: شرط وجواب. وحَكَى أن أبا عبد الله بن مرزوق دخل على ابن عرفة، فحضر مجلسه، ولم يعرفه أحد، فوجده يفسر هذه الآية: ﴿ومن يعش عن ذكر الرحمن﴾، فكان أول ما افتتح به ـ يعني ابن مرزوق ـ أن قال: وهل يصح أن تكون «مَن» هنا موصولة؟ فقال ابن عرفة: وكيف، وقد جزمت؟ فقال ابن مرزوق: جزمت تشبيهاً بالشرطية، فقال ابن عرفة: إنما يقدم على هذا بنص من إمام، أو شاهد من كلام العرب، فقال: أما النص؛ فقال ابن مالك في التسهيل: وقد يجزم مسبب عن صلة الذي، تشبيهاً بجواب الشرط، وأما الشاهد فقوله:

فلا تَحْفِرَنْ بئراً تُريدُ أخاً بها فإنك فيها أنتَ مِنْ دُونِه تَقَعْ

كذاك الذي يَبْغِي علَى الناس ظالماً تُصِبْهُ على رَغْمٍ عَواقِبُ ما صَنَعْ

(١) أخرجه ابن ماجه في الموضع السابق (ح ٤١٠٩) والترمذي في الموضع السابق (باب ٤٤، ح ٢٣٧٧) وقال: «هذا حديث حسن صحيح».
(٢) لم أقف عليه.

فقال ابن عرفه: فأنت إذاً أبو عبدالله بن مرزوق؟ فقال: نعم، فرحّب به. وقال: والله ماظلمناك.هـ.

وقرأ ابن عباس: «يعشَ» ـ بفتح الشين، أي: يعْم، من: عشي يعشى(١). وقُرئ: «يعشو» على أن «من» موصولة غير مضمنة معنى الشرط، وإلا جزمت كما تقدم. قلتُ: والذي يظهر من كلام التسهيل أن الموصول المضمن معنى الشرط إنما يجزم الجواب لا الشرط، فتأمله، مع كلام ابن مرزوق. والشاهد الذي أتى به إنما فيه جزم الجواب لا الشرط، فلا يصح ما قاله ابن مرزوق باعتبار جزم لفظ الشرط. والله تعالى أعلم.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ومن يَعْشُ﴾ أي: يتعامَ، أو: يعم. والفرق بين القراءتين(٢) أنه إذا حصلت الآفة في بصره قيل: عشي يعشَى، وإذا ضعف بصره بلا آفة قيل: عشَى يعشو. والمعنى: ومن يعرض ﴿عن ذكر الرحمن﴾ وهو القرآن، لفرط اشتغاله بزهرة الدنيا، وانهماكه في الحظوظ الفانية، فلم يلتفت إليه، ولم يعرف أنه حق ـ على قراءة الفتح ـ أو: عرف أنه حق وتعامى عنه، تجاهلاً، على قراءة الضم، ﴿نُقَيِّضْ له شيطاناً فهو له قرينُ﴾، قال ابن عباس: نسلطه عليه فهو معه في الدنيا والآخرة، لا يفارقه، ولا يزال يوسوسه ويغويه. وفيه إشارة إلى أن من دام عليه لم يغوه الشيطان. وإضافته إلى «الرحمن» للإيذان بأن نزوله رحمة للعالمين، وهو من إضافة المصدر إلى فاعله، أي: ما ذكره الرحمن وأوحى به في كتابه. وقال ابن عطية: ما ذكّر الله به عباده من المواعظ. ويحتمل أن يريد مطلق الذكر، أي: ومن يغفل عن ذكر الله نُسلط عليه شيطاناً، عقوبة على الغفلة، فإذا ذكر الله تباعد عنه.

﴿وإنهم﴾ أي: الشياطين، الذي قيض كل واحد منهم لكل واحد ممن يعشو، ﴿لَيصدُّونهم﴾؛ ليمنعون العاشين ﴿عن السبيل﴾؛ عن سبيل الهدى الذي جاء به القرآن، ﴿ويحسبون أنهم مهتدون﴾ أي: أنفسهم مهتدون، أو: ويحسب العاشُون أن الشياطين مهتدون، فلذلك قلّدوهم، فمدار جمع الضمير اعتبار معنى «مَن» كما أن مدار إفراده فيما سبق اعتبار لفظها. وصيغة المضارع في الأفعال الأربعة للدلالة على الاستمرار التجديدي، لقوله: ﴿حتى إذا جاءنا﴾ فإن «حتى» تقتضي أن تكون غاية لأمر ممتد، أي: يستمر العاشون على ما ذكر من مقارنة الشياطين والصد والحسبان الباطل، حتى إذا جاءنا كل واحد منهم مع قرينه يوم القيامة. ومن قرأ بالتثنية(٣)، فالمراد العاشي وقرينه. قال مخاطباً لقرينه: ﴿ياليتَ بيني وبينك﴾ في الدنيا ﴿بُعد المشرقين﴾

(١) فهو أعشى، وامرأة عشواء.

(٢) أي: قراءة «يعش» بضم الشين و«يعش» بفتحها.

(٣) قرأ نافع، وابن كثير، وابن عامر، وأبو بكر، وأبو جعفر (جاءانا) بألف بعد الهمزة على التثنية وهما العاشي وقرينه. وقرأ الباقون بغير ألف بعد الهمزة. والضمير يعود على العاشي. انظر شرح الهداية (٢/٥٠٨) والإتحاف (٢/٤٥٦).

أي: بُعد المشرق والمغرب، أي: تباعد كل منهما من صاحبه، فغلب المشرق على المغرب، كما قيل: القَمَران والعُمَران، وأُضيف البُعد إليهما، ﴿ فبئس القرين ﴾ أنت.

قال تعالى: ﴿ ولن ينفعكم اليومَ ﴾ أي: يوم القيامة ﴿ إذ ظلمتمْ ﴾ أي: حين صحّ وتبيّن ظلمكم وكفركم، ولم تبق لكم ولا لأحد شبهة في أنكم كنتم ظالمين. و«إذ»: بدل من اليوم. وقوله: ﴿ أنكم في العذاب مشتركون ﴾: فاعل ينفع، أي: لن ينفعكم يوم القيامة اشتراككم في العذاب، كما كان في الدنيا يُهون عليكم المصيبة اشتراككم فيها، لتعاونكم في تحمل أعبائها وتقسيمكم لعنائها، ولذلك قيل: المصيبة إذا عمّت هانت، وإذا خصت هالت، وفي ذلك تقول الخنساء:

ولولا كـثـرةُ البـاكينَ حَوْلي على إخـوانهم لقـتلتُ نفـسي

ولا يبكون مـثلَ أخي ولكنْ أُعـزّي النفسَ عنه بالتـأسّي[(١)]

أما هؤلاء فلا يؤسّيهم اشتراكهم، ولا يُروّحهم، لأن بكلٍّ منهم ما لا تبلغه طاقة، وقد ورد أنهم يكونون في توابيت من نار، لا يرى أحد صاحبَه، بل يظن أنه وحده فيها. وقيل: الفاعل مضمر، أي: ولن ينفعكم هذا التمني، أو هذا الاعتذار؛ لأنكم في العذاب مشتركون؛ لاشتراككم في سببه، وهو الكفر، ويؤيده: قراءة من قرأ: «إنكم» بالكسر.

وكان ﷺ يُبالغ في المجاهدة في دعاء قومه، وهم لا يزيدون إلا غياً وتعامياً عما يشهدونه من شواهد النبوة، وتصامماً عما يسمعونه من القرآن، فأنزل الله تعالى: ﴿ أفأنت تُسْمِعُ الصمَّ أو تهدي العُمْيَ ﴾، وهو إنكار وتعجيب من أن يكون هو الذي يقدر على هدايتهم، وقد تمرنوا في الكفر، واستغرقوا في الضلال، حيث صار ما بهم من العشي عَمَا مقروناً بالصمم، أي: أفأنت تقدر أن تُسمع من فقد سمع القبول، أو تهدي من فقد بصر الاستبصار. ﴿ ومن كان في ضلالٍ مبين ﴾ أي: ومن كان في علم الله أنه يموت على الضلال. ومدار الإنكار هو التمكن والاستقرار في الضلال المفرط، بحيث لا ارعواء له منه، لا توهم القصور من قبل الهادي، ففيه رمز في أنه لا يقدر على ذلك إلا الله.

﴿ فإمَّا نَذْهَبَنَّ بك ﴾ أي: فإن قبضناك قبل أن ننصرك على أعدائك، ونشفي صدور المؤمنين منهم، ﴿ فإنا منهم منتقمون ﴾ أشد الانتقام في الآخرة. ﴿ أو نُرِيَنَّكَ ﴾ العذاب ﴿ الذي وعدناهم ﴾ قبل أن نتوفيك، كما وقع بهم يوم بدر، ﴿ فإنا عليهم مقتدرون ﴾ بحيث لا ناصر لهم من حلول نقمتنا وقهرنا. و«إما»: شرط دخلت «ما» على «إن» توكيداً للشرط، وزاد التوكيد نون الثقيلة.

(١) انظر البحر المحيط (١٧/٨) تفسير القرطبي (٦٠٩٤/٧).

الإشارة: كل من غفل عن ذكر الله تسلط الشيطان على قلبه بالوسوسة والخواطر الردية، وقد ورد فى الحديث: إن قلب ابن آدم بين ملك وشيطان، فإذا ذكر الله قرب الملك منه وانخنس الشيطان(١)، وإذا غفل عن ذكر الشيطان قرب منه، فلا يزال يوسوسه ويمنيه حتى يغفله عن الله. ولا شك أن الذكر الذى يصرف الشيطان عن القلب إنما هو الذكر القلبى لا اللسانى، فكم من ذاكر بلسانه وقلبه مشغول بهواه، فذكر اللسان نتائجه الأجور، وذكر القلوب نتائجه الحضور ورفع الستور، وشتان بين من همه الحور والقصور، ومن همه الحضور ورفع الستور، هذا من عامة أهل اليمين، وهذا من خاصة المقربين، فإن أردت يا أخى ذكر القلوب، ولمعان أسرار الغيوب، فاصحب الرجالَ، حتى ينقلوك من عالم الطبيعة إلى عالم الروحانية، وإلا بقيت فى عالم الأشباح.

قال القشيرى: من لم يعرف قَدْرَ الخلوة مع الله، فحادَ عن ذكره، وأخلدَ إلى الخواطر الرديَّة، قيَّضَ اللهُ له من يشغله عن الله ـ وهذا جزاء من تَرك الأدب فى الخلوة. وإذا اشتغل العبدُ فى خلوته مع ربِّه، وتعرَّض له من يشغله عن ربه، صَرَفَه الحق عنه بأى وجْهٍ كان.. ويقال: أصعبُ الشياطين نَفْسُكَ، والعبدُ إذا لم يَعرفْ قدر فراغِ قلبه، واتَّبَعَ شهوته، وفتح ذلك البابَ علَى نَفْسه، بقى فى يد هواه أسيراً، لا يكاد يتخلصُ منه إلا بعد مُدة .هـ.

[وقال فى الإحياء: للشيطان جندان؛ جند يطير، وجند يسير، والوسواس عبارة عن حركة جنده الطيار، والشهوة عبارة عن حركة جنده السيار. ثم قال: فتحقق أن الشيطان من المنظرين، فلا يتواضع لك بالكف عن الوسواس إلى يوم الدين؛ إلا أن تصبح وهمومك هم واحد، وهو الله، فيشتغل قلبك بالله وحده، فلا يجد الملعون مجالاً فيك، فعند ذلك تكون من عباد الله المخلَصين، الداخلين فى الاستثناء من سلطنته. ولا تظن أن يفرغ منه قلب فارغ من ذكر الله، بل هو سيال يجرى من ابن آدم مجرى الدم، وسيلانه مثل الهواء فى القدح، إن أردت أن يخلو عن الهواء من غير أن تشغله بالماء أو غيره، فقد طمعت فى غير مطمع، بل بقدر ما يخلو من الماء يدخل فيه من الهواء لامحالة، فكذلك القلب المشغول بتفكر مهم فى الدين، يخلو عن جولان الشيطان، وإلا فمن غفل عن الله، ولو لحظة، فليس له فىّ تلك اللحظة قرين إلا الشيطان، ولذلك سبحانه: ﴿ ومن يعش عن ذكر الرحمن نُقيض له شيطاناً فهو له قرين ﴾ .هـ. المرا منه](٢).

---

(١) هذا معنى حديث، ولفظه: «إن الشيطان واضع خطمه على قلب ابن آدم، فإن ذكر الله خنس، وإن نسى التقم قلبه» رواه أبو يعلى فى مسنده (١٧/ ٤٣٠) والبيهقى فى الشعب (٥٤٠)، قال الهيثمى فى مجمع الزوائد (٧/ ١٤٩): رواه أبو يعلى: وفيه عدى بن أبى عمارة، وهو ضعيف.

(٢) ما بين المعكوفتين من هامش النسخة الأم، وليس فى غيرها.

وكل من عوّق الناس عن طريق الحق يصدق عليه قوله: ﴿ وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون ﴾، فإذا تحققت الحقائق، وارتفع الغطاء، وظهر الصواب من الخطأ، قال للذى صده عن طريق القوم: ياليت بينى وبينك بُعد المشرقين فبئس القرين، فيقول الحق جل جلاله: ﴿ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنفسكم﴾ حيث حرمتموها من الوصول إليّ أنكم فى عذاب الحجاب مشتركون. ويُقال لمن وعظ ودعا إلى الله، فلم يُقبل منه: ﴿أفأنت تُسمع الصمّ...﴾ الآية. فإما نذهبنّ بك بالموت، فيقع الندم عليك، أو نُرينك الذى وعدناهم من العز لك والنصر، والانتقام ممن آذى أولياء الله، فإنا عليهم مقتدرون.

ثم أمر بالثبوت فى طريق الحق، فقال:

﴿ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ فاستمسك ﴾ أى: تمسك ﴿ بالذى أُوحِيَ إليك ﴾ من الآيات والشرائع، واعمل بذلك، سواء عجلنا لك الموعود أو أخرناه، ﴿ إنك على صراطٍ مستقيم ﴾؛ على دين قَيِّم لا عوجَ فيه، وهو تعليل للأمر بالاستمساك. ﴿ وإنه ﴾ أى: ما أُوحى إليك ﴿ لَذِكرٌ ﴾؛ لشرف عظيم ﴿ لك ولقومك ﴾؛ ولأمتك، أو: لقومك من قريش، فمازال العز فيهم، والشرف لهم، من زمانه ﷺ إلى قرب الساعة. قال ﷺ: «لا يزال هذا الشأن فى قريش ما بقيَ منهم اثنان»(١). وفى رواية: «لا يزال هذا الأمر فى قريش، لا يُعاديهم أحد إلا كُبَّ على وجهه ما أقاموا الدِّين»(٢). قال ابن عباس: كان ﷺ يعرض نفسه على القبائل بمكة، ويعدهم الظهور، فإذا قالوا: لِمن الملك بعدك؟ أمسك فلم يجبهم، حتى نزلت: ﴿وإنه لذكر لك ولقومك﴾ فكان بعد ﷺ إذا سئل قال: «لقريش» فلا يُجيبونه، فقبلته الأنصار على ذلك(٣).

(١) أخرجه البخارى فى (المناقب، باب مناقب قريش ح ٣٥٠١) ومسلم فى (الإمارة، باب الناس تبع لقريش والخلافة لقريش ٣ / ١٤٥٢ح ١٨٢٠) من حديث ابن عمر رضي الله عنه.

(٢) جزء من حديث أخرجه البخارى، فى الموضع السابق (ح٣٥٠٠)، من حديث معاوية رضي الله عنه.

(٣) عزاه فى الدر المنثور (٥/٧٢٥) لابن عدى وابن مردويه، عن عليّ وابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ
قلت: على هامش النسخة الأم مايلي: هذا غريب جداً، والمعروف أنه كان يقول: «الملك لله يضعه حيث يشاء» هـ.

أو: وإنه لموعظة لك ولأمتك بأجمعها. ﴿ وسوف تسئلون ﴾ يوم القيامة عن شكركم هذه النعمة، أو: عما أوحى إليه، وعن قيامكم بحقوقه، وعن تعظيمكم له.

﴿ واسْأَلْ مَن أرسلنا مِن قبلك مِن رسلنا أجعلنا من دون الله آلهةً يُعبدون ﴾، فليس المراد سؤال الرسل حقيقة، ولكنه مجاز عن النظر في أديانهم والفحص عن مِللهم، هل جاءت عبادة الأوثان قط في ملة من ملل الأنبياء؟ وكفاه نظراً وفحصاً نظره في كتاب الله المعجز، المصدق لما بين يديه. وإخبارُ الله فيه بأنهم إنما يعبدون من دون الله مالم يُنزل به سلطاناً. وهذه الآيةُ في نفسها كافية، لا حاجة إلى غيرها.

وقيل إنه ﷺ جُمع له الأنبياء ـ عليهم السلام ـ وقيل له: سلهم(١)، وهو ضعيف. وقيل معناه: سل أمم مَن أرسلنا، وهم أهل الكتابين؛ التوراة والإنجيل، وإنما يخبرونه عن كتب الرسل، فإذا سألهم فكأنما سأل الأنبياء، ومعنى هذا السؤال: التنبيه على بطلان عبادة الأوثان، والاستشهاد بإجماع الأنبياء على التوحيد، وأنه ليس ببدع ابتدعه حتى ينكر ويعادى. وقيل: الخطاب له، والمراد غيره ممن يرتاب. والله تعالى أعلم.

الإشارة: الاستمساك بالوحي كان حاصلاً له ﷺ، وإنما المراد الثبوت على ما هو حاصل، والاسترشاد إلى ماليس بحاصل، فالمراد الترقي في زيادة العلم، والكشف إلى غير نهاية، كقوله: ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾، فالترقي لا ينقطع لمن تمسك بالوحي التمسك الحقيقي، بحيث كُشف له عن غوامض أسرار القرآن، وزال الحجاب بينه وبين الله تعالى، فهو دائمًا في زيادة العلم والكشف، إلى ما لا نهاية له. وهذا هو الشرف العظيم في الدارين. فمن لم يشكره سُئل عنه، أو سُلب منه في الدنيا. ثم إن التوحيد في الذات والصفات والأفعال مما أجمعت عليه الملل، وكل داعٍ إنما يدعو إليه، وكل شيخ مربي إنما يُوصل إليه، ومن لم يُوصل إليه أصحابه فهو دجّال. وبالله التوفيق.

ثم سلّى رسوله بقوله:

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾

(١) ذكره البغوي (٧/٢١٦) والقرطبي (٧/٦٠٩٧) عن ابن عباس، وفيه: قال ﷺ: « لا أسأل فقد اكتفيت».

يقول الحق جل جلاله: ﴿ولقد أرسلنا موسى بآياتنا﴾ أي: متلبساً بآياتنا ﴿إلى فرعون وملئه فقال إني رسولُ رب العالمين﴾ فأجابوه بقولهم: ﴿فأتنا بآية إن كنت من الصادقين﴾ كما صرح به في آية أخرى(١). ﴿فلما جاءهم بآياتنا إذا هم منها يضحكون﴾؛ يسخرون منها، ويهزؤون، ويسمّونها سحراً. و«إذا» للمفاجأة، وهو جواب «لمّا»، لأن فعل المفاجأة معها مقدّر، وهو العامل في «إذا»، أي: لما جاءهم فاجؤوا وقت ضحكهم منها، أي: استهزؤوا بها أول ما رأوها، ولم يتأملوا فيها.

﴿وما نُريهم من آية﴾ من الآيات ﴿إلا هي أكْبرُ من أُختها﴾؛ قرينتها، وصاحبتها التي كانت قبلها، أي: ماظهر لهم آية إلا وهي بالغة أقصى مراتب الإعجاز، بحيث يجزم كل من ينظر إليها أنها أكبر من كل ما يُقاس بها من الآيات. والمراد: وصف الكل بغاية الكِبَر من غير ملاحظة قصور في شيء منها، قال النسفي: وظاهر النظم يدلّ على أن اللاحقة أعظم من السابقة، وليس كذلك، بل المراد بهذا الكلام: أنهن موصوفات بالكبر، كما يقال: هما أخوان، كلّ منهما أكبر من الآخر. هـ. وقال في الانتصاف: الظاهر: أن كل آية إذا أفردت استغرقت عظمتها الفكر وبهرته، حتى يجزم أنها النهاية، وأنّ كل آية دونها، فإذا نقل الفكر إلى الأخرى كانت كذلك. وحاصله: أنه لا يقدر الفكر أن يجمع بين آيتين، لتتميز الفاضلة من المفضولة .هـ.

﴿وأخذناهم بالعذاب﴾ وهو ما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ﴾(٢)، ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ...﴾ الآية(٣). ﴿لعلهم يرجعون﴾؛ لكي يرجعوا عما هم عليه من الضلال.

﴿وقالوا يا أيُّه الساحرُ﴾، كانوا يقولون للعالِم: إنما هو ساحر؛ لتعظيمهم علم السحر، أو: نادوه بذلك في مثل تلك الحالة لغاية عتوهم ونهاية حماقتهم. وقرأ الشامي بضم الهاء (٤)، لاتباع حركة ماقبلها حين سقطت الألف، ﴿ادْعُ لنا ربك﴾ يكشف عنا العذاب ﴿بما عَهِدَ عندك﴾ أي: لعهده عندك بأن دعوتك مستجابة، أو: بما عهد عندك من النبوة والجاه، أو: بما عهد من كشف العذاب عمن اهتدى، ﴿إننا لمهتدون﴾؛ مؤمنون إن كشف عنا بدعوتك، كقوله: ﴿لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ﴾(٥)، ﴿فلما كشفنا عنهم العذاب﴾ بدعوته ﴿إذا هم يَنكُثُون﴾؛ ينقضون العهد، أي: فاجؤوا وقت نكث عهدهم بالاهتداء. وقد مرَّ تمامه في الأعراف(٦).

---

(١) في قوله تعالى: ﴿.. إن كنت جئت بآية فأت بها إن كنت من الصادقين﴾ الآية ١٠٦ من سورة الأعراف.

(٢) الآية ١٣٠ من سورة الأعراف.

(٣) الآية ١٣٣ من سورة الأعراف.

(٤) أي «يا أيُّه»، وبهذا قرأ ابن عامر.

(٥) من الآية ١٣٤ من سورة الأعراف. (٦) راجع تفسير الآيات ١٣٣ ـ ١٣٦ من سورة الأعراف.

الإشارة: قد ظهرت الآيات على الأنبياء والرسل، فلم ينتفع بها إلا من سبقت له العناية، وكذلك ظهرت الكرامات على أيدي الأولياء الداعين إلى الله، فلم ينتفع بها إلا من سبق له التقريب والاصطفاء. على أن الصادق في الطلب لا يحتاج إلى ظهور كرامة، بل إذا أراد الله أن يوصله إليه وصله إلى وَلِيّ من أوليائه، فطوى عنه وجود بشريته، وأشهده سر خصوصيته، فخضع له من غير توقف على كرامة ولا آية. وأما من لم يسبق له التقريب؛ إذا رأى ألف آية ضحك منها واستهزأ، ورماها بالسحر والشعوذة، والعياذ بالله من البُعد والطرد.

ثم ذكر عتو فرعون وطغيانه، فقال:

﴿ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ونادى فرعونُ﴾، إما بنفسه، أو: أمر من ينادي، كقولك: قطع الأميرُ اللصَّ. والظاهر أنه نادى بنفسه، ﴿في قومه﴾؛ في مجمعهم وفيما بينهم، بعد أن كشف العذاب عنهم، مخافة أن يؤمنوا، ﴿قال يا قوم أليس لي مُلكُ مِصرَ وهذه الأنهارُ﴾؛ أنهار النيل، ومعظمها أربعة؛ نهر الملك، ونهر طولون، ونهر دمياط، ونهر تنيس، ﴿تجري من تحتي﴾؛ تحت سريري؛ لارتفاعه، أو: بين يدي في جناتي وبساتيني.

قال عمرو بن العاص رضي الله عنه: نيل مصر سيد الأنهار، سخَّر الله له كل نهر بين المشرق والمغرب، فإذا أراد الله أن يجريه أمر الأنهار فأمدته بمائها، وفجّر له الأرض عيوناً، فإذا انتهت جريته إلى ما أراد الله سبحانه أوحى إلى كل ماء أن يرجع إلى عنصره. قاله في الاكتفاء. ومهبطه من جبل القمر. وقيل: أصله من الجنة، والله تعالى أعلم. وحدُّ مصر: من بحر الاسكندرية إلى أسوان، بطول النيل. والأنهار المذكورة هي الخلجان الكبار، الخارجة من النيل.

وعن عبد الله بن طاهر: أنه لما ولي مصر خرج إليها، فلما شارفها، قال: أهي القرية التي افتخر بها فرعون، حتى قال: ﴿أليس لي ملك مصر﴾؟ والله لهي أقلّ عندي من أن أدخلها، فثنى عنانه. وعن هارون الرشيد: أنه لما قرأها، قال: والله لأولينّها أخسّ عبيدي، فولاها الخُصيّب، وكان خادم وُضوئه(١).

﴿وهذه الأنهارُ﴾: إما عطف على «ملك مصر»، فـ «تجري»: حال منها، أو: واو الحال، فـ «هذه» مبتدأ، و«الأنهار»: صفتها و«تجري»: خبر، ﴿أفلا تُبصرون﴾ قوتي وسلطاني، مع ضعف موسى وقلة أتباعه. أراد بذلك استعظام ملكه وترغيب الناس في اتباعه.

ثم قال: ﴿أمْ أنا خير﴾ مع هذه المملكة والبسْطة ﴿مِن هذا الذي هو مَهينٌ﴾ أي: ضعيف حقير، من: المهانة، وهي القلة. ﴿ولا يكاد يُبِينُ﴾ الكلام لما به من اللثة. قاله افتراء عليه عليه السلام، وتنقيصًا له في أعين الناس، باعتبار ما كان في لسانه عليه السلام. وقد كانت ذهبت عنه، لقوله تعالى: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ﴾(٢). والهمزة للتقرير، كأنه قال إثر ماعدد من أسباب فضله، ومبادئ خيريته: أثبت عندكم واستقر لديكم أني أنا خير، وهذه حالي، مِن هذا. وإما متصلة، والمعنى: أفلا تبصرون أم تبصرون؟ فوضع قوله: ﴿أم أنا خير﴾ موضع «تُبصرون»؛ لأنهم إذا قالوا: أنت خير؛ فهم عنده بُصَراء. وهذا من باب تنزيل السبب منزلة المسبب. انظر أبا السعود.

﴿فلولا أُلقِيَ عليه أسَاورة(٣) من ذهب﴾ أي: فهلاّ أُلقي عليه مقاليد الملك إن كان صادقًا، لأنهم كانوا إذا سوّدوا رجلاً سوّروه بسوار، وطوقوه بطوق من ذهب. ﴿أو جاء معه الملائكةُ مقترنين﴾؛ مقرونين يمشون معه، مقترن بعضهم ببعض، ليكونوا أعضاده وأنصاره، أو: ليشهدوا له بالنبوة؟ ﴿فاستخف قومَهُ﴾ أي: فاستفزهم، وطلب منهم الخفة والسرعة في مطاوعته. أو: فاستخف أحلامهم واستزلهم، ﴿فأطاعوه﴾ فيما أمرهم به ﴿إنهم كانوا قوماً فاسقين﴾، خارجين عن الدين، فلذلك سارعوا إلى طاعته.

﴿فلما آسَفُونا﴾؛ أغضبونا أشد الغضب، منقول من: أسف: إذ اشتد غضبه، ﴿انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين﴾، والمعنى: أنهم أفرطوا في المعاصي فاستوجبوا أن نُعجِّل لهم العذاب، وألا نحلُم عليهم. ﴿فجعلناهم سَلَفاً﴾؛ قدوة لمن بعدهم من الكفار، يسلكون مسلكهم في استيجاب مثل ما حلّ بهم من العذاب، فكل من تفرعنِ

---

(١) انظر تفسير القرطبي (٦١٠٢/٧) وتفسير النسفي (٢٧٦/٣).

(٢) الآية ٣٦ من سورة طه.

(٣) قرأ حفص ويعقوب «أسْوِرة» بسكون السين بلا ألف، جمع «سوار» كأخمرة وخمار، وقرأ الباقون «أساورة» بفتح السين، وألف، جمع «أسورة»، كأسقية وأساقي، أو جمع «أساور» بمعنى «سوار». وقد أثبت المفسر ـ رحمه الله ـ قراءة «أساورة». انظر: شرح الهداية (٥٠٨/٢) والإتحاف (٤٥٧/٢).

وتجبر فرعون إمامه وقدرته. أو: جعلناهم متقدمين في الهلاك، ليتعظ بهم من بعدهم إلى يوم القيامة. والسلف: جمع سالف، وهو الفارط المتقدم، ﴿ ومثلاً للآخِرين ﴾ أي: عظةً لهم، أو: قصة عجيبة، تسير مسير الأمثال، فيقال: مثلكم كقوم فرعون، كما قال تعالى: ﴿ كدأب آلِ فِرْعَوْن ﴾(١). وهاهنا قراءات، قد وجهناها في كتاب مستقل.

الإشارة: عاقبة التكبر والافتخار الذُّل والهوان والدمار، وعاقبة التواضع والانكسار العزُ والنصرة، انظر إلى فرعون لما تعزز واستكبر هلك مع قومه في لُجة البحار. قال القشيري: ليعلم أن من تعزز بشيء دون الله فهلاكه وحتْفه فيه، وفرعون لمَّا استصغر موسى وحديثه، وعابَه بالفقر، سلَّطه الله عليه، فكان هلاكه بيده، وما استصغر أحدٌ أحداً إلا سُلط عليه. ثم قال في قوله تعالى: ﴿ فاستخف قومه فأطاعوه ﴾: طاعةُ الرهبة لا تكون مخلصةً، وإنما تكون الطاعةُ صادقةً إذا صَدَرَتْ عن الرغبة، ﴿فلما آسفونا﴾: أغضبونا، وإنما أراد: أغضبوا أولياءَنا، وهذا أصل في باب الجمع، أضاف إغضابهم أولياءه إلى نفسه. وفي الخبر أنه تعالى يقول: «مرضت فلم تعدني»(٢) وقال لإبراهيم عليه السلام: ﴿ يأتوك رجالاً ﴾(٣) وقال لنبينا ﷺ: ﴿ من يُطع الرسول فقد أطاع الله ﴾(٤) هـ.

ثم ذكر شأن عيسى، فقال:

﴿ ۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾ ﴾

(١) من الآية ١١ من سورة آل عمران.

(٢) حديث قدسي صحيح، أوله: «يا ابن آدم...»، أخرجه مسلم في (البر والصلة، باب فضل عيادة المريض، ٤/ ١٩٩٠، ح٥٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) من الآية ٢٧ من سورة الحج.

(٤) من الآية ٨٠ من سورة النساء.

يقول الحق جل جلاله : ﴿ ولما ضُرب ابنُ مريمَ مثلاً ﴾ ، وذلك أن رسول الله ﷺ قرأ على قريش: ﴿إنكُمْ ومَا تَعْبُدُونَ من دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ...﴾(١) الآية، فغضبوا، فقال ابن الزِّبَعْرى: يامحمد! أخاصة لنا ولآلهتنا، أم لجميع الأمم؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «هو لكم ولآلهتكم ولجميع الأمم»، فقالوا: ألست تزعم أن عيسى [نبي]، يُثنى عليه وعلى أمه خيراً، وقد علمت أنّ النصارى يعبدونهما؟ وعزير يُعبد، والملائكة يُعبدون، فإن كان هؤلاء في النار، فقد رضينا أن نكون نحن وآلهتنا معهم، ففرحوا، وضحكوا، وسكت النبيُّ ﷺ انتظاراً للوحى.

وفى رواية: فقال لهم ﷺ: «إنما عبدوا الشياطين التى أمرتهم بذلك». وقال لابن الزبعرى: «ما أجهلك بلغة قومك، أمَا فهمت أن «ما» لِما لا يعقل، فهى خاصة بالأصنام»(٢)، فأنزل الله: ﴿إنَّ الَّذينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ...﴾(٣) الآية. ونزلت هذه الآية.

والمعنى: ولما ضرب ابن الزبعرى عيسى ﴿ ابن مريم مثلاً ﴾ لآلهتهم، وجادل رسول الله ﷺ بعبادة النصارى إياه ﴿ إذا قومُك ﴾ قريش ﴿ منه ﴾ أي: من هذا المثل ﴿ يَصِدُّون ﴾ ترتفع لهم جلبة وضجيج، فرحًا وضحكاً، فهو من: الصديد، وهو الجلبة ورفع الصوت، ويؤيده: تعديته بمن، ولو كان من الصدود لقال: «عنه»، وقرئ بالكسر والضم، قيل: هما لغتان، كيعكِفون ويعكُفون ويعرِشون ويعرُشون، وقيل: بالكسر معناه: الصديد، أي: الضجيج والضحك، وبالضم معناه: الإعراض، فيكون من الصدود، أي: فهم من أجل هذا المثل يعرضون عن الحق، أي: يثبتون على ماكانوا عليه من الإعراض، أو يزدادون.

﴿ وقالوا آلهتُنا خيرٌ أَمْ هو ﴾ يعنى أن آلهتنا عندك ليست بخير من عيسى، فإذا كان عيسى من حصب جهنم كان أمر آلهتنا هيناً. أو: فإذا كان عيسى فى النار، فلا بأس بكوننا مع آلهتنا فيها. قال تعالى: ﴿ ماضربوه لك إلا جَدَلاً ﴾ أي: ما ضربوا لك ذلك المثل إلا لأجل الجدال والخصام، لا لطلب الحق حتى يذعنوا له عند ظهوره، ﴿ بل هم قوم خَصِمُون ﴾ أي: لُدّاً، شِداد الخصومة، مجبولون على اللجاج، وذلك أن الآية إنما قصدت الأصنام، بدليل التعبير بـ «ما»، إلا أن ابن الزبعرى حدا عنه لمّا رأى كلام الله تعالى محتملاً لفظُه للعموم، مع علمه بأن المراد به أصنامهم، وجد للحيلة مساغاً، فصرف اللفظ إلى الشمول والإحاطة بكل معبود غير الله، على طريق اللجاج والجدال والمكابرة، وتوقّح فى ذلك، فصمت عنه ﷺ حتى أجاب عنه ربه.

(١) الآية ٩٨ من سورة الأنبياء.
(٢) قال الحافظ ابن حجر فى الكافر الشاف (ص ١١١ ـ ١١٢): «استقر فى ألسنة كثير من علماء العجم، وفى كتبهم أن النبى ﷺ قال «ما أجهلك بلغة قومك ..» الخ. وهو شيء لاأصل ولايوجد لامسنداً ولاغير مسند» هـ. ووجدت على هامش النسخة الأم ما يلى: «هذه الرواية لا أصل لها، بل الخبر من أصله لم يورده المؤلف كما هو، ولبيان ذلك لا يسعه هذا المحل» هـ.
(٣) الآية ١٠١ من سورة الأنبياء.

وقيل: لما سمعوا قوله تعالى: ﴿ إنَّ مثل عيسى عند الله... ﴾(١) الآية، قالوا: نحن أهدى من النصارى، لأنهم عبدوا آدمياً، ونحن نعبد الملائكة، فنزلت. فقولهم: آلهتنا خير، هو حينئذ تفضيل لآلهتهم على عيسى عليه السلام؛ لأن المراد بهم الملائكة. ومعنى: ﴿ما ضربوه ..﴾ الخ: ما قالوا هذا القول إلا للجدال. وقيل: لما نزل: ﴿إن مثل عيسى عند الله..﴾ الآية، قالوا: مايريد محمد إلا أن نعبده كما عبد النصارى المسيح. ومعنى «يصدون»: يضجون ويسخرون، والضمير على هذا في «أم» هو لمحمد ﷺ، وغرضهم ومرادهم بالموازنة بينه وبين آلهتهم الاستهزاء به ﷺ ويجوز أن يكون مرادهم التنصلُ عما أنكر عليهم من قولهم: الملائكة بنات الله، ومن عبادتهم لهم، كأنهم قالوا: ما قلنا بدعاً من القول، ولا فعلنا منكراً من الفعل، فإنَّ النصارى جعلوا المسيح ابن الله، وعبدوه، فنحن أرشد منهم قولاً وفعلاً، حيث نسبنا له الملائكة، وهم نسبوا إليه الأناسي. فقوله تعالى: ﴿ إن هو إلا عبدٌ أنعمنا عليه ﴾ أي: ما عيسى إلا عبد، كسائر العبيد، أنعمنا عليه بالنبوة، ﴿ وجعلناه مثلاً لبني إسرائيل ﴾، أي: أمراً عجيباً، حقيقاً بأن يسير ذكره كالأمثال السائرة، ففيه تنبيه على بطلان رفعه عن رتبة العبودية، أي: قصارى أمره أنه ممن أنعمنا عليه بالنبوة، وخصصناه ببعض الخواص البديعة، بأن خلقناه على وجهٍ بديعٍ، وقد خلقنا آدم بوجه أبدع منه، فأين هو من رتبة الربوبية حتى يتوهم أنه رضي بعبادته مع الله؟ ومن عبده فإنما عبد الشيطان.

ثم قال تعالى: ﴿ ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة في الأرض ﴾ بدلاً منكم، كذا قال الزجاج، فـ «مِن» بمعنى البدل ﴿ يَخْلُفُون ﴾ أي: يخلفونكم في الأرض، أي: لو نشاء لذهبنا بكم وجعلنا بدلاً منكم ملائكة يخلفونكم في الأرض، فيكونون أطوع منكم لله تعالى، وقيل: (ولو نشاء) لقدرتنا على عجائب الأمور (لجعلنا منكم) بطريق التوالد، وأنتم رجال، من شأنكم الولادة ـ (ملائكة) كما خلقناهم بطريق الإبداع (في الأرض) مستقرين فيها، كما جعلناهم مستقرين في السماء، يخلفونكم مثل أولادكم، ويباشرون الأفاعيل المنوطة بمباشرتكم، فكيف يستحقون المعبودية مع أنهم أجسام، متولدون عن أجسام، والمستحق للعبادة يتعالى عن ذلك؟!

﴿ وإنه ﴾ أي: عيسى عليه السلام ﴿ لَعِلْمٌ للساعة ﴾ أي: مما يعلم به مجيء الساعة عند نزوله. وقرأ ابن عباس «لَعَلَمٌ» بفتح اللام(٢)، أي: وإن نزوله لَعَلَم للساعة، أو: وإن وجوده بغير أب، وإحياءه للموتى، دليل على صحة البعث، الذي هو معظم ما ينكره الكفرة.

(١) الآية ٥٩ من سورة آل عمران.

(٢) اللام الثانية مع فتح العين (لَعَلَمٌ) وهو الأمارة والعلامة.

وفى الحديث: إن عيسى عليه السلام ينزل على ثنية بالأرض المقدسة، يقال لها: أفيق، وهى عقبة بيت المقدس، وعليه مُمَصَّرتان(١)، وشعر رأسه دهين، وبيده حربة يقتل بها الدجال، فيأتى بيت المقدس، والناس فى صلاة العصر، والإمام يؤم بهم، فيتأخر الإمام، فيقدمه عيسى، ويصلى خلفه على شريعة محمد ﷺ، ويقتل الخنزير، ويكسر الصليب، ويخرب البِيَع والكنائس، ويقتل النصارى إلا من آمن به وبمحمد ﷺ(٢).

وقيل: الضمير للقرآن؛ لأن فيه الإعلام بالساعة، ﴿فلا تمترُنَّ بها﴾؛ فلا تشكنَّ فيها، من المِرْية، وهو الشك، ﴿واتبعونِ﴾ أى: اتبعوا هداى وشرائعى، أو: رسولى، وقيل: هو قول نبينا ﷺ مأموراً به من جهته تعالى: ﴿هذا﴾ أى: الذى أدعوكم إليه ﴿صراط مستقيم﴾؛ موصل إلى الحق. ﴿ولا يَصُدَّنكم الشيطانُ﴾ عن اتباعى ﴿إنه لكم عدو مبينٌ﴾؛ بيِّن العداوة، حيث أخرج آباكم من الجنة، وعرضكم للبلية.

الإشارة: الوعظ والتذكير لا تسرى أنواره فى القلوب إلا مع التسليم والتصديق، والسكوت والاستماع، كما كان الصحابة ـ رضى الله عنهم ـ مع الرسول ﷺ كأنَّ على رؤوسهم الطير، وأما إن دخل معه الجدال واللجاج ذهبت بركته، ولم تسْرِ أنواره، ولذلك قيل: مذهب الصوفية مبنى على التسليم والتصديق، ومذهب الفقهاء مبنى على البحث والتفتيش، لكن مع الإنصاف، وخفض الصوت، وحسن السؤال من غير ملاججة ولا غضب.

ثم ذكر بعثة عيسى ودعوته إلى الله، فقال:

﴿ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾

(١) ممصرتان: تثنية «ممصَّرة»، وهى الثياب التى فيها صفرة خفيفة. انظر النهاية فى غريب الحديث (مصر ٤/٣٣٦).

(٢) ذكره بلفظه القرطبى فى تفسيره (٧/٦١٠٩) وعزاه للثعلبى، وأخرجه بلفظ مقارب أبو داود فى (الملاحم، باب خروج الرجال، ٤/٤٩٨ ح ٤٣٢٤). عن أبى هريرة. وأصل الحديث فى الصحيحين. انظر البخارى (كتاب الأنبياء، باب نزول عيسى بن مريم عليهما السلام ح ٣٤٤٨) ومسلم (الإيمان، باب نزول عيسى ابن مريم حكماً بشريعة نبينا محمد ﷺ ١/١٣٥ ح ١٥٥).

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ولما جاء عيسى بالبينات ﴾ ؛ بالمعجزات؛ أو: بآيات الإنجيل؛ أو: بالشرائع الواضحات ﴿ قال ﴾ لبني إسرائيل: ﴿ قد جئتكم بالحكمة ﴾ ؛ بالشريعة، أو: بالإنجيل المشتمل عليها ﴿ ولأُبَيِّنَ لكم بعضَ الذي تختلفون فيه ﴾ وهو ما يتعلق بأمور الدين، وأما ما يتعلق بأمور الدنيا فليس بيانه من وظائف الأنبياء ـ عليهم السلام ـ كما قال ﷺ: «أنتم أعلمُ بدنياكم»(١)، وهو عطف على مقدر، ينبئ عنه المجيء بالحكمة، كأنه قيل: جئتكم بالحكمة لأعلمكم إياها، ولأُبيّن لكم ما تختلفون فيه، ﴿ فاتقوا الله ﴾ في مخالفتي ﴿ وأطيعونِ ﴾ فيما أُبلغكم عن الله تعالى:

﴿ إن الله هو ربي وربُّكم فاعبدوه ﴾ بيان لما أمرهم به من الطاعة، وهو اعتقاد التوحيد، والتعبد بالشرائع، ﴿ هذا صراطٌ مستقيمٌ ﴾ لا يضل سالكه؛ فهذا تمام كلام عيسى عليه السلام، وقيل: قوله: ﴿هذا....﴾ إلخ من كلام الله تعالى، مُقرر لمقالة عيسى عليه السلام.

﴿ فاختلف الأحزابُ ﴾ أي: الفرق المتحزبة بعد عيسى، وهم: اليعقوبية والنسطورية، والملكانية، والشمعونية، ﴿ من بينهم ﴾ أي: من بين النصارى، أو: من بين مَن بُعثَ إليهم من اليهود والنصارى، أي: اختلافاً ناشئاً من بينهم، من غير حجة ولا برهان، ﴿ فَويلٌ للذين ظلموا ﴾ من المختلفين، حيث قالوا في عيسى ما كفروا به، ﴿ من عذاب يومٍ أليمٍ ﴾ وهو يوم القيامة ﴿ هل ينظرون ﴾ أي: ما ينتظر أولئك الكفرة، أو قوم عيسى ﴿ إلا الساعة أن تأتيهم ﴾ : بدل من «الساعة» أي: هل ينتظرون إلا إتيان الساعة ﴿ بغتةً ﴾ ؛ فجأة ﴿ وهم لا يشعرون ﴾ غافلون عن الاستعداد لها، لاشتغالهم بأمر دنياهم، أو: منكرون لها، غير مترقبين وقوعها.

الإشارة: كانت الرسل ـ عليهم السلام ـ يُبينون لأممهم ما يقع فيه الاختلاف من أمر الدين، سواء تعلق ذلك بالظاهر أو بالباطن، بما يوحى إليهم من إلهام، أو بملَك مرسل، فلما ماتوا بقيَ خلفاؤهم من العلماء والأولياء، فالعلماء يُبينون ما اختُلِف فيه من الشرائع والعقائد، بما عندهم من القواعد والبراهين، والأولياء يُبينون الحقائق، وما يتعلق بالقلوب من الشكوك والخواطر، وسائر الأمراض، بما عندهم من الأذواق والكشوفات. فالعلماء يرجعون إلى كتبهم وعلومهم، والأولياء يرجعون إلى قلوبهم وأذواقهم، حتى كان فيما سلف من العلماء إذا توقفوا في مسألة عقلية أو قلبية أخذوا صوفياً أُمياً فيسألونه، ويجبرونه على الجواب، فيجيبهم عن كل ما يسألونه، كقصة أبي الحسن الدوري مع القاضي، وغيره، وقد كان الشعراني يسأل شيخه الخواص ـ وهو أُمي ـ عن أمور معضلة، فيجيب عنها، حتى إن كتبه كلها مطرزة بكلامه ـ رضي الله عنهم أجمعين.

---

(١) أخرجه مسلم في (الفضائل، باب وجوب امتثال ما قاله شرعاً، ٤/ ١٨٣٥ ح ٢٣٦٣) عن السيدة عائشة ـ رضي الله عنها ـ وسيدنا أنس رضي الله عنه بلفظ: «أنتم أعلم بأمر دنياكم».

وأهل الأذواق هم المتقون المتحابون فى الله، الذين أشار إليهم تعالى بقوله:

﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَـٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَـٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ الأخلاءُ يومئذ بعضُهم لبعض عدو ﴾ أى: المتحابون فى الدنيا على الأمور الذميمة متعادون يوم القيامة، يبغض بعضهم بعضاً، فتنقطع فى ذلك اليوم كل خُلة كانت لغير الله، وتنقلب عداوة ومقتاً؛ لانقطاع سببها، وهو الاجتماع على الهوى، ﴿ إلا المتقين ﴾ أى: الأخلة المصادقين فى الله، فإنها الخُلة الباقية؛ لأن خُلتهم فى الدنيا لمّا كانت لله، وفى الله، بقيت على حالها؛ لأن ما كان لله دام واتصل، وما كان لغير الله انقطع وانفصل، بل تزداد خُلتهم بمشاهدة كل واحد منهم بركة خُلتهم من الثواب، ورفع الدرجات. وسُئل ﷺ: مَن أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون؟ فقال: «المتحابون فى الله»، وخرّج البزار عن ابن عباس رضي الله عنه: قيل: يارسول الله! أيُّ جلسائنا خيرٌ؟ قال:«من ذكّركم بالله رؤيته، وزاد فى عملكم منطقه؛ وذكّركم بالله علمه»(١).

ومن كلام الشيخ أبى مدين رضي الله عنه: دليل تخليطك صحبتك للمخلطين، ودليل انقطاعك إلى الله صحبتك للمنقطعين.هـ. وفى سماع العتبية: قال مالك: لا تصحبْ فاجراً لئلا تتعلّم من فجوره، قال ابن رُشد: لا ينبغى أن يُصحب إلا من يُقتدى به فى دينه وخيره؛ لأن قرين السوء يُردى، قال الحكيم:

عَن المرءِ لا تَسألْ وسَلْ عن قَرِينه فَكلُّ قَرِينٍ بالمُقارِنِ مُقْتَدِ.(٢).

---

(١) أخرجه أبو يعلى فى مسنده (٢٤٣٦) عن ابن عباس رضي الله عنه.

(٢) البيت منسوب إلى عدى بن زيد: انظر: نهاية الأرب (٦٥/٣) والعقد الفريد (٣١١/٢).

وفى الحديث: «المرءُ على دينِ خليله» وسيأتى، فى الإشارة بقية الكلام على المتحابين فى الله.

ويقال لهم حينئذ، تشريفاً لهم، وتطييباً لقلوبهم: ﴿ يا عبادي (١) لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون ﴾، ثم وصفهم أو مدحهم بقوله: ﴿ الذين آمنوا بآياتنا ﴾ ؛ صدّقوا بآياتنا التنزيلية، ﴿ وكانوا مسلمين ﴾ ؛ منقادين لأحكامنا، مخلصين وجوههم لنا، وعن مقاتل: «إذا بعث الله الناس، فزع كل أحد، فينادى منادٍ: ياعبادى، لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون، فيرجوها الناس كلهم، فيتبعها الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين، فينكّس أهل الأديان الباطلة رؤوسَهم»(٢).

ثم يقول لهم: ﴿ ادخلوا الجنةَ أنتم وأزواجكم ﴾ ؛ نساؤكم المؤمنات ﴿ تُحْبرون ﴾ ؛ تُسرّون سروراً يظهر حَباره ـ أى: أثره ـ على وجوهكم أو: تُزَيّنون، من: الحبرة وهو حسن الهيئة، أو: تُكرَمون إكراما بليغًا، وتتنعمون بأنواع النعيم. والحبرة: المبالغة فيما وصف بجميل؛ وتقدم فى قوله: ﴿ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴾(٣) أنه السماع. ﴿ يُطاف عليهم بصِحَافٍ من ذهب ﴾ أى: بعد دخولهم الجنة حسبما أمروا به ﴿ وأكواب ﴾ من ذهب؛ حذف لدلالة ما قبله. والصِحَاف: جمع صحفة، قيل: هى كالقصعة، وقيل: أعظم القصاع، فهى ثلاث: الجفنة، ثم القصعة، ثم الصحفة، والأكواب: جمع كوب، وهو كوز مستدير لا عروة له.

وفى حديث أبى هريرة، عنه ﷺ: قال: «أدنى أهْلِ الجنةِ من له سبْعُ درجاتٍ، هو على السادسة، وفوقه السابعة، وإنّ له ثَلاثَمائة خادمٍ، ويُغدى عليه ويُراح بثلاثمائة صَحْفةٍ من ذَهبٍ، فى كلِّ صَحْفَةٍ لونٌ ليس فى الأُخرى مِثْله، وإنه ليَلَذُّ آخِرَه كما يلَذُّ أولَه، ويقول: لَوْ أذِنْتَ لى يارب لأَطْعَمْتُ أهلَ الجنةِ، وأسقيتهم، ولا ينقص مما عندى شيء، وإنّ لَه من الحور العِين لاثنين وسبعين زوجة، سوى أزواجه فى الدنيا، وإن الواحدة منهن ليأخذَ مقعدُها قَدرَ ميل»(٤). وفى حديث عكرمة: «إن أدنى أهل الجنة منزلةً من يُفسح له فى بصره مسيرة مائة عام، فى قصور من ذهب، وخيام من لؤلؤ، وليس منها موضع شبر إلا معمور، يُغدى عليه ويُراح بسبعين ألف صحفة

---

(١) هكذا (يا عبادى لاخوف) بإثبات الياء، وإسكانها، وهى قراءة نافع، وأبى عمرو، وابن عامر، وأبى جعفر، وصلاً ووقفاً. والباقون بحذفها فى الحالين. انظر الإتحاف (٢/٤٥٨ ـ ٤٥٩).

(٢) أخرجه الطبرى (٢٥/٩٥) عن سليمان التيمى.

(٣) الآية ١٥ من سورة الروم.

(٤) أخرجه أحمد (٢/٥٣٧) وقال ابن القيم فى حادى الأرواح (٢٢٣): «سُكين بن عبد العزيز، ضعّفه النسائى. وشهر بن حوشب، ضعّفه مشهور. والحديث منكر، يخالف الأحاديث الصحيحة».

من ذهب، ليس فيها صحفة إلا وفيها لون ليس فى الأخرى مثله، شهوته فى آخرها كشهوته فى أولها، ولو نزل به جميع أهل الدنيا لوسع عليهم مما أعطى، ولا ينقص ذلك مما أُوتى شيئًا»(١). ويجمع بينهما بتعدد أهل هذه المنزلة، وتفاوتهم.

﴿ وفيها ﴾ أى: فى الجنة ﴿ ما تشتهيه الأنفسُ ﴾ من فنون الملاذ. ومن قرأ بحذف الهاء؛ فلطول الموصول بالفعل والفاعل. ﴿ وتلذُّ الأعينُ ﴾ أى: تستلذه، وتقر بمشاهدته، وهذا حصر لأنواع النعيم؛ لأنها إما مشتهيات فى القلوب، أو مستلذات فى العيون، ففى الجنة كل ما يشتهى العبد من الملابس والمناكح والمراكب.

رُوى أن رجلاً قال: يارسول الله، إنى أُحبُّ الخيلَ، فهل فى الجنة خيلٌ؟ فقال: «إنْ يُدْخلك اللهُ الجنةَ فلا تشاء أن تركبَ فرسًا من ياقُوتَةٍ حمراءَ، يَطيرُ بكَ فى الجنة حيث شئت، إلا فعلت، قال أعرابى: يارسول الله، إنى أُحبُّ الإبلَ، فهل فى الجنة إبل؟ فقال: يا أعرابى، إن يُدْخلك الله الجنة ففيها ما اشتهت نفسك ولذت عيناك»(٢).هـ. وقال أبو طيبة السلمى: إن الشرذمة من أهل الجنة لتظلهم سحابة، فتقول: ما أُمْطِرُكُم؟ فما يدعو داع من القوم بشيء إلا أمطرَتْه، حتى إن الرجل منهم يقول: أمطر علينا كواعب أترابا. وقال أبو أَمامة: إن الرجل من أهل الجنة ليشتهى الطائر وهو يطير، فيقع نضيجاً فى كفه كما أراد، فيأكل منه حتى تشهى نفسه، ثم يطير كما كان أول مرة، ويشتهى الشراب، فيقع الإبريق فى يده، فيشرب منه مايريد، ثم يرفع الإبريق إلى مكانه.هـ. من الثعلبى.

قال القشيرى: وفيها ما تشتهيه الأنفس للعُبّاد؛ لأنهم [قاسوا](٣) فى الدنيا ـ بحكم المجاهدات ـ الجوعَ والعطشَ، وتحملوا وجوهَ المشاقّ، فيجزون فى الجنة وجوهاً من الثواب، وأما أهل المعرفة والمحبّون فلهم ما تلذّ أعينهم من النظر إلى الله، لطول ما قاسوه من فَرْطِ الاشتياق بقلوبهم، وما عالجوه من احتراقهم فيه لشدة غليلهم.هـ. والحاصل: أن ما تشتهى الأنفس يرجع لنعيم الأشباح، وتلذ الأعين لنعيم الأرواح من النظر، والقُرب، والمناجاة والمكالمة، والرضوان الأكبر، منحنا الله من ذلك الحظ الأوفر.

﴿ وأنتم فيها خالدون ﴾ إتمام للنعمة، وكمال للسرور؛ فإن كل نعيم له زواله مكدر بخوف زواله لا محالة.

﴿ وتلك الجنة ﴾ ؛ مبتدأ وخبر، و﴿ التي أُورثتموها ﴾ : صفة الجنة، أو: «الجنة» صفة المبتدأ، الذى هو الإشارة، و«التى أورثتموها»: خبره. أو: «التى أورثتموها» صفة المبتدأ، و﴿ بما كنتم تعملون ﴾ : خبر، أى: حاصلة، أو كائنة

---

(١) عزاه السيوطى فى الدر المنثور (٥/٧٣٢) لعبد بن حميد، عن عكرمة، يرفعه.

(٢) أخرجه أحمد فى المسند (٥/٣٥٢) والترمذى فى (صفة الجنة، باب ما جاء فى صفة خيل الجنة ٤/٨٨٥/ ح٢٥٤٣) والبغوى فى التفسير (٧/٢٢٢) عن عبدالرحمن بن سابط مرسلاً. وقال الهيثمى (١٠/٤١٣): رواه الطبرانى ورجاله ثقات.

(٣) فى الأصول: [قاموا] وما أثبته هو الذى فى القشيرى.

بما كنتم تعملون فى الدنيا، شبه جزاء العمل بالميراث؛ لبقائه على أهله دائما، ولا ينافى هذا قوله ﷺ: «لَن يُدخِل أحدَكُم الجنةَ عملُه»(١)؛ لأن نفس الدخول بالرحمة، والتنعم والدرجات بقدر العمل، أو: تقول: الحديث خرج مخرج الحقيقة، والآية خرجت مخرج الشريعة، فالحقيقة تنفى العمل عن العبد، وتُثبته لله، والشريعة تثبته له باعتبار الكسب، والدين كله وارد بين حقيقة وشريعة؛ فإذا شرع القرآن حققته السُّنة، وإذا شرعت السنة حققه القرآن. والله تعالى أعلم.

﴿لكم فيها فاكهةٌ كثيرة﴾ بحسب الأنواع والأصناف، لا بحسب الأفراد فقط، ﴿منها تأكلون﴾ أى: لا تأكلون إلا بعضها، وأعقابها باقية فى أشجارها على الدوام، لا ترى فيها شجراً خلت عن ثمرها لحظة، فهى مزيّنة بالثمار أبداً، موقورة بها، وعن النبى ﷺ: «لاينزع رجل فى الجنة من ثمرها إلا نبت فى مكانها مثلاها»(٢).

الإشارة: كل خُلة وصُحبة تنقطع يوم القيامة، إلاّ خُلة المتحابين فى الله، وهم الذين ورد فى الحديث: أنهم يكونون فى ظل العرش، والناس فى حر الشمس، يغشى نورُهم الناسَ فى المحشر، يغبطهم النبيون والشهداء لمنزلتهم عند الله. قيل: يارسول الله، مَن هؤلاءِ؟ صِفهم لنا لنعرفهم، قال: «رجالٌ من قبائلَ شتى، يجتمعون على ذكر الله»(٣).

وقد ورد فيهم أحاديث، منها: حديث الموطأ، عن معاذ، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله تعالى: وَجَبَتْ محبّتى للمُتَحَابّين فِىّ، والمُتَجالِسين فىّ، والمتبَاذلين فِىّ، والمتَزاورين فِىّ»(٤)، وفى رواية أبى مُسلم الخولانى: قال ﷺ: «المتحابُّون فى الله على منَابِرَ من نورٍ، فى ظلِّ العرشِ، يومَ لا ظلَّ إلا ظلُّه»(٥)، وفى حديث آخر: «ما تحابَّ اثنان فى الله إلا وُضِعَ لهما كُرسيّاً، فيجلسانِ عليه حتى يفْرغ من الحساب»(٦) وقال: ﷺ: «إنَّ المُتَحَابّين فى الله لَتَرى غُرفَهمُ فى الجنة كالكوكب الطَّالِعِ الشَّرقِى أو الغربى، فيقَال: مَن هؤلاء؟ فيقال: هؤلاء المُتَحَابُّونَ فى الله عز وجل».

---

(١) حديث صحيح، أخرجه البخارى فى (الرقاق، باب القصد والمداومة على العمل، ح ٦٤٦٧). ومسلم فى (صفات المنافقين وأحكامهم، باب لن يدخل أحد الجنة بعمله، بل برحمة الله تعالى ٤/٢١٧١، ح٢٨١٨) من حديث السيدة عائشة ـ رضى الله عنها: وأول الحديث: «سددوا وقاربوا...».

(٢) أخرجه الطبرى (٢٥/٩٧) والبزار (كشف الأستار ح ٣٥٣٠) وقال الهيثمى فى مجمع الزوائد (١٠/٤١٤): رواه الطبرانى والبزار، ورجال الطبرانى وأحد إسنادى البزار ثقات.

(٣) قال الهيثمى فى المجمع (١٠/٧٧): رواه الطبرانى، وإسناده حسن.

(٤) رواه مالك فى الموطأ (٢/٩٥٣) وأحمد (٥/٢٣٣) والحاكم (٤/١٦٩) وصححه ووافقه الذهبى.

(٥) رواه ابن حبان (٥٧٧) وعبدالله بن الإمام أحمد فى زوائد المسند (٥/٣٢٩).

(٦) عزاه السيوطى فى الجامع الصغير (ح ٧٨٦٨) للطبرانى، عن أبى عبيدة ومعاذ، وضعّفه.

وفي رواية: «إنّ في الجنة غُرَفًا يُرى ظواهِرُها مِنْ بَوَاطِنِها، وبَوَاطِنُها من ظَوَاهِرِها، أعدّها الله للمتحابّين في الله، والمُتَزَاوِرِينَ فيه، والمُتباذلين فيه»(١) وفي لفظ آخر: «إنّ في الجنة لعُمُدًا من ياقوتٍ، عليها غُرَفٌ من زَبَرْجد، لها أبواب مُفَتَّحَة؛ تُضيء كما يُضيء الكوكب الدُّرّي، قلنا: يارسول الله، مَن يَسْكُنُها؟ قال: المتحابُّون في الله والمتباذِلُون في الله، والمتلاقون في الله، مكتوب على وجوههم: هؤلاء المتحابون في الله»(٢) وفي الأثر أيضا: إذا كان يوم القيامة، نادى منادٍ: أين المتحابون في الله؟ فيقوم ناس ـ وهم يسير ـ فينطلقون إلى الجنّة سِرَاعا، فتتلقّاهم الملائكة: فيقولون: رأيناكم سِراعاً إلى الجنة، فمَن أنتم؟ فيقولون: نحن المتحابُّون في الله؛ فيقولون: وما كان تحابُّكم؟ فيقولون: كنّا نتحابُّ في الله، ونتزاورُ في الله، ونتعاطف في الله، ونتباذل في الله، فيُقال لهم: ادخلوا الجنة، فَنِعْمَ أجْرُ العاملين. هـ. من البدور السافرة. والتباذل: المواساة بالبذل.

وذكر في الإحياء شروط المتحابين في الله، فقال رضي الله عنه: اعلم أن عقد الأخوة رابطة بين الشخصين، كعقد النكاح بين الزوجين، ثم قال: فلأخيك عليك حق في المال، وفي النفس، وفي اللسان، وفي القلب، وبالعفو، وبالدعاء، وذلك تجمعه ثمانية حقوق:

الحق الأول: في المال بالمواساة، وذلك على ثلاثة مراتب: أدناها: أن تُنزله منزلة عبدك وخادمك، فتقوم بحاجاته بفضلة مالك، فإذا سنحت له حاجة، وعندك فضلة أعطيته ابتداءً، فإذا أحوجته إلى سؤال فهو غاية التقصير. الثانية: أن تنزله منزلة نفسك، وترضى بمشاركته إياك في مالك، فتسمح له في مشاركته. الثالثة ـ وهي العليا ـ: أن تؤثره على نفسك، وتقدم حاجته على حاجتك، وهي رتبة الصدّيقين، ومنتهى درجات المتحابين.

الحق الثاني: الإعانة بالنفس في قضاء الحاجات، والقيام بها قبل السؤال، وهذا أيضا لها درجات كالمواساة، فأدناها: القيام بالحاجة عند السؤال، ولكن مع البشاشة والاستبشار، وإظهار الفرح. وأوسطها: أن تجعل حاجته كحاجتك، فتكون متفقداً لحاجته، غير غافل عن أحواله، كما لا تغفل عن أحوال نفسك، وتغنيه عن السؤال. وأعلاها: أن تؤثره على نفسك، وتقدم حاجته على حاجتك، وتؤثره على نفسك، وأقاربك، وأولادك. كان الحسن يقول: إخواننا أحبُّ إلينا من أهلينا وأولادنا؛ لأن أهلينا يذكروننا الدنيا، وإخواننا يذكروننا الآخرة.

---

(١) رواه الطبراني في الأوسط (ح٢٩٠٣)، عن بريدة. قال الهيثمي في المجمع (١٠/٢٧٨): «وفيه إسماعيل بن سيف، وهو ضعيف».
(٢) رواه البزار (كشف الأستار، ح ٣٥٩٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

الحق الثالث: على اللسان بالسكوت، فيسكت عن التجسس، والسؤال عن أحواله، وإذا رآه في طريقه فلا يسأله عن غرضه وحاجته، فربما يثقل عليه، أو يحتاج إلى أن يكذب، ويسكت عن أسراره التي بثها إليه، فلا يبثها إلى غيره، ولا إلى أخص أصدقائه، ولا يكشف شيئاً منها ولو بعد القطيعة، وليسكن عن مماراته ومدافعته في كلامه.

الحق الرابع: على اللسان بالنطق، فيتودد إليه بلسانه، ويتفقده في أحواله، كالسؤال عن عارض عرض له، وأظهر شغل القلب بسببه، فينبغي أن يظهر له بلسانه كراهتها. والأحوال التي يُسرُّ بها، ينبغي أن يظهر له بلسانه مشاركته في السرور بها. فمعنى الأخوة: المساهمة في السراء والضراء، ويدعوه بأحب أسمائه في حضوره ومغيبه، ويُثني عليه بما يعرف من محاسن أحواله، عند مَن يريد هو الثناء عنده، وكذا على أولاده وأهله، حتى على عقله، وخلُقه، وهيئته، وخطه، وشعره، وتصنيفه، وجميع ما يفرح به، من غير كذب ولا إفراط، ويذب عنه في غيبته مهما قُصد بسوء، ويُعلمه مما علمه الله وينصحه.

الحق الخامس: العفو عن الزلات والهفوات، فإن كانت زلته في الدين؛ بارتكاب معصية، فليتلطف في نصحه، فإن بقي مُصرًّا، فقد اختلف الصحابة في ذلك، فذهب أبو ذر إلى مقاطعته، وقال: إذا انقلب أخوك عما كان عليه فابغضه من حيث أحببته. وذهب أبو الدرداء، وجماعة، إلى خلاف ذلك، وقال أبو الدرداء: إذا تغير أخوك عما كان عليه فلا تدعه لأجل ذلك؛ فإن أخاك يُعوجُ مرة؛، ويستقيم أخرى. وهذا ألطف وأفقه، وذلك لما في هذه الطريق من الرفق، والاستمالة، والتعطف، المُفضي إلى الرجوع والتوبة. وأيضا: للأخوة عقد، ينزل منزلة القرابة، فإذا انعقدت وجب الوفاء بها، ومن الوفاء: ألا يهمله أيام حاجته وفقره، وفقر الدين أشد من فقر المال. ثم قال: والفاجر إذا صَحِبَ تقياً وهو ينظر إلى خوفه رجع عن قريب، ويتخلى من الإصرار، بل الكسلان يصحب الحريص في العمل، فيحرص، حياء منه، وإن كانت زلته في حقك فلا خلاف أن العفو والاحتمال هو المطلوب.هـ. **قلت:** ولعل حق القلب يندرج هنا مع المحبة وشهود الصفاء منه.

الحق السادس: الدعاء له في حياته ومماته بكل ما يُحب لنفسه وأهله. **قلت:** ومن ذلك زيارة قبره، وإيصال النفع له في ذلك الوقت.

الحق السابع: الوفاء والإخلاص. ومعنى الوفاء: الثبات على الحب، وإدامته إلى الممات، معه ومع أولاده وأصدقائه.

الحق الثامن: التخفيف وترك التكليف والتكلف، فلا تُكلف أخاك مايشق عليه؛ بل تُرَوح سره عن مهماتك وحاجاتك، وترفهُه عن أن تحمّله شيئاً مّن أعبائك، ولا تكلفه التواضع لك، والتفقد والقيام بحقوقك، بل ماتقصد بمحبته إلا الله تعالى .هـ. باختصار (١) .

وفي وصية القطب ابن مشيش، لأبي الحسن ـ رضي الله عنهما ـ: لا تصحب من يُؤثر نفسه عليك، فإنه لئيم؛ ولا مَن يُؤثِرك على نفسه، فإنه قلما يدوم؛ واصحب من إذا ذكر ذكر الله، فالله يغني به إذا شهد، وينوب عنه إذا فُقِدَ، ذكره نور القلوب، ومشاهدته مفاتح الغيوب. ومعنى كلام الشيخ: لا تصحب من يبخل عنك بما عنده من العلوم، ولا من يتكلف لك، فإنه لا يدوم، وهذه صحبة الشيخوخة.

وقال ﷺ: «مَثَلُ الأخوين كمَثَلِ اليدَيْنِ، يَغسِلُ إحداهُما الأُخرى، وكَمَثَلِ البُنْيَان يَشُدُّ بَعْضُه بعضاً»(٢). وفي معناه قيل:

إنَّ أخَـــاكَ الحقَّ مَن كَـــانَ مَـــعَك ... وَمَـــنْ يَضُـــرُّ نَفْـــسَـــه لِيَنْفَـــعَـــك

وَمَـنْ إذا رأى زَمَـــانًا صَـــدَّعَـك ... شَـــتَّتَ فِـيك شَـــمْلَهُ لِيَـجْـمَـــعَـك

وهذا في حق الإخوان، والله تعالى أعلم.

ثم ذكر تعالى أضداد هؤلاء، فقال:

﴿ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (٧٤) لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (٧٥)
وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ (٧٦) وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ (٧٧)
لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ (٧٨) أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ (٧٩) أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا
لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ (٨٠) ﴾

قلت: (خالدون): خبر «إن»، و(في عذاب): معمول الخبر، أو: خبر، و«خالدون» خبر بعد خبر.

---

(١) انظر: إحياء علوم الدين. (كتاب آداب الألفة والأخوة).
(٢) قال العراقي في المغني (١٧٢/٢): «رواه السلمي في آداب الصحبة، وأبو المنصور الديلمي في مسند الفردوس، من حديث أنس. وفيه أحمد بن محمد بن غالب الباهلي، كذاب. وهو من قول سلمان الفارسي في الأول من الحزبيات».

يقول الحق جل جلاله: ﴿ إنَّ المجرمين ﴾ أي: الراسخين في الإجرام، وهم الكفار، كما ينبئ عنه إتيانه في مقابلة المؤمنين ﴿ في عذاب جهنم خالدون، لا يُفَتَّرُ عنهم ﴾؛ لا يخفف عنهم، من قولهم: فترت عنه الحمى: سكنت. قال القشيري: هم الكفار والمشركون، أهل الخلود، لا يُخفف عنهم، وأما أهل التوحيد فقد يكون قومٌ منهم في النار، ولكن لا يخلدون فيها؛ فيقتضي دليل الخطاب أنه يُفَتَّرُ عنهم العذاب، أي: يخفف، وورد في الخبر الصحيح: «أن الحق يُميتهم إماتة إلى أن يخرجوا منها، والميت لا يحس ولا يألم، وذكر في الآية أنهم ﴿ مبلسون ﴾ فيدلّ أن المؤمنين لا إبلاس لهم، وإن كانوا في بلائهم فهُمْ علَى وصف رجائهم، ويعُدون أيامهم.هـ.

وحمل ابن عطية الموت على المقاربة، لا الموت حقيقة؛ لأن الآخرة لا موت فيها، قال: والحديث أراه على التشبيه، لأنه كالسُبات والركود والهمود، فجعله موتاً. انظره في ﴿ ثُمَّ لا يَمُوتُ فِيهَا وَلا يَحْيَىٰ ﴾، (١) . وقال عياض في الإكمال: عن بعض المتكلمين: يحتمل الحقيقة، ويحتمل الغيبة عن الإحساس، كالنوم، وقد سمى النوم وفاتاً؛ لإعدامه الحس.هـ.

﴿ وهم فيه ﴾ أي: في العذاب ﴿ مُبلِسُون ﴾؛ آيسون من الفرج، متحيّرون، ﴿ وما ظلمناهم ﴾ بذلك، حيث أرسلنا الرسل ﴿ ولكن كانوا هم الظالمين ﴾ بتعريض أنفسهم للعذاب الخالد، بمخالفة الرسل، وإيثارهم التقليد على النظر.

﴿ ونادَوْا ﴾ وهم في النار لمّا أيسوا من الفتور(٢) ﴿ يامالكُ ﴾، وهو خازن النار. قيل لابن عباس: إن ابن مسعود يقرأ «يامالِ» ـ ورُويت عن النبي ﷺ (٣) ـ فقال(٤): «ما أشغلَ أهلَ النّار عن الترخيم (٥)»، قيل: هو رمز إلى ضعفهم وعجزهم عن تمام اللفظ. ﴿ لِيقضِ علينا ربُّك ﴾ أي: ليُمِتْنا حتى نستريح، مِن: قضى عليه إذا أماته، والمعنى: سل ربك أن يقضي علينا بالموت، وهذا لا ينافي ماذكر من إبلاسهم؛ لأنه جؤار، وتمني الموت؛ لفرط الشدة. ﴿ قال إنكم ماكثون ﴾؛ لابثون في العذاب، لا تتخلصون منه بموت ولا فتور، قال الأعمش: أُنبئت أن بين دعائهم وبين إجابتهم ألف عام(٦)، وفي الحديث: «لو قِيلَ لأهل النار: إنكم ماكثون في النار عدد كل حصاة في الدنيا لفرحوا؛ ولو قيل لأهل الجنة ذلك لحزنوا، ولكن جعل الله لهم الأبد».

---

(١) الآية ١٣ من سورة الأعلى.		(٢) أي: فتور العذاب عنهم.

(٣) نقل القرطبي (٧/ ٦١٢٠) عن أبي بكر الأنباري قوله في رفع هذه القراءة إلى النبي ﷺ: «لايعمل على هذا الحديث، لأنه مقطوع، لايقبل مثله في الرواية عن الرسول ﷺ. وكتاب الله أحق أن يحتاط له، وينفى عنه الباطل».
قلت: الذي في الصحيح أن النبي ﷺ كان يقرأ: «ونادوا يا ملك». فقد أخرج البخاري في (التفسير ـ سورة الزخرف، باب ﴿ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك﴾ الآية ح ٤٨١٩) عن صفوان بن يعلى عن أبيه قال: «سمعت النبي ﷺ يقرأ على المنبر: ﴿ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك﴾..» الحديث.

(٤) أي: سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما.

(٥) الترخيم: التليين وقيل: هو الحذف: ومنه: ترخيم الاسم في النداء، وهو أن يُحذف من آخره حرف أو أكثر، فتقول في: «مالك» يا مال، وفي «حارث» يا حا.. وهكذا. وسمي ترخيماً لتليين المنادي صوته بحذف الحرف. انظر اللسان (رخم ٣/ ١٦١٧).
وانظر قول ابن عباس رضي الله عنهما في فتح الباري (٨/ ٤٣١) وتفسير النسفي (٣/ ٢٨٣).

(٦) قول الأعمش، ذكره الترمذي في (صفة جهنم، باب ما جاء في صفة طعام أهل النار).

﴿ لقد جئناكم بالحقّ ﴾ فى الدنيا بإرسال الرسل، وإنزال الكتب، وهو خطاب توبيخ وتقريع من جهته ـ تعالى، مقرر لجواب مالك، ومُبين لسبب مكثهم، وقيل: الضمير فى (قال) لله تعالى، أى: لقد أعذرنا إليكم بإرسال الرسل بالحق ﴿ ولكن أكثرَهم للحقِ ﴾ أىّ حق كان ﴿ كارهون ﴾ لا تسمعونه وتفرون منه؛ لأن مع الباطل الدّعة، ومع الحق التعب، هذا فى مطلق الحق، وأما فى الحق المعهود، الذى هو التوحيد والقرآن، فكلهم كارهون مشمئزون منه.

﴿ أم أبْرَموا أمراً ﴾ : مبتدأ، ناع على المشركين مافعلوا من الكيد لرسول الله ﷺ، و«أم» منقطعة، ومافيها من معنى «بل» للانتقال من توبيخ أهل النار إلى حكاية جناية هؤلاء، أى: أم أحكم مشركو مكة أمراً من كيدهم ومكرهم برسول الله ﷺ، ﴿ فإنا مبْرِمُون ﴾ كيدنا حقيقة، كما أبرموا كيدهم صورة، كقوله تعالى: ﴿ أمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ ﴾(١) الآية. وكانوا يتناجون فى أنديتهم، ويتشاورون فى أمره ﷺ.

﴿ أم يحسبون ﴾؛ بل يحسبون ﴿ أنا لاَ نسمعَ سِرَّهم ﴾ وهو ما حدّثوا به أنفسهم أو غيرهم فى مكان خال، ﴿ ونجواهم ﴾ أى: ما تكلموا به فيما بينهم بطريق التناجى، ﴿ بلى ﴾ نحن نسمعها ونُطلع عليها ﴿ ورسُلُنا ﴾؛ الملائكة الذين يحفظون عليهم أعمالهم، ويلازمونهم أينما كانوا ﴿ لديهم ﴾ أى: عندهم ﴿ يكتبون ﴾ كل ماصدر عنهم من الأفعال والأقوال، ومن جملتها: ما ذكر من سرهم ونجواهم، والجملة: إما عطف على مايترجم عنه «بلى»، أى: نكتبها ورسلنا كذلك، أو حال، أى: نسمعها والحال أن رسلنا يكتبونه.

الإشارة: قوله تعالى: ﴿إن المجرمين...﴾ إلخ.. أما أهل الشرك فقد اتفق المسلمون على خلودهم، إلا ما انفرد به ابن العربى الحاتمى والجيلى، فقد نقلا خبراً مأثوراً: أن النار تخرب، وينبت موضعها الجرجير، وينتقل زبانيتها إلى خزنة الجنان، فهذا من جهة الكرم وشمول الرحمة لا يمنع، ومن جهة ظواهر النصوص معارض، وباطن المشيئة مما اختص الله تعالى به. ونقل الجيلى أيضا فى كتابه (الإنسان الكامل): أن بعض أهل النار أفضل عند الله من بعض أهل الجنة يتجلى لهم الحق تعالى فى دار الشقاء. ونقل أيضا: أن بعض أهل النار تعرض عليهم الجنة فيأنفون منها، وأن بعض أهل النار يتلذذون بها كصاحب الجرب. وذكر بعضهم أن أهل النار يتطبعون بها، كالسمندل، فهذه مقالات غريبة، الله أعلم بصحتها. وعلى تقدير وقوعها فى غيب مشيئته تعالى، فلعلها فى قوم مخصوصين من المسلمين ختم لهم بالشقاء بعد مُقاسات شدائد الطاعة، أو: فى قوم من أهل الفترة لم يكن فيهم

(١) من الآية ٤٢ من سورة الطور.

إذاية، أو صدر منهم إحسان، والله أعلم بأسرار غيبه، وأما أهل التوحيد فحالهم فى النار أرفق من هذا، بل حالهم فيها أروح من حال الدنيا من وجه.

«قال القشيرى: ولقد قال الشيوخ، إن حالَ المؤمنين فى النار ـ من وجه ـ أَرْوَحُ لقلوبهم من حالهم اليوم فى الدنيا؛ لأن اليوم خوف الهلاك؛ وغداً يقين النجاة، وأنشدوا:

عَيبُ السلامة أنّ صاحبَها ... مُتَوقّعٌ لقَواصِم الظَّهْرِ
وفَضِيلَةُ البَلْوَى تَرَقُّبُ أهلِها ... عُقْبَى الرَّجَاءِ ودَوْرَةُ الدَّهْرِ(١)

ثم قال فى قوله تعالى: ﴿ونادوا يامالك﴾ لو قالوا: يا مَلِك بدل من يامالك لكان أقربَ إلى الإجابة، ولكنّ الأجنبيةَ حالت بينهم وبين ذلك.هـ. أى: تعلقهم بالمخلوق دون الخالق. وقوله تعالى: ﴿أم أبرموا أمراً...﴾ إلخ، هى عادته تعالى مع خواصه كيفما كانوا، يرد كيد من كادهم فى نحره. وقوله تعالى ﴿أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم...﴾ إلخ، قال القشيرى: إنما خوّفهم بسماع الملائكة، وكتابتهم أعمالهم عليهم، لغفلتهم عن الله، ولوكان لهم خبر عن الله لما [خوفهم] (٢) بغير الله، ومن علِمَ أن أعماله تُكتَبُ عليه، ويُطالب بمقتضاها، قلّ إلمامُه بما يخاف أن يُسألَ عنه.هـ.

ثم ردّ على من زعم اتخاذ الولد لله تعالى، كعيسى والملائكة، فقال:

﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴿٨١﴾ سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ
الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾
وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾
وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾

(١) فى القشيرى: [عقب الرجاء مودة الدهر].
(٢) فى القشيرى [خافوهم].

يقول الحق جل جلاله: ﴿قلْ﴾ يامحمد ﴿إن كان للرحمن ولدٌ﴾ على زعمكم ﴿فأنا أول العابدين﴾ لله، كان أو لم يكن، ويسمى هذا إرخاء العنان، أى: أنا أول من يخضع لله، كان له ولد أو لم يكن، وقد قام البرهان على نفيه. قال معناه السدى، أو: وإن كان للرحمن ولد فأنا أول من يعظم ذلك الولد، وأسبقكم إلى طاعته، والانقياد إليه، كما يعظم ولد الملِك، لتعظيم أبيه؛ وهذا الكلام وارد على سبيل الفرض، والمراد: نفى الولد، وذلك أنه علّق العبادة بكينونة الولد، وهى محال فى نفسها، فكان المعلق بها محالاً مثلها، ونظيره، قول سعيد بن جبير للحجاج، ـ حين قال له: والله لأبدلنك بالدنيا نارً تلظى ـ: لو عرفت أن ذلك إليك ماعبدت إلهاً غيرك. أو: إن كان للرحمن ولد فى زعمكم ﴿فأنا أول العابدين﴾ أى: الموحِّدين لله، المكذِّبين قولكم، بإضافة الولد إليه؛ لأن مَن عبَدَ الله، واعترف بأنه إلهه فقد دفع أن يكون له ولد. أو: إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين، أى: الجاحدين والآنفين من أن يكون له ولد، مِن عبِد: بكسر الباء: إذا اشتد أنفه فهو عبِد وعابد، ومنه قول الشاعر:

متى ما يشا ذو الوُدِّ يَصْرِمْ خَليلَهُ ويَعْبَدْ عليه لا محـالَةَ ظالمـا(١)

وقول الحريرى:

قال ما يجب على عابد الحقّ قـال يحلف بالإلـه الخـلق(٢).

أى: على جاحد الحق. وقيل: هى «إنْ» النافية، أى: ما كان للرحمن ولد فأنا أول من عبد الله ووحَّده، فيوقف على «ولد» على هذا التأويل.

رُوى: أن النضر قال: إن الملائكة بنات الله، فنزلت الآية، فقال النضر: ألا ترون أنه صدّقنى ؛ فقال الوليد: ما صدّقك، ولكن قال: ما كان للرحمن ولدا، فأنا أوّل الموحدين من أهل مكة أن لا ولد له(٣). وسيأتى فى الإشارة قول آخر.

قال القشيرى: وفى الآية وأمثالها دليل على جواز حكاية قول المبتدعة فيما أخطأوا فيه فى الاعتقاد، على وجه الردّ عليهم.هـ. **قلت:** ولا تجوز مطالعة أقوالهم إلا لمن رسختْ قدمه فى المعرفة، والإعراض عنها أسلم.

ثم نزّه ذاته عن اتخاذ الولد، فقال: ﴿سبحان ربِّ السموات والأرض ربِّ العرش عما يصفون﴾ أى: تنزه رب هذه العوالم العظام عن اتخاذ الولد؛ لأن اتخاذ الولد من صفة الأجسام، ولو كان جسماً ما قدر على خلق هذه

---

(١) البيت للمرقش الأصغر. انظر المفضليات (٥٠٢) وروح المعانى للألوسى (١٠٥/٢٥).

(٢) هكذا فى الأصول، وأظنه [الحق]، ولم أقف على البيت فى غير هذا المكان.

(٣) ذكره النسفى (٢٨٣/٣).

الأجرام، وفى إضافة اسم الرب إلى أعظم الأجرام وأقواها، تنبيه على أنها وما فيها من المخلوقات حيث كانت تحت ملكوت ربوبيته؛ كيف يتوهم أن يكون شيء منها جزءاً منه. وفى تكرير اسم الرب تفخيم لشأن العرش.

﴿ فذرهم يخوضوا ﴾ فى باطلهم ﴿ ويلعبوا ﴾ فى [دنياهم](١) أى: حيث لم يُذعنوا لك، ولم يرجعوا عن غيهم، أعرض عنهم واتركهم فى لهوهم ولعبهم، ﴿ حتى يُلاقوا يومهم الذي يُوعدون ﴾، وهو القيامة، فإنهم يومئذ يعلمون مافعلوا، وما يفعل بهم، أو: يوم بدر، قاله عكرمة وغيره. وهذا دليل على أن ما يقولونه إنما هو خوض ولعب لا حقيقة له.

ثم ذكر انفراده بالألوهية فى العالم العلوى والسفلى، فقال: ﴿ وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله ﴾ أى: وهو الذى هو معبود فى السماء وفى الأرض، فضمّن «إله» معنى مألوه، أى: وهو الذى يستحق أن يُعبد فيهما. وقرأ عمر، وأُبَى، وابن مسعود: «وهو الذى فى السماء الله وفى الأرض الله، كقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الأَرْضِ ﴾(٢)، وقد مر تحقيقه عبارة وإشارة. والراجع إلى الموصول: محذوف؛ لطول الصلة، كقولهم: ما أنا بالذى قائل لك سوءاً، والتقدير: وهو الذى هو فى السماء إله، و«إله»: خبر عن مضمر، ولا يصح أن يكون «إله» مبتدأ، و«فى السماء» خبره؛ لخلو الصلة حينئذ عن العائد ﴿ وهو الحكيمُ ﴾ فى أقواله وأفعاله ﴿ العليم ﴾ بما كان وما يكون، أو: الحكيم فى إمهال العصاة، العليم بما يؤول أمرهم إليه، وهو كالدليل على ما قبله من التنزيه، وانفراده بالربوبية.

﴿ وتبارك الذى له ملكُ السموات والأرض ﴾ أى: تقدّس وتعاظم الذى ملَكَ ما استقر فى السموات والأرض ﴿ وما بينهما ﴾ إما على الدوام، كالهواء، أو فى بعض الأوقات، كالطير، ﴿ وعنده علمُ الساعة ﴾ أى: العلم بالساعة التى فيها تقوم، ﴿ وإليه تُرجعون ﴾ للجزاء، والالتفات للتهديد، فيمن قرأ بالخطاب. ﴿ ولا يملك الذين يدعُونَ من دونه ﴾ أى: لاتملك آلهتهم التى يدعونها ﴿ من دونه ﴾ أى: من دون الله ﴿ الشفاعةَ ﴾ كما زعموا أنهم شفعاؤهم عند الله ﴿ إلا من شَهِدَ بالحق ﴾ الذى هو التوحيد، ﴿ وهم يعلمون ﴾ بما يشهدون به عن بصيرة وإيقان وإخلاص، وهم خواص المسلمين، والملائكة. وجمع الضميرين باعتبار معنى (مَن) كما أن الإفراد أولاً باعتبار لفظها. والاستثناء: إما متصل، والموصل عام لكل ما يعبد من دون الله، أو: منقطع، على أنه خاص بالأصنام.

---

(١) فى الأصول [دينهم] والمثبت من النسفى وأبى السعود.

(٢) من الآية ٣ من سورة الأنعام.

الإشارة: قل يامحمد: إن كان للرحمن ولد، على زعمكم في عيسى والملائكة، فأنا أولى بهذه النسبة على تقدير صحتها؛ لأني أنا أول من عبد الله في سابق الوجود؛ لأن أول ماظهر نوري، فعَبَد الله سنين متطاولة؛ ثم تفرعت منه الكائنات، ومن سبق إلى الطاعة كان أولى بالتقريب، فلِمَ خصصتم الملائكة وعيسى بهذه النسبة، وأنا قد سبقتهم في العبادة، بل لا وجود لهم إلا من نوري، لكن لا ولد له، فأنا عبد الله ورسوله. قال جعفر الصادق: أول ما خلق الله نور محمد ﷺ قبل كل شيء، وأول مَن وحّد الله عز وجل من خلقه، دُرة محمد ﷺ، وأول ما جرى به القلم «لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ». هـ. قاله الورتجبي. ففي الآية إشارة إلى سبقيته ﷺ، وأنه أول تجل من تجليات الحق، فمِن نوره انشقت أسرار الذات، وانفلقت أنوار الصفات، وامتدت من نوره جميع الكائنات.

قوله تعالى ﴿فذرهم يخوضوا...﴾ إلخ، كل من خاض في بحار التوحيد بغير برهان العيان، تصدق عليه الآية، وكذا كل من اشتغل بغير الله، وبغير ما يُقرب إليه؛ فهو ممن يخوض ويلعب، وفي الحديث: «الدنيا ملعونة ملعونٌ ما فيها إلا ذكرَ الله، وما والاه، أوعالماً أو متعلماً»(١).

وقوله تعالى: ﴿ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة...﴾ إلخ. قال القشيري: وفي الآية دليل على أن جميع المسلمين تكون شفاعتهم غداً مقبولة. هـ. أي: لأنهم في الدنيا شَهِدوا بالحق، وهو التوحيد عن علم وبصيرة، لكن في تعميمه نظر؛ لأن الاستثناء، الأصل فيه الاتصال، ولأن من شهد بالحق مستثنى من «الذين يدعون من دونه» ـ وهم الملائكة، وعيسى، وعزير، فهم الذين شَهِدوا بالحق ممن دعوا من دون الله، وشفاعة من عداهم مأخوذة من أدلة أخرى.

ثم ذكر إقرار المشركين بالربوبية، فقال:

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٨٧) وَقِيلِهِۦ يَـٰرَبِّ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ (٨٨) فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَـٰمٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٨٩) ﴾

قالت: (قِيلِه): مصدر مضاف لفاعله، يقال: قال قولاً وقالاً وقيلاً ومقالاً. واختلف في نصبه(٢)، فقيل: عطف على «سرهم»(٣)، أي: يعلم سرهم ونجواهم وقيلَه، وقيل: عطف على محل «الساعة»، أي: يعلم الساعة ويعلم قيلَه،

(١) أخرجه ابن ماجه (الزهد، باب مثل الدنيا ٢/١٣٧٧، ح ٤١١٢) والترمذي في (الزهد، باب ١٤.. ٣/ ٤٨٦، ح٢٣٢٢) والبيهقي في الشعب (١٧٠٨) من حديث أبي هريرة ﷺ. وقال الترمذي: (حديث حسن) والمراد بالدنيا: كل ما يشغل عن الله تعالى، ويبعد عنه.

(٢) قرأ الجمهور «قيله» بنصب اللام، وضم الهاء. وقرأ عاصم وحمزة بخفض اللام وكسر الهاء.

(٣) من الآية ٨٠، وانظر الهداية للمهدوي (٢/ ٥١٠).

ويجوز أن يكون الجر والنصب على إضمار القسم، وحذفه، كقوله تعالى: ﴿قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ﴾(١) وجوابه: ﴿إن هؤلاء...﴾ إلخ.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ولئن سألتَهُم﴾ أي: المشركين، أو: العابدين والمعبودين ﴿مَنْ خلقهمْ ليقولُنَّ اللهُ﴾ لا الأصنام والملائكة ﴿فأنَّىٰ يُؤفكون﴾؛ فكيف يصرفون عن عبادته إلى عبادة غيره، مع كون الكل مخلوقاً له تعالى.

ولما شق عليه ﷺ صرفهم عن الإيمان جعل يستغيث ربه في شأنهم، حرصاً على إيمانهم، ويقول: ﴿ يارب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون﴾ أي: قد عالجتهم فلم ينفع فيهم شيء، فلم يبق إلا الرجوع إليك، إما إن تهديهم، أو تُهلكهم، فأخبر تعالى أنه يسمع سرهم ونجواهم، وقوله عليه السلام في شأنهم، قال له تعالى: ﴿فاصفحْ عنهم﴾ أي: أعرض عنهم وأمهلهم، ﴿وقل سلامٌ﴾ أي: أمري تسلّم منكم ومتاركة، حتى نأمرك بجهادهم، ﴿فسوف يعلمون﴾ حالهم قطعاً، وإن تأخر ذلك. وهو وعيد من الله تعالى، وتسلية لرسول الله ﷺ، أو: فسوف يعلمون حقيقة ما أنكروا من رسالتك. ومن قرأ بالخطاب(٢)، فهو داخل في حيز «قل»، من جملة ما يقال لهم.

الإشارة: العجب كل العجب أن يعلم العبد أنه لا خالق له سوى ربه، ولا محسن له غيره، وهو يميل بالمحبة أو الركون إلى غيره، وفي الحِكَم: «والعجب كل العجب ممن يهرب مما لا انفكاك له عنه، ويطلب ما لا بقاء له معه، فإنها لا تعمى الأبصار، ولكن تعمى القلوب التي في الصدور.» ويقال لمن دعا إلى الله فلم ينجح دعاؤه: ﴿فاصفح عنهم وقل سلام...﴾ الآية.

وبالله التوفيق.. وصلى الله على سيدنا محمد وآله.

❁ ❁ ❁

---

(١) الآية ٨٤ من سورة ص.

(٢) قرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر، بالخطاب على الالتفات، والباقون بالغيب. انظر: الاتحاف/٤٦١.

سورة الدخان

مكية. وهي سبع وخمسون آية. ومناسبتها لما قبلها قوله: ﴿فسوف تعلمون﴾ على الاحتمال الثاني[1]، أي: سوف تعلمون حقيقة ما أنزلنا على محمد، ثم أقسم أنه أنزل في ليلة مباركة، أو لقوله: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[2] أي: بما أنزلتَ إليّ، فأقسم الله تعالى أنه أنزله من عنده، أو يرجع لقوله: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ﴾[3] والحديث شجون، يجر بعضه بعضا.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦﴾ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٧﴾ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴿٩﴾﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿حم﴾، يا محمد ﴿و﴾ حق ﴿الكتاب المبين﴾، الواضح البيِّن، وجواب القسم: ﴿إنا أنزلناه﴾ أي: الكتاب الذى هو القرآن ﴿في ليلة مباركة﴾، ليلة القدر، أو ليلة النصف من شعبان، والجمهور على الأول، لقوله: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾[4] وقوله: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾[5]، وليلة القدر على المشهور فى شهر رمضان، وسيأتى الجمع بينهما. ثم قيل: أنزله جملة من اللوح المحفوظ إلى سماء الدنيا، ثم نزل به جبريل نجوماً، على حسب الوقائع، فى ثلاث وعشرين سنة، وقيل: معنى نزوله فيها: ابتداء نزوله.

---

(١) راجع تفسير الآية الأخيرة من سورة الزخرف.
(٢) الآية ٨٨ من سورة الزخرف.
(٣) الآية ٤٤ من سورة الزخرف.
(٤) الآية الأولى من سورة القدر.
(٥) من الآية ١٨٥ من سورة البقرة.

والمباركة: الكثيرة الخير؛ لما ينزل فيها من الخير والبركة، والمنافع الدينية والدنيوية، ولو لم يوجد فيها إلا إنزال القرآن لكفى به بركة.

﴿إنا كنا منذرين﴾؛ استئناف مبين لما يقتضى الإنزال، كأنه قيل: إنا أنزلناه لأن من شأننا الإنذار والتحذير من العقاب، ﴿فيها يُفرَقُ كلُّ أمرٍ حكيم﴾؛ استئناف أيضاً مبين لسر تخصيص هذه الليلة بالإنزال، أى: **إنما أنزلناه فى هذه الليلة المباركة، لأنها فيها يُفرق كل أمر حكيم، أى: ذى حكمة بالغة، ومعنى «يُفرق»: يفصل** ويكتب كل أمر من أرزاق العباد وآجالهم وجميع أمورهم، من هذه الليلة إلى ليلة القدر المستقبلة، وقيل: الضمير فى «فيها» يرجع لليلة النصف، على الخلاف المتقدم.

وروى أبو الشيخ، بسند صحيح، عن ابن عباس رضي الله عنه فى قوله: ﴿يمحو الله ما يشاء ويثبت﴾ قال: «ليلة النصف من شعبان، يُدبر أمر السنة، فيمحو ما يشاء ويثبت غيره؛ الشقاوة والسعادة، والموت والحياة». قال السيوطى: سنده صحيح لا غُبار عليه ولا مطعن فيه. هـ. وروى عن ابن عباس: قال: إن الله يقضى الأقضية كلها ليلة النصف من شعبان، ويسلمها إلى أربابها ليلة القدر. وفى رواية: ليلة السابع والعشرين من رمضان، قيل: وبذلك يرتفع الخلاف أن الأمر يبتدأ فى ليلة النصف من شعبان، ويكمل فى ليلة السابع والعشرين من رمضان[1]. والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿حكيم﴾ الحكيم: ذو الحكمة، وذلك أن تخصيص الله كل أحد بحالة معينة من الرزق والأجل، والسعادة والشقاوة، فى هذه الليلة، يدلّ على حكمة بالغة؛ فأسند إلى الليلة لكونها ظرفاً، إسناداً مجازياً. وقوله: ﴿أمراً من عندنا﴾: منصوب على الاختصاص، أى: أعنى بهذا الأمر أمراً حاصلا من عندنا، على مقتضى حكمتنا، وهو بيان لفخامته الإضافية، بعد بيان فخامته الذاتية، ويجوز أن يكون حالاً من كل أمر؛ لتخصيصه بالوصف، ﴿إنا كنا مرسلين﴾؛ بدل من «إنا كنا منذرين».

و﴿رحمةً من ربك﴾: مفعول له، أى: أنزلنا القرآن؛ لأن من عادتنا إرسال الرسل بالكتب؛ لأجل إفاضة رحمتنا. ووضع الرب موضع الضمير، والأصل: رحمة منا؛ للإيذان بأن ذلك من أحكام الربوبية ومقتضياتها، وإضافته إلى ضميره ﷺ لتشريفه وفخامته.

---

(١) على هامش النسخة الأم مايلى: كيف يرتفع، والله تعالى يقول فيها ـ أى: الليلة المباركة «يُفرق كل أمر حكيم» وهى ليلة القدر؟ على أنه: أى إشكال لكلام الله تعالى مع كلام غيره، والمرفوع بذلك ضعيف أيضاً، فلا إشكال من كل جهة، ولله الحمد. هـ.

وقال الطيبي: هذه الجمل كلها واردة على التعليل المتداخل؛ فكأنه لما قيل: ﴿إنا أنزلناه في ليلة مباركة﴾ قيل: فلمَ أنزل؟ فأجيب: لأن من شأننا التحذير والعقاب، فقيل: لِمَ خص الإنزال في هذه الليلة؟ فقيل: لأنه من الأمور المُحكَمة، ومن شأن هذه الليلة أن يُفرق فيها كل أمر حكيم، فقيل: لِمَ كان من الأمور المُحكَمة؟ فأجيب: لأن ذا الجلال والإكرام اراد إرسال الرحمة للعالمين، ومن حق المنزَل عليه أن يكون حكيماً، لكونه للعالمين نذيراً، أو ﴿داعياً إلى الله بإذنه....﴾ الآية، فقيل: لماذا رحمهم الرب بذلك؟ فأجيب: لأنه وحده سميع عليم، يعلم جريان أحوال عباده، ويعلم ما يحتاجون إليه دنيا وأخرى. هـ. وهذا معنى قوله: ﴿إنه هو السميع﴾ لأقوالهم وحده، ﴿العليم﴾ بأحوالهم .

﴿ربِّ السموات والأرض وما بينهما﴾، مَن جرّه[1] بدل من «ربك»، ومن رفعه خبر عن مضمر، أي: هو رب العوالم العلوية والسفلية، وما بينها، ﴿إن كنتم موقنين﴾ أي: من أهل الإيقان، ومعنى الشرط: أنهم كانوا يُقرون بأن للسموات والأرض رباً وخالقا، فإن كان إقرارهم عن علم وإيقان فهو الذي أنزل الكتاب وأرسل الرسل رحمة منه، وإن كانوا مذبذبين فليعلموا ذلك.

﴿لا إله إلا هو﴾، مِن قصر إفرادٍ لا قصر قلب[2]؛ لأن المشركين كانوا يُثبتون الألوهية لله ـ تعالى ـ ويشركون معه غيره، فردّ الله عليهم بكونه لا يستحق العبادة غيره، ﴿يُحيي ويُميت﴾، ثم يبعث للجزاء، ﴿ربُكم وربُّ آبائكم الأولين﴾ أي: هو رب الجميع، ثم ردّ أن يكونوا موقنين بقوله: ﴿بل هم في شك يلعبون﴾، وإقرارهم غير صادر عن علم وإيقان، بل قول مخلوط بهزؤ ولعب. والله تعالى أعلم.

الإشارة: (حم)، قال الورتجبي: الحاء: الوحي الخاص إلى محمد، والميم: محمد ﷺ، وذلك الوحي الخاص بلا واسطة خبرٌ عن سر في سر، لا يطلع على ذلك ـ الذي بين المحب والمحبوب ـ أحد من خلق الله، ألا ترى كيف قال سبحانه: ﴿فأوْحَى إلى عبده ما أوْحَى﴾[3]؟ وذلك إشارة إلى وحي السر في السر، وجملتها قسم، أي: بمعنى الوحي السري والمحبوب، والقرآن الظاهر الذي ينبئ عن الأسرار، إنا أنزلناه . هـ. قال القشيري: الحاء تشير إلى حقّه، والميم إلى محبته، ومعناه: بحقي ومحبتي لعبادي، وكتابي العزيز إليهم، ألا أُعذّب أهلَ محبتي بفرقتي. هـ.

---

(١) قرأ عاصم وحمزة والكسائي وخلف «ربِّ» بخفض الباء، بدل من (ربك) أو صفة، وقرأ الباقون بالرفع، على إضمار مبتدأ، أو مبتدأ، خبره: (لا إله إلا هو). انظر: الإتحاف (١/ ٤٦٢).

(٢) القصر عند أهل البيان: تخصيص شيء بآخر، ويسمّى الأول مقصوراً والثاني مقصوراً عليه، كقولك: ما زيد إلا شاعر، فإن كان المخاطب يعتقد أنه شاعر وعالم معاً، قيل له: قصر إفراد، وإن كان يعتقد أنه عالم لا شاعر، قيل له: قصر قلبٍ، وإن كان يتردد بين كونه عالماً أو شاعراً قيل له: قصر تعيينٍ. انظر محيط المحيط (ص ٧٣٨).

(٣) الآية ١٠ من سورة النجم

والليلة المباركة عند القوم، هى ليلة الوصال والاتصال، حين يُمْتَحى وجودُهم، ويتحقق فناؤهم، وكل وقت يجدون فيه قلوبهم، ويفقدون وجودهم؛ فهو مبارك، وهو ليلة القدر عندهم، فإذا دام اتصالهم، كانت أوقاتهم كلها ليلة القدر، وكلها مباركة. قال الورتجبى: قوله تعالى: ﴿فى ليلة مباركة﴾ كانت مباركة لتجلى الحق فيها بالأقضية، والرحمة غالبة فيها، ومن جملتها: إنزال القرآن فيها؛ فإنه افتتاح وصلة لأهل القربة. هـ.

قال القشيرى: وسمّاها ليلة مباركة؛ لأنها ليلة افتتاح الوصلة، وأشدُّ الليالى بركةً، ليلةٌ يكون العبد فيها حاضراً بقلبه، مشاهداً لربه، يتنسم[1] بأنوار الوصلة، ويجد فيها نسيم القربة، وأحوال هذه الطائفة فى لياليهم مختلفة، كما قالوا، وأنشدوا:

لا أظْلِمُ الليلَ ولا أدّعى ... أنّ نُجومَ الليلِ ليستْ تَغُورُ
لَيْلى كما شاء فإن لم يَزرْ ... طالَ، وإن زار فَلَيْلى قَصيرُ. هـ[2]

أى: لَيْلِى كما شاء المحبوب، فإن لم يزرنى طال ليلِى، وإن زارنى قَصُر. والحاصل: أن أوقات الجمال والبسط كلها قصيرة، وأوقات الجلال كلها طويلة، وقوله تعالى: ﴿فيها يُفرق كل أمر حكيم﴾ أى: فى ليلة الوصال تفرق وتبرز الحِكَم والمواهب القدسية، بلا واسطة، بل أمراً من عندنا، والغالب أن هذه الحالة لا تكون إلا عند الحيرة والشدة من الفاقة أو غيرها، وكان بعض العارفين من أشياخنا يستعدون فيها لكتب المواهب، ويسمونها ليلة القدر.

وقوله تعالى: ﴿إنّا كنا مرسلين. رحمةً من ربك﴾ هو الرسول ﷺ قال: «أنا الرحمة المهداة»[3]، فرحمة مفعول به، ﴿إنه هو السميع العليم﴾. قال القشيرى: السميع لأنين المشتاقين، العليم بحنين المحبين. هـ. ﴿لا إله إلا هو﴾ أى: لا يستحق أن يتألّه ويُعشق إلا هو، ﴿يحيى ويميت﴾؛ يُحيى قلوب قوم بمعرفته ومحبته، ويُميت قلوباً بالجهل والبُعد، يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد. ثم وصف أهل الجهل والبُعد بقوله: ﴿بل هم فى شك يلعبون﴾، وأما أهل المعرفة والقُرب فهم فى حضرة محبوبهم يتنعمون، ومن روح وصاله يتنسمون. **قال القشيرى:** واللعب يجرى على غير ترتيب، تشبيهاً باللعاب الذى يسيل لا على نظام مخصوص، ووصف الكافر باللعب لتردده وشكّه وتحيُّره فى عقيدته . هـ.

---

(١) فى القشيرى: يتنعم

(٢) فى القشيرى: لا أظلم الليل ولا أدعى ... أن نجوم الليل ليست تزولُ
ليلى كما شاءت قصير إذا ... جاءت، وإن صدت فليلى طويل
ونُسب البيتان فى زهرة الآداب (٣/٨٤) إلى علىّ بن خليل.

(٣) أخرجه البزار (٢/٢١٧) والطبرانى فى الصغير (١/٩٥) والحاكم (١/٣٥) «وصححه»، والقضاعى (١/١٨٩ ـ ١٩٠) عن أبى صالح عن أبى هريرة. وأخرجه عن أبى صالح مرسلاً، الدارمى فى (المقدمة، باب كيف كان أول شأن النبى ﷺ، ح ١٥) والبيهقى فى الشعب (ح ١٤٤٦) والحديث صححه الألبانى فى تخريج المشكاة (٣/١٦١٥).

ثم هددهم بقوله:

﴿ فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ ﴿١٠﴾ يَغۡشَى ٱلنَّاسَۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١١﴾ رَّبَّنَا ٱكۡشِفۡ عَنَّا ٱلۡعَذَابَ إِنَّا مُؤۡمِنُونَ ﴿١٢﴾ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكۡرَىٰ وَقَدۡ جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مُّبِينٞ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَقَالُواْ مُعَلَّمٞ مَّجۡنُونٌ ﴿١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلۡعَذَابِ قَلِيلًاۚ إِنَّكُمۡ عَآئِدُونَ ﴿١٥﴾ يَوۡمَ نَبۡطِشُ ٱلۡبَطۡشَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾ ﴾

يقول الحق ـ جل جلاله: ﴿ فارتقبْ ﴾؛ فانتظر ﴿ يوم تأتي السماءُ بدُخان مبين ﴾، قال عليّ وابن عباس وابن عمر والحسن ـ رضى الله عنهم ـ: هو دخان يجيء قبل يوم القيامة، يُصيب المؤمن منه مثل الزكام، ويُنضج رؤوسَ المنافقين والكافرين، حتى تكون كأنها مصليّة حنيذة[1]، وتكون الأرض كلها كبيت أُوقد فيه نار، ليس فيه خصاص[2]، ويؤيد هذا حديث حذيفة: «أول الآيات الدخان، ونزول عيسى، ونار تخرج من عدن، تسوق الناس إلى المحشر، تقيل معهم إذا قالوا....» الحديث [3]، انظر الثعلبى.

وأنكر هذا ابن مسعود، وقال: هذا الدخان قد رأته قريش حين دعا عليهم النبى ﷺ بسبع كسبع يوسف، فكان الرجل يرى من الجوع دخاناً بينه وبين السماء[4]. ويؤيده ما يأتى بعده. وقوله ﴿ مبين ﴾ أى: ظاهر لا يشك أحد أنه دخان، ﴿ يغشى الناسَ ﴾ أى: يحيط بهم، حتى كان الرجل يُحدِّث الرجلَ، ويسمع كلامه، ولا يراه من الدخان، أى: انتظر يوم شدة ومجاعة؛ فإن الجائع يرى بينه وبين السماء كهيئة الدخان، إما لضعف بصره، أو لأن عام القحط يُظلِم الهواء لقلة الأمطار، أو كثرة الغبار، ﴿ هذا عذابٌ أليم ﴾ أى: قائلين هذا عذاب أليم.

ولما اشتد بهم القحط، مشى أبو سفيان، ونفر معه إلى رسول الله ﷺ وناشده الله ـ تعالى ـ والرحم، وواعدوه إن دعا لهم، وكشف عنهم، أن يؤمنوا، وذلك قوله تعالى: ﴿ ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون ﴾ أى: سنؤمن إن

(١) المِصليّة والحنيذة: المشوية.
(٢) الخصاص: الفرج والخرق فى البناء أو الباب ونحوه، راجع اللسان (خصص ٢/١١٧٣) والخبر أخرجه الطبرى (٢٥/ ١١٣).
(٣) أخرجه البغوى فى تفسيره (٧/ ٢٣٠) من حديث حذيفة بن اليمان، وأخرجه الطبرى (٢٥/ ١١٤) بذكر كلمة (الدجال) بدل (الدخان).
(٤) معنى ما أخرجه البخارى فى (التفسير، سورة حم الدخان، باب ﴿أنى لهم الذكرى وقد جاءهم رسول مبين﴾ ح ٤٨٢٣) ومسلم (فى صفات المنافقين، باب الدخان ح٢٧٩٨) (٣٩). ولفظه كما عند البخارى: قال عبد الله: «إن رسول الله ﷺ لما دعا قريشاً كذبوه واستعصوا عليه، فقال: اللهم أعنى عليه بسبع كسبع يوسف. فأصابهم سنة حصت كل شيء، حتى كانوا يأكلون الميتة وكان يقوم أحدهم، فكان يرى بينه وبين السماء مثل الدخان، من الجهد والجوع. ثم قرأ: ﴿فارتقب يوم تأتى السماء بدخان مبين، يغشى الناس هذا عذاب أليم﴾ حتى بلغ: ﴿إنكم عائدون﴾ قال عبد الله: أفيكشف عنهم العذاب يوم القيامة؟ قال: والبطشة الكبرى يوم بدر».

كُشف عنا العذاب، قال تعالى: ﴿أنَّى لهم الذكرى﴾ أي: كيف يذَّكرون ويتعظون ويفُون بما وعدوه من الإيمان عند كشف العذاب، ﴿وقد جاءهم رسول مبين﴾ أي: والحال أنهم يُشاهدون من دواعي التذكير وموجبات الاتعاظ، ما هو أعظم منه، حيث جاءهم رسول عظيم الشأن، بيِّن البرهان، يُبين لهم مناهج الحق بإظهار آيات ظاهرة، ومعجزات قاهرة، تخرّ لها صمّ الجبال.

﴿ثم تولوا عنه﴾ أي: عن ذلك الرسول، بعد ما شاهدوا من العظائم ما يوجب الإقبال عليه، ولم يقتنعوا بالتولي، بل اقترفوا ما هو أشنع، ﴿وقالوا﴾ في حقه عليه السلام: ﴿مُعَلَّمٌ مجنون﴾ أي: قالوا تارة مُعَلَّم يُعلمه غلام أعجمي لبعض ثقيف، وتارة مجنون، أو: يقول بعضهم كذا، وبعضهم كذا، وكيف يتوقع من قوم هذه صفتهم أن يتأثروا بالعظة والتذكير؟! قال تعالى: ﴿إنا كاشفوا العذاب قليلاً﴾ أي: زمناً قليلاً، أو كشفاً قليلاً، ﴿إنكم عائدون﴾ إلى الكفر، الذي أنتم فيه، أو: إلى العذاب بعد صرف الدخان، على القول الأول، ﴿يوم نبطش البطشة الكبرى﴾ يوم بدر، أو يوم القيامة، ﴿إنا منتقمون﴾ أي: ننتقم منهم في ذلك اليوم. وانتصاب ﴿يوم نبطش﴾ باذكر أو بما دلّ عليه (إنا منتقمون)، وهو ننتقم، لا بمنتقمون، لأن ما بعد «إن» لا يعمل فيما قبله.

الإشارة: فارتقب أيها العارف يوم تأتي السماء بدخان مبين، أي: يوم يبرز من سماء الغيوب بدخان الحس، وظلمة الأسباب تغشى قلوب الناس، فتحجبهم عن شمس العرفان، هذا عذاب أليم موجع للقلوب، حيث حجبها عن حضرة علام الغيوب. وأما العارف فشمسه ضاحية، ونهاره مشرق على الدوام، كما قال شاعرهم:

لَيلي بوجهك مُشرقٌ وظلامُه في الناس سَارِ
الناسُ في سَدَفِ الظّلامِ ونحنُ في ضوءِ النّهارِ

وقال آخر:

طَلَعَتْ شَمسُ مَن أُحبُ بِليلٍ فَاستَنارَتْ فما تلاها غُروبُ
إن شَمسَ النَّهارِ تَغْرُبُ بِليلٍ و شَمسُ القُلوبِ لَيسَت تغيبُ(١)

قال القُشيري: قيامة هؤلاء ـ أي الصوفية ـ مُعَجَّلة لهم، يوم تأتي السماء فيه بدخان مبين، وهو باب غيبة الأخبار، وانسداد باب ما كان مفتوحاً من الأنس بالأحباب. قلت: وأحسن من عبارته أن تقول: وهو باب غيبة الأنوار، وانسداد منبع الأسرار. ثم قال: وفي معناه قالوا:

---

(١) البيتان من الخفيف، وهما للحلاج، كما في ديوانه /٢٣ تحقيق د/ كامل الشيبي. وصلة تاريخ الطبري ١١/ ٨٧.

فلاَ الشمس شَمْسٌ تستنيرُ ولا الضحى بطلْقٍ ولا ماءُ الحياة ببارِدِ . هـ[١]

وقوله تعالى: ﴿ربنا اكشف عنا العذاب﴾ قال القشيرى: وقد يستزيد هؤلاء العذاب على العكس من أحوال الخلق، وفى ذلك أنشدوا:

وكلُ مآربى قـد نِلْتَ مِنها سِوى مُلكٍ وَدَّ قَلْبى بالعذاب[٢]

فهم يسألون البلاء بدل ما يستكشفه الخلق، وأنشدوا:

أَنْتَ البَلاَءُ فكيف أرجو كَشْفه إنّ البَلاء إذا فقدتُ بلائى . هـ

قلت: وأصرح منه: قول الشاعر:

يا مَنْ عَذَابى عذبٌ فى مَحَبَّته لاَ أشتكى منك لا صَدًّا ولا مَلَلا

وقول الجيلانى[٣] ـ رضي الله عنه ـ:

تَلَذُّ لِىَ الآلامُ إذ كنتَ مُسقِمى وإن تَختبِرنى فهى عِنْدى صَنَائِعُ
تَحكَّمْ بما تَهْواه فىَّ فإننى فَقِيرٌ لِسلطانِ المحبة طائِعُ

قوله تعالى: ﴿أنّى لهم الذكرى﴾ أى: كيف يتعظ من تنكب عن صحبة الرجال، وملأ قلبه بالخواطر والأشغال؟ وقد جاءهم من يدعوهم إلى الكبير المتعال، فأنكروه، وقالوا: مُعلَّم مجنون، إنا كاشفوا العذاب عن قلوبهم من الشكوك والخواطر قليلاً، حين يتوجهون إلينا، ويفزعون إلى بابنا، أو يسمعون مِن بعض أوليائنا، ثم تكثر عليهم الخواطر، حين تنقشع عنهم سحابة أمطار الواردات من قلوب أوليائنا، إنكم عائدون إلى ما كنتم عليه، يوم نبطش البطشة الكبرى، هى خطفة الموت، فلا ينفع فيها ندم ولا رجوع، بل يورثهم حزناً طويلاً، فلا يجدون فى ظلال انتقامنا مقيلاً، فننتقم ممن أعرض بسريرته عن دوام رؤيتنا.

---

(١) هكذا فى الأصول، أما فى لطائف الإشارات، فالشطر الأول فيه: [فما جانب الدنيا بسهل ولا الضحى] .
والبيت لأبى تمام، فى رثاء خالد بن يزيد. انظر ديوان أبى تمام (٤/٧٢).
(٢) هكذا فى الأصول، والشطر الثانى فى القشيرى وغيره من المصادر والمذكورة بعد: [سوى ملذوذ وجدى بالعذاب] .
هذا، والبيت جاء منسوباً للحلاج فى ديوانه (قسم أعشار نسبت للحلاج ص ٦٨) وتاريخ بغداد (٨/١١٦)، كما نُسب البيت فى الكواكب الدرية (٤٤) والفتوحات المكية (٣/١٨٥) لأبى يزيد البسطامى .
(٣) الشيخ عبد الكريم الجيلى فى عينيته (ص ٥٠ ـ ٥١).

ثم ذكر وبال من سلك مسلكهم، فقال:

﴿ ۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوٓا۟
إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَن لَّا تَعْلُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّىٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾
وَإِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ لِى فَٱعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ
قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا ۖ إِنَّهُمْ
جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله . ﴿ ولقد فتنا قبلهم ﴾؛ قبل هؤلاء المشركين، ﴿ قومَ فرعون ﴾ أي: امتحناهم بإرسال موسى عليه السلام، أو: أوقعناهم في الفتنة بالإمهال وتوسيع الأرزاق، أو فعلنا بهم فعل المختبِر؛ ليظهر ما كان باطناً، ﴿ وجاءهم رسولٌ كريمٌ ﴾؛ موسى عليه السلام، أي: كريم على الله، أو على المؤمنين، أو في نفسه حسيب نسيب، لأن الله ـ تعالى ـ لم يبعث نبياً إلا من سادات قومه: ﴿ أن أدُّوا إليَّ عبادَ الله ﴾ أي: بأن أدوا إليّ، أي: ادفعوا عبادَ الله، وهم بنو إسرائيل، بأن ترسلوهم معي، فكانت دعوة موسى لفرعون بعد الإقرار بالتوحيد إرسال بني إسرائيل من يده، أو: بأن أدوا إليّ يا عباد الله ما يجب عليكم من الإيمان، وقبول الدعوة، فالعباد على هذا عام. فـ «إن» مفسرة؛ لأن مجيء الرسل لا يكون إلا بدعوة، وهي تتضمن القول، أو مخففة، أي: جاءهم بأن الشأن أدوا إليّ، و«عبادُ الله»، على الأول: مفعول به، وعلى الثاني: منادى، ﴿ إني لكم رسولٌ أمين ﴾ تعليل للأمر، أو لوجوب المأمور، أي: رسول غير ظنين، قد ائتمنني الله على وحيه، وصدّقني بالمعجزات القاهرة.

﴿ وأن لا تعلوا على الله ﴾ أي: لا تتكبروا على الله بالاستهانة بوحيه وبرسوله أو: لا تتكبروا على نبيّ الله، ﴿ إني آتيكم ﴾ من جهته تعالى ﴿ بسلطانٍ مبين ﴾؛ بحجة واضحة، لا سبيل إلى إنكارها، تدل على نبوتي. وفي إيراد الأداء مع الأمين، والسلطان مع العلو، من الجزالة ما لا يخفى، ﴿ وإني عُذتُ بربي وربكم ﴾ أي: التجأت إليه، وتوكلت عليه، ﴿ أن ترجمون ﴾، من أن ترجمون، أي: تؤذونني ضرباً وشتماً، أو تقتلوني رجماً.

قيل: لما قال: ﴿وأن لاتعلوا على الله﴾ توعدوه بالرجم، فتوكل على الله، واعتصم به، ولم يُبال بما توعدوه.

﴿ وإن لم تؤمنوا لي فاعتزلونِ ﴾ أي: وإن كابرتم ولم تُذعنوا لي، فلا موالاة بيني وبين من لا يؤمن، فتنحوا عني، أو: فخلُّوني كفافًا لا لي ولا عليّ، ولا تتعرضوا لي بشرِّكم وأذاكم، فليس ذلك جزاء مَن دعاكم إلى ما فيه فلاحُكم، قال أبو السعود: وحَمْلُه على قطع الوصلة وعدم الموالاة بينه وبينهم، يأباه المقام.

﴿فدعا ربَّه﴾ بعد ما تمادوا على تكذيبه، شاكياً إلى ربه: ﴿أنَّ هؤلاء﴾ أي: بأن هؤلاء، ﴿قوم مجرمون﴾، وهو تعريض بالدعاء عليهم، بذكر ما استوجبوه، ولذلك سمي دعاء، وقيل: كان دعاؤه: اللهم عجِّل لهم ما يستوجبونه بإجرامهم، وقيل: هو قوله: ﴿أني مغلوب فانتصر﴾ (١) وقيل: قوله: ﴿لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين﴾(٢)، وقُرِىء بالكسر(٣) على إضمار القول. قال تعالى له ـ بعدُ: ﴿فأسْرِ بعبادي ليلاً﴾، والفاء تؤذن بشرط محذوف، أي: إن كان الأمر كما تقول ﴿فأسْرِ بعبادي﴾؛ بني إسرائيل ﴿ليلاً إنكم مُتَّبعون﴾ أي: دبِّر الله أن تتقدموا، ويتبعكم فرعون وجنوده، فننجِّي المتقدمين، ونغرق الباقين، ﴿واترك البحر رَهْواً﴾؛ ساكناً على حالته بعد ما جاوزته، ولا تضربه بعصاك لينطبق، ولا تُغيره عن حاله ليدخله القبط، أراد موسى عليه السلام لمّا جاوزه أن يضربه بعصا لينطبق، فأمره أن يتركه ساكناً على هيئته(٤)، قاراً على حالته، من انتصاب الماء كالطود العظيم، وكون الطريق يبساً لا يُغير منه شيئاً، ليدخله القبط، فإذا دخلوا فيه أطبقه الله عليهم، فالرهو في كلام العرب: السكون، قال الشاعر:

طَيرٌ رأَتْ بَازِياً نَضحَ الدُّعاءُ به وأُمَّةٌ خرَجَتْ رَهْواً إلى عيدِ

أي: ساكنة، وقيل: الرهو: الفرجة الواسعة، أي: اتركه مفتوحاً على حاله منفرجاً، ﴿إنهم جند مُغْرَقون﴾ بعد خروجكم من البحر. وقرىء بالفتح، أي: لأنهم.

الإشارة: كل زمان له فراعين، يحبسون الناسَ عن طريق الله، وعن خدمته، فيبعث الله إليهم من يُذكِّرهم، ويأمرهم بتخلية سبيلهم، أو بأداء الحقوق الواجبة عليهم، فإذا كُذِّب الداعي، قال: وإن لم تؤمنوا فاعتزلون، فاذا أيِس من إقبالهم دعا عليهم، فيغرقون في بحر الهوى، ويهلكون في أودية الخواطر. وبالله التوفيق.

ثم حضَّ على الاعتبار، فقال:

﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ

(١) الآية ١٠ من سورة القمر.
(٢) الآية ٨٥ من سورة يونس.
(٣) قرأ «إن هؤلاء» بالكسر ابن أبي اسحاق وعيسى والحسن في رواية، وزيد بن عليّ. انظر مختصر ابن خالويه (ص ١٣٨) والبحر المحيط (٨/٣٦).
(٤) قاله قتادة فيما أخرجه ابن جرير (٢٥/١٢١).

﴿ وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌاْ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله ﴿كم تركوا من جنات وعُيون﴾ أى: كثيراً ما ترك فرعون وجنوده بمصر من بساتين. رُوى أنها كانت متصلة بضفتى النيل جميعًا، من رشيد إلى أسوان، (وعُيون) يحتمل أن يريد الخلجان، شبَّهها بالعيون، أو كانت ثَمَّ عيون وانقضت، ﴿وزُروع﴾ أى: مزارع، ﴿ومَقام كريم﴾، محافل مُزينة، ومنازل مُحسّنة، وسماه كريماً ؛ لأنه مجلس الملوك، وقيل: المنابر، ﴿ونَعْمة﴾ أى: بسطة ولذاذة عيش وتنعّم، ﴿كانوا فيها فاكِهين﴾ أى: متنعّمين فرحين مسرورين.

وفى المشارق: النعمة ـ بالفتح: التنعم، وبالكسر: إسم ما أنعم الله به على عباده، قال ابن عطية: النعمة ـ بالفتح: غضارة العيش، ولذاذة الحياة، والنعمة ـ بالكسر: أعم من هذا كله، وقد تكون الأمراض والمصائب نِعماً، ولا يقال فيها نعمة بالفتح. هـ. فانظره.

﴿كذلك﴾، أى: الأمر كذلك، فالكاف فى محل الرفع، على أنه خبر عن مضمر، أو نصب على أنه مصدر لمحذوف يدل عليه: (تركوا) أى: مثل ذلك السلب سلبناهم إياها، ﴿وأورثناها قوماً آخرين﴾ ليسوا منهم فى شيء فى قرابة ولا دين، ولا ولاء، وهم بنو إسرائيل، بأن تولوا أحكامها والتصرف فيها. وقال الحسن: رجعوا بعد هلاك فرعون إلى مصر، نظيره: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ...﴾ (١) الآية، ومثله عن القرطبى والبيضاوى، وكذلك فى نوادر الأصول، وقد تقدم الكلام عليه فى الشعراء (٢). وفى الآية اعتبار واستبصار، وتنبيه للعاقل على عدم الاغترار، وسيأتى فى الإشارة ما فيه كفاية نظماً ونثراً.

﴿فما بكَتْ عليهم السماءُ والأرض﴾، مجاز عن عدم الاكتراث بهلاكهم، والاعتداد بوجودهم، وفيه تهكم بهم، وبحالهم المنافية، بحال مَن يعظم فقده، فيقال: بكت عليهم السماء والأرض، وكانت العرب إذا عظّمت مهلك رجل قالوا: بكته الريحُ والبرقُ والسماء، قال الشاعر:

---

(١) من الآية ١٣٧ من سورة الأعراف.
(٢) عند تفسير الآية ٥٩ من سورة الشعراء.

الرِّيــــحُ تَبْكِـــى شَــجْـوَها وَالبَـرْقُ يَلْمَــعُ فِـــى الغمــامَهْ[1]

وقال جرير، يرثى عمر بن عبدالعزيز:

فالشَّـمسُ طالـــعةٌ ليستْ بكاسفةٍ تَبكى عليك نُجـوم اللَّيل والْقَـمرَا
حُمِّلْتَ أمراً عظيماً فاصطبَرْتَ له وقُمْـتَ فينا بأمــر اللهِ يَاعُمَرا[2].

وقيل: البكاء حقيقة، وأن المؤمن تبكى عليه من الأرض مُصلاَّه، ومحل عبادته، ومن السماء مَصْعَدُ عمله، كما فى الحديث [3]، وإذا مات العالم بكت عليه حيتان البحر، ودوابه، وهوام البر وأنعامه، والطير فى الهواء، وهؤلاء لمَّا ماتوا كُفاراً لم يعبأ الوجودُ بفقدهم، بل يفرح بهلاكهم. ﴿وما كانوا﴾ لَمَّا جاء وقت هلاكهم ﴿مُنظَرِينَ﴾؛ ممهلين إلى وقت آخر، أو إلى الآخرة، بل عجّل لهم فى الدنيا.

﴿ولقد نجينا بني إسرائيلَ﴾ لما فعلنا بفرعون وقومه ما فعلنا ﴿من العذابِ المهين﴾، من استعباد فرعون إياهم، وقتل أبنائهم، واستحياء نسائهم، ﴿من فرعون﴾، بدل من العذاب المهين بإعادة الجار، كأنه فى نفسه كان عذاباً مهيناً، لإفراطه فى تعذيبهم وإهانتهم، أو خبر عن مضمر، أى: ذلك من فرعون، وقُرىء «مَن فرعون»[4] على معنى: هل تعرفونه مَن هو فى عتوه وتفرعنه؟ وفى إبهام أمره أولاً، وتبيينه بقوله تعالى: ﴿إنه كان عالياً من المسرفين﴾ ثانيًا، من الإفصاح عن كُنه أمره فى الشر والفساد مما لا مزيد عليه، وقوله تعالى: ﴿من المسرفين﴾ إما خبر ثان، أى: كان متكبراً مسرفاً، أو حال من الضمير فى «عالياً»، أى: كان رفيع الطبقة من بين المسرفين، فائقاً لهم، بليغاً فى الإسراف.

---

(١) هذا البيت من أبيات قالها ابن المفرّغ فى بيعه جارية تُسمى «الأراكة»، وغلاماً يسمى «بُرْداً»، وكانا أعز عليه من نفسه، وقد رغمه عباد بن زياد على بيعهما، ومن أبيات ابن المفرغ هذه:

والعبد يقرع بالعصا والحُرّ تكفيه الملامه

والقصة فى خزانة الأدب.

(٢) انظر ديوان جرير/ ٢٣٥. وأمالى المرتضى (١/٥٢).

(٣) أخرج ابن جرير فى التفسير (٢٥/١٢٤) من حديث ابن عباس رضي الله عنه موقوفاً: «ليس أحد من الخلائق إلا له باب فى السماء، منه ينزل رزقه وفيه يصعد عمله، فإذا مات المؤمن فأغلق بابه من السماء فقده فبكي عليه، وإذا فقد مصلاه من الأرض التى كان يصلى فيها، ويذكر الله فيها، بكت عليه، وإن آل فرعون لم يكن لهم فى الأرض آثار صالحة، ولم يكن يصعد إلى الله منهم خير، فلم تبك عليهم السماء والأرض».

وأخرج الترمذى فى (التفسير ـ سورة الدخان ح ٣٢٥٥) وأبو يعلى فى مسنده (٤/١٥٧) والبغوى فى التفسير (٧/٢٣٢) والخطيب فى تاريخ بغداد (٨/٣٢٧) عن أنس بن مالك مرفوعاً: «ما من مؤمن إلا وله بابان، باب يصعد منه عمله، وباب ينزل منه رزقه، فإذا مات بكيا عليه، ذلك قوله عز وجل: ﴿فما بكت عليهم السماء والأرض﴾»، قال الترمذى: حديث غريب لانعرفه مرفوعاً إلا من هذا الوجه». وانظر مجمع الزوائد ٧/١٠٥.

(٤) على الاستفهام. عزاها أبو حيان لابن عباس رضي الله عنه، انظر البحر المحيط ٨/٣٨.

﴿ ولقد اخترناهم ﴾ أى: بنى إسرائيل ﴿ على عِلْمٍ ﴾ أى: عالِمين بأنهم أحقاء بالاختيار، أو عالِمين بأنهم يزيغون فى بعض الأوقات، ويكثر منهم الفرطات، فلم يؤثر ذلك فى سوابق علمنا، ليعلم أن الجنايات لا تؤثر فى الرعايات، ﴿ على العالَمين ﴾ أى: عالمى زمانهم، لما كثر فيهم من الأنبياء، ﴿ وآتيناهم من الآيات ﴾، كفلق البحر، وتظليل الغمام، وإنزال المن والسلوى، وغيرها من عظائم الآيات، ﴿ مافيه بلاء مبين ﴾؛ نعمة ظاهرة، أو: اختبار ظاهر، لينظر كيف يعملون، وقيل: البلاء المبين هو المطالبة بالشكر عند الرضا، والصبر عند الكدر والعناء.

الإشارة: كم ترك أهلُ الغفلة والاغترار، من جنات وعيون، وزروع ومقام كريم، من قصور وديار، فارقوها، أخصب ما كانوا فيها، وأُزعجوا عنها أحوج ما كانوا إليها، استبدلوا سعة القصور بضيق اللحود والقبور، ومحاسن الملابس والتيجان بعصائب الخِرَق والأكفان، فيا من ركن إلى الدنيا، انظر كيف تفعل بأهلها، فرحم الله عبداً أخذ من الدنيا الكفاف، وصاحب فيها العفاف، وتزود للرحيل، وتأهب للمسير.

ذكر الطرطوسى فى كتابه «سراج الملوك»: قال أبو عبدالله بن حمدون: كنتُ مع المتوكل، لما خرج إلى دمشق، فركب يوماً إلى رصافة «هشام بن عبدالملك» فنظر إلى قصورها خاوية، ثم خرج فنظر إلى دير هناك قديم، حسن البناء، بين مزارع وأشجار، فدخله، فبينما هو يطوف به، إذ بَصُر برقعة قد التصقت بصدره، فأمر بقلعها، فإذا فيها مكتوب هذه الأبيات:

أيا منْزلا بالدَّيْرِ أَصْبَحَ خَالياً ... تَلاعَبَ فَيه شَمألٌ ودَبُورُ
كَأنّكَ لمْ يَسْكُنْكَ بيضٍ نَوَاعِمٌ ... ولَمْ يَتَبَخْتَرْ فى قِبابِكَ حُورُ
وأَبْنَاءُ أَمْلاكٍ غَواشِمُ سَاداتٌ ... صَغِيرهم عِنْدَ الأَنَامِ كَبِيرُ
إذَا لَبِسوا أَدْرَاعَهم؛ فَعَوابِسٌ ... وإن لَبِسوا تِيجَانَهمْ فَبُدورُ
عَلَى أنّهم يوم اللِّقاءِ ضَرَاغِمٌ ... وأنّهمُ يوم النّوالِ بُحُورُ
ليالى هِشَامٌ بالرّصَافَةِ قاطِنٌ ... وفِيك ابنه يادَيْرُ وَهْوَ أَمِيرُ.

إلى أن قال:

بلَى فسقاكَ الغيثُ صَوبُ سحائبٍ ... عَلَيْك بِهَا بَعْدَ الرَّواحِ بُكُورُ
تَذَكَّرْتُ قَوْمِي فيكما فَبَكَيتهم ... بشَجْوٍ ومِثْلِي بالبُكَاءِ جَدِيرُ
فَعَزيْتُ نَفْسِي وهْي نفْسٌ إذا جَرى ... لَهَا ذِكْرُ قَومِي أَنّةٌ وزَفِيرُ

فلما قرأها المتوكل ارتاع، ثم دعا صاحب الدير، فسأله: مَن كتبها؟ فقال: لا علم لى، وانصرف هـ .

ومن هذا القبيل ما وجد مكتوباً على باب «كافور الإخشيدى» بمصر:

انْظر إلى عِبَرِ الأيّامِ مَا صنعتْ ... أفْنَتْ أناسَاً بهَا كَانوا ومَا فنيتْ
دِيارهم ضَحِكَتْ أيَّام دَوْلتِهمْ ... فإذا خلَتْ منْهمُ صاحتهم وبكَتْ

ومن هذا أيضا ما وُجد على قَصر «ذى يزن» مكتوباً:

بَاتوا على قُلَلِ الأجْبَال تَحْرسُهمْ ... غُلْبُ الرجَال فلمْ تمنعْهم القُلَل
واستُنزلوا منْ أعالِى عز معْقلهمْ ... فأُسْكنوا حُفراً، يابِئْسَ ما نَزَلُوا
أيْنَ الْوجوه التى كانت محَجَّبَةً ... من دُونها تُضْرَبُ الأسْتارُ والكلل؟
فأفْصح القبرُ عنْهم حين سائلهم ... تلْك الوجوه عليْهَا الدود تقتبلُ
قد طالَ ما أكلُوا دهراً ومَاشَربوا ... فأصبحوا بعدَ طُولِ الأكْلِ قد أُكلوا

وحاصل الدنيا ما قال الشاعر:

ألاَ إنّما الدنيا كأحْلامِ نَائِمٍ ... ومَا خَيْر عَيشٍ لاَيَكونُ بِدائمِ(١)؟!
تَأمَّلْ إذَا مَا نِلْت بالأمْسِ لَذّةً ... فأفْنَيْتهَا هَلْ أَنْتَ إلا كَحَالمِ؟!

هذه فكرة اعتبار، وأما فكرة استبصار، فما ثَمّ إلا تصرفات الحق، ومظاهر أسرار ذاته، وأنوار صفاته، ظهرت فى عالم الحكمة بالأشكال والرسوم، وأما فى عالم القدرة فما ثَمّ إلا الحى القيوم.

تَجلى حَبِيبى فِى مرائى جَمَالهِ ... فَفى كلِّ مَرئَىً لِلحَبِيبِ طَلائعُ
فَلَمّا تَبَدَّى حُسْنُه متنوِّعاً ... تَسَمَّى بِأسْمَاءٍ فهن مطَالِعُ(٢)

وقوله تعالى: ﴿فما بكت عليهم السماء والأرض﴾ يُفهم منه: أن من عظم قدره تبكى على فقده السموات والأرض ومن فيهن، فى عالم الحس، الذى هو عالم الأشباح، وتفرح به أهل السموات السبع فى عالم الأرواح؛

(١) ورد: وكل نعيم فيها ليس بدائم.
(٢) البيتان للجيلى. انظر: النادرات العينية/ ٦٩.

لتخلصه إليها، فيستبشر بقدومه كل من هنالك، وينظر اللهُ إلى خلقه بعين الرحمة، فيرتحم ببركة قدومه الوجود بأسره. والله ذو الفضل العظيم.

وقوله تعالى: ﴿ولقد اخترناهم على علم﴾ قال القشيرى: ويُقال: على علم بمحبة قلوبهم لنا مع كثرة ذنوبهم فينا، ويقال: على علم بما نُودع عندهم من أسرارنا، ونكاشفهم به من حقائق حقنا.

وقال الورتجبى: ﴿ولقد اخترناهم على علم﴾ أى: على علم بصفاتنا، ومعرفة بذاتنا، ومشاهدة على أسرارنا، وبيان على معرفة العبودية والربوبية، ودقائق الخطرات والقهريات واللطيفات فى زمان المراقبات ـ هـ.

وقال الواسطى: اخترناهم على علم منا بجناياتهم، وما يقترفون من أنواع المخالفات، فلم يؤثر ذلك فى سوابق علمنا لهم، ليُعلم أن الجنايات لا تؤثر فى الرعايات. وقال الجرّار: علمنا ما أودعنا فيهم من خصائص سرنا، فاخترناهم بعلمنا على العالمين. هـ. قلت: والمقصود بالذات: بيان أن اختياره ـ تعالى ـ مرتب على سابق علمه الأزلى، وعلمه ـ تعالى ـ لا تُغيره الحوادث، وقد انقطعت دولة بنى إسرائيل، فما بقى الكلام إلا مع المله المحمدية.

ثم ردّ على من أنكر البعث، بعد أن ذكر بعض أشراطه، كالدخان وغيره، فقال:

﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ (٣٤) إِنۡ هِيَ إِلَّا مَوۡتَتُنَا ٱلۡأُولَىٰ وَمَا نَحۡنُ بِمُنشَرِينَ (٣٥) فَأۡتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ (٣٦) أَهُمۡ خَيۡرٌ أَمۡ قَوۡمُ تُبَّعٖ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ مُجۡرِمِينَ (٣٧) وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا لَٰعِبِينَ (٣٨) مَا خَلَقۡنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ (٣٩) ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿إنَّ هؤلاء﴾ يعنى كفار قريش؛ لأن الكلام معهم، وقصة فرعون مسوقة للدلالة على مماثلتهم فى الإصرار على الضلالة، والتحذير من حلول مثل ما حلّ بهم، ﴿لَيقولون إن هي إلا موتتنا الأُولى﴾ أى: ما العاقبة ونهاية الأمر إلا الموتة الأولى، المزيلة للحياة الدنيوية، ولا قصد فيه لإثبات موتة أخرى، كقولك: حج زيد الحجة الأولى ومات، أو: ما الموتة التى تعقبها حياة إلا الموتة الأولى، التى تقدمت وجودنا، كقوله: ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾ (١) كأنهم لما قيل لهم: إنكم تموتون موتة تعقبها حياة، كما تقدمتكم كذلك، أنكروها، وقالوا: ما هى إلا موتتنا الأولى، وأما الثانية فلا حياة تعقبها، أوْ: ليست الموتة إلا هذه الموتة، دون الموتة

(١) من الآية ٢٨ من سورة البقرة.

التى تعقب حياة القبر كما تزعمون، ﴿ وما نحن بمُنشَرِين ﴾؛ بمبعوثين، ﴿ فأتوا بآبائنا ﴾،خطاب لمن كان بعدهم النشر، من الرسول والمؤمنين، ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ أى: إن صدقتم فيما تقولون، فعجِّلوا لنا إحياء من مات من آبائنا بسؤالكم ربكم، حتى يكون دليلاً على أن ما تعدونه من البعث حق.

قيل: كانوا يطلبون أن ينشر لهم قُصَيّ بن كلاب، ليُشاوروه، وكان كبيرهم ومفزعهم فى المهمات، قال تعالى: ﴿ أهُم خيرٌ أم قومُ تُبعٍ ﴾، ردّ لقولهم وتهديد لهم، أى: أهم خير فى القوة والمنعة، اللتين يدفع بهما أسباب الهلاك، أم قوم تُبع الحميرى؟ وكان سار بالجيوش حتى حيّر الحيرة، وبنى سمرقند، وقيل: هدمها، وكان مؤمناً وقومه كافرين، ولذلك ذمهم الله ـ تعالى ـ دونه، وكان يكتب فى عنوان كتابه: بسم الله الذى ملك براً وبحراً ومضحا وريحاً.

قال القشيرى: كان تُبعٌ ملك اليمن، وكان قومه فيهم كثرة، وكان مسلماً، فأهلك اللهُ قومَه على كثرة عددهم وكمال قوتهم. هـ. روى عنه ﷺ أنه قال: «لا تسبوا تُبعاً فإنه كان مؤمناً»(١) هـ وقيل: كان نبياً، وفى حديث أبى هريرة عنه ﷺ قال: «لا أدرى تُبعاً كان نبياً أو غير نبى»(٢).

وذكر السهيلى: أن الحديث يُؤذن بأنه واحد بعينه، وهو ـ والله أعلم ـ أسعد أبو كرب، الذى كسا الكعبة بعد ما أراد غزوه، وبعد ما غزا المدينة، وأراد خرابها، ثم انصرف عنها، لما أُخبر أنها مهاجر نبى اسمه «أحمد» وقال فيه شعراً، وأودعه عند أهلها، فكانوا يتوارثونه كابراً عن كابر، إلى أن هاجر النبى ﷺ فأدوه إليه. ويقال: كان الكتاب والشعر عند أبى أيوب الأنصارى، حتى نزل عليه النبى ﷺ فدفعه إليه، وفى الكتاب الشعر، وهو:

شَهِدتُ عَلَى أَحمَدٍ(٣) أَنَّهُ رَسُولٌ مِنَ اللهِ بَارِى النَّسَمْ
فَلَو مُدَّ عُمْرِى إِلَى عُمْرِهِ لَكُنتُ وَزِيراً لَهُ وَابنَ عَمْ
وَأَلْزَمْتُ طَاعَتَهُ كَلَّ مَنْ عَلَى الأَرْضِ، مِنْ عُرْبٍ وَعَجَمْ
وَلَكِنْ قَوْلِى لَهُ دَائِماً سَلاَمٌ عَلَى أَحْمَدٍ فِى الأُمَمْ

(١) أخرجه الإمام أحمد (٥/ ٣٤٠) والبغوى فى التفسير (٧/ ٢٣٤) وزاد السيوطى عزوه فى الدر (٥/٧٥٠) للطبرانى وابن أبى حاتم وابن مردويه، من حديث سهل بن سعد، وقال ابن حجر فى الكافى الشاف (ص /١٤٨): «وفيه ابن لهيعة عن عمرو بن جابر، وهما ضعيفان».

(٢) أخرجه الحاكم (١/ ٣٦) والبيهقى فى السنن (٨/ ٣٢٩) والبغوى فى التفسير (٧/ ٢٣٥) وعزاه الحافظ ابن حجر فى الكافى (ص ١٤٨) للثعلبى، من حديث أبى هريرة ؓ، والحديث صححه الحاكم ووافقه الذهبى.

(٣) كلمة «أحمد» ممنوعة من الصرف هذا، وصرفت هنا لضرورة الشعر.

وذكر الزجاج وابن أبى الدنيا: أنه حُفر قبرٌ بصنعاء فى الإسلام، فوجد فيه امرأتان، وعند رؤوسهما لوح من فضة، مكتوب فيه بالذهب اسمهما، وأنهما بنتا تُبع، تشهدان ألا إله إلا الله، ولا تُشركان به شيئاً ، وعلى ذلك مات الصالحون قبلهما. هـ[1] . ويقال لملوك اليمن: التبابعة؛ لأنهم يُتبعون، ويقال لهم: الأقيال لأنهم يتقيلون. هـ.

﴿ والذين مِن قبلهمْ ﴾: عطف على «قوم تُبع»، والمراد بهم عاد وثمود، وأضرابهم من كل جبار عنيد، أُولى بأس شديد، ﴿ أهلكناهم ﴾ بأنواع من العذاب ﴿ إنهم كانوا مجرمين ﴾، تعليل لإهلاكهم، ليعلم أن أولئك حيث أُهلكوا بسبب إجرامهم مع ما كانوا عليه من غاية القوة والشدة، فكان مهلكَ هؤلاء ـ وهم شركاؤهم فى الإجرام، مع كونهم أضعف منهم فى الشدة والقوة ـ أولى.

قال الطيبى: لما أنكر المشركون الحشر، بقولهم: (إن هى إلا موتتنا الأولى) ويَّخهم بقوله: ﴿أهم خير أم قوم تبع﴾ إيذاناً بأن هذا الإنكار ليس عن حجة قاطعة ودليل ظاهر، بل عن مجرد حب العاجلة، والتمتع بملاذ الدنيا، والاغترار بالمال والمآل والقوة والمنعة، أى: كما فعل بمن سلك قبلَهم من الفراعنة والتبابعة حتى هلكوا، كذلك يفعل بهؤلاء إن لم يرتدعوا.

ثم قرر أن الحشر لابدُ منه بقوله: ﴿ وما خلقنا السموات والأرضَ وما بينهما ﴾ أى: بين الجنسين، ﴿ لاعبين ﴾ ؛ لاهين من غير أن يكون فى خلقهما غرض صحيح، وغاية حميدة، جلّ جناب الجلال عن ذلك، ﴿ ما خلقناهما إلا بالحق ﴾ أى: ما خلقناهما ملتبساً بشىء من الأشياء إلا ملتبساً بالحق، أو: ما خلقناهما بسبب من الأسباب إلا بسبب الحق، الذى هو الإيمان والطاعة فى الدنيا، والبعث والجزاء فى العقبى.

قال الطيبى: وقد سبق مراراً: أنه ما خلقهما إلا ليوحَّد ويُعبَد، ثم لابد أن يجزى المطيع والعاصى، وليست هذه دار الجزاء. وقال ابن عرفه: قوله: ﴿إلا بالحق﴾ أى: إلا مصاحبين للدلالة على النشأة الآخرة، وهى حق. هـ. ﴿ ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ أنهن خُلقن لذلك، بل عبثاً، تعالى الله عن ذلك.

الإشارة: كانت الجاهلية تُنكر البعث الحسى، والجهلة اليوم ينكرون البعث المعنوى، ويقولون: إن هى إلا موتتنا الأولى، أى: موت قلوبنا وأرواحنا بالجهل والغفلة، فكيف يكون الرجل منهمكاً فى المعاصى، ميت القلب، ثم ينقذه الله ويُحييه بمعرفته، حتى يصير ولياً من أوليائه «من استغرب أن يُنقذه الله من شهوته، وأن يُخرجه من

(١) ذكره القرطبى (٧/٦١٥١).

وجود غفلته، فقد استعجز قدرة الإلهية، وكان الله على كل شيء مقتدرا»[1] أهم خير أم قوم تُبع؟ وقد أخرج الله مِن قومه أنصار نبيه ﷺ، وكانوا من خواص أحبابه، حتى قال: «الناس دثار والأنصار شعار، لو سلك الناسُ وادياً أو شِعباً، وسلكتْ الأنصارُ وادياً، لسلكتُ وادىَ الأنصار وشِعبهم»[2]. وما خلقنا الأجرام العظام إلا لتدل على كمال قدرتنا، والسلام.

ثم ذكر شأن البعث الذى أنكرته الجاهلية، فقال:

﴿ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَـٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَـٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿إنَّ يوم الفصل﴾ أى: فصل الحق عن الباطل، وتمييز المحق من المبطل، أو فصل الرجل عن أقاربه وأحبابه، وهو يوم القيامة، ﴿ميقاتُهم أجمعين﴾ أى: وقت موعدهم كلهم، ﴿يومَ لا يُغني مَوْلىً عن مَولى شيئاً﴾؛ لا يغنى ناصر عن ناصر، ولا حميم عن حميم، ولا نسب عن نسيب، شيئاً من الإغناء.

قال قتادة: انقطعت الأسباب يومئذ بابن آدم، وصار الناس إلى أعمالهم، فمن أصاب يومئذ خيراً، سعد به، ومن أصاب يومئذ شراً شقى به[3]. هـ. و﴿يوم﴾: بدل من يوم الفصل، أو: صفة لميقاتهم، أو: ظرف لما دلّ عليه الفصل، أى: يفصل في هذا اليوم، ﴿ولا هم يُنصرون﴾؛ يمنعون مما أراد الله، والضمير لـ «مولى»،

(١) حكمة عطائية. انظر الحِكَم بتبويب المتقى الهندى، (ص ١٨، حكمة ١٩٧).

(٢) أخرجه مطولاً البخارى فى (المغازى، باب غزوة الطائف، ح ٤٣٣٠) ومسلم فى (الزكاة، باب إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام.. رقم ١٠٦١ ح ٩١٣٩) من حديث عبد الله بن زيد، والشعار هو: الثوب الذى يلى الجسد، والدثار فوقه، ومعنى الحديث: الأنصار هم البطانة والخاصة، وألصق الناس بى من سائر الناس.

(٣) أخرجه الطبرى، وزاد السيوطى عزوه فى الدر (٥/٧٥١) لعبد بن حميد.

باعتبار المعنى، لأنه عام، وقوله: ﴿إلا من رحم﴾؛ بدل من الواو في «يُنصرون»، أي: لا يمنع من العذاب إلا من رحم الله، بالعفو عنه، أو بقبول الشفاعة فيه، أو: منصوب على الاستثناء المنقطع، أو: مرفوع على الابتداء، أي: لكن من رحم ﴿اللهُ﴾ فيُغْنِي عنه ﴿إنه هو العزيزُ﴾؛ الغالب، الذي لا يُنصر من أراد تعذيبه، ﴿الرحيمُ﴾ لمن أراد أن يرحمه.

﴿إنَّ شجرةَ الزقوم﴾، هي على صورة شجرة الدنيا، لكنها من النار، والزقوم ثمرها؛ وهو كل طعام ثقيل. رُوي: أنها لما نزلت، جمع أبو جهل عجوة وزبداً، وقال لأصحابه: تزقموا، فهذا هو الزقوم، وهو طعامي الذي حدّث به محمد[1]، قصد بذلك المغالطة والتلبيس على الجهلة. أي: إن ثمر شجرة الزقوم هو ﴿طعامُ الأثيم﴾ أي: الكثير الإثم، وهو الكافر؛ لدلالة ما قبله وما بعده عليه. وقيل: نزلت في أبي جهل، ثم تعم. وكان أبو الدرداء يُقرىء رجلاً، فكان أبو الدرداء يقول: طعام الأثيم، والرجل يقول: طعام اليتيم، فكرر عليه، فلم يفهم منه؛ فقال: «طعام الفاجر ياهذا[2]». قال النسفي: وبهذا يستدل على أن إبدال الكلمة مكان الكلمة جائز، إذا كانت مؤدّية معناها، ومنه أجاز أبو حنيفة رضي الله عنه القراءة بالفارسية، بشرط أن يؤدي القارىء المعاني كلها، من غير أن يَخْرِمَ منها شيئاً[3]. انظر بقيته.

﴿كالمُهل﴾، وهو دُرْدِيُّ الزيت[4]، أو: ما يمهل في النار فيذوب، من نحاس وغيره، ﴿يغلي في البطون﴾؛ من قرأه بالغيب[5] رده للمهل، أو للطعام، ومن قرأه بالتاء رده للشجرة، ﴿كغلي الحميم﴾؛ الماء الحار الذي انتهى غليانه، أي: غليان كغلي الحميم، فالكاف في محل نصب، ثم يقالِ للزبانية: ﴿خُذوه﴾ أي: الأثيم ﴿فاعتلوه﴾ أي: جُروه، فالعتل: الأخذ بمجامع الشيء والسَّوق بالعنف والقهر، يقال: عتل يعتُل بالضم والكسر، أي: جروه ﴿إلى سوَاءِ الجحيم﴾؛ وسطها ومعظمها.

(١) أخرج سعيد بن منصور عن أبي مالك قال: «إن أبا جهل كان يأتي بالتمر والزبد، فيقول: تزقموا بهذا الزقوم الذي يعدكم به محمد، فنزلت: ﴿إن شجرة الزقوم طعام الأثيم﴾، انظر الدر المنثور (٥/٧٥٢).

(٢) أخرجه الحاكم (٢/٤٥١) «وصححه وأقره الذهبي، والطبري (٢٥/١٣١) وزاد السيوطي عزوه في الدر (٥/٧٥٣) لعبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر، عن همام بن الحارث.

(٣) قال أحمد بن المنير الإسكندري في الانتصاف: لادليل فيه لذلك، وقول أبي الدرداء محمولٌ على إيضاح المعنى، ليكون وضوح المعنى عند المتعلم عوناً على أن يأتي بالقراءة كما أُنزلت، وعلى هذا حمله القاضي أبو بكر في الانتصار. (حاشية الكشاف ٤/٢٨١). وانظر أيضاً: تفسير القرطبي ٧/٦١٥٤.

(٤) الدرْدي: مارسب أسفل الزيت ونحوه.

(٥) قرأ ابن كثير وحفص: (يغلي) بالياء على التذكير، والباقون «تغلي» بالتأنيث. انظر: الإتحاف (٢/٤٦٤).

﴿ثم صُبوا فوقَ رأسه من عذاب الحميم﴾: المصبوب هو الحميم، لا عذابه، إلا أنه إذا صب عليه الحميم، فقد صب عليه عذابه وشدته: والأصل: ثم صُبوا فوق رأسه عذاباً هو الحميم، ثم أُضيف العذاب إلى الحميم؛ للمبالغة، وزيد «من» للدلالة على أن المصبوب بعض هذا النوع، ويقال له: ﴿ذقْ إنك أنت العزيزُ الكريمُ﴾ على سبيل الهزؤ والتهكم، رُوِي أن أبا جهل قال لرسول الله ﷺ: ما بين جبليها أعز ولا أكرم مني، فوالله لا تستطيع أنت ولا ربك أن تفعلا بي شيئاً[1]، فتقول له الزبانية هذا على طريق الاستهزاء والتوبيخ. وقرأ الكسائي: «أنك» بالفتح[2]، أي: لأنك أنت العزيز في قومك، الكريم في زعمك. ﴿إنّ هذا ما كنتم به تمترون﴾؛ تشكُون، وتمارون فيه، والجمع باعتبار المعنى؛ لأن المراد جنس الأثيم.

الإشارة: يوم الفصل هو اليوم الذي يقع فيه الانفصال بين درجة المقربين، ومقام عامة أهل اليمين، فيرتفع المقربون، ويسقط الغافلون، فلا يُغني صاحبٌ عن صاحب شيئاً، ولا هم يُنصرون من السقوط عن مراتب الرجال، فلا ينفع حينئذ إلا ما سلف من صالح الأعمال، إلا مَن رحم الله، ممن تعلق بالمشايخ الكبار، من المريدين، فإنهم يرتفعون معهم بشفاعتهم. وشجرة الزقوم هي شجرة المعصية؛ فإنها تغلي في البطون، وتعوق عن الوصول، فقد قالوا: من أكل الحرام عصى الله، أحبَّ أم كرِه، ومن أكل الحلال أطاع الله، أحبَّ أم كَرِه، فيقال: خُذوه فادفعوه إلى سواء الجحيم، وهي نار القطيعة والبُعد، ثم صُبوا فوق رأسه من هموم الدنيا، وشغب الخوض والخواطر، ذُقْ إنك أنت العزيز الكريم، ولو كنت ذليلاً خاملاً لنلت العز والكرامة. وبالله التوفيق.

ثم شفع بضدهم، فقال:

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِى جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن
سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَـٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾
يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَـٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا
ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ
﴿٥٧﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَـٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾

---

(١) أخرجه الطبري (٢٥/١٣٤) وعزاه السيوطي في الدر (٥/٧٥٣) لعبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن المنذر، عن قتادة.

(٢) على العلة، وقرأ الباقون بكسرها.. انظر الإتحاف ٢/٤٦٤.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ إنَّ المتقين في مقامٍ ﴾، بضم الميم[(١)]: مصدر، أي: فى إقامة حسنة، وبالفتح: اسم مكان، أي: فى مكان كريم ، وأصل المقام، بالفتح: موضع القيام، ثم عمم واستعمل فى جميع الأمكنة، حتى قيل لموضع القعود: مقام، وإن لم يقم فيه أصلاً، ويقال: كنا فى مقام فلان، أي: مجلسه، فهو من الخاص الذى وقع مستعملاً فى معنى العموم، وقوله: ﴿ أمين ﴾ : وصف له، أي: يأمن صاحبُه الآفات والانتقال عنه، وهو من الأمن ضد الخيانة، وصف به المكان مجازاً، لأن المكان المخيف يخون صاحبه بما يلقى فيه من المكاره.

وقوله: ﴿ في جنات وعُيون ﴾: بدل من «مقام» جئ به دلالة على نزاهته واشتماله على طيبات المآكل والمشارب، ﴿ يلبسون من سُندس ﴾، وهو ما رقّ من الديباج، ﴿ وإستبرق ﴾، ما غلظ منه، وهو مُعرَّب، والجملة إما حال، أو استئناف، حال كونهم ﴿ متقابلين ﴾ فى مجالسهم، يستأنس بعضهم ببعض، ﴿ كذلك ﴾ أي: الأمر كذلك، قيل: المعنى فيه أنه لم يستوف الوصف، وأنه بمثابة ما لا يحيط به الوصف، فكأنه قال: الأمر نحو ذلك وما أشبهه، وليس بعين الوصف وتحققه.

﴿ وزوجناهم بحُور عِينٍ ﴾ أي: قرنّاهم وأصحبناهم، ولذلك عُدى بالباء. قال القشيرى: وليس فى الجنة عقد نكاح ولا طلاق، بل تمكن الوليّ من هذه الألطاف بهذه الأوصاف هـ. والحور: جمع حَوْراء، وهى الشديدة سواد العين، والشديدة بياضها، والعين: جمع عيناء، وهى الواسعة العَين، واختلف فى أنها نساء الدنيا أو غيرها.

﴿ يَدْعون فيها بكل فاكهةٍ ﴾ أي: يطلبون ويأمرون بإحضار ما يشتهونه من الفواكه، لا يختص بزمان ولا مكان، ﴿ آمنين ﴾ من زواله وانقطاعه، ومن ضرره عند الإكثار منه، أو: من كل ما يسوءهم، ﴿ لا يُذوقون فيها الموتَ ﴾ أصلاً، بل يستمرون على الحياة الأبدية، ﴿ إلا الموتةَ الأولى ﴾؛ سوى الموتة الأولى، التى ذاقوها، أو: لكن الموتة الأولى قد ذاقوها فى الدنيا، فالاستثناء منقطع، أو متصل على أن المراد استحالة ذوق الموت إلا إذا كان يمكن ذوق الموتة الأولى حينئذ، وهو محال، على نمط قوله: ﴿ إلا ما قد سلف ﴾[(٢)].

﴿ ووقاهم ﴾ ربهم ﴿ عذابَ الجحيم، فضلا من ربك ﴾ أي: أعطوا ذلك كله عطاء وتفضلاً منه - تعالى؛ إذ لايجب عليه شيء، فهو مفعول له، أو مصدر مؤكد لِما قبله، لأن قوله: ﴿ وقاهم ﴾ فى معنى تفضل عليهم، ﴿ ذلك هو الفوز العظيم ﴾ الذى لا فوز وراءه؛ إذ هو خلاص من جميع المكاره، ونيل لكل المطالب.

---

(١) قرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر بضم الميم الأولى فى «مقام» بمعنى الإقامة، وقرأ الباقون بفتحها، موضع الإقامة.
(٢) من الآية ٢٢ سورة النساء.

﴿ فإنما يسَّرناه ﴾ أى: الكتاب، وقد جرى ذكره فى أول السورة، أى: سهّلنا قراءته ﴿ بلسانك ﴾، بلغتك ﴿ لعلهم يتذكرون ﴾ أى: كى يفهموه ويتعظوا به، ويعملوا بموجبه، فلم يفعلوا، ﴿ فارتقبْ ﴾؛ فانظر ما يحلّ بهم، ﴿ إنهم مرتقبون ﴾ ما يحلُّ بك. قال القشيرى: فارتقب العواقب ترى العجائب، إنهم مرتقِبون، ولكن لا يرون إلا ما يكرهون. هـ.

الإشارة: إن المتقين شهود ما سوانا فى مقام العرفان، وهو مقام المقربين، وهو محل الأمن والأمان، فى جنات المعارف، وعيون العلوم والحِكَم، يلبسون من أسرار الحقيقة وأنوار الشريعة، ما تبتهج به بواطنهم وظواهرهم، متقابلين فى المقامات، يجمعهم الفناء والبقاء، ويتفاوتون فى اتساع المقامات والأسرار، تفاوت أهل غرف الجنان، كذلك، أى: الأمر فوق ما تصف، وزوجانهم بعرائس المعرفة، لا يذوقون فى جنات المعارف ـ إذا دخلوها ـ الموت أبداً إلا الموتة الأولى، وهى موت نفوسهم، فَحييتْ أرواحهم حياة أبدية، وأما الموت الحسى فإنما هو انتقال من عالم إلى عالم، ومن مقام إلى مقام، ووقاهم ربُهم عذابَ الجحيم، فضلاً منه وإحساناً، خلقَ فيهم المجاهدة، ومَنّ عليهم بالمشاهدة.

وقال الورتجبى بعد كلام: إذا أحضرهم ـ تعالى ـ فى ساحة كبريائه، ويتجلى لهم بالبديهة من غير الجبّارية والقهّارية؛ يكونون فى محل الفناء، وفى فناء الفناء، وغلبات سطوات ألوهيته، فإذا صاروا فانين، ألبسهم الله لباس بقائه، فيبقون ببقائه أبد الآبدين، فإذاً الاستثناء وقع على التحقيق، لا على التأويل، فيارُبَّ موتٍ هناك، ويارُبَّ حياة هناك؛ لأن الحدَث لا يستقيم عند بروز حقائق بواطن القِدم، ألا ترى إلى إشارة النبى ﷺ كيف قال: «حجابه النور، لو كشفه لأحرقت سُبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه»[1] أى: فيتلاشى الخلق ويبقى الحق.

قيل للجنيد: أهل الجنة باقون ببقاء الحق؟ فقال: لا، ولكنهم مُبْقَوْن ببقاء الحق، والباقى على الحقيقة من لم يزل، ولا يزال باقياً. هـ.

والحاصل: أنه لا عدم بعد وجودهم بالله، ولا يكون إلا بعد الفناء عن أوصاف الخليقة، ووجود البشرية، بالاندراج فى وجود الحق، ثم الحياة بحياته، و البقاء ببقائه أبداً، قاله فى الحاشية الفاسية. والفرق بين الباقى والمبقى فى كلام الجنيد: أن الباقى يدلّ على ثبوت بقائه مستقلاً، بخلاف المبقَى، لا وجود لبقائه، بل مبقى ببقاء غيره.

---

(١) سبق تخريج الحديث الشريف، انظر (٤/١٧٨).

وقال في قطب العارفين، لمّا تكلم على التقوى: التقوى مطرد في وجوه كثيرة، تقوى الشرك، ثم تقوى المعصية، ثم تقوى فضل المباح، ثم تقوى كل ما يسترق القلوب عن الله تعالى، وإلى هذا الصنف الإشارة بسر قوله تعالى ﴿إن المتقين في مقام أمين في جنات وعيون...﴾ الآية. هـ. وعنه ﷺ: «من قرأ سورة الدخان في ليلة أصبح يستغفر له سبعون ألف ملك» [1] ذكره في الجامع، وفي فضلها أحاديث، تركتها.

❁ ❁ ❁

(١) أخرجه الترمذي في (فضائل القرآن، باب ما جاء في فضل «حم الدخان» ح ٢٨٨٨) وقال: «هذا حديث غريب لانعرفه إلا من هذا الوجه، وعمر بن أبي خثعم يضعف». وأخرجه ابن السني في عمل اليوم والليلة (باب ما يستحب أن يقرأ في اليوم والليلة) والبيهقي في الشعب (الباب التاسع عشر، فصل في فضائل السور، ح ٢٤٧٥) والبغوي في التفسير (٧/ ٢٣٨) وابن عدي في الكامل (٥/ ٢٧٢٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

سورة الجاثية

مكية، وقيل: إلا قوله: ﴿قل للذين آمنوا يغفروا..﴾ الخ. وهى سبع وثلاثون آية. ووجه مناسبتها: قوله: ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ ﴾[1] مع قوله: ﴿ تنزيل الكتاب ﴾ أى: فالذى يسرناه بلسانك هو منزل من الله، الغالب على أمره.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ حمٓ ۝١ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٣ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٤ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝٥ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ۝٦ ﴾

قلت: (واختلاف الليل والنهار...) الآية؛ فيها العطف على عاملين، سواء نصبت «آيات» أو رفعتها، فالعاملان إذا نصبت «إن» و«فى» أقيمت الواو مقامهما، فعملت الجر فى (واختلاف) والنصب فى (آيات)، وإذا رفعت فالعاملان الابتداء، وحرف «فى» عملت الواو الرفع فى «آيات»، والجرّ فى «واختلاف»، وهذا مذهب الأخفش، فإنه يجوز العطف على عاملين، وأما سيبويه فلا يجيزه، وتخريج الآية عنده: أن يكون على إضمار «فى»، والذى حسّنه: تقديم ذكر «فى» فى الآيتين قبله، ويؤيده: قراءة ابن مسعود رضي الله عنه: (وفى اختلاف الليل والنهار) وفيها أوجه أُخر.

يقول الحق جل جلاله ﴿ حمٓ ﴾؛ يا حبيب يا مجيد هذا ﴿ تنزيلُ الكتاب من الله العزيزِ الحكيم ﴾، فكونه من الله عز وجل دلّ أنه حق وصدق وصواب، وكونه من العزيز دلّ أنه معجز، يَغلِب ولا يُغلب، وكونه من الحكيم دلّ أنه مشتمل على الحِكَم البالغة، وأنه محكَم فى نفسه، يَنسخ ولا يُنسخ.

ثم برهن على عزته، وباهر حكمته، فقال: ﴿ إنّ في خلق السموات والأرض ﴾؛ إما فى نفس السموات والأرض؛ فإن فى شكلهما من بدائع وفنون الحِكَم ما يقصر عنه البيان، وإما فى خلقهما وإظهارهما، كما فى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾[2]، ﴿ لآياتٍ للمؤمنين ﴾؛ لدلالاتٍ على وحدانيته تعالى لأهل الإيمان،

---

(١) الآية ٥٨ من سورة الدخان.

(٢) الآية ١٩٠ من سورة آل عمران.

وهو الأوفق بقوله: ﴿ وفي خلقكم ﴾ أي: من نطفة ثم من علقة متقلبة من أطوار مختلفة إلى تمام الخلق، ﴿ وما يبثُّ من دابةٍ ﴾ : عطف على المضاف دون المضاف إليه، أي: وفي خلق ما يبث، أي: ينشر ويُصرَّف من دابة ﴿ آياتٌ ﴾ ظاهرة على باهر قدرته وحكمته، ﴿ لقومٍ يُوقنون ﴾ أي: من شأنهم أن يوقنوا بالأشياء على ما هي عليه، ويعرفوا فيها صانعها، ﴿ وفي اختلاف الليل والنهار ﴾ أي: تعاقبهما بالذهاب والمجيء، أو: تفاوتهما طولاً، وقصراً، ﴿ و ﴾ في ﴿ ما أنزل الله من السماء من رزقٍ ﴾ ؛ مطر؛ لأنه سبب الرزق، فعبَّر عن السبب بالمسبَّب؛ لأنه نتيجته، تنبيهاً على كونه آية من جهة القدرة والرحمة، ﴿ فأحيا به الأرضَ ﴾ بأن أخرج أصناف الزرع والثمرات والنبات ﴿ بعد موتها ﴾ أي: خلُوها عن آثار الحياة وانتفاء قوة التنمية عنها، وخلُو أشجارها عن الثمار والأزهار.

﴿ وتصريفِ الرياح ﴾ أي: هبوبها من جهة إلى أخرى، ومن حال إلى حال، وتأخيره عن نزول المطر مع تقدمه عليه في الوجود، إما للإيذان بأنه آيه مستقلة، ولو روعي الترتيب الوجودي لربما توهم أن مجموع تصريف الرياح ونزول المطر آية واحدة، أو: لأن كون التصريف آية ليس مجرد كونه مبتدأ لإنشاء المطر، بل له ولسائر المنافع، التي من جملتها: سوق السفن في البحار، وإلقاح الأشجار، ﴿ آياتٌ لقوم يعقلون ﴾ ؛ يتدبرون بعقولهم، فيصلون إلى صريح التوحيد. وفي تقديم الإيمان على الإيقان، وتأخير تدبر العقل؛ لأن العباد إذا نظروا في السموات والأرض نظراً صحيحاً، علموا أنها مصنوعة، وأنه لابدَّ لها من صانع، فآمنوا بالله، وإذا نظروا في خلق أنفسهم، وتنقلها من حالٍ إلى حال، وفي خلق ما ظَهَرَ على ظهر الأرض من صنوف الحيوان ازدادوا إيماناً وأيقنوا، فإذا نظروا في سائر الحوادث التي تتجدد في كل وقت، كتعاقب الليل والنهار، ونزول الأمطار، وحياة الأرض بعد موتها، وتصريف الرياح، جنوباً وشمالاً، ودَبوراً وصبا، عقِلوا، واستحكم في عقولهم، وخلص يقينهم، فكانوا من ذوي الألباب.

﴿ تلك آياتُ الله ﴾ ؛ مبتدأ وخبر، و﴿ نتلُوها عليك ﴾ حال، والعامل: معنى الإشارة، أي: تلك الآيات المتقدمة هي آيات الله الدالة على وجوب وجوده واتصافه بأوصاف الكمال، حال كونها متلوةً عليك، ملتبسة ﴿ بالحق ﴾ أو: نتلوها محقين في ذلك، فالجار والمجرور: حال من المفعول أو الفاعل. ﴿ فبأيِّ حديثٍ ﴾ من الأحاديث ﴿ بعد الله وآياته ﴾ أي: بعد آيات الله، كقولك: أعجبني زيد وكرمه، أي: أعجبني كرم زيد، أو: بعد حديث الله، الذي هو القرآن، وآياته العامة في كل شيء، فيكون على حذف مضاف، أو: يُراد بها القرآن أيضاً، والعطف للتغاير العنواني، فالأول من جهة كونه حديثاً حسناً، والثاني باعتبار كونه معجزاً، أي: فبأي حديثٍ بعد أحسن الحديث وأبهر الآيات ﴿ يؤمنون ﴾ ؛ يُصدِّقون؟! ومن قرأ بالخطاب[1] يُقدر: قل يا محمد.

---

(١) قرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وأبو بكر ويعقوب «يؤمنون» بالتاء، وقرأ الباقون بالغيب. انظر الإتحاف (٢/٤٦٦).

الإشارة: قال القشيري: الحاء تدل على حياته، والميم تدل على مودته، كأنه قال: بحق حياتي ومودتي لأوليائي، لا شيء أعز على أحبائي من لقائي، العزيزُ في جلاله، الحكيم في فعاله، العزيز في أزله، الحكيم في لُطفه بالعبد بوصف إقباله.

قوله تعالى: ﴿إنَّ في السموات والأرض..﴾ الآية؛ شواهد الربوبية لائحةٌ، وأدلة الإلهية واضحةٌ، فَمَنْ صحا فكره عن سُكر الغفلة، ووضعَ سِرَّه في محل العِبْرة، حَظِيَ ـ لامحالة ـ بحقائق الوصلة. هـ. قلت: إنما يحظى بالوصله إذا نفذت بصيرته إلى شهود المكوِّن، ولم يقف مع شيء من حس الكائنات، بل نفذ إلى ما فيها من أسرار المعاني، فعرف فيها مولاها، وشاهد فيها المتجلي بها، وإلا بَقِيَ مسجوناً محصوراً في ذاته.

قوله تعالى: ﴿وفي خلقكم...﴾ الآية، قال القشيري: إذا أنعم العبدُ النظرَ في استواء قدّه وقامته، واستكمال خلقه[1]، وبتمام تمييزه، وما هو مخصوص به من جوارحه وحوائجه، ثم فكَّر فيما عداه من الدواب، وأجزائها وأعضائها، ووقف على اختصاصه، وامتياز بني آدم من بين البريَّة من الحيوانات، في الفهم والعقل والتمييز والعلم، ثم في الإيمان والعرفان، ووجوه خصائص أهل الصفوة من هذه الطائفة من فنون الإحسان؛ عرَف تخصيصهم بمناقبهم، وانفرادهم بفضلهم، فاستيقن أن الله أكرمهم، وعلى كثيرٍ من المخلوقات قدَّمهم.

ثم قال في قوله: ﴿واختلاف الليل والنهار..﴾ الآية. جعل الله العلوم الدينية كسبيةً مُصَحَّحةً بالدلائل، مُحَقَّقةً بالشواهد، فمن لم يستبصرْ لها زلَّتْ قَدَمُه عن الصراط المستقيم، ووقع في عذاب الجحيم، فاليومَ في ظلمة الحيرة والتقليد، وفي الآخرة في التخليد في الوعيد. هـ. قلت: النظر في دلائل الكائنات من غير تنوير، ولا صحبة أهل التنوير، لا تزيد إلا حيرة، ولذلك قال بعضهم: إيمان أهل علم الكلام كالخيط في الهواء، يميل مع كل ريح، فالتقليد حينئذ أسلم، والتمسك بظاهر الكتاب والسنة أتم، ومن سقط على العارفين بالله، لم يحتج إلى دليل ولا شاهد، وأغناه شهود الشهيد عن كل شاهد.

عجبت لمن يبغي عليك شهادة وأنت الذي أشهدته كلَّ شاهد.

كيف يُعرف بالمعارف من به عُرفت المعارف؟! تنزه الحق تعالى أن يفتقر إلى دليل يدلّ عليه، بل به يستدل على غيره، فلا يجد غيره. تلك آيات شواهد نتلوها عليك لتراها فيها، لا لتراها مفروقةً عنا، ولذلك قال تعالى: (بالحق)، أي: ملتبسة بنور الحق، الله نور السماوات والأرض.

---

(١) في القشيري: عقله.

قوله تعالى: ﴿فبأى حديث...﴾ الآية، قال القشيرى: فمَنْ لا يؤمن بها فبأى حديث يؤمن؟ ومن أى أصل ينشأ بعده(١)؟ ومن أى بحر فى التحقيق يغترف؟ هيهات ما بقى للإشكال فى هذا مجال. هـ.

ثم ذكر حال من أعرض عنها، فقال

﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾ هَٰذَا هُدًى وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله ﴿ ويلٌ لكل أفاك ﴾ ؛ كذَّاب ﴿ أثيم ﴾ ؛ كثير الآثام، ﴿ يسمع آيات الله ﴾ التنزيلية ﴿ تُتلى عليه ﴾ ، وجملة «يسمع» صفة أخرى لأفاك، أو استئناف، أو حال من ضمير «أثيم»، و«تتلى»: حال من «آيات الله»، ﴿ ثم يُصِرُّ ﴾ أى: يُقيم على كفره، حال كونه ﴿ مستكبراً ﴾ عن الإيمان بالآيات، والإذعان لما تنطق به من الحق، مُزْدرياً بها، مُعجبًا بما عنده من الأباطيل. قيل: نزلت فى النضر بن الحارث، وكان يشترى من أحاديث الأعاجم، ويشغل بها الناس عن سماع القرآن(٢)، والآية عامة فى كل مَن كان مضاراً لدين الله وجيء بثمّ لأن الإصرارَ على الضلالة، والاستكبار عن الإيمان عند سماع آيات القرآن، مستبعدٌ فى العقول. ثم قال: ﴿ كأن لم يسمعها ﴾ أى: كأنه لم يسمعها، فأن مخففة، ومحل الجملة النصب على الحال، أى: يُصر شبيهاً بغير السامع، ﴿ فبشِّره ﴾ على إصراره واستكباره ﴿ بعذابٍ أليم ﴾ أى: أخبره خبر يظهر أثره على البشرة، تهكماً به.

﴿ وإذا علِمَ من آياتنا شيئًا ﴾ أى: إذا بلغه من آياتنا شيئاً يمكن أن يتشبث بها المعاند، ويجد له محملاً فاسداً يتوسل به إلى الطعن والمغمزة، ﴿ اتخذها ﴾ أى: مهزوءاً بها، لا ما يسمعه فقط، وإنما لم يقل: اتخذه؛ للإشعار بأنه إذا أحسّ بشيء من الكلام فيه شيء بزعمه الركيك؛ لم يقتصر على الاستهزاء بما بلغه، بل يستهزئ بالجميع، ويجوز أن يرجع الضمير (لشيء) لأنه فى معنى الآية. ﴿ أولئك لهم ﴾ بسبب جناياتهم المذكورة ﴿ عذابٌ مُهين ﴾ ، وصف العذاب بالإهانة توفية لحق استكبارهم واستهزائهم بآيات الله تعالى، وجمع الإشارة باعتبار

(١) فى القشيرى: [يستمد بعده] وهو أنسب.
(٢) ذكره فى البحر المحيط (٨/٤٤).

ما فى ﴿كل أفّاك أثيم﴾ من الشمول، كما فى قوله تعالى: ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾(١)، وأفرد فيما سبق من الضمائر باعتبار كل واحدٍ واحدٍ. ﴿مِن ورائهم جهنمُ﴾ أى: من قدّامهم، لأنهم متوجهون إلى ما أعدّ لهم، أو: مِن خلفهم؛ لأنهم معرضون عن ذلك، مقبلون على الدنيا، فإن الوراء: اسم للجهة التي يواريها الشخص من قدّام وخلف، ﴿ولا يُغنى عنهم﴾؛ لا يدفع عنهم ﴿ما كسبوا﴾ من الأموال والأولاد ﴿شيئًا﴾ من عذاب الله تعالى، ﴿ولا ما اتخذوا من دون الله أولياء﴾ أى: الأصنام، و«ما» مصدرية، أو موصولة، وتوسيط حرف النفى بين المعطوفين ينبئ أن عدم إغناء الأصنام أظهر وأجلى من عدم إغناء الأموال والأولاد قطعاً، مبنى على زعمهم الفاسد، حيث كانوا يطمعون فى شفاعتهم ﴿ولهم عذاب عظيم﴾ لا يقادر قدره.

﴿هذا﴾ أى: القرآن ﴿هُدىً﴾ فى غاية الكمال من الهداية، كأنه نفس الهدى، ﴿والذين كفروا بآيات ربهم﴾ أى: القرآن، وإنما وضع موضع ضميره الآيات لزيادة تشنيع كفرهم وتفظيع حالهم، ﴿لهم عذابٌ من رِجْزٍ﴾؛ من أشد العذاب ﴿أليم﴾؛ مؤلم، بالرفع(٢) صفة «عذاب»، وبالجر صفة «رِجز»، وتنوين عذاب فى المواضع الثلاثة للتفخيم.

الإشارة: من لم يضبط لسانه وجوارحه، وتصاممت آذان قلبه عن تدبر القرآن، فالويل حاصل له، ويُبَشَّر بالخيبة والخسران من مراتب أهل العرفان، ومن ضبط أمور ظاهره بالتقوى، وفتحت آذان قلبه لسماع كلام المولى، فقد فاز بعز الدارين. قال القشيرى: فمن استمع بسمع الفهم، واستبصر بنور التوحيد، فاز بذُخْرِ الدارين، وتصدّى لعز المنزلتين، ومن تصامم بحكم الغفلة، وقع فى وهدة الجهل، ووُسِم بكى الهَجْر. هـ.

قوله تعالى: ﴿إذا علم من آياتنا شيئًا اتخذوها هزوا﴾. قال القشيرى: وقد يُكاشَفُ العبدُ من مواطن القلب بتعريفاتٍ لا يداخله فيها ريبٌ، ولا يتخلله فيها شكٌّ فيما هو فيه من حاله، فإذا استهان بها وقع فى ذُلِّ الحجْبة، وحجاب الفرقة وهوانها. هـ. فإذا صفا القلب صار مرسى لتجلى الواردات الإلهية، وهى آية من آياته، فإذا تجلى فيه شيء بأمر أو نهى فاستهان به وخالفه أدبه الحق على ذلك، إما فى ظاهره، وهو أخف، أو فى باطنه بالحجبة أو الفرقة، ولقد سمعت شيخ شيخنا، مولاى العربى الدرقاوى رضي الله عنه يقول: لى ثلاثون سنة ما خالفت قلبى فى شيء إلا أدبنى الحق تعالى عليه. هـ. أى: فى ظاهره، وذلك لغاية صفائه.

(١) من الآية ٥٣ من سورة المؤمنون.
(٢) قرأ «أليم» برفع الميم، ابن كثير وحفص ويعقوب، وقرأ الباقون بالجر. انظر الإتحاف (٢/٤٦٦).

قوله تعالى: ﴿من ورائهم جهنم ..﴾ الآية، لاعذاب أشد من الحجب بعد الإظهار، والفرقة بعد الوصال، وأنشدوا:

فَخَلِّ سَبِيلَ الْعَيْنِ بَعْدَكَ لِلْبُكَا فَلَيسَ لأَيَّامِ الصَّفَاءِ رُجُوعُ

انظر القشيرى.

ولمَّا ذكر ما منَّ به عليهم من النعم الباطنة، وهى دلائل التوحيد،، ذكر ما منَّ به عليهم من النعم الظاهرة، فقال:

﴿ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ اللهُ الذى سخَّر لكم البحر ﴾ أى: ذلله، بأن جعله أملس السطح، يطفو عليه ما فوقه، ولايمنع الغوص فيه، لميَعَانه، ﴿ لتجري الفلكُ فيه بأمره ﴾؛ بإذنه، وأنتم راكبوها، ﴿ ولتبتغوا من فضله ﴾ بالتجارة، والغوص لابتغاء الحلية، كاللؤلؤ والمرجان، وكالصيد وغيرها، ﴿ ولعلكم تشكرون ﴾؛ ولكى تشكروا النعم المترتبة على ذلك، ﴿ وسخَّر لكم ما فى السموات وما فى الأرض ﴾ من الموجودات، بأن جعلها مداراً لمنافعهم.

قال القشيرى: إذ ما من شيء من الأعيان الظاهرة، إلا وللإنسان به انتفاع مِن وجوه، فالسماء لهم بناء، والأرض لهم مهاد، وليتأمل العبدُ فى كل شيء [لو لم يكن، أيّ خلل يرجع إلى الخلق؟][(١)]، لولا الشمس كيف كانوا يتصرفون بالنهار،؟ ولولا الليل، كيف كانوا يسكنون؟ ولولا القمر هل كانوا يهتدون للحساب والآجال؟ وكذلك جميع المخلوقات. هـ. وقوله: ﴿ جميعاً منه ﴾ : حال، وليس من التوكيد لعدم الضمير، ولو كان توكيداً لقال: جميعه، ثم التوكيد بجميع قليل، فلا يحمل التنزيل عليه، قاله فى المغنى. والمنفى كونه توكيداً اصطلاحياً، فلا ينافى كونه حالاً مؤكدة فى المعنى. ﴿ إنَّ فى ذلك ﴾ أى: فيما ذكر من الأمور العظام ﴿ لآياتٍ ﴾ عظيمة الشأن، كثيرة العدد، ﴿ لقوم يتفكرون ﴾ فى بدائع صنعه تعالى، فإنهم يقفون بذلك على جلائل نعمه تعالى ودقائقها، ويُوفَّقون لشكرها.

الإشارة: الله الذى سخَّر لكم بحر التوحيد الخاص، وهو تجلى عظمة الذات، لتجرى فلكُ الأفكار فى تيار بحر الذات ونور الصفات، فتراها تعوم تارة فى أسرار الجبروت الأعلى، وتارة فى أنوار الملكوت الأدنى، ولتبتغوا من

(١) العبارة فى القشيرى: كيف إن كان خلل فى شيء منها ماذا يمكن أن يكون؟.

فضل معرفته، وزيادة الترقي في كشف الأسرار، وهذا لمن اتسع عليه فضاء الشهود، وزاحت عنه حُجب الكائنات، وأما من بقي مسجوناً فيها، السماء تُظله، والأرض تُقله، فلا يطمع أن تسرَحَ فكرته في هذه البحار، وحسبه أن يكون حمَاراً يسافر في البَر، تعبه كثير، وربحه قليل، والغناء به بعيد، وسبب بقائه في تعب البر عدم صحبته للرجال البحرية، الذين هم رُيّاس البحر، وشيوخ ركْب البر. وبالله التوفيق.

قال القشيري: ﴿الله الذي سخر لكم البحر﴾ تركبونه، فربما تسْلَم السفينةُ، وربما تغرق، كذلك العبد في فلك الاعتصام في بحار التقدير، تمشي بهم رياح العناية، وترفع لهم شراع التوكل، تجري في البحر لتَجْر اليقين، فإن هبت رياحُ السلامة نجت السفينة، وإن هبت نكباء الفتنة لم يبق بيد الملاح شيء، فعند ذلك المقادير غالبة، وبلغت قلوبُ أهل السفينة الحناجر. هـ. قلت: من ركب مع رائس ماهر؛ الغالب عليه السلامة.

قوله تعالى: ﴿وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه﴾، في بعض الأثر: يقول الله تعالى: «يا ابن آدم؛ خلقت الأشياء من أجلك، وخلقتك من أجلي، فلا تشتغل بما خلقته لك عما خلقتك لأجله»(١) أي: لا تنشغل بخدمة الكون عن خدمة المكوِّن، فما أفلح من انشغل بدنياه، وآثر هواه على خدمة مولاه، كان حراً والأشياء كلها عبيد له، فصار عبداً لعبيده، بحبه للأشياء وتعشقه لها، كانت الأشياء تعشقه وتخدمه، ثم صار يخدم الأشياء ويعشقها، أنت مع الأكوان ما لم تشهد المكوِّن، فإذا شهدت المكوِّن كانت الأكوان معك، فاعرف قدرك أيها الإنسان، وارفع همتك عن الأكوان، وعلِّق قلبك بالملك الديان، يُعطك الحق تعالى من العرش إلى الفرش، تتصرف فيه بهمتك كيف شئت، وما ذلك على الله بعزيز.

ثم بيَّن الطريق الموصل إلى هذا، وهو حُسن الخلق مع كل مخلوق، فقال:

﴿ قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾ ﴾

قلت: (يغفروا)، قيل: جواب الأمر المذكور، أي: إن تقل يغفروا، وقيل: لأمر محذوف، أي: قل لهم اغفروا يغفروا، وقيل: حذف لام الأمر، أي: ليغفروا، وقرأ أبو جعفر: (ليُجزى قوماً) بالبناء للمفعول، ونصب (قوماً) إما

(١) رواه الشيخ محي الدين ابن عربي في «مشكاة الأنوار فيما روى عن الله سبحانه من الأخبار، ح٥٨، وقال: « رويته من جزء الربعي».

على نيابة المصدر، أى: ليجزى الجزاء قوماً، أو ليجزى الخيرُ قوماً، فأضمر الخير؛ لدلالة الكلام عليه، أو ناب الجار مع وجود المفعول به، وهو قليل.

يقول الحق جل جلاله ﴿قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيامَ الله﴾ أى: يعفوا ويصفحوا عن الذين لا يتوقعون نِقَمه ووقائعه بأعدائه، من قولهم: «أيام العرب»، لوقائعها، أو: لا يأملون الأوقات التى وقّتها الله تعالى لثواب المؤمنين، ووعدهم بالفوز فيها.. قيل: نزلت قبل آية القتال ثم نسخت. قال ابن عطية: ينبغى أن يقال: إن الأمور العظام، كالقتل والكفر مجاهدة ونحو ذلك، قد نَسخ غفرانَه آيةُ السيف والجزية، وإن الأمور الحقيرة، كالجفاءِ فى القول ونحو ذلك، يحتمل أن تبقى مُحكمة، وأن يكون العفو عنها أقرب للتقوى. هـ.

قيل: نزلت فى عمر رضي الله عنه حين شتمه رجل من غفار، فهَمّ أن يبطش به، فنزلت(١). وقيل: نزلت فى ناس من أصحاب النبى ﷺ كانوا فى أذىً شديد من المشركين، قبل أن يُؤمروا بالقتال، فشكَوْا ذلك إلى النبى ﷺ، فنزلت(٢)، وعلى هذا تكون الآية مكية. وقال ابن عباس: لما نزل: ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾(٣) قال فنحاص: افتقر ربُّ محمد، فلما بلغ ذلك عُمر، طلبه بالسيف؛ ليقتله، فنزلت، فوضع السيف، وقال: والذى بعثك بالحق لا يُرى الغضب فى وجهى(٤). وقيل: فى شأن أُبَيّ بن سلول، رأس المنافقين، لَمّا قال فى غزوة المريسيع: ما مثلنا ومثل هؤلاء - يعنى المهاجرين - إلا كما قيل: سَمّنْ كلبك يأكلك، فبلغ ذلك عمر، فاشتمل السيف، يريد التوجه إليه، فنزلت(٥). وعلى هذا تكون مدنية.

﴿لِيَجزىَ قوماً بما كانوا يكسبون﴾ أى: إنما أُمروا أن يغفروا ليوفيهم جزاء مغفرتهم يوم القيامة. وتنكير (قوم) مدح لهم، كأنه قيل: لِيَجزى قوماً - أيما قوم، أو قوماً مخصوصين - بالصبر بسبب ما كسبوا فى الدنيا من الأعمال الحسنة، التى من جملتها الصبر على إذاية الكفار، والإغضاء عنهم، بكظم الغيظ، واحتمال المكروه، مايقصر عنه البيان من الثواب العظيم، ويجوز أن يُراد بالقوم: الكفرة، وبما كانوا يكسبون: سيئاتهم، التى من جملتها ما كانوا يؤذون به المسلمين.

﴿من عَمِلَ صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها﴾ أى: لها الثواب وعليها العقاب، لا يكاد يسرى عمل إلى غير عامله، ﴿ثم إلى ربكم تُرجعون﴾ فيجازيكم على أعمالكم، خيراً كان أو شراً.

---

(١) ذكره القرطبى (٦١٦٢/٧) وعزاه للنحاس والمهدوى، عن الضحاك عن ابن عباس.
(٢) ذكره البغوى فى تفسيره (٢٤٣/٧). عن القرظى والسدى.
(٣) الآية ٢٤٥ من سورة البقرة.
(٤) أخرجه الواحدى فى أسباب النزول (ص٢٩٣ - ٢٩٤) عن ميمون بن مهران عن ابن عباس رضي الله عنه، بسند ضعيف.
(٥) ذكره الواحدى فى أسباب النزول (٢٩٣) والقرطبى (٦١٦٧/٧) عن ابن عباس فى رواية عطاء.

الإشارة: مذهب الصوفية: العفو عمن ظلمهم، والإحسان إلى من أساء إليهم؛ لأنهم رحمة للعباد، ومقصدهم بذلك رضا الله، لأن الخلق عيال الله، وأحب الخلق إلى الله أنفعهم لعياله. قال اللجائى رضي الله عنه فى شمائل الخصوص: قصد السادات بالعفو عمن ظلمهم، ابتغاء مرضاة الله، لا ابتغاء الثواب، فإنه تعالى يحب العفو، وتسمَّى به. ومقصدهم بالعفو أيضاً: قطع العداوة والحقد عن الظالم، وترك الانتصار منه، بيدٍ أو لسان، استعداداً منهم لسلامة الصدور. ومقصدهم أيضا: زوال الذّلة عن الظالم فى موقف الحساب، من أجل ما يطالَبُ به من الحقوق، وهو ضرب من الشفقة على العبيد، وهو مقام محمود، فشأنهم رضا الله عنهم إذا حلّ بالعباد فى الموقف بلاء، أرادوا أن يكونوا للخلق فداء، فهذا أدنى مقام فى العفو. هـ.

وفى الحديث: «إذا جمع الله الخلائقَ يوم القيامة، نادى منادٍ: أين أهل الفضل، فيقوم ناس، وهم يَسير، فينطلقون إلى الجنة سِراعاً، فتتلقاهم الملائكة، فيقولون: إنّا نراكم سراعاً؟ فيقولون: نحن أهل الفضل، فيقولون: وما فضلُكم؟ فيقولون: كنا إذا ظُلِمنا صبَرْنا، وإذا جُهِلَ علينا حَلُمنا، فيقال لهم: ادخلوا الجنة: فنعم أجر العاملين»(١) .

قال القشيرى بعد كلام: فمن أراد أن يعرف كيف يحفظ أولياءَه، وكيف يُدمِّر أعداءَه، فليصبِرْ على أيام قلائل، ليعلم كيف صارت عواقبُهم، من عمل صالحًا فله مَهْناه، ومن ارتكب سيئة قاسى بلواه، ثم مرجعه إلى مولاه. هـ.

ثم ذكر ما منّ به على بنى إسرائيل، بعد ما ذكر ما منّ به على عباده جملة، فقال.

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ
وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ
مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ
يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ولقد آتينا بنى إسرائيل الكتابَ والحُكْمَ ﴾أى: الفصل بين العباد، لأن الملك لم يزل فيهم حتى غيّروا، أو: الحكمة النظرية والعملية والفقه فى الدين، ﴿ والنبوة ﴾؛ حيث كثر فيهم الأنبياء ما لم

(١) رواه الأصبهانى فى الترغيب (٢٣٧٤) عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده.

يكثر في غيرهم. ﴿ ورزقناهم من الطيبات ﴾ ؛ ما أحلّ الله لهم من اللذائذ، كالمن والسلوى، وغيره من الأرزاق، ﴿ وفضلناهم على العالَمين ﴾ ؛على عالمي زمانهم.

﴿ وآتيناهم بينات من الأمر ﴾ ؛ دلائل ظاهرة من أمر الدين، ومعجزات قاهرة. قال ابن عباس: هو العلم بمبعث النبي ﷺ، وما بيِّن لهم من أمره، وأنه يُهاجر من تهامة إلى يثرب، ويكون أنصاره أهل يثرب، ﴿ فما اختلفوا ﴾ في ذلك الأمر ﴿ إلا من بعد ما جاءهم العلمُ ﴾ بحقيقته وحقيّته، فجعلوا ما يوجب زوال الخلاف موجباً له، ﴿ بغيًا بينهم ﴾ أي: عداوة وحسداً، حدث بينهم، لا شك وقع لهم فيه، ﴿ إن ربك يقضي بينهم يوم القيامة ﴾ بالمؤاخذة والجزاء ﴿ فيما كانوا فيه يختلفون ﴾ من أمر الدين.

الإشارة: كانت بنو إسرائيل في أول أمرها متمسكة بكتاب ربها، عاملة بما شرعت لها أنبياؤها، فرفع الله بذلك قدرها، حتى تحاسدوا، وتهاجروا على الدنيا والرئاسة، فأعقبهم الله ذل الأبد، فهذه سُنَّة الله تعالى في عباده، مَن تمسك بالكتاب والسنة، وزهد في الدنيا، وتواضع لعباد الله، رفعه الله وأعزه، فإذا خرج عن هذا الوصف انعكس حاله إلى أسفل، والعياذ بالله.

ولما ذكر شريعة موسى أعقبه بشريعة نبينا ـ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، فقال:

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ثم جعلناك ﴾ يا محمد بعد اختلاف أهل الكتاب، ﴿ على شريعة ﴾ ؛ على طريقة عظيمة الشأن، ومنهاج واضح ﴿ من الأمر ﴾ ؛ الدين، وأصل الشريعة في اللغة: مورد الماء، أي: الطريق الموصلة إليه، ثم جعل للطريق الموصلة إلى حياة القلوب والأرواح؛ لأن الماء به حياة الأشباح، ﴿ فاتبِعْها ﴾ بإجراء أحكامها في نفسك وفي غيرك، من غير إخلال بشيء منها. قال ابن عرفه: الخطاب له عليه السلام، والمراد غيره؛ لأنه معلوم الاتباع التام، أو: دم على اتباعها. هـ.

﴿ ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون ﴾ أي: لا تتبع آراء الجهلة واعتقاداتهم الزائغه التابعة للشهوات، وهم رؤساء قريش، كانوا يقولون له ﷺ: ارجع إلى دين آبائك. ﴿ إنهم لن يُغنوا عنك من الله شيئًا ﴾ مما أراد بك إن اتبعتهم، أي: لن ينفعونك بدفع ما ينزل بك بدلاً من الله شيئًا إن اتبعت أهواءهم، ﴿ وإنَّ الظالمين بعضُهم أولياء

بعض﴾ فلا يُواليهم ولا يتبع أهواءهم إلا من كان ظالماً مثلهم، ﴿والله ولَىّ المتقين﴾ أى: ناصر المتقين، الذين أنت قدوتهم، فدمْ على ما أنت عليه من توليته خاصةً، والإعراض عما سواه بالكلية.

﴿هذا بصائرُ للناس﴾ أى: هذا القرآن واتباع الشريعة بصائر لقلوب الناس، كما جُعل روحاً وحياة لها، فإنَّ من تمسك بالكتاب والسنة، وأمعن فيها النظر، وعمل بمقتضاهما، فُتحت بصيرته، وحيى قلبُه، ﴿وهُدىً﴾ من الضلالة ﴿ورحمةٌ﴾ من العذاب،﴿لقوم يوقنون﴾ لمن كمُلَ إيمانه وإيقانه بالأمور الغيبية.

الإشارة: الشريعة لها ظاهر وباطن، وهو لُبها وخالصها، فالعامة أخذوا بظاهرها، فأخذوا بكل ما يُبيحه ظاهر الشريعة من الرخص والسهولة، ولا نظر عندهم لقلوبهم من النقص والزيادة، والخاصة أخذوا بباطنها، فأخذوا منها بالمُهم، وتركوا كل ما يفتنهم أو ينقص من نور إيقانهم، فوصلوا بذلك إلى حضرة ربهم، فيقال للمريد: ثم جعلناك على طريقة واضحة من أمر الخاصة، فاتبعها، ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون ما يزيد فى قلوبهم وما ينقص. إنهم لن يغنوا عنك من الله شيئاً إن أبعدك بميلك إليهم واتباع أغراضهم.

قال القشيرى: ﴿إنهم لن يُغنوا عنك من الله شيئاً﴾ إن أراد بك نعمة، فلا يمنعُها أحد، وأن أراد بك فتنة فلا يصرفها عنك أحد، فلا تُعلِّقْ بمخلوقٍ فكرك، ولا توجه ضميرك إلى شيء، وثِقْ به، وتوكلْ عليه. هـ. وأهل الغفلة بعضهم أولياء بعض، يتوالون على حظوظ الدنيا وشهواتها، ﴿والله ولىُّ المتقين﴾ الذين اتقوا كل ما يشغل عن الله، ﴿هذا بصائر للناس﴾ أى: سبب فتح بصائرهم، ﴿وهُدى﴾ أى: إشارة لطريق الوصول، ورحمة للأرواح والقلوب، لقوم يوقنون، أى: لأهل اليقين الكبير.

قال القشيرى: ﴿هذا بصائرُ للناس﴾، أنوار البصيرة إذا تلألأت انكشفت دونها تهمةُ التجويز، ونظرُ الناس على مراتب، من نظر بنور نجومه، فهو صاحب عقل، ومن نظر بنور فراسته فهو صاحب ظن، يُقَوِّيه لوحٌ، ولكنه من وراء ستر، ومن نظر بيقين فهو على تحكم برهان، ومن نظر بعين إيمان فهو بوصف اتباع، ومن نظر بنور بصيرة، فهو على نهار، وشمسه طالعة، وشمسه عن السحاب مصحية. هـ .

ثم بيَّن حال من لا يرجو أيام الله ومن يرجوه، فقال:

﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾

قلت (أم): منقطعة، والهمزة لانكار الحسبان، من قرأ «سواء» بالرفع[1]؛ فخبر مقدم، (ومحياهم): مبتدأ، ومن قرأ بالنصب؛ فحال من ضمير الظرف، أي: كائنين كالذين آمنوا، حال كونهم مستوياً محياهم ومماتهم، و«محياهم» ـ حينئذ ـ: فاعل بسواء، وقرأ الأعمش: «ومماتهم» بالنصب على الظرفية.

يقول الحق جل جلاله: ﴿أم حَسِبَ الذين اجْتَرحوا﴾؛ اكتسبوا ﴿السيئات﴾ من الكفر والمعاصي، وسميت الأعضاء جوارح؛ لاكتسابها الخير والشر، ويقال: فلان جارحة أهله؛ أي: كاسبهم، أي: أظنوا أن نصيِّرهم ﴿كالذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾، وهم فيما هم فيه من محاسن الأعمال، ونعاملهم معاملتهم في رفع الدرجات، أي: حتى يكونوا ﴿سواءً﴾ في ﴿محياهم ومماتهم﴾، كلاَّ، بل نجعل أهل الإيمان في محياهم ومماتهم متنعمين بطاعة مولاهم، مطمئنين به، يحيون حياة طيبة، ويموتون موتة حسنة، وفي مماتهم مكرمين بلقاء مولاهم، في روح وريحان، وجنات نعيم، ونجعل أهل الكفر والعصيان في محياهم في ذُلِّ المعصية، وكد الحرص وكدر العيش، وفي الممات في ضيق العذاب الخالد، ﴿ساء مايحكمون﴾ أي: ساء حكمهم هذا، أو: بئس شيئاً حكموا به.

قال النسفي: والمعنى إنكار أن يستوي المسيئون والمحسنون محيًا ومماتاً؛ لافتراق أحوالهم أحياء، حيث عاش هؤلاء على القيام بالطاعات، وأولئك على اقتراف السيئات، ومماتًا، حيث مات هؤلاء على البشرى بالرحمة والكرامة، وأولئك على اليأس من الرحمة والندامة. وقيل: معناه: إنكار أن يستووا في [الممات، كما استووا في][2] الحياة في الرزق والصحة. ساء مايحكمون، فليس من أُقْعِدَ على بساط الموافقة، كمن أبعد في مقام المخالفة، بل تفرّق بينهم، فنعلي المؤمنين، ونخزي الكافرين. هـ.

وسبب نزول الآية: افتخار وقع للكفار على المؤمنين، قالوا: لئن كانت آخرة كما تزعمون لنفضلن فيها كما فضلنا في الدنيا، فردّ الله عليهم، وأبطل أمنيتهم[3].

﴿وخلق اللهُ السموات والأرض بالحق﴾ لتدل على قدرته على البعث وغيره، قال البيضاوي: كأنه دليل على الحُكم السابق، من حيث إن خلق ذلك بالحق المقتضي للعدل، يقتضي انتصار المظلوم من الظالم، والتفاوت بين المحسن والمسيء، إذا لم يكن في المحيا كان بعد الممات. هـ. ﴿ولتُجزى كلُّ نفسٍ بما كَسَبَتْ﴾: عطف

(١) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر برفع «سواء» وقرأ حفص وحمزة والكسائي وخلف بالنصب. انظر الإتحاف ٢/٤٦٧.

(٢) ما بين المعقوفتين من تفسير النسفي، وأثبته لاقتضاء السياق ذلك.

(٣) ذكره البغوي في التفسير (٧/٢٤٤).

على هذه العلة المحذوفة، أي: لتدل ولتُجزى، أو على «بالحق» لأن فيه معنى التعليل؛ إذ معناه: خلقها مقرونة بالحكمة والصواب، دون العبث ولتُجزى... إلخ، أو: ليعدل وتُجزى كل نفس بما كسبت، ﴿ وهم ﴾ أي: النفوس، المدلول عليها بكل نفس ﴿ لا يُظلمون ﴾ بنقص الثواب أو زيادة عقاب.

الإشارة: أم حَسِبَ الذين ماتوا على دنس الإصرار، أن نجعلهم كالمطهرين الأبرار، أم حسب الذين عاشوا فى البطالة والتقصير أن نجعلهم كالذين عاشوا فى الجد والتشمير؟ «أم حَسِبَ الذين عاشوا فى غم الحجاب، وصاروا إلى سوء الحساب، أن نجعلهم كالذين تهذبوا حتى ارتفع عنهم الحجاب، وصاروا إلى غاية الكرامة والاقتراب؟ لا استواء بينهم فى المحيا ولا فى الممات، الأولون عاشوا معيشة ضنكاً، وصاروا بعد الموت إلى الندامة والحسرة، والآخرون عاشوا عيشة راضية، وماتوا موتة طيبة، وصاروا إلى كرامة أبدية، ولهذا بكت الأكابرُ عند قراءتها، فرُوِىَ عن تميم الدارى: أنه كان يُصلى ليلة عند المقام، فبلغ هذه الآية، فجعل يبكى ويرددها إلى الصباح. وعن الفُضيل: أنه بلغها، فجعل يبكى، ويقول: يافضيل! ليت شعرى من أى الفريقين أنت؟. وعن الربيع بن خيثم: أنه قام يصلى ليلة، فمر بهذه الآية، فمكث ليلةً حتى أصبح يبكى بكاء شديداً، وكانت تُسمى مبْكاة العابدين.

وسبب تسوية العاصى مع المطيع الانهماك فى الهوى، كما أبان ذلك الحق تعالى بقوله:

﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٢٣) ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ أفرأيتَ من اتخذ إلهَهُ هواه ﴾ أى: أباح لنفسه كل ماتهواه، سواء كان مباحاً أو غيرمباح، فكأنه يعبده كما يعبد الرجل إلهه، وإليه أشار فى المباحث بقوله:

ومن أبـاح النفس ما تهـواه		فإنمـا معبـوده هـواه

فالآية وإن نزلت فى هوى الكفر؛ فهى متناولة لكل هوى النفس الأمّارة، قال ابن جبير: نزلت فى قريش والعرب، كانوا يعبدون الحجارة والذهب والفضة، فإذا وجدوا شيئاً أحسن ألْقَوه وعبدوا غيره[1]. هـ ومتابعة الهوى كلها مذمومة، فإن كان ما هوته مُحرّماً أفضى بصاحبه إلى العقاب، وإن كان مباحاً بقى صاحبه فى غم الحجاب وسوء الحساب، وأسْرِ نفسه وكدِّ طبعه. وفى الحديث عنه ﷺ: «ماعُبِد تحت السماء أبغض إلى الله تعالى من

(١) ذكره القرطبى (٦١٧٣/٧) والبغوى (٢٤٥/٧).

هوى»(١)، وقال ﷺ: «ثلاثٌ مهلكات؛ شحٌ مطاع، وهوىً متبع، وإعجابُ المرء بنفسه»(٢) وقال أيضا: «الكيِّسُ من دان نفسه، وعمِلَ لما بعد الموت، والعاجز من أتبعَ نفسَه هواها، وتمنّى على الله»(٣)، وسيأتي في الإشارة تمامه .

ثم قال تعالى: ﴿ وأضلَّه اللهُ على علم ﴾ أي: خذله على علم منه، باختياره الضلالة، أي: عالماً بضلاله، وتبديله لفطرة الله التي فطر الناس عليها. وقيل: نزلت في أمية بن أبي الصلت، وكان عنده علم بالكتب المتقدمة، فكان ينتظر بعثة الرسول ﷺ، فلما ظهر، قال: ماكنتُ لأومن لرسول ليس من ثقيف، وأشعاره محشوة بالتوحيد، ولكن سبق له الشقاء، فلم يؤمن، وختم على سمعه فلا يقبل وعظاً وقلبه، فلا يعتقد حقّاً، أي: لايتأثر بالمواعظ، ولايتفكر في الآيات والنُذر. ﴿ وجَعَلَ على بصره غشاوةً ﴾ أي: ظلمة مانعة من الاعتبار والاستبصار، ﴿ فمن يهديه من بعدِ الله ﴾؛ من بعد إضلال الله إياه ؟ ﴿ أفلا تَذَكَّرون ﴾؛ أفلا تتعظون، فتُسلمون الأمور إلى مولاها، يُضل من يشاء ويهدي من يشاء.

الإشارة حقيقة الهوى كل ماتعشقه النفس، وتميل إليه من الحظوظ العاجلة، ويجري ذلك في المآكل، والمشارب، والملابس، والمناكح، والجاه، ورفع المنزلة، فليجاهد العبد نفسه في ترك ذلك كله، حتى لا تحب إلا ما هو طاعة يقرب إلى الله، كما قال ﷺ: «لايؤمنُ أحدكُم حتى يكون هواه تابعاً لما جئتُ به»(٤) فإن كان في طريق الإرادة والتربية ترك كل ماتميل إليه نفسه وتسكن إليه، ولو كان طاعة، كما قال البوصيري رحمه الله :

وراعِها وهي في الأعمالِ سائمة وإن هي استحلَت المرعى فلا تُسِمِ

فإنَّ حلاوة الطاعة سموم قاتلة، يمنع الوقوف معها من الترقي إلى حلاوة الشهود ولذة المعرفة، وكذلك الركون إلى الكرامات، والوقوف مع المقامات، كلها أهوية تمنع مما هو أعلى منها؛ من مقام العيان، فلا يزل المريد يُجاهد نفسه، ويرحلها عن هذه الحظوظ، حتى تتمحض محبتها في الحق تعالى، فلا يشتهي إلا شهود ذاته الأقدس، أو ما يقضيه عليه، فإذا ظهر بهذا المقام لم تبق له مجاهدة ولا رياضة، وكان ملكاً حراً، فيقال له حينئذ:

---

(١) الحديث ذكره القرطبي في تفسيره (٦١٧٣/٧) عن أبي أمامة.

(٢) أخرجه مطولاً البزار (كشف الأستار/٨١)، وأبو نعيم في الحلية (٢٤٣/٢) من حديث أنس رضي الله عنه . وأخرجه الطبراني في الأوسط (ح ٥٧٥٤) من حديث ابن عمر رضي الله عنه.

(٣) أخرجه أحمد (١٢٤/٤) وابن ماجه في (الزهد، باب ذكر الموت والاستعداد له، ح ٤٢٦٠) والترمذي، وحسّنه في (صفة القيامة والرقائق، ح ٢٤٥٩) والحاكم (٢٥١/٤) وصححه وأقره الذهبي، والطبراني في الكبير (٣٣٨/٧، ح٧١٤١) وابن المبارك في الزهد (٥٦ ح ٢٥) من حديث شداد بن أوس.

(٤) أخرجه البغوي في شرح السنة (٢١٣) والبغدادي في تاريخ بغداد (٣٦٩/٤) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص. وقد بسط الكلام على هذا الحديث الحافظ ابن رجب في «جامع العلوم والحكم» فراجعه إن شئت.

لك الدهر طوع، والأنام عبيد — فعش، كل يوم من أيامك(١) عيد.

وطريق السير فى هذا أن يُساس نفسه شيئاً فشيئاً، يمنعها من المكروهات، ثم من المباحات شيئاً فشيئاً، حتى تستأنس، يترك شهوة ثم أخرى، وهكذا، وأما لو منعها الكل دفعة واحدة فربما تمل وتسقط، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «لا يكن أحدكم كالمُنبت، لا أرضاً قطَعَ، ولا ظهراً أبقى»(٢). وإلى هذا أشار فى المباحث، حيث قال:

واحتلْ على النفس فرُبَّ حيلهْ — أنفع فى النصرة من قبيله

وأعظم الحظوظ حُب الجاه والتقدم، فلا يسامحها المريد فى شيء من ذلك قط، ولينزل بها إلى الخمول والسفليات، وأما شهوة البطن والفرج؛ فما تشوفت إليه النفس من ذلك فليمنعها منها كلياً، وما أتاها من غير حرص ولا تشوف فليأخذ منه قدر الحاجة، مع الشكر عليه، هكذا يسير حتى يتحقق وصوله، ويتمكن من معرفة الحق، وحينئذ فلا كلام معه، كما تقدم، ولابد من صُحبة شيخ عارف كامل، يلقيه زمام نفسه، فيحمله بهمته، وإلا فلا طاقة على مجاهدتها أصلاً، وجرِّب ففى التجريب علم الحقائق.

قال القشيرى: من لم يَسْلك سبيلَ الاتباع، ولم يستوف أحكام الرياضة، ولم ينسلخ عن هواه بالكلية، ولم يؤدَبه إمامٌ مُقتدىً به، فهو ينحرفُ فى كل وَهْدة، ويهيم فى كل ضلالة، ويضلُّ فى كل فجٍّ، خسرانه أكثر من ربحه، ونقصانه أوفر من رجحانه، أولئك فى ضلال بعيد، زمامهم بيد هواهم، أولئك أهل المكر، اسْتُدرِجُوا ومايشعرون. هـ. وفى الحِكَم: «لايخاف أن تلتبس الطرق عليك، وإنما يخاف من غلبة الهوى عليك»(٣). فمن غلَبهَ الهوى غلَبَه الوجود بأسره، وتصرف فيه، أحب أم كَرِه، ومَن غلب هواه غلب الوجودَ بأسره، وتصرف فيه بهمته كيف شاء.

حكي عن أبى عمران الواسطى، قال: انكسرت بنا السفينة، فبقيت أنا وامرأتى على ألواح، وقد وَلَدَتْ فى تلك الليلة صبية، فصاحت بى، وقالت: يقتلنى العطش، فقلت: هو ذا يرى حالنا، فرفعتُ رأسى، فإذا رجل جالس فى يده سلسلة من ذهب، فيها كوز من ياقوت أحمر، فقال: هاك اشربا، فأخذتُ الكوز، فشربنا، فإذا هو أطيب من

---

(١) هكذا، وأرى - أنها «زمانك» ليستقيم الوزن.

(٢) أخرجه البيهقى السنن (١٨/٣) والبزار (٧٤) والحاكم فى معرفة علوم الحديث (ص٩٦) والشهاب القضاعى فى مسنده (ح ١١٤٧، و ح ١١٤٨) عن جابر مرفوعاً، بلفظ «إن هذا الدين متين، فأوغل فيه برفق، فإن المنبت..» إلخ الحديث، وزاد القضاعى بعد «فأوغل فيه برفق»: «ولا تبغض إلى نفسك عبادة الله».

وأخرجه بنحوه البيهقى فى الشعب (ح ٣٨٨٥) عن السيدة عائشة رضى الله عنها، و (ح ٣٨٨٦) عن عمرو بن العاص ﷺ.

وانظر الشذرة فى الأحاديث المشتهرة (ح ٨٩٣) وكشف الخفاء (٢٣٣٩).

(٣) حكمة رقم (١٠٧) انظر تبويب الحكم ص ١٧.

المسك، وأبرد من الثلج، وأحلى من العسل، فقلتُ: من أنتَ؟ فقال: أنا عبد لمولاك، فقلت: بم وصلتَ إلى هذا؟ فقال: تركت هواى لمرضاته، فأجلسنى فى الهواء، ثم غاب ولم أره. هـ. وقال سهل رضي الله عنه: هواك داؤك، فإن خالفته فدواؤك، وقال وهب: إذا عرض لك أمران، وشككت فى خيرهما، فانظر أبعدهما من هواك فأته. هـ. ومثله فى الحِكَم: «إذا التبس عليك أمران، فانظر أثقلهما على النفس، فاتبعه، فإنه لا يَثْقُل عليها الا ماكان حقاً». فالعز كله فى مخالفة الهوى، والذل والهوان كله فى متابعة الهوى، فنُون الهوان سُرقت من الهوى، كما قال الشاعر:

نونُ الهوانِ من الهوَى مسروقةٌ ... فأسيرُ كل هوى أسيرُ هوان

وقال آخر:

إن الهوَى لهو الهوانُ بعينه ... فإذا هَويتَ فقد لَقِيتَ هَوانَا

وإذا هَوِيتَ فقد تعبَّدك الهوَى ... فاخضعْ لحبك كائنًا مَنْ كانا

وقال ابن المبارك:

ومن البلاءِ للبلاءِ علامةٌ ... ألاَّ يُرى لك عن هَواكَ نُزوعُ

العبدُ أعَنى النفسَ فى شهواتها ... والحرُّ يشبَعُ تارةً ويجوعُ.(١)

ولابن دُريد:

إذا طالبتك النفسُ يومًا بشهوةٍ ... وكان إليها للخلافِ طريقُ

فدعْها وخالِفْ ما هويتَ فإنما ... هَواك عدوٌّ والخلاف صديقُ

وقال أبو عُبيد الطوسى:

والنفسُ إن أعطيتها مُنَاها ... فاغِرةٌ نحو هَواها فَاهَا

هذا، وللآية إشارة أخرى، رُويت عن بعض مشايخنا، قال: يمكن أن تكون الآية مدحاً، يقول تعالى: ﴿أفرأيت من اتخذ إلهه﴾، وهو الله تعالى، ومحبوبَه وهواه، لا يهوى معه غيره، وأضله الله، فى محبته، على علم منه بالله، وختم على سمعه وقلبه بمحبته، فلا يسمع إلا منه، ولايُحب غيره، وجعل على بصره غشاوة، فلا يرى سواه، فمن

(١) انظر ديوان ابن المبارك (ص٨٢) والبيت فيه: [والعبد عبدُ النفس] كما جاء البيتان فى ديوان سيدنا علىّ بن أبى طالب رضي الله عنه، (ص ١٢٢) ومعهما بيت ثالث، هو:

وكفاك من عِبر الحوادث أنه ... يبلى الجديدُ ويُحصد المزروع

يهديه هذه الهداية العظمى من بعد الله.(١) وهذا يُسلّم فى طريق الإشارة، لأنها خارجة عن سياق العبارة، وللقرآن أسرار باطنة، يعرفها أهل الباطن فقط، فسلّم تَسْلَم.

ثم ذكر مقالة أهل الأهواء والضلال، فقال:

﴿ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿وقالوا﴾ من غاية غيهم وضلالهم: ﴿ماهيَ﴾ أى: ما الحياة؛ لأنهم وعدُوا حياة ثانية، ﴿إلا حياتُنا الدنيا﴾ التى نحن فيها، ﴿نموت ونحيا﴾ أى: يُصيبنا الموت والحياة فيها، وليس وراء ذلك حياة، أو: نموت بأنفسنا ونحيا ببقاء أولادنا، أو: يموت بعض ويحيا بعض، أو: نكون مواتاً نطفاً فى الأصلاب، ونحيا بعد ذلك. وقيل: هذا كلام مَن يقول بالتناسخ، فإنه عقيدة أكثر عبدة الأوثان، أى: يموت الرجل، ثم تجعل روحه فى شبح آخر، فيحيا به، وهو باطل عند أهل الإسلام. ثم قالوا: ﴿وما يُهلكنا إلا الدهرُ﴾؛ إلا مرور الزمان وهو فى الأصل: مدة بقاء العالم، من: دهرَهُ: إذا غلبه، وكانوا يزعمون أن مرور الزمان بالليالى والأيام هو المؤثّر فى هلاك الأنفس، وينكرون ملك الموت، وقبضه الأرواحَ بأمر الله تعالى، وكانوا يُضيفون كلَّ حادثة تحدثُ إلى الدهر والزمان، كما قال شاعرهم:

أشَابَ الصغيرَ وأفنى الكبيرَ كَرُّ الغداة ومرُّ العشيّ.

ومنه قول تُبع الأكبر، أوغيره:

منع البقاءَ تغرُّبُ الشمس وطلوعها من حيث لا تمسى
وطلوعُها بيضاءَ صافيةً وغروبُها صفراءَ كالوَرْسِ(٢)
تجرى على كبد السماء كما يجرى حِمام الموت بالنفْسِ
اليومَ أعلم ما يجىء به ومضى بفصل قضائه أمسِ

(١) فى هذا الكلام نظر.

(٢) الورس: نبات كالسمسم أصفر يُزرع باليمن ويُصبغ به، ويتخذ منه الغمرة للوجه. وقيل صنف من الكمكم، وقيل: يشبهه. انظر اللسان (ورس ٦/٤٨١٢) ومحيط المحيط (ص ٩٦٥).

فإن كان تَبَعا المتقدم؛ فنسبة الفعل إلى الدهر مجاز، كما سيأتي، وعقيدة الموحدين ألاَّ فاعل إلا الله، فالدهر مُسخّر بأمر الله وقدرته، بل هو من أسرار الله وأنوار صفاته، ولذلك قال ﷺ: «لاتسبُّوا الدهر، فإن الله هو الدهر»[1] وقال ﷺ: «قال الله تعالى: يُؤذيني ابنُ آدم، يَسُبُّ الدّهر، وأنا الدهر، بيدى الأمر، أُقلّب الليلَ والنهارَ»[2] فالأمور كلها بيد الله، والدهر إنما هو مظهر لعجائب القدرة، كما قال أبو على الثقفى رَحِمَهُ اللهُ:

يا عاتبَ الدهر إذا نابَه[3] — لا تَلُمِ الدهرَ على غَدْرِهِ
الدهرُ مأمورٌ له آمر — قد انتهى الدهر إلى أمره
كم كافرٍ أمواله جَمَّةٌ — تزاد أضعافًا على كفرِهِ؟
ومؤمنٍ ليس له دِرهمٌ — يزدادُ إيماناً على فقرِهِ؟

وقد ينسب أهل التوحيد الفعلَ إلى الدهر مجازاً، تغزلاً، فى أشعارهم، كما قال عبد الملك بن مروان، حين ضعف حالُه:

فاستأثر الدهر الغداة بهم — والدهر يرميني وما أرْمى
يا دهر قد أكثرت فَجعتنا — بسراتنا وقرت فى العَظْمِ
وتركتنا لحمًا على وَضَمٍ[4] — لو كنت تستبقى من اللحم!!
وسلبتنا ما لستَ تُعقبنا — يا دهرُ ما أنصفتَ فى الحُكمِ!!.

قال تعالى: ﴿ومالهم بذلك من علم﴾ أى: ليس لهم بما ذكر من اقتصار الحياة على ما فى الدنيا، وإسناد التأثير إلى الدهر، (من علم) يستند إلى عقل ولا نقل، ﴿إن هم إلا يظنون﴾؛ ما هم إلا قوم قصارى أمرهم الظن والتقليد، هذا معتقدهم الفاسد فى أنفسهم .

---

(١) أخرجه مسلم فى (الألفاظ من الأدب، باب النهى عن سب الدهر، رقم ٢٢٤٦، ح ٥) من حديث أبى هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ . قال الخطابى: معناه أنا صاحب الدهر، ومدبر الأمور التى ينسبونها إلى الدهر فمن سب الدهر من أجل أنه فاعل هذه الأمور عاد سبه إلى ربه الذى هو فاعلها. انظر فتح البارى (٨/٤٣٨).

(٢) أخرجه البخارى فى (التفسير- تفسير سورة الجاثية، باب ﴿وما يهلكنا إلا الدهر﴾ ح ٦٢٨٤) وفى (الأدب، باب لا تسبوا الدهر) ومسلم فى (الموضع السابق، ح٢) من حديث أبى هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ .

(٣) فى الأصول: [يا عالما بعجب من دهره] والمثبت من تفسير القرطبى.

(٤) الوضم: خشبة الجزار يقطع عليها اللحم، وكل ما وقيت به اللحم عن الأرض من خشب وحصير. يجمع على أوضام وأوضمة. وتركهم لحماً على وضمٍ، أى أوقع بهم فذلّلهم وأوجعهم. انظر اللسان (وضم ٦/٤٨٦١).

﴿ وإذا تُتلى عليهم آياتنا ﴾ الناطقة بالحق، الذى من جملته البعث، ﴿ بينات ﴾؛ واضحات الدلالة على مانطقت به، أو مبينات له، ﴿ ماكان حُجَّتَهم ﴾؛ ماكان متمسكاً لهم شيء من الأشياء، ﴿ إلا أن قالوا ائتوا بآبائنا إن كنتم صادقين ﴾ فى أنّا نُبعث بعد الموت، أى: لا شبهة لهم إلا هذا القول الباطل، الذى يستحيل أن يكون من قبيل الحُجة، أي: ليس لهم حُجة إلا العناد والاستبعاد. وتسميته حُجة إما لسوقهم إياه مساق الحُجة في زعمهم، أو تهكمًا بهم، كقول القائل: «تحية بينهم ضرب وجيع». قال ابن عرفة: ﴿وإذا تتلى عليهم... ﴾ الآية، أى: إنهم مع كونهم ظانين فَهْم بحيث لو استدل لهم لما ازدادوا إلا ضلالاً، وقد تقرر في علم الجدل أن المصمم على الشيء يصعب نقله عنه، بخلاف الظان والشاك، فأتت هذه الآية نفياً لما يتوهم فى هؤلاء أنهم حيث لا يقين عندهم يسهل رجوعهم، حين تظهر الحجة. هـ. ومَن نَصَبَ «حجتهم» فخبر كان، ومن رفعه فاسمها[1].

الإشارة: قال القشيرى: ﴿وقالوا ماهى إلا حياتنا الدنيا...﴾ الآية، اغتروا بما وجدوا عليه خَلَفَهم، وأرْخوا فى البهيمية عنَانهم وعُمْرَهم، وأغفوا عن ذكر الفكرة قلوبَهم، فلا بالعلم استبصروا، ولا من الحقائق استمدوا، رأسُ مالهم الظن، وهم غافلون، وإذا تتلى عليهم الآيات طلبوا إحياء موتاهم، وسوف يرون ما استبعدوا . هـ.

ثم قرر البعث الذى أنكروه، فقال:

﴿ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ
لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ
﴿٢٧﴾ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَٰبُنَا
يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟
ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟
أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ
وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾

(١) قرأ الجمهور «حجتهم» بالنصب، وعن الحسن وغيره «حجتهم» بالرفع، اسم كان، و«إلا أن قالوا» الخبر، وهى قراءة شاذة. انظر: الإتحاف (٤٦٧/٢) وإعراب القراءات الشاذة للعكبرى (٤٧١/٢).

قلت: (ويوم): منصوب بيَخْسَر، ويومئذٍ بدل منه، وكل أُمةٍ تُدْعَى: مبتدأ وخبر، ومن نصب[1] فبدل من «كل أمة»، (والساعة لا ريب فيها)؛ من رفعها فمبتدأ[2]، ومن نصبها فعطف على (وعد الله).

يقول الحق جل جلاله: ﴿قل الله يُحييكم﴾ في الدنيا ﴿ثم يُميتكم﴾ عند انقضاء أعماركم، لا كما تزعمون من أنكم تحيون وتموتون بحكم الدهر، ﴿ثم يجمعكم﴾ بعد الموت ﴿إلى يوم القيامة﴾ للجزاء، ﴿لا ريبَ فيه﴾ أي: في جمعكم؛ فإنّ من قدر على البدء قدر على الإعادة، والحكمة اقتضت الجمع للجزاء لا محالة، وتأخيره ليوم معلوم، والردّ لأبائهم كما اقترحوا، حيث كان مزاحماً للحكمة التشريعية، امتنع إيقاعه لرفع الإيمان بالغيب حينئذ، ﴿ولكنَّ أكثرَ الناس لا يعلمون﴾ قدرة الله على البعث، وحكمة إمهاله، لإعراضهم عن التفكر بالانهماك في الغفلة، وهو استدراك من قوله: (لا ريب)، إما من تمام الكلام المأمور به، أو مستأنف من جهته تعالى، تحقيقًا للحق، وتنبيهاً على أن ارتيابهم إنما هو لجهلهم وتقصيرهم في التفكر والنظر، لا لأن فيه شائبة ريبٍ ما.

﴿ولله مُلكُ السموات والأرض﴾ أي: له التصرف فيهما وفيما بينهما، وهو بيان لاختصاص الملك المطلق بالله، إثر بيان تصرفه تعالى في الناس بالإحياء والإماتة، والبعث والجمع والجزاء، وكأنه دليل لما قبله، ﴿ويوم تقوم الساعةُ يومئذ يَخْسَرُ المبطلون﴾؛ الداخلون في الباطل، وهو الكفر، ﴿وترى كُلَّ أمةٍ﴾ من الأمم المجموعة ﴿جاثيةً﴾؛ باركة على الركب، مستوفزة من هول ذلك اليوم، يقال: جثا فلان يجثو: إذا جلس على ركبتيه، قال سلمان رضي الله عنه: في القيامة ساعة هي عشر سنين، يخرّ الناسُ فيها جثاةً على ركبهم، حتى إن إبراهيم ينادي: نفسي نفسي[3]. هـ. ورُوي: أن جهنم حين يؤمر بها أن تُساق إلى الموقف، تنفلت من أيدي الزبانية، حتى تهم أن تأتي على أهل الموقف جميعاً، وتزفر زفرة تذهب بحاسة الآذان، فيجثوا الكل على الركب، حتى المرسلين، وكل واحد يقول: نفسي نفسي، لا أسألك اليوم غيرها، ونبينا عليه الصلاة والسلام يقول: «أمتي أمتي». نقله الغزالي، وعن ابن عباس: جاثية: مجتمعة، وقيل: جماعات، من: الجثوة، وهي الجماعة.

﴿كُلُّ أمةٍ تُدْعَى إلى كتابها﴾؛ صحيفة أعمالها، والمراد الجنس، أي: صحائف أعمالها، ﴿اليومَ تُجْزَوْن ما كنتم تعلمون﴾ في الدنيا، ثم يقال لهم: ﴿هذا كتابُنا﴾، أضيف الكتاب إليهم أولاً؛ لملابسته إياهم، لأن أعمالهم مثبتة فيه، وإلى الله ثانياً؛ لأنه مالكه، والآمرُ للملائكة بكَتْبِه، وأضيف لنون العظمة تفخيماً لشأنه، وتهويلاً

(١) قرأ يعقوب بنصب «كل»، وقرأ الباقون برفعها.

(٢) قرأ حمزة «والساعة» بالنصب، وقرأ الباقون بالرفع.

(٣) ذكره البغوي في تفسيره (٧/٢٤٦) والقرطبي (٧/ ٦١٨٠).

لأمره، ﴿ ينطق عليكم بالحق ﴾ ؛ يشهد عليكم ملتبساً بالحق، من غير زيادة ولا نقصان، ﴿ إنا كنا نَسْتنسخ ﴾ أى: نستكتب ونطلب نسخ ﴿ ما كنتم تعملون ﴾ فى الدنيا، من الأعمال، حسنة أو سيئة، وقال ابن عزيز: نستنسخ: نثبت، ويقال: نستنسخ: نأخذ نسخته، وذلك أن الملكين يرفعان عمل الإنسان، صغيره وكبيره، فيثبت الله منه ما كان له ثواب أو عقاب، ويطرح منه اللغو، وروى عن ابن عباس وغيره حديثًا: «أن الله يأمر بعرض أعمال العباد كل يوم خميس، فينتقل من الصحف التى ترفع الحفظة، كل ما هو مُعَدّ أن يكون له ثواب وعقاب، ويلقى الباقى، فهذا هو النسخ من أصل.

وقيل: المراد بكتابنا: اللوح المحفوظ. قال ﷺ: «أول ما خلق الله القلم من نور مسيرة خمسمائه عام، واللوح من نور مسيرة خمسمائة عام، فقال للقلم: اجر، فجرى بما هو كائن إلى يوم القيامة من عمل، برها وفاجرها، ورطبها ويابسها، ثم قرأ: ﴿هذا كتابنا ينطق.. ﴾ الآية»، فيُروى «أن الملائكة تصعد كل يوم إلى الملك الموكل باللوح، فيقولون: أعطنا ما يعمل صاحبنا اليوم، فينسخُ من اللوح عمله ذلك اليوم، ويعطيه إياهم، فإذا انقضى أجله، قال لهم: لا نجد لصاحبكم عملاً بقى له، فيعلمون أنه انقضى أجله».

ثم فصّل أحوال أهل الموقف، فقال: ﴿ فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيُدخلهم ربُّهم فى رحمته ﴾، أى: جنته ﴿ ذلك هو الفوزُ المبين ﴾؛ الظاهر، الذى لا فوز وراءه، ﴿ وأما الذين كفروا ﴾ فيُقال لهم على وجه التقريع والتوبيخ: ﴿ أفلم تكن آياتى تُتلى عليكم ﴾ أى: ألم تكن تأتيكم رسلى فلم تكن آياتى تتلى عليكم، فحذف المعطوف عليه، ثقةً، بقرينة الكلام، ﴿ فاستكبرتم ﴾ عن الإيمان بها، ﴿ وكنتم قوماً مجرمين ﴾ أى: قوماً عادتكم الإجرام.

﴿ وإذا قيل إنَّ وعدَ الله ﴾ أى: وكنتم إذا قيل لكم: إن وعد الله بالجزاء ﴿ حقٌّ والساعةُ لا ريبَ فيها ﴾ أى: فى وقوعها ﴿ قلتم ما ندرى ما الساعةُ ﴾ ؛ أىّ شىء هى الساعة، استهزاء بها، ﴿ إن نظنُ إلا ظناً ﴾، أصله: نظن ظناً، ومعناه: إثبات الظن، فحسب، فأدخل حرف النفى والاستثناء ليفيد إثبات الظن مع نفى ما سواه. وقال المبرد: أصله: إن نحن إلا نَظُن ظناً، وإنما أوّله؛ لأنه لا يصح التفريغ فى المصدر المؤكد، لعدم حصول الفائدة، إذ لا معنى لقولك: لا نضرب إلا ضرباً، وجوابه: إن المصدر نوعى لا مؤكد، أى: ظناً حقيراً ضعيفاً. وفى الآية اللف والنشر المعكوس(١). فقوله: ﴿قلتم ما ندرى ما الساعة﴾ راجع لقوله: ﴿والساعة لا ريب فيها﴾، وقوله: ﴿إن نظن إلا

---

(١) اللف والنشر: هو أن يُذكر متعدد ثم يذكر ما لكلٍ من أفراده، شائعاً من غير تعيين، اعتماداً على تصرف السامع فى رده إليه، وهو إما أن يكون النشر فيه على ترتيب اللف، نحو: ﴿ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله﴾، وإما أن يكون على خلاف ترتيبه، نحو ﴿فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلاً من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب.﴾
انظر التعريفات (٢٤٤) ومحيط المحيط (ص ٥٦١).

ظناً﴾ راجع لقوله: ﴿إن وعد الله حق﴾، وكذا قوله: ﴿وما نحن بمستيقنين﴾ أي: لا يقين عندنا، وهو راجع لقوله ﴿إن وعد الله حق﴾. قاله ابن عرفة. ولعل هؤلاء غير القائلين: ﴿ما هي إلا حياتنا الدنيا﴾. والله أعلم.

الإشارة: قل الله يُحييكم الحياةَ الفانية، ثم يُميتكم عن حظوظكم، وعن شهود وجودكم، ثم يجمعكم به إلى يوم القيامة، لا يعزلكم عن رؤيته أبداً، ولكن أكثر الناس لا يعلمون أن هذا يقع في الدنيا، مع أن المُلك لله يتصرف فيه كيف شاء، يُوصِّل مَن أراد، ويُبعد مَن شاء. ويوم تقوم الساعة يخسر الباطلون والمبطلون، ويفوز المجتهدون والواصلون. وترى كُلَّ أمة جاثية من هيبة المتجلي باسمه القهار، وهذه القهرية ـ نعم ـ لا ينجو منها خاص ولا عام؛ لأن الطبع البشري يثبت عند صدمات الجلال. وقوله تعالى: ﴿كل أمة تُدعى إلى كتابها﴾ هو أيضا عام، فيستبشر المجتهدون، ويحزن البطالون، ولا يظلم ربك أحداً، فاليوم يوم عمل، وغداً يوم جزاء، فأهل الإيقان يفوزون بغاية النعيم والرضوان، وأهل الشك يخلدون في الخسران، فيظهر لهم ما لم يكونوا يحتسبون، كما قال:

﴿ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (٣٣) وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ (٣٤) ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ۚ فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٣٥) فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٣٦) وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٣٧) ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿وبدا لهم﴾ أي: ظهر لهؤلاء الكفرة ﴿سيئاتُ ما عمِلوا﴾؛ قبائح أعمالهم على ما هي عليه من الصورة المنكرة الهائلة، وعاينوا وخامة عاقبتها، أو: جزاؤها، فإن جزاء السيئة سيئة مثلها، ﴿وحاق بهم ما كانوا به يستهزءون﴾ أي: نزل بهم جزاء استهزائهم من العقاب العظيم، ﴿وقيل اليومَ ننساكم﴾؛ نترككم ترك المنسي، ﴿كما نسيتم﴾ في الدنيا ﴿لقاءَ يومكم هذا﴾ أي: كما تركتم الاستعداد له، ولم تبالوا به. وإضافة اللقاء إلى اليوم إضافة المصدر إلى ظرفه، أي: لقاء الله في يومكم هذا، أو لقاء جزائه، ﴿ومأواكم النارُ﴾ أي: منزلكم، ﴿وما لكم من ناصرين﴾؛ لا أحد يمنعكم أو يخلصكم منها.

﴿ذلكم﴾ العذاب ﴿بأنكم﴾؛ بسبب أنكم ﴿اتخذتم آياتِ الله﴾ المنزّلة ﴿هُزواً﴾؛ مهزواً بها، ولم ترفعوا لها رأساً، ﴿وغرتكم الحياةُ الدنيا﴾؛ وألْهتكم زخارفُ الدنيا، فحسبتم ألاّ حياة بعدها، ﴿فاليومَ

لا يُخْرجون منها﴾ أي: من النار، والالتفات إلى الغيبة للإيذان بإسقاطهم عن رتبة الخطاب، استهانة بهم. وقرأ الأخَوان بالخطاب[1]. ﴿ولا هم يُستعتبون﴾ أي: لا يطلب منهم أن يعتبوا ربهم، أي: يرضوه بعمل صالح؛ لفوات إبانه، وإن طلبوا الرجوع لم يقبل منهم.

﴿فلله الحمدُ﴾ خاصة، ﴿ربِّ السموات وربِّ الأرض ربِّ العالمين﴾، فلا يستحق الحمد أحد سواه، أي: فاحمدوا الله الذي هو ربكم ورب كل شيء، فإن مثل هذه الربوبية العامة، توجب الحمد والثناء على كل مربوب، وتكرير الرب للتأكيد والإيذان بأن ربوبيته تعالى لكل منهما بطريق الأصالة. ﴿وله الكبرياءُ في السموات والأرض﴾ أي: وكبّروه، فقد ظهرت آثار كبريائه وعظمته في السموات والأرض، وإظهارهما في موضع الإضمار لتفخيم شأن الكبرياء، ﴿وهو العزيزُ﴾ الذي لا يُغلَب، ﴿الحكيم﴾ في كل ما قضى وقدّر، فاحمدوه وكبّروه، وأطيعوه، فصاحب هذه الصفات العظام مستحق لذلك.

الإشارة: وقيل اليوم ننساكم من شهود قُربى، كما نسيتم لقاء يومكم هذا، فلو ذكرتموني على الدوام لقربتكم على الدوام، ولو ذكرتموني على الانفراد لأشهدتكم ذاتي على التماد، ولكنكم اتخذتم آيات الله الدالة على وجودي من الكائنات، والدالة على شهودي من الأولياء، هزواً، وغرتكم الحياة الدنيا، فاليوم لا يخرجون من غم الحجاب، ولا يُمنعون من انسداله، ولا هم يرضون ربهم، فيرضى عنهم، فلله الحمد على غناه عن الكل، وله الكبرياء في السموات والأرض، أي: رداء الكبرياء منشور على أسرار ذاته في السموات والأرض، وهو ما ظهر من حسها، كما هو منشور على وجهه في جنة عدن، كما في الحديث.

وقال الورتجبي: نفى الحق الكبرياء عن الحدثان؛ لأنه هو المستحق للكبرياء، وكبرياؤه ظاهر في كل ذرة، من العرش إلى الثرى، إذ هي كلها مستغرقة مقهورة في أنوار كبريائه، يعز بعزه الأولياء، ويقهر بقهره الأعداء، حكيم في إبداع الخلق وإلزامهم عبوديته، التي هي شرائعه المحكمة بحكمه، وقال سهل رضي الله عنه: وله الكبرياء: العلو والقدرة والعظمة، والحول والقوة في جميع الملك، فمن اعتصم به أيّده بحَوْله وقوته، ومن اعتمد على نفسه وكله الله إليها. هـ. وبالله التوفيق، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

❁ ❁ ❁

(١) قرأ حمزة والكسائي: «لا تخرجون» بفتح الياء وضم الراء. وقرأ الآخرون بضم الياء وفتح الراء. انظر الإتحاف (٢/٤٦٨).

سُورَةُ الأَحْقَافِ

مكية: وقيل: إلا قوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَكَفَرْتُم به﴾(١) الآية، وقوله: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾(٢). وهي خمس وثلاثون آية. ومناسبتها لِمَا قبلها: قوله: ﴿ذَلِكُم بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا﴾(٣) أي: حيث قلتم: إن محمداً اختلقها، مع قوله: ﴿تنزيل الكتاب من الله﴾، فهي رد عليهم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعْرِضُونَ ۝٣﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿حمٓ﴾ ؛ يا محمد، أو: الوحي إلى محمد، ﴿تنزيلُ الكتاب من الله﴾ أي: هذا تنزيل القرآن، وهو من الله ﴿العزيزِ الحكيم﴾ ، فمن حفظه، وعرف ما فيه، وعمل بمضمنه كان عزيزاً على الله، حكيماً فيما يبدئ ويعيد. ﴿ما خلقنا السموات والأرض وما بينهما﴾ من المخلوقات ﴿إلا بالحق﴾ أي: إلا ملتبساً بالحق الذي تقتضيه الحكمة التكوينية والتشريعية، فالاستثناء مفرغ من أعم المفاعيل، أو من أعم الأحوال، أي: ما خلقناهما في حال من الأحوال إلا حال ملابستنا بالحق، وفيه من الدلالة على وجود الصانع، وصفات كماله، وابتناء أفعاله على حكمة بالغة، مالا يخفى، ﴿وأجلٍ مُسمىً﴾ تنتهي إليه، وهو يوم القيامة، يوم تُبدل الأرض غير الأرض والسموات. ﴿والذين كفروا عما أُنذروا﴾ به من هول ذلك اليوم، الذي لابُد لكل مخلوق من الانتهاء إليه، ﴿مُعرِضُون﴾ ؛ لا يؤمنون به، ولا يهتمون بالاستعداد له، ويجوز أن تكون «ما» مصدرية، أي: عن إنذارهم ذلك اليوم معرضون.

وحاصل افتتاح السورة: أنَ الوحي الخاص إلى محمد هو منزل من الله العزيز، الذي عزَّ عن الافتراء عليه، وأعزَّ بالوحي مَن تمسك به، الحكيم في تنزيله وحيه، مرشداً لعباده لِماَ فيه صلاحهم وهداهم، ومن حكمته: أنّ

(١) الآية ١٠ من السورة.
(٢) الآية الأخيرة.
(٣) من الآية ٣٥ من سورة الجاثية.

خلق السموات والأرض دالاً بذلك على توحيده، وكماله في أوصافه وتدابيره، المقتضية لترتب دار الجزاء على دار العمل، بحيث لا يُسَوَّى بين مبطل ومحق، فأرشد بخلق الأشياء إلى حكمته دلالة، ثم بإنزال الوحي بذلك قالة، ومع وضوح الأمر في دلالتهما أعرض الذين كفروا من غير دليل عقلي ولا نقلي متواتر ولا آحاد، على أنّ ماالقتضاه الوحي إلى محمد من التوحيد، والجزاء المرتب على الإخلاص له، والصدق في عبودية الله، والدعاء إلى محاسن الأخلاق، مما اجتمعت عليه الرسل قبله، فليس بمبدع مِن عنده. هـ. من الحاشية.

الإشارة: ﴿حمٓ﴾ يا حبيب ممجد، قد مجدناك بإنزال كتابنا، وعززناك برسالتنا، ما خلقنا الكائنات إلا ملتبسة بأسرار الحق، وأهل الغفلة معرضون عن هذا.

قال القشيري: حَمَيْتُ قلوبَ أهل عنايتي، فصرفتُ عنها خواطر التجويز، ورميتها في مشاهد اليقين بنور التحقيق، فيها شواهد برهانهم، أي: برهان العيان ـ فأضفنا إليها لطائف إحساننا، فكملت منالها من عين الوصلة، وغديناهم بنسيم الأنس في ساحات القربة. (العزيز) المعز للمؤمنين بإنزال الكتب، (الحكيم) لكتابه عن التبديل والتحويل. هـ. وخواطر التجويز هي خواطر الشك في المقدور، يجوز الوقوع وعدمه بسبب ضعف اليقين، فإذا انتفى عن القلب خواطر التجويز، دخله السكون والطمأنية، وارتاح في ظل برد الرضا والتسليم. والله تعالى أعلم.

ثم وبّخهم على الشرك بعد ظهور بطلانه، فقال:

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى
ٱلسَّمَـٰوَٰتِ ٱئْتُونِى بِكِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ هَـٰذَآ أَوْ أَثَـٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٤﴾
وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ
غَـٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَـٰفِرِينَ ﴿٦﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿قل﴾ يا محمد، توبيخاً وتبكيتاً لهم: ﴿أرأيتم﴾؛ أخبروني ﴿ما تَدْعون من دون الله﴾، ما تعبدون من الأصنام من دون الله، ﴿أروني ماذا خلقوا من الأرض﴾؛ أيّ شيء خَلَقوا في الأرض إن كانوا آلهة؟ ﴿أم لهم شِرْكٌ في السموات﴾ أي: أم لهم شركة مع الله في خلق السموات، حتى يتوهم

أن تكون لهم شائبة استحقاق للعبادة؟ فإنّ من لا مدخل له فى شيء من الأشياء، بوجه من الوجوه، بمعزل من ذلك الاستحقاق بأسره، وإن كان من الأحياء العقلاء، فما ظنك بالجماد؟ ﴿ ائتونى بكتاب من قبل هذا ﴾ أى: من قبل القرآن، يعنى: أن هذا الكتاب ناطق بالتوحيد، وإبطال الشرك، وما من كتاب أنزل من قَبله من كتب الله إلا وهو ناطق بمثل ذلك، فأتوا بكتاب واحد مُنزل من قبله، شاهد بصحة ما أنتم عليه من عبادة غير الله، ﴿ أو أثارةٍ من علم ﴾ ؛ أو بقيةٍ من علم بقيت عندكم من علوم الأقدمين، شاهدة باستحقاق الأصنام للعبادة، ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ فى أن الله أمركم بعبادة الأوثان، فإن الدعوى لا تصح مالم يقم عليها برهان عقلى، ولا سلطان نقلى، وحيث لم يقم عليها شيء، بل قامت على خلافها أدلةُ العقل والنقل تبين بطلانها.

﴿ ومَن أضلُّ ﴾ أى: لا أحد أشد ضلالاً ﴿ ممن يدعو من دون الله مَن لا يستجيبُ له إلى يوم القيامة ﴾، غاية لنفى الإجابة، ﴿ وهم عن دعائهم غافلون ﴾، لأنهم جمادات لا يسمعون.

﴿ وإذا حُشر الناسُ ﴾ عند قيام الساعة ﴿ كانوا لهم أعداءً ﴾ أى: الأصنام لعَبَدَتِهَا، ﴿ وكانوا ﴾ أى: الأصنام ﴿ بعبادتهم كافرين ﴾، جاحدين، يقولون: ما دعوناهم إلى عبادتنا، والحاصل: أنهم فى الدنيا لا ينفعونهم، وفى الآخرة يتبرءون منهم، ويكونون عليهم ضِداً، ولمَّا أُسند إليهم ما يُسند إلى العقلاء من الاستجابة والغفلة؛ عبَّر عنهم بـ «من» و«هم»، ووصفُهم بترك الاستجابة تهكماً بها وبعبدتِها. والله تعالى أعلم.

الإشارة: يقال لأهل الغفلة: أرأيتم ما تركنون إليه من الخلق، هل لهم قوة على نفعكم أوضركم؟ ﴿أرونى ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شِرك فى السموات...﴾ الآية. فلا أحد أضل ممن يرجو الضعيف مثله، الذى لا يستجيب له إلى يوم القيامة، وهو غافل عن إجابته فى الحال والمآل، وإذا أحبه على هوى الدنيا صارت يوم القيامة عدواة ومقتاً.

ثم ذكر كفرهم بالتنزيل المتقدم، فقال:

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٨﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله : ﴿ وإذا تتلى عليهم آياتُنا بينات ﴾ ، واضحات، أو: مبينات، جمع بيِّنة، وهى الحجة والشاهد، ﴿ قال الذين كفروا للحق ﴾ أى: لأجله وفى شأنه، والمراد بالحق: الآيات المتلوة، وبالذين كفروا: المتلوّ عليهم، فوضع الظاهر موضع الضمير للتسجيل عليهم بالكفر والمتلو بالحق، والأصل: قالوا فى شأن الآيات، التى هى حق ﴿ لـمَّا جاءهم ﴾ أى: بادهوا الحق بالجحود ساعة أتاهم، وأول ما سمعوه، من غير إجالة فكر ولا إعادة نظر: ﴿ هذا سحر مبين ﴾ ؛ ظاهر كونه سحر.

﴿ أم يقولون افتراه ﴾ ، إضراب وانتقال من حكاية شناعتهم السابقة ـ وهى تسميتهم الآيات سحراً، إلى حكاية ما هو أشنع منها، وهو كون الرسول ﷺ ﴿ افتراه ﴾ أى: اختلقه، وأضافه إلى الله كذباً، والضمير للحق، والمراد به الآيات. ﴿ قل إن افتريته فلا تملكون لي من الله شيئاً ﴾ أى: إن افتريته على سبيل الفرض لعاجلنى الله بعقوبة الافتراء، فلا تقدرون على كفه عن معاجلتى، ولا تملكون لى شيئاً مِن دفعه، فكيف أفتريه وأتعرض لعقابه الذى لا مناص منه؟! ﴿ هو أعلم بما تُفيضون فيه ﴾ من القدح فى وحى الله ـ تعالى ـ والطعن فى آياته، وتسميته سحراً تارة وفرية أخرى. ﴿ كفى به شهيداً بينى وبينكم ﴾ حيث يشهد لى بالصدق والبلاغ، وعليكم بالكذب والجحود، وهو وعيد بجزاء إفاضتهم، ﴿ وهو الغفورُ الرحيم ﴾ لمن تاب وآمن، وهو وعد لمن آمن بالمغفرة والرحمة، وترغيب فى الإسلام.

الإشارة: رمى أهل الخصوصية بالسحر عادةٌ مستمرة، وسُنّة ماضية، ولقد سمعنا هذا فينا وفى أشياخنا مراراً، فيقول أهل الخصوصية: إن افترينا على الله كذباً عاجلنا بالعقوبة، «فلا تملكون لنا من الله شيئاً...» الآية.

ثم أمر نبيه بالجواب عما رموه به، فقال:

﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله : ﴿ قل ما كنتُ بدْعاً ﴾ أى: بديعاً، كخف وخفيف، ونصب ونصيب، فالبدع والبديع من الأشياء: ما لم يتقدم مثله، أى: لستُ بأول مرسل فتنكر نبوتى، بل تقدمت الرسل قبلى، واقترِحتْ عليهم المعجزات، فلم يقدروا على الإتيان بشىء إلا ما أظهره الله على أيديهم، فى الوقت الذى يُريد. قيل: كانت

قريش تقترح على رسول الله ﷺ آيات تظهر لهم، ويسألونه عن الغيبيات، عناداً ومكابرة، فأُمر ﷺ بأن يقول لهم: ما كنت بِدعاً من الرسل، قادراً على مالم يقدروا عليه، حتى آتيكم بكل ما تقترحونه، وأخبركم بكل ما تسألون عنه من الغيوب، فإنّ مَن قبلي من الرسل ـ عليهم السلام ـ ما كانوا يأتون إلا بما آتاهم الله ـ تعالى ـ من الآيات، ولا يُخبرون إلا بما أوحى إليهم، ﴿ وما أدرى ما يُفعل بي ولا بكم ﴾ أى: لا أدرى ما يُصيبنا فيما يستقبل من الزمان من أفعاله تعالى، وماذا يبرز لنا من قضاياه. وعن الحسن: ما أدرى ما يصير إليه أمرى وأمركم فى الدنيا. وعن ابن عباس رضي الله عنه: ما يُفعل بى ولا بكم فى الآخرة.

وقال: إنه منسوخ بقوله: ﴿ لِيَغفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾.[1] قال شيخ شيوخنا الفاسى: وهو بعيد، ولا يصح النسخ؛ لأنه لا يكون فى الأخبار، ولأنه لم يزل يعلم أن المؤمن فى الجنة، والكافر فى النار، من أول ما بعثه الله، لكن محمل قول ابن عباس وغيره على أنه لم تكشف له الخاتمة، فقال: لا أدرى، وأما مَن وافى على الإيمان، فقد أعلمَ بنجاته من أول الرسالة، وإلا فكان للكفار أن يقولوا: وكيف تدعونا إلى ما لاتدرى له عاقبة؟ قاله ابن عطية. هـ. وقال أبو السعود: والأوفق بما ذكر من سبب النزول: أن «ما» عبارة عما عِلْمُه ليس من وظائف النبوة، من الحوادث الواقعات الدنيوية، دون ما سيقع فى الآخرة، فإنّ العلم بذلك من وظائف النبوة، وقد ورد به الوحى، الناطق بتفاصيل الفعل بالجانبين. هذا، وقد رُوى عن الكلبى: «أن أصحاب النبى ﷺ قالوا له ﷺ وقد ضجروا من إذاية المشركين: متى نكون على هذا؟ فقال: ﴿ ما أدرى ما يُفعل بي ولا بكم ﴾ أأترَكُ بمكة أو أومر بالخروج إلى أرض ذات نخيل وشجر، قد رفعتْ إلىّ ورأيتها. هـ[2]. وسيأتى فى الإشارة تحقيق المسألة ـ إن شاء الله تعالى.

ثم قال: ﴿ إن أتبعُ إلا ما يُوحَى إلىَّ ﴾ أى: ما أفعل إلا الاتباع، على معنى: قصر أفعاله ﷺ على اتباع الوحى، لاقصر اتباعه على الوحى، كما هو المتبادر، وهو جواب عن اقتراحهم الإخبار بالغيوب، أو عن استعجال المسلمين أن يتخلصوا من إذاية المشركين، والأول هو الأوفق بقوله: ﴿ وما أنا إلا نذير مبين ﴾ أُنذركم عقاب الله ـ تعالى ـ حسبما يُوحى إلىّ من الإنذار بالمعجزات الباهرة.

---

(١) الآية الثانية من سورة الفتح.

(٢) ذكر الواحدى فى أسباب النزول (ص ٣٩٥) عن الكلبى، عن أبى صالح، عن سيدنا ابن عباس: لما اشتد البلاء بأصحاب رسول الله ﷺ، رأى فى المنام أنه يهاجر إلى أرض ذات نخل وشجر وماء، فقصّها على أصحابه، فاستبشروا بذلك، ورأوا فيها فرجاً مما هم فيه من أذى المشركين، ثم إنهم مكثوا برهة لايرون ذلك، فقالوا: يارسول الله! متى تهاجر إلى الأرض التى رأيت؟ فسكت النبى ﷺ فأنزل الله تعالى: ﴿وما أدرى ما يفعل بى ولابكم﴾.

ومعلوم أن الكلبى لم يسمع من أبى صالح، وأبا صالح لم يسمع ابن عباس رضي الله عنه.

﴿ قل أرأيتم إن كان ﴾ ما يوحى إليّ من القرآن ﴿ مِن عند الله ﴾ لا بسحر ولا مفترى، كما تزعمون ﴿ و ﴾ قد ﴿ كفرتم به، وشَهِد شاهدٌ ﴾ عظيم ﴿ من بني إسرائيل ﴾ الواقفين على شئون الله وأسرار الوحى، بما أُتوا من التوراة. والشاهد: عبد الله بن سلام، عند الجمهور، ولهذا قيل: إن الآية مدنية، لأن إسلام «عبد الله بن سلام» بالمدينة. قلت: لمّا علِمَ اللهُ ما يكون من ابن سلام من الإسلام أخبر به قبل وقوعه، وجعل شهادته المستقبلة كالواقعة، فالآية مكية.

وقوله: ﴿ على مثله ﴾ أى: مثل القرآن من المعانى المنطوية فى التوراة، المطابقة لما فى القرآن من الوعد والوعيد وغير ذلك، فإنّ ما فيه عين ما فيها فى الحقيقة، كا يُعرب عنه قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الأَوَّلِينَ ﴾[1] والمثلية باعتبار كونه من عند الله. وقيل: المثل: صلة.

﴿ فآمَنَ ﴾ ذلك الشاهد لَمّا تحققَ برسالته. رُوى أنه لما قَدِمَ رسولُ الله ﷺ نظر إلى وجهه، فعلم أنه ليس بوجه كذاب، وقال له: إنى سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبىّ: ما أول أشراط الساعه؟ وما أول طعام يأكله أهل الجنة؟ وما بالُ الولد ينزع إلى أبيه أو إلى أمه؟ فقال رسول الله ﷺ: «أما أول أشراط الساعة؛ فنارٌ تحشُرُ الناسَ من المشرق إلى المغرب، وأول طعام يأكله أهل الجنة؛ فزيادة كبد الحوت، وأما الولد؛ فإذا سبقَ ماءُ الرجل نزعه، وإن سبق ماء المرأة نزعته، فقال: أشهد أنك رسول الله حقاً، فأسلم [2].

﴿ واستكبرتم ﴾ عن الإيمان به، وجواب الشرط محذوف، والمعنى: أخبرونى إن كان من عند الله، وشهد بذلك أعلم بنى إسرائيل، فآمن به من غير تلعثم، واستكبرتم عن الإيمان به بعد هذه البينة، فمن أضل منكم؟ بدليل قوله تعالى: ﴿ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِ مَنْ أَضَلُّ... ﴾ الآية [3] أو: إن كان القرآن من عند الله وكفرتم به ألستم ظالمين؟ ويدل عليه قوله: ﴿ إن الله لا يهدي القوم الظالمين ﴾، والتقديران صحيحان، لأن عدم الهداية مستلزم الضلال، ووصفهم بالظلم للإشعار بعلة الحكم، فإن تركه ـ تعالى ـ لهدايتهم إنما هو لظلمهم. وقال الواحدى: معنى: ﴿ إنّ الله لا يهدى القوم الظالمين ﴾: إن الله جعل جزاء المعاندين للإيمان بعد الوضوح والبيان أن يمدهم فى ضلالتهم، ويحرمهم الهداية. هـ.

---

(١) الآية ١٩٦ من سورة الشعراء

(٢) أخرجه البخارى فى (تفسير سورة البقرة، «باب من كان عدواً لجبريل» ح ٤٤٨٠) مطولاً، عن أنس ﷺ، وكذا أخرجه أحمد فى المسند (١٠٨/٣) والبيهقى فى الدلائل (٥٢٨/٢ ـ ٥٢٩).

(٣) الآية ٥٢ من سورة فصلت

الإشارة: قل ما كنت بِدعاً من الرسل، وكذلك الوليّ يقول: ما كنت بِدعاً من الأولياء، مع العصمة والحفظ وصريح الوعد بالنجاة، لا تساع معرفتهم وعلمهم بالله؛ لأنهم لا يقفون مع وعد ولا وعيد؛ لأن غيب المشيئة لا يعلم حقيقته إلا الله، وقد يكون الوعد معلقاً بشروط أخفاها الله عنهم، ليتحقق اختصاصه بحقيقة العلم، وفي الحديث: «لا تأمن مكرى وإن أمّنتك»، ولذلك كان العارف لا يزول اضطراره، ولا يكون مع غير الله قراره، وعلى ذلك الششترى فى نونيته، حيث قال:

وأى وِصالٍ فى القَضيَّةِ يُدَّعى　　　　وأكملُ مَن الخَلْقِ لم يدّعِ الأمْنا؟

هذا، وقد قال تعالى فى حق رسوله ﷺ: ﴿ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴾[1] وقال: ﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾[2]، ومع ذلك كله لم يقف مع ظاهر الوعد، لغيب المشيئة، فقال فى حديث ابن مظعون: «والله لا أدرى ـ وأنا رسول ـ ما يُفعل بى»، وحديث ابن مظعون بالمدينة بعد الهجرة[3]، فتبيّن أنّ الأمن الحقيقى لا يحصل لأحد قبل الختام، وإن كان الغالب والطرف الراجح أن من وُعد بخيرٍ أو بُشّر به يُنْجَز له بفضل الله وكرمه، والكريم إذا وعد لا يُخلف، لكن المشيئة وقهرية الربوبية لا تزال فوق رأس العبد حتى يلقاه. والله تعالى أعلم.

قال القشيرى: وفى الآية دليل على فساد قول أهل البدع، حيث لم يجوزوا إيلام البرىء عقلاً؛ لأنه لو لم يَجُزْ ذلك لكان يقول: أعلَمُ قطعاً أنى معصومٌ، فلا محالةَ يغفر لى، ولكنه قال هذا ليُعلم أن الأمر أمرُه، والحكم حكمُه، له أن يفعلَ بعباده ما يريد. هـ.

وقال الورتجبى: لا أدرى أين استغرق فى بحار وصال جماله الأبدى، وهناك لججات تغيب فى ذرة منها جميعُ الأرواح العاشقة، والأسرار الوالهة، والقلوب الحائرة. هـ. والحاصل: أنه لايدرى نهاية مناله من الله، لنفى الغاية فى حقه تعالى والنهاية، وهو صريح استبعاد الششترى دعوى الوصال، والله أعلم. هـ من الحاشية.

---

(١) الآيتان: ٤ ـ ٥ سورة الضحى

(٢) الآية الثانية من سورة الفتح.

(٣) حديث عثمان بن مظعون ـ رضي الله عنه ـ أخرجه البخارى فى (الجنائز، باب الدخول على الميت بعد الموت إذا أدرج في أكفانه، ح ١٢٤٣) ولفظه: عن خارجة بن زيد بن ثابت: أن أم العلاء ـ امرأة من الأنصار، بايعت النبي ﷺ ـ أخبرته أنه اقتسم المهاجرون قُرعةً فطار لنا عثمانِ بن مظعون فأنزلناه فى أبياتنا، فوجع وجعه الذى توفى فيه، فلما توفى وغُسّل، وكُفن فى أثوابه، دخل رسول الله ﷺ، فقلت: رحمة الله عليك أبا السائب، فشهادتى عليك لقد أكرمك الله، فقال النبى ﷺ: «وما يدريك أن الله قد أكرمه؟» فقلت: بأبى أنت يا رسول الله، فمن يكرمه الله؟ فقال: «أما هو فقد جاءه اليقين، والله إنى لأرجو له الخير، والله ما أدرى، وأنا رسول الله، ما يفعل بى»، فوالله لا أزكى أحداً بعده أبداً.

ثم حكى مقالة أخرى للكفار من مقالاتهم الباطلة، فقال:

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَٰذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وقال الذين كفروا للذين آمنوا ﴾ أي: لأجلهم، وهو كلام كفار مكة، قالوا: إنّ عامة من يتبع محمد السُّقاط، يعنون الفقراء، كعمار وصهيب وبلال وابن مسعود ـ رضى الله عنهم ـ قالوا: ﴿ لو كان ﴾ ما جاء به محمد من القرآن والدين ﴿ خيراً ما سبقونا إليه ﴾، فإن معالى الأمور لا تنالها أيدى الأراذل، فإنّ عامتهم فقراء وموالٍ ورُعاة، قالوه زعماً منهم أن الرئاسة الدينية مما تُنال بأسباب دنيوية، كما قالوا: ﴿ لَوْلا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ (١)، وضلّ عنهم أنها منوطة بكمالات نفسانية، وملكات روحانية، مبناها: الإعراض عن زخارف الدنيا، والإقبال على الله بالكلية، وأنّ من فاز بها حازها بحذافيرها، ومن حرمها فما له عند الله من خلاق. والحاصل: أن هذه المقالة سببها الرضا عن النفس، وهو أصل كل معصية وغفلة. ثم قال تعالى: ﴿ وإذ لم يهتدوا به ﴾، العامل فى الظرف محذوف؛ لدلالة الكلام عليه، أى: وإذ لم يهتدوا به ظهر عنادهم، وقالوا ما قالوا. ﴿ فسيقولون ﴾ غير مكتفين بنفى خيريته: ﴿ هذا إفك قديم ﴾ أى: كذب متقادم، كقوله: ﴿ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾(٢).

وقال القشيرى: إنه تكذيب للرسل فيما بُيِّن لهم، فيما أُنزل عليهم من بعثة محمد رسولاً، يعنى: فيكون كقوله تعالى: ﴿ إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ ﴾(٣). وقيل لابن عباس: أين نجد فى القرآن «من كره شيئاً عاداه»، فقرأ هذه الآية: ﴿وإذ لم يهتدوا..﴾ الخ.

﴿ ومن قبله ﴾ أى: من قبل القرآن ﴿ كتابُ موسى ﴾ أى: التوراة، فكتاب: مبتدأ، و«من قبله»: خبر، والاستقرار هو العامل فى قوله: ﴿ إماماً ورحمةً ﴾ على أنهما حالان من الكتاب، أى: قدوة يُؤتم به فى دين الله

(١) من الآية ٣١ من سورة الزخرف.
(٢) من الآية ٢٥ من سورة الأنعام.
(٣) من الآية ٤٨ من سورة القصص، وكذا من الآية ٣٠ من سورة الزخرف.

وشرائعه، ورحمة من الله ـ تعالى ـ لمن آمن به. ﴿ وهذا ﴾ القرآن، الذي يقولون في حقه ما يقولون، هو ﴿ كتاب ﴾ عظيم الشأن ﴿ مُصدِّق ﴾ لكتاب موسى، الذي هو إماماً ورحمة، أو: لما بين يديه من جميع الكتب الإلهية. قال ابن عرفة: وجه مناسبتها لما قبلها: أنه لما تضمن قوله: ﴿فسيقولون هذا إفك قديم﴾ تقبيحهم إياه بأنه إما كذب في نفسه، أو شبيه بما قبله من الأكاذيب والافتراءات، عقبه ببيان أنه إما صدق في نفسه، أو شبيه بما قبله من الكتب الصادقة. هـ.

حال كون الكتاب ﴿ لساناً عربياً ليُنذر الذين ظلموا ﴾: متعلق بمُصَدِّق، أو بأنزل، محذوفاً، وفيه ضمير الكتاب، أو: الله ـ تعالى، أو: الرسول ﷺ، ويؤيده: قراءة الخطاب[1]، ﴿ وبُشرى للمحسنين ﴾ في حيز النصب، عطف على محل «ليُنذر»؛ لأنه مفعول له، أي: للإنذار والبشرى، أو: وهو بشرى للمحسنين، للمؤمنين المطيعين.

الإشارة: قال في الحِكَم: «أصل كل معصية وغفلة وشهوة: الرضا عن النفس، وأصل كل طاعة ويقظة وعفة: عدم الرضا منك عنها، ولأن تصحب جاهلاً لايرضى عن نفسه، خير من أن تصحب عالماً يرضى عن نفسه، فأيّ علم لعالم يرضى عن نفسه؟ وأيّ جهل لجاهل لا يرضى عن نفسه؟»[2]، وعلامة الرضا عن النفس: تغطية مساوئها، وإظهار محاسنها، كما قال الشاعر:

وَعَيْنُ الرِضاَ عَن كُلِّ عَيْبٍ كَلِيلَةٌ وَلَكِن عَينَ السخطِ تُبدي المساويا

وإذا نقصها له أحدٌ انتقم منه وغضب، وإذا مدحها له فَرِحَ واستبشر، ويرى أنه أهل لكل خيرٍ، وأولى من غيره، فيقول إذا رأى مَن حاز خيراً أو رئاسة، كما قال الكفار: لو كان خيراً ما سبقونا إليه، وعلامة عدم الرضا عنها: إظهار مساوئها، واتهامها في كل حال.

وقال أبو حفص الحداد: من لم يتهم نفسه على دوام الأوقات، ولم يخالفها في جميع الأحوال، ولم يجرها إلى مكروهها في سائر أيامه، كان مغروراً، ومن نظر إلى نفسه باستحسان شيء منها فقد أهلكها، وكيف يصح لعاقل الرضا عن نفسه؟! والكريم ابن الكريم ابن الكريم يقول: ﴿ وَمَا أُبَرِئُ نَفْسِي ﴾[3] هـ.

(١) قرأ «لتنذر» بالخطاب، نافع، وابن عامر، وأبو جعفر بخلفه، ويعقوب، وقرأ الباقون بالغيب. انظر الإتحاف (٢/٤٦٩ ـ ٤٧٠).
(٢) حكمة رقم/ ٣٥، انظر تبويب الحكم ص/١٧.
(٣) من الآية ٣٥ من سورة يوسف.

فإذا لم يرض عن نفسه، وهذبها، استقامت أحواله، وكان من المحسنين، الذين قال الله ـ تعالى ـ في شأنهم:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾
أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿إن الذين قالوا ربُّنا الله ثم استقاموا﴾ أي: جمعوا بين التوحيد، الذي هو خاصة العلم، والاستقامة في الظاهر، التي هي منتهى العمل، ﴿فلا خوفٌ عليهم﴾ من لحوق مكروه، ﴿ولا هم يحزنون﴾ على فوات مرغوب، و«ثم» للدلالة على تراخي رتبة العمل، وتوقف الاعتداد به على التوحيد. ودخلت الفاء لتضمن الموصول معنى الشرط، والتعبير بالمضارع للدلالة على دوام نفي الحزن عنهم، ﴿أولئك﴾ الموصوفون بما ذكر من الاسمين الجليلين، ﴿أصحابُ الجنة خالدين فيها﴾: حال من أصحاب الجنة، والعامل: معنى الإشارة، ﴿جزاء بما كانوا يعملون﴾ من الأعمال الصالحة، و«جزاء» مصدر لمحذوف، أي: جوزوا جزاء، أو بمعنى ما تقدم، فإن قوله: ﴿أولئك أصحاب الجنة﴾ في معنى: جزيناهم.

الإشارة: مضى تفسير الاستقامة، وأنَّ من درج على الإيمان والاستقامة حظي بكل كرامة، ووصل إلى جزيل السلامة، وقيل: السين في الاستقامة سين الطلب، وأنَّ المستقيم يتوسل إلى الله ـ تعالى ـ في أن يقيمه على الحق، ويثبته على الصدق. هـ.

قال الورتجبي: ما قال القوم هذا القول ـ أي: «ربنا الله» ـ حتى شاهدوه بقلوبهم، وعقولهم، وأرواحهم، وأسرارهم، مشاهدة الحق سبحانه، فإذا رأوه يقولون: هذا الهلال، وصاحوا، وضحكوا، فهذا القول منهم بعد كشف مشاهده الحق لهم، فلما رأوه أحبوه وعرفوه، وشربوا من بحار وصالة، حتى تمكنوا، فاستقاموا بقوتها في موازاة رؤية أنوار الأزل والآباد، واستقاموا في مراد الله منهم، وأداء حقوق عبوديته، فلا يبقى عليهم خوف الحجاب، ولا حزن العتاب، قال الله تعالى: ﴿فلا خوف عليهم ولاهم يحزنون﴾. هـ.

ثم وصّى بالربوبية الصغرى بعد الكبرى، فقال:

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُۥ
وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ

نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى
ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟
وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ووصينا الإنسانَ ﴾ بأن يُحسن ﴿ بوالديه حُسناً ﴾[1] وقرأ أهل الكوفة «إحسانا» وهما مصدران، وقرىء: «حَسَنَاً» بفتح الحاء والسين، أي: يفعل بهما فعلاً حَسَنَاً، أو: وصينا إيصاء حَسَناً. ﴿ حملته أمه كُرْهاً ووضعته كُرهاً ﴾ أي: حملته بكُرْهٍ ومشقة، ووضعته كذلك، وذكره للحث على الإحسان والبرور بها، فإن الإحسان إليها أوجب، وأحق من الأب. ونصبهما على الحال، أي: حملته كارهة، أو: ذات كُره، وفيه لغتان؛ الفتح والضم، وقيل: بالفتح مصدر، وبالضم اسم. ﴿ وحَمْلُه وفِصَالُه ﴾ أي: ومدةُ حمله وفصاله، وهو الفطام. وقرأ يعقوبُ: «وفصله» وهما لغتان كالفَطْم والفطام، ﴿ ثلاثون شهراً ﴾؛ لأن في هذه المدة عُظْم مشقة التربية، وفيه دليل على أن أقل مدة ستةُ أشهر؛ لأنه إذ حُط منه للفطام حولان، لقوله تعالى: ﴿حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ [2] يبقى للحمل ستة، قيل: ولعل تعيين أقل مدة الحمل، وأكثر مدة الرضاع لانضباطهما، وارتباطِ النسب والرضاع بهما.

﴿ حتى إذا بلغ أشُدَّه ﴾ أي: اكتهل، واستحكم عقله وقوته، وانتهت قامته وشبابه، وهي ما بين ثماني عشرة سنة إلى أربعين، وقال زيد بن أسلم: الحلم، وقال قتادة: ستة وثلاثون سنة، وهو الراجح، وقال الحسن: قيام الحجة عليه. ﴿ وبلغ أربعينَ سنة ﴾، وهو نهاية الأشدّ، وتمام العقل، وكمال الاستواء.

قيل: لم يُبعث نبيّ إلا بعد الأربعين، قال ابن عطية: وإنما ذكر ـ تعالى ـ الأربعين، لأنها حدّ الإنسان في فلاحه ونجاته، وفي الحديث. «إن الشيطان يمدّ يده على وجه من زاد على الأربعين ولم يتب، فيقول: بأبي وَجْهٌ لا يُفلح»[3]. هـ . ومن حديث أنس قال ﷺ: «من بلغ أربعين سنة أمّنه الله من البلايا الثلاث؛ الجنون والجذام

(١) أثبت المفسر ـ رحمه الله ـ قراءة «حُسناً» بضم الحاء وسكون السين، بلا همز ولا ألف، مفعولاً به، وهي قراءة ابن كثير، ونافع، وأبي عمرو، وابن عامر. وقرأ عاصم وحمزة والكسائي وخلف «إحسانا» على أنها مصدر. انظر السبعة / ٥٩٦ والإتحاف ٢/ ٤٧٠.

(٢) من الآية ٢٣٣ من سورة البقرة.

(٣) ذكره ابن عطية، (٣٤٨/١٣) وأبو حيان في البحر المحيط (٦١/٨) بلفظ: «ان الشيطان يجر يده ...». ولم أقف على هذا الحديث عند غيرهما.

والبرص، فإذا بلغ الخمسين خفف الله عنه الحساب، فإذا بلغ ستين سنة رزقه الله الإنابة كما يُحب، فإذا بلغ سبعين سنة؛ غفر الله ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وشفع فى أهل بيته، وناداه مناد من السماء: هذا أسير الله فى أرضه». وهذا فى العبد المقبل على الله. والله تعالى أعلم. وقُرئ: «حتى إذا استوى وبلغ أشُدَّه».

﴿ قال ربِّ أوزعني ﴾ أى: ألهمنى ﴿ أن أشكر نعمتك التي أنعمتَ عليَّ ﴾ من الهداية والتوحيد، والاستقامة على الدين، ﴿ وعلى والديَّ ﴾ كذلك، وجمع بين شكر النعمة عليه وعلى والديه؛ لأن النعمة عليهما نعمةٌ عليه، ﴿ وأنْ أعمل صالحًا ترضاه ﴾، التنكير للتفخيم والتكثير، قيل: هو الصلوات الخمس، والعموم أحسن، ﴿ وأَصْلِحْ لي في ذُريتي ﴾ أى: واجعل الصلاح سارياً فى ذريتى راسخاً فيهم، أو: اجعل ذريتى موقعاً للصلاح دائماً فيهم، ﴿ إني تُبتُ إليك ﴾ من كل ذنب، ﴿ وإني من المسلمين ﴾ الذين أخلصوا لك أنفسهم، وانقادوا إليك بكليتهم.

قال عليّ رضي الله عنه: نزلت فى أبى بكر ـ رضي الله عنه، ولم تجتمع لأحد من أصحاب النبى ﷺ من المهاجرين مَن أسلم أبواه غيره، وأوصاه الله بهما. هـ. فاجتمع لأبى بكر إسلام أبى قحافة وأمه «أم الخير» وأولاده، عبدالرحمن، وابنه عتيق، فاستجاب الله دعاءه فى نفسه وفى ذريته، فإنه آمن بالنبى ﷺ وهو ابن ثمان وثلاثين سنة، ودعا لهم وهو ابن أربعين سنة. قال ابن عباس: أعتق أبو بكر تسعة من المؤمنين، منهم: بلال، وعامر بن فهيرة، ولم يُرد شيئاً من الخير إلا أعانه الله عليه. (٢) هـ.

قال ابن عطية: معنى الآية: هكذا ينبغى للإنسان أن يكون، فهى وصية الله ـ تعالى ـ للإنسان فى كل الشرائع، وقول من قال: إنها فى أبى بكر وأبويه ضعيف، لأن هذه نزلت فى مكة بلا خلاف، وأبو قُحافة أسلم يوم الفتح. هـ. قلت: كثيراً ما يقع فى التنزيل تنزيل المستقبل منزلة الماضى، فيُخبر عنه كأنه واقع، ومنه: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ (٣) و ﴿وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ﴾ (٤)، وهذه الآية فى إسلام أبى قحافة. والله تعالى أعلم.

﴿ أولئك الذين يتقبل عنهم أحسن ما عملوا ﴾ (٥) من الطاعات، فإن المباح لا يُثاب عليه إلا بنية صالحة، فإنه يتَقلب حينئذ طاعة، وضمّن «يتقبل» معنى يتجاوز، فعدّاه بعَن؛ إذ لا عملَ يستوجبُ القبول، لولا عفوُ

---

(١) ذكره القرطبى (٧/٦٢٠١).
(٢) انظر تفسير البغوى (٧/٢٥٨) وزاد المسير (٧/٣٧٨).
(٣) الآية ١٠ من سورة الأحقاف.
(٤) الآيتان ٦ ـ ٧ من سورة فصلت.
(٥) قرأة حمزة والكسائى وحفص (نتقبل، ونتجاوز) بالنون المفتوحة و«أحسن» بالنصب، وقرأ الباقون (يتقبل ـ يتجاوز) بالياء المضمومة، ورفع «أحسن».. انظر الإتحاف (٢/٤٧١).

الله وتجاوزه عن عامله، إذ لا يخلو عمل من خلل أو نقص، فإذا تجاوز الحق عن عبده قَبِلَه منه على نقصه، فلولا حلمه ـ تعالى ـ ورأفته ما كان عملٌ أهلاً للقبول. ﴿ ويتجاوز عن سيئاتهم ﴾ فيغفرها لهم، ﴿ في ﴾ جملة ﴿ أصحاب الجنة ﴾، كقولك: أكرمني الأمير في ناس من أصحابه، أي: أكرمني في جملة مَن أكرمهم، ونظمني في سِلكهم، ومحله: نصب على الحال، أي: كائنين في أصحاب الجنة، ومعدودين فيهم، ﴿ وَعْدَ الصِّدق ﴾ أي: وعدهم وعداً صدقاً، فهو مصدر مؤكد، لأن قوله: ﴿يتقبل ويتجاوز﴾ وعد من الله ـ تعالى لهم بالتقبل والتجاوز، ﴿ الذي كانوا يُوعدون ﴾ في الدنيا على ألسنة الرسل ـ عليهم السلام.

الإشارة: لمَّا كانت تربية الأبوين مَظهراً لنعمة الإمداد بعد ظهور نعمة الإيجاد، وصىّ الله ـ تعالى ـ بالإحسان إليهما، وفي الحقيقة: ما ثمّ إلا تربيةُ الحق، ظهرت في تجلي الوالدين، قذف الرأفة في قلوبهما، حتى قاما بتربية الولد، فالإحسان إليها إحسان إلى الله ـ تعالى ـ في الحقيقة. وقال الورتجبي: وصى الإنسان بالإحسان إلى أبويه، لأنهما أسباب وجوده، ومصادر أفعال الحق بدَا منهما بدائعُ قدرته، وأنوارُ ربوبيته، فحُرمتهما حرمة الأصل، ومن صبرَ في طاعتهما رزقه الله حُسنَ المعاشرة على بساط حُرمته وقُربته.

قال بعضهم: أوصى اللهُ العوام ببر الوالدين لِما لهما عليه من نعمة التربية والحفظ، فمن حفظ وصية الله في الأبوين، وفقه بركةُ ذلك، لحفظِ حرمات الله، وكذلك رعايةُ الأوامر والمحافظةُ عليها تُوصل بركتُها بصاحبها إلى محل الرضا والأنس. هـ.

قال القشيري: وشر خصال الولد: التبرم بطول حياتهما، والتأذي بما يجب من حقهما، وعن قريب يموت الأصل، وقد يبقى النسل، ولابد أن يتبعَ الأصل. هـ . أي: فيعق إن عق أصله، ويبر إن بر، وفي الحديث: «بِرُّوا آباءَكُم تبَرُّكمْ أبناؤكم» [(١)]. ثم قال : ولقد قالوا في هذا المعنى وأنشدوا:

رُوَيْدَكَ إنّ الدَّهْرَ فيه كفاية		لِتفْرِيق ذاتَ البَيْنِ فارتقِبِ الدَّهرا (٢) . هـ.

قلت: وقد تقدم أن حُرمة الشيخ أوكد من حرمة الوالدين، فيُقدم أمره على أمرهما، كما تقدم عن الجنيد في سورة النساء[(٣)]. والله تعالى أعلم.

---

(١) رواه الطبراني في الأوسط (ح/١٠٠٢) من حديث ابن عمر رضي الله عنه. قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٣٨/٨): ورجاله رجال الصحيح غير شيخ الطبراني.

(٢) منسوب إلى أبي علي الثقفي، كما في طبقات السلمي/ ٣٦٤ وطبقات الشافعية الكبرى (١٩٥/٣)، ونسب إلى عبيد الله بن عبدالله طاهر، في زهر الآداب (٦٠٤/٢) وأمالي المرتضى (١١٩/١).

(٣) راجع إشارة الآية ٣٦ من سورة النساء.

ثم ذكر وبال عقوقهما، فقال:

﴿ وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴿١٨﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾ ﴾

قلت: ﴿والذى قال﴾: مبتدأ، وخبره: ﴿أولئك الذين حقّ عليهم القول﴾، والمراد بـ «الذى قال» الجنس، ولذلك جمع الخبر.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ والذي قال لوالديه ﴾ عند دعوتهما إلى الإيمان: ﴿ أُفٍّ لكما ﴾، وهو صوت يصدر عن المرء عند تضجره وقَنَطه، واللام لبيان المؤفف، كما فى «هيتَ لكَ» وفيه أربعون لغة، مبسوطة فى محلها، أى: هذا التأفيف لكما خاصة، أو لأجلكما دون غيركما.

وعن الحسن: نزلت فى الكافر العاقّ لوالديه، المكذّب بالبعث، وقيل: نزلت فى عبد الرحمن بن أبى بكر رضي الله عنه، قبل إسلامه. وأنكرت عائشة ـ رضى الله عنها ـ ذلك، وقالت: والله ما نزل فى آل أبى بكر شيئاً من القرآن، سوى براءتى[1]، ويُبطل ذلك[2] قطعاً: قوله تعالى: ﴿أولئك الذين حق عليهم القول﴾، لأنّ عبد الرحمن بن أبى بكر أسلم، وكان من فضلاء الصحابة، وحضر فتوحَ الشام، وكان له هناك غناء عظيم، وكان يسرد الصيامَ. قال السدى: ما رأيت أعبد منه. هـ. وقال ابن عباس: نزلت فى ابنٍ لأبى بكر، ولم يسمه، ويرده ما تقدم عن عائشة، ويدل على العموم: قوله تعالى: ﴿أولئك الذين حقّ عليهم القول﴾، ولو أراد واحداً لقال: حق عليه القول.

ثم قال لهما: ﴿ أَتَعدانِنى أن أُخْرَجَ ﴾ أى: أُبعث وأُخرج من الأرض، ﴿ وقد خَلَت القرونُ من قبلى ﴾ ولم يُبعث أحد منهم، ﴿ وهما يستغيثانِ اللهَ ﴾، يسألانه أن يُغيثه ويُوفقه للإيمان، أو يقولان: الغياث بالله منك، ومن قولك، وهو استعظام لقوله، ويقولان له: ﴿ ويْلَكَ ﴾ دعاء عليه بالثبور والهلاك، والمراد به: الحث والتحريضُ

(١) أخرجه بنحوه البخارى فى (التفسير ـ سورة الأحقاف، باب ﴿والذى قال لوالديه أف لكما..﴾ ح ٤٨٢٧).

(٢) أى: القول بأن الآية نزلت فى سيدنا عبد الرحمن بن أبى بكر رضي الله عنه.

على الإيمان، لاحقيقة الهلاك، ﴿آمِنْ﴾ بالله وبالبعث ﴿إنَّ وعدَ الله﴾ بالبعث والحساب ﴿حَقٌّ﴾ لا مرية فيه، وأضاف الوعد إليه ـ تعالى ـ تحقيقًا للحق، وتنبيهاً على خطئه، ﴿فيقول﴾ مكذباً لهما: ﴿ما هذا﴾ الذى تسميانه وعْد الله ﴿إلا أساطيرُ الأولينَ﴾، أباطيلهم التى سطروها فى كتبهم، من غير أن يكون له حقيقة.

﴿أولئك الذين حقَّ عليهم القولُ﴾، وهو قوله تعالى لإبليس: ﴿لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (١) كما يُنبئ عنه قوله تعالى ـ : ﴿في أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس﴾ أى: فى جملة أمم قد مضت، ﴿إنهم كانوا خاسرين﴾ حيث ضيّعوا فطرتهم الأصلية، الجارية مجرى رؤوس أموالهم، باتباعهم الشيطان، وتقليداً بآبائهم الضالين.

﴿ولِكلٍّ﴾ من الفريقين المذكورين، الأبرار والفجار، ﴿درجاتٌ مما عملوا﴾ أى: منازل ومراتب من جزاء ما عملوا من الخير والشر، ويقال فى جانب الجنة: درجات، وفى جانب النار: دركات، فغلب هنا جانب الخير.

قال الطيبى: ولكلٍّ من الجنسين المذكورين درجاتٌ، والظاهر أن أحد الجنسين مادلّ عليه قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾(٢)، والآخر قوله: ﴿والذى قال لوالديه أُفٍّ لكما﴾، ثم غلب الدرجات على الدركات، لأنه لمّا ذكر الفريق الأول، ووصفهم بثباتٍ فى القول، واستقامةٍ فى الفعل، وعقّب ذلك بذكر فريقِ الكافرين، ووصفهم بعقوق الوالدين، وبإنكارهم البعثَ، وجعل العقوق أصلاً فى الاعتبار، وكرر فى القسم الأول الجزاء، وهو ذكر الجنة مراراً ثلاثا، وأفْردَ ذكر النار، وأخرّه، وذكَرَ ما يجمعهما، وهو قوله: ﴿ولكلٍّ درجات﴾ غلّب الدرجات على الدركات لذلك، وفيه ألا شيء أعظم من التوحيد والثبات عليه، وبر الوالدين والإحسان إليهما، ولا شيء أفحش من عقوق الوالدين، وإنكار الحشر، وفى إيقاع إنكار الحشر مقابلاً لإثبات التوحيد الدلالة على أن المنكر معطل مبطل لحكمة الله فى إيجاد العالم. هـ.

﴿ولنُوفيهم(٣) أعمالهم﴾، وقرأ المكى والبصرى بالغيب، أى: وليوفيهم الله جزاء أعمالهم، ﴿وهم لا يُظلمون﴾ بنقص ثواب الأولين، وزيادة عقاب الآخرين، واللام متعلقة بمحذوف، أى: وليوفيهم أعمالهم، ولا يظلمهم حقوقهم، فعل ما فعل من ترتيب الدرجات أو الدركات.

---

(١) الآية ١٨ من سورة الأعراف.

(٢) الآية ١٣ من السورة نفسها.

(٣) أثبت المفسر ـ رحمه الله ـ قراءة «ولنوفيهم» بنون العظمة، وهى قراءة نافع، وابن عامر، وحمزة، والكسائى، وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وعاصم: «وليوفيهم» بالياء. انظر: السبعة لابن مجاهد /٥٩٨.

الإشارة: عقوق الأساتيذ(١) أقبح من عقوق الوالدين، كما أن برهما أوكد؛ لأن الشيخ أخرجك من ظلمة الجهل إلى نور المعرفة بالله، والوالدان أخرجاك إلى دار التعب، مُعرض لأمرين، إما السلامة أو العطب، والمراد بالشيخ هنا شيخ التربية، لا شيخ التعليم، فلا يقدّم حقه على حق الوالدين، هذا ومن يسّر اللهُ عليه الجمع بين بِر الوالدين والشيخ فهو كمال الكمال. وبالله التوفيق.

ثم ذكر جزاء العاقّ المنكِر للبعث، فقال.

﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾

قلت: «ويوم»: منصوب بقول مقدّر قبل «أذهبتم» أي: يقال لهم: أذهبتم طيباتكم يوم عرضكم، أو باذكر، وهو أحسن.

يقول الحق جل جلاله: ﴿و﴾ اذكر ﴿يوم يُعرَضُ الذين كفروا على النار﴾ أي: يُعذّبون بها، من قولهم: عُرض بنو فلان على السيف، إذا قُتلوا به، وقيل: المراد: عرض النار عليهم، من قولهم: عرضت الناقة على الحوض، يريدون: عرض الحوض عليها، فقلبوا. وإذا عُرضوا عليها يُقال لهم: ﴿أذهبتُمْ طيباتكُم﴾ أي: أخذتم ما كُتب لكم من حظوظ الدنيا ولذائذها ﴿في حياتكم الدنيا﴾ فقد قدمتم حظكم من النعيم فى الدر الفانية.

قال ابن عرفة: قيل: المراد بالطيبات المستلذات، والظاهر: أن المراد أسباب المستلذات، أي: الأسباب التى تتوصلون بها إلى نيل المستلذات فى الدر الآخرة، إذ نسيتموها فى الدنيا، أي: تركتموها ولم تفعلوها. هـ. قلت: يُبعده قوله: ﴿واستمتعتم بها﴾ أي: فلم يُبق ذلك لكم شيئاً منها، بل قدمتم جنتكم في دنياكم.

وعن عمر ـ رضي الله عنه ـ: لو شئتُ كنتُ أطيبَكم طعاماً، وألينكم لباساً، ولكنى أستبقى طيباتي. ولما قَدِم الشامَ صُنع له طعامٌ لم يُر قبله مثله، قال: هذا لنا، فما للفقراء المسلمين الذين ماتوا وهم لا يشبعون من خبز الشعير؟ قال خالد: لهم الجنة، فاغرورْقت ْعينا عمر وبكى، وقال: لئن كان حظنا من الحطام، وذهبوا بالجنة، لقد باينونا بوناً بعيداً(٢).

---

(١) أساتيذ جمع أستاذ. ويجمع أيضا على أساتذة وأستاذين، وهو فارسى معرّب، والأستاذ: المعلم والمقرىء والعالم، وأستاذ الصناعة: رئيسها. انظر محيط المحيط (ص ٩، مادة الأستاذ).

(٢) انظر هذه الأخبار وغيرها فى كتاب «مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب» لابن الجوزى/ ١٥٣ ـ ١٦٧.

وقال أبو هريرة رضي الله عنه: إنما كان طعامنا مع النبى ﷺ الماء والتمر، والله ما كان نرى سمراءكم هذه، وقال أبو موسى: ما كان لباسنا مع النبى ﷺ إلا الصوف.

وروى: أن النبىَّ ﷺ دخل على أهل الصُّفة، وهم يرقعون ثيابهم بالأدَم، ما يجدون لها رقاعاً، فقال: «أنتم اليوم خيرٌ أم يومَ يغدو أحدكم فى حلة، ويروح فى أخرى، ويُغدا عليه بجفنة[1] ويُراح بأخرى، ويُستر بيته كما تُستر الكعبة»؟ قالوا: نحن يومئذ خير، فقال لهم: «بل أنتم اليوم خير»[2].

وقال عمرو بن العاص[3]: كنت أتغدى عند عمر الخبزَ والزيتَ، والخبز والخل، والخبز واللبن، والخبز والقديد، وأجلّ ذلك اللحم الغريض[4]، وكان يقول: لا تنخلوا الدقيق، فإنه كله طعامٌ، ثم قال عمر رضي الله عنه: والله الذى لا إله إلا هو، لولا أني أخاف أن تنقص حسناتى يوم القيامة لشاركتهم فى العيش! ولكنى سمعتُ اللهَ يقول لقوم: ﴿أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها﴾. هـ[5].

﴿ فاليوم تُجزونَ عذابَ الهُونِ ﴾ أى: الهوان، وقرىء به، ﴿ بما كنتم ﴾ فى الدنيا ﴿ تستكبرون في الأرض بغير الحق ﴾، بغير استحقاق لذلك، ﴿ وبما كنتم تَفْسُقون ﴾، وتخرجون عن طاعة الله عز وجل، أى: بسبب استكباركم وفسقكم.

الإشارة: مازالت الأكابر من الأولياء تتنكب الحظوظ والشهوات، مجاهدةً لنفوسهم، وتصفيةً لقلوبهم، فإنَّ تتبعَ الشهوات يُقَسى القلب، ويكسف نور العقل، كما قال الشاعر:

إنَارَةُ العقل مكْسُوفٌ بطوْع هَوىً وَعقلُ عَاصِي الْهَوَى يَزْدَادُ تنْويراَ.

هذا فى حال سيرهم، فإذا تحقق وصولهم فلا كلام عليهم؛ لأنهم يأخذون من الله، ويتصرفون به فى أمورهم كلها، فلا حرج عليهم فى نيل ما أنعم الله به عليهم، حيث أمِنوا ضرره، ومن ذلك: ماروى عن إبراهيم بن أدهم،

---

(١) الجفنة: قصعة الطعام، والجمع جفان وجفنات.

(٢) عزاه فى كنز العمال (ح ٦٢٢٧) لهناد وأبى نعيم فى الحلية عن الحسن مرسلاً. كما ذكره بنحوه (ح ٦٢٢٦) وعزاه للطبرانى والبيهقى، عن عبد الله بن يزيد الخطمى.

(٣) فى القرطبى: حفص بن أبى العاص.

(٤) الغريض: الطرى. انظر اللسان (غرض، ٣٢٤١/٥).

(٥) ذكره بأطول من هذا: القرطبى فى تفسيره (٦٢٠٨/٧) ثم قال: «والذى يضبط هذا الباب ويحفظ قانونه: على المرء أن يأكل ما وجد، طيباً كان أو قفاراً، ولا يتكلف الطيب ويتخذه عادة، وقد كان النبى ﷺ يشبع إذا وجد، ويصبر إذا عدم، ويأكل الحلوى إذا قدر عليها، ويشرب العسل إذا اتفق له، ويأكل اللحم إذا تيسر له، ولايعتمده أصلاً، ولايجعله ديدناً، ومعيشة النبى ﷺ وسلم معلومة...» انظر بقيته.

أنه أصلح ذات يوم طعاماً كثيرا، ودعا نفراً يسيراً، منهم الأوزاعى والثورى، فقال له الثورى: أما تخاف أن يكون هذا إسرافاً؟ فقال: ليس فى الطعام إسراف، إنما الإسراف فى الثياب والأثاث، ودفع أيضاً إلى بعض إخوانه دراهم، فقال: خذ لنا بهذه زُبداً وعسلاً وخبزاً حُوَّارى(١)، فقال: يا أبا إسحاق: هذا كله؟ قال: ويحك إذا وجدنا أكلنا أكل الرجال، وإذا عُدمنا صبرنا صبر الرجال، وإن معروفاً الكرخى كأن يُهدى له طيبات الطعام، فيأكل، فيقال له: إن أخاك بِشْراً كان لا يأكل من هذا، فيقول: أخى بِشْر قبضه الورعْ، وأنا بسطتنى المعرفة، وإنما أنا ضيف فى دار مولاى، إذا أطعمنى أكلت، وإذا جوّعنى صبرت، مالى وللاعتراض والتمييز. هـ.

والحاصل: أن الناس أقسام ثلاثة: عوام، لاهمة لهمْ فى السير، وإنما قنعوا أن يكونوا من عامة أهل اليمين. فهؤلاء يأخذون كل ما أباحته الشريعة، إذ لا سير لهم حتى يخافوا من تخلفهم، وخواص، نهضت همتُهم إلى الله، وراموا الوصول إليه، وهم فى السير لم يتحقق وصولهم، أو من العُبّاد والزهاد، يخافون إن تناولوا المستلذات تفتّرت عزائمهم، فهؤلاء يتأكد فى حقهم ترك الحظوظ والشهوات، والقسم الثالث: خواص الخواص، قد تحقق وصولهم، ورسخت أقدامهم فى المعرفة، فهؤلاء لاكلام معهم، ولا ميزان عليهم.

قال فى الإحياء، بعد كلام: وأكل الشهوات لا يُسلَم إلا لمن نظر من مشكاة الولاية والنبوة، فيكون بينه وبين الله علامة فى استرساله وانقباضه، ولا يكون ذلك إلا بعد خروج النفس من طاعه الهوى والعادة بالكلية، حتى يكون أكلُه إذا أكل بنية، كما يكون إمساكه بنية، فيكون عاملاً له فى إفطاره وإمساكه. ثم قال: وينبغى أن يتعلم الحزم من عُمر، فإنه كان يرى النبىّ ﷺ يُحب العسل ويأكله، ثم لم يقس نفسه عليه، بل لمّا عُرض عليه ماء مبّرد بالعسل جعل يُدير الإناء فى كفه، ويقول: أشربُها فتذهب حلاوتها وتبقى تباعتها، اعزلوا عنى حسابها، وتركها، رضي الله عنه(٢).

ثم ذكر وبال من تمتع بدنياه، وأعرض عن أخراه، فقال:

﴿ ۞ وَٱذۡكُرۡ أَخَا عَادٍ إِذۡ أَنذَرَ قَوۡمَهُۥ بِٱلۡأَحۡقَافِ وَقَدۡ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦٓ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿٢١﴾ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَأۡفِكَنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ عِندَ ٱللَّهِ

(١) الحُوَّارَى هو الدقيق الأبيض، وهو لبابُ الدقيق وأجوده وأخلصه. انظر اللسان (حور ٢/١٠٤٤).
(٢) ذكره بنحوه ابن الجوزى فى مناقب أمير المؤمنين (ص ١٦٤) عن ثابت.

وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ واذكر أخا عاد ﴾ وهو هود عليه السلام ﴿ إذ أنذر قومه ﴾ : بدل اشتمال أي: وقت إنذاره قومه ﴿ بالأحقاف ﴾ : جمع حِقْف، وهو رمل مستطيل فيه انحناء، من: احقوقف الشيء إذا اعوجّ، وكان عاد أصحاب عُمُد، يسكنون بين رمال مُشرفة على البحر، بأرض يُقال لها: «الشِّحْر» بأرض اليمن. وعن ابن عباس: الأحقاف: وادٍ بين عُمان ومَهْرَة، وقال مقاتل: كانت منازل عاد باليمن، في حضر موت، بموضع يقال له: مَهْرَة، وإليه تنسب الإبل المهرية، ويقال لها: المهارى، وكانوا أهل عمد سيارة في الربيع، فإذا هاج العود رجعوا إلى منازلهم، وكانوا من قبيلة إرَم(١)، والمشهور: أن الأحقاف اسم جبل ذا رمل مستطيل، كانت منازل عاد حوله.

﴿ وقد خلَتْ النُذر ﴾ : جمع نذير، بمعنى المنذر، أي: مضت الرسل، ﴿ من بين يديه ومن خلفه ﴾ أي: من قبل هود ومن بعده، وقوله: ﴿وقد خلت..﴾ الخ: جملة معترضة بين إنذار قومه وبين قوله: ﴿ ألاّ تعبدوا إلا الله ﴾ مؤكدة لوجوب العمل بموجب الإنذار، وإيذاناً باشتراكهم في العبادة المذكورة، والمعنى: واذكر لقومك إنذار هود قومَه عاقبةَ الشرك والعذاب العظيم، وقد أنذر مَن تقدمه مِن الرسل، ومن تأخر عنه قومهم قبل ذلك. ﴿ إني أخاف عليكم ﴾ إن عصيتموني ﴿ عذابَ يومٍ عظيم ﴾ يوم القيامة.

﴿ قالوا أجئتنا لتأفكَنَا ﴾ ؛ لتصرفنا ﴿ عن آلهتنا ﴾ ، عن عبادتها، ﴿ فأتنا بما تَعِدُنا ﴾ من العذاب العظيم ﴿ إن كنت من الصادقين ﴾ في وعدك بنزوله بنا، ﴿ قال إنما العلمُ ﴾ بوقت نزوله، أو بجميع الأشياء التي من جملتها ذلك، ﴿ عند الله ﴾ وحده، لا علم لي بوقت نزوله، ولا دخل لي في إتيانه وحلوله، وإنما علْم ذلك عند الله، فيأتيكم به في وقته المقدّر له. ﴿ وأُبلغكم ما أُرسلت به ﴾ من التخويف والإنذار من غير وقف على تعيين وقت نزول العذاب، ﴿ ولكني أراكم قوماً تجهلون ﴾ حيث تقترحون عليَّ ما ليس من وظائف الرسل، من الإتيان بالعذاب وتعيين وقته.

(١) انظر تفسير البغوي ٧/٢٦٢.

رُوى: أنهم قحطوا سنين، ففزعوا إلى الكعبة، وقد كانت بنتها العمالقة، ثم خربت، فطافوا بها، واستغاثوا، فعرضت لهم ثلاث سحابات؛ سوداء وحمراء وبيضاء، وقيل لهم: اختاروا واحدة، فاختاروا السوداء، فمرتْ إلى بلادهم، فلما رأوها مستقبلة أوديتهم، فرحوا واستبشروا، وهذا معنى قوله، تعالى: ﴿فلما رَأَوْهُ﴾ أى: العذاب الذى استعجلوه بقولهم: ﴿فأتنا بما تعدنا﴾، وقيل: الضمير مبهم، يُفسره قوله: ﴿عارضاً﴾ على أنه تمييز، أى: رأوا عارضاً، والعارض: السحاب، سُمى به لأنه يعرض السحاب فى أُفق السماء. قال المفسرون: ساق الله السحابة السوداء التى اختاروها بما فيها من النقمة، فخرجت عليهم من واد يُقال له: «مغيث»، فلما رأوها مستقبلة أوديتهم، أى: متوجهة إليها، فرحوا، وقالوا: ﴿هذا عارض مُمطرنا﴾ أى: ممطر إيانا، لأنه صفة النكرة، فيقدر انفصاله. قالَ الله تعالى: ﴿بل هو ما استعجلتم به﴾ من العذاب، وقيل: القائل هود عليه السلام، ﴿ريحٌ فيها عذابٌ أليم﴾، فجعلت تحمل الفساطيط، وتحمل الظعينة فترفعها فى الجو، فتُرى كأنها جرادة.

قال ابن عباس: لما دنا العارض، قاموا فنظروا، فأول ما عرفوا أنه عذاب رأوا ما كان خارجاً من ديارهم من حالهم ومواشيهم، تطير بهم الريح بين السماء والأرض، مثل الريش، فدخلوا بيوتهم، وأغلقوا أبوابهم، فألقت الريح أبوابهم، وصرعتهم، وأمر الله تعالى الريح فأمالت عليهم الرمال، فكانوا تحت الرمل سبع ليال وثمانية أيام حسوماً، لهم أنين، ثم أمر الله تعالى الريح، فكشفت عنهم الرمال، فاحتملتهم، فرمت منهم فى البحر، وشدخت الباقى بالحجارة(١).

وقيل: أول من أبصر العذاب امرأة منهم، قالت: رأيت ريحاً فيها كشهب النار، وهو معنى قوله: ﴿تُدَمِّرُ كلَّ شيء﴾ أى: تهلك من نفوس عاد وأموالهم الجم الكثير، فعبّر عن الكثرة بالكلية. ﴿بأمر ربها﴾ أى: رب الريح، وفى ذكر الأمر والرب، والإضافة إلى الريح، من الدلالة على عظيم شأنه ـ تعالى ـ مالا يخفى، ﴿فأصبحوا لا يُرىٰ(٢) إلا مساكنُهُم﴾ أى: فجاءت الريح فدمرتهم، فصاروا بحيث لا يُرى شيء إلا مساكنهم خاوية، ومن قرأ بتاء الخطاب، فهو لكل من يتأتى منه الرؤية، تنبيهاً على أن حالهم صار بحيث لو نظر كل أحد بلادَهم لا يَرى فيها إلا مساكنهم.

---

(١) انظر تفسير البغوى (٧/٢٦٣).
(٢) قرأ عاصم وحمزة ويعقوب «يرى» بضم الياء، و«مساكنهم» برفع النون، نائب فاعل، وقرأ الباقون «ترى» بالتاء وفتحها، و«مساكنهم» بالنصب، مفعولاً به. انظر الإتحاف (٢/٤٧٢ ـ ٤٧٣).

﴿كذلك﴾ أي: مثل ذلك الجزاء الفظيع ﴿نجزي القومَ المجرمين﴾ وننجي المؤمنين. رُوى أن هود عليه السلام ومن معه من المؤمنين في حظيرته، ما يصيبهم من الريح إلا ماتلين على الجلود، وتلذه الأنفس، وإنها لتمرّ من عاد بالظعن بين السماء والأرض، وتدمغهم بالحجارة. سبحان الحكيم القدير، اللطيف الخبير.

الإشارة: إنما جاءت النُذر من عهد آدم عليه السلام إلى قيام الساعة، تأمر بعبادة الله، ورفض كل ما سواه، فمن تمسك بذلك نجى، ومن عبد غير الله، أو مال إلى سواه، عاجلته العقوبة في الظاهر أو الباطن. والله تعالى أعلم.

ثم خوّف هذه الأمة بما جرى على عاد، فقال:

﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٢٦) وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢٧) فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً ۖ بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ ۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢٨) ﴾

قلت: ﴿فيما﴾: موصولة، أو موصوفة، ومفعول ﴿اتخذوا﴾ الأول: محذوف، و﴿آلهة﴾: مفعول ثان، أي: اتخذوهم آلهة، و﴿قرباناً﴾: حال، ولا يصح أن يكون مفعولاً ثانياً لـ «اتخذوا»، و«آلهة»: بدل، لفساد المعنى، وأجازه ابن عطية، ووجه فساده: أن اتخاذهم آلهة منافٍ لا تخاذهم قرباناً؛ لأن القربان مقصود لغيره، والآلهة مقصودة بنفسها، فتأمله، و «إن» نافية، والأصل: فيما ما مكنكم فيه، ولمّا كان التكرار مستثقلاً جيء بأن، كما قالوا في مهما، والأصل: مَا مَا، فلبشاعة التكرار قلبوا الألف هاء، وقيل: «إن» صلة، أي: في مثل ما مكنكم فيه، والأول أحسن.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ولقد مكَّنَّاهم﴾ أي: قررنا عاد ومكناهم في التصرف ﴿فيما﴾ أي: في الذي، أو في شيء ما ﴿مكناكم﴾ يا معشر قريش ﴿فيه﴾ من السعة والبسطة، وطول الأعمار، وسائر مبادئ التصرفات، فما أغنى عنهم شيء من ذلك، حين نزل بهم الهلاك، وهذا كقوله تعالى: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ﴾،[1] أو: ولقد مكنهم في مثل ما مكنكم فيه، فما جرى عليهم يجرى

---

(١) من الآية ٦ من سورة الأنعام.

عليكم، حيث خالفتم نبيكم، والأول أوفق بقوله: ﴿ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الأَرْضِ ﴾ (١) وقوله: ﴿ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِءْيًا ﴾ (٢).

﴿ وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدةً ﴾ أى: آلات الإدراك والفهم، ليعرفوا بكل واحدة منها ما خلقتْ له، وما نيطت به معرفته، من فنون النعم، ويستدلوا بها شئون منعمها، ويداوموا على شكرها، ويوحدوا خالقها، ﴿ فما أغنى عنهم سمعُهم ﴾ حيث لم يستعملوه فى استماع الوحى ومواعظ الرسل، ﴿ ولا أبصارهم ﴾ حيث لم يُبصروا ما نصب من الآيات الدالة على وحدانيته ـ تعالى ـ ووجوب وجوده، ﴿ ولا أفئدتهم ﴾ حيث لم يتفكروا بها فى عظمة الله ـ تعالى ـ وأسباب معرفته، فما أغنت عنهم ﴿ من شيء ﴾ أى: شيئاً من الإغناء. و ﴿من﴾: زائدة؛ للتأكيد، وقوله: ﴿ إذ كانوا يجحدون بآيات الله ﴾: ظرف لقوله: ﴿فما أغنى﴾ جار مجرى التعليل، لاستواء مؤدّى التعليل والظرف فى قولك: ضربته إذ أساء، أو: لإساءته، لأنك إذا ضربته وقت إساءته فإنما ضربته فيه لوجود إساءته فيه، وكذلك الحال فى «حيث» دون سائر الظروف غالباً، أى: فما أغنتْ عنهم آلات الإدراك لأجل جحودهم بآيات الله. ﴿ وحاق ﴾ أى: نزل ﴿ بهم ما كانوا به يستهزءون ﴾ من العذاب الذى كانوا يستعجلونه بطريق الاستهزاء، ويقولون: ﴿فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين﴾.

﴿ ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى ﴾ يا أهل مكة، كحِجر ثمود، وقرى لوط، والمراد: أهل القرى، ولذلك قال: ﴿ وصرَّفنا الآيات ﴾، كرّرناه، ﴿ لعلهم يرجعون ﴾ أى: كرّرنا عليهم الحجج وأنواع العِبر لعلهم يرجعون من الطغيان إلى الإيمان، فلم يرجعوا، فأنزلنا عليهم العذاب.

﴿ فلولا نَصَرَهم الذين اتخذوا من دون الله قُرباناً آلهةً ﴾ أى: فهلاً منعهم وخلصهم من العذاب الأصنام الذين اتخذوهم آلهة من دون الله، حال كونها متقرباً بها إلى الله، حيث كانوا يقولون: ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾ (٣) و ﴿ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ ﴾(٤) ﴿ بل ضلوا عنهم ﴾ أى: غابوا عن نصرتهم، ﴿ وذلك إفكهم وما كانوا يفترون ﴾، الإشارة إلى امتناع نصرة آلهتهم وضلالهم، أى: و ذلك أثر إفكهم الذى هو اتخاذها آلهة، وثمرة شركهم، وافترائهم على الله الكذب.

---

(١) الآية ٢١ من سورة غافر.
(٢) من الاية ٧٤ من سورة مريم.
(٣) من الآية ٣ من سورة الزمر.
(٤) من الآية ١٨ من سورة يونس.

وقرأ ابن عباس وابن الزبير: ﴿أَفَكَهم﴾(١) أي: صرفهم عن التوحيد. وقُرئ: بتشديد الفاء، للتكثير(٢).

الإشارة: التمكن من كثرة الحس لايزيد إلا ضعفاً في المعنى، وبُعداً من الحق، ولذلك يقول الصوفية: كل ما زاد في الحس نقص في المعنى، وكل ما نقص من الحس زاد في المعنى، والمراد بالمعنى: كشف أسرار الذات وأنوار الصفات، وما مكّن اللهُ ـ تعالى ـ عبدَه من الحواس الخمس إلا ليستعملها فيما يقربه إليه، ويوصله إلى معرفته، فإذا صرفها في غير ذلك، عُوقب عليها. وبالله التوفيق.

ثم ذكر حال من أغنى عنه سمعه ونفعه، حيث استعمله فيما وصله إلى ربه، فقال:

﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ
قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا
كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ
مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم
مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ
أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾ ﴾

قلت: «النفر» بالفتح: الجماعة من ثلاثة إلى عشرة، وقيل: إلى سبعة، ولا يُقال نفر فيما زاد على عشرة، والرهط والقوم والعشيرة والمعشر معناهم الجمع، ولا واحد لهم من لفظه، وهو للرجال دون النساء. قاله في المصباح. و ﴿من الجن﴾: نعت للنفر، وكذا ﴿يستمعون﴾.

يقول الحق جل جلاله: ﴿و﴾ اذكر ﴿إذ صرفنا إليك نفراً من الجن﴾ أي: أملناهم إليك، وأقبلنا بهم نحوك، وهم جن نصيبين، أو جن نينوى، قال في القاموس: «نِينوى» بكسر أوله، موضع بالكوفة، وقرية بالموصل

(١) انظر مختصر ابن خالويه (ص ١٤٠) والبحر المحيط (٨/٦٦).
(٢) «أفكهم» وبذلك قرأ أبو عياض، كما في مختصر ابن خالويه/ ١٤٠ والمحتسب (٢/٢٦٧) وزاد في البحر المحيط (٨/٦٦): وعكرمة.

ليونس عليه السلام .هـ. ﴿ يستمعون القرآن ﴾ منه عليه السلام ﴿ فلما حضروه ﴾ أى: الرسول ﷺ ، أو القرآن، أى: كانوا منه حيث يسمعونه، ﴿ قالوا ﴾ أى: قال بعضهم لبعض: ﴿ أنصتوا ﴾ ؛ اسكتوا مستمعين، ﴿ فلما قُضى ﴾، تمَّ وفرغ من تلاوته، ﴿ ولّوا إلى قومهم منذِرين ﴾ ،؛ مقدِّرين إنذارهم عند رجوعهم إليهم.

رُوى: أن الجنّ كانت تسترق السمع، فلما حُرست السماء، ورُموا بالشُّهب، قالوا: ما هذا إلا لأمر حدث، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها، لتعرفوا ما هذا، فنهض سبعة أو تسعة من أشراف جن نصيبين أو نينوى، منهم: «زوبعة» فمضوا نحو تهامة، ثم انتهوا إلى وادى نخلة، فوافقوا رسولَ الله ﷺ وهو قائم يصلى صلاة الفجر، فاستمعوا القرآن، وذلك عند منصرفه من الطائف، حين ذهب يدعوهم إلى الله، فكذّبوه، وردوا عليه، وأغروا به سفاءهم، فمضى على وجهه، حتى وصل إلى نخلة، فصلى بها الغداة، فوافاه نفر الجن يصلى، فاستمعوا لقراءته، ولم يشعرُ بهم، فأخبره الله تعالى باستماعهم(١).

وقيل: أمره اللهُ ـ تعالى ـ أن يُنذر الجن، ويقرأ عليهم، فصرف الله إليه نفراً منهم، وجمعهم له، فقال ﷺ: إنى أُمرت أن أقرأ على الجن، فمن يتبعنى؟ قالها ثلاثاً، فأطرقوا إلا عبد الله مسعود، قال: فانطلقنا حتى إذا كنا بأعلى مكة، فى شعب الحجون، فخطَّ خطاً، فقال: لا تخرج عنه حتى أعود إليك، ثم افتتح القرآن، وسمعت لغطاً شديداً، حتى خفت على رسول الله ﷺ فجعلت أرى أمثال النسور تهوى وتمشى، وغشيته أسودة كثيرة حالت بينى وبينه، حتى ما أسمع صوته، ثم تتقطع كقطع السحاب ذاهبين، فَفرغ ﷺ مع الفجر، فقال: أنمتَ؟ فقلت: لا والله، ولقد هممت مراراً أن أستغيث بالناس حتى سمعتك تقرعهم بعصاك، تقول: أجلسوا، فقال: لو خرجت لم آمن عليك أن يتخطفك بعضهم، ثم قال رسولُ الله ﷺ: «هل رأيت شيئاً؟»، قلت: نعم، رجالاً سوداً ، فى ثياب بيض، قال: «أولئك جن نصيبين،(٢) وكانوا اثنى عشر ألفا، والسورة التى قرأ عليهم: ﴿إقرأ باسم ربك﴾.

فلمّا رجعوا إلى قومهم ﴿ قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتاباً أُنزل من بعد موسى ﴾ ، قيل: قالوا ذلك لأنهم كانوا على اليهودية، وعن ابن عباس: إن الجن لم تكن سمعت بأمر عيسى عليه السلام وهو بعيد. حال كون الكتاب ﴿ مُصدِّقاً لما بين يديه يهدى إلى الحق ﴾ من العقائد الصحيحة، أو إلى الله، ﴿ وإلى صراطٍ مستقيم ﴾ يُوصل إلى الله، وهو الشرائع والأعمال الصالحة.

---

(١) أخرجه بمعناه البخارى فى (الأذان، باب الجهر بقراءة صلاة الفجر ح ٧٧٣) وكذا أخرجه فى (التفسير، سورة الجن) من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

(٢) انظر تفسير البغوى ٧/٢٦٧.

﴿ ياقومنا أجيبوا دَاعِيَ الله ﴾ وهو محمد ﷺ، ﴿ وآمنوا به ﴾ أي: بالرسول أو القرآن. وصفوه بالدعوة إلى الله ـ تعالى ـ بعد ما وصفوه بالهداية إلى الحق والطريق المستقيم؛ لتلازمهما، دعوهم إلى ذلك بعد بيان حقيقته واستقامته، ترغيباً في الإجابة، ثم أكدوه بقولهم: ﴿ يغفر لكم من ذنوبكم ﴾ أي: بعض ذنوبكم، وهو ما كان في حق خالصٍ لله ـ تعالى ـ فإنّ حقوق العباد لا تُغفر بالإيمان، وقيل: تغفر. ﴿ ويُجِرْكُمْ من عذابٍ أليم ﴾؛ موجع.

واختلف في مؤمني الجن، هل يُثابون على الطاعة، ويدخلون الجنة، أو يُجَارون من النار فقط؟ قال الفخر: والصحيح أنهم في حكم بني آدم، يستحقون الثواب على الطاعة، والعقاب على المعصية، وهو قول مالك، وابن أبي ليلى، وقال الضحاك: يدخلون الجنة ويأكلون ويشربون. هـ. ويؤيده قوله تعالى: ﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا ﴾ كما تقدم في الأنعام [1].

﴿ ومن لا يُجِبْ داعيَ الله فليس بمعجزٍ في الأرض ﴾ أي: لا ينجي منه مهرب، وإظهار «داعي الله» من غير اكتفاء بضميره، للمبالغة في الإيجاب، بزيادة المهابة والتقرير وتربيته، وإدخال الروعة. وتقييد الإعجاز بكونه في الأرض؛ لتوسيع الدائرة، أي: فليس بمعجز له ـ تعالى ـ وإن هرب في أقطار الأرض ودخل في أعماقها. ﴿ وليس له من دونه أولياءُ ﴾ ينصرونه من عذاب الله، وهو بيان لاستحالة نجاته بواسطة، إثر بيان استحالة نجاته بنفسه، وجمع «الأولياء» مبالغة، إذا كان لاينفعه أولياء، فأولى واحد. ﴿ أولئك ﴾ الموصوفون بعدم إجابة داعي الله ﴿ في ضلال مبين ﴾ أي: ظاهر، بحيث لا تخفى ضلالته على أحد، حيث أعرضوا عن إجابة مَن هذا شأنه، وجمع الإشارة باعتبار معنى «من»، وأفردَ أولاً باعتبار لفظها.

الإشارة: قد استعملت الجن الأدب بين يديه ﷺ حيث قالوا: أنصتوا، فالجلوس مع الأكابر يحتاج إلى أدب كبير، كالصمت، والوقار، والهيبة، والخضوع، كما كانت حالة الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ مع الرسول ﷺ إذا تكلم أنصتوا كأنما على رؤوسهم الطير. قال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه: «إذا جالست الكبراء فدع ما تعرف إلى مالا تعرف، لتفوز بالسر المكنون» فإذا انقضى مجلس التذكير رجع كل واحد منذراً وداعياً إلى الله كلَّ من لقيه، وقد كان ﷺ يقول لأصحابه: «ليبلغ الشاهد الغائب»[2] فمن بلغه ذلك واستجاب ربح وغنم، ومن لا يجب داعي الله

---

(١) راجع تفسير الآية ١٣٢ من سورة الأنعام. وانظر في حكم مؤمني الجن: تفسير القرطبي (٧/٦٢٢٤) وآكام المرجان في أحكام الجان، للشبلي النعماني.

(٢) جزء من حديث خطبة الرسول في حجة الوداع، أخرجه البخاري في (الحج، باب الخطبة أيام منى ح ١٧٤١)، ومسلم في (القسامة، باب تغليظ تحريم الدماء والأعراض والأموال رقم ١٦٧٩، ح ٢٩، ٣٠) عن أبي بكرة رضي الله عنه.

خاب وخسر، والاستجابة أقسام، قال القشيري: فمستجيبٌ بنفسه، ومستجيبٌ بقلبه، ومستجيبٌ بروحه، ومستجيب بسِرِّه، ومن توقف عند دعاء الداعي إليه، ولم يُبادر إلى الاستجابة هُجِرَ فيما كان يُخاطب به . هـ.

قلت: المستجيب بنفسه هو المستجيب بالقيام بوظائف الإسلام، والمستجيب بقلبه القائم بوظائف الإيمان، والمستجيب بروحه القائم بوظائف الإحسان، والمستجيب بسره هو المتمكن من دوام الشهود والعيان، وقول: هجر فيما يُخاطب به، أي: كان يُخاطب بملاحظة الإحسان، فإذا لم يبادر قِيد بسلاسل الامتحان. والله تعالى أعلم.

ثم برّهن على قوله، فليس بمعجزه في الأرض، فقال:

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٣) وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ ۖ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٤) ﴾

قلت: ﴿ولم يَعْيَ﴾: حال من فاعل «خلق»، يُقال: عَيَ، كرضَي، وعَيَ بالإدغام، وهو أكثر. قاله في الصحاح. وفي القاموس: عَيَّ بالأمر وعَيِي كرَضِيَ، وتَعايا واستَعيا وتَعيّاً: لم يهتد لوجه مُراده، أو عَجَز عنه ولم يُطقْ إحْكامه هـ. و ﴿بقادر﴾: خبر «أن»، ودخلت الباء لاشتمال النفي الذي في صدر الآية على «أنّ»، وما في حيزها، قال الزجاج: لوقلت: ما ظننت أنّ زيداً بقائم، جاز.

يقول الحق جل جلاله: ﴿أوَ لَمْ يروا﴾ أي: ألم يتفكروا ولم يعلموا علماً جازماً ﴿أنَّ الله الذي خلق السموات والأرض﴾، ابتداء من غير مثال يحتويه، ولا قانون يحتذيه، ﴿و﴾ الحال أنه ﴿لم يَعْيَ بخلقهن﴾ أي: لم يتعب ولم ينصب بذلك أصلاً، ولم يعجز عنه، أليس مَن فعل ذلك ﴿بقادرٍ على أن يحيي الموتى بلى﴾: جواب النفي، أي: بلى هو قادر على ذلك، ﴿إنه على كل شيء قديرٌ﴾ تقرير للقدرة على وجه عام، ليكون كالبرهان على المقصود.

ثم ذكر عقاب من أنكر البعث المبرهن عليه، فقال: ﴿و﴾ اذكر ﴿يوم يُعرض الذين كفروا على النار﴾ فيقال لهم: ﴿أليس هذا بالحق﴾، فالإشارة إلى ما يُشاهدونه من فظيع العذاب، وفيه تهكم بهم، وتوبيخ لهم، على استهزائهم بوعد الله تعالى ووعيده، ونفيه بقولهم: «وما نحن بمعذبين»، ﴿قالوا﴾ في جواب الملائكة: ﴿بلى

وربّنا﴾ إنه لحق، أكدوا جوابهم بالقسم كأنهم يطمعون فى الخلاص بالاعتراف بحقيقتهما كما فى الدنيا، وأنىّ لهم ذلك؟ ﴿قال﴾ تعالى لهم: ﴿فذوقوا العذابَ بما كنتم تكفرون﴾ بها فى الدنيا، ومعنى الأمر: الإهانة بهم والتوبيخ لهم، نعوذ بالله من موارد الهوان.

الإشارة: تربية اليقين تطلب فى أمرين، حتى يكونا كرأى العين: وجود الحق أو شهوده، وإتيان الساعة وقربها، حتى تكون نُصب العين، وتقدم حديث حارثة شاهداً على إيمانه، حيث قال: «وكأنى أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون....» الحديث.

ثم أمر بالصبر على ما يسمع من الكفرة، فى إمكان البعث وغيره، فقال:

﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ بَلَٰغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

قلت: ﴿لهم﴾: متعلق بتستعجل، وأما تعليقه ببلاغ فضعيف، لا يليق بإعجاز التنزيل، خلافا لوقف الهبطى، ﴿وبلاغ﴾: خبر عن مضمر، أى: هذا بلاغ.

يقول الحق جل جلاله: ﴿فاصبر﴾ يا محمد على ما يُصيبك من جهة الكفرة ﴿كما صبر أُولوا العزم﴾ أى: الثبات والحزم ﴿من الرسل﴾، فإنك مِن جملتهم، بل من أكملهم وأفضلهم، و«من» للتبعيض، واختلف فى تعيينهم، فقيل: هم المذكورون فى الأحزاب ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾(١) وهم أهل الشرائع، الذى اجتهدوا فى تأسيسها وتقريرها، وصبروا على تحمل مشاقها، وسياسة من تمسك بها، ومعاداة الطاعنين فيها. وقيل: هم الصابرون على بلاء الله تعالى، كنوح صبَّر على إذاية قومه، كانوا يضربونه حتى يُغشى عليه، وإبراهيم صبر على النار، وذَبْحِ ولده، ومفارقة وطنه، وترك ولده ببلد خالية من العمران، ويعقوب على فقد ولده، وذهاب بصره، ويوسف على الجُب والسجن، وأيوب على الضُر، وموسى قال له قومه: ﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ (٢) وعلى مكابدة التيه مع قومه، وداود بكى على خطيئته أربعين سنة، وعيسى لم يضع لبنة على لبنة.

(١) الآية ٧ من سورة الأحزاب.
(٢) الآيتان ٦١، ٦٢ من سورة الشعراء.

وقيل: هم اثنا عشر نبياً، أرسلوا إلى بنى إسرائيل، فعصوهم، فأوحى الله إلى الأنبياء: إنى مرسل عذابى على عصاة بنى إسرائيل، فشقّ عليهم، فأوحى الله إليهم: أن اختارو لأنفسكم، إن شئتم أنزلتُ بكم العذاب، وأنجيت بنى إسرائيل، وإن شئتم أنجيتكم وأنزلت ببنى إسرائيل، فتشاوروا بينهم، فاجتمع رأيهم على أن ينزل بهم العذاب ويُنجى بنى إسرائيل، فسلّط عليهم ملوك الأرض، فمنهم من نُشر بالمناشير، ومنهم من سُلخ جلدة رأسه ووجهه، ومنهم من رُفع على الخشب، ومنهم من أُحرق بالنار. نسأل الله العافية، فإنهم أقوياء ونحن ضعفاء.

وقيل: «من» للتبيين، كقولك: اشتريت ثياباً من الخز، فكلهم أولو العزم، وقيل: إلا يونس، لقوله: ﴿ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ ﴾ (١) وآدم لقوله: ﴿ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴾ (٢).

ثم قال تعالى: ﴿ ولا تستعجلْ لهم ﴾ أى: لكفار مكة نزول العذاب، فإنه نازل بهم، ﴿ كأنهم يوم يَرَوْنَ ما يُوعدون ﴾ من العذاب ﴿ لم يلبثوا ﴾ فى الدنيا ﴿ إلا ساعةً ﴾ يسيرة ﴿ من نهارٍ ﴾ لما يُشاهدونه من شدة العذاب وطول مدته. قال الثعالبى: وإذا علمت أيها الأخ أن الدنيا أضغاث أحلام، كان من الحزم اشتغالك الآن بتحصيل الزاد للمعاد، وحفظ الحواس، ومراعاة الأنفاس، ومراقبة مولاك، فاتخذه صاحباً، ودعْ الناس جانباً، ثم نقل عن الغزالى ما يهيج النفس إلى النهوض إلى الله، والفرار مما سواه، فانظره.

هذا ﴿ بلاغٌ ﴾ أى: هذا الذى وُعظتم به كفاية فى الموعظة، أو تبليغ من الرسول، أو منى إليك، ومنك إلى العالمين. ﴿ فهلْ يُهلك إلا القوم الفاسقون ﴾ أى: ما يُهلك إلا الخارجون عن هذا الاتعاظ، أو عن هذه المواعظ، أو عن الطاعة، أو: فلا يهلك مع هذه المواعظ البالغة، والأدلة القاطعة إلا من هلك عن بينة، أو: فلا يهلك مع رحمة الله وتفضله إلا الهالكون، ونظير ما ختم به هنا ما ختم به سورة الأنبياء: ﴿ إِنَّ فِي هَذَا لَبَلاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ ﴾ الآية(٣).

فائدة: قال ابن عباس: إذا عسر على المرأة ولدها، فليكتب هاتين الآتين الكريمتين فى صحيفة، ثم تغسل وجهها منها، وتُسقى منها: بسم الله الرحمن الرحيم، لا إله إلا الله، العظيم الحليم، سبحان الله رب السموات والأرض، ورب العرش العظيم، كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها، ﴿كأنهم يوم يرون ما يُوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار﴾. صدق الله العظيم. هـ.

---

(١) الآية ٤٨ من سورة القلم.
(٢) الاية ١١٥ من سورة طه.
(٣) الآية ١٠٦ من سورة الأنبياء.

الإشارة: أولو العزم من الأولياء هم أولو الجد والتشمير، قد خلّصهم البلاء وشحّرهم، فهم جلاليون الظاهر، جماليون الباطن، قد أسسوا منار الطريق، وأظهروا معالم التحقيق، قاسوا شدائد المجاهدة، وأفضوا إلى دوام المشاهدة، عالجوا سياسة الخلق، حتى هدى الله على أيديهم الجم الغفير، فهم خلفاء الرسل في تجديد الشرائع، وإحياء الدين ـ جعلنا الله منهم بمنّه وكرمه. فيُقال لكل وليّ من أولي العزم: فاصبر كما صبر أولو العزم من الأولياء قبلك.

قال القشيري: والصبرُ هو الوقوفُ لحكم الله تعالى، والثبات من غير بثّ الاستكراه. هـ. أي: من غير إظهار الشكوى والتكره. قلت: وأعظم مواطن الصبر عند ورود الفاقات، وتوالي الأزمات، وصيانة الوجه عن ذل المخلوقات، ولله در القائل.

ارض بأدْنَى الْعَيْشِ واشْكر عَلَيْه شُكْرَ مَن الْقلُ كَثيرٌ لَدَيْه
وجَانبِ الْحرص الّذي لَمْ يزَل يَحُطُّ قَدْرَ الْمُتَراقي إلَيه
وحَامِ عَنْ عِرْضِكَ واسْتَبْقِه كَما يُحامي اللَيْثُ عَنْ لُبْدَتَيْه
واصْبرِ علَى ما نَابَ من نوبٍ صَبْرَ أولي الْعَزْمِ، واغْمِضْ عليه

ولبدتي الأسد: جانبا كتفيْه.

ويُقال لأُولي العزم، حين يُؤذون من جهة الخلق: ﴿ولا تستعجل لهم...﴾ الآية. وقوله تعالى: ﴿كأنهم يوم يرون...﴾ الآية، قال القشيري: مُدة الخلق من مبتدأ خلقتهم إلى منُتهى آجالهم، بالإضافة إلى الأزلية، كلحظةٍ، بل هي أقلّ، إذ الأول لا ابتداء له ولا انتهاء، وأيّ خطَرٍ لما حصل في لحظةٍ.. خيراً كان أو شرا؟. هـ.

قال الورتجبي، ثم بيّن أن عند معاينة سطوات القهريات، لا يهلك فيها إلا الخارجون من نعوت استعداد معرفتي، حين يحتجبون بظلمات نعوتهم[1] بقوله: ﴿فهل يهلك إلا القوم الفاسقون﴾ الخارجون بالدعاوى الباطلة. هـ. وبالله التوفيق، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

❁ ❁ ❁

(١) في الورتجبي: ظنونهم.

سُورَةُ مُحَمَّدٍ *

مدنية. وهى ثمان وثلاثون آية، ومناسبتها لما قبلها: قوله: (فهل يُهلك إلا القوم الفاسقون)، فإنهم الكفرة الذين أشار إليهم بقوله:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ۝١ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ۝٢ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ ۝٣ ﴾

قلت: (الذين): مبتدأ، و(أضل): خبر، و(من ربهم): حال من ضمير الحق، وجملة (وهو...) الخ: اعتراضية بين المبتدأ والخبر، و(ذلك): مبتدأ، و(بأن): خبر.

يقول الحق جل جلاله: ﴿الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله﴾ أى: أعرضوا وامتنعوا عن الدخول فى الإسلام، أو صدوا غيرهم عنه. قال الجوهرى: صدّ عنه، يصِدّ، صُدُودا: أعْرض، وصدّهُ عن الأمر صداً: منَعَه، وصرَفه عنه. هـ. وهم المطعمون يوم بدر[1]، أو: أهل الكتاب، كانوا يصدون من أراد الدخول فى الإسلام، منهم ومن غيرهم، أو عام فى كل مَن كفر وصدّ. فهؤلاء ﴿أضلَّ أعمالهم﴾ أى: أحبطها وأبطلها، أى: جعلها ضالة ضائعة، ليس لها من يتقبلها ويثيب عليها، كضالة الإبل. وليس المعنى أنه أبطلها بعد أن لم تكن كذلك، بل بمعنى: أنه حكم ببطلانها وضياعها، فإنّ ما كانوا يعملونه من أعمال البر، كصلة الأرحام، وقِرى الضيف، وفك الأسارى، وغيرها من المكارم، ليس لها أثر من أصلها؛ لعدم الإيمان، أو: أبطل ما عملوا من الكيد برسول الله ﷺ، والصد عن سبيله، بنصر رسوله، وإظهار دينه على الدين كله، وهو الأوفق بقوله: ﴿ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴾[2].

(*) فى الأصول: «سورة محمد أو القتال».

(1) قاله ابن عباس رضي الله عنه ـ فيما ذكره القرطبى فى تفسيره (٧/ ٦٢٣٠). «وهم اثنا عشر رجلاً، وذكر القرطبى أسماءهم.

(2) الآية ٨ من نفس السورة.

﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ قيل: هم ناس من قريش، وقيل: من الأنصار، وقيل: مَن آمن من أهل الكتاب، والمختار أنه عام، ﴿ وآمَنوا بما نُزِّل على محمد ﴾ ﷺ، وهو القرآن، وخُص بالذكر من بين ما يجب الإيمانِ به؛ تنويهاً بشأنه، وتنبيهاً على سُمو مكانه من بين ما يجب الإيمان به، وأنه الأصل في الكل؛ ولذلك أكّده بقوله: ﴿ وهو الحق من ربهم ﴾ أي: القرآن، لكونه ناسخاً لغيره من الكتب، وقيل: دين محمد ـ ﷺ؛ إذ لا يرد عليه النسخ، وهو ناسخ لسائر الأديان، ﴿ كفَّر عنهم سيئاتهم ﴾ أي: ستر بالإيمان والعمل الصالح ما كان منهم من الكفر والمعاصي؛ لرجوعهم عنها بالتوبة ﴿ وأصلح بالهم ﴾ أي: حالهم وشأنهم، بالتوفيق لأمور الدين، وبالتسليط على الدنيا، بما أعطاهم الله من النصرة والعزة والتمكين في البلاد.

﴿ ذلك بأن الذين كفروا اتَّبعوا الباطلَ وأنَّ الذين آمنوا اتَّبعوا الحق من ربهم ﴾ أي: ذلك الأمر، وهو إضلال أعمال أهل الكفر، وتكفير سيئات أهل الإيمان، وإصلاح شأنهم؛ كائن بسبب اتباع هؤلاء الباطلَ؛ وهو الشيطان، حيث فعلوا ما فعلوا من الكفر والصد، واتباع هؤلاء الحق، وهو القرآن، أو ما جاء به ﷺ ، أو يراد بالباطل: الزائل الذاهب من الدِّين الفاسد، وبالحق: الدين الثابت، أو يراد بالباطل: نفس الكفر والصد، وبالحق: نفس الإيمان والأعمال الصالحة.

﴿ كذلك ﴾ أي: مثل الضرب البديع ﴿ يضرب الله ﴾ أي: يبين ﴿ للناس أمثالهم ﴾ أي: أحوال الفريقين، وأوصافهما، الجارية في الغرابة مجرى الأمثال، وهو اتباع الأولين الباطلَ، وخيبتهم وخسرانهم، واتباع الآخرين الحقَّ، وفوزهم وفلاحهم، والضمير راجع إلى الناس، أو إلى المذكورين من الفريقين، على معنى: أنه يضربُ أمثالهم لأجل الناس ليعتبروا بهم، وقد جعل اتباع الباطل مثلاً لعمل الكافرين، واتباع الحق مثلاً لعمل المؤمنين، أو جعل الإضلال مثلاً لخيبة الكفار، وتكفير السيئات مثلاً لفوز الأبرار.

الإشارة: الذين كفروا بوجود الخصوصية، وصدوا الناسَ عنها؛ أبطل سيرهم إليه، فكلما ساروا رجعوا، والذين آمنوا الإيمان الكامل واتبعوا السنة النبوية، ستر مساوئهم، وأصلح شأنهم، حتى صلحوا لحضرته. قال القشيري: الذين كفروا: امتنعوا، وصدوا: منَعَوا[1]، فلامتناعهم عن الله استوجبوا العقوبة، ولمنعهم الخلق عن الله استوجبوا الحَجْبَةَ. ثم قال في قوله: ﴿ وأصلح بالهم ﴾: فالكفر للأعمال مُحْبِطٌ، والإيمان للخلود مُسْقِط، ويقال: الذين اشتغلوا بطاعة الله، ولم يعملوا شيئاً مما خالف اللهَ ـ فلا محالة ـ يقوم الله بكفاية أشغالهم. هـ.

(١) في القشيري: وصدوا فمَنعُوا.

وقوله تعالى: ﴿ذلك بأنَّ الذين كفروا اتبعوا الباطل...﴾ الآية، قال الورتجبى: اتبع الكفرة ما وقع فى مخايلهم، من هواجس النفس، ووساوس الشيطان، ولايقبلون طرائق الرشد من حيث الوحى والإلهام، وأنَّ الذين صدقوا فى دين الله، وشاهدوا الله بالله، اتبعوا سنة رسوله وخطابه، وما يقع فى أسرارهم من النور والبيان، والإلهام والكلام، بنعت الإخلاص فى طاعته، والأدب فى خدمته والإعراض عن غيره. قال ابن عطاء: اتباع الباطل: ارتكاب الشهوات وأمالى النفس، واتباع الحق: اتباع الأوامر والسنن. هـ. قال القشيرى: اتباع الحق بموافقة السنة، ومتابعة الجد فى رعاية الحق وإيثار رضاه، والقيام بالطاعة، واتباع الباطل: الابتداع والعمل بالهوى، وإيثار الحظوظ وارتكاب المعصية. هـ.

ثم أقرّ بجهاد من كفر وصدّ، فقال:

﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ (٤) سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ (٥) وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ (٦) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ (٧) وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (٨) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (٩) ﴾

قلت: (فضَرْب): مصدر، نائب عن فعله، مضاف إلى مفعوله، و(منًّا) و(فداء): مصدران لمحذوف، و(الذين كفروا): مبتدأ حُذف خبره، وهو العامل فى المصدر، أى: والذين كفروا فأتعسهم تعسًا، و(أضل أعمالهم): عطف على الخبر المحذوف.

يقول الحق جل جلاله: ﴿فإذا لقيتم الذين كفروا﴾ فى المحاربة ﴿فَضَرْبَ الرقابِ﴾، أصله: فاضربوا الرقاب ضرباً، فحذف الفعل وناب عن مصدره؛ للاختصار، مع إعطاء معنى التوكيد، لدلالة نصبه على مؤكده، وضرب الرقاب عبارةٌ عن مطلق القتل، والتعبير به عن القتل تصوير له بأشنع صورة وتهويل لأمره، وإرشاد للغزاة إلى أيسر ما يكون، ﴿حتى إذا أثخنتموهم﴾؛ أكثرتم فيه القتل، وأغلظتموه، من: الشىء الثخين، وهو الغليظ،

أو: أثقلتموهم بالجراح وهزمتموهم، ﴿فشُدُّوا الوَثاقَ﴾ أى: فأسِروهم، وشُدوا وثاقهم، لئلا يتفلتوا، والوثاق بالفتح والكسر: ما يشد به. فإذا أسرتموهم فتخيروا فيهم ﴿فإما منّاً﴾ أى: فإما أن تمنوا منّاً بعد الأسر، ﴿وإما فِداءً﴾: أن تفدوا فداء، والمعنى: التخير بين الأمرين بعد الأسر، بين أن يمنُّوا عليهم فيطلقوهم، وبين أن يُفادوهم ، ومذهب مالك: أن الإمام مُخيَّر فى الأسارى بين خمسة، وهى: المنّ، والفداء، والقتل، والاسترقاق، وضرب الجزية، وقيل: لايجوز المَن ولا الفداء؛ لأن الآية منسوخة بقوله: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾[1] فيتعين قتلهم، والصحيح أنها محكمة. ومَذْهَب الشافعى: أن الإمام مُخير بين أربعة: القتل ، والاسترقاق، والفداء بأسارى المسلمين، والمنّ. ولعل لجزية عنده خاصة بأهل الكتاب.

ومذهب أبى حنيفة: التخيير بين القتل والاسترقاق فقط، قال: والآية منسوخة؛ لأن سورة براءة آخر مانزل. وعن مجاهد: ليس اليوم منّ ولافداء، والمراد بالمنّ فى الآية؛ أن يمنّ عليهم بترك القتل، فيسترقوا، أو يمنّ عليهم بإعطاء الجزية. هـ.

والمشهور: مذهب مالك؛ لأن النبى ﷺ قتل عقبةَ بن أبى معيط، والنضر بن الحارث، يوم بدر صبراً، وفادى سائر الأسارى، ومَنّ على ثمامة بن أثال الحنفى، وهو أسير، واسترق نساء بنى قريظة، فباعهم، وضرب الجزية على نصارى نجران ومجوس هاجر.

ثم ذكر غاية الحرب فقال: ﴿حتى تضع الحربُ أوزارها﴾ أى: اضربوا رقابهم حتى تضع الحرب أثقالها، وآلاتها، التى لا تقوم إلا بها، كالسلاح والكراع، وذلك حيث لم يبق حرب، بأن تضع أهل الحرب عُدتها. وقيل: (أوزارها): آثامها، يعنى: حتى يترك أهل الحرب المشركين شركهم، بأن يُسلموا جميعاً. والمختار: أن المعنى: أثخنوا المشركين بالقتل والأسر حتى يظهر الإسلام على سائر الأديان، ويؤمن أهل الكتاب، طوعاً أو كرها، ويكون الدين كله لله، فلا يحتاج إلى قتال. وقال الحسن: معناه: حتى لايُعبد إلا الله. وقال ابن عطية: ظاهر اللفظ: أنها استعارة، يُراد بها التزام الأمر كذلك أبدا، كما تقول: أنا أفعل ذلك إلى يوم القيامة. هـ. فالغاية بـ «حتى» راجعة إلى الضرب والشد، وما ترتب عليه من المنّ والفداء.

﴿ذلك﴾ الأمر ذلك، أو افعلوا ذلك، ﴿ولو يشاء اللهُ لانتصرَ﴾: لانتقم ﴿منهم﴾ بغير قتال؛ بأن ينزل بهم أسباب الهلاك والاستئصال، كالخسف أو الرجف أو غيرذلك، ﴿ولكن﴾ أمركم بالقتال ﴿ليَبلُوا بعضكم ببعض﴾

(١) الآية ٥ من سورة التوبة.

أى: المؤمنين بالكافرين، فأمَرَهم بالجهاد ليستوجبوا الثواب العظيم، وليسلم من سبق إسلامه من الكافرين. ﴿ والذين قاتلوا[١] في سبيل الله ﴾ ؛ لإعلاء كلمة التوحيد، لا لغرض آخر، ﴿ فلن يُضِلَّ أعمالَهم ﴾ ؛ فلن يضيعها.

﴿ سيهديهمْ ﴾ في الدنيا إلى طريق الرشد والصواب، وفى الآخرة إلى جزيل الثواب، وقيل: يهديهم إلى جواب منكر ونكير، ﴿ ويُصلحُ بالَهم ﴾ بأن يَقبل أعمالهم ويُرضى خصماءهم، ﴿ ويُدخلهم الجنةَ عَرَّفَها لهم ﴾. قال مجاهد: عرفهم مساكنهم فيها؛ حتى لايحتاجوا إلى دليل لها[٢]، أو: طيّبها، من: العَرْف، وهو طيب الرائحة، ويمكن الجمع: بأن عَرْف المحل يهدى صاحبَه الى جنته ومحله.

﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا اللهَ ﴾ بنصر دينه وإظهار شريعه نبيه ﴿ ينصركمْ ﴾ على عدوكم، ويفتح لكم، ﴿ ويُثبت أقدامكمْ ﴾ فى مواطن الحرب ومواقفها، أو على محجة الإسلام، ﴿ والذين كفروا فتعساً لهم ﴾ أى: فيقال: تعساً لهم، والتعس: الهلاك، أو السقوط والانحطاط، أو العثار، أو البُعد. وقال ابن السكيت: التعس: أن يجر على وجهه. هـ أى: أتعسهم الله تعساً، أى: أهلكهم وأبعدهم. وقال ابن عباس : «فى الدنيا بالقتل والأسر، وفى الآخرة بالتردى فى النار». والمراد بالذين كفروا عام، وقيل: المراد من يضاد الذين ينصرون دين الله، كأنه قيل: إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم، ومن لم ينصره فتعساً له، فوضع «الذين كفروا» موضع من لم ينصره؛ تغليظاً، فهو وِفقٌ لأسلوب السورة من التقابل المعنوى، فهو عطف جملة على جملة شرطية مثلها، ولذلك دخلت الفاء فى خبر الموصول، كما قرره الزجاج. انظر الطيّبى. هـ من الحاشية. ﴿ وأضلَّ أعمالَهم ﴾ أى: أحبطها وأبطلها.

﴿ ذلك ﴾ التعس والإضلال ﴿ بأنهم كَرِهوا ما أنزلَ اللهُ ﴾ من القرآن؛ لما فيه من التوحيد؛ وسائر الأحكام، المخالفة لما ألفوه واشتهته أنفسهم الأمّارة بالسوء، ﴿ فأحْبَطَ ﴾ لأجل ذلك ﴿ أعمالَهم ﴾ التى كانوا عمِلُوها، من صلة الأرحام وغيرها.

الإشارة: نهايةُ الجهاد الأصغر: وضعُ الحرب أوزارهاَ بالإسلام أو السلم، ونهاية الجهاد الأكبر: استسلامُ النفس وانقيادها لما يُراد منها، أو موتها بالغيبة عنها بالكلية. قال بعض العارفين: انتهى سير السائرين إلى الظفر

---

(١) قرأ أبو عمرو وحفص (قُتلوا) بضم القاف، وقرأ الباقون (قاتلوا) بفتح القاف، وتخفيف التاء، وألف بينهما. انظر: السبعة لابن مجاهد / ٦٠٠ والإتحاف ٢/٤٧٥ ـ ٤٧٦.

(٢) هذا معنى ما قاله مجاهد وأكثر المفسرين. وقول مجاهد أخرجه الطبرى، وفى الصحيح ما يدل على صحة هذا القول، فقد أخرج البخارى في (الرقاق، باب القصاص يوم القيامة ح ٦٥٣٥) عن أبى سعيد الخدرى قال: قال رسول الله ﷺ: «يخلص المؤمنون من النار، فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار، فيقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم فى الدنيا حتى إذا هُذّبوا ونُقُّوا أذِنَ لهم فى دخول الجنة، فوالذى نفس محمد بيده لأحدُهم أهدى بمنزله فى الجنة منه بمنزله كان فى الدنيا».

بنفوسهم، فإن ظفروا بها وصلوا . هـ. فالإشارةُ بقوله: (إذا لقيتم الذين كفروا...) الخ إلى قتل الهوى والشيطان وسائر القواطع، حتى إذا أثخنتموهم فشُدُّوا وثاقهم، ولاتأمنوا غائلتهم.

قال القشيري، بعد كلام: وكذلك العبد إذا ظفر بنفسه؛ فلاينبغي أن يُبْقِيَ بعد انتقاش شوكها بقيةً، ولا في قلع شجرها مستطاعًا وميسورا؛ فالحيّة إن بقيت منها بقية من الحياة مَنْ وضع عليها إصبعه بَثّتْ سُمَّها فيه. هـ. فإذا تمكنتم من معرفة الله، فإما أن تَمُنّوا عليها بترك جهادها الأكبر، وإما أن تفدوها بالغيبة عنها في حلاوة الشهود، حتى تضع الحرب أوزارها بالموت، ولو شاء اللهُ لخلّصكم منها من غير جهاد، فالقدرة صالحة، ولكن ليختبركم، فيظهر السائرون من القاعدين مع حظوظهم «لولا ميادينُ النفوس ما تحقق سير السائرين»[1] . والذين قاتلوا نفوسهم في سبيل الله وطلبِ معرفته، فلن يُضلّ أعمالَهم، سيهديهم إلى معرفته، ويُصلح بالهم بالاستغراق في شهوده، ويُدخلهم جنة المعارف، قد عرّفها لهم، وبيّنها على أيدى الوسائط من الشيوخ العارفين، أو طيّبها لهم، فيهتدون بنسيم واردات التوجه، إلى أنوار المواجهة. وقد أشار تعالى بقوله: ﴿والذين قاتلوا في سبيل الله﴾ إلى طلب الإخلاص، فلا يوصل الجهاد الأصغر ولا الأكبر إلى رضوان الله، أو معرفته، إلا بتحقق الإخلاص، من غير التفات لغرض نفساني، لا عاجلاً ولا آجلاً.

ذكر الشيخ أبو نعيم الحافظ: أن ميْسرة الخادم، قال: غزونا في بعض الغزوات، فإذا بفتى[2] جانبي، وهو مقنع بالحديد، فحمل على الميمنة، ثم الميسرة، ثم على القلب، ثم أنشأ يقول:

أَحْسِنْ بِمولاكَ سَعيدُ ظَنّاً هَذَا الذى كُنتَ تَمَنّى[3]
تَنَحّ يَاحُورَ الْجِنَانِ عَنّا مَا فيك قَاتَلْنَا وَلاقُتلْنا
لِكنْ إِلى سَيدكُنّ اشْتَقْنَا قَدْ عَلِمَ السر ومَا أَعْلَنّا

قال: فحمَل فقاتل، فقتَل منهم عدداً، ثم رجع إلى موقفه، فتكالب عليه العدو، فحمَل، وأنشأ يقول:

قد كُنتُ أَرْجُو وَرَجَائي لَمْ يَخِبْ أَلاَيَضيعَ الْيومَ كَدِىَ والطَّلَبْ
يا من ملأَ تِلْكَ الْقُصُورِ باللعب لَوْلاَكَ ما طَابَتْ ولاَ طَابَ الطَّرَبْ

(١) حكمة عطائية رقم (٢٤٤) انظر الحكم بتبويب المتقى الهندى ص ١٨ .

(٢) اسمه «سعيد» كما هو واضح من البيت الأول، وترجم له أبو نعيم بـ «سعيد الشهيد، المقنع في الحديد، المشتاق إلى رؤية المنعم المجيد» .

(٣) هكذا في الأصول، وفي الحلية: [هذا الذى كنت له تمنى] .

ثم حمَلَ فقاتل، فقتل عدداً كثيرا، ثم رجع إلى مصافه، فتكالب عليه العدو، فحمَلَ ثالثة، وأنشأ يقول:

يَالُعبةَ الْخُلْدِ قِفِي ثُمَّ اسْمَعِي ... مـالكِ قَاتِلْنَا فَكُفّى وَارْجِعى

ثُمَّ ارْجِعِي إلى الْجِنَانِ وَأَسْرِعى ... لاتَطْمَعِي لاَ تَطْمَعى لاتطْمِعى

فقاتل رضي الله عنه حتى قُتل ـ رحمه الله. هـ(١).

قوله تعالى: ﴿إن تنصروا الله ينصركمْ ويُثبتْ أقدامكمْ﴾، فيه ترغيب وتنشيط لأهل الوعظ والتذكير، الداعين إلى الله، الذين يسعون فى إظهار الدين، وإرشاد عباد الله إلى محبة الله وطاعته. وفى الحديث عنه ﷺ: «والذى نفس محمد بيده، لئن شئتم لأقسمن لكم، إن أحب عباد الله إلى الله الذين يُحببون اللهَ إلى عباده، ويُحببون عباد الله إلى الله، ويمشون فى الأرض بالنصيحة». وقال أيضا: «الخلق عيال الله، وأحب الخلق إلى الله أنفعهم لعياله»(٢) وأعظم النفع: إرشادهم إلى الله، الذى هو سبب سعادتهم السرمدية.

وقال الورتجبى: نُصرةُ العبد لله: أن يجاهد نفسه وهواه وشيطانه، فإنهم أعداؤه، فإذا خاصمها يُقويه الله وينصره عليهم، بأن يدفع شرهم عنه، ويجعله مستقيماً فى طاعة الله، ويجازيه بكشف جماله، حتى يثْبُتَ فى مقام العبودية، وانكشاف أنوار الربوبية. هـ.

قال القشيرى: ونصرةُ الله للعبد بإعلاء كلمته، وقمع أعدائه. ثم قال فى قوله تعالى: ﴿ويُثبت أقدامكم﴾ هو إدامة التوفيق، لئلا ينهزم من صوْلة أعداء الدين، ولايضعُفَ قلبُه فى معاداتهم، ولا ينكسر باطنهُ ثقةً بالله فى إعزازِ دينه. هـ. ثم ذكر تعالى أضداد الداعين إلى الله، الناصرين لدينه، وهم المنتقدون عليهم، فقال: ﴿والذين كفروا فتعساً لهم﴾ أى: خيبةً لهم، ﴿وأضلّ أعمالهم﴾، فلا يتوصلون بها إلى معرفته، لكونها معلولة.

ثم أمر بالتفكر والنظر؛ لأنه أقرب الطرق إلى التخلص من غوائل الأعداء، فقال:

﴿ ۞ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْۖ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ﴿١٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾

(١) أخرجه أبو نعيم فى الحلية (١٠/١٦٥ ـ ١٦٦).
(٢) أخرجه البيهقى فى الشعب (ح ٧٤٤٥) والطبرانى فى الكبير (ح ١٠٠٣٣) وأبو يعلى فى مسنده (٦/ رقم ٣٣١٥ و ٣٣٧٠) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، وأخرجه البيهقى فى الشعب (ح ٧٤٤٨) وأبو نعيم فى الحلية (٢/١٠٢) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿أفلم يسيروا﴾ أي: أقعدوا فلم يسيروا ﴿في الأرض﴾، يعني كفار مكة، ﴿فينظروا كيف كان عاقبةُ الذين من قبلهم﴾ من الأمم المكذبة؟ فإنّ آثار ديارهم تنبئ عن أخبارهم، فقد ﴿دمَّر اللهُ عليهم﴾، فالجملة: استئناف مبني على سؤال، كأنه قيل: كيف كان عاقبتهم؟ فقيل: استأصل الله عليهم ما اختص بهم من أنفسهم وأهليهم وأموالهم، يُقال: دمّره؛ أهلكه، ودمّر عليه: أهلك عليه ما يختص به، قاله أبو السعود. وفي الصحاح: الدمار: الهلاك، دمّره تدميرا، ودمّر عليه، بمعنى. هـ. فظاهره: أن معناهما واحد، وفسره في الأساس بالهلاك المستأصل، وقال الطيبي: في دمّر عليهم تضمينُ معنى أَطبقَ، فعُدي بعلى، ولذلك استأصل. هـ.

﴿وللكافرين﴾ أي: ولهؤلاء الكافرين السائرين بسيرتِهم ﴿أمثالُها﴾ أي: أمثال تلك الهلكة المفهومة من التدمير، أو أمثال عواقبِهم أو عُقوباتهم، لكن لا على أنّ لهؤلاء أمثال ما لأولئك وأضعافَه؛ بل مثله، وإنما جمع باعتبار مماثلته لعواقبَ متعددة، حسبما تعدّد الأمم المعذّبة، ويجوز أن يكون عذابُهم أشدّ من عذاب الأولين؛ فقد قُتلوا وأُسروا بأيدي من كانوا يستخفونهم ويستضعفونهم، والقتل بيد المثل أشد ألماً من الهلاك بسبب عام. وقيل: دمّر اللهُ عليهم في الدنيا، ولهم في الآخرة أمثالُها.

﴿ذلك﴾ أي: نصرُ المؤمنين وهلاكُ الكافرين في الحال أو المال ﴿بأنَّ اللهَ مَولى الذين آمنوا﴾ أي: ناصرُهم ومعزُّهم ﴿وأنَّ الكافرين لامولى لهم﴾ فيدفع عنهم ما حلّ بهم من العقوبة، ولايخالف هذا قوله: ﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ﴾(١)؛ لأن المولى هناك بمعنى المالك.

﴿إن الله يُدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهارُ﴾، وهذا بيان لحكم ولاية الله لهم وثمرتِها الأخروية، ﴿والذين كفروا يتمتعون﴾ في الدنيا بمتاعِها أياماً قلائل، ﴿ويأكلون﴾ غافلين عن عواقبهم، غيرَ متفكرين فيها ﴿كما تأكل الأنعامُ﴾ في مسارحها، غافلة عما هي بصدده من النحر والذبح، فالتشبيهُ بالأنعام صادقٌ بالغفلةِ عن تدبير العاقبة، وعن شكر المنعم، وبعدم التمييز للمُضرّ من غيره، كأكل الحرام وعدم توَقيه، وكذا كونُه غيرَ مقصورٍ على الحاجة، ولا على وقتها، وسيأتي في الإشارة إن شاء الله. ﴿والنارُ مثوىً لهم﴾ أي: منزلُ ثَواه وإقامته، والجملةُ إما حال مقدرةٌ من واو (يأكلون)، أو استئناف.

---

(١) من الآية ٦٢ من سورة الأنعام.

الإشارة: تفكر الاعتبار يكون فى أربعة، **الأول**: فى سرعة ذهاب الدنيا وانقراضها، كأضغاث أحلام، وكيف غرّت مَن انتشب بها، وأخذته فى شبكتها، حتى قدِم على الله بلا زاد، وكيف دَمرَ اللهُ على أهل الطغيان، واستأصل شأفتهم، فيُنتج ذلك التشمير والتأهب ليوم الجزاء. **الثانى**: فى دوام دار البقاء، ودوام نعيمها، فينتهز الفرصة فى العمل الصالح. **الثالث**: فى النعم التى أنعم الله بها على عباده، الدنيوية والأخروية، الحسية والمعنوية، قال تعالى: ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا ﴾[1] فيُنتج ذلك الشكر، لتدوم عليه. **الرابع**: فى نصب هذه العوالم، على ما هى عليه من الإبداع والإتقان، فيُثمر ذلك معرفةَ الصانع، وباهرِ قدرته وحكمته.

وقوله تعالى: ﴿ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا...﴾ الخ، قال القشيرى: المَوْلَى: المحبُّ، فهو محب الذين آمنوا، والكافرين لايُحبهم، ويصح أن يُقال: أرجى آيةٍ فى القرآن هذه الآية، لم يقل مولى الزُهّاد والعُبّاد وأصحاب الأورادِ والاجتهاد؛ بل قال: ﴿مولى الذين آمنوا﴾، والمؤمن وإن كان عاصياً فهو من جملتهم. هـ. والمحبة تتفاوت بقدر زيادة الإيمان والإيقان حتى يصير محبوباً مقرباً.

قوله تعالى: ﴿والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام﴾، وكذلك الغافل، فالأنعام تأكل بلا تمييز، من أى موضع وجدت، كذلك الجاهل، لاتمييز له من الحلال أو من الحرام، والأنعام ليس لها وقت لأكلها، بل تأكل فى كل وقت، وكذلك الغافل والكافر. فقد ورد «أن الكافر يأكل فى سبعة أمعاء، والمؤمن يجتزئ بما تيسر»[2]، كما فى الخبر: «ما ملأ آدمىٌ وعاءً شراً من بطنٍ»[3]. والأنعام تأكل على الغفلة، فمن كان فى أكله ناسياً لربه، فأكلُه كأكل الأنعام. انظر القشيرى.

ولما أمرهم بالنظر فلم يفطنوا، هددهم بالهلاك، فقال:

﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُم ﴿١٤﴾ ﴾

---

(١) من الآية ٣٤ من سورة إبراهيم.

(٢) ورد بلفظ «إن المؤمن يأكل فى معىً واحد، وإن الكافر يأكل فى سبعة أمعاء» الحديث أخرجه البخارى فى (الأطعمة، باب المؤمن يأكل فى معىً واحد، ح ٥٣٩٣) ومسلم فى (الأشربة باب المؤمن يأكل فى معى واحد رقم ٢٠٦١، ح ١٨٤) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٣) بعض حديث أخرجه الترمذى فى (الزهد، باب ما جاء فى كراهية كثرة الأكل، ح ٢٣٨٠) وقال: «حديث صحيح» وابن ماجه فى (الأطعمة، باب الاقتصاد فى الأكل وكراهة الشبع، ح ٣٣٤٩) والنسائى فى الكبرى (آداب الأكل، باب ذكر القدر الذى يستحب للإنسان من الأكل ح ٦٧٦٨) والحاكم (٤/١٢١) «وصححه الذهبى» من حديث مقدام بن معدى كرب.

قلت : (كأيّن): كلمة مركبة من الكاف و«أيّ»، بمعنى كم الخبرية، ومحلها: الرفع بالابتداء ، وقوله: (هى أشد): نعت لقرية، و(أهلكناهم): خبر، وحذف المضاف، أى: أهل قرية، بدليل «أهلكناهم».

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وكأيّن من قرية﴾ أى: كثير من أهل قرية ﴿هى أشدُّ قوةً من قريتك ﴾؛ مكة، ﴿ التى أخرجتك ﴾ أى: تسببوا فى خروجك، أى: وكم من قوم هم أشدُّ قوةً من قومك الذين أخرجوك، ﴿ أهلكناهم ﴾ بأنواع العذاب، ﴿ فلاناصرَ لهم ﴾ فلم يكن لهم من ينصرهم ويدفعُ العذابَ عنهم، فأنتم يا معشر قريش أهونُ منهم، وأولى بنزول ماحجل بهم.

﴿ أفمن كان على بينة من ربه ﴾ أى: حُجةٍ واضحةٍ، وبرهانٍ قاطع، وهو القرآن المعجزُ، وسائر المعجزات، يعنى: رسول الله ﷺ. ﴿ كمن زُيّن له سوءُ عمله ﴾، وهم أهل مكة، زيّن الشيطانُ شركَهم وعداوتَهم لله ولرسول ﷺ، ﴿ واتبعوا أهوائهم ﴾ الزائغة، وانهمكوا فى فنون الضلالات، من غير أن يكون لهم شُبهة توهِمُ صحةَ ما هم عليه، فضلاً عن حُجةٍ تدل عليها. وقيل: المراد بمن كان على بينة: المؤمنون فقط، المتمسكون بأدلة الدين.

قال أبو السعود: وجعلُها عبارة عن النبى عليه السلام وعن المؤمنين، لايُساعده النظم الكريم، على أن الموازات بينه ﷺ، وبين من زُيّنَ له سوءُ عمله مما يأباه منَصبُه الجليل. والتقدير: أليس الأمر كما ذُكِر؟ فمن كان مستقراً على حُجةٍ ظاهرة، وبرهانٍ نيّر من مالكِ أمره ومربّيه، وهو القرآن، وسائر الحجج العقلية، ﴿كمن زُين له سوء عمله﴾ من الشرك وسائر المعاصى، مع كونه فى نفسه أقبح القبائح. هـ.

الإشارة: فى الآية تهديدٌ لمن يُؤذى أولياءَ الله، ويُخرجهم من مواطنهم بالهلاك العاجل أو الآجل. وقوله تعالى : ﴿أفمن كان على بينة من ربه﴾ تقدم فى سورة هود الكلام عليها[1] . وقال القشيرى هنا، فى تفسير البينة: هى الضياء والحُجة والاستبصار بواضح المحجة، فالعلماء فى ضياء برهانهم، والعارفون فى ضياء بيانهم، فهؤلاء بأحكام أدلة الأصول يُبصرون، وهؤلاء بحُكم الإلهام والوصول يستبصرون. هـ.

ثم عرّف بالجنة، التى تقدمت فى قوله: ﴿عرّفها لهم﴾، فقال:

﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ

(١) راجع إشارة الآية ١٧ من سورة هود.

﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ (١٥)﴾

قلت: (مثل) : مبتدأ حُذف خبره، أى: صفة الجنة ما تسمعون، وقدّره سيبويه: فيما يُتلى عليكم مثل الجنة، وقيل: المثل زائد، أى: الجنة فيها أنهار... الخ، و(كمن هو خالد) : خبر لمحذوف، أى: أمَن هو خالد فى هذه الجنة، كمن هو خالد فى النار؟.

يقول الحق جل جلاله : ﴿مَثَلُ الجنة﴾ أى: صفتها العجيبة، العظيمة الشأن ﴿التي وُعدَ المتقون﴾ الشركَ والمعاصى، هو ما نذكره لكم، ﴿فيها أنهار من ماء غيرِ آسنٍ﴾؛ غير متغير الطعم واللون والرائحة، يقال: أسن الماء: إذا تغير، سواء أنتن أم لا، فهو آسن وأسِن، ﴿وأنهار من لبن لم يتغيّر طعمُه﴾ كما تتغير ألبان الدنيا بالحموضة وغيرها، وانظر إذا تمنّاه كذلك مربّباً أو مضروباً. والظاهر: أنه يعطّاه كذلك، إذ فيها ما تشتهيه الأنفس. ﴿وأنهارٌ من خمرٍ لذةٍ للشاربين﴾ أى: لذيذة، ليس فيها كراهة طعمٍ وريحٍ، ولاغائلة سُكْرٍ، وإنما هى تلذذ محضٌ. و«لذة»: إما تأنيث «لذّ»، بمعنى لذيذ، أو: مصدر نُعت به للمبالغة.

﴿وأنهار من عسل مُصفّى﴾ لم يخرج من بطون النحل فيخالطه شمع أو غيره، وفى حديث الترمذى: «إنّ فى الجنة بحرَ الماء، وبحرَ اللبن، وبحر العسل، وبحر الخمر، ثم تُشقّق الأنهارُ بعدُ»(١) قال: حسن صحيح. وعن كعب: نهر دجلة من نهر ماء الجنة، والفرات نهر من لبنها، والنيل من نهر خمرها، وسيْحان من نهر عسلها، والكل يخرج من الكوثر(٢). قلت: ولعل الثلاثة لمّا خرجوا إلى الدنيا تغير حالُهم، ليبقى الإيمان بالغيب. والله تعالى أعلم.

قيل: بُدئ من هذه الأنهار بالماء؛ لأنه لايُستغنى عنه قط، ثم باللبن؛ لأنه يجرى مجرى المطعوم والمشروب فى كثير من الأوقات، ثم بالخمر؛ لأنه إذا حصل الريّ والمطعومُ تشوقت النفسُ إلى ما يلتذ به، ثم بالعسل؛ لأنه فيه الشفاء فى الدنيا مما يعرض من المشروب والمطعوم؛ فهو متأخر فى الرتبة.

---

(١) أخرجه الترمذى فى (صفة الجنة، باب ما جاء فى صفة أنهار الجنة ح ٢٥٧١) والدارمى فى (الرقائق، باب فى أنهار الجنة ح ٢٨٣٦) وأحمد فى المسند (٥/٥) عن حكيم بن معاوية عن أبيه، قال الترمذى: «حديث حسن صحيح».

(٢) ذكره بلفظه القرطبى (٧/٦٢٤٤) والبغوى فى التفسير (٧/٢٨٢) وذكره بلفظ مقارب السيوطى فى الدر (٦/٢٥) وعزاه للحرث بن أبى أسامة فى مسنده، عن كعب.

هذا، وقد وجدت على هامش النسخة الأم ما يلى: هذا من خرافات كعب، التى كثر بهما القصاص والوعاظ مسائل العلم، بدون طائل ولاجدوى، والحديث الصحيح إنما فيه أنها من الجنة، فإما أن ذلك حقيقة على ظاهره، وإما أن يكون خرج مخرج التشبيه، كما هو قول طائفة.

قلتُ: حديث أنها من أنهار الجنة أخرجه مسلم فى (الجنة، باب ما فى الدنيا من أنهار الجنة، ح ٢٨٣٩) عن أبى هريرة، ولفظه: «سيحان وجيحان والنيل والفرات كلٌ من أنهار الجنة».

﴿ولهم فيها﴾ مع ما ذكر من فنون الأنعام ﴿من كل الثمرات﴾ أي: صنف من كل الثمرات. ﴿و﴾ لهم ﴿مغفرةٌ﴾ عظيمة ﴿من ربهم﴾ أي: كائنة من ربهم، فهو متعلق بمحذوف، صفة لمغفرة، مؤكدة لما أفاده التنكير من الفخامة الذاتية بالفخامة الإضافية، أي: مغفرة عظيمة من ربهم. وعبّر بعنوان المغفرة دون الرحمة؛ إشعاراً بأن الميل إلى نعيم الأشباح نقص في الدارين يستوجب المغفرة.

أيكون هذا ﴿كمن هو خالد في النار﴾؟ أو: مثل الجنة كمثل جزاء من هو خالد في النار؟ وهو كلام في صورة الإثبات، ومعناه: النفي، لانطوائه تحت حكم كلام مصدّر بحرف الإنكار، ودخوله في حيّزه، وهو قوله: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ﴾(١)، وفائدة حذف حرف الإنكار: زيادةُ تصويرٍ لمكابرة من يسوّي بين المتمسك بالبيّنة والتابع لهواه، وأنه بمنزلة من يُثبت التسوية بين الجنة، التي يجري فيها تلك الأنهار، وبين النار، التي يُسقى أهلها الحميم الحار، المُشار إليه بقوله: ﴿وسُقوا ماءً حميماً﴾؛ حاراً في النهاية، إذا دنا منهم شوى وجوههم، ووقعت فروة رؤوسهم ﴿فقطَّع أمعاءهم﴾؛ مصارينهم، التي هي مكان تلك الأشربة. نسأل الله العافية.

الإشارة: مثل جنة المعارف، التي وُعدها المتقون كلَّ ما يشغل عن الله، فيها أنهار من ماء علوم الحقيقة، غير متغير صفاؤها، ولا متكدرة أنوارُها، و أنهار من لبن علوم الشريعة المؤيَّدة بالكتاب والسنة، لم تتغير حلاوة معاملتها، ولا لذة مناجاتها، وأنهار من خمرة الشهود، لذة للشاربين لها، تذهل حلاوتها العقول، وتفوتُ عن مدارك النقول، وأنهار من عسل حلاوة المكالمة والمسارَرة والمناجاة، صافيات الأوقات، محفوظة من المكدرات، ولهم فيها من طُرف الحِكَم، وفواكه العلوم، ما لاتحصيه الطروس، ولاتدركه محافل الدروس.

قال القشيري: (مثل الجنة)، أي: صفتها كذا ، وللأولياء اليوم، لهم شراب الوفاء ، ثم شراب الصفاء، ثم شراب الولاء، ثم شراب في حال اللقاء، ولكل من هذه الأشربة عملٌ، ولصاحبه سُكرٌ وصحوٌ، فمن تحسى شراب الوفاء لم ينظر إلى أحد من الخلق في أيام غيبته عن إحساسه، وأنشدوا:

وَمَا سَرَّ صَدْرِي مُنْذُ شَطَّتْ بِكَ النَّوى ... أنيس وَلاَكَأسٌ ولاَ مُتطرفُ(٢)

---

(١) الآية ١٤ من سورة محمد.

(٢) ورد: وما سر قلبي مذ شط به النوى ... نعيم ولاكأس ولامتصرف

ونسب إلى عبد الله بن أحمد بن مصروف. انظر يتيمة الدهر ٣/١٠٨.

ومَن شَرب بكأس الصفا خلص له عن كل شوب بلا كدورة فى عهده، فهو فى كل وقت ظامئ عن نفسه، خال عن مطالباته، قائم به، بلا شغل فى الدنيا ولا فى الأخرة، ومن شرب كأس الولاء عدم فيه القرار، ولم يغب سِرُّه لحظة، ليلاً ولا نهاراً، ومن شرب فى حال اللقاء أَنِسَ على الدوام ببقائه؛ فلم يطلب مع بقائه شيئاً آخر، لا من عطائه ولا من لقائه؛ لاستهلاكه فى علائه عند سطوات كبريائه. هـ.

قلت: أما شراب الوفاء؛ فهو عقد الإرادة مع الشيخ، أو عقد المحبة والخدمة مع الحق، فيجب الوفاء بكل منهما، وهو كشُرب العطشان من الماء العذب، وأما شراب الصفاء فهو صفاء العلم بالله، وهو كاللبن تتغذى به الأرواح فى حال ترقيها إلى الحضرة، وأما شراب الولاء فهو شراب أهل التمكين من الولاية الكبرى، فيشربون من الخمرة الأزلية، فيسكرون، ثم يصحون، وفيها يقول الششترى رضي الله عنه:

لاشراب الدوالِي، إنها أرضيه خمرُها دُون خمرى، خمرتى أزليه[1]

وأما شراب حال اللقاء؛ فالمراد به: أوقات رجوعهم إلى البقاء، فيتفننون فى علوم الحكمة وحلاوة المعاملة. والله تعالى أعلم.

ثم شفع بأضدادهم، فقال:

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ۚ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴿١٨﴾ ﴾

قلت: (آنفا): قال الزمخشرى ومن تبعه: ظرف، أى: الساعة، وقال أبو حيان: لا أعلم أحداً عدّه من الظروف، وجوّز «مكى» فيه الظرف والحالية». قال الهروى: «آنفاً» مأخوذة من: ائتنفت الشيء: إذا ابتدأته، وروضة أُنُف: إذا لم تُرعَ. المعنى: ماذا قال فى وقت يقرب من وقتنا؟. و(أن تأتيهم): بدل اشتمال من الساعة.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ومنهم من يستمعُ إليك﴾، وهم المنافقون، كانوا يحضرون مجلس رسول الله ﷺ، ويسمعون كلامه ولايَعُونَه، ولايُراعونَه حق رعايته، تهاوناً منهم، ﴿حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين أُوتوا

(١) انظر الديوان ص ٣١٠. والدوالى: العنب

العلم﴾ من الصحابة ـ رضى الله عنهم ـ: ﴿ماذا قال آنفاً﴾؛ ما الذى قال الساعة؟ على طريقة الاستهزاء، أو: ما القول الذى ائتنفه الآن قبل انفصالنا عنه؟.

وقال مقاتل: كان النبى ﷺ يخطب، ويعيب المنافقين، فسمع المنافقون قوله، فلما خرجوا من المسجد، سألوا ابنَ مسعود عما قال النبى ﷺ استهزاء[1]. وقال ابن عباس: أنا من الذين أُوتوا العلم، وقد سُئلت فيمن سُئل. [2]. ويقال: الناس ثلاثة: سامع عامل، وسامع غافل، وسامع تارك.

﴿أولئك الذين طبع اللهُ على قلوبهم﴾ لعدم توجهها إلى الخير أصلاً، ﴿واتبعوا أهواءهم﴾ الباطلة، فلذلك فعلوا ما فعلوا، مما لاخير فيه، ﴿والذين اهتدوا﴾ إلى طريق الحق ﴿زادهم﴾ الله بذلك ﴿هُدىً﴾ علماً وبصيرة، أو شرْح صدر بالتوفيق والإلهام، أو: زادهم ما سمعوا من الرسول ﷺ هدايةً على ما عندهم، ﴿وآتاهم تقواهم﴾؛ أعانهم عليها، أو: آتاهم جزاء تقواهم، أو: بيَّن لهم ما يتقون.

﴿فهل ينظرون﴾ أى: ما ينتظرون ﴿إلا الساعةَ أن تأتيهم بغتةً﴾ أى: تُباغِتهم بغتةً، وهى الفجاءة، والمعنى: أنهم لايتذكرون بأحوال الأمم الخالية، ولا بالإخبار بإتيان الساعة، وما فيها من عظائم الأهوال، وما ينظرون إلا إتيان نفس الساعة بغتة، ﴿فقد جاء أشراطُها﴾؛ علاماتها، جمع: شَرَط بالتحريك، بمعنى: العلامة، وهى مبعث محمد ﷺ، وانشقاق القمر، والدخان، على قول. وقيل: قطع الأرحام، وقلة الكرام، وكثر اللئام، فقوله تعالى: ﴿فقد جاء أشرطها﴾ تعليل لمفاجأتها، لا لمطلق إتيانها، على معنى: أنه لم يبق من الأمور الموجبة للتذكير أمر مترقب ينتظرونه سوى إتيان نفس الساعة، إذ قد جاء أشراطها، فلم يرفعوا لها رأساً، ولم يعدوها من مبادئ إتيانها؛ فيكون إتيانها بطريق المفاجأة لامحالة.

﴿فأنَّى لهم إذا جاءتهم ذِكراهم﴾، قال الأخفش: التقدير: فأنّى لهم ذكراهم إذا جاءتهم، أى: فمن أين لهم التذكير والاتعاظ إذا جاءتهم الساعة؟ فـ «ذكراهم»: مبتدأ، و«أنّى»: خبر مقدم، و«إذا جاءتهم»: اعتراض، وسط بينهما، رمز إلى غاية سرعة مجيئها، والمقصود: عدم نفع التذكير عند مجيئها، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإِنسَانُ وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ﴾[3].

---

(١) ذكره البغوى فى تفسيره (٧/٢٨٣).

(٢) أخرجه ابن جرير (٢٦/ ٥١) والحاكم (التفسير ٢/٤٥٧) بلفظ: «كنت فيمن يسئل»، والحديث صححه الحاكم، من طريق سعيد بن جبير، ووافقه الذهبى.

(٣) من الآية ٢٣ من سورة الفجر.

الإشارة: مجلس الوعظ والتذكير، إن كان المذكِّر من أهل التنوير، نهض المستمع له إلى الله قطعاً، لكن ذلك يتفاوت على قدر سريان النور فيه قطعاً، فمنهم من يصل النور إلى ظاهر قلبه، ومنهم من يصل إلى داخل القلب، ومنهم من يصل إلى روحه، ومنهم من يصل إلى سره، وذلك على قدر التفرغ والاستعداد، فمن وصل النورُ إلى ظاهر قلبه نهض إلى العمل الظاهر، وكان بين حب الدنيا والآخرة، ومن وصل إلى قلبه نهض بقلبه إلى الله، ورفض الدنيا وراءه، ومن وصل إلى روحه انكشف عنه الحجاب، ومن وصل إلى سره تمكن من شهود الحق.

وفي الحِكَم: «تسبق أنوارُ الحكماء أقوالَهم، فحيثما سار التنويرُ وصل التعبير»(١)، وهذا إن حضر مستفيداً، وأما إن حضر منتقداً، فهو قوله تعالى: ﴿ومنهم من يستمع إليك..﴾ الآية، والذين اهتدوا لدخول طريق التربية زادهم هُدىً، فلا يزالون يزيدون تربيةً وترقيةً إلى أن يصلوا إلى مقام التمكين من الشهود. قال القشيري: والذين اهتدوا بأنواع المجاهدات زادهم هُدىً لأنوار المشاهداتْ، واهتدوا بتأمل البرهان، فزادهم هُدىً بِرَوْح البيان، أو اهتدوا بعلم اليقين، فزادهم هُدىً بحق اليقين. هـ.

ثم ذكر سبب الهداية وأساسها، فقال:

﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ ١٩ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿فاعلم أنه لا إله إلا اللهُ﴾ أي: إذا علمت أن مدار السعادة، والفوز بالنعيم في دار البقاء هو التوحيد والطاعة، ومناط الشقاء والخسران في دار الهوان هو الإشراكُ والعصيان، فاثبت على ما أنت عليه من التوحيد، واعلم أنه لا إله في الوجود إلا الله، فلا يستحق العبادة غيره، ﴿واستغفر لذنبك﴾ وهو ما قد يصدر منه ﷺ من خلاف الأولى، عبّر عنه بالذنب نظراً إلى منصبه الجليل، كيف لا، وحسنات الأبرار سيئات المقربين؟ فكل مقام له آداب، فإذا أخلّ بشيء من آدابه أُمر بالاستغفار، فلمقام الرسالة آداب، ولمقام الولاية آداب، ولمقام الصلاح آداب، وضعفُ العبودية لايقوم بجميع حقوق الربوبية، قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾(٢). وبالجملة، فالقيام بالآداب مع الله ـ تعالى ـ على ما يستحقه ـ سبحانه ـ حتى يُحيط العبد بجميع الآداب مع عظمة

(١) حكمة (رقم ١٨٢) انظر تبويب الحكم للمتقي الهندي (ص ٣٦).

(٢) من الآية ٦٧ من سورة الزمر.

الربوبية محال عادة، قال ﷺ مع جلالة منصبه: «لا أُحصى ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك»[1] فكل ما قَرُبَ العبدُ من الحضرة شُدد عليه فى طلب الأدب، فإذا أخذته سِنةٌ أُمر بالاستغفار، ولذلك كان ﷺ يستغفر فى المجلس سبعين مرة، أو مائة، على ما فى الأثر[2].

وقال شيخ شيوخنا، سيدى عبدالرحمن الفاسى، بعد كلام: والحق أن استغفاره ﷺ طلب ثبات المغفرة والستر من الوقوع، لاطلب العفو بعد الوقوع، وقد أخبره تعالى بأنه فعل. وقد يُقال: استغفار تعبد لاغير. قال: والذى يظهر لى أن أمره بالاستغفار مع وعد الله بأنه مغفور له؛ إشارة إلى الوقوف مع غيب المشيئة، لا مع الوعد، وذلك حقيقةٌ، والوقوف مع الوعد شريعة. وقال الطيبى: إذا تيقنت أن الساعة آتية، وقد جاء أشراطها، فخُذ بالأهم فالأهم، والأَولى فالأَولى، فتمسك بالتوحيد، ونزِّه اللهَ عما لا ينبغى، ثم طَهِّر نفسك بالاستغفار عما لا يليق بك، مِن ترك الأَولى، فإذا صِرت كاملاً فى نفسك فكن مكمِلاً لغيرك، فاستغفر ﴿للمؤمنين والمؤمنات﴾. هـ. أى: استغفر لذنوبهم، بالدعاء لهم، وترغيبهم فيما يستدعى غفران ذنوبهم.

وفى إعادة الجار تنبيه على اختلاف متعلّقيْه؛ إذ ليس موجبُ استغفاره ﷺ كموجب استغفارهم، فسيئاته ـ عليه السلام ـ فرضاً ـ حسناتهم. وفى حذف المضاف، وإقامة المضاف إليه مقامه ـ أى: ولذنب المؤمنين ـ إشعار بعراقتهم فى الذنوب، وفرط افتقارهم إلى الاستغفار.

﴿واللهُ يعلم متقلَّبكم ومثواكم﴾ أى: يعلم متقلبكم فى الدنيا، فإنها مراحل لابد من قطعها، ويعلم مثواكم فى العقبى؛ فإنها مواطن إقامتكم، فلا يأمركم إلا بما هو خير لكم فيهما، فبادِروا إلى الامتثال لما أمركم به، فإنه المهم لكم، أو: يعلم متقلبكم: فى معايشكم ومتاجركم، ومثواكم: حيث تستقرون فى منازلكم، أو متقلبكم: فى حياتكم، ومثواكم: فى القبور، أو: متقلبكم: فى أعمالكم الحسنة أو السيئة، ومثواكم: من الجنة أو النار، أو: يعلم جميع أحوالكم فلا يخفى عليه شيء منها، فمثله حقيق بأن يُخشى ويُتقى ويُستغفر.

الإشارة: قال القشيرى: قال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿فاعلم أنه لا إله إلا الله﴾، وكان عالماً، ولكن أمره باستدامة العلم واستزادته، وذلك فى الثانى من حاله فى ابتداء العلم، لأن العلم أمر، ولايجوز البقاء على الأمر الواحد، فكل لحظة يأتى فيها علم. ويقال: كان له علم اليقين، فأُمر بعين اليقين، أو: كان له عين اليقين، فأُمر

(١) بعض حديث صحيح، أخرجه مسلم فى (الصلاة، باب ما يقال فى الركوع والسجود ح ٤٨٦) من حديث السيدة عائشة ـ رضى الله عنها.
(٢) أخرج مسلم فى (الذكر والدعاء والتوبة، باب الاستغفار واستحباب الاستغفار والاستكثار منه ح ٢٧٠٢) عن الأغر المزنى، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنه ليغان على قلبى وإنى لأستغفر الله فى كل يوم مائة مرة».

بحق اليقين. ويقال: قال ﷺ: «أنا أعلمكم بالله وأخشاكم له» فنزلت الآية[1]، أي: أُمر بالتواضع. وهنا سؤال: كيف قال: «فاعلم» ولم يقل ﷺ بعدُ: علمتُ، كما قال إبراهيم حين قال له: ﴿أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ﴾[2] ويُجاب: بأن الله تعالى أخبر عنه بقوله: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ﴾[3] والإيمان هو العلم، فإخبارُ الحق ـ تعالى ـ عنه أتم من إخباره عن نفسه بقوله: علمته.

ويُقال: إبراهيم عليه السلام لما قال: ﴿أسلمتُ﴾؛ ابتلى، ونبينا ﷺ لم يقل علمت، فعُوفى، ويقال: فرق بن موسى، لمّا احتاج إلى زيادة العلم أُحيل على الخضر، ونبينا ﷺ قال له: ﴿قُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾[4] فكم بين من أُحيل فى استزاده العلم على عبد، وبين من أُمِر باستزادة العلم من الحق. ويقال: إنما أمره بقوله: ﴿فاعلم﴾ بالانقطاع إليه من الحظوظ من الخلق، ثم بالانقطاع منه إليه، وإذا قال العبد هذه الكلمة على العادة، والغفلة عن الحقيقة، [وهى نصف البيان][5]؛ فليس لهذا القول كبيرُ قيمةٍ، وهذا إذا تعجب من شيء فذكر هذه الكلمة، فليس له قَدْرٌ، وإذا قاله مخلصاً ذاكراً لمعناها، متحققاً بحقيقتها، فإن قاله بنفسه فهو فى وطن التفرقة، وعندهم هذا من الشِّرْكِ الخفىّ، وإن قاله بالحق فهو إخلاص، والعبد أولاً يعلم ربه بدليلٍ وحُجةٍ، فعلمه بنفسه ضرورى، وهو أصل الأصول، وعليه ينبنى كل علم استدلالى، ثم تزداد قوةُ علمه بزيادة البيان، وزيادة الحجج، ويتناقص علمه بنفسه لغلبة ذكرِ الله بقلبه عليه، فإذا انتهى لحال المشاهدة، واستيلاء سلطان الحقيقة عليه، صار علمه فى تلك الحالة ضرورياً، ويقِل إحساسه بنفسه، حتى يصير علمه بنفسه كالاستدلال، وكأنه غافلٌ عن نفسه، أو ناسٍ لنفسه، ويُقال: الذى فى البحر غلب عليه ما يأخذه من الرؤية عن ذكر نفسه، فإذا ركب البحر فهو من هذه الحالة، فإذا غرق فى البحر فلا إحساس له بشيء سوى ما هو مستغرقٌ فيه مستهلَك. هـ.

قلت: لامدخل للحجج هنا، وإنما هو أذواق وكشوفات، فالصواب أن يقول: ثم تزداد قوة علمه، بزيادة الكشف والذوق، حتى يغيب عن وجوده، بشهود معبوده، فيتناقض علمه، فيصير علمه بالله ضرورياً، وعلمه بعدم وجوده ضرورياً، والله تعالى أعلم.

---

(١) نزول الآية فى هذا لم أقف عليه، أما الحديث فصحيح، فقد ترجم البخارى فى صحيحه (كتاب الإيمان، باب قول النبى ﷺ «أنا أعلمكم بالله» ح ٢٠) وأورد حديث السيدة عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت: كان رسول الله ﷺ إذا أمرهم من الأعمال بما يطيقون، قالوا: إنا لسنا كهيئتك يا رسول الله، إن الله قد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، فيغضب ﷺ، حتى يعرف الغضب فى وجهه، ثم يقول: «إن أتقاكم وأعلمكم بالله أنا». وأخرج البخارى أيضاً فى (الأدب، باب من لم يواجه الناس بالعتاب ح ٦١٠١) عن السيدة عائشة ـ رضى عنها ـ قالت: صنع رسول الله ﷺ شيئاً، فترخص فيه، فتنزه عنه قوم، فبلغ ذلك النبى ﷺ، فخطب فحمد الله، ثم قال: «ما بال أقوام يتنزهون عن الشيء أصنعه، فالله إنى لأعلمهم بالله عز وجل، وأشدهم له خشية».

(٢) من الآية ١٣١ من سورة البقرة.

(٣) من الآية ٢٨٥ سورة البقرة.

(٤) من الآية ١١٤ من سورة طه.

(٥) فى القشيرى: [أى كان بصفة النسيان] وهو أنسب.

وقوله تعالى: ﴿واستغفر لذنبك﴾ قال الورتجبي عن الجنيد: إي: اعلم حقيقة أنك بنا ولنا وبنا، علمتنا، وإياك أن ترى نفسك في ذلك، فإن خطر بك خاطر غيرٍ، فاستغفر من خاطرك، فلا ذنب ولاخطب أعظم ممن رجع عنا إلى سوانا، ولو في خطرة ونفَس. ثم قال عن الأستاذ القشيري: إذا علمت أنك علمته فاستغفر لذنبك من هذا؛ فإن الحق علا جلال قدره أن يعلمه غيره. هـ. قلت : وحاصله: أنّ استغفاره ﷺ ما عسى أن يخطر بباله رؤية وجوده، كما قال الشاعر:

وجُودك ذَنْبٌ لايُقَاسُ به ذَنْبُ

فَلا وُجُودَ لِلْغيْرِ مَعَهُ أَصلاً، فهو الذي عرف نفسه بنفسه، ووحّد نفسه بنفسه، وقدّس نفسه بنفسه، وعظّم نفسه بنفسه، كما قال الهروي رضي الله عنه حين سئل عن التوحيد الخاص:

مَا وَحّدَ الوَاحِدَ مِنْ وَاحِد إِذْ كُلُّ مَنْ وَحّدَه جَاحِدُ
تَوحِيدُ مَنْ يَنْطِقُ عن نَعْتِه عَارِيَةٌ أَبْطَلَهَا الوَاحِدُ
تَوحِيدُه إِيَّاه توحِيدُه ونَعْتُ مَنْ يَنْعَتُه لاحِدُ(١)

ثم ذكر حال المؤمنين والمنافقين عند نزول الوحي، فقال:

﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡلَا نُزِّلَتۡ سُورَةٞۖ فَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ مُّحۡكَمَةٞ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلۡقِتَالُ رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ نَظَرَ ٱلۡمَغۡشِيِّ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ فَأَوۡلَىٰ لَهُمۡ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٞ وَقَوۡلٞ مَّعۡرُوفٞۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلۡأَمۡرُ فَلَوۡ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ ﴿٢١﴾ فَهَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن تَوَلَّيۡتُمۡ أَن تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرۡحَامَكُمۡ ﴿٢٢﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمۡ وَأَعۡمَىٰٓ أَبۡصَٰرَهُمۡ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله : ﴿ ويقول الذين آمنوا لولا نُزِّلت سورةٌ ﴾ فيها ذكر الجهاد، وذلك أنّ المؤمنين كان حرصهم على الجهاد يبعثهم على تمنى ظهور الإسلام، وتمنى قتال العدو، فكانوا يأنسون بالوحي ،

(١) راجع التعليق على هذه الأبيات عند إشارة الآيات: ٢ ـ ٤ من سورة الفاتحة.

ويستوحشون إذا أبطأ، وكان المنافقون على العكس من ذلك، ﴿فإذا أُنزلت سورةٌ﴾ في معنى الجهاد ﴿محكمةٌ﴾ أي: مبيّنة غير متشابهة، لاتحتمل وجهاً إلا وجوب الجهاد. وعن قتادة: كل سورة فيها ذِكْر القتال فهي محكمة[1]؛ لأن النسخ لايرِدُ عليها؛ لأن القتال نسَخَ ما كان قبلُ من الصلح والمهادنة، وهو غير منسوخ إلى يوم القيامة. هـ.

﴿وذُكِر فيها القتالُ﴾ أي: أُمر فيها بالجهاد ﴿رأيتَ الذين في قلوبهم مرض﴾؛ نفاق، أي: رأيت المنافقين فيما بينهم يضجرون منها، ﴿ينظرون إليك نظرَ المغشيِّ عليه من الموت﴾ أي: تشخص أبصارُهم جُبناً وجَزَعا؛ كما ينظر من أصابته الغشيةُ عند الموت.

قال القشيري: كان المسلمون تضيق صدورُهم لتأخر الوحي، وكانوا يتمنون أن ينزل الوحيُ بسرعةٍ، والمنافقون إذا ذُكر القتال يكرهون ذلك؛ لما كان يشُق عليهم القتال، فكانوا بذلك يفتضحون وينظرون إليه نظر المغشيِّ عليه من الموت؛ أي: بغاية الكراهة لذلك، ﴿فأولَى لهم﴾ تهديد، أي: الوعيد لهم. هـ. وقيل: المعنى: فويل لهم، وهو أفعل، من: الوَلْي، وهو القرب، والمعنى: الدعاءُ عليهم بأن يليَهم المكروه، ويقربَ من ساحتهم، وقيل: أصله: أَوْيَل، فقُلب، فوزنه: أفلَع، قال الثعلبي: يقال لمن همّ بالعطَب ثم أفلت: أولى لك، أي: قاربت العطَب.

وقوله تعالى: ﴿طاعةٌ وقولٌ معروف﴾: استئناف، أي: طاعة لله وللرسول، وقولٌ معروف حسن خيرٌ لهم، أو: يكون حكايةَ قولِ المنافقين، أي: قالوا: أمْرُنا طاعة وقول معروف، قالوه نفاقاً، فيكون خبراً عن مضمر، وقيل: «أَوْلَى»: مبتدأ، و«طاعة»: خبره، وهذا أحسن، وهو المشهور من استعمال «أَوْلى» بمعنى: أحق وأصوب، أي: فالطاعة والقول المعروف أَوْلى لهم وأصوب.

﴿فإذا عزَمَ الأمرُ﴾ أي: فإذا جدّ الأمر ولزمهم القتال ﴿فلوْ صدَقوا اللهَ﴾ في الإيمان والطاعة ﴿لكان﴾ الصدق ﴿خيراً لهم﴾ من كراهة الجهاد، وقيل: جواب «إذا» وهو العامل فيها ـ محذوف، أي: فإذا عزم الأمرُ خالفوا أو تخلفوا، أو نافقوا، أو كرهوا.

﴿فهل عسيتم إن توليتم أن تُفسدوا في الأرض وتُقطِّعوا أرحامكم﴾ أي: فلعلكم إن أعرضتم عن دين الله وسنة رسول الله ﷺ أن ترجعوا إلى ما كنتم عليه في الجاهلية من الإفساد في الأرض، بالتغاور والتناهب، وقطع الأرحام، بمقاتلة بعض الأقارب بعضاً، أو: فهل عسيتم إن توليتم أمور الناس وتأمّرتم عليهم أن تُفسدوا في الأرض، تَفاخراً على الملك، وتهالكاً على الدنيا، فإن أحوالكم شاهدة بذلك من خراب الدين، والحرص على الدنيا. قال في

(١) أخرج قول قتادة، الطبري (٢٦/ ٥٤).

الحاشية الفاسية: والأشهر أنه من الوِلاية، أى: إن وُليتم الحكم، وقد جاء حديث أنهم قريش؛ أخذ الله عليهم إن وُلوا أمر الناس ألا يُفسدوا، ولايَقطعوا الأرحام، قاله ابن حجر(1). هـ.

وخبر «عسى»: «أن تُفسدوا»، والشرط اعتراض بين الاسم والخبر، والتقدير: فهل عسيتم أن تُفسدوا فى الأرض إن توليتم. تقول: عسى يا فلان إن فعلت كذا أن يكون كذا، فهل عسيتَ أنت ذلك، أى: فهل توقعت ذلك؟ ﴿ أولئك ﴾ المذكورون، فالإشارة إلى المخاطبين، إيذاناً بأن ذكر مساوئهم أوجبَ إسقاطَهم عن رتبة الخطاب، وحكاية أحوالهم الفظيعة لغيرهم، وهو مبتدأ، وخبره: ﴿ الذين لعنهم اللهُ ﴾ ؛ أبعدهم عن رحمته، ﴿ فأصَمَّهم ﴾ عن استماع الحق والموعظة لتصاممهم عنه بسوء اختيارهم، ﴿ وأعمى أبصارهم ﴾ لتعاميهم عما يُشاهدونه من الآيات المنصوبة فى الأنفُس والآفاق.

﴿ أفلا يتدبرون القرآنَ ﴾ فيعرفون ما فيه من المواعظ والزواجر؛ حتى لايقعوا فيما وقعوا فيه من الموبقات، ﴿ أم على قلوبٍ أقفالها ﴾ فلا يصل إليها وعظ أصلاً، و«أم» منقطعة، وما فيها من معنى «بل» للانتقال من التوبيخ على عدم التدبر إلى التوبيخ بكون قلوبهم مُقفلة، لاتقبل التدبر والتفكر، والهمزة للتقرير. وتنكير «قلوب»، إما لتهويل حالها، وتفظيع شأنها، بإبهام أمرها فى الفساد والجهالة، كأنه قيل: قلوب منكرة لايُعرف حالها، ولا يُقادر قدرُها فى القسوة، وإما لأنَّ المراد بها قلوبُ بعضٍ منهم، وهم المنافقون، وإضافة الأقفال إليها للدلالة على أنها مخصوصة بها، مناسبة لها، غير مجانسة لسائر الأقفال المعهودة.

قال القشيرى: إذا تدبروا القرآنَ أفضى بهم إلى حس العرفان، وأزاحهم عن ظلمة التحيُّر ﴿أم على قلوب أقفالها﴾ أقفَل الحقُّ على قلوب الكفار، فلا يدخلها زواجر التنبيه، ولاتنبسط عليها شعاعُ العلم، ولايحصل فيهم الخطابُ، والبابُ إذا كان مُقفلاً، فكما لايدخل فيه شيء لا يخرج ما فيه، كذلك هى قلوب الكفار مقفلة؛ فلا الكفر الذى فيها يخرج، ولا الإيمان الذى يدعوْن إليه يدخل فى قلوبهم. هـ.

وقال ابن عطية: هو الران الذى منعهم من الإيمان، ثم ذكر حكاية الشاب، وذلك أن وفْد اليمن قدم على النبىِّ ﷺ وفيهم شاب، فقرأ عليهم النبىُّ ﷺ هذه الآية، فقال الشابُ: عليها أقفالها حتى يفتحها الله ويُفرِّجَها، قال عمر:

(1) فى فتح البارى (التفسير، سورة سيدنا محمد ﷺ ٨/٤٤٥) وعزى ابن حجر الحديث المشار إليه للطبرى فى تهذيبه، من حديث عبدالله بن مغفل. ونصه: «سمعت النبي ﷺ يقول: «﴿فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض﴾ قال: هم هذا الحى من قريش، أخذ الله عليهم إن ولوا الناس أن لايفسدوا فى الأرض ولايقطعوا أرحامهم».

فعظُم في عيني، فمازالت في نفس عمر رضي الله عنه ـ حتى وَلِي الخلافة، فاستعان بذلك الفتى[1]. هـ. وفي الحديث: «إذا أراد الله بعبد خيراً فتح له قُفل قلبه، وجعل فيه اليقين»[2].

الإشارة: أهل التوجه والرياضة يفرحون بما ينزل بهم، مما يثقل على نفوسهم، كالفاقات والأزمات، وتسليط الخلق عليهم، وغير ذلك من النوائب؛ لتموت نفوسهم؛ فتحيا قلوبهم وأرواحهم بمعرفة الله، والذين في قلوبهم مرض كالوساوس والخواطر يفرون من ذلك، وينظرون ـ حين يرون أمارات ذلك ـ نظر المغشي عليه من الموت، فالأَوْلى لهم الخضوع تحت مجاري الأقدار، والرضا والتسليم لأحكام الواحد القهار، فإذا عزم الأمرُ بالتوجه إلى جهاد النفس، أو بالسفر إلى من يُداويها، فلو صدقوا في الطلب، وتوجهوا للطبيب، لكان خيراً لهم. فهل عسيتم إن توليتم وأعرضتم عن ذلك، ولم تُسافروا إلى الطبيب، أن تُفسدوا في الأرض بالمعاصي والغفلة، وتُقطعوا أرحامكم، إذ لايصل رَحِمَه حقيقةً إلا من صفا قلبه، ودخله الخوف والهيبة، أولئك الذين أبعدهم اللهُ عن حضرته، فأصمَّهم عن سماع الداعي إلى الله، وأعمى أبصارهم عن رؤية خصوصيته، وأنوار معرفته، أفلا يتدبرون القرآن، فإنّ فيه علومَ الظاهر والباطن، لكن إذا زالت عن القلوب الأقفال، وحاصلها أربعة: حب الدنيا، وحب الرئاسة، والانهماك في الحظوظ والشهوات، وكثرة العلائق والشواغل، فإن سلِمَ من هذه صفا قلبُه، وتجلت فيه أسرارُ معاني الذات والصفات، فيتدبر القرآن، ويغوص في بحر أسراره، ويستخرج يواقيته ودرره. وبالله التوفيق.

ثم ذكر من رجع بعد التوجه، فقال:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ ۖ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٢٨﴾ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم

---

(١) أخرجه الطبري (٥٨/٢٦) والبغوي في التفسير (٢٨٧/٧) وزاد السيوطي عزوه في الدر (٥٢/٦) لإسحاق بن راهويه، وابن المنذر، وابن مردويه، عن عروة.

(٢) ذكره في كنز العمال (ح ٣٠٧٦٨) وعزاه لأبي الشيخ عن أبي ذر. وقال المناوي في الفيض (٢٦٠/١): «وفيه سعيد بن إبراهيم، قال الذهبي: مجهول». وبقية الحديث: «جعل فيه اليقين والصدق، وجعل قلبه واعياً لما سلك فيه، وجعل قلبه سليماً، ولسانه صادقاً، وخليقته مستقيمة، وجعل أذنه سميعةً، وعينه بصيرة».

﴿مَرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾﴾

يقول الحق جل جلاله : ﴿إنَّ الذين ارتدُّوا على أدبارهم﴾ أي: رجعوا إلى الكفر، وهم المنافقون، الذين وُصفوا قبلُ بمرض القلوب، وغيره، من قبائح الأفعال والأحوال، فإنهم كفروا به ﷺ ﴿من بعدما تبيَّن لهم الهُدى﴾ بالدلائل الظاهرة، والمعجزات القاهرة. وقيل: اليهود، وقيل: أهل الكتابيْن جميعاً، كفروا به ﷺ بعدما وجدوا نعته فى كتابهم، وعرفوا أنه المنعوت بذلك، وقوله تعالى: ﴿الشيطانُ سولَ لهم﴾ ، الجملة: خبر «إن» أى: الشيطان زيَّن لهم ذلك، أو: سهَّل لهم ركوب العظائم، من: السّول، وهو الاسترخاء، أى: أرْخى العنانَ لهم، حتى جرَّهم إلى مراده، ﴿وأمْلَى لهم﴾ ؛ ومدَّ لهم فى الآمال والأمانى، وقرأ البصرى: «وأُمْلِيَ» بالبناء للمفعول، أى: أُملوا ومُدَّ فى عُمرهم.

﴿ذلك بأنهم قالوا للذين كَرِهوا ما نزّل اللهُ﴾ الإشارة إلى ما ذُكر من ارتدادهم، لا إلى الإملاء، ولا إلى التسويل ـ كما قيل ـ إذ ليس شيئاً منهما سبباً فى القول الآتى؛ أى: ذلك الارتداد بسبب أنهم ـ أى المنافقون ـ قالوا لليهود الذين كرهوا ما نزَّل الله من القرآن على رسول الله ﷺ بعدما علِموا أنه من عند الله حسداً وطمعاً فى نزوله عليهم: ﴿سنُطيعكم في بعض الأمر﴾ أى: عداوة محمد [والقعود عن][(١)] نصرِ دينه، أو: فى نصرهم والدفع عنهم إن نزل بهم شيء، من قِبَلِه ﷺ، وهو الذى حكاه عنهم بقوله تعالى: ﴿ألمْ تر إلى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لإِخْوانِهِمْ...﴾ الآية[(٢)] وهم بنو قريظة والنضير، الذين كانوا يُوالونهم ويُوادونهم، وإنما كانوا يقولون لهم ذلك سراً، كما ينبئ عنه قوله تعالى: ﴿والله يعلم أسرارهم﴾[(٣)] أى: جميع أسرارهم التى من جملتها: قولهم هذا، وقرأ الأخوان وحفص بكسر الهمزة مصدر، أى: إخفاءَهم لما يقولون لليهود.

﴿فكيف﴾ تكون حيلتهم وما يصنعون ﴿إذا توفتهم الملائكةُ﴾ حال كونهم ﴿يضربون وجوهَهم وأدبارَهم﴾ ، وهو تصوير لحال توفيهم على أهْوَل الوجوه وأفظعها. وعن ابن عباس رضي الله عنهما : «لايتوفى أحدٌ على

(١) ما بين المعقوفتين ليس فى الأصول، وأثبته لاقتضاء السياق له.

(٢) الآية ١١ من سورة الحشر.

(٣) قرأ حفص وحمزة والكسائى «إسرارهم» بكسر الهمزة، مصدر «أسرَّ»، وقرأ الباقون «بالهمزة المفتوحة» جمع: سِرّ.
انظر الهداية للمهدوى (٢/٥١٦) والإتحاف ٢/٤٧٨.

معصية إلا تضرب الملائكة وجهَهُ ودُبره»[1]. ﴿ذلك﴾ التوفى الهائل ﴿بأنهم﴾، بسبب أنهم ﴿اتبعوا ما أسخط الله﴾ من الكفر والمعاصي ومعاونة الكفرة، ﴿وكَرِهُوا رضوانه﴾ من الطاعة والإيمان ونصر المؤمنين، ﴿فأحْبَطَ﴾ لأجل ذلك ﴿أعمالَهم﴾ التى عملوها حال الإيمان وبعد الارتداد، من أعمال البر.

﴿أمْ حَسِبَ الذين في قلوبهم مرضٌ﴾، هم المنافقون الذين فصلت أحوالهم الشنيعة، ﴿أن لن يُخرج اللهُ أضغانهم﴾؛ أحقادهم، فـ «أمْ» منقطعة، و«أن» مخففة، واسمها: ضمير الشأن، أى: أظن المنافقون الذين فى قلوبهم حقد وعداوة أنه لن يُخرج اللهُ حقادهم، ولن يُبرزَها لرسول الله ﷺ والمؤمنين، فيبقى أمورَهم مستورة؟ بل لايكاد يدخل ذلك تحت الاحتمال.

﴿ولو نشاء لأريناكهم﴾ ودللناك عليهم بأمارات، حتى تعرفهم بأعينهم، معرفةً مزاحِمةً للرؤية. والالتفات لنون العظمة لإبراز العناية بالإرادة، وفى مسند أحمد، عن ابن مسعود: خطبنا رسول الله ﷺ فحمد الله، وأثنى عليه، ثم قال: «إن منكم منافقين، فمن سميتُ فليقم، ثم قال: قم يا فلان، حتى سمى ستة وثلاثين»[2] انظر الطيبى. ﴿فلَعَرفتَهم بسيماهم﴾؛ بعلامتهم التى نَسِمُهم بها، وعن ابن عباس رضي الله عنه: ما خَفى عن رسول الله ﷺ بعد هذه الآية شيء من المنافقين؛ كان يعرفهم بسيماهم، ولقد كنا فى بعض الغزوات وفيها تسعة من المنافقين، يشكُرهم الناس[3]؛ فناموا، فأصبح على وجه كل واحد منهم مكتوب: هذا منافق،[4] قال ابن زيد: قصد الله إظهارَهم، وأمرَهم أن يخرجوا من المسجد، فأبوا إلا أن يتمسكوا بلا إله إلا الله، فحُقِنت دمائهم، ونَكحوا ونُكح منهم بها.

﴿ولَتعرِفَنَّهم﴾ أى: والله لتعرفنهم ﴿في لحن القول﴾ أى: مجراه وأسلوبه وإمالته عن الاعتدال؛ لما فيه من التذويق والتشديق، وقد كانت ألسنتهم حادة، وقلوبهم خارية، كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ...﴾ الآية[5]، مَن فى قلبه شيءٌ لابد أن يظهر على لسانه، كما قيل: «ما كَمن فيك ظَهَرَ على فيك». وهذه الجُمل كلها داخلة تحت «لوْ» معلقةً بالمشيئة، واللحن يُطلق على وجهين: صواب وخطأ، فالفعل من الصواب: لَحِنَ يلْحَنُ لَحْناً،

(١) ذكره القرطبى (٧/٦٢٥٧) بنحوه.
(٢) أخرجه أحمد فى المسند (٥/٢٧٣) والطبرانى فى الكبير (١٧/٢٤٦ ح ٦٨٧).
(٣) فى القرطبى: يشك فيهم الناس.
(٤) على هامش النسخة الأم مايلى: «هذا غريب جداً، بل باطل عن ابن عباس». قلت: والخبر ذكره القرطبى فى التفسير (٧/٦٢٥٩) عن أنس.
(٥) الآية ٢٠٤ من سورة البقرة.

كفرِح، فهو لَحِنٌ، إذا فطَن للشيء، ومنه قوله ﷺ: «ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض»[١] أى: لقوته على تصريف الكلام. والفعلُ من الخطأ: لَحَن يلحَنُ لحناً، كجعل، فهو لاَحِنٌ إذا أخطأ، والأصل فيه: إزالة الكلام عن جهته، مأخوذ من: اللحن، وهو ضد الإعراب، وهو الذهاب عن الصواب فى الكلام[٢]. ﴿والله يعلم أعمالكم﴾ فيُجازيكم بحسب قصدكم؛ إذ الأعمال بالنيات، وهذا وعد للمؤمنين، وإيذانٌ بأن حالهم بخلاف حال المنافقين، أو: يعلم جميع أعمال العباد، فيميزُ خيرَها من شرها.

الإشارة: إن الذين ارتدوا على أدبارهم، أى: رَجعوا عن صحبة المشايخ، بعد ماظهر لهم أسرارُ خصوصيتهم؛ الشيطانُ سولَ لهم وأملَى لهم، وتقدم عن القشيرى: أنه يتخلف عنهم يوم القيامة، ولايلحق بالمقربين، ولو يشفع فيه ألفُ عارف، بل من كمال المكر به أن يُلقى شبَهَه فى الآخرة على غيره، حتى يتوهم عارفوه من أهل المعرفة أنه هو، فلايشفع أحد فيه؛ لظنهم أنه معهم، فإذا ارتفعوا إلى عليين مُحيت صورته، ورُفع إلى مقام العامة، انظر معناه فى آل عمران[٣].

وقال هنا: الذى طلع فَجرُ قلبه وتلألأ نورُ التوحيد فيه، ثم ارتد قبل طلوع نهار إيمانه؛ انكسفَ شمسُ يومه، وأظلم نهارُ عرفانه، ودَجا ليل شكِّه، وغابت نجومُ عقله، فحدِث عن ظلماتهم ولا حرج. هـ. ولاسيما إذا تحزّب مع العامة فى الإذايَة، وقال للذين كرهوا ما نزّل الله على أهل الخصوصية من الأسرار: سنُطيعكم فى بعض الأمر من إذايتهم، والله يعلم إسرارهم ، وباقى الوعيد الذى فى الآية ربما يشملهم. وقوله تعالى: ﴿أم حسب الذين فى قلوبهم مرض﴾ أى: عداوةٌ لأولياء الله أن لن يُخرج اللهُ أضغانهم ؟ بل يُخرجها ويُظهر وبالها، ويفتضحون ولو بعد حين، وقوله تعالى: ﴿ولتعرفنهم فى لحن القول﴾ فى قوة الخطاب، ومفهوم الكلام؛ لأن الأسِرّة تدلُّ على السريرة، وما خامر القلوبَ فعلى الوجوه يلوحُ، وأنشدوا فى المعنى:

لستُ[٤] مَنْ لَيس يَدْرى مَا هوانٌ من كرَامَه   إنّ لِلْحُبِّ وَلِلْبُغضِ علَى الْوَجْه علاَمه

المؤمن ينظر بنور الفراسة، والعارفُ ينظر بعين التحقيق، والموحّدُ ينظر بالله، ولايستتر عليه شىء. هـ من القشيرى.

(١) بعض حديث أخرجه البخارى فى (الشهادات، باب من أقام البينة بعد اليمين ح ٢٦٨٠) ومسلم فى (الأقضية، باب الحكم بالظاهر واللحن بالحجة ح ١٧١٣) . من حديث أم سلمة ـ رضى الله عنها.

(٢) انظر اللسان (لحن ٥/٤٠١٣ ـ ٤٠١٤).

(٣) راجع إشارة الآية ٩٠ من سورة آل عمران. (١/٣٧٩).

(٤) هكذا فى الأصول، وأظنه: لست ممن.

ثم ذكر اختباره لأهل الصدق، فقال:

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٣٢﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ولَنبلونّكم﴾ أي: والله لَنختبرنّكم بالأمر بالجهاد، ونحوه من التكاليف الشاقة، أي: نعاملكم معاملة المختبر؛ ليكون أبلغ في إظهار العدل، ﴿حتى نعلمَ الجاهدين منكم والصابرين﴾ على مشاق الجهاد والتكاليف، علماً ظاهراً، يتعلق به الجزاء بعد تعلق العلم به في الأزل، ﴿ونبلوَ أخباركم﴾ أي: ونختبر أسراركم بإظهار ما فيها من خير أو شر، بالنهوض أو التخلف، وقيل: أراد بأخباركم: أعمالكم، عبَّر بالأخبار عن الأعمال على سبيل الكناية؛ لأن الإخبار تابع لوجود المخبر عنه، إن كان الخبر حسناً كان المخبر عنه ـ وهو العمل ـ حسناً، وإن كان الخبر قبيحاً فالمخبرَ عنه قبيح. هـ.

﴿إنَّ الذين كفروا وصَدُّوا﴾ الناس ﴿عن سبيل الله وشاقُّوا الرسولَ﴾ أي: عادوه ﴿من بعد ما تبين لهم الهدى﴾ بما شاهدوا من نعته في التوراة، وبما ظهر على يديه من المعجزات، ونزل من الآيات، وهم بنوا قريظة والنضير، أو: المطعمون يوم بدر من رؤساء قريش، ﴿لن يضروا﴾ بكفرهم وصدهم ﴿اللهَ شيئاً﴾ من الأشياء، أو: شيئاً من الصد، أو: لن يضروا رسولَ الله ﷺ بمشاقته، وقد حذف المضاف؛ لتعظيم شأنه وتعظيم مشاقته. ﴿وسيُحبط أعمالَهم﴾ أي: مكائدهم التي نصبوها في إبطال دينه تعالى، ومشاقة رسوله ﷺ، فلايصلون بها إلى ما كانوا يبغون من الغوائل، ولايُثمرُ لهم إلا القتل والجلاء عن أوطانهم.

الإشارة: قال القشيري: في الابتلاء والامتحان يتبينُ جواهرُ الرجال، فيظهر المخلصُ، ويفتضح الممارق(١)، وينكشف المنافق. هـ. وكان الفُضيل إذا قرأ هذه الآية بكى، وقال: اللهم لاتبتلنا؛ فإنك إن بلوتنا فضحتنا وهتكت أستارنا. هـ. وينبغي أن يزيد: وإن بلوتنا فأيِّدنا، وبالله التوفيق. إن الذين جحدوا وصدوا الناس عن طريق الوصول، وخرجوا عن منهاج السنة، لن يضروا الله شيئاً؛ فإن لله رجالاً يقومون بالدعوة، لايضرهم من عاداهم، حتى يأتي أمر الله، وسيُحبط أعمالَ الصادّين المعوِّقين، فلا ينهضون إلى الله نهوض الرجال، بشؤم انتقادهم. والله تعالى أعلم.

(١) في القشيري: المماذق.

ولمّا ذمّ الذين كرهوا الجهاد، أمر المؤمنين بالطاعة فيه، وألاّ يكونوا أمثال أولئك، فقال:

﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَـٰلَكُمْ ﴿٣٣﴾
إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾ فَلَا تَهِنُوا۟
وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ ﴿٣٥﴾ إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ
ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِن
يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَـٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾ هَـٰٓأَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ
لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ
وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟
أَمْثَـٰلَكُم ﴿٣٨﴾ ﴾

يقول الحق جل جلالة : ﴿ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا اللهَ ﴾ فيما يأمركم به من الجهاد وغيره ﴿ وأطيعوا الرسولَ ﴾ فيما سنّه لكم، ﴿ ولاتُبطلوا أعمالكم ﴾ بما أبطل به هؤلاء أعمالهم من الكفر والنفاق، وغير ذلك من مفسدات الأعمال، كالعجب والرياء، والمن والأذى، وليس فيه دليل على إحباط الطاعات بالكبائر، خلافاً للمعتزلة، أو: لاتبطلوا أعمالكم بأن تقطعوها قبل تمامها. وبها احتج الفقهاء على وجوب إتمام العمل؛ فأوجبوا على من شَرَعَ في نافلة إتمامها، وأخذُه عن الآية ضعيف؛ لأن السياق إنما هو في إحباط العمل بالكفر، لقوله قبلُ: ﴿وسيحبط أعمالهم﴾ ثم قال: ﴿ياأيها الذين آمنوا﴾ لاتكونوا كهؤلاء الذين أحبط الله أعمالهم؛ بكفرهم وصدهم عن سبيل الله، ومشاقتهم الرسولَ، ويؤيده أيضا: قوله تعالى : ﴿ إن الذين كفروا وصَدُّوا عن سبيل الله ثم ماتوا وهم كفار فلن يغفر اللهُ لهم ﴾ ، هذا عام في كل من مات على الكفر، وإن صح نزوله في أهل القليب(١).

﴿ فلا تَهِنُوا ﴾ ؛ لاتضعفوا عن الجهاد ﴿ وتدعوا إلى السَّلْم ﴾ ، أي: لاتدعوا الكفار إلى الصلح والمسالمة؛ فإن ذلك إعطاء الدنيّة ـ أي: الذلة ـ في الدين، ويجوز أن يكون منصوباً بإضمار «أن» في جواب النهي؛ أي: لاتهنوا مع

(١) انظر تفسير البغوى (٧/ ٢٩٠) والقرطبى (٧/ ٦٢٦٢).

إعطاء السلم، ﴿ وأنتم الأعْلَون ﴾ : الأغلبون، ﴿ واللهُ معكم ﴾ بالنصر والمعونة، ومن كان غالباً ومنصوراً والله معه، لايتصور منه إظهار الذلة والضراعة لعدوه، ﴿ ولن يَتِرَكُمْ أعمالكم ﴾ ؛ لن يضيعها، من: وترت الرجل: إذا قتلت له قتيلاً، من ولد أو أخ أو حميم، فأفردته منه، حتى صار وتراً، عبّر عن ترك الإثابة فى مقابلة العمل بالوتر، الذى هو إضاعة شيء معتد به من الأنفس والأموال، مع أن الأعمال غير موجبة للثواب على قاعدة أهل السنّة، إبرازاً لغاية اللطف، بتصوير الثواب بصورة الحق المستحق، وتنزيل ترك الإثابة منزلة إضاعة أعظم الحقوق وإتلافها، سبحانه من رب رحيم!.

﴿ إنما الحياةُ الدنيا لعبٌ ولهوٌ ﴾ لا ثبات لها، ولا اعتداد بها، فلا تُؤثروا حياتها الفانية على الحياة الأبدية بالموت فى الجهاد الأصغر أو الأكبر، ﴿ وإن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم ﴾ أى: ثواب إيمانكم وأعمالكم من الباقيات الصالحات، التى فيها يتنافس المتنافسون، ﴿ ولايسألكم أموالكمْ ﴾ بحيث يُخل أداؤها بمعايشكم، وإنما سألكم نزراً يسيراً؛ هو ربع العشر، تؤدونه إلى فقرائكم.

﴿ إن يسألكُمُوها ﴾ أى: جميع أموالكم ﴿ فيُحْفكم ﴾ أى: يجهدكم بطلب الكُل، فالإحفاء والإلحاف: المبالغة فى السؤال، وبلوغ الغاية، يُقال: أحفاه فى المسألة: إذا لم يترك شيئاً من الإلحاح، وأحفى شاربه: استأصله، أى: إن يسألكم جميعها ﴿ تبخلوا ﴾ فلا تُعطوا شيئاً، ﴿ ويُخرجْ أضغانكم ﴾ أى: أحقادكم؛ لأن عند سؤال المال يظهر الصادق من الكاذب، وضمير «لايسألكم» وما بعدها لله أو لرسوله. وضمير «يخرج» لله تعالى، ويؤيده القراءة بنون العظمة(١)، أو البخل؛ لأنه سبب الأضغان.

﴿ ها أنتم هؤلاء ﴾ أى: يا هؤلاء، وقيل: (ها) : للتنبيه، و(هؤلاء) : موصول بمعنى «الذين»، وصلته: ﴿ تُدْعَون ﴾ أى: أنتم الذين تُدعون ﴿ لتُنفقوا في سبيل الله ﴾ هى النفقة فى الغزو والزكاة، كأنه قيل: الدليل على أنه لو أحفاكم لبخلتم أنكم تدعون إلى أداء ربع العشر، ﴿ فمنكم من يبخلُ ﴾ أى: فمنكم ناس يبخلون به، ﴿ ومن يبخلْ ﴾ بالصدقة وأداء الفريضة ﴿ فإنما يبخلُ عن نفسه ﴾ فإنّ كُلاً من نفع الإنفاق وضرر البخل عائد إليه، وفى حديث الترمذى: «السخى قريبٌ من الله، قريب من الجنة، قريب من الناس، بعيد من النار، والبخيل بعيد من الله، بعيد من الجنة، بعيد من الناس، قريب من النار، ولجاهلٌ سخىٌ أحبُ إلى الله من عابدٍ بخيل»(٢) وفى رواية: «من عالم بخيل» والبخل يتعدى بـ «عن»، و«على»، لتضمنه معنى: الإمساك والتعدى.

(١) وبها قرأ يعقوب الحضرمى، انظر البحر المحيط (٨/٨٥).

(٢) أخرجه الترمذى فى (البر والصلة، باب ما جاء فى السخاء، ح ١٩٦١) والبغوى فى التفسير (٢/١٠٤ ـ ١٠٥) والطبرانى فى الأوسط (ح ٢٣٦٣) من حديث أبى هريرة رضي الله عنه قال الترمذى: «هذا حديث غريب».

﴿ والله الغنيُّ ﴾ عن كل ما سواه، ويفتقر إليه كلُّ ماعداه، ﴿ وأنتم الفقراءُ ﴾ أى: إنه ـ تعالى ـ لايأمر بذلك لحاجته إليه؛ لأنه الغنيُّ عن الحاجات ، ولكن لحاجتكم وفقركم إلى الثواب، ﴿ وإن تتولَّوا ﴾ أى: وإن تُعرضوا أيها العرب عن طاعته، وطاعة رسوله، والإنفاق فى سبيله ﴿ يستبدل قوماً غيرَكم ﴾، يخلف قوماً خيراً منكم وأطوع، ﴿ ثم لايكونوا أمثالكم ﴾ فى الطاعة، بل أطوع، راغبين فيما يقرب إلى الله ورسوله، وهم فارس، وسئل رسول الله ﷺ عن هؤلاء القوم ـ وكان سلمان إلى جنبه، فضرب على فخذه، فقال: «هذا وقومه، والذى نفسى بيده لو كان الإيمان بالثُريا لتناوله رجالٌ من فارس»(١).

قلت : صدق الصادق المصدوق، فكم خرج منهم من جهابذة العلماء، وأكابر الأولياء، كالجنيد، إمام الصوفية، والغزالى، حبر هذه الأمة، وأضرابهما. وقيل: الملائكة، وقيل: الأنصار، وقيل: كندة، وقيل: الروم، والأول أشهر.

الإشارة: يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول، أو خليفته، وهو الداعى إلى الله على بصيرة العيان، ولاتُبطلوا أعمالكم، برجوعكم عن السير، بترك المجاهدة قبل المشاهدة. إنّ الذين كفروا بوجود خصوصية التربية، وصدوا الناسَ عنها، ثم ماتوا على ذلك، لن يستر اللهُ مساوئهم، ولايُغيّبهم عن شهود نفوسهم التى حجبتهم عن الله. فلاتهنوا: لاتضعُفوا، أيها المترفهون، عن مجاهدة نفوسكم، فينقطع سيركم، وذلك بالرجوع إلى الدنيا، ولاتدعوا إلى السلم والمصالحة بينكم وبين نفوسكم، وأنتم الأعلون، قد أشرفتم على الظفر بها، والله معكم؛ لقوله: ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سُبلنا وإن الله لمع المحسنين ﴾(٢)، ولن ينقصكم شيئاً من أعمالكم، بل يُريكم ثمرتها، عاجلاً وآجلا، ولايفترنّكم عن المجاهدة طولُ الأمل.

إنما الحياة الدنيا لعب ولهو؛ أى: ساعة من نهار، وإن تُؤمنوا بكل ما وعدَ اللهُ، وتتقوا كل ما يشغل عن الله، يُؤتكم أجوركم عاجلاً وآجلا، ولايسألكم الداعى إليه جميعَ أموالكم ، إنما يسألكم ما يَخف عليكم، تُقدموه بين يدى نجواكم، ولو سألكم جميع أموالكم لبخلتم، ويُخرج أضغانكم، وهذا فى حق عامة المريدين، وأما الخاصة الأقوياء، فلو سُئلوا أرواحَهم لبذلوها، واستحقروها فى جنب ما نالوا من الخصوصية، وأما أموالهم فأهون عندهم من أن يبخلوا بشىء منها، ويُقال لعامة الطالبين للوصول: ﴿هاأنتم هؤلاء تُدعون ...﴾ الآية.

---

(١) أخرجه الترمذى فى (التفسير ـ سورة سيدنا محمد ﷺ ح ٣٢٦٠، ٣٢٦١) وقال «هذا حديث غريب» والحاكم (٢/٤٥٨) «وصححه، وسكت عنه الذهبى». والطبرى فى (٢٦/٦٦ ـ ٦٧) وعبد الرزاق فى المصنف (١١/٦٦) والبغوى فى التفسير (٧/٢٩٢) وفى شرح السنة (١٤/٢٠٠) عن أبى هريرة رضي الله عنه وزاد السيوطى فى الدر (٦/٥٥) عزوه لعبد بن حميد، وابن أبى حاتم، والطبرانى فى الأوسط، (ح ٨٨٣٨) والبيهقى فى الدلائل (٦/٣٣٤).

(٢) الآية ٦٩ من سورة العنكبوت.

قال القشيري : والله الغني لذاته بذاته، ومن غنائه: تمكنه من تنفيذ مُراده، واستغناؤه عما سواه، وأنتم الفقراء إلى الله، في نعمة الإيجاد، ونعمة الإمداد، في الابتداء ليخلقكم، وفي الوسط ليُربيكم، وفي الانتهاء يفنيكم عن أنانيتكم، ويبُقيكم بهويته، فالله غني عنكم من الأزل إلى الأبد، وأنتم الفقراء محتاجون إليه من الأزل إلى الأبد[1] . هـ.
وإن تتولوا عن السير، وتركنوا إلى الرخص والشهوات قبل التمكين، يستبدل قوماً غيركم، يكونوا أحزم منكم، وأشد مجاهدة، صادقين في الطلب، ثابتين القَدم في آداب العبودية، قد أدركتهم جذباتُ العناية، وَهَبّتْ عليهم ريحُ الهداية، ثم لايكونوا أمثالكم في التولي والضعف، حتى يصلوا إلى مولاهم. وبالله التوفيق، وهو الهادي إلى سواء الطريق، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم.

❁ ❁ ❁

(١) بالمعنى.

سُورَةُ الفَتْحِ

مدنية. وهي تسع وعشرون آية. ومناسبتها لما قبلها: قوله تعالى: ﴿ وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ ﴾(١)؛ فإنه بشارة بالفتح الذي أشار إليه سبحانه بقوله:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢ وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ۝٣ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ إنَّا فتحنا لك ﴾، الفتح عبارة عن الظفر بالبلدة عنوةً أو صُلحاً، بحرب أو بدون، فإنه مالم يقع الظفر مُنْغَلِقٌ، مأخوذ من: فتح باب الدار. وإسناده إلى نون العظمة لإسناد الفعل إلى الله تعالى خلقًا وإيجاداً. قيل: المراد به فتح مكة، وهو المروى عن أنس رضي الله عنه، بُشِّر به ﷺ عند انصرافه من الحُديبية. والتعبير عنه بصيغة الماضى على سَنَن الأخبار الإلهية المحققة الوقوع، للإيذان بتحققه، تأكيداً للتبشير، وتصدير الكلام بحرف التحقيق لذلك، وفيه من الفخامة والدلالة على علو شأن المخبَر به ـ وهو الفتح ـ ما لايخفى. وقيل: هو فتح الحديبية، وهو الذى عند البخارى عن أنس(٢) ، وهو الصحيح عند ابن عطية، وعليه الجمهور. وفيها أُخذت البيعة على الجهاد، وهو كان سبب إظهار الإسلام وفشوه، وذلك أنّ المشركين كانوا ممنوعين من مخالطة أهل الإسلام، للحرب التى كانت بينهم، فلما وقع الصلح اختلط الناسُ بعضهم مع بعض، وجعل الكفارُ يرون أنوار الإسلام، ويسمعون القرآن، فأسلم حينئذ بشر كثير قبل فتح مكة.

وقد ورد عنه ﷺ حين بلغه أن رجلاً قال: ماهذا بفتح، لقد صَدّونا عن البيت، ومَنعونا، قال: «بل هو أعظم الفتوح، وقد رضى المشركون أن يدفعوكم بالراح، ويسألوكم القضية، ويرغبوا إليكم فى الأمان، وقد رأوا منكم

---

(١) الآية ٣٥ من سورة «محمد» ﷺ.

(٢) أخرجه البخارى فى (التفسير ـ سورة الفتح، باب ﴿إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً﴾ ح ٤ ٤٨٣).

مايكرهونَ»[١]. وعن الشعبى أنه قال: نزلت سورة الفتح بالحديبية، وأصاب رسولُ الله ﷺ فى تلك الغزوة مالم يصب فى غزوة، حيث بُويع بيعة الرضوان، وغُفر له ماتقدم من ذنبه وما تأخر، وبلغ الهَديُ مَحِلَّه، وبُشروا بخيبر، وظهرت الروم على فارس، ففرح به المسلمون، وكان فى فتح الحديبية آية عظيمة، وهى أنه نزح ماؤها حتى لم يبق فيها قطرة، فتمضمض رسولُ الله ﷺ ثم مجّه فيها، فدرّت بالماء، حتى شرب جميع من كان معه[٢]، وقيل: جاش بالماء حتى امتلأت ولم ينفد ماؤها بعدُ[٣]. وقيل: هو جميع ما فتح له ﷺ، من الإسلام، والدعوة، والنبوة، والحجة، والسيف، ولا فتح أبين منه وأعظم، وهو رأس الفتوح كافة؛ إذ لا فتح من فتوح الإسلام إلا هو شعبة من شُعبه، وفرع من فروعه. وقيل: الفتح: بمعنى القضاء، والمعنى: قضينا لك على أهل مكة أن تدخلها من قابل، وأيّا ما كان فحذف المفعول للقصد إلى نفس الفعل، والإيذان بأنّ مناط التبشير هو نفس الفتح الصادر عنه سبحانه، لاخصوصية المفتوح. قاله أبو السعود.

﴿ فتحاً مبيناً ﴾: ظاهر الأمر، مكشوف الحال، فارقاً بين الحق والباطل. وقوله تعالى: ﴿ ليغفر لك اللهُ ﴾ غاية للفتح، من حيث إنه مترتب على سعيه ﷺ فى إعلاء كلمة الله، بمكابدة مشاق الحروب، واقتحام موارد الخطوب، أى: جعلنا الفتح على يديك، وبسبب سعيك، ليكون سبباً لغفران الله لك ﴿ ما تَقدَّم من ذنبك وما تأخَّر ﴾ أى: جميع ما فرط منك من ترك الأولى، وما سيقع، وتسميته ذنبًا بالنظر إلى منصبه الجليل، وتقدم قريباً تحقيقه[٤]. وقول الجلال[٥]: «اللام للعلة الغائية فمدخولها مسبب لا سبب»، لا يريد التعليل على حقيقته العقلية، فإنه عليه تعالى محال، وإنما يُريد صورة التعليل، الذى هو حكمة الشيء، وفائدته العائدة على خلقه، فضلاً وإحسانا، فالحِكمُ والمصالح غاية لأفعاله تعالى، ومنافع راجعة إلى المخلوقات، وليس شيء منها غرضاً وعلة غائية لفعله، بحيث يكون سبباً لإقدامِه على الفعل، وعلة غائية للفعل؛ لغناه تعالى، وكماله فى ذاته عن الاستكمال

(١) ذكره السيوطى مطولاً فى الدر (٦/٥٨) وعزاه للبيهقى.
(٢) أخرج البخارى فى (المغازى، باب غزوة الحديبية ح ٤١٥٠) عن البراء قال: تعدون أنتم الفتح فتح مكة وقد كان فتح مكة فتحاً، ونحن نعدُّ الفتح بيعة الرضوان، يوم الحديبية، كنا مع النبى ﷺ أربع عشرة مائة، والحديبية بئر، فنزحناها فلم نترك فيها قطرة، فبلغ ذلك النبىﷺ، فأتانا، فجلس على شفيرها، ثم دعا بإناء من ماء فتوضأ، ثم مضمض ودعا، ثم صبّه فيها، فتركناها غير بعيد، ثم إنها أصدرتنا ماشئنا نحن وركابنا.
وقوله ﷺ: «أصدرتنا» أى: رجعتنا، يعنى: أنهم رجعوا عنها وقد رووا.
(٣) على هامش النسخة الأم ما يلى: قلت: هذه القصة تكررت منه ﷺ فى عدة مرات، وفى مواطن متعددة، فلا خصوصية للحديبية بذلك. هـ.
(٤) عند الآية ١٩ من سورة «محمد» ﷺ.
(٥) أى: جلال الدين المحلى فى تفسير الجلالين (٥١١). وقد فسر المحلى من أول سورة الكهف الى آخر سورة الناس.

بفعل من الأفعال، وماورد فى الآيات والأحاديث مما يُوهم الغرض والعلة فإنه يُحمل على الغايات المترتبة والحكمة، فاحتفظ بذلك. قاله صاحب الحاشية الفاسية. واللائق أن المعنى: إنا فتحنا لك وقضينا لك بأمرٍ عاقبته أن جَمَعَ الله لك بين سعادة الدنيا والآخرة، بأن غفر لك، وأتم نعمته عليك وهداك، ونصرك. فاللام لام العاقبة لا لام العلة؛ فإن إفضال الله على رسوله لا يُعلل ولايُوازى بعمل.هـ.

﴿ ويُتم نعمتَه عليك ﴾ بإعلاء الدين، وضم المُلك إلى النبوة، وغيرها مما أفاض عليه من النعم الدينية والدنيوية، ﴿ ويهديَكَ صراطًا مستقيماً ﴾ أي: يُثبتك على الطريق القويم، والدين المستقيم، والاستقامة وإن كانت حاصلة قبل الفتح، لكن حصل بعد ذلك من اتضاح سبيل الحق، واستقامة مناهجه، مالم يكن حاصلاً قبلُ. ﴿ وينصُرَكَ اللهُ ﴾ أي: يُظهر دينك، ويُعزّك، فإظهار الاسم الجليل لكونه خاتمة الغايات، ولإظهار كمال العناية بشأن النصر، كما يُعرب عنه تأكيده بقوله: ﴿ نصراً عزيزاً ﴾ أي: نصراً فيه عزة ومنعة، أو: قوياً منيعًا، على وصف المصدر بوصف صاحبه، مجازاً، للمبالغة، أو: عزيزاً صاحبه.

الإشارة: إنّا فتحنا لك فتحاً مبيناً، بأن كشفنا لك عن أسرار ذاتنا، وأنوار صفاتنا، وجمال أفعالنا، فشاهدتنا بنا، ليغفر لك الله، أي: ليُغيبك عن وجودك فى شعور محبوبك، ويستر عنك حسك ورسمك، حتى تكون بنا فى كل شيء، قديمًا وحديثاً، قال القشيرى: وذنب الوجود هو الشرك فى الوجود، وغفره: ستره بنور الوحدة، لمحو ظلمة الاثنينيةهـ. ويُتم نعمته عليك بالجمع بين شهود الربوبية، والقيام بآداب العبودية، ودلالة الخلق على شهود قيام الديمومية، ويهديك طريقاً مستقيماً تُوصل إلى حضرتنا، فتسلكها وتُبينها لمن يكون على قدمك، وينصرك الله نصراً عزيزاً، بالتمكن فى شهود ذاتنا، والعكوف فى حضرتنا، محفوفاً بالنصرة والعناية، محمولاً فى محفّة الرعاية.

ولمّا نزل قوله: ﴿ليغفر لك الله﴾ قال المؤمنون: هذا لك يارسول الله، فمالنا؟ فأنزل الله(١):

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا

---

(١) أخرجه البخارى فى (المغازى، باب غزوة الحديبية ح٤١٧٢) من حديث أنس، وفيه: «فنزلت عليه ﴿ليُدخل المؤمنين والمؤمنات جناتٍ تجرى من تحتها الأنهار...﴾ الآية».

عَظِيمًا ﴿٥﴾ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ
بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ
وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ هو الذى أنزل السكينةَ ﴾ أى: السكون والطمأنينة، فعلة، من: السكون، كالبهيتة من البهتان، ﴿ فى قلوب المؤمنين ﴾ حتى لم يتضعضعوا من الشروط التى عقدها ﷺ مع المشركين، من ردّ مَن أسلم منهم، وعدم ردهم مَن رجع إليهم، ومِن دخول مكة قابلاً بلا سلاح، وغير ذلك مما فعله ﷺ معهم بالوحى، وماصدر عن عمر رضي الله عنه فلشدة قوته وصلابته، ومازال يعتق ويفعل أموراً كفارة لذلك. وقيل: (السكينة): الصبر على ما أمر به الله من الشرائع والثقة بوعد الله، والتعظيم لأمر الله، ﴿ ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم ﴾ أى: يقيناً إلى يقينهم، أو: إيماناً بالشرائع مع إيمانهم بالعقائد.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: بعث الله نبيه بشهادة «ألا إله إلا الله»، فلما صدّقوه فيها، زادهم الصلاة، فلما صدّقوه، زادهم الزكاة، فلما صدّقوه، زادهم الحج، فلما صدّقوا زادهم الجهاد، ثم أكمل لهم دينهم[(1)]، فذلك قوله: ﴿ ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم، ولله جنودُ السموات والأرض ﴾ يُدبرها كما يريد، يُسلط بعضها على بعض تارة، ويوقع الصلح بينهما أخرى، حسبما تقتضيه مشيئته المبنية على الحِكَم والمصالح، ﴿ وكان الله عليماً ﴾؛ مبالغاً فى العلم بجميع الأمور، ﴿ حكيماً ﴾ فى تدبيره وتقديره.

﴿ ليُدخل المؤمنين والمؤمنات ﴾، اللام متعلق بما يدل عليه ما ذكر من قوله: ﴿ولله جنود السموات والأرض﴾ من معنى التصرف، أى: دبّر ما دبّر من تسليط المؤمنين، ليعرفوا نعمة الله ويشكروها، فيدخلهم ﴿ جناتٍ تجرى من تحتها الأنهارُ خالدين فيها، ويُكفِّرَ عنهم سيئاتهم ﴾ أى: يُغطّى عنهم مساوئهم، فلا يظهرها لهم ولا لغيرهم. وتقديم الإدخال على التكفير، مع أن الترتيب فى الوجود على العكس؛ للمسارعة إلى بيان ماهو المطلب الأعلى. ﴿ وكان ذلك ﴾ أى: ماذكر من الإدخال والتكفير ﴿ عند الله فوزاً عظيما ﴾ لا يُقادر قدره؛ لأنه منتهى

(١) أخرجه الطبرى (٢٦/٧٢) وزاد السيوطى فى الدر المنثور (٦/٦٢) عزوه لابن المنذر، والطبرانى، وابن مردويه، والبيهقى فى الدلائل.

هذا، وعلى هامش النسخة الأم مايلى: قلت: هذا يقتضى أن الحج فُرض قبل الجهاد، وليس كذلك، بل الجهاد فُرض قبل الزكاة، فينبغى أن لا يكون هذا صحيحاً .هـ.

ما امتدت إليه أعناق الهمم من جلب نفع ودفع ضر. و«عند الله»: حال من «فوزاً عظيما»، لأنه صفته فى الأصل، فلما قُدِّم عليه صار حالا، أى: كائناً عند الله فى علمه وقضائه. والجملة: اعتراض مُقرِّر لما قبله.

﴿ ويُعذِّبَ المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ﴾ لِما أغاظهم من ذلك وكرهوه، وهو عطف على «يدخل»، وفي تقديم المنافقين على المشركين ما لا يخفى من الدلالة على أنهم أحق منهم بالعذاب. ﴿ الظانين بالله ظنَّ السَّوءِ ﴾ أى: ظن الأمر السَّوء، وهو ألا ينصر الله رسولَه والمؤمنين، ولايُرجعهم إلى مكة، فالسَّوء عبارة عن رداءة الشيء وفساده، يقال: فِعْلُ سَوْءٍ، أى: مسخوط فاسد. ﴿ عليهم دائرةُ السَّوءِ ﴾ أى: ما يظنونه ويتربصونه بالمؤمنين، وهو دائر عليهم وحائق بهم. وفيه لغتان: فتح السين وضمها، كالكَره والكُره، والضَّعف والضُّعف، غير أن المفتوح غلب عليه أن يُضاف إليه مايُراد ذمّه من كل شيء، وأما السُّوء فجار مجرى الشيء الذى هو نقيض الخير، أى: الدائرة التي يذمونها ويسخطونها دائرة عليهم، ولاحقة بهم، ﴿ وغَضِبَ اللهُ عليهم ولعنهم وأعدَّ لهم جهنم وساءت مصيراً ﴾ لهم، وهو عطف لما استوجبوه فى الآخرة على ما استوجبوه فى الدنيا، وعطفَ «ولعنهم» وما بعده بالواو، مع أن حقهما الفاء المفيدة للسببية؛ إيذاناً باستقلال كل واحد منهما بالوعيد، وأصالته، من غير اعتبار استتباع بعضها لبعض.

﴿ ولله جنودُ السموات والأرض ﴾، إعادة لما سبق، وفائدتها: التنبيه على أن لله جنود الرحمة وجنود العذاب، كما ينبئ عنه التعرض لوصف العزة في قوله: ﴿ وكان اللهُ عزيزاً ﴾ أى: غالبًا، فلا يُردّ بأسه ﴿ حكيماً ﴾ فلا يعترض صنعه. والله تعالى أعلم.

الإشارة: هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المتوجهين، حتى سكنوا لصدمات تجلى الجلال، وأنوار الجمال، وسكنوا تحت مجارى الأقدار، كيفما برزت، بمرارة أو حلاوة. قال القشيرى: والسكينةُ: ما يسكن إليه القلبُ من أنوار الإيمان والإيقان، أو العرفان بمشاهدة العيان، بل الاستغراق فى بحر العين بلا أين. هـ.[1] ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم، فيترقوا من مقام الإسلام إلى مقام الإيمان، ومن مقام الإيمان إلى مقام الإحسان، أو من علم اليقين إلى عين اليقين، ومن عين اليقين إلى حق اليقين، أو من المراقبة إلى المشاهدة، أو من رؤية الأسباب إلى مسبب الأسباب.

﴿ ولله جنودُ السموات والأرض ﴾ وهى الجنود التى يمد الله بها الروح فى محاربتها للنفس، حتى تغلبها وتستولى عليها، وهى اليقين، والعلم، والذكر، والفكر، والواردات الإلهية، التى تأتى من حضرة القهار، فتدمغ

(١) لم أقف على النص فى مظانه فى تفسير القشيرى.

كل ما تُصادمه من الأغيار والأكدار، وكان الله عليماً بمن يستحق هذه الواردات، حكيماً فى ترتيبها وتدبيرها، ليُدخل من تأيد بها جنات المعارف، تجرى من تحتها أنهار العلوم والحِكَم، ويغطى عنهم مساوئهم حتى يصلوا إليه، بما منه إليهم، لابما منهم إليه وهذا هو الفوز العظيم، يفوز صاحبه بالنعيم المقيم، فى جوار الكريم. ويُعذب أهل النفاق المنتقدين على أولياء الله، المتوجهين إليه، الظانين بالله ظن السوء، وهو أن خصوصية التربية انقطعت. ولله جنود السموات والأرض، أى: جنود الحجاب، وهو جند النفس، من الهوى والشيطان، والدنيا والناس، يُسلطها على من يشاء من عباده، إن يبقى فى ظلمة الحجاب، والله غالب على أمره.

ثم شهد لرسوله بالرسالة، بعد بشارته بالفتح والعصمة، فقال:

﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿إنّا أرسلناك شاهداً﴾ تشهد على أمتك يوم القيامة، كقوله: ﴿وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾(١) وهو حال مقدّرة، ﴿ومبشّراً﴾ لأهل الطاعة بالجنة، ﴿ونذيراً﴾ لأهل المعصية بالنار، ﴿لتؤمنوا بالله ورسوله﴾، والخطاب للرسول والأمة، ﴿وتُعزِّروه﴾؛ تقوّوه بنصر دينه، ﴿وتُوقِّروه﴾ أى: تُعظّموه بتعظيم رسوله وسائر حرماته، ﴿وتُسبِّحوه﴾؛ تنزهوه، أو تُصلوا له، من: السبحة، ﴿بكرةً وأصيلا﴾؛ غدوة وعشية، قيل: غدوة: صلاة الفجر، وعشية: الظهر والعصر والمغرب والعشاء. والضمائر لله تعالى. ومن فرّق؛ فجعل الأولين للنبى ﷺ والأخير لله تعالى، فقد أبعد. وقرأ المكى والبصرى بالغيب فى الأربعة، والضمائر للناس، وقرأ ابن السميفع(٢): «وتَعزِزوه» بزائين(٣)، أى: تنصروه وتُعزوا دينه.

(١) من الآية ١٤٣ من سورة البقرة.
(٢) فى الأصول: «السميقع».
(٣) وهى قراءة شاذة. انظر المحتسب ٢/٢٧٥.

﴿ إنَّ الذين يُبايعونك ﴾ على الجهاد، بيعة الرضوان ﴿ إنما يُبايعون اللهَ ﴾ لأنه خليفة عنه، فعقد البيعة معه ﷺ كعقدها مع الله من غير تفاوت بينهما، كقوله: ﴿ من يُطع الرسولَ فقد أطاع اللـه ﴾[1] ثم أكد ذلك بقوله: ﴿ يدُ اللهِ فوق أيديهم ﴾ يعني: أن يد رسول الله ﷺ الذى تعلو أيدى المبايعين هى يد الله، من باب مبالغة التشبيه، ﴿ فمن نكث ﴾؛ نقض البيعة، ولم يف بها ﴿ فإنما ينكُثُ على نفسه ﴾ فلا يعود ضرر نكثه إلا عليه، قال جابر رضي الله عنه: «بايعنا رسولَ الله ﷺ تحت الشجرة على الموت، وعلى ألاّ نفرّ، فما نكث أحدٌ منا البيعةَ، إلا جَدّ بن قَيْسٍ المنافق، اختبأ تحت إبطِ بعيره، ولم يَسر مع القوم»[2]. ﴿ ومن أوفى بما عاهد عليه اللهَ ﴾، يقال: وفيت بالعهد وأوفيت. وقرأ حفص بضم الهاء من «عليه» توسلاً لتفخيم لام الجلالة، وقيل: هو الأصل، وإنما كسر لمناسبة الياء. أي: ومن وفّى بعهده بالبيعة ﴿ فسيؤتيه أجراً عظيماً ﴾؛ الجنة وما فيها.

الإشارة: لكل جيل من الناس يبعث اللهُ من يُذكّرهم، ويدعوهم إلى الله، بمعرفته، أو بإقامة دينه، ليدوم الإيمان بالله ورسوله، ويحصل النصر والتعظيم للدين إلى يوم الدين، ولولا هؤلاء الخلفاء لضاع الدين. وقوله تعالى: ﴿إنَّ الذين يُبايعونك﴾ الآية، قال الورتجبى: ثم صرّح بأنه عليه السلام مرآة لظهور ذاته وصفاته، وهو مقام الاتصاف بأنوار الذات والصفات فى نور الفعل، فصار هو هو، إذ غاب الفعل فى الصفة، وغابت الصفة فى الذات. فقال: ﴿إن الذين يُبايعونك ...﴾ الآية. وإلى ذلك يُشير الحلاّج وغيره. وقال فى القوت: هذه أمدح آية فى كتاب الله عز وجل، وأبلغ فضيلة فيه لرسول الله ﷺ؛ لأنه جعله فى اللفظ بدلاً عنه، وفى الحُكم مقامه، ولم يُدخل فيه كاف التشبيه، فيقول: كأنما، ولا لام الملك، فيقول: لله، وليس هذا من الربوبية للخلق سوى رسول الله ﷺ.هـ.

وقال الحسن بن منصور الحلاج: لم يُظهر الحق تعالى مقام الجمع على أحد بالتصريح إلا على أخص نسَمهِ وأشرفه، فقال: ﴿إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله﴾.هـ.

قال القشيرى. وفى هذه الآية تصريحٌ بعين الجمع، كما قال: ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ ﴾[3] وقال فى مختصره: يُشير إلى كمال فنائه وجوده عليه السلام فى الله وبقائه بالله.هـ. فالآية تُشير إلى مقام الجمع، المنبه عليه فى الحديث: «فإذا أحببته كنت سمعه، وبصره، ويده»[4] وسائر قواه، الذى هو سر الخلافة والبقاء بالله، وهذا الأمر حاصل

---

(١) من الآية ٨٠ من سورة النساء.

(٢) أخرجه مسلم فى (الإمارة، باب استحباب مبايعة الإمام الجيش عند إرادة القتال، رقم ١٨٥٦، ح٦٨،٦٩).

(٣) من الآية ١٧ من سورة الأنفال.

(٤) سبق تخريج الحديث.

لخلفائه ﷺ من العارفين بالله، أهل الفناء والبقاء، وهم أهل التربية النبوية فى كل زمان، فمن بايعهم فقد بايع الله، ومن نظر إليهم فقد نظر إلى الله، فمن نكث العهد بعد عقده معهم فإنما ينكثه على نفسه، فتيبس شجرةُ إرادته، ويُطمس نور بصيرته، فيرجع إلى مقام عامة أهل اليمين ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً شهود ذاته المقدسة على الدوام، والظفر بمقام المقربين، ثبتنا الله على منهاجه القويم، من غير انتكاص ولا رجوع، آمين.

ثم ذكر من تخلّف عن البيعة، فقال:

﴿ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ سيقولُ لك ﴾ يا محمد إذا رجعت من الحديبية ﴿ المخلَّفون من الأعراب ﴾ وهم الذين تخلفوا عن الحديبية، وهم أعراب غِفَار، ومُزَيْنةُ، وجهينة، وأسلم، وأشجع، والديل، وذلك أنه ﷺ حين أراد المسير إلى مكة، عام الحديبية، معتمراً، استنفر مَن حول المدينة من الأعراب وأهل البوادي، ليخرجوا معه، حذراً من قريش أن يعرضوا له بحرب، أو يصدوه عن البيت، وأحرم ﷺ وساق معه الهدى؛ لِيُعْلَمَ أنه لا يريد حرباً، فتثاقل كثير من الأعراب، وقالوا: نذهب إلى قوم غَزَوهُ فى داره بالمدينة، وقتلوا أصحابه، فنقاتلهم، وظنوا أنه لا ينقلب إلى المدينة، فأوحى الله تعالى إليه ماقالوا(١)، حيث تعللوا وقالوا: ﴿ شَغَلتنا أموالُنا وأهلُونا ﴾

(١) انظر تفسير البغوى (٧/٣٠٠).

ولم يكن تخلفنا عنك اختياراً، بل عن اضطرار، ﴿فاستغفر لنا﴾، فأكذبهم الله بقوله: ﴿يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم﴾، فليس تخلفهم لأجل ذلك، وإنما تخلفوا شكاً ونفاقاً، وطلبهم الاستغفار أيضاً ليس بصادرٍ عن حقيقة.

﴿قل﴾ لهم: ﴿فمن يملك لكم من الله شيئًا﴾؛ فمن يمنعكم من مشيئة الله وقضائه ﴿إن أراد بكم ضرًا﴾ أي: ما يضركم من هلاك الأهل والمال وضياعهما، حتى تخلفتم عن الخروج لحفظها، ﴿أو أراد بكم نفعًا﴾ أي: من يقدر على ضرركم إن أراد بكم نزول ماينفعكم، من حفظ أموالكم وأهليكم، فأيّ حاجة إلى التخلف لأجل القيام بحفظهما والأمر كله بيد الله؟ ﴿بل كان الله بما تعملون خبيراً﴾، إضراب عما قالوه، وبيان لكذبه بعد بيان فساده على تقدير صدقه، أي: ليس الأمر كما يقولون، بل كان الله خبيراً بجميع الأعمال، التي من جملتها تخلفكم وماهو سببه، فلا ينفعكم الكذب مع علم الله بجميع أسراركم.

﴿بل ظننتم أن لن ينقلب الرسولُ والمؤمنون إلى أهليهم أبداً﴾ بأن يستأصلهم المشركون بالموت، فخشيتم إن كنتم معهم أن يُصيبكم ذلك، فتخلفتم لأجل ذلك، لا لما ذكرتم من المعاذير الباطلة، ﴿وزُيِّنَ ذلك في قلوبكم﴾ زيّنه الشيطانُ وقبلتموه، واشتغلتم بشأن أنفسكم، غير مبالين بهم، ﴿وظننتم ظنَّ السَّوء﴾، والمراد به الظن الأول، والتكرير لتشديد التوبيخ والتسجيل عليه بالسوء، أو ما يعمه وغيره من الظنون الفاسدة، كعلو الكفر، وظهور الفساد، وعدم صحة رسالته ﷺ، فإن الجازم بصحتها لا يحول حول فكره هذه الظنون الباطلة، ﴿وكنتم قومًا بُورًا﴾؛ هالكين عند الله، مستوجبين لسخطه وعقابه، جمع: بائر، كعائذ وعُوذ، من بار الشيء: هلك وفسد، أي: كنتم قوماً فاسدين في أنفسكم وقلوبكم ونيّاتكم.

﴿ومن لم يؤمن بالله ورسوله فإنّا أعتدنا﴾؛ أعددنا ﴿للكافرين﴾ أي: لهم، فأُقيم الظاهر مقام المضمر للإيذان بأن من لم يجمع بين الإيمان بالله وبرسوله فهو كافر مستوجب السعير. ونكّر ﴿سعيراً﴾ لأنها نار مخصوصة، كما نكّر ﴿نَاراً تَلَظَّىٰ﴾(١). وهذا كلام وارد من قِبله تعالى، غير داخل في الكلام المتقدم، مُقرر لبوارهم، ومبيِّن لكيفيته، أي: ومن لم يؤمن كهؤلاء المتخلفين، فإنا أعتدنا له سعيراً يحترق بها.

﴿ولله مُلكُ السموات والأرض﴾ يُدبره تدبير قادر حكيم، ويتصرف فيهما وفيما بينهما كيف يشاء، ﴿يغفر لمن يشاء ويُعذِّب من يشاء﴾ بقدرته وحكمته، من غير دخل لأحد في شيء، ومن حكمته: مغفرته

(١) الآية ١٤ من سورة الليل.

للمؤمنين وتعذيبه للكافرين. ﴿ وكان الله غفوراً رحيماً ﴾، مبالغًا فى المغفرة والرحمة لمن يشاء، أى: لمن تقتضى الحكمة مغفرته ممن يؤمن به وبرسوله، وأما من عداه من الكفر فبمعزل من ذلك قطعاً.

الإشارة: هذه الآية تَجُر ذيلها على من تخلف من المريدين عن زيارة المشايخ من غير عُذر بيِّن، واعتذر بأعذار كاذبة، يقول بلسانه ما ليس فى قلبه، ومازالت الأشياخ تقول: كل شىء يُسمح فيه إلا القدوم(1)، إذ به تحصل التربية والترقية، وتقول أيضا: من جلس عنا لعذر صحيح عذرناه، وربما يصل إليه المدد فى موضعه، ومن جلس لغير عذر لا نُسامح له، بل يُحرم من زيادة الإمداد، ومن الترقى فى المقامات والأسرار، وما قطع الناس عن الله إلا أموالهم وأهلوهم اشتغلوا بهم، وحُرموا السير والوصول، فكل مريد شغله عن زيارة شيخه أهله ومالُه لا يأتى منه شىء. قل: فمن يملك لكم من الله شيئاً إن أراد بكم ضراً، بأن قطعكم عنه بعلة الأهل والمال، أو: أراد بكم نفعاً، بأن وصلكم إليه، وغيَّب عنكم أهلكم ومالكم، بل كان الله بما تعملون خبيراً، يعلم مَن تخلف لعذر صحيح، أو لعذر باطل. وبالله التوفيق.

ثــم قــال:

﴿ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَـٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ سيقول المخلَّفون ﴾ المذكورون آنفاً ﴿ إذا انطلقتم إلى مغانم ﴾ أى: مغانم خيبر ﴿ تأخذونها ﴾ حسبما وعدكم الله بها، وخصكم بها، عِوض ما فاتكم من مغانم مكة. و(إذا): ظرف لما قبله، لا شرط لما بعده، أى: سيقولون عند انطلاقكم إلى مغانم خيبر: ﴿ ذَرونا نتَّبعكم ﴾ إلى خيبر، ونشهد معكم قتال أهلها ﴿ يريدون أن يُبدِّلوا كلامَ الله ﴾ الذى وَعد به أهل الحديبية بأن يخصهم بغنائم خيبر ولا يشاركهم فيها أحد، فأراد المخلَّفون أن يُشاركوهم ويُبدلوا وعد الله. وكانت وقعة الحديبية فى ذى الحجة سنة ست، فلما رجع إلى

(1) أى: القدوم على مشايخ التربية وزيارتهم.

المدينة أقام بها بقية ذى الحجة، ثم غزا فى أول السابعة خيبر، ففتحها، وغنم أموالاً كثيرة، فخصصها بأهل الحديبية، بأمره تعالى، ﴿قل﴾ لهم إقناطاً لهم: ﴿لن تتبعونا﴾ إلى خيبر، وهو نفى بمعنى النهى، للمبالغة، أى: لا تتبعونا، أو: نفى محض، إخبار من الله تعالى بعدم اتباعهم وألا يبدّل القول لديه.

﴿كذلكم قال اللهُ من قبلُ﴾ أى: من قبل انصرافهم إلى الغنيمة، وأنّ غنيمة خيبر لمن شهد الحديبية فقط، ﴿فسيقولون﴾ للمؤمنين عند سماع هذا النهى: ﴿بل تحسدوننا﴾ أى: ليس ذلك النهى من عند الله، بل تحسدوننا أن نشارككم فى الغنائم، ﴿بل كانوا لا يفقهون﴾ كلام الله ﴿إلا قليلاً﴾؛ شيئًا قليلاً، يعنى: مجرد اللفظ، أو: لا يفهمون إلا فهماً قليلاً؛ وهو فطنتهم لأمور الدنيا دون الدين، وهو ردٌّ لقولهم الباطل، ووصف لهم بسوء الفهم والجهل المفرط. والفرق بين الإضرابين: أن الأول ردٌّ أنّ يكون حكم الله ألا يتبعوهم وإثبات الحسد، والثانى إضرابٌ عن وصفهم بإضافة الحسد إلى المؤمنين إلى وصفهم بما هو أعظم منه، وهو الجهل وقلة الفقه.

﴿قل للمخلَّفين من الأعراب﴾ وهم الذين تخلفوا عن الحديبية: ﴿ستُدْعَوْنَ إلى قومٍ أُولي بأسٍ شديد﴾ يعنى: بنى حنيفة، قوم مسيلمة الكذاب، وأهل الردة الذين حاربهم أبو بكر رضي الله عنه، لأن المشركين وأهل الردة هم الذين لا يُقبل منهم إلا الإسلام أو السيف. واستُدل بالآية على حقية خلافة أبى بكر، وأخذها من القرآن بقوله: «ستُدعون» فكان الداعى لهؤلاء الأعراب إلى قتال بنى حنيفة، وكانوا أولى بأس شديد، هو أبو بكر، بلا خلاف، قاتلوهم ليُسلموا لا ليُعطوا الجزية بأمر الصدِّيق. وقيل: هم فارس، والداعى لقتالهم «عمر»، فدلت على صحة إمامته، وهو يدل على صحة إمامة أبى بكر. ﴿تُقاتلونهم أو يُسلمون﴾ أى: يكون أحد الأمرين، إما المقاتلة أو الإسلام، ومعنى «يُسلمون» على هذا التأويل: ينقادون؛ لأن فارس مجوس، تُقبل منهم الجزية، ﴿فإن تُطيعوا﴾ من دعاكم إلى قتالهم ﴿يُؤتكم اللهُ أجراً حسناً﴾ هو الغنيمة فى الدنيا، والجنة فى الآخرة، ﴿وإن تتولوا﴾ عن الدعوة، كما توليتم من قبل فى الحديبية، ﴿يُعذبكم عذاباً أليماً﴾ لتضاعف جُرمكم. وقد تضمنت الآية إيجاب طاعة الأُمراء بالوعد بالثواب عليها، والوعيد بالعقاب على التولى، وقد تقدم فى النساء[1].

الإشارة: سيقول المخلفون عن السير بترك مجاهدة النفوس، التى بها يتحقق سير السائرين: ذرونا نتبعكم فى السير إلى الله من غير مجاهدة ولا تجريد، يريدون أن يُبدلوا كلامَ الله، وهو قوله: ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سُبلنا﴾[2]، فخص الهداية إلى الوصول بالمجاهدة، لا بالبقاء مع حظوظ النفوس، قل: لن تتبعونا فى

(١) راجع تفسير الآية ٥٩ من سورة النساء، (١/ ٥١٩).

(٢) الآية ٦٩ من سورة العنكبوت.

السير، ولو فعلتم ما فعلتم بلا مجاهدة، كذلك حكم الحكيم العليم، فإن قالوا: حسدتمونا، حيث لم تسيرونا على ما نحن عليه، فقد دلّ ذلك على جهلهم، وعدم فهمهم، قل للمخلفين على السير، بالبقاء مع حظوظهم: ستُدعون إلى مجاهدة قوم أُولى بأس شديد، وهو النفس، بتحميلها ما يثقل عليها، كالذل، والفقر، والهوى بمخالفته، والدنيا بالزهد فيها ورميها وراء الظهر، والناس بالفرار منهم جملة، إلا من يدلّ على الله، تقاتلوهم، أو يُسلمون، بأن ينقادوا لكم، ويصيروا طوع أيديكم، فإن تُطيعوا يؤتكم الله أجراً حسنًا، وهو لذة الشهوة، ورؤية الملك الودود، عاجلاً وآجلاً، وإن تتولوا كما توليتم فى زمان البطالة، وبقيتم مع هوى نفوسكم، يُعذِّبكم عذاباً أليماً، بغم الحجاب وسوء العقاب.

قال القشيري: قوله تعالى: ﴿فإن تُطيعوا يؤتكم الله أجراً حسنا﴾ دلت الآية على أنه يجوز أن تكون للعبد بداية غير مرْضية، ثم تتغير للصلاح، وأنشدوا:

إذا فَسَدَ الإنسانُ بعد صلاحه فَرَجٌ له بعد الفساد صلاحا(١)

قلت: وجه الاستدلال: أن طاعتهم كانت بعد التخلف والعصيان، فقُبلت منهم.

ثم استثنى أهل الأعذار الصحيحة، فقال:

﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا (١٧) ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ليس على الأعمى حرجٌ ﴾ فى التخلف عن الغزو ﴿ ولا على الأعرج حرجٌ، ولا على المريض ﴾ الذى لا يقدر على الحرب ﴿ حرج ﴾ لأن الجهاد منوط بالاستطاعة ونفى الحرج، وهؤلاء أعذارهم ظاهرة صحيحة، فلا حرج عليهم فى التخلف. وفى التصريح بنفى الحرج مع كل طائفة مزيد اعتناء بأمرهم، وتوسيع لدائرة الرخصة. ﴿ ومن يُطع الله ورسوله ﴾ فيما ذكر من الأوامر والنواهى، ﴿ يُدخله(٢) جنات تجري من تحتها الأنهار. ومن يتولّ ﴾ ؛ يُعرض عن الطاعة ﴿ يُعذبه عذابًا أليما ﴾ لا يقادر قدره. وقرأ نافع والشامى؛ بنون العظمة، والباقى بياء الغيبة.

---

(١) فى القشيرى [فرجٌ له عود الصلاح لعلّه].

(٢) أثبت المفسر ـ رحمه الله ـ قراءة «ندخله» و«نعذبه» بنون العظمة، وهى قراءة نافع، وابن عامر، وأبى جعفر، وقرأ الباقون «يدخله» و«يعذبه» بالياء. انظر الإتحاف (٢/٤٨٢).

الإشارة: أصحاب هذه الأعذار إن صحبوا الرجال، وحطوا رؤوسهم لهم، وبذلوا نفوسهم وفلوسهم، سقط عنهم السفر إلى صحبة أشياخهم، ووصلت الواردات والأمداد إليهم في أماكنهم، ونالوا مراتب الرجال، حيث حبسهم العذر من العمى والعرج والمرض المزمن، والله يرزق العبد على قدر نيته وهمته.

ثم ذكر شأن بيعة الرضوان، فقال:

﴿ ۞ لَقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿لقد رَضِيَ اللهُ عن المؤمنين﴾، وهم الذين ذكر شأن مبايعتهم بقوله: ﴿إن الذين يبايعونك...﴾ الآية، وبهذه الآية سميت بيعة الرضوان، و«إذ» منصوب بـ«رضي»، وصيغة المضارع لاستحضار الصورة العجيبة، و(تحت الشجرة): متعلق به، أو: بمحذوف، حال من مفعوله، أي: رَضِيَ عنهم وقت مبايعتهم لك ﴿تحت الشجرة﴾ أو: حاصلا تحتها.

رُوِي: أنه ﷺ، لمَّا نزل الحديبية، بعث خِراش بن أمية الخزاعي، رسولاً إلى أهل مكة، فهَمُّوا به، وأنزلوه عن بعيره، فمنعته الأحابيش، فلما رجع دعا بعُمر ليبعثه، فقال: يارسول الله إني أخاف قريشاً على نفسي، وليس بمكة من بني عدي أحدٌ يمنعني، ولكن عثمان أعز بمكة مني، فبعث عثمان إلى أبي سفيان وأشراف قريش، يخبرهم أنه ﷺ جاء زائراً إلى البيت، مُعظِّماً لحُرمتــه، ولم يُرد حرباً، فوقروه، وقالوا: إن شئت أن تطوف بالبيت فافعل، فقال: ماكنت لأطوف قبل أن يطوف رسول الله ﷺ. فاحتبس عندهم، فأُرْجِفَ بأنهم قتلوه، فقال ﷺ: «لا نبرح حتى نناجز القوم» ودعا الناس إلى البيعة، فبايعوه تحت الشجرة ـ وكانت سمرة[1] وقيل: سدرة ـ على أن يُقاتلوا قريشًا، ولا يفروا،[2] وأول من بايع «أبو سنان الأسدي»، واسمه: وهب بن عبدالله بن محصن، ابن

(١) السَّمُرة: واحده السَّمُر، كرَجُل: شجرة الطلح. انظر النهاية (سمر ٢/٣٩٩).

(٢) أخرجه البخاري في (الجهاد والسير باب البيعة في الحرب أن لا يفروا ح ٢٩٥٨) عن عبدالله بن عمر رضي الله عنه، وأخرجه مسلم في (الإمارة، باب استحباب مبايعة الإمام الجيش عند إرادة القتال ح١٨٥٦) من حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنه.

أخي عكاشة بن مِحصن. وقيل: بايعوه على الموت عنده[1]، فقال لهم رسول الله ﷺ: «أنتم اليوم خير أهل الأرض»[2] وقال أيضا: «لا يدخل النارَ أحد ممن بايع تحت الشجرة»[3]. وكانوا ألفا وخمسمائة وخمسةً وعشرين، وقيل: ألفا وأربعمائة. والحديبية بتخفيف الياء، قاله في المصباح، وهى على عشرة أميال من مكة.

﴿ فعَلِمَ ما فى قلوبهم ﴾ من الإخلاص، وصدق الضمائر فيما بايعوا عليه. وقال القشيرى: علِمَ ما فى قلوبهم من الاضطراب والتشكيك، وذلك أنه ﷺ رأى فى منامه أنهم يدخلون المسجد الحرام آمنين، فبشّر أصحابه، فلما صُدوا خامر قلوبَهم شكٌ[4]، ﴿ فأنزل ﴾ اللهُ ﴿ السكينةَ عليهم ﴾ أى: اليقين والطمأنينة، فذهب عنهم. ثم قال: وفى الآية دليلٌ على أنه قد يخطر ببال الإنسان خواطر مشكّكة، وفى الرِّيب مُوقعة، ثم لا عبرة، فإن الله تعالى إذا أراد بعبده خيراً ألزم التوحيد قلبَه، وقارن التحقيق سِرّه، فلا يضرُّه كيدُ الشيطان. قال تعالى: ﴿إنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا... ﴾الآية[5] .

﴿ فأنزل السكينةَ عليهم ﴾ أى: الطمأنينة والأمن، وسكون النفس، بالربط على قلوبهم، ﴿ وأثابهم ﴾ أى: جازاهم ﴿ فتحًا قريباً ﴾ وهو فتح خيبر عقب انصرافهم من الحديبية كما تقدم. ﴿ ومغانمَ كثيرةً يأخذونها ﴾ وهى مغانم خيبر، وكانت أرضاً ذات عقار وأموال، فقسمها بينهم، ﴿ وكان الله عزيزاً ﴾ : منيعًا فلا يغالب، ﴿ حكيماً ﴾ فيما يحكم به فلا يعارَض.

(١) أخرجه البخارى فى (المغازى، باب غزوة الحديبية ح٤١٦٩) ومسلم فى (الإمارة باب البيعة فى الحرب أن لا يفروا ح ١٨٦٠) عن سلمة بن الأكوع.

وقد بيّن العلماء أنه لا تنافى بين من قال: إنهم بايعوا النبى ﷺ يومئذ على الموت، وبين من قال: إنهم بايعوه على عدم الفرار. قال الحافظ ابن حجر فى الفتح (٧/ ٥١٥): فحاصل الجمع أنّ من أطلق أن البيعة كانت على الموت أراد لازمها، لأنه إذا بايع أنه لا يفر لزم من ذلك أن يثبت، والذى يثبت إما أن يغلب وإما أن يؤسر، والذى يؤسر إما أن ينجو وإما أن يموت، ولمّا كان الموت لا يؤمن فى مثل ذلك أطلقه الراوى. وحاصله: أن أحدهما حكى صورة البيعة، والآخر حكى ماتئول إليه، وجمع الترمذى بأن بعضاً بايع على الموت، وبعضاً بايع على أن لا يفر.هـ.

(٢) أخرجه البخارى فى (المغازى، باب غزوة الحديبية، ح٤١٥٤) ومسلم فى (الإمارة، باب استحباب مبايعة الإمام الجيش عند إرادة القتال، رقم ١٨٥٦، ح٧١) من حديث جابر عبدالله رضي الله عنه .

(٣) أخرجه أحمد فى المسند (٣/ ٣٥٠). وأبو داود فى (السنة، باب فى الخلفاء ح٤٦٥٣) والترمذى فى (المناقب، باب ما جاء فى فضل من بايع تحت الشجرة ح٣٨٦٠) وقال: حديث حسن صحيح.

وأخرج مسلم فى (فضائل الصحابة باب من فضائل أصحاب الشجرة ح ٢٤٩٦) من حديث جابر، عن أم مُبَشّر، أنها سمعت النبى ﷺ يقول عند حفصة: «لا يدخل النار ـ إن شاء الله ـ من أصحاب الشجرة أحد، الذين بايعوه تحتها».

(٤) فى القشيرى: شىء.

(٥) الآية ٢٠١ من سورة الأعراف.

﴿ وعَدَكُمُ اللهُ مغانِمَ كثيرةً تأخذونها ﴾ هو مافتح على المؤمنين، وغنموه مع النبي ﷺ وبعده إلى يوم القيامة. والالتفات إلى الخطاب لتشريفهم في مقام الامتنان. ﴿ فعجَّلَ لكم هذه ﴾ المغانم، يعني مغانم خيبر، ﴿ وكفَّ أيديَ الناس عنكم ﴾ أي: أيدي أهل خيبر وحُلفاءهم من أسد وغطفان حين جاءوا لنصرتهم، فقذف الله في قلوبهم الرعب فانصرفوا، وقيل: أيدي أهل مكة بالصلح، ﴿ ولِتكون ﴾ هذه الكفّة ﴿ آيةً للمؤمنين ﴾ وعبرةً يعرفون أنهم من الله بمكان، وأنه ضامن لنصرتهم والفتح عليهم، أو: لتكون آية يعرفون بها صدقَ الرسول ﷺ من وعده إياهم عند رجوعه من الحديبية بما ذكر من المغانم، ودخول مكة، ودخولَ المسجد الحرام آمنين. واللام إما متعلقة بمحذوف مؤخر، أي: وليكون آية لهم فعل ما فعل من التعجيل والكف، وإما يتعلق بعلة أخرى محذوفة من أحد الفعلين، أي: فعجّل لكم هذه وكفَّ أيدي الناس عنكم لتغنموها ولتكون.... الخ، ﴿ ويهديكم صراطاً مستقيماً ﴾ أي: يزيدكم بصيرة ويقيناً وثقةً بوعد الله حتى تثقوا في أموركم كلها بوعد الله تعالى .

قال الثعلبي، ولمّا فتح النبيُّ ﷺ حصونَ خيبر سمع أهل فدك ما صنع ـ عليه السلام ـ بأهل خيبر، فأرسلوا له يسألونه أن يُسيرَهم ويحقن دماءهم، ويخلوا له الأموال، ففعل، ثم صالح أهلَ خيبر، على أن يعملوا في أموالهم على النصف، على أنه إن شاء أجلاهم متى شاء[1]، ففعلوا، فكانت خيبر فيئاً للمسلمين، وكانت فدك خالصة له ﷺ، إذ لم يوجف عليها بخيل ولا ركاب، ولما اطمأن ﷺ بعد فتح خيبر أهدت له زينب الحارث اليهودية شاة مصليّة مسمومة، أكثرت في ذراعها السم، فأخذ ﷺ الذراع، فأكل منه، ثم كلمه، فأمسك، وأكل معه بشر بن البراء بن معرور، فمات من ساعته، وسَلِمَ ﷺ حتى قام عليه بعد سنتين، فمات به، فجُمع له بين الشهادة والنبوة[2].

ثم قال تعالى: ﴿ وأُخرى لم تَقْدِروا عليها ﴾ أي: وعجّل لكم مغانم أخرى، وهي مغانم هوازن في غزوة حنين. ووصفها بعدم القدرة عليها لما كان فيها من الجوْلة. ﴿ قد أحاطَ اللهُ بها ﴾ ؛ قَدَرَ عليها واستولى، وأظهركم عليها، وهي صفة أخرى لـ«أخرى» مفيدة لسهولة بأسها بالنسبة إلى قدرته تعالى، بعد بيان صعوبة منَالها بالنظر إلى حِذرهم. ويجوز في «أُخرى» النصب بفعل مضمر، يُفسره ﴿قد أحاط الله بها﴾، أي: وقضى الله أخرى، ولا ريب في أن الإخبار بقضاء إياها بعد اندراجها في جملة الغنائم الموعودة بقوله: ﴿وعدكم الله مغانم كثيرة﴾ فيه مزيد فائدة، وإنما الفائدة في بيان تعجيلها وتأخير هذه.

---

(١) حديث مصالحة النبي ﷺ لأهل خيبر، أخرجه البخاري في (فرض الخمس، باب ما كان النبي ﷺ يعطي المؤلفة قلوبهم وغيرهم من الخمس ونحوه ح ٣١٥٢) ومسلم في (المساقاة، باب المساقاة والمعاملة بجزء من الثمر والزرع، ح ١٥٥١) عن ابن عمر رضي الله عنه.

(٢) انظر سيرة ابن هشام (٢/٣٣٧ ـ ٣٣٨) وتفسير البغوي (٧/٣١١). وحديث أكلة خيبر أخرجه البخاري في (الهبة، باب قبول الهدية من المشركين، ح ٢٦١٧) ومسلم في (السلام، باب السم، ح ٢١٩٠) عن أنس رضي الله عنه.

وقال ابن عباس والحسن ومقاتل: ﴿وأخرى لم تقدروا عليها﴾ هى فارس والروم. وقال مجاهد: مافتحوا حتى اليوم[1].هـ. قلت: بل إلى يوم القيامة وهذا أظهر الأقوال. أي: لم تقدروا على أخذها الآن وستأخذونها، ﴿ وكان الله على كل شيء قديراً ﴾؛ لأن قدرته تعالى عامة التعلق، لا تختص بشيء دون شيء.

قال ابن عرفة: مذهبنا أن المستحيل لا يصدق عليه شيء، فيبقى النظر: هل يطلق على الواجب شيء، لقوله تعالى: ﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ ﴾[2] أم لا يطلق عليه شيء؟ فإن قلنا: يصلح الاطلاق وجب التخصيص فى الآية، فيكون عاماً مخصوصاً، وإن قلنا بعدم صحته، فيبقى النظر: هل المراد بالقدرة الإحداث أو الصلاحية، فإن أريد الإحداث فهى مخصوصة، وإن أريد الصلاحية فهو عام غير مخصوص.هـ.

الإشارة : مشايخ التربية خلفاء الرسول ﷺ فحين بايعهم على عقد الإرادة فكأنما بايع الرسول، فيقال على طريق الإشارة: لقد رضى الله عن المؤمنين المتوجهين، إذ يبايعونك أيها العارف تحت الشجرة، تحت ظل شجرة همتك، فعلِمَ ما فى قلوبهم من الصدق، فأنزل السكينة عليهم، حتى سكنوا تحت مشاق التربية والرياضة، وأثابهم فتحاً قريباً، وهو الوصول إلى حضرة العيان، ومغانم كثيرة؛ فتوحات ومكاشفات، وأسرار، وترقيات كثيرة، إلى ما لا نهاية له، يأخذونها. وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها بعد الفتح، من الرجوع إلى البقاء وبقاء البقاء، والتوسع فى المقامات، والترقى فى معارج المكاشفات، فعجَّل لكم هذه، هو مقام الفناء، وكفَّ أيدى القواطع عنكم، لتتوجهوا إلى مولاكم، لتكون عبرة للمؤمنين المتخلفين عن السير، يهتدون بهديكم، ويهديكم صراطاً مستقيماً: طريق الوصول إلى حضرة القدس، ومحل الأنس، وأخرى لم تقدروا عليها فى الدنيا، ادخرها لكم يوم القيامة، هو المُقام فى مقعد صدق عند مليك مقتدر.

وقال الورتجبى: ﴿لقد رضى الله عن المؤمنين﴾ أى: رَضِىَ عنهم فى الأزل، وسابق علم القدم، ويبقى رضاه إلى الأبد؛ لأن رضاه صفة الأزلية الباقية الأبدية، لا تتغير بتغير الحدثان، ولا بالوقت والزمان، ولا بالطاعة والعصيان، فإذا هم فى اصطفائيته باقون إلى الأبد، لا يسقطون من درجاتهم بالزلات ولا بالبشرية، ولا بالشهوات، لأن أهل الرضا محروسون برعايته، لا تجرى عليهم نعوت أهل البُعد، وصاروا متصفين بوصف رضاه، فرضوا عنه كما رضى عنهم، قال تعالى: ﴿ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾[3]، وهذا بعد قذف نور الأنس فى قلوبهم بقوله: ﴿فأنزل السكينة عليهم﴾ فسكنت قلوبهم إليه، واطمأنت به؛ لِتنزُّل اليقين.هـ.

---

(١) ذكره البغوى فى تفسيره (٣١٢/٧).
(٢) من الآية١٩ من سورة الأنعام.
(٣) من الآية ١١٩ من سورة المائدة.

قلت: هذا لمن تحققت محبوبيته ممن رسخت قدمه في شهود الحق، واطمأن به، وأما قبل هذا فالأمر مُبهم.

قال اللجائي، في كتابه «قطب العارفين»: وإياك أن تعتقد أنَ في الناس شراً منك، وإن كان عاصياً وأنت مطيع، فإنّ الأمر يحدث بعد الأمر، وسرُ الله تعالى في خلقه غامض، لا يُدرى من يبوء بالشقاوة، ولا من يفوز بالسعادة، وقد يتلقى العبدُ رضا الله تعالى بحسنة واحدة، ويتلقى سخطه بذنب واحد، فإنَّ أمر الله خفي في غموض المشيئة...الخ.

ثم بشّرهم بالنصر، فقال:

﴿ وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوَلَّوُاْ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ... ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ولو قاتلكم الذين كفروا ﴾ من أهل مكة ولم يُصالحوا، أو من خلفاء خيبر، الذين جاءوا لنصرهم ﴿لولّوا الأدبارَ﴾ منهزمين ﴿ثم لا يجدون وليّاً ﴾ يلي أمرهم، ﴿ ولا نصيراً ﴾ ينصرهم. ﴿ سُنَّةَ الله التي قد خلَتْ من قبل ﴾ : مصدر مؤكد، أي: سنّ الله غلبة أنبيائه سنة ماضية، وهو قوله: ﴿ لأغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي ﴾(١) ﴿ ولن تجد لسنة الله تبديلا ﴾ ؛ تغيرًا.

﴿ وهو الذي كفَّ أيديَهم عنكم ﴾ أي: أيدى كفار أهل مكة ﴿ وأيْدِيكم عنهم ﴾ ؛ عن أهل مكة ﴿ **ببطن مكة** من بعد أن أظفركم عليهم ﴾ أي: أقدركم وسلّطكم عليهم، يعني: قضى بينهم وبينكم المكافّة والمحاجزة بعد ماخوّلكم الظفر عليهم والغلبة، وذلك أن عكرمة بن أبي جهل خرج في خمسمائة إلى الحديبية، يطلب غرة بالمسلمين، فبعث رسولُ الله ﷺ خالدَ بن الوليد على جند، فهزمهم، حتى أدخلهم حيطان مكة، ثم عاد ثانيًا

(١) من الآية ٢١ من سورة المجادلة.

فهزمه، ثم عاد فهزمه[1]، هكذا نقله الثعلبي وغيره. فانظره مع ما في الاكتفاء للكلاعي: أن خالداً كان مع المشركين في الحديبية، وإنما أسلم بعد الحديبية قبل الفتح، وكان في السنة الثامنة، والحديبية في السادسة، والذي ذكر النسفي أنه ﷺ بعث من هزمهم، ولم يسمه، وهزمُ خالد لبعض قريش إنما كان في الفتح، لا في الحديبية، فلعل الراوي غلط. وقال أنس: إن ثمانين رجلاً من أهل مكة هبطوا على النبي ﷺ وأصحابه من جبل التنعيم عند صلاة الفجر، عام الحديبية، ليقاتلوا المسلمين، فأخذهم النبي ﷺ سِلْماً، فأعتقهم، فنزلت الآية[2].

ووجه المنّة في كفّ أيدي المؤمنين عن الكافرين: ماذكر بعد من قوله: ﴿ولولا رجال مؤمنون﴾... الآية، أو: ما تطرق بسببه من الصلح وانقيادهم إليه، فإنهم لما رأوا أصحابهم انهزموا أذعنوا للصلح، وقال القشيري: بعد أن اضطرهم المسلمون إلى بيوتهم، أنزل الله هذه الآية يمنّ عليهم، حيث كفَّ أيديَ بعضهم عن بعض، عن قدرة من المسلمين، لا عن عجز، فأما الكفار فكفّوا أيديهم رُعباً وخوفاً، وأما المسلمون فنهياً من قِبل الله، لما في أصلابهم من المؤمنين.هـ. ﴿ وكان الله بما تعملون ﴾ من مقاتلتهم وهزمهم أولاً، والكفّ عنهم ثانياً، لتعظيم بيته الحرام، وقرأ البصري بياء الغيب، أي: بما يعمل المشركون ﴿ بصيراً ﴾ فيجازي كُلاً بما يستحقه.

﴿ هم الذين كفروا وصدُّوكم عن المسجد الحرام ﴾ ﴿ و ﴾ صدوا ﴿ الهدْيَ ﴾ حال كونه ﴿ معكوفاً ﴾ أي: محبوساً عن ﴿ أن يبلغ مَحِلَّهُ ﴾ أي: مكانه الذي يحلّ به نحره، وهو منىً وكان ﷺ ساق سبعين بدنة، فلما صُدَّ، نَحَرَها بموضعه، وبه استدل من قال: أنّ المحصَر ينحر هداياه بموضعه، وروى أن خيامه ﷺكانت في الحل، ومصلاه في الحرم، وهناك نحرت هداياه ﷺ. والله تعالى أعلم.

الإشارة: يُقال لمن سبقت لهم العناية، وحفّت بهم الرعاية: لو قاتلكم الذين كفروا من النفس الأمارة، والشيطان، والهوى، وسائر القواطع، لولّوا الأدبار، ثم لا يجدون تسلطاً عليكم أبداً، سُنّة الله التي قد خلت فيمن توجه إليه بصدق الطلب، ودخل تحت تربية الرجال، فإن همتهم دائرة عليه، ولن تجد لسنة الله تبديلا. وهو الذي كفّ أيدي الأعداء من القواطع عنكم، وكفّ أيديكم عنهم، من بعد أن أظفركم عليهم، فإنّ النفس إذا تعذبت واطمأنت وجب الكفُّ عن مجاهدتها، ووجب البرور بها، وتصديقها فيما تحدثه، وكذا سائر القواطع تجب الغيبة عنها، وعدم

(١) أخرجه ابن جرير (٢٦/٩٥) وانظر الكافي الشاف (ح٤٢٤) فقد قال الحافظ ابن حجر معقباً: «في صحته نظر؛ لأن خالداً لم يكن أسلم في الحديبية. وظاهر السياق أن هذه القصة كانت في الحديبية». وسيذكر الشيخ بعد قليل حديث أنس. وهو أصح لوروده في الصحيح.

(٢) أخرجه مسلم في (الجهاد، باب قول الله تعالى: ﴿وهو الذي كف أيديهم عنكم﴾ ح ١٨٠٨) من حديث أنس رضي الله عنه .

الالتفات إليها غيبةً في الله واشتغالاً بشهوده. وقيل لبعضهم: متى ينتهي سير الطالبين؟ قال: «الظفر بنفوسهم، فإن ظفروا بها وَصلوا». وأيض: ا لا تجتمع المجاهدة مع المشاهد، فإذا تحققت المشاهدة فلا مجاهدة. هم الذين كفروا من النفوس المتمردة، والهوى، وصدوكم عن مسجد الحضرة، والهدىَ معكوفاً، وحبسوكم عن التقرب إلى الله بالنفس والمال أن يبلغ محله، بأن تمنعكم من إعطائه، أو تُشيبه بما يُفسده من الرياء والعجب، لئلا تبلغ محل الإخلاص.

ثم ذكر حكمة منعهم من دخول مكة عام الحديبية، فقال:

﴿ ... وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ ﴾

قلت: (أن تطؤوهم): بدل اشتمال من رجال ونساء، ومن ضمير «تعلموهم» وبغير متعلق بتطؤهم، وجواب «لولا» محذوف، أغنى عنه جواب «لو» أي: لما كف أيديكم عنهم.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ولولا رجالٌ مؤمنون ونساء مؤمنات﴾ بمكة، ضَعُفوا عن الهجرة ﴿لم تعلموهم﴾؛ لم تعرفوهم بأعيانهم؛ لاختلاطهم مع المشركين، ﴿أن تطأوهم بغير علم﴾ أي: غير عالِمين بهم ﴿فتصيبكم منهم معرَّة﴾ أي: مشقة ومكروه. وفي تفسير المحلى «المعرة» بالإثم نظر، مع فرض عدم العلم، إلا أن يُحمل على صورة الإثم، وهو الخطأ، وفيه الكفارة. والمعرة: مفعلة من: عراهُ: إذا دهاه مايكرهه وشقّ عليه، وهو هنا الكفارة إذا قتله خطأ، وسوء مقالة المشركين أنهم فعلوا بأهل دينهم مثل مافعلوا بنا من غير تمييز، والإثم إذا قصد قتله. والوطء عبارة عن الإيقاع والإبادة. والحاصل أنه كان بمكة قوم مسلمون مختلطون بالمشركين، غير متميِّزين منهم، فقيل: ولولا كراهة أن تُهلكوا ناساً من المؤمنين بين ظهراني المشركين وأنتم غير عارفين بهم، فُتصيبكم بإهلاكهم مشقة ومكروه، ولما كففنا أيديكم عنهم، ولسلطانكم عليهم.

وكان ذلك الكفّ ﴿ليُدخل اللهُ في رحمته﴾ أي: في توفيقه لزيادة الخير والطاعة لمؤمنيهم، أو: ليُدخلهم في الإسلام من رغب فيه من مشركيهم ﴿من يشاء﴾ زيادته أو هدايته، فاللام متعلقة بمحذوف، تعليل لما دلت عليه الآية، وسيقت له، من كفّ الأيدي عن أهل مكة، والمنع من قتلهم، صوناً لما بين أظهرهم من المؤمنين. ﴿لو تزيلوا﴾ أي: تفرقوا وتميز المسلمون من الكافرين، ﴿لعذَّبنا الذين كفروا منهم عذاباً أليماً﴾ بقتل

مقاتلتهم، وسبى ذراريهم. ويجوز أن يكون: «لو تزيلوا» كالتكرير لـ«لولا..»؛ لمرجعهما لمعنى واحد، ويكون (لعذّبنا...) الخ، هو جواب «لولا»، والتقدير: ولولا أن تطئوا رجالاً مؤمنين ونساء مؤمناتٍ من غير علم، ولو كانوا متميزين لعذبناهم بالسيف.

الإشارة: إذا اختلط أهل الانتقاد مع أهل الاعتقاد، لا يعم البلاء المعدّ لأهل الانتقاد، ولو تزيلوا لعذبنا المنكرين عذاباً أليماً، وكذلك إذا اختلط الفجار مع الأبرار، وغلب جمع الأبرار، لا يعم البلاء، ويُصرف عن الجميع، فلو تزيل الفجار لعُذبوا عذاباً أليما.

قال القشيرى: قد تكون فى النفس أوصاف مستحسنة، تليق بالفيض الإلهى، مع أوصاف مذمومة، فلو سلطناكم على إهلاكها بالمرة، لفاتكم مافيها من الأوصاف الحسنة، فتُصيبكم معرة، ليدخل الله فى رحمته بالوصول إلى حضرته من يشاء من النفوس، بتصفية مافيها من الرذائل. لو تزيلوا تميز مايصلح قلعه، كالكبر، والشر، والحرص والحقد، أو مايصلح تبديله، كالبخل بالسخاء، والحرص بالقناعة، والغضب بالحلم، والجبن بالشجاعة، والشهوة بالعفة، لعذّبنا النفوس المتمردة عذاباً أليماً، بإهلاكها بالكلية. بالمعنى.

ثم وصف أهل الكفر المتقدمين الآن بالحَمية، فقال:

﴿ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا (٢٦) ﴾

يقول الحق جل جلاله: واذكر ﴿إذ جعلَ الذين كفروا﴾ من قريش أى: ألقوا ﴿فى قلوبهمُ الحميَّة﴾ أى: الأنفَة والتكبر، أو: صيّروا الحميةَ راسخة فى قلوبهم ﴿حميةَ الجاهلية﴾: بدل، أى: حميّة الملة الجاهلية، أو الحميّة الناشئة من الجاهلية، ووضع الموصول موضع ضميرهم، إذ تقدم ذكرهم، لذمِّهم بما فى حيز الصلة، وتعليل الحكم به. والجعل بمعنى الإلقاء، فلا يتعدى إلى مفعولين، أو: بمعنى التصيير، فالمفعول الثانى محذوف، كما تقدم. و«الذين»: فاعل، على كل حال. ﴿فأنزل اللهُ سكينتَه على رسوله وعلى المؤمنين﴾ أى: أنزل فى قلوبهم الطمأنينة والوقار، فلم يتضعضعوا من الشروط التى شرطت قريش.

رُوي: أن رسول الله لمّا نزل الحديبية بعثت قريشٌ سهيل بن عمرو، وحويطب بن عبد العُزّى، ومِكْرَز بن حفص، على أن يعرضوا على رسول الله ﷺ أن يرجع من عامه ذلك، على أن تخلي له قريش مكة من العام القابل ثلاثة أيام، ففعل ذلك، وكتب بينهم كتاباً، فقال ﷺ لعليّ رضي الله عنه: «اكتب «بسم الله الرحمن الرحيم» فقال سهيل وأصحابه: مانعرف هذا، ولكن اكتب: باسمك اللهم، ثم قال: «اكتب: هذا ما صالح عليه رسولُ الله أهلَ مكة» فقالوا: لو كنا نعلم أنك رسول الله ماصددناك عن البيت وماقاتلناك، ولكن اكتب: هذا ما صالح عليه محمدٌ بن عبدالله أهلَ مكة، فقال ﷺ: «اكتب مايريدون، فأنا أشهد أنّي رسول، وأنا محمد بن عبدالله» فهمّ المسلمون أن يأبَوا ذلك، ويبطشوا بهم، فأنزل الله السكينة عليهم، فتوقّروا وحلُموا(١). وفي رواية البخاري: فكتب عليّ رضي الله عنه: «هذا ماقضى عليه محمد رسول الله» فلما أبَوا ذلك، قال ﷺ لعليّ: «امح رسول الله، واكتب: محمد بن عبدالله»، فقال: والله لاأمحوك أبداً، فأخذ ﷺ الصحيفة وكتب ما أرادوا. قيل: كتب بيده معجزةً، وقيل: أمرَ من كتب، وهو الأصح.

﴿ وألزمهم كلمةَ التقوى ﴾ ، شهادة «لا إله إلا الله»(٢)، وقيل: بسم الله الرحمن الرحيم، وقيل: محمد رسول الله، وقيل: الوفاء بالعهد، والثبات عليه. وإضافتها إلى التقوى؛ لأنها سببها وأساسها، وقيل: كلمة أهل التقوى. ﴿ وكانوا أحقَّ بها ﴾ أي: متصفين بمزيد استحقاق بها، على أن صيغة التفضيل للزيادة مطلقاً، أو: أحق بها من غيرهم من سائر الأمم ﴿ و ﴾كانوا أيضا ﴿ أهلها ﴾ المتأهلون لها بتأهيل الله إياهم. قال القشيري: كلمة التقوى هي التوحيد عن قلبٍ صادق، وأن يكون مع الكلمة الاتقاءُ من الشرْك، وكانوا أحق بها في سابق حكمه، وقديم علمه، وهذا إلزام إكرام ولطف، لا إلزام إكراهٍ وعنف، وإلزامُ بر، لا إلزام جبر.هـ. ﴿ وكان الله بكل شيء عليما ﴾ فيجري الأمور على مساقها، فيسوق كلاً إلى مايستحقه.

الإشارة: لا يصل العبد إلى مولاه حتى تكون نفسه أرضية، وروحه سماوية، يدور مع الحق أينما دار، ويخضع للحق أينما ظهر، ولأهله أينما ظهروا، لم تبق فيه حَميّة ولا أنفة، بل يكون كالأرض يطأها البار والفاجر، ولا تميز بينهما، وأما من فيه حمية الجاهلية، فهو من أهل الخذلان، وأما أهل العناية، فأشار إليهم بقوله: ﴿فأنزل الله

(١) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (باب سياق قصة الحديبية ٤/١٠٥) من حديث عروة بن الزبير، مرسلاً، والقصة في الصحيح، فقد أخرجها البخاري في (الصلح، باب كيف يكتب: هذا ما صالح فلان بن فلان، ح ٢٦٩٨) كما أخرجها مطولة في (الشروط، باب الشروط في الجهاد، ٥/٣٢٩ ـ ٣٣٣) من حديث عروة بن الزبير، عن المسور بن مخرمة ومروان، وأخرجها مسلم في (الجهاد، باب صلح الحديبية ح ١٧٨٣) من حديث البراء بن عازب ـ رضي الله عن الصحابة أجمعين.

(٢) هذا هو التفسير المروي عن الرسول ﷺ. وأخرجه الترمذي في (التفسير ـ سورة الفتح ح ٣٢٦٥) وأحمد في المسند (٥/١٣٨، ح٢١١٥١) والحاكم (٢/٤٦١) «وصححه ووافقه الذهبي» والطبراني في الكبير (١/١٦٨) من حديث عليّ رضي الله عنه. وأخرجه البيهقي في الأسماء والصفات (ص١٠٩) من حديث الطفيل بن أُبيّ، عن أبيه.

سكينته على رسوله﴾ فكان متواضعاً سهلاً ليناً، كما قال تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾(١) وعلى المؤمنين، فأخبر عنهم بقوله: ﴿ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾(٢) الآية، «وألزمهم كلمة التقوى»، «لا إله إلا الله» لأنها تهذب الأخلاق، وتُخرج ما في القلب من الأمراض والنفاق؛ لأن النفي: تنزيه وتخلية، والإثبات: نور وتحلية، فلا يزال النفي يخرج مِن القلب ما فيه هي الظلمة والمساوئ، حتى يتطهر ويتصف بكمال المحاسن.

قال في نوادر الأصول، لمّا تكلم على ﴿وألزمهم كلمة التقوى﴾: هو «لا إله إلا الله»، وجه تسميتها بذلك: أنه اتقى بها ونفىَ ما أُحدث من الشرك، حميةً للتوحيد وعصبيةً وغيرةً، اقتضاها نورُ التوحيد والمحبة، فنفى القلبُ كلَّ رب ادعى العبادُ ربوبيته، وولِهت قلوبهم إليه، فابتدأ هذا القلب ـ الذي وصفنا ـ بالنفي لأرباب الأرض، ثم سَما عالياً حتى انتهى إلى الرب الأعلى، فوقف عنده، وتذلل وخشع له، واطمأن ووله إليه. وقال لنبيه: ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴾(٣) أي: إن هذه أرباب متفرقون، والرب الله الواحد القهار، فهداه إلى الرب الأعلى، وقال: ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ ﴾(٤). ثم قال: ألزم قلوبهم هذه الكلمة بنور المحبة، كما قال: ﴿ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾(٥)، فبحلاوة الحب، وزينة البهاء، صارت الكلمة لازمةً لقلوبهم.

وأما قوله: ﴿وكانوا أحق بها وأهلها﴾ فإنما صاروا كذلك؛ لأن الله كان ولا شيء، فخلق المقادير، وخلق الخلق في ظلمة، ثم رش عليهم من نوره، فمن أصابه من ذلك النور اهتدى، ومن أخطأه ضل، فقد علم من يخطئه ممن يصيبه. ثم ذكر أحاديث، من ذلك: حديث [ابن عمرو](٦): «إن الله خلق خلقه، ثم جعلهم في ظلمة، ثم أخذ من نوره ماشاء، فألقاه عليهم، فأصاب النور مَن شاء أن يُصيبه، وأخطأ من شاء أن يخطئه...» الحديث(٧). ثم قال بعد كلام طويل: ثم لمّا نفخ الروح في آدم أخرج نَسَمَ بنيه، أهل اليمين، من كتفه الأيمن في صفاء وتلألؤ، وأصحاب الشمال [كالحُمَّة](٨) سُود من كتفه الأيسر، والسابقون أمام الفريقين، المقربون، وهم الرسل والأنبياء والأولياء،

---

(١) الآية ٤ من سورة القلم. (٢) من الآية ٢٩ من سورة الفتح.
(٣) الآية الأولى من سورة الأعلى. (٤) من الآية ٤٢ من سورة النجم.
(٥) من الآية ٧ من سورة الحجرات.
(٦) في الأصول [ابن عمر] والمثبت هو الصحيح، فالحديث مروي عن عبدالله بن عمرو بن العاص.
(٧) أخرجه بنحوه الترمذي وحسّنه في (الإيمان، باب افتراق هذه الأمة، ح ٢٦٤٢) وأحمد في المسند (ح٦٨٥٤) ومطولاً (ح٦٦٤٤) والحاكم (١/٣٠ ـ ٣١) «وصححه ووافقه الذهبي»، وكذا صححه ابن حبان (ص٤٤٩)من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص، وقال الهيثمي في المجمع (٧/١٩٣ ـ ١٩٤): «رواه أحمد بإسنادين، والبزار والطبراني، ورجال أحد إسنادي أحمد ثقات».
(٨) في الأصول [كالحمية] والمثبت من نوادر الأصول، وهو الصحيح.
والحم: الأسود من كل شيء، والاسم: الحُمَّة. انظر اللسان (حمم ٢/١٠٠٩).

فقرّبهم[1] كلهم، وأخذ عليهم الميثاق على الإقرار بالعبودية، وأشهدهم على أنفسهم، وشهد عليهم بذلك، ثم ردهم إلى الأصلاب ليخرجهم تناسلاً إلى الأرحام[2].هـ.

وقال الجنيد رضي الله عنه في قوله: ﴿ وكانوا أحقَّ بها وأهلَها ﴾: من أدركه عناية السبق في الأزل جرى عليه عنوان المواصلة، وهو أحق بها، لما سبق إليه من كرامة الأزل.هـ. والحاصل: أنهم أحق بها بالسبق بالاصطفائية، وبقيت نعوتها وأنوارها في قلوبهم، دون الذين حجبهم الله عن رؤية نورها. قاله في الحاشية.

ثم بشّرهم بفتح مكة، وصدق الرؤيا التي رآها النبي ﷺ، فقال:

﴿ لَقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ لقد صدَقَ اللهُ رسولَه الرؤيا ﴾ أي: صدقه في رؤياه ولم يكذبه ـ تعالى الله عن الكذب ـ فحذف الجارّ وأوصل الفعل؛ كقوله: ﴿ صدقُوا ما عاهدُوا اللَّهَ عَلَيهِ ﴾[3] يقال: صدقه الحديث: إذا حققه وبيّنه له، أو: أخبره بصدق، رُوِي أنه ﷺ رأى في النوم، قبل خروجه إلى الحديبية، كأنّه وأصحابه قد دخلوا مكة آمنين، وقد حلقوا وقصّروا، فقص الرؤيا على أصحابه، ففرحوا، وحسبوا أنهم داخلوها، وقالوا: إن رؤيا رسول الله حق. والله تعالى قد أبهم الأمر عليهم لينفرد بالعلم الحقيقي، فلما صُدوا، قال عبد الله بن أُبيّ وغيرُه من المنافقين: والله ما حلقنا ولا قصّرنا ، ولا رأينا المسجد الحرام، فنزلت[4] : ﴿لقد صدَق اللهُ رسوله﴾ فيما أراه، وما كذب عليه، ولكن في الوقت الذي يريد.

وقوله: ﴿ بالحق ﴾، إما صفة لمصدر محذوف، أي: صدقا ملتبساً بالحق، أي: بالغرض الصحيح، والحكمة البالغة التي تُميز بين الراسخ في الإيمان والمتزلزل فيه، أو: حال من الرؤيا، أي: ملتبسة بالحق ليست من قبيل

---

(١) في نوادر الأصول: [فقررهم].

(٢) النقل بتصرف.

(٣) من الآية ٢٣ من سورة الأحزاب.

(٤) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (باب نزول الفتح مرجع الحديبية ٤/٣٦٤) وابن جرير في التفسير (٢٦/١٠٧) عن مجاهد، مرسلاً.

أضغاث الأحلام، ويجوز أن يكون قسمًا، أي: أقسم بالحق ﴿لتدخُلُنَّ المسجد الحرام﴾، وعلى الأول: جواب القسم محذوف، أي: والله لتدخلن المسجد الحرام، والجملة القسمية: استئناف بيانى، كأن قائلاً قال: ففيم صَدَقَه؟ فقال: (لتدخلن المسجد إن شاء الله). وهو تعليق للعِدة بالمشيئة لتعليم العباد. قال ثعلب: استثنى الله فيما يعلم؛ ليستثنى الخلق فيما لا يعلمون. وقال فى القوت: استثنى الله معلماً لعباده ورادّاً لهم إلى مشيئته، وهو أصدقُ القائلين، وأعلمُ العالمين.هـ. أو: للإشعار بأن بعضهم لا يدخلونه، لموت، أو غيبة، أو غير ذلك، أو: هو حكاية لِما قاله ملَك الرؤيا لرسول الله ﷺ، أو لِما قاله ﷺ لأصحابه، حين قصّ عليهم، أي: والله لتدخلنها ﴿آمنين﴾ من غائلة العدو، فهو حال من فاعل «لتدخلن»، والشرط معترض. ﴿مُحلِّقين رؤوسكم ومقصِّرين﴾ أي: محلقاً بعضكم، ومقصراً آخرون، ﴿لا تخافون﴾ بعد ذلك أبداً، فهو حال أيضاً، أو استئناف، ﴿فَعَلِمَ مالم تعلموا﴾ من الحكمة فى تأخير فتح مكة إلى العام القابل، ﴿فجعل من دون ذلك﴾؛ فتح مكة ﴿فتحًا قريبًا﴾ وهو فتح خيبر، لتستروح إليه قلوبُ المؤمنين، إلى أن يتيسر الفتح الموعود. والله تعالى أعلم.

الإشارة: العارف الكامل لا يركن إلى شيء دون الله تعالى، فلا يطمئن إلى وعد، ولا يخاف من وعيد، بل هو عبد بين يدى سيده، ينظر ما يبرز من زمن عنصر قدرته، فإن بُشِّر بشيء فى النوم أو اليقظة، لا يركن إليه، ولا يقف معه؛ لأن غيب المشيئة غامض، وإن خُوِّف بشيء فى النوم أو غيره، لا يفزع ولا يجزع؛ لأن الغنى بالله والأُنس به غيَّبه عن كل شيء، وفى الله خلف من كل تلف «ماذا فقد من وجدك؟»[1]، والله يتولى الصالحين، ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا..﴾ الآية[2].

قال فى الإبريز[3]: الرؤيا المُحْزِنة إنما هى اختبار من الله للعبد، هل يبقى مع ربه أو ينقطع عنه، فإن كان العبد متعلقًا به تعالى، ورأى الرؤيا المحزِنة، لم يلتفت إليها، ولما يُبال بها؛ لعلمه بأنه منسوب إلى من بيده تصاريف الأمور، وأنّ ما اختاره تعالى سبقت به المشيئة، فلا يهوله أمر الرؤيا، ولا يلقى إليها بالاً، وهذه لا تضره بإذن الله تعالى: وإذا كان العبد غير متعلق بربه، ورأى رؤيا محزنة، جعلها نصب عينيه، وعمّر بها باطنه، وانقطع بها عن ربه، ويُقدِّر أنها لا محالة نازلة به، فهذا هو الذى تضره؛ لأنّ من خاف من شيء سلّطه عليه.هـ.

(١) من مناجاة الشيخ ابن عطاء السكندرى. انظر تبويب الحِكَم للمتقى الهندى (ص٤٢).
(٢) الآية ٢ من سورة الطلاق.
(٣) لسيدى عبدالعزيز الدبّاغ ـ رحمه الله تعالى.

وسُئل سهل التسترى رضي الله عنه عن الاستثناء فى هذه الآية، فقال: تأكيداً فى الافتقار إليه، وتأديباً لعباده فى كل حال ووقت .هـ. أى: أدّبهم لئلاً يقفوا مع شيء دونه.

ثم ردّ حميّة الجاهلية فى عدم إقرارهم برسالته ﷺ، فقال:

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿هو الذي أرسل رسوله بالهُدى﴾؛ بالتوحيد، أى: ملتبساً به، أو: بسببه، أو: لأجله، ﴿ودينِ الحق﴾؛ وبدين الإسلام، وبيان الإيمان والإحسان. وقال الورتجبى: ودين الحق: هو بيان معرفته والأدب بين يديه .هـ. ﴿ليُظهره على الدين كله﴾؛ ليُعْلِيَه على جنس الدين، يريد الأديان كلها من أديان المشركين وأهل الكتاب، وقد حقق ذلك سبحانه، فإنك لا ترى ديناً قط إلا والإسلام فوقه بالعزة والغلبة، إلا ما كان من النصارى بالجزيرة[1]، حيث فرّط أهل الاسلام، وقيل: هو عند نزول عيسى عليه السلام حين لا يبقى على وجه الأرض كافر. وقيل: هو إظهاره بالحجج والآيات. ﴿وكفى بالله شهيداً﴾ على أن ما وعده كائن. وعن الحسن: شهد على نفسه أنه سيُظهر دينه، أو: كفى به شهيداً على نبوة محمد ﷺ وهو تمييز، أو حال.

﴿محمد رسولُ الله﴾ أى: ذلك المرسَل بالهدى ودين الحق هو محمد رسول الله، فهو خبر عن مضمر، و«رسول»: نعت، أو: بدل، أو: بيان، أو: «محمد»: مبتدأ و«رسول»: خبر، ﴿والذين معه﴾: مبتدأ، خبره: ﴿أشداءُ

(١) يعنى الأندلس.

على الكفار رُحماءُ بينهم﴾ أو: «الذين»: عطف على «محمد»، و«أشداء»: خبر الجميع، أى: غِلاظ شِداد على الكفار فى حَرْبِهم، رُحماء متعاطفون بينهم، يعنى: أنهم كانوا يُظهرون لمن خالف دينهم الشّدة والصلابة، ولمن وافَق دينهم الرأفةَ والرحمةَ، وهذا كقوله تعالى: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾[١]، وبلغ من تشديدهم على الكفار أنهم كانوا يتَحرّزون من ثيابهم أن تلزق بثياب الكفار، ومن أبدانهم أن تمسّ أبدانهم، وبلغ من تراحمهم فيما بينهم: أنهم كانوا لا يرى مؤمن مؤمناً إلا صافحه وعانقه.

وهذا الوصف الذى مدَحَ اللهُ به الصحابةَ ـ رضى الله عنهم ـ مطلوبٌ من جميع المؤمنين، لقوله ﷺ: «ترى المؤمنين فى تراحمهم وتوادّهم وتعاطفهم كالجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائرُ الجسد بالسهر والحمَّى»[٢]. رواه البخارى، وقال أيضا: «نظَرُ الرجل إلى أخيه شوقاً خيرٌ من اعتكاف سَنَة فى مسجدى هذا»[٣] ذكره فى الجامع.

﴿تراهم رُكَّعًا سجدًا﴾ أى: تُشاهدُهم حال كونهم راكعين ساجدين؛ لمواظبتهم على الصلوات، أو: على قيام الليل، كما قال مَن شاهد حالهم: رهبان بالليل أُسدٌ بالنهار، وهو استئناف، أو: خبر، ﴿يبتغون فضلاً من الله ورضوانا﴾ أى: ثواباً ورضًا وتقريبًا ﴿سِيماهم﴾؛ علامَاتهم ﴿في وجوههم﴾؛ فى جباههم ﴿من أثر السجود﴾ أى: من التأثير الذى يؤثّره كثرة السجود. وماروى عنه ﷺ: «لا تُعلِموا صوركم»[٤] أى: لا تسمُوها، إنما هو فيمن يتعمّد ذلك باعتماد جبهته على الأرض، ليحدث ذلك فيها، وذلك رياء ونفاق، وأما إن حَدَثَ بغير تعمد، فلا ينهى عنه، وقد ظهر على كثير من السلف الصالح غُرة فى جباههم مع تحقق إخلاصهم.

وقال منصور: سألت مجاهداً عن قوله: ﴿سيماهم فى وجوههم﴾ أهو الأثر يكون بين عينى الرجل؟ قال: لا ربما يكون بين عينى الرجل مِثلُ ركبة البعير، وهو أقسى قلبًا من الحجارة، ولكنه نورٌ فى وجوههم من الخشوع. وقال ابن جريج: هو الوقار والبهاء، وقيل: صفرة الوجوه، وأثر السهر. وقال الحسن: إذا رأيتهم حسبتهم مرضى، وما هم مرضى. وقال سفيان وعطاء: استنارت وجوههم من طول ما صلّوا بالليل، لقوله ﷺ: «من كثُرت صلاتُه

(١) من الآية ٥٤ من سورة المائدة.
(٢) أخرجه البخارى فى (الأدب، باب رحمة الناس والبهائم، ح٦٠١١) ومسلم فى (البر والصلة باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، ح ٢٥٨٦) من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.
(٣) عزاه السيوطى فى الجامع الصغير (ح ٩٢٦٦) للحكيم عن ابن عمرو، وضعّفه.
(٤) على هامش النسخة الأم: «هذا حديث لا أصل له».

بالليل حسُن وجهُه بالنهار»(١) وقال ابن عطية: إنه من قول شريك(٢) لاحديث، فانظره، وقال ابن جبير: في وجوههم يوم القيامة يُعرفون به أنهم سجدوا في الدنيا لله تعالى.هـ.

﴿ ذلك مَثَلُهم في التوراة ﴾ ، الإشارة إلى ماذكر من نعوتهم الجليلة، ومافيها من معنى البُعد مع قُرب العهد للإيذان بعلو شأنه، وبعُد منزلته في الفضل، أي: ذلك وصفهم العجيب الجاري في الغرابة مجرى الأمثال، هو نعتهم في التوراة، أي: كونهم أشدّاء على الكفار، رحماء بينهم، سيماهم في وجوههم.

ثم ذكر وَصْفَهم في الإنجيل فقال: ﴿ ومَثَلُهم في الإنجيل كزرعٍ . . ﴾ الخ، وقيل: عطفٌ على ماقبله، بزيادة «مَثَل»، أي: ذاك مثلُهم في التوراة والإنجيل، ثم بيّن المثل فقال: هم كزرعٍ ﴿ أخرج شطأه ﴾ فِراخَه، يقال: أشطأ الزرع: أفرخ، فهو مُشْطِىءٌ، وفيه لغات: شطأه بالسكون والفتح، وحذف الهمزة، كقضاة . وشطهٌ، بالقصر. ﴿ فآزره ﴾ ؛ فقوّاه، من: المؤازرة، وهي الإعانة، ﴿ فاستغلظ ﴾ ؛ فصار من الرقة إلى الغلظ، ﴿ فاستوى على سُوقه ﴾ ؛ فاستوى على قصبه، جمع: ساق، ﴿ يُعجِبُ الزُّرَّاع ﴾ يتعجبون من قوّته، وكثافته، وغلظه، وحُسن نباته ومنظره. وهو مَثَلٌ ضربه الله لأصحابه ﷺ في بدء الإسلام، ثم كثُروا واستحكموا، يترَقّى أمرُهم يوماً بيوم، بحيث أعجب الناسَ أمرهم، فكان الإسلام يتقوى كما تقوى الطاقة من الزرع، بما يحتفُّ بها مما يتولّد منها.

وقيل: مكتوب في الإنجيل: سيخرج قوم ينبتون نبات الزرع، يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر(٣) . وعن عكرمة: أخرج شطأه بأبي بكر، فآزره بعمر، فاستغلظ بعثمان، فاستوى على سوقه بعليّ.(٤) . وحكى النقاش عن ابن عباس، أنه قال: الزرعُ النبي ﷺ ، فآزره عليّ بن أبي طالب، فاستغلظ بأبي بكر، فاستوى على سوقه بعمر.هـ.

---

(١) أخرجه ابن ماجة في (إقامة الصلاة والسنة فيها، باب ماجاء في قيام الليل، ح١٣٣٣) قال: «حدثنا إسماعيل بن محمد الطلحي، ثنا ثابت بن موسى أبو يزيد، عن شريك، عن الأعمش، عن أبي سفيان، عن جابر رضي الله عنه الحديث، ورفعه..

(٢) «شريك» أحد رواة الحديث. قال السندي:

معنى الحديث ثابت بموافقة القرآن، وشهادة التجربة، لكن الحفّاظ على أن الحديث بهذا اللفظ غير ثابت. وأخرج البيهقي في الشُّعب، عن محمد بن عبدالرحمن بن كامل قال: قلت لمحمد بن عبدالله بن نمير: ماتقول في ثابت بن موسى؟ قال: شيخ له فضل وإسلام ودين وصلاح وعبادة، قلت: ماتقول في هذا الحديث؟ قال: غلط من الشيخ، وأما غير ذلك فلا يتوهم عليه. وقد تواردت أقوال الأئمة على عدّ هذا الحديث في الموضوع ، على سبيل الغلط، لا العمد، وخالفهم القضاعي في مسند الشهاب، فمال في الحديث إلى ثبوته. انظر حاشية سنن ابن ماجة (٤٢٣/١). وانظر أيضاً ـ تفسير القرطبي (٦٣٠٢/٧).

(٣) أخرجه الطبري (١١٤/٢٦) عن قتادة.

(٤) انظر هذه الأقوال في تفسير البغوي (٣٢٥/٧).

واختار ابن عطية: أن المَثل شامل للنبي ﷺ وللصحابة، فإنّ النبي ﷺ بُعث وحده، فهو الزرع، حبّة واحدة، ثم كثُر المسلمون، فهم كالشطْءِ، تَقوّى بهم ﷺ.

﴿ ليغيظ بهم الكفار ﴾ تعليل لما يُعرب عنه الكلام من تشبيههم بالزرع في ذكائه واستحكامه، أي: جعلهم كذلك ليغيظ بهم من كفر بالله.

﴿ وَعَدَ اللهُ الذين آمنوا وعملوا الصالحات مغفرةً وأجراً عظيما ﴾؛ استئناف مُبيّن لما خصَّهم به من الكرامة في الآخرة، بعد بيان ماخصّهم به في الدنيا، ويجوز أن يرجع لقوله: (ليغيظ بهم...) الخ: أي: ليغيظ بهم وعَدهم بالمغفرة والأجر العظيم؛ لأن الكفار إذا سمعوا ما أُعدَ لهم في الآخرة مع ماخصّهم في الدنيا من العزة والنصر غاظهم ذلك أشد الغيظ، و«من» في «منهم» للبيان، كقوله: ﴿ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ ﴾[1]، أي: وعد الله الذين آمنوا من هؤلاء.

الإشارة: هو الذي أرسل رسوله بالهدى: بيان الشرائع، ودين الحق: بيان الحقائق، فمن جمع بينهما من أمته ظهر دينُه وطريقته، وهذا هو الوليّ المحمدي، أعني: ظاهره شريعة، وباطنه حقيقة، وما وصف به سبحانه أصحاب الرسول ﷺ هو وصفُ الصوفية، أهل التربية النبوية، خصوصاً طريق الشاذلية، حتى قال بعضهم: من حلف أن طريق الشاذلية عليها كانت بواطنُ الصحابة ما حنث. وقوله تعالى: ﴿يبتغون فضلاً من الله ورضوانا﴾ قال الورتجبي: أي: يطلبون مزيدَ كشف في الذات والدنو والوصالِ والبقاء مع بقائه بلا عتاب ولا حجاب، وهذا محل الرضوان الأكبر.هـ.

وقوله تعالى: ﴿سيماهم في وجوههم﴾ أي: نورهم في وجوههم، لتوجههم نحو الحق، فإنّ من قَرُب من نور الحق ظهرت عليه أنوار المعرفة، وجمالُها وبهاؤها، ولو كان زنجيًا أو حبشياً، وفي ذلك قيل :

وعلى العارفين أيضا بهاءُ ... وعليهم من المحبة نورُ

ويقال: السيما للعارفين، والبَهجة للمحبين، فالسيما هي الطمأنينة، والرزانة، والهيبة والوقار، كل من رآهم بديهةً هابَهم، ومن خالطهم معرفةً أحبهم، والبهجة: حسن السمت والهَدْيِ، وغلبة الشوق، والعشقُ، واللهج بالذكر اللساني. والله تعالى أعلم.

---

(١) من الآية ٣٠ من سورة الحج.

وروى السلمى عن عبدالعزيز المكى: ليس السيما النُحولة والصفرة، ولكنه نور يظهر على وجوه العابدين، يبدو من باطنهم على ظاهرهم، يتبين ذلك للمؤمنين، ولو كان ذلك فى زنجى أو حبشى. وعن بعضهم: ترى على وجوههم هيئة لقُرب عهدِهم بمناجاة سيدهم. وقال ابن عطاء: ترى عليهم طِلع الأنوار لائحة. وقال الورتجبى: المؤمن وجهٌ لله بلا قفا، مقبلاً عليه، غير معرض عنه، وذلك سيما المؤمن.هـ. وبالله التوفيق، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

❁ ❁ ❁

سورة الحجرات

مدنية. وهي ثماني عشرة آية. ومناسبتها لما قبلها: أنه تعالى لمّا مدح الصحابة، وبشّرهم بالمغفرة؛ علّمهم الأدب؛ لأنه من أعظم أسباب المغفرة والقُرب، فقال:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ
سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا
لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (٢)
إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ
لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (٣) ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ياأيها الذين آمنوا ﴾، تصدير الخطاب بالنداء، تنبيهُ المخاطبين على أنّ مافي حيّزه أمر خطير يستدعي اعتنائهم بشأنه، وفرط اهتمامهم بتلقيه ومراعاته، ووصفهم بالإيمان لتنشيطهم، والإيذان بأنه داع إلى المحافظة عليه ووازع عن الإخلال به، ﴿ لا تُقدّموا ﴾ أي: لاتفعلوا التقديم، على ترك المفعول للقصد إلى نفس الفعل من غير اعتبار تعلقه بأمرٍ من الأمور، على طريقة قولهم: فلان يعطي ويمنع، أو: لاتُقدّموا أموراً من الأمور، على حذف المفعول، للعموم، أو: يكون التقديم بمعنى التقدم، من «قدّم» اللازم، ومنه: مقدمة الجيش، للجماعة المتقدّمة، ويؤيده قراءة من قرأ: (لا تَقَدّموا)[1] بحذف إحدى التاءين، أي: لا تتقدموا ﴿ بين يدي الله ورسولهِ ﴾، أي: لاتقطعوا أمراً قبل أن يحكما به، وحقيقة قولك: جلست بين يدي فلان: أن تجلس بين الجهتين المسامتتين ليمينه وشماله قريباً منه، فسُميت الجهتان يدين؛ لكونهما على سمت اليدين مع القرب منهما، توسعاً، كما يُسمّى الشيء باسم غيره إذا جاوره.

(١) وهي قراءة يعقوب، أحد القراء العشرة. انظر الإتحاف (٢/٤٨٥).

وفى هذه العبارة ضرب من المجاز الذى يُسمى تمثيلاً، وفيه فائدة جليلة، وهى: تصوير الهُجْنَةِ والشناعة فيما نُهوا عنه من الإقدام على أمر من الأمور دون الاحتذاء على أمثلة الكتاب والسنة. ويجوز أن يجرى مجرى قولك: سرّنى زيد وحُسْنُ ماله، فكذلك هنا المعنى: لاتُقدّموا بين يدى رسول الله ـ ﷺ. وفائدة هذا الأسلوب: الدلالة على قوة الاختصاص، ولمّا كان رسول الله ﷺ من الله بالمكان الذى لايخفى؛ سلك به هذا المسلك، وفى هذا تمهيد لما نَقِم منهم من رفع أصواتهم فوق صوته؛ لأن مَن فضّله الله بهذه الأثَرة، واختصه بهذا الاختصاص، كان أدنى مايجب له من التهيّب والإجلال: أن لايُرفع صوتٌ بين يديه، ولايُقطع أمر دونه، فالتقدمُ عليه تَقَدُّمٌ على الله؛ لأنه لاينطق عن الهوى، فينبغى الاقتداء بالملائكة؛ حيث قيل فيهم: ﴿لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ...﴾ الخ[1].

قال عبد الله بن الزبير: قَدِمَ وفد من تميم على رسول الله ﷺ. فقال أبو بكر: لو أمّرت عليهم القعقاعَ بن معبد، وقال عمر: يارسول الله؛ بل أمّر الأقرعَ بن حابس؛ فقال أبو بكر: ما أردتَ إلا خلافى، وقال عمر: ما أردتُ خلافَك، وارتفعت أصواتهما، فنزلت[2]. فعلى هذا يكون المعنى: لاتُقدّموا وُلاة، والعموم أحسن كما تقدم. وعبارة البخارى: «وقال مجاهد: (لاتقدموا)؛ لاتفتاتوا على رسولُ الله ﷺ حتى يقضى اللهُ ـ عز وجل ـ على لسانه»[3]. وعن الحسن: أن ناساً ذبحوا يوم الأضحى قبل الصلاة، فنزلت، فأمرهم رسولُ الله ﷺ أن يعيدوا[4]، وعن عائشة: أنها نزلت فى النهى عن صوم يوم الشك[5].

﴿واتقوا الله﴾ فى كل ما تأتون وتذرون من الأحوال والأفعال، التى من جملتها ما نحن فيه، ﴿إنَّ اللهَ سميع﴾ لأقوالكم ﴿عليم﴾ بأفعالكم، فمن حقّه أن يُتّقى ويُراقَب.

﴿يأيها الذين آمنوا لاترفعوا أصواتكم فوقَ صوتِ النبي﴾، شروع فى النهى عن التجاوز فى كيفية القول عند النبى ﷺ، بعد النهى عن التجاوز فى نفس القول والفعل، وإعادة النداء مع قرب العهد؛ للمبالغة فى الإيقاظ والتنبيه، والإشعار باستقلال كل من الكلامين باستدعاء الاعتناء بشأنه؛ أى: لاتبلغوا بأصواتكم وراء حدٍّ يبلغه

(١) من الآية ٢٧ من سورة الأنبياء.

(٢) أخرجه البخارى فى (التفسير، باب ﴿إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون﴾ ح٤٨٤٧).

(٣) ذكره البخارى فى (التفسير، سورة الحجرات). وأخرجه الطبرى (١١٦/٢٦).

(٤) أخرجه الطبرى (١١٧/٢٦). وعزاه السيوطى فى الدر (٨٦/٦) لابن أبى الدنيا فى الأضاحى.

(٥) عزاه السيوطى فى الدر (٨٦/٦) لابن النجار فى تاريخه، والطبرانى فى الأوسط، وابن مردويه.

هذا، وما ذكره المفسر عن السيدة عائشة والحسن إنما هو داخل فى عموم الآية، لا أنه سبب النزول؛ لأن ماذُكر عن السيدة عائشة والحسن مخالف للرواية الصحيحة الواردة فى سبب النزول، والتى أخرجها البخارى.

صوته ﷺ، بل يكون كلامه عاليًا لكلامكم، وجهره باهرًا لجهركم، حتى تكون مزيّته عليكم لائحة، وسابقته لديكم واضحة.

﴿ولاتجهروا له بالقول﴾ إذا كلمتموه ﴿كجَهْرِ بعضِكم لبعض﴾ أي: جهرًا كائنًا كالجهر الجارى فيما بينكم، بل اجعلوا أصواتكم أخفض من صوته، واختاروا فى مخاطبته القول اللين القريب من الهمس، كما هو الدأب فى مخاطبة المهابِ المُعظّم، وحافظوا على مراعاة هيبة النبوة وجلالة مقدارها. وقيل: معنى: ﴿لاتجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض﴾: لاتقولوا: يامحمد، يا أحمد، بل: يارسول الله. يانبى الله، ولمّا نزلت هذه الآية؛ ما كلم رسولَ الله ﷺ أبو بكر إلا كأخى السِّرار[١].

وعن ابن عباس رضي الله عنه: أنها نزلت فى ثبات بن قيس بن شمّاس، وكان فى أذنيه وَقْر، وكان جَهْوَرِيَّ الصوت، وكان إذا تكلم رفع صوته، وربما كان يكلّم النبيَّ ﷺ فيتأذى من صوته. هـ. والصحيح ماتقدم. وفى الآية أنهم [لم][٢] يُنهوا عن الجهر مطلقًا، وإنما نُهوا عن جهرٍ مخصوص، أى: الجهر المنعوت بمماثلة مااعتادوه فيما بينهم، وهو الخلوّ عن مراعاة هيبة النبوة، وجلالة مقدارها.

وقوله: ﴿أن تحبط أعمالُكم﴾؛ مفعول من أجله، أى: لاتجهروا خشية أن تحبط أعمالكم، ﴿وأنتم لاتشعرون﴾ فإنّ سوء الأدب ربما يؤدى بصاحبه إلى العطب وهو لايشعر. ولمّا نزلت الآية جلس ثابت بن قيس فى بيته ولم يخرج، فتَفَقَّده ﷺ، فدعاه فسأله، فقال: يارسول الله؛ لقد أُنزلت عليك هذه الآية، وإنى رجل جهير الصوت، فأخاف أن يكون عملى قد حبط، فقال له ﷺ: «لست هناك، تعيش بخير، وتموت بخير، وإنك من أهل الجنة»[٣].

وأما ما يُروى عن الحسن: أنها نزلت فى المنافقين، الذين كانوا يرفعون أصواتهم فوق صوته ﷺ فقد قيل: محمله: أنّ نهيهم مندرج تحت نهى المؤمنين بدليل النص.

﴿إنَّ الذين يَغُضُّونَ أصواتَهم عند رسول الله﴾ أى: يخفضون أصواتهم فى مجلسه، تعظيمًا له، وانتهاء عما نُهوا عنه، ﴿أولئك الذين امتحن اللهُ قلوبَهم للتقوى﴾ أى: أخلصها وصفّاها، من قولهم: امتحن الذهب وفَتَنَه: إذا أذابه، وفى القاموس: محنَه، كمنعه: اختبره، كامتحنه، ثم قال: وامتحن القول: نَظَرَ فيه ودبّره، والله قلوبَهم: شرحها ووسّعها، وفى الأساس: ومن المجاز: محَن الأديمَ: مدّه حتى وسعه، وبه فسّر قوله تعالى:

---

(١) أخرجه الحاكم (٤٦٢/٢) ،وصححه على شرط مسلم، وأقره الذهبى، ، والبيهقى فى الشعب (رقم ١٥٢٠ و١٥٢١) عن أبى هريرة رضي الله عنه.
(٢) فى الأصول: [لن].
(٣) أخرجه بمعناه البخارى فى (المناقب، باب علامات النبوة فى الإسلام ح ٣٦١٣) ومسلم فى (الإيمان، باب مخافة المؤمن أن يحبط عمله، رقم ١٨٧ ح١١٩) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

﴿ امتحن اللهُ قلوبَهم للتقوى ﴾ أى: شرحها ووسعها، ﴿ لهم مغفرة وأجرٌ عظيمٌ ﴾ أى: مغفرة لذنوبهم، وأجر عظيم: نعيم الجنان.

الإشارة: على هذه الآية والتى بعدها اعتمد الصوفية فيما دوّنوه من آداب المريد مع الشيخ، وهى كثيرة أُفردت بالتأليف، وقد جمع شيخنا البوزيدي الحسنى رضي الله عنه كتاباً جليلاً جمع فيه من الآداب مالم يُوجد فى غيره، فيجب على كل مريد طالب للوصول مطالعتُه والعملُ بما فيه.

والذى يُؤخذ من الآية: أنه لايتقدم بين يدى شيخه بالكلام، لاسيما إذا سأله أحدٌ، فمن الفضول القبيحِ أن يسبق شيخَه بالجواب، فإنّ السائل لايرضى بجواب غير الشيخ، مع مافيه من إظهار علمه، وإشهار شأنه، والتقدمِ على شيخه. ومن ذلك أيضا: ألاّ يقطع أمراً دون مشورته، مادام تحت الحجرية، وألاّ يتقدم أمامه فى المشى إلا بإذنه، وأن يغضّ صوته عند حضوره، بل لايتكلم إلا أن يأذن له فى الكلام، ويكون بخفض صوت وتعظيم.

قلت: ومازالت أشياخنا تأمرنا بالتكلم عند المذاكرة؛ إذ بالكلام تُعرف أحوال الرجال، وسَمِعتُ شيخ شيخنا، مولاى العربى الدرقاوى الحسنى رضي الله عنه يقول: حكّونا فى المذاكرة؛ ليظهر العلم، وكونوا معنا كما قال القائل: حك لى نربل لك، لا كما قال القائل: سَفّجْ لى نعسل لك. هـ. لكن يكون بحثُه مع الشيخ على وجه الاسترشاد والاستعلام، من غير معارضة ولاجدال، وإلا فالسكوت أسلم.

قال القشيرى: ﴿لاتُقدِّموا بين يَدىِ الله ورسوله﴾: لاتعملوا فى أمر الدين من ذات أنفسكم شيئًا، وَقِفوا حيثما وُقِفْتم، وافعلوا ما به أُمِرتُم، أى: اعملوا بالشرع لا بالطبع فى طلب الحق، وكونوا من أصحاب الاقتداء والاتباع، لا من أرباب الابتداء أو الابتداع.

وقال فى قوله تعالى: ﴿ لاترفعوا أصواتكم... ﴾ الآية، يُشير إلى أنه من شرط المؤمن: ألا يرى رأيَه وعقلَه واختيارَه فوق رأى النبى والشيخ، ويكون مستسلماً لرأيه، ويحفظ الأدب فى خدمته وصحبته، ﴿ ولاتجهرا له بالقول كجهر بعضكم لبعض ﴾ أى: لاتخاطبوه كخطاب بعضكم لبعض، بل خاطبوه بالتعظيم والتبجيل، ولاتنظروا إليه بالعين التى تنظرون إلى أمثالكم، وإنه لحُسْن خُلقه قد يُلاعبكم، فلا تنبسطوا معه، متجاسرين عليه بما يُعاشركم من خُلقه، ولا تَبدأوه بحديث حتى يَفاتحكم، أن تحبط أعمالكم بسوء أدبكم، وأنتم لاتشعرون. إنّ الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله وعند شيخه أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى، أى: انتزع عنها حبَّ الشهوات، وصفّاها من دنس سوءِ الأخلاق، وتخلقت بمكارم الأخلاق، حتى انسلختْ من عادات البشرية(١). هـ.

(١) بالمعنى

وقال في القوت: الوقاية مقرونة بالنصرة؛ فإذا تولاَّه نَصَره على أعدائه، وأعْدى عدُوه نفسهُ، فإذا نصَره عليها، أخرج الشهوة منها، فامتحَن قلبَه للتقوى، ومحّض نفسه، فخلّصها من الهوى..هـ.

ثم ذكر من لم يستعمل الأدب مع الحضرة النبوية، فقال:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿إنَّ الذين يُنادونك من وراء الحجرات﴾؛ من خارجها، أو: من خلفها، أو: مِن أمامها، فالوراء: الجهةُ التي تُوارى عنك الشخص تُظلّله من خلف أو من قُدّام، و«مِن» لابتداء الغاية، وأنّ المناداة نشأت من ذلك المكان، والحجرة: الرقعة من الأرض، المحجورة بحائطٍ يحوط عليها، فعْلة، بمعنى مفعولة، كالقُبْضَة، والجمع: حُجُرات، بضمتين، وبفتح الجيم، والمراد: حجرات النبي ﷺ وكان لكل امرأة حُجرة.

نزلت في وفد بني تميم ، وكانوا سبعين، وفيهم عيينةُ بن حِصْن الفزاري، والأقرعُ بن حابس، وفَدوا على النبي ﷺ وقت الظهيرة، وهو راقد، فنادوا رسولَ الله ﷺ من وراء حجراته، وقالوا: اخرجْ إلينا يامحمدُ؛ فإنّ مدْحنَا زَيْنٌ، وذمّنا شيْن، فاستيقظ، وخرج عَلَيْهِ السَّلَامُ وهو يقول: «ذلكم الله الذي مدحُه زين، وذمّه شين»، فقالوا: نحن قوم من بني تميم، جئنا بشاعرنا وخطيبنا، لنُشاعِرَك، ونُفاخرك، فقال ﷺ: «ما بالشعر بُعثت، ولا بالفخار أُمرت» ، ثم أمر ﷺ خطيبهم فتكلّم، ثم قال لثابت بن قيس بن شماس - وكان خطيب النبي ﷺ: قم، فقام، فخطب، فأفحم خطيبَهم، ثم قام شاب منهم، فأنشأ يقول:

نَحنُ الْكرامُ فَلا حَيٌ يُعَادِلُنَا ... فينا الرُّؤوسُ وفينا يُقْسَمُ الرّبعُ
ونُطعِمُ النّاسَ عِندَ القَحطِ كُلّهمُ ... إنّا كَذَلِكِ عِنْدَ الفَخْرُ نرْتَفعُ[1]

---

(١) هكذا جاء في الأصول، أما في البحر المحيط (٨/١٠٦ ـ ١٠٧) وأسباب النزول للواحدي (ص ٤٠٥) وغيرهما من المصادر، فذكروا بعد البيت الأول:

ونطعم الناس عند القحط كلهم ... من السديف إذا لم يؤنس الفزعُ
إذا أبينا فلا يأبى لنا أحد ... إنا كذلك عند الفخر نرتفعُ.

فقال ﷺ لحسان: قم فأجبه، فقال:

إنَّ الذوائبَ من فِهْرٍ وإخوتهمْ ... قَدْ شَرَعُوا سُنَّةً للناس تُتبعُ

يرضى بها كلُّ من كانت سريرتُه ... تَقوى الإلهِ وكلُّ الفَخْرُ يُصطنَع(١)

ثم قال الأقرع شعراً افتخر به، فقال عليه السلام ـ لحسان، قم فأجبه، فقال حسان:

بَني دارمٍ، لاتَفْخَروا، إنَّ فَخْرَكُمْ ... يَعُودُ وَبالاً عِنْدَ ذِكْرِ الْمكَارِمِ

هَبِلْتُم، عَلينا تَفْخَرونَ وأَنْتُم ... لَنا خَوَلٌ من بَيْنِ ظِئْرٍ وخَادِمِ(٢)

فقال ﷺ: «لقد كنتَ غنيًا عن هذا يا أخا بنى دارم أن يذكر منك ماقد ظننتَ أنَّ الناس قد نسوه»، ثم قال الأقرعُ: تكلم خطيبُنا، فكان خطيبهُم أحسن قِيلاً، وتكلم شاعرُنا فكان شاعرِهم أشعر. هـ(٣).

هذا ومناداتُهم من وراء الحجرات؛ إما لأنهم أتَوْها حجرةً حجرة، فنادَوه ﷺ من ورائها، أو: بأنهم تفرقوا على الحجرات متطلبين له ﷺ، أو: نادَوه من وراء الحجرة التى كان فيها، ولكنها جُمعت إجلالاً لرسول الله ﷺ. وقيل: الذى ناداه عُيينةُ بن حصن والأقرعُ، وإنما أُسند إلى جميعهم لأنهم راضون بذلك وأَمروا به. ﴿أكثرُهم لايعقلون﴾، إذ لو كان لهم عقل لَمَا تجاسروا على هذه العظيمة من سوء الأدب.

﴿ولو أنهم صبروا﴾ أى: ولو تحقق صبرُهم وانتظارُهم، فمحل (أنهم صبروا) رفعٌ على الفاعلية؛ لأنَّ «أنْ» تسبك بالمصدر، لكنها تفيد التحقق والثبوت، للفرق بين قولك: بلغنى قيامك، وبلغنى أنك قائم، و«حتى» تُفيد أن الصبر ينبغى أن يكون مُغَيّاً بخروجه عليه السلام، فإنها مختصة بالغايات. والصبرُ: حبسُ النفس على أن تُنازع إلى هواها، وقيل: «الصبر مرٌّ، لايتجرعه إلا حرٌّ». أى: لو تأنوا حتى تخرج إليهم بلا مناداة؛ لكان الصبرُ خيراً لهم من الاستعجال، لِما فيه من رعاية حسن الأدب، وتعظيم الرسول، الموجبتين للثناء والثواب، والإسعاف بالمسئول؛ إذ رُوى أنهم وفدوا شافعين فى أسارى بنى العَنبر، وذلك أنه ﷺ بعث سريةً إلى حى بنى العنبر، وأمَّرَ عليهم عُيينة

---

(١) انظر ديوان حسان بشرح البرقوقى ص ٣٠١. وفيه:

إن الذوائب من فهر وإخوتهم ... قد بينوا سنةً للناس تتبع

يرضى بها كلُّ من كانت سريرته ... تقوى الإله وبالأمر الذى شرعوا

(٢) انظر ديوان حسان ص ٤٣٧.

(٣) أخرجه الواحدى فى أسباب النزول ص (٤٠٤ ـ ٤٠٦) عن جابر بن عبدالله. وعزاه الحافظ ابن حجر فى الكافى الشاف (ص ١٥٥ ـ ١٥٦ رقم ١٥) للثعلبى. وأخرج الجزء الأول من القصة، الترمذى فى (التفسير، باب ومن سورة الحجرات، ح ٣٢٦٧) عن البراء بن عازب رضي الله عنه.

ابن حصن، فهربوا وتركوا عيالهم، فسباهم عُيينة، ثم قَدِم رجالُهم يفْدون الذرارى، فلما رأتهم الذرارىُ أجهشوا إلى آبائهم يبكون، فعَجلوا أن يخرج إليهم النبى ﷺ. فنادَوْه حتى أيقظوه من نومه، فخرج إليهم، فأطلق النصف وفادى النصف[1]. ﴿ والله غفور رحيم ﴾؛ بليغ المغفرة والرحمة واسعهما، فلن يضيق ساحتهما عن هؤلاء إن تابوا وأصلحوا.

الإشارة: من آداب المريد ألاّ يُوقظ شيخَه من نومه، ولو بقى ألف سنة ينتظره، وألاّ يطلب خروجَه إليه حتى يخرجَ بنفسه، وألاّ يقف قُبالة باب حجرته لئلا يرى بعض محارمه. ومن آدابه أيضا: ألا يبيت معه فى مسكن واحد، وألاّ يأكل معه، إلا أن يعزم عليه، وألاّ يجلس على فراشه أو سجّادته إلا بأمره، وإذا تعارض الأمر والأدب، فهل يُقدّم الأمر أو الأدب؟ خلاف، وقد تقدَم فى صلح الحديبية: أن سيدنا عليا ـ كرم الله وجهه ـ قدّم الأدب على الأمر، حين قال له ﷺ: «امح اسم رسول الله من الصحيفة»[2]، فأبى، وقال: «والله لاأمحوك أبدا». والله تعالى أعلم.

ومن جملة الأدب: التأنى فى الأمور وعدمُ العجَلَة، كما أبان ذلك بقوله تعالى:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ﴿٦﴾ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٨﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ يأيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ ﴾. نزلت فى الوليد بن عُقبة بن أبى مُعيط، وكان من فضلاء الصحابة ـ رضي الله عنه ـ بعثه النبى ﷺ إلى بنى المُصْطلق، بعد الوقعة مصدّقاً، وكان بينه وبينهم عداوة فى الجاهلية، فخرجوا يتلقّونه، تعظيماً لأمر النبى ﷺ، فظن أنهم مقاتلوه؛ فرجع، وقال لرسول الله ﷺ: قد ارتدوا ومنعوا الزكاة، فهمّ ﷺ أن يغزوهم، ثم أتوا النبيَّ ﷺ وأخبروه أنهم إنما خرجوا يتلقّونه تكرمةً؛

(١) انظر تفسير البغوى (٧/٣٣٧).
(٢) راجع تفسير الآية ٢٦ من سورة الفتح.

فاتهمهم النبي ﷺ وبعث إليهم «خالد بن الوليد» خفيةً مع عسكر، وأمره أن يُخفي عليهم قدومَه، ويتطلعَ عليهم، فإن رأى مايدلّ على إيمانهم؛ أخذ زكاتهم ورجع، وإن رأى غيرَ ذلك؛ استعمل فيهم ما يُستعمل في الكفار، فسمع خالدُ فيهم آذان صلاتي المغرب والعشاء، فأخذ صدقاتِهم، ولم يرَ منهم إلا الطاعة، فنزلت الآية[1].

وسُمّي الوليد فاسقاً لعدم تثبُّته؛ فخرج بذلك عن كمال الطاعة، وفي تسميته بذلك زجرٌ لغيره، وترغيبٌ له في التوبة، والله تعالى أعلم بغيبه، حتى قال بعضهم: إنها من المتشابه، لِما ثبت من تحقق إيمان الوليد. وقال أبوعمر في الاستيعاب: لايصح أن الآية نزلت في قضية الوليد؛ لأنه كان في زمن النبي ﷺ من[2] ثمانية أعوام، أو من عشرة، فكيف يبعثه رسولا؟![3] هـ. قلت: لا غرابةَ فيه، وقد كان ﷺ يُؤَمّر أسامةَ بن زيد على جيش، فيه أبو بكر وعمر، مع حداثة سنّه، كما في البخاري وغيره.

وفي تنكير (فاسق) و(نبأ) شياعٌ في الفُسّاق والأنباء، أي: إذا جاءكم فاسقٌ أيَّ فاسقٍ كان، بأيِّ خبر ﴿ فتبيَّنوا ﴾ أي: فتوقفوا فيه، وتطلَّبوا بيان الأمر وانكشافَ الحقيقة، ولاتعتمدوا قولَ مَن لا يتحرى الصدق، ولايتحامى الكذب، الذي هو نوع من الفسوق.

وفي الآية دليل على قبول خبر الواحد العَدل؛ لأنا لو توقفنا في خبره؛ لسوّينا بينه وبين الفاسق، ولخلا التخصيص به عن الفائدة. وقرأ الأخوان: «فتثبتوا» والتثبُّت والتبين متقاربان، وهما: طلبُ الثبات والبيان والتعرّف.

﴿ أن تُصيبوا ﴾ أي: لئلا تصيبوا ﴿ قومًا بجهالة ﴾: حال، أي: جاهلين بحقيقة الأمر وكُنه القصة. ﴿ فتُصبِحوا ﴾؛ فتصيروا ﴿ على مافعلتم نادمين ﴾؛ مغتمين على مافعلتم، متمنين أنه لم يقع، والندم: ضرب من الغم؛ وهو أن يغتم على ماوقع، يتمنى أنه لم يقع، وهو غم يصحبُ الإنسان صحبةً لها دوامٌ في الجملة.

﴿ واعلموا أنَّ فيكم رسولَ الله ﴾ فلا تكذبوا، فإن الله يُخبره، فيهتك سر الكاذب، أو: فارجعوا إليه واطلبوا رأيه، ثم استأنف بقوله: ﴿ لو يُطيعُكم في كثير من الأمر لعنتُّم ﴾؛ لوقعتم في العنت؛ وهو الجهد والهلاك.

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٤/٢٧٩) والطبراني في الكبير (٣/٤٠١) والطبري (٢٦/١٢٣) وعبد الرزاق في التفسير (٢/٢٣١) وقال الهيثمي في المجمع(٧/١١١): «رواه الطبراني، وفيه موسى بن عبيدة، وهو ضعيف» وانظر: تفسير ابن كثير (٤/٢٠٦ ـ ٢١٠) والفتح السماوي مع حاشية المحقق (٣/١٠٠١).

(٢) هكذا في الأصول، وأظنه: «ابن».

(٣) لم أقف عليه بهذا اللفظ، ولاعلى معناه، وإنما وجدت مايفيد ترجيح ابن عبد البر بأن الوليد لم يكن غلامًا في هذا الوقت. راجع الاستيعاب (٤/١١٤). وهذا أيضًا ما رجحه ابن حجر في الإصابة (٣/٦٠١) حيث قال: قلت: ومما يؤيد أنه كان رجلاً: أنه كان قدم في فداء ابن عم أبيه «الحارث بن أبي وجزة بن أبي عمرو بن أمية»، وكان أُسر يوم بدر، فافتداه بأربعة آلاف. حكاه أصحاب المغازي.هـ.

والتعبيرُ بالمضارع للدلالة على أنّ عنَتَهم إنما يلزم فى استمرار طاعته لهم فى كل مايعرض من الأمور، وأما طاعته فى بعض الأمور استئلافاً لهم، فلا. انظر أبا السعود. وهذا يدل على أنّ بعض المؤمنين زيّن لرسول الله ﷺ الإيقاع ببنى المصطلق تصديقاً لقول الوليد، وأنّ بعضهم كانوا يتصوّنون ويتحرّجون الوقوعَ بهم تأنياً وتثبتاً فى الأمر، وهم الذين استثناهم الله بقوله:

﴿ ولكنَّ الله حَبَّبَ إليكم الإيمانَ ﴾، وأسنده إلى الكل تنبيهاً على أن أكثرهم تحرّجوا الوقوعَ بهم وتأنوا، وقيل: هم الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى، وهو تجديدٌ للخطاب وتوجيه إلى بعضهم بطريق الاستدراك، بياناً لبراءتهم عن أوصاف الأولين وإحماداً لأفعالهم، أى: ولكنه ـ تعالى ـ جعل الإيمان محبوباً لديكم ﴿ وزيَّنه في قلوبكم ﴾ حتى رسخ فيها، ولذلك صدر منكم مايليق به من التثبت والتحرّج، وحاصل الآية على هذا: واعلموا أنّ فيكم رسول الله، فلا تُقرّون معه على خطأ، لو يطيعكم فى كثير من الأمر لَعنِتُم، ولكنّ الله حبّب إلى بعضكم الإيمان، فلا يأمر إلا بما هو صواب من التأنّي وعدم العجلة.

قلت: والأحسن فى معنى الاستدراك: أنّ التقدير: لو يُطيعكم فى كثير من الأمر لَعَنِتُم، ولكن الله لايُقره على طاعتكم بل ينزل عليه الوحي بما فيه صلاحُكم وراحتكُم؛ لأنّ الله حبّب إليكم الإيمان وزيّنه فى قلوبكم، فلا يسلك بكم إلا مايليق بشأنكم من الحفظ والعصمة.

ثم قال: ﴿ وكرَّه إليكم الكفرَ والفُسوق والعصيان ﴾ ولذلك تحرجتم عمّا لايليق مما لا خير فيه مما يؤدى إلى عنَتِكم، قال ابن عرفة: العطف فى هذه الآية تَدلِّي؛ فالكفر أشدُّها، والفسوق دونه، والعصيان أخفّ؛ لصدقه على ترك المندوبات، حسبما نقل ذلك البغداديون وحملوا عليه، ومن لم يُجب الدعوة فقد عصى أبا القاسم. هـ.

﴿ أولئك هم الراشدون ﴾ أى: أولئك المستثنون، أو: المتّصِفون بالإيمان، المزيّن فى قلوبهم، هم السالكون على طريق السّوى، الموصل إلى الحق، أى: أصابوا طريقَ الحق، ولم يميلوا عن الاستقامة. والرشدُ: الاستقامةُ على طريق الحق مع تصلُّبٍ فيه، من: الرشادة، وهى الصخرة الصماء. ﴿ فضلاً من الله ونعمةً ﴾ أى: إفضالاً من الله وإنعامًا عليهم؛ مفعولٌ من أجله، أى: حبّب وكرّه للفضل والنعمةعليهم ﴿ والله عليمٌ ﴾؛ مبالغ فى العلم، فيعلم أحوالَ المؤمنين ومابينهم من التفاضل، ﴿ حكيمٌ ﴾ يفعل مايفعل لحكمةٍ بالغة.

الإشارة: إن جاءكم خاطرُ سوء بنبأ سوءٍ فتبينوا وتثبتوا، ولاتُبادروا بإظهاره، خشية أن تُصيبوا قومًا بجهالة، فتظنّوا بهم السوء، وتقعوا فى الغيبة، فتُصبحوا على مافعلتم نادمين، فالمنافق قلبه على طرَف لسانه، إذا خطر فيه شيء نطق به، فهذا هالك، والمؤمن لسانه من وراء قلبه، إذا خطر شيءٌ نظر فيه، ووَزَنه بميزان الشرع، فإن كان

فيه مصلحة نطق به، وإلا ردَّه وكتمه، فالواجبُ: وزن الخواطر بالقسطاس المستقيم، فلا يُظهر منها إلا مايعود عليه منفعته.

﴿واعلموا أن فيكم رسولَ الله﴾، قد بيّن لكم ماتفعلون وماتذرون، ظاهراً وباطناً، ومن اتصل بخليفة الرسول، وهو الشيخ حكّمه على نفسه، فإن خطر فى قلبه شيء يهمّ أمره عرضه عليه، والشيخ ينظر بعين البصيرة، لو يُطيعكم فى كثيرٍ من أمركم التى تعزمون عليها لَعنَتُّم، ولكنّ الله حبب إليكم الإيمانَ، وزيّنه فى قلوبكم، فتستمعون لما يأمركم به، وتمتثلون أمره، وكرّه إليكم الكفر والفسوقَ؛ الخروجَ عن أمره ونهيه، والعصيان لما يأمركم به، فلا تَرون إلا مايسركم، ويفضى بكم إلى السهولة والراحة، فضلاً من الله ونعمة، فإنّ السقوط على الشيخ إنما هو محض فضل وكرم، فلله الحمد وله الشكر دائماً سرمداً.

وللقشيرى إشارة أخرى، قال: إن جاءكم فاسق بنبأ يشير إلى تسويلات النفوس الأمّارة بالسوء، ومجيئها كل ساعة بنبإٍ شهوةٍ من شهوات الدنيا؛ فتبينوا ربحها من خسرانها، من قبل أن تُصيبوا قوماً من القلوب وصفائها بجهالة، فإنّ مافيه شفاءُ النفوس وحياتها فيه مرضُ القلوب ومماتُها؛ فتُصبحوا صباحَ القيامة على مافعلتم نادمين، واعلموا أن فيكم رسولَ الله، يُشير إلى رسول الإلهام فى أنفسكم، يُلهمكم فجور نفوسكم وتقواها، لو يُطيعكم فى كثير من أمرِ النفس الأمّارة، لَعَنَتُّم؛ لوقعتم فى الهلاك، ولكنّ الله حبّب إليكم الإيمان بالإلهامات الربانية، وزيّنه فى قلوبكم بقلم الكرَم، وكرّه بنور نظر العناية إليكم الكفر، والفسوق: هو ستر الحق والخروج إلى الباطل، والعصيان، وهو الإعراض عن طلب الحق، أولئك هم الراشدون إلى الحق بإرشاد الحق، فضلاً من الله ونعمةً منه، يُنعم به على مَن شاء مِن عباده، والله عليم حكيم[1]. هـ.

ثم أمر الراشدين المتقدمين بالإصلاح بين الناس، إذ لاينجح فى الغالب إلا على أيديهم، فقال:

﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا
عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَـٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ
وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ
وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾ ﴾

(١) لم أقف على هذا النص فى محله من لطائف الإشارات.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا ﴾ أى: تقاتلوا. والجمعُ باعتبار المعنى؛ لأن كلَّ طائفة جمعٌ؛ كقوله: ﴿ هَٰذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا ﴾[1]، ﴿ فأصْلِحوا بينهما ﴾ بالنصح والدعاء إلى حُكم الله تعالى، ﴿ فإن بَغَتْ إحداهما على الأخرى ﴾ ولم تتأثر بالنصيحة ﴿ فقاتلوا التى تبغى حتى تفيءَ ﴾؛ ترجع ﴿ إلى أمر الله ﴾؛ إلى حُكمه، أو: إلى ما أمر به من الصُلح وزوال الشحناء، والفيء : الرجوع، وقد يُسمى به الظل والغنيمة، لأن الظل يرجعُ بعد نسخ الشمس، والغنيمة ترجع من أيدى الكفار إلى المسلمين.

وحكم الفئة الباغية: وجوب قتالها، فإذا كفَّت عن القتال أيديها تُركت. قال ابن جزى: وأَمَرَ اللهُ فى هذه الآية بقتال الفئة الباغية؛ وذلك إذا تبيَّن أنها باغية، فأما الفتنُ التى تقع بين المسلمين؛ فاختلف العلماءُ فيها على قولين، أحدهما: أنه لا يجوز النهوض، فى شيء منها ولا القتال، وهذا مذهب سعد بن أبى وقاص، وأبى ذر، وجماعة من الصحابة، وحجتُهم حديث: «قتال المسلم كفر»[2]، وحديث: الأمر بكسر السيوف فى الفتن، والقولُ الثانى: النهوضُ فيها واجبٌ، لتَكفَ الفئةَ الباغية، وهذا مذهب عليّ، وعائشة، وطلحة، وأكثر الصحابة، وهو مذهب مالك وغيره من الفقهاء، وحجتُهم هذه الآية. فإذا فرّعنا على القول الأول، فإن دخل داخلٌ على مَن اعتزل الفرقتين منزلَه يريد نفسَه أو مالَه فعليه دفعُه، وإن أدّى ذلك إلى قتله؛ لحديث: «من قُتل دون نفسه وماله فهو شهيد»[3]، وإذا فرّعنا على الثانى، فاختُلف؛ مع مَن يكون النهوضُ من الفئتين؟ فقيل: مع السواد الأعظم، وقيل: مع العلماء، وقيل: مع مَن يرى أنّ الحق معه . هـ.

قلت: إذا وقعت الحرب بين القبائل فمن تعدّت تُربتَها إلى تربة غيرها فهى باغيةٌ، يجب كفُّها، وإذا وقعت بين الحدود؛ فالمشهور: النهوض، ثم يقع السؤال عن السبب؛ فمن ظهر ظُلمه وَجَب كفّه، فإن أشكل الأمر، فالإمساك عن القتال أسلم. والله تعالى أعلم.

﴿ فإن فاءتْ ﴾ عن البغى، وأقلعت عن القتال؛ ﴿ فأصْلِحوا بينهما بالعدل ﴾؛ بفصل مابينهما على حُكم الله تعالى، ولاتكتفوا بمجرد متاركتهما؛ لئلا يكون بينهما قتال فى وقتٍ آخر، وتقييدُ الإصلاح بالعدل لأنه مظنة الحيف لوقوعه بعد المقاتلة، وقد أكد ذلك بقوله: ﴿ وأَقْسِطوا ﴾ أى: واعدلوا فى كل ماتأتون وما تَذرون،

---

(١) من الآية ١٩ من سورة الحج.

(٢) أخرجه أحمد فى المسند، (١/١٧٨) والترمذى فى (الإيمان، باب سباب المؤمن فسوق، ح ٢٦٣٤) والنسائى فى (تحريم الدم، باب قتال المسلم) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه .

(٣) أخرجه البخارى فى (المظالم، باب من قاتل دون ماله ح ٢٤٨٠) من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص، بلفظ: «من قُتل دون ماله فهو شهيد» . وأخرجه أبو داود فى (السنة، باب فى قتال اللصوص ح ٤٧٧٢) والترمذى فى (الديات، باب من قاتل دون ماله ح١٤٢١) وكذا ابن ماجة والنسائى، من حديث سعيد بن زيد، بلفظ: «من قُتل دون ماله فهوشهيد، ومن قُتل دون دينه فهو شهيد، ومن قُتل دون دمه فهو شهيد، ومن قُتل دون أهله فهو شهيد».

﴿ إنَّ الله يحب المُقْسِطِين ﴾ ؛ العادلين، فيُجازيهم أحسنَ الجزاء، والقَسط بالفتح: الجوْر، وبالكسر: العدلُ، والفعل من الأول: قَسط فهو قاسط: جارَ، ومن الثاني: أقسط فهو مقسط: عـدل، وهمزته للسلب، أي: أزال القسط، أي: الجور.

والآية نزلت في قتالٍ حدث بين الأوس والخزرج، وذلك أنّ رسول الله ﷺ ذهب يعود سعدَ بنَ عُبادة، فمرّ بمجلسٍ من الأنصار، فيه أخلاط من المسلمين والمنافقين، فوقف ﷺ على المجلس، ووعظ وذكّر، فقال عبد الله ابن أُبي: ياهذا، لاتؤذنا في مجالسنا، واجلس في موضعك، فمن جاءك فاقصص عليه، فقال عبد الله بنُ رواحة: بل أغشنا يارسول الله وذكّرنا، فارتفعت أصواتهما، وتضاربوا بالنعال، فنزلت الآية، وقيل غير ذلك(1).

وفي الآية دليل على أنّ الباغي لايخرج ببغيه عن الإيمان، وأنه يجب نُصرة المظلوم، وعلى فضيلة الإصلاح بين الناس.

﴿ إنما المؤمنون إخوةٌ ﴾ أي: منتسبون إلى أصل واحدٍ، وهو الإيمان المُوجب للحياة الأبدية، فيجب الاجتهاد في التآلف بينهما لتحقق الأخوة. والفاء في قوله: ﴿ فأصلحوا بين أخويكم ﴾ للإيذان بأنّ الأخوة الدينية موجبة للإصلاح. ووضع الظاهر مقامَ المضمر مضافاً إلى المأمورين للمبالغة في تأكيد وجوب الإصلاح والتحضيض عليه، وتخصيص الاثنين بالذكر؛ لإثبات وجوب الإصلاح فيما فوق ذلك بطريق الأولى؛ لتضاعف الفتنة والفساد فيه. وقيل: المراد بالأخوَيْن: الأوس والخزرج. وقرأ يعقوب: «إخوتكم» بالجمع. ﴿ واتقوا الله ﴾ فيما تأتون وتذرون، التي من جملتها: الإصلاحُ بين الناس ﴿ لعلكم تُرحمون ﴾ ؛ راجين أن تُرحموا على تقواكم، لأن التقوى تحملكم على التواصل والائتلاف، وهو سبب نزول الرحمة.

الإشارة : النفسُ الطبيعية والروح متقابلان، والحرب بينهما سِجال، فالنفس تريد السقوط إلى أرض الحظوظ والبقاء مع عوائدها، والروح تريد العروج إلى سماء المعارف وحضرة الأسرار، وبينما اتصال والتصاقٌ، فإن غلبت النفسُ هبطت بالروح إلى الحضيض الأسفل، ومنعتها من العلوم اللدنية والأسرار الربانية، وإن غلبت الروح، عرجت بالنفس إلى أعلى عليين، بعد تزكيتها وتصفيتها، فتكسوها حُلةَ الروحانية، وينكشف لها من العلوم والأسرار ماكان للروح، ولكلٍّ جندٌ تقابل به، فيقال من طريق الإشارة: وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما، بأن تؤخذ

(1) والذي في الصحيح: ما أخرجه البخاري في (الصلح، باب ما جاء في الإصلاح بين الناس، ح ٢٦٩١) ومسلم في (الجهاد والسير، باب في دعاء النبي ﷺ وصبره على أذى المنافقين ح ١٧٩٩) عن أنس بن مالك قال: قيل للنبي ﷺ: لو أتيت عبد الله بن أُبيّ؟ قال: فانطلق إليه، وركب حماراً، وانطلق المسلمون، وهي أرض سبخة، فلما أتاه النبي ﷺ قال: إليك عني، فوالله لقد آذاني نتن حمارك. فقال رجل من الأنصار: والله؛ لحمار رسول الله ﷺ أطيب ريحًا منك، قال: فغضب لعبد الله رجلٌ من قومه. قال: فغضب لكل واحدٍ منهما أصحابه، قال: فكان بينهم ضرب بالجريد وبالأيدي وبالنعال، قال: فبلغنا أنها نزلت فيهم: ﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما﴾.

النفسُ بالسياسة شيئاً فشيئاً، يُنقص من حظوظها شيئاً فشيئاً، حتى تتزكى وتعالَجَ الروحُ لدخول الحضرة، وعكوف الهم فى الذكر شيئاً فشيئاً، حتى تدخل الحضرة وهى لا تشعر، ثم تشعُر ويقع الاستغراق. وأما إن قُطِعت النفسُ عن جميع مألوفاتها مرةً احدة، أو كُلفت الروحَ الحضورَ فى الذكر على الدوام مرةً واحدة، أفسدتهما، لقوله: ﷺ: «ادخلوا فى هذا الدين برفق، فما شاد أحدكم الدين إلا غلبه»[(١)] وقال أيضا: «لايكن أحدكم كالمُنبت، لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى»[(٢)] ؛ فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتِلوا التى تبغى، بأن تَردع النفس إن طغت، وتأخذ لجام الروح إن هاجت، حتى تفيء إلى أمر الله، وهو الاعتدال، فيعطى كلَّ ذى حق حقه، ويُوفى كل ذى قسط قسطه.

وقوله تعالى: ﴿إنما المؤمنون إخوة﴾ قال الورتجبى: افهم أيها العاقل أن الله سبحانه خلق الأرواحَ المقدسةَ من عالَم الملكوت، وألبسها أنوارَ الجبروت؛ فمواردُها من قُربه مختلفة، لكن عينها واحدة، وخلق هياكلَها وأشباحَها من تربة الأرض التى أخلصها من جملتها، وزيّنها بنور قدرته، ونفخ فيها تلك الأرواح، [وجعل من الأرواح والأجسام النفوس][(٣)] الأمّارة التى ليست من قبيل الأرواح، ولا من قبيل الأجسام، وجعلها مخالفة للأرواح ومساكنها، فأرسل الله عليها جندَ العقول، يدفع بها شرَّها، فإذا امتحن الله عبادَه المؤمنين هيّج نفوسهم الأمّارة؛ ليُظهر حقائق درجاتهم من الإيمان، فأمَرهم أن يُعينوا العقلَ والروحَ والقلبَ على النفس حتى تنهزم؛ لأن المؤمنين كالبنيان يشُد بعضُهم بعضا.

ثم بيّن أنّ فى الإصلاح بين الإخوان الفلاح والنجاة، إذا كان مقروناً بالتقوى التى تقدسُ البواطن من البغى والحسد بقوله: (واتقوا الله لعلكم تُرحمون) فإذا فهمت ماذكرتُ علمتَ أنّ حقيقة الأخوة مصدر الإتحاد، فإنهم كنفسٍ واحدة؛ لأن مصادرهم مصدر واحد، [وهو][(٤)] آدم، ومصدر روح آدم نورُ الملكوت، ومصدرُ جسمه تربة الجنة فى بعض الأقوال. لذلك يصعد الروحُ إلى الملكوت، والجسم إلى الجنة، كما قال ﷺ: «كل شيء يرجع إلى أصل[(٥)]». هـ. قلت: صعود الروح إلى الملكوت هو شهود معانى الأسرار فى دار الجنة، ونزول الجسم إلى الجنة هو تمتعه بنعيم حسها فى عالم الأشباح، وكل ذلك بعد الموت، وأحسنُ العبارة أن يُقال: لأن مصادرَهم مصدر واحد، وهو بحر الجبروت، المتدفق بأنوار الملكوت، والوجود بأسْره موجةٌ من بحر الجبروت.

---

(١) يريد الشيخ حديث: «إن الدين يُسرٌ، ولن يُشادّ الدينَ أحدٌ إلا غلبه...» الحديث أخرجه البخارى فى (الإيمان، باب الدين يُسر، ح٣٩) من حديث أبى هريرة رضي الله عنه.
(٢) سبق تخريج الحديث عند تفسير الآية ٢٣ من سورة الجاثية
(٣) عبارة الورتجبى: [وجعل بين الأرواح والأجسام والنفوس].
(٤) فى الأصول: [بنوا] والمثبت من الورتجبى.
(٥) على هامش النسخة الأم مايلى: لعله يريد: «كل مُيسر لما خلق له» أما بهذا اللفظ فلا نراه وارد. والله أعلم. هـ.

ثم قال الورتجبى: قال أبو بكر النقاش: سألتُ الجنيد عن الأخ الحقيقى؟ فقال: هو أنت فى الحقيقة، غير أنه غيرك فى الهيكل. قلت: يعنيّ أن الناس فى الحقيقة ذاتٌ واحدة، وما افترقوا إلا فى الهياكل، فكلهم أخوة. وقال أبو عثمان الحيرى: أُخوة الدين أثبت من أخوة النسب، فإن أخوة النسب تُقطع بمخالفة الدين، وأخوة الدين لاتقطع بمخالفة النسب. هـ. وتقدم لنا شروط الأخوة فى قوله تعالى: ﴿الأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ...﴾ الآية[1].

وقال القشيرى هنا: ومن حق الأخوة ألا تُلجأه إلى الاعتذار، بل تبسُط عذرَه أى: تذكر عذره قبل أن يعتذر، فإن أُشكل عليك وجهه عُدت بالملامة على نفسك فى خفاء عذره عليك، وتتوب عليه إذا أذنب، وتعوده إذا مرض، وإذا أشار عليك بشيء فلا تطالبه بالدليل وإيراد الحجة، كما أنشدوا:

إذا استُنجِدُوا لَم يسألوا مَنْ دَعَاهُمُ ... لأيَّةِ حَـرْبٍ أم لأيِّ مكَانِ[2].هـ.

ومن أوْكد شروطها[3]: التعظيم، كما أبان ذلك بقوله تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (١١) ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ياأيها الذين آمنوا لايسخرْ قومٌ من قومٍ عسى أن يكونوا خيراً منهم﴾ أى: عسى أن يكون المسخُور منهم خيراً عند الله ـ تعالى ـ من الساخِرين؛ لأن الناس لايطّلِعون إلا على الظواهر، وهو تعليل للنهى، والقوم خاص بالرجال؛ لأنهم القوامون على النساء، وهو فى الأصل: جمع قائم، كصوْم وزَوْر، فى جمع صائم وزائر، واختصاص القوم بالرجال صريح فى الآية؛ إذ لو كانت النساء داخلة فى الرجال، لم يقل: ﴿ولانساء من نساء﴾، وحقق ذلك زهير فى قوله:

وَمَا أَدْرِى وَسَوْفَ إخَالُ أَدْرِى ... أَقومٌ آلُ حِصْنٍ أمْ نِساءُ؟[4].

وأمّا قولهم فى قوم فرعون، وقوم عاد: هم الذكور والإناث، فليس لفظ القوم شاملاً لهم، ولكن قصد ذكر الذكور، والإناث تبع لهم.

---

(١) الآية ٦٧ من سورة الزخرف.
(٢) البيت ينسب إلى وداك بن ثميل المازنى. كما فى العقد الفريد (٥/٢٠٢)، ونهاية الأرب (٣/٢٢٩).
(٣) أى: الأخوة.
(٤) حيث أراد بالقوم الرجال دون النساء. والبيت من الوافر. انظر ديوان زهير (١٢) والمغنى (١/٤١).

﴿ولا﴾ يسخر ﴿نساءٌ﴾ مؤمنات ﴿من نساءٍ﴾ منهن ﴿عسى أن يكُنَّ﴾ أى: المسخور منهن ﴿خيراً منهن﴾ أى: الساخرات، فإنّ مناط الخيرية فى الفريقين ليس مايَظهر من الصور والأشكال، والأوضاع والأطوار، التى عليها يدور أمر السخرية، وإنما هى الأمور الكامنة فى القلوب، من تحقيق الإيمان، وكمال الإيقان، وموارد العرفان، وهى خفيَّة، فقد يُصغِّر العبدُ مَن عظَّم الله، ويتحقر مَن وقَّره الله، فيسقطُ من عين الله، فينبغى ألا يجترئ أحدٌ على الاستهزاء بأحدٍ إذا رآه رثَّ الحال، أو ذا عاهة فى بدنه، ولو فى دينه، فلعله يتوب ويُبتلى بما ابْتُلى به. وفى الحديث: «لاتُظْهِر الشماتَة لأخيك فيُعافيه الله ويبتليك»(١). وعن ابن مسعود رضي الله عنه: البلاء موكل بالقول، لو سخِرتُ من كلب لخشيتُ أن أُحوَّل كلباً. هـ.

وتنكير القوم والنساء؛ إما لإرادة البعض، أى: لا يسخر بعضُ المؤمنين والمؤمنات من بعض، وإما لإرادة الشيوع، وأن يصير كل جماعة منهم منَهية عن السخرية، وإنما لم يقل: رجلٌ من رجلٍ، ولا امرأةٌ من امرأة؛ إعلاماً بإقدام غير واحد من رجالهم وغير واحدةٍ من نسائهم على السخرية، واستفظاعاً للشأن الذى كانوا عليه.

﴿ولا تَلْمِزُوا أنفسَكُم﴾؛ ولايعيب بعضكم بعضاً بالطعن فى نسبه أو دينه، واللمز: الطعن والضرب باللسان، والمؤمنون كنفس واحدة، فإذا عاب المؤمنُ المؤمنَ فقد عاب نفسه. وقيل: معناه: لاتفعلوا ما تلمزون به أنفسكم بالتعرض للكلام؛ لأن مَن فعل ماأستحق به اللمز فقد لمزَ نفسَه حقيقةً. ﴿ولا تنابزوا بالألقاب﴾ أى: لايَدْعُ بعضكم بعضاً بلقب السوء، فالتنابزُ بالألقاب: التداعى بها. والتلقيبُ المنهى عنه مايدخل على المدعوّ به كراهيةً، لكونه تقصيراً به وذماً له، فأمّا ما يُحبه فلا بأس به، وكذا ما يقع به التمييز، كقول المحدِّثين: حدثنا الأعمش والأحدب والأعور.

رُوى أن قوماً من بنى تميم استهزأوا ببلال وَخبّاب وَعمّار وصُهيب، فنزلت(٢). وعن عائشة - رضى الله عنها - أنها كانت تسخر من زينب بنت خزيمة، وكانت قصيرة. وعن أنس: عيَّرت نساءُ النبى ﷺ أمَّ سلمة بالقِصَر، فنزلت(٣). ورُوى: أنها نزلت فى ثابت بن قيس، وكان به وَقْر - أى: صمم - فكانوا يوسِّعون له فى مجلس رسول الله ﷺ، فأتى قوماً وهو يقول: تفسّحوا، حتى انتهى إلى رسول الله ﷺ فقال لرجل: تنحَّ؛ فلم يفعل، فقال: من هذا؟ فقال: أنا فلان، فقال: فلان بن فلانة - يريد أُمّاً كان يُعَيَّر بها فى الجاهلية، فخجل الرجلُ، فنزلت، فقال ثابت: والله لا أفخر على أحد بعد هذا أبداً(٤).

---

(١) أخرجه الترمذى فى (صفة القيامة والرقائق، باب ٥٤، ح ٢٥٠٦) من حديث واثلة بن الأسقع رضي الله عنه. وقال الترمذى: «حديث حسن غريب».

(٢) عزاه السيوطى فى الدر (٦/٩٦ - ٩٧) لابن أبى حاتم، عن مقاتل.

(٣) ذكره الواحدى فى أسباب النزول (ص ٤٠٩).

(٤) ذكره البغوى فى تفسيره ٧/٣٤٢ - ٣٤٣) عن ابن عباس رضي الله عنه.

وقال ابن زيد: معنى ﴿ ولاتنابزوا بالألقاب ﴾ ؛ لايقل أحد: يا يهودى، بعد إسلامه، ولا يافاسق، بعد توبته. ﴿ بئس الاسمُ الفسوقُ بعد الإيمان ﴾ يعنى: أن اللقب بئس الاسمُ هو، وهو ارتكابُ الفسق بعد الإيمان، وهو استهجان للتنابز بالألقاب، وارتكاب هذه الجريمة بعد الدخول فى الإسلام، أو: بئس قولُ الرجل لأخيه: يافاسق، بعد توبته، أو: يا يهودى، بعد إيمانه، أى: بئس الرمى بالفسوق بعد الإيمان.

رُوى: أنَّ الآية نزلت فى صفية بنت حُيى، أتت رسولَ الله ﷺ فقالت: إن النساء يقُلن لى: يايهودية بنتُ يهوديَّيْن، فقال ﷺ: «هلاّ قلت: إن أبى هارون، وعمى موسى، وزوجى محمد ﷺ»(١)، أو: يُراد بالاسم هنا: الذكر، من قولهم: طار اسمه فى الناس بالكرم أو اللؤم، كأنه قيل: بئس الذكر المرتفع للمؤمنين بسبب ارتكاب هذه الجرائم أن يُذكروا بالفسق.

وقوله: ﴿ بعد الإيمان ﴾ ، استقباح للجمع بين الإيمان والفسق الذى يحظره الإيمان، كما تقول: بئس الشأن بعد الكبرة الصَّبْوة. ﴿ ومن لم يتبْ ﴾ عما نُهى عنه ﴿ فأولئك هم الظالمون ﴾ بوضع المخالفة موضع الطاعة، فإن تاب واستغفر؛ خرج من الظلم.

وعن حذيفة ﷺ : شكَوتُ إلى رسول الله ﷺ ذَرَبَ لسانى، فقال: «أين أنت من الاستغفار؟ إنى لأستغفر الله كل يوم مائة مرة»(٢) ، والذَرَب ـ بفتح الذال والراء: الفحش، وفى حديث ابن عمر: كنا نعُدّ لرسول الله ﷺ فى المجلس الواحد مائة مرة: «رب اغفر لى، وتب علىّ، إنك أنت التواب الرحيم»(٣).

الإشارة: مذهب الصوفية التعظيم والإجلال لكل ماخلق الله، كائناً مَن كان؛ لنفوذ بصيرتهم إلى شهودِ الصانع والمتجلّى، دون الوقوف مع حس الصنعة الظاهرة، وقالوا: «شروط التصوف أربعة: كف الأذى، وحمل الجفا، وشهودُ الصفا، ورمىُ الدنيا بالقفا». فشهود الصفا يجرى فى الأشياء كلها، فإياكِ ياأخى أن تَحقر أحداً من خلق الله؛ فتُطرد عن بابه، وأنت لاتشعر، ولله در القائل:

---

(١) أخرج الترمذى فى (المناقب، باب فضل أزواج النبى ﷺ ح ٣٨٩٤) والنسائى فى الكبرى (عشرة النساء٣٣) من حديث أنس ﷺ.

(٢) أخرجه أحمد (٥/٣٩٤و٣٩٦، ح ٢٣٢٣٣ و٢٣٢٥٥) وابن أبى شيبة (كتاب الدعاء ٦/٥٧، ح٢٩٤٣٢) والحاكم (٢/٤٥٧) «وصححه وأقره الذهبى»، والبيهقى فى الشعب (٦٧٨٦) .

(٣) أخرجه أبو داود فى (الصلاة، باب فى الاستغفار، ح ١٥١٦) والترمذى فى (الدعوات، باب مايقول إذا قام من مجلسه، ح ٣٤٣٤) وقال: «حديث حسن صحيح غريب»، وابن ماجة فى (الأدب، باب الاستغفار، ح ٣٨١٤) والنسائى فى عمل اليوم والليلة (ص١٤٨) وزاد السيوطى عزوه فى الدر (٦/٤٨) لابن أبى شيبة وابن مردويه، والبيهقى فى الأسماء والصفات.

لله فى الخلقِ أسرار وأنوارُ ويصطفى اللهُ مَن يَرضَى ويَختارُ
لا تَحقِرنّ فقيراً إن مررت به فقد يكونُ له حظ ومقدارُ
والمرءُ بالنَّفسِ لا باللّبس تعرِفُه قد يَخلَقُ الغمدُ والهندِيُّ بتّار
والتِّبْرُ فى التُّربِ قد تخفى مكانته حتى يُخلّصه بالسَّبك مسْبارُ
ورُبَّ أشعثَ ذِى طِمرَيْنِ مجتهدٌ له على الله فى الإقسامِ إبْرارُ

وعن أبى سعيد الخراز، قال: دخلت المسجد الجامع، فرأيت فقيراً، عليه خرقتان، فقلت فى نفسي: هذا وأشباهه كَلٌّ على الناس، فنادانى، وتلا: ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ ﴾(١) فاستغفرتُ الله فى سرى، فنادانى وقال: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ ﴾(٢) ثم غاب عنى فلم أره. هـ.

وقال ﷺ : «إن المستهزئين بالناس يُفتح لأحدهم باب من الجنة، فيُقال لأحدهم: هلُم، فيجيء بغمه وكربه، فإذا جاء أُغلق دونه، ثم يُفعل به هكذا مراراً، من باب إلى باب، حتى يأتيه الإياس»(٣). بالمعنى من البدور السافرة.

ثم نهى عن الظن، فقال:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ (١٢) ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن ﴾ أى: كونوا فى جانب منه، يقال: جنّبه الشرّ إذا أبعده عنه، أى: جعله فى جانب منه، واجتنب، يتعدى إلى مفعولين، قال تعالى: ﴿ وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ ﴾(٤) ، ومطاوعه: اجتنب، ينقص مفعولاً، وإبهام «الكثير» لإيجاب التأمل فى كل ظن، حتى يعلم من

(١) من الآية ٢٣٥ من سورة البقرة.
(٢) من الآية ٢٥ من سورة الشورى.
(٣) أخرجه البيهقى فى شعب الإيمان (ح٦٧٥٧) عن الحسن، مرسلاً.
(٤) من الآية ٣٥ من سورة إبراهيم.

أيّ قبيل هو، فإنّ مِن الظن مايجب اتباعُه؛ كالظن فيما لا قاطع فيه من العمليّات، وحسن الظن بالله تعالى، ومنه مايحْرُم، وهو ما يُوجب نقصاً بالإلهيات والنبوات، وحيث يخالفه قاطع، وظن السوء بالمؤمنين، ومنه ما يُباح، كأمور المعاش.

﴿ إنّ بعض الظن إثمٌ ﴾ ، تعليل للأمر بالاجتناب، قال الزجاج: هو ظنك بأهل الخير سوءاً، فأما أهل الفسق فلنا أن نظنّ بهم مثل الذى ظهر عليهم، وقيل المعنى: اجتنبوا اجتناباً كثيراً من الظن، وتحرّزوا منه، إن بعض الظن إثم، وأَوْلَى كثيرهُ، والإثم: الذنب الذى يستحق صاحبه العقاب، وفى الحديث عنه ﷺ: «إياكم والظن، فإن الظنّ أكذبُ الحديث»(١)، فالواجب ألاّ يعْتمد على مجرد الظن، فيعمل به، أو يتكلم بحسبه.

قال ابن عطية: ومازال أولو العزم يحترسون من سوء الظن، ويجتنبون ذرائعه. قال النووى: واعلم أن سوء الظن حرام مثل القول، فكما يحرم أن تحدّث غيرك بمساوئ إنسان؛ يحرم أن تُحدّث نفسك بذلك، وتُسيء الظن به، والمراد: عقدُ القلب وحكمهُ على غيره بالسوء، فأما الخواطرُ، وحديثُ النفس، إذا لم يستقر ويستمر عليه صاحبه، فمعفوٌ عنه باتفاق؛ لأنه لا اختيارَ له فى وقوعه، ولا طريق له إلى الانفكاك عنه .هـ.

وقال فى التمهيد: وقد ثبتَ عن النبى ﷺ أنه قال: «حرّم الله من المؤمن: دمَه ومالَه وعِرضَه، وألا يُظنّ به إلا الخير»(٢) . هـ. ونقل أيضا أن عُمر بن عبد العزيز كان إذا ذُكر عنده رجل بفضل أو صلاح، قال: كيف هو إذا ذُكر عنده إخوانُه؟ فإن قالوا: ينتقص منهم، وينال منهم، قال عمر: ليس هو كما تقولون، وإن قالوا: إنه يذكُرُ منهم جميلاً، ويُحسن الثناء عليهم، قال: هو كما تقولون إن شاء الله. هـ. وفى الحديث أيضا: «خصلتان ليس فوقهما شيء من الخير، حسْن الظنّ بالله، وحُسْن الظن بعباد الله. وخصلتان ليس فوقهما شيء من الشر، سوء الظن بالله، وسوء الظن بعباد الله» .

﴿ ولا تّجسَّسُوا ﴾ ؛ لاتبحثوا عن عورات المسلمين ومعايبهم، يقال: تجسس الأمر: إذا تطلبه وبحث عنه، تَفَعلٌ من: الجسّ. وعن مجاهد: خُذوا ماظهر ودَعوا ما ستر الله. وقال سهل: لاتبحثوا عن طلب ما ستر الله على

---

(١) أخرجه بطوله البخارى فى (الأدب، باب ﴿يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن﴾ ح ٦٠٦٦) ومسلم فى (البر والصلة، باب تحريم الظن، ح ٢٥٦٣).

(٢) انظر التمهيد (٢٠/ ١٥٧)، وأخرج الطبرانى فى الكبير (١١٠/٣٧ ح ١٠٩٦٦) عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال: نظر رســول الله ﷺ إلى الكعبة فقال: «لا إله إلا الله، ما أطيبك وأطيب ريحك وأعظم حرمتك، والمؤمن أعظم حرمة منك، إن الله عز وجل جعلك حراماً، وحرّم من المؤمن ماله ودمه وعرضه وأن يظن به ظناً سيئاً».

عباده، وفى الحديث: «لاتتبعوا عورات المسلمين؛ فإنَّ من تتبع عورات المسلمين تتبع الله عورته حتى يفضحه ولو فى جوف بيته»(١).

قال ابن عرفه: من هو مستور الحال فلا يحلّ التجسس عليه، ومن اشتهر بشرب خمر ونحوه فالتجسس عليه مطلوب أو واجب. هـ. قلت: معناه: التجسس عليه بالشم ونحوه؛ ليُقام عليه الحد، لا دخول داره لينظر مافيها من الخمر ونحوه، فإنه منهى عنه، وأمّا فعل عمر ـ رضى الله عنه ـ فحالٌ غالبة، يقتصر عليها فى محلها. وانظر الثعلبى، فقد ذكر عن عمر رضي الله عنه أنه فعل من ذلك أموراً، ومجملها ماذكرنا.

وقرئ بالحاء(٢)، من «الحس» الذى هو أثر الجس وغايته، وقيل: التجسس ـ بالجيم ـ يكون بالسؤال، وبالحاء يكون بالاطلاع والنظر، وفى الإحياء: التجسس ـ أى: بالجيم ـ فى تطلع الأخبار، والتحسس بالمراقبة بالعين. هـ. وقال بعضهم: التجسس ـ بالجيم ـ فى الشر، وبالحاء فى الخير، وقد يتداخلان.

والحاصل: أنه يجب ترك البحث عن أخبار الناس، والتماس المعاذر، حتى يُحسن الظن بالجميع، فإنَّ التجسس هو السبب فى الوقوع فى الغيبة، ولذلك قدّمه الحق ـ تعالى ـ على النهى عن الغيبة، حيث قال: ﴿ولا يغتب بعضكم بعضاً﴾ أى: لايذكر بعضكم بعضاً بسوء. فالغيبة: الذكر بالعيب فى ظهر الغيب، من الاغتياب، كالغِيلَة من الاغتيال. وسئل ﷺ عن الغيبة، فقال: «ذِكْرُك أخاك بما يكره، فإن كان فيه فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه فقد بَهتّه»(٣).

وعن معاذ: كنا مع رسول الله ﷺ فذكَر القومُ رجلاً، فقالوا: لايأكل إلا إذا أُطعم، ولايرحل إلا إذا رُحِّل، فما أضعفه! فقال عليه السلام: «اغتبتم أخاكم»، فقالوا: يارسول الله، أوَ غيبة أن يُحدّث بما فيه؟ قال: «فَحَسْبُكم غيبةً أن تُحدِّثوا عن أخيكم بما فيه»(٤). قال أبو هريرة: قام رجل من عند النبى ﷺ فرأوْا فى قيامه عجْزاً، فقالوا: يارسول الله، ماأعجز فلاناً! فقال عليه السلام: «أكلتُم لحمَ أخيكم واغتبتموه»(٥).

---

(١) أخرجه الترمذى فى (البر والصلة، باب ما جاء فى تعظيم المؤمن ح ٢٠٣٢) وابن حبان (موارد ص ٣٥٩) من حديث ابن عمر رضي الله عنه. وأخرجه أبو داود فى (الأدب، باب فى الغيبة، ح ٤٨٨٠) من حديث أبى برزة الأسلمى.

(٢) نسبها فى البحر المحيط (١١٣/٨) للحسن وأبى رجاء وابن سيرين.

(٣) أخرجه مسلم فى (البر والصلة، باب تحريم الغيبة ح ٣٥٨٩) من حديث أبى هريرة رضي الله عنه.

(٤) رواه الأصبهانى فى الترغيب (٢٢٠٨) عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده. ولم أقف عليه من حديث معاذ رضي الله عنه.

(٥) عزاه المنذرى فى الترغيب والترهيب (ح ٤١٧٠) لأبى يعلى فى مسنده (٦١٥١) والطبرانى ـ واللفظ له ـ عن أبى هريرة رضي الله عنه.

قال النووي: الغيبة: كلّ ماأفهمت به غيرَك نقصان مسلم عاقل، وهو حرام. هـ. قوله: ما أفهمت... الخ، يتناول اللفظ الصريح والكناية والرمزَ والتعريضَ والإشارة بالعين والرأس، والتحكية بأن يفعل مثله، كالتعارج، أو يحكي كلامَه على هيئته ليُضحك غيره، فهذا كله حرام، إن فَهِم المخاطَب تعيين الشخصِ المغتاب، وإلا فلا بأس، والله تعالى أعلم. ولافرق بين غيبة الحي والميت، لما ورد: «مَن شتَم ميتاً أو اغتابه فكأنما شتم ألف نبي، ومَن اغتابه فكأنما اغتاب ألفَ ملَك، وأحبط الله له عمل سبعين سنة، ووضع على قدمه سبعين كيةً من نار»[1].

والسامع للغيبة كالمغتاب، إلاَّ أن يُغيِّر أو يقوم، وورد عن الشيخ أبي المواهب التونسي الشاذلي أن النبي ﷺ قال له: «فإن كان ولابد من سماعك غيبة الناس ـ أي: وقع منك ـ فاقرأ سورة الإخلاص والمعوذتين، واهدِ ثوابها للمغتاب؛ فإن الله يُرضيه عنك بذلك». هـ.

وعن ابن عباس رضي الله عنه: الغيبة إدامُ كلابِ الناس. هـ. وتشبيههم بالكلاب في التمزيق والتخريق، فهم يُمزقون أعراض الناس، كالكلاب على الجيفة، لايطيب لهم مجلس إلاّ بذكر عيوب الناس. وفي الحديث: «رأيت ليلة أُسري بي رجالاً لهم أظفار من نحاس، يَخمشُون وجوهَهم ولحومَهم، فقلت: مَن هؤلاء ياجبريل؟ فقال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم»[2].

﴿ أيُحب أحدُكم أن يأكلَ لَحمَ أخيه ميْتاً ﴾، هذا تمثيل وتصوير لما ينالُه المغتاب من عِرضِ المغتابِ على أفحش وجه. وفيه مبالغات، منها: الاستفهام الذي معناه التقرير، ومنها: فعلُ ماهو الغاية في الكراهة موصولاً بالمحبة، ومنها: إسناد الفعل إلى ﴿أحدكم﴾ إشعاراً بأنّ أحداً مِن الأحدين لايُحبُّ ذلك، ومنها: أنه لم يقتصر على تمثيل الاغتياب بأكل لحم مطلق الإنسان، بل جعله أخاً للآكل، ومنها: أنه لم يقتصر على أكل لحم الأخ حتى جعله ميتاً. وعن قتادة: كما تكره إن وجدت جيفة مُدَوَّدة أن تأكل منها؛ كذلك فاكْرَه لحم أخيك. هـ.

ولمّا قررهم بأن أحداً منهم لايُحب أكل جيفة أخيه عقّب ذلك بقوله: ﴿ فكَرِهْتموه ﴾ أي: وحيث كان الأمر كما ذُكر فقد كرهتموه، فكما تحققت كراهتكم له باستقامة العقل فاكْرهوا ماهو نظيره باستقامة الدين.

﴿ واتقوا الله ﴾ في ترك ما أُمِرتم باجتنابه، والندم على ماصدَر منكم منه، فإنكم إن اتقيتم وتُبتم تقبّل الله توبتكم، وأنعم عليكم بثواب المتقين التائبين، ﴿ إنّ الله تواب رحيم ﴾؛ مبالغ في قبول التوبة، وإفاضة الرحمة، حيث جعل التائب كمن لا ذنب له، ولم يخص تائباً دون تائب، بل يعم الجميع، وإن كثرت ذنوبه.

---

(١) على هامش النسخة الأم: يا أستاذ هذا الحديث كذب موضوع، ظاهر من لفظه.هـ.

(٢) أخرجه أبو داود في (الأدب، باب في الغيبة، ح ٤٨٧٨) وأحمد (٣/٢٢٤) من حديث أنس رضي الله عنه.

رُوى أنّ سلمان كان يخدم رجلين من الصحابة، ويُصلح طعامَهما، فنام عن شأنه يوماً، فبعثاه إلى رسول الله ﷺ فقال: «ماعندى شيء»، فأخبرهما سلمان، فقالا: لو بعثناه إلى بئر سَميحة لغار ماؤها. فلما جاءا إلى رسول الله ﷺ قال لهما: «مالى أرى خُضْرَة اللّحم فى أفواهكما؟» فقالا: ماتناولنا لحماً، فقال: «إنكما قد اغتبتما، من اغتاب مسلماً فقد أكل لحمه»، ثم قرأ الآية(١).

وقيل: غيبة الخلق إنما تكون بالغيبة عن الحق. هـ. قاله النسفى. قال بعضهم: والغيبة صاعقة الدين، فمن أراد أن يُفرّق حسناته يميناً وشمالاً؛ فليغتب الناس. وقيل: مثلُ صاحب الغيبة مثل مَن نصب منجنيقاً فهو يرمى به حسناته يميناً وشمالاً، شرقا وغرباً .هـ. والأحاديث والحكايات فى ذم الغيبة كثيرة، نجانا الله منها بحفظه ورعايته. وهل هى من الكبائر أو من الصغائر؟ خلاف، رجّح بعضٌ أنها من الصغائر؛ لعموم البلوى بها، قال بعضهم: هى فاكهةُ القراء، ومراتعُ النساء، وبساتينُ الملوك، ومَزبلةُ المتقين، وإدام كلاب الناس. هـ(٢).

الإشارة: مَن نظر الناسَ بعين الجمع عذَرهم فيما يصدر منهم، وحسَّن الظنَ فيما لم يصدر منهم، وعظَّم الجميع، ومن نظرهم بعين الفرق طال خصمه معهم فيما فعلوا، وساء ظنُّه بهم فيما لم يفعلوا، وصغَّرهم حيث لم ير منهم ما لايعجبه، فالسلامةُ: النظر إليهم بعين الجمع، وإقامةُ الحقوق عليهم فى مقام الفرق، قياماً بالحكمة فى عين القدرة. وفى الحديث: «ثلاثة دبت لهذه الأمة؛ الظن، والطيرة، والحسد، قيل: فما النجاة؟ قال: «إذا ظننت فلا تحقّق، وإذا تطيرت فامض، وإذا حسدت فلا تبغ»(٣) أو كما ـ قال عليه السلام. قال القشيرى: النفسُ لاتصدّق، والقلب لايكذّب، والتمييزُ بينهما مُشكِلٌ، ومن بقِيَتْ عليه من حظوظه بقيةٌ ـ وإن قلّت ـ فليس له أن يدَّعى بيانَ القلب ـ أى: استفتاءه ـ بل يتهمَ نفسه مادام عليه شيء من نفسه، ويجب أن يتهم نَفْسَه فى كل مايقع له من نقصان غيره، هذا أمير المؤمنين عمرُ قال وهو يخطب الناس: «كلّ الناسِ أفقه من عمر حتى النساء»(٤). هـ.

(١) قال المناوى فى الفتح السماوى (٣/١٠٠٤): «ذكره الثعلبى بغير إسناد، وروى معناه الأصبهانى فى الترغيب عن عبدالرحمن ابن أبى ليلى».

(٢) على هامش النسخة الأم مايلى: غريب هذا الترجيح، وأغرب منه دليله، فالأحاديث الكثيرة الصحيحة تفيد أن الغيبة من الكبائر، بل من أكبرها، بل من أربى الربا، وأشد من ست وثلاثين زنية، والزنا والربا من الكبائر، وأيضاً: هى من حقوق الخلق، التى لا تكفّر إلا بالاستحلال، فكيف تكون من الصغائر أ.هـ.

(٣) ذكره ابن عبد البر فى التمهيد (٦/١٢٥) بلفظ (ثلاث لا يسلم منهن أحد..) الحديث، وعزاه لعبد الرزاق، عن إسماعيل بن أمية. وذكره الهيثمى فى المجمع (٨/٨١) وابن كثير فى التفسير (٤/١٣) بلفظ «ثلاث لازمات لأمتى..» الحديث، وفيه: «وإذا حسدت فاستغفر الله»، وعزاه كل منهما للطبرانى عن حارثة بن النعمان. وقال الهيثمى: «وفيه إسماعيل بن قيس الأنصارى، وهو ضعيف».

(٤) قاله ﷺ بعد أن خطب ناهياً عن المغالاة فى مُهور النساء، وأن لا يزدن عن أربعمائة درهم، فقالت له امرأة من قريش: أما سمعت الله يقول: ﴿وآتيتم إحداهن قنطاراً﴾ [النساء/ ٢٠]. ذكره فى كنز العمال (رقم ٤٥٧٩٨) وعزاه لسعيد بن منصور، وأبى يعلى فى مسنده، والمحاملى فى أماليه، عن مسروق. وانظر: الشذرة فى الأحاديث المشتهرة (رقم ٦٩٧).

قوله تعالى: ﴿ولاتجسسوا..﴾ إلخ، التجسس عن أخبار الناس من علامة الإفلاس، قال القشيري: العارف لايتفرغ من شهود الحقّ إلى شهود الخلق، فكيف يتفرغ إلى التجسس عن أحوالهم؟! لأن من اشتغل بنفسه لايتفرغ إلى الخلق، ومن اشتغل بالحق لايتفرغ لنفسه، فكيف إلى غيره ؟اهـ.

قوله تعالى: ﴿ولايغتب بعضكم بعضا﴾، ليست الغيبة خاصة باللسان في حق الخاصة، بل تكون أيضاً بالقلب، وحديث النفس، فيُعاتبون عليها كما تُعاتَب العامةُ على غيبة اللسان، وتذكّر قضية الجنيد مع الفقير الذى رآه يسأل، وهى مشهورة، وتقدمت حكاية أبى سعيد الخراز، ونقل الكواشي عن أبى عثمان: أنّ من وجد فى قلبه غيبةً لأخيه، ولم يعمل فى صرف ذلك عن قلبه بالدعاء له خاصة، والتضرع إلى الله بأن يُخلِّصَه منه؛ أخاف أن يبتليه الله فى نفسه بتلك المعايب. هـ. قال القشيرى: وعزيزٌ رؤيةُ من لا يغتاب أحداً بين يديك. هـ. وقد أبيحت الغيبة فى أمور معلومة، منها: التحرز منه لئلا يقع الاغترار بكلامه أو صحبته، والترك أسلم وأنجى.

ثم نهى عن الافتخار بالأنساب، فقال:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (١٣)﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿يأيها الناس إنَّا خلقناكم من ذَكَرٍ وأُنثى﴾؛ آدم وحوّاء، أو: كل واحد منكم من أبٍ وأم، فما منكم من أحد إلا وهو يُدلي بما يدلي به الآخر، سواء بسواء، فلا معنى للتفاخر والتفاضل بالنسب. وفى الحديث: «لافضل لعربى على عجمى، ولا لعجمى على عربى، ولا لأحمر على أسود، ولا لأسود على أحمر إلا بالتقى»(٢). وقال أيضا: «ثلاثة من أمر الجاهلية؛ الفخر بالأحساب، والطعن فى الأنساب، والدعاء بدعاء الجاهلية»(٣) أو كما قال ﷺ.

﴿وجعلناكم شعوباً وقبائلَ﴾، الشعوب: رؤوس القبائل، مثل ربيعة ومضر، والأوس والخزرج، واحدها: شَعب ـ بفتح الشين، سُمُّوا بذلك لتشعبهم كتشعب أغصان الشجرة، والقبائل: دون الشعوب، واحدها: قبيلة، كبكر من ربيعة، وتميم من مضر. ودون القبائل: العمائر، جمع عَمارة بفتح العين، وهم كشيبان من بكر، ودارم من تميم،

(١) أخرجه مطولاً: البيهقى فى الشعب (ح٥١٣٧) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه.
(٢) ذكره الهيثمى فى المجمع (١٦/٣) بنحوه، وعزاه للطبرانى فى الكبير. عن سلمان مرفوعاً، وقال: «فيه عبدالغفور أبو الصباح، وهو ضعيف».

ودون العمائر: البطون، واحدها: بطن، وهي كبني غالب ولؤي من قريش، ودون البطون: الأفخاذ، واحدها: فَخْذ، كهاشم وأمية من بني لؤي، ثم الفصائل والعشائر، واحدها: فصيلة وعشيرة، فالشعب تجمع القبائل، والقبيلة تجمع العمائر، والعِمارة تجمع البطون، والبطن يجمع الأفخاذ، والفخذ يجمع الفصائل(١). وقيل: الشعوب من العجم، والقبائل من العرب، والأسباط من بني إسرائيل. ﴿لِتَعَارفوا﴾ أي: إنما جعلناكم كذلك ليعرف بعضكم نسبَ بعض، فلا يتعدى إلى غير آبائه، لا لتتفاخروا بالأجداد والأنساب.

ثم ذكر الخصلة التي يفضل بها الإنسان، ويكتسب الشرفَ والكرمَ عند الله، فقال: ﴿إنَّ أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ أي: لا أنسبكم، فإنَّ مدار كمال النفوس وتفاوت الأشخاص هو التقوى، فمن رام نيل الدرجات العلا فعليه بالتقوى، قال ﷺ: «مَن سَرّه أن يكون أكرم الناس فليتق الله»(٢) ورُوي أنه ﷺ طاف يوم فتح مكة، ثم حمد الله، وأثنى عليه، وقال: «الحمد لله الذي أذهب [عُبِّيَّةَ](٣) الجاهلية وتكبُّرها؛ يأيها الناس؛ إنما الناس رجلان؛ رجل مؤمن تَقِيّ كريمٌ على الله، ورجل فاجر شَقِي هيِّن على الله» ثم قرأ الآية(٤).

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما: كرم الدنيا الغنى، وكرم الآخرة التقى. وقال قتادة: أكرم الكرم التقى، وألأمُ اللؤم الفجور، وسُئل عليه‌السلام عن خير الناس؟ فقال: «آمركم بالمعروف، وأنهاكم عن المنكر، وأوصلكم للرحم» وقال عمر رضي الله عنه: «كرم الرجل: دينه وتقواه، وأصله: عقله، ومروءته: خلقه، وحسبه: ماله»(٥).

وعن يزيد بن شَجَرَة: مرّ رسولُ الله ﷺ في سوق المدينة، فرأى غلاماً أسود، قائماً يُنادَى عليه؛ من يزيد في ثمنه، وكان الغلام يقول: من اشتراني فعلي شرط ألاّ يمنعني من الصلوات الخمس خلف رسول الله ﷺ. فاشتراه

---

(١) وقد نظمها بعض الأدباء، فقال: اقصد الشعبَ فهو أكثر حيٍ عدداً في الحواء ثم القبيلهْ
ثم تتلوها العمارة ثم البـ ـطن والفخذُ بعدها والفصيلهْ
ثم من بعدها العشيرة لكن هي في جنب ماذكرناه قليلهْ

(٢) أخرجه الحاكم (٤/ ٢٧٠) والطبراني في الكبير (١٠/ ٣٨٩) وأبو نعيم في الحلية (٣/ ٢١٨) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) في الأصول [غيبية] أما عن معناها، فقال ابن الأثير: يعني الكبر، وتضم عينها وتكسر، وهي فُعُّولة أو فُعِّيلة، فإن كانت «فُعُّولة» فهي من التَّعْبِيَة، لأن المتكبر ذو تكلف وتعبية، خلاف من يسترسل على سجيته، وإن كانت «فُعِّيلة» فهي من عُباب الماء، وهو أوله وارتفاعه. انظر النهاية (عبب ٣/ ١٦٩)..

(٤) أخرجه بطوله الترمذي في (التفسير؛ سورة الحجرات، ح ٣٢٧٠)، والبغوي في تفسيره (٧/ ٣٤٨) وفي شرح السنة (١٣/ ١٢٤) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٥) أخرجه ابن أبي شيبة (٨/ ٥٢٠) والبيهقي في السنن (١٠/ ١٩٥) من قول سيدنا عمر، موقوفاً، بلفظ «حسب الرجل دينه، ومروءته خلقه، وأصله عقله»، وأخرج الإمام مالك في الموطأ (ص٤٦٣) عن سيدنا عمر موقوفاً: «الكرم التقوى، والحسب والمال...»، وأخرج أحمد (٢/ ٣٦٥) والحاكم (١/ ١٢٣) والبيهقي في السنن (٧/ ١٣٦) وابن حبان (إحسان ـ ٤٨٣) والقضاعي في مسند الشهاب (١٩٠) عن أبي هريرة، مرفوعاً: «كرم المرء دينه، ومروءته عقله، وحسبهُ خلقه»، قال الحاكم: «صحيح على شرط مسلم».

بعضهم، فعادَه رسولُ الله ﷺ. ثم تُوفى، فتولى رسولُ الله ﷺ غُسله وتكفينَه ودفنَه، فقالت المهاجرون: هاجرنا ديارنا وأموالنا وأهلينا، فما نرى أحداً منا لقى فى حياته ولاموته مالقى هذا الغلام، وقالت الأنصار: آويناه ونصرناه وواسيناه بأموالنا، فآثر علينا عبدًا حبشياً، فنزلت(١).

وقال ﷺ: «إنَّ الله لاينظر إلى صُورِكم، ولا إلى أموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم، وإنما أنتم بنو آدم، أكرمكم عند الله أتقاكم، وأنتم تقولون: فلان بن فلان، وأنا اليوم أرفَع نسبى وأضع أنسابكم، أين المتقون»(٢). وقيل: يارسول الله، مَن أكرمُ الناس؟ قال: «أتقاهم»(٣). هـ وأنشدوا:

مَايَـصنع الْعَبْدُ بِعزِّ الْغِـنَى ... وَالْعِزُّ كُلُّ الـعِـزِّ للمُتَّقِى

مَنْ عرفَ اللهَ فـلم تُغنِـه ... مَعرِفَةُ الله فذاك الشقِى

﴿إنَّ الله عليمٌ خبير﴾، عليم بكرم القلوب وتقواها، خبير بهمم النفوس فى هواها.

الإشارة: كان سيدنا علىٌّ رضي الله عنه يقول: «ما لابن آدم والفخر، أوله نُطفة مذرة، وآخره جيفة قذرة، وفيما بينهما يحمل العذِرة» وكان يُنْشد:

النَّاسُ من جِـهَـةِ التـمـثـيل أكْـفَـاءُ ... أبـوهـم آدمٌ والأم حــــوَّاءُ

ومن يَرُمِ منهمُ فَـخْـرا بذى نَسب ... فـــإن أصْلَـهـمُ الـطِّينُ والمـاءُ

مـاَ الـفـخْـرُ إلا لأهل العِلم إنَّهمُ ... علىَ الهـدى لِمَن اهـتـدى أدلاَّءُ

وقَـدْرُ كل امـرِىءٍ مـاكـان يُـتـقِنُه ... وَالجـاهلونَ لأهل العلم أعـداءُ(٤)

---

(٦) ذكره الواحدى فى أسباب النزول (ص٤١١ ـ ٤١٢) بدون إسناد.

(٢) أخرجه إلى قوله: «وأعمالكم» مسلم فى (البر والصلة، باب تحريم ظلم المسلم وخذله، رقم ٢٥٦٤، ح ٣٤) من حديث أبى هريرة رضي الله عنه. والجزء الثانى جاء فى حديث، لفظه: «إذا كان يوم القيامة أمر الله منادياً ينادى: ألا إنى جعلت نسباً وجعلتم نسباً، فجعلت أكرمكم أتقاكم، فأبيتم إلا أن تقولوا: فلان بن فلان خير من فلان بن فلان، فاليوم أرفع نسبى وأضع نسبكم، أين المتقون؟» الحديث أخرجه الطبرانى فى الأوسط (ح ٤٥١١) والصغير (٦٣٤) وبنحوه البيهقى فى الشعب (ح٥١٣٩) عن أبى هريرة رضي الله عنه.

(٣) بعض حديث أخرجه البخارى فى (التفسير، سورة يوسف، باب: ﴿لقد كان فى يوسف وإخوته آيات للسائلين﴾ ح ٤٦٨٩) ومسلم فى (الفضائل، باب من فضائل يوسف عليه السلام رقم ٢٣٧٨) عن أبى هريرة رضي الله عنه. ولفظ البخارى: سئل رسول الله ﷺ: أى الناس أكرم؟ قال: «أكرمهم عند الله أتقاهم» ولفظ مسلم نحوه.

(٤) هكذا فى الأصول، وانظر ديوان «الإمام علىّ» جمع وضبط «نعيم زرزور» (ص ٥ ـ ٦) وتفسير القرطبى (٦٣٤٧/٧) وإتحاف السادة المتقين (٨٨/١) فقد جاءت الأبيات فيها بأتم من هنا مع اختلاف.

وقوله: ما الفخر إلا لأهل العلم.. الخ، يعني: لو كان الفخر مباحًا ما أُبيح إلا لهم، وإلا فهم أولى بالتواضع، اقتداء برسول الله ﷺ، وقد قال: «من تواضع دون قدرِه رفعه الله فوق قدره»،(١) فما رفع الله قدر العلماء إلا بتواضعهم حتى ينالهم الشريفُ والوضيع، والصغيرُ والكبير، والقوي والضعيف، فمن لم يكن هكذا فليس بعالِم؛ لأنّ الخشية تحمل على التواضع، ومن لم يخش فليس بعالم حقيقة. قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾(٢).

وقوله تعالى: ﴿إنَّ أكرمكم عند الله أتقاكم﴾، اعلم أنّ نصيب كل عبد من الله تعالى على قدر تقواه، وتقواه على قدر توجهه إلى الله، وتوجهه على قدر تفرغه من الشواغل، وتفرغه على قدر زهده، وزهده على قدر محبته ومحبته على قدر علمه بالله، وعلمه على قدر يقينه، ويقينه على قدر كشف الحجاب عنه، وكشف الحجاب على قدر جذب العناية، وجذب العناية على قدر السابقة، وهي سر القدر الذي لم يُكشف في هذه الدار. وسقوط العبد من عين الله على قدر قلة تقواه، وقلة تقواه على قدر ضعف توجهه، وضعف توجهه على قدر تشعب همومه، وتشعب همومه على قدر حرصه ورغبته في الدنيا، ورغبته في الدنيا على قدر ضعف محبته في الله، وضعف محبته على قدر جهله به، وجهله على قدر ضعف يقينه، وضعف اليقين من كثافة الحجاب، وكثافة الحجاب من عدم جذب العناية، وعدم جذب العناية من علامة الخذلان السابق، الذي هو سر القدر، والله تعالى أعلم.

ثم إنّ أساس التقوى: الإيمان الصادق دون الكاذب، الذي أشار إليه بقوله:

﴿ ۞ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٤)
إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (١٥) ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿قالت الأعرابُ﴾ أي: بعض الأعراب ﴿آمنَّا﴾، نزلت في نفر من بني أسد، قدِموا المدينةَ في سنة جدبة، فأظهروا الإسلام، ولم يؤمنوا في السر، وأفسَدوا طُرق المدنية بالعَذِرَات، وأغلَوا

(١) لم أقف عليه بهذا اللفظ، وأخرج أحمد في المسند (٣/٣٦) وابن ماجه في (الزهد ٢/١٣٩٨، ح ٤١٧٦) عن أبي سعيد الخدري، قال: قال ﷺ: «من يتواضع لله سبحانه درجة يرفعه الله به درجة، ومن يتكبر على الله درجة، يضعه الله به درجة، حتى يجعله في أسفل سافلين».
(٢) الآية ٢٨ من سورة فاطر.

أسعارها، وكانوا يقولون لرسول الله ﷺ: أتيناك بالأثقال والعيال، ولم نُقاتلك كما قاتلك بنو فلان، وهم يريدون الصدقة، ويقولون: أعطنا، ويمنّون بإسلامهم(١).

﴿ قل ﴾ لهم: ﴿ لم تؤمنوا ﴾ ؛ لم تُصدّقوا بقلوبكم ﴿ ولكن قولوا أسْلَمنا ﴾ ، فالإيمان هو التصديق بالقلب مع الإذعان به، والإسلام هو الدخول في السِّلْم، والخروج من أن يكون حرباً للمؤمنين بإظهار الشهادتين؛ ألا ترى إلى قوله: ﴿ ولمَّا يَدْخُلِ الإيمانُ في قلوبكم ﴾ فهو يدل على أنّ مجرد النطق بالشهادتين ليس بإيمان، فتحصّل أن مايكون من الإقرار باللسان من غير مواطأة للقلب فهو إسلام، وماواطأ فيه القلبُ اللسانَ فهو إيمان، وهذا من حيث اللغة، وأما في الشرع فهما متلازمان، فلا إسلام إلا بعد إيمان، ولا إيمان إلا بعد النطق بالشهادة إلا لعذر.

والتعبير بـ«لمّا» يدل على أن الإيمان متوقَّع من بعضهم وقد وقع. فإن قلت: مقتضى نظم الكلام أن يقول: قل لاتقولوا آمنا ولكن قولوا أسلمنا، أو: قل لم تؤمنوا ولكن أسلمتم؟ قلت: أفاد هذا النظم تكذيب دعواهم أولاً، فقيل: قل لم تؤمنوا، مع حسن أدب، فلم يقل: كذبتم صريحاً، ووضع «لم تؤمنوا» الذي هو نفس ما ادّعوا إثباته موضعه، واستغنى بقوله: ﴿لم تؤمنوا﴾ عن أن يقال: لاتقولوا آمنا؛ لاستهجان أن يخاطبوا بلفظ مؤداه النهي عن القول بالإيمان، ولم يقل: ولكن أسلمتم؛ ليكون قولهم خارجاً مخرج الزعم والدعوى، كما كان قولهم: «آمنا» كذلك، ولو قيل: ولكن أسلمتم؛ لكان كالتسليم، والاعتداد بقولهم، وهو غير معتدّ به.

وليس قوله: ﴿ولمّا يدخل الإيمانُ في قلوبكم﴾ تكريراً لمعنى قوله: ﴿لم تؤمنوا﴾ فإنّ فائدة قوله: ﴿لم تؤمنوا﴾ تكذيب دعواهم، وقوله: ﴿ولمّا يدخل الإيمان في قلوبكم﴾ توقيت لما أُمروا به أن يقولوه، كأنه قيل لهم: ولكن قولوا أسلمنا حين لم يثبت مواطأة قلوبكم لألسنتكم؛ لأنه كلام واقع موقع الحال من الضمير في «قولوا». قاله النسفي.

﴿ وإن تُطيعوا اللهَ ورسولَه ﴾ بالإخلاص وترك النفاق ﴿ لا يَلِتْكُم من أعمالكم شيئًا ﴾ من أجورها. يقال: ألَتَ يألِتُ(٢)، وألات يُليت، ولات يلِيت، بمعنى، وهو النقص، ﴿ إنَّ اللهَ غفور ﴾ لما فرط من الذنوب، ﴿ رحيمٌ ﴾ يستر العيوب.

﴿ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسولِه ثم لم يرتابوا ﴾ ؛ لم يَشُكُّوا، من: ارتاب، مضارع رابه: إذا أوقعه في الشك والتُّهمة، والمعنى: أنهم آمنوا ثم لم يقع في إيمانهم شك فيما آمنوا، ولا اتهام لمن صدّقوه، ولمّا كان الإيقان

---

(١) ذكره الواحدي في أسباب النزول (ص٤١٢) والبغوي في التفسير (٣٤٩/٧) بدون إسناد، وعزاه ابن كثير في التفسير (٢١٩/٤-٢٢) للبزار، عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) بضم اللام وكسرها، انظر البحر المحيط (١٠٤/٨).

وزوال الريب ملاك الإيمان أُفرد بالذكر بعد تقدم الإيمان، تنبيهاً على عُلو مكانه، وعُطف على الإيمان بثم؛ إشعاراً باستقراره في الأزمنة المتراخية المتطاولة غضّاً جديداً. ﴿ وجاهَدوا بأموالهم وأنفسِهم في سبيل الله ﴾ أي: جاهَدوا مايتبغى جهاده من الكفار والأنفس والهوى، بالإعانة بأموالهم، والمباشرة بأنفسهم في طلب رضا الله. ﴿ أولئك هم الصادقون ﴾ أي: الذين صدقوا في قولهم: آمنا، لم يُكذّبوا كما كذّب أعرابُ بني أسد؛ بل إيمانهم إيمان صِدق وحق. والله تعالى أعلم.

الإشارة: مذهب الصوفية: أن العمل إذا كان حدّه الجوارح الظاهرة يُسمى مقام الإسلام ، وإذا انتقل لتصفية البواطن بالرياضة والمجاهدة يُسمى مقام الإيمان، وإذا فتح على العبد بأسرار الحقيقة يُسمى مقام الإحسان، وقد جعل الساحلي مقامَ الإسلام مُركّباً من ثلاثة؛ التوبة والتقوى والاستقامة، والإيمانَ مُركباً من الإخلاص والصدق والطمأنينة، والإحسانَ مُركّباً من المراقبة والمشاهدة والمعرفة، ولكلٍّ زمان ورجال تربية واصطلاح في السير، والمقصد واحد، وهو المعرفة العيانية.

قال القشيري: الإيمان هو حياة القلوب، والقلوب لاتحيا إلا بعد ذَبْح النفوس، والنفوس لاتموت، ولكنها تغيب. هـ. أي: المقصود بقتل النفوس؛ هو الغيبة عنها في نور التجلي، فإذا وقع الفناء في شهود الحق عن شهود الخلق فلا مجاهدة. وقال القشيري في مختصره: ﴿قالت الأعراب آمنا...﴾ الخ، يشير إلى أنّ حقيقة الإيمان ليست مما يتناول باللسان، بل هو نور يدخل القلوب، إذا شرح الله صدر العبد للإسلام؛ كما قال تعالى: ﴿ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ ﴾(١)، وقال ﷺ في صفة ذلك النور: «إنّ النور إذا وقع في القلب انفسح له واتسع» ، قالوا: يارسول الله؛ هل لذلك النور من علامة؟ قال: «بلى؛ التجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود، والاستعداد للموت قبل نزوله»(٢). لهذا قال تعالى: ﴿ولمّا يدخل الإيمانُ في قلوبكم﴾ أي: نور الإيمان. هـ.

(وإن تطيعوا الله ورسوله) في الأوامر والنواهي بعد ذبح النفوس بسيف الصدق (لايَلِتكم من أعمالكم شيئاً) بل كل ما تتقربون به إلى الله من مجاهدة النفوس ترون جزاءه عاجلاً، من كشف غطاء، وحلاوة شهود، إن الله غفور

---

(١) من الآية ٢٢ من سورة الزمر.

(٢) أخرجه الحاكم (٤/٣١١) والبيهقي في الشُعب (ح١٠٥٥٢) وابن أبي شيبة في مصنفه (الزهد، باب ٦، ح ١٤) والبغوي في التفسير (٧/١١٤ ـ ١١٥) وابن جرير (٨/٢٧) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، والحديث سكت عنه الحاكم، وتعقبه الذهبي، ورواه البيهقي في الأسماء (ص ١٥٦) وقال: هذا منقطع، وابن المبارك في الزهد (رقم ٣١٥، ص ١٠٦) عن أبي جعفر المدائني، مرسلاً، ورواه بنحوه الحكيم الترمذي في النوادر (الأصل السادس والثمانين) من حديث ابن عمر رضي الله عنه . وقد ذكر ابن كثير (٢/١٧٦) لهذا الحديث طرقاً كثيرة، متصلة ومرسلة، ومال إلى تقويته لتعدد طرقه.

لمن وقع له فتور، رحيم بمن وقع منه نهوض، (إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله) وشاهدوا أنواره وأسراره، (ورسولِه) حيث عرفوا حقيقته النورانية الأولية، (ثم لم يرتابوا)؛ لم يخطر على بالهم خواطر سوء، ولاشكوك فيما وعد الله من الرزق وغيره؛ لأنّ حجاب نفوسهم قد زال عنهم، فصار الغيب شهادة، والخبر عياناً، والتعبير بـ«ثم» يقتضى تأخر تربية اليقين شيئاً فشيئاً حتى يحصل التمكين فى مقامات اليقين، مع التمكن فى مقام الشهود والعيان.

ثم ذكر سبب إزاحة الشكوك عنهم بقوله: (وجاهَدوا بأموالهم) حيث بذلوها لله (وأنفسِهم) حيث جاهدوها فى طلب الله (أولئك هم الصادقون) فى طلب الحق، فظفروا بما أمّلوا، وربحوا فيما به تجروا. جعلنا الله منهم بمنّه وكرمه.

ثم ردّ على مَنْ مَنَّ على الله بدينه، فقال:

﴿ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ قل أتُعلّمون اللهَ بدينكم ﴾ أى: أتُخبرونه بذلك بقولكم آمنّا؟ رُوى أنه لمّا نزل قوله: ﴿قل لم تؤمنوا﴾ جاؤوا يحلفون إنهم لصادقون فأكذبهم الله بقوله: ﴿قل أتُعلمون..﴾[1] الخ. والتعبير عنه بالتعليم لغاية تشنيعهم، كأنهم وصفوه تعالى بالجهل. قال الهروى: «علّمت» و«أعلمت» فى اللغة بمعنى واحد، وفى القاموس: وعلّمه العلم تعليماً، وأعلمه إياه فتعلمه. هـ. ﴿ واللهُ يعلمُ مافى السموات ومافى الأرض ﴾ فلا يحتاج إلى إعلام أحد، وهو حال مؤكدة لتشنيعهم، ﴿ واللهُ بكل شيءٍ عليمٌ ﴾ أى: مبالغ فى العلم بجميع الأشياء، التى من جملتها ما أخفوه من الكفر عند إظهارهم الإيمان.

﴿ يمنُّون عليك أنْ أسْلَموا ﴾ أى: يعدون إسلامهم مِنّة عليك، فـ«أن» نصب على نزع الخافض، والمَنُّ: ذكر النعمة على وجه الافتخار. وقال النسفى: هو ذكر الأيادى تعريضاً للشكر، و[نهيا][2] عنه. هـ. فانظره.

(١) انظر تفسير القرطبى (٦٣٥٤/٧).
(٢) فى الأصول: «ونهيا».

﴿ قل لاتمنّوا علىَّ إسلامكم ﴾ أى: لاتعدوا إسلامكم منةً علىّ، فإنّ نفعه قاصرٌ عليكم إن صح، ﴿ بل الله يَمُنُّ عليكم ﴾ أى: المنة إنما هى لله عليكم ﴿ أنْ هداكم للإيمان ﴾ أى: لأن هداكم، أو: بأن هداكم للإيمان على زعمكم ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ فى ادّعاء الإيمان، إلاّ أنكم تزعمون وتدعون ما الله عليم بخلافه. وجواب الشرط محذوف؛ لدلالة ماقبله عليه؛ أى: إن كنتم صادقين فى ادعائكم الإيمان فلله المنّة عليكم.

وفى سياق النظم الكريم من اللُّطف ما لايخفى؛ فإنهم لمّا سَموا مافى صدورهم إيماناً، ومنّوا به، نفى تعالى كونه إيماناً، وسمّاه إسلاماً، كأنه قيل: يمنون عليك بما هو فى الحقيقة إسلام وليس بإيمان، بل لو صح ادّعاؤهم للإيمان فلله المنّة عليهم بالهداية إليه لا لهم.

﴿ إنَّ اللهَ يعلمُ غيبَ السموات والأرض ﴾ أى: ماغاب فيهما، ﴿ والله بصير بما تعملون ﴾ فى سِركم وعلانيتكم، وهذا بيان لكونهم غير صادقين فى دعواهم، يعنى: الله تعالى يعلم كل مستتر فى العالَم، ويُبصر كل عمل تعملونه فى سِركم وعلانيتكم، لايخفى عليه منه شىء، فيكف يخفى عليه مافى ضمائركم. قال الورتجبى: ليس لله غيب، إذ الغيب شىء مستور، وجميع الغيوب عِيان لله ـ تعالى ـ وكيف يغيب عنه وهو موجده؟! يُبصر ببصره القديم ماكان ومالم يكن، وهناك العلم والبصر واحد. هـ. قوله: العلم والبصر واحد، هذا على مذهب الصوفية فى أن بصره يتعلق بالمعدوم، كما يتعلق به العلم، ومذهب علماء الكلام: أن متعلق البصر خاص بالموجودات، فمتعلق العلم أوسع. وانظر حاشية الفاسى على الصغرى.

الإشارة: كل من تمنى أن يعلم الناسُ ماعنده من العلم والسر؛ يُقال له: أتُعلِّمون الله بدينكم، والله يعلم مافى سموات القلوب والأرواح من السر واليقين، ومافى أرض النفوس من عدم القناعة بعلم الله، والله بكل شىءعليم.

وفى الحكم: «استشرافك أن يعلم الناس بخصوصيتك دليل على عدم صدقك فى عبوديتك»(١). وكل من غلب عليه الجهل حتى منّ على شيخه بصُحبته له، أو بما أعطاه، يقال فى حقه: ﴿يمنون عليك أن أسلموا..﴾ الآية. وقوله تعالى: ﴿والله بصير بما تعملون﴾ قال القشيرى: فمن لاحَظَ شيئاً من أعماله وأحواله؛ فإن رآها من نفسه كان شِركاً، وإن رآها لنفسه كان مكراً، وإن رآها من ربه بربه كان توحيدا. وفقنا الله لذلك بمنّه وجوده. هـ.

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً.

❁ ❁ ❁

(١) حكمة رقم ١٦١ انظر تبويب الحكَم للمتقى الهندى (ص ١١).

سورة ق

مكية. وهى خمس وأربعون آية. ووجه مناسبتها: أن السورة قبلها واردة فى الترغيب فى الأدب، والترهيب من سوء الأدب، ولا يتحقق ذلك إلا لمن صحت عنده رسالة الرسول ونبوته، فأقسم فى هذه السورة على تحقيق رسالته وإنذاره بقوله:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ۝١ بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ
هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ۝٢ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ۝٣ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ
مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ۝٤ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ۝٥
أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦ وَٱلْأَرْضَ
مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٧ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ
مُّنِيبٍ ۝٨ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ۝٩
وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۝١٠ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ
ٱلْخُرُوجُ ۝١١ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ق﴾؛ أيها القريب المقرب من حضرتنا ﴿و﴾ حق ﴿القرآن المجيد﴾ إنك لرسول مجيد، أو: ﴿ق﴾ أى: وحق القوىّ القريب، والقادر القاهر. وقال مجاهد: هو جبل محيط بالأرض من زمردة خضراء، وعليه طغى الماء، وخضرة السماء منه، والسماء مقبّبة عليه، وما أصاب الناس من زمرد فمما تساقط من ذلك الجبل. وروى أن ذا القرنين وصل إليه، فخاطبه(١)، وقال: يا قاف أخبرنى بشيء من عظمة الله، قال: إن

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (٤/٢٢٢): «وقد رُوى عن بعض السلف أنهم قالوا: «ق» جبل محيط بجميع الأرض، يقال له: جبل قاف، وكأن هذا ـ والله أعلم ـ من خرافات بنى إسرائيل التى أخذها عنهم بعض الناس، لما رأوا من جواز الرواية عنهم، مما لا يصدّق ولايكذب، وعندى: أن هذا وأشباهه من اختلاق بعض زنادقتهم، يلبسون به على الناس أمر دينهم».

شأن ربنا لَعظيم، وإن ورائى أرضاً ميسرة خمسمائة عام، فى عرض خمسمائة عام، من ثلج يحطم بعضه بعضا، لولا ذلك الثلج لاحترقت من نار جهنم. هـ.

﴿ والقرآنِ المجيد ﴾ أى: ذى المجد والشرف على سائر الكتب، أو: لأنه كلام مجيد، مَن علم معانيه وعمل بما فيه مَجُد عند الله وعند الناس. وجواب القسم محذوف، أى: إنك لرسول نذير، أو: لتُبعثن، بدليل قوله: ﴿أئذا متنا..﴾ الخ، أو: إنا أنزلناه إليك لِتنذر به فلم يؤمنوا، ﴿ بل عَجبوا أن جاءهم ﴾ أى: لأن جاءهم ﴿ مُنذر منهم ﴾؛ من جنسهم، لا من جنس الملائكة، أو: من جلدتهم، وهو إنكار لتعجّبهم مما ليس بعجب، وهو أن يُخوفهم من غضب الله رجلٌ منهم قد عرفوا عدالته وأمانته، ومن كان كذلك لم يكن إلا ناصحاً لقومه، خائفاً أن ينالهم مكروه وإذا علم أن مخوفاً أظلهم لزمه أن ينذرهم، فكيف بما هو غاية المخاوف؟ أو إنكار لتعجّبهم مما أُنذَرهم به من البعث مع علمهم بقدرة الله تعالى على خلق السموات والأرض وما بينهما، وإقرارهم بالنشأة الأولى، مع شهادة العقل بأنه لابدّ من الجزاء، وإلا كان إنشاء الخلق عبثاً. ثم بيَّن تعجبهم بقوله: ﴿ فقال الكافرون هذا شيءٌ عجيبٌ ﴾ أى: هذا الذى يقوله محمد من البعث بعد الموت شيء عجيب، أو: كون محمد منذراً بالقرآن شيء يُتعجب منه. ووضع «الكافرون» موضع الضمير للدلالة على أنهم فى قولهم هذا مُقدِمون على كفر عظيم.

ثم قالوا: ﴿ أئذا متنا وكنا تُراباً ﴾ أى: أنُبعث حين نموت ونصير تراباً كما يقوله هذا النذير؟ ﴿ ذلك رَجع بعيد ﴾ أى: ذلك البعث بعد هذه الحالة رجوع مستبعد، منكر، بعيد من الوهم والعادة. فالعامل فى «إذا» محذوف مفهوم من الكلام كما قدرنا. قال تعالى: ﴿ قد علمنا ما تنقصُ الأرضُ منهم ﴾، وهو ردّ لاستبعادهم؛ فإنَّ من عمَّ علمه ولطفه حتى ينتهى إلى حيث علم ما تنقص الأرضُ من أجساد الموتى، وتأكل من لحومهم وعظمهم، كيف يستبعد رجعه إياهم أحياء كما كانوا؟! عن النبى ﷺ: «كلُّ ابن آدم يأكله التراب إلا عَجْبَ الذَّنَبِ، ومنه خُلق، وفيه يُرَكَّب»[1] وهو العُصعُص، وقال فى المصباح: العَجْب[2] ـ كفلْس ـ من كل دابة: ما انضم عليه الورِك من أصل الذَّنَب. هـ. وهو عَظم صغير قدر الحمصة، لا تأكله الأرض، كما لا تأكل أجساد الأنبياء والأولياء والشهداء. قال ابن عطية: حفظ ما تنقص الأرض إنما هو ليعود بعينه يوم القيامة، وهذا هو الحق. وذهب بعض الأصوليين إلى أن الأجساد المبعوثة يجوز أن تكون غير هذه، هذا عندى خلاف ظاهر كتاب الله، ولو كانت غيرها كيف كانت تشهد الجلود والأيدى والأرجل على الكفرة؟ إلى غير ذلك مما يقتضى أن أجساد الدنيا هى التى تعود. هـ.

---

(١) أخرجه مسلم فى (الفتن، باب ما بين النفختين ح ٢٩٥٥) من حديث أبى هريرة رضي الله عنه. وأخرجه البخارى مطولاً وبنحوه فى (التفسير ـ سورة الزمر، باب ﴿ونفخ فى الصور..﴾ ح ٤٨١٤).

(٢) بسكون الجيم.

﴿ وعندنا كتابٌ حفيظ ﴾ لتفاصيل الأشياء، أو: محفوظ من التغيير، وهو اللوح المحفوظ، أو: حافظاً لما أودعه وكتب فيه، أو: يريد علمه تعالى، فيكون تمثيلاً لعلمه تعالى بكليات الأشياء وجزئياتها، بعلم مَنْ عنده كتاب حفيظ يتلقى منه كل شيء.

﴿ بل كذّبوا بالحق ﴾، إضراب وانتقال من بيان شناعتهم السابقة، وتكذيب البعث، الى ما هو أشنع منه وأفظع، وهو تكذيبهم للنبوة الثابتة بالمعجزات الباهرة، ﴿ لمَّا جاءهم ﴾ من غير تأمل وتفكر، وقيل: الحق: القرآن، أو: الإخبار بالبعث، ﴿ فهم في أمر مَرِيجٍ ﴾؛ مضطرب، لا قرار له، يقال: مرج الخاتم في أصبعه إذا اضطرب من سعته، فيقولون تارة: مجنون، وطوراً: ساحر، ومرة: كاهن، ولا يثبتون على قول. أو: مختلط، يقال: مرج أمر الناس: اختلط. أو: ملبس، قال قتادة: من ترك الحق مرج عليه أمره، وألبس عليه دينه.

﴿ أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم ﴾ بحيث يشاهدونها كل وقت ﴿ كيف بَنيناها ﴾؛ رفعناها بغير عمدٍ ﴿ وزيّناها ﴾ بما فيها من الكواكب المترتبة على نظام عجيب، ﴿ ومالها من فُروجٍ ﴾؛ من فتوق لملاستها وسلامتها من كل عيبٍ وخلل، ﴿ والأرضَ مددناها ﴾؛ بسطناها ﴿ وألقينا فيها رواسيَ ﴾؛ جبالاً ثوابت، من: رسى الشيء: ثبت، والتعبير عنها بهذا الوصف للإيذان بأن إلقاءها إنما هو للإرساء، ﴿ وأنبتنا فيها من كل زوجٍ ﴾؛ صنف ﴿ بهيجٍ ﴾؛ حسن. ﴿ تبصرةً وذكرى ﴾ علتان للأفعال المذكورة، أي: فعلنا ما فعلنا تبصراً وتذكيراً ﴿ لكل عبدٍ مُنيبٍ ﴾ أي: راجع إلى ربه، متفكر في بدائع صنائعه.

﴿ ونزّلنا من السماء ماءً مباركاً ﴾؛ كثير المنافع ﴿ فأنبتنا به جناتٍ ﴾؛ بساتين كثيرة ﴿ وحبَّ الحصيد ﴾ أي: حب الزرع الذي شأنه أن يحصد من البُرّ والشعير وأمثالهما، وتخصيص حب الحصيد بالذكر لأنه المقصود بالذات؛ إذ به جل القوام.

﴿ والنَّخلَ باسقاتٍ ﴾؛ طوالاً في السماء، أو: حوامل، من: بسقت الشاة: إذا حملت. وتخصيصها بالذكر مع اندراجها في «جنات»، لبيان فضلها على سائر الأشجار، ﴿ لها طَلعٌ نَضيدٌ ﴾؛ منضود، بعضه فوق بعض، والمراد: تراكم الطلع، أو: كثرة ما فيه من الثمر، ﴿ رزقاً للعباد ﴾ أي: لرزق أشباحهم، كما أن قوله: ﴿ تبصرة وذكرى ﴾ لرزق أرواحهم. وفيه تنبيه على أن الواجب على العبد أن يكون انتفاعه بما ذكر من حيث التذكر والتبصر الذي هو رزق الروح أهم وأقدم من تمتعه من حيث الرزق الحسي، ﴿ وأحيينا به ﴾؛ بذلك الماء ﴿ بلدةً ميتاً ﴾؛ أرضاً جدبة، لا نماء فيها أصلاً، فلما أنزلنا عليها الماء ربت واهتزت بالنبات والأزهار، بعد ما كانت جامدة. وضمّن البلدة معنى

البلد فذكَّر الوصف. ﴿كذلك الخروجُ﴾ من القبور، فكما حييت هذه البلدة الميتة كذلك تُخرجون أحياء بعد موتكم، لأن إحياء الموات كإحياء الأموات. وقدّم الخبر للقصد إلى القصر. والإشارة في «كذلك» إلى الحياة المستفادة من الإحياء، وما فيه من معنى البُعد للإشعار ببُعد رتبها، أي: مثل ذلك الحياة البديعة حياتكم بالبعث من القبور، لاشيء مخالف لها. وفي التعبير عن إخراج النبات من الأرض بالإحياء، وعن حياة الأموات بالخروج؛ تفخيم لشأن النبات، وتهوين لأمر البعث، وتحقيق للمماثلة؛ لتوضيح منهاج القياس، وتقريبه إلى أفهام الناس.

الإشارة: ﴿قٓ﴾ أيها القريب المقرب، وحق القرآن المجيد، إنك لحبيب مجيد، رسول من عند الملك المجيد، وإن كنت بشراً فنسبتك من البشر كياقوتة بين الحجر، فالبشرية لا تُنافي الخصوصية، بل تجامعها مِنَّةً منه تعالى وفضلاً، على من شاء من عباده، فاستبعاد الكفار مجامعة الخصوصية للبشرية كاستبعاد إبليس تفضيل آدم لكونه بشراً من طين، وذلك قياس فاسد، مضاد للنص، وكما استبعدت الكفرة وجود خصوصية النبوة في البشر، استبعدت الجهلةُ خصوصية التربية بالاصطلاح في البشر، بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم، يدل على الله، ويُبين الطريق إليه، قالوا: هذا شيء عجيب، أئذا متنا؛ بأن ماتت قلوبنا بالغفلة، وكنا تراباً أرضيين بشريين، تحيى أرواحنا بمعرفة العيان؟! ذلك رجع بعيد.

قال تعالى: (قد علمنا ما تنقص الأرض منهم) أرض النفوس من أرواحهم، وتهوى بها إلى الحضيض الأسفل، فيجذبها إلى أعلى عليين، إن سبقت عنايتنا، وعندنا كتاب حفيظ يحفظ المراتب والمقامات، فيلتحق كل واحد بما سبق له. بل كذّبوا بالحق، وهو الداعي إلى الحق، لمّا جاءهم في كل زمان، فهم في أمر مريج، تارة يُقرون وجود التربية بالهمة والحال، وينكرون الاصطلاح، وتارة يُقرون بالجميع، وينكرون تعيينه، أفلم ينظروا إلى سماء القلوب والأرواح، كيف بنيناها، أي: رفعنا قدرها بالعلوم والمعارف، وزيّناها بأنوار الإيمان والإحسان، وليس فيها خلل، وأرض النفوس مددناها: جعلناها بساطاً للعبودية، وألقينا فيها رواسي أرسيناها بالعقول الصافية الثابتة، لئلا تضطرب عند زلزلات الامتحان، وأنبتنا فيها من كل صنف بهيج، من فنون علم الحكمة والتشريع، تبصرةً وتذكيراً لكل عبدٍ منيبٍ، راجعٍ إلى مولاه، قاصدٍ لمعرفته.

قال القشيري: تبصرةً وذكرى لمن رجع إلينا في شهود أفعالنا الى رؤية صفاتنا، ومن شهود صفاتنا إلى شهود ذاتنا. هـ. ونزّلنا من السماء ماء العلوم اللدنية، كثير البركة والنفع، فأنبتنا به جنات المعارف وحب الحصيد، وهو حَب المحبة؛ لأنه يحصد من القلب محبة ما سوى الله. والنخل باسقات، أي: شجرة المعرفة الكاملة لها طلع نضيد:

ثمرة المعرفة وحلاوة الشهود، رزقاً لأرواح العباد، وأحيينا به نفساً ميتة بالغفلة والجهل، كذلك الخروج من ظلمة الجهل إلى نور العلم، أي: مثل هذا الخروج البديع يكون الخروج، وإلا فلا.

ثم هدّدهم بما جرى على من قبلهم، فقال

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿كذبتْ قبلَهم﴾ أي: قبل قريش ﴿قومُ نوحٍ﴾ نوحاً، حيث أنذرهم بالبعث، ﴿وأصحابُ الرسّ﴾، قيل: هم من بعث إليهم شعيب عليه السلام كما مرّ في سورة الفرقان بيانه[1] وقيل: قوم باليمامة، وقيل: أصحاب الأخدود. والرس: بئر لم تطو، ﴿وثمودُ وعادٌ وفرعونُ﴾، أراد بفرعون قومه؛ ليلائم ما قبله؛ لأن المعطوف عليه جماعات، ﴿وإخوانُ لوط﴾، قيل: كان قومه من أصهاره عليه السلام، فسماهم إخوانه، ﴿وأصحابُ الأيكة﴾ هم ممن بعث إليهم شعيب عليه السلام غير أهل مدين، ﴿وقومُ تبعٍ﴾ هو ملك باليمن، دعا قومه إلى الإسلام وهم حِمير، فكذّبوه، وسُمّي تُبعاً؛ لكثرة تبعه.

قال ابن إسحاق: كان تُبع الآخِر هو أسعدُ بن كرْب، حين أقبل من المشرق، ومرّ على المدينة، ولم يَهِج أهلها، وخلف عندهم ابناً له، فقُتل غيلة، فجاء مجمعاً على حربهم، وخراب المدينة، فأجمع هذا الحي من الأنصار على قتاله، وسيدهم عمرو بن طلحة، أخو بني النجار، فتزعّم الأنصارُ: أنهم كانوا يقاتلونه بالنهار، ويقرونه بالليل، فيعجبه ذلك، ويقول: إن قومنا هؤلاء لكرام ، فبينما هو كذلك إذ جاءه حبْران من أحبار بني قريظة، من علماء أهل زمانهما، فقالا: أيها الملك لا تقاتلهم، فإنا لا نأمن عليك العقوبة؛ لأنها مهاجر نبيّ يخرُج من هذا الحي، من قريش، في آخر الزمان، هي داره وقراره، فكفَّ عنهم، ثم دعواه إلى دينهما، فاتبعهما، ثم رجع إلى اليمن، فقالت له حِمير: لاتدخلها وقد فارقت ديننا، فحاكمْنا إلى النار، وقد كانت باليمن نار أسفل جبل يتحاكمون إليها، فتأكل الظالم ولا تضر المظلوم، فخرجوا بأصنامهم، وخرج الحبْران بمصاحفهما، فأكلت النارُ الأوثانَ، وما قرّبوا معها، ومن دخل ذلك من رجال حمير، وخرج الحبران بمصاحفهما في أعناقهما، يتلوان التوراة، ولم تضرهما، فأطبق

(١) راجع تفسير الآية ٣٨ من سورة الفرقان.

أهلُ حمير على دين الحبرين، فمن هنالك كان أصل اليهودية باليمن. قال الرياشي: كان أبو كرب أسعد الحميرى من التبابعة، آمن بالنبى ﷺ قبل أن يُبعث بسبعمائة سنة. وتقدم شِعره فى الدُخَان(١).

﴿كُلٌ كَذَّبَ الرسلَ﴾ فيما أُرسلوا به من الشرائع، التى من جملتها: البعث الذى أجمعوا عليه قاطبة، أى: كل قوم من الأقوام المذكورين كذّبوا رسولهم ﴿فحقَّ وعيدِ﴾ أى: فوجب وحلّ عليهم وعيدى، وهى كلمة العذاب. وفيه تسلية لرسول الله ﷺ وتهديد لهم .

﴿أفَعيينا بالخلق الأول﴾، استئناف مقرر لصحة البعث، الذى حكيت أحوال المنكرين له من الأمم المهلكة. والعَيّ بالأمر: العجز عنه، يقال: عيى بالأمر: إذا لم يهتد لوجه عمله. والهمزة للإنكار، والفاء: عطف على مقدر، ينبئ عنه المقام، كأنه قيل: أقصدنا الخلق الأول فعجزنا عنه حتى يتوهم عجزنا عن الإعادة؟ ﴿بل هم في لَبْسٍ من خَلقٍ جديدٍ﴾ أى: بل هم فى لبس وخلط وشُبهة، قد لبس عليهم الشيطان وحيّرهم، حيث سوّل لهم أن إحياء الموتى خارج عن العادة، فتركوا لذلك الاستدلال الصحيح، وهو: أن من قدر على الإنشاء كان على الإعادة أقدر. وهو معطوف على مقدر يدل عليه ما قبله، كأنه قيل: هم غير منكرين لقدرتنا على الخلق الأول، بل هم فى خلط وشبهة من خلق مستأنف جديد. وتنكير «خلق» لتفخيم شأنه، والإشعار بخروجه عن حدود العادة، والإيذان بأنه حقيق بأن يبحث عنه ويهتم بمعرفته

الإشارة : قال القشيرى: الإشارة فى الآية إلى أنّ الغالب فى كل زمان غلبة الهوى والطبيعة الحيوانية واستيلاء الحس على الناس، نفوسهم متمردة، بعيدة من الحق، قريبة من الباطل، كلما جاء إليهم رسول كذّبوه، وعلى ما جاء به قاتلوه، فَحقّ عليهم عذابُ ربهم، لَمَّا كفروا نِعَمَه، فما أعياه إهلاكهم. هـ. قلت: وكذلك جرى فى كل زمان، كل مَن أمَر الناسَ بإخراجهم عن عوائدهم، ومخالفة أهوائهم، رفضوه وعادوه، فقلّ بسبب ذلك المخلصون، وكثر المخلطون، فإذا قالوا: لا يمكن الإخراج عن العوائد، قلنا: القدرة صالحة، قال تعالى: ﴿أفعيينا بالخلق الأول بل هم فى لبس من خلق جديد﴾، وهو إحياء القلب الميت، فيجدّد إيمانه، وتحيا روحه حياة سرمدية. وبالله التوفيق.

ثم إنّ عادته تعالى في التنزيل: أنه مهما ذكر دلائل قدرته ذكر بإثره شأن علمه، أو بالعكس، إشارة إلى إسناد كل المقدورات إليه تعالى، رداً على الطبائعيين؛ لأنّ الفاعل بالطبيعة لا يتوقف على العلم، ولذلك قال تعالى:

(١) راجع تفسير الآيات: ٣٤ ـ ٣٩.

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾
إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾
وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ
ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا
عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ولقد خلقنا الإنسانَ ونعلمُ ما تُوسْوِسُ به نفسُه ﴾ أي: ما تُحدِّثه نفسه ويهجس في ضميره من خير وشر. والوسوسة: الصوت الخفي، ووسوسة النفس: ما يخطر بالبال. والضمير في «به» لـ «ما» إن جعلتها موصولةً، والباء كما في: صوّت بكذا، أو: للإنسان، إن جعلتها مصدرية. والباء حينئذ للتعددية. ﴿ ونحن أقربُ إليه ﴾ أي: أعلم بحاله مما كان أقرب إليه ﴿ من حبل الوريد ﴾. والحبل: العرق، وإضافته بيانية والوريدان: عرقان مكتنفان بصفحتي العنق في مقدمه متصلان بالوتين، والوتين: عرق في القلب إذا انقطع مات صاحبه. قاله في القاموس، يرِدان من الرأس إليه، وقيل: سُمي وريداً؛ لأن الماء يرده.

﴿ إذ يتلقَّى المتلقيان ﴾ أي: الملكان الحافظان لأعمال العبد. والظرف: منصوب بما في «أقرب» من معنى الفعل، أي: يتقرب إذ يتلقى. والمعنى: أنه تعالى لطيف يتوصل علمُه إلى مالاشيء أخفى منه، وهو أقرب للإنسان من كل قريب، حين يتلقى الحافظان ما يُتلفظ به، وفيه إيذان بأنه تعالى غنيٌّ عن استحفاظها؛ لإحاطة علمه بما يخفى عليهم، وإنما ذلك لما في كتبهما وحفظهما لأعمال العباد، وعرض صحائفها يوم يقوم الأشهاد، وعلم العبد بذلك مع علمه بإحاطته بتفاصيل أحواله من زيادة لطف به في الكف عن السيئات، والرغبة في الحسنات. ثم ذكر مكانهما بقوله: ﴿ عن اليمين وعن الشمال قَعيدٌ ﴾ أي: عن اليمين قعيد وعن الشمال قعيد، وحذف الأول للدلالة الثاني عليه. وقعيد: بمعنى مقاعد، كالجليس بمعنى المجالس، أو: بمعنى قاعد، كالسميع والعليم. وعنه ﷺ: «إن مقعد ملَكيك على ثَنِيتيك، ولسانك قلمهما، وريقك مدادُهما، وأنت تجري فيما لا يعنيك لا تستحيي من الله ولامنهما»[1] وقال الضحاك: مجلسهما تحت الثغر من الحنَك، ورواه عن الحسن[2]، وكان يُعجبه أن ينظف عنفقته[3].

(١) ذكره بلفظه القرطبي في التفسير (٧/٦٣٦٥) عن سيدنا عليّ ﷺ، مرفوعاً، وقال السيوطي في الدر المنثور (٦/١١٨): أخرج أبو نعيم والديلمي، عن معاذ بن جبل ﷺ، مرفوعاً: إن الله لطّف الملكين الحافظين حتى أجلسهما على الناجذين، وجعل لسانه قلمهما، وريقه مدادهما.

(٢) العبارة في القرطبي: ورواه عوف عن الحسن قال: وكان يعجبه..الخ.

(٣) العنفقة: شعيرات بين الشفة السفلى والذقن. انظر: النهاية (عنفق ٣/٣٠٩).

﴿ما يلفظ مِن قولٍ﴾ أي: ما يتكلم به وما يرْمي به من فيه ﴿إلا لديه رقيبٌ﴾ ؛ حافظ ﴿عتيدٌ﴾ ؛ حاضر لازم، أو معد مهيأ لكتابة ما أمر به من الخير والشر. وقال أبو أمامه عنه ﷺ: «كاتب الحسنات عن يمين الرجل وكاتب السيئات عن يساره، وكاتب الحسنات أمين على كاتب السيئات، فإذا عمل حسنةً كتبها صاحبُ اليمين عشراً، وإذا عمل سيئة قال صاحبُ اليمين لصاحب الشمال: دعه سبع ساعات، لعله يُسبّح أو يستغفر»(١).

قال الحسن: إنّ الملكين يجتنبان العبد عند غائطه، وعند جماعه، ويكتبان عليه كل شيء، حتى أنينه فى مرضه. وقال عكرمة: لا يكتبان عليه إلا ما يؤجر عليه أو يؤزر(٢). وعنه ﷺ: «ما من حافظين يرفعان إلى الله ما حفظا، فيرى الله تعالى فى أول الصحيفة خيراً وفى آخرها خيراً، إلا قال للملائكة: اشهدوا أنى قد غفرت لعبدى ما بين طرفى الصحيفة»(٣). والحفظه أربعة، اثنان بالليل، واثنان بالنهار، فإذا مات العبد قاموا على قبره يُكبران ويُهللان ويُكتب ذلك للعبد المؤمن.

ولمّا ذكر إنكارهم للبعث، واحتج عليهم بعموم قدرته وعِلمه، أعلمهم أن ما أنكروه هم لاقوه بعد الموت، ونبّه على اقتراب ذلك بأن عبّر عنه بلفظ الماضى فقال: ﴿وجاءت سكرةُ الموت بالحق..﴾ الخ. وقال ابن عطية: هو عندى عطف على «إذ يتلقى»، والتقدير: وإذ تجيءُ سكرة الموت، يعنى فهو كقوله: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُم﴾ الآية(٤) هـ. وحاصل الآية حينئذ: ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ظاهره وباطنه، ونحن أقربُ إليه فى جميع أحواله، فى حياته، ووقت مجيء سكرة الموت، أى: شدته الذاهبة بالعقل، ملتبسة ﴿بالحق﴾ أى: بحقيقة الأمر، وجلاء الحال، من سعادة الميت أو شقاوته، ﴿ذلك ما كنتَ منه تحيدُ﴾ أى: تنفر وتهرب وتميل عنه طبعاً. والإشارة إلى الموت. والخطاب للإنسان فى قوله: ﴿ولقد خلقنا الإنسان﴾ على طريقة الالتفات.

﴿ونُفخ في الصور﴾ نفخة البعث ﴿ذلك يومُ الوعيد﴾ أى: وقت ذلك النفخ هو يوم الوعيد، أى: يوم إنجاز الوعد ووقوع الوعيد. وتخصيص الوعيد بالذكر؛ لتهويله، ولذلك بدأ ببيان حال الكفرة بقوله: ﴿وجاءت كُلُّ نَفْسٍ﴾ من النفوس البرة والفاجرة ﴿معها سائق وشهيد﴾ أى: ملكان، أحدهما يسوقه إلى المحشر، والآخر يشهد

---

(١) أخرجه البغوى فى التفسير (٧/٣٥٩) والبيهقى فى الشعب (الباب السابع والأربعون، ح ٧٠٤٩) والطبرانى فى الكبير (٨/٢٢٥، ح ٧٧٨٧) وأيضا (٨/٢٩٥ ـ ٢٩٦، ح ٧٩٧١) وأبو نعيم فى الحلية (٦/١٢٤) من حديث أبى أمامة ﷺ، وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/٢٠٨): «رواه الطبرانى بأسانيد، ورجال أحدها وثقوا».

(٢) عزاه السيوطى فى الدر (٦/١١٩) لابن المنذر.

(٣) ذكره القرطبى (٧/٦٣٦٦) عن أبى هريرة وأنس ـ رضى الله عنهما.

(٤) الآية ٨٥ من سورة الواقعة.

عليه بعمله. قيل: السائق: كاتب الحسنات، والشاهد: كاتب السيئات، ويقال لها: (لقد كنتَ فى غفلة من هذا) النازل بك اليوم، ﴿فكشفنا عنك غِطاءك﴾ فأزلنا غفلتك، وهو الوقوف مع المحسوسات والإلْف، والانهماك فى الحظوظ، وقصر النظر عليها، فشاهدت اليومَ ما كنتَ غافلاً عنه ﴿فبصرُكَ اليوَم حديدٌ﴾ ؛ نافذ؛ لزوال المانع. جعلت الغفلة كأنها غطاء غطى به جسده، أو غشاوة غطى بها عينيه فهو لا يبصر شيئاً، فإذا كان يوم القيامة سقط، وزالت عنه الغفلة، وكشف غطاؤه، فبصر ما يبصره من الحق، ورجع بصره الكليل حديداً، لتيقظه حين لم ينفع التنفظ. وبالله التوفيق

الإشارة : هذه الآية وأشباهها أصل فى مقام المراقبة القلبية، فينبغي للعبد أن يستحيى من الله أن يُحدِّث فى نفسه بشيء يستحيي أن يظهره، يعنى الاسترسال معه، وإلا فالخواطر العارضة لا قدرة على دفعها. قال القشيرى: (ما توسوس به نفسه) من شهوة تطلب استيفاءها، أو تصنُّع مع الخلْق، أو سوء خُلُق، أو اعتقاد فاسد، أو غير ذلك من أوصاف النفس، توسوس بذلك لتَشَوّش عليه قلبه ووقته، وكيف لا نعلم ذلك وكُلُّ ذلك مما خلقناه وقدرناه. هـ.

وقوله تعالى: ﴿ونحن أقربُ إليه من حبل الوريد﴾ أي: أنا أقرب إلى كل أحد من عروق قلبه، وهذا لأن قيام الفعل بالصفات، والصفات لا تُفارق الذات، فالقرب بالعلم والقدرة، وتستلزم القرب بالذات، وقرب الحق من خلقه هو قرب المعانى من الأوانى، إذ هى كليتها وقائمة بها، فافهم. قال القشيرى: وفى هذه الآية هَيْبَةٌ وفَزَعٌ لقوم، ورَوْحٌ وأنسٌ وسُكونُ قلبٍ لقوم. هـ. وقوله تعالى: ﴿إذ يتلقى المتلقيان..﴾ الخ، كأنه تعالى يقول: من لم يعرف قدر قُربى منه، بأن بَعده وهمُه وجهلُه، فإنى أوكل عليه رقيبين يحفظان أعماله لعله ينزجر.

وقوله تعالى: ﴿ما يلفظ من قول..﴾ الخ، وأما عمل القلوب فاختص الله تعالى بعلمها، وهى محض الإخلاص. قال بعضهم: الإخلاص: إخفاء العمل بحيث لم يطلع عليه ملك فيكتبه، ولا شيطان فيُفسده، فالعارفون جُلّ أعمالهم قلبية، نظرة أو فكرة. رُوي أن بعض العارفين قال له حفظتُه: يا سيدى أظهر لنا شيئاً من أعمالك نفرح به عند الله، فقال لهم: يكفيكم الصلوات الخمس. هـ. قال القشيرى: وفيه أيضاً إشارة إلى كمال عنايته فى حق عباده، إذ جعل على كل واحد رقيبين من الملائكة ليحفظوه بالليل والنهار، إذا كان قاعداً فواحد عن يمينه وواحد عن شماله، وإذا قام فواحد عند رأسه، وواحدٌ عند قَدَمه، وإذا كان ماشياً فواحدٌ بين يديه وواحد خلْفه. انظر بقيته. هـ. وهذان غير الملكين الموكلين بحفظ الأعمال. والله أعلم.

وقال فى قوله: ﴿وجاءت سكرةُ الموت بالحق﴾: إذا أشرفت النفسُ على الخروج من الدنيا، فأحوالهم تختلف، فمنهم مَن يزداد فى ذلك الوقت خوفُه، ولا يتبيَّنُ حاله إلا عند ذهاب الروح، ومنهم من يُكاشَف قبلَ خروجه

فتَسْكُن رُوحه(١)، ويُحفظ عليه عقْلُه، ويتم له حضورهُ وتمييزُه، فسلّم الروحَ على مَهَلٍ من غير استكراهٍ وعبوس منهم. وفى معناه يقول بعضهم:

أنا إنْ مِتُّ فالهوى حشو قلبى وبداءِ الهوى تموت الكرامُ(٢).

﴿ونُفخ فى الصور ذلك يوم الوعيد﴾ لكل نفس ما وعدها الله، بحسب سيرها من أول العمر إلى يوم البعث، (وجاءت كل نفس معها سائق) وهو الذى ساقها فى مبدأ الوجود، إما سوقاً باللطف، أو سوقاً بالعنف عند قوله: «هؤلاء إلى الجنة ولا أبالى وهؤلاء الى النار ولا أبالى»(٣)، وشهيد يشهد عليها بما جرى لها من الأحكام الأزلية (لقد كنتَ فى غفلة من هذا) قال القشيرى: يُشير إلى أن الإنسان، وإن خُلق من عالم الغيب والشهادة، فالغالب عليه فى البداية الشهادة، وهو العالم الحسى، فيرى بالحواس الظاهرة العالمَ المحسوس مع اختلاف أجناسه، وهو بمعزل عن إدراك عالم الغيب، فمن الناس يكشف له غطاؤه عن بصر بصيرته، فيجعل حديداً، يبصر رشده، ويحذر شره، وهم المؤمنون من أهل السعادة، ومنهم من يكشف له غطاء عن بصر بصيرته يوم القيامة يوم لا ينفع نفساً إيمانها.. الآية(٤)، وهم الكفار من أهل الشقاوة. هـ.

ثم ذكر أحوالهم بعد البعث، فقال

﴿ وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُواْ لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ ﴾

(١) فى القشيرى: فيسكن روْعه.
(٢) فى الرسالة القشيرية (٣٠٨): قال على المزين: كنت بمكة، فخرجت أريد المدينة المنورة، وإذا أنا بشاب ينزع، فقلت له: قل «لا إلا إلا الله» ففتح عينيه وأنشأ يقول: [.....] البيت. فشهق شهقة، ثم مات.
(٣) أخرجه أحمد (١٨٦/٤) وابن سعد فى الطبقات (٣٠/١) و(٤١٧/٧) وابن حبان فى صحيحه (١٨٠٦) والحاكم (٣١/١) «وصححه وأقره الذهبى، عن عبد الرحمن بن قتادة السلمى ـ وكان من أصحاب النبى ﷺ ـ مرفوعاً: «إن الله ـ عز وجل ـ خلق آدم، ثم أخذ الخلق من ظهره، وقال: هؤلاء إلى الجنة ولا أبالى، وهؤلاء إلى النار ولاأبالى. فقال قائل: يارسول الله! فعلى ماذا نعمل؟ قال ﷺ: «على مواقع القدر». قال الزبيدى فى اتحاف السادة المتقين (٢٠٧/٩) عن العراقى: «رجاله ثقات» والحديث صححه الألبانى (سلسلة الأحاديث الصحيحة ح ٤٨).
(٤) نص الآية ﴿.. يوم يأتى بعض آيات ربك لاينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيراً..﴾ الآية ١٥٨ من سورة الأنعام.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وقال قرينُهُ﴾ أي: الشيطان المقيض له، أو: الملك الكاتب الشاهد عليه: ﴿هذا ما لديَّ عَتِيدٌ﴾ أي: هذا ما عندي وفي ملكي عتيد لجهنم، قد هيأته بإغوائي وإضلالي، أو: هذا ديوان عمله عندي عتيد مهيأ للعرض، فـ «ما» موصولة، إما بدل من «هذا» أو صفة، و«عتيد»: خبر، أو: خبر، و«عتيد»: خبر آخر، أو: موصوفة خبر «هذا»، و«لديّ»: صفته، وكذا «عتيد»، أي: هذا شيء ثابت لديّ عتيد.

ثم يقول الله تعالى للسائق والشهيد: ﴿ألقيا في جهنم﴾، أو: لملكين من خزنة جهنم، أو: يكون الخطاب لواحد، وكان الأصل: ألق ألق، فناب «ألقيا» عن التكرار؛ لأن الفاعل كالجزء من الفعل، فكان تثنية الفاعل نائباً عن تكرار الفعل، أو: أصله: أَلْقِيَن، والألف بدل من نون التوكيد، إجراء للموصول مجرى الوقف، دليله: قراءة الحسن: (أَلْقِين)[1] والأحسن: أن يُراد جنس قرينه، فيصدق بالسائق والشهيد، فيقال لهما: ﴿ألقيا في جهنم كلَّ كَفَّارٍ﴾ بالنعم والمُنعِم ﴿عنيدٍ﴾: مجانب للحق، معادٍ لأهله، ﴿مَنَّاعٍ للخيرِ﴾؛ كثير المنع للمال عن حقوقه، أو: منّاع لجنس الخير أن يصل إلى أهله، أو: يراد بالخير الإسلام، لأن الآية نزلت في الوليد بن المغيرة، لمَّا منع بني أخيه من الإسلام. ﴿معتدٍ﴾؛ ظالم متخطٍّ للحق ﴿مريبٍ﴾: شاكٍ في الله تعالى وفي دينه.

﴿الذي جعل مع الله إلهاً آخر﴾: بدل من «كل كفَّار» ولايجوز أن يكون صفة؛ لأن النكره لا توصف بالموصول، خلافاً لابن عطية، أو: مبتدأ مضمن معنى الشرط، خبره: ﴿فألقِياه في العذاب الشديد﴾، وعلى الأول يكون «فألقياه» تكريراً للتوكيد، أو مفعولاً بمضمر، يفسره «فألقياه» أي: ألق الذي جعل مع الله إلهاً آخر ألقياه.

﴿قال قرينُه﴾ أي: شيطانه الذي قُرن به، وهذا يؤيد أن المراد بالمتقدم جنس القرين، وإنما أُخليت هذه الجملة من الواو دون الأولى؛ لأن الأولى واجب عطفها؛ للدلالة على الجمع بين معناها ومعنى ما قبلها في الحصول، أي: مجيء كل نفس مع ملكين، وقول قرينه ما قال له، وأما هذه فهي مستأنفة، كما تستأنف الجمل الواقعة في حكاية التقاول، كما في مقاولة موسى وفرعون في قوله: ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ قَالَ...﴾ إلى آخر الآيات[2]، فكأن الكافر قال: هو أطغاني، فأجابه قرينه بتكذيبه فقال: ﴿ربنا ماأطغيتُه ولكن كان في ضلال بعيد﴾ عن الحق، أي: ما أوقعته في الطغيان بالقهر، ولكن طغى واختار الضلالة على الهدى، وهذا كقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ﴾[3]، فالوسوسة والتزيين حاصل منه، والاختيار من الكافر، والفعل لله، لا يُسأل عما يفعل.

﴿قال﴾ تعالى: ﴿لا تختصموا لَدَيَّ﴾ أي: في موقف الحساب والجزاء، إذ لا فائدة في ذلك، والجملة استئناف جواب عن سؤال، كأن قائلا قال: فماذا قال الله تعالى لهم؟ قال: لا تختصموا عندي ﴿وقد قدَّمتُ إليكم

---

(١) بنون التوكيد الخفيفة، نحو قوله: «لنسفعاً». وانظر مختصر ابن خالويه / ص ١٤٥ والمحتسب (٢/ ٢٨٤) وإعراب شواذ القراءات للعكبري (٢/ ٥٠٧) والقرطبي (٧/ ٦٣٧١).

(٢) الآيات: ٢٣ ـ ٣١ من سورة الشعراء.

(٣) الآية ٢٢ من سورة إبراهيم.

بالوعيد﴾ فى دار الكسب على ألسنة رسلى، فلا تطمعوا فى الخلاص منه بما أنتم فيه من التعلل بالمعاذير الباطلة. والجملة فيها تعليل للنهى، على معنى: لا تختصموا وقد صح عندكم أنى قدمت إليكم بالوعيد حيث قلت: «لأملان جهنم ..» الخ، فاتبعتموه معرضين عن الحق، فلا وجه للاختصام فى هذا الوقت. والباء إما مزيدة كما فى قوله: ﴿وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ﴾(١) أو معدية على أن «قدّم» مضارع تقدم.

﴿ما يُبدَّلُ القولُ لَدَيَّ﴾ أى: لا تطمعوا أن يُبدل قولى ووعيدى بإدخال الكفار فى النار، ﴿وما أنا بظَلاَّمٍ للعبيد﴾ فلا أُعذب عبداً بغير ذنب مِن قِبلَه، بل بما صدر منه من الجنايات، حسبما أشير إليه آنفا. والتعبير عنه بالظلم مع أن تعذيبهم بغير ذنب ليس بظلم على ما تقرر من قاعدة أهل السنة، فضلاً عن كونه ظلماً مفرطاً لتأكيد هذا المعنى، بإبراز ما ذكر من التعذيب بغير ذنب فى معرض المبالغة فى الظلم، وقيل: هو لرعاية جمعية العبيد، من قولهم: فلان ظالم لعبده وظلاّم لعبيده، وقيل: ظلاّم بمعنى: ذى ظلم، كلبّان لذى اللبن. والله تعالى أعلم.

الإشارة: قرين الإنسان نَفْسُه الأمّارة ورُوحه المطمئنة، فإذا غلبت النفسُ على الروح وصرّفت صاحبها فى الهوى، تقول يوم القيامة: هذا ما لدىّ عتيد، مهيأ للعتاب، فيقال لهما: ألقيا فى نار القطيعة كلّ كفّار للنعم، جحود لوجود الطبيب، منّاع للخير، فلم يصرفه فيما يخلصه من نفسه، معتدٍ على الله بتكبره، وعدم حط رأسه للداعى إلى الله، مُريب، قد لعبت به الشكوك والأوهام والخواطر، أو: شاك فى وجود الطبيب، الذى جعل مع الله إلهاً آخر، يُحبه ويخضع له، من الهوى والدنيا، وكل ما أشركه مع الله فى المحبة، فألقياه فى العذاب الشديد: الحجب عن الله، وعدم اللحوق بأولياء الله، أو العذاب الحسي. قال قرينه ـ روحه التى كانت سماوية، فصيرها أرضية، بمتابعة هواه: ربنا ما أطغيته، فإنه ليس الإغواء والإطغاء من شأنى، ولكن كان فى ضلال بعيد، حيث أطاع نفسه وهواه، ورمانى فى مزابل الشهوات والغفلة، قال تعالى: (لا تختصموا لَدَىَّ) اليوم، قد قدمت إليكم بالوعيد، حيث قلت: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾(٢) ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾(٣) وقلت فى شأن من جاهد نفسه، وردها لأصلها: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾(٤) الآية، ﴿ما يُبدّل القول لَدَىَّ﴾ فإنى وعدت أهل المجاهدة بالوصول إلى حضرتى، والتنعم برؤيتى بقولى: ﴿والذين جاهدوا فينا ...﴾(٥) الآية، وأهلَ الغفلة بالحجاب، بقولى: ﴿كلاَّ بل ران علي قلوبهم ما كانوا يكسبون، كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون﴾(٦)، وما ظلمت أحداً قط، لأن الظلم ليس من شأنى، ولا يليق بمُلكى.

(١) من الآية ١٩٥ من سورة البقرة.
(٢) من الآية ٥٣ من سورة يوسف.
(٣) الآيتان ٩ ـ ١٠ من سورة الشمس.
(٤) من الآية ٢٧ من سورة الفجر.
(٥) الآية ٦٩ من سورة العنكبوت.
(٦) الآيتان ١٤ ـ ١٥ من سورة المطففين.

ثم ذكر اليوم الذى يظهر الوعد والوعيد، فقال

﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ (٣٠) وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ (٣١) هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ (٣٢) مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ (٣٣) ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ (٣٤) لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ (٣٥) ﴾

يقول الحق جل جلاله: واذكر ﴿ يوم يقول(١) لجهنم هل امتلأت ﴾؟ وقرأ غير نافع وشعبة: بنون العظمة. فالعامل فى الظرف: اذكر أو: «بظلام» أو محذوف مؤخر، أى: يكون من الأحوال والأهوال ما يقصر عنه المقال، ﴿ وتقول هل من مزيد ﴾؟ أى: من زيادة، مصدر كالمجيد، أو: مفعول، كالمنيع، أى: هل بقى ما يزاد، يعنى: أنها مع اتساعها وتباعد أقطارها يُطرح فيها الناس والجِنة فوجا بَعد فوج حتى تملأ ﴿ وتقول ﴾ بعد امتلائها: ﴿ هل من مزيد ﴾ أى: هل بقى فىَّ موضع لم يمتلىء؟! يعنى: قد امتلأت. أو: أنها من السعة يدخل من يدخلها ولم تمتلىء فتطلب المزيد، وهذا أولى(٢).

قال ابن جزى: واختلف هل تتكلم جهنم حقيقة، أو مجازاً بلسان الحال، والأظهر: أنه حقيقة، وذلك على الله يسير، ومعنى قولها: هل من مزيد: أنها تطلب الزيادة، وكانت لم تمتلىء، وقيل: معناه: لا مزيد، أى: ليس عندى موضع للزيادة، فهى على هذا قد امتلأت، والأول أرجح، لما ورد فى الحديث: «لا تزال جهنم يُلقى فيها وتقول: هل من مزيد؟ حتى يضعَ الجبارُ فيها قدمه، فتنزوى، وتقول: قَطْ قَطْ»(٣) وفى هذا الحديث كلام ليس هذا موضعه. هـ.

قال فى الحاشية: ووضع القدم مَثَلٌ للردع والقمع، أى: يأتيها أمر يكفها عن طلب المزيد وقال ابن حجر: واختلف فى المراد بالقدم، فطريق السلف فى هذا وغيره مشهورة. ثم قال: وقال كثير من أهل العلم بتأويل ذلك،

---

(١) هكذا بالياء، وهى قراءة نافع، وقرأ الباقون «نقول» بالنون. انظر الإتحاف (٢/٤٨٩).

(٢) على هامش النسخة الأم ما يلى: بل هذا هو الواجب، وما قبله باطل بداهة ونصاً عن الرسول ﷺ ، فكان الواجب عدم ذكر القول الباطل المقطوع ببطلانه، لاسيما مع عدم رده والمبالغة فى إبطاله، ففى الحديث الصحيح: «أنها لاتزال تطلب المزيد حتى يضع الجبار فيها قدمه فتقول: قط قط». هـ.

(٣) أخرجه البخارى فى (الأيمان والنذور، باب الحلف بعزة الله، ح ٦٦٦١) ومسلم فى (الجنة، باب النار يدخلها الجبارون، ح٢٨٤٨) من حديث أنس بن مالك. رضي الله عنه.

فقيل: المراد إذلال جهنم، فإنها إذا بلغت فى الطغيان، وطلبت المزيد، أذلها الله، كوضعها تحت القدم، وليس المراد حقيقة القدم، والعرب تستعمل ألفاظ الأعضاء ظرفاً للأمثال، ولا تريد أعيانها، كقولهم: رغم أنفه، وسقط فى يده. هـ. قلت: من دخل بحار الأحدية لم يصعب عليه حلّ أمثال هذه الشُبَه، فإن تجليات الحق لا تنحصر، فيتجلى سبحانه كيف شاء، وبما شاء، ولا حصر ولا تحييز، ولا يفهم هذه إلا أهل الفناء والبقاء بصحبة الرجال.

ثم قال تعالى: ﴿ وأُزلفتِ الجنةُ للمتقين ﴾، وهو شروع فى بيان أحوال المؤمنين بعد النفخ ومجئ النفوس إلى موقف الحساب. وتقديم الكفرة فى أمثال هذا؛ إما لتقديم الترهيب على الترغيب، أو لكثرة أهل الكفر، فإن المؤمنين بينهم كالشعرة البيضاء فى جلدٍ أسود(١)، أى: قربت الجنة للمتقين الكفر والمعاصى، بحيث يشاهدونها من الموقف، ويقفون على ما فيها من فنون المحاسن، فيبتهجون بأنهم محشورون إليها، فائزون بها، ويأتى فى الإشارة بقية بيان، إن شاء الله. وقوله: ﴿ غير بعيدٍ ﴾ تأكيد للإزلاف، أى: مكاناً غير بعيد، ويجوز أن يكون التذكير لكونه على زنة المصدر، الذى يستوى فى الوصف به المذكر والمؤنث، أو لتأوّل الجنة بالبستان.

﴿ هذا ما تُوعدون ﴾ أى: هذا الثواب، أو الإزلاف، ما كنتم توعدون به فى الدنيا، وهو حاصل ﴿ لكل أواب ﴾ أى: رجّاع إلى الله تعالى ﴿ حفيظ ﴾ لأوامر الله، أو لما استودعه الله من حقوقه، ﴿ من خَشِىَ الرحمن بالغيب ﴾: بدل من «أواب» أو مبتدأ، خبره: أدخلوها، على تقدير: يقال لهم: أدخلوها؛ لأن «من» فى معنى الجمع، والخشية: انزعاج القلب عند ذكر الخطيئة أو التقصير أو الهيبة. وقوله تعالى: (بالغيب) حال من فاعل «خشى»، أو من مفعوله، أو صفة لمصدره، أى: خشية ملتبسة بالغيب، حيث خشى عقابه وهو غائب عنه، وخشى الرحمن وهو غائب عن الأعين فى رداء الكبرياء، لاتراه الأعين الحسية الحادثة. والتعرض لعنوان الرحمن للثناء البليغ على الخاشى، حيث خشيه مع علمه بسعة رحمته، فلم يصدهم علمهم بسعة رحمته عن خوفه تعالى، أو: للإشعار بأنهم مع خشيتهم عقابه راجون رحمته. ﴿ وجاء بقلبٍ منيب ﴾؛ راجع إلى الله، أو سريرةٍ مرضيةٍ، وعقيدةٍ صحيحة.

يُقال لهم: ﴿ ادخلوها بسلام ﴾ أى: سالمين من زوال النعم وحلول النقم، أو: ملتبسين بسلام من الله تعالى وملائكته عليكم، ﴿ ذلك يومُ الخلود ﴾، الإشارة إلى الزمان الممتد الواقع فى بعض منه ماذكر من الأحوال، أى:

---

(١) كما جاء فى الصحيح،، فقد أخرج البخارى فى مواضع منها (الرقاق باب كيف الحشر، ح ٦٥٢٨) ومسلم فى (الإيمان، باب كون هذه الأمة نصف أهل الجنة رقم ٣٧٦، ح ٢٢١) عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: كنا مع النبى ﷺ فى قبة، فقال: «أترضون أن تكونوا ربع أهل الجنة، قلنا: نعم، قال «أترضون أن تكونوا ثلث أهل الجنة، قلنا: نعم، قال: «أترضون أن تكونوا شطر أهل الجنة، قلنا: نعم، قال: «والذى نفسى محمد بيده، إنى لأرجو أن تكونوا شطر أهل الجنة، وذلك أن الجنة لايدخلها إلا نفس مسلمة، وما أنتم فى أهل الشرك إلا كالشعرة البيضاء فى جلد الثور الأسود، أو كالشعرة السوداء فى جلد الثور الأحمر».

نهاية ذلك اليوم هو يوم الخلود، الذى لا انتهاء له، ﴿لهم ما يشاءون فيها﴾ من فنون المطالب ومنتهى الرغائب ﴿ولدينا مزيدٌ﴾ هو النظر إلى وجهه الكريم، على قدر حضورهم اليوم، أو: هو ما لايخطر ببالهم، ولا يندرج تحت مشيئتهم من الكرامات، التى لا عين رأت، ولا أُذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. وقيل: إن السحاب تمر بأهل الجنة فتمطر عليهم الحور، فتقول، نحن المزيد الذى قال تعالى: ﴿ولدينا مزيد﴾ قلت: مزيد كل واحد على قدر همته وشهوته. والله تعالى أعلم

الإشارة: يوم يقول لجهنم: هل امتلأت؟ وتقول: هل من مزيد، كذلك النفس، نار شهواتها مشتعلة كلما أعطيتها شيئاً من حظوظها طلبت المزيد، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب، وفى الحديث: «اثنان لا يشبعان، طالب الدنيا وطالب علم ، طالب الدنيا يزداد من الله بُعداً، وطالب العلم يزداد من الله رضاً وقُرباً» أو كما قال ﷺ(١) .

واعلم أن الروح إذا عشقت شيئاً فإن كان من الدنيا يُسمى حرصاً، وإن كان فى جانب الحق سُمى محبة وشوقاً، وفى الحقيقة ما هى إلا محبة واحدة، إلا أنها لما تاهت انقلبت محبتها للفروقات الحسية، وغابت عن المعانى الأزلية، وكلما زاد فى الحرص نقص من المحبة، وما نقص من الحرص زاد فى المحبة. ويقال: كلما زادت محبة الحس نقصت المعنى، وبالعكس، وإذا اشتعلت نار المحبة فلا تسكن بما يلقى فيها من الأمور الحسية، كانت حظوظاً أو حقوقاً، بل كلما ألقى فيها تقول: هل من مزيد، حتى يضع الجبار قدمه، وهو قذف نور معرفته فى القلب، فحينئذ يحصل الفناء وتقول: قط قط.

ثم أخبر عن حال المؤمنين بقوله: (وأُزلفت الجنة للمتقين) أى: قربت جنة المعارف إلى قلوب خواص المتقين، الذين اتقوا ما سوى الله، فقربت منهم، ودخلوها فى الدنيا، فإذا كان يوم القيامة قربت إليهم الجنة الحسية فى المحشر، فيركبون فى قصورها وغرفها، وتطير بهم إلى الجنة، فلا يحسون بالصراط ولا بالنار، وفيهم قال تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾ الآية(٢). والناس على ثلاثة أصناف؛ قوم يُحشرون إلى الجنة مشاة، وهم الذين قال الله فيهم: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا﴾(٣) وهم عوام المؤمنين، وقوم يُحشرون إلى الجنة ركباناً

(١) أخرجه الدارمى فى (المقدمة، باب فى فضل العلم والعالم، ح ٣٣٢) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه. ولفظه: «منهومان لايشبعان: صاحب العلم وصاحب الدنيا، ولايستويان، أما صاحب العلم فيزداد رضى الرحمن، وأما صاحب الدنيا، فيتمادى فى الطغيان، ثم قرأ عبد الله. ﴿كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى﴾ قال: وقال الآخر: «إنما يخشى الله من عباده العلماء». وسند الحديث فيه انقطاع. انظر المشكاة (١/ ٨٧).
(٢) الآية ١٠٢ من سورة الأنبياء.
(٣) الآية ٧٣ من سورة الزمر.

على طاعتهم، المصورة لهم على صورة المراكب، وهؤلاء الخواص من العباد والزهاد والعلماء والصالحين، وأما خواص الخواص، وهم العارفون ومَن تعلق بهم، فهم الذين قال الله فيهم: ﴿وأزلفت الجنة للمتقين﴾ تُقرب منهم، فيركبون فيها، ويسرحون إلى الجنة. انظر القشيري.

وقوله تعالى: ﴿هذا ما توعدون﴾ الإشارة إلى مقعد صدق، ولو كان إلى الجنة لقال «هذه». قاله القشيري. ثم وصف أهل هذا المقام بقوله: ﴿لكل أواب حفيظ﴾ أي: راجع إلى الله في جميع أموره، لا يعرف غيره، ولا يلتجيء إلا إليه، حفيظ لأنفاسه مع الله، لا يصرفها إلا في طلب الله، مَنْ خَشِيَ الرحمنَ بالغيب، أي: بنور الغيب يشاهد شواهد الحق، فيخشى بُعده أو حجبه. قال القشيري: والخشية تكون مقرونة بالأُنس، ولذلك لم يقل: من خشى الجبار. ثم قال: والخشية من الرحمن خشية الفراق، ويقال: هو مقتضى علمه بأنه يفعل ما يشاء، لا يُسأل عما يفعل، ويقال: الخشية ألطف من الخوف، فكأنها قريبة من الهيبة .هـ. (رجاء بقلب منيب) مقبل على الله بكليته، معرض عما سواه، (ادخلوها) جنة المعارف (بسلام) من العيوب، آمنين من السلب والرجوع، وهذا قوله (ذلك يوم الخلود) فيها، لهم ما يشاءون من فنون المكاشفات، ولذيذ المشاهدات، ولدينا مزيد، زيادة ترقى أبداً سرمداً، جعلنا الله من هذا القبيل في الرعيل الأول، آمين.

ثم رجع إلى تهديد الكفرة، فقال

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿وكم أهلكنا قبلهم﴾؛ قبل قومك ﴿من قَرْن﴾ من القرون الذين كذَّبوا رسلهم ﴿هم أشدُّ منهم﴾؛ من قومك ﴿بطشاً﴾؛ قوة وسطوة، ﴿فنَقَّبوا في البلاد﴾ أي: خرّبوا وطافوا وتصرفوا في أقطارها، وجالوا في أكناف الأرض كل مجال حذار من الموت ﴿هل﴾ وجدوا ﴿من مَحيص﴾ أي: مهرب منها؟ بل لَحِقتهم ودقت أعناقهم، أو: هل وجدوا من مهرب من أمر الله وقضائه؟ وأصل التنقيب والنقب: البحث والطلب، قال امرؤ القيس:

لقد نَقَّبْتُ في الآفاقِ حتَّى ... رَضيتُ من الغَنيمَةِ بالإيابِ(١)

(١) في الديوان: [وقد طوّفت في الآفاق حتى ...] انظر الديوان (٧٢).

ودخلت الفاء للتسبب عن قوله: (هم أشد منهم بطشا) أى: شدة بطشهم، أى: قدرتهم على التنقيب فى البلاد، ويجوز أن يعود الضمير إلى أهل مكة، أى: ساروا فى أسفارهم ومسايرهم فى بلد القرون، فهل رأوا لهم محيصاً حتى يؤملوا مثله أنفسهم؟ ويؤيده قراءة من قرأ (فنقِّبوا) على صيغة الأمر.

﴿ إنَّ في ذلك ﴾ أى: فيما ذكر من قصصهم، أو: فيما ذكر فى السورة ﴿ لَذِكرى ﴾ ؛ لتذكرة وعظة ﴿ لمن كان له قلبٌ ﴾ سليم واعٍ يُدرك كنه ما يشاهده من الأمور، ويتفكر فيها، ليعلم أن مدار دمارهم هو الكفر، فيرتدع عنه بمجرد مشاهدة الآثار من غير تذكير، ﴿ أو ألقى السمعَ ﴾ أى: أصغى بقلبه إلى مايتلى عليه من الوحى الناطق بما جرى عليهم، فإن مَن فعله يقف على كنه الأمر، فينزجر عما يؤدى إليه من الكفر والمعاصى، يقال: ألق إليَّ سمعَك، أى: استمع، فـ «أو» لمنع الخلو، لا لمنع الجمع، فإن إلقاء السمع لا يجدى بدون سلامة القلب عما ذكر من الصفات، للإيذان بأن من عَرَى قلبه عنهما كمن لا قلب له أصلاً. وقوله تعالى: ﴿ وهو شهيد ﴾ : حال، أى: والحال أنه حاضر القلب لا يغفل أو: شاهد على مايقرأ من كتاب الله.

﴿ ولقد خلقنا السموات والأرضَ وما بينهما ﴾ من أصناف المخلوقات، وهذا أيضاً احتجاج على القدرة على البعث بما هو أكبر، كقوله: ﴿ لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ ﴾(١) وقوله تعالى: ﴿ في ستة أيام ﴾ إنما خلقها فى تلك المدة تعليماً لخلقه التؤدة، وإلا فهو قادر على أن يخلقها فى لمحة، ﴿ وما أمرُنا إلا واحدةٌ كلمح بالبصر ﴾(٢)، ويحتمل أن هذا فى عالم الأمر، وأما عالم الخلق فاقتضت الحكمة خلقه بالتدريج، وله الخلق والأمر، ثم قال تعالى: ﴿ وما مسَّنا من لُغوبٍ ﴾ ؛ من إعياء ولا تعب فى الجملة، وهذا رد على جهلة اليهود، أنه تعالى بدأ العالم يوم الأحد، وفرغ منه يوم الجمعة، واستراح يوم السبت، و استلقى على العرش(٣)، تعالى عما يقولون علُواً كبيرا.

الإشارة: كثيراً ما أهلك اللهُ من النفوس المتمردة فى القرون الماضية، زجراً لمن يأتى بعدهم، ففى ذلك ذكرى لمن كان له قلب سليم من تعلقات الكونين. قال القشيرى: فالقلوب أربعة؛ قلب فاسد؛ وهو الكافر، وقلب مقفول، وهو قلب المنافق، وقلب مطمئن، وهو قلب المؤمن، وقلب سليم، وهو قلب المحبين والمحبوبين، الذى هو مرآة صفات جمال الله وجلاله، كما قال تعالى: «لا يسعنى أرضى ولاسمائى، ووسعنى قلب عبدى المؤمن»(٤) هـ.

(١) الآية ٥٧ من سورة غافر.		(٢) الآية ٥٠ من سورة القمر.
(٣) نزول الآية ردّاً على اليهود، أخرجه الطبرى (٢٦/١٧٨) والواحدى فى الأسباب (ص ٤١٣).
(٤) سبق.

وقال الشبلي: لمن كان له قلب حاضر مع الله، لا يغفل عنه طرفة عين. وقال يحيى بن معاذ: القلب قلبان؛ قلب احتشى بأشغال الدنيا، حتى إذا حضر أمرٌ من أمور الآخرة لم يدر ما يصنع، وقلب احتشى بالله وشهوده، فإذا حضر أمر من أمور الكونين لم يدر ما يصنع، غائب عن الكونين بشهود المكوِّن. وقال القناد: لمن كان له قلب لا يتقلب عن الله في السراء والضراء.هـ. (أو ألقى السمع وهو شهيد) أي: يشهد ما مِن الله إلى الله، أو: يشهد أسرار الذات. قال القشيري: يعني من لم يكن له قلب بهذه الصفة يكون له سمع يسمع الله وهو حاضر مع الله، فيعتبر بما يشير إليه الله في إظهار اللطف أو القهر. هـ. (ولقد خلقنا السموات) أي: سماوات الأرواح، وأرض الأشباح، وما بينهما من النفوس والقلوب والأسرار، وسر الأسرار، في ستة أيام، أي: ستة أنواع من المخلوقات، وهي محصورة فيما ذكرناه من الأرواح، والأشباح، والنفوس، والقلوب، والأسرار، وسر الأسرار، فلا مخلوق إلا وهو داخل في جملتها، لا يخرج عنها، وما مسّنا من لُغوب؛ لأن أمرنا بين الكاف والنون.

ثم أمر نبيه بالصبر على ما يسمع في جانبه تعالى، أو في نفسه، فقال

﴿ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ ﴿٤٠﴾ وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿فاصبرْ على ما يقولون﴾ أي: ما يقوله المشركون في شأن البعث من الأباطيل، فإنّ الله قادر على بعثهم والانتقام منهم، أو: يقولونه في جانبك من النقص والتكذيب، أو: ما تقوله اليهود من مقالات الكفر والتشبيه، ﴿وسبّح بحمد ربك﴾ أي: اصبر على ما تسمع واشتغل بالله عنهم، فسبّح، أي: نزِّه ربك عن العجز عما يمكن، وعن وصفه تعالى بما يوجب التشبيه، حامداً له تعالى على ما أنعم به عليك من إصابة الحق والرشاد، ﴿قبل طلوع الشمس وقبل الغروب﴾، وهما وقت الفجر والعصر، وفضلهما مشهور.

﴿ ومن الليل فسبِّحه ﴾ أي: وسبِّحه في بعض الليل ﴿ وأدبارَ السجود ﴾ أي: أعقاب الصلوات، جمع: دبر، ومن قرأ بالكسر(١)، فمصدر، من: أدبرت الصلاة: انقضت، ومعناه: وقت انقضاء الصلاة، وقيل: المراد بالتسبيح: الصلوات الخمس، فالمراد بما قبل الطلوع: صلاة الفجر، وبما قبل الغروب: الظهر والعصر، وبما من الليل: المغرب والعشاء والتهجد، وبأدبار السجود: النوافل بعد المكتوبات.

﴿ واستَمِع ﴾ أي: لِما يُوحى إليك من أحوال القيامة، وفيه تهويل وتفظيع للمخبر به، ﴿ يوم يُنادِ المنادِ ﴾(٢) أي: إسرافيل عليه السلام، فيقول: أيتها العظام البالية، واللحوم المتمزقة، والشعور المتفرقة؛ إن الله يأمركن أن تجتمعن لفصل القضاء، وقيل: إسرافيل ينفخ، وجبريل ينادي بالمحشر، ﴿ من مكانٍ قريبٍ ﴾ بحيث يصل نداؤه إلى الكل، على سواء، وقيل: من صخرة بيت المقدس، وهو أقرب مكان من الأرض إلى السماء، باثني عشر ميلاً، وهي وسط الأرض، وقيل: من تحت أقدامهم، وقيل: من منابت شعورهم، فيسمع من كل شعرة. «ويوم» منصوب بما دلّ عليه «يوم الخروج» أي: يوم يناد المناد يخرجون من القبور، فيوقف على «واستمع» وقيل: تقديره: واستمع حديث يوم يناد المنادي.

و﴿ يوم يسمعون الصيحةَ ﴾: بدل من «يوم يناد» أي: واستمع يوم يناد المنادي، وذلك اليوم هو يوم يسمعون الصيحة، وهي النفخة الثانية. و﴿ بالحق ﴾: متعلق بالصيحة، أو: حال، أي: ملتبسة بالحق، وهو البعث والحشر للجزاء، ﴿ ذلك يومُ الخروجِ ﴾ من القبور.

﴿ إنّا نحن نُحيي ﴾ الخلق ﴿ ونُميتُ ﴾ أي: نُميتهم في الدنيا من غير أن يشاركنا في ذلك أحد، ﴿ وإلينا المصير ﴾ أي: مصيرهم إلينا لا إلى غيرنا. وذلك ﴿ يومَ تشقق ﴾ أصله: تتشقق، فأدغم، وقرأ الكوفيون والبصري(٣) بالتخفيف، بحذف إحدى التاءين، أي تتصدع، ﴿ الأرضُ عنهم سِراعاً ﴾ فيخرج المؤمنون من صدوعها مسرعين، ﴿ ذلك حشرٌ ﴾ أي: بعث ﴿ علينا يسيرٌ ﴾؛ هيِّن، وهو معادل لقول الكفرة: (ذلك رجع بعيد)، وتقديم الجار والمجرور لتخصيص اليسر به تعالى.

---

(١) قرأ نافع وابن كثير وحمزة وأبو جعفر وخلف «وإدبار» بكسر الهمزة، وقرأ الباقون بفتحها، جمع «دبر». انظر الإتحاف ٢/٤٨٩.
(٢) أثبت المفسر ـ رحمة الله ـ قراءة «المنادي» بإثبات الياء، وهي قراءة نافع وأبي عمرو وصلاً، وفي الحالين ابن كثير ويعقوب، وقرأ الباقون بغير ياء وصلاً ووقفاً.
(٣) قرأ «تشقق» بتخفيف الشين، أبو عمرو وعاصم وحمزة والكسائي، وقرأ ابن كثير ونافع وابن عامر «تشَّقق» بتشديد الشين. انظر السبعة / ٦٠٧.

﴿ نحن أعلم بما يقولون ﴾ من نفي البعث وتكذيب الآيات، وغير ذلك مما لاخير فيه، وهو تهديد لهم، وتسلية لرسول الله ﷺ، ﴿ وما أنت عليهم بجبَّار ﴾ أي: ما أنت بمسلط عليهم، إنما أنت داع، كقوله: ﴿ لَسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ ﴾(١) من: جبره على الأمر: قهره، أي: ما أنت بوال عليهم تجبرهم على الإيمان، وهذا قبل الأمر بالقتال، ﴿ فذكِّر بالقرآن من يخاف وعيد ﴾، لأنه هو الذي يتأثر بالوعظ، كقوله: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا﴾(٢) وأما من عداهم، فنحن نفعل بهم ما توجبه أقوالهم، وتستدعيه أعمالهم من أنواع العقاب وفنون العذاب.

الإشارة: فاصبر أيها المُتوجِّه على ما تسمع من الأذى، وغب عن ذلك بذكر ربك قبل طلوع شمس البسط، وقبل غروبها، أي: اشتغل بالله في القبض والبسط، أو: قبل طلوع شمس المعرفة، في حال السير، وقبل الغروب حين تطلع، ومن ليل القبض أو القطيعة فسبِّح حتى يطلع نهار البسط أو المعرفة، وأدبار السجود، أي: عقب سجود القلب في الحضرة، فلا يرفع رأسه أبداً، واستمع يوم يناد المنادي، وهي الهواتف الغيبية، والواردات الإلهية، والإلهامات الصادقة، من مكان قريب، هو القلب، يوم يسمعون الصيحة، أي: تسمع النفوس صيحة الداعي إلى الحق بالحق، فتجيب وتخضع إن سبقت لها العناية، ذلك يوم الخروج، خروج العوائد والشهوات من القلب، فتحيي الروح، وتُبعث بعد موتها بالغفلة والجهل، بإذن الله، إنا نحن نُحيي نفوساً بمعرفتنا، ونُميت نفوساً بقهريتنا، وإلينا المصير، أي: الرجوع إنما هو إلينا، فمن رجع إلينا اختياراً أكرمناه ونعَّمناه، وفي حضرة القدس أسكناه، ومن رجع قهراً بالموت عاتبناه أو سامحناه، وفي مقام البُعد أقمناه.

يوم تشقق الأرضُ عنهم: أرض الحشر في حق العامة، وأرض الوجود في حق الخاصة، أي: يذهب حس الكائنات، وتضمحل الرسوم، وتُبدل الأرض والسموات، ذلك حشر علينا يسير، أي: جمعكم إلينا، بإفناء وجودكم، وإبقائكم بوجودنا، يسير على قدرتنا، وجذبِ عنايتنا. ويُقال لكل داع إلى الله، في كل زمان، حين يُدبر الناس عنه، وينالون منه: نحن أعلم بما يقولون، وما أنت عليهم بجبَّار، إنما أنت داع: خليفة الرسول، فذكِّر بالقرآن، وادع إلى الله من يخاف وعيد؛ إذ هو الذي يتأثر بالوعظ والتذكير، وبالله التوفيق، وهو الهادي إلى سواء الطريق، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه، وسلم.

❁ ❁ ❁

---

(١) الآية ٢٢ من سورة الغاشية.
(٢) الآية ٤٥ من سورة النازعات.

سورة الذاريات

مكية. وهى ستون آية. ومناسبتها لما قبلها ما خُتمت به من قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴾(١)، فأقسم سبحانه فى صدر هذه السورة إنه لواقع، حيث قال:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ﴿١﴾ فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ﴿٢﴾ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ﴿٣﴾ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا ﴿٤﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿٥﴾ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ﴿٦﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ والذاريات ﴾؛ الرياح الذاريات؛ لأنها تذرو التراب والحشيش وغير ذلك، يُقال: ذرت الرياحُ تذرو ذرواً، وأذرت تذرى، و﴿ ذروا ﴾: مصدر، والعامل فيه اسم الفاعل. ﴿ فالحاملات وِقْراً ﴾، أى: السحاب الحاملة للأمطار، أو: الرياح الحاملة للسحاب الموقورة بالماء. وقال ابن عباس: السفن الموقورة بالناس، فـ«وِقراً»: مفعول بالحاملات، ﴿ فالجاريات يُسراً ﴾ أى: السفن الجارية فى البحر والرياح الجاريه فى مهابها، أو السحاب الجارية فى الجو تسوق الرياحَ، أو: الكواكب السيارة الجارية فى مجاريها ومنازلها بسهولة، (يسرا): نعت لمصدر محذوف، أى: جرياً ذا يسر.

﴿ فالمقَسّمات أمراً ﴾ أى: الملائكة التى تقسم الأمور الغيبية من الأمطار والأرزاق والآجال، والخلْق فى الأرحام، وأمر الرياح، وغير ذلك؛ لأن هذا كله إنما هو بملائكة تخدمه، فـ«أمراً» هنا جنس، وأنّثَ «المقسّمات»؛ لأن المراد الجماعات، ويجوز أن يُراد الرياح فى الكل، فإنها تنشئ السحاب، وتُقلّه، وتُصرّفه، وتجرى به فى الجو جرياً سهلاً، وتقسّم الأمطار بتصريف السحاب فى الأقطار. ومعنى الفاء على الأول: أنه تعالى أقسم بالرياح، فبالسحاب التى تسوقه، فبالفلك الجارية بهبوبها، فبالملائكة التى تقسم الأرزاق، وعلى الثانى: أنها تبتدئ بالهبوب، فتذرو التراب والحصباء، فتُقل السحاب، فتجرى فى الجو باسطةً له، فتقسّم المطر.

وقال أبو السعود: فإن حملت الأمور المقْسم بها على ذوات مختلفة، فالفاء لترتيب الإقسام باعتبار ما بينها فى التفاوت فى الدلالة على كمال القوة، وإلا فهى لترتيب ما صدر عن الريح من الأفاعيل، فإنها تذرو الأبخرة إلى الجو حتى تنعقد سحاباً، فتجرى به باسطة له إلى ما أمرت به، فتقسم المطر. هـ.

---

(١) من الآية ٤٤ من سورة «ق».

والمقسَم عليه قوله: ﴿ إنَّ ما تُوعدون ﴾ من البعث والجزاء، ﴿ لصادقٌ ﴾؛ لوعد صادق، ﴿ وإنَّ الدين ﴾ أي: الجزاء على الأعمال ﴿ لواقعٌ ﴾؛ لكائن لا محاله. وتخصيص الأمور المذكورة بالإقسام بها رمزاً إلى شهادتها بتحقيق مضمون الجملة المقْسَم عليها، من حيث إنها أمور بديعة، مخالفة لمقتضى الطبيعة، فمن قدر عليها فهو قادر على البعث الموعود، و«ما» موصولة، أو مصدرية، ووصف الوعد بالصدق كوصف العيشة بالرضا. والله تعالى أعلم.

الإشارة: والذاريات: رياح الواردات الإلهية، التي ترد على القلوب، فتذرو منها الأمراض والشكوك والأوهام والخواطر؛ لأنها تأتي من حضرة قهّار، لا تُصادم شيئاً إلا دفعته، فالحاملات وِقراً؛ فالأنفس المطهرة، الحاملة للعلوم والحِكم والمواهب، وِقراً: حِملاً لاحدّ له، فالجاريات يُسراً: فالأفكار الجارية في بحار الأحدية، من الجبروت إلى الملكوت، ثم تنزل إلى عالَم المُلك، تتفنن في علوم الحكمة، في جرياً يُسراً شيئاً فشيئاً، فالمُقَسِّمات أمراً: فالأرواح أو الأسرار الكاملة، التي تقسم الأرزاق المعنوية والحسية، حيث جعل الله لها ذلك بفضله عند كمالها، وهذه أرواح أهل التصرف من الأولياء. إنما تُوعدون من الوصول إلينا لَصادقٌ لمن صدق في الطلب، وإنّ الجزاء على المجاهدة بالمشاهدة لواقع. قال القشيري: إن الله تعالى وعد المطيعين بالجنة، والتائبين بالمحبة، والأولياء بالقُربة، والعارفين بالوصلة، والطالبين بالوجدان. ولعلّ مراده بالأولياء عموم الصالحين.

ثم جدّد قَسَماً آخر، فقال:ـ

﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ﴿٧﴾ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴿٨﴾ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴿٩﴾ قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾ يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٢﴾ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ والسماءِ ذات الحُبُك ﴾؛ ذات الطُرق الحسيّة، مثل ما يظهر على الماء والرمال من هبوب الرياح، وكذلك الطُرق التي في الأكسية من الحرير وغيره، يقال لها: حُبُك جمع حَبيكةٌ، كطريقة وطُرق، أو: جمع حِباك، قال الرّاجز:

كأنما جـلاّها[1] الحوّاكُ طِنْفَسَةٌ في وَشْيِها حِباكُ[2]

---

(١) هكذا في الأصول. وفي تفسير الطبري وابن عطية وغيرهما: (جلّلها) وهو الصواب.

(٢) يصف الراجز ظهر أتان من حمر الوحش بأن فيه خطوطاً وطرائق، وجللها: ألبسها وكساها، والطنفسة: البساط أو النُمرقة فوق الرحل، والوشي: الزخرف والنقش، والحِباك: الطريقة.

والحوَّاك: صانع الحياكة، والمراد: إما الطريق المحسوسة، التي هي مسير الكواكب، أو: المعنوية، التي يسلكها النُظار في النجوم، فإن لها طرائق. قال البيضاوي: النكتة في هذا القسم: تشبيه أقوالهم في اختلافها، وتباين أغراضها، بطرائق السماوات في تباعدها، واختلاف غاياتها، وقال ابن عباس وغيره: ذات الخَلْق المستوي، وعن الحسن: حبكها نجومها. وقال ابن زيد: ذات أشدة، لقوله تعالى: ﴿ سَبْعًا شِدَادًا ﴾(١).

﴿ إنكم ﴾ يا أهل مكة ﴿ لفي قولٍ مختلف ﴾ ؛ متخالف متناقض، وهو قولهم في حقه ﷺ تارة: شاعر، وأخرى ساحر، وفي شأن القرآن، تارة: شعر، وأخرى أساطير الأولين. ﴿ يُؤفكُ عنه مَن أُفك ﴾ ؛ يُصرف عن القرآن، أو عن الرسول، من ثبت له الصرف الحقيقي، الذي لا صرف أفظع وأشد منه، فكأنّ لا صرف حقيقة إلا لهذا الصرف، أي: يُصرف عن الإيمان مَن صُرف عن كل سعادةٍ وخير، أو: يُصرف عن الإيمان من صُرف في سابق الأزل.

قلت: والأظهر أن يرجع لما قبله، أي: يُصرف عن هذا القول المختلف مَن صُرف في علم الله تعالى، وسَبقت له العناية، يقال: أفكه عن كذا: صرفه عنه، وإن كان الغالب استعماله في الصرف عن الخير إلى الشر، لكنه عُرفي، لا لغوي. والله تعالى أعلم.

﴿ قُتل الخرَّاصُون ﴾ ، دعاء عليهم، كقوله: ﴿ قُتِلَ الإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ﴾(٢)، وأصله: الدعاء بالقتل والهلاك، ثم جرى مجرى «لُعِنَ»، والخرَّاصون: الكذابون المُقدِّرون ما لا صحة له، وهم أصحاب القول المختلف، كأنه قيل: لُعن هؤلاء الخراصون ﴿ الذين هم في غمرةٍ ﴾ ؛ في جهل يغمرهم، ﴿ ساهون ﴾ ؛ غافلون عما أُمروا به، ﴿ يسألون أيّان يومُ الدين ﴾ أي: متى وقوع يوم الجزاء، لكن لا بطريق الاستعلام حقيقة، بل بطريق الاستعجال، استهزاء، فإنَّ «أيّان» ظرف للوقوع المقدّر؛ لأن «أيّان» إنما يقع ظرفاً للحدثان .

ثم أجابهم بقوله: ﴿ يومَ هم على النار يُفتنون ﴾ أي: يقع يوم هم على النار يُحرقون ويُعذّبون، ويجوز أن يكون خبراً عن مضمر، أي: هو يوم هم، وبُني لإضافته إلى مضمر، ويُؤيده أنه قُرئ بالرفع(٣). ﴿ ذُوقوا فتنتكم ﴾ أي: وتقول لهم خزنة النار: ذوقوا عذابكم وإحراقكم بالنار، ﴿ هذا الذي كنتم به تستعجلون ﴾ أي: هذا العذاب هو الذي

---

(١) من الآية ١٢ من سورة النبأ، وانظر في هذه الأقوال تفسير البغوي ٧/ ٣٧١ ـ ٣٧٢ والقرطبي (٧/ ٦٣٨٧ ـ ٦٣٨٨).
(٢) الآية ١٧ من سورة عبس .
(٣) «يوم» بالرفع، وهي قراءة ابن أبي عبلة والزعفراني. انظر مختصر ابن خالويه في شواذ القراءات (ص/١٤٦) والبحر المحيط (٨/ ١٣٤).

كنتم تستعجلونه فى الدنيا، بقولكم: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾(١)، فـ«هذا»: مبتدأ، و«الذى..» الخ: خبر، ويجوز أن يكون «هذا» بدلاً من فتنتكم، و«الذى»: صفته.

الإشارة: أقسم الله تعالى بسماء الحقائق، وتُسمى سماء الأرواح؛ لأن أهل الحقائق روحانيون سماويون، ترقَّوا من أرض الأشباح إلى سماء الأرواح، حيث غلبت روحانيتهم، على بشريتهم، كما أن أهل الشرائع اليابسة أرضيين بشريين، حيث غلبت بشريتهم الطينية على روحانيتهم السماوية، ولكل واحدةٍ طُرق، فطُرق سماء الحقائق هى المسالك التى تُوصل إليها، وهى قَطْع المقامات والمنازل، وخَرق الحُجب النفسانية، حتى يُفضوا إلى مقام العيان «فى مقعد صدق عند مليك مقتدر» وطُرق أرض الشرائع هى المذاهب التى سلكها الأولون، واقتدى بهم الآخرون، يفضوا أهلها إلى رضا الله ونعيمه. وكان الشيخ الشاذلى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول فى تلميذه المرسى: إن أبا العباس أعرف بطُرق السماء منه بطُرق الأرض، أى: أعرف بمسالك الحقائق منه بمذاهب الشرائع، وهذا إشارة قوله: ﴿ذات الحُبك﴾ أى: الطُرق. إن أهل الجهل بالله لفى قولٍ مُختلفٍ مضطرب، لا تجد قلوبهم تأتلف على شىء، قلوبهم متشعبة، ونياتهم مختلفة، وهممهم دنية، وأقوالهم مضطربة، بخلاف أهل الحقائق العارفين بالله، قلوبهم مجتمعة على محبة واحدة، وقـصدٍ واحد، وهو الله، بدايتهم فى السـلوك مختلفة، ونهايتهم متفقة، وهو الوصول إلى حضرة العيان، ولله در ابن البنا، حيث قال:

مذاهبُ الناسِ على اختـلافْ ومذهبُ القـوم على ائتلافْ

وقال الشاعر:

عباراتهم شتى وحُسْنُك واحدٌ وكُلٌ إلى ذاك الجمال يُشير

يُؤفك عن هذا الاختلاف مَن صُرف فى سابق العناية، أو مَن صُرف من عالم الأشباح إلى عالم الأرواح. قُتل الخراصُون؛ المعتمدون على ظنهم وحدسهم، فعلومهم جُلها مظنونة، وإيمانهم غيبى، وتوحيدهم دليلى من وراء الحجاب، لا يَسلم من طوارق الاضطراب، الذين هم فى غمرة؛ أى: فى غفلة وجهل وضلالة ـ ساهون عما أُمروا به من جهاد النفوس، والسير إلى حضرة القدوس، أو ساهون غائبون عن مراتب الرجال، لا يعرفون أين ساروا، وفى أىّ بحار سبَحوا وغاصوا، كما قال شاعرهم:

تركنا البحـــورَ الزاخراتِ وراءنا فمن أين يدرى الناسُ أين توجهنا؟

(١) من الآية ٧٠ من سورة الأعراف.

يسألون أيّان يومُ الدين؛ لطول أملهم، أو يسألون أيّان يوم الجزاء على المجاهدة. قال تعالى: هو (يوم هم) أى: أهل الغفلة ـ على نار القطيعة أو الشهوة يُفتنون بالدنيا وأهوالها، والعارفون منزّهون فى جنات المعارف. ويقال للغافلين: ذُوقوا وبال فتنتكم، وهو الحجاب وسوء الحساب، هذا الذى كنتم به تستعجلون، بإنكاركم على أهل الدعوة الربانيين، فتستعجلون الفتح من غير مفتاح، تطلبون مقام المشاهدة من غير مجاهدة، وهو محال فى عالم الحكمة(١). وبالله التوفيق.

ثم ذكر أضدادهم، فقال:

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٥) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ (١٦) كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (١٧) وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١٨) وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (١٩) ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ إنَّ المتقين في جنات وعيون ﴾ عظيمة، لا يبلغ كُنهها، ولا يُقادر قدرها، ولعل المراد بها الأنهار الجارية، بحيث يرونها، ويقع عليها أبصارهم، لا أنهم فيها، ﴿ آخذين ما آتاهم ربهم ﴾ أى: نائلين ما أعطاهم راضين به، بمعنى أنّ كلّ ما يأتهم حسنٌ مرضى، يتلقى بحسن القبول، ﴿ إنهم كانوا قبل ذلك ﴾ فى الدنيا ﴿ محسنين ﴾؛ متقنين لأعمالهم الصالحة، آتين بها على ما ينبغى، فلذلك نالوا ما نالوا من الفوز العظيم، ومعنى الإحسان ما فسره به عليه الصلاة والسلام: «أن تعبد الله كأنك تراه» الحديث(٢). ومن جملته ماأشار إليه بقوله:

﴿ كانوا قليلاً من الليل مايَهْجعون ﴾ أى: كانوا يهجعون، أى: ينامون فى طائفة قليلة من الليل، على أن «قليلاً» ظرف؛ أو كانوا يهجعون هجوعاً قليلاً، على أنه صفة لمصدر، و«ما» مزيدة فى الوجهين، ويجوز أن تكون مصدرية مرتفعة بـ«قليلاً»، على الفاعل، أى: كانوا قليلاً من الليل هجوعهم. وقال النسفى: يرتفع هجوعهم على البدل من الواو فى «كانوا» لا بقليلاً؛ لأنه صار موصوفاً بقوله: ‹من الليل› فبَعُد من شبه الفعل وعمله، ولا يجوز أن

(١) على هامش النسخة الأساسية مايلى: ليس بمحال، وكم من واحد جذبته العناية الإلهية وانتشلته.... الغفلة والظلمات فأصبح على بساط القرب والمشاهدة دون أدنى مجاهدة، بل نص العارفون على أن طريق المجاهدة انقطعت، ولم يبق إلا طريق المحبة بعد جذب العناية الإلهية. هـ.

(٢) جزء من حديث سؤال سيدنا جبريل عن الإسلام والإيمان والإحسان، وهو حديث مشهور. أخرجه البخارى فى (الإيمان باب سؤال جبريل النبى عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم الساعة، ح٥٠) ومسلم فى (الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان رقم ٩، ح٥) من حديث أبى هريرة رضي الله عنه.

تكون «ما» نافية على معنى: أنهم لا يهجعون من الليل قليلاً ويُحْيُونه كله.هـ. أو كانوا ناسًا قليلاً مايهجعون من الله؛ لأن «ما» النافية لا يعمل مابعدها فيما قبلها، ولأن المحسنين وهم السابقون كانوا كثيراً فى الصدر الأول، وموجودون فى كل زمان ومكان، فلا معنى لقلتهم، خلافًا لوقف الهبطى، وأيضًا: فمدحهم بإحياء الليل كله مخالف لحالته ﷺ، وما كان يأمر به.

﴿ وبالأسحارِ هم يستغفرون ﴾، وصفهم بأنهم يحيون جُل الليل متهجدين، فإذا أسحروا أخذوا فى الاستغفار من رؤية أعمالهم. والسَحر: السدس الأخير من الليل، وفى بناء الفعل على الضمير إشعار بأنهم الأحقاء بأن يُوصفوا بالاستغفار، كأنهم المختصون به، لاستدامتهم له، وإطنابهم فيه.

﴿ وفي أموالهِمْ حقٌ ﴾ أى: نصيب وافر، يُوجبونه على أنفسهم، تقرباً إلى الله تعالى، وإشفاقًا على الناس، ﴿ للسائلِ والمحروم ﴾ أى: لمن يُصرح بالسؤال لحاجة، وللمتعفف الذى يتعرّض ولا يسأل حياء وتعففًا، يحسبه الناس غنيًا فيَحرم نفسه من الصدقة. وقد تكلم فى نوادر الأصول[1] على مَن سأل بالله، أى: قال: أعطنى لوجه الله، هل يجب إعطاؤه أم لا؟، وفى الحديث: «من سألكم بالله فأعطوه»[2]. قال: وهو مُقيد بما إذا سأل بحق، أى: لحاجة، وأما إذا سأل بباطل ـ أى: لغير حاجة ـ فإنما سأل بالشيطان؛ لأن وجه الله حق. ثم ذكر كلام علىّ شاهداً،[3] ثم حديث معاذ: «من سألكم بالله فأعطوه، فإن شئتم فدعوه»، قال معاذ: وذلك أن تعرف أنه غير مستحق، وإذا عرفتم أنه مستحق، وسأل فلم تعطوه فأنتم ظلَمة. وأُلحِقَ بغير المستحق من اشتبه حاله؛ لتعليق الظلم على معرفة الاستحقاق خاصة.

وقال النووى فى الأذكار: يُكره منع مَن سأل بالله، وتشفع به؛ لحديث: «من سأل بالله فأعطوه» قال: ويكره أن يسأل بوجه الله غير الجنة.هـ. وفى حديث المنذرى: «ملعونٌ من سأل بوجه الله، وملعونٌ من سُئل بوجه الله، ثم منَع سائلَه مالم يسْألْ هُجْراً»[4]. وقال فى كتابه «الأخبار» على قوله عليه الصلاة والسلام: «من سألكم بالله فأعطوه» إجلالاً لله تعالى، وتعظيمًا، وإيجاباً لحقه. ثم قال: إذ ليس يجب إعطاء السائل إذا كان فى معصية أو

(١) الأصل التاسع عشر والمائتان (فى الاستعاذة بالله تعالى، ٢/١٨٧ ـ ١٨٨).
(٢) جزء من حديث أخرجه أحمد في المسند (٢/٦٨) وأبو داود في (الزكاة، باب عطية من سأل بالله، ح١٦٧٢) والحاكم في المستدرك (١/٤١٢) «وصححه وأقره الذهبي»، من حديث ابن عمر رضي الله عنه وكذا أخرجه الطبرانى فى الكبير (١٢/٣٩٧) والبيهقى (٤/١٩٩). وفي أوله: «من استعاذ بالله فأعيذوه ...» الحديث.
(٣) قال الحكيم الترمذى: «سأل رجل علىّ بن أبى طالب رضي الله عنه شيئاً، فلم يعطه فقال: أسألك بوجه الله تعالى، فقال له:كذبت، ليس بوجه الله سألتى، إنما وجه الله الحق، ولكن سألت بوجهك الخلق».
(٤) ذكره المنذرى فى الترغيب والترهيب (ح١٢٤٦) وعزاه للطبرانى، من حديث أبى موسى الأشعرى. قال الهيثمى فى مجمع الزوائد (٣/١٠٣): «رواه الطبرانى فى الكبير، وإسناده حسن، على ضعف فى بعضه مع توثيق».
وقوله «هجراً» بضم الهاء وسكون الجيم: أى: مالم يسأل أمراً قبيحاً لايليق، ويحتمل أنه أراد: مالم يسأل سؤالاً قبيحاً بكلام قبيح.

فضول، فمن سأل بالله فيما ليس عليه ولا عليك فرضه، فإعطاؤك إياه لإجلال حق الله وتعظيمه، وليس عليك بفرض ولا حتم. انظر تمامه في الحاشية الفاسية.

الإشارة: إنَّ المتقين ماسوى الله في جنات المعارف، وعيون العلوم والأسرار. قال القشيري: في عاجلهم في جنة الوصل، وفي آجلهم في جنة الفضل، فغداً نجاة ودرجات، واليوم قربات ومناجاة.هـ. (آخذين ما آتاهم ربهم) من فنـــون المواهب والأسرار، وغداً من فنـون التقريب والإبرار، راضين بالقسمة، قليلة أو كثيرة. إنهم كانوا قبل ذلك: قبـل الإعطـاء، محسنين، يعبدون الله على الإخلاص، يأخذون من الله، ويدفعون به، وله، ولا يردون ما أعطاهم، ولو كان أمثال الجبال، ولا يسألون ما لم يعطهم، اكتفاء بعلم ربهم.

قال القشيري: كانوا قبل وجودهم محسنين، وإحسانهم: كانوا يُحبون الله بالله، يحبهم ويحبونه وهم في العدم، ولمّا حصلوا في الوجود، كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون، كأنّ نومهم عبادة، لقوله عليه الصلاة والسلام: «نوم العالم عبادة»[1]، فمن يكون في العبادة لا يكون نائمًا، وهجوع القلب: غفلته، وقلوبهم في الحضرة، ناموا أو استيقظوا، فغفلتهم بالنسبة إلى حضورهم قليلة. وقال سهل ﷺ: أي: كانوا لا يغفلون عن الذكر في حال، يعني هجروا النوم؛ لوجود الأُنس في الذكر، والمراد بالنوم: نوم القلب بالغفلة.

(وبالأسحار هم يستغفرون)، قال القشيري: أخبر عن تهجدهم، وقلة دعاويهم، وتنزلهم بالأسحار، منزلةَ العاصين، تصغيراً لقدرهم، واحتقاراً لفعلهم. ثم قال: والسهر لهم في لياليهم دائم، إما لفرط لهف، أو شدة أسف، وإما لاشتياق، أو للفراق، كما قالوا:

كم ليلةٍ فيك لا صـــباحَ لهـا أفنيتُهـا قابضـاً عـلى كبـدى
قد غُصَّت العين بالدمـوع وقـد وضعتُ خـدى على بنـانِ يـدى[2]

وإما لكمال أُنس، وطيب روح، كما قالوا:

سقى الله عيشاً قصـــيراً مضى زمـانَ الهـوى فى الصبا والمجون[3]
ليـاليه تحـكي انســـدادَ لحاظٍ لعيْـنيّ عنـد ارتـداد الجفـون.هـ.[4]

---

(١) أخرجه الديلمي (مسند الفردوس ح ٦٧٣١) عن عبدالله بن أبي أوفى، بزيادة «ونَفَسه تسبيح، وعمله مضاعف، ودعاؤه مستجاب، وذنبه مغفور» وأخرجه الديلمي (ح٦٧٣٤) والبيهقي في الشعب (ح٣٩٣٧) بلفظ «الصائم» بدل «العالم». وانظر كشف الخفاء ٢/٤٤٥، والأسرار المرفوعة ص ٣٧٤.

(٢) القائل هو أحمد بن يوسف، صاحب ديوان الرسائل في عهد المأمون. انظر الأغاني (٢٢/ ٥٧٠).

(٣) في الأصول: السجون.

(٤) البيت في الأصول: [لياليه تحكي إنشاء اللحاظ .. للعين عند ارتداء الجفون]
والمثبت هو الذي في لطائف الإشارات.

﴿وفى أموالهم حق للسائل والمحروم﴾ أى: هم يُواسون مَنْ قصدهم بالحس والمعنى، فيبذلون ماخوّلهم الله من الأموال، للسائل والمتعفف، وماخوّلهم الله من العلوم، للطالب والمعرض، وهو المحروم، فيقصدونه بالدواء بما أمكن؛ فإنهم أطباء، والطبيب يقصد المريض أينما وجده، شفقةً ورحمة، ونُصحاً للعباد. وبالله التوفيق.

ثم ذكر دلائل قدرته على ما أقسم عليه من البعث، فقال:

﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿وفي الأرض آياتٌ﴾ دالة على كمال قدرته على البعث وغيره، من حيث إنها مدحوة كالبساط الممهد، وفيها مسالك وفجاج للمتقلبين فى أقطارها، والسالكين في مناكبها، وفيها سهل وجبل، وبحر وبر، وقِطع متجاورات، وعيونٌ متفجرات، ومعادن مقلية، ودواب منبثة، مختلفة الصور والأشكال، متباينة الهيئات والأفعال، وهى مع كبر شكلها مبسوطة على الماء، المرفوع فوق الهواء، فالقدرة فيها ظاهرة، والحكمة فيها باهرة، ففي ذلك عبرة ﴿للمُوقنين﴾ الموحّدين، الذين ينظرون بعين الاعتبار، ويُشاهدون صانعها ببصيرة الاستبصار.

﴿ وفي أنفسكم﴾ آيات وعجائب القدرة؛ إذ ليس شيء فى العالم إلا وفى الأنفس له نظير، مع ما فيه من الهيئات النابعة والمصادر البهية، والترتيبات العجيبة، خَلَقَه نطفة، ثم علقة، ثم مضغة، ثم فصلها إلى العظم والعصب والعروق، فالعظام عمود الجسد، ضم بعضها إلى بعض بمفاصل وأقفال رُبطت بها، ولم تكن عظماً واحداً؛ لأنه إذ ذاك يكون كالخشبة، لا يقوم ولا يجلس، ولا يركع ولا يسجد لخالقه، ثم خلق تعالى المخ فى العظام فى غاية الرطوبة ليرطب يُبس العظام، ويتقوى به، ثم خلق سبحانه اللحمَ وعباه على العظام، وسدَّ به خلل الجسد، واعتدلت هيئته، ثم خلق سبحانه العروق فى جميع الجسد جداول، يجرى الغذاء منها إلى أركان الجسد، لكل موضع من الجسد عدد معلوم، ثم أجرى الدم فى العروق سيالاً خاثراً، ولو كان يابساً، أو اكثف مما هو فيه، لم يجر فى العروق، ثم كسى سبحانه اللحمَ بالجلد كالوعاء له، ولولا ذلك لكان قشراً أحمر، وفى ذلك هلاكه، ثم كساه الشعر؛ وقايةً وزينةً، وليّن أصوله، ولم تكن يابسة مثل رؤوس الإبر، وإلا لم يهنه عيش، وجعل الحواجب والأشفار وقاية للعين، ولولا ذلك لأهلكهما الغبار والسقط، وجعلها سبحانه طوع يده، يتمكن مِن رَفْعِها عند قصد النظر، ومِن إرخائها على جميع العين عند إرادة إمساك النظر عما يضر ديناً ودُنيا، وجعل شعرها صفاً واحداً لينظر من خللها،

ثم خلق سبحانه شفتين ينطبقان على الفم؛ يصونان الحلقَ والفمَ من الرياح والغبار، ولما فيهما مِّن كمال الزينة، ثم خلق الله سبحانه الأسنان؛ ليتمكن من قطع مأكوله وطحنه، ولم تكن له في أول خِلقته لئلا يؤذي أمه، وجعلها ثلاثة أصناف: قسم يصلح للكسر، كالأنياب، وقسم يصلح للقطع، كالرباعية، وقسم يصلح للطحن، كالأضراس... إلى غير ذلك مما في الإنسان من عجائب الصنع وبدائع التركيب.

﴿ أفلا تبُصرون ﴾ أي: تنظرون نظر مَن يعتبر، وماقيل: إن التقدير: أفلا تبصرون في أنفسكم، فضعيف؛ لأنه يُفضي إلى تقديم ما في حيزّ الاستفهام عليه.

﴿ وفي السماء رزقكم ﴾ وهو المطر. وعن الحسن؛ أنه كان إذا رأى السحاب قال لأصحابه: فيه رزقكم إلا أنكم تُحرمونه بخطاياكم(١)، أو: في سماء الغيب تقدير رزقكم، فهو مضمون عند الله في سماء غيبه، ستر ذلك بسر الحكمة، وهو الأسباب، ﴿ وما توُعدون ﴾ أي: وفي السماء ما توُعدون من الثواب؛ لأن الجنة في السماء السابعة، سقفها العرش، أو: أراد: إنما توُعدونه من الرزق في الدنيا وما توُعدونه في العقبى كله مقدَّر ومكتوب في السماء، وقيل: إنه مبتدأ وخبره: ﴿ فوَرَبِّ السماءِ والأرض إنه لَحقٌ ﴾ أي: ما توعدون من البعث وما بعده، أو: ما توعدونه من الرزق المقسوم، فوَرَبِّ العالم العلوي والسفلي ﴿ إنه لَحقٌ مثل ما أنكم تنطقون ﴾ أي: مثل نطقكم، شبّه ما وعد به من الرزق وغيره بتحقق نطق الآدمي؛ لأنه ضروري، يعرفه من نفسه كلُّ أحد.

قال الطيبي: وإنما خص النطق دون سائر الأعمال الضرورية؛ لكونه أبقى وأظهر، ومن الاحتمال أبعد، فإنّ النطق يُفصح عن كل شيء، ويجلي كل شبهة.هـ. فضمان الرزق وإنجاز وعده ضروري، كنطق الناطق. رُوى عن الأصمعي أنه قال: أقبلتُ من جامع البصرة، فطلع أعرابي على قَعود، فقال: مَنْ الرجل؟ فقلت: من بني أصمع، فقال: من أين أقبلت؟ فقلت: من موضع يتلى فيه كلام الله، قال: اتل عليّ، فتلوت: ﴿ والذاريات... ﴾ فلما بلغت قوله: ﴿ وفي السماء رزقكم ﴾ قال: حسبك، فقام إلى ناقته فنحرها، ووزعها على من أقبل وأدبر، وعمد إلى سيفه وقوسه فكسرّهما، وولّى، فلما حججت مع الرشيد، وطُفت، فإذا أنا بصوت رقيق يهتف بي، فالتفتّ، فإذا أنا بالأعرابي قد نحل واصفرّ، فسلّم عليّ، واستقرأ السورة، فلما بلغتُ الآية، صاح، وقال: قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً، ثم قال: وهل غير هذا؟ فقرأتُ: ﴿ فوَرَبِّ السماء والأرض إنه لَحقٌ ﴾ فقال: سبحان الله! من الذي أغضب الجليل حتى حلف؟ لم يصدقوه بقوله حتى حلف، قالها ثلاثاً، وخرجت معها نفَسُه هـ. من النسفي(٢).

قلت: وقد سمعت حكاية أخرى، فيها عبرة، وذلك أن رجلاً سمع قارئاً يقرأ هذه الآية، فدخل بيته، ولزم زاوية منه يذكر فيها، ويتبتل، فجاءت امرأته تنقم عليه، وتأمره بالخدمة، فقال لها: قال تعالى: ﴿ وفي السماء

(١) ذكره القرطبي (٦٣٩٩/٧).
(٢) وذكره القرطبي (٦٣٩٩/٧).

رزقكم﴾، فلما أيست منه ذهبت تحفر شيئاً، فوجدت آنية مملوءة دنانير، فجاءت إليه، وقالت: قد أتانا رزقنا، قم تحفره معي، هو في موضع كذا، فقال: إنما قال تعالى: (في السماء) ولم يقل في الأرض، فامتنع، فذهبت إلى أخ لها تستعين به، فلما فتحتها وجدتها مملوءة عقارب، فقالت: والله لأطرحنها عليه لنستريح منه، ففتحت كوة من السقف، وطرحتها عليه، فسقطت دنانير، فقال: الآن نعم، قد آتاني من حيث قال ربي: ﴿وفي السماء رزقكم﴾.هـ.

وذكر في التنوير: أن الملائكة لمّا نزلت هذه الآية ضجت في السماء، وقالت: ما أضعف بني آدم حتى أحوجوا ربهم إلى الحلف.

الإشارة: وفي أرض نفوس العارفين آيات، منها: أن الأرض تحمل كل شيء، ولا تستثقل شيئاً، فكذلك نفس العارف، تحمل كُلّ كَلٍّ وثقيل، ومن استثقل حملاً، أو تبرم من أحد، أو من شيء، ساقته القدرة إليه، فلغيبته عن الحق، ومطالعته الخلق بعين التفرقة، وأهل الحقائق لا يتصفون بهذه الصفة. ومنها: أنها يلقى عليها كل قذارة وقمامة فتُنبت كل زهر ونَور وورد، فكذلك العارف يُلقي عليه كل جفاء، ولا يظهر منه إلا الصفاء. ومنها: أن الأرض الطيبة تُنبت الطيب، وينصع نباتها، والأرض السبخة لا تُنبت شيئاً، كذلك القلوب الطيبة تُنبت كل ما يلقى فيها من الخير، والقلوب الخبيثة لا تعي شيئاً، ولا ينبت فيها إلا الخبيث.

وقوله تعالى: ﴿وفي أنفسكم..﴾ قال القشيري: يشير إلى أن النفس مرآة جميع صفات الحق، لهذا قال عليه الصلاة والسلام: «من عرف نفسه فقد عرف ربه»،(1) فلا يعرف أحد نفسه إلا بعد كمالها، وكمالُها: أن تصير مرآةً كاملة تامة مصقولة، قابلة لتجلي صفات الحق لها، فيعرف نفسه بالمرآتية، ويعرف ربه بالتجلي فيها، كما قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ...﴾ الآية(2).هـ.

قلت: حديث «من عرف نفسه» أنكره النووي، وقال إنه من كلام يحيى بن معاذ(3) وقد اشتهر عند الصوفية حديثاً، ومعناه حق؛ فإنّ من عرف حقيقة نفسه، وأنها مظهر من مظاهر الحق، وغاب عن حس وجوده الوهم، فقد عرف ربه وشَهِدَه، فاطلب المعرفة في نفسك، ولا تطلبها في غيرك، فليس الأمر عنك خارجاً، ولله در الششتري في بعض أزجاله، حيث قال:

وإليك هو السَيْرُ(4) * وأنْت معْنَى الخَيَر* وما دونَك غيْر

(1) قال السخاوي في المقاصد (ص ١٩٨): «لا يُعرف مرفوعاً، وإنما يُحكى عن يحيى بن معاذ الرازي من قوله»، وقال السيوطي في القول الأشبه (٢/٣٥١) من الحاوي للفتاوى: «هذا الحديث ليس بصحيح».

(2) الآية ٥٣ من سورة فصلت.

(3) على هامش النسخة الأم مايلي: قلت: كذا قالوا؛ لأنهم وجدوه مروياً عنه، فظنوه من كلامه، وهو إنما رواه من التوراة، ففيها: «قال الله تعالى: ياابن آدم اعرف نفسك تعرف ربك، فمن هنا أخذ يحيى بن معاذ الرازي. هـ.

(4) في الديوان (ص ١١٤): [وإليك السير].

وقال أيضاً:

يا قاصداً عينَ الخبرْ غطاهُ أينك[1]
إرجع لذاتك واعتبر ما ثَمّ غيرك
الخيرُ منك والخبرْ والسر عندك

وقوله تعالى: ﴿وفي السماء رزقكم﴾ قال الورتجبي: وفي سماء صفاتي رزق أرواحكم، من مشاهدة النور، وغذاء العلم الرباني، وما توعدون من مشاهدة الذات وكشف عيانه.هـ.

قلت: هذا قوت الأرواح، أمّا قوت الأشباح فتجب الغيبة عنه، ثقةً بالله، وتوكلاً عليه. قال في قطب العارفين: إعلم أنه عز وجل قسّم الأرزاق في الأزل، وجزّأه على عمر العبد، ووقّت أوقاته، وحدّ للعبد ما يأتيه منه في السنة، والشهر، واليوم، والساعة، فكل ما حدّ لك أن تناله من رزقك عند صلاة العصر، مثلا، لا تناله عند صلاة الصبح، ولو طلبته بكل حيلة في السموات والأرض، فإن الطلب لا يجمع، والتوكل لا يمنع. هـ. وقال فيه أيضا: العارف يجد في نفسه الاعتماد على الله، وإن كانت السماء لا تُمطر، والأرض لا تُنبت...، إلخ كلامه، ومثله قول ذي النون: لو كانت السماء من زجاج، والأرض من نحاس لا تُنبت شيئاً، ومصر كلها عيالي، ما اهتممتُ لهم برزق؛ لأنّ مَن خلقهم هو الذي تكفل برزقهم.هـ. وقال في القطب أيضاً: ومن علامة جهل قلب العالم: خوف شدائد السنين الآتيات، والاستعداد لها قبل مجيئها، بمصاحبة الاضطراب، وفقد الطمأنينة بالقسمة السابقة، فمن اتصف بهذه الصفة فقد نازع الربوبية، وانسلخ من العبودية.هـ.

ثم سرد قصص الأمم السالفة، وما جرى عليها؛ لأنّ فيها آيات، فتنخرط في سلك الآيات المتقدمة، فقال:

﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا
قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا
تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ
ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُۥ هُوَ

(١) في الديوان: (ص ٢٦٧) [غطاه غيبك ﷺ].

ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾ ۞ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿هل أتاك حديثُ ضَيف إبراهيم﴾، استفتح بالاستفهام التشويقي، تفخيماً لشأن الحديث، وتنبيهاً على أنه ليس مما علِمَه رسولُ الله ﷺ بغير طريق الوحي. والضيف في الأصل: مصدر: كالزَّوْر، والصوع، يصدق بالواحد والجماعة، قيل: كانوا اثني عشر ملَكاً، وقيل: تسعة عاشرهم جبريل. وجعلهم ضيفاً لأنهم في صورة الضيف، حيث أضافهم إبراهيم، أو لأنهم كانوا في حسبانه كذلك. وقوله ﴿المُكرَمين﴾ أي: عند الله، لأنهم عباد مكرمون، أو عند إبراهيم، حيث خدمهم بنفسه، وأخدمهم امرأته، وعجَّل لهم القِرَى.

﴿إذ دخلوا عليه﴾: ظرف للحديث، أو لمَا في الضيف من معنى الفعل، أو بالمكرَمين، إن فسر بإكرام إبراهيم لهم، ﴿فقالوا سلامًا﴾ أي: نُسلِّم عليك سلاماً. ﴿قال﴾ إبراهيم: ﴿سلامٌ﴾ أي: عليكم سلام. عدل به إلى الرفع بالابتداء للقصد إلى الثبوت والدوام حتى تكون تحيته عليه السلام أحسن من تحيتهم، وهذا أيضا من إكرامه، ﴿قوم مُنكَرُون﴾ أي: أنتم قوم منكَرون، لا نعرفكم، فعرِّفوني من أنتم. قيل: إنما أنكرهم لأنهم ليسوا ممن عهدهم من الناس، أو: لأن أوضاعهم وأشكالهم خلاف ما عليه الناس، وقيل: إنما قال ذلك سراً ولم يخاطبهم به، وإلا لعرَّفوه بأنفسهم.

﴿فَرَاغَ إلى أهله﴾ أي: ذهب إليهم في خِفيةٍ من ضيوفه، فالروغان: الذهاب بسرعة، وقيل: في خفية. ومن آداب المضيف أن يبادر الضيفَ: بالقِرَى، وأن يخفي أمره من غير أن يشعر به الضيف، حذراً من أن يكفّه، وكان عامة مال إبراهيم البقر. ﴿فجاء بعجلٍ سمينٍ﴾، الفاء فصيحة تُفصح عن جُملٍ حُذفت لدلالة الحال عليها، وإيذاناً بكمال سرعة المجيء، أي: فذبح عجلاً فَحَنذَه(١)، فجاء به، ﴿فقرَّبه إليهم﴾، بأن وضعه بين أيديهم، حسبما هو المعتاد، فلم يأكلوا، فـ ﴿قال ألا تأكلونَ﴾، أنكر عليهم ترك الأكل، أو: حثَّهم عليه، ﴿فأوْجَس﴾؛ أضمر ﴿منهم خيفةً﴾؛ خوفاً، لتوهم أنهم جاءوا للشر؛ لأن من لم يأكل طعامك لم يحفظ ذِمامك. عن ابن عباس رضي الله عنهما: وقع في نفسه أنهم ملائكة أُرسلوا للعذاب، ﴿قالوا لا تَخفْ﴾ إنّا رُسل الله. قيل: مسح جبريل العِجْل بجناحه فقام يدرج حتى لحق بأمه(٢)، فعرفهم وأمِن منهم، ﴿وبشّروه بغلام عليم﴾ أي: يبلغ ويكون عالماً، وهو إسحاق عليه السلام.

---

(١) أي: شواه، انظر اللسان (حنذ ٢/١٠٢١).
(٢) رواه عون بن أبي شداد، فيما ذكره القرطبي (٦٤٠٢/٧)

﴿فأقبلت امرأتُه﴾ سارة لمّا سمعت بشارتهم إلى بيتها، وكانت فى زاوية منه تنظر إليهم، ﴿في صَرَّةٍ﴾، صيحة، من الصرير، وهو الصوت، ومنه: صرير الباب وصرير الأقلام. قال الزجّاج: الصرّة: شدّة الصياح. وفى القاموس الصرّة:ـ بالكسر: أشد الصياح، وبالفتح: الشدة من الكرب والحزن والحر والعطفة والجماعة وتغضيب الوجه .هـ. ومحله النصب على الحال، أى: فجاءت صارة، وقيل: صرتها: قولها: ﴿يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ...﴾[1] أو: فجاءت مغضَبة الوجه، كما هو شأن من يُخبر بشيء غريب، استبعاداً له، ﴿فصكّتْ وجهها﴾؛ لطمته ببسط يدها، وقيل: ضربت بأطراف أصابعها جبهتها، فعل المتعجب، ﴿وقالت عجوزٌ عقيم﴾ أى: إنها عجوز عاقر، فكيف ألد؟!.

﴿قالوا كذلك﴾ أى: مثل ما قلنا وأخبرناك به ﴿قال ربك﴾ أى: إنما نُخبرك عن الله تعالى، والله قادر على مايُستبعد، ﴿إنه هو الحكيمُ﴾ فى فعله، ﴿العليمُ﴾ فلا يخفى عليه شيء، فيكون قوله حقاً، وفعله متقناً لا محالة. رُوى أن جبريل عليه السلام قال لها حين استبعدت: انظرى إلى بيتك، فنظرت، فإذا جُذوعُه مُورِقة مثمرة، ولم تكن هذه المفاوضة مع سارة فقط، بل هى وإبراهيمُ عليه السلام حاضر، حسبما شُرح فى سورة الحجر[2]، وإنما لم يذكرها إكتفاء بما ذكر هناك، كما أنه لم يذكر هناك سارة، اكتفاء بما ذكر هنا وفى سورة هود[3].

ولمّا تحقق أنهم ملائكة، ولم ينزلوا إلا لأمر، ﴿قال فما خطبكم﴾ أى: فما شأنكم وما طلبتكم وفيم أُرسلتم؟ ﴿أيها المرسَلون﴾، هل أُرسلتم بالبشارة خاصة، أو لأمر آخر، أو لهما؟ ﴿قالوا إنا أُرسلنا إلى قوم مجرمين﴾ أى: قوم لوط، ﴿لِنُرسل عليهم حجارةً من طين﴾ أى: طين متحجر، هو السجّيل، وهو طينٌ طُبخ، كما يطبخ الآجر، حتى صار فى صلابة الحجارة، ﴿مسوَّمة﴾؛ مُعلّمةً، على كلّ واحد اسم من يهلك بها، من السَّومة وهى العلامة، أو: مرسلة، من أسمت الماشية: أرسلتها، ومر تفصيله فى هود[4] ﴿عند ربك﴾ أى: فى مُلكه وسلطانه ﴿للمسرفين﴾ المجاوزين الحدّ فى الفجور.

﴿فأخْرجنا مَن كان فيها﴾، الفاء فصيحة، مُفصحة عن جُمل قد حُذفت، ثقةً بذكرها فى مواضع أُخر، كأنه قيل: فباشروا ما أُمروا به، فذهبوا إلى لوط، وكان مِن قصتهم ما ذكر فى موضع آخر، ﴿فأخرجنا مَنْ كان فيها﴾ أى: مِن قرى قوم لوط ﴿من المؤمنين﴾ يعنى لوطاً ومَن آمن معه. قيل: كان لوط وأهل بيته الذين نجوا ثلاثةَ

---

(١) كما جاء فى الآية ٧٢ من سورة هود.

(٣) عند قوله تعالى: ﴿بشرناك بالحق فلا تكن من القانطين. قال ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون﴾ الآيتان ٥٥ ـ ٥٦.

(٣) فى قوله تعالى: ﴿وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب﴾ الآية ٧١.

(٤) عند تفسير الآيات ٨١ ـ ٨٢.

عشر. ﴿فما وجدنا فيها غيرَ بيتٍ﴾ أي: غير أهل بيت ﴿من المسلمين﴾، وفيه دليل على أن الإسلام والإيمان واحد، أي: باعتبار الشرع، وأما في اللغة فمختلف، والإسلام محله الظاهر، والإيمان محله الباطن. ﴿وتركنا فيها﴾ أي: في قُراهم ﴿آيةً للذين يخافون العذابَ الأليم﴾ أي: مِن شأنهم أن يخافوا؛ لسلامة فطرتهم، ورقة قلوبهم، وأما مَن عداهم من ذوي القلوب القاسية، فإنهم لا يعتبرون بها، ولا يعدونها آية.

الإشارة: الإشارة بإبراهيم إلى القلب، وأضيافه: تجليات الحق، فنقول حينئذ: هل بلغك حديث إبراهيم القلب، حين يدخل عليه أنوار التجليات، مُسلِّمة عليه، فيُنكرها أول مرة، حيث لم يألف إلا رؤية حس الكائنات، فراغ إلى أهله: عوالمه، فجاء بعِجْلٍ سمينٍ؛ النفس أو السِّوى، فقرّبه إليهم، بذلاً لها في مرضاة الله، فقال: ألا تأكلون منها، لتذهب على شوكتها؛ إذ لا تثبت أنوار الشهود إلا بعد محق النفس وموتها، فأوجس منهم خيفة؛ لأن صدمات التجلي تدهش الألباب، إلا من ثبته الله، قالوا: لا تخف، أي: لا تكن خوّافًا، إذ لا ينال هذا السر إلا الشجعان، كما قال الجيلاني[1]:

وإيّاكَ حَزْمًا لا يَهُولُكَ أَمْرُهَا فَمَا نَالَهَا إلا الشُّجَاعُ المُقَارِعُ

وبشّروه بغلامٍ عليم، وهو نتيجة المعرفة، من اليقين الكبير، والطمأنينة العظمى، فأقبلت النفس تصيح، وتقول: أألد هذا الغلام، من هذا القلب، وقد كبر على ضعف اليقين، وأنا عجوز، شِختُ في العوائد، عقيم من علوم الأسرار؟!، فتقول القدرة: كذلك قال ربك، هو عليَّ هيِّن، أتعجبين من قدرة الله، «من استغرب أن يُنقذه الله من شهوته، وأن يُخرجه من وجود غفلته. فقد استعجز القدرة الإلهية، وكان الله على كل شيء مقتدرا»[2] إنه هو الحكيم في ترتيب الفتح على كسب المجاهدة، العليم بوقت الفتح، وبمن يستحقه. قال إبراهيم القلب أو الروح: فما خطبكم أيها التجليات، أو الواردات الإلهية، قالوا: إنا أُرسلنا إلى قوم مجرمين، وهم جند النفس، لنُرسل عليهم حجارة من طينٍ، مسومةً عند ربك للمسرفين، وهم الأذكار والأوراد والمجاهدات والرياضات والمعاملات المهلِكة للنفس وأوصافها، فأخرجنا مِن كان فيها من المؤمنين، سالمين من الهلاك، وهو ما كان لها من الأوصاف الحميدة، والعلوم الرسمية، إذ لا تُخرج المجاهدة إلا من كان مذموماً، فما وجدنا فيها من ذلك إلا النذر القليل؛ إذ معاملة النفس جُلها مدخولة، وتركنا فيها آيةً من تزكية النفس، وتهذيب أخلاقها، للذين يخافون العذاب الأليم، فيشتغلون بتزكيتها؛ لئلا يلحقهم ذلك العذاب.

---

(١) الشيخ عبد الكريم الجيلي في عينيته (ص ٧٨).
(٢) حكمة عطائية رقم (١٩٧) انظر تبويب الحكم (ص ١٨).

ثم ذكر آيات أخرى في بقية الأمم، فقال:

﴿ وَفِي مُوسَىٰٓ إِذۡ أَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكۡنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٞ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٞ ﴿٤٠﴾ وَفِي عَادٍ إِذۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلۡعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَيۡءٍ أَتَتۡ عَلَيۡهِ إِلَّا جَعَلَتۡهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾ وَفِي ثَمُودَ إِذۡ قِيلَ لَهُمۡ تَمَتَّعُواْ حَتَّىٰ حِينٖ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوۡاْ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِمۡ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمۡ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ مِن قِيَامٖ وَمَا كَانُواْ مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَقَوۡمَ نُوحٖ مِّن قَبۡلُۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ﴿٤٦﴾ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱلۡأَرۡضَ فَرَشۡنَٰهَا فَنِعۡمَ ٱلۡمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾

قلت: (وفي موسى): عطف على (وفي الأرض)، أو على قوله: (وتركنا فيها آية) على معنى: وجعلنا في موسى آية، كقوله:

علفتهـا تبنـــــاً وماءاً بارداً (١).

و(إذ أرسلناه): منصوب بآيات، أو: بمحذوف، أي: كائنة وقت إرسالنا، أو بتركنا.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وفي موسى﴾ آية ظاهرة حاصلة ﴿إذ أرسلناه إلى فرعون بسلطانٍ مبين﴾؛ بحجة واضحة، وهي ما ظهر على يديه من المعجزات الباهرة، ﴿فتولَّى بِرُكْنِه﴾؛ فأعرض عن الإيمان وازورّ عنه(٢) ﴿برُكنه﴾؛ بما يتقوى به من جنوده ومُلكه، والركن: مايركن إليه الإنسان من عزٍ وجند، ﴿وقال﴾ في موسى: هو ﴿ساحرٌ أو مجنون﴾، كأنه نسب ما ظهر على يديه عليه السلام من الخوارق العجيبة إلى الجن، وتردد هل ذلك باختياره وسعيه، أو بغيرهما. ﴿فأخذناه وجنودَه فنبذناهم في اليمّ﴾، وفيه من الدلالة على عِظَمِ شأن القدرة الربانية، ونهاية حماقة فرعون ما لا يخفى، ﴿وهو مُليمٌ﴾، آتٍ بما يُلام عليه من الكفر والطغيان.

---

(١) شطر بيت، تمامه: حتى شتت همالة عيناها.
(٢) أي: مال عنه.

﴿ وفي عادٍ إذ أرسلنا عليهم الريحَ العقيمَ ﴾ ، وُصفت بالعقيم لأنها أهلكتهم، وقطعت دابرهم، أو: لأنها لم تتضمن خيراً مَّا، من إنشاء مطرٍ، أو إلقاح شجرٍ، وهي الدَّبور، على المشهور، لقوله ﷺ: «نُصرتُ بالصَّبَا، وأُهلكت عادٌ بالدَّبور»(١). ﴿ ما تذرُ من شيءٍ أتتْ عليه ﴾ أي: مرت عليه ﴿ إلا جعلته كالرميم ﴾ ؛ وهو كل ما رمّ، أي: بلي وتفتت، من عظم، أو نبات، أو غير، والمعنى: ماتركت شيئاً هَبت عليه من أنفسهم وأموالهم إلا أهلكته.

﴿ وفي ثمودَ ﴾ آية أيضًا ﴿ إذ قيل لهم تمتعوا حتى حينٍ ﴾ ، تفسيره قوله تعالى: ﴿ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلاثَةَ أيام ﴾(٢)، رُوي أن صالحًا قال لهم: تُصبح وجوهكم غداً مصفرة، وبعد غدٍ مُحَمَّرة، وفي الثالث مسودة، ثم يُصحبكم العذاب، ﴿ فعَتَوا عن أمر ربهم ﴾ ؛ استكبروا عن الامتثال، ﴿ فأخذتهم الصاعقةُ ﴾ ؛ العذاب، وكل عذاب مُهلك صاعقة. قيل: لما رأوا العلامات من اصفرار الوجوه، واحمرارها، واسودادها، التي بُينت لهم، عمَدوا إلى قتله ﷺ فنجّاه الله تعالى إلى أرض فلسطين، وتقدم في النمل(٣)، ولما كان ضحوة اليوم الرابع تحنطوا وتكفنوا بالأنطاع، فأتتهم الصيحة، فهلكوا، كبيرهم وصغيرهم وهم ينظرون إليها، ويُعاينونها جهراً، ﴿ فما استطاعوا من قيامٍ ﴾ ؛ من هرب، أو هو من قولهم: مايقوم بهذا الأمر: إذا عجز عن دفعه. ﴿ وماكانوا منتصرِين ﴾ ؛ ممتنعين من العذاب بغيرهم، كما لم يمتنعوا بأنفسهم.

﴿ وقومَ نوحٍ ﴾ أي: وأهلكنا قوم نوح؛ لأن ما قبله يدل عليه، أو: واذكر قوم نوح، ومن قرأ بالجر(٤) فعطف على ثمود، أي: وفي قوم نوح آية، ويؤيده قراءة عبدالله «وفي قوم نوح»، ﴿ مِن قبل ﴾ أي: قبل هؤلاء المذكورين، ﴿ إنهم كانوا قوماً فاسقين ﴾ ؛ خارجين عن الحدود بما كانوا فيه من الكفر والمعاصي وإذاية نوح ﷺ.

﴿ والسماءَ بَنَيْنَاها ﴾ من باب الاشتغال، أي: بنينا السماء، بنيناها ﴿ بأيدٍ ﴾ ؛ بقوة، والأيد: القوة، ﴿ وإنا لَمُوسِعُون ﴾ ؛ لقادرين، من الوسع، وهو الطاقة، والمُوسِع: القويُّ على الإنفاق، أو: لموسعون بين السماء والأرض، أو: لموسعون الأرزاق على من نشاء، وهو تتميم كما تمم ما بعده بقوله: (فَنِعْمَ الماهدون) لزيادة الامتنان.

﴿ والأرضَ فرشناها ﴾ ؛ بسطناها ومهّدناها؛ لتستقروا عليها، ﴿ فنِعْمَ الماهدون ﴾ نحن. ﴿ ومن كلِّ شيءٍ خلقنا زوجين ﴾ ؛ نوعين؛ ذكر وأنثى، وقيل: متقابلين، السماء والأرض، والليل والنهار، والشمس والقمر، والبر والبحر،

---

(١) متفق عليه، وسبق تخريجه عند تفسير الآية ٤٦ من سورة الروم (٣٤٩/٤).
(٢) من الآية ٦٥ من سورة هود.
(٣) راجع تفسير الآيات ٤٨ ـ ٥٣ من سورة النمل، في المجلد الرابع (ص ٢٠٢ ـ ٢٠٣).
(٤) قرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي وخلف (وقومِ) بجر الميم، وقرأ الباقون بنصبها. راجع الإتحاف ٤٩٣/٢.

الموت والحياة. قال الحسن: كل شيء زوج، والله فرد لا مثل له. ﴿لعلكم تذكَّرون﴾ أي: جعلنا ذلك كله، من بناء السماء، وفرش الأرض، وخلق الأزواج، لتذكَّروا، وتعرفوا أنه خالق الكل ورازقهم، وأنه المستحق للعبادة، وأنه قادر على إعادة الجميع، وتعملوا بمقتضاه. وبالله التوفيق.

الإشارة: وفي موسى القلب إذ أرسلناه إلى فرعون النفس، بسلطانٍ، أي: بتسلط وحجة ظاهرة، لتتأدب وتتهذب، فتولى فرعون النفس بركنه، وقوة هواه، وقال لموسى القلب: ساحر أو مجنون، حيث يأمرني بالخضوع والذل، الذي يفرّ منه كلُّ عاقل، طبعًا، فأخذناه وجنوده من الهوى والجهل والغفلة، فنبذناهم في اليمِّ في بحر الوحدة، فلما غرقت في بحر العظمة، ذابت وتلاشت، ولم يبق لها ولا لجنودها أثر، وهو ـ أي: فرعون النفس ـ مُليم: فَعَل ما يُلام عليه من الميل إلى ما سوى الله قبل إلقائه في اليم.

وفي عادٍ، وهي جند النفس وأوصاف البشرية، من التكبر، والحسد، والحرص، وغير ذلك، إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم؛ ريح المجاهدة والمكابدة. أو: ريح الواردات القهرية، ماتذر من شيء من الأوصاف المذمومة إلا أهلكته، وجعلته كالرميم. وفي ثمود، وهم أهل الغفلة، إذ قيل لهم: تمتعوا بدنياكم إلى حين زمان قليل؛ مدة عمركم القصير، فعتوا: تكبروا عن أمر ربهم، وهو الزهد في الدنيا، والخضوع لمن يدعوهم إلى الله، فأخذتهم صاعقة الموت على الغفلة والبطالة، وهم لا ينظرون إلى ارتحالهم عما جمعوا، فما استطاعوا من قيام، حتى يدفعوا مانزل بهم، ولو افتدوا بالدنيا ومافيها، وماكانوا ممتنعين من قهرية الموت، فرحلوا بغير زاد ولا استعداد. وقوم نوح من قبل، وهو مَن سلف من الأمم الغافلة، إنهم كانوا قوماً فاسقين خارجين عن حضرتنا.

والسماء، أي: سماء الأرواح، بنيناها ورفعناها بأيد، ورفعنا إليها مَن أحببنا من عبادنا، وإنا لمُوسعون على المتوجهين إلينا في المعارف والأنوار، والعلوم والأسرار، والأرض؛ وأرض النفوس، فرشناها للعبودية، والقيام بآداب الربوبية، فنعم الماهدون، مهدنا الطريق لذوي التحقيق، ومن كل شيء من تجليات الحق، خلقنا، أي: أظهرنا زوجين، الحس والمعنى، الحكمة والقدرة، الشريعة والحقيقة، الفرق والجمع، الملك والملكوت، الأشباح والأرواح، الذات والصفات، فتجلى الحق جل جلاله بين هذين الضدين؛ ليبقى الكنز مدفوناً، والسر مصوناً، ولو تجلى بضد واحد لبطلت الحكمة، وتعطلت أسرار الربوبية، فمن لم يعرف الله تعالى في هذين الضدين، لم يعرفه أبداً، ومن لم يُفرق بين هذين الضدين، في هذه الأشياء المذكورة، لم تنسج فكرته، فصفاء الغزول هو التمييز بين هذين الضدين، ذوقاً، وبينهما تنسج الفكرة، وبالغيبة عن الأول في شهود الثاني يحصل القرب إلى الله تعالى، كما أبان ذلك في قوله:

﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ٥٠ وَلَا تَجۡعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ٥١ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ٥٢ أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ ٥٣ فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٖ ٥٤ وَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٥٥ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ فَفِرّوا إلى الله ﴾، الفاء لترتيب مابعدها على ماقبلها، أي: إذا كان الأمر كما ذكر من شئونه تعالى في إهلاك مَن تعدى الحدود، ففروا إلى الله بالإيمان والطاعة، كي تنجو من غضبه، وتفوزوا بثوابه، أو: ففروا من الكفر إلى الإيمان، ومن المعصية إلى الطاعة، أو: من طاعة الشيطان إلى طاعة الرحمن، ﴿ إني لكم منه نذير مبين ﴾، تعليل للأمر بالفرار إليه تعالى، فإنّ كونه ﷺ منذراً منه تعالى، لا من تلقاء نفسه، موجب للفرار، وفيه وعد كريم بنجاتهم من المهروب، وفوزهم بالمطلوب، ﴿ ولا تجعلوا مع الله إلهاً آخر ﴾ هو نهي موجبٌ للفرار من سبب العقاب، بعد الأمر بالفرار من نفس العقاب، كما يُشعر به قوله تعالى: ﴿ إني لكم منه ﴾ أي: من الجعل المنهي عنه ﴿ نذير مبين ﴾ كأنه قيل: ففروا إلى الله من عقابه، ومن سببه، وهو جعلكم مع الله إلها آخر.

﴿ كذلك ﴾ أي: الأمر ما ذكر من تكذيبهم الرسول، وتسميتهم له ساحراً أو مجنوناً، ثم فسر ما أجمل بقوله ﴿ ما أتي الذين مِن قبلهم ﴾؛ من قبل قومك ﴿ مِن رسولٍ ﴾ من رسل الله ﴿ إلا قالوا ﴾ في حقه: هو ﴿ ساحرٌ أو مجنون ﴾، فرموهم بالسحر والجنون؛ لجهلهم، ﴿ أتَواصَوا به ﴾، الضمير للقول، أي: أتواصى الأولون والآخرون بهذا القول، حتى قالوه جميعاً متفقين عليه، ﴿ بل هم قومٌ طاغون ﴾ أي: لم يتواصوا به لأنهم لم يتلاقوا في زمان واحد، بل جمعتهم العلة الواحدة، وهي الطغيان، ﴿ فتول عنهم ﴾ أي: أعرِضْ عن الذين كرّرت عليهم الدعوة، فلم يجيبوا عناداً، ﴿ فما أنت بملوم ﴾؛ فلا لوم عليك في إعراضك بعد ما بلّغت الرسالة، وبذلت مجهودك في البلاغ والدعوة. ﴿ وَذَكِّرْ ﴾؛ وَعِظ بالقرآن ﴿ فإنَّ الذكرى تنفعُ المؤمنين ﴾ الذين قدّر الله سبحانه وتعالى إيمانهم، أو آمنوا بالفعل، فإنها تزيدهم بصيرة وقوة في اليقين والعلم. وبالله التوفيق.

الإشارة: الفرار إلى الله يكون من خمسة أشياء: من الكفر إلى الإيمان، ومن المعصية إلى الطاعة بالتوبة، ومن الغفلة إلى اليقظة بدوام الذكر، ومن المقام مع العوائد والحظوظ إلى الزهد بالمجاهدة وخرق العوائد، ومن شهود الحس إلى شهود المعنى، وهو مقام الشهود. وفي القوت: ﴿ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون﴾ الفرْد، (ففروا إلى الله) أي: من الأشكال والأضداد إلى الواحد الفرد. وفي البخاري: «معناه: من الله إليه»(1).

(1) ذكره البخاري في (التفسير - سورة الذاريات).

قال القشيري: ارجعوا إلى الله، والإشارة إلى حالتين، إما رغبة في شيء، أو رهبة من شيء، أو حالي خوف ورجاء، أو طلب نفع أو دفع ضر، وينبغي أن يفر من الجهل إلى العلم، ومن الهوى إلى التقوى، ومن الشك إلى اليقين، ومن الشيطان إلى الله، ومن فعله الذي هو بلاؤه إلى فعله الذي هو كفايته، ومن وصفه الذي هو سخطه، إلى وصفه الذي هو رحمته، ومن نفسه، حيث قال: ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ﴾(١) إلى نفسه، حيث قال: ﴿ففروا إلى الله﴾.هـ. ونقل الورتجبي عن الخراز(٢)، فقال: أظهر معنى الربوبية والوحدانية، بأن خلق الأزواج(٣) فتخلص له الفردانية، فلما تبين أن أشكال الأشياء تواقع(٤) علة الفناء؛ دعا العباد إلى نفسه؛ لأنه الباقي، وغيره فانٍ، بقوله: ﴿ففروا إلى الله﴾ أي: ففروا من وَجودكم، ومن الأشياء كلها، إلى الله بنعت الشوق والمحبة والتجريد عما سواه. هـ.

ولمّا أمرهم بالفرار إليه، أعلَم أنه ما خلقهم إلا لذلك، فقال:

﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وما خلقتُ الجنَّ والإنس إلا ليعبدون﴾ أي: إلا لنأمرهم بالعبادة والخضوع لربوبيتي، لا لنستعين بهم على شأن من شئوني، كما هي عادة السادات في كسب العبيد، ليستعينوا بهم على أمر الرزق والمعاش، ويدلّ على هذا التأويل: قوله تعالى ﴿ ما أريد منهم من رزق ... ﴾ الخ، قال ابن المنير: إلا لأمرهم بعبادته، لا لطلب رزقٍ لأنفسهم، ولا إطعام لي، كما هو حال السادات من الخلق مع عبيدهم، بل الله هو الذي يرزق، وإنما على عباده العبادة له؛ لأنهم مُكلّفون، ابتلاء وامتحاناً، أما الإرادة فكما تعلقت بالعبادة تعلقت بما يخالفها، لقوله: ﴿ ولَقدْ ذرأنا لجهنَّم كثيراً مِّنَ الجنِّ والإنس ﴾(٥) . هـ. وقيل المعنى: ما خلقهم إلا مستعدين للعبادة، متمكنين منها أتم استعداد، وأكمل تمكّن، فمنهم من أطاع، ومنهم من كفر، وهو كقولهم: البقر مخلوقة للحرث، أي: قابلة لذلك، وقد يكون فيها من لا يحرث. والحاصل: أنه لا يلزم من كون الشيء مُعداً لشيءٍ أن يقع منه جميع ذلك.

أو: ما خلقتهم إلا ليتذللوا لي، ولقدرتي، وإن لم يكن ذلك على قواعد شرع، وهذا عام في الكل، طوعاً أو كرهاً؛ إذ كل ما خلق مُنقاد لقدرته وقهريته، عابد له بهذا المعنى. وفي البخاري: وما خلقت أهل السعادة من

(١) من الآية ٢٨ من سورة آل عمران.
(٢) في الورتجبي: الخراز.
(٣) في الورتجبي: الأرواح.
(٤) في الورتجبي: مواضع.
(٥) من الآية ١٧٩ من سورة الأعراف.

الفريقين إلا ليُوحّدون. وقال بعضهم: خلقهم ليفعلوا، ففعل بعضٌ وترك بعضٌ. وليس فيه حجة لأهل القدر. هـ. منه[1]. والمراد بأهل القدر: المعتزلة، القائلون بأن الله تعالى لم يُرد الكفر والمعاصى، وهو باطل، وسيأتى فى الإشارة بقية تحقيق إن شاء الله.

﴿ما أُريد منهم من رزقٍ﴾ أى: ماخلقتهم ليَرزقوا أنفسهم، أو واحداً من عبادى، ﴿وما أُريد أن يُطعمونِ﴾، قال ثعلب: أن يُطعموا عبادى، وهو إضافة تخصيص، كقوله عليه السلام: «من أكرم مؤمناً فقد أكرمنى ومن آذى مؤمناً فقد آذانى»[2]، والحاصل: أنه تعالى بيّن أن شأنه مع عباده متعالياً عن أن يكون كشأن السادات مع عبيدهم، حيث يَملكونهم ليستعينوا بهم فى تحصيل معايشهم، وتهيئة أرزاقهم، أى: ما أريد أن أصرفهم فى تحصيل رزقى ولا رزقهم، بل أتفضل عليهم برزقهم، وبما يصلحهم ويعيشهم من عندى، فليشتغلوا بما خُلقوا له من عبادتى .

﴿إنّ الله هو الرزّاق﴾ أى: يرزق كل من يفتقر إلى الرزق، وفيه تلويح بأنه غنى عنه، ﴿ذو القوةِ﴾؛ ذو الاقتدار، ﴿المتينُ﴾ أى: الشديد الصلب. وقرأ الأعمش «المتينِ» بالجر[3]، نعت للقوة، أى: ذو القوة المتينة، وإنما ذكّره لتأول القوة بالاقتدار .

﴿فإنّ للذين ظلموا﴾ أنفسهم، بتعريضها للعذاب، حيث كذّبوا الرسولَ ﷺ، أو: وضعوا التكذيب مكان التصديق، وهم أهل مكة، ﴿ذنوباً﴾ أى: نصيباً وافراً من العذاب، ﴿مثل ذنوب أصحابهم﴾؛ مثل عذاب نظائرهم من الأمم المحكية. قال الزجاج: الذَنوب فى اللغة: النصيب، مأخوذ من مقاسمة السُقاة الماءَ بالذنوب، وهو الدلو العظيم المملوء. ﴿فلا يستعجلون﴾ ذلك النصيب، فإنه لاحق بهم، وهذا جواب النضر وأصحابه حين استعجلوا العذاب.

﴿فويلٌ للذين كفروا﴾، وضع الموصول موضع ضميرهم تسجيلاً عليهم بالكفر، أى: فويلٌ لهم ﴿من يومهمُ الذي يُوعَدون﴾، أى: من يوم القيامة، أو يوم بدر، والأول أنسب لما فى صدر السورة الآتية.

الإشارة: اعلم أن الحق ـ جل جلاله ـ إنما بعث الرسلَ بإظهار الشرائع، ليحوّشوا العباد إلى الله، ويدعوهم إليه كافة، ويأمروهم بالتبتل والانقطاع، من غير التفات لمن سبق له السعادة أو الشقاء؛ لأن ذلك من سر القدر، وغيب المشيئة لايجوز كشفه فى حالة الدعوة، فقوله تعالى: ﴿وما خلقتُ الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ هذا ما يمكن

(١) ذكره البخارى فى (التفسير، سورة «والذاريات»)

(٢) أخرجه الديلمى (مسند الفردوس ح ٥٨٠٦) والطبرانى فى الأوسط (ح ٨٦٤٥) من حديث جابر رضي الله عنه بلفظ: «من أكرم أخاه المؤمن فإنما يكرم الله عز وجل». وليس فيه الجزء الأخير.

(٣) انظر «المحتسب فى تبيين وجوه شواذ القراءات» لابن جنى (٢/٢٨٩).

الأمر به في ظاهر الأمر، ويُؤمر بإظهاره في حالة الدعوة، وكون الحق تبارك وتعالى أراد من قوم الكفر والمعاصي من غيب المشيئة، وسر القدر لايقدح في عموم الدعوة التي تعلقت بالظواهر؛ لأنه من قبيل الحقيقة، وما جاءت الرسل إلا بالشريعة، فالدعاة إلى الله يُعممون الدعوة، ويُحرِّضون على التبتل والانقطاع إلى الله، وينظرون إلى ما يبرز من غيب المشيئة. وقال الورتجبي: عن جعفر الصادق ﴿وماخلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ أي: ليعرفوني هـ. ومداره قوله ﷺ فيما يحكيه عن رب العزة: «كنت كنزاً مخفيا لم أُعرف، فأحببتُ أن أُعرف، فخلقت الخلق لأُعرف»[1] أي: ما أظهرت الخلق إلا لأعرف بهم، فتجليت بهم في قوالب العبودية، لتظهر ربوبيتي في قوالب العبودية، فتظهر قدرتي وحكمتي، فسبحان الحكيم العليم.

قال أبو السعود: ولعل السر في التعبير عن المعرفة بالعبادة للتنبيه على أن المعتَبر هي المعرفة الحاصلة بعبادته تعالى، لا ما يحصل بغيرها، كمعرفة الفلاسفة.هـ.**قلت**: وكل معرفة وحقيقة لا تصحبها شريعة لا عبرة بها، بل هي زندقة أو دعوى[2]. وبالله التوفيق .

وقوله تعالى: ﴿إن الله هو الرزّاقُ ذو القوة المتين﴾، هذه الآية وأمثالها هي التي غسلت الأمراض والشكوك من قلوب الصدِّيقين، حتى حصل لهم اليقين الكبير، فسكنت نفوسُهم، واطمأنت قلوبهم، فهم في روح وريحان. والأحاديث في ضمان الرزق كثيرة، وأقوال السلف كذلك، وفي حديث أبي سعيد الخدري عنه ﷺ قال: «لو فرَّ أحدُكم من رِزْقه لتبعه كما يَتْبعه الموتُ»[3] وقال أيضا عن الله عز وجل: «يقول: يابن آدم تفرغْ لعبادتي، أملأْ صدرك غنىً، وأسُد فقرك، وإلا تفعل ملأت يدك شُغلاً»[4]، وقال ﷺ: «من كانت الآخرة همَّه، جعل الله غناه في قلبه، وجمع له شمْلَه، وأتته الدنيا وهي صاغرة، ومن كانت الدنيا همه؛ جعل الله فقرَه بين عينيه، وفرّق عليه شمْلَه، ولم يأته من الدنيا إلا ما قُدِّر له»[5].

---

(١) قال ابن تيمية: إنه ليس من كلام النبي ﷺ، ولايُعرف له سند صحيح ولا ضعيف، وتبعه الزركشي وابن حجر. انظر: الشذرة (ح ٧١٧) وأسنى المطالب (١١١٠) وتنزيه الشريعة ١/١٤٨).

(٢) صدقت يا شيخنا رضي الله عنك.

(٣) أخرجه الطبراني في الصغير (١/٢٢٠) والأوسط (ح ٤٤٤٤) وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٤/٧٢): «رواه الطبراني في الأوسط والصغير، وفيه عطية العوفي، وهو ضعيف وقد وثِّق».

(٤) أخرجه أحمد في المسند (٢/٣٥٨) والترمذي في (صفة القيامة ٤/٥٥٤، ح ٢٤٦٦) وابن ماجة في (الزهد، باب الهم بالدنيا، ح ٤١٠٧) والحاكم (٢/٤٤٣) «وصححه وافقه الذهبي، من حديث أبي هريرة.

(٥) أخرجه الترمذي في الموضع السابق (ح٢٤٦٥) من حديث أنس، وبنحوه أخرجه ابن ماجة في الموضع السابق (ح ٤١٠٥) من حديث زيد بن ثابت رضي الله عنه .

وقال المحاسبي: قلت لشيخنا: من أين وقع الاضطراب في القلوب، وقد جاء الضمان من الله عز وجل؟ قال: مِن وجهين؛ من قلة المعرفة وقلة حسن الظن. ثم قال: قلت: شيء غيره؟ قال: نعم، إن الله عز وجل وَعَدَ الأرزاق وضمنها، وغيّب الأوقات، ليختبر أهل العقول، ولولا ذلك لكان كل المؤمنين راضين، صابرين، متوكلين، لكن الله ـ عز وجل ـ أعلمهم أنه رازقهم، وحلف لهم، وغيّب عنهم أوقات العطاء، فمِن هنا عُرف الخاص من العام، وتفاوت العباد، فمنهم ساكن، ومنهم متحرك، ومنهم ساخط، ومنهم جازع، فعلى قدر ما تفاوتوا في المعرفة تفاوتوا في اليقين .هـ. مختصراً . وبالله التوفيق. وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

❁ ❁ ❁

سُورَةُ الطُّورِ

مكية. وهى سبع وأربعون آية. ومناسبتها لما قبلها قوله: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴾[1] وهو يوم القيامة، وهو الذى أقسم عليه بقوله:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالطُّورِ (١) وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ (٢) فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ (٣) وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ (٤) وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ (٥) وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ (٦) إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ (٧) مَّا لَهُ مِن دَافِعٍ (٨) ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ والطورِ ﴾، هو الجبل الذى كلّم الله عليه موسى بمدين، ﴿ وكتابٍ مسطور ﴾ وهو القرآن العظيم، ونكّر لأنه كتاب مخصوص من بين سائر الكتب، أو: اللوح المحفوظ، أو: التوراة، كتبه الله لموسى، وهو يسمع صرير القلم، ﴿ في رَقٍّ منشور ﴾، الرَّق: الجلد الذى يُكتب فيه، والمراد: الصحيفة، وتنكيره للتفخيم والإشعار بأنها ليست مما يتعارفه الناس، والمنشور: المفتوح لا ختم عليه، أو: الظاهر للناس، ﴿ والبيتِ المعمور ﴾ وهو بيت فى السماء السابعة، حِيال الكعبة، ويقال له: الضُّرَاح[2]، وعُمرانه بكثرة زواره من الملائكة، رُوِى: أنه يدخله كل يوم سبعون ألف ملك، يطوفون به، ويخرجون، ومن دخله لا يعود إليه أبداً[3]، وخازنه ملَك يُقال له: «رزين». وقيل: الكعبة، وعمارته بالحجاج والعمّار والمجاورين.

﴿ والسقفِ المرفوع ﴾ أى: السماء، أو: العرش، ﴿ والبحر المسجُور ﴾ أى: المملوء، وهو البحر المحيط، أو الموقد، من قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴾[4]، والمراد الجنس، رُوِى «أن الله تعالى يجعل البحار يوم القيامة

---

(١) الآية الأخيرة من سورة الذاريات.

(٢) روى ذلك عن ابن عباس، مرفوعاً، فيما ذكره السيوطى فى الدر (٦/١٤٤) وعزاه للطبرانى وابن مردويه، بسند ضعيف. وأخرجه ابن جرير، عن سيدنا علىّ رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم فى (الإيمان) باب الإسراء برسول الله ﷺ ح رقم ٥٩، ح ١٦٢) عن أنس بن مالك رضي الله عنه فى حديث الإسراء، وفيه: «فإذا أنا بإبراهيم عليه السلام مسنداً ظهره إلى البيت المعمور، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملَك، لا يعودون إليه...» الحديث.

(٤) الآية ٦ من سورة التكوير.

ناراً، تسجر بها نار جهنم، كما يسجر التنور بالحطب، وعن ابن عباس: المسجور: المحبوس[1]، أي: المُلْجَم بالقدرة. والواو الأولى للقسم، والتوالي للعطف، والمقسم عليه: ﴿إنَّ عذاب ربك لواقعٌ﴾؛ لنازل حتماً، ﴿ما له من دافع﴾ أي: لا يمنعه مانع، والجملة: صفة لواقع، أي: وقع غير مدفوع. و«من» مزيدة للتأكيد، وتخصيص هذه الأمور بالإقسام بها؛ لأنها أمور عظام، تُنبئ عن عِظم قدرة الله تعالى، وكمال علمه، وحكمته الدالة على إحاطته تعالى بتفاصيل أعمال العباد، وضبطها، الشاهدة بصدق أخباره، التى من جملتها: الجملة المُقسَم عليها.

الإشارة: أقسم الله تعالى بجبل العقل، الذى أرسى به النفس أن تميل إلى مافيه هلاكها، وبما كتب فى قلوب أوليائه من اليقين، والعلوم، والأسرار، قال تعالى: ﴿ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ ﴾[2] وذلك حين رقّت وصَفَت من الأغيار، ثم أقسم أيضا بذلك القلب، وهو البيت المعمور؛ لأن القلب بيت الرب، «يا داوود طهِّر بيتاً أسكُنه...» الحديث[3]، وهو معمور بالمعارف والأنوار، وأقسم بسماء الأرواح المرفوعة عن خوض عالم الأشباح، وهو سقف بيت القلب، وبحر الأحدية الذى عمر كلّ شىء، وأحاط بكل شىء، وأفنى كلّ شىء، فالوجود كله بحر متصل، أوله وآخره، وظاهره وباطنه. إنّ عذاب ربك لأهل العذاب، وهم أهل الحجاب، لواقع، وأعظم العذاب: غم الحجاب وسوء الحساب. ومن دعاء السرى السقطى: اللهم مهما عذبتنى فلا تعذبنى بذل الحجاب.هـ. ما له من دافع؛ لا يدفعه أحد من الخلق، إلا مَن رحم الله، أو: مَن أهّله الله لذلك من أهل التربية النبوية.

ثم ذكر وقت ما أقسم عليه، فقال:

﴿ يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ﴿٩﴾ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: واذكر﴿ يومَ تَمورُ﴾ أو: لواقع يوم تمور ﴿السماءُ﴾ أي: تدور كالرحى مضطربة ﴿ موراً﴾ عظيماً تتكفأ بأهلها كالسفينة، ﴿ وتسير الجبالُ سيراً﴾ أي: تزول عن وجه الأرض، فتصير فى الهواء

(١) أخرجه الطبرى. (٢) من الآية ٢٢ من سورة المجادلة.
(٣) ذكره ابن القيسرانى فى تذكرة الموضوعات (٥٣٦).

كالهباء. وتأكيد الفعل بمصدريهما للإيذان بغرابتهما وخروجهما عن الحدود المعهودة، أي: موراً عجيباً وسيراً بديعًا، لايدرك كنههما. ﴿فويل يومئذ للمكذِّبين﴾ إذا وقع ذلك، أو: إذا كان الأمر كما ذكر، فويل لهم إذا وقع ذلك، ﴿الذين هم في خوض﴾ أي: في اندفاع عجيب في الأباطيل والأكاذيب ﴿يلعبون﴾: يلهون، فالخوض غلب بإطلاقه في الاندفاع في الباطل والكذب، ومنه قوله: ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِين﴾[1]. ﴿يوم يُدعُّون إلى نار جهنم دعًّا﴾ أي: يُدفعون إليها دفعاً عنيفاً شديداً، بأن تُغَلّ أيديهم إلى أعناقهم، وتجمع نواصيهم إلى أقدامهم، فيُدفعون إلى النار على وجوههم، ويقال لهم: ﴿هذه النارُ التي كنتم بها تُكذِّبون﴾ في الدنيا.

﴿أفَسِحْرٌ هذا﴾، توبيخ وتقريع لهم، حيث كانوا يُسمون الوحي الناطق بذلك العذاب سحراً، كأنه قيل: كنتم تقولون للقرآن الناطق بهذا سحراً، أفهذا أيضا سحر؟. وتقديم الخبر لأنه محط الإنكار ومدار التوبيخ. ﴿أم أنتم لا تُبصرون﴾؛ أم أنتم عُمْيٌ عن المخبر عنه، كما كنتم عُميًا عن الخبر؟ وهذا تقريع وتهكم. ﴿اصْلَوها فاصبروا أو لا تصبروا﴾ أي: ادخلوها وقاسوا شدائدها فافعلوا ما شئتم من الصبر وعدمه، ﴿سواءٌ عليكم﴾ الأمران؛ الصبر وعدمه، فـ«سواء»: مبتدأ حُذف خبره. وعلل استواء الصبر وعدمه بقوله: ﴿إنما تُجزَوْن ماكنتم تعملون﴾ من الكفر والمعاصي، فالصبر إنما يكون له مزية على الجزع لنفعه في العاقبة؛ بأن يُجازى عليه الصابر جزاءَ الخير، وأما الصبر على العذاب، الذي هو الجزاء، ولا عاقبة له ولا منفعة، فلا مزيّة له على الجزع. نعوذ بالله من موارد الهوان.

الإشارة: يوم تمور سماء الأرواح، أي: تتحرك الأرواح وتهيج بالواردات الإلهية، شوقاً إلى اللقاء، فإذا حصل اللقاء وقع لها السكون والطمأنينة، ولذلك قيل: «المحبة أولها جنون، ووسطها فنون، وآخرها سكون». وسبب هذا الاضطراب الذي يظهر على المريد في أول بدايته: أنّ جند الأنوار إذا أراد أن يدخل على جند الأغيار، ويُخرجه من وطنه ـ الذي هو باطن العبد ـ وقع بينهما تجارب وتضارب، فجند الأنوار يريد أن يقلع جند الأغيار من باطن العبد، ويسكن هو، وجند الأغيار يريد المقام في وطنه، فلايزال القتال بينهما، حتى يغلب واحد منهما، فإذا غلب جند الأنوار سكن في الباطن، وسكن الظاهر، ولم تقع فكرة العبد إلا في التوحيد، أو مايقرب إلى الحق تعالى، وإذا غلب جند الأغيار، ولم يترك جند الأنوار يدخل إلى الباطن، سكن الظاهر أيضًا، ويبقى باطن العبد محشواً بالخواطر والوساوس الدنيوية كما كان، ورجع العبد إلى مقام العمومية.

وقوله تعالى: ﴿وتسير الجبال سيراً﴾ أي: تزول جبال وجود العبد عند إشراق أنوار الحقائق، فويل يومئذ للمكذِّبين، أي: بُعْدٌ لأهل الإنكار عن حضرة الأسرار، حين ظفر الطالب بالمطلوب، ووصل المحب إلى المحبوب،

(١) الآية ٤٥ من سورة المدثر.

الذين هم فى خوض الدنيا وشهواتها وزخارفها يلعبون، لا حديث لهم إلا عليها، ولا فكرة إلا فيها. يوم يُدَعّون إلى النار القطيعة والبُعد، دعًّا، لا خلاص منها، ولا رجوع، فتناديهم عزةُ الحق تعالى: هذه النار التى كنتم بها تُكذبون، وتقولون: لا يقطعنا عن الله شيء من الدنيا، وترمون أهلَ التربية بالسحر، أفسحر هذا أم أنتم لا تُبصرون حقائق هذه المعانى؟ اصلَوا نار القطيعة، فاصبروا على غم الحجاب، أو لا تصبروا، إذ لم تصبروا على مخالفة النفوس حين ينفعكم الصبر، سواء عليكم أجزعتم أم صبرتم، إنما تُجْزَون ماكنتم تعملون فى الدنيا، من إيثار الهوى والحظوظ، على مجاهدة النفوس.

ثم ذكر أضدادهم، فقال:

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ
عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ
مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا
بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾ وَأَمْدَدْنَٰهُم
بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿إنَّ المتقين﴾ الشرك والمعاصى ﴿في جنات﴾ عظيمة ﴿ونعيم﴾ أىّ نعيم، فالتنكير للتفخيم، أو: للتنوع، أى: جناتٍ مخصوصة بهم، ونعيمٍ مخصوص، ﴿فاكهين﴾؛ ناعمين متلذذين ﴿بما آتاهم ربُهم﴾؛ بما أتحفهم، ﴿ووقاهم ربُّهم عذابَ الجحيم﴾، عطف على «آتاهم» على أن «ما» مصدرية، أى: فاكهين بإتيانهم وبوقايتهم، أو: على «فى جنات النعيم» أى: استقروا فى جنات ووقاهم، أو: حال، إما من المستكن فى الخبر، أو: من فاعل «آتى»، أو: مفعوله بإضمار «قد». وإظهار الرب فى موضع الإضمار مضافًا إلى ضمير (هم) لتشريفهم، ويُقـال لهم: ﴿كُلوا واشربوا﴾ ماشـئتم ﴿هنيئاً﴾ أى: أكلاً وشرباً هنيئاً، أو: طعاماً وشراباً هنيئًا، لا تنغيص فيه بخوف انقطاعه أو فواته، ﴿بما كنتم﴾ أى: عوض ما كنتم ﴿تعملون﴾ فى الدنيا من الخير، أو جزاءه.

﴿متكئين على سُررٍ مصفوفةٍ﴾؛ مصطفة، وهو حال من الضمير فى «كلوا واشربوا»، ﴿وزوَّجناهم﴾ أى: قرناهم ﴿بحُورٍ﴾؛ جمع حوراء ﴿عينٍ﴾: جمع عيناء، أى: عظام الأعين حِسانها. وفى الكشاف: وإنما دخلت

الباء في (بِحُورٍ) لتضمن معنى زوجناهم قرناهم .هـ. وقال الهروى: (زوَّجناهم) أى: قرناهم، والأزواج: الأشكال والقرناء، وليس في الجنة تزويج .هـ. والمنفى: تحمل مؤنة التزويج والمعاقدة، وإنما يقع التمليك والإقران.

﴿ والذين آمنوا ﴾: مبتدأ، ﴿ واتَّبعتهم ذريتُهم ﴾: عطف على (آمنوا)، و﴿ بإيمان ﴾ متعلق بالاتباع، والخبر: ﴿ ألحقنا بهم ذرياتهم ﴾[1] أى: تلحق الأولاد بدرجات الآباء؛ إذ شاركوهم في الإيمان، وإن قصرت أعمال الذرية عن أعمال الآباء، وكذلك الآباء تلحق بدرجة الأبناء؛ لتقرّ بذلك أعينهم، فيلحق بعضهم ببعض، إذا اجتمعوا في الإيمان من غير أن ينقص أجر مَنْ هو أحسن عملاً شيئًا، بزيادته في درجة الأنقص، ولافرق بين مَنْ بلغ مِن الذرية، أو لم يبلغ، إذا كان الآباء مؤمنين. انظر الثعلبى.

وفي حديث ابن عباس: «إذا دخل أهلُ الجنة الجنة، يسأل الرجلُ عن أبويه، وزوجته، وولده، فيُقال: إنهم لم يُدركوا ما أدركتَ، فيقول: لقد عملتُ لى ولهم أجمعين، فيؤمر بإلحاقهم به»[2]. قال القشيرى: ليكمل عليهم سرورهم بذلك؛ فإنّ الانفراد بالنعمة والقلب مشتغل بالأهل والذرية ينغص العيش، وكذلك كل من يلاحظ قلبًا من صديق وقريب وولىّ وخادم، قال تعالى في قصة يوسف: ﴿ وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾[3] .هـ.

قال في الحاشية: وربما يستأنس بما ذُكر في الجملة بقوله: ﴿ ومن يطعِ الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم اللهُ عليهم... ﴾ الآية[4]، وما قيل في سبب نزولها[5]، وكذلك حديث: «المرء مع من أحب»[6]، وحال الجنة مما لا يخطر على بال، فيجوز أن يكون الأدنى مع الأعلى بمنازلته معه، مع مباينته له بحقيقته، كما أنّ حَيطة الحق تعالى شاملة للكل، وكل يتعرف له على قدره، فالكل معه بمطلق التعرف، مع تحقق التفاوت، وأهل الجنة فيها على حكم الأرواح، وأحكامها لا تكيف، واعتبر بالفروع مع الأصول، مع تفاوتها. والله أعلم .هـ.

---

(١) أثبت المفسر ـ رحمه الله ـ قراءة «ذرياتهم» بالجمع، وهى قراءة نافع وأبى جعفر، في الثانى دون الأول، وقرأ ابن كثير، وعاصم، وحمزة، والكسائى، وخلف: «ذريتهم» بالتوحيد في الأول والثانى، وقرأ ابن عامر ويعقوب «ذرياتهم» بالجمع في الأول والثانى. انظر الإتحاف ٢/٤٩٥ ـ ٤٩٦.

(٢) عزاه السيوطى في الدر (٦/١٤٨) للطبرانى وابن مردويه، عن ابن عباس رضي الله عنه مرفوعاً..

(٣) من الآية ٩٣ من سورة يوسف.

(٤) الآية ٦٩ من سورة النساء.

(٥) راجع سبب نزول الآية في (١/٥٢٥).

(٦) أخرجه البخارى في (الأدب، باب علامة الحب في الله، ح٦١٦٩ وح ٦١٧٠) عن ابن مسعود، وأبى موسى ـ رضى الله عنهما، ومسلم في (البر والصلة، باب المرء مع من أحب، ح ٢٦٤٠) عن ابن مسعود.

والحاصل: أنهم يلحقون بهم في الطبقة، ويتفاوتون في نعيم الأرواح والأشباح، وفي الرؤية والزيادة[1]. والله تعالى أعلم.

﴿ وما ألتناهم ﴾ أي: ما نقصنا الآباء بهذا الإلحاق ﴿ من عملهم ﴾؛ من ثواب عملهم ﴿ من شيء ﴾ بأن أعطينا بعض مثوباتهم لأبنائهم، فتنقص مثوبتهم، وتنحط درجتهم، وإنما رفعناهم إلى منزلتهم بمحض التفضل والإحسان. والألت: البخس. وقرأ المكي: (ألِتناهم) بكسر اللام، من: ألِت يألَت، كعلم يعلم[2]، و«من» الأولى متعلقة بـ«ألتناهم»، والثانية زائدة لتأكيد النفي. ﴿ كُلُّ امرىء بما كسب رهينٌ ﴾ أي: كل امرىء مرهون عند الله تعالى بعمله، فإن كان صالحاً فله، وإلا أهلكه. والجملة: استئناف بياني، كأنه لمّا قال: مانقصناهم من عملهم شيئًا نعطيه الأبناء حتى يلحقوا بهم على سبيل التفضل، قيل: لِمَ كان الإلحاق تفضلاً؟ قال: لأن كل امرىءٍ بما كسب رهين، وهؤلاء لم يكن لهم عمل يلحقوا بسببه بهم، فأُلحقوا تفضلاً.

﴿ وأمددناهم ﴾ أي: وزودناهم في وقت بعد وقت ﴿ بفاكهةٍ ولحمٍ مما يشتهون ﴾ من فنون النعماء وألوان اللآلئ، وإن لم يطلبوا ذلك. ﴿ يتنازعون فيها كأساً ﴾ أي: يتعاطون ويتعاورون[3] هم وجلساؤهم من أقربائهم كأساً فيها خمر، يتناول هذا الكأسَ من يد هذا، وهذا من يد هذا، بكمال رغبة واشتياق، ﴿ لا لغوٌ فيها ﴾ أي: في شربها، فلا يتكلمون في أثناء الشراب إلا بكلام طيب، فلا يجرى بينهم باطل، ﴿ ولا تأثيمٌ ﴾ أي: لا يفعلون ما يُوجب إثمًا لصاحبه لو فعله في دار التكليف، كما هو شأن المُنادمين في الدنيا، وإنما يتكلمون بالحِكَم وأحاسنِ الكلام، ويفعلون مايفعله الكرام.

قال القشيري: ﴿لا لغوٌ فيها ولا تأثيم﴾ لا يجرى بينهم باطل ولا مافيه لوم، كما يجرى من الشَّرْب[4] اليوم في الدنيا، ولا تذهب عقولهم، فيجرى بينهم ما يُخرج عن حدّ الأدب والاستقامة، وكيف لايكون مجلسهم بهذه الصفة، وعلى المعلوم من يسقيهم بمشهد من مجلوسهم، وعلى رؤية من شربهم، والقوم عن الدار وعن مافيها مختطفون باستيلاء مايستغرقهم، فالشراب يؤنسهم، ولكن لايمر بحاستهم. هـ.

وقرأ المكي والبصري بالفتح[5] فيها على إعمال «لا» النافية للجنس.

---

(١) على هامش النسخة الأم مايلي: هذا تحكم على الآية، وعلى كرم الله تعالى، فإن الآية مطلقة في الإلحاق، فلا يُقيدها إلا آية، أو حديث صحيح. هـ.

(٢) والأول (ألَتناهم) بفتح اللام، من: ألَت يألِت، كضرب يضرب.

(٣) تعوروا الشيء وتعاوروه: تداولوه فيما بينهم. انظر اللسان (عور ٤/٣١٦٨).

(٤) الشَّرْب: جمع شارب، كراكب، وركب. وهم القوم يشربون ويجتمعون للشراب، انظر اللسان (شرب، ٤/٢٢٢٢).

(٥) في «لا لغو فيها ولا تأثيم»، وقد قرأ ابن كثير وأبو عمرو بالفتح بلا تنوين، وقرأ الباقون بالرفع والتنوين. انظرالإتحاف ٤٩٦/١.

الإشارة: إنَّ المتقين ماسوى الله في جنات المعارف عاجلاً، وجنات الزخارف والمعارف آجلاً، ونعيم المشاهدات والمكاشفات والمناجاة، فاكهين، معجبين، متلذذين بما آتاهم ربهم من أصناف ألطافه، وتقريبه، ووقاهم ربُهم عذابَ الجحيم، أي: نار شهوة نفوسهم، فبردت عنهم، وسلِموا منها، كلوا من طعام المشاهدات، واشربوا من أمداد الزيادات والترقيات، هنيئًا بما كنتم تعملون من المجاهدات والمكابدات، متكئين على سُررِ المقامات، والدرجات، مصفوفة في منازل العبودية، وزوجناهم بحورٍ عين من أبكار الحقائق، وثيبات العلوم، والذين آمنوا بهذه الطريق وسلكوها، واتبعتهم ذريتهم ومَنْ تعلق بهم من طلاب الحق، ألحقنا بهم ذريتهم ومَنْ تعلق بهم، وإن لم يبلغوا صفاء مشربهم من الوصال والاتصال، فيكونون معهم في الدرجة، مع تفاوتهم في نعيم المشاهدة، وما ألتناهم من عملهم من شيء، بل ألحقناهم بهم فضلاً وكرماً، مع توفر ثواب عمل الملحق بهم. كل امرىء بما كسب رهين، لايزيد نعيم روحه على سعيه في الدنيا ومجاهدته، وإن تساوى في الدرجة مع غيره. وأمددناهم بفاكهةٍ من حلاوة المعاملة، ولحمٍ مما يشتهون من لذائذ المشاهدة، يتنازعون فيها؛ في جنة المعارف، كأس خمرة المحبة والفناء، فيفنون عن وجودهم في شهود محبوبهم. يتناولون ذلك من أشياخهم واحداً بعد واحد، وقد يجتمعون في كأس واحدة، لا لغو فيها، أي: لا حديث للنفس في حال شربها، بل الهم كله مجموع فيها، كما قال القائل:

وإذا جلستَ إلى المُدام وشُربِهِ فاجعلْ حديثك كلَه في الكاس

فالخمرة التي يشوبها شيء من حديث النفس ليست بصافية من الأكدار. ولا تأثيم بنزوع الروح إلى طبع النفس، إذا نزلت إلى سماء الحقوق، أو أرض الحظوظ، بل تكون في ذلك بالله، ومن الله، وإلى الله، تنزل بالإذن والتمكين، والرسوخ في اليقين، جعلنا الله من ذلك القبيل بمنّه وكرمه.

وقال الورتجبي: ﴿يتنازعون...﴾ الآية: وصفهم الله في شربهم كاسات شراب الوصلة بالمسارعة والشوق إلى مزيد القُربة، ثم وصف شرابَهم أنه يورثهم التمكين والاستقامة في السُكْر، لايزول حالهم إلى الشطح والعربدة، وما يتكلم به سكارى المعرفة في الدنيا عند الخلق، ولا يشابهُ حالُ أهل الحضرة حالَ أهل الدنيا من جميع المعاني.هـ.

ثم قال تعالى:

﴿ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ
يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا
عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ويطوفُ عليهم ﴾ أى: بالكأس أو: فى شأن الخدمة كلها ﴿ غِلْمانٌ لهم ﴾ أى: مماليك مخصصون بهم، قيل: أولاد الكفار الذين ماتوا صغاراً، وقيل: تُوجِدهم القدرةُ من الغيب، وفى الحديث: «إن أدنى أهل الجنة منزلة من يُنادِى الخادِمَ مِن خدامه، فيجيبه ألفٌ، كلهم يُناديه: لبيك لبيك»[(١)]. قلت: هذا فى مقام أهل اليمين، ولَما المقربون فإذا اهتموا بشيء حضر، بغلامٍ أو بغير غلام، من غير احتياج إلى نداء. وقال ابن عمر رضي الله عنه: (ما من أحد من أهل الجنة إلا يسعى عليه ألف غلام، كل غلام على عمل ماعليه صاحبه)[(٢)].

﴿ كأنهم ﴾ من بياضهم وصفائهم ﴿ لؤلؤٌ مكنون ﴾؛ مصون فى الصدف؛ لأنه حينئذ يكون أصفى وأبهى، أو مخزون؛ لأنه لايخزن إلا الثمِن الغالى القيمة. قيل لقتادة: هذا الخادم فكيف المخدوم؟، فقال: قال رسول الله ﷺ: «والذى نفسى بيده إن فضل المخدوم على الخادم كفضل القمر ليلة البدر على سائر النجوم»[(٣)].

﴿ وأقبل بعضُهم على بعضٍ يتساءلون ﴾؛ يسأل بعضُهم بعضاً عن أحواله وأعماله، وما استحق به نيل ماعند الله، فكل بعضٍ سائل ومسئول. ﴿ قالوا ﴾ أى: المسئولون فى جوابهم، وهم كل واحد منهم فى الحقيقة: ﴿ إِنَّا كنا قبلُ فى أهلنا ﴾ أى: فى الدنيا ﴿ مُشفقين ﴾ أرِقَّاء القلوب من خشية الله، أو: خائفين من نزع الإيمان وفوت الأمان، أو: من ردّ الحسنات والأخذ بالسيئات، أو: واجلين من العاقبة، ﴿ فمنَّ اللهُ علينا ﴾ بالمغفرة والرحمة ﴿ ووقانا عذابَ السَّموم ﴾ وهى الريح الحارة، التى تدخل المسام؛ فسميت بها نار جهنم؛ لأنها بهذه الصفة. ﴿ إِنَّا كنا قبلُ ﴾ أى: من قبل لقاء الله والمصير إليه ـ يعنون: فى الدنيا، ﴿ ندْعُوه ﴾؛ نعبده ولا نعبد غيره، أو نسأله الوقاية، ﴿ إنه هو البرُّ ﴾؛ المحسن ﴿ الرحيمُ ﴾؛ الكثير الرحمة، الذى إذا عُبد أثاب، وإذا سُئل أجاب، وقرأ نافع والكسائى بالفتح[(٤)]، أى: لأنه، أو بأنه.

الإشارة: ويطوف على قلوبهم علومٌ وهبية، وحِكَمٌ غيبية، تزهو على اليواقيت المكنونة. وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون: كيف سلكوا طريق الوصول، وكيف كانت مجاهدة كل واحد ومسيره إلى الله، إما تحدثاً بالنعم، أو: للاقتداء بهم، وفى الحِكَم: «عبارتهم إما لفيضان وَجدٍ، أو: لهداية مريد»[(٥)]. إنَّا كنا قبلُ الوصول فى أهلنا، أى: فى عالم الإنسانية مشفقين من الانقطاع والرجوع، خائفين من سَموم صفات البهيمية والشيطانية، والشهوات الدنيوية، فإنها تهب بسموم قهر الحق، قهر بها جُلّ عباده فانقطعوا عنه، فمنَّ الله علينا، ووصلنا بما منه إلينا، لا بما منا إليه،

---

(١) عزاه الحافظ ابن حجر فى الكافى الشاف (ص ١٦٠) للثعلبى، عن وكيع عن هشام عن أبيه، عن السيدة عائشة ـ رضى الله عنها.
(٢) ذكره البغوى فى تفسيره (٧/ ٣٩٠).
(٣) أخرجه عبد الرزاق فى التفسير (٢/ ٢٤٨) والطبرى (٢٧/ ٢٩) عن قتادة، مرسلاً.
(٤) فى «ندعوه أنه» على التعليل، وقرأ الباقون «إنه» بالكسر على الاستئناف. انظر الإتحاف (٢/ ٤٩٧).
(٥) حكمة رقم ١٨٦ انظر الحكم بتبويب المتقى الهندى (ص/ ٣٦).

ووقانا عذاب السموم، وهو الحرص والجزع، والانقطاع عن الحبيب، ولولا فضله ماتخلصنا منه، إنّا كنا من قبل الوصول ندعوه أن يأخذ بأيدينا، ويجذبنا إلى حضرته، ويرحمنا بالوصول، ويبرّ بنا، إنه هو البر بمزيده، الرحيم بمن يُنيب إليه.

ثم أمر نبيّه باستمراره على ما أمره به من التذكير فيما سلف، فقال:

﴿ فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ
بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم
بِهَٰذَآ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ
إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾
أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾
أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ
كَيْدًا فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿فذكِّرْ﴾ أي: فاثبت على ما أنت عليه من تذكير الناس وموعظتهم، ﴿فما أنت بنعمت ربك﴾ أي: بحمده وإنعامه عليك بالنبوة ورجاحة العقل ﴿بكاهنٍ ولا مجنونٍ﴾ كما زعموا، قاتلهم الله أنّى يؤفكون، ﴿أم يقولون شاعرٌ نتربصُ به رَيْبَ المنونِ﴾ أي: حوادث الدهر، أي: ننتظر به نوائب الزمان حتى يهلك كما هلك الشعراء من قبله، زهير والنابغة. و«أم» في هذه الآي منقطعة بمعنى «بل». ﴿قل تربصوا فإني معكم من المتربصين﴾ أتربّص هلاككم، كما تتربصون هلاكي. وفيه عِدة كريمة بإهلاكهم، وقد جرب أنّ من تربص موت أحد لينال رئاسته، أو ماعنده، لايموت إلا قبله.

﴿أم تأمرهم أحلامُهم﴾ أي: عقولهم ﴿بهذا﴾ التناقض في المقالات، فإنّ الكاهن يكون ذا فطنة ودقة نظر في الأمور، والمجنون مُغطى عقله، مختل فكره، والشاعر يقول ما لا يفعل، فكيف يجتمع أوصاف هؤلاء في

واحد؟ وكانت قريش يُدْعَون أهل الأحلام والنُهى، فكذبهم ماصدر منهم من هذه المقالات المضطربة، ﴿أم هم قوم طاغُون﴾ يُجاوزون الحدودَ فى المكابرة والعناد، ولا يحومون حول الرشد والسداد. وإسناد الأمر إلى الأحلام مجازٌ.

﴿أم يقولون تَقوَّله﴾؛ اختلقته من تلقاء نفسه، ﴿بل لا يؤمنون﴾، ردٌ عليهم، أى: ليس الأمر كما زعموا، بل لكفرهم وعنادهم يقذفون بهذه الأباطيل، التى لا يخفى بطلانها على أحد، فكيف يقدر البشر أن يأتى بما عجز عنه كافة الأمم من العرب والعجم، ﴿فليأتوا بحديثٍ مثْله﴾ أى: مثل القرآن فى البلاغة والإعجاز ﴿إن كانوا صادقين﴾ فى أن محمداً تقوّله من تلقاء نفسه؛ لأنه بلغاتهم، وهم فصحاء، مشاركون له ﷺ فى العربية والبلاغة، مع مالهم من طُول الممارسة للخطب والأشعار، وكثرة المقاولة للنظم والنثر، والمبالغة فى حفظ الوقائع والأيام، ولاريب فى أنّ القدرة على الشيء من موجبات الإتيان به مع دواعى الأمر بذلك من تعجيزهم وإفحامهم وطلب معارضتهم.

﴿أم خُلقوا من غير شيءٍ﴾ أى: أم أُحدثوا وقُدّروا هذا التقدير البديع، الذى عليه فطرتهم، من غير محدث ومقدّر. أو: أم خُلقوا من غير شيء من الحكمة، بأن خُلقوا عبثًا، فلا يتوجه عليهم حساب ولاعقاب؟ ﴿أم هم الخالقون﴾؛ المُوجدون لأنفسهم؟ فيلزم عليه الدور، وهو تقدم الشيء على نفسه وتأخره عنها، ﴿أم خَلقوا السمواتِ والأرض﴾ فلا يعبدون خالِقهما ﴿بل لا يُوقنون﴾؛ لا يتدبرون فى الآيات، فيعلمون خالقهم، وخالق السموات والأرض، فيُفردونه بالعبادة.

﴿أم عندهم خزائنُ ربك﴾ من النبوة والرزق وغيرهما، فيخصّوا بما شاءوا مَن شاءوا، ﴿أم هم المصَيْطِرون﴾ أى: الأرباب الغالبون، المُسلّطون على الأمور يدبرونها كيف شاءوا، حتى يُدبروا أمر الربوبية، ويبنوا الأمور على إرادتهم ومشيئتهم. وقرأ المكى والشامى بالسين على الأصل.

﴿أم لهم سُلَّمٌ﴾ منصوب يرتقون به إلى السماء، ﴿يستمعون فيه﴾ كلامَ الملائكة، وما يُوحى إليهم من علم الغيب، حتى يعلموا أن ما هم عليه حق، وماعليه غيرهم باطل، أو ماهو كائن من الأمور التى يتفوّهون بها رجمًا بالغيب، ويعلّقون بها أطماعهم الفارغة من هلاكه ﷺ قبلهم، وانفرادهم بالرئاسة. و«فى»: سببية، أى: يستمعون بسبب حصولهم فيه، أو: ضمّن «يستمعون» يعرجون. وقال الزجاج: (يستمعون فيه) أى: عليه، ﴿فليأت مُستمعُهم بسلطانٍ مبين﴾؛ بحجة واضحة، تصدق استماع مستمعهم.

ثم سفّه أحلامهم بقوله: ﴿أم له البناتُ ولكم البنونَ﴾، حيث اختاروا لله مايكرهون، وهم حكماء في زعمهم، ﴿أم تسألُهم أجراً﴾ على التبليغ والإنذار ﴿فهم﴾ لأجل ذلك ﴿من مَغْرَم مُثقلون﴾ أي: من التزام غرامة فادحة محمّلون الثقل، فلذلك لا يتبعونك. والمغرم: أن يُلزم الإنسان ماليس عليه. ﴿أم عندهم الغيبُ﴾ أي: اللوح المحفوظ، المكتوب فيه الغيوب، ﴿فهم يكتبون﴾ مافيه، حتى يتكلموا في ذلك بنفي أو إثبات.

﴿أم يُريدون كيداً﴾ هو كيدهم برسول الله ﷺ في دار الندوة، ﴿فالذين كفروا﴾ وهم المذكورون، ووضع الموصول موضع ضميرهم؛ للتسجيل عليهم بالكفر، أي: فـ ﴿هم المكيدُونَ﴾ الذين يحيق بهم كيدُهم، ويعود عليهم وباله، لا مَن أرادوا أن يكيدوه وهو ما أصابهم يوم بدر وغيره. ﴿أم لهم إلهٌ غيرُ الله﴾ يمنعهم من عذابه، ﴿سبحان الله عما يُشركون﴾ أي: تنزيهاً له عن إشراكهم، أو: عن شركة ما يُشركونه به. وحاصل ماذكر الحق وتعالى من الإضرابات: أحد عشر، ثمانية طعنوا بها في جانب النبوة، وثلاثة في جانب الربوبية، وهو قوله: ﴿أم خُلقوا من غير شيء﴾، ﴿أم خَلقوا السماوات والأرض﴾، ﴿أم لهم إله غير الله﴾ ذكرها الحق تعالى تسلية لرسول الله ﷺ أي: كما طعنوا في جنابك طعنوا في جانبي، فاصبر حتى نأخذهم.

الإشارة: فذكّر أيها الخليفة للرسول، فما أنت بحمد الله بكاهن ولا مجنون، وإن رموك بشيء من ذلك. قال القشيري: قد علموا أنه ﷺ بريء من الكهانة والجنون، ولكنهم قالوه على جهة الاشتفاء، كالسفيه إذا بسط لسانه فيمن يشنأُه[1] بما يعلم أنه بريء مما يقوله.هـ. وكل ما قيل في جانب النبوة يُقال مثله في جانب الولاية، سُنَّة ماضية. قال القشيري: طبع الإنسان متنفرة من حقيقة الدين، مجبولة على حب الدنيا والحظوظ، لايمكن الخروج منها إلا بجهد جهيد، على قانون الشريعة، ومتابعة الرسول ﷺ وخلفائه، وهم العلماء الربانيون، الراسخون في العلم بالله، من المشايخ المسلِّكين في كل زمان، والخلق مع دعوى إسلامهم يُنكرون على سيرهم في الأغلب، ويستبعدون ترك الدنيا والعزلة، والانقطاع عن الخلق، والتبتل إلى الله، وطلب الأمن. كتب الله في قلوبهم الإيمان، وأيّدهم بروح منه، وهو الصدق في الطلب، وحسن الإرادة المنتجة من بذر ﴿يُحبهم ويُحبونه﴾، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء. هـ مختصراً.

وقوله تعالى: ﴿قل تربصوا...﴾ الآية، قال القشيري: ولا ينبغي لأحد أن يتمنى نفاق سوقه بموت أحد، لتنتهي النوبة إليه، قلَّ ماتكون هذه صفته إلا سبَقَته منيته، ولا يدرك ماتمناه.هـ. وقال في مختصره: الآية تُشير إلى التصبر في الأمور، ودعوة الخلق إلى الله، والتوكل على الله فيما يجري على يد عباده، والتسليم لأحكامه في

(١) أي: يبغضه.

المقبولين والمردودين.هـ. وقوله: ﴿أم تأمرهم أحلامُهم بهذا﴾... إلى قوله: ﴿عما يشركون﴾ هذه صفة أهل الانتقاد على أهل الخصوصية في كل زمان، وهي تدلّ على غاية حمقهم وسفههم، نجانا الله من جميع ذلك.

ثم هددهم بعد تبيين عنادهم، فقال:

﴿ وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿وإن يَرَوا كِسْفاً﴾؛ قطعة ﴿من السماء ساقطًا﴾ عليهم لتعذيبهم، ﴿يقولوا﴾ من فرط طغيانهم وعنادهم: هذا ﴿سحابٌ مركومٌ﴾ أي: تراكم بعضها على بعض لمطرنا، ولم يُصدقوا أنه ساقط عليهم لعذابهم، يعني: أنهم بلغوا في الطغيان بحيث لو أسقطناه عليهم حسبما قالوا: ﴿أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا﴾(١) لعاندوا وقالوا سحاب مركوم. ﴿فذرهم حتى يُلاقوا يومهم الذي فيه يصعقون﴾(٢)، وهو اليوم الذى صُعقوا فيه بالقتل يوم بدر، لا عند النفخة الأولى، كما قيل؛ إذ لا يصعق بها إلا من كان حيًّا حينئذ(٣). وقرأ عاصم والشامي بضم الياء، يقال: صعقه، فصُعق، أو: من أصعقه.

﴿يوم لا يُغني عنهم كيدُهم شيئًا﴾ من الإغناء، بدل من «يومهم» ولا يخفى أن التعرض لبيان عدم نفع كيدهم يستدعي استعمالهم له في الانتفاع به، وليس ذلك إلا مادبَّروه في أمره ﷺ من الكيد يوم بدر، من

---

(١) من الآية ٩٢ من سورة الإسراء.
(٢) قرأ عاصم وابن عامر «يصعقون» بضم الياء، مبنياً للمفعول. وقرأ الباقون بفتحها، مبنياً للفاعل. انظر الإتحاف (٢/٤٩٨).
(٣) على هامش النسخة الأم مايلي:
هذا باطل بداهة، بل المراد به عند النفخة، كما في آية المعارج: ﴿... حتي يلاقوا يومهم الذى يوعدون، يوم يخرجون من الأجداث...﴾ الآية: ٤٢ ـ ٤٣ . وقوله: لا يصعق بها إلا من كان حياً حينئذ، أبطل من الذى قبله، فإن الله تعالى يقول: ﴿فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله...﴾ ومن في الأرض عام، بدليل الحديث المخرّج في الصحيح: «يصعق الناس فأكون أول من أفاق، فإذا موسى باطش بالعرش، فلا أدرى أكان ممن صعق فأفاق قبلي، أو كان ممن استثنى الله» فصرح ﷺ النبي بأن جميع الخلق يصعقون، فمن أين جاء هذا الوهم في تخصيص ذلك بالأحياء، بل قوله تعالى: ﴿فإذا هم قيام ينظرون﴾ نص في ذلك أيضاً؛ لأن الضمير عائد على من في السموات ومن في الأرض. وأيضا: فإن يوم بدر لم يكن فيه صعق، وإنما كان فيه قتل، وليس هو بصعق. ثم إن الله يخاطب كفار قريش كلهم، ولم يمت منهم يوم بدر إلا سبعون...هـ.
قلت: حديث الصعق الذى ذكره المحشى، أخرجه البخارى فى (الرقاق، باب نفخ الصعق ح ٦٥١٧) ومسلم فى (الفضائل، باب من فضائل موسى، رقم ٢٣٧٣، ح ١٦٠) من حديث أبى هريرة رضي الله عنه.

مناشبتهم القتال، وقصد قتله خفية، وليس يجرى فى نفخة الصعق شىء من الكيد والحيل، فلا يليق حمله عليه[1].
﴿ولا هم يُنصرون﴾ من جهة الغير فى دفع العذاب عنهم.

﴿وإنَّ للذين ظلموا﴾ أى: لهم، ووضع الموصول موضع الضمير تسجيلاً عليهم بالظلم، أى: وإنَّ لهؤلاء الظلمة ﴿عذاباً﴾ آخر ﴿دون ذلك﴾؛ دون ما لاقوه من القتل، أى: قبله، وهو القحط الذى أصابهم، حتى أكلوا الجلود والميتة. أو: وإنَّ لهم عذاباً دون ذلك، أى: وراءه، وهو عذاب القبر وما بعده من فنون عذاب الآخرة، ﴿ولكنَّ أكثرهم لا يعلمون﴾ أن الأمر كما ذكر، وفيه إشارة إلى أن فيهم مَن يعلم ذلك، وإنما يصر على ذلك عناداً أو: لايعلمون شيئاً أصلا؛ إذ هم جاهلية جهلاء.

الإشارة: أهل الحسد والعناد لاينفعهم مايرونه من المعجزات والكرامات، أو الحسد يُغطى نور البصيرة، فذرهم فى غفلتهم وحيرتهم، وكثافة حجابهم، حتى يُصعقوا بالموت؛ فيعرفون الحق، حين لاتنفع المعرفة فيقع الندم والتحسُّر. وإنَّ لهم عذاباً دون ذلك، وهو عيشهم فى الدنيا عيش ضنك فى هَم وغم وجزع وهلع، ولكنَّ أكثرهم لا يعلمون ذلك؛ لأنهم لايرون إلا مَن هو مثلهم. ومن توسعت دائرة معرفته، فعاش فى روح وريحان، فهو غائب عنهم، لايعرفون مقامه، ولا منزلته.

ثم أمر بالصبر، الذى هو عنوان الظفر بكل مطلوب، فقال:

﴿ وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴿٤٩﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله لنبيه ﷺ ولمن كان على قدمه: ﴿واصبرْ لحُكم ربك﴾ بإمهالهم إلى اليوم الموعود مع مقاساتك آذاهم، أو: واصبر لِماَ حكم به عليك من شدائد الوقت، وإذاية الخلق، ﴿فإنك بأعيُنِنا﴾ أى: حفظنا وحمايتنا، بحيث نراقبك ونكلؤك. والمراد بالحُكم: القضاء السابق، أى: لما قُضى به عليك، وفى إضافة الحُكم إلى عُنوان الربوبية تهييج على الصبر، وحمل عليه، أى: إنما هو حُكم سيدك الذى يُربيك ويقوم بأمورك وحفظك، فما فيه إلا نفعك ورفعة قدرك. وجمع العين والضمير للإيذان بغاية الاعتناء بالحفظ والرعاية. ﴿وسبِّح بحمد ربك﴾ أى: نزِّهه ملتبسًا بحمده على نعمائه الفائتة للحصر، ﴿حين تقومُ﴾ أى: من أىِّ مكان قمت، أو: من

(١) بل يليق حمله على نفخة الصعق، على أن يكون المراد بكيدهم: ما كادوا به فى الدنيا.

منامك. وقال سعيد بن جبير: حين تقوم من مجلسك تقول: سبحانك اللهم وبحمدك. وقال الضحاك والربيع: إذا قمت إلى الصلاة فقل: سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك، وتعالى جدُّك، ولا إله غيرك[١]. هـ. ﴿ ومن الليل فسبّحه ﴾ أي: في بعض الليل وأفراده؛ لأن العبادة فيه أشق على النفس، وأبعد من الرياء، كما يلوح به تقديمه على الفعل، والمراد إما الصلاة فى الليل، أو التسبيح باللسان؛ سبحان الله وبحمده، ﴿ وإدبار النجوم ﴾ أي: وقت إدبارها، أي: غيبتها بضوء الصبح، والمراد: آخر الليل، وقيل: التسبيح من الليل: صلاة العشاء، وإدبار النجوم: صلاة الفجر. وقرأ زيدٌ عن يعقوب بفتح الهمز[٢]، أي: أعقابها إذا غربت.

الإشارة: في هذه تسلية لأهل البلاء والجلال، فإنّ مَن علِمَ أن ما أصابه إنما هو حُكم ربه، الذى يقوم به ويحفظه، وهو بمرئً منه ومسمعٍ، لا يهوله مانزل، بل يزيده غبطةً وسروراً؛ لعلمه بأنه ما أنزله به إلا لرفعة قدره، وتشحير[٣] ذهب نفسه، وقطع البقايا منه، فهو فى الحقيقة نعمة لا نقمة، وفى الحِكَم: «من ظن انفكاك لطف الله عن قدره؛ فذلك لقصور نظره».[٤]

قال القشيرى: أي: اصبر لما حكم به فى الأزل، فإنه لايتغير حكمنا الأول إن صبرت وإن لم تصبر، لكن إن صبرت على قضائى جزيت ثواب الصابرين بغير حساب. وفيه إشارة أخرى، أي: اصبر فإنك بأعيننا نعينك على الصبر لأحكامنا الأزلية، كما قال تعالى: ﴿ واصْبِرْ ومَا صَبْرُكَ إلاَّ بِاللَّهِ ﴾[٥].هـ. وقيل المعنى: فإنك من جُملة أعيننا، وأعيان الحق الكُمل من الأنبياء، والرسل، والملائكة، وأكابر أوليائه، فإنهم أعيان تجلياته، ولذلك الإشارة بقول عمر رضي الله عنه فى شأن عليٍّ ـ كرم الله وجهه، حين ضرب شخصاً فشكاه: «أصابته عين من عيون الله»، وذلك لما تمكنوا من سر الحقيقة، صاروا عين العين. ومن ذلك قولهم: ليس الشأن أن تعرف الاسم، إنما الشأن أن تكون عين الاسم، أي: عين المُسمّى، وهو سر التصرف بالهوية عند التمكين فيها، وتمكن غيبة الشهود فى الملك المعبود، وقوله تعالى: ﴿ وسبح بحمد ربك . . . ﴾ إلخ، فيه إشارة إلى مداومة الذكر، والاستغراق فيه، ودوام التنزيه لله تعالى عن رؤية شيء معه. وبالله التوفيق، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

❁ ❁ ❁

(١) أخرجه الطبرى (٣٨/٢٧) وزاد السيوطى عزوه فى الدر (١٥١/٦) لسعيد بن منصور، وابن أبى شيبة، وابن المنذر، عن الضحاك.

(٢) وقرأ بها أيضا الأعمش، كما فى مختصر ابن خالويه (ص ١٤٧) وسالم بن أبى الجعد، ومحمد بن السميفع، كما فى القرطبى (٦٤٣٨/٧).

(٣) أى: تنقية وتصفية.

(٤) حكمة رقم (١٠٦) انظر تبويب الحكم (ص/٢١).

(٥) من الآية ١٢٧ من سورة النحل.

سُورَةُ النَّجْمِ

مكية. وهى اثنتان وستون آية. وهى أول سورة أعلن بها النبىُّ ﷺ. ومناسبتها لِمَا قبلها: قوله: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَه ﴾[1] فأقسم هنا أنهماينطق عن الهوى، فقال:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ (١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ (٢) وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) إِنْ
هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ (٤) عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ (٥) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ (٦) وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ (٧)
ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ (٨) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ (٩) فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ (١٠) مَا كَذَبَ
الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ (١١) أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ (١٢) وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ (١٣) عِندَ سِدْرَةِ
الْمُنتَهَىٰ (١٤) عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ (١٥) إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ (١٦) مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ (١٧)
لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ (١٨) ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ والنجم ﴾ أى: الثريا، أو: جنس النجم ﴿ إذا هَوَى ﴾ ؛ إذا غرب، أو: انتثر يوم القيامة، أو طلع، يقال: هَوَى هَوِياً، بوزن «قَبول» إذا غرب، وهَوى هُوِياً، بوزن دُخول: إذا طلع[2]. والعامل فى (إذا) فعل القسم، أى: أقسم بالنجم وقت غروبه أو طلوعه. وجواب القسم: ﴿ ماضلَّ ﴾ عن قصد الحق ﴿ صاحِبُكم ﴾ أى: محمد ﷺ، والخطاب لقريش. ﴿ وما غَوَى ﴾ فى اتباع الباطل، أو: ماا عتقد باطلاً قط، أى: هو فى غاية الهدي والرشد، وليس مما تتوهموه من الضلالة والغواية فى شيء. فالضلال نقيض الهدى، والغي نقيض الرشد، ومرجعهما لشيء واحد، وهو عدم اتباع طريق الحق.

(١) الآية سورة الطور ٣٣.
(٢) راجع لسان العرب (مادة هوا ٦ / ٤٧٢٧).

وقال الفخر: أكثر المفسرين لم يفرقوا بين الغي والضلال، والفرق بينهما: أنّ الغي في مقابلة الرشد، والضلال أعم منه، والاسم من الغي: الغَواية ـ بالفتح ـ والحاصل: أنّ الغي أقبح من الضلال، إذ لايرجى فلاحه. وإيراده ﷺ بعنوان صاحبهم للإيذان بوقوفهم على تفاصيل أحواله الشريفة، وإحاطتهم خُبراً ببراءته ـ عليه الصلاة والسلام ـ مما نفي عنه بالكلية، وباتصافه ـ عليه الصلاة والسلام ـ بغاية الهدى والرشد؛ فإنّ كون صحبتهم له ﷺ، ومشاهدتهم لمحاسن شؤونه العظيمة مقتضية لذلك حتماً. وتقييد القسم بوقت الهُوى؛ لأن النجم لايهتدى به السارى إلا عند هبوطه أو صعوده، وأما مادام في وسط السماء فلا يهتدى به، ولايعرف المشرق من المغرب، ولا الشمال من الجَنوب.

ثم قال: ﴿و ماينطق عن الهوى﴾ أي: ومايصدر نطقه بالقرآن أو غيره عن هواه ورأيه أصلا، ﴿إنْ هو إلا وحيٌ﴾ من الله تعالى ﴿يُوحَى﴾ إليه، وهي صفة مؤكدة لوَحْي، لرفع المجاز، مفيدة لاستمرار التجدد للوحي، واحتج بهذه الآية من لايرى الاجتهاد للأنبياء ـ عليهم السلام ـ ويُجاب بأن الله تعالى إذا سوّغ لهم الاجتهاد وقررهم عليه كان كالوحي، لا نُطقاً عن الهوى.

﴿علّمه شديدُ القوى﴾ أي: ملَكٌ شديد قواه، وهو جبريل عليه السلام، فإنه الواسطة في إيراد الوحي إلى الأنبياء، ومِن قوته أنه خلع قُرى قوم لوط من الماء الأسود الذى تحت الثرى، وحملها على جناحه، ورفعها إلى السماء ثم قلبها، وصاح صيحةً بثمود، فأصبحوا جاثمين، وكان هبوطه على الأنبياء وصعوده أسرع من لحظة.

﴿ذو مِرَّةٍ﴾ أي: ذو خصابة(١) في عقله، ورزانة ومتانة في دينه. وأصل المِرة: الشدّة، من مراير الحبل، وهو فتله فتلاً شديداً، أو: ذو حُسن في منظره، ﴿فاستوى﴾: عطفٌ على «علّمه» بطريق التفسير، فإنه إلى قوله: (ماأوحى) بيان لكيفية التعليم، أو: فاستقام على صورته التي خلقه الله عليها، دون الصورة التي كان يتمثل بها كلما هبط بالوحي، وذلك أنّ رسول الله ﷺ أحب أن يراه في الصورة التي خلقه اللهُ عليها، وكان ﷺ بحراء، فطلع له جبريلُ من المشرق، وسدّ الأرض من المغرب، وملأ الأفق، فخرّ رسولُ الله ﷺ، فنزل في صورة الآدمي، فضمه إلى نفسه، وجعل يمسح الغبار عن وجهه. قيل: مارآه أحد من الأنبياء في صورته الأصلية إلا النبي ﷺ فإنه رآه فيها مرتين؛ مرة في الأرض، ومرة في السماء، وقيل: استوى بقوته على ماجعل له [من الأمر](٢).

---

(١) في تفسير أبي السعود [خصافة].
(٢) زيادة من تفسير أبي السعود.

﴿وهو﴾ أى: جبريل ﴿بالأفق الأعلى﴾؛ أفق الشمس، أى: مطلعها، ﴿ثم دنا﴾ جبريلُ من النبى ﷺ ﴿فتدلّى﴾ أى: زاد فى القرب، أو: استرسل من الأفق مع تعلق به. يقال: تدلت الشجرة، ودلّى رجله من السرير، وأدلى دلوه، والدوالى: الثمر المعلّق. ﴿فكان قابَ قوسين﴾ أى: مقدار قوسين عربيين. والقاب: المقدار. قال قتادة وغيره: معناه: من طرف العود إلى طرفه الآخر. وقال مجاهد والحسن: من الوتر إلى العود فى وسط القوس، أى: فكان بين جبريل والنبى ﷺ مقدار قوسين، ﴿أو أدنى﴾ فى تقديركم، كقوله: ﴿أَوْ يَزِيدُونَ﴾(١) وهذا لأنهم خُوطبوا على لغتهم وفهمهم، وهم يقولون: هذا مقدار قوسين أو أدنى.

﴿فأوْحَى إلى عبده ماأوْحَى﴾ أى: فأوحى الله تعالى إلى عبده بواسطة تجلى جبريل (ماأوحى) من الأمور العظيمة التى لاتفى بها العبارة، وقيل: أوحى إليه: «أنّ الجنة مُحرّمة على الأنبياء حتى تدخلها، وعلى الأمم حتى تدخلها أمتك» ويمكن حمل الآية على قصة المعراج، أى: (علّمه شديد القوى) وهو الله تعالى، (ذُو مِرة) أى: شدة ومتانة، ومنه: اسمه «المتين»، (فاستوى) بنوره أى: تجلى بنور ذاته من ناحية الأُفق، أى: العلو (فتدلى) ذلك النور (فكان قاب قوسين أو أدنى) وفى البخارى: «فدنا ربُّ العزة دنو يليق بجلاله ومجده» ويرجع لتجليه لنبيه، وتنزله له، وتعرّفه له، وفى حديث الإسراء عنه ـ عليه الصلاة والسلام: «سمع النداء من العلّى الأعلى: أُدن ياخير البرية، أُدن يامحمد، فأدنانى ربى حتى كنتُ كما قال تعالى: ﴿ثم دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى﴾». قال القشيرى: ويُقال: كان بينه وبين ربه قَدْر قوسين أو أدنى، فأوحى إلى عبده ماأوحى.

﴿ماكَذَبَ الفؤادُ﴾ أى: فؤاد محمد ﷺ ﴿مارأى﴾ أى: مارآه ببصره من صورة جبريل على تلك الكيفية، أو: من نور الحق تعالى الذى تجلى له، أى: ماقال فؤاده لمّا رآه: لم أعرفك، ولو قال ذلك لكان كاذباً؛ لأنه عرفه بقلبه، كما عرفه ببصره، وقيل: على إسقاط الخافض، أى: ماكذب القلب فيما رآه البصر، بل ما رآه ببصره حققه، وفى الحديث: سئل ﷺ هل رأيت ربك؟ قال: «رأيت ربى بفؤادى مرتين»(٢)، حديث آخر: «جعل نور بصرى فى فؤادى، فنظرتُ إليه بفؤادى»(٣)، يعنى أنه انعكس نور البصر إلى نور البصيرة فرأى ببصره مارأته البصيرة، وجاء

(١) من الآية ١٤٧ من سورة الصافات.

(٢) أخرجه الطبرى، وعزاه السيوطى فى الدر (٦/ ١٦٠) لعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبى حاتم، عن محمد بن كعب القرظى، عن بعض أصحاب النبى ﷺ. وأخرج مسلم فى (الإيمان، باب معنى قول الله عز وجل: ﴿ولقد رآه نزلة أخرى..﴾ رقم ٢٨٤ ح١٧٦) عن ابن عباس، قال: «رآه بفؤاده مرتين».

(٣) أخرجه بطوله، الطبرى، عن ابن عباس، فى رواية لحديث «اختصام الملأ الأعلى فى الدرجات والكفارات». قال ابن كثير فى التفسير (٤/ ٢٥١): «إسناده ضعيف».

أيضا: أنه لما انتهى إلى العرش صار كله بصراً، وبهذا يرتفع الخلاف، وأنه رآه ببصر رأسه؛ وقوله ﷺ، حين سأله أبو ذر: هل رأيت ربك؟ فقال «نورانى أراه»[١] وفى رواية : «نورٌ أنّى أراه»؟[٢] بالاستفهام، وفى طريق آخر: «رأيت نوراً»[٣] وحاصلها: أنه رأى ذات الحق متجلية بنور من نور جبروته؛ إذ لايمكن أن ترى الذات إلا بواسطة التجليات، كما هو مقرر عند محققى الصوفية، كما قال الشاعر:

وليستْ تُنال الذاتُ من غير مَظهرٍ ولو هُتك الإنسانُ من شدةِ الحرصِ

وقال كعب لابن عباس: إنَّ الله قسم رؤيته وكلامه بين محمد وموسى، فكلّم موسى مرتين، ورآه محمد مرتين[٤]. وقيل لابن عباس: ألم يقل الله: ﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ﴾[٥]، قال: ذلك إذا تجلى بنوره[٦]. الذى هو نوره الأصلى، يعنى أن الله تعالى يتجلى لخلقه على مايطيقون، ولو تجلى بنوره الأصلى لتلاشى الخلق، كما قال فى الحديث: «حجابه النور، لو كشفه لأحرقت تجليات وجهه ماأدركه من بصره»[٧].

﴿أفتُمارونه﴾ أى: أفتجادلونه، من: المراء، وهو المجادلة، واشتقاقه من: مرْي الناقة، وهو استخراج لبنها، كأنّ كل واحد من المتجادلين يَمْرى ماعند صاحبه، أى: يستخرجه. وقُرىء فى التواتر: «أفتَمْرُونه»[٨] أى: أفتغلبونه. ولما فيه من معنى الغلبة، قال تعالى: ﴿على مايرى﴾ فعدّى بعلى، كما تقول: غلبته على كذا، وقيل: أفتمرونه: أفتجحدونه، يقال: مريته حقَّه: جحدته، وتعديته بـ «على» على مذهب التضمين، والمعنى: أفتُخاصمونه على مايرى معاينةً، وحققه باطناً.

---

(١) ذكر هذه الرواية بنصها السيوطى فى الدر المنثور (٦/ ١٦٠) وعزاها لمسلم والترمذى وابن مردويه، عن أبى ذر، ولم أقف عليها فى مسلم والترمذى. وقال الإمام النووى فى شرح صحيح مسلم (٣/ ١٢): قال الإمام المازرى: وروى: «نورانى أراه» بفتح الراء وكسر النون وتشديد الياء، ويحتمل أن يكون معناه راجعاً إلى ما قلنا، أى: خالق النور المانعَ من رؤيته، فيكون من صفات الأفعال. وقال القاضى عياض ـ رحمه الله: هذه الرواية لم تقع إلينا، ولا رأيتها فى شىء من الأصول. هـ.

(٢) أخرجه مسلم فى (الإيمان، باب فى قوله ﷺ: نور أنى أراه، رقم ٢٩١، ح ١٧٨).

(٣) أخرجه مسلم فى الموضع السابق (رقم ٢٩٢).

(٤) أخرجه بطوله الترمذى فى (التفسير، باب ومن سورة النجم، ح ٣٧٢٨).

(٥) من الآية ١٠٣ من سورة الأنعام.

(٦) أخرجه البيهقى فى الأسماء والصفات (ص ٤١٠) وضعّفه، عن عكرمة عن ابن عباس، بلفظ: «قال: يا لا أم لك، ذلك نوره الذى هو نوره، إذا تجلى بنوره لايدركه شىء».

(٧) جزء من حديث صحيح أخرجه مسلم فى (الإيمان، باب فى قوله ﷺ: «إن الله لاينام، رقم ٢٩٣ ح ١٧٩) عن أبى موسى رضي الله عنه.

(٨) «أفتمرونه» بفتح التاء وسكون الميم بلا ألف. وبها قرأ حمزة والكسائى ويعقوب، وخلف. وقرأ الجمهور «أفتمارونه» بضم التاء وفتح الميم وألف بعدها. انظر الإتحاف (٢/ ٥٠١).

﴿ ولقد رآه ﴾ أي: رأى محمدٌ جبريلَ على صورته الأصلية، أو: رأى ربه على تجلٍ خاص وتعرفٍ تام، ﴿ نزلةً أخرى ﴾؛ مرّة أخرى، والحاصل: أنه عليه السلام رأى ربه بتجلٍ خاص جبروتي مرتين، عند خرق الحُجب العلوية فوق العرش، عند السدرة، وأما رؤيته عليه السلام لله تعالى في مظاهر الكائنات ففي كل حين، لايغيب عنه طرفة عين. والنزلة: فعلة من النزول، نُصب نَصبَ الظرف الذي هو «مرّة». ﴿ عند سدرة المنتهى ﴾، الجمهور: أنها شجرة النبق في السماء السابعة، عن يمين العرش، وتسميتها المنتهى؛ إما لأنها في منتهى الجنة وآخرها، أو: لأنها لم يُجاوزها أحد، وإليها ينتهي علم الخلائق، ولايعلم أحدٌ ماوراءها، أو: إليها ينتهي أرواح الخلائق، أو: أرواح الشهداء، وفي الحديث: «أنها شجرة يسير الراكب في ظلها ألف عام، لايقطعها، والورقة منها تُظل الأُمّة، وثمرها كالقِلال الكبار».

﴿ عندها جنةُ المأوى ﴾ أي: الجنة التي يصير إليها المتقون ويأوون إليها، أو: تأوي إليها أرواح الشهداء والصدّيقين والأنبياء. قال ابن جُزي: يعني أن الجنة التي وَعَدَ اللهُ بها عباده هي عند سدرة المنتهى، وقيل: هي جنة أخرى، والأول أظهر وأشهر. هـ. ويؤيده ما في الحديث: «إن النيل والفرات يخرجان من أصلها، وهما من الجنة، كما في الصحيح(١). ﴿ إذ يغشى السدرةَ مايغشى ﴾، ظرف للرؤية، أي: لقد رآه عند السدرة وقت ماغشيها ما غشيها، مما لايكتنهه الوصف، ولايفي به البيان، وصيغة المضارع لحكاية الحال الماضية، استحضاراً لصورتها البديعة، أو للإيذان باستمرار الغشيان وتجدده، وقيل: يغشاها الجمُّ الغفير من الملائكة، يعبدون الله تعالى عندها، وقيل: يزورونها متبركين بها، كما يزور الناسُ الكعبة، وقيل: يغشاها فَراش من ذهب، والفَراش ـ بفتح الفاء ـ مايطير ويضطرب. ﴿ ما زاغ البصرُ ﴾ أي: بصر محمدٍ ﷺ، أي: ماعدل عن رؤية العجائب التي مُكّن من رؤيتها، ﴿ وماطغى ﴾؛ وماجاوز ماأُمر برؤيته، ﴿ لقد رأى من آيات ربه الكبرى ﴾ أي: والله لقد رأى من عجائب الملكوت وأسرار الجبروت ومالايفي به نطاق العبارة، وقد دُوِّنَتْ هنا كُتُبٌ في عجائب ما رآه ﷺ ليلة المعراج.

الإشارة: أقسم اللهُ تعالى بنجم العلم إذا طلع في أفق سماء القلوب الصاحية، إنّ هذا القلب الذي طلع فيه نجم العلم بالله، وأشرقت عليه شمسُ الحقائق، لايَضل صاحبُه ولايغوى، وماينطق عن الهوى؛ لأنه مستغرق في شهود الحق، لايتجلى فيه إلا الحق، (إن هو) أي: مايتجلى فيه إلا وحي يُوحى من قِبل الإلهام الإلهي، علّمه شديد القوى، وهو الوارد الرباني، ذو مِرةٍ وشدة؛ لأنه من حضرة قهّار، ولا يُصادم شيئاً إلا دفعه، فاستوى وهو بالأفق

(١) جزء من حديث الإسراء الطويل، وأخرجه البخاري في (بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، ح ٣٢٠٧) ومسلم في (الإيمان، باب الإسراء رقم ٢٦٤، ح ١٦٤) عن أنس، عن مالك بن صعصعة، وفيه: «ورفعت لي سدرة المنتهى، فإذا نبقها كأنه قلال هجر، وورقها كأنه آذان الفيول، في أصلها أربعة أنهار، نهران باطنان، ونهران ظاهران، فسألت جبريل، فقال: «أما الباطنان ففي الجنة، وأما الظاهران النيل والفرات..» الحديث.

(٢) قوله: «هما في الجنة كما في الصحيح» يشير الشيخ ـ رحمه الله ـ إلى ما أخرجه مسلم في (الجنة، باب ما في الدنيا من أنهار الجنة ح ٢٨٣٩) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «سيحان وجيحان والنيل والفرات كلٌّ من أنهار الجنة».

الأعلى من سماء الغيوب، ثم دنا من القلب فتدلى، فكان من القلب قاب قوسين أو أدنى، فأوحى اللهُ تعالى بواسطة ذلك الوارد إلى عبده ماأوحى من علوم الحقائق والأسرار، ومن مكاشفات غيوب الأقدار، ماكذب الفؤادُ فيما رأى لأنه حق، لكن قهرية العبودية غيَّبت عنه تعيين وقت وقوعه. ولقد رآه، أى: رأى القلبُ أسرارَ ذات الحق، نزلةً أخرى فى عالم الجبروت، الخارج عن دائرة التجليات الكونية، وهى الأسرار اللطيفة، المحيطة فى الأنوار الملكوتية والملكية، عند سِدرة المنتهى، وهى شجرة القبضة المحمدية، التى انتهى إليها علم العلماء، وأرواح الشهداء، إذ لايخرج عن دائرتها أفكار العارفين. عندها جنة المأوى التى يأوى إليها أفكار العارفين وأسرار الراسخين، إذ يغشى السدرة ـ أى: شجرة الكون ـ مايغشى من الفناء والتلاشى عند سطوع شمس الحقائق، مازاغ بصرُ البصيرة عن شهود تلك الأسرار، وماحجبه عنها أرض، ولاسماء، ولاعرش، ولا كرسى؛ لتلطف تلك العوالم فى نظر العارف، وماطغى: وماجاوز العبودية حتى يطمع فى الإحاطة بعظمة كنه الربوبية، فإنَّ الإحاطة لاتُمكن، لا فى هذه الدار، ولا فى تلك الدار، بل يبقى الترقى فى الكشوفات، والمزيد من حلاوة الشهود أبداً سرمداً، لقد رأى هذا القلب الصافى من عجائب ربه الكبرى، حيث وسع مَن لم تسعه أرضه ولاسماؤه.

وقال الورتجبى بعد كلام: فى هذه الآية بيان كمال شرف حبيبه، إذ رآه نزلةً أخرى، عند سدرة المنتهى، ظن ﷺ أنَّ مارآه فى الأول لايكون فى الكون ـ أى: فى مظهر الكون ـ لكمال علمه بتنزيه الحق، فلما رآه ثانياً علم أنه لايحجبه شيء من الحدثان، وعادة الكُبراء إذا زارهم أحد يأتون معه إلى باب الدار إذا كان عليهم كريماً، فهذا منه سبحانه إظهار كمال حبِّه لحبيبه. وحقيقة الإشارة: أنه سبحانه أراد أن يعرف حبيبه مقام الالتباس، فلبس [الأمر][1]، وظهرَ المكرُ، وبان الحقُّ من شجرة سدرة المنتهى، كما بان من شجرة العناب لموسى، ليعرفَه حبيبُه بكمال المعرفة، إذ ليس بعارف من لم يعرف حبيبه فى لباس مختلفة، وبيان ذلك فى قوله: (إذ يغشى السدرة مايغشى) وأبهم ما غشيه؛ لأن العقول لاتدرك حقائق مايغشاها، وكيف يغشاها، والقِدم منزَّه عن الحلول فى الأماكن؟! كان ولاشجرة، وكانت الشجرة مرآة لظهوره سبحانه، ما ألطف ظهوره، لايعلم تأويله إلا الله، والراسخون فى العلم يؤمنون به بعد عرفانهم به. هـ.

ولمَّا فرغ من ذكر عظمة الله وكبريائه، ذكر حقارة مَنْ عُبد مِن دونه، ترهيباً وترغيباً، فقال:

﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن

(١) زيادة أثبتها من الورتجبى.

سُلْطَٰنٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾ أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿أفرأيتم اللاتَ والعُزّىَ ومناةَ الثالثةَ الأخرى﴾ أى: أخبرونى عن هذه الأشياء التى تعبدونها من دون الله، هل لها من القدرة والعظمة التى وُصف بها ربُّ العزة فى الآى السابقة حتى استحقت العبادة، أم لا؟ واللات ومابعدها: أصنام كانت لهم، فاللات كانت لثقيف بالطائف، وقيل: كانت بنخلة تعبدها قريش، وهى فَعْلَةٌ، من: لوى؛ لأنهم كانوا يلوون عليها ويطوفون بها. وقرأ ابن عباس ومجاهد ورُويس بتشديد التاء، على أنه اسم فاعل، اشتهر به رجلاً كان يلُتُّ السَّويق بالزيت، ويُطعمه الحاجّ، فلما مات عكفوا على قبره يعبدونه[1]. (والعُزى) كانت لغطفان، وهى شجرة كانوا يعبدونها، فبعث رسولُ الله ﷺ خالدَ بن الوليد فقطعها، فخرجت منها شيطانة ناشرة شعرهَا، واضعة يدها على رأسها، وهو تُولول، فجعل خالد يضربها بالسيف حتى قتلها، فأخبر رسولَ الله ﷺ فقال: «تلك العُزى، لن تُعبد بعد اليوم أبداً»[2].

(ومناة): صخرة على ساحل البحر لهذيل وخزاعة، وقيل: بيت بالمشلل يعبده بنو كعب، وسميت مناة؛ لأن دماء النسائك تُمنى، أى: تُراق عندها؛ لأنهم كانوا يذبحون عندها. وقرأ ابن كثير بالهمزة بعد الألف، مشتق من النوء؛ لأنهم كانوا يستمطرون بالأنواء عندها، تبركاً بها، وقيل: سَموا هذه الأصنام بأسماء الله، وأنّثوها، كأنها بنات الله فى زعمهم الفاسد، فاللات من «الله»، كما قالوا: عمر وعمرة، وعباس وعباسة، فالتاء للتأنيث. والعُزّى: تأنيث العزيز، ومناة: تأنيث منان، فغُيِّر تخفيفاً، ويؤيد هذا قولهُ تعالى رداً عليهم: ﴿ألكم الذكرُ وله الأنثى﴾. و﴿الأخرى﴾: صفة ذمّ لها، وهى المتأخرة الوضيعة القدر، كقوله: ﴿قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأُولاهُمْ﴾[3] أى: وضعاؤهم لرؤسائهم، وقيل: وصفها بالوصفين؛ لأنهم كانوا يُعظّمونها أكثر من اللات والعزى، والفاء فى قوله: (أفرأيتم) للعطف على محذوف، وهى لترتيب مابعدها على ماقبلها، أى: عقِب ماسمعتم من كمال عظمته تعالى فى ملكه وملكوته، وأحكام قدرته، ونفوذ أمره فى الملأ الأعلى وماتحت الثرى ومابينهما، رأيتم هذه الأصنام مع حقارتها بنات الله، مع وأدكم البنات، وكراهتكم لهنّ؟.

(١) أخرج البخارى المقطع الأول: «كان اللات رجلاً يلت سويق الحاج» فى (التفسير، سورة النجم، باب ﴿أفرأيتم اللات والعزى﴾ رقم ٤٨٥٩).
(٢) عزاه المناوى فى الفتح السماوى ٣/ ٩٠٧ لابن مردويه، من حديث ابن عباس رضي الله عنه.
(٣) من الآية ٣٨ من سورة الأعراف.

﴿ ألكمُ الذكرُ وله الأنثى ﴾ أى: أتُحبون لكم الذكر وتنسبون له الأنثى كهذه الأصنام والملائكة؟ ﴿ تلك إذاً قسمةٌ ضِيزَى ﴾ أى: جائرة، من: ضازه يضيزه: إذا ظلمه، وصرح فى القاموس بأنه مثلث الضاد ضيزى وضوزى وضازى، وهو هنا فُعلى بالضم، من الضيز، لكنه كسر فاؤه لتسلم الياء، كما فعل فى «بيض»، فإن «فِعلى» بالكسر لم تأت وصفاً، وإنما هى من بناء الأسماء، كالشّعرى والدفلى. وقال ابن هشام: فإن كانت فُعلى صفة محضة وجب قلب الضمة كسرة، ولم يُسمع من ذلك إلا «قسمة ضيزى» «ومشية حِيكى»، أى: يتحرك فيها المنكبان. هـ. وقَرأ المكيُّ بالهمز(١)، من: ضأزه: ظلمه، فهو مصدر نعت به.

﴿ إنْ هى ﴾ أى: هذه الأصنام ﴿ إلا أسماءٌ ﴾ وليس تحتها فى الحقيقة مسميات؛ لأنكم تدّعون لها الألوهية، وهى أبعد شىء منها، ﴿ سميتموها ﴾ آلهة، أو: سميتم بها هذه الأصنام، واعتقدتم أنها آلهة، بمقتضى أهوائكم الباطلة، ﴿ أنتم وآباؤكم، ماأنزل اللهُ بها ﴾؛ بعبادتها ﴿ من سلطان ﴾؛ من حجة. ﴿ إن يتبعونَ ﴾ فيما ذكر من التسمية والعمل بموجبها ﴿ إلا الظنَّ ﴾: إلا توهم أنّ ماهم عليه حق، توهماً باطلاً، ﴿ وماتهوى الأنفسُ ﴾ أى: ماتشتهيه أنفسهم الأمّارة، ﴿ ولقد جاءهم من ربهم الهدى ﴾؛ الرسول والكتاب فتركوه.

﴿ أم للإنسان ماتمنّى ﴾. «أم»: منقطعة، والهمزة للإنكار، أى: ليس للإنسان كل مايتمناه وتشتهيه نفسُه من الأمور التى من جملتها أطماعهم الفارغة فى شفاعة الآلهة ونظائرها، كقول بعضهم: ﴿ وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ ﴾(٢)، وكتَمَنّي بعضهم أن يكون هو النبى، ﴿ فلله الآخرةُ والأُولى ﴾ أى: الدنيا والآخرة، هو مالكهما والحاكم فيهما، يُعطى الشفاعة والنبوة مَن شاء، لا مَن تمناهما بمجرد الهوى، وهو تعليل لانتفاء أن يكون للإنسان ما تمنّى، فإنّ إختصاص أمور الآخرة والأُولى به تعالى مقتضٍ لانتفاء أن يكون للإنسان شىء مما تمنى إلا أن يشاء ويرضى.

الإشارة: هذه الأصنام موجودة فى كل إنسان، فاللات: حب اللذات والشهوات الجسمانية الفانية، فمن كان حريصاً عليها، جامعاً لأسبابها، فهو عابد لها، والعُزى: حب العز والجاه والرئاسة وسائر الشهوات القلبية، فمن طلبها فهو عبد لها، ومناة: تمنى البقاء فى الدنيا الدنية الحقيرة، وطول الأمل فيها، وكراهية الموت، فمن كان هذا وصفه فهو عبد الدنيا، كاره لقاء الله، فيكره اللهُ لقاءه، فتوجه لهؤلاء العتاب بقوله تعالى: ﴿أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى، ألكم الذكر﴾ حيث تُحبون ماهو كمال لأنفسكم، ﴿وله الأنثى﴾؟ حيث جعلتم هذه الأشياء الحقيرة

(١) «ضئزى» بهمزة ساكنة، وبها قرأ ابن كثير المكى. انظر الإتحاف (١/٥٠١).
(٢) الآية ٥٠ من سورة فصلت.

شريكة لله فى استحقاق العبادة والمحبة، تلك إذاً قسمة ضِيزى جائرة، ماهى إلا أسماء ليس تحتها طائل، تفنى ويبقى عليها العذاب والعتاب، سميتموها واعتنيتم بشأنها والانكباب عليها، أنتم وآباؤكم، ماأنزل الله بمتابعتها والحرص على تحصيلها من سلطان ولا برهان، إن يتبعون فى اتباعها والحرص عليها إلا الظن، ظنوا أنها حيث كانت مباحة فى ظاهر الشرع لاتضُر القلبَ ولا تحجبه عن شهود الرب، وهو رأى فاسد؛ إذ ليس للقلب إلا وجهة واحدة، إن توجه لطلب الحظوظ أعرض عن الله قطعاً، وإن توجه لله أعرض عما سواه، وراجع ماتقدم فى قوله: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ﴾ الآية(١). ويتبعون أيضاً ماتهوى الأنفس الأمّارة؛ لأنها لاتهوى إلا مافيه حظها وهواها، ولقد جاءهم من ربهم الهُدى، أى: من يهدى إلى طريق السلوك، بقطع العلائق النفسانية والقلبية، وهم خلفاء الرسول ﷺ ، الدعوان إلى الله، من شيوخ التربية فى كل زمان، أم للإنسان ماتمنى، ليس له مايتمنى إلا بسابق العناية، فلا يُدرك العبدُ من الدنيا والآخرة، ومن الله تعالى، إلا ماسبق به القدر، كما قال الشاعر:

ماكل مايتمنى المرءُ يُدركه تجرى الرياحُ بمالا تشتهى السفن

فلله الآخرة والأولى، قال القشيرى: يُشير إلى قَهْرمَانية الحق تعالى على العالم كله، ملكه وملكوته، الأخروى والدنيوى، فلا يملك الإنسان من أمر الدارين شيئاً، بل ملك الآخرة تحت تصرف يده اليمنى، المقتضية لموجبات حصول الآخرة من الأعمال الصالحة والأفعال الحسنة، يهبه باسمه الواهب لمن شاء أن يكون مظهراً للطفه وجماله، وملك الدنيا تحت تصرف يده اليسرى، المقتضية لأسباب حصول الدنيا، من حب الدنيا الدنية، المنتجة للخطيئة ومتابعة النفس الخبيثة، وموافقة الطبيعة اللئيمة، باسمه المقسط، لمن شاء أن يكون مظهر قهره وجلاله، وليس ذلك يزيد فى ملكه، ولا هذا ينقص من ملكه، وكلتا يديه ملأى سحّاء، أى: فياضة. هـ.

ثم نفى الشفاعة عمّن يستحقها من الملائكة الكرام، فضلاً عمن لا يستحقها من الأصنام اللئام، فقال:

﴿ ۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾ فَأَعْرِضْ

(١) الآية ٢٠ من سورة الأحقاف.

عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٢٩) ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَىٰ (٣٠) ﴾

قلت: (كم): خبرية، تفيد التكثير، ومحلها: رفع بالابتداء، والجملة المنفية: خبر، وجمع الضمير فى (شفاعتهم) لأن النكرة المنفية تعم.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وكم من ملكٍ في السموات ﴾ أي: كثير من الملائكة ﴿ لاتُغنى شفاعتُهم ﴾ عند الله تعالى ﴿ شيئاً ﴾ من الإغناء فى وقت من الأوقات، ﴿ إلا مِن بعد أن يأذن اللهُ ﴾ لهم فى الشفاعة ﴿ لمن يشاء ﴾ أن يشفعوا له، ﴿ ويرضَى ﴾ ؛ ويراه أهلاً للشفاعة من أهل التوحيد والإيمان، وأما مَنْ عداهم من أهل الكفر والطغيان فهم عن إذن الله بمعزلٍ، وعن الشفاعة بألف معزلٍ، فإذا كان حال الملائكة فى باب الشفاعة كما ذكر، فما ظنهم بحال الأصنام؟!

ثم شنَّع عليهم فى اعتقادهم الفاسد فى الملائكة، فقال: ﴿ إنَّ الذين لايؤمنون بالآخرة ﴾ ومافيها من العقاب على مايتعاطونه من الكفر والمعاصى ﴿ لَيُسمُّون الملائكة ﴾ المنزّهين عن سمات النقص ﴿ تسميةَ الأنثى ﴾، فإن قولهم: الملائكة بنات الله، قول منهم بأن كُلاً منهم بنته ـ سبحانه، وهي التسمية بالأنثى، وفى تعليقها بعدم الإيمان بالآخرة إشعار بأنهم فى الشناعة واستتباع العقوبة بحيث لايجترىء عليها إلا من لايؤمن رأساً.

﴿ وما لهم به من علم ﴾ أي: بما يقولون. وقرئ «بها» أي: بالتسمية، أو بالملائكة. ﴿ إن يتبعونَ إلا الظن ﴾، وهو تقليد الآباء، ﴿ وإنَّ الظن ﴾ أي: جنس الظن، ولذلك أظهر فى موضع الإضمار، ﴿ لايُغنى من الحق شيئاً ﴾ من الإغناء؛ لأن الحق عبارة عن حقيقة الشيء، وهو لايُدرك إلا بالعلم، والظن لا اعتداد به فى باب المعارف الحقيقية، وإنما يُعتد به فى العمليات ومايؤدى إليها.

﴿ فأعْرِضْ عمَّن تولى عن ذِكْرِنا ﴾ أي: عنهم، ووضع الموصول موضع ضميرهم للتوصل إلى وصفهم بما فى حيز الصلة من الأوصاف القبيحة، ولتعليل الحكم، أي: فأعرض عمن تولى عن ذكرنا المفيد للعلم اليقينى، وهو القرآن المنطوى على علوم الأولين والآخرين، المذكِّر بالأمور الآخرة، أو: عن ذكرنا كما ينبغى، فإن ذلك يستتبع ذكر الآخرة ومافيها من الأمور المرغوب فيها والمرهوب عنها، قال الطيبى: أعرِضْ عن دعوة مَن تدعوه إلى لقاء ربه والدار الآخرة، وهو يقول: ماهى إلا حياتنا الدنيا... إلخ، ﴿ ولم يُرِدْ إلاَّ الحياةَ الدنيا ﴾ وزخارفها، قاصراً

نظره إليها، والمراد بالإعراض عنه: إهماله والغيبة عنه، فإنّ من أعرض عن الذكر، وانهمك في الدنيا، بحيث كانت هي منتهى همته، وقصارى سعيه، لاتزيده الدعوة إلى خلافها إلا عناداً ، وإصراراً على الباطل.

﴿ ذلك ﴾ أي: ماهم فيه من التولّي، وقصر الإرادة على الحياة الدنيا؛ هو ﴿ مبلغُهم من العلم ﴾ أي: منتهى علمهم، لايكادون يُجاوزونه إلى غيره، فلا تُجدي فيهم الدعوة والإرشاد شيئاً. وجمع الضمير بعد أن أفرده باعتبار معنى «مَن» ولفظها، والمراد بالعلم: مطلق الإدراك الشامل للظن الفاسد. ﴿ إنَّ ربك هو أعلم بمن ضلَّ عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى ﴾ أي: هو أعلم بالضال والمهتدى ومجازاتهما، وهو تعليل الأمر بالإعراض، وتكرير «هو أعلم» لزيادة التقرير، وللإيذان بكمال تباين المعلومين، أي: هو المبالغ في العلم بمن لايرعوى عن الضلال، ومن يَقبل الاهتداء في الجملة، فلا تتعب نفسك في دعوتهم، فإنهم من القبيل الأول.

الإشارة: شفاعة كل أحد على قدر جاهه وتمكنه من الله، فقد يشفع الوليّ في أهل زمانه، كما تقدم في مريم[1]. والاعتقاد في الملائكة: أنهم أنوار لطيفة من تجليات الحق، اللطافة فيهم أغلب، لايتصفون بذكورة ولا أنوثة، يتشكلون كيف شاءوا. وقوله تعالى: ﴿فأعرِض عن من تولى عن ذكرنا...﴾ الآية، فيه تحذير من مخالطة الغافلين والصحبة لهم، فإنّ صُحبتهم سُم قاتل، والجلوس معهم تضييع وبطالة، إلا أن يستولى نورُ مَن يصحبهم على ظلمتهم، فيجرّهم إلى الله، فهذا جلوسه معهم كمال. وقال بعضهم: الوحدة أفضل من الجلوس مع العامة، والجلوس مع الخاصة أفضل من العزلة، إلا من تحقق كماله، فلا كلام معه.

إشارة أخرى: ﴿وكم من ملك....﴾ الخ، أي: كثير من الأرواح الصافية السماوية لاتُغنى شفاعتها في الأنفس الظلمانية الطبيعية، لتنقلها من عالم الأشباح إلى عالم الأرواح، إلا مِن بعد أنّ يأذن اللهُ لمن يشاء انتقاله وعروجه إلى سماء الأرواح، ويرضى أن يُسكنه في الحضرة القدسية. إن الذين لايؤمنون بالحالة الآخرة، وهي الانتقال من عالم الأشباح إلى عالم الأرواح، ويُنكرون على مَن يُوصل إليها، ليُسَمّون الخواطر القلبية بتسمية الخواطر النفسانية، أي: لايُميِّزون بينهما، لجهلهم بأحوال القلوب، مالهم به ـ أي: بهذا التمييز ـ من علم، إن يتبعون في جلّ اعتقاداتهم إلا الظن القوى، وإنّ الظن لايُغنى عن الحق شيئاً، فلا ينفع في مقام الإيمان إلا الجزم عن دليل وبرهان، ولا في مقام الإحسان إلا شهود الحق بالعيان، فمن لم يحصل هذا فهو غافل عن ذكر الله الحقيقي، يجب الإعراض عنه، قال تعالى: ﴿فأعرِضْ عن من تولى عن ذكرنا ولم يُرد إلا الحياة الدنيا﴾ وزخارفها، ذلك مبلغهم

(١) راجع إشارة الآية ٨٧ من سورة مريم.

من العلم، يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا، وهم عن الآخرة هم غافلون. وقال اللجائي، في قطبه: وإياك أن تكون دنياك إرادة قلبك تبعاً لشهوات نفسك، أو تكون دنياك أحب إليك من آخرتك، وقلبك من ذكر مولاك خالياً معرضاً، فإنها صفة الهالكين، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿فأعرض عن من تولى عن ذكرنا...﴾ الآية. وقيل لأبي الحسن الشاذلي: ياسيدي، بم فُقْتَ أهلَ عصرك، ولم نر لك كبير عمل؟ فقال: بخصلة، أمر الله بها نبيه ﷺ، وتمسكتُ بها أنا، وهي الإعراض عنكم وعن دنياكم .هـ. إن ربك هو أعلم بمن ضَلَّ عن طريق الوصول إليه، وهو أعلم بمن اهتدى إليها، فيُعينه، ويجذبه إلى حضرته، فإن الأمر كله بيده، كما قال:

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ولله مافي السموات ومافي الأرض﴾ خلقاً ومِلكاً، لا لغيره، لا استقلالاً ولا اشتراكا، ﴿ليجزي الذين أساءوا بما عملوا﴾؛ بعقاب ماعملوا من السوء، أو: بسبب ماعملوا، ﴿ويجزيَ الذين أحسنوا بالحسنى﴾؛ بالمثوبة الحسنى، وهي الجنة، والمعنى: أن الله تعالى إنما خلق هذا العالم العلوي والسفلي، وتصرف فيه بقدرته بين جلاله وجماله، ليجزي المحسن من المكلّفين، والمسيء منهم؛ إذ مِن شأن الملك أن ينصر أولياءه ويُكرمهم، ويقهر أعداءه ويُهينهم.

وقال الطيبي: «ليجزي» راجع لقوله: ﴿هو أعلم بمن ضلّ ..﴾ الآية، والمعنى: إنّ ربك هو أعلم بمن ضل وبمن اهتدى ليجزي كل واحد بما يستحقه، يعني: أنه عالم، كامل العلم، قادر، تام القدرة، يعلم أحوال المُكلّفين فيُجازيهم، لايمنعه أحدٌ مما يريده؛ لأنّ كل شيء مِن السموات والأرض ملكه، وتحت قهره وسلطانه، فقوله: ﴿ولله مافي السموات ومافي الأرض﴾: جملة معترضة، توكيد للاقتدار وعدم المعارض. هـ .

﴿الذين يجتنون كبائرَ الإثم﴾: بدل من الموصول الثاني، أو: رفع على المدح، أي: هم الذين يجتنبون. والتعبير بالمضارع للدلالة على تجدد الاجتناب واستمراره. وكبائر الإثم: مايكبر عقابه من الذنوب، وهو مارتِّب

عليه الوعيد بخصوصه. قال ابن عطية: وتحرير القول في الكبائر: أنها كل معصية يُوجد فيها حدّ في الدنيا، أو توعّد عليها بنار في الآخرة، أو بلَعنة ونحوها. وقرأ الأخوان: (كبير الإثم) على إرادة الجنس، أو الشرك، ﴿ و ﴾ يجتنبون ﴿ الفواحشَ ﴾ وهو ما فَحُشَ من الكبائر، كأنه قيل: يجتنبون الكبائر ومافحش منها خصوصاً، فيحتمل أن يريد بالكبائر: مافيه حق الله وحده، والفواحش منها: مافيه حق الله وحق عباده، ﴿ إلا اللممَ ﴾ أي: إلا ما قَلّ وصَغُرَ، فإنه مغفور لمن يجتنب الكبائر، وقيل: هي النظرة والغمزة والقُبلة، وقيل: الخطرة من الذنب، وقيل: كل ذنب لم يجعل الله فيه حدّاً ولا عذاباً. والاستثناء منقطع؛ لأنه ليس من الكبائر ولا من الفواحش.

﴿ إنَّ ربك واسعُ المغفرة ﴾ حيث يغفر الصغائر باجتناب الكبائر، أو: حيث يغفر مايشاء من الذنوب من غير توبة، وهذا أحسن، ﴿ هو أعلم بكم إذ أنشأكم ﴾ في ضمن إنشاء أبيكم آدم عليه السلام ﴿ من الأرض ﴾ إنشاء أجمالياً، حسبما مرّ تحقيقه مراراً، ﴿ وإذ أنتم أجِنةٌ ﴾ أي: يعلم وقت كونكم أجنة ﴿ في بُطون أمهاتكم ﴾ على أطوار مختلفة، لايخفى عليه حالٌ مِن أحوالكم، ولا عمل من أعمالكم.

﴿ فلا تُزكُّوا أنفسكم ﴾ ؛ فلا تنسبوها إلى زكاء الأعمال، وزيادة الخير والطاعات، أو: إلى الزكاة والطهارة من المساوئ، ولاتثنوا عليها، واهضموها، فقد علم الله الزكيَّ منكم والتقيَّ، قبل أن يُخرجكم من صُلب آدم، وقبل أن تخرجوا من بطون أمهاتكم. وقيل: كان ناس يعملون أعمالاً حسنة، ثم يقولون: صلاتنا وصيامنا وحجّنا، فنزلت. وهذا إذا كان على سبيل الإعجاب أوالرياء، لا على سبيل الاعتراف بالنعمة، والتحدث بها، فإنه جائز؛ لأن المسرة بالطاعة طاعة، وذكرها شكرها. والأحسن في إيراد الاعتراف والشكر أن يُقدم ذكر نقصه، فيقول مثلاً: كنا جُهالاً فعلّمنا اللهُ، وكنا ضُلاّلاً فهدانا الله، وكنا غافلين فأيقظنا الله، وهكذا فنحن اليوم كذا وكذا.

قال ابن عطية: ويُحتمل أن يكون نهياً عن أن يُزَكِّي بعضُ الناس بعضاً، وإذا كان هذا، فإنما ينهى عن تزكية السّمع(١)، أو القطع بالتزكية، ومن ذلك الحديث في «عثمان بن مظعون» عند موته(٢)، وأما تزكية القدوة أو الإمام، أو أحداً، ليؤتم به أو لِيتهَمَّمَ الناس بالخير، فجائز، وقد زكّى رسولُ الله ﷺ أبا بكر وغيره، وكذلك تزكية الشهود في الحقوق جائزة؛ للضرورة إليها، وأصل التزكية: التقوى، والله تعالى أعلم بتقوى الناس منكم. هـ(٣).

---

(١) في ابن عطية: السمعة والمدح للدنيا.
(٢) حديث عثمان بن مظعون رضي الله عنه ـ سبق ذكره وتخريجه عند التعليق على إشارة الآية ٩ من سورة الأحقاف، فراجعه إن شئت.
(٣) ببعض المعنى

وقال في القوت: هذه الذنوب تدخل على النفوس من معاني صفاتها، وغرائز جبلاتها، وأول إنشائها من نبات الأرض، وتركيب الأطوار في الأرحام، خلْقٍ مِن بعد خلقٍ، ومن اختلاط الأمشاج بعضها مع بعض، ولذلك عقبه بقوله: ﴿هو أعلم بكم إذ أنشأكم...﴾ الآية. هـ.

ثم قال تعالى: ﴿ هو أعلم بمن اتقى ﴾، فاكتفوا بعلمه عن علم الناس، وبجزائه عن ثناء الناس. وبالله التوفيق.

الإشارة: ولله ما في سموات الأرواح من أنوار الشهود، وما في أرض النفوس من آداب العبودية، رتَّب ذلك ليجزي الذين أساءوا بوقوفهم مع أرض النفوس في العالم المحسوس، ويجزي الذين آمنوا بترقيهم إلى مقام الإحسان، بالحسنى، وهي المعرفة، حيث ترقّوا من أرض الأشباح إلى عالم سماء الأرواح، وهم الذين يجتنبون كبائر الإثم، وهو شهود وجودهم مع وجود الحق محبوبهم، ووقوفهم مع عالم الحس، والفواحشَ، وهو اعتراضهم على الله فيما يبرز من عُنصر قدرته، وتصغيرهم شيئاً مما عظَّم الله، إلا اللمم؛ خواطر تخطر ولاتثبت.

قال القشيري: كبائر الإثم ثلاث؛ محبة النفس الأمّارة، ومحبة الهوى النافخ في نيران النفس، ومحبة الدنيا، التي هي رأس كل خطيئة، ولكل واحدة من هذه الثلاث فاحشة لازمة لها، أما فاحشة محبة النفس: فموافقة الطبيعة ومخالفة الشريعة، وأما فاحشة محبة الهوى: فحُب الدنيا وشهواتها، وأما فاحشة محبة الدنيا فالإعراض عن الله، والإقبال على ماسواه. وقوله ﴿إلا اللمم﴾ أي: الميل اليسير إلى الهوى والنفس والدنيا، بحسب ضرورته البشرية؛ مِن استراحة البدن، ونيل قليل من حظوظ الدنيا، بحسب الحقوق، لا بحسب الحظوظ، فإنّ مباشر الحقوق مغفور، ومباشر الحظوظ مغرور. هـ.

﴿إنّ ربك واسعُ المغفرة﴾ يستر العيوب، ويُوصل إلى حضرة الغيوب. هو أعلم بكم إذ أنشأكم من أرض البشرية، ورقَّاكم إلى عالم الروحانية، وإذ أنتم أجنة في أول بدايتكم في بطون أمهاتكم، في بطون الهوى والغفلة، ودائرة الكون، فأخرجكم منها بمحض فضله، فلا تُزكّوا أنفسكم، فتنظروا إليها بعين الرضا، أو تنسبوا إليها شيئاً من الكمالات قبل صفائها. قال القشيري: تزكية المرء نفسه علامة كونه محجوباً؛ لأنّ المجذوب عن بقائه، المستغرق في شهود ربِّه، لايُزكّي نفسه. هـ. قلت: هذا مادام في السير، وأما إن حصل له الوصول؛ فلا نفس له، وإنما يُزكّي ربه إذا زكّاها، هو أعلم بمن اتقى ماسواه.

ثم ذكر وبال من زكى نفسه، فقال:

﴿ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾ أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿أفرأيتَ الذي تولَّى﴾؛ أعرض عن الإيمان ﴿وأعطى قليلاً وأكْدى﴾ أي: قطع عطيته وأمسك، وأصله: إكداء الحافر، وهو أن تلقاه كُدْية ـ وهى صلابة، كالصخرة ـ فيمسك عن الحفر. [قال][(1)] ابن عباس: «هو فيمن كفر بعد الإيمان»، وقيل: فى الوليد بن المغيرة، وكان قد اتبع رسولَ الله ﷺ فعيَّره بعضُ الكافرين، وقال: تركتَ دين الأشياخ، وزعمتَ أنهم فى النار؟ قال: إنى خشيتُ عذاب الله، فضمن له إن أعطاه شيئاً من ماله، ورجع إلى شركه، أن يتحمّل عنه عذاب الله، ففعل ذلك المغرور، وأعطى الذى عاتبه بعضَ ما كان ضمن له ثم بخل به ومنعه[(2)]. ﴿أعنده علْمُ الغيبِ فهو يرى﴾ أى: يعلم هذا المغرور أنَّ ما ضمنه له حق؟

﴿أم لم يُنبَّأْ﴾؛ يُخْبَر ﴿بما في صُحف موسى﴾ أى: التوراة، ﴿وإبراهيمَ﴾ أى: وما فى صحف إبراهيم ﴿الذي وفَّى﴾ أى: أكمل وأتم ما ابتلى به من الكلمات، أو: ما أُمر به، أو بالغ فى الوفاء بما عاهد اللهَ عليه. وعن الحسن: ما أمره الله بشيء إلا وفَّى به. وعن عطاء بن السائب: عَهِد ألاَّ يسأل مخلوقاً، فلما قذف فى النار قال له جبريل: ألك حاجة؟ فقال: أما إليك فلا. وقال الشيخ المرسى: وفَّى بمقتضى قوله: (حسبى الله) وعن النبى ﷺ: «وفَّى عمله كل يوم بأربع ركعات فى صدر النهار»[(3)] وهى صلاة الضحى. وروى: «ألا أخبركم لم سمَّى خليلَه «الذى وفَّى»؛ كان يقول إذا أصبح وإذا أمسى: «فسبحان الله حين تُمسون...» إلى «تُظهرون»»[(4)] وقيل: وفَّى سهام

---

(1) زيادة ليست فى الأصول.

(2) أخرجه ابن جرير (٢٧/٧٠) عن ابن زياد، بدون تعيين من نزلت فيه.

(3) أخرجه الطبرى (٢٧/٧٣) وعزاه السيوطى فى الدر (٦/١٦٨) لسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن أبى حاتم، وابن مردويه، والشيرازى فى الألقاب، والديلمى، بسند ضعيف، عن أبى أمامة رضي الله عنه.

(4) أخرجه أحمد فى المسند (٣/٤٣٩) عن سهل بن سعد الساعدى عن أبيه، وقال الهيثمى (١٠/١١٧): «فيه ضعفاء وثقوا». وأخرجه الطبرى (٢٧/٧٣) عن أنس عن أبيه.

الإسلام، وهي ثلاثون، عشرة في التوبة: ﴿التَّائِبُون...َ﴾[1] إلخ، وعشرة في الأحزاب: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ...﴾[2] وعشرة في المؤمنين: ﴿قد أفلح المؤمنون﴾. وقيل: وفيّ حيث أسلم بدنه للنيران، وولده للقربان، وطعامه للضيفان. ورُوى: أنه كان يوم يضيف ضيفاً، فإن وافقه أكرمه، وإلاّ نوى الصوم[3]. وتقديم موسى لأنّ صحفه وهي التوراة أكثر وأشهر.

ثم فسّر ما في تلك الصُحف فقال: ﴿ألاَّ تَزِرُ وازرةٌ وِزْرَ أخرى﴾ أي: أنه لا تحمل نفس وازرة وزر نفس أخرى، بل كل نفس تستقل بحمل وزرها، يقال: وزر يزر إذا اكتسب وِزراً. و«أن» مخففة، وكأنّ قائلاً قال: ما في صحف موسى وإبراهيم؟ فقال: ألاّ تحمل نفس مثقلة بوزرها وِزرَ نفس أخرى.

﴿وأن ليس للإنسان إلا ما سَعَى﴾ هو أيضا مما في صحف موسى وإبراهيم، وهو بيان لعدم انتفاع الإنسان بعمل غيره، إثر بيان عدم انتفاعه من حيث رفع الضرر عنه به، وأما ما صح من الأخبار في الصدقة عن الميت والحج عنه، فلأنه لمّا نواه عنه كان كالوكيل عنه، فهو نائب عنه.

قال ابن عطية: الجمهور أنّ قوله: ﴿وأن ليس للإنسان إلا ما سعى﴾ مُحكَمٌ لا نسخ فيه، وهو لفظ عام مخصّص. هـ. يعني: أن المراد: الكافر، وهكذا استقرئ من لفظ «الإنسان» في القرآن، وأما المؤمن فجاءت نصوص تقتضي انتفاعه بعمل غيره، إذا وهب له من صدقة ودعاء وشفاعة واستغفار، ونحو ذلك، وإلاّ لم يكن فائدة لمشروعية ذلك، فيتصور التخصيص في لفظ «الإنسان» وفي السعي، بأن يخص الإنسان بالكافر، أو السعي بالصلاة، ونحو ذلك مما لا يقبل النيابة مثلاً. والحاصل: أن الإيمان سعي يستتبع الانتفاع بسعي الغير، بخلاف من ليس له الإيمان. هـ. قاله الفاسي: وكان عز الدين يحتج بهذه الآية في عدم وصول ثواب القراءة للميت، فلما مات رؤى في النوم، فقال: وجدنا الأمر خلاف ذلك.

قلت: أما في الأجور فيحصل الانتفاع بسعي الغير، إن نواه له، وأما في رفع الستور، وكشف الحجب، والترقي إلى مقام المقربين، فالآية صريحة فيه، لا تخصيص فيها؛ إذ ليس للإنسان من حلاوة المشاهدة والقُرب إلا بقدر ما سعى من المجاهدة. والله تعالى أعلم.

---

(١) الآية ١١٢ من سورة التوبة.

(٢) الآية ٣٥ من سورة الأحزاب.

(٣) قال أبو حيان في البحر المحيط ٨/١٦٤: وللمفسرين أقوال غير هذه، وينبغي أن تكون هذه الأقوال أمثلة لما وفّى، لا على سبيل التعيين. هـ.

ثم قال: ﴿ وأنَّ سَعْيَه سوف يُرى ﴾ أي: يعرض عليه، ويكشف له يوم القيامة في صحيفته وميزانه، ﴿ ثم يُجزاه ﴾ أي: يجزى العبد سعيه، يقال: جزاه اللهُ عملَه، وجزاه عليه، بحذف الجار وإيصال الفعل، ويجوز أن يكون الضمير للجزاء، ثم فسّره بقوله: ﴿ الجزاءَ الأوفى ﴾ أو: أبدله منه، أي: الجزاء الأكمل بحيث يزيده ولا ينقصه.

الإشارة : أفرأيتَ الذي تولى عن طريق السلوك، بعد أن أعطى نفسه وفلْسَه، وتوجه إلى حضرة مولاه، ثم منّته نفسُه، وغرّته أنه يصل بلا عطاء ولا مجاهدة، فقطع ذلك واشتغل بنفسه، أو غرّه أحدٌ حتى ردّه، وضمن له الوصول، بلا ذلك، أعنده علمُ الغيب حتى علِمَ أنه يصل بلا واسطة ولا مجاهدة؟ فهو يرى عاقبة ما هو سائر إليه. وتصدُقُ الإشارة بمن صَحِبَ شيخاً، وأعطاه بعض ماله أو نفسه، ثم رجع ومال إلى غيره، فلا يأتي منه شيء، أعنده علم الغيب، وأنّ فتحه على يد ذلك الشخص، فهو يرى ما فيه صلاحه وفساده؟ وهذا إن كان شيخه أهلاً للتربية، وإلاّ فلا. أم لم يُنبأ هذا المنقطع بما في صُحف موسى وإبراهيم، أنه لا يتحمل أحدٌ عن أحدٍ مجاهدة النفوس ورياضتها؟ وأن ليس للإنسان من لذة الشهود والعيان إلا ما سعى فيه بالمجاهدة، وبذل النفس والفلس، وأنّ سعيه سوف يُرى؟ أي: يَظهر أثره من الأخلاق الحسنة، والرزانة والطمأنينة، وبهجة المحبين، وسيما العارفين.

وقسّم القشيري السعي على أربعة أقسام؛ **الأول**: السعي في تزكية النفس وتطهيرها، ونتيجته: النهوض للعمل الصالح، الذي يستوجب صاحبه نعيمَ الجنان. **الثاني**: السعي في تصفية القلب من صداء ظلمات البشرية، وغطاء عورات الطبيعية، ونتيجته: صحته من الأمراض القلبية، كحب الدنيا والرئاسة والحسد، وغير ذلك، ليتهيأ لدخول الواردات الإلهية. **الثالث**: السعي في تزكية الروح، بمنعها من طلب الحظوظ الروحانية، كطلب الكرامات، والوقوف مع المقامات، وحلاوة المعاملات، لتتهيأ بذلك للاستشراف على مقام المشاهدات، وحمل أعباء أسرار الذات. **الرابع**: السعي في تزكية السر بتحليته بالصفات الإلهية، والأخلاق الربانية، ليتحقق بمقام الفناء والبقاء، وهو منتهى السعي وكماله. هـ. بالمعنى.

وإلى هذا الانتهاء أشار تعالى بقوله:

﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ
وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ
ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا

﴿ٱلۡأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَاْ فَمَآ أَبۡقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوۡمَ نُوحٖ مِّن قَبۡلُۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ هُمۡ أَظۡلَمَ وَأَطۡغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَٱلۡمُؤۡتَفِكَةَ أَهۡوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نَذِيرٞ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلۡأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ ٱلۡأٓزِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيۡسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ أَفَمِنۡ هَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ تَعۡجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضۡحَكُونَ وَلَا تَبۡكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمۡ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾ فَٱسۡجُدُواْۤ لِلَّهِۤ وَٱعۡبُدُواْ۩ ﴿٦٢﴾﴾

يقول الحق جل جلاله في بقية ذكر ما في الصُحف الأُولى: ﴿وأنَّ إلى ربك المنتهى﴾ أي: الانتهاء، أي: ينتهي إليه الخلق ويرجعون، إليه كقوله: ﴿وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾(١) أو: ينتهي علم العلماء إليه ثم يقفون، لقوله ﷺ: «لا فكرة في الرب»(٢) أي: كُنه الذات، وسيأتي في الإشارة. ﴿وأنه هو أضحكَ وأبكى﴾ أي: خلق الضحك والبكاء، أو: خلق الفرح والحزن، أو: أضحك المؤمنين في الآخرة، وأبكى الكافرين، أو: أضحك المؤمنين في العُقبى بالمواهب وأبكاهم في الدنيا بالنوائب، ﴿وأنه هو أمات وأحيا﴾ أي: أمات الآباء وأحيا الأبناء، أو: أمات بالكفر وأحيا بالإيمان.

﴿وأنه خلق الزوجين الذكرَ والأنثى، من نطفةٍ إذا تُمنى﴾: إذ تدفق وتُدفع في الرحم. يقال: منى وأمنى، ﴿وأنَّ عليه النشأةَ الأُخرى﴾ الإحياء بعد الموت، ﴿وأنه هو أغنَى﴾ أي: صيّر الفقير غنياً ﴿وأَقْنى﴾ أي: أعطى القِنيَة، وهو المال الذي تأثّلته(٣)، وعزمت ألاّ تُخرجه من يدك. ﴿وأنه هو رَبُّ الشِّعْرى﴾، وهو كوكب يطلع بعد الجوزاء في شدة الحر، وكانت خزاعة تعبدها. سنّ لهم ذلك «ابن أبي كبشة» رجل من أشرافهم، قال: لأن النجوم تقطع السماء عرضاً، والشعرى طولاً، ويقال لها: شعرى العبور. انظر الثعلبي. وكانت قريش تقول لرسول الله ﷺ: ابن أبي كبشة، تشبيهاً له ﷺ به، لمخالفته إياهم في دينهم، فأخبر تعالى أنه ربّ معبودهم، فهو أحق بالعبادة وحده.

---

(١) من الآية ٤٨ من سورة الحج.

(٢) أخرجه البغوي في التفسير (٤١٧/٧) وزاده السيوطي عزوه في الدر (١٧٠/٦) للدارقطني في الأفراد، عن أبي بن كعب. وهذا مثل ما روي عن ابن عباس مرفوعاً: «تفكروا في الخلق ولاتتفكروا في الخالق، فإنكم لن تقدروا» عزاه السيوطي في الدر (١٧٠/٦) لأبي الشيخ في العظمة. وانظر: كشف الخفاء ٣٧١/٨، وسلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني ٣٩٧/٤.

(٣) المتأثل: الجامع. والتأثل اتخاذ أصل مال، وكل شيء له أصل قديم، أو جمع حتى يصير له أصل، فهو مؤثّل. انظر اللسان (أثل ١/ ٢٨).

﴿ وأنه أهلك عاداً الأُولى ﴾ ، وهم قوم هود، وعاد الأخرى: عاد إرم، وقيل: معنى الأولى [العدمى](١) لأنهم أولى الأمم هلاكاً بعد قوم نوح، وقال الطبري وغيره: سميت «أُولى» لأن ثَمَّ عاداً آخرة، وهي قبيلة كانت بمكة مع العماليق، وهم بنوا لُقَيم بن هزَّال. والله أعلم. هـ(٢). قلت: والتحقيق: أن عاداً الأولى هي عاد إرم، وهي قبيلة هود التي هلكت بالريح، ثم بقيت منهم بقايا، فكثروا وعمَّروا بعدهم، فقيل لهم عاد الأخيرة، وأنظر أبا السعود في سورة الفجر.(٣) وهاهنا قراءات، وجّهناها في كتاب الدرر(٤).

﴿ وثَموداً ﴾(٥) أي: وأهلك ثمودا، وهم قوم صالح، ﴿ فما أبقَىٰ ﴾ أحداً منهم، ﴿ وقومَ نوحٍ من قبلُ ﴾ ؛ وأهلك قوم نوح من قبل عاد وثمود، ﴿ إنهم كانوا أظلمَ وأطغى ﴾ مِن عاد وثمود؛ لأنهم كانوا يضربونه حتى لا يكون به حِراك، وينفرون منه حتى كانوا يُحذّرون صبيانهم أن يسمعوا منه، ﴿ والمؤتفكةَ ﴾ أي: والقرى التي أئتفكت، أي: انقلبت بأهلها، وهم قوم لوط. يقال: أفَكه فائتفك، أي: قَلَبَه فانقلب، (والمؤتفكة) منصوب بـ ﴿ أهْوَىٰ ﴾ أي: رفعها إلى السماء على جناح جبريل، ثم أهواها إلى الأرض، أي: أسقطها، ﴿ فَغَشَّاها ﴾ ؛ ألبسها من فنون العذاب ﴿ ما غَشَّىٰ ﴾ ، وفيه تهويل لما صبَّ عليها من العذاب، وأمطر عليها من الصخر المنضود.

﴿ فبأي آلاءِ ربك ﴾ أيها المخاطب ﴿ تتمارىٰ ﴾ أي: تتشكك؟، أي: فبأى نِعَم من نِعَم مولاك تجحد ولا تشكر؟ فكم أولاك من النِعم، ودفع عنك من النِقم، وتسمية الأمور المتعددة قبلُ نِعماً مع أن بعضها نقم؛ لأنها أيضا نعَم من حيث إنها نصرة الأنبياء والمرسلين، وعظة وعبرة للمعتبرين. ﴿ هذا نذيرٌ ﴾ أي: محمد مُنذِّر ﴿ من النُذُرِ الأولى ﴾ ؛ من المنذِّرين الأولين، وقال: «الأُولى» على تأويل الجماعة، أو: هذا القرآن نذير من النذر الأولى، أي: إنذار من جنس الإنذارات الأولى التي أُنذِر بها من قبلكم.

---

(١) في تفسير أبي السعود [القدماء].

(٢) العبارة بالمعنى، ونصها كما في تفسير الطبري (٧٨/٢٧): «وإنما قيل لعاد بن إرم: عاد الأولى، لأن بني لقيم بن هزال بن هزيل بن عبيل بن ضد بن عاد الأكبر، كانوا أيام أرسل الله تعالى على عاد الأكبر عذابه، سكاناً بمكة مع إخوانهم من العمالقة.

(٣) عند تفسير الآية السادسة من سورة الفجر، وانظر تفسير أبي السعود ٩/ ١٥٤.

(٤) للشيخ ابن عجيبة ـ رحمه الله تعالى ـ مؤلف في القراءات، سماه «الدرر المتناثرة في توجيه القراءات المتواترة»، وهو كما يقول ابن عجيبة في الفهرسة: تأليف يشتمل على آداب القراءة والتعريف بالشيوخ العشرة، ورواتهم، وتوجيه قراءة كل واحد منهم، وفيه عشرون كراسة. انظر الفهرسة /٣٨.

(٥) أثبت المفسر قراءة «ثموداً» بالتنوين، وقرأ عاصم وحمزة ويعقوب بغير تنوين. والباقون بالتنوين. انظر الإتحاف (٢/ ٥٠٣).

﴿ أزِفَتِ الآزِفَةُ ﴾ أى: قربت الساعة الموصوفة بالقرب فى قوله: ﴿ اقتربت الساعة ﴾(١)، وفى ذكرها بعد إنذارهم إشعار بأنّ تعذيبهم مؤخر إلى يوم القيامة، ﴿ ليس لها من دون الله كاشِفةٌ ﴾ أى: ليس لها نَفْس مبيِّنة وقت قيامها إلاّ الله تعالى، وهذا كقوله: ﴿ لا يُجلّيهَا لِوَقْتِهَا إلاّ هُوَ ﴾(٢) أو: ليس لها نفس قادرة على كشف أهوالها إذا وقعت إلا الله تعالى، فيكشفها عمن شاء، ويُعذِّب بها من شاء.

ولمّا استهزؤوا بالقرآن، الناطق بأهوال القيامة، نزل قوله تعالى: ﴿ أفمن هذا الحديث تعجبون ﴾ إنكاراً، ﴿ وتضحكون ﴾ استهزاء، ﴿ ولا تبكون ﴾ خشوعاً، ﴿ وأنتم سامدون ﴾؛ غافلون، أو: لاهون لاعبون، وكانوا إذا سمعوا القرآن عارضوه بالغناء؛ ليشغلوا الناس عن استماعه، ﴿ فاسجدوا لله واعبدوا ﴾ ولا تعبدوا معه غيره، من اللات والعزى ومناة والشِّعْرَى، وغيرها من الأصنام، أى: اعبدوا رب الأرباب، وسارعوا له، رجاء فى رحمته. والفاء لترتيب الأمر بالسجود على بطلان مقابلة القرآن بالإنكار والاستهزاء، ووجوب تلقيه بالإيمان والخضوع والخشوع، أى: إذا كان الأمر كذلك فاسجدوا لله الذى أنزله واعبدوه.

الإشارة: وأنّ إلى ربك المنتهى، انتهى سير السائرين إلى الوصول إلى الله، والعكوف فى حضرته. ومعنى الوصول إلى الله: العلم بأحدية وجوده، فيمتحى وجود العبد فى وجود الرب، وتضمحل الكائنات فى وجود المكوِّن، فتسقط شفعية الأثر، وتثبت وترية المؤثِّر، كما قال القائل:

ويروح وراح عاد شفعى وترى

وقال آخر:

فلم يبق إلا الله لم يبق كائنٌ فما ثَمَّ موصولٌ ولا ثم بائنُ
بذا جاء برهان العيانِ، فما أرى بِعَيْنيَّ إلا عينه إذ أعاينُ

إلى غير ذلك مما غنّوا به من أذواقهم ووجدانهم.

ثم قال تعالى: (وأنه هو أضحك وأبكى) أى: قبض وبسط، أو: أنه أضحك أرواحاً بكشف الحجاب، وأبكى نفوساً بذُل الحجاب، أو: أضحك إذا تجلى بصفة الجمال، وأبكى إذا تجلى بصفة الجلال، وأنه هو أمات قلوباً بالجهل والغفلة، بمقتضى اسمه القهّار، وأحيا قلوباً بالعلم والمعرفة، بمقتضى اسمه الغفار، أو: أمات نفوساً عن شهواتها الفانية، وأحيا بسبب ذلك أرواحاً بكمال المعرفة، فاتصفت بالأوصاف الربانية، أو: أمات أرواحاً بغلبة ظلمة النفس واستيلائها عليها، وأحيا نفوساً باستيلاء الأرواح عليها، وغلبة نورها، فحييت وانقلبت روحاً. وأنه خلق الزوجين، أى: الصنفين؛ الذكر والأنثى، الحس والمعنى، الحقيقية والشريعة، القدرة والحكمة، كما تقدم. وقال القشيرى: الروح

(١) الآية الأولى من سورة القمر.
(٢) من الآية ١٨٧ من سورة الأعراف.

كأنها ذَكَر موصوفة بصفة الفاعلية، والنفْس أنثى موصوفة بصفة القابلية، لتحصل نتيجة القلب، بحصول المطالب الدنيوية والأخروية. هـ. مختصراً. وقال بعضهم: والشيطان كالذكَر، والنفس كالأنثى، يتولد بينهما المعصية. هـ.

وأنّ عليه النشأة الأخرى، وهو بعث الأرواح من موت الغفلة، وحشرها إلى موقف المراقبة والمحاسبة، ثم إدخالها جنة المعارف، فلا تشتاق إلى جنة الزخارف أبداً، أو: النشأة الأخرى: الجذب بعد السلوك، والفناء بعد البقاء، ثم البقاء بعد الفناء، البقاء الأول بوجود النفس، والثاني بالله. وأنه هو أغنى به بوصول العبد إلى مشاهدته، وأقنَى بأن مكّنه منه فزاد غناه. وطبّل على ماله، وأنه هو ربُّ الشِّعرى، وهو كل ما عُبد من الهوى والدنيا، فكيف يعبد المربوب اللئيم، ويترك الرب الكريم؟! وأنه أهلك عاداً الأولى؛ النفوس المتفرعنة، والأهوية المُغوية، أرسل عليهم ريحَ الهداية القوية، حتى اضمحلت وخضعت لمولاها، وثمودَ الخواطر، فما أبقى منها إلا خواطر الخير، التي تأمر بالخير، وقوم نوح؛ من القواطع الأربعة؛ النفس، والشيطان، والناس، والدنيا، قطعتهم عن المتوجه من قَبلُ، أي: من قبل أن يتوجه إلينا، لما سبق في علمنا أنهم كانوا هم أظلم وأطغى من بقية العلائق، والنفس المؤتفكة، أي: المنقلبة عن التوجه، أهوى بها في أسفل سافلين، باعتبار أهل عليين، فغشّاها من الدنيا ومن الخواطر والهموم والغموم، ما غشّى.

فإذا سلِمتَ أيها العبد من هؤلاء القواطع والعلائق، وتوجهتَ إلى مولاك، فبأي آلاء ربك تتمارى؟ بل الواجب عليك أن تشكر الله آناء الليل والنهار. هذا الذي أخذ بيدك نذيرٌ من النُذُر الأولى، المتقدمين الداعين إلى الله في كل زمان، أزفت الآزفة، أي: قربت ساعة الفتح حين توجهت وانقطعت عنك العلائق، ووجدتَ من يُدخلك بحرَ الحقائق، ليس لها من دون الله كاشفة، لا يشكف لك هذه الحقائق إلا الذي منّ عليك بصحبة من يدلك عليه. قال القشيري: أزفت الآزفة: قَرُبتَ الحقيقة الموصوفة بالقرب والدنو، وأنت أيها السالك في عينها، وما لك بها شعور، لفنائك في أوصافك النفسانية[1]. هـ مختصرا. أفمن هذا الحديث العجيب، والغزل الرقيق الغريب، تعجبون، إنكاراً، وتضحكون استهزاءاً؟ قلت: وقد رأيت كثيراً ممن يُنكر الإشارة، ويستهزئ بها، ويتنكب مطالعتها، وقد قيل: مَن كرِهَ شيئاً عاداه. ولاتبكون على أنفسكم، حيث حُرمتُ من هذه المواهب، وأنتم سامدون غافلون لاهون، للدنيا طالبون، فاسجدوا لله واعبدوا، وتضرعوا إليه، حتى يُخرجكم من سجن هواكم ونفوسكم.

وبالله التوفيق، وهو الهادي إلى سواء الطريق، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

❁ ❁ ❁

(١) لم أقف على هذا النص أو على معناه في لطائف الإشارات.

سورة القمر

مكية كلها عند الجمهور، وقيل: إلاّ قوله: ﴿سيُهزم الجمع...﴾ الخ. وهى خمسون آية، ومناسبتها لِما قبلها: قوله تعالى: ﴿أزفت الآزفة﴾(1) وهى التى أخبر عنها بقوله:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ (1) وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ (2) وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ (3) وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّنَ الْأَنبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ (4) حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ (5) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ۘ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ (6) خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ (7) مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ ۖ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ (8) ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿اقتربت الساعةُ﴾؛ قربت القيامة، قال القشيرى: ومعنى قربها: أنّ ما بقى من الزمان إلى القيامة قليل بالإضافة إلى ما مضى . هـ . قال ابن عطية: وأمرها مجهول التحديد، وكل ما يروى من التحديد فى عمر الدنيا فضعيف . هـ. ﴿وانشقَّ القمرُ﴾ نصفين، وقرىء: «وقد انشقّ القمر»، أى: اقتربت الساعة وقد حصل من آيات اقترابها أنّ القمر قد انشقّ، كما تقول: أقبل الأميرُ، وقد جاء البشير بقدومه.

قال ابن مسعود رضي الله عنه : انشق القمر على عهد النبى ﷺ فرقتين، فكانت إحداهما فوق الجبل، والأخرى أسفل من الجبل، فقال ﷺ: «اشهدوا»(2). قال ابن عباس: إنّ المشركين قالوا للنبى ﷺ: إن كنت صادقاً فشُق لنا القمر فلقتين، فقال: «إن فعلتُ؛ أتؤمنون؟» فقالوا: نعم، وكانت ليلة بدر، فسأل ﷺ ربه؛ فانشق فرقتين، نصف على أبى قُبيس، ونصف على قُعيْقِعان(3). وقيل: سألوا آية مجملة، فأراهم انشقاق القمر(4). قال ابن عطية: وعليه الجمهور، يعنى عدم التعيين.

---

(1) الآية 57 من سورة النجم.
(2) أخرجه البخارى فى (التفسير، تفسير سورة القمر، باب ﴿وانشق القمر﴾) ومسلم فى (صفات المنافقين وأحكامهم، باب انشقاق القمر، ح 2800).
(3) ذكره القرطبى فى تفسيره (7/6483). وقُعيقعان: جبل بمكة. انظر اللسان (قعع 5/3696).
(4) أخرجه البخارى فى (مناقب الأنصار، باب انشقاق القمر ح3868) عن أنس بن مالك.

وفى صحيح مسلم: أنه انشق مرتين[١]، وصرح فى شرح المواقف بأن انشقاقه متواتر. هـ. وقيل: معناه؛ انشق، أى: ينشق يوم القيامة، وهو ضعيف، ولا يُقال: لو انشقَّ لما خفى على أهل الأقطار، ولو ظهر عندهم لنقل متواتراً؛ لأن الطباع جبلت على نشر العجائب، لأنه يجوز أن يحجبه اللهُ عنهم بغيم أو غيره، مع أنه كان ليلاً، وجُلّ الناس نائمون، وأيضا: عادة الله ـ تعالى ـ فى معجزاته أنه لا يراها إلاَّ مَن ظهرت لأجله فى الغالب.

تنبيه: قال القسطلانى فى المواهب اللدنية: ما يذكره بعض القصاص أن القمر دخل فى جيب النبى ﷺ وخرج من كمه، ليس له أصل، كما حكاه الزركشى عن شيخه العماد ابن كثير. هـ.

﴿وإن يَرَوا﴾ أى: أهل مكة ﴿آيةً﴾ تدل على صدق رسوله ﷺ ﴿يُعرضوا﴾ عن الإيمان ﴿ويقولوا سِحْرٌ مستمر﴾؛ محكم شديدٌ قوىٌ، من: المِرّة، وهى القوة، أو: دائم مطّرد. رُوى: أنه لما انشق؛ قالوا: هذا سحر ابن أبى كبشة؟ فسلوا السُّفار، فلما قَدِموا سألوهم، فقالوا: إنهم قد رأينه، فقالوا: قد استمر سحره فى البلاد، فنزلت[٢]. قال البيضاوى: دل قوله: (مستمر) على أنهم رأوا قبله آيات أخرى مترادفة، ومعجزات سابقة. هـ. أو: مستمر؛ ذاهب ومارٌ، يزول ولا يبقى، من: مرّ الشىء واستمر: ذهب.

﴿وكذَبوا واتَّبعوا أهواءَهم﴾ الباطلة، وما زيّن لهم الشيطان من دفع الحق بعد ظهوره، حتى قالوا: سحرَ القمر، أو: سَحَرَ أعيننا، ﴿وكلُّ أمرٍ﴾ وعدهم الله به ﴿مستقِرٌ﴾؛ كائن فى وقته، أو: كل أمر قُدِّرَ واقع لا محالة يستقر فى وقته، أو: كل أمر من الخير والشر يقع بأهله من الثواب والعقاب، وقُرىء «مستقرٍ بالجر[٣]، فيعطف على «الساعة»، أى: اقتربت الساعة وكل أمرٍ مستقر، يعنى: أشراطها.

﴿ولقد جاءهم﴾ أى: أهل مكة فى القرآن؛ ﴿من الأنباءِ﴾؛ من أخبار القرون الماضية، وكيف أُهلكوا بالتكذيب ﴿ما فيه مُزْدَجَرٌ﴾ أى: ازدجار عن الكفر والعناد، يقول: زجرته وازدجرته، أى: منعته، وأصله: ازتجر، افتعل، من الزجر، ولكن التاء إذا وقعت بعد زاى ساكنة أبدلت دالاً؛ لأن التاء حرف مهموس، والزاى حرف مجهور. فأبدل من التاء حرف مجهور، وهو الدال؛ ليناسب الميم.

(١) أخرجه مسلم فى (صفات المنافقين وأحكامهم، باب انشقاق القمر ح ٢٨٠٢) عن قتادة.
(٢) أخرجه الطبرى (٢٧/٨٥) وعزاه السيوطى فى الدر (٦/١٧٦) لابن المنذر، وابن مردويه، وأبى نعيم، والبيهقى، كلاهما فى الدلائل، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.
(٣) قرأ أبو جعفر «مستقر» بخفض الراء، صفة، ورفع (كل) حينئذ بالعطف على «الساعة»، وقيل: بالابتداء والخبر، أى: وكل أمر مستقر لهم فى القدر بالغوه. وقرأ الباقون بالرفع، خبر «كل». انظر الإتحاف (٢/٥٠٥).

﴿حكمة بالغةٌ﴾: بدل من «ما»، أو: خبر، أي: هو حكمة بالغة؛ ناهية في الرشد والصواب، أو: بالغة من الله إليهم. قال القشيري: والحكمة البالغة: الصحيحة الظاهرة الواضحة لمن فكّر فيها. هـ. قال المحلي: وصفت بالبلاغة؛ لأنها تبلغ من مقصد الوعظ والبيان ما لا يبلغ غيرها هـ. ﴿فما تُغنِ النُّذُر﴾ شيئاً، حيث سبق القدر بكفرهم، و«ما» نافية، أو استفهامية منصوبة بـ «تغن»، أي: فأيّ إغناء تُغنى النُذر مع سابق القدر؟ والنُذر: جمع نذير، وهم الرسل، أو: المنذَر به، أو: مصدر بمعنى الإنذار، والتعبير بالمضارع للدلالة على تجدد عدم الإغناء، واستمراره حسب تجدد مجئ الزواجر واستمرارها.

﴿فتولَّ عنهم﴾ لعلمك بأنّ الإنذار لا يُغنى فيهم شيئاً، واذكر ﴿يومَ يدع الداع[1]﴾ وهو إسرافيل عليه السلام ﴿إلى شيءٍ نُكُرٍ﴾ أي: منكر فظيع، تُنكره النفوس، لعدم العهد بمثله، وهو هول القيامة. ﴿خُشَّعاً أبصارُهم يخرجون﴾، فـ«خُشَّعاً»: حال من فاعل «يخرجون»، أي: ﴿يَخرجون من الأجداث﴾ أذلة أبصارهم من شدة الهول؛ لأن ذلة الذليل وعزة العزيز يظهرن في أعينهما، ومن قرأ: «خاشعا»[2] فوجهه: أنه أسند إلى ظاهر، فيجب تجريده كالفعل، وأما من قرأ بالجمع، فهو على لغة: «أكلوني البراغيث»، ﴿كأنهم جراد منتشرٌ﴾ في الكثرة والتموّج والتفرق في الأقطار. قال ابن عطية: في الحديث: أن مريم دعت للجراد؛ فقالت: اللهم أعِشْها بغير رضاع، وتتابع بينها بغير شِياع. هـ.

ثم وصف خروجهم من القبور، فقال: ﴿مهطِعين إلى الداعِ﴾؛ مسرعين مادِّي أعناقهم إليه، أو ناظرين إليه، ﴿يقول الكافرون﴾ استئناف بياني، وقع جواباً عما نشأ من وصف اليوم بالأهوال، وأهله بسوء الحال، كأنّ قائلاً قال: فماذا يكون حينئذ؟ فقال: ﴿يقول الكافرون هذا يوم عَسِرٌ﴾؛ صعب شديد. وفي إسناد هذا القول إلى الكفار تلويح بأنّ المؤمنين ليسوا في تلك المرتبة. والله تعالى أعلم.

الإشارة: اقتربت ساعة الفتح لمن جدّ في السير، ولازم صحبةَ أهل القرب، قال القشيري: الساعة ساعتان؛ كبرى، وهي عامة، وصغرى، وهي خاصة بالنسبة إلى السالك إلى الله، برفع الأوصاف البشرية، وقطع العلائق الطبيعية. ثم قال: وإليه الإشارة بقوله ﷺ: «من مات فقد قامت قيامته»[3] راجعة إلى الساعة الصغرى. هـ. أي:

---

(١) أثبت المصنف الياء في «الداع إلى»، وهي قراءة ورش وأبي عمرو وأبي جعفر، وصلاً، والبزي ويعقوب في الحالين. وقرأ الباقون بغير ياء وصلاً ووقفاً. انظر السبعة / ٦١٧ والإتحاف ٢/٥٠٥.

(٢) قرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي ويعقوب «خاشعاً» بفتح الخاء وألف بعدها وكسر الشين مخففة، بالإفراد. وقرأ الباقون «خُشّعاً» بضم الخاء وفتح الشين وتشديدها بلا ألف. انظر الإتحاف (٥٠٦/٢).

(٣) قال العراقي في المغني ٦٧/٤: «أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب الموت، من حديث أنس، بسند ضعيف» وكذا قال الشوكاني في الفوائد المجموعة (ص ٢٦٧) وزاد: «وهو من قول الفضيل بن عياض رحمه الله تعالى»، وأخرجه الديلمي، الفردوس بمأثور الخطاب (ح ١١١٧) عن أنس بلفظ: «إذا مات أحدكم فقد قامت قيامته ...» الحديث. وانظر كشف الخفاء (ح/٢٦١٨).

من مات عن رؤية نفسه؛ قامت قيامته بلقاء ربه وشهوده. وقوله تعالى: ﴿وانشق القمر﴾ أى: قمر الإيمان؛ فإنه إذا أشرقت عليه شمس العيان، لم يبق لنوره أثر، ليس الخبر كالعيان، وإن يَرَوا ـ أى: أهل الغفلة والحجاب ـ آيةً تدل على طلوع شمس العيان على العبد المخصوص، يُعرضوا منكرين، ويقولوا: ﴿هذا سحر مستمر..﴾ الآية، وكل أمر قدّره الحق ـ تعالى فى الأزل، من أوقات الفتح أو غيره، مستقر، يستقر ويقع فى وقته، لا يتقدم ولا يتأخر، فلا ينبغى للمريد أن يستعجل الفتح قبل إبانه، فربما عُوقب بحرمانه، ولقد جاءهم من الأخبار عن منكرى أهل الخصوصية، وما لحق أهلَ الانتقاد من الهلاك أو الطرد والبُعد ما فيه مزدجر، كما فعل بابن البراء وأمثاله، حكمة من الله بالغة، وسنة ماضية، يقول: «من آذى لى ولياً فقد آذن بالحرب» فما تُغن النُذر إذا سبق الخذلان، فتولّ أيها السالك عنهم، وعن خوضهم، واشتغل بالله عنهم؛ فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم، واذكر الموت وما بعده، فإنه حينئذ يظهر عز الأولياء، وذل الأغبياء، يقولون: هذا يوم عسر على من طغى وتجبر.

ثم سَرَدَ قصص الأنبياء، تسليةً لرسوله ﷺ ـ وتفسيراً لقوله: ﴿ولقد جاءهم من الأنباء﴾ فقال:

﴿ ۞ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُواْ عَبْدَنَا وَقَالُواْ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿كذبت قبلهم﴾ أى: قبل أهل مكة ﴿قومُ نوح فكذَّبوا عبدنا﴾ نوحاً عليه السلام. ومعنى تكرار التكذيب: أنهم كذَّبوا تكذيباً عقب تكذيب، كلما خلا منهم قرن مكذِّب، جاء عقبه قرن آخر مكذِّب مثله، وقيل: كذبت قوم نوح الرسل، (فكذَّبوا عبدنا)؛ لأنه مِن جملتهم. وفى ذكره عليه السلام بعنوان العبودية مع إضافته لنون العظمة؛ تفخيم له عليه السلام ورفع لمحله، وزيادة تشنيع لمكذِّبيه، ﴿وقالوا مجنون﴾ أى: لم يقتصروا على مجرد التكذيب، بل نسبوه للجنون، ﴿وازْدُجِرَ﴾ أى: زجر عن أداء الرسالة؛ بالشتم، وهدّد بالقتل، أو: هو من جملة قولهم، أى: قالوا: هو مجنون وقد ازدجرته الجن، أى: تخبّطته وذهبت بلُبه.

﴿ فدعا ربَّه ﴾ حين أيس منهم ﴿ أني مغلوب ﴾ أي: بأني مغلوب من جهة قومي، بتسليطهم عليّ، فلم يسمعوني، واستحكم اليأس من إجابتهم . قال القشيري: مغلوب بالتسلط لا بالحجة، إذ الحجة كانت له. هـ. وهذا جار فيمن لم يستجب لك، تقول: غلبني. ثم دعا عليهم بقوله: ﴿ فانتصرْ ﴾؛ فانتقم منهم بعذاب تبعثه عليهم، وذلك بعد تحقق يأسه منهم وعظم إذايتهم. فقد رُوي أن الواحد منهم كان يلقاه فيضربه حتى يغشى عليه، فيقول: اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون.

﴿ ففتحنا أبوابَ السماء بماء منهمرٍ ﴾؛ منصب بكثرة وتتابع لم ينقطع أربعين يوماً، قال يمان: حتى طبق بين السماء والأرض(١)، وقيل: كانوا يطلبون المطر سنين، فأُهلكوا بمطلوبهم. وفتح الأبواب كناية عن كثرة الأمطار، وشدة انصبابها، وقيل: كان في السماء يومئذ أبواب حقيقة.

﴿ وفجَّرنا الأرضَ عيوناً ﴾؛ وجعلنا الأرض كلها كأنها عيون تتفجر، وهو أبلغ من قولك: وفجرنا عيون الأرض، ومثله: ﴿ واشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا ﴾(٢) في إفادة العموم والشمول، ﴿ فالتقى الماءُ ﴾ أي: مياه السماء ومياه الأرض، وقرىء: «الماءان»(٣)، أي: النوعان من الماء السمائي والأرضي. ﴿ على أمر قد قُدِرَ ﴾ أي: قُضى في أم الكتاب، وهو هلاك قوم نوح بالطوفان، أو: قدر أنّ الماءين يكون مقدارهما واحداً من غير تفاوت. قيل: كان ماء السماء بارداً كالثلج، وماء الأرض مثل الحميم، ويقال: إنّ الماء الذي نبع من الأرض نضب، والذي نزل من السماء بَقِيَ حارا.

﴿ وحملناه على ذات ألواحٍ ﴾ أي: أخشاب عريضة، والمراد: السفينة، وهي من الصفات التي تقوم مقام موصوفها كالشرح له، وهو من فصيح الكلام ومن بديعه، ﴿ ودُسُرٍ ﴾؛ ومسامير، جمع: دسار، وهو المسمار، فعال من: دسره: إذا دفعه؛ لأنه يدسَر به منفذه. ﴿ تجري بأعيننا ﴾ أي. بمرأىً منا، أو: بحفظنا، وهو حال من فاعل «تجري»، أي: تجري محفوظة ﴿ جزاءً ﴾ مفعول له، أي: فعلنا ذلك جزاءً ﴿ لمن كان كُفِرَ ﴾ وهو نوح عليه السلام، وجعله مكفوراً؛ لأن النبي نعمة من الله ورحمة، فكان نوح نعمة مكفورة. وقرأ مجاهد بفتح الكاف، أي: عقاباً لمن كفَرَ بالله. قيل: ما نجا من الغرق إلاَّ عُوج بن عنُق، كان الماء إلى حجزته(٤)، وسبب نجاته: أنّ نوحاً احتاج إلى

(١) ذكره البغوي في تفسيره ٤٢٨/٧.
(٢) من الآية ٤ من سورة مريم.
(٣) عزاها في مختصر ابن خالويه، وزاد في البحر المحيط (١٧٥/٨) عليّ والحسن ومحمد بن كعب.
(٤) الحجزة: موضع التكة من السروال.

خشب الساج للسفينة، فلم يمكنه نقلها، فحمل عُوج تلك الخشب إليه من الشام، فشكر الله له ذلك، ونجّاه من الغرق. قاله الثعلبي[1]. قلت: وقد تقدم إبطاله في سورة العقود[2]، وأنه من وضع الزنادقة. ذكره القسطلاني.

﴿ولقد تركناها﴾ أي: السفينة، أو: الفعلة، أي: جعلناها ﴿آيةً﴾ يَعتبر بها مَن يقف على خبرها. وعن قتادة: أبقاها الله بأرض الجزيرة، وقيل: على الجُودىِّ، حتى رآها أوائل هذه الأمة[3]. ﴿فهل من مُدَّكِرٍ﴾؛ من متعظ يتعظ ويعتبر، وأصله: مذتكر، فأبدلت التاء دالاً مهملة، وادغمت الذال فيها لقرب المخرج، ﴿فكيف كان عذابي ونُذر﴾ ؟! استفهام تعظيم وتعجيب، أي: كان عذابى وإنذارى لهم على هيئة هائلة، لا يُحيط بها الوصف، والنُذر: جمع نذير، بمعنى الإنذار.

﴿ولقد يسَّرنا القرآنَ للذكرِ﴾ أي: سهّلناه للادّكار والاتعاظ؛ بأن شحنّاه بأنواع المواعظ والعِبر، وصرّفنا فيه من الوعد والوعيد ما فيه شفاء وكفاية. ﴿فهل من مُدَّكِرٍ﴾ ؟ إنكار ونفى للمتعظ على أبلغ وجه، أى: فهل من متعظ يقبل الاتعاظ، وقيل: ولقد سهّلناه للحفظ، وأعنّا من أراد حفظه، فهل من طالب لحفظه ليُعان عليه؟ قال القشيرى: ﴿ولقد يَسَّرنا القرآنَ للذكر﴾؛ يسّر قراءته على ألسنة قوم، وعِلْمَه على قوم، وفهمه على قلوب قوم، وحِفْظه على قلوب قوم، وكلهم أهل القرآن، وكلهم أهل الله وخاصته. ويقال: كاشَفَ الأرواح من قومٍ قبل إدخالها فى الأجساد، فهل من مُدكر يذكر العهد الذى جرى لنا معه؟. هـ.

ويُروى: أن كتب أهل الأديان من التوراة فى الإنجيل والزبور لا يتلوها أهلها إلا نظراً، ولا يحفظونها ظاهراً كالقرآن، وفى القوت: مما خصَّ اللهُ به هذه الأمة ثلاثة أشياء: حفظ كتابنا هذا، إلا ما ألهم اللهُ عزيزاً من التوراة بعد أن كان بختنصّر أحرق جميعها، ومنها: تبقية الإسناد فيهم، يأثره خلف عن سلف، متصلاً إلى نبينا ﷺ. وإنما كانوا يستنسخون الصُحف، كلما خلقت صحيفة جُددت، فكان ذلك أثرة العلم فيهم، والثالثة: أن كان مؤمن من هذه الأمة يُسئل عن علم الإيمان، ويُسمع قوله مع حداثة سنه، ولم يكن مما مضى يسمعون العلم إلا مِن الأحبار والقسيسين والرهبان. وزاد رابعة: وهى ثبات الإيمان فى قلوبهم، لا يعتوره شك، ولا يختلجه شرك، مع تقليب الجوارح فى المعاصى. وقد قال قوم موسى: ﴿اجْعَل لَّنَا إِلَهًا﴾[4] بعد أن رأوا الآيات العظيمة، من انفلاق البحر وغيره. هـ. قال أبو السعود: وحمل تيسيره على حفظه لا يساعده المقام. هـ.

---

(١) وذكره القرطبى فى تفسيره (٦٤٨٩/٧).

(٢) لم يذكر الشيخ شيئاً عن عوج بن عنق فى تفسير سورة المائدة. وقد ولع بعض المفسرين بذكر قصة عوج عند تفسير قوله تعالى: ﴿قالوا يا موسى إن فيها قوماً جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها﴾ المائدة / ٢٢. وقد بين العلماء زيف ما نقل فى هذه القصة. راجع فى هذا، الإسرائيليات والموضوعات للدكتور محمد أبى شهبة /١٨٦.

(٣) أخرجه ابن جرير (٩٥/٢٧) وعزاه السيوطى فى الدر (٦/ ١٨٠) لعبد الرزّاق وعبد بن حميد وابن المنذر.

(٤) من الآية ١٣٨ من سورة الأعراف.

الإشارة: في الآية تسلية لمن أُوذي من الأولياء، وإجابة الدعاء على الظالم، لهم إن [أُذن](١) لهم في ذلك بإلهام أو هاتف، وإلاَّ فالصبر أولى، وجعل القشيري نوحاً إشارة إلى القلب، وقومَه جنود النفس، من الهوى والدنيا وسائر العلائق، فيكون التقدير: كذبت النفسُ وجنودُها القلبَ، فيما يَرِدُ عليه من تجليات الحق، وكشوفات الغيب، وقالوا: إنما هو مجنون فيما يُخبر به، فزجرته، ومنعته من تلك الواردات الإلهية بظلمات شهواتها، فدعا ربه وقال: أني مغلوب في يد النفس وجنودها، فانتصرْ لي حتى تغيبني عنهم، ففتحنا أبواب سماء الغيب بأمطار الواردات الإلهية القهّارية، لتمحق تلك الظلمات النفسانية، وفجرنا أرض البشرية بعلوم آداب العبودية، فالتقى ماء الواردات، التي هي من حضرة الربوبية، مع ماء علوم العبودية، على أمر قد قُدر أنه ينصر القلب، ويرقيه إلى حضرة القدس، وحملناه على سفينة الجذب والعناية، تجري بحفظنا، جزاء لنعمة القلب التي كفرتْ به النفسُ وجنودُها، ولقد تركنا هذه الفعلة آية يعتبر بها السائرون إلينا، والطالبون لنا، فهل من مدكر؟ فكيف كان عذابي لمن استولت عليه النفس وجنودها؟ وكيف كان إنذاري من غم الحجاب، وسوء الحساب، ولقد يسّرنا القرآن للذكر؛ للاتعاظ، فهل من مُدكر، فينهض من غفلته إلى مولاه؟.

ثم ذكر قصة عاد، فقال:

﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿كذبتْ عادٌ﴾ هوداً عليه السلام، ﴿فكيف كان عذابي ونُذُرِ﴾؟! أي: وإنذاري لهم بالعذاب قبل نزوله، والاستفهام لتوجيه قلوب السامعين للإصغاء إلى ما يُلقي إليهم قبل ذكره؛ لتهويله وتعظيمه، وتعجيبهم من حاله قبل بيانه، كما قبله وما بعده، كأنه قيل: كذبت عاد فهل سمعتم ما حلّ بهم؟ أو: فاسمعوا، فكيف كان عذابي وإنذاري لهم.

ثم بيّن ما أجمل فقال: ﴿إنَّا أرسلنا عليهم ريحاً صَرْصَراً﴾ ؛ باردة أو: شديدة الصوت؛ ﴿في يومِ نَحْسٍ﴾ ؛ شؤم ﴿مستمرٍ﴾ شؤمه عليهم إلى أن أهلكهم، وكان في أربعاء آخر شوال، ﴿تنزِعُ الناسَ﴾ أي: تقلعهم، وجاء بالظاهر

(١) في الأصول [أوذن].

مكان المضمر؛ ليشمل ذكورَهم وإناثهم، صغيرهم وكبيرهم. رُوي: أنهم كانوا يتداخلون الشّعاب، ويحفرون الحفر، ويندسون فيها، ويُمسك بعضهم ببعض؛ فتزعجهم الريح، وتصرَعهم موتى.

قال ابن إسحاق: ولمّا هاجت عليهم الريح، قام سبعةُ نفرٍ من عاد؛ [فأولجوا](١) العيال في شعب بين جبلَين، ثم اصطفوا على باب الشعب، ليردوا الريحَ عنهم، فجعلت الريحُ تجعفهم(٢) رجلاً رجلاً. هـ. ثم صاروا بعد موتهم ﴿كأنهم أعجازُ نخلٍ مُنقعرٍ﴾ أي: أصول نخل منقلع من مغارسه، وشُبهوا بأعجاز النخلة، وهي أُصولها التي قطعت رؤوسها؛ لأنّ الريح كانت تقطع رؤوسهم، فتبقى أجساداً بلا رؤوس، فيتساقطون على الأرض أمواتاً، وهم جثث طوال. وتذكير صفة النخل بالنظر إلى اللفظ، كما أن تأنيثه في قوله تعالى: ﴿أعجاز نخل خاوية﴾(٣) بالنظر للمعنى. ﴿فكيف كان عذابي ونُذُرِ﴾ ؟! تهويل وتعجيب من أمرهما بعد بيانهما، فليس فيه شائبة تكرار، وما قِيل: من أن الأول لِما حاق بهم في الدنيا، والثاني لِما يحيق بهم في الآخرة، يرده ترتيب الثاني على العذاب الدنيوي.

﴿ولقد يسَّرنا القرآنَ للذكر فهل من مُدَّكرٍ﴾ ؟! وفي تكريره بعد كل قصة؛ تنبيه على أن إيراد قصص الأمم إنما هو للوعظ والتذكار، وللانزجار عن مثل فعلهم، لا لمجرد السماع والتلذذ بأخبارهم، كما هي عادة القصاص.

الإشارة: مِن شأن النفوس العاتية المُتجبرة العادية؛ تكذيب أهل الخصوصية كيفما كانوا، ولا ترضى بحط رأسها لمن يدعوها إلى ربها، فيُرسل اللهُ عليهم ريحَ الهوى والخذلان، فتصرعهم في محل الذل والهوان، وتتركهم عبيداً لنفوسهم الخسيسة، وللدنيا الدنية، فكيف كان عذابي لهؤلاء وإنذاري لهم؟! ولقد يسرنا القرآن للذكر، وبيّنا فيه ما فعلنا بأهل التكبر والعناد من الإهانة والطرد والإبعاد، فهل مِن مدكر، يتيقظ مِن سنة غفلته، ويرحل من دنياه لآخرته، ومن نفسه إلى ربه؟.

ثم ذكر قصة ثمود، فقال:

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَـٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ

(١) في الأصول: [فألجوا]. (٢) تجعفهم: تصرعهم. (٣) من الآية ٧ من سورة الحاقة.

كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ كذبت ثمودُ بالنُذُر ﴾ بصالح عليه السلام؛ لأنّ من كذّب واحداً فقد كذّب الجميع؛ لاتفاقهم في الشرائع، أو: كذّبوا بالإنذارات والمواعظ التي يسمعونها من صالح، ﴿ فقالوا أبَشَراً منا ﴾ أي: كائناً من جنسنا، وانتصابه بفعل يُفسره «نتبعه»، أي: أنتبع بشراً منا ﴿ واحداً ﴾ منفرداً لا تباعة له؟ أو: واحداً من الناس لا شرف له ﴿ نَتبعه ﴾ وندع ديننا؟ ﴿ إنَّا إذاً ﴾ أي: على تقدير اتباعنا له، وهو مفرد ونحن أمة جمة ﴿ لفي ضلال ﴾ عن الصواب ﴿ وسُعُرٍ ﴾ نيران تحرق، جمع «سعير». كان صالح يقول لهم: إن لم تتبعوني كنتم في ضلال عن الحق، وصرتم إلى سعير، ونيران تحرق، فعكسوا عليه، لغاية عتوهم، وقالوا: إن اتبعناك كنا كما تقول. وقيل: المراد بالسعر: الجنون، لأنها تشوه صاحبها، أنكروا أن يكون الرسول بشراً، وطلبوا أن يكون من الملائكة، وأنكروا أن تتبع أمةٌ واحداً، أو: رجلاً لاشرف له في زعمهم، حيث لم يتعاط معهم أسباب الدنيا. ويؤيد التأويل الثاني قولهم: ﴿ أأُلقيَ الذِكْرُ ﴾ أي: الوحي ﴿ عليه من بيننا ﴾ وفينا مَن هو أحق منه بالاختيار للنبوة؟ ﴿ بل هو كذّاب أشِرٌ ﴾ أي. بطِر متكبر، حمَلَه بطرُه وطلبُه التعظيم علينا على إدعائه ذلك.

قال تعالى: ﴿ سيعلمون غداً ﴾ أي: عن قريب، وهو عند نزول العذاب بهم، أو يوم القيامة، ﴿ مَن الكذّابُ الأشِرُ ﴾ أصالح أم من كذّبه؟ وقرأ الشامي وحمزة بتاء الخطاب، على حكاية ما قاله صالح مجيباً لهم. ﴿ إنا مرسلوا الناقةِ ﴾؛ باعثوها ومخرجوها من الهضبة كما سألوا، ﴿ فتنةً لهم ﴾؛ ابتلاءً وامتحاناً لهم، مفعول له، أو: حال، ﴿ فارتقبهم ﴾؛ فانتظرهم وتبصّر ما هم صانعون ﴿ واصْطَبر ﴾ على أذاهم، ولا تعجل حتى يأتيك أمري.

﴿ ونَبِّهم أنّ الماءَ قِسْمةٌ بينهم ﴾؛ مقسوم بينهم، لها شِرْب يوم، ولهم شِرْب يوم، وقال: «بينهم» تغليباً للعقلاء. ﴿ كُل شِربٍ مُحتَضَرٌ ﴾؛ محضور، يحضر القوم الشرب يوما، وتحضر الناقة يوماً، ﴿ فنادَوا صاحِبَهم ﴾ قُدَار بن سالف، حُمير ثمود، ﴿ فتعاطَى ﴾؛ فاجترأ على تعاطي الأمر العظيم، غير مكترث به، ﴿ فعقَرَ ﴾ الناقة،، أو: فتعاطى الناقة فعقَرها، أو: تعاطى السيف فقتلها، والتعاطي: تناول الشيء بتكلف. وقال أبو حيان: هو مضارع عاطا، وكأنّ هذه الفعلة تدافعها الناس بعضهم بعضاً، فتعاطاها قدار وتناول العقر بيده. هـ.

﴿فكيف كان عذابى ونُذُر، إنّا أرسلنا عليهم﴾ فى اليوم الرابع مِن عَقْرِها، ﴿صَيحةً واحدة﴾ صاح بهم جبريل عليه السلام ﴿فكانوا﴾؛ فصاروا ﴿كهشيمِ المحتظِرِ﴾ كالشجر اليابس الذى يجده من يعمل الحظيرة، فالهشيم: الشجر اليابس المتكسر، الذى يبس من طول الزمان، وتتوطّؤه البهائم؛ فيتحطّم ويتهشّم ، والمحتظر: الذى يعمل الحظيرة. قال ابن عباس: «هو الرجل يجعل لغنمه حظيرة من الشجر والشوك، فما يسقط من ذلك ودرسته الغنم فهو هشيم»[1] شبههم فى تبددهم ، وتفرق أو صالهم، بالشوك الساقط على الأرض، ﴿ولقد يَسرْنَا القرآن للذكر فهل من مُدّكِرٍ﴾ فيتعظ بما يسمع من هذه القصص.

الإشارة: سبب إنكار الناس على أهل الخصوصية؛ ظهور وصف البشرية عليهم، ولا يلزم من وجود الخصوصية عدم وصف البشرية، ووصف البشرية على قسمين:

قسم لازم، لا تنفك العبودية عنه، كالأكل والشرب والنوم والنكاح، وغيرها من الأوصاف الضرورية، وهذه هى التى تجامع الخصوصية، وبها سترت، واحتجبت حتى أنكرت، فوجودها فى العبد كمال؛ لأنها صِوان لسر الخصوصية. قال فى الحكم: «سبحان من ستر سر الخصوصية بظهور وصف البشرية، وظهر بعظمة الربوبية فى إظهار العبودية». وقسم عارض يمكن زواله؛ وهى الأوصاف المذمومة، كالكبر والحسد والحقد، وحب الدنيا والرياسة، وغير ذلك، فهذا لاتجامعه الخصوصية، ولابد من التطهير منه فى وجودها.

وللقشيرى إشارة أخرى، وحاصلها: كذبت ثمود؛ النفسُ الأمّارة وجنودُها؛ صالحَ القلب؛ حين دعاها إلى الخروج عن عوائدها، والتطهر من أوصافها المذمومة، فقالت النفسُ وجنودها: أنتبع واحداً منا، لأنه مخلوق مثلنا، ونحن عُصبة؟ إنا إذاً لفى ضلال وسُعر، أألقى الذكر الإلهامى عليه مِن بيننا؟ بل هو كذّاب أشر، سيعلمون غداً، حين يقع لهم الرحيل من عالمهم، مَنِ الكذابُ الأشر، أثمود النفس وجنودها، أم صالح القلب؟ إنّا مرسل ناقة النفس فتنة لهم، ابتلاءاً؛ ليظهر الخصوص من العموم، فارتقبهم، لعلهم يرجعون إلى أصلهم من النزاهة والطهارة، واصطبر فى مجاهدتهم، ونبئهم أنّ ماء الحياة ـ وهى الخمرة الأزلية ـ قسمة بينهم، مَن شَرِبَ منها صفا، ومَن تنكب عنها أظلم، كُل شِرْب يحضره مَن يتأهل له. فنادوا صاحبهم ـ وهو الهوى ـ فتعاطى ناقة النفس، التى أرادت العروج إلى وطن الروح، فعقرها وردها إلى وطنها الخسيس، فكيف كان عذابى لها، وإنذارى إياها؟ إنّا أرسلنا عليهم صيحةَ القهر، فسقطوا إلى الحضيض الأسفل، فكانوا كهشيم المحتظر؛ صاروا أرضيين بعد أن كانوا سماويين. هـ بالمعنى مع تخالف له.

(١) انظر تفسير البغوى ٧/٤٣١.

ثم قال القشيري: اعلم أن النفس حقيقة واحدة، غير متعددة، لكن بحسب توارد الصفات المتباينة تعددت أسماؤها، فإذا توجهت إلى الحق توجهاً كليًا؛ سميت مطمئنة، وإذا توجهت إلى الطبيعة البشرية توجهاً كلياً؛ سميت أمّارة، وإذا توجهت إلى الحق تارة، وإلى الطبيعة أخرى؛ سميت لوّامة. هـ مختصرا.

ثم ذكر قصة لوط، فقال:

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿كذبت قومُ لوط بالنُذر﴾، وقد تقدم، ﴿إنّا أرسلنا عليهم﴾ أي: على قوم لوط ﴿حاصِبًا﴾ أي: ريحاً تحصبهم، أي: ترميهم بالحصباء، ﴿إلا آل لوطٍ﴾ ابنتيه ومن آمن معه، ﴿نجيناهم بسَحَرٍ﴾؛ ملتبسين بسحَرٍ من الأسحار، ولذا صرفه، وهو آخر الليل، أو: السُدس الأخير منه، وقيل: هما سحران، فالسَحَر الأعلى: قبل انصداع الفجر، والآخر: عند انصداعه، ﴿نعمةً من عندنا﴾ أي: إنعاماً منا، وهو علة لنجّينا، ﴿كذلك﴾ أي: مثل ذلك الجزاء العجيب ﴿نجزي من شكَرَ﴾ نعمتنا بالإيمان والطاعة.

﴿ولقد أنذَرهم﴾ لوط ﴿بطشَتنا﴾؛ أخذتنا الشديدة بالعذاب، ﴿فتماروا﴾؛ فكذّبوا ﴿بالنُذُر﴾؛ بإنذاره متشاكّين فيه، ﴿ولقد راودوه عن ضيفه﴾ قصدوا الفجور بأضيافه، ﴿فطمسنا أعْيُنهم﴾ فمسخناها وسويناها كسائر الوجه، أي: صارت وجوههم صفيحة واحدة لا ثقب فيها.

رُوي أنهم لمّا قصدوا دار لوط، وعالجوا بابها ليدخلوا، قالت الرسل للوط: خلّ بينهم وبين الدخول، فإنّا رُسل ربك، لن يصلوا إليك. وفي رواية: لمّا مُنعوا من الباب تسوروا الحائط، فدخلوا، فصفعهم جبريل بجناحه؛ فتركهم عُميًا يترددون، ولا يهتدون إلى الباب، فأخرجهم لوط عُمياً. وقلنا لهم على ألسنة الرسل، أو بلسان الحال: ﴿فذُوقوا عذابي ونُذُرِ﴾ أي: وبال إنذاري، والمراد به: الطمس؛ فإنه من جملة ما أُنذروا به.

﴿ ولقد صبَّحهم بُكرةً ﴾ أول النهار ﴿ عذابٌ مستقِرٌ ﴾ لا يفارقهم حتى يُسلمهم إلى النار، وفي وصفه بالاستقرار إيماء إلى أنَّ عذاب الطمس ينتهي إليه، ﴿ فذوقوا عذابي ونُذُرِ ﴾ ، حكاية لما قيل لهم حينئذ من جهته ـ تعالى ـ تشديداً للعتاب.

﴿ ولقد يَسَّرنا القرآنَ للذكر فهل من مُدكرٍ ﴾ ، قال النسفي: وفائدة تكرير هذه الآية؛ أن يجدِّدوا عند سماع كل نبأ من أنباء الأولين ادِّكاراً واتعاظاً إذا سمعوا الحث على ذلك، وأن يستأنفوا تنبهاً واستيقاظاً إذا سمعوا الحثّ على ذلك، وهكذا حكم التكرير في قوله، ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾(١) عند كل نعمة عدَّها، وقوله: ﴿ ويل يومئذ للمكذِّبين ﴾(٢) عند كل آية أوردها، وكذا تكرير القصص في أنفسها؛ لتكون تلك العبر حاضرة للقلوب، مصوَّرة في الأذهان، [مذكَّرة](٣) غير منسيّةٍ في كل أوان. هـ.

الإشارة: قال القشيري: يُشير إلى أنَّ كل مَن غلبته الشهوةُ البهيمية ـ شهوه الجماع ـ يجب عليه أن يقهر تلك الصفة، ويكسرها بأحجار ذكر «لا إله إلا الله»، ويُعالج تلك الصفة بضدها، وهو العفة. هـ. فالإشارة بقوم لوط إلى الشهوات الجسمانية، فقد كذَّبت الروحَ حين دعتها إلى مقام الصفا، ودعتها النفسُ بالميل إليها إلى الحضيض الأسفل، فإذا أراد اللهُ نصر عبده أرسل عليها حاصب الواردات والمجاهدات، فمحتْ أوصافها الذميمة، ونقلتها إلى مقام الروحانية، قال تعالى: ﴿إنا أرسلنا عليهم حاصباً إلا آل لوط﴾ يعني الأوصاف المحمودة، نجيناهم في آخر ليل القطيعة، أو: الروح وأوصافها الحميدة، نجيناها في وقت النفحات من التدنس بأوصاف النفس الأمَّارة، نعمةً من عندنا، لا بمجاهدة ولا سبب، كذلك نَجزي من شكر نعمة العناية، وشكر مَن جاءت على يديه الهداية، وهم الوسائط من شيوخ التربية. ولقد أنذر الروحُ النفسَ وهواها وجنودها بطشتنا: قهرنا، بوارد قهري، مِن خوف مُزعج، أو شوقٍ مُقلق، حتى يُخرجها من وطنها، فتَماروا بالنُذر، وقالوا: لم يبق مَن يُخرجنا مِن وطننا، فقد انقطعت التربية، ولا يمكن إخراجنا بغيرها، ولقد راودوه عن ضيفه، راودوا الروحَ عن نور معرفته ويقينه، بالميل إلى شهوات النفس؛ فطمسنا أعينهم، فلم يتمكنوا من رد الروح إذا سبقت لها العناية، فيُقال للنفس وجنودِها: ذوقوا عذابي ونُذُرِي بالبقاء مع الخواطر والهموم، ولقد صبَّحهم أول نهار المعرفة حين أشرقت شموس العيان عذاب مستقر، وهو محَق أوصاف النفس، والغيبة عنها أبداً سرمداً . والله تعالى أعلم.

---

(١) كُررت هذه الآية في سورة الرحمن إحدى وثلاثين مرة، المرة الأولى جاءت في الآية ١٣ .

(٢) الآية ١٥ من سورة المرسلات.

(٣) في النسفي [مذكورة] .

ثم ذَكَرَ قوم فرعون، تعالى:

﴿ وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ولقد جاء آلَ فرعونَ النُذُر﴾ موسى وهارون، جمعهما لغاية ما عالجا فى إنذارهم، أو: بمعنى الإنذار، وصدّر قصتهم بالتوكيد القسمي؛ لإبراز كمال الاعتناء بشأنها؛ لغاية عِظَم ما فيها من الآيات، وكثرتها، وهول ما لاقوه من العذاب، واكتفى بذكر آل فرعون؛ للعلم بأنّ نفسه أولى بذلك، ﴿كذَّبوا بآياتنا كلها﴾ وهى التسع ﴿فأخذناهم أخْذَ عزيزٍ﴾ لا يغالَب ﴿مقتدرٍ﴾ لا يعجزه شيء.

الإشارة: النفوس الفراعنة، التى حكمت المشيئة بشقائها، لا ينفع فيها وعظ ولا تذكير؛ لأنّ الكبرياء من صفة الحق، فمن نازع اللهَ فيها قصمه الله وأبعده.

ثم هدد قريشاً بما نزل على مَن قبلهم، فقال:

﴿ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُو۟لَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿أكُفاركم﴾ يا معشر العرب، أو: يا أهل مكة ﴿خيرٌ من أُولئكم﴾ الكفار المعدودين فى السورة؛ قوم نوح وهود وصالح ولوط وآل فرعون، والمعنى: أنه أصابهم ما أصابهم مع ظهور خيريتهم منكم قوةً وآلةً ومكانةً فى الدنيا، أو: كانوا أقلّ منكم كفراً وعناداً، فهل تطمعون ألاَّ يُصيبكم مثل ما أصابهم، وأنتم شر منهم مكانةً، وأسوأ حالاً؟ ﴿أم لكم براءةٌ فى الزُبر﴾؛ أم نزلت عليكم يا أهل مكة براءة فى الكتب المتقدمة: أنّ مَن كفر منكم وكذّب الرسل كان آمناً من عذاب الله، فأمنتم بتلك البراءة؟

﴿أم يقولون نحنُ جميعٌ﴾ أى: جماعة أمرنا جميع ﴿منتصرٌ﴾؛ ممتنع لا نُرام ولا نُضام، والالتفات للإيذان باقتضاء حالهم الإعراض عنهم، وإسقاطهم عن رتبة الخطاب، وحكاية قبائحهم لغيرهم، أى: أيقولون واثقين

بشوكتهم: نحن أولوا حزم ورأى، أمرنا مجتمع لا يقدَر علينا، أو: منتصرون من الأعداء، لا نغلب، أو: متناصرون، ينصر بعضُنا بعضا. والإفراد باعتبار لفظ «جميع».

﴿ سيُهزم الجمعُ ﴾ ؛ جمع أهل مكة، ﴿ ويُولُّون الدُّبرَ ﴾ ؛ الأدبار. والتوحيد لإرادة الجنس، أو: إرادة أنّ كل منهم يُولّى دبره، وقد كان كذلك يوم بدر. قال عمر رضي الله عنه : لما نزلت: ﴿سيهزم الجمع ويُولون الدبر﴾ كنت لا أدرى أى جمع يُهزم؟ فلما كان يوم بدر رأيتُ رسولَ الله ﷺ يلبس الدرع، ويقول: ﴿سيُهزم الجمع ويُولون الدبر﴾ فعرفت تأويلها(١)، فالآية مكية على الصحيح. ﴿ بل الساعةُ موعدُهُم ﴾ أى: ليس هذا تمام عقوبتهم، بل الساعة موعد أصل عذابهم، وهذا طلائعه، ﴿ والساعةُ أدْهَى وأمرُّ ﴾ أى: أقصى غاية من الفظاعة والمرارة من عذاب الدنيا. والداهية: الأمر الفظيع الذى لا يُهْتَدَى إلى الخلاص منه، وإظهار الساعة فى موضع إضمارها تربيةً لهولها.

﴿ إنَّ المجرمين ﴾ من الأولين والآخرين ﴿ فى ضلال ﴾ عن الحق فى الدنيا ﴿ وسُعُرٍ ﴾ ؛ ونيران تحرق فى الآخرة، أو: لفى هلاك ونيران مسعرة، ﴿ يوم يُسحبون في النار ﴾ ؛ يُجرّون فيها ﴿ على وجوههم ﴾ ويقال لهم: ﴿ ذُوقوا مَسَّ سَقَرَ ﴾ أى: قيسوا حرها وألمها، كقولك: وَجَدَ مَسَّ الحمَّى، وذاق طعم الضرب؛ لأن النار إذا أصابتهم بحرِّها فكأنها تمسهم مساً بذلك، و«سقر» غير مصروف للعلمية والتعريف؛ لأنها علم لجهنم، من: سقرتْه النار: إذا لوّحته.

الإشارة: ما قيل فى منكرى خصوصية النبوة، يُقال فى منكرى خصوصية الولاية إذا اشتغل بأذاهم، يعنى: أنّ مَن أنكر على الأولياء المتقدمين قد أصابهم ما أصابهم، إما ذُل فى الظاهر، أو طرد فى الباطن، وأنتم أيها المنكرون على أهل زمانكم مثلهم. أمنتقدكم خير مِن أولئكم أم لكم براءة مِن العذاب فى كتب الله تعالى؟ أَم يقولون: نحن جميع، أى: مجتمعون على الدين، لا يُصيبنا ما أصاب الكفار، فيُقال لهم: سيُهزم جمعكم، ويتفرق شملكم، وتُفضوا إلى ما أسلفتم ، نادمين على ما فعلتم، ولن ينفع الندم حين تزل القدم ، فتبقون فى حسرة البُعد على الدوام، فالكفار حُرموا من جنة الزخارف، وأنتم تُحرمون من جنة المعارف، مع غم الحجاب وذُل البُعد عن الحضرة القدسية، إن المجرمين ـ وهم أهل الطعن والانتقاد ـ فى ضلال عن طريق الوصول إلى الله، ونيران القطيعة، يوم

(١) أخرجه الإمام أحمد (٢/٣٢٩) والطبرى (٢٧/١٠٨). وزاد المناوى فى الفتح السماوى (٣/١٠١٨ ـ ١٠١٩) عزوه لعبد الرزاق وابن أبى حاتم، وابن مردويه، فى تفاسيرهم، من مرسل عكرمة.

يُسْحَبون على وجوههم، فينهكمون فى الدنيا فى الحظوظ والشهوات، وفى الآخرة فى نار البُعد والقطيعة، على دوام الأوقات، ويقال لهم: ذُوقوا مرارةَ الحجاب وسوء الحساب، وكل هذا بقدر وقضاء سابق، كما قال تعالى:

﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ (٤٩) وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ (٥٠) وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (٥١) وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ (٥٢) وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ (٥٣) إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ (٥٤) فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ (٥٥) ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿إِنَّا كُلَّ شيءٍ خلقناه بقدرٍ﴾ أى: بتقدير سابق فى اللوح قبل وقوعه، قد علمنا حالَه وزمانه قبل ظهوره، أو: خلقناه كل شىء مقدّراً محكماً مرتباً على حسب ما اقتضته الحكمة، و«كل»: منصوب بفعل يُفسره الظاهر. وقرىء بالرفع شاذاً، والنصب أولى؛ لأنه لو رفع لأمكن أن يكون «خلقنا» صفة لشىء، ويكون الخبر مقدرا، أى: إنا كل شىء مخلوق لنا حاصل بقدر، فيكون حجة للمعتزلة، باعتبار المفهوم، وأن أفعال العباد غير مخلوقة لله. فلم يسبق لها قدر، تعالى الله عن قولهم، ويجوز أن يكون الخبر: «خلقناه»، فلا حجة فيه، ولا يجوز فى النصب أن يكون «خلقنا» صفة لشىء؛ لأنه يفسر الناصب، والصفة لا تعمل فى الموصوف، وما لا يعمل لايفسر عاملاً. قال أبو هريرة: جاء مشركو قريش إلى النبى ﷺ يُخاصمونه فى القدر، فنزلت الآية(١)، وكان عمر يحلف أنها نزلت فى القدرية، أى: على طريق الإخبار بالغيب .

﴿وما أَمْرُنا إلا واحدةٌ﴾ أى: كلمة واحدة، سريعة التكوين، وهو قوله تعالى: ﴿كن﴾ أى: وما أمرنا لشىء نريد تكوينه إلاّ أن نقول له: كن، فيكون، أو: إلاّ فِعلة واحدة، وهو الإيجاد بلا معالجة، ﴿كلمح بالبصر﴾ فى السرعة، أى: على قد ما يلمح أحد ببصره، وقيل: المراد سرعة القيامة، لقوله تعالى: ﴿ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلاَّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ﴾(٢).

﴿ ولقد أهلكنا أشياعكم﴾ أى: أشباهكم فى الكفر من الأمم، وقيل: أتباعكم، ﴿فهل من مُدّكِر﴾؛ من متعظ بذلك؟ ﴿وكلُّ شىءٍ فعلوه﴾ من الكفر والمعاصى مكتوب على التفصيل ﴿فى الزُبرِ﴾؛ فى ديوان الحفظة، ﴿وكل صغيرٍ وكبيرٍ﴾ مِن الأعمال، ومن كل ما هو كائن ﴿مُستَطَرٌ﴾؛ مسطور فى اللوح بتفاصيله.

---

(١) أخرجه مسلم فى (القدر، باب كل شىء بقدر، ح ٢٦٥٦).
(٢) الآية ٧٧ من سورة النحل.

ولمّا بيّن سوء حال الكفرة بقوله: ﴿إن المجرمين...﴾ الخ، بيّن حُسن حال المؤمنين، جمعاً بين الترهيب والترغيب فقال: ﴿إنَّ المتقين﴾ أي: الكفر والمعاصي ﴿في جنات﴾ عظيمة ﴿ونَهَرٍ﴾ أي : أنهار كذلك. والإفراد للاكتفاء بذكر الجنس، مراعاة للفواصل، وقرىء: «ونُهُر»[1] جمع «نهَر»، كأسَد وأُسُد. ﴿في مقعد صدقٍ﴾ ؛ في مكان مرضيّ، وقرئ «فيمقاعد صدق»[2]، ﴿عند مليكٍ مقتدرٍ﴾ أي: مقربين عند مليك قادر لا يُقادَر قدر ملكه وسلطانه، فلا شيء إلا وهو تحت ملكوته، سبحانه، ما أعظم شأنه. والعندية: عندية منزلة وكرامة وزلفى، لا مسافة ولامحاسّة.

الإشارة: هذه الآية وأشباهها هي التي غسلت القلوب من الأحزان والأغيار، وأراحت العبد من كدّ التدبير والاختيار؛ لأنّ العاقل إذا علم علم يقين أنّ شئونه وأحواله، وكل ما ينزل به، قد عمه القدر، لا يتقدم شيء عن وقته ولا يتأخر، فوّض أمره إلى الله، واستسلم لأحكام مولاه، وتلقى ما ينزل به من النوازل بالرضا والقبول، خيراً كان أو شراً، كما قال الشاعر:

إذا كانتِ الأَقْدارُ مِن مَالكِ المُلْكِ   فَسِيَّانِ عِندي مَا يَسُرُّ ومَا يُبكي

وقال آخر:

تَسَلَّ عَنَ الْهُمومِ تَسَلْ[3]   فَما الدُنيا سِوى ثوبٍ يُعارُ
وَسَلِّم للمُهَيْمنِ فى قَضَاهُ   ولاَ تَخْتَرْ فَلَيْسَ لَكَ اخْتِيارُ
فَما تَدرِي إذا ما الليلُ ولّى   بِأَيِّ غَريبةٍ يأتِى النَّهارُ

وقوله تعالى: ﴿وما أَمْرُنا إلا واحدةٌ..﴾ الخ، هذا في عَالَم الأمر، ويُسمى عالم القدرة، وأما في عالم الخلق، ويسمى عالَم الحكمة، فجلّه بالتدريج والترتيب، ستراً لأسرار الربوبية، وصوناً لسر القدرة الإلهية، ليبقى الإيمان بالغيب، فتظهر مزية المؤمن ، ويُقال لأهل العناد المُتجبرة: ولقد أهلكنا أشياعكم؛ إما بالهلاك الحسي، أو المعنوي، كالطرد والبُعد، فهل من متعظٍ، يرجع عن عناده ؟ وكل شيء فعلوه في ديوان صحائفهم، وكل صغير وكبير من

(١) عزاها في مختصر ابن خالويه/ ١٤٩ للأعرج. وزاد في البحر المحيط (١٨٢/٨) الأعمش وأبا مجلز واليماني وأبا نهيك وزهير العرقبي.
(٢) عزاها في مختصر ابن خالويه/١٤٩ وفي البحر المحيط (١٨٢/٨) لعثمان البتي.
(٣) كذا، والشطرة غير مستقيمة الوزن، وقد تكون: «تسل عن الهموم به تسل».

أعمال العباد مسطورة فى العلم القديم. إنّ المتقين ما سوى الله، فى جنات المعارف، وأنهار العلوم والحِكَم، فى مقعد صدق، هو حضرة القدس، ومحل الأنس، عند مليك مقتدر. قال الورتجبى: مقامات العندية جنانها زفارف الأنس، وأنهارها أنوار القدس، أجلسهم الله فى بساط الزلفة والمداناة، التى لا يتغير صاحبها بعلة القهر، ولا يزول عنها بالتستر والحجاب؛ لذلك سماه «مقعد صدق» أى: محل كرامة دائمة، ومزية قائمة، ومواصلة سرمدية، والله مقدّر قادر. انظر تمام كلامه.

وبالله التوفيق، وهو الهادى إلى سواء الطريق، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم (*).

❁ ❁ ❁

(*) إلى هنا ينتهى المجلد الخامس بتجزئة المحقق. ويتلوه ـ إن شاء الله ـ المجلد السادس، وأوله تفسير سورة «الرحمن»، أسأل الله تعالى أن ينفعنى وجميع المسلمين به، وأن يبلغنا بهذا الكتاب أسمى الدرجات، وأن يوفقنا لما يقربنا إليه فى كل الأوقات، وألا يجعلنا من المفتونين. اللهم اغفر لنا وارحمنا ويسر لنا كل عسير. آمين. أحمد عبدالله القرشى

فهرس المجلد الخامس

سورة ص ٥
سورة الزمر ٤٧
سورة غافر ١٠٩
سورة فصلت ١٥٩
سورة الشورى ١٩٣
سورة الزخرف ٢٣٣
سورة الدخان ٢٧٧
سورة الجاثية ٢٩٩
سورة الأحقاف ٣٢٣
سورة محمد ٣٥٣
سورة الفتح ٣٨٣
سورة الحجرات ٤١٣
سورة ق ٤٤٣
سورة الذاريات ٤٦٣
سورة الطور ٤٨٥
سورة النجم ٤٩٩
سورة القمر ٥٢١

مطابع
الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ١٤٧٠٨ / ٢٠٠٠

I.S.B.N 977 - 01 - 6928 - 5